تأليف العلامة الشيخ

رشيد الخطيب الموصلي

١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلد الأول

مقدمات المعتني بالتفسير تليها مقدمة المفسر

اعتنى به وقدم له

مجد أحمد مكي

أروقة

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم الدكتور محمد عبد العزيز النجيفي

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فلا يسعني وأنا أكتب مقدمة «تفسير» جدي الشيخ العلامة رشيد الخطيب الموصلي، شيخِ المذهب الشافعي في مدينتي الحبيبة الموصل، إلا أن أعيش أيام الطفولة والشباب فيها، وعلاقتي بجدي يرحمه الله.

فقد كنت أذهب برفقة والدتي ـ رحمها الله ـ وأخوي (أسامة) و(أثيل) لزيارته كل أسبوع في بيته في محلة (الباب الجديد)، وكنا نحظى بحبه وحنانه في الفترات القصيرة التي يجلس معنا فيها. إذ كان رحمه الله كثير الانشغال بتدريس طلبة العلم في بيته. وكان مجلساً عامراً يؤمه طلبة العلم للدراسة عليه، والاستفادة منه، وقد تخرج في مجلسه هذا كبار علماء الموصل ومحافظة نينوى.

ولقد كنا نذهب إليه ليدرّسنا اللغة العربية وبخاصة قبل الامتحانات العامّة.

وبعد أن كبرت سنّه طلب منه والدي الشيخ عبد العزيز النجيفي (شيخ قبيلة بني خالد) أن يشرفنا فيمكث في بيته؛ لأن جدي ـ رحمه الله ـ لم يكن له ولد ذكر، بل كان له أربع بنات وقد حظِيَ والدي بمحبّته له فكان بمثابة ولده، ووافق جدي متفضلاً، وانتقل إلى بيتنا في عام ١٩٧٢ ميلادية، وقد أعد له والدي جناحاً كاملاً داخل المنزل.

وكان ديدنه رحمه الله الاستيقاظ قبل صلاة الفجر ليصلي ما شاء الله له أن يصلي من صلاة الليل، ثم يفطر مبكراً، ويبدأ يومه بقراءة وتنقيح نسخ من «تفسيره» الذي يعده أفضل عمل قام به في حياته، ويستمرّ على ذلك إلى صلاة الظهر، وبعد أن ينام قيلولته يخرج ليجلس في مجلس (ديوان والدي) حيث كان هذا مجلساً عامراً يؤمه الكثير من أهل الحاضرة والبادية.

وكذلك الكثير من الناس الذين يأتون لزيارة جدي لاستفتائه بما يستشكل عليهم؛ فقد كان يرحمه الله ذا هيبة ووقار، ويتكلم بصوت هادئ وأدب جم مع الناس كلهم، ولا يفرق بين صغير و كبير، ولا بين غنيٍّ و فقير.

وكنا نصلي صلاة المغرب والعشاء جماعة في حديقة منزلنا، وبعد صلاة العشاء يدخل الدار ليتفرغ للقراءة والعبادة قبل نومه المبكر ليستيقظ مبكراً كذلك.

كان رحمه الله شديد الغيرة على الإسلام، محباً له ولأهله، متتبعاً الأخبار المحلية والعالمية، مهتماً بشؤون المسلمين، يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم.

وكان واسع المعرفة، عميق الفكر، منفتحاً على عصره، سهلاً في فتاواه على منهج رسولنا الأكرم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) شديد التمسك بالسنة، محباً لأهلها مبغضاً لأهل البدع، ناصحاً لهم وداعياً لهم بالهداية، ولم أره في حياتي يطعن أحداً ولا يلعن أحداً.

حقاً لقد كان قدومه لبيتنا خيراً وبركة لنا، رأينا آثارها في أنفسنا وأعمالنا وعيشنا.

وعندما تـقدم به العمر وضعف بصره كان يستخدم العدسة المكبرة للقراءة، ولتنقيح «تفسيره» المبارك، فنقح منه خمسة مجلدات؛ لأن طباعته في الموصل لم تكن جيدة، وفيها أخطاء كثيرة.

بعد أن انتهى من تصحيح النسخ الخمس عهد بها إلى أخي الأصغر أثيل النجيفي (محافظ نينوى حالياً)، وطلب منه أن يجد لها دار نشر عالمية لطباعتها وتوزيعها؛ ليعم نفعها وفائدتها.

لقد كنت سافرت لبريطانيا للدراسة في ١٤ / ٤/ ١٩٧٨، وكان يشجعني على السفر لإكمال دراستي، ويوصيني بالحفاظ على التمسك بديني، وأن يراني بنفس الوجه الذي ذهبت به، ويحذرني أن أكون من أمثال من ذهب للدراسة وهو يصلي، وعاد وقد ترك الصلاة وتغير نهجه وفكره.

وقد قدر الله أن أعود للعراق بإجازة قبيل وفاته بشهر، وحضرت وفاته وقد غسله في منـزلنا بعض تلاميذه، وصلى عليه الناس عدة مرات قبل تشـيـيعه إلى مثواه الأخير، وتم تشييعه بموكب مهيب حضره العديد من تلاميذه وأعيان مدينة الموصل، ومن المحافظات الأخرى.

وهناك قصة لطيفة أنا شاهد عليها، فقد حضر التشيـيع الشـيخ ناظم العاصي رحمه الله، وهو من شيوخ عشيرة (العبيد) في محافظة كركوك، وكان رجلاً زاهداً ورعاً وله أتباع، فقال عندما أتى: إنه قد رأى في منامه في تلك الليلة من يخبره أن رجلاً صالحاً من أهل الموصل قد توفي، فجاء رحمه الله إلى الموصل وهو لا يدري من هو المتوفى، ولما سأل أتباعه أبلغوه بالخبر فأتى مسرعاً لبيتنا.

ولقد مرت بعد وفاة جدي رحمه الله ظروف عصيبة على العراق ـ وما زالت ـ وانقطع أهل العراق عن العالم بعد أن منع السفر منذ عام ١٩٨٢ ولغاية ١٩٩٢، وبعد ذلك الحصار الخانق وما تبعه من ظروف أكثر قسوة منه، لم يتمكن أخي أثيل من تنفيذ وصية جدي في طباعة «التفسير» خارج العراق، علماً أنه قد قام عدد من طلبة العلم في كلية الإمام الأعظم ببغداد بتحقيقه، وأخذوا درجة الماجستير على كل جزء من أجزائه، وبعد اتفاقي مع فضيلة أستاذنا الشيخ مجد مكي اتصلت بأخويّ أسامة (رئيس مجلس النواب العراقي حالياً)، وأخي أثيل، فرحبا بفكرة خدمة كتاب الله من خلال تحقيقه وطباعته ونشره، واشتركنا نحن الثلاثة بأجر خدمة كتاب الله، وتنفيذ وصية جدنا.

وها نحن نشهد الآن ختاماً سعيداً لهذه القصة التي بدأت فصولها في أوائل الأربعينيات من القرن العشرين، عندما بدأ جدي رحمه الله بمشروعه، وحينها لم نكن قد خلقنا بعد.

وقبل أن أختم تقديمي يحسن بي أن أورد ما كتبه لي أخي الأستاذ أثيل عبد العزيز النُّجيفيّ محافظ نينوى عن ذكرياته مع جدي، قائلاً: «لطالما سمعت جدي الشيخ رشيد الخطيب يردد: «ترى الفتى ينكر فضل الفتى مادام حياً، فإذا ذهب أدى به الحرص على نكتة يكتبها عنه بماء الذهب»، وها نحن اليوم نبحث عن كلماته لنكتبها بماء الذهب.

عاصرته وأنا شاب صغير، وسمعته وهو يلوم العلماء على التقليد بلا علم، وتتبعت آراءه الجريئة في معاني الروح والعقل والقضاء والقدر، وموافقته للمعتزلة في آرائهم، مع اعترافه بقدر علمائهم.

تعلمت منه كيف يكون المرء محباً للصوفية وإن لم يكن منهم، وكيف يكون سلفي العقيدة، غير متعصب لأقوال السابقين، وإن اعترف بفضلهم.

ولا أنسى الساعات الأخيرة قبيل وفاته إشارته بيده وهو عاجز عن النطق إلى سلامة عقله ووعيه الكامل، معززاً آراءه بأن العقل موقعه الروح، ولا يتأثر إن ضعف الجسد.

درس العلوم الشرعية على يد شيخ عصره الشيخ محمد الرضواني، فاستغرب عبارة خصه بها شيخه وهو ابن العقد الثالث في متن إجازته دون أقرانه من العلماء، فأثنى (على كل من يجلس بين يديه ويأخذ العلم عنه).

ويقول الشيخ رشيد الخطيب: إنني لم أكن أعرف تميزاً لي عن أقراني حتى وردتنا كتب المصريين أمثال محمد عبده ورشيد رضا، وعرفت أن للعلوم معنى آخر غير ما كنا نقف عنده.

قليل من العلماء حصلوا على إجازة الشيخ الخطيب، فميز من بينهم الشيخ ذنون البدراني رحمه الله، ووجدته مستحقاً للتميز عند دراستي «التفسير» على يد الشيخ البدراني.

لم يبدأ الشيخ رشيد الخطيب في كتابة «التفسير» حتى استكمل علوم اللغة، وبرع فيها، وكتب عشرات الكتب في الأدب والنحو والبلاغة والعقائد، فاستغرق في كتابة «التفسير» أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، وأعقبها بخمس عشرة أخرى في التنقيح والإضافة، وكان شغله الشاغل حتى قارب القرن في سِنِيِّ عمره. فكانت هذه الطبعة الثانية بين أيدي القراء المزيدة والمنقحة جهد نصف قرن لعالم مميز.

وسمعته يقول ذات يوم بأنني لم آخذ سوى قطرة بحر من كنوز هذا القرآن العظيم، ولو كتبت اليوم لكتبت جديداً مختلفاً».

وفي الختام أود أن أشكر أستاذنا الفاضل مجد مكي على جهده المتميّز، ومثابرته لخدمة كتاب الله، وإخراج هذا التفسير للدنيا على الرغم من مشاغله الجمة. والشكر موصول لكافة من عمل أو بذل أي جهد كان لهذا «التفسير».

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

في الرابع عشر من ربيع الأول ١٤٣٥هـ
الموافق الخامس عشر من كانون الثاني
سنة ٢٠١٤م

الدكتور محمد عبد العزيز النجيفي

كلمة

بقلم: إبراهيم النعمة

نحمدك اللهم أن أنزلت على نبينا خير الكتب فيه الهداية للناس، ونصلي ونسلم صلاة طيبة زاكية مباركة على من ختمتَ به الشرائع وأرسلتَه رحمة للعالمين سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله الطيبين، وصحبه المخلصين الذين اصطفيتهم من خلقك، وائتمنتهم على تبليغ شرعك الشريف إلى الناس كافة، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وآته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته؛ إنك لا تخلف الميعاد.

أمّا بعد،

فهذا تفسير «أولى ما قيل في آيات التنزيل» وكفى. وليس عدلاً أن يقدّم طالب كتاب شيخه الذي عشق كتاب الله، وعاش معه حياته كلها، متفكراً في كل كلمة من كلماته، ومتتبعاً كل لفظ من ألفاظه، ومبيناً الربط بين آيات القرآن بعضها ببعض، وبين نهاية كل سورة مع التي تليها، ولكنّها كلمة حق يجب أن تقال في شيخنا (رشيد الخطيب الموصلي) ـ أمطر الله قبره بشآبيب رحمته ـ، تتعلق بتفسيره وبمنهجه في دراسة العلوم الإسلامية.

ويذكرنا شيخنا الخطيب في دأبه على تحصيل العلم بسلف هذه الأمة الذين كانوا لا يجدون راحتهم وهناءتهم وسعادتهم إلا في تحصيل العلم.

لقد عاد بي هذا «التفسير» إلى الذكريات التي لا تنسى في أوائل الستينيات، يوم كنت أتردد على شيخنا الكريم في داره، أنهل من علمه في مجال التفسير وغيره من العلوم مع شيوخ فضلاء، وأساتذة كرماء، رحم الله من مات منهم، وختم لمن بقي منهم بالخاتمة الحسنة.

وإذا أردنا أن نعرف شيئاً عن عبقرية شيخنا الخطيب، نظرنا إلى المجتمع الذي نشأ فيه، فكان أكثر العلماء ـ إن لم نقل كلهم ـ آنذاك يسيرون على وفق من سبقهم من العلماء، يقلدونهم، ويتّبعون أقوالهم من غير أن يمحّصوا تلك الأقوال، ويقلّبوا الوجوه فيها؛ ليختاروا الأفضل منها، فضلاً عن أن يكدوا أذهانهم ليستنبطوا مسائل جديدة من النصوص ما قال بها من سبقهم، فكانت مناهج الدراسة في نهاية الدولة العثمانية عندنا في الموصل وفي العراق عامة، بل وفي كثير من الدول العربية عقيمة عقيمة، وُضعت لزمان غير الزمان الذي عاش فيه شيخنا الخطيب، ومع ذلك فقد درس تلك الكتب، ولم يكتف بدراستها فكان يغتنم الفرص، فيقتنص أي معلومة كانت من المعلومات النافعة، والحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها فهو أحق بها.

فلمّا تيسرت المراسلات بين العراق ومصر بعد الاحتلال الإنكليزي للعراق، وردت من مصر كتب علمية مفيدة، صيغت بأسلوب واضح وبيان رصين، وسمع شيخنا أن الشيخ (محمد رشيد رضا) أصدر جزءاً أو أكثر من «تفسير المنار» فصار يراسل (دار المنار) كلما صدر جزء من «التفسير»، فيضع ثمن الجزء في رسالة، ويرسلها بالبريد، وتقوم الدار بإرسال الجزء الصادر له. وهكذا.. حتى جمع الأجزاء التي أصدرها الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله، ودرسها دراسة دقيقة، فأُعجب بأسلوب الشيخ رضا الذي يتجلّى فيه البيان العربي بصورة من أبدع الصور، وكم كان يتمنى لو وَجَدَ في مقتبل عمره من يوجهه إلى الكتابة بهذا الأسلوب البياني الأصيل.

وأذكر أنّي قرأت له يوماً صفحات من كتاب «معالم في الطريق» لسيد قطب رحمه الله تحت عنوان: (جيل قرآني فريد)، فأُعجب بأسلوبه وقال: لم نجد من أساتذتنا من كان يوجهنا في الكتابة إلى مثل هذا الأسلوب الرائع.

أمّا عن المادة العلمية التي كانت تُدرّس في المدارس الدينية، فكان كثيرَ الانتقاد لها؛ لأنّها كُتبت لغير عصره، وأُدخلت في غضونها علوم أخرى ـ وبخاصة علم المنطق ـ فإذا نظرنا في كتاب «جمع الجوامع» لابن السبكي مع «حاشية البنّاني على شرح الجلال المحلي» في أصول الفقه مثلاً، وجدنا فيه شيئاً من أصول الفقه، وقد أُقحم فيه ما أُقحم من البلاغة والمنطق اليوناني وغير ذلك هنا وهناك، ويلاقي طلاب العلم ما يلاقون من صعوبات في دراستها وفهمها، فقد يقف الدارس لصفحة واحدة من صفحات هذا الكتاب أياماً ليفهمها، وهكذا بقية العلوم؛ لذلك كان يفضّل أن تُدرّس الكتب الحديثة في المدارس الدينية بدلاً عنها، لأنّها أسرع لفهم الطالب، وأمّا الذين يريدون التخصص، فلا بأس أن يرجعوا إلى تلك المناهج القديمة ليحلّوا تلك الألغاز فيها. وليست كذلك كتب المتقدمين الأوائل، فقد كان الشيخ معجباً بها وبأسلوبها البياني، وكثيراً ما كان يقف أمام عبارات في كتاب «الرسالة» في أصول الفقه» للإمام الشافعي ويقول: هذا هو البيان العربي الأصيل، إنّه يختلف كل الاختلاف عن أساليب المتأخرين من الفقهاء والأصوليين والعلماء بصورة عامة.

كان رحمه الله ينمّي ملكة الاجتهاد في نفس الطالب، فكان يقول: من كان عنده رأي غير رأيي فليذكره، فربما كان رأيه أقرب إلى الصواب من رأيي، فلا تسلّموا لي بكل ما أقول.

أمّا في مجال التفسير فكانت له التفاتات رائعة يتحدّث بها في دروسه، فقد سأل

يوماً عن الآية الكريمة على لسان (أم مريم) عليها السلام: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [مريم: ٣٦]: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾؟ وبعد أخذ رأي من عنده من العلماء قرر أولاً ما قرره غيره من المفسرين: أنّ هذه جملة اعتراضية، والمتبادر إلى الذهن أنّ الله تعالى كان يعلم أنّ أم مريم وضعت أنثى، ولكن هناك معنى آخر ملازم لهذا المعنى: وهو أنّ هذه الأنثى التي وضعتها أم مريم سيكون لها شأن كبير في المستقبل؛ لأنّها ستحمل حملاً على غير المعتاد، وسيصير حملها نبياً لتلك الأمة، وربما كان هذا الرأي لم يقل به أحد من قبله.

وحين يأتي إلى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ...﴾ [الحجرات: ١١] يقف أمام ما قاله المفسرون من أنّ لفظ «القوم» يأتي بمعنى الرجال، ويستشهدون على ذلك بقول زهير ابن أبي سلمى:

وما أدري ولست إخال أدري ... أقـوم آل حصـن أم نسـاء؟

أي: أرجال أم نساء؟ ثم يقول: وهذا أمر صحيح؛ فإنّ معاجم اللغة العربية تنصّ على أنّ لفظ «القوم» عام يشملهما، ولكن لماذا قال الله بعد ذلك: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾؟ ويجيب: لأنّ هذه العادة ـ عادة السخرية ـ تقوم بها النساء بصورة عامة أكثر مما يقوم بها الرجال؛ لذلك جاء التأكيد بالنهي عن السخرية هنا، وربما لم يفسّر أحد قبله بمثل هذا التفسير.

وأخيراً:

فإنّي لعلى ثقة بأنّ أعداداً ليست بالقليلة ممن جمدوا على نصوص من تقدمهم في التفسير يقفون منكرين للآراء التي وردت في هذا «التفسير»، كما أنكروا من قبل على

آراء الشيخين محمد عبده ومحمد رشيد رضا، وقد سار شيخنا على منهجهما في التفسير، وأمّا القسم الثاني، فيقفون موقف إعجاب أمام تلك الآراء، وكان شيخنا رحمه الله يتوقع ذلك، بل كان على يقين من ذلك، فكان يقول: إنّ هذا «التفسير» سيلاقي معارضة من كثير ممن يقرؤونه الآن، ولكن سيكون له شأن مهم في المستقبل بعد خمسين سنة مثلاً حين يتأملون فيه. وقد تحقق ما قاله، وها هي بوادر تصدّق قوله، فإنّ الدكتور الذي أشرف على بعض الطلاب الذين حققوا بعض «تفسير» شيخنا ونال كل واحد منهم به درجة الماجستير، قال لي ذلك الدكتور المشرف على تحقيق تلك الأطروحات: لقد ثبت لدي أنّ «تفسير» الشيخ الخطيب في هذا العصر يوازي «تفسير» الشيخ الزمخشري في عصره.

ولم يدّع شيخنا أنّ كل ما في «تفسيره» جاء موافقاً للصواب، فإنّ الكمال لله وحده، وكان يقول عند كل رأي من آرائه الخاصة به: والله أعلم.

رحم الله شيخنا الخطيب، وأثابه على اجتهاده وجهده في تفسير كتاب الله.

في الخامس والعشرين من ربيع الأول ١٤٣٥هـ

الموافق للسادس والعشرين من كانون الثاني سنة ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله ومَن والاه، ورضي الله عن أصحابه ومن اتَّبع هداه.

أما بعد:

فهذا كتاب «أولى ما قيل في آيات التنزيل» للعلامة الشيخ رشيد الخطيب الموصلي (ت ١٤٠٠هـ) رحمه الله تعالى، الذي صدرت طبعتُه الأولى في أجزاء متتابعة عن دار الكتبِ للطباعةِ والنشر في جامعة الموصل؛ كان آخرُها سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م. منذ أكثر من أربعين سنة، في طبعةٍ رديئة، كثيرةِ الأخطاء، قليلةِ الانتشار؛ إذ لم تصل إلى كثيرٍ من المكتباتِ العامَّة فضلاً عن الخاصَّة.

وكانت أُمنية المؤلف رحمه الله تعالى أن يُقيِّضَ اللهُ تعالى لهذا الكتاب مَن يَعتني به ويُصحِّحه، ويعيد طباعتَه، ويعتمد على النسخةِ التي قرأها أكثر من مرة، وصحَّحها وأضاف إليها.

وقد حقَّق الله سبحانه أمنية المؤلِّف رحمه الله تعالى، بل أكثر ممَّا تمناه - بفضل الله ورحمته - في هذا الإخراج الجديد النضير لهذا التفسير.

وهذا الكتاب - كما أشرت - لم يُكتب له الرواج والانتشار، لأنه طُبعَ طبعة محليّة خاصّة، ولم يُعتـنَ بإخراجه وتصحيحه، ولأنَّ مؤلِّفه انتهج منهج المدرسة العقليَّـة

الإصلاحيَّة المعاصرة، وهو من أهم روَّادها في العراق، ولهذه الأسباب لم يكتب للكتاب الشهرة والتداول، وبقي مجهولاً عند جمهرة المشتغلين بالتفسير وعلوم القرآن، فضلاً عن غيرهم من الدارسين والباحثين.

وأما قصتي مع هذا الكتاب، فتعود إلى سنة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م عندما التقيتُ الأخَ الكريم الباحث الدكتور خالد حمَّاش، في عمَّان، في اجتماع لأمانة رابطة العلماء السوريين، وحدَّثني ـ بعد طول غياب ـ عن ذكرياته الجميلة في الموصل التي هاجر إليها من بلده حلب، وأحبَّها وأَنِس إلى أهلها، وأتمَّ دراسته فيها، وحصل على رسالته الماجستير عن عالم موصليٍّ، وكان عنوانها: «منهج رشيد الخطيب في تفسير القرآن»، وذكر لي بعض المعلومات عن المؤلف، وشرح لي شيئاً من منهجه وتأثُّرِه بمدرسة الشيخ محمد عبده. ولم أكن سمعتُ بالمؤلف ولا بتفسيره من قبل!!.

وعلمتُ منه أنه كان على صلة ببعضِ أحفاده من آل النجيفي، وأنَّ الشيخ أقام عند ابنتِه في أواخر عمره، وحظِيَ ببرِّ أسباطه وخدمتهم له.

فلما رجعتُ إلى مكان إقامتي آنذاك بجُدَّة، لقيت حفيدَ المؤلف الأخ الدكتور محمد ابن عبد العزيز النجيفي، وكانت تربطني به من قبل صلة وثيقة، وصداقة وطيدة، وسألته عن تفسير جدِّه؟ فقال لي: إنَّ من أعظم أمنياته أن يُعهَدَ إلى مَن يُـجدِّدُ طباعةَ تفسيره، ويُخرِجُه إخراجاً علمياً يَليق به. وطلب إليَّ أن أقومَ بهذه المهمة، وأحسنَ الظنَّ بي. وبعد أيام أحضرَ لي نسخةَ المؤلف المطبوعة في حياته في أجزائها العشرة: المقدمة في جزء؛ وبقية التفسيرِ في تسعة أجزاء، وعليها تصحيحاته وتعليقاته الكثيرة بقلمه.

فنظرتُ في الكتاب، وقرأتُ بعضَ صفحات منه، فعزمتُ على العناية به، وتوكَّلتُ على الله عزَّ وجل، رغم كثرة الأعباء والأعمال العلميَّة المتعدِّدة.

ومن عجيب القدَر أن يدّخر الله لي خدمة هذا الكتاب، في تواصلٍ علميٍّ جديدٍ بين حلب الشهباء والموصل الحدباء، في وقتٍ يعيش فيه العراق محنة أليمة، وتشترك سورية معها، في عدوٍّ مشترك، يريد أنْ يُغيِّر البِنية العلميةَ والاجتماعية لبلدَين يجمع بينهما تاريخٌ علميّ ودينيّ مشترك. ولهذا كان ظهورُ هذا الكتاب في هذا الوقت تأكيداً لهذهِ الروابطِ العلميّةِ الأخويَّة، وتعريفاً بعالمٍ كبير من علماءِ الموصل، ونشراً لتراثٍ نافع من تراثِ الأجداد.

وأما جوانب عنايتي بهذا الكتاب فكانت كما يأتي:

١ ـ قرأت الكتاب من أوّلِه إلى آخرِه، وأجريتُ عليه قلمَ التصحيحِ والترقيم، إذ كان الكتاب خالياً من هذين الجانبين، لا تجد فيه بداية سطر، ولا علامةَ ترقيم إلا ما ندر. وقد رُكِمَ من أوله إلى آخره في أسطرَ متراصَّةٍ لا يَعرِفُ القارئ بدايةَ الكلام من آخره. فقمتُ بضبطِه وتصحيحِه وترقيمه، والتعليقِ على بعض المسائل العلميَّـة التي اتَّسعت لها حاشية الكتاب في أول قراءة له آنذاك.

٢ ـ قدَّمتُ الكتـاب بعد ذلك للأخ الكريمِ الشيخ محمد سلطان الحلبي، ليقوم بصفِّه، فقام بذلك في فترة سريعة، ووضع الآيات القرآنيَّة بخط المصحف الشريف.

٣ ـ عهدتُ إلى الأخ الحبيب علي مسعود التونسي بمقابلة الإخراج الجديد على الكتاب، ولا سيما الإضافات الكثيرة والإلحاقات. وأرسلتُ إليه الأصل مع المطبوع إلى مكان إقامتِه في سويسرا، فقام ـ جزاه الله خيراً ـ بالمقابلة وتصحيح التجربة الأولى أحسنَ قيام.

٤ ـ أعدتُ قراءة الكتاب مرة ثانية، للتثبُّتِ من دقَّةِ المقابلةِ والتصحيح، وأجريتُ ـ من جديد ـ قلمَ الترقيم والتصحيح والضبط والتعليق.

٥ ـ قمتُ بتعقُّبِ المؤلِّفِ في كثيرٍ من القضايا العقديَّـة التي تأثَّر فيها بمدرسةِ الشيخ محمد عبده. وكان هذا الجانب هو أهم جوانب خدمتي لهذا الكتاب، وشعرتُ بالمسؤولية العلمية الكبيرة التي أُنيطَت بي؛ لكثرة القضايا التي تابعَ فيها هذه المدرسة، بل زاد عليهم فيها، ولذلك استشرتُ بعضَ أهلِ العلم في التعليق على بعضِ المسائل المهمَّة، حتى أؤدِّي الأمانة العلميةَ وأقوم بواجب النصيحة لكتاب الله على وجهها.

٦ ـ عهدتُ إلى الأخ الكريم الباحث الأستاذ إبراهيم إسمـاعيل متولّي عوض بتخريج الأحاديث وبعض الآثار بإيجاز، فقام بذلك على أتمِّ وجه، جزاه الله خيرًا.

٧ ـ علَّقتُ على الكتاب تعليقات كثيرة، ونثرت فوائـد عديدة، بمـا فتح الله علي ووفَّقني إليه، وسمحَ به الوقت، ولا سيما في الأجزاء الأخيرة، وتركت تعليقاتي دون ذكر لاسمي، وأما ما كان من تعليقات المؤلِّف فقد ختمتُها بقولي: (المؤلف).

٨ ـ أرسلتُ الكتابَ إلى مؤسسة (أَرْوِقة للدراسات) لتقوم بتنفيذ التصحيحات والتعليقات، وتُلحِق التخريج في مواضعه، وتقـسِّم الآيات القرآنيَّـة في السورة إلى مجموعات متناسقة مترابطة؛ لينتقل القارئ بين موضوعات السورة والآيات المفسَّرة بما يعين على الفهم والتدبُّر.

وقد عَهِدَت المؤسسةُ إلى مجموعةٍ من الباحثين الجادِّين لـمتابعةِ الكتاب، وتنفيذِ تصحيحاتي بدقَّـة، وتقسيمِ السورة إلى فقراتٍ مترابطة، ووَضْعِ عناوينَ في أعلى كلِّ صفحة تشيرُ إلى رقمِ الجزءِ واسمِ السورة، فقام قسمُ التصحيحِ بذلك؛ إضافةً إلى تنبيهاتٍ مُهمَّةٍ لما تابع فيه المؤلف رحمه الله المعتزلةَ والمدرسةَ العقليَّة المعاصرة.

وقد كان للأخ الكريم البحَّاثة الدكتور حمزة وسيم البكري الفضلُ في التنبيهِ على هذه الأقوالِ في عدَّةِ مواضعَ من هذا التفسير.

وقد قامَت مؤسسة (أَرْوِقة للدراسات) بإرسالِ ما تمَّ تصحيحُه والتعليق عليه أولاً فأولاً، فراجعتُ الكتاب للمرة الثالثة، وأضفتُ بعضَ التعقيباتِ الجديدةِ على المؤلف، وأكثرتُ من التعليقات لا سيما في الأجزاء الأخيرة من هذا التفسير.

٩ ـ ألحقتُ بآخر التفسير دراسةَ الأخ الكريم الدكتور خالد حماش الحلبي «منهج رشيد الخطيب في التفسير» بعد أن تكرَّم وأرسل إليَّ الكتاب مصفوفاً مُصحَّحاً، فقمتُ بقراءتِه والعنايةِ به وتنسيقِه، والتعليقِ عليه، وإعادةِ العزوِ في الحواشي إلى أرقام صفحاتِ هذه الطبعة الجديدة.

١٠ ـ قدَّمتُ للكتابِ مقدِّمةً مختصرة، أوضحتُ فيها سيْرَ العملِ في خدمةِ الكتاب، وألحقتُ بهذه المقدمةِ ثلاثةَ مداخل إلى التفسير.

أما المدخل الأول؛ فهو ترجمة مختصرة للمؤلف، وكلمة موجزة عن التفسير ومنهجه فيه.

وأما المدخل الثاني؛ فهو في تأثُّرِه الكبير بمدرسة الشيخ محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا، ومُجْمَل التعقُّبات عليه فيما تابعهما، بل زاد عليهما، ممَّا نبَّهتُ على أكثره في التعليق على الكتاب، وقد أوردتُ مجْمَل هذه الأقوال مع الردِّ عليها باختصار في المدخل الثاني من مقدِّمة الكتاب.

وأما المدخل الثالث؛ فهو أجوبة العلامة الشيخ عبد الكريم تتَّان حفظه الله تعالى على بعض المسائل التي استشكلتُها، وأكثرَ المؤلف رحمه الله تعالى من الاستدلال بها، وقد أجابني بأجوبة مطوَّلة مفصَّلة، فيها فوائد وقواعد في التعامُل مع كتب التفسير المعاصرة ممَّن تأثَّر أصحابها بمنهج مدرسة الشيخ محمد عبده العقليَّة الإصلاحيَّة، وقد قمتُ بتوثيق نُقولِها وإعادة ترتيبها، ووضع عناوين جانبيَّة لها.

١١ ـ قسمت الكتاب تقسيماً جديداً، وجعلتُه في تسع مجلدات متناسبات في عددِ صفحاتها:

أما المجلد الأول: فيتضمَّن هذه المقدمة والمدخل بين يدي التفسير، ثم مقدِّمة المؤلف.

وأما المجلد الثاني: فمن سورة الفاتحة إلى آخر سورة آل عمران.

وأما المجلد الثالث: فمن سورة النساء إلى آخر سورة الأعراف.

وأما المجلد الرابع: فمن سورة الأنفال إلى آخر سورة الإسراء.

وأما المجلد الخامس: فمن سورة الكهف إلى آخر سورة الروم.

وأما المجلد السادس: فمن سورة لقمان إلى آخر سورة الزخرف.

وأما المجلد السابع: فمن سورة الدخان إلى آخر سورة المعارج.

وأما المجلد الثامن: فمن سورة نوح إلى آخر سورة الناس.

ويتلوه الفهارس التى تتضمن:

١ ـ فهرس الأحاديث النبوية.

٢ ـ فهرس الآثار عن الصحابة رضى الله عنهم.

٣ ـ فهرس الأشعار.

٤ ـ فهرس البلاغة.

٥ ـ فهرس الأعلام.

٦ ـ فهرس الفرق والمذاهب العقائدية.

٧ ـ فهرس الكتب.

٨ ـ فهرس الأماكن.

٩ـ فهرس قواعد التفسير.

١٠ـ الفهرس الإجمالي للسور.

وأما المجلد التاسع، فـقد ألحقت فيه كـتاب: «منهج رشـيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم» للدكتور خالد حمَّاش، ويتلوه رسالة: «البيان القرآني في تفسير أولى ما قيل» للدكتور خالد حَمُّودي العزاوي، ثم الفهرس الإجمالي للمحتويات.

وممَّا يقتضي التنبيه أن التفسير حسب تجزئة المؤلف في الطبعة الأولى، كان في مقدِّمة وتسعة أجزاء.

يتضمَّن الجزء الأول: تفسير سورتي الفاتحة والبقرة.

والجزء الثاني: تفسير سورتي آل عمران والنساء.

والجزء الثالث: تفسير سورتي المائدة والأنعام.

والجزء الرابع: تفسير السور من الأعراف إلى هود.

والجزء الخامس: تفسير السور من يوسف إلى الإسراء.

والجزء السادس: تفسير السور من الكهف إلى النمل.

والجزء السابع: تفسير السور من القصص إلى غافر.

والجزء الثامن: تفسير السور من فصلت إلى الحديد.

والجزء التاسع: تفسير السور من المجادلة إلى الناس.

وقد قدّم المؤلف لكلِّ جزء من أجزاء الكتاب، وهذه المقدِّمات مبثوثة في هذه الطبعة الجديدة، ولكنها صارت ـ حسب تقسيمي الجديد ـ في ثنايا الكتاب، ولن يهتدي إليها القارئ بسهولة، ولهذا نبَّهت إلى تقسيم المؤلف لكتابه وتقسيمي له في هذه الطبعة الجديدة.

وبعد: فهذا عملي المتواضع وجهدي القليل في خدمة هذا الكتاب؛ الذي ما كان ليَتِمَّ لولا فضل الله عز وجل عليَّ أولاً، وإمداده لي بالصحَّة والفراغ؛ اللذين اقتنصت منهما ما ساعدَ على إتمامِ العمل، رغم الصوارف والأعباء، ومعايشة الأحداث الأليمة التي تمرُّ بها الأمة في هذا المخاض الأليم والفتن الصمّاء المتتابعة؛ لا سيما في بلاد الشام.

والدعاء الصادق لكلِّ من ساعدَني في إتمامِ هذا العمل العلمي، فالمؤمن قويٌّ بإخوانِه قليلٌ بنفسِه، وقد ذكرتُ أسمـاء كلِّ مَن أعانني في خدمة هذا الكتاب، صفاً وتصحيحاً ومراجعةً وتعليقاً وتنسيقاً، جزاهم الله تعالى عني خير الجزاء.

والشكر موصول لأخي الكريم الدكتور محمد بن عبد العزيز النجيفي ـ سبط العلامة المفسِّر رشيد الخطيب ـ الذي كان يتابعني، ويحثُّني على إنجاز عملي في الكتاب، وصبرَ على تأخُّري بسبب سفري من جُدة إلى الدوحة، وانشغالي بأعمال علميَّة كثيرة، وقد يسَّر لي الأسباب التي تُعينُ على إتقانِ العمل وإحسانه.

وأختم بالشكرِ للأخِ الحبيب الباحث المحقِّق الناشر المتقن الشيخ إياد الغوج ـ صاحب (أَرْوِقة للدراسات) ـ الذي قام بمتابعةِ الإشـراف على إخراج التفسير وتنسيقه، وحثَّني وحرَّضني على إنجازه، وصبرَ كذلك على مشاغلي وتسويفي، فله وللعاملين في داره العامرة أوفى الثناء وأخلص الدعاء.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

الدوحة

في يوم الأربعاء ٢ من محرم ١٤٣٥هـ

الموافق ١١ نوفمبر ٢٠١٣م

وكتبه

محمد أحمد مكي

عُفي عنه

المدخل الأول

التعريف بالمؤلف والتفسير

كتب الأخ الدكتور خالد حمَّاش الحلبي ترجمة موسَّعة للمؤلف، اعتمد عليها أكثر مَن جاء بعدَه ممَّن ترجم للمؤلف رحمه الله تعالى، وقد ترجمتُ له مِن قبل ترجمةً مختصرةً له، مستفادةً منه، نشرتُها مع صورةٍ له في جريدة الوطن القطريَّـة، في شهر رمضان سنة ١٤٣١هـ في سلسلة: روّاد التجديد والوسطيَّة، وفي موقعِ رابطةِ العلماء السوريين الذي أُشرف عليه.

واستحسنتُ أنْ أنشرَ في هذه المقدِّمة ترجمةً مختصرةً له من كتاب «موسوعة أعلام الموصل» للدكتور عمر محمد الطالب الذي صدر سنة ٢٠٠٥م، ونُشِرَ على الشبكة العنكبوتية، وألحقتُ بها مقالةً للأستاذ الدكتور المؤرّخ ذو النون الطائي، نشرت في موقع بيت الموصل. واعتنيتُ بترقيمِها، ووضعتُ لها بعضَ العناوين الجانبية.

وأما الترجمة المفصَّلة للمفسِّر فيجدُها القارئ في المجلد التاسع من هذا التفسير. وهذه ترجمتُه المختصرة من الكتاب المذكور مع إضافاتٍ يسيرات.

❊ ❊ ❊

رشيد الخطيب الموصلي

١٣٠٣-١٤٠٠هـ

١٨٨٦-١٩٧٩م

الشيخ رشيد بن الشيخ صالح بن الحاج طـه الطائي الخطيب، وُلِـدَ عام ١٨٨٦م في الموصل[١]، وكان والده عالماً جليلاً[٢]، اتَّخذ مجلساً للتدريس في داره. وأمُّه من آل النوري؛ الأسرة المعروفة بمكانتِها في مجالَي الزهد والتصوف.

نشأته العلمية وملازمته الشيخ محمد الرضواني:

تعلَّم الشيخ الخطيب القراءة والكتابة في الكُتّاب، ودرَس القرآنَ الكريمَ ومبادئ العلوم على علماء الموصل، ولازم الشيخ محمد الرضواني[٣] في مدرستِه الرضوانيَّـة،

---

(١) وهو يوافق ليلة الجمعة آخر جمادى الأولى سنة ١٣٠٣ للهجرة.

(٢) كانت وفاة والد الـمُتَرجَم الشيخ صالح الخطيب رحمه الله في سنة ١٣٠٦ للهجرة، الـموافق لسنة ١٨٨٩م.

(٣) ولد الشيخ محمد بن عثمان الرضواني في الموصل سنة ١٢٦٩هـ الموافق ١٨٥٢م، وتتلمذَ على الشيخ صالح بن طه الخطيب (والد الشيخ رشيد)، وقرأ قراءة حفص على تلميذِه محمد صالح الجوادي. وأسـرة الرضواني من الأسر الجليلة في الموصل، اشتهرت بالعلم والتـقوى، وكان الشيخ الرضواني عَلَمـاً من أعلام الموصل في الزهد وكرم الأخلاق، يَنقاد إليه الناس ويأخذونَ عنه ويحتكمون إليه، ودرسَ عليه كثيرٌ من أهلِ الموصلِ في مدرسةِ النبي شيث، وفي مدرستِه الكائنة في مسجده، وكان يتنزَّه عن الوظائف مهما كان نوعها. =

وتخصَّص في علوم الشـريعة، وأخذ عنه الإجازة العالمية[1] عام ١٣٢٩هـ، وقرأ عليه

= واشتغلَ بالتجارةِ وراجت تجارتُه، وكان زاهداً عَزوفاً عن الدنيا وبَهرَجَتِها، جمَّ الأدب والتواضع، كثيرَ الإحسان، يقدم إلى مدرستِه مبكِّراً قبلَ طلوعِ الشمس، ويُصلّي الفجر في مسجد المدرسة، ويدرِّس تلامذتَه عن طريقِ عرضِ المشكلاتِ العلميّـةِ والمسائل العويصة، وإدارةِ النقاش حولَها حتى يتوصّل إلى النتيجة، وكان حنفيَّ المذهبِ سلفيَّ العقيدة، مال إلى قراءةِ الكتبِ الصوفية، وأُعجِبَ بالغزاليّ، ولا سيّما كتابه «إحياء علوم الدين».

وسعى الشيخ الرضوانيّ إلى إعطاءِ طلبتِه المكانةَ التي يَستحقونَها، فقد أقامَ حفلاً في مدرستِه الرضوانية عام١٣٣١هـ بمناسبة حصولِ رشيد وسعد الدين الخطيب على الإجازة العالمية، وكان الشيخ الرضواني قد حصل على إجازتِه العالمية من والدِهما الشيخ صالح الخطيب الذي توفّيَ وما زال ولداه طفلَين فرعاهما الشيخ محمد الرضواني برّاً بأستاذِه حتى أخذا العلمَ على يدَيه.

وقد أجاز الشيخ محمد الرضواني علماء كباراً لهم أثرٌ كبير في التطور العلمي والديني في الموصل، ولا سيما في الشريعة والفقه واللغة العربية؛ منهم: عثمان الديوه جي، وأحمد الديوه جي، وأحمد الجوادي، وصالح الجوادي، ورشيـد الخطيب، وسعد الدين الخطيب، وعبد الغـفور الحبار، والشيخ عبد الله النعمة، وفائق الدبوني، وعبد الجواد الجوادي، وعبد الله الحسو (ت١٣٧٩ هـ) وغيرهم.

توفي سنة ١٩٤٢م عن تسعين عاماً رحمه الله تعالى. من «موسوعة أعلام الموصل». والصواب ـ كما سيأتي في الترجمة الموسَّعة آخر التفسير ـ أن وفاته في ٦/ ٧/ ١٩٣٨م، الموافق ٧/ ٥/ ١٣٥٨هـ.

(١) ومما يتَّصل بإجازته لتلميذه رشيد الخطيب وشقيقه سعد الدين، أنه أقيم حفل مهيب لمنحهما الإجازة العلميَّة، وقد جرت في هذا الحفل من اللطائف والموافقات القرآنية ما أدهش الحاضرين وهيَّج الأشجان والذكريات عن والدهما الشيخ صالح الخطيب، فقد تقدم شيخهما وتلميذ والدهما الشيخ محمد الرضواني إليهما بالإجازة قائلاً: هذه بضاعتكما ردَّت إليكما، وكان قارئ الحفل الشيخ عثمان الموصلي، وهو علَم جليل ومقرئ ومنشد أصيل، وصاحب طرفة وبداهة، فقرأ آيات من سورة الكهف إلى أن وصل إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾. فضجَّ الحضور بالتكبير متعجِّبين من هذه الموافقة العجيبة، فكأنَّ علم والدهما الذي توفي وهما صغيران كنـز =

علوم العربية والمنطق وعلم الكلام وأصول الفقه والحديث والفرائـض.

ودرسَ الحساب والجبر والهندسة والفلك على الأستاذ أمجد العمري، وأدّى به هذا التنوع المعرفي إلى الإعجاب بآراء المصلحين من أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا إلى جانب إلمامه بالمذاهب الأربعة وأصول الدين.

ثقافتُه وتدريسه وتجديده في وسائل التعليم:

انخرط الشيخ رشيد في سلك التدريس؛ وعُيِّن مدرساً للغة العربية في المدرسة (الخضرية)، وقضى فيها عشرين سنة، واختير مفتشاً للغة العربية عام ١٣٤٠هـ وأصبح عضواً في المجلس العلمي في مديرية الأوقاف في الموصل، واعتزل العمل الوظيفي، وأنشأ مدرسة في بيتِه يدرِّس فيها طلاب العلم.

عُرف رشيد الخطيب بالميل إلى الاجتهاد في المسائل الشرعيَّـة واستـنباطها من مظانِّها الأصلية، وشرع إلى التجديد في أساليب التعليم، ولم يَبْقَ على السبل السائدة في التعليم آنذاك إيماناً منه بأنَّ الأساليبَ التقليديةَ لا تدفعُ إلى الرقيِّ العلمي والاجتماعي، وكان طموحاً بأن يجد بلده مسلماً متميِّزاً آخذاً بالتطور والتجديد والتألق.

وخلَّد تفسيراً للقرآن الكريم يعدُّ واحداً من أهم كتب التفسير في العراق في العصر الحديث.

أبرز تلامذته:

أخذ عن الشيخ رشيد الخطيب عدد كبير من الطلاب، وتشرَّبوا علمه وأدبه،

= ثمين حفظه لهما تلميذ والدهما الشيخ محمد الرضواني حتى بلغا أشدَّهما؛ ليعيده لهما، ومن العجيب أن اسمه صالح، وهو صالح، فحصل في الآية تورية في هذا المقام.

ومن أبرز تلامذته: إبراهيم النعمة (١٩٤٣)[١]، وإسماعيل مصطفى الكتبي (١٩٠٢-١٩٦٦)، وصالح عارف البامرني (ت ١٩٨٨)، والشيخ ذنون البدراني وغيرهم[٢].

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى عام ١٩٧٩[٣].

الشيخ رشيد الخطيب شاباً

الشيخ رشيد الخطيب في أواخر حياته

---

(١) إبراهيم نعمة الله النعمة. ولد في الموصل سنة ١٣٦٢هـ-١٩٤٣م. وله ـ حفظه الله تعالى ـ ترجمة موسعة في كتاب «موسوعة أعلام الموصل».

(٢) تنظر تراجمهم في الترجمة الموسعة للأخ الدكتور خالد حماش في المجلد الأخير من التفسير. ويضاف إلى هؤلاء التلاميذ النجباء: الشَّيخ المقرِئ الشاعر الخطاط إبراهيم بن فاضل بن محمّد المشهدانيّ، ولد في مدينة الموصل الحدباء سنة ١٩٤٣م، وأفاد من الشيخ رشيد الخطيب الموصليّ في الشعر وعلم العروض.

(٣) توفي الشيخ رشيد الخطيب في ١٩/ ١٢/ ١٩٧٩م، وهو يوافق يوم الأربعاء ٢٩ من المحرم من سنة ١٤٠٠هـ. وهذا التاريخ هو الصواب المعتمد لا كما ذهب الأخ الكريم خالد حماش، إلى أنه توفي في عصر يوم ١٩/ ١١/ ١٩٧٩، وهو يوافق يوم الاثنين ٢٩ من ذي الحجة ١٣٩٩هـ. وقد تصحَّف عنده الشهر الميلادي ١٢ إلى ١١، وقد نبَّهت على خطئه، وعلقت عليه في ترجمته الموسَّعة.

ومن آثاره المطبوعة:

١ ـ أولى ما قيل في آيات التنزيل ١٩٧٣، وهو في تسعة أجزاء.

٢ ـ رسالة في علم العقائد ١٩٦٥م.

٣ ـ رسالة في مواضيع مهمة ١٩٧٩م.

٤ ـ المدارك الدقيقة في محتويات سورة الحجرات (١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م).

٥ ـ رسالة في أصول الفقه الإسلامي ١٩٨٠م.

٦ ـ أسئلة الامتحانات للأئمة والخطباء ١٩٦٨م.

أما آثاره المخطوطة: فكثيرة ومتنوِّعة في التفسير والحديث والعقائد والكلام، وفي الفقه وأصوله، وفي اللغة والبلاغة والأدب والتراجم والتربية والتعليم، وفي القصص والأخبار والمواعظ، ومتفرقات في علم الهيئة، ومقتطفات وتعليقات في مختلف الموضوعات والعلوم؛ فضلاً عن الخطب المنبريَّة، وهي محفوظة عند حفيده أثيل النجيفي، وعند تلميذه إبراهيم النعمة. ومن أهمها:

١ ـ مخطوطة يعرِّف بها عن نفسه، وهي سيرة ذاتيَّة.

٢ ـ أسنى الأرب في تاريخ العرب.

٣ ـ مختصر التفسير.

٤ ـ مختارات الصحاح.

٥ ـ المنتخب من الأحاديث النبويَّة.

٦ ـ رسالة فرائد القلائد.

٧ ـ مختصر في علم الفرائض.

٨ ـ رسالة في معاني الحروف.

٩ ـ ما لا يستغني عنه التلميذ والكاتب والأديب من ألفاظ اللغة وخصائص التركيب.

١٠ ـ مختصر الوسيط.

١١ ـ حسن الصنيع في البديع.

١٢ ـ مختصر البلاغة.

١٣ ـ المنتقى في البلاغة.

١٤ ـ أبسط الترتيب في تراجم الأدباء.

١٥ ـ أوضح المناهج في تاريخ الأدب لسائر عصور العرب.

١٦ ـ ترجمة لشعراء بني أمية وبني العباس وعلماء وشعراء الدولة العثمانية.

١٧ ـ بنات الأفكار الحسان ولقائط الجمان.

١٨ ـ تذكرة الأدباء.

١٩ ـ حقيبة الأديب.

٢٠ ـ الخرائد الحسان في متنزهات العيان.

٢١ ـ رسالة في العروض.

٢٢ ـ الشذرات.

٢٣ ـ شرح قصيدة بانت سعاد.

٢٤ ـ عمدة الأريب ومرجع الأديب.

٢٥ ـ عون الأديب فيما يحتاجه من مختلف الأبحاث والتراكيب.

٢٦ ـ الفرائد في بعض المقطوعات.

٢٧ ـ اللطائف المشرقة في القطع الشيقة.

٢٨ ـ مجموعة الخطب المنبرية.

٢٩ ـ معين التلميذ في فهم الأدب على المنهج الحديث.

٣٠ ـ منتخبات فرائد النثر وفرائد النظم.

٣١ ـ منتخبات الخطيب لما يتحسنه كل أديب.

٣٢ ـ رسالة في دروس الأخلاق والسيرة وقصص الأنبياء.

٣٣ ـ مبادئ علم الهيئة وغيرها.

دعوة رشيد الخطيب الإصلاحيَّة:

كتب الأستاذ الدكتور ذو النون الطائي أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، ومدير مركز دراسات الموصل؛ مقالة بعنوان: «الشيخ رشيد أفندي الخطيب: دراسة في طروحاته الإصلاحيَّة»، أَقتصِرُ فيها على ما يتَّصل بجهوده الإصلاحية دون ترجمته:

قال الدكتور ذو النون الطائي: «شهدَت الموصلُ منذ أواخر القرنِ التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، تحوُّلات نهضويَّة مهمةً على صعيدِ تصعيدِ الخطاب الإصلاحيّ فيها؛ من خلال نخبة من رُوّادِ النهضةِ الفكرية من أبنـائها، التي أفرزَت اتِّجاهات إصلاحيَّة عِدّة. كان من أبرزِها الاتجاه الدينيّ الإصلاحيّ، وله رُوّادُه من شيوخٍ وعلماء أفذاذ سخّروا علومَهم في سبيل رُقيّ ورفعة الأمة.

ومن أبرزِ هؤلاء الدعاة: الشيخ رشيد أفندي الخطيب.

تأثُّره بمدرسةِ الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا:

عُرف عن رشيد الخطيب أنه كان قارئاً نَهِماً؛ قرأ كتابات الأفغاني ومحمد عبده

ورشيد رضا، واستفاد من أفكارِهم الإصلاحيَّة، وقد تأثَّرَ كثيراً بالشيخ محمد عبده، حتى إنه يَعدُّ نفسَه تلميذاً له، وكان يدعوه كثيراً بالشيخ محمد عبده أو بالإمام.

اهتمامه بالعلم والتعليم:

عُيِّن رشيد الخطيب في أواخر العهد العثماني مدرِّساً في المدرسة الخضريَّة لمادَّتي الدِّينِ واللغة العربية، آمَن بأنَّ طريقَ الازدهار والتقدّم الحضاريّ لا يتمُّ إلا عن طريق الاهتمام بالعلم والتعليم؛ فهو يقول: «كنّا نؤكِّدُ لهم ـ للتلاميذ ـ بأنَّ طريقَ التقدم والازدهار الحضاري لا يتمُّ إلا عن طريق التعليم، وإنْ أردنا اللحاقَ بِرَكْبِ الحضارةِ السائرة إلى الأمام فعلينا ببناءِ حياةٍ تعتمِدُ العلمَ أسلوباً لها في تقدُّمِها، وتحرسُ هذا العلمَ بالمحافظةِ على تراثِها الأصيل».

لذلك أولى عنايةً فائقةً بتعليم الشباب، وحثَّهم على تحصيلِ العلم، فهو يُخاطبُهم موضحاً أهميةَ العلم في حياة الأمم فينادي: «أنتم شباب اليوم رجال الغد، خُلقتم لتعلموا وتعملوا.. لا حياة لأمة إلا بالعلم، ولا مزيةَ لقومٍ إلا بحُسنِ الأعمال، فقيمةُ كلِّ امرئٍ بما يُحسِن، وليسَ للإنسانِ إلا ما سعى، وليس أخو علمٍ كمَن هو جاهل. بالعلم يتميَّز الإنسان عن الحيوان، بالعلم يفتخرُ عن بني نوعِه، وأشقى الناس في هذه الدنيا: الأمم الجاهلة ليس لها شيء من المزايا، بل هي بمعزل عن الحياة وبُعدٍ عن الإنسانية».

لم يكن الرجل منغلقاً أو متعصباً، ويظهر ذلك من خلال تحليلِه لمجريات الأمور، سواء منها الدينية أو الاجتماعية أو السياسية وغيرها، جريء في طرح آرائه، يدعو إلى الإصلاح، والاستفادة من المدنيةِ الغربيةِ بما لا يَتعارَضُ والعقيدة الإسلامية، فقد بيَّن في كتاباتِه فضلَ العربِ على أوربا في العلوم والمعارف والتأليف، وتألَّمَ لِما آلَت إليه أوضاع

العرب المسلمين بعد عدَّة قرون، فنراه يتوجَّه إلى الأمة مخاطباً إيَّاها: «مرَّ علينا زمان ونحن في سبات نتقلَّبُ في مهاوي الجهالات والأحلام. لا ندري أيّ ربوة تقِلُّنا، وأيّ وادٍ يحطُّنا».

ثم يَلفِت الأنظارَ إلى العلاجِ المناسبِ الذي يراه أُسَّ كلِّ نجاحٍ وارتقاء، وهو «العلم»: «الراحة بالعلم، والمكانة بالعلم، والشجاعة بالعلم، والرياسة بالعلم، والعزة بالعلم، والحياة بالعلم، والسؤدد بالعلم.. هل رأيتم أمّة سادت بالجهل؟ هل رأيتم أمة نالت مقصدها بالجهل؟

وأشار الشيخ الخطيب إلى أنَّ الأمة لكي تنهض بواقعِها وتسعى لاستعادةِ أمجادِها ومكانتِها لا بدَّ أن تحظى بمستلزماتِ النهوضِ التي تتمّ عن طريق تعاضدِ رجالها وتفانيهم في خدمتها، فهو يرى أن لا غِنى لأمّةٍ عن طبيبٍ يُعالج أبدانَها ويُشخِّص عِلَلَها، وفقيه يُطبِّب أرواحها، ويُهذِّبُ نفوسَها، وعالم نحرير يُنوِّر أفكارها، ويكشف أستارها؛ لتنتظم في سلك البشر، وفيلسوف يَكشِفُ ما هو كمينٌ في الطبيعة، ويستخرج لها القوات المودَعة، وصائغ ماهر يجسِّم تلك الطبيعة المكتشَفة، وداهية يافعة ينظر في مستقبل الأمور فيتكهَّن لها ما يخدعها، ويكشف عنها ما يهدِّدها، وشجاع أهيس[١]، تشدُّ به أزرها ويقوى بنيانُها، وكاتب بارع، يحفظ آثارَها ويقدّ[٢] في دفتر أحوالها وأخلاقها، وخطيب مصقع يوقظها من رقادها، ويصلح ويحذر ويُحرِّضها وينفث في روحها، وفصيح يكون لها فخراً بين الأمم وذخراً عند المعارضات والمناظرات. ويؤكد الشيخ الخطيب على أن ذلك كلّه لا يتم إلا عن طريق العلم والعمل والجد.

---

(١) الأهيس من أوصاف الشجاع.

(٢) قدّ الكلام قدّاً: قطعه وشقّقه.

تقويمه للرجال ومهامهم في المجتمع:

وللشيخ الخطيب آراؤه الخاصَّة في تقويمِه للرجال ومهامهم في المجتمع، وقد قسمهم إلى قسمين:

الأول: للتدريب، والآخر: للإصلاح «وبهم يكون مِلاك السعادة للأمة، ويعلو شأنها، وترتفع مكانتها، ويطول باعها، ويبعد صيتها، ويمتدّ ظلها، ويحفظ كيانها، ويزداد ذلك بكثرتهم وموقعهم وينقص بقلتهم. ولا يتمُّ ذلك كل التمـام إلا إذا كانوا سلسلة متَّصلة يقتفي الأبناء منهم أثر الآبـاء».

الجمع بين الأصالة والمعاصرة:

كان الرجل متـضلعاً في العلوم الدينية، فـقد درس الفقه والشريعة، ولم يؤمن بالتعصب لمذهب دون آخر. فغدا مرشداً للمقلِّدين الذين يحافظون على التقليد القديم، وأحد المُجدِّدين الذين يؤثرون الرجوع إلى رأي السلف الصالح، بحيث نجده لا تُشكِلُ عليه أية مسألة من المسائل الدينية على تنوع أبواب الفقه والعقائد والاجتماع إلا أوجد لها دليلاً قائماً من هَدْي القرآن الكريم والسنة النبويَّة المطهّرة.

وقوفه ضد الاحتلال البريطاني ومشاركته في ثورة العشرين:

كما كان له آراؤه الخاصَّة بشأن أنظمة الحكم والسياسة والأدوار التي مرَّت على العراق، ونظراً لتـطلُّعِه نحو الإصلاح والأخذ بأسباب المدنية الحديثـة، وقف ضد الاحتلال البريطاني للعراق، وانطلاقاً من رَفضِه هذا فقد ساهم بثورة العشرين[1] عن

---

(١) ثورة العشرين ١٩٢٠م، ثورة اندلعت في العراق ضد الاحتلال البريطاني، بسبب عدم إيفاء =

طريق تعبئة الأهالي لمساندة الثورة، وذلك من خلال الخطب التي ألقاها في حشود المصلين في الجوامع، أو عن طريق استثماره للمواقف الاحتجاجيَّة الشعبيَّة.

ففي إحدى المظاهرات التي حدثَتْ في الموصل ضدّ الاحتلال البريطاني، نهض الشيخ رشيد الخطيب بإلقاءِ خطبة ارتجاليَّة أمام حشد كبير من الجماهير في الجامع النوري دامت حوالي ثلاث ساعات، وجَّه فيها الانتقادات اللاذعة للسلطات الاحتلاليَّة، ودعا إلى مقاومة الاستعمار وإلى مقارعة المحتلين بنفس السلاح الذي يحاربون به، والذي لا يمكن امتلاكه إلا عن طريق تهيئة أسباب النصر بوساطة الجدّ والسعي وامتلاك ناصية العلم الذي فيه الأعداء متفوقون. إذ يرى الخطيب أن العقل العربي لا يَقِلُّ إبداعاً عن مثيلِه الأوربيّ الذي غدت له السيادة بما «حازه من العلوم والمعارف والاختراعات والقوانين الطبيعية والأعمال الميكانيكية، واستخدام الكهرباء والبخار، وجرّ الأثقال وقطع المسافات البعيدة في سويعات قليلة.. حتى استخدموا البخار في جميع آلاتهم الزراعية والصناعية؛ لتسهيل العمل.. وجرَّبوا القواعد والطبائع التي اخترعها واكتشفها المتقدِّمون حتى علِموا الحقّ من الباطل، والناجح من العاطل؛ كيلا يشتغلوا بالعبث..».

= الحلفاء بالوعود المقطوعة للعرب بنيل استقلالهم من الدولة العثمانية. واتخذت الثورة بادىء الأمر شكل العصيان المدني ثم المواجهات المسلحة التي أدَّت إلى عقد مؤتمر القاهرة الذي حضره وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل لمناقشة موضوع الانتفاضات العربية، كثورة ١٩١٩ في مصر، وثورة العشرين في العراق، وانتفاضة اليمنيين والسوريين والفلسطينيين، وتقرَّر منح هذه الدول استقلالاً ذاتياً محدوداً تنفيذاً لمعاهدة سايكس بيكو بتجزئةِ الولايات العثمانية ومنحها استقلالاً شكلياً. وربطت تلك الدول بمعاهدات تَسْهُلُ من خلالها هيمنة بريطانيا وفرنسا عليها.

دعوته للأخذ بالأسباب المدنية والاستفادة من خبرات الأمم الأخرى:

والشيخ رشيد يدعو إلى الأخذ بأسباب المدنيَّة والاستفادة من خبرات الأمم الأخرى، ويدعو إلى التجديد والإصلاح وهو مُوقِن بأن «في محيط هذا العالم العربي من الذكاء المفرِط وقوة الفكر والعقول السليمة المدركة ما لا يُدركه الوصف ولا يُحيط به اللسان»، وهو لا يرى مندوحة من الاستفادة من تجارب وعلوم الأمم الأخرى، فيذكر ما كانت عليه أوربا وما غدت الآن: «فيا أبناء الشرق أما آنَ لكم أن تنهضوا، أما آن لكم أن تقتفوا أثر الغربيين في علومهم النافعة، بعد أن كانوا يقتفون أثرنا نحن السابقين وكانوا لآثارنا يقتفون».

مدارس الموصل وما آلت إليه:

وقد علق الشيخ الخطيب آمالاً كبيرة على فضل المدارس في الموصل. لما لها من فضائل على علماء الموصل وأدبائها. وهو بذلك يقول: «إنَّ لمدارس الموصل فضلاً عظيماً وشأناً يذكر، نبغ فيها أعلام مثقّفون بالعلوم على اختلافها.. وأدباء عظام قديماً وحديثاً».

ويتأسَّف الشيخ الخطيب لما آلت إليه المدارس وبخاصَّة في العهد العثماني: «لم تزل تلك المدارس مندرجة في الانحطاط، حتى كادت تندرس، فلما أتت عليها العشر سنوات الأخيرة زمن الاتحاديـين، في زمن الحرب الطاحنة، قضت نحبَها، وأصبحت خاوية.. وسوف يأتي علينا زمان وما فينا مَن يَعرِف من تلك العلوم والفنون شيئاً قليلاً ولا كثيراً».

مسؤولية الآباء في رعاية الأبناء:

وحمَّل الشيخ الخطيب الآباء مسؤولية سوء الأخلاق وانحطاطها لعدمِ رعايتِهم

أبناءَهم منذ الصغر. فتوجَّه إلى قومه وأهابَ بضرورةِ رعاية الأطفال وهم صغار؛ لأنهم أمانة في الأعناق: «يا قوم انظروا لهؤلاء الأطفال نظرة ناقد بصير، ومجرِّبٍ عليم خبير؛ فإنهم سوف يمدحوننا أو يذمُّون، وسوف يذكروننا أو يُعرضون، فاتقوا بنال أفئدتهم وصداد ألسنتهم، وصونوا منهم أنفسكم واجعلوها معروضة لمدحهم وثنائهم».

لقد عدَّ الشيخ الخطيب الإسلامَ أكبر حدث غيَّر مجرى العالم الإنساني، وأن الرسول محمد ﷺ أعظم رجال العالم، الذي غيَّر ما بين الخافقين، والذي أتى إلى العرب وهم في حضيض الجهالة والانحطاط، فأخذ بيدِهم وأوصلَهم إلى أعلى المراتب، ويَعرِض الخطيب أحوال العرب المسلمين وإنجازات الرسول العظيم، وما تعرَّضَت له الأمة الإسلامية من خطبٍ؛ فيحلل الأسباب، وينبِّه إلى طريق العلاج بقوله: «ولم تزل الأمة العربية على ذلك حتى تمَّ لها الأمر أكمل تمام، ثم شغلَها الترف والإعراض عن التمسك بهاتيك القوانين الأخلاقية والاجتماعية والسياسية.. ولا زالت تتمادى في الإعراض عنها وهجرها في زوايا الخمول.. وإنا لنؤمِّلُ من هذه الأمة النجيبة أن ترجعَ إلى ما كانت عليه، وأن تتمسكَ بأخلاقِها وعاداتها وقوانينها التي شرعها الرسول محمد ﷺ لعلَّها تكون من الناجحين أعمالاً، وتُعيد القديمَ وعزَّها الأول.

دراسة القرآن وتدبُّر معانيه وأثره على الخطابة:

كما دعا الخطيب إلى ضرورة دراسة القرآن الكريم وتدبّر معانيه، فهو يؤكد أن دراسته «تُلهِم أسمى المعاني وتعلو بالتفكير، وهي أفضل وسيلة لتنمية الأساليب الكتابية والخطابة، تطبع القلم واللسان على الفصاحة والبلاغة وروعة اللغة، وقد أحسن السلف الاستفادة من القرآن فصاروا فحول البيان ومنهل الحكم، لا فرق في ذلك بين الرجال والنساء».

وربط الخطيب بين دراسة القرآن الكريم وتأثيره على الخطابة عند العرب، وهو يرى أن الخطابة هي أحد الفنون الجميلة التي تـتأثّر بها النفس وهي قسمان: محسوسة كالتمثيل، والخطابة التي هي أهم تلك الأنواع، وأشد وَقْـعاً في النفوس، وأعظم نفعاً للمجتمع الإنساني، لذلك «لا ترى أُمّة راقية إلا وقد اهتمَّت بالخطابة في عنفوان رقيِّها.. وقد أجاد فيها اليونان والرومان والعرب يوم كان للشرق العظمة والسيادة.. حتى إن الخطيب المصقع ليأخذ بمجامع قلوب أعاظم الناس».

إقبالُه على البحث وعنايتُه بعلم الفلك:

يُعدُّ الخطيب من أكثر العلماء إقبالاً على البحث، فقد عُنِيَ بعلم الفلك في مطلع شبابه، بملازمة المرحوم أمجد العمري (ت: ١٩٥٣) فكان الخطيب خبيراً بمواقع النجوم. وفي سنة ١٩١٥م أصدرَ رشيد الخطيب بمشاركة شقيـقِه سعد الدين جدولاً دورياً للأوقات الشرعية الخمسة للصلاة في الموصل، واحتوى الجدول على تنبيهات حول كيفيَّة استخدامه، كما سجَّلا أساسَ حسابِ هذا الجدول، ووَصَفا كيفية استخراج سَمْتِ القبلة في الموصل. وقد خصص ريعه إلى «جمعية المدافعة للإسلامية».

كمـا كان الخطيب محباً لدينه وعروبته، ومعتـزاً بتاريخ بلدته، وما حفل به من أمجاد وانتصارات ودحر للغزاة، فلا غرو أن نجدَه يعيد إلى الأذهان ما سطره الأهالي الموصليون من ملاحم بطولية في سبيل الدفاع عن ثرى الموصل أمام هجمة نادر شاه[1]

---

(١) نادر شاه أفشار التركماني (شاه إيران من ١٧٣٦ إلى ١٧٤٧)، ومؤسس الأسرة الأفشارية التي حكمت إيران. كان أول أمره من قطاع الطرق، ثم جمع رجاله ورأى من مصلحته العمل كقائد عسكري لطهماسب الثاني آخر الشاهات الصفويين. وبعد نجاحه انتهى به الأمر إلى أن نصب نفسه شاهاً (١٧٣٦)، وأخذ اسم نادر شاه. وقتل سنة ١٧٤٧ على يد أحد قوّاده. =

وحصاره للمدينـة الذي لم يكـتب له النجاح.

ونجد الخطيب وانطلاقاً من إحساسه بالواجبات الملقاة على كاهله في التوجيه والإرشاد والدعوة نحو الإصلاح، قد عالج بعض المشكلات الاقتصادية والاجتماعية، إذ دعا إلى ضرورة تبنِّي السلطة لمسألة إعمار الأراضي الزراعية عن طريق جلب المكائن الإروائية وبثها في سائر الأراضي، وبخاصة تلك الأراضي البعيدة عن نهر دجلة «كي

= في عام ١١٥٦ هـ - ١٧٤٣م أرسل نادر شاه إلى السلطان العثماني يطلب منه الاعتراف الرسمي بالمذهب الجعفري ضمن المذاهب المعترف بها في داخل الدولة العثمانية، فرفض السلطان العثماني طلب نادر شـاه، وما أن وصل هذا الجواب إليه حتى اتخذه ذريعة لإعلان حالة الحرب بين الدولتين. عندها توجه نادر شاه بجيشه نحو العراق وعبر بجيشه الحدود بالقرب من بلدة مندلي، واتجه صوب مدينة الموصل. وقد اجتاح نادر شاه بلدة كركوك بعد حصار دام عشرة أيام، وقام أيضاً باجتياح أربيل بعد حصار دام عدة أيام. كان لقرار والي الموصل حسين باشا الجليلي بالإبقاء على أفراد أسرته في المدينة وعدم إخراجهم منها أثر كبير في نفوس الأهالي. وفي يوم ١٤ أيلول وصل نادر شاه إلى مدينة الموصل، وطوَّقها وتقدم بثلاث مئة ألف مقاتل ونيف، وأحاط بقلعة الموصل، وسلط نادر شاه ما يقارب ٢٠٠ مدفع على المدينة، ظلّت تقصفها ليلاً ونهاراً.

وفي فجر يوم ٤ تشرين الأول ١٧٤٣ أمر نادر شاه بالهجوم العام على المدينة فأخذ الألوف من جنوده يتسلقون الأسوار بواسطة السلالم. كما بدأ العدو بتفجير الألغام تحت الأسوار وحاولت المدفعية إحداث ثغرات في السور عند البرج الرئيس إلا أن جيش نادر شاه فـشل في محاولة الاقتحام بعد أن تصدى الموصليون لجيشه..

اضطر بعدها نادر شاه أن يطلب الصلح مع أهل الموصل، فأرسل والي الموصل إليه وفداً لمفاوضته. وقد استقبل الوفد المرسل من قبل والي الموصل بحفاوة وأثنى على بسالة أهل الموصل في الدفاع عن مدينتهم. وبعد مفاوضات اتفق الفريقان على شروط الصلح، تم رفع الحصار عن المدينة في يوم ٢٣ تشرين الأول ١٧٤٣. ينظر كتاب: «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» الدكتور علي الوردي (١ : ١٣٣).

تروي هذه الأراضي المخصبة التي لا مثيل لها في العالم بقوة إنباتها وحسن ترابها محفوفة بأنواع المزارع المسقية، وفي عنق الحسناء يستحسن العقد..».

لقد عاش رشيد الخطيب حياة حافلة بالنشاط والعمل الدؤوب، وقد تمكّن من استغلالِ وقتِه في القراءة والتأليف؛ فتمكَّنَ من إنجازِ عددٍ كبير من المصنفات في مختلف العلوم والفنون، فكتبَ في التفسير والعقائد والحديث وسيرة بعض الصحابة، وفي أصول الفقه الإسلامي، والأدب وعلم البلاغة وفي اللغة العربية وغيرها من العلوم، وبلغ عدد مؤلفاته نحو (٤٢) مؤلفاً معظمها ما يزال مخطوطاً، أما ما طبع منها فكان ستة مؤلفات[١] فضلاً عن مساهماته في كتابة المقالات في الصحف الصادرة في الموصل، والتي عكست طبيعة فكرة الإصلاحي». انتهى.

كلمة عن تفسير الشيخ رشيد الخطيب المسمَّى «أولى ما قيل في آيات التنزيل»[٢]:

وهو أهم وأوسع مؤلفاته، وكان قد كتبه أوّلاً غير متواصل الآيات، ثم كتبه متواصلاً كاملاً، ثم راجعه للمرة الرابعة معتنياً في تنقيحه وتهذيبه، وأدخل عليه كثيراً من الإصلاح. ثم شرع به للمرة الخامسة في ٢٩من أيار في عام١٩٤٤م، وأكمله في ٢١من آذار في عام١٩٤٦م، وعلى هذه النسخة المُعوَّل[٣]. وقد تمَّ طبعها سنة ١٩٧١م في مطبعة جامعة الموصل.

---

(١) تقدم ذكرهم ص١٨-١٩.

(٢) يدل هذا العنوان إلى أن ما جاء به الشيخ من تفسير هو «أولى ما قيل»، وهذا لا يسلَّم له، فكثير مما رجَّحه وحسب أنه أولى ما قيل هو من الأقوال الشاذة المردودة، كما سيأتي، وما أظنُّ الشيخ أراد ذلك، وإنما هو الاجتهاد والترجيح للأصوب في رأيه الذي سعى لبلوغه بين الكثير من الأقوال.

(٣) «مقدمة التفسير» لرشيد الخطيب ص٤٩٨.

لم يكن الشيخ راضياً عن تلك الطبعة، برغم حرصه على خروجها للناس بأفضل صورة، إذ قعد به المرض والشيخوخة عن متابعتها بنفسه ممَّا عرَّضها لأخطاء مطبعية وفنية كثيرة، وهذا ما حمل الشيخ على وضع شروط أوصى بالأخذ بها عند الطبع الثاني للتفسير، وخاصَّة تنقيته من تلك الأغلاط المطبعية، ومراعاة مستلزمات الإخراج الجيد.

قال رحمه الله في خاتمة تفسيره: «وبهذا ينتهي ما وفَّقني الله لجمعه وترتيبه واختياره واقتباسه واقتضابه واستنباطه وابتكاره في تفسير آيِ الذِّكر الحكيم. وقد بذلتُ الجهدَ فيما اعتمدتُه فيه من انتقاء أحسن ما قيل في آيات التنزيل، وذلك عدا ما استنبطتُه بفهمي الخاص لبعض الآيات، واستلهمتُه منها من المعاني التي لم يسبقني إليها أحد، وإنما رأيتُ النظم يساعد على ذلك المعنى بحسب مفاهيم اللغة وعُرْف التخاطب وسياق الكلام على نهج القرآن. والحمد لله الذي قدَّرني على إتمامه، والحمدُ أولاً وآخراً لله ربِّ العالمين».

مراحل كتابته للتفسير وتاريخ انتهائه وطباعته:

ثم قال: «وقد وافق تمامُه يومَ الخميس الـمُصادِف لليوم التاسع عشر من شهر ربيع الثاني لسنة ألف وثلاث مئة وخمس وستين هجرية قمرية، الموافق لليوم الواحد والعشرين من شهر آذار لسنة ألف وتسع مئة وست وأربعين ميلادية.

ثم طبعت هذه النسخة بالطابعة، وكان الفراغ منها ٨ من ربيع الآخر ١٣٨٨هـ الموافق أربعة من تموز ١٩٦٨م.

وصلَّى الله على محمد وآله أجمعين، والحمد لله رب العالمين».

وقال أيضاً عن بداية كتابته لهذا التفسير وإتمامه له وتنقيحه وتهذيبه: «الحمد لله الذي وفَّقني لكتابة هذه النسخة الثانية بكثير من الإصلاح والتنقيح والتهذيب للنسخة التي قبلها، وكان ابتدائي بها في اليوم السابع من شهر جمادى الآخرة من شهور سنة

ألف وثلاث مئة وثلاث وستين هجرية، الموافق لليوم التاسع والعشرين من شهر أيار لسنة ألف وتسع مئة وأربع وأربعين ميلادية، وأكملتُها ـ والحمد لله ـ يوم الخميس المصادف لليوم التاسع عشر من شهر ربيع الآخر لسنة ألف وثلاث مئة وخمس وستين هجرية قمرية، الموافق لليوم الواحد والعشرين من شهر آذار لسنة ألف وتسع مئة وست وأربعين ميلادية. وعلى هذه النسخة المعوَّل؛ لأنها منقَّحةٌ ومُهذَّبةٌ أكبَرَ تنقيح وأحسَنَ تهذيب بالنسبة للتي قبلها.

٧ جمادى الآخرة ١٣٦٣هـ إلى ١٩ ربيع الآخر ١٣٦٥هـ.

٢٩ أيار ١٩٤٤م إلى ٢١ آذار ١٩٤٦م.

فكانت مدّة كتابتها واحداً وعشرين شهراً، وواحداً وعشرين يوماً بالتقريب.

ثم نَسَخَ لي هذه النسخة على النسخة المخطوطة بيدي الحافظ توفيق الصمدي، وكان ابتداؤه بها في ١٤ رجب ١٣٦٧ هـ الموافق ٢٢ أيار ١٩٤٨م، وانتهاؤه منها ١٢ شوال ١٣٦٩ هـ الموافق ٢٩ تموز ١٩٥٠م، فكانت مدَّة كتابتها سنتين وشهرين وستة عشر يوماً، ولكنه تـخلَّلها فرصة تعطيل من الزمن، وقد أدخلتُ عليها من الإصلاح والإضافات الشيءَ الكثير على أصلها، وتحسَّنت تحسُّناً كبيراً، لذلك جاءَ فيها من الشطب والزيادات ما له قيمةٌ بالغة في الإصلاح، والحمد لله رب العالمين.

١٥ شوال ١٣٦٩هـ الموافق ٣٠ تموز ١٩٥٠م.

ثم إني راجعتُ هذه النسخة التي بخط توفيق الصمدي مراراً عديدة وصحَّحتُها ونقَّحتُها وشطبتُ ما رأيتُه غيرَ سديد، حتى أصبحت مُسوَّدة من كثرة ما فيها من ذلك، وأصبحتُ لا أقدر على تبيـيضها إذ بلغتُ من الكبر عتياً، ولم أجد مَنْ يساعدني على تبييضها مرةً ثانية لفقْد مثل ذلك في البلد، وقد علَّقتُ عليها تعليقاتٍ عديدة، مستعيناً

بالله سبحانه أن يُساعدني ويُسَدِّدَني، وأرجو أن أكون وفِّقتُ لذلك بعون الله، فعلى هذه النّسخة المعوَّل في الطبع والنشر، لا على غيرها من بقيَّة النسخ التي عندي، وأسأل الله سبحانه أن ينفع بها، وأن يأجُرَني عليها، وأن يتقبَّلها مني خالصةً لوجهه الكريم، وهو حَسْبي ونِعْمَ الوكيل، وأن يُعينَ على طبعها في أحسن الصُّور بعونه وتوفيقه.

٥ صفر ١٣٨٦هـ الموافق ٢٥ أيار ١٩٦٦م.

ثم طبعت هذه النسخة بالطابعة، طبعها لي يونس خليل الدباغ، وكان الفراغ منها ٨ ربيع الآخر يوم الجمعة الموافق أربعة من تموز ١٩٦٨م، ثم صحَّحتُ هذه النسخة أيضاً المطبوعة بالطابعة، فكانت هي وحدها الجاهزة للطبع والنشر، وأسأل الله سبحانه أن يُسهِّل ذلك.

وتمَّ طبع الجزء التاسع والأخير بعونه تعالى في مطبعة مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر في جامعة الموصل، في يوم التاسع عشر من شهر رمضان المبارك ١٣٩٤هـ والموافق ٥ تشرين الأول ١٩٧٤م، والحمد لله رب العالمين».

وكتب بخطه في آخر الكتاب هذا التنبيه: «طُبع تفسيري هذا بعد أن جاوزت التسعين من العمر، فما كان يُمكِنُني أن أقوم على التصحيح بنفسي، فما جاء فيه من بعض جُمل أو كلمات غير واضحة فهو من سقوط كلمة، أو تحريف كلمة، أو تقديم كلمة على كلمة، أو زيادة كلمة، وقد يكون الساقط حرفَ عطف أو حرف نفي أو حرف استثناء أو حرف ابتداء، وهكذا..».

منهج الخطيب في التفسير:

تكلم الشيخ الخطيب في إجمال عن منهجه في التفسير، ومزايا تفسيره، وأبان أنه آثر الإيجاز والاقتصار على أصح الأقوال، فقال: «وإنَّ كثيراً من الآيات يتداعى إليَّ من

التعمُّقِ والتفكير فيها معانٍ لا تُحصى، وأغراضٌ لا تُستقصى، بأنواع الدلالات من الإشارة والإيماء والفحوى والاقتضاء، ولكن أرى نفسي عاجزاً وضعيفاً كلَّ الضعف تجاه تصوير ذلك المعنى الدقيق وبيانه، فآخُذُ منه قبساً وأتركه عجزاً، وأنَّى لعناكبِ الأفهام والأوهام أن تَعرُج إلى حِمَى ذي الجلال والإكرام. وقد أترُكُ ذلك أحياناً لأنه يجرُّ إلى الإسهاب والتطويل، إذ هو مخالفٌ لِـمَا التزمتُه من الاختصار في هذا التفسير.

وكثيراً ما أتذوَّق بلاغةً عاليةً في المبنى والتركيب، وبداعةً ساميةً في النظم والترتيب، ولكنْ لا أملك الإبانة عمَّا أشعر به أو أفهمه إجمالاً، لِعُلوِّ المنال، وعَجْز الكلام والتعبير عن دقَّة تصوير ما يصوغُه الكبير المتعال».

وبيَّن أنه عني بذكر المناسبات بين الآيات، فقال: «وإني قد التزمت فيه ما لم يلتزمه غيري من المفسِّرين، وهو بيانُ وجوه المناسبات بين جميع الآيات بقدر الإمكان، وذلك من جملة المهم في هذا التفسير من البيان».

وأوضح أنه يكرِّر بعض المعاني ويؤكد عليها، فقال: «وربما كرَّرت تفسير آية مكرَّرة أو معنى متكرِّر في آيات متماثلة، لاعتقادي أنَّ الناس محتاجون لمواصلة التنبيه عليه والإرشاد إليه».

وممَّا يمتاز به هذا التفسير مقدِّماته المهمَّة في أول تفسيره التي قال عنها المفسر الخطيب: «وقد وضعتُ له مُقدِّماتٍ عدَّة، بيَّنتُ فيها بعض خصائص القرآن في أساليبه وتراكيبه، وأغراضه ومقاصده، وحذفه وإيجازه، وبلاغته وإعجازه، والتفريق بين أوصال المعنى الواحد والغَرَض الواحد أحياناً، والجمع بين المعاني المتنوِّعة والأغراض المتعدِّدة أحياناً، وبيَّنتُ أنواعَ مجازاته وضروبَ خطاباته إلى غير ذلك من الخصائص التي انفرد

بها وأبدع، فوضعتُ لبيانها هذه المقدِّمات المقتبسة من أفكار المفكرين أو من خاصَّة نظراتي حيناً بعد حين، ليستفيدَ من معرفتها المتدبِّرُ اللبيب، ويستعينَ بها على فَهْم مقاصدِه وأغراضِه ومناهجِه ومرامِيه».

وأبان المفسِّر الخطيب عن مدى تأثُّرِه بتفسير محمد عبده وتلميذه رشيد رضا في تفسيره «المنار»، وقد أكثر من النقل عنه، ونَحَا منحاهما متابعاً لهما في كثير من الأقوال والتأويلات.

قال رحمه الله في مقدمة التفسير: «وكان جلُّ اعتمادي على تفسير «المنار» في الأجزاء الاثنَيْ عشرَ التي فسَّرها، وكنتُ أختصر بعضَ كتابتِه بتصرُّف أو بدون تصرُّف.

أما فيما عدا هذه الأجزاء فكان اعتمادي على استنباط المعنى من القرآن العظيم، واستلهامي إيَّاه بنفسي، مستعيناً بالله الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم، مراعياً في ذلك مفاهيمَ اللغة وعُرْف التخاطب.

لذلك تجد في تفسيري هذا من المعاني ما لا تجده في التفاسير القديمة والحديثة، وأكتب في آخره عبارة: والله أعلم، للإشارة إلى أنه من رأيي الخاص كلِّه أو بعضه.

فإن وُفِّقت فيه فذلك ما أبغي، وهو من فَضْل الله، وإن أخطأتُ فحَسْبي أني كنتُ جدَّ حريصٍ أن لا أقع في الخطأ، وأرجو على إخلاصي وبَـذْل جهدي أن أنال المغفرة والأجر من الله».

وقال بعد أن ذكر أن جلَّ اعتماده وأكثر انتفاعه من الشيخين محمد عبده ورشيد رضا رحمهما الله: «هذا ما كتبتُ عليه تفسيري أولاً، ثم لا زلت أراجعه وأُدرِّسه وأُهذِّبه وأنقِّحه، طيلة حياتي ـ والحمد لله ـ فكان لي من ذلك مَلَكة ومِرَان؛ على تَدبُّر القرآن، وَتَفهُّم معانيه، وإدراك المناسبات بين الآيات، أصبح تفسيري آخِراً غيرَ تفسيري أولاً،

بما أجريتُ عليه من تهذيب وإصلاح، لأنَّ القرآن العظيم كلما زدتَه تَدبُراً وإمعاناً، زادك منه علماً وتبياناً، وفهماً وإتقاناً».

دراسة الأخ خالد حماش حول منهج الخطيب الموصلي في تفسيره:

وقد قام الأخ الكريم خالد حماش الحلبي بدراسة جيدة عن منهج المؤلف في تفسيره «**أولى ما قيل في آيات التنزيل**»، وجعل رسالته في تمهيد وستة فصول.

تناول في التمهيد حياة الشيخ رشيد: اسمه ونسبه، وولادته ونشأته، وثقافته وشيوخه، وأشهر تلامذته، وعقيدته ومذهبه، ومصنفاته التي أحصاها في مظانّها في الموصل، لدى أقاربه وتلاميذه، وأنهى التمهيد بالحديث عن أخلاقه ووفاته.

وتناول في الفصل الأول (مصادر تفسيره)، بيّن فيه أنه رجع إلى مصادر عدَّة متنوعة منها في التفسير على اختلاف مذاهب مصنفيها وعصورهم، ومنها كتب في معاني القرآن، وأحكام القرآن، والحديث، واللغة والنحو والبلاغة، فضلاً عن مصادرَ أخرى متفرقةٍ في أصول الفقه والعقائد والتاريخ والفلسفة.

وجعل الفصل الثاني (التفسير النقلي) ثلاثة مباحث، أولها: تفسير القرآن بالقرآن، والثاني: تفسير القرآن بالسنة وما يتضمَّنه من آثار في أسباب النزول والناسخ والمنسوخ، والثالث: تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين، مع بيان موقفه من الإسرائيليات.

وبنى الفصل الثالث (التفسير العقلي) على ثلاثة مباحث أيضاً، أولها: في مظاهر التفسير العقلي، وثانيها: تأثره بمدرسة محمد عبده، وثالثها: ما تفرّد به أو أغرب من تأويل.

وخصَّص الفصل الرابع لموضوع (القراءات)، وجعله على مبحثَين: أحدهما: مقدمته في القراءات، حلّل فيه ما كتبه الشيخ في مقدمتِه عن القراءات والأحرف السبعة،

والآخر: القراءات وتوجيهها، متناولاً ما أورده الشيخ في تفسيره من قراءات مشهورة وغير مشهورة من الآحاد والشواذّ، مع توجيهه لها توجيهاً قائماً على أسس متنوعة: معنوية، ونحوية، وصرفية.

وجعل الفصل الخامس في (اللغة والنَّحو والصَّرف) مفرداً لكلِّ مادة من هذه المواد مبحثاً خاصاً بها.

أما الفصل السادس (البلاغة) فقد جعله في مدخل عن موقف الشيخ من الإعجاز القرآني، وثلاثة مباحث موزعة على علومها الثلاثة المعروفة، المعاني والبيان والبديع.

وأحيل القارئ إلى الاطلاع على تلك الفصول المفيدة التي ألحقتُها في آخر الكتاب؛ لمعرفة منهج المفسر ومزايا تفسيره.

والذي أريد التفصيل فيه: هو تأثره بمدرسة الشيخ محمد عبده، والتنبيه على عدد من المسائل التي تابع فيها هذه المدرسة العقليَّة، بل زاد عليها. وقبل ذكرها في المدخل القادم نؤكّد أنَّ ذلك لا ينقص من منزلة المؤلف العلميَّة، وأهمية كتابه وما فيه من جوانب تجديديَّة موفّقة، بيَّنها الأخ الكريم خالد حماش في دراستِه المُنوَّه إليها؛ ومن الإنصاف للشيخ رشيد الخطيب ولروَّاد هذه المدرسة الإصلاحيَّة العقليَّة من قبله، معرفة الأسباب التي دعتهم إلى اختيار هذا المنهج، وذلك بدراسة عصرهم، وما كان فيه من اضطرابات سياسيَّة واجتماعيَّة في أواخر الدولة العثمانيَّة، والانبهار بالحضارة الغربيَّة، وما انتشر فيه من أفكار علمانية ملحدة، لم يقابلها عدد من العلماء بتحصين الأمة من خطرها، ولم يقفوا في مجابهة هذا الاتجاه، ولم يعايشوا العصر بما فيه من تقلبات جديدة، فاجتهد هذا الفريق من روَّاد المدرسة الإصلاحية العقلية في تقريب حقائق الإسلام والرد على خصومه، وحاولوا تقريب المثقفين بالثقافة العصرية الغربية إلى هذا الدين.

المدخل الثاني
تأثُّر الشيخ رشيد الخطيب بمدرسة محمد عبده ورشيد رضا
ونظرات في تفسيره

نشأت هذه المدرسة الإصلاحيَّة العقليَّة في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري في مصر على يد الأستاذين: جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٥هـ)، ومحمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ) رحمهما الله تعالى.

وجاءت نشأة هذه المدرسة إبّان ضعْف الدولة العثمانيَّة، وفي حالة للأمة يَغمرها الجهل والتخلف.

هذا في الوقت الذي كان فيه الغرب (العالم النصراني والإلحادي) يتقدَّم في الماديَّات بصورة مذهلة.

فكان موقف هذه المدرسة محاولة التوفيق مع تلك الحضارة الوافدة والإبقاء على الانتماء الإسلامي، وخشي أصحاب تلك المدرسة من شدّة فتنة الناس بفلسفة الحضارة المادية الغازية، ممَّا يتعارض مع الحقائق القرآنيَّة والقضايا الغيبيَّة، فسعَوا من أجل تقريب الناس المفتونين بتلك الحضارة، إلى تأويل متعسف لما يَتعارَض معها من نصوص شرعيَّة.

أعطت هذه المدرسة لعقلها ـ كما يقول الشيخ محمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى (ت ١٣٩٧هـ) ـ: «حرية واسعة، فتأوَّلتْ بعض الحقائق الشرعيَّة التي جاء بها القرآن

الكريم، وعدَلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرَّد الاستبعاد والاستغراب، استبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة، واستغراب لا يكون إلا ممَّن جهِل قدرة الله وصلاحيتها لكلِّ ممكن، كما أنها بسبب هذه الحرية العقليَّة الواسعة، جارت المعتزلة في بعض تعاليمها وعقائدها، وحملت بعض ألفاظ القرآن من المعاني ما لم يكن معهودًا عند العرب في زمن نزول القرآن، وطعنتْ في الحديث تارة بالضعف وتارة بالوضع، مع أنها أحاديث صحيحة»[1].

وقد شابَهت المعتزلة من وجوه:

أ ـ في تحكيم العقل والرجوع إلى أحكامه، ورفْعه إلى مرتبة الوحي.

ب ـ في إنكار بعض المعجزات أو تأويلها.

ج ـ في تأويل بعض الغيبيَّات كالملائكة والجن والسِّحر.

د ـ في ردِّ بعض الأحاديث الصحيحة أو تأويلها.

ولقد تأثَّر بهذه المدرسة كثيرون، وفي مقدمتهم تلامذة الشيخ محمد عبده، مثل:

محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ)، ومحمد مصطفى المراغي (ت ١٣٦٤هـ)، ومحمد فريد وجدي (ت ١٣٧٣هـ)، وعبد القادر المغربي (ت ١٣٧٥هـ)، وعبد المتعال الصعيدي (ت ١٣٧٧هـ)، ومحمود شلتوت (ت ١٣٨٣هـ)، ومفسِّرنا رشيد الخطيب الموصلي (ت ١٤٠٠هـ)، ومدى تأثُّرِهم يختلف من شخص لشخص، ومن زمن لزمن.

وممَّا يلاحظ أن أتباع هذه المدرسة ذوو اهتمامات مختلفة، فمنهم السياسيون، ومنهم الصحفيون، ومنهم الأدباء، هؤلاء فضلاً عن العلماء والمفكرين الإسلاميين.

---

(١) التفسير والمفسرون (٢: ٥٤٩).

تقويم المدرسة العقلية:

تناولت أقلام كثيرة هذه المدرسة بين مدْح وقدحٍ، أو بين توجيه وتسديد، مع اختلاف في هذه الأقلام من حيث التخصُّصات، حيث تجد قلم المفسِّر، وقلم المُحدِّث، وقلم العقدي، وقلم الأديب والمؤرِّخ[١].

كما أن هذه الأقلام ربما تناولت المدرسة بصفة عامة، وربما تناولت بعض عناصرها من الشخصيات البارزة.

ومن المتعذِّر في هذه العجالة عرْض المدرسة بأصولها وأهدافها ووسائلها وآثارها، بدراسة موضوعية مجرَّدة.

من أقدم مَن نقَد هذه المدرسة ووجَّه إليها الاتهام ولا تخلو اتهاماته من مبالغة وشدة وإغضاء عن المحاسن:

١ ـ الشيخ محمد عليش المالكي (ت ١٢٩٩)، الذي عاصَر الأفغاني ومحمد عبده، وكان يُحذِّر منهما ومن منهجهما[٢].

٢ ـ مصطفى صبري (ت١٣٧٣)، آخر مشايخ الدولة العثمانية رحمه الله تعالى[٣].

فقد شبَّه الأفغاني ومحمد عبده بـ«لوثر» مجدد البروتستانت[٤]، واعتبر محمد عبده

---

(١) ينظر: مقالة منهج المدرسة العقلية الحديثة وتقويمها في الإصلاح المعاصر، للدكتور إبراهيم الطريفي، في موقع الألوكة.

(٢) ينظر: تاريخ الأستاذ الإمام؛ للشيخ رشيد رضا (١: ٩٠).

(٣) وقبله الشاعر الأديب الشيخ يوسف النبهاني (ت ١٣٥٠) في قصيدته الطويلة «الرائية الصغرى» التي هجا فيها الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا رحمهم الله تعالى.

(٤) ينظر: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين» (١: ١٤٤).

أول من أدخل الماسونية في الأزهر، وهو الذي شجَّع تلميذه قاسم أمين على ترويج السفور وتأليف كتبه في المرأة[1].

٣ ـ الدكتور محمد حسين الذهبي، وقد تقدَّم رأيه في هذه المدرسة.

٤ ـ الأستاذ سيد قطب، حيث نقد منهج المدرسة في التأويل[2].

٥ ـ ومن المعاصرين الدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي في أطروحته للدكتوراه: «منهج المدرسة الحديثة في التفسير»[3].

وفي مقابل هؤلاء نجد مَن يُبالِغ في الثناء والإطراء على هذه المدرسة، وبخاصة روَّادها الأوائل، ويدافع عنهم، ومن هؤلاء الفضلاء: أستاذنا محمد رجب البيومي، ومحسن عبد الحميد، ومحمد عمارة، ويُشكِّكون في صحّة ما نُسِب إلى المدرسة من عيوب، أو لا يتوقَّفون عندها.

وجملة القول: أن المدرسة على الرُّغم ممَّا قدَّمت من جهود علميَّة وعمليَّة في سبيل الإصلاح، إلا أن المنهج كان فيه شيء من الانحراف، ولا ينفي ذلك وجود المحاسن والإيجابيَّات الفكريَّة والإصلاحيَّة للمدرسة.

اعتماد الخطيب على تفسير محمد عبده وتلميذه رشيد رضا:

اعتمد العلامة الشيخ رشيد الخطيب في تفسيره على ما كتبه محمد عبده ورشيد رضا اعتماداً كبيراً، وأعجب بمنهجهما أيما إعجاب.

---

(١) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين» (١: ١٣٣ – ١٣٤).

(٢) ينظر: «في ظلال القرآن» ص٣٩٨٧ الطبعة الرابعة.

(٣) ينظر على سبيل المثال: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، ص٨٠٩- ٨١٢، رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، للشيخ محمد عبد الله السلمان ص٣٣٣- ٣٣٩.

قال في مقدِّمة التفسير: «هذا، وإنَّ الأستاذ الإمام محمد عبده[١] هو ممَّن أفاض الله عليهم من تلك النِّعَم، وفتَح لهم باب الفهم ومدارك الحِكَم، فهو رجلٌ مُلهَمٌ عظيمٌ في تفسير آيِ الذِّكر الحكيم، ذو مواهبَ بديعة سَنِيَّة نادرةِ المثال، ومَلَكاتٍ قوية سامية الكمال، يستخرج بها المعاني من أصدافها الطريَّة التي لم تمسَّها يدُ لامس لأنها بعيدة المنال، ويُظهِرُها بلباقة قلمه وفصاحة كَلِمِه، صورةً جليَّة يستنير بها العقل، وترتاح لها النفس، ويستقرُّ عليها البال، حتى جاء في تفسير آي الذكر الحكيم من آرائه الصائبة، ما عاد بالفائدة العظمى على هذه الأمة، ونهض بالأفكار الجُلَّى في هذه الملَّة.

وأدهشني ما كنتُ أراه له من التعليقات العَليَّة والتحريرات الجليَّة، فغَذَّيتُ بآرائه عقلي، وروَّضْتُ بأفكاره فِكري، وعَدَّلت نظراتي بنظراته، ووَجَّهتُ وَعْيي إلى مَسالك غَدَواته ورَوْحاته، وجعلتُه أستاذي بتعاليمه، ومرجعي في مفاهيمه، ومَلاذي في حَلِّ المشكلات، ومَنَاري في فهم غوامض المُدْرَكات.

ولـمّا كان تلميذه الأستاذ السيِّد رشيد رضا[٢] صاحب «تفسير المنار» هو الحافظ لآرائه في تفسيره، والتابع لآثاره في تحريره؛ اعتمدت عليه في تأليف تفسيري هذا أول الأمر[٣]، فإذا كان المعنى ممَّا استنبطه بفِكره عزوتُه إليه، وإذا كان مما أخذه عن غيره

---

(١) مفتي الديار المصرية، من آل التركماني (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ) رحمه الله تعالى.

(٢) هو محمد رشيد رضا، البغدادي الأصل الـحُسيني النَّسَب، القلموني المولد، المصري الإقامة والوفاة (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ) رحمه الله تعالى.

(٣) «أولى ما قيل» (المقدمة ص٤٩٣). ولذلك كثرت نقول الشيخ رشيد من تفسير «المنار»، فقد نقل عنه أقوال محمد عبده بعبارة «قال الأستاذ الإمام»، فإن كان مختصراً قال: «هذا ملخص ما قاله الأستاذ الإمام». وينظر: الفصل الأول من رسالة الأخ خالد حماش: مصادرُ تفسيرِه وكتبٌ =

أهملتُ نسبتَه إليه؛ جرياً على سَنَنِ المفسِّرين في مثل ذلك، إذ إنَّ اللاحق يأخذ من السابق المعانيَ العامَّة التي يتناقلها المفسِّرون، ولا يعزوها الثاني إلى الأول، فسلكت في ذلك مَسلَكَهُم، وحَذَوْتُ حَذْوَهم».

كما اعتمد على «تفسير جزء عم» لمحمد عبده، وقد أفصح الخطيب عن ذلك في مقدمة تفسير سورة النبأ، فقال: «ولما كان هدفي في هذا التفسير تتبّع أولى ما قيل في آيات التنزيل، وكان الأستاذ الإمام قد فسَّر جزءَ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، عوَّلت عليه في تفسير هذا الجزء، فجاء مختصراً منه بتصرف، وأضفت كثيراً من فهمي وآرائي»(١).

العقل وتفسير المنار:

كتب الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي مقالة عن «تفسير المنار» عنوانها: «العقل وتفسير المنار»(٢) وهي جزء من رسالته للدكتوراه التي كتبها عن رشيد رضا وتفسيره، وأقتبس منها بعض الفوائد:

قال رحمه الله: «الاحتكام إلى العقل ظاهرة واضحة في «تفسير المنار» وفي القدر المشترك بين محمد عبده ورشيد رضا على وجه التخصيص.

= أشار إليها: تفسير جزء عم، وتفسير المنار. وينظر أيضاً مقالة الأستاذ حازم محيي الدين: قراءة في تفسير رشيد رضا في تفسير المنار وموقف النقاد منه، في موقع: مركز التفسير.

ومن أحسن الكتابات التي تحدثت عن تفسير «المنار» كتاب: «اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر» للدكتور محمد إبراهيم الشريف، فقد خصص جزءاً كبيراً منها للحديث عن مدرسة المنار، وبذور التجديد فيها، وتأثيرها على الحركة العلمية التفسيرية من بعدها إلى اليوم.

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٠٧). وينظر: رسالة الأخ الدكتور خالد حماش (٩: ٨٤).

(٢) نشرت عام ١٩٧٠م في مجلة «الوعي الإسلامي» الكويتية.

ومن أمثلة الجنوح إلى العقل في تفسير المنار القول بأن جنة آدم وحواء التي كانا فيها، ثم اخرجا منها هي بستان من البساتين كان آدم وزوجه منعّمين فيها. وأنه ليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها.

ويعتمد التفسير هنا على أن الجنَّة كما يفهمها أهل اللغة هي البستان أو المكان الذي تظلله الأشجار بحيث يستتر الداخل فيه.

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ذكرَه في تفسير المنار في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ حيث قال: الكلمات جمع كلمة وتُطلق على اللفظ المفرد، وعلى الجمل المفيدة من الكلام، والمراد منها هنا مضمونها من أمرٍ ونهي، ثم جاء فيه بعد ذلك ولم يذكر الكلمات ما هي، ولا الإتمام كيف كان لأن العرب تفهم المراد بهذا الإبهام والإجمال، وأن المقام مقام إثبات أن الله تعالى عامل إبراهيم معاملة المبتلى، أي المختبر له لتُظهِر حقيقة حاله ويترتب عليها ما هو أثر لها، فظهر بهذا الابتلاء والاختبار فضله بإتمامه ما كلَّفَه الله تعالى إيّاه وإتيانه به على وجه الكمال. هذا هو المتبادر، ولكن المفسرين لم يألوا في تفسير الكلمات والخبط في تعيينها.

ومن أمثلة ذلك: ما ذكره في تفسيره عن قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ حيث اختار التفسير أنّ المصلى هنا موضع الصلاة بمعناها اللغوي العام، وهو الدعاء والتوجّه إلى الله تعالى وعبادته مطلقاً. وقال رشيد: إنَّ حمَلَ الصلاةِ على معناها اللغويّ أظهر.

ولكن مدرسة تفسير المنار التي جعلت من أهدافها التوفيق بين الدين والعقل أصابها طائف من المبالغة، حيث أسرَفَت أحياناً في الخضوع للعقل، وهو أمامَ الغيب قاصرٌ مهما كانت قوّتُه، وأسرَفَتْ أحياناً في الحذر والاحتراس من تقبُّلِ الغيبيات

والتسليم بها، وإذا كان الناس قد حمدوا لها تحديد نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم والتوفيق بين كلام الله وسننه الكونية المألوفة ومقاومتها طوفان الخرافات والإسرائيليات والأساطير التي تسرَّبت إلى رحاب التفسير، واستعانتها بمقرَّرات العلم الحديث في إقناع أهله بالدين وتعاليمه.

إذا كان الناس قد حمدوا لها ذلك كله فإنهم قد فزعوا حين رأوا الأمر قد زاد عن حدِّه، فكادَ ينقلب إلى ضدّه، ومن أمثلة المبالغة في تحكيم العقل في تفسير المنار، ذكره أن الملائكة هي القوى والأفكار الموجودة في النفوس، وأن المراد بسجود الملائكة لآدم هو تسخير القوى للإنسان في هذه الحياة، وأنَّ قصة آدم بما فيها من محاورة الملائكة، وتعليمه الأسماء وسجود الملائكة له إلخ، هي من باب التمثيل لا أنها وقعت بالفعل ... إلخ.

والعجيب أنَّ السيدَ محمد رشيد رضا قد أشار إلى خطأ مَن يقول إنَّ الدليل العقلي هو الأصل، فيرد إليه الدليل السمعي، ويجب تأويله لأجل موافقته له مطلقاً، ويُعلّق رشيد على هذا بقوله: «والحق ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ: أن كلاًّ من الدليلين إما قطعي وإما غير قطعي، فالقطعيَّان لا يمكن أن يتعارضا، حتى نرجِّح أحدهما على الآخر، وإذا تعارض ظنِّي مع قطعي، وجب ترجيح القطعي مطلقاً، وإذا تعارض ظنِّي مع ظنِّي من كل منهما رجحنا المنقول على المعقول؛ لأن ما ندركه بغلبة الظن من نظرياتنا العقلية التي يكثر فيها الخطأ جداً» ليت ما في تفسير المنار كله خضع لهذه القاعدة المعتدلة المستقيمة.

والعجيب أيضاً أن الدكتور طه حسين قال لي عن إخضاع التفسير للعقل: «لي على الشيخ محمد عبده اعتراض، فإنَّ تأويلَه لنصوص القرآن، وحرصه على أن يكون

نص القرآن ملائماً كلَّ الملائمةِ للعلم الحديث، ممَّا أخالفه فيه، فهو ـ مثلاً ـ يقول عن الحجارة الموصوفة في سورة الفيل بأنها «من سجيل» أنها جراثيم، وهذا توسيع في تحكيم العقل، والمسلمون الأوائل وهم صحابة الرسول لم يفهموا هذا. والله يفعل ما يشاء، ولكن الإنسان يفعل ما يستطيع، والإنسان الآن قد وصل إلى القنبلة الذرية والهيدروجينية والغازات السامَّة، مما لم يكن العرب يعرفونه في ذلك الوقت، فالله يخبرنا بأنه أرسل حجارة من سجيل، ولا بدَّ أن آخذ القرآن بلا تأويل، وأنَّ أقبل النص القرآني كما هو والعلم لم يحط بكل شيء والله وحده هو الذي يعلم كل شيء» ثم أضاف د. طه حسين قوله: «إن بعض المستشرقين يذهب مع هذا المذهب فيقول: إن الفيل لم يكن فيلاً، بل كان قائداً من قواد الروم جاء مع أبرهة واسمه افيلاس، وقد سمعت هذا من المسيو جاستون فييت الذي كان مديراً لدار الآثار العربية». انتهى.

نظرات في تفسير «أولى ما قيل»:

وبعدَ هذا التمهيد لهذا المدخل أسوق بعض النظرات النقدية بين يدي تفسير العلامة الشيخ رشيد الخطيب رحمه الله تعالى، وكنت قد نثَرتُها متفرقة في التعليق على الكتاب، ثمّ استحسنتُ جمعَ أكثرِها في هذا المدخل، مع تعديل واختصار لعددٍ من التعليقات والتنبيهات، وإيضاح وتفصيل في غيرها، ورأيتُ أن يطَّلِعَ القارئ على أكثر هذه الملاحظات العلمية في مطلع التفسير، حتى يكون القارئ على بيِّنة من الأمر، فلا يستدل بأقوال ضعيفة أو آراء فردية لأصحابها، خالفوا فيها جماهير أئمة المفسرين من عصر الصحابة فمَن بعدهم على توالي القرون. وهذه الهفوات لا يجوز تلمسها والأخذ بها، وهي لا تغضُّ من مكانة المؤلف وإخلاصه وحرصه على بلوغ الحق.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله في «جامع العلوم والحكم»: «ومن أنواع

النصح لله وكتابه ورسوله ـ وهو مما يختصُّ به العلماء ـ: ردُّ الأهواء المضلّة بالكتاب والسنة، وبيان دلالتهما على ما يخالف الأهواء كلَّها، وكذلك رد الأقوال الضعيفة من زلات العلماء، وبيان دلالة الكتاب والسنة على ردِّها»(١).

وقد راجعت في كثير مما أوردته في هذه الملاحظات بعض العلماء الفضلاء شِفاهاً، ومنهم شيخنا العلامة فضل حسن عباس رحمه الله تعالى، وشيخنا العلامة يوسف القرضاوي حفظه الله، وراجعتُ فيها مكاتبة شيخنا العلامة عبد الكريم تتان الحمَوي، وقد كتب لي أجوبة مُفصّلة، استحسنتُ إيرادَها في مدخل خاص، وهو المدخل الثالث والأخير في هذه المقدمة. وراجعتُ بعضَ مراكز البحث والفتوى كالشبكة الإسلامية، واستفدت كثيراً من ملاحظات أخي الكريم الدكتور حمزة البكري كما أشرتُ إلى ذلك في المقدمة، جزاه الله وسائر من أعانني خير الجزاء.

وهذه التنبيهات والنظرات تذكي العقل، وتنمِّي اليقظة والنباهة واستحضار المعلومات، وتُربِّي الملكة النقدية الأدبية، وتُعين على منهج النقد العلمي في تقويم ما يقرؤه طالب العلم، صحةً وخطأً، قوةً وضعفاً. ولا ينبغي لطالبِ العلم الأخذَ بالتسليم لكل ما يقرؤه، بل عليه أن يكون النقد العلمي مع الحذر في كفة، والأدب مع الاعتدال في كفة أخرى(٢).

وهذه أهم الملاحظات صنفتها ضمن مجموعات متناظرة، ووضعت لها عناوين موضحة لمضامينها، وأسأل الله تعالى الإخلاص والسداد.

---

(١) ١: ٢٢٣-٢٢٤من شرح الحديث السابع.

(٢) ينظر: المعلم الحادي عشر في كتاب: «معالم إرشادية لصناعة طالب العلم»، ص٣٩٦-٤٠٥: تربية الملكة النقدية الأدبية في طالب العلم، لأستاذنا المحقق محمد عوامة حفظه الله تعالى.

السؤال والجواب في القرآن:

* قال في المادة (١٣) من مقدِّمة التفسير: «ومن سنن القرآن: تصويرُ المعاني وبيانُ الأحكام بصورة السؤال والجواب، وإن لم يكن سؤالٌ في الواقع».

قلت: إن أسلوب القرآن في استعمال أدوات الاستفهام مُتعدِّد ومتنوِّع بحسب الغرض البلاغي والبياني من الخطاب، وللاستفهام في القرآن أغراض كثيرة، منها: التشويق والتقرير والتمنِّي والاستبطاء والتهويل والتعظيم والتوبيخ والتقريع والتعجُّب والنفي. وقد اهتمَّ ببيان ذلك جماعة من المؤلّفين، منهم الأستاذ عبد الكريم محمود يوسف في كتابه «أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم»، والأستاذ الدكتور العلامة محمد عبد الخالق عضيمة، في كتابه «دراسات لأسلوب القرآن».

وأما دعوى المؤلف عن تصوير القرآن للمعاني وبيانه للأحكام بطريقة السؤال والجواب، وإن لم يكن ثَـمَّ سؤال في الواقع: فهذا، لا نعلم له مثالاً مُسلَّماً في القرآن الكريم، بل الذي نعلمه من الأمثلة يكون السؤال عنه قد حصل بالفعل، ثم يتولّى القرآنُ جوابَه، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥].

وأما إن كان مراد المؤلّف بطريقةِ السؤال والجواب ما هو أشملُ من المعنى اللغوي والاصطلاحي للاستفهام، بحيث يدخل فيه المحاورة والقصة وضَرْب المثل، فهذا قد قال به بعضُ أهل العلم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، فقد نقل ابن كثير عن عطاء قال: هذا مَثَل. انتهى[١]. يعني بذلك ـ كما قال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» ـ إنها ليست قصةً واقعة، قال ابن عاشور: هذا بعيد يُبعِدُه التعبير عنهم بالموصول، وقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ﴾. انتهى[٢].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ [النحل: ٩٢]، قال ابن كثير: «قال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مَثَلٌ لمن نقض عهده بعد توكيده. وهذا القول أرجح وأظهر، سواء كان بمكة امرأة تنقض غَزْلها أم لا». انتهى[٣].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢]، قال ابن عطية في «المحرر الوجيز»: «ظاهر هذا المثل أنه بأمر وقع وكان موجوداً، وعلى ذلك فسَّره أكثر أهل هذا التأويل، ويحتمل أن يكون مضروباً بمن هذه صفتُه، وإن لم يقع ذلك في وجود قط، والأول أظهر». انتهى[٤].

* يقول في تفسير الآية (٢١٩) من سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾: «أما قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ فقد جاء على سُنَّة القرآن في بيان بعض الأحكام بصورة السؤال والجواب، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية)، ولا يلزم منه وقوع السؤال فعلاً».

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١: ٦٦١).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢: ٤٧٨).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤: ٥٩٩).

(٤) «المحرر الوجيز» (٣: ٥١٥).

قلت: هذا قول بعيد عن الصواب، بل الظاهر وقوع السؤال فعلاً، ولا مانع منه، فلِمَ العدولُ عنه إذن؟

* ثم قال: «وإذا كان السؤال في الآيات واقعياً يكون تعدُّد هذه الأسئلة يدلُّ علىٰ حرصهم لمعرفة ما يرضي الله، وما له أثر صالح في حياتهم، ولا سيما الحياة الشخصيَّة والاجتماعيَّة».

قلت: قوله: «إذا كان السؤال واقعياً..» هو الحق الذي لا محيد عنه، وليست الأسئلة افتراضية أو توهمية، كما توهَّمه المؤلف، غفر الله له.

* وقال في تفسير الآية (١٢٧) من سورة النساء: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾: «وهذا من أساليب القرآن أيضاً، يضع الأحكام في صورة السؤال والجواب والاستفتاء والفتيا، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية). ويجوز أن يكون قد وقع الاستفتاء فعلاً».

قلت: وهو الحق الذي لا محيد عنه، فهو الذي يفهمه السامع من سماع الآية، وإيرادُه بصيغة سؤال وجواب دون وجودهما في الواقع مما يُنزَّه عنه القرآنُ الكريم.

* وقال في تفسير الآية (٨٣) من سورة الكهف: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾: «وإيرادُ البيان بصورةِ السؤال والجواب من أساليب القرآن، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية).

وإن صحَّ ما جاء في سبب نزول السورة من أنَّ المشركين ـ بإيعاز من أهل الكتاب ـ سألوا النبيَّ ﷺ اختباراً له وامتحاناً لنبوَّته عن: أمر أصحاب الكهف، وأمر ذي القرنين[1]، يكون السؤال حينئذٍ حقيقياً».

---

(١) ينظر تخريجه عند تفسير هذه الآية من سورة الكهف (٥: ٤٧).

قلت: وهو الصوابُ الذي لا ينبغي العدولُ عنه، فقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ صريحٌ في وقوع سؤال، وحَمْلُه على إيراد البيان بصورة سؤال وجواب تكلُّف.

تصويرُ المعنى وتثبيتُه بصورة الحكاية والمحاورة أو بصورة التمثيل:

* قال في مقدِّمة تفسيره: «ومن سنن القرآن: تصويرُ المعنى وتثبيتُه بصورة الحكاية والمحاورة أو بصورة التمثيل، لِـمَا في ذلك من قوة البيان والتأثير على النفوس، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] الآيات، فإنها ـ والله أعلم ـ حكايةٌ لما دَارَ في خَلَد الملائكة من كَوْن هذا المخلوق مُستَعِدّاً للإفساد».

قلت: الأصل حَمْلُ القرآن على الحقيقة، لأنها الأصل، ما لم يترجّح المجاز بشهرة أو غيرها، وبناء عليه فلا يُحمَلُ اللفظ القرآني على التمثيل والرمز إلا بدليل أو قرينة تَـصْرِفه إلى المجاز، ولا قرينة هنا تصرف الكلام عن ظاهره.

قال السبكي في «الأشباه والنظائر»(١): حَمْلُ اللفظ على ما يتبادر إلى الذهن أَوْلى، ومن ثَمَّ يُحمَلُ على الحقيقة ما لم يترجَّح المجاز بشهرة أو غيرها.

* وذكر الشيخ رشيد في المقدمة ملحقاً في التفسير لبعض آيات تتكرَّر أمثالُـها في القرآن، أو هي من الآيات المُهِمَّة البيان، التي تحتاج في التفسير إلى زيادة توضيح وإتقان.

فمن ذلك: «ما جاء في القرآن من مكالمة الملائكة في آدم عندما أراد الله خَلْقَه، فإنَّما هو تمثيلٌ وحكايةٌ لـما دار في خَلَد الملائكة من محاولة معرفة الحكمة عن طبع جِبِلَّة آدم على حريَّة الإرادة والاختيار الـمُطلَق في تصرُّفاته، جاءت على أسلوب مُحاوَرةٍ ومراجعة في القول».

---

(١) «الأشباه والنظائر» (١: ٢٧٤).

قلت: هذا القول غير صحيح، فقد أعلَمَ الله سبحانه وتعالى الملائكةَ قبل خلق آدم عليه السلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حَمَإٍ مسنون، وتقدَّم إليهم بالأمر متى فَرَغَ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً وامتثالاً لأمر الله عزَّ وجلَّ، فامتثل الملائكة كلُّهم ذلك إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين.

وقد وردت هذه القصة في سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وصّ، ولم يخبرنا الله تعالى أنَّ أحداً غير إبليس امتنع من السجود، وأكَّد الله الخبر بسجودِ جميع الملائكة، فقال: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ [صَ: ٧٣-٧٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقد صرَّح الله تعالى بأنه قال للملائكة ... وقالت الملائكة ... إلخ، والأصل حَمْلُ الكلام على الحقيقة إلا إذا دلَّ دليل أو قامت قرينة على إرادة المجاز، ولا دليل هنا على ذلك ولا قرينة، فلا يُعدَلُ عن القول بأن هذه المحاورة وقعت حقيقة.

مخاطبة الجمادات خطاب من يعقل:

* قال في مقدِّمات التفسير في أساليب القرآن: «**المنطق الوجداني المؤدِّي إلى الإقناع** والشعور بالواقع بصُورة الملموس، مثل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فهو يُعبِّر بهذه الصورة عن جَرَيان السُّنن الكونيَّة فيهما بكلِّ دقَّةٍ وإتقان إلى آخر الزمان.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قَ: ٣٠]، يُعبِّر بهذه الصُّورة عن كثرة الداخلين فيها، ويُضَمِّنُ ذلك معنى التحذير منها».

* **وقال في المقدِّمة الخامسة في أنواع الخطاب في القرآن: «أن يخاطب الجمادات**

خطابَ مَنْ يعقل، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]».

قلت: التحقيق هو حَمْلُ هذا على حقيقته؛ إذ من المعلوم في اللغة وأصول الفقه: أن الأصل في الكلام حَمْلُه على الحقيقة، إلا إذا جاءت قرينة تصرفه إلى المجاز، ولا قرينة هنا تصرف الكلام عن ظاهره. وأما القول بعدم الحقيقة فيه فهو ضعيف.

قال ابن عطية في «تفسيره»(١): «واختلف الناس أيضاً في قول جهنم، هل هو حقيقة أو مجاز؟ أي: حالها حال مَن لو نطق لقال كذا وكذا، فيجري هذا مجرى: شكا إليَّ جملي طول السرى، ومجرى قول ذي الرمة(٢):

تُـكلِّمني أحجارُه وملاعبُهْ...

والذي يترجَّح في قول جهنم: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أنه حقيقة، وأنها قالت ذلك وهي غير ملأى، وهو قول أنس بن مالك، وبيّن ذلك الحديث الصحيح المتواتر قول النبي ﷺ: «يقول الله لجهنم: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ وتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، حتى يضع الجبار فيها قَدَمَه فتقول: قط قط، وينزوي بعضها إلى بعض»(٣). انتهى.

وقال الشوكاني في «فتح القدير»(٤): وهذا الكلام على طريقة التمثيل والتخييل ولا سؤال ولا جواب، كذا قيل، والأَوْلى أنه على طريقة التحقيق، ولا يمنع من ذلك

---

(١) «المحرر الوجيز» لابن عطية (٥: ١٦٥).

(٢) «ديوان ذي الرمة» ص٢٠٠.

(٣) والحديث في «صحيح البخاري» (٦٦٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٨٤٨)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) «فتح القدير» (٥: ٩٢).

عقل ولا شرع. قال الواحدي في «الوسيط»[١]: قال المفسرون: أراها الله تصديق قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨]، فلما امتلأت قال لها: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ وتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي: قد امتلأت، ولم يبق فيّ موضع لم يمتلئ. انتهى.

وقال الشيخ الأمين الشنقيطي في «الأضواء»[٢] عند تفسير سورة الفرقان: اعلم أن التحقيق أن النار تُبصِر الكفار يوم القيامة، كما صرَّح الله بذلك في قوله هنا: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان: ١٢]، ورؤيتها إياهم من مكان بعيد، تدلُّ على حِدّةِ بَصرها كما لا يخفى، كما أن النار تتكلم كما صرح الله به في قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قٓ: ٣٠].

والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة، كحديث محاجّة النار مع الجنة، وكحديث اشتكائها إلى ربها، وأنه أذِنَ لها بنَفَسين، ونحو ذلك، ويكفي في ذلك أن الله جلّ وعلا صرَّح في هذه الآية أنها تراهم، وأن لها تغيُّظاً على الكفار، وأنها تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

واعلم أن ما يزعمه كثير من المفسرين وغيرهم من المنتسبين للعلم من أن النار لا تبصر، ولا تتكلم، ولا تغتاظ، وأن ذلك كلَّه من قبيل المجاز، أو أن الذي يفعل ذلك خزنتها، كلُّه باطل ولا مُعوّل عليه؛ لمخالفته نصوص الوحي الصحيحة بلا مستند، والحق هو ما ذكرنا، وقد أجمع من يعتدُّ به من أهل العلم على أن النصوص من الكتاب والسنة لا يجوز صَرْفُها عن ظاهرها إلا لدليل يجب الرجوع إليه كما هو معلوم في محله. انتهى.

وقال أيضاً في تفسير آية (قٓ)[٣]: واعلم أن قول النار في هذه الآية: ﴿هَلْ مِن

---

(١) «الوسيط» (٤: ١٦٨).

(٢) «أضواء البيان» (٦: ٢٥).

(٣) المصدر السابق (٧: ٤٣٠).

مَزِيدٍ﴾، قول حقيقي يُنطِقها الله به، فزَعْمُ بعض أهل العلم أنه كقول الحوض:

امتلأ الحوضُ فقال قَطْني مَهْلاً رُوَيداً قد ملأتَ بَطْني

وأن المراد بقولها ذلك هو ما يفهم من حالها؛ خلاف التحقيق، وقد أوضحنا ذلك بأدلته في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، والعلم عند الله تعالى. انتهى.

ويؤيد حَمْلَ هذا على الحقيقة ما في الأحاديث من إصرارِها على طلب المزيد حتى يضع الله تعالى قَدَمَه فيها، ففي حديث «الصحيحَين»: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع ربُّ العزَّة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط». وفي الحديث: «يوضع الصراط فيمرُّون عليه مثل جياد الخيل والركاب وقولهم عليه: سلِّم سلِّم، ويبقى أهل النار فيطرح منهم فيها فوج، ثم يقال: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾؟ فتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، ثم يطرح فيها فوج فيقال: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾؟ فتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، إذا أوعبوا فيها وضع الرحمن قدمه فيها، وأزوى بعضها إلى بعض، ثم قال: قط، قالت: قط قط»[1].

وروى الطبري في «تفسيره» عن ابن عباس قال: إن الله الملك تبارك وتعالى قد سبقت كلمته: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، فلما بعث الناس أُحضروا وسيق أعداء الله إلى النار زمراً، فجعلوا يقتحمون جهنم فوجاً فوجاً، لا يلقى في جهنم شيء إلا ذهب، ولا يملؤها شيء، قالت: ألستَ قد أقسمتَ لتملأني من الجنة والناس أجمعين، فوضع قَدَمَه، فقالت حين وقع قَدَمُه فيها: قط قط، فإني قد امتلأت، فليس لي مزيد. انتهى[2].

---

(١) رواه الترمذي في «سننه» (٢٥٥٧)، وقال: هذا حديث حسن.
(٢) «تفسير الطبري» (٢٢: ٣٦٠)

فهذا القول: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قٓ: ٣٠] يجري حقيقة؛ إذ ليس من الممتنع أن يخلق للنار إدراكاً ومنطقاً، فيسألها وتجيبُه.

وينظر ما كتبه حول تفسير هذه الآية: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]، فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان الحَمَوي، وفيه تقرير حَمْل الآية على ظاهرها، وتفسير القول فيها بالقول حقيقة.

الكلمات التكوينيَّة:

* قال الشيخ رشيد الخطيب في مقدِّمة تفسيره: «وقد قالوا: إنَّ هذه الكلمات من الملائكة ومن الشيطان كلّها خطاباتٌ تكوينيَّة من نوع الخطاب التكويني في مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قٓ: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

فقد قالوا: ليس هناك أمرٌ بالقول على الحقيقة، ولا جوابٌ لذلك القول، ولكن الكلام على التمثيل، يُبيِّن به سهولة ذلك عليه، وأنَّ خِلقتَهُما كانت من غير تكليف ولا مَشَقَّة، بل هي بمنزلة ما يقال للمأمور: افعل، فيفعل من غير تلبُّث ولا توقُّف، فعبَّر عن هذا بالأمر والطاعة، كما عبَّر عن طبيعة المَلَك والإنسان والشيطان بصورة هذه المكالمة وبفَحْوى هذه القصة».

قلت: من المعلوم في اللغة وأصول الفقه: أنّ الأصل في الكلام حَمْلُه على الحقيقة؛ إلا إذا جاءت قرينة تصرفه إلى المجاز؛ ولا قرينة هنا تَصرِفُ الكلام عن ظاهره، فوجب حَمْلُه عليه وإجراؤه على حقيقة المكالمة والمحاورة، لكنْ قد تكون بواسطة، والله أعلم. ويُنظَر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان حول هذه الآية ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ في المدخل الثالث من هذه المقدمة.

مخاطبة إبليس مع الباري عزّ وجل ليست من الأقوال التكوينيَّـة:

* نقل في تفسير الآية (١١٨) من سورة النساء: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ عن صاحب «المنار» ما مُلخَّصه: «وهذا القول وأمثاله في القرآن المجيد، في مخاطَبة إبليس مع الباري عزَّ وجل، إنما هو من الأقوال التكوينيَّة التي يعبَّر بها عن تكوين العوالم والمخلوقات وما خلقها الله عليه».

علقت في تفسير سورة البقرة في قصة آدم على هذا التفسير، وبيَّـنتُ هناك أن الصواب إجراء هذه الأقوال على المحاورة الواقعية، أما القول بأنها تمثيلٌ أو أقوال تكوينية فلا دليل عليه، بل فيه العدول عن الظاهر من غير مقتضٍ.

هل خطاب إبليس للتكوين؟ وهل هو لبيان الواقع في طبيعته؟

* قال الشيخ رشيد الخطيب في التـعقيب على الآيات (٦١-٦٥) من سورة الإسراء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾: «قال ابن عباس فيما جاء من مثل هذه الآيات في خطاب إبليس: إنه تهديد للشيطان بصورة الأمر.

وقال ابن كثير: إنَّ هذا الخطاب للتكوين، فهو عبارة عن بيان الواقع في صفة طبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان».

وسيأتي الجواب الوافي عما ذكره المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في أجوبة فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان في المدخل الثالث من هذه المقدِّمة.

محاورة إبليس لله عزّ وجل ليست مجرَّد خواطر:

* قال في تفسير الآية (١٢) من سورة الأعراف: «﴿قَالَ﴾ إبليسُ متعلِّلاً: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، ويجوز أن يكون هذا مجردَ خواطر إبليس ذكرها سبحانه بصورة محاورة، والله أعلم».

قلت: بل هو خطاب بين الله سبحانه وبين إبليس، وتكرار القصة في القرآن، يمنع ما ذكره المؤلف من أنها مجرَّد خواطر.

وما ذهب إليه المؤلِّف هذا عدولٌ عن ظاهر اللفظ من غير مقتضٍ، فالحملُ علىٰ حقيقة المحاورة هنا لا مانع منه، وهو ما يدل عليه ظاهر اللفظ، فيتعيَّن القول به.

قول المؤلف أن محاورة إبليس يراد منها أقوال الله التكوينية:

* قال في تفسير الآية (٣٩) من سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: «أنَّ هذه المحاورة مع إبليس قد تكرَّرت في القرآن المجيد بعبارات منوَّعة، والمراد منها: أقوال الله التكوينيَّة التي يقول بمثلها سبحانه عن تكوين المخلوقات وما خلقها الله عليه من الخصائص والمميزات. كما في قوله تعالىٰ عن خلق الأرض والسماوات: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلت: ١١]، فقد قالوا: ليس هناك أمرٌ بالقول علىٰ الحقيقة ولا جواب لذلك القول، ولكن الكلام علىٰ التَّمثيل، يُبيِّن به سهولة ذلك عليه، وأنَّ خلقهما كان من غير تكليفٍ ولا مَشقَّة، وأنهما يقومان بما خصَّهما به من أعمال وآثار».

قلت: بل الصحيح أنها أقوال حقيقيَّة جرت بين الله تعالى وإبليس، والظاهر أن ذلك كان بواسطة ملك كجبريل عليه السلام.

فالكلام هنا علىٰ الحقيقة أيضاً. وينظر الكلام حول هذه الآية من سورة فصِّلت التي يُكثِر المؤلف من الاستدلال بها في أجوبة الشيخ عبد الكريم تتان الحموي في المدخل الثالث من هذه المقدمة.

* وقال في تفسير الآيتين (٧٧، ٧٨) من سورة (ص): ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ معلِّقاً في الحاشية: «لا يَبعُدُ أن تكونَ صيغة المكالمة مجرَّد حكاية من الله سبحانه عن ضلال إبليس وغَوايتِه عندما عَرَضَت له هذه الهواجس التي دفعَته إلى الامتناع عن أمر الله بالسجود، فضلَّ وغوى، وعن تأثُّرِ الإنسان بمثل هذه الغَواية اتباعاً لخطة إبليس، وذلك إذا أفسد طبيعتَه بمفاسدِ التربيةِ وسوءِ القدوة، ولم يبقَ على إخلاصِه وسلامةِ طبيعتِه التي طبعَه الله عليها. والله أعلم بحقيقة الأمر».

قلت: بل هذا بعيد، وقد تقدَّمَ مِراراً خطأ المؤلّف في دعواه أنَّ المكالمَةَ مجرَّد حكاية، بل هي حقيقة واقعة، تكرَّر ذِكرُها في القرآن الكريم عدَّة مرات، وأكَّدها الله سبحانه بعدَّة مؤكدات. وإخراجُها عن حقيقة المحاورة إلى المجاز المذكور عدولٌ عن الحقيقة إلى المجاز من غير سبب يَقتضيه، ولا قرينة تدل عليه، فلا يكون صواباً.

تكليم الله سبحانه للملائكةِ وآدم ليس من المتشابه:

* قال في تفسير قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

«وذهبَ الأستاذ الإمام إلى أنّ هذه الآيات من المتشابهات التي لا يُمكِن حَمْلُها على ظاهرها؛ لأنّها بحسب قانون التَّخاطب: إما استشارة، وذلك مُحال على الله تعالى، وإما إخبارٌ منه سبحانه للملائكة، واعتراضٌ منهم ومُحاجَّة وجدال، وذلك مُحال أيضاً،

وقد وَصَفَ القرآنُ الملائكةَ وصفاً صريحاً حيث قال: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠]. وكرَّر ذلك في تفسير الآية (٧) من سورة آل عمران: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وذكر من المتشابه: «مكالمته سبحانه للملائكة في شأن آدم، ومكالمته لإبليس، وأمثال ذلك».

الجواب: ليست الآية من المتشابه التي لا يمكن حملها على الظاهر، وقد ذكر المفسرون أوجهاً في بيان قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

الوجه الأول: أن الملائكة قالت ذلك بعد إعلام الله تعالى لهم بطبيعة ذريَّة آدم عليه السلام، وأنهم يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وهذا مرويّ عن ابن عباس وابن مسعود وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم كما نقل ذلك القرطبي في «تفسيره»[1]، وابن كثير في «تفسيره»[2].

الوجه الثاني: أنهم لـما سمعوا لفظ: خليفة، فهموا أن في بني آدم من يُفسِد؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، والفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم، ورَدْعهم عن المحارم والمآثم.

الوجه الثالث: ما نقله القرطبي رحمه الله وغيره: أن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء، وذلك لأن الأرض كان فيها الجنُّ قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليسَ ومن معه حتى ألحقهم بجزائر

(١) «تفسير القرطبي» (١: ٢٧٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١: ٢١٨).

البحور وأطراف الجبال، ثم خلق الله آدم فأسكنه إياها. وهذا مروي عن ابن عباس وأبي العالية(١).

أما قولُ الملائكة فليس على وجه الاعتراض على الله تعالى، وإنما هو ـ كما قال ابن كثير رحمه الله ـ سؤالُ استعلام واستكشافٍ عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربّنا ما الحكمةُ في خَلْق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك فنحن نُسبِّح بحمدك ونُـقدِّس لك، أي: نُصلّي لك، ولا يصدر منّا شيء من ذلك، وهلّا وقع الاقتصار علينا؟

فقال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: أعلم من المصلحة الراجحة في خَلْق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأُرسِل فيهم الرسل، ويوجد منهم الصِّدِّيقون والشهداءُ والصالحون والعُبّاد والزُّهّاد والأولياء والأبرار والمُقرَّبون والعلماءُ العاملون والخاشعون له والمُحِبُّون له تبارك وتعالى المُتبِعون رُسُلَه صلوات الله وسلامه عليهم. انتهى كلام ابن كثير في «تفسيره»(٢).

فسؤالُ الملائكة إنمـا كان على سبيل الاستعلام والاستكشاف عن الحكمة من خلق آدم، وليس على وجه الاعتراض، ولا على وجه الحسد لآدم وذريَّته، حاشاهم من ذلك، فهم كما قال الله عنهم: ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۞ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٧]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) «تفسير القرطبي» (١: ٢٧٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١: ٢١٦).

دعوى المؤلّف أن المحاورة حكاية لما دار في خَلَد الملأ الأعلى!!

* وقال في التعليق على هذه المحاورة في تفسير الآية (٣٠) من سورة البقرة: «أما يجوز أن تكون صُورة هذه المحاورَة حكاية لما دار في خَلَد الملأ الأعلى عن كشف الحكمة في خلق طبيعة الإنسان مختاراً في تصرُّفاته بحيث ينتج عنه الخير والشر، وما انتهوا إليه من إدراكهم أن ذلك ليكون علمُه يصلح لمهمته ويتَّسع لها، وهي الاستفادة من خزائن الأرض ومواهبها، والله أعلم.

وفي الكلام تصريح بأنَّ الإنسان في جِبِلّتِه من الاستعداد لأنواع العلوم الدنيوية ما لم يكن عند الملائكة، ومَن كان كذلك صلح لأن يكون خليفة في الأرض دونهم».

والجواب: أن قوله عن المحاورة: إنها حكاية لما دار في خلد الملأ الأعلى؛ كلام غير مقبول، وتأويل متعسَّف.

دعوى المؤلّف تفويض السلف في فهم الحوار بين الله سبحانه وملائكته:

* وقال أيضاً: «والسَّلفُ يفوِّضون الأمر إلى الله في فهم حقيقة مثل ذلك، ومعلومٌ أن الله سبحانه يعلِّمنا بمضمون كلامه ما يُقرِّب المعاني من عقولنا. أما الخلف فيجعلون الكلام على التمثيل تقريباً للأفهام وتشخيصاً لما يُفيده الكلام من معرفة حال النشأة الآدميَّة وما لها من المكانة والخصوصيَّة».

والجواب: إنما يسلك الخلفُ هذا المسلك حيثُ يمتنعُ حَمْلُ الكلام على ظاهرِه لاستحالتِه عقلاً، وفي دعوى الاستحالة هنا نظر؛ إذ من الممكن إجراءُ الكلام على ظاهرِه من المحاورة، لكنها لم تكن استشارةً لهم، ولا اعتراضاً وجدالاً منهم، بل كانت استفهاماً لوجه الحكمة في هذا الفعل، كما تقدّم بيانُه.

والقاعدةُ المُقرَّرةُ عند أهل العلم: أن الأصل في الكلام حَمْلُه على الحقيقة، إلا إذا جاءت قرينة تَصرِفُه إلى المجاز، ولا قرينة هنا.

* وأكَّد ما ذهب إليه بقوله: «أقول: فإنَّ القرآن كثيراً ما يُصوِّر المعاني بصُورة السؤال والجواب، أو بصُورة الحكاية لما في ذلك من قوَّة البيان والتأثير على النفوس، فهو يُوجِّه بها الأذهان بقوة إلى ما وراءها من المعاني، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، فليس المراد أنَّ الله تعالى يستفهم منها وهي تُجاوبه، وإنَّما هو تمثيل لسَعَتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا، وأنها ستحوي عدداً كبيراً.

وكقوله تعالى بعد ذكر الاستواء إلى خلق السماء: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فقد قالوا: ليس هناك أمرٌ بالقول على الحقيقة، ولا جواب لذلك القول، ولكن الكلام على التَّمثيل، يُبيِّن به سُهولةَ ذلك عليه، وأنَّ خِلْقَتَها كانت من غير تكلّف ولا مشقَّة، بل هي بمنزلة ما يقال للمأمور: افعل، فيفعل من غير تريُّث ولا توقُّف، فعبَّر عن هذا بالأمر والطاعة».

والجواب: أن استدلاله بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، فيه نظر، لأنه لا يمتنع أن يخلق الله للنار إدراكاً، ويكونُ سؤاله لها تقريراً لا استفهاماً.

وكذلك استدلاله بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] على دعواه فيه نظر كسابقه، ومن المعلوم في اللغة وأصول الفقه: أنَّ الأصل في الكلام حَمْله على الحقيقة إلا إذا جاءت قرينة تَصرِفه إلى المجاز، ولا قرينة هنا تَصرِفه عن ظاهره. وينظر الجوابُ المفصَّل في الرد على استدلال الشيخ بهذه الآية وتوسعه في حمل الكثير من الآيات على المجاز وهي على الحقيقة في أجوبة العلامة الشيخ عبد الكريم تتان الحمَوي في المدخل الثالث من هذه المقدمة.

تصويرُ المعنى وتثبيتُه بصورة الحكاية والمحاورة أو بصورة التمثيل:

* وذكر أيضاً في مقدِّمات التفسير: «من سنن القرآن: **تصويرُ المعنى وتثبيتُه بصورة الحكاية والمحاورة أو بصورة التمثيل**، لِـمَا في ذلك من قوة البيان والتأثير على النفوس، كقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢]، فهو مُجَرَّد تمثيل لحال الكافر والمؤمن».

قلت: هذا القول وأمثاله ـ كما قال شيخنا فضل حسن عباس رحمه الله تعالى ـ مدخل لإبطال فاعليّة القرآن الكريم، وأسباب النزول تشهد بعكس ما ذهب إليه المؤلِّف من أنه مجرّد تمثيل.

وهذه الآية قد قال عنها أهل التفسير: هذا مَثَل لمن يتعزَّز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، واختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينِهما، فقيل: نزلت في أخوين من أهل مكة مخزوميَّين، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد؛ زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ، والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسود، وهما الأخوان المذكوران في سورة الصافات في قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الآية: ٥١] الآيات، وقيل غير ذلك. وقيل: هو مَثَل ضربَه الله تعالى لهذه الأمة، وليس بخبر عن حال متقدمة، لتزهَد في الدنيا وترغب في الآخرة، وجعله زجراً وإنذاراً، وسياق الآية يدل على خلاف هذا. والله أعلم.

هل يستخدم القرآن العظيم التخييل والتجسيم؟

* وقال أيضاً في تفسير الآية (٧٥) من سورة الزمر مجوِّزاً أن تكون هذه الآية تمثيلاً لعظمة الله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾: «والقرآن العظيم مع شدَّة حِرصِه على التنزيه والتجريد، قد يستخدم التَّخييل والتَّجسيم؛ ليبدوَ المشهَد محسوساً

مثيراً للشعور، ولأنه يُخاطِبُ الناس في الكلام عن ذات الله سبحانه وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم. والله أعلم».

الجواب: لا يُقال: إن القرآن يستخدم التخييل والتَّجسيم في التعبير عن الله تعالى وصفاته، وإنما يُقال: إنه يستخدم أساليب العرب ومجازاتها واستعاراتها، ومَنْ فهم لغة العرب وتشبَّعت بها سليقتُه ظهر له المعنى في هذه الأساليب والاستعارات واضحاً جلياً، من غير أن يطرق ذهنَه معنى التَّجسيم، وإنما يَرِدُ هذا المعنى على مَن كان بعيداً عن لغة العرب وفصاحتها وأساليبها في التعبير، ولذا سمّى العلماء النصوصَ التي ورد فيها مثل هذه التعبيرات: نصوصاً مُوهِمة للتشبيه والتجسيم، فهو مُجَرَّدُ توهُّم في الذهن يزول بالوقوف على أسلوبه من اللغة.

تصوير الأمر المتحقِّق بالظاهر المرئيّ:

* ذكر في مقدِّمات التفسير: «من سنن القرآن: تصوير الأمر المتحقِّق بالظاهر المرئيّ، فيستعير له الرؤية لأنها أقوى سند الإخبار. وضرب مثالاً لتأييد ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، فهو تمثيل لا تأريخ، والله أعلم».

قلت: ذكر أهل التفسير أن ما ذُكِر في الآية قد وقع بالفعل لقوم ممَّن كان قبلنا، قال القرطبي في «التفسير»: وقصة هؤلاء أنهم قوم من بني إسرائيل وقع فيهم الوباء، وكانوا بقرية يقال لها: داوردان، فخرجوا منها هاربين، فنزلوا وادياً، فأماتهم الله تعالى، ثم أحياهم الله معجزة لنبي من أنبيائهم، قيل: كان اسمه شمعون.

وقيل: إنهم فرُّوا من الجهاد لـمَّا أمرهم الله به على لسان حزقيل النبي عليه السلام، فخافوا الموت بالقتل في الجهاد، فخرجوا من ديارهم فراراً من ذلك، فأماتهم الله ليعرِّفهم

أنه لا ينجيهم من الموت شيء، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد، قال ابن العربي: أماتهم الله تعالى مدةً عقوبةً لهم، ثم أحياهم، وميتة العقوبة بعدها حياة، وميتة الأجل لا حياة بعدها.

والقصد ـ كما قال أهل التفسير ـ هو التنبيه على أن الإماتة والإحياء بيد الله تعالى لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مغترّ، وقد جاء التنبيه على هذا المعنى في قصة وقعت بالفعل قصَّها الله تعالى على نبيِّه ليقصَّها على قومه لعلَّهم يتفكرون، وجعلها مقدِّمةً بين يدي أمرِهِ المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالجهاد[1].

قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوف ليست من القصص التمثيليَّة:

* نقل الشيخ رشيد الخطيب عن «المنار» في تفسير الآية (٢٤٣) من سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ...﴾: «ولا يشترط أن تكون القصَّة في مثل هذا التعبير واقعة، بل يصحُّ مثله في القصص التمثيليَّة، إذ يُراد: أنَّ من شأن مِثلِها في وضوحه أن يكون معلوماً حتىٰ كأنه مرئيٌّ بالعين».

قلت: بل يُشترَط هذا، وكلام الله يُنزَّهُ عن تمثيل يُعبَّر عنه بما يُشعِرُ سامعَه أنه واقع، وليس بواقع، والتمثيل فيه له أساليبه الواضحة التي تُميِّزه عن القصص.

ومن الـمُقرَّر عند أهل العلم: أنَّ الأصل حَمْلُ القرآن على الحقيقة، ما لم يترجح المجاز بشهرة، أو غيرها، وبناء عليه فلا يحمل اللفظ القرآني على التمثيل والرمز إلا بدليل قرينة تصرفه إلى المجاز، ولا قرينة هنا تصرف الكلام عن ظاهره.

ثم قال: «ويرىٰ جمع من المفسِّرين منهم ابنُ كثير[2] بسنده عن ابن جريج وعطاء: أنَّ هذا مَثَل لا قصةٌ واقعةٌ».

---

(١) «تفسير القرطبي» (٣: ٢٣٠-٢٣١)، وينظر «أحكام القرآن» لابن العربي (١: ٣٠٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢: ٢٢٨) بتحقيق: د. حكمت بشير، وموجود أيضاً في تفسير ابن أبي حاتم (٢: ٤٥٥).

قلت: ونسبه لابن كثير أيضاً ابن عاشور في «التحرير والتنوير»[١] عن ابن جريج عن عطاء: أن هذا مَثَل لا قصة واقعة.!!

تأويله الموت في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ بتمكين الأعداء:

* قال في تفسير الآية (٢٤٣) من سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ...﴾: «وقد خرجوا فارّين من الموت، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ أي: أماتهم بإمكان العدوِّ منهم، وإطلاقُ القولِ علىٰ الفعل من خصائص اللغة وأساليب القرآن، فالأمر أمر التكوين، أي: قضت سنَّته في خلقه بأن يموتوا بما أتوه من سبب الموت، وهو تمكينُ العدوِّ المحارب من أقفائهم بالفرار، ففتك بهم، وقتل أكثرَهم، وأفنىٰ قوتهم، وأزال استقلالهم، وفرَّق شملهم، وذهبت جامعتُهم، حتىٰ صاروا لا يعدّون أمّة؛ لأنَّ مَنْ بقي منهم خضعوا للغالبين واندمجوا فيهم».

قلت: إن هؤلاء ماتوا موتاً حقيقياً، ثم أحياهم الله، وأكثرُ كلام المفسِّرين على أنهم خرجوا فراراً من الأمراض، وقيل: من العدو، ولم نرَ مَن ذكرَ تمكُّن العدو منهم وهم أحياء، وأنهم استقلوا بعد ذلك، ولا يسوغُ تأويل الآية بذلك لمخالفته لتفسير السلف ولظاهر النص، فقد ذكر أهل العلم أنه لا يُعدَلُ عن الظاهر إلى المؤوَّل إلا بدليل يجعلُه أقوى من الظاهر الذي يتبادر إلى الذهن.

قال وكيعُ بنُ الجرّاح في «تفسيره»: حدثنا سفيان، عن ميسرة بن حبيب النهدي، عن المنهال بن عمرو الأسدي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣] قال: كانوا أربعة آلاف،

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢: ٤٧٨).

خرجوا فراراً من الطاعون، قالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: ﴿مُوتُوا﴾ فماتوا، فمرَّ عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربهم أن يُحييهم، فأحياهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ الآية.

ذكرَه ابنُ كثير في «تفسيره»، وسندُه حَسَن. ولم يذكر ابن كثير خلافاً في هذا لابن جريج ولا لغيره.

وفي «زاد المسير» لابن الجوزي[1]: وفي معنى حذرهم من الموت قولان: أحدهما: أنهم فرُّوا من الطاعون، وكان قد نزل بهم. قاله الحسن والسُّدِّي. والثاني: أنهم أمروا بالجهاد ففرُّوا منه. قاله عكرمة والضحاك. وعن ابن عباس كالقولين.

وفي «تفسير البغوي»[2]: قال أكثر أهل التفسير: كانت قرية يقال لها: داوَرْدان، قِبَلَ واسط، بها وقع الطاعون، فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة، فهلك أكثر من بقي في القرية وسَلِمَ الذين خرجوا، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا كانوا أحزم منا، لو صنعنا كما صنعوا لبقينا، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن إلى أرض لا وباء بها، فوقع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها، وخرجوا حتى نزلوا وادياً أفيح، فلما نزلوا المكان الذي يبتغون فيه النجاة ناداهم مَلَكٌ من أسفل الوادي وآخرُ مِن أعلاه: أنْ موتوا، فماتوا جميعاً. انتهى.

ثم قال في توجيه الآية: «﴿ثُمَّ﴾ بعد مرور الأزمان عليهم وانتباههم لما هم فيه من الذلة والهوان، وتشبُّثِهم بإنقاذ أنفسهم من ذلك ﴿أَحْيَاهُمْ﴾ ومعنىٰ حياتهم: عَوْد الاستقلال إليهم».

---

(١) «زاد المسير» لابن الجوزي (١: ٢١٩).

(٢) «تفسير البغوي» (١: ٣٢٨).

قلت: وهذا تأويل متعسِّف، من بدع التفاسير. والصواب إبقاء الآية على معناها الظاهر، إذ لا مانع منه، ولا دليل على خلافه.

دعوى المؤلف أن قصة إبراهيم في كيفية إحياء الموتى للبيان التمثيلي!

* قال في تفسير الآية (٢٦٠) من سورة البقرة في قول الله تعالى لإبراهيم: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾:

«وقد ظهر لي من الآية على ضوء ما قاله أبو مسلم: أنَّ المراد منها البيانُ التمثيليُّ لا حكاية أمر واقع، وأنَّ طلب إبراهيم عليه السلام إنما كان عن كيفيَّة عَوْدة كلِّ روح إلى جَسَدِها من دون اختلاف وارتباك، يُفهَمُ هذا من فحوى الجواب على نهج القرآن في إيجاز السؤال، اعتماداً على تفصيل الجواب، (كما جاء في الفقرة (١) من المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

وعبارة: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تتَّسع لمثل هذا المعنى بحسب عُرْف التخاطب، فيغلب على الظن أنه هو المراد».

الجواب: إن سؤال إبراهيم وقع بـ«كيف»، فدلّ على الاستفهام عن حالِ شيء موجودٍ مُقرَّرٍ عند السائل والمسؤول، فكان السؤال عن هيئة الإحياء لا عن ذات الأحياء، وكأنَّ سيدنا إبراهيم أراد أن يترقّى في هذا المقام من علم اليقين إلى عين اليقين، بدليل قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾؛ أي: ليزداد سكوناً بالمشاهدة المنضمَّة إلى اعتقاد القلب، لأن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب، ولذلك قال النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف

لأجبت الداعي»[١]، أي إذا كان الشك متطرقاً إلى الأنبياء، لكنت أنا أحق به منهم، وقد علمتم أني لم أشك، فاعلموا أنه لم يشك، وإنما قال النبي ﷺ ذلك تواضعاً، وقبل أن يُعلم أنه أفضل الأنبياء. وقد ذكرت لك ذلك لتُعلَمَ حقيقة سؤال إبراهيم، قال القرطبي في «تفسيره»[٢]: «والفكر في صورة الإحياء غير محظور، كما لنا نحن اليوم أن نفكر فيها، إذ هي فكر فيها عبر، فأراد الخليل أن يعاين، فيذهب فكره في صورة الإحياء».

هذا، ومما يردُّ قولَ أبي مسلم في هذه الآية: أنه لا يُتصوَّرُ أنْ يُبيِّنَ اللهُ كيفية الإحياء بضَرْبِ مثالٍ ساذج كهذا؛ اجمَعْ طيراً، ثم ادعُهُنَّ يأتينك سعياً (حسب تفسير أبي مسلم)، فهل كان إبراهيمُ عليه السلام يجهلُ مِثلَ هذا أو تخفى عليه مِثلُ هذه الصورة؟! وهل هذا الذي كان يتطلّعُ إبراهيم إلى معرفته، ويتشوّقُ إلى الكشف عنه؟! هذه الإجابة عن الكيفية ـ على اعتبار أنها مجرّدُ مثال ـ إجابةٌ تصلح للأطفال الصغار، ولا تجيبُ عن سؤال أبي الأنبياء عليه الصلاةُ والسلام.

وأما قول الشيخ رشيد الخطيب: «وعبارة: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تتَّسع لمثل هذا المعنى بحسب عُرْف التخاطب، فيغلب على الظن أنه هو المراد» فهذه دعوى تفتقر إلى دليل، ولو فتحنا هذا الباب لادَّعى كل أحد أن آيات القرآن تتَّسع لمعانٍ يُورِدُها بحسب عرف التخاطب! والأصل: أنه لا يُصار إلى مثل ذلك، إلا بقرينة دالةٍ عليه، تنسجم مع السياق.

وينظر ما يأتي في صرف المؤلف المعجزات وخوارق العادات عن مدلولها ومناقشته فيما يتعلق بقصة إبراهيم في طلبه كيفية إحياء الموتى وذبحه الطيور الأربعة ومجيئهن إليه بعد تفريقهن.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢).

(٢) «تفسير القرطبي» (٣: ٣٠٠).

دعوى المؤلف أن أخذ الميثاق على بني آدم بطريقة التمثيل:

* قال في تفسير الآية (١٧٢) من سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: «وقد ذكر ذلك بطريقة التَّمثيل».

قلت: بل بطريقة الإخبار عن أمر وقع علىٰ الحقيقة، والقولُ بالتمثيل عدولٌ عن ظاهر اللفظ من غير سبب مُوجِب لذلك.

* وقال أيضاً: «وهذا القول قولُ إرادةٍ وتكوين، لا قولُ وحيٍ وتلقين».

قلت: هذا تفريعٌ علىٰ القول بالتمثيل الذي اختاره المؤلف، ولا نوافقه عليه، أما علىٰ القول بأن الأمر علىٰ الحقيقة، فالقولُ هنا قولُ وحي وتلقين، وهو الراجح. وينظر فيما يأتي كلامي عن عالم الذر وأخذ الميثاق من بني آدم.

السؤال يوم القيامة ليس مجرَّد تمثيل:

* قال في تفسير الآيتين (١١٢، ١١٣) من سورة المؤمنون: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾: «ويجوز أن يكون الكلام مجرَّد تمثيل وتصوير لحالهم».

قلت: بل الكلام على الحقيقة، كما هو صريحُ لفظه، ولا داعي لحمله على مجرَّد التمثيل، كما تقدَّم من المؤلف في أمثاله أيضاً، وتقدَّم تعقُّبه في ذلك.

النفخ في الصور ليس تمثيلاً منتزعاً من صوت البوق:

* قال في تفسير الآية (٨٧) من سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: «والآية يجوز أن تكون تمثيلاً منتزعاً من

صوت البوق الذي يُفْزِع أفراد الجيش للتَّجمُّع عند سماعه، ويجوز أن يكون النفخ حقيقة، ويكون معنىٰ الفَزَع: شدَّة الخوف والدهشة من الحساب».

قلت: من الـمُقرَّر عند أهل العلم: أن الكلام يُحمَلُ على الحقيقة ما دامت ممكنةً، ولا يُصار إلى المجاز دون قرينة تدلُّ عليه، وهذه القرينة ينبغي أن تكون ناشئة من السياق لا أجنبية عنه، وإلا اختلَّ كلامُ الناس، ولم يفهم أحد عن أحد؛ إذ وجوه المجاز كثيرة، والحملُ عليها دون قرينة على الوجه المذكور مُفسِدٌ لمراد المتكلم.

وعليه، فالقول بالتمثيل هنا غير سائغ ولا مقبول.

وتجويز المؤلف أن يكون النفخ حقيقة هو الحق الذي لا محيد عنه. والمراد: النفخة الأولىٰ من إسرافيل عليه السلام.

* وقال في تفسير الآية (٨) من سورة المدثر: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾: «والناقور: ما يُنقَرُ به للتصوير والإيذان، بمعنى: إذا ضُرِبَ الجرس للإيذان بالقيامة، فيجوز أن يكون الكلام على الحقيقة، ولا يَعلَمُ صورة ذلك الناقور إلا الله؛ لأنه من عالم الغيب الذي لا يقبل القياس على ما في عالم الشهود.

ويجوز أن يكون الكلام على المجاز والتمثيل، يكنَّى به عن حدوث واقعة القيامة وما يتبعها، فيكون تـمثيلاً مُنتَزعاً من حالة المُخاطَبين، وهي ضَرْبُ الجرس للتجمُّع والسَّعي له، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدِّمة السادسة)».

قلت: القول الأول هو المعتمد الذي لا ينبغي أن يُعدَلَ عنه إلى غيره، أما القول الثاني فلا حاجة إليه مع إمكان الحقيقة، ولا قرينة تدلُّ عليه حتى يقوى على مزاحمة هذا القول.

تأويله لضرب السُّور بين المنافقين والمؤمنين من باب الاستعارة التمثيلية:

* قال في تفسير الآية (١٣) من سورة الحديد: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾: «يحتمل ـ والله أعلم ـ أن تكون هذه الآية عبارة عن دخول أهل الجنَّة الجنَّة، وأهل النار النار، وتُلمع إلى ما يكون بينهم من عزلة تامَّة، إلا من ناحية خاصَّة، وهي ناحية معرفة بعضهم بأحوال بعض، ومكالمتهم المحدودة التي كنَّى عنها بالباب، وضمير ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ يعود إليه أو إلى السُّور، فقد عقد المشابهة بين هذه العزلة إلا من وجهٍ خاص، وبين السور الذي له باب، على طريقة الاستعارة التمثيلية. هذا ما أراه في الآية. والله أعلم بمراده».

قلت: الصواب إثبات السُّور والباب حقيقة، مع العجز عن تصوُّر كيفية هذا السور وهذا الباب، لأنهما من عالم الغيب، وما ذكره من حَمْل ذلك على الكناية بعيد.

تأويله لغلق أبواب جهنم بأنها تمثيل لإفادة التهويل!!

* قال في تفسير الآية (٢٠) من سورة البلد: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾: «أي: مُغْلَقةٌ أبوابُها عليهم، وهذا تمثيلٌ لإفادة التهويل. والله أعلم».

بل هو حقيقة، فقد وصف الله تعالى النار بأن ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]، وقال أيضاً: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ...﴾ [الزمر: ٤١]، وهذا يقتضي إثبات أبوابٍ لجهنم حقيقةً، لكنْ على وجه لا ندري كيفيته، لأنه من عالم الغيب، ثم إن فَتْحَ هذه الأبواب وإغلاقها أمرٌ ثابت على وجه الحقيقة أيضاً تبعاً لإثبات الأبواب على هذا الوجه، من غير علم بكيفيَّة ذلك أيضاً.

حقيقة النار الموقدة يوم القيامة واطلاعها على الأفئدة:

* قال في تفسير الآيتين (٦، ٧) من سورة الهُمَزة: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ نقلاً عن الشيخ محمد عبده: «أي: النار التي لا تُنسَبُ إلا إليه تعالى؛ لأنه هو مُنشِئُها في عالمٍ لا يَعلَمُ كُنْهَه علماً جلياً سواه، وهي ملتهبة التهاباً لا يُدرِك كنهَه غيرُه سبحانه، ولا يمكننا الوقوف على حقيقة تلك النار».

نعم، لا يمكننا ذلك إلا أنا نعلمُ أنها نار مُحرِقة، ترمي بشَرَرٍ كالقصر، فيها شراب من حميم، وعذاب أليم، تحترق منها الجلود فتنضج وتذوب، ثم تُبدَّل جلوداً غيرها... إلى سائر أوصاف النار المذكورة في القرآن الكريم.

ثم قال: «وقد قيل: إنَّ معنى الاطِّلاع هنا: المعرفة والعلم، أي: إن هذه النار تعرف ما في الأفئدة، فتأخذ مَنْ تعرفهم أهلاً لها من أهل الوجدان الخبيث، وبقَدْر ما يستحقون. والنار التي تعرف مَنْ يستحق العذاب بها وما يستحقه منها: لا تكون من النيران المعروفة لنا في الدنيا بالضرورة.

وعلى كلٍّ، لا يخلو الكلام على هذا التأويل من التَّجوُّز والتمثيل».

قلت: كلا، لا تجوُّز ولا تمثيل، بل هي نار حقيقية، لكن بينها وبين نيران الدنيا مغايرة في الصفات، ومُباينةٌ في الأحوال، بحيث لا تصح المقارنة بينهما.

جَذْب ناصية الكافر بشدَّة في الآخرة:

* قال في تفسير الآية (١٥) من سورة العلق: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾: «وهي شعرُ الجبهة، والسَّفع: الجَذْب بشِدَّة. وهذا مَثَلٌ في القَهْر والإذلال والتعذيب والنَّكال».

قلت: بل الأقرب أن يكون على الحقيقة في الآخرة.

الصيحة التي أهلكت أصحاب القرية ليست من باب التمثيل:

* قال في تفسير الآية (٢٩) من سورة (يس): ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾: «وقد ذكر ذلك بطريقة التَّمثيل، وأخذ المعنى من حال المُخاطَبين وشؤونهم في مثله، والقصَّة تهديد لقريش بضعفهم تجاه قوة الله».

القصة على الحقيقة. وهذه الصيحة: هي صَيْحة مَلَك أمره الله تعالى بها، فكان فيها هلاكهم، وهي صيحة حقيقية ليست على التَّمثيل، ولها نظائر، كالصيحة التي أُهلكت بها ثمود وأصحاب مدين. وهي جندٌ من جند الله تعالى كالريح والماء والنار وغيرها، وقد سخَّر الله تعالى ذلك لإهلاك الأمم الكافرة.

خطاب الله للأرض والسماء: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾:

* قال في تفسير الآية (٤٤) من سورة هود: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: «وبعد أن قُضِيَ الأمرُ بإهلاك الظالمين وابتَلَع الماءُ كلَّ شيء ما عدا السفينة ومَنْ فيها، أمر الله سبحانه أمْرَ تكوين، أن تعودَ الحال معتادة كما كانت».

قلت: هذا محتمل، ويمكن أيضاً أن يكون أمراً حقيقياً، وهو الأوفق بسياق الآيات، والأبلغ في تقرير المعجزة، والظاهر أن قائل ذلك للسماء والأرض: مَلَكٌ من الملائكة، وخطابهما غير ممتنع، فالإدراك قوةٌ يُقدِرُ الله تعالىٰ عليها مَن شاء وما شاء من خلقه.

مخاطبة الله سبحانه للأرض والسماء على الحقيقة:

* قال في تفسير الآية (١١) من سورة المؤمن: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾: «وقد قالوا: ليس هناك أمر بالقول على الحقيقة، ولا جواب لذلك القول، ولكن الكلام تمثيلٌ لسهولة ذلك عليه».

قلت: بل يحمل ما جاء في الآية من قول وجواب على الحقيقة. والأصل إجراء اللفظ على ظاهره ما لم يصرفه عن الظاهر صارفٌ قويٌّ، ومنه: استحالة الظاهر. ومتى ورد اللفظ وَجَبَ حَمْـلُه على الحقيقة في بابه: لغةً أو شرعاً أو عرفاً، ولا يحمل على المجاز إلا بدليل يمنع حَمْلَه على الحقيقة من معارِض قويٍّ أو عرف مشهور. وهنا لا شيء يمنع من حَمْلِها على الحقيقة. وكثرة النصوص المشابهة ـ من آيات وأحاديث شريفة تضمنت خطاب الجمادات ومحاورتها ـ ترشح الحقيقة وتبعد الحمل على المجاز.

وينظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتّان الحَمَوي عن حَمْل هذه الآية على المجاز، في المدخل الثالث من هذه المقدمة.

استماع السماء والأرض لربِّهما وطاعتهما أمره على الحقيقة:

* قال في تفسير الآية (٢) من سورة الانشقاق: «ومعنى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾: استَمَعت لأمر ربها، وفعلت ـ حين أراد انشقاقها ـ فِعلَ المحقوق المِطواع، فكأنه قال: امتثلت له وحُقَّ لها أن تمتثل. أي: أراد منها الفناء، ففَنِيت، كما أنَّ آية: ﴿أَتَيْنَا طَآبِعِينَ ﴾ [فُصِّلت: ١١] بمعنى: أراد منها الوجود فوُجِدَت».

* وقال في تفسير الآية (٥) من سورة الانشقاق: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾: «وقد مرَّ تفسير هذه الجملة، إلا أنَّ الأُولى في حقِّ السماء، وهذه في حقِّ الأرض».

ونقل عن الأستاذ محمد عبده: «ولا يخفى أنَّ الاستماع والطاعة من السماء والأرض تمثيلٌ لكونها في قبضة القدرة الإلهيَّة، تُصرِّفهَا في الفناء كما تُصرِّفها في الابتداء، وهو نظير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآبِعِينَ ﴾ [فُصِّلت: ١١]، والمعنى: أنه خلقهما على الوجه الذي أراد بدون أن يكون منه جهد أو كدّ».

قلت: الصواب أن الأرض والسماء تدرك كل واحدة منهما أمرَ ربها تعالى إدراكاً يُناسبُها، فتمتثلُ الأمرَ وتطيع.

و«أذِنَت» هنا بمعنى: استَمَعَت وأطاعت، ففي «المفردات في غريب القرآن» للراغب[١]: «وأذِنَ: استمع، نحو قوله: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾».

ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «ما أذِنَ الله لشيءٍ ما أذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصوتِ يَتَغنّى بالقرآن يجهرُ به»[٢]، أي: ما استمع الله لشيء استماعَه لنبيٍّ حَسَنِ الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به.

ومنه قول قعنب بن أمِّ صاحب:

صمٌّ إذا سَمِعوا خيراً ذُكِرتُ بـه ... فإن ذُكِرتُ بسوءٍ عنـدَهم أذِنُـوا

أي: استمعوا.

وفي «تفسير ابن كثير»[٣]، وذكره ابن قتيبة في «عيون الأخبار»[٤]: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت لربِّها وأطاعت أمرَه فيما أمَرَها به من الانشقاق، ﴿وَحُقَّتۡ﴾ أي: وحُقَّ لها أن تُطيعَ أمرَه؛ لأنه العظيمُ الذي لا يُمانعُ ولا يُغالَب، بل قد قهر كلَّ شيء وذلَّ له كلُّ شيء. انتهى.

وهذا هو المرويُّ عن السلف، فقد روى ابنُ أبي حاتم في «تفسيره»[٥] من طريق

---

(١) «المفردات في غريب القرآن» ص٧٠.
(٢) رواه البخاري (٧٥٤٤)، ومسلم (٧٩٢).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٨: ٣٥٦).
(٤) «عيون الأخبار» (٣: ٩٦).
(٥) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠: ٣٤١١).

سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: أطاعت. ومن طريق سعيد بن جبير: ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: حُقَّ لـها أن تطيع. ومن طريق الضحّاك: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: سَمِعت. وقال مجاهد: أذِنَت: سَمِعَت وأطاعت لربها. أخرَجَه ابنُ أبي حاتم من طريقه. كذا في «فتح الباري»[١].

وأخرج الطبري في «تفسيره»[٢] بسند صحيح عن مجاهد: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ قال: سمعت.

وأما حملُها على المجاز فلا حاجة له، لأنَّ المخلوقات تسمع أوامر الله وتطيعه فيها، كما قال تعالى في السماء والأرض: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

وفي «تتمة أضواء البيان» للشيخ عطية محمد سالم: «وقد حمله بعض المفسرين على المعنى المجازي في «أذنت»، أي: لـمّا لم تكن ممانعة من تشقُّقها، كان ذلك بمثابة الامتثال والاستماع، وقد قدّمنا أن للجمادات بالنسبة إلى الله تعالى حالةً لا كهي بالنسبة للمخلوقين في مبحث أول الحشر، في معنى التسبيح من الجمادات. وقد جاء صريحاً في حقِّ السماء والأرض من ذلك قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]. والله أعلم».

معنى سجود من في السماوات ومن في الأرض:

* قال في تفسير الآية (١٨) من سورة الحج: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى

---

(١) «فتح الباري» (٦: ٢٩٤) و(٨: ٦٩٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٤: ٣١٠).

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾: «سجودَ انقيادٍ لما أراده الله منها وأودعه فيها من سنن طبيعيّة ومواهب فطريّة ومطالب مرعيّة، لا تنحرف عنها ولا تتخلَّف، ﴿وَ﴾ يسجد له ﴿كَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ سجودَ طاعةٍ وعبادة لسلوكهم سبيل الهُدىٰ بمقتضىٰ الفطرة التي حافظوا علىٰ سلامتها وبإرشاد المؤمنين إلىٰ ذلك، ﴿وَكَثِيرٌ﴾ من الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾».

قلت: جميع العوالم تسجد لله تعالىٰ خالقها، ولكن سجود كلِّ نوع حَسْب هيئته، وصورة خلقته، فليس سجود الأشياء لله علىٰ سبعة أعضاء كسجود الناس، لأنَّ الهيئة والصورة الخلقيَّة مختلفة، فكلٌّ يسجد علىٰ حسبه سجوداً حقيقياً.

وسجود هذه الأشياء الواردة ليس من باب المجاز بالاستعارة، باعتبار انقيادها لأمر الله التكويني، بدليل قوله تعالىٰ في الآية نفسها: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: المؤمنون الساجدون لله تعالىٰ اختياراً.

ولو كان المراد خضوعهم لأمر الله التكويني لَـمَا قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، بل لقال حينئذ: (وجميع الناس)، لأنهم كلهم خاضعون لقدر الله وقضائه وأمره التكويني.

قوله تعالىٰ: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ صريحٌ في أن المراد تَـرْكُهم السجود الاختياري، فهم لم يسجدوا لله تعالىٰ في الدنيا.

تحديث الأرض أخبارَها:

* قال في تفسير الآيتين (٤، ٥) من سورة الزلزلة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾: «وتحديثُ الأرض تمثيل، كما قال الطبري وغيره في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، والمعنى: إنه يُفهَمُ من شكل الحادث كونه بأمر إلهيٍّ خاص، أمرها به أن تكون خراباً».

قلت: بل حقيقة، فالأرض لها إدراك على وجه يناسبها، كما أن سائر الجمادات كذلك، وإن كنا لا نفهم هذا الإدراك ولا نعلم كيفيته، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ويوم القيامة يُنطِقُ الله الجلود والأسماع والأبصار بأعمال أصحابها، فلا يمتنع أيضاً أن تنطق الأرض حقيقة.

وفي تحديث الأرض بأخبارها دليل على ثبوت شعورها، وإدراكها لما يجري على ظهرها، فهي سوف تشهدُ يوم القيامة بما عُمل على ظهرها، وهذه الشهادة لا تكون إلا عن علمٍ ومُشاهَدَة، فلولا أنَّ لها إدراكاً وشعوراً لما علمت، ولما تحمَّلت هذه الشهادة حتى أدَّتها يوم القيامة، فإنَّ الشهادة لا تُقبل إلا ممَّن تحمَّل العلمَ المشهودَ به.

ولم يذكر الطبري أن آية: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ للتمثيل.

قال الطبري في «تفسيره»: «يقول ـ جلَّ ثناؤه ـ: فقال الله للسماء والأرض: جيئا بما خلقت فيكما، أما أنت يا سماء فأطلعي ما خلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم، وأما أنت يا أرض فأخرجي ما خلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات، وتشققي عن الأنهار﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ جئنا بما أحدَثْتَ فينا من خلقك، مستجيبين لأمرك لا نعصي أمرك، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[1]. وينظر الكلام حول هذه الآية في المدخل الثالث الآتي.

تأويله جريان الشمس بأداء الواجب:

* قال في تفسير الآية (٣٨) من سورة (يس): ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ

---

(١) «تفسير الطبري» (٢: ٤٣٩).

لَّهَا﴾: «ويجوز أن يراد به: مجرَّد أداء واجبها، أي: أنها تعمل عملها دائبةً عليه إلى يوم خراب هذا العالم المشهود».

قلت: هذا قولٌ في غاية البُعْد، وتجويز في غير محلِّه، فلفظة «تجري» لا تدلُّ على هذا المعنى ـ وهو أداء العمل الواجب ـ بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز، على أنه لو كان هذا المعنى محتملاً بطريق المجاز لكان حَمْلُ الآية عليه بعيداً أيضاً، لِـمَا قد ثبت من جريان الشمس فعلاً، كما قرّره المؤلف من قبل.

توسعه في التأويل

توسُّعه في المجاز في تفسير الملكين ببابل:

* ذكر في مقدِّمات التفسير: «من أنواع المجازات في القرآن: المجاز بالوصف على زَعْم الخصم، كقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهذا على اعتقاد اليهود بهما بأنهما مَلَكان أو زاهِدان كالملَـكَين».

قلت: الأصل حَمْلُ القرآن على الحقيقة، لأنها الأصل، ما لم يترجح المجاز بشهرة أو غيرها، وبناء عليه، فلا يُحمَلُ اللفظ القرآني على التمثيل والرمز إلا بدليل أو قرينة تصرفه إلى المجاز، ولا قرينة هنا تصرف الكلام عن ظاهره.

إغراقه في تأويل قوله تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾:

* قال في تفسير الآية (٢٤٨) من سورة البقرة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: «وأولىٰ ما قيل في تفسير حَمْل الملائكة له: أن البقرتين كانتا تجرّان العَجَلة التي عليها التابوت من عمـالقة بلاد فلسطين إلىٰ بني إسرائيل، كما سيأتي في تفصيل القصة، كانتَا تسيران بإلهام الملائكة وحراستها، إذ ليس

معهما سائق من البشر، فالكلام علىٰ حدِّ قولهم: حمل فلان متاعه، وإنما حملته راحلتُه».

قلت: بل أولى ما قيل: حَمْلُ الآية على ظاهرها دون حاجة إلى هذا الإغراق في التأويل.

ليس المراد من السجود في قوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ مجرَّد الخضوع:

* قال في تفسير قوله تعالى من الآية (٥٨) من سورة البقرة: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ نقلاً عن الشيخ محمد عبده: «أي: ادخلوها خاشعين لله خاضعين لأمره، مُسْتشعرين عَظَمته وجلاله، ونعَمه وأفْضَاله، وهو معنى السجود وروحُه المراد منه».

والصواب: أن المراد من السجود معناه الحقيقي، وهو الانحناء ووضع الجبهة على الأرض، ولا داعي لصرف اللفظ العربي الواضح الذي جاء في الآية القرآنية إلى معنى مجازي بعيد متكلِّف. وقد ذكر المؤلف المعنى على الصواب في تفسير الآية (١٥٤) من سورة النساء: ﴿وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾: «خاضعين لله مائلي الرؤوس خاشعين لله شاكرين».

أخذ الميثاق على بني إسرائيل وقولهم: سمعنا وعصينا:

* قال في تفسير الآية (٦٣) من سورة البقرة: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم وَٱسۡمَعُواْ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾: «ثم التفت عن الخطاب إلىٰ الغيبة إبعاداً أو تهجيناً لهم، لإعراضهم عن ذلك، فقال: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾، وليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين، ولكن المراد أنهم فهموا الميثاق ولم يعملوا به، ففيه تجوُّز بالقول عن الفعل، وهو من خصائص اللغة وأساليب القرآن».

والجواب: أن هذا محتمل، لكن الأظهر أنهم نطقوا بذلك حقيقةً، فهو المعنى الظاهر من لفظ الآية الكريمة، ولا قرينةَ تقتضى العدول عنه.

معنى السبع المثاني، وهل السبع للتكثير أم للتحديد؟

* قال في تفسير الآية (٨٧) من سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾: «يجوز أن يُراد بها بعض مواضيع القرآن، والقرآن كله كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]. وعلىٰ هذا تكون كلمة ﴿سَبْعًا﴾ للتكثير لا للتحديد. بمعنىٰ: أنَّ الأخبار والبيانات والبراهين والقصص والمواعظ يكثر تكرارها فيه بأساليب منوَّعة، للإشارة إلىٰ وجوهٍ وعِبَرٍ مختلفة، ولا سيما أسس الدين الثلاثة: التوحيد، والرسالة، واليوم الآخر».

قلت: المثاني: جمع «مَثناة»، وهي الطيَّة الواحدة التي تُثنىٰ، وُصف القرآن بأنه مثاني؛ لأنه كتابٌ متشابه في الـحُسْن والكمال، ولأنه تظهر في السطوح المقروءة من مثانيه جملٌ وكلمات، وتوجد مطويَّاتٌ داخل المثاني تُستخرج بالتأمل الدقيق، وبالاستنباط العميق، ضمن ضوابط الفكر وقواعد الاستعمال اللغوي وأماراته، إما عن طريق الحقيقة، أو عن طريق المجاز.

والمراد بالسبع المثاني: سورة الفاتحة، إذ هي جامعة لكليَّـات كبرىٰ هي بمثابة عنوانات عامات للدِّين الذي اصْطفاه الله عز وجل لعباده.

ولا يصحُّ ما ادَّعاه المؤلف أن كلمة ﴿سَبْعًا﴾ للتكثيـر لا للتحديد!! كيف وقد صحّ عن الرسول ﷺ أن الفاتحة هي السبع المثاني وهي القرآن العظيم. فلا عدول عن هذا الذي صحَّ عن الرسول ﷺ.

وروىٰ البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلَّىٰ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أُوتيته»[1].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٤).

المراد بمفاتح كنوز قارون:

* قال في تفسير الآية (٧٦) من سورة القصص: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾: «هذا تصويرٌ لكثرة خزائنه البالغة الحد، وكنايةٌ عن ذلك، والكناية يُراد بها لازمُ معناها، وهو هنا كثرة الخزائن، ولا يجب فيها تحقُّق المعنى الأصلي، بل لا يتحقَّـق إلا في قليل من الكنايات. ويجوز أن يُراد بالمفاتيح: الصناديق، بطريقة المجاز المرسل، وهو الأقرب. والله أعلم».

قلت: بل الأقرب هو ما دلَّ عليه ظاهر اللفظ من أن المراد بالمفاتح: مفاتيح الخزائن التي تُحفَظُ فيها الكنوز التي كان يثقل حمْلُها على العصبة من الرجال، وهذا هو المعنى الحقيقي لألفاظ الآية، وهو غير ممتنع عقلاً ولا عادة، لا سيما أن المفاتيح في الأعصار الماضية كانت أكبر حجماً من مفاتيح هذا العصر، وما دامت الحقيقة غير ممتنعة فلا ينبغي العدول إلى المجاز.

ثم إن القول بأن المراد بالمفاتح: الخزائنُ نفسُها، فيه إضعاف لمدلول الآية في سياقها، فكثير من الأغنياء من يثقل حمل خزائن أموالهم وصناديق كنوزهم على العُصبة أولي القوة من الرجال.

عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال وحمل الإنسان لها:

* قال في تفسير الآية (١٧٩) من سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ «وتحرير ذلك: أنَّ الحيوانَ لديه شعور طبيعي لا يخطئ فيه ولا يضلّ؛ لأنه لا يفسده، بخلاف الإنسان، فإنه إذا أفسد عقله بمفاسد التربية، لا يكاد يصيب من الأمور الروحيَّة شيئـاً، وإنمـا يرىٰ الضلال هدىٰ،

والهدىٰ ضلالاً، وهذا هو معنىٰ ما جاء في آخر سورة الأحزاب من قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وحَمَل بمعنىٰ: خان».

* وقال في تفسير الآية (٧٢) من سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾: «وعبَّر مجازاً بصيغة العرض عن الإرادة منها والإناطة بها، ونزَّل غير العاقل منزلة العاقل في الاختيار حتى ينسجم معه في صورة المعنى المراد، ويتهيّأ التعبير عن قيامها بما خُلقت له وطُبعت عليه من الأهداف والأعمال واستمرارها فيها ودأبها عليها. فعبَّر بالعَرْض حتى يتهيّأ التعبير بالإباء عن تضييعها، حيث قال: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي: أن يُهْمِلْنها ويُضيِّعْنها، من قولهم: حَمَل الأمانة؛ إذا خانها. كما جاء في «القاموس المحيط»».

* وقال في تفسير الآية (٢) من سورة الأعلى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾: «أي: خلق الكائنات على كيفيَّة تامَّة ونظامٍ كامل لا اضطراب فيه ولا اختلال، ولا نقص ولا انحلال، كما تراه فيما يظهر لك من خَلْق السَّماوات والأرض وما فيهما، حتى كانت تلك المخلوقاتُ على اختلاف أنواعها مؤديةً للأغراض التي خُلِقَت لأجلها على أحسن حال وأكمله، ولم يشذَّ من ذلك إلا الإنسان، كما قال تعالى في آخر سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] أي: خانها».

قلت: هذا ما رجَّحه المؤلف في معنى حمل الأمانة وذهب إليه، ولا نوافقه عليه. والمراد بقوله سبحانه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: قبل الإنسان حمل الأمانة التي تجعل له إرادة حرة، وسلطة على ما يوضع في ذواته من قوى وطاقات وأشياء أمانة عنده، على

سبيل الإعارة للانتفاع أو الوديعة، ويُؤذَن له بالتصرُّفِ فيها بإرادات حرة، وبالتصرُّفِ فيما حوله من الكون، ممَّا تصل قدرته إليه أو إلى مفاتيحه. فحمل الأمانة تشريف وتكريم، مقرون بتكليف ومسؤولية، وبعده حساب وجزاء.

ومعنى حمل الإنسان للأمانة: أنه يحمل الاستعداد الفطري الكامل لحمل الأمانة بما منحه الله تعالى من خصائص التفكير والعقل، ومعرفة صفات الأشياء، والإرادة الحرة، ممَّا يستطيع التصرف فيه بفعل الخير أو بفعل الشر. فإذا استعمل الإنسان ما استودعَه الله من إرادة وطاقات فيما فيه ظلم وعدوان فهو خائن فيما استأمنه الله عليه.

وقد أخذ الإنسانُ الأمانة، ودخل رحلةَ الامتحان في الوقت المقدّر لدخوله عبر الحياة الدنيا، منذ بلوغه سنّ التكليف حتى وفاته، ثم تكون له حياة أخرى لمحاسبته وجزائه.

وعَرْض الأمانة على السماوات والأرض والجبال كان عَرْضاً حقيقياً، حيث خلق الله لها إدراكاً، وعرض عليها الأمانة، فقامت بها كما ينبغي لها، وأدتها حق أدائها، لِـمَا أنها مجبولة على الطاعة والانقياد لأمر الله من غير اختيار.

وقد تظاهرت الأدلة على إدراك سائر المخلوقات لأمر الله تعالى، ممَّا إذا ضُمَّ بعضه إلى بعض تبيَّن منه بُعدُ القول بالمجاز في مثلها، ولزوم حَمْلها على الحقيقة، وهي غير ممتنعة عقلاً، لكن لم تجْرِ بها العادة، وما دامت كذلك فالقول بالحقيقة هو المتعيِّن. ومن ذلك: تسبيح ما في السماوات والأرض لله تعالى الوارد في الآية (٤٤) من سورة الإسراء، وتسبيح الجبال مع داود الوارد في الآية (٧٩) من سورة الأنبياء، وخطاب الله تعالى للسماء والأرض: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾، الوارد في الآية (١١) من سورة فُصِّلت، إلى غير ذلك.

وأما تفسير حمل الأمانة بمعنى خيانتها فلا يصح، إذ حمل الأمانة ـ كما تقدّم ـ تشريف وتكريم للإنسان الذي منحَه الله الإرادة الحرة وقدرات الإدراك والفهم، وبما سخّر له من قوى في ذات نفسه وفي الكون من حوله؛ ليتم امتحانه في الحياة الدنيا.

وسيأتي الرد المفصل علىٰ دعوى المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ أن المراد بحمل الأمانة: خيانتها في أجوبة فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان الحمَوي في المدخل الثالث من هذه المقدمة.

تأويله مرج البحرين والبرزخ بينهما:

* قال في تفسير الآية (٥٣) من سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: «فهما لا يختلطان إذا اجتمعا في إناء واحد، ولكن يطفو العَذْب على المالح وكلاهما ماء. يقال: مَزَج الشيء بالشيء إذا خلط به. ومثله مَرَدَ الشيء بالماء فجعل في المالح مواد لم تكن في العذب، لذلك كان الماءان لا يمتزجان إذا جُمعا، بل يطفو العذب عل المالح لخفّة أجزائه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ بيانٌ لما في كلٍّ من الماءين من مواد متغايرة، بحيث لا يختلطان إذا جمعا، وذلك دليل على حكمته ومِنّتِه تعالى».

من العجيب أن يتبنّى الشيخ هذا القول، وكان يَكفيه أن يجرِّب ذلك بنفسه ليثبت خطأ ما ذهب إليه، ثم إنَّ اللغة لا تساعد على ذلك. وتنظر مناقشة الأخ خالد حماش له في رسالته: «منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن» عند حديثه عن عنايته بالتفسير العلمي في مظاهر المنهج العقلي لدى الشيخ رشيد.

* وقال في تفسير الآيتين (١٩، ٢٠) من سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾: «ومُحصّل الكلام: أنَّ في الماء المالح من الأملاح والموادّ ما ليس في

الماء العذْب وإن كانا متشابهين في الصُّورة، ولذلك لا يمتزجان إذا صُبَّ أحدهما على الآخر وخُلِطَ به، بل يطفو العَذْبُ على المالح. وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر ولا يختلط به. والبرزخ لغةً: الحاجز، وقد استعاره للممانعة في الامتزاج بين هذين الماءين».

المعنى الصحيح للبرزخ بين البحرين: أرسلَ الله سبحانه ماء البحرين الملحَيْن المختلفَيْن في خَصَائصهما في حالَيْ ذهاب وإيَاب، واختلاط واضطراب، بينهما حاجز يمنع كلاً منهما أن يطغى ويتجاوز حدَّه، وهذا الحاجز هو ماء ثالث يختلف في خصائصه عن كلٍّ من البحرين المتمايزين من حيث الملوحة والحرارة والأحياء المائيَّة، وهو يتحرَّك بين البحرين المتجاورَيْن، ويخلط بعضهما ببعض ببطء شديد، ويقلب المياه العابرة من بحر إلى بحر، لتكسب المياه المنتقلة من بحر إلى آخر صفات البحر الذي ستدخل إليه، وتفقد صفات البحر الذي جاءت منه.

المعنى الصحيح لـ ﴿ءَالَآءِ﴾ وسر تكررها في سورة الرحمن:

* قال في آخر تفسير سورة الرحمن: «وقد تكرَّرت آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، بعضها للتأنيب على إنكار نِعَم ذُكرت قبلها صريحاً أو ضمناً، وبعضها للتهديد بنِقَم ذُكِرَت قبلها صريحاً أو ضمناً؛ لأنَّ صاحبها قابَلَ نِعَمَ الله عليه بالكفران، فيكون المراد من نِعَمِ الله فيها: نِعَمَه العامَّة على بني الإنسان، وبعضها للحثِّ على العمل لنَيْل كرامة ذكرت قبلها صريحاً أو ضمناً، فيكون المراد من نِعَمِ الله فيها: نِعَمَه العامَّة أيضاً، وبعضها للتمنُّن على نِعَمٍ ذُكرت قبله».

قلت: اضْطرَّ المؤلف ـ كغيره من المفسِّرين ـ إلى حَمْل هذه الآية على هذه الوجوه، لأنه يُفسِّر (الآلاء) بالنِّعَم، ولما كان بعضها في سياق التأنيب والإنكار احتاج إلى مثل

هذه التأويلات، لكن الراجح في معنى (آلاء): الفعال العجيبة والشؤون الغريبة. فعلى هذا تتَّسقُ هذه الآية مع سياقها في كل موضع تكرَّرت فيه في هذه السورة. والله أعلم.

من صفات الله عز وجل

أقسام إرادة الله عز وجل:

* قال في تفسير الآية (٣٠) من سورة يس: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ معلقاً في الحاشية: «هذا الكلام يدل بوضوح على أنَّ الله سبحانه أراد الإيمان للكافرين، مع علمه سبحانه أنهم لا يؤمنون. ولا معارضة في ذلك؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته ليكون خليفةً في الأرض يتصرَّف في مواهبها كيف يشاء، وقد ألهمَه بطبيعته فُجورَه وتَقْواه، وجعل تزكية نفسه وتدْسيتها باختياره ومَجْراه، فليس عمله في الكفر والشر قسْراً لإرادة الله، بل موافقة لما أراده له من مطلق الاختيار، وبذلك يجري عليه الثواب والعقاب.

وإرادة الله سبحانه نوعان: إرادة تكوينيَّة، وإرادة طلبيَّة من الإنسان المختار في تصرُّفاته، والأولى: لا يَتَخلَّفُ المرادُ بها أبداً، والثانية: مجرَّد تكليف يُثيب مَنْ أطاعها، ويُعاقِب من عَصَاها. والله أعلم».

قلت: قوله: «إن الله تعالى أراد الإيمان للكافرين»، الصوابُ فيه أن يقال: طلب الإيمان من الكافرين، ومنحهم الإرادة الحرة، فاختاروا الكفر ولم يؤمنوا، فأراد وقوعه منهم من غير أن يكون راضياً به، وفي هذا احتراز عن القول بإرادة الله تعالى شيئاً مع تخلُّفه في الواقع.

والإرادة صفةٌ لله عز وجل لا يخرج عنها شيء في هذا الكون، لأنه هو المتصرِّف فيه سبحانه، وإلا وقع في ملكه ما لا يريد، وهذا محال، أما الرضا فتابعٌ لطلب الله وأمره،

فما أمر الله به عباده رضيَه لهم. وإرادة الله الطلبية هي الإرادة التكليفية والإرشادية. ومن قضاء الله وقدره: مطلوب الله من عباده الممتحنين في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، سواء أكان مطلوباً إلزامياً مقروناً بالوعد والوعيد، أو مطلوباً إرشادياً مقروناً بالوعد فقط.

ومطلوب الله من عباده يتمُّ بالإرادة التكليفية والإرشادية، وتتحقق هذه الإرادة ببتِّ المطلوب من العباد وإمضائه، ويبقى على العباد أن يحققوا مطلوب الله منهم في مدة امتحانهم لتحقيق نجاتهم وسعادتهم، ولا تضر معصيتهم ربَّهم بشيء، ولا يعطلون من إرادة الله فيهم شيئاً.

فما تقتضيه مطلوبات الله من ذوي الإرادات الحرة يتوقف تحقيقه عليهم، ولو كان تحقيقه مراداً لله عز وجل لتحقق جبراً، ولسقط الاختيار، ولحصل التناقض؛ إذ كيف يكون جبر وتخيير في وقت واحد، ويستحيل أن تكون إرادة الله عاجزة عن تحقيق مرادها.

الإرادة التكوينيّة والإرادة التكليفيّة:

* وقال في تفسير الآية (٣٠) من سورة الإنسان: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ «الإرادة نوعان: تكوينيَّة، وهي لا تتخلَّف، كإرادته أن يكون الإنسان مختاراً في تصرُّفاته، ليكون ذا علم واسع وإيجاد عظيم عجيب. وإرادة تكليفيَّة، كإرادته من الإنسان أن يكون مهتدياً بشرائعه».

قال شيخنا عبد الرحمن حبنكة الميداني رحمه الله تعالى في كتابه «ابتلاء الإرادة» ما ملخصه: «إرادة الله سبحانه تنقسم بالنظر إلى ما تتعلق به انقساماً أولياً إلى قسمين:

القسم الأول: الإرادة التقريريّـة، التي يتم بها تقرير المراد، والقسم الثاني: الإرادة التنجيزيّة، وهي التي إذا تعلقت بالمراد، صدر من الله عز وجل الأمرُ بالتنجيز، فيتحقق

المراد على وَفق الأمر، ولا يمكن تخلف ذلك بحال من الأحوال، إذ لا يوجد معارض يوقف سلطان إرادة الله وقدرته وأمره التنجيزي.

وكلٌّ من هذين القسمين: الإرادة التقريرية والإرادة التنجيزيّة ينقسم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: الإرادة التكوينيّة، وهي التي تتعلق بتكوين وإيجاد مخلوق مما تعلق إرادة الله بخلقه وإيجاده، وتتم بالتقرير والإمضاء، ثم تتم بتنجيز التكوين الفعلي الذي يتم بأمر: «كن».

وقد شاء الله تعالى أن يمنح الإنس والجن إرادة حرة ليمتحن عباده في اختياراتهم، ثم يحاسبهم ويجازيهم عليها.

والقسم الثاني: الإرادة التشريعية، وهي التي تتعلق بتشريع الأحكام للمخلوقات المريدة، ذوات الإرادة الحرة، وهذه الإرادة تتم بتقرير الأحكام التشريعية، ثم تنجيز التشريع بتوجيه الأمر به.

والقسم الثالث: الإرادة التكليفية والإرشادية، وهي التي تتعلق بتوجيه الأوامر الإلزامية والمطالب الإرشادية، ويتم تقرير هذه الإرادة بتقرير توجيه الأوامر الإلزامية والمطالب الإرشادية النصحية، وتنجز هذه الإرادة بتوجيه هذه الأوامر والمطالب، ويتبع ذلك إنزالُها إلى الرسل وتبليغها للممتحنين.

والقسم الرابع: الإرادة القضائية، وهي التي تتعلق بمحاسبة الذين أنهوا رحلة امتحانهم لفصل القضاء بشأنهم، وهذه الإرادة تعتمد في أقضيتها المقرونة بحكمة الله ورحمته وعدله على قاعدتي الفضل والعدل؛ فالحكم بالنجاة مع الأجر العظيم في جنات النعيم يعتمد على قاعدة فضل الله عز وجل.

والحكم بالعقاب مهما كان شديداً أو خفيفاً يعتمد على قاعدة عدل الله الذي لا يظلم مثقال ذرة.

ويتم تقرير هذه الإرادة بتقرير توجيه الحكم المراد، وتنجز هذه الإرادة القضائية بتوجيه الحكم فعلاً وإمضائه، وفصل القضاء به، وإعلان الحكم وتبليغه.

أما تنفيذ الجزاء بالثواب أو العقاب الذي تضمنه القضاء، فيتم بإرادة تكوينية، وهي القسم الأول من أقسام الإرادات الأربع.

وكل أقسام الإرادة الإلهية يدخل تحت عنوان القضاء والقدر؛ إذ القضاء هو الإمضاء والبتّ، والقدر هو تقدير عناصر الشيء المراد من كل ما له مقادير في ذاته أو صفاته أو زمانه أو مكانه أو ما يتعلق به.

ولا يوجد شيء من إرادات الله عز وجل على اختلاف أقسامها يتوقف تنجيزه على أعمال العباد الاختيارية؛ إذ كل قسم منها يتم تنجيزه من قبل الله عز وجل دون معارض.

ومن خلال استعراض نصوص الإرادة والمشيئة في القرآن، يتبين أن كل شيء قد شاء الله وجوده فلا بد أن يوجد على وَفْق قضاء الله وقدَره فيه، وأن كل شيء شاء الله أن لا يوجد فلا يمكن أن يوجد ولو اجتمعت قوى كل الخلائق لإيجاده.

ولشيخنا عبد الكريم تتان نظر في هذا التقسيم من حيث تقسيمه إلى تقريري وتنجيزي أولاً، ومن حيث تعداده إلى أربعة أقسام؛ فهو يرى أن صفة الإرادة يخصص الله بها أزلاً الممكن ببعض ما يجوز عليه، على وَفْق «العلم» وهذا تعلق «واحد». وحيث تخصص الممكن دخل في الزمان والمكان اللذين خصص بهما، وحين يأتي الزمان المعلوم

تتعلق «القدرة» بالمخصص تعلقاً تنجيزياً حادثاً، فيظهر المقدّر بحسب ما في علم الله، وبحسب ما خصص أزلاً، ويرى أن هذا التقسيم التقريري والتنجيزي، يمزج بين عمل الإرادة والقدرة.

ويرى أيضاً أن هذه الأقسام الأربعة لا ترتكز إلى مضامين محدّدة، وتتداخل في معانيها، ولو اقتصر على القسمين، الإرادة الكونية والتشريعية ومعنى كل منهما، لاجتنبنا هذه العناوين التي لا ترتكن إلى ما يسلَّم به.

قال حفظه الله تعالى: القسم الثالث: الإرادة التكليفية والإرشادية، ويرجع إلى الإرادة التشـريعية، بمعنى هو لب التشريعية، ألا وهو «الأوامر الإلزامية والـمطالب الإرشادية» وهل التشريع يخرج عن الأمر والنهي؟

الإرادة غير الإيجاد:

* قال في تفسير الآية (٤٠) من سورة النحل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: «إن إيجاد الله سبحانه للأشياء مجرَّد إرادة عليّة لا معالجة فيها ولا نَصَب».

الجواب: الإرادة غير الإيجاد، فالإيجاد فعلٌ من أفعاله تعالى لا معالجة فيه ولا نصب كما قال المؤلّف، وهو واقع بقدرته سبحانه أو بتكوينه؛ تبعاً لإرادته التقريرية والتنجيزية، كما هو ظاهر من الآية المذكورة.

إرادة الله سبحانه مقرونة بالحكمة البالغة:

* قال في تفسـير الآية (١٦) من سورة الحج: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾: «وإرادتُه سبحانه لا تَـجْري جُزافاً واعتباطاً، وإنما تجري في أمور عامَّـة وقواعد كلِّية مقرونة بالحِكَم البالغة».

لم يُوضِح المؤلف رحمه الله تعالى مقصده من هذه العبارة: «تجري في أمور عامَّة وقواعد كلِّية»، وهي موهِمة. وعلى كُلٍّ، فكلُّ ما يقع في هذا الوجود من صغير الأمور وكبيرها، ودقيقها وجليلها، وعامِّها وخاصِّها، وكليِّها وجزئيِّها؛ إنما هو واقع بإرادة الله تعالى التي لا تنفكّ عن حكمته البالغة سبحانه.

سنة الله تعالى في تزيين أعمال الكافرين:

* قال في تفسير الآية (٤) من سورة النمل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾: «وهذا التزيينُ ليس قصداً وإيجاداً، وإنما هو بحسب السنن الكونيَّة».

قلت: سنَّة الله التكوينيَّة تجري على البَر والفاجر، والمؤمن والكافر. ومنها سنَّة الله في تزيين أعمال الله الكافر، فالذين لا يؤمنون بالآخرة معاندين مكابرين يرون أعمالهم القبيحة حسنة، جالبة لهم لذّات من متاع الحياة الدنيا، فانطمست بسبب كفرهم العنادي بصائرهم بمقتضى سنة الله.

وكونُ التزيين بحسب السنن الكونيَّة لا ينافي كونَه بإرادة الله وإيجاده، فكلُّ ما يجري في هذا الكون ويقع إنما هو بإرادة الله تعالى، تنزَّه أن يقع في ملكه ما لا يريد سبحانه، ولكنه سبحانه وتعالى رتَّب أمور العالم على سنن وقوانين بمقتضى علمِه وحكمتِه؛ ليتمَّ ابتلاء الناس في الحياة الدنيا.

سبب الشرور والمصائب:

* قال في تفسير الآية (١١) من سورة التغابن: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: «فإذا نظر العاقل إلى سائر الشرور والمصائب التي تقع في العالم الإنساني من كليَّة

وجزئيَّة، فرديَّة أو عموميَّة، لم يجد لها علَّة إيجابيَّة، ولكن عللاً سلبيَّة، هي الإعراض والميل عن قوانين الفطرة والانحراف عن سنن الله في خليقته؛ إذ قد أذن الله لقانون الفطرة والطبيعة أن يعاكس من عاكسه وانحرف عنه، وأن يصيبه بأذى، حسب ترتيب نظامه وتكوينه».

قلت: هذا فيه نظر، فمعاكسة السنن هي سبب في إصابة الإنسان بالأذى، وهو واقع عليه بإرادة الله وتقديره، لكن بسبب الإنسان وكسبه، ففعل الله مطلقاً لا يوصف بالأذى، ولكن من حيث هو بكسب الإنسان يوصف بذلك.

لا يخرج شيء في الكون عن إرادة الله:

* نقل المؤلف عن «مجمع البيان» للطبرسي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]: «ليس المراد بهذه الآية أنه سبحانه يشاء كلَّ ما يشاء العبد من المعاصي والمباحات وغيرها؛ لأنَّ الدلائل الواضحة قد دلَّت على أنه سبحانه لا يجوز أن يريد القبائح».

قلت: الله تعالى لا يأمر بالقبيح ولا يرضى به، لكنه مكَّن الإنسان من اختياره، بعد أنْ بيَّن له الخير والشر، والهداية والضلال، فإذا اختاره الإنسان وتوجَّه إليه أراد الله وقوعه منه، لأنه لا يخرج شيء في هذا الوجود عن أن يكون واقعاً بإرادة الله تعالى. وقلت في تفسيري «المعين»: «إنَّ هذه الرسالة رسالة بيان وهداية وموعظة وإرشاد وتذكير دواماً، وليست رسالة إكراه ولا إلزام، فَمَنْ شاء بها آتاه الله من إرادةٍ حُرَّةٍ مُمكَّنةٍ بخلق الله اتَّخذ لنفسه في الدنيا إلى رضوان ربِّه ونعيمه في جنَّته وسيلةً بالطاعة والتقرُّب إليه، ولستم تشاؤون شيئاً إلا إذا منحكم الله المشيئة الحرَّة، ومكَّنكم من استخدامها؛ لتشاؤوا بها طريق نجاتكم وسعادتكم، أو طريق هلاككم وشقائكم، لكنَّ الله ما وضعكم مَوْضع

الامتحان إلا بعد أن منحكم الإرادة الحرَّة، وسائر شروط التكليف، فأنتم مسؤولون مسؤوليَّةً تامَّة عن مشيئاتكم وأعمالكم، إنَّ الله كان عليماً بأحوال خلقه وما يكون منهم، حكيماً حيث خلقهم ووضعهم موضع الامتحان بعد أن منحهم الإرادة الحرَّة، يُدخل من يشاء من عباده المؤمنين في جنَّته بفضله وإحسانه. والظالمين من دَرُكة الكفر أعدَّ الله لهم بعدله في الآخرة عذاباً مُؤْلماً في دار العذاب».

كلامه سبحانه لا كيفيَّة له:

* قال في تفسير الآية (١١) من سورة طه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾: «وكلامه سبحانه مجهول الكيفيَّة كسائر صفات الله العليَّة».

الصواب: أنَّ كلامه سبحانه وتعالى ـ وكذا ذاتُه وسائر صفاته ـ لا تُكيَّف، أي: لا كيفيَّة لها، لا أنها مجهولة الكيفيَّة، وهذا معنى قول السلف: بلا كيف، وقولهم: بلا تكييف.

والكيفية: مصدرُ «كيف»، كما ذكره الزجّاج، ونقله عنه ابنُ منظور في «لسان العرب» (كيف)، والكَيْف: إنما هو حالُ الشيء وهيئتُه، قالَ ابنُ فارس في «معجم مقاييس اللغة» (كيف): «فأما «كيف» فكلمةٌ موضوعةٌ يُستَفهَمُ بها عن حال الإنسان، فيُقال: كيف هو؟ فيُقال: صالح».

ومن المعلوم أن الهيئة والحال إنما يكونُ في الأجسام، أما ذات الله تعالىٰ وصفاتُه فلا يُعتَقَدُ فيها التكييف. ولما شرح المفسر الخطيب ـ رحمه الله ـ مذهب السلف في الصفات ذكر أيضاً جهالة الكيفية وعدم معرفتنا بها. وهذا يقتضي أن لليد والعين والوجه ... كيفيَّات لكنها مجهولة. وهذا مشكل، والصواب ما عليه السلف، وهو: تفويض المعنى إلى الله عز وجل. والله تعالى أعلم.

السمع والبصر صفتان ثابتتان لله عز وجل:

* قال في تفسير الآية (١١) من سورة الشورى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: «أتى بهذين الوصفين؛ لإفادة التَّهديد والتعليل معاً، فمَرْمى التهديد: أنه لا يَخْفى عليه من أمركم خافية، ومرمى التعليل: الإلماع إلى أن كلَّ أعماله مبنيَّة على العلم الواسع والحكمة البالغة، وهذا المعنى مأخوذ من حال الـمُخاطَبين، فإنَّ السمع والبصر مبدأ العلم والحكمة، وأخذُ المعاني من أحوال المخاطَبين هو من أساليب القرآن العظيم لتقريب المعنى إلى الأفهام».

قلت: السمع والبصر صفتان ثابتتان لله تعالى، وهما غير صفة العلم، كما هو مقرَّر في كتب العقائد، وسمعُه سبحانه ليس كسمع خلقه، وبصرُه تعالى ليس كبصر خلقه، وسمعُه وبصرُه بلا أدوات ولا آلات سبحانه وتعالى.

ألفاظ موهِمَة

هل للإنسان قدرة على الإيجاد؟:

* ذكر في مقدِّمات التفسير في لاحقة المقدِّمة الثانية في تفسير بعض آيات تتكرَّر أمثالُها في القرآن، أو هي من الآيات الـمُهمَّة البيان، التي تحتاج في التفسير إلى زيادة توضيح وإتقان في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]: «وذلك بأن يخلقهم كالملائكة، فلا يكون عندكم العلمُ والقدرةُ على الإيجاد والعمل الذي تعملونه الآن، وما تستفيدونه من مواهب الأرض وخيراتها وكنوزها، ولا تصلحون أن تكونوا خلفاء فيها».

قلت: القدرة على العمل مُسلَّمة، وهي كَسْبُ العبد، أما القدرة على الإيجاد فلا، إذ

الإيجاد بقدرة الله وحدها، ولا مدخل فيه لقدرة العبد. اللهم إلا أن يريد بالإيجاد: الصناعة والبناء وتصيير الأشياء من حال إلى حال، فيكون مجازاً.

* وقال في تفسير الآية (٢٠) من سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ معلِّقاً في الحاشية: «إنما سيقت آية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ [البقرة: ٣٠]؛ لبيان الحكمة من جَعْل الإنسان مختاراً في تصرُّفاته لا مقْسوراً كالملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾. وحاصلها: أنه جعله كذلك ليكون ذا علم وإرادة وإيجاد واسعة المدى»، ثم قال: «ولموضع هذا الاختيار في الإنسان الذي خلقه الله عليه ليكون واسع العلم والإرادة والإيجاد..».

قلت: تعبيره بـ«الإيجاد» فيما يكون من الإنسان غير صحيح، فالإنسان له قدرة الاكتساب لا قدرة الإيجاد، إلا أن يريد بالإيجاد: الصناعة وتحويل الأشياء من شكل إلى آخر، وتصييرها من حال إلى حال. وعلى كلٍّ، فاللفظ موهم ينبغي الابتعاد عنه.

لفظ الخلود لا يطلق في حقِّ الله سبحانه وتعالى:

* قال في أول تفسير سورة الفاتحة، وفي ختام التفسير أيضاً: «اللهمَّ لك الحمد حمداً كثيراً خالداً مع خلودك».

لفظ «الخلود» ممَّا لم يرد إطلاقُه في حقِّ الله تعالى، والتعبير به في حقِّ الله تعالى فيه نظر، والذي ورد في النصوص الشرعيَّة هو التعبير بـ«البقاء»، كقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، فينبغي أن يُقال: باقياً مع بقائك، وهو المستعملُ في كلام الفقهاء والمفسِّرين والمتكلمين وغيرهم، والخلود قد يَردُ بمعنى طول المدة، فلا يؤدي معنى البقاء.

إرادة الله لا تقتضي الإجبار على الفعل:

* قال في تفسير الآية (٦) من سورة البقرة: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾: «وفي الكلام إسنادُ الفعل إلى الله مُجَرَّداً عن السبب (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية في خصائص أساليب القرآن)، ومثل هذا إنما هو من مَجَازات اللغة وخصائص القرآن، فتراه في كثير من آياته، فلا تغفل عنه فتفهمَ منه غير المراد، وتظنَّ أنَّ الله سبحانه فعل ذلك بهم قَصْداً».

لا شك أن الله تعالى فعل ذلك بهم قَصْداً، فأفعالُ الله تبارك وتعالى كلها واقعةٌ بإرادته ومشيئته، والذي يظهر أنّ مراد المؤلف رحمه الله: أن الله لم يفعل ذلك بهم ابتداءً دون مباشرتهم سبباً يستحقون به ذلك، وهذا مُسلَّم.

* وقال في تفسير الآية (٢٧) من سورة الرعد: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾: «وليس المراد: أن الله سبحانه يُلقي عليهم الضلال قَصْداً».

قلت: ينبغي أن يقول: «جبراً»، فكلُّ ما يقع في هذا الوجود لا يخرج عن إرادة الله تعالى، فضلال الكافر مرادٌ لله تعالى، لكن باختيار العبد، فلا جَبْرَ فيه.

* وقال في تفسير الآية (٤٤) من سورة القلم: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾: «وليس المراد أنه سبحانه يستدرجهم قَصْداً وفعلاً».

الصواب أن يقال: جبراً وفعلاً، فهذا الاستدراج مرادٌ لله تعالى ومقصود له، لكنه ليس جبراً منه عليهم، ولا فعلاً منه فيهم من غير كسب لهم.

لا تنسب المصلحة إلى أفعال الله سبحانه وتعالى:

* قال في تفسير الآية (٢٢٠) من سورة البقرة: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعارضه شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة العامة».

* وقال عند تفسير الآية (٢٥٣) من سورة البقرة: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾: «والله سبحانه يفعل ما يُريد حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة الخفيَّة عن إدراك البشر. هذا ما قاله الأستاذ الإمام بتصرُّف قليل».

قلت: لو اقتصر المؤلف رحمه الله على ذكر الحكمة لكان أحسن، فقد وردت النصوص الشرعية بوصف الله بها، أما المصلحة فلا، ولا يخفى أيضاً أن المصلحة هنا: هي مصلحة العباد، ومراعاة مصلحة العباد نوع من الحكمة، أما أن تكون المصلحة متعلقة بالله تعالى فهذا لا يُتصوَّر أصلاً في حقِّه سبحانه.

أفعال الله لا تعلَّل بالأغراض وإنما ترتبط بالحكمة:

أفعال الله تعالى مقرونة بالحِكم لا مُعلَّلة بالأغراض، لأن الحكمة هي غاية الفعل، أما الغرض فهو باعثٌ على الفعل داعٍ له، فيكون له تأثير على الفاعل بحيث يُبطل اختياره وكمال إرادته أم يُنقصها على أقل تقدير، ولذلك كان الغرض منفياً في أفعال الله. وقد تكرَّر من المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ وصف أفعال الله تعالى بالغرض، وهذا مما يجب تجنّبه.

* قال في تفسير الآية (٩٧) من سورة المائدة في حكمة تحريمِ صيد الحَرَم وصيد المُحْرِم، وتعليله ضمن البيان عن فوائد الحج: «﴿وَ﴾ للغرض عَيْنِه شرع ﴿ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ وجعله موسماً للحج».

قلت: التعبير بالغرض في أفعال الله تعالى وأحكامه فيه غير سائغ، لأن «الغرض» فيه معنى البعث على الفعل وتشريع الحكم، فيكون فيه نوعُ تأثير، والله سبحانه هو المُؤثِّر في غيره، وغيره لا يؤثر فيه مطلقاً، لذلك ينبغي التعبير بالحكمة، إذ ليس فيها هذا المحذور.

* وقال في تفسير الآية (٨٥) من سورة الحجر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للغرض الصحيح والأمر الحق، وكرَّر العبارة نفسها في تفسير الآية (٣٩) من سورة الدخان: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وفي تفسير الآية (٢٢) من سورة الجاثية: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، وفي تفسير الآية (٣) من سورة الأحقاف: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وفي تفسير الآية (٣) من سورة التغابن: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ومواضع أخرى.

الجواب: في التعبير بـ«الغرض» في حقِّ الله تعالى نظر، فأفعالُ الله سبحانه لا تُعلَّل بالأغراض، وإنما يُبحَث فيها عن الحِكم، والغرض ـ كما تقدم ـ باعثٌ على الفعل داعٍ له، فينافي كمال الإرادة، ولذا يمتنع تعليل أفعال الله بالأغراض، وإنما ترتبط بالحِكَم، لأن الحكمة تابعة للفعل مرتبة عليه.

إطلاق لفظ العلة على أفعال الله تعالى:

* قال في تفسير الآية (٧٨) من سورة النساء: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾: «فأمره أن يردَّ عليهم زعمهم الباطل، ويُرشدهم إلىٰ الحق، ويُبيِّن لهم سنَّة الله في الخلق، بقوله سبحانه: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: حسب سُنَّته في نظام الأسباب والمسبَّبات. ولا ينتج شيءٌ من غير سبب وعلة».

قلت: في هذا الإطلاق نظر، وسيأتي التنبيه على مسألة الأسباب والسنن الكونيّة في هذا المدخل.

هل الإرادة الربَّانيَّة تقتضي الإجبار على الفعل؟:

* قال في تفسير الآية (٨٨) من سورة النساء: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: «وإنما أسند الإضلال إلىٰ الله سبحانه؛ لأن الضلال ناتج من معاكسة الضالِّ

لسُنن الله الدينيَّة، وليس المراد أنَّ الله سبحانه يضلُّه قَصْداً وطبيعة، فالله مُنزَّه عن ذلك».

والجواب: إن ضلال العبد واقع باختياره وكَسْبه، كما أنه واقع بإرادة الله تعالى وخَلْقِهِ، فنفي «القصد» في عبارة المؤلف غير صحيحة، أما الطبيعة فكأنَّ مراده أن الله لم يجبله على الضلال، بل على الاختيار، وهذا معنى صحيح.

والمعنىٰ الراجح في هذه الآية وأمثالـها، وهو ما رجَّحته في تفسيري «المعين»: أتريدون ـ أيها المؤمنون المنخدعون بالمنافقين المتخلِّفين عن الهجرة ـ أن تنسبوهم إلىٰ الهداية مع أنَّ الله قد أثبت لهم الضلال، ومكَّنكم من الحكم عليهم بذلك استدلالاً بأقوالهم وأفعالهم التي تكشف عن حقيقة كفرهم.

لا يجازي الله على السيئة سوءاً:

* قال في تفسير الآية (٩٩) من سورة المائدة: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾: «فيجازيكم علىٰ الإحسان حُسْناً، وعلىٰ الإساءة سوءاً».

قلت: هذا التعبير مما قد يُتسامَحُ فيه من باب المقابلة، لكن الأَوْلى اجتنابُه، تأدُّباً مع الله تبارك وتعالى، ولأن جزاءه سبحانه عَدْل، فلا يُوصَفُ بأنه سُوء مطلقاً، وإنما هو سوء على مَنْ يصيبه، ولذلك قال سبحانه: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]، ولم يقل: ليجزي الذين أساؤوا بالسُّوأى. والله أعلم.

هل يقال: الله قريب بذاته؟

* نقل في تفسير قوله تعالى في الآية (١٨٦) من سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ عن الشيخ محمد عبده في معنى قرب الله تعالى: «يصحُّ أن يكون من قُرب الوجود، فإنَّ الذي لا يتحيَّز ولا يَتَحدَّد تكون نِسَبُ الأمكنة وما فيها إليه واحدة، فهو تعالىٰ قريبٌ بذاته من كلِّ شيء، إذ منه كل شيء إيجاداً ومَدَداً، وإليه المصير».

وقال في تفسير الآية (١٦) من سورة ق: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾: «فهو تعالى قريبٌ بذاته من كلِّ شيء إيجاداً ومَدَداً. والله أعلم. وقد يأتي البحث عن هذا في سورة الواقعة».

وقال في تفسير الآية (٨٥) من سورة الواقعة: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾: «قال الأستاذ الإمام ـ يعني: الشيخ محمد عبده ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]: يصحُّ أن يكون من قرب الوجود، فإنَّ الذي لا يتحيَّز ولا يتحدَّد تكون نِسَبُ الأمكنة وما فيها إليه واحدة، فهو تعالى قريب بذاته من كلِّ شيء، إذ منه كلُّ شيء إيجاداً ومَدَداً، وإليه المصير».

قوله: «بذاته» لم يرد به النص، والأصل في هذه المباحث التقيُّد بالألفاظ المنصوص عليها، وزيادةُ هذه اللفظة يلزمُ منها لوازمُ فاسدة، فينبغي تركُها، وإن كان الشيخ محمد عبده قد احترز عن هذا اللازم الفاسد بقوله قبلها: «فإن الذي لا يتحيَّز ولا يتحدَّد تكون نِسَبُ الأمكنة وما فيها إليه واحدة». وعلى كُلٍّ، فالله تعالى قريبٌ من خلقه بصفاته لا بذاته.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في «فتح الباري»[1]: وقد أخبر سبحانه بقُربه ممَّن دعاه، وإجابته له تعالى، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقد خرَّج البخاري في الدعوات: «إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً»[2]، وفي «المسند»: «إنه أقرب إليكم من أعناق رواحلكم»[3].

---

(١) «فتح الباري» (٣: ١١١-١١٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٦١٠).

(٣) «مسند أحمد» (١٩٥٩٩).

ولم يكن أصحاب النبي يفهمون من هذه النصوص غير المعنى الصحيح المراد بها، فيستفيدون بذلك معرفة عظمة الله وإجلاله، واطلاعه على عباده، وإحاطته بهم، وقربه من عابديه، وإجابته لدعائهم، فيزدادون خشية لله وتعظيماً، وإجلالاً ومهابة، ومراقبة واستحياء، ويعبدونه كأنهم يرونه.

ثم حدَّث بعدَهم مَن قلّ ورعُه، وساءَ فهمُه وقصده، وضعفت عظمة الله وهيبته في صدره، وأراد أن يري الناس امتيازه عليهم بدقّة الفهم وقوة النظر، فزعم أن هذه النصوص تدل على أنَّ الله بذاتِه في كل مكان كما يحكى ذلك عن طوائف من الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهذا شيءٌ ما خطر بمَن كان قبلَهم من الصحابة رضي الله عنهم. وهؤلاء ممن يتبع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وقد حذر النبي ﷺ أُمّتَه منهم في حديث عائشة الصحيح المتفق عليه.

وتعلقوا ـ أيضاً ـ بما فهموه بفهمهم القاصر مع قصدهم الفاسد بآيات في كتاب الله، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

فقال من قال من علماء السلف حينئذٍ: إنما أراد أنه معهم بعلمه، وقصدوا بذلك إبطال ما قاله أولئك مما لم يكن أحد قبلهم قاله ولا فهمه من القرآن.

وحكى ابنُ عبدِ البرّ وغيره إجماع العلماء من الصحابة والتابعين في تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] أن المراد علمه، وكل هذا قصدوا به ردَّ قول من قال: إنه تعالى بذاته في كل مكان.

وزعم بعض من تحذلَق أن ما قاله هؤلاء الأئمة خطأ، لأن علم الله صفة لا تفارق ذاته.

وهذا سوء ظنٍّ منهم بأئمة الإسلام، فإنهم لم يريدوا ما ظنّه بهم، وإنما أرادوا أن علم الله متعلق بها في الأمكنة كلها، ففيها معلوماته لا صفة ذاته، كما وقعت الإشارة في القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]».

ثم قال: «وهذا كله يدل على أن قرب الله من خلقه شامل لهم، وليس هذا القرب كقرب الخلق المعهود منهم؛ كما ظنّه مَن ظنه من أهل الضلال، وإنما هو قربٌ ليس يُشبِه قُرْبَ المخلوقين، كما أن الموصوف به ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقال ابن القيم في «مدارج السالكين»: «أمّا ما ذكرتُم من القرب، فإنْ أردتم عموم قربِه إلى كل لسان من نطقه، وإلى كل قلب من قصده، فهذا لو صحَّ لكان قرب قدرة وعلم وإحاطة، لا قُرباً بالذات والوجود، فإنه سبحانه لا يمازج خلقَه ولا يُخالطُهم ولا يتَّحِدُ بهم .. وإن أردتُم القُرْبَ الخاص إلى اللسان والقلب، فهذا قرب المحبة وقرب الرضا والأُنس، كقرب العبد من ربِّه وهو ساجد، وهو نوع آخر من القرب، لا مثال له ولا نظير، فإنَّ الروح والقلب يقربان من الله وهو على عرشه، والروح والقلب في البدن.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]؟

قيل: هذه الآية فيها قولان للناس، أحدهما: أنه قُربه بعِلمِه، ولهذا قرنَه بعلمِه بوسوسة نفس الإنسان .. والقول الثاني: أنه قُربه من العبد بملائكته الذين يَصِلون إلى قلبِه فيكون أقرب إليه من ذلك العرق، اختاره شيخنا ـ يعني ابن تيمية» ـ انتهى. وينظر ما علَّقته في شرحي لرسالة «العقيدة الإسلامية» للمكي بن عزوز(١).

---

(١) «شرح العقيدة الإسلامية» لمجد مكي: ص ٨٤-٨٧.

تسبيح الكائنات لله عز وجل

تأويله التسبيح بالدلالة على عظمة الله تعالى:

* قال في تفسير الآية (٤٤) من سورة الإسراء: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾: «أي: تدلُّ هذه المخلوقات العظيمة البديعة الصنع المحكمة الإتقان علىٰ انفراده سبحانه بالألوهيَّة، وتسبِّح له وتُنزِّهُه عن الشريك والمثال».

قلت: هذه الآية تدلُّ علىٰ أنَّ الأشياء كلَّها تعرف ربَّها، وأنه مُتَّصف بالكمال المُطْلق، ومُنزَّه عن النقائص والعيوب، ولذلك فهي تُنزِّهُه عمَّا لا يليق به، وتصفُه بالمحامد والكمالات اللائقة به.

وتخبر هذه الآية عن تسبيح الأشياء وحمدها علىٰ وجه الحقيقة، عن معرفةٍ به سبحانه، وعن نطق صادر عنها، وتُثبت أن ذلك حق وحقيقة، وتنفي تأويلها بغير ذلك، أو أن ذلك من باب المجاز، أو من باب دلالة الحال دون المقال، فيقول سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: ولكن لا تفقهون تسبيحها وحمدها، لأنَّها ليست من جنسكم، فقد تسمعون صوتها، ولكن لا تفهمون معنىٰ ذلك، كأصوات الطيور ونحوها، وربما لا تسمعون ولا تفقهون كتسبيح النبات والجماد ونحوها، فلو لم يكن تسبيح الأشياء حقيقياً واعتقاداً وقولاً لَـمَا احتاج الأمر إلىٰ هذا الاستدراك، فإنه لو كان تسبيحها وتحميدها من باب دلالة المخلوق علىٰ الخالق، لما قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

ومما يدل على أن تسبيح الأشياء وتحميدها هو حقيقة واقعة، وليس من باب الاستدلال ودلالة الحال، قوله تعالى فيما أكرم به عبده داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]؛ فكانت الجبال تسبح معه في العشي

والإشراق، فلو كان ذلك من باب دلالة الحال، لما اختصَّت في هذَين الوقتَين، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] أي: ردِّدي التسبيح النطقي، فهي تسبح الله تعالى مع داود تسبيحاً خاصّاً، وإن كانت الجبال وجميع بقاع الأرض في كل الأوقات تسبِّح الله تعالى وتذكّره.

ومما يدل على معرفة الأشياء بخالقها وتسبيحها له حقيقة قوله سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الصف: ١]، وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١]، فالعموم المفهوم من قوله تعالى: ﴿مَا﴾ يعمُّ جميع الكائنات، فكلها تسبح الله حقيقة[١].

قال الإمام السبكي في «الطبقات»[٢]: «وذهب قوم إلى أنَّ كلَّ شيء من جماد وغيره يسبح الله بلسان المقال، وهذا هو الأرجح عندنا؛ لأنه لا استحالة فيه، ويدلّ له كثير من النقول».

وفي «صحيح البخاري»[٣]: أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهو يُؤكَل عند النبي ﷺ، وفي «صحيح مسلم»[٤] أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أُبعث»، وخبر الجذع في هذا الباب مشهور[٥].

---

(١) ينظر كتاب العلامة المفسر الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى «هدي القرآن إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان» ص٣٢٨- ٣٣٣.

(٢) «الطبقات» للسبكي (٨: ٩٤-٩٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٥٧٩).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٢٧٧).

(٥) «سنن الترمذي» (٣٦٢٧)، و«سنن ابن ماجه» (١٤١٥).

إلى غير ذلك من أخبار وآيات تشهد لمن يحمل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] على عمومه، غير أنَّا نقول: لا نسلم من تسبيحها بلسان المقال أنَّا نسمعها، وإنما يكون ذلك على سبيل المعجزة، كما يسمعون تسبيح الطعام عند المصطفى ﷺ، أو على وجه الكرامة» انتهى ملخصاً.

وقال الإمام ابن رجب في «فتح الباري»[1]: «وخرج الإمام أحمد والنسائي عن البراء ابن عازب أن النبي ﷺ قال: «المؤذن يغفر له مدَّ صوته، ويصدِّقه من سمعه من رطب ويابس، وله مثل أجر من صلى معه»[2]، وقوله: «كل رطب ويابس» يدل على أن الجمادات سواء كانت رطبة أو يابسة، فإن لها سماعاً في الدنيا وشهادة في الآخرة، ومنها: إدراك الجمادات ونطقها، وقد أثبت ذلك جمهور السلف سواء كانت رطبة أو يابسة كما دل عليه قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وخصَّ الحسن التسبيح بما كان رطباً قبل أنْ يَيبس، والجمهور على خلافه، وأما من قال: تسبيحها دلالاتها على صانعها بلسان الحال، فقول ضعيف جدّاً، والأدلة الكثيرة تبطله» انتهى[3].

* وقال في تفسير الآية (١٣) من سورة الرعد: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾: «والمراد من التسبيح هنا: لازِمُه، وهو الإيذان بتنزيه خالقه سبحانه عن الشريك والمثال، أي: يدلُّ بعظمة تكوُّنه وعجيب نظامه دلالةً واضحة علىٰ استحقاقه تعالىٰ وحده لأن يُعبَدَ ويُحمَد، وأن يُنزَّه عن الشريك والمثال في هذه الأعمال».

---

(١) «فتح الباري» (٥: ٢٢٧).

(٢) «المسند» (١٨٥٠٦)، و«سنن النسائي» (٦٤٦).

(٣) وينظر أيضاً: «فتح الباري» لابن رجب (٤: ٢٤٤- ٢٤٥).

قلت: بل المراد به حقيقتُه، فالرعدُ يسبِّح بحمد ربِّه عن معرفةٍ به، وعلىٰ وَجْهِ الحق والحقيقة؛ إذ لا يمتنع أن يخلق الله له إدراكاً يناسبه، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

تأويله السجود بالانقياد والخضوع:

* وقال في تفسير الآية (١٥) من سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾: «أي: ينقاد ويخضع لأنظمته وسننه تعالىٰ في هذا الكون».

قلت: المراد بالسجود في هذه الآية: أن جميع من في السماوات والأرض تسجد لله تعالىٰ خالقها، ولكن سجود كل نوع علىٰ حسب هيئته، وصورة خلقه. فكلٌّ يسجد علىٰ حَسَبِهِ سجوداً حقيقياً.

تسبيح مَن في السماوات والأرض:

* قال في تفسير الآية (٤١) من سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾: «وتسبيحُها هو ما يُرىٰ عليها من الإبداع والإتقان في صفة الطيران، وفي أسبابه ومُهيّآته من خِلقتها وطبيعتها وهدايتها له، لأن ذلك يدلُّ علىٰ قُدرة المُبْدع وحِكمتِهِ واختِصاصِهِ بصفة الألوهية، وهو معنىٰ التسبيح والتنزيه».

ثم قال: «﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾ اللهُ سبحانه وتعالىٰ ﴿صَلَاتَهُ﴾ وهذا في حقِّ المؤمنين من العقلاء ﴿وَتَسْبِيحَهُ﴾ وهذا في حقِّ غير العقلاء».

قلت: أخبر سبحانه في هذه الآية عن تسبيح مَنْ في السماوات من الملائكة عليهم السلام والأرواح، وعن تسبيح مَنْ في الأرض من الملائكة والأناسيّ والجان، وجميع أنواع الحيوان والنباتات والجمادات.

ثم أخبر سبحانه عن تسبيح الطير، فقال: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖ﴾، فهو معطوف علىٰ ﴿مَن﴾، والمعنىٰ: أن الطير تُسبِّح ربَّها في حال طيرانها، وهي صافَّاتٌ أجنحتَها، وإنما خصَّها بالذكر مع أنها داخلة في عموم مَنْ في الأرض، لأنها غير مستمرة في القرار علىٰ وجه الأرض، كما هو في سائر الحيوانات، ليدفع وَهْمَ مَنْ يتوهم أن التسبيح قاصرٌ علىٰ المستقرين علىٰ وجه الأرض من المخلوقات، ولينبِّه إلىٰ التفكر في قدرة الله تعالىٰ الذي يمسكها في جوِّ السماء.

وتسبيح مَنْ في السماوات والأرض لله: هو تسبيح حقيقيٌّ، لا ما يُرى عليها من الإبداع والإتقان ـ كما قال المؤلف ـ وهذا التسبيح الحقيقي يكون على وجه ملائم لكل مخلوق، وكون الإنسان لا يُدركه لا ينفيه.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ فهي جملة استئنافية، جاءت جواباً عن سؤال مقدَّر، وهو أن الله تعالىٰ لما أخبر عن تسبيح الأشياء كلِّها فكأن سائلاً سأل: هل لتلك الأصناف التي تسبِّح ربها حتىٰ الطيور والحيوانات والنباتات والجمادات، هل لها معرفة حقيقية بربها؟ وهل لها علمٌ بصيغة تسبيحه سبحانه؟ فجاء الجواب: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ أي: كلٌّ قد علم حقيقة تسبيحه لله تعالىٰ، وكيفيَّة صلاته كما علَّمه الله ذلك، وألهمه إياه، وكلٌّ يصلي ويسبح علىٰ وجه متناسب معه، وعلىٰ حسب ما علَّمه الله تعالىٰ، وعلىٰ كيفية تليق بذلك الشيء.

تسبيح الجبال والطير مع داود عليه السلام:

* قال في تفسير الآية (٧٩) من سورة الأنبياء: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾: «وقيل: عندما كان داود عليه السلام يستغرق في التَّسبيح، يشعر بأن الجبال والطير يُشَارِكْنَه في ذلك. والله أعلم. فالكلام إلماعٌ لهذه الظاهرة في الشعور».

قلت: ليس في هذا خصوصيَّة لداود ومنَّة وفضل عليه، لو كان مجرَّد شعور كما ادعاه المؤلف غفر الله له، بل المراد أنها تسبِّح الله بنُطق منها علىٰ الحقيقة.

* ثم قال: «وقال البلخي: يجوز أن يكون هذا إشارةً إلىٰ ما أعطاه الله من حُسْن الصَّوت بقراءة الزبور، فإذا قرأه بين الجبال ردَّت عليه مِثلَه من الصَّدىٰ، فسُمّي ذلك تسبيحاً».

قلت: هذا قولٌ غير مقبول؛ لأنَّ صدىٰ الأصوات عند الجبال لا يختصُّ بداود، ولا يكون في ذلك مِنّةٌ وفضل علىٰ داود عليه السلام، بل هو تسبيحها النُّطقي معه عليه السلام.

* ثم قال: «وقال الـجُبَّائي: معناه: وفَّقنا الجبالَ له، فحيثُ سار صادف جبالاً يتَّخذ منها مقاعد مكينة للقتال، فالمراد: توفيقه في القتال وتهيئة الأسباب له، وعبَّر عن هذا بالتسبيح لما فيه من الآية العظيمة، وهي استجابةُ الأشياء للمتَّقين بتسخير الله إيَّاها لهم، لا سيما في حروبهم الدينية أثناء دعوتهم؛ لأنها لنشر الدين، وكذلك تسخير الطير له ليستخدمها في المرسلات وغيرها، فهو تسبيحٌ بهذا المعنىٰ».

قلت: الجبال والطير تُسبِّح بنُطق منها علىٰ الحقيقة، وليس هو من باب الاستجابة له، وخضوعها لاسمه، يدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ ـ فيما أكرم به نبيَّه داود ـ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨ - ١٩]، فكانت الجبال تُسبِّح مع داود، وتردُّد التَّسبيح معه في العشيِّ والإشراق، فلو كان ذلك من باب التَّسخير ودلالة الحال ونحو ذلك؛ لما اختصَّت بذلك في هذين الوقتين.

* ثم قال: «والأَوْلىٰ أن نُحيلَ الأمر إلىٰ علم الله سبحانه ولا نخوض فيه، ونعتقد بالجملة أنه كرامة أكرم الله بها نبيَّه وخصَّه بها».

قلت: بل الأَوْلى أن نُثبِتَ التسبيح على حقيقته، ثم نُحيل الكيفيَّة في ذلك إلى علم الله تعالى، لأن الحقيقة غير ممتنعة، والكيفيَّة غيبٌ لا تدركه عقولنا إلا بخبر، فنقف عند حدود النص ولا نتجاوزها.

تسخير الجبال لداود عليه السلام وتسبيحها معه آخر النهار ووقت الضحى:

* قال في تفسير الآية (١٨) من سورة (ص): ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾: «وقد سبق زيادةُ بيان لـهذه الآية في سورة الأنبياء[1]، فارجع إليه. ومُحصَّله: أنه سبحانه ذلَّل له ما يحتاجه، وسخَّر له بعض الكونيَّات على خلاف المألوف والمعتاد من أمر الجبال».

تقدَّم تضعيف هذه التَّجويزات التي يسوقها المؤلف في تفسير الآية، حيثُ إنها تخرج بالمعجزة عن فحواها، كما أن السياق يُضعِفها، والصواب: إجراء الآية على ظاهرها، وذلك بأن يُقال: إنَّ تسبيح الجبال والطير كان حقيقة، على خلاف السنَّة الجارية والعادة الظاهرة، وهذا هو وجه الإعجاز الذي أكرم الله به داود عليه السلام.

تسبيح السماوات والأرض والمخلوقات لله عز وجل بلسان الحال والمقال:

* قال في تفسير الآية (١) من سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: «وتحقيق ذلك: أنَّ مؤمني العقلاء ـ وهم الملائكة وبعض الإنس والجن ـ يسبِّحون الله سبحانه قولاً وفعلاً واعتـقاداً، وسائر الحيوان والنبات والجماد وكفار الإنس والجن تسبيحُها: ما أودَعَ الله سبحانه في خِلقـتِها من حكمة وإبـداع وإتقان وانقياد طبيعي، إذ كلُّ ذلك يدلُّ دلالةً واضحةً على خضوع سائر المخلوقات لله طبعاً،

---

(١) في الآية (٧٩) منها.

وعلى عَظَمة الخالق واختصاصه بالألوهية، وهذا هو معنى التسبيح، لا معنى له سواه».

تقدَّم أن السماوات والأرض والحشرات والحيوانات والجمادات تُسبِّح الله تعالى بلسان الحال ولسان المقال، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. أما الكافر فإنه يسبِّح الله بلسان الحال لا بلسان المقال، لأنه يصف الله بكل نقص، وربما أنكره، لكن حاله وخلقته وتصرُّفاته هي تسبيح لله عز وجل.

تسبيح العقلاء والحيوانات والنباتات والجمادات:

* قال في تفسير الآية (١) من سورة الحشر: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: «أما تسبيح العقلاء فباللسان والجنان، وأما تسبيح الحيوان والنبات والجماد فبدلالتها على عَظَمة الخالق، بما فيها من حكمة وإبداع يدلان على اختصاص المُبْدع سبحانه بالألوهيَّة(١)، وذلك هو معنى التسبيح».

قلت: بل الحيوان والنبات والجماد يُسبِّح لله تعالى عن معرفة به، وعن نُطق صادر عنها، وذلك حقٌّ وحقيقة، وليس من باب المجاز، أو دلالة الحال دون مقال، كما سبق في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكما تقدَّم في قوله تعالى فيما أكرم به نبيَّ الله داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]. ثم إن العموم المفهوم من قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعمُّ جميع الكائنات؛ من حيوانات ونبات وجماد، فكلُّها تسبِّح لله تعالى حقيقةً على وجه مناسب لها.

---

(١) الصحيح في اللغة أن يقال: الإلهيَّة. لأنها مصدر صناعي.

عالم الملائكة الكرام عليهم السلام

حقيقة الملائكة:

* قال في تفسير قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾: «قال الأستاذ الإمام: إذا صحَّ الجريُ على أنَّ الملائكة تُطلَقُ أيضاً على القوى والخاصيَّات الموجودة في المخلوقات، إذ إنَّ كل أمر كلِّي قائم بنظام مخصوص تمَّت له الحكمة الإلهيَّة في إيجاده، فإنما قِوامه بروح إلهي سُمِّي في لسان الشرع: مَلَكاً، فلا يُستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلى أنَّ الله تعالى لـمّا خلق الأرض ودبَّرها بما شاء من القوى الروحانيَّة التي بها قوامها ونظامها، وجَعَل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات، لا يتعدّاه ولا يتعدّى ما حُدِّد له، من الأثر الذي خُصَّ به؛ خَلَق بعد ذلك الإنسان وأعطاه قوة بها يكون مُستعداً للتصرُّف بجميع هذه القُوى المحيطة به وتسخيرِها في عمارة الأرض، وعبَّر عن تسخير هذه القُوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتَّسخير، وجعله ـ بهذا الاستعداد الذي لا حدَّ له، والتصرُّفِ الذي لم يُعط لغيره ـ خليفةً لله في أرضه، لأنه أكمل الموجودات في هذا الأرض، واستثنى من هذه القوى واحدة عبَّر عنها بإبليس، وهي التي تُعارض اتِّباع الحق، وتصدُّ عن عمل الخير، وتُنازع الإنسان في صَرْف قواه إلى المنافع والمصالح التي تتمُّ بها خلافته، فيصل إلى الكمال الوجودي تلك الخلافة التي خُلِقَ مُستعداً للوصول إليها». انتهى بتصرُّف[1].

قلت: قوله نقلاً عن الشيخ محمد عبده عن الملائكة الكرام عليهم السلام: «أنهم القوى والخاصيَّات الموجودة في المخلوقات»: كلامٌ غير سائغ لا يجوز اعتقادُه في الملائكة،

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٢٣- ٢٢٤).

فإن الملائكة مخلوقات مستقلة بأنفسها ووظائفها عن المخلوقات الأخرى، ويجب الإيمان بهم، وهو ركن من أركان الإيمان الستة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وفي «صحيح مسلم»(١) أن النبيّ ﷺ سئل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خيره وشره». انتهى.

وقد وصف الله الملائكة بأنهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال فيهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، وقال فيهم أيضاً: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]. وفي «صحيح مسلم»(٢) عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «خُلِقَت الملائكةُ من نور».

وقد جعل الله تعالى لهم أجنحة يطيرون بها، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١].

وثبت في «الصحيحين»(٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستُّ مئة جناح.

وقد منحهم الله تعالى عِظَمَ الخلق، ففي «سنن أبي داود»(٤) عن جابر رضي الله

---

(١) «صحيح مسلم» (٨).

(٢) المصدر السابق (٢٩٩٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٢٣٢)، «صحيح مسلم» (١٧٤).

(٤) «سنن أبي داود» (٤٧٢٧).

عنه، عن النبي ﷺ قال: «أُذِنَ لي أن أُحدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكة الله من حَمَلةِ العرش، إنّ ما بين شَحْمةِ أُذُنِه إلى عاتقه مسيرةُ سبع مئة عام».

ومن الملائكة مَنْ هم مُوكَّلون من قِبَلِ الله عزّ وجلّ بتدبير بعض الأمور في السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

ولا يخفى ما فيه كلام الشيخ محمد عبده الذي نقله وأقرَّه مِن تكلُّف شديد، وتأويل بعيد، بلا قرينة تدل عليه، ولا إشارة تُومئ إليه، وهو مبنيٌّ على قوله في أوله: «إذا صَحَّ الجريُ على أن الملائكة ...»، وكيفَ يصحُّ هذا وهو مُصادِمٌ لصريح الآيات؟!

وسجود الملائكة لآدم سجودٌ حقيقي، فإنهم قد امتثلوا كلُّهم أمر الله بالسجود، ويدل لهذا تأكيدُ سجودهم بالمؤكدات في قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [صَ: ٧٣]. وقد أعلم الله سبحانه وتعالى الملائكةَ قبل خَلْق آدم عليه السلام بأنه سيخلق ﴿بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]، وتقدّم إليهم بالأمر متى تمَّ خَلقُه وتسويتُه أن يسجدوا إكراماً له، وإعظاماً وامتثالاً لأمر الله عز وجل، فامتثل الملائكة كلهم ذلك، إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين، وقد وردت هذه القصة في سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وصَ.

ولم يخبرنا الله تعالى أن أحداً غير إبليس امتنع من السجود، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾.

وتأويلُ السجود بتسخير القوى باطل، وينظر تعليقي على كلامه عند تفسير هذه الآية.

إمداد المؤمنين بالملائكة:

* نقل الشيخ الخطيب عن «المنار»(١) في تفسير الآية (١٢٤) من سورة آل عمران: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾: «أن إمداد الملائكة للمؤمنين إنما هو بالإلهامات الصَّالحة التي تُثَبِّتهم وتُقَوِّي عزيمتهم».

* وقال في تفسير الآيتين (٩، ١٠) من سورة الأنفال في إمداد المؤمنين بالملائكة: ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾: «أنَّ هذا الإمداد أمرٌ روحانيّ، يؤثِّر في القلوب فيزيد في قوتها المعنويَّة».

والجواب: هذا نوعٌ من إمداد الملائكة للمؤمنين، وحَصْرُ الأمر فيه خطأ، فقد ثبت أن الـملائكة قاتلت يوم بدر، وفي آية سورة الأنـفال: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] دلالـةٌ على ذلك مع ما ورد فيه أيضاً في أخبار السيرة.

تأويله للملائكة المعقِّبات بالقوى الطبيعية!!

* قال في تفسيـر الآية (١١) من سورة الرعد: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾: «أقول: وقد يُعبِّر القرآن والحديث بالملائكة أحياناً عن القوىٰ الخفيَّة الصَّالحة النافعة، فيجوز أن يُراد هنا: القوىٰ الطبيعية في الإنسان التي تولِّد المناعة في الجسم، وتحفظه من كثير من الأمراض والأعراض، ويكون معنىٰ التعقيب: الـمُلازَمة له وعدم الانفكاك عنه، أو التَّجدُّد في هذه القوىٰ».

قلت: لا يعبِّر القرآن عن الملائكة بالقوىٰ الخفيَّة الصالحة، بل عالم الملائكة أمر

---

(١) «تفسير المنار» (٤: ٩٢).

حقٌّ يجب الاعتقاد بوجودهم، والإيمان بصفاتهم، وجميع النصوص القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة تدلُّ دلالة قاطعة علىٰ حقيقة وجودهم، بمعنىٰ أنهم ذواتٌ موجودة، متَّصفة بصفات حميدة، وأعمال رشيدة، وأقوال سديدة، وليسوا عقولاً مجرَّدة، ولا من معاني النفوس البشريَّة السعيدة الـمُسْعِدة، وإنما هم عالم حقيقي الوجود.

ومجمل الإيمان بالملائكة: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالىٰ خلق عالماً أسماه بالملائكة، وهم: أرواح قائمة في أجسام لطيفة نورانيَّة، قادرة علىٰ التمثُّل بأمثلة مختلفة، بإذن الله تعالىٰ، لا يُوصَفون بأنوثة ولا ذكورة.

وينظر الرد المفصَّل على هذا التأويل فيما كتبه فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان في المدخل القادم من هذه المقدمة.

ليست أجنحة الملائكة كناية عن طبيعتهم في سرعة الانتقال:

* قال في تفسير الآية (١) من سورة فاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: «وليست هذه الأجنحة كأجنحة الطير، لأنَّ عالم الملائكة لا يشبه شيئاً من عالم المادة، وغاية ما يمكننا أن نفهمه عنها أنها أعضاء أو هيئات فيهم، لسرعة الانتقال، متناسبة مع خِلْقتهم وأجسامهم، أو هي كناية عن طبيعتهم في سرعة الانتقال ليس إلا».

قلت: هذا القول فيه العدول عن الحقيقة إلى المجاز من غير قرينة دالة عليه، والحقيقة غير ممتنعة على الوجه المشروح أولاً، وهو عدم مشابهتها لأجنحة الطيور، فيتعيَّن القول بها، ثم قد ثبتت رؤية النبي ﷺ لجبريل على صورته الحقيقية مرتين، وله ست مئة جناح، وهذا التعدُّد فيها يمنع القول بأنها كناية.

الملائكة الحفَظَة:

* قال في تفسير الآية (٤) من سورة البروج: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾: «قال المفسِّرون: أي: من الملائكة، يحفظ فِعلَها وقولها.

وقال الأستاذ الإمام ـ يعني محمد عبده ـ: المعنى: أنَّ كلَّ نفس عليها حافظٌ ورقيبٌ يُراقبها في جميع أطوار وجودها، حتى تنتهي إلى أجلها، وذلك الحافظ الرقيب هو الله».

قلت: الصواب في تفسير هذه الآية: أنَّ المراد بالحافظ الملائكة، كما روي عن ابن عباس: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ إلا عليها حافظٌ من الملائكة، وإسنادُه صحيحٌ كما قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»[(١)].

وفي «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزّي[(٢)]: ومعناه عند الجمهور: أنّ كلَّ نفس من بني آدم عليها حافظ يكتب أعمالها، يعني: الملائكة الحَفَظَة. انتهى.

ولا مانع من إطلاق الحفظ على الملائكة، فقد قال الله تعالى في شأنهم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، وقال الله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، وذكر ابن كثير في «تفسيره»[(٣)]: أنهم أربعة بالليل وأربعة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الحسنات والسيئات، واثنان من ورائه وأمامه يحرسانه. انتهى.

---

(١) «فتح الباري» (٦: ٣٦٥).

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزي (٢: ٤٧١).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤: ٤٣٧).

وقال ابنُ رجب في «جامع العلوم والحكم»(١): قال ابنُ عباس: هم الملائكةُ يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القَدَرَ خَلَّوا عنه.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: إنّ مع كلِّ رجل مَلَكَين يحفظانه ممّا لم يُقدَّر، فإذا جاء القَدَرُ خَلَّيا بينه وبينه، وإن الأجل جُنّة حصينة.

وقال مجاهد: ما من عبد إلا وله مَلَكٌ يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه إلا قال له: وراءك، إلا شيئاً أذِنَ اللهُ فيه، فيُصيبه.

عالم الجن والشياطين

ليس الشيطان قوَّة نزَّاعة إلى الشر:

* قال في مقدِّمة التفسير: «إنَّ لكل إنسان شيطاناً، وهي قوَّةٌ نزَّاعة إلى الشرّ، يحدث منها في نفس الإنسان خواطر السوء، فيقاومها العقل، حتى تكون الغلبة لأحدهما، فإن كان العقل لم يُفسِده صاحبه فالغَلَبة له، وإلا فالغَلَبة لها».

وقال بعد أن قسم النفس الإنسانيَّة إلى ذات سفلى وذات عليا وضمير: «فالذات السُّفلى إذا غلبت تهوي بالإنسان إلى أسفل سافلين، فلذلك حذَّر منها القرآن، وعبَّر عنها بهذه القوَّة الشريرة التي يُمثِّلها الشيطان، أو هو عبارة عنها».

خلق الله النفس الإنسانية على استعداد لكلٍّ من الخير والشر، ودعا المكلفَ إلى مجاهدة النفس، وتزكيتها، وربط الفلاح بالتزكية، كما جعل الخيبة عاقبة للتدسية.

تفيد العبارة أن ما فينا من توجُّهات للشر، هي التي يطلق عليها أنها «الشيطان»، وهذا الإطلاق مرفوض، لأن الشيطان ذات له وجود منفصل عن وجود الإنسان، ولا يمنع أن يوظف نزغة الشر في النفس استعداداً بتحريضها على الشر.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١: ٤٦٥).

مسألة الغرائز التي وصفها بالهمجية غير واضحة، خاصة أنه جعلها همجية حيث لا تخضع لعقل أو ضمير. فالفطرة التي فطرنا عليها لنؤدي وظيفتنا الراقية في الحياة لا تستوي إلا بالمنهج الذي يمثله القرآن والسنة، وما استنبط منهما، وكلمة «الضمير» عائمة، وهي بديل عن مثل مقام المراقبة ومقام الإحسان. وينظر تعليقي على كلام المؤلف حول الذات السفلى وصلتها بالأخلاق والشيطان فيما يأتي ص ٥٦١.

* وقال في مقدِّمات التفسير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧–٣٨]: «فهناك ينتهي أثر هذه القوّة الشريرة في الإنسان. ويجوز أن تكون الآية تمثيلاً لبقاء هذه القوّة ببقاء الإنسان في الدنيا مدَّة عمره».

قلت: إن الآية المذكورة لا يراد بها مُجرَّد التمثيل، فإبليس سأل حقيقةً وأجابه الله تعالى حقيقةً، كما أخبر تعالى في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٨].

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن»: قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾، هذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى، وأنه أهلٌ أن يُجابَ له دعاء، ولكن سأل تأخير عذابه زيادةً في بلائه كفعل الآيس من السلامة، وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون: ألَّا يموت، لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ يعني: من المؤجلين ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾. انتهى[1].

والأصل حَمْلُ ألفاظ القرآن على حقائقها اللغوية أو الشرعية أو العُرْفية لأنها الأصل، ما لم يترجَّح المجاز بشهرة أو غيرها، وبناء عليه فلا يحمل اللفظ القرآني على

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠: ٢٧).

التمثيل والرمز إلا بدليل أو قرينة تصرفه إلى المجاز، ولا قرينة هنا تصرف الكلام عن ظاهره.

قال السبكي في «الأشباه والنظائر»: حَمْلُ اللفظ على ما يتبادر إلى الذهن أَوْلى، ومن ثَمَّ يُحمَلُ على الحقيقة ما لم يترجح المجاز بشهرة أو غيرها. انتهى(١).

«ولو تأمل المتكلم الكلام، وأعطاه حقَّه من التأمل؛ لعلم أن القرآن المبين ليس فيه شيء تكون معانيه رمزية، فإن الرموز مخالفة لبيان القرآن الكريم، بعيدة عن دلالاته، كيف وقد قال الله عنه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، وقال في وصفه: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١ - ٣]، وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، فكيف يكون هذا القرآن العظيم الذي نزل تبياناً لكل شيء، وفصِّلت آياته، ووَصَفَه من أنزله بأنه مبين، وأنه جعله قرآناً عربياً من أجل عقله وفهمه.

إذا كنا نمنع منعاً باتاً الدلالات الرمزيَّة في الأحكام التكليفيَّة؛ التي متعلَّقها أعمال العباد التي قد يسوغ الاجتهاد في بعضها حسبما تقتضيه الشريعة، فكيف نسوغ لأنفسنا أن نعمل بالدلالات الرمزيَّة في الأخبار المَحْضة التي لا مجال للرأي فيها بوجه من الوجوه؟

إننا لو سوَّغنا ذلك لأنفسنا لتلاعب الناس في كلام الله وكلام رسوله، وصار كلُّ واحد من الناس، أو كلُّ طائفة من الناس تدَّعي أن هذه الآية أو هذا الحديث رمزٌ لكذا وكذا، فتبطل الشريعة بهذا المعيار عقيدةً ومنهجاً.

---

(١) «الأشباه والنظائر» (١: ٢٧٤).

تأويله للشيطان بالذات السفلى والقوة الشريرة:

* قال في تفسير الآية (٣٤) من سورة البقرة: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾: «فالذات السُّفلى إذا غلبت تهوي بالإنسان إلى أسفل سافلين. لذلك حذَّر منها القرآن وعبَّر عنها بهذه القوة الشريرة التي يُمثِّلها الشيطان، أو هو عبارة عنها».

قلت: هذا فهم غير صحيح نشأ عن معنًى فاسد، فالذات السُّفلى أو النفس الأمَّارة بالسوء يُوسوِسُ لها الشيطان ولا يمثِّلها، وليس هو عبارة عنها.

كأن الشيخ رحمه الله يريد أن يقول: لا يوجد شيطان غير ذات الإنسان السفلى التي هي القوة الشريرة !! وقد سألت فضيلة الشيخ إبراهيم النعمة تلميذ المؤلف عن هذه العبارة فأجابني: لا تفيد عبارة الشيخ إنكار وجود إبليس، وتفسيره للآيات التي ورد فيها لفظ [إبليس] يشهد لذلك، وكثيراً ما كان يرد اسم [إبليس] في دروسه، فيفسّره كما يفسّره مفسرونا. وينظر تعليقي على كلامه ص ٥٦١.

* وقال أيضاً عند تفسير الآية (٦٥) من سورة الإسراء: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾: «يقول علماء النفس ما مُحصَّله: إن الذات البشرية تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: الذات السفلىٰ، والذات العليا، والضمير.

فالذات السفلىٰ هي التي تتكوَّن من التربية السيئة التي تجمّل الغرائز في حالتها الهمجية، وكلُّ همِّها أن تصل إلىٰ أهدافها، وإن أساءت التصرُّف، وعبثت بالقيود الاجتماعية والقوانين النظامية من شرعيَّة ووضعية، ولا تريد أن تخضع للعقل والضمير.

والذات العليا هي التي تتكوَّن من التربية الحسنة والنشأة السامية والثقافة

والتهذيب الصحيحَيْن، ويكون همُّها التمثُّل بالمثل العليا والتفوُّق في ذلك بمعونة العقل والضمير.

فالذات السفلىٰ إذا غلبت تهوي بالإنسان إلىٰ أسفل سافلين، ولذلك حذَّر منها القرآن، وعبَّر عنها بهذه القوة الشِّرِّيرة التي يُمثِّلها الشيطان، أو هو عبارة عنها. والله أعلم».

قلت: كون الشيطان يُمثِّل القوة الشريرة في الذات البشريَّة، أو هو عبارة عنها؛ غير صحيح، بل الشيطان مخلوق من النار أُوتي قوة يستطيع بها أن يوسوس لبني آدم من حيث لا يشعرون، وهو يُغذِّي هذه القوة الشريرة في الذات البشرية ويُنمِّيها، لا أنه عبارة عنها.

* وقال في تفسير الآية (٥) من سورة التين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: «فالذات السُّفلى إذا غلبت ـ وهي المُعبَّر عنها بالشيطان أو الناحية الشيطانيَّة أو المركز الشيطاني، والله أعلم ـ تهوي بالإنسان إلى أسفل سافلين».

قلت: بل الشيطان مخلوق آخر مُباينٌ للذات الإنسانيَّة السُّفلى، مخالفٌ لها في الجنس؛ حيثُ خُلِقَ من نار، وهي مخلوقة من طين، إلا أنه يعمل على تقوية هذه الذات السفلى وتغليبها على الذات العليا.

تأويله للشيطان بالقوة النزَّاعة للشر:

* قال في تفسير الآية (٣٤) من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

«وقد قالوا: إنَّ لكلِّ إنسانٍ شيطاناً، وهي قوَّة نزَّاعةٌ إلى الشرِّ يحدث منها في نفس الإنسان خواطر السُّوء؛ فيقاومها العقل حتى تكون الغَلَبة لأحدهما، فإذا كان العقل لم

يُفسِـدُهُ صاحبُه بمفاسد التربية وسوء القدوة، فالغَـلَبة له، وإلا فالغلبة لها.

وقال في الحاشية عند تفسير هذه الآية: «أقول ـ والله أعلم ـ: وفي هذا إيماء إلى أن في كل إنسان نزعة إلى الشر، فإن ذلَّلها وتسلَّط عليها اسْتَسْلَمت له وانقادت وهانت عليه؛ فسلم منها».

والصوابُ: حملُ الشيطان هنا على ظاهره، أما هذه النـزعة فهي غيرُ الشيطان، ويُستدلُّ على ثبوتها بما أُضيف إلى النفس من التزيين والتسويل والتطويع ونحوها في عدة آيات من القرآن الكريم.

* نقل عن الشيخ رشيد رضا في تفسير الآية (١٦٨) من سورة البقرة: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: «وإنّما يُعرف الشيطان بهذا الأثر الذي يُنسب إليه، وهو وحيُ الشر وخواطرُ الباطل، والإفساد للنفس هو منشأ هذا الوحي والخواطر الرديئة، وقد قالوا: إنَّ لكل إنسان شيطاناً، وهو قوَّة نزَّاعة إلىٰ الشرِّ تُحدِثُ له خواطر السوء».

تفسير «الشيطان» بهذه القوة غير صحيح، نعم.. لا ينكر وجود مثل هذه القوة في النفس الإنسانيَّة، لكن تفسيرُ «الشيطان» بها غير صحيح.

* وقال في حاشية تفسير الآية (٦٥) من سورة الإسراء: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾: «روىٰ مسلم[١] عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبيُّ ﷺ من عندي ليلاً، فغرْت عليه، فجاء فرأىٰ ما أصنع فقال: «مالك يا عائشة؟ أغرت؟» قلت: وما لي لا يغار مثلي علىٰ مثلك، فقال: «أقد جاءك شيطانك»

(١) «صحيح مسلم» (٢٨١٥).

قلت: يا رسول الله! أو معي شيطان؟ قال: «نعم» قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «نعم» قلت: ومعك يا رسول الله؟! قال: «نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتىٰ أسلم».

ورویٰ مسلم[1] عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وَكَّل الله به قرينه من الجن» قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟ قال: «وإيَّاي، إلا أنَّ الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير».

أقول: وفي هذا إيماءٌ إلىٰ أن في كل إنسان نزعة من الشر، فإن ذلَّلها وتسلَّط عليها استسلمت له، وهانت عليه، فسلم منها».

قلت: كلامُه يُشعر بتفسير الشيطان الـمُوكَّل بالعبد بأنه نزعة من الشر في نفس الإنسان، وهو خلاف المعنى المراد من الحديث، كما يظهر من سياقه.

إبليس مخلوق جسماني حقيقي:

* قال في آخر تفسير الآيتين (٨٢، ٨٣) من سورة (ص): ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: «وقد تكلَّم الأستاذ الإمام ـ يعني الشيخ محمد عبده ـ في سورة البقرة عن الحكمة في خَلْق هذه القوة المُعبَّر عنها بإبليس».

قلت: القول بأن إبليس قوة؛ خطأ جسيم لا يُقرُّ عليه قائله، بل إبليس مخلوق جسمانيّ حقيقيّ.

الشيطان ليس قوة وإنما هو مخلوق من نار:

* قال في تفسير الآية (٦) من سورة الناس ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾: «قال الأستاذ الإمام: فالموسوس قسمان: قسم الجِنّة، وهم الخَلق المُسْتَتِرون الذين لا نعرفُهم،

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٨١٤).

وإنما نجد في أنفسنا أثراً يُنسَبُ إليهم، ولكلٍّ من الناس شيطان، وهو قوَّة نازعة إلى الشرّ، يحدث منها في نفس الإنسان خواطر السُّوء».

الجواب: لقد تقدَّم مراراً التنبيه إلى أنَّ الشيطان ليس قوة، وإنما هو مخلوق من نار، أقدَرَه الله تعالى على إلقاء الوسوسة في نفوس الناس، وتقوية ما فيها من قوَّةٍ نزّاعة إلى الشر، فالقوَّةُ النزاعةُ إلى الشر مغايرة للشيطان.

الشيطانُ: كل عاتٍ متمرِّدٍ سواء من الإنس أو الجن، وإبليس هو أبو الجن، كما أن آدم هو أبو الإنس، ومن تـمرَّد على طاعة ربِّـه سُمي شيطاناً، سواء كان جنـياً أو إنسياً.

وقد اقتضت حكمتُه تعالى أن يستخلف بني آدم في الأرض لينظر كيف يعملون، وقد سلَّط عليهم الشيطان ليُزيِّن لهم ويغويَهم، وأخبرهم سبحانه بأنَّ الشيطان لهم عدوّ، وأمرهم بمعاداته وأخْذ الحذرِ منه، ومكَّن الشيطانَ من التزيين لهم والوسوسة في الوقت الذي عرَّفهم فيه طريق الخير والشر، وأعطاهم القوة التي يدفعون بـها كيد الشيطان، ويتخلّصون من وسوسته.

وإنما ابتلاهم الله تعالى وامتحنَهم بتسليط الشيطان عليهم ليميز الخبيث من الطيِّب، وليظهر من يُحبّه تعالى ويُؤْثر مرضاته على كلِّ شيء فيجاهد نفسه وهواه وشيطانه ابتغاء مرضاته سبحانه، ومن يستجيب لكيد الشيطان ووسوسته فيستحق خزي الله وعقوبته، والشيطان إنما يتسلط على مَن كان خبيثاً موالياً للشيطان كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[النحل: ١٠٠]، وأما مَن أخلص لله تعالى واعتصم به فإنه سبحانه يعصمه من الشيطان ومكره، كمـا قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٤٠].

وقد ذكر ابن قيم الجوزيَّة وجوهاً كثيرة في الحكمة من خلق إبليس، وما فيه من الحِكَم والمصالح التي ترتَّبت على وجوده في «شفاء العليل» فلينظر هناك. والله تعالى أعلم.

تأويله تزيين الشيطان بظهور كذب الهواجس:

* وقال في تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: «ويجوز أن تكون هذه الجملةُ كنايةً عن ظهور كذب تلك الهواجس السابقة لهم، والتَّبيُّن لأنفسهم أنهم كانوا مخدوعين ضالِّين بتلك الأفكار، والله أعلم؛ لأنهم رأوا من المؤمنين قوَّة من إيمانهم بدينهم ودفاعهم عنه لا يقابلها قوة، ولم يألفوا مثلها في حروبهم، فالكلام تمثيلٌ لما قد رأوه في المسلمين من شجاعة وبَسَالة نشأت من صبرهم وصدق إيمانهم وتذكُّرهم لوعد الله. هذا ما أراه؛ والله أعلم».

قلت: هذا من البُعْد بمكان، والصواب: أنَّ إبليسَ قال ذلك حقيقةً من غير أن يشعر به أحد منهم، لكن أطلعنا الله تعالىٰ عليه.

هل الجن أنواع يختلف بعضها عن بعض؟

* قال في تفسير الآية (٥٠) من سورة الإسراء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾: «وهذا تعليل لامتناعه وتعبيرٌ عنه؛ لأن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ولهذه المخالفة سُمِّي شيطاناً، مِنْ: شَطَنَ، بمعنىٰ: خالف وعصىٰ، والجنُّ من العوالم الخفيَّة الـمُجْتنَّة، وهي أنواع يختلف بعضُها عن بعض في الشكل والمادة. والله أعلم».

قلت: بل الجن نوع واحد كالإنس، واختلافهم في الشكل اختلاف أفراد لا اختلاف أنواع، أما المادة فلا اختلاف بينهم فيها، لأنهم مخلوقون من نار، كما أن الإنس مخلوقون من طين.

الكرسي والعرش واللوح المحفوظ

تأويله الكرسي بأنه تصوير لعظمة الله وتمثيل لكبريائه:

* قال في تفسير الآية (٢٥٥) من سورة البقرة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: «قال كثيرٌ من المفسِّرين ـ منهم القفال والزمخشري[١] ـ: إنَّ الكلام تصويرٌ لعظمته وتمثيلٌ لكبريائه، ولا كرسيَّ ولا قيام ولا قعود، ولكنه سبحانه خاطب عباده في تعريف ذاته وصفاته، بما اعتادوه في ملوكهم وعظمائهم».

قلت: قوله: «كثير من المفسِّرين» تهويل لا يُوافَقُ عليه، بل الأكثرون على إثبات عالم الكرسي، وليته نقل كلام محمد رشيد رضا في «المنار»[٢]: بأن الكرسي مخلوق من علم الغيب الذي نؤمن به، ولا نبحث عن حقيقته، ولا نتكلم فيه بالرأي. ثم إثباتُ الكرسي مظهرٌ من مظاهر القدرة، فلا يلزم منه قيام ولا قعود.

حقيقة العرش:

* قال في مقدِّمات التفسير: «ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [يونس: ٣]: هذه العبارة هي كأمثالها من العبارات التي يُعبِّر بها القرآن عن تحقُّق الوجود والثبوت لله تعالى في الأذهان، بصورة تتناسب مع تصوُّرات الإنسان، وليست على معناها الظاهري».

---

(١) ينظر: «تفسير الزمخشري» (٢: ٣٢٨).

(٢) تفسير «المنار» (١: ٣١).

ثم قال: «أو يقال: العَرْش لغة: البناء، والمراد: إشرافه تعالى على هذا الكون الذي بَنَاه، وتدبيره لشؤونه، يكني بذلك عن سَيْر هذا الكون في نظامه الـمُتْقَن إلى نهايته وانتهاء أمره».

قلت: هذا بعيد، والذي قبله هو الصحيح، فالعَرْش له حقيقة لغوية وحقيقة شرعية، أما الحقيقة اللغوية فمتردِّدة بين عدة معانٍ منها: البناء، وأما الحقيقة الشرعيَّة فمخلوق عظيم فوق السماوات أظهر الله فيه عجيب قدرته، وجعله شعاراً لكمال الملك والغلبة، والحقيقة الشرعية هي الـمُرجِّحة في نصوص الشارع.

تأويله العرش بالبناء وأنه من باب التمثيل المنتزع من حال المخاطَبين:

* قال في تفسير الآية (٣) من سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: «أما العرش، فقال أبو مسلم: العرش: مصدر مِن: عرش يعرش عرشاً، بمعنىٰ: بنىٰ، فكلُّ بناء يُسمَّىٰ عرشاً. والمعنىٰ: ثم أشرف علىٰ البناء بعد استكماله، يُدبِّر أمره وأمر مَنْ فيه.

أقول ـ القائل هو الشيخ رشيد الخطيب ـ: والأرجح أنَّ هذه العبارة وأمثالَها يعبِّر بها القرآن لِتَحقُّق الوجود لله تعالىٰ في الأذهان بصورةٍ تتناسب مع تَصوُّرات الإنسان، من باب التعبير عن المعقول بصورة المحسوس من عبارات القرآن، أو هي تمثيلٌ مُنتَزَعٌ من حال المخاطبين وتعبيرهم عن شأن الملوك والسلاطين إذا علَوا منصَّة الحكم والسلطان، لأنه سبحانه يخاطب عباده في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه في ملوكهم وعظمائهم، تقريباً للفهم، ولا يُراد به معناه الحقيقي، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة)».

الجواب: قوله: عن الاستواء: «لا يراد به معناه الحقيقي». هذا مُسلَّم في «الاستواء»،

لأن حقيقة معناه اللغوية: لا تليق بالله تعالىٰ، فيُفسَّر بنحو ما ذكر المؤلف رحمه الله، ولا يلزم ذلك في العرش، فقد نطقت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بإثباته، ويَبعُد تفسيره بالبناء كما قال أبو مسلم، أو بأنه تمثيل كما قال المؤلف، إذ لا محذور في إثباته علىٰ حقيقته، بل إثبات العرش بمعنىٰ أنه جسم عظيم دال علىٰ عِظَمِ ملك الله تبارك وتعالىٰ، وقَرْنه بالاستواء ـ علىٰ المعنىٰ التمثيلي للاستواء ـ أبلغُ في تقرير هذا المعنىٰ التمثيلي من أن يكون كلٌّ من الاستواء والعرش وارِدَيْن علىٰ التمثيل.

إثبات العرش ومعنى قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾:

* قال في تفسير الآية (٧) من سورة هود: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: «قال أبو مسلم: العرش مصدر من قولهم: عرش يعرش عرشاً، بمعنىٰ: بنىٰ، وكلُّ بناء يُسمَّىٰ عرشاً، وبانيه يُسمَّىٰ عارشاً».

قلت: تقدَّم التنبيه علىٰ قول أبي مسلم في العرش في تفسير الآية (٣) من سورة يونس، وبيان أن الصواب إثبات العرش الذي هو مخلوق عظيم دالٌّ علىٰ عِظَمِ قدرة الله تعالىٰ وسلطانه. وينظر تعليقي على تفسير الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

* ثم قال: «فالمراد من قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: وكان بناؤه للسَّماوات والأرض علىٰ الماء».

* وقال في تفسير الآية (٢) من سورة الرعد: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: «العرش في اللغة: البناء، أو المبني، كما حقَّقنا ذلك في مثل هذه الآية في أول سورة هود».

قلت: بل المعنىٰ الصحيح: وكان عرش الله قبل خَلْقِهِ السماواتِ والأرضَ علىٰ الماء. والعرش: مخلوق عظيم فوق السماوات السبع ومحيطٌ بها.

تفسير العرش بالملك وتأويله له بالعظمة والسلطان:

* قال في تفسير الآية (١٥) من سورة المؤمن: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾: «قال أبو مسلم: أي: عالي الصِّفات ذو المُلك».

تقدّم نقلُ المؤلف عن أبي مسلم تفسيرَه «العرش» بالملك، وتقدّم التنبيه عليه وبيانُ أنّ العرش مخلوق هو أعظم المخلوقات على الإطلاق، جعله الله تعالى مظهراً لعظيم قدرته وقهره وسلطانه، فيلزم من هذا معنى الملك، وليس هو الملك نفسه.

* وقال في تفسير الآية (١٥) من سورة البروج: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾: «أي: صاحب العَظَمة والسلطان».

قلت: هذا لازم المعنى ونتيجته، فالعرشُ أعظمُ مخلوقات الله تعالى، وقد خلقه الله تعالى إظهاراً لقدرته، ودليلاً على قَهْره وعظيم سلطانه.

تأويله حَمْل الملائكة للعرش على التمثيل وتصوير العظمة:

* قال في تفسير الآية (١٧) من سورة الحاقة: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾: «والسَّلَف الصالح يمرُّون بعبارات الصفات دون حَمْلٍ على الظاهر، ولا على التأويل، والخَلَف يُؤوِّلون كما قيل: إن الكلام على التمثيل وتصوير العظمة، وقد استعير من أحوال المخاطبين، على نهج القرآن في مثل ذلك».

قلت: بل هذا مما لا يُؤوِّله الخلف أيضاً، لأن حَمْله على ظاهره غير محال، وذلك أن حَمْلَ الملائكة للعرش هو حَمْلُ مخلوق لمخلوق، ومثلُه لا امتناع فيه أبداً، فلِمَ يُؤوَّل؟! وإنما الذي يُؤوِّله الخلف ويُفوِّضه السلف هو ما ورد من نصوص موهمة للتشبيه في حقِّ الله

تعالى، كالاستواء على العرش والنـزول واليد والعين... إلى آخره، فهذا الذي يَرِدُ فيه كلام المؤلف رحمه الله تعالى.

إحاطة ملائكة العرش حوله بصفوف منتظمة ليس من باب التمثيل:

* قال في تفسير الآية (٧٥) من سورة الزمر: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾: «يجوز أن يكون الكلام على التحقيق ممَّا لا يعلم كُنهَه إلا الله، ويجوز أن يكون تمثيلاً لِعَظَمة الله التي لا تحدُّها العبارة إلا بطريقة التمثيل».

قلت: بل الأول هو الصواب الذي لا ينبغي العدولُ عنه، والثاني لا وجه له، فقد أقام الله عز وجل الملائكة في مقامات مختلفة، كما قال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، أخبرنا الله تعالى عن بعضها، وطوى عنا بعضها الآخر، وليس لنا أمام ما أخبرنا عنه منها إلا التسليم على ظاهر اللفظ مع الإقرار بأنه لا علم لنا بتحقيق المعنى على وجهه لغيبيَّته.

اللوح المحفوظ

اللوح المحفوظ وعلم الله المحيط بكل شيء:

* قال في تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ «أن الكتاب المبين وهو علم الله تعالىٰ المحيط بكلِّ شيء، وقد شبهه بالمكتوب في ثباته وعدم تغيُّره».

قلت: المراد باللوح المحفوظ ـ كما قال غير واحد من أهل التفسير ـ: الكتاب الذي كتب الله فيه مقادير الخلق قبل أن يخلقهم، وهو الكتاب المبين المذكور في الآية

المشار إليها في قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقد ذكر بهذا اللفظ وبغيره في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، جاء في «تفسير الطبري»: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولا تسقط ورقةٌ في الصحاري والبراري، ولا في الأمصار والقرى، إلا الله يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، يقول: ولا شيء أيضاً مما هو موجود، أو مما سيوجد ولم يوجد بعد، إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسوم عددُه ومبلغه، والوقت الذي يوجد فيه، والحالُ التي يفنى فيها، ويعني بقوله: «مبين» أنه يُبين عن صحة ما هو فيه، بوجود ما رُسم فيه على ما رُسم.[1] انتهى.

* وقال في تفسير الآية (٧٠) من سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾: «قال أبو مسلم: معنىٰ الكتاب: الحفظ والضبط، أي: إنه مضبوط محفوظ».

قلت: لكن ثبت في السنة في أحاديث كثيرة ذِكرُ اللوح المحفوظ، وأنه كُتب فيه ما هو كائن على ما سبق في علم الله تعالى، فالمصير إليه أَوْلى من قول أبي مسلم.

* وقال في تفسير الآية (٣) من سورة سبأ: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: «وهو علمُه الأزليّ الأبديّ السرمديّ، لا ينقطعُ ولا يتجدَّد، ولا يغيبُ عنه شيءٌ مما كان أو يكون».

قلت: هذا محتمل، لكنْ ثبت في السنة النبويَّة أنّ الله تعالى خلق اللوح، وأثبت فيه

---

(١) «تفسير الطبري» (١١: ٤٠٣).

الآجال والأعمال والأرزاق والأقوات وسائر المقادير، وحَمْلُ لفظة «كتاب» الواردة في الآية الكريمة على اللوح المحفوظ أليقُ وأنسبُ من حَملِها على العِلم.

* وقال في تفسير الآيتين (٢١، ٢٢) من سورة البروج: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾: «قال الأستاذ الإمام: إنَّ اللوح المحفوظ شيءٌ أودَعَ الله فيه كتابَه، ولم يُعرِّفنا حقيقتَه».

نعم، لم يعرفنا الله حقيقته، لكنْ مثلُ هذه العبارات قد يُستَنَدُ إليها في نفي الحقيقة وحَمْل اللفظ على المجاز أو الكناية، فلا بُـدَّ من تقييدها، فنقول: إنه سبحانه لم يُعرِّفنا حقيقته وماهيته، لكنه أخبرنا أنه لوح، فنثبتُه على أنه لوحٌ حقيقةً، من غير أن نعرف ماهية هذا اللوح، ولا نقول مثلاً: إنه كناية عن العلم.

واللوح المحفوظ هو الكتاب الذي كتب الله فيه مقادير الخلق قبل أن يخلقهم، وسُمِّي محفوظاً لأنه محفوظ عن الزيادة والنقصان، والتبديل والتغيير، أو لأنه محفوظ عن الاطِّلاع عليه إلا لمن أطلعه الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحج: ٧٠] قال ابن عطية: هو اللوح المحفوظ، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢] قال القرطبي: يعني اللوح المحفوظ.

وقد روى البخاري في «صحيحه»[١] من حديث عمران بن حصين ـ الطويل ـ وفيه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض» قال الحافظ ابن حجر: إن المراد بالذكر هنا: هو اللوح المحفوظ. وينظر ما تقدَّم التنبيه في تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣١٩١).

عالـم الذر

المراد بأخذ الميثاق من بني آدم:

* قال في تفسير الآية (١٧٢) من سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: «فهذا الميثاقُ الفطريُّ المطبوعُ عليه الإنسان في التوحيد والتنزيه ما لم يفسده بصنعه؛ هو المعنيُّ ـ والله أعلم ـ بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾».

وقال في الحاشية عند تفسير الآية: «هذه الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ – ٨] وقوله تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] وأمثال ذلك من الآيات ـ والله أعلم ـ فهي تشير إلىٰ انطباع الإنسان علىٰ الهدىٰ بخلقته ما لم يفسد طبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة، والله أعلم. وعليه، فيكون الإنسان مهدياً بهدايتين: هداية طبيعية، وهداية تشريعية. وسائر المخلوقات مهدية بالهداية الطبيعية فقط؛ لذلك كانت الحجة البالغة لله عز وجل علىٰ الإنسان».

قلت: اقتصر المفسر ـ رحمه الله ـ على تفسير الإشهاد في الآية بالفطرة علىٰ التوحيد، وهذا ما رجَّحه جماعة من أهل العلم كابن تيمية وابن القيم وابن كثير وغيرهم، ومن هؤلاء: الأستاذ رشيد رضا الذي نقل المفسِّر الشيخ رشيد الخطيب فحوىٰ كلامه دون أن يصرِّح باسمه، حيث قال في تفسير «المنار»(١):

«والمعنىٰ: واذكر أيها الرسول في إثر ذكر ميثاق الوحي علىٰ بني إسرائيل خاصة، ما أخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل علىٰ البشر عامة، إذ استخرج من بني آدم ذريتهم

---

(١) تفسير «المنار» (٩: ٣٢٥).

بطناً بعد بطن، فخلقهم علىٰ فطرة الإسلام، وأودع في أنفسهم غريزة الإيمان، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أن كل فعل لا بد له من فاعل، وكل حادث لا بد له من مُحدِث، وأن فوق كل العوالم الممكنة القائمة علىٰ سنة الأسباب والمسبَّبات، والعلل والمعلومات، سلطاناً أعلىٰ علىٰ جميع الكائنات، وهو الأول والآخر، هو المستحق للعبادة وحده ..

وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي: أشهد كل واحد من هذه الذرية المتسلسلة علىٰ نفسه بما أودعه في غريزته واستعداد عقله قائلاً قول إرادة وتكوين، لا قول وحي وتلقين: ألست بربكم؟ فقالوا كذلك بلغة الاستعداد ولسان الحال، لا بلسان المقال: بلىٰ أنت ربنا والمستحق وحده لعبادتنا، فهو من قبيل قوله تعالىٰ بعد ذكر خلق السماء: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وهذا النوع من التعبير والبيان يسمىٰ في عرف علماء البلاغة بالتمثيل، وهو أعلىٰ أساليب البلاغة وشواهده في القرآن وكلام البلغاء كثيرة». انتهى.

وعلق علىٰ ذلك صاحب كتاب «منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة» فقال: «وبهذا يميل الشيخ رشيد إلىٰ أحد القولين في تفسير هذا الميثاق، وهو الرأي القائل بأنّ استخراج الذريَّة هو خلقه تعالىٰ لها جيلاً بعد جيل علىٰ ترتيبهم في الوجود، علىٰ نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء، ودلّهم بخلقه علىٰ أنه خالقهم، فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد، فتكون هذه الآية من باب التمثيل .. وهذا الرأي قد قال به من قبله بعض السلف، ومن القائلين به: ابن تيمية وابن القيم.

وأما الرأي الثاني، وهو المؤيَّد بالأحاديث المرفوعة والموقوفة فهو: أن الله سبحانه أخرج جميع ذريَّة آدم من ظهور الآباء في صورة الذر، وأشهدهم علىٰ أنفسهم بلسان

المقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ثم أرسل بعد ذلك الرسل مذكِّرة بذلك الميثاق». انتهى.

ورجَّح الرأي الثاني وقال عنه: «هو الذي يدل عليه ظاهر القرآن، وتؤيده الأحاديث الصحيحة، المرفوعة والموقوفة، ومنها وأصرحها حديث ابن عباس، وقد صحَّ مرفوعاً، فوجبَ المصيرُ إليه وطرح ما سواه، ومما يؤيّد المرفوع الآثار الموقوفة، وعدم بيان الميثاق في بعض الأحاديث ليس مستلزماً لعدمه». انتهى.

ورجَّح ذلك أيضاً العلامة الشنقيطي في «أضواء البيان»[1] وقال: «هذا الوجه يدل له الكتاب والسنة...» انتهى. ثم بيَّن ذلك.

وهذا هو الراجح فالإشهاد في الآية حقيقي، سواء أكان ذلك خاصاً بالأرواح أو كان لها في أجسادها.

قال ابن القيم في كتاب «الروح»[2]: «قال ابن الأنباري: مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية: أن الله أخرج ذريَّة آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم في صور الذر، فأخذ عليهم الميثاق: أنه خالقهم وأنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك وقبلوا، وذلك بعد أن ركَّب فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم، كما جعل للجبل عقلاً حين خوطب، وكما فعل ذلك بالبعير لما سجد، والنخلة حتىٰ سمعت وانقادت حين دعيت».

قال: «وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق إنما أخذ علىٰ الأرواح دون الأجساد، لأن الأرواح هي التي تعقل وتفهم ولها الثواب وعليها العقاب، والأجساد أموات لا تعقل

---

(١) «أضواء البيان» (٢: ٤٣).

(٢) «الروح» ص١٦٣.

ولا تفهم، قال: وكان إسحاق بن راهويه يذهب إلىٰ هذا المعنىٰ، وذكر أنه قول أبي هريرة، قال إسحاق: وأجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد، استنطقهم وأشهدهم». انتهى.

وكلام الإمام ابن راهويه نقله أيضاً الحافظ ابن عبد البرّ في «التمهيد»[١]، ثم قال بعد بحث المسألة: «ومعنىٰ الآية والحديث أنه أخرج ذريَّة آدم من ظهره كيف شاء ذلك، وألهمهم أنه ربهم، فقالوا: بلىٰ، لئلا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين، ثم تابعهم بحجة العقل عند التميز، وبالرسل بعد ذلك؛ استظهاراً بما في عقولهم من المنازعة إلىٰ خالق مدبِّر حكيم يدبّرهم بما لا يتهيأ لهم ولا يمكنهم جحده، وهذا إجماع أهل السنة والحمد لله». انتهى.

فإنكار عالـم الذر بالكلية، وأنه لم يُستخرج بنو آدم من ظهره ولا أخذ عليهم ميثاق، قول غلط تردُّه الأحاديث والآثار، وقد اتفق أهل السنة علىٰ خلافه، ولذلك نسبه الحافظ ابن عبد البرّ لأهل البدع. فقال في «التمهيد»[٢]: «وأما أهل البدع فمنكرون لكل ما قاله العلماء في تأويل قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ [الأعراف: ١٧٢] قالوا: ما أخذ الله من آدم ولا من ذريته ميثاقاً قط قبل خلقه إيّاهم، وما خلقهم قط إلا في بطون أمهاتهم، وما استخرج قط من ظهر آدم من ذريَّـة تخاطب». انتهى.

هل العالم العلوي تفرَّق فيه الأمور؟

* قال في تفسير الآية (٣٨) من سورة الطور: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: «أي: فليأتِ مُدَّعي الاستماع بحُجَّة على صدق دَعْواه، وهذا

(١) «التمهيد» (١٨ : ٨٩).

(٢) المصدر السابق (١٨ : ٩٥).

مَبْنِيٌّ على المتعارف الدارج، وهو أنَّ العالم العلوي هو الذي تُفرَق فيه الأمور، والحقيقة أن مَفْرَق الأمور من عالم الغيب».

الجواب: كون ذلك في العالم العلوي لا يُعارض كونه من عالم الغيب، وقد ثبت بالأدلة الكثيرة أن الملائكة في السماوات، وأنها مُوكَّلةٌ بأمور العباد، بحسب ما يأتيهم من أمر الله تعالى، وكذا اللوح المحفوظ مقرُّه في العالم العلوي، وفيه أمور العباد أيضاً، وفي حديث المعراج الذي رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ سمع صريف الأقلام[1]، إلى غير ذلك من أدلة يثبت بمجموعها أن فَرقَ الأمور يكون في العالم العلوي.

تقييد السنة بالسنة العملية المتواترة:

* نقل في تفسير قوله تعالى من الآية (١٥١) من سورة البقرة: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ عن الشيخ محمد عبده: «وقال الأستاذ الإمام: السنةُ العمليَّة المتواترة هي المُبيِّنةُ لتفصيل ما أجمله القرآن، وإظهار ما في أحكامه من الأسرار والمنافع».

والجواب: تقييد السنة التي تُبيِّن مُجمَلَ القرآن بالعملية أولاً، والمتواترة ثانياً؛ محلُّ نظر، فالذي عليه الأصوليون: أن خبر الآحاد الصحيح ـ سواء كان حديثاً قولياً أو عملياً أو غير ذلك ـ صالحٌ لبيان مجمل القرآن أيضاً، والخلاف بينهم في تخصيصه لعامِّ القرآن دون بيان مجمله.

ووجوبُ العمل بخبر الواحد قد تضافرت عليه الأدلة من كتاب وسنة، وهو مذهبُ الصحابة رضيَ اللهُ عنهم، ومذهبُ تابعيهم بإحسان، فقد عمل الصحابة بالآحاد، وحاجّوا بها في وقائع خارجة عن العَدِّ والحصر، من غير نكير مُنكِر، ولا مدافعة دافع،

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٩)، «صحيح مسلم» (١٦٣).

فكان ذلك منهم إجماعاً على قبولها وصحَّة الاحتجاج بها. وينظر ما علقته حول أوجُه بيان السنة للقرآن وارتباطها الوثيق به عند هذه الآية.

ثبوت فروع العقائد بخبر الواحد:

* قال في تفسير الآية (٤) من سورة الدخان: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ معلّقاً في الحاشية: «يقول الأستاذ الإمام محمد عبده: أما ما يقوله أكثر الناس من أنَّ الليلة المباركة التي يُفرَقُ فيها كلُّ أمر حكيم: هي ليلة النصف من شعبان، وأنَّ الأمور التي تفرق فيها الأرزاق والأعمار، وكذلك ما يقولونه من مثل هذا في ليلة القدر، هو من الجرأة على الكلام في الغيب بغير حُجَّة قاطعة، وليس من الجائز أن نعتقد بشيء من ذلك، ما لم يرد به خبر متواتر عنه ﷺ، ولم يرد عنه مثل ذلك؛ لاضطراب الروايات وضعف أغلبها، وكذب الكثير منها، ومثلها لا يصحُّ الأخذ به في باب العقائد.

ومثل ذلك يقال في بيت العزَّة، ونزول القرآن فيه جملة واحدةً في تلك الليلة، فإنه لا يجوز أن يدخل في عقائد الدين؛ لعدم تواتر خبره عن النبيِّ ﷺ، ولا يجوز لنا الأخذ بالظنِّ في عقيدة مثل هذه، وإلا كنا من الذين ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾. نعوذ بالله. وقد وقع المسلمون في هذه المصيبة، مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله، ويعدُّ من عقائد الدين، وبين ما لا يصحُّ اعتقاده، فاحذر أن تقع في مثله».

قلت: هو كذلك في الجملة، لكن كثير ممَّا ذكر من فروع العقائد، وهي ممَّا يثبت بخبر الآحاد الصحيح، ولا يشترط فيها التواتر، كبيت العزة، ونزول القرآن فيه جملة واحدة ليلة القدر، فكما لا ينبغي الخلط بين ما يصحُّ الاعتقاد به من غيب الله تعالى وما لا يصح، كذلك لا ينبغي الخلط بين أصول العقائد التي يُشترط فيها التواتر، وفروعها التي يكتفى فيها بالخبر الصحيح.

عالم السماوات والأرض

السماوات السبع ليست طبقات النجوم:

* قال الشيخ رشيد الخطيب في تفسير قوله تعالى من سورة البقرة الآية (٢٩): ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: «ويجوز أن يكون المرادُ من جمع السماوات طبقاتِ النجوم، فإنَّ طبقاتها متفاوتةٌ في البُعْد تفاوتاً كبيراً، هذا ما أراه. والله أعلم».

قلت: اختلف المفسرون، وخصوصاً المعاصرين منهم، في تحديد مدلول السماوات، وذهب بعضهم مثل الإمام محمد عبده في تفسير (جزء عمّ) إلى أن (السبع الشداد) هي: ما فيه الكواكب السبع السيَّارة المشهورة، وخصَّها بالذكر؛ لظهورها ومعرفة العامة لها، وإلا فقد بنى ما هو أعظم منها، وهو ما وراءها من عوالم السماوات.

وكذلك فسرها بالسيارات السبع: الشيخ عبد القادر المغربي في «تفسيره» لجزء تبارك، في تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣].

وكذلك العلامة الطاهر بن عاشور، الذي قال في «التحرير والتنوير»(١): «يجوز أن يراد بالسبع: الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يومئذ، وهي: زُحَل والمشتري والمرِّيخ والشمس والزُّهرة وعُطارد والقمر».

وقال: «وهذا المحمل هو الأظهر، لأن العبرة بها أظهر؛ لأن المخاطبين لا يرون السماوات السبع، ويرون هذه السيارات، ويعهدونها دون غيرها من السيارات التي اكتشفها علماء الفلك من بعد».

---

(١) «التحرير والتنوير» (٣٠: ٢٣).

والحقيقة: أن هذه ليست تسمية لغوية، ولا اصطلاحية، وكلمة (السماوات) لغةً وعرفاً أوسع وأشمل من (السيارات السبع)، كما أن عامة الناس لا يعرفون من هذه السيارات السبع إلا الشمس والقمر، والأخريات لا يعرفها إلا أهل العلم بها.

وتأويل الشيخ رشيد الخطيب وأصحاب هذه المدرسة للسماوات بطبقات النجوم تأويل باطل، وطبقات النجوم: زحل، والمشترى، والمريخ، والزهرة ... وكل هذه الكواكب في السماء الدنيا التي تعلونا ولا نرى فيها إلا اللون الأزرق، ولا نعرف ماذا وراءها، وكل ما نرى من النجوم التي يصل إلينا ضوؤها بعد ملايين السنين الضوئية ـ كما يقول علماء الفلك ـ كلّها في السماء الدنيا؛ لقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] أي: بالنجوم، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، ولكن ماذا بعد السماء الدنيا؟ لا نعرف عنها شيئاً، لأنه ملك واسع عظيم، الله أعلم به.

قلت: في شرحي لـ«العقيدة الإسلامية»[١] للمكي بن عزوز: «السماوات السبع طباق بعضها فوق بعض، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥] أي: متطابقة بعضها فوق بعض، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧] أي: بعضهن فوق بعض.

قال أهل اللغة: طارقت الشيء إذا جعلتَ بعضه فوق بعض. كما في «الرسالة الوافية»[٢] للداني.

---

(١) «شرح العقيدة الإسلامية» لمجد مكي ص ١٥٩ -١٦١.

(٢) «الرسالة الوافية» للداني ص١٤.

ووصف الله سبحانه السماء بأنها سقف محفوظ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾ [الطور: ٥]».

قال أستاذنا الشيخ علي الطنطاوي ـ في مقال له في مجلة «الوعي الإسلامي»(١)، بعنوان: «ما هي السماء؟» ـ ما ملخصه: «والذي تبيَّن لي من نصوص الدين، ومن مقرَّرات علماء الفلك: أن الشمس وتوابعها (وهن الأرض وأخواتها)، وهذه الكواكب التي لا يحصى عددها تَسبحُ في فضاء عظيم، وهذا الفضاء تحيط به كله (كرة) هائلة، وهذه الكرة هي (السماء الدنيا)، وهذا العالم بأرضه وشمسه وكواكبه في وسطها، ولهذه الكرة سَمْكٌ، الله أعلم بِمِقْدَارِهِ، قال تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ [النازعات: ٢٨]، وهي في فضاء لعله مثل هذا الفضاء، أو أصغر أو أكبر، وحوله كرة أخرى ـ لها سَمْكٌ ـ هي (السماء الثانية) ثم فضاء، ثم كرة، وهكذا إلى السماء السابعة، وبغير هذه الصورة لا تكون السماء (طِبَاقًا)، وخارج الكرة الكبرى التي هي السماء السابعة، أجرام أكبر، أجرام لا يستطيع العقل مهما جهد وكدَّ أن يتصوَّر مدى كبرها، هي (الكرسيُّ، والعرش، وسدرةُ المنتهى)، هذه كلها عظمة المخلوق، فما بالك بعظمة الخالق؟» انتهى.

وأما تأويل «سبع سماوات طباق» إلى الكواكب السيارات السبع، فهو كلام باطل مردود من عدة وجوه:

أولاً: أن السماوات هي سبعٌ بالنص القرآني القاطع، الذي ليس فيه احتمال ولا إجمال، وأما السيارات من الكواكب، فليست هي سبعة قطعاً، بل ثبت عند علماء الفلك أن هناك سيارات من الكواكب أكثر من ذلك.

---

(١) مجلة «الوعي الإسلامي»، السنة الثالثة١٣٨٧هـ العدد ٢٥.

ثانياً: أن السماوات السبع هي طباق كما أخبر الله تعالى، أما الكواكب فليست طباقاً، بل هي متناثرة متباعدة.

ثالثاً: أن القرآن أخبر أن هذه الكواكب هي زينة للسماء الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦] فالسماء الدنيا هي السقف، والكواكب زينتها، ومن المعلوم أن زينة السقف تكون تحته لا فوقه.

كما وصف سبحانه الكواكب بأنها مصابيح، فقال سبحانه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت: ١٢] ومصابيح السقف تكون تحته لا فوقه.

رابعاً: جعل الله الكواكب حفظاً للسماء من كل شيطان مارد، فقال سبحانه: ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۞ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ [الصافات: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]. فلو كانت الكواكب فوق السماوات لكان الرجم للشياطين بالشهب النارية نازلاً من فوق السماء، مخترقاً حجب السماء، فكون الكواكب زينة السماء، وحفظاً لها، ومصابيح لعالم الأرض دليل على أن الكواكب دون السماوات السبع[1].

تأويله أن السماوات هي النجوم!!

* قال في تفسير الآية (٢) من سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾: «أقول: والمراد من السماوات: طبقاتُ النجوم، أو النجوم نفسُها، مِنْ ذِكْرِ الكل وإرادة الجزء، أو المحل وإرادة الحالّ».

قلت: السماوات أعظم من هذه النجوم، فالمجموعة الشمسيّة واحدة من ملايين المجموعات تحتويها المجرَّة التي نحن جزء منها، وهذه المجرَّة واحدة من ملايين المجرات

(١) «هدي القرآن إلى معرفة العوالم»، للعلامة عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى ص١١٢-١١٤.

الأخرى. فالسماوات هي هذا الكون العلوي من فوقنا لا نعرف منه إلا القليل، وما نعرفه من الكواكب والنجوم التي تصل إلينا أشعتها بعد ملايين السنين ـ كما يقول الفلكيون ـ هي تحت السماء الدنيا؛ لأن الله جعلها زينة للسماء الدنيا كما في سورة فصلت: ١٢، والصافات: ٦و٧.

فتفسير السماوات بالكواكب السيارة المرتبطة بمجموعتنا الشمسية ـ كما ذهب إليه المفسر، ومن قبله: القاسمي في «محاسن التأويل»، وعبد القادر المغربي في تفسيره جزء تبارك ـ خطأ، والصحيح أن النجوم وطبقاتها كلّها من السماء الدنيا، وفوقها سائر السماوات. وقد تقدَّم مراراً التنبيه على خطأ المؤلف في تأويل السماء بالنجوم أو طبقات النجوم.

السماوات السبع ليست طبقات النجوم ولا المجرَّات السماويّة:

* قال في تفسير الآية (١٧) من سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾: «ويظهر ـ والله أعلم ـ أن المراد بها طبقات النجوم المتفاوتة في البُعد؛ إذ الأجرام السماويَّة طبقاتٌ وطوائفُ يبعُد بعضُها عن بعض بُعداً شاسعاً، ولكلِّ طائفة منها نظام عام، وأقرب تلك الطوائف إلينا ما يُسمَّىٰ بالنظام الشمسي.

ويجوز أن يُراد بها: هذه المجرَّات السماويَّة التي اكتشف منها العلم الحديث عدداً غير قليل، وإن كلَّ واحدة منها مستقلّة عن الأخرىٰ، وتحتوي علىٰ عوالم من النجوم لا يُحصيها إلا الله، أما عدد «السبع» فيأتي به القرآن للتكثير لا للتحديد، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن».

* وقال في تفسير الآية (١١) من سورة فصِّلت: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى

يَوۡمَيۡنِ﴾: «وربمـا يُراد بها طبقات النجوم، فهي عديدة؛ إذ النجوم ليست في مستوى واحد، وإنما هي طبقات متباينة في مستويات وارتفاعات مختلفة وأبعاد متفاوتة تفاوتاً عظيماً، حسب الاكتشافات الحديثة في علم الفلك، فإنها أثبتت ذلك وقرَّرته بالبراهين».

* وقال في تفسير الآية (١٢) من سورة الطلاق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾: «والمراد بها ـ والله أعلم ـ طبقات النجوم، لأنَّ كلَّ طبقة هي فوق التي تحتها بمسافات شاسعة، وتحت التي فوقها كذلك».

* وقال في تفسير الآية (٣) من سورة الملك: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾: «والمراد بها: طبقات النجوم، وبينَ كلِّ طبقة والتي تليها بَوْنٌ بعيد ومسافات عظيمة».

* وقال في تفسير الآية (١٥) من سورة نوح: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾: «المراد بها ـ والله أعلم ـ طبقات النجوم، فإن كلَّ طبقة منها في مستوى واحد، وبينها وبين التي تليها بُعْدٌ شاسع».

قلت: السماوات: سبع طباق متطابقة، بعضها فوق بعض، ولا يجوز تأويل سبع سماوات إلىٰ معنىً آخر، فإنَّ القرآن أُنزل بلسان عربي مبين، وكيف يسوغ تأويل السماوات السبع إلىٰ معنىً آخر، وقد جاء في أحاديث المعراج الثابتة: أن النبيَّ ﷺ لما عرج به إلىٰ السماوات استفتح له جبريل أبواب السماوات سماءً بعد سماء، وصعد فيها سماء فوق سماء.

وتأويل المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ غير سائغ؛ لأنَّ السماوات سبعٌ بالنصِّ القرآني القاطع الذي لا احتمال فيه ولا إجمال، أما الكواكب والمجرَّات فهي أكثر من ذلك، والقرآن أخبر أنَّ هذه الكواكب زينة للسماء الدنيا، ومن المعلوم لغةً وعرفاً وعقلاً أنَّ زينة السقف غير السقف، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصَّافات: ٦].

السماوات السبع الشِّدَاد ليست طبقات النجوم المتفاوتة في العلو:

* وقال في تفسير الآية (١٢) من سورة النبأ: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾: «وقد قلتُ غيرَ مرة: إنه يجوز أن يُراد بها طبقاتُ النجوم المتفاوتة في العُلوّ؛ لأنَّ كل طبقة تنفصلُ عمَّا تليها بمسافات بعيدة».

قلت: تقدم نقدُ هذا المعنى الذي يُكرِّره المؤلف ـ غفر الله له ـ عن السماوات السبع، وبيان خطئه في تأويله بطبقات النجوم.

هل السماوات والأرض كسفينة في بحر محيط؟

* قال في تفسير الآية (٢١) من سورة الحديد: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: «السماوات والأرض في هذا الفضاء كسفينة في بحر محيط، ولا يعلم سَعَة الفضاء وما يحويه إلا الله، جلَّت عظمة الله العلي القدير».

قلت: الصواب أن السماوات محيطة بالفضاء، فلا يُقال: إنها كسفينة في بحر محيط. وإنما ذكر المؤلف هذا لأنه يُفسِّر السماوات ببعض الكواكب السيّارة والأجرام العلوية العظيمة، وقد تقدّم الرد عليه في ذلك.

خلق السماوات والأرض في ستة أيام لا أدوار:

* قال في تفسير الآية (٤) من سورة السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ «أي: خَلَقَ السماوات والأرض في ستَّة أدوار، ثم أخذ يُدبِّر أمْرَها».

* وقال في تفسير الآية (٣٨) من سورة (ق): ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾: «إما أن يكون المراد بها ستة أدوار، تمَّ بها تطوُّر هذا العالم علويِّه وسُفليِّه، وإما أن يكون المراد بيان قدرة الله، بتقليل المدَّة لإنجاز هذا

العمل العظيم. وليس المراد بها اليوم المعروف لنا؛ لأن هذا اليوم لم يتمَّ ويظهر إلا بعد تمام التكوين».

* وقال في تفسير الآية (٤) من سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ «والمراد بها: الأدوار التي مرَّت على تكوُّن الأجرام العلوية وتكوُّن الأرض».

قلت: تفسير الأيام بالأدوار لا نوافق عليه المؤلف رحمه الله تعالى، ولا حاجة لتأويل الأيام بالأدوار بحال من الأحوال. ويُحمل المطلق في هذه الأيام على المقيّد الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وفي قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] فأحال العدد في الآيتين إلى مدّة تقدّر بزماننا بألف سنة، فيطَّرد ذلك في جميع التقادير الزمنيَّة التي يذكرها سبحانه على نسبة التقدير من أيام هذا الزمان في كل المناسبات، كما قال سبحانه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] أي: ممَّا تعدُّون. والله تعالى أعلم.

عدد السماوات السبع للتحديد لا للتكثير:

* قال الشيخ رشيد الخطيب عن عدد السماوات السبع في تفسير الآية (٢٩) من سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: «ويجوز أن يكون للتكثير لا للتحديد، وذلك من خصائص القرآن واللغة معاً».

* وقال في تفسير الآية (١١) من سورة فصِّلت: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾: «أما عدد السبع في قوله: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ فهي للتكثير لا للتحديد، وكذلك عدد الأيام؛ إذ المراد به التقريب لعقول أوساط البشر، والله أعلم».

قلت: بل عدد السماوات سبع، وعدد الأيام ست، وهو للتحديد لا للتكثير، كما سيأتي بيانه.

* وقال في تفسير الآية (١٢) من سورة الطلاق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾: «والسبع للتكثير».

* وقال في تفسير الآية (٣) من سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾، وفي تفسير الآية (١٢) من سورة النبأ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾: «والعدد للتكثير لا للتحديد».

قلت: هذا الادِّعاء من المفسر بأنَّ السماوات للسبع للتكثير لا للتحديد؛ لأنه فسر السماوات السبع بالكواكب، ولما ثبت أن الكواكب أكثر من ذلك ادعى هذه الدعوى.

ولا شك أن العدد المذكور في القرآن على الحقيقة، ولا سيما أن عدد سبع سماوات تكرر في القرآن الكريم تسع مرات بصيغ مختلفة، فذكرها الله سبحانه في هذه السورة، وفي سورة النبأ ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]، وفي سورة تبارك: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، وكذلك في سورة نوح على لسانه لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، وفي سورة المؤمنين سماها (طرائق): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

وتكرار الآية يدل على أن المراد بالسبع التحديد لا للتكثير، ويدل على ذلك حديث الإسراء المشهور في «الصحيحين» واجتماعه ﷺ بالأنبياء، ففيه: «ثم انطلقنا حتى أتينا السماء الدنيا، فاستفتح جبريل ﷺ ...» الحديث. وفيه: أنه لقي في السماء الدنيا آدم ﷺ، وفي الثانية: عيسى ويحيى عليهما السلام، وفي الثالثة: يوسف، وفي الرابعة: إدريس، وفي الخامسة: هارون، وفي السادسة: موسى، وفي السابعة: إبراهيم[1].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٦٣).

ولو صحَّ ما ادّعاه مِن أنَّ عددَ السبع للسماوات ليس للتحديد بل هو للتكثير؛ فليقل هذا في أبواب الجنة والنار، وكل ما له عدد مما ورد في النصوص الدينية مما يرجع إلى النوع ذاته مما يؤوله، وهاهنا سيكون اختلاف الأعداد عبثًا إذا كانت الألفاظ تختلف، ولكنها لا تشير إلا إلى التكثير فقط! وينظر أيضاً ما علَّقتُه مطوَّلاً حول مفهوم العدد، والحكمة من تكرار العدد سبعة في تعليقي على هذه الآية من سورة البقرة. وينظر لمزيد من التفصيل جواب فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان في المدخل الثالث من هذه المقدمة[1].

---

(١) وقد كرَّر هذا المعنى في الأعداد في أكثر من موضع من تفسيره، فقال في لاحقة المقدمة الثانية عشرة عند شرحه لحديثه ﷺ: «نَـزَل القرآن على سبعة أحرف»: المراد من لفظ السبعة: الكثرة والتَّعدُّد لا التحديد.

قلت: بل المراد به التحديد، ويدلُّ على ذلك الروايات التي ساقها المؤلف رحمه الله آنفاً، كحديث ابن عباس: «أقرأني جبريل على حرف، فلم أزل أستزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف»، وحديث أبيّ: «ثم أتاه الثانية فقال: على حرفين...»، وذكر الثالثة والرابعة... إلخ، فهذه الروايات تدلُّ على أن المراد بالسبعة: التحديد لا التكثير.

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾: «ويجوز أن يُراد بالأربعة: مطلق العدد؛ لأنه أكثر من أقل الجمع، ويكون المعنى: فَخُذ عدداً من الطير... إلخ، فيكون ذِكرُ الجزء واضحاً في الكلام».

وقال في تفسير الآية (٤) من سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: «وعلى كلٍّ، فالعدد للتكثير، ولا يُراد به التحديد».

وقال في تفسير الآية (٣) من سورة القدر: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾: «والمراد من هذا العدد: التكثير لا التحديد».

قلت: لا داعي لصرف العدد إلى ما ادّعاه المؤلف، فيبقى الأصلُ فيه حملُه على حقيقته حتى يدلّ دليل على أن المراد به التكثير، ولا دليل عليه.

هل الأرض مثل السماوات في العدد؟

* قال الشيخ رشيد في تفسير الآية (١٢) من سورة الطلاق: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾: «والـمِثْلُ: ما يشبه غيره في صفةٍ واحدة أو أكثر، والظاهر أن الممثَّل به مجرَّدُ السماوات دون العدد، فهو غير داخل في المثليّة، فالمراد: أنَّ الأرض شبيهة بأحد أجرام السماء، والله أعلم».

قلت: بيَّن القرآن الكريم عدد الأرضين، وأنها سبع أرضين، فقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ينصُّ على المماثلة في كونها سبعاً؛ لأن المماثلة يجب أن تحمل على المذكور نصّاً، ويدل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ظاهراً على أنها طباق، لأنه سبحانه وصف السماوات في بعض الآيات بأنها سبع طباق، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣] فالمماثلة تشمل الطبقية أيضاً. ويؤيِّد ذلك الكثير من الأحاديث الصحيحة التي تدل على أن الأرضين هي طباق بعضها فوق بعض، فمن ذلك ما رواه البخاري في «صحيحه»(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أخذ من الأرض شيئاً بغير حقِّه خُسِف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»، فالظاهر من هذه الآية أنّ الأرضين سبع طباق غير متراكمة، بل كلٌّ واحدة منها منفصلة عن الأخرى ومتباعدة، كما هو الشأن في السماوات السبع. وعلى هذا الظاهر جرى أكثر العلماء المحقِّقين وجمهور أهل العلم.

* ثم قال: «وفي الآيـةِ إيذانٌ بأنَّ الأرض جزءٌ من أجزاء السمـاء، وجُرْم من أجرامها».

قلت: ليـس في الآية ما يدلُّ على هذه الدعوى، بل تدلُّ على أنَّ الأرضين سبع

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٤٥٤).

طباق، وهي قائمةٌ بإقامة الله تعالى لها في هذا الفضاء، وتحيط بها السماوات بعضها فوق بعض.

فتق السماوات والأرض ورتقهما:

* قال في تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾: «أي: كانتا شيئاً واحداً ففَصَلناهما. وهذا قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير وابن عباس، وهو مطابق للنظرية الحديثة القائلة بأنَّ الأجرام السماوية كلَّها كانت جُرماً سدياً واحداً فتفصَّل بالدوران والحركة على تمادي الدهور».

قلت: هذه نظرية لا حقيقة مطلقة، والخلق لم يطلعوا على كل ما في الكون، وأنّى يكون لهم ذلك، والله عز وجل قد قال: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١]، وقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٣٩]، ولهذا لا يصح أن تفسر آيات القرآن الكريم بمثل هذه النظريات التي لا تُعَدّ يقينيات، أو أن تسقط الآيات عليها.

والخير والسلامة أن نستخدم ما ورد في نصوص القرآن والسنة من أخبار وألفاظ؛ ولا نعدوها إلى غيرها إلا عن يقين، ولا يقين إلا بهما في الخبر عن خلق الكون الذي لم يَشهَدْه أحد من الخلق، ولم يشرك فيه أحدًا.

وأما قول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فإن الرَّتْق في كلام العرب: السدّ والالتئام والانضمام.

وأما الفَتْق فهو: الشقّ والفتح والفصل والاتساع والانفراج.

ويُطلَق على الخصب وانشقاق الأرض بالنبات، وانفلاق الصبح، وانشقاق العصا ووقوع الحرب بين الجماعة، وتصدُّع الكلمة، ونقض العهد.

وللعلماء أقوال في تفسير رتق السماوات والأرض وفتقهما:

القول الأول: أن السماء والأرض كانتا ملتصقتَين، فرفع الله السماء عن الأرض، وفصل بينهما بالهواء، وهو مروي عن ابن عباس وقتادة والحسن وسعيد بن جبير، وهو الذي ذكره المفسِّر، ولكنه أغرب في تفسيره وربطه بالنظرية الحديثة.

ويدل على هذا التفسير أمور:

أحدهما: إفراد ﴿رَتْقًا﴾، وهو بمعنى اسم المفعول «المرتوق»، وظاهر الإفراد يدل على أن السماء والأرض كانتا مرتوقتين ملتئمتين كالجرم الواحد ففصل بينهما.

قال البقاعي: «لما كان المراد شدّة الاتصال والتلاحم أخبر عن ذلك بمصدر مفرد وضع موضع الاسم».

وثانيها: ما ذكره الله جل جلاله بعد ذكر الفتق من جَعْلِ الحياة بالماء، وجعل الجبال والفجاج، وجعل السماء سقفًا محفوظًا، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر، وكأن هذا تفصيل لما جعله الله جل جلاله وخلقه في السماوات والأرض بعد فتقهما.

وثالثها: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] قد يكون فيه إشارة إلى الالتئام السابق، بأن الله عز وجل رفعها وصيّرها سقفًا بعد أن لم تكن، ولما صيَّرها كذلك جعلها بقدرته محفوظة من السقوط كما قال الله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، كما أنها محفوظة من الشياطين في قوله سبحانه: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧].

القول الثاني: أنَّ الفتق حصل بجعل السماء سبع سماوات طباقاً بعضها فوق بعض، وجعل الأرض سبع أرضين بعضها تحت بعض.

وهو مروي عن مجاهد، والسدي، وأبي صالح الحنفي.

ويدل على هذا التفسير أمران:

أحدهما: جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كما قال مكي بن أبي طالب: «وقوله: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تدل على قول مجاهد».

ثانيهما: قول الله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١١-١٢].

القول الثالث: أن فتق السماء بالمطر بعد أن كانت رتقًا لا تمطر، وفتق الأرض بالنبات بعد أن كانت رتقًا لا تنبت.

وهو مروي عن ابن عباس، وابن عمر، وعكرمة، وعطية العوفي، وابن زيد، ومجاهد، ونسبه ابن عادل في «اللباب» إلى أكثر المفسرين، ورجَّحه الطبري وابن عطية.

ويدل عليه ما يأتي: أولاً: قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يدل على أنهم يَرونَه عياناً، والظاهر تفسير الرؤية بالبصرية، وهم لم يروا إلا إنزال المطر من السماء بعد أن لم يكن، وانشقاق الأرض عن النبات بعد أن كانت هامدة.

ثانياً: التعقيب بقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، والأصل أن يكون متصلاً بما قبله، أي: من الماء الذي ينزل من السماء بعد فتقها وتختزنه الأرض، ثم تنبت به بعد فتقها.

قال الطبري: «إنما قلنا ذلك أولى بالصواب في ذلك لدلالة قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ على ذلك، وأنه جل ثناؤه لم يعقب ذلك بوصف الماء بهذه الصفة إلا والذي تقدمه من ذكر أسبابه».

وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز»[١]: «وهذا قول حسن يجمع العبرة وتعديد النعمة والحجة بمحسوس بيّن، ويناسب قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي: من الماء الذي أوجده الفتق، فيظهر معنى الآية ويتوجه الاعتبار».

ثالثًا: جاء هذا المعنى في آيات أُخر، منها قول الله عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ * وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١ - ١٢]، وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ [عبس: ٢٤ - ٢٨].

رابعاً: قال الشنقيطي: «ويؤيد ذلك كثرةَ ورود الاستدلال بإنزال المطر، وإنبات النبات في القرآن العظيم على كمال قدرة الله تعالى، وعِظَمِ مِنّتِه على خلقه، وقدرتِه على البعث».

ويرى بعض المفسرين أنَّ الأقوالَ كلَّها مُحتمِلة، كما قال ابن كثير: «كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصقًا متراكمًا بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعلَ السماوات سبعًا، والأرض سبعًا، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض».

وقال ابن عاشور: «والظاهر أن الآية تشمل جميع ما يتحقق فيه معاني الرتق والفتق؛ إذ لا مانع من اعتبار معنى عام يجمعها جميعاً».

---

(١) «المحرر الوجيز» (٤: ٨٠).

على أن القولين الثاني والثالث تدل الآيات الأخرى على صحة إطلاق الفتق عليهما، أما القول الأول فليس ثمة دليل صريح يؤكِّده بحيث يصح إطلاق الفتق عليه. ولعلَّ مجيء الرتق مفردًا، والسماوات مجموعًا، مع سياق القول الثالث؛ لإرادة المعاني الصحيحة المحتملة كلّها، ويُدلُّ على كلٍّ واحد منها بسياق، والله أعلم.

وثمة أقوال أخرى ككون الفتق بالنور بعد الظلمة، أو بالإيجاد بعد العدم، قال الشنقيطي في أضواء البيان: «وهو أبعدها لظهور سقوطه».

وعلى ما سبق من أقوال فإن الفتق بعد الرتق في الآية لا يلتئم معه التفسير بـ«الانفجار العظيم» الذي يقول به بعض الفلكيين والمتكلمين بالإعجاز العلمي، لا من حيث اللغة، ولا من حيث النصوص الشرعية، ثم إنّ الآية تتناول السماوات والأرض فحسب، لا غيرهما، والله أعلم.

هل طيّ السجل للكتب يعني اصطدام الأجرام السماوية؟

* قال الشيخ رشيد الخطيب في تفسير الآية (١٠٤) من سورة الأنبياء: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾: «والمراد هنا: المبالغة في بيان تداخل الأجرام السماويَّة والتفافها ببعضها بنتيجة الاصطدام والارتباك لفساد نظامها. هذا ما أفهمه من الكلام، والله أعلم بما سيكون، ولكن الكلام بجملتِه يدلُّ علىٰ خراب هذا العالم خراباً كلياً، فيعود رتقاً وكتلةً واحدة كما كان في مبدأ خلقِه قبل فتقِه وتفصيله الذي ذكره بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وعَوْدُها رتقاً وكتلة متجمِّعة هو المراد بقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾. والله أعلم».

قلت: إن في تعلق ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ ﴾ قولين:

الأول: أنه متعلّق بالآية التي قبلها: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ الآية، أي: لا يحزنهم الفزع الأكبر يوم نطوي السماء كطيِّ السجل للكتب. ثم استؤنف معنى آخر: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾.

قال الطبري: وعند قوله: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ ﴾ انقضاء الخبر عن صلة قوله: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾، ثم ابتدأ الخبر عما الله فاعل بخلقِه يومئذ، فقال تعالى ذِكره: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾.

الثاني: أنه متعلق بقوله: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ من باب التقديم والتأخير، أي: كما بدأنا أول خلق نعيده يوم نطوي السماء كطيِّ السجل للكتب.

وعلى كِلا القولين فليس المقصود السماوات والأرض، وإنما هو البعث بعد الموت، كما جاء في آيات أُخر: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء: ٥١]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩].

وهذا هو تفسير الرسول ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري، ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) (٥٨).

هل يمكن النفوذ من أقطار السماوات والأرض بسنة كونيَّة؟

* قال في تفسير الآية (٣٣) من سورة الرحمن: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾: «أي: لا قُدْرةَ ولا حَوْلَ لكم إلا بسلطان من الله وسنَّةٍ من سُنَنه الكونيَّة».

قلت: لا علاقة للسلطان بسنن الله الكونيَّة، ومعنى الآية: يا معشرَ الجنِّ والإنس إن استطعتُم أن تَخرجوا من جوانب السَّماوات والأرض وأطرافها، فتفلتوا من حساب ربِّكم، فاخرجوا، لا تقْدرون على الخروج إلا بقوةٍ وقهر وغَلَبة، وأنَّى لكم ذلك؛ لأنكم حيثما توجَّهتم كنتم في ملكي وسلطاني.

* ثم قال الشيخ رشيد الخطيب في الحاشية: «قوله: ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: إلا بقوة من الله وسنَّة كونيَّة، فقد أودع سبحانه في الإنس استعداداً لاستخدام السنن الكونيَّة في البعد والارتقاء، وأودع في الجنّ قوة طبيعيَّة تأتي بذلك، أما قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ فيجوز أن يُراد به في الإنس ما جَرَى على مُعارضي الرسل من عذاب الاستئصال والصواعق ومطر السوء، وفي الجن الشهب تصيب مَن يحاول التسمُّع إلى الملأ الأعلى، ويجوز أن يكون الكلام من خطاب الاثنين بما هو لأحدهما، وذلك من خصائص اللغة، ويكون المراد: ما يصيب الجنّ من الشهب والنيازك. والله أعلم».

قلت: تفسير السلطان بالسنّة الكونيَّة غير مُسلَّم كما تقدم، وأيُّ سنة كونيَّة أو قانون طبيعي يُمكِّن الإنسان من أن يَنفُذَ من أقطار السماوات! وبُعدُ بعض نجوم السماء الدنيا فحَسْب: ملايين السنين الضوئية! لكنْ لـمّا كان المؤلف رحمه الله يُفسِّر السماوات السبع بالكواكب السيّارة ـ على ما تقدّم منه في تفسيره هذا ـ أورَدَ هذا المعنى هنا، وتفسيرُ السماوات بالكواكب السّيّارة خطأ ـ كما تقدّم التنبيه إليه ـ فما بُني عليه خطأ أيضاً.

النبوة والأنبياء

تكليم الله تعالى لرسله عليهم السلام:

* قال في تفسير الآية (٢٥٣) من سورة البقرة: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾: «وقال بعض العلماء: إنه من نوع تكليم الله للملائكة.

أقول: ويجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون الملك المقرَّب منطبعاً علىٰ أن يحسَّ بالتوجُّه إلىٰ الأمر الأعلىٰ، فيلحظه وينطبع في هُوَّيته ما يلحظ، أو شبيهاً بمثل ذلك، والله أعلم بأسراره».

قلت: هذا القول لا يصح، وليت المؤلف ـ غفر الله له ـ اقتصر على ما ذكره أولاً: لا يجوز لنا البحث عن كيفيَّة تكليم الله لرسله.

اتصال الرسول بالملك:

* قال في تفسير الآية (١٢٤) من سورة الأنعام: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾: «أي: لا يجعلها لكلِّ البشر، ولكن يجعلها فيمَن يخلقه لها، كما قال تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١].

ويمكن فهم ذلك بأنَّ الله سبحانه يخلق الرسول في منتهىٰ الكمال البشريِّ، ومن هذه الناحية يتَّصل بالملك».

قلت: اقتصر المؤلف ـ رحمه الله ـ على جانب واحد، وأهمل جانباً مهماً، وهو صدورُ الأمر من الله تعالى للمَلَك بالاتصال بأحد عباده ليكون رسولًا، فالكمال البشري وحده غير كافٍ في كون أحد البشر رسولًا، لأنّ الرسالة اصطفاء واختيار من الله تعالى.

الوحي للأنبياء:

* قال في تفسير الآية (٨٢) من سورة الإسراء في قول الخضر عليه السلام لموسى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾: «والظاهر أنه بإيحاءٍ نفسيّ ـ والله أعلم ـ وهو الـمُسمَّىٰ بالوحي الوجداني الذي يكون عند الأنبياء والصِّدِّيقين».

قلت: الوحي للأنبياء دون الصِّدِّيقين، وما يكون للصِّدِّيقين هو إلهام وفراسة ولا يقال له وحي، والراجح أن الخضر نبي لا صدِّيق، ثم إن تعريف المؤلف للوحي بأنه إيحاءٌ نفسيٌّ أو وجدانيٌّ تبع فيه الشيخ محمد عبده الذي عرَّف الوحي بأنه: «عرفان يجده الشخص من نفسه».

النبوة اصطفاء واجتباء:

* قال في تفسير الآية (١١٠) من سورة الكهف: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: «ابتدأ الكلام بتحديد النبوَّة، فألمع إلىٰ أنها لا تَتَجاوز حدود البشريَّة، ولكنها تكون في الكُمَّل من البشر، فيكون بينهم بحكم الكمال وبين طبيعة المَلَك ـ والله أعلم ـ مجاورة واتِّصال».

* وقال أيضاً في تفسير الآية (٧٥) من سورة الحج: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: «إنَّ الله سبحانه يختار من البشر مَنْ يحتمل عبء الرسالة ويتحمَّل الاتصال بالملَك، وهو الإنسان الكامل الرفيع، المستوعب لحدود الإنسانيَّـة، فيَصْطفيه لإمكان اتِّصاله بالمَلَك، بحكم الكمال والتقارب من الملأ الأعلىٰ».

يُحاول المؤلف رحمه الله أن يُجري النبوة على قانون أو سنَّة كونيَّة، وذلك بأن يكون ارتقاء الواحد من البشر إلى درجة الكمال سبباً في اتِّصاله بالملائكة ونَيْله رتبة النبوة. وليس كذلك، فكم حاول أفراد من الناس تحصيل ذلك بمثل هذه الطريقة فما أفلحوا،

لأنه غاب عنهم أنَّ النبوَّةَ مَحْضُ اصطفاء واجتباء من الله تعالى، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

حقيقة الرسالة:

* قال في تفسير الآية (٣١) من سورة الزخرف: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾: «ولم يعلموا أنَّ الرسالة رتبة روحيَّةٌ تستدعي عِظَم النفس بالتحلِّي بالفضائل الروحيَّـة والكمالات القدسيَّـة».

الرسالةُ محضُ تفضُّل من الله تعالى على عبد من عباده واصطفاء له واختيار، فإذا اختار الله تعالى أحدُ عباده لهذه المهمة؛ رقّاه في مراتب الروح إلى أسمى مراتبها، فالرتبة الروحية للنبي تابعة لاختياره نبياً من الله تبارك وتعالى، لا مُسبِّبة لنيله هذه المنزلة الكريمة.

الغيب الذي يُطلعُ الله عليه رسلَه:

* قال في تفسير الآيتين (٢٦، ٢٧) من سورة نوح: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا﴾ «نوعاً واحداً وهو غَـيْبُ الرسالة فيُطْلع عليه ﴿مَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ لرسالته ﴿مِن رَّسُولٖ﴾».

الجواب: هذا التقييد لا دليل عليه، فمن الجائز أن يُطلِعَ الله تعالى مَنْ شاء من رسلِه على أيِّ غيب من غيوبه، سواء كان متعلِّقاً بالرسالة أو لا، وفيما ثبت في صحيح الأحاديث من إخبار النبي ﷺ عن غيبيات شتى؛ دليلٌ على بطلان هذا القيد.

حجج الأنبياء وبراهينهم:

* قال في تفسير الآيات (٨- ١٢) من سورة نوح عليه السلام: «أنه بلغَ أقصى جهدَه في دعوتِهم إلى الإيمـان، فقال: «﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا * ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ

وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، ثم ذكرَ صورة الدعوة، وكيف كانت مقرونةً بالمرغِّبات، فلم تُجْدِ نفعاً، وقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ فيها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ وكانت أراضيهم قاحلة».

ثم قال: «وتدلُّنا هذه الآية على ما كان عليه البشر في الدهور الماضية قبل أن يتكامل إدراكُه، وهو أنَّ دعوتَه إلى الدِّينِ إنما كانت من طريقة التأليفِ والتأثير بالعاطفيات والماديات، لا بطريقةِ المنطق الوجداني والتحليل العلمي والبرهان الصحيح، فلم يأت ذلك إلا في القرآن بعد أن تكاملَت نشأة العقول البشرية، واتَّسع أُفق النظر بالثقافات الفكرية»!!

قلت: في كلام المؤلِّف نظر، فالحُجَج التي أقامها الأنبياء في دعوتِهم أقوامَهم تقوم على البرهان الصحيح، وما جاء في القرآن هو جمع لهدايات الأنبياء الذين اهتدى خاتم الرسل بهدايتهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

مُحاجَّة إبراهيم عليه السلام لقومه:

* قال في تفسير الآية (٧٨) من سورة الأنعام في مُحَاجَّة إبراهيم لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾: «وهذا هو مَحطُّ المناقشة وهدفها، ثم علَّق في الحاشية: الذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أنَّ مفاهيمَ هذه المناظرة كانت تدورُ في مخيلة إبراهيم عليه السلام منذ الصِّغر، ولكنّه جادلَ بها قومَه في الكبر، وما يتخلَّلُها من خطاب قومِه كانَ في الصغر خطاب تفكير، يؤنِّب بها قومه في ذهنه، وكان عند المجادلة خطاب مشافهة، وقد جريت في تفسير الآياتِ مَجْرىٰ المفسِّرين، حيث يعتبرون الدور الثاني، وهو المجادلة الشفهية، فَسِرْتُ سَيْرَهُم في التفسير، وخالفتهم في الهوامش والتعليق».

ثم عاد ليقرِّر في المتن أن قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾: «ليس بخطاب مواجهة مطلقاً، ولكنه تبرُّؤٌ بصورة خطاب خيالي وحديثٍ نفسي في حال الصغر، وخطابٌ حقيقيٌّ في حال الكبر والمناظرة مع قومه».

قلت: ليت المؤلف ـ رحمه الله ـ بقي جاريًا مجرىٰ المفسِّرين؛ لأنه هو الحقّ والصواب، إذ لا دلالةَ في الآيات على دَوْرَين من المجادلة، ثم حَمْلُ القولِ المُصرَّح به في الآية على أنّه كان تفكيرًا في المخيلة غير صحيح، ولو فتحنا هذا الباب لأفسَدْنا كثيراً من المعاني المقصودة في كتاب الله.

وأما مُحاجَّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، فإن هذا الكلام على وجه المناظرة والتنـزل مع الخصم، أي: هذا ربي فهلمَّ ننـظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه، بغير حجة ولا برهان.

قال ابن كثير في تفسيره[1]: «اختلف المفسِّرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة، فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧] والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيِّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام.

ثم اختلف في تأويل هذه الآية، فقيل: أراد إقامة الحجَّة على قومه كالحاكي لما هو

(١) «تفسير ابن كثير» (٣: ٢٩١).

عندهم وما يعتقدونه، لأجل إلزامهم، وقيل: معناه، أهذا ربي؟ أنكر أن يكون مثل هذا رباً، ومثله قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] أي: أفهم الخالدون؟ وقيل المعنى: وأنتم تقولون: هذا ربي، فأضمر القول، وقيل المعنى: على حذف مضاف، أي هذا دليل ربي». انتهى.

فإبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يشرك بربه قط، ولم يعبد الكواكب، ولم يتردد في ضلال قومه، وقد ذكر الله عنه البعد عن الشرك في القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

الحكمة من نظر إبراهيم عليه السلام في النجوم:

* قال في تفسير الآيتين (٨٨، ٨٩) من سورة الصَّافات: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ «أي: سقيمٌ في العقيدة، والظاهر أنَّ ذلك كان في صِغَرِه. والله أعلم».

ثم قال: فمعنى ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾: إني غير مرتاح من دين قومي.

فمفادُ الآية شبيهٌ بمفاد قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضُّحى: ٧]، أي: مُتحيِّراً في أمرك، أيَّ دين تَتَّبع، فهداك بهذا الدين، والظاهر أنَّ هذا كان في أول نشأة إبراهيم عليه السلام. والله أعلم».

قلت: نَظَرَ إبراهيم نظرةً في النجوم؛ ليُوهِمَ مَنْ حوله من قومه أنه على طريقتهم

في النظر إلى حركات النجوم؛ لئلا يُنكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكيد أصنامهم في يوم عيدهم، فيُحطِّمُها إلا كبيرها؛ ليُلزمهم الحُجَّة أنها لا تستحق العبادة.

وأما قوله: إن ذلك كان في صِغَرِه فالأصح أنه كان في كِبَرِه بعد إيتائه النبوة من الله تبارك وتعالى، لكنْ كان ذلك على سبيل التَّسليم لما يقوله الخصم جدلاً لإبطاله بالحجَّة والبرهان، لا عن اعتقاد منه عليه الصلاة والسلام بذلك.

ومعنى ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾: إنِّي مريض، ومرضي يمنعني من أنْ أخرج معكم في يوم عيدكم، أو سقيم القلب لحزنه على كفرهم بالله لكنه أوهمهم أنه مريض حتى ينصرفوا عنه.

وأما قوله: أنَّ مفاد الآية شبيهٌ بمفاد قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضُّحى: ٧]، أي: مُتحيِّراً في أمرك، أيَّ دين تَتَّبع. فقوله: «أيّ دين تتبع» فيه خفاء وإلباس، فإن فُهم بأنه كان متحيِّراً في اتباع أحد الأديان الموجودة في عصره لاحتمال أن يكون أحدها صواباً في نظره؛ فهذا فاسد، لأن النبي ﷺ كان يجزم ببطلان هذه الأديان جميعاً قبل نبوّته، وإن فُهِمَ بأنه كان يَعرف بطلانها، لكنه كان متحيِّراً في الصواب من ورائها، وهو الدّين المُغيَّب عنه في واقعة قبل نبوته ﷺ؛ فهذا هو الصواب. وينظر جواب الشيخ عبد الكريم تتان حول المراد بالتحيّر ومعنى هذه الآية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضُّحى: ٧].

هل قلّب النبيُّ ﷺ اليهودية والنصرانية قبل الوحي؟

* قال الشيخ رشيد الخطيب في حاشية تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: «فقد كان محمد ﷺ في صغره يرىٰ أنَّ عبادة قومه لهذه الأصنام ضلال بعيد، ولذلك لم يعبد صنماً قط، ثم تطلَّب له ديناً فقلَّب اليهودية والنصرانية في ذلك الحين، فرآها مشحونةً بالضلال، فتوجَّه إلىٰ الله

سبحانه أن ينقذه من هذه الحيرة، ويهديه سواءَ السبيل، ولم يزل مُتحيِّراً حتىٰ أتاه اليقين من ربِّ العالمين، وهداه إلىٰ صراطه المستقيم بالوحي المبين. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٧] أي: مُتحيِّراً في أمرك فهداك للرُّشْد والفلاح».

قلت: ما ذكره المؤلف من أنَّ النبيَّ ﷺ قلَّب اليهودية والنصرانية بحثاً عن الدين الحقّ؛ كلامٌ لا يُوافَقُ عليه، لعدم ثبوت ذلك في روايات السيرة النبوية، ولو كان لاتَّخذه المشركون مطعناً في دعوته عليه السلام، ولم يفعلوا، فدلَّ على أنه لم يكن.

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] نقلاً عن القاضي عياض: «والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ وُلِدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك.

كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم ـ عليهم السلام ـ قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] قال المفسرون: أعطي يحيى العلم بكتاب الله في حال صباه، قال معمر: كان ابن سنتين أو ثلاث، فقال له الصبيان: لم لا تلعب؟ قال: أللعب خلقت؟ إلى أن قال: «قال القاضي: ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نُبِّئ واصطفي ممن عُرِفَ بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل، وقد استدلَّ بعضُهم بأنَّ القلوب تنفر عمَّن كانت هذه سبيله.

قال القاضي: وأنا أقول إن قريشاً قد رَمَتْ نبينا عليه الصلاة والسلام بكلِّ ما افترته، وعيَّر كفار الأمم أنبياءَهم بكلِّ ما أمكنَها واختلقَته، مما نصَّ الله عليه أو نقلته إلينا الرواة،

ولم نجد في شيء من ذلك تعييراً لواحد منهم برفضه آلهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلوُّنِه في معبوده محتجين، ولكان توبيخُهم عمَّا كان يَعبُد قبلُ أفظع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركِه آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل، ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه، إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] كما حكاه الله عنهم....»[١] انتهى.

ويُنظَر جواب فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان الحَمَوي عن حقيقة هذه الحيْرة والمراد بالضلال في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٧] في المدخل الثالث من هذه المقدمة.

هل تراخى الرسول في أمر إبطال التبنِّي؟

* قال في تفسير الآية (١٣) من سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾: «ويدلُّ السياق على أنَّ هذه الخطبة ـ أي: خطبة الرسول ﷺ لزينب ـ كانت بأمر الله، وأنه قضاء مُقدَّر لإبطال التَّبنِّي، كما يدلُّ على ذلك ما انتهت به القصة من التعليل الآتي، وأن الرسول ﷺ كان يخشى غائلة المنافقين، ويُحاذر أن يفترصوا هذا الأمر للمُشاغَبات ضدَّه وضدَّ دعوته، وربما يَصِمُونَهُ بما هو منزَّه عنه، فكان يتَراخى في هذا الأمر خشيةً منه، حتى نزل بعتابه قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالتَّحرير وحُسْن التربية ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾».

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٦: ٥٦-٥٧)، وكلام القاضي عياض في «الشفا» (٢: ٢٥٧).

الجواب: لم يثبت تراخيه ﷺ في هذا الأمر، فقد كان زيد يأتيه يشكو إليه زينب، ويُخبره بعزمِه على طلاقها، فيقول له ﷺ ـ وهو يعلم أنه سيطلقها آخر الأمر، وأنها ستكون زوجته ـ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، لا يقوله ﷺ تراخياً في أمر الله، بل قياماً بواجب النصيحة، وعملاً بظاهر الحال، أما قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فمعناه: تُخفي في نفسك الآن الأمرَ الذي سيُبديه الله في المستقبل من وقوع الطلاق وتزوُّجك بزينب، وهذا الإخفاء لا إشكال فيه، إذ لم يؤمر ﷺ بإظهاره، وأما قوله: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ فإخبار عما كان يدور في نفس النبي ﷺ من الخشية على دعوته؛ لِـمَا أن المنافقين سيستغلون هذا الأمر ويتَّخذونه مثاراً للشبهة، مع عزمه ﷺ على تنفيذ الأمر دون أيِّ تراخ. فما كان يُخفيه في نفسه ﷺ هو أمر غيبيّ أطلعه الله عليه، وهو أن الطلاق سيقع وأنه سيتزوَّج زينب بعد زيد مولاه، ولم يأمره بتبليغ هذا الأمر، فلا عِتابَ عليه فيه.

* ثم قال نقلاً عن الشيخ محمد عبده: «وكان يخشى ﷺ من المنافقين أن يشاغبوا، ويقولوا: تزوَّج بامرأة ابنه، وهو نفسه ينهى عن نكاح حلائل الأبناء، وتفعل هذه المشاغبة فعلها، ولو إلى حين، ولهذا يـتَراخى ويقول: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، حتى عاتبه الله على هذا الخوف، فقال: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ من أن يقولوا: تزوَّج امرأة ابنه ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ وتُسرع في تنفيذ مطالبه».

قلت: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ جاء على أسلوب خطاب الأمة في شخص النبي ﷺ ليكون الأمر أشد تأثيراً في نفوسهم، وأورده هنا بمناسبة السياق، يعني: لما ذكر الله تعالى أن الخشية دخلت إلى قلب النبي ﷺ في هذا الأمر مع عدم تأثيرها على استجابته لأمر الله وتنفيذه لحكمه، ناسَبَ أن يُنبِّهنا إلى ما يدخل إلى نفوسنا أيضاً من

مثل هذه الخشية التي قد تؤثر في استجابتنا لأمر الله وتنفيذنا لحكمه، فأدخل في سياق القصة هذا التحذير، وأجراه على خطاب النبي ﷺ ليكون أوقع في نفوس الأمة.

وقد حمل المؤلف رحمه الله عدّة آيات في هذا التفسير على أسلوب خطاب الأمة في شخص النبي ﷺ، فيُستَغرَبُ منه كيف تركه هنا!

الفرق بين العتاب والتأنيب:

* قال في تفسير الآيتين (١، ٢) من سورة عبس: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ معلِّقاً في الحاشية: «إذا أراد الله سبحانه أن يَتَدارك أمةً برحمته، فيعيد إليها الحياة الاجتماعية الصحيحة بواسطة التعاليم الإلهيَّة، فلا يكون ذلك إلا بواسطة العامَّة، لأنهم لبُعدهم عن مناشئ الإصابات من الأمراض الاجتماعية يكونون أبطأ تأثُّراً بأنواع الفساد العمراني الخلقي من الخاصَّة، فيبقى فيهم بقية من نور الفطرة تصلح للرجوع بهم إلى الحياة الاجتماعية الصحيحة والتعاليم الإلهية.

وتأنيب القرآن لمحمد ﷺ عن هذا الأمر بهذه الصورة القوية تَصفَعُ الكافر المتقوِّل بأنَّ القرآن من صُنع محمد واختِلاقِه».

قلت: هو عتاب وليس بتأنيب، والعِتاب إنما يكون بين المحبِّين، ثم هو عتابٌ رُوعي فيه اللطف في الخطاب، حيثُ عَدَلَ عن أسلوب الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، ولم يقل: عَبَسْتَ وتولَّيت.

أمْرُ الله نبيَّه بالاستغفار عند فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً:

* قال في تفسير الآية (٣) من سورة النصر: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾: «ولكن الله سبحانه قد يعدُّ مِثلَ هذا ـ من حُزن وضَجَر في أوقات الشدَّة ـ على الكُمَّل ويعاتبهم عليه، كما قالوا: «حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين»،

ورسول الله ﷺ من أقرب المقرَّبين إليه، وقد يراه النبيُّ ﷺ - إذا رجع إلى نفسه وخرج من غمرة الشدة - ذنباً يتوب إلى الله منه ويستغفره.

قلت: ليس في الآية ما يدلُّ على صدور الذنب من ﷺ - حتى على معنى الذنب السائغ إضافته إلى الأنبياء - وليست صيغتها صيغة عتاب، ولفظ الاستغفار وحده لا يدلُّ على ذلك.

سحر النبيِّ ﷺ لا يضر بعصمته:

* قال في تفسير الآية (٤) من سورة الفلق: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾: «ثم تعرَّض الأستاذ الإمام - أي: محمد عبده - لِـمَا يقولون من أنَّ النبي ﷺ سُحِرَ، وأنَّ السورة نزلت لرُقيَتِه، وردَّ ذلك».

قلت: أما سحره فقد ثبت في الصحيحين؛ رواه البخاري، ومسلم، عن عائشة رضي الله عنها[1].

وأما رقية النبي ﷺ بالمعوذتين ثابتة، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة «أنَّ النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتدّ وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده، رجاء بركتها»[2].

وأما كون سبب نزولها رقية النبي ﷺ فإنه قد ذكر بعضُ المفسرين هذا الأمر.

قال ابن حجر في «الفتح»: «وفي حديث زيد بن أرقم عندَ عبدِ بن حُميد وغيره: فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين، وفيه: فأمره أن يحلَّ العقدَ ويقرأ آية، فجعل يقرأ ويحلّ، حتى قام كأنما نشط من عقال»[3]. انتهى.

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢١٨٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٠١٦)، و«صحيح مسلم» (٢١٩٢).

(٣) «فتح الباري» (١٠: ٢٣٠).

* ثم قال: «وقد ردَّ على ذلك أيضاً أبو بكر الرازي المعروف بالجصَّاص، إلى أن قال ـ يعني: الشيخ محمد عبده ـ: وجائز أن تكون المرأة اليهوديَّة بجهلها فعلت ذلك، ظناً منها بأنه يَعمَلُ في النبيِّ ﷺ، فأطلَعَه الله على مَوْضع سرِّها، وأظهَرَ جهلَها فيما ارتكبت وظنَّت؛ ليكون ذلك من دلائل نبوَّته؛ لا أنَّ ذلك ضرَّه وخلط عليه أمره. ولم يقل كلُّ الرواة: إنه اختلط عليه أمرُه، وإنما زيد هذا في الحديث، ولا أصل له».

قلت: جاء في بعض الروايات: «حتى كان يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله»، وفي بعضها: «حتى كان يُخيَّل إليه أنه يأتي أهله»، فـ«الشيء» في الرواية الأولى كنايةٌ عن إتيان الأهل المصرَّح به في الرواية الثانية، ومثل هذه الكناية شائعةٌ في كلام العرب.

أما لو فُرض الأمر فيها بالعكس، فلا يستطيع؛ لأنه ليس من عادة الرواة أن يُعبِّروا عن لفظٍ مطلق ـ وهو هنا: «الشيء» ـ بصورة جزئيَّة، وهي هنا إتيان الأهل.

فظهر بهذا أنَّ الحديث وقع فيه تصرُّفٌ من بعض الرواة وروايةٌ بالمعنى.

أما عبارة المؤلف ـ وأصلها للشيخ محمد عبده ـ فتُوهِمُ أن كلَّ ما زاده راوٍ وأسقطه آخر؛ يعدُّ مما زِيدَ في الحديث ولا أصل له، وليس كذلك.

موقفه من المعجزات وخوارق العادات

جرى المؤلف تبعاً للمدرسة العقليَّة على إبطال دلالة المعجزات الخارقة للسنن الطبيعية، وحاول تفسيرها حسب القوانين الطبيعية. وهذه نماذج مما ساقه في تفسيره مع التعقيب اليسير عليها:

معنى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾:

* قال في تفسير الآية (٤٠) من سورة هود: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾:

«كنايةٌ عن شدَّة الغضب عليهم، مثل: حَمِيَ الوطيس، أو كناية عن قوَّة انبعاث الماء؛ لأنَّ التنُّورَ يطلق علىٰ كُوَّة عين الماء، ولا يشترط في الكناية صحَّةُ إرادة المعنىٰ الحقيقي، كما لا يمتنع؛ وعليه، فيجوز أن تكون الطبيعة أثارت بركاناً فجَّر الأرض عيوناً، وأرسلت ذلك الماء، فكان ذلك اتفاق أقدار لأقدار. والله أعلم».

قلت: نعم، يجوز ذلك كما يجوزُ الآخر، فيحتاج إلىٰ قرينة تدل عليه، فيبقىٰ القول الآخر أصح، وهو أن نَبْعَ الماء من أقطار الأرض إنما كان بأمر مباشر من الله تعالىٰ، لا بموافقة أقدار لأقدار، ويدل عليه سباقُ الآية وسياقُها، أما السباق فقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا ﴾ فهو يُشعِـرُ بالأمر المباشر الخارق للعادة والسنة الكونيَّـة، وأما السياق فقوله: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ [هود: ٤٤]، فكما أن نهاية الأمر كان بالأمر المباشر فكذلك بدايته.

ليس الطوفان في عهد نوح عليه السلام موافقاً للسنن الكونية:

* وقال في تفسير الآية (٢٧) من سورة المؤمنون: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: «يجوز أن تكون الطبيعة أثارت ينابيع أرسلت ذلك الماء، اتِّفاق أقدار لأقدار».

قلت: لم يكن الطُّوفان في عهد نوح عليه السلام حَدَثاً طبيعياً موافقاً للسنن الكونيَّة، حتى يكون الأمرُ اتفاقَ أقدار لأقدار، نعم ... أمر الله الأرض أن تتفجر عيوناً، لكنْ على خلاف المعهود في الطبيعة، وكيف يكون ذلك جارياً على مقتضى الطبيعة وقد بلغ الأمر أن تجري السفينة في موج كالجبال، كما ذكر الله تعالى في الآية (٤٢) من سورة هود.

إهلاك قوم صالح عليه السلام بالصيحة الطاغية:

* قال في تفسير الآية (٥) من سورة الحاقَّـة في إهلاك قوم صالح: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ

﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾: «قال قتادة والجُبّائيُّ وأبو مسلم: أي: بالصيحة الطاغية التي جاوزت المقدار حتى أهلكتهم.

ولكن ألا يجوز أن يراد بالطاغية: الجبّار الذي عَقَرَ الناقة، وتكون التاء للمبالغة في الوصف لا للتأنيث، ويكون في الآية إيجاز الاكتفاء من أنواع إعجاز القرآن، حيث ذكر في الأولى الـمسبّب للهلاك، وفي الثانية: نفس الهلاك، على حدِّ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]، أي: جعل الليل مظلماً لتسكنوا فيه، والنهار مُبْصِراً لتبتغوا من فضله، فاكتفى بالتعليل الأول عن التعليل الثاني، وبالوصف الثاني عن الوصف الأول، وذلك من أساليب القرآن. هذا رأيي، والله أعلم، هنا أوجَزَ في كلٍّ بعضَ الآخر».

الجواب: هذا بعيد، فلو كان هذا صحيحاً لكان المناسب أن يتبعه مثلُه في قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ...﴾، ولكن الذي ورد فيها هو الهلاك نفسه لا المُسبِّب للهلاك، وهو قوله: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، فنظمُ السياق إذن يقتضي أن يكون كلاً من قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ تفسيراً للقارعة المذكورة في قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾، لأنه أجمل السياق أولاً، ثم فصّله.

أما قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] فليس هو تفصيل بعد إجمال، بل هو مسوقٌ للتمنُّن، وهو حاصل بما ذكر في الجهتين، فكان الاكتفاء فيه واضحاً، بخلاف ما هنا.

تأويله الموت في قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ بالنوم الطويل:

* قال في تفسير الآية (٢٥٩) من سورة البقرة: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾: «يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن ما جرىٰ لهذا القائل عين ما جرىٰ لأصحاب الكهف من

النوم الطويل، ولكن القرآن عبَّر هنا عن ذلك بالموت جرياً علىٰ المعنىٰ العرفي ومناسبة السؤال، وعبَّر عنه في أصحاب الكهف بالضرب علىٰ الآذان جرياً علىٰ المعنىٰ الحقيقي. هذا ما أظنه. والله أعلم. ومن أساليب القرآن وخصائصه: أن يطوي في السؤال ما يدلُّ عليه الجواب».

قلت: تفسيرُه الموت هنا بالنوم الطويل؛ فيه عدولٌ عن ظاهر اللفظ من غير مقتضٍ، بل سياق الآية يُمنعه، ويُرجِّحُ تفسير الموت بحقيقته المعروفة، والله أعلم.

* ثم قال في هذه الآية ما ملخَّصه: «وقد ثبت في هذا الزمن أنَّ مِن الناس مَن تحفظ حياته زمناً طويلاً من شهر أو أقل إلىٰ أربعة أشهر يكون فيها فاقد الحسّ والشعور، ويُعبِّرون عن ذلك بالسُّبات، وهو النوم المُسْتغرق الذي سمَّـاه الله وفاة. ويجري ذلك علىٰ سُنَن طبيعيَّة لم يهتد إليها الأكثرون. وقد أجرىٰ الله تعالىٰ إماتة هذا الميِّت علىٰ مثل هذه السنن. والله أعلم».

قلت: تقيـيدُه ذلك بجريانه على سنن طبيعية مما لا يُوافَق عليه. نعم ... بعضُه يجري على سنن طبيعية، وبعضه لا يجري عليها فيكون خارقاً للعادة.

* ثم قال: «وهذه الظاهرة العجيبة أيضاً، يجوز أن تكون جاريةً علىٰ سُنَن الله الطبيعية التي اهتدىٰ الناس إلىٰ شبهها من حفظ الأطعمة مدةً طويلة وإن لم يهتد لها تماماً علىٰ عين هذه الصورة، والله أعلم».

قلت: بل هذه الظاهرة العجيبة خارجة عن السنن الطبيعيَّة، والله سبحانه الذي خلق السنن الكونيَّة يخرقها إذا شاء، وما توصَّل إليه الناس من حفظ الأطعمة لمدة طويلة لا يقاس على الإماتة ثم الإحياء.

تأويله ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ بأنه نام نوماً طويلاً كصاحبه:

* قال: «وقد اختلفوا في المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾، فقيل: معناه: انظر كيف مات وتفرَّقت أو تفتَّت عظامه، فلولا طول المدة لم يكن كذلك.

وقيل: معناه: انظر كيف بقي حياً طول هذه المدَّة، علىٰ عدم وجود مَنْ يعتني بشأنه. ويجوز أن يكون نام نَوْمةَ صاحبِه وانتبهَ انتباهه مثل كلب أهل الكهف، والله أعلم».

دعوى أنَّ الحمار بقي حيّاً طوال هذه المدة، إبطالٌ للمراد من الآية، وهي: الجواب عن السؤال الذي مرَّ على القرية الخاوية ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾؟ فبقاء الحمار حيّاً طوال هذه المدة باطل من القول، وتعسُّف بالتأويل، والمعنى الصحيح هو الذي أشار إليه المؤلف أولاً في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أي: انظر كيف مات وتفرَّقت أو تفتَّت عظامه.

* وقال في الحاشية في تفسير الآية (٢٥٩) من سورة البقرة: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾:

«أقول: أما يحتمل أن يكون أسلوبُ المكالمة حكايةً لما دار في خاطره وما جرى له وعليه، كما ذكرتُ مِثلَه في كلام الله مع الملائكة في شأن آدم، وفي كلام الله مع إبليس، وفي كلام الله الآتي مع إبراهيم عليه السلام، والعلم عند الله الحكيم العليم».

قلت: هذا الاحتمال الذي يقرره المؤلف ـ غفر الله له ـ باطل، فكلام الله مع الملائكة ومع إبليس ليس حكاية لما دار في خواطرهم، كما سبق تقريره، وكذلك كلام الله تعالى مع هذا الرجل في هذه القصة، وكلامه مع إبراهيم عليه السلام في القصة الآتية، فاللفظ صريحٌ في التكليم والمحاورة، وهو غير محتمل لحمله على حكاية ما يجول في الخواطر بحسب لغة العرب، نعم .. هو محتمل لأن يكون تكليماً مباشراً أو بواسطة، والقرائن تُعيِّن الثاني، فينبغي المصير إليه.

تأويله المتكلف لطلب إبراهيم كيفيَّة إحياء الموتى:

* قال في تفسير الآية (٢٦٠) من سورة البقرة في قول الله تعالى لإبراهيم: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾:

«وقالوا: إنَّ إبراهيم عليه السلام قد فعل ذلك، ثم دَعَاهُنَّ، فأحياهنَّ الله وجِئنَ إليه أحياء كما كُنَّ.

وخالفهم أبو مسلم المفسِّر الشهير، فقال: ليس في الكلام ما يدلُّ على أنه فعل ذلك، وما كلُّ أمر يُقصَد به الامتثال، فإنَّ من الخبر ما يأتي بصيغة الأمر، لا سيما إذا أريد زيادة البيان، كما إذا سألك سائل: كيف يُصنَع الحبر مثلاً؟ فتقول: خذ كذا وكذا، وافعل به كذا وكذا، يَكُنْ حبراً؛ تريد كيفيتَه، ولا تعني تكليفَه صُنعَ الحبر بالفعل.

قال: وفي القرآن كثيرٌ من الأمر الذي يُراد به الخبر، والكلام هاهنا مَثَل لإحياء الموتى وعَوْد الأرواح إلى الأجساد، على سبيل السهولة ودون اختلاف، ومعناه: خُذْ أربعةَ أنواع من الطير، فضُمَّها إليك وآنِسْها بك حتى تأنس وتصير بحيث تجيبُ دعوتك، فإنَّ الطيور من أشدِّ الحيوان استعداداً لذلك، بسائر أنواعها، أو بأكثرها، لا سيما أنواع خاصَّة منها، ثم اجْعَل كلَّ جزء منها على جبل، ثم ادْعُها، فإنها تُسْرِع إليك عارفةً أماكنها، لا يمنعها تفرُّق أمكنتها وبُعدُها من ذلك.

كذلك أمْرُ ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين: كونوا أحياءً، فيكونوا أحياءً، كما كان شأنه في بَدْء الخلق إذ قال للسماوات والأرض: ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا: أتينا طائعين. من «الرازي»[١] بتصرُّف.

---

(١) «تفسير الرازي» (٧: ٣٤).

وقد ذكر ما أوردوه على أبي مسلم، وما أجاب به عنه، والمدارك التي جعلت أبا مسلم يَميل لهذا الرأي، ويقول به، فارجع إليه».

الجواب عما ساقه المؤلف: إن قول أبي مسلم الأصفهاني هذا فيه تكلُّف ظاهر، ويكفي في ردِّه أن النوع لا يُسمَّى جزءاً لجنسه، وكذا الفَردُ لا يُسمّى جزءاً لنوعه.

بيانُه: أن الجنس هو الطير، وهو أنواع كثيرة كالحمام والدجاج والصقور والنسور، فمَن أخذ أربعة أنواع مختلفة منه لا يُقال: معه أربعة أجزاء من الطير، وإنما يُقال: معه أربعة أنواع، وكذا الفرد بالنسبة للنوع، فمَن أخذ أربعة أفراد من الحمام مثلاً، لا يقال: معه أربعة أجزاء من الحمام، وإنما يُقال: معه أربع حمامات.

والمعنى اللغويُّ للجزء يُؤيِّد هذا، قال الفيروزآبادي في «بصائر ذوي التمييز»[١]: «جزءُ الشيء: ما يتقوَّمُ به جملتُه، كأجزاء السفينة، وأجزاء البيت، وأجزاء الجملة من الحساب»، انتهى، فقوله: «ما يتقوّم به جملتُه» يعني: أن ركناً من الشيء بحيثُ إذا عُدِمَ فسدت جملةُ الشيء أو صارت معيبةً على الأقل، كالسفينة بلا شِراع، أو البيت بلا سقف.

ولذا فرّق المناطقةُ بين الجزء والجزئيّ، فالجزء عندهم: ما يتركبُ الشيء منه ومن غيره. وهذا مُطابق للمعنى اللغوي. والجزئي عندهم: حقيقيّ وإضافيّ، فالجزئيُّ الحقيقي: ما يمنع نفسُ تصوُّره من وقوع الشركة فيه، كزيد من الإنسان، والجزئي الإضافي: عبارة عن كلِّ أخصَّ تحت الأعمّ، كالإنسان بالنسبة إلى الحيوان. كذا في «التعريفات» للشريف الجرجاني[٢].

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٢: ٣٧٩).

(٢) «التعريفات» ص٧٥.

وبهذا يظهر أنّ المؤلفَ حمل «الجزءَ» المذكور في الآية على معنى يُلائمُ ما يُسميه المناطقةُ «جزئياً»، وهذا انتقالٌ عن المعنى الأصل بحسب وضع اللغة، وحَمْلٌ للَّفْظِ على اصطلاح وَضْعيٍّ متأخِّر.

وعليه؛ فالجزء المذكور في قوله: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ لا بدَّ أن يكون قطعة من شيء لا تحيا بنفسها. وقد استشعر المؤلف قوة هذا الإيراد على قول أبي مسلم، فحاول أن يجيب عنه في كلامه الآتي:

* «وكلمة ﴿ٱدْعُهُنَّ﴾ أكثر ملائمةً لرأي أبي مسلم، وربما يَرِدّ في بادئ الرأي على أبي مسلم قولُه تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾، ولم يقل: واحداً.

والجواب البديهي أولاً: أنَّ عدد الأشياء يتجزَّأ، وأجزاؤه آحاد، وثانياً: أنه إنما عبَّر بهذا التعبير لأنَّ المراد به إبعادها عن مركزها مُتفرِّقة، بأيِّ صورة كانت، سواء كان ذلك بجَعْل كل اثنين منها على جبل، أو بجَعْل اثنين على جبل، وواحد على جبل، وآخر على جبل، أو بجَعْل كل واحد على جبل، لا فرق في ذلك. وقد قال سبحانه في تصنيف أهل النار: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]».

الجواب: السياق هنا يدلُّ على أن الجزء هو مجموعة من الأفراد، ولا يمكن حَمْلُه على الجزء الحقيقي، وهو بعضُ الفرد الواحد، فيتعين القول بذلك، بخلاف سياق قوله: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فإن المعنى الظاهر منه: هو بعضُ الفرد الواحد، لا الواحد من الأربعة، فلا ينبغي العدول عن هذا المعنى الظاهر من غير قرينة.

* قال: «ويجوز أن يُراد بالأربعة: مطلق العدد؛ لأنه أكثر من أقل الجمع، ويكون المعنى: فَخُذ عدداً من الطير ... إلخ، فيكون ذِكرُ الجزء واضحاً في الكلام».

الجواب: هذا غير سائغ في لغة العرب، فإنها تستعمل ألفاظ الأعداد لعددها الحقيقي، إلا أعداداً بعينها استعملتها العرب في حقيقتها تارة، وفي معنى التكثير تارة، والأصلُ حَملُ الكلام على حقيقته، إلا أن يدلَّ دليلٌ على صَرْفه إلى المجاز.

ولو صَحَّ ما ادّعاه المؤلفُ من أنّ الأربعةَ هنا مثالٌ للتكثير، لصحَّ أن يُقالَ هذا في أبواب الجنة والنار، وسائر ما له عَـدَدٌ مما ورد في النصوص الدينية مما يرجع إلى النوع ذاته مما يُؤوِّلُه، وهاهنا سيكون اختِلافُ الأعداد عبثاً؛ لأنّ الألفاظ تختلف، ولكنها لا تشير إلا إلى التكثير فقط، على ما يُدَّعي!

وينظر جواب فضيلة الشيخ عبد الكريم تـتان الحَمَوي حول مفهوم العدد في أجوبته الآتية، وينظر أيضاً ما علَّقـتُه على ما ادَّعاه المؤلف أن السماوات السبع لمطلق العدد في أول تفسير سورة البقرة.

دعوى المؤلف أن قصة إبراهيم في كيفية إحياء الموتى حالة نفسيَّة وخاطرة مرت بفكر إبراهيم!

* ثم قال: «ومِمَّا يخطر ببالي ـ والعلم عند الله ـ أنه يجوز أن تكون هذه المحاورةُ حكايةَ حالة نفسيَّـة وخاطر مرَّ بفكر إبراهيم عليه السلام، فالتمس له حلاً، فهداه الله لهذا الجواب. كمـا خطر لي مثل هذا في مكالمة الله للملائكة في خلقة آدم، فعلَّقت عليه هناك.

قلت: تقدَّم هناك نقدُه وبيانُ ضعفه، ولا ينقضي العجب من المؤلف رحمه الله كيف صار إلى هذا الرأي في مواضع، مع ظهور ضعفه لمخالفته صريح اللفظ.

آية رفع الطور:

* قال في تفسير الآية (٦٣) من سورة البقرة: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾: «ورفعُ الطُّور فوقهم آيةٌ كونيَّة من الآيات التي يُخَوِّف الله بها عبادَه، ويُجْريها علىٰ أيدي الأنبياء، وإن كانت بأسباب طبيعيَّة معروفة أو غير معروفة.

ويجوز أن يكون هذا الرفع بحركة زلزال قويّ قَـلَع الجبل إلىٰ فوق وعاد إلىٰ موضعه، وإن حَدَثَ به بعض الخلل والتفسُّخ والتفنّش».

وقال في تفسير الآية (١٥٤) من سورة النساء: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾: «أي: أجْرَينا لهم هذه المعجزة، بسبب ميثاقهم؛ ليخافوا ولا ينقضوه. وكان من هذا الميثاق: أن يأخذوا ما أُنزل إليهم بقوة ويعملوا به مُخْلصين، والظاهر أنَّ رفع الطور كان آية من الآيات الكونية، وقد سبق بيانه في سورة البقرة».

قلت: حاول صرف الآية عن مدلولها وربطها بقوانين طبيعية، والصواب: أن يقال: إن رفعَ الطور قد يكون بغير أسباب، فتكون معجزةً خارقةً للعادة، أي: خارقةً للسُّنن الكونية والأسباب الطبيعية.

تأييد موسى بالآيات الإعجازيَّة:

* قال في تفسير الآية (٧٦) من سورة يونس: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾: «وهو الوحيُ إلىٰ موسىٰ، وتأييده بالآيات الكونيَّة».

الصواب أن يقول: بالآيات الإعجازيَّة، والمؤلف يُفسِّر معجزات الأنبياء بأنها تجري علىٰ سنن كونية غير معلومة للناس، والصواب أنها خارقة لهذه السنن غير جارية عليها، كما سيأتي تقدُّم التنبيه عليه.

* وقال في تفسير الآية (٩٧) من سورة يونس: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾: «من الآيات الكونية، كآيات موسىٰ التي اقترحوها عليك».

الصواب أن يُقال: الآيات الإعجازية، كما تقدَّم التنبيه عليه.

معجزة ضرب موسى عليه السلام البحر بعصاه:

* قال في تفسير الآية (٦٣) من سورة الشعراء: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ متسائلاً ومجوِّزاً: «أيجوز أن يكون المعنىٰ: إنَّ الله سبحانه أمر موسىٰ أن يشير إلىٰ البحر بضربة عصا، وعلىٰ إثرها جرىٰ في تلك المنطقة ما يشبه الجزر يميناً وشمالاً فتكتّل الماء في الجانبين كالطودَيْن وسَفحَيْهما، وبعد خروج بني إسرائيل عاد الماء إلىٰ المنطقة بطريقة المد، فغمرها علىٰ فرعون وجيشه أجمعين. والله أعلم».

هذا القول يخرج المعجزة عن معناها، ويُبطل دلالتها، فلا يجوز بحال أن يكون تفسير الآية على هذا المعنى الذي توهَّمه المؤلف غفر الله له.

آية الله في إهلاك قوم لوط:

* قال في تفسير الآية (٨٢) من سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ نقلاً عن «المنار»: «وسُنَّة الله في خَسْف الأرض في قطر من الأقطار: أن يَحدُثَ تحتَ تلك القطعة فراغٌ بقَدْرها، بسبب تحوُّل الأبخرة التي في جوفها، فينقلب ما فوقها إما مستوياً وإما مائلاً إلىٰ جانب من الجوانب، إن كان الفراغ تحتها أوسع».

الجواب: هذا ظنٌّ في موضع لا يُغني فيه الظن عن الحق شيئاً، فتعذيبُ الله تعالىٰ للظالمين، وإهلاكه للكافرين، لا يُقاسُ بمثل هذا مما جرت به العادة، فالمسألة معجزة غيبيّة لم يُطلَب منا العلمُ بكيفيتها.

* وقال في تفسير الآية (٧٣) من سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾: «ويجوز أن يُراد بالصيحة: صياحهم من الفزع لِـمَا أصابهم من جرَّاء الرَّجْم بهذه الحجارة، كما يقال: أخذه البكاء. والله أعلم».

قلت: هذا قولٌ ضعيف مردود، وإنما المراد: أخذَت أرواحَهم من الحياة الدنيا صَيْحةٌ صوتيَّة عُظمىٰ بعد شروق الشمس.

* وقال في تفسير الآية (٧٧) من سورة الحجر في التعقيب على العذاب الذي نزل بقوم لوط عليه السلام: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: «فالمؤمنون هم الذين يعلمون أنَّ ما حاق بأولئك الـمعاندين من العذاب إنمـا كان لسوء صنيعهم، وأما غيرهم فيحملون ذلك علىٰ الاتِّـفاق والـمصادفات، والأوضاع الفلكية والعوامل الطبيعية، ولم يعلموا أنها موافقة أقدار لأقدار من الله العزيز القهَّار، لتكون آية بيِّنة للنظر والاعتبار».

قلت: بل بعضها موافقة أقدار لأقدار، وبعضها خوارقُ عادات غير جارية على مقتضى السنن الكونية، كما تقدَّم التنبيه عليه في مواضع من هذا التفسير.

* وقال في تفسير الآية (١٧٣) من سورة الشعراء: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾: «بحجارة من سِجِّيل، ويجوز أن تكون من بُرْكان، والله أعلم».

الجواب: لا يصح أن يدَّعىٰ أن استئصالهم كان بحدوث بركانٍ أو زلزال، لأنَّ رفع قراهم ثم الهُويّ بها جاء صريـحاً في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤-٥٥]، والهوي لا يكون إلا من ارتفاع وعلو، فدلَّ ذلك على أنَّ الأمرَ كلَّه كان على خلاف المعتاد، ومنه: إمطار الحجارة من سجيل.

جَرْيُ الريح لسليمان عليه السلام مسيرةَ شهر بالغداة وبالعشي معجزة له:

* قال في تفسير الآية (١٢) من سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾: «ويجوز أن يكون ذِكرُ الشهر للتكثير لا للتحديد».

الجواب: هذا بعيد، وفيه إضعافٌ لمعنى المعجزة التي خصَّ بها الله تبارك وتعالى سليمان عليه السلام، وجَعْلُ الأمر قريباً من الوجه المعتاد بين البشر من استغلال الرياح واستثمارها، كما في السنن مثلاً، وسياقُ الآيات ينافي ذلك، بل الأمر معجزة خارقة للعادة.

تسخير الريح لسليمان عليه السلام:

* قال في تفسير الآية (٣٦) من سورة (ص): ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾: «أي: تجري في شأنه إلى أيِّ صَوْب قَصَد وأراد، ويجوز أن يكون هذا في تَسْيير السُّفن الشراعيَّة».

الجواب: تسيير السفن الشراعيَّة جزء من هذا التَّسخير أو أثر من آثاره، والتَّسخير أعمُّ من ذلك، فلا يُقيَّد به، لا سيما أن تسيير السفن الشراعية بالرياح ممَّا يَعرفه البشر بحسب سنة الله تعالى الكونيَّة في ذلك، فلا إعجاز فيه ولا خصوصية لسليمان عليه السلام.

إسالة النحاس المذاب لسليمان عليه السلام:

* قال الشيخ رشيد الخطيب في تفسير الآية (١٢) من سورة سبأ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾: «أي: النحاس المذاب. قال المفسِّرون: أساله من معدنه معجزةً له، فنبع نبوع الماء.

أقول: ولا مانع من إرادة التَّجوُّز بهذا التعبير مبالغةً في تسهيله، ويكون المراد مِثلَ ما ذكرته في إلانة الحديد، وفي كل ذلك كرامةٌ وفضلٌ عظيم. والله أعلم».

الجواب: إن كان كلُّ معجزة يذكرها القرآن الكريم لنبيٍّ من الأنبياء يجوز فيها التَّجوُّزُ في التعبير، وحَمْلُها على معنى مُساوِقٍ للسنن الكونيَّة، فماذا بقي للأنبياء من خصوصيَّة عن سائر البشر؟ وكيف تثبت نبواتهم على وجه قطعي، وهم لم يأتوا إلا بما يوافق السنن الكونيَّة؟ فمسألة تفوُّقهم في استغلال السنن الكونيَّة واستثمارها لا تقوم دليلاً على صدقهم في نبوتهم، لأن ذلك في مقدور البشر عقلاً، فينبغي أن يأتوا بشيء لا يقدر عليه البشر يكون خارقاً للسنن الكونيَّة غيرَ جارٍ على نظامها حتى يثبت في العقل على وجه القطع أن ذلك الذي أتوا به هو فِعلُ الله تعالى الدالُّ على تصديقهم.

معرفة سليمان منطق الطير:

* قال في تفسير الآية (١٦) من سورة النمل: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾: «وفيه تنبيهٌ إلىٰ أنَّ من الخطاب ما لا يكون بالأصوات، ولكن بالانطباع في النفوس والقلوب. والله أعلم».

النطق: كل ما يُعبَّر به عما في الضمير، مفرداً كان أو مركباً، ويشمل الأصوات، فكان نبيُّ الله سليمان عليه السلام يعلم منطق الطير، ويفهم عنها ـ كما يفهم بعضها من بعض ـ وما تقصده الطير في أصواتها، وفي سائر أحوالها، فيفهم تسبيحها، وما تخاطبه به عليه السلام، كما ذكر ذلك سبحانه في قصّة الهدهد معه.

بل كان سليمـان عليه السلام يعلم منطق الطير، ويفهم عنها بطريق المخاطبة الصوتيَّة بينه وبينها، لا بطريق الانطباع في النفس والقلب لأنه لا يُسمّى «منطقاً»، وقد أُعطِيَ سليمـانُ فَـهْمَ مقاصدِ الطير والحيوانات أيضاً علىٰ اختلاف لغاتها وأقوالها، بدليل فَـهمِهِ قول النملة ـ الآتي في الآية ١٨ من هذه السورة ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ...﴾.

المراد بعلم الكتاب في قوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾:

* قال الشيخ رشيد الخطيب في تفسير الآية (٤٠) من سورة النمل: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: «أي: كتاب هذا الكون، أي: الذي عنده علمٌ من سُنن الكائنات».

قلت: إطلاقُ «الكتاب» على «السنن الكونيّة» استعمالٌ غير معروف في كتاب الله تعالى، ولا قرينةَ تدل عليه من السياق، و«الكتاب» يُراد به أحد الكتب السماويّة أو جنسُها، وهذا الثاني هو المراد هنا، أي: رجل عنده علم بالله عز وجل ومعرفة مكتسبة ممّا أنزل الله على عباده من كُتب.

من القائل: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؟

* قال الشيخ رشيد الخطيب: «وقد اختلفوا في هذا القائل؛ فقيل: هو جبريل عليه السلام، وقيل: مَلَكٌ آخر. وعلىٰ كلٍّ، فالمراد من عِلم الكتاب: علمُ نواميس هذا الكون، ممّا يُعَدُّ الاطِّلاعُ علىٰ شيء منها اكتشافاً عظيماً.

وقال الجُبّائي: بل قائل هذا القول سليمان نفسه عليه السلام، أجاب به العفريتَ، أقول: ويجوز أن تتيسّر له بعض السنن الكونيّة بمُقْتضىٰ ما أعطاه الله من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده، وقوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

وعلىٰ كلٍّ من الاحتمالات، فالآية تُؤْذن بأنَّ هذا الأمر أتىٰ من طريق العلم وتمَّ به، وإنما عبَّر عنه بهذا التعبير ليشير إلىٰ السبب، والله أعلم».

قلت: جمهور المفسرين أن العلم الذي آتاه الله من العلم، هو اسم الله الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب، وقد كان ذلك من باب إكرام الله لأوليائه.

وليس في الكتاب والسنة ما يُبيِّنُ حقيقة هذا المُعلَّم ولا الطريقة التي أحضَـرَ بها عرشَ بلقيس، وعلى فرض أنه رجل من بني إسرائيل علم اسم الله الأعظم، فهذا كرامة له، وهي معجزة لنبيِّه سليمان عليه السلام، تدلُّ على صدقه وأنه رسول الله.

وكونه أعلم من سليمان في هذا الباب لا يضر، فإنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى أنه يوجد من هو أعلم منه، ودلَّه على الخضر، وهو نبيٌّ في قول بعض العلماء، ووليٌّ في قول آخرين، وهي أعلمية مُقيَّدة بمسألة أو مسائل محصورة.

ويُنظَر ما كتبه فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان الحَمَوي في جوابٍ مُفصَّل عن هذه الدعوى، وقد أوردتها في المدخل الثالث من مقدمة هذا التفسير؛ لتكون منهجاً في التعامل مع المؤلف وأمثاله في محاولتهم إبعاد دلالة الآيات عن مخالفتها للقوانين الطبيعيَّة بقدرة الله عزّ وجلّ وحكمته.

المعجزات والكرامات خارقة للسنن الكونيَّة:

* قال في عند تفسير الآية (٨٤) من سورة الكهف في قصَّة ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾: «فالسنن الكونيَّة التي لا تُحصيها البحار العديدة مداداً، والتي نَقَلت عرشَ بلقيس بطَرْفة عين، وجعلت عيسىٰ من دون أب، نقلت ذا القرنين إلىٰ منطقة الظهور الدائم، الذي قال الله في حقِّه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾».

قلت: بل نَـقْلُ عَرْش بلقيس بطَرْفة عين، وخَلْـقُ عيسى من دون أب: خرقٌ للسنن الكونيّة، ويدخل الأول في باب الكرامة، والثاني في باب المعجزة.

* وقال في تفسير الآية (٢٧) من سورة لقمان: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ

أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ ﴾: «سُننه الكونيَّة، فأيُّ عجب في جانب هذه السُّنن العظيمة الكثيرة؛ نَتْقُ الجبل كأنه ظلة، وخَلْقُ عيسى من دون أب، ونَقْلُ ذي القرنين لمنطقة الظهور الدائم، ونَقْلُ عرش بلقيس بطرفة عَيْن، وغير ذلك من السنن الكونيَّة».

تقدَّم التنبيه على ما ذكره المؤلف هنا أمثلةً على السنن الكونيَّة العجيبة، وبيان أنها من المعجزات الخارقة للقوانين والسنن الكونيَّـة، خلافاً لما يدّعيه المؤلف من أنها واقعة بسنَّة كونيَّـة غير معلومة لنا، وسيأتي بيان ذلك في كل مثـال من المذكورات هنا في موضعه من هذا التفسير، فارجع إليها هناك.

محاولة ردِّ خوارق الطبيعة إلى المألوف المكشوف من السنن الكونيَّـة!!

* قال في تفسير الآيات (٣-٥) من سورة الفيل: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ نقلاً عن الشيخ محمد عبده: «فَشَا في أصحاب الفيل داءُ الجدري والحصبة، قال عكرمة: وهو أول جدريّ يظهر في بلاد العرب.

وقال يعقوب بن عتبة: إنَّ أول ما رُئيَتِ الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام. وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يَندُرُ وقوعُ مثله، فكان لحمُهم يَتَناثر ويَتَساقط، فذُعِرَ الجيش ووَلَّوْا هاربين، وأُصيب القائد الحبشي، ولم يزل يسقط لحمُه قطعةً قطعةً، وأُنملةً أُنملة حتى انصَدَعَ صدرُه، ومات في صنعاء.

وقد بيَّنت لنا هذه السورةُ الكريمة أنَّ ذلك الجدري وتلك الحصبة نشأت من حجارةٍ يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فِرَقٍ عظيمة من الطير، مما يُرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتـقد أنَّ هذا الطير من جنس البعوض، أو الذباب الذي

يحمل جراثيم بعض الأمراض[1]؛ لأنَّ الطير هو ما يطير في الهواء، سواء كان صغيراً أو كبيراً، وسواء كان مرئياً أو غير مرئيّ».

قال الأستاذ سيد قطب «في ظلال القرآن»[2]: «ورواية عكرمة، وما حدَّث به يعقوب بن عتبة ليس نصاً في أنَّ الجيش أصيب بالجدري فهي لا تزيد عن أن تقول: إنَّ الجدري ظهر في الجزيرة في هذا العام لأول مرة، ولم ترد في أقوالها أية إشارة لأبرهة وجيشه خاصَّة بالإصابة بهذا المرض ... ثم إنَّ إصابة الجيش على هذا النَّحو وعدم إصابة العرب القريبين بمثله في حينه تبدو خارقة إذا كانت الطير تقصد الجيش وحده بما تحمل. وما دامت المسألة خارقة فعَلام العناء في حَصْرها في صورة معيَّنة لمجرَّد أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر! وجَرَيان الأمر على غير المألوف أنسب لجوِّ الحادث كله؟!».

وينظر تتمة كلامه النفيس في دوافع المدرسة العقليَّة ـ التي كان الأستاذ محمد عبده رحمه الله على رأسها في تلك الحقبة وتابعه المؤلف رشيد الخطيب ـ إلى تضييق الخوارق والغيبيَّات في تفسير القرآن، ومحاولة ردِّها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونيَّة.

* ثم نقل الخطيب عن الشيخ محمد عبده: «ويجوز أن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح، فيَعلَقُ بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتَّصل بجسد دخل في مَسامه، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقُط لحمه،

(١) وممن نحا هذا المنحى في التفسير: الكواكبي. ينظر كتاب: «عبد الرحمن الكواكبي» للعقاد ص ٣٣٠، وكتابه: «الإسلام دعوة عالمية» ص ٢٠٦ – ٢٠٩. وفيه رد على هذا الرأي. وينظر رد الشيخ الشعراوي على ذلك في تفسير لسورة الفيل في كتابه: «المنتخب من تفسير القرآن» (١: ٨٢- ٨٤)، ط دار العودة، بيروت.

(٢) «في ظلال القرآن» (٦: ٣٩٧٨).

وإنَّ كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يُعدُّ من أعظم جنود الله تعالى في إهلاك مَن يريد إهلاكَه من البشر، وإنَّ هذا الحيوان الصغير ـ الذي يُسمُّونه المكروب ـ لا يخرج عنها، وهو فِرَقٌ وجماعات لا يُحصي عَدَدَها إلا بارئُها.

قلت: هذا رأي الشيخ محمد عبده غفر الله له، وتابعه المؤلف رحمه الله تعالى، وجماعة من رجال المدرسة العقلية الحديثة، كالمراغي في «تفسيره»[1]، وأرادوا بهذا التفسير المتكلَّف أن تكون الحادثة أمراً مألوفاً قريباً من أذهان الذين لا يؤمنون بالخوارق.

قال العلامة الشيخ محمد حسين الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون»[2] راداً على تأويل الطير بالبعوض أو الذباب، وما تحمله من حجارة بالميكروبات: «إن هذه الجراثيم التي اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب عِلمٌ بها وقتَ نزول القرآن، والعربيُّ إذا سمع لفظ الحجارة في هذه السورة لا ينصرف ذهنه إلى تلك الجراثيم بحالٍ من الأحوال، وقد جاء القرآن بلغة العرب، وخاطبهم بما يعهدون ويألفون». انتهى.

بل الآية صرَّحت بإرسال الطير ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾، وبين المخاطبين كثيرٌ ممَّن عاصر الحادث، بل ممَّن شاهده، وفيهم كثير من أعداء الرسول ﷺ. ولو لم يَرَوْا هذا الطير الأبابيل رأيَ العين لبادروا إلى تكذيب القرآن، وإنكارهم لرمي الطير لجيش أبرهة، ولا يقبل أن يقال: أنهم رأوا المكروب أو الجراثيم، لأنهم لا يستطيعون رؤيتها، ولا يقال: إنَّهم رأوا الذباب أو البعوض، لأنهم لا يَرَوْن الحجارة التي تحملها، فكان لا بد أن يكونوا رأوا طيراً ورأوا الحجارة التي تحملها، ورأوا الرمي.

* ثم قال: «ولا يمنع هذا من ظهور الوباء بالجدري وأشباهه؛ لأنَّ ما أصابهم

---

(١) «تفسير المراغي» (٣٠: ٢٤٣).

(٢) «التفسير والمفسرون» (٣: ٢٣٥).

من الرضوض والجروح البالغة، يُمهِّد لوفود الأمراض، ويزيدها فتكاً، ويزيدها تأثيراً بالأجسام، ولا سيما إذا لم تقترن بالإسعاف، كما هو الحال في مثل تلك الأحوال. هذه كلها آراء رجال، والله أعلم بحقيقة الحال».

يقول الأستاذ سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن»(١): «وإنَّ تسليط طير ـ كائناً ما كان ـ يحمل حجارة مسحوقة ملوَّثة بميكروبات الجدري والحصبة وإلقائها في هذه الأرض، في هذا الأوان، وإحداث هذا الوباء في الجيش، في اللحظة التي يهمُّ فيها باقتحام البيت .. إنَّ جريانَ قَدَرِ الله على هذا النحو خارقة، بل عدة خوارق كاملة الدلالة على القدرة وعلى التقدير، وليست بأقلَّ دلالة ولا عظمة من أن يرسل الله طيراً خاصّاً يحمل حجارة خاصَّة تفعل بالأجسام فعلاً خاصّاً في اللحظة المقررة .. هذه من تلك ... هذه خارقة وتلك خارقة على السواء...

فأما في هذا الحادث بالذات، فنحن أمْيَل إلى اعتبار أنَّ الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة، وأنَّ الله قد أرسل طيراً أبابيل غير معهودة، تحمل حجارة غير معهودة، تفعل بالأجسام فعلاً غير معهود.

نحن أمْيَل إلى هذا الاعتبار، لا لأنه أعظم دلالةً ولا أكبر حقيقة، ولكن لأنَّ جوَّ السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب، فقد كان الله سبحانه يريد بهذا البيت أمراً، كان يريد أن يحفظه ليكون مثابةً للناس وأمناً، وليكون نقطة تجمُّع للعقيدة الجديدة، تزحف منه حرَّة طليقة .. ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار في جميع الأجيال، حتى يمتنَّ بها على قريش بعد البعثة في هذه السورة، ويضربها مثلاً لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها ...

---

(١) «في ظلال القرآن» (٦: ٣٩٧٧).

فمما يتناسق مع جوٍّ هذه الملابسات كلِّها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود، بكل مقوِّماته وبكل أجزائه، ولا داعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وبملابساته مفرد فذّ ...». انتهى.

تحريف دلالات الآيات الكونيَّة والإعجازيَّة عن مدلولها

بشارة إبراهيم وسارة بإسحاق بمعجزة خارقة للطبيعة:

* قال في تفسير الآية (٣٠) من سورة الذاريات في بشارة إبراهيم وسارة بإسحاق وجواب الملائكة لسارة في استبعادها الولد لأنها عجوز عقيم: ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾: «يُجري ذلك على سُنَن طبيعيَّة، وإنْ لم يهتَدِ إليها البشر».

قلت: بل هي خارقة لسنن الطبيعة. وهذه من جملة محاولات المؤلف غفر الله له في صَرْف جميع الآيات الإعجازية الخارقة للنواميس الكونية عن مدلولها؛ لتوافق السنن الطبيعية.

تأويله البعث في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إلى كثرة النسل:

* نقل الشيخ رشيد الخطيب في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عن الشيخ محمد عبده: «أنه ذهب في هذه الآية إلى المعنى المجازي، فقال: إنَّ المراد بالبعث هو كَثْرة النَّسل».

والجواب: في هذا القول عدولٌ عن الظاهر من غير مُقتَضٍ، فأقلُّ ما يُقال فيه: إنه مرجوح، وقد صـرَّح بضعف هذا القول ابنُ الجوزي في «زاد المسير»[1].

---

(١) «زاد المسير» (١: ٦٧).

والصواب: أن معنى الآية هو إحياؤهم بعد الموتة التي ماتوها بسبب الصاعقة المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]، فقد روى عبد الرزاق في «تفسيره»(١) عن معمر عن قتادة في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٥- ٥٦] قال: أخذتهم الصاعقة، أي ماتوا، ثم بعثهم الله تعالى ليكملوا بقية آجالهم. انتهى.

تسخير الريح العاصفة لسليمان خارق للعادة:

* قال في تفسير الآية (٨١) من سورة الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾: «أي: لعلمنا الأزليِّ بالأشياء وأسبابها دبَّرنا هذا التدبير لرسلنا، على سنن لا تعلمونها، ليكون ذلك معجزةً لهم، تؤيِّد نبوَّتهم وتدير أمورهم».

قلت: لا دليل على ذلك، بل معجزات الأنبياء إنما تأتي على غير السُّنن، فهي أمورٌ خارقةٌ للعادة، أي: للسُّنن والنواميس والقوانين، ولو كانت معجزة النبي جارية على سنة غير معلومة لكان وصوله بنفسه إليها واطلاعه هو عليها وإجراؤه هو لها على يده مما لا ينكره العقل ولا يحكم باستحالته، فلا تُفيدُ المعجزةُ حينئذ اليقينَ بأنه نبي مُرسَل من عند الله سبحانه.

وعليه، يجب أن تكون المعجزة ممَّا لا يمكن للبشر أن يصلوا إليه ـ ولو تجويزاً عقلياً ـ وذلك بكونها خارقة للسنن الكونيَّة، سواء كانت معلومة أم لا.

كرامة رزق مريم عليها السلام:

* قال في تفسير الآية (٣٧) من سورة آل عمران: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ

---

(١) «تفسير عبد الرزاق» ص٧٣.

وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: «وهذه الجملة الأخيرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ إما من كلامها، فيكون متمِّماً له، وإما من كلامه عزَّ وجل فيكون مستأنَفاً. وليس في الكلام ما يدلُّ على أن ذلك جرىٰ بخوارق العادات، بل يجوز أن يكون بتسخير الله الناس لها. والله أعلم».

والجواب: بل جَرَيان ذلك لمريم من خوارق العادات، وإلا فما وجه تعجُّب زكريا من ذلك، إذ تسخير الله الناس لها أمر عاديٌّ لا يدعو للاستغراب. ثم ما هو وجه دعاء زكريا بطلب الولد وقد بلغ من الكبر عتياً وزوجه عاقر إلا بعدما رأىٰ خوارق العادات التي جرت لمريم عليها السلام.

معجزة هبة الولد لزكريا عليه السلام خارق لسنن الطبيعة:

* علق الشيخ رشيد الخطيب على قول الله تعالى لزكريا عليه السلام في سورة آل عمران: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾: «أي: لا يحُول دون مشيئته شيء. ففهم زكريا فهماً إجمالياً أنَّ هناك سُنناً طبيعيَّة أخرىٰ لا يعلمها، تقوم بصدِّ الموانع. والله أعلم».

والجواب: بل فهم زكريا عليه السلام أن الأمر خارجٌ عن سنن الطبيعة خارقٌ للعادة. وفي إخباره بأن الأمر فعلٌ لله وربطِهِ بمشيئته سبحانه إشارةٌ إلى إخراجه عن سنن الطبيعة.

* وقال في التعليق على الآية (٤١) من قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ على ما في دلالة معجزة ولادة عيسى من دون أب، وولادة يحيىٰ من أم عجوز وأب قد بلغ من الكِبَرِ عِتِياً: «أن كلتيهما أمر خارق للنواميس الطبيعيَّة المعروفة لنا، ولكنَّ سننَ الله الكونيَّة لا تحصيها البحار مِدَاداً والأشجار أقلاماً».

والجواب: بل كلتاهما أمرٌ خارقٌ للنواميس الطبيعية المعروفة لنا والمجهولة، وفي سياق كل قصةٍ منهما ما يدل على ذلك، وتقدمت الإشارةُ إلى ما في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام من خرقٍ لسنن الطبيعة، أما قصة عيسى فمن أظهر الأدلة فيها على أن الأمر خارقٌ للسنن الطبيعية بالكلية: تعليقُ الأمر عند استغرابه بـ«كن» وتشبيهه بخلق آدم، ولم يكن خلق آدم بناموس طبيعي.

* نقل الشيخ رشيد الخطيب كلاماً طويلاً عن رشيد رضا في تفسيره «المنار»[1] في تفسير الآية (٤٧) من سورة آل عمران: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ...﴾ في تقريب حَمْل مريم عليها السلام، وأقرَّه، وفيه تكلّف بعيد، وإبطال لحقيقة المعجزة في حمل مريم وولادتها لعيسىٰ.

* وقال في تفسير الآية (٢١) من سورة مريم: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾: «فاعتقدت بذلك اعتقاداً جازماً تأثَّرت به نفسيَّتها؛ لأن الاعتقاد الجازم يؤثر في النفس، فجرىٰ فيها تَفاعُل التلقيح، فحملت حَمْلاً طبيعياً. وارجع إلىٰ الآية (٤٧) من آل عمران: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾».

الجواب: حَمْلُ مريم عليها السلام لم يكن بالأسباب الطبيعيّة، فلم يكن بجماع فقد أحصن الله فرجها فلم يَمْسَسها بَشر، ولا بتهيّؤات أو إيحاءات كما يدَّعيه المؤلف غفر الله له، وإنما حملت بنفخ الـمَلَكِ جبريل روحَ الله تعالى، أي: الروحَ التي هي من خَلْق الله تعالى، فحملت بقدرة الله، وكان ذلك دليلًا على طلاقة قدرة الله تعالى حيث خلق شخصًا من أم دون أب، كما خلق آدم من دون أب ولا أم.

---

(١) «المنار» (٣: ٢٥٣- ٢٥٥).

* ونقل في تفسير الآية (٥٩) في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ عن الشيخ محمد عبده: «أن القوانين المعروفة في علم الخليقة، فهي قد استُخرجت ممَّا نعهده ونشاهده فقط، وليست قوانين قامت البراهين علىٰ استحالة ما عداها، كيف وإننا نرىٰ الشيءَ الكثير ممَّا يخالفها، ويُعبِّرون عنه بفلتات الطبيعة، وهو إنما خالف ما نعرفه لا ما يعلم الله تعالىٰ. وما يُدرينا أنَّ لكل هذه الشواذِّ والفلتات سُنناً مُطَّردة لم تظهر لنا، وكذلك شأن خَلْق عيسى».

الجواب: إن قياس معجزة خَلْق عيسىٰ عليه السلام علىٰ شواذِّ العادات وفَلَتاتها أمرٌ في غاية النكارة، وكان الأولىٰ بالمؤلف غفر الله له أن لا يروِّج كلام محمد عبده، ويكتفي بكَوْن خَلْقِ عيسىٰ عليه السلام معجزة إلهية.

حَمْل مريم عليها السلام كان خرقاً لسنن الطبيعة:

* قال في تفسير الآية (١٧١) من سورة النساء: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾: «وقد جزمت مريم بالحَمْل عند إعلام الله به بواسطة الملك؛ لأنَّها صِدِّيقة، فجزمت بهذا الإعلام من الله، والجَزْمُ بالشيء يُولِّده. والله أعلم».

قلت: لم يثبت هذا، والصحيح الذي لا ينبغي العدول عنه: أن حَمْلَ مريم عليها السلام كان معجزة خارقة للعادات والسنن، وتفسيره على قوانين الطبيعة غير ممكن.

ولادة عيسى خلاف النواميس الطبيعية:

* وقال في تفسير الآية (٣٥) من سورة مريم في الردِّ على استغرابهم واشتباهِهم

من خلقه إيَّاه بدون أب: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: «فلا يُعْجزه شيء، وهناك صُور منوَّعة كثيرة لسنن التَّخليق والإيجاد لا تعلمون منها إلا قليلاً، إذ لا يعلم سرَّ التكوين والإيجاد إلا الله».

* وقال في تفسير الآية (٩١) من سورة الأنبياء: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾: «والغاية من هذا البيان: الإشارة إلىٰ أنَّ عيسىٰ عليه السلام لا يمتاز عن النوع الإنساني المنفوخ فيه من هذا الروح، كي لا يظنّ أنه جارٍ علىٰ خلاف تلك النواميس الطبيعيَّـة، غاية ما هناك أنه امتاز في خلقه من دون أب، بناموس طبيعيّ غير معروف لنا، مغاير للقانون العام».

قلت: كان خلق عيسى عليه السلام على غير الطريقة المعتادة في غيره، بل مع وجه خارق للعادة، فحُقَّ له أن يخصَّص بما يميِّزه عن غيره.

* وقال في تفسير الآية (١٢) من سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: «إنَّ حملها إنما كان بإذن الله وبسُنَّة من سننه الطبيعيَّة، وإن لم يُهتَدَ إليها».

قلت: وهناك خَلْـقٌ وإيجاد من غير سُنّة طبيعية أيضاً، ومنه خَلْـقُ عيسى عليه السلام، وتشبيه خَلْقِهِ بخلق آدم عليهما السلام ـ كما ورد في الآية (٥٩) من سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ـ يدل عليه.

وكذا تعقيبُ قصة خلق عيسى دون أب بهذه الآية من سورة آل عمران: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٤٧] ـ التي تُعلِّل ما يُستَغربُ من خَلْق عيسى بإرجاع الأمر إلى إرداة الله وتكوينه ـ يدل عليه أيضاً.

هل سنة الله في الأسباب والمسبَّبات مطَّردة؟

* قال في تفسير الآية (١٦٦) من سورة آل عمران: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ نقلاً عن تفسير «المنار»[1]: «أي: لا عجزاً في القدرة ولا قهراً للإرادة، وإنما هو بإرادة الله الأزليَّة وقضائه السابق، بأن تكون السُّنن العامَّة في الأسباب والمسبَّبات مُطَّردة ـ لا يُستثنىٰ منها نبيٌّ ولا رسول ـ فكلُّ جندي يخطئ الرأي، ويعصي القائد، ويخلِّي بين العدو وبين ظهره، يُصَاب بمثل ما أُصبتم، أو بما هو أشد منه».

قلت: بل ثبت استثناء الرسل والأنبياء من بعض الأسباب والسنن في عدَّة وقائع، فظهرت على أيديهم المعجزات، وخَرَقَ الله لهم العادات، لكن حكمة الله تعالى في واقعة أُحُد اقتضت أن لا يخرق عادته، بل يُجريها على ما هي عليه، تربية وتأديباً للمؤمنين.

نتق الجبل آية خارقة للنواميس الطبيعية:

* قال في تفسير الآية (١٧١) من سورة الأعراف: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾: «وقوله: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ تمكينٌ وتحقيقٌ لنتق الجبل بالفعل. وهي آيةٌ كونيَّةٌ من آيات الله التي يُخوِّف بها عباده، وإن كانت بأسباب طبيعيَّة معروفة أو غير معروفة. ويجوز أن تكون هذه الآية بحركة زلزال بركانيّ قوي رفع الجبل عالياً وعاد إلىٰ مكانه ومَقَرِّه، وإن حدث به شيء من الخلل».

قلت: وقد تكون بلا سبب طبيعي، فالعقلُ لا يمنع ذلك؛ لأنه أمر ممكنٌ في نفسه، والأسباب الطبيعية إنما هي أحكام عادية، أي: جرت بها العادة، فلا تُقيَّد بها أفعالُ الله تعالىٰ.

---

(١) «المنار» (٤: ١٨٥ - ١٨٦).

الأسباب والمسبَّبات والسُّنن الكونيَّة والقوانين الطبيعيَّة:

أقام المؤلف رحمه الله تعالى كتابه على ربط كل ما يجري في الكون بأسباب ومُسبَّبات وبسنن كونيَّة وقوانين طبيعيَّة، حتى معجزات الأنبياء ربطها بتلك السنن كما تقدم، بل ربط البعث والحشر وقيام الساعة باضمحلال العالم وانتهاء مدة صلاحيته.

ولذلك نبَّهت على تلك المقولات التي بثَّها في تفسيره، ومهَّدت لها بهذه الكلمة: اقتضت حكمته سبحانه مع كمال علمه وقدرته وتمام مشيئته أن يدبِّر أمر المكونات بأسباب ومسبَّبات، وأن يكون بينهما ارتباط بتقديره ومشيئته أيضاً، مع العلم أنه تعالى قادر على الخلق والتدبير من غير تقدم أسباب: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]. وبثَّ سبحانه الأسباب في جميع المكوَّنات الظاهرة والخفيَّة والمشاهدة والغائبة.

والنواميس الكونية التي نراها في الكون ليست سوى أسباب أجرى الله تعالى بها مقدوراته، ومن المعلوم المشاهد أن الظواهر الكونية ترتبط بأسباب ونواميس، ومع ذلك فالآيات القرآنية الكريمة ترد أمر تدبيرها وحدوثها إلى الله تعالى وحده.

قال شيخنا عبد الله سراج الدين ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه «حول تفسير سورة الفاتحة»[1]: «فالأسباب ليس لها تأثير من ذاتها، وإنما المؤثر بالذات والفعَّال هو الله تعالى وحده؛ فإن الأسباب إن شاء أعمَلَها وجعل لها التأثير، وإن شاء عطَّلها. فالأسباب كالأجسام، فإن جعل الله فيها روحاً عملت وتحرّكت، وإلا فلا حراك لها، والأسباب كآلة عمل إن أمدَّتها قوة كهرباء أو نحوها تحرّكت، وإلا فهي عاطلة عن الحركة. فليس

---

(١) «حول تفسير سورة الفاتحة» للشيخ عبد الله سراج الدين ص٤٥-٤٦.

لسبب تأثير ذاتي، فالماء سبب ولكن الذي يروي به هو الله تعالى، والدواء سبب ولكن الذي يشفي به هو الله تعالى».

والواجب على المسلم أن يرد الحوادث كلها إلى الله تعالى وحده لا إلى أسبابها ونواميسها.

قال العلامة المكي بن عزوز في «العقيدة الإسلامية»(١): «فهو سبحانه خالق الأسباب والمسبَّبات، ولو شاء أن لا يؤثِّر سبب في مُسبَّب ما أثّر، يسلب سببيَّةَ الشيء إن شاء، ويبقيها إن شاء، كما سلب النارَ قوةَ الإحراق للخليل عليه السلام.

وهو تعالى الشافي للمريض، ولو شاء أن لا يبرأ لا يقع البُرْء، ولو انتظم علاج لا يتخلَّف نفعه عادة بتدبير ألف حكيم، ولا يقال ـ حيث لم يشأ الله بُرْء المرض ـ: يقع الخطأ في العلاج أو في استعماله، فإن هذا إيجاب لتأثير الأسباب تأثيراً حقيقيّاً، وفكٌّ للحكم من يد الله إلى الأسباب، فالحذر من اعتقاده».

وقلت في شرحي لتلك الرسالة «العقيدة الإسلامية» للمكي بن عزوز (ت١٣٣٤): فهو سبحانه خالق الأسباب المتوصَّل بها إلى المطلوب؛ لأن الفاعل الحقيقي ومسبِّب الأسباب هو الله عز وجل، وكل ما يجري في الكون فبإرادته، وإذا جرت سنة الله تعالى في أمرٍ ما أنْ يُحدِثَه بقرينة دالَّة عليه، فليس معنى ذلك أن القرينة هي المؤثرة في وجود ذلك الأمر، لا، إنما المؤثِّر في وجوده وفي وجود تلك القرينة، وفي وجود ذلك الأمر عند تلك القرينة إنما هو الله عز وجل.

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في كتابه «الأم»(٢): «وأما من قال: مطرنا بنوء

---

(١) «العقيدة الإسلامية» ص ٢٥٤-٢٥٦.

(٢) «الأم» للشافعي (١: ٢٥٢).

كذا وكذا على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلى أنه أمطره نوْء كذا: فذلك كفر، كما قال رسول الله ﷺ، لأن النوء وقتٌ، والوقت مخلوق، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، فأما مَن قال: مُطرنا بنوء كذا، على معنى: مُطرنا بوقت كذا فإنما ذلك كقوله: مطرنا في شهر كذا، ولا يكون هذا كفراً، وغيره من الكلام أحب إليَّ منه» انتهى.

وقال الإمام العز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ) في «شجرة المعارف والأحوال»(١)، في الإساءة القولية: «إضافة النعم إلى أسبابها دون المنعم بها، قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩]، إضافة النعم إلى أسبابها جحد لإنعام الله، وكذلك إضافة النعم إلى غيره ممن يعجز عنها، ولا بأس بإضافتها إلى الأسباب مع ملاحظة كونها أسباباً، وأن المنعم هو الله وحده، فإنَّا أمرنا بشكر الأسباب أيضاً. قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]» انتهى.

وقال الإمام النووي في «شرح مسلم»(٢): «اختلفوا في كراهته ـ أي التعبير نفسه مع الاعتقاد السليم ـ والأظهر كراهته، لكنها كراهة تنزيه لا إثم، وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره، فيساء الظنُّ بصاحبها، ولأنها شعار أهل الجاهلية ومن سلك مسلكهم».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في «لطائف المعارف»(٣): «فمن أضاف شيئاً من النِّعَم إلى غير الله مع اعتقادِه أنه ليس من الله فهو شرك حقيقة، ومع اعتقاده أنه من الله فهو نوع شرك خفي».

---

(١) «شجرة المعارف والأحوال» ص ٣٨٧.

(٢) «شرح مسلم» (٢: ٥٩).

(٣) «لطائف المعارف» ص ١٤٢.

وقال الحافظ ابن رجب أيضاً في «فتح الباري»[١]: «فإضافة نـزول الغيث إلى الأنواء ـ منازل القمر ـ إن اعتقد أن الأنواء هي الفاعلة لذلك المدبرة له دون الله عز وجل فقد كفر بالله وأشرك به؛ كفراً يَنقله عن ملة الإسلام، ويصير بذلك مرتداً حكمه حكم المرتدين عن الإسلام ـ إن كان قبل ذلك مسلماً ـ، وإن لم يعتقد ذلك: فظاهر الحديث يدلّ على أنه كفر نعمة الله، وقد جعله ابن عباس كفراً بنعمة الله عز وجل.

والكفر كفران: كفر ينقل عن الملة، وكفر دون كفر لا ينقل عن الملة، فإضافة النِّعَم إلى غير المنعم بها بالقولِ كفرٌ للمنعم في نِعَمِه، وإن كان الاعتقاد يخالف ذلك، والأحاديث والآثار متظاهرة بذلك».

ثم قال[٢]: «واختلفت الناس في قول القائل: «مُطِرنا بنوء كذا وكذا» من غير اعتقاد أهل الجاهلية: هل هو مكروه أو محرم؟ فقالت طائفة: محرم، وهو أكثر أصحابنا، والنصوص تدل عليه. وقالت طائفة: هو مكروه، وهو قول الشافعي وأصحابه وبعض أصحابنا» انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»[٣]: «قال المحققون: من نسب شيئاً من الأفعال إلى الدهر حقيقة كفر، ومن جرى هذا اللفظ على لسانه غير معتقد لذلك فليس بكافر، لكنه يُكره له ذلك، لشبهه بأهل الكفر في الإطلاق، وتقويم اللسان وتنزيهه عن المشتبهات أمر مطلوب شرعاً».

ولا شك أن المؤلف لا يعتقد بتأثيـر الأسباب ذاتياً، ولكن ألفاظه الموهمة يجب

---

(١) «فتح الباري» لابن رجب (٩: ٢٦٠).

(٢) المصدر السابق (٩: ٢٦٤).

(٣) «فتح الباري» لابن حجر (١٠: ٥٦٥).

اجتنابها والحذر منها، كما قال الحافظ ابن حجر آنفاً: «وتقويم اللسان وتنزيهه عن المشتبهات أمر مطلوب شرعاً».

قدرةُ الله على الخلق غير مقيّدة بنواميس الطبيعة:

* قال في تفسير الآية (٨١) من سورة يس: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾: «يعلم كيف يَضَعُ لكلِّ خلقٍ ناموساً يُلائمه ويَقْتضيه».

قلت: وقد يخلق الله سبحانه وتعالى من غير ناموس، كخَلق آدم وعيسى وخلق دابَّة صالح من الصَّخر وغير ذلك، فقدرتُه سبحانه غير مُقيَّدة بهذه النواميس.

خرق السنن الطبيعيَّة:

* نقل الشيخ رشيد الخطيب في تفسير الآية (١٥٦) من سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، عن الشيخ رشيد رضا قوله في «المنار»[1]: «وليس المراد بالقول «إنا لله وإنا إليه راجعون» مُجرَّد النطق بهذه الكلمات، وإنما المراد التلبُّس بمعناها، والتحقُّق في الإيمان بأنهم من الله، وإلىٰ الله يرجعون، فهو الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيء، ولا يفعل إلا ما سبقتْ به الحكمةُ وارتضاه النظامُ الإلهيُّ المُعبَّر عنه بالسنَّة الطبيعية».

الجواب: هذه السنن الطبيعيَّة هي الـمُعبَّر عنها بالعادة في كلام العلماء السابقين، والعادة: قانون وضعه الله تعالى لأفعال عباده، فلا حكم لها على أفعال الله تبارك وتعالى، ويدلّ عليه أنه سبحانه وتعالى خرق العادة فيما أيّد به رُسُلَه من معجزات، فقول المؤلِّف نقلاً عن رشيد رضا مرتضياً له: أنه تعالى لا يفعل إلا ما ارتضاه النظام الإلهي الـمُعبَّر عنه بالسنة الطبيعية؛ ممَّا لا يُوافَقُ عليه.

---

(١) «المنار» (١: ٣٣).

ترتُّب الأسباب على المسبَّبات ترتُّب عادي:

* وقال في تفسير الآية (٦٨) من سورة يوسف: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: «نظامَ الله تعالىٰ في هذا الكون وسُنَنَه في خلقه، فلا يفهمون معنىٰ التوكُّل علىٰ الله، ويظنونه مجرَّد اتِّكال، فألـمع سبحانه إلىٰ أنَّ تعاطِيَ الأسباب علىٰ وَجْهِ الإتقان، ثم التوكُّل علىٰ الله بعد ذلك، هو الواجب المحتَّم علىٰ بني الإنسان».

ثم قال في الحاشية: «الأمور كلها أسباب ومُسبَّبات، ولا يمكن أن تُـتَعاطىٰ الأسبابُ ولا تَنتُجَ المسبَّباتُ إلّا في الظاهر لا في الحقيقة؛ لأنه إذا تعاطيتَ الأسباب بزعمك أنها أسباب لكذا، وهي في الحقيقة ليست بالأسباب، لا تنتج النتيجة. وإن تعاطيتَ الأسباب بزعمك أنها كلُّ الأسباب، وهي ليست كذلك، لا تنتج النتيجة.

ومغزىٰ الآية: أن الأخذ بالأسباب الوقائيَّة واجب، وإن كان ذلك الاحتياط لم يجز شيئاً في بعض الأمور، وذلك كأن يكون للخطر سبب آخر لم يخطر علىٰ بال المتَّقي، فينتج الخطر، ولكن يكون المتوقي معذوراً في هذه الحال، إذ قد اتقىٰ علىٰ قدر علمه ووُسْعِه، ولذلك مدحه علىٰ ما فعل. هذا ما أراه. والله أعلم».

قلت: ولا يخفى أن ترتُّب المُسبَّبات على الأسلوب ترتُّب بحسب السنَّة الإلهيَّة في الخلق، وهو الـمُعبَّر عنه عند العلماء بالترتُّب العادي، أي: بحسب ما جرت به العادة، فعَدَمُ الإمكان المذكور في كلام المؤلف هنا: عادي لا عقلي، ولذلك جازت المعجزات والكرامات.

هل يصحُّ القول بأن معاكسة سنن الله يتولد عنها المفاسد؟

* قال في تفسير الآية (١١) من سورة التغابن: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾: «أي: بتقديره وإرادته، حيث جَعَل في هذا الكون سُنناً في أسباب المصالح العامَّة والخاصَّة، ومعاكستُها والانحرافُ عنها يُولِّد المفاسد والمصائب، بحكم ردِّ الفعل».

القول بالتولد غير صحيح، بل المفاسد والمصائب واقعة بإرادة الله تعالى وتقديره، ومخالفة سنن الله تعالى سببٌ أقامه الله تعالى وقرن به إيقاع هذه المفاسد والمصائب، لكن لما كانت هذه المفاسد واقعة بسبب من بني آدم لم تنسب إلى إرادة الله تعالى مطلقاً، وكان الأدب معه تعالى أن ينسبها العبد إلى نفسه.

هل الحياة تتولد من الماء؟

* قال في تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾: «أما العلم الحديث فقد أثبت أنَّ الحياة تتولَّد من الماء. والله أعلم».

قلت: التعبير بالتولُّد ممَّا ينبغي اجتنابه، لِـمَا فيه من إيهام القول برأي الفلاسفة والمعتزلة ـ على اختلاف بينهما في ذلك أيضاً ـ والصواب أن يُقال: إن الماء سبب للحياة، يعني: أنه سبب عادي لا عقلي.

هل في البذور قوَّة التوليد والإنْبات؟

* قال في تفسير الآية (١٩) من سورة الروم: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾: «وإطلاق كلمة ﴿ٱلْمَيِّتَ﴾ على الموادِّ والبذور هو من عُرْف التَّخاطب، فلا يعارضه ما يقوله العلماء من أنَّ فيها حياة أيضاً؛ لأنَّ إطلاقهم الحياة على ما فيها من قوة التوليد والإنبات اصطلاحٌ عِلْميٌّ لا عُرفي».

ليس في المواد والبذور قوة للتوليد والإنبات، بمعنى: قوة مؤثِّرة فاعلة لهذا التوليد والإنبات، بل الإنبات والتوليد فِعلُ الله تعالى، واقعٌ بإرادته وقدرته، أما المواد والبذور فأسباب أجرى الله تعالى سُنَّته بأن يخلق التوليد والإنبات عند اجتماعها وتوافقها.

هل كانت ولادة يحيى بإزالة أسباب العقم وإعادة قوة الولادة؟

* قال في تفسير الآيتين (٨٩، ٩٠) من سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾: «وقد قَرَنَ الله سبحانه دعاءه بالإجابة، فقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾، وهذا من عطف السبب علىٰ المسبَّب، وكان ذلك بإزالة أسباب العقم وإعادة قوة الولادة».

قلت: القول بحصول التوالد بالقوة غير صواب، بل الولد إنما يكون بخلق الله تعالى له، والزوجان وصلاحهما للإنجاب سبب عادي أجرى الله تعالى سنته في الكون بأن يخلق الولد عنده، وفي حال زكريا عليه السلام خرق الله السنة الكونيَّة، فخلق الولد - وهو يحيى عليه السلام - من غير اكتمال السبب، أعني: وجود الزوجين لكن من غير صلاحية الإنجاب في جانب المرأة.

هل جعل الملائكة تسعة عشر وفتنة الذين كفروا بسنة طبيعية كونية؟

* قال في تفسير الآية (٣١) من سورة المدثر: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: «فليس هذا الجَعْل مقصوداً ذاتياً من الله تعالى، ولكنه ناتج بسنة الطبيعة، وبمقتضى السنن الكونيَّة، نتاج المسبَّب عن السبب».

قلت: بل هو مقصود لله تعالى، لأنه لا يقع أمرٌ في الوجود إلا وقد أراده الله تعالى أن يقع، لكن من غير إجبار العباد عليه، لأن الله جعل لهذه الأمور أسباباً من اختيار

العباد أنفسهم وميولهم، رتَّب سبحانه وتعالى إرادته على هذه الأسباب بحسب علمه الأزليّ.

وهذه الفتنة تجعل الذين أوتوا الكتاب من علماء اليهود والنصارى يستيقنون بأن القرآن حق، وأنَّ الرسولَ محمداً صادقٌ فيما يبلغ عن ربه، إذ هم يعلمون في كتبهم هذا العدد، ولكن الذين كفروا منهم يجحدون، ولا يعترفون في ألسنتهم بما استيقنته قلوبهم، وفي بيان استيقانهم قال الله عز وجل: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المدثر: ٣١] وهذه العبارة بدل من عبارة: ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: ٣١].

وهذه الفتنة نفسها تجعل الذين آمنوا يزدادون إيماناً؛ إذ تثير فيهم الخوف من عذاب الله الشديد يوم الدين، فقال الله عز وجل: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١].

الحكمة من جَعْلِ عدد المشرفين على تعذيب المعذَّبين محدَّداً بتسعة عشر ملكاً:

أما السؤال عن الحكمة الربَّانيَّة من تحديد عدد «التسعة عشر» فهو يجرُّ أسئلة لا حصر لها، حول حكمة الله في الأعداد التي جعلها الله في أنظمتِه التكوينية للكائنات كلها، كأعداد السماوات السبع، وأعداد أبواب الجنة، وأعداد ابواب جهنم، إلى غير ذلك من كل ما هو خاضع لأنظمة عددية، مما يلاحظه العلماء في العناصر الكونية، وفي الذرات، وفي الخلايا، وفي أنظمة العظام والسُّلاميات والأسنان إلى ما لا تستطيع الخلائق حصره.

الحكمة من هذه الفتنة الاختباريَّة:

وأخيراً فإن هذه الفتنة الاختبارية ينتج عنها ظهور فريقين من المُمْتَحنين:

الأول: فريق يضلُّ باختياره الحر، فيضلُّه الله بحكمته، أي: يحكم عليه بالضلال، استناداً إلى واقع حاله.

الثاني: فريق يهتدي إلى الحق باختياره الحرّ، فيهديه الله بحكمته، أي: يحكم له بالهداية، استناداً إلى واقع حاله. فالله عز وجل أراد يُريدُ فتنة الكافر إذا عَلِمَ أنه يميلُ إليه ويختارها، ويعدل عن طريق الهداية إليها.

الأسباب الطبيعية لا تأثير لها في البعث ونهاية العالم

هل للبعث يوم القيامة أسباب طبيعية؟

* قال في تفسير الآية (٦٧) من سورة النمل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾: «إنما يكون البعث لكافَّة الناس في وقتٍ واحد، تتهيَّأ فيه أسبابه الطبيعيَّة بعد انقضاء عالم الدنيا وفناء الإنسان من الوجود الدنيوي، فيبعث الله الأرواح بأجسام صالحة للبقاء. والله أعلم».

الجواب: البعث حَدَثٌ غير عادي، وليس له أسباب طبيعيَّة، بل هو إنهاءٌ لهذا العالم وأسبابِهِ الطبيعيَّة وسُنَنِهِ الكونيَّة.

هل للربيع أثر في إنعاش وإحياء النبات؟

* قال في مقدِّمة التفسير: «ومن أساليب القرآن: **كلما ذكر إحياء الأرض بالنبات بعد موتها باليبس، استطرد إلى ذكر البعث، بطريقة قياس النظير على إحياء الأرض،** فيقول: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٧]، ووجه التناظر بينهما: أن كلًّا منهما إعادة لِـمَا كان عليه بعد فنائه، وإرجاع له إلى سيرته الأولى.

فالقرآن يُنبِّهنا إلى زمن الحشر بزمن الربيع، فكما أنَّ أيام الربيع تختصُّ بإنعاش وإحياء للنبات لا مثيل له في أيام الصيف المحرقة، ولا في أيام الشتاء القارصة القاحلة، ولا يستغرب على الربيع ما يأتي به من عجائب الإنبات إذا جاء، كذلك زمن الحشر

يُغايرُ هذه الأزمان بطبيعته وإنعاشه، فيُحيي الأجسام من بذرة عَجْب الذَّنَب ونواة الحياة، كما يُحيي الربيع النبات».

الجواب: الزمن لا تأثير له، وإنما هو ظرف للأثر الواقع بقدرة الله تعالى. وينظر كلام الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المفصَّل في هذه المسألة في أجوبته الآتية في المدخل الثالث.

زمن الربيع لا أثر له في إحياء النبات:

* وقال في تفسير الآية (٥) من سورة الحج: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾: «فهذا تلميحٌ إلىٰ أنَّ البعث بعد الموت نظير إحياء الأرض بعد يبسها، والذي يقدر على هذا يقدر علىٰ ذاك، وهو العظيم القدير. فكما أنَّ لزمن الربيع طبيعة إنعاش النبات وإحيائه، فلزمن الحشر أيضاً طبيعة إحياء الأجسام وإعادتها من عَجْب الذنب. والله أعلم».

* وقال في تفسير الآيتين (٨٢، ٨٣) من سورة المؤمنون: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾: «يستدلّون بعدم وقوعه علىٰ عدم صحَّته، تَغَابياً منهم مفروضاً بأنَّ المراد وقوعُه في الدنيا، فهم كمَن يتطلَّب طبيعة الربيع في قوَّة الإنبات واخضرار الأرض بأنواع النبات لطبيعة الصيف أو الشتاء..».

هذه عبارة مُوهمة، لِما فيها من نسبة الإنبات والاخضرار إلى قوة في الربيع، والربيع ما هو إلا ظرفٌ للإنبات والاخضرار، وهما فِعلُ الله تعالى، وقد أجرى سبحانه العادة (السنة الكونيَّة) بأن يخلق هذا الاخضرار والإنبات في هذا الظرف، فاقترانهما سببٌ عادي، ليس له من قوة التأثير شيء.

* قال في تفسير الآية (١٩) من سورة الروم: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾: «وطبيعة زمن القيامة في إحيائه للأموات كطبيعة زمن الربيع في إحيائه للنبات».

* وقال أيضاً في تفسير الآية (٥٠) من سورة الروم: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾: «طبيعة زمن القيامة في صلاحيَّة إحيائه للأموات، كطبيعة زمن الربيع في صلاحية إحيائه للنبات».

الجواب: نسبةُ إحياء النبات وإنعاشه إلى طبيعةٍ لزمن الربيع قولٌ مُوهم، ومعناه فاسد، فالطبيعة والزمن لا فعل لهما ولا تأثير، وإنما هما ظرفٌ لفعل الله وتأثيره، ربطه سبحانه به بعلاقة سببيَّة عاديَّة، أي: جارية وَفْق قانون وسنة كونيَّة، لكن يبقى التأثير منسوباً إلى الله سبحانه وحده.

* قال في تفسير الآية (٩) من سورة فاطر: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾: «فهو إحياء بعد إماتة، كإحياء الأرض بعد موتها، فهذا نظير ذاك؛ إذ طبيعة الربيع في إحياء النبات بعد اليبس، كطبيعة زمن البعث في إحياء الأجسام من عَجْب الذنب».

* وقال في تفسير الآية (٦٨) من سورة الزمر: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾: «يمكننا أن نُدرك مُجْمَلاً أن طبيعة زمن الحشر في إعادة جسم الإنسان من عَجْب الذنَب كطبيعة الربيع في إعادة الخُضْرة من البذور. والله أعلم».

الطبيعة والزمن ليس لهما أيُّ تأثير، وإنما هما سببٌ أو ظرفٌ لوقوع الأثر بقدرة الله تعالى بحسب سنَّته الكونيَّة، فقد أقام الله تعالى هذا الكون على قوانين ونُظُم، أجرى فيها أفعال سبحانه مقترنة بهذه القوانين والسنن؛ تنظيمًا لحياة الناس

ومعيشتـهم، لكنْ ليس لهذه الأسباب والسنـن سوى هذا الاقتران.

* وقال في تفسير الآية (١١) من سورة الزخرف: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾: «من قبوركم، وتُبعَثون بعد موتكم، وتُنشَرون بعد خفائكم. فسَوَّى بين الأمرين في الحياة بعد الموت، والظهور بعد الخفاء، على نهج القرآن في الاستطراد إلى ذكر البعث بطريقة قياس النظير، كلّما ذكر إحياء الأرض بالنبات بعد يُبْسِها، يشير بذلك إلى أنَّ طبيعة زمن الربيع في إحياء النبات بعد اليُبْس، كطبيعة زمن البعث في إحياء الأجسام من عَجْب الذَّنَب».

* وقال في تفسير الآية (٣٦) من سورة الدخان: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: «يقولون ذلك لِـجاجاً وعِناداً، ولم يفكِّروا بما ساقه الله لهم من الأدلة العقليَّة على صحَّة البعث والنُّشور، وجهلوا أنَّ البعث والنشور لا يكون إلا عاماً للبشر كلِّهم في وقت واحد، بعد انتهاء أمد هذا العالم، حسب سُنَّة الله في ذلك، لأن في طبيعة زمن الحشر خاصَّةَ إحياءِ الأموات، كما أن في طبيعة زمن الربيع خاصَّة إحياء النبات، ولا توجد هذا الخاصَّة في بقية الأزمان».

قلت: الطبيعة والزمان ليس لهما أيُّ تأثير، وإنما التأثير كلُّه لله سبحانه وتعالى، كما تقدَّم التنبيه إليه مراراً. إلا إذا حُمل كلام المؤلف على المجاز كمـا يقال: أنبت الربيعُ البقلَ. والـمُنْبت على الحقيقة هو الله. والأولى تجنُّب الألفاظ الموهمة.

الزمان لا تأثير له، وإنما هو ظرف لوقوع التأثير بقدرة الله تعالى:

* وقال في تفسير الآية (٢٥) من سورة الجاثية: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: «وذلك لِفَـرْط جهلهم في أن لله سُنـناً

لا تتغيَّر، ومنها: أن البعث والإحياء لا يكون إلا في أجله المؤجَّل له، وذلك عندما يُبدِّل الله هذا الكون بكون آخر يلائم الحياة الثانية، فيُبعَثون كلُّهم دفعة واحدة، فإنَّ زمن البعث في إحياء الأموات، كزمن الربيع في إحياء النبات، وليس لغيره من الزمان هذا التأثير».

* وقال في تفسير الآية (١١) من سورة (ق): ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾: «أي: وكما أحيينا الأرض بالمطر حتى أنبتت من كل زوج بهيج، بعد أن كانت يابسة قاحلة، كذلك نُحيي الموتى ونبعثهم من قبورِهم، بعد أن يكونوا تراباً.

وهذا هو محطُّ دليل الردِّ عليهم، وإثبات إمكان البعث والنشور، فالقرآن العظيمُ ينبِّه إلى المشابهة بين فَصْل الربيع وزمن البعث والنشور، فكما يختصُّ زمن الربيع بإنعاش الإنبات وإحياء النبات كذلك زمن النشور، زمنٌ خاصٌّ بإحياء الأجسام، وكما لا يستبعد على زمن الربيع ما يستبعد على زمن الشتاء من عجائب الإنبات، كذلك زمن البعث والنشور يغاير أزمان هذه الحياة الدنيا بما يلائم هذه الظاهرة ويساعدها. والله أعلم».

قلت: لا تأثير للزمان مطلقاً، لا زمن الربيع في إحياء النبات، ولا زمن البعث في إحياء الأموات، وإنما هو ظرفٌ لوقوع الحوادث بإرادة الله تعالى.

* وقال في تفسير الآية (١٧) من سورة الأحقاف: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾: «ولم يخرج منهم من قبره أحد، ولم يَفطَن هذا المغرور إلى أنَّ البعث لا يكون إلا في زمنه المُعَدِّ له، والذي فيه خاصَّة الإحياء للأموات، كما لا يكون إنبات النبات وتفريع الأشجار في فصل الشتاء، وإنما يكون في زمن الربيع الذي فيه خاصَّة الإنبات والتفريع».

ينبغي أن يقول: الملائم للإنبات والتفريع، لأنَّ سنَّة الله جرت بأن يكون زمن الربيع ظرفاً لهما، لا أن له خاصَّة مؤثرة؛ إذ التأثير لله تعالى وحده. وينظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان الحَمَوي في المدخل الثالث.

وقوع يوم القيامة ليس باضمحلال الكون وتقادم الدهر!

* قال في تفسير الآية (١٠٥) من سورة طه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾: «ويكون ذلك النَّسف بنتيجة الاصْطدام العظيم بين الكواكب، ومنها هذه الأرض، عندما ينحلُّ نظام هذا الكون ويَفسُدُ أمره لاضمحلاله بتقادُم الدهور عليه، وهو المعبَّر عنه بيوم القيامة».

قلت: هذا غير مُسلَّم، فحلول يوم القيامة ـ بفساد نظام الكون واضمحلاله ـ إنما يكون بغتة، كما ذكر الله تعالى في غير ما آية من كتابه، وهذا يدلُّ على أن ذلك يكون بلا تقدُّم إشارات وعلامات على هذا الفساد والانقلاب في نظام الكون، فلا يكون بتقادُم الدهور عليه؛ إذ لو كان كذلك لظهرت بعضُ علامات التقادم وتوقع الناس هذا الفساد والاضمحلال، لا سيما في عصرٍ تقدَّم فيه العلم ورصد فيه الفضاء.

هل خراب العالم يقع باضمحلال القوة في الأجرام؟

* قال في تفسير الآية (٦٥) من سورة الحج: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾: «استثناءٌ يشير به إلىٰ أمر القيامة وخراب هذا العالم بإذن الله، وذلك عند اضمحلال تلك القوة في هذه الأجرام».

الجواب: كون القيامة تأتي بسبب طبيعي، وهو اضمحلال القوى في الأجرام الفلكية، ممَّا لا دليل عليه، وقد تقدَّم نَقْدُه في مواضع.

دعوى انتهاء أمد الدنيا بالاضمحلال الطبيعي وتقادم الزمان!!

* قال في تفسير الآيتين (٩، ١٠) من سورة الذاريات: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾: «والـمَوْر: تحرُّكٌ في تموُّج واضطراب، إذ تَضْطرب الأجرام السماويَّة ومعها الأرض، وتتصادم ببعضها لاختِلالِ التماسك وانهيارِ ذلك البناء العظيم بمرورِ الدهور عليه والاضمحلالِ الطبيعيِّ المؤذن بانتهاء أمد الدنيا، وابتداء أمد الأخرى».

اضطراب الأجرام السماوية واصطدامُ بعضها ببعض عند قيام الساعة لا يكونُ بسبب تقادُم الزمان وتوالي الدهور على هذا العالم، ولا هو نتيجةُ اضمحلال طبيعي لذلك؛ فإنه أمر غيبي، أخبر الله عن وقوعه، ولم يذكر سببه أنه مرور الدهور وتقادم الزمان، فمن أين يُعرَفُ هذا؟! على أنّ العالَـمَ هو صُنعُ الله المُحكَم، وليس هو كصنع البشر الذي يضعف شيئاً فشيئـاً مع توالي الأعوام حتى يصيـر خراباً في آخر الأمر، فالصواب إذن: أن هذا الاصطدام والاضطراب إنما يكون استجابةً لأمر الله تعالى بقيام الساعة، وحديث أبي ذر ـ الـمُخرّج في «صحيح البخاري»[1] في أن الشمس تستأذن الله تعالى كلَّ يوم: من أيِّ جهة تطلع ـ يدلُّ على ذلك.

قال النبي ﷺ لأبي ذر حيـن غربت الشمس: «تدري أين تذهب؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستـأذن فلا يؤذن لها، يقال لها: ارجعي من حيث جئـت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣١٩٩).

دعوى انتهاء العالم بتقادم عهده:

* قال في تفسير الآية (١٣) من سورة الحاقة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾: «أي: نفخةٌ أُولى، بمعنى: إذا أُعطيت الإشارةُ الأولى اصطدمت الأجرام السماوية والأرض مع بعضها؛ لاختلال بنائها بتقادُم العهد عليها، والله أعلم».

ثم تابع الكلام عن تلك المظاهر، فقال: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾: «أي: مُضْمَحِلّة، كالشيء الخَلِق الذي يتلاشى، وذلك لمرور ما لا يُحصيه إلا الله عليها من الدهور، وكل شيء يَضمَحِلُّ بتقادُم العهد عليه مهما كان قوياً. والله أعلم».

الجواب: إنَّ اصطدام الأجرام السماويَّة واختلال نظامها ليس ناتجاً عن تقادم العهد عليها، لأنها مخلوقة على أبدع نظام وأحسن تركيب، وإنما يحصل ذلك إذا أراد الله تعالى بأمره سبحانه لها بذلك، وحديث أبي ذر ـ في استئذان الشمس كل يوم من أين تطلع، فتؤمر بالمشرق، حتى إذا كان يوم القيامة أُمرت أن تطلع من المغرب، وقد رواه البخاري، ومسلم[1] ـ دالٌّ على ذلك.

* وقوله: «وكل شيء يَضمَحِلُّ بتقادُم العهد عليه مهما كان قوياً. والله أعلم».

هذه سنة من سنن الله في الأرض، ففي تعميمها على كلِّ شيء لتشمل الإجرام العلوية ـ بل الجنة والنار أيضاً ـ نَظَر كبير.

* وقال في تفسير الآية (١) من سورة الانشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾: «وانشقاقُ السماء مِثلُ انفطارها الذي مرَّ تفسيره في سورة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١]، وهو فسادُ تركيبها واختلال نظامها عندما يُريد الله خرابَ هذا العالم الذي نحن فيه وتبديلَه بغيره، ويكون ذلك نتيجةً لاضمحلاله بتَقَادُم عهدِه. والله أعلم».

---

(١) «صحيح البخاري» (٣١٩٩)، و«صحيح مسلم» (١٥٩).

الجواب: ليس العالم كمصنوعات البشر التي تتلف بمرور الزمن عليها، بل هو مخلوق في غاية الإبداع والإتقان، وفناؤه إنما يكون بأمر الله تعالى لنظامه أن يختل، لا نتيجةً طبيعةً للتلف الذي أصابه بتقادُم عهده.

ثم إنَّ الزمن وتقادُمَه ليس له فِعل في الأشياء، وإنما أجرى الله العادة بأن يفعل التلف والاختلال في الأشياء مقارناً لطول زمانها، وهذا حكمٌ جار في عالم الدنيا، فإذا حانَ وقت القيامة تعطَّلَت هذه السنن المبنية على حكم العادة، وصارت الأفعال مجرَّدة عن أسبابها الكونية وظروفها الطبيعية.

* ثم نقل عن الشيخ محمد عبده: «خراب هذا العالم الذي هو القيامة إنّما يكون بحادثةٍ من الحوادث التي قد ينجرُّ إليها سَيْر العالم، كأن يمرّ كوكب في سَيْره بالقرب من آخر، فيَتَجاذبان فيَتَصادمان، فيضطربُ نظامُ الشمس بأسرِه، ويحدُثُ من ذرَّات ذلك غمـام ـ وأيُّ غمام ـ يظهر في مواضع متفرِّقة من الجوِّ والفضاء الواسع، فتكون السماء قد تشقَّقت بالغمام، واختلَّ نظامها حالَ ظهوره».

قلت: قول **الأستاذ محمد عبده:** «خراب هذا العالم الذي هو القيامة إنما يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجرُّ إليها سَيْر العالم» **هذا تخرُّصٌ ورَجْمٌ بالظن في مسألة غَيبية لا تدرك إلا بالخبر الصحيح، ومحاولةُ إيجاد تفسير طبيعي لظواهر القيامة محاولةٌ يائسة غير محمودة.**

* وعقب الأستاذ رشيد الخطيب على كلام الشيخ محمد عبده: «يمكن أن ينضمَّ إلى هذه النظريَّة ـ والعلم عند الله ـ نظريَّة أخرى، وهي أنَّ صورة هذا العالم المادي تضمحلُّ بتقادم العهد عليه، فيختل التماسك بينه، فيتصادم ويتفتَّت ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]».

قلت: تقدَّم الردّ على هذه الدعوى من المؤلف ـ غفر الله له ـ بأنَّ فناء هذا العالم المادي إنما يكون بأمر الله تعالى لنظامه أن يختلّ، وليس بسبب الاضمحلال بتقادُم العهد عليه.

ثم إنّ الزمن وتقادُمَه ليس له فِعل في الأشياء، وإنما أجرى الله العادة بأن يفعل التلف والاختلال في الأشياء مقارناً لطول زمانها، وهذا حكمٌ جار في عالم الدنيا، فإذا حانَ وقت القيامة تعطَّلَت هذه السنن المبنية على حكم العادة، وصارت الأفعال مجرَّدة عن أسبابها الكونيّة وظروفها الطبيعيّة.

وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فليس المراد به ما استدل به المؤلف على نظريته، وإنما يذكره المفسِّرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ فقد فسَّرها به الرازي، كما في «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي(١).

سنَّة الله تعالى في الجزاء على الأعمال

ترتُّب الجزاء على العمل سبب شرعي لا بسنَّة كونيّة ولا قانون طبيعي:

* قال المؤلف عند تفسير الآية (٢٨٤) من سورة البقرة: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾:

«وإنما الأمر مَنُوطٌ بأعمال وعقائد تُكيِّفان النفس بكيفيَّةٍ تُؤهِّلها لنعيم الآخرة أو شقائها، وقد ألمع إلى ذلك سبحانه فيما أنزل على أنبيائه من الشرائع والتعاليم، والقانونُ

(١) «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٨: ٤٦٧).

الأساسي في ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، والجزاء مُرتَّب على العمل ترتيباً طبيعياً، والله أعلم».

* وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾: «ومفاد هذه الجملة في وجه حكمة التكليف: أنه لـما كان الإنسان مطبوعاً على أنَّ لأعماله الاختياريَّة أثراً في نفسه، تُزكِّيها أو تُدسِّيها؛ كان الثوابُ والعقابُ أثراً طبيعياً لها».

يريد أنَّ العملَ الصالح أو السيِّئ له أثر على النفس الإنسانيَّة، وهذا الأثر يستتبع الجزاء ـ ثواباً أو عقاباً ـ بحكم قانون طبيعي، أي: توجيه طبيعة النفس بكيفيتها التي آلت إليها نتيجة عملها.

وهذا مما لا يوافق عليه المؤلف؛ إذ لا دليل عليه أولاً، ثم إنه يُوقع في عدة إشكالات، منها رفع درجات بعض المؤمنين زيادة على ما ينالون بأعمالهم، والعفو عن بعض المذنبين، والشفاعة لبعض العاصين، بل لبعض أصحاب الكبائر كما ورد في الحديث: «شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي»(١).

فلو كان ترتُّبُ الثواب والعقاب على العمل تابعاً لقانون طبيعي لَـمَا جازت هذه الأمور ونحوها، وإنما الترتُّب شرعي، بمعنى: أنه تابع لما حكم الله به في شريعته، وأخبر به على ألسنة رُسلِه، وما دام كذلك فهو من أخبر أيضاً بالعفو والشفاعة ونحوهما، فلا إشكال.

---

(١) رواه أحمد (١٣٢٢٢)، وأبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥) وقال: حسن صحيح غريب، والحاكم (١: ١٣٩) وصحَّحه، ووافقه الذهبي، عن أنس رضي الله عنه.

فالثواب والعقاب مرادان لله تعالى، لكن هل أجرى الله تعالى إرادته فيهما بقانون كوني (وهي العادة في اصطلاح المتكلمين)، أم أجراها الله تعالى فيهما بقانون شرعي، أي: قانون مستفاد من النص لا غير؟ الثاني: هو الصواب.

وأوضح ذلك بمثال: وجود ولدٍ لزيد ـ بعد خمس سنوات مثلاً ـ مرادٌ لله تعالى، لكن هذه الإرادة أجراها الله تعالى بقانون كونيّ، وهي أن يتزوَّج زيد، فيولد له الولد. فعلم الله من زيد أنه يتزوج، فأراد له الولد، وعلم من عمرو أنه لن يتزوج فلم يرد له الولد.

وكذا نقول: دخول أبي بكر الجنة، وأبي لهب النار، كلاهما مراد لله تعالى، لكن هذه الإرادة أجراها الله بقانون شرعي، وهي أن مَن اختار الإيمان دخل الجنة، ومن اختار الكفر دخل النار، فعلم الله من أبي بكر اختيار الإيمان، فأراد له دخول الجنة، وعلم من أبي لهب اختيار الكفر، فأراد له النار.

* وقال في تفسير الآية (١٤٧) من سورة الأعراف: «ثم بيَّن سبحانه أنَّ جزاء الآخرة إنما هو أثر للأعمال في الدنيا، يترتَّب عليها ترتُّب إيجاد العلة للمعلول، فقال: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بكسب أيديهم نتيجة إفسادهم لنفوسهم؟».

الجواب: نسبةُ إيجاد المعلول إلىٰ العلة غيرُ صحيحة، وهو مَيْلٌ من المؤلف رحمه الله إلىٰ قول المعتزلة بتولُّد المعلول من العلة، والحقُّ أن التأثير والإيجاد إنما هو لله تعالىٰ وحده، كما هو قولُ أهل السنة والجماعة.

وترتُّب الجزاء علىٰ العمل إنما هو بترتيب من الله سبحانه، فلا يكون من باب العلة العقلية، بل هو سبب شرعي.

عقاب الذنب وتكيُّف الروح:

* قال في تفسير الآية (١٥) من سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: «إن عقاب الذنب ـ والله أعلم ـ طبيعي مبنيٌّ علىٰ سُنَّة كونيَّة في تكيُّف الروح كيفيَّة تؤهِّلها للشقاء، فكما أنَّ الجوع لا يزعج إلا نفس الجائع، والمرض لا يُؤْلم إلا نفس المريض، فكذلك الذنب لا يؤثِّر إلا في نفس صاحبه، والله أعلم».

قلت: بل هو شرعيٌّ، لا مدخل فيه للطبيعة وسننها، وقياسُه بالجوع والمرض فيه تكلُّف ظاهر.

* وقال في تفسير الآية (٧٠) من سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾: «فهل يُعقَلُ بعد هذا أن يكون مصيرهم مصير سائر الحيوانات في العدم المطلق والفناء؟

كلا، وإنما لهم حياة أخرىٰ يشقون فيها أو يسعدون، نتيجةً لأعمالهم التي تُكيِّفُ أرواحهم بكيفيَّة صالحة للسعادة أو الشقاء».

الجواب: القول بأن الأعمال تُكيِّف الأرواح للحياة الأخرويَّة، محاولةٌ من المؤلف رحمه الله لإجراء أحوال الآخرة على قوانين وسنن من جنس قوانين الدنيا وسننها، وفيه اقتحام للمغيبات من غير دليل، وقد تقدّم التنبيه عليه.

تكيُّف الروح بعمل الخير والشر:

* وقال في تفسير الآية (٧١) من سورة مريم: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾: «هذا الورود تتفاوت درجاتُه بتفاوت مقدار عمل ذلك الشر الذي تتكيَّف به الروح كيفيَّة سيئة، وبنسبة تلك الكيفيَّة قوةً وضعفاً. والله أعلم، وبعبارة أخرىٰ: إنَّ للجنَّة مستوىٰ خاصاً من الكمال، مَنْ فَقَدَه لم يكن لها أهلاً، فمَنْ بقي في

نفسه أثارةٌ من شرٍّ أدركَه الموت وهو لم يتطهَّر منه، انتظرته جهنَّم لتكمل له ما نقصه، وتُعوِّض ما فاته، وتُزيل عنه ما تدرَّن به من أوْضَار، حتىٰ إذا هُذِّب ونُقِّي أُذِنَ له في دخول الجنة. والله أعلم. هذا رأيٌ أراه، والعلم عند الله».

الجواب: دعوى تكيُّف الروح بعمل الخير أو الشر، واستعدادها ـ تبعاً لذلك ـ لدخول الجنة أو النار: مسألة كرَّرها المؤلف رحمه الله في مواضع من هذا التفسير، وتقدّم التنبيه عليها بما يتضمَّن عدم تسليمها، ولو كانت الحالُ على هذا فكيف تَنالُ الشفاعةُ بعضَ مستحقِّي العذاب، فيدخلون الجنة، وأرواحهم غير متكيِّفة للجنة على رأي المؤلف؟! إلى غير ذلك من إشكالات كثيرة في هذا الرأي.

هل الكفر والأفعال السيئة سبب كونيّ للشقاء في دار البقاء؟

* قال في تفسير الآية (٢٦) من سورة الفرقان: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾: «وإيراده تعالىٰ بصفة «الرحمن» ـ والله أعلم ـ للإيذان بأنه مع اتِّصافه بغاية الرحمة لا يهوِّن الخطبَ وعُسْرَه علىٰ الكفرة والمشركين، كما أنّ رحمته لا تحول دون العطب والتلف لمن يتـردَّىٰ من شاهق إلىٰ مكان سحيق، بحكم السنة الطبيعية، فكما أن التردِّي سببٌ طبيعي للتلف والهلاك، فكذلك الكفر والأفعال السيِّئة سَبَبٌ كَوْنيٌّ للشقاء في دار البقاء».

الجواب: بل هو سبب شرعي لذلك، يعني: أن الله تعالى رتَّب هذا الشقاء على الكفر والأفعال السيئة في تشريعه الذي أنزله على عباده، وليس هذا الترتيب من النظام الذي وضعه الله للعالم في الدنيا المسمَّى بالسُّنن الكونية.

نعم إرادة الله الجزائيَّة القضائيَّة التي تتَّصل بمحاسبة الكافرين أو المؤمنين بالعقاب أو الثواب الذي تضمنه القضاء، تتم بإرادة تكوينيَّة.

ولا شكّ أنّ مَنْحَ المخلوقات المكلّفة إراداتها الحرّة، وتسخير المسخَّرات لها في هذا الكون، هو من آثار إرادة الله التكوينيّة.

وحين يمنح الله عبدَه بمشيئتِهِ إرادةً حرّةً من صلاحيّاتِها أن تشاء وتختار، ليمتحنَه في اختياراتِه، ثم يحاسبه عليها، فإنه سبحانه لا يجعل إرادة العبد موجهة بالجبر لمشيئة الخير والطاعة، ولا لمشيئة الشر والمعصية.

فإذا شاء العبد الخير والطاعة يسّر الله له المسخَّرات في ذاته والكون من حوله، وزاده معونة وتوفيقاً.

وإذا شاء العبد الشر والمعصية يسَّر له المسخرات أيضاً في ذاته وفي الكون من حوله، وربما وضع أمامه بعض العقبات إذا علم أن في نفسه شيئاً من الخير، وأن الحكمة تقتضي مساعدتَه على إيقاظه وتنبيهه.

ومعلوم أن كل المسخّرات في الكون تعمل عملها وتحقق آثارها بخلق الله وقضائه وقدره، ضمن قوانينه الثابتة التي وضعها الله لها، وهذا تأويل لمراد المؤلف وإن كانت عبارته: لا تخلو من إشكال.

* وقال في تفسير الآية (٩٠) من سورة النمل: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: «إنما كان بسُنّةٍ كونيّة، ونتيجةً طبيعيةً للأعمال، ليس فيها تحكُّمٌ ولا ظلم ولا استبداد».

* وقال في تفسير الآية (٨٤) من سورة القصص: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾: «نظام الجزاء في تلك الدار، وهو أنَّ شرَّها مُرتَّبٌ ترتيباً طبيعياً على شرور الأعمال في هذه الدار جزاءً وفاقاً، وخيرها كذلك».

الجواب: بل ترتُّب ثواب الآخرة وعذابها على أعمال العباد في الدنيا ترتُّبٌ شرعى، يعنى: أن مردَّه إلى ما قرَّره الله عزّ وجلّ في شريعتِه التى أنزلها على عباده، وليس له مردٌّ آخر من سنة كونيَّة أو قانون طبيعي.

هل العقاب مرتَّبٌ على عملِ العبدِ ترتيباً طبيعياً؟

* قال في تفسير الآية (٧) من سورة الزمر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: «أي: لا يُؤاخَذُ بالذنب إلا مَنْ يرتكبُه ويفعلُه، وذلك لأنَّ عقاب الذنب طبيعي مبنيٌّ على سُنَّة كونيَّة في تكييف الروح، فكما أنَّ الجوع لا يزعج إلا نفس الجائع، والمرض لا يُؤْلِم إلا جسم المريض، فكذلك الذَّنْب لا يُؤثِّر إلا على نفس صاحبه. والله أعلم».

تقدَّم نـقدُ هذا المعنى، وبيانُ أن العقاب مُرتَّبٌ على عمل العبد ترتيباً شرعياً مرتبطاً بما أخبر الله تعالى به من ترتيب عقوبة على تَرْك فريضة أو ارتكاب مُحرَّم، ليس له قانون أو سنَّة كونيَّة في تكييف الروح.

والقول بالترتيب لا يتمُّ إلا على القول بالتَّحسين والتقبيح العقليْن، ثم إنه يوقع في إشكالات من حيث ثبوت الشفاعة والعفو عن بعض المذنبين وغير ذلك، وقد التزم المؤلّف في هذا التفسير هذه اللوازم، فوقع في إشكالات عديدة لقاعدة التزمها وهي غير ثابتة؛ إذ لم يقم عليها دليل.

* وقال في تفسير الآية (٤٠) من سورة المؤمن: «﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عَدْلاً من الله سبحانه، والمراد من المِثل: ما يقابلُها في الاستحقاق، وبعبارة أخرى: ما ينتج عنها ويترتَّب عليها ترتيباً طبيعياً».

* وقال أيضاً في تفسير الآية (٤٨) من سورة المؤمن: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا

إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾: «جزاء الله سبحانه يتناول كلَّ مَنْ خالف سُنَنَه وتعاليمَه، وإن كان بغَواية غيره له، إذ قد قصَّر في تبصُّره واستعمال عقله، ولأنه مُرتَّب ترتيباً طبيعياً، والله أعلم».

قلت: بل ترتيب العقوبة على السيِّئة ترتيبٌ شرعيٌّ، يعني: قرَّره الله تعالى في شريعته، وليس له مردٌّ آخر من نظام كوني أو سنة طبيعية، كما تقدَّم التنبيه عليه مراراً.

الثواب والعقاب في الآخرة ليس استحقاقاً طبيعياً:

* قال في تفسير الآية (١٣) من سورة السجدة: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾: «فمنه مَنْ يتَّبع الهدى، ومنه مَنْ يُعرض عنه ويُعارضه، فيستحقُّ الأول النعيم، ويستحقُّ الثاني الجحيم والعذاب الأليم، استحقاقاً طبيعياً».

الجواب: ترتُّبُ الثواب والعقاب على عمل الإنسان ترتُّبٌ شرعي لا طبيعي، يعني: أنه محكوم بالنص الوارد فيه، ليس له سبب غير أن الله تعالى حكم به في شريعته التي أنزلها على عباده، لا أنَّ له سنَّة كونية أو قانوناً طبيعياً، فتنبّه.

* وقال في تفسير الآية (٥٤) من سورة (يس): ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾: «وفيه إيذانٌ بأنَّ الجزاءَ مُرتَّبٌ على العمل ترتيباً طبيعياً، ترتُّبَ المُسبَّبِ على السَّبب».

* وقال في تفسير الآية (٢٠) من سورة الشورى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾: «فبيَّن تعالى أنَّ جزاء الآخرة مُرتَّب ترتيباً طبيعياً على أعمال الإنسان الاختياريَّة، كذلك فإنَّ المحصولات الدنيويَّة أيضاً مُرتَّبة بحسب سنَّة الله تعالى على الأعمال المنتجة لها ترتيباً طبيعياً».

والجواب عن كل ذلك: إنَّ ترتيب الجزاء يوم القيامة على عمل الإنسان في الدنيا ترتيب شرعي، أي: تابعٌ للخبر الوارد عن الله عز وجل في شرائعه، وليس ترتيباً ناتجاً عن سنّة كونيّة أو قانون طبيعي، كما تقدَّم بيانه في مواضع.

فالجزاء مرتَّب على العمل ترتيباً شرعياً، أي: لا يترتَّب ثوابٌ على طاعة، كما لا يترتَّب عقابٌ على معصية، إلا بترتيب الله تعالى لذلك في شريعته، وليس لذلك مَرَدٌّ من سنة كونيَّة أو قانون طبيعي. وينظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان الحَمَوي في المدخل الثالث من هذه المقدمة.

إيجاب الثواب على الله تعالى:

* قال في تفسير الآية (٤٣) من سورة الأعراف: ﴿أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾: «أما قوله ﷺ: «لن يُدخِلَ أحداً عَمَلُه الجنةَ إلا أن يتغمده الله بفضله»[1]، فمحمول علىٰ أنَّ عمل الإنسان مهما كان عظيماً لا يُقابِل هذا الجزاء العظيم والنعيم المقيم لولا رحمة الله وفضله، وإنما مثله مثل مَنْ يعمل عملاً يستحق ديناراً فيُعطىٰ مئة ألف دينار فضلاً وكرماً».

قلت: كلام المؤلف رحمه الله يُشعِرُ بأنه يرىٰ أن الجنة تُنال بالعمل؛ بمعنىٰ: أن العبد يستحقُّ ثواباً من الله علىٰ عمله، إلا أن هذا الثوابَ المُستَحَقَّ دون الذي وعده الله به، فلهذا عَلَّقَ دخول الجنة في الحديث علىٰ الفضل لا علىٰ العمل.

وفي هذا مَيْلٌ إلىٰ مذهب المعتزلة بإيجاب الإثابة علىٰ الله تعالىٰ لعباده المؤمنين الطائعين. أما أهل السنة فمذهبهم أن الإثابة من أصلها محضُ فضل من الله، وأيُّ استحقاق للعبد وعملُه كلُّه ـ مهما بلغ ـ لا يجزي شكر نعمة من نعم الله تعالىٰ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وما ورد من تعليق الثواب بالعمل فلأن الله تبارك وتعالىٰ جعل العمل سبباً لنيل الثواب، وبهذا يحصل التوفيق بين الأدلة.

هل الإنسان ملزم بالانقياد للحق بعقله؟

* قال في تفسير الآيتين (١٢٥، ١٢٦) من سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ نقلاً عن «المنار»[1]: «ولا فرق بين مَنْ بَلَغَتْهُ دعوة الهداية فسلَّم بها وقبلها، ثم ترك العمل بها حتىٰ نسيها، وبين مَنْ لم تبلغه البتة، ومَنْ بَلَغَتْهُ علىٰ وجه غير مُقنع فلم يؤمن، إلا أنَّ الحجة علىٰ الأول أظهر، والثاني معذور عند الجمهور، وكذلك الثالث إذا استمرَّ علىٰ النظر من غير تقصير، هكذا قيل، فعلىٰ هذا تكون منزلة النَّاسي هي التي تلي منزلة الجاحد المعاند، وهو خليقٌ بأن يُحشر يوم القيامة أعمىٰ عن طريق النجاة والسعادة».

ثم قال في الحاشية: «لا أرىٰ أنَّ الصنف الثاني والثالث معذوران؛ لأنا نرىٰ أنَّ الإنسان قد وَصَل بعقله وعلمه إلىٰ درجة رفيعة من المعرفة والإدراك، بمجرَّد الفحص والتفتيش في أمور كونية واسعة المدىٰ بعيدة المنال، فإذا كان هذا استعداده العلميّ الذي أعطاه الله إيَّاه، فلِمَ لم يفتش عن أمر أراده الله منه لخيره وصالحه، وطبعه الله عليه في خِلْقته وتكوينه، وأرسل له فيه رسلاً محصورين في الكرة الأرضية الصغيرة المحدودة المدىٰ، وأرسل معه كتباً منشورة، وكلَّف الإنسان بالفحص عنهم والأخذ منهم، وجَعَل له في ذلك غاية عظيمة الشأن جليلة العُقْبىٰ، فأيُّ عذْر له إن لم تبلغه الدعوة ولم يفتش عنها، أو بلغته ولم يدرسها درساً وافياً صحيحاً، بهذا العقل والاستعداد الذي وَهَبه الله له ومَنَحه إياه، وقَدِرَ به أن يستنبط الكائنات من مَكامِنِها، والعظائم من خفاياها وحصونها،

---

(١) «المنار» (١: ٢٨٢-٢٨٣).

لا أرىٰ ذلك أبداً، وواجب علىٰ كل إنسان أن يفتش علىٰ الدين الصحيح من بين الأديان».

قلت: هذا الذي اختاره المؤلف من عدم إعذار مَنْ لم تبلغه الدعوة، لأنه مُلزَم بالانقياد إلى الحق بعقله؛ هو قولُ المعتزلة في التَّحسينِ والتَّقبيح العقليَيْن، وإلزامِ العباد بحكم العقل في ذلك، وليس بصواب، لأن العقول متفاوتة في الإدراك، وما لم يأتها رسولٌ يُحفِّزها على التأمّل والتفكّر فإن الكثير منها لا يُدرك هذه الأحكام، ولذلك جعل الله الحجَّة على العباد في إرسال الرسل، لا في أحكام عقولهم دون رسالة، كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

هل الاعتراف بالخالق يتوقف على النبوات؟

* قال في التعليق على قصة لقمان في آخر الآية (١٩): «وأفادت قصةُ لقمان: أنَّ الغريزة البشريَّة ـ إذا رُبِّيت تربيةً صحيحة ـ تصل إلى الحكمة وإصابة الحق في كلِّ شيءٍ، لا سيما في الإلهيَّات، لأنها مطبوعة على ذلك، وتُسمَّى الغريزة الدينيَّة، فليس الاعتراف بالخالق ممَّا يتوقَّف على النبوَّات».

الجواب: هذه مسألة فيها خلاف طويل، والمؤلف رحمه الله تعالى يميل إلى قول المعتزلة في التَّحسين والتقبيح العقليين، ومؤدّاه ترتيب الثواب على ما يُحسِّنه العقل، وترتيب العقاب على ما يُقبِّحه، ولو من غير رسول، سواء في العقيدة أو العمل، أما أهل السنة إلزام العباد عندهم ببعثة الرسل دون أحكام عقولهم.

نعم، قال الماتريدية ـ من أهل السنة ـ بوجوب معرفة الله تعالى خاصة ـ دون غيرها من مسائل العقيدة أو من الأعمال ـ بالعقل ولو من غير بعثة رسول أو بلوغ دعوة».

سنَّة الله تعالى في الهداية والضلال

معنى قوله سبحانه: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾:

* ذكر في مقدِّمات التفسير في لاحقة المقدمة الثانية في تفسير بعض آيات تتكرَّر أمثالُـها في القرآن، أو هي من الآيات المُهمَّة البيان، التي تحتاج في التفسير إلى زيادة توضيح وإتقان، في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣]: «ويجوز أن يكون فاعلُ ﴿يَشَآءُ﴾ عائداً إلى ﴿مَن﴾، فيكون المعنى: يُضِلُّ مَنْ يشاءُ الضلالَ، ويهدي مَنْ يشاءُ الهداية».

* وقال في تفسير الآية (٩٣) من سورة النحل: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾: «ويجوز أن يكون فاعل ﴿يَشَآءُ﴾ عائـداً إلىٰ «من»، ويكون المعنىٰ: يضلُّ من يشاء الضلال، ويهدي من يشاء الهداية، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ [الكهف: ٢٩]. والله أعلم».

قلت: الذي جوَّزه المؤلف ـ غفر الله له ـ ذهب إليه قال به بعضُ أهل العلم، ومنهم العلامة الكوثري في «الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار»(١)، كما ذهب إليه أيضاً أحد المفسِّرين في العصر الحديث، وهو الأستاذ عبد الحميد الخطيب المتوفى سنة ١٣٨١، وكان سفير المملكة العربية السعودية في باكستان، وله تفسير سمَّاه: «تفسير الخطيب المكي»، قال فيه: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١]: مَنْ يشاء الضلالة يُضلُّه، ومَنْ يشاء الهداية يَهْديه.

---

(١) «الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار» ص١٠.

فجعل فاعل ﴿يَشَآءُ﴾ هنا ـ وهو الضمير المستتر ـ لا يرجع إلى الله، ولكن يرجع إلى كلمة ﴿مَن﴾، مَنْ شاء الضلالة أضلَّه الله، ومَنْ شاء الهداية هَدَاه الله.

والشيخ رشيد الخطيب يؤيِّد هذا القول، وليس هو المُتبادَر من الآية، لأن كلمة: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، ذُكرت في آيات كثيرة جدّاً: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢١٢]، ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، ذُكرت ﴿مَن يَشَآءُ﴾ في القرآن الكريم مرَّات عديدة أكثر من مئة مرَّة، كلُّها ترجع إلى الله عزَّ وجلَّ.

فلماذا كلمة: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ هنا نستثنيها، ونقول: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي: الإنسان؟

وماذا تفعل في قوله تعالى حكاية عن نبيِّه موسى عليه السلام حيث يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؟ فالخطاب هنا لا يُوجد فيه: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، والفاعل فيها لا يصحُّ أن يكون المراد به غير الله؛ إذ لو كان كذلك لقال: تُضِلُّ بها مَنْ يشاءُ وتهدي مَنْ يشاء.

وكذا قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣]، فالمعنى: أنه لو شاء لجمعهم على الهدى، ولكن اقتضت حكمتُه غيرَ ذلك، فأضل بضلال من شاء إضلالَه، وهدى من شاء هدايتَه، كما قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: على مِلَّة واحدة ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بخِذلانِه إياهم، عَدْلاً منه فيهم. ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ بتوفيقه إياهم، فضلاً منه عليهم»(١) انتهى.

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٠: ١٧٢).

وقال الألوسي: «﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقة على الإسلام، ﴿وَلَٰكِن﴾ لا يشاء ذلك رعايةً للحكمة، بل ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه بأن يخلق فيه الضلال حسبما يصرف اختياره التابع لاستعداده له، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه حسبما يصرف اختياره التابع لاستعداده لتحصيلها»[1] انتهى.

فالذي يشاء: هو الله عزَّ وجلَّ ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ أي: الله يُضِلُّ مَنْ يشاء له الضلالة ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: له الهداية، ولكن الهداية والضلالة تأتي وَفْق سُنن الله.

فهذا الكونُ كلُّه ـ بما فيه الإنسان ـ تحكمه سننٌ وقوانين كونيَّة واجتماعيَّة لا تَتبدَّل ولا تَتحوَّل ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

فالقول المعتمد إذن أنَّ فاعل ﴿يَشَآءُ﴾ هو الله سبحانه وتعالى.

وأختم تفسير هذه الآية من تفسيري «المعين» وفيه بيان المراد وإزالة اللبس بفضل الله: «ولو شاء اللهُ لجَعَلكم أمَّةً واحدةً مؤمنةً مسلمةً، فسلبكم إراداتكم الحُرَّة، وجعلكم مُجْبَرين غير مُخيَّرين، ولكن أراد أن يضعكم موضع الامتحان، فمنحكم إراداتٍ حرَّة، ونتيجةً لامتحانكم سيكون فيكم ضالُّون، وآخرون مهتدون، أما الضَّالُّون فيحكم الله عليهم بالضلالة بمشيئته الحكيمة، وأما المهتدون فيحكم الله لهم بالهداية بمشيئته الحكيمة، وأُؤكِّد لكم أنكم لتُسْئَلُنَّ عمَّا كنتم تعملون في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا، لإقامة الحجَّة عليكم، وإصدار أحكام العدل بينكم، وتنفيذ الجزاء بالثواب وبالعقاب».

---

(١) «روح المعاني» (٧: ٤٥٩).

سنَّة الله تعالى في الرزق والشفاء

ذكر في مقدِّمات التفسير في لاحقة المقدمة الثانية في تفسير بعض آيات تتكرَّر أمثالُـها في القرآن، أو هي من الآيات الـمُهمَّة البيان، التي تحتاج في التفسير إلى زيادة توضيح وإتقان، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلًا وَأَوۡلَٰدًا﴾ [سبأ: ٣٥]: «يتعلَّلون بذلك في أنهم على الحق، ولهذا أكرمهم الله بهذه الكرامة، وجَعَلهم أوفرَ حظاً في هذه الحياة، فيردُّ عليهم سبحانه هذا الرأي السخيف بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [سبأ: ٣٦]، بمعنى: أنَّ بسْطَ الرزق وقَدْرَه لا تعلُّق له بذلك، وإنما هو جارٍ على سنن طبيعية في هذا الكون، طَبَعَها سبحانه وتعالى، فمن اتَّبع تلك السُّنن نال بَسْطة الرزق، ومَن تنكَّب عنها ضاق عليه العيش، والمؤمن والكافر في ذلك سواء».

قلت: اللهُ سبحانه يُوسِّع الرِّزقَ ويُكثِّره لِـمَنْ يشاءُ من العاصين والطائعين، ويُضيِّقُ الرزقَ ويُقلِّله على مَنْ يشاء، ابتلاءً وامتحاناً، حسب ما تقتضيه الحكمةُ الإلهيَّة، ولا يدلُّ البَسْطُ على رِضا الله تعالى، ولا التضييقُ على سَخَطِه، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون أنَّها للامتحان والابتلاء، فتغرُّهم وَفْرة ما أنعم الله به عليهم، ناسين فضل الله عليهم.

وقد يتَّخذ الإنسان الأسبابَ والسنن الطبيعيَّة ولا يتحقق له الرزق امتحاناً من الله سبحانه.

والمؤمن مأمور باتِّخاذ الأسبابِ ومراعاةِ السنن؛ مع صِدْقِ توكُّلِه على الله ورضاه بما يُقدِّرُه لعباده، وإيمانه بأن هذه السنن من خلق الله، وإن شاء سبحانه سلبها التأثير بمشيئته التي لا تُفارِقُ حكمتَه، فهو سبحانه خالق الأسباب والمُسبَّبات، وهو الفاعل الحقيقي، وكل ما يجري في الكون بإرادته، وإذا جرت سنَّة في أمرٍ ما أن يُحدِثَه بقرينةٍ

دالَّة عليه، فليس معنى ذلك أنَّ القرينةَ هي المؤثِّرةُ في وجودِ ذلك الأمر. لا؛ إنما المؤثّر في وجودِه وفي وجودِ تلك القرينة، وفي وجود ذلك الأمر عند القرينة إنما هو الله عز وجل.

فلا يجوز نسبة الرزق إلى سنن الطبيعة إلا مع ملاحظة أنها أسباب بخلق الله.

قال الإمام العز بن عبد السلام في «شجرة المعارف والأحوال»(1): «إضافة النعم إلى أسبابها جحد لإنعام الله، وكذلك إضافة النعم إلى غيره مِمَّن يَعجز عنها، ولا بأس بإضافتها إلى الأسباب مع ملاحظة كونها أسباباً، وأن المنعم هو الله وحده. فإنّا أُمرنا بشكرِ الأسباب أيضاً، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]» انتهى.

الرزق وارتباطه بالأسباب:

* قال في تفسير الآية (٦٢) من سورة العنكبوت: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: «ومُحصَّل المعنى: أنَّ الله سبحانه شاء أن يبسطَ الرزق لمن يتمسَّك بالأسباب أينما كان».

* وقال في تفسير الآية (٣٧) من سورة الروم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾: «مِمَّن يتمسَّك بأسباب البَسْط والسَّعة، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ الرزق لمن يشاء مِمَّن يُعرِض عن أسباب البَسْط أو لا يُتقِنُ معاطاتها وعملها».

قلت: التمسُّك بالأسباب عملٌ مطلوبٌ من الإنسان، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى قد يبسط الرزق للعبد مع تمسُّك يسير بالأسباب، ويقدر على عبد مع تمسُّك شديد بها، لحكمةٍ يريدها الله تعالى، فليس الأمر مقروناً بالتمسك بالأسباب فقط.

* وقال في تفسير الآية (٣٦) من سورة سبأ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن

---

(١) «شجرة المعارف والأحوال» ص ٣٨٧.

﴿يَشَآءُ﴾: «ممَّن يسعى في طلبه بحسب السُّنن الطبيعيَّة، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ على مَنْ لا يسعى في ذلك، ولا يقاس على البَسْط والقَدْر للرزق أمرُ الثواب والعقاب والرضا والغضب من الله تعالى، وإنما هما أمران لازمان لأسباب طبيعيَّة، فمَن تعاطى أسباب الغنى ناله ولو كان أشدَّ الناس كفراً، ومن تقاعد عنها افتقر ولو كان أعظم الناس إيماناً».

* وقال في تفسير الآية (٥٢) من سورة الزمر: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾: «بيَّن تعالى أنَّ الرزق لا مَدخَلَ للإيمان والكفر فيه، وإنما هو يجري على الأسباب الطبيعيَّة والسُّنن الكونيَّة، فمن تمسَّك بها حصل عليه ولو كان كافراً».

الجواب: لا شك أن معاطاة الأسباب لتحصيل الرزق أمر ينبغي للعبد مراعاتُه وعدمُ إغفاله، مع توكُّله على الله تعالى؛ إذ لا منافاة بينهما، لكن بَسْط الرزق وقَدْره ليس متوقفاً على معاطاة الأسباب فحسب ـ كما يدل عليه كلام المؤلف ـ بل الأمر أوسع من ذلك، فكم من متعاطٍ للأسباب ساعٍ في تحصيل الرزق أشدَّ السعي وهو مُضيَّقٌ عليه في رزقه، وكم من مُقصِّر في ذلك وهو مُوسَّعٌ عليه في رزقه، لحكمة يريدها الله تعالى فيهما، فالصواب: إطلاق المشيئة المذكورة في الآية الكريمة، مع عدم إغفال ارتباطها بالحكمة.

ثم إن الإيمان سبب من أسباب تحصيل الرزق، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢]، فقول المؤلف: «ومن تقاعد عنها افتقر ولو كان أعظم الناس إيماناً» فيه نظر. نعم، قد يفتقر المؤمن لحكمة يريدها الله كما سبق بيانه، لكنْ لا ينبغي القول بعدم تأثير الإيمان مطلقاً على سَعَة الرزق.

تقدير الرزق:

* قال في تفسير الآية (٤٧) من سورة يس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

معلِّقاً في الحاشية: «يقولون هذا من جهلهم بنظم الاجتماع التي شاءتها الحكمة الإلهية في الإنسان وأحوال عَيشِه وحاجته، وهي أن يتَّخذ بعضهم بعضاً سخرياً، يعملون في مجاري الأمور والحاجات، ولكنه سبحانه لم يُجْبر فقيراً على فَقْرِه، وإنما يكون ذلك لنوع نشاطه ومَيْله، وقوة تفكيره وضَعْفِه، فيكون من نتيجة ذلك: الغنى والفقر، والسعادة والشقاء.

وعلى هذا النظام، أمر سبحانه الغنيَّ أن يسدَّ حاجة الفقير ولا يستغلها، فوضع في تشريعه الأنظمة الاقتصاديَّة من زكَوات وصَدَقات وهبات ومساعدات وحثَّ عليها. وجاء في الحديث: «إن الله سبحانه يأمر المَلَكَ أن يكتب رزقَ المولود وأجله، وشقياً أو سعيداً». وذلك بناءً على علم الله الأزلي في نوع نشاط هذا المولود وسلوكه في كَسْبه وعمله من الأمور التي تنتج من درجة معرفته المكتسبة بالتربية والاقتباس، فهو مُخَيَّر في طلب رزقه لا مَقْسور، وكذلك في سعادته وشقائه؛ لأنها مبنية على سلوكه وتصرُّفاته. والله أعلم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]».

قلت: ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى من حَصْر تقدير الرزق بما عَلِمَه الله تعالى من نشاط الإنسان وقوة تفكيره؛ فيه نظر، لأن تقدير الرزق من الله تبارك وتعالى لا يتقيَّد بهذا المعنى، فكم من نشيط قوي العزيمة في طلب الرزق حسن التدبير، وقد ضُيِّقَ عليه في رزقه، والعكس بالعكس.

والصواب: أن تقدير الرزق من الله تبارك وتعالى إنما يجري تبعاً لإرادته المطلقة، والكلُّ ملكه، وله سبحانه أن يفعل في ملكه ما يشاء، ولكنه سبحانه حكيم في أفعاله، فهذا التقدير هو الوجه الذي تترتَّب عليه الحكمة، ولو كُشِفَ الحجاب لما اختار العبد لنفسه من الرزق إلا ما قدَّره الله له، لما يرى في ذلك من خفايا المصالح وخبايا الحِكَم.

هل المرض يقع دائماً بصنع الإنسان ومعاكسة أنظمة الطبيعة؟

* قال في تفسير الآية (٨٠) من سورة الشعراء: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾: «وإنما غيَّر النَّسق للدلالة على أنَّ المرض يكون بصنع الإنسان، وذلك بمعاكستِه لأنظمة الطبيعة وعدم عنايتِه بقوانين الصحة».

قلت: بل هو بقَدَر الله، يَبتلي به عبادَه، وفي الحديث: «ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء»[1]، وغيَّر نَسَقَ الأفعال حيث أضافها إلى الله عز وجل ثم أضاف المرض إلى نفسه تأدُّباً.

أشراط الساعة وعوالم الآخرة ومواقفها

خروج يأجوج ومأجوج:

* قال عند تفسير الآية (٩٤) من سورة الكهف في يأجوج ومأجوج: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: «وهذا اللقب يُطلق في العربية على الأقوام البالغة الحدَّ في الكثرة والفوضى، وعلى غَوْغَاء الناس وهَمَجهم، وعلى السّفلة المتسرِّعين إلى الشر، لا على جيل أو صِنفٍ معيَّن من البشر، والله أعلم، فكلُّ قوم بلغوا منتهى الأمر في الفوضى والفساد، أو كلُّ زمرة أو أُمة أو كثرة مائجة سائرة بنفسها أو على غير هُدًى من أمرها، ولا سيما إذا كانوا بغير رئيس أو نظام؛ يُقالُ لهم: يأجوج ومأجوج، بل يقال كذلك لكلِّ زمرة هذا شأنها، فيقال للعامة إذا أحدثت ضوضاء وفوضى وهمجية: يأجوج ومأجوج، وقد حقَّقتُ ذلك في سورة الأنبياء، فانظر إليه. في الآية (٩٦) منها».

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٧٥١٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٩٥٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قلت: بل هم صنف من الناس، فقد ثبت في الأحاديث المتواترة: أنهم سيخرجون من السَّدِّ، وأنَّ خروجَهم يكون بعد خروج الدجَّال، وقتل عيسى إيَّاه.

ويأجوج ومأجوج قبيلتان من ذريَّة آدم تسميان بهذا الاسم، وهم كغيرهم من بنى آدم يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتناسلون ويموتون، وخروجهم في آخر الزمان ثابت بالأحاديث الصحيحة المتواترة.

وممَّا ثبت في أمر يأجوج ومأجوج ما رواه البخاري ومسلم[1]: أن الله يطلب من آدم أن يبعث بعث النار، وفيه: «فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً، ومنكم رجل».

وروى البخاري ومسلم أيضاً[2]: «ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِحَ اليوم من رَدْمِ يأجوج ومأجوج مثل هذا».

وروى مسلم[3] حديثَ خروجهم في آخر الزمان، وأن عيسى يدعو عليهم، فيرسل الله عليهم النغف، وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم. ثم يرسل الطير لتأكل جثثهم.

وجاءت أحاديثُ موقوفةٌ عن أشكالهم وإفسادهم عند الخروج، لا يعتمد على كثير منها.

والخلاصة: أنهم من بني آدم، وكانوا موجودين أيام ذي القرنين، ويخرجون على البلاد المجاورة لهم في ناحية المشرق فيعيثون فيها فساداً، وسيخرجون آخر الزمان، وهذا القدرُ كافٍ في معرفتهم، وما وراء ذلك لا داعي إليه، ولا يضرُّ الجهل به.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٢٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٣٤٦)، و«صحيح مسلم» (٢٨٨٠).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٩٣٧).

أما محاولةُ تأويل ذلك بأن لفظ «يأجوج ومأجوج» المقصود به كلُّ قوم لا نظام لهم بحيث يعيشون حياة الهمجية والفوضى، فهذا تأويل غير مقبول.

* وقال في تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾: «ويطلق لقب «يأجوج ومأجوج» علىٰ غوغاء الناس وهَمَجهم، وعلىٰ الكثير المرتبك منهم، وعلىٰ السفلة المتسرِّعين إلىٰ الشر. وأراد به هنا المعنىٰ الثاني من بين المعاني الثلاثة؛ يُهوِّل به عن كثرة الخارجين من قبورهم يوم الحشر، المائجين ببعضهم فزعاً وارتباكاً. والله أعلم».

قلت: يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان لأُمّتَين عظيمتَين من الأقوام الكافرين المفسدين من بني آدم، وهما الغالبية العظمى عند اقتراب الساعة، ويقدَّر قبله مضاف أي: سدُّهما ـ وذلك قرب القيامة ـ والمعنى: حتى إذا فتح سدُّ يأجوج ومأجوج، وهم من كل مرتفع من الأرض يسرعون النزول، وينصبُّون انصبابا كالسيل المتدفق؛ للسلب والنهب، والقتل والإفساد.

وتقدَّم نَقْدُ هذا التفسير ليأجوج ومأجوج في تفسير الآية (٩٤) من سورة الكهف، لما فيه من مخالفة لما ثبت في السنة الصحيحة من أنهم صنف من الناس.

* ثم قال: «ويُؤيِّد ما ذكرتُ من إطلاق «يأجوج ومأجوج» علىٰ الكثرة المختلطة من الناس الخارجة من قبورها يومئذ: ما أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، وقد جاء فيه: «إن تسع مئة وتسعة وتسعين من كل ألف يكونون من أهل النار»، فقالوا: يا رسول الله، وأينا ذلك الواحد؟ قال: «أبشروا، فإنَّ منكم واحداً، ومن يأجوج ومأجوج ألفاً»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، إني لأرجو أن تكونوا ربع

أهل الجنة»، فكبَّرنا، فقال: «أرجو أن تكونوا ثُلُث أهل الجنة»، فكبَّرنا، فقال: «أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، فكبَّرنا، فقال: «ما أنتم في الناس إلا كالشعرة البيضاء في جلد ثور أسود»(١).

أقول ـ القائل رشيد الخطيب ـ: فالذي يظهر من سياق الحديث أنَّ المراد من يأجوج ومأجوج عموم الناس الذين يُحشرون يوم القيامة، كما يظهر من سياق هذه الآية أيضاً. والله أعلم».

قلت: ليس في الحديث الذي استدلّ به المؤلّف ما يُفيد أن معنى: فتحت يأجوج ومأجوج هو خروجهم من القبور، بل يفيد كثرة أهل النار منهم في الآخرة، وليس في الآية ما ذهب إليه المؤلف أيضاً، واقتراب الوعد الحق: دنوّ يوم القيامة، وبدوّ علاماتها وأهوالها، وهذه الآيات يفسِّرها ما تقدّم في الآيات (٩٤-١٠٠) من سورة الكهف، وما ثبت في الأحاديث الصحيحة التي تفيد خروجهم بعد فتح السدّ قرب يوم القيامة.

سدّ ذي القرنين:

* قال في تفسير الآية (٩٧) من سورة الكهف في سدّ ذي القرنين: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾: «وهذا السَّدُّ ـ والله أعلم ـ قد اندثر بطول العهد، وأصبح قطعة من الجبل، ولو اهتُدِيَ إليه وكُشِفَ عنه كما يكشف عن الآثار لظهر».

قلت: هذا ليس بلازم، فكم من الآثار الموجودة لم يكشف عنها بعد، وما زال الناس يكشفون عن آثار جديدة كل مدّة، بعضها مطمور تحت التراب، وبعضها في جبال ساحقة أو وديان بعيدة أو أوغال موحشة، فعدم الوقوف على الشيء لا يعني عدمَ وجوده، كما يقول العلماء: عدم الوجدان ليس دليلاً على عدم الوجود.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٢٢) أيضاً، عن أبي سعيد الخدري.

* وقال أيضاً: «ويمكن أن نفهم من كلمة «الرَّدْم» أنَّ ذا القرنَين ألقىٰ عليه التراب بعد أن فرغ من صُنعه، كما كانوا يصنعون بالأسوار القديمة، كسُور نينوىٰ، فإنه مقام من أحجار منظمة ضخمة، منضّدة بعضها فوق بعض، لا تقلُّ الواحدة عن المتر المكعب، وبعد أن تمَّ السُّور سُجِّي بالتراب، ويحتاج استخراج هذه الأحجار الآن إلىٰ عمل وكشف عنه، وذلك التراب لا يخلُّ بمناعة السَّدِّ، وعَدَم استطاعتهم لظهوره؛ لأنهم كانوا يأتون من هذا الثغر الذي انسدَّ فتواصلت الجبال، فلو أمكنهم الظهور عليه لأمكنهم الظهور علىٰ الجبال نفسها، ولكنهم لا يتمكنون ـ والله أعلم ـ أو يشقُّ عليهم ذلك إلىٰ حدِّ الامتناع، أو إلىٰ حدِّ القلَّة التي لا تزعج، وقد تمدَّنَ هؤلاء القوم بطول الزمن وأصبحوا مسالمين، والله أعلم».

قلت: سدُّ ذي القرنين لا يزال موجوداً إلى الآن، ولن يزال كذلك حتى يأتيَ وعدُ الله بخروج يأجوج ومأجوج منه بعد أن يجعلَه الله دكاءَ بعد خروج الدجّال ونزول عيسى عليه السلام.

وقد أخبر الرسول ﷺ أنه فُتِحَ منه مثل حَلْقة على قدر تحليق اجتماع السبابة والإبهام، فقال: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلَّق بأصبعَيه الإبهام والتي تليها[١].

وأما مكان وجوده فليس معروفاً الآن، وإنما يَذكر بعضُ الناسِ أنه وراء الصين، ويذكر بعضهم أنه في جورجيا في جبال القوقاز قرب أذربيجان وأرمينية، وقيل: إنه في أواخر شمال الأرض، وقيل: غير ذلك، وقد حاول بعض الناس قديماً وحديثاً البحث

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٤٦)، و«صحيح مسلم» (٢٨٨٠).

عن مكان هذا السَّدِّ بطرق ذكرها علماء التفسير في تفاسيرهم، ولكن لا يصحّ الاعتماد على مثل تلك الأخبار في ذلك.

ونحن لا يَعنينا أن نَعرِف مكان السدّ، بل الواجب علينا الإيمان بوجوده، وأنه على الأرض، وأن هؤلاء القوم يعيشون وراءه، ولحكمةٍ يَعلَمها الله عز وجل أخفى ذلك المكان عن أعين العباد، فإذا جاء وعد الله اندكّ السّدّ، وخرج أولئك القوم.

ولا يمكن الجزم بتحديد مكان السدّ الذي بناه ذو القرنين لعدم ورود هذه التفصيلات في المصادر اليقينيّة، وكلام العلماء في تحديد شخصية ذي القرنين ومكان السدّ من باب الظن والاحتمال والترجيح، وليس من باب الجزم واليقين.

ويُنظر ما علَّقتُه مُطوّلاً في شرحي لكتاب «العقيدة الإسلامية» للعلامة محمد المكِّي بن عزوز رحمه الله تعالى[1].

وقت دكّ سدّ ذي القرنين بعد خروج يأجوج ومأجوج:

* وقال عن موعد دكِّ السدِّ عند تفسير الآية (٩٨) من سورة الكهف: «﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بيوم القيامة ﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي: جَعَل هذا الرَّدْم علىٰ قوّته ومع جباله ﴿دَكَّآءَ﴾ أي: أرضاً مستوية».

قلت: بل الوعد هنا: هو الوقت الذي قدَّر الله فيه خروج يأجوج ومأجوج، فإذا جاء هذا الوقت أندكَّ هذا السَّدُّ، والأرضُ ـ بما فيها الجبال المحيطة به ـ ما زالت على حالها لم تندَكّ، كما يُفهَمُ من الأحاديث الواردة في ذلك.

* وقال في تفسير الآية (٩٩) من سورة الكهف: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ

---

(١) «العقيدة الإسلامية» ص٣١٣-٣١٩.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾: «وهذا بيانٌ لحالة عموم الناس عندما يقومون من قبورهم ويُدعَوْن للحساب بما فيهم المشركون المنكرون».

قلت: المراد بـ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يوم فتح السدّ وخروج يأجوج ومأجوج وقرب الساعة. ومعنى الآية ـ مستفاداً من تفسيري «المعين» ـ: «وجعلنا بعض الناس ـ من يأجوج ومأجوج وغيرهما عند انفتاح السدّ وقُرْبِ القيامة ـ يختلط ببعض في أحداث متكررة متجدِّدة كحركة أمواج البحر التي يختلط فيها الماء بعضه ببعض، ونفخ في القرن النفخة الثانية للبعث، ....».

تأويله الغريب لدابّة الأرض:

* قال في تفسير الآية (٨٢) من سورة النمل: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: «أما يجوز أن تكون مُسلَّطاً دجَّالاً من أهل الأرض مع أُمَم كثيرة من الأتباع تَدُبُّ في الأرض إفساداً، كالتتر والمغول وأشباههم، أو ما سيقع بالقنابل الذريَّة وشبهها من الأسلحة الفتَّاكة، إذ يجوز أن تشتبك بعض الدول بحرب ذريَّة أياماً، ثم تحتجز، وقد فني من البشر شيء كثير غضباً من الله، والله علىٰ كل شيء قدير. هذا رأيي بمقتضىٰ احتمال اللفظ بحسب اللغة، وإن أخطأتُ فأستغفر الله».

قلت: هذا الرأي من البُعدِ بمكان، واحتمال اللفظ لهذا المعنى لغةً غيرُ مُسلَّم، ولو سُلِّمَ فهو احتمال بعيد مرجوح، لا سيّما أن الآية الكريمة قد لَحِقَها البيانُ من السنة النبويَّة، كما في حديث أبي هريرة المذكور، وروى مسلم من حديث حذيفة: «لا تقومُ الساعةُ حتى تروا عشرَ آيات ...»، وذكر منها الدابَّة[١]، وروى أيضاً من حديث أبي هريرة: «ثلاثٌ إذا خَرَجْنَ لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل ...» وذكر

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٩٠١).

الدابة[1]، وروى أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «إن أول الآيات خروجاً: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها»[2].

فهذه الأحاديثُ تُعيِّنُ حملَ الدابة على معناها الظاهر ـ وهو القول بأنها دابة حقيقيةً ـ ولا إشكال فيه، إذ ناقة صالح أعجب منها، وقد جاء النص الصريح بإثباتها، فلِمَ يُطلَبُ لهذه الناقة معنى غير الظاهر، ويُتكلَّفُ تأويلها بتعسُّف؟!

وقد أبعد المؤلفُ في تأويل المراد بالدابَّة بأنها أمم كثيرة من الأتباع تدبُّ في الأرض فساداً، كالتتر والمغول وأشباههم، أو ما سيقع بالقنابل الذريَّة وشبهها من الأسلحة الفتّاكة.

وليسَ في وَصْفِ الدابة حديث مرفوع نعلمُه؛ وإن وردت في ذلك آثار عن السَّلَف، وكلُّها تخالف ما ذهبَ إليه المؤلّف؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إنّ الدّابة فيها من كل لون، ما بين قرنَيها فرسخ للراكب»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي مثل الحربة الضخمة»، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «إنها دابة لها ريش وزَغَب وحافر، وما لها ذَنَب، ولها لحية»، كما في «تفسير ابن كثير»[3].

حياة عيسى عليه السلام ورفعه إلى السماء ونزوله آخر الزمان:

* قال في تفسير الآية (٥٥) من سورة آل عمران: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾: «أي: مميتك موتاً طبيعياً».

---

(١) «صحيح مسلم» (١٥٨).

(٢) المصدر السابق (٢٩٤١).

(٣) ذكر هذه الآثار ابن كثير في «تفسيره» (٦: ٢١٤) عن ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩: ٢٩٢٤).

وعلَّق في الحاشية ملخّص ما ذهب إليه محمد عبده ورشيد رضا في «تفسيره»[١]: «الظاهر أنَّ المراد: الوفاة الطبيعية المعروفة، وأما حديث الرفع والنزول في آخر الزمان، فحديثُ آحاد لا يثبت به أمر اعتقاديّ، إذ المطلوب في الاعتقادات الأدلة القطعيَّة المؤدّية إلىٰ اليقين، وليس هذا منها.

ويحتمل أن يُؤوَّلَ نزوله وحكمه بشريعة القرآن، بغَلَبة روح رسالته وسرِّها، وهي الرحمة والمحبة والسلام، إذ هي روح تعاليم عيسىٰ عليه السلام، وموجودة في ثنايا القرآن، فيكون المراد بالحديث: الإيماء إلىٰ صلاح الزمان والأخذ بشريعة القرآن، علىٰ الوجه الصحيح، مدة من الزمن.

وأما قتله للدجال؛ فالمراد: إزالة المبادئ الزائفة والعقائد الزائفة، وإزالة الخرافات والقشور عن الشريعة وتعاليمها، تلك الخرافات التي جاءت من الدجَّالين ومن الضَّالين، لأنها تزول بتقرير الشريعة علىٰ الوجه الصحيح. والله أعلم».

هذا ملخَّص ما قاله صاحب «المنار»[٢] نقلاً عن الأستاذ الإمام في هذا المقام، وعقب عليه بقوله: «ولكن ظواهر الأحاديث الواردة في أمر النزول تأباه، ولأهل هذا التأويل أن يقولوا: إنَّ هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنىٰ كأمثالها من هذا الصنف من الأحاديث، ينقل فيها الراوي ما فهمه، وانطبع في مخيَّلته وتصوراته. والله أعلم».

الجواب: أما كونُ الأحاديث في ذلك أخبارَ آحاد؛ فغير مُسلَّم، إذ قد بلغت مبلغ التواتر، وصُنِّف في بيان ذلك مصنفات، من أحسنها «التصريح بما تواتر من نزول المسيح» للكشميري، و«نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى قبل الآخرة» للكوثري.

---

(١) «المنار» (٣: ٢٦١).

(٢) المصدر السابق.

وأما التأويل المذكور فظاهرُ التكلُّف، شديدُ التعسُّف، واحتمالُ أن ينقل الراوي ما فهمه وانطبع في مخيلته فمسألة لها ضوابطها عند المحدثين، ولا يصحُّ إيرادها هكذا على عواهنها، لا سيما أن كثرة الأحاديث الواردة في المسألة تنفي هذا الاحتمال.

معنى قوله سبحانه عن عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾:

* قال في تفسير الآية (٦١) من سورة الزخرف: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾: «أي: إنَّ عيسى وأمْرَه يُسْتَدلُّ به على صِحَّة الساعة والبعث وقدرة الله عليه، إذ منه يُعلَمُ أنَّ النواميس الطبيعيَّة في الخِلْقة والإيجاد والتطوير والتبديل ليست محصورةً في النواميس المعلومة لديكم، ولكن سنن الله تعالى في ذلك لا يُحصيها ولا يعلمها إلا هو، ومنها تلك السُّنَّة التي بنى عليها خَلْق عيسى، وسنن البعث والساعة».

المعنى ـ الراجح ـ: وإنَّ نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة لدليلٌ يدلُّ على قُربها، ويؤيِّده قراءة: (وإنه لَعَلَم للساعة) ـ بفتح العين واللام ـ وما ثبت من الأحاديث الصحيحة المتواترة في نزوله عليه السلام.

وخَلْقُ عيسى عليه السلام لم يكن بسُنّة كونيَّة أو طبيعيَّة، وإنما كان معجزةً خارقةً للقوانين والنواميس، كما تقدّم التنبيه إليه.

عالم الصُّور

هل النفخ في الصور للإيذان بالقيامة وفناء الدنيا؟

* قال في تفسير الآية (٦٨) من سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾: «والصُّورُ لغةً: البوق يُنفَخُ فيه للإعلان بشيء، وقد استعار الجملة للإيذان بالقيامة والفناء لعالم الدنيا».

قلت: لا دليل على الاستعارة هنا، بل القاعدةُ في السمعيات عند العلماء: أن ما

ثبت في النص وكان ممكناً عقلاً وَجَبَ إثباتُه والقولُ به على حقيقتِه، ما لم يصرفه صارفٌ ـ من دليل آخر أو قرينة معتبرة ـ إلى المجاز.

والحقيقة هنا ممكنة ولا صارف إلى المجاز والاستعارة، فوجبَ القول به على الحقيقة، ولا يخفى أن إثبات الصُّور على الحقيقة يعني: إثبات أنه بوق يُنفَخُ فيه، ولا يلزم من ذلك أن يكون كأبواق الدنيا.

* وقال في تفسير الآية (١٣) من سورة الحاقّة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: «أي: نفخةٌ أُولى، بمعنى: إذا أُعطيت الإشارةُ الأولى، اصطدمت الأجرام السماويَّة والأرض مع بعضها؛ لاختلال بنائها بتقادُم العهد عليها، والله أعلم».

كأن المؤلف رحمه الله يُلمحُ بهذه العبارة إلى حَمْل النفخ في الصور على وجه مجازي غير حقيقي، وهو إعطاء الإشارة، وهذا غير صحيح، فالأصل حَمْلُ الكلام على الحقيقة ما دامت غيرَ ممتنعة، ثم إنَّ هذا النفخ المذكور في القرآن مجمَلاً لحقه البيان من السنة النبوية الصحيحة، ومنها زيادة تأكيد على أنه نفخٌ حقيقيّ في صُور ـ وهو القَرْن ـ حقيقي.

تأويله النفخ بالصور بمجرد الإرادة:

* قال في تفسير الآية (١٣) من سورة النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: «وهي نفخة الصُّور الثانية، أو مجرَّد الإرادة».

الجواب: هذا تأويل بعيد فيه تكلف ظاهر، فالأول هو المعتمد.

* وقال في تفسير الآية (٢٠) من سورة (ق): ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾: «أي: وأُذِنَ بالقيامة والبعث، وذلك ما كنتم توعدون به».

قلت: لم يصرّح المؤلف بالمراد بالصُّور، وقد ورد ذكر الصُّور في عدَّة آيات، هي: (الأنعام ٧٣، والنحل ٨٧، الكهف ٩٩، وطه ١٠٢، والمؤمنون ١٠١، ويس ٥١، والزمر ٦٨)، وقد تأوَّل بعضُهم الصُّور بأنه جمع صورة يُنفَخُ فيها روحُها فتجيء. ونقله الحافظ في «الفتح»[١] عن أبي عبيدة في «المجاز»[٢]، ثم قال: «وقال الأزهري: إنه خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة».

وردَّه الطبري قائلاً: «الصواب من القول عندنا: ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ»[٣]، يعني: في أنه بوق على الحقيقة، وذكر الأحاديث في ذلك.

وقال ابن كثير[٤]: «والصحيح أن المراد بالصُّور: القَرْن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام».

وقال القرطبي[٥]: «والصُّور: قرن يُنفَخُ فيه، وليس جمع صورة كما زعم بعضهم، أي: ينفخ في صُوَر الموتى ... والأمم مُجمِعة على أن الذي ينفخ في الصور إسرافيل عليه السلام.

قال أبو الهيثم ـ عقبة بن خيثمة النيسابوري شيخ الحنفية المتوفى سنة ٤٠٦ ـ: من أنكر أن يكون الصور قرناً فهو كمَن يُنكِر العرش والميزان والصراط، وطلب لها تأويلات». انتهى.

---

(١) «فتح الباري» (١١: ٣٦٧).

(٢) «المجاز» (١: ٤١٦).

(٣) «تفسير الطبري» (١١: ٤٦٣).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٣: ٢٧٦).

(٥) «تفسير القرطبي» (٧: ٢٠).

نفخ إسرافيل بالصُّور:

* وقال في تفسير الآية (٤١) من سورة ق: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾: «وهذا الوصف لجلاء ذلك النداء ووضوحه، مُراداً به تحقيقُ الإنجاز للبعث الذي ينكرونه، وتقريرُ وقوعه».

لم يتعرض المؤلف إلى المراد بالمنادي هنا، وهو إسرافيل عليه السلام، يوم ينادي بنَفْخِه في القرن.

* وقال في تفسير الآية (٤٢) من سورة (ق): ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾: «وقد جاء التعبير عن هذه الصَّيْحة بعبارات مختلفة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣، طه: ١٠٢، النبأ: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]، أي: ضُرب الجرسُ بحضور الوقت أو لاجتماع الناس.

قلت: لو قال: البوق؛ لكان أَوْلى، لأن «الصور» هو البوق، كما تقدَّم بيانه.

هل زلزلة الساعة تكون بانتهاء العمر الطبيعي للكون؟

* قال في تفسير الآية (١) من سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾: «وزلزلة الساعة: هي حادثة خراب العالم الكوني عند انتهاء عمره الطبيعي».

الجواب: قيام الساعة من الأمور الغيبيّة، والقول بأنها تقوم عند انتهاء عمر العالم الطبيعي يحتاج إلى دليل، بل ظواهر الأدلة ـ كتلك الدالة على أن الساعة تأتي بغتة ـ على خلاف ذلك، أعني: أنها تقوم بأمر الله من غير سبب طبيعي لذلك. وتقدم التنبيه على ذلك.

بعث الحيوان بعد موته:

* قال في تفسير الآية (٥) من سورة يونس: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: «أي: لم يَطْمِسُوا بأعمالهم السيِّئة أنوارَ عقولهم النيِّرة، فيعلموا أنَّ هذا الخالق الحكيم لم يخلق الإنسان في أحسن تقويم تحت هذا النظام العظيم، ثم يتركه يحيا ويموت كالحيوان لا يُبعَثُ ولا يعود».

قلت: لكنْ ثبت في السنة النبوية أن الحيوانات تُبعَثُ وتُحشَر، ويُقتَصُّ لبعضها من بعض، كما في «صحيح مسلم»[1]، ثم يُقال لها: كوني تراباً، فلعله يريد: لا يُبعَث للحساب والجزاء من نعيم وعذاب كبعث الإنسان.

عالم الميزان

ليس الوزن يوم القيامة كناية عن علم الله الدقيق:

* نقل الشيخ رشيد الخطيب في تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ عن الشيخ محمد عبده في الكلام علىٰ الميزان: «ومن عجيب ما قاله البعض: أنه ميزانٌ بلسان وكفتين كأطباق السماوات والأرض، ولا يعلم ماهيَّته إلا الله!! فماذا بقي من ماهيَّته بعد بيان لسانه وكفَّتيه حتىٰ يُفوَّض الأمرُ إلىٰ الله من بعد ذلك البيان؟! ومثل هذا الكلام جرأةٌ علىٰ غيب الله بغير نصٍّ صريح متواتر عن المعصوم ﷺ، ولم يرد في الكتاب إلا كلمة الميزان. فعليك أيها المؤمن المطمئن أن توقن بأنَّ الله سبحانه يزن الأعمال، ويُميِّز لكلِّ عمل مقداره، ولا تَسَلْ: كيف يزن، ولا كيف يقدِّر، فهو أعلم بغيبه، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٦٨).

وإنَّ البشر اليوم قد اخترع من الموازين ما هو أتقنُ وأضبطُ من ذات الكفتين واللسان، ذلك الميزان الخشن غير المتقن، فكيف بالحكيم الخبير أن يستعمل ذلك الميزان الذي اخترعه البشر قبل أن يبلغ به العلم ما بلغ.

علىٰ أنَّ الموزون هنا معانٍ ومعقولاتٌ، فما هو وجه احتياجها لكِفَّة بوسع الأرض والسماوات، وإنما ذلك قول ما لا يعرف الإيمان بالغيب.

وإذا كان العلم الحديث قد كشف موازين للحرِّ والبرد واتِّجاه الرياح والأمطار إلىٰ غير ذلك، أفيعجز القادر علىٰ كلِّ شيء عن وضع موازين للأعمال النفسيَّة والبدنيَّة التي سمَّاها الدِّين: الحسنات والسيئات، بما تحدثه في الأنفس من الأخلاق والصفات الثابتة فيها».

ثم رجَّح أن الـميزان يدل على علم الله الدقيق قال: «وأظن أنَّ الوزن كناية عن علم الله الدقيق بمقتضىٰ الذرَّتين» أي: في سورة الزلزلة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦-٨]».

قلت: هذا ظنٌّ بعيد، فقد ورد ذِكرُ الكفّتين في وصف الميزان في السنَّة الصحيحة، أما ما نقله المؤلف آنفاً عن الأستاذ الإمام ـ يعني: الشيخ محمد عبده ـ من كون هذه الأحاديث أخبار آحاد، فلا يضرّ، فأصل الميزان ثابت في القرآن الكريم والسنة المتواترة، ثم الكلام في وصفه وكيفيَّته مما يُقبلُ فيه الحديث الصحيح ولو كان آحاداً، وقد انتهىٰ المؤلف رحمه الله إلىٰ الظن في آخر كلامه فقال: «وأظن أن الوزن كناية...»، فإذا كان كذلك فلا يُترك الحديث بحجة ظنيَّة ثبوته.

فتأويل المؤلّف للميزان بعلم الله تكلُّف ممجوج.

قال ابن كمال باشا في رسالته «حقيقة الميزان»[١]: «الجمهور على أنَّ صحائف الأعمال توزَنُ بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق إظهاراً للمَعْدلة وقطعاً للمعذرة.

وقال الضحاك والأعمش: الوزن والميزان بمعنى العدل في القضاء كما تقول: هذا الكلام في وزن هذا وفي وزانه، أي: يُعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن. وقال الزجّاج: هذا شائع من حيث اللغة.

والأولى أن يتَّبع ما جاء في الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان، ولقد أحسن القشيري حيث قال: لو حمل الميزان على هذا فليحمل الصراط على الدين الحق، والجنة والنار على ما يرِد على الأرواح دون الأجساد، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة، والملائكة على القوى المحمودة!!! وقد اجتمعت الأمة في الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل.

قال القرطبي في سورة الأعراف: وإذا أجمعوا على منع التأويل، وجب الأخذ بالظاهر، وصارت هذه الظواهر نصوصاً[٢].

قال الآمدي في «أبكار الأفكار»: «أما الميزان فقد أثبته الأشاعرة والسلف وأكثر المسلمين، وأنكره المعتزلة، ولكن منهم من أحال عقلاً، ومنهم من جوَّزه عقلاً». انتهى.

هل للميزان يوم القيامة لسان وكفتان؟

* كرَّر الشيخ رشيد الخطيب في تفسير الآية (٤٧) من سورة الأنبياء: ﴿وَنَضَعُ

---

(١) «حقيقة الميزان» (٢: ٣٨٣).

(٢) «تفسير القرطبي» (٧: ١٦٥).

ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ ما تقدَّم نقله عن الشيخ محمد عبده وقوله: «ومن عجيب ما قاله البعض أنه ميزانٌ بلسان وكفتَيْن، كأطباق السماوات والأرض، ولا يعلم ماهيَّته إلا الله، فليت شعري ماذا بقيت من ماهيَّته بعد بيان لسانه وكفتيه، حتىٰ يفوَّض العِلمُ فيه إلىٰ الله بعد ذلك البيان؟ ومثل هذا الكلام جرأة علىٰ غيب الله بغير نصٍّ صريح متواتر عن المعصوم ﷺ، ولم يَرِد في الكتاب إلا كلمة «الميزان»!!».

قلت: بل العجيب إنكار كون الميزان بلسان وكفتين، وقد ثبتت هذه الكيفيَّة في غير ما حديث صحيح، واشترط نص متواتر في ذلك مما يُتَعجَّبُ منه أيضاً، فما دام ثبت «الوزن» و«الميزان» بالقرآن الكريم، فلا محذور في إثبات بعض تفصيلاته بحديث الآحاد الصحيح، ألا ترى أن نعيم الجنة وشجرها وثمرها ممَّا ثبت بالنصوص القطعيَّة في القرآن والسنة، ثم نأتي بعد ذلك نُثبتُ ـ بحديث الآحاد الصحيح ـ شجرةً يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها[1]، كما نثبت ـ بحديث الآحاد الصحيح ـ بعض صفات ثمر الجنة وطعمه. وكذا يُقال في سائر الغيبيَّات.

* ثم قال متابعاً النقل عن الشيخ محمد عبده: «فعليك ـ أيها المؤمن المطمئن ـ أن تُوقن بأنَّ الله سبحانه يَزِنُ الأعمال ويُميِّز لكلِّ عمل مقداره، ولا تَسَلْ كيف يزن، ولا كيف يقدر، فهو أعلم بغيبه، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وإنَّ البشر اليوم قد اخترع من الموازين ما هو أتقن وأضبط من ذات الكفتين واللسان، ذلك الميزان الخشن غير المتقن، فكيف بالحكيم الخبير أن يستعمل ذلك الميزان الذي اخترعه البشر قبل أن يبلغ به العلم ما بلغ».

---

(١) رواه البخاري (٣٢٥٢) ومسلم (٢٨٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قلت: كون الميزان يوم القيامة بلسان وكفتين لا يعني أنه هو نفسه ميزان البشر الخشن القديم غير المتقن، بل هو ميزان لا كموازين الدنيا، جعله الله بلسان وكفتين لأنها الصورة التي تُعبِّر عن آلة الوزن في الغالب، حتى في هذا العصر الذي صُنعت فيه الموازين الالكترونية، ما زالت صورة الكفتين هي رمز مُعبِّر عن الميزان والعدل.

هل الموزون: الأعمال أم الكتب؟

* ثم قال: «علىٰ أنَّ الموزون هنا معانٍ ومعقولات، فما هو وجه احتياجها لكفّة بوسع الأرض والسماوات، وإنما ذلك قول مَن لا يعرف الإيمان بالغيب. انتهىٰ بتصرُّف».

قلت: اختلف علماء السلف في الموزون: أهو الأعمال والأقوال، أم كتب الأعمال والأقوال؟ ولكلٍّ وجهة ودليل.

فذهب كثير من العلماء إلى أن الأقوال والأعمال توزن في الميزان.

وذهب طائفة من العلماء إلى أن الذي يوزن يوم القيامة هو كتب الأعمال والأقوال، واستدلوا على ذلك بحديث البطاقة الذي رواه أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما[١].

هل هناك ميزان أو موازين؟

* قال في تفسير الآيتين (٦، ٧) من سورة الزلزلة: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ نقلاً عن الشيخ محمد عبده: «يقال: ثَقُلَ ميزانه، أي: صار له قَدْرٌ وقيمة، كأنه إذا وضع في كفَّة ميزان رَجَح».

---

(١) رواه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠).

قلت: جاء ذكر الميزان في القرآن في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]، وصيغةُ الجمع فيه تحتملُ أمرَين: إما أن تكون ثمة موازينُ متعددة، تُوزَن فيها الأعمال، وإما أن يكون المراد الموزونات، جمع باعتبار تنوُّع الأعمال.

وجاء ذكر الـميزان في السنة، فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يَزِنُ عند الله جناح بعوضة»، وقال: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]»[(١)].

وروى البخاري ومسلم أيضاً عن النبي ﷺ قوله: «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرَّحمٰن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[(٢)].

وروى أحمدُ في «مسنده» (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيُخلِصُ رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعةً وتسعين سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ مدّ البصر، ثم يقول له أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمَتْكَ كَتَبَتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيَبهت الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فيقول: أحضِـروه، فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السِّجِلّات؟ فقال: إنك لا تظلم،

---

(١) رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٢) رواه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

قال: فتوضع السِّجِلّاتُ في كفّة، والبطاقة في كفّة، قال: فطاشت السِّجِلّات، ولا يثقل شيءٌ باسم الله الرحمن الرحيم»(١).

وأما صفة الميزان فقد دلّتِ الأحاديثُ على أن له كفّتَين حِسِّيّتَين مُشاهَدَتَين، تُوزَنُ فيه الصحائف، وربما وُزِنَ الشخصُ نفسُه أو أعمالُه، وكل ذلك مذكور في الأحاديث.

ووَزنُ الأعمالِ من مواقف يوم القيامة المشهودة، قال القرطبيُّ في «التذكرة»: «قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها»(٢). انتهى.

وعليه فالوزن أيضاً لا يكونُ في حقِّ كلِّ أحد، ذلك أن الله يُدخِلُ عباداً الجنةَ من غير حساب، فلا وَزْنَ عليهم إذن. والله أعلم.

* ثم كرَّر النقل مرة ثالثة عن الشيخ محمد عبده متابعاً له: «ومن عجيب ما قاله بعض المفسِّرين في الميزان: إنَّ له لساناً وكفّتَين كأطباق السماء والأرض، ولا يعلم ماهيَّته إلا الله»!

قلت: بل العجيب إنكار ذلك والعدول عنه إلى غيره، مع كونه ظاهرَ اللفظ وحقيقةَ المعنى ـ والأصلُ الحملُ على الحقيقة ـ ودلّت عليه عدّة أحاديث صحيحة.

وقد ثبت في السُّنّة أنّ للميزان كفّتَين، أما اللِّسانُ ووَصْفُ سَعَةِ الكفّتَين بأنهما تستوعبان السماوات والأرض فلم يأتِ فيه حديثٌ مرفوع فيما أعلم، ولكن وردت فيه

---

(١) رواه أحمدُ في «مسنده» (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩).

(٢) «التذكرة» ص٧١٥.

آثار، فمن ذلك ما روى اللالكائيّ في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة»[١] بإسنادِه عن سلمان رضي الله عنه قال: يوضع في الميزان، وله كفّتان لو وُضِعَ في إحداهما السماواتُ والأرضُ ومَنْ فيهن لوَسِعَه. انتهى.

وأسند أيضاً عن الحسن قال: له لسان وكفتان[٢].

وروى اللالكـائي أيضاً في «اعتقاد أهل السنة»[٣] عن ابن أبي حاتم قال: سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار وما يعتقدان من ذلك، فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار ـ حجازاً وعراقاً وشاماً ويَمَناً ـ فكان من مذهبهم: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ... والميزانُ حقٌّ له كفّتان. انتهى.

وقال أبو القاسم الأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة»[٤]: «وأن الميزان حقٌّ له لسان وكفتان»، وقال أبو الحسن الأشعري في «مقالات الإسلاميين»[٥]: «واختلفوا في الميزان، فقال أهل الحق: له لسان وكفتان»، وقال الغزالي في «قواعد العقائد»[٦]: «وأن يؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان، وصفتُه في العِظَم أنه مِثْلُ طبقات السماوات والأرض»، وقال ابنُ جزّي في «التسهيل لعلوم التنزيل»[٧]: «مذهبُ أهل السنة أنَّ الميزان يوم القيامة حقيقة، له كفّتان ولسان وعمود توزن فيه الأعمال».

---

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٢٢٠٨).

(٢) المصدر السابق (٢٢١٠).

(٣) «اعتقاد أهل السنة» (٣٢١).

(٤) «الحجة في بيان المحجة» (١: ٢٥٠).

(٥) «مقالات الإسلاميين» (٢: ٣٥٣).

(٦) «قواعد العقائد» ص٦٥.

(٧) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٢: ٢٣).

وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»(١): «قال أبو إسحاق الزجّاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفّتان ويميل بالأعمال».

ورَدَّ القرطبيُّ في «التذكرة»(٢) قولَ مَنْ أوّلَ الميزان بالعدل والقضاء، فقال: «وهذا القول مجاز، وليس بشيء، وإن كان شائعاً في اللغة؛ للسنة الثابتة في الميزان الحقيقي، ووَصْفِه بكفّتين ولسان، وأنّ كل كفّة منهما طباق السماوات والأرض».

فظهر بذلك أن ذِكرَ اللسانِ معَ الكفّتين للميزان مأثور عن بعض الصحابة والتابعين، ومشهور عند أهل العلم سَلَفاً وخَلَفاً، حتى قد نُقِلَ عليه إجماعُ أهل السنة، وأما وصف كفّتي الميزان بأنهما كأطباق السماء، فيشهد له ما سبق ذِكرُه عن سلمان: «له كفّتان لو وُضِعَ في إحداهما السماوات والأرض ومَنْ فيهن لوَسِعَه»، ونصَّ عليه الغزاليُّ والقرطبيّ، كما تقدم. والله أعلم.

* ثم نقل عن الشيخ محمد عبده قوله: «فماذا بقي من ماهيَّته بعد لسانه وكفَّتيه حتى يُفوَّض فيه العِلمُ إلى الله بعد هذا البيان؟ ومِثلُ هذا الكلام جُرأة على غيب الله بغير نصٍّ صريح متواتر عن المعصوم ﷺ».

الجواب: إن اشتراط التواتر في مثل هذا المبحث ليس بشيء، فأصل الميزان ثابت بالنص القطعي في كتاب الله، ثم لا مانع من الكلام في التفصيلات بأخبار الآحاد الصحيحة، ألا ترى أن نعيم الجنة غيبٌ ثبت في النصوص القطعيَّة، ثم إننا نُثبت كثيراً من أوصاف هذا النعيم وظلاله وثماره... إلخ، بأخبار الآحاد الصحيحة.

---

(١) «فتح الباري» (١٣ : ٥٣٨).

(٢) «التذكرة» ص٧٢٣.

* ونقل عن الشيخ محمد عبده أيضاً: «ولم يرد في الكتاب إلا كلمة «الميزان»، وقد عرفتَ ما يمكننا أن نفهم منها لننتفع بها نعتقد، وما عدا ذلك فعِلمُه إلى الله سبحانه.

هذا وإنَّ البشر اليوم قد اخترع من الموازين ما هو أتقَنُ وأضبَطُ من ذات الكفتين واللسان، ذلك الميزان الخشن غير المتقن، فكيف بالحكيم الخبير أن يستعمل ذلك الميزان الذي اخترعه البشر قبل أن يبلغ به العلم ما بلغ».

الجواب: هذا كلام غير سائغ فمن قال: إن الميزان يستعمله الله استعمالاً؟! ليلزم أن يختار الميزان الدقيق الحديث على الميزان الخشن القديم! كلا، بل هذا الوزن إنما يكون لإقامة الحُجَّة على الخلق، وإظهار كمال العَدْل وانتفاء الظلم بالكلية، ومثلُ هذا يحصل بأيِّ ميزان، ثم إن ميزان القيامة لا يُقاس بميزان الدنيا، فهو وإن كان وافقها في الصورة الظاهرة من كونه له لسان وكفتان، إلا أنه يخالفها في الحقيقة، فلا ميزان أدقَّ من ميزان ذلك اليوم، ولا ميزان أحسَنَ منه.

اختلاف العلماء في الموزون:

* وقال نقلاً عن الشيخ محمد عبده أيضاً: «على أنَّ الموزون هنا مَعَانٍ ومعقولات، فما وَجْهُ احتياجها لكفّة بوسع الأرض والسماوات؟ وإنما ذلك قولُ مَنْ لا يعرف قيمة الإيمان بالغيب».

قلت: اختلف العلماء في الموزون ما هو؟ على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الموزون الأعمال نفسها، وذلك بأن تُجسَّمَ ثم تُوضَعَ في الميزان، وهذا القولُ له أدلة كثيرة من صحيح السنة، منها حديث «كلمتان خفيفتان ...»، وقد رواه البخاري ومسلم[١]، وتقدَّم لفظُه قريباً.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

الثاني: أن الذي يُوزَنُ هو العاملُ نفسه، فيَثقُل الإنسان في الميزان أو يخفّ، بمقدار إيمانه وعمله، لا لضخامة جسمه، ولهذا القول أدلته، منها حديثُ الرجل السمين، وقد رواه البخاري ومسلم(١)، وتقدَّم لفظُه أيضاً.

الثالث: أن الذي يُوزن إنما هو صحائف الأعمال، ودليلُ هذا القول: حديثُ البطاقة الذي رواه أحمد والترمذي(٢)، وتقدَّم لفظُه قريباً.

ومال إلى كُلِّ قول من هذه الأقوال جماعةٌ من أهل العلم، ولا مانعَ من القول بمقتضى الأدلة كلها، فنثبت الوزن للثلاثة كما دلّت عليه النصوص.

وهذه الأقوالُ وأدلتُها تُبطِلُ دَعْوى المؤلف أن الموزونَ معانٍ ومعقولاتٌ لا تحتاجُ لوزن.

* قال نقلاً عن الشيخ محمد عبده: «فعليك ـ أيُّها المؤمن المطمئن ـ أنْ تُوقِنَ أنَّ الله تعالى يَزِنُ الأعمال، ويميِّز لكلِّ عمل مقداره، ولا تَسَلْ كيف يزن؟ ولا كيف يقدِّر؟ فهو أعلم بغيبه. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾».

قلت: نعم، ونحن ـ معشر أهل السنة والجماعة ـ مع إثباتنا للميزان الحقيقي ذي اللسان والكفتين، لا نسأل: كيف يزن الله فيه الأعمال، ونكِلُ عِلمَ الغيب إلى الله تعالى، فلا أرجحيَّة لأحد في الإيمان بالغيب علينا، والحمد لله رب العالمين.

موقف أخذ الكتب يوم القيامة

أخذ الكتب يوم القيامة حقيقة لا كناية:

* قال في تفسير الآية (٧١) من سورة الإسراء: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ

---

(١) رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٢) رواه أحمدُ في «مسنده» (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩).

فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾: «أي: كتابَ عمله، وأخذُه باليمين كنايةٌ عن أنه حاوٍ لأعمال الخير ومُسْتوجب للسعادة والهناء».

قلت: بل أخذُه باليمين حقيقة لا كناية، يعني: يتلقاه بيده اليمنى، والـمُراد: أن الله عز وجلّ يُقدِرُه على تلقِّيه باليمين ليكون علامةً على نجاته وفوزه، بخلاف من لا يُقدِرُه الله على ذلك فيتلقاه بشماله أو من وراء ظهره، ولا حاجة للمصير إلى الكناية ما دام الحملُ على الحقيقة ممكناً سائغاً.

كتاب إحصاء الأعمال:

* قال الشيخ رشيد الخطيب في تفسير الآية (٦٢) من سورة المؤمنون: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾: «أي: إحصاءٌ للأعمال».

الأَوْلى أن يُقال: «كتابٌ فيه إحصاء الأعمال»، والفرق بين العبارتين: أن الأولى لا تتضمن إثبات كتاب حقيقي تُسجَّل فيه الأعمال وتُكتَب، وإنما المراد بالكتاب: الإحصاء، فيكون المعنى مجازياً، أما الثانية ففيها إثبات هذا الكتاب على وجه الحقيقة، وأن الإحصاء هو أثر من آثاره، وهذا المعنى هو الموافق للأحاديث النبويَّة الصحيحة.

رؤية الأعمال يوم القيامة:

* قال في تفسير الآية (١٠) من سورة التكوير: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾: «يعني: صُحُف الأعمال، قال الأستاذ الإمام: والذي يجب علينا اعتقاده أنَّ أعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبيَّنَةً، ويعبَّر عن مثل ذلك الثبوت بنشر الصحف للأعمال».

الجواب: يوم القيامة يُواجَه الإنسان بعمله، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، فيتذكَّر كلُّ واحد ما قام

به من عمل، من خير أو شرٍّ، من طاعة أو معصية، من عدل أو ظلم، حيثُ يجدُ عملَه أمامه؛ يشاهده بنفسه، ويراه بعيني رأسه: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

ويُشاهِدُه أيضاً في صحيفة أعماله، التي كتبها الكاتبون طولَ عُمُرِه، له أو عليه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وهناك يُقالُ لكلِّ إنسان: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وهذه الآياتُ كلُّها تؤكِّد بقوَّة وجلاء: أنَّ الإنسان في الآخرة يرى عملَه الذي عَمِلَه، وسعيَه الذي سعاه، وقولَه الذي قاله، يراه نفسَه، لا أنه يرى جزاءه أو ثوابَه أو عقابَه فقط، فهذا تأويل للآيات لا يُقبَل.

ونحن اليومَ نشاهد: أنَّ الإنسان يمكنه أن يُواجَه بقوله وعَمَلِه مُسجَّلاً، يراه بعينَيه، ويسمعُ صوتَه بأذنَيه، عن طريق عَرْض الأشرطة المُسجَّلة عليه، فلا يُستَبعَدُ على الله جلَّ وعلا: أن يُسجِّلَ على الإنسان أقواله وأعماله؛ ليراها ويشاهدها ويسمعَها ويُعاينَها بنفسه، لتكون شاهداً له أو عليه.

* قال في تفسير الآية (٦) من سورة الزلزلة: ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾: «أي: أجْزِيَةَ أعمالهم، خيراً كان أو شراً».

قلت: بل يرى الإنسان عملَه يوم القيامة، ويترتَّبُ على ذلك أيضاً أن يرى جزاءَه، ويُنظر كما تقدَّم في تفسير الآية (١٠) من سورة التكوير.

موقف الحساب

تأويله سرعة الحساب يوم القيامة بإدراك الناس له:

* قال في تفسير الآية (٤١) من سورة الرعد في معنى سرعة الحساب: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: «وأما سُرعة الحساب يوم الحساب، فذلك بإدراك الناس كلِّهم دفعة واحدة لأعمالهم، بحيث يُدرِك كلُّ واحد منهم ما عمل من خير أو شر، فيعلم ما له وما عليه، وما يستحقُّ علىٰ كلِّ عمل من نعيم أو عقاب. والله أعلم». وكرر هذا المعنى في السورة نفسها في تفسير الآية (٥١): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

قلت: ينبغي أن يُفسَّر «الحساب» بمعنى أزيد من إدراك الإنسان لعمله وما له وما عليه، فالأب إذا أوقَفَ ابنه على أعماله وعرضها له لا يُقال عنه: إنه حاسبه، وإنما يُقال ذلك فيما إذا أتبع هذا العَرْض بالمعاتبة أو التوبيخ أو التأنيب أو العقوبة.

وعليه، فسرعة الحساب تكون بإدراك الناس كلِّهم دفعة واحدة لأعمالهم، مع بيان ما يترتَّب لكل واحد منهم على عمله من مثوبة أو عقوبة، مع تفصيل ما سُتر عليه منها، وما غُفر له، وما شفع له فيه شافع، ونحو ذلك، والله أعلم.

* وقال في تفسير الآية (٣٩) من سورة النور: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: «تكون سرعة الحساب يوم القيامة بإدراك كلِّ واحد عمله من خير أو شر في لحظة واحدة، وما يستحقُّ من نعيم أو عقاب، وبما أن الروح تتكيَّف كيفيةً خاصَّة بالأعمال من خير أو شر، فيجوز أن تكون تلك الكيفيَّة تُغني عن النقاش في الحساب».

قلت: ليس الحساب هو الإدراك، بل هو الإدراك مع المناقشة والمعاتبة والسؤال والجواب، ففيه طرفان ولا بُدَّ؛ مُحاسِبٌ ومُحاسَب.

وهذا ليس بصحيح، لما فيه من خروج عن لغة العرب، لأن العرب لا تفهم من «الحساب» هذا المعنى بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز.

* ثم قال: «ويجوز أن يكون هذا أيضاً هو معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]. والله أعلم».

وهذا أيضاً ليس بصحيح، لأنه تأويل شديد التكلُّف، وفيه مخالفة لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

* وقال في تفسير الآية (١٧) من سورة المؤمن: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: «أقول: ويكون ذلك ـ والله أعلم ـ بإدراكهم لأعمالهم وظهورها عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٤٨]، فيُدرِك كلُّ واحد جميعَ أعماله من خير أو شرّ، ويعلم ما له وما عليه، وما يستحقُّ على كلِّ عمل من نعيم أو عقاب.

وهذا معنى ما وَرَد عنه ﷺ: «إن الله تعالى يحاسب جميع الخلائق في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا»، وورد: «في قدر فواق ناقة»، وورد: «بمقدار لمح البصر». ويؤيِّد هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٣٩ ـ ٤١]».

الجواب: إن إدراك العباد لأعمالهم في صحف الأعمال أو الكتب، وشهادة الأعضاء على صاحبها، وتمييز المجرمين من المؤمنين بسيماهم: كلُّ ذلك تمهيدٌ للحساب، وليس هو الحساب نفسه، فالحساب فيه معنى المساءلة والمناقشة، ولذلك ورد في السنة

الصحيحة ما يُبيِّن أن ذلك يكون بمحاورة بين العبد وربه، سواء قلنا: إنها حوار مباشر بلا واسطة، أو قلنا: بواسطة الملائكة، كحديث البطاقة، وحديث: «سترتُها عليك في الدنيا...» وقد رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما[1]، وحديث الثلاثة الذين هم أولُ مَنْ تُسعَّر بهم النار، إلى غير ذلك من أحاديث كثيرة، يدلُّ مجموعِها على إثبات الحساب بهذه الكيفيَّة.

ليس الحساب يوم القيامة مجرَّد الإدراك:

* وقال في تفسير الآية (١٤) من سورة القيامة: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾: «ومحصَّل ذلك ـ والله أعلم ـ أنه يُشعر بكلِّ ما صَدَر عنه من خير أو شر، ويعلم بنفسه درجةَ استحقاقه للثواب أو للعقاب، وهذا هو معنى ما جاء في الأثر من أنَّ الحساب يكون في لمح البصر، فيدرك الكافر استِحقاقَه للعقاب».

الجواب: ليس الحساب هو إدراك العبد لعمله وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب، بل هذا الإدراك جزء منه، والحساب أعمُّ من ذلك، لأنه يتضمَّن الملامة والتقريع أو الستر أو العفو، كما يتضمن مناقشة ومحاورة، مع بيان الأعذار من عدمها، ونحو ذلك.

* وقال في تفسير الآية (٣٥) من سورة النازعات: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾: «أي: يتذكَّر كلُّ أحد ما عمله من خير أو شر لينال جزاءَه، وهذا هو معنى حساب الخلائق جميعهم في لمحة البصر».

قلت: بل الحساب أمرٌ أعمُّ من هذا الإدراك والتذكُّر، وما الإدراك والتذكُّر إلا تمهيد للحساب ومقدمة له، كما تقدَّم التنبيه عليه في مواضع من هذا التفسير.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

شهادة الأعضاء ونطق الجلود يوم القيامة:

* قال في تفسير الآية (٢٠) من سورة فصِّلت: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: «أما صورة الشهادة، فإما أن يُنطِقَها الله تعالى، وإما أن يَظهَرَ عليها آثارُ ما اقْترفوا بها».

قلت: بل الأول هو المتعيِّـن، لقوله تعالى بعده: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾.

* وقال في تفسير الآية (٢١) من سورة فصِّلت: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾: «وأراد بالإنطاق: ما فيه من آثار الله العظيمة وقدرته البالغة، والله أعلم، تلك الآثار الشاهدة على وجود الله سبحانه وصفاته العليَّة واختصاصه بالألوهيَّة والوحدانيَّة».

قلت: بل هو نطق صريح لكلِّ ما سبق أن عملوه بتلك الجلود في الحياة الدنيا، مُسجّل في باطن تلك الخلايا.

* ثم قال: «فالآية ترمز ـ والله أعلم ـ إلى أنه سبحانه يدلُّ على ألوهيَّته ووحدانيَّته كلُّ شيء في هذا الكون بما أبدع فيه من عجائب».

قال العلامة الألوسي في «روح المعاني»[(١)]: الظاهر أن التكلم والشهادة بنطق حقيقة، وذلك بعد إعطاء الله الأعضاء حياةً وعلماً وقدرة، ويحتمل أن يكون حصوله في الدنيا بأن تكون الأعضاء قد خلق الله فيها الإدراك، فهي تدرك الأفعال كما يدركها الفاعل، فإن كان يوم القيامة ردَّ الله لها ما كان، وجعلها مستحضرة لِـمَا عمله أولاً، وأنطقها نُطقاً يفهمه المشهود عليه.

---

(١) «روح المعاني» (١٢: ٤٢-٤٣).

قال: وهذا ما قالوا من تسبيح جميع الأشياء بلسان القال، وأنَّ الله على كل شيء قدير، والعقل لا يحيل ذلك، وعلى هذا تكون الآية من مؤيِّدات القول بالتسبيح القالي للجمادات ونحوها.

وأيّاً ما كان، فالنطق على معناه الحقيقي كما هو الظاهر، وكذا الشهادة، ومن ذهب إلى المجاز في النطق ذهب إلى خلاف ظاهر الآيات والأحاديث، ولا داعي له.

هل يتعدَّد الموت والإحياء على أهل النار؟

* قال في تفسير الآية (٥٦) من سورة الدخان: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾: «أقول: ويجوز أن تكون الآية إيماءً إلى ما ينال أهل النار من تعدُّد الموت عليهم من شدَّة العذاب، وتَعدُّد إحيائهم ليذوقوا العذاب، المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، لذلك قال تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾».

قلت: لم يثبت هذا! ومن العجب أن المؤلف يتابع الشيخ محمد عبده في رفض بعض الغيبيَّات لعدم ورودها في نص متواتر، مع ورودها في خبر آحاد صحيح، وهي من فروع العقائد، ثم يأتي لقضايا عقدية أخرى كهذه، فيُثبتها بلا دليل جليٍّ عليها! وتبديل الجلود لا يدل على الإماتة والإحياء.

موقف الشفاعة يوم القيامة:

مال الشيخ رشيد الخطيب رحمه الله تعالى إلى نفي الشفاعة، ووقع في عدَّة أخطاء في تفسير الآيات المتعلقة بإثبات الشفاعة ونفيها، وقبل سياق أقواله ومناقشتها أورد كلمات حول الشفاعة.

معنى الشفاعة وأنواعها:

الشفاعة معناها (الوسيلة والطلب...)، قال الإمام أبو منصور الأزهري في «الزاهر»[١]: «أصل الشفع: الزيادة. قال الله عز وجل: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء: ٨٥]. أي: يزيد عملاً إلى عمل ... قال النبي ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[٢]، وهي للموحِّدين الذين ارتكبوا الكبائر يشفع لهم النبي ﷺ أن يغفر لهم ذنوبهم، ويزدادوا كرامة على ما استوجبوا بتوحيدهم خالقهم عزَّ وجل». انتهى.

فمعنى الشفاعة: انضمام الإنسان إلى غيره ـ بحيث يكون معه شفعاً بعد أن كان وتراً ـ ليطلب له من آخرَ أمراً يُحقِّقُ له جلبَ منفعة أو دفعَ مَضرّة.

الشفاعة المحمودة والمذمومة:

قال العلامة القَرَضاوي في رسالته: «الشفاعة يوم القيامة وموقف الدكتور مصطفى محمود: «والشفاعة نوعان: محمودة ومذمومة.

فالشفاعة المحمودة: أن يشفع الشافع لمن يستحق الشفاعة في تحقيق أمر مشروع له، وإن لم يكن حقاً له.

كما لو كان على المرء دَيْن محدّد بموعد، وجاء موعد الاستحقاق، ومِن حق الدائن أن يردّ إليه الدين، وإلا طالب بعقوبة المدين وحبسه، فإذا جاء شافع إلى الدائن، لينظرَ هذا المدين إلى ميْسرة، أو يتنازل عن جزء من ديْنه، وكان المشفوع له أهلاً لهذا التخفيف،

---

(١) «الزاهر» ص٢١٦.

(٢) تقدم تخريجه ص٢١٩.

كأن خسر في تجارته، أو أصابه سيلٌ ذَهَبَ بماله، أو جائحة اجتاحت ماله .. إلخ، فهذه شفاعة مقبولة ومحمودة.

أما لو كان رجلاً سيء السلوك، وأخذ المال وبذره في الحرام، وجاء من يشفع فيه عند الدائن، فهذه الشفاعة مذمومة ومرذولة.

وفي القرآن الكريم ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

ومن الشفاعة المذمومة: الشفاعة لإسقاط عقوبة عمَّن يَستحقّها لنسَبِه أو جاهِه أو ماله، وهو ما أنكره النبي ﷺ على حِبّه وابنِ حِبّه: أسامة بن زيد حين أرادت منه قريش أن يشفعَ عندَ الرسولِ للمرأة المخزومية التي سرقت، وقال له: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟»(١).

ومن ذلك: شفاعة بعض الكبراء لدى بعض الرؤساء والمسؤولين، لتوظيف بعض أقاربه أو محاسيبه، وتقديمهم على غيرهم ممّن هو أحقّ منهم وأولى بالمنصب، وهذه خيانة لله ولرسوله وللجماعة.

وهذه هي الصورة الشائعة والمستقرَّة في أذهان الناس، وهي أنَّ الشفاعةَ تعني: طلب الإنسان ما ليس بجائز له، بوساطة غيره.

ولعلَّ هذه الصورة هي التي دفعت بعض أهل العلم قديماً وحديثاً إلى إنكار ما ورد في الشفاعة من أحاديث، وتأويل ما جاء فيها من آيات.

العناصر التي يجب أن تتوفر في الشفاعة المقبولة:

هذا مع أنَّ الشفاعةَ المقبولة هي التي تتوافر لها عناصر ثلاثة: في الشافع، والمشفوع له، والمشفوع فيه.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

فالشافع: لا بدَّ من أن يكون مرضياً عندَ المشفوع عنده، بما لَه من منزلةٍ عندَه.

والمشفوع له: لا بد أن يكون أهلاً للشفاعة، فليس كل امرئ قابلاً لأن يشفع له.

والمشفوع فيه: لا بد أن يكون أمراً قابلاً للشفاعة، فهناك أمور لا يجوز أن تكون موضع شفاعة لأحد.

وهذه الشروط التي تعارَفَها أهلُ الخير والفضل من الناس في الدنيا، هي نفسها التي تراعى في شفاعة الآخرة.

فليست الشفاعة كلأً مباحاً، يرعاه كل مَن شاء، متى شاء، وكيف شاء، ولكنها منضبطة مقيدة بشروطها ومجالها وأهلها، وهذا ما يجب أن نؤكّده: أنَّ الشفاعةَ التي أثبتها القرآن الكريم للمذنبين يوم القيامة، وصحَّت بها أحاديث الرسول ﷺ: لا يمكن أن تكون من نوع الشفاعة المذمومة.

إذ لا بد أن تكون بعد إذن من الله تعالى، فهو مالك الشفاعة كلها، وصاحب الأمر كلّه.

ولا بد أن يكون الشافع من أهل القبول عند الله تعالى، ممَّن أَذِنَ له الرحمن ورضي له قولاً: من الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين.

ولا بد أن يكون المشفوع له ممَّن ارتضاه الله في الجملة، وليس من أهل الجحود أو الشرك بالله تعالى.

ولا بد أن يكون الأمر المشفوع فيه، ممَّا يدخل في دائرة الشفاعة، وهذا معروف بطبيعة الحال، إذ لا يتصور من الملائكة أو النبيين أو الصدِّيقين والشهداء والصالحين: أن يطلبوا من الله سبحانه ما لا يليق أن يطلب منه». انتهى.

أنواع الشفاعة المحمديَّة:

شفاعتــه ﷺ أنواع؛ منـها: ما كان لإراحة الناس من هَـوْل الموقف الأعظم، وتعجيل الحساب للفَصْل بين العباد، وهي خاصة بالنبي ﷺ، وتكون بعد الاستئذان على ربِّه عزَّ وجلَّ، وهي الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها الأنبياء والرسل بعد أن يأتيهم أهل الموقف يستشفعون بهم إلى ربهم ليُريحهم من ذلك الموقف، فيقول كلٌّ واحد منهم: «إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، نفسي نفسي ...» فإذا أذِنَ له خرَّ ساجداً، فيحمد الله تعالى بأحسن المحامد، ويثني عليه بأحسن الثناء...، فيقال له: «يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمَع لك، وسَل تُعطه، واشفع تُشَفَّع».

جاء ذلك في حديث الشفاعة الطويل في «الصحيحين» وغيرهما[١].

وهناك شفاعات أخرى، منها: الشفاعة في قوم يدخلون الجنة بغير حساب، ومنها: الشفاعة في رفع درجات أهل الجنة، لقوله ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة»[٢].

ومنها: الشفاعة في عصاة الموحدين، فمنهم قوم استوجبوا النار، فيشفع فيهم نبيُّنا ﷺ ومن شاء الله تعالى، فلا يدخلوها، ومنـهم من دخلوها بذنوبهم فيخرجون منها بالشفاعة.

وقد ثبت في «صحيح البخاري»[٣]: أن المؤمنين الذين اجتـازوا الصراط يقفون يجادلون في إخوانهم الذين دخلوا النار، فيقولون: «ربنا إخواننا كانوا يُصلّون معنا

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه أيضاً: الترمذي (٢٤٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢٢٢)، وهو عند أحمد في «المسند» (٩٦٢٣).

(٢) رواه مسلم (١٩٦).

(٣) رواه البخاري (٧٤٣٩).

ويصومون ويعملون معنا»، فيقول لهم: «أخرِجوا مَن عرفتُم»، فيخرجون خلقاً كثيراً، منهم مَن قد أخذَتْه النارُ إلى نصفِ ساقَيه وإلى رُكبَتَيه، ثم يقولون: «ربنا ما بقي فيها أحد ممّا أمرتنا به»، فيقول: «ارجعوا فمَن وجدتُم في قلبِه مثقال دينار من خير فأخرِجوه»، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: «ربنا لم نَذَرْ فيها ممَّن أمرتنا أحداً»، ثم يقول: «ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرِجوه»، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: «ربنا لم نَذَرْ فيها خيراً»، فيقول الله عز وجل: «شفعَت الملائكة وشفعَ النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضةً من النار، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط...» أي: معَ إتيانِهم بأصلِ التوحيدِ وأركانِه.

قال الحافظ في «الفتح»: «وأما الشفاعة العظمى في الإراحة من كرب الموقف، فأسعدُ الناس بها مَن يَسبق إلى الجنة وهم الذين يدخلونها بغير حساب، ثم الذين يلونَهم وهو مَن يدخلُها بغير عذاب بعد أن يحاسب ويستحقَّ العذابَ، ثم مَن يُصيبه لَفْحٌ من النار»(١). انتهى.

فللرسول ﷺ شفاعة عامَّة، وهي شفاعتُه العظمى، وشفاعة خاصَّة، وهي على قسمين: شفاعتُه لأُمَّتِه، وشفاعته لآحاد الناس، أما شفاعتُه العظمى فهي المقام المحمود الذي ورد في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩] وذلك حين يبلغ الكربُ والغمُّ بأهل المحشر ما لا يطيقون، فيقول بعضهم: ألا تنظرون من يشفع لكم عند ربكم، فيأتون آدم فيعتذر، وهكذا نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، حتى يأتون إلى نبينا محمد ﷺ، فيشفع لجميع الناس، أوّلِهم وآخرِهم، وبَرِّهم وفاجرِهم، ليخرجوا من ذلك الكرب والهول، إلى عرض الأعمال على الله والمحاسبة، كما في

---

(١) «فتح الباري» (١١: ٤٤٣).

«الصحيحين» من حديث أبي هريرة[١]، فشفاعته العظمى ليست مقصورة على المؤمنين، ولا على أُمّته.

أما شفاعته الخاصة لأمّته فهي نائلةٌ كلَّ مَن مات من أمّته لا يُشرِك بالله شيئاً، ففي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجَّلَ كلُّ نبي دعوتَه، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعة لأمّتي يوم القيامة، فهي نائلة ـ إن شاء الله تعالى ـ مَن مات من أمّتي لا يشرك بالله شيئاً»[٢].

والشفاعة ثابتة للأنبياء والرسل والملائكة والشهداء والصالحين على اختلاف مراتبهم عند الله تعالى، والأدلة على ذلك كثيرة، منها: ما في «مسند الإمام أحمد»[٣]: «ليدخلنَّ الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثلُ الحيَّين ـ أو مثلُ أحد الحيَّين ـ ربيعة ومضر» عن أبي أمامة رضي الله عنه، وهذا القَدْر من هذا الحديث صحيح بطرقه وشواهده.

ومنها: ما ثبت في «سنن أبي داود»[٤] من أن «الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته» عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

عدم تفريقه بين المغفرة المجزوم بها والمغفرة المرجوَّة الموكولة إلى مشيئة الله تعالى:

* ذكر الشيخ رشيد الخطيب رحمه الله تعالى في مقدِّمات التفسير، في لاحقة المقدمة الثانية: تفسير بعض آيات تتكرَّر أمثالُها في القرآن، أو هي من الآيات المُهمَّة البيان، التي تحتاج في التفسير إلى زيادة توضيح وإتقان في تفسير قولِه تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٩).

(٣) «مسند الإمام أحمد» (٢٢٢١٥).

(٤) «سنن أبي داود» (٢٥٢٢).

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]: «إن مشيئته سبحانه لا تجري إلا بالحقِّ والعدلِ الدقيق، وفي سُننٍ مطَّردة قد شاءها سبحانه وتعالى، وأرسل بها الرسل، وأنزل بها الكتب، وهي تعذيبُ مَنْ يستحقُّ التعذيبَ والشقاءَ ممَّن أفسد فطرتَه ودسَّاها؛ وهو الكافر والعاصي، وغفرانُ هَفَوات مَنْ حافظ على سلامتها وزكَّاها؛ وهو المؤمن الطائع، وإنَّ لكُلِّ نفسٍ ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولا يُجْزَون إلا بما كانوا يعملون، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]، فهذا هو القانون الأساسي. والله أعلم».

قلت: ينبغي هنا التفرقة بين المغفرة المجزوم بها والمغفرة المرجوّة، فما ذكره المؤلف من جريان أمر المغفرة على قانون ونظام: هو في المغفرة المجزوم بها، حيث وعد الله سبحانه من تاب مثلاً أن يغفر له، فهذا نظام مطَّرد لكل مَن يتوب عن ذنبه، أما المغفرة المرجوّة فهي الموكولة إلى مشيئة الله، وحَصْرها بسُنّة وقانون لا دليل عليه، بل هو تحجير لرحمة الله، فتبقى ممكنة من غير جزم بثبوتها أو نفيها في الآحاد، وإن كانت ثابتة في الجملة، ويدل عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، لكنْ على العبد أن لا يركن إلى هذه المغفرة، لأنها محتملة، بل يعمل على تحصيل المغفرة المجزوم بها بتحصيل شروطها وأسبابها، والله أعلم.

قال العلامة القرضاوي في رسالته «الشفاعة يوم القيامة»: «أثبت أهل السنة والجماعة أن عصاة المؤمنين ـ وهم من أهل الكبائر ـ من يدخلون النار، كما دلَّت على ذلك آيات القرآن، وأحاديث الرسول المستفيضة.

ولكن هؤلاء العصاة إذا ماتوا على التوحيد سيخرجون يوماً من النار، إذ ينفعهم إيمانُهم بالله ورسوله واليوم الآخر، فبعد أن يمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا، يشفع فيهم

مَن أَذِنَ الله بشفاعتِه من الملائكة أو من الأنبياء أو من الصالحين، أو بفضله جلّ جلاله ورحمته، كما صحَّ في الحديث أنه تعالى يقول: بقيت شفاعتي، فيخرج من النار قوماً قد امتحشوا[١] (أي أحرقوا).

وقال أيضاً: «إن شفاعة الشافعين في يوم الحساب ـ بعد أن تنصب الموازين، وتنشر الدواوين، وتكشف الأوراق، وتقرأ الكتب ـ أشبه بوضع (لجان الرأفة) في امتحانات الشهادات في الدنيا، إنَّ المقاييس التي وضعت للنجاح والرسوب محكمة في الجميع، ويحاسب كل ممتحن على الدرجة، ونصف الدرجة، ولكن هناك من تستحق ورقته أن تعرض على (لجنة الرأفة) حيث يكون قريباً من النجاح وإن لم يستحقه بموجب العدل الصارم، بل بموجب الرحمة، فهذا يقرب لنا مبدأ الشفاعة، فهي ليست لعتاة المجرمين، وطغاة الظالمين، فهؤلاء لا يقبل نبي ولا صدّيق أن يشفع لهم، إنما يشفعون للمقاربين، ممن ضعف عزمه، وزلت قدمه، ولم تسعفه التوبة».

علم الله تعالى بأحوال المشفوع لا ينافي وقوع الشفاعة يوم القيامة:

* وقال في مقدِّمة التفسير: «ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١٠٩ – ١١٠]، والجملةُ الثانية تعليلٌ للأولى، ومفادها: أنَّ الشفيعَ يَكشِفُ للمشفوع منه أحوالَ المشفوع له ليرقَّ عليه ويعطف، والله تعالى غنيٌّ عن ذلك مُطَّلعٌ على كلِّ شيء، فلم يبقَ من معنى الشفاعة ـ على القول بها ـ إلا الدعاء من الله سبحانه وتعالى، والتوسُّل إليه أن يعفو ويصفح، ولا يقبل ذلك ويأذن به إلا لمن رَضِيَ له قولاً وعقيدة، وكان له هفوات، فيصفح عن تلك الهفوات».

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قلت: علم الله تعالى بأحوال المشفوع لا ينافي وقوع الشفاعة يوم القيامة، وأما قول المؤلف: إن الشفاعة مجرَّد الدعاء، لا يجوز أن يفهم منه التـقليلُ من شأن الدعاء والتوسُّل إلى الله تعالى، وأيُّ شيء أفضل من دعاء الله تعالى والتوسُّل إليه؟ فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»[١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، وشفاعة النبي ﷺ لا تكون إلا بالدعاء والتضرُّع إلى الله تعالى والتوسُّل إليه.

شفاعته ﷺ للمذنبين:

* قال في مقدِّمات التفسير: «نعم، وَرَدَ أنَّ رسول الله ﷺ يشفع للمُذنبين[٢]، فإنْ صدق هذا الحديث[٣]، فلن يشفع إلا لمن يأذن الله له بالشفاعة لهم ممَّن يستحقُّون العفو، على مقتضى العدل الإلهي، بدليل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] الآية.

---

(١) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨) عن النعمـان بن بشير رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) شفاعته ﷺ للمذنبين ثابتة، وأحاديثها متواترة.

(٣) روى أحمد (١٣٢٢٢)، وأبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥) وقال: حسن صحيح غريب، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».
وروى مسلم (١٨٣) عن أبي سعيد الخدري حديثاً طويلاً فيه ذِكرُ عدّة شفاعات للمذنبين، وفيه أن الله تعالى يقول: «شفعت الملائكة، وشفع النبيُّون، وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيُخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط...». والأحاديث في هذا الباب كثيرة متواترة، لا يقال في مثلها: «إن صدق الحديث».

قوله: «ممَّن يستحقون العفو» قد يُحمَل على غير الكافر، فيكون صواباً، لأن الله أخبر أنه ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، وأن الكافرين لا تنفعهم شفاعة الشافعين، وقد يُحمَل على مَن يستحقُّ العفو من عصاة المؤمنين، فلا يكون صحيحاً، لأن الشفاعة ـ أو بعض أنواعها على الأقل ـ هي لمن يستحق التعذيب، لا لـمن يستحق العفو، كما ورد في الحديث: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»(١).

* ثم قال: «وعليه، فروح الحق هو ما قاله رسول الله ﷺ لابنته: «اعملي يا فاطمة، فإني لا أُغني عنك من الله شيئاً»(٢).

وما جاء في القرآن من القانون الأساسي، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]».

قلت: الشفاعة لمن مات على التوحيد ثابتة إذا حصلت شروطها الثلاثة، وهي: رضاء الله عن الشافع، ورضاه عن المشفوع له، وإذن الله للشافع أن يشفع، قال الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

وأما الكفار فهم مخلَّدون في النار، إلا أنه قد يخفَّف العذاب عن بعضهم، كما في شفاعته ﷺ لعمِّه أبي طالب، ففي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري: أنه سمع النبي ﷺ وذُكِرَ عنده عمُّه فقال: «لعلَّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعَل في ضَحْضاح من النار يبلغ كعبيه، يَغلي منه دماغه»(٣).

---

(١) تقدم تخريجه ص٢١٩.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ويدل لدخول جميع الـمُوحِّدين في الشفاعة ما في «الصحيحين»[١] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «لكلِّ نبي دعوةٌ مستجابة، فـتعجّل كلُّ نبي دعوته، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة ـ إن شاء الله تعالى ـ من مات من أمتي لا يشـرك بالله شيئاً»، وقال النبي ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[٢].

أما الكفار فهم مخلدون في النار، كما يدل له قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]، وأما من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان فإنه يخرج من النار إن دخلها كما يدل له عموم الأحاديث.

والمؤلف في كلامه عن القانون الأساسي في المحكمة الربَّانيَّة يغلب جانب العدل وينسى جانب الرحمة والفضل.

قال العلامة القرضاوي في رسالـته: «الشفاعة يوم القيامة»: «إن العقل المسلم البصير إذا تأمَّل في قضية الشفاعة، يجد الحكمة فيها واضحة كل الوضوح، كالشمس لا يغشاها سحاب ولا ضباب، فإن الله تعالى لا يتعامل مع عباده بالعدل وحده، بل بالعدل والفضل والرحمة معاً، وهذا في الدنيا وفي الآخرة.

ولو عاملنا الله تعالى بعدله وحده في الدنيا، لأهلك من في الأرض جميعاً، كمـا قـال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٩) واللفظ له.

(٢) تقدم تخريجه ص٢١٩.

دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

فهو يذيقهم بعض الذي عملوا، لا كل الذي عملوا، وهو لا يفعل ذلك انتقاماً، ولكن لعلهم يرجعون.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فلولا عفوه عن كثير من ظلمنا لأنفسنا لأهلكنا بعدلِه. ومثل ذلك في أمر الآخرة، بل هو أوضح وأجلى.

فالله تعالى يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

فنجد التعامل مع السيِّئة بالعدل، ومع الحسنة بالفضل.

وإن الله تعالى قد دعا عباده ألا يكتفوا في التعامل بينهم بقانون العدل وحده، وإن كان هذا من حقِّهم، بل ينبغي أن يرتقوا إلى قانون الفضل، وهو أفضل وأمثل، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

فإذا كان ربنا عز وجل قد ندبنا إلى أن نرتقي، فنتعامل فيما بيننا بالفضل، فكيف لا يفعل هو ذلك، وهو القادر عليه، وهو أهل لكل فضل وكمال؟

إن الشفاعة إنما هي تكريم من الله تعالى شأنه لعباده المؤمنين: من الملائكة والأنبياء والصالحين، وأي غرابة في أن يكرم الله بعض عباده، فيمنحهم حق الشفاعة في بعض عباده، والملك ملكه والخلق خلقه؟

وأي غرابة في أن يشفع عليه الصلاة والسلام لأهل الكبائر من أمته؟

وأي غرابة في أن يشفع بعض الربَّانيين من أُمّته في بعض العصاة الذين ماتوا على التوحيد؟

وأي غرابة في أن يشفع الشهداء من أُمّته لعدد كذا وكذا من أهلهم وأقاربهم، مكافأة لهم على استشهادهم وبذلهم لأرواحهم في سبيل الله؟

إن العقل المؤمن لا يستغرب ذلك، ولا يستبعده، بل يجده ـ عند التدبر ـ مقتضى الكمال الإلهي الأعلى، ومقتضى الرحمة التي وسعت كل شيء، ومقتضى الفضل الإلهي الذي يعطي من يشاء بغير حساب». انتهى.

مَيْله إلى مذهب المعتزلة في الشفاعة:

* نقل الشيخ رشيد الخطيب رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة الآية رقم (٤٨): ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ عن الشيخ محمد عبده: «وقال الأستاذ الإمام: إنه نفيٌ عام، فما وَرَدَ في إثبات الشفاعة يكون على هذا من المتشابهات، وفيه يقضي مذهبُ السلف بالتفويض والتسليم، وإنها مزيَّة يختص الله بها من يشاء، وأما في مذهب الخلف فهي دعاءٌ يستجيبه الله تعالى لمن يُريدُ فيمن يُريدُ من أهل الاستحقاق».

والجواب: في جَعْل النفي عاماً، والقول بأن الآية من المتشابهات، وتقييد الشفاعة بأهل الاستحقاق: مَيْلٌ إلى مذهب المعتزلة، والذي عليه أهل السنة والجماعة: أن النفي المذكور في هذه الآية هو مقتضى العدل، أما الشفاعة فمَحْضُ فضل، يُكرمُ الله به من يشاء من عباده لمن يشاء دون استحقاق، فلا يتعارضان.

وقال شيخنا العلامة يوسف القرضاوي في رسالته: «الشفاعة يوم القيامة»: «مَن قرأ القرآن وجد أن هناك شفاعتين: شفاعة منفيَّة، وشفاعة مثبتة وهذه غير تلك.

فالشفاعة المنفيَّة هي (الشفاعة الشركيَّة) التي كان يعتقدها الوثنيون المشركون: أن آلهتهم ستشفع لهم عند الله، وأن الله سيستجيب لها حتماً، كما قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

فهم يحسبون أن آلهتهم لها من السلطة والتأثير، ما يجعل الله تعالى يفسخ إرادته، ويغير حكمه بالنسبة إليهم.

ومثلهم اليهود والنصارى من محرّفة أهل الكتاب الذين اعتقدوا أن لأنبيائهم وأحبارهم ورهبانهم من التأثير على الإرادة الإلهية، مثل ما اعتقده المشركون في آلهتهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة: ١٨].

وهذه الشفاعة هي التي جاء فيها النفي في مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ٤٨].

وهناك شفاعة مثبتة، وهي الشفاعة المشروطة المقيدة بإذن الله تعالى، وهي مقيدة بالنسبة للشافعين وللمشفوع لهم وللمشفوع فيه أيضاً».

إنكار المؤلف الشفاعة في أهل الكبائر:

* قال في تفسير الآية (١١٦) من سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾: «ومشيئتُه سبحانه إنما تجري بحسب سنَّته وحكمته،

وقد جرت سنَّته بأن يغفر للمؤمن من الصغائر واللَّمَم بما يفعله من حسنات، كما جاء في الأثر: إنَّ الصلاة تمحو ما بينها وبين سابقتها ممَّا يصدر عن المصلِّي من لمم وهفوات، وكذلك الحج والصيام، أما ما فوق ذلك، فقد جرت سنَّته تعالىٰ بألَّا يغفر الذنوب إذا لم يَمْحُها صاحبها بالتوبة المتبوعة بالحسنات والأعمال الصالحات، التي تُزيل آثارها من نفسه».

قلت: هذا مَيْلٌ من المؤلف رحمه الله إلى مذهب المعتزلة في هذه المسألة، وفيه عدولٌ عن ظاهر لفظ الآية، فقد وعد الله تعالى بغفران الصغائر، فنقول به، أما الكبائر فقد توعَّد عليها بالعقاب من جهة، فصار هذا العقاب مُستَحَقاً لصاحبها ما لم يتب، لكنه داخل في عموم آيات الرحمة والمغفرة فيُرجى له ذلك، وعليه فيكون صاحب الكبيرة تحت المشيئة، وهو ظاهر لفظ الآية.

والشفاعة للعصاة والمذنبين من أهل التوحيد، الذين ماتوا على الإيمان، ولكنهم اقترفوا بعض الكبائر في الدنيا، ولم يتوبوا منها، وهذه الشفاعة جعلها الله تعالى للملائكة والأنبياء والصِّدِّيقين والشهداء والصَّالحين، وهي التي نازع فيها المعتزلة، وردُّوا ما صحَّ فيها من أحاديث، وأوّلوا ما جاء فيها من آيات بأنها للطائعين والتائبين: زيادة في المثوبات، ورفع للدرجات، وهو تكلّف مخالف للمتبادر من النصوص.

قال شيخنا القرضاوي في رسالته «الشفاعة»: «إننا لو لم نجوّز خروج العصاة من أهل الإيمان من النار، لسوَّينا بين التوحيد والشرك، وبين الإيمان والكفر في النتيجة، مع أن القرآن الكريم فرق بينهما تفريقاً حاسماً، فقال تعالى في آيتين من كتابه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، فنفى مغفرة الشرك بإطلاق، وجعل ما دونه من الذنوب بمشيئته تعالى.

كما أن القرآن جعل حسنات الكفار مهدرة في الآخرة، بحيث لا يستحقون عليها دخول الجنة، لأنها فقدت أساس القبول، وهو الإيمان بالله وحده.

والذين يخرجون من النار، ليدخلوا الجنة من الموحدين، لا يخرجون من النار بالشفاعة وحدها، فمنهم من يخرج باستيفاء مدة الاستحقاق، ومنهم: من يخرج بشفاعة الشافعين، ومنهم: من يخرج بفضل الله تعالى وعفوه ورحمته؛ فلا وجه لإنكار خروج من استوفى جزاءه، ولا لمن لطف الله تعالى به، ومنَّ عليه بعفوه، فهو العفو الغفور، وقد جاء في الحديث القدسي الصحيح عن الله تعالى: «إن رحمتي سبقت غضبي»[1].

الشفاعة لمن ارتضى الله أن يكون مشفوعاً له:

* وقال في تفسير الآية (٣) من سورة يونس: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ﴾: «وثبت أنَّ هؤلاء المأذونَ لهم بالشفاعة لا يشفعون إلا لمن كان الله تعالىٰ راضياً عنه بإيمانه وعمله الصالح وله هفوات، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا ﴾ [الزمر: ٤٤].

قلت: أي: لا يشفعون إلا لمن ارتضىٰ إيمانه وعمله الصالح، فيُشفَع له في هفواته كما قال، لكنْ فُسِّرت الآية بـ: إلا لمن ارتضىٰ أن يكون مشفوعاً له، فتكون أعم، وتشمل الشفاعة أيضاً أصحاب الكبائر، ولو بعد حين من العذاب، ويبقىٰ شمولها للكافر ممتنعاً بقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨]، وهو مذهب أهل السنة، خلافاً للمعتزلة، وسيأتي معنى قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا ﴾ [الزمر: ٤٤] وعدم صحة استدلال المؤلف بهذه الآية على مذهبه في نفي الشفاعة لأهل الكبائر من العصاة الموحدين.

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٤٢٢).

* وقال في تفسير الآية (٣١) من سورة الرعد: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾: «فالآية حثٌّ علىٰ العمل الصالح قبل مجيء يوم الحساب الذي لا تنفع فيه الفِدْيةُ ولا شفاعةُ الشافعين، وإنما هو مقرونٌ بعمل الإنسان بما أرسله إليه سبحانه من التعاليم».

قلت: لا تنفع شفاعة إلا من أذن الله له، كما قال سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. ولا تعارُضَ بين هذه الآيات التي تثبت الشفاعة وبين الآيات التي يُستدلُّ بها على نفي الشفاعة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: ٤٨]، ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قال ابن جُزَيّ في «التَّسهيل»[1]: «حيث ما كان الكلام في سياق أهوال القيامة، والتخويف منها، نُفيت الشفاعة على الإطلاق مبالغة في التهويل، وحيث ما كان سياق الكلام في تعظيم الله نُفيت الشفاعة إلا بإذنه».

وقال ابن جزَيّ في «التسهيل»[2] أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: ٤٨]: «ليس نفي الشفاعة مطلقاً، فإن مذهب أهل الحق ثبوت الشفاعة لسيِّدنا محمد، وشفاعة الملائكة، والأنبياء، والمؤمنين، وإنما المراد أنه لا يشفع أحد إلا بعد أن يأذن الله له، لقوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]، ولقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وانظر ما ورد أن رسول الله ﷺ يستأذن في الشفاعة، فيقال له: «اشفع تشفَّع»[3].

---

(١) «التَّسهيل» لابن جزي (١: ٨٩).

(٢) المصدر السابق (١: ٤٧).

(٣) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

فكل ما ورد في القرآن من نفي للشفاعة مطلقاً يُحمل على هذا؛ لأنَّ المطلق يُحمل على المقيَّد، فليس في هذه الآيات المطلقة دليل للمعتزلة على نفي الشفاعة» انتهى.

تصريحه بنفي الشفاعة:

* قال في تفسير الآية (١٠٩) من سورة طه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾: «ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً أو محمولاً علىٰ المعنىٰ. علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] أي: لا ينجو إلا مَنْ رحم. وهكذا هنا يكون المعنىٰ: أنه لا ينجو إلا مَنْ أذِنَ له الرحمن بالانصراف عن موقف الحساب إلىٰ الجنة، ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي: وكان مَرضيَّ الأقوال والعقيدة، بمعنىٰ: أنه لا يَنْجو إلا هذا الصنف من الناس، ويكون الكلام رداً علىٰ القائلين بالشفاعة المعتمدين عليها.

ومُحصَّل المعنىٰ: لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة الأعمال الصَّالحة والأخلاق العالية والعقائد السامية التي جاء بها هذا القرآن، فالإنسان الصَّالح هو شفيعُ نفسه عند خالقه، فهو يرجو بذاته رحمةَ ربِّه وغفرانه. والله أعلم».

قلت: الراجح في معنى الآية إثبات الشفاعة بشرطين: الشرط الأول: مَن أذِنَ له الرحمن أن يشفع، والشرط الثاني: أن يرضىٰ الله سبحانه قول الشافع، وما تضمنته شفاعته للمشفوع.

وجَعْـلُ المؤلف الاستثناء منقطعاً أو محمولاً على المعنى قد يُسلَّم لو كانت الآية مجرَّدة عن البيان، أما وقد جاءت السنة النبوية ببيانها، وذلك بما ثبت من أحاديث كثيرة دالة على شفاعة النبي ﷺ عدَّة شفاعات، منها ما رواه البخاري ومسلم[1] من حديث

---

(١) رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

أنس بن مالك ... حديث الشفاعة. فحينئذ لا يبقى محل لهذا التجويز الذي أورده المؤلف، ويجب المصير إلى المعنى الموافق للسنة.

* ثم قال ـ غفر الله له ـ: «فلم يبق من معنىٰ الشفاعة ـ علىٰ القول بها ـ إلا الدعاء من الله سبحانه وتعالىٰ والتوسُّل إليه أن يعفوَ ويَصْفح، ولا يقبل ذلك ويأذن بالشفاعة إلا لمن رضيَ له قولاً وعقيدة، وكان له بعض هفوات ولمم».

قلت: وأي شيء أفضل من دعاء الله تعالى والتوسل إليه؟ فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»[1]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، وشفاعة النبي ﷺ لا تكون إلا بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى والتوسل إليه، وارجع إلى تفسير الشفاعة فيما نقلته من كلام الإمام أبي منصور الأزهري[2].

* وقال في تفسير الآية (٢٨) من سورة الأنبياء في شفاعة الملائكة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾: «وذلك لأن الشفيع يكشف للمشفوع منه أحوالَ المشفوع له ليرقَّ عليه ويعطف، والله تعالىٰ غنيٌّ عن ذلك مُطَّلع علىٰ كلِّ شيء، فلم يبقَ مِن معنىٰ الشفاعة إلا الدعاء منه تعالىٰ أن يعفوَ ويصفح ولا يدعون إلا لمن رضيَ الله له قولاً وعقيدة؛ لأنهم يعلمون أنَّ العفو والصفح لا يكون إلا لهفوات هذا الصنف من الناس».

قلت: تقدم بيان معنى الشفاعة ودلالتها اللغوية والشرعية، ويجوز أن يكون المعنى: إلا لمن رضي اللهُ أن يُشفَعَ له، أي: أن يكون مشفوعاً له، فتتَّسع الدائرة ويصير

---

(١) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) «الزاهر» ص٢١٦.

من الممكن أن تشمل الشفاعةُ كلَّ مؤمن وإن كان من أصحاب الكبائر، وهو مما لا يُنكر في سعة رحمة الله تعالى، ويُؤيده قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، لكن ينبغي للمسلم أن يُوطِّن نفسَه على العمل الصالح، فإن لحقته شفاعة في شيء قصَّر فيه فخير، وإن لم تلحقه كان له من عمله ما ينجيه من العذاب بإذن الله.

قال شيخنا العلامة يوسف القَرَضاوي في رسالته عن «الشفاعة» التي ردَّ فيها على مصطفى محمود في معنى هذه الآية: «فهم ـ أي: الملائكة ـ لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله، وهم الذين ماتوا على توحيد الله تعالى، وعدم الإشراك به، كما ذكر المفسرون، ولا يقال: إن الذين ارتضاهم الله إنما هم الصالحون من عباده من المطيعين والتائبين، وليسوا العصاة والمذنبين، لأنا نقول: هؤلاء الصالحون لا يحتاجون إلى شفاعة، إنما الذي يحتاج إلى الشفاعة هو المقصر، ممن ضيَّع بعض الواجبات، أو ارتكب بعض المحرمات، وهو ممَّن ارتضاه الله في الجملة بسبب إيمانه، وانضمامه إلى الأمة المصطفاة، فإن أهلها أقسام ثلاثة ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۞ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٢ - ٣٣].

فهؤلاء الثلاثة ضمن الأمة المصطفاة:

الظالم لنفسه: وهو الذي يقصر في بعض المأمورات، ويقترف بعض المحظورات.

والمقتصد: وهو الذي يكتفي بأداء الواجبات وترك المحرمات.

والسابق بالخيرات: وهو الذي يزيد النوافل على الواجبات، ويترك مع المحرمات الشبهات والمكروهات.

ولا عجب أن يحتاج هذا الظالم لنفسه إلى الشفاعة، وأن يشفع له الملائكة والأنبياء والصالحون، لأنه مرتضىً في الجملة كما قلنا».

معنى الشفاعة لله جميعاً:

* قال في تفسير الآية (٤٤) من سورة الزمر: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾: «أي: لا يملك أحدٌ الشفاعةَ لديه فَضْلاً عن هؤلاء».

نعم الشفاعة لله جميعاً إلا من أذِنَ له في ذلك، كما دلَّت عليه آيات أخرى، كقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وأما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] على نفي الشفاعة لغيره سبحانه، فقد ذكر ابن كثير في تفسيرها ما يلي: «يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، وليس لها عقلٌ تعقل به، ولا سمعٌ تسمع به، ولا بصرٌ تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوانات بكثير، ثم قال: ﴿قُل﴾ أي: يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاءَ لهم عند الله تعالى، أخبِرهم أنَّ الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلِّها إليه ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]»[1]. انتهى.

نفي الشفاعة عن الظالمين يدلّ على إثباتها للموحّدين:

* قال الشيخ رشيد الخطيب في تفسير الآية (١٨) من سورة المؤمن: ﴿مَا

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧: ١٠٢).

لِلظَّـٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيـمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴾: «وهذا تيئيسٌ لهم من النجاة، وفي هذا القيْد تهكُّم عليهم في اتِّخاذهم الآلهة شفعاءَ لهم عند الله وتنديم، والمراد: نفيُ الشفيع مُطلقاً، ففيه نوعٌ من أنواع البديع، وهو نفيُ الشيء بإيجابه، وهو أن يُنفَى الشيءُ المقيَّدُ، ويُرادَ نفيُه مطلقاً، لا نفيه مقيَّداً، لأنَّ القيد إنما ذُكر لغَرَض التندُّر والتبكيت».

ثم علَّل أنْ لا وَجْهَ للشفاعة بقوله: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ ووَجْهُ التعليل: «أنَّ الشفاعة مَبْنيةٌ على شَرْح الشفيع حالَ المشفوع له للمشفوعِ عندَه، وبيانِ استحقاقِـهِ العفوَ عنه، والله سبحانه وتعالى يعلمُ دقائق المعلومات وخفيّـاتها، ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾، فلا وَجْهَ للشفاعة عنده».

الجواب: قد تكون الشفاعة لا على هذا الوجه، بل على قيام الشفيع بطلب العفو من الله تعالى للمشفوع له من غير استحقاق، بل بالتماس فضل الله وكرمه، ويقوم الشفيع بذلك دون المشفوع لكرامته ومنزلته عند ربِّـه، فيقبل الله منه ويستجيب له، وهذا هو وجه إثبات الشفاعة للمؤمنين.

وكلام المؤلف يُفهَم منه نفيُ الشفاعة مطلقاً، وهو ما صرَّح به في مواضع أخرى، والصواب خلافه.

قال العلامة القرضاوي في رسالته عن «الشفاعة»: «ومن قرأ القرآن لم يجد فيه إلا نفي (الشفاعة الشركيّة) التي كان يعتقدها المشركون من العرب، والمحرِّفون من أصحاب الديانات الأخرى.

أجل نفى القرآن أن تكون للآلهة الزائفة شفاعة، وأن يكون للمشركين شفيع يطاع، كما قال تعالى: ﴿ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيـمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]، والقرآن يُعبِّر كثيراً عن الشرك بالظلم، وعن المشركين بالظالمين، فإن الشرك ظلم عظيم.

فالقرآن إذن لم ينف مطلق الشفاعة، كما زعم من زعم، بل نفى الشفاعة التي ادَّعاها المشركون والمحرفون، والتي كانت من أسباب فساد كثير من أتباع الديانات، الذين يقترفون الموبقات، متكلين على أن شفعاءهم ووسطاءهم سيرفعون عنهم العقوبة لا محالة، كما يفعل الملوك الظلمة، وحكام الجور في الدنيا.

إنَّ المسلم الحقّ لا يضرب النصوص بعضها ببعض، ولكن يردُّ المتشابهات إلى المحكَمات، ويحمل المطلق على المقيد، ويفسر العام بالخاص، ويأخذ بها جميعاً، بحيث يضع كلاً منها في موضعه الصحيح، وهذا هو الذي هُديَ إليه العلماء الربانيون من هذه الأمة».

وقال العلامة القرضاوي أيضاً في رسالته عن «الشفاعة يوم القيامة» أيضاً: «مفهوم هذه الآية: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أن غيرهم ـ وهم المؤمنون العصاة ـ تنفعهم شفاعة الشافعين، فإن مثل هذا الكلام إنما يُساق، حين تنفع الشفاعة غيرهم، فيقصد تقبيح حال الكفرة، وتخييب رجائهم، بأنهم ليسوا كذلك، إذ لو لم تنفع الشفاعة أحداً، لما كان في تخصيصهم زيادة تخييب وتوبيخ لهم، كما قال العلامة سعد الدين التفتازاني في «شرح المقاصد».

وقال سبحانه على لسان المشركين في النار حين يقولون لأصنامهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ١٠٢].

وبهذا نعلم أن القرآن نفى الشفاعة في آيات، وأثبتها في آيات أخرى لأهلها بشرطها، والشفاعة المنفية غير الشفاعة المثبتة.

كما نفى (الخلة) يوم القيامة في آية ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وأثبتها في

آية أخرى في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ومعنى هذا: أن الخلة المنفية: هي خُلّة أهل الدنيا، الذين تقوم خُلّتُهم ومودتهم على الأهواء والشهوات والمصالح المادية، وليست خلة أهل التقوى الذين تقوم خلتهم وصحبتهم على محبة الله وطاعته والولاء لدينه.

فالأوَّلون لا خلة بينهم في الآخرة، بل يكفر بعضهم ببعض، ويبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

والآخرون ـ أهل التقوى ـ يُظلّهم الله في ظِلّه يوم لا ظلّ إلا ظله، وتظلّ خلّتهم ومحبتهم معهم حتى يدخلوا بها الجنة ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]». انتهى.

* وقال في تفسير الآية (٣٨) من سورة النبأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾: «ثم استثنى من نفي التكلُّم قولَه: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ قيل: هو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى.

أقول ـ القائل رشيد الخطيب ـ: ويجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون استثناءً منقطعاً، ومن أعمِّ الأحوال، بمعنى: لا ينجو ذلك اليوم إلا مَنْ أذن له الرحمنُ بالانصراف إلى الجنَّة لكمال عقيدته في توحيد الله وتنزيهه».

قلت: هذا بعيد، والأول هو المعتمد لظهوره، وإنما أورد المؤلف المعنى الثاني ليخرج من إشكال إثبات الشفاعة بنص الآية، وهو ينفيها، كما تكرَّر منه ذلك في مواضع من هذا التفسير، وتقدَّم التنبيه عليها.

رحمة الله وعفوه تشمل التائب وغير التائب:

* قال في تفسير الآية (٦٩) من سورة الأنفال: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾: «ثم قَرَن التهديد بالتلطيف، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوب أهل الإيمان من عباده ﴿رَّحِيمٌ ﴾ بهم، فلا يعاقبهم بعد توبتهم منها».

قلت: هذا تقييد للرحمة وتحجير لها من غير دليل، فرحمة الله تعالىٰ تشمل التائبَ وغيرَه، إلا أنها في التائب مجزومٌ بحصولها، لوعده تعالىٰ بها، ووعدُه سبحانه لا يتخلّف، أما غير التائب فترُجىٰ له من غير جزم، حيثُ هي ممكنةٌ عقلاً، والتجاوز عن المسيءِ وارد، وتخلُّف الوعيد كرَم، لكنْ علىٰ العبدِ أن يسارع إلىٰ التوبة لتحصيل الرحمة المجزوم بها، ولا يركن إلىٰ الرحمة المحتمَلة.

مغفرة الذنب لمن لم يَتُب:

* قال في تفسير الآية (٣) من سورة المؤمن: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾: «والتَّوب: مصدر، كالتوبة، وقيل: هو جَمْعُها، وقد وسَّط الواو بينهما لإفادة الجمع بين الوصفَيْن، فإنه يغفر الذنب لمن تاب، فهو لعطف السبب على المسبَّب».

قلت: وقد يغفره لمن لم يتب أيضاً، أما الأول ـ وهو مغفرته لمن تاب ـ فواقعٌ جزْماً بمقتضى وعد الله تبارك وتعالى، وأما الثاني ـ وهو مغفرته لمن لم يتب ـ فواقعٌ احتمالاً بمقتضى فضل الله وكرمه، تابعٌ لمشيئته بمقتضى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، وعلى العبد أن يتعلق بالأول لأنه مجزوم به، فيُسارع إلى التوبة، ولا يركن إلى الثاني، فلعلَّه ممَّن لم تشمله تلك المشيئة.

هل وعيده سبحانه واقع لا محالة؟

* قال في تفسير الآية (١) من سورة الزمر: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: «والتعرُّض لوَصْفَي العزَّة والحكمة، للإيذان بظهور أثرهما في هذا الكتاب المُنزَّل، فأحكامه ومواعظه وبياناته كلُّها مبنيَّةٌ على الحِكَم الباهرة، ووَعْدُه ووعيدُه واقعٌ لا محالة».

قلت: لكنه سبحانه قد يعفو عن بعض وعيده كرماً منه وفضلاً، ويبقى بعضُ وعيده الآخر واقعاً لتحقُّق صدق خبره تعالى، فلا منافاة بين الإخبار بالوعيد والعفو عنه حينئذ.

رؤية الله تعالى في الآخرة

نفيه الرؤية يوم القيامة:

* قال في تفسير الآية (١٤٣) من سورة الأعراف: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾: «فنفىٰ إمكان ذلك بالنفي المستغرق .. ثم قال: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من غشيته، ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أنْ أسألك الرؤية أو مثيلها، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن لا أحد يراك».

قلت: مال المؤلفُ رحمه الله تعالىٰ هنا إلىٰ قول المعتزلة في نفي الرؤية، ولذا جعل «لن» للنفي المستغرق، وجعل التوبة توبةً من سؤال الرؤية، لكنْ ليس في الآية نفيُ الرؤية مطلقاً، بل تعليقُها علىٰ استقرار الجبل ـ وهو أمر ممكن في نفسه ـ يدل علىٰ إمكانها، كما أن سؤال موسىٰ عليه السلام ـ وهو رسولٌ عارفٌ بالله وما يليقُ به مما لا يليق ـ يدلُّ علىٰ إمكانها، وقد جاءت الأدلةُ الصريحةُ بإثباتها في الآخرة، فوجب القولُ به، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

* وذكر في الحاشية عند تفسير هذه الآية: «قيل: إنَّ موسىٰ إنما طلب الرؤية ليعلِّم قومَه الذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] بأنهم طلبوا محالاً».

قلت: سياقُ الآيات لا يُساعد عليه، بل يردُّه.

إنكاره النظر إلى وجه الله الكريم يوم القيامة:

* قال في تفسير الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: «وقد اختلف في هذا النظر على وجهين:

أحدهما: أن معناه نظر العين حقيقةً أو مجازاً؛ أي: إلى نعيم ربِّها.

والثاني: أن المراد به: الانتظار لثواب ربِّها الجزيل، فيكون معناه: التوقُّع والرجاء، وهو المرويُّ عن أكثر الصحابة والتابعين، كما تقول: أنا أنظر إلى فلان، أي: أُؤمِّل إحسانَه وعطاياه».

قلت: ليس بصحيح أن التفسير الذي نقله مروي عن أكثر الصحابة، بل لا يصح ذلك عن أحد منهم، بل لا يصح عن أحد من التابعين فيما قيل إلا عن مجاهد، كما ذكر ذلك الشوكاني في «فتح القدير»(١) قال: ... وقيل: لا يصح هذا (أي التفسير المذكور) إلا من مجاهد وحده. انتهى. وإنما معنى الآية هو الرؤية التي ينكرها المعتزلة ومن وافقهم.

قال الإمام ابن كثير: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] أي: تراه عياناً، كما رواه البخاري رحمه الله، في «صحيحه»(٢): «إنكم سترون ربكم عياناً».

---

(١) «فتح القدير» (٥: ٤٠٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٧٤٣٥).

وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها ... ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرَّقاً في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق.

وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام.

ومَن تأوَّلَ ذلك بأن المراد بـ ﴿إِلَىٰ﴾ مفرد الآلاء، وهي النِّعم، كما قال الثوري عن منصور عن مجاهد: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فقال: تنتظر الثواب من ربها، رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد، وكذا قال أبو صالح أيضاً؛ فقد أبعد هذا القائل النجعة، وأبطل فيما ذهب إليه.

وأين هو من قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] قال الشافعي رحمه الله: ما حجب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل، ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(١). انتهى.

وقال ابن عبد البر في «التمهيد»: قول مجاهد هذا مردود بالسنة الثابتة عن النبي ﷺ وأقاويل الصحابة وجمهور السلف، وهو قول عند أهل السنة مهجور، والذي عليه جماعتهم ما ثبت في ذلك عن نبيهم ﷺ، وليس من العلماء أحد إلا وهو يُؤخَذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ، ومجاهد وإن كان أحد المقدَّمين في العلم بتأويل القرآن فإن له

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨: ٢٨٠).

قولَين في تأويله اثنين هما مهجوران عند العلماء مرغوب عنهما، أحدهما هذا، والآخر قوله في قول الله عز وجل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، قال: يوسِّع له على العرش فيجلسه معه، وهذا قول مخالف للجماعة من الصحابة ومن بعدهم، فالذي عليه العلماء في تأويل هذه الآية أن المقام المحمود الشفاعة(١). انتهى.

وقال ابن حجر في «فتح الباري»: قال البيهقي: وجه الدليل من الآية أن لفظ: «ناضرة» الأول بالضاد المعجمة الساقطة من النضرة بمعنى السرور، ولفظ: «ناظرة» بالظاء المعجمة المشالة يحتمل في كلام العرب أربعة أشياء: نظر التفكر والاعتبار، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧]، ونظر الانتظار كقوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [يس: ٤٩]، ونظر التعطف والرحمة كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران: ٧٧]، ونظر الرؤية كقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [محمد: ٢٠].

والثلاثة الأُوَل غير مرادة، أما الأول: فلأنّ الآخرة ليست بدار استدلال، وأما الثاني: فلأنّ في الانتظار تنغيصاً وتكديراً، والآية خرجت مخرج الامتنان والبشارة، وأهل الجنة لا ينتظرون شيئاً؛ لأنه مهما خطر لهم أتوا به، وأما الثالث: فلا يجوز لأن المخلوق لا يتعطف على خالقه، فلم يبق إلا نظر الرؤية، وانضمَّ إلى ذلك أن النظر إذا ذكر مع الوجه انصرف للعينين اللتين في الوجه؛ ولأنه هو الذي يتعدى بـ«إلى» كقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾.

وإذا ثبت أن «ناظرة» هنا بمعنى رائية اندفع قول من زعم أن المعنى ناظرة إلى ثواب ربها؛ لأنَّ الأصل عدم التقدير، وأيّد منطوق الآية في حقِّ المؤمنين بمفهوم الآية

---

(١) «التمهيد» (٧: ١٥٧).

الأخرى في حق الكافرين: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] وقيَّدها بالقيامة في الآيتين إشارة إلى أن الرؤية تحصل للمؤمنين في الآخرة دون الدنيا. انتهى ملخصاً موضحاً.

وقد أخرج أبو العباس السراج في «تاريخه» عن الحسن بن عبد العزيز الجروي وهو من شيوخ البخاري: سمعت عمرو بن أبي سلمة يقول: سمعت مالك بن أنس وقيل له: يا أبا عبد الله؛ قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يقول قوم: إلى ثوابه؟ فقال: كذبوا؛ فأين هم عن قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(١) انتهى. والله أعلم.

نفي المؤلف للرؤية استدلالاً بآيتي: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، و﴿لَن تَرَانِي﴾:

* ثم قال رحمه الله: «والبعض يرى أنَّ رؤية الله سبحانه ممكنة في الآخرة، وهذا رأيٌ ضعيف؛ لأن قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] نصٌّ في عدم الرؤية، ويُؤيِّده قوله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فهو نصٌّ بنفي الاستغراق».

قوله: إنَّ رؤية الله في الآخرة ممكنة رأي ضعيف!!

قلت: بل هو رأي قوي، لثبوتها في عدَّة أدلة من الكتاب والسنة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة.

ورؤية الله تعالى ثابتة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما الإحاطة والإدراك فهما منفيان عن الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

قال ابن تيمية: «نفى الإدراك الذي هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء، ولم ينف

---

(١) «فتح الباري» (١٣: ٤٢٦).

مجرد الرؤية، لأن المعدوم لا يرى وليس في كونه لا يُرى مدح، إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحاً، وإنما المدح في كونه لا يحاط به ـ وإن رُئي ـ كما أنه لا يحاط به ـ وإن علم ـ فكما أنه إذا علم لا يحاط به علماً، فكذلك إذا رئي لا يحاط به رؤية، فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحاً وصفة كمال، وكان ذلك دليلاً على إثبات الرؤية لا على نفيها، لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة، وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها». انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر: «نفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية لإمكان رؤية الشيء من غير إحاطة بحقيقته»[1]. انتهى.

وأما الاستدلال بقول الله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي: في هذه الدنيا.

وقد تقدم قول الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قال أهل التفسير: يقول موسى: أنا أول مَن آمن بك أنه لا يراك أحدٌ من خلقِك إلى يوم القيامة.

وروى الحاكم في «مستدركه»[2] ـ وصحّحه، ووافقه الذهبي ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن موسى بن عمران لـمّا كلَّمه ربُّه أحبَّ أن ينظر إليه، فقال: ﴿وَلَمَّا

---

(١) «فتح الباري» (١٣: ٤٢٦).

(٢) «المستدرك» (٤١٠٢).

جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فحفَّ حول الجبل الملائكة، وحفّ حول الملائكة بنار، وحفَّ حول النار بملائكة، وحفّ حول الملائكة بنار، ثمّ تجلّى ربك للجبل، ثم تجلّى منه مثل الخنصر، فجعل الجبل دكّاً، وخرَّ موسى صَعِقاً ما شاء الله، ثم إنه أفاق، فقال: سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين. يعني أول من آمن من بني إسرائيل.

فرؤية الله تعالى لا تكون في الدنيا ولا تصح لأحد، وإنما تكون في الآخرة للمؤمنين خاصة دون الكافرين.

قال الحافظ في «الفتح»: «لأن أبصار المؤمنين في الآخرة باقية فلا استحالة أن يرى الباقي ـ وهو الله تعالى ـ بالباقي أعين المؤمنين بخلاف حالة الدنيا فإن أبصارهم فيها فانية فلا يرى الباقي بالفاني»(١). والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله تعالى: «وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مُحتَمِلٌ لعدَّة معانٍ، وفي أصول الفقه: إذا تعارض النصُّ والمُحتَمِلُ يُحمَلُ الثاني على الأول. والله أعلم.

ويقول المنكرون للرؤية: إنَّ الأخبار المرويَّة فيها إنما يُريد بها العلم الضروري الذي لا يشوبُه شبهة، والرؤية بهذا المعنى مشهورة في اللغة».

قلت: أحاديث الرؤية قد بلغت حدَّ التواتر، مع ما جاء في ذلك من أدلة القرآن المجيد، وقد اتفق أهل السنة عليها.

قال الإمام ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]: «قد ثبتت رؤية المؤمنين لله عزّ وجل في الدار الآخرة في الأحاديث

---

(١) «فتح الباري» (٨: ٣٠٢).

الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها ـ وذكر طرفاً منها، ثم قال: ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصِّحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرَّقاً في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق. وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام»[١] انتهى.

وقال الإمام النـووي: «اعلم أن مذهب أهل السنـة بأجمعهم أن رؤية الله تعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا أيضاً على وقوعها في الآخرة، وأن المؤمنين يرون الله تعالى دون الكافرين، وزعمت طائفة من أهل البدع المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة أن الله تعالى لا يراه أحد من خلقه وأن رؤيتـه مستحيلة عقلاً، وهذا الذي قالوه خطأ صريح وجهل قبيح، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين، ورواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله ﷺ، وآيات القرآن فيها مشهورة واعتراضات المبتدعة عليها لها أجوبة مشهورة في كتب المتكلمين من أهل السنة، وكذلك باقي شبههم، وهي مستقصاة في كتب الكلام وليس بنا ضرورة إلى ذكرها هنا»[٢] انتهى.

❊ ❊ ❊

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨: ٢٨٠).

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٣: ١٥).

المدخل الثالث

أجوبة فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان

١ـ هل هذه الآية: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ من باب تمثيل المعنى[(١)]؟

ما وجهُ الصواب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وأمثالِ هذه الآية، حيث إن الشيخ رشيد الخطيب رجّح في «تفسيره» أن هذه من باب تمثيل المعنى، لكونها في قبضة القدرة الإلهيَّة.

فهل القول في الآية على سبيل الحقيقة أو المجاز؟ أهو من باب تمثيل المعنى أم هو خطابٌ تلقّاه المخاطب واستجاب للمطلوب منه؟

أجاب فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان حفظه الله:

الأخ الفاضل مجْد مكي، حفظك الله تعالى بما حفظ أولياءه وأحبابه.

وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته.

طلبتُم من عبد الكريم بيانَ وجهِ الصواب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وأمثالِ

---

(١) طبع هذا الجواب في رسالة بعنوان: «قالتا أتينا طائعين» سنة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، بدار الفكر بدمشق في ٥٩ صفحة. وقد أعدتُ ترتيبَ أقوال المفسرين فيها حسب الوفيات، وعدَّلتُ فيها، وخرَّجتُ أحاديثَها، ووضعتُ العناوين الجانبية لها.

هذه الآية، حيث إنَّ هناك من ذهب إلى أنَّ هذه من باب تمثيل المعنى، لكونها في قبضة القدرة الإلهية.

وقد رجعتُ إلى مجموعة من التفاسير المعتبَرة لأقف على ما قدَّمت، ولأخلص بعدها إلى ما يطمئنُّ إليه القلب ومرجِّحاتِ ذلك بهذا الشأن.

وأجدني هنا ـ بدايةً ـ أسوق مجموعةً من الأمور التي أراها ضروريةً لتجلية المعنى على قواعد قد اتُّفِق عليها، أو نُصِبت ليقام عليها صرح التفسير، لكن بعدما أتناول ما جاء في التفاسير لهذه الآية:

*** ففي «جامع البيان في تأويل القرآن» لابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ):**

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا..﴾ أي: فقال اللهُ للسماء والأرض: جيئا بما خلقتُ فيكما: أمّا أنت يا سماءُ، فأطلِعي ما خلقتُ فيك من الشمس والقمر و...، وأما أنت ـ يا أرض ـ فأخرِجي ما خلقتُ فيك من الأشجار والثمار، وتشققي عن الأنهار.

قالتا: جئنا بما أحدثتَ فينا من خلقِك، مستجيبين لأمرك، لا نعصي أمرك.

ثم قال: وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، وساق حديثَ ابن عباس من أكثرَ من طريقٍ.

ثم علّل مجيء قوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾ دون «طائعتين»، وساق ما قاله العلماء، ومما قال: قيل ذلك كذلك؛ لأنهما لـمّا تكلّمتا أشبهَتا الذُّكورَ من بني آدم(١).

*** وفي «النكت والعيون» للماوردي (ت ٤٥٠ هـ):**

قال الله تعالى ذلك ـ أي: ﴿ٱئْتِيَا﴾ ـ قبل خلق السماوات والأرض، فيكون الأمر

---

(١) يُنظر: «جامع البيان في تأويل القرآن» لابن جرير الطبري (٢١: ٤٣٩).

الموجّه على معنى «كونا» فكانتا، وقول الجمهور: أنه قال ذلك بعد خلقهما، ويكون في معنى ﴿ٱئۡتِيَا﴾ أربع تأويلات:

١- أعطيا الطاعة في السير المقدر. ونقل عن سعيد بن جبير.

٢- ائْتيا عبادتي ومعرفتي.

٣- ائْتيا بما فيكما. حكاه النقاش.

٤- كونا كما أمرتُ من شدَّة ولين و... قاله ابن بحر.

وفي قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ﴾ وجهان:

١- قولٌ تكلَّم به.

٢- قدرةٌ قد ظهرت لهما فقام مقام الكلام في بلوغ المراد.

وفي المراد من إجابتهما ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾:

١- معناه أعطينا الطاعة. رواه طاووس.

٢- أتينا بما فينا. قاله ابن عباس.

وفي معنى القول المسند إليهما - أي: ﴿قَالَتَآ﴾- وجهان:

١- ظهور الطاعة منهما قائم مقام قولهما.

٢- أنهما تكلمتا بذلك[1].

*** ولدى «السمعاني» (ت ٤٨٩هـ):**

قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا﴾: منهم من قال: هذا كله على طريق المجاز، وليس على

---

(١) يُنظر: «النكت والعيون» (٥: ١٧٢-١٧٣).

طريق الحقيقة، وكأنَّ الله تعالى لما أجرى أمرهما على مراده وتقديره جعل ذلك بمنزلة «قول منه وإجابة منهما» بالطواعية، وقد جاء عن العرب مثل ذلك.

وقال بعضهم: إنَّ القول والإجابة على طريق الحقيقة، وركَّب في السماوات والأرض ما عقلا به خطابه، وأجاباه بالطواعية، وهذا هو الأولى، وعن ابن السماك في «موعظة» له: سلِ الأرضَ من غرس أشجارَك، وأجرى أنهارَك، وأخرج ثمارَك، فإن لم تُجبك اختياراً، أجابتك اعتباراً.

ثم قال: وإن قيل: كيف قال ﴿طَآئِعِينَ﴾ وكان من حقّ اللغة أن يقول: «طائعات»؟.

قلنا: إنما قال ﴿طَآئِعِينَ﴾ لأنه لـما جعلها بمنزلة مَن يعقل في الخطاب معها وجوابها، ذكَرَ الكلامَ على نعت العقلاء[١].

*** وقال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في «الكشاف»:**

قال في قوله تعالى ﴿ٱئْتِيَا﴾: يعني أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما لذلك، أنه أراد تكوينهما، فلم يمتنعا عليه، ووُجدتا كما أرادهما، وجاءتا في ذلك كالمأمور المطيع إذ أورد عليه فعل الآخر فيه، والغرض: تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير، من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب، ونحوه قول القائل: قال الجدار للوتد: لِـمَ تشُقُّني؟ قال الوتد: سَلْ مَن يدُقُّني، فلم يتركني وراء الحجر الذي ورائي.

هذا، وقد جعل الزمخشري قراءة (آتِيا) و(آتَينا) من المواتاة والموافقة[٢].

---

(١) «تفسير السمعاني» (٥: ٤٠)، ونقل البغوي (ت ٥١٠هـ) في «تفسيره» (٤: ١٢٦) عن طاووس عن ابن عباس: قوله تعالى ﴿ٱئْتِيَا﴾: أعطِيا، يعني: أخرِجا ما خلقتُ فيكما من المنافع لصالح العباد، ونقل حديث ابن عباس المذكور سابقاً.

(٢) يُنظر: «الكشاف» (٤: ١٨٩).

*** وفي التفسير الكبير «للرازي» (ت ٦٠٦هـ) قال:**

لا نزاعَ أنَّ قوله تعالى لهما: كنايةٌ عن إيجاد السماء والأرض، وسأل فأجاب: ما الفائدة في ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾؟ فالجواب: إظهار كمال القدرة، والتقدير: ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما...(١).

وما المراد من قوله ﴿أَئْتِيَا﴾ و﴿أَتَيْنَا﴾؟ فالجواب: المراد: ائـتيا إلى الوجـود والحصول، وهو كقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. قال: وقيل المعنى: «ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، أي: بأرض مدحوَّة، قراراً ومهاداً، وبسماء... ومعنى «الإتيان»: الحصول والوقوع على وفق المراد.

وقال يبيِّن السر في الإتيان بعبارة: ﴿طَآئِعِينَ﴾ بدلاً من «طائعتين»: هلّا قيل: «طائعتين» على اللفظ، أو «طائعات» على المعنى: سماوات وأرضون؟ فالجواب: لما جُعِلْـنَ مخاطَبات ومجيبات، ووُصِفْـنَ بالطَّوْع والكرْه قيل: ﴿طَآئِعِينَ﴾ في موضع «طائعات»(٢).

***ولدى العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ):**

قال لهما قبل خلقهما: «تكوَّنا»، فتكوَّنتا، كقوله لكلّ شيء: ﴿كُن﴾، أو: أمرهما بعد خلقهما ـ عند الجمهور ـ بأن يُعطيا الطاعة في السَّيْر المقدَّر لهما، أو: أمرهما بالطاعة والمعرفة، أو: ائْتيا بما فيكما، أو: كونا كما أردت من شدَّة ولين وحزن وسهل... كلمهما الله بذلك، أو ظهر من قدرته ما قام مقام الكلام في بلوغ المراد.

---

(١) يُنظر: «تفسير الرازي» (٢٧: ٥٤٧).

(٢) يُنظر: المصدر السابق (٢٧: ٥٤٨).

قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: أعطينا الطاعة، أو: أتينا بما فينا، فأتت السماء بما فيها من الشمس و...، وأتت الأرض بالأشجار و... تكلمتا بذلك، أو قام ظهور طاعتهما مقام قولهما[١].

*** وقال القرطبي (ت ٦٧١هـ) في تفسيره «الجامع»:**

قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا﴾ جيئا بما خلقتُ فيكما من المنافع والمصالح، وأخرجاها لخلقي، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال الله تعالى للسماء: أطلِعي شمسك وقمرك وكوكبك، وأجري رياحك وسحابك، وقال للأرض: شُقّي أنهارك وأخرجي شجرك وأثمارك، طائعتَين أو كارهتَين.

﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: ثمّة محذوف تقديرُه «أتينا أمرك»، وقيل: معنى هذا الأمر التسخير، أي: كونا فكانتا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وعلى هذا قال ذلك قبل خلقهما، حيث كانا في العلم، وعلى القول الأول، أي: «أخرِجا» قال ذلك بعد خلقها، وهو قول الجمهور.

قال: وفي قوله تعالى لهما وجهان: أنه قولٌ تكلّم به.. والثاني: أنها قدرةٌ منه ظهرت لهما فقام مقام الكلام في بلوغ المراد. ذكره «الماوردي»[٢].

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾: ففيه وجهان أيضاً: ظهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا، فقام مقام قولهما، وساق قول الراجز:

امتلأ الحوضُ وقال: قَطْني ... مهلاً رُويداً قد ملأتُ بطني[٣]

---

(١) يُنظر: «تفسير العز بن عبد السلام» (٣: ١٢٦).

(٢) «تفسير الماوردي» (٥: ١٧٢).

(٣) رجز شهير لا نسبة له، ذُكِرَ في كثير من كتب اللغة مثل «الكامل» للمبرد (٢: ٧٠)، و«إصلاح المنطق» ص٥٠، وغيرها.

يريد: ظهر ذلك في الحوض، وقال أكثر أهل العلم: بل خلق الله فيهما الكلام، فتكلّمتا كما أراد تعالى، قال أبو نصر السكسكي: فنطق من الأرض موضعُ الكعبة، ونطق من السماء ما بحيالها، فوضع الله تعالى فيه حرمه. وقيل: لما وصفهنّ بالقول والإجابة، وذلك مِن صفاتِ مَن يعقل، أجراهما في الكناية مجرى من يعقل، ومثله ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤][1].

* ورجّح أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ):

في «البحر المحيط» قولَ من ذهب إلى أنهما - أي: السماوات والأرض - نطقتا نطقاً حقيقياً، وجعل الله لهما حياةً وإدراكاً يقتضي نطقَهما، وترجيحُه جاء بعدما ذكر أنّ المفسرين: منهم من ذهب إلى أن ذلك «مجاز»، وأنه ظهر منهما عن اختيار الطاعة والتذلل والخضوع ما هو بمنزلة القول - وقد نقله عن ابن عطية - ثم قال: والقول الأول أحسن، أي: ما رجّحه، لأنه لا شيء يدفعه، وأن العبرة فيه أتمّ، والقدرة أظهر[2].

* وجاء في «الدر المصون» للسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ):

بعدما طرح السؤال التالي في الآية موضوع البحث: هل هذه المحاورة على الحقيقة أو المجاز؟ خلاف، وإن كانت مجازاً، فهل هو تمثيل أو تخييل؟[3].

بين الاستحالة العقلية والاستحالة العادية:

وأنت ترى أنَّ طرحه هذه الأسئلة يدل على إمكانيَّة كل من الأجوبة المُجاب بها، ولكلّ جواب دليله، وما به رجح ما ذهب إليه، وهذا إن دلّ فإنما يدل على أن من حمل

(١) يُنظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٤٣-٣٤٤).

(٢) يُنظر: «البحر المحيط» (٩: ٢٨٩)، والمنقول عن ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥: ٧).

(٣) يُنظر: «الدر المصون» (٩: ٥١٢).

على المجاز، دفعه إلى ذلك استبعاده الحقيقة، ولكن هذا الاستبعاد لا يدخله في الاستحالة العقليَّة؛ إذ هي لا تقبل الثبوت بحال، بخلاف الاستحالة العادية، فهي بحكم العادة تُرفَض، لكنها قابلة للثبوت عقلاً، وأقصد بالاستحالة «العادية» ذلك الممكن في ذاته، لكنه نادرُ الوقوع، أو خفيُّه، يقع لكنه خفي عنا، فبُعده عن المخزون الحسّي لدينا يدفع الى استبعاده بادي الرأي، وربما يذهب ناس إلى إنكاره، وجعله من جنس المستحيل عقلاً، وليس بعيداً عنا مسألة النزول على سطح القمر، وتلقّي الكثيرين لها بالنفي.

هذا، وقد جاء في التعبير القرآني مسألة استبعاد الممكن، وهو يكشف لنا موقف المشركين من الآخرة واستبعادهم لها، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ [المعارج: ٦] على معنى أنه ـ في رأيهم ـ لا يقعن، أما في نظر الحق فواقع لا محالة.

*** وفي تفسير «ابن كثير» (ت ٧٧٤هـ):**

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ..﴾: قال للسماوات: أطلعي شمسي و... وقال للأرض: شقّقي أنهارك... قالتا: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

قال: واختاره ابن جرير ـ رحمه الله ـ ونقل عن ابن جرير: وقيل: تنزيلاً لهنَّ معاملة من يعقل بكلامهما، وقيل: إنَّ المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة ومن السماء ما يسامته منها كما مر آنفاً...... والله أعلم...[1].

*** وفي «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للنيسابوري (ت بعد ٨٥٠هـ):**

للمفسرين فيه قولان:

الأول: إجراء الكلام على ظاهره، فإنه ليس بمستبعد من الله إنطاق أي جسم فرض، بل إيداع الحياة والفهم فيه»[2].

---

(١) يُنظر: «تفسير ابن كثير» (٧: ١٦٧)، وما ذكر عن ابن جرير يُنظر في: «تفسيره» (٢١: ٤٣٩).

(٢) يُنظر: «تفسير النيسابوري» (٦: ٥١).

أقول: وكذا عصا موسى عليه السلام بانقلابها إلى حيّـةٍ تسعى، بعدما كانت خلايا نباتية راسخة في اليبس، وتستعمل في أغراض شتى..

قال[١]: ولهذا قال ﴿طَآئِعِينَ﴾ جمع المذكر السالم، وعلى هذا «القول» لا بد أن يكون هذا التخاطب بعد الوجود.

والقول الثاني: هذا تمثيل لنفوذ قدرته فيهما، ولا قول ثمة، وعلى هذا لا يبعد أن يكون المقصود إيجادهما على وَفْق إرادته وهما في حيّز العدم[٢].

*** وجاء في «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل الحنبلي (ت بعد ٨٨٠هـ):**

قال: لا نزاع في أن قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ كناية عن إيجاد السماوات والأرض[٣].

وساق قراءتين، قراءة العامّة ﴿ٱئْتِيَا﴾ أمر من الإتيان، وقوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ من هذا المعين.

وقرأ ابن عباس وابن جبير ومجاهد: «آتيا، قالتا آتينا»، وهو من المؤاتاة، وهي الموافقة، ليوافق كلٌّ منكما الأخرى لِـما يليق بها.

قال: ووزن «آتِيا»: فاعِلا، ووزن «آتَينا»: فاعَلنا. أو: هو من «الإتيان» بمعنى الإعطاء، والتقدير: أعطيا الطاعة من أنفسكما من أمركما، قالتا أعطينا الطاعة[٤].

---

(١) القائل النيسابوري.

(٢) يُنظر: «تفسير النيسابوري» (٦: ٥١).

(٣) يُنظر: «اللباب في علوم الكتاب» (١٧: ١٠٩).

(٤) يُنظر: المصدر السابق (١٧: ١١٠).

ثم قال: ظاهر هذا الكلام يقتضي أنّ الله تعالى أمر السمـاء والأرض بالإتيان فأطاعوه، وهذا ليس بمستبعد كما أن الله تعالى أنطق الجبال مع داود فقال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾، وأنطق الأيدي والأرجل فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، وإذا كان كذلك فكيـف يستـبعد أن يخلق الله في ذات السماوات والأرض حياةً وعقلاً ثم يوجّه التكليف عليهما؟ ويؤكد هذا المعنى وجوه، منها:

ـ أن الأصل حمْل اللفظ على ظاهره إلا إن منع منه مانع، وهنا لا مانع.

ـ أن جمعهما جمع العقلاء ﴿طَآئِعِينَ﴾، وهذا يدلُّ على نوع إدراك.

ـ أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وهذا يدل على كونها عارفة عالمة بتوجُّه تكليف الله...

وأجاب ابن الخطيب عن هذا القول: بأن المراد الإتيان إلى الوجود والحدوث والحصول، فعلى هذا التقدير فحال توجُّه هذا الأمر حيث كانت السماوات والأرض معدومةً!! إذ لو كانت موجودةً فذلك لا يجوز، فثبت أن حال توجُّه هذا الأمر عليها كانت معدومةً. وإذا كانت معدومةً لم تكن «فاهمةً» ولا «عارفةً» للخطاب، فلم يجز توجُّه الأمر عليها(١).

ويلاحظ هنا أنّ النصّ على أمر الجبال بالتأويب مع داود دالٌّ على أنه على الحقيقة، لا على لسان الحال؛ إذ الجبال تُسبِّح مع جملة من يُسبِّح، وربط الفعل ﴿أَوِّبِي﴾ بالمعيَّـة «مع داود» دالٌّ على أنه أمر خاص.

---

(١) يُنظر: «اللباب في علوم الكتاب» (١٧: ١١١-١١٢).

*** وفي «نظم الدرر» للبقاعي (ت ٨٨٥هـ):**

لما جعلهما؛ أي: السماوات والأرض، موضع المخاطبة التي هي للعقلاء والتكلم قال: ﴿طَآيِعِينَ﴾ جامعاً لهما باعتبار أفرادهما وما فيهما جَمْعَ من يعقل[١].

*** وقال ابن عجيبة (ت ١٢٢٤هـ) في «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد»:**

معنى أمر السماء والأرض بالإتيان: أنه أراد أن يكوّنهما فلم يمتنعا عليه، وَوُجِدَتا كما أراد، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع. فقوله تعالى لهما: ﴿ٱئْتِيَا﴾ على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، ائت يا أرض مدحوة قراراً....

قوله تعالى: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: لبيان تأثير قدرته تعالى فيهما، وامتناعهما عن قدرته محال... إذ هما من المُمْكنات، ولا يتأبّى مُمكن على قدرته، وهذا ما ألحَّت به الآيات مثل: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠].

﴿أَتَيْنَا﴾: المراد تنجيزهما لما أراده منهما[٢].

*** وفي «روح المعاني» للآلوسي (ت ١٢٧٠هـ):**

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ أي: ائْتِيا بما خلقتُ فيكما من المنافع...، وفعل الأمر ﴿ٱئْتِيَا﴾ للتسخير، فقوله: ﴿ٱئْتِيَا﴾ كُونا واحدُتا على وجهٍ معيَّنٍ، وفي وقتٍ مقدَّرٍ لكلٍّ منكما، والمراد هنا: إثباتُ ذاتهما، وإيجادُهما فالأمر «للتكوين».

قوله: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: تمثيل لتحتّم تأثير القدرة فيهما، واستحالة امتناعهما من ذلك، لا إثبات الطوع والكره لهما.

---

(١) «نظم الدرر» (١٧: ١٥٦).

(٢) يُنظر: «البحر المديد» (٥: ١٦٣-١٦٤)

قوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا﴾: تمثيلٌ لكمال تأثرهما عن القدرة الربَّانيَّة، وحصولهما كما أمرا به، وتصويرٌ لكون وجودهما كما هما عليه؛ جارياً على مقتضى الحكمة البالغة، فإن (الطوع) منبئ عن ذلك، و(الكره) موهم لخلافه.

قوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾: جمع مذكر سالم مع اختصاصه بالعقلاء باعتبار كونهما في معرض الخطاب والجواب[1].

*** وجاء في تفسير «المنار» لرشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ):**

فقوله هذا للسماء والأرض قولٌ تكوينيٌّ، لا تكليفيّ، فهو من قبيل قوله للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

وقولهما ﴿أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾: تكوينيٌّ أيضاً، فهو عبارة عن كونهما وُجِدتا كما أراد أن توجدا عليه، كما يجيب العبد العاقل نداء مولاه إذا استدعاه[2]، ففيه تشبيه حدوث ما يريده ـ عند تعلُّقِ إرادته به ـ حالاً؛ بطاعة المأمور القادرِ ـ على العمل ـ للآمر المطاع[3].

أقول: ولو قال صاحب «المنار»: «عند تعلق القدرة به حالاً» لكان مصيباً؛ إذ الإرادة خصّصت الممكن أزلاً ببعض ما يجوز عليه، وتخصيصُها الممكنَ يظهر بعد ذلك ـ فيما لا يزال ـ عند تعلق القدرة به تعلُّقاً تنجيزياً حادثاً؛ كما هو مقرر في علم التوحيد.

*** وفي «ظلال القرآن» للسيد قطب (ت ١٣٨٦هـ) رحمه الله تعالى:**

إنها إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته[4].

---

(١) يُنظر: «روح المعاني» (١٢: ٣٥٥).
(٢) يُنظر: «تفسير المنار» (٥: ٣٤٨).
(٣) يُنظر: المصدر السابق (٣: ٢٥٣).
(٤) يُنظر: «في ظلال القرآن» (٥: ٣١١٤).

وفي قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨]، وقوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] جهنم هنا: مخلوقة حيَّة تكظم غيظها من الكافرين. والتعبير في ظاهره يبدو مجازياً تصويرياً لحالة جهنم، ولكن فيما نحس يقرر حقيقة، فكل خليقة من خلائق الله حيَّة ذات روح من نوعها، وكل خليقة تعرف ربَّها وتسبِّح بحمده، وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بخالقه... وقد وردت هذه الحقيقة في القرآن في مواضعَ شتّى تشعر بأنها تقرر حقيقة مكنونة في كل شيء في هذا الوجود، وقد جاء بصريح العبارة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وورد ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] تعبيرات صريحة مباشرة لا مجال فيها للتأويل(١).

ثم يسوق قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ مما يحتمل أن يقال فيه: إنه مجاز تصويري لحقيقة خضوع السماء والأرض لناموس الله، ولكن هذا التأويل لا ضرورة له، بل هو أبعد عن المعنى المباشر الصريح، ووردت صفة جهنم هنا: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨]، كما ورد في موضع آخر تعبير عن دهشة الكائنات وغيظها للشرك بربها، قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩٢].

ثم قال: وكلُّ هذه النصوص تشير إلى حقيقة، حقيقة إيمان الوجود كله بخالقه، وتسبيح كل شيء بحمده، ودهشة الخلائق وارتياعها لشذوذ الإنسان حين يكفر، ويشذّ عن هذا الموكب، وتحفز هذه الخلائق للانقضاض على الإنسان في غيظ وحنق، كالذي يطعن في عزيز عليه كريم على نفسه، فيغتاظ ويحنق(٢).

---

(١) يُنظر: «في ظلال القرآن» (٦: ٣٦٣٤-٣٦٣٥).

(٢) يُنظر: المصدر السابق (٦: ٣٦٣٥).

*** وفي «أضواء البيان» لمحمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ):**

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢]:

أثبت لـهذه العوالم إدراكاً وإشفاقاً من تحمُّل الأمانة...، ولم يكن هذا العرضُ مُجرَّدَ تسخير، ولا هذا الإباء مجرّدَ سلبيَّة، بل عن إدراك تام[(١)].

*** وفي «التحرير والتنوير» لابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ):**

قوله تعالى: ﴿ٱئْتِيَا﴾: أمر تكوين، والقول مُوجَّه لكل من السماء والأرض، وهو قول تكوين، أي: تعلُّق القدرة بهما، أي: بمادة تكوينهمـا.... الإتيان: أصلُه المجيء والإقبال. ومعناه الحقيقيُّ غير مراد؛ إذ لا يُتصوَّر منهما أن يأتيا، ولا يُتصوّر منهما طواعيةٌ أو كراهيةٌ؛ إذ ليستا من أهل العقول والإدراكات، فيتعيّن الصرف عن المعنى الحقيقي بأحد وجهَين؛ لهما من البلاغة المكانة العليا.

الأول: أن يكون الإتيان مستعاراً لقَبول التكوين، كما استعير للعصيان الإدبار في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ [النازعات: ٢٢]، وقول النبي ﷺ لـمُسيلمة حين امتنع من الإيمان والطاعة في وفد قومه بني حنيفة: «لئن أدبرتَ ليعقرنّك الله»[(٢)]، وكما يستعار النفور والفرار للعصيان، فمعنىٰ ﴿ٱئْتِيَا﴾: امتـثلا أمر التكوين، وهذا الامتـثال مستعار للقبول، وهو من بناء الـمَجاز على الـمَجاز، وله مكانة في البلاغة، والقول على هذا الوجه مستعار «لتعلق القدرة بالمقدور» كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ

---

(١) يُنظر: «أضواء البيان» (٨: ٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٢٠)، ومسلم (٢٢٧٣) (٢١) في خبر قدوم مسيلمة الكذاب على النبي ﷺ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وقوله: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ كناية عن عدم البعد من قبول الأمر، وهو تمثيل لتمكين القدرة من إيجادهما على وفق إرادة الله تعالى، فكلمة ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ جارية مجرى الأمثال.

والوجه الثاني: أن تكون جملة ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ مستعملة تمثيلاً لهيئة تعلق قدرة الله لتكوين السماء والأرض لعظمة خالقهما بهيئة صدور الأمر من آمر مطاع للعبد المأذون بالحضور لعمل شاق أن يقول له: ائت لهذا العمل طوعاً أو كرهاً لتوقع إبائه من الإقدام على ذلك العمل، وهذه من دون مراعاة مشابهة أجزاء الهيئة المركبة المشبهة، والمقصود على كلا الاعتبارين «تصوير عظمة القدرة الإلهية ونفوذها في المقدورات دقّت أو جلت.

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: يجوز أن يكون قول السماء والأرض مستعاراً لدلالة سرعة تكوُّنها لشبهها بسرعة امتثال المأمور المطيع عن طواعية، فإنه لا يتردّد ولا يتلكّأ على طريقة المكنية والتخييل، من باب قول الراجز:

امتلأ الحوض وقال: قطني

وقال: «القول والإتيان والطوع تكون مجازات، أو تكون حقائق، على أن يكون ذلك تمثيلاً لهيئة تَكَوُّنِ السماء والأرض عند تعلق القدرة بتكوينهما بهيئة المأمور بعملٍ تقبَّلَه عن طواعية، وهما اعتباران متقاربان.

وقال: «وكون التعبير جاء بصيغة جمع العقلاء ﴿طَآئِعِينَ﴾ فهذا ترشيح للمكنية على غرار ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾[1].

---

(١) يُنظر: «التحرير والتنوير» (٢٤: ٢٤٦-٢٤٨).

وأقول: لا يخفى ما جاءت به اللغة في أساليبها؛ حيث أسبغَت على ما لا روحَ فيه روحاً وشخّصتهُ وجعلتهُ فاعلاً ومنفعلاً ومسروراً وغاضباً وشاكياً.

فالبحتري قديماً قال:

أتاكَ الربيع الطلق يختال ضاحكاً ... من الحُسْنِ حتى كاد أن يتكلَّما[١]

ألا ترى معي قصد الربيع للمخاطب «أتاك»، ووصف الربيع باختيال المزهُوِّ بقامته أو شبابه ونضارته، وضحكُه حيث تفجَّرَ حُسْناً، وكاد لروعة طلعته أن يتكلم!!!

ثم ألا سمعتَ بذلك الوصف الدقيق لأحاسيس فرس عنترة وهو يخوض بها غمار المعركة:

مـا زلـتُ أرمـيهم بثغـرةِ نحـرِهِ ... ولُبانـــه حتـــى تَسَــرْبَلَ بالـــدّمِ

فـازْوَرّ مِـن وقْـعِ القَنـا بلبانـه ... وشَـــكا إليَّ بعـــبرة وتحمحُـــمِ

لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكى ... ولكان لو عَلِمَ الكلامَ مُكلِّمـي[٢]

وفي هذا السياق أعرضُ مجموعةً من الحقائق التي جاءت بها نصوص كثيرة:

أخبر الله تعالى عن النمل بقوله: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٌ﴾ فأثبت لها القول، ولا يشترط هنا الصوت، ولا جهاز التكلم الذي لدى الإنسان في نسبة القول لها، فهو قولٌ قالته يتناسب مع خلقتها.

وربما وجدنا من تتبُّع هذا في عالم النمل فوجد أن إشارات كيميائيَّة تتراسل بها النمل، فتقوم مقام التعبير فيما بينها، أو هكذا فهمنا، ومثل هذا ما يتعامل به النحل من

---

(١) «ديوان البحتري» (٤: ٢٠٩٠).

(٢) «ديوان عنترة بن شداد» بشرح الخطيب التبريزي ص ١٨٣.

وسائط التفاهم والاتصال فيما بينها.. ويكفي في إثبات ما أُوتي النمل من إدراك حسب قولها ما يستعصي على بعض العقلاء ما جاء من تفاصيلَ لحركة الجيش، وما يترتَّب عليها، وما حذَّرت منه وما دعت إليه، حيث قالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] فأنت ترى أنه قد أحاط إدراكها بمجيء الجيش، وأنه لسليمان، وأنه سيمرُّ على وادي النمل، وأنه سيحطم مَن لا يتوارى عن مسيره، وأنها برَّأت سليمان وجنوده من التحطيم لمعاشر النمل عَمْداً، **وبهذا يتّضح إدراك الحيوانات الثابت بأكثر من نص، وإن غاب عنا لولا ما جاء به النص.**

وفي أواخر سورة الحشر قوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا﴾ [الحشر: ٢١]، وفيها ما يدل على الاستعداد الكامل للتفاعل مع كلام الله تعالى من قبل الجبال، والخشية أثر العلم بالمخشي!! وكذا في سورة البقرة نقرأ قوله تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤] وهذا ـ كما نرى ـ عين الإدراك في الجبل والحجارة.

وهذا يتصل بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] حيث أخبر عليه الصلاة والسلام ـ وهو في معرض بيان ما أنزل الله إلينا ـ أن الأرض تشهد على الإنسان بما فعل عليها [1].

---

(١) أخرج الترمذي (٢٤٢٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] قال: «أتدرون ما أخبارها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كلِّ عبد أو أمَةٍ بما عمل على ظهرها أن تقول: عمِلَ كذا وكذا يومَ كذا وكذا»، قال: «فهذه أخبارُها»، قال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

وأخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٦٢٩)، وأحمد (٨٨٦٧).

وعن إدراك الطير، قال تعالى عن الهدهد وهو يخاطب سليمـان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ الآيات، وقد حدَّد المفسرون من كلام الهدهد هذا لسليمان مجموعة من القضايا الخطيرة التي أدركها جراء توجُّهه إلى سبأ، أدركها الهدهد وأفصح عنها لسليمان، ومنها أنه أحاط بما لم يُحط به سليمان، ووصفه النبأ بـ﴿يَقِينٍ﴾ من دقائق الإدراك.

شهادة النباتات والجمادات على صوت المؤذن:

وجاء في الحديث عنه ﷺ وهو الأدرى بأسرار الكون بما أعلمه الله تعالى إياه، وبما أطلعه الله عليه: «لا يسمع صوتَ المؤذّن من حجرٍ ولا مدَرٍ ولا شجرٍ إلا شهد له يوم القيامة»[١]، وبمَ يشهد إن لم يكن مُدرِكاً للأذان وعمَّن صدر؟!! فالشهادة هنا دليل على إدراك الشاهد بمضمون ما يشهد به، وله، وهو الأذان والمؤذِّن، علماً أن هذه الشهادة شهادة صادق بخصوص النبات والجماد؛ إذ أنها لا تعرف الكذب بحال، ولذا كانت مقبولة في حكم القضاء الإلهي. وأما شهادة الإنس والجن فهي هنا قدرية، تنأى عن التزوير.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يلبي إلا لبى من عن يمينه أو عن شمـاله؛ من حجر أو شجر أو مدر، حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩، ٣٢٩٦، ٧٥٤٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ: «إني أراك تحبُّ الغنمَ والبادية، فإذا كنت في غنَمك، أو باديتك، فأذّنتَ بالصلاة، فارفعْ صوتَك بالنداء؛ فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذّن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة».

(٢) رواه الترمذي (٨٢٨)، وابن ماجه (٢٩٢١) بلفظ: «ما من مُلَبٍّ».

وفي الحديث عن فضل يوم الجمعة: «وما من دابَّـة في الأرض إلا وهي تُصيخ بأذنها من فجر يوم الجمعة حتى طلوع الشمس؛ إشفاقاً من الساعة إلا الجن والإنس»[١].

وسرُّ استثناء الإنس والجن أنهم مكلَّفون.

وهناك جَمَلٌ قد ندّ عن أهله، ثم خضع للرسول عليه الصلاة والسلام خضوع معرفة لا خضوع قهر، حتى قال الصِّدّيق: لكأنه يعلم أنه رسول الله، وقال رسول الله: «نعم، إنه ما بين لابتيها إلا وهو يعلم أني رسول الله»[٢]. ودلالة الحديث واضحة بنصيب الكوائن من المعرفة، وإن لم تكن مكلفة.

تسبيح الكائنات بحمده سبحانه:

وفي الآية الكريمة من سورة الرعد قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣] وهذا في إطار تسبيح الموجودات، وإن كان لكلٍّ منها تسبيحه الذي يتناسب مع ما خلق عليه. وسيأتي «تسبيح الحصا في كفه» عليه الصلاة والسلام.

ولا مانع يمنع من كون التّسبيح في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] على الحقيقة؛ على اعتبار أنّ كلَّ تسبيح يتلاءم مع هيئة المسبِّح وتكوينه.

وإذا كان الحسُّ لا يشهدُ بذلك، فإنه لا يُرتكَنُ لشهادة الحسِّ هنا؛ إذ هو مقصور على ما خلق عليه، فلا يتعدّاه.

---

(١) رواه أحمد (١٠٣٠٣)، وأبو داود (١٠٤٦)، والحاكم (١: ٤١٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (١٤٣٣٣) بلفظ: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر، حتى إذا دفعنا... ثم التفت إلى الناس، قال: «إنه ليس شيء بين السماء والأرض، إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس».
ورواه الدارمي (١٨). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨: ٥٦١): رواه أحمد ورجاله ثقات، وفي بعضهم ضعف.

والأصل إجراء اللفظ على ظاهره ما لم يصرفه عن الظاهر صارف قويٌّ، ومن الصوارف: استحالة الظاهر عقلاً أو شرعاً، ولذا قالوا: متى ورد اللفظ وجب حمله على الحقيقة في بابه: لغةً أو شرعاً أو عرفاً، ولا يحمل على المجاز إلا بدليل يمنع حمله على الحقيقة من معارض قاطع، أو عرف مشهور.

وقد أشار الفقهاء إلى أنّ المجاز إذا كثر استعماله كان أدلَّ على المجاز منه على الحقيقة، كالحال في اسم ﴿ٱلۡغَآئِطِ﴾ الذي هو أدل على الحَدَث الذي هو فيه مجاز منه على «المطمئن من الأرض».

اختلاف معاني الألفاظ العربية لأسباب:

منها: أنها متردِّدة بين الحقيقة والمجاز، وقد يحمل اللفظ المعنَيـَين فأكثر، كما في لفظ «القرء» فإنه يفسر بالحيضة وبالطهر.

إذا قامت قرينة على إرادة الحقيقة ـ وحدها ـ يحمل عليها اللفظ، وإن قامت على قصد المجاز وحده يحمل عليه فقط، وإن لم تقم قرينة على قصد المجاز لانتفائه يحمل على الحقيقة.

ـ قوله تعالى بشأن الحواريين الذين قالوا للسيد المسيح عليه السلام: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢].

فإن كان «يستطيع» من القدرة والاستطاعة فذاك كفر، وإن كان المعنى: هل يجيبك الله إذا سألته ذلك ليطمئنّ القلب أنك رسوله؟ فالمعنى سائغ، ولا غبار عليهم منه.

ـ وقد تقرر في كتب في الأصول أنه: إذا دار الكلامُ بين الحقيقة والمجاز، فالحقيقة الأصل.

وقد قرَّر هذا القرطبي (ت ٦٧١هـ) فقال: إذا احتمل اللفظُ الحقيقة والمجاز، فالأصل الحقيقة حتى يَرِدَ دليلٌ يُزيلها[١].

بين الحقيقة والمجاز:

لا بد من الوقوف على قضيتَي الحقيقة والمجاز، وقد امتلأت بهما اللغة العربية التي اختارها الله وعاءً لخاتمة الرسالات، فما أبعاد كل من هاتين الكلمتين: الحقيقة والمجاز؟ لنصيب حين نطلق كلاً منهما على ما نطلقه عليه، ولننأى بمعرفتنا تلك عن الخلل في التعبير، أوفي فهمه الذي سيؤدي ـ لا محالة ـ إلى اضطراب في الحكم...

الحقيقة: مشتقّة من الحق، ومن معانيه ـ لغةً ـ: الثبوت، وحقيقة الشيء: منتهاه وأصله المشتمل عليه[٢].

وهي ـ اصطلاحاً ـ: الكلمة المستعمَلة فيما وضعت له في اصطلاح يقع به التخاطب بالكلام المشتمِل على تلك الكلمة، أو: هي لفظ أريد به ما وُضع له ابتداء حيث يدلُّ عليه بغير قرينة...

والمراد من الوضع: تعيين اللفظ بإزاء معنى تدلُّ عليه بنفسها.. أو بإزاء معنى يدل عليه بنفسه...[٣].

أما «المجاز» فهو: اسمٌ لِما أريد به غير ما وُضع له لمناسبة بينهما، كتسمية الشجاع «أسداً» سُمّي به مجازاً، لأنه جاوز وتعدّى محله ومعناه الموضوع له إلى غيره لمناسبة

---

(١) «تفسير القرطبي» (٢: ٣٣٠).

(٢) يُنظر: «لسان العرب» (١٠: ٥٢)، و«تاج العروس» للزَّبيدي (٢٥: ١٨٢).

(٣) يُنظر: «الموسوعة الفقهية الكويتية» (١٨: ٤٩).

بينهما، فالمجاز ـ هنا ـ خلف عن الحقيقة، أي: إنّ اللفظ المستعمل في «المعنى المجازي» خَلَف لنفس اللفظ المستعمل في «المعنى الحقيقي»[١].

فالمجاز: كلُّ كلمة أُريد بها غير ما وُضعت له في وضعٍ واضعها لملاحظة بين الثاني والأول، أو: كلُّ كلمة جزت بها ما وُضِعَت به في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً، لملاحظة ما بين ما تُجُوِّز بها إليه وبين أصلها الذي وضعت له.

فإطلاق «اليـد» مثلاً على النعمة؛ لِـما بين النعمة وهذه الجارحة من التباس واختصاص، وهو أن «اليد» لا تكاد تقع للنعمة إلا وفي الكلام إشارة إلى مصدر تلك النعمة، ولو أردت النعمة مجرَّدة لأمكنك أن تقول: «اتَّسعت النعمة»، ولا تقول: اتسعت اليد، وتقول: «أقتني نعمة»، ولا تقول: أقتني يداً، وحيث تقول: «جلّت أياديه لدي» تلحظ الأصل، وهو صنائعه لك، وفوائده الصادرة عن يده، ولا تقول: «اليد» اسماً للنعمة هكذا على الإطلاق.

ـ وقولك: «أنبتَ الربيعُ الأزهارَ»، فإسناده على المجاز، بخلاف ما لو أسندت ذلك للحي القادر؛ فإنه على الحقيقة.

ثم لا سبيل إلى الحكم بأن ههنا مجازاً أو حقيقة عن طريق العقل إلا في جملة من الكلام، كما لا توصف الكلمة المفردة بأنها صدق أو كذب لا توصف بالحقيقة والمجاز، بل لا بد من الجملة.

واستطراداً: حدُّ كل واحد من وصفَي المجاز والحقيقة ـ إذا كان الموصوف به المفرد ـ غير حدّه إذا كان الموصوف به الجملة.

---

(١) يُنظر: «التعريفات» للجرجاني (ت ٨١٦هـ)، ص ٢٠٢-٢٠٤.

حدُّهما في المفرد:

كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع الواضع وقوعاً لا تستند فيه إلى غيره «فهو حقيقة»، ووصف الكلمة بأنها حقيقة أو مجاز حكم فيها من حيث إن لها دلالةً على الجملة، وحق الحد أن يجري في جميع الألفاظ الدالّة.. وحد الخبر بأنه ما احتمل الصدق والكذب ممَّا لا يختص به لسان.

وقولك: «**الأسد**» تريد به السبُع، فقد أردت به ما تعلم أنه وقع له في وضع واضع اللغة. وإذا استعمل للدلالة به على الرجل الشجاع، فهو مجاز لغويّ، وعلاقته المشابهة، فهو من نوع المجاز بالاستعارة.

ولفظ «**اليد**» إذا استعمل في العضو المعروف من الجسد فهو حقيقة لغوية، وإذا استعمل للدلالة به على الإنعام، أو على القوة، أو على التسبُّب في أمر ما، فهو مجاز لغوي، وعلاقته غير المشابهة، فهو من قبيل المجاز المرسل، وكذا قولنا: «**سال الوادي**» أسندنا به السيلان إلى الوادي. بيد أن الوادي - وهو مكان - لا يسيل، لكن الذي يسيل هو الماء فيه، فهذا الإسناد مجازيٌّ علاقتُه المجاورة، وهو من المجاز العقلي، وهكذا في سائر التعبيرات.

ولا بد في المجاز من قرينة صارفة عن إرادة ما وضع له اللفظ، والقرينة هي الصارفة عن الحقيقة إلى المجاز؛ إذ اللفظ لا يدل على المعنى المجازي بنفسه دون قرينة.

- من المهم أن نستعرض النصوص الكثيرة التي ظهر فيها الجماد - في حِسِّنا - على أن له لونَ معرفةٍ ومشاعرَ ودراية، بصمةُ حسِّها تحبسُها عنا، لولا النص والواقع كما سنعرضه، ولعلَّ كثرة هذه النصوص وتنوع مضامينها يمنع من أن تكون كلها سيقت على سبيل المجاز والتمثيل لمعنى معيَّن يستخلص بالفهم، وبخاصَّة إذا علمنا أنَّ الأصل

في اللغة الحقيقة، وأما المجاز فيأتي في سياق التعبير ولأغراض منها: البلاغي كالتشخيص الذي يمثله بثّ الحياة فيما لا حياة فيه، ومنها: التمكّن من التعبير عن معنى بأسلوب غير مباشر إظهاراً للقدرة التعبيريَّة، وحفزاً للأذهان أن تقف على المراد، ومنها: ما هو دال على سَعة اللغة في عطائها المباشر وغير المباشر.

خذ ـ مثلاً ـ قولَه ﷺ: **«اقطعوا لسانه عني، فأعطوه مئة من الإبل»**، علماً أن ناساً فزعوا لما سمعوها، وقالوا: أمر بعباسٍ ـ وهو المراد قطع لسانه ـ يُمثَّل به، وذلك في غزوة حنين[1]، وفزعُهم مشروعٌ؛ إذ حملوا بادئ الأمر(الأمر بالقطع) على الحقيقة لا على المجاز، بخلاف من أمر ليقطع؛ فإنه بادر فأعطى المأمور بلسانه أن يقطع مئة ناقة.

كان ذلك لما أعطى الرسول ﷺ العباس بن مرداس أربعاً من الإبل، وأعطى غيره من المؤلفة قلوبهم عشرات منها، فعاتب العباسُ النبيَّ في شعر، وجاء في الحديث «اشكموه»[2] أي: أعطُوه حتى تُلجموه، كما قال «اقطعوا لسانه»، والشكم: العطاء على سبيل المكافأة، فهو من العطيَّـة التي تمنع من الإيذاء. قال العلماء: وهذا نوع من الرشوة رخص فيه السلف لدفع الظلم.

هذا، وقد تضمّن شعر العباس الذي عاتب فيه: التعجُّب من تصرُّفه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين أعطاه أقل من غيره فلم يرق ذلك له.

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥: ١٨٢-١٨٣) بلفظ: كان من أعطى رسول الله ﷺ من أصحاب المئين من المؤلفة قلوبهم من قريش....: «اذهبوا فاقطعوا عني لسانه»؛ عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم.

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وقد جاء حديثٌ عن ابن عباس: أن النبي ﷺ احتجم وقال: «اشكموه».

رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١: ٤١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩: ٣٣٨).

ـ تُشعِر نصوصٌ كثيرة برسوخ الأشياء في مضمار المعرفة إذ التسبيح تنزيه، وهو لبُّ قضايا الإيمان.

أجل هي معرفة، لكنها معرفة لم ترق إلى ما مكّن به الإنسان حيث وضع على كيفيَّة بها يصلح للتكليف، والارتقاء في معارج المعرفة، وإلا لم يبق فارق بينه وبين الأشياء غير الكلفة!! مع أنه مكلَّفٌ ومعه الجن دون سائر المخلوقات، ما خلا الملائكة.

الحدود تكاد تنعدم بين الجماد والنبات والحيوان، بل كلها سواء أمام القدرة، فالعصا بلمحة انتقلت من مادة نباتيَّة يبست خلاياها وتوقفت عن النمو، فصارت أفعى بكل مواصفاتها، ثم أعيدت سيرتها الأولى، هي نقلة في نظرنا كبيرة، لكنها ليست بشيء أمام القدرة.

الأصل أن يبقى النص على ظاهره كما هو معلوم ما لم يخرجه عن ظاهره مخرج قوي، بل أقوى في منع الظاهر المتبادر.

إن نسبة القول إلى النملة التي ذكرناها على أن لها لغة لا يعني أنّ قولها كما نحن عليه من القول، بل إذا كانت الألفاظ عندنا تسمع، ولها جرْسٌ، فهي لا تسمع من النملة، وليست بمخارج حروف وتدفُّق هواء، ولولا ما أوتي سليمان لَـمَا سمعها ولَـمَا فهم ما قالت، ولهذا تفرّد بسماعها وفهم ما تقول.

ما قرَّره العلماء في حقِّ المتشابه:

ـ يحضرني ـ هنا ـ ما يتعلق بالمحكم والمتشابه من الآيات، وصرف المتشابه عن ظاهره، حيث استحال الظاهر في حقِّ الله تحكيماً للمحكم فيه، وما قرَّره العلماء في حقِّ المتشابه: أننا نثبت ما ثبت منه قرآناً أو حديثاً شريفاً، ونسلِّط عليه المحكم لأنه «أمُّـهُ» التي يرجع إليها، فإذا بنا أمام تنزيه الله عن الظاهر المتبادر من النص، وإثبات معنى ـ لا

محالةَ ـ أريد بهذا التعبير المتشابه الذي يُوهم ظاهرُه مشابهةَ الله تعالى للمخلوقات، ونفوّض أمر معناه لله حيث إنه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، وهذا الأسلم والأحكم، أو يسلك معه مسلك الذين ذهبوا إلى التأويل بشروطه...

نحن أمام هذا قد صرفنا النص عن ظاهره المتبادر، فلماذا سلكنا هذا المسلك؟ لأنَّ الظاهر المتبادر لا يليق بجناب الله تعالى بدلالة المحكم.

ولكن هل هذا يصح في قضية نسبة القول ـ مثلاً ـ أو المشاعر من رضا وغضب إلى الظواهر الكونيَّة؟ وأي خطر أو ضرر يلحق بهذه الظواهر إذا فعلنا ذلك؟ أهو لون من ألوان احترام الحسِّ والمعرفة المستقرَّة به إزاءَ ما حولنا من أشياء، لكلٍّ منها صفاته الأصيلة، وقد ميّزنا في معرفتنا لها بين المعدن والجماد والنبات والحيوان، والعناصر الكونيَّة الأخرى، وهل أقرّت الشريعة فينا مثل هذا العطاء المعرفي للأشياء مع الإغماض عن حقائق مستورة عنا في هذا الوجود؟ سأبيِّن ـ ولو بلا ترتيب ـ هذه الأمور في سياق الكلام.

عرض مجموعة من النصوص في شهادة الأعضاء وشعور الجمادات وتسبيح الأكوان:

ـ سأعرض مجموعةً من النصوص الـمُستلّة من الكتاب والسنة، وأذكر ما استطعت من أقوال العلماء فيها، وأترك زخمها يفعل فعله في النفس ليوقفها على بعض أسرار هذا الوجود، مع احترام الظواهر وسماتها كما علمتنا شريعة الله تعالى.

١ ـ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢٠-٢١].

أسنَدَت الآيةُ الشهادةَ إلى أعضاءٍ من الإنسان: السمع والبصر والجلد، وجعلت المشهود عليهم ينكرون هذه الشهادة لأنها وُجِّهت ضدَّهم وفضَحَتهُم، وقد كان هؤلاء

الشهود من جملة تكوين هذا الإنسان، وختمت بتعليل واضح أنّ هذه الشهادة كانت بإنطاق الله لها... وسيأتي بيان ذلك.

٢ـ وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥].

بيّنت أنه قبل إنطاق الجوارح يقع الختم على أفواه المنكرين لما أسند إليهم من كسب، ثم تبدأ الأعضاء بالإدلاء بالشهادة في المحكمة الربّانيّة، ويستمع إلى الشهود الذين تمثلهم الأيدي والأرجل.

٣ ـ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وهنا يطلُّ اللسان لا لينكر كما كان عليه أمره في الدنيا؛ بل ليقرر ما وقع بفصاحة وبيان باهر.

وهؤلاء جعلوا الدلالة الحالية بمنزلة المقالية مجازاً، وفيه أنه لا يُصار إلى المجاز مع إمكان الحقيقة. عند قوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥].

٤ـ نسبة التكليم إلى الأيدي دون الشهادة لمزيد اختصاصها بمباشرة الأعمال؛ حتى إنه كثر نسبة العمل إليها بطريق الفاعلية، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠] والختم على الأفواه ليس بعدم شهادتها، لكنه منع المحدِّث عنهم عن التكلُّم بألسنتهم، وشهادتها أن يجعل فيها علماً وإرادة وقدرة على التكلم، فتتكلم هي وتشهد بما تشهد، وأصحابها مختوم على أفواههم لا يتكلمون.

أخرج ابن جرير (ت ٣١٠هـ) وابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) عن أبي موسى

الأشعري من حديث «يُدعى الكافر والمنافق للحساب... فيعرض ربه عليه عمله فيجحد، ويقول: أي رب! وعزّتِك لقد كتب علي هذا الملَكُ ما لم أعمل، فيقول... ثم يقول: فإذا فعل ذلك ختم على فيه، فإني أحسب أول ما تنطق منه فخذه اليمنى.. ثم تلا الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾[يس: ٦٥][(١)].

وقريب منه مع اتِّحاد المضمون ما أخرجه مسلم والترمذي والبيهقي عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما مرفوعاً، وفيه: «فيختم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي! فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعملِه»[(٢)].

وفي خبر يدلُّ على أن العبد يطلب شاهداً منه: «فيختم على فيه»[(٣)].

ومنه ما أخرجه مسلم وأحمد وابن أبي الدنيا، وفيه: «أن العبد يخاطب ربه يقول: يا رب! ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى...»[(٤)].

وجاء في «البحر المحيط» لأبي حيان (ت ٧٤٥هـ): لما سئلوا عما أجرموا فأنكروا «شهد عليهم» بما اكتسبوا من الجرائم، وكانوا حسبوا أن لا شاهد عليهم، ففي الحديث: «إن أول ما ينطق من الإنسان فخذه... ثم تنطق الجوارح، فيقول: تباً لَكُنَّ وعنكِ كنتُ أدافع....»[(٥)].

لما جهل هؤلاء أمر الشهادة، حيث حصروا فهمهم لها بالشهود من بني آدم، وظنوا

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠: ٥٤٤)، وابن أبي حاتم (١٨٠٩٨).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٨) (١٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١: ٥٤١)، وأصل الحديث في الترمذي دون الموضع الذي استُشهِد به (٢٥٥٤).

(٣) رواه مسلم (٢٩٦٩) (١٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١٥٨٩) عن أنس رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (٢٩٦٩)، والنسائي في «الكبرى» (١١٥٨٩)، وابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٨).

(٥) ذكره أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» (٩: ٢٩٨).

ألا شهود سواهم، فهم قد استتروا من الناس حال ارتكابهم المعاصي، وغفلوا أنه ثمة شهود عليهم من أنفسهم. ألا يدل هذا على خطأ فادح حيث لم يدركوا سَعة ميادين الشهادة وحصروها في إطار واحد.. ومثله في التأني في التناول قضية تناول القول المنسوب إلى السماوات والأرض ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

وقال أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) في «البحر المحيط»: الظاهر أن الجلود هي المعروفة، وقيل: هي الجوارح كُنِّيَ بها عنها، وقيل: كنى بها عن الفروج، قيل: وعليه أكثر المفسرين، منهم ابن عباس(١).

وقال أيضاً: إنّ نُطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان، وعلى خلقكم وإنشائكم، وعلى إعادتكم...وإن سؤالهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١] لتعاظمهم من شهادتها، وكبر ذلك عليهم والافتضاح على ألسنة الجوارح(٢).

ألا يدل هذا على أنّ نطق الجلود والجوارح على الحقيقة، وإن كانت اليوم ليس من شأنها النطق كما هي سنَّة الله في الناطقين، ويدعم ما ذكرنا مسألة «الفدام» حيث يوضع على الأفواه التي استنطقت جوارحها.

قال أبو السعود (ت ٩٨٢هـ) في «تفسيره»: تشهد عليهم بأن ينطقها الله أو يظهر عليها آثار ما اقترفوه(٣).

فأنت ترى أنه قدَّم نطقها نطقاً حقيقياً، وعطف الاختيار الثاني، وفيه أن النطق ـ هنا ـ بمثابة ما يظهره الله عليها من آثار المعاصي.

---

(١) يُنظر: «تفسيره» (البحر المحيط): (٩: ٢٩٨).

(٢) يُنظر: «البحر المحيط» (٩: ٢٩٩)؛ حيث نقله من كلام الزمخشري من «الكشاف» (٤: ١٩٥).

(٣) يُنظر: «تفسير أبي السعود» (٨: ١٠).

وقد جاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهمـا ـ أن المراد بشهادة «الجلود»: شهادة «الفروج».

قال أبو السعود (ت ٩٨٢هـ): وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١] فإن ما تشهد به من الزنى أعظم جناية، وأجْلَبُ للخزي والعقوبة ممَّا يشهد به السمع والأبصار من الجنايات... وسؤالهم للجوارح الشاهدة سؤالُ توبيخ؛ لِـما ورد أنهم قالوا لها بعد الإدلاء بالشهادة عليهم: «فعنكُنَّ كنت أناضل...»، وفي رواية: «بُعداً لَـكُنّ وسُحقاً، عنكُنّ كنتُ أُجادل»[1].

وصيغة جمع العقلاء في خطاب «الجلود» وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]؛ لوقوعها موقع السؤال والجواب المختصين بالعقلاء. وقيل: سألوها سؤال تعجب، أو المعنى حينئذ: ليس نطقنا بعجب من قدرة الله الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة، فإن من قدر على الخلق والإعادة وإرجاع الأجزاء إلى ما كانت عليه لا يتعجب من إنطاقه لجوارحكم.

وفيها دليل على إعادة «البنية الأولى» للإنسان؛ إذ لولا ذلك لَـمَا صحّ أن تشهد جلود ليست هي الجلود السابقة التي عافس صاحبها بها ما عافس.

ـ وقد ساق ابن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ) في «تفسيره» ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه في يوم القيامة، يختصمون، فيجحد الجاحد بشركه ويحلف، فيبعث الله شهداء من أنفسهم «جلودهم وأبصارهم و...» ويختم على أفواههم، ثم

---

(١) يُنظر: «تفسير أبي السعود» (٨: ١٠).

والحديث رواه البزار في «مسنده» (٧٤٧٦)، وأبو يعلى (٣٩٧٥)؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

يفتح لهم الأفواه فتتخاصم الجوارح، فتقول: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١][(١)].

كما أورد عن جابر رضي الله عنه أنه لما رجع مهاجرةُ الحبشة سألهم الرسول عليه الصلاة والسلام: «ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟».... وممّا قالوه عن امرأة عجوز أوذيت، فهدّدت المؤذي إذ قالت: سوف تعلم ـ يا غُدَر ـ إذا وضع الله الكرسي... وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون» وعلق الرسول على الخبر بقوله: «صدقت»[(٢)]. أي: تلك المرأة بما أخبرت.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] إذا كان تفجُّر الأنهار وخروج الماء منها على الحقيقة، فلِمَ تكونُ نسبة الخشية لها على المجاز؟!! ألا ترشح الحقيقة في صدر الآية على كون الخشية من بعد على الحقيقة؟!.

٦ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إذا كان عرض الأمانة يفسر بقيام هذه المخلوقات على هيئة من الخلق لا تمكنها من القيام بالأمانة التي حملها الإنسان بما هُيِّئ فيه لها، فالإشفاق حالة نفسيّةٌ تشعر بالرهبة إزاء المعروض على المشفق، وإذا كانت الآية قد أسندت الإشفاق هنا لهذه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٤٥٦).

(٢) المصدر السابق (١٨٤٥٧).

ورواه ابن ماجه (٤٠١٠)، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده حسن، وسعيد بن سويد مختلف فيه. ورواه ابن حبان (٥٠٥٨).

المخلوقات الضخمة، فإنَّ الخشية قد أسندت في الآية السابقة للحجارة.

٧ ـ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ – ٩١].

إنّ مقاربة السماوات من التفطُّر، والأرض من التشقُّق، والجبال من الخرور هداً في الآيات، على ضخامتها جرّاء تلك الفرية التي لا تهضمها هذه المخلوقات، ولا تتحمّل سماعها، وهذه الغضبة بمظاهرها تميط عن معنى التوحيد الساري في ذرات الوجود، التوحيد الصافي الذي لا يقبل الغبش بله التلويث.

٨ ـ قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] أليس في النصّ إثبات التسبيح لهذه المخلوقات على الحقيقة بدليل نفي الفقه لهذا التسبيح عن المخاطبين؟ وبهذا ينبه من ذهب إلى أن التسبيح عبارة عن دلالتها على عظمة الله تعالى؛ إذ في هذا التأويل فقه التسبيح! علماً أن النص قد نفى ذلك، أفلا يدلُّ هذا على أن تفسير التسبيح بما يرجع إلى دلالات التوحيد في هذه الموجودات لون فقه له؟ كيف وقد قال: ﴿وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وسيأتي ما يعضد أن التسبيح على الحقيقة التي تتناسب مع المسبِّح.

٩ـ وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ﴾ [الرحمن: ٦] وهذا في عالم النبات الذي أثبت له السجود، وهو لون تقرب فطري من هذه الكوائن لله تعالى، والسجود على المعنى اللائق بهذه النباتات لا يقتضي القامة التي تقوم لتقرأ القرآن ثم تركع وترفع ثم تهوي ساجدة؛ إذ نسبة الحقائق لأصحابها مما يتناسب مع المنسوب إليه، فوجه النهار في قوله: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ [آل عمران: ٧٢]، غير

(الوجه) في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، غير (الوجه) في قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] أليس النص واضحاً حسب الظاهر تجاه نسبة الخشوع والتصدُّع فيها لو أنزل عليه القرآن، وذلك جراء الخشية التي فيها لمسة علم بمن يخشى سبحانه؟ وقد قدمنا ذلك من قبل، وزيادة ـ هنا ـ مسألة التفكر الذي ترتب على ضرب المثل بما ينال الجبل من هيمنة الخشية!

١١ ـ قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] ففي النص عطاءاتٌ بصيرة مرشدة للواعي الحصيف الذي لا ينكر عطاء الحواس، ولا يقف عند حدودها في مضمار المعرفة، فمن عطائه: أنه يرشد إلى ألا نحكم في أمر العلوم الكونيَّة بمجرَّد ما تطبعه الحواس فينا إثر الملاحظة لها من مشاعر ومعان ومفاهيم، ولذا أثبت الحسبان للنفس إثر رؤية الجبال، وبين الحقيقة التي لا تلتقطها العين، وهي ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] أفلا يمكن على هذا ألا نسارع إلى إثبات القول للسموات والأرض على سبيل المجاز، والوقوف منه إنكاراً له على سبيل الحقيقة بناء على ما عرفنا من أمر آلية القول فينا؟

ـ إن قالوا: هذا ـ أي حال الجبال ـ يكون في الآخرة، وهي عالم تظهر فيه قدرةُ الله تعالى.

نقول: الدنيا والآخرة سواء بالنسبة لقدرة الله، وقدرة الله تعالى لا تتعلق إلا بالممكن، ولهذا كانت المعجزة أمراً خارقاً للعادة، أي: جرت مجرى الممكن يظهر على غير ما جرت عليه سنته.

إنّ المستحيل الذاتي الذي لا تتعلق به القدرة هنا لا تتعلق به هناك في الآخرة؛ إذ لا يتغيّر المستحيل عقلاً ـ وهو الذي لا يقبل الوجود لذاته ـ بين الدنيا والآخرة. ولهذا ما جاز أن تتعلق به القدرة هناك جاز أن تتعلق به هنا، وبهذا لا يصح ادِّعاء أن هذا يكون في الآخرة علما أن قضية ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] في الآية هو من الظواهر الكونيَّة في الدنيا على الرأي الراجح.

ـ ويتجلى لنا بهذا أن هذا الكون العريض قد عرفنا منه ما عرفنا، وغاب عنا الكثير من حقائقه، ولا يصح ادعاء الإحاطة، ويبنى على ذلك أن الحكم على النص من خلال معارفنا أمر مقبول إذ الآية بيَّنَت ما يقع في الرؤية بقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ [النمل: ٨٨] والناتج ذلك الحسبان الذي يقر في النفس جراء هذه الرؤية ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ لم يؤنّب عليه النص، لكنه أحاله على الحسبان الذي ليس من اليقين، وإنما هو من الرجحان.

ولهذا ما كان من الأمور الكونيَّة التي تكشف عمّا غاب عنا أو ما غُـيِّب عنا في هذه الدنيا، وبلّغنا إياه الرسول ﷺ عبر النص، فالأمر مختلف حيث لا يجوز أن تسلط معرفتنا القاصرة على ما أحطنا به على المضمون المبلَّغ؛ فنحيله إلى أنّ التعبير هو من المجاز، وليس من الحقيقة؛ إذ الحقيقة هنا ما بلغه فهمنا عبر الحواس، ومداركنا عبر التعامل، لا ما هي عليه الحقيقة كما يُجلّيها النصُّ، ولا يمنع هذا احتمال المجاز لأنه واقع فعلاً في أساليب التعبير، وهذا الاحتمال من وراء من ذهب إليه أمام النصوص، بيد أنه ثمة مرجّحات ينبغي ألا تغفل في التناول، قد يختار المشرِّع قالباً تعبيرياً يصبُّ فيه المعنى الذي يريد أن نقف عليه، واحتمال كون هذا القالب من المجاز، يظل قائماً في كثير من النصوص، ومن هنا لا يُخطَّأ تخطئة المذنب من نحا هذا المنحى، والتأني في التناول

مطلوب، وذو البصيرة لا يتعجّل، وإن سوغ ما يحمل على المجاز، فإنه لا يستبعد على وَجْه الاستحالة ما يمكن حَـمْلُه على الحقيقة، خاصّةً وأنه ليس ثمة نص قاطع ينفي الحمل على الحقيقة كما في مسألة المتشابه؛ حيث لو حمل على الظاهر المتبادر لأوقع في نسبة ما لا يليق إلى الله تعالى. على أن هناك نصوصاً ممحضة للحقيقة حيث ثبتت قاطعة من مثل تسبيح الحصى في كفّ الرسول عليه الصلاة والسلام.

إدراكات الجمادات وتسبيحها لخالقها وخشوعها:

هناك نصوص كثيرة تخرج كثرتها القضية عن أن تكون من باب ضرب المثل أو التمثيل أو التشخيص أو الكنايات، وتدل على أن الكون بما فيه قد عبق بحقائق أخفيت عنا لولا النصوص ما دريناها، وربما أظهرت لنا كما نبيِّن فيما يلي؛ ولو على سبيل الإعادة لتأكيد المعنى:

١ ـ عن جابر رضي الله عنه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بني النجار إذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحدٌ إلا شدّ عليه، قال: فذكروا ذلك للنبي ﷺ فجاء، حتى أتى الحائط فدعا البعير، فجاء واضعاً مشفره إلى الأرض حتى برك بين يديه، قال: فقال النبي ﷺ: «هاتوا خطاماً»، فخطمه، فدفعه إلى صاحبه، قال: ثم التفت إلى الناس، فقال: «إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس». رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة وغيرهم[١].

(١) رواه أحمد (١٤٣٣٣)، وأبو يعلى (١٨)، وابن أبي شيبة (٣٢٣٧٧).
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨: ٥٦١): رواه أحمد ورجاله ثقات، وفي بعضهم ضعف.
ورواه الطبراني في «الكبير» (١٢: ١٥٥) عن ابن عباس رضي الله عنه.
وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٩: ٧) بعد أن ذكر رواية الطبراني: وهذا من هذا الوجه =

ورواه البيهقي وصحّحه[١]، وقال ابن كثير: هذه طرق جيدة تفيد غلبة الظن أو القطع[٢].

وفي الحديث بيان أن ما بين السماء والأرض من مخلوقاتٍ لديها علم بكونه ﷺ رسولاً.....

ثم: أفي الجمادات إدراكاتٌ، يمثلها الحبُّ والبغض، والبكاء والفرح، والغضب والطاعة والخشوع، والرهبة والخشية؟

إنَّ من يتتبّع النصوص يرى وجود هذه الإدراكاتِ فيما تناولته هذه النصوص ممَّا يُوسع دائرة فهمنا لهذا الكون الذي نعيش في رحابه.

أُحُد يحبنا ونحبُّه:

فجبل أُحد يحبُّ الرسول ﷺ ويحبُّه الرسول، وقد أعلن ذلك، وتواتر عنه كما في «نظم المتناثر»[٣].

٢ـ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه، فلما قدم النبي ﷺ راجعاً، وبدا له أُحُد، قال: «هذا جبل يحبنا ونحبه»[٤]. متفق عليه واللفظ للبخاري.

= عن ابن عباس رضي الله عنه غريب جداً، والأشبه رواية الإمام أحمد عن جابر، اللهم إلا أن يكون الأجلح قد رواه عن الذّيّال عن جابر وابن عباس.

(١) يُنظر: «دلائل النبوة» (٦: ٢٢-٢٣).

(٢) يُنظر: «البداية والنهاية» (٩: ١٥).

(٣) «نظم المتناثر من الحديث المتواتر» للكتاني (٢٤٥).

(٤) رواه البخاري (٢٨٨٩).

وفي رواية لهما عن أنس قال: نظر رسول الله ﷺ إلى أُحُد فقال: «إنَّ أُحُداً جبل يحبنا ونحبه»(١).

وأنت خبير أنَّ الجملة هنا مؤكَّدة المضمون بـ «إن» إزاحةً لتردُّد من يستقبل هذه الحقيقة بتردد، وسأعرض لِـمَن ذهب بالمعنى إلى المجاز بعد قليل.

حنين الجذع:

٣ ـ لما كثُر عدد المُصلِّين، وضاق المسجد بهم حيث لم يعُد يَرى مَن صلَّى آخِرَ المسجد رسولَ الله ﷺ إذا وقف في مقدمة المسجد، وكان حين يخطب يضع يده على جذع نخل منصوب على يمين المحراب ـ اليوم ـ إذا تعب، فاقترح الصحابة على الرسول أن يصنعوا له منبراً يقف عليه حين يخطب، فوافق، وصنعوه من طَرْفاء الغابة، وفي أول أسبوع للمنبر خرج الرسول ﷺ من باب حجرته الشريفة يريده، فلما جاوز الجذع الذي كان يخطب عنده، ولم يقف عنده، وصعد المنبر، وإذا بالجذع يصرخ صراخاً شديداً، ويحنُّ حنيناً مؤلِماً، حتى ارتجّ المسجد، وتساقط الغبار، وتشقق الجذع ولم يهدأ، فتأثر الصحابة وبكَوا، ونزل الرسول عن المنبر، وأتى الجذع، فوضع يدَه الشريفة عليه، ومسحه، وضمّه بين يديه إلى صدره حتى هدأ، ثم خيَّره بأن ساره ـ وهو الجماد الميت ـ بين أن يكون شجرةً في الجنة، وبين أن يعود شجرةً مثمرة في الدنيا، بأن يُعيده إلى بستانه الذي كان فيه، فيُثمر من جديد، ويأكل منه المؤمنون، فاختار الجذعُ المشوق الحنّان أن يكون شجرة، فقال ﷺ: «أفعل إن شاء الله» وكرّرها ثلاثاً، فسكن الجذع، ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم ألتزمْه لبقي يحنُّ إلى قيام الساعة» شوقاً(٢) إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

---

(١) رواه مسلم (١٣٩٣).

(٢) رواه البخاري (٣٥٨٥)، والترمذي (٣٦٢٧)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه. =

وفي هذا أمور منها اختيار الجذع أن يكون في الجنة، ولم يرتض العود إلى الدنيا ناضراً مثمراً.

وقال الشافعي (ت ٢٠٤هـ) رحمه الله تعالى: ما أعطى الله تعالى نبياً ما أعطى محمداً ﷺ، فقال له عمرو بن سوّاد: أعطي عيسى عليه السلام إحياءَ الموتى، فقال الشافعي: أعطى محمداً حنينَ الجذع حتى سُمع صوته، هذا أكبرُ من ذلك.

هذه في «آداب الشافعي ومناقبه»، و«دلائل النبوة» للبيهقي، و«فتح الباري»، و«الشمائل» لابن كثير(١).

وقد علّق العلماء على هذا فقالوا: الإحياء إعادةُ الميِّت إلى ما كان، أما حنين الجذع فهو أكبر، لأنَّ الجذع جمادٌ جعله يدرك حالة الفراق ويحنُّ لها وينشج، فهذا أبلغ.

قال العلماء: قد تواتر حنينُ الجذع للرسول ﷺ وشوقه إليه عندما فارقه عليه الصلاة والسلام؛ حيث ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عدد من الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

ونصَّ عليه عدد من العلماء، وقالوا: حنَّ الجذع حتى تصدَّع، واهتزَّ المسجد، وسمع الناس صوتَه شوقاً إلى رسول الله ﷺ، وقد عامله النبي ﷺ بما يستحقُّه من حُسن المعاملة، عاملَه معاملةَ العاقل؛ إذ ضمَّه إليه فالتزمه، فسارَّه وخيَّره وقال: إن شئتَ،

= وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٨: ٦٧٩): وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن وفرسان هذا الميدان.

(١) يُنظر: «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم ص ٦٢، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٦: ٦٨)، و«فتح الباري» للحافظ ابن حجر (٦: ٦٠٣)، و«الشمائل» لابن كثير ضمن «البداية والنهاية» (٨: ٦٩٣).

وهذا كلُّه لا يكون إلا لعاقل مُدرِك، وعليه فالجماد قد يخلُقُ الله له إدراكاً كما في الحيوان؛ إذ الحنين والشوق والمحبة والحزن ـ عادةً ـ من صفات العقلاء.

تسليم حجر بمكة على النبي ﷺ:

٤ ـ وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلّم عليَّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن». رواه مسلم(١).

وفي رواية عند أحمد والترمذي والبيهقي: «كان يُسلّم عليَّ لياليَ بُعثت»(٢).

٥ ـ ويوضح عليّ رضي الله عنه هذا السلام فيقول: كنا مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا معه في بعض نواحيها، ومررنا بين الجبال والشجر، فلم نمُرَّ بشجرة ولا جبل إلا قال: «السلام عليك يا رسول الله».

وقد جاء بروايات كلها تصبُّ في هذا المَصَبّ، ومنها: «فلا يمرُّ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، وأنا أسمعه». رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وصحّحه، وأقره الذهبي(٣).

فكون علي رضي الله عنه يسمعه إضافةً إلى سماع النبي ﷺ يدل على أنه نُطقٌ صريحٌ من هذه الجبال والأشجار والأحجار في سلامها، وصيغةُ سلامها عليه لم تكن معروفة في تحية الجاهلية، مما يدل على عمق معرفتها بالرسول على أنه رسول الله ﷺ.

وأنت خبيرٌ بأنَّ حمل هذه النصوص على المجاز، وعلى أنه تعبيرٌ بلسان الحال،

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٧)، وأحمد (٢٠٨٢٨).

(٢) رواه أحمد (٢١٠٠٥)، والترمذي (٣٦٢٤)، والبيهقي (٢: ١٥٣).

(٣) رواه الترمذي (٣٦٢٦) وقال: حديث غريب، والحاكم (٢: ٦٧٧) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

والحملُ على أنه لو كانت ذاتَ نُطق لنطقت... أقول: الحملُ على هذا يُواجَهُ بأن لسان الحال لا يُسمَع بل يُدرَك، وهذه أصوات تُسمَع، وذات دلالات تُفهَم.

تسليم شجرة على النبي ﷺ:

٦ ـ هذا، وقد روىٰ يعلىٰ بن مُرَّة الثقفي رضي الله عنه قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ فنزلنا منزلاً، فنام النبي، فجاءت شجرةٌ تشقُّ الأرض حتى غَشِيَتْهُ، ثم رجعت إلى مكانها، فلما استيقظ ذكرتُ له ذلك، فقال: هي شجرة استأذنت ربها عز وجل في أن تُسلّم عليَّ، فأذن لها». رواه أحمد والطبراني وأبو نعيم والبيهقي، ورجالُ البيهقي رجالُ الصحيح، وللحديث شواهدُ(١).

فهذا المشهد ـ وأمثالُه ـ من وراء شدَّة تعلُّق الصحابة بالسيد الرسول ﷺ، علاوةً على ما أدركوه من عظمةِ ما جاءهم به من منهجٍ ينظّم لهم شؤون الحياة، ومعرفةٍ تُسدِّد التصوُّر على دروب اليقين والصواب، ومدُّ النَّفَس في هذا الاتجاه كفيل بإزاحة كلّ خلجةِ فكرٍ تذهب إلى وادي المجاز ولو كان واسعاً.

تسبيح الطعام:

٧ ـ عن عبد الله بن مسعود قال: كنا نعدُّ الآياتِ بركةً، وأنتم تعدُّونها تخويفاً، كنا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ... حتى قال: ولقد كنا نسمع تسبيحَ الطعام وهو يُؤكَل. البخاري ـ كتاب المناقب(٢).

---

(١) رواه أحمد (١٧٥٤٨)، والطبراني في «الكبير» (٢٢: ٢٦١)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢٩٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦: ٣) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨: ٥٥٩): رواه أحمد بإسنادين، والطبراني بنحوه، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه البخاري (٣٥٧٩).

وفي رواية الإسماعيلي والترمذي والبيهقي لهذا الحديث: كنا نأكل مع النبي ﷺ الطعامَ ونحن نسمع تسبيحَ الطعام[١].

وفي رواية عنه رضي الله عنه كنا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ، فدعا بالطعام، وكان الطعام يسبِّح. رواه ابن حبان بسند قوي[٢].

ألا ترى أن نسبة التسبيح للمخلوقات بعامَّة هو من باب التسبيح الذي يُسمَع، لا من باب الكنايات التي ذهب إليها مَن صَرَفَ النصَّ إلى المجاز، مع أنَّ الله تعالى قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، والمسبِّح هنا هو الطعام، وهو جزءٌ من الكون.

تسبيح الحصى بيده ﷺ:

٨ ـ وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: إني لشاهدٌ عند النبيِّ ﷺ في حلقة وفي يده حُصَيَّاتٌ فسبَّحن في يده، وفينا أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ، يسمع تسبيحَهنَّ مَن في الحلقة، ثم دفعهن النبي ﷺ إلى أبي بكر، فسبّحن مع أبي بكر، يسمع تسبيحهن مَن في الحلقة، وهكذا إلى عمر وعثمان... ثم دفعهنَّ إلينا فلم يُسبِّحن مع أحد منا».

رواه أبو نُعيم في «دلائل النبوة» بإسنادين، أحدهما برجال ثقات، والبزار كذلك، وورواه ابن أبي عاصم بإسناد جيد، وقال الهيثمي عن إسناد البزار الأول: إسناده صحيح[٣].

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٣٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٤: ١٢٩).
وذكر رواية الإسماعيلي في «مستخرجه على البخاري» الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦: ٥٩٢).

(٢) رواه ابن حبان (٦٤٩٣) بسند قوي.

(٣) رواه أبو نعيم في «الدلائل» (٣٣٨)، والبزار (٤٠٤٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١١٤٦) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨: ٥٢٧-٥٢٨): رواه البزار بإسنادين ورجال أحدهما ثقات وفي بعضهم ضعف.

إعلامُ الشجرةِ النبيَّ ﷺ بالجنِّ ليلة استمعوا القرآن:

٩ ـ وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود قال: سألت مسروقاً: مَن آذنَ النبيَّ ﷺ بالجنّ ليلةَ استمعوا القرآن؟ فقال: حدّثني أبوك: أنه آذنتهُ بهم شجرة. متفق عليه(١).

شهادة الشجرة بشهادة التوحيد:

١٠ ـ عن عبد الله بن عمر قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فأقبل أعرابيٌّ، فلما دنا منه قال رسول الله: «أين تريد؟» قال: إلى أهلي، قال: «هل لك إلى خير؟» قال: ما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله»، قال: هل من شاهد على ما تقول؟ قال: «هذه السَّمُرة»، فدعاها رسول الله ﷺ، وهي بشاطئ الوادي، فأقبلت تخدُّ الأرض خدّاً، حتى كانت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهِدَت أنه كما قال، ثم رجعَت إلى منبتها، ورجع الأعرابيُّ إلى قومه وقال: إن يتبعوني أتيتُك بهم، وإلا رجعتُ إليك، فكنت معك».

رواه ابن حبان والدارمي وأبو يعلى والطبراني في «الكبير» وغيرهم(٢)، وقال ابن كثير بعدما ذكَرَه من طريق الحاكم: هذا إسناد جيد ولم يخرجوه(٣).

ولا نظن هنا أن الأعرابي استجاب لدلالة الشجرة دلالةَ حال على أمر الرسول ﷺ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٥٩)، ومسلم (٤٥٠).

(٢) رواه ابن حبان (٦٥٠٥)، وأبو يعلى (٥٦٦٢) والدارمي (١٦)، والطبراني في «الكبير» (١٢: ٤٣١)، والبزار (٣١٠). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨: ٥١٧): رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى أيضاً والبزار.

(٣) «البداية والنهاية» (٨: ٦٧٨).

مخاطبة النبي جبل أُحُد:

١١ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ صعد أُحُداً، وأبو بكر وعمر وعثمان، فضربه برجله وقال: «اثبُت أُحُد، فما عليك إلا نبيٌّ أو صدّيق أو شهيدان». رواه البخاري(١).

١٢ ـ وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: ارتجَّ أُحُد، وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان، فقال: «اثبُت أُحُدُ؛ ما عليك إلا نبيٌّ وصدِّيق وشهيدان»(٢).

انقياد الشجرتين والتئامهما له ﷺ:

١٣ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ـ في حديثه الطويل عند مسلم ـ وفيه: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيَحَ، فذهب رسولُ الله يقضي حاجته، فأتبعتُه بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق إلى أحدهما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله»، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يُصانع قائدَه، حتى أتى الشجرةَ الأخرى، فأخذ بغصنٍ من أغصانها فقال: «انقادي علي بإذن الله»، فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لَأَمَ بينهما، فقال: «التئما علي بإذن الله»، فالتأمتا... رواه مسلم(٣).

دلالة حنين الجذع:

الحنين حالة نفسيَّة محضة لا علاقة ـ كما يظهر لنا ـ للجمادات بها، وحيث يُظهر

---

(١) رواه البخاري (٣٦٨٦).

(٢) رواه أحمد (٢٢٨١١)، ورواه البخاري (٣٦٧٥) عن أنس بلفظ: «اثبُت أُحُد؛ فإنما عليك نبيّ وصدّيق وشهيدان».

(٣) رواه مسلم (٣٠١٢).

الجذعُ مثل هذا الضرب من الانفعال، ويدلّ عليه بحالة يشهدها أهل المسجد، لا بدَّ مِن ألا نقفَ عند ظواهر الأشياء، ونحكم على ما ينسب إليها على التسرُّع دون تدقيق، وإن كان هذا لا يقتضي أن نلغيَ دلالات الظاهر، لأنَّ ما دل عليه حنين الجذع عرفناه بعد ظهوره لا قبله، فهو لا يعدو دعوة إلى التأنّي إزاء حقائق هذا الوجود، وقد قال القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) رحمه الله عن حديث الحنين: هو في نفسه مشهور منتشر، والخبر به متواتر، قد خرّجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر[١].

وقال التاج السبكي (ت ٧٧١هـ) رحمه الله: حنينُ الجذع متواتر؛ إذ وَرَدَ عن نحو عشرين من الصحابة من طُرُق صحيحة كثيرة تفيد القطعَ بوقوعه[٢].

دلالة مخاطبة النبي لأُحُد وإعلانه تبادل الحب معه:

«اثبُت أُحُد» عامَلَهُ معاملةَ العاقل المُدْرِك المميِّز، كما عامل الجذع عندما حنّ؛ مما يدل على خلقِ الله فيها الإدراكَ، وجعلِه فيها التمييزَ.

تواتر إعلان النبيِّ ﷺ عن جبل أُحدٍ أنه يحب النبيَّ ﷺ، ويحبه النبيُّ ﷺ، قال أنس رضي الله عنه: لما قدم النبي راجعاً من خيبر، وبدا له أُحُد قال: «هذا جبلٌ يحبُّنا ونحبه». متفق عليه، واللفظ للبخاري[٣].

ووقفة مع مَن حمل هذا على المجاز نجد فيها أنهم أمامَ إمكانية الحمل عليه قالوا: «يحبنا ونحبه» فيه حذف مضاف، والتقدير: أهل أحد ـ وهم الأنصار لأنهم جيرانه ـ وقد جاءت أحاديثُ في محبة الأنصار.

---

(١) انظر: «الشفا» (١: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: «رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب» للتاج السبكي (٢: ٣٢٢).

(٣) سبق تخريجه ص٣٣٦.

قال ابن حبان (ت ٣٥٤هـ): «قوله ﷺ: «جبل يحبُّنا ونحبه» يريد: أهل الجبل، كقوله جل وعلا: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] يريد: حب العجل، وكقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] يريد به أهل القرية(١).

وقال الإمام البغوي (ت ٥١٠هـ) في «شرح السنة»: وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الإيمان ليأرِز» يعني: أهل الإيمان، كما قال: «أحدٌ جبلٌ يحبُّنا ونحبه» يريد: أهل المدينة(٢).

ثم كتب أحد العلماء تعليقاً على هذا فقال: يظهر ـ والله أعلم ـ أن الإمام البغوي قد رجع عن هذا القول، فقال عكسه ـ سواء في «شرح السنة»، أم في «التفسير»: إنه عند حديث «اهتزَّ العرش لموت سعد بن معاذ»(٣) قال: الاهتزاز هو السرور، ومعناه: أن حملة العرش فرحوا بقدوم روحه، فأقام العرشَ مقامَ من حَمَله... ثم قال: والأَولى إجراؤه على ظاهره، وكذلك قوله ﷺ: «أُحُد جبل يحبنا ونحبه» ولا يُنكَر اهتزازُ ما لا روحَ فيه بالأنبياء والأولياء كما اهتزّ أُحُدٌ وعليه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان، وكما اضطربت الأسطوانة على مفارقته عليه الصلاة والسلام(٤).

فائدة إجراء هذه الأخبار على ظاهرها:

إنَّ إجراء مثل هذه الأخبار مع ظاهرها يُوسِّع آفاقَ النفس إزاءَ بُنْية هذا الكون،

---

(١) انظر: «صحيح ابن حبان» (٩: ٤٢).

(٢) انظر: «شرح السنة» (١: ١٢٠).

(٣) متفق عليه: البخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦) عن جابر رضي الله عنه.

(٤) انظر: «شرح السنة» (١٤: ١٨٠-١٨١).

ويطلُّ بها على كثيرٍ من حقائقه المستـترة، ودون شَطَـط؛ إذ يبقي مجالها ما جاءت به النصوص، وأما أمرُ الإجراء على المجاز؛ فإنه يُبقي الظواهرَ التي عرفناها غير مُدرَكة على ما هي عليه.

ثم إن الإجراء هنا ـ أو الحمل على الحقيقة ـ لا يدخلنا في دائرة الخطر في التصوُّر، حيث إن القرآن نزل بلسان عربيٍّ مبين، ومن أساليب العرب المجاز، وله مساحاتٌ واسعة في لغتهم.

من ذهب إلى المجاز قال: إنه ﷺ قال ذلك ـ أي: عن جبل أُحُد ـ للمسرَّة بلسان الحال؛ إذ قدم من السفر فإذا رآه كأنه يبشِّره عند قدومه من سفره بقُربه من أهله ولقائه بهم، وذلك فعلُ من يحبُّ بمن يحبّ... ومن ذهب إلى الحقيقة قال: الحبُّ على حقيقته وظاهره، ويدل عليه أمور منها:

أولاً: كون «أُحُد» جبلاً من جبال الجنَّة، كما في الحديث[1]، وتعلُّق الحب من النبي لخصوصه بذلك، من هنا كانت المحبة المتبادلة.

وثانياً: القدرة الإلهيَّة صالحةٌ لإيجاد العقل والإدراك والمحبة في سائر المخلوقات التي هي من طبقة الجماد، وحديث المنبر من هذا الضرب، وأحاديث أخرى من هذا المعين... علماً أنّ جميعَ أجزاء المدينة ـ لا أُحُدٌ وحدَه ـ تحبُّه وتحنُّ إلى لقائه ﷺ، ثم ما جاء من نصوص قرآنية في إثبات الخشية والخشوع والتسبيح والذكر والإشفاق والسجود للجمادات.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣١١٥) بلفظ: «إن أُحُداً جبل يُحبّنا ونحبّه، وهو على ترعة من ترع الجنة» عن أنس بن مالك، والطبراني في «الأوسط» (٦٥٠٥) بلفظ: «على باب من أبواب الجنة»، و«الكبير» (١٧: ١٨) (١٩) بلفظ: «جبل من جبال الجنة».

الخاتـمة:

أخلص من كل ما سبق بما يلي:

* يحمل ما جاء في الآية من قول وجواب موضوع الآية على الحقيقة لا على المجاز؛ إذ لا يمنع من ذلك مانع.

* بني ذلك على معطيات كثيرة كلها ترجِّح أنه على الحقيقة منها:

ـ أنَّ الأصل حَمْلُ اللفظ على الحقيقة ما لم تتعذّر الحقيقة، وهنا لا شيءَ يمنع من حملِها عليها.

ـ كثرة النصوص المشابهة ـ سواء آيات أو أحاديث شريفة ذات الصلة ـ ترشح للحقيقة، وتُبعد عن الحمل على المجاز، حيث تُثبتُ مضامينَ تأتلف مع هذا الحمل، ومن هذه المضامين: نسبةُ الإدراك لِـما تناولته الآياتُ من ظواهرَ كونيَّةٍ، وما جاءت به الأحاديث كذلك.

* لا نقصد هنا بالإدراك الإدراكَ الذي يَرقى بالمظاهر لتدخل في مضمار التكليف الشرعي كما في الإنسان، وإنما هو لونٌ وعيٍ شائع، حتى في الذرَّة والخلية، وفي الكون المُسبِّح كلِّه بذرّاته ومجرّاته، والتسبيح لونُ تنزيهٍ لله عمَّا لا يليق، وهذا لا يكون إلا على قاعدة الوعي بوجود الله، وإدراكِ ما يجب له من كمالات، وما يستحيل في حقّه من نقائص، فالتسبيح تنزيهٌ عميقٌ لأدقّ مسائل التوحيد.

* ما ثبت من معجزة تسبيح الحصا والطعام وسمـاع الصحابة له، والسماع له علاقةٌ بالأصوات، ولو كانت الأصواتُ المنبعثة من الحصا والطعام مُبهَمةً لَـما قيل: إنها تسبِّح؛ إذ المُبْهَم يُحمَلُ على ألف وجه، فهذا يقطع بأن أمر التعبير عن الذات إزاءَ مسألة عقَدية يجري مجرى الحقيقة، لا مجرى التعبير بلسان الحال.

* اطّلاعنا على الكون وما قام فيه من مخلوقاتٍ ذواتِ مراتبَ مختلفةٍ، وما تميَّز بعضُها به عن بعض، كلُّه عطاءُ الحواسّ التي نتعامل بها مع الكون المحيط، فيثمر وعياً لهذه الظواهر، ويبعث على التقسيم إلى جماد ونبات وحيوان... والشريعة أقرّت هذا فينا، حيث تناولت خروجَنا من بطون أمهاتنا دون علم، وما وهب الله للإنسان من وسائلِ إدراكٍ ووعيٍ يكتسب بها معرفةً بما حوله، فعطاءُ الحواسّ هو نافذةٌ في ميدان المعارف.

ولكن جاءت النصوصُ القرآنيَّة والأحاديثُ لتُوسعَ فينا آفاقَ المعرفة، ولتزيدَ من مساحتها عبر النصّ، وتُطلّ بنا على ما وراءَ حسّنا ومعرفتنا المحدودة جراءَ عطاء الحواس المحدودة، وهذا اللونُ من بيان الآفاق المعرفية التي زخر بها الكونُ لا ينقضُ ما نحن فيه من معرفةٍ بما حولنا؛ إذ ممَّا عرفنا أن بعض الموجودات فقدَت معنى الحياة، وما يتصل بها من مشاعرَ ومداركَ ونموٍّ وتكاثر، ورأت الجمادَ من هذا الضرب من الظواهر الكونيَّة، كذلك عرفنا أنَّ سرَيان الحياة في النبات دون مرتبة دفق الحياة في عالم الحيوان، فالنباتُ فيه حياة، وكذلك الحيوان، ولكن في أُفُقَين مختلفين، وعلِمنا أنّ الإحساسَ في النبات ثابت لكن دون الإحساس في الحيوان، على أنّ الإحساس مظهر حياة...

* لولا النصُّ لَـمَا دَرَينا مثل هذه المعارف التي أطلَعَنا عليها النصُّ؛ حيث إنها من المغيَّبات عن حواسّنا واطّلاعنا المباشر، وعليه نظلّ في دائرة ما دلَّ عليه النص حتى يكشف لنا ما هو أوسع منه بنص آخر، أو بسبيل للمعرفة ينصب لنا... وإلا فمن منا كان يدري الطاقة الكهربيَّة المذخورة في هذا الكون وما تأتي به من عجائب، بل تلك المعادن التي يتأتّى منها ما يُذهل في ميدان الحياة وتيسيرها، وما أشبه ما ذخر به الكون

من خصائصَ تُكتشف لنا حيناً بعد حين، بما جاء من نسبة القول إلى السماوات والأرض، أفيصحُّ أن يُنكر عاقلٌ وجودَ طاقاتٍ في الكون لـمّا نطّلعْ عليها بحجة أننا ما اطلعنا عليها؟!!

* من المتَّفق عليه لدى أصحاب العقول أنه لا يُصيب من حَصَر المعرفةَ بما وصلنا إليه عبر الدراسة والبحث والمختبَرات؛ إذ لا يزال الكون باتِّساعه وتنوُّعه المذخور فيه، وتعدُّد طاقاته التي تُكتشف يوماً بعد يوم، وخصائصِ جزئياته المذهلة، لا تزال هذه شاهدة على أنه حين نقرِّر ما علمناه منه نقرره بناءً على أننا وصلنا إليه، دون التجرؤ على نفي ما لم نصل إليه أو إلغاء ما وراءه، اللهم إلا إذا دخل ما يتحرك فيه الذهن في إطار المستحيل الذاتيّ، وعليه، فنحن نمكن لأقسام الحكم العقلي في اتخاذ القرار المناسب إزاء أي قضية من قضايا الحياة!

ولئن سألنا: **أما لهذه المعارف التي امتلأ بها الوجود من حدود؟**

أجبنا: لا حدود لها، ولكن ضمن الاحتفاظ بقضايا المستحيل الذاتي، وما لم يكُن من ضربِه فهو من باب الجائز، وميادينه الكونُ كلُّه، والواجب أمره أشهر من نار على علم.

* من رجّح لسان الحال في مثل هذه النصوص، وجعله ضرباً من الاستعارة وتمثيل المعنى بصورة حوارٍ، بنى ترجيحَه:

أولاً: على معرفتنا بما حولنا من جماد ونبات وغيرهما من الموجودات التي أحطنا بصفاتها، وهي معرفةٌ راسخة فينا رسمها الحسُّ وعطاؤه، وليس في هذه المعرفة خطأ إلا إذا كانت متأتيةً من خطأ المدخل إليها، كما بنى ذلك.

ثانياً: على ما جاء في اللغة من أساليب التعبير المجازي التي لا تُنكر، وهي ممتلئةٌ

بالصور والأداء المجازي، وها هو ذا شاعر الجمال والأناقة التعبيريَّة البحتري يصف لنا قدومَ فصلٍ من فصول السنة بعدما بثّ فيها مجموعة من المشاعر ورسَمه بالبهجة الغامرة حيثُ قال:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما(١)

فالتصوير للمعاني في أداء الأدباء عبقٌ بأبعاد من الروعة والبيان والأداء الخلاب.

وقد قال عنترة في فرَسه التي يُقاتل عليها:

مـا زلـت أرمـيهم بثغـرةِ نحـرِهِ ولبانــه حتــى تَسَــرْبَلَ بالــدّمِ
فــازورّ مِــن وقْــعِ القَنــا بلبانــه وشَــكا إليَّ بعــبرة وتحمحُــمِ
لــو كــان يــدري مــا المحــاورةُ ولكان لو عَلِمَ الكـلامَ مُكلِّمـي

ومن مثل قول القائل:

شكا إليَّ جملي طولَ السُّـرى مهلاً رويداً فكِلانا مُبتلى(٢)

أقول: من رجَّح المجازَ سلك هذا المسلكَ دون أن يلتفتَ إلى ما ينبغي أن يتلفتَ إليه من نصوصٍ أخرى لو ضُمّت إلى الأولى لتبدَّلت النظرة ولتغيَّر الحكم؛ إذ وردت نصوصٌ تؤكّد ثبوتَ الإدراك الذي خَفِيَ عن حواسّنا في الظواهر الكونية، وقد جلَّى تسبيحُ الحصى كما ذكرنا، والطعام، وحنين الجذع، واهتزاز جبل أُحُد، وسلام الحجر والشجر ذلك كلّه، ولم يعُد هناك مجالٌ إلى سلوك سبيل المجاز؛ إذ لا يُمكن أمام هذه الحقائق الجهيرة في عالم الحسِّ أن يُغمض عنها إصراراً على معرفتنا الـمُسبقة بما حولنا،

(١) سبق تخريج البيت، وكذلك أبيات عنترة التالية.

(٢) ذكره الزبيدي في «تاج العروس» (٣٨: ٣٩٣) دون نسبة.

كما لا يسوغ أن تُصرف هذه النصوص عن ظواهرها وبواطنها ليُـتَّجه بها إلى ميدان المجاز، على أنها دلالة حال! ومعلوم أن دلالة الحال لا تسمع إنما تفهم، والصحابة رضي الله عنهم قد سمعوا حنينَ الجذع وتسبيحَ الحصى والطعام، وكان مع الرسول ﷺ الخلفاءُ الراشدون الثلاثة يوم اهتزَّ بهم أُحُد، ولو افترضنا إمكانيّـةَ حمل حنين الجذع على المجاز ـ وهو بعيدٌ ـ فمحالٌ حَمْل تسبيح الحصىٰ عليه.

من حَمَل النصوص على المجاز علَّل أن الحقيقة متعذِّرة، لأن المخاطَب ـ هنا ـ لا إدراكَ له، ولا عقلَ يفهم به الخطاب، وليس المستـنَد هنا في نسبة الحقيقة إلى التعذُّر سوى الحسّ والمشاهدة، وهذا لا يكفي في النفي إذا كان هناك مُخبّآت في هذا الوجود، إضافة إلى النصّ القاطع بوجود هذه المخبَّـآت، فالحصى الصمّاء برأي حسّ السمع تسبِّح بعدَما كان تسبيحها ضرباً من الإيمان بالغيب، ممَّا يدلُّ على أن دائرة التسبيح دائرةُ غيبٍ طُلب منا امتحاناً أن نؤمن بها، وأظهر لنا في عالم الشهادة نموذجاً في صورة معجزة، أجل فُتحت لنا كوّة بهذه المعجزة على عالم الغيب، ورُفع عنها الستر، كما يسّر للأسماع أن تسمع ما يُمتعها من زجل تسبيح ما حولَها من الأشياء المسبِّحة.

لقد سمع المسلمون تسبيحَ الحصى بكفِّه عليه الصلاة والسلام، وسمعوا حنينَ الجذع الذي رواه مجموعةٌ من الصحابة، بل سمعه كلُّ من في المسجد! ولو لم يكن إلا هذه الكوَّة لكفَت لصدقها في دلالتها على أنَّ الظاهرَ لا ينبغي أن يُرتكن إليه إلا إذا كان صارماً في عطائه ودون مزاحم، هذه تكفي لاتِّخاذ موقفٍ عامٍّ من كل ما ورد في كتاب الله وحُمل على المجاز بناءً على عطاء الحسّ والمعرفة عبر الحسّ إلا ما كان متعلّقاً بصفات الله تعالى؛ وما يُضاف إليه ممَّا ظاهرُه يتعارضُ مع الآيات المحكَمات التي هي أم الكتاب.

ولعله من نافلة القول أنّه من المهمّ أن نتعرَّف إلى كيف استقبل الصحابة هذه النصوص؟! ولعل حديث ابن عباس رضي الله عنهما يُجلي لنا هذا؛ لأنهم الأدرى بمرامي الكلام، وأساليب التعبير، وبمواقع الكلمات، وتصاريف الأداء، ثم ما الذي طرأ عليهم من تغيُّرٍ لـما عَلِمَ مَن عَلِمَ منهم بتسبيح الحصىٰ أو سمعه، أو سمع حنين الجذع، أو وقف على قوله عليه الصلاة والسلام: «اثبُتْ أُحُد».

لا يستبعد أن تكون بعض النصوص تحتمل الأمرين، لأن الناس مختلفو المدارك، ومجيء القوانين يُعين كلّ الناس على الاستيعاب، ومن لم يُطق هَضْمَ المحاورة مع الجماد أو اللهب كما في قوله تعالى للنار: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ [ق: ٣٠]، أو النبات حيث دعيت الشجرة لتشهد؛ نحا المنحى الآخَرَ وقُبل منه؛ إذ هناك من قال به، واللغة مَرِنَةٌ تستوعب ذلك وتُطيقه، وتصويرُ الحقائق عبر التشخيص ليس غريباً عنها.

واللغة موضوعةٌ ـ كما قالوا ـ لأخصّ ما هو مُتعارَفُ أهلِها، فعبّر عن تلك المعاني بأخصّ ما يقرِّب معانيها إلى الأفهام.

وهكذا وجدنا في حديثنا آياتٍ تصبُّ في منحى آية السؤال، وأحاديثَ تكشف عن مغيَّباتٍ لم نكن ندري عنها من قبل، وعرضنا للغة وما فيها من حقيقة ومجاز، وجلَّينا أن القرآن نزل بلغة العرب وأساليبها، فليس غريباً أن يأتيَ فيه من هذه الأساليب التي خبِرَها العرب، وقد فعلتُ ذلك لنتمكن من تحديد الموقف الذي نطمئنّ إليه من موقفَين للعلماء من مثل هذه النصوص، ولا يكون ذلك إلا عبر مرجِّحات، وقد سعينا إليها نطلبها لنُظهرها للعين الباصرة، ونعرضها للبصيرة الصافية، وقد وجدنا أن آياتٍ دلّت ظواهرُها على حقائقَ في هذا الكون لولا الآياتُ ما درينا عنها شيئاً.

وأختم بما قاله الألوسي (ت١٢٧٠هـ) بهذا الصدد ـ وهو يتناول شهادة الأعضاء

على الإنسان ـ: ثم الظاهر أن التكلم والشهادة بنطق حقيقةً، وذلك بعد إعطاء الله الأعضاء حياةً وعلماً وقدرة.

وقال: ويُحتمل أن يكون حصولُه في الدنيا بأن تكون الأعضاءُ قد خلق الله فيها الإدراك، فهي تُدرك الأفعالَ كما يُدركها الفاعل، فإذا كان يوم القيامة رَدَّ الله لها ما كان، وجعلها مستحضرةً لما عمله أولاً، وأنطقها نطقاً يَفقهُه المشهود عليه.

قال: وهذا ما قالوا من تسبيح جميع الأشياء بلسان القال، وأن الله على كل شيء قديرٌ، والعقل لا يُحيل ذلك، وليس هو بأبعدَ من خلق الله تعالى فيها العلم والإرادة والقدرة حتى تنطقَ يوم القيامة، فمن يؤمن بهذا فليؤمن بذلك.

وقال: والمتشبِّث بذيل الاستبعاد يجرُّ إلى إنكار الحشر بالكلّية ـ والعياذ بالله ـ أو تأويله بما أوّله به الباطنية الذي قَتْلُ واحدٍ منهم ـ كما قال حجة الإسلام ـ أفضل من قتل مئة كافر![1].

وختم بقوله: وعلى هذا تكون الآيةُ من مؤيِّدات القول بالتسبيح القالي للجمادات ونحوها[2].

وأيـاً ما كان، فالنطق على معناه الحقيقي كما هو الظاهر، وكذا الشهادة... ومن ذهب إلى المجاز في النطق ذهب إلى ما لا مُلجِئ له، ولا مسوِّغ.

* * *

(١) انظر: «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» للغزالي ص ٦٩.

(٢) انظر: «تفسير الألوسي» (١٢: ٤٢-٤٣).

الذي عنده علم من الكتاب
والاسم الأعظم والمعجزة والكرامة(١)

٢ـ رجَّح الشيخ رشيد الخطيب أن الذي ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٤٠] في قصة سليمان عليه السلام هو سليمان نفسه، أجاب به «العفريت» بمقتضى ما يسّر الله له من السنن الكونيَّة، وما أعطاه من الـمُلك، وأن هذه «المعجزة» منشؤها منه، وإنما لم يأتِ به سليمان أولاً، بل استفهم القومَ بقوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: ٣٨]، ثم قال ما قال ليُريَهم أنه يتهيّأ له ما لا يتهيّأ لعفاريت الجن، وإنما خصَّ الخطابَ بالعفريت؛ لأنه هو الذي تصدّى فادَّعى القدرة على الإتيان به من بين الملأ. فهل يصحُّ هذا التأويل؟ وما التفسير الصحيح المعتمد؟

أجاب العلامة الشيخ عبد الكريم تتان:

أخي الفاضل: تحية طيبة وأسأل الله أن يحفظك معها ظاهراً وباطناً.

كي نصل إلى القطع بالتفسير الصحيح أو الراجح، لا بدَّ من مجموعة من الأبعاد

---

(١) طبع هذا الجواب في رسالة بعنوان: «عفريت من الجن»، في دار الفكر بدمشق، وصدرت الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م في ١٠٧ صفحات. وقد أعدت ترتيب الجواب، واختصرت بعض النقول التي أكثر من الاعتماد عليها من كتب التفسير، ورتبت نقوله من كتب المفسرين حسب وفياتهم، وخرجت الأحاديث، وعزوت الأقوال، ووضعت عناوين جانبيَّة تُعين على الفهم، وتكون بمثابة محطات للقارئ.

المتّصلة بالآية، سواء سبقَتْها بالنص، أو دلّت عليها الآيةُ موضوع السؤال، فمعرفة جانبٍ من شخصية كلٍّ من سليمان عليه السلام وبلقيس الشخصية الرئيسة في الموضوع، وآصف ـ على ما ذكره كثير من المفسرين ـ أمر ضروري لتجلية المعنى، وكذلك ما يتّصل بالمعجزة والكرامة، والفرق بينهما، وأدلّة ذلك، وما يتّصل باسم الله الأعظم الذي فسّر به قوله تعالى: ﴿عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وما يتعلق بقانون الفاعل، والعلاقة بين القدرة والزمن، وما جاءت به الصياغةُ القرآنية للواقعة من دلالات، وما تشير إليه ممّا له صلةٌ بمَن أتى بالعرش، وإن كان الفاعل الحقيقي للحدث هو الله تعالى، هذا كله لتكتمل أمامنا أبعاضُ المشهد في لوحة زاخرةٍ بالعطاء، ولنقف على ما يبدو راجحاً من توجيهين ذهب العلماء إليهما عند إسناد فعل «قال» إلى فاعله، أو إلى تخطئة وجهٍ على حسابِ تصويبِ آخَر، وإن كان كلُّ فريق دعَمَ ما ذهب إليه بضُروبٍ من الاستدلال مقتبسةٍ من الصياغة القرآنيّة، ومن إدارة الحوار بين الملأ ـ ويمثلهم عفريتٌ من الجن ـ وسليمان عليه السلام، ومن منزلة سليمان أيضاً من حيث كونه رسولاً، ومِمّا فاه به لما رأى العرشَ بين يديه.

وسنعرف في السياق ما جاءت به التفاسير، وما رجح فيها وما استبعد، وما جمع فيها بين الوجهين، وهذه لم تخرج فيما ذكرته عن أمرين:

الأول: أن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان، أو غيره من الإنس أو الجن أو من الملائكة.

الثاني: إذا كان غير سليمان، فمن هذا الذي قام باستحضار العرش في طرفة عين بل، وقبل انتباهتها؟

على أننا لا نعدم بين التفاسير تفسيراً ذهب إلى إلغاء المشهد كلّه، وفسّره بما

يتناسب مع النظرة الماديَّة الغالبة التي طغَت على بعضهم فدعَتهُ إلى إنكار الخوارق، فلا معجزات ولا كرامات البتة، وإنما هي سنن كونيَّة، من وقف عليها، واطّلع على آليتها أمكنَهُ توظيفُها على ما يريد، وهؤلاء لا يلتفت إلى ما قالوا لجهارة الأدلة على كلٍّ من المعجزات والكرامة، وتأويل الخارقة بعيداً عن النص لا يلغيها.

وهذه مدرسةٌ نشأت تريد أن تُقرّبَ الحقائقَ الإسلامية إلى غير المسلمين كما رأَت، فدعاها ذلك إلى صرفِ النصوص الكثيرة عن وجهها صرفاً لا يسوغ بحال! وما قالوه بشأن السنن الكونيَّة وتسخيرِها لبني آدم فما يُـختَلَفُ معهم فيه؛ إذ هذا الكون ممتلئ بالـمُدَّخَرات التي مَن امتلك مفتاح خزانتها فُتحت له، وامتطى الهواء مُـحلّقاً في الأجواء، ولكن ما حرصوا على تأويله على وجهٍ يتفق مع منطلقهم لا يقدر على إلغاء الخوارق التي هي من صنع الله جل جلاله، كالسنن الكونيَّة الجارية على نسق الاستمرار العادي.

وهذه خطوطُ التناوُل ألـخّصها بما يلي بادئاً بملامح من شخصية كل من سليمان عليه السلام وبلقيس في كلمات قليلة؛ إذ هذه الملامح تساعدُ مساعدةً ما على تبيُّن الوجه المطلوب، كما سنعرض للجوّ العامّ للنصّ، وما دلّ عليه من خارقةٍ إذا ظهرت على يد رسول كانت معجزة، وإذا ظهرت على يد وليٍّ كانت كرامة، وهما: «المعجزة» و«الكرامة» بمضمون واحد وفاعل واحد، ولكن ظهورهما خالف بين الاسمين.

وكذلك اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به الله أجاب لعلاقة هذا بإسناد الخارقة لِـمَن عنده علمُه، ونسوق ما جاء في التفاسير مختصراً مع ذكر المرجع ما استطعت، مع بيان كون الإتيان بالعرش خارقةً لبُّها الفترة الزمانية التي تحقق فيها، ونخلص إلى الترجيح والاستبعاد موضوع السؤال ودليل ما يتبنَّى.

ملامح شخصيَّة سليمان عليه السلام:

والابتـداء بملامح شخصيَّـة سليمان عليه السلام على سبيل التعريف الموجز المستخلص من النصوص، ونـثني بما يتعلق بتلك الملكة صاحبة العرش المستحضَر موضوع السؤال.

في قراءةٍ لملامحِ شخصية سليمان عليه السلام كما جاءت بها النصوصُ نجد مجموعةً من الحقائق:

منها: ما كان من وصفه أنه كان أبيض جسيماً وضّاءً جميلاً خاشعاً متواضعاً، وأنه كان وريث والده داود عليه السلام في النبوة والعلم والحكمة من بين اثني عشر ابناً، وقد آتاه الله ملكاً واسعاً لم يؤتِه أحداً من خلقه من بعده، يقال: حكَمَ فلسطينَ وما حولها حتى غطى الشام إلى إصطخر، وكان ذلك في القرن العاشر قبل الميلاد، وفي النصف الأخير منه، كما ذكرت المصادر، وكان كثير الغزو والجهاد، لا يكاد يتركه، ومع هذا كان متواضعاً يُجالس المساكين، ويقول: مسكينٌ جالس مسكيناً.

وكان عصره من أزهى العصور، حيث نعمت مملكتُه بسلامةٍ ورخاءٍ ونعمةٍ، وكذا عصورُ الرسل حين تتولى مناهجُهم الربّانيّـة صياغة الحياة وضبط حركتها، وهذا بخلاف ما ورد في التوراة المحرّفة حيث عبثوا بسيرته عليه السلام، وشوّهوا صورته، كما شُوّهت صورة أبيه داود عليه السلام من قبلُ أيضاً، بل لم يَسلَمْ كثيرٌ من الأنبياء من هذا التشويه والعبث بسِيَـرهم!!! وقد كان أبوه داود يشاوره في كثير من الأمور على صغر سنه؛ لوفور عقله وعلمه؛ إذ أوتي الحكمة منذ نعومة أظفاره، وحداثة سنّه.

قصة سليمان وأبيه داود عليهما السلام في القرآن:

وقد تناولت كثيرٌ من الآيات القرآنية جوانبَ من حياة كلٍّ من سليمـان وأبيه

ـ عليهما السلام ـ تُبرز ما لهما من فضل، وما خُصّا به من عطاء، ومنها أنهما عُلِّما منطقَ الطير، وأُعطِيا قدرةً على إدراك كلام مخلوقاتٍ كالنمل، وقصة النملة التي حذَّرت قومها أن يطحنهم سليمانُ وجنوده في طريقهم من الظُّهور بمكان، وسخّر الله له الريحَ تنقُلُه حيث يشاء، وتقطع به المسافاتِ الشاسعة، وسخّر له من الجنّ والمرَدة، من يغوصون بأمره في البحار، ويعملون له ما يأمرهم به، كما أسال له عين القطر ـ وهو النحاس المذاب ـ فكان النحاس يتدفق منها، فيصنع به ما يشاء، وكانت ضمنَ جنده من الإنس والجن والطير، وكان على درايةٍ بأفراده درايةً واعية.

وما ذُكر هو من مظاهرِ تمكينِ الله له في الملك، على أنه كان فقيهاً بشؤون دولته، قائماً بأمرها، ومباشراً لإدارتها أكملَ مباشرة، فكان نموذجاً لوليّ الأمر المخلِص، ولا يخفى أنّ من دقائق مباشرته تفقُّده الطير من بين أسرابٍ كانت بين يديه، وأعدادٍ تسير مسيرته لا تكاد تُحصى، ومساءلته الهدهدَ بعد حضوره حيث غاب، ولم يستأذن، وهذا من مظاهر الضبط والربط في دولته التي تعتبر امتداداً لملك داود عليه السلام، وما ذكرناه نجده في آياتٍ نضحَت به على أروعِ أسلوبٍ وأدقِّه، فكان تاريخاً لرسولٍ من رسل الله سبحانه وتعالى.

اهتمام سليمان بشؤون التوحيد في بلاده:

ولعل من أبرز ما كان عليه ـ وهو ممّا له صلةٌ واشجة بما نحن بصدده ـ اهتمامُه بشؤون التوحيد في بلده، وما وراء الحدود، وقد دفعه ذلك إلى استقدام بلقيس ملكة سبأ إليه لـمّا بلغه عن طريق الهدهد ما كان عليه قومها من عبادة غير الله سبحانه وتعالى إذ كانوا يعبدون الشمس من دون الله سبحانه وتعالى.

كذلك كان حاضر القلب ـ ولا عجب إذ هو من الرسل الكرام ـ مع نِعَمِ الله

السابغة وفضله سبحانه عليه فيما أعطاه إيَّاه من قوةٍ وكثرةِ جند وسَعةِ سلطان، يدلُّ على ذلك ما لهج به لسانه لمّا رأى عرش بلقيس مستقراً عنده؛ إذ قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠] ولم يخرج بهذا الفضل عن دائرة شهوده الحكمة من هذا العطاء، وهي الابتلاء الذي يشمل كل ميادين الحياة منعاً ومنحاً، ليظهر من الإنسان ـ ما علمه الله أزلاً ـ في عالم الإمكان، شكر الشاكر، وصبر الصابر، وكفران الغافل الخاسر، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۞ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢-٣].

ملكة سبأ:

أما ملكة سبأٍ بلقيسُ، فإن القرآن الكريم لم يذكر اسمَها، واكتفى بوظيفتها ووضعها الاجتماعي والسياسي، والمفسّرون هم الذين ذكروه، وذكروا أنها من بنات التبابعة، وكان وجودها قرابة سنة (٩٥٠ ق.م)، وقد دلت الآيات التي ساقت طرفاً هامّاً من سيرتها على مجموعةٍ من صفاتها.

ومن الواضح أنها كانت في زمن سليمان عليه السلام، وكانت ملكة سبأ في اليمن، وكان حكمها قائماً على الشورى، حيث استدعَت أشرافَ مجلسها، ووجوهَ قومها، وكبار قادتها، تشاورهم بأمر رسالة سليمان عليه السلام إليها، حيث دعاها فيها إلى التوحيد والإسلام، ودعوتُها الملأَ للتشاور مَعْلَمٌ بارزٌ من معالم شخصيتها التي لم تكن مستبدّة، فهي خبيرة بأنَّ أيّ قرار يُتّخذُ تجاه الرسالة التي حملها الهدهد المكتشِف لأمرها لا بدّ فيه من بحثٍ عميق دقيق حكيم يشارك فيه أهل الخبرة والشركاء في إدارة البلاد؛ لأنه قرار مصيري وخطير، ولذا لم تنفرد الملكةُ باتخاذ أي موقفٍ لتفرضه بعدَ ذلك على الرعية.

ولما كانت المشاورة تقتضي حواراً مفتوحاً تُطرحُ فيه وُجهاتُ نظرِ المشاركين في الشورى، وجدنا الملكة تستمع إلى ما ذهب إليه قادةُ جيشها؛ حيث أعلنوا عن قوتهم التي تحمي البلاد، وتدفع عنها أعداءها بما تقرره الملكة، وأبدَوا طاعتهم المطلقة لها فيما ترى، وأنهم رهنُ إشارة، ممَّا يدلُّ على منزلتها في نفوسهم، وهي أكّدت أنها لا تقطع أمراً دونهم، ونلحظ الفرقَ بين القرار العسكري والسياسي، حيث لا يتعدَّى الجيشُ حدود الإعداد والتدريب وامتلاك البأس.

وقد كشفت الملكة أمام الملأ عن سُنّـةٍ من سنن الملوك إذا دخلوا قريةً؛ مما يدل على خبرتها التاريخية، ومعرفتها بسلوك الملوك، ثم طرحت رأيَها بالاختبار تُجريه لسليمانَ عبرَ هدية تُرسلها إليه؛ لتقف على حقيقة أمره، وبناءً على هذا تتخذ القرار المناسب، وبهذا الاختبار يكون سليمانُ إما ملكاً من جملة الملوك الذين يرغبون في الدنيا ويسعَون إليها، وهذا لها معه قرارٌ، أو يكون رسولاً بُعث إليها يدعوها إلى الله، وتتجلى حصافتها بهذا الاختبار الذي أجرَته لتتخذ من نتائجه القرار المناسب.

بقي لنا بعد هذه النـبذة التي جلّت ملامح كل من الشخصيتيـن الرئيستين في الآيات: سليمان عليه السلام وبلقيس ملكة سبأ، بقي لنا أن نحوطَ المشهدَ الكامل بإطارٍ يُحدِّد جزئيَّاته الرئيسة ودون إطناب... ثم نتناول ما جاء في التفاسير التي وقفت عليها...

ونركز على الحقائق الآتية: ليس هناك ما يمنع من كون الذي عنده علم من الكتاب رجلاً من حاشية سليمان، وبالتالي ليس برسول؛ إذ الخارقةُ ومعرفةُ اسم الله الأعظم ليسا حكراً على الرسول كما هو أمرُ العصمة؛ إذ العصمةُ خاصَّة بالرسل عليهم الصلاة والسلام، وكذلك كلُّ خارقة تظهر على يد وليٍّ من الأولياء، إنما هي في الحقيقة في سجلّ الرسول الذي بالإيمان به واتباعه صار الوليُّ ولياً...

كذلك الخارقة أمرٌ أوجده اللهُ سبحانه وتعالى وأظهره على يدِ من أظهره على يديه، ولا يُشترط أن تكون الخارقة التي يُظهرها على يد الوليّ ـ وهي الكرامة ـ قد أعطى مثلها للرسول الذي آمن به الوليُّ واتبعه... كما سنبين هذا بالدليل...

المشهد العام:

من خلال تتبُّع الآيات، نجد أنها رسمت لنا مشهداً متكاملاً تشكَّل من مجموعةٍ من الجزئيّات الهامة الرئيسة، وبرز فيه الشخوص، ودار الحوار، ونبض بالحركة، ونضح بالمفاجأة، وعجَّ بالمعاني المُحدّدة العالية، وأضاء بجملته مجموعةً من الحقائق المتصلة بالاعتقاد والكون.

هذا الكون القائم على سنن رتيبةٍ هي وضعُ الله سبحانه وتعالى خلقاً وإمداداً.

وقد بُني المشهد على مُقدّمات مثلها: ما أحاط به الهدهد لـمّا أطلّ من علٍ على مملكة سبأ، ويبدو لكثرة مُصاحَبته سليمانَ أبى أن يجول خارجَ نطاق القصور! ومن هنا وقف ليرصد قمةَ ما باليمن، وعرض ما تمّ من تبادل للرسائل والردود، والإحاطة بالمشهد وبمفرداته إحاطةً سليمة تُفضي إلى الفهم الصحيح لِـما نحن بصدده...

فهناك بعدما تمّ موضوع الهدهد وإحاطته بما عليه مملكةُ سبأٍ اعتقاداً وسلوكاً، وما قررت الملكة من الاختبار بالهدايا، وما تمخّض عنه الاختبارُ، حيث ظهر سليمانُ فوق قضية الهدايا، وأنه صاحب دعوة يريد أن تصل إلى مداها، وقد كان سليمان عليه السلام واضحاً حازماً في قراره الذي حمله إلى بلقيس رسولُها ووافدُها إليه: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧]، فأطفأ بوهج التهديد الصادق ما كان قد وقر في نفس الملكة من اعتزازٍ بالقوة الضاربة التي أعلن عنها قادتُها، وقد حمل رسولُ الملكة الهدايا التي بعثت بها إليه.

قال ابن كثيرٍ (ت ٧٧٤هـ) يُوضح ما قاله لرسول الملكة وقد حمّله هداياها: ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى من قد منّ بها، فإنّ عندي ممّا قد أنعم الله عليّ، وأسداه إليّ من الأموال والتحف والرجال أضعاف هذا![1].

حالتئذٍ أيقنت أنه نبيٌّ، وليس ملكاً تُغريه الدنيا، وسلّمت أنه لا بد لها من السمع والطاعة، وبادرت إلى إجابته من ساعتها، ومعها حاشيتُها، ولعمر الحقّ هذا من شدّة فطنتها ونباهتها حيث لم تحتَجْ إلى خارقة تكشف لها عن نبوّة من دعاها، وإنما اكتفت بمعرفة موقفه من الدنيا وما فيها من زينة، وأصحابُ البصائر يرون نورَ النبوة بالكلمة يفوه بها النبيُّ، والموقف يقِفُه، بل... ودون أن يتكلم، ما أن تصافحَ العينُ وجهَ النبوة حتى تُعلِنَ عمَّا دلّ عليه الوجهُ المشرق ببعض أنوار الباطن.

مجلس سليمان:

وهناك أيضاً في المشهد القرآني المجلس الذي كان يديره سليمان عليه السلام، وما صدرَ فيه من أمر بإحضار العرش، وسنبيّن الباعث على ذلك في السياق، وقد ضمَّ هذا المجلسُ الأقوياءَ من الملأ والحكماء والعلماء، وأربابَ البصائر والمعرفة، وقد ضمّ المجلس ـ فيما يبدو ـ من كان له علم «باسم الله الأعظم» حيث أعلن عن قدرته على الإتيان بالعرش، وبزمن مذهل، وهنا يذكر بأن معرفة اسم الله الأعظم ليست حكراً ـ كما دلت عليه النصوص ـ على الرسل عليهم السلام.

فنحن إذن أمام لوحة قرآنيَّة رسمت فيها الكلماتُ ملامحَ شخصياتِها الرئيسة، ونقلت لنا جوّها الحواري النابض بالتطلع إلى المراد، والسعي إلى تحقيقه، الحوار المتمثل بطالب ومطلوب، بسائلٍ توجّه إلى من في مجلسه بسؤال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾؟ ومن

---

(١) «قصص الأنبياء» (٢: ٢٩٤).

يُجيب يعلن عن قُدرته على التنفيذ، وإجابة الطلب، مع لفتات تتناول بعض ما جاءت به الشريعةُ ممَّا يُبنى عليها المجتمع، كشهودِ فضلِ الله على الناس، وميدانُ الدنيا ميدانُ ابتلاء يظهر فيه الشَّكور والكَفور...

العلاقة بين السرعة والزمن والناتج:

هذا، وقد رسمت اللوحةُ القرآنيَّة أو كلماتها الفرقَ بين الطاقات رسماً عجيباً دقيقاً يبهر من وقف عليه أيما إبهار؛ إذ أماطت عن فرق يُجلّي لنا ما في هذا الوجود من حقائق، ويُميط عن مُسلَّمة لا تنقُضها الأيام مهما تطاولت؛ هي: العلاقة بين السرعة والزمن والناتج، والعلاقة بين هذه الظواهر يفتح الآفاق أمام البشريّة قاطبةً لتعمل على اختصار الزمن مع الإتقان ممَّـا يعين على عمارة الأرض بالخير والصلاح، وكون هذه النقلة الخاطفة للعرش خارقةً لا يُلغي معنى الإمكان فيها؛ إذ الخارقة لا تدخل في دائرة المستحيل، إنما هي خروجُ الأمر العادي عن سنَّته الجارية بمخرج.

ونركز هنا على قضية السرعة في اختصار الزمن لنقطع مسافة ما، وكلما زادت قلّ الزمن الذي نحتاجه، وبَدَهيٌّ أن زيادة السرعة ترجع إلى زيادة القوة، وكلما كانت القوة متناهيةً إلى غايتها كانت السرعة لا تُحَدُّ بحدٍّ، ويضيء لنا هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقوله: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ١٦٥].

ونرجع لنقول: نحن أمام مشهد فيه مطلبٌ يمثّله الإتيانُ بعرش الملكة، والمستجيب للمطلب اثنان، وفيه الفرق الزماني بين المستجيبَين بناءً على الفارق بين القوتين، وجسّد ذلك أنَّ المستجيب الأول طلب مهلةً للإتيان بالعرش تستوي مع الزمن الذي يجلس فيه سليمان عليه السلام مجلسه للقضاء، وهذا يحتاج إلى ساعات، أما الثاني فلا يكاد يحتاج إلى زمن بمعنى الزمن؛ إذ جاء تعبيره: ﴿قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾!!!

كلما زادت السرعة قلّ الزمن:

ولك بحساب بسيط أن تتعرف إلى سرعة كلٍّ من العارضَينِ استعدادَهما للإتيان بالعرش، والناتج واحد، وهو: الإتيان بالعرش، لكن الفارق إنما يمثّله البعدُ الزماني، وهذا يطلُّ بنا على ساحاتِ وسائط النقل، والاختلاف بين سرعاتها لبلوغ غاياتها.

وأنَّ الزمن يتناسب عكساً مع السرعة، أي: كلما زادت السرعة قلّ الزمن، حتى يضمحل إن بلغت السرعة أقصاها المتصوَّر، والسرعة هي ثمرةُ القدرة، وهذا يُجلّي لنا اختلاف القدرات، وهذا الأمر لا يفسد علينا قضية «وحدة الأفعال» التي قرّرها علماء التوحيد، بل يوقفنا أمامَ من شَهِدَ كَسبَهُ، وأحال الأمر على ما أُعطي من قدرة، ومن شَهِدَ قدرةَ الله سبحانه وتعالى واعتمد عليها في تحقيق ما يريد. إذن وسائط النقل تختلف إنجازاتُها باختلاف طاقاتها التي تترجَم سرعة...

ولا نعدم في المشهد دخولَ ملكة سبأ الذي نقل الهدهد كُبرَيات ملامِحِها العقدية والسلوكية والسياسية، وذلك أن الذي نقل ما جرى في مجلسها هو الهدهد، وإن لم يذكر صراحة، وكان التراسلُ عبر وسائطه المتاحة يومَها هو المنفردَ في إيصال المطالب وبيان المرادات، ولم يكن وقتها سواها.

وهذا يجعلنا نقف أمام الحدث الذي نقله الهدهدُ إلى سليمان عليه السلام بحسب طاقته على الطيران، هذا الحدث نراه مباشرةً بهمسه ولونه وحركته عبر الشاشة البيضاء، ولم نعُد بحاجة إلى الانتظار لينقل لنا الهدهدُ الأخبار، وهذا من فضل الله على البشريَّة؛ إذ جعل في الكون ما به نتمكن من نقلها، فهل البشرية تـقابل هذه النعمة بالتوظيف الشاكر المصلِح؟!

وهذا كلُّه يدلُّ على المُدَّخَرات في هذا الكون الذي وُضع مسخَّراً لهذا الإنسان

المكرم، ليُخلِص العبوديَّةَ لله تعالى، وهذا يطوي أيضاً من النفس ما يمكن أن تستبعده تجاهَ المغيَّبات التي أخبرنا عنها الرسل عليهم السلام مما يجعلها بعد بعض هذه الإنجازات الكشفيَّة عن ذخائر الكون كأنها تشاهدُ ما غاب مما حدَّثت به النصوصُ، أو كأننا رأيُ عين، وهي قبالتنا.

مشهدٌ نابض بالحياة، قِوامُهُ شخوصٌ في القمَّة، وطاقاتٌ تكشف عن عظمة الله فيما خلق، ورصدٌ لمجموعة من التطلُّعات والخبايا، وإماطة عن المذخور في هذا الخلق البديع، مشهد شهدته الحياة بعينين واسعتين تجيدان قراءة سطور خطّها قلمُ القدر على صفحة الوجود ضمنَ حقبةٍ زمنية قصيرة، لكنها زاخرةٌ بالدروس والعِبر، وتلفت إلى ما يرقى بطاقات الإنسان إلى منازل مذهلة، ودرجات سامية...

فما مفردات هذا المشهد تحديداً؟

تقدّم مفرداته حلقة في سلسلة من الأحداث والوقائع والمواقف تكشف عن ماضٍ شهدته هذه الأرضُ؛ ليكون من ذخائرِ هذه الأمة الخاتمة التربويةِ العقدية السلوكية القيمية.

إذ تناول مجلسَ سليمان للقضاء، ومفهوم القوة، وأثرها، وثمرتها هنا باختصار الزمان، وما يتصل بالعِلم من الكتاب الذي فُسّر باسم الله الأعظم، والدعاءِ به.

المطويات في سياق القصة:

وقد جاء التعبير القرآني ـ كشأنه دائمـاً في كل ما يتناوله ويعالجه ـ متألقاً؛ إذ طُويت من سياق القصة؛ فقراتٌ تُرك أمرُ ذكرها ليقف عليها القارئ النابه التالي لكتاب الله، والمتدبِّر لآياته، وممَّا طوي ما كان من أمر الإذن لمن عنده علمٌ من الكتاب بالإتيان بالعرش على الوجه الذي يُسنَد القولُ فيه إلى «آصف» من حاشية سليمان،

ويميط هذا عن امتلاء صدر سليمان بعبق هذا المعنى الرفيع (اسم الله الأعظم) وثمراته، كذلك لم يذكر الاسم الذي دعا به، وإنما بقي مستتراً، وهذا على نهج ما قرّره العلماء من أنّ الله سبحانه وتعالى أخفى اسمَه الأعظم بين أسمائه الحسنى، كما أخفى ليلةَ القدر بين الليالي، ليدأبَ الخلقُ على البحث والتلمُّس، ولئلا يُعرضوا عن سائر الليالي والأسماء، ولتبقى هذه المخفيّات من الكنوز التي هي ثابتة وجوداً، لكنها ليست مبذولةً لكلّ غادٍ على دروب الحياة، وتُبذَل للمهتمّين المؤهَّلين لها، وفيه لونٌ من ألوان تربية الاهتمام بالأسمى في الصدور.

بين الأمر الكوني والأمر الشرعي:

ويرصد هنا مجيء «الفاء» من قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ [النمل: ٤٠] فهو دالٌّ على سرعة الاستجابة وفوريتها؛ إذ «الفاء» تدل على التعقيب والترتيب، ويرجع هذا في حقيقته إلى الأمر الكوني الذي لا يتخلّف عنه المأمورُ به، ولا مُعقِّب عليه من أحد، ويأتي في مواطن التعبير المباشر دون «فائـه» بل ربما لم يذكر جواب الأمر لبداهة وقوعه. قال تعالى يكشف لنا ما كان من إبراهيم عليه السلام لما سأل الله تعالى أن يُريَهُ كيفيَّةَ إحياء الموتى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠] فأنت ترى استجابة الطيور المقطَّعة المجزَّأة والموزَّعة على الجبال استجابة كونيَّة؛ إذ إنَّ دعوتهنّ كانت دعوة كونيَّة، وهيهات أن يتأبّى من دُعي دعوةً كونيَّة على الداعي، ولهذا ختم النص بقوله: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ولم يقل: «على كل شيء قدير» مثلاً، لأن العزة لا تُغالَب.

ومن هذا المَعين قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، فهو من الأمثلة التي حُذف

منها جوابُ الأمر، ويقدّر تربيةً لهذه الحقيقة في النفوس بالإشارة إليها، حيث لم يذكر «فماتوا»، بل قال مباشرة: ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ فالأمر بالموت أمرٌ كونيٌّ وهو لا محالة ناجزٌ، ولهذا حذف جواب الأمر ﴿مُوتُوا﴾ اكتفاءً بعلمِ التالي أنه لا يتأبّى على أمر الله شيءٌ، وأن الأمر الكوني لا يتخلف.

ومثله قوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] حيث لم يقل: «فكانوا»؛ لبداهة هذه الكينونة؛ إذ لا يُشّكُّ في أنهم لم يتأبّوا عن التحوُّل لـما توجه إليهم الأمر به.

استجابة المؤمنين للأمر الشرعي كالاستجابة للأمر القدري:

وقد رقَت التربية القرآنيَّـة بالنفس الصافية هذا المرتقى، فكانت هناك محطّات من الأوامر الشرعيَّة، وأنت خبيرٌ بأنها تقع بالاختيار، بخلاف الأوامر الكونيَّة، فإذا بالاستجابة لها، وكأنها قدَريَّة لا تُردُّ.

اسمع قوله سبحانه وتعالى بهذا الشـأن، واملأ الصدر روعةً بهذا الأداء الذي استنهض النفوس هذا الاستنهاض: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، ومهما بحثت عن مقول القول في النص فإنك لا تراه مُصرَّحاً به، بل تجده «مُقدَّراً» دلَّ عليه التركيب العجيب ﴿يَغُضُّوا﴾ الذي يفهم منه أنَّ المأمور به هو «غضوا» أي: «قل للمؤمنين غضوا من أبصاركم» يغضوا، فذكر الاستجابةَ تلبيةً للأمر. هذا شأن المؤمن حين يأتيه من ربه تعالى أمر أو نهي، فإنه لا يتلبّث لحظة عن الإجابة ائتماراً أو انتهاءً، فتلبيةُ الأمر هنا كانت بأسرع ما يكون، ولا يحتاج إلى تدريب العين على الغضّ مدة زمانيَّة حتى يستقر فيها معنى الغض «عن محارم الله».

سر إخفاء أولياء الله المقرَّبين بين العباد:

هذا، وقد أخفى الله أولياءَه المقرَّبين في عباده، ليرى فينا معنى الاحترام العامِّ

لجميع الـمسلمين، ولا يعني هذا أنه ليس هناك علامات دالّـة، أو سلوك شاهد على الولاية، وإلا فلمَ ألّف أبو نُعيم «حلية الأولياء»، وابن الجوزي «صفة الصفوة».

وعليه، فإخفاء اسم الذي أتى الدعاءُ به بالعرش، والدعاء الذي تضمَّن «اسم الله الأعظم»، والاكتفاء بالاسم الموصول وصلته الدالة على ما اختصّ به الفاعل من العلم، من هذا الضرب وذاك الميدان.

كذلك أبهم في سياق العرض، الدعاء والداعي به، لتظلّ القلوبُ أمام هذا الحدث متعلّقة بعلّام الغيوب سبحانه وتعالى؛ إذ هو في الحقيقة الذي أتى بالعرش عند دعاء الداعي.

ويدلي بهذا المعنى قوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]؛ إذ إن «الواو» التي أسند إليها فعل ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ ضميرٌ يعود على جماعة قد استغاثت، علماً أن الذي رفع يديه إلى السماء وتضرّع بكلّه وألحّ في الدعاء يوم بدر هو الرسول عليه الصلاة والسلام فكأنَّ النص بصيغة الجمع فيه يقول: كلُّ من يستغيث بصدقٍ يأتيه الغوث، ولو حدّده النص بالرسول عليه الصلاة والسلام لقالت النفوس: هو له ﷺ أن يستغيث، ويستجاب له، أما نحن فهيهاتَ لنا ذلك، وأنّى يُستجاب لنا!!!

وهنا نذكر بأن «النص» فيه مجموعةٌ من الاحتمالات، وكلها سائغٌ من حيث المعنى؛ إذ لا يصادم مجال حقيقة من الحقائق الراسخة في سواه، وبهذا نكون أمام البحث عن مُرجِّح من بين هاتيك الاحتمـالات، والمُرجِّح ينبني على أسبابٍ مُسلَّم بها، أو شبه مُسلّم بها، والنصّ من حيث هو قد لا يكون محتملاً لأوجُه، ولكن طريقة التناول هي التي تُسوّغ وجهةً ينضح بها ذهنٌ وقّـادٌ يتناول النص، ويسعى إلى تفريخ أبعادٍ منه ليست ظاهرة لكل متناول.

إلى رحاب التفاسير نتعرف منها إلى ما ذهبت إليه، مع ما ساقت من التعليلات أحياناً.

بدايةً أسوق النص موضوع السؤال:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٣٨- ٤٠].

بصيرة في المفردات والتراكيب في الآيات:

﴿عِفْرِيتٌ﴾: اسمٌ للشديد الذي لا يُصاب ولا يُنال، فهو يُـتّقى لشرّه من عتاة الجن.

وفي «الكشف والبيان» للثعلبي (ت٤٢٧هـ): المارد القوي، والقوي الشديد[١].

وفي «نظم الدرر» للبقاعي (ت ٨٨٥هـ): هو الداهية الغليـظ الشـديد، يُطلق على المارد القوي، وعلى الرجل النافذ في الأمر المبالغ فيه، مع دهاء وقوة، أو خبث ومكر[٢].

﴿مِن مَّقَامِكَ﴾: من مجلسك، وفي «تفسير القرطبي» (ت ٦٧١هـ): من مجلسك الذي تحكم فيه[٣].

---

(١) «الكشف والبيان» (٧: ٢١٠).

(٢) يُنظر: «نظم الدرر» (١٤: ١٦٣- ١٦٤).

(٣) يُنظر: «تفسير القرطبي» (١٣: ٢٠٤).

وفي «الكشف والبيان» للثعلبي (ت ٤٢٧هـ): مجلسك الذي تقضي فيه. قال ابن عباس: وكان له كل غداة مجلس يقضي فيه إلى منزع النهار[١]. وفي «بحر العلوم»: إلى أنصاف النهار[٢].

﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾: قويٌّ على حمله، أمينٌ على ما فيه، لا أنقص منه شيئاً ولا أُبدله. ويدلُّ التعبير على نفاسة ما بُني عليه العرش من جواهر.

﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ...﴾ و﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ...﴾ مثلان في السرعة والأسرع.

﴿الَّذِي عِندَهُ﴾: رجل من أهل الحكمة من حاشية سليمان عليه السلام. «التحرير والتنوير»[٣].

﴿عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾: علم مكتسَب من الكتب، أي: من الحكمة، وليس المراد بالكتاب «التوراة».

﴿ءَاتِيكَ﴾: فعل مضارع، أو اسم فاعل منه.

﴿رَءَاهُ﴾: الضمير يعود للعرش.

الاستقرار: التمكُّن في الأرض، وهو مبالغة في القرار، فالمستقر: الثابت الذي لا يتقلقل. وهذا الاستقرار خاصٌّ وهو غير الاستقرار العام المرادف لـ«الكونُ» وهو الاستقرار الذي يُقدَّر في الإخبار عن «المبتدأ» بالظرف والمجرور ليكون متعلَّقاً بهما إذا وقعا خبراً أو حالاً؛ إذ يتعين به «كائن» أو «مستقرّ»؛ فإن ذلك الاستقرار ليس شأنه أن يُصرَّح به.

---

(١) يُنظر: «الكشف والبيان» (٧: ٢١٠).

(٢) يُنظر: «بحر العلوم» (٢: ٥٨٢).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٩: ٢٧١).

وابن عطية (ت٥٤٢هـ) جعله في الآية من إظهار المقدّر[١]، وقد علق عليه ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) في «التحرير والتنوير» بقوله: وهو بعيد[٢].

﴿أَن يَرْتَدَّ﴾: قال ابن عجيبة (ت ١٢٢٤هـ) في «البحر المديد»: ترسل طرفك إلى شيء، فقبل أن تردَّه تُبصِرُ العرشَ بين يدَيك[٣].

وقال في «التحرير والتنوير»: وارتداد الطرف حقيقتُه: رجوعُ تحديق العين من جهة منظورة تحوّلَ عنها لحظة، وعبّر عنه بالارتداد؛ لأنهم يعبرون عن النظر بإرسال الطرْفِ وإرسال النظر، فكان الارتداد استعارة مبنية على ذلك[٤].

قال مجاهد: هو إدامة النظر حتى يرتد طرْفُهُ خاسئاً حسيراً، وقيل: مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف، وهو كما تقول: أفعل كذا في لحظة عين، وهذا أشبه[٥].

وفي «الدر المصون» للسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ): الطَّرْفُ: الجفْنُ، عبّر به عن سرعة الأمر. قال الزمخشري: هو تحريك أجفانك إذا نظرت، فوضع موضع النظر، وهناك من قال: الطرفُ بمعنى المطروف: الشيء الذي تنظره، لكن المعنى الأول هو الظاهر، لأن الطرف وصف بالإرسال.

قال الشاعر:

وكنتَ متى أرسلتَ طرفكَ رائداً ... لقلبِكَ يوماً أتعبَتكَ المناظرُ[٦]

---

(١) يُنظر: «المحرر الوجيز» (٤: ٢٦١).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٩: ٢٧٢).

(٣) «البحر المديد» (٤: ١٩٧).

(٤) «التحرير والتنوير» (١٩: ٢٧١).

(٥) يُنظر: «تفسير القرطبي» (١٣: ٢٠٦).

(٦) يُنظر: «الدر المصون» (٨: ٦١٥). وقول الزمخشري ـ إلى البيت ـ في «الكشاف» (٣: ٣٦٨).

قال القزاز: طرف العين: امتدادُ بصرها حيث أدرك[١].

﴿قَالَ هَٰذَا﴾: اسم الإشارة يعود إلى حصول مراده، وهو حضور العرش في مدة قليلة.

والآن إلى رحاب التفاسير نتعرف منها إلى ما ذهبت إليه، مع ما ساقت في ذلك من التعليلات.

في «جامع البيان» للطبري (ت ٣١٠ هـ):

«.. و﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ رجلٌ من الإنس عنده علمٌ من الكتاب، فيه اسمُ الله الأكبر الذي إذا دُعي به أجاب... فاحتمل العرش احتمالاً حتى وُضع بين يدَي سليمان، والله صنع ذلك»[٢].

وفي «تفسير ابن أبي حاتم الرازي» (ت ٣٢٧هـ):

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ...﴾ قال: آصف كاتب سليمان[٣]، ووجهٌ ثان عن ابن لَـهِيعة أنه الخضر[٤]، وعن قتادة: آصف[٥]. وذكر أوجُهاً في هذا الاتجاه، أي بعيداً عن كون سليمان ممَّا يراد[٦]، وساق نصَّ الدعاء

---

(١) ذكره البقاعي في «نظم الدرر» (١٤: ١٦٥).

والقزاز: هو أبو عبد الله محمد بن جعفر القزاز القيرواني (ت ٤١٢ هـ)، لغوي ضليع، له عدة كتب في اللغة نقل عنها أصحاب المعاجم، لعل أهمها كتابه المفقود «الجامع في اللغة».

(٢) يُنظر: «جامع البيان» للطبري (١٩: ٤٦١).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» برقم (١٦٣٧٧).

(٤) المصدر السابق برقم (١٦٣٧٩).

(٥) المصدر السابق برقم (١٦٣٨٠).

(٦) المصدر السابق (٩: ٢٨٨٥ - ٢٨٨٦).

عن طريق الزهري، قال: دعا الذي عنده علمٌ: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها، قال: فمثل له بين يديه[١]، وساق صيغاً أخرى من الدعاء. وقال ابن عباس: قال آصف لسليمان ارفع بصرك، فرفع بصره، فلما رجع إليه طرفه إذا هو بالسرير[٢]. وعن قتادة قال: فعلمت الجنُّ يومئذ أن الإنس أعلم منها[٣].

وفي «الدر المنثور» للسيوطي (ت ٩١١هـ)[٤]:

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾: كان رجلاً من بني إسرائيل يعلم اسم الله الأعظم إذا دعي به أجاب[٥].

وأخرج ابن جرير عنه: كان اسمه تمليخا[٦].

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد لما قال العفريت: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال سليمان: إني أريد أعجل من هذا! ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ...﴾ قال: فخرج العرشُ من نفقٍ من الأرض[٧].

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» برقم (١٦٣٨٣).

(٢) المصدر السابق برقم (١٦٣٨٨).

(٣) المصدر السابق برقم (١٦٤٠٠).

(٤) يُنظر: «الدر المنثور» (٦: ٣٦٠-٣٦١) وقدّمت ذكره هنا لكثرة نقوله الآثار عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

(٥) يُنظر: «تفسير الطبري» (١٩: ٤٦٥)، و«تفسير ابن أبي حاتم» برقم (١٦٣٨٥).

(٦) يُنظر: «تفسير الطبري» (١٩: ٤٦٥)، واسمه فيه «بليخا».

(٧) «تفسير ابن أبي شيبة» مفقود، وقد أخرجه في «المصنف»: كتاب الفضائل: برقم (٣١٨٥٣) مطولاً، وبرقم (٣١٥٨٤) مختصراً.

و«تفسير ابن المنذر» وُجدت منه قطعةٌ حُققت وطبعت، وهي تبدأ بالآية ٢٧٢ من سورة البقرة، وتنتهي بالآية ٩٢ من سورة النساء.

وعنه: أن اسمه «أسطوم»(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ...﴾ قال: آصف كاتب سليمان(٢).

وعن يزيد بن رومان قال: هو آصف بن برخيا، وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم(٣).

وأخرج ابن عساكر عن الحسن قال: هو آصف بن برخيا(٤).

وفي «الكشف والبيان» للنيسابوري (ت ٤٢٧هـ):

لما قال العفريت لسليمان ما قال؛ قال له: أريد أسرع من هذا! ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾: اختلفوا فيه: منهم من قال: جبريل، أو: ملَكٌ أيّد الله به سليمان، بل كان رجلاً من بني آدم، واختلفوا فيه أيضاً: فقال قائل: آصف بن برخيا، وكان صدّيقاً، وهذا عن ابن عباس رضي الله عنهما(٥).

وقال النيسابوري (ت ٤٢٧هـ) أيضاً: اختلف العلماء في الدعاء الذي دعا به آصف عند الإتيان بالعرش، فروت عائشة أن النبي ﷺ قال: «إنَّ اسم الله الأعظم الذي دعا به آصف: يا حي يا قيوم...». وعن الزهري: يا إلهنا وإلهَ كلِّ شيء إلهاً واحداً، وقال مجاهد: ياذا الجلال والإكرام(٦).

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» برقم (١٦٣٨٢) عن مجاهد.

(٢) المصدر السابق برقم (١٦٣٧٧)

(٣) المصدر السابق برقم (١٦٣٨١).

(٤) يُنظر: «تاريخ دمشق» (٦٩: ٧٣) في خبر طويل عن ابن عباس لا عن الحسن.

(٥) يُنظر: «الكشف والبيان» (٧: ٢١٠).

(٦) المصدر السابق (٧: ٢١١).

وأنت ترى أن مسألة اسم الله الأعظم ليست خاصة بالنبوات، بل يعلمها الكثير من عباد الله المكرمين.

وفي «النكت والعيون» للماوردي (ت ٤٥٠ هـ):

هناك أقوال في ﴿الَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَـٰبِ﴾ منها: مَلَكٌ أيّد الله به سليمانَ، والعلم: هو ما كتب الله لبني آدم، حكاه ابن بحر، ومنها: بعضُ جنود سليمان، والكتاب: هو كتاب سليمان الذي كتبه إلى بلقيس، وثالثها: سليمان نفسه قال ذلك للعفريت لما عرض استعدادَه ليأتي بالعرش، وآخرون قالوا: هو رجل من الإنس، واختلفوا في تسميته، فابن رومان قال: آصف، ومجاهد قال: أسطوم، وقتادة قال: تمليخا، وابن لهيعة قال: الخضر، و﴿عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَـٰبِ﴾ ـ على هذا ـ: هو اسم الله الأعظم. وقال عبد الرحمن بن زيد: لم يعلم سليمان ذلك الاسمَ وقد أُعطي ما أُعطي(١).

والتعريج على ما في «الكشاف» للزمخشري (ت ٥٣٨هـ) مفيد حيث قال:

﴿الَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَـٰبِ﴾ رجل كان عنده اسم الله الأعظم، وهو «يا حي يا قيوم»، وذكر صيغة أخرى تتضمَّن الاسم الأعظم، قال: وقيل: هو آصف بن برخيا كاتب سليمـان، كان صدّيقاً عالِـماً. وقيل: اسمه أسطوم، وقيل: هو جبريل، أو ملك أيّد الله به سليمان، وقيل: هو سليمان نفسه، كأنه استبطأ العفريت فقال له: أنا أريك ما هو أسرع مما تقول(٢).

وقال ابن عطيَّـة (٥٤٢هـ)(٣):

وقالت فرقةٌ: هو سليمانُ عليه السلام، والمخاطبة في هذا التأويل للعفريت لـما

---

(١) يُنظر: «النكت والعيون» (٤: ٢١٣).

(٢) يُنظر: «الكشاف» (٣: ٣٦٧).

(٣) يُنظر: «المحرر الوجيز» (٤: ٢٦١).

قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، فكأنّ سليمان استبطأ ذلك، فقال له على جهة تحقيره: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾، واستدلّ قائلو هذه المقالة بقول سليمانَ بعدَها: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾.

وما ذكره ابن عطية قاله النحاس (ت ٣٣٨هـ) في «معاني القرآن» له[١]، وقال القرطبي معقباً: وهو قول حسن إن شاء الله[٢].

وقال ابن عطية (٥٤٢هـ) أيضاً: «والذي عليه الجمهور من الناس أنه رجلٌ صالح من بني إسرائيل اسمه «آصف بن برخيا»، روي أنه صلى ركعتين، ثم قال لسليمان: يا نبي الله! امدد بصرَك، فمدّ بصرَهُ نحو اليمن، فإذا بالعرش، فما ردّ سليمان بصره إلا وهو عنده[٣]».

وفي «مفاتح الغيب» للفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ):

في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ قال: «فيه بحثان:

الأول: اختلفوا في ذلك الشخص على قولين: قيل: كان من الملائكة... وقيل: من الإنس.

وعلى الأول: هو جبريل أو ملك أيّد الله به سليمان.

---

(١) يُنظر: «معاني القرآن» للنحاس (٥: ١٣٤). وقال غلام ثعلب (٣٤٥هـ) في «ياقوتة الصراط» ص٣٨٠ بتحقيقي: «اختلف الناس؛ فقالت طائفة: هو آصف بن برخيا، وكان من العلماء، وقالت طائفة: القائل هو سليمان نفسُه؛ لأنه كان أقدر على الدعاء، وأشد تمكّناً من القدرة بالله جلَّ وعزّ من آصف والعفريت؛ قال: فدعا سليمان نفسُهُ ربَّه جلَّ وعزّ فأجابه، وصوَّر بين يديه العرش في لحظة».

(٢) يُنظر: «تفسير القرطبي» (١٣: ٢٠٥).

(٣) يُنظر: «المحرر الوجيز» (٤: ٢٦١).

والثاني: الخضر، قاله ابن مسعود، والمشهور من قول ابن عباس أنه آصف بن برخيا وزير سليمان، وكان صدّيقاً يعلم اسم الله الأعظم إذا دعا به أجيب.

والثالث ـ قاله قتادة ـ: رجل من الإنس كان يعلم اسم الله الأعظم.

وهناك قول ابن زيد: كان رجلاً صالحاً في جزيرة في البحر، خرج ذلك اليوم ينظر إلى سليمان..

وخامس الأقوال: بل سليمان نفسه، والمخاطب هو العفريت الذي علمه، وأراد سليمان إظهار معجزةٍ، فتحدّاهم أولاً، ثم بيّن للعفريت أنه يتأتّى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت.. قال: وهذا القول أقربُ لوجوه، أحدُها: أن لفظ «الذي» موضوع في اللغة للإشارة إلى شخص معيَّن... وساق ما ذكرناه من قبل، وعرض ما يرجح لديه أنه سليمان عليه السلام، حيث قال: لو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان، وإنه غير جائز[1].

وقال العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ):

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾: هو ملك أيّد به سليمان، والعلم الذي عنده: هو ما كتب الله لبني آدم، وقد أعلم الله الملائكة كثيراً منه، أو هو: بعض جنود سليمان، وعلم الكتاب: علمه بكتاب سليمان إلى بلقيس، وقد أورد أقوال العلماء في تحديد من ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ﴾، ثم أسند لمن أتى به أنه دعا باسم الله الأعظم، فإذا العرش بين يدي سليمان، قال: ولم يكن سليمان يعلم ذلك الاسم[2].

---

(١) يُنظر: «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٥٥٦-٥٥٧).

(٢) يُنظر: «تفسير العز بن عبد السلام» (٢: ٤٦٦-٤٦٧).

قال القرطبي (ت ٦٧١هـ):

«وأكثر المفسرين على أنَّ الذي عنده علم من الكتاب «آصف بن برخيا»، وهو من بني إسرائيل، وكان صدّيقاً، يحفظ اسمَ الله الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب.

وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي ﷺ: «إنَّ اسم الله الأعظم الذي دعا به آصف بن برخيا: يا حي يا قيوم»[(١)].

ولو ثبت هذا الحديثُ لكان نصّاً لا يدعُ مجالاً للاجتهاد في أن الذي أتى بالعرش هو «آصف» مع تناوُله طريقةَ ذلك أو وسيلته، وهي الدعاء.

ويضاف إليه كلام الزهري بهذا الصَّدد: دعاء الذي عنده اسم الله الأعظم: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً، لا إله إلا أنت، ائتني بعرشها؛ فمَثُل بين يديه...

وقال السُّهيلي: الذي عنده علم من الكتاب هو «آصف بن برخيا» ابن خالة سليمان، وكان عنده اسم الله الأعظم من أسماء الله سبحانه وتعالى.

وقيل ـ وهذا للسهيلي ـ: هو سليمان نفسه، ولا يصحُّ في سياق هذا الكلام مثل هذا التأويل. وقد نقله القرطبي في «تفسيره»[(٢)].

وقال القرطبي (ت ٦٧١هـ) في معرض بيانه لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: ارتدادُ الطرف: مقدارُ ما يفتح عينه ثم يطرف، ثم قال: لأنه إن كان الفعل من سليمان فهو معجزة، وإن كان من آصفَ أو من غيرِه من أولياءِ الله فهو كرامة، وكرامة الوليِّ معجزة النبي.

---

(١) يُنظر: «تفسير القرطبي» (١٣: ٢٠٤)، وذكر الحديثَ، ولم أجده مسنداً.

(٢) المصدر السابق (١٣: ٢٠٤-٢٠٥).

قال القشيري: وقد أنكر كرامات الأولياء من قال: إن ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ هو سليمان، قال للعفريت: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ وعند هؤلاء ما فعل العفريتُ ليس من المعجزاتِ ولا من الكرامات، فإنَّ الجنَّ يقدرون على مثل هذا[١].

وفي «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ):

قيل: هو من الملائكة، وهو جبريل، وقيل: رجل من الإنس واسمه «آصف» كاتب سليمان، وكان صدّيقاً عالِماً. قاله الجمهور. أو هو «الخضر». قاله ابن لهيعة، ومن أغرب الأقوال أنه «سليمان» عليه السلام، كأنه يقول لنفسه: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ...﴾، أو يكون خاطَبَ به ذلك العفريتَ، وحكى هذا القول الزمخشري وغيره، كأنه استبطأ ما قال العفريت، فقال له سليمان ذلك على تحقيرٍ لعَرضِ العفريت... والعلم الذي أوتيه «اسم الله الأعظم»[٢].

وأنت ترى أنَّ رصد الكيفيَّة لم يتعرّض لها النص القرآني، وإنما ذكر السرعةَ والأداء، وحُذفت تفاصيلُ يسهل معرفتها، وتتعلّق بمفردات الإنجاز، والضوءُ سُلّط في النص على أنّ العرش قد أُحضر مباشرة، وبأقلِّ زمن.

وقال ابن كثير (٧٧٤ هـ) مبيِّناً أمر ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ في الآية:

المشهور أنه آصف بن برخيا، وهو ابن خالة سليمان، وقيل: هو رجل من مؤمني الجانّ، فكان ـ فيما يقال ـ يحفظ الاسم الأعظم، وقيل: رجل من بني إسرائيل من علمائهم، وقيل: إنه سليمان عليه السلام، ثم علق على القول الأخير بقوله: هذا غريبٌ جدّاً![٣].

---

(١) يُنظر: «تفسير القرطبي» (١٣: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: «البحر المحيط» (٨: ٢٤٠-٢٤١).

(٣) يُنظر: «قصص الأنبياء» (٢: ٢٩٥).

ولو ألقينا نظرة إلى ما جاء في «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل الحنبلي (ت بعد ٨٨٠هـ) لقرأنا: اختلفوا في ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ فقيل: هو اللوح المحفوظ، و﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: جبريل عليه السلام، وقيل: كتاب سليمان عليه السلام، أو كتاب بعض الأنبياء، قال: وفي الجملة فإن ذلك مدح، وإن لهذا الوصف تأثيراً في نقل العرش، ولذلك قيل: إنه «اسم الله الأعظم»، وإن عنده وقعت الإجابة من الله في أسرع الأوقات؛ إذ حمل من «مأرب» إلى «الشام» في قدر ارتداد الطرف[1].

وقال: إنَّ أكثر المفسرين على أنه آصف بن برخيا وزير سليمان، وكان صدّيقاً يعلم اسم الله الأعظم.

قال: وقيل: بل هو سليمانُ نفسه، والمخاطَبُ هو العفريتُ الذي كلمه، وأراد سليمانُ إظهار معجزة، فتحدّاهم أولاً، ثم بيّن للعفريت أنه يتأتّى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت![2].

وأنت ترى حشر الفعل: «فتحداهم» في الشرح حشْراً؛ ليسوِّغ كون الخارقة معجزة، ولينسجم هذا مع تعريفها الذي سنورده لاحقاً.

قال محمد بن المنكدر: إنما هو سليمانُ، قال له عالـمٌ من بني إسرائيل آتاه الله علماً وفهماً: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، قال سليمان: هات، قال: أنت النبيُّ، وليس أحدٌ أوجَهَ عند الله منك، فإن دعوتَ الله، وطلبتَ إليه كان عندَك (يقصد العرش) قال سليمان: صدقتَ، ففعل ذلك، فجيء بالعرش في الوقت.

(١) يُنظر: «اللباب في علوم الكتاب» (١٥: ١٦٥-١٦٧).

(٢) المصدر السابق (١٥: ١٦٥).

هذا، وضعّف السهيلي ذلك بأنه لا يصح من سياق الكلام، قال ابن الخطيب[١]: وهذا القول ـ أي إسناد الفعل لسليمان عليه السلام ـ أقرب الوجوه؛ لأن لفظ «الذي» موضوع في اللغة للإشارة إلى شخص معيَّن، عند محاولة تعريفها بقضية معلومة، والشخص المعروف بأنه عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام، فوجب انصرافُه إليه، وأخصُّ ما في الباب أن يقال: كان آصف كذلك أيضاً! لكنا نقول: إنَّ سليمانَ كان أعرفَ بالكتاب منه، لأنه هو النبيّ، فكان صَرْفُ اللفظ إلى سليمان أولى.

كذلك: إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجةٌ عالية، فلو حصلت لآصفَ دون سليمان لاقتضى ذلك قصورَ حال سليمان في أعيُن الخلق.

كذلك: قال سليمان لما رأى العرش: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ أي: هذا النصر والتمكين من فضل ربي. فظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجِزُ قد أظهره الله سبحانه وتعالى بدعاء سليمان[٢].

وفي «بحر العلوم» للسمرقندي (ت ٨٦٠هـ تقريباً):

قال سليمان مخاطباً العفريت: أريد أسرع من هذا، ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ...﴾ آصف ابن برخيا، وكان وزيره ومؤدبه في حال صغره، وكان يعلم الاسم الأعظم، فقال: يا إلهنا إله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت[٣].

وذهب المعتزلة إلى أنه جبريل، قال الشيخ الإمام: لأنهم لا يرون كرامة الأولياء[٤].

---

(١) هو الفخر الرازي وقد تقدم كلامه.

(٢) يُنظر: «اللباب في علوم الكتاب» (١٥: ١٦٥-١٦٦).

(٣) «بحر العلوم» (٢: ٥٨٢- ٥٨٣).

(٤) يُنظر: «روح البيان» (٦: ٣٤٩).

قال السمرقندي (ت ٣٧٣هـ)[١]: وأكثر المفسرين على أنه آصف بن برخيا؛ إذ قال له سليمان: لقد أسرعتَ إن فعلتَ ذلك، فدعا باسم الله الأعظم، فإذا السرير قد ظهر بين يدي سليمان، قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾، شهد أن ما فعل ليس من قوة جلسائه، إنما هو صنع ربه سبحانه وتعالى.

ولعلي هنا أشير إلى أن العبارات التي يؤتى بها ليبدو المشهد متكاملاً ليس لها سندٌ في كثيرٍ منها إلى المعصوم عليه السلام، فلا تـرُدُّ حيث لا تتعارضُ مع النصوص لدينا، ولا تُعتبَرُ قطعيةً لا مفرَّ منها؛ إذ هي في غالبها ترميمٌ للمشهد الذي جاء الكتاب بخطوطه العريضة ذاتِ الدلالات على ما أريد من عرضه؛ إذ إنَّ القرآن كتابُ هدايةٍ وتربية وإرشادٍ وبصائر، ولذا يعرض من القصة أو المشهد ما يؤدي هذه المقاصدَ أو بعضها...

وفي «نظم الدرر» للبقاعي (ت ٨٨٥هـ) قال:

لَمَّا علم العفريت أنَّ غرض سليمان الإسراع قال: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وأوثق الأمر وأكَّده بقوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ لا يُخشى عجزي عنه، ولا يُخاف انتـقاصي شيئاً منه[٢].

ثم ذكر أن القصة لـمّا سيقت لإظهار فضل العلم المستلزم للحكمة، دلالةً على أنه سبحانه وتعالى حكيم عليم؛ قال حاكياً لذلك استئنافاً جواباً لاستشرافه عليه السلام لأقرب من هذا ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ ...﴾.

ولما كان لكتب الله من العظمة ما لا يحيط به إلا الله أشار إلى ذلك بتنكير ما لهذا

---

(١) «بحر العلوم» (٢: ٥٨٣).

(٢) يُنظر: «نظم الدرر» (١٤: ١٦٤).

الذي يفعل مثل هذا الخارق العظيم من ذلك، فقال: ﴿عِلْمٌ﴾ تنبيهاً على أنه اقتدر على ذلك بقوة العلم ليفيد ذلك تعظيم العلم، والحث على تعلمه، وبيّن أن هذا الفضل إنما هو للعلم الشرعي بدليل ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وفيه إشارة إلى أنه من خدم كتاب الله حقَّ الخدمة كان الله له، كما ورد في شرعنا: «كنت سمْعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...»[١] أي: إنه يفعل له ما يشاء، وقيل في تعيينه: إنه «آصف بن برخيا»، وكان صدّيقاً عالماً ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ وهذا أظهر في كونه «اسم فاعل»، لأن الفعل قارن الكلام، وبيَّن فضله على العفريت بقوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...﴾: إذا طرفتَ بأجفانك، فأرسلتَه إلى مُنتهاه ثم رددتَه[٢].

استـدلَّ من قال: إنه سليمان بقوله بعد حضور العرش: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، واستدلّ مُنـاقِضُه به؛ إذ كلٌّ من الأمرين على سليمان فضلٌ من الله، وعلى القول الأول المخاطَبة لسليمان[٣].

وفي «البحر المديد» لابن عجيبة (ت ١٢٢٤هـ):

قولُ العفريت: ﴿مِن مَّقَامِكَ﴾: من مجلسك إلى الحكومة وكان يجلس إلى تُسْعِ النهار، أو نصفه، آتي به على ما هو عليه، لا أغيّـر منه شيئـاً، ولا أبدله، فقال سليمان: أريدُ أعجلَ من هذا، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ...﴾ هو آصف بن برخيا وزير سليمان كان عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سُئل به أجاب، قيل: هو «يا حي يا قيوم» أو «ياذا الجلال

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) يُنظَر: «نظم الدرر» (١٤: ١٦٤-١٦٥).

(٣) يُنظَر: «المحرر الوجيز» (٤: ٢٦٠-٢٦١).

والإكرام» أو... وساق أقوالاً أخرى.. قال: وقيل: هو الخضر، أو جبريل، أو ملَكٌ بيده كتاب المقادير(١).

وفي «فتح القدير» للشوكاني (ت ١٢٥٠هـ):

«قال أكثر المفسرين: اسمه آصف بن برخيا، وهو من بني إسرائيل، وكان وزيراً لسليمان، وكان يَعلم اسمَ الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل أعطى. وقال ابن عطية: وقالت فرقة: هو سليمان نفسه، وقيل: الخضر، قال: والأول ـ أي: أنه آصف ـ أولى»(٢).

وفي «التحرير والتنوير» لابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) قال:

هذه المناظرة بين العفريت و﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ترمُز إلى أنه يتأتّى بالحكمة والعلم ما لا يتأتّى بالقوة، وأنَّ الحكمة مكتسبة لقوله: ﴿عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وأن الاكتساب بالعلم طريقٌ لاستخدام القِوى التي لا تستطيع استخدام بعضها بعضاً، فذكر في هذه القصة مثلاً لتغلُّب العلم على القوة، ولما كان هذان الرجلان مُسخَّرَين لسليمانَ كان ما اختُصّا به من المعرفة مزيَّة لهما ترجع إلى فضل سليمان وكرامته؛ أن سخَّر الله له مثل هذه القوى، ومقام نبوته يترفّع عن أن يباشر بنفسه الإتيان بعرش بلقيس(٣).

وقال أيضاً: وذكر أهل التفسير أنه «آصف بن برخيا»، وأنه كان وزير سليمان عليه السلام(٤).

---

(١) يُنظر: «البحر المديد» (٤: ١٩٧)، وعلّق ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) في «تفسيره» (٦: ١٩٢) على أنه «الخضر» فقال: وهو غريب جداً.

(٢) يُنظر: «فتح القدير» (٤: ١٦١). وتقدم قولُ ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤: ٢٦١).

(٣) يُنظر: «التحرير والتنوير» (١٩: ٢٧١).

(٤) المصدر السابق (١٩: ٢٧١).

وذكر علة الإحضار فقال: لما علم سليمانُ أنها ستحضُرُ إليه أراد أن يبهتَها بإحضار عرشها الذي تفخَر به وتعدُّه نادرة الدنيا(١).

وكشفَ عن المراد من طلبِه من الملأ ما طلبه، فقال: خاطب الملأ ليظهر منهم منتهى علمهم وقوتهم(٢).

وقال أيضاً: «علِمَ سليمانُ أن ملكة سبأ لا يسعها إلا طاعته ومجيئها إليه، أو: ورد له منها أنها عزمت على الحضور عنده عملاً بقوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]. ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: ٣٨] ثم يحتمل أن يكون سليمان قال ذلك بعد أن حطّت رحالُ الملكة في مدينة سليمان، وقبل أن تتهيّأ للدخول على الملك، أو حين جاءه الخبر بأنها شارَفَتِ المدينةَ، فأراد أن يُحضر لها عرشها قبل أن تدخل عليه ليُرِيَها مقدرةَ أهل دولته. وقد يكون عرشها محمولاً معها في رحالها جاءت به معها لتجلس عليه خشيةَ أن لا يهيىء لها سليمان عرشاً؛ فإن للملوك تقاديرَ وظنوناً يحترزون منها خشية الغضاضة»(٣).

هذه كلها تصورات يرى صاحبها أن النص يحتملها، ولكن ليس هناك ما يقطع بواحد منها؛ إذ النص لا يساعد على تعيين ذلك.

وفي «الظلال» للسيد قطب (ت ١٣٨٦هـ):

يتذاكر سليمان مع جنوده لإحضار العرش الذي خلفته بلقيس في بلادها محروساً

---

(١) يُنظر: «التحرير والتنوير» (١٩: ٢٧٠).

(٢) المصدر السابق (١٩: ٢٧٠).

(٣) المصدر السابق (١٩: ٢٧٠).

مصوناً، استطالَ سليمانُ الفترةَ التي يحضر العفريتُ فيها العرش، يُفهَم أنه ـ أي: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ـ رجل مؤمن على صلة بالله، موهوبٌ سرّاً من الله يستمدُّ به من القِوى ما لا تقف لها الحواجز والأبعاد، وهذا أمر مُشاهَدٌ أحياناً على أيدي بعض الصالحين، وهو خارجٌ عن مألوف البشر.

وقال: ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفسه، ونحن نرجِّح أنه غيره، فلو كان هو لأظهره السياق باسمه، ولَـمّا أخفاه، والقصة عنه، ولا داعيَ لإخفاء اسمِه فيها عند هذا الموقف الباهر، وبعضهم قال: إن اسمه آصف بن برخيا، ولا دليل عليه(١).

وورد في بعض التفاسير طريقة إحضار العرش على أوجه ممَّا لا يشير النص إليها، ولا مجال للتأكُّد من أيٍّ منها خارج النص.

هذا، وقد عرض العلماء للغرض من استقدام العرش، ونُقل عن ابن زيد وابن عباس: استدعاهُ ليُريَها القدرةَ التي هي من عند الله سبحانه وتعالى(٢).

وممَّا قالوه: لعله أوحي إليه عليه السلام باستيثاقها من عرشها، فأراد أن يغرب عليها ويريها، بعض ما خصَّه الله به من إجراء العجائب على يديه مع اطلاعها على عظمة قدرة الله، وعلى ما يشهد لنبوَّته ويصدقها. وقيل: أراد أن يؤتى به فينكر ويغير، ثم ينظر أتثبته أم تنكره اختباراً لعقلها.

قالوا: والظاهر ترتيب هذه الأخبار على حسب ما وقعت في الوجود، وهو قول الجمهور(٣).

---

(١) يُنظر: «في ظلال القرآن» (٥: ٢٦٤١).

(٢) يُنظر: «البحر المحيط» (٨: ٢٣٩).

(٣) يُنظر: «الكشاف» للزمخشري (٣: ٣٦٧)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٨: ٢٣٩).

هذا، وقد جاء في «أحكام القرآن» لابن العربي (ت ٥٤٣هـ):

ما الفائدة في طلب عرشها؟

قيل: فيه أربع فوائد.... وهنا أذكر اثنتين منها اكتفاء بهما عن الأخريين:

الأولى: أراد أن يختبر عقلَها في معرفتها به.

والثانية: أراد أن يجعله دليلاً على نبوته، لأخذه ـ أي: العرش ـ من ثقاتها، دون جيشٍ ولا حرب[1].

وكأني أمام استحضار العرش ألمح الرمزيَّة فيه، حيث إنَّ وضع اليد عليه بمثابة وضع اليد على المملكة كلِّها، فهو بمثابة سقوط عاصمة العدوّ بيد المنتصر، والله أعلم.

وفي «مفاتح الغيب» للرازي (ت ٦٠٦هـ):

«واختلفوا في غرض الإحضار لدى سليمان على وجوه، منها: دلالة لبلقيس على قدرة الله سبحانه وتعالى، وعلى نبوة سليمان حتى تضمّ تلك الدلالة إلى سائر دلالاتٍ لديها سلفت، أو أراد أن يؤتى به فيُنكَّر ويُغيَّر، ثم يُعرَض عليها ليعلم أتعرفه أم تجهله؟ وفيه اختبار عقلها، وجاء النص بهذا ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ ...﴾، أو كما قال قتادة: أراد أن يأخذه قبل إسلامها، لأنه لو أسلمت لَـمَا حلّ له أخذُ مالها، أو أن العرش سرير المملكة، فأراد أن يعرف مقدارَ مملكتها قبل وصولها إليه»[2].

ثم إذا كان فرد من أفراد مملكته بهذه المثابة، فما الذي تقول في سليمان نفسه؟

---

(١) يُنظر: «أحكام القرآن» لابن العربي.

(٢) يُنظر: «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٥٥٦).

وإن كان لا يهمُّها أن تعلم من أحضر عرشها إلى مملكة سليمان، إنما يبهرها الحدَث نفسه، وهو الإحضار، وعدمُ نسبة الإحضار لواحدٍ من مملكة سليمان أقوى على تركيز ذهنها على أنَّ المُحْضِر له هو الله سبحانه وتعالى بصرفِ النظر عن السبب، وهذا يبعث الهيبةَ في نفسها من مُجمَل مُلك سليمان، ولعلّ اكتفاءَ النصّ بذكر الفاعل بوصفِه الذي يؤكد صلتَهُ بـالله تعالى لينفح بهذا المعنى البهيج الذي تتلألأ منه أنوارُ الحضور مع الله سبحانه وتعالى؛ لئلا يُشغَلَ الرائي أو السامعُ بمن كان سبباً فينشغل به عن باطنه المذهل.

وما قيـل من أنه سليمان نفسه، اضطرّ قائلُه إلى توجيه النصِّ إلى غير وجهته الظاهرة ليتلاءَم مع طرحه، علماً أنّ من أسند الأمر إلى جبريل، أو ملك من الملائكة، لم يحجر عليه ما طرح لإمكانه مع التوجيه، ولكن المشهور عند المفسرين أنه «آصف بن برخيا»، وجاء بوصفه لينسب إليه ما نسب رافعاً راية العلم، وقمّتُه العلمُ بالله، وليدلّ على شرف العلم وفضله وشرف حامليه وفضلهم، وأن هذه الكرامة وجّهها الله لهذا الرجل فكانت بسبب ما آتاه الله من علم، ولو كان الأمر مسنداً لسليمان لكان داخلاً في مقام النبوة الرفيع فحسب.

وهنا لفتة: لما رأى سليمان العرش مستقرّاً عنده لم يغترّ ولم يأخذه الزهوُ ولا العجب ـ وحاشا للأنبياء أن يتملّكهم ذلك ـ بل لهج لسانُه بـ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾، فعينُه إلى الحدث ناظرة، وقلبُه بشهود عطاء الله متعلق، ولسانه يترنّم بما نضح به قلبه، وهذا ينسجم مع مقام العارفين الذين يشهدون فضلَ الله عليهم، وأنَّ النعمة ـ مهما عظمت ـ لا تُغفل عن المنعم، ولا تُلفت القلبَ عن شهوده، ولك أن تلاحظ الفرق بين من كان حاضراً مع المنعِم، وهو يتعامل مع النعمة، ومن كان حاضراً مع النعمة التي تأخذ بقلبه إلى رحاب المنعِم، وبين من هو غارقٌ في النعمة وغافلٌ قلبُه عمّن أنعم.

اقرأ قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠] وقوله: لهذه الأمة ـ لو دَرَتْ منـزلةَ ما أُعدّت له ـ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وبهذا خُتم المشهدُ البديع المكثَّف الفيّاض بالمعاني الثرّة بما أمَرَ به سليمان أن يُفعَلَ بالعرش ليُدخل ملكةَ سبأ في الاختبار الذي يقدر به نباهتها وفطنتها وحسن إدراكها، وأن الظواهر ـ مهما كانت براقة ومتقنة ـ لا يجوز في حكم القلوب أن تُخفي بواطنَها وتطمسها من عين البصيرة.

ويأتي الشعراوي (ت ١٤١٨هـ) ـ رحمه الله ـ ليدلي بدلوه الموهوب في غمار الحدث، ويقول: إنَّ ربنا سبحانه وتعالى تركَ من غيبيات كونه المادي ما يثبت صدقه في التحدث بغيبيات أخرى، وجاء الحق بواحد من الإنس حتى لا يظن الجن أنه أخذ خفة قانونه وشفافيته وسرعته «من عنصر تكوينه»، بل هي من عطاءِ الذي كوّنَ الأكوان، وعليه فالمسألة ليست عنصريَّة، بل هي إرادة الله في الأشياء، وقد جعل الله من الجنس القوي بقانونه ـ وهم الجنّ ـ محكوماً لواحد من الإنس، ويجعله تحت إمرته... فالحقُّ يعطي من طلاقة قدرته للجنس الضعيف بالنسبة إلى سواه شيئاً يستطيع به أن يسخِّر الأقوى من الجنّ[1].

إذن المسألة تتناول طلاقة قدرة الله خارج دائرة ما عرفنا من سنن كونيَّة. ليست عنصرية الجن هي التي أعطت ما به التميُّز، إنما هي إرادة «المعنصِر»، أي: خالق العناصر، وقد جعل الإنسان حكماً على الجنّ ومخدومَهم، يسخّرهم على ما يريد، وقد ظهر في مجلس سليمان من الإنس ما هو فوق طاقة العفريت، لأنه سيأتي به قبل أن ينتبه سليمان

---

(١) يُنظر: «تفسير الشعراوي» (٤: ٢١٧٢- ٢١٧٤).

من ردّ طرفه الذي أرسله يبصر به شيئاً، والعفريت جعل الفترة التي يحتاج إليها لجلب العرش تعادل مقام سليمان، ومقامه: هو الفترة التي يقعدها سليمان في مجلسه[1].

وقال في سياق كلامه: «أما نحن فنميل إلى أنه «سليمان»، وفرقٌ كبير في القدرات بين مَن يأتي بالعرش قبل أن يقوم الملِكُ من مجلسه، وبين من يأتي به في طرفةِ عين، ونقلُ العرش من مملكة بلقيس إلى مملكة سليمان يحتاج إلى وقتٍ وإلى قوة، والزمن ـ كما هو معلوم ـ يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً، فكلما زادت القوةُ قلَّ الزمن. وما دام الزمن يتناسب مع القوة، فلا يُنسَب الحدثُ هنا لِـمَن أُسند إليه في الظاهر، بل ينسب إلى «الله» الذي لا يحتاج إلى زمن أصلاً فيما يريدُ خلْقَه، وفي قول سليمان للجنِّي: ﴿أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِۦ ...﴾ تحدٍّ للعفريت حتى لا يظنّ أنه أقوى من الإنسان.

قوله: ﴿فَلَمَّا﴾ التعبير بالفاء مع «لما» الظرفية الحينية، يُظهر أن المسألة لا تتحمَّل أخذاً وردّاً، بل قد تمّ تنفيذُها فوراً، فإن العرض بأقلّ من رد الطرف، والتعبيرُ بـ«الطرف» دون «البصر»، قد ألغى الزمن أو كاد، وكأن المشهدَ يُدلي بشهادةٍ للمخلوقين يقول فيها: إياكم أن تظنوا أن ما بكم من تميُّزٍ هو من عنصركم، إنه «إقدار الله لكم» وإرادة من عَنصَرَ العناصر، وأقامها على ما أقامها عليه[2]!

ولما علم سليمان عليه السلام أنهم مقبلون من اليمن أراد نقل عرشِها قبلَ وصولها، ومادامُوا قادمين فعلى من يذهب ليفكّ عرشها ـ أو ينقله محمولاً كما هو ـ أن تكون له طاقة فوق قدرة الإنسان العادي، لذلك لم يتكلم الإنسيُّ العادي في أثناء طلب سليمان، وتكلم الجنّي والإنسي غير العادي، وهو ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[3].

(١) يُنظر: «تفسير الشعراوي» (٧: ٤٠٦٦).

(٢) المصدر السابق (٧: ٤٠٦٧).

(٣) المصدر السابق (٤: ٢١٧١).

معان ودلالات:

وممّا ينضح به النصُّ من معانٍ ودلالاتٍ أنّ ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ غلب قدرةَ العفريت من الجن، وهذه هي المعادلة، والمقصدُ من ذكرِ عرضِ العفريت أولاً، مع تحديده مدةً للقيام بجلب العرش، مع ما قرّ في نفوس بني آدم من تصوُّر للجنّ، وأنّ لهم قدرات خارقة، وقد عرض جانباً منها في موقف العفريت مما طلب سليمان عليه السلام، أقول: المقصد لئلا يغفلوا عن أنهم يُمكن أن يتسلّحوا بما هو فوق ذلك، كما يُجلّي النصُّ أنه ليس هناك أقوى ممن يلوذ بجناب الله الأقوى متوكّلاً ومعتمداً عليه.

وقد علمنا من النص ألا نكتمَ مواهبَ التابعين، وأن تُعطى لهم الفرصة، ويُفسح لهم المجالُ ليُظهروا مواهبَهم، وأن يقول كلٌّ ما عنده، ولو لم نكن نعرفها فينا، ومن لاحظ في سياق المشهد المتكامل قول الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢] يدري هذا المعنى اللطيف.

ثم: **أيـُعَدُّ قول الهدهد هذا انتقاصاً لمعلومات سليمان عليه السلام؟** حاشا للهدهد أن يريد الانتقاص! فلا يُعَدُّ بحال انتقاصاً لمنزلة سليمان العلميَّة، إنما يُعَدُّ تكريماً له، لأن الله سبحانه وتعالى سخّر له مَن يخدمه، وفرقٌ بين أن تفعل الشيء، وبين أن يُفعَل لك، فحين يُفعَلُ لك فهذه زيادة سيادة وعلو مكانة.

ويُطرح هنا السؤالُ النابع من المشهد نفسه: **أليس من الكرامة لسليمان أن يُحضَرَ له عرشُها، وهو في مكانه، وبواسطة أحدِ رعيته وجنديٍّ من جنوده؟**

ويكشف النص عن أنَّ الهدهد لم يُعرّف بمملكة سبأ، ممّا يدلُّ على أن سليمان يَعرِفها، ويعرِفُ ما فيها من ملك، إنما الذي غاب عنه، ولم يعرفه ما كانت عليه من فخامةِ عرش، وسوءِ عبادةِ هي وقومها؛ إذ كانوا يعبدون الشمس.

ولاحظ معي مجيء المرأة في النص نكرة ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾، وبنصّه في قوله: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النمل: ٢٣] نـقول فيها: العرشُ: هو مكان جلوس المِلك، وكان العرش متوافقاً عادةً مع عظمة المِلك، وعليه؛ فالعرشُ مجلسُ المتمكّن الذي يتولّى تدبير الأمور، وعرشُ الرحمن سبحانه وتعالى هو الذي له العظمةُ المطلَقةُ بالنسبة لكلّ الخلق، وعظمةُ عرش ملكة سبأ بالنسبة لأمثالها من الملوك.

ودراية سليمان أنهم سيأتونه تجلت في قوله: ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨] حيث ردّ هدية الملكة؛ ليُـبيّن لها أنه صاحبُ رسالة ومبدأ، لا صاحبُ مصلحةٍ وجمعِ دنيا، وهذا شأنُ الرسل قاطبـةً؛ إذ هـم أصحابُ رسالة لا يطلبون الدنيا، ولا ما فيـها، وشأنُ من سار مسيـرتَهم، وانتهَجَ مناهجَهم، وشـربَ من حِياض قلوبهم الـمُترَعة.

إن سليمان حدّد زمان الإتيان بقوله: ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي...﴾ ومهمةُ استحضاره على هذا فوقَ قدرة البشر كما يبدو؛ لذا لم يتكلم إلا العفريت، والجنُّ العاديون سكتوا.. وجاء كلام العفريت مُجمَلاً؛ إذ لم يكن صارماً في تحديد المدّة حيث ربطها بالمجلس، والمجلس قد يطول وقد يقصُر، فكان كلامُه من عرضِهِ للمُدارَسة، حيث إنه يستغرق وقتاً غير منضبط، فهو قد تعهّد بالمجيء بالعرش في هذه المدة، وذكر مع ذلك مؤهّلات القوة والأمانة، فكأنما يُقدِّم سيرته الذاتيَّة.

ثم لمّا تكلم الآخرُ لم يُحدّده النص إلا بالوصف، وتناول مقياس «الطّرْف» ـ وهو الجفن الأعلى للعين ـ مقياساً للإحضار.

وورد فيما جاء ردّا على توجيه النص إلى سليمان عليه السلام مُحْضِراً للعرش: قلتُم: لو كان شخصاً آخر غير سليمان لكان له تفوُّقٌ عليه في معرفة الكتاب، وغفلتُم

عن أنّ من عظمة سليمان وسَعَـة ملكه أن يعلم واحد من رعيته هذا العلم، وهو في خدمته، فمن عنده علم من الكتاب بحيث يأتي بالعرش قبل طرفة عين، وهو خادم في مملكة سليمان، وطائع له، ثم إنَّ المزايا لا تقتضي الأفضليّة، وليس نقصاً في منزلة الملك أن لا يعرف كلَّ شيء عرفَتْهُ رعيّتُه، ولنا في الخضر مع موسى عليه السلام مثالٌ؛ حيث إن ما اختُصّ به الخضر لا يُعليه على موسى، وهو رسولٌ، ومن أولي العزم من الرسل.

إنَّ السياقَ، ونمطَ التعبير، والإبهامَ فيه، لا يُوظَّفُ بسهولة لصالح سليمان عليه السلام بناءً على قضية التفوُّق المنفيّ، وسنُشبع هذا المعنى إيضاحاً فيما يأتي.

بقي قبل أن نصل إلى مبتغانا، وهي الحصيلة التي نبني عليها ما نراه، أن نحدّد مسألتين مهمّتين تندرجان في المضمون العام للمشهد:

أولاهما: مسألة اسم الله الأعظم، أهي قضيَّـةٌ لها ثبوت؟ وما دليلُها إذا كانت ثابتة؟

والثانية: مسألة المعجزة والكرامة، وما مرجعهما المشترك؟ وبِمَ تفترقان؟ ولكون المعجزة والكرامة والاسم الأعظم من مكوّنات «المشهد» ـ على ما ذهب إليه الكثير من المفسرين ـ لزم أن نعرضَ لهذه المكوّنات، نتبيّن أبعادَها ومدى ثبوتها، وبخاصّة أن لله اسماً أعظمَ إذا دُعي به سبحانه وتعالى أجاب.

ثم نُفضي إلى المحطة التي نريد، حيث نحطُّ رحالَ هذه الرحلة الشائقة بين ثنايا الأحداث، وعبرَ صفحات التفاسير، ونستشرف صفحة الأفق الوضّاء لتاريخٍ شَهِدَته هذه الدنيا بملْءِ سمعها وبصرها، وسُجّل ملخّصاً آياتٍ بيناتٍ تُتلى في المحاريب، وتنضح على السامع والتالي من الأذواق، وتكشف من الآفاق، فلا تُـمكّن اختناقات الحياة من أن تفعل فعلَها في النفوس المؤمنة.

فإلى رحاب أسماء الله سبحانه وتعالى، ومنها الاسم الأعظم:

مـمّا ورد في اسم الله الأعظم والأدعية المستجابة أنَّ رسول الله ﷺ بعث يوماً سريَّة، وأمّر عليها عاصمَ بنَ ثابتِ بنِ أبي الأقلح، وعلى الطريق غدَر المشركون بالسريَّة، وأحاطوا بها، وطلبوا منهم تسليمَ أنفسهم بقولهم: لكم العهدُ والميثاق إن نزلتُم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً.

فأبى عاصمٌ ومعه مجموعةٌ التسليمَ، وقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في جوار مشرك، اللهمّ فأخبِرْ عنا رسولَك، وقُتل عاصم في أثناء القتال، وكان قد قتَلَ في غزوة بدر رجلاً من المشركين اسمه مُسافع بن طلحة، ولما علمت أمُّ مسافع سلافةُ بأن قاتل ولدها عاصمٌ نذرت: إن أمكنها اللهُ من رأسه لتشربنَّ فيه الخمر، وكان عاصمٌ قبل أن يدخل في القتال مع من أحاط بسريته من المشركين، عاهد الله أن لا يمسَّ مُشرِكاً ولا يمسَّهُ مُشـرك، وقال: اللهمَّ إني حميتُ دينك أول النهار فاحْمِ جسدي آخرَه، وقد أرسلت قريشٌ إلى القَـتَلة أن يأتوهم بعاصم مقـتولاً أو بشيء من جسده، فأرادوا حزَّ رأسه ليُرسلوه إلى سلافة، لكن الدَّبْر ـ ذكور النحل ويقال: لها زنابير ـ حَمَت جسده، وثارت في وجوه القوم تمنعهم، ولمّا لم يقدروا على شيء منه، وأعجزتهم الدبرُ الحائمة حول جثمان عاصم، قالوا: إن الدَّبْرَ إذا جاء الليل انصرفت، فبعث الله مطراً، فجاء سيلٌ فحمل جُثمان عاصم وذهب به، فلم يُوجد، فسمِّي عاصم «حَـميُّ الدَّبْر»(١).

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ربَّ ذي طمْرَيْن،

---

(١) خبر السرية وقتل عاصم وحماية الدبر له مطوّل في «صحيح البخاري» (٣٠٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه زيادة قصة خبيب رضي الله عنه.

ويُنظر: «أسد الغابة» لابن الأثير: ترجمة عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه (٣: ٧-٨).

لا يُـؤْبَه له، لو أقسَم على الله لأبرّه، منهم البراء بن مالك»[١].

ودلالةُ قوله: «منهم» واضحةٌ على أن هناك من له هذه المنزلة عند الله سبحانه وتعالى، ولما كان يوم «تُستَـر» وفيه معركة مع الفرس، انكشف الناس، فقالوا له: يا براء! أقسِمْ على ربِّك، فقال: أُقسمُ عليك ـ يا رب ـ لَـمَا منحتَنا أكتافهم، وألحقتَني بنبيك ﷺ، فدارت الدائرةُ للمسلمين على الكفار، واستشهد البراء رضي الله عنه[٢].

وردت نصوص تدلُّ على أن أناساً ليسوا بأنبياءَ، لهم منزلة «من لو أقسم على الله لأبرّه»؛ منها: في «الجامع الصغير»: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرين، تنبو عنه أعينُ الناس، لو أقسم على الله لأبرّه»[٣].

وورد في حقِّ «أويس بن عامر» حيث حدَّد الرسول للصحابة أبرز صفاته، ومنها: «لو أقسم على الله لأبرَّه»، وقد قال رسول الله لعمر رضي الله عنه: «.... فإن استطعتَ أن يستغفر لك فافعل...»، وقد التقاه عمرُ فعلاً، حيث كان يسأل عنه في أمداد اليمن كما أخبر الصادق المصدوق، وسأله أن يستغفر له، ففعل[٤].

وهنا نبين فنقول: أين مقامُ أويس من مقام عمر مع هذا؟! وهذا يدل على أن ما أعطي أويسٌ من خصوصيَّة لا يعني نقصاً فيمن هو أعلى منه رتبة، ولم يؤْت ما أوتي،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٥٤)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» برقم (١٠٧٧).

(٣) «الجامع الصغير» برقم (٤٤٠١)، وعزاه إلى الحاكم و«الحلية».

وقد أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٩٣٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١: ٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرج ذلك مسلم (٢٥٤٢) (٢٢٥) عن عمر رضي الله عنه.

ويأخذ بيدنا إلى رحاب ما أوتي «آصف» من خصوصيَّة، وأنه لا يعني أنه أرفعُ من سليمان عليه السلام مكانةً.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «ربّ أشعثَ أغبرَ مدفوعٍ بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه»[١].

ورفعاً لوهمٍ قد يسْري في صدرٍ ما، ودفعاً له، أقول: لا تحسبنَّ أنَّ ثمَّة تعارضاً بين هذا القطع في الإجابة وبين ما جرى به القدر أزلاً!! إذ الذي يُلهم العبدَ المقسِم بما يُقسِم به هو الله سبحانه وتعالى، ولذا تكون الإجابة موافقةً لِما جرت به الأقدار، ولا تُعارضها بحال، وقيل: معنى القسم هنا: الدعاء، وإبراره إجابته. ولعله لم يُذكَر اسم الداعي في النصّ موضوعِ السؤال صريحاً، وذُكر بوصفه الخارجي؛ إذ لا مصلحة في التصريح، ولئلّا يُحصَر في واحد؛ إذ تعيينُه ربما يُوهم أن غيرَه لا يُعطى الاسمَ الأعظم كما أعطي.

وفي «الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير» لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ): «إنَّ خير التابعين رجل يقال له: «أويس»، وله والدة هو بها برٌّ، لو أقسم على الله لأبرّه، وكان به بياضٌ فمُروه» ـ الخطاب هنا للصحابة ـ «فليستغفرْ لكم». رُوي عن عمر رضي الله عنه[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) (١٣٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وفي «الديباج» للسيوطي (ت٩١١هـ) عند الحديث برقم (٢٦٢٢) قال: «لأبرَّه»: أي: لو أقسمَ على طلب شيء أن يقع، أو يُرفَعَ، لأوقعه الله سبحانه وتعالى ورفعه؛ استجابةً له، وتفضُّلاً منه سبحانه وتعالى، وإن كان هذا المقسِم على الله سبحانه وتعالى لا يأبه له الناس.

(٢) «الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير» للسيوطي برقم (٣٩٠٤)، وعزاه إلى مسلم. وقد أخرجه مسلم (٢٥٤٢) (٢٢٤) عن عمر رضي الله عنه.

ولأنس في الصحيح قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»(١).

وعمرُو بن الجموح رضي الله عنه كان أعرج، لما دعا أقبل على القِبلة، وقال: اللهمَّ ارزُقني الشهادةَ، ولا ترُدّني إلى أهلي خائباً، فقتل يومئذ في «أُحُد»، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنَّ منكم من لو أقسم على الله لأبره، منهم عمرو بن الجموح.. ولقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته»(٢).

وهنا توكيدٌ لدخوله الجنة، دون أن يكون المقصودُ أنه دخلها بعرجته؛ إذ لا عرج في الجنَّة.

منزلة «مَن أقسم على الله» من الله سبحانه:

وما مرّ يدلُّ على منزلةِ «مَن أقسم على الله» من الله؛ إذ أقسَمَ عليه فأجابه، وهذا، وإن كان يدل على جانب الكرامة، إلا أنه له وجهٌ ثانٍ يُطلُّ بنا على الدعاء واستجابته، وإن جاءت الصيغة «أقسم على الله» ممَّا يدلُّ على أن الحالف له دالّةٌ على الله، ومنزلةٌ عنده، تبعث به هذا التوجه في القسم.

تفضيل بعض الأسماء الحسنى على بعض:

هذا، وقد أنكر قومٌ أن يكون هناك الاسم الأعظم؛ إذ كل أسمائه سبحانه وتعالى عُظمى، وبنَوا إنكارهم على أنه لا يجوز تفضيلُ بعض الأسماء على بعض، من حيثُ نسبتها الواحدة لله سبحانه وتعالى المُسمّى بها، ووجد بعضهم ملمساً لدى الإمام مالك

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (١٦٧٥) (٢٤).

(٢) يُنظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر: ترجمة عمرو بن الجموح رضي الله عنه (٣: ١١٦٩).

حيث كره أن تُعاد سورةٌ ـ أو تُرَدَّدَ ـ دون غيرها من السور؛ لئلا يُظنَّ أنّ بعضَ القرآن أفضلُ من بعض[١]، حيث القرآنُ كلُّه كلامُ الله، وقدّروا أن كلَّ اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه «أعظم» ليرجع إلى معنى «عظيم».

وقال ابن حبان (ت ٣٥٤هـ): الأعظميَّة الواردة في الأخبار إنما يُراد بها مزيدُ ثواب الداعي، كما أطلق ذلك في القرآن على مُراد مزيدِ ثواب القارئ[٢].

وعلل بعضهم ورود الاسم الأعظم على أنه «كل اسم» من أسمائه تعالى دعا العبدُ به مستغرقاً في التوجُّه حتى لا يبقى في ذات الداعي أيُّ التفاتٍ لغير الله سبحانه وتعالى، وقالوا: إن من تأتّى له ذلك استُجيب له، وقد نُقل هذا المعنى عن جعفر الصادق رضي الله عنه، وعن الجنيد رحمه الله تعالى[٣].

استئثار الله سبحانه بالاسم الأعظم:

وقال آخرون: استأثر اللهُ بعِلم الاسم الأعظم، ولم يُطلِع عليه أحداً من خلقه، فقد وَرَد عنه ﷺ أنه قال: «ما أصاب مسلماً قطُّ همٌّ ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدُك وابنُ أمَتك، ناصيتي في يدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك، سمّيتَ به نفسَك، أو أنزلتَه في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيعَ قلبي، وجلاءَ حزني، وذهابَ همي، إلا أذهب الله همَّه، وأبدله مكان حزنه فرحاً». قالوا: يا رسول الله! ألا نتعلم هذه الكلمات؟ قال: «بلى ينبغي لمن سمعهنَّ أن يتعلمهن»[٤].

---

(١) يُنظر: «تفسير القرطبي» (١: ١٠٩).

(٢) يُنظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» للحافظ ابن حجر (١١: ٢٢٤).

(٣) المصدر السابق (١١: ٢٢٤).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٨٧٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، إن سلم =

الاختلاف في تعيين الاسم الأعظم:

وذهب فريق إلى التعيين، وإن اختلفوا فيه، فقد ذهب بعضهم إلى أنه «الله»؛ لأنه اسمٌ لم يُطلَق على غيره سبحانه وتعالى، ولا يُطلَق، ولأنه الأصلُ في الأسماء الحسنى، فلفظ الجلالة «الله» علَم على الذات الأقدس المستحق لجميع المحامد هو الاسم الأعظم.

ومن حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] و﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]»(١).

وبعضهم ذهب إلى أنه «الحي القيوم» ومن حديث أبي أمامة رضي الله عنه: «الاسم الأعظم في ثلاث سور: البقرة وآل عمران وطه». قال من روى عن أبي أمامة ـ وهو القاسم ـ: التمستُه، فعرفتُ أنه «الحي القيوم»(٢)، وقواه الفخرُ الرازي، واحتجّ بأنهما يدلّان من صفات العظمة بالربوبيَّة ما لا يدلُّ على ذلك غيرُهما كدلالتهما(٣).

وقد علق الشارح في «عون الودود»(٤) على هذا فقال: فائدة في قول القاسم: إن

= من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، فإنه مختلَفٌ في سماعه عن أبيه. ورواه أحمد (٣٧١٢)، وابن حبان (٩٧٢) من حديث ابن مسعود.

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (٢٧٦١١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٨٥٥) عن القاسم مرسلاً، و(٢٨٥٦) عنه عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» للحافظ ابن حجر (١١: ٢٢٤).

(٤) لعل المراد: «عون الودود شرح سنن أبي داود» لأبي الحسنات محمد بن عبد الله بن نور الدين الفنجابي؛ ذكره يوسف سركيس في «معجم المطبوعات العربية والمعربة» (٢: ١٤٦١)، ولم أقف عليه.

الاسم الأعظم في سورة [طه] في الآية ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾: لم أجد في المرفوع ما يؤيّده! فالأقربُ عندي أنه في أول السورة ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤]؛ فإنه الموافق لبعض الأحاديث الصحيحة.

وفي «الفتح الرباني»: باب ما جاء في فضل آية الكرسي؛ قال الشيخ أحمد البنا (ت ١٣٧٨هـ): ويُستفاد من هذا الحديث أنَّ اسم الله الأعظم هو ﴿الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[١].

وبعضهم قال: «ذو الجلال والإكرام». وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: يا ذا الجلال والإكرام! فقال: «قد استُجيب لك فسَلْ»[٢].

واحتجَّ له الفخرُ بأنه يشمل جميع الصفات المعتبرة في الإلهيَّة، لأن في «الجلال» إشارةً إلى جميع السلوب، وفي «الإكرام» إشارة إلى جميع الإضافات[٣].

وذهب آخرون إلى أنه «الله لا إله إلا هو، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»[٤]، على أن بعضَ التعييناتِ ترجع إلى مجرَّد الرأي دونَ السماع.

وفي «البحر المديد» لابن عجيبة (ت ١٢٢٤هـ) عن أبي هريرة رضي الله عنه: سألتُ حبيبي رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم، فقال: «عليك بآخر الحشر، فأكثِرْ قراءته» فأعدتُ عليه، فأعاد عليَّ، فأعدتُ عليه، فأعاد عليَّ[٥]. وأورده في «الكشاف»[٦].

---

(١) «الفتح الرباني» (١٨: ٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٢٧) وحسنه.

(٣) يُنظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» للحافظ ابن حجر (١١: ٢٢٥).

(٤) رواه أبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، والنسائي في «المجتبى» (١٣٠١)، وابن ماجه (٣٨٥٧) عن بريدة رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: «البحر المديد» (٧: ١٨).

(٦) يُنظر: «الكشاف» (٤: ٥١٠).

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم لك الحمد، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، المنان، بديع السماوات والأرض، ذا الجلال والإكرام! فقال الرسول: «لقد سألتَ اللهَ باسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى». والحديث صحيحٌ كما قال العلماء(١).

روى علي بن زيد بن جدعان، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك رضي الله عنه يقول: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب دعوة يونس بن متى عليه السلام ألم تسمع قوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المؤمنين: ٨٧-٨٨] فهو شرط الله لمن دعا بها»(٢).

وعن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لم يدع بها رجل مسلم في شيء إلا استجاب»(٣).

وقال بعضهم ما قال قتادة: اسم الله الأعظم: اللهمَّ إني أعوذ بأسمائك الحسنى كلها، ما علمت منها وما لم أعلم، وأعوذ بأسمائك التي إذا دُعيت بها أجبت، وإذا سُئلت بها أعطيت(٤).

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٢٢٠٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٩٣).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١٨٦٥) بزيادة.

(٣) رواه أحمد (١٤٦٢)، والترمذي (٣٥٠٥).

(٤) يُنظر: «فتح الباري» (١١: ٢٢٥).

قال ابن حجر: وأرجحها من حيث السند: «**الله لا إله إلا هو الأحد الصمد**»[(١)].

وقال الرازي (ت ٦٠٦هـ) في «لوامع البينات»: منهم من قال: الاسم الأعظم «الحي القيوم» ويدل عليه وجهان:

أحدهما: أنَّ أبي بن كعب رضي الله عنه طلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يعلِّمه الاسم الأعظم، فقال: «هو في قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ وفي ﴿الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾»[(٢)] قالوا: وليس ذلك في قولنا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأن هذه موجودة في آيات كثيرة، فلمَّا خصَّ الاسمَ الأعظم بهاتين علمنا أنه «الحي القيوم».

الثاني: أنَّ الحيَّ يدل على كونه سبحانه عالماً متكلماً قادراً سميعاً بصيراً، والقيوم يدل على أنه قائم بذاته مقوِّم لغيره، ومن هذين الأصلين تتشعَّب جميع المسائل المعتبرة في علم التوحيد، ففي هذين الاسمين من صفات العظمة والكبرياء والإلهيَّة ما ليس في غيرهما، وذلك يقتضي أنهما أعظم الأسماء»[(٣)].

وفي «إتحاف الخيَرة الـمَهَرة» للبوصيري (ت ٨٤٠هـ): عن سليمان بن بريدة عن أبيه: كنت مع رسول الله ﷺ فأتى على رجلٍ يقرأ قد رفع صوته، فقال: يا بريدة! قلت: «لبَّيك وسعديْك»، قال: أتراه مُرائياً؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قالها ثلاثاً، فقال رسول الله: «بل هو مؤمن منيب»، ثم أتى على رجل يدعو يقول: **اللهم إني أسألك أني**

---

(١) يُنظر: «فتح الباري» (١١: ٢٢٥).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ عن كعب بن مالك، وإنما أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٦١١) عن أسماء بنت يزيد بلفظ: «في هذه الآيتين: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] و﴿الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢] إن فيهما اسم الله الأعظم».

(٣) «لوامع البينات» للرازي ص ٦٩.

أشهد أنك لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال رسول الله: «لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به استجاب»[١].

وبناءً على ما سبق نجد أنّ نفيَ اسمِ الله الأعظم باطلٌ؛ لورود أحاديثَ كثيرةٍ فيه.

وفي ابن ماجه: كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، وفي الترمذي كتاب الدعوات، باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، وفي النسائي كذلك... أفيَسوغ مع بعضِ هذا أن ينفيَ أحدٌ الاسمَ الأعظم، ويُعرِض عما جاء فيه دون مُسوِّغ؟!

أسماء الله كلها عظيمة وحسنى:

وفي «فيض القدير» للمناوي (ت ١٠٣١هـ) ـ وهو يتناول اسم الله الأعظم ـ: قيل: بمعنى العظيم، وليس «أعظم»: «أفعل» للتفضيل، لأن كل اسم من أسمائه سبحانه وتعالى عظيم، وليس بعضُها أعظم من بعض، وقيل: هو للتفضيل، لأن كل اسم أكثرُ تعظيماً لله فهو أعظم، فاسمه «الله» أعظم من اسمه «الربّ»، وكلاهما له سبحانه وتعالى اسم، فإن «الله» اسمٌ لا شريكَ له في تسميته به، لا بالإضافة، ولا دونها، وأما «الرب» فيُضاف للمخلوق تارةً[٢]؛ يريد أنه يقال: رب الدار، ورب الأسرة...

وعليه؛ فإن أسماء الله الحسنى كلُّها حُسنى، وكلُّها عظيمة، وقد وصف الله سبحانه وتعالى أسماءه بالحسنى في أربعة مواضع في القرآن، وكانت حُسنى لدلالتها على أحسنِ وأعظمِ وأقدسِ مُسمّىً، وهو الله عز وجل، فهي بالغةٌ في الحسن من جهة الكمال والجمال..

---

(١) يُنظر: «إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة» (٦: ٤٤٧).

وقد أخرجه الإمام أحمد (٢٢٥٩٢) بتمامه، مع اختلاف وزيادة.

(٢) يُنظر: «فيض القدير» (١: ٥١١) الحديث (١٠٣١).

مناسبة الأسماء الحسنى لأحوال العباد:

ومن قال ذلك ـ أي: جميعُ الأسمـاء حُسنى ـ ذهب إلى اعتبار ما يناسبها من أحوال العباد، فاسمُ الله الأعظم في حال الفقرِ: الغنيُّ، وفي حالِ الضعفِ: القويُّ، وفي حالة الجهلِ: العالِـمُ، وفي حالة السعي والكسبِ: الرزاقُ، وفي حالِ الذنبِ: التوّابُ الغفورُ الرحيمُ... وهكذا كلُّ اسمٍ هو الأعظمُ في موضوعِهِ على حسب حال العبد.

قال العلماء في قوله: «الذي إذا دُعيَ به أجاب»: يعطي عين المسؤول بخلاف الدعاء بغيره، فإنه ـ وإن كان لا يُرَدُّ ـ بين إحدى ثلاث: إعطاء المسؤول في الدنيا، أو تأخيره للآخرة، أوالتعويض عنه بأحسن.

وقال الطيبي: الفرق بين «إذا سئل به أعطى» و«إذا دُعي به أجاب»: أن الثانيَ أبلغُ؛ فإنَّ إجابة الدعاء تدلُّ على شرف الداعي، ووجاهته عند المجيب، فتتضمَّن أيضاً قضاء حاجتِهِ بخلاف السؤال فقد يكون مذموماً، ولذلك ذُمّ السائلُ في كثير من الأحاديث، ومُدِح المتعفِّف، أقول: وذمُّ السائل الذي يتوجّه بسؤاله إلى الخلق دون حاجة[1].

كلام الطبري حول إجابة دعاء السائلين بأسماء الله الحسْنى:

ونعود إلى الطبري لنقرأ ما كتبه بهذا الشأن، ونجد فيه صلة هذا السَّرد بموضوع السؤال الرئيس.

قال: فإن قيل: فلو كان ـ كما وصفتَ ـ كلُّ اسم من أسماء الله عظيماً، لا شيء فيها أعظم من شيء، لكان كلُّ من دعا باسمٍ من أسمائه مُجاباً دعاؤه، كما استُجيب دعاء صاحب سليمان الذي أتاه بعرش بلقيس من مسيرة شهر قبل أن يرتدّ إلى سليمان طرفه؛

---

(١) يُنظر: «فيض القدير» (١: ٥١١).

لأنه كان عنده علمٌ من اسم الله الأعظم، وكذلك عيسى عليه السلام به كان يُحيي الموتى ويُبرئ الأكمه والأبرص، وقد يدعو أحدُنا الدهرَ الطويلَ بأسمائه فلا يُستجاب له، فدل على أن الأمر بخلاف ذلك.

ورُدّ بأن الأمر في ذلك كما قلناه، والاختلاف في أحوال الداعين، فمن داعٍ لا تُردُّ دعوتُه، ومن داعٍ كلُّه محل غضب، وعرضة للبلاء والفتنة، فلا يَـرُدُّ كثيراً من دعائه ليبتليَه به، ويبتلي به غيره، ومن داعٍ يُؤخِّرُ دعاءَهُ محتومُ قضائِه، ومُبرَمُ قدَرِه! وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما من مسلم يدعو إلا استجيب له، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، إما أن يُعجّل له في الدنيا، وإما أن يُؤخّر له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء بقدر ما دعا»(١).

ويُبيِّن ما قلناهُ أنا وجدنا أنه يدعو بالذي دعا به الذين عُجّلت لهم الإجابةُ فلا يُجاب له، فدلّ أن الذي اقتضى الإجابةَ لِـمَن أُجيب، وتَرْكَ الاستجابةِ لِـمَن لم يستجبْ له، اختلافُ حال الداعي، لا الدعاءُ باسم من أسماء الله بعينِه»(٢).

المفاضلة بين سور القرآن وآياته:

ووقفة قصيرة بين يدَي مسألة تفضيل أسماء الله تعالى بعضِها على بعض، وتفضيلِ بعض سُور القرآن وآياته على سائر السور والآيات، لنقرّر بها مجموعة من الحقائق:

القرآن كلُّه بسُوَره وآياتِه كلامُ الله سبحانه وتعالى الـمُنزَّل على قلب الرسول ﷺ بوساطة جبريل عليه السلام، وهو بهذا المَثابة في القمّة من التعظيم والإجلال، حيث أُضيف إلى الله تعالى إضافةَ الصفةِ إلى الموصوف.

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٠٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قول الطبري إلى هنا في «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠: ١٤٤-١٤٥).

جاءت نصوصٌ تتناول بعضَ السور والآيات تناولاً يُشعِر بها لها من خصوصيَّة، لا من حيثُ كونُها آياتٍ، بل من باب المضمون الذي حملته، وبالنظر إلى المضامين تجد قضيَّةَ التفضيل واضحة.

وقد ورد في سورة البقرة، وسورة الإخلاص، وسورة يس، وسورة الملك، وسورة الواقعة، وبعض الآيات كآية الكرسي ما يدلُّ على خصوصيَّاتٍ تتعلق بالمضامين، ولتجلية هذا المعنى أقول:

في «مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» للمباركفوري (ت ١٤١٤هـ) كتاب فضائل القرآن: عموماً وبعض سوره وآياته خصوصاً:

والفضلُ: خلاف النقص، واختُلف: هل في القرآن شيءٌ أفضلُ من شيء؟ فذهب أبو الحسن الأشعري والقاضي أبو بكر الباقلاني إلى أنه لا فضلَ لبعضه على بعض، لأن الأفضلَ يُشعر بنقص المفضول، وكلامُ الله حقيقةٌ واحدة لا نقص فيه.

وقال قوم ـ وهم الجمهور ـ بالتفضيل لظواهر الأحاديث، كحديث: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن»[1]، وحديث: «إن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] تعدل ثلث القرآن»[2].

قال القرطبي: إنه الحق، وقال ابن الحصَّار: العجب ممَّن يذكر الاختلاف في ذلك مع النصوص الواردة في التفضيل.

وقال الغزالي في «جواهر القرآن»: لعلك أن تقول: قد أشرتَ إلى تفضيل بعضِ آيات القرآن على بعض، والكلامُ كلامُ الله! فكيف يكون بعضُها أفضل من بعض؟

---

(١) رواه البخاري (٤٧٠٣).

(٢) رواه البخاري (٥٠١٣)، ومسلم (٨١١) (٢٥٩).

فاعلم أن نور البصيرة إن كان لا يُرشدك إلى الفرق بين آية الكرسي وآية المُداينة، وبين سورة الإخلاص وسورة ﴿تَبَّتْ﴾، وترتاع على اعتقاد الفرْقِ نفسُك الخوّارةُ المستغرِقةُ بالتقليد، فقلِّدْ صاحبَ الرسالة، فهو الذي أُنزل عليه القرآن، وقال: «يس قلب القرآن»[١]، و«فاتحة الكتاب أفضل سور القرآن»[٢]، و«آية الكرسي سيدة آي القرآن»[٣]، و«﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن»[٤]، وغير ذلك ممَّا لا يحصى.

ثم اختلفوا فقال قومٌ: الفضلُ راجعٌ إلى عِظَم الأجر، ومضاعفة الثواب، بحسب انفعالات النفس وخشيتِها وتدبُّرها وتفكُّرها عند ورود أوصاف الله العليّ، وقال آخرون: بل يرجع إلى ذات اللفظ، وإنَّ ما تضمّنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وآية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص، من الدلالة على وحدانيَّته وصفاته ليس موجوداً مثلاً في ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أو ما كان مثلها، فالتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة.

قال القسطلاني: ولعلّ الخلاف في هذه المسألة ـ أي مسألة التفضيل ـ يلتفت إلى الخلاف المشهور: إنّ كلام الله شيءٌ واحد أم لا؟

وعند الأشعري: أنه لا يتنوّع في ذاته، بل بحسب متعلّـقاته، وليس لكلام الله ـ الذي هو صفة ذاته ـ بعض، لكن بالتأويل والتعبير وفهم السامعين اشتمل على أنواع المخاطَبات، ولولا تنزُّله في هذه المواقع لَـمَا وصلنا إلى فهم شيءٍ فيه. انتهى.

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٨٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٣٠٠).

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٧٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢٠٥٦)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧٢٣).

(٣) رواه الترمذي (٢٨٧٨)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٦٠١٩).

(٤) رواه البخاري (٥٠١٣)، ومسلم (٨١١) (٢٥٩).

وقيل: التحقيق أنه لا خلاف في المعنى، بل الأول محمولٌ على ذات القرآن وحقيقته، والثاني: على غيرِهما كما علم[١]، وقد تناول ابن تيميَّة في كتاب له سمّاه «جواب أهل العلم والإيمان».. هذه المسألة وبيَّن فيه حكمة الله في تفاضل بعض السور والآيات مع أنها كلام الله سبحانه وتعالى[٢].

تفضيلِ بعض القرآن على بعض من حيث المضامين:

وممَّا يؤكِّد مسألةَ تفضيلِ بعض القرآن على بعض من حيث المضامين، لا من حيث الألفاظ ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن، هي آية الكرسي»[٣]. وواضحٌ أنَّ آية الكرسي تتجلى سيادتُها بمضمونها الذي يحدِّثنا عن الله جل جلاله!!!

وعن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أبا المنذر! أيُّ آية معك

---

(١) يُنظر: «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي (٢: ١٥٦ - ١٥٧).

(٢) يُنظر: «مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٧: ١٦٩-١٧٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث حَكيمِ بنِ جُبَير، وقد تكلّم شُعبةُ في حكيمِ بنِ جُبيرٍ وضعّفه.

وأخرج الحاكم في «المستدرك» (٣٠٢٧) طرفه: «إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن سورة البقرة»، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وأخرجه بقوله: «سورة البقرة فيها آية سيدً آي القرآن، لا يقرأ في بيت وفيه شيطان إلا خرج منه، آية الكرسي»، برقم (٢٠٥٩) ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. والشيخان لم يخرجا عن حكيم بن جبير لوهن في رواياته إنما تركاه لغلوه في التشيع.

وترجمة حكيم بن جبير في «ميزان الاعتدال» (١: ٥٨٣- ٥٨٤) تفيد أنه مجروح بالإفراط في التشيع وسوء الحفظ، فتُرِك.

من كتاب الله أعظم؟» قال: قلتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ قال: فضرب في صدري وقال: «ليهنك العلم أبا المنذر! والذي نفسي بيده، إن لهذه الآية لساناً وشفتَين تقدّس الملك عند ساق العرش»(١).

وما أروع الطريقة التربويَّة للسيد الرسول عليه الصلاة والسلام والتي اعتمدت على إثارة ذهن «أبيٍّ»؛ ليبحث عن الحقائق حيث سأله: «أي آية معك...؟»، وليكون حاملُ القرآن متدبّراً لِـما يحمل، كذلك جواب أُبيٍّ يُجلّي ثمرةً من ثمرات هذه التربية؛ إذ حدّد ما سُئل عنه تحديداً صوّبته النبوة، وجاء أمرُ التهنئة بعلمٍ غالٍ تتويجاً لهذا المنهج الربّاني الذي خرّج علماءَ أناروا الحياةَ والنفوس، كما أنارت الأرضَ الشموس! فما أحوجنا لهذه الإنارة حيث أظلمتِ الآفاقُ من حولنا إلا من بصيص!!

المعجزة والكرامة:

والآن نتَّجه إلى الأمر الخارق للعادة في صورتيْه «المعجزة» و«الكرامة» لنتبيَّن منه ما يُجلّي لنا ما نريد، ولِـما له صلة بموضوع السؤال، فأقول:

إنَّ الخوارقَ ـ سواءٌ منها ما ظهر على يد رسولٍ أو على يد وليٍّ ـ خلقُ الله سبحانه وتعالى، ولا علاقة لِـمن ظهرت على يديه بها إلا من حيثُ ظهورها على يديه، ولعلَّ المعجزة بهذه الـمَثابة تدلُّ على تأييد الله بها لِمن أرسله، وتقوم بهذه المثابة مقامَ قول الله سبحانه وتعالى: «صدق عبدي فيما يبلغ عني»، وليس للكرامة هذه الدلالة، إنما دلالتها على منزلة هذا الوليّ الذي أكرمه الله بهذه الخارقة.

جاء في كـتاب «التعريفات» للجرجاني (ت ٨١٦هـ): «المعجزة: أمرٌ خارقٌ

---

(١) رواه أحمد (٢١٢٧٨)، ومسلم في (٨١٠) (٢٥٨)، وأبو داود (١٤٦٠).

للعادة، داعٍ إلى الخير والسعادة، مقرونٌ بدعوى النبوة، قصد به إظهارُ صدقِ مَنِ ادّعى أنه رسولٌ من الله»(١).

وقال: «الكرامة: هي ظهورُ أمرٍ خارق للعادة من قِبل شخص غيرِ مُقارنٍ لدعوى النبوة، فما لا يكون مقروناً بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجاً، وما يكون مقروناً بدعوى النبوة يكون معجزة»(٢).

والكرامة تدلُّ على مجموعة من المصالح والحِكَم فيها، وتدلُّ ـ كما تدل المعجزة ـ على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى ونفوذ مشيئته؛ إذ هي «فعلُ الله» حقيقةً، ظهَرَ على يد مَن ظهر على يديه، وهي خرقٌ للسنن الكونيَّة التي أقامها الله في هذا الكون، وأقام الكونَ عليها.

وممَّا قرّره العلماء أنه لا يلزم على الأنبياء أن يُظهروا معجزةً كلما طلبها المنكرون، بل هم لا يظهرون إذا طلب المنكرون ذلك عناداً وامتحاناً، أو استهزاءً، ولذا قال العلماء: **المعجزة مبنيّـة على الإظهار بخلاف الكرامة**؛ فالأصل في الكرامة الاستتار.

وما أُبعدُ إذا قلتُ ـ بناء على هذا المعنى ـ: إن كتْمَ اسمِ من أتى بعرش بلقيس يدخُلُ في كون الكرامة مبنيّـةً على الستر.

كثرة معجزات نبيِّنا ﷺ ومزيّة معجزة القرآن:

ونافلة لا تضر بل تـنفع أقول: إنَّ معجزاته عليه الصلاة والسلام كثيرة كما هو ثابت، ومنها المعجزة الباقية كتاب الله تعالى، وهذه ـ وإن كانت معجزة ـ لكنها لا

(١) «التعريفات» للجرجاني ص ٢١٩.
(٢) المصدر السابق ص ١٨٤.

تدخل في التعريف الذي هو «فعل الله»؛ لأن القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى، وكلامه سبحانه وتعالى من صفاته، ومن هنا تميّزت معجزةُ القرآن بالبقاء، بخلاف المعجزة التي هي من أفعال الله، فإنها تبقى بإبقاءِ الله لها.

وممَّا ثبت له ﷺ من المعجزات: نبعُ الماء من بين أصابعه في مواطن كثيرة متعدّدة، وتكثيرُ الطعام، وحنينُ الجذع[١]، وهذه المعجزات وأضرابها ـ كما تراها ـ خوارقُ ظهرت في وقتها، وأدّت دورها، وطُويَت، لتصبح أخباراً تدعو إلى الإيمان بها حَدَثاً وقع فيما مضى وانقضى.

ولعلَّ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] يشير إلى معجزة رمْيِ الرسول يومَ بدر الكفار بحفنةٍ من تراب، فدخلت عيونَ الجميع، ويدلُّ على صلة المعجزة «بالأصل» حيث قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، فأسند صورة الرمي للرسول بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، والله أتى بما هو غايته، فأوصلها إلى أعينهم جميعاً.

قال الشاعر يرصد هذه المعجزة:

ورماهُمْ خيرُ الورى بسهامٍ ... راشَها ربُّهُ هيَ الحصباءُ
فأصابَتْ بِكَفِّهِ الجيشَ طُرّاً ... إذ مِنَ الله ليسَ منهُ الرِّماءُ[٢]

المعجزة على خلاف مجرى العادة وليست مستمرة في كل الأزمنة:

كذلك من البداهة أنَّ المعجزة لو كانت على مجرى العادة لا تكون معجزة، فعصا موسى عليه السلام حيث صارت ثعباناً، وابتلعت جميعَ ما ألقى السحرة من

---

(١) يُنظر: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (١: ٢٨٥- ٣٠٦) حيث جمع في هذه المعجزات فأوعى.

(٢) البيتان للشيخ يوسف النبهاني من قصيدته الطويلة «طيبة الغراء في مدح سيد الأنبياء».

حبالٍ وعصيّ، بلا زيادة حجم، ثم صيْرورتها كما كانت، على خلاف مجرى العادة، ومن هنا رأى العلماء أنه لا يجب استمرارُ المعجزة في الأزمنة؛ إذ لو استمرّت وشاعت، وكانت كلُّ عصا بهذه المثابة، لخرجت عن دائرة الإعجاز، والتحقَت بالمعتاد المأنوس، فخلقُ الله سبحانه وتعالى الفواكه متدلّيةً ناضجةً حلوةً لذيذةً رائقةً لوناً وريحاً وطعماً من الأمور الباهرة المذهلة، ومع ذلك لا تدخل في نطاق المعجزات، لجَرْيِ سنَّة الله بهذا في المواسم.

وما ذكر من إنجاء إبراهيم عليه السلام من النار التي أضرَمَها قومُه ليحرقوه بها انـتصاراً لأصنامهم، وإبراء المسيح عليه السلام الأكمهَ والأبرص، وإحياء الموتى، معجزاتٌ ثابتة.

التصديق بكرامات الأولياء:

كذلك من أصول أهل السنة والجماعة: التصديقُ بكرامات الأولياء، وما يُجري الله على أيديهم من خوارقِ العادات في أنواع العلوم والمكاشَفات وأنواع القدرة والتأثيرات، ومن المأثور عن سالف الأمم في هذا الميدان في سورة الكهف قصةُ أصحاب الكهف.

والكرامة كانت ولا تزال في الأمة، وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة على وقوعها، ومما قاله العلماء:

وأثبِـتَنْ للأوليـا الكرامَــهْ ومَن نفاها فانبُذَنْ كلامَهْ[1]

وهي - كما مرّ - أمرٌ خارق للعادة يجريه الله على يد وليٍّ من أوليائه معونةً له على أمر ديني أو دنيوي، والخارقة - كما مر - إن كانت مقرونة بدعوى الرسالة تُسمّى معجزة.

---

(١) «جوهرة التوحيد» للّقاني، البيت الثالث والثمانون منها. يُنظر: «عون المريد بشرح جوهرة التوحيد» (٢: ٩٣١).

ومن أنواع الكرامات: علمٌ وكشف، وقدرة وتأثير.

ومن الأول: ما جرى لعمر رضي الله عنه في قصة سارية، لما نادى وهو على المنبر فقال: يا ساريةُ الجبلَ الجبلَ(١).

ومن الثاني: ما وقع للسيِّدة مريم ـ عليها السلام ـ ولأصحاب الكهف(٢).

الولاية الخاصَّة والعامَّة:

ولا تُشتَرَطُ الولاية الخاصَّة لإجراء الكرامة؛ إذ تكفي الولاية العامّـة، أي: الدخول في عداد المؤمنين، فيشمله قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وعليه لا يلزمُ لظهورها كمالُ الاستقامة.

وكلُّ كرامة لوليٍّ من الأولياء هي في الحقيقة في صحيفة النبيِّ الذي آمن به ذلك الوليُّ، واتبع خطاه، ولولا ذلك لَـمَا كانت تظهر على يديه بل لم يكن وليّـاً بالمرة.

وهذا أظهر في أولياء هذه الأمَّة الذين حققوا الولاية بإيمانهم بالنبيِّ الخاتم، وإن خفي عنا هذا المعنى في بعض من سبق ـ كأصحاب الكهف ـ فإنه لا يفسد هذا المعنى، وممَّا خفي عنا أنا لا ندري مَن اتبع أصحاب الكهف من الرسالات على سبيل القطع،

---

(١) قال ابن حجر في «الإصابة» (٣: ٥): أخرج القصة الواقديّ عن أسامة بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر رضي الله عنه، وأخرجها سيف مطوّلة عن أبي عثمان وأبي عمرو بن العلاء، عن رجل من بني مازن، فذكرها مطولة.

وأخرجها البيهقيّ في «الدّلائل»، واللالكائي في «شرح السنّة»، والزين عاقولي في «فوائده»، وابن الأعرابي في «كرامات الأولياء» من طريق ابن وهب، عن يحيى بن أيوب، عن ابن عجلان، عن نافع، عن ابن عمر، قال:.... وهكذا ذكره حرملة في جمعه لحديث ابن وهب، وهو إسناد حسن.

(٢) يُنظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١: ٣١٤-٣١٨).

وإن كانت هناك أقوالٌ، وهذا لا يتعارض مع قولنا: لم تحصل الكرامة إلا ببركة الاتباع والسير على الهدى.

والكرامة بشرى مُعجَّلةٌ لِـمَن ظهرت على يديه؛ إذ هي دالّة على ولايتهم وحُسن عاقبتهم، وإن كانت لا تقتضي العصمة، ولا تُوجب حُسن الخاتمة، وإن رشحت لها.

الكرامات مستمرة في هذه الأمة:

ثم إنـنا نعتقد أن الكرامة لم تنقطع، ولا تنقطع إلى يوم القيامة، والواقع دليل ما نقول، لِـمَن تابع هذه الظاهرة، أو وقف على ما يقع منها؛ لقربه من هؤلاء الذين يحبوهم الله بذلك.

على أنا ما علينا إذا عطرنا هذه الصفحة بنقل بعض ما أورده الإمام النووي (ت٦٧٦هـ) رحمه الله في كتابه النفيس[١] تحت عنوان «باب كرامات الأولياء وفضلهم».

فقد ساق بداية قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، ومرّ على ذكر ما أُمِرَت به أمُّ المسيح عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم: ٢٥]، وعرّج على قصة أصحاب الكهف، وأورد حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس مُـحَدَّثون، فإنْ يك في أمتي أحد فإنه عمر»[٢]. ومُحَدَّثون: مُلهَمون، والتَّحديثُ نوعُ كرامة دلّ حديث الرسول عليه الصلاة والسلام أنَّ عمر مُنِحَها.

---

(١) يُنظر: «رياض الصالحين» ص٤٧٦.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه مسلم (٢٣٩٨) (٢٣) عن عائشة.

وعن أنس رضي الله عنه أنَّ أُسيد بن حُضير وعبّاد بن بِشر رضي الله عنهما كانا عند النبي ﷺ في ليلة ظلماءَ حِندِسٍ، فخرجا من عند النبيِّ فأضاءَت عصا أحدِهما، فمَشَيا في ضوئها حتى إذا افترقَ بهما الطريقُ أضاءت للآخر عصاه، فمشى كلُّ واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهلَه(١).

هذا، وقد ظهرت كرامات فيمن سبقنا من القرون، سُقنا بعضها، ومنها: واقعة أسيد بن حضير يقرأ سورة الكهف، فنزل من السماء مثل الظُّلّة فيها أمثال السُّرج، ولما قصها على النبي ﷺ بيّن له أنها السّكينة تنزّلت للقراءة(٢).

وورد أن الملائكة كانت تسلّم على عمران بن حصين(٣).

وذُكر أن سلمان وأبا الدرداء كانا يأكلان في صحفة، فسبّحت أو سبّح ما فيها(٤).

وخبيب بن عدي أسَرَتْهُ قريش، فكان يُؤتى بعنب ـ وهو أسير ـ يأكل، وليس بمكة عنبٌ(٥).

والعلاء الحضرمي مشى هو وجيشُه فوقَ البحر على خيولهم، متوجهاً إلى البحرين ليفتحها، ولم يكن معهم قواربُ ليعبروا بها(٦).

---

(١) أخرجه أبو نُعيم في «معرفة الصحابة» (٤٨٥١). وأخرجه بنحوه البخاري في «صحيحه» (٤٦٥) و(٣٨٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (٧٩٦) (٢٤٢)، والنسائي في «الكبرى» (٨١٨٧)، وأحمد (١١٧٦٦) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٢٢٦) (١٦٧)، وأبو داود (٣٨٦٥)، وأحمد (١٩٨٣٣) عن عمران رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦: ٣٦) عن قيس بن أبي حازم.

(٥) أخرجه البخاري (٣٠٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه الطبراني بأسانيد في «المعجم الكبير» (١٨: ٩٤-٩٦) بالأرقام (١٦٦-١٦٨).

وأَسَرَ الأسوَدُ العنسي الذي ادعى النبوّة باليمن **أبا مسلمٍ الخولاني**، فقال له: أتشهد أني رسول الله؟! قال: ما أسمع!! قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فأمر الأسودُ بنارٍ، فألقي فيها أبو مسلم، فصارت عليه برداً وسلاماً(١).

قال الطحاوي (ت ٣٢١هـ): «ونؤمن بما جاء من كراماتِهم، وصحّ عن الثقات من رواياتِهم»(٢).

وعليه؛ فالإيمانُ بالمعجزات والكرامات أصلٌ دلّت عليه نصوصُ الكتاب والسنة والواقعُ الشاهدُ، فعلى المُكلّف أن يعتقد ذلك، والتكذيبُ بشيءٍ ثابتٍ منها ردٌّ للنصوص ومصادمةٌ للواقع.

الأمر الجامع بين المعجزة والكرامة:

والمعجزة ـ لغةً ـ تعُمُّ كلَّ خارق للعادة، وكذلك الكرامة، ويُفرّق في الإطلاق؛ إذ الخارقةُ على يد النبيّ معجزة، وعلى يد الوليِّ كرامة، ويجمعهما الأمرُ الخارق للعادة.

وقال أبو علي الجوزجاني: كن طالباً للاستقامة، لا طالباً للكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة(٣).

فالكرامةُ من مطالب النفس، والاستقامةُ من مطالب الشرع، ومن هنا نُظهر الطاعةَ في جماعة، ونُخفي ـ طلباً للإخلاص ـ ما يكون بيننا وبين الله من توجُّه.

ألا يُشير ذلك كلُّه إلى كون الإتيان بعرشِ بلقيسَ من الكرامات التي سُتر من وَقعت على يديه اسماً، وحُدِّد وصفاً؟!

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٢٧: ٢٠٠ – ٢٠١) بأسانيد.

(٢) «العقيدة الطحاوية» بشرح ابن أبي العز الحنفي (٢: ٧٤٥).

(٣) يُنظر: «مجموعة الرسائل والمسائل» لابن تيمية (٥: ١٥٧).

تعريف الكرامة:

وفي تعريف للكرامة: أنها **أمرٌ خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة، ولا هو مقدّمة لـها، تظهر على يد عبد ظاهرِ الصلاح، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح.**

وبكونها: غيرَ مقرونة بالتحدِّي، خرجت المعجزاتُ لاقترانها به.

وكونها: ليست مقدّمة لها، يُخرج الإرهاصَ، وهو مقدّمة للنبوة.

وكونُها تظهر على يد عبدٍ ظاهر الصلاح، يُخرج ما يقع على يد السَّحَرة والكُهّان، ولو ظهر الخارقُ على يد فاجرٍ فليس بكرامةٍ قطعاً، إنما هو استدراج[1].

من هو الولي؟

قالوا: والوليُّ: من توالَت طاعاته من غير تخلُّل معصية، أو: هو الذي يتولّى الحقُّ تعالى حِفظَهُ وحراسته على التوالي من كلّ أنواع المعاصي، ويُديم توفيقَه على الطاعات.

والولي مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا، وحيث نُلحُّ على قضية الكرامة إثباتاً وأبعاداً نريد بذلك أن نؤكّد أنّ إسناد الإتيان بعرش بلقيسَ ليس غريباً عن تصوُّر المسلم، ولهذا نسوق ما يلي:

ثمة فروق بين المعجزة والكرامة:

المعجزة: مقرونة بدعوى النبوّة بخلاف الكرامة، وتحصل الكرامةُ باتِّباع الوليِّ النبيَّ والاستقامةِ على شرعه.

ومِن الأئمة مَن ذهب إلى كرامات الأولياء في الحقيقة تدخُلُ في معجزات الأنبياء، لأنها تحصل باتباع الرسُل، فكلُّ كرامةٍ لوليٍّ هي من معجزات رسولِه.

---

(١) يُنظر: «مفاتيح الغيب» (٢١: ٤٣١).

ويذكر هنا أنَّ حصول الكرامة لأحدهم لا يعني رفعةَ مَنْ حصلت له على من لم تحصل له، بل المطلوب الاستقامةُ، وبها تكون المفاضَلَة، وهي التي طلبها الله منا، والكرامةُ هي مطلب النفس من الله، وشتّـان ما بين أنت طالبٌ منه، وما هو طالبُـهُ منك؛ كما مرَّ قريباً!!!

بل ربما ظهرتُ الكرامة على يد من لم يكتمل أمرُ صلاحه ورسوخِه فيه، وقد جاء في الحديث صفة «جريج» الذي اتُّهم بالفاحشة اتهاماً كِيْدَ لهُ به، وما ظهرت براءتُه حتى استنطق الطفلَ الرضيعَ، وسأله: من أبوك؟ فقال الصبي: أبي راعي الضأن... ولما سمع قومُه ذلك برّؤوه، وكانوا قد هدَموا صومعتَه لّما بلَغَهم الاتهام، فلم يلبثوا حين سمعوا قول الرضيع ببراءته أن عرضوا عليه أن يَبنوا ما هدموا على أحسن ما يكون، فأبى إلا أن تُعاد على مثل ما كانت.

وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ما يُعلم بقصّة جريج الناسك حين اتُّهم بالزنى من حاسديه، وجيء به إلى ساحة القضاء، بعدما كسروا صومعتَه وشتَموه، وجيء بالمولود الذي اتُّهم بأنه منه، فنخَسه جريج ـ قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ حين قال بيده: ـ يا غلام! من أبوك؟ فقال: الراعي... فندم القومُ على ما كان منهم، واعتذروا إليه(١).

ومنها قصة الثلاثة الذين آواهُم الـمَبيتُ إلى غارٍ، وسُدّ عليهم بابُه، فما كان منهم إلا أن دَعَوُا الله ففرج عنهم(٢).

وسنلخّص ما أوردناه مع بيان ما اتّضح لنا بشأن مَن هو ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؟ مع بعض الحيثيَّات التي أغفلناها ـ أو بعضَها ـ في السياق.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٠٦)، ومسلم (٢٢٥٠) (٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) (١٠٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

بناء على ما تقدّم أجِدُني أمام ما يلي:

نحن أمام نصٍّ قرآنيٍّ تضمّن مشهداً قولياً وفعلياً، وقد جاء القول مُسنَداً إلى ذاتٍ موصوفة بصفة العلم، تمخّض عنه فعلٌ، تجلّى بإحضار عرش الملكة بلقيسَ من اليمن.

وقد وقف العلماءُ أمام هذا القائل ليتعرفوا إليه: أهو رجلٌ أُوتي علماً إلهياً، ودرى اسماً من أسماء الله سبحانه وتعالى، وكان له مع الله حالٌ، جاء هذا الإنجاز على يديه، وهو ممَّن ضمَّهم مجلسُ نبيّ الله سليمان عليه السلام؟ أم هو سليمانُ نفسُه كما ذهب بعضُهم، لكنه لم يُذكَر صراحةً تنسجم مع سياق الآيات التي تناولت كثيراً من مِنَنِ الله سبحانه وتعالى عليه، وإن كان سليمانَ، فكيف نُوجّه الخطابَ في النص؟ وبمَ نعلِّل هذا التوجه؟

بصائرُ تُجلّي قضية السنن الكونيَّة وما يقعُ من خوارق:

لولا الاطّراد في السنن لَـمَا كان من معنىً للخارق.

العلاقة بين الأسباب والمُسبَّبات ثابتةٌ عاديَّةٌ، وليست ضروريَّة.

الخالقيَّةُ لله تعالى في كلِّ ما يطرح في ساح الوجود.

«لا حول ولا قوة إلا بالله» حقيقة، فكلُّ مظاهر القوة والحول في المظاهر الكونيَّة به قائمة، والنص ما نفى أن يكون هناك حوْلٌ أو قوة، لكنه حصَرَ المصدرَ، وحدّدَه بقوله: «إلا بالله».

هذا، وقد علّمتنا الشريعة جزئيّاتٍ من هذا المنهل التوحيدي الرائق نلهج به، مع شهود معناه في القلوب، وملاحظة الأسباب في عالم الأسباب، وندعو في غمرة الشُّكر

الآسِر: «اللهم أطعِمْ من أطعَمَنا»[١]، وهذا من عالم الأسباب، وقولنا: «الحمد لله الذي أطعَمَنا»[٢]، يُوقفنا على الحقيقة.

وحركة الحياة في عالم النبات ترجع إلى البصائر من قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس: ٢٤-٢٧]، حركةٌ دائبة وإمدادٌ مستمرٌّ دون إلغاءٍ للظاهر، بل إثبات له على أنه منهُ سبحانه وتعالى لا من نفسِه، والديمومةُ ثابتةٌ من خلال السنة الكونيَّـة في عالم النبات الذي هو من العوالم الرئيسة فوق الأرض التي هي من إنعامه.

عمومُ القدرة لكلّ المخلوقات ظاهرِها وباطنها، فلا يَخرُج مخلوقٌ عنها، والقولُ بالخصائص في غفلة عن الإمداد قول بالقوّة الـمُودَعة، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] حاسمٌ في هذه القضية التوحيدية المثيرة! وفرقٌ بين رؤية الخصيصة قائمةً في النار أو الماء على أنها مستقلّة في التأثير، وبين رؤيتها قائمةً بإقامته وإمداده.

والأسبابُ مَظهَرُ الحكمة، وعليها أُديرت الحياة، وإلغاؤها تعطيلٌ للحكمة، كما أن إثباتَ التأثير لها ـ دونَ الله باعتقادِ خصائصَ فيها تعملُ ـ لونُ شركٍ يُسمّى «شرك الأسباب»، ولو رؤي فيها أنها خلقه ابتداءً.

هو لونُ إقامةِ شريكٍ مع الله يَخلُق ويُؤثّر ويُغني ويُفقِر ويَشفي ويَروي ويُشبع والصواب إثباتُ الأسباب بإثباته، وأنها مَـمحوّةٌ بأحديّة ذاتِه، أي: لا تأثيرَ لها بنفسها، وإنما تأثيرُها بما يَخلُقه الله عندَها.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨١٨) من حديث المقداد بن الأسود، وأبو يعلى في مسنده (١٥١٧) من حديث المقداد بن عمرو.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٥) (٦٤).

وإثباتُ الفعل لله لا يُلغي ما ظهر به الفعلُ، بل يُثبته مُجرَّداً عن التأثير بنفسه.

البحوث تؤكد أن ما يظهر من علاقة بين الأسباب والمُسبَّبات لا ينفي وجودَ عنصرٍ، أو عناصرَ أخرى خفيت عنا من وراء ما ينتج عن هذه العلاقة.

نستحضر هنا ثبوت الكرامة، وورود الأحاديث والأخبار باسم الله الأعظم، وثبوت الولاية، وأن ما يظهر على يديها لا يضرُّ بمقام النبوة، بل هو شعاعٌ من شمس النبوَّة، كما نستحضر السياقَ دون تدخُّل عبر جسر الاحتمالات، وبما ينضح به مباشرة، وأن الأمر لم يكشف في النصّ تعييناً، وأن الاكتفاء بإسناد الفعل لرجلٍ من حاشية سليمان عليه السلام لا يخدشُ مقامَ النبوة، فإنَّ عبد الرحمن بن زيد لم يَـرَ مسّاً بمقام النبوة حين قال: لم يعلم سليمانُ ذلك الاسم، وقد أُعطي ما أُعطي[1]. وما ورد في قصة الهدهد حيث أحاط بما لم يُحط به من أمر سبأ، يُرشّح لهذا المعنى.

وبداية نقول: إذا كان النصُّ يحتمل الوجهين، بناءً على ما نقله العلماء، فأيُّ الوجهين أرجح؟ ذلك أنه لا يصحُّ أن يتساوى الوجهان معاً تساوياً لا ميزة لأحدهما فيه! وهنا علينا أن نسرد الحقائق الآتية لنصل إلى أيهما أرجح؟ مع التعليل.

وقد مرّ معنا ثبـوتُ كلٍّ من المعجزة والكرامة واسم الله الأعظم، وكلُّها من مكوّنات الوجهين، وما ذهب إليه العلمـاء، وهم يحدّدون مَن ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؟ يشي بذلك.

ومن هنا كان السؤال المطروحُ حولَ طلبِ سليمانَ عليه السلام أن يُؤتى بعرش بلقيسَ هو:

---

(١) تفسير «النكت والعيون» للماوردي (٤: ٢١٤).

ما الفائدة التي تترتّب على هذا الطلب؟

وقد تعدّدت التعليلات، ولعلَّ أقواها: أنه أراد أن يجعله دليلاً على نبوَّته؛ لكون العرش يُؤْخَذُ من ثقاتِها دونَ جيشٍ ولا حرب، ويرجع إليها مُلكُها بعد قيام الدليل عليها، وبهذا يكون الإتيانُ بالعرش معجزةً ظهرت على يد الرسول تصديقاً له في دعوى الرسالة، ولا يُعوَّلُ هنا على الكرامة في الدلالة.

قال القرطبي (ت ٦٧١هـ): «إن كان الفعل من سليمان فهو معجزة، وإن كان من آصف، أو من غيره من أولياء الله، فهو كرامة، وكرامةُ الولي معجزةُ النبي»[١]؛ لأنَّ للكرامة ما للمعجزة من الدلالة على صواب المنهج، وصدقِ دعوى مَن أتى به والتزَمَه.

وهنا لا ننسى أنَّ بلقيسَ قد قرّرت الالتحاق بسليمان بعدما وقفت باختبارها على حقيقة أمره، وعليه، فيكون إظهارُ معجزة منه ليؤكّد هذا المعنى في نفسها، ويكونَ أدعى إلى مُطلَق التسليم.

وفي «التحرير والتنوير» لابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)[٢]: قوله: ﴿ءَاتِيكَ﴾ الضمير في الفعل «آتي» ـ وهو الفاعل ـ لو كان لسليمان، لكان المعنى: أنَّ سليمان سيأتي بالعرش للعفريت المخاطَب؛ إذ يقول له: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾! ولو كان لَـمَا ساغ مثل هذا من سليمان؛ إذ يكون العفريتُ هو الطالب للعرش! ولو كان لجاء التعبير: «أنا آتي به» دون ﴿ءَاتِيكَ﴾.

وقال المفسرون الذين رجَّحوا أن «آصف» هو الذي عنده علم من الكتاب: قول سليمان لما رأى العرش: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ إما لأنّ الله أقدَره على ذلك بنفسه، أو لأنه سخَّر له من ﴿ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فأتاه به.

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٣: ٢٠٦).

(٢) لم أهتد إلى هذا النصّ في «التحرير والتنوير»، والله أعلم.

قال القشيري بصدد ترجيح كون الحدَث كرامةً: وقد أنكر كراماتِ الأولياء من قال: إن ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو سليمان نفسُه(١).

وقالوا في توجيه الخطاب: إنَّ سليمانَ خاطب العفريت، فقال له: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فكأنه تحدّاه في أمر الزمن الذي اقترحه العفريتُ لينجزَ مهمة إحضار العرش، وعند هؤلاء ما يفعله العفريتُ ليس من المعجزات، ولا من الكرامات، فإنَّ الجنّ يقدرون على مثل هذا، أي: فعلُهم لا يعتبر خرقاً للعادة.

لم يُصرِّح النصُّ القرآني باسم من أُسند إليه الإتيان بالعرش، وإنما اكتفى بوصفه وما لديه من علمٍ من الكتاب، وهو علمٌ خاصٌّ، ولو نصَّ على اسمه لانتفَت كلُّ هذه الأقوال، وما جاء فيها من اجتهادات، كذلك لو ثبت حديثٌ عن الرسول ﷺ يُحدّده لانتفى الخلاف بذلك.

التقَتِ الكثيرُ من الأقوال على أن معرفةَ مَن أُسند إليه هذا الحدثُ باسم الله الأعظم من وراءِ ما قام به، ومن أسنَدَ الأمرَ إلى سليمان عليه السلام أغفلَ الاسمَ الأعظم؛ إذ اكتفى بكونه رسولاً، وهذا الحدثُ مِمَّا أُيِّد به من خوارق، وليس كلُّ الخوارق من نِتاجِ هذا الاسم.

ليس هناك ما يمنع ـ عَقَديّاً ـ أن لا يكون الذي تولّى أمرَ الإتيان بالعرش نبيّاً؛ إذ الخوارقُ كما ثبتت للأنبياء معجزاتٍ ثبتَت للأولياء كراماتٍ، ولا تغُضُّ كراماتُ الأولياء من معجزات الرسل عليهم السلام.

الخارقةُ والعلمُ باسم الله الأعظم ليسا خاصَّين بالرسل، ومَن عَلِمَ اسمَ الله الأعظم

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٣: ٢٠٦).

من الأولياء لا يقتضي أنه أعلى رتبةً من رسوله الذي وجب الإيمانُ به ومتابعته من وراء ولايته.

الحكمة في إخفاء اسم من جاء بالعرش:

لا يخفى أنه لا يخلو إخفاءُ اسمِ مَن جاء بالعرش، وإظهارُ ما به كان أهلاً ليأتيَ به من حكمةٍ باهرة تشعُّ في صدر المتلقّي للآية خيوطُها، وتهمس: أنّ في الناس مخبوئين قد دُجِّجوا بطاقاتٍ يَستمنحونها من ذي الجلال خارقة، يستمدُّونها ممَّن بيده ملَكوتُ السماوات والأرض الذي والَوه، فيَدْعونه باسمه الأعظم الذي علَّمهم إيَّاه، وقد ذكَرنا طرفاً من الأدلة باهرةً على هذه الحقيقة، كما يُطلُّ علينا جرّاءَ ذلك من المعاني أنّ ثمّةَ أناساً لهم مقاماتٌ عند الله، ربما لا يدلُّ ظاهرُهم عليها باديَ النظر إليها، وقد أتحفتنا النبوةُ بمثل هذه البصيرة، وهذا يُربِّي فينا الاحترامَ والتوقير بعامة إلا مَن أسقطَتهُ الشريعة.

ضُبطت العادةُ بعادة أهلِ زمانِ الخارق، وتحديدُ الكرامة بهذا يُخرج ما جرى على أيدي الأنبياء عليهم السلام؛ إذ هو خارقٌ لكنه يُطلق عليه أنه معجزةٌ؛ كما أسلفنا، وعرشُ بلقيس يمكن اليوم أن يُؤتى به محمولاً، وبوقتٍ دون الوقت الذي حدّده العفريتُ للإتيان به، ويتصل بهذا قضيةُ إنكار كفّار قريش للإسراءِ بناءً على الزّمن الذي حدَث فيه، لا على أنه حدثٌ يدخل في الاستحالة، وقد جاء في تعليلِ إنكارهم: إنا نضربُ أكبادَ الإبل شهراً ذهاباً وشهراً إياباً، وأنتَ قمتَ بذلك في بعض الليل؟![1].

واليوم يمكن الانتقالُ عبرَ وسائطِ النقل ببعض الليل إلى مكانٍ مماثل، ولكن ألا ترى أنّ من أنكر الحدث من قريش بنى إنكارَه على قياس فاسد؛ إذ أغفل أنّ فاعلَ

(١) يُنظر: «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» لابن سيد الناس (١: ١٦٦).

الإسراء حقيقةً هو الله سبحانه وتعالى، ولذا أسند الفعل ﴿أَسْرَىٰ﴾ إليه، وما كان ينقُلهم إلى بيت المقدس إبلُهم!!!

كذلك تكرر الخارق حتى يصير عامّاً يُخرجه عن كونه خارقاً، ويدخله في السنن الجارية.

من رجح أن يكون القائل هو سليمان عليه السلام قال: لو افتقر في ذلك إلى «آصف» لاقتضى ذلك قصورَ حال سليمانَ في أعيُن الخلق، وقوله بعدها: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ يقتضي ظاهرُه أن يكون ذلك المعجِزُ قد أظهره الله على يديه وبدعائه.

ويذكر هنا أنَّ الخارقَ إذا ظهر على يد الوليّ لا يضرُّ ظهورُه بمنصب النبوة، ولا يخدشُه أيّ خدش. وقول سليمان لما رأى العرش يُشير إلى أنه لما رآه حاضراً بين يديه لم يحضر قلبه مع الواسطة، إنما استغرقه شهود فضل الله عليه. وهذا الحال قد يذوقه مَن هو دونَه في المرتبة، وقد يعيشه من ليس بنبيٍّ، لكنه تربيةُ نبي.

وقال سيد قطب (ت ١٣٨٦هـ) في «الظلال»: ونحن نرجِّح أنه غير سليمان، فلو كان هو لأظهره السياقُ باسمه، ولَـمَا أخفاه، والقصة كلها عنه، ولا داعيَ لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر[1].

هذا، وقد سيق ذكرُ اسمِه صراحةً عند ذكر تسخير الرياح، وتعلُّم منطق الطير، وسماع كلام النملة تُحذِّر، إضافةً إلى ما كان من أمر الهدهد... ثم لما جاء ذكرُ مسألة العرش أُخفي اسمُ من تسبّب بالإتيان به! فلمَ ـ وهو في معرض تَعداد نِعَم الله عليه ـ لم يقُل: قال سليمان: أنا آتي به؟!

الموقف ملخَّصاً يتضمّن ما عرَضَ سليمانُ على مَلَئه أن يُبديَ منهم من يقدر على

(١) يُنظر: «في ظلال القرآن» (٥: ٢٦٤٢).

نقل العرش من اليمن إلى فلسطين، وحدّد لتنفيذ ذلك الزمن الذي يسبق وصولَ الملكة ومن معَها إليه، ولا يكاد يظهرُ معنى هذا العرض إن كان يُراد منه مجرّد التحدّي للملأ؛ إذ لا معنى أن يعرض أمراً وهو يُريد أن ينجزه بنفسه، فهذا لا يعدو نوعاً من إظهار قوّته مقابلَ ما يعرضه الآخرون، أو ليظهر قدرته على جلب العرش قدرةً تفوق قدرة الآخرين، وبهذا يصبح العرضُ من أجل إثبات قدرته التي تفرّد بها دون أن يكون هناك مغزىً آخَرُ، مع أن المطلوب الإتيانُ بالعرش دون منافسةِ الملأ فيه.

ولقائل أن يقول: أراد أن يجسَّ قدراتِ الملأ، ويتعرّف إليها، ثم بعدَها يتصرّف بها يراه مناسباً. وهذا القول يدلُّ على أنه بالإمكان أن يكون من الملأ من له قدرةٌ تفوق قدرة سليمان عليه السلام، ولو كان ذلك لدلّ على أن وجود الأقوى في جهةٍ ما لا يعني إجْحافاً بحقّ النبوة، ذلك أنّ من ليس بنبيّ لا يرقى بما أُوتي إلى مرتبة النبوة التي هي اصطفاءٌ. ولعل «الخضر» لا يعلو على موسى الكليم عليه السلام، بل لا يُدانيه مع ما اختصّ به من علم؛ إذ موسى عليه السلام رسولٌ، ومن أولي العزم، والخضرُ وليٌّ، أو نبيٌّ على ما ذهب إليه بعضهم.

لم تُخالفِ الإصابةُ من ذهب مشـرِّقاً ومغرِّباً يتلمّس مَن يُسند له أمر الإتيان بالعرش، لقُرب تناوُل النصّ بصورته أمرَ من عنده علمٌ من الكتاب، وإن بقي أمرُه تعييناً أمراً خفياً، والكرامات ـ فيما قرّره العلماء ـ أمرها مبنيٌّ على الستر.

لا يُلغى قول من قال: إنه سليمان، لاحتمال النصّ له، وإن كان بعيداً، ويحتاج إلى توجيه.

الاختلاف في النسبة إلى المحلّ لا إلى الـمُظهِر للفعل؛ إذ هو الله سبحانه وتعالى بالاتفاق.

عرض النص حالة الإنجاز التي دلَّ عليها قول: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، فأسند أمرَ الإتيان بالعرش إسناداً ظاهراً إلى الاسم الموصول الذي وضحت جملة الصلة معناه، لكنه جاء مُضمَر التعيين.

وأقرب ما يتجه إليه الذهنُ عند التلاوة أن ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو غير سليمان عليه السلام؛ ليكمل المجلس بمن فيه: سليمان، والعفريت، والرجل الذي عنده علم من الكتاب، وطلب سليمان من الملأ ما طلب، وإجابة اثنين، وتولّى أحدُهما أمر التنجيز.

هذا وبالله التوفيق.

دبي ١٩/ ١٢/ ٢٠١٠ عبد الكريم تـتان

السنن الكونيَّـة وعالم الأسباب والمسبَّبات

٣ ـ بالَغَ المؤلف رحمه الله تعالى في اعتبار السنن الكونيَّـة، وجعلها قطعيَّةً لا تتخلّف، وحاول تفسيرَ جميع المعجزات بأنها جاريةٌ على مُقـتضاها، حتى حمْل مريم عليها السلام؟

أجاب فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان:

نستحضر هنا مجموعةً من الحقائق بصورة مركَّزة، وأُرجِئ الأدلةَ الصارخة على بطلان الباطل، ورسوخ الصواب في ميدان الحق:

ـ كـلُّ ما سوى الله، ولا يخرج ذرَّةٌ منه عن كونه مخلوقاً لله، هذا ما دلّت عليه النصوصُ التي لا تُحصى.

مـمَّا خلق الله ما يرجع إلى الإنشاء المباشر، ومنه ما يرجع إلى التوليد ممَّا خلق مباشرة، فالطعام ـ مثلاً ـ يحلّ في الجهاز الهضمي، ومكوّناتُ الطعام كلُّها ترجع إلى الله خلقاً، وهناك يتمُّ الامتصاص عبرَ عمليةٍ تقوم بها الأمعاءُ، وهي أيضاً من خلق الله! ويُضَخُّ الـمُمتصُّ في رحاب البدن، ويتكوّنُ منه كلُّ ما يتعلّق بحاجة البدن.

ويبرز هنا ما يتصل بجرثومة الإنسان، في كلٍّ من جسد الرجل والمرأة، الـمنيّ والبُييضة، وقد جاء النص على أدقّ ما يكون وأوضحه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۞ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٥٩] ولا جوابَ لتمحُّضه على صيغة واحدة.

ما تقرّر لا يُلغي عالَـمَ الأسباب وترتُّبَ خلقِ الله لها، فالعالَـمُ من حولنا عبارةٌ عن أسباب ومُسبَّبات، وكلُّها خلقُ الله، والعلاقةُ بينهما خلقُ الله كذلك.

ثمة ثلاثةُ مواقفَ من عالَـم الأسباب والمُسبَّبات:

١ـ من يراها كلَّها قائمةً بذاتها، ويُرجعونها، إما إلى الطبيعة، أو المصادفة، وهؤلاء يرَونَ قدمها، ولو من جهة أصلها.

وهذا الموقفُ يتعارض مع كلِّ النصوص التي جاءت بها الرسالاتُ. ولا دليلَ لهؤلاء على ما ذهبوا إليه إلا أنهم يرَونَ الحسَّ الكوني، ويَنفُونَ ما وراءه مِـمّا دلَّ عليه العقلُ والفطرةُ والنصُّ، وما أثبتَـتهُ الدراسةُ العلميَّة لهذا الكون؛ حيث بتنا أمام إطلاقِ تقديراتٍ لنشأة هذا الكون، ولو كبُـر الرقمُ المتصوَّر!

٢ـ وفريقٌ ذهب إلى اعتقاد أنَّ لهذا الكون خالقاً أنشأه من العدم، وأنَّ لهذا الكون بدايةً على ما دلت عليه أدلّـةُ الحدوث الكثيرة، ولكنهم رأَوُا العلاقـةَ بين الأسباب والمُسبَّبات علاقةً عقليَّةً لا تتخلّفُ بحال؛ إذ هي صارمةٌ كلَّ الصرامة.

وهذا الفريقُ يُفضي إلى الموقف السلبي من الخوارق الثابتة بالنصّ القطعي، وفيه ما فيه من الخطر العقَديّ.

ويصادمُ ما جاءت به النصوصُ التي كثُرت فيها الأفعالُ التي أُسندت إلى الله تعالى، على أنه هو فاعلُها، فهم على هذا يجعلون إسنادَ الفعل إلى الله إسناداً مجازياً، وإلى الـمُكوَّنات المخلوقة إسناداً حقيقياً، وفي هذا قلبٌ للحقائق؛ إذ كيف يَطمئنّ إلى أنَّ المخلوقاتِ الممكنة المكوَّنة التي هي محتاجة إلى الموجد تخلق، ويبعُدُ عن تصوُّر أنَّ اللهَ واجبَ الوجود هو الخالقُ!

ومن طامّات هذا التصوُّر أنه يدفعُ مَن تبنّاه إلى إنكار ما ثبت من الـمُعجزات التي تنفي العلاقةَ العقليَّـةَ التي لا تنفكُّ بين الأسباب والمُسبَّبات، والتي تُخفّف من المغالاة في التعامل مع السنن الكونية! وكفى بها طامَّةً.

٣ ـ **والموقف الثالث**: هو أن يُنظَر إلى الأسباب والمُسبَّبات على أنها كلَّها خلقُ الله، وأن العلاقةَ بينها علاقةٌ عاديةٌ قابلةٌ للانفكاك، وحيث تنفكُّ نكون قد خرجنا من العلاقة العادية إلى مجال الخارق للعادة.

وهذا التصوُّر الذي عليه أهلُ السنة والجماعة، مُستَنَدُهُ النصُّ، والعقلُ، والفطرةُ، والواقعُ، ودلّت عليه الخوارق: المعجزاتُ والكراماتُ. وبه يتحقّق التوحيدُ بأبعاده الواسعة، ويكفي فيه أننا حين نلهج بـ«لا حول ولا قوة إلا بالله» نكون أمام الحقيقة، وما الذي يبقى للمذهب المادّي بتصوُّراته من بقيةٍ أمامها؟! وأنها تُحقّق فينا التبرُّؤَ من الحول والقوة إلا بالله.

* * *

ثواب الأعمال بفضل الله

٤ـ جعل المؤلفُ رحمه الله تعالى جزاءَ الأعمال يوم القيامة من ثواب وعقاب مُرتَّباً على الأعمال ترتيباً طبيعياً، وفسَّر ذلك بأن العمل ـ خيراً كان أو شرّاً ـ يُكيّف الروحَ بكيفيّة معيَّنة، وهذه الكيفيَّةُ تجعلها مستعدّةً للثواب أو للعقاب، فيكون الثوابُ والعقابُ نتيجةً حتميةً للعمل، جاريةً على مُقتضى سنَّةٍ كونيَّة؟

أجاب العلامة الشيخ عبد الكريم تتان:

من مزالق التوجهات الفكريَّة: الوقوفُ عند معنىً ما، والتعاملُ معه على أنه حقيقةٌ ساريةٌ في الوجود كلِّه!

كالذي يبني تَصوُّراً من نصٍّ فهمه بقدر استيعابه، ولم يقارن بين فهمِه وما جاء من نصوصٍ أخرى في السياق نفسه، فأقلُّ ما يُقال في مثل هذا: إنه ألغى نصوصاً بالإعراض عنها، أو لَيِّ أعناقها، وظلَّ في أسْرِ النصِّ الذي لم يُحِط بأبعادِهِ خُبْراً كما يتطلّب الصوابُ!!

أثر الأعمال الصالحة والسيئة:

وردت نصوصٌ تبيّن أثرَ الأعمال الصالحة، والأعمال السيئة في القلوب نكتاً بيضاءَ وسوداءَ[1]، ولكن لا على معنى أن الثواب يأتي لزوماً بهذه الآثار، فأين مسالة

---

(١) عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، =

الثواب الذي هو خلـقُ الله تـفضُّلاً من هذه الآثار التي لا يُسند إليها أنها أثابَت أو عاقَبَت.

دعت الشريعةُ المسلمَ إلى بذل الجهود المخلصة في ميدان العمل الصالح، ودعَتهُ في الوقت نفسه أن يسأل اللهَ القَبولَ، وألا يعتمد على أعمـاله كائنةً ما كانت، وبهذا يشهَدُ فضلَ الله على عباده.

الثواب من فضل الله وليس بواجب على الله:

فأهل السنة والجمـاعة ذهبوا في مسألة الثواب: أنه من فضل الله تعالى على من يُثيبه، وليس بواجبٍ على الله ذلك[1]، وأنّ العملَ الصالح هو علامةٌ على ما يتفضَّل الله به على عبده.

فإن يُثِبْنا فبِمَحْضِ الفضلِ[2]

ولم يذهبوا هذا المذهبَ إلا بدلالاتِ النصوص وحقائقِ التوحيد.

= فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله» ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. أخرجه الترمذي وقال: «هذا حديث حسن صحيح» (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤).

(١) وما أصدق قول القائل:

ما للعبـاد عليـه حـق واجـب ... كلا وليس لديه سـعي ضـائع

إن عــذِّبوا فبِعَدْلـه أو نُعِّمـوا ... فبفضله وهو الكـريم الواسـع

(٢) «جوهرة التوحيد» للّقاني صدر البيت الخمسين منها، وعجُزه:

وإن يُعذِّبْ فبِمَـحضِ العدلِ

يُنظر: «عون المريد بشرح جوهرة التوحيد» (١: ٥٨٧).

وهذا الذي قرّره أهلُ السنة من أنَّ الثواب بفضل الله ـ علاوة على أنه المنسجم مع النصوص التي هي الأصل في بناء التصوُّر ـ لا يلغي الثواب، حيث يُثبِتُهُ «وعداً من الله تعالى»، ويُرجِعهُ إلى الله تفضُّلاً منه، مع التزام الأدب مع الله تعالى.

ومن ذهب إلى وجوب الإثابة على الله، فأقلُّه أنه أساء الأدب، وأعرَضَ عن النصوص التي تُؤدّي إلى غير ما ذهبوا به، ولم يقفوا على أسلوب القرآن في عرض الثواب والعقاب، والمسألة سمعيّةٌ بامتياز.

من النصوص الهادية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠-٨٢].

الآية الأولى شنّعت على التحكُّم في مسألة العذاب، وبيّنَت أن الأمر يُرجَعُ فيه إلى الله، ولا تتحكَّمُ فيه التقديرات، على أنَّ الذرة من المعصية يقابلها «كذا وكذا» من العذاب.

في الآية الثانية جيء بالفاء ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ وقد خلت من الفاء الآية الثالثة، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ ترتُّب الثواب ليس على أساس «الجملة الشرطيَّة»، أي: حيثُ وُجد الشرط وُجد ـ لا مَحالةَ ـ جوابُه. وكلمة ﴿مَن﴾ أشربَت معنى «الشرط»، ولا أقصد هنا أنّ هذا هو الدليل فيما ذهب إليه أهل السنة وتبنَّوه، بل كلمة «الفضل» قد كثُر ورودُها في كتاب الله وسنَّة رسوله عليه الصلاة والسلام.

الأعمال الصالحة سبب دخول الجنة بفضل الله ورحمته:

إنَّ الأعمال الصالحة هي سببُ دخول الجنة، ودخولُها يكون برحمة الله وفضله، لا بمجرَّد العمل، كما في الحديث الصحيح أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لن يدخل الجنةَ أحدٌ منكم بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله!! قال: «ولا أنا إلا أن يتغمّدَني الله برحمةٍ منه وفضل»(١).

وقوله: «يتغمّدَني» قال أبو عبيد: أي: يُلبسني ويُغشّيَني(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ رجلين كانا في بني إسرائيل مُتحابَّين: أحدهما: مجتهد للعبادة، والآخر يقول: مذنب، فجعل يقول: أَقصِرْ عمّا أنت فيه، فيقول: خلِّني وربي، حتى وجده يوماً على ذنبٍ استعظَمه، فقال: أقصِرْ، فقال: خلِّني وربي أبُعثت عليَّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفرُ الله لك أبداً، ولا يُدخلك الجنةَ، فبعث اللهُ إليهما ملَكاً، فقبض أرواحَهما، فاجتَمَعا عنده، فقال للمذنب: ادخُل الجنةَ برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظُر على عبدي رحمتي؟ فقال: لا يا رب! قال: اذهبوا به إلى النار». رواه أحمد(٣).

فأين مَن ذهب إلى الثواب الميكانيكي من مثل هذا الحوار الذي حدَّد المصير بناء على موقف لم يرتضيه الشرع.

وعن همّامٍ، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ليس واحدٌ بمُنجِيهِ عملُهُ،

---

(١) أخرجه الشيخان في مواضع من صحيحيهما؛ من ذلك: البخاري (٥٦٣٧)، ومسلم (٢٨١٦) (٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «غريب الحديث» لأبي عبيد (٣: ١٦٥).

(٣) رواه أحمد (٨٢٩٢)، وأبو داود (٤٩٠١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ولكنْ سدِّدُوا وقارِبُوا». قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمّدَني منهُ برحمةٍ وفضل»(١).

فإن قال قائل: كيف قال: «لا يُدخل أحداً منكم الجنةَ عملُه»، وقد قال: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]؟

فالجواب من أربعة أوجه:

أحدها: أنه لولا رحمةُ الله السابقةُ التي كتب بها الإيمانَ في القلوب ووفّق للطاعات ما نجا أحد، ولا وقع عملٌ تحصل به النجاةُ، فالتوفيق للعمل من رحمته أيضاً.

والثاني: أنَّ منافعَ العبد لسيّده، فعمل العبد مُستحقّ لمولاه، فإن أنعَمَ عليه بالجزاء فذلك بفضله، كالـمُكاتب مع المولى.

والثالث: أنه قد روي في بعض الأحاديث أنّ نفْسَ دخول الجنة بالرحمة، واقتسام الدرجات بالأعمال.

والرابع: أنّ أعمال الطاعات كانت في زمنٍ يسير، وثوابُها لا يبيد أبداً، فالمقام الذي لا ينفد في جزاء ما نفد بفضلِ الله، لا بمقابلة الأعمال.

وقال آخرون يبينون العلاقة بين النصين:

ظاهرُه أنَّ هذا الثواب وقع بسبب ذلك العمل، ولا معارضةَ بينه وبين قوله ﷺ: «لا يدخل أحدَكم الجنةَ عملُه»؛ لأن أحدَ الأجوبة المشهورة بالجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] أن أصل الدخول إنما يقع برحمة الله، واقتسام الدرجات بحسب الأعمال، وهذا الجواب في «فتح الباري»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٨٢٥٠).

(٢) يُنظر: «فتح الباري» (٣: ٣٥). وتنظر: رسالة «المحجّة في سير الدلجة» للحافظ ابن رجب الحنبلي.

وورد عن أبي الدرداءِ رضي الله عنه، أنّهُ سَمِعَ رسول الله ﷺ يَقُصُّ على المِنبر، وهو يقولُ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحْمَن: ٤٦]، قُلْتُ: وإن زنى، وإن سرق يا رسولَ الله؟ فقالَ رسول الله ﷺ الثانيةَ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحْمَن: ٤٦]، فقلتُ الثانيةَ: وإن زنى، وإن سرق يا رسولَ الله، فقالَ رسول الله ﷺ الثالثةَ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحْمَن: ٤٦] فقلتُ الثالثةَ: وإن زنى وإن سرق يا رسولَ الله، قالَ: «وإن، رَغِمَ أنْفُ أبي الدّرداءِ»(١).

لا ينقضُ هذا النصَّ وأمثالَه ما ذهب إليه مَن ذهبَ أنّ الأعمالَ تُكيّف الروحَ تكييفاً يُدخلها في مجال الثواب! وكأنّ الأمر يرجعُ إلى تفاعلاتٍ ماديَّة وفقَ سُننٍ كونيَّةٍ صارمة!

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج علينا النبي ﷺ فقال: «خرج من عندي خليلي جبريلُ آنفاً فقال: يا محمد، والذي بعثك بالحقّ، إنَّ لله عبداً من عبيده، عبَدَ اللهَ تعالى خمس مئة سنة على رأس جبل في البحر عرضُه وطولُه ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً، والبحر محيطٌ به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية، وأخرج الله تعالى له عيناً عذبة بعرض الأصبع تبضُّ بماءٍ عذبٍ، فتستنقع في أسفل الجبل، وشجرة رمّان تخرج له كلَّ ليلة رمّانةً فتغذّيه يومه، فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء، وأخذ تلك الرمانة فأكلها، ثم قام لصلاته، فسأل ربه عز وجل عند وقت الأجل أن يقبضه ساجداً، وأن لا يجعل للأرض ولا لشيءٍ يُفسده عليه سبيلاً، حتى يبعثه وهو ساجد، قال: ففعل، فنحن نمرُّ عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا، فنجد له في العلم أنه يُبعَث يومَ القيامة فيُوقَفُ

---

(١) يُنظر: «فتح الباري» (٣: ٣٥). وأخرجه أحمد في «مسنده» (٨٦٨٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٨٩٧).

بين يدَي الله عز وجل، فيقول له الرب: أدخِلوا عبدي الجنةَ برحمتي فيقول: ربّ، بل بعملي.

فيقول الربّ: أدخِلوا عبدي الجنةَ برحمتي، فيقول: يا ربّ، بل بعملي.

فيقول الرب: أدخِلوا عبدي الجنةَ برحمتي، فيقول: ربّ، بل بعملي.

فيقول الله عز وجل للملائكة: قايِسوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله، فتوجد نعمةُ البصر قد أحاطت بعبادة خمس مئة سنة، وبقيت نعمة الجسد فضلاً عليه.

فيقول: أدخِلوا عبدي النارَ، قال: فيُجَرُّ إلى النار فينادي: ربي، برحمتك أدخِلني الجنةَ، فيقول: رُدُّوه.

فيُوقَفُ بين يديه فيقول: يا عبدي، مَن خلقَكَ ولم تكُ شيئاً؟ فيقول: أنت يا رب. فيقول: كان ذلك مِن قِبَلِكَ أو برحمتي؟ فيقول: بل برحمتك.

فيقول: من قوّاك لعبادة خمس مئة عام؟ فيقول: أنتَ يا رب.

فيقول: من أنزلك في جبل وس اللُّجّة، وأخرج لك الماءَ العذب من الماء المالح، وأخرج لك كل ليلة رمّانةً، وإنما تخرج مرة في السنة، وسألتني أن أقبضك ساجداً، ففعلت ذلك بك؟ فيقول: أنت يا رب.

فقال الله عز وجل: فذلك برحمتي، وبرحمتي أُدخِلُك الجنةَ، أدخِلوا عبدي الجنةَ، فنعم العبدُ كنت يا عبدي، فيُدخله الله الجنة. قال جبريل عليه السلام: إنما الأشياء برحمة الله تعالى يا محمد». هذا حديث في «المستدرك» صحيحُ الإسناد[1].

---

(١) «مستدرك الحاكم» (٧٦٣٧)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، فإن سليمان بن هرم العابد من زهاد أهل الشام، والليث بن سعد لا يروي عن المجهولين». وتعقبه الذهبي بقوله: لا والله! وسليمان بن هرم غير معتمد.

ويكفي هذا النصُّ لتسديد التَّصوُّر فيما يتعلق بالثواب والعقاب.

إن ما يُلاحَظ من الذين يخرجون عن الجادة التي عبَّـدها أهل السنة أنهم لا يلتفتون إلى الأحاديث، ولا يُراعون مجموعةَ النصوص القرآنيَّة التي وردت في مسألة واحدة.

عموماً هذه نزغةٌ طارت من مدرسة المعتزلة فدفعت إلى مخالفة أهلِ السنة في مسألة الصلاح والأصلح، وأنه يجب على الله تعالى فعلُ الأصلح!!

* * *

قياس البعث على زمن الربيع في قوة إحياء الموتى

٥ـ أكثر المؤلف رحمه الله تعالى في إثبات البعث بالقياس على زمن الربيع في الإنبات، وقال: «خص طبيعة زمن الربيع بقوة إعادة الأرض الهامدة إلى الإنبات، وخص زمن الحشر بطبيعة إعادة أجسام البشر إلى الحياة»، وأطلق في مواضع عبارة: «إنَّ لزمن البعث قوة في إحياء الموتى، كما أن لزمن الربيع قوة في إنبات النبات»، وأحياناً يعبّر بالقوة، وأحياناً يعبّر بالتولد؟

أجاب العلامة الشيخ عبد الكريم تتّان:

مسألة أنَّ الله تعالى هو خالقُ كلّ شيء من أبرز القضايا التي جاءت بها النصوص، وانطوت عليها صدور الأمة اعتقاداً.

الظرف الزماني والظرف المكاني:

الظرف الزماني ليس سوى وعاءٍ يظَلُّ فارغاً لا يحدث فيه حدث، وما من حدث إلا من ورائه مُحدِثٌ. ولا بد من أن يكون الـمُحدِث من خارج الظرف نفسه وتقسيم الزمن المتجانس في الماهية إلى فصول هو بحسب ما تعرّفنا إلى ما يُظهره الله فيه.

وإذا كان الظرف الزماني مرتبطاً من حيث الوجود بالمكان، وإذا كان المكان والزمان قد سبقا بالوجود وجود الإنسان، فهل يصح أن يقال: إن إمكانيات ظهور المخلوق في زمن كذا، ومكان كذا، من وراء ظهور الإنسان بلا موجد؛ نظراً لخصوصيَّة

الزمان بالظهور! وهل لفصل الربيع خاصيَّةٌ أن يُنبِتَ الزهورَ دونَ الله؟ فلِمَ يُسْنَد أمرُ البعث على ما امتلأ به يومُ البعث من إمكانيَّـة سحبِ الموتى من قبورهم سحباً؟ هذا فيه إسنادُ الفعل للظرف الذي هو وعاؤه! علماً أن الزمان ليس له خصوصيَّةٌ من حيث ذاته، وإنما كلُّ مُخصَّصٍ له مُخصِّصٌ، فعليه تكون الخصوصيَّة التي رصدت عبر التكرار من صنع الله تعالى.

إسنادُ الفعلِ إلى الفاعلِ الأصلُ فيه أنه على الحقيقة، وخاصَّةً إذا أُسند لله تعالى، ولا يُعرَّج به على المجاز إلا إذا كان هناك صارفٌ مُعتبَرٌ إلى المجاز.

ثمة خلط بين العلل: العلة الماديَّة، والغائيَّة، والفاعلة، ولم يكن يوماً الزمنُ علةً، بل هو ظرفٌ لا يعدوه، ينتظر أن يُفعَل به، ولا يَفعَلُ.

الحكمة والعلة الغائيَّـة:

باب المطار الخارجي ـ حين تقتربُ منه ـ ينفتح تلقائياً، ثم بعد أن تدخل الصالة يغلق وراءك، لأنَّ الباب قد صُمّم بهذه الكيفيَّة، ليُحقّق غاية، ويُؤدّيَ مهمةَ تسهيل دخول المسافرين وخروجهم، هذا مثال.

ومثال آخر تجده في الإشارات المنصوبة على مفارق الطرق، وقد جعلت ثلاثةِ ألوان: الأحمر والأصفر والأخضر، لتؤدِّيَ وظيفةً حيويَّة، هي تأمينُ السلامة والوقاية من التصادُم.

وهنا لنا أن نسأل العلم والعقل والفطرة عن مدى علاقة المصادفة بوجود هاتين الظاهرتين، وإسناد الفعل للزمان من هذا الضرب. وهل يصدِّق عاقلٌ أن المصادفة قد لعبت دوراً سحرياً فذاً، وَفْق قوانين صارمة، فأقامت بابَ الصالة ـ على تلك الصورة ـ ليُؤديَ مهمته، ووَضعَتِ الإشاراتِ الضوئيةَ لتقوم بوظيفتها؟ فكأن المصادفة تنظم

السير بمعناه العامّ في الإشارات، والخاصّ بباب صالة المطار للحقائق، وهل يطمئن العقل إلى أن هذا وُجد مصادفةً عبرَ أزمنةٍ سحيقة.

فإذا كان العلم لا يقبل التفسير، لِما فيه من خرقٍ فاضح لقانون السببيَّة، وإسنادِ ظاهرةِ الاطِّراد الرائعِ في عمل الباب والإشارات إلى الاحتمال، وخروجِ المصادفة عن دائرة تحقيقِ الغايات وإرساءِ نظام بلهَ إيجادِه، وإبرازِ التنوُّع والتفرُّد، إذ ليس للمصادفة وجدانٌ ولا ذاكرةٌ، كما يقول علماء الرياضة.

وإذا كان العقل الحصيف يرفض هذا التعليل رفضاً قاطعاً لِما فيه من إهدارٍ للمخطط الواعي الذي أحاط بالهدف ـ وهو تسهيل مرور المسافرين وتأمين سلامة السائقين ـ كما أحاط بالوسيلة إليه، وهي تصميمُ الباب بطريقةٍ يُفتَح بها تلقائياً بمجرّد وصول المسافر، وترتيبُ حركة الألوان المرورية المنظمة، وبرزت إحاطته بالهدف وما يتصل به من وسائلِ تحقيقه، فما مدى استعداد العقل ليسمع ـ بله أن يقبل ـ أنَّ الظرفَ المكانيَّ، والحاجةَ من وراء وجود الباب والإشارات!!!

أفيمكن ـ بعد هذا ـ للعلم أن يُسنِدَ إيجادَ عين باصرة، أو أذنٍ سامعة، أو لسانٍ ناطق، للظرف الزماني، ويبني هذا «الوعي» على أنّ فصلَ الربيع أظهَـرَ زهورَه، أو ظهرت فيه بالقوَّة، لقوته الذاتيَّة بحسب التكوين في العطاء!!؟

بعد أن تبيَّن استحالة وجود مثل باب المطار والإشارات الضوئيَّة مصادفةً، فأي مصادفة تلك وراءَ عين الإنسان التي تُحقّق ـ مع الضوء وظواهر أخرى ـ الرؤيةَ؟ ووراء أذنه التي تُحقّق ـ مع الصوت وغيره من العوامل ـ السمع؟ ووراء الأنف وما يُحقّقه من شمّ الروائح؟ ووراءَ حاسّة الذوق وما تقوم به من إدراك للطعوم؟ وجُسيمات اللمس التي يُميز بها الإنسان بصورة فذة بين الناعم والخشن، والحار والبارد، كما

تُعرِّفُه ـ ولو كان أعمى ـ أن هذه ورقة، وذلك جدار، وهذا قلم.....؟ ثم الشفتان وما تحقِّقانه من وظائف منها جمالية، ومنها ما يتَّصل بأعماق النفس، واللسان، وما يُجليه من معانٍ، ويُبرزه من مكنونات الصدر، ويُؤدّيه من مهامّ جِسامٍ في عملية الهضم والبلع...

إدراك الحكمة أو العلة الغائيَّة:

إنه إذا كان من الأدلة الباهرة على وجود الله تعالى أن هذا الكون متغيِّر، ولا يمكن أن يكون أبدياً، وحدوثُه يقتضي عقلاً أن يكون له مُحدِث، فإن إدراك الحكمة أو العلة الغائيَّة من الأدلّة الآسرة، وتتجلى في أن هناك غرضاً معيّناً يُؤدّيه المخلوق، ولا بدّ من حكيمٍ مُدبِّر، قد أحاط بكل شيء علماً، وهو على كل شيء قدير.

ـ يقول مكتشف قانون الجاذبية: «لا تشُكُّوا في الخالق، فإنه مما لا يعقل أن تكون المصادفاتُ وحدَها هي التي تقود هذا الوجود». فهنا يثبت قانوناً، ولا يُلغي بوجوده حاجةَ الخلق لله تعالى.

ـ وهنا يأتي القرآن الكريم يعرض حقائقَ الكون الكبرى، ويدلُّ بآياته على أن الفاعل هو الله تعالى، على سبيل الحقيقة، وتفسيرها ينبغي ألا يجاوز دلالاتها!!

الدعوة إلى تدبر الآيات الكونية:

ـ ولنا أن نتَّجه إلى بعض الحشد القرآني الذي تناول حقائق هذا الوجود بشِقَّيهِ الحيوي والمادي، ما ظهر منه وما بطن، لنجدَ أن نصوصاً حثّت على تدبُّر الآيات الكونيَّة، ودَعَت إلى النظر الواعي فيها، ونصوصاً حثت على كلمات التسخير والتمهيد والتذليل، ومعاني العلل الغائيَّة، أو الحكمة من وجودِ كثيرٍ من الظواهر، ليتبيّن أنه الحقُّ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢-٣]، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وقد دُعينا إلى النظر في هذا الخلق بقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ [البلد: ٨-٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [الملك: ٢٣].

آيات التسخير والتذليل والحكمة منها:

ـ وعلى صعيد الوجود المادي، وما تجلّى فيه من حكمةٍ وتسخيرٍ ووظائفَ تنفي العبَثيّة والمصادَفة جاءت نصوصٌ كثيرة:

أُتْلُ بتدبُّرٍ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقولَه: ﴿إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِى تَجۡرِى فِى ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقولَه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [يونس: ٦٧].

وقوله: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِى ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل: ١٥].

وقوله في النحل: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩].

وقوله في الأنعام: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِى ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]، وقولَه: ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].

وقولَه في المعادن: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وفيما أنعمَ به على عبده داودَ ومن ورائه الناسُ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۞ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠-١١].

هذا المعرضُ الكونيُّ الهائل الذي أقامه الرب تعالى قال «متنقل في أرجائه» فيه: «إنَّ الله الأزليَّ الأبديَّ، العالِـمَ بكلِّ شيء، والمقْتدرَ على كلِّ شيء، قد تجلّى ببدائعِ صنعِه حتى صرتُ مندهشاً مبهوتاً».

- إن القرآن الكريم يُقرّر: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، والفطرة السليمة تشهد أن الله تعالى هو الموجد، وقد سُجّلت شهادتُها بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وإن العلمَ يُثبت أن الله هو المُوجِد، ولا وجودَ للمصادفة في هذا الوجود الحادث الممكن المنظّم، وإن العقل يُظهر لنا على النحو الذي لم يترك فيه شيء للمصادفة، بل كلُّ جزءٍ من أجزائه متّجهٌ نحو غايته.

وهنا لنا أن نؤكّد ما سبق أن قمنا بإيراد ما يقوله المفكرون، نستعير هذه الفقرة من أحدهم حيث يقول:

قلت: لقد شعر الفلاسفة الغربيون في بدايات القرن العشرين بما أسموه «فجوة الاستقراء»، وهي الانتقال من الجزئيات إلى التعميم، فالقول بأن المعادن تتمدّد بالحرارة انطلاقاً من تجاربَ على عددٍ - مهما كبُر - من المعادن فيه مغامرةٌ ومغالطةٌ منطقية، فقد يُكتشف معدنٌ ما لا يتمدّدُ بالحرارة، وعندها تسقط النظرية، وهذا يعني أن القانون العلمي «العلاقة بين الأسباب والمسبَّبات» هي علاقة افتراضيَّة لا تصل إلى حدِّ اليقين.

العلاقة بين الأسباب والمسبَّبات
عاديَّة وليست ضروريَّة أو عقليَّة

من جهة أخرى أدت علوم الكوانتيم (علم الجُزَيْئات الصغيرة داخل الذرة) إلى اكتشاف أننا لا يمكننا التنبُّؤ بموقع جُسيْم صغير أثناء حركته حسب أيّ قانون، فالجزيئات تتحرّك بصفةٍ تكاد تكون «عشوائية»، وهذا يعني ـ في أحسن الحالات ـ أن القانون العلمي «العلاقة بين الأسباب والمسبَّبات» هو قانونٌ يصف حركةَ المجموع، ولكنه لا ينطبق على كل فرد.

مثاله: أن تحسين ظروف الرعاية الصحيَّة في بلد ما قد يرفع متوسّطَ أعمار ساكنيها، إلا أن هذا لا ينطبق على كلّ فردٍ بعينه، فقد يموت شاب بأيِّ لحظة، وهو على مستوى عال من الصحة البدنيَّة والنفسيَّة، وهو يتمتع بأعلى درجات الرعاية الصحية.

من هنا نرى أن التفسير الميكانيكي الذي يُحكم الربطَ بين السبب والنتيجة، وهو ما كان سائداً في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، لم يعُدْ مقبولاً في القرن العشرين والحادي والعشرين.

فالعلماء اليوم عندما يضعون قانوناً علمياً يؤكّدون أنه يعومُ فوقَ بحرٍ من الاحتمالات، وإنما يُقاس كلُّ قانون علميٍّ بمدى ما يستلزمهُ من تطبيقاتٍ عملية ناجحة.

وهذا يعني أن العلماء اليوم ـ حتى في العلوم التطبيقيَّة ـ لا يقيسون صحَّة القانون العلمي بمدى يقينيَّته، أو صلته بالحقيقة، بقدر ما يقيسون صحته ـ التي قد تكون مؤقتةً ـ بمدى نُجوعه في تطبيقاتٍ عمليةٍ مُجْدِية.

من هنا؛ عندما صدر كتاب «بنية الثورات العلمية» لكوهن كان ذلك بمثابة الإعلان عن «انعدام اليقين في القوانين العلمية»، حيث بدا واضحاً أن العلم يمرُّ بدوراتٍ، تبدأ بتصوراتٍ، ثم قوانين تُبنى على هذه التصوّرات، حتى تبدأ التطبيقات بالاصطدام بصعوبات عملية تؤدي إلى إشكالات مفهومية، وعندئذ تحدث ثورةٌ تقلب كلَّ العلم، وتُغيِّرُ نظرياتِهِ ومفاهيمَهُ وقوانينَهُ وتطبيقاتِه.

وهذا ما حدث فعلاً عندما قضت «النظرية النِّسبيَّة» و«فيزياء الكوانتيم» على «التفسير الميكانيكي المادي» الذي أرسى قواعدَه نيوتن، وهذا ما جعل العلماء يؤكّدون أن العلمَ اليومَ يعود الى حافّة الميتافيزيك (ما وراء المحسوس)، بعد أن حاول الوضعيون ـ في القرون السالفة ـ التحرُّرَ منها، أو اعتبارَها نوعاً من الخرافة.

من خلال كل ما سبق؛ يتَّضح أنه لا يُوجَد أيُّ مُبرِّر علميٍّ أو عمليٍّ لافتراضِ العلاقةِ بين السبب والنتيجة علاقةً ضروريَّةً أو عقليَّةً، وأن ما سبق ذكرُهُ يُؤكّد ما ذهب إليه علماءُ التوحيد من أن العلاقةَ بين الأسباب والمسبّبات هي علاقةٌ عادية.

مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ الكلمات التي وردت أعلاهُ ـ كالعشوائية والاحتمالية ـ هي أوصافُ ـ أو أحكام ـ العلم الغربي، وأنّ معانيَها لدينا تُفيد معانيَ الإمداد والتسيير الإلهي للكون وما فيه، لا تلك الحتميَّةُ التي تَنسبُ للأسباب تأثيراً ذاتياً ضرورياً، والله أعلم.

تفسير الخطيب لحمل الإنسان للأمانة بالخيانة

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فسَّرها الشيخ الخطيب بوجه مغاير للمشهور بأن عَـدَّ حَمْل الأمانة على معنى الخيانة، فيكون معنى الآية أن السماوات والأرض أَبَيْنَ أن يَخُنَّ الأمانة. وكانت تأديتهنّ حسب طبيعتهنّ على أكمل وجه. أما الإنسان فقد ضيَّعها كلَّها أو بعضَها، ونقل عن «القاموس المحيط» أنه فسَّر حمل الأمانة بمعنى الخيانة لها.

أجاب فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان:

لم أستطع قبول ما جاء من تفسير «أن يحملنها» يَخُنَّها، لما يلي من موانع:

ثمَّة مفردات جاءت في السياق: «العرض» ممَّا يدل على التخيير.

المعروض وهو هنا «الأمانة» بالنص، وضدها لغة: الخيانة.

إباء «الحمل» ممَّن عرض عليه ما عرض.

وبالجملة بيّن النص أنَّ الله تعالى قد عرض «الأمانة» على المذكور من المخلوقات، فما كان منها إلا أن أبت حملها.

ولو وضعنا كلمة «يَخُنَّها» كما حلا للمفسّر موضعَ الكلمة القرآنية ﴿يَحْمِلْنَهَا﴾ المفسَّرة لوجدنا النص مع التفسير كالتالي: عرضت الأمانة على «المذكورين» فأبوا

خيانتها؟ وما تراه يدعو موقف ردّ هذا المعنى الذي تبنَّاه المفسر، ولعله استقاه من جملة من المعاني التي دارت بخلده، لا من عطاء الكلمة ﴿يَحۡمِلۡنَهَا﴾ وحدها، وبهذا يكون قد تبنَّى المعنى من جملةٍ فاضَ بها النص، لا من الكلمة نفسها، فصار التفسير تفسيرَ معنى عامّ اسْتلَّ من كل الموقف.

وتفصيل ذلك: أنه قال: لم تحمل المذكورات «الأمانة» إشفاقاً من عدم الوفاء بها، والامتناع يدلُّ بصورة غير مباشرة على الحرص على الوفاء، وهذا هو لب «الأمانة»! وأنت ترى بعد ما بين الكلمة «المفسرة» والكلمة القرآنيَّة، فهي من ضرب الكناية التي انطوت على مجموعة من الدرجات لتفصح عما جيء بها له.

وبالرجوع إلى الفعل «حَمَل ـ وحُمّل» تجد أنه لا يفضي مباشرة إلى معنى «الخيانة»، إلا بعد الوقوف على حال الحامل ممَّا حُمّل؛ فإذا أدّى ما حُمّل كان أميناً، وإلا فهو من الخيانة بمكان.

وبالوقوف على ما جاء من تفسير لكلمة «الأمانة» تجد أن حَملها يعني الدخول في «التكليف»، وهو لا يقتضي بذاته وفاء، ولا تضييعاً، بل مَن أدّى فقد وفَّى، ومن ضيَّع فقد خان.

مـمَّا جاء من معاني كلمة «الأمانة» باختصار وتركيز:

في معنى الأمانة كثيرٌ منَ الأقوال لبابها:

أنها الأمرُ والنهيُ. قاله أبو العالية.

أو: أنها الفرائض. رُوِيَ عن ابن عباس وغيره.

أو: الخلافةُ.

أو: الجنابةُ والصلاةُ والصومُ؛ قاله زيد بن أسلم.

أو: ودائعُ الناس.

أو: الطاعةُ.

أو: التوحيدُ[١].

وما ذُكِرَ يرجعُ إلى قسمَين:

قسمٌ هو التوحيد: فإنه أمانـةٌ عند العبد، وخَفيَ في القلب، لا يعلمه إلا الله؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس»[٢].

وقسمٌ هو العمل: ويشمل جميعَ أنواع الشريعة، وكلها أمانة.

وعليه، فكيف تفسَّر الكلمة التي تدلُّ على إباءِ حمل الأمانة من المعروض عليه «حملها» على معنى: لم يَخُنَّها؟!

والمعنى السديد للآية، الراسخ في الصواب ما قاله المفسرون قاطبة:

أن الله ـ جل جلاله ـ قد عرض الأمانة، وهي التكاليف مع ما يتبعها من ثواب وعقاب، على السماوات والأرض والجبال، وأنهُنَّ أَبَيْن أن يحمِلنَها، وأشفقن منها: أي خفْنَ من عواقب حملها أن ينشأ لهنَّ من ذلك عذاب الله وسخطه، وهذا العرض والإباء، والإشفاق كله حق.

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (٢٠: ٣٣٦-٣٤٢)، والبغوي (٣: ٦٦٨)، والقرطبي (١٤: ٢٥٣-٢٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤) (١٤٤)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

إذ النص صريح في أنَّ الجبال أشفقت من حمل الأمانة، وهي أمانة التكليف بمقتضى خطاب الله تعالى إيَّاها، فإذا كانت الجبال أشفقت لمجرَّد العرض عليها فكيف بها لو أنزل عليها، وكلفت به؟!!

وبالرجوع إلى «القاموس» للفيروز آبادي وجدته يقول: «... وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يَخُنَّها، وخانَها الإنسانُ، والإنسانُ هنا: الكافرُ».

فقلت: لعل صاحب «القاموس» في تناوله لمادة «حَمَل»، نظر إلى الموقف الإجمالي الذي فيه تشنيع على من «حَمَل الأمانة» ولم يفِ بها، فأجرى كلامه تفسيراً لما كان من السماوات والأرض والجبال حيث أَبَـيْنَ الحمْل، وما كان من الإنسان الذي حَمل ولم يفِ بما حُمِّلَ، ويراد به الإنسانُ الذي كفر بخاصة، والله تعالى أعلم.

ويمكن تقريب هذا التوجيه حين نعرض لما كان من قوم موسى عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٨٧] فهم قد استعاروا من حُليّ أهل مصر ليقيموا لهم «عرساً» كما ادعوا، ولكنهم هربوا بها، فخانوا، وهنا يسوغ أن يقال فيهم: حملوا فخانوا على سبيل بيان العاقبة لما استعاروه وحُمِّلوه(١).

---

(١) للمفسرين في تفسيرالعرض والأمانة، آراء متعددة ذكروها وناقشوها. وذكروا أن العرض فيه قولان: إما حقيقي وإما تمثيلي تخيّلي، ثم هل كان العرض تخيراً أم إظهاراً؟ وهل الأمانة هي التكليف وهو ما عليه الجمهور ويرجحه أكثر المفسرين.
فإن كان العرض حقيقياً وتخييرياً وهو عرض للتكاليف الشرعية ومستلزماتها وأفرادها فإن الحمل هو القبول بها والعمل والالتزام بمضمونها وحقيقتها، وهذا التفسير الذي عليه جمهور المفسرين، والذي ترجحه بعض الآثار. =

= أما من ذهب إلى أن الحمل هو الخيانة، وأن الآية في حقِّ العصاة والفاسقين، وهو ما ذهب إليه الحسن ـ كما نقل ابن عطية في «المحرر» ـ وهو ما يقتضيه كلام مقاتل والزجاج والزمخشري والبقاعي، وبسط كلامهم وحجتهم يطول؛ فهنا نجد أن النص القرآني يحتاج إلى تكلف في التأويل واللجوء إلى المجاز وتقديمه على الحقيقة في محل لا يسوغ ذلك إلا أن نجعل من المجاز معنى زائداً مفيداً على ما في الحقيقة، على أن لا يتعارض مع الحقيقة، وهنا يوجد إشكال في هذا التفسير، ويشبه في الرد عليه قول الشوكاني في «فتح القدير» (٤: ٣٥٤): (وقيل: هذه الأمانةُ هي ما أودعَه الله في السماوات، والأرضِ، والجِبال، وسائرِ المخلوقات من الدلائلِ على ربوبِيته أن يُظهِرُوها فأظهروها، إلا الإِنسان فإِنه كَتَمَها وجَحَدَها. كذا قال بعض المتكلمين مفسراً للقرآن برأيه الزائف..).

والراجح أن الله تعالى عرض التكاليفَ عرضاً حقيقياً على سبيل التخيير على السماوات والجبال والأرض، ولا يُشْكِلُ عليه أنها جمادات؛ لأن الله عندما عرضها، جعل فيها الإرادة على الاختيار، فلما أبت حَمْلَها جعل للجبال والسماوات والأرض عبادة تكوينيَّة تليق بها من التسبيح والذِّكر وغير ذلك مما ورد في القرآن والسنة، فانتقل الأمر من التكليف الاختياري إلى العبادة التكوينيَّة، ولما قبلها الإنسان وحملها حملاً تكليفياً حقيقياً، وكانت لديه أمانة كان ظلوماً لها جهولاً بها، والله أعلم. وينظر الكلام حول هذه الآية فيما كتبه العلامة الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى في كتابه «هدي القرآن إلى معرفة العوالم والتفكير في الأكوان» ففيه تحقيق واسع مفيد.

تفسير الخطيب للمعقِّبات بالقوى الطبيعيَّة التي تولِّد المناعة في الجسم

٧ ـ ما تعليقكم على قول الشيخ رشيد الخطيب الموصلي ـ رحمه الله تعالى ـ في وصف الملائكة الكرام عليهم السلام عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، بعدما نقل «عن علي وابن عباس: أنهم ملائكة يحفظونه من المهالك»[١]. ثم قال: «وقد يُعبِّر القرآن والحديث بالملائكة أحياناً عن القوة الخفيَّة الصالحة النافعة، فيجوز أن يراد هنا القوى الطبيعيَّة في الإنسان التي تُوَلِّد المناعة في الجسم وتحفظه من الأمراض، ويكون معنى التعقيب الملازمة»[٢].

---

(١) «الدر المنثور» (٤: ٦١٥)، و«جامع العلوم والحكم» (١: ٤٦٥).

(٢) كتب لي الأخ الكريم الدكتور الشيخ مرهف السقا حول تفسير العلامة الشيخ الخطيب للمعقِّبات بالقوة الخفيَّة الصالحة النافعة ما يلي: «يمشي الخطيب في تفسيره هذا على سير مدرسة محمد عبده ورشيد رضا العقلية إذ ذهبا إلى أن الشياطين قوى الشر، والملائكة قوى الخير، وهذا مخالف لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة في إرادة حقيقة الملائكة في الآيات التي ذكرتهم، ولكن هذا التفسير للآية من الشيخ الخطيب العراقي يمكن أن ندرجه مثالاً لمسألة مهمة في التفسير، وهي إذا اتفقت الأمة على قولين في التفسير، وكان هذا التوافق كالإجماع عليهما فهل يجوز إحداث قول ثالث يخالفهما، وأعتقد أن الشيخ الخطيب ـ برأيي ـ أتى بقول ثالث مخالف لمقتضى السياق والقرائن وأبعد النجعة فيما ذهب إليه، والله أعلم.

للمفسرين في قوله تعالى ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ قولان مشهوران، ذكرهما ابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٣: ٣٠٠) قال: =

أجاب فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان بما يلي:

جملة من المقتضيات التي تدعو إلى رفض هذا التوجيه لمعنى «المعقبات» ورفضه.

= «اختلف المتأولون في عود الضمير من ﴿لَهُۥ﴾: فقالت فرقة: هو عائد على اسم الله عز وجل المتقدم ذكره، و«المعقبات» ـ على هذا الملائكة الحفظة على العباد أعمالهم، والحفظة لهم أيضاً ـ قاله الحسن، وروى فيه عثمان بن عفان حديثاً عن النبي ﷺ وهو قول مجاهد والنخعي ـ والضمير على هذا في قوله: ﴿يَدَيْهِ﴾ وما بعده من الضمائر عائد على العبد المذكور في قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ [الرعد: ١٠]، و﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون صفة لـ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ويحتمل أن يكون المعنى: يحفظونه من كل ما جرى القدر باندفاعه، فإذا جاء المقدور الواقع أسلم المرء إليه.
وقال ابن عباس أيضاً: الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد على المذكور في قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾ [الرعد: ١٠] وكذلك باقي الضمائر التي في الآية، قالوا: و﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ـ على هذا ـ حرس الرجل وجلاوزته الذين يحفظونه، قالوا: والآية ـ على هذا ـ في الرؤساء الكافرين، واختار هذا القول الطبري، وهو قول عكرمة وجماعة، قال عكرمة: هي المواكب خلفه وأمامه.
ويذكر الرازي القولين: الأول: الملائكة ويورد الأدلة والآثار في ذلك، ومنها حديث: «يتعاقب فيكم ملائكة....» إلخ، ويورد على هذا القول المسائل العقلية والنقاشات، ثم يأتي على القول الثاني، فيقول في «مفاتيح الغيب» أو «التفسير الكبير» (١٩: ١٩): «القول الثاني: وهو أيضاً منقول عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، واختاره أبو مسلمٍ الأصفهاني المراد: أنه يستوِي في علمِ الله تعالى السرُّ والجهرُ، والمستخفي بِظلمة الليلِ، والساربُ بِالنهار المستظهِرُ بِالمعاونين والأنصار وهم الملوك والأمراء، فمن لجأ إلى الليلِ فلن يفوت الله أمره، ومن سار نهاراً بِالمعقبات وهم الأحراس والأعوان الذين يحفظونه لم ينجه أحراسه من الله تعالى، والمعقبُ العونُ، لأنه إذا أبصر هذا ذاك فلا بد أن يبصر ذاك هذا، فتصيرُ بصيرةُ كل واحد منهم مُعاقبةً لبصيرة الآخرة، فهذه المعقباتُ لا تخلص من قضاء الله ومن قدرِه، وهم إن ظنوا أنهم يخلصون مخدومهم من أمرِ الله ومن قضائِه فإنهم لا يقدرون على ذلك البتة، والمقصود من هذا الكلامِ بعث السلاطين». والله أعلم.

بنى المفسِّـر رأيه على أن القرآن والحديث يطلقان كلمة الملائكة أحياناً، ويراد «القوة الصَّالحة الخيِّرة».

ولم أجد، بل لا يوجد هذا الإطلاق إلا في ذهن المفسِّـر، فوظَّفه على ما يرى، وبطلان هذا الإطلاق يهدم ما بني عليه بالبداهة.

أمّا أني لا أجد فمَردُّه إلى كل النصوص التي تـثبت للملائكة «ذواتاً»، والقوة صفة، وليست ذاتاً، ومن نفس المأخذ قول النصارى: الله محبة. والحقيقة أن الله تعالى ذات متَّصفة بالصفات.

ثم ما معنى قوله: «قوة صالحة»؟ فما وجه الصلاح في القوة، والقوة بحسب ما توظَّف فيه، ويرجع الوصف للموظِّف، لا للموَظَّف!

الملائكة من الغيب الذي جاء بذِكْرِه السمع، ودُعينا للإيمان به، فهل توجيه الكلمة إلى «جهاز المناعة» يدخل في جملة ما طُلِبَ مِنّا أن نؤمن به؟!

صفات الملائكة ووظائفهم:

المتتبِّع للنصوص يجد أن للملائكة صفات ثابتة، ومهامّ أُوكل إليهم القيام بها، ولم يرد حرف، والمسألة سمعيَّة، لا تشير إلى إطلاق اسم «الملائكة» على الخلايا التي تتشكل منها الكريَّات البيضاء التي خُلِقَت فينا لحمـاية البدن ممَّا يرد عليه من المحيط الخارجي، وتدرأ عنه الخطر!

حين نـتوجَّه إلى «المجازات» والبعد عن عطاء اللغة الأصلي، يكون لدينا من المُسوِّغات ما يبرِّر ذلك. ولم أجد، بل لا يوجد ما يسوغ هذا التوجُّه.

تـتبَّعت ما جاء من نصوص تـتعلق بعالم الملائكة فتبيَّـن بالأدلة القواطع أن لهم صفات الوعي والإدراك والمعرفة والتعظيم لأمر الله، والمحبة، والبغض، والدعاء

واستنـزال اللعنة، إلى آخر ما هنالك من الوظائف والمهامّ، ولا يُخرج عن هذا الإطار الملائكي إلا إذا كنا نريد أن نصف ذاتاً لها سلوك راق على أنه سلوك الملائكة، وهذا من باب التشبيه، لا من باب أن المُثْنى عليه صار مَلَكاً على الحقيقة، أو صار ممَّن يصحُّ أن يطلق عليه الاسم بالأصالة!

بناء على التوجيه المرفوض المنقوض لكلمة «ملائكة» يكون كل جسم، فيه عوامل تقيمه، ويقوم بها، فيه مجموعة لا تعد من عالم الملائكة، وهيهات أن يكون ذلك سائغاً في الفهم السليم!

ليس معنى التعقيب الملازمة:

العجيب أن المفسِّر ـ رحمه الله ـ قد أتى ليسوق معناه الذي اختاره، فجعل التعقيب بمعنى الملازمة، ليخرج من إشكال يخالف رأيه، يمثله أن يُسأل: كيف يعبَّر بـ«المعقِّبات» لأمر هو من تكوين الإنسان، وهو جهاز المناعة المفترض له اسم الملائكة؟! والأعجب أن رأى أن كلمة «المعقِّبات» تعني الملائـكة، بدليل أنه قال: ويطلق اللفظ على القوة الصَّالحة!!

فكيف تدل الكلمة على الملائـكة، وفي الوقت نفسه تدل ـ عنده ـ على خلايا تدافع عن البدن، وهي جزء من تكوينـه، والتعبير بالمعقِّب يدل على المتابعة، لا على الملازمة، هذا ما دفعه ليقول: فتكون المعاقبة بمعنى الملازمة!!

ألسنا نسلك إلى تبيّن المعانيَ من خلال النصوص المتوافقة على أمر ما، فلنطبق هذا المسلك على ما نحن بصدده، فنقول: قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾.

قد حدَّد النص الموضع لهؤلاء المعقِّبات: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾.

فكيف تكون طاقة بدنيَّة من جملة التكوين و﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ وحدَّد النص مهمتها ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ علماً بأن الإنسان مطالب بالحفاظ على صحَّة بدنه؟!

وكيف يفهم أن «التعقيب» يعني الملازمة مع النص على أن المعقبات ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾[١]؟!

والمعقِّب ـ بكسر القاف ـ: ما جاء عقب ما قبله[٢].

قيام الملائكة بوظيفتي الحفظ والكتابة:

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ٩-١١].

لقد ربط النص بين تكذيب هؤلاء وكون الملائكة الموكلة بهم تقوم بمهمة الحفظ والكتابة.

---

(١) المعقبات هم الملائكة التي تتعاقب وتتوارد على الإنسان، فهي مخلوقات نورانيَّة من وظائفها: حفظ الإنسان وكتابة عمله كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]. ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ * مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٧-١٨]. وجَعْل هؤلاء الملائكة الكرام حفظة وحرساً للإنسان تكريمٌ له، وإشعارٌ بأنه ليس سائباً، يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء، وأن أعماله تنتهي بمجرد عملها، ولكنها محفوظة مسجلة له أو عليه، فليحذر أن يرى في صحيفته ما يسوءُه.

(٢) يقال: عقَّب الشيء؛ أي: أتى عَقبَه بلا مُهلة ولا فاصل، وأصل العقب: مؤخَّر الرِّجل، فعقبه؛ أي: جاء في عَقبِهِ كأنه يكاد يلمس عقِبه ويطؤه. وفي علم النحو يقولون: الفاء للتعقيب والترتيب بلا مهلة. فهؤلاء الحفظة يتعاقبون بحيث لا يوجدُ فترة بلا حراس ولا حفظة. والتأنيث في «المعقبات» ليس لفظياً، وإنما هو يعني: جماعات معقِّبات، فالملائكة لا توصف بأنوثة ولا بذكورة، ولكن من ناحية الضمائر وغيرها تجري مجرى الذكور، فيقال: فعلوا كذا وكذا.

وينبغي أن يربط بين الحفظ في كلٍّ من النصَّين، وإن اختلفت ماهيَّة «الحفظ».

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

ذكر ـ هنا ـ الحفظة وما يتأتّى منهم حال انتهاء الأجل، وقيام الرسل الموكل إليهم قبض الأرواح، وهم من الملائكة بالبداهة، كما جاءت به نصوص أخرى، وملاحظة الحفظ في كلِّ النصوص يسدِّد الفهم.

عن كعب بن عُجْرة، عن رسول الله ﷺ قال: «معقِّباتٌ لا يخيب قائلهنَّ ـ أَوْ فاعلُهنَّ ـ دُبُرَ كل صلاةٍ مكتوبة، ثلاثٌ وثلاثون تسبيحةً، وثلاثٌ وثلاثون تحميدةً، وأربعٌ وثلاثون تكبيرةً»(١).

ثم هل أعلم الرسول بهذا المعنى الذي أتى به المفسر؟ وإن كان أعلم به: فلماذا حدّد غيره؟ أما كان من اللفتة العلميَّة أن يشير إلى هذه الحقيقة التي وقف عليها المفسر المعاصر؟

بل قد جاء قوله ﷺ يحدِّث عن التسبيحات عقب الصلاة: «معقِّبات لا يخيب قائلهنَّ أو فاعلهن» قال الهروي: قال سمرة معناه: تسبيحات تُفعَل أعقاب الصلاة(٢).

وقال أبو الهيثم(٣): سُمِّيت ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ لأنها تفعل مرة بعد أخرى، وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أي: ملائكة يعقب بعضهم بعضاً(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩٦) (١٤٤).

(٢) شرح مسلم على النووي (٥: ٩٤).

(٣) هو أبو الهيثم سليمان بن عمرو العتواري، المصري، صاحب أبي سعيد الخدري. «تهذيب الكمال» (١٢: ٥٠).

(٤) شرح مسلم على النووي (٥: ٩٥).

عن ابن عباس، قال: «أنزل الله تعالى في عامر وأربد ما كانا همَّا به من النبي ﷺ» قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ قال: «لمحمد ﷺ معقبات من بين يديه ومن خلفه»(١).

عن ابن عباس: «﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ قال: هم الملائكة تعقب بالليل والنهار تكتب عمل ابن آدم»(٢).

روى عثمان بن عطاء، عن أبيه: «﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ فيقال هم الكرام الكاتبون حفظة من الله على ابن آدم أمروا بذلك»(٣).

وفي «جامع العلوم والحكم»: قال الله عز وجل: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾. قال ابن عباس: «هم الملائكة يحفظونَهُ بأمرِ الله، فإذا جاء القدر خَلُّوْا عنه»(٤)

وقال عليٌّ رضي الله عنه: إنَّ مع كلِّ رجلٍ ملكَين يحفظانه ممَّا لم يقدَّرْ، فإذا جاء القدر خلّيا بينه وبينَه، وإنَّ الأجل جُنَّةٌ حصينة(٥).

وقال مجاهد: ما مِنْ عبدٍ إلاَّ له مَلَكٌ يحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوامّ، فما من شيء يأتيه إلا قال: وراءك، إلا شيئاً أذن الله فيه فيصيبه(٦).

وفي «شرح السنة» للبغوي: وَقَوْلُـهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أَيْ: لِلإِنْسَانِ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩: ٦٠)، و«الكبير» (١٠: ٣١٢).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٧: ٢٢٣٠).

(٣) المصدر السابق (٧: ٢٢٣٠).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (١: ٤٦٥)، والحديث أخرجه: الطبري في «تفسيره» (١٥٣٤٥).

(٥) «تفسير الطبري» (١٦: ٣٧٨).

(٦) المصدر السابق (١٦: ٣٧٣).

ملائكةٌ يعقِّبُ بعضُهم بعضاً، يقال: ملَكٌ مُعقِّبٌ، وملائكةٌ مُعقِّبةٌ، ثم مُعقِّباتٌ جمع الجمع، وقيل: ملائكة الليل تُعقِّبُ ملائكة النهار[1].

وخرَّج الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي من حديث ابن عمر، قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ يَدَعُ هؤلاء الدَّعوات حين يُمسي وحين يُصبح: «اللهمّ إني أسألُكَ العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إنِّي أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهمَّ استُرْ عورتي، وآمن روْعتي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذُ بعظمتك أنْ أُغتَالَ من تحتي»[2].

في قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ قال ابن عباس ترجمان القرآن: «للنبيِّ ﷺ»[3].

فقد وجَّه النصَّ إلى النبيِّ ﷺ من حيث حفظُ الله له، وفيه معنى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

* * *

(١) «شرح السنة» للبغوي (٣: ٢٣٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٤٧٨٥)، وأبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي (٥٥٢٩)، وفي «الكبرى» له (١٠٤٠١)، وفي «عمل اليوم والليلة»، له (٥٦٦) وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩: ٦٠)، و«الكبير» (١٠: ٣١٢).

خطاب الله سبحانه لإبليس
﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ... ﴾
هل هو للتكوين ولبيان طبيعة الإنسان؟
وهل يصح نسبته إلى ابن كثير؟

٨ ـ نقل الشيخ رشيدالخطيب الموصلي – رحمه الله تعالى- في تفسيره: «أولى ما قيل» عن ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ... ﴾: «إنَّ هذا الخطاب للتكوين فهو عبارة عن بيان الواقع في صفة طبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان».

قال الدكتور خالد حمَّاش في كتابه «منهج رشيد الخطيب»[1]: «وعند الرجوع إلى موضع تفسير هذه الآية، لم يتبيَّن وجود هذا الكلام فيه[2]، ولكن هناك ما قد يشبهه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٣] إذ فيه: «يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قَـدَريٍّ كونيٍّ: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي فما

(١) (٩: ٧٨).

(٢) كلام الحافظ ابن كثير أورده في تفسير هذه الآية من سورة الإسراء: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ... ﴾، ولفظه فيه: «ومعناه: تَسَلَّطْ عليهم بكلِّ ما تقدر عليه. وهذا أمر قدريٌّ، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣] أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً».

يكون لك أن تتكبَّر فيها». ومن البيِّن أنَّ الشيخ يريد أن يؤيِّد رأيه في مسألة الحوار الذي دار بين الله عزَّ وجلَّ والشيطان على أنه تمثيلٌ لا حقيقة بنقول من مفسِّرٍ شديدِ التمسُّك بالأثر[١]، ولا أدري إن كان كلام ابن كثير يفهم منه ما أراده الشيخ»؟؟

أجاب فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان حفظه الله:

قول الشيخ الخطيب ـ غفر الله له ـ : «فهو عبارة عن بيان الواقع في صفة طبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان» ينسبه لابن كثير، مُصاغ بعبارة الشيخ حسب فهمه لما قرَّره ابن كثير، وبدَهيٌّ ألا يجد العبارة كما أوردها عند ابن كثير، لأنَّ ابن كثير أبعد ما يكون عن هذا التوجيه للنص، وهو مَنْ هو التزاماً بالنص، ودلالته الصارخة، ولا أرى من صلة بين ما جاء في عبارة الشيخ المنسوبة لابن كثير، ولوى عنقها إليه، وما أتى على لسان ابن كثير في «تفسيره».

---

(١) لا يصح في المنهج العلمي أخذ قول موهم لعالم دون مراجعة أقواله الأخرى، ومعلوم أن ابن كثير يستحيل البتة أن يكون آخذًا بنفي حقيقة ما جرى بين الله تعالى وإبليس على أساس أنه تمثيل، فلا هذا هو منهج ابن كثير، ولا هذا مذهبه وقوله، وكلام ابن كثير وإن كان محتملاً إلا أنه ليس صريحًا فيما يريده الموصلي، وينقضه عليه أقوال ابن كثير المتضافرة الأخرى.

وليس مراد ابن كثير ما استشهد به عليه الخطيب الموصلي من جعل الحوار تمثيلاً، ولكن ابن كثير يريد أن يبين أن هذا الأمر ليس المقصود منه الامتثال، وأن امتثاله ليس بطاعة، وإنما المقصود منه التخلية بين إبليس وبين ما يريد من إغواء بني آدم، وعدم منعه من ذلك، فعبَّر ابن كثير عن هذا المعنى بالأمر القدَري أو الكوني، أي: يقول الله تعالى لإبليس: أنت تريد ذلك فلك أن تفعله من غير أن أحول بينك وبينه. وهذا المعنى لا يقتضي أن يكون الحوار تمثيلاً.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ فإنه أمر تهديد، ولا يعني هذا أن الله تعالى لم يخاطبنا بهذا اللفظ، بل الخطاب صادر، لكن المقصود منه التهديد، لا الطلب وليكن ما في آية الإسراء كذلك، الخطاب والحوار من الله تعالى لإبليس حاصلٌ فعلاً، وليس تمثيلاً فحسب، ولكن المقصود منه التقدير والتكوين، لا الطلب. والله أعلم.

ثمَّة أمر أسوقه قبل الحديث عن العبارة، وأسوق ما جاء في تفسير «المنار» متعلقاً بعبارة ابن كثير رحمه الله تعالى:

من تتبَّع التعبير القرآني من خلال ما جاء من أمر توجَّه به الله لمن يأمرهم يجد أن ثمة نوعين من الأمر: أمر تشريعي، يتوجَّه به إلى المكلفين بتنفيذ الأمر، ويدخل في دائرة «التكليف» المبني على حرية الاختيار، ويترتَّب عليه الثواب لمن استجاب، والعقاب لـمن خلف وأبى، ويدخل في هذا الضرب كل ما أمر الله به عباده، ونهاهم عنه، وهذا الأمر يقابل من قبل الطائعين بالاستجابة، والتلبية، كما يقابل بالإباء من قبل الآبين المتكبِّرين على أمر الله، وقد أمر الله بالصلاة ـ مثلاً ـ وهو أمر تشريعي، وهناك الكثير ممن لا تنحني جباههم ركوعاً ولا سجوداً! ومثال هذا أمره تعالى الملائكة بالسجود كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾.

وكان إبليس من جملة من أُمروا، ولكنه أبى، وعلل إباءه: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فالتعليل بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وهو ـ كما ترى ـ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، وأقبح، فكأنه امتنع من الطاعة لأنه ـ حسب فلسفته ـ لا يؤمَر الفاضل بالسجود للمفضول.

ولو كان الأمر بالسجود أمراً كونياً قدرياً، وهو النمط الثاني من نمطي الأمر الإلهيِّ، لما استطاع إبليس أن يأبى، ولسجد رغماً عن أنفه، والأمر الكوني قاهر لا يرد، وتنفيذه من قبل المأمور اضطراري، ويأتي على صورة تعلق القدرة بالمقدور لإبرازه إلى ساحة الوجود، أو إخراجه منه، بحسب ما خصَّصته الإرادة، وتعلق به العلم أزلاً، ويتجلى بصورة عقاب أو ثواب.

ومن هذا الضرب الأمر: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ على ما بيَّن بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] تراه كان بإمكانه بعد هذا الأمر أن يقول: لا أهبط.

كل ما كان أن سأل الإنظار كما بيَّنت النصوص: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۞ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤-١٥].

أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا مُعقِّب لحكمه.

وهنا نقول ما قرَّره ابن كثير حيث قال: «يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمرٍ قدريٍّ كونيٍّ: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾. وقد علَّل الأمرَ بالإهباط بِقوله على طريق الاستئناف البيانيِّ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: أولي الذِّلَّة والصَّغار، أظهر حقيقَتَك الامتحانُ والاختبارُ الذي يميِّزُ بين الأخيار والأشرار، بإظهاره لما كان كامنًا في نفسك من عصيان الاستكبار.

قال كثير من المفسرين: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أيِ: الذليلين الحقيرين معاملة له بِنقيض قصده، ومكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين.

وقال بعضُهم: إنه تعالى جازاه بضد مُرادِه، إذ أراد أن يرفع نفسه عن منزِلتها التي كانت فيها، فجُوزِيَ بهبوطها منها إلى ما دونها، كما ورد في بعض الأخبار من أن الله تعالى «يحشر المتكبرين يوم القيامة بصورةٍ حقيرةٍ يَطَؤُهم فيها الناس بأرجلِهم»، وهذا التوجيهُ أَلْيَقُ بقول من جعل الأمر للتكليف. ولكن الحافظَ ابنَ كثيرٍ جرى عليه بعد جزمه بالقول بأنه للتكوين واقتصاره عليه قال: «يقول تعالى لإبليسَ بأمرٍ قدريٍّ كونيٍّ: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾»[1]. انتهى.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣: ٣٩٣).

عدد السماوات سبع للتحديد أم للتكثير؟

٩ـ قال الشيخ رشيد الخطيب الموصلي رحمه الله تعالى عن عدد السماوات السبع في تفسير الآية (٢٩) من سورة البقرة:

«ويجوز أن يكون للتكثير لا للتحديد، وذلك من خصائص القرآن واللغة معاً».

فما حكم هذا القول، وخاصَّة أنه قد جرى في تفسيره لأكثر الأعداد المذكورة في القرآن بأنها ليست للتحديد، أخذاً بدلالة المفهوم، وأن العدد لامفهوم له، وهو أحد أنواع مفهوم المخالفة الذي يُبحَثُ في علم أصول الفقه.

الجواب:

الأصل إجراء «العدد» على الحقيقة في المعدود، ولا يصرف العدد عن كونه على الحقيقة إلا بداعيةٍ قويَّة. ومن المتابعة وجدت الذين يذهبون إلى أن العدد لا مفهوم له لا يقطعون بهذا قطعاً، على أن من قال بغير ذلك أبعد في الخطأ.

وجه الصواب في العدد الذي أطلق على السماوات:

يتعامل مع كثير من العبادات التي طلبت بأعداد محدَّدة، مثل:

الطواف ـ الركعات ـ التسبيح.

وقد يأتي العدد محدَّداً ويراد منه ما دلَّ عليه دون زيادة في المعدود، مثل: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: ٤].

النصوص التي تؤكد على عدد السماوات:

وما يتصل بالسماء فقد وردت نصوص متعدِّدة تؤكِّد على مضامينها العدديَّة بكل وضوح وإشراق، من مثل: استفتح جبريل باب السماء ليلة المعراج، وتحديد الأنبياء في السماوات سماء سماء.

وعموماً فالسماء من الغيب الذي نتلقَّاه من النص. والاجتهاد في فهم النص بحسب معطيات الفهم وسَعة الإدراك.

- وثمة نصوص تدل على أنها لها أبواب تفتح، من مثل: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩]، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

مدلول كلمة السماء في القرآن:

قد ترد كلمة «السماء» ويراد بها **مطلق العلو**، مثل: كل ما علاك فأظلك سماء.

- وقد ترد ويراد بها «**السقف**» مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥] والسبب هنا «الحبل» أي: من ظنَّ أن الله لا ينصره فليشنق نفسه.

ومن النصوص فيما أجمل ما ورد في الصحيحين «مسألة السماوات، ومن في كل منها ممَّن لقي الرسول ليلة المعراج من الأنبياء» قال رسول الله ﷺ في حديثه[1]:

«ثمَّ عُرج بي الملك إلى السماء الدنيا، فاستفتح الملك، فقال: مَنْ ذا؟ قال: جبريل. قال: ومَنْ معك؟ قال: محمد. قال: وقد بُعث؟ قال: نعم، ففتح فإذا آدم، فقال: مرحباً بك من ولد، ومرحباً بك من رسول.

---

(١) البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢) (٢٥٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ثم عُرج بي إلى السماء الثانية واستفتح، فقال: من ذا؟ قال: جبريل. قال: ومن معك؟ قال: محمد. قال: وقد بعث؟ قال: نعم، قال ففتح فإذا عيسى ويحيى، فقالا: مرحباً بك من أخٍ، ومرحباً بك من رسول.

قال: ثم عُرج بي الملك إلى السماء الثالثة، ثم استفتح، قال: من ذا؟ قال: جبريل. قال: ومن معك؟ قال: محمد. قال: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، ففتح فإذا يوسف، قال: مرحباً بك من أخٍ، ومرحباً بك من رسول.

قال: ثم عرج بي إلى السماء الرابعة، ثم استفتح، فقال: من ذا؟ قال: جبريل. قال: ومن معك؟ قال: محمد. قال: وقد بعث؟ قال: نعم، فإذا إدريس في الرابعة، فقال: مرحباً بك من أخٍ، ومرحباً بك من رسول.

قال: ثم عرج إلى السماء الخامسة، ثم استفتح، فقال: من ذا؟ قال: جبريل. قال: ومن معك؟ قال: محمد. قال : وقد بعث؟ قال: نعم. قال: فـفتح فإذا هارون، فقال: مرحباً بك من أخٍ، ومرحباً بك من رسول.

ثم عرج بي الملك إلى السماء السادسة، ثم استفتح، فقال: من ذا؟ قال: جبريل. قال: ومن معك؟ قال: محمد. قال: وقد بُعث؟ قال: نعم. فـفتح فإذا موسى، فقال: مرحباً بك من أخ، ومرحباً بك من رسول.

ثم عرج إلى السماء السابعة، ثم استفتح، فقال: من ذا؟ قال: جبريل. قال: ومن معك؟ قال: محمد. قال: وقد بعث؟ قال: نعم، ففتح فإذا إبراهيم، فقال: مرحباً بك من ولد، ومرحباً بك من رسول، فانتهيت إلى بناءٍ، فقلت للملك: ما هذا؟ قال: هذا بناءٌ بناه الله عز وجل للملائكة».

فلا يصح حمل كل هذه المشاهد التي حدَّدت الأوعية «المكانيَّة» على المجاز.

الأصل في المعدود أن يحمل عدده على الحقيقة:

الأصل في المعدود أن يحمل عدده على الحقيقة، ولا يصح تعميم أن العدد لا مفهوم له على كل معدود، فهذا لون إلغاء للحقيقة في مجال الأعداد دون مسوِّغ، بل تغليب الحقيقة، والابتداء بها أول ما ينبغي أن يتبنى، والشواهد على هذا التوجيه أكثر من أن تعد.

مما جاء من نصوص في القرآن حددت أعداداً على سبيل الحقيقة:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٧].

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٣-٤٤].

ممَّا جاء من عبادات لها أعداد تتناول على أنها على «الحقيقة».

* عن ابن عمر رضي الله عنهما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من طاف بالبيت سبعًا يحصيه، كتبت له بكل خطوة حسنة، ومُحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة، وكان له عدل رقبة»(١).

* قلنا: يا رسولَ الله ذهب الأغنياءُ بِالأجرِ يجاهدونَ، ولا نجاهدُ، ويَحُجُّونَ، ولا نَحجُّ، ويفعلونَ ويفعلونَ! فقالَ رسولُ الله ﷺ: «ألا أدلكم على شيءٍ إِنْ أخذتم به

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي (٢٠١٢)، والبيهقي في «سننه» (٩٤٢٩).

جئتم بِأفضل ممّا جاء به أحدٌ منهم؛ تكبِّرُ أربعًا وثلاثين، وتُسبِّحُ ثلاثًا وثلاثينَ، وتَحمَدُ ثلاثًا وثلاثينَ في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ»(١).

* «من سبَّحَ ثلاثاً وثلاثين وكبَّرَ ثلاثاً وثلاثين، وحمد ثلاثاً وثلاثين، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير خَلْفَ الصلاة، غُفِرَ له ذَنْبُه ولو كان أكثرَ من زَبَدِ البحر»(٢).

أقوال بعض المفسرين في عدد السماوات:

ثم لنا أن نتعرف إلى ما قاله بعض المفسِّرين بهذا الشأن:

السيوطي في «الدر المنثور»:

أخرج أبو الشيخ في «العظمة»، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس قال: «تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله، فإن بين السماء السابعة إلى كرسيِّه سبعة آلاف نور»(٣).

ففيه ذكر السماء السابعة، والعدد يأتي في العدّ بعد السادسة.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] قال: «بعضهن فوق بعض، بين كل سماءين مسيرة خمسمئة عام»(٤).

---

(١) أحمد في «مسنده» (٢٧٥١٤)، بهذا اللفظ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، والبخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥) (١٤٢) بنحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسلم (٤٩٧) (١٤٦) من حديث أبي هريرة.

(٣) «العظمة» (٢٢)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٨٨٧).

(٤) «تفسير عبد الرزاق» (٣٢)، و«تفسير الطبري» (٥٩٣).

في صفة «التطبيق» تعني تحقيق العدد الذي تناول السماوات، فهي معدودة على أنها «طباق».

في تفسير ابن أبي حاتم الرازي:

«حدثنا ابن أبي الربيع، أنبا عبد الرزاق، أنبا معمر، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين بعضهن تحت بعض»[(١)].

«حدثنا الحسن بن أبي الربيع، أنبا عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ قال: بعضهن فوق بعض، بين كل سماءين مسيرة خمسمئة عام»[(٢)].

تفسير الفخر الرازي :

أطنب الرازي في تفسيره في بيان السماوات: هل هي سبع أو ثمان؟ وذكر مذاهب الحكماء في ذلك، وأجابهم بوجوه، ثم قال: «اعلم أن هذا الخبط مما ينبِّهك على أنه لا سبيل للعقول البشريَّة إلى إدراك هذه الأشياء، وأنه لا يحيط بها إلا علم فاطرها وخالقها، فوجب الاقتصار فيه على الدلائل السمعية.

فإن قال قائل: فهل يدل التنصيص على سبع سموات على نفي العدد الزائد؟ قلنا: الحق أن تخصيص العدد بالذكر، لا يدل على نفي الزائد»[(٣)]. وفي هذا إشارة إلى ما ذكره «الحكماء» من الزيادة على السبع.

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم الرازي» (٣١١)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢٩).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم الرازي» (٣٠٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣٢).

(٣) «تفسير الرازي» (٢: ٣٨٣).

ونحن نقول: إنه لم يأتنا عن الله، ولا عن رسوله إلا السبع، فنقتصر على ذلك، ولا نعمل بالزيادة إلا إذا جاءت من طريق الشرع، ولم يأت شيء من ذلك.

وفي «تفسير ابن كثير»:

«﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي: قصد إلى السماء والاستواء ههنا مضمَّن معنى القصد والإقبال لأنه عدِّي بـإلى، ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ أي: فخلق السماء سبعاً. والسماء ههنا اسم جنس، فلهذا قال: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾»[(١)].

وفي «تفسير الظلال»، للسيد قطب:

«﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾: لا مجال للخوض في معنى السماوات السبع المقصودة هنا، وتحديد أشكالها وأبعادها. اكتفاء بالقصد الكلي من هذا النص، وهو التسوية للكون أرضِه وسمائِه في معرض استنكار كفر الناس بالخالق المهيْمن المسيطر على الكون، الذي سخَّر لهم الأرض بما فيها، ونسق السماوات بما يجعل الحياة على الأرض ممكنة مريحة ما هو رأي الحكيم غير مختلفة في الحقيقة اتفاقاً»[(٢)].

وفي «زهرة التفاسير»، للعلامة محمد أبو زهرة:

«والمراد من السماوات السبع التي سواهنَّ الله تعالى: أي خلقهنَّ، أو قسمهن وجعلهنَّ سبعا متساوية. فمعنى (سواهن): قسمهنَّ بالتسوية سبعاً، وهي مجموعات النجوم المتطابقة طبقة بعد طبقة، الواحدة أعلى من الدنيا، وهكذا.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١: ٢١٣).

(٢) «في ظلال القرآن» لسيد قطب (١: ٥٤).

وكان الشائع بين علماء الفلك خمساً، لَا سبعاً، ولكن بعد عصر القرآن بنحو أربعة عشر قرناً إلا قليلا، كشفوا بآلات الكشف الحديثة نجمين كوكبين دلّا على أنها سبع، وهي: عطارد، والزهرة، والمريخ، والمشترى، وزحل، وكُشف أورانوس ثم نبتون، وكل كوكب في طبقة من السماء[١].

نقول ـ الكلام لأبي زهرة ـ: إنَّ بعض المفسرين، أو كثيرين منهم[٢]، قال: إن كلمة سبع سماوات، لَا يراد بها العدد المحدود المذكور، إنما يراد بها الكثرة من الأعداد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]، فإنه ليس المراد ـ والله أعلم ـ سبعة أبحر، إنما المراد عدد من الأبحر كثير.

ومثله قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ...﴾ [التوبة: ٨٠]، فالسبع، والسبعون يراد بها الكثرة، ولا يراد بها عدد محدود بالسبعة أو السبعين»[٣].

* ولعل ما ينهك[٤] هذا التفسير أنه بُني على نصوص تقبل أن يكون العدد فيها ممَّا لا يُراد منه نصه، ومسألة السماء لا تدخل في هذا التوجيه، لوجود نصوص تدل على أن العدد وضع على الحقيقة.

إنَّ هذا التوجيه يتعارض مع كثير من النصوص، منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ

---

(١) ألا ترى أن هذه الأقوال والظنون لا تصلح أن تكون تفسيراً للسماوات السبع.

(٢) هذه مبالغة، بل هم أقل من القليل.

(٣) «زهرة التفاسير» (١: ١٨٩-١٩١).

(٤) أي: يضعف.

ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، ومنها: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩].

ولعل أوسع النصوص في التناول بالنسبة للعدد والمفهوم ما جاء من آية في المنافقين، وما يتصل بالاستغفار لهم، وأنه مهما كان عدد الاستغفارات لا يغفر الله لهم، علماً بأن النص من سياقه ومضمونه، لا يُسوِّغ تنزيل كل عدد أتى بنصٍّ هذه المنزلة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦][1].

---

(١) كتب لي الأخ الكريم الدكتور مرهف السقا جواباً حول عدد السماوات، أورده في آخر جواب الشيخ عبد الكريم تتان لما فيه من الفائدة:

«هذه من المسائل التي بحثها المفسرون باستفاضة وأكثر من تكلم فيها وبعدد السماوات هو الرازي والآلوسي في «روح المعاني»، وسبب الحديث فيها هو ذكر عدد السماوات ومعارضتها بأقوال الفلكيين، ولا يخفى عليكم طريقة الرازي والآلوسي في ذلك.

يقول الآلوسي في «روح المعاني» (١: ٢١٩): («لا يقال» إنَّ أرباب الأرصاد أثبتوا تسعة أفلاك، وهل هي إلا سماوات؟ لأنا نقول هم شاكّون إلى الآن في النقصان والزيادة فإن ما وجدوه من الحركات يمكن ضبطها بثمانية وسبعة بل بواحد، وبعضهم أثبتوا بين فلك الثوابت والأطلس كرة لضبط الميل الكلي، وقال بعض محققيهم: لم يتبيَّن لي إلى الآن أن كرة الثوابت كرة واحدة أو كرات منطوية بعضها على بعض، وأطال الإمام الرازي الكلام في ذلك وأجاد، على أنه إن صح ما شاع فليس في الآية ما يدل على نفي الزوائد بناء على ما اختاره الإمام من أن مفهوم العدد ليس بحجة، وكلام البيضاوي في تفسيره يشير إليه خلافا لما في «منهاجه» الموافق لما عليه الإمام الشافعي، ونقله عنه الغزالي في «المنخول»، وذكر السالكوتي أن الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد ـ والخلاف في ذلك مشهور ـ).

وقل مثل ذلك عند الذين انتهجوا منهج محمد عبده ورشيد رضا والطنطاوي الجوهري... =

= نعم الخلاف مشهور عند الأصوليين في مفهوم العدد، وكما يقول الأسنوي في «التمهيد»: مفهوم العدد حجّة عند الشّافعي والجمهور. كذا قاله إمام الحرمين في «البرهان»، ونقله الغزاليّ أيضا في «المنخول» عن الشّافعي لأنّه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ قال النّبي ﷺ: «والله لأزيدن على السّبعين» أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١١٣)، والطبري في تفسيره (١٧٠٢٣).

واختار الامام فخر الدّين والآمدي أنه ليس بحجّة. قال الامام: وقد يدل عليه بدليل منفصل كما إذا كان العدد علّة لعدم أمر فإنّه يدل على امتناع ذلك الأمر في الزّائد أيضا لوجود العلّة، وعلى ثبوته في النّاقص لانتقائها كحديث القلّتين، وكذلك إن لم يكن علّة ولكن أحد العددين داخل في العدد المذكور زائدا كان كالحكم بالحظر والكراهة فإن تحريم جلد المائة مثلا أو كراهته تدل عليه في المائتين.....) إلخ.

وللمرداوي الحنبلي (ت ٨٨٥) عند الحديث عن مفهوم المخالفة فائدة جميلة في مفهوم العدد لا ينبغي التغافل عنها إذ يقول في كتابه «التحبير شرح التحرير»: (٦: ٢٩٤٢).

(فائدة: محل الخلاف في ذلك في عدد لم يقصد به التكثير كالألف والسبعين، ونحوهما ممّا يستعمل في لغة العرب للمبالغة.

قال ابن فورك وغيره: فإن قولهم العدد نصوص إنّما هو حيث لا قرينة تدل على إرادة المبالغة، نحو: جئتك ألف مرّة فلم أجدك. قال: وبذلك يعلم ضعف الاحتجاج بقوله ﷺ لما نزل: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾: «لأزيدن على السّبعين»، فعمل رسول الله ﷺ بالمفهوم فيه، وذلك من أشهر حجج المعتبرين لمفهوم العدد.

بل ويجاب عنه بأمر آخر وهو: أنه لعلّه قاله رجاء لحصول المغفرة بناء على بقاء حكم الأصل، وهو الرّجاء الّذي كان ثابتا قبل نزول الآية، لا لأنّه فهمه من التّقييد.

وجواب الباقلاني، وأبي المعالي، والغزاليّ، ومن تبعهم بالطعن في الحديث غير سديد؛ فإنّه في «الصّحيحين» بلفظ «سأزيد»).

وعرض الأقوال عند الأصوليين في ذلك طويل، ولكن هل يصح الاستدلال بمفهوم المخالفة في آيات السماوات السبع؟ =

= أرى ـ والله أعلم ـ أن أصل الاستدلال بها في غير محله، وذلك لخروج السماوات في الآيات عن مدلولها الحقيقي من غير قرينة، فاعتبار السماوات هي الأفلاك اعتبار مخالف لمجموع النصوص التوقيفية الواردة في ذكر السماوات، وهو المدلول الحقيقي لها، فالسماوات هي الأجرام المعهودة بالسقوف الطباق السبع التي عرج فيها النبي ﷺ، وهي السماوات التي سوَّاها الله من سماء واحدة كما في قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] وقد كانت السماء وقتئذ دخان: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] ولما كان المراد نفس العدد قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢] فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا...﴾ الآية... تبطل ما ذهب إليه من قال بأن المراد بالسماوات الأفلاك وما ذهب إليه بعض العصرانيين بأنها طبقات الغلاف الجوي أو المجموعة الشمسية أو غير ذلك من الأقوال البعيدة والتي ليس فيها إلا ليّ عنق النص لموافقة العلم الحديث، ومسايرة النظريات الناشئة، والله أعلم».

هل تطلَّب النبيُّ ﷺ ديناً
أو كان متحيِّراً في صغره قبل النبوَّة؟
ومعنى الضلال في قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾

١٠ـ هل تطلَّب محمَّد ﷺ في صغره ديناً، وقلَّب النظر في اليهوديَّة والنصرانيَّة، فرآها مشحونة بالضلال فتوجَّه إلى الله سبحانه أن ينقذه من هذه الحيْرة، ولم يزل متحيِّراً حتى أتاه اليقين من ربِّ العالمين[1]؟

---

(١) قال المؤلف ـ غفر الله له ـ في حاشية تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: فقد كان محمد ﷺ في صغره يرىٰ أنَّ عبادة قومه لهذه الأصنام ضلال بعيد، ولذلك لم يعبد صنماً قط، ثم تطلَّب له ديناً فقلَّب اليهودية والنصرانية في ذلك الحين، فرآها مشحونةً بالضلال، فتوجَّه إلىٰ الله سبحانه أن ينقذه من هذه الحيرة، ويهديه سواءَ السبيل. ولم يزل مُتحيِّراً حتىٰ أتاه اليقين من ربِّ العالمين، وهداه إلىٰ صراطه المستقيم بالوحي المبين. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحىٰ: ٧] أي: مُتحيِّراً في أمرك فهداك للرُّشد والفلاح. ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: فقد كان محمد ﷺ في صغره يرىٰ أنَّ عبادة قومه لهذه الأصنام ضلال بعيد، ولذلك لم يعبد صنماً قط، ثم تطلَّب له ديناً فقلَّب اليهودية والنصرانية في ذلك الحين، فرآها مشحونةً بالضلال، فتوجَّه إلىٰ الله سبحانه أن ينقذه من هذه الحيرة، ويهديه سواءَ السبيل. ولم يزل مُتحيِّراً حتىٰ أتاه اليقين من ربِّ العالمين، وهداه إلىٰ صراطه المستقيم بالوحي المبين. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحىٰ: ٧] أي: مُتحيِّراً في أمرك فهداك للرُّشد والفلاح.

وهل هذا معنى الضلال الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[1]؟.

الجواب:

لا بد بداية من تحديد بمَ يُصبح النبيُّ نبيّاً؟ وما المهمَّة الكبرى التي أنيط به القيام بها؟ وما الذي تقتضي هذه المهمة من صفات وسلوك سابق على التكليف بالمهمة؟ ومن حيث إنها مظهر من مظاهر رحمة الله بالعباد، وحيث إن الله تعالى يعلم ما يمكن أن يتلجلج به الصدر إذا جاء إنسان يدعو الناس إلى سلوك نظيف، وتصوُّر سديد، والنفس تـتململ أمام التكليف، وتشرد منه؛ لتحقِّق ما تشتهي من الرغائب، وأيسر ما تدفع به النفس من دعاها إلى الارتقاء أن تقول: ومتى كنت بهذا التألق، وبالأمس عرفناك كذا وكذا؟!

وهذا يوقفنا أمام ضرورة **كمال النظافة في التصور والسلوك**، حيث ينشأ من اختير للنبوة على صفاء المعرفة وكمال الأخلاق.

ولم يرد على الإطلاق أيّ موقف من المشركين دفعوا دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه كان ممّن يعاب سلوكا، بل على خلاف ذلك كانوا يشيدون بخلقه العالي كما هو ثابت.

ثمَّة دراسات من المستشرقين حاولوا فيها أن يجعلوا الرسالة الخاتمة عبارة عن انتخاب من الرسالتين السابقتين،ثم كان لا بد من مناكفة في بعض ما انتخب.

---

(١) قال المؤلف ـ غفر الله له ـ في تفسير الآيتين (٨٨، ٨٩) من سورة الصافات: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾: «أي: سقيمٌ في العقيدة، والظاهر أنَّ ذلك كان في صِغَرِه. والله أعلم. فمفادُ الآية شبيهٌ بمفاد قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضُّحى: ٧]، أي: مُتحيِّراً في أمرك، أيَّ دين تَتَّبع، فهداك بهذا الدين. والظاهر أنَّ هذا كان في أول نشأة إبراهيم عليه السلام. والله أعلم».

ومنهم من أرجع الأمر إلى الراهب بحيرى. وهذا كله من الـهذيان الفكري الذي كل الرسالة وتفاصيلها تؤكد أنه الوحي، والوحي وحده، فيما طابقت به الرسالة الرسالات من الأصول، وفيما خالفت به من الفروع.

ما المراد بالحيرة؟

والقول بالحيرة إن كان يراد منه أنه لم يكن يدري من المنهج وتفاصيل الإيمان، وأن هذا عرفه فيما بعد بدءاً من: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: ١] إلى ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] فهذا لا يبعد؛ إذ لا يتصوَّر أن تكون تفاصيل الرسالة مُخَبَّأة في صدره الشريف عليه الصلاة والسلام، ثم نزل الوحي يكشف عنها.

أما أنه كان يدري ما عليه أهل الكتاب من ضلالات كبرى كالتثليث مثلاً، فهذا لا يخفى على من هو دون الرسول عليه الصلاة والسلام في تـألقه وعمق تفاعله مع شؤون الحياة الكبرى.

أما أنه درس هاتين الرسالتين، فهذا لا يسنده ما يعتبر أدنى دليل، بل جاءت النصوص تفضح ما به فسر المشركون ما ظهر من الرسول في دعوته إذ قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقد «نكّروا» المرجع هنا، فقالوا: «بشر» لئلا يقال لهم: «سمّوه».

أساسيات الإيمان كانت حاضرة في ذاته عليه الصلاة والسلام، وكان يتوجه في «تحنثه» إلى الله تعالى، وينظر من هذا الكون ما له دلالات ظاهرة على الله، بقلب معصوم بالاتفاق بين علماء الأمة.

تحديد معنى الضلال:

ومِمَّا أخبر عنه كتاب الله، وكان في سياق الامتنان قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا

فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] فتحديد معنى «الضلال» هنا بناء على «العصمة» المستقرَّة في ذات الرسول قبل الرسالة هو المدخل الصحيح للوقوف على أبعاد هذا التعبير، لئلا يشط بالدارس الخيال «اللغوي»، فيقول ما ليس بصواب، ويؤذي المجمع عليه من أمر «العصمة».

ولولا هذه الكلمة القرآنية «ضالا» لما خطر بالبال أصلا ما يمكن أن يفهم منها بناء على المنطلقات الرئيسة فيما يجب للرسل عليهم الصلاة والسلام.

أقوال المفسرين في المراد من الضلال:

ذهب المفسرون في بيان المعنى المراد من الضلال إلى معانٍ كثيرة:

فهو: بمعنى الغفلة عمَّا يراد بك من أمر النبوة.

وبمعنى عدم معرفة دين وشرعٍ ما، فهداك الله للإسلام وشريعته.

وبمعنى في وسط ضلال قومك وكفرهم فهداهم الله بك.

وبمعنى الحيرة فيما ترى فعرَّفك بالصواب والحق.

والضلال في اللغة قد يأتي بمعنى شدَّة الحب، ولذلك قال أولاد سيدنا يعقوب لأبيهم: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] يعنون الحب الذي كان ليوسف، فالضلال من درجات الحب، فالحب درجات، فمنه: العشق، والهيام، والصبابة، والجوى، إلى درجة الضلالة، والدرجة التي بعدها هي الجنون.

فالضلال ـ على هذا ـ شدَّة الحب، فقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ يمكن حمله ـ والله أعلم ـ على أن الله يريد أن يقول لحبيبه: وجدناك شديد الحب، أو شديد التطلع لمعرفتنا، أو شديد الحب لنا، فهديناك إلينا وعصمناك بنا.

ولا يجوز توجيه المعنى على أنه بعيد عن الحق، وأدنى ما نورده هنا أن الكلمة إذا كان لها عدَّة معان، وواحد منها لا يستقيم مع معطيات أخرى قاطعة، فالصواب اجتناب هذا المعنى الذي يشغب على الحقائق الراسخة.

الغفلة عن الدين ومعرفة الشرائع:

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي: غافلاً عن الدين، لا تعرف شيئاً عن الشرائع، فالله عز وجل ينزل عليه هذا الكتاب العظيم، المعجزة التي جاءت من السماء، فإذا به سبحانه يجتبيه ويجعله سيد المرسلين.

كما قال ﷺ: «**كلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمَجِّسانه**»[1]، ومعنى ذلك: أن هذه الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها من الناس من يأتي مثبتاً لها، وهو الذي كان على هدى وسداد، فيكون عوناً لأولاده على الهداية، ومنهم من يكون منحرفاً عن هذه الفطرة، فيسعى إلى حرف وصرف أولاده عنها، فينقلهم من هذه الفطرة إلى أن يكونوا يهوداً أو نصارى أو مجوساً، أو إلى غير ذلك من ملل الكفر المختلفة.

عدم العلم:

ـ والضلال يراد به عدم العلم أيضاً، فكما أنه يراد به الغَواية وحصول الغواية فإنه يراد به عدم العلم، والله عز وجل خلق الناس وأخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم علمهم وأعطاهم العلم، وما جاء في القرآن من قول الله عز وجل: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾.

فمعنى ذلك أنه: كان غير عالمٍ بهذا الوحي الذي أوحى الله تعالى إليه، وهذا

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٥) بهذا اللفظ، ومسلم (٢٦٥٨) (٢٢) بنحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

العلم الذي أعطاه الله إيَّاه، فكان قبل ذلك غير عالمٍ به، هذا هو المقصود بالضلال الذي كان موجوداً فهداه الله عز وجل إلى هذا الوحي والنور وأعطاه إيَّاه، كما قال الله عز وجل: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فإذاً: عرفنا أنه يأتي الضلال بمعنى الغَواية، ويأتي بمعنى الجهل وعدم العلم، ثم إنَّ الله عز وجل يعطي العلم ويوفق من شاء لأن يعطيَه العلم، والضلال الذي أضيف إلى النبي ﷺ هو عدم العلم بهذه الأمور التي علمه الله تعالى إيَّاها، وهذا الوحي الذي أوحى الله تعالى به إليه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

الضلالة في القرآن وردت بمعان ثلاثة:

وعليه فالضلالة في القرآن وردت بمعان ثلاثة: ونختار منها ـ ههنا ـ معنى «التوقف» بما يناسب معنى «ضالاً» في قول الله جل وعلا: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾؛ لأن النبي ﷺ كان متوقفاً في أمر قومه، ولم يكن يعلم عليه السلام مفردات الهداية التي بها يخرجهم من ظلمات الجاهلية التي كانوا فيها، مع أنه على يقين من أن قومه على الباطل، قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾.

والدليل عليه: أنه عليه الصلاة والسلام لم يتبعهم فيما هم فيه، ولم يسجد لصنم قط، وإنما كان يفرُّ عن أنديتهم ومجتمعاتهم، وكان يأتي جبل النور يتحنَّث في حراء الليالي ذوات العدد، كل ذلك فراراً ممَّا عليه قومه، فهداه الله إلى تلك المفردات بما أوحى به إليه، وهذا معنى قول الله جل وعلا: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، والذي يناسبها ما بعدها: قول الله جل وعلا: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠] فكلمة السائل ـ هنا ـ تنصرف إلى المسترشد المستخبر عن أمر دينه في المقام الأول، ولا يمنع حسب قواعد التفسير: أن تنصرف كذلك إلى السائل المسكين، لكنها في المقام الأول تنصرف إلى المسترشد؛

ولهذا كان النبي ﷺ يجيب من يسأله في أمر الدين على أي حال كانت، ونحن نعلم أنه كان يقف في موقف في عرفة وفي غير عرفة في أيام الحج، ويسأله الناس ويجيب، وقد قال العلماء: ومن أجل هذا كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر أو غزوة، أو ما شابهها يبدأ بالمسجد حتى يعرف الناس بقدومه، فإذا عرفوا بقدومه قدموا إليه ليسألوه، ويأخذوا عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ دينهم، فهذا هو معنى «السائل» المناسب للسياق.

كل كفر ضلال وليس كل ضلال كفراً:

معلوم أن كل كفر ضلال، وليس كل ضلال كفرًا، فقد قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، كما قال الله تعالى في حال أصحاب الجنة الذين منعوا المساكين حقهم منها: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ [القلم: ٢٦].

وقال عزَّ وجل لسيد المرسلين ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾.

ليس الضلال في هذه الآيات بمعنى الكفر، وليست الهداية بمعنى العودة إلى الإيمان من ضلال الكفر.

من معاني الهداية في القرآن:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

هدَى الحائرَ: أرشده ودلَّه، وفقّه، عكسه أضلّه.

هداه: تقدّمه كما يتقدَّم الهادي المهديَّ.

هدَى فلانًا الطَّريقَ، هدَاه إلى الطَّريق، هدَاه للطَّريق، هدَى له الطَّريقَ: عرَّفه إيّاه، وبيَّنه له، ساقه ووجَّهه.

ويقال: هداه الله إلى الإيمان، للإيمان: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧].

ولا يصحُّ مثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أو أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخُلُق العظيم، حاشا لله إنَّ ذلك لهو الإفك المبين، لأن الله تعالى قد بغَّض إليه الوثنيَّة من مبدأ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة، وإنما هي الحيْرة تلمُّ بقلوب أهل الإخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل، إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد الضَّالِّين، وقد هدى الله نبيَّه إلى ما كانت تتلمَّسه بصيرته باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته، واستمرَّ محمد ﷺ على عادته تلك في حبِّ الخلاء والانقطاع عن الخلق إليه(١).

---

(١) قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير سورة الضحى: «أما قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ فهو من ضلال الطريق والتحيُّر في السلوك، أي: وجدك مُتحيِّراً في تعيين الطريق الحقِّ لأمر الدين، فهداك الله إليه». ثم نقل كلاماً طويلاً سديداً للشيخ محمد عبده، قال في آخره: «هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، وهو نفسُه معنى قوله في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].
وليس في وصف النبيِّ ﷺ بالضَّالِّ على هذا المعنى شَيْنٌ له أو حَطٌّ من شأنه، بل هذا هو فَخْره عليه الصَّلاة والسلام، وإكليل مَجْده، لم يكن عالماً فعلَّمه، ولم يكن مُطَّلعاً على الغيب فأطلَعه». انتهى.
ثم قال المؤلف مرتضياً كلام الشيخ محمد عبده: «هذا مُلخَّص ما قاله الأستاذ الإمام في تفسير الآية، وما أجَلَّهُ مِن كلام»! وليته اقتصر على هذا المعنى في الموضعين السابقين ولم يفسره بقوله: «ثم تطلَّب له ديناً فقلَّب اليهودية والنصرانية في ذلك الحين، فرآها مشحونةً بالضلال»!!

تفسير القرآن العظيم

المسمّى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

تأليف العلامة الشيخ

رشيد الخطيب الموصلي

١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلد الأول

اعتنى به وقدم له

مجد أحمد مكي

أروقة

بسم الله الرحمن الرحيم

صفة القرآن والمراد منه

القرآن العظيم، كتابٌ أُحكِمَت آياته، ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير، فيه آيات بيّنات، ودلائل واضحات، وآداب عالية، وشرائع راقية، أنزله العليُّ الأعلى، نعمةً منه وفَضْلاً؛ لينذرَ من كان حياً ويحقَّ القول على الكافرين، فهو آيةُ الله الخالدة، وحُجَّته الدامغة، ومواعظه الرائعة، وأخباره الصادقة، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد.

أنزله سبحانه رحمةً للعالمين ليتدبَّروا آياته، من وعدِهِ ووعيده، ويعلموا ما فيه من أوامره ونواهيه، ولينتبهوا إلى ما في هذا الكون من عَظَمة وجلال، وبداعة وكمال، ووجود وزوال، وليعرفوا ما يُصلح أحوالهم في هذه الحياة الدنيا، وما يُراد بهم في تلك الحياة الأخرى، ليأخذوا أُهبتَهم، ويَسعَدوا بمصيرهم، وينالوا العاقبة الحسنى، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

والقرآنُ العظيمُ متضمِّن لأعلى المطالب، يُبيِّنها بأقرب الطرق وأتمِّ البيان، مُتكفِّلٌ بتعريف الخليقة ربَّها وفاطرَها المحسنَ إليها بأنواع الإحسان وفنون الإنعام؛ يُعرِّفها بأسمائه الحسنى، وصفاتِه العليا، وأفعاله الجُلَّى، كما يعرِّفها الطريقَ الموصلَ إلى رضاه، وإلى سعادتها في الدارين، وكمالها الذي خلقها سبحانه مستعدَّةً له وناشدةً إيَّاه، فهو كلافتةٍ موضوعةٍ في أول الطريق تُعرِّف كيفيَّة السَّيْر فيه.

وبالجملة، إنه يُهذِّب الفَرْدَ ليكون نافعاً لنفسه ولأهله ولقومه وللناس أجمعين، وكذلك يُهذِّب الجماعات.

والقرآن العظيم ـ بما فيه من البراهين العقلية والدلائل الكونية والتحسيسات الوجدانيَّة ـ يدعو إلى دساتير العدالة الخُلقية والاجتماعية والسياسية وما يَغْرس في الطباع آداباً عالية، وتربيةً سامية، ومعالم إنسانية هي في أَوْج الكمال.

وطريقتُه في هذه الدعوة تستقرُّ في النفوس، وتستمرئها العقول، وتَنفُذُ إلى أعماق القلوب.

فالقرآن كتابٌ إنسانيٌّ عظيم(١)، يصوِّر للإنسانية آفاقَ كماله، ويهدي لمنالها،

(١) القرآن لغة: الجمع. تقول: قرأت الشيء قرآناً؛ إذا جمعتَ بعضه إلى بعض. قال أبو عبيدة: وسُمِّيَ القرآن لأنه يجمعُ السُّورَ ويضمُّها.
وأما في الاصطلاح: فالقرآن: كلام الله المنزل على محمد ﷺ للإعجاز بسورة منه، المُتعبَّد بتلاوته. قال السيوطي: فخرج بـ(المنزل على محمد) التوراةُ والإنجيل وسائر الكتب السماوية، وبـ(الإعجاز) الأحاديثُ الربانية القدسية، والاقتصار على الإعجاز ـ وإن نزل القرآن لغيره أيضاً ـ لأنه المحتاج إليه في التميـيز (أي: بين كلام الله وكلام البشر). وقولنا: (بسورة منه) هو بيان لأقلِّ ما وقع له الإعجاز. اهـ.
والقرآن الكريم نزَّله الله تعالى لهداية الناس جميعِهم ـ عربِهم وعجمِهم ومَنْ يأتي منهم إلى أن يَرِثَ الله الأرض ومن عليها ـ وبهذا الاعتبار لا نرى مانعاً من وَصْفه بأنه كتاب إنساني عظيم.
فهو كتاب الإنسانيّة يخاطب الإنسان ويتحدَّث عنه ويهتمُّ به من يوم وجوده على الأرض إلى أن ينتقل إلى دار الخلود، قال أحد الدعاة: ليس كتابَ العرب وحدهم وإن نزل بلغتهم، وليس كتابَ أهل الجزيرة وحدهم وإن بُعِثَ محمد ﷺ من بينهم، ولكنه كتاب رب العالمين، لكلِّ العالمين عرباً وعجماً، شرقاً وغرباً، بيضاً وسُوداً، حكاماً ومحكومين، أغنياء وفقراء، فهو كتاب كل الأجناس وكل الأوطان وكل الألسنة وكل الطبقات. قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ =

ويدعو لمنتهى الكمال الخلقي، وأصحِّ الكمال الاجتماعي، وأرفقِ الكمال السياسي وأسَدِّه، كما يجعله نافعاً لنفسه ولأهله ولقومه وللناس أجمعين.

فالقرآنُ يرشد إلى الوسائل الخلقية الطبيعية التي تعمُّ الناس كلَّهم، بمقتضى طبيعتهم وإنسانيَّتهم، ويَكِلُهم إلى أنفسهم في العلوم الكونيَّة ووسائل معرفتها والتَّقدُّم فيها.

= عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

قال العلامة القرضاوي في «تفسير جزء عمّ»: «من تأمَّل القرآن كلَّه، ما بين فاتحته (سورة الحمد)، وخاتمته (سورة الناس): يستيقن بالاستقراء التام أن هذا القرآن كلَّه ينبِّه ويركِّز على جملة أمور أساسيّة:

الأول: أنه كتاب ربَّانيٌّ، فسورة الحمد أو الفاتحة كلُّها ذكر لله، أوَّلها ذكر ثناء، وآخرها ذكر دعاء. وسورة الناس كسورة (الفلق) قبلها، كلتاهما استعاذة بالله واحتماء به، من شرور خلقه عامَّة وخاصَّة، جِنَّةً وناساً.

والثاني: أنه كتاب إنسانيٌّ، كتاب أُنزل من أجل الإنسان، وهداية الإنسان، وإسعاد الإنسان، ولـهذا جاء في سورة الفاتحة تعليم الإنسان أن يسأل الله تعالى الـهداية إلى الصراط المستقيم، صراط السعداء المهديـين المرضيين عند الله، لا المغضوب عليهم ولا الضالين، وجاء في سورة الناس: الاستعاذة من شرِّ الشيطان أو شياطين الجنِّ والإنس، وذلك ليظلَّ الإنسان بعيداً عن الشرِّ قريباً من الخير.

والثالث: أنه كتاب عالميٌّ، ليس لعِرق خاص من عروق البشر، أو لإقليم معيَّن، أو لطبقة أو طائفة منهم، بل هو للعالمين. كما أعلنت أول آية في الفاتحة بعد البسملة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وكما أعلنت الآيات الأولى من آخر سورة في القرآن، سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣]، بتكرار كلمة «الناس»، دون الاكتفاء بالضمير؛ لينبِّه على أنه سبحانه ربُّ الناس جميعاً، كما أنه مَلِكُهم جميعاً، وإلهم جميعاً».

ومع الأسف الآسف إنَّ البشر اليوم أصبح مُضطرباً حائراً يفتِّشُ عن شريعةٍ تهديه للصواب الصريح، ونظامٍ يرشده للواقع الصحيح، ولا يلتفت إلى هذا القرآن العظيم ليجد بُغْيته المنشودة، ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، صدق الله العظيم.

رشيد الخطيب

مُقدّمة

تفسير القُرآن العظيم

المُسمّى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

لمؤلّفه

رشيد الخطيب الموصلي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله وصَحْبه أجمعين.

وبعد،

فإنَّ القرآن العظيم ـ في مقاصده وأغراضه ومعانيه، ومدلولات تراكيبه وعباراته ومبانيه، ولا سيَّما دلالة الإلماع والإشارة التي فيه ـ كالمنهل الفيَّاض، يزيد ويفضل بكثير عمَّا يروي الخلق أجمعين، وكالبحر الخِضَمِّ لا يطمع الغوَّاصون أن يَسْتَقْصُوا ما فيه من اللآلئ والدُّرِّ الثمين، كيف ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]. وكلما ازدادت العلوم كمالاً، والأفكار عُلُوّاً وجلاء، ظهر من عجائب مدلولات هذا القرآن العظيم ودقائقه ما يُبهِرُ العقول، ويُدهِشُ الألباب.

وقد قال أهل العلم: إنَّ في كلام الله تعالى ما يعلو أفهام طبقات الناس، بما يشير إليه من دقائق الحِكَم والمعارف التي لا يعرفها إلا الراسخون في العلم، ومَنْ أعطاه الله بَسْطةً في الإدراك والفهم، لأنَّ فيه ـ من إفادة المباني القليلة، للمعاني الجليلة، بمعونة السياق والأسلوب ـ ما لا يُدركه إلا مَنْ وفَّقه الله لذلك.

ولـما قيل لعليٍّ رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: «لا، والذي فلق الحبة وبرأ النَّسْمة، ما أعلمُه إلا فهماً يُعطيه الله رجلاً في القرآن»(١).

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٠٤٧)، ومسلم (١٣٧٠)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد جاء عن بعض الصحابة رضي الله عنهم: إنَّ في القرآن معانيَ لا يظهر تأويلُها إلا بعد عصر التنزيل، أي: بعد أن يتَّسع أُفـقُ الوعي والتفكير، لأنَّ للقرآن ـ فوق دلالاته ـ إلماعية يجب التَّنبُّه إليها والانتفاعُ بها، إذ فيه أساليب لأداء المعاني لا تخطر ببال، ولا لأعظم بليغ مِن مثلها منال.

وقال الإمام الغزالي رضي الله عنه: ليس بعزيز على الله عزَّ وجلَّ أن يكشف لعباده المخلصين في المستقبل، ما لم يكشف لغيرهم فيما مضى من العصور، وأن يُنزِلَ من نِعَمِه الروحانيَّة على مُستحقِّيها من الحكماء في كل دَوْر، ما يفيض نوراً على أبصارهم وبصائرهم فيهديهم سواء السبيل.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لم يكن النبيُّ ﷺ يفسِّر شيئاً من القرآن إلا آيات تُعَدُّ، علَّمهنَّ إيَّاه جبريل عليه السلام»[1].

أقول: وما ذلك إلا لإطلاق العقول وإفساح المجال في فهم ما يتضمَّنه هذا القرآن العظيم الذي قال فيه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧]، فهبَّتِ العقول تتفهَّمه وتتلمَّس ما يُومئ إليه وما يدلُّ عليه، حتى كان لبعض الآيات عدّةُ آراء للصحابة رضي الله عنهم، بمقتضى دلالة التركيب ومَنْحى الأسلوب، كما هو المنقول عنهم والمأثور.

هذا، وإنَّ الأستاذ الإمام محمد عبده[2] هو ممَّن أفاض الله عليهم من تلك النِّعَم،

---

(١) رواه أبو يعلى (٤٥٢٨)، والبزّار (٢١٨٥ ـ كشف الأستار)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦: ٣٠٣): «رواه أبو يعلى والبزار بنحوه، وفيه راو لم يتحرَّر اسمه عند واحد منهما، وبقية رجاله رجال الصحيح، أما البزّار فقال: عن حفص أظنه ابن عبد الله عن هشام بن عروة، وقال أبو يعلى: عن فلان بن محمد بن خالد عن هشام».

(٢) مفتي الديار المصرية، من آل التركماني (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ) رحمه الله تعالى، من رجال المدرسة =

وفَتَح لهم باب الفهم ومدارك الحِكَم، فهو رجلٌ مُلهَمٌ عظيمٌ في تفسير آيِ الذكر الحكيم، ذو مواهبَ بديعة سَنِيَّة نادرةِ المثال، ومَلَكاتٍ قوية سامية الكمال، يستخرج بها المعاني من أصدافها الطريَّة التي لم تمسَّها يدُ لامس لأنها بعيدة المنال، ويُظهِرُها بلباقة قلمه وفصاحة كَلِمِه، صورةً جليَّة يستنير بها العقل، وترتاح لها النفس، ويستقرُّ عليها البال، حتى جاء في تفسير آي الذكر الحكيم من آرائه الصائبة، ما عاد بالفائدة العظمى على هذه الأمة، ونهض بالأفكار الجُلَّى في هذه الملَّة.

وأدهشني ما كنتُ أراه له من التعليقات العَليَّـة والتحريرات الجليَّة، فغَذَّيتُ بآرائه عقلي، وروَّضْتُ بأفكاره فِكري، وعَدَّلت نظراتي بنظراته، ووَجَّهتُ وَعْيي إلى مَسالك غَدَواته ورَوْحاته، وجعلتُه أستاذي بتعاليمه، ومرجعي في مفاهيمه، ومَلاذي في حَلِّ المشكلات، ومَنَاري في فهم غوامض المُدْرَكات.

ولـما كان تلميذه الأستاذ السيِّد رشيد رضا[١] صاحب «تفسير المنار» هو الحافظ لآرائه في تفسيره، والتابع لآثاره في تحريره؛ اعتمدت عليه في تأليف تفسيري هذا أول الأمر[٢]، فإذا كان المعنى ممَّا استنبطه بِفِكره عزوتُه إليه، وإذا كان مما أخذه عن غيره

= العقلية، دعا إلى الإصلاح والتجديد، وانتُـقِدَ في مسائل ليست بقليلة، وهو أستاذ محمد رشيد رضا، له: «تفسير القرآن الكريم» لم يتمَّه، و«رسالة التوحيد»، و«شرح نهج البلاغة». ينظر: «الأعلام» للزركلي (٦: ٢٥٢).

(١) هو محمد رشيد رضا، البغدادي الأصل الحُسيني النَّسَب، (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ)، كان أحد رجال الإصلاح، من الكُتَّاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، من أهم أعماله: «مجلة المنار» التي نشر فيها تفسيره وفتاواه، و«الوحي المحمدي»، و«نداء للجنس اللطيف»، و«الخلافة». ينظر: «الأعلام» للزركلي (٦: ١٢٦).

(٢) هذا ما كتبتُ عليه تفسيـري أولاً، ثم لا زلت أراجعه وأُدرِّسه وأُهذِّبه وأنـقِّحه، طيلة حياتي ـ والحمد لله ـ فكان لي من ذلك مَلَكة ومِرَان؛ على تَدبُّر القرآن، وَتَفهُّم معانيه، وإدراك المناسبات=

أهملتُ نسبتَه إليه؛ جرياً على سَنَنِ المفسِّرين في مثل ذلك، إذ إنَّ اللاحق يأخذ من السابق المعانيَ العامَّة التي يتناقلها المفسِّرون، ولا يعزوها الثاني إلى الأول، فسلكت في ذلك مَسلَكَهُم، وحَذَوْتُ حَذْوَهم.

وقد قال ابن المقفَّع[1] في «الأدب الصغير»: من أخذ كلاماً حسناً عن غيره، فتكلَّم به في موضعه، أو وضعه على وجه مفيد، فلا تَـرَيَنَّ عليه في ذلك ضُؤولة، فإنه مَن أُعين على استخراج كلام المصيبين فقد بلغ الغاية، وليس بناقِصِه في رأيه ولا غامِطِه في حقِّه أن لا يكون هو استَحدَثَ ذلك وسبق إليه، فإنما إحياء العقل بالذي[2] يتمُّ به ويستحكم[3].

وقد قال ابن رشد[4]: إن ثمرات العقل البشري إرثٌ حلال، يرثها الخَلَفُ عن السَّلَف، ويستعين المتأخِّر بالمتقدم.

وبهذا مشت وتمشي سلسلة العلوم والحركة الفكرية إلى الأمام. أقول: ولا سيَّما في التفسير لآي الذِّكر الحكيم والقرآن العظيم، إذْ يجب أن تشترك الأفكارُ الساميةُ في إبرازه وإيضاح معانيه، وفَهْم مقاصده من تراكيبه ومبانيه، ودقَّة دلالاته وسَعَة مضامينه

= بين الآيات، فأصبح تفسيري آخِراً غيرَ تفسيري أولاً، بما أجريتُ عليه من تهذيب وإصلاح، لأنَّ القرآن العظيم كلما زدتَه تَدبُراً وإمعاناً، زادك منه علماً وتبياناً، وفهماً وإتقاناً. (المؤلف).

(١) هو عبد الله بن المقفَّع (١٠٦-١٤٢هـ)، من أئمة الكتاب وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، له: «رسالة الصحابة»، و«اليتيمة». «الأعلام» للزركلي (٤: ١٤٠).

(٢) في «الأدب الصغير»: «الذي» بدل «بالذي».

(٣) «الأدب الصغير» ص٢٣.

(٤) أبو الوليد، محمد بن أحمد بن محمد بن رشيد الأندلسي، (٥٢٠-٥٩٥هـ) فيلسوف، عني بكلام أرسطو، له «مناهج الأدلة»، و«تهافت التهافت»، و«الكليات». ينظر: «الأعلام» للزركلي (٥: ٣١٨).

وبعيد إشاراته[١]، وعلى المتأخِّر أن يأخذَ أميزَ آراءِ مَن سبَقه ويضمَّها إلى آرائه، فذلك أمر واجب في فهم كلام الله العظيم.

وعلى هذه القاعدة جرى المفسِّرون في العصور المختلفة، فترى بعضهم يأخذ من بعض بتصرُّف أو بدون تصرُّف، ولا يعزوه الثاني إلى الأول، لأنهم يعتبرونه حقاً مباحاً، وهكذا فعلتُ أنا أيضاً فيما أخذتُه، إذا كان من المعاني العامة الشائعة، فكنتُ أنقله بتصرُّف فيكون كالمختصر، أو بدون تصرُّف، إلا إذا انفرد صاحبُه باستنباطه وإدراكه بفِكرِه، فإني أعزوه إليه حَتْماً، لأن ذلك من واجب حقِّه.

وكان جلُّ اعتمادي على تفسير «المنار» في الأجزاء الاثنَيْ عشرَ التي فسرَّها[٢]، وكنتُ أختصر بعض كتابته بتصرُّف أو بدون تصرُّف.

أما فيما عدا هذه الأجزاء فكان اعتمادي على استنباط المعنى من القرآن العظيم، واستلهامي إيَّاه بنفسي، مستعيناً بالله الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم، مراعياً في ذلك مفاهيمَ اللغة وعُرْف التخاطب.

لذلك تجد في تفسيري هذا من المعاني ما لا تجده في التفاسير القديمة والحديثة، وأكتب في آخره عبارة: والله أعلم، للإشارة إلى أنه من رأيي الخاص كلِّه أو بعضه.

فإن وُفِّقت فيه فذلك ما أبغي، وهو من فَضْل الله، وإن أخطأتُ فحَسْبي أني كنتُ جدَّ حريصٍ أن لا أقع في الخطأ، وأرجو على إخلاصي وبَذْل جهدي أن أنال المغفرة والأجر من الله.

---

(١) لي آراء في بعض الآيات وتحليل لبعض المفاهيم والمقرَّرات، لم يسبقني إليها أحد، وأدعو الله سبحانه أن تكون صائبة ومفيدة. (المؤلف).

(٢) لم أهمل ما كُتِبَ من التفسير في العصر الحاضر وأخذت منه ما استحسنتُه. (المؤلف).

وإنَّ كثيراً من الآيات يتداعى إليَّ من التعمُّـقِ والتفكير فيها معانٍ لا تُحصى، وأغراضٌ لا تُستقصى، بأنواع الدلالات من الإشارة والإيماء والفحوى والاقتضاء، ولكن أرى نفسي عاجزاً وضعيفاً كلَّ الضعف تجاه تصوير ذلك المعنى الدقيق وبيانه، فآخُذُ منه قبساً وأتركه عجزاً، وأنَّى لعناكبِ الأفهام والأوهام أن تَعرُج إلى حِمَى ذي الجلال والإكرام. وقد أترُكُ ذلك أحياناً لأنه يجرُّ إلى الإسهاب والتطويل، إذ هو مخالفٌ لِـمَا التزمتُه من الاختصار في هذا التفسير.

وكثيراً ما أتـذوَّق بلاغةً عاليةً في المبنى والتركيب، وبداعةً ساميةً في النظم والترتيب، ولكنْ لا أملك الإبانة عمَّـا أشعر به أو أفهمه إجمالاً، لِعُلوِّ المنال، وعَجْز الكلام والتعبير عن دقَّة تصوير ما يصوغُه الكبير المتعال.

وقد ثبت في الأصول: أنه يجوز للعالِـم أن يفسِّر القرآن ويفهم منه ما لم يكن مرويّاً عن أحد، بشرط أن لا يخرج بذلك عن مدلول اللغة في مفرداتها وأساليبها، مراعياً عُرْفَ التخاطب فيها.

وقد كان في الآية الواحدة عدَّة آراء للصحابة رضي الله عنهم، على حسب ما يفهمون بمقتضى عُرْفِ التخاطب ودلالة اللفظ والأسلوب، كمـا هو المنقول عنهم والمأثور.

وقد قال الإمام الراغب[1] رضي الله عنه: ورد القرآن في صورة جليَّة تحتها كنوز خفيَّة، ليفهم العوامُّ من جَليِّهِ ما يقنعهم، ويفهم الخواصّ من دقائقه ما يزيد على ما

---

(١) هو الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (...- ٥٠٢هـ)، أديب من الحكماء العلماء، له: «المفردات»، و«محاضرات الأدباء»، و«الذريعة إلى مكارم الشريعة». ينظر: «الأعلام» للزركلي (٢: ٢٥٥).

أدركه فَهْمُ العلماء بمراتب شتَّى. ومن هذا الوجه كلُّ مَنْ كان حظُّه من العلوم أوفر، كان نصيبُه من القرآن فهماً وإدراكاً أكثر.

وإني قد التزمت فيه ما لم يلتزمه غيري من المفسِّرين، وهو بيانُ وجوه المناسبات بين جميع الآيات بقدر الإمكان، وذلك من جملة المهم في هذا التفسير من البيان، وربما كرَّرت تفسير آية مكرَّرة أو معنى متكرِّر في آيات متماثلة، لاعتقادي أنَّ الناس محتاجون لمواصلة التنبيه عليه والإرشاد إليه.

وقد وضعتُ له مُقدِّماتٍ عدَّة، بيَّنتُ فيها بعض خصائص القرآن في أساليبه وتراكيبه، وأغراضه ومقاصده، وحذفه وإيجازه، وبلاغته وإعجازه، والتفريق بين أوصال المعنى الواحد والغَرَض الواحد أحياناً، والجمع بين المعاني المتنوِّعة والأغراض المتعدِّدة أحياناً، وبَيَّنت أنواعَ مجازاته وضروبَ خطاباته إلى غير ذلك من الخصائص التي انفرد بها وأبدع، فوضعت لبيانها هذه المقدِّمات المقتبسة من أفكار المفكرين أو من خاصَّة نظراتي حيناً بعد حين، ليستفيدَ من معرفتها المتدبِّرُ اللبيب، ويستعينَ بها على فَهْم مقاصدِه وأغراضِه ومناهجِه ومرامِيه.

وقد ألحقتُ بالمقدمة الثانية لاحِقةً ضمَّنتُها تفسير بعض الآيات التي تكرَّر أمثالها، أو ما هو في أشدِّ الحاجة إلى التنبيه والبيان.

ثم ألحقت بالمقدِّمات التي وضعتُها مقدِّماتٍ أخرى، أخذتُها واقتبستُها من كتاب «صفوة العرفان» للأستاذ فريد وجدي[1]، لأنها كثيرة الفائدة والجدوى.

---

(١) محمد فريد بن مصطفى وجدي، (١٢٩٥-١٣٧٣هـ)، مؤلف دائرة المعارف، من الكتّاب الفضلاء الباحثين، له: «صفوة العرفان»، و«المرأة المسلمة»، و«الإسلام في عصر العلم». ينظر: «الأعلام» للزركلي (٦: ٣٢٩).

وأسميتُه: «**أَوْلى ما قيل في آيات التنزيل**»، واللهَ أسأل أن يقبله خالصاً لوجهه الكريم، وأن أنال به رضاه، وأن يجعله من صالح عملي الذي لا ينقطع بانقطاع أجلي إن شاء الله، إنه سميع مُجيب، وهو حَسْبي ونِعمَ الوكيل.

وقد كنت كتبته أوّلاً غير متواصل الآيات، واستكتبتُه على هذه الصورة، ثم كتبتُه متواصلَ الآيات كاملاً، ثم أعدتُ كتابتَه، ثم استكتبتُه وراجعتُه للمرة الرابعة مُعتنياً في تنقيحه وتهذيبه، وأدخلت عليه كثيراً من الإصلاح.

وقد شرعتُ به في هذه المرة يوم الاثنين المصادف لليوم السابع من شهر جمادى الثانية[١] من شهور سنة ألف وثلاثمئة وثلاث وستين هجرية قمرية، والموافق لليوم التاسع والعشرين من شهر أيار لسنة ألف وتسعمئة وأربع وأربعين ميلادية، وأكملته ـ والحمد لله ـ يوم الخميس المصادف لليوم التاسع عشر من شهر ربيع الثاني لسنة ألف وثلاثمئة وخمس وستين هجرية قمرية، والموافق لليوم الواحد والعشرين من شهر آذار لسنة ألف وتسعمئة وست وأربعين ميلادية[٢]. وعلى هذه النسخة المعوَّلُ، لأنَّها منقَّحةٌ مهذّبة، إذ قد درَّستُها للتلاميذ مراراً عديدة في داري، وأجريتُ عليها أثناء ذلك تصحيحاتٍ وإضافاتٍ كثيرةً مِن أفكاري وخواطري، وأرجو أن تكون سديدةً، والحمد لله أولاً وآخراً، حَمْداً كثيراً خالداً مع خلوده[٣]، لا غايةَ لقائله إلا رضاه.

رشيد الخطيب الموصلي

---

(١) كذا، والصواب: جمادى الآخرة.

(٢) فكانت المدة اثنين وعشرين شهراً. (المؤلف).

(٣) ينبغي أن يقال: باقياً مع بقائه، لأنَّ الخلود مما لم يرد إطلاقه في حق الله تعالى، كما أنه لا يؤدي المعنى كاملاً، بل فيه ما يوهم النقص، فإن الخلود قد يُطلَقُ بمعنى طول المدة، لا دوامها.

المقدِّمة الأولى

في الكلام على نزول القرآن، ومكيِّه ومدنيِّه، وأثره في النفوس، ومُجْمَلِ هدفِه وأغراضِه، وخصائصِه في مجاميعه، وفي لذَّة الاستماع له، وفي ديباجتِه وألفاظِه، ومعانيه وتراكيبِه وأساليبِه، ونَظْمِه وترتيبِه وانتساقِه، وأمثال ذلك

القرآنُ كتابُ الله العزيز الذي أنزله على رسوله ﷺ شيئاً فشيئاً في بضع وعشرين سنة بحسب الوقائع والأحوال التي كانت تحدثُ في المجتمع العربي، ليتدرَّج بذلك في تحويل تلك الأمة، في الديانة والعادات والأخلاق، على السُّنَّـةِ الطبيعية في التحوُّل والتطوُّر، لتكون خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس، تنتشر فيهم ذلك الخير من ربهم، وتحمل نبراسَه من بين سائر الأجناس، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: عن نَشْرِ هدايته بين الناس.

ابتدأ نزولُه في ليلة من شهر رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاد النبي ﷺ، وهو في غار حراء، يتحنَّث ويتعبَّد. وقد سُمِّيت بليلة القدر ـ أي: الشرف ـ تكريماً لها وتنويهاً بشأنها، وانتهى بتاسع ذي الحجة للسنة العاشرة من الهجرة، والثالثة والستين من ميلاده ﷺ، تنزل الآية علاجاً أو بياناً لأمر واقع، ثم تبقى تشريعاً أو تأديباً مستمرَّي المدى.

وكان أول ما نزل منه: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، وآخر

ما نزل: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾(١) [المائدة: ٣]، وكان ذلك في يوم عرفة من حجَّة الوداع، فكان ذلك للعيد عيداً.

ومجموع سُوَرِه: مئة وأربع عشرة، نحو من الثلثين منه مكيّ، وعَدَدُه ست وستون سورة، وهو ما نزل مدَّة مقام النبي ﷺ في مكة قبل هجرته إلى المدينة، وكانت هذه المدة ثلاث عشرة سنة تقريباً، ونحو الثلث منه مدنيّ، وعَدَدُه ثمان وأربعون سورة، وهو ما نزل عليه بعد هجرته إلى المدينة، وكانت هذه المدَّةُ عشرَ سنوات تقريباً، فالمكيُّ: ما كان في العهد المكي، والمدنيُّ: ما كان في العهد المدني، ولا عبرة بموضع النزول.

فالذي نَزَل بمكة عام الفتح أو عام حجّة الوداع، والذي نَزَل في الحديبية وبدر، وغير ذلك من المواضع التي كان يخرج إليها النبي ﷺ لغزو أو نُسُك؛ كلُّه يعدُّ مدنياً، لأنه نزل بعد الهجرة واتخاذِ المدينة عاصمةً للإسلام.

وقد رُتِّبت سُـوَرُهُ باعتبار الطول والقِصَر، فجُعِلت السورةُ الطويلةُ في المبدأ والقصيرةُ في النهاية بوجهٍ عام، باستثناء بعض السُّور لمناسبات بينها وبين ما قبلها، وباستثناء سورة الفاتحة التي افتُـتِحَ بها المصحف، واتُّخِذت البسملة في أول كلِّ سورة للفَصْل بين السور. وقال بعضهم: إنَّ ترتيب المصحف على صورته في التنسيق بين السور مأخوذٌ عن النبي ﷺ، بأمر من جبريل عليه السلام، وهو الأصح. والله أعلم.

والقرآنُ العظيم كتابُ هدايةٍ عامَّة للبشر، يتضمَّن آدابَ الفطرة الإنسانية، وقواعدَ الاجتماع الثابتة، وسُنَنَ العمران المحكمة، وأصول الحُكْم الكليةَ المبنيَّة على

---

(١) بل آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، أما الإكمال المنصوص عليه في آية المائدة فإكمال في التشريع، حيثُ لم ينزل بعدها حكم جديد، وإنما نزلت آيات مؤكدة لأحكام سابقة.

دَرْء المفاسد وحفظ المصالح، والموافِقة للمنفعة العامة في كل زمان ومكان وعصر وجيل.

وإذا درسنا المكيَّ منه وجدناه يتناول أصولَ الدِّين والدعوة إليها ـ وهي تتلخَّص في الإيمان بالله وبوحدانيته تعالى وبملائكته وكتبه ورُسُله وبنبوَّة محمد ﷺ وباليوم الآخر ـ ثم الأمرَ بمكارم الأخلاق واجتنابِ مساوئها.

والآيات المكيَّة تنحو مَنْحَى التسجيع والتوازن والانتساق في الرَّوِيِّ، وهي ذات جُمَل قصيرة في الغالب؛ إذ يُقصَد بها شدَّةُ التأثير والتقريع، وجَذْبُ النفوس والأخذُ بالألباب، وذلك أكثر ما يتأتى بالجمل القصيرة.

أما المدني فهو تشريع في الأمور التعبديَّة من صلاة وزكاة وصوم وحج، وتشريع في الأمور المدنية، من كلِّ ما يصدر عن الإنسان، سواء في ذلك الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والوطنية والأحوال الشخصية والتعاملية.

والسرُّ في تأخير هذا القسم عن القسم الأول ظاهر، لأنَّ القوانين إنما تُوضَعُ بعد تكوُّن الجماعة واستقرار الحال. وهكذا كان الأمر في الدور المدني، لأنَّ الدور المكيَّ كان دَوْرَ اضطراب في تكوين الدعوة وتقريرها. لذلك كان المكيُّ منه أكثرُه تذكيرٌ وإرشاد، والمدني منه أكثرُه تشريعٌ للعباد. وقد تجري السور المدنية في أغراض السور المكية، لأن أمر المشركين لم ينقطع.

وللسور المكية ثلاث مجاميع:

أما المجموعة الأولى: فذات سور قصيرة بليغة، وأسلوبها خطابيٌّ يتدفَّق قوةً وتأثيراً، بحيث يتملَّك الشعور ويأخذ بالألباب، وفيها أوصاف رائعة للقيامة والبعث،

وتأكيد على التوحيد. ويُنبئ طابع هذه المجموعة بأنها أقدم السور المكيَّة، وتتميَّز بوضوح عن السور المدنية بطابعها.

وفيها سورٌ ذات نَبْرة هادئة، ولعلَّها هي السَّبَّاقة في النزول، إذْ من الطبيعي أن تبدأ الدعوة بهدوء، ثم اشتدَّ أسلوب الآيات المنزلة حيث اشتدَّ العناد من المعارضين. ومن هذه السور الهادئة: سورة «اقرأ».

وفي المجموعة المكية الثانية: تطوَّر الأسلوب، وحَوَت المجموعة براهينَ على صحَّة الدين الجديد، ومناقشات لآراء الخصوم، مع معلومات عن الأنبياء السابقين.

أما المجموعة المكية الثالثة: فتكوِّن جزءاً كبيراً من القرآن، وبعضُ سورها طويلة، وآياتها أطول من آيات المجموعة الأولى والثانية، وفيها لهجةُ الوعظ والإرشاد، وفيها سورٌ تشبه في أسلوبها السُّور المدنية. ويمكن أن يكون نزول هذه السُّور في آخر الدور المكي، فكانت حَلْقَةَ وَصْل بين الدَّوْرَين على سُنَّة التدرُّج.

أما السور المدنية: فتشبه في أسلوبها السور المكيَّة المتأخِّرة، إذ فيها ـ على العموم ـ إسهاب في المواضيع، وفيها حثٌّ على القتال حفظاً لكيان المسلمين من اعتداء المعتدين، وفيها نُصْحٌ وإرشاد، وفيها صَفْعٌ للمنافقين واليهود المعارضين وتفضيحٌ لهم وكشف لمساوئهم، وفيها التشريع الإسلامي بصورة تفصيلية.

ومن أخصِّ مُمَيِّزات القرآن الذي يشعر به كلُّ من يتلوه: أنه على كثرة تَرْداده لا يزداد إلا جِدَّةً وحلاوةً، ويملأ النفس جلالاً ورَوْعة، يَبْعثانها على تقليب النظر في وجوه معانيه، ويُثيران فيها الدهشة والإعجاب، وينكشف للمُتدبِّر من المعاني والمقاصد ما يملك الألباب.

وقد قال السكَّاكيّ[١]: إنَّ إعجاز القرآن يُدرَك ولا يمكن وَصْفُه.

أقول: ولا يُدرِك إعجازَه إدراكاً صحيحاً إلا الذين لهم وقوف تامٌّ على خصائص آداب اللغة، ثم يمارسون القرآن جيداً حتى يفهموه فهماً صحيحاً واسعاً، وبنسبة فَهْمِهم له تظهر لهم درجة إعجازه، ويتفاوت ذلك بدرجة تفاوت الأفهام، إذْ لا يُدرَك الكمالُ إلا بالكمال.

والقرآنُ نسيجُ وَحْدِهِ في ديباجته ونَظْمه وأسلوبه وصُوَر تراكيبه وما فيها من ازدحام المعاني بطُرقٍ مُنوَّعةٍ من الدلالات، كدلالة العبارة والإشارة، والتلميح والاقتضاء، والمنطوق والمفهوم، والحقيقة والمجاز، والتمثيل والقياس، حتى جاء عن عليٍّ رضي الله عنه: إنَّ القرآن ذو وجوه. وفسَّر ذلك العلماء بقولهم: جَمُّ الدلالة، كثيرُ المدارك، كلَّما أمعَنْتَ النظر زادَكَ كثيراً من المفاهيم في النَّظْم الفصيح، والسَّرْد العَذْب، والمعنى المترابط، والنَّسَق المتسلسل، واللفظ المختار، والتعبير المُصَوِّر، والتصوير المشخِّص، والتخييل المجسِّم، إلى غير ذلك من البدائع، لإراءة المعاني وأدائها، لم تخطر ببال، ولا لبليغ منها منال[٢].

---

(١) سراج الدين، أبو يعقوب، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكّاكي الخوارزمي (٥٥٥-٦٢٦هـ) عالم بالعربية والأدب، له: «مفتاح العلوم»، و«رسالة في علم المناظرة». ينظر: «الأعلام» للزركلي (٨: ٢٢٢).

(٢) وإذا علمتَ هذه الخصائص تبيَّن لك أن ترجمة القرآن إلى لغة أخرى محال أبداً، ويؤيد ذلك أن الله سبحانه تحدّىٰ العرب بأن يأتوا بسورة من مثله، ويصدق هذا علىٰ أقصر سورة منه مثل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، ومثل: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، فلم يتصدَّ أحد إلى ذلك، فإذا كان هذا شأنه مع العربية، فكيف هو مع اللغة الأجنبية؟! إن ذلك من المستحيلات، لهذا تحتَّم على البشر أن يتعلَّموا اللغة العربية إلى جانب لغتهم، ليفهموا هذا القرآن الذي نزل شريعةً للعالمين، ناسخاً لكل ما تقدمه من الشرائع أجمعين، كما جاء ذلك في كثير من آياته، مثل =

وكذلك هو نَسيجُ وَحْدِهِ في ترتيبه، ومَنْ يعرف أساليب العرب الراقية ويتلوهُ بتدبُّر وإمعان، يُدرك بوضوح أنه متسلسل مُتَتابع متلازم حسبما يقتضيه المنطق السليم، وتوحيه البلاغة العالية، فهو مُتَتابع تَتابُعَ الدُّرِّ النظيم في العِقدِ الفخيم.

وهو في بعض ذلك مِثْلُ نطاق أو منطقة، نُظِمَ عليها مجموعاتٌ على شكل فِقْرات مكوَّنة بأنواع من الأحجار الكريمة، متناسقة تناسقاً بديعاً. فإذا أمعنتَ النظر في سرِّ ذلك التناسق المعجِز، رأيتَ المناسبة مرعيَّة في جوهرتَيْن من كلِّ فِقرَتَين متَّصلتَيْن، وبقيةُ الجواهر فيهما مستقلةٌ بذاتها.

لذلك قد تأتي آية في سياق تظهر ـ لأول وَهْلة ـ غريبةً في هذا السياق، فإذا أمعنتَ النظر ودقَّـقتَ الفِكر، أدركتَ لها مناسبةً دقيقةً بوجه واحد من وجوهها، أو في جزء واحد من أجزاء معانيها حتى يظهر لك جليّاً، وتُدرِك أنه قد سلك ألطف المسالك في رعاية المناسبات والموافقات.

لذلك قال الإمام الرازي(١): إنَّ مَن آتاه الله قريحةً قويَّةً ونصيباً وافياً من العلوم الإلهيَّة، عرف أنه لا ترتيب أحسَنَ ولا أكمَلَ من ترتيب آيات القرآن.

= قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، فالبشر كلُّهم مكلَّفون بتعلُّم اللغة العربية، وقد جرى العمل على ذلك، فاستنبطت علوم اللغة العربية من نَحْو وصَرْف وأدب ولغة وعلوم بلاغة بأنواعها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، وشُيِّدت المدارس الضخمة في سائر المدن، وأُوقف عليها الأوقاف، ورُتِّب لها المرتبات، وما ذلك كلُّه إلا لنشر العربية العالمية. (المؤلف).

(١) هو فخر الدين، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري (٥٤٤-٦٠٦هـ)، الإمام المفسِّر، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، له: تفسير القرآن المسمىٰ «مفاتيح الغيب»، و«معالم أصول الدين»، و«المطالب العالية». ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٢١: ٥٠٠-٥٠١). وانظر كلامه في «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٥٦٢).

والخلاصة: أنَّ القرآن مُحكَمُ الاتِّصال والترابط، متينُ النَّسْج والسَّـرْد، متآلفُ البدايات والنهايات، يقوم بين جُمَلِه وآيِهِ وسُوَرِه تناسُبٌ بارع وارتباطٌ رصين وائتلاف بديع.

وترتيبُ آياته وسوره توقيفيٌّ على وَفْق ما في اللوح المحفوظ والله أعلم، لم ينقص منه حرف واحد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وكلُّ آية إما مكمِّلةٌ لـما قبلها، أو مستقلةٌ متناسبةٌ معها، ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١].

* * *

المقدِّمة الثانية

في تفصيل خصائص القرآن في أساليبه ومفرداته وتراكيبه، من الحذف والإيجاز، وأنواع الإعجاز، وكالجمع بين الموضوعات المتفرِّقة، والتفريق بين المتَّحدة، لدواعٍ بلاغية، ومقتضيات منطقية أو خطابية، وكالترديد والتكرار، والإظهار في موضع الإضمار، لملاحظات عالية من المعاني والأغراض، إلى غير ذلك من الأمور التي لا يتناهى إعجابُها، ولا يَنفَدُ عَبابُها.

قال الأدباء: إنَّ مراتبَ الكلام تتفاوت في البلاغة، بحسب تفاوتها في الألفاظ والمعاني الأُوَل، وفي التراكيب والصُّوَر المبنية في الأكثر على المدلولات الالتزامية التي منها البَيِّنُ وغيرُ البَيِّن، وبحسب ما فيها من حذفٍ في بعض التراكيب استناداً على قرائنَ ظاهرةٍ أو خفيَّة، حاليَّةٍ أو مقاليَّة، وما فيها من إهمال بعض المقدِّمات اعتماداً على استنتاجها من غيرها، وإغفال بعض العلل استناداً على قرائنَ تتفاوت الأفهامُ في إدراكها. وهذه كلُّها من سنن البلاغة العالية، لا تخفى على مَنْ يعرف الدقائق البيانية من معالجة كلام العرب وآدابه، وخصائص بيانه، ودقائق تبيانه.

قالوا: وإنَّ القرآنَ العظيم المُعجِزَ بألفاظه ومعانيه، وتراكيبه وأساليبه، وتصريحاته وإشاراته، وحَذْفه وإيجازه، وحقيقته ومجازه، قد أخذ قسطاً عظيماً من هذه البلاغة العالية، وتوفَّرت فيه أنواعها إلى حدٍّ لا يتناهى، ولا سيَّما في ضروب إيجازه التي انفرد بها[1]،

---

(١) يقول الأصفهاني ما ملخَّصه: إنَّ أكثر المفسرين يقصِّرون في إدراك معاني القرآن لقلَّة وقوفهم =

وقد أنزله سبحانه في عَصْرِ منتهى الفصاحة عند العرب، وتحدَّى البلغاءَ بمُعجِزِ بلاغته، فعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، بل عن آيـةٍ من مثله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وكيف يأتون بمثله، على ما فيه من تعاليم رُوعيت فيها جميع عناصر السعادة في الدارين، بمقتضى علم الله العليم الحكيم، وعلى ما فيه من أعظم وأمثل تشريع دينيٍّ ومدنيٍّ وسياسيٍّ، وحِكَم ومواعظ وآداب، وأنباء غيبيَّة عن الماضي والمستقبل، وأنظمة عالية سديدة لتربية الأجسام والنفوس والعقول، وإصلاح الأخلاق وأحوال الاجتماع، وعلى ما فيه من بيان واضح عن الحياة الأخرى، مُؤيَّد بالبراهين القاطعة والحُجَج الدامغة. وهو يُعبِّر عن كلِّ ذلك بتراكيب بديعة، وأساليب عجيبة، وبلاغةٍ حاكمة على العقول والألباب، وفصاحة مُسْتَعْذَبة في الأذواق والأسماع.

ولهذه الخصائص السامية البعيدة المرام، كان الناس في إدراك دقائـقه متفاوتي الأفهام، قال قتادة ـ أحد التابعين المتخصِّصين بعلم التفسير ـ: ما من آية في القرآن إلا وقد سمعتُ فيها أشياء.

أقول: وذلك لأنَّ كلَّ آية منه كلَّما أمعنتَ فيها الفكر، ودقَّقتَ النظر، وجدتَها منبعاً فيَّاضاً لِـمَعانٍ لا تُحصى، قد ازدحمت فيها ازدحامَ النجوم من غير ارتباك، تدلُّ على بعضها بالعبارة، وبعضها بالإشارة، وبعضها بالمفهوم، وبعضها باللزوم، يزيدك نظمُه فهماً إذا ما زدتَه نظراً، فترى نفسك ضعيفاً كلَّ الضعف تجاه استقصاء ما فيها

= على ما اختصَّت به اللغة العربية من أساليب الحذف والإيجاز، والتعمُّق في المجاز، والاستعارات الدقيقة، والإشارات الخفية، واللمحات البعيدة، مما لا يوجد في غير هذه اللغة، لا سيَّما وقد امتاز القرآن العظيم بنوع ممتاز من ذلك لا يشبه غيره من الكلام، فضلاً عما فيه من اللفظ اليسير المتضمن للمعنى الكثير. (المؤلف).

بالتحليل والبيان، فتغرف منها غرفةً ترويك، وتـترك منبعها متفجِّراً لا يَنفَدُ ولا يقلُّ نميره.

قال صاحب «المنار» ما مختصره: وأسلوبُ القرآن هو البحر الخِضَمّ، والقاموس المحيط الأعظم، يَمْزِج فنونَ الكلام، وينظِّم مقاصد الهداية والإرشاد ـ على اختلاف أنواعها وتبايُنِ موضوعاتها ـ مَزْجاً متلائماً ونظماً متناسقاً متناسباً، موافقاً للذوق السليم، مطابقاً لقواعد البلاغة العالية. فالعقائدُ الإلهية، والدلائلُ العلمية العقلية، والأخبارُ الغيبية، والسننُ الكونية والاجتماعية، والمواعظ الأخلاقية والأدبية، وأحكام العبادات والمعاملات القضائية والسياسية، وقصص الأنبياء، ووصفُ الأرض والسماء، وما فيهما من جمادات وأحياء، وما بينهمـا من هواء وهباء، تراه كلَّه في السورة الواحدة، وترى الكثير منه في آية واحدة، بعبارة بديعة ساميةِ التركيب. ومواضيعه ينتقل فيها العقل من فائدة إلى فائدة، وينقلب بها القلب من موعظة إلى موعظة، مع منتهى الإحكام والمناسبة، لا تملُّ تلاوته، ولا تقلُّ عذوبته، بذلك النظم الذي ليس بشعر ولا بنثر مسجوع ولا كلام مُرسَل، بل هو نظمٌ خاصٌّ مخالف لسائر أساليب الكلام العربي المنثور والمنظوم. انتهى كلام «المنار»[١].

أقول: فالقرآن دعاوى براهينُها فيها، وإرشاداتٌ دعائمُها منها، ونتائجُ مقدِّماتُها سابقةٌ أو لاحقةٌ أو ملتئمةٌ معها، فجَلَّ مَنْ هذا كلامُه، وعظُمَ مَنْ هذا إرشادُه وإنعامُه، وحُقَّ بليلة القدر أن تتباهى بهذا الأمر العظيم.

وقد وضَعْتُ عدّةَ موادَّ تشتمل كلٌّ منها على فقرات، بيَّنتُ فيها بعض ما تقدَّم من خصائص القرآن العظيم، أخذتها مما جاء عن المتكلِّمين في خصائص القرآن، وأضفتُ

---

(١) تفسير «المنار» (٩: ٢٩٨).

إليها أشياء استنبطتُها من التدبُّر في أساليبه ونظمه، وصُور تراكيبه وبلاغته، أثناء كتابتي للتفسير، فتدبَّرْ هذه الموادَّ وتفكَّرْ في خصائص هذا القرآن العظيم؛ لتزداد له فهماً وبه علماً، فإنه لم يأتِ على طريقة المنشِئين والمؤلِّفين الذين يخصُّون كلَّ طائفة من الكلام بموضوع مُعيَّن ويُسمُّونه فَصْلاً وباباً، ولكن يُبْرِزُ أغراضَه ومقاصدَه بصُور مختلفة مِن الأساليب، وألوان بارعة مِن التراكيب. وكلَّما لاحت المناسبة وتهيَّأ السياق لذِكرِ شيء من تلك الأغراض، أو الاحتجاج عليها، أو الدفاع عنها، جاء به يجذبُ إليه الأذهانَ، وينبِّه خطراتِ القلوب إلى ذلك البرهانِ، مع مراعاة التناسق وحفظ الأسلوب.

وهاكَ تفصيلَ هذه المواد، وربما يظهر لك فيها لأوّلِ وَهْلة أن بعضها مكرَّر، ولكنك إذا أمعنتَ النظر ظهر لك أنَّ في المكرَّر وصفاً زائداً على ما يشابهه في المادة الأخرى.

* * *

المادة الأولى

أ- من خصائص القرآن: **تنويع المواضيع وتلوينها بعبارات مختلفة وأساليب متنوعة،** ويكرِّر المعنى الواحد بصور متعدِّدة، كلُّ صورة تتناسب مع السياق الذي هي فيه، فيتجلَّى المقصد الواحد في أشكال متلونة، كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر: ٢٣] أي: متكرِّر المواضيع، وذلك لأنَّ جَدَلَ القرآن يتمشَّى على المنطق الوجداني المؤدِّي إلى الإقناع والشعور بالحق، دون المنطق الذهني المرتبك العسير. والإقناعُ والتأثير على النفوس لا يكون إلا بمثل هذه الطريقة من التكرير.

أما ترى الحَبْلَ بتكرارِهِ في الحَجَرِ الصمَّاءِ قد أثَّرا[1]

ب- **وينتقل من قضيَّة إلى أخرى قريبة منها أو مباينةٍ لها متقابلةٍ معها تقابلَ الإيجاب والسَّلب،** لكَوْن الجميع في سياق موضوع واحد.

ج- **وينتقل من سياق إلى سياق، ويدمج موضوعاً في موضوع، ويستطرد من بحث إلى بحث آخر،** لمناسبات تَعْرِض خَفِيَّة أو جَلِيَّة. وهكذا يُلوِّن المواضيعَ ويُنوِّعها، ويغيِّر الأساليب ويُبدِّلها، ويعلِّق ويُحقِّق، ويُحلِّل ويُعلِّل، ويستطرد ويَسْتَتْبع، في جُمل قليلة أو كثيرة، مع بلاغة عالية، وفصاحة مُلِذَّة، وفي كلِّ ذلك تناسبٌ وانسجام.

د- **ويَفْصِل بين آيات الموضوع الواحد، بآيات موضوع آخر؛** لداعٍ من الدواعي، كتجديد الذِّكرى لموضوع سابق، وكالعظة والعبرة والتأثير على النفس، وقد يكون ذلك

---

(١) ذكر صدر البيت ابنُ أبي حجلة في «ديوان الصبابة» ص٢٥.

للاحتراس من تسلسل الموضوع الواحد إلى حدِّ الـمَلَل والسَّأَم، لأن التنويع والتقطيع بالمناسبات الـمُلِذّة يُنشِّط السامع والقارئ، ويجدِّد رغبته، وقد يكون ذلك للتأييد والتقرير إلى أمثال ذلك من دواعي البلاغة.

هـ- ويعيد مفردات موضوع سابق في موضوع لاحق؛ استمراراً لذكرى الموضوع المنصرم، وإبقاءً له في الذهن، أو إعادةً للتنبيه عليه وتجديداً للذكرى به إذا كان قد بَعُدَ في السياق، فيُعيدُه اهتماماً بشأنه، لأنه مصدرُ عِظَةٍ وعبرة وإرشاد عظام.

و- وهكذا يعود إلى مباحث المقصد الواحد، المرَّة بعد المرَّة، مع التفنُّن في العبارة، والتنوُّع في صُور البيان، ولا سيَّما في دحض الشِّرك وإقامة الأدلة على التوحيد، فإنه موضوع يتكرَّر كثيراً في القرآن، إذا هو أهم موضوع فيه، فتارةً يوجز وأخرى يُطْنِب، وتارةً يُرسِلُ وأخرى يُدَلِّل، تارةً بدليل واحد وأخرى بجملة أدلة، وتارةً يضرب لها الأمثال وأخرى يسوق فيها القصص، وتارةً يقرنها بالوعد وأخرى بالوعيد أو بهما معاً، إلى أمثال ذلك.

وهكذا يعود في كلِّ مناسبة من مناسبات البحث، وفي كل عطفة من عطفاته، إلى الكلام في الشيء الذي يريد أن يبحث عنه بحثاً مشبعاً. وقد يكرِّر ذلك بمختلف الأساليب، فتارةً يذكره بأسلوب ترغيبي، وتارةً يذكره بأسلوبٍ ترهيبيٍّ؛ إذ بعض النفوس يُصلحها الترغيب، وبعضها يُصلحها الترهيب، وبعضها يُصلحها الأمران معاً، فينوِّع التأثيرَ على النفس والشعور، وكلُّه من البلاغة العالية في إفادة تقرير الشيء وتمكينه في النفس.

ففي القرآن العظيم حُسْنُ الانسجام ودقّة الالتحام في المعاني المتباينة والأغراض المتفرِّقة، بما لا يَتَناهى من ألوان الأساليب، وصُور الإيجاز، وخصائص التراكيب المعجزة البعيدة المنال، التي ما حاك على منوالها بليغ، ولم تَخْطر له ببال.

المادة الثانية

أ ـ إشباع البحث على طريقة الإلزام والتبصير في أجزاء الموضوع المهم، الذي يُريد إشباعَ الكلام فيه، وتقريرَه تقريراً راسخاً واضحاً، كالتوحيد أو البعث مثلاً، فإنه يبتدئ بالإنكار على المشركين، ثم يلفِتُ نظرَهم إلى الأدلة المبثوثة في هذا الكون على قدرة الله العظيمة، إيماءً إلى أنَّ البعث في جانبها هيِّن، أو إلى اختصاصه بأفعال الألوهية[(١)] واستحقاقه وحده لأن يُعبَد، إذْ لا يشاركه في تلك الأفعال مُشارك، وربما تكون الأدلة مسبوكةً على التمنُّن بنِعَمِه تعالى عليهم، إنكاراً لكفرانهم لتلك النِّعم التي كان يجب عليهم أن يعرفوها له تعالى ويشكروها، فيكون مِثْلُ هذا التركيبِ: صورتُه استدلال، ومادَّتُه تأنيب. وبعد ذلك يأتي بالنتيجة ـ وهي إثبات التوحيد أو الحشر ـ بعبارة مسبوكةٍ على مَعانٍ أخرى تحيط بها إحاطة الهالة بالقمر، والأكمام بالثمر. وقد يُوسِّط النتيجة بين الأدلة المتعدِّدة الـمُنتِجة لها، إذا اقتضى تعجيل النتيجة والمبادرة بها. ثم يعود إلى تكميل الأدلة؛ ليدعم بها تلك النتيجة المعجَّلة، كما أسَّس لها قبل ذِكرِها، وتكون الدعوى متحصِّنة بالأدلة زيادةً في التقرير والإثبات.

ب ـ وقد يعيد التصريح بالنتيجة التي هي الدعوى مرّةً ثانية بلون آخر من التعبير مسبوكٍ على معانٍ غير ما سُبكت عليه في المرة الأولى، وقد يعود إلى الإنكار الذي صَدَّر

---

(١) الصواب أن يقول: الإلهيّة، لأنها مصدر صناعي. وقد تكرر من المؤلف التعبير عن «الإلهيَّـة» بـ«الألوهيّة»، والصواب الأول.

به البحث وبناه عليه. وهكذا يُبدئ ويُعيد حتى يغمرَ تلك الدعوى ـ المطلوبَ إثباتُها ـ التصديقُ والوضوح، وتنجلي كالشمس في رائعة النهار.

ج ـ **وقد يستطرد إلى أشياء لها مَسَاسٌ في تلك الدعوى زيادةً في التقرير، تجد مِثْلَ** هذا الأسلوب كثيراً في القرآن العظيم، فتنبَّه ولا تَتَوهَّمنَّ أنَّ حلقاتِهِ غير متناسقة أو غير متسلسلة أو متكرِّرة بالمعنى الذي نفهمه من التكرار المخلِّ بالبلاغة، فليست أساليبه كأساليبنا المتعارفة.

د ـ **وقد قال الإمام الرازي**[1]: إنّ مَنْ آتاه الله قريحةً قوية، ونصيباً[2] وافياً من العلوم والمعارف الإلهية، عرف أنه لا ترتيبَ أحسنُ ولا أكملُ من ترتيب آيات القرآن.

❋ ❋ ❋

(١) في «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٥٦٢).

(٢) في «مفاتيح الغيب»: ونصاباً.

المادة الثالثة

أ ـ **إنّ القرآن العظيم يَمْزج آيات الأحكام بآيات المواعظ والعِبَـرِ والتوحيد والحشر؛** لِيُقَرِّر أمر الحكم ويحمل النفوس على القيام به، وليكون كلّ منها مُؤيِّداً للآخر.

ب ـ **ويمزج ضروب الأحكام بعضها ببعض، ويختم كلَّ حكم وعِدَّةَ أحكام بذِكرِ الله تعالى، والأمر بتقواه، والتذكير بعلمه سبحانه وتعالى بحال العبد، إلى أمثال ذلك،** حَمْلاً على التمسُّك بها وتحذيراً وإنذاراً.

ج ـ **وقد يختمُ الآيةَ بفاصلةٍ تُؤيِّد مضمونَ ما قبلها،** على مثل هذه الطريقة، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وأمثال ذلك، فتكون كالبرهان والتقرير لمضمون ما يسبقها من المقاصد والأغراض بطريقة التذكير بأسماء الله الحسنى وآثارها الملائمة للسياق.

د ـ **وقد تأتي الفواصل للحَمْل على المقرَّرات السابقة والحثِّ على التَّمسُّك بها** إيجاباً أو سلباً، أمراً أو نهياً، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ[1] وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وكقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

---

(١) إذا نظرنا إلى جميع الأوامر والنواهي في القرآن المبين، وإلى جميع النداءات الإلهيَّة للمؤمنين، رأيناها كلَّها تضع كلمة التقوى أو إحدى مشتقاتها تمهيداً أو تذييلاً، لأنها الغاية من كلِّ ذلك والباعث عليه. (المؤلف).

هـ ـ وقد يطوي معانيَ ومَقاصِدَ يكتفي بالإشارة إليها بخواتم الآيات والتذكير بأسمائه الحسنى وآثارها.

و ـ وقد يأتي بالجملة يُنْهي بها السياق السابق، ويُمهِّد بها للسياق اللاحق معاً، أو يؤيِّد بها حكماً سابقاً، ويمهِّد بها لحكم لاحق، على طريقة التأييد أيضاً.

ز ـ وكما يمزج بين ضروب الأحكام، يفرِّق أحياناً بين أجزاء الكلام عن الحكم الواحد، بما يُهيِّئ النفوسَ لِقَبوله، أو يُجدِّد الذكرى لحكم سابق يقتضي المقامُ التذكيرَ به، وأمثال ذلك.

❊ ❊ ❊

المادة الرابعة

أ ـ **يُخاطبُ القرآنُ العقولَ والأفكارَ**، ويدعوها إلى إعمال النظر والتفكير، مثل: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، إلى أمثال ذلك.

وبما أنَّ أسلوب القرآن خطابيّ، كان من خصائصه: التعاقبُ على الغرض الواحد بألوان من الأساليب والتراكيب، والتعابير والتقارير، والتقديم والتأخير، والإبطاء والتعجيل، إلى أمثال ذلك من مُقتَضيات الأحوال؛ لتقرير الغرض في النفوس، وتثبيته في العقول بأعلى طرق التأثير من البلاغة العالية، ولا سيَّما إذا كان الموضوع توحيد الله وانفراده باستحقاق الألوهيّة واختصاصه بأفعال الربوبيّة.

وكنتَ تراه أحياناً يُبرهِنُ على التوحيد والبعث والرسالة بأسلوب من أساليب البراهين[1] التي يتبعها في الإثبات، ثم يُردِفُ الكلامَ بأسلوب آخر من البراهين لإثبات

---

(١) يتّبع القرآن في إثبات مدَّعَياته والحَمْل على مقرَّراته طرقاً ثلاثة:

الأول: الدليل الإقناعي، مثل نفي الإمكانيات والقُدَر عما يعبدون من دون الله وإثباتها له سبحانه بأوسع معانيها، والألوهية مبنية على النفع والقدرة والتدبير. ومثل إثبات الحشر، بمقايسات النظير في أعماله تعالى وآثاره العظيمة التي تتجلّى فيها قدرته العلية، ولا نشعر بها؛ لِـمَا لنا معها من ائتلاف، كإنبات الحبِّ وإعادة الربيع كل سنة، وكإيجادنا من النطفة. =

ذلك، لأن الأدلة إذا تَضافرت على مطلوب واحد، كان لها وَقْعٌ عظيم في النفوس وتأثير عميق.

فالمُخاطَب إذا لم يَعقِل الدليلَ الأول أو خفي عليه أسلوبُه، رأى في الدليل الثاني ما يُنير له الطريق، ويُقنعه لقَبول الحق بكلِّ ارتياح، لتوفّر دواعي الإثبات والإقناع.

لذلك تَـرَى الخطباء الـمُفْلِقين، والكُـتَّاب الماهرين، والعلماء المُبَرِّزين، يُنوِّعون أساليب حِجَاجهم، ويُكثِرون البراهين في إثبات مطالبهم، ليكون الكلامُ أدعى إلى الإقناع، وأقرَبَ إلى الاقتـناع، لأن أشدَّ ما يفعل في النفوس لإثبات التعاليم، وتقرير الإرشادات والمواضيع، إنما هو التكرار مع تنوُّع الأساليب والتفنُّن في التراكيب.

ثم اعلم أنّ دلائل القرآن في الأغلب لا تتجاوز **دليل القدرة ودليل الـمُنَّة**[1]، يُدلِّل بهما على اختصاص الألوهيّة بالله تعالى وقدرته على البعث والنشور.

ووجه الاستدلال: أنَّ الذي قد اختصَّ بإيجاد هذه الموجودات، واختصَّ بفَيْض النِّعَم على المخلوقات، هو الذي يستحقُّ وحده أن يُعبَدَ؛ لاختصاص أفعال الألوهيَّة وصفاتها به تعالى، دون أن يُشاركه في ذلك شريك أو يشابهه نظير. وإنَّ الذي يقدر على إيجاد هذه الموجودات العظيمة البديعة الصُّنع والإتقان، كيف يعجز عن إعادة الإنسان

= والثاني: الإغراء الوجداني، وذلك بتعداد النِّعَم التي أسداها لبني الإنسان في الأنفس والآفاق، ويلفت نظرهم إليها.

والثالث: البرهان المنطقي، ومنه المنع للمُفْتريات الشركيَّة، وتحدِّيهم عليها بطلب الدليل العقلي والنقلي، كقوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]، وتراه يمزج الأدلـة العقلية باللفتات العاطفية، ويُوجِّه العقول والعواطف معاً لهداية الإنسان وخير الإنسانية. (المؤلف).

(١) جمع: مُنَن، مُنّـةُ الإنسان: قُوَّتُه، ومنه قولهم: ليسَ لقَلْبِه مُنّةٌ.

بعد الموت إلى سيرته الأولى، ويبعثه إلى الحشر والحساب ثمَّ النعيم أو العذاب؟!

ب ـ وكان من أساليبه: **أنه يقرن الترغيب بالترهيب، والإنذار بالتبشير، والوعد بالوعيد**، وذلك من مُقْتضيات الحكمة في الإرشاد، ومعالجة نفوس العباد، ومن فضل الله الكبير في الاستمالة والتقريب، فهو لا يُبيِّن حال الكافر إلا ويُعْقِبُه بحال المؤمن، ولا يذكر النار وأحوالها إلا ويُعقبُها بالجَنَّة وأحوالها، والعكس، يبدأ بأحدهما لمناسبة السياق، ويُردِفُه بالآخر للتعريض بحرمان الكافر من ذلك النعيم المقيم الذي خصَّ به المؤمن الكريم، وإنما يفعل هذا تنبيهاً للكافر إلى ذلك الأمر العظيم، فإن الإنسان مطبوعٌ على حبِّ الخير لنفسه والرغبة في إبعاد السوء عنه، وإذا عَلِمَ أن أحداً فاز أو سيفوز بالخير دونه، تحرَّكت في نفسه عواملُ الغيرة والتنافس، وكذلك إذا شَعَر بأنَّ أحداً سينجو من الشرِّ دونه، وليزيد في التنبيه والإيقاظ، ويَقرِنَ بين أحوال الدنيا والآخرة في وَمْضة خاطفة، ويجمع بين مشاهد النعيم والترغيب فيها، ومشاهد العذاب والترهيب منها في سياق واحد.

ولا شك أنّ للموازنة بين النوعين، والمقارنة بين الصِّنفين، تأثيراً عظيماً في الترهيب، فما أعظَمَ مِثلَ هذا السياق في الوعظ والإرشاد.

وكذلك لا يذكر عذاب الدنيا إلا ويَقْرنه بعذاب الآخرة جَمْعاً بين العذابين، فينقلهم من صورة شقاء الدنيا، إلى ما يتوعَّدهم به في الآخرة، ليجيء التهديد؛ وصورةُ الموقف الرهيب لم تَبرَح الأذهان.

وكذلك جَرَت سُنَّة القرآن عند ذكر كلمة «مؤمنين» أو ما يشابهها ـ مثل «متَّقين» أو «مُخْبتين» ـ أن يُرْدِفَها بجملة من الصفات تُناسِبُ المقام، ويَـتَحقَّق بها مدلول تلك الكلمة أو مفهوم ذلك الكلام.

ج ـ وكان من أساليبه: **أن يذكر الصلاة في السِّياق المتضمِّن لمعارضة المشركين وعنادهم، تثبيتاً للنبيِّ ﷺ وللمؤمنين، فيأمرهم بها أو بشيء من متعلَّقاتها تذكيراً بها** لتكون علاجاً للنفوس ودواءً للقلوب، لأنَّ من يقيم الصلاة إقامةً صحيحةً، فيُعوِّد بها النفسَ على الشعور بالله سبحانه ووعدِه ووعيدِه، يَسْتَسهِلُ كلَّ صعب، ويستلين كلَّ شديد.

وقد يأتي الكلامُ عليها في موضع الحثِّ والتمسُّك بأحكام سابقة، أو وعظٍ وإرشاد، على نهجه في إتباع الأحكام بما يحمل عليها من أنواع الأساليب والتراكيب في هذه الغاية، لأنَّ مَنْ حافظ على الصَّلوات بصورتها الصحيحة فهو جديرٌ بالوقوف عند حدود الله والعمل بتشريعه. فتكون صورة الكلام عنها حثاً على التمسُّك بما سبق من أحكام أو إرشاد، أو تثبيتاً له ﷺ وللمؤمنين تجاه ما يلحقهم من جانب المعارضين من مقاومة وعناد، على طريقة القرآن في ازدحام المعاني والأغراض في الجملة الواحدة والتركيب المزدوج.

وقد يستطرد بذكر الصَّلاة ويقرنها بالزكاة اهتماماً بشأنها، وكذلك يفعل بالأصول الثلاثة الدينية: التوحيد والبعث والرسالة، يستطرد بها فتأتي في طيَّات البحوث وأثنائها لأدنى مناسبة، وتأتي مجموعةً ومتفرِّقة، وقد يتبعها الكلام عن الصالحات.

د ـ وكان من أساليبه: **أن يذكرَ الشيء بطريقة إيجابيّة، ويُردِفَ الكلام عنه بطريقة سلبيّـة، وبالعكس**، ليكون أكثر انطباعاً في النفس، وذلك من سَنن البلاغة العالية في الأسلوب الخطابي، التي يؤيِّـدها عِلمُ النفس، والتي هي من أبلغ أساليب الإرشاد والوعظ، جَرْياً على سنَّة القرآن في توضيح البيان وتقرير الغرض في النفوس.

هـ ـ ومن ذلك: **أن يُردِفَ الأمر بالشيء بالنهي عن ضدِّه، والعكس**، تأييداً للفكر

وتقريراً له. ويُعقِبَ النهجَ الإنكاريَّ التهديديَّ بالأمرِ القطعيِّ، والعكس، والاستلزامَ الضمنيَّ بالتصريح، والنَّهجَ الانتقاديَّ والتقريعيَّ بالنهجِ التقريريِّ والإرشاديّ.

وكذلك يُردِفُ النفيَ أو النهيَ بالإنكار، والعكس، جَرْياً على طريقة الأسلوب الخطابي في مثل ذلك، لأنَّ تقرير المعنى بطريقة سَلْب ضدِّه أبلغُ في البيان.

و ـ وكان من أساليبه: **التصريحُ بما فُهِمَ ضمناً من جملة أو جمل سابقة**، والتحقيقُ والتقريرُ بعد التمهيدِ له، والتصريحُ بعد التنبيهِ، والتفصيلُ بعد الإجمال. وقد يفصِّل ثم يُجمِل أو يُفَذْلِك البحثَ بعد انتهائه، وقد يُمهِّد للبحث اللاحق بالإجمال للبحث السابق.

ز ـ **وقد يُلوِّن الخطاب**، فينتقل من خطاب عام إلى خطاب خاص، وبالعكس، أو من خطاب أناس إلى خطاب آخرين، أو من التَّحدُّث عن أُناس إلى التَّحدُّث عن آخرين بينهما ارتباط في الموضوع، يعني: بينما يكون الكلامُ جارياً في شيء يُجريه في آخرَ مُتعلِّق به أو مُناسِبٍ له، وذلك بحسب مقتضيات الأحوال أو مُوجبات السياق.

وكذلك ينتقل من الخطاب إلى الغيبة لأغراض بلاغيَّة، كالتحقير أو التعظيم، ومن الغيبة إلى الخطاب لأغراض كذلك أو التنقيص أو التكريم.

وقد يَتَفنَّن في طُرق الإعراب في السياق الخاص بموضوع واحد، فيأتي بالمرفوع في سياق العطف على المنصوب مثلاً، (كما سيأتي بيانه مفصَّلاً في الفقرة (هـ) من المقدِّمة العاشرة)، وذلك للتنبيه إلى أمر أو معنى خاص فيه.

* * *

المادة الخامسة

أ ـ قالوا: ولـمّا كانت الأحكام العمليَّة إنما تُشرَعُ لتقوية الإيمان وإصلاح النفس، كان من أساليب القرآن: **أن يُبيِّن مع كلِّ حكم حكمةَ تشريعِهِ وفائدتَه في تقوية الإيمان.** يُبيِّن ذلك صريحاً أو ضمناً، وقد يمزج الكلام فيه بما يُذكِّر بعظمة الله، ويُعين على مراقبته والتوجُّه إليه، ويُثبِّت به الإيمان.

ب ـ **وأحياناً يمزج تلك الأحكام العمليّـة بما يُرغِّب بالأعمال الصالحة** وينشِّط عليها، ويُنفِّر من التباطؤ عنها، كذكر الجنة والنار وما أعدَّه للمؤمنين والكفار.

ج ـ وكما يُردِفُ الأحكام بما ذكر، **يُردِفُ الإرشاد والموعظة أيضاً ببيان عظمته وسلطانه في مخلوقاته** في أرضه وسماواته، وبالتذكير بالرجوع إليه تعالى والتحذير منه، أو يُردِفُه بقَصَص بعض الأمم الذين قصَّروا في اتِّباع أوامره ونواهيه، أو تطبيق أحكامه، فأصابهم ما أصابهم، ليحمل النفوس على الاتِّعاظ.

د ـ **وقد يُخَلِّل الكلام عن هذه الأحكام بآياتٍ كثيرة في الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب**، ويخلط بها آياتٍ دالّةً على كبريائه وجلالِ قدرته وعَظَمة إلـهيَّته، ثم يعود إلى سَرْد الأحكام، ويختم الكلام بمـا يحمل على التمسُّك بها من عبارات الترغيب والترهيب، والتحريض والتحذير، إلى أمثـال ذلك. وكثيراً ما يأتي بالجمل المعترضة، وربمـا كان الاعتراض بموضوع كامل يأتي به أثناء موضوع آخر، كالوصية بالوالدين أثناء موعظة لقمانَ لابنه.

وللجمل والآيات المعترضة في القرآن حِكَمٌ وفوائدُ يقتضيها تلوينُ الخطاب، كتنبيه الأذهان لأمر تهيّأ مكانُه في السياق، وتجديد النشاط للموضوع الأصلي، بالانتقال من موضوع إلى موضوع آخر، وكالتشويق إلى سمـاع بقيَّة الموضوع الأصلي، وأمثال ذلك مما تقتضيه البلاغة العالية.

* * *

المادة السادسة

أ ـ قالوا: ومن أساليب القرآن: **أسلوبُ التداخل على طريقة الالتفات وتوزيع الخطاب**، وأكثر ما يكون هذا الأسلوب في البحث عن المشركين والمؤمنين، على طريقة مَنْ يخاطب عَبْدَين أحدهما مطيع رشيد، والآخر سفيه عنيد، يسلك مع الأول مَسْلك الوعد والترغيب، ويَسْلك مع الثاني مسلك الوعيد والترهيب، ويلفت الخطاب اقتضاباً إلى هذا تارةً وإلى ذاك أخرى، ويجعل في الكلام عن كلٍّ واحد منهما ما يتعلَّق بالثاني، فيكون في الكلام عن الأول زيادةُ إرشاد للرشيد، وفيه زَجْرٌ للسفيه العنيد، ويكون في الكلام عن الثاني تبكيتٌ له وتهديد، يَتَبَصَّر به الأول ويستفيد. وهكذا يتناوب الكلامُ عنهما حتى يتمَّ البحث وينتقل الأسلوب إلى غيرهما. لذلك ترى المعاني والأغراض في مثل هذا الأسلوب لأول وَهْلة غيرَ متناسقة. ولكنك إذا ما أمعنتَ النظر وأعملتَ الفكر؛ ظهر لك التناسقُ بأعلى صُوَرِهِ وأكمل وجوهه.

ب ـ ومن سَنَن القرآن: **أن يُوجِّه الخطابَ للمؤمنين والمسلمين بصيغة الجمع المذكَّر على طريقة التغليب**، فيريد به المذكرَ والمؤنَّثَ معاً، وذلك من خصائص اللغة. فكلُّ ما فُرِضَ على المسلمين، أو حُظِر عليهم، أو أُبيح لهم، أو طُلب منهم، أو وُعدوا به من النعيم في الآخرة، فهو يشمل الرجلَ والمرأةَ معاً على السواء، ولا فَـرْقَ في أن تكون تلك الواجبات والحقوق والمباحات والمحظورات والآداب والأخلاق فرديّةً أو اجتماعية، ما لم تكن هناك قرينةٌ تخصُّه بالمذكَّر.

ج ـ ومن سَنن القرآن: **الإكثار من الدعوة إلى التوحيد الحقيقي** والتنزيه عن الشِّرك بكلِّ أنواعه، مُؤيِّداً ذلك بألوان من البراهين، وفنون من ضَرْب الأمثال، لتحقيق التوحيد وإبطال الشرك بجميع وجوهه التي كان قد امتلأ بها العالم شرقاً وغرباً، فرفع النفوس إلى أعلى ذروة من الكمال والتعقُّل والتثقيف الصحيح، وأطلقها من أسْرِ التقليد والأوهام والخرافات، ولا يترك منفذاً لذلك إلا سَدَّه وحرَّمه وإن كان ضئيلاً، قَطْعاً لدابره وسدّاً للذرائع.

* * *

المادة السابعة

ومن سنن القرآن في تراكيبه وأساليبه: **أن يكون منها ما له مدلولٌ عامٌّ قائم بحكم قاعدة كُليّة تشريعيَّة أو تأديبيَّة أو إرشاديَّة**، ومنها: ما له مدلول عامٌّ فقط يشمل بعمومه ما قبله وغيرَه. أو أن يذكر حكمة الأمر السابق ضمن حكم آخر لاحق، أو علّة حكم سابق ضمن حكم آخر لاحق، أو يذكر حكمـاً لاحقاً يندمج فيه بعضُ شأن الحكم السابق، وقد يأتي بحكم خاصٍّ بعد حكمٍ عامٍّ يكون كالنتيجة لِـمَا قبله. وتكون كلُّ حالة من هذه الحالات وَجْهاً للربط بين السابق واللاحق.

* * *

ملاحظة وتنبيه على جميع ما تقدَّم: إني لم أمثِّل لهذه البيانات المذكورة في المواد المتقدِّمة إلا قليلاً، لأنَّ التزام التمثيل لها يجرُّ إلى تطويل مُسْهب، فاعتمدتُ على ما سأشير إليه في أثناء التفسير من تنزيل بعض الآيات على ما ذكرته في هذه المواد.

* * *

المادة الثامنة

أ ـ ومن سنن القرآن: **الاحتباك**، وهو أن تُحذَفَ كلمةٌ أو جملة من السؤال، لوجودِ ما يدلُّ عليه أو يرمز إليه في الجواب. أو يحذف شيء من صَدْر الجملة اعتماداً على ما في عَجُزِها، كما في قوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، فقد حذف «الفوز والفلاح» من الجملة الأولى؛ للعلم به من إثبات نظيره ومقابِله، وهو «الخسران» في الجملة الثانية. وحذف «الضالّ» من الجملة الثانية؛ لإثبات مقابله، وهو «المهتدي» في الجملة الأولى، والتقدير: مَنْ يَـهْدِ الله فهو المهتدي الفائز الفالح، ومَنْ يُضْلِلِ فأولئك هم الضَّالُّون الخاسرون.

وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل: ٨٦].

والتقدير: ألـم يَرَوْا أنّا جعلنا الليل مُظْلِماً ليسكنوا فيه، والنهارَ مُبصِراً ليبتغوا من فَضْله. فحذف المقابل من كلِّ جملة لدلالة الأخرى عليه، جَرْياً على نهج القرآن في أنواع الإيجاز.

وقد يكون الاحتباك بين جملتين ليستا متَّصِلتَين، ولكنهما في موضع واحد، كما في الاكتفاء الآتي.

ب ـ ومن سنن القرآن من هذا القبيل: **أن يَعدِلَ في السياق عن المقابل إلى الوصف**

اللازم له لنكتة، كقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١-٧٢]، فالثاني هو الذي أُوتي كتابه بشماله، كما جاء مثل ذلك في سورة الحاقَّة وسورة الانشقاق[١]. وإنما عَدَل هنا إلى هذا العنوان للإيذان بالعلة الموجبة له مُراعياً نهجه وهو الإيجاز، كما في قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ [الواقعة: ٩٢] بعد قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩٠]، وللرمز إلى علَّة حال الفريق الأول، وقد ذكر في أحد الجانبين السبب وفي الآخر المسبَّب، ودلَّ بالمذكور على المتروك في الآخر.

ج ـ ومن سُنن القرآن في الحكاية عن الغير: **أن يُراعيَ دقَّة المعنى وبلاغة التصوير**، وإن كان ذلك غيرَ ملحوظ لهم ولا في متناول عقولهم، ولكنها البلاغة، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾[٢] [الأعراف: ١٨٧]، فعبَّر بالرُّسُوِّ عن الوقوع مراعياً دقَّة المعنى، حيث صوَّر سَيْرَ الكون بسَيْر السفينة، وانهيارَه برُسُوِّها.

د ـ ومن سنن القرآن: **الاقتضاب**، وهو أن يقتصر في كلِّ ما ذكر فيه اقتضاباً عن البقية التي ذكرت في موطن آخر متكرِّر فيه الموضوع نفسه. ومن ذلك: ما يجري في قصص الأنبياء، كما يأتي بيانه في المادة الثانية عشرة. وقد يحذف السؤال كلَّه أو بعضه، اكتفاءً بالجواب.

---

(١) انظر الآية ٢٥ من سورة الحاقة، والآية ١٠ من سورة الانشقاق.

(٢) أي: يسألُك ـ يا رسول الله ـ كفّارُ مكّة عن الوقت الذي يُبعَثُ الناس من أجداثهم إلى الحياة الآخرة، وتنتهي فيه مسيرةُ هذه الحياة الدنيا، بتصاريفها المتتابعة، وتغيُّراتها المستمرة، كما تتوقف السفينة في الميناء، وتُلقي مراسيها، وتثبت وتستقرُّ عنده.

والاحتباك والاكتفاء هما نوعان من أنواع إيجاز القرآن التي لا تَتَناهى أنواعُه وفنونُه المعجزة، والثاني أعمُّ من الأول.

ومن أنواع الاكتفاء في القرآن: ما ينهجُه في الوصف والبيان من الاقتصار على ذِكرِ ما يظهر للعيان، أو ما يُقرِّب إلى الأذهان، فيكتفي مثلاً في وصف الجنان بقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، مع أنّ أوصافها لا تَتَناهى.

وفي وصف المكذِّبين بيوم الدين بقوله: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٢ – ٣]، فيُجلِّي الشيء باللمحة الدالّة وبأبرز صفاته وأظهر خصائصه عند السامع، حَسَب عُرْف التخاطب ومُدرَكات الأحوال وما هو دارجٌ في الأوساط من المعاني والأغراض، ولا يستقصي الوصف إلا إذا اقتضى البيانُ ذلك واستَدْعاه الغَرَض.

* * *

المادة التاسعة

أ ـ **يتفنَّن القرآن العظيم بأنواع من الإيجاز لا تنحصر**، وتُعجِز الكاتب البليغ أن يأتيَ بشبيه لها، لبُعْدِ مَنالها.

ومن تلك الأنواع: أن يَسبُكَ المعنيين أو المعاني معاً، ويَصُوغَ لها تركيباً واحداً يدلُّ عليها كلِّها. وقلَّ أن تجدَ معنًى في القرآن غيرَ مَسْبوكٍ على غيره، أو مُدْمَجٍ فيه غيرُه، مع وضوح التعبير عن ذلك.

فمعظمُ معانيه متداخلةٌ مندمجة في بعضها، مَصُوغٌ منها غَرَضٌ واحد بعبارةٍ واحدة، أو عدَّةُ أغراض بعبارةٍ واحدة واضحةِ البيان في معانيها كلِّها.

ب ـ **وقد يكون مثل هذا في المفردات أيضاً على طريقة التضمين**، وهي أن يُضمِّن الكلمةَ معنى كلمة أخرى فيعدِّيها تعديتَها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فالكلمة من الهداية، وقد ضمَّنها أيضاً معنى الرجوع فعدَّاها بـ«إلى».

وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤]، فضمَّن «خلا» معنى الإفضاء فعدَّاه بـ«إلى».

وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] فضمَّن «ترى» معنى: ألم يَنتهِ علمك، فعدَّاه بـ«إلى»، وهو في القرآن كثير.

ج ـ ومن سنن القرآن: **أن يأتي أحياناً بالمضارع لمجرَّد الاستمرار أو مِن دون**

دلالةٍ على حال أو استقبال، لا سيَّما ما عُطف منه على الفعل الماضي، كقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وتأتي لفظة «كان» لمجرَّد تحقيق مضمونِ ما تدخل عليه دون الدلالة على المضيّ، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ [آل عمران: ١١٠].

* * *

المادة العاشرة

أ ـ ومن سنن القرآن: **حذفُ جواب الشرط والقَسَم كثيراً**، وقد يُقيمُ علَّتَه أو بعضَ متعلّقاته مقامَه أحياناً؛ بأن يستغنيَ عن المحذوف بالتعليل الدالِّ عليه، أو بما يتعلَّق به مطلقاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فقد حذف جواب «لو»، والتقدير: لرأيتَ أمراً هائلاً.

وكقوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [قَ: ١]، فقد حَذَف جواب القَسَم، والتقدير: لَتُبْعَثُنَّ، وقد أقام مقامَه قولَه: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾ [قَ: ٢] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [قَ: ٣]؛ إذ قد ردَّ عليهم بهذا القسم.

وكقوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [صَ: ١]، فقد حذف جواب القسم، والتقديرُ: لَنُهلِكَنَّ أعداءكم، وقد أقام مقامَه قولَه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [صَ: ٣].

ب ـ ومثل حذف جواب الشرط: **حذفُ المعطوف عليه**، ليذهب الذِّهنُ إليه كلَّ مذهب، بمعونة المعطوف، كقوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة: ١٠٨]، وأقل التقدير: أتؤمنون أم تريدون.

وكقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وأقلُّ التقدير: لِنُرِيَكَ آياتِنا في نفسك ولِنَجْعَلَكَ آيةً للناس.

وكقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ١٠٣]، وأقلُّ التقدير: فسنُهلِكُ المكذِّبين، ثم نُنجِّي رُسُلَنا والذين آمنوا.

ومثله حذف الخبر، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، والتقدير: كمَنْ هو ليس كذلك.

ج ـ ومن سنن القرآن: **العطف على المعنى**، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ [آل عمران: ٨٦]، فقوله: ﴿وَشَهِدُوا...﴾ إلخ معطوف على ما في ﴿إِيمَانِهِمْ﴾ من معنى الفعل، كأنه قال: بعد أن آمنوا وشهدوا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١٨] أي: إنَّ الذين تصدَّقوا وأقرضوا.

د ـ ومن سنن القرآن: **عَوْدُ الضمير على ما يُدركه الذهن، وإن لم يتقدَّم له معنى، أو على ما يُفهَمُ من السياق**، كقوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] أي: على ظهر الأرض، إذ لا يجهل الذِّهن أنَّها المراد.

وكقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [البقرة: ١٦٢، آل عمران: ٨٨] أي: في جهنَّم، ولم يتقدَّم لفظ «جهنَّم»، ولكنه مفهوم من السياق.

وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧٦]، فالمراد بالضمير: ما يفهم مما تقدَّم عليه، وهو «امْرؤ».

وكقوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فالضمير يعود إلى «العدل» المفهوم من كلمة: ﴿اعْدِلُوا﴾.

وكقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧] أي: «العذاب» المفهوم من السياق.

هـ ـ ومن سنن القرآن: إذا أراد أن يُنبِّه إلى معنى أو يَخُصَّه بالعناية من بين سائر المعاني المنتسقة معه في سياق واحد، أن يُغيِّر في صورة تركيبه أو صورة إعرابه؛ لجَلْبِ النظر إليه، كقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ [يونس: ١٠٤ ـ ١٠٥]، فغيَّر نَسَقَ الأسلوب وصورة التركيب في قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ ليُنَبِّه الفكر إليه، مبالغةً في الحَمْل على التمسُّك به وإظهاراً لشدَّة الاهتمام به.

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: ٦٩] فرفع «الصابئون»، وغيَّر نَسَقَ الإعراب فيه؛ للتنبيه إلى أنهم أهلُ كتاب أيضاً، وإن لم يكن ذلك معروفاً عنهم، كأنه قال: والصابئون كذلك.

وكقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣]، فجعل اسم «إنْ» ضمير الشأن، لتدلَّ الجملة على زيادة التحريض والاهتمام منهم بهذا الشأن الذي قصدوا بيانَه، وهذا يشبه ما نصنعُه في الكتابة من وَضْع خطٍّ تحت كلمة مهمة يُراد التنبيهُ لها.

* * *

المادة الحادية عشرة

أ ـ ومن سُننه: **أن يذكر المُظْهَر في مَوْضع المُضْمَر**، إيذاناً بالتعليل بالوصف الذي يدلُّ عليه الـمُظْهَر، وبياناً لموجب الحكم وتقريراً لحكم عامٍّ يدخل فيه مدلولُ ذلك المُضْمَر وغيره، وتسجيلاً بالوصف على أولئك الموصوفين به، إلى أمثال ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، ولم يقل: «ولهم عذابٌ مهين».

وقد يكون الإظهار لتربية المهابة في أذن السامع، ويكون ذلك بذكر لفظ الجلالة في موضع ضميره، وهو في القرآن كثير، كقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

ب ـ ومن سنن القرآن: **عَوْدُ الضمير على ما تقدَّم معنىً أو ما يُفهَمُ من السياق**، وقد تقدَّم بيان ذلك في الفقرة (د) من المادة العاشرة.

* * *

المادة الثانية عشرة

أ ـ من سنن القرآن: **تكرير قصص الأنبياء مع أقوامهم للموعظة والاعتبار**، يعقِّب بها على السياق المتضمن لمعارضة المشركين وعنادهم، حيث يعقب عليها بما يناسبها من عبرة أو بيان أو تنبيه، ولكلِّ مرةٍ نمطٌ من الأسلوب والترتيب يتَّفقان مع أبلغ الوجوه في العبرة والتذكير، وأدْعاها إلى التأثير حسب السياق، وإن اختلف الترتيب في الزمن والواقع من أجزاء القصَّة.

ويقتصر في كلِّ سورة على ما يناسب السياق من صفحات القصة، ويترك بقية الصفحات؛ اكتفاءً بما ذُكر منها في سُورة أخرى، فتختلف القصّةُ في كلِّ سورة عن الأخرى بزيادة أو نقص في بعض الجمل أو الكلمات، تـمشِّياً مع مُقْتضيات الأحوال والأغراض في ذلك السياق.

وفي كلِّ مرة تُكرَّر فيها القصة لونٌ من العبرة والموعظة، يتَّفق مع السياق، لأنَّ الألفاظ والتراكيب في القرآن تَبَعٌ للمعاني، والمعاني تَبَعٌ للأغراض ومتناسبةٌ مع السياق ومتناسقةٌ معه.

وقد يُقَفِّي على القصّة بوجوه العِبَرِ والمواعظ، ودلائل القدرة والـمُنَّة له تعالى، زيادةَ تقريعٍ وتبكيتٍ للمشركين، وشدَّةَ إنذارٍ لهم وتحذير.

ومن عجيب أمر هذه القَصَص: أنَّ كلَّ واحدة لا تشبه الأخرى بصورتها، كما

هو الشأن في كلِّ مُكرَّر في القرآن، وذلك لونٌ من ألوان الإعجاز، شبيهٌ بالإعجاز في خَلْق الملايـين من الناس، ولكلٍّ منهم سِحْنةٌ وسِمَةٌ لا تُشبه الآخر ويمتاز بها، وكذلك الأصوات ونبراتها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ..﴾ [الروم: ٢٢].

ب ـ **وهكذا تُكرَّر القِطَعُ التاريخية عن بني إسرائيل وغيرهم، لِيتَجلَّى فيها خُلُقُهم** في مكابـرةِ الحقِّ ومعاندة الرسل؛ تسليةً له ﷺ، وزيادةَ عرفان بطبائع الأمم وسنن الاجتماع، في المواضع التي تقتضي ذلك.

ج ـ ومن أساليب القرآن في أكثر هذه القصص: **أن يُبرهِنَ بمضمونها على أنَّ هذا القرآن الذي جاء بها على هذا الوجه الصحيح: هو من عند الله**، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، فينفي مشاهدته ﷺ لمجلس الخصام والاقتراع على كفالتها، بطريقة التهكُّم على المعارضين لنبوَّته ﷺ والمنكرين لها، والغَرَضُ من ذلك: تصديقُ نبوّته، وأنَّ ما جاء به إنما هو من عند الله تعالى.

وخُلاصَةُ الحُجَّة: أنك لم تكن في أزمنة وقوعها، ولا تعلم شيئاً من التاريخ عنها، ولو تعلَّمتَه تعلُّماً من الكتب والأفواه لجئتَ به تخليطاً، على النَّحْو الذي عند أهل الكتاب. فالوجْهُ الصحيح الذي صِيغَت عليه القصَّة يُبرهِنُ على نُبوَّته ﷺ، وعلى أنَّ القرآن الذي جاء بها هو من عند الله تعالى لا من وضع البشر.

د ـ **وكذلك يتكرَّر البيان عن القيامة والحساب في القرآن**، فلا تخلو سورة منه، وإنَّ أكثره في السور المكيّة، ولكنْ لكلِّ مرّة أسلوبٌ وسياقٌ وصورةٌ خاصَّة تمتاز عن الأخرى وتتباين عنها، على نهج إعجاز القرآن فيما يتكرَّر فيه من البيان.

المادة الثالثة عشرة

أ ـ ومن سنن القرآن: تصويرُ المعاني وبيانُ الأحكام بصورة السؤال والجواب، وإن لم يكن سؤالٌ في الواقع(١)**، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى**

(١) إن أسلوب القرآن في استعمال أدوات الاستفهام مُتعدِّد ومتنوِّع بحسب الغرض البلاغي والبياني من الخطاب، وللاستفهام في القرآن أغراض كثيرة، منها: التشويق والتقرير والتمني والاستبطاء والتهويل والتعظيم والتوبيخ والتقريع والتعجُّب والنفي. وقد اهتم ببيان ذلك جماعة من المؤلفين، منهم الأستاذ عبد الكريم محمود يوسف في كتابه «أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم»، والأستاذ الدكتور العلامة محمد عبد الخالق عضيمة، في كتابه «دراسات لأسلوب القرآن».

وأما بخصوص دعوى المؤلف عن تصوير القرآن للمعاني وبيانه للأحكام بطريقة السؤال والجواب، وإن لم يكن ثَمَّ سؤال في الواقع: فهذا، لا نعلم له مثالاً مُسلَّماً في القرآن الكريم، بل الذي نعلمه من الأمثلة يكون السؤال عنه قد حصل بالفعل، ثم يتولى القرآنُ جوابَه، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥].

وأما إن كان مراد المؤلف بطريقة السؤال والجواب ما هو أشمل من المعنى اللغوي والاصطلاحي للاستفهام، بحيث يدخل فيه المحاورة والقصة وضَرْب المثل، فهذا قد قال به بعض أهل العلم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، فقد نقل ابن كثير عن عطاء قال: هذا مثل «تفسير ابن كثير» (١: ٦٦١). اهـ. يعني بذلك ـ كما قال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» ـ إنها ليست قصةً واقعة، قال ابن عاشور: هذا بعيد يُبعدُه التعبير عنهم بالموصول، وقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ﴾. اهـ. «التحرير والتنوير» (٢: ٤٧٨).=

نَسْفًا ﴾ [طه: ١٠٥]، وكقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ... ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

وربما يسأل القرآن ثم يُجيب، إذا كان الجوابُ بحيثُ لا يمكن أن يُنكِرَه مُنكِر، كقوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢].

ب ـ ومن سنن القرآن: تصويرُ المعنى وتثبيتُه بصورة الحكاية والمحاورة أو بصورة التمثيل، لِـمَا في ذلك من قوة البيان والتأثير على النفوس، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] الآيات، فإنها ـ والله أعلم ـ حكايةٌ لما دَارَ في خَلَد الملائكة من كَوْن هذا المخلوق مُستَعِداً للإفساد(١)، لأنَّه مختار التصرُّف تابعٌ لإرادته، فأعلمهم سبحانه أنَّ الحكمة اقتَضَت ذلك؛ ليكون وافرَ العلم صالحاً للاستفادة من مواهب الأرض ولتعميرها.

= وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ [النحل: ٩٢]، قال ابن كثير: قال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مَثَلٌ لمن نقض عهده بعد توكيده. وهذا القول أرجح وأظهر، سواء كان بمكة امرأة تنقض غَزْلها أم لا. اهـ «تفسير ابن كثير» (٤: ٥٩٩).
وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢]، قال ابن عطية في «المحرر الوجيز»: ظاهر هذا المثل أنه بأمر وقع وكان موجوداً، وعلى ذلك فسَّره أكثر أهل هذا التأويل، ويحتمل أن يكون مضروباً بمن هذه صفتُه، وإن لم يقع ذلك في وجود قط، والأول أظهر. اهـ «المحرر الوجيز» (٣: ٥١٥).

(١) الأصل حَمْلُ القرآن على الحقيقة، لأنها الأصل، ما لم يترجّح المجاز بشهرة أو غيرها، وبناء عليه فلا يُحمَلُ اللفظ القرآني على التمثيل والرمز إلا بدليل أو قرينة تَـصْرِفه إلى المجاز، ولا قرينة هنا تصرف الكلام عن ظاهره.
قال السبكي في «الأشباه والنظائر» (١: ٢٧٤): حَمْلُ اللفظ على ما يتبادر إلى الذهن أَوْلى، ومن ثَمَّ يُحمَلُ على الحقيقة ما لم يترجَّح المجاز بشهرة أو غيرها.

وكقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢]، فهو مُجرَّد تمثيل لحال الكافر والمؤمن(١).

فالتمثيل والتصوير هو الأداة المفضَّلة في أسلوب القرآن، فهو يُعبِّر بالصُّور المحسوسة أو المتخيَّلة عن المعاني الذهنيَّة والحالات النفسيَّة والأحوال الغيبيَّة والطبائع البشريَّة، كما في قصَّة آدم وإبليس، فإنها لإحاطة الشرِّ بالبشر من سائر نواحيه إذا أفسد طبيعته.

فالقصة والتمثيل كلاهما من وسائل البيان في القرآن وأساليبه الكثيرة البليغة التي يعبّر بها عن أغراضه، والله أعلم.

ج ـ ومن سنن القرآن: **تصوير الأمر المتحقِّق بالظاهر المرئيّ**، فيستعير له الرؤية لأنها أقوى سند الإخبار، فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ كذا، وقد قالوا: إنَّ هذه الصيغة إذا خُوطب بها مَنْ سَبَقَ له العِلمُ بما يُذْكَر بعدها تكون للتعجيب والإنكار والتقرير، وإذا خُوطب بها مَن لم يعلم ذلك تكون لتعريفه وتعجيبه من شأنه، وربما أُجْرِيَت مُجْرى

---

(١) هذا القول وأمثاله، كما قال شيخنا فضل حسن عباس: مدخل لإبطال فاعليّة القرآن الكريم. وأسباب النزول تشهد بعكس ما ذهب إليه المؤلف من أنه مجرد تمثيل. وهذه الآية قد قال عنها أهل التفسير: هذا مَثَل لمن يتعزَّز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، واختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما، فقيل: نزلت في أخوين من أهل مكة مخزوميين، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد؛ زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ، والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسود، وهما الأخوان المذكوران في سورة الصافات في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الآية: ٥١] قال قائل منهم إني كان لي قرين ـ الآيات، وقيل غير ذلك. وقيل: هو مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة، وليس بخبر عن حال متقدمة، لتزهد في الدنيا وترغب في الآخرة وجعله زجراً وإنذاراً، وسياق الآية يدل على خلاف هذا. والله أعلم.

المثل، فنُـزِّلَ مَنْ لم يَـرَ ما تتعلَّق به منزلةَ مَنْ رآه، لظهوره وتَقرُّره في نفسه، ممّا لا ينبغي أن يخفى، أو أن يغفل عن التَّعجُّب منه والإذعان له، وللإشعار بأنَّ الأمرَ الـمَحكيَّ قد انتهى في الوضوح والتحقُّق إلى مرتبة المرئيّ، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، فهو تمثيل لا تأريخ، والله أعلم[1].

وقد تأتي بمعنى: أخبِروني عن رأيكم، كقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ [هود: ٢٨].

ومثلها صيغة ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾، و﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾، فإنها تأتي لتـقرير الـمعنى، لا للاستفهام الحقيقي.

* * *

(١) ذكر أهل التفسير أن ما ذكر في الآية قد وقع بالفعل لقوم ممن كان قبلنا، قال القرطبي في «التفسير»: وقصة هؤلاء أنهم قوم من بني إسرائيل وقع فيهم الوباء، وكانوا بقرية يقال لها: داوردان، فخرجوا منها هاربين، فنزلوا وادياً، فأماتهم الله تعالى، ثم أحياهم الله معجزة لنبي من أنبيائهم، قيل: كان اسمه شمعون.
وقيل: إنهم فرُّوا من الجهاد لـما أمرهم الله به على لسان حزقيل النبي عليه السلام، فخافوا الموت بالقتل في الجهاد، فخرجوا من ديارهم فراراً من ذلك، فأماتهم الله ليعرِّفهم أنه لا ينجيهم من الموت شيء، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد، قال ابن العربي: أماتهم الله تعالى مدةً عقوبةً لهم، ثم أحياهم، وميتة العقوبة بعدها حياة، وميتة الأجل لا حياة بعدها.
والقصد ـ كما قال أهل التفسير ـ هو التنبيه على أن الإماتة والإحياء بيد الله تعالى لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مغترّ، وقد جاء التنبيه على هذا المعنى في قصة وقعت بالفعل قصَّها الله تعالى على نبيِّه ليقصَّها على قومه لعلَّهم يتفكرون، وجعلها مقدِّمةً بين يدي أمرِهِ المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالجهاد. «تفسير القرطبي» (٣: ٢٣٠-٢٣١)، وينظر «أحكام القرآن» لابن العربي (١: ٣٠٤).

المادة الرابعة عشرة

ومن سنن القرآن في النهج التوبيخي: **أنه لا يذكر المساوئ مستقلَّة ثم يُوبِّخ عليها**، كما هو شأن أسلوب التخاطب بين الناس، ولكنه يتَّبع في ذلك أسلوب إيجازه وسَبْكه للمعاني وإدماج بعضها في بعض، فيُدمج المساوئ في الاستفهام التوبيخي ليفاجئ النفوس بالتشنيع والتقبيح، وليومئ إلى أنَّ هذه المعاملة السُّوءى، ممَّا لا يخفى خبَرُها، ولا تغيب عن الأفكار صُوَرُها، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

* * *

المادة الخامسة عشرة

أ ـ ومن سننه: **أسلوب الهزْل في الجدِّ**؛ تهكُّماً بالمعارضين أو الجاحدين أو الكافرين مطلقاً، وذلك للتشنيع بغباوتهم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ [البقرة: ٨٠].

وكقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٦].

وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩].

ب ـ ومن سننه: **الأسلوب الإبهامي**، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، وهي طريقة ملؤُها اللطف واللين في مناظرة المعارضين.

* * *

المادة السادسة عشرة

أ ـ ومن سنن القرآن: **توجيه الخطاب إلى شخص النبيِّ ﷺ، والمرادُ أمتُه مطلقاً، أو بعضُ أمته المؤمنين أو ضعفاءُ الإيمان**، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٨٧]، فليس المراد من مثل هذا الخطاب حقيقة الخطاب له ﷺ، إذ يستحيل أن يطيع الكافرين والمنافقين، أو يتَّبع أهواءهم بعد ما جاءه من العلم، أو يُجاريهم على شيء نهاه الله عنه.

وما ذكرناه من معنى هذا الخطاب، هو من خصائص اللغة وسنَّة التعبير، وهو شائع في كلام العرب على عُرْف التخاطب مع الرؤساء والزعماء، فقد يقال للمَلِكِ أو الرئيس: إذا فعلتَ هذا كانت عاقبته كذا وكذا. والمراد: إذا فَعَلَتْه دولتُك أو أمتُك أو أتباعُك كلُّهم أو بعضُهم.

ويجوز أن يكون الخطاب حقيقيّاً بحسب ما يقتضيه السياق، مع قطع النظر عن شخصيَّة المخاطب، أو على أن يكون الكلام فرضاً فُرض لبيان مضمونه، ولوناً من ألوان شدَّة البيان التي تأتي في القرآن للمبالغة في التهويل عند ارتكاب فظيع، والمراد به: الوعيد الشديد للأمة. وعلى هذا النمط قولُه تعالى في حقِّ الملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]؛ إذ يستحيل عليهم ذلك، لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرون.

ومحصَّل هذا الأسلوب على التقدير الثاني: أنَّ مثل هذه الأشياء ذنوب لا يُتَسامَحْ فيها، ولو فُرض وقوعُها من أكرم الخلق على الله لعاقَبَه أشدَّ العقاب.

ومن هذا القبيل: قولُه في التعقيب على بعض قصص الأنبياء وما جرى على المكذِّبين من أممهم: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، فإنَّ المراد بهذا الكلام تحقيقُ هذه القصص على أسلوب العرب في حَمْل اليقين على الشك، زيادةً في الحث على التمسُّك بما يبنى عليه، كقول أحدهم لابنه: إن كنتَ ابني فكُن شجاعاً، أو: فلا تكن بخيلاً. يريد حَمْلَه على الأمر ولم يكن شاكّاً بأنه ابنه قط، ولكنه كلام مَقُول وأسلوب مُتَّبع.

ب ـ ومن سنن القرآن: **توجيهُ الخطاب إلى الخَلَف من الأمة بما هو صادرٌ عن سلفها**، لأنَّ الأمّة وحدةٌ واحدة، يتأثَّر اللاحق منها بالسابق، فيُؤنَّب المتأخِّر بما فَعَلَه المتقدِّم، إذا كان جارياً على أثره في الانحراف عن جادَّة الحق، حتى أصبح ذلك خُلقاً للأمة جمعاء، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۞ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: ٩٢ ـ ٩٣]، فالآية تُخاطب اليهود من أهل الكتاب الذين كانوا في عصر التنزيل بما فعله أسلافُهم الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، من الخروج عن جادَّة الحق والشريعة المنزَّلة، رغماً عن وضوح الآيات والبيِّنات، لأنهم على خِطَّتِهم في ذلك الخروج عن الحقِّ المبين، مع وضوح الحجج والبراهين.

ومثلُ هذا الخطاب والتأنيب هو من قوانين اللغة وسنن التخاطب، فإنه يُقالُ للأمة: فعلت كذا وكذا، إذا فعل أسلافها أو بعض أفرادها، فالآية بيانٌ لـما قد انطبعت عليه الأمة من المعاداة للحق والخروج عن صراطه المستقيم.

ومن سنن القرآن: **أن يُكثِرَ التحدُّث عن بني إسرائيل بالظلم والعدوان والمعاكسة** لـما جاءتهم به أنبياؤهم من الأحكام والحِكَم، ولم يُكثِر التحدُّث في مثل ذلك عن بقية الأمم الظالِـمة مِثلهم، مع أنها كثيرة في صفحات الأزمان الغابرة، وقد تعرَّض لها القرآن وتكلَّم عنها، ولكنه لم يتكلم كثيراً عن أمرها بمثل ما أكثر عن بني إسرائيل، وذلك لأن بني إسرائيل أكثرُ اتِّصالاً بالعرب، وأكثرُ اختلاطاً بالبيئة التي بُعث بها محمد ﷺ، وأقربُ في الزمان إلى عصر نزول القرآن.

ج ـ ومن سننه: **توجيهُ الخطاب إلى الأمة جمعاء بما هو مُوزَّعٌ على أصناف منها**، والمراد: إرجاع كلِّ معنى إلى ما يخصُّ المخاطَب به، اعتماداً على قرينة العقل، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢] الآية، فإنَّ الخطاب بالطلاق مُوجَّه إلى الأزواج، والخطاب بعَدَم العَضْل مُوَجَّه إلى الأولياء.

ومثل ذلك مبنيٌّ على أنَّ الأمة وحدة واحدة في إجراء الأحكام وتنفيذها، يجب على المطيع أن يأخذَ بناصية العاصي ويُخضِعَه لذلك الحكم ويُنفذه فيه، فالأمة من حيث المجموع مكلَّفة بذلك.

د ـ ومن سننه: **أن يُوجِّه الخطابَ أحياناً للمؤمنين عموماً، مُراداً به ضعفاء الإيمان منهم أو المنافقون فيهم**، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤].

ومثل هذا الخطاب كثير في القرآن، وهو يَرْمي إلى وحدة النوع وقوة التضامن بين أصناف المؤمنين، وإلى وجوب رَدْع الـمُخلِصين لغيرهم إذا خالفوا أوامر الله.

هـ ـ ومن سنن القرآن: **أن يعتبر وحدة الأمة، فيخاطبها بما كان عليه سلفها وما عليه خلفها،** وينسبها للأمة جمعاء، لجريان الخلف على منهج السلف، وقد تقدَّم مثل هذا.

* * *

المادة السابعة عشرة

ومن أساليب القرآن: **أن يتحدَّث عن سبب ضلال الإنسان وهدايته، ويُعلِّل ذلك بمقتضى سُنن الله تعالى في طبائع البشر وشؤون الفطرة والغريزة العامة**، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[1] [الرعد: ٣٣]، فليس معنى الإضلال: أنَّ الله سبحانه يخصُّه به قصداً، أو يخلقه عليه خلقاً، كلا. وإنَّما المراد: أنَّ إضلال الله له ناتجٌ من مخالفة العبد لسُنن الله الكونيَّة في الأمر، فيكون ضلال العبد بمُعاطاة الأسباب المؤدِّية إليه، كما يقال: لقد أعماه الله، وإنَّ العمى إنما ينشأ بمعاكسة الأسباب والأنظمة الصحيَّة التي جعلها الله حفظاً للعين والبصر، أو بعدم العناية بتطبيقها تطبيقاً صحيحاً، فإن كلَّ فعل أو حَدَث يتمُّ للإنسان، فإنه يصحُّ أن يُنسَبَ إليه لأنه السبب المباشر فيه، وإلى الله لأنه الخالق للسنن المؤدِّية إليه، فإذا نُسِبَ إلى الإنسان وحده أو إلى الله وحده، فإنَّ إبراز ناحية لا يعني انعدام الأخرى.

---

(١) معنى هذه الآية وأمثالها: مَن يُثبِت الله ضلالَه بحكمه العادل فما له من هادٍ يُثبِت له الهداية. وهذا كقولنا: برّأته: إذا نسبته إلى البراءة، وذكرت أنه بريء، مثل ذلك: صوَّبته، وخطّأته. وكذلك: هديته: أثبت له الهداية وحكمت له بها نتيجة اختياره له. وعلى هذا المعنى تفسَّر العشرات من الآيات، كما في الآية [٤٩] و[٨٨] من سورة النساء، والآية [٢٧] من سورة إبراهيم، التي لا يفهم من إسنادها إلى الله أنه هو الـمُجْبِر. وهذا التفسير هو مما يسقط في المفاهيم الجبرية المفسدة لمعنى القضاء والقَدَر.

فهذا الإضلالُ جارٍ بحسب طبيعة الإنسان وجِبِلَّتِه في الانطباعات على الميول التي ترسخ فيه بفعله وكَسْبه لعلومه، فلا يعود يسمع ما يخالف تلك الميول؛ إذ طبيعة الإنسان أثرٌ من آثار صُنع الله، وآثارُ الله تعالى كلُّها خير، ما لم يُغيِّر مَجْراها مُغيِّر.

يُخلَقُ الإنسان صحيحاً سليماً، فإذا خالف أو خُولف به قواعد الصحَّة تمرَّض، سواء كان ذلك في بطن أمِّه أو في حياته.

ففطرة الإنسان كلُّها خير وصلاح، ما لم يُغيِّر صاحبُها مَـجْراها بسوء تصرُّفه، ويُفسِدها بمفاسد التربية وسُوء القدوة أو الانحراف عن سنن الخلقة، فإذا فعل ذلك بها فَـقَدت الاستعداد الطبيعي لمعرفة الحق بالنظر الصحيح والبحث الموصل إليه، ويَرى حينئذٍ صاحبُها كلَّ ما يخالف ما انطبع عليه ـ من دين أو عقيدة أو عادة ـ باطلاً وضلالاً، لا يستحقُّ أن يُعار شيئاً من النظر والتفكير، ولا السماع لمن يدعو له والإصغاء إليه، وهذا معنى قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

فهذا الإضلال إنما هو بسُنَّة الله العامَّة في أخلاق البشر وطباعهم، وهي أنَّ مَنْ رَسَخَت فيه مَلَكةٌ من دين أو عادة أو خُلُق، إذا وصل إلى سَمْعِه ما يخالفها أو ينقضها، لا يتدبَّره ولا يراه جديراً بالنظر والاعتبار.

فنسبة هذا الإضلال إلى الله تعالى كنسبة الإمساك إليه في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤]، فهذا الإمساكُ والجريُ إنما هو بسُنن الله العامة فيه، حيث جَعَل الهواء والماء له قابليَّة حَمْل الأثقال إذا كانت على وضعيَّة خاصَّة كوضعيَّة الطير والسفينة، فقد خلق الطير ذات أجنحة مُساعِدة لذلك.

أما ما يقابل هذا في خِلقة الإنسان واستعداده للهداية أو الضلال، فهو كونه

مختاراً في تصرُّفاته تابعاً لإرادته في أعماله، فكان مُستعدّاً للصلاح والفساد، وقد هيَّأ له سبحانه جميعَ أسباب الصَّلاح وزوَّده بها إن لم يُفسِد تلك الأسباب بمفاسد التربية وسوء التقليد.

وعلى هذه السُّنَّة العامة في خَلْق الإنسان يأتي أيضاً في القرآن مِثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾(١) [الزمر: ٣٧]، فهذه الهداية إنما تكون بمحافظتهم على ما في خِلْقتِهم من الهداية الطبيعية العامة في خلقة الإنسان، وعدم إفسادهم لها إفساداً كلياً، بمفاسد التربية وسوء القدوة، فيندفعون بهذه الطبيعة إلى الأخذ بالشريعة.

فسُنَّة القرآن في إسناد فِعلِ الهداية والإضلال وما بمعناهما إليه تعالى، إنما هو هذا المعنى، وعلى هذا النظام.

والقرآن العظيم له في ذلك طريقتان:

أ ـ فتارةً يُسنِدُ فِعلَ الإضلال والهداية وما بمعناهما إليه تعالى، مع التلميح إلى سُوء تصرُّف ذلك الإنسان في طبيعته الذي أدى به إلى الضلال، وإلى محافظته على سلامة فطرته بحُسن تصرُّفه فيها الذي أدّى به إلى الهداية.

فالأولُ مِثلُ قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [غافر: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

---

(١) الراجح في معنى هذه الآية كما تقدم: ومن يحكم الله له بالهداية، فيستحق دخول الجنة دخولاً أبديّاً، فما له من حاكم يحكم عليه بالضلالة، ليَحجُبَ عنه فَضلَ ربِّه عليه.

فقد لمح سبحانه في الآية الأولى: إلى أنَّ سبب ضلالهم إنما هو ظلمهم، وفي الثانية: أنه كفرهم، وفي الثالثة: أنَّ سبب الطبع على قلوبهم إنما هو تكبُّرهم وتجبُّرهم عن سماع الحق، وفي الرابعة: أنَّ سبب ضلالهم إنَّما هو إسرافهم في الجهل والارتياب. وكلُّ ذلك من صُنعهم وسُوء سلوكهم.

وإنما أسنَدَ الفِعلَ إليه تعالى لأنه سبحانه قد خَلَق البشر بحيث إذا أفسد طبيعته فَسَدت، وإذا تشبَّع بالفساد وانطبع على الضلال يَفْقِدُ الاستعداد للهداية والرَّشاد، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وأما إسنادُ فعل الهداية إليه تعالى مع التلميح إلى حُسْن تصرُّف الإنسان في طبيعته الذي أدَّى به إلى الهداية، فمثل قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، فتربية النفس على الإنابة إلى الله هي التي تُؤدِّي إلى الهُدى والرَّشاد، وهي مُستعدَّة لهذه الإنابة بطبعها ما لم تفسد بسوء التربية.

فطبيعة الإنسان كلُّها خيرٌ وصلاحٌ ما لم يُغيِّر صاحبُها مجْراها بصُنعه وسُوء تصرُّفه فيها، فله ما كسب وعليه ما اكتسب.

وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، فالآية صريحةٌ في أنَّ تزكيتَها وتَدْسِيَتها بيده، يَتَصرَّف فيها كيف يشاء، ومسؤول عن تَدْسِيَتها ولا يظلم ربُّك أحداً.

ب ـ وتارةً يُسنِدُ القرآنُ فِعلَ الإضلال والهداية وما بمعناها إلى الله تعالى من دون تلميح إلى فعل العبد الاختياريِّ وسُوءِ تَصرُّفه في طبيعته الذي أدَّى إلى الضلال، أو حُسْن تَصرُّفه الذي أدَّى إلى الهداية، وإبرازُ ناحيةٍ لا يستلزمُ انعدامَ الأخرى، وإنما تكون مُضْمَرةً، فقد أسنَدَ الإضلال إلى الله وترك وأضمَرَ منشأه من الإنسان،

وذلك كقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[1] [الكهف: ١٧][2].

وهو بنفس المعنى السابق ـ لا فرق بينهما ـ مَبْنيٌّ على أنَّ سُنَّة الله تعالى وحكمته قَضَتْ في نظام خَلْق الإنسان وطبائعه أن يكون لأعماله النفسيَّة والبدنيَّة أثَرٌ طبيعي في إصلاح النفس وإفسادها، ولا تغيير لخلق الله، فإذا تَشَبَّع الإنسان بالكفر والشِّرك وانطبع عليه، فمن الصعب أن تُستأصَل منه تلك الانطباعات، فتعود النفس إلى سيرتها الأولى ناصعةً بيضاء، فلا يمكن تزكية نفسه بعد أن دسَّاها. أما إذا حافظ على سلامة فطرته

(١) المعنى الراجح في تفسير نسبة الهداية والإضلال إلى الله عزّ وجلّ: من يحكم الله له بالهداية؛ لأنه اختار بإرادته الحرّة ـ مِثل أصحاب الكهف ـ فهو المهتدي الذي يعتني الله به ويحميه ويثيبه صواباً عظيماً يرضيه، ومن يحكم الله عليه بالضلالة؛ لأنه ضلَّ باختياره، فلن تجد له ناصراً ينصره، فيحكم له بالهداية ويوفقه حتى يكون رشيدًا في مسيرة حياته.

(٢) يأكل الجِرْذ عروق الشجرة وتيبس، فنقول: أيبَسَ الجرذ الشجرة، فنسند الإيباس للجِرذ؛ لأنه هو الفاعل المباشر والمسبِّب لذلك، ونقول: أيبَسَ الله الشجرة، فنُسند الإيباسَ لله تعالى، لأنه هو الذي جعل الشجرة من طبيعتها أن تيبس إذا قطعت عروقها.

وكذلك إذا يبست الشجرة من قلة الماء مثلاً، فنقول: أيبَسَ البستانيُّ الشجرة، فنُسند الإيباس إليه؛ لأنه هو الفاعل المباشر والمسبِّب لهذا اليبس. ونقول: أيبَسَ الله الشجرة؛ لأنه سبحانه جعل من طبيعتها أن تيبس بذلك.

فمثل هذا الحكم يكون ذا وجهين، ومثل هذا الأفعال تكون ذات إسنادين. وعلى هذه الوتيرة إسناد الإضلال تارةً إلى الله سبحانه؛ لأنه هو الذي خلق الإنسان مستعداً للهدى والضلال، وتارةً إلى الإنسان نفسه؛ لأنه هو الذي باشر الضلال وطبع نفسه عليه، فهو المسؤول عن ذلك؛ لأن الهدى طبيعي ذاتي بمثابة الصحة، والضلالَ عَرَضٌ بمثابة المرض، ينشأ من معاكسة السنن الطبيعية. وبالجملة يكون مثل هذا الموضوع ذا إسنادين من وجهين، والتبعة فيه على الإنسان. ولله الحجَّة البالغة عليه. (المؤلف).

ونُور بصيرته، وتَعَهَّدها بحُسْن التربية وصلاح القدوة؛ فإنه يُجيب داعي الخير إذا دعاه، ويتّبع هداه.

وإنك تجد هذه السُّنّةَ جاريةً في سائر مخلوقات الله، فإذا أنت أخذتَ غصناً من شجرة ولَوَيتَه وربطتَه ملوياً حتى غلظ وتصلّب على اعوجاجه، فلا يمكنك أن تُعيدَه إلى سيرته الأولى معتدلاً، بعد أن عبثْتَ به هذا العبث، وإذا أخذت تفاحة فشققتَها، فإنَّ سُنّةَ الله تعالى في خِلْقَتها قَضَت أنه لا يمكن إرجاعها إلى سيرتها الأولى، فتعود كما كانت في الشجرة ناميةً ساميةً ناصعةً زاهية.

وهكذا حال الإنسان في إضلاله لنفسه وإفساده لها، فإنه من جملة مخلوقات الله تعالى، لا يخرج في شأنه عن حدود سننها الطبيعية، فمتى أفسد طبيعته إلى حدِّ التمكين للفساد لا يمكن إرجاعها إلى سيرتها الأولى.

وعلى هذا المعنى يأتي مِثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾(١) [الجاثية: ٢٣]، إلى أمثال هذه الآيات التي تأتي لإفادة وَجْه تَصَلُّب الكافرين بكفرهم، رغماً عن المبالغة في الإرشاد، وذلك بمقتضى سنة الله في انحراف البشر، وهي أن يُعرِضَ المستكبر عن دعوة مَنْ يراه دونه أو من غير حِزبه، وإن ظهر له أنه حقٌّ وصواب. وكذلك يُعرِضُ الـمُقلِّد عن النظر في الدلائل والآيات.

---

(١) المعنى الراجح في هذه الآية وأمثالها: حَكَمَ الله على مَن اتخذ إلهه هواه بالضلال حكماً مبنياً على كمال علمه، إذْ اختار لنفسه الضلال على الهدى، وسدّ على منافذ سمعه وقلبه، سدّاً مانعاً من دخول الهداية إليهما، نتيجة اختياره الحرّ، ضمن نظام الله التكويني، وجعل على بصره غطاءً مانعاً من إدراك رؤية آيات الله في كونه، نتيجة اختياره الحر أيضاً.

ويأتي كذلك في القرآن مِثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، إلى أمثال هذه الآيات.

والمراد بها: أنه سبحانه لو شاء أن يخلق البشر مُسيَّراً للهداية مقسوراً عليها، كما خَلَق الملائكة مُسيَّرين لا يعصون الله ما أمرهم؛ لَفَعَل، ولكن مشيئة الله تعالى إنما تجري بحسب الحكمة البالغة والمصلحة العالية، وقد اقتضت حكمتُه في خلق الإنسان أن يكون ذا علم واسع ودراية بارعة وعقل نافذ، وطبيعةُ هذه المواهب تجعل صاحبَها مختاراً في أعماله وتصرُّفاته يجري فيها تبعاً لإرادته، وتكون إرادتُه تابعةً لنوع تربيته وانطباعاته، كما أشارت إلى ذلك آيات قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] الآيات.

فإنْ تَربّى على التفكير الصحيح والعمل الصالح انطبع عليه وكان من الكاملين، وإن تربّى على الجمود والتقليد الأعمى والعمل السَّيِّئ هبط إلى أسفل سافلين. وهكذا خلق الإنسان على هذه الطبيعة، ويتصرَّف في الأمور بحسبها، فيندفع باختياره إلى الخير والشر، وقد هَدَاه الله للنَّجْدَيْن بطبيعته، وبالرسل الذين يرسلهم لهدايته، فمن كان قد حافظ على سلامة فطرته وتَعهَّدها بحُسْن التربية وطيب القُدوة؛ اتَّبع هدى الله إذ جاءه، ومن كان قد أفسدها بمفاسد التربية وسوء القدوة؛ عارض الهُداة وعانَدَ الحقَّ وتمسَّك بالضلال.

هذه هي سنَّة الله في خلق الإنسان، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

المادة الثامنة عشرة

وَرَدَ في القرآن ما ظاهره أنَّ الله تعالى يكيدُ للكافرين ليوقعَهُم في الضلال، ويستدرجُهم بالخيرات والبركات، ويفتنُهم بالأموال والبنين ليُلقيَهم بالعذاب المُهين، وأنه يَمُدُّهم في الغيِّ ليأخذهم أخذاً وبيلاً.

فاعلم أنه ليس المراد من أمثال هذه الآيات ما يدلُّ عليه ظاهرُها من أنَّ الله سبحانه يريد أن يُوقع هؤلاء الكفرة في المعاصي لينتقمَ منهم، فالله سبحانه مُنزَّه عن ذلك وعن كلِّ ما يُوهِمُ الجَوْر والمكر، لأنَّ أفعاله تعالى كلَّها خير ورحمة ورأفة وإحسان، كما جاء في الحديث: «لبَّيك وسَعْدَيك، والخيرُ كلُّه في يديك، والشرُّ ليس إليك»[1].

وإنما ذلك صُوَرٌ مُنوَّعة من بيان حالهم بحَسَب سُنَنِ الله، وصُوَرٌ من التعبير للاستمالة والتقريب، وتلوينٌ للأساليب التي أراد الله بها سبحانه المبالغة في النصيحة والتنويع للزواجر، بما يكشف لهم من سوء المآل إذا هم استمرُّوا على حالهم وبقوا عليه، وقد أتى في ذلك بأبلغ العبارات وأشدِّها تأثيراً على النفوس، دفعاً للأفئدة والعقول إلى تلمُّس طريق النجاة والحذر من معاكسة سنن الله وشرائعه بإفساد طبائعهم، فيكون الكيدُ نفسَ معاكسَتِهم للسُّنَن، لا فعلاً مستقلاً.

* * *

(١) رواه مسلم (٧٧١)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

المادة التاسعة عشرة

وبعد أن ذكرتُ في هذه الموادِّ من أنواع المدارك والمفاهيم والمسالك والمرامي في ألفاظ القرآن ومعانيه، وأساليبه وتراكيبه، وحذفه وإيجازه، وتلميحاته وإشاراته، ومختلف ضروب بلاغاته، وظاهره ومُراده، وما فيه من إهمال بعض أجزاء الكلام استنتاجاً من غيرها، وإغفال بعض العِلَلِ استناداً على قرائن تتفاوت الأفهام في إدراكها، وحَذْف كثير من أجوبة الشرط والقَسَم والمعطوف عليه اعتماداً على ما يفهم من السياق؛ عُلِمَ أنَّ أسلوب القرآن هذا لا يمكن أن يُترجَمَ إلى لغة من اللغات ولا إلى العربية نفسها؛ لأنَّ ذلك من المحال. ولهذا تحدَّاهم سبحانه بقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، ومَنْ يحاول ترجمتَه لا يقلُّ سخافةً عن مَن يحاول إيجادَ شيءٍ مماثلٍ لأعظم أثر من آثار الله العظيمة التي انفرد بها، كيف وقد قال تعالى عنه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨][١].

* * *

(١) لكن يُمكنُ ترجمة معاني القرآن الكريم، ويكون الـمُترجَمُ بمثابة تفسير للقرآن الكريم بلغةٍ غير العربية، وفي ذلك احترازٌ من الوقوع في المحذور، مع فَتْح باب كبير من أبواب الدعوة إلى دين الله، بإطلاع الأمم على معاني كتابه بلغاتهم.

لاحقة للمقدمة الثانية

في التفسير لبعض آيات تتكرَّر أمثالُـها في القرآن، أو هي من الآيات المُهمَّة البيان، التي تحتاج في التفسير إلى زيادة توضيح وإتقان

فمن ذلك: ما جاء في القرآن من مكالمة الملائكة في آدم عندما أراد الله خَلْقَه، فإنَّما هو تمثيلٌ وحكايةٌ لِـما دار في خَلَد الملائكة من محاولة معرفة الحكمة عن طبع جِبِلَّة آدم على حريَّة الإرادة والاختيار الـمُطلَق في تصرُّفاته، جاءت على أسلوب مُحاوَرةٍ ومراجعة في القول(١).

ومثلُ ذلك من خصائص اللغة وأساليب العربية.

---

(١) هذا القول غير صحيح، فقد أعلَمَ الله سبحانه وتعالى الملائكةَ قبل خلق آدم عليه السلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حَمَإٍ مسنون، وتقدَّم إليهم بالأمر متى فَرَغَ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً وامتثالاً لأمر الله عزَّ وجلَّ، فامتثل الملائكة كلُّهم ذلك إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين.

وقد وردت هذه القصة في سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وصّ، ولم يخبرنا الله تعالى أن أحداً غير إبليس امتنع من السجود، وأكّد الله الخبر بسجود جميع الملائكة، فقال: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ ﴾ [ص: ٧٣-٧٤]، وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقد صرَّح الله تعالى بأنه قال للملائكة... وقالت الملائكة... إلخ، والأصل حَمْـلُ الكلام على الحقيقة إلا إذا دلَّ دليل أو قامت قرينة على إرادة المجاز، ولا دليل هنا على ذلك ولا قرينة، فلا يُعدَلُ عن القول بأن هذه المحاورة وقعت حقيقة.

والغَرَضُ منها: بيان الحكمة في هذه الطبيعة التي تُفْضي إلى الإصلاح ما دامت على صلاحها الطبيعي، وتؤدِّي إلى الإفساد إنْ تحرَّفت بمفاسد التربية والتوجيه السَّيِّئ، وبيانٌ للفرق بين خِلْقة المَلَكِ وخِلْقة البشر وطبيعة كلٍّ منهما، وإلماعٌ لِسَعَةِ استعداد الإنسان في عمارة الأرض، واستثمار ما فيها من مواهب وخيرات، واستنباط ما لديها من معادن ومخزونات، وذلك بما أودَعَ الله فيه من قابليَّة التوسُّع في العلم والتفكير والبحث والاستنباط، التي لا تقف عند حدّ، ولا تضيق عن مُعْضِلة ولا عن أمر من أمور هذه الحياة ومتعلَّقاتها.

وإنَّ هذا الاستعداد الذي أودَعَه سبحانه في الإنسان عندما أراده خليفةً في الأرض بمقتضى حكمته البالغة، لا يكون إلا مع الاختيار المُطْلق في دائرة إمكانيَّاته وتصرُّفاته المرافق لاستعداد الخير والشر، كالمَطْرةِ الغزيرة تصحبها الصواعق الكثيرة طبيعةً، إلا أن الإنسان مستعدٌّ للخير بطبيعته، وللشرِّ بتحريفه لها وتغيير مَجْراها بالتربية الفاسدة والقدوة السيِّئة، بخلاف المَلَك فإن خِلقَتَه وطبيعتَه مقسورة على عبادةِ الله وتنفيذِ أوامره، وهذه الخلقة المحدودة والطبيعة المقسورة لا تصلح لعمارة الأرض كما تصلح لها طبيعة البشر المطلقة التصرُّف، والله أعلم.

أما ما يأتي من بيان سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس مِن ذلك ووسوسته له، فهو حكايةٌ لعصيان إبليس وخروجه على الأمر بالتأويل والتمحُّل، وتتضمَّن تحذيراً للإنسان من اتِّباع الشيطان في ذلك، وتُنبِّه لأمرَيْن مهمَّين:

الأول: بيان كرامة الإنسان واستعداده للعلم الواسع وعمارة الأرض به.

والثاني: بيان استعداده للشرّ، كاستعداده للخير، وإن كان الاستعداد الثاني بواسطة المحافظة على سلامة الطبيعة، والأول بواسطة تحريفها.

والغرض من هذا البيان: تحذيره عن الوقوع في الشرِّ بتحريفه لطبيعته، وتنبيهه ليحترس عن ذلك، بما أودع الله فيه من العقل والاستعداد الطبيعي للخير إذا حافظ على سلامة طبيعته، وبما أرسل له من الرسل تُعلِّمُه الطرق المستقيمة التي يصلُ سالكها إلى حظيرة النجاة.

وقد أوقف سبحانه آدم بالفعل على ما فيه من استعداد الشرِّ وتأثيره على مستقبله، حيث أدخله الجنَّة، ثم أخرجه منها لتأثير ناحية الشَّرِّ عليه واتِّباعه لـهواه بوسوسة الشيطان، وحذَّره عن ذلك بمثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٤ – ٦]، ويعني بهم: الذين حافظوا على سلامة فطرتهم واتَّبعوا شريعةَ رُسُلهم.

وما يأتي في القرآن من مكالمة إبليس وأمر الله تعالى له بإغواء البشر، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]، فقد قال عنه ابن كثير: «إنَّ هذا الخطاب للتكوين»(١)، وهو عبارة عن بيان الواقع في صفة طبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان، يريد: أنه تمثيل وإيذان(٢) بأنَّ استعداد الشرِّ محيطٌ بالإنسان من كلِّ نواحيه، وهو قرينٌ لاستعداد الخير فيه، وإن كان الثاني طبيعياً، والأول نتيجةً لتحريف الطبيعة وتغيير مَجْراها.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥: ٩٣).

(٢) جاء في «دلائل الإعجاز» ما ملخَّصه: إنَّ بعض المفسِّرين توهَّموا في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل: أنها على ظواهرها؛ فأفسدوا المعنى وأبطلوا الغرض، ولم يوفَّقوا لـما هو المقصود وما به يُراد. (المؤلف). وينظر الكلام في «دلائل الإعجاز» للجرجاني ص٣٠٥.

والغرض من هذا البيان: زيادة المبالغة في التحذير من الوقوع في الشرّ، والحثّ على الاحتياط لذلك، بما أودع الله في الإنسان من الاستعداد الطبيعي للخير، وبما أعطاه من العقل، وبما أرسل له من التعاليم على لسان رسله. وقالوا: إنَّ الشيطان قوَّة في الإنسان نزَّاعة إلى الشرّ، وهو من عالم الغيب، وقد جاءت به نصوص القرآن، فنؤمن بذلك، وإن كنّا لا ندرك حقيقتَه، ونتحفَّظ من شرِّه[١].

وقد قالوا: إنَّ لكل إنسان شيطاناً، وهي قوَّةٌ نزَّاعة إلى الشرّ، يحدث منها في نفس الإنسان خواطر السوء، فيقاومها العقل، حتى تكون الغلبة لأحدهما، فإن كان العقل لم يُفسِده صاحبه فالغَلَبَة له، وإلا فالغَلَبَة لها[٢].

وقد روى مسلم[٣] عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبيّ ﷺ من عندي ليلاً، فغِرْت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «ما لك يا عائشة، أغِرْتِ؟» قلت: وما لي لا يغارُ مثلي على مثلك؟ فقال: «أقد جاءك شيطانُك؟» قلت: يا رسول الله أوَمعي شيطان؟ قال: «نعم»، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «نعم»، قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: «نعم، ولكن ربِّـي أعانني عليه حتى أسلم».

---

(١) كرَّر القرآن قصة آدم وإبليس ليقرِّر في الأذهان عداوة الشيطان للإنسان وابتلاءَه به في هذه الحياة الدنيا؛ كي يَحْذَر من وسوسته، ويتَّقي شرَّها، لأنه خُسران مبين للدنيا والأخرى.
ومَغْزى القصة: أنَّ للإنسان جانبَ خير يصل بتنميته إلى السعادة، وجانبَ شرٍّ يصل بتنميته إلى الشقاء، فليغتنم الأول وليحذر الثاني، وإنَّ التمسُّك بالتعاليم الإلهيَّة هي وحدها الكفيلة بذلك. (المؤلف).

(٢) سيأتي التعليق عليه قريباً (١: ٥٦١).

(٣) في «صحيحه» برقم (٢٨١٥).

وروى مسلم(١) عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وَكَّلَ الله به قرينَه من الجن»، قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟ قال: «وإيَّاي، إلا أنَّ الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير».

وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ في كلِّ إنسان نَزْعة من الشرِّ، فإن عالـجَها وذلَّلها وتَسَلَّط عليها استَسْلَمت له وهانَتْ عليه، فسَلِمَ منها ومن غوائلها، وجاء عنه ﷺ: «ما مِنْ أحدٍ يُصبح إلا ومَعَهُ مَلَكٌ يقول: يا عبدَ الله، هلُمَّ إلى الخير. وشيطانٌ يقولُ: بل هَلُمَّ إلى الشرّ»(٢).

ويقول علماء النفس: إنَّ الذات البشريَّة تنقسم بنتيجة التربية إلى ثلاثة أقسام: الذات السُّفلى، والذات العليا، والضمير.

فالذات السُّفلى: هي التي تـتكوَّن من التربية السيِّئة، وتجعل الغرائز في حالتها الهمجية، إذ يكون كلُّ همِّها أن تَصِلَ إلى ميولها وأهدافها، وإن أساءت التصرُّف وعبثت بالقيود الاجتماعية والقوانين النظامية من شرعيَّة ووضعيَّة، ولا تريد أن تخضع للعقل والضمير.

والذات العليا: هي التي تتكوَّن نَـزَعاتُها من التربية الحسنة والنشأة اللامعة، والثقافة والتهذيب الصحيحَيْن، ويكون همُّها التمثُّل بالمُثُل العُليا، والتفوُّق في ذلك بمعونة العقل والضمير، أي: الغريزة الدينية.

فالذات السُّفلى إذا غلبت تهوي بالإنسان إلى أسفل سافلين، فلذلك حذَّر منها

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٨١٤).

(٢) لم أقف عليه.

القرآن، وعبَّر عنها بهذه القوَّة الشريرة التي يُمثِّلها الشيطان، أو هو عبارة عنها[١]. فإنْ أصبتُ فالحمد لله، وإنْ أخطأتُ فأستغفرُ الله، والله أعلم.

والذات العليا إذا غَلَبت تسمُو بالإنسان إلى أعلى علِّيِّين، وهو الكمال المنشود للإنسان في عالم الغيب وعالم الشهود.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣] وهم الذين يحافظون على سلامة طبيعتهم واستعدادهم الفطري لِقَبول الحق والإعراض عن الباطل، ولم يُفسِدوا ذلك بمفاسد التربية وسوء القدوة، فإن هؤلاء لا تؤثِّر عليهم قوة الشر ووسوسة إبليس.

---

(١) ما ينشأ ويتكون من التربية السيئة هو الأخلاق السيئة المذمومة المكتسبة من تلك التربية، وهي صفات، ولا يُعبَّر عنها بالذات؛ إذ الذات هي ماهيّة موجودة تقوم بها الصفات، وليست الذات صفةً أو أمرًا اعتباريًّا.

وقد جعل الشيخ تلك الأخلاق والصفات المذمومة هي القوة الشريرة في الإنسان - والتي عبّر عنها خطأ بالذات البشرية السفلى - وزعم أن الشيطان يمثلها، ثم شطّ في تعبيره فقال: (أو هو عبارة عنها)، فجعل تلك الأخلاق المذمومة هي الشيطان، ونصوص القرآن الكريم الصريحة تدل دلالة واضحة على أن الشيطان إذا أطلق فهو مخلوق يوسوس للبشر بالشر والإغراء بالمعصية.

أما إذا دل السياق على غير ذلك فإنه يراد به معنى أوسع، فيُفسر بما ذكره الراغب الأصفهاني والرازي في «مختار الصحاح» بأنه اسم لكل عارم - أي: خبيث شرير - أو عاتٍ من الجن والإنس والحيوانات.

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾، (شياطين الإنس والجن).

نعم يمكن أن يسمى كل خُلقٍ ذميم للإنسان شيطانًا، كما جاء عند الراغب الأصفهاني فيقال: الحسد شيطان، والغضب شيطان. وذلك محمول على أن ذلك الخلق من الشيطان كما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد (١٧٩٨٥) وأبو داود (٤٧٨٤): «إن الغضب من الشيطان...».

وهو بهذا المعنى محمول على التشبيه، ولا يصح بحالٍ أن يقال: إن الخلق الذميم هو الشيطان نفسه على وجه الحقيقة. وينظر ما تقدم في المقدمة ص١٢١.

وتحرير المعنى: أنَّ الله سبحانه قد أخلص ومنع طبيعة الإنسان من قبول ذلك، ما لم يُحرِّف مجْرى طبيعته بالإفساد.

وقد قالوا: إنَّ هذه الكلمات من الملائكة ومن الشيطان كلّها خطاباتٌ تكوينيَّة من نوع الخطاب التكويني في مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فقد قالوا: ليس هناك أمرٌ بالقول على الحقيقة، ولا جوابٌ لذلك القول، ولكن الكلام على التمثيل، يُبيِّن به سهولة ذلك عليه، وأن خلقتهما كانت من غير تكليف ولا مَشَقَّة، بل هي بمنزلة ما يقال للمأمور: افعل، فيفعل من غير تلبُّث ولا توقُّف، فعبَّر عن هذا بالأمر والطاعة، كما عبَّر عن طبيعة المَلَك والإنسان والشيطان بصورة هذه المكالمة وبفَحْوى هذه القصة[1].

وهكذا تأتي في القرآن صيغةُ الأمر، والإرادة، والقضاء، والكتاب، والحكم، والإذن، والبعث، والإرسال، بمعنيين: معنى تشريعي، ومعنى تكويني، يُراد به خَلقُه وإيجادُه بحسب السُّنَن الكونيَّة على تلك الصورة.

ومن النوع الأول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ

---

(١) من المعلوم في اللغة وأصول الفقه: أنّ الأصل في الكلام حَمْله على الحقيقة إلا إذا جاءت قرينة تصرفه إلى المجاز؛ ولا قرينة هنا تَصرِفُ الكلام عن ظاهره، فوجب حَمْله عليه وإجراؤه على حقيقة المكالمة والمحاورة، لكنْ قد تكون بواسطة، والله أعلم. ويُنظَر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان حول هذه الآية المتقدم أول الكتاب ص٣٠١.

ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

ومن النوع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥]، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

ويأتي مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]، فقالوا: إنه طلب أن تَتَّصل حياتُه الأولى بالحياة الثانية كي لا يموت أبداً ليستفيدَ من مُدَّة الحياة الدنيا لـمَّا حُرِمَ الآخرة، فلَم يُجِبْه سبحانه إلى هذا الطلب، وإنما أجابه إلى ما اقتضته حكمته، وهو تأخيره إلى انتهاء أيام التكليف، وهي النفخة الأولى التي يموت فيها الخلائق أجمعون، وقال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧-٣٨]، فهناك ينتهي أثر هذه القوّة الشريرة في الإنسان.

ويجوز أن تكون الآية تمثيلاً لبقاء هذه القوَّة ببقاء الإنسان في الدنيا مدَّة عمره[1].

---

(١) إن الآية المذكورة لا يراد بها مُجرَّد التمثيل، فإبليس سأل حقيقةً وأجابه الله تعالى حقيقةً، كما أخبر تعالى في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٨].

=

= قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن»: قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾، هذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى، وأنه أهلٌ أن يُجابَ له دعاء، ولكن سأل تأخير عذابه زيادةً في بلائه كفعل الآيس من السلامة، وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون: ألَّا يموت، لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ يعني: من المؤجلين ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾. اهـ. «الجامع لأحكام القرآن» (١٠ : ٢٧).

واعلم أن أهل العلم ذكروا أن الأصل حَمْلُ ألفاظ القرآن على حقائقها اللغوية أو الشرعية أو العُرْفية لأنها الأصل، ما لم يترجَّح المجاز بشهرة أو غيرها، وبناء عليه فلا يحمل اللفظ القرآني على التمثيل والرمز إلا بدليل أو قرينة تصرفه إلى المجاز، ولا قرينة هنا تصرف الكلام عن ظاهره.

قال السبكي في «الأشباه والنظائر»: حَمْلُ اللفظ على ما يتبادر إلى الذهن أَوْلى، ومن ثَمَّ يُحمَلُ على الحقيقة ما لم يترجح المجاز بشهرة أو غيرها. اهـ «الأشباه والنظائر» (١ : ٢٧٤).

ولو تأمل المتكلم الكلام، وأعطاه حقَّه من التأمل؛ لعلم أن القرآن المبين ليس فيه شيء تكون معانيه رمزية، فإن الرموز مخالفة لبيان القرآن الكريم، بعيدة عن دلالاته، كيف وقد قال الله عنه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣]، وقال في وصفه: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ١ - ٣]، وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، فكيف يكون هذا القرآن العظيم الذي نزل تبياناً لكل شيء، وفصِّلت آياته، ووَصَفَه من أنزله بأنه مبين، وأنه جعله قرآناً عربياً من أجل عقله وفهمه.

إذا كنا نمنع منعاً باتاً الدلالات الرمزية في الأحكام التكليفية التي متعلقها أعمال العباد التي قد يسوغ الاجتهاد في بعضها حسبما تقتضيه الشريعة، فكيف نسوغ لأنفسنا أن نعمل بالدلالات الرمزية في الأخبار المَحْضة التي لا مجال للرأي فيها بوجه من الوجوه؟

إننا لو سوَّغنا ذلك لأنفسنا لتلاعب الناس في كلام الله وكلام رسوله، وصار كلُّ واحد من الناس، أو كلُّ طائفة من الناس تدَّعي أن هذه الآية أو هذا الحديث رمزٌ لكذا وكذا، فتبطل الشريعة بهذا المعيار عقيدةً ومنهجاً.

ولا أدري هل يمكن لقدم مؤمن أن تثبت في الدنيا، أو إذا لاقى ربَّه يوم القيامة على دعوى أن في كلام الله تعالى ما دلالته رمزية، وقد أخبر الله تعالى عنه أنه جعله قرآناً عربياً لنعقله ونفهمه على مقتضى اللسان العربي الذي نزل به؟ اهـ من «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين».

وقد ذكر المفسِّرون والمؤرِّخون في مقدِّمة تواريخهم آراء وحكايات عن إبليس وآدم وما جَرى لهما، ونسبوا بعض ذلك إلى رواية ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وغيرهم، ولم يصحّ شيء من ذلك النقل، إنما هو من الإسرائيليات أو الخرافات، وما ذكرناه في تفسير هذه الآيات هو الأَوْلى.

فمن طرق التعابير في القرآن: تصويرُ المعنى الذهني أو الحالة النفسيَّة أو الطبيعية الكونيَّة بصورة المحسوس أو المتَخَيَّل لتوضيحها وتثبيتها. والله أعلم.

* * *

ومن سَنَن القرآن: **أن يُبيِّن أحوال الإنسان بمقتضى سنن الله العامَّة في طبائع البشر، ويَنسُبَها إلى الله**، كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، بمعنى: مَضَت سُنَّتنا في أخلاق البشر وشؤونهم أن يستحسنوا ما يجرون عليه ويَتَعوَّدونه، مما كان عليه آباؤهم أو مما استحدثوه بأنفسهم.

ومثل هؤلاء جاء فيهم قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠] أي: فهم يَسْتَنْبطون التأويلات والاحتمالات في توهية ما يُلقى إليهم ممَّا يُخالف ما قد انطبعوا عليه بالتقليد الأعمى، ويتخيَّلون في ذلك التخيُّلات والتوهُّمات، فهذا التزيين والتقليب إنما هو جارٍ بحسب طبيعة الإنسان في الانطباع على ما يرسخ فيه بفعله وسَيْره وكَسْبه لعلومه، فلا يسمع ما يخالف تلك الانطباعات، ولا سيَّما المتأتية من مفاسد التربية والقدوة السيئة والتقليد الأعمى؛ لأنَّ صاحبها يفقد الاستعداد الطبيعي للنظر الصحيح والبحث الـمُوصِل إلى الحق، ويرى كلَّ ما يخالف انطباعاته باطلاً وضلالاً.

وعلى هذا المعنى يأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]،

وقوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٨٨] أي: ليس في استطاعتكم أن تُغيِّروا سُنَنَ الله في نفوس الناس.

ومثلُه قولُه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

والمعنى في كل ذلك: أنَّ من سُنَّة الله في قلوب البشر إذا تمادت في الباطل، وصارَ ذلك من مَلَكاتها، أنْ تفقد الاستعدادَ للاهتداء إلى الحق، وهذا هو بعينه معنى قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]، فكلُّها بمعنى أنَّ التقليد الذي يختاره الإنسان ويتمشَّى عليه يكون مانعاً له من النظر والاستدلال والبحث عن الحقائق لقوة ثقته بمَنْ يُقلِّده من الرؤساء، فهو لا يستمع إلى متكلِّم ولا إلى داع للتمييز بين الحق والباطل، وإذا وَصَل إلى سَمْعِه قولٌ مخالفٌ لما هو دينٌ له أو عادة، لا يتدبَّره ولا يراه جديراً بأن يكون موضع المقابلة والتنظير بما عنده من دين أو رأي أو عادة قد انطبع عليها.

ومثلُ هذا قولُه تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، بمعنى: أنهم لشدَّة انطباعهم على الغيِّ سيسترسلون فيه درجةً بعد درجة، ولا يدرون ما عاقبة أمرهم؛ لما قد ألفوا من الضلال بسوء القدوة وفساد التربية.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]: أنَّهم سيَسْتَوفونَ حُظوظَهم في الدنيا، ويظنُّون أنَّ ذلك من خيرهم وصالح أمرهم وقَبولهم عند ربِّهم، ولا يعلمون أنَّ عاقبتَهم الخُسران والدمار، فإذا تمادَوْا في الغيِّ وبَلَغوا فيه إلى غايةٍ لا مَطْمَعَ بعدها في إيمانهم وصَلاحِهم استأصَلَهم الله بالعذاب.

ويأتي في القرآن مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [يونس: ١٩] أي: في تأخير العذاب عن المجرمين إلى يوم الدين ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصالهم بالعذاب في الدنيا قبل عذاب الأخرى.

ويأتي في القرآن مثلُ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١) [يونس: ٣٣] أي: مَضَتْ سُنَّة الله تعالى في غرائز البشر الذين خرجوا عن حظيرة الحقِّ وانطبعوا على الباطل أنهم لا يميلون إلى الإيمان بالحق ويُوهُونَ كلَّ ما يخالف باطلهم، وإذا وَصَلَ إلى سَمْعِهم قَوْلٌ مُخالف، لا يَرَوْنَه جديراً بالنظر والتأمُّل.

ومثلُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦] والمراد بها: الكلمة التكوينيَّة في أخلاق الإنسان، وهي أنَّ من انطبع منهم على الكفر والضلال بصُنعِه يفقدُ استعدادَه للهداية والرشاد فهم لا يؤمنون أبداً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] أي: الذين ظلموا أنفسَهم بإطفاء نور العقل، ومَحْق استعدادهم الطبيعي لمعرفة الحق، فأصبحوا لا يهتدون إلى الصِّراط المستقيم الـمُوصِل لسعادة الدارين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦] أي: الذين خرجوا عن سلامة الفطرة وجلاء البصيرة إلى فساد الطبع وظلام الفِكرِ بتأثير التربية الفاسدة والقدوة السيئة.

---

(١) المعنى الراجح لهذه الآية وأمثالها: إن الذين ثبت عليهم حكمُ ربك بتعذيبهم واستئصالهم في الدنيا، أو بتعذيبهم عذاباً أبدياً في جهنم، لا يوجد لديهم استعدادٌ ما لأن يؤمنوا مستقبلاً، مهما أُمهِلوا وذُكِّروا.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨] بمعنى: مَضَتْ سُنَّته تعالى في طباع البشر وأخلاقهم أن يمنع الكفرُ صاحبَه من النظر والرويَّة في الحق، لأنه ينطبع على الباطل ويَجمُد عليه.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩] أي: جَرَتْ سُنَّتُه تعالى في الراسخين في الجهالة أن يفقدوا الاستعداد الطبيعي للنظر الصحيح في البحث والفهم والاستدلال.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وهو الذي يُحافظ ـ ولو بعضَ المحافظة ـ على سلامة فطرته التي فطره الله عليها، واستعداده الطبيعي للنظر الصحيح وللإيمان بالله وحده.

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا...﴾ [الأنعام: ١٢٥] إلخ، وهو الذي يُفسِدُ طبيعتَه كلياً بمفاسد التربية، ويطبعُها على الكفر، بطابع القدوة بالكافرين، ومن ينطبع على شيء ينفرُ ممّا يخالفه، ويكرهه كرهاً شديداً، ولا سيّما بعد أن يَفقِدَ نور بصيرته بالكليَّة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٧] أي: بحسب سُنَّة الله العامَّة التي شاءها في الإنسان، وهي أنَّ الذي يُفسِدُ طبيعتَه بمفاسد التربية وسوءِ القدوة يصبح لا يُبصِرُ الحقَّ ولا يهتدي إليه، ﴿وَيَهْدِىٓ مَن يَشَآءُ﴾ [يونس: ٢٥] أي: الذي يُحافظ على سلامة فطرته ونور بصيرته واستعداده الطبيعي للاهتداء إلى الحق، فهو الذي يجيبُ الداعي إذا دعاه للرُّشد والفلاح. هذه هي سُنَّة الله العامة التي شاءها سبحانه في الهداية والضلال.

وإنك إذا عَمَدتَ إلى أيِّ نوع من أنواع المخلوقات الحيَّة، ووَجَّهتَه إلى غير جهته

الطبيعية[١]، وعالجته على ذلك، فإنه ينحرف عن اتِّجاهه الطبيعي ويتحوَّل إلى غير سبيله، وبعد أن ينمو على الوضع الجديد الذي وضعتَه فيه، والاتِّجاه الذي وجَّهتَه إليه، يصبح رجوعُه إلى طبيعته الصحيحة الأولى محتاجاً إلى قوَّة غير ذاتيّة ترجعه إليها قَسْراً، وتضعُه فيها جَبْراً. وهكذا يكون الإنسان إذا أفسَدَ طبيعتَه وغيَّر اتِّجاهَه عن طريقه الصحيح.

ويجوز أن يكون فاعلُ ﴿يَشَآءُ﴾ عائداً إلى ﴿مَن﴾، فيكون المعنى: يُضِلُّ مَنْ يشاءُ الضلالَ، ويهدي مَنْ يشاءُ الهداية[٢].

---

(١) كما إذا عَمَدتَ إلى غُصْن فلويتَه وربطتَه، فنما على اعوجاجه، وإلى طير فحبستَه طويلاً حتى ألف الحبس ونسي طيب الجو وفجاجه؛ فلا يعود كلٌّ منهما إلى سيرته الأولىٰ. (المؤلف).

(٢) الذي جوَّزه المؤلف ـ غفر الله له ـ وذهب إليه قال به بعضُ أهل العلم، ومنهم العلامة الكوثري في «الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار»، ص١٠، كما ذهب إليه أيضاً أحد المفسِّرين في العصر الحديث، وهو الأستاذ عبد الحميد الخطيب المتوفى سنة ١٣٨١، وكان سفير المملكة العربية السعودية في باكستان، وله تفسير سماه: «تفسير الخطيب المكي»، قال فيه: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١]: مَنْ يشاء الضلالة يضلُّه، ومَنْ يشاء الهداية يَهْديه.

فجعل فاعل ﴿يَشَآءُ﴾ هنا ـ وهو الضمير المستتر ـ لا يرجع إلى الله، ولكن يرجع إلى كلمة ﴿مَن﴾، مَنْ شاء الضلالة أضلَّه الله، ومَنْ شاء الهداية هَدَاه الله.

والشيخ رشيد الخطيب يؤيد هذا القول، وليس هو المُتبادَر من الآية، لأن كلمة: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، ذُكرت في آيات كثيرة جداً: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢١٢]، ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]. ذُكرت ﴿مَن يَشَآءُ﴾ في القرآن الكريم مرَّات عديدة أكثر من مئة مرَّة، كلُّها ترجع إلى الله عزَّ وجلَّ.

فلماذا كلمة: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ هنا نستثنيها، ونقول: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي: الإنسان؟

وماذا تفعل في قوله تعالى حكاية عن نبيِّه موسى عليه السلام حيث يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؟ فالخطاب هنا لا يُوجد فيه: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، والفاعل فيها لا يصحُّ أن يكون المراد به غير الله؛ إذ لو كان كذلك لقال: تُضِلُّ بها مَنْ يشاءُ وتهدي مَنْ يشاء.

=

وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] أي: من سُنَّة الله تعالى في البشر أنَّ مَن يتَّبع هواه في أعماله ويستمرُّ على ذلك، تَضْعُف إرادتُه فيما يخالف ما انطبع عليه، فلا تعود تؤثِّر عليه المواعظ، ولا يجذبه الإرشاد[1].

= وكذا قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣]، فالمعنى: أنه لو شاء لجمعهم على الهدى، ولكن اقتضت حكمتُه غيرَ ذلك، فأضلَّ من شاء إضلالَه، وهدى من شاء هدايتَه، كما قال القرطبي:

«قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، أي: على مِلَّة واحدة. ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بخِذلانِه إياهم، عَدْلاً منه فيهم. ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ بتوفيقه إياهم، فضلاً منه عليهم» انتهى. «تفسير القرطبي» (١٠: ١٧٢).

وقال الألوسي: «﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ متفقةً على الإسلام، ﴿وَلَٰكِن﴾ لا يشاء ذلك رعايةً للحكمة، بل ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه بأن يخلق فيه الضلال حسبما يصرف اختياره التابع لاستعداده له، ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه حسبما يصرف اختياره التابع لاستعداده لتحصيلها» انتهى. «روح المعاني» (٧: ٤٥٩).

فالذي يشاء: هو الله عزَّ وجلَّ، ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ أي: الله يُضِلُّ مَنْ يشاء له الضلالة، ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ أي: له الهداية، ولكن الهداية والضلالة تأتي وَفْق سُنن الله.

فهذا الكونُ كلُّه ـ بما فيه الإنسان ـ تحكمه سننٌ وقوانين كونيَّة واجتماعيَّة لا تَتبدَّل ولا تَتحوَّل، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

فالقول المعتمد إذن أنَّ فاعل ﴿يَشَآءُ﴾ هو الله سبحانه وتعالى.

(١) أو معنى الآية ـ كما في تفسيري «المعين» ص١٧٩: «واعلموا ـ أيها المؤمنون ـ أنّ عِلمَ الله نافذ إلى أعماق القلوب، يتلقّى ما يصدر عنها مباشرةً قبل أن تصل إلى مركز وعي الإنسان (القلب)، فلا يصدر عن القلوب شيء دون أن يَمُرَّ على رقابة علم الله، كما لا يصل شيء من مستويات دائرة النفس من نَـزْغ الشيطان ووساوسه، وحركات النفوس المتعلقة بالشهوات والأهواء والغضب والحبّ إلى القلب إلا بإذنِ الله وعِلمِه، ولا يخرج شيء من القلب إلى مستويات دائرة النفس إلا بإذن الله وعِلمِه، وَفْق سُنّتِه في عباده وحكمته في ابتلائهم».

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨] أي: بأن يخلقكم على استعداد الخير، ومَيْـل إلى ما يأمر به الله، لا إلى ما يُخالفه، فتكونون كالملائكة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، إلا أن ذلك يُحدِّد دائرةَ عِلمِكم وعَمَلِكم واستنباطكم، وذلك مُخالفٌ للحكمة التي خلقكم الله لها، ومشيئتُه تجري بحسب الحِكَم والمصالح، لا تجري جزافاً، سبحانه وتعالى عن ذلك.

ومثلُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] وذلك بأن يخلقهم كالملائكة، فلا يكون عندكم العلمُ والقدرةُ على الإيجاد والعمل[1] الذي تعملونه الآن، وما تستفيدونه من مواهب الأرض وخيراتها وكنوزها، ولا تصلحون أن تكونوا خلفاء فيها.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وتوضيح البيان في ذلك: أنَّ الله سبحانه خلق للإنسان عقلاً يتصرَّف في أنواع شعوره وشؤونه ومختلف حاجاته البدنيَّة والنفسيَّة، وجَعَل ارتقاءه في تفكيره وإدراكه كَسْبياً، ينشأ ضعيفاً فيقوى بالتدريج، ويتطوَّر حسب نوع التربية التي تُحيط به والتعليم الذي يَتَلقَّاه، والخُلطاء الذين يتهيَّئون له فيُعاشرهم، وجَعَل اهتداءه بالدين أمراً اختيارياً لا وَضْعاً اضطرارياً، فالهداية معروضةٌ أمامه، فإما أن يأخذ منها، وإما أن يُعرِض عنها، بمقتضى نوع تهذيبه وتربيته التي صادفها، وبقدر ذلك يزداد وينقص استعدادُه للأخذ من الهداية أو الضلال، كما هو شأنه في الأخذ بسائر أنواع الهداية، والاستفادة من منافع الكون أو مضارِّه، ومُعاطاة المصالح أو المفاسد.

---

(١) القدرة على العمل مُسلَّمة، وهي كَسْبُ العبد، أما القدرة على الإيجاد فلا، إذ الإيجاد بقدرة الله وحدها، ولا مدخل فيه لقدرة العبد. اللهم إلا أن يريد بالإيجاد: الصناعة والبناء وتصيير الأشياء من حال إلى حال، فيكون مجازاً.

ومحصِّل الآية: أنَّ الله سبحانه قد هدى الإنسان بفطرته وبوَحْيه، فهو مستعدٌّ للهداية ما لم يُفسِد غريزتَه بمفاسد التربية وسوء القدوة.

ومن هذا النمط قولُه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧] بمعنى: أنه يتقدَّم للخير باختياره أسبابَ الهدى، أو يتأخَّر عن ذلك بانحرافه عنه واختياره أسبابَ الضلال.

ثم قرَّر المعنى بهذا الحكم فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، فهذه هي نتيجةُ الكَسْب والتربية.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩] صريحٌ في أنَّ الإنسان مختارٌ في اندِفاعِه إلى الخير أو الشر، وإلى الهدى أو الضلال.

ثم بيَّن تعالى أنَّ ذلك مبنيٌّ على مشيئة الله له هذا النَّمطَ من الخِلْقة، ومشيئتُه تعالى إنما تجري بحسب العلم والحكمة، فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(١) [الإنسان: ٣٠] أي: لا تجري مَشيئتكم إلا بجَرَيان مشيئةِ الله، وهي أنه لا يهتدي إلى الصِّراط المستقيم إلا مَن حافظ على سلامة فطرته التي شاءها بحكمته، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، ومن علمه وحكمته: أنه لم يخلق البشر مؤمنين طائعين بالفطرة كالملائكة، ولكنه شاء أن يكونوا عالمين علماً واسعاً صالحاً لاستثمار خيرات

---

(١) هذه الآية للإيذان بأن معارضة الإنسان ليست ناشئةً عن عَجْز في قدرة الله، ولا قَسْراً لإرادته، ولكنها جارية بحسب سنن خَلْقيَّة ونواميس كونيَّة شاءها سبحانه في طبيعة الإنسان، وأساسها كونه مختاراً في تصرُّفاته، يفعل ما تُمليه عليه إرادتُه بحسب عقليته الناجمة عن شكل تنشئته وتربيته. والله أعلم. وإذا أفسد طبيعته وضلَّ عن سواء السبيل لا يمكنه أن يشاء الهدى، لأن ذلك مخالف لسنة الله في طبيعته. (المؤلف).

الأرض، وذلك يستلزم أن يكونوا عاملين مُخْتارين، وهذا يُفضي إلى أن يكونوا مُستعدِّين للإيمان والكفر، والطاعة والفِسْق، ولكن هذا الاستعداد تحت تأثير كَسْبهم وما يحيط بهم من أنواع التربية والتعليم والبيئة وحوادث الزمان والمكان، كما هو شأنهم في الأخذ بسائر أنواع الهداية والاستفادة من منافع الكون وانحرافهم عنها، فغرائـزُهم كلُّها خير، وتصرُّفاتُهم وكَسْبُهم للعلوم والأعمال فيها الخير والشر. أما الخير ففي موافقتهم لسنن الله في هذا الكون، وتمسُّكهم بتعاليم شرائعه التي يُنزلها على رُسُله إلى البشر، وأما الشرُّ ففي انحرافهم عن تلك السُّنن والشرائع.

ومُحصَّل الكلام: أنكم لا تشاؤون أن تسلكوا الصِّراط المستقيم إلا إذا حافظتُم على سلامة فطرتكم؛ لأنَّ الله قد شاء ذلك في نظام طبيعتكم، كما لم يشأ في حبَّة البُرِّ أن تَنبُتَ إذا تعفَّنت أو نَخرها السُّوس.

ومثلُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٧ - ٢٨] ويعتدلَ في المحافظة على فطرته واستعداده الطبيعي لمعرفة الحق من الضلال.

وتوضيح الآية: أنَّ الله سبحانه أرسل هذا الذِّكرَ للعالـمين، بعد أن خلقهم كاملين مُستعدِّين لقبوله إن لم يُفسِدوا طبيعتَهم بمفاسد التربية وسوء القدوة ورداءة النشأة والتعليم، وذلك كمن يكون له جهاز يعمل عملاً من الأعمال ـ كالحاكي أو المذياع مثلاً ـ: فإن أجاد استعماله بمقتضى صَنْعته، وحسب تعاليم صانعه إيجاباً وسلباً؛ بقي الجهاز سالـماً، يقوم بعمله أحسن قيام. وإن عَبث به وأساء استعمـاله؛ عطب واختلّ، فلم يَقُمْ بالعمل مطلقاً أو لم يَقُمْ به على الوجه المطلوب الذي وُضع له.

وهكذا شاءت إرادة الله تعالى أن يُخلَقَ الإنسانُ كسائر مخلوقاته مخلوقاً كاملاً

سالماً صالحاً مُيسَّراً لِـمَا خُلق له من الخير وطلب الكمال، فإن بقيَ على سلامة فطرته ونمَّاها عليها بحُسْن تربيته وصلاح قدوته وخُلَطائه، وعمل بما أرسل الله إليه على لسان رسله من التعاليم التي تساعده في نموِّ كماله؛ نال ما خَلَقه الله له من الكمال، فكان خيراً من الملَك. وإن شاء أن يعوجَّ ويزيغَ بسوء اختياره في نشأته وقدوته وعشرائه، وبإهمال تلك التعاليم التي أرسلها الله إليه؛ ضلَّ عن السبيل، وارتدَّ إلى مثل أقبح الحيوانات طبيعةً وروحاً.

ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] أي: إلا إذا حافظتُم على سلامة فطرتكم، لأنَّ الله سبحانه قد شاء ذلك في نظام طبيعتكم. فمن حافظ عليها رأى الحق حقاً والباطل باطلاً، ومن أفسدها رأى الباطل حقاً والحق باطلاً[١].

---

(١) ومعنى الآيات ٢٧-٢٩ ـ كما في تفسيري «المعين» ـ: «ما القرآن الذي يتلوه محمّدٌ إلا مُوجَّهٌ لجميع العالمين المكلَّفين الموضوعين موضعَ الامتحان في الحياة الدنيا، ينتفع بهذا الذكر ويهتدي بهَدْيه، مَن أراد بإرادته الحرَّة أن يستقيم على صراط الحقِّ والهُدى، قد منحكم الله مشيئةً حرَّةً تستطيعون بها أن تشاؤوا طريق الخير أو طريق الشر، ولولا ذلك لكنتم مُجبَرين، ولستُم تشاؤون شيئاً إلا إذا مَنَحكم خالقُ الكائنات والمُهَيمِنُ على كلِّ ما سواه بسلطان ربوبيَّته المشيئةَ الحُرَّة، ومكَّنكم من استخدامها، فأنتم مسؤولون مسؤوليةً تامّةً عن مشيئاتكم وأعمالكم الاختياريَّة».
ومثلُ هذه الآية قولُ الله سبحانه في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [٢٩-٣٠] أي: «إنَّ هذه الرسالةَ رسالةُ بيانٍ وهداية وموعظة وإرشاد وتذكير دواماً، وليست رسالةَ إكراهٍ ولا إلزام، فمَنْ شاء بما آتاه الله من إرادةٍ حُرَّةٍ مُمكَّنةٍ بخَلْق الله اتخذ لنفسه في الدنيا إلى رضوان ربِّه ونعيمه في جنَّته وسيلةً بالطاعة والتقرُّب إليه، ولستم تشاؤون شيئاً إلا إذا منحكم الله المشيئة الحرَّة، ومكَّنكم من استخدامها؛ لتشاؤوا بها طريقَ نجاتكم وسعادتكم، أو طريقَ هلاككم وشقائكم، لكنَّ الله ما وَضَعَكم مَوْضعَ الامتحان إلا بعد أن منحكم الإرادة الحرّة، وسائر شروط التكليف، فأنتم مسؤولون =

ومن سنن القرآن: أن يُعقِّب على ضلال الضَّالِّين، بما يُنْبئ عن أنَّ حالاتهم هذه وغيَّهم هذا لم يُخلقوا عليه طَبْعاً وجِبِلّة، ولكنهم اكتسبوه بسُوء تَصَرُّفهم في طبيعتهم وإفسادهم لغريزتهم، فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]. والمعنى: أنه تعالى ليس من سُنَّته في خَلْقِه أن ينقصَهم شيئاً من الأسباب والمواهب التي يهتدون بها إلى ما فيه خيرهم، ولكنهم هم الذين يظلمون أنفسَهم بتحريف تلك المواهب وإفساد تلك الغرائز، حتى لا تكاد تصلح للهداية إلى طريق الخير، بل تفقدُ استعدادَها الطبيعيَّ للنظر الصحيح وإدراك الحق.

فمواهبُ البشر وغرائزه كلّها خير وأدواتُ خير، ولكنه يُفسِدها بسُوء التصرُّف بها وتغيير مَجْراها، فهو الذي يظلم نفسِه في ذلك، وكما يكون هذا في تعاليم الشريعة، يكون في قوانين الطبيعة.

وقد أشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] إلخ، أي: لا يوجد ضَرَرٌ بشؤم أحد، وإنما الشرُّ يأتي من مُعاكسة سنن الله، ثم قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

ومحصَّل الآيتين: أنَّ الله سبحانه نظَّم الأحوال وسَنَّ السُّنن الطبيعيَّة، وكلُّها خير، فإذا مشى الإنسان بمقتضاها لا يُصيبُه إلا الخير والحسنات، وإن انحرف عنها أصابه الشرُّ والسيِّئات.

= مسؤوليَّةً تامَّةً عن مشيئاتكم وأعمالكم، إنَّ الله كان عليماً بأحوال خلقه وما يكون منهم، حكيماً حيثُ خلقهم ووضعهم موضع الامتحان بعد أن منحهم الإرادة الحرَّة، يُدخِلُ مَن يشاء من عباده المؤمنين في جنَّته بفَضْلِه وإحسانه. والظالمين من دركة الكفر أعدَّ الله لهم بعَدْلِه في الآخرة عذاباً مُؤْلِماً في دار العذاب».

فالشرُّ أمرٌ سلبيٌّ لا إيجابي، ويلحق الإنسان من انحرافه عن قوانين الطبيعة. فمعنى كون الشرّ من عند الله: أنه نتيجةٌ للانحراف عن سُنَنه وأنظمته، والانحرافُ من صُنْع الإنسان وكَسْب يده. وهكذا قُل في أحكام الشريعة وتعاليمها التي يُرسلها إلى البشر على لسان رُسله، فكلُّها مطابقةٌ لسنن الله الكونيّة، وكذلك إنْ مشى الإنسان بمُقْتضاها أصابه الخير والحسنات، وإن انحرف عنها ناله الشرُّ والسيِّئات.

والخلاصة: أنَّ مَن أهمل ما توجبُه الغريزة الطبيعية فقد ضلَّ وأخلَّ بصحّته وراحته، ومَن أهمل ما تُوجبُه الشريعة فقد ضلَّ وعرَّض نفسَه للردى ونَيْل الشرِّ في الحياتين معاً.

وجاء عنه ﷺ أنه قال: «لَبَّيْكَ وسَعْدَيك، والخيرُ كلُّه في يديك، والشرُّ ليس إليك»(١).

وأما الإيمان بالقَدَر خيرِه وشرِّه من الله، فلا يعارض ذلك؛ لأنَّ الشرَّ من معاكسة السُّنن التي هي من الله.

ومثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨] أي: فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، وإنما يريد به هدايتَهم إلى ما تكملُ به فِطَرُهم ويتمُّ به نظامُ اجتماعهم، ويُؤهِّلهم لراحة الدنيا ولسعادة الأخرى، فإذا خرجوا عن أمره وحلَّ بهم البلاء بانحرافهم عنه، فإنما يكونون هم الظالمين لأنفسهم.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١] أي: لأنفسهم؛ إذ حَرَموها السعادةَ التي كانت مُستعدَّة لها، لو لم يُفسِدوا فطرتَها بمفاسد التربية وسوء القدوة والكفر والمعاصي والغيِّ والضلال.

---

(١) رواه مسلم (٧٧١)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومثلُ قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] تهديدٌ في صورة تخيير، والمراد: أنه جاء الحق وزهق الباطل، وتبيَّن الرُّشْدُ من الغيّ، فلم يَبْقَ إلا ما تختارون من ذلك لأنفسكم. وهذا تصريحٌ بأنَّ إيمانَ العبد وكفرَه اختياريٌّ، يعودُ إلى ما يختاره هو بنفسه، ويندفع إليه بتصرُّفات عقله ورسوخ مَلَكاته، بنوع تربيته وكَسْبه لعلومه. فإن اختار الخير وعمل به؛ ترتَّب على ذلك في الآخرة نعيمٌ مقيم. وإن اختار الكفر وعمل به؛ ترتَّب عليه عذابٌ خالد أليم.

ومثلُ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] أي: فكان أخذُهم بالعذاب أثراً لازماً من آثار كَسْبهم بحسب سنن الكون، لا أمراً انتقامياً.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨] أي: ذات شريعة واحدة؛ بأن يخلقكم على استعداد واحد بسيط محدود كالطير والنمل، ولكنْ لم يشأ ذلك؛ لأنه مخالف للحكمة فيما يُراد منكم، بل جعلكم نوعاً ممتازاً يرتقي في أطوار الحياة بالتدريج، فلا تصلح له شريعة واحدة من أول نشأة النوع إلى نهايته، ولذلك قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ لأنَّ الإنسان بطبيعته يحبُو في مدارج الرقيِّ النوعيِّ بحركته النوعية.

وهذه الطبيعة في الإنسان تستدعي أن تكون طرقُ التزكية الأدبية له مختلفةً باختلاف تلك الأطوار وما يلائمها من أحوال الاجتماع، فتعدَّدت الشرائع وتجدَّدت، مراعيةً في كلِّ مرَّة درجةَ رُقيِّ النوع المكتسب بالتدريج وسَيْره في طريق الكمال، إلا أنَّ ذلك في فروع الشرائع لا في أصولها، فإنها ثابتة لا تتغيَّر.

وفي كلِّ شريعة يجدِّدها سبحانه، يَعِدُ البشر بإنزال شريعة عامةٍ كاملةٍ عند أول تكامل رقيِّ النوع، يجعلها خاتمة للشرائع، حتى أنزل الإنجيل، ومعناه: البشارة، وكلُّ

ما فيه إصلاحٌ قليل لشريعة موسى ووعدٌ تبشيريٌّ بقرب إنزال الشريعة العظمى التي طالما وعد الله بها البَشَرَ على لسان أنبيائه وفي كتبه المنزلة، لتكون شريعةً عالميةً خاتمةً للشرائع أجمعين، باقية ببقاء السماوات والأرضين إلى يوم الدين.

ثم أنزل الله تلك الشريعة الغرَّاء على خاتم النبيين والمرسلين، فأنزل عليه هذا القرآن العظيم يصلح للبشر أجمعين إلى آخر الدنيا، ويدفعه إلى غاية الكمال. وفرض سبحانه توحيدَ لغة الدين الذي أُريدَ به توحيدُ البشر ودخوله في السِّلم والراحة أجمعين.

فواجبٌ على كلِّ مسلم أن يتعلَّم العربية ليتعلَّم القرآن، بل على كلِّ بشر؛ لأنَّ دين القرآن ولغته عالميان، فكلُّ بشر مسؤول عنها يوم الحساب.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] أي: عليكم، حيث طبع فِطَرَكم على الاستعداد للخير والرَّشاد، ولكن بطريقة اختياريَّة، فأفسدتموها بسُوء تصرُّفاتكم فيها، وذلك لسفالة التربية والقدوة السيئة، ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩] بأن يخلقكم مطبوعين على طاعة الله وعبادته قَسْراً بحيث لا تستطيعون غير ذلك، كالملائكة لا يعصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولكن مشيئة الله لا تجري إلا بحسب الحكمة، وخَلْقُكُم كذلك بطريقة قسريَّة مخالفٌ للحكمة الإلهية فيما أُريد بكم، لذلك لم يخلقكم مُسَيَّرين بل مُخَيَّرين، تَتَصرَّفون حسب إرادتكم ومشيئتكم.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٤] وهو الذي آثر أسباب الضلال وتَشَبَّع بها وجَمَد عليها، حتى أصبحت له طبعاً، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٤] وهو الذي آثر أسباب الهدى بمحافظته على سلامة طبيعته واستعداده للهداية، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، فضَلالُ الضَّالِّ لم يكن قَهْراً لإرادة الله، ولكنه نتيجةٌ لسُنَّة الله الحكيمة في خَلْق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وذلك بأن يخلق سبحانه له الهداية خلقاً ويحمله عليها، فإنه لا يُعْجِزُه ذلك، ولكنه مُخالفٌ للحكمة التي اقتَضَت أن يخلق الإنسان مختاراً في أعماله، فإذا اتَّبع هواه بتَحرِّيه وتَشَهِّيه لـما تميلُ إليه نفسُه في كلِّ عمل من أعماله، دون ما فيه المصلحة والفائدة له من حيث هو جسدٌ وروح، أضلَّه ذلك عن سواء السبيل الموصلة إلى سعادة الدارين، وتعسَّف به في سُبُل الشيطان الـمُردِية الـمهلكة. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ...﴾ [الأعراف: ١٧٦] أي: ولكنه خُلِقَ مُخْتاراً في تَصرُّفاته، فأساء التَّصرُّف وانحَطَّ وتَسفَّل باتِّباعه الهوى والمَيْل إلى الضلال، نتيجةً لسُوء تربيته.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ...﴾ [الأنعام: ١١٢]، ومعنى هذا الجعل: أنَّ سنَّة الله تعالى في أخلاقِ البشر وطباعِهم مَضَتْ بأن يكون الشرير المتمرِّد عن الحقِّ عدواً للدعاة إليه، خوفاً على زعامته ومركزه وما دان به.

ومثلُ هذا قولُه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ..﴾ [الأنعام: ١٢٣]، أي: كما زيَّنا للكافرين ما كانوا يعملون ـ وذلك بحسب سُنَّتنا في أخلاق الإنسان، وهي أنه إذا انطبع على عمل يراه حسناً ويُدافع عنه، ويرى ضدَّه قبيحاً فيوهيه ويبتعد عنه ـ جعلنا في كلِّ قرية أكابرَ مجرميها ليمكروا فيها، وذلك بحسب سنة الطبيعة أيضاً في معارضة أرباب الزعامة للمصلحين، خوفاً على زعامتهم ومراكزهم، فيُنوِّعون الخداع لأتباعهم، بغيةَ أن يتَّفقوا معهم على معارضة الأنبياء والهُداة؛ استبقاءً لنفوذهم وسلطانهم في قومهم، لأنَّ تحقُّق أمر النبي يُفْقِدُهم ذلك طبعاً.

ثم قرَّر طبيعةً أخرى من طبائع البشر في هذا الصَّدَد، فقال: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وذلك لأنَّ كلَّ مَنْ يعادي الحقَّ ويقاومه، يُفسِد طبيعتَه بمعالجة طرق الضلال والإضلال، فينطبع على السُّوء، ويعود عليه في الدنيا والأخرى بالوبال وسوء الحال.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩] بمعنى: أنَّ سُنَّة الله تعالى في البشر وأخلاقهم مَضَتْ بأن يميل الفرد والجماعة إلى مَن هو على شاكلته.

* * *

ومن أساليب القرآن: **أن يُعقِّب بالمشيئة على التأييدات القطعيَّة المثبتة أو المنفية،** لا لإفادة نقض التأييد أو القطع، بل لإفادة أنَّ ذلك الأمر المؤبَّد أو المقطوع به مبنيٌّ على نواميسَ شاءها الله بحسب الحكمة البالغة، ولو شاء غيرها لفعل. وذلك مثلُ قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨] أي: إنَّ الخلود مُحقَّق؛ إذ لا يكون إلا ما شاء الله، وقد شاء لهم الخلود. فهذا الاستثناء ليس نقضاً للتأبيد، ولكنه تحقيقٌ له مع الإيماء إلى أنَّ مشيئة الله لا يعارضها أمر ولا نظام، ولكنها لا تجري إلا بحسب الحكمة، فالاستثناء منقطع. ومحصَّل المعنى: أنهم خالدون فيها لأنَّ الله سبحانه قد شاء لهم الخلود، ولو شاء غيرَ ذلك لفعل.

ويظهر هذا المعنى جلياً في مثل قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٩]، فالله سبحانه وتعالى لا يشاء ذلك أبداً، ولكن المعنى: إلا أن يشاء الله غير تلك النواميس في تكوُّن الأخلاق والميول في البشر وفي نظام هذا الكون، وفي الثواب والعقاب، والله

سبحانه لم يشأ إلا هذه النواميس، لأنَّ غيرها مخالفٌ للحكمة البالغة؛ فمُؤدَّى هذا الاستثناء: الجزمُ بوقوع المستثنى منه، لأنه جارٍ بحَسَب سُنن الله التي شاءها موافقةً للحكمة. وفيه كذلك إرشادٌ إلى التفويض، والتنبيه إلى أنَّ ذلك الأمر إنما هو بكرمٍ من الله وسَعَة جود، لا بتَحْتيمٍ عليه وإيجاب(١).

وقد قالوا: إنَّ هذا الاستثناء كما يقول الرجل لصاحبه: أنت شريكي فيما أملك إلا ما شاء الله، وهو لا يقصد استثناءَ شيء، ولكنه تحقيق وتقرير للاشتراك.

* * *

ومن أساليب القرآن: نفي الشأن، وهو أبلغ من نفي الفعل؛ لأنه نفيٌ له بدليله، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ أي: أنفسَهم بتعرُّضها للشقاء ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ذلك ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: ١٦٨] أي: ليس من مُقتضى سنَّته في خَلْقه أن يغفر لهم ذلك الكفرَ والظلمَ يوم الحساب؛ لأنه يؤثِّر في النفس ويُكيِّفها بكيفيَّة من فساد الفطرة، تجعلها بعيدةً عن الأحوال المؤهِّلة للغفران ودخول الجنان، فنفيُ الشأن أبلغ أنواع نفي الوقوع.

---

(١) أو معنى الاستثناء في قول شعيب لقومه الذين حاولوا إكراهَه على الدخول في مِلَّتِهم، مع أن قضايا العقيدة لا يعقل أن تكونَ مع الكراهية والإجبار، وإنما تكون بالرغبة الذاتيّة والاختيار الحرّ: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: قد اختلَقْنا على الله كَذِباً إنْ نحن رَجَعْنا عن ديننا إلى مِلَّتِكم، وقد عَلِمْنا فسادَ ما أنتم عليه، وقد أنقذَنا الله وخَلَّصَنا منها، وبصَّرَنا خطأها، ما يكونُ لنا أن نرجعَ عن دين ربِّنا إلى مِلَّتِكم، ونتركَ الحقَّ الذي نحن عليه إلّا أن يشاءَ اللهُ ربُّنا أن نُظهِرَ لكم بألسنتنا وبعض تصرُّفاتنا ما يُرضيكم، لحمايتنا منكم مُؤقّتاً، أما قلوبُنا فستظلُّ مطمئنةً بالإيمان، وأما أعمالُنا في السِّرِّ فستبقى على وَفْق دين الله الحق.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فيظنُّها القاصرون باباً مفتوحاً ورجاءً كبيراً، يُشجِّعهم على ارتكاب المعاصي والتقصير في العمل والاستهانة بالإهمال والكسل في إعداد الأعمال الصَّالحة واكتساب الدرجات الرابحة، وهو وَهْمٌ سخيفٌ وخطأ كبير، إذ لم يُقصَد بمثل هذه النصوص إلا تشجيعُ النادم على ما اقترف من الذنوب والآثام، يعزم على التوبة والإنابة إلى الله، ولا يدري أهو يُقبَلُ أم يُردّ؟ ويُفتَحُ له الباب أم يُطرَد؟ فبيَّن سبحانه وتعالى له أنه كبيرُ اللطف عظيمُ الغفران، يقبل توبة التائب وندم الندمان، مهما كانت درجة الذنوب والعصيان، إلا ما كان من حقوق الغير من ظُلم وطغيان، كما قال ﷺ: «إلا التَّبِعات فيما بينكم»(١).

ويتكـرَّر في القرآن مثـلُ قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، ومثلُ قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فيظنُّ من لا خِبْرة له بتعابير القرآن وأساليبه: أنَّ في مثل هذه الآية سبيلاً للمروق من التكاليف، لأنَّ أمر المغفرة موكولٌ إلى المشيئة، والرجاء فيه أقرب. وهذا ضلالٌ في فَهْم معاني القرآن ومَراميه، فإنَّ مشيئة الله تعالى إنما تجري بمُقْتضى الحكمة، وإنَّ المغفرة والتعذيب يَجْريان على سُنَنٍ حكيمة مطَّردة، بيَّنها الله تعالى في كتابه، ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً.

فالآية بيانٌ لسُلطان الله المطلق وقدرته القاهرة، وأنه بيده سبحانه المغفرة والهناء، والتعذيب والشقاء، فهي على حدِّ قولهم: الملِك يَنصِبُ ويَعزِل، ويرفع ويخفض، فإنه يُقالُ ذلك والـمَلِكُ لا يفعل شيئاً إلا لأعمال تصدر عنهم تقتضي الأمر وتؤدِّي إليه.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٨٨٣١)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢: ١٢٩): رواه الطبراني في «الكبير» ورواته محتجّ بهم في الصحيح إلا أن فيهم رجلاً لم يسم.

فالمراد بمثل هذه الآية: إنَّ الله سبحانه يغفر لمن يعلم أنه مُسْتَحِقٌّ للمغفرة[١]، ويعذِّب مَنْ يعلم أنه مُسْتَحِقٌّ للعذاب، بحَسَب سُنَّته المطَّردة المنظَّمة بمشيئته تعالى، وهي تعذيبُ العاصي والغفران للتائب، فإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، فإنه يُزيل بذلك أثرَ ما سبق من الذنوب عندما تتكيَّف النفس بكيفيَّة تؤهّلها للغفران ودخول الجنان.

وعلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، لأنَّ مشيئته تعالى موافقةٌ لحكمته، وجاريةٌ على مُقْتضى سُنَّته المطَّردة في هذا الكون ونظامه، وليس المعنى: أنه سبحانه يجري ذلك اعتباطاً وجزافاً، كلا، فإنَّ مشيئته سبحانه لا تجري إلا بالحقِّ والعدلِ الدقيق وفي سُننٍ مطَّردة قد شاءها سبحانه وتعالى، وأرسل بها الرسل، وأنزل بها الكتب، وهي تعذيبُ مَنْ يستحقُّ التعذيبَ والشقاءَ ممَّن أفسد فطرتَه ودسَّاها وهو الكافر والعاصي، وغفرانُ هَفَوات مَنْ حافظ على سلامتها وزكَّاها وهو المؤمن الطائع، وإنَّ لكُلِّ نفسٍ ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولا يُجْزَون إلا بما كانوا يعملون، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فهذا هو القانون الأساسي[٢]. والله أعلم.

---

(١) واستحقاق المغفرة إنما يكون بحسب وعد الله تعالى المترتب على فَضْله وكرمه، وإلا فلا حقَّ للعبد على الله تعالى.

(٢) ينبغي هنا التفرقة بين المغفرة المجزوم بها والمغفرة المرجوّة، فما ذكره المؤلف من جريان أمر المغفرة على قانون ونظام: هو في المغفرة المجزوم بها، حيث وعد الله سبحانه من تاب مثلاً أن يغفر له، فهذا نظام مطَّرد لكل من يتوب عن ذنبه، أما المغفرة المرجوّة فهي الموكولة إلى مشيئة الله، وحَصْرها بسُنّة وقانون لا دليل عليه، بل هو تحجير لرحمة الله، فتبقى ممكنة من غير جزم بثبوتها أو نفيها في الآحاد، وإن كانت ثابتة في الجملة، ويدل عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ=

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: ٢٣]، والمراد: بعد أن تعملوا ما في طاقتكم من الأسباب، تَـكِلونَ الأمرَ إليه تعالى فيما لا يَصِلُ إليه كَسْبكم أو لا تدركُه عقولكم من بقية السنن والأسباب، لأنَّ التوكّل إنما يكون بعد بَذْل الوُسْع في مُراعاة السنن الطبيعيَّة في الحصول على الشيء، وتركُ الأسباب بدعوى التوكّل جَهْلٌ بالشرع وفسادٌ في العقل، قال عمر رضي الله عنه: «ليس المتواني بالمتوكِّل، وإنما المتوكِّل مَن ألقى بذرَه في الأرض وتوكَّل على الله»(١).

فالتوكل غير الاتِّـكال، لأنَّ الأول: استمداد من الخالق عند مباشـرة العمل، والثاني: الاعتماد على المخلوق بداعية الكسل. فالتوكّل قوة معنوية تزيد في النشاط، أما الاتِّكال فهو خِذْلان وثِباط.

ويأتي مثـلُ قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وفيه تجهيلٌ لهم وتنصيصٌ على أنهم فيما هم فيه تابعون لأهواء باطلة، وليسوا على شيءٍ مما ينطبق عليه اسمُ الدين. ثم يُقرِّر ذلك بقوله: ﴿قُلْ إِنِّى﴾ أي: فيما أخالفكم ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ [الأنعام: ٥٧] هَدَاني إليها بالوحي والعقل، فكيف أتَّبع باطلكم وضلالكم، وأترك الحقَّ اليقين.

ويأتي في وَصْف ذات الله تعالى مثلُ قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فهذا النفيُ لثبوت تقرير كمال الوصف السابق بطريقة سَلْب ضدِّه، وهو أبلغ في التقرير لصفة القيوميَّة.

= ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، لكنْ على العبد أن لا يركن إلى هذه المغفرة، لأنها محتملة، بل يعمل على تحصيل المغفرة المجزوم بها بتحصيل شروطها وأسبابها، والله أعلم.

(١) لم أقف عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] لتقرير كمال قدرته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] لتقرير كمال عَدْله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١] لتقرير كمال علمه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [قَ: ٣٨] لتقرير كمال قدرته.

وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] لتقرير كمال عَظَمته وعُلوِّه وجلاله.

وكلُّ نفي في تقرير صفة من صفاته تعالى إنما يأتي في القرآن بصورة مُجْمَلة، أما الإثبات فيأتي بصُورة مفصَّلة، عكس طريقة أهل الكلام.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، فيَضْمَنُ فيه سبحانه وتعالى هذا الوعد الكريم للمؤمنين الصادقي الإيمان، بالشروط التي ذكرها القرآن، ومنها الجَرْيُ على السُّنن الطبيعيَّة في الحروب وفنونها، بما في ذلك من عُدَدٍ وعَدَد وفنون تُماثل ما عند العدوِّ وتَفُوقُه.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤]، ومفهوم ذلك: أنَّ الله سبحانه يبعث في كلِّ زمان رسولاً، حتى إذا عبثت يدُ الإنسان على مرور الزمان بما جاء به الرسول، وارتقى النوع الإنساني درجةً في طريق الكمال، حسب السنَّة الطبيعيَّة في تدرُّج النوع في الرُّقيّ، قَفَّى برسول آخر وشريعة أخرى يُصلح بها ما أفسده الناس من الشريعة الأولى، ويُبدِّل بعض أحكامها بما يلائم الحال في رُقيِّ النوع.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، فهو ردٌّ على ما تضمَّنته الآية التي قبلها من كون اليهود ينكرون تبديل بعض أحكامهم في القرآن ومخالفته لها، ولا يُسلِّمون بنزول شريعةٍ من الله ناسخةٍ لشريعة موسى أو بعض أحكامها.

وتحرير الرد: أنَّ الله سبحانه يُنزل في كل زمان شريعةً تنسخ بعض أحكام الشريعة الأولى بخير منها، حسب تبدُّل الزمن ومُقْتَضيات الحال، وتُثبت البعض الآخر منها وتُقرُّه، كما هي السُّنَّة في تبدُّل القوانين، والمراد بالـمَنْسيَّة: الآية من الشرائع التي تَقادَم عليها العَهْدُ فلم تُعرَف ـ والله أعلم ـ ولا يتبدَّل شيء من أصول الدين، وهي الإيمان بالله وحده وبملائكته وكتبه وباليوم الآخر، وإنما تتبدَّل بعض التكاليف بأرقى منها، إلى أن انتهت إلى الشريعة العالمية، وهي الإسلام، وانتهى كلُّ شيء، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥](١).

وقد أخذ الله سبحانه العَهْدَ على الأنبياء أنه إذا أرسل الله نبياً على إثر إرسال نبيٍّ آخر؛ فعلى الأول أن يؤمن بما جاء به الثاني؛ لأنَّ شريعتَه قد نُسخت به، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، فالآية لِـمُجرَّد تقرير النسخ، وإن لم يقع إرسالُ رسول زمن رسول آخر ينسخ شريعته، ولكن يكون بينهما زمن مديد. والله

(١) وعموم لفظ «آية» الوارد في الآية الكريمة يشمل النسخَ في الشريعة الواحدة أيضاً، والعلة في تجويزه هي نفسها العلة في تجويز نسخ الشرائع، وهي اختلاف مصلحةالناس وتغيُّر أحوالهم بما يقتضي تبديل الحكم الشرعي النازل في حقِّهم.

أعلم. وإنما ذكر «التَّصْديقَ لما معهم» ليدلَّ بذلك على أنه نبيٌّ حقاً، لأنَّ الشرائع مُتَّحِدةُ الأُسس، وإن اختلفت في بعض الفروع، فإن كان مدَّعي النبوة مخالفاً في تلك الأسس فليس بنبيٍّ صدقاً.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]، فيعبِّر بهذا النفي عن تَقَادُم العهد على الإنذار الأول مبالغةً في التقادُم، إذ كانوا في آخر عهد مَنْ سبقه من الأنبياء، حيث يَضمَحِلُّ الأمرُ بمرور الأزمان، ويشتدُّ العَبَثُ بالأديان، كما كان الحال عند الأوائل من بني الإنسان، فأفاد بهذا التعبير شدَّة الحاجة إلى تجديد العَهْد لهم، لأنَّ عَهْدَ مَنْ سبقهم قد اضمَحَلّ وتَلاشَى بالعبث به والتحريف[1].

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣]، وهذه البَعْديَّة مُشْعِرةٌ بمَسَاس الحاجة إليه، لأنَّ إهلاك القرون الأولى نتيجة للإعراض عن أنبياء الله، وذلك من مُوجبات اندراس الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها المؤدِّيَيْن إلى اختلال نظام العالم وفساد أحوال الأمم، والمُستَدعِيَيْن للتشريع الجديد، بتقرير الأصول الباقية على مرِّ الدهور، وإصلاح الفروع المتبدِّلة بتبدُّل العصور، وتذكير أحوال الأمم الخالية الموجبة للاعتبار، كأنه قال: ولقد آتينا موسى التوراةَ على حين حاجة إلى إيتائها.

(١) أو معنى الآية ـ وهو الأرجح ـ: أنزلنا عليك القرآن؛ لتُنذِرَ قوماً ـ بعد تبليغهم ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ـ الإنذارَ الذي أُنذِرَه آباؤهم مِنْ قبلك، فهم غافلون مشغولون في أمور دنياهم، واتِّباع أهوائهم وشهواتهم، عن الاستجابة لدعوة الرسول.
ومثلُها أيضاً قولُه تعالى في سورة السجدة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، والمعنى: لتُنذِرَ قوماً ـ بعد تبليغهم وتعليمهم وإقناعهم وترغيبهم ـ الشيءَ الذي سَبَقَ أنْ أتاهم من تعاليم الدين، وهو ما جاء به إليهم إسماعيلُ بنُ إبراهيم، واستمرَّ مُتوارَثاً فيهم، حتى غيَّروا وبدَّلوا، رغبةً في أن يهتدوا باختيارهم الحرِّ للحقّ.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] أي: ليس الحكمُ الحقُّ في الربوبيَّة والعقائد والعبادات الدينيَّة إلا لله وحده، بوَحْيِهِ الذي يُوحيهِ إلى رُسُلِهِ، لأنَّ الأحكام الشرعيَّة يجب أن تُسَايرَ الطبيعةَ البشريَّة الفرديَّةَ والاجتماعيَّة، الماديَّة والروحيَّة، وتكفلَ لها السعادة في الحياتَيْن، بصورة واقعية، ولا يمكن أن يعلم ذلك بحدود مضبوطة إلا الله سبحانه، الذي يعلم مَنْ خلق وما يحتاج إليه، فهو وحده القادر أن يُشرِّع للإنسان ما يُلائم روحَه وجسمَه ملائمةً صحيحة، يكون له بها السعادة والفلاح.

أما ما يُخالف تشريع الله، ويعتقد الإنسان أنه من مصلحته؛ فذلك خديعة من النفس، يُزيِّفها[1] العقل الصحيح، والوجدان النزيه.

ويأتي في الحكاية عن منكري النبوَّة على الأنبياء مثلُ قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، فيردُّ عليهم سبحانه بما معناه: أن في استنادهم بهذا على إنكار رسالة الرسل منتهى الحمْق والجهالة، لأنَّ الله سبحانه لم يكن ليبعث رسلاً إلى البشر إلا من البشر، وبلسان قومهم ليُبيِّنوا لهم، وهذا مُتعارَفٌ في تاريخ الرسل، إذ لا يمكن لكلِّ بشر أن يفهم عن الملَك، وإنما ذلك خاصَّة فيمن يخلقهم الله أنبياء، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]، ومن ذلك: مُؤهِّلات النبوة وقابليَّة تلقِّي الوحي، بحكم ما يخلقهم عليه من الكمال.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فهم يحتجُّون على أنَّ ما هم عليه هو الحق، لأنه لو لم

---

(١) أي: يحكم بزيفها.

يكن كذلك لَـمَا مكَّنهم الله منه، لأنَّ كلَّ ما لا يريدُه الله يمتنع وقوعُه، وكلَّ ما هو واقع فهو بإرادة الله.

ويجوز أن يكون مرادهم: القول بالجبْر، بمعنى: أنَّ الإنسان مجبور في أعماله، نازل عند إرادة الله، جهلاً منهم لمعنى الإرادة والمشيئة.

وعلى مثل هذه الشبهة يجري بعض الجُهّال اليوم من عصاة المسلمين، يعتذرون بها عن ارتكابهم للآثام، وتضييعهم للأحكام.

وقد ردَّ الله عليهم سبحانه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ رسلَهم ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٍ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ۞ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩]، فبيَّن تعالى أولاً أنَّ العقائد والأحكام لا يجوز أن تكون إلا بوَحْيٍ منه تعالى، ثمَّ بيَّن أنَّ لله الحُجَّةَ البالغةَ عليهم، حيث طَبَعَ فِطَرَهُم على الهدى والرَّشاد بصورة اختياريَّة، بمقتضى حكمته تعالى، فكان سوءُ تصرُّفهم في فِطَرهم مُخرِجاً لها من الهُدى إلى الضلال، ولو شاء سبحانه وتعالى لخَلَقهم مَقْسُورين على الطاعة وقَبولِ الحق كالملائكة، ولكنه لم يشأ ذلك، لأنه غير موافق لحكمته تعالى في خَلْق البشر لأن يكون خليفةً في الأرض، واسعَ العلم والدراية، ومن شأن ذلك أن يكون مُسَلَّطاً على إرادته، مختاراً في أعماله، يتَّبع ما يُوحيه إليه عقلُه، وتُومئ إليه بصيرتُه.

وهذا الشأن يؤدِّي به إلى أن يكون مُستَعِدّاً للحقِّ والباطل، والخطأ والصواب، إلا أنه مطبوع على الخير والمَيْل إليه ما لم يُفسِد طبيعتَه بمفاسد التربية، وقد أيَّد سبحانه هذا الانطباع في الإنسان بإرسال الرسل إليه بالشرائع السماوية، فلم يبقَ على الله سبحانه حُجَّةٌ للإنسان إذا أعرَضَ ودخل النيران.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩]،

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ...﴾ [الحديد: ٢٥]، وذلك بيانٌ للغرض من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وهو أنَّ الله سبحانه قد جَعَل كلَّ شيء في هذا الكون مُتْقَناً موزوناً بأعدلِ الوزن وأدقِّ الضبط، إذْ كلُّ شيء عنده بمقدار، فأرسل الرسل وأنزل معهم الكتب بالتعاليم التي فيها مقاييسُ ذلك العدل، وموازينُ هذا الضبط، ليقومَ الناس بالقسطِ والحقِّ في أقوالهم وأفعالهم وملابساتهم وسلوكهم وأحوالهم، ويأخذوا كلَّ شيء بحسب ما هو عليه في الواقع ونفس الأمر، وعلى وجهه الصحيح وصورته الصَّادقة، سواء ما كان منه متعلقاً بالمعرفة أو الأخلاق أو نظام الاجتماع أو الأفعال، فتكون عقائدهم في أمور هذا الكون صحيحة، ومعرفتهم لها صحيحة، وتصرُّفاتهم في الأعمال صالحة ناجحة، فينتظم حالهم، ويحسن مآلهم، وفي ذلك كلُّ الخير والسعادة لبني الإنسان.

﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [سبأ: ٣٥] يتعلَّلون بذلك في أنهم على الحق، ولهذا أكرمهم الله بهذه الكرامة، وجَعَلهم أوفرَ حظاً في هذه الحياة، فيردُّ عليهم سبحانه هذا الرأي السخيف بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ: ٣٦]، بمعنى: أنَّ بسْطَ الرزق وقَدْرَه لا تعلُّق له بذلك، وإنما هو جارٍ على سنن طبيعية في هذا الكون، طَبَعَها سبحانه وتعالى، فمن اتَّبع تلك السُّنن نال بَسْطة الرزق، ومَن تنكَّب عنها ضاق عليه العيش، والمؤمن والكافر في ذلك سواء[1].

---

(١) اللهُ سبحانه يُوسِّع الرِّزقَ ويُكثِّره لِـمَنْ يشاءُ من العاصين والطائعين، ويُضيِّقُ الرزقَ ويُقلِّله على مَنْ يشاء، ابتلاءً وامتحاناً، حسب ما تقتضيه الحكمةُ الإلهيَّة، ولا يدلُّ البَسْطُ على رِضا الله تعالى، ولا التضييقُ على سَخَطِه، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون أنَّها للامتحان والابتلاء، فتغرُّهم وَفْرة ما أنعم الله به عليهم، ناسين فضل الله عليهم.

وقد يتَّخذ الإنسان الأسبابَ والسنن الطبيعيَّة ولا يتحقق له الرزق امتحاناً من الله سبحانه. =

ومن سنن القرآن: أن يأتي قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: ١٢]، فليس هذا على حقيقته، إذ يستحيل أن يصدر الترك منه عليه الصلاة والسلام، ولكنه من الأساليب الفرضية المسُوقة لشدَّة البيان، فهو نوع من أساليب القرآن، والغرضُ منه: الحملُ على التشجيع والثبات بصورة شديدة من الكلام.

ومثلُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ..﴾ [القصص: ٨٧ – ٨٨]، فهي من الأساليب الفرضية أيضاً.

ويجوز أن يكون مثلُ هذا من خطاب الأمة في شخص النَّبيِّ ﷺ، كما جرى عُرْفُ التخاطب مع الرؤساء، إذ يُقالُ للرئيس: إذا فعلتَ هذا كانت عاقبته كذا وكذا، والمراد: إذا فعله أتباعك. ويجوز أن يكون الكلام جارياً بمقتضى السياق مع قطع النظر عن شخصية المُخاطَب.

= والمؤمن مأمور باتِّخاذ الأسبابِ ومراعاةِ السنن؛ مع صِدْقِ توكُّلِه على الله ورضاه بما يُقدِّرُه لعباده، وإيمانه بأن هذه السنن من خلق الله، وإن شاء سبحانه سلبها التأثير بمشيئته التي لا تُفارِقُ حكمتَه. فهو سبحانه خالق الأسباب والمُسبَّبات، وهو الفاعل الحقيقي، وكل ما يجري في الكون بإرادته، وإذا جرت سنَّة في أمرٍ ما أن يُحدِثَه بقرينةٍ دالَّة عليه، فليس معنى ذلك أنَّ القرينةَ هي المؤثِّرةُ في وجودِ ذلك الأمر. لا. إنما المؤثِّر في وجودِه وفي وجودِ تلك القرينة، وفي وجود ذلك الأمر عند القرينة إنما هو الله عز وجل.

فلا يجوز نسبة الرزق إلى سنن الطبيعة إلا مع ملاحظة أنها أسباب بخلق الله.

قال الإمام العز بن عبد السلام في «شجرة المعارف والأحوال» ص ٣٨٧: «إضافة النعم إلى أسبابها جحد لإنعام الله، وكذلك إضافة النعم إلى غيره ممَّن يَعجز عنها. ولا بأس بإضافتها إلى الأسباب مع ملاحظة كونها أسباباً، وأن المنعم هو الله وحده. فإنّا أُمرنا بشكرِ الأسباب أيضاً. قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤]». اهـ.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، لأنَّ ذلك غير متوقَّع منه ﷺ أبداً، بل هو من المُحال في حقِّه، وإنما هو فَرْضُ فرضٍ ليكون من باب شدَّة البيان، وليدلَّ على أنَّ هذا الخطاب بهذا الوعيد لأعلى الناس مقاماً عند الله تعالى، هو أشدُّ وعيد لغيره ممن يتَّبع الهوى، ويحاول إرضاءَ الناس بمُجاراتهم على ما هُم عليه من الباطل.

فهذا اللونُ من الخطاب مع النبيِّ صلى الله عليه وآله إنما هو لتنبيه الغافلين وإعلام المؤمنين أنَّ اتِّباع أهواء الناس ـ ولو لغَرَضٍ صحيح ـ أمرٌ فظيع يُفْضي إلى العقاب الأليم، لا يسامح الله فيه أحداً، ولو فُرِضَ وقوعُه من أكرم الناس عليه، ولا يخفى أنَّ شرط «إنْ» لا يقتضي الوقوع.

ويجوز أن يكون مثلُ هذه الآيات لوناً من ألوان إلزامه الصبر على ما يلقاه من المشركين.

ومن هذا القبيل قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وهذا أمرٌ موافقٌ لِـمَا في نفسه[1]، فالمراد به التهييجُ لازدياد الإخلاص له تعالى، أو هو من خطاب المرؤوسين في شخص الرئيس، كما جرى عُرْفُ التخاطب.

وعلى هذا النمط قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا...﴾ [يوسف: ١١٠]، فليس المراد به حقيقة معناه؛ إذ لا يجوز ذلك على الرسل، فإنهم لا ييأسون من رَوْح الله، وإنما هو تصويرٌ مجرَّد لبطء النصر وتأخيره إلى أجله حسب حكمة الله في سنَّته الكونية، فهذا أسلوبٌ جارٍ على عُرْف التخاطب، وقوله: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ [يوسف: ١١٠] تصويرٌ للدرجة القصوى من البطء،

---

(١) وهو إخلاصُ التوحيد لله، والتوجُّه بالدعاءِ الخالص إليه.

وللذروة العليا من الهواجس النفسيَّة في استبطاء النصر لتراخيه، فالكلامُ للمبالغة في تصوير التراخي ليس إلا، والغَرَضُ منه: الحملُ على الصبر والانتظار.

أما المرويُّ عن مُفسِّري السلف في معنى الآية: فهو أنَّ المراد: حتى إذا آيس الرسل من إيمان قومهم لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان، وخافوا أن يُكذِّبهم الذين آمنوا بهم وأخبروهم بنصر الله إيَّاهم على المعارضين الكافرين، أي: حتى إذا وَصَل الأمر إلى هذا الحدِّ ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ١١٠] أي: النبيُّ ﷺ والمؤمنون، وإنَّما لم يُصرِّح بهم للإشارة إلى أنهم هم الذين يَسْتأهلون ذلك.

وشبيهٌ بـهذا قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، فهذا من أساليب الإثبات للأمر بعلم العارفين به، للمبالغة في التقرير وتحقيق اليقين، وليس المراد به حقيقة المعنى، وهو أيضاً جارٍ على أساليب العرب، إذ هُم يُقدِّرون الشك في أمر لِيَبْنوا عليه المبالغةَ في إثباته أو إثبات شيء آخر يتعلَّق به، كقول أحدهم لابنه: إنْ كنتَ ابني فكُن شجاعاً، وهو لا يشكُّ أنه ابنُه، ولكنه أسلوبٌ من أساليب شدَّة الحَمْل على الشيء.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ﴾ [التوبة: ٨٥]، فهذا أمرٌ يوافق ما في نفسه ﷺ، فلا يُراد به حقيقةُ معناه، لأنه ﷺ لا يُعجبه ذلك أبداً، ولكنَّ الكلام لونٌ من ألوان التزهيد والاستهانة بالمال، مع قطع النظر عن شخصية المُخاطَب.

* * *

ومن سُنن القرآن: بيانُ حدود النبوَّة بأنها لا تَـتجاوز حدودَ البشريَّة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]، فهي بيانٌ لأنَّ النبيَّ لا يتجاوز حدود البشريَّة في العلم والقدرة في التصرُّف.

ومن هذا القبيل قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥]، فليس هذا تحدِّياً ولا تَقْريعاً له ﷺ كما يُوهمه الظاهر، وإنَّما هو بيانٌ لهؤلاء الجهَّال؛ بأنَّ الرسول - مهما عَظُم في الكمال - لا يقدر أن يأتيَ بشيءٍ من نفسه، وإنما الأمرُ فيه لله وحده، إن شاء فعل، وإن لم يشأ لم يفعل[1].

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، بمعنى: ليس من شؤون رسالتك أن تُكرِهَهم على الطاعة، ولستَ مسؤولاً عنهم. وفيه تسليةٌ له ﷺ عن إعراضهم، على نهج القرآن في تَثْبيته وتَسْليته إثْرَ بيان عناد المنكرين ومكابرة الجاحدين.

* * *

ومن سنن القرآن: **أن يبسط بالتفصيل الـمُسْهَب الحججَ الناصعة على الشيء الذي يريد إثباتَه أو نفيَه، ويُكرِّر ذلك بألوان من التعابير والأساليب البلاغية، ويُصرِّف فيها الوجوه؛** مبالغةً في إقناع العقل، والتأثير على الوجدان، لأن الأمر الذي يُراد تقريره

(١) ومعنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص١٣١: «وإن كان عَظُمَ عليك، وشقَّ على نفسك - يا رسول الله - الهمُّ والحزن بسبب إعراضِ هؤلاء المشركين عن الإيمان بك، وعدم إجابتهم إلى ما اقترحوا، وأحببْتَ أن تأتيَهم بآيةٍ خارقةٍ معجزة، تلبيةً لطلباتهم المُلِحَّة، فإن استطعتَ أن تطلب وتتَّخذ سَرَباً في أعماق الأرض تخلص منه إلى مكان آخر، أو تتَّخذ مَصْعَداً تصعدُ به إلى السماء، فتأتيَهُم بآيةٍ خارقةٍ ممَّا اقترحوا عليك تجعلهم يتَّبعونك ولا يُعرِضون عنك فافعل، ولن تستطيع ذلك، لأن الآيات لا يُجريها ربك إلا وَفق حكمته، ولو شاء الله أن يجمعهم على الهُدى لجَمَعَهم، ولسَلَبهم إراداتهم الحُرَّة، ولكن لم يُرِد ذلك، بل أرادَ أن يمتحنهم عن طريق اختيارهم الحُرِّ، فلا يشتدَّ تحسُّرك على تكذيبهم إيَّاك، ولا تجْزَع من إعراضهم عنك، فيقارب حالك حال الجاهلين الذين لا صَبْر لهم».

في النفوس العامَّة، لا يتقرَّر إلا بتكرار الحجج والبراهين المُثْبتة له، لا بمجرَّد الاحتجاج عليه مرَّةً واحدة، لأن ذلك لا يفيد إلا خواصَّ النفوس.

* * *

ومن سنن القرآن: **أن يجمعَ بين دلائل التوحيد وعجائب الخلق وبدائع الحكم وعظائم النِّعَم، ويدمجَها ببعضها، مُعلِّقاً** على ما يناسبها في السياق، من الردِّ على المشركين، ونَقْد المُعرِضين الغافلين، وبيان المنَّة على الناس أجمعين، ودلالتها على المُبدِع سبحانه بكونه إله العالمين، واختصاصه بأفعال الألوهيّة وأحكام يوم الدين.

* * *

ومن سنن القرآن: **بعد أن يدعو المشركين إلى هذا الدين المبين، يُبيِّن بطلان دينهم** الذي هُم عليه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، **أو يُبيِّن البطلان أولاً ثم يدعوهم**، ويُقَفِّي على الآيات التي يتوعَّدهم بها على الشِّرك، بالآيات التي تدلُّ على اختصاصه بأفعال الألوهية؛ وصفاً للدواء بعد تشخيص الداء.

* * *

ومن سُننه: **إذا تكلَّم عن آلهتهم جمع أحياناً بين كونها أصناماً وكونهم أشخاصاً** يرمزون بالأصنام عنهم، فيذكر لهم صفةَ العقلاء، ويذكر لهم وصْفَ الجمادات في الآية الواحدة.

ومن سننه: **أن يُطيل الترغيب والترهيب والمعالجة**، حتى إذا تهيّأت النفوس لسماع الهدى، دعاهم إلى التوحيد والإيمان، لأنَّ الشِّرك يُفسِدُ العقول ويُشْبعُها بالأوهام، ويأسر النفوس ويُقيِّدها بسلاسلَ من الخرافات، ويؤدِّي إلى اضطراب كبير في الحياة.

ومن سنن القرآن: **أن يُوقِفَ المشركين على ما في أنفسهم من عِبَرٍ ودلائل، ونِعَم وعظائم لله تعالى قد أغفلوها،** ولم يهتدوا باختصاصها به تعالى، إلى اختصاصه بالألوهية.

* * *

ومن سنن القرآن في بعض الأحيان: **أن يَقرِنَ دليلَ التوحيد الفكري بدليل التوحيد الفطري،** وهو التحسيس بما فطر الله عليه النفوس من التوحيد، فيُنبِّه المشركين إلى ظهور ذلك فيهم عند الشدائد، إذ تَتَجرَّد النفوس حينئذ من الفساد الطارئ عليها، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢]، فيُذكِّرهم بما أودع في فطرتهم من توحيد الله عزَّ وجلَّ، وما يظهر من ذلك في شعورهم عند الشدائد، رَغْمَ أنوفهم، فيندفعون إلى طلب النجاة منه تعالى وحده بسائق الطبيعة، كما تنبعث نفوسُهم لطلب الغذاء، إذ يشعرون أنْ لا ملجأ إلا إليه.

والمراد من قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ [يونس: ١٢]: تـملُّك ذلك الشعور له في كلِّ أوقاته وأوضاعه، وهو دليلٌ على انطباع غريزة الإنسان العامَّة وانفطارها على معرفة الله وتوحيده، لذلك تظهر تلك الغريزة عندما يمسُّ الإنسان من الشدَّة والضرر، فيندفع بطبيعته إلى الله، ويَتَجرّد من الشِّرك الطارئ على طبيعته والمفسد لها، فإذا زالت تلك الشدَّة عاد إلى ما تَعَوَّد وانطَبَع عليه من الغيِّ الذي خرج فيه عن مقتضى طبيعته بكَسْبه وتربيته الفاسدة وسوء القدوة في تقليد آبائه وقومه ومَنْ عاش فيهم.

* * *

ومن سنن القرآن: **أن ينقلَ عن المشركين أقوالَهم المُضطربة في مسالك البُطلان،**

ويُرادِف بينها، ويردُّ عليها، مثل قوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [الأنبياء: ٥].

وقد يَسْتَقصي المسالك التي يمكن أن تُسلَكَ في باطلهم، فيَنقُضَها مَسْلكاً مَسْلكاً، ثم يُحرِّر الحقيقة الباطلة التي هم عليها، ويُبَرهن على بطلانها حتى لا يبقى لهم ما يُعلِّلون أنفسَهم به من التخلُّص.

وقد يُبكِّتُ المشركين بعدَّة تبكيتات هازئةٍ ناقضةٍ لشركهم وما يتعلَّق به، ثم يختمُها ببيان حقيقة أمرهم ومَنْشأ شركهم، كقوله تعالى في سورة الطُّور: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] [٣٢- ٤٣].

---

(١) ومعنى الآيات ٣٢- ٤٣ كما في تفسيري «المعين» ص ٥٢٥:
بل، أتأمر هؤلاء المُكذِّبين عقولُهم الراجحة بهذا التناقض في القول، وهو قولهم: كاهنٌ وشاعر مع قولهم مجنون؟ بل هم قومٌ مُتَجاوزون الحدَّ في الطغيان والكفر.
بل، أيقول هؤلاء المشركون: اختَلَق محمدٌ القرآن من تلقاء نفسه، وادَّعى أنه كلام الله؟ ليس الأمر كما زعموا، بل عِلَّتهم النفسيَّة أنهم لا يريدون أن يؤمنوا؛ لأن الإيمان يمنعهم من اتِّباع أهوائهم وشهواتهم ورغباتهم من متاع الحياة الدنيا.
فَلْيأتوا بحديث مثل القرآن في نظْمه وحُسْنه وبيانه، إنْ كانوا صادقين ـ في زعمهم ـ أنَّ محمداً تقوَّله على ربِّه من قِبَل نفسه.
بل، أتحوَّل الذين ينكرون وجود خالقٍ لهذا الكون من العَدَم العامِّ المطلق دون مُوجِدٍ، فصاروا بشراً أحياء بلا خالق؟! بل أهم حين كانوا عَدَماً خلقوا أنفسهم، فحوَّلوها من العَدَم إلى الوجود؟
بل، أيدَّعون أنهم خَلقوا السَّمواتِ والأرض؟ ليس الأمر كذلك، بل لا يُريدون أن يوقنوا بتوحيد الله وقدرته على البعث مهما اقْتضت الحُجَجُ والبراهين العقليّة أن يوقنوا به.
بل، استغنَوْا عن الإيمان بوحدانيَّة الله؛ لأنَّ خزائن ربك ـ أيها العاقل الرشيد ـ من كلِّ ما يحتاجون إليه في حياتهم هي عندهم وفي متناول أيديهم، بل، أهم الأرباب المُتسلِّطون القاهرون، فلا يكونون تحت أمرٍ ولا نهيٍ، ويفعلون ما يشاؤون؟ =

وكقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ۞ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾(١) [٦٨ - ٧٠].

= بل، ألهم مَصعَدٌ يصعدون فيه حتى يصلوا إلى مقاعد استراق السمع في السماء، وبه يعلمون أحداثاً مُستقبليَّةً يفتنون بها من يتأثَّر بهم من الناس؟ فَلْيأتِ مُسْتَمعهم ـ إن ادعوا ذلك ـ بحُجَّةٍ بيِّنةٍ تُثبت صحَّة استماعه.

بل، أله سبحانه البنات، وهم الملائكة ـ كما تزعمون افتراءً عليه ـ، ولكم البنون كما تُحبُّون؟

بل، أتسألُ ـ يا رسول الله ـ هؤلاء المشركين أجراً مادياً أو معنوياً على ما جئتهم به من النبوَّة، فهم في جهد ومشقَّة من ذلك المَغرم الذي سألتهم، فيصدُّون من أجل استثقاله عن الاستجابة لك، والإيمان برسالتك، وتصديقك فيما تُبلِّغهم عن ربِّك؟

بل، أعندهم تدبيرُ الغيبِ المُستقبلي، فهم يُقدِّرون ويُدبِّرون ما يشاؤون لأنفسهم آمنين، ويكتبون ما قدَّروا لها غير خائفين من أن يأتي قدر الله وقضاؤه على ما يكرهون، ومنه هلاكهم وتعذيبهم على كفرهم؟

بل، أيريدون تدبيراً خفياً بك ـ يا رسول الله ـ؛ ليُهلكوك، فليعلموا أنهم بسبب كفرهم هم المَجْزيُّون بكَيْدهم، الذي ينزل بهم أشدُّ ما يكرهون، ويُسلِّم الله دينه ورسوله والمؤمنين وينصرهم عليهم.

بل، ألهم إلهٌ غير الله يرزقهم وينصرهم ويمنحهم ما يريدون؟ تنزَّه الله عمَّا يشركون في ربوبيَّته وإلهيَّته.

(١) ومعنى الآيات كما في تفسيري «المعين» ص٣٤٦:

«أنطَمَست بصائرهم وعقولهم بغشاوات من أهوائهم وشهواتهم، فلم يَتَدبَّروا ما جاءهم من القرآن، فيعتبروا بما فيه من الدلالات الواضحات على صِدْق محمد ﷺ؟

بل: أجاءَهم من دين ربِّ العالمين ما لم يَأْتِ آباءهم الأوَّلين، إنهم إذا ادَّعوا هذا فهم كاذبون، فقد سَبَقَ أن جاءهم رسولان كريمان هما: إبراهيم وابنه إسماعيل، واستمرَّ دين الله هو السائد في مكة، حتى غيَّروا وعبدوا الأوثان؟ =

وكقوله تعالى في سورة الصَّافَّات: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۞ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾[1] [الصافات: ١٤٩ - ١٥٠].

وقد اقترح المشركون على الرسول ﷺ اقتراحاتٍ ناشئةً من الجهل بطبائع الأشياء، وشِدَّةُ الجهل تُسهِّل اقتراحَ غيرِ الممكن، كما حكى ذلك في سورة الإسراء بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ...﴾ [الإسراء: ٩٠].

* * *

ومن أساليب القرآن: **أن يدعو المشركين إلى الإيمان، ويُبيِّن لهم بطلان شِركهم** بالأدلة الواضحة، ثم يُؤنِّبهم على إصرارهم عليه، ويَتَوعَّدهم ويُبيِّن لهم مصيرهم في الدنيا بمصير أمثالهم، ويُهدِّدهم بعاقبتهم الوخيمة في الأخرى، ثم يَقرِن بذلك مصيرَ المؤمنين في الدنيا وعاقبتَهم في الأخرى؛ ترغيباً للمؤمنين وزيادةَ إيلام وتنبيه للكافرين؛

= بل: ألم يعرفوا رسولهم محمداً ﷺ صغيراً وكبيراً، وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته وحُسْن أخلاقه؟ لقد عرفوه بهذه الصفات والكمالات، فهم له مُنكرون بَغْياً وحَسَداً؟!

بل: أيقولون به جنون؟ وقد كانوا يعرفون أنه أرجح الناس عقلاً، وأثقبهم رأياً. ليس الأمر كما زعموا في حقِّ القرآن والرسول، بل جاءهم بالصِّدق الثابت الذي لا مَحِيدَ عنه، والقول الذي لا تخفى صحَّته وحُسْنه على عاقل، وأَكْثَرُهُم للحقِّ كارهون؛ لأنه يصادم أهواءَهم وشهواتهم ومصالحهم الخاصَّة».

(١) معنى الآيتين كما في تفسيري «المعين» ص٤٥١: «فَسَلْ - يا رسول الله - كفارَ مكة توبيخاً لهم: أَجَعَلوا لله أولاداً انفصلوا منه، وجعلوا هؤلاء الأولاد من صنف البنات اللاتي يكرهونهنَّ، ولأنفسهم البنين الذين يريدونهم؟

واسألهم: أخلقنا الملائكة إناثاً، وهم حاضرون يُشاهدون بأعينهم خَلْقنا إيَّاهم، فرأوا أنهم إناث؟!».

لينبعثوا على التفكُّر والتَّبصُّر، وقد يُردِف ذلك بدلائل قدرته ومُنَّـته؛ تأنيباً للمشركين وتنبيهاً للمؤمنين، واستشهاداً لقدرته على إنجاز ما وَعَدَ به المؤمنين وأوعَدَ به الكافرين، لأنَّ من قَدَرَ على هذا يَقْدِرُ على إنجاز مواعيده وتحقيقها بأوفى صورة يرضاها.

* * *

ومن أساليب القرآن: **أن يُعقِّب على الكلام عن المشركين وتفنيد شركهم واستهجانه، ببيان أعمال الله العظيمة وصفاته الكريمة**، وبإيقافهم على ما في أنفسهم وما في الآفاق من عِبَرٍ ودلائلَ ونِعَمٍ وعظائمَ لله تعالى قد أغفلوها، ولم يهتدوا باختصاصها به تعالى إلى اختصاصه بالألوهيَّة.

والغَرَضُ من هذا البيان: تأييدُ نفي الشِّرك وتهجينُه بالمقابلة بين مهانته وعظمة الإيمان بالله، وبين مهانة شركائهم وعظمة الله، فالإيمان بالله وحده وتنزيهه نورٌ على نور، والشِّرك ظلماتٌ بعضها فوق بعض، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

* * *

ومن أساليب القرآن: **تسليةُ النَّبيِّ ﷺ إثرَ بيان عِنادِ المنكرين ومكابرة الجاحدين، وتذكيرُه بقدرته تعالى على نَصْره وإعلاء دينه وحِفظِه من مكرهم**، ويكون ذلك بذكر أفعاله العظيمة، وما ينبعث عنها في السماوات والأرض وما بينهما من الآثار الجليلة والنِّعم العميمة، إيذاناً بأنَّ مَن قَدَرَ على كلِّ هذا لا يَعجِزُ عن نَصْره وتأييده، ولذلك تُكرِّر هذه التذكرة فيه كلَّما تكرَّر البيان عن عِنادِ المنكرين.

* * *

ومن سنن القرآن: **أنْ يُردِفَ السياق المُبيِّن لمعارضة المُكذِّبين للأنبياء والمرسلين ببيان أنَّ أمرهم هذا لم يكن قهراً للإرادة الربَّانيَّة، ولا عَجْزاً عنهم في القدرة الإلهيَّة**، بل هو نتيجة للفطرة البشريَّة التي اقتَضَتها الحكمة البالغة، وهي أن يكون ذا عقل يتصرَّف في سائر شؤونه، وأن يكون مُطْلَق التصرُّف بإرادته حسب الخطة التي يرسمها له رأيه، وتنصرف إليها نفسه، إنْ خَيْراً أو شراً، خطأً أو صواباً، والحكمة من هذا الاختيار والحرية: أن يكون ذا علم واسع وإرادة مطلقة وعمل وإيجاد لا يقف عند حدّ، ليكون خليفةً في الأرض يَعمُرها ويستفيد من مواهبها وكنوزها وخيراتها. ولو جَعَله مَقْسوراً كالمَلَك لا يقدر على ذلك. والله أعلم.

ثم يُبيِّن أنه لو شاء أن يخلقه مَقْسوراً على فعل الخير، مجبوراً على طاعة الله كالملائكة؛ لفعل، ولكن الحكمة الإلهيَّة لم تشأ ذلك ولم تَقتَضِه، فيقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، إلى أمثال هذه الآيات، يحترس بها عن أن يُتصوَّر أنَّ كفرانهم غَلَبَةٌ منهم لله تعالى.

وقد يُردِفُ ذلك بما فيه تسليةٌ وتثبيتٌ له ﷺ، وقد يُبيِّن في إثر ذلك سرَّ إصرارهم على الكفر، بما يدلُّ على أن مِن سُنة الله العامَّة في أخلاق الإنسان وطباعه: أنه إذا تمادى في أمر وانطبع عليه، حتى أصبح له خُلُقاً أو عادةً أو ديناً؛ لا يَسمع ما يخالفه ولا يجده جديراً بالنظر، وأنه متى انطبع على الضلال؛ يفقد الاستعداد للهدى والرَّشاد، ومتى انطبع على التقليد؛ يفقد الاستعداد للنظر والتفكير فيما يُوصِلُه إلى الحق والصواب.

وقد يُردِفُ ذلك مرة ثانية بما فيه تسليةٌ له ﷺ وتثبيت، لأنه يألم أشدَّ الألم لضلال قومه، وقد يَضعُفُ تجاه معارضتهم، فينهضه سبحانه إلى طلب القوة، ويشدُّ همَّه وعَزْمَه

بحُسْن الوعد والتذكير به، لينصرف بهَمِّه كلِّه إلى الدعوة وتبليغ الرسالة وسياسة الخلق أجمعين.

وعلى وتيرة هذه الآيات قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وذلك بأن يخلق البشر مؤمنين طائعين بالفطرة كالملائكة، ولكنه تعالى لم يشأ ذلك، لأنه مخالفٌ للحكمة التي اقتَضَت خَلْـقَ الإنسان مختاراً؛ ليكون ذا علم واسع في تعمير الأرض والاستفادة من كنوزها وخيراتها.

ثم بيَّن وظيفة الرسول وحدودها، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧] بمعنى: مَضَتْ سُنَّته تعالى في الرسل أن يكونوا مُبلِّغين لا مُسَيطرين، فعليهم أن لا يَضِيقوا ذَرْعاً بحرِّيَّـة الناس ومعارضتهم. والغَرَضُ من هذا الكلام: تسليتُه ﷺ إثرَ عناد المعارضين المعاندين، وتقويةُ عَـزْمِه في الدعوة إلى الدين.

ويأتي في القرآن لفظُ «الفتنة» بمعنى الاختبار، كقوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: اختبارُك وامتحانُك الذي تجعله سبباً لظهور استعداد الناس المكتسب، وما طَوَيْتَ عليه من سرائرهم من ضلال وهداية حَصَلوا عليها، ويستحقُّون من عقوبة ومثوبة لذلك. والغَرَضُ من هذا الظهور: إقامةُ الحُجَّة عليهم، كي لا يبقى لهم عذر أو تَحجُّج.

وعلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٤١] أي: إظهارَ ضلاله وتبيُّنه للناس بما قد انطبع عليه بصُنْعه وكَسْبه.

ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩] أي: اختبارٌ وإظهار يَتبيَّن به حالكم لأنفسكم كيف أنتم ذَلَلتُم هذا الذلَّ العظيم بتَرْكِكم ما لو كنتم

تمسَّكتُم به من شريعة الله لكنتم من القوّة وصلاح الحال على ما يدفع عنكم قَهْرَ هؤلاء المتجبِّرين.

وقال أبو مسلم[١]: بَلَوْت: يقع على إظهار الشيء وعلى امتحانه.

ومثلُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن: ١٥] أي: اختبارٌ لِـما بقي في نفوسكم من نور الفطرة، بحيث يُوقِفُها في معاملة الأموال والأولاد موقفَ الاعتدال، أو يندفع مع العاطفة والتحيُّز.

وفي قوله تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[٢] [الأعراف: ١٦٨] إيذانٌ بأنَّ هذه الاختبارات إنمـا هي للتهذيب والتمحيص، فالمُستَعِدُّ للخير يَرْعَوي بها عن غَيِّه، والمستعدُّ للشرِّ يزداد بها ضلالاً، ويظهر منه ذلك للناس.

أما قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥] فلفظ «الفتنة» هنا يجوز أن يكون بمعنى الفاتن أو المفتون.

ومعناه على الأول: لا تَفتِنْهم بنا بظهورهم علينا، فيزدادوا كفراً وعناداً وظلماً، حيث يظنُّون أنَّهم على الحق، ولذلك ظهروا علينا.

وعلى الثاني: لا تَفْتِنَّا بهم فنَضعُفَ في اتِّباع نبيِّنا أو نَتولَّى عنه، فراراً من شدَّة ظلمهم لنا وقهرهم وإيذائهم.

---

(١) هو محمد بن بحر الأصفهاني (٢٥٤- ٣٢٢هـ)، معتزلي من كبار الكتّاب، كان عالـماً بالتفسير وغيره، ولي أصفهان وبلاد فارس للمقتدر العباسي، له «جامع التأويل» في التفسير، و«الناسخ والمنسوخ». ينظر: «الأعلام» للزركلي (٦: ٥٠).

(٢) أي: اختبرنا بني إسرائيل جميعاً بالخِصْب والعافية، والجدْب والشدَّة؛ رغبةً في أن يرجعوا إلى طاعة ربِّهم ويتوبوا إليه.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، ومثلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠]، ومثلُ قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فيُراد بالفتنة فيها: ردُّ الناس عن دينهم الذي دخلوا فيه أو الارتداد عنه بمشاغبات الكافرين أو قهرهم. وهذا غير المعنى في الآيات السابقة.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس: ٨٨]، فاللام للعاقبة، أي: فكانت عاقبةُ أمرهم أنْ كفروا بالنعمة وقابلوها بالعصيان والضلال. والكلام تسفيهٌ لآل فرعون، حيث قابلوا إحسانَ الله عليهم بالإساءة، ثم أخرَجَ صورةَ بيانِ هذا الضلال وشَرْحِه مَخْرَجَ الدعاء عليهم؛ مُبالغةً في إظهار اليأس منهم بمقتضى أساليب البلاغة، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، فهذا تصويرٌ لكفرهم وعاقبة أمرهم، أتى به بصورة دعاء. ومثلُ ذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١]، وذلك لأنَّ العمل الصالح إنما ينفع بحُسْن أثره في النفس، ونفوس هؤلاء قد أوغَلَ فيها الفساد، وفقدت الاستعداد لذلك الأثر، فلم يصلح معها عمل أبداً، كالمعدة الفاسدة يَفسُدُ فيها كلُّ ما دخلها من الطعام والشراب مهما كانا صالحَيْن، أو لأن أعمالهم ليست وسيلة للهدف الذي يقصدون ولا طريقاً له، فلذلك يكون فاشلاً لا يوصل إلى الغاية المنشودة.

ومثلُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧] أي:

لفساد مصدرها، وهي نفوسهم الضالَّة التي تُحيلُ كلَّ عمل إلى فساد، فلا يصدر عنها إلا وهو فاسد، لأنَّ خَساسةَ عقيدة الشِّرك تجعل النيَّة في الأعمال سيِّئة، فيستحيل العمل الجيِّد معها رديئاً، فلا يُؤثِّر في النفس الأثر المطلوب، أو لأنَّ هذا النمط من الأعمال لا يوصل إلى صلاح النفس لِنَيْل سعادةِ الآخرة ودخول الجنان.

وقال الأستاذ الإمام[1] في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]: إنَّ المؤمن والكافر في ذلك سواء، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فهذا أصرحُ قول في أنَّ المؤمن والكافر في ذلك سواء. وقد قال بهذا من أئمة السلف. وغاية الأمر: أنَّ حسنات الكفار والجاحدين لا تَصِلُ بهم إلى أن تُخلِّصَهُم من عذاب الكفر، فهم به خالدون في الشقاء، ولكن تُخفِّف عنهم العذابَ بعض التخفيف.

والآيات التي تنطق بحبوط أعمال الكفار وأنها لا تنفعهم: معناها ما ذكرنا؛ إذ لو خُفِّفَ عنهم عذابُ بعض أعمالهم لا يُخَفَّف عنهم عذابُ الكفر. والشقاءُ والنعيمُ لكلٍّ منهما درجاتٌ تكون بحسب درجة العمل، فقد يخفَّف الشقاء على الكافر الـمُحسِن ـ والله أعلم ـ فيكون في ضَحْضاح من نار بَدَلَ أن يكون في غَمْرة من النار، فقد سئل رسول الله ﷺ عن أبي طالب عمِّه، وكان يُحافظه من قريش، فقال: «إنه في ضَحْضَاحٍ من نار»[2].

وأما الجنة فلا يدخلها مشرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩)، عن العباس بن عبد الـمطلب رضي الله عنه.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، يريد بهم: الذين لا يُلقُون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة، فكانوا لِفَقْد منفعة السمع كالذين فقد حاسَّتَه، ولعدم قبول الحق كالذين فقدوا قوة النطق، ولعدم الاعتبار بالموعظة كالذين فقدوا فضيلة العقل الذي يُميِّز بين الحقِّ والباطل، ويفرِّق بين الخير والشر.

ثم بيَّن تعالى أنَّ سبب ذلك إنما هو إفسادُهم لفطرتهم بسوء تصرُّفهم بها، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] أي: لو عَلِمَ الله فيهم بقيَّة استعدادٍ للإيمان والهدى، ببقية نور الفطرة لـم تُطفِئها مفاسدُ التربية وسوءُ القدوة، لأسمَعَهم الكتابَ والحكمةَ سماعَ تفقُّه وتدبُّر، أي: لو كان فيهم بقيةٌ من سلامة طبيعتهم لَسَمِعُوا وانـتفعوا، ﴿وَ﴾ لكنهم قد انطمست بصائرهم بما ذُكِر، فلذلك ﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا﴾ عن القَبول والإذعان، ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] بقلوبهم عن هذا القرآن، لأنها لفسادها لا تُدرِكُ الحق.

وفي التعبير عنهم بالدوابِّ شيءٌ من التهجين والتحقير، وفي الإسناد شيءٌ مما جاء في المادة السابعة عشرة.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ [الفرقان: ٥٥] بمعنى: ما لا قدرة له على شيء.

ويأتي مثـلُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١] أي: نوَّعنا لهم الدلائل، وفصَّلنا العِبَرَ والأمثال، بوجوهٍ مختلفة، وعبارات مُنوَّعةِ الفنون والتراكيب، وألوان من البيان، فلم يُؤثِّر بهم كلُّ ذلك، وما زادهم إلا نفوراً عن الحقِّ وبُعْداً عن الصواب.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨]، يُبيِّن تعالى أنه أزال الإعذار، وأتى بما فوق الكفاية من الإنذار.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾(١) [الحج: ٨] أي: غير مُتَّبع في مجادلته طريقاً من طرق المجادلات الصحيحة والاستدلال عقلاً أو نقلاً.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]، وفي هذه الصِّلة إشارةٌ إلى أنَّ القرآن مشتملٌ على أسرار الكون وسُنَنِه وعلوم الغيب ومَطْويَّاته، ومُرتَّبٌ على ذلك، وأنه ينهج بالإنسان نهجاً من الحياة موافقاً لِـما تقتضيه الأسرار الطبيعية في هذا الكون وخفاياه.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]، وفيه إشارةٌ إجماليّة إلى أنّ تكوين العالم وإبداع بني آدم لم يكن عَبثاً ولا شيئاً سُدىً، وإنما هو جارٍ ومُؤسَّسٌ على قواعد الحِكَم البالغة المُستَتبِعةِ للغايات الجليلة والمقاصد النبيلة، التي تَتحقَّق بعد أمدٍ وأجلٍ مُسمّى ينتهي إليه أمرُهما وخرابهما، وهو يوم القيامة الذي يقومُ فيه الناس لربِّ العالمين، ليَرَوْا حسابَهم وجزاءَهم غيرَ مظلومين ولا مُهْمَلين، ويأتي بعد هذا العالم عالمٌ آخر يكون امتداداً لهذا العالم، سعادتُه الجنة، وشقاؤه النار.

---

(١) أي: ومن النَّاس صنفٌ كفَّارٌ بربِّهم على الرُّغم من كلِّ البراهين والأدلة العقليَّة والآياتِ الكونيَّة الدالاَّت على ربوبيَّة الله ووحدانيَّته، وهؤلاء الكفَرة المُتكبِّرون يُجادلون في الله بغير علمٍ جليٍّ، وبرهانٍ عقليّ مُستَنِدٍ إلى مُقدِّماتٍ عقليَّة ذوات دلالات قطعيَّة، ولا علمٍ تجريبيٍّ ناتجٍ عن تجارب مُتكرِّرة، ولا علمٍ خبريٍّ آتٍ عن طريق كتابٍ منير الدلالات صحيح الثبوت.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٧] أي: ممّا يليق بشأننا لا ما يليق بشأن البشر من الصاحبة والولد. وهذا مُجرَّدُ ردٍّ يُردُّ به على قائلي هذا القول، إذْ يستحيلُ إرادتُه تعالى للَّهْو مطلقاً لمنافاته للحكمة البالغة، وأعمالُه تعالى لا تخرج عن الحِكَم أبداً، ورمز إلى هذه الاستحالة بقوله: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾(١) [الأنبياء: ١٧].

ويأتي مثلُ قوله تعالى حكايةً لقول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨]، فليس المراد: أنه يدَّعي خَلْقَ الكون؛ لأن العلم بامتناع ذلك من البديهيات. وإنما المراد ادِّعاء الحلول، كما هو الشأن في عقيدة بعض الوثنيِّين في ملوكهم، أو المراد: أنَّ لا تكليفَ عليهم إلا أن يطيعوا مَلِكَهم وينقادوا لأوامره.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥]، وهذا استدلال بأمر معلوم لا ينكرونه ولا يستطيعون إنكاره، على نهج القرآن في مثل ذلك.

ومثلُ قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [النمل: ٦٣] أي: في ظلمات الليالي فيهما، فتكون الإضافة للملابسة، أو المعنى: في مُشْتبهات طرق البر والبحر، فتكون من إضافة البعض إلى الكل. والمراد من هذه الهداية: ما أودع الله سبحانه في الإنسان من الاستعداد لاستنباط الحقائق والخفايا، ومن ذلك: معرفة مجاهيل الطرق في البر والبحر، أو معرفة الطرق فيهما أثناء الليالي المظلمة.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، لأنَّ سُنّة الله تعالى مَضَتْ بأن تكون النتائج آثاراً للأعمال، فهو يُوفِّي كلَّ عامل عَمَلَه بلا إبطاء، وتكون

(١) «إن كنا»: (إن) حرف نفي بمعنى (ما) أي: ما كنا فاعلين الباطل.

للأعمال السيِّئة آثارٌ سيِّئة كما تكون للأعمال الحسنة آثارٌ حَسَنة، وكما يكون هذا الجزاء سريعاً في الدنيا يكون كذلك في الآخرة، فإنَّ أثر الأعمال يظهر للمرء عَقِبَ الموت، وهو أولُ قَدَم يضعُها في باب عالم الآخرة.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، وهو كما بيَّنا في الفقرة السابقة، وهكذا تكون سرعة الحساب يوم القيامة أيضاً فإنها ـ والله أعلم ـ تكون بإدراك الناس كلِّهم في لحظة واحدة لأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فيُدرِكُ كلُّ واحد ما عمل من خير أو شر، ويعلم ما له وما عليه، وما يستحقُّ على كلِّ عمل من نعيم أو عقاب[(١)]، وهذا معنى ما ورد عنه ﷺ: «إنَّ الله تعالى يحاسب الخلائقَ كلَّهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا»[(٢)]، ووَرَد: «في قدر فَواق ناقة»، ووَرَد: «بمقدار لمحة البصر»[(٣)].

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]، فقيل: هذا تفصيلٌ لِـمَقَرِّ النطفة، والمراد من الـمُسْتقَرّ: الأب، ومن الـمُستَودَع: الأم. وقيل: هو تفصيلٌ لمقرِّ الإنسان بعد الخلق، والمراد من الـمُستَقَرّ: الآخرة، ومن الـمُستَودَع: الدنيا. وقيل: الصيغتان اسم مفعول، وهما تفصيلٌ لصفة الإنسان، والمراد من الـمُستَقَرّ: الروح، ومن الـمُستَودَع: الجسم. والله أعلم[(٤)].

---

(١) هذا كلُّه ما هو إلا مرحلة من الحساب، ولا يُطلَقُ عليه وحده أنه «حساب»، لأن فيه ـ أعني: الحساب ـ معنى المناقشة والمعاتبة واللوم والتأنيب من طرف، والاستعطاف والاسترحام من طرف آخر، فالإدراك وحده لا يُسمّى حساباً، والله أعلم.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٣)، من كلام مقاتل بن سليمان.

(٣) أوردهما الزمخشري في «الكشاف» (١: ٢٧٧)، وغيره.

(٤) والأرجح العموم في المستقر والمستودع الذي يشمل الدنيا والآخرة في مختلف أطوارهما كما =

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ ﴾[(١)] [القصص: ٤٩]، ومثلُ هذا الكلام يأتي به من يُدِلُّ بوضوح حُجَّته واستقامة محَجَّته.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ...﴾ [الروم: ٢١]، وهذه تبصرةٌ بحكمة الله في استدامة النَّسْل واستبقاء الجنس، أي: خلق منكم ذكراً وأنثى لِيَكْمُلَ التوادُّ ويتمَّ التناسل ويدوم.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢]، قال[(٢)] في «مجمع البيان»: اختلاف الألسنة باختلاف أصواتها ونغماتها، حتى إنه لا يشتبه صوتان من نَفْسَين هما أخوان.

أقول: وكذلك الألوان، فلا تشتبه ملامحُ وجهين هما أخوان، بل توأمان، وهذا

= رجحته في تفسيري «المعين»، وقلت ص١٤٠: «اللهُ سبحانه وحده هو الذي خلقكم ـ أيُّها الناس ـ وَفْقَ خطَّة الإنشاء المُتدرِّج من آدمَ عليه السلام؛ إذ خلقه من طين، ثم كنتم نسْلاً وسلالةً منه، فتنقَّلْتُم في أطوارٍ مختلفة، كلُّ طور لكم فيه مكان استقرار وثبوت، وهذه الـمُستقرّات هي مُستودعات تكونوا وديعةً فيها حتى يحين وقت نقلكم إلى مُسْتودَعٍ آخر تكونون فيها مُسْتقرِّين، فخرجْتُم من ظهور آبائكم وأرحام أُمَّهاتكم، لتعيشوا في حياة الابتلاء في الأرض، فكانت الأرض لكم مُسْتقراً ومستودعاً حتى انتهاء آجالكم، فكان لأجسادكم في باطن الأرض مُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَع حتى ساعة القيامة، فكان لكم في أرض المحشر مُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَع، فمَنْ قضى الله له بالخلود في الجنة، فالجنَّة هي دار القرار، ومَنْ قضى الله عليه بالخلود في دار العذاب، فهي مُسْتقرُّه الأبديُّ».

(١) أي: قل ـ يا رسول الله ـ لمشركي مكة الذين يزعمون أن موسى افترى التوراة من عنده على ربه، وأنك افتريت القرآن من عندك على ربِّك: فأْتُوا بكتابٍ من عند الله هو أكثر هدايةً من التوراة والقرآن أتَّبعه، إنْ كنتم صادقين في زعمكم أنَّهما سحران مُفْتريان على الله.

(٢) يعني: الطبرسي، وهو أبو علي الفضل بن الحسن (...- ٥٤٨هـ)، أحد الإمامية، له: «جوامع الجامع»، و«غنيمة العابد». ينظر: «الأعلام» للزركلي (٥: ١٤٨).

من كمال حكمة الله تعالى وإتقان صُنعه، إذ لولا هذا التمايزُ بالأصوات والملامح لنشأ من الاشتباه فسادٌ كبير في نظام العالم الإنساني وحالاته الاجتماعية، وأقلُّه أن يشتبه الزوجُ على زَوْجه، وصاحبُ المال على العمال، وناهيك بمثل ذلك في الحالة الاجتماعية من اختلال.

وقد نبَّه سبحانه إلى عِظَم هذه المنَّة بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢] أي: المتبصِّرين بدقائق الأمور.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ﴾ ماءَ ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ العَذب والمالح، أي: جَعَل خلطتهما وتركيب أجزائهما متبايناً، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: شديد العذوبة، ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: شديد الملوحة، ﴿وَجَعَلَ﴾ بهذا التباين ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، فهما لا يختلطان إذا اجتمعا في إناء واحد، بل يطفو العَذْبُ على المالح، كأنَّ بينهما حاجزاً منيعاً، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[1]، والله أعلم.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾[2]

---

(١) وأما قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [١٩-٢٠] فالمراد: «أرسلَ الله سبحانه ماء البحرين الملحَيْن المختلفَيْن في خَصائصهما في حالَيْ ذهاب وإياب، واختلاط واضطراب، بينهما حاجز يمنع كلاً منهما أن يطغى ويتجاوز حدَّه، وهذا الحاجز هو ماء ثالث يختلف في خصائصه عن كلٍّ من البحرين المتمايزين من حيث الملوحةُ والحرارة والأحياء المائيَّة، وهو يتحرَّك بين البحرَين المتجاورَيْن، ويخلط بعضهما ببعض ببطء شديد، ويقلب المياه العابرة من بحر إلى بحر، لتكسب المياه المنتقلة من بحر إلى آخر صفات البحر الذي ستدخل إليه، وتفقد صفات البحر الذي جاءت منه».

(٢) إخراج الحيِّ من الميت وإخراج الميِّت من الحي آية من آيات الله الكونية العظمى. والمراد: =

[يونس: ٣١]، ومن بعض آثار هذا الشأن العظيم: إنشاء الحيوان من موادِّه والعكس، وإنشاء النبات من بذوره والعكس، ولا يُرَدُّ ما يقوله العلماء من أنّ في النطفة والبيضة والبذرة حياة، يُريدون ما بها من قوة التوليد والإنبات، لأنَّ هذا الإطلاق اصطلاحُ لأهل الفنِّ في عُرْفِهم دون العُرْف العام الذي يمشي عليه القرآن[1].

= يُخرِج الله تعالى الحيَّ من ذاتِ الميِّت؛ فيجعل الميِّت حيّاً بإدخال الرُّوح في النّفس بأمره التكوينيِّ المباشَر، ويُخرج الميِّت من ذاتِ الحيِّ فيجعلُ الحيَّ ميِّتاً بفصْل الرُّوح عن النَّفس، وهذه الظاهرة مبثوثـة في ظواهر الكون الكثيرة؛ في الحياة النباتيَّـة من البزور التي لا حياة فيها، وفي الحياة الحيوانيَّة من الأغذية التي لا حياة فيها، بِخَلْقِ الله لها في الأجساد الحيَّة تكون منها نُطَف، تحتوي على كائنات حيَّة، تنعقد من بعضها الأجنَّة، فكلُّ حيٍّ في الوجود أخرجه الله من ميِّت لا حياةَ فيه، ويخرج الميِّت من الحيِّ في ظواهر الكون الكثيرة في بلايين الخلايا التي تموت كل دقيقة داخل جسم الإنسان الحي، وفي المشاهدات الدائمة التي نشاهدها بأبصارنا؛ يُخرج اللبن من الحيوانات الإناث اللبون، ويُخرج المسك الذي لا حياة فيه من غدَّة من غُـدَدِ الغزال، ويُخرجُ العنبر من حوت العنبر.

(١) قال العلامة المفسر الشيخ إبراهيم الجبالي رحمه الله في جواب الدكتور عبد العزيز إسماعيل في استشكال ما يذكره المفسرون في معنى الآية إنشاء الحي من النطفة، والنطفة من الحيوان واعتراضه على هذا القول: «قرأت له فيما قرأت كلمة في مجلة الأزهر ساقها في تفسير قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: ١٩] قال فيها: «قيل في التفسير: إنشاء الحي من النطفة والنطفة من الحيوان، ولكن النطفة هي حيوانات حيَّة وكذلك خلق الحيوان من النطفة فهو خلق حيّ من حيّ فلا تنطبق عليه الآية الكريمة على هذا التفسير».

ثم قال: «والتفسير الحقيقي هو «إخراج الحي من الميت» كما يحصل من أنَّ الحي ينمو بأكل أشياء ميِّتة، فالصغير مثلاً يَكبُر جسمه بتغذية اللبن أو غيره والغذاء شيء ميت، ولا شك في أنَّ القدرة على تحويل الشيء الميت الذي يأكله إلى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه هو أهم علامةٍ تَفصِلُ الجسم الحيَّ من الجسم الميت إلخ».

ونحن مع شكرنا لحضرة الدكتور هذه العناية التي لا يريد منها إلا خدمة العلم والدين، نُلاحظ =

= أن ما فسَّر به الآية الكريمة يبتعد عما يَتبادر إلى الذهن من لفظ (يخرج)، فإنَّ الظاهر أنَّ هذا الذي أُخْرِجَ شيءٌ جديد مستقل الوجود، لا أنه نمو وكبر لشيء موجود في الأصل.
وأن المشار إليه في الآية الكريمة هو قانون التوالد الساري في الحيوان. وإن شئت فقل: قانون التوالد في الحيوان والنبات. ذلك أنَّ الحيوان المتولد قد تولَّد من شيء لا بد أن تنتهي سلسلة التوالد فيه إلى حلقة ميتة، فإن لم يصحَّ أنها النطفة لأن النطفة حيوانات حية أو فيها حيوانات حيَّة، فليكن هو الغذاء الذي نشأت عنه النطفة، ولا شك أنَّه شيء مَيِّت كما قرر حضرة الدكتور.
فإذا قيل: إنَّ الغذاء حيوان أو نبات، وكلٌّ منهما فيه معنى الحياة في الجملة؟
قلنا: فلنرجع إلى ما امتصَّه النبات حتى نما، فلا بدَّ من الوصول البتة إلى شيء ميت خرج منه هذا الحي، ويشاهد ذلك كل يوم.
فالحياة تتجدَّد في الأحياء، وتستمد مادَّتها في ماضي سلسلتها حتى تصل إلى شيء ميت، ولو كان هو التراب الذي يمدُّ النبات.
وأما ما ذكره حضرته عن بعض المُفَسِّرين فلعلَّ وجهه أن هذا هو ما كان معروفاً للمخاطبين قبل اتِّساع المعلومات الدقيقة الفنية. والآية تُحمل على ما يَفْهمه جمهورُ المخاطبين بها، ومزيَّة القرآن الكريم أنَّه صالح في الفهم والفائدة لكل الطبقات، لا يتوقف فهمُه على مُتعمِّق في العلم...
فإذا ما كشفَ العلمُ حقيقةً كانت غائبة تجلى فهم القرآن العظيم بمظهر أرقى، وهكذا لا تنقضي عجائبه.
وما يُدريك فلعلَّ قائلاً يقول: إنَّ الترابَ الذي يُغذِّي النبات يحتوي على جراثيم فيها نوع حياة تهتزّ وتربو حين ينزل عليها الماء فتغذي النبات فيخرج منها خروج حي من حي؟..
فنقول له حينئذ: وهذه الجراثيم خارجة من تراب ميِّت، فلا بد أن تصل إلى إخراج الحي من الميت. فالحياة ألبتة طارئة بعد موت.
وكما تطرأ الحياة بعد الموت، يطرأ الموت بعد الحياة، فتتعاقب الأطوار على المادَّة الواحدة بقدرة القادر المختار سبحانه. وأطوارها مُتلاحقة، ودرجات التفصيل بينها خفيَّة، فتفهم منها كل طبقة بحسب مقدارها. والله أعلم. مجلة الأزهر، الجزء السادس من المجلد السادس، محرم ١٣٥٤هـ.

ومن أساليب القرآن: **كلما ذكر إحياء الأرض بالنبات بعد موتها باليبس، استطرد إلى ذكر البعث، بطريقة قياس النظير على إحياء الأرض**، فيقول: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٧]، ووجه التناظر بينهما: أن كلًّا منهما إعادة لِـمَا كان عليه بعد فنائه، وإرجاع له إلى سيرته الأولى.

فالقرآن يُنبِّهنا إلى زمن الحشر بزمن الربيع، فكما أنَّ أيام الربيع تختصُّ بإنعاش وإحياء للنبات لا مثيل له في أيام الصيف المحرقة، ولا في أيام الشتاء القارصة القاحلة، ولا يستغرب على الربيع ما يأتي به من عجائب الإنبات إذا جاء، كذلك زمن الحشر يُغايرُ هذه الأزمان بطبيعته وإنعاشه، فيُحيي الأجسام من بذرة عَجْب الذَّنَب ونواة الحياة، كما يُحيي الربيع النبات[1]. والذي يكون في ذلك الزمن لا يَتعجَّب من إحيائه للأموات، كما لا يَتعجَّب الإنسان من إحياء الربيع للنبات وإنعاشه له. وبهذا الإنعاش يكون جسم الإنسان في تلك الحياة صالحاً للبقاء الأبدي مغايراً لطبيعته اليوم في ذلك لزيادة الحياة الثانية بقوة الإنعاش. والله أعلم.

ولو فُرِضَ أنَّ الزمان كلَّه صيفٌ مُحرق وشتاءٌ قارص فقط؛ لم يخطر ببال الإنسان أنه يمكن أن يكون زمان من الأزمان ينعش النبات هذا الإنعاش ويُحييه هذه الحياة. لذلك يذكِّرنا القرآن العظيم بالبعث والنشور كلما ذكَرَ إحياء الأرض بالنبات بعد يبسها، للإشارة إلى أنَّ يوم القيامة تختصُّ طبيعته بخاصَّة البعث والنشور. والله أعلم.

* * *

ومن أساليب القرآن: **أن يأتي بالأمر بالصلاة في مواقع التثبيت والصبر على ما**

---

(١) الزمن لا تأثير له، وإنما هو ظرف للأثر الواقع بقدرة الله تعالى. وانظر كلام الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المفصَّل في هذه المسألة في أول الكتاب ص٤٣٩.

يقتضي الصبر عليه من معارضة المشركين وعنادهم وبغيهم وإعراضهم، وقد يأتي بها وصفاً للعلاج المُصلح للنفوس والدواء المُجلي للقلوب. وقد يأتي بها استطراداً لمناسبات تَعرِضُ في السياق، وكثيراً ما يَقْرن بها الأمر بالزكاة للاهتمام بشأنهما.

ولا يذكر الصلاة إلا مقرونة بلفظ الإقامة، ومعنى إقامتها: أداؤها مُقامة، وذلك إنما يكون بصدق التَّوجُّه إلى الله وحضور القلب في مناجاته بما اشتملت عليه الصَّلاة من ذِكرٍ ودعاء وآيات، حتى تشعر النفسُ بعَظَمةِ الله؛ إذ بهذا الشعور ينمو الإيمان وتَقْوى الثقة بالله وتَتَنزَّه النفس أن تأتي بالفواحش والمنكرات وتستنير البصيرة، فتكون أقوى نفاذاً في الحق، وأشدَّ بُعْداً عن الأهواء. وهذه الصلاة هي التي قال فيها سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وخلاصة الكلام في معنى إقامة الصلاة: أن يكون المُصَلِّي حاضِرَ القلب في الصَّلاة يُناجي ربَّه، يخافه ويرجوه، والواقفُ في الصلاة كالقائم أمام المرآة، فإذا لم ينظر فيها لم يستفد منها في إصلاح شأنه.

وعن عمر رضي الله عنه: «إنَّ الرجل لَيَشيبُ عارضاه في الإسلام، وما أكمَلَ لله تعالى صلاة. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يتمُّ ركوعَها وسجودَها وخشوعَها وإقبالَه على الله فيها وتواضُعَه له»(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يُحدِّثنا ونُحدِّثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يَعرِفنا ولم نَعرِفه»(٢).

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (٢: ١٧٠) بصيغة التمريض.

(٢) ذكره الغزالي في «الإحياء» (١: ١٥٠)، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (١: ١٥٠): رواه الأزدي في «الضعفاء» من حديث سويد بن غفلة مرسلاً: كان النبي ﷺ إذا سمع الأذان كأنه لا يعرف أحداً من الناس.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ركعتان مُقتصدتان في تفكُّر، خيرٌ من قيام ليلة والقلب ساهٍ[(١)]»[(٢)].

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩]، وقوله

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٢٨٨).

(٢) قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٢] الآية، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ولا يذكر القرآن العظيم الصلاة إلا مقرونة بلفظ الإقامة، والمراد منها حضور القلب في مناجاة الله سبحانه في الأعمال والأقوال التي في الصلاة، فقد قال ﷺ: «ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها»؛ وذلك لأن العبد في الصلاة يناجي ربَّه عزَّ وجلَّ كما وَرَدَ في الخبر، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة، إذ المقصود من القراءة والأذكار في الصلاة: الحمدُ والثناء والتضرُّع والدعاء، والـمُخاطَبُ هو الله عزَّ وجلَّ، فإذا كان اللسان يتحرَّك بحكم العادة والقلبُ غافل عما يقول، فما أبعَدَ هذا عن المقصود بالصلاة التي شُرعت لتجديد ذكر الله ورسوخ الإيمان به سبحانه وتعالى، كما قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، فحضور القلب هو روح الصلاة، ولا قيمة لها إذا فقدت الحضور، كما لا قيمة للجسد إذا فقد الروح والحياة. ولم يُمنَع المصلِّي من اشتغال أعضائه بأشغال الدنيا كالكلام والحركات إلا لتسكين القلب وتوجيهه إلى الله سبحانه وتعالى، لأن تحريكات هذه الظواهر بالحركات الدنيوية يتبعها القلب ويفلت من توجُّهه إلى الله، وتعطيلها عن ذلك يُعينُ على ضبط القلب والتفاته إلى مَنْ يناجيه ويتضرَّع إليه.

وقد قال ﷺ ـ لما رأى مصلياً يعبث بلحيته ـ: «أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه». (المؤلف).

وحديث «ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها» ذكره الغزالي في «الإحياء» (١: ١٥٩) وقال العراقي في تخريجه: لم أجده مرفوعًا. ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٠٠)، عن عمار بن ياسر بلفظ: «لا يكتب للرجل من صلاته ما سها عنه».

وحديث «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه» ذكره المتقي الهندي في «كنز العمـال» (٨: ١٩٧)، ورواه العسكري في «المواعظ»، وفيه زياد بن المنذر؛ متروك.

تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، والمعنى: أنَّ الإيمان بالله وتقوى الله يجعلان في الإنسان مَلَكةً من العلم والحكمة وجلاء البصيرة، يُفرِّق بها بين الحقِّ والباطل، والضارِّ والنافع، والحجَّة والشبهة، والنور والظلمة، فلا تنطلي عليه الخرافات والأباطيل التي تُقيِّد بها نفوس الكفرة والمشركين وتذلّ لها، بل يرى الحقَّ حقاً والباطلَ باطلاً، بخلاف الكفر والشِّرك والعصيان، فإنها تُعمي البصيرة، وتأْسِر العقول، وتقيِّد النفوس في سلسلة طويلة من الأوهام والخرافات، فترى الحقَّ باطلاً والباطلَ حقاً، وتخاف من كلِّ شيء، حتى من الجمادات أن تُؤثِّر عليها أو تبطش بها. خاب وخَسِرَ الكافرون.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦]، يعني: أنّ مَن يريد أن يتَّقي الله ويخشى مخالفتَه فلينظر إلى سُنَّته المطَّردة في هذا الكون، وكيف أنها لا تُعاكَس؛ إذ مَنْ عاكسها هلك. وأوضَحُ ما في ذلك: أنَّ الذين يخالفون سُنَنَ الصحة البدنيَّة يمرضون، والذين يخالفون سنن الاجتماع تخرب بلادهم ويذلّون، وهكذا الذين يخالفون سنن الله في شريعته وهدايته، ينالهم الذلّ والهوان والعذاب الأليم في دار الجزاء.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ...﴾ [النساء: ١] أي: اجعَلوا بينكم وبينه وقايةً من عذابه.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١٠٩ - ١١٠]، والجملةُ الثانية تعليلٌ للأولى، ومفادها: أنَّ الشفيعَ يَكشِفُ للمشفوع منه أحوالَ المشفوع له ليرقَّ عليه ويعطف، والله تعالى غنيٌّ عن ذلك مُطَّلعٌ على كلِّ شيء، فلم يبقَ من معنى الشفاعة

ـ على القول بها ـ إلا الدعاء من الله سبحانه وتعالى، والتوسُّل إليه أن يعفو ويصفح، ولا يقبل ذلك ويأذن به إلا لمن رَضِيَ له قولاً وعقيدة، وكان له هفوات، فيصفح عن تلك الهفوات(١).

---

(١) قول المؤلف: إن الشفاعة مجرَّد الدعاء، لا يجوز أن يُفهَمَ منه التقليلُ من شأن الدعاء والتوسُّل إلى الله تعالى، وأيُّ شيء أفضل من دعاء الله تعالى والتوسُّل إليه؟ فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، رواه أصحاب السنن [أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال الترمذي: حديث حسن صحيح]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

وعلى كل حال، فإن الشفاعة معناها (الوسيلة والطلب...)، وشفاعة النبي ﷺ لا تكون إلا بالدعاء والتضرُّع إلى الله تعالى والتوسُّل إليه، وشفاعته ﷺ أنواع؛ منها: ما كان لإراحة الناس من هَوْل الموقف الأعظم، وتعجيل الحساب للفَصْل بين العباد، وهي خاصة بالنبي ﷺ. وتكون بعد الاستئذان على ربِّه عزَّ وجلَّ، وهي الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها الأنبياء والرسل بعد أن يأتيهم أهل الموقف يستشفعون بهم إلى ربهم ليريحهم من ذلك الموقف، فيقول كلُّ واحد منهم: «إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، نفسي نفسي...» فإذا أذن له خرَّ ساجداً، فيحمد الله تعالى بأحسن المحامد، ويثني عليه بأحسن الثناء...، فيقال له: «يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمَع لك، وسَل تُعطه، واشفع تُشَفَّع». جاء ذلك في حديث الشفاعة الطويل في «الصحيحين» [البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه] وغيرهما [ورواه أيضاً: الترمذي: (٢٤٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢٢٢)، وهو عند أحمد في «المسند» (٩٦٢٣)].

وهناك شفاعات أخرى، منها: الشفاعة في قوم يدخلون الجنة بغير حساب، ومنها: الشفاعة في رفع درجات أهل الجنة، لقوله ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة»، رواه مسلم [(١٩٦)].

ومنها: الشفاعة في عصاة الموحدين، فمنهم قوم استوجبوا النار، فيشفع فيهم نبيُّنا ﷺ ومن شاء الله تعالى، فلا يدخلوها، ومنهم من دخلوها بذنوبهم فيخرجون منها بالشفاعة، وقد ثبت في =

= «صحيح البخاري» [(٧٤٣٩)]: أن المؤمنين الذين اجتازوا الصراط يقفون يجادلون في إخوانهم الذين دخلوا النار، فيقولون: «ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون ويعملون معنا» فيقول لهم: «أخرِجوا مَن عرفتُم»، فيخرجون خلقاً كثيراً، منهم من قد أخذته النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه، ثم يقولون: «ربنا ما بقي فيها أحد ممَّا أمرتنا به»، فيقول: «ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرِجوه»، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: «ربنا لم نَذَرْ فيها ممَّن أمرتنا أحداً»، ثم يقول: «ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرِجوه»، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: «ربنا لم نَذَرْ فيها خيراً»، فيقول الله عز وجل: «شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط...» أي: مع إتيانهم بأصل التوحيد وأركانه.
قال الحافظ في «الفتح»: «وأما الشفاعة العظمى في الإراحة من كرب الموقف، فأسعدُ الناس بها من يسبق إلى الجنة وهم الذين يدخلونها بغير حساب، ثم الذين يلونهم وهو من يدخلها بغير عذاب بعد أن يحاسب ويستحقَّ العذابَ، ثم من يصيبه لَفْحٌ من النار». اهـ [«فتح الباري» (١١: ٤٤٣)].

فللرسول ﷺ شفاعة عامة، وهي شفاعته العظمى، وهي على قسمين: شفاعته لأمته، وشفاعته لآحاد الناس، وشفاعته العظمى هي المقام المحمود الذي ورد في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وذلك حين يبلغ الكربُ والغمُّ بأهل المحشر ما لا يطيقون، فيقول بعضهم: ألا تنظرون من يشفع لكم عند ربكم، فيأتون آدم فيعتذر، وهكذا نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، حتى يأتون إلى نبينا محمد ﷺ، فيشفع لجميع الناس، أوّلِهم وآخرِهم، وبَرِّهم وفاجرِهم، ليخرجوا من ذلك الكرب والهول، إلى عرض الأعمال على الله والمحاسبة، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة [وقد سلف قريباً]، فشفاعته العظمى ليست مقصورة على المؤمنين، ولا على أمته.

أما شفاعته الخاصة لأمته فهي نائلةٌ كلَّ من مات من أمته لا يشرك بالله شيئاً، ففي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجَّلَ كلُّ نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة ـ إن شاء الله تعالى ـ من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً» [«صحيح البخاري» (٦٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٩)]. =

ويجوز أن يكون الاستثناء من أعمِّ الأحوال أو منقطعاً، والمعنى: لا ينجو إلا مَن أذن الله بدخوله الجنَّة، إذا رضي الله إيمـانه وعقيدته الصحيحة في التوحيد، على حدِّ

= ومن شفاعته الخاصة ببعض الأفراد: شفاعته لعمه أبي طالب، ففي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ وذُكِرَ عنده عمُّه فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضَحْضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه» [«صحيح البخاري» (٣٨٨٥)، و«صحيح مسلم» (٢١٠)].

وقد استشكل قوله ﷺ: «لعله تنفعه شفاعتي» مع قوله تعالى عن المشركين: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وللجمع بينهما طريقان: الأول: أن يقال: إن الشفاعة ممنوعة لكل كافر بهذه الآية. والثاني: أن يقال: إن المراد بكونهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين: هو أنهم لا يخرجون بها من النار، وليس المراد: أنهم لا يُخفَّـف عنهم، وخصَّ أبو طالب بالشفاعة لثبوت الحديث الصحيح الذي خصَّص العموم. قال ابن حجر في «فتح الباري» [(١١: ٤٣١)]: «وأجيب بأنه ـ يعني أبا طالب ـ خُصَّ، ولذلك عدُّوه من خصائص النبي ﷺ، وقيل: معنى المنفعة في الآية يخالف معنى المنفعة في الحديث، والمراد بها في الآية: الإخراج من النار، وفي الحديث: المنفعة بالتخفيف، وبهذا جزم القرطبي، وقال البيهقي في «البعث»: صحَّت الرواية في شأن أبي طالب، فلا معنى للإنكار من حيث صِحَّة الرواية، ووجهُه عندي: أن الشفاعة في الكفَّار قد امتنعت لوجود الخبر الصادق في أنه لا يُشَفَّع فيهم أحد، وهو عامٌّ في حقِّ كلِّ كافر، فيجوز أن يُخَصَّ منه من ثبت الخبر بتخصيصه...». اهـ.

وأما الاستـدلال بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] على نفي الشفاعة لغيره سبحانه، فقد ذكر ابن كثير في تفسيرها ما يلي: «يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، وليس لـها عقلٌ تعقل به، ولا سمعٌ تسمع به، ولا بصرٌ تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوانات بكثير، ثم قال: ﴿قُل﴾ أي: يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاءَ لهم عند الله تعالى، أخبِرهم أنَّ الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلِّها إليه ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]». انتهى [«تفسير ابن كثير» (٧: ١٠٢)].

قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] أي: لا ينجو إلا من رحمه الله.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كلُّ ما وَرَدَ من أحاديث الشفاعة محمولٌ على الدعاء الذي يفعل الله تعالى عَقِبَه ما سَبَق في عِلمِه الأزليّ أنه سيفعله، مع أنّا نقطع بأنَّ الشافع لا يُغيِّر شيئاً من علمه تعالى، ولا يُحدث تأثيراً في إرادته، وإنما تظهر بها كرامة الله لعبده بما أوقع من الفعل عَقِبَ دعائه».

أقول: ويُؤيِّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، لأنَّ سنن الحياة الأخرى إنما تجري على الأعمال في الحياة الدنيا، فمن يعمل مثقال ذرَّةٍ خيراً يَرَه، ومن يعمل مثقال ذرَّةٍ شراً يَرَه. وهذا هو القانون الأساسي الذي لا يتغير.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[1] [يونس: ٣] ويُسيِّره، أي: إنه سبحانه وتعالى خلق هذا الكون وما فيه من

---

(١) قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: مذهب السلف: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسه، وسمَّى بها ذاته في كتابه وتنزيله، أو على لسان رسوله، من غير زيادة عليها ولا نقصان منها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين ولا سمات الـمُحْدَثين، ولا تفسير لها ولا تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أمرُّوها كما جاءت، وردُّوا علمها إلى قائلها، وفوَّضوا معناها إلى المتكلم بها، وهو سبحانه وتعالى، ومن ذلك ما جاء عنه تعالى من المجيء واليد والوجه والاستواء على العرش، إلى أمثال ذلك.

فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها، لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، وإثباتُ الذات إثباتُ وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات، إذ ليس كمثله شيء. (المؤلف).

معادن ونبات وأشجار وحيوان وإنسان وغيرها في أدوار ستة تمَّ فيها هذا النظام الكوني وما فيه من سنن كونيَّة، فسار كلُّ شيء بنظامه الذي قُرن به، وأخذت هذه الطبيعة تؤدِّي واجبَها على أكمل وجه، وكان الإنسان من بين المخلوقات مختاراً في أخذِه بالسُّنن التي تخصُّه وتُـجْديه، فمَنْ ماشى تلك السُّنَن الكونيَّـة نال كلَّ خير وتجدّى، ومن عاكسها وخالفها اصطدم بها وتردّى. وهكذا يتـقلَّب أفراد البشـر بين هذين الأمرين بنسبة تـمسُّكهم بالسنن وتنكُّبهم عنها، وتكون نتيجة الأول خيراً والثاني شراً، والإنسان مُيَسَّرٌ لهما بفطرته واختياره، ومحمولٌ عليهما بشريعته وكتابه.

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠] أي: أفسَدَها وأغواها.

وتوجيهاتُ القرآن مبنيَّة على سنن الله الكونيَّة، ومُؤدَّى هذا البيان قولُه تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآيات.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، فكلمة «ثم» ليست للتراخي، بل لإفادة عظمة المعطوف بها. وهذه العبارة هي كأمثالها من العبارات التي يُعبِّر بها القرآن عن تحقُّق الوجود والثبوت لله تعالى في الأذهان، بصورة تتناسب مع تصوُّرات الإنسان، وليست على معناها الظاهري، أو هي عبارة مستعارة من صفة الـمُخاطَبين في هذا الشأن، للإيذان بالعظمة والسلطان، لأنَّ عَظَمَةَ الله تعالى لا يحُدُّها صريحُ التعبير، فلا يُعبَّر عنها إلا بطريق التمثيل.

والاستعارة من صفة الُمخاطَبين لصفات الله تعالى، هي من سُنن القرآن ومناهجه؛ لتقريب المعنى إلى الأذهان، فالقرآن ـ مع حِرصِه الشديد على التنـزيه لله تعالى ـ قد يستخدم التخييل ليبدو المعنى محسوساً ومثيراً للشعور، كما أنه سبحانه وتعالى قد يخاطب

الناس في تعريف ذاته وصفاته بما يعرفونه عن ملوكهم وعظمائهم، لينطبع ذلك في نفوسهم وأذهانهم بصورة تمثيليَّة.

أو يقال: العَرْش لغة: البناء[1]، والمراد: إشرافه تعالى على هذا الكون الذي بَنَاه، وتدبيره لشؤونه، يكني بذلك عن سَيْر هذا الكون في نظامه الـمُتْقَن إلى نهايته وانتهاء أمره.

والقرآن العظيم جاء بعدَّة تعبيرات عبَّر بها عن تحقُّق الوجود والثبوت لله تعالى في الأذهان بصورةٍ تتناسب مع تصوُّرات الإنسان، ولا يُراد بها حقيقةُ معناها، كقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وكقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

وجاء بعبارات مِثلِها تدلُّ على التكريم للمضاف، كقوله تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وكتسمية الكعبة: بيت الله، وتسمية عيسى: روح الله، وكقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. وقد جلَّ سبحانه عمَّا تضمَّنته هذه الصفات من حقائق معانيها، وإنما هي تمثيلٌ وتصويرٌ ومجازاتٌ وكنايات، ولذلك عقَّب سبحانه على هذه الآية الأخيرة بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ [النساء: ١٢٦] لينفيَ ما يسبق إلى الأذهان من اللوازم العادية في اتِّخاذ الله إبراهيمَ خليلاً، كأنْ يتوهَّم أحدٌ أنَّ هناك شيئاً من المناسبة والمقاربة، فبيَّن تعالى: أنَّ كلَّ ما في السماوات والأرضِ

---

(١) هذا بعيد، والذي قبله هو الصحيح، فالعَرْش له حقيقة لغوية وحقيقة شرعية، أما الحقيقة اللغوية فمتردِّدة بين عدة معانٍ منها البناء، وأما الحقيقة الشرعيَّة فمخلوق عظيم فوق السماوات أظهر الله فيه عجيب قدرته، وجعله شعاراً لكمال الملك والغلبة، والحقيقة الشرعية هي الـمُرجَّحة في نصوص الشارع.

مِلْكٌ له ومن مخلوقاته، مهما اختلفت صفاتُها ومراتبُها في أنفسها، فهو يُحيط بها إحاطةَ قَهْر وتصرُّف وتسخير، وإحاطةَ علم وتدبير.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، يريد اقتراب جبريل من محمد صلوات الله عليهما في حِراء، أما الكلام عن العبارة، فقد قال الزجّاج: «إنَّ العباد قد خُوطبوا على لغتهم ومقدار فهمهم، وقيل لهم في هذا ما يقال للذي يحدِّد[1]، والمعنى: فكان منه على بُعْد ما تقدِّرونه أنتم بطول قوسين أو أقلَّ[2]. وقد جرت عادة العرب على تقدير المسافات القريبة بالقوس والرمح والسَّوط، والمسافات البعيدة بالفرسخ والميل والبريد».

ومثلُ هذه الآية: قولُه تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

* * *

ومن سنن القرآن: أن يضع الظاهر موضع الـمُضمَر، فيقول مثلاً: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧] بدل قوله: «سيئت وجوههم»، ويقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٦] بدل: «وإنهم»، ويقول: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الملك: ٢٨] بدل: «فمن يجيركم»، وهكذا. وذلك ليذكر الفعل الذي اقتضى الحكمَ أو العذابَ الذي سَجَّله عليهم أو تَوَعَّدهم به إيذاناً بالسبب.

* * *

---

(١) في «معاني القرآن»: «يحزر».

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥: ٧١).

ومن سننه: **أن يُعبِّر بصيغة الجمع عن الواحد؛ ليكون الكلام عاماً يتناول كلَّ من كان على تلك الصفة**، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: ١٠٩]، فعبَّر بضمير الجمْع مع أنَّ المجادَلة كانت عن واحد، كما يدلُّ عليه السياق.

* * *

ومن سننه: **أن يأتي بضمير الجنس الذي يصدق ببعض الأفراد، ويريد به البعض**، كقوله: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] والمراد: إنْ تعذِّب مَن تُعَذِّبه منهم، أو تغفر لمن تغفر له منهم، فأعاد الضمير للجميع وأراد بعضَهم على خصائص اللغة.

* * *

ومن سننه: **إذا تكلَّم عن قوم بوعد أو وعيد وما يماثله، يأتي بعبارة تشمل كلَّ مَن كان على شاكلتهم**، كقوله: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الطور: ٤٧] ـ أو ﴿كَفَرُواْ﴾ أو ﴿أَشۡرَكُواْ﴾ ـ كذا من العذاب، مع أنه يتكلَّم في السياق عن أناس مَخْصوصين.

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ...﴾ [البقرة: ١٧٤]، يُعقِّب بها على سياق العابثين بكتبهم وشرائعهم. وهكذا يجري في سائر أحكامه وبياناته.

* * *

ومن سننه: **أن يُلوِّن السياق**، فبينما هو يتكلَّم عن صنف خاصٍّ أو يُخاطبُ صنفاً خاصّاً، إذ يتكلَّم عن صنف عام أو يخاطب صنفاً عاماً، فمثلاً جاء في سورة محمد: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٤]، فهذا كلام عن الشهداء، ولكنه

أجراه فيما بعد على مُطلق المجاهدين، فقال: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٥]، فكانت الجملة الأولى عن الشهداء، والجملة التابعة لها عن مطلق المجاهدين.

* * *

ومن سننه: **أن يخاطب الإنسان أو يتحدَّث عنه بما يقع من بعضه**، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، وكقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، وذلك لتحقُّق الجنس في ضمن البعض.

وكذلك يخاطب المؤمنين أو يَتحدَّث عنهم في جملتهم بما يقع من الضعفاء فيهم أو المنافقين منهم، تربيةً للجميع وتحذيراً.

* * *

ومن سننه: **أن يخاطب الحاضر بما كان من الغائب الماضي** متى كان يحتذي حذوه، وكان للجميع جامعةٌ تضمُّهم، كما قال لبني إسرائيل في زمن النبيِّ ﷺ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩] إلى آخر الآيات، وفيها: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]، مع أنَّ الذين وقع لهم ذلك أسلافهم. وعلى هذه الوتيرة قولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١ - ٢] يخاطب الأحياء.

قال الأستاذ الإمام(١): «وذلك كما تقول لأعقاب الظالمين: لا زلتُم تظلمون الناس حتى أَكَلَكم الظلمُ وأهلكَكُم، ففنيتُم وأراح الله الناس منكم. تقول لهم ذلك

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

مع أنَّ الذي هلك واستراحت الناس منه أسلافُهم، وهو ضَرْبٌ من التعبير يريد الله به أن يحمل تَبِعةَ الناس بعضهم على بعض، حتى لا يَدَعَ أحدُهم أخاه يأتي منكراً يفشو، فيفسد به أمر جماعتهم».

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، فقد أُخِّر الفقرة الأخيرة عن سابقتها، مع أنَّ النظم يقتضي التقديم في الظاهر، وذلك ليتحقَّق مرجعُ الضمير، ولتتَّصل الفقرة الأخيرة بعِلّتِها المقصودة بالذِّكر في السياق، وهي قوله: ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾.

* * *

ومن سُنَّة القرآن في الحكاية عن الغير: أن يُراعيَ في التعبير دقّـةَ المعنى، وإن كان ذلك غيرَ ملحوظ لهم، ولا في متناول عقولهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢]، فقد لاحظ في التعبير بالـمَرْسى دقَّة المعنى في أمر القيامة، وهي كَوْنُ هذا العالم سائراً كسَيْر السفينة، وله يومٌ يقف فيه عن السَّيْر، ويرسُو كما ترسُو السفينة. فهذه الدقَّة لا تخطر ببال السائلين، ولكنَّها من بلاغة القرآن العالية ودقة تعابيره.

* * *

ومن سُنَّة القرآن: التعليل الصُّوَري البديعي بلام العاقبة والمآل، كقوله تعالى في حقِّ الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وكقوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وفي هذا اللامُ منتهى البلاغة والبداعة في مقام التحذير والتنبيه، بصورة تسخيفٍ وتـهكُّم، مُهزٍّ للنفوس

ومُنبِّهٍ للوعي العميق، أي: فالتقطه آلُ فرعون ليكونَ لهم عكسَ ما أمَّلوا وقدَّروا. ويُسمَّى مثلُ هذا في علم البديع: حُسْن التعليل.

ويأتي في القرآن مثلُ قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، وهي التي عُدِّدت بالتفصيل في القرآن العظيم، وجماعها: أن تكون نافعاً لنفسك ولأهلك ولقومك وللناس أجمعين، بعيداً من أن تضرَّ أحداً، إلا لكفِّ ضرر أعظمِ منه، وهي التي تُعرَفُ عند البشر بالأعمال الخيريَّة النافعة لخاصَّتهم وعامَّتهم، التي لا تنكرها الأذواق السليمة، ولا تُجافيها الطباعُ المستقيمة. ولذلك سُمِّيت أضدادُها بالمنكر.

وكلُّ ما يُربِّي هذه المَلَكات في النفوس يُعَدُّ من صالح الأعمال، كالصوم والصلاة والحج والزكاة.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣] أي: بلاغته وعلومه وما جاء في ثناياه، فتَتَيقَّنون أنه مُنزَّل من عند الله، لا من وضع البشر.

وإنما خصَّ العرب بهذه الكرامة، وأنزل هذا الكتاب المبين بلغتهم؛ لأنهم في مقدِّمة مَنْ يعلم أسرار الكلام ودقائقَه وتفوُّقه في أساليبه ومعانيه، فهم وحدهم الذين يمكنهم أن يُميِّزوا فَضْلَ هذا القرآن وإعجازَه، ودقائقَه وأسرارَه، وعلومَه وآثارَه، وما يرشد إليه من مطالب الروح، وكمال العقل، وتزكية النفس، وتثقيف الوجدان والحسّ، وإصلاح الاجتماع العام الذي يعودُ بصلاح الحال وسَعادة المآل، فيكونون نواةَ الدعوة إلى هذا الدين ومصدرَها الأول ومبعثَها الدائم، وهم المسؤولون عن ذلك في كلِّ وقت وحين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: إنه لَشَرَفٌ عظيم لكم أو تذكيرٌ بما يجب عليكم، وسوف تُسألون عنه يوم القيامة، بمعنى: تُسألون عن قيامكم بحقوقه وتبليغه ونَشْره بين الناس.

وهذا صريحٌ في واجب العرب تجاه نَشْر هذه الشريعة بين الأمم، فهم المكلَّفون بذلك من دون سائر أجناس البشر، والكلُّ تبَعٌ لهم في فَهْم هذه الشريعة عنهم، ليدخلَ الجميع في السِّلم كافَّة.

وعلى هذا جاء قولُه تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فهو خطابٌ للعرب على أن تكون كلمة «مِن» للتجريد لا للتبعيض، وذلك أحد المعنيين في الآية.

ولاختصاص العرب بهذه المنقبة وَجْهٌ آخر، وذلك أنَّ بعض علماء الأصناف البشريَّة صرَّح وأكَّد بأنَّ العربيَّ يمتاز على سائر الأصناف خَلقاً وخُلقاً، ومن ذلك اختصاصه بسَعَة الدماغ وكثرة تلافيفه، وبناء الأعصاب وشكل الألياف العصبية، والنسيج العَظْمي، وقوام القلب ونظام نبضاته، وملاحة السَّحْنة[1]، وتناسب الأعضاء، وحُسْن التقاطيع، ووضوح الملامح، إلى غير ذلك من الصفات الجسمية التي تتبعها الصفات العقلية والروحية، تلك الصفات التي تَتَبايَنُ فيها أصنافُ البشر خَلقاً وخُلقاً.

وفي جَعْل القرآن عربياً أمرٌ آخر، وهو فَرْضُ توحيد لغة الدين، وأن تكون تلك اللغة لغةً عالميةً عامّةً في الناس أجمعين؛ لتتفاهم الأمم وأقسام البشر كلها بهذه اللغة، وتدخل في السِّلم كافَّة.

وقد وقع ذلك فعلاً في صدر الإسلام وفي أقدم العصور الإسلامية، فكلُّ فَرْد أو أمة دَخَلَ في الدين الإسلامي من غير العرب يتعلَّم اللغة العربية، ويتكلَّم بها؛ ليتفهَّم القرآن ويُدرك الشريعة إدراكاً تاماً.

---

(١) السَّحْنة: لِيْن البشرة والنَّعمة. «لسان العرب» (سحن).

وكلُّ دولة مسلمة قامت من غير العرب إنما كانت لغتُها الرسمية اللغةَ العربية، حتى الدولة العثمانية إلى زمن السلطان سليمان القانوني، فإنه هو الذي غيَّر هذا المنهج، وجَعَل اللغةَ التركية لغةَ الدولة الرسمية، ثم تبعته الدول الأخرى الإسلامية غير العربية في ذلك، وجعلت لغاتها رسمية كالفارسية والهندية والأفغانية، فكان ذلك أول خلل كبير في الرابطة الدينية والجامعة الإسلامية، أدَّى إلى التفرُّق والتباعد بين الشعوب المسلمة، لأنَّ توحيد اللغة أكبر روابط الجماعة والشعوب في وحدة واحدة، إذ إنه يُؤدِّي إلى التفاهم والتآلف والشعور بالوحدة والارتباط، ويتمنَّى علماء الاجتماع اليوم أن تكون لغة واحدة عامَّة بين سائر البشر ليتمَّ التفاهم بينهم، وأنت ترى أنَّ القرآن قد لاحظ ذلك قبل أربعة عشر قرناً. وإنما جُعلت اللغة العربية لغة للقرآن، لأنَّ غيرها من اللغات لا تقوم بأداء معانيه ودقائقه وإشاراته. والله أعلم.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣] أي: فيما فيه من تشريعٍ دينيّ ومدنيّ وسياسي، وحِكَم ومواعظ، وآداب وأنباء غيبيَّة عن الماضي والمستقبل، وأنظمة لتربية الأجسام والنفوس والعقول، فقد أحلَّ الطيِّبات وحَرَّم الخبائث، وحَظَر الإسراف في كلِّ شيء، ووَضَع قواعد الأخلاق لإصلاح الاجتماع، وحَرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثمَ والبغيَ بغير الحق، وبيَّن العقائدَ الصحيحةَ في عالم الغيب الذي لم يَصِلُ العقل إليه، وهو اليوم الآخر وما فيه من نعيم وجحيم، وهو يُعبِّر عن كلِّ ذلك بتراكيبَ وأساليبَ عجيبة، وبلاغةٍ حاكمةٍ على العقول والألباب، وفصاحةٍ مُستعذَبةٍ في الأذواق والأسماع، فهذه المزايا هي الباعثة على التحدِّي في هذا السِّياق، بعَشْر سُورٍ دون سورةٍ واحدة، لأنَّ التحدِّي بذلك لا يتمُّ إلا بمثل هذا المقدار. وأظنُّ أنَّ المراد بالسُّورة: الموضوع الواحد في آيات محدَّدة.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، فيردُّ بهذا على مَنْ ينكر بعض أحكام القرآن من أهل الكتاب، لعدم موافقته لِـمَا عندهم، وكذلك يردُّ على مَن يتطلَّب معجزاتٍ خارقة للعادة كمعجزات موسى(١).

ووجه الردِّ على الصنف الأول: أنَّ لكلِّ مُدَّة من المُدَد، ووَقتٍ من الأوقات، حُكماً مُعيَّناً، يُكتَبُ على العباد حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة الحاضرة إذْ ذاك، بحسب درجة رُقيِّ النوع الإنساني في مدارج الكمال، ومدارك الأقوال والأفعال، وتغيُّر الأحوال والعادات والقابليَّات العقليَّة والروحيَّة.

وهكذا ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من أحكام الشريعة السابقة لِـمَا تقتضيه الحكمة البالغة، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ عِوَضَه مما فيه المصلحةُ الحاضرة للنوع الإنساني بحسب درجة رقيِّه، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] وهو علمُه الثابت بالحِكَم والمصالح حسب مقتضيات الأحوال في مختلف الأزمان والعصور والدهور(٢).

---

(١) المعنى الصحيح في تفسير هذه الآية ـ كما في تفسيري «المعين» ص٢٥٤ـ: «ما كان لرسول أن يأتي بمعجزة ماديّة إلا بمشيئة الله سبحانه، لكلِّ وقت محدّد من أوقات المستقبل قضاه الله وقدّره كتابٌ مسجّل فيه ما تمّ به القضاء والقدر، ولكلِّ مدة حدّدها الله عزّ وجلّ لانتهاء أيّ شيء، أو بَدْء أي شيء، كتابٌ مُسجّل فيه مراد الله، ووقت يقع فيه، لا يتقدم ولا يتأخر، فتأُخّر نزول العذاب بهم إنما هو لعدم حلول وقته المقدَّر له، فلماذا يستعجل المشركون نزول العذاب بهم؟!».

(٢) المعنى الصحيح لـهذه الآية: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ـ كما في تفسيري «المعين» ص٢٥٤ ـ: «يمحو الله ما يشاء مَـحْوَه، ويُثبِتُ ما يشاء إثباتَه، في صُحُف الملائكة؛ من الرزق والأجل والسعادة والشقاء، حسبما تقتضيه المشيئة والحكمة الإلهيّة، وعنده أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي لا يتعرّض للمَحْو والتغيير، لأنه قد كُتب فيه ما هو كائن بحسب علم الله عز وجل».

ووجه الردِّ على الصنف الثاني: أنَّ تنشئة الرسل تختلف باختلاف الأزمان، وتتناسب معها، فتختلف ألوان المعجزات التي تُؤيِّدهم، والآيات البيِّنات الشاهدة على نُبوَّتهم، باختلاف الأزمان والبيئات. أما في عصر النَّبيِّ ﷺ فقد انقضى زمن المعجزات الحسيَّة؛ لرُقيِّ المدارك بتوسُّع المعرفة، وأصبح العقل البشريّ يريد أن يُدرك هذا الأمر بطريقة علمية وبرهان علمي ومنطق وجداني، ليعلمَه علمَ اليقين، فجاء ذلك موفوراً في هذا القرآن العظيم، وبراهينه الواضحة، ودلائله الثابتة، لا سيّما ما كان منها بطريقة المنطق الوجداني، حتى قال تعالى رداً على مقترحي المعجزات: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، لأنهم ينظرون الأمور بطبيعةٍ سالمةٍ وعقلٍ سليم.

ومَنْ أمعَنَ النظر في هذا القرآن رآه دَعْوى حقٍّ برهانُها فيها، ومقالةَ صدقٍ شاهدُها منها، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصِّلت: ٤٢].

فالمراد بـ«الآية» في قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾ [الرعد: ٣٨] على الردِّ الأول: الآية القرآنية، وعلى الردِّ الثاني: الآية الكونيَّة. وإنما كان القرآن بهذه المثابة ليكون عالمياً تُختَمُ به الشرائع، ويَنسَخُ ما بقي منها، وذلك عندما وصل البشر أوّل كماله وقدر على فهمه وأدرك ما فيه من سعادة وكمال لبني الإنسان.

* * *

ومن أساليب القرآن: **التمثيل وضَرْب الأمثال**، يُوَضِّح بها الأمور، ويُؤثِّر بها على النفوس، ويَجْذب بها العقولَ الشاردة، لأنَّ التمثيل وضَرْبَ الأمثال يرفع الحُجُب عن وجوه المعقولات الخفيَّة، ويُبرِزها في معرض المحسوسات الجليَّة.

* * *

ومن أساليب القرآن: **القَسَم**، وهو ضَرْبٌ من ضروب الاستدلال والتأكيد والتوثيق، يُؤْتَى به لتقوية الخبر وتحقيقه وتقريره في النفوس، وقد جاء فيه القَسَم بذاته تعالى وصفاته، وبما يقع على الحسِّ أو يُدرِكه العقل من نماذج البدائع الكونية الدالة على عَظَمة الـمُبدع وبالغ حِكمتِه، كالسماء والشمس والقمر والنجم والليل والفجر والضُّحى والنهار والعصر والليالي العشر، إلى أمثال ذلك، للتنبيه على ما فيها من قدرة الله العظيمة وحكمته البالغة، وعلى ما فيها من النفع لهذا الإنسان، بالمباشرة أو بالواسطة.

أما الأمور الـمُقسَم عليها فلا تكاد تخرج عن أصول الدين الأربعة: إثبات التوحيد، والرسالة، والبعث، والحساب، وما يتَّصل بذلك، ويكون في الـمُقسَم به ملاحظة دقيقة، تُثبتُ صِدقَ الـمُقسَم عليه وتُـحقِّقه، وتُسمَّى هذه الأقسام بالأقسام الاستدلالية.

قال الأستاذ الإمام[١] في أقسام القرآن: «جاء في القرآن العزيز ضروبٌ من القَسَم بالأزمنة والأمكنة والأشياء، والقَسَمُ إنما يكون بشيء يخشى الـمُقسِمُ إذا حَنَث في حَلِفه به، أن يقع تحت الـمُؤاخَذة ـ ولكن نعوذ بالله أن نتوهَّم شيئاً من هذا في جانب الله ـ وما كان جلَّ شأنه ليحتاج في تأكيد إخباره إلى القَسَم بما هو صُنع قدرته، فليس لشيء في الوجود قَدْرٌ إذا نُسِبَ إلى قَدْره، بل لا وجود لكائن إذا قِيسَ إلى وجوده، إلا لأنه انبسط عليه شعاعٌ من أشعة ظهوره جلَّ شأنه.

ولهذا قد يسأل السائل عن هذا النوع من تأكيد الخبر الذي اختصَّ به القرآن، وكيف يُوجَد في كلام الله؟ فيُجاب بأنك إذا رَجَعتَ إلى جميع ما أقسَمَ الله به، وجدتَه إما شيئاً أنكره بعض الناس أو احتقره لغفلته عن فائدته، أو ذهل عن موضع العبرة

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

فيه، وعَمِيَ عن حكمة الله في خلقه، أو انعكس عليه الرأي في أمره، فاعتقد فيه غيرَ الحق الذي قرَّر الله شأنه عليه، فيُقسِمُ الله به إما لتقرير وجوده في عقل مَنْ ينكره، أو تعظيم شأنه في نفس مَنْ يحقره، أو تنبيه الشعور إلى ما فيه عند مَنْ لا يذكره، أو لقلب الاعتقاد في قلب من أضلَّه الوَهْم أو خانه الفهم.

فقد أقسم سبحانه بالنجوم موصوفةً بأوصافٍ تَدلُّ على أنها من المخلوقات التي تُصرِّفها القدرة الإلهيَّة وَفْقَ حُكْم إرادةِ الله، فإن كان فيها شيءٌ من العظمة فلا يزيد على أنه من آثار عَظَمَةِ الله». انتهى(١).

* * *

(١) إنَّ ما يُقسِمُ به سبحانه لا يَعْدو أن يكون مَظْهراً عظيماً من مظاهر قدرته البالغة. وأكثر الـمُقسَم عليه قدرتُه على الحشر والإعادة، فهو يومئ بذلك القَسَم إلى أنَّ من قدر على هذا يقدر على ذلك.
وقد يومئ بالقسم إلى المقارنة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، ويومئ إلى أن دساتير هذا القرآن وسائر محتوياته كمواقع هذه النجوم في التركز والسَّداد والإتقان.
وقد يقسم بمظاهر القدرة مقرونةً بما له شأن عظيم، كقوله: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ [الطور: ١] الآيات.
ويقسم بالنجم إذا هوى، حيث لا يضل السبيل، على أنَّ الرسول ينهج بشريعته نهجاً مستقيماً.
ويُقسِمُ بالقلم الذي هو أداة للعلم على أنّ الرسول على عِلم عظيم من علم الله، يردُّ بذلك ما يزعمون من أنَّ ما عند محمد مأخوذ من الجنّ كعلم الكُهَّان.
وكالقسم بالضُّحى والليل لبيان أنَّ فترة الوحي من طبيعته في أول أمره، كالليل والنهار للتلايم والاستراحة، وليس ذلك عن تَرْك وقِلى.
وكالقَسَم بالعصر للتنبيه إلى قِصَر العمر، ووجوب انتهازه قبل فواته. إلى أمثال ذلك من دقائق الإشارات وبلاغة العبارات، كما هي طبيعة هذا القرآن العظيم والنور المبين.
وبالجملة، لو تدبَّرت سائر الأقسام القرآنية لوَجَدْتَ فيها معنى يُثبت المعنى الذي تضمَّنه الـمُقسَم عليه، ولذلك سُمِّيت هذه الأقسام بالأقسام الاستدلالية. (المؤلف).

ومن أساليب القرآن: **أن يعتمد على الآيات الكونيَّة في الاستدلال على الخالق واستحقاقه الألوهيَّة**، لاختصاصه بصفاتها، وبخلق تلك الآيات. والكونُ كتابُ الله الذي لا تنتهي كلماتُه ولو كانت البحارُ مداداً والأشجار أقلاماً.

* * *

ومن أساليب القرآن: **أن يُوجِّه الخطاب في أنواع من الأوامر إلى جميع الناس؛ ليأخذ كلٌّ صنف ما يخصُّه**، كقوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، فمَن كان مؤمناً يُطلَبُ منه الدوام على الإيمان والإخلاص فيه والابتعاد عن الزَّيْغ، ومَن كان غيرَ مؤمن يُطلَبُ منه الإيمان، ومن كان من أرباب الأموال يُطلَبُ منه الإنفاق، كما إذا قلتَ لجماعة: صَلُّوا وحَسِّنوا أخلاقكم، فكلٌّ واحد يفهم من الطلب ما يختصُّ به، فمن كان مُصَلِّياً فَهِمَ منه الدوام والثبات، ومَن كان غير مُصَلٍّ فهم أنه يُطلَبُ منه أن يُصلِّي، ومَن كان حَسَنَ الأخلاق فهم منه المثابرة على ذلك، ومَن كان سيِّئَ الأخلاق فهم منه وجوب إصلاح أخلاقه، وهكذا.

وفي قوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] تحسيسٌ بأنَّ هذه الأموال التي يطلب الله الإنفاق منها إنما هي أمواله تعالى، استَخْلَفهم عليها وخَوَّلهم الاستمتاع بها، وستُنقَلُ منهم إلى غيرهم بمماتهم، كما انتقلت إليهم من غيرهم بمماتهم.

والغرض من هذا التحسيس: الاستفزاز وقَمْع الحرص.

* * *

ومن سنن القرآن: **إذا عاتب الأنبياء أو المؤمنين عمّا صدر منهم هفوة، أن يُقَدِّم العفو في صَدْر التأديب**، تعجيلاً بالتأنيس قبل تسرُّب الخوف، على نهج القرآن في تعجيل

ما يقتضي التعجيل بمقتضى البلاغة العالية، كقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، والذنب في اللغة: كلُّ عمل يَسْتَتْبع ضَرَراً أو فَوْتَ منفعة أو مصلحة، وليس خاصاً بالمعصية.

وكذلك يُقدِّم بيان التَّنْجية للأنبياء والمؤمنين على بيان الإيقاع بالكافرين المعارضين؛ تعجيلاً بالتأمين والتأنيس، كقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٥ - ٦٦]، وكقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

* * *

ومن سنن القرآن: أن يتكرَّر فيه لفظ ﴿كَذَٰلِكَ﴾، وقد قال الجرجاني: يكون هذا اللفظ تثبيتاً لخبر متقدِّم أو متأخِّر، أي: الأمرُ كذلك. وذهب أهل المعاني إلى أنَّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يكون في كلام العرب لتثبيت ما بعدها وتقريره، من غير نظر للتشبيه، وأنه طريق مسلوك لبلغاء العرب.

* * *

ومن سنن القرآن: أن تُذكَرَ لفظة ﴿كَانَ﴾، ولا تدلُّ على المضيِّ، بل تأتي لتحقيق مضمونِ ما تدخل عليه، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

* * *

ومن سنـنه: **أن تأتي لفظة ﴿أَمْ﴾ في أول الكلام، فتكون عاطفة له على مقدَّر،** كقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٢١٤] الآية، وهذا عند الأكثر من المفسِّرين.

وقال بعضهم: إن لفظة ﴿أَمْ﴾ تأتي في القرآن لمجرَّد الاستفهام، إذا وقعت في أول الكلام، وليست بعاطفة.

* * *

ومن سنن القرآن: **أن يفصل بين الأحكام المسرودة بما يدلُّ على وجوب الطاعة فيها، والوعيد على الإعراض عنها، ثم يعود إلى متابعة الأحكام.**

* * *

ومن سنن القرآن: **أن يتكلَّم عن الساعة والبعث، بصورة شرط محذوف الجواب،** للإشارة إلى أنَّ البيان لا يُحيط به هَوْله، وليذهبَ فيه السامعُ كلَّ مذهب، ويُمِرَّ بذهنه جميع ما وَرَدَ في القرآن عن حوادث ذلك اليوم التي جاءت متفرِّقة في سُور أخرى.

وقد يُقيمُ مقامَ الجواب المحذوف شيئاً مِمَّا يكون في ذلك اليوم، مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ [عبس: ٣٣ - ٣٥]، فقد حذف الجواب، وأقام مقامه قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾ إلخ.

ويأتي في القرآن مثلُ قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢١٠]، والمراد به: إتيان أمره، وهو من أساليب العرب المعروفة، يقولون: حاربهم الأمير، وإنما حاربهم قائدُه وجُندُه.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] أي: من نفعٍ أقدَرَني على جَلْبه، وضُرٍّ أقدَرَني على منعه، وسخَّر لي أسبابها الطبيعية.

ومثلُ هذه الآية إنما هي لبيان حدود الرسالة، وتفهيم الناس أنَّ الرسول لا يعلم إلا ما علَّمه الله، ولا يقدر إلا على ما أقدَرَه الله عليه، داخل حدود البشريَّة وأسبابها الطبيعية بقسمَيْها؛ أسباب النفع والضر الكسبيَّة التي هدى الله سبحانه إليها، بما خلق في الإنسان من عقل وشعور، وبما سخَّر له من تلك الأسباب، وأسباب النفع والضر الغيبيَّة التي هدى الله سبحانه إليها بوَحْيه، وأقدرَ الإنسان عليها. وعلى الأخذ والعمل بموجبها وجَعَل ذلك في وُسعه.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠]، وتقرير المعنى: أنَّ الله سبحانه خلق الإنسان، وقذف به إلى الأرض؛ ليكون خليفةً فيها، يتصرَّف في شؤونها، فيستثمر خيراتها، وركَّب فيه من القوى والمواهب ما يسيطر بها على تسخير القوى الطبيعية لاستثمارها والاستفادة منها، وعلى توجيه النزعات النفسية نحو الاعتدال، ليكيِّف روحَه بكيفيَّةٍ تؤهِّله لسعادة الآخرة، فهو إنْ طَلَبَ الآخرة، وحَرَثَ لها حَرْثَها، وسَعَى لها سَعْيَها؛ نالها بدرجةِ ذلك السَّعي. وإنْ طَلَب الدنيا، وحَرَثَ لها حَرْثَها في السَّعي فيها بمقتضى الأسباب الطبيعيَّة الموصلة لها؛ نالها كذلك. فإنَّ مِنَحَ الله تعالى معروضةٌ لكلِّ من طلبها بأسبابها الحقيقيَّة، ولا فَرْقَ في نَيْل الدنيا بين مؤمن وكافر، وبَرٍّ وفاجر، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

ولذلك ترى من الناس مَنْ يكفر بالله وهو متمتِّعٌ بخير الدنيا، مغمورٌ في نعيمها، لأنه يتعاطى أسبابها على الوجه المطلوب منها بحسب سُنن الله في ذلك، وترى مَنْ هو

مؤمنٌ إيماناً قوياً ومتمسِّكٌ بأسباب الآخرة وكمال الروح إلى حدٍّ بعيد ونصيب وافر، ومع ذلك لا يكاد يجدُ قوتَ يومه؛ لأنه مُفرِّط بأسباب الدنيا مُهمِل لها. فكلُّ ذلك أثرٌ من آثار العدل الإلهيّ، ومن تنظيم أوضاع الدارين تنظيماً ثابتاً عادلاً طرداً وعكساً، فإنَّ الأول وإن فرَّط في أمر آخرته، فقد أحسنَ في إدارة أعماله الدنيويَّة وإتقان أساليبها ووزنها بالقسطاس المستقيم، فأثابه الله تعالى في الدنيا على قَدْر اجتهاده في أسباب نَيْلها.

وأما الثاني فإنه وإن اجتهد في إصلاح رُوحه حتى وَصَل إلى مرتبة الصِّدِّيقين، فقد أهمَلَ إتقانَ أعماله الدنيويَّة، ولم يَزِنْها بالقسطاس المستقيم، فلا يَجْني من وراء ذلك الإهمالِ لمعاطاة الأسباب الدنيويَّة إلا الفقرَ والحاجة.

قال صاحب «صفوة العرفان»[1]: وهذا العدلُ الإلهيُّ سارٍ بين الأمم في مجموعها، كما هو سارٍ بين الأشخاص على انفرادها، فإنَّ الأمة الكافرة إن جَدَّت واجتهدت ونَهَجت نهجَ النظام الصحيح في أمورها الدنيويَّة، ووَزَنَتها بالقسطاس المستقيم، وَصَلت من الرِّفعة والسُّؤدد إلى أعلى مقام، بنسبة إتقانها للنظام الصحيح في سُنن الطبيعة من هذا الكون، ولا يمنعها الله بسبب كفرها أن تسودَ على أمة مؤمنة إذا كانت لا تساويها في النظام والعمل بالدساتير الكونيَّة، لأن الله سبحانه مُنزَّه عن المحاباة، قال تعالى للمؤمنين: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣].

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ﴾ [البقرة: ٦٣] أي: بما رَكَّب فيكم

(١) يعني: الأستاذ فريد وجدي.

من العقول، وطَبَعَكم على الاستعداد للبحث الصحيح والنظر السديد المؤدِّي إلى الإيمان بالله، إذا لم تفسدوا غريزتكم بمفاسد التربية وسوء القدوة والتقليد الأعمى. وفي مثل هذا بيانٌ للناس بأن لا عُذْرَ لأحدٍ في عدم الإيمان بالله، وقد طبعه الله عليه، وأرسل له رسولاً يدعوه إليه بالبراهين المثبتة والحجَج الناصعة والآيات البيِّنات، فجمع له سبحانه بين الاستعداد الطبيعي لهذا الإيمان، والدعوة إليه بالأدلة العقلية والنقلية، فالانطباعُ على الشيء أقوى ميثاق عليه.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، والحكمة، هي إصابة الحقّ والعمل به، وتشمل إصابةَ الحق في العقيدة وفي القول وفي العمل.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]، فالمراد بهذا النداء: نداء الوحي، وقد تَبيَّنه موسى عليه السلام، وإن لم يعلم كُنْهَه، لأنَّ التصديق بالشيء لا يتوقَّف على معرفة كيفيَّته وكُنهه، فإنَّ كثيراً مما نُصدِّق به تصديقَ يقينٍ لا نعرف حقيقتَه ولا كُنهَه ولا كيفيَّة تكوينه وإيجاده، فعملية التذكُّر لأمر نَسِيَه الإنسان زماناً، ثم يمرُّ بخاطره فجأة؛ لا أحد يعرف كيف تتمُّ له تلك الذكرى.

ومن المعلوم أنَّ الأنبياء ـ بحكم كمالهم الإنساني ـ مزوَّدون بالقدرة على استلهام المعلومات بطريقةٍ فوق نطاق الحواسِّ المعتادة، يجري فيهم ذلك دون أن يعرفوا كيفيَّة جريانه، فهم يعلمون الوحي والإلهام عِرفاناً مع إتقان، دون إدراك لحقيقة الشأن، في أكثر الأحيان. ومن ذلك ما يقوله نبينا ﷺ في صفة الوحي: «وأحياناً يأتيني مِثلَ صَلْصَلة

الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فيَفصِمُ عنّي وقد وعَيْتُ عنه ما قال»[١]، ويقول ﷺ: «إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعي»[٢].

ومما ذكرنا يتبيَّن أن نداء الله سبحانه لموسى عليه السلام ليس نداءً بالمعنى المعروف لغةً وعُرْفاً. ولذلك قَرَن الكلام بالتنزيه دفعاً لِـمَا يتوهَّم من التشبيه، فقال: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨] أي: نزِّهوا الله سبحانه من أن تتوهَّموا أنَّ الله سبحانه كلَّم موسى كلاماً بالمعنى المعروف عندكم.

وفي قوله: ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨] بشارةٌ له عليه السلام بأنه قُضي له أمرٌ عظيمٌ مبروك، تنتشر بركتُه في تلك الأقطار، وهو استِنباؤه له وإيحاؤه إليه بقُرْب تلك النار المباركة.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، قال قتادة والحسن ومجاهد: أي: على عالمي زمانهم[٣].

أقول: أي: على أهل زمانهم ومُعاصريهم، إما لأنهم كانوا أمْيَزَ ذلك العالم الفاسد، فانتدبهم سبحانه للشريعة الجديدة، أو لأنهم كانوا أكثر الناس ضَيْماً يُحاولون النجاة منه، فأراد الله سبحانه أن يَمُنَّ عليهم ويُنجيهم من ظلم فرعون. والذلُّ والضَّيْمُ يُؤهِّل النفوسَ لطلب التخلُّص والسَّعْي وراءه.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البزار (٢٩١٤)، عن حذيفة رضي الله عنه. وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢: ٣٣٩): رواه البزار، ورواته ثقات إلا قدامة بن زائدة بن قدامة، فإنه لا يحضرني فيه جَرْحٌ ولا تعديل. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤: ١٢٣): رواه البزار، وفيه قدامة بن زائدة بن قدامة، ولم أجد مَن ترجَمَه، وبقية رجاله ثقات.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٣٧).

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ [هود: ٧٧] أي: عن احتمال ضيافتهم، لِـمَا يتوقَّعه من اعتداء قومه عليهم كعادتهم.

وأما ما يأتي من مثل قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ [هود: ٧٨]، فليس هذا الكلام على حقيقته وظاهره، ولكنَّه على طريقة نفي الشيء بإيجابه، وهي من طرق البلاغة، والغَـرَضُ منه: شدَّةُ الامتعاض من ظلمهم وقباحتهم، والمبالغة في تَـناهي خُبْث ما يرومونه. أي: فِعلُـكم هذا وطلبكم أبشعُ وأفظعُ من هذا الفعل إيقاعاً بي. فالكلامُ إنكارٌ شديد على أشنع وجوه الإنكار.

وقيل: بل الكلام على الإرشاد، والمراد من البنات: نساء قومه؛ لأنَّ النَّبيَّ في قومه كالوالد لهم، أي: كفُّوا عن فعلكم هذا، واكتفوا بالنساء عن الذُّكران، فهو الموافق للفطرة وللغاية التي جُعِلَ لها هذا الفعل، وهي بقاء النسل، بخلاف فعلكم هذا. وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير[1].

* * *

وصيغة التفضيل للمبالغة في الطُّهر، وليس على بابه، فلا مفهومَ مخالفة له.

ومن أساليب القرآن: إذا ذكر المؤمنين أو المتقين أردفه ببيان شيء من صفاتهم التي تـتناول مبادئ الرشد والصلاح والفوز، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ويأتي مثـلُ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يونس: ٧٤]، فصيغة هذا التعبيـر في نفي الإيمـان

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢: ٣٩٠) عن مجاهد وابن جبير وقتادة وابن جريج.

عنهم إنما هو لإفادة وحدة الأمة وانطباع لاحِقِها بطابع سابقها، وهو نظامٌ اجتماعي لا يتبدَّل.

والقرآن يمزج الأحكام بما يُنبِّه النفوسَ لفَضْل الله على الناس، حَمْلاً على التمسُّك بها، والاعتراف بفَضْله تعالى على البشر، واستحقاقه للألوهية، كقوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فأدمَجَ في بيانِ الحكم التنبيه لمنَّة الله على البشر في قابليَّة التعلُّم والتعليم.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولم يكن المراد التساهل في الأحكام، وإنما هو بيانٌ لسهولة التكليف، وكونه غيرَ خارج عن حدِّ الوُسْع والطاقة.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] للحَمْل على بلوغ الجهد في التقوى، أي: اتَّقوا الله بكلِّ وُسْعِكم واستطاعتِكم من دون تقصير، ولم يكن المراد منه التساهل في ذلك، كما يفهمه الجاهلون.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ [الشعراء: ٤٠]، وليس الكلام على ظاهره، ولكن المراد التزييف لدين موسى، بمعنى: أنَّ السحرة يكونون حينئذ أحقَّ منه بالاتِّباع، يهزؤون به ويتندَّرون عليه.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ..﴾ [الشعراء: ١٨]. أي: ألـم تُـرَبَّ بين أظهُرِنا، فمن أين جاءتك النبوَّة؟ ومصدرُ هذا القول: الجهلُ بمُؤهِّلات النبوَّة، وإنكار أن تكون في شخص ينشأ بين أظهرهم لا يزيد في أعماله عن أعمال البشر.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٩]، وليس هو من باب الاعتذار، وإنما هو من باب إظهار الندم والتحسُّر.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ [الشعراء: ١٠٦] أي: أخوهم الذي يحرص على مصلحتهم وما فيه خيرهم، فهذا اللقب لزيادة الإغراء.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، وإنما يأتي بعد سياق يتضمَّن قصصاً وبيانات، إيذاناً بصدقها، وتعظيماً للمواعظ المستفادة منها.

وقوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤] إنما اختار هذه العبارة لِـمَا في ذكر الألف من تخييل طول المدة. وهذا العمر الطويل من معجزات نبوَّته ﷺ.

ومثلُ قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٥٠] إنمـا هو لزيادة الإشعار بالهَوْل لذلك العذاب. وخصَّ الوجوهَ بهذا؛ لأنها موضع المواهب التي فرَّطوا بها ولم يستعملوها لمعرفة الحقِّ والصواب، وهي العقل والسمع والبصر.

ومثـلُ قوله: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤ - ١٥]، وهو تصوير لشدَّة عنادهم، وشكِّهم في الحق، وإعراضِهم عنه، وتأويلهم له، وتمويههم لِـمَا ظهر منه. وهكذا يكون حال مَنْ تَشَبَّع بالضلال، فإنَّ نفسه تتيه في مَتَاهات الشكوك، وتَحَارُ في محارات الشُّبَه، ويُـحَالُ بينه وبين أنوار الحقّ وطرق الهدى والرَّشاد.

ويأتي في القرآن عن عذاب الاستئصال للأمم عباراتٌ متعدِّدة؛ فتارةً يقول: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ [النساء: ١٥٣]، وتارةً يقول: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [الحجر: ٧٣]، وتارةً يقول: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف: ٧٨].

والمراد بالجميع: الصَّاعقة؛ إذ لنزولها صيحةٌ شديدةُ القوة، ترتجف من هَوْلها الأفئدة، وتضطرب الأعصاب، وربمـا اضطربت الأرض وتصدَّع ما فيها من بنيان.

فهو يُعبِّر عن الوقعة الواحدة بعبارات مُتعدِّدة لاعتبارات مختلفة، وملاحظات مُنوَّعة، ووجوهٍ متغايرة. واختلافُ الاعتبارات يقتضي اختلافَ العبارات.

ويأتي في القرآن مثلُ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣]، ومفادُ هذا التركيب: التهويلُ والتعظيم.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ..﴾ [التوبة: ٧٨]، قال أبو مسلم: «مثل هذه الجملة يُقصَد بها تقرير المعنى، لا الاستفهام».

ويأتي مثلُ قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧-١٨] فالتكرار للزيادة في التهويل، وكذا العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾. وقال الثوري[1]: يقال للمعلوم في الجملة: ما أدراك، ولِـمَا ليس بمعلوم: ما يُدريك، في جميع القرآن.

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: كلُّ ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أدراه به، وكلُّ ما فيه من قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فقد طوى عنه[2].

ويأتي في القرآن مثلُ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٢]، والظنُّ في مثل هذه المواضع يُرادُ به أقوى الاعتقاد[3].

(١) هو أبو عبد الله، سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، (٩٧-١٦١هـ)، أمير المؤمنين في الحديث، وسيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. «سير أعلام النبلاء» (٧: ٢٧٩).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩: ٢٤٩).

(٣) بل المراد به الظن الراجح، لأنه كان قبل سماع الجنِّ القرآنَ ومعرفة سبب امتلاء السماء بالحرس الشديد والشهب، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ..﴾ [الجن: ١٣] أي: وأنا لـمّا سمعنا القرآن وما اشتمل عليه من الهدى، صدّقنا به وبمحمد ﷺ تصديقاً جازماً، فقد تدرّج الجنُّ في الاقتناع حتى بلغوا إلى اليقين.

قال الرازي: «إنَّ من خصائص اللغة إذا أُريد المبالغةُ في التكثير، يُقْرَنُ الكلام بلفظٍ يدلُّ على التقليل، وإذا أُريدَ المبالغةُ في اليقين يُقرَنُ الكلام بلفظٍ وُضِع للشك»[١].

ويأتي مثـلُ قوله تعالى: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٧] قالوا: وفيه تعبير عن الوقاية بالقول والاعتذار بعبارة تتضمَّن الوقاية بالفعل والاندحار، وهو من أنواع المجازات في القرآن. والله أعلم.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ﴾ [التوبة: ٨٥]، ومثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ..﴾ [طه: ١٣١]، وليس المراد بها حقيقةَ معناها، وإنما هي عبارات لـمُجرَّد التهوين والتزهيد في الشيء والاستهانة به، وهو تأديبٌ يوافق ما في نفسه ﷺ، وإنَّما جِيءَ به للمبالغة في التهييج.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، فالجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾، والإفراد باعتبار لفظها، على نهج القرآن في مثله، وفيه كثير من ذلك.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، و«لو» هذه لاستقصاء الأحوال على وَجْه الإجمال، وتدخل على أبعد الأحوال، ليكون ما عداه داخلاً بالأَوْلى.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]: وهذا التفكيـر هو الباب الذي تدخل منه الروح، فتعرج في مراقي الكمال إلى مستوى تشعر فيه بعظمة هذا الوجود ومَنْ أوجده، وأنه هو وحدَهُ المستحقُّ للعبادة والتقديس.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (١٩: ١١٧).

ومثلُ هذه الآيات تَظهَرُ لكلِّ أحدٍ على قَدْر عِلمِه وفَهْمِه ومستوى فِكرِه. فأما علماء الطبيعة والهيئة والأرصاد ـ ولا سيَّما المتأخرون منهم ـ فإنهم يعرفون من نظامها وسُنَنها ما يُدهش العقل، وأما سائر الناس فحَسْبُهم هذه المناظر البديعة والأجرام الرفيعة وما فيها من البهجة والعظمة والروعة والجلال.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، فيصوغُ العبارة بصورة الإنكار ونفي الفائدة من تعذيب المؤمن العامل، مبالغةً في استحقاقه للإحسان، وإغداق الخير والثواب عليه.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وذلك ببيان ما يهديكم به في كلِّ حال، لِـمَا به الكمالُ الإنساني والسُّموُّ الرُّوحانيّ وتزكيةُ النفوس والرضوان الأكبر.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠] والمراد: أنهم أفسدوا طبائعهم، وحرَّفوا فِطَرَهم تحريفاً أخرجوها به عن طبائع البشر، وضلوا ضلالاً بعيداً. وهذا على أحد الرأيين[1].

---

(١) إن الله مسخ أصحاب السبت إلى قردة وخنازير في خلقتهم وصفاتهم، لا في صفاتهم فحَسْب، ومصداق ذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٥-١٦٦].

والأصل هو حَمْلُ النص على ظاهره، وقد تأكد ذلك بما رواه ابن جرير من طريق العَوْفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: صار شبابهم قردة، وشيوخهم خنازير. انتهى. «تفسير الطبري» (١٣: ٢٠٣). =

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ...﴾ [المائدة: ٨٤] يستبعدون وينكرون عدم الإيمان مع وضوح الحق والصِّدق والفلاح، تحقيقاً لإيمانهم، وتقريراً له بإنكارهم سَبَبَ انتفائه مع قيام الداعي، وهو الطمع في الانخراط مع الصالحين. وهذا التعبير في أسلوب النفي أبلغُ تعبيرٍ وآكدُه؛ لأنه يَتَضمَّن نَفيَ جميعِ الأسباب الموجبة للسَّلب، وإثباتَ جميع الأسباب الموجبة للإيجاب.

ومثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ...﴾ [النساء: ٣٩] يُوبِّخُهُم على التفريط بالرَّشاد، بعبارةٍ تدلُّ على أنه كان من السهل عليهم أن يسترشدوا، وتَتَضمَّنُ تعنيفَهم على جهلِهم بمكان المنفعة، واعتقادِهم فيها العكس، أو تنزيلهم منزلةَ مَنْ يعتقد ذلك.

ومثلُ قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ..﴾ [المائدة: ٦٦]، والمراد: أنهم لو عملوا بها مُقامةً من دون تحريف، لنالوا كلَّ خير ورفاه. وذلك لأنَّ في إقامة شرائع الله إصلاحاً للنفوس، وتهذيباً للعقول، وتعديلاً للسلوك، وتنظيماً للأحوال، وفي ذلك كلُّ الخير والرفاه لأفراد الإنسان، وتدبير شؤونهم في حالات اجتماعهم وانفرادهم.

وبعبارة أخرى وملاحظة أدقّ: أنَّ الخير لا يتمُّ إلا بمطابقة السنن الكونيَّة

= وما رواه مسلم في «صحيحه» (٢٦٦٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، القردة والخنازير هي ممَّا مسخ؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله عز وجل لم يُهلِكْ قوماً ـ أو يُعذِّبْ قوماً ـ فيجعل لهم نسلاً، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك»، فسؤال الرجل وجواب النبي ﷺ يدلان على أن مَسْخَهم كان مسخاً حقيقياً لا معنوياً، مع بيانه أن القردة والخنازير الموجودة في عصره ليست من نَسْل أولئك الممسوخين، لأن من عوقب بالمسخ قضى الله ألا يكون له نَسْل. والله أعلم.

والشرائع السماويَّة منطبقة على هذه السُّنن، أنزلها الذي يعلم السِّرَّ في السماوات والأرض، فكان الخيرُ بالعمل بها، والشرُّ بمعاكستها أو إهمالها. والله أعلم.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٤]، فنزَّلهم منزلةَ المعترضين على تعذيبهم، وأنكر عليهم اعتراضهم، ببيان سبب التعذيب، ثم عطف على الحكم ما هو حُجَّة على صحَّته فقال: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ...﴾.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، فينهى المؤمنين عما عليه أربابُ الصفات الرديئة، تأديباً لهم وإرشاداً، وتحذيراً من التلبُّس بتلك الصفات.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ...﴾ [التوبة: ٢٤] للإيذان بأنه يجبُ تحمُّل الصعوبات والمضارّ الشديدة في سبيل نشر الدعوة، ولتهديد من لا يفعل ذلك.

وفي الآية إيذانٌ بالتحذير من تقديم المصالح الخاصَّة على المصالح العامة، وإن كانت تلك المصالح الخاصَّة من أهمِّ الأشياء وألْصَقِها بالإنسان، وبعبارة أخرى: لا يجوزُ حبُّ الأَثَرَة التي يُمثِّلها بيت أبي فراس(١):

إذا متُّ ظمآناً فلا نَزَلَ القَطْرُ

---

(١) هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي، (٣٢٠-٣٥٧هـ)، أمير شاعر فارس، وهو ابن عم سيف الدولة، له «ديوان شعر». «الأعلام» للزركلي (٢: ١٥٥)، وما ذكر عجز بيت، صدره:

معللتي بالوصل والموت دونه

وهو في «ديوانه» ص١٥٣.

ويجب حبُّ الإيثار الذي يُمثِّله المَعَرِّي[1] بقوله:

فلا هَطَلَتْ علَيَّ ولا بأرضي سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا

وهو معنى ما يعبِّرون عنه بنكران الذات في سبيل المصالح العامة.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة: ١١١] بمعنى: أنه قد سجَّل لهم هذا الوعد الحقَّ في الكتب الثلاثة المنزَّلة على أشهر الرسل. والمراد بذلك: تحقيق الوعد وإنجازه.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، والمعنى: أنه سبحانه لا يؤاخذ المؤمنين بفعلٍ فعلوه قبل أن ينزل الحكم بتحريمه. وصاغ العبارة بصيغة تتضمَّن تأنيسَهم وتأمينَهم من خوفهم مما فعلوا قبل ذلك.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] وهو نَقْدٌ للأمة بعمل رؤسائها، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ إيمان هؤلاء الرؤساء ليس بإيمان، إذ لا سلطان له على القلب، ولا تأثير له على الوجدان، وكلُّ إيمان لا يكون له تأثير في إصلاح الأعمال، لا يكون إيماناً ولا يُعبأ به، وهذا الخِذلانُ يَعرِضُ لكثير من أرباب الأديان عند فساد الحال.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] يُرشِدُ إلى أنَّ الإيمان لا يكون إيماناً حقيقياً، إلا إذا كان له سلطان على النفوس، وإصلاح

---

(١) هو أبو العلاء، أحمد بن عبد الله بن سليمان، التنوخي المعري (٣٦٣-٤٤٩هـ) شاعر فيسلوف، ولد ومات في معرة النعمان، له: «رسالة الملائكة»، و«عبث الوليد». «الأعلام» للزركلي (١: ١٥٧).

للأعمال، وتهذيب للأخلاق. فتُبيِّن الآية أنَّ الإسلام أعمُّ من الإيمان المطلوب؛ لأنه يزداد تدريجياً، وهؤلاء الأعراب هم في مبدأ الأمر بَعْدُ، ولم يتمكَّن منهم هذا الإيمان.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، فهذه المماثلة باعتبار مَنْ يتمثَّلونهم بالأصنام من الصَّالحين، ثم يُتبع ذلك بذِكرِ صفاتهم باعتبارهم أصناماً، ومثلُ هذا من دأب القرآن.

وفي القرآن مثلُ قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢] من الآيات الدالَّة على أنَّ الله لا يُحرِّم الزينة والطيِّبات من الرزق، ويمتنُّ بها على الناس، ويُنكِر على مَنْ يُحرِّم ذلك كما تفعل بعض الأمم وبعض الـمِلَل، لكنه يأمر بالقَصْد في ذلك، فلا يجيز المباراة في الترف كما فعل قارون، تلك المباراة في الزينة واللباس والحُلي والمباني وغير ذلك، التي خرَّبت بيوتاً كثيرةً عامرة بسبب المغالاة في الحفلات والأفراح والمآتم، واقتناء أدوات الزينة التي لا يَقدِرُ مقتنيها عليها إلا بالصعوبة والقِيَم الباهظة، فالإسلام يُبيحُ الطيِّبات بقيود تُعدِّلها، كي لا يصبح الإنسان أسيراً لشهوته ونزواته.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥] أي: لمن خالف سُنَنَه الكونيَّة المنظِّمة للأحوال والأمور، ولمن خالف هداية الدين المزكِّية للنفوس والـمُحسِّنة للسلوك.

ويأتي مثلُ قوله حكايةً عن اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة: ١٨] يريدون أنهم مُختصُّون بمزيد الشفقة والمحبة من الله تعالى، وأنَّ عنايته بهم أشدّ من عنايته بمن سواهم.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣]، فجملةُ الصِّلة تبصرةٌ للنفوس

بأنَّ ما يُنفَق إنما هو من الله وإلى الله؛ لتزداد سخاءً وسماحاً يتمُّ به النظام الاجتماعي الذي وضعه الله سبحانه في البشر، والتبعيض بـ«مِن» للدلالة على أنَّ ما ينفقونه إنما هو شيءٌ طفيف ممَّا منَّ الله به عليهم من الرزق وممَّا يملكون.

ومثلُ قوله: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤]، فيه ـ مع هذه الملاحظة ـ زيادةُ تقريع لهم على عدم الإنفاق من ذلك.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٢٣]، فهذا العنوان للنعي عليهم بما أضاعوا وحرَّفوا. وقوله: ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٢٣] لإلزامهم بما حفظوا وعرفوا. وقد يجيء العنوان الأول للأمرين معاً.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [النحل: ٨٦]، وقوله: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ [النساء: ٩٠]، ولم يقل: وقالوا لهم وسالموهم، لأن إلقاء الشيء تمكينُه في النفس وتثبيتُه فيها.

ومثـلُ قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، فهذا التركيب على حدِّ قولهم: وجهه يصف الجمال، وعينه تصف السحر، والمرادُ به المبالغةُ في الوصف.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، وهذا القيد للإشعار بأنَّ مكرهم لا يروج عند ذوي الألباب، وإنما يتبعهم الـجُهَّال والأغبياء.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧]، وذلك بمقتضى البداوة، لأنها تُغلِّظ الطباع، وتُقسِّي القلوب، ويشتدُّ معها الجهل وقلَّة الذوق والأدب.

ومثلُ قوله تعالى: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤] بمعنى: أظهروا الكفر بعد أن أظهروا الإسلام وادَّعوه.

ومثلُ قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٣]، والغرض منه: حَمْل المؤمنين على مُباعَدَتِهم وعدم الثقة بهم، وإن كانوا أقارب.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٨]، وهذا القيدُ تأكيدٌ للنفي، لأنَّ ما لا يعلمه الله لا يوجد فيهما، وما لا يوجد فيهما مُنتَفٍ حكماً.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥] أي: بما يتأتّى بالعلم الحاصل بالاستدلال والنظر، من غير مشاهدة العين والبصر، كالعلم بالآخرة.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١]، وهو تمثيلٌ لإثابة الله تعالى للمؤمنين على بَذْلِ أنفسهم وأموالهم في سبيله، وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة: ١١١] أي: قد سَجَّل لهم هذا الوعد في الكتب الثلاثة.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ..﴾ [الرعد: ٢] أي: جعلهما منقادَيْن لنظام دقيق مُحكَم سديد.

ومثلُ قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الرعد: ٣] أي: جعل أكثرها سهلاً قابلاً للاستفادة منه والسُّكنى فيه، وغير ذلك من الانتفاع، ولم يجعلها كلَّها جبالاً وَعِرةً صعبةَ السلوك، والمدُّ والبَسْطُ لا ينافي التكوير[1].

---

(١) كما يفيد قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الرعد: ٣]: مدَّها بالخيرات والمعادن ومواد الخصب؛ لإمكان الاستقرار عليها.

ومثلُ قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [يونس: ١٩] أي: في جَعْل الجزاء في الآخرة لا في الدنيا.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٢] و﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥] أي: منزلة رفيعة، لأنَّ الشيء الصِّدق هو الكامل من كلِّ وجوهه المتَّصف بسائر الصفات المحمودة. فيقال: رجلُ صدق، وفرسُ صدق، وثوبُ صدق، وهكذا.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ [الحديد: ٢٩] مكانَ: ليعلم، وكلمة «لا» مزيدةٌ للمبالغة في نفي متعلَّق العِلم المفهوم من السياق.

ومثلُ قوله: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣]، يقولون ذلك لِـمَا يرونه من قوة تأثيره على الناس وشدَّة مَيْلهم إليه.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥] أي: لضبط عباداتكم ومعاملاتكم الدينيَّة والمدنيَّة، فإنَّ هذا النظام المُشاهَد في الأشهر القمريَّة سَهْلُ الضبط على جميع الناس، خلافاً لحساب السنين الشمسيَّة وأشهرِها، لذلك بَنَى الله سبحانه الأحكامَ الشرعيَّة على الأشهر القمريَّة.

ويأتي في القرآن عباراتٌ من الدعاء على لسان الأنبياء أو المؤمنين، مثل دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، والغرض منه: بيان ما كانوا عليه من العبادة الصحيحة، والدِّين الحقِّ، والتوحيد، أو الشكر لله، والإرشاد إلى مثل ذلك، فهي بيانٌ لمنهج دينهم، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤] فيُؤكِّد الخبر بلام الابتداء مع أنَّ المجيء قد وقع، إذ إنَّ هذا القول يكون يوم القيامة، وذلك بما كان من جحودهم إيَّاه، واستبعادهم لوقوعه، واستهزائهم به.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣] يريد بذلك تقريرَ كونه من الله، وأنه نزَّله مُنجَّماً، متفرِّقاً ولم ينزله دفعة واحدة. وقد رُوي هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما(١).

وقد يأتي الأمر في القرآن بصيغة الخبر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أو بصيغة الشرط، كقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، والنكتةُ في مثل ذلك: الإشارة بصيغة الوقوع إلى أنه أمر مقبول مُسَلَّم به مرغوبٌ فيه.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٥٥] بلفظ ﴿مَا﴾ دون «مَن»، وذلك لتغليب غير العقلاء، حتى يكون الكلام تقريراً لكمال قدرته سبحانه على جميع الأشياء، وبياناً لاندراج الكلِّ تحت ملكوته، يَتصرَّف فيها كما يشاء، لأنَّ السياق في بيان كمال القدرة. وقد يأتي كذلك بـ«ما» موضع «مَنْ» إذا أراد معنى الوصفيَّة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥].

ويأتي مثلُ قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦]، فيأتي بـ﴿مَن﴾ الدالَّة على العقلاء دون «ما»، تخصيصاً للمعتدين، وتنصيصاً عليهم، وتحسيساً لهم بأنهم مقهورون له تعالى، لأنَّ السياق في الوعد والوعيد.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٧]، فالتعبير بـ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ﴾ جارٍ على متعارف لسان العرب، أي: ألم تكن كذلك؟ وكنت كذلك؟

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (١٧: ٥٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أُنزل بعد ذلك في عشرين سنة».

ويأتي مثل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]، فالتعبير عن قريش بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وعن المؤمنين بعنوان الإيمان، ليس من قِبَلِ القائلين، بل من جهة الله تعالى، تحقيراً للمشركين وتشريفاً للمؤمنين بوصف الإيمان، ليكون هذا التعبير محطاً للتشنيع على من رَجَّح المتَّصفين بأقبح القبائح، على المتَّصفين بأكمل الإيمان وأعلى الفضائل.

ويأتي في القرآن مثلُ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فتأتي تارةً بمعنى: واسع القدرة والتصرُّف، إذا شاء شيئاً اقتَضَتْه الحكمة في نظام الخليقة، فإنه يقع لا محالة، عليمٌ بوجوه الحكمة، يضع الأشياء في مواضعها حسب حكمته تعالى.

وتارةً بمعنى: واسع لا ينحصر فَضْله، ولا يُحَدَّد عطاؤه، ولا يضيق عليه ما يتفضَّل به من الزيادة والكثرة، عليمٌ أين يضع فَضْلَه وكَرَمَه.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وهو ردٌّ على أكمل الوجوه، مبنيٌّ على إحاطة علم الله تعالى، ووَجْهُ الرد: أنَّ الحقيق بمَنِّ الله تعالى وزيادةِ نِعَمِه، إنما هم الذين يقدرونها ويعرفون حقَّ الـمُنعِم بها، فيشكرونها له باستعمالها فيما تتمُّ به حكمته، وتُنال به مرضاته، لأنَّ الشكر هو استعمال المواهب والنِّعَم فيما خُلِقَتْ لأجله. وشكر الله تعالى لا يكون باللسان، وإنما يكون بالفعال الحسان، وقد قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وهذه الآية تدل على أن الإنسان مختار في تصرُّفاته، لأنه بعد أن هداهُ السبيل فوَّض أمْرَ نفسِه إليه، أي: إما أن يعمل بما هديناه إليه أو لا يعمل.

ومثلُ قوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، وهو تَقْريعٌ بأبلغ الوجوه، كأنَّ ذلك معروف لديهم لجلائه ووضوحه، بما جاءهم من الحقِّ المبين، وشرحٌ لهم عن أحوال الآخرة ومصير العالمين.

ومثلُ قوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ...﴾ [الأنعام: ٤٦] أي: نُنَوِّع المواعظ فنجعلها على أنحاء شتَّى، منها ما طريقُه الحسّ، ومنها ما طريقُه العقل. وهذا التركيب يتضمَّن تعجيبَه من جُمودهم على باطلهم، رغماً عن إيضاح الحق بأنواع الطرق وضروب البيان.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وهو جَرْيٌ على أساليب العرب، إذ تُعبِّر عن الكلِّ بالأكثر تَحرّياً للصِّدق الدقيق.

ومثلُ قوله: ﴿فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ [القصص: ٦٧] بصيغة الترجِّي، والترجِّي من الله تحقيق.

ومثلُ قوله: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠]، وهو وَعْدٌ بصورة تَرَجٍّ؛ لأنَّ الترجِّي من الكريم وعدٌ ثابتٌ مُتحقِّق الوقوع.

ومثلُ قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٤] يجيءُ للحثِّ والمبالغة في الإغراء على التَّمسُّك بما قبله، أي: إن كنتم من أهل العلم والمعرفة والإدراك.

وكذلك مثلُ قوله: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٩] لإثارة الانتباه، والمرادُ بهم أربابُ العقول النَّيِّرة.

ويأتي مثلُ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥٢]، أو: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٨]، لأنَّ العلم يُنيرُ البصيرة، ويُصحِّح النظرَ والإدراك. والفقه

أدقُّ طرق العلم، والاستنباطُ والتَّعقُّلُ أبسطُها، فيأتي كلٌّ في الـمَحَلِّ الذي يَقْتضيه، والسياقِ الذي يَستَدعيه.

ومثلُ قوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١] أي: بالردِّ والنقض والإعراض.

ومثلُ قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي: لجهلهم بشؤون الله، من العلم والقدرة والحكمة وغيرِها من صفات الكمال، وعدم وقوفهم على سرِّ التكوين، والغاية القصوى منه، وعلى أنّ البعثَ مما تقتضيه الحكمةُ التي تمشي عليها أعماله تعالى.

ومثلُ قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] أي: فَضْلَه عليهم، باتِّباع تعاليمه التي تكمل فِطَرَهم، وتُنَمِّي مواهبَهم، وتُزكِّيها وتُؤَهِّلهم لِـمَا فيه سعادتهم في الدارين، لأنَّ الشكر هو استعمال المواهب والنِّعَم فيما خُلقت لأجله، كما مرَّ بيانه آنفاً.

ومثلُ قوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧]، يجيءُ هذا التعبير للتيئيس من النجاة، زيادةً في التوعُّد.

ومثلُ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦] يأتي للإيذان بأنَّ ما تقدَّم كان مبنياً على الحكمة، وأنه تعالى غالبٌ على أمره، لا يَغْلبه شيء، وأنه سيُعاقِب مَن لا يمتثل. ولفظة ﴿كَانَ﴾ ليست للمُضيِّ، ولكن لتحقيق المضمون، مجرَّدة عن الزمان.

ومثلُ قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]، فيعبِّر عن مصيرهم الأليم بعدم المحبَّة لهم، إيماءً لمحبَّة الله تعالى للمؤمنين، وكنايةً عمّا لهم من العذاب في مقابلة نعيم المؤمنين ومحبّتهم.

ومثلُ قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] قد يختم به الآيات التي فيها

أمور كثيرة من الأوامر والنواهي، يكون الإنسان فيها عُرْضةً للهفوات واللَّمَم، وقد تكون للإيناس من وحشة عتاب سابق.

ومثلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١] يُقرِّر به سُنّةً من سُنَنِ الله في تَنَازُع الحقِّ والباطل، والصَّلاح والفساد، وغَلَبة الحقِّ والصلاح للباطل والفساد في نهاية الأمر.

ومثلُ قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤] أي: الخارجون عن نُور الفطرة ونظام الدِّين.

ومثلُ قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠] أي: بسيادة الدنيا مع سعادة الآخرة، أو بسعادة الدنيا الحقيقية وسعادة الآخرة، أو بمثوبة الله الفُضْلى وكرامته العليا.

ومثلُ قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، أو ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، أي: يهديهم لِـمَا تَقْتضيه الفطرة ومصالح البشر في الدَّارين، فمن واجب المتَّقي والمتحذِّر أن يتمسَّك به ليُنجيَه.

ومثلُ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩]، وذلك لأنَّ الإيمان يجعل صاحبه مُستَعِدّاً للنظر والتدقيق في آثار الله.

ومثلُ قوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فيكتفي بذِكرِ التَّنبُّؤ عن الجزاء، إيذاناً بإحصائه لأعمالهم ومجازاتهم بها.

ومثلُ قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] إيذانٌ بأنَّ الإحسان يُقرِّب إلى الله جدّاً.

ومثلُ قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] إيذانٌ بأنَّ ذلك يُبعِدُ عن الله جداً.

ومثلُ قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] تهديدٌ بأسلوب تَرْجية وتأميل.

ومثلُ قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] استفهامان تقريعيان متواليان، بمعنى: أيُّ شيءٍ أصابكم، وكيف تحكمون أن يكون هؤلاء شركاء لله.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] في غير سياق المشركين، لأغراضٍ أُخَر كما مرّ، مثل الإيناس من وحشة عتاب سابق، أو لـما كان في السياق من أوامرَ ونواهٍ لا يَسلَم متعاطيها من بعض الهفوات، فيكون المعنى: إنَّ من رحمة الله تعالى أن يغفر لمن زكّى نفسَه بالأعمال الصالحة، فلا يُؤاخذُه بما سَلَف، ولا بما اقترف من اللَّمَم، ولا بما تابَ وأقلع عنه.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦] أي: إحاطةَ قهرٍ وتَصَرُّف وتسخير، وإحاطةَ علمٍ وتدبير وتقدير.

ومثلُ قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤] بمعنى: أنه تعالى لا يَغْلبُه شيءٌ على إنجاز وَعْدِه، أو تحقيق وعيدِه، ولا يفعل إلا ما تَقْتضيه الحكمة والمصلحة.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] أي: المشتمل على الحكمة، وهي إصابةُ الحقِّ في أحكامه ومقرَّراته. وعليه، فيجب أن يُرَدَّ إليه كلُّ شيء أُرِيدَ أن يُكشَفَ فيه وجهُ الحق والصواب، فهو المهيمنُ في تحقيق ذلك.

أما الإشارة فيجوز أن تعود إلى آيات السورة، أو إلى آيات القرآن كلِّه، ففيها الخير والسعادة، وفيها العلم والرَّشاد، وفيها الدلالة إلى طرق الحق والصواب، فهي صلاحُ العباد في الدنيا، والمؤدِّية إلى سعادتهم في الأخرى، بل في الدارين.

ومثلُ قوله: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١] أي: لأنفسهم، إذ حَرَموها السعادة التي كانت مُسْتَعِدَّة لها، لو لم يُفسِدوا فطرتَها بمفاسد التربية وسُوءِ القدوة.

ومثلُ قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤] أي: غاب عنهم شركاؤهم وما كانوا يعبدون من دون الله، غيبةَ الضَّالِّ الضائع. يكنِّي بذلك عن فَشَل هؤلاء العابدين، فيما كانوا يُؤمِّلونه من شُركائهم في ذلك اليوم، بل انعكس عليهم الأمل والرجاء.

* * *

ومن سنن القرآن: **أن يفصل ويزيل أحياناً سياق الكافرين بقوله:** ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧] بمعنى: لم يتمَكَّنوا معه أن يُبصِروا ما تجلَّت به سبيلُ الحق من الوضوح والاستقامة، ولا أن يفهموا أنها الموصلة إلى النجاة وحظيرة السلامة.

* * *

ومن سنن القرآن في الفواصل الواردة في السياق المتعلِّق بالكلام عن المشركين: **أن يأتيَ بما يدلُّ على سبب أَناتِهِ فيهم وإمهالهم إلى أمد وأجل مُعيّن،** مثل: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤] أو ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤] إلى أمثال ذلك، فألمح بهذه الفاصلة إلى أنه تعالى لم يُمهِلهم لعَجْزٍ في القُدرة، ولكنَّ الحكمة اقتَضَت ذلك الإمهالَ والتأجيل.

* * *

ومن أساليب القرآن: **أن يفصل كـذلك بعض الآيـات بقوله:** ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وأمثال ذلك؛ للإشارة إلى ظهور آثار هذه الصفات له تعالى في مضمون ما تقدَّمها من الكلام.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] أي: الذي لا مَطْمَع وراءَه لطامع، ولا إرادةَ لمريد.

ويأتي مثلُ قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، فيجعله حُجَّةً عليهم في أنفسهم، لا حُجَّة إلزاميَّة لهم أمام الناس.

* * *

ومن سنن القرآن اللفظية: أن يخطفَ ياء المتكلم إذا وقعت في آخر الفواصل، ويحذفها خطّاً، مثل: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١].

* * *

المقدمة الثالثة

في معاني القرآن الدقيقة

ومدلولات تراكيبه الواسعة البعيدة المرمى

ويعود ذلك إلى صور الأساليب أو التراكيب وما فيها من كلماتٍ مختارة وبلاغة عالية وصياغة عجيبة. تلك الصُّور التي لا تمتُّ إلى أساليب البشر المعهودة بصلة مهما بلغت من الرُّقيِّ وعُلوِّ الدرجة.

فلو اجتمع كلُّ البلغاء على أن يأتوا بتركيب واحد على غرار تلك التراكيب؛ لعجزوا بكُلِّيتهم عجزاً كبيراً، ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً.

* * *

المادة الأولى

إنَّ المعاني الجليلة لتزدحم في تلك التراكيب ازدحامَ الأجرام السماوية في الفلك الأعلى، والعلماء الفلكيون يقرُّون بأنهم لم يُدركوا من هذه الأجرام إلا كما يدرك المغترف بكفِّه من البحر الخِضَمّ، رغماً عن تعاظم الآلات الفلكية ودقَّتها في هذه العصور العلمية. بل كلَّما تعاظمت هذه الآلات ودقَّ عَمَلُها، أدرك العلماء أنَّ ما علموه من الفلك طيلة الأحقاب الماضية السحيقة، إنما هو قطرة من عظيمِ نهر، أو غَرْفة من محيطِ بحر، لا مَطْمَعَ لهم بالإحاطة بعلمه، وأنهم أعجَزُ من أن يحيطوا علماً بذلك العالم العظيم الذي هو من صُنع الله القادر الحكيم.

وهكذا شأن القرآن العظيم، بل هو أعظم من ذلك، لأن العالَـم النَّجْمي من صُنع الله، وهذا كلام الله جلَّ جلاله، ومن صفاته الذاتية العليَّة.

ومهما رَقِيَ الفكر البشريّ، ودقَّ الإدراك العلمي، واتَّسَعَ أفقُ العقل، ونار كوكبه المنير، فهو أعجَزُ من أن يُحيط بدقائق القرآن العظيم علماً، وأن يستقصيَها فهماً، وإنْ أدرك منها الشيء الكثير، لأنه لم يبلغ من جلال معانيه ودقائق مدلولاته إلا كما يبلغ العالمُ الفلكي من معلومات هذا الفلك الدَّوَّار، وما حواه من عظيم الأوضاع وجليل الآثار، على أنَّ قليل ما يُدرَك من بيانات هذا القرآن العظيم يَفضُلُ ويزيد على إنارة السماوات والأرضين، وإصلاح أمر الخلق أجمعين، منذ أنزله الله سبحانه إلى يوم الدين، شأن كثير من آثار الله في هذه الموجودات، كالماء والهواء والشمس والقمر، حيث يأخذ كلُّ ذي

حاجة منها كفايتَه ولا ينقص لها أثر، ولا تحيط بسائر دقائقها الخبر، جلَّ مَنْ هذا كلامُه، وهذه آثارُه وعظائمُه!

على أنَّ ما يحتاج إليه البشـر من هذا القرآن، كالأحكام والأخلاق والمواعظ والإرشاد والسلوك والسَّداد، كلُّه جَليٌّ قريبُ الفهم، سَهْل المنال، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

* * *

المادة الثانية

ومن بديع تراكيب القرآن: أنَّ منها ما يتناول أمراً محدوداً وأمراً ممدوداً، وذلك مثلُ قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥]، فالوفاء بالكيل أمر محدود، والوزن بالقسطاس المستقيم ممدود واسعُ المدلول، يتناول سائر الأعمال الدينية والدنيوية؛ السياسية والإدارية والاجتماعية والأدبية والصناعية وما لا يتناهى من الأعمـال، فكلُّ عمل يُوزَن بالقسطاس المستقيم ويُراعى فيه دقَّة الإتقان وبراعة الإحكام، ينجح أعظم نجاح ويبلغ ذرى الإحسان، وكلَّما كان ذلك الوزن والتقدير أدقّ، كانت النتائج أحسَنَ وأضبط، ولا يُمْنى العملُ بالفشل إلا لنقصان ذلك الوزن والتقدير فيه أو إهماله، ولا يتمُّ الكمال ولا الجمال إلا بإتقان الأعمال.

ولْـنَضْرِبْ لك مَثَلاً آخر في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فرباط الخيل أمرٌ معلومٌ محدود، وهي من أجلِّ أدوات الحرب إلى ما قبل زمن قريب.

أما قوله: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ فهذه الجملة على صِغَرِها لا يمكن للقلم أن يحيط بقسم وافر من مدلولـها، وإنْ أملي في ذلك سِفْراً كبيراً، على سلاستها وبساطة تركيبها وفهم مدلولها فهماً إجمالياً واضحاً، فهي تتناول ما كان من أنواع آلات الحرب القويَّة، وما سيكون مما ستُحدِثه الفنون، ويَتَفَنَّن في صُنعِه المتفنِّنون، وكذلك تتناول العلوم الحربية بأكمل قواعدها وأجدِّ مكايدها، ممّا ابتُكِرَ منها وما سيُبْتكر من الفنون

العامة والبراعات الخاصَّة التي يبتدعها الماهرون من القوّاد، ليكيدوا لأعدائهم من الرؤساء والأجناد.

ولا تَـنْسَ بأنَّ كلمة ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ تأتي في القرآن بمعنى منتهى الجهد في العمل، لا بمعنى التساهل والسماح في الكسل، كما يفهمه الذين لا يعلمون.

وهاك مَثَلاً ثالثاً في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧]، فإنها وإنْ دلَّت إجمالاً على أنه سبحانه خلق كلَّ شيء وقدَّره تقديراً، بحسب ما يقتضيه وما نيطَ به من عمل، ورُتِّب عليه من أثر، إلا أن ذلك يتفاوت تفاوتاً عظيماً، فخِلقةُ الإبل وإن كانت عجيبة، تدلُّ على حكمة الخالق دلالةً واضحة جليَّة؛ لأنها صالحة لحمل الأثقال إلى مسافات بعيدة، ولا سيَّما في الصَّحارى، إلا أنها محدودةُ الفهم بالنسبة إلى عَظَمة السماوات وعجائبها، والأرض وغرائبها، إذ هو أمرٌ لا ينتهي علمُه، ولا يتَحدَّد فهمُه، ولا يحيط بمكنونات سرِّه إلا العليم العلّام.

ومثلُ هذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، فخَلْق السَّماوات وما فيها من عَظَمة وسَعَة وعجائب تُدهش عقول العلماء، هي من الأمور التي لا يحدُّها العقل، ولا يستوعبها العلم والبيان، رغماً عن جهد المكتشفين واستمرارهم في ذلك، وأما اختلاف الليل والنهار فهو ظاهرةٌ جليَّةٌ معروفةٌ لكلِّ أحد من علماء الفلك، فالقرآن العظيم:

كالبَـدرِ مـن حيـثُ التَفـتَّ رأيتَـهُ ... يهـدي إلى عَيْنَيـكَ نـوراً ثاقبـا
كالشمس في كَبِدِ السماءِ وضوؤُها ... يغشى البلادَ مشـارقاً ومغاربـا[1]

---

(١) البيتان للمتنبي وهو في «شرح ديوانه» للواحدي ص٩٠.

وكلُّ ذلك بفضل التراكيب والأساليب، واختيار المفردات، فكيف يُتَرجَمُ إلى لغات وقد تحدَّى بُلَغاء العرب أن يأتوا بسورة من مثله ـ كسورة الإخلاص والعصر ـ بلغته العربية؟ فعجزوا، فكيف يُتَرجَمُ كلُّه بلغة أجنبية؟!

وفي القرآن العظيم دقائقُ يظهر معناها آناً بعد آن، كلَّما ترقَّى العلم، وارتقى الفكر البشري، وامتدَّ الزمان، وتوسَّع اكتشافُ ما في هذا الكون من خفايا ومساتير.

مثالُ ذلك قولُه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤]، فقد ظهر من حكمة تخصيص «البنان» بالذِّكر، بعد أن تبيَّن في هذا العصر أنَّ كل بَنَان من شخص لا يشبه الآخر بخطوطه، ما لم يظهر من قبلُ للمُفسِّرين ولم يخطر لهم ببال. وإذا كان هذا شأن القرآن العظيم، فكيف يُمكِن أن يُتَرجَمَ بلغة وتعبير؟! ضلَّ الخاسرون، وخسر الضالُّون، وسبحان ربِّك ربِّ العزَّة عمَّا يصفون.

نموذج من بلاغة القرآن

قال السيوطي(١) في «الإتقان» منتحلاً من كلام ابن أبي الأصبع المصريّ(٢) في «بدائع القرآن» ما مختصره:

قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

---

(١) هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (٨٤٩- ٩١١هـ)، إمام حافظ مؤرخ، له نحو ٦٠٠ مصنف، منها: «الأشباه والنظائر» في النحو، و«الدر المنثور في التفسير بالمأثور». ينظر: «الأعلام» للزركلي (٣: ٣٠١-٣٠٢).

(٢) هو عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبي الإصبع العدواني، (٥٩٥-٦٥٤هـ)، شاعر من العلماء بالأدب، له: «بديع القرآن»، و«تحرير التحبير». «الأعلام» للزركلي (٤: ٣٠).

ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، فإنه تعالى استقصى أوصاف الجنَّة الممتازة، ليُعظمَ مُصابَ صاحبها، استقصاها بقوله: ﴿مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ﴾، ثم تمَّم الوصف بقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾، ثم أكمله بقوله: ﴿فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، فأتى بكلِّ ما يكون في الجنان الفائقة الممتازة؛ ليشتدَّ الأسف على إفسادها.

ثم قال في وَصْف صاحبها: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ﴾، ثم استقصى المعنى في ذلك بما يُوجب تعظيمَ المصاب، فقال: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ﴾، ولم يقف عند ذلك حتى وصف الذرية بالضعفاء.

ثم ذكر استئصال الجنة التي ليس لهذا المُصاب بها غيرُها، فوصفها بالهلاك بأسرع وقت، حيث قال: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ﴾، ولم يقتصر على ذكر الإعصار، للعلم بأنه لا يحصل به سرعة الهلاك، فقال: ﴿فِيهِ نَارٞ﴾، ثم لم يقف عند ذلك حتى أخبر باحتراقها، لاحتمال أن تكون النارُ ضعيفةً لا تفي باحتراقها؛ لِـمَا فيها من الأنهار ورطوبة الأشجار، فاحترس عن هذا الاحتمال بقوله: ﴿فَٱحۡتَرَقَتۡ﴾، فهذا أحسَنُ استقصاء وقع في كلام وأتـمِّه وأكملِه، ولا غَرْوَ فهو كلام الحكيم الخبير.

ثم قال: والفرق بين الاستقصاء والتَّتميم والتكميل: أنَّ التَّتميم يَرِدُ على المعنى الناقص لِيَتمّ، والتكميل يَرِدُ على المعنى التامّ ليتكامل، والاستقصاء يَرِدُ على المعنى التامِّ الكامل، فيستقصي لوازمَه وعوارضَه وأوصافَه وأسبابَه، حتى يستوعبَ جميع ما تقع الخواطر عليه فيه، فلا يبقى لأحد فيه مساغ[1].

أقول: ومثلُه قولُه تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، فإنه

---

(١) «الإتقان في علوم القرآن» (٣: ٢٥٢-٢٥٣).

استقصى في المصباح سائر صفات الكمال، كما استقصي ذلك في زيته الذي يُضاء به، ليتَخيَّل الذهنُ مصباحاً في منتهى الإضاءة والتنوير والإشراق.

وقال الزمخشري[1] في «الكشاف» في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، قال: في هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ يعني: أنه حقٌّ واجب لله في رقاب الناس، لا ينفكّون عن أدائه والخروج عن عُهدته.

ومنها: أنه ذكر ﴿ٱلنَّاسِ﴾، ثم أبدَلَ منه ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وفيه ضربان من التأكيد: أحدهما: أن الإبدال تـثنية للمراد وتكرير له، والثاني: أنّ الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال إيرادٌ للمعنى في صورتين مختلفتين.

ومنها: قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾، مكان «ومن لم يحجّ»، فإنه تغليظٌ على تارك الحج.

ومنها: ذِكرُ الاستغناء عنه، وذلك مما يدل على المقْتِ والسخط والخِذلان.

ومنها: قوله: ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقل: عنه، لأن فيه الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان، لأنه إن استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل، فكان أدلَّ على عِظَمِ السخط[2]. انتهى باختصار.

وقال تعالى في الردِّ على من أنكر البعث، فحكى ذلك عنه بقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، ففي قوله: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ تعجيلٌ بالردِّ الـمُجمَل على أبلغ صورة.

---

(١) هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد (٤٦٧ - ٥٣٨هـ)، من كبار المعتزلة، علامة نحوي مفسِّر، له: «أساس البلاغة»، و«المفصل»، و«المستقصىٰ». ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٢٠: ١٥١ - ١٥٦).

(٢) «الكشاف» (١: ٤١٨).

ثم دَحَضَ حجَّتهم بالتفصيل بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يسٓ: ٧٩]، فبيَّن لهم وذكَّرهم أنَّ القادر على بَدْء الخلق لا يُعْجِزه أن يُعيدَه، لأنَّ الإعادة ليست بأصعَبَ عند ذوي العقول من الابتداء.

ثم كمّل الحجَّة بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يسٓ: ٧٩]، يعلم كيف يخلق ابتداءً وكيف يُعيد. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ إعادة الأجسام وخَلْقَها ثانياً، ليس على شاكلة خَلْقِها أولاً، ولا على طريقته، لا سيَّما وأن الثاني يصلح للخلود.

ثم زاد الحُجَّة قوةً ووضوحاً، فذكَّرهم بقدرته على إخراج الناس مما يَنبُتُ من الماء، وهو الحطب. فمن قدر على ذلك التطوير فليس بمُنكَر عليه أن يُعيدَ ما أفناه، وهو على كلِّ شيء قدير، فقال في صفة ذلك المعيد: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يسٓ: ٨٠]، فكلٌّ من اليبس للنبات والإعادة للأموات تطويرٌ وتحوير.

ثم قوّى هذه الحُجَّة بالانتقال إلى دليل آخر، وزادها شرحاً، وبلغ بها غايةَ الإلزام، فقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ أي: إنَّ إعادة الناس بعد الموت ليست أصعَبَ من خَلْق السماوات والأرض.

ثم أردَفَ الإنكار بالتقرير فقال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يسٓ: ٨١] أي: يعلم كيف يخلق كلَّ نوع من تلك الأنواع، وكيف يُعيدُ خَلْقَ الإنسان بعد الفناء، وطُرُقُ الإيجاد عنده سبحانه أنواعٌ شتّى.

ثم أثبَتَ لنفسه سبحانه القدرةَ المطلقة، والإرادةَ النافذة، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يسٓ: ٨٢]، فلا يحتاج إلى كَدٍّ وإجهاد في ذلك الإيجاد.

ثم دلَّ على أنَّ المخلوقات مُلْكُه، وأنَّ مصير الناس إليه، فقال بطريقة التقريع على ما سَبَق: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]، فلم يترك سبحانه في هذا الأسلوب حُجَّةً لمكابر، ولا شبهةً لمعاند. جلَّ مَنْ هذا كلامه، وهذه حُجَجُه وبراهينه!

وقال تعالى في مُحاجَّة اليهود: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]، فقال: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: بالقرآن، ليكون الكلامُ دعاءً إلى الشيء مع الحجَّة الملزمة، وهي كونه من الله، فأخرج الدعوى والدليل بلفظ واحد.

وقد طوى ذِكرَ الـمُنزَّل عليه، لأنه لو ذُكر كان بحسب قواعد البلاغة زائداً، وبحسب أصول الإرشاد مُضِرّاً، يُـخْرج به أضْغانهم، ويثير أحقادهم، فيؤدِّي إلى ردِّ الفعل، كما أنَّ فيه الإشارة إلى الكتب المنزلة كلِّها.

أما حكاية جواب اليهود فملخَّصها: إنهم يؤمنون بالتوراة لأنها منزَّلة عليهم، وفي ذلك إيماء إلى كفرانهم بما أُنزل على غيرهم، فصَرَّح القرآن بما سجَّلوا على أنفسهم من الكفر، فقال: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾، وأتى بجملـةٍ تشمل سائـر الكتب السماويَّة، لأنهم كما كفروا بالقرآن كفروا بالإنجيل، فردَّ عليهم بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: فكيف يكون إيمـانُهم بكتابهم باعثاً على الكفر بما هو حقٌّ، وكيف يُعارِض الحقُّ الحقَّ؟!

ثمَّ زاد في الإلزام بقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾، فكانت هذه الكلمة حَسْماً لكلِّ عذر، وسدّاً لكلِّ باب، إذ كيف يكون مؤمناً بكتابه مَنْ يُكذِّب مَنْ يُصدِّقُه؟!

ثم أوسَعَهم تكذيباً وتفنيداً، وألمع إلى أنَّ الكفر مُسْتأصِلٌ فيهم، فقال: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وقد أتى بصيغة المضارع لإحضار صورة القتل للعيان، فيَعرِضهم وأيديهم ملطَّخةٌ بهذه الدماء الزكية المتشبِّعة بالإيمان.

وقال في سورة الأنعام: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال في سورة الإسراء: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]، لأنَّ الخطاب في الأولى مُوجَّهٌ إلى الفقراء، بدليل قوله: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فاقتَضَت البلاغة تقديمَ عِدَتِهم بالرزق وتكميلَ العِدَةِ برزق الأولاد.

والخطاب في الثانية للأغنياء الخائفين من الفقر في المستقبل، بدليل قوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، فاقتَضَت البلاغةُ تقديمَ العِدَةِ برزق الأولاد؛ ليعلموا أنه سبحانه هو المتحمّل عنهم كُلفَتَهم، فيأمنوا ما خافوه، ثم أكمل العِدَةَ بضمان رزقهم أيضاً، كما تقتضيه البلاغة العالية.

وقال تعالى في الرخصة في نكاح الإماء: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٢٥] أي: المشقَّة والجهد من مقاومة داعية الفطرة، فقد جعل هذا شرطاً آخر للرخصة في نكاح الإماء. وإنّما أخَّره إلى آخر البحث ولم يَقرِنْهُ باستطاعة الطَّوْل الذي ذكره في أوّل البحث، مع أنه من مُتمِّماته، لأنه لا يصحُّ نكاح الأمة إلا عند وجود كلٍّ منهما، لأنَّ مفتتح الآية كان مبنياً على التأنيس في هذا الأمر الذي كانوا يعُدُّونه في الجاهلية عاراً وسُبَّة، وهذا الشرط يشير إلى حطَّة هذا النكاح، فلا يتلاءم مع التأنيس، لذلك أخَّره حتى بيّن أنَّ حكم من تأتي منهنَّ الفاحشة نصفُ حكم الحرَّة، فأشعر هذا الحكمُ بنقص في الأمة، وحينئذ أردَفَ الكلام بتتمَّة شرط صحَّة هذا النكاح، وهو خوفُ العَنَت؛ ليتناسق السياق تناسقاً بلاغياً، ويتلاءمَ تلاؤُماً منطقياً. جَلَّ من هذا كلامه!

وجاء في «بديع القرآن» لابن أبي الأصبع في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] ما ملخَّصه بتصرُّف: يُطلَقُ الهمودُ على الموت، والأرض في حال عطلها موات، والاهتزاز: الحركة، والمراد به هنا: تَفرُّق الذرَّاتِ بعضها عن بعض، وبذلك تَربُو الأرض بالماء وتنتعش، ثم يَعقُبُ ذلك ظهورُ النبات البهيج، فالألفاظ كلُّها مختارةٌ دالةٌ دلالةً دقيقة على هذه الحالة الطبيعية، صوَّرت المعنى أكمَلَ تصوير، فَضْلاً عمَّا في لفظ ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ من الإلماع إلى تشبيهِ حالة الأرض بحالة مَنْ يهتزُّ فرحاً لِنَيْل عطيَّة كريمة.

* * *

ومن بلاغة القرآن: التناسق في أساليبه، يقع ذلك بين الفقرات، فتتبعها التنقلات النفسيَّة، كما ذكر الزمخشري في سورة الفاتحة، حيث قال ما مُلخصَّه: إنَّ العبد إذا افتتح حَمْدَ مولاه الحقيقي عن قلب حاضر، ونفس ذاكرة لِمَا هو فيه، بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الدالِّ على اختصاصه بالحمد، وأنه حقيقٌ به، وَجَدَ العبدُ من نفسه محُرِّكاً للإقبال عليه.

فإذا انتقل إلى قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] الدالِّ على أنه المالك للعالمين المدبِّر لهم، قَوِيَ ذلك المحرِّك.

فإذا انتقل إلى قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] الدالِّ على أنه مُنعِمٌ بأنواع النِّعَم جلائلِها ودقائقِها، تضاعفت قوةُ ذلك المحرِّك.

فإذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العظام، وهي قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] الدالِّ على أنه بيده الأمرُ كلُّه يوم الجزاء، تناهت قوَّة ذلك المحرِّك، وحفز النفس إلى الإقبال عليه تعالى ليخاطبه ذلك العبد بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وهكذا تحوي أساليبُ القرآن وتعابيرُه أعلى عناصر البلاغة، وهي الصِّدق والدقَّة مع الوضوح والجمال والاستقصاء للمعاني، والتناسق العجيب العميق بين مفرداته وتراكيبه وأساليبه.

* * *

ومن أساليب القرآن: **المنطق الوجداني المؤدِّي إلى الإقناع والشعور بالواقع بصُورة الملموس**، دونَ المنطق الذهني المرتبك العسير، ولذلك كان أغلب أداة التعبير في أساليب القرآن التمثيل والتصوير، حيث يعبِّر بالصُّور المحسوسة أو المتخيَّلة عن المعاني الذهنيَّة، والحالات النفسيَّة، والأحوال الغيبيَّة، والسنن الكونيَّة، والطبائع البشريَّة.

مثل قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١] وهو الأسد، فعبَّر بهذه الصُّورة المحسوسة عن المعنى الذهني، وهو نُفْرتهم الشديدة من الدعوة إلى الحق والإيمان.

ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، حيث يُعبِّر بهذه الصُّورة المحسوسة عن عَجْز الآلـهة التي يعبدونها من دون الله.

ومثل قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]، يُعبِّر بهذه الصورة المتخيَّلة عن بشاعة ثَمرِها ورداءته.

ومثل قوله تعالى في حقِّ الشيطان: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، فقد عبَّر بهذه الصُّورة عن إحاطة استعداد

الشرِّ بالإنسان من كلِّ نواحيه، تحذيراً من الوقوع فيه، لأنَّ الشرَّ ينتج من معاكسة السُّنن الكونيَّة التي تخصُّ الإنسان، وهي محيطةٌ به بدناً وروحاً، والتعاليم الإلهيَّة تُبصِّره بها وبكيفية تناولها وتَحمِلُه عليها، فإنْ عمل بها حسب تعاليم الله له انتفع وارتقى إلى الكمال الإنساني الرفيع، وإن عاكسها بمخالفة تعاليم الله في وَحْيه انضرّ وانحطّ إلى السفول الحيواني الوضيع، ولحقه الشرُّ بدناً وروحاً، في الحياة الدنيا والأخرى.

وهذا هو المراد من الآية والله أعلم، وهو المراد من إحاطة الشيطان به على هذه الصُّورة، ولكن عباد الله الـمُخلَصين ليس له عليهم سلطان، وهم الذين يعملون بتعاليم الله وتبصيره.

ومثل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فهو يُعبِّر بهذه الصورة عن جَريان السُّنن الكونيَّة فيهما بكلِّ دقَّةٍ وإتقان إلى آخر الزمان[١].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قٓ: ٣٠]، يُعبِّر بهذه الصُّورة عن كثرة الداخلين فيها، ويُضَمِّنُ ذلك معنى التحذير منها[٢].

وهكذا تجري بعض أساليب القرآن على هذا المنوال، لِتَتَجلَّى المعاني الذهنيَّة، والأحوال الغيبيَّة، والطبائع الكونيَّة بكلِّ وضوح وجلاء.

* * *

(١) ينظر ما قدَّمتُه حول تفسير هذه الآية مما كتبه فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان، وفيه تقرير حَمْل الآية على ظاهرها، وتفسير القول فيها بالقول حقيقة.

(٢) بل هذا قول يجري حقيقة؛ إذ ليس من الممتنع أن يخلق للنار إدراكاً ومنطقاً، فيسألها وتجيبُه، وسيأتي مزيدُ تعليق على هذا المعنى قريباً.

المقدمة الرابعة

فيما يُوهِمُ ظاهرُه الاختلافَ في آيات القرآن

المادة الأولى

ليس ذلك الظاهر اختلافاً، وإنما هو تعبير عن أحوال مختلفة وأطوار مُتَباينة للشيء الواحد.

قال تعالى في خلقة آدم: إنه ﴿مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال: إنه ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] وقال: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، وقال: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] فهذه أحوال مختلفة، دَرَج عليها آدم في تَطوُّرات خِلْقتِه، فعبَّر القرآن في كلٍّ موضع بما يناسبه من تلك الأطوار، حسب مقتضيات البلاغة ومناسبات الأحوال.

وقال تعالى في الكلام عن عصا موسى: ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧]، وقال في موضع آخر: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القصص: ٣١]، والثعبان: الكبير من الحيَّات، والجانُّ: نوع صغير من الحيَّات كثير الحركة، والمراد أن خِلقَتَها في الرهبة كالثعبان، واهتِزازَها في الخِفَّة كاهتزاز الجانّ.

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩] والمراد في الأولى: تَوْفية الحقوق، وفي الثانية: المَيْل القلبي، وليس هو في قدرة الإنسان، ولا إثمَ عليه فيه، فقد اتَّحدَ جنسُ العدالة في الآيتين، واختلف نوعُها فيهما.

وقال تعالى في سورة فُصِّلت: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ٩ – ١١]، وقال تعالى في سورة النازعات: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ – ٣٠]، كلمة (ثم) في الآية الأولى ليست للتراخي في الزمن حتى تدلَّ على أنَّ السماء خُلِقَت بعد الأرض، وإنما هي لتفاوت ما بين الخِلْقتَيْن في العظمة، ومثلُها في القرآن كثير، فهي لترتيب الخبر في الذِّكر، وللإشارة إلى أنَّ ما بعدها أعظم شأناً مما قبلها. فأشار به إلى الانفصال من الشمس ودَحْوها لها، والدَّحْو: الإلقاء بقوة، وقد فصَّلتُ البحثَ عن معنى الآية في سورة «فُصِّلَتْ» فارجع إليه.

وقال تعالى: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الطور: ٢٥]، فالتساؤل في الآية الأولى بمعنى: تساؤل التناصر والتناجد، كما هي عادتهم في الدنيا، يَسْتَنْجِدُ الشخص بأقربائه وأنسبائه. والتساؤل في الآية الثانية: للاستفسار والاستعلام الملفوف بالندم والتوبيخ، فاتَّفق التساؤلُ في الجنس، واختلف في النوع، على نهج القرآن في مثل ذلك.

وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٣٩ – ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، وهذه في موقف الحساب، والأولى في موقف الجزاء، ذُكِرت لبيان إنجازه وتنفيذه قهراً وصبراً، والله أعلم. أعاذنا الله.

* * *

المادة الثانية

كلمة (كان) في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، وأمثال ذلك، إنما هي لتحقيق وثبوت الصفة التي وقعت خبراً عنها، وليست هي للماضي الدالِّ على الانقطاع حتى يُسْتَشْكل، ومثلُه في القرآن كثير، وهو من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

❊ ❊ ❊

المقدمة الخامسة

في أنواع الخطاب في القرآن

في القرآن العظيم أنواع منوَّعة من الخطاب لا يمكن أن تُسْتَقصى، فَلْنذكر على سبيل التنبيه والإيقاف للقارئ المُلِمِّ في ذلك:

١) **خطاب العامِّ والمراد به العموم**، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

٢) **خطاب الخاصِّ والمراد به الخصوص**، كقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

٣) **خطاب الخاصِّ والمراد به العموم**، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١].

٤) **خطاب المدح**، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤].

٥) **خطاب الكرامة**، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]. ولا تجد التعبير بأحدهما دون الآخر إلا في محلِّه المناسب مما يقتضيه السياق، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، فالرسالة تتناسب مع التبليغ، والنبوّة تتناسب مع هذا العتاب، وقد يُعبَّر بالنَّبيِّ في مقام التشريع العام لكن مع قرينة إرادة العموم، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] دون: طلَّقتَ.

٦) **خطاب التَّهكُّم أو الإهانة**، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

٧) **خطاب الواحد بلفظ الاثنين**، نحو: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ [قَ: ٢٤]، والخطاب لمالك[1]، وقيل: للخَزَنة، فيكون من خطاب الجمع بلفظ الاثنين، وقيل: للمَلَكَيْن الموكَّلَيْن به في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [قَ: ٢١]، فيكون على الأصل.

٨) **خطاب الواحد بعد الاثنين**، كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، فأفرد موسى بالخطاب لأنه صاحب الرسالة دون هارون، وهارون تَبَعٌ له.

وكقوله تعالى لآدم وحوّاء: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، فأفرد آدم بالشقاء لأنه المقصود بالكلام، والشقاء لكليهما.

٩) **خطاب الاثنين بعد الواحد**، كقوله تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨]، لأنَّ موسى هو الأصل.

١٠) **خطاب الخاصّ بعد العام**، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]، فإنَّ قوله: ﴿تَدْعُونَ﴾ مُوجَّه إلى المشركين وحدهم.

١١) **خطاب الجمع بعد الواحد**، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ [يونس: ٦١]، وكقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١].

---

(١) وهو المَلَكُ المُوكَّل بجهنم.

١٢) **خطاب الجمع بعد الاثنين**، كقوله تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧] أي: متقابلة.

١٣) **خطاب العين والمراد به الغير**، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، فالخطاب للأمة في شخص النَّبيِّ ﷺ، وكقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [يونس: ٩٤]، فهو مِثْلُ ما قبله، أخرج ابن أبي حاتم[(١)] عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية، قال: لم يشكَّ ﷺ ولم يسأل[(٢)]، ومثله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥] إلى قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾، فهو خطاب المرؤوسين في الرئيس.

١٤) **خطاب العام الذي لم يُقصَد به مُخاطَبٌ مُعَيَّن**، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]؛ إذ لم يُقْصَد بذلك خطابٌ مُعيَّن، بل كُلُّ أحد، وأُخرج في صورة الخطاب لِقَصْدِ العموم. يُريد: أنَّ حالتهم تناهت في الظهور بحيث لا يختصُّ بها راءٍ دون راءٍ.

١٥) **خطاب الشخص ثمَّ العدول إلى غيره**، كقوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾، فقد خاطب بقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ الكفار، بدليل قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤]، فيكون قد أجرى الكلام أولاً على المؤمنين، ثم أجراه على الكافرين، على أحد المعنَيَين في الآية.

---

(١) هو عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي (٢٤٠-٣٢٧)، أحد حفاظ الحديث، له تصانيف، منها: «الجرح والتعديل» و«علل الحديث». انظر: «الأعلام» للزركلي (٣: ٣٢٤).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠٥٨٣).

١٦) أن يخاطب الجمادات خطاب مَنْ يعقل، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قٓ: ٣٠][1].

---

(١) التحقيق هو حَمْلُ هذا على حقيقته؛ إذ من المعلوم في اللغة وأصول الفقه: أن الأصل في الكلام حَمْلُه على الحقيقة، إلا إذا جاءت قرينة تصرفه إلى المجاز، ولا قرينة هنا تصرف الكلام عن ظاهره. وأما القول بعدم الحقيقة فيه فهو ضعيف.

قال ابن عطية في «تفسيره» (٥: ١٦٥): «واختلف الناس أيضاً في قول جهنم، هل هو حقيقة أو مجاز؟ أي: حالها حال مَن لو نطق لقال كذا وكذا، فيجري هذا مجرى: شكا إليَّ جملي طول السرى، ومجرى قول ذي الرمة [وهو في «ديوانه» ص ٢٠٠]:

تُـكلِّمني أحجارُه وملاعبُهْ

والذي يترجح في قول جهنم: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أنه حقيقة، وأنها قالت ذلك وهي غير ملأى، وهو قول أنس بن مالك، وبيّن ذلك الحديث الصحيح المتواتر قول النبي ﷺ: «يقول الله لجهنم: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ وتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، حتى يضع الجبار فيها قَدَمَه فتقول: قط قط، وينزوي بعضها إلى بعض». اهـ. والحديث في «صحيح البخاري» (٦٦٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٨٤٨)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقال الشوكاني في «فتح القدير» (٥: ٩٢): وهذا الكلام على طريقة التمثيل والتخييل ولا سؤال ولا جواب، كذا قيل، والأَوْلى أنه على طريقة التحقيق، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع. قال الواحدي في «الوسيط» (٤: ١٦٨): قال المفسرون: أراها الله تصديق قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨]، فلما امتلأت قال لها: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ وتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي: قد امتلأت، ولم يبق فيّ موضع لم يمتلئ. اهـ.

وقال الشيخ الأمين الشنقيطي في «الأضواء» (٦: ٢٥) عند تفسير سورة الفرقان: اعلم أن التحقيق أن النار تُبصِر الكفار يوم القيامة، كما صرَّح الله بذلك في قوله هنا: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان: ١٢]، ورؤيتها إياهم من مكان بعيد، تدلُّ على حِدّةِ بَصَرها كما لا يخفى، كما أن النار تتكلم كما صرح الله به في قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قٓ: ٣٠]، =

= والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة، كحديث محاجّة النار مع الجنة، وكحديث اشتكائها إلى ربها، وأنه أذِنَ لها بنَفَسَين، ونحو ذلك، ويكفي في ذلك أن الله جلّ وعلا صرَّح في هذه الآية أنها تراهم، وأن لها تغيُّظاً على الكفار، وأنها تقول: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾، واعلم أن ما يزعمه كثير من المفسرين وغيرهم من المتسبين للعلم من أن النار لا تبصر، ولا تتكلم، ولا تغتاظ، وأن ذلك كلَّه من قبيل المجاز، أو أن الذي يفعل ذلك خزنتها، كلُّه باطل ولا مُعوّل عليه؛ لمخالفته نصوص الوحي الصحيحة بلا مستند، والحق هو ما ذكرنا، وقد أجمع من يعتدُّ به من أهل العلم على أن النصوص من الكتاب والسنة لا يجوز صَرْفُها عن ظاهرها إلا لدليل يجب الرجوع إليه كما هو معلوم في محله. اهـ.

وقال أيضاً في تفسير آية (قٓ) (٧: ٤٣٠) التي بين أيدينا: واعلم أن قول النار في هذه الآية: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾، قول حقيقي يُنطِقها الله به، فزَعْمُ بعض أهل العلم أنه كقول الحوض:

امتلأ الحوضُ فقـال قَطْنـي ... مَهْلاً رُوَيداً قد ملأتَ بَطْني

وأن المراد بقولها ذلك هو ما يفهم من حالها؛ خلاف التحقيق، وقد أوضحنا ذلك بأدلته في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ [الفرقان: ١٢]، والعلم عند الله تعالى. اهـ.

ويؤيد حَمْلَ هذا على الحقيقة ما في الأحاديث من إصرارها على طلب المزيد حتى يضع الله تعالى قَدَمَه فيها، ففي حديث «الصحيحين»: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع ربُّ العزَّة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط». وفي الحديث: «يوضع الصراط فيمرُّون عليه مثل جياد الخيل والركاب وقولهم عليه: سلِّم سلِّم، ويبقى أهل النار فيطرح منهم فيها فوج، ثم يقال: ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾؟ فتقول: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾، ثم يطرح فيها فوج فيقال: ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾؟ فتقول: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾، إذا أوعبوا فيها وضع الرحمن قدمه فيها، وأزوى بعضها إلى بعض، ثم قال: قط، قالت: قط قط». رواه الترمذي في «سننه» (٢٥٥٧) وقال: هذا حديث حسن.

وروى الطبري في «تفسيره» عن ابن عباس قال: إن الله الملك تبارك وتعالى قد سبقت كلمته: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، فلما بعث الناس أُحضروا وسيق أعداء الله إلى النار زمراً، فجعلوا يقتحمون جهنم فوجاً فوجاً، لا يلقى في جهنم شيء إلا ذهب، =

١٧) **خطاب المعدوم تبعاً للموجود**، كقوله تعالى: ﴿ يَبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فإنه يشمل مَنْ كان ومَنْ سيكون.

❋ ❋ ❋

= ولا يملؤها شيء، قالت: ألستَ قد أقسمتَ لتملأني من الجنة والناس أجمعين، فوضع قَدَمَه، فقالت حين وقع قَدَمُه فيها: قط قط، فإني قد امتلأت، فليس لي مزيد. اهـ. «تفسير الطبري» (٢٢: ٣٦٠).

المقدمة السادسة

في أنواع المجازات في القرآن

في القرآن العظيم أنواع من الـمجازات والكنايات والتشبيهات لا يُدركها الإحصاء. وقد ألَّف العلماء فيها كتباً واسعة، ولم تكن إلا غَرْفةً من بحرٍ من مجازات القرآن.

المادة الأولى

أقسام المجازات في كلام العرب والقرآن

الأول: مجاز النسبة: وفيه أنواع:

١ ـ مجاز نسبة ما يتعلق بالواحد إلى الجماعة.

٢ ـ مجاز نسبة ما يتعلق بالبعض إلى الكل.

٣ ـ مجاز نسبة ما للأصل إلى الفرع.

٤ ـ مجاز نسبة ما يتعلَّق بسلف الأمة إلى خلفها.

٥ ـ مجاز نسبة ما يتعلَّق بالأم إلى رئيسها أو رؤسائها.

٦ ـ مجاز نسبة الفعل إلى السبب،أو سبب السبب، أو سبب سبب السبب، أو الزمان أو المكان.

الثاني: وَصْفُ الكلِّ بصفة البعض، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، **ووَصْفُ البعض بصفة الكلّ**، كمخاطبة أهل الكتاب من اليهود في عصر التنزيل بما فعله أسلافهم، ووَصْفُهم به.

الثالث: وَصْفُ الأعراضِ بصفة من قامت به، كقولك: إذا جدَّ الجِدّ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١] أي: فإذا عَزَمَ صاحبُ الأمر، أي: فإذا عَزَمْت. **ووَصْفُ الشيءِ بصفةِ ما يُلابسه**، مثل: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، ﴿يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، و﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، و﴿مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١]. فإنها صفات للعائش والحوادث والأهل والصاحب.

الرابع: التَّجوُّز بلفظ الفعل عن مُقاربته ومُشارفته، تقول: جاء الشتاء أو جاء الصيف؛ إذا قارَبَ مجيئه. وفي القرآن: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: فقارب انقضاء العدّة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[البقرة: ٢٣١].

الخامس: نسبة الشيء بما كان عليه، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٢] أي: الذين كانوا يتامى، إذ لا يُتْمَ بعد البلوغ. أو بما يؤول إليه، كقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]، لأنّ هذا العصير سيؤول خمراً.

السادس: نفيُ الشيء لانتفاء ثمرته وفائدته وما يترتَّب عليه، أو لانتفاء كماله، تقول: لا زَرْعَ في هذه السنة ولا ضَرْع، أي: لم يُنتج نتيجةً حسنة. وتقول: ليس هذا برجل؛ إذا كان غيرَ مستكمل لصفات الرجال الحميدة. وقال ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[1] أي: لا صلاة كاملة. وقال ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرعة، وإنما

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤)، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

الشديد الذي يَملِكُ نفسَه عند الغضب»(١)، فقد نفى الكمال في الشِّدَّة عن الأول وأثبته للثاني.

السابع: المجاز بالوصف على زَعْم الخصم، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦] أي: يا مَن يزعم أنه نُزِّلَ عليه الذكرُ إنك لمجنون.

وكقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهذا على اعتقاد اليهود بهما بأنهما مَلَكان أو زاهِدان كالملَكَين(٢).

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الأصل حَمْلُ القرآن على الحقيقة، لأنها الأصل، ما لم يترجح المجاز بشهرة أو غيرها، وبناء عليه، فلا يُحمَلُ اللفظ القرآني على التمثيل والرمز إلا بدليل أو قرينة تصرفه إلى المجاز، ولا قرينة هنا تصرف الكلام عن ظاهره.

وقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾ [البقرة: ١٠٢] هذه الآية، جاءت في سياق الحديث عن اليهود الذي بدأ من قول الله تبارك وتعالى خِطابًا للمؤمنين: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥].

ومُجمَلُ ما ذكره المفسِّرون فيها باختصار: أن اليهود اتبعوا وصدقوا ما تتقوَّله الشياطين والفجرة على مُلك سليمان، ونبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم. وما تتقوّله الشياطين على ملك سليمان: أنه لم يكن نبيّاً مرسلاً ينزل عليه الوحي من الله تعالى، وإنما كان ساحراً يستمدُّ العون من سحره، وأن سحره هذا هو الذي وطَّد له الملك، وجعله يسيطر على الجن والطير والرياح، فنسبوا بذلك الكفر لسليمان، وما كفر سليمان، ولكن هؤلاء الشياطين الفجرة هم الذين كفروا؛ إذ تقوّلوا الأقاويل وأخذوا يُعلِّمون الناس السِّحر من عندهم، ومن آثار ما أُنزل ببابل على الملكَيْن هاروت وماروت، مع أن هذين الملكين ما كانا يُعلِّمان أحداً حتى يقولا له: إنما نُعلِّمك ما يؤدي إلى الفتنة والكفر فاعرِفه واحذَرْه واجتَنِبِ العمل به. ولكن الناس لم يأخذوا بهذه النصيحة، فاستخدموا مما تعلموه منهما ما يُفرِّقون به بين المرء وزوجه. =

= لقد كفر هؤلاء الفجرة، إذ تقوّلوا هذه الأقاويل، واتخذوا من أقاويلهم وأساطيرهم ذريعة لتعليم اليهود السحر، وما هم بضارّين به أحداً إلا بإذن الله، فهو الذي يأذن بالضُّرِّ إن شاء، وإن ما يؤخذ عنهم من سِحر ليضرَّ مَن تعلّمه في دينه ودنياه، لا يفيد شيئاً، وهم أنفسهم يعلمون يقيناً أن من اتجه هذا الاتجاه لن يكون له حظ أو نصيب في نعيم الآخرة، ولبئس ما اختار لنفسه لو كان يعلم.

ومن هذا العَرْض ومن النص القرآني قبله يتبيَّن لنا أن السِّحرَ وتعلُّمَه واستخدامَه كفر، ولا يجوز تعلُّمه للإنسان العادي، فكيف بأنبياء الله تعالى. وأنه لا يقع شيء في هذا الكون إلا بإذن الله؛ فبإذن الله تفعل الأسباب فِعلَها، وتنشئ آثارها، وتحقق نتائجها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وأما هاروت وماروت، فقد اختلفت أقوال المفسِّرين فيهما، فذكروا في ذلك قصصاً كثيرة معظمها إسرائيليات لا تصح. وأما تعليمهما السحر، فإنه كان لغرض صحيح، وهو بيان حقيقة السحر للناس، وأنه من فعل الشياطين، وأنه كفر وحرام، وإنما نَزَلا لبيان اجتناب السِّحر لا لبيان فعله.

ويبدو من الآية الكريمة أنه كانت هناك قصة معروفة عن الملكَيْن هاروت وماروت، وكان اليهود أو الشياطين يدَّعون أنهما كانا يعرفان السحر ويُعلِّمانه للناس، ويزعمان أن هذا السحر أُنزِلَ عليهما لنشره بين الناس ليعملوا به، فنفى القرآن الكريم تلك الفرية، ثم بيَّن الحقيقة، وهي أن هذين الملكين كانا هناك فتنة وابتلاء واختباراً للناس؛ لحكمة غيبية أرادها الله سبحانه وتعالى، وأنهما كانا يقولان لكل من يأتي إليهما طالباً منهما أن يُعلِّماه السحر: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وأما قراءة: (الـمَلِكَيْن) ـ بكسر اللام، فهي قراءة شاذة، كما في «تفسير السمعاني» (١: ١١٦)، وليست من العشر المتواترة، وقد قال فيها القرطبي في «تفسيره» (٢: ٥٢): قرأ ابن عباس وابن أبزى والضحاك والحسن: الملِكين، بكسر اللام. اهـ.

ونسبها لهم كذلك ابن جني في «المحتسب» (١: ١٠٠)، وقد وفَّق الجصّاص بين القراءتين فقال: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ قد قرئ بنصب اللام وخفضها، فمن قرأها بنصبها جعلهما من الملائكة، ومن قرأها بخفضها جعلهما من غير الملائكة، وقد روي عن الضحاك: أنهما كانا عِلجَين من أهل بابل، والقراءتان صحيحتان غير متنافيتين، لأنه جائز أن يكون الله أنزل ملَكين في زمن هذين المِلكين لاستيلاء السحر عليهما واغترارهما وسائر الناس =

الثامن: تنزيل المُتوهَّم مَنْزلة المتحقِّق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ [يوسف: ٨١] فإنَّ هذا بحسب اعتقادهم، و﴿عَلِمۡنَا﴾ بمعنى: اعتقادنا.

= بقولهما وقبولهم منهما، فإذا كان الملكان مأمورَيْن بإبلاغهما وتعريفهما وسائر الناس معنى السحر ومخاريق السحرة وكفرها جاز أن نقول في إحدى القراءتين: «وما أُنزل على الملَكين» اللذين هما من الملائكة، بأن أُنزل عليهما ذلك، ونقول في القراءة الأخرى: وما أنزل على الملِكين ـ من الناس، لأن الملَكين كانا مأمورَيْن بإبلاغهما وتعريفهما، كما قال الله تعالى في خطاب رسوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال في موضع آخر: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، فأضاف الإنزال تارةً إلى الرسول عليه السلام، وتارة إلى المُرسَل إليهم. وإنما خصَّ المَلِكين بالذِّكر وإن كانا مأمورَيْن بتعريف الكافة، لأن العامَّة كانت تبعاً للملكين، فكان أبلغ الأشياء في تقرير معاني السحر والدلالة على بطلانه تخصيص الملِكين به ليتبعهما الناس، كما قال لموسى وهارون: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه ٤٣- ٤٤]، وقد كانا عليهما السلام رسولَيْن إلى رعاياه كما أرسلا إليه، ولكنه خصَّه بالمخاطبة، لأن ذلك أنفع في استدعائه واستدعاء رعيته إلى الإسلام، وكذلك كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، وخصَّهما بالذِّكر دون رعاياهما وإن كان رسولاً إلى كافة الناس، لما وصفناه من أن الرعية تبع للراعي، وكذلك قال عليه السلام في كتابه لكسرى: «أما بعد، فأسلِمْ تَسلَم، وإلا فعليك إثم المجوس»، وقال لقيصر: «أسلِمْ تَسلَم، وإلا فعليك إثم الأريسيِّين» يعني: أنك إذا آمنت تبعتك الرعية، وإن أبيتَ لم تستجب الرعية إلى الإسلام خوفاً منك، فهم تبع لك في الإسلام والكفر، فلذلك ـ والله أعلم ـ خصَّ الملِكين من أهل بابل بإرسال الملَكين إليهما، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

فإن قيل: فكيف يكون الملائكة مُرسَلاً إليهم ومُنزَلاً عليهم؟ قيل له: هذا جائز شائع، لأن الله تعالى قد يرسل الملائكة بعضهم إلى بعض، كما يرسلهم إلى الأنبياء، كثَّف أجسامهم وجعلهم كهيئة بني آدم لئلا ينفروا منهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾ [الأنعام: ٩]، يعني: هيئة الرجل. اهـ. «أحكام القرآن» للجصاص (١: ٦٧-٦٨).

التاسع: مجاز التعبير، وفيه أنواع:

(أ) فمن مجازات التعبير ما يأتي:

١ـ أن يُعبَّر بالماضي عن المستقبل لِتَحَقُّـق وقوعه، وقد يُعبَّر بالماضي لِتَحَقُّـق مضمون الجملة فقط دون مراعاة الزمان وإرادته، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، فكلُّ ما يأتي من مثل هذه الجُمَل المُصَدَّرة بـ«كان» لا تدلُّ على الزمان، ولكنَّها لتحقيق مضمون الجملة.

٢ـ ويعبَّر بالمضارع عن الماضي لإحضار صورته في الذهن.

٣ـ ويعبَّر بالخبر عن الأمر.

٤ـ أو بالخبر عن النهي.

٥ـ ويعبَّر بلفظ الأمر عن الخبر.

٦ـ ويعبَّر بجواب الشرط عن الأمر.

٧ـ ويعبَّر بالنهي عن أشياء ليست مرادة بالنهي، وإنما المراد لوازمها.

٨ـ ويعبّر بالمصدر عن المفعول أو الوصف وعكسه، كالعلم عن المعلوم وعكسه، والقدرة عن المقدور وعكسه، والإرادة عن المراد وعكسه، والأمل عن المأمول، والوعد أو الوعيد عن الموعود به من ثواب أو عقاب، والعهد أو العقد عن الـمُلتَزَم بهما، والبُشْرى عن الـمُبشَّر به، والنبأ عن الـمُنبَّأ عنه، والاسم عن المُسَمَّى، والقول عن المقول، واليمين عن المَحْلوف عليه، والحكم عن المحكوم به، والعَزْم عن المعزوم عليه، إلى أمثال ذلك.

٩ـ ويعبَّر بالقول عن الفعل، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤٣]

أي: فأماتهم، وقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] أي: فعلوا ما أدى إلى خراب البلاد، والحاجة إلى الأسفار البعيدة.

(ب) ومن مجاز التعبير: استعارة المعنى الذي يُسنَد لله تعالى من صفات المخاطبين وأحوالهم، فيأتي بالتعبيرات المستعملة عندهم تقريباً للأفهام، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، فهو مُسْتعارٌ مَنْ حالة مَن يتوجَّه إلى العمل مستوياً للاهتمام به، إيذاناً بما احتوَت عليه السماء من بدائع الخِلْقة وعَظائمها.

وكقوله تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] أي: سنَتجرَّد لحسابكم وجزائكم، وهو مجاز عن المبالغة في مناقشة الثَّقلَيْنِ وحسابِهم حساباً دقيقاً، وتمثيلٌ مأخوذ من أحوال الـمُخاطَبين؛ لأنَّ مَنْ تَفرَّغ لشيءٍ أتى به كاملاً على وَجْه الضبط والإتقان، أو من قول المهدِّد لصاحبه: سأفرُغُ لك، والمراد: التوفُّر على الإيقاع به.

وكقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧] فهو مأخوذٌ من حال المُخاطَبين، حيثُ يَستَنجِدُ المغلوب بمن يَنْصُره على الغالب، أو يُخلِّصُه من المُتسلِّط. والمعنى: لا أحد ينصره ويُخلِّصُه من عذاب الله، فهو كنايةٌ عن تحقُّق الوعد وإنجازه.

وقد يخاطب الناسَ سبحانه في تعريف ذاته وصفاته بمـا اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمـائهم، مثل: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومثل: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ [يونس: ٣]، والله أعلم.

(ج) ومن مجاز التعبير: المُشاكَلة، في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، والمكر: التدبير الخفي، والمراد به هنا: الإيقاع بهم جَزاءَ مكرهم وتدبيرهم ضدَّ رسول الله ﷺ.

(د) ومن مجاز التعبير: إضافة الشيء إلى الله تعالى ليتميَّز بذلك عن أمثاله ويتشرَّف، كما قال تعالى في ناقة صالح عليه السلام: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، لِـمَا امتازت به من خِلْقتِها على غير السُّنَّة الطبيعيّة، وقال في عيسى عليه السلام: (روح الله)؛ لِـمَا امتاز به في خِلْقتِه من دون أب. وفي موسى: (كليم الله)؛ لأنه كلَّمه كما يكلِّم الملائكة والله أعلم، ولم يُكلِّمه بالوحي كما يكلِّم الرسل. وفي الكعبة: (بيت الله)؛ لامتيازها بالقَصْد إليها والحجِّ لها.

(هـ) ومن مجاز التعبير: أن يأتي بالتعبيرات المستعملة عند المُخاطَبين الدارجة في عُرْفِهم، وإن لم تكن صحيحةً في نفسها، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف: ٩٠] أي: بلغ الأماكن البعيدة، وهذا على رأي الجمهور.

وكقوله تعالى: ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وكقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١]، فكلُّ ذلك إنما يجيء حسب عُرْف التخاطب لا حسب الحقيقة[1].

---

(١) إن الآية الأولى ادَّعى فيها بعض المفسِّرين ما ذكره المؤلف ـ ومنهم الزمخشري ـ وشبَّهها بالآية الثانية.

وقال الألوسي في «روح المعاني» (٤: ١٧٨) في ردِّ هذا وبيان التفسير الصحيح: شبه فيه من خلص من الشرك، ثم نكص على عقبيه بحال من ذهبت به الشياطين في المهمَه، وأضلَّته بعدما كان على الجادة المستقيمة، وليس هذا مبنياً على زعمات العرب، كما زعم من استهوته الشياطين. اهـ.

وقال البقاعي في«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٧: ١٥١): «أي: نردُّ من عُلوِّ القرب إلى المقصود إلى سفول البعد عنه رداً كردِّ الذي ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ أي: طلبت نـزوله عن درجته ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ فأنزلته عن أفق مقصده إلى حضيض معطبه، شبَّه حاله بحال من سقط من عالٍ في مهواة مظلمة، فهو في حال هويِّه في غاية الاضطراب وتحقق التلف والعمى عن الخلاص. اهـ =

العاشر: مجاز التشبيه، كقولهم لِـما نُحِتَ على صورة الإنسان: إنه إنسان، لوجود شدّة المشابهة بينهما، وإذا أردت المبالغة قلت: إنه إنسان يتكلَّم.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [طه: ٨٨]، عبَّر عمّا أخرَجَه لهم السامريّ بالعِجل لمشابهتِهِ له، وللمبالغة في دَعْوى الشبه قال: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾، فهو ترشيحٌ للتشبيه وليس حقيقياً[1]، والله أعلم[2]. وهذا من تشبيه الأجرام بالأجرام.

= وقال السعدي في «تفسيره» (١: ٢٦١): ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغيّ، ومن الصراط الـمُوصِل إلى جنات النعيم، إلى الطرق التي تُفضي بسالكها إلى العذاب الأليم، فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد، وصاحبها ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أضلَّته وتيَّهته عن طريقه ومنهجه له الموصل إلى مقصده. اهـ.

(١) ولا يمتنع أن يكون لهذا العجل المجسَّد صوت كالخوار، وإن لم يكن فيه حياة، وذلك بأن يكون مصنوعاً بطريقة تجعله بحيث إذا مرَّت به الريح أصدر هذا الصوت، والله أعلم.

(٢) ذكر الله العجل في عدة مواضع من القرآن الكريم، لكن ما ذكر فيه القصة هو موضعان في سورة الأعراف وسورة طه، قال الله تعالى في الآية ١٤٨ من سورة الأعراف: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، وقال الله تعالى في الآية ٨٧ و٨٨ من سورة طه: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ۝ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٧-٨٨].

وقصة السامري مع موسى عليه السلام، وإضلاله لقوم موسى من بعده بعبادة العجل مبسوطة في كتب التفسير، ولكن تفاصيلها من قصص بني إسرائيل، ونحن نقرأ هذه التفاصيل غير مصدِّقين لها ولا مكذِّبين، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة حيال قصص بني إسرائيل التي لم يأتِ في كتابنا تصديقُها ولا تكذيبُها، وأسوق مجملاً للقصة في القرآن، فقد جاء في القرآن الكريم =

وقد يكون من تشبيه المعاني بالأجرام، كقوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، حيث شبَّه موانع إدراكها لهذه التعاليم النَّـيِّرة، بأقفالٍ على خزائن تَمنعُ من إخراج ما فيها أو إدخال عليه.

وقد يكون تشبيه المعاني بالمعاني، كقوله تعالى: ﴿أُولَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، شبَّه تعذُّر فَهْمهم لِـمَا يسمعون، بتعذُّر فَهْم من نُودِيَ من مكان بعيد لا يسمع مثله عادة.

الحادي عشر: مجاز التمثيل، كقولك: إني أراك تُقدِّم رِجْلاً وتُؤخِّر أخرى، لـمن يتردَّد في الإحجام والإقدام.

وقد يكون التمثيلُ مُركَّباً، كقول إحدى النسوة في حديث أم زَرْع: «زوجي لحمُ جَمَلٍ غثّ، على رأس جَبَل وَعْر»(١)، تريد: عُسْرَ الوصول إلى معروفه على خِسَّتِه، فهو تمثيلٌ للأمرَيْن معاً: عُسْر الوصول والخسَّة.

الثاني عشر: مجاز التضمين، وهو أن يُضمَّن الكلمة معنى كلمة أخرى، فيعدِّيها تعديتَها، كقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ [الحجرات: ٦]، فقد ضمَّن ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ معنى: تحذَّروا، فتكون الكلمة محتملة للمَعْنَيين: التَّبيُّن والتَّحذُّر.

= ذكر العجل، وأن السامري ـ عليه لعنة الله ـ صنعه لهم من الذهب الذي جمعه منهم، وقذف فيه قبضة من التراب الذي أخذه من موضع حافر فرس جبريل عليه السلام، وقذفه في جوفه، فصار له خوار كخوار العجل الحقيقي، وقيل: إنه صار عجلاً حقيقياً من لحم ودم، لقول الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [طه: ٨٨].

وكان مصير هذا العجل الذهبي هو أن حرّقه موسى عليه السلام، وذرّه في البحر.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

وكقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ [الإسراء: ٧٣]، فقد ضمَّن ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ معنى: ليَصرِفونك، فأفادت المعنيين معاً.

وكقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، فضمَّن ﴿سَفِهَ﴾ معنى: أهلك، فأفادت المعنيين.

وكقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣]، فضمَّن ﴿يُخَالِفُونَ﴾ معنى: يخرجون، وحَمَّلها المعنيين معاً.

الثالث عشر: مجاز الملازمة، وهو التعبير باللازم عن الملزوم، أو الملزوم عن اللازم، كقوله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٨]، فإنَّ الاستخفاء مجاز عن الاستحياء، لأنَّ من استَحْيا من شيءٍ استَخْفى منه.

الرابع عشر: التجوُّز بالصُّورة عن الصفات، كقوله ﷺ: «إنَّ الله خلق آدم على صُورته»(١) أي: على صِفتِه في العلم والإرادة والكلام والإيجاد(٢)، وهي فضيلةٌ امتاز بها الإنسان عن الحيوان، وفي بعضها عن الملَك، في إيجاد الموجودات والمصنوعات امتاز بذلك امتيازاً كبيراً، فهي فضيلة تستحقُّ التنويه، وتستحقُّ هذا التعبير الدالَّ على التكريم، فإذا قلت: فلانة تشبه القمر ـ أو: على صورة القمر ـ صَحَّ ذلك، وإن لم يكن للقمر يدٌ ورجلٌ ولا صورة إنسان.

---

(١) رواه مسلم (٢٦١٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الإيجاد ليس من صفة بني آدم، وإنما يمكنُه الاكتساب، اللهم إلا أن يريد: الصناعة وتحويل الأشياء من حال إلى حال.

الخامس عشر: التجوُّز بالتصوُّرات الوهميَّة، كقوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]، وقال امرؤ القيس[(١)]:

تَطـاوَلَ ليلُـكَ بالأثمَـدِ[(٢)]

فهذا الطول وهميٌّ حُسْبانيّ مُتجوَّز فيه، ومثله في كلام العرب كثير.

السادس عشر: تشبيهُ الداخل في الباطل، بالخائض في الماء، كقوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

السابع عشر: التجوُّز بالـمَثَل الأعلى عن الوصف العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، بمعنى: له الوَصْفُ العظيمُ الشأن في العَظَمة والجلال، والإبداع والكمال.

الثامن عشر: جَعْلُ الذوات في الأعراض والصفات، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ [الطور: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: ٢٢]، شبَّه الأعراضَ والصِّفاتِ بالظَرْف الحاوي لمظروفه.

التاسع عشر: التجوُّز في التعبير بالجوارح، عن معانٍ لا تصحُّ أن تكون جارحة،

---

(١) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي (نحو ١٣٠-٨٠ق هـ)، أشهر شعراء العرب على الإطلاق. «الأعلام» للزركلي (٢: ١١-١٢).

(٢) صدر بيت عجزه:

ونام الخلِـيُّ ولم ترقد

وهو في «ديوانه» ص٨٧.

كقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وقول الشاعر:

وإذا المنيَّة أنشبت أظفارها[١]

وقوله:

إذا الشرّ أبدى ناجذَيْهِ[٢]

ويقال لمثل هذا في علم البلاغة: الاستعارة الـمَكْنية.

العشرون: التجوُّز في استعمال اللفظ لصورةِ مدلوله، كالفرس لصورته المنقوشة، والعِجل لصورته، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ [طه: ٨٨] وقوله: ﴿خُوَارٞ﴾، استعارة تخيليّـة، فهي مجرَّد خيال رشَّحت به الاستعارة، لـتمكين معنى أنَّ الصورة كانت مُتْقَنة الصُّنع، يظنُّ الناظر إليها أنها عِجْلٌ حقيقي من ذوات الخوار[٣]، والله أعلم. وذلك كما إذا رأيت صورة فرس راكضة، فتقول: هذه فرسٌ تنهب الأرض نهباً. وقال البُحْتريُّ[٤] في لوحة لأنطاكية تُمَثِّل حرب أنو شروان فيها:

يغتلي فيهمُ ارتيابيَ حتـى ... تتقراهمُ يدايَ بلمس[٥]

---

(١) نسبها القالي في «أماليه» (٢: ٢٥٥) لأبي ذؤيب وهو صدر بيت عجزه:

ألفيت كل تميمة لا تنفع

(٢) ذكره العسكري في «الصناعتين» ص٢٨٥ دون نسبة لأحد، وفيه:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحـداناه

(٣) تقدَّم التعليق على هذا المعنى قريباً.

(٤) هو أبو عبادة، الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي (٢٠٦-٢٨٤هـ)، شاعر كبير، يقال لشعره: سلاسل الذهب. «الأعلام» للزركلي (٨: ١٢١).

(٥) ذكره يوسف البديعي في «الصبح المنبي عن حيثية المتنبي» (١: ١٨٨).

الواحد والعشرون: التجوُّز في استعمـال الشيء في ضدِّه، كإطلاق البصير على الأعمى، والسليم على الملسوع. ويتوقَّف هذا النوع على السماع، ولا أظنُّه موجوداً في القرآن.

الثاني والعشرون: مجاز المجاز، وهو أن يجعل المجاز المأخوذ عن الحقيقة، بمثابة الحقيقة بالنسبة إلى مجاز آخر، فيَتَجوَّز بالمجاز الأول عن الثاني لعلاقةٍ بينهما، وهو كثير في الكلام.

الثالث والعشرون: المجاز من وجهين أو من وجوه على نمط مجاز المجاز، كأن نُشبِّه شيئاً في السرعة بالطير وبالهواء، فنذكر له خاصَّة الطير وخاصَّة الهواء معاً، ويُسمَّى مثلُ هذا استعارةً مُزدوجة، ومنها قول الشاعر[1]:

تقــومُ إذا تعهَّدهــــا المُــربِّي   على ساقِ الفضيلة مُثْمِـرات[2]

فإنك إذا نظرت إلى كلمة «تقوم» حسبتَ أنه استعار «الساق» من الإنسان، وإذا نظرت إلى كلمة «مثمرات» حسبت أنه استعاره من الشجرة.

الرابع والعشرون: الجمع بين الحقيقة والمجاز، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، لأنَّ السجود حقيقيٌّ فيمن يعقل، مجازيٌّ فيما لا يعقل، أما إن حملتَه مطلقاً على السجود المجازي، وهو الانقياد لقدرة الله، فلا يكون مثالاً لذلك.

---

(١) العراقي معروف الرصافي.

(٢) وقبل هذا البيت:

هي الأخلاقُ تنبتُ كالنباتِ   إذا سُـقيَت بـماءِ المَكرمـاتِ

وكقوله تعالى حكايةً لكلام يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣]، فقد جمع في كلمة ﴿رَبِّىٓ﴾ بين الحقيقة وهو الله، والمجاز وهو السيِّد، ففَهِمَت صاحبتُه السيِّد، وهو يعني الله سبحانه ويُورِّي بالسيِّد، على تقدير: أنَّ يوسف عليه السلام أراد بكلمة ﴿رَبِّىٓ﴾ اللهَ سبحانه ووَرَّى بالسيِّد. وعلى تقدير: أنه أراد السيِّد وحده، فلا يكون مثالاً للجمع بين الحقيقة والمجاز.

ومثال الجمع بين الحقيقة والمجاز في غير القرآن: قولهم: القلم أحد اللسانَيْن، فإنه يُراد به الأداة التي يُكتَب بها، وهذا هو المعنى الحقيقي للقلم، ويُراد به أيضاً نفس الكتابة أو الإنشاء، وهو المعنى المجازي له. والجملة تتناول المعنيين معاً.

❋ ❋ ❋

المادة الثانية

في القرآن كثير مما يأتي:

١) يُمدَحُ الفِعلُ للترغيب فيه.

٢) ويُمدَحُ الفاعل بفعله، حثاً على ذلك الفعل، وحملاً على الاقتداء بالفاعل.

٣) ويُذمُّ الفاعل بفعله، تقبيحاً لفعله.

٤) ويُعاقب الفاعل على فعله كي لا يعود لمثله.

٥) ويُلام الفاعل استصلاحاً لحاله.

٦) ويُرتَّب الخير على الفعل ترغيباً فيه.

٧) ويُرتَّب الخِذلانُ أو الشرُّ على الفعل تنفيراً منه.

٨) وقد يُرتَّب عليه تَـمنُّنٌ بخير أو بصَرْفِ شرّ كذلك.

٩) ويُؤتى بالأمثال في القرآن، فلا تَخْلو من مدح أو ذمّ أو توبيخ أو وَعْد.

فمن التوبيخ قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]، يقول سبحانه: كيف تأنفون لأنفسكم أن تُشاركوا أرقّاءكم في أرزاقكم التي منها رُتَبُـكم ومراكزُكم، ولا تأنفون لربكم أن يُشارك الأصنام في صفة الإلهيَّة، بل ترضون لربِّـكم من مشاركة عباده ما تكرهون مِثلَه لأنفسكم من مشاركة عبيدكم في أرزاقكم ومراتبكم وما يجري مجراها.

ملاحظة:

أهملت أمثلة بعض أنواع المجاز؛ اعتماداً على شيوع أمثالها في الكلام، ومحافظةً على الاختصار، وكذلك أثبتُّ بعض أمثلة من غير القرآن، إما لشيوعه في ذلك النوع، وإما لوضوحه في ذلك المثل.

* * *

المقدمة السابعة

القرآن والعلوم الكونيّـة فيه

في القرآن العظيم آياتٌ بيِّناتٌ يحَار غيرُ المؤمن بالوحي من الأجانب، يحار من شدَّة مطابقتها للتحقيقات الحديثة، سواء في علم الفلك أو في علم تكوين الأرض، ممَّا كان في عهد نزول القرآن والعصور التي بعده مجهولاً، وذلك مثل آية: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فإنها تنطبق على جميع النظريّات العلمية الحديثة، من أن الأرض والأجرام السماويَّة كلَّها كانت كتلةً واحدة من السَّدِيم، وقد عبَّر عنه القرآن بالدُّخان، فانفصل بعضُها عن بعض بنتيجة الدوران، ومن أن الحياة بدأت في المياه.

ثم تأمَّـلْ قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، فإنها تُـثبِتُ أنَّ الأجرام كلَّها مُتحرِّكة، مع أنَّ الفلكيِّين في العصور الأولى التالية لنزول القرآن، كانوا يقولون بالسَّيَّارات والثوابت، حتى التجؤوا يومئذ عند تفسير هذه الآية إلى التأويلات والاحتمالات البعيدة. وقد تقرَّر في علم الهيئة الجديد كونُ الأجرام الفلكية بأجمعها متحرِّكة.

وانظر إلى مثل قوله تعالى: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، وقد تكرَّر مثلُ ذلك في القرآن، ليفهم الإنسان أنَّ

الخلق كلَّه من حيوان ونبات وجماد مبنيٌّ على المزاوجة، ولم يكن يُعرَفُ في العصور الأولى أنَّ النبات فيه ذلك، وأنَّ الجماد ـ كالكهرباء ـ فيه القوتان؛ الإيجابيةُ والسلبيةُ وهي بمثابة الزوجيَّة، فلم يفهم العلماء مَرْمَى هذه الآيات وأمثالها حتى أظهَرَتْها التحقيقاتُ العلمية الصحيحة في العصور الحاضرة.

وأمعِنِ النظر في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، تراه صريحاً في دوران الأرض على نفسها يومياً مع سكونها الظاهر. ولم يكن يُعرَفُ ذلك في العصور القديمة. وانظر تفسير هذه الآية في سورة النمل، فقد أكملتُ البحث عنها هناك، إلى غير ذلك من الآيات التي تدهش القارئ المتعلِّمَ والأوربيَّ المستشرقَ بما فيها من الحقائق العلمية إذا كان ذا مَلَكة عربية، يَقدِرُ أن يتدبَّر عُمْق غَوْر تلك الآيات.

سمع أحد البحَّارة من الأجانب ـ وكان يُحسِن العربية ـ قولَه تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ [النور: ٤٠]، فسأل: هل كان محمدٌ يركب البحر؟ فقيل: لا، فتعجَّب وتحيّر!

وقد ألَّف العلامة الفلكي أحمد مختار باشا المصري(١) كتاباً في تطبيق الآي القرآنية على العلوم العَصْريَّة، جَمَع فيه نَحْوَ تسعين آية، أوضَحَ ما جَمَعَتْ فيه من القواعد العلميَّة وأشارت إليه بأوجَز لفظ، وأوضَح تعبير، وأدقِّ تحديد يعجز عن مثله البشر، وكانت موافقة لِـمَا اتَّفق عليه علماء العصر الحاضر وقرَّروه.

---

(١) المولود في بورصة سنة ١٨٣٩م، والمتوفى في إصطنبول سنة ١٩١٩م، وهو مؤلف وفلكي، وضابط عثماني، وكان مربي الخديوي عباس حلمي ومُعلِّمَه، والـمُفوَّضَ العثماني (السفير) في القاهرة لمدة ٢٨ سنة، رحمه الله تعالى.
وكتابه المذكور أسماه «أسرار القرآن».

وقد جرى المفسِّرون قديماً في تفسير الآيات الكونيَّة، ولا سيَّما عند تصوير السماوات والأرض وما يتعلَّق بهما من الأحوال الجويَّة والطبيعية، معتمدين على نظريات قدماء الفلاسفة في ذلك أو الإسرائيليات، ففسَّروا هذه الآيات متأثِّرين بذلك، مع أنها أشدّ انطباقاً على النظريات الحديثة دون النظريات القديمة التي ظهر سقوطُها، فإذا أمعَنتَ النظر فيها، رأيتَها عَيْنَ النظريات الحديثة تماماً، ومغايرةً للنظريات القديمة كلَّ المغايرة، وهكذا سائر آيات القرآن العظيم، لا تخالف نظريةً من النظريات الحقَّة في أمر الكون والطبيعة وأحوال الاجتماع الصحيحة، وإنما هي التي تُرشِد إليها وتُوقِف عليها.

واعلم أنَّ القرآن لم ينزل كتاباً علمياً لتقرير نظريات علميّة وحقائق فلكية ووقائع تاريخية، وإنما هو كتابُ هداية وتقرير دين، فإذا اقتضى الاستدلال على وجود الله أن يَلفِتَ العقول إلى آيات كونيّة ونواميس طبيعية، ذكر منها أو أشار إلى ما يقوم برهاناً على وجوده سبحانه أو اختصاصه بأفعال الألوهيَّة أو وَفْرة نِعَمِهِ على خَلْقه.

وإذا اقتضى السياقُ تنبيهَ العقول إلى ما جَرَى على المكذِّبين من الأمم الماضية، ذكر مواضع العبرة من قَصَصهم، واقتَصَر على ما يُناسِبُ السياق، ويُساوِقُ الموضوع.

❋ ❋ ❋

المقدمة الثامنة

القرآن وغرائز الإنسان(١)

قالت الحكماء: إنَّ الغريزة الإنسانيَّة ينشأ عنها قوتان: القوة الغضبيّة، والقوة الشهوانيّة. ولهاتين القوَّتَين مَسالكُ مُنوَّعة، فمنها الجيِّد ومنها الرديء، ومنها المحمود ومنها المذموم.

فإن كانت القوَّة الغضبيَّة في صُورتها المحمودة، حيث لم يُفسِدها صاحبها، نشأ عنها الشجاعة والإقدام وعلوُّ النفس والصبر والمثابرة على العمل، وتَفرَّع عن ذلك التسامح والوَداعة والحِلم والتواضع والصَّفْح، إلى أمثال هذه الفضائل.

---

(١) في «لسان العرب»: الغَرِيزَةُ: الطبيعةُ، والقريحةُ، والسَّجِيَّة: من خير أو شر.

وفي «المعجم الوسيط»: نقل ما تقدم في «اللسان» وأضاف: والغَرِيزَةُ (في الفلسفة): صورةٌ من صور النشاط النفسي، وطِراز من السلوك يعتمد على الفطرة والوراثة البيولوجيَّة. والجمع: غَرائز.

وفي «معجم لغة الفقهاء»: الغريزة: بفتح الغين والزاي، جمعها غرائز، الدافع للإنسان إلى عمل من غير فكر، وهي جزء من الفطرة.

وفي «الموسوعة العربية العالمية»: الغريزة: سلوك موروث أكثر من كونه مكتسبًا يمكن أن نصف الشخص الذي يميل إلى القتال دومًا بأنه ذو غريزة عدوانية، ولكن هذا الشخص لم يُولد ومعه رغبة القتال، ولو أتيحت له بيئة منزلية أو مدرسية مختلفة لما تطوّرت عنده تلك الخاصية. ويطلق العلماء مُصْطلحَي غريزة وسلوك غريزي: على النشاط الذي لا ينطوي على خبرة أو تعلم.

وإن كانت القوة الغضبيَّة في صُورتها المذمومة، لإفساد صاحبها لها، نشأ عنها الحقدُ والعداوةُ وحدَّة الخُلق والاستبداد، وتفرَّع عن ذلك الغيبةُ والقذف والشقاق، إلى أمثال هذه الرذائل.

أما القوة الشهوانيَّة، فإن كانت في صُورتها الطبيعية المحمودة، حيث لم يُفسِدها صاحبُها، نشأ عنها الحبُّ الطاهر والوفاء والرحمة والشفقة والرضا والإيثار للغير والاعتماد على النفس، إلى أمثال هذه الخصال الحميدة.

وإن كانت القوة الشهوانيَّة في صُورتها المذمومة، لإفساد صاحبها لها، نشأ عنها ضَعَةُ النفس والشحُّ والشَّرَهُ والعُجْبُ والحسد والخيانة والفحشاء، وما إلى ذلك من الخصائل السيئة الذميمة.

وهناك القوة العاقلة الحاكمة في ذلك الوَضْع كلِّه، فإذا ثُقِّفَتْ تثقيفاً حسناً صحيحاً، أخذتْ بناصية القوَّتين وصَرَّفَتْهما التصريف الحسن. وإذا أُهملت القوةُ العاقلةُ أو وُجِّهت توجيهاً سيِّئاً فَسَدَت وصَرَّفَت القوَّتين تصريفاً سيِّئاً، وظاهرٌ من عالم الطبيعة ونظامها أنَّ كلَّ شيء في هذا الكون من مخلوقات الله، صائرٌ إلى كماله إذا سار في السبيل الـمُعَدَّة له سَيْراً صحيحاً، بحَسَب الأنظمة الصحيحة، ولم يحرِّفه عن وَضْعِه المحرِّفون.

وإنَّ القرآن العظيم قد وَضَع لهذه الغرائز في الإنسان نظاماً صحيحاً يأخذ بها في سبيل الجودة ويُبعِدُها عن طريق التردِّي، ويكفل الهيمنةَ عليها وإعدادَها للصلاح في الحياتين: الدنيويّة والأخرويّة، وليس في الإنسان من نقص إلا والقرآنُ العظيم كفيلٌ بإصلاحه، فهو طبيب الإنسانيَّة الروحيَّة والبدنيَّة، وأحذقُ الأطباء مَن يتبيَّن الداءَ ويُعطي ناجعَ الدواء.

وقد ظهر أثره جلياً في الجيل الأول من صدر الإسلام، حين كان القرآن هو المنار الذي يُهتدى به، فهداهم إلى الصِّراط المستقيم، يَزِنون به ميولَهم ونزعاتِهم وأعمالَهم وأحوالَهم، فكانوا خيرَ أمة أُخرِجَت للناس، جلَّت حكمةُ الله في هذا الدين الحكيم، فقد طلب إلى الناس أن يعبدوه ويتَّقُوه، وجَعَل صورةَ عبادته وتَقْواه وسيلةً لتجميل ظواهرهم، وتهذيب طبائعهم، وتكوين جيِّد عاداتهم، وإصلاح سرائرهم.

فهذا هو الدِّين الذي يصونُ النفوس في ميولها عن الشَّطَط، ويَصرِفُها عن إرادتها السيِّئة، ويقهر السرائر، ويَزْجر الضمائر، وهو الرقيب على النفوس في خَلَواتها، والناصحُ لها في مُلمَّاتها، وما يطرأ عليها من أوضار، ولذلك كان عالمياً لا غِنى عنه للبشر.

وقد دلَّت طريقةُ القرآن على أن الله سبحانه أثبَتَ في الفطرة التي فطر الناس عليها حُسْنَ العدل، والإنصاف، والصدق، والبِرّ، والإحسان، والوفاء بالعهد، والنصيحة للخلق، ورحمة المسكين، ونَصْر المظلوم، ومُواساة أهل الحاجة والفاقة، وأداء الأمانات، ومقابلة الإحسان بالإحسان، والإساءة بالعفو والصفح، والصبر في مواطن الصبر، والبذل في مواطن البذل، والانتقام في مواضع حُسن الانتقام، والحِلْم في مواضع الحِلم، والسكينة والوقار، والرأفة والرفق، والتُّؤَدة، وحُسن الأخلاق، وجميل المعاشرة مع الأقارب والأباعد، وسَتْر العورات، وإقالة العثرات، والإيثار عند الحاجات، وإغاثة اللهفات، وتفريج الكُرُبات، والتعاون على أنواع الخير والمبرَّات، والشجاعة، والسماحة، والبصيرة، والثبات والعزيمة والقوة في الحق واللِّين لأهله، والشدَّة على أهل الباطل والغِلظة عليهم، والإصلاح بين الناس، والسَّعي في إصلاح ذات البَيْن، وتعظيم مَنْ يستحقُّ التعظيم، وإهانة مَنْ يستحقُّ الإهانة، وتنزيل الناس منازلهم، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وإرشاد ضالِّهم، وتعليم جاهلهم.

كما أثبَتَ سبحانه في الفطرة عِلمَها بقُبْح أضداد ذلك، فهذه كلُّها أمور فطريَّة طُبع عليها الإنسان انطِباعَ البذرة على نباتها وثمرتها، فلا بدَّ من نضوجها فيه إذا تُعهِّد بالتربية الصحيحة والتثقيف السليم السديد، وحُفِظَ من لقاح الفاسدين، وجُنِّب سَبَخَ البيئة الرديئـة، لأنَّ كل ذلك يُفسِدُ الطبيعة الإنسانية المفطورة على ما ذكرنا من حُسْن الغرائز وجَوْدة المواهب(١).

ثم بعث الله رسوله بهذا القرآن للأمر بما أثبَتَ في الفطرة حُسْنَه، وللنهي عما أثبَتَ فيها قُبحَه، فطابقت الشريعةُ المنَزَّلة الفطرةَ المكمَّلة، مطابقةَ التفصيل للإجمال، لذلك قال تعالى في شأن تعاليم هذا القرآن: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢) [الروم: ٣٠]، والاستدلال الذي تركَّب مقدِّماته من هذه الغرائز هو أحد نَـوْعَي المنطق الـمُسمَّى

---

(١) ما تقدم ذكره هو من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وليست الغريزة الإنسانية هي الفطرة، بل هي جزء منها. ومن المعاني التي توافق فيها كلمة الفطرة كلمة الغريزة: الجبلة التي خلق الناس عليها. ومن المعاني التي تختلف فيها عن معنى الغريزة: السنة، والإسلام، والملة، والدين، والخلقة: التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه، والبداءة والاختراع والإبداع والإيجاد.

(٢) معنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص٤٠٧: «الزموا ـ أيها الموضوعون في الحياة الدنيا موضع الابتلاء ـ دين الإسلام والتوحيد، قابلين له، مُنْساقين إليه، لا تبديلَ لدينه الذي خلق الله الناس عليه، إذا خُلُّوا وأنفسَهم، دون أن تعترضهم الأهواء والوساوس، فلا تُبدِّلوا التوحيدَ بالشِّرك، ذلك الدِّين المأمور بإقامة الوجه له: هو الدِّين المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ولا انحراف عن الحقِّ بحال، وهو القيمة الحقيقيَّة العظيمة الجليلة بين كلِّ المذاهب والأديان والاحتمالات الفكريَّة المخالفة له، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة؛ لأنهم صرفوا أذهانهم عن التبصُّر فيها، ومحاولة إدراكها؛ إذ ربطوا أنفسهم بحبِّ العاجلة، وترك الآخرة، والتولِّي عنها».

بالمنطق الوجداني(١)، ويقابله المنطق البرهاني(٢).

* * *

(١) الوِجْدَانُ: (في الفلسفة): يطلق أوّلاً: على كلِّ إحساس أوّليّ باللّذّة أو الألم. وثانياً: على ضرب من الحالات النفسيّة من حيث تأثُّرها باللّـذّة أو الألم في مقابل حالات أخرى تـمتاز بالإدراك والمعرفة كما في «المعجم الوسيط». وينظر الكلام عن المنطق الوجداني في كتاب: «التصوير الفني في القرآن» للأستاذ سيد قطب ص١٨٦-١٨٨، حيث تحدث عن المنطق الوجداني في مواجهة المشركين في قضية التوحيد، وقضية البعث والنشور.

(٢) البُرْهان: الحُجّة الفاصلة البيّنة، يقال: بَرْهَن يُبَرْهِنُ بَرْهَنَةً، إذا جاء بحُجّةٍ قاطعة لِدفع الخَصم، فهو مُبَرْهِنٌ؛ فيُبَرْهن بمعنى يُبيِّن، وجَمْعُ البرهان: براهينُ. وقد بَرْهَنَ عليه: أقام الحجّة. قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] ومن الألفاظ القرآنية التي تفيد معنى الدليل وإقامة الحجة في الجدال والنقاش، هذه الألفاظ: (البرهان) و(البيان) و(الحجة) و(الدليل) و(السلطان)، وهذه الألفاظ الخمسة تفيد معنى مشتركًا بينها، وهو إقامة الدليل والحجة، قصد إظهار الحق والحقيقة؛ وقد فرق بعض أهل العلم بين هذه الألفاظ، فقالوا: اسم (الدليل) يقع على كل ما يُعرَف به المدلول، واعتبروا أن (الدليل) ما كان مركبًا من الظنيّات، و(البرهان) ما كان مركبًا من القطعيات، و(الحجّة) مستعملة في جميع ما ذُكر، وكل (سلطان) في القرآن فهو (حجة).

المقدِّمة التاسعة

أثر القرآن في النفوس السليمة من الانحراف

امتزج روح القرآن بأرواح المؤمنين الأُوَل، عصر الصحابة والتابعين، عندما تمسَّكوا به تمسُّكاً صحيحاً، حتى غَلَب على نفوسهم، فاستأصل منها حُبَّ الدنيا، وأبقى فيها العمل العظيم لنشر دعوة هذا الدِّين، حتى كانت فتوحاتُهم أعجوبةَ التاريخ، يقف أمامها العقلُ خاشعاً للعظمة والجلال، حائراً في تعليلها للغموض والخفاء، ولكنه روح القرآن العظيم الذي انتزع من تلك الأرواح الطمع والحسد والغش والكذب وسائر الرذائل، وأودع فيها الإخلاص وفناء الذات في سُبُل المصلحة العامة، والتآخي والتآلف وسائر الكمالات النفسيَّة، وأنشأ من أصحاب هذه النفوس قوماً هم أعجوبةُ التاريخ، وخُلاصةُ البشر، وغايةُ ما يبلغه السُّموُّ الإنساني، ومَثَلُه الأعلى في البسالة، وعلوِّ النفس، وصفاء الطبع، ورقَّة الجانب، وكمال اليقين، ورَجَاحة العقل، وطهارة الخلق، وعِظَم الأمانة، والوفاء بالعهد، وإقامة العدل، والخضوع للحقِّ، والعطف على الضعيف، ونُصْرة المظلوم من الظالم والأخذ على يديه، إلى غير ذلك من أمهات الفضائل وما تَتَحلَّى به النفوسُ من جميل الصفات وحميد الخصال، فاستَنْطِق التاريخَ يُعلِمْكَ، وما يُنبِّئْك مثلُ خبير.

وإنَّ هذا القرآن بين ظهرانَيْنا ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، يفعلُ هذا الفعل بكلِّ قوم تمسَّكوا به تمسُّكاً صحيحاً،

وعملوا به كما عمل أولئك الأوائل، ويجعل منهم قوماً في غاية الكمال الإنساني، ومَثَلاً أعلى في الأعمال والأخلاق؛ يجعل المتمسِّك به تمسُّكاً صحيحاً ذا عقل راجح، وشعور حيّ، وعاطفة نبيلة، وخُلُق رفيع، وروح عالية، وهمّة وثّابة، وكمالٍ ما بعده مِن كمال، يُنمِّي الفطرة الإنسانيّة، ويُقوِّم غرائزَها، ويبعث مَلَكاتِها إلى ما خُلِقَت له.

فهو ضالَّة بني البشر المنشودة، أنزله العليم الحكيم للعالَـم أجمعين، ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، مفتاح للمنافع الدينيَّة والدنيويَّة، والمصالح الروحيَّة والبدنيَّة، مُصَدِّق لِـمَا بين يديه من الكتب السماوية، باقٍ على وَجْه كلِّ زمان ومكان، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢]، فيا حَسْرةً على العباد، إنَّها لا تعمى الأبصار ولكنْ تعمى القلوب التي في الصدور.

على نَفْسِه فَلْيَبْكِ مَنْ ضاعَ عُمْرُهُ ... وليسَ لهُ فيه نَصِيبٌ ولا سَهْمُ[١]

* * *

(١) نسبه في «خزانة الأدب» (٢: ٢١٦) للشيخ جمال الدين عبد الله السوسي، ونسبه البتلوني في «نفح الأزهار» ص٩٢ للقارص.

المقدمة العاشرة

القرآن والأديان السماوية الصحيحة وأمهات أصولها الثابتة

نواة الأديان السماوية الصحيحة تتلخَّص بتقرير وحدانيَّته تعالى، وإثباتها لدى العقول، بما أبدعه الله في هذا الكون من الأعمال التي تجعله سبحانه ظاهراً جليّاً بصفاته العلية، مُختَصّاً بالألوهية والربوبيَّة، وبالدعوة إليها.

ثمَّ بتقرير اليوم الآخر والحياة الثانية وإثباتها، وتدليل القدرة عليها، بما خلق الله من العجائب والعظائم التي منها إيجادُ الإنسان وخلقتُه الأولى، وأنَّ الثانية أهون، وبالدعوة إلى الإيمان بتلك الحياة، وأنها إما جنَّة يتأبَّد نعيمُها، وإما نار يطول شقاؤها.

ثم بالدعوة إلى مكارم الأخلاق، واجتناب مَسَاويها؛ ليعيش الناس أمَّةً واحدة، يأمنُ بعضُهم بعضاً، ويَسْلَم البعض من شرِّ البعض، وتكون حياتهم الأولى ملؤها السعادة والرفاه.

أما القرآن العظيم فقد اشتمل على هذه الأصول كلِّها بأوضح صورة وأجْلى بيان، وزاد عليها باشتماله على أصول الأحكام الكليَّة الـمَبْنيَّة على دَرْء المفاسد وحِفظِ المصالح، الموافقة للمنفعة العامة المقبولة لدى الأذواق السليمة في كل زمان ومكان.

ومنهجه في إثبات وتحقيق ما يدعو إليه من الأمور: البرهان الـمنطقي العقلي والوجداني، والاستدلال بآثار الإبداع في هذا الكون على وحدانيّة الله، وعلى أنَّ مقرَّرات

ومندرجات هذا القرآن العظيم الذي أنزله هذا المُبدِع الحكيم كلُّها حِكَمٌ ومَصالحُ تتمشَّى مع خِلْقةِ الإنسان ومصالحه في الدارَيْن، وتُلائمُ فطرتَه التي خلقه الله عليها، وتساعدُه على الكمال الذي خُلِقَ له ودُعي إليه.

ومنهجه في الترغيب بالتمسُّك بتلك المقرَّرات: وَصْفُ الجنة وما أعدَّ الله فيها للمؤمنين من نعيمه ورضوانه. وفي التحذير من الإعراض عنها: وَصْفُ النار وما أعدَّه الله فيها للكافرين من شقاء وبلاء، والتذكير بأحوال الأمم السالفة ومصيرها عندما عارضت دعوة الأنبياء وعاكَسَتْها وضَلَّت عن سَواء السبيل.

وهو يُحرِّر الأسرار المحيطة بنا، ويُوضِّح المراد منا، وما نستقبله في الحياة الأخرى، ولا اعتماد إلا عليه في ذلك، لا على بضاعة العلم، لأنها بضاعة مُزْجاة من الصحيح والخطأ، لا تُوضِّح لنا سوى عددٍ يسير من الأسرار الظاهرة التي تمكَّنت العقولُ بعد جهد من الوصول إليها، وقد يَطرُقُها الزَّيفُ كثيراً.

أما عن أسرار الآخرة، فلا تَقدِرُ أن تَتَوضَّحَ شيئاً منها إلا بهذا القرآن الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]، فلا طريقَ لتوضيح الحقِّ من الباطل إلا بهذا القرآن، ولا سيَّما في الحياة الثانية للإنسان.

على نفسِه فَلْيَبْكِ مَنْ ضاع عُمْرُهُ وليسَ له فيه نصيبٌ ولا سَهْمُ(١)

* * *

(١) سلف قريباً ص٧١٢.

المقدمة الحادية عشرة
في كيفيَّة نزول القرآن وترتيبه وقراءته بلهجات العرب وتجويده

لم ينزل القرآن جملةً واحدةً كما نزلت التوراة، وإنما نزل منجَّماً في نيِّف وعشرين سنة، حسب الوقائع والمناسبات، مراعاةً لقابلية النفوس في تلقِّي أحكامه، فلو أنَّ الشارع ألزمها القيام بكلِّ تلك الأحكام دفعةً واحدة، لكان ذلك ثقيلاً عليها، وقد يكون فيه ردُّ فعل لا تُحمَدُ عُقْباه، إذ من الصعب على المرء أن يَتخلَّى عن جميع مُعتَقَداته وتقاليده مرَّةً واحدة، ويستبدلها بأساليب وعقائد جديدة، وهذه الشريعة الدائمة كثيرة الأحكام، لا تُقاسُ ببقية الشرائع المؤقتة، إذ قد أودَعَ فيها سبحانه كلَّ ما يحتاجه البشر إلى نهاية العالم، وجعلها خاتمةَ الشرائع، فاقتَضَت حكمتُه ورحمتُه فيها مراعاةَ التدرُّج في نزولها.

ويُوضِّح هذا ما أخرجه البخاريُّ[١] عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنما أُنزِلَ أولَ ما نَـزَل من القرآن سورُ المفصَّل، فيها ذِكرُ الجنَّة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نَـزَل الحلال والحرام، ولو نزل أولَ شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا نَدَعُ الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا نَدَعُ الزنى أبداً».

فنزل القرآن مُنجَّماً في نيِّف وعشرين سنة، وفي ذلك حكمة بالغة ورأفة ورحمة منه تعالى.

---

(١) في «صحيحه» (٤٩٩٣).

وكان ﷺ يَعرِضُ على جبريل كلَّ سنة في شهر رمضان ما كان يجتمع عنده من القرآن، وعَرَضَه عليه بعد تمامه في السنة التي تُوفي فيها مرتين، هكذا ثبت عنه ﷺ في «الصحيح»(١).

فالقرآن الذي بين أيدينا ثابتٌ متواتر، وعلى صُورته المكتوبة عن رسول الله عن جبريل عن الله عزَّ وجلّ، فلا شيءَ ثابتٌ ثبوتَه، ولا مُتحقّق تحقُّقه، فَضْلاً ونعمةً من الله.

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم، قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، إذ شَخَص ببَصَره ثم صوَّبه، ثم قال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية في هذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] إلى آخرها»(٢). وعنه ﷺ: «أنَّ جبريل أمره أن يضع الآية: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] بين آيتَي الربا والدَّيْن»(٣). وهذا يدلُّ على أنه ﷺ كان يضع ترتيبَ الآيات بحسب أمر جبريل عليه السلام.

ويؤيِّده ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة ـ يعني: آيات ـ دَعَا بعضَ من يكتب، فقال: «ضَعُوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا»(٤)، يُشخِّص لهم مكانه في القرآن والسورة.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٦٢٤)، ومسلم (٢٤٥٠)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه الترمذي (٨٢٩) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢٩٩٢)، عن السائب بن خلاد رضي الله عنه.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣: ٣٧٥).

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ٢٨٠.

وعن عثمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورةُ ذات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دَعَا بعضَ مَن يكتب فيقول: «ضَعُوا هذه الآيات في السورة التي يُذكَرُ فيها كذا وكذا»[1]، أي: يُعيِّن لهم مكانها.

وقد ثبت عنه ﷺ أنه قرأ سوراً عديدة، كسورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والأعراف، و﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾، والروم، و﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾، و﴿قٓ﴾، و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، و﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾، والجمعة، والمنافقون، والصف. أي: بترتيبها الحالي.

وهذا يُؤيِّد أنّ القرآن العظيم مرتَّب بحسب ما نزل عن الله سبحانه، وبحسب ما هو في الواقع ونفس الأمر، لا تغيُّر في مواقع سُوره ولا تبديل، بل هو كما في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وهذا هو الرأيُ الصحيح.

وقول بعضهم: إنَّ ترتيب السُّور اختياريٌّ لا توقيفيّ، قولٌ ضعيف. والله أعلم.

وكان الحَفَظَـةُ كثيـرين على عهد رسول الله ﷺ، حَسْبَمـا يسمعونه منه، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «والله لقد أخذتُ من فم رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة»[2]، وعن زيد بن ثابت قال: «كنَّا عند النبيِّ ﷺ نؤلِّف القرآن من الرقاع»[3]،

---

(١) رواه أحمد (٣٩٩)، وأبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦) وقال: حسن صحيح.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٠٠)، ومسلم (٢٤٦٢).

(٣) رواه الترمذي (٣٩٥٤) وقال: حسن غريب، وأحمد (٢١٦٠٧) ـ وقال مخرجوه: إسناده حسن ـ والحاكم في «المستدرك» (٢: ٦٦٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبيِّ ﷺ إلى مَـوْضعها، وترتيب السور كذلك حَسْبَما عَلِمَ ﷺ من جبريل عن الله سبحانه وتعالى.

فكلُّ ما ذكر يدلُّ على أن ترتيب الآيات والسور، حتى الأوقاف، توقيفيٌّ مأخوذٌ عن الرسول ﷺ عن جبريل عن الله جلَّ وعلا، لا خَلَلَ فيه ولا تغيير، وإنما لم يأمر النبيُّ ﷺ في حياته بجَمْع الصُّحُف في مصحف واحد؛ لاحتمال المزيد في كل سورةٍ ما دام حياً، كما قال العلماء. وهو ﷺ واثقٌ من أنَّ ما عند الصحابة رضي الله عنهم من حفظٍ سديد، كفيلٌ بحفظ القرآن.

وقد جاء عنه ﷺ: «خُذوا القرآن عن أربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حُذيفة، ومعاذ بن جبل، وأُبي بن كعب»(١).

وعن قتادة قال: سألتُ أنساً رضي الله عنه: مَنْ جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ - أي: مَنْ أكمله حفظاً -؟ فقال: أربعة كلُّهم من الأنصار: أُبيُّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد(٢).

أقول: وهذا رأيُ أنس؛ لأنَّ الحفاظ كثيـرون، ولهذا اختلفت الآراء في هذا الإحصاء عن الصحابة رضي الله عنهم.

وعن مسروق قال: ذكرَ عبدُ الله بنُ عمرو عبدَ الله بنَ مسعود، فقال: لا أزال أحبُّه، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبيّ بن كعب»(٣).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٠٨)، ومسلم (٢٤٦٤)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨١٠)، ومسلم (٢٤٦٥).
(٣) سلف تخريجه قريباً.

وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا نزلت ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، علموا أنَّ السورة الأولى قد انتهت، وأن هذا بَدْءُ سورة أخرى. وكانت تنزل الآية أو الآيات فيحفظها النبيُّ ﷺ عن ظهر قلب، ثم يتلوها ساعةَ نـزولها على المحيطين به، ثم يأمر عشراتٍ من القرّاء بتدوينها.

أما كيفيَّـة التلفُّظ بألفاظه وقراءته، فقد كانت الصحابة رضي الله عنهم تأخذ ذلك عن النبيِّ ﷺ، مع ما لهم من الذَّوق العربي في كيفيَّة أداء الألفاظ، ثم تناقل ذلك عنهم التابعون حتى كُتبت العلوم في العصر العباسي، فجُعِلَ ذلك علمـاً سُمِّي بعلم التجويد، وهو الوقف في مواضع الوقف الصحيح، وإعطاء الحروف حقَّها في النُّطق دون إسراف ولا تعسُّف، ولا إفراط ولا تكلُّف، ولا ترجيع ولا تمطيط.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يهتمُّون كثيراً بتعليم القرآن، ومنهم أبو الدرداء في الشام، حين كان قاضياً بها في خلافة عمر، فقد كان يقسم القرّاء عشرة عشرة، يجعل على كلِّ عشرة رئيساً، فإذا انفتل من صلاةِ الغَدَاة قرأ جزءاً من القرآن، وهؤلاء الرؤساء مُحْدِقونَ به يسمعون ألفاظه، فإذا فرغ من قراءته جلس كلُّ رجلٍ منهم في مَوْضعه، وأقرأ العَشَرة الذين عُهِدَ بهم إليه[١]. وهو الذي سَنَّ الحلقات يُقرَأ فيها في المسجد.

وما كان من حاجةٍ لكتابة القرآن في عهد رسول الله ﷺ، لأنَّ كلَّ مَنْ يحفظ شيئاً أو يقرأ منه شيئاً في مخطوط له يرجع إلى رسول الله ﷺ عند النسيان أو الاختلاف في القراءة. وقد حَدَث من ذلك كثير، كما بيَّنته الآثار[٢].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (١ : ٣٢٨).

(٢) منها: ما رواه البخاري (٥٠٤١)، ومسلم (٨١٨): أن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان، فقرأ فيها حروفاً لم يكن نبي الله أقرأنيها، قال: فأردت أن =

أضِفْ إلى هذا أنَّ تركَ الكتابة للقرآن تجعل القلوب عامرةً مستيقظةً واعيةً حريصةً في ضَبْطِ وحفظِ هذا القرآن كلِّه أو بعضه، وهي غايةٌ جليلةٌ وثمرةٌ مطلوبةٌ في إصلاح النفوس وقَلْب كيانها، عمَّا كانت عليه إلى ما آلت إليه، بل ربما كان من الحكمة البالغة والنظرة العالية أنْ لم يكتب رسول الله ﷺ لنفسه نُسخةً من القرآن ويحتفظ بها فتكون مرجعاً بعده، كي لا يتقوَّل المتقوِّلون من أعداء الإسلام، ويكون لديهم بابُ شبهة للطعن والكلام، كيف وهم رغماً عن ذلك قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

والخلاصة: أنَّ آيات القرآن تمَّ ترتيبها وترتيب السُّور في حياته ﷺ، وكان من الصحابة مَنْ يحفظ القرآن كلَّه، ومنهم من يحفظ بعضَه، وكلُّهم يُتقِنُ حفظه، وكانت آياته وسُوره مكتوبة، إلا أنها لم تُجمع في مصحف واحد في حياته، ولكن تجد عند كلِّ شخص قسماً منها، قد جمعها في جزء له يقرؤها، وذلك فوق ما هي محفوظة في صدره إذا كان كاتباً أو حِفظها في صدره فقط إن لم يكن كاتباً.

وعندما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وتفرَّق الحَفَظة في البلدان، وقُتِلَ منهم من قُتل في المُحارَبات، ومات مَن مات، رأى عمر رضي الله عنه أن يجمعَ القرآن في صُحُف كما يجمع الكتاب في أجزاء متعدِّدة، تسهيلاً لقراءته، وحفظاً له بهذه الكتابة،

= أساوره وأنا في الصلاة، فلما فرغ، قلت: من أقرأك هذه القراءة؟ قال: رسول الله ﷺ، قلت: كذبت، والله ما هكذا أقرأك رسول الله ﷺ، فأخذت بيده أقوده، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إنك أقرأتني سورة الفرقان، وإني سمعت هذا يقرأ فيها حروفاً لم تكن أقرأتنيها، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ يا هشام» فقرأ كما كان قرأ، فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أُنزلت»، ثم قال: «اقرأ يا عمر» فقرأت، فقال: «هكذا أنزلت»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف».

والله أعلم، فأشار على أبي بكر في ذلك ففعل، وبقيت الصُّحُف عند أبي بكر رضي الله عنه في خلافته، وبقيت بعده عند عمر رضي الله عنه، وبعده عند حفصة رضي الله عنها[١].

إنَّ أبا بكر رضي الله عنه لم يجمع الناسَ على اللهجة التي كُتِبَ بها هذه الصُّحُف، وهي لهجة قريش التي نزل بها القرآن، فظلُّوا يقرؤون بلهجات مختلفة عدَدَ لهجات القبائل كما أرخَصَهم بذلك رسولُ الله ﷺ بأمر من الله عزّ وجلّ، إذ كان يَصعُب على تلك القبائل العربية أن تُبدِّل لهجاتها المنطبعة عليها في النطق، وكذا كان الأمر في زمن أبي بكر وعمر وشطراً من زمن عثمان رضي الله عنه، وأصبح العرب غيرهم بالأمس، حيث اقتربت لهجاتهم بتأثير الاختلاط بالأمم والتحضُّر والتفرُّق في المدن، لأنّ ذلك يؤدِّي إلى تَقَارب وتوحيد لغة التخاطب. ولغةُ قريش هي أَوْلى اللغات في ذلك، فأخذوا بها، وأصبحت متعارفة من المملكة الإسلامية. أضِفْ إلى هذا أن بقاء اللهجات في القرآن، عَصْرَ توسُّع المملكة العربيَّة وتَعَرُّب الأمم التي دخلت في حَوْزتها، يُخْشى منه أن يُؤدِّي إلى ما لا تُحمَدُ عُقْباه؛ إذ يظنُّ كلُّ مَنْ وَصَلَتْه لهجةٌ من تلك اللهجات، أنَّ القراءة بها أمرٌ واجبٌ لا محيصَ عنه، بل هي لهجةُ القرآن ليس غير، وأنَّ مَن خالفها يكون مخطئاً.

وقد وقع هذا بالفعل زمن عثمان رضي الله عنه، فأدَّى إلى الارتباك بين القُرَّاء، وارتبك بذلك بعضُ أصول كتابة القرآن الإملائيَّة لاختلاف الإملاء بتلك اللهجات، في الكلمات التي يختلف إملاؤها ولا يختلف معناها[٢]، وهو قليل.

---

(١) إشارة إلى الحديث الطويل الذي رواه البخاري (٤٦٧٩، ٤٩٨٦) في قصّة جمع القرآن.

(٢) وربما كان في بعض تلك النسخ شيء قليل من الخلافات اللفظية فوق الإملاء، فقد قيل: إنه كان في بعضها: (فامضوا إلى ذكر الله)، وفي بعضها: (فامشوا إلى ذكر الله) بدل ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، وفي بعضها: (تبَّتْ يدا أبي لهب وقد تبّ)، بزيادة «قد»، وفي بعضها: (كالصُّوف =

وقد قال الشاطبيُّ(١) في كتاب «الاعتصام»(٢): إنَّهم لـم يختلفوا إلا في القراءات حَسْبَما نقله العلماء المُعْتَنون بهذا الشأن.

وكانت الصُّحُف التي كُتبت في زمن أبي بكر رضي الله عنه وبقيت عند حفصة رضي الله عنها قد كُتبت بإملاء لهجة قريش، وهي اللغة التي نَزَل بها القرآن، فأرسل عثمان رضي الله عنه إلى حَفْصة رضي الله عنها: أنْ أرسِلي إليَّ بالصُّحف ننسخُها في المصاحف، ثم نَرُدُّها عليكِ(٣)، وأرسل إلى زيد بن ثابت وإلى عبد الله بن الزبير وسعيد

= المنقوش)، بدل: ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾[القارعة: ٥]، وفي بعضها: (فلتكن منكم فئة يدعون إلى الخير)، بدل: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وفي بعضها: (تكن فتنة في الأرض وفساد عريض) بدل: ﴿وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وفي بعضها: (إلا أوثاناً) بدل: ﴿إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ [النساء: ١١٧]. وذلك من جرّاء ما كتب من النسخ المعدودة بالملايين، وهي تنسخ بالأيدي، وبطريقة فردية.

ومثل هذا معروض لمثل هذه الخلافات البسيطة. ويجوز أن يكون هذا من الراوي كما كان في بضع كلمات جاءت تفسيراً من النبيِّ ﷺ، فظنَّه الراوي قرآناً، مثل قراءة أُبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [هود: ١١٦]، فهو يقرأ: (أولو بقية وأحلام ينهون...)، وكقراءة: (فطلقوهن لقُبُل عدتهنّ) فإنها جاءت تفسيراً منه ﷺ. وكلُّ قراءة آحاد، وما في أيدينا قراءة تواتر، ولا عبرة للآحاد في جَنْب التواتر، لأنَّ التواتر دلالته قطعيَّة بخلاف الآحاد، وقراءةُ الآحاد في القرآن لا عبرة بها ولا يصح أن تُقرأ في الصلاة. (المؤلف).

(١) هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي (....-٧٩٠هـ) أصولي حافظ من أئمة المالكية، له: «الموافقات في أصول الفقه»، و«المجالس». «الأعلام» (١: ٧٥).

(٢) «الاعتصام» (٣: ١٥) دار ابن الجوزي.

(٣) رواه البخاري (٤٩٨٧)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٣٢)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

ابن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وكانوا أقدَرَ الكُتَّاب إذ ذاك، فأمرهم أن ينسخوا الصُّحُف في مصحف واحد، ويكتبوا عدَّة من المصاحف، ثم قال للرهط القرشيِّين الثلاثة: ما اختلفتُم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش ـ يريد: الإملاء على حسب لهجة قريش ـ فإنه نزل بلسانهم ففعلوا[١].

وبعث عثمان رضي الله عنه في كلِّ أفق بمصحف من تلك المصاحف التي نَسَخَها هؤلاء الرهط من الكُتّاب واحتفظ بواحدة. وأمر بما سِوَى ذلك من مخطوطات القرآن أن تُحرَق[٢]؛ لاختلاف إملائها في الجملة.

قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: فرأيتُ أصحاب النبيِّ ﷺ يقولون: أحسنَ ـ والله ـ عثمانُ رضي الله عنه.

وقد وقع للصحابة رضي الله عنهم رَسْمُ بعض الكلمات مخالفاً لقواعد الإملاء الصحيحة، كزيادة الياء في ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وزيادة الألف في

(١) اختلفوا في كتابة كلمة (تابوت) فقال زيد ـ ولم يكن قرشياً ـ تكتب بالهاء، وقال القرشيُّون الذين معه: إنما تكتب بالتاء، ثم رجعوا إلى عثمان رضي الله عنه فقال: اكتبوها بلغة قريش.

(٢) ينكر ابن حزم الظاهري في الجزء الثاني من كتاب «المِلَل والنحل»: ما يُروى أنَّ عثمان رضي الله عنه أمر بإحراق المصاحف التي بأيدي الناس بعدما بعث بمصاحفه إلى الآفاق. ويقول ما محصّله: لم يكن في الأمر داعٍ لذلك، لأنَّ الاختلاف فيها كان طفيفاً لا تخلو منه نُسَخٌ في أيِّ كتاب كان، ولكن عثمان رضي الله عنه إنما كتب النسخ وبعث بها إلى الآفاق، حرصاً على الحفظ الدقيق واحتراساً لذلك، لتكون مرجعاً للواهم والمتردِّد في حرف أو حركة أو كلمة من ذلك الطفيف. وكذلك يكذِّب ابن حزم أن عثمان رضي الله عنه أمر بإبطال القراءات السبع. ويقول: إنَّ القراءات السبع منتشرة، ويقرأ بها إلى ما شاء الله. (المؤلف).

قلت: لا يخفى أن القراءات السبع غير الأحرف السبعة، والذي أمر به عثمان هو الاقتصار على حرف واحد، لا على قراءة واحدة، وسيأتي مزيد بيان في هذه المسألة.

﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل: ٢١]، وزيادتها بعد واو المفرد في بعض الأفعال المعتلّة بالواو، مثل: ﴿يَدْعُوٓا۟﴾ [البقرة: ٢٢١] للمفرد، وأمثال ذلك، ولكنهم يتلفَّظون بتلك الكلمات على وجهها الصحيح، ونُقِلَ ذلك اللفظُ عنهم بالتواتر، وروي عن عائشة[١] وابن عباس[٢] رضي الله عنهم كانا يقولان بضَعْف الكُتَّاب الأوَّلين للمصحف في الإملاء.

وقد قال ابنُ خلدون ما مُلخَّصه: إن الصحابة رسموا المصحف بخطوطهم، وكانت غير مُسْتحكمة في الإجادة، لمكان البداوة فيهم، وإتقانُ الخط صَنعة حضريَّة، ثم اقتفى التابعون من السَّلف رَسْمَهم، تبرُّكاً ومبالغةً في حفظ القرآن، كما أُخذ عن الصحابة، حتى في رَسْمِه، وتتابع الناس على ذلك، إلا أنهم أخذوا يُتقِنون الإملاء في صُلْب التفاسير، ويتركونه على أصله في المصاحف[٣].

جَمْعُ القرآن في صحائف مُنَسَّقة
في خلافة أبي بكر رضي الله عنه

دخل عمر على أبي بكر رضي الله عنهما، وأخبره بأنه قد استُشهِدَ كثير من حفَّاظ القرآن في حرب الرِّدَّة، واقترح عليه أن يجمع القرآن في صحائف مُنَسَّقة يحتفظ بها، فتردَّد أبو بكر في أوَّل الأمر خشيةَ أن يَتخطَّى ما كان عليه رسول الله، فهو يريد أن لا يُحدِثَ شيئاً جديداً لم يفعله رسول الله.

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٤: ١٥٠٧).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٨٨٠).

(٣) هذا تعليل غير مُسلَّم، فما زالت تظهر ـ ولا تزال ـ وجوهٌ من الإبداع وأسرارٌ من الإعجاز في رسم المصحف، لا سيما في المواضع المخالفة للرسم الإملائي المعروف، وهذا يدلُّ على أن هذا الرسم توقيفي، وليس اجتهادياً، فضلاً عن أن يكون مرجع المخالفة فيه إلى البداوة!

وبعد مفاوضةٍ بينه وبين عمر، تجلَّى له وَجْهُ الصواب في هذا الاقتراح، وأنَّ هذا الفعل ليس من مُحدَثات الأمور، ولا من الابتداع في شيء. وانتدب لهذا الأمر زيدَ بنَ ثابت الأنصاري، لأنَّ فيه من المواهب ما ليست في غيره، إذ كان من الحفَّاظ ومن كُتَّاب الوحي، وشَهِدَ العَرْضةَ الأخيرة من عرضات النبيِّ ﷺ للقرآن على جبريل عليه السلام، وكان فوق ذلك معروفاً بخُصوبة عَقْله وشدَّة وَرَعِه وعِظَم أمانته وكمال خُلُقه واستقامة دينه، فاستشار أبو بكر عمرَ في ذلك، فوافقه.

وجاء زيد فعَرَضَ أبو بكر عليه الفكرة، ورغب إليه أن يقوم بتنفيذها، فتردَّد زيدٌ أول الأمر بما كان قد تردَّد به أبو بكر، ولكنه لا زال يُعالجه ويُبيِّن له وَجْهَ المصلحة في ذلك حتى قنع واطمَأنّ، وشرع في عمله وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة يُشرِفون عليه ويُعاونونه، حتى تمَّ لهم ما أرادوا، وانتهج زيدٌ طريقةً مُحكَمة وضعها له أبو بكر وعمر، وذلك فوق ما أنه حافظٌ للقرآن، اعتمد على مصدرَيْن:

أحدهما: ما كُتب من القطع بين يدي رسول الله ﷺ، ولا يَقبَلُ ذلك حتى يشهد رجلان عَدْلان أنَّ هذه القطعة كُتبت بين يدي رسول الله ﷺ.

والثاني: ما كان محفوظاً في صدور الرجال.

وقد جاء في «البخاري»: أنه لم يجد آخر سورة براءة إلا مع أبي خُزيمة[1]. أي: لم يجدها مكتوبةً بين يدي النبيِّ؛ يشهد عليها عَدْلان، إلا مع أبي خُزيمة، مع أنه كان يحفظها هو وكثير من الصحابة، ولكنه يُريد أن يجمع بين الحفظ وما كُتب بين يدي رسول الله ﷺ بشهادة عَدْلَين، مبالغةً في الاحتياط وتطبيقاً للخطة التي رسمها.

وعلى هذا الدستور الرشيد تَمَّ جَمْعُ القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة،

---

(١) رواه البخاري (٤٦٧٩) و(٤٩٨٦) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

وإجماع الأمة عليه دون نكير. قال عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: أعظم الناس في المصاحف أجراً: أبو بكر رحمه الله، وهو أول من جَمَع كتابَ الله.

وقد قُوبلت تلك الصُّحف التي جمعها زيدٌ بما تستحقُّه من عناية فائقة، فحفظها أبو بكر عنده، ثمَّ حفظها عمرُ بعده، ثم حفظتها أم المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة عمر، حتى طلبها منها أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، حيث اعتمد عليها في استِنساخ مصاحفِ القرآن، ثم ردَّها إليها، كما سيأتي بيانه.

وامتازت الصُّحُفُ أولاً بأنه قد جمعت القرآن على أدقِّ وجوه البحث والتحرِّي، وأسلَمِ أصول التثبُّت العلمي، كما سبق شَرْحُه لك في الدستور السابق، وثانياً: أنها ظفرت بإجماع الأمة عليها وتواتر ما فيها.

جَمْعُ القرآن على عهد عثمان رضي الله عنه

اتَّسَعَت الفتوحات في زمن عثمان رضي الله عنه، واستَبحَرَ العِمْران، وتفرَّق المسلمون في الأمصار والأقطار، ونبتت ناشئةٌ جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن، وبَعُدَ عهدُ الناس بالرسول والوحي والتنزيل، وكان أهلُ كلِّ إقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة مَن اشتَهرَ بينهم من الصحابة، فأهلُ الشام يقرؤون بقراءة أُبيٍّ بن كعب، وأهل الكوفة يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود، وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري، وهكذا. فكان بينهم اختلافٌ في حروف الأداء ووجوه القراءة بطريقةٍ فتحت بابَ الشِّقاق والنِّزاع في قراءة القرآن، أشبه بما كان بين بعض الصحابة قبل أن يعلموا أنَّ القرآن نَزَل على سبعة أحرف، بل كان هذا الشِّقاق أشدّ، لِبُعْد عهد هؤلاء بالنبوَّة، وعدم وجود النبي ﷺ بينهم، كما كان بين الصَّحابة ويرجعون إليه، واستَفحَلَ الداء حتى كفَّر بعضُهم بعضاً، شأنَ كلِّ أمر لجَّ الناسُ فيه فاستَشْرى.

أخرج ابنُ أبي داود في «المصاحف» ص٩٥ من طريق أبي قِلابة: أنه قال: لـمّا كانت خلافةُ عثمـان جَعَل الـمُعلِّم يعلِّم قراءة الرجل، والـمُعلِّم يعلِّم قراءةَ الرجل الآخر، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، وارتفع ذلك إلى المعلِّمين حتى كفَّر بعضُهم بعضاً، فبلغ ذلك عثمان، فخطب فقال: أنتم عندي تختلفون، فمَن نأى عني من الأمصار أشدُّ اختلافاً.

وقد صدق عثمان رضي الله عنه، لأنَّ أهل تلك الأمصار كانت أبعَدَ عن تذوُّق الحروف السبعة التي نَزَل بها القرآن، أو رُخِّص بها فيه، وإن كانت الحجاز قد كَثُر فيها الموالي كثرةً فاحشة.

فرأى عثمان رضي الله عنه بثاقب رأيه وصادق نظره أن يَتَدارَكَ الأمر، فجمع أعلام الصحابة وذوي البصر منهم، وأجَال الرأي بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة ووَضْع حدٍّ لذلك الاختلاف، فأجمعوا أمْرَهم على استِنساخ مصاحف يرسل إلى كلِّ قطر بمصحف، وأن لا يعتمدوا على سواها، فشَرَعَ عثمان رضي الله عنه في تنفيذ هذا القـرار حول أواخر سنة أربع وعشـرين هجرية وأوائل خمس وعشرين، فعَـهِدَ بعدَ الـمَشُورة إلى أربعة من خِيَرةِ الصحابة وثقات الحفّاظ، وهم: زيد بن ثابت من الأنصار، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام من قريش، وأرسل عثمان إلى أمِّ المؤمنين حفصةَ بنتِ عمر، فبعثت إليه بالصُّحف التي عندها، التي جُمِعَ القرآن فيها على عهد أبي بكر رضي الله عنه.

وجاء في بعض الروايات: أنَّ الذين نُدبوا لِنَسْخ المصاحف كانوا اثنَيْ عشر رجلاً، وما كانوا يكتبون شيئاً إلا بعد أن يُعرَضَ على الصحابة ويُقرُّوا أنَّ رسول الله ﷺ قرأ على هذا النَّحو ـ أي: الذي نجده الآن في المصاحف ـ وكانوا لا يكتبون إلا ما قد

استقرَّ في العَرْضة الأخيرة، فكتبوا: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] دون (وامضوا)، وكتبوا: ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] دون: (كلَّ سفينة صالحةٍ غصباً)، وكتبوا: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣] دون: (والذكر والأنثى)، وهكذا اعتمدوا المتواتر وما وقع عليه الإجماع، دون الآحاد.

وأوصى عثمان رضي الله عنه هذه اللجنة إذا اختلفت في شيء إملاءً، أن يكتبوه بلسان قُريش، لأنَّ القرآن نزل بلسانها، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصُّحُفَ في المصاحف ردَّ عثمان الصُّحُف إلى حَفْصة، وأرسل إلى كلِّ أُفق بمصحف، وأمر بما سواه من القرآن في كلِّ صحيفة أو مصحف أن يُحرَق[1].

وقد استجابَ الصحابةُ لعثمان رضي الله عنه، فأحرقوا مصاحفهم، واجتمعوا جميعاً على المصاحف العثمانية، حتى إنّ عبد الله بن مسعود الذي تلكّأ في حَرْق مصحفه، استَجاب بعدَئذٍ فحرقه حين تبيَّن له مزايا تلك المصاحف العثمانية واجتماع الأمة عليها وتوحيد الكلمة بها.

وهكذا أصبح مصحفُ ابن مسعود، ومصحفُ أُبيٍّ بن كعب، ومصحفُ عائشة، ومصحفُ سالم مَوْلى أبي حذيفة، التي كان بها كلمات قليلة تخالف هذه المصاحف؛ أصبحت كلُّها مغسولةً بالماء أو مُحرَّقة بالنار. أتلَفَها أصحابها واجتمعوا على مصاحف عثمان بكلِّ رضا واطمئنان.

فقد روى أبو بكر الأنباريُّ[2] عن سُوَيد بن غَفَلَة، قال: سمعتُ عليَّ بن أبي طالب

---

(١) تقدم تخريجه ص٧٢١.

(٢) هو العلامة اللغوي الأديب، محمد بن القاسم بن محمد (٢٧١-٣٢٨)، كان من أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار، له مصنفات منها: «الزاهر» و«إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله» و«الأضداد». انظر: «الأعلام» للزركلي (٦: ٣٣٤).

كرَّم الله وجهه يقول: يا معشر الناس، اتَّقوا الله، وإيّاكم والغُلوَّ في عثمان، وقولكم: حَرَّاق مصاحف، فوالله ما حَرَّقها إلا عن مَلأٍ منا أصحابَ رسول الله ﷺ[١].

وقال عمر بن سعيد: قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لو كنتُ الوالي وقتَ عثمان لفعلتُ في المصاحف فِعلَ عثمان[٢]. رضي الله عنه وعن الجميع، وجزاهم أحسَنَ الجزاء على هذا الصُّنع، وخذل الله المفسدين.

قال صاحب «مُسَلَّم الثبوت»[٣] ـ وهو من أشهر الكتب في أصول الفقه الإسلامي ـ: ما نُقل آحاداً فليس بقرآن قطعاً، ولم يُعرَف في هذا خلافٌ لواحد من أهل المذاهب، والدليلُ على ذلك: أنَّ القرآن مما تتوافر الدواعي على نَقْلِه؛ لتضمُّنه التَّحدِّي، ولأنه أصلُ الأحكام باعتبار المعنى واللفظ جميعاً، ولذلك عُلِمَ جهد الصحابة في حِفظِه بالتواتر القاطع، وكلُّ ما تتوافر الدواعي على نَقْلِه بنقل متواتر عادةً فوجوده ملزومُ التواتر عن الكلِّ عادةً، فإذا انتفى اللازم وهو التواتر، انتفى الملزوم قطعاً، والمنقول آحاداً ليس متواتراً، فليس قرآناً.

* * *

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٩: ٢٤٥).

(٢) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص٢٨٤ – ٢٨٥.

(٣) «فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت» (٣: ١٤)

المقدمة الثانية عشرة

القراءات السبع في القرآن(١)

كانت اللغة الحضريَّة اللغةَ الأدبيةَ الراقية في عصر نزول القرآن قريبةً من لغات التخاطُب الحضريَّة في شمال الجزيرة، لأنها كانت سائرةً في سبيل الوحدة والتمازج والرُّقيّ، بفَضْل المجامع والمواسم والأسواق، ولكن لـهجات القبائل لم تكن حينئذ مُتحِّدة. وإن الرسول ﷺ كان يقرأ بلغة قريش كما نزل(٢)، والقبائل الأخرى كانت تقرؤه بلهجاتها، إذ لا تستطيع إكراه ألسنتها على النُّطق بلهجة قريش، وأقرَّهم الرسول ﷺ على ذلك بأمرٍ من الله عزَّ وجلَّ، تيسيراً للقراءة، وتسهيلاً على الناس.

فكانت تميم مثلاً تُبدِلُ الهمزة بالعين. وبعض قبائل بكر تُبدِلُ العين الساكنة نوناً إذا وقع بعدها طاء، فتقول: «أنطِ» في «أعط». وبعض القبائل تُبدِلُ الجيم بالياء أو الزاي، أي: تنطق بالجيم كما تنطق بالزاي أو الياء. وبعض القبائل تضمُّ هاء الغائب إذا وقعت

---

(١) لم يفرق المؤلف رحمه الله في هذا المبحث بين القراءات السبع والأحرف السبعة، فوقع في عدة أخطاء وإشكالات.

(٢) روى أبو داود [١٤٦٦]، والترمذي (٢٩٢٣) وقال: حسن صحيح]، وغيره عن أمِّ سلمة رضي الله عنها: أنها نعتت قراءة النبيِّ ﷺ بأنها قراءة مفسَّرة حرفاً حرفاً.

وفي البخاري [٥٠٤٦] عن أنس رضي الله عنه: أنه سُئل عن قراءة رسول الله ﷺ؟ فقال: كانت عدّاً، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: يمدُّ (الله)، ويمدُّ (الرحمن)، ويمدُّ (الرحيم).

وعن أبي داود [١٣٩٥]: أن ابن عمرو سأل النبيَّ ﷺ: في كم يختم القرآن؟ فقال: «في أربعين يوماً». يريد بذلك التدبُّر والترتيل. (المؤلف).

بعد ياء ساكنة، مثل: «عليهُ». ومنهم من يُميلُ بعض الألفاتِ إلى الياء، ومنهم مَن يكسر ياء المضارع، مثل: «يِكتبون» في «يَكتبون»، ومنهم مَن يُحرِّك ميم الجمع، مثل: «عليكمو»، ومنهم مَن يُفَخِّم اللام مثل: «الصَّلاة»، إلى أمثال ذلك من اختلاف اللهجات التي نجد الآن بعضَها في القبائل.

وقد حَصَرَ العلمـاءُ هذه اللهجات في قراءة القرآن في أنواع سبعة، سُمِّيت: القراءات السبع، وهي: قراءة نافع بن نعيم، وقراءته قراءة أهل المدينة، وقراءة عبد الله ابن كثير، وقراءته قراءة أهل مكة، وقراءة أبي عمرو بن العلاء، وهي قراءة أهل البصرة، وقراءة عبد الله بن عامر، وهي قراءة أهل الشام، وقراءة عاصم، وقراءة الكِسائيّ، وقراءة حمزة. والثلاثة قراءة أهل الكوفة[١].

وقال ابنُ شهاب[٢]: بلغني أنَّ تلك السبعة إنَّما هي في الأمر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرام[٣]. يريد: أنها لا تؤدِّي إلى اختلاف المعنى في ذلك.

وعن عمرَ رضي الله عنه قال: سمعتُ هشامَ بنَ حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعتُ لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقْرِئنيها رسول الله ﷺ، فكدتُ أُساوِرُه في الصَّلاة، فتصبَّرتُ حتى سَلَّم، فلبَّبْتُه بردائه، فقلت: مَنْ أقرأك هذه السّورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإنَّ رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأتَ، فانطلقتُ به أقودُه إلى رسول الله ﷺ،

---

(١) سيأتي التعريف بهؤلاء القراء قريباً.

(٢) هو أبو بكر محمد بن مسلم القرشي الزهري المدني (٥٨- ١٢٤هـ) تابعي جليل من أهل المدينة، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، قال أبو داود: حديثه ألفان ومئتا حديث، النصف منها مسند. «سير أعلام النبلاء» (٥: ٣٢٦- ٣٥٠)، و«الأعلام» للزركلي (٧: ٩٧).

(٣) رواه مسلم (٨١٩).

فقلت: يا رسول الله، إني سمعتُ هذا يقرأ بسورة الفرقان، على حروفٍ لم تُـقْرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: «أرسِلْه، اقرأ يا هشام»، فقرأ عليه القراءة التي سمعتُه يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أُنزلت». ثم قال: «اقرأ يا عمر»، فقرأت القراءَة التي أقرأني، فقال ﷺ: «كذلك أُنزلت، إنَّ هذا القرآن أُنزِلَ على سبعة أحرف، فاقرؤا ما تيسَّر منه»(١).

أقول: والذي يُفهَم من قوله ﷺ: «ما تيسَّر منه»، أنها رخصةٌ للقبائل التي كانت لا تستطيع أن تُكْرِهَ ألسنَتَها على لهجة قريش، لا لغيرها من المتعلِّمين، وقد عبَّر بالإنزال عن رخصة الله سبحانه في ذلك، والله أعلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريلُ على حرف، فلم أَزَلْ أستزيدُه حتى انتهى إلى سبعة أحرف»(٢).

وفي حديث أُبي: «ثمَّ أتاه الثانية فقال: على حرفين، ثم أتاه الثالثة فقال: على ثلاثة أحرف، ثم جاء الرابعة فقال: إنَّ الله يأمرك أن تُقرِئَ أمتَكَ على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا»(٣).

وظاهر هذا الحديث الترخيصُ بالقراءات السبع مطلقاً. والله أعلم(٤).

---

(١) تقدم تخريجه ص٧١٩.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٢١٩)، ومسلم (٨١٩).

(٣) رواه مسلم (٨٢٠).

(٤) ثبت في «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعتُه، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف».
وقد اختلف العلمـاء في معنى هذا الحديث اختلافاً كبيراً، على نحو خمسة وثلاثين قولاً، لا يتسع المقام لذِكرِها كلها، إلا أنَّ الإجماع يكاد يحصل على أن المراد بالأحرف السبعة ليس هو القراءات السبع الواردة في متن «الشاطبية» وغيرها، ولا أنّ كلَّ كلمة تُقرَأ بسبعة وجوه، وأحسن توجيه ورد في هذا الحديث هو أن الأحرف السبعة تعني سبع لغات. =

= وليُعلم أن العلماء اصطلحوا بعد ذلك على تقسيم قراءات القرآن إلى سبع قراءات، حتى تَوَهَّم عوامُّ الناس أن القراءات السبع التي اصطلح عليها العلماء هي بعَيْنها الأحرف السبعة الواردة في الحديث السابق، وهذا خطأ.

قال السيوطي رحمه الله في «الإتقان» (١: ٢٧٤): «قال أبو شامة: ظنَّ قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف أهل العلم قاطبة». اهـ.

وقد تمنَّى بعض العلماء لو أنها سُمِّيت بغير هذا الاسم؛ ليزول هذا اللبس عن العوام.

قال السيوطي في «الإتقان»: «وقال أبو العباس بن عمار: لقد نقل مُسبِّع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامِهِ كلَّ مَنْ قلّ نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته إذ اقتصر نَقَصَ عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة. اهـ.

وقد اصطلح العلماء كذلك على تقسيم قراءات القرآن إلى عشر قراءات، فأضافوا إلى القراءات السبع ثلاثَ قراءاتٍ أخرى، كلها متواترة.

قال السيوطي في «الإتقان» (١: ٢٧٧): القراءات السبع التي اقتصر عليها الشاطبيُّ، والثلاث التي هي قراءة أبي جعفر ويعقوب وخلف؛ متواترةٌ عن رسول الله ﷺ. اهـ.

وأما القرّاء الذين تواترت قراءاتهم وتلقَّتها الأمة بالقبول فهم عشرة، ولكلٍّ منهم راويان هما أشهر من روى عنه.

وإليك أسماء الجميع قرّاءً ورواةً بالترتيب حَسْبَما اصطلح عليه القرّاء:

١- نافع: وهو أبو رويم، قارئ المدينة، من تابعي التابعين، توفي في المدينة سنة ١٩٦هـ. وراوياه:

قالون: وهو عيسى بن مينا المدني، وورش: عثمان بن سعيد المصري.

٢- ابن كثير: عبد الله بن كثير، قارئ مكة، تابعي، توفي بمكة سنة ١٢٠هـ. وراوياه:

البَزّيّ: أحمد بن محمد بن بزة المكي، وقنبل: محمد بن عبد الرحمن المكي.

٣- أبو عمرو: زبان بن العلاء البصري، توفي بالكوفة سنة ١٥٤هـ. وراوياه:

الدوري: حفص بن عمر، والسُّوسي: صالح بن زبان.

٤- ابن عامر: عبد الله بن عامر، تابعي دمشقي، توفي بها سنة ١١٨هـ. وراوياه:

هشام بن عمار الدمشقي، وابن ذكوان: عبد الله بن أحمد القرشي. =

= ٥- عاصم بن أبي النجود، تابعي، قارئ الكوفة، وبها توفي سنة ١٢٨هـ. وراوياه:
شعبة: أبو بكر بن عياش الكوفي، وحفص بن سليمان البزاز الكوفي.
٦- حمزة بن حبيب الزيّات، من قرّاء الكوفة، توفي سنة ١٥٦هـ. وراوياه:
خلف بن هشام البزار، وخلاد بن خالد الصيرفي.
٧- الكسائي: علي بن حمزة النحوي، من قراء الكوفة، توفي سنة ١٨٩هـ. وراوياه:
أبو الحارث الليث بن خلد، وحفص الدوري (الراوي عن أبي عمرو).
٨- أبو جعفر يزيد بن القعقاع، تابعي مدني، وبها توفي سنة ١٢٨هـ. وراوياه:
ابن وردان؛ عيسى بن وردان المدني، وابن جماز؛ سليمان بن جماز.
٩- يعقوب بن إسحاق الحضرمي البصري، توفي بها سنة ٢٠٥هـ. وراوياه:
رويس محمد بن المتوكل اللؤلؤي، وروح بن عبد المؤمن البصري.
١٠- خلف بن هشام البزار البغدادي، وبها توفي سنة ٢٢٩هـ. وراوياه:
إسحاق بن إبراهيم الورَّاق، وإدريس بن عبد الكريم الحداد.

هذه هي أسماء القراء العشرة وأسماء رواتهم المشهورين، اقتصرت عليهم، وأعرضت عن غيرهم ممن لم تتواتر قراءته للاختصار، وأضيف هنا ذكر ثلاثة ألفاظ يدور ذِكرُها غالباً على ألسنة أهل هذا الفن، وأشرح المقصود عندهم منها تتميماً للفائدة، وهي: القراءة، والرواية، والطريق.

فالقراءة هي: ما نسب إلى القارئ.

والرواية هي: ما نسب إلى الراوي عن الإمام.

وأما الطريق: فهي ما نسب إلى من روى عن الراوي وإن سفل.

مثال ذلك: إسكان ياء (محياي)، فإنه قراءة أبي جعفر، ورواية قالون عن نافع، وطريق الأزرق عن ورش.

فبمعرفة الفرق بين القراءة والرواية يتضح جلياً أن القراءات المتواترة عشرة، وأن الروايات المشهورة عشرون. والله تعالى أعلم.

والخلاصة: أن لقبول القراءة شروطاً، وهي: أن توافق لغة العرب، مع موافقة رسم المصحف، وصحة السند. =

وقال بعضُ العلماء: أُنزِل القرآنُ أولاً بلسان قريش ومَنْ جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أُبيح للعرب ـ تسهيلاً لهم ـ أن يقرؤوه بلغاتهم التي جَـرَت عادتُهم باستعمالها، على اختلافهم باللهجة والإعراب. ولم تُكلَّف القبيلة أن تنتقل من لغتها إلى لغة أخرى للمشقَّة وعدم اليُسْر، ولأنَّ ذلك لم يُغيِّر المعنى المراد.

فأما من أراد قراءتَه من غير أُولئك العرب، فالاختيار له أن يقرأ بلسان قريش لأنه الأَوْلى. وعلى هذا يُحمَلُ ما كتب به عمرُ إلى ابن مسعود من الإلزام بلغةِ قريش حينما بعثه إلى الكوفة ليُعلِّمهم دينهم، لأنَّ جميع اللغات بالنسبة للمتعلِّم مُسْتوية في التعلُّم، فالأَوْلى لغة النبيِّ ﷺ التي نَزَل بها القرآن. وأما ذلك العربي في صدر الإسلام المجبول على لغته والمنطبع عليها، فلو كُـلِّف أن يقرأ بلغة قريش لعَسُرَ عليه ذلك مع إباحة الله له أن يقرأ بلغته.

أقول: وعلى هذا، لا مُبرِّر لأهل زماننا أن يقرؤوا القرآن بغير لغة قريش، لأنَّ ذلك إنما هو رُخْصة للصدر الأول عصر القبائل عند نزول القرآن، اللهمَّ إلا أن يقرأ للعِلم به، حفظاً للتاريخ ولِـمَا كان عليه الأمر في الصَّدْر الأول، لا أن يقرأ للتعبُّد، والله أعلم(١).

= قال ابن الجزري في «النشر»: كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصحَّ سندها؛ فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردُّها، ولا يحل إنكارُها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختَلَّ ركنٌ من هذه الأركان الثلاثة أُطلِق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة «النشر في القراءات العشر» (١ : ٩).

(١) لا توجد قراءة خاصة بلغة قريش لا يخرج عنها في شيء، وإنما أخذت كلُّ قراءة من لغة قريش بنصيب، لكن لغة قريش هي التي كتب بها الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ المصحف الشريف، قال ابنُ كثير في «التفسير» (١ : ٢٩): وأمر عثمان هؤلاء الأربعة ـ وهم زيد بن ثابت الأنصاري =

وقد نُقِلَ عن السلف ـ كالقاضي الباقلّاني[١]، والإمام الطحاوي[٢]، وابن عبد البر[٣] ـ:

= أحد كتّاب الوحي لرسول الله ﷺ، وعبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي أحد فقهاء الصحابة ونجبائهم علماً وعملاً وأصلاً وفضلاً، وسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص ابن أمية القرشي الأموي وكان كريماً جواداً ممدَّحاً وكان أشبه الناس لهجة برسول الله ﷺ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي ـ فجلس هؤلاء النفر يكتبون القرآن نسخاً، وإذا اختلفوا في وضع الكتابة على أيِّ لغة رجعوا إلى عثمان، فقال: اكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم.

وكانت كتابتهم على وجوه تحتمل لغة قريش أساساً، كما تحتمل غيرها من وجوه القراءات الثابتة في العرضة الأخيرة، وقد جرَّدوه من النقط والشكل، لتلفظ الكلمة بالحروف المحتملة لها مما ثبتت به القراءة في العَرْضة الأخيرة من اللغات الأخرى.

فالقرآن الكريم كُتِبَ في عهد عثمان على لسان قريش على وجه يحتمل وجوه القراءات الثابتة إن أمكن، وإلا كتب في مصحف بوجه، وفي مصحف آخر بوجه آخر.

فعُلم أنه يوجد في كلِّ قراءة من القراءات المتواترة ما ليس من لغة قريش، كالاختلاف في الإعراب والفتح والإمالة والإظهار والإدغام وأحوال الهمزة والوقف وغير ذلك. وعليه، فقول المؤلف: إنه لا مُبرِّر لقراءة القرآن في زماننا بغير لغة قريش... إلى آخر كلامه؛ هو قول خالٍ من المعنى. والله أعلم.

(١) هو أبو بكر، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر (٣٣٨-٤٠٣هـ) قاض من كبار علماء الكلام جيد الاستنباط، له: «إعجاز القرآن»، و«الإنصاف». «الأعلام» للزركلي (٦: ١٧٦).

(٢) هو أبو جعفر، أحمد بن محمد بن سلامة (٢٣٩-٣٢١هـ) فقيه إليه انتهت رياسة الحنفية بمصر، له: «شرح معاني الآثار»، و«بيان السنة والجماعة» وهي المشهورة بـ«العقيدة الطحاوية». «الأعلام» للزركلي (١: ٢٠٦).

(٣) هو حافظ المغرب، أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي المالكي (٣٦٨-٤٦٣هـ)، من كبار حفّاظ الحديث ومؤرِّخ أديب بحّاثة، له: «جامع بيان العلم وفضله» و«التمهيد» و«الاستذكار». انظر: «الأعلام» للزركلي (٨: ٢٤٠).

أنَّ حكمة القراءات المتعدِّدة قد انتهت بانتهاء اللهجات العربية[1].

(١) لعل المؤلف يقصد بالقراءات المتعددة: الحروف السبعة التي نزل بها القرآن، لأنه ـ رحمه الله تعالى ـ يخلط بينهما، فإن كان الأمر كذلك، فقد ذهب بعض السلف إلى أن كتابة الصحابة للمصحف في عهد عثمان رضي الله عنه اقتَصَرَت على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وهو ما كان في العَرْضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل عليه السلام، لأن نزول القرآن على سبعة أحرف كان تسهيلاً وتيسيراً على الأمة الأمية في بداية أمرها، وليس إلزاماً لها، فكان للقارئ أن يختار من هذه الأحرف ما تيسَّرت له القراءة به.
قال ابن عبد البر في «الاستذكار»: والذي أقول به إن جَمْعَ عثمان رضي الله عنه في جماعة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ القرآنَ على حرف واحد بكتابة زيد بن ثابت، إنما حملهم على ذلك ما اختلف فيه أهل العراق وأهل الشام، فاتفق رأي الصحابة وعثمان رضوان الله عليهم على أن يجمع لهم القرآن على حرف واحد من تلك السبعة الأحرف، إذ صحَّ عندهم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلُّها شافٍ كاف»، فاكتَفَوا رحمهم الله بحرف واحد منها. «الاستذكار» (٢: ٤٨٤).
وقد اختلف أهل العلم في بقاء الحروف السبعة في القراءات التي بين أيدينا على ثلاثة أقوال:
القول الأول: مذهب الطبري والطحاوي وابن عبد البر: أن عثمان جمع الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة، لئلا تختلف الأمة، وأمر الناس بتَرْكِ ما سواه، وبذلك اندثرت الأحرف الستة الباقية.
القول الثاني: مذهب ابن الجزري ومَنْ وافقه: أن الأحرف السبعة بقي منها ما يحتمله رَسْمُ المصحف، وقال: إن الصحابة كتبوا المصاحف على لفظ لغة قريش في العرضة الأخيرة، وجرَّدوا المصاحف من النقط والشكل؛ لتحتمل صورة ما بقي من الأحرف السبعة، فالمصحف كتب على حرف واحد، وخطُّه محتمل لأكثر من حرف، لأنه لم يكن منقوطاً ولا مشكولاً، فذلك الاحتمال الذي احتمله هو من الستة الأحرف الباقية. وهذا القولُ قريبٌ من القول الأول؛ لاتفاقهما أن المصحف كتب على حرف واحد، لكن القول الثاني يزيد بأن هذه الكتابة تحتمل حروفاً أخرى من الأحرف الستة الباقية.
القول الثالث: ما ذهب إليه السيوطي ومن وافقه: وهو أن المصاحف العثمانية قد اشتملت =

= على الأحرف السبعة كلها، وأن الأمة لا يجوز لها أن تُهمِلَ نَقْلَ شيء منها.
والذي عليه الجمهور ورجَّحه المحقِّقون هو القول الثاني.
فاختلاف القراءات ليس عن رأي واجتهاد، وإنما هي سُنَّةٌ متبعةٌ، أي: عن دليل واتباع، فإن القرآن ثابت بالنقل في جميع قراءات القرآن السبعة التي اشتهرت بين المسلمين وعملوا بها.
ولْيُعلَم أن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، ثم اجتمع المسلمون على حرف واحد، عندما جمع الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه القرآنَ في مصحف إمام، وأمر بما سواه من المصاحف فأحرقت، ووافقه الصحابة كلُّهم على ذلك، فكان إجماعاً.
وهذه القراءات السبع وجوه راجعة إلى هذا الحرف، ومعانيها ليس بينها تضادّ، بل فيها تنوُّع وتكامُل يكشف عن وجوه في إعجاز القرآن، وشمول معانيه، وتيسير تلاوته. وما وقع بين القراءات من بعض الاختلافات فهو في الشكل لا في أصل المعنى، ومن باب اختلاف التنوع في المعاني لا من باب التضادّ، فإن الله نزّه كلامه عن هذا الاختلاف الذي يَضُرّ. وتعدُّد القراءات كان بوَحْي من الله لحكمة.
ولنضرب مثالاً على ذلك بين روايتي ورش وحفص؛ قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠]، قرأ حفص ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بفتح الياء وسكون الكاف وكسر الذال، بمعنى: يخبرون بالأخبار الكاذبة عن الله والمؤمنين. وقرأ ورش: (يُكَذِّبُون) بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال المكسورة، بمعنى: يكذبون الرسل فيما جاؤوا به من عند الله من الوحي، فمعنى كلٍّ من القراءتين لا يعارض الآخر ولا يناقضه، بل كلٌّ منهما ذكر وصفاً من أوصاف المنافقين، فوصفتهم الأولى بالكذب في الخبر عن الله ورسله وعن الناس، ووصفتهم الثانية بتكذيبهم رسل الله فيما أوحي إليهم من التشريع، وكلاهما حق، فإن المنافقين جمعوا بين الكذب والتكذيب.
وقد وضع العلماء شروطاً وضوابطَ دقيقةً صارمة تتعلق بشأن رواية القرآن ورواته، منها اشتراط التواتر في كل حرف وآية منه حتى تعتبر قرآناً... ومن عرف ذلك أدرك أن الله قد حفظ كتابه، وجعل من صنيع هؤلاء العلماء أسباباً تظهر فيها مشيئتُه النافذة وحكمتُه القاضية بحفظه، وصدق الله العظيم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. والله أعلم.

لاحقة للمقدِّمة الثانية عشرة

قال ﷺ: «نَزَل القرآن على سبعة أحرف»[١].

المراد من لفظ السبعة: الكثرة والتَّعدُّد لا التحديد[٢]. وليس المراد: أنَّ كلَّ كلمة من القرآن تُقْرأ على سبعة أوجه، ولكن بعض كلماته.

فيُقرأُ مِثلُ: (عليهم) و(فيهم) بضم الهاء وكسرها، وبإشباع ضمَّة الميم.

ويُقرأُ مِثلُ: (قد أفلح) و(قل أوحي) بالهمز وبالنقل وإدماج الهمزة.

ومثل: (موسى) و(عيسى) بالفتح والإمالة بنَوْعَيْها الكبرى والصغرى.

ويُقرأُ مِثلُ: (خبيراً بصيراً) بتفخيم الراء وترقيقها.

ويُقرأُ مِثلُ: (الصلاة) و(الطلاق) بترقيق اللام وتفخيمها.

ومِثلُ: (يحسب) بفتح السين وكسرها.

ومِثلُ: (يَعْكفون) بضم الكاف وكسرها.

ومِثلُ: (يعلمون) من كلِّ مضارع بكسر الياء وفتحها، والكسرُ لغةُ بني أسد.

---

(١) تقدَّم تخريجه ص٧١٩.

(٢) بل المراد به التحديد، ويدلُّ على ذلك الروايات التي ساقها المؤلف رحمه الله آنفاً، كحديث ابن عباس: «أقرأني جبريل على حرف، فلم أزل استزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف»، وحديث أبيّ: «ثم أتاه الثانية فقال: على حرفين...»، وذكر الثالثة والرابعة... إلخ، فهذه الروايات تدلُّ على أن المراد بالسبعة: التحديد لا التكثير.

ومثل: (قيل) و(غيض) بإشمام الضمِّ مع الكسر.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ [يوسف: ١١٠] بتخفيف الذال وتشديدها.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦] بفتح اللام الأُولى وضمِّ الثانية واعتبار (إنْ) مخفَّفةً من الثقيلة، وبكسر اللام الأُولى وفتح الثانية على اعتبار (إنْ) نافية.

﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] بصيغة النداء والأمر، وبصيغة الابتداء والفعل الماضي.

وقرئ: ﴿نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] بالزاي، أي: نرفع بعضَها إلى بعض، و(نَنْشُرُها) بالراء، أي: نُحييها.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣] وقرئ: (والذَّكرِ والأنثى).

﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] وقُرئ: (وامضوا).

﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١] قُرئ الأول بصيغة المعلوم، والثاني بصيغة المجهول، والعكس.

وقُرئ: (أوصى) و(وصَّى).

وقُرئ: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] بضم الراء وإسكانها.

وقرئ: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٩] بإبدال الحاء بالعين.

وقرئ (حتّى) و(عتّى) بإبدال الحاء بالعين، وهي لغة هُذَيْل.

وقرئ: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، (تجري مِن تحتها الأنهار).

وقرئ: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ [الفاتحة: ٦] و(السِّراط).

وقرئ: (المسجد) و(المسيت)، وهي لغة أسلم.

وقرئ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، و(مَلِك يوم الدين).

وقرئ: ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ [الكهف: ٧٩]، (كلَّ سفينةٍ صالحةٍ غَصْباً).

﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وقُرِئ: (فتثبَّتوا).

وقرئ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١]، وقرئ: (إذا جاءَ فَتحُ الله والنَّصْر).

وقُرئ: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، (وجاءت سَكْرةُ الحقِّ بالموت).

وقُرئ: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ [الكهف: ١٧] بتخفيف الزاي وبالتشديد.

و(أقتَلْتَ نفساً زاكيةً) بدل ﴿زَكِيَّةَۢ﴾ [الكهف: ٧٤].

أما الاختلاف في اللهجات، فقد اتفقوا على أنَّ الله سبحانه أرخَصَهم فيها، وقال ابنُ قتيبة[١]: لو أراد كلُّ فريق أن يزول عن لغته التي انطبع عليها لاشتدَّ ذلك عليه، فجعَل الله له مُتَّسعاً في أمره، ورخَّصَ بقراءته على هذه الأحرف واللهجات.

وروى البخاريُّ ومسلمٌ في «صحيحيهما» عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرأني جبريل على حرف، فراجعتُه، فلم أزل أستزيدُه ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»[٢].

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣- ٢٧٦هـ) من أئمة الأدب ومن المصنفين المكثرين له: «تأويل مختلف الحديث»، و«أدب الكاتب». «الأعلام» للزركلي (٤: ١٣٧).

(٢) تقدم تخريجه ص٧٣٢.

وقال بعضهم: إنَّ هذه القراءات كلّها ـ على اختلافها ـ كلامُ الله، لا مَدْخَل لبشر فيها، بل كلُّها نازلةٌ من عنده تعالى، مأخوذة بالتلقِّي عن رسول الله ﷺ؛ لأنَّ الصحابة كانوا يرجعون فيما يقرؤون إلى رسول الله ﷺ.

ويدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

وذهَبَ جماهير العلماء من الخَلف والسَّلف إلى أنَّ المصاحف العثمانية الأربعة مشتملةٌ على ما يحتمله رَسْمُها من الأحرف السبعة المشار إليها، جامعةٌ للعَرْضة الأخيرة التي عَرَضَها النبيُّ ﷺ على جبريل عليه السلام. ولكنّ ابنَ جرير الطبري ومَنْ لفَّ لفَّه يقولون: المصاحف العثمانية الأربعة لم تشتمل إلا على حرف واحد من الحروف السبعة، وهي لغة قريش، جمعاً لكلمة المسلمين، فأخذت به وأهملت ما عداه، وأخذ عنها الأمة جمعاء(١).

---

(١) جاء في «الصحيحين» «صحيح البخاري» (٦٩٣٦)، و«صحيح مسلم» (٨١٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ هشامَ بنَ حكيم يقرأ سورةَ الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، فكدتُ أن أعجَلَ عليه، ثم أمهلتُه حتى انصرف، ثم لبَّبتُه بردائه، فجئتُ به رسولَ الله ﷺ،فقلتُ: يا رسول الله، إني سمعتُ هذا يقرأ سورةَ الفرقان على غير ما أقرأتنيها! فقال رسولُ الله ﷺ: «أرسِلْه، اقرأ»، فقرأ القراءةَ التي سمعتُه يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أُنزلت». ثم قال لي: «اقرأ»، فقرأت، فقال: «هكذا أُنزِلت، إنّ هذا القرآن أُنزِلَ على سبعة أحرُف فاقرؤوا ما تيسَّر منه». وفي رواية: في «صحيح البخاري» (٤٩٩٢) «على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ».

وثبت فيهما أيضاً من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قالَ: «أقرأني جبريل على حرف، =

وجُمَلُ القول في القراءات السبع: أنَّ القرآن نزل على سبعة أحرف؛ تسهيلاً على قبائل العرب لاختلاف لهجاتها، فكانوا يقرؤون بها جميعاً، لا اختياراً وتكراراً، كما

= فراجعتُه، فلم أزل أستزيدُه ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف» «صحيح البخاري» (٤٤٩١)، و«صحيح مسلم» (٨١٩) وسلف قريباً.

وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة اختلافاً كثيراً وصل إلى حوالي خمسة وثلاثين قولاً، وإليك منها ما ذهب إليه أبو عبيد القاسم بن سلام، واختاره ابن عطية، وهو: أن المراد بالسبعة الأحرف سبع لغات متفرقة في القرآن العظيم، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن، وكذلك سائر العرب، وليس المراد أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه.

واحتج لهذا القول بقول عثمان حين أمرهم بكتب المصاحف: «ما اختلفتم فيه أنتم وزيد، فاكتبوه بلغة قريش، فإنه أكثر ما نزل بلسانهم»، وقد أشكل على عبد الله بن عباس معنى (فاطر) حتى اختصم إليه أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها. قال ابن عباس: ففهمت حينئذ موضع قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]. وقال أيضاً: ما كنت أدري معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]، حتى سمعت بنتَ ذي يزن تقول لزوجها: تعالَ أفاتحك، أي: أحاكمك. كما أشكل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧] حتى دلَّه أعرابي على معناها مستدلاً بقول الشاعر:

تخوَّف الرَّحْلُ منها تامكاً قِرِداً كما تخوَّفَ عودَ النَّبْعةِ السَّفَنُ

فهذا يدل على أن القرآن فيه عدَّة لغات سوى لغة قريش، وإن كان معظمه وأكثره نزل بلغتهم.

قال القاضي الباقلاني: معنى قول عثمان: «فإنه نزل بلغة قريش» يريد: معظمه وأكثره، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط، إذ فيه كلمات وحروف على خلاف لغتهم [ينظر: «الانتصار للقرآن» (١: ٦١)]، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، ولم يقل: قرشياً، وليس لأحد أن يقول: إنه أراد قريشاً دون غيرها، كما أنه ليس له أن يقول: أراد لغة عدنان دون قحطان، أو ربيعة دون مضر، لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولاً واحداً. والله أعلم.

نفعل اليوم، بل قَسْراً واضطراراً، لأنه لا يستطيع النطق بغير لهجته التي دَرَج عليها، وأصبحت له طبيعة قَسْرية، نظير ما يقوله التركي بلهجته: (الهمد لله ربِّ الآلمين)، لأنه لا يستطيع أن ينطق بالحاء من مخرج الهاء، وبالعين من مخرج الهمزة قَسْراً واضطراراً، ولا يستطيع سواها. ودام الحالُ على هذه القراءات السبع حتى خلافة عثمان رضي الله عنه، فسيطرت لغة قريش أو كادت، واستطاع الناس كلُّهم القراءة بها، وأصبح في القراءات مجالٌ للنزاع، فأمر عثمان ـ بعد استشارته للصحابة رضي الله عنهم ـ بالاقتصار على لهجة قريش، وكتب مصحفه الإمام، وبعث به إلى الأمصار[1].

---

(١) لم يُلغِ عثمان رضي الله عنه القراءات السبع ولا العشر المتواترة، وليس له ذلك، وإنما كتب القرآن بطريقة كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التي نزل عليها القرآن؛ من عدم إعجامها وشكلها، ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحد. والمؤلف رحمه الله لا يُفرِّق بين الأحرف السبعة والقراءات.

قال العلامة الزرقاني في «مناهل العرفان» (١: ٢٥٥) في بيان ما قام به سيدنا عثمان رضي الله عنه: «اتسعت الفتوحات في زمن عثمان، واستبحر العمران، وتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار، ونبتت ناشئة جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن، وطال عهد الناس بالرسول ﷺ والوحي والتنزيل، وكان أهلُ كل إقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة، فأهل الشام يقرؤون بقراءة أبي بن كعب، وأهل الكوفة يقرؤون بقراءة عبد الله ابن مسعود، وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري، فكان بينهم اختلافٌ في حروف الأداء ووجوه القراءة، بطريقة فتحت باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن، أشبه بما كان بين الصحابة قبل أن يعلموا أن القرآن نزل على سبعة أحرف، بل كان هذا الشقاق أشدّ؛ لبعد عهد هؤلاء بالنبوة، وعدم وجود الرسول بينهم، يطمئنون إلى حكمه، ويصدرون جميعاً عن رأيه، واستفحل الداء حتى كفَّر بعضهم بعضاً، وكادت تكون فتنة في الأرض وفساداً كبيراً، ولم يقف هذا الطغيان عند حدّ، بل كاد يلفح بناره جميع البلاد الإسلامية حتى الحجاز والمدينة، وأصاب الصغار والكبار على سواء. =

= أخرج ابن أبي داود في «المصاحف» ص٩٥ وسلف من طريق أبي قلابة أنه قال: لما كانت خلافة عثمان جعل المُعلِّم يعلم قراءة الرجل، والمُعلِّم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين، حتى كفّر بعضهم بعضاً، فبلغ ذلك عثمان، فخطب فقال: أنتم عندي تختلفون، فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافاً. وصدق عثمان، فقد كانت الأمصار النائية أشد اختلافاً ونزاعاً من المدينة والحجاز، وكان الذين يسمعون اختلاف القراءات من تلك الأمصار إذا جمعتهم المجامع أو التقوا على جهاد أعدائهم يعجبون من ذلك، وكانوا يُمعِنون في التعجب والإنكار كلما سمعوا زيادة في اختلاف طرق أداء القرآن، وتأدى بهم التعجب إلى الشك والمداجاة، ثم إلى التأثيم والملاحاة، وتيقظت الفتنة التي كادت تطيح فيها الرؤوس، وتسفك الدماء، وتقود المسلمين إلى مثل اختلاف اليهود والنصارى في كتابهم، كما قال حذيفة لعثمان في الحديث الآتي قريباً.

أضف إلى ذلك أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها حتى يتحاكموا إليها فيما يختلفون، إنما كان كل صحابي في إقليم يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التي نزل عليها القرآن، ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الخلاف والشقاق البعيد. لهذه الأسباب والأحداث رأى عثمان ـ بثاقب رأيه وصادق نظره ـ أن يتدارك الخرق قبل أن يتّسع على الراقع، وأن يستأصل الداء قبل أن يعزَّ الدواء، فجمع أعلام الصحابة وذوي البصر منهم، وأجال الرأي بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة، ووَضْع حدٍّ لذلك الاختلاف، وحَسْم مادة هذا النزاع، فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل منها إلى الأمصار، وأن يؤمر الناس بإحراق كل ما عداها، وألا يعتمدوا سواها، وبذلك يرأب الصَّدْع، ويجبر الكَسْر، وتعتبر تلك المصاحف العثمانية الرسمية نورهم الهادي في ظلام هذا الاختلاف، ومصباحهم الكشّاف في ليل تلك الفتنة، وحكمهم العَدْل في ذاك النزاع والمراء، وشفاءهم الناجع من مصيبة ذلك الداء....

وبعد أن أتمَّ عثمان نَسْخَ المصاحف بالصورة السابقة عَمِلَ على إرسالها وإنفاذها إلى الأقطار، وأمر أن يحرق كل ما عداها مما يخالفها، سواء كانت صحفاً أم مصاحف، وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية، وليحمل المسلمين على الجادة في كتاب الله من ناحية أخرى، فلا يأخذوا إلا بتلك المصاحف التي توافر فيها من المزايا ما لم يتوافر في غيرها، وهذه المزايا هي: =

= ١- الاقتصار على ما ثبت بالتواتر دون ما كانت روايته آحاداً.
٢- وإهمال ما نسخت تلاوته، ولم يستقر في العرضة الأخيرة.
٣- وترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن، بخلاف صحف أبي بكر رضي الله عنه، فقد كانت مرتبة الآيات دون السور.
٤- وكتابتها بطريقة كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التي نزل عليها القرآن؛ من عدم إعجامها وشكلها، ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحد.
٥- وتجريدها من كل ما ليس قرآناً، كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة؛ شرحاً لمعنى أو بياناً لناسخ ومنسوخ أو نحو ذلك.
وقد استجاب الصحابة لعثمان، فحرقوا مصاحفهم واجتمعوا جميعاً على المصاحف العثمانية، حتى عبد الله بن مسعود الذي نقل عنه أنه أنكر أولاً فِعلَ عثمان، وأبى أن يحرق مصحفه؛ رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية واجتماع الأمة عليها وتوحيد الكلمة بها، وبعدئذ طَهُرَ الجو الإسلامي من أوبئة الشقاق والنزاع، وأصبح مصحف ابن مسعود ومصحف أبي بن كعب ومصحف عائشة ومصحف علي ومصحف سالم مولى أبي حذيفة، أصبحت كلها وأمثالها في خبر «كان»، مغسولة بالماء أو محروقة بالنيران، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً، ورضي الله عن عثمان، فقد أرضى بذلك العمل الجليل ربَّه، وحافظ على القرآن، وجمع كلمة الأمة، وأغلق باب الفتنة، ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعد اليوم. انتهى من «مناهل العرفان»، والله أعلم.
فالذي رجَّحه أهل العلم هو أن عثمان بن عفان رضي الله عنه لم يجمع الناس على حرف واحد، وأن ما نسخه أولئك النفر الأربعة الذين كلفهم عثمان بنسخ القرآن لم يقتصروا في نَسْخه على لغة قريش، بل الموجود فيه من اختلاف في إمالة الكلمات وفتحها أو تقليلها، وإبدال للهمز، وتسهيل ونقل لحركتها إلى الحرف الذي قبلها، وتحقيق وحذف، وترقيق للراءات واللامات وتفخيم، ومدٍّ لميم الجمع وقَصْرها مع ضم الهاء قبلها أو كسرها، وإدغام للحروف عند البعض، وإظهار عند البعض الآخر، وحذف لبعض الياءات أو زيادة، وتسكين لياءات الإضافة أو فتح، وغير ذلك مما امتلأت به كتب القراءات، مما يشهد بأن القرآن لم يجمع على =

= حرف واحد، بل بقيت الأحرف السبعة كما كانت في عهد النبي ﷺ، وكانت لغة قريش هي المحكمة إذا حصل اختلاف.

ولو كان كله بلغة قريش فلا يعقل أن لا يعرف عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلمة (أَبًّا) في قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١]، والكلمات التي حار الصحابة من المهاجرين والأنصار في فهم معانيها كثيرة، فالواقع أن عثمان رضي الله عنه قال للذين كلفوا بنسخ القرآن ـ كما جاء في «النشر في القراءات العشر» (١: ٧) ـ: إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء فاكتبوه بلسان قريش.

ومعناه: أنهم إذا لم يختلفوا يكتبونها بالكيفية التي يعرفونها جميعاً، ولا يلزم من كتابتها بشكل واحد أن تلفظ بلفظ واحد، فكم من كلمة كتبت بشكل واحد وقرئت بستة أوجه أو أكثر، كما في كلمة: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ قرئت دون همز بسكون الهاء وبكسره ممدوداً ومقصوراً، وقرئت بالهمز (أرجِئه) بضم الهاء ممدوداً ومقصوراً، وبكسره مقصوراً، وأمثلة ذلك كثيرة.

والذي استقر عليه أمر الأمة في القراءات ـ كما قال ابن الجزري في «النشر» (١: ١٥) ـ: أن كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصحَّ سندها؛ فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردُّها، ولا يحِلُّ إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة... ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة. اهـ.

والذي جمع شروط التواتر اليوم: هو القراءات العشر لا غيرها.

وليس منشأ اختلاف الروايات هو عدم وجود الضبط. فالمصاحف إنما جُرِّدت من النقط والشكل ليحتملها ما صحَّ نقله، وثبتت تلاوته عن النبي ﷺ؛ إذ كان الاعتماد على الحفظ لا على مجرد الخط.

وأكبر شاهد على بطلان هذه الدعوى: أن الاختلاف بين القراءات لم يقتصر على الضبط فقط، وإنما شمل الرسم أيضاً، فهذا المصحف الشامي تقرأ فيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أولادَهُمْ شُرَكَائِهِم﴾ [الأنعام: ١٣٧]، واعتبرها أهل اللغة دليلاً على جواز الفَصْل بين المضاف والمضاف إليه. وفي المصحف المكي من سورة التوبة: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وفي غيره: ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وفي بعض المصاحف: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وفي غيرها: (بما كسبت أيديكم)، ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥]، وفي البعض: (فلا يخاف عقباها). وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى.

المقدمة الثالثة عشرة
القرآن والنسخ
وهي مُلخَّصة ممَّا قالَه محمد عبده وغيره

إنَّ النسخ في الشرائع جائزٌ مُوافق للحكمة وواقع، فإنَّ شَرْعَ موسى عليه السلام نَسَخ بعض الأحكام التي كان عليها إبراهيم عليه السلام، وشَرْعَ عيسى نَسَخَ بعض أحكام التوراة، وشريعة الإسلام نسخت جميع الشرائع السابقة، لأن الأحكام العملية التي تقبل النسخ إنما تُشرَع لمصلحة البشر، والمصلحة تختلف باختلاف الزمان، قبل كمال الإنسان ونزول القرآن. فالحكيم العليم يشرع لكلِّ زمانٍ ما يناسبه، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وكما تنسخ شريعة بأخرى، يجوز أن تُنسَخَ بعضُ أحكام شريعة بأحكام أخرى في تلك الشريعة. فالمسلمون كانوا يَتَوجهَّون إلى بيت المقدس في صلاتهم، فنُسِخَ ذلك بالتوجُّه إلى الكعبة، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين. ولكن هناك خلاف في نسخ أحكام القرآن ولو بالقرآن، فقال قال أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني المفسِّر الشهير: ليس في القرآن آية منسوخة، وهو يُخرِّج ما قالوه أنه منسوخ على وجه صحيح، بضَرْبٍ من التخصيص والتأويل.

ويقول غيره من مُنكِري النَّسخ: ليس هناك نَسْخ، وإنما هو تخصيصُ عامّ، أو تقييدُ مُطْلَق، أو تَفْصيلُ مُجمَل، أو ضمُّ حكمٍ إلى حكم، مراعاةً لمقتضيات الظروف والأحوال.

وظاهرٌ أن مسألة القبلة ليس فيها نَسْخٌ للقرآن، وإنما هي نَسْخٌ لحكْمٍ لا ندري هل فعله النَّبيُّ ﷺ باجتهاده أم بأمر الله تعالى، فإنَّ الوحي غير محصور في القرآن(١).

---

(١) لا ريب في أن النبي ﷺ استقبل بيت المقدس بعد قدومه المدينة بضعة عشر شهراً، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الله هو الذي أمره بذلك، ثم أمره بأن يستقبل البيت العتيق، فكان هذا أول ما نسخ من القرآن، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» (١: ٣٩٠): وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة توجَّه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «الناسخ والمنسوخ» ص١٨: أخبرنا حجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: أول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا ـ والله أعلم ـ شأن القبلة: قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق، ثم صرفه إلى بيته العتيق ونسخها، فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كان أول ما نُسِخَ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول ﷺ لـما هاجر إلى المدينة ـ وكان أهلها اليهود ـ أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحبُّ قبلة إبراهيم، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤] إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٥٠]، فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]. انتهى.

وقد دلَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] على ما ذكره ابن عباس وذهب إليه الجمهور من أن استقبال بيت المقدس كان بأمر منه تعالى. =

= وقد ذكر القرطبي في «تفسيره» (٢: ١٥٠) الخلاف في هذه المسألة فقال ما عبارته: واختلف العلماء أيضاً في كيفية استقباله بيت المقدس على ثلاثة أقوال:

فقال الحسن: كان ذلك منه عن رأي واجتهاد، وقاله عكرمة وأبو العالية.

الثاني: أنه كان مخيَّراً بينه وبين الكعبة، فاختار القدس طمعاً في إيمان اليهود واستمالتهم. قاله الطبري ينظر «تفسيره» (٣: ١٥٥-١٥٨). وقال الزجاج: امتحاناً للمشركين، لأنهم ألفوا الكعبة.

الثالث ـ وهو الذي عليه الجمهور، ابن عباس وغيره ـ: وجب عليه استقباله بأمر الله تعالى ووحيه لا محالة، ثم نسخ الله ذلك، وأمره الله أن يستقبل بصلاته الكعبة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ...﴾ الآية. انتهى.

وعلى تقدير أن استقبال بيت المقدس لم يكن بأمر من الله، وإنما كان باجتهاد منه ﷺ؛ فإن القائلين بجواز الاجتهاد في حقِّه ﷺ منهم من يقول: إنه معصوم من الخطأ في الاجتهاد، ومنهم من يقول: إنه قد يقع منه الخطأ، ولكنه لا يُقَرُّ عليه، قال الزركشي في «البحر المحيط»: إذا جوّزنا له الاجتهاد فالمختار أنه لا يتطرق الخطأ إلى اجتهاده، لأنه لو جاز لوجب علينا اتباعه فيه، وهو ينافي كونه خطأً، والمسألة قد نص عليها الشافعي في «الأم».

وقال ابن فورك: هو معصوم في اجتهاده كما هو معصوم في خبره، وحكاه الأستاذ أبو منصور عن أصحابنا، وقال الهندي: إنه الحق عندنا، وممن جزم به الحليمي في «شعب الإيمان»، فقال في خصائص الأنبياء: ومنها العصمة من الخطأ في الاجتهاد.

وقيل: يجوز بشرط أن لا يُقَرَّ عليه، وهو اختيار الشيخ أبي إسحاق في «اللمع»، وحكاه ابن بَرْهان عن أكثر أصحابنا، والخطابي في «أعلام الحديث» عن أكثر العلماء، وجعله عذراً لعمر في الكتاب الذي أراد النبيُّ أن يكتبه، وارتضاه الرافعي في العِدَدِ في الكلام عن سكنى المعتدة عن الوفاة، وكذا ابن حزم في «الإحكام» قال: كفعله بابن أم مكتوم إذ أُنزلت: ﴿عَبَسَ﴾، ولا خلاف أنه لا يجوز التقرير عليه. انتهى مختصراً.

فإذا قُدِّرَ كون النبي ﷺ استقبل بيت المقدس باجتهاد، فإن تقرير الله له على ذلك يدل على =

وقال الجمهور: إنَّ القرآن يُنسَخ بالقرآن، بناءً على أنه لا مانع من نَسْخ حكم آية مع بقائها في الكتاب، يُعبَدُ الله تعالى بتلاوتها، وتُتذكَّرُ نعمتُه بالانتقال من حكم كان موافقاً للمصلحة ولحال المسلمين في أول الإسلام إلى حكم يوافقُ المصلحة في كل زمان ومكان، فإن لا يُنسَخ حكمٌ إلا بأمثلَ منه، كالتخفيف في تكليف المؤمنين قتالَ عشرة أمثالهم، بالاكتفاء بمقاتلة الضعف، بأن تقاتل المئة مئتين.

وخلاصة رأي هؤلاء القائلين بالنسخ: أنَّ الآية المنسوخة تنزل لبيان حكم مُؤقَّت لعلَّة وقتيَّة اقتَضَت تخفيفَه أو تثقيلَه أو تقييدَه أو إطلاقَه مثلاً إلى أجل معيَّن، ثم تنزل الآية الناسخة لتقرير القاعدة الدائمة المستمرَّة المدى.

وقد تكون الحكمة من هذا النوع من النسخ: التدرُّج في تبديل ما قد انطوت عليه الأمة، بما يراد أن يحلَّ محلَّه من التشريع الجديد، كي لا يكون فيه مَشقَّة أو نُفْرة،

= أنه المشروع في ذلك الوقت، فيكون الأمر بعد ذلك باستقبال بيت المقدس من قبيل النسخ أيضاً، وهذا واضح كلَّ الوضوح، ولهذا استدل عامة علماء الأصول على نسخ السنة بالقرآن بهذا، فإن استقبال بيت المقدس من السنة العملية بلا شك، وقد نسخت بالقرآن كما هو معلوم.

قال الشنقيطي في سياق أنواع النسخ: النسخ إلى بَدَلٍ مُساوٍ: نسخ استقبال بيت المقدس الثابت بالسنة بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، فاستقبال الكعبة مُساوٍ لاستقباله بيت المقدس بالنسبة لفعل المكلف.

وفي «شرح الورقات» للمَحَلِّي ص١٦٦: ونسخ السنة بالكتاب، كما في نسخ استقبال بيت المقدس الثابت بالسنة الفعلية، كما في حديث «الصحيحين» ـ وهو ما رواه البراء بن عازب أن النبي ﷺ صلى قِبَل بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت... «صحيح البخاري» (٤٠)، و«صحيح مسلم» (٥٢٥). بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ انتهى.

وبما ذكرناه يتبيَّن أن ما ذكره المؤلف في أمر نَسْخ استقبال بيت المقدس غير صحيح. والله أعلم.

فيُؤْمرون أولاً بما هو مخفَّف من ذلك الحكم، ثم يُنسخ ذلك المخفَّف بالحكم المقرَّر الثابت.

واتَّفقوا على أنه لا يُقالُ بالنسخ إلا إذا تعذَّر الجمع بين الآيتين من آيات الأحكام العملية، وعُلم تاريخها، فعند ذلك يقال: إن الثانية ناسخة للأولى.

أما آيات العقائد والفضائل فلا نسخ فيها.

ونَسْخُ السنة بالسنة كنسخ الكتاب بالكتاب، بل هو أَوْلى وأظهر، وكذلك نَسْخُ السنة بالكتاب، كما في مسألة القبلة، ولا خلاف فيها.

أما الخلاف القوي فهو نَسْخُ القرآن بالحديث، وقد أورد الشافعي رضي الله عنه كثيراً من الأحاديث التي زعموا أنها ناسخة لأحكام القرآن، وبيّن أنها غير ناسخة، بل مُفسِّرة ومبيِّنة(١).

---

(١) ذكروا أنَّ في القرآن آياتٍ نُسِخَ لفظُها وبقي حكمُها، وأظنُّهم يعنون أنَّ ذلك الحكم كان معروفاً شائعاً تلقوه عن الرسول ﷺ تقييداً لحكم آخر من القرآن أو تتميماً له قد أخذه الرسول ﷺ عن جبريل درايةً لا قراءة، إذ ليس لفظه من القرآن، ولكن معناه، أو قالوا ذلك مبالغةً في ثبوت الحكم وشيوعه في عصر الرسول ﷺ. وكذلك جاءت زيادات بعض ألفاظ أو جمل في القراءات الشاذة، والظاهر أنه كان تفسيراً من النبي ﷺ، فظنَّه الصحابي من القرآن، والدليل على ما ذكرنا مخالفة ذلك للقراءات المتواترة عنه ﷺ الخالية من هذه الزيادة، فهو دليلٌ قاطع على أنَّ تلك الزيادة الطفيفة ـ سواء كانت لفظاً مفرداً أو جملة ـ وتلك المحكيات المقول عنها بأنها منسوخةُ اللفظ دون الحكم؛ ليست كلها من القرآن في شيء، وإنما هي ممَّا ذكرنا، والله أعلم.
خذ مثالاً على ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان فيما نزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يُحرِّمن، ثم نُسِخْنَ بخمس معلومات، فتُوفي رسول الله ﷺ وهُنَّ فيما يُقرأ من القرآن». [رواه مسلم (١٤٥٢)] فالظاهر ـ والله أعلم ـ أنهم كانوا يفهمون من آية الرضاعة المعنى الأول عن رسول الله ﷺ، ثم نُسخ بالمعنى الثاني. =

= وجاء في ص٢١٨ من الجزء الثالث من المجلد الخامس عشر من مجلة «المنار» حول آية الرجم ما يأتي بتصرُّف:

لقد أخطأ بعض الرواة والمحدِّثين حينما بلغهم أنَّ الرجم من كتاب الله، أنه كان آية في القرآن، فنُسِخَ لفظُه وبقي حكمُه، وحقَّق عندهم ذلك ما رَوَوْهُ عن عمر رضي الله عنه من أن «الرجم فريضة من كتاب الله تعالى، ولولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله لكتبتها فيه» [رواه البخاري (٦٨٣٠)، ومسلم (١٦٩١)]؛ أي: هذه الفريضة، وظنوا أن حديث: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما»، هي آيةٌ من القرآن نُسخ لفظُها وبقي حكمُها، ولم ينبههم على خطئهم هذا أن ديباجة هذه الجملة بعيدة عن ديباجة القرآن. على أنه قد روي هذا الكلام أنه حديث في كثير من كتب الحديث، ولو كان معروفاً بين الصحابة أنه من القرآن لَـمَا توقَّف عمر من زيادته، ولَـمَا خشي أحداً، ولكنه إنما كان يريد بهذا الكلام المبالغة في أنه فرض كفُروض القرآن، وأنه مُتمِّم لجلد غير المحصن جاءت به السنة، ولم يُصرِّح به إيذاناً بأنه بعيد عن شأن المسلمين، ويؤيِّد هذا قول علي رضي الله عنه فيمن جمع عليها الجلد والرجم: «جلدتُها بكتاب الله ورجمتُها بسنَّة رسول الله» [رواه البخاري (٦٨١)]. هذا إذا لم نقل: إن المنافقين لهم يدٌ في بعض هذه الروايات أدخلوها على الغافلين من المحدِّثين، كما هو شأنهم في ذلك. (المؤلف).

قلت: لكن ما ختم به كلامه من قوله: «هذا إذا لم نقل: إن المنافقين لهم يد في بعض هذه الروايات...» ظنٌّ وتخرُّص من غير دليل ولا برهان، فلا يكون إلا رجماً بالغيب، ولو فُتح هذا الباب لدخل الشك في جميع الأحاديث الصحيحة التي رواها الثقات.

المقدِّمة الرابعة عشرة
في إجمال بعض مواضيع القرآن المتعلِّقة بالإنسان
ومصالحه دنيا وأخرى

إنَّ القرآن العظيم بيَّن لنا عن ذات الله تعالى بقَدْر ما يستطيعه فِكرُنا وتتحمَّله فطرتُنا، ووضَّح لنا خِلْقةَ الإنسان وما أودع فيه من قوى متعارضة متوازنة، وما ركّب في طبيعته من عوامل مُتَباينة مُتَساندة، وكشف لنا وَجْهَ التوفيق بينها، بقيام الإنسان منها على حالِ الاعتدال، وما ينالُه بذلك من كمال دونه كلُّ كمال.

وصوَّر لنا حالَ الدنيا وعرَّفنا بحقيقتها وما يجب أن يكون حظُّ الإنسان منها. ورَسَمَ لنا الحياة بصورتها الصحيحة، ودلّنا على ما يجب أن نتوجَّه بالروح إليه من الأعمال.

وكلَّمنا عن اللَّذّات البدنية وما ينبغي أن يكتفي الإنسان به منها، وعيَّن القَدْرَ الذي يَحسُن عنده الوقوف فيها، وبيَّن لنا ما نحن مرتبطون به من العالم الذي وراء هذا العالم.

ودلَّنا على ما لأنواع العبادة من العمل لتلك الدار، ووَجْهِ علاقتها بها، وما يُبْنى على أعمالنا في هذه الدار من الجزاء العادل في تلك الدار.

كشف لنا سبحانه كلَّ ذلك في آياتٍ مُتعدِّدة، أورَدَها على صور شتّى وفي قوالبَ مختلفة، مُودِعاً كلَّ صورة منها وَجْهاً من وجوه الحقيقة، وجاعلاً في كلِّ قالب رَسْماً من

رسومها، كلٌّ ذلك في مناسبات تقتضيها ومقتضيات تستدعيها ضَبْطاً لقوى الإنسان، وحياطةً لمواهبه، وحفظاً له من أن لا يعيش رشيداً، فيفارق هذه الدار، وقد حَمَلَ قذر الأوزار، إلى عالم القرار.

وبالإجمال: إنَّ مقصد القرآن الأسنى توقيفُنا على العلم الحقِّ والعمل الحقِّ؛ أما العلم الحقُّ فهو معرفة الله تعالى، وأما العمل الحقُّ فهو القيام بالأفعال التي تفيد السعادة والتَّجنُّب عمَّا يفيد الشقاء في الدارين معاً؛ الدنيا والأخرى.

بُعِثَ النبيُّ ﷺ والناس في أديانهم على أصناف شتّى، منهم اليهود والنصارى والصَّابئون وعَبَدة الأصنام والزنادقة والفلاسفة.

وكان العرب أيضاً في أديانهم على أصناف شتّى؛ فمنهم من ينكر الخالق والبعث والإعادة، ويقولون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وبعضهم يعترف بالخالق وينكر البعث، فيقولون: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يسٓ: ٧٨]، ومنهم مَنْ يُقِرُّون بالخالق وبنوع مبتور من الإعادة، ويُصوِّرون لهم آخرةً قدَّرَتْها لهم وشكَّلتها أخيلةُ كُهَّانهم ومَتْبوعيهم، ويعبدون الأصنام ويزعمون أنها شفعاء لهم عند الله، ويحجُّون إليها، وينحرون لها الـهَدْيَ، ويُقرِّبون لها القرابين، ويُحلّون لها ويُحرِّمون، ويُنكِرون وجود الرسل من الله، وهؤلاء جُمْهَرةُ العرب والهندوس والمصريُّون القدماء.

وكان منهم من يعتقد بالتناسخ وتنقُّل الأرواح في الأجسام؛ تلك الفلسفة الأفلاطونية الزائفة.

ومن هؤلاء أصحاب الهامة التي يعتقدون أنها طير تحمل روح المقتول الذي لم يُؤخَذ بثأره، ولا تزال تراجع أهلَه للأخذ بالثأر من القاتل وقبيلته.

فجاء القرآن العظيم بالردِّ على هذه الفِرَقِ الضَّالَّة والإنكار عليهم، والتأنيب لهم والتـقريع والتجهيل والتسخيف والاستـهزاء، ضمن حُجَج بالغة، وبراهين قاطعة، وعبارات لاذعة، وبلاغة رائعة، في إثبات التوحيد والحشر والنشور، وتعاليم عالية للبشر تؤدِّي إلى الراحة والظهور، كافلة لسعادة الدارين، دافعة لتعاسة الشقاءين. فله سبحانه وتعالى الحمدُ والـمِنّةُ في الأُولى والآخرة، على نِعَمِه فيهما باطنةً وظاهرة.

❊ ❊ ❊

وهذه مقدمات أخرى
مختصرة من «صفوة العرفان في تفسير القرآن»
للأستاذ محمد فريد وجدي[١]

١) الوجود في نظر القرآن:

معظم الأسباب التي ضلَّلت الإنسان الأول في مُدرَكاته، واقتضت أن يُصدِرَ على الكون والكائنات أحكاماً طائشة خفيفة؛ جَهْلُه بعظمة الوجود وفخامته. وهذا الجهل كما كان سبباً لضلاله في أموره الدنيويَّة والعلوم الطبيعيَّة، كان كذلك مَدْعاةً لتضليله في أحكامه الدينية.

نعم، إنَّ من زعم بأنَّ هذه الكرة الأرضية هي العالم أوله وآخره، وأن تلك النجوم الزُّهر والكواكب المتلألئة في السماء إنْ هيَ إلا نقط لـمَّاعة اقتضاها نظام الليل، واستلزمها جمال المنظر، وأن الأرض هي كلُّ شيء في هذا الوجود، كانت أحكامُه على دنياه ودينه مناسبةً لهذه الدرجة من العلم، فيضلّ عن وجوه النفع المادي والأدبي على قَدْر هذه الدركة النازلة.

وقف كلُّ أصحاب الأديان الناكبين عن رُوح القرآن في دركة كان فيها العالم كله

---

(١) وهذه المقدمات المختصرة من كتاب «صفوة العرفان» تتّصل بالمقدمة الرابعة عشرة في إجمال بعض مواضيع القرآن المتعلقة بالإنسان ومصالحه، فهي لاحقة بهذه المقدمة.

قبل قرون عديدة، فجاءت عقائـدُها بالخالق والرسل والدين والنفس والأخلاق والشريعة مناسبةً لها.

فلمّا تأيّد العلم وعَزّت أنصاره، وتقوّضَت دعائم الجهل وانهدّت أركانه، وأصبح الإنسان أخوَفَ ما يكون إذا استشرف الوجود بعينه أو مرَّ على عوالمه بخياله؛ كَبُر هذا الوجود في أعين أهل العلم، وتأدّبت أمامَه نفوسُهم، وتعدّلت أحكامُهم على الخِلْقة والطبيعة والشريعة والخالق، وهذا كلُّه عند غير أهل الإسلام.

أما القرآن العظيم فمن أوله إلى آخره يُطامِنُ(١) كبرياء الإنسان، ويريه نفسَه كما هي، ويهديه إلى حقيقة ذاته واستعداده؛ ليتسنّى له أن يندفع إلى مقامات الكمال والرِّفعة.

يعرف قُرّاء القرآن أنه ما من موضع ذُكِرَ في العلم إلا وشُفِعَ بما يرى الإنسان أنه منه في دَوْر الطفولة، وأنّ أمامه باحاتٍ لا تُحدُّ بالفِكر، ولا تُدْرَك بالتخيُّل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾، [الحاقة: ٣٨ – ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فمثل هذه الآيات تُكسِبُ الإنسان فكرةً إجماليّة عن عَظَمة هذا الوجود، وعلى أن قد خُبِّئ عنا أشياءُ لو كُشِفَت لنا لَـمَا احتَمَلَتْها طبيعتُنا وقابليتُنا، فتردعنا عن أن نحكم على عوامل هذا الوجود الخفيّة بعقلنا الضعيف وعلمنا الناقص، ونقف عند كلِّ مجهول وقوفَ المعتقد بأنّ فيه مساتير لـم تَخْطر على بالنا.

---

(١) أي: يُسَكِّن، كما في «لسان العرب» (طمن).

هذا الأدبُ المُكتَسَب من مُطالَعة القرآن هو الذي سَعَى العلمُ الأوربي الحاضر قروناً في إشرابه نفوسَ الناس؛ لأنه أصلٌ كبير من أصول الأدب النفسي، وباعثٌ قويٌّ يَسُوقُ الإنسان للتكامل في العلم وعدم الوقوف منه على حدّ، ويؤيِّد هذا القولَ حالُ المسلمين الأوّلين، وتهافتُهم على طلب العلوم وإدراك المجهولات، وتهالكُهم على اكتناه الأسرار والخفيّات.

* * *

٢) الإنسان في نظر القرآن:

الإنسانُ أكرمُ الكائنات على الله، خَلَقه في أحسن تقويم، وتولّاه بالإلهام والتعليم، وحلّاه بالعقل السليم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وأعدَّه لشرف خلافته في الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وهو وإنْ كان مخلوقاً من الطين، إلا أنه مُنِحَ من شرف الروح ما تَقصُرُ دونه الخواطر، وتعيا عن إدراكه المدارك، وناهيك بروحٍ نسبها الله إلى نفسه، وأسجَدَ تكريماً لحاملها ملائكةَ قُدسِه، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

بهذه الروح امتاز الإنسان عن سائر عوالم الطبيعة، وصار عالَماً وحده، حاصلاً على القدرة في استخدام كثير من الموجودات وتسخيره، وقد أمَدَّه الله بما يُناسِبُ مطامحه من حَوْلٍ وقوّة، ووَطَّأ له أكناف الكائنات وذلَّلها له، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، ولكنَّه مع هذه المِنَح كلِّها ضعيفُ الجسد تُؤلمه النَّسمات، واهنُ الجَلَد تستفزُّه الخطرات، شديدُ الهلع تستطيره الهواجس، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

ثم هو بين أمرين: إما أن يجنحَ إلى مادته، ويقفَ مواهبَه على عبادة شهوته، فيَكِلَه الله إلى نفسه، ويأسرَه لبشريَّته، فتنقلب مزاياه شراً، وتنعكس خصائصه وَبالاً، فيصبح نَهِماً بالمطالب، شَرِهاً بالرغائب، حَشْوُ إهابِه مطامع، وملءُ جوانحه حوائج، يبيت أسيرَ آماله، ويُمسي عابدَ أحلامه، فينسى ربَّه ويجهله، ويتبع ذلك جَهْلُه لروحه، وحبُّه لها في دائرة جسمـانه، فينقلب حيواناً وليس بحيوان، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥]، ويكون أمره على أقصى ما يبلغه العَجَب من التناقض والذبذبة، فيتقمَّص صفات متضاربة، تجعله في دائرةٍ بعضُها وَبالٌ على جوهره، فما بالُك بمجموعها؟ فهو بين يأسٍ لا حدَّ له، يشوبه أملٌ يُقيمُه ويُقعِدُه، وشُحٌّ يُضْرَب به المثل، وبجانبه إسراف يُعرِّض ماله للخطر، وحبٌّ للحياة يستعبده للجبن، بإزائه إقدامٌ يهجم به على التَّهلُكة، وهو فوق ذلك بَطِرٌ كفور كَنُود سَاهٍ لاهٍ أحمق نَزِق عنيد، إلى غير ذلك من الصفات السافلة التي انحطَّ بها، بإفساده لطبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة.

وأجدر بمثل هذا الإنسان أن يَصِمَ نفسه بأنه في أحطِّ منازل الخليقة، وأدنى مراتب الكائنات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧].

أما إنْ مالَ لجانب روحه، والتَفَتَ إلى سرِّ ذاته، ونقَّب عن قرار أنواره، وعَرَف وجهات قوَّته وضَعْفه، ضمَّه الحقُّ إلى حِزبه، ونصره على الشيطان وجُندِه، وأمدَّه من قوَّته وحَوْله، بما يجعله مظهراً من مظاهر سلطانه، وعاملاً من عوامل تصريفه.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

❊ ❊ ❊

٣) العلم في نظر القرآن:

حضَّ القرآن على العلم ونوَّه بشأنه، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩]، فقد حكم سبحانه بأن أهله يمتازون عمَّن سواهم. وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، فصرَّح برفع درجات أهل العلم وعُلوِّ منزلتهم. وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨]، فساوى سبحانه شهادةَ أهل العلم بشهادته وشهادة الملائكة[1]، وفي هذا من رَفْع قَدْر أهل العِلم ما فيه.

ثم نرى القرآن يُسَجِّل على الذين لا يعلمون حكماً لا يرضاه ذو إدراك لنفسه، فيقول: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٩].

ويطلب القرآن من المسلمين أن يزدادوا في العلم والدراية، فيقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، وبيَّن القرآن أنَّ العلم لا ينتهي عند حدّ، فقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦].

وقد أنكر القرآن على مَنْ يقول ما لا يُؤيِّده ببرهان، فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١، النمل: ٦٤].

---

(١) وأدخل في أهل العلم النبيِّين، ولم يُفرِدْهم، وأعظِم بمقام العلماء الذين أدرج معهم الأنبياء.

وأنكر على مَن يَتّبعُ الوَهْمَ والظنَّ ونَعَى عليهم، فقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦]، وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩]، وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكذلك ينكر القرآن على المقلِّدين لآبائهم الجامدين، وينعى عليهم، فيقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

والقرآن يدعو للأخذِ بأحسنِ الآراء والأقوال، فيقول: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨].

ونوّه القرآن بأرباب العقول والمدارك السامية، فقال في عدّة آيات: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩، الزمر: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤، النحل: ١٢، الروم: ٢٤]، وقال: «ولقد بيّنا الآيات لقومٍ يعقلون»(١).

وأنّبَ أضدادَهم، وقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، وقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، فنعى عليهم تجرُّدَهم من التعقّل والتفكير،

---

(١) كذا في الأصل، ولعله يريد قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، أو قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]، ومثلها: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨]، ومثلها: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦]، أو قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

ودعا القرآن إلى الكشف والاستطلاع، ونعى على المُهمِلين لذلك، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، فهذه الآية تُلمِعُ إلى أنَّ ما يُحصِّله الإنسان من عِلم بعد أن يُولَد، إنما يكسبه عن طريق السمع والبصر والعقل، لأنَّ المعرفة تعتمد على هذه المواهب، وقد قرَّر العِلمُ ذلك، وذكر أنه لو أُخِذَ طفلٌ وحُبِسَ عن العالم إلا فيما يكفي لحياته من طعام وشراب، فإنه وإنْ نَما جسمُه حتى يبلغ جسمَ الرجال، لا ينمو عقلُه عن عقل الطفولة.

* * *

٤) العدالة في نظر القرآن:

يُكلِّف القرآن متَّبعيه أن يكونوا قائمين بالعَدْل بين الناس، مع صَرْف النظر عن جميع الاعتبارات التي تحدُّ من سلطانه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ

أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨] أي: لا تَحْمِلَنَّكم كراهتُكم لقوم وعداوتُكم لهم على تَرْك العدل فيهم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

* * *

٥) الدنيا في نظر القرآن:

ما من فيلسوف أو شاعر أو متأمِّل في الوجود إلا وحقَّر الدنيا واشتكى منها؛ لتوالي آفاتها، وتتابُع حَسَراتها، فلا لَذَّةَ فيها إلا وهي مَشُوبةٌ بألم، ولا راحةَ إلا وهي مَصحوبةٌ بتعب، فلم تَصْفُ لملِكٍ ولا عالم ولا جاهل، ولكنَّ الناس ـ مالكَهم ومملوكَهم، وعالمهم وجاهلَهم، ومؤمنَهم وكافرَهم ـ وإن اتَّحدوا في هذا الذمّ، إلا أن اختلاف طرائقهم فيها على غاية التناقض، اتَّحدوا كلُّهم في المقدمة واختلفوا في النتيجة، فمنهم المتكالبون عليها المتفانون في جمع حطامها، فكان ذلك التكالب مُؤدِّياً إلى التقاطع والتنابذ وتَعَمُّد الشرور التي تَزيدُ دنياهم نقصاً، وحياتَهم تنغيصاً، وهو حالٌ شديد التناقض، الواقعون فيه أشدُّ الناس قدحاً لأنفسهم وعَجَباً من حالتهم.

ومن الناس من عَرَفَ للدنيا هذا الحال، فانقطع عنها ونَبَذَها، ولم يعبأ منها إلا بما يَسُدُّ الخَلَّة ويقيم الأَوْدَ، ولكنْ إذا كان القسم الأول شديد التناقض، فالثاني مُفرِّط لا يلبث أن يقع تحت سيطرة القسم الأول؛ لأن الدنيا لمن غلب، ولا غُلْبَ إلا بمادة.

جاء الإسلام والناسُ على هذين المبدأين، فأتى للأوَّلين من أنواع العِبَرِ بما يَقلعُ

حُبَّ الدنيا من نفس المتهوِّرين في حبِّها، ويُريهم حقارتها ونقصانها، بمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

أتى سبحانه بمثل هذه الآيات، ولكنه شَفَعَها بما يجبُ على الحيِّ أن يعمله في دنياه مِن سَعْي وراء الحصول على المادة، حتى لا يقع أهل هذا الدين تحت أسْرِ الأمم الماديَّة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، وسمَّى المالَ خيراً ما دام المقصودُ منه طَلَبَ الحق، فقال تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وسمَّاه فَضْلاً، فقال تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

والمال لم يكن خيراً وفَضْلاً من الله، إلا لأنه مُكتَسَبٌ من حِلٍّ، لا مأخوذ بنَصْب ولا بسرقة، ولا بقطع رَحِم، ولا بمنافسة تجرُّ إلى خراب.

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، بهذه الحكمة العالية أشرَبَ القرآن نفوسَ أهله خصلتَيْن ساميتَيْن، أولاهما: تَرْكُ الدنيا لعُشَّاقها، وثانيتهما: أخذ ما يقيمون به أَوْدَ حياتهم منها، ويحميهم من الوقع في أسْرِ عُبَّادها. ولا نرى ديناً من الأديان حلَّ هذه المسألة على هذا النحو غير الإسلام.

وقد أيَّد المسلمون الأُوَلُ هذا الحال، فظهر على حركاتهم وسكناتهم، وأسَّسوا على قاعدته مدنيَّةً فاضلةً، قامت على أعدل طرق الفضيلة، حتى قال الله فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

لـم يحرِّم القرآن اللَّذّاتِ البدنيَّةَ المعتدلة المقيسة على قابليَّة الطبيعة والجسم، ولكنه قيَّدها بقيود، ولم يحجر عليه تناول الطيِّبات من الرزق، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ولكنْ قيَّدها بالاعتدال وعدم الإسراف والبَطَر والأشَرِ والاختيال.

وكذلك حرَّم القرآنُ الفواحشَ ما ظَهَرَ منها وما بطن، وقولَ الباطل واعتقادَه في ذات الله، وجميعَ ما يُؤدِّي إلى نقص وفساد المروءة، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فمن هنا ترى أنَّ القرآن العظيم لم يحجر الإنسان عن نَيْل مدنيَّة أرضيَّة ماديَّة، ولكنه أرادها له مدنيَّةً فاضلةً كاملة، مراعًى فيها شأن الروح والجسم معاً، وقد حصَّل آباؤها مدنيَّة لا أستطيع أن أقول: إنها مدنية كاملة كما خطَّها القرآن، ولكنها أفضل من مدنية أهل أوربا بما لا يُقدَّر.

وإني لا أُريد بالمدنيَّة الرُّقيَّ الصناعي، بل أُريدُ بها الروح العامة التي تسوقُ الأمةَ للحركة في مجالات الحياة، وتَضْطرُّها بعواملها الحيوية لسلوك هذه الجادَّة من جوادِّ الوجود الإنساني، وتُقيمها من الأخلاق والنزعات على حال حَسَنة من الأحوال.

فالمدنية التي نالها المسلمون الأوَّلون بهذا المعنى، كانت أفضَلَ بما لا يُقدَّر من مدنية أوربا المادية التي قادتهم إلى إهمال حقِّ الروح، وصَبَغَتْ أهلَها بصبغةٍ لا تتَّفق مع مَرامي الحياة العالية، وقد شهد بهذا فلاسفتُهم على ملأ الأشهاد.

* * *

٦) العبادات في نظر القرآن:

يتَّخذ الذين لا حظَّ لهم من الإسلام إلا التعبُّد بظاهر الألفاظ آيَةَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] [الذاريات: ٥٦] دليلاً على صحَّة طريقتهم في الخمول والكَسَل، والابتعاد عن الجدِّ والعَمَل، ونحن هنا لا نحتاج في الأدلة على بطلان مزاعمهم إلى صَرْف الآية عن ظاهرها، ولكنَّا فقط نطرح عليهم سؤالاً واحداً، ونتَّخذ جوابَه حُجَّةً عليهم، فنقول: أليست العبادةُ هي طاعة الله فيما أمر والانتهاء عمَّا نهى عنه وزَجَر؟

إنْ قالوا: نعم، قلنا: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]؟

يقولون: ليس في هذه الآية ما يدلُّ على لزوم الخروج عن حدِّ الحاجة الضروريَّة من مأكل ومَشْرب ومَسْكن ومَلبَس.

نقول: نعم، ونحن لا ننصح بالإفراط في شيءٍ من ذلك، ولكنْ هل الضرورات الإنسانية تقتصر فقط على حِفظِ الجُثمان من العَطَب، أليس من ضروريات الحياة الإنسانية نَشْرُ العلوم والفضائل، الأمر الذي هو فَرْضٌ من فروض الإسلام؟

أليس منها تسهيل المواصلات بين البلاد الإسلامية لتوثيق عُرى التواصل والتَّحابّ، اللذَيْن هما أسٌّ من أسس الإيمان؟

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ليس المراد من هذه الآية سوى بيان الفرق بين العبودية لله والعبودية للأسياد، فإنهم إنما يملكون العبيد ليستعينوا بهم ويستفيدوا منهم في أمر معايشهم، والله سبحانه غنيٌّ عن العالمين. فلم يكن المراد منها قَصْر الناس على العبادة وحدها دون سائر الأعمال. (المؤلف).

هل من عُلوِّ الهمَّة وإباء النفس أن يقتصر الإنسان على حِفظِ شخصه بالمأكل والملبس، تاركاً أمتَه في أخريات الأمم عِلماً وصناعةً وعمراناً، مع أنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؟

إنَّ الذين يزعمون أنَّ تلك الآية تدلُّ على مَحْضِ العبادة الجسميَّة لَضالُّون مُضِلُّون، أقعَدَهم شيطانُ الكَسَل عن العمل، فظنُّوا أنهم ينجون بعبادتهم من عقوبة تفريطهم في جَنْب خصائصهم الفطريَّة ومَلَكاتهم العلوية التي وَأَدُوها في تراب الخمالة، وجُنَادل(١) الجهالة.

كتابُ الله ـ بجملته وتفصيله ـ يشهد بأنَّ الإسلام أُنـزل لسعادة الحياتيـن، والاعتدال في مطالب الطبيعتين، فوفَّق وآخى بين حاجات الجثمان والنفس، وفي مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] أكبرُ حُجَّةٍ على صِدقِ هذه الدَّعوى البسيطة.

وعلى هذا، فيكون كلُّ مُغلِّب مطالبَ واحدةٍ على مطالبِ الأخرى غيرَ مُتَّبع إلا شقّاً واحداً من شِقَّي الإسلام، ويكون محشوراً في زُمْرة الذين يُبكِّتهم الله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

لم يُبح لنا الإسلام فقط السَّعْيَ في إصلاح دنيانا، بل صرَّح لنا كتابُنا الكريم بأنَّ الله سخَّر لنا كلَّ هذه الطبيعة، لنَستَغِلَّ خيراتها، ونستخدمَ قواها، ونأخذ منها كلَّ طيِّباتها، على شرط الاعتدال والتوسُّط، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] الآية.

---

(١) الـجُنَادل: الشديد عن كل شيء. «لسان العرب» (جندل).

فهل يليقُ بإنسان ـ بعد هذا التصريح البيِّن ـ أنْ يَغمِطَ حقَّ الإسلام، في السَّوْق إلى السعادة الماديَّة في هذه الحياة الدنيا؟

ثم هل يليقُ بأمة يُخوِّلها كتابُها هذه السُّلطة الواسعة أن تكون أقلَّ أمم الأرض استفادةً من خيرات الطبيعة؟

رَحِمَ الله تلك الأرواح الطاهرة، التي تَلقَّت روحَ هذا الدين من سَماء الحكمة الإلهية، فتشرَّبتها بلا تأويل، فنالت من المعاني الحقيقية ما لو وَصَفَها أمهَرُ الشعراء تخيُّلاً، لرأى عباراتِهِ دون الحقيقة بمراحل.

لـم يَمْضِ على تلك النفوس العزيزة بعضُ قَرْن بعد انتعاشها بهذه الروح السماوية، حتى رأيناها مدَّت نفوذها العادل المحبوب على أمم كانت أبعَدَ من عُقَاب الجوِّ منالاً، وأوسع في ميدان الثراء منها مجالاً، وبلغت من سَعَة السلطان ما لم تَبلُغْه أمةٌ في هذا المعمور، ولا تسأل عمَّا استَلزَمَه ذلك الامتدادُ الـهائل، من علوم صناعيَّة، واكتشافات علميَّة، ورِحَلٍ جغرافيَّـة، وغير ذلك ممَّا جعل عواصِمَ الدول الإسلامية مُنْبعث أشعّة النور العلمي والصناعي في آنٍ واحد.

إلى هذا يشير العلّامة (سيديو)[1] المؤرِّخ بقوله: إن العرب أساتيذنا ومُعَلِّمونا، كلُّ هذا الجدِّ وراء الرِّفعة الدنيوية كان يَعُدُّه آباؤنا الأُوَلُ عبادةً لله تعالى، لأنه أمرَ بها وحثَّ عليها، فكان العامل منهم لإقامة الجسور لا يفترق في نظرهم عن المنهمك في تشييد المساجد.

---

(١) مستشرق فرنسي (١٢٢٣-١٢٩٢هـ = ١٨٠٨-١٨٧٥م)، مولده ووفاته بباريس، تخرَّج بكلية هنري الرابع، وعيِّن مدرساً للتاريخ في كلية بوربون سنة ١٨٢٣م، له كتاب «تاريخ العرب العام»، ألفه بالفرنسية، وتُرجم إلى العربية. «الأعلام» للزركلي (٥: ٢٤٦).

وقال ﷺ: «إنَّ المؤمن لَيُؤجَرُ في كلِّ شيء»[١]، فهل مَن يُبلِّغ عني أنصارَ الديانة الطبيعية من فلاسفة العالم المتمدِّن، أنَّ الإسلام قد سبقهم بثلاثة عشر قرناً إلى حقيقة العبادة، وأرانا أنها ليست إلا السَّعْيَ في تحسين حال الإنسان من حيث جثمانُه وروحُه، قال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

* * *

٧) الجهاد في نظر القرآن:

التنازع سُنَّةُ الكائنات الأرضيَّة، ولولاه لَـمَا كَمُلَ نظام الوجود، وقد تكفَّل عِلمُ العمران ببيان ذلك بالأدلة الحاسمة، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وأنت ترى بعينك أنَّ أرقى الأمم هي أكثرُها حروباً، ممَّا يدلُّك على أنَّ الحياة الراقية لا تتمُّ إلا بالتنازع والغلب.

من هنا ترى أنَّ الحرب ضروريَّة للنوع البشري، وأنَّ الأمة لا تكون أمة، بل لا تستطيع أن تعيش، إلا إذا هاجمت أو دافعت، لذلك جاء ذِكرُ الحرب في القرآن كثيراً[٢]،

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٢)، عن خبّاب رضي الله عنه.

(٢) ذكرت الحرب في القرآن ستَّ مرات، ففي حديث القرآن عند اليهود: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]. والأَوْلى أن يشير الأستاذ محمد فريد وجدي إلى مفهوم الجهاد الذي يختلف عن مفهوم الحرب، فالجهاد مفهوم ديني يختلف ـ من حيث أهدافُه وأخلاقياتُه وضوابطُه ـ عن الحرب، فهي مفهوم دنيوي يهدف إلى الهيمنة على الآخرين، وقمعهم وإذلالهم. والمصطلح القرآني لنصرة الدين الذي هو الجهاد ذكر (٣٤) مرة، أو القتال ـ وهو شعبة من شعب الجهاد، وهو يعني استخدام السلاح في مواجهة الأعداء ـ وقد ذكرت كلمة «القتال» ومشتقاتها في القرآن حوالي (٦٧) مرة، وبين الجهاد والقتال عموم وخصوص مطلق، فكلُّ قتال جهاد إذا توفرت فيه النيّة المشروعة، وليس كل جهادٍ قتالاً.

والمقصود منه غَـرَضٌ شريف، وهو تـمكينُ الحقِّ في الأرض، وإعزازُه بين الأمم، والدفاعُ عنه.

أباح الإسلام الحرب، بل أوجَبَها في بعض الأحوال، ولكنَّه حاطها من القوانين بما لم يُوجَد مثله في العالم الوضعي، فقرَّر:

أولاً: أن تكون لِغَرَضٍ شريف، كالدفاع عن الحَوْزة أو الدين، لا هوًى لـمُلك، ولا متابعةً لأطماع رئيس.

ثانياً: أن يكون العَدْلُ مع الأعداء حتى في مواطن الطعن، من شعار المؤمن، فلا يُقتَلُ طفلاً ولا شيخاً ولا مستسلماً.

ثالثاً: عدم الإسراف في استثمار الانتصار، فلا يُجرَّد المغلوبون من حقوقهم، ولا تُؤخَذُ أموالهم غَصْباً، ولا تُصادَر ديانتهم وعوائدهم، ولا يُطلَبُ منهم إلا الجزية، وهي كما قال العلّامة دوزي الهولندي[1] في كتابه «تاريخ الفرق الإسلامية»: قيمة تقلُّ بكثير عما كانت تأخذه حكومات الأمم التي غَلَبها الإسلام.

فإن قال قائل: إنَّ ناموس الارتقاء لا بدَّ من أن يؤدِّي الإنسان في يوم من الأيام بما يكشفه له من أسرار العلم إلى حالة من المدنيَّة تزول معها أسباب الحرب، فلا توجد الحرب أصلاً، فهل يَبطُلُ إذ ذاك حكمُ الحرب من القرآن؟

نقول: إنَّ القرآن لم يتكلَّم عن الحرب إلا لإعطائها النظامات العادلة وحياطتها بالقوانين الملائمة للكرامة الإنسانيَّة، شأنه في ذلك كشأنه في سائر المحاولات البشريَّة

---

(١) هو رينهارت بيتر آن دوزي، مستشرق هولندي من أصل فرنسي (١٢٣٥-١٣٠٠هـ)، قرأ الكثير من كتب الأدب والتاريخ العربي، له: «معجم دوزي»، و«كلام كتّاب العرب في دولة العبّادين». «الأعلام» للزركلي (٣: ٣٨-٣٩).

التي تُساقُ إليها الأمم بحكم نواميس الاجتماع، فإذا حَدَث ـ كما يقال ـ ما يستدعي أن تبطل الأمم الحروب مضطرة بدواعي الحياة الراقية، مَدَدْنا أيدينا إلى أيدي مُسالمينا تالين عليهم قولَه تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

* * *

٨ – الحكومة في نظر القرآن(١):

---

(١) عناصر الحكومة الإسلامية كما أشار إليها الكتاب والسنة:

أ ـ أن تكون الحكومة عربية، ويدخل سائر المسلمين غير العرب في ضمنها، أو يكونوا تبعاً لها، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]، وجاء عنه ﷺ: «الأئمة من قريش» [رواه أحمد (١٢٣٠٧) وقال مخرِّجوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده]، وأجمع على ذلك الفقهاء.

ب ـ أن تكون لغة الحكومة الرسمية عربية، ولا يجوز أن تكون لغةً أخرى؛ لأن القرآن الذي هو دستورها عربي، ولأنَّ الدين الإسلامي عالمي، وكذلك لغة قرآنه عالمية، يُسأل عنهما كلُّ البشر؛ بأن يؤمن بهذا الدين، بحكم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، واللغة العربية أداة فهم قرآنه، يُسأل كلُّ فرد من البشر أن يتعلَّمها بجانب لغته، فهي عالمية أيضاً. وقد قال الشافعي رضي الله عنه: يجب على كل مسلم غير عربي أن يتعلم العربية؛ ليُحسِنَ بها قراءة الصَّلاة وأذكارها، ويُدرِكَ معناها، ويفهم معنى القرآن إذا سمعه، ويدرك معانيه.

وقد جرى على هذا كلُّ حكومة مسلمة حتى منتصف حكم السلطان التركي سليمان القانوني، فأبدل لغة الحكومة العربية الرسمية بلغته التركية. وكانت الحكومة تأخذ منشوراً من خليفة قرشي صوري، فأبطل ذلك وألغاه.

ج ـ الوحدة والاتِّحاد، فلا يجوز للحكومة الإسلاميَّة أن تَتَعَدَّد، ولا أقلَّ أن تكون مربوطة =

شأنُ القرآن بإزاء الحكومة كشأنه بإزاء كلِّ الأحوال الإنسانيَّة؛ لم يأتِ عليها إلا بقوانين عامَّة صالحة لأنْ تقوم عليها حكومة عادلة، وترك للأمة الخيار في الشكل الذي تختاره.

وقد انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربِّه ولم يُشِر بكلمةٍ عن الشكل الذي يجبُ أن تكون عليه الحكومة بعده، وذلك لحكمةٍ عالية، فإنَّ لكلِّ زمانٍ وحالٍ عواملَ تَضْطَرُّ الأمة للخضوع لأشكال من الحكومة تُناسبها.

= بحكومة عربية هي الأم والمرجع لها، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]. قال ﷺ: «المسلمون كالجسد الواحد» [متفق عليه، رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، عن النعمان بن بشير، بنحوه].

د ـ الشورى، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ولا يتمُّ ذلك الآن إلا بواسطة المجالس النيابية على أن لا يُرشَّح لها إلا المتخصِّص بالسياسة والإدارة وعلوم الاجتماع والمتخلِّق بالأخلاق الحسنة والإخلاص.

هـ ـ اختيار الموظفين على هذا الأساس من العلم والأخلاق والإخلاص، لا سيما بحكم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وتعليم الأولاد أكبر أمانة.

و ـ العدالة في المحاكم وسائر دواوين الحكومة، لما جاء في القرآن من آيات العدل العديدة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

ز ـ نظام الحكم الإسلامي لا يجوز فيه الملوكيّة والوراثيّة، ويجب أن يكون على أساس الجمهورية والانتخاب الصحيح العادل، كما جرى في نظام الخلفاء الراشدين، واعترضت الأمة على معاوية، حيث جعلها وراثية ولم يرضوا عملَه، وقالوا: جعلها كِسْرَويَّة. ولم يعهد أبو بكر رضي الله عنه بالخلافة إلى عمر إلا بعد أن اختبر أنَّ أكثريَّة الأمة الساحقة تؤيّده، ولم يُرشِّح عمر رضي الله عنه السِّتَّةَ للخلافة إلا بعد عِلم أنَّ أكثريَّة الأمة لا تَعدِلُ عنهم. (المؤلف).

وهؤلاء فلاسفة اليونان جَعَلوا الحكومةَ جمهورية، وبذلوا وُسْعَهم في تأييدها، ولكنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا انقلابها إلى ملوكيَّة بعد زمان قليل، وكذلك كان حال الرومانيين وغيرهم. فكان من الحكمة أن يكتفي القرآن بالتنويه بالقانون العام الذي يجب أن يكون قاعدةً للحكومة العادلة، وأن يَدَعَ لذويه حُرِّيَّة انتخاب الشكل الذي يُريدونه صالحاً لزمانهم.

ذلك القانون العام هو الشورى، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، فكلُّ حكومة لا تقوم على هذا المبدأ الأقدس فهي حكومةٌ مخالفةٌ لسُنَّة القرآن.

أقول: والشورى تكون أكثرَ تحقُّقاً في الحكومة الجمهوريَّـة، ويكون انتخابُ الرئيس على أحسن صُوَر الانتخاب.

قال المستشرق فامباري[1]: كان الإسلام ـ وما برح ـ الدينَ الفائقَ سائرَ أديان العالم شـورى وديمقراطية، الدين الذي هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشِرْعة السَّواء، فإن كان العالم قد شهد حقاً ـ منذ أول عهد العمران البشري إلى اليوم ـ حكومةً دستورية فهي لَعَمْري حكومةُ الخلفاء الراشدين.

* * *

٩) المعجزات في نظر القرآن:

وَرَدَ في الكتاب الكريم والسُّنّة ذِكرُ معجزات وكرامات حصلت على يد الأنبياء

---

(١) مستشرق مجَري، ذكر الشيخ محمد رشيد رضا في مجلة «المنار» (١٥: ٦٢٧): أنه كان أستاذاً في جامعة بودابست، كما ذكر أنه كان أستاذاً خصوصياً للسلطان السابق، وقد أقام في قصر يلدز زمناً طويلاً، وكان يطري سياسة السلطان عبد الحميد... إلى آخر كلامه فيه وفي نقده.

والمرسلين وصالحي الأمم، مثل عدم إحراق النار لإبراهيم، ومثل انقلاب العصا ثعباناً، ومثل إحياء عيسى للموتى، ومثل إتيان سليمان بعَرْش بلقيس في لمح البصر، ومثل ما وَرَدَ عن الخَضِر في سورة الكهف، ومثل حالة أهل الكهف، ومثل الذي مرَّ على القرية، إلى غير ذلك مما وَرَدَ ذِكرُه في القرآن أو في السُّنَّة.

والقول الفَصْل في هذا كلِّه: أنَّ الإنسان كما يَتسلَّط بارتقاء قوَّته العقليَّة على قُوى الكون المادِّية، فيُحْدِث من الاختراعات ما لا يخطر بالبال، فكذلك إذا ارتَقَتْ نفسُه عن السفاسف، وصَفَا قلبُه من غير الله، وكان في درجة النُّبوَّة أو الولاية، حَصَلت على يديه مُدْهِشاتٌ خارقة للعادة، يكاد لا يُصَدِّقها رائيها، فَضْلاً عن سامعها، ولكنَّ أهل البصيرة الذين لم يَستَعبِدْهم الحسُّ في دوائره الضيِّقة، يعلمون أنَّ تلك الخوارقَ صورةٌ من ذلك السُّلطان، الذي وَهَبه الله للإنسان، على الكون والكائنات، وأنه متى سلك الإنسان لِنَـيْل ذلك السلطان طريقتَه المثلى، تَوَصَّل إليه، إلا درجة النبوَّة فإنها خُتِمَت بمحمد ﷺ(١).

إذا انتهى الإنسانُ من الكمال الرُّوحانيِّ إلى حدِّ أهل القُرْب والمعرفة، وخَلُصَت قُواه الرُّوحيَّة من علائق هذا الجسد الكثيف، انكشف له الكونُ بقواه وعوالمه، ورأى أنَّ روحه في التأثير على مادَّته أقوى من يده عليها، ورأى أنَّ حواسَّه الخمس وحَوْلَه

---

(١) الإنسان ـ مهما أوتي من سلطان، ومهما حاول سلوك طريق ترقية النفس وتصفية القلب ـ لن يبلغ أن يخرق العادات والسُّنن التي وضعها الله في الأرض، وإنما ذلك فِعلُ الله تعالى على يديه، يُجريه الله تعالى لأنبيائه ورسله تصديقاً لدَعْواهم، أو يُكرم الله بها بعضَ عباده الصالحين من غير طلب منه ولا تطلُّب، وكما أنَّ النبوة نفسَها مرتبة موهوبة غيرُ مكتسبة فكذا ما يتعلق بها من معجزات وخوارق، هي أيضاً موهوبة غير مكتسبة.

الذي كان يفتخر به قبل بلوغه هذه الدرجة لا يساوي شيئاً بجانب ما له من السُّلطان بعد خُلوص روحِهِ من أسْرِ المادة.

هذه أمور لا يُجافيـها العلم، ولا ينكرها العقل، بل يُرجِّحها النـظر في أحوال الوجود.

ثم يقول فريد وجدي: «فلو أضَفْتَ إليها ما كتبناه في الفصل التمهيدي للعقيدة بالرسل، ورأيتَ أنَّ أهل أوربا اليوم قد وقفوا على حصَّة صالحة من أسرار الروح، حَصَل لك من مجموع ذلك برهان حسِّيٌّ على وجود العالم الرُّوحاني، وعلى أنه بحرُ العجائب ومُسْتَقرُّ الغرائب، وأنَّ ما يُروى عن الأنبياء من المعجزات، وعن الأولياء من الكرامات بالتواتر العلمي والنقل الصحيح، أمور حقَّة لاشِيَةَ فيها.

* * *

١٠) الولاية والكرامة في نظر القرآن:

الولاية في اللغة: القرابة والإعانة والنصر، والوليُّ: القريب والناصر والمعين. وقد أطلق الله لفظ «الأولياء» على أحبابه المقرَّبين لديه، في مواطن من القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣].

فكلُّ مؤمنٍ تقيٍّ هو وليُّ الله تعالى بحكم هذه الآية، لغةً واصطلاحاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مؤمنٍ وليُّ الله»(١)، ولكن عامَّة المسلمين يُطلقون اليوم لفظة «وليٌّ» على صنف من الناس تَصْدُر على أيديهم خوارق العادات.

---

(١) لم أقف عليه.

وقد اختلف مدلول هذه اللفظة عند كلِّ طبقة من طبقات الناس على حسب اختلاف المدارك والأفهام، حتى صارت تُطلَقُ على بعض البُلْه والمجانين. وقد توسَّعوا في نسبة الخوارق إلى هؤلاء الأشخاص حتى رفعوها عن المعجزات، وللناس بتناقل هذه الأمور ولعٌ شديد، لا يتَّفق أكثره مع الحقيقة الشرعيَّة، ونحن مُوجِزون لك مذهب القرآن:

أطلق القرآن لفظ «وليّ» على كلِّ مؤمن تقيٍّ، ولم يرد في أحاديث رسول الله ﷺ ما يزيد على هذا المعنى. أما الكرامة التي يُكرم الله بها أولياءه، فلا يشترط أن تكون من الأمور الخارقة للعادة، فإنَّ من الكرامة أن يُوفِّقه للطاعات، وأن يهديَه للكمالات، وأن يزيدَه كلَّ يوم علماً وعملاً وهدًى، وأن يهديَ به نفوساً حائرةً وأفئدةً ضالّة.

وما يُشاهَدُ لدى بعضهم من كَشْف المغيَّبات، أو تخلُّف بعض الكائنات عن طبائعها في بعض الأحوال على يديه، فذلك من الكرامات أيضاً. وهي أحوال تُلازِم بعضَ المتفرِّغين للعبادات والرياضات من أهل الفِطَرِ السليمة والنفوس الكريمة، فإنَّ الجسد متى انحَطَّ سلطانُه بواسطة الرياضة أشرق نور الروح، وظهرت دولتها، ومَنْ كانت روحُه أغلبَ عليه من جسده غلبت عليه خصائصها، وهي الحكم على المادَّة ونواميسها، فحدثت على يد ذلك الصَّالح أمور خارقة للعادة لا يريدها، وربما تَسَتَّر من أجلها. وهذا لا يُنكِره إلا من يُنكِر الروح وشطآنها وخصائصها، ومن كان كذلك فليقرأ فَصْل ما وراء المادة من كتابنا[1] «صفوة العرفان». هذا ما يُقال من أمر الولاية والكرامة على مذهب القرآن.

أما ما وراء ذلك من دفن الصالحين في مدافن خاصَّة، ورفع القِباب عليهم،

---

(١) أي: من كتاب محمد فريد وجدي، وقد صرّح المؤلف بالنقل عنه قبل صفحات.

وإيقاد السُّرُج بجانب أضرحتهم، وترتيب الخُدَّام لهم، ونَذْر النُّذر باسمهم، وتقريب القَرابين إليهم، والاستغاثة في الملمّات بهم، والتَّمسُّح بمقاصيرهم، وإعلاء قبورهم، ووضع العمائم والبراقع فوقهم، فذلك من أشدِّ مناهي الشرع وأنكرها فيه، وهي مما لم يحدث في الإسلام إلا بعد الصَّدْر الأول بقرون عديدة، وهي من أفظع البدع التي بَدَّل المسلمون بها أكرَمَ أصول هذا الدين المحفوظ في الكتاب والسُّنّة.

وقد بدأت هذه البدعة في التقلُّص عن المسلمين شيئاً فشيئاً بتأثير الكتابات التي كُتبت في هذا الشأن من أصحاب البَصَر في الدين، ونرجو أن لا يمضيَ كثير من الزمان حتى تزول.

* * *

١١) الشفاعة والتوسل في نظر القرآن:

ذكر الله سبحانه الشفاعة في كتابه الكريم مراراً، فقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، يقول ذلك ردًّا على قول الكافرين في حقِّ أصنامهم: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقال تعالى تَيئيساً للّذين يعتمدون على الشفاعة: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٦].

اعتاد الناس من قديم الزمان على الاعتماد على صُلحائهم في الشفاعة لهم عند الله، فكانوا يَسْتسلهون كلَّ أنواع الإسراف، ارتكاناً على هذه العقيدة، فقطع الله حُجَّتهم جميعاً بهذه الآية: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، فإذا كان الله سبحانه يخاطب الصحابة رضي الله عنهم بقوله: ليس أمرُنا بأمانيِّكم، فهل بعد هذا لمسلم أن يعتمد على أُمنيّة أو يرتكن على خيال.

نعم، وَرَدَ أنَّ رسول الله ﷺ يشفع للمُذنبين[١]، فإنْ صدق هذا الحديث[٢]، فلن يشفع إلا لمن يأذن الله له بالشفاعة لهم ممَّن يستحقُّون العفو[٣]، على مقتضى العدل الإلهي، بدليل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] الآية.

وعليه، فروح الحق هو ما قاله رسول الله ﷺ لابنته: «اعملي يا فاطمة، فإني لا أُغني عنك من الله شيئاً»[٤].

وما جاء في القرآن من القانون الأساسي، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨][٥].

---

(١) شفاعته ﷺ للمذنبين ثابتة، وأحاديثها متواترة.

(٢) روى أحمد (١٣٢٢٢)، وأبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥) وقال: حسن صحيح غريب، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».
وروى مسلم (١٨٣) عن أبي سعيد الخدري حديثاً طويلاً فيه ذِكرُ عدّة شفاعات للمذنبين، وفيه أن الله تعالى يقول: «شفعت الملائكة، وشفع النبيُّون، وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيُخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط...».
والأحاديث في هذا الباب كثيرة متواترة، لا يقال في مثلها: «إن صدق الحديث».

(٣) قوله: «ممن يستحقون العفو» قد يُحمَل على غير الكافر، فيكون صواباً، لأن الله أخبر أنه لا يغفر أن يُشرَكَ به، وأن الكافرين لا تنفعهم شفاعة الشافعين. وقد يُحمَل على من يستحقُّ العفو من عصاة المؤمنين، فلا يكون صحيحاً، لأن الشفاعة ـ أو بعض أنواعها على الأقل ـ هي لمن يستحق التعذيب، لا لمن يستحق العفو، كما ورد في الحديث: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».

(٤) متفق عليه، رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) الشفاعة لغة: الوسيلة والطلب. وعُرْفاً: سؤال الخير للغير. وقيل: إنها مشتقة من الشفع الذي هو ضد الوتر، فكأن الشافع ضمَّ سؤاله إلى سؤال المشفوع له. والأحاديث الواردة في الشفاعة =

= صحيحة، والشفاعة لمن مات على التوحيد ثابتة إذا حصلت شروطها الثلاثة، وهي: رضاء الله عن الشافع، ورضاه عن المشفوع له، وإذن الله للشافع أن يشفع. قال الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

وأما الكفار فهم مخلَّدون في النار، إلا أنه قد يخفَّف العذاب عن بعضهم، كما في شفاعته ﷺ لعمِّه أبي طالب، ففي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري: أنه سمع النبي ﷺ وذُكِرَ عنده عمُّه فقال: «لعلَّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعَل في ضَحْضاح من النار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه». رواه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ويدل لدخول جميع الـمُوحِّدين ما في «الصحيحين» «صحيح البخاري» (٦٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٩) واللفظ له. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلِّ نبي دعوةٌ مستجابة، فتعجَّل كلُّ نبي دعوته، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة ـ إن شاء الله تعالى ـ من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً».

وقال النبي ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، رواه عن أنس رضي الله عنه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥) والحاكم (١: ١٣٩) وصحَّحه ووافقه الذهبي.

أما الكفار فهم مخلدون في النار، كما يدل له قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، وأما من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمـان فإنه يخرج من النار إن دخلها كمـا يدل له عموم الأحاديث.

والشفاعة ثابتة للأنبياء والرسل والملائكة والشهداء والصالحين على اختلاف مراتبهم عند الله تعالى، والأدلة على ذلك كثيرة، منها: ما في «مسند الإمام أحمد» (٢٢٢١٥): «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثلُ الحيَّين ـ أو مثلُ أحد الحيَّين ـ ربيعة ومضر» عن أبي أمامة رضي الله عنه. وهذا القَدْر من هذا الحديث صحيح بطرقه وشواهده.

ومنها: ما ثبت في «سنن أبي داود» (٢٥٢٢) من أن «الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته» عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

والشفاعة ـ كما تقدم ـ أنواع، ومن أهمها وهي أعظمها على الإطلاق: شفاعة نبينا ﷺ لأهل =

أما التوسُّل بجاهِ النَّبيِّ ﷺ فلم يَرِد فيه حديثٌ إلا من طريق الآحاد، ولا أثر لـهذا الأمر في القرآن، ولا في السُّنّـة المتواترة[١]، ولم يرد على ألسنة الصحابة، كما تدلُّ عليه الأدعية المأثورة عنهم من طريق صحيح[٢].

= الموقف لفصل القضاء، وهي المقام المحمود الذي وعده الله تعالى يوم القيامة، قال سبحانه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

ومنها: الشفاعة لتخفيف العذاب عن بعض الكفار، وهذه أيضاً خاصة بالنبيّ ﷺ.

ومنها: الشفاعة فيمن استوجبوا النار بأعمالهم فلم يدخلوها بسبب الشفاعة.

ومنها: الشفاعة في رفع درجات المشفوع لهم.

(١) مسألة التوسُّل مسألة فقهيّة تدور بين الجواز وعدمه، فلا يُشترط فيها التواتر كسائر الفقهيّات، ويكفي فيها خبر الواحد الصحيح أو الحسن، بل قد يستدلُّ في الفقهيات بالحديث الضعيف، لكن بقرائن.

(٢) جاء في «الموسوعة الفقهية الكويتية» ما كتبه شيخنا عبد القادر العاني رحمه الله تعالى: «التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته: اختلف العلماء في مشروعيّة التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته كقول القائل: اللهم إني أسألك بنبيك أو بجاه نبيك أو بحق نبيك، على أقوال:

القول الأول:

ذهب جمهور الفقهاء (المالكية والشافعية ومتأخِّرو الحنفية، وهو المذهب عند الحنابلة) إلى جواز هذا النوع من التوسل، سواء في حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته». ونقل عدداً من أقوال أصحاب المذاهب وأدلتهم، ومنها:

«حديث الرجل الذي كانت له حاجة عند عثمـان بن عفان رضي الله عنه: روى الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٣١٠) والبيهقي أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في زمن خلافته، فكان لا يلتفت ولا ينظر إليه في حاجته، فشكا ذلك لعثمان بن حنيف، فقال له: ائت الميضأة فتوضأ، ثم ائت المسجد فصَلِّ، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجّه إليك بنبيك محمد نبيِّ الرحمة، يا محمد إني أتوجّه بك إلى ربك فيقضي لي حاجتي، وتذكر حاجتك، فانطلق الرجل =

وقد ألَّف المؤلفون في القرن الأول كتباً وتفاسير، وكذلك في القرن الثاني، فلم نجد لأمر التوسُّل بجاه النبيِّ ﷺ أثراً في كلامهم.

والذي نراه نحن: أنَّ الأَوْلى اجتناب الأمور المشكوك فيها احتياطاً للدين، فإنَّ الذي يفسد الأديان هو التَّساهل في أصولها، وإنْ تركنا التوسُّل فلم نَجْنِ على الدين جنايةً، لأنها ليست بفرض علينا، ولا ممَّا يتوقف عليه فَرْضٌ ولا سُنّة. انتهى ما نقلتُه من «صفوة العرفان» بتصرُّف.

* * *

= فصنع ذلك، ثم أتى باب عثمان بن عفان رضي الله عنه، فجاء البوّاب فأخذ بيده، فأدخله على عثمان رضي الله عنه، فأجلسه معه وقال له: اذكر حاجتك، فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال له: ما لك من حاجة فاذكرها، ثم خرج من عنده فلقي ابن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً ما كان ينظر لحاجتي حتى كلّمتَه لي، فقال ابن حنيف: والله ما كلّمتُه، ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بَصَره...

قال المباركفوري: قال الشيخ عبد الغني في «إنجاح الحاجة»: ذكر شيخنا عابد السندي في رسالته: والحديث ـ حديث الأعمى ـ يدل على جواز التوسل والاستشفاع بذاته المكرَّم في حياته، وأما بعد مماته فقد روى الطبراني في «الكبير» [(٨٣١٠) وسلف قريباً] عن عثمان بن حنيف: أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان.. إلى آخر الحديث.

وقال الشوكاني في «تحفة الذاكرين» ص٢١٢: وفي الحديث دليل على جواز التوسل برسول الله ﷺ إلى الله عز وجل، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى، وأنه المعطي المانع، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن». وتنظر بقية الأقوال ومناقشتها في «الموسوعة الفقهية».

كشّاف لبعض المواضيع المهمة التي جاءت في خلال هذا التفسير

سورة الفاتحة

١- لم أتكلّم عن البسملة إلا في سورة الفاتحة وبصورة بسيطة[١].

سورة البقرة

١- لم أتكلّم عن الحروف التي ابتُدئت بها بعضُ السور إلا في أوّل سورة البقرة، واكتفيت بذلك.

٢- الكلام عن معنى التقوى، عند قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وكذلك في آخر سورة آل عمران [الآية: ٢٠٠].

٣- الكلام عن إبليس، عند قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤].

٤- الكلام عن الشفاعة، عند قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي سورة يونس عند قوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]، وفي سورة طه عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

---

(١) الأصح أن يقول: بصورة موجزة مختصرة، لأنّ البَسْطَ يعني المد والإطالة.

٥ـ الكلام على ما يزعم بعض أعداء القرآن من عدم مراعاة الترتيب في بعض فصول القصص في القرآن، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [البقرة: ٦٠].

٦ـ الكلام عن وَحْدة الأمة وتكافلها، عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦].

٧ـ الكلام على أنَّ ما حُكي في القرآن عن خطأ اليهود، يتناول غيرَهم ـ حتى المسلمين ـ إذا هم أجرموا بذلك الإجرام، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [البقرة: ٦٢].

٨ ـ الكلام عن كيفيَّة مكافأة الإنسان أو مجازاته على أعماله، عند قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ٩٨].

٩ـ الكلام عن مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾، عند قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ ..﴾ [البقرة: ١٤٣] إلخ.

١٠ـ الكلام عن أنَّ رغبة الأنبياء لا تعدو رغبةَ الله سبحانه، وعلى انطواء روح النَّبيِّ ﷺ على الدين كلِّه بصورة إجماليَّة قبل أن ينزل عليه الوحي بتفصيله، عند قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ..﴾ [البقرة: ١٤٤] الآية.

١١ـ الكلام على حقيقة الدعاء، في هذه الآية [١٤٤]، وفي آخر آية سورة البقرة [٢٨٦].

١٢ـ الكلام على إقامة الصَّلاة، عند قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وفي غير هذه الآية أيضاً من القرآن.

١٣ـ الكلام على عجائب الكون في خَلْق السماوات، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ [البقرة: ١٦٤].

١٤- الكلام على حكمة الصيام، عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ...﴾ [البقرة: ١٨٣].

١٥- الكلام عن معنى قُرب الله سبحانه، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

١٦- الكلام عن حكمة القتال، عند قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦].

١٧- بيان حِكَم بعض ما اشتملت عليه الصَّلاة، عند قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗا﴾ [البقرة: ٢٣٩].

١٨- الكلام على قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقصَّة أبي الدَّحْداح في ذلك.

١٩- الكلام على طبيعة الإنسان واستعداده للخير والشرّ، عند قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم ..﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وعند قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٢٠- الكلام عن كيفيَّة الدعاء الصحيح ونتائجه، في آخر سورة البقرة [٢٨٦].

سورة آل عمران

١- الكلام على جواز مُخالفة المسلمين للكفار، عند قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

٢- الكلام على كلمة التكوين، عند قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

٣- الكلام على أنَّ النِّعَمَ والمصائب ليست جزاءً عن الأعمال بالمعنى المتعارف،

وعلى أنه يجب على الأمة أن تُعِدَّ لكلٍّ علم أو عمل مهم رجالاً كثيرين، عند قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

٤ـ الكلام على سنن الله العادلة في الحياتين على المؤمن والكافر، عند قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ويأتي مِثلُه في سورة هود [الآية: ١٥]، وسورة الإسراء [الآية: ١٨].

٥ـ الكلام على التقوى في آخر السورة [الآية: ٢٠٠].

سورة النساء

١ـ الكلام على المكّي والمدني قبل ابتداء السورة.

٢ـ الكلام على أنَّ الشرَّ أمرٌ يصدر من انحراف الإنسان عن قوانين الفطرة، عند قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

٣ـ الكلام على مواضيع القرآن بصورة مُجمَلة، عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٤ـ الكلام على ما ظاهِرُه مخاطبةُ إبليس للباري عزَّ وجلَّ، عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٨].

٥ـ الكلام على الأنبياء عند قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

سورة المائدة

١ـ الكلام على المَسْخ، عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠].

٢ـ الكلام على الشرائع وتدرُّجها في النزول بحسب تدرُّج النوع الإنساني، عند

قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].

سورة الأنعام

١ـ الكلام على أقسام الغيب، عند قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

٢ـ صورة التوبة الصحيحة، عند قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

٣ـ الكلام على استثناء المشيئة من النَّفي المؤبَّد، عند قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وجاء في غير هذه السورة أيضاً.

سورة الأعراف

١ـ الكلام على الميزان، عند قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨].

٢ـ الكلام على مُخاطَبة الشيطان، عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وقد سبق مِثلُه في سورة البقرة [الآية: ٣٤]، والنساء [الآية: ١١٨].

٣ـ الكلام على ستَّة الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض، والكلام على العَرْش والاستواء، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٤ـ الكلام على المَسْخ، عند قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

٥ـ الكلام على طبيعة الإنسان وخَلْقه، عند قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

سورة يونس

١ـ الكلام على الشفاعة، عند قوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]، وسبق مِثْلُه في البقرة [الآية: ٢٥٥] وغيرها.

٢ـ الكلام على أنَّ العقاب أثرٌ طبيعيٌّ للكفر والضلال، والذنوب والمعاصي، كما يحدث المرض للأبدان من مخالفة قوانين الصِّحّة، وقد ذُكِرَ هذا عند قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ...﴾ [يونس: ٤].

سورة هود

١ـ الكلام على الحكمة في التَّحدِّي بعشر سُوَر مِثلِه مُفتَريات، عند قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

٢ـ الكلام على إعطاء الله الدنيا لكلِّ مَنْ يتعاطى الأسباب المؤدِّية لها؛ من مؤمن وكافر، وبَرٍّ وفاجر، وحرمان مَن يقعد عن ذلك ولو كان مؤمناً تقياً، وذلك عند قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ [هود: ١٥]، وسبق مِثْلُه في سورة آل عمران [الآية: ١٤٥]، وسيأتي مِثْلُه في سورة الإسراء [الآية: ١٨].

٣ـ الكلام على قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]، وسيأتي مِثْلُه في سورة الحِجر [الآية: ٧١].

٤ـ الكلام على قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٢ – ٨٣].

٥ـ الكلام على أنَّ الإنسان مختارٌ في تَصرُّفاته، وأنه ابن التربية والمحيط، جاء ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]، كما جاء مِثلُ ذلك في غير هذه السورة.

سورة يوسف

الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ..﴾ [يوسف: ٤٠].

سورة الحِجْر

١ـ الكلام عن الشُّهُب ومن أين تكون؟ وعن رَجْمها للشياطين، عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الحجر: ١٦].

٢ـ الكلام عن الفَرْق بين الروح والحياة، عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩].

٣ـ الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، وقد سبق مِثلُه في سورة هود [الآية: ٧٨].

سورة الإسراء

١ـ الكلام عن العدل الإلهيِّ الدقيق، عند قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ [الإسراء: ١٨]، وقد سبق مِثلُه في سورة هود [الآية: ١٥] وآل عمران [الآية: ١٤٥].

٢ـ الكلام على وجوب الإتقان في سائر الأعمال الدينيَّة والدنيويَّة، عند قوله تعالى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥].

٣ـ الكلام على خطاب الله للشيطان وما يُوهم ظاهرُه من أنه أمرٌ له بإغواء البشر،

عند قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم ..﴾ [الإسراء: ٦٤]، وقد سبق مِثلُه أيضاً في سورة البقرة [الآية: ٣٤]، وسورة النساء [الآية: ١١٨]، وسورة الأعراف [الآية: ١٧].

سورة الأنبياء

١ـ الكلام على اتِّحاد الشرائع في الأُسُس الأوَّليَّة، عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

٢ـ الكلام على الميزان، عند قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقد سبق أيضاً في الأعراف [الآية: ٨].

٣ـ الكلام على بناية بيت المقدس، عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٨٢]، ومِثلُه في سورة صٓ [الآية: ٣٧].

٤ـ الكلام عن يأجوج ومأجوج، عند قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ..﴾ [الأنبياء: ٩٦].

٥ـ الكلام على ترتيب الأنبياء، جاء في آخر السورة.

سورة الحج

الكلام عن الرُّوح، وعن اتِّصالها بالبدن، وعن مُسْتَقرِّها بعد مُفارقتها له، عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]، وسيأتي مِثلُه في سورة الواقعة [الآية: ٩٦].

سورة الفرقان

الكلام عن امتناع اختلاط المياه العَذْبة بالمالحة، عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وسيأتي مِثلُه في سورة الرحمن [الآية: ١٩].

سورة النمل

الكلام عن آيات موسى التِّسْع، عند قوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ [النمل: ١٢].

سورة الأحزاب

١ـ الكلام عن وَجْه جَعْل هذه الشريعة المطهَّرة خاتمةَ الشرائع، عند قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

٢ـ الكلام عن زوجات النَّبيِّ ﷺ، بعد قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

سورة فاطر

الكلام على أنَّ الإحاطة بالعلوم وسيلةٌ للنظر في آيات الله، ودلالتها على وجوده ووحدانيَّته وسائر صفاته، وهذا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

سورة يسٓ

الكلام على الخسوف، وتأييد الغزالي لرأي الفلاسفة فيه، عند قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يسٓ: ٤٠].

سورة الزمر

١ـ الكلام على كيفيَّة الإعادة للأجسام، عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وسيأتي مِثلُه في الواقعة [الآية: ٦٣].

٢ـ الكلام على أنَّ اللغة العربية تفوق سائر اللغات، ولذلك اختيرت للقرآن

العظيم، عند قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، وسيأتي مِثلُه في سورة الزخرف [الآية: ٣].

سورة المؤمن

١ـ الكلام بصورة إجماليَّة عن حياة البرزخ، وما يكون فيها من النعيم والعذاب، عند قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

٢ـ الكلام على أنَّ مُعارَضة بعض عظماء قريش للنبيِّ ﷺ، إنما هي كِبْر وحَسَد، عند قوله تعالى: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [غافر: ٥٦].

سورة الشورى

١ـ الكلام على أنَّ نَيْل الآخرة والدنيا لم يكن بالأمانيّ، ولكنْ بتعاطي الأسباب، وذلك عند قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وسبق مِثلُه في سورة آل عمران [الآية: ١٤٥]، وسورة هود [الآية: ١٥]، وسورة الإسراء [الآية: ١٨].

٢ـ الكلام على أنَّ الشرَّ والمصائب إنما هي نتيجةٌ سلبيَّة ناشئة من الانحراف عن سُنن الله، عند قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

سورة الزخرف

١ـ الكلام على الغاية من إنزال القرآن باللغة العربية، عند قوله تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، وسبق مِثلُه في الزُّمَر [الآية: ٢٨].

٢ـ الكلام على مُمَيِّزات القرآن عن الكتب السماويَّة، عند قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤].

٣ـ الكلام على إفساد الإنسان طبيعتَه بمفاسد التربية وسوء العشرة، عند قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقد مرَّ الكلام بمِثلِه في كثير من السُّوَر وفي سورة البقرة [الآية: ٢٥٣- ٢٨٦].

٤ـ الكلام على أنَّ نَشْرَ هذه الشريعة مَنُوطٌ بالعرب، وهم المسؤولون عنه، عند قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

سورة الذاريات

١ـ الكلام على إتقان خِلْقة الإنسان وعجيب تركيبه، عند قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

٢ـ الكلام على ما تُؤدِّي إليه عبادة الله من إكمال وجمال، وتهذيب في الأقوال والأفعال، عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

سورة الرحمن

الكلام على النساء في الجنَّة، عند قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وقد مرَّ مِثلُه في سورة البقرة عند قوله: ﴿أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ ﴾ [الآية: ٢٥].

سورة الواقعة

١ـ الكلام عن البعث وإعادة الجسم من عَجْم الذَّنَب، عند قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣]، وقد مرَّ مِثلُه في غير هذه السورة.

٢ـ الكلام عن البرزخ والرُّوح، في آخر السُّورة [الآية: ٩٦]، وقد مرَّ مثله في سورة الحج [الآية: ٧].

سورة الحديد

الكلام على ما في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١] من بلاغة الاستعارة والتمثيل في الحثِّ على الإنفاق والهزِّ لذلك، وعن قصَّة أبي الدَّحْداح في الموضوع، وقد سَبَق مِثْله في سورة البقرة [الآية: ٢٤٥].

سورة الملك

الكلام على النيازك، عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقد سَبَق مِثْلُه في سورة الحِجْر [الآية ١٦]، والصَّافَّات [الآية: ١٠].

سورة المعارج

الكلام على أنَّ الإنسانَ إنسانٌ بروحه لا بجسمه، وأنَّ الجسم إنما خُلِقَ ليُساعِدَها فيما يؤهِّلها لدخول الجنَّة من الأعمال والأقوال التي بينَّها سبحانه في كتبه المنزَّلة على رسله، وذلك عند قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [المعارج: ٣٨].

سورة نوح

١ـ الكلام على الفَرْق بين ضياء الشمس ونور القمر، عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

٢ـ الكلام على أنَّ إعادة الإنسان شبيهةٌ بالدورة الدمويَّة والدورة المائيَّة، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧ ـ ١٨]، وسيأتي مِثْلُه في سورة المُرْسَلات [الآية: ٧].

٣ـ الكلام على عَـبَدة الأوثان وأصنافهم ووجهة اعتقاداتهم فيها، عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ...﴾ [نوح: ٢٣].

سورة الجن

١ـ الكلام على خِلْقة الإنس والجنّ والمَلَك، عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وكذلك الكلام على أنه ﷺ لم يَرَ الجنَّ، ولكن أُوحي إليه بذلك.

٢ـ الكلام على أنَّ الخير من الله والشرَّ من الإنسان، عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ..﴾ [الجن: ١٠]، وسبق مِثلُه في سورة النساء [الآية: ٧٩].

٣ـ الكلام على أنه ﷺ مبعوثٌ إلى الإنس والجنّ، وعلى أنَّ الجنَّ عقلاء مخاطبون، ويفهمون لغاتِ البشر، عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١٣].

سورة الدَّهْر

١ـ الكلام على اختيار الإنسان في هدايته وضلاله في أقواله وأفعاله، واستعداده لأنْ يتأثّر لذلك بما يصادفه من نوع التربية والتهذيب والبيئة والمخالطة التي تتهيّأ له، وذلك عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وقد مرّ مِثلُه في كثير من السور.

٢ـ الكلام على أنَّ طبيعة الإنسان هذه مبنيّةٌ على مشيئة الله تعالى له ذلك بحسب الحكمة، وعليه، فيكون الخيرُ الصادر منه مُسبَّباً عمّا خلقه الله عليه من سلامة الفطرة، والشرُّ الصادر منه إنما هو مُسبَّب عن تحريفه لطبيعته وإفساده لها، وذلك عند قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

سورة الـمُرسَلات

الكلام على الدورة المائيَّـة ومشابهتها لبعث الإنسان، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧]، وسَبَق مِثلُه في سورة نوح [الآيتان: ١٧-١٨].

سورة التكوير

الكلام على أنَّ الإنسان مُسْتَـعِدّ للخير بطبيعته، وللشرِّ بتحريفه لها وإفسادها بمفاسد التربية والتعليم، عند قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، وسبق مِثلُه في سورة الدهر [الآية: ٣]، والشورى [الآية: ٣٠]، والتغابن [الآية: ١١]، والحديد [الآية: ٢٩]، وغيرها.

سورة الانشقاق

الكلام على كيفيَّة القيامة، عند قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

سورة الشمس

الكلام على استعداد الإنسان للخير والشرّ، عند قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]، وجاء مِثلُ هذا في كثير من السُّوَر، وفي سورة ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ أيضاً، ولا سيَّما عند قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢].

سورة الليل

الكلامُ على حُجَّة الله البالغة على الإنسان، وأنَّ الذنب عليه إذا تردَّى إلى الضلال والهلاك، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٢-١٣]، وسبق مِثلُه في سورتي الدهر [الآية: ٣]، والتكوير [الآية: ٢٨]، وغيرهما في كثير من السور.

سورة اقرأ

بيان الغِنى الممقوت والغِنى الممدوح، عند قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦].

سورة الزلزال

الكلام على حبوط أعمال الكافر واستفادته بعض الاستفادة من أعماله الحسنة، عند قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].

سورة القارعة

الكلام على الميزان في آخر السورة [الآيات: ٦-٨]، ومِثلُه في الأعراف [الآية: ٨]، والأنبياء [الآية: ٤٧].

سورة التكاثر

١ـ الكلام على مُخاطبة الحاضر من الأمة بما كان من الغائب الماضي منها، عند قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢] وقد مرَّ مِثلُه في سورة البقرة [الآية: ٩٢-٩٣] وغيرها.

٢ـ الكلام على قاعدة إضافة الموصوف إلى الصفة، مثل «صلاة الأولى»، تلك الإضافة التي تُسمَّى إضافة «مسجد الجامع».

سورة العصر

الكلام على معنى الإيمان، وعلى معنى الأعمال الصالحة، وعلى الصبر، عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

سورة الهُمَزة

الكلام على حقيقة النار، عند قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٦].

سورة الإخلاص

الكلام على معنى الصَّمَديَّة والتوكُّل على الله، عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢].

* * *

فهرس محتويات المجلد الأول

الموضوع	الصفحة
تصدير بقلم الدكتور محمد عبد العزيز النجيفي	أ - و
كلمة الشيخ إبراهيم النعمة	ز - ك
مقدمات المعتني بالتفسير مجد مكي	٥-٤٨٢
بين يدي الكتاب	٥-١٢
المدخل الأول: التعريف بالمؤلف والتفسير	١٣ - ٣٧
المدخل الثاني: تأثر الشيخ رشيد الخطيب بمدرسة محمد عبده ورشيد رضا، ونظرات في تفسيره	٣٩ - ٢٩٩
المدخل الثالث: أجوبة فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان	٣٠١-٤٨٢
مقدِّمة المفسر الشيخ رشيد الخطيب........................	٤٨٥-٧٩٨
المقدِّمة الأولى: في الكلام على نزول القرآن، ومكيِّه ومدنيِّه، ومُجْمَلِ هدفِه وأغراضِه، وخصائصِه في مجاميعه	٤٩٩
المقدِّمة الثانية: في تفصيل خصائص القرآن في أساليبه ومفرداته وتراكيبه، من الحذف والإيجاز، وأنواع الإعجاز........................	٥٠٦
لاحقة للمقدمة الثانية: في التفسير لبعض آيات تتكرر أمثالها في القرآن أو هي من الآيات المهمة للبيان........................	٥٥٦
المقدمة الثالثة: في معاني القرآن الدقيقة ومدلولات تراكيبه الواسعة البعيدة المرمى	٦٦٣

الموضوع الصفحة

المقدمة الرابعة: فيما يُوهِمُ ظاهرُه الاختلافَ في آيات القرآن ٦٧٧
المقدمة الخامسة: في أنواع الخطاب في القرآن ٦٨٠
المقدمة السادسة: في أنواع المجازات في القرآن ٦٨٦
المقدمة السابعة: القرآن والعلوم الكونيَّة فيه ٧٠٣
المقدمة الثامنة: القرآن وغرائز الإنسان ٧٠٦
المقدِّمة التاسعة: أثر القرآن في النفوس السليمة من الانحراف ٧١١
المقدمة العاشرة: القرآن والأديان السماوية الصحيحة وأمهات أصولها الثابتة ٧١٣
المقدمة الحادية عشرة: في كيفيَّة نزول القرآن وترتيبه وقراءته بلهجات العرب وتجويده ٧١٥
المقدمة الثانية عشرة: القراءات السبع في القرآن ٧٣٠
المقدمة الثالثة عشرة: القرآن والنسخ وهي مُلخَّصة ممَّا قالَه محمد عبده وغيره ٧٤٨
المقدِّمة الرابعة عشرة: في إجمال بعض مواضيع القرآن المتعلِّقة بالإنسان ومصالحه دنيا وأخرى ٧٥٤
مقدمات أخرى من «صفوة العرفان في تفسير القرآن» ٧٥٧
كشاف لبعض المواضيع التي جاءت في هذا التفسير ٧٨٣

* * *

تفسير القرآن العظيم

المسمّى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

تأليف العلامة الشيخ

رشيد الخطيب الموصلي

١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلد الثاني

تفسير سورة الفاتحة إلى نهاية سورة آل عمران

اعتنى به وقدم له

مجد أحمد مكي

أروقة

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّــان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدِّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلامُ علىٰ محمدٍ وآله أجمعين.

وبعد،

فإني أتكلَّم مجمِلاً عن الديانات السماويَّة وتدرُّجها حتىٰ انتهت إلىٰ أوجها العالي بالديانة الإسلامية، ونزول القرآن العظيم، وشأنه الجليل، ومنَّة الله سبحانه به علىٰ البشر أجمعين.

ابتدأتِ الدياناتُ السماويَّة منذ هبوط آدم إلىٰ الأرض، قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩].

وقد تدرَّجت هذه الشـرائع بتدرُّج رُقيِّ الإنسان في الوعي والعلم والمعرفة، وكانت الشريعةُ اللاحقةُ ناسخةً للشريعة السابقة، فإذا ظهرت الثانية بطل حكم الأولىٰ؛ لاندماجها فيها والزيادة عليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ولا زالت هذه الشرائع تتدرَّج علىٰ هذا الأساس وينسخ بعضها بعضاً، حتىٰ انتهىٰ الإنسان إلىٰ أوَّل درجة الكمال في العلم والمعرفة، فأنزل الله القرآن ختاماً للشرائع كلها، واندماجها كلها فيه والزيادة عليها زيادةً تكفي لصالح البشر ما دام في الوجود، وضمَّنه كل ما يحتاجه البشر من الشرائع، وجعله عالمياً ناسخاً لما قبله لاندراجها فيه، ولم يبق شريعة سماويَّة سواه، ولكن نؤمن بكلِّ الشرائع السماويَّة السابقة وإن نُسخت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٤ – ٨٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ أنه دينٌ عالميٌّ عظيم.

لذلك كان ابتداءُ نزول هذا القرآن حَدَثاً عظيماً في تاريخ البشر، اهتمَّت به السماوات والأرض، واحتفلت بليلة نزوله الملائكةُ حتىٰ مطلع الفجر، وسُمِّيت بليلة القدر، ونزلت فيها سورة القدر من القرآن إيذاناً بعظَمة هذا الفرقان، ولا شك أنه أعظم من كلِّ الأكوان، لأنها مخلوقات لله، وهذا كلامُ الله الأزليُّ الأبديُّ وتعاليمُه العظيمة للناس، وتوجيهاتُه لهم في نَـيْل سعادة الدارين، كيف لا وهو يحوي أكمل الشرائع التي أنزلها الله علىٰ البشر.

وقد تكفَّل الله بحفظها لأنها خاتمة الشرائع تصلح لكلِّ ما يحتاجه الإنسان من هذا العلم الضروري إلىٰ يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وهو يدعو إلىٰ أعلىٰ الكمال الخُلُقي، وأصحِّ الكمال الاجتماعي، وأرفقِ الكمال السياسي، يجعل الإنسان سيِّداً لنفسه، عبداً لله وحده لا يملكه سواه، كما يجعله نافعاً لنفسه ولأهله ولقومه وللناس أجمعين.

فيه آدابٌ عالية وشرائعُ راقية، شرعها العليم الخبير لتقوم بها معاني الإنسانية والعدالة الاجتماعية، وتُنالُ بها السعادةُ في الدارين، ويحافظ بها الإنسان علىٰ بُرجه العالي، ولا ينحدر إلىٰ حضيض البهيمية السافل.

فهذا القرآن يغرس في الطِّباع ثقافة روحيةً سامية، ويُصوِّر للإنسان آفاقَ كمال الإنسانية، ويهديه لمنالها، ويُدرِّبُ روحَه لتكون في الآخرة سعيدة، وتعيشَ في الدنيا عيشة رغيدة. كما نجد ذلك في تاريخ صدر الإسلام الذي يشهد له الخاص والعام.

وهذا القرآن يقنعك طابَعُه بأنه تنزيلٌ من حكيم حميد؛ فهو مُعجِزٌ بمعانيه وعلومه وتراكيبه وأساليبه واختيار مفرداته وجزالة ألفاظه وعذوبة أسلوبه وسلاسته، علىٰ ما فيه من حلاوة، وما عليه من طَلاوة، يُحدِّد الغرضَ تحديداً جامعاً مانعاً، ويتَّسع للمفاهيم اتِّساعاً واسعاً، ويَسْلك في طرق الإيجاز مَسَالك عجيبة، فيحذف من أركان الكلام ما لا يستقيم كلام البشر بدونه، ولكنه في القرآن واضح فصيح، سديدٌ صحيح، يؤدِّي المعنىٰ بوضوح وجلاء، وقوَّة وبهاء، وسَعَة وسخاء.

وإذا نظرتَ إلىٰ ما فيه من التَّعاليم والإرشادات، وجدتَها لا يحيد عنها إلا مَنْ حاد عن الصواب، ولا يمكن للإنسان بصفته إنساناً أن يُهمِلَ إرشادَ هذا الكتاب؛ لأنه

كتاب الإنسانية، ولا إنسانية بدون تعاليمه. وطريقتُه في الدعوة إلىٰ ذلك تستقرُّ في النفوس، وتستمرئُها العقول، وتَنْفُذُ إلىٰ أعماق القلوب، لا تراه يأمر بشيءٍ والعقل لا يُسلِّم فيه، ولا ينهىٰ عن شيء يَسْتَسيغه الخُلُق النزيه.

علىٰ نفسِهِ فليَبْكِ مَنْ ضاعَ عُمرُهُ وليسَ له فيهِ نَصيبٌ ولا سَهْمُ[1]

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

* * *

(١) البيت لابن الفارض، أبي القاسم عمر بن علي بن مرشد، الحمويِّ ثم المصريِّ، (٥٧٦ - ٦٣٢هـ)، وهو شاعر الوقت، قال الذهبي في «تاريخ الإسلام»: وديوان شعره مشهور، وهو في غاية الحسن واللطافة والبراعة والبلاغة، لولا ما شانَهُ بالتصريح بالاتحاد الملعون في ألذِّ عبارة وأرقِّ استعارة، كالفالوذج سَمُّهُ سُمُّ الأفاعي. «تاريخ الإسلام» (١٤: ٧٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١٦: ٢٦٥)، والبيت في «ديوانه» (ص ٩).

أثر هذا القرآن في المجتمع الذي يسود فيه

في أوّل عهد أبي بكر عُيِّن عمرُ رضي الله عنهما قاضياً علىٰ المدينة، فمكث سنةً لم يراجعه أحد، فطلب من أبي بكر أن يقيله، وقال: «ليس لي حاجة بين قوم عرف كلُّ واحد ما له وعليه، وأحبَّ كلٌّ منهم لأخيه ما يحب لنفسه، إذا غاب أحدهم تفقَّدوه، وإذا مرض عادوه، وإذا افتقر أعانوه، وإذا احتاج إلىٰ أمر ساعدوه، وإذا أُصيب واسَوْهُ وضَمَّدُوه، دينُهم النصيحة، وخُلُقهم الأمر بالمعروف والنَّهيُ عن المنكر، فَفيمَ يختصمون؟».

هذا هو المجتمعُ الذي يُكوِّنه هذا القرآن، إذا تمسَّك أهله به وانطبعوا عليه، فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال؟! وهل يُريد الإنسان من هذه الحياة إلا أن تسود في مجتمعه هذه الخصالُ؟! وهل الإنسانيَّة والثقافة الصحيحة إلا هذه الأعمال؟! ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فلْينظر أربابُ العقول والألباب، هذه هي المدينة الفاضلة التي كان يتخيَّلها الرومان واليونان، قد أصبحتْ أمراً واقعياً عند المسلمين في صدر الإسلام، فضيَّعناها وأضعنا أنفسنا، وأصبحنا في حالة ذِلَّةٍ وهوان[١].

---

(١) تنبيه:

يجوز لهذا التفسير أن يترجم لأيِّ لغة كان بشرط أن ينفرد بالترجمة دون آيات القرآن؛ وذلك لأمرين: =

= **الأول**: أن القرآن معجز بألفاظه وتراكيبه، وحذفه وإيجازه، وتقديمه وتأخيره، وإطلاقه وتقييده، وحَصْره وإرساله، بحيث لا يمكن للعربي أن يأتي بسورة صغيرة من مثله، كسورة ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، أو سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، علىٰ صغرهما.

وقد تحدَّىٰ القرآن العرب علىٰ فصاحتها أن تأتي بأقصر سورة من مثله، فعجزوا ولم يحاول أحد منهم أن يفعل ذلك لخوف الفضيحة.

فكيف يُترجَم إلىٰ لغة أخرىٰ؟! ذلك أمر محال، ومن تصدَّىٰ له وترجمه لا يعرف أنه أصبح مهزلة عند من يعرف، يُضرب به المثل في الاستهزاء والسخرية. فترجمة القرآن إلىٰ لغة أخرىٰ هي من الألاعيب والسخريات.

ولكن يجوز أن يفسَّر تفسيراً بأيِّ لغة كان، فلا يُسمَّىٰ قرآناً، ولكن تفسيراً، ولا يقدر علىٰ ذلك إلا عالم بالقرآن علماً صحيحاً، وعالم باللغة الثانية [أي: المُتَرجَم إليها]، هذا هو الأمر الأول.

والأمر الثاني: هو أن تفسيري هذا إذا تُرجم مع بقاء الآية علىٰ حالها يُغْني القارئ والسامع، ويستقل بالفهم منه كل من يعرف اللغة المترجمة إليها بسهولة، ويفهم عن القرآن فهماً جيداً إن شاء الله. (المؤلف).

مقدمة تفسير سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلامُ علىٰ محمَّد وآله أجمعين.

وبعد،

فهذا تفسيرُ القرآن الـمُسمَّىٰ: «أَوْلىٰ ما قيل في آيات التَّـنزيل» لرشيد الخطيب الموصلي، وقد قُسِّم إلىٰ تسعة أجزاء والمقدِّمة.

وهذا هو الجزء الأول يبتدئ بسورة الفاتحة، وهي مكيَّـة، وآيها سبع. جاء فيها الإلماع إلىٰ تحديد الأهداف التي ستأتي في القرآن الذي نزَّله سبحانه علىٰ البشر بعد أن بلغ رُشْدَه، وقد جاء للناس بدينٍ جديد ناسخٍ لجميع ما تقدَّمه من الأديان ومكمِّلٍ لها.

وهذه الأهداف هي: بيانُ التوحيد الخالص لله تعالىٰ، وبيانُ الحشر والحساب، والهداية إلىٰ ما يؤدِّي للسعادة في الدارين من العقيدة الصحيحة والأعمال الصالحة لنيل تلك السعادة، والإخلاص لله وحده في العبادة، ليحظىٰ عند مالك يوم الدين بالحُسْنىٰ والزيادة، والإلماع إلىٰ أن إنزال هذا القرآن علىٰ البشر هو من رحمة الله الرحمن الرحيم، يُومئ بذلك كلِّه إلىٰ أنَّ هذه هي الأهداف للكتاب الذي جُعِلَت هذه فاتحتَه، فهو يدورُ حول هذه الأهداف بأنواع العبارات والتراكيب والأساليب، ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر: ٢٣]، ويُثبِتُ بالبراهين العقليَّة والحُجج القطعيَّة أنَّ هذه الأمور حقٌّ واقع، وأنَّ هذا القرآن كلام صادق، كلام الله سبحانه وتعالىٰ.

سُورَةُ الفَاتِحَة

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

يبتدئ القرآن سُورَهُ بالبسملة للإشارة إلىٰ أنَّ ما يُقرأ من آي القرآن ويُتكلَّم به إنما يقال: باسم الله، لا باسم مَنْ يقرؤه، لأنَّ الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي يتكلم به، ولذلك نزلت في ابتـداء كلِّ سورة من سور القرآن، وكان متىٰ نطق بها جبريل عليه السلام عَلِمَ رسولُ الله ﷺ أنَّ ما يتلوه بعدها إنما هو ابتداءُ سورةٍ مستقلة تنفصل عمّا نزل قبلها، ولذلك قدَّم البسملة ثم شرع بالفاتحة، فقال:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ أي: إنمـا هو وحده أهلُ الثناء والحمد، والمستحقُّ لأن يُحْمَدَ ويُـثْنىٰ عليه، لأنه مصدر كلِّ خير في الحياتين، ومن أعظمها هذا القرآن المنزَّل منه سبحانه وتعالىٰ لتربية البشر والأخذِ بهم نحو السعادة والكمـال، فالحمدُ له سبحانه لا لغيره في كلِّ خير وإنعام، وفي كل أمن وسلام، وإنْ كان المصدرُ الظاهر لذلك الخير أمراً طبيعياً أو صناعياً؛ لأنه سبحانه هو خالق تلك النُّظُم الطبيعية والاستعدادِ البشريِّ للأمور الصناعية، كما يُشْعِرُ بذلك وصفُ الربوبيَّة الذي فيه معنىٰ التربية والتخليق.

فالله سبحانه مُربٌّ للبشر ومُهذِّبٌ لهم بهدايتين: بإنزال شرائعه عليهم، وبطبيعتهم التي طبعهم عليها مُلْهَمَةً بالتفريق بين الفجور والتقوىٰ.

اللهمَّ لك الحمد حمداً كثيراً خالداً مع خلودك[1]، ولك الحمد حمداً لا منتهىٰ له دون علمك، ولك الحمد حمداً لا منتهىٰ له دون مشيئتك، ولك الحمد حمداً لا آخر لقائله إلا رضاك.

والعالَم: اسمٌ لما يُعْلَم به، كالخاتَم لما يُخْتَم به، فهو ما يُعلَمُ به البارئُ تعالىٰ، وهو كلُّ ما سواه، فإنَّ الأكوان بجملتها وتفصيلها دالَّةٌ علىٰ وجوده وعظمته وألوهيته. وإنما جمعه ليشمل ما تحته من الأجناس، وغلَّب العقلاءَ فجمعه بالياء والنون، وقيل: هو اسمٌ لذوي العقل والعلم من الملائكة والإنس والجن، وتَناوُلُه لغيرهم: علىٰ سبيل الاستتباع والتوسُّع في الألفاظ، وذلك من خصائص اللغة.

ثم تابعَ الوصفَ بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، فالأُولىٰ من صفات الذات، والثانية من صفات الأفعال، وقد أشار بهذه الصفة إلىٰ أنَّ إنزال القرآن هو من أعظم رحمته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

ثم تابعَ الوصفَ بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ أي: يوم يُدانُ فيه الناس للحساب، فيُجازَوْن علىٰ أعمالهم؛ إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر، ولا يملك ذلك اليوم إلا الله، وفي هذا الوصف ترغيبٌ وترهيبٌ، وإيماءٌ إلىٰ وجوب العمل بهذا القرآن تقديماً لهذا اليوم وتحضيراً له.

---

(١) التعبير بالخلود في حق الله تعالىٰ فيه نظر، والذي ورد في النصوص الشرعية هو التعبير بـ«البقاء»، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وهو المستعملُ في كلام الفقهاء والمفسِّرين والمتكلمين وغيرهم. والخلود قد يردُ بمعنىٰ طول المدة، فلا يؤدي معنىٰ البقاء.

ومضمونُ هذه الصفات الأربع تعليلٌ لاختصاصه سبحانه باستحقاق إنشاء الحمد له تعالىٰ والثناء عليه، وتمهيدٌ لما سيأتي بعده من قَصْر العبادة والاستعانة عليه تعالىٰ.

ثم إنَّ هذا القارئ الحامد لَـمَّا وصفَ اللهَ سبحانه بتلك الصفات التي أبانت أنَّ أمرَ الدارين كلَّه بيده وتحت سلطانه وإرادته، التفت مخاطباً إياه بقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1]، وفيه إرشـادٌ للمتكلِّم به المتحدِّث عن نفسه وعن جميع المؤمنين إلىٰ اجتثاث سائر جذور الشرك والوثنية من أنفسهم، وإلىٰ إخلاص التوحيد لله تعالىٰ.

ومن هذه الاستعانة به سبحانه الاستعانةُ علىٰ الهداية الصحيحة المبنيَّة بقوله تعالىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ أي: الـمُوصِلَ لسعادة الدارين؛ لانطباقِهِ علىٰ

---

(١) للعبادة صور كثيرة في كل دين سماوي، شرعت لتذكير الإنسان بالسلطان الإلهي والشعور به والخشية منه؛ ليكون له أثره في تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق، أما الاستعانة بالله سبحانه فتفصيلها أن كل عمل يعمله الإنسان تتوقف ثمرته ونجاحه علىٰ حصول الأسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤديةً إليه، وعلىٰ انتفاء الموانع عنه. وقد مكَّن الله سبحانه الإنسان من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب، وحجب عنه البعض الآخر بحكم أنَّ علمه لا يتناوله أو يخفىٰ عليه، فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا وفي دائرة علمنا من ذلك، ونبذلَ في إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حَوْل وقوة، ويساعد بعضنا بعضاً في ذلك، ونفوِّض الأمر فيما وراء كسبنا وعلمنا إلىٰ القادر العليم، ونلجأ إليه وحده، ونطلب منه المعونة والتوفيق لإيصالنا إلىٰ النجاح دون سواه، إذ لا يقدر علىٰ ذلك إلا الله، فهو علىٰ كلِّ شيء قدير، وطلبُ المعونة لا يكون إلا علىٰ عمل بذل فيه المرءُ طاقته فلم يوفِّه حقَّه أو يخشىٰ أن لا ينجح فيه، فيطلب المعونة علىٰ إتمامه وإكماله، ومَنْ تعاطَىٰ الأسبابَ حسب السنن الكونية وطلب التوفيق من الله، فهو المستعين بالله. (المؤلف).

السُّنن الكونية فيها، مَنْ سَلَكَه فاز، ومن تنكَّب[١] عنه هلك وخاب. والهداية الشرعية تستلزم الطلب للحصول عليها؛ لأنها كسبية، ولذلك قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، بخلاف الهداية الطبيعيَّة التي طَبَع الله عليها الإنسان وألهمه إياها، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢ - ٣]، وهذه الهداية تكون وتَتِمُّ بواسطة العقل السليم الذي لم يُفسِدْه صاحبُه بالتربية السيِّئة والانطباع على الضلال، فهي كحبة البُرِّ الصالحة للإنبات ما لم يَنخَرها مرضُ السُّوس، وبالدين[٢] الصحيح الذي جاءت به الرسل من الله سبحانه ما لم يعبث به العابثون، وما لم يُنسَخ ذلك الدين بدين آخر.

وفي الكلام إشارةٌ إلىٰ أنَّ الله سبحانه جعل القرآن كفيلاً بتلك الهداية وبذلك البيان.

ثم تابع الكلام بقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من النبيِّين والصِّدِّيقين، كما قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ثم أكَّد الوصف بنفي ضدِّه علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وهم الذين خرجوا عن الحقِّ بعد علمهم به، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، وهم الذين لم يعرفوا الحقَّ ولم يطلبوه، أو لم يعرفوه علىٰ الوجه الصحيح، وإنما قلَّدوا فيه آباءهم الضَّالين، ورؤساءَهم المُضلِّين، وخلطاءَهم الجاهلين.

فقرَّرتِ الآياتُ أن الناس بالنسبة للحق ثلاثة أقسام:

قسمٌ عرفوا الحق وآمنوا به، وهم الذين طلبوا الهداية إلىٰ الصِّراط المستقيم.

---

(١) تنكَّبَ عنه: مال عنه واعتزله وتجنَّبه. «لسان العرب» (نكب).

(٢) معطوف علىٰ قوله: «بواسطة العقل السليم».

وقسمٌ عرفوا الحق وأعرضوا عنه كفراً وجحوداً، وهم المغضوب عليهم.

وقسمٌ لم يحاولوا معرفة الحق فلم يهتدوا، وهم الضَّالُّون.

وقد خصَّ اللهُ الفريقَ الأول برضاه ورحمته، والآخَرَيْن بغضبه ولعنته. اللهمَّ اجعلنا من الأوَّلين ولا تجعلنا من الآخرين.

ويجوز أن يُرادَ بالمغضوب عليهم: كلُّ من لم يؤمن بمحمد ﷺ، وبالضَّالِّين: مَنْ آمن ثم شوّه العقيدة وأفسد العبادة، كالباطنية والفاطمية والدُّروز وأشباههم.

ويجوز أن يتناول اللفظُ مَنْ ترك الأوامر وارتكب النواهي من المسلمين، والله أعلم؛ لقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»(١).

وقد ألمعَتْ سورةُ الفاتحة إلىٰ تحديد الأهداف التي ستأتي في هذا الكتاب الذي أنزله الله للناس ديناً جديداً، أصلح به ما أفسدوه من الأديان، وانحرفوا بها عن الصِّراط المستقيم.

وهذه الأهداف والمواضيع هي: توحيدُ الله سبحانه، وتنزيهُه عن الولد والشَّريك، وبيانُ الحشر والحساب، والهدايةُ إلىٰ ما يؤدي للسعادة في الدنيا والأخرىٰ من العقيدة الصحيحة والأعمال الصالحة لِنَيْل تلك السعادة، والإخلاصُ لله وحدَه في العبادة، والاستعانةُ به والاعتماد عليه.

ثم سار القرآن في هذه الأهداف التي أجملتها فاتحتُه وفصَّلتها سُوَرُه تفصيلاً، ولذلك تَوَحَّدت في الأغراض والمقاصد، فكانت متشابهاتٍ ومثانيَ تُعاد وتُثَنَّىٰ فيها

---

(١) رواه النسائي (١٥٧٨)، وابن خزيمة (١٧٨٥)، عن جابر بن عبد الله، وروىٰ مسلم (٨٦٧) الجزء الأول منه: «كل بدعة ضلالة».

هذه المعاني، بأنواع من التراكيب والأساليب، والحُجَج والبراهين، والأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، والقصص والمواعظ. تدور كلُّها حَوْل هذه الأغراض، لا تخرج عنه ولا تحيد، حتىٰ يظن الجاهل أنها مكررة وهي مليئة بالمعاني، كل حرف يزيد عن الأخرىٰ له معنىٰ جديد، وكل تقديم وتأخير في كلمة له معانٍ لا تُحصىٰ، ولكنْ لا يُدركُها إلا العلماء العظام، وهي زائدةٌ عن حاجة الأوساط، كالنهر تشبع منه البلدة، وينصرف لفوائد أخرىٰ أو يتصل بالبحار. جلّ مَنْ هذا كلامه.

وقد تخلَّل ذلك بيانُ ما يحتاجه الإنسان من الأحكام في حلِّ مشاكله الاجتماعية والشخصيَّة والسياسيَّة، هدايةً للصراط المستقيم في الحياتين؛ الدنيا والأخرىٰ، فهو دينٌ وتقويمٌ لا يَستغني عنه البشر، ولا تستغني عنه الإنسانية، بل هو معنىٰ الإنسانية ولا معنىٰ لها سواه.

* * *

سُورَةُ البَقَرَةِ

مدنية إلا آية ٢٨١، وآياتها: مئتان وست وثمانون

وهي أول سورة نزلت في المدينة.

والغرض منها:

هو أنه لما هاجر النبي ﷺ إلىٰ المدينة نصبت أحبارُ يهودِها له العداءَ بغياً وحسداً، ومال إليهم المنافقون من الأوس والخزرج، وكان أولئك الأحبار يسألونه تعنُّتاً ويأتون باللَّبْس ليَلْبِسوا الحقَّ بالباطل، فنَزَل قسمٌ من السورة في تأنيب هؤلاء والرد عليهم، ونزل أكثرُ السورة في أحكام العبادات والمعاملات؛ لأنَّ الإسلام قد استقرَّ في المدينة وكثُر أهله، فاشتدَّ الاحتياج لذلك، ولا سيما حيث أصبح الإسلام دولة مستقلة، يرجع إليه كلُّ مَنْ تحتَ حكمه وسلطانه.

وكانت آية: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ...﴾ [البقرة: ١٧٧] حَلْقَةَ وَصْل بين القسمين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

﴿الٓمٓ ۝١﴾ جاء في «تفسير الرازي» في مفتتح سورة «العنكبوت» ما مُلخَّصه: إذا أراد المتكلمُ أن يلفت المخاطَب إليه إلفاتاً تاماً، يقدِّم على المقصود كلاماً ما، أو إشارةً تَلفِتُه نحوَه وتجمعُ له انتباهَه، كقوله: اسمع ما أقول، أو اجعل بالك عندي، أو أن يصفِّق له، أو نحو ذلك. وكلما أتىٰ بكلمات غريبة ليست بذات معنىٰ مفهوم كان بها الجذب والتنبيه أقوىٰ؛ لأن السامع لا يصدُّ عن المتكلم حتىٰ يعلم ما وراء ذلك، لجزمه أنَّ ما سمعه ليس هو المقصود[1].

وعلىٰ هذا جاءت هذه الحروف في أوائل بعض السور للمبالغة في الحثِّ علىٰ التنبُّه لما جاء في السورة من المواضيع والبيانات والتعاليم، ورعايتها بالفهم والإدراك والتصديق، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وإنما أتىٰ باللام الدالة علىٰ البُعد للمبالغة

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٥: ٢٣- ٢٤). وجاء في كتاب «الأصول»: أن هذه الحروف من المتشابه الذي لا تدلُّ صيغته علىٰ المراد منه، ولا تُوجد قرينة تُبيِّنه، واستأثر الله سبحانه بعلمه ولم يفسِّره للناس. وقال بعضهم: إنها ذُكِرت للتحدِّي، أي: إن هذا القرآن المعجز مُركَّب من الحروف التي تتكلَّمون بها: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، ولذلك يعقبها بذكره غالباً، كما قال: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١-٢]. (المؤلف).

في تعظيمه، أي: ذلك الكتاب الذي سبقت فاتحته لا رَيْبَ فيما فيه من الدساتير الخُلُقية والاجتماعية والسياسية، والبراهين العقلية والدلائل الكونية، ولا فيما يغرس في الطباع من آداب عالية، وثقافة سامية، ومعالم إنسانية هي في أَوْج الكمال، فهو معنىٰ الإنسانية ولا معنىٰ لها سواه، وهو يغرس ذلك في الطباع بطريقة تَسْتمرئها العقول، وتَنفُذُ إلىٰ أعماق القلوب، ولذلك لا يشك عقل مستقيم في أنه من عند الله العليم الحكيم، ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ يهتدون به إلىٰ أسباب السعادة في الدارين، ويتَّقون أسباب الشقاء فيهما.

فبعد أن أشار في فاتحة الكتاب إلىٰ شدَّة حاجة الإنسان للهداية إلىٰ الصِّراط المستقيم الذي يُوصل صاحبه لسعادة الدارين، بيَّن هنا أنَّ هذا الكتاب المنزَّل من عند الله هو الذي يهدي مَنْ آمن به وعمل بمقتضاه إلىٰ ذلك الصراط.

والاتِّـقاء: هو فَرْط الصيانة والتحفُّظ، أي: إنَّ هذا القرآن يهدي مَنْ يحاول ويحرص علىٰ النَّجاة والوقاية من السُّوء، ويُرشده إلىٰ سبيل ذلك.

وإن العقاب الإلهيَّ الذي يجب علىٰ الناس اتقاؤه قسمان: دنيوي وأخروي، وكلٌّ منهما يُتَّقىٰ باتِّقاء أسبابه الطبيعية، وهي نوعان: مخالفةُ دين الله وشرعه، ومخالفةُ سننه في نظام خَلْقِهِ ونواميس كونه. وتعاليمُ هذا القرآن العظيم كفيلةٌ بالوقايتين معاً إنْ عُلِمَت علىٰ وجهها الصحيح، وفُهِمَ روحُ المرادِ منها، ثم طُـبِّقَت وعُمِلَ بها علىٰ هذه الصورة[1].

---

(١) إنَّ كلَّ شرٍّ يحدث للإنسان في الدنيا والأخرىٰ إنما يتأتَّىٰ من مخالفة سنن الله الكونيَّة وتعاليمه الدينيَّة، لأنهما هما اللذان يلائمان ويسايران فطرة الله التي فطر الناس عليها وما أراد بها من الخير والكمال والسعادة والهناء، فلا محيدَ عن نظام الله وتكوينه، ولن تجدَ لسنَّة الله تبديلاً إلىٰ أبد الآبدين، فالواجب علىٰ الإنسان والمقتضي لسعادته وهنائه في الدارين: أن يتَّقي الله سبحانه وتعالىٰ في هذين الأمرين، فلا يخالف سننه الكونية، ولا يهمل تعاليمه الشـرعية فيقع في المهالك والشقاء في الدنيا والأخرىٰ. (المؤلف).

وقد بيَّن أهمَّ ذلك الاتِّقاء بشرح أهمِّ صفات أولئك المتقين وأحوالهم، مُبيِّناً أولاً موجب الاتِّـقاء ثم وسائله، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾(١)، أي: بيوم البعث والحساب والجنة والنار، الذي أشار إليه سبحانه في الفاتحة بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، أو كل ما غاب عن العباد علمه مما بيَّنه الله سبحانه لهم في هذا الكتاب المبين. والحقُّ أنَّ كل ما جاء في هذا القرآن كان غيباً علىٰ الإنسان، حتىٰ ما كان من فقه وأحكام وثقافة وآداب، فضلاً عما أظهره من عوالم ما وراء الطبيعة مما لا تتناوله المعارف والعلوم. فالإيمان بهذا الغيب يوقف صاحبه علىٰ ما يجب أن يُتَّقىٰ.

وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله أمران عظيمان من الأمور التي بها الوقايةُ والاستعداد والثقافة العالية، لذلك أردفهما به، فقال: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: بأدائها مع حضور القلب في مناجاة الله فيها، ومَنْ لم يكن كذلك في صلاته فهو كالأعمىٰ أمام

---

(١) الإيمان بالغيب شأن واقعيٌّ من شؤون الحياة، تمرض فتراجع الطبيب وتقبل منه ما يصفُه لك وتأتمر بما يأمرك وتنتهي عما ينهاك، وتؤمن بالمحامي وتطيعه في أمر القانون لحلِّ المشاكل التي تعرض لك. وإذا أردت أمراً تسترشد بمن يعرف عنه جيداً وتعمل بإرشاده، وتريد التوجُّه إلىٰ مكان لا تعرفه فتؤمن بمن يُعرِّفك عنه وتَتَوجَّه بتوجيهه. وهكذا شأنك في كل أمر من أمور الدنيا.

فالإيمان بالغيب معناه: أن ترجع في معرفة ما لا تعرفه إلىٰ مَنْ يعرفه وتُصدِّق بقوله فيما يُرشدك فيه ويهديك، وأنت لا تعرف كلَّ ما تحتاجه في الحياة الدنيا علىٰ الوجه الصحيح، ولا تعرف شيئاً عن الحياة الثانية ولا ما يوصل إلىٰ سعادتها أو شقائها، فلتعتمد علىٰ هذا القرآن، فقد أنزله الذي يعلم السِّـر في السماوات والأرض، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢]، فهو الذي يرشدك لسعادة الحياتين وأسبابها وعواملها الصحيحة لتكون علىٰ هُدىٰ من ربك، وتكون من المفلحين الذين هم من فزَع يومئذ آمنون، وفي سعادة النعيم خالدون، وعلىٰ الأرائك متكئون، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين. (المؤلف).

المرآة. وحضور القلب هو: أن تنطق الألسنة بما تعيه العقول، وبعبارة أخرىٰ: أن تعي العقول بما تنطق به الألسنة. فإنَّ هذا الحضور هو روحُ الصلاة وقوامُها ولبُّها والمرادُ منها، وهو لا يكون إلا بالمران والتدريب.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾. وقد مهَّد للإنفاق بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ استمراءً للنفوس، واستدراراً لها، وتهويناً عليها في هذا الصَّرف والإنفاق، إذ يُؤْذِنُها بأنَّ ما تُنفِقُه هذا، إنما هو من فَضْل الله الذي طلب منها الإنفاق. فهذا من بلاغة القرآن، ولاسيما التبعيض بـ«مِنْ» الدالِّ علىٰ أن ما ينفقونه إنما هو شيء طفيف ممَّا منَّ الله به عليهم من الرزق ومما يملكون.

وهذه الصفات الثلاث ـ التي جاءت في الآية ـ هي مصدر سائر الأمور والأحوال التي تُصلح الروحَ وتدفعها نحو الكمال، وتجعل النُّظُم الاجتماعية علىٰ أتمِّ وجه من الصحة والاعتدال، وأيُّ مجتمع أعلىٰ من هذا المجتمع الذي يتكوَّن من هؤلاء الرجال والنساء؟ ولذلك اقتصر عليها في هذا المقال.

وقال بعض المفسِّرين: إنَّ هذه الآية في المؤمنين من غير أهل الكتاب، والتي بعدها في مؤمني أهل الكتاب، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، أي: من الكتب السماويَّة، وأعاد لفظ «الذين» لتحقُّق التمايُز بين الفريقين. وعلىٰ القول بأنها للمسلمين أيضاً، أو لهما معاً، تكون الإعادة لِتَحقُّق التَّمايُز بين الوصفين.

ثم قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾[1]، والإيقان: هو الاعتقاد الجازم الذي لا يقبل

---

(١) يدل علىٰ وجود اليوم الآخر أدلة نقلية ووجدانية وعقلية.

أما النقلية: فقد اتفقت الأديان السماوية كلها علىٰ وجوده وعلىٰ العناية به تبشيراً وإنذاراً. =

الشك؛ لانبعاثه عن المنطق البرهاني أو الوُجْداني أو كليهما، فيملك النفس، وتظهر فيها آثاره، وتعمل بمقتضاه، لأن الإيمان الصحيح يكون له سلطان علىٰ النفوس وتصريف إرادتها.

والقرآن العظيم عند تدبُّره يبعث في النفس هذا اليقين في أمر الآخرة، حتىٰ لو كُشف لها الغطاء ما ازدادت يقيناً، وإنما خصَّ الإيقان بهؤلاء المؤمنين، وبهذا الفريق الذي آمن بالقرآن من أهل الكتاب؛ لأن غير المؤمنين به من أهل الكتاب وغيرهم ـ وإن ادَّعَوُا الإيمان بالآخرة ـ لا يكونون موقنين بها علىٰ وجهها الصحيح، لما قد أدخلوه علىٰ عقائدهم فيها من الظنون والمختلَقات فيها وفي أسبابها، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، فالآخرة التي يتصوَّرونها وما يعتقدونه لـها من الأسباب ليست هي الآخرة الحقيقية التي ذكرها سبحانه في كتابه المنزل، وبيَّن لها من الوسائل والأسباب، لتحريفهم ذلك تحريفاً كبيراً، وتصويرهم الآخرة بشكل وَهْمي رَسَمَه لها خيالُ رؤسائهم، واختلق لنيلها أسباباً خرافية كاذبة؛ لذلك قال تعالىٰ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى

= وأما الوجدانية: ففي الإنسان شعورٌ خفيٌّ باليوم الآخر والاهتمامُ به يشبه الإلهام، فهو يشعر بأن وراء هذه الحياة الدنيا حياةً أخرىٰ تتحقَّق ففيها العدالة إذا أهملت في الدنيا، وينال فيها الإنسان جزاء أعماله، إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وأما الدليل العقلي: فإن الله سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم مُستعداً لما لا يتناهىٰ من الكمال، بما وهبه من العقل الذي لا يقف عند حد في العلم والمعرفة وكشف أسرار الكائنات، فلا يقبل العقل أن يكون مصيرُ الإنسان مصيرَ سائر الحيوان، فَضْلاً عن أن ذلك بعيد عن العدل والإنصاف. (المؤلف).

يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

لذلك بالغ سبحانه في التنويه عن المؤمنين المهتدين بهذا الكتاب، والمتّصفين بهذه الصفات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾، فسجَّل ـ بتكرير اسم الإشارة وبذكر ضمير الفَصْل ـ الهدايةَ والفلاحَ لهم دون غيرهم. وقالوا أيضاً: إنَّما كرر اسم الإشارة لإظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم، وللتنبيه إلىٰ أنَّ اتِّصافهم بتلك الصفات هو الذي أدىٰ لنَيْل كل واحدة من تَـيْنِكَ المكرمتين: الهُدىٰ والفلاحِ، وأتىٰ بضمير الفصل لتأكيد النسبة وتخصيص الـمُسنَد بالـمُسنَد إليه.

ويجوز أن تكون الآيات بياناً لأنواع الهدايات التي يهدي إليها هذا الكتاب، ويكون محصَّل المعنىٰ: إنَّ هذا القرآن لا شك في كونه وحياً من عند الله، وهو هُدىٰ للمستعدّين لتقوىٰ الله، وهم الذي لم يفسدوا فطرتهم بمفاسد التربية وسوء القدوة، فيهديهم هذا القرآن إلىٰ الحالات التي ذُكرت في الصِّلَتَين، وإنما آثر صيغةَ الموصولِ وصِلَتِه علىٰ مثل قوله: «إن هذا القرآن يهدي الناس لهذه الهدايات»، ليتمثَّل المعنىٰ في الأشخاص المهتدين، فيكون الغرض أتمَّ، ويتبيَّن فيها صفة الهداية والمهتدين معاً، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وإنما اقتصر علىٰ هذه الحالات بالذِّكر لأنها أساسُ الأمور التي تُهذِّب الروح وتُصلح نظام الاجتماع، فهي مَلاكُ ما يؤدي إلىٰ سعادة الدنيا والآخرة ويدفع شقاءهما ويُجنِّب عنه.

ومن مباحث اللفظ: أنه شبَّه الـهُدىٰ بالموضع المرتفع الـمُشرِفِ علىٰ الشيء، بجامع أن كلاًّ منهما يعين علىٰ سداد النظر وقوة الكشف، والقرينة: كلمة ﴿عَلَىٰ﴾ المفيدةُ للاستعلاء، ومثل هذا من أساليب القرآن.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

وبعد أن بيَّن حالة المؤمنين المستعذبين للإيمان، أردفها بحالة الكافرين الراسخين في الكفر، علىٰ نهج القرآن في المقابلة (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي: من أهل الكتاب والمشركين ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾، إذ قد أفسد الرسوخُ في الكفر طبيعَتهم، فأصبحوا لا يُدركون نور الحق، ولا ينكرون ظلمة الباطل؛ لشدَّة تألفهم لها وانطباعهم عليها.

و﴿سَوَآءٌ﴾: اسم بمعنىٰ الاستواء، نَعتَ بها كما يُنعتُ بالمصادر وأسمائها مبالغةً في الوصف. وهمزة الاستفهام بعدها تُسبَكُ مع ما يليها بمصدر يكون مبتدأ مؤخَّراً، و﴿سَوَآءٌ﴾ خبر مُقدَّم.

وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملةٌ مستقلة مؤكِّدة لما قبلها تُبيِّنُ وجْهَ الاستواء، شبيهةٌ بوجه الشبه في التشبيه.

ثم وصف سبحانه فَقْدَهم لهذا الاستعداد ورسوخَهم في الكفر علىٰ طريقة تشبيه المعاني ونحوها بالأجرام والأجسام (كما جاء في النوع العاشر من المقدمة السادسة في مجازات القرآن)، وعلىٰ وَجْه الاستئناف التَّعليلي لما سبق من الحكم عليهم بعدم الإيمان، فقال: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾، هذا تصويرٌ لانسِداد مَسالك الفهم والإدراك عليهم، وذلك بحسب سُنَّة الله العامّة في خَلْق الإنسان؛ لأنَّ الله سبحانه قد خَلَقَ البشر بمقتضىٰ الحكمة، بحيث إذا تشبَّع بشيء وانطبع عليه لا يَتحوَّل إلىٰ ضدِّه ولا يهتدي إليه، فلمَّا تمادىٰ هؤلاء المشركون في الغيّ، وكذلك أهل الكتاب، وانهمكوا

في تقليد آبائهم، وإعراضهم عن النظر الصحيح، أصبحوا بحالةٍ لا يؤثِّر معها الإنذار والإرشاد، ولا يَنفُذُ فيها الحق أصلاً، فشبَّه قلوبهم بشيءٍ مختوم لا يدخل عليه شيء أبداً، فلا تفقه الدعوة إلىٰ الرَّشَاد.

وفي الكلام إسنادُ الفعل إلىٰ الله مُجَرَّداً عن السبب (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية في خصائص أساليب القرآن)، ومثل هذا إنما هو من مَجَازات اللغة وخصائص القرآن، فتراه في كثير من آياته، فلا تغفل عنه فتفهمَ منه غير المراد، وتظنَّ أنَّ الله سبحانه فعل ذلك بهم قَصْداً(١)، وخلقهم كذلك طبعاً، فتضل عن سواء السبيل(٢).

---

(١) لا شك أن الله تعالىٰ فعل ذلك بهم قَصْداً، فأفعالُ الله تبارك وتعالىٰ كلها واقعةٌ بإرادته ومشيئته، والذي يظهر أنّ مراد المؤلف رحمه الله: أن الله لم يفعل ذلك بهم ابتداءً دون مباشرتهم سبباً يستحقون به ذلك، وهذا مُسلَّم.

(٢) تسند مثل هذه الأفعال في قوله تعالىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] إلىٰ الله سبحانه، وتسند إلىٰ العبد نفسه المباشِر للفعل، تقول: أيبس البستاني الشجرة، إذا لم يتعهَّدها بالسقي، وتقول: أيبس الله الشجرة؛ لأنه سبحانه قد جعل في السنن الكونية أن الأشجار تيبس إذا عطشت ولم تُتعهد بالسقي. وهكذا تقول: ضل فلان عن سواء السبيل؛ لأنه لم ينظر إلىٰ الحق نظرةً صحيحة، وذلك لفساد طبيعته بالتربية السيئة وسوء القدوة والتقليد الأعمىٰ، فإذا فسدت طبيعته بذلك ضل وأساء. وتقول: أضله الله؛ لأن من سنن الله الكونية أن يتأثر الإنسان بالتربية، فإذا تربىٰ تربية خاطئة ضلَّ عن سواء السبيل، كما تقول: أنبت الله الشجرة أو أحسن نموها، وهي لا تنبت ولا تجود إلا إذا أحيطت بكل أسباب الإنبات والجودة بمقتضىٰ السنن الكونية من غرس في جيد التراب، وسقي معتدل بالماء إلىٰ غير ذلك، وإن ساء ساءت.

مضمون قوله تعالىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يبيِّن طبيعة الإنسان وفطرتَه، فقد خلق الله سبحانه الإنسان مستعداً للخير والكمال في المعرفة والفضائل، ولكنه استعداد «خام» كاستعداد الحبة للنبات، يحتاج إلىٰ تنشئة وتربية، فينطبع علىٰ عناصر هذه التنشئة هدىٰ أو ضلالاً، نقصاناً أو كمالاً. وأول ما يؤثر عليه في ذلك، الإيوان والبيت، ثم المحيط والخلطاء، ثم وثم، إلىٰ أمثال =

= ذلك من عوامل التربية والتثقيف، فإن نُشِّئَ علىٰ الهدىٰ أخذت بصيرته تـتفتَّح وتتَّسع لقبول كل ما أُلقِيَ عليه منه، وإدراك ما لم يُلْقَ عليه، وإن نُشِّئَ علىٰ الضلال، تمادىٰ فيه وأصبح لا يبصر الهدىٰ ولا يميل إليه، وذلك هو الخَتْم والغشاوة.

ويُؤيِّد ما ذكر قولُه ﷺ: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة ولكن أبويه يُـهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه، ألا ترىٰ الشاة تنتج جمعاء، هل ترىٰ فيها من جدعاء». أي: إن الشاة تلد مولودها سالم الأذنين، إلا أنَّ الراعي يجدعه ويشق أذنه. وهكذا حال المولود من البشر يولد مُستعداً للهدىٰ والكمال، ولكنه مرتهن بتربيته، فإن ساءت ساء ذلك الاستعداد وانقلب للشر والضلال، إذ قد شاء سبحانه للإنسان أن يخلقه مختاراً يأخذ الهدىٰ أو الضلال بنفسه، ويتصرف خيراً أو شراً باختياره، ويكون ذلك بحُسن تنشئته أو سوئها.

ولو شاء سبحانه لخلق الإنسان مقسوراً علىٰ الهدىٰ وحده لا يطيق سواه، وهذا معنىٰ قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]، ولكنه سبحانه شاءت حكمته أن يخلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته يتناول شؤونه بإرادته، ليكون خليفة في الأرض يتصرَّف في مواهبها، ويستفيد من سُنن الله الكونية وخيراته الصحيحة، ولو كان مقسوراً في تصـرُّفاته علىٰ نوع مخصوص من التصرُّفات لم يتمكَّن من إحراز تلك الخيرات، فلذلك خلقه سبحانه مختاراً في تصرُّفاته، مُطلَقَ الإرادة في ذلك.

فأعمال الله سبحانه في هذا الكون وفي فطرة الإنسان كلها خير وصلاح، ولكن هذا الإنسان يفسد فطرته بمفاسد التربية وسوء القدوة، فيعاكس تلك السنن بسوء تصرُّفه، فيناله الشر والضلال؛ إذ لا شر في هذه الحياة إلا من مخالفة سنن الله الكونية فيها.

ولما كان استعداد الإنسان للهدىٰ استعداداً يحتاج إلىٰ تنشئة صحيحة، علىٰ تعاليم سديدة في المعرفة والفضيلة، أرسل الله سبحانه الرسل بتلك التعاليم، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]. فالله سبحانه قد هَدَىٰ كل مخلوقاته إلىٰ ما أراده منها، كما قال: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٣]، وهدىٰ الناس بهدايتين: هدايةٍ طبيعية أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ – ٨]، وهدايةٍ شرعية بإنزال الشـرائع، وقد أشار إلىٰ ذلك بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ – ١٠]. (المؤلف). =

فهذا الخَتْم إنما جاء بحَسَب سُنَّة الله العامَّة في طبيعة الإنسان، وهي الانطباع علىٰ ما يرسخ فيه بصُنعه وكَسْبه، فلا يعودُ يسمع ما يُخالف ما انطبع عليه، ولا سيما إذا كان هذا الانطباع ناتجاً عن القدوة السيئة والتقليد الأعمىٰ؛ لأنَّ صاحبه يفقد الاستعداد الطبيعي للنظر الصحيح، والبحث الموصل إلىٰ الحق، ويرىٰ كل ما يخالف ما انطبع عليه باطلاً وضلالاً.

وعلىٰ هذا المعنىٰ يأتي مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٨٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]، إلىٰ أمثال ذلك من الآيات (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية). فهذا الخَتْم ليس من أصل الخِلْقة، ولكن من سُوء سلوك الإنسان، لسُوء تربيته ونشأته، فهو مرض عارض.

ومن مباحث اللفظ في الآية: ما قاله صاحب «الكشاف» من أنه يحتمل أن تكون الأسماع داخلة في حكم الختم أو في حكم التَّغشية، إلا أنَّ الأوْلىٰ دخولها في حكم الختم لقوله تعالىٰ: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]، ولوَقْفِهم في القراءة علىٰ ﴿سَمْعِهِمْ﴾ دون ﴿قُلُوبِهِمْ﴾، وكرَّر الجارَّ لأنه أدلُّ علىٰ شدة الختم، وأفرد السمع دون القلوب والأبصار، قيل: لأنه في الأصل مصدر، والمصادر لا تُجمع، فرُوعِيَ فيه الأصل[١]، وقيل: لأنه ذُكِرَ مع الجمع فيُراد به الجمع، وذلك من خصائص اللغة

= وحديث «كل مولود...» لم أقف عليه بهذا اللفظ، والحديث رواه البخاري (٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاءَ، هل تحسون فيها من جداءَ».

(١) «الكشاف» (١: ٥٢ - ٥٣).

وأساليب القرآن، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨].

ثم تابع البيان عن الجمود على الضلال، فقال: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ والغشاوة: هي ما يُغشّى ويُغطّى به الشيء، فهي أنسب في المجاز عن عدم الاستفادة من البصر، كما أنَّ الختم أنسب لمثل ذلك في القلوب، والسمعُ بين الاثنين، والذي أراه: أن السمع والبصر ظاهران، والقلب خفي، فالأنسب أن يشتركا بالغشاوة. جلَّ من هذا كلامه. وفيه إلماع إلىٰ أن الختم والغشاوة مرضان عارضان لا طبيعيان.

ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾، وهذا وعيدٌ وبيانٌ لما يستحقونه في الآخرة، وتنكيرُ العذاب للتعظيم والتهويل، ووَصْفُه بالعِظَم للدلالة علىٰ أنه بالغٌ أقصىٰ حدِّ العظمة، ويجوز أن يكون التنكير للإشارة إلىٰ أنه نوعٌ من العذاب مجهولٌ لهم كماً وكيفاً، لا يعلم وَصْفَه أهلُ الدنيا، ومن ذلك شدَّتُه وخلوده واطِّلاعه علىٰ الأفئدة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾.

ثمَّ شَرَع في بيان أحوال فرقة ثالثة، وهم المنافقون من العرب واليهود، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾(١)؛ إما لأنَّ إيمانهم

(١) هذه الطائفة ظهرت في المدينة، حيث قويت شوكة المسلمين، فضعفت هذه عن المجاهرة بالكفر، فكتموه في نفوسهم وتظاهروا بالإسلام، فقالوا كلمة التوحيد وصَلّوا مع المسلمين، يخادعون الله ورسوله، فما ابتلي المسلمون بشرٍّ من هذه الطائفة، تُدبِّر لهم المكايد، وتروِّج الأكاذيب، وتُزعزع المؤمنين، وتفسد روابط المحبين، وتَنفُثُ سموم الشر والفتن، وقد اهتمَّ =

لفظي صُوريّ فقط لا جَزْم به ولا عقيدة فيه، فيكون من نفي الشيء لانتفاء الجزم به وثمرته وما يترتَّب عليه (كما جاء في النوع السادس من المقدمة السادسة في مجازات القرآن)، وإما لأنهم يُظهِرون الإيمان ويُخفون الكفر، فيكون النَّفيُ علىٰ حقيقته، وهذا المعنىٰ أنسب بالنسبة لما يأتي عنهم من الوصف.

وهذه الآيات ـ وإن كانت في حقِّ المنافقين في عصر التنزيل ـ فهي غير خاصَّة بهم، بل تشملهم وتشمل مَنْ كان كذلك في كلِّ عصر وزمان، علىٰ نهج القرآن في كون مقرَّراتِهِ قواعدَ مستمرةَ المدىٰ، وإن كان سبب النزول خاصاً، وللإشارة إلىٰ العموم أتىٰ بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ولا شك أنَّ النوع الأول منهم يكثر في كل زمان، لاسيما في زماننا هذا حيث أصبح الإيمان لفظياً فقط، أي: اسمياً لا حقيقياً، بل كثير منهم لا يزيدون عن أنهم مسجَّلون في سِجِلّ النفوس بهذا الوصف، أي: الإسلام. وهكذا تتناول هذه الآية من كان إيمانهم ضعيفاً لا أثر له في أخلاقهم وأعمالهم علىٰ الإطلاق، والله أعلم.

ثم زاد في التشنيع عليهم بقوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، الخداع: العمل الظاهر الذي لا يُصدِّقه الباطن أو لا يوافقه، وهؤلاء يُظْهِرُون الإيمان ويُخْفُون الكفر، وأتىٰ بصيغة الـمُفاعَلة لإفادة المبالغة ولإفادة تكرُّر الفعل، وذلك من خصائص اللغة.

ثم علَّق علىٰ مخادعتهم بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾، فبيَّن طبيعة من طبائع البشر، وهي أنَّ كلَّ من يقاوم الحقَّ ويُعارضه تنحرف فطرته وتسوء بمعالجة طرق الضلال، فينطبع علىٰ الباطل، ويعود عليه الأمر بالوبال. وتؤذن الآية

= القرآن بالحديث عنهم والتحذير منهم حتىٰ لا تكاد سورة من سُور القرآن المدنية تَخْلو من ذكرهم، ولفت النظر إلىٰ أوصافهم. وقد نزلت فيهم سورة كاملة سُميت باسمهم: سورة المنافقين. (المؤلف).

أيضاً بأنَّ وُجْدانهم يحسُّ بالحقيقة، فيَجمعون له الشُّبَهَ علىٰ خلافها، ويُلبِّسون الأمر علىٰ أنفسهم.

ونفيُ الشعور دون العلم(١)، للإيذان بأنَّ ذلك من الأمور المحسوسة، ولكن لا حسَّ لهم.

ثم بيَّن تعالىٰ أنه ما حملهم علىٰ فعلهم هذا إلا ما فيهم من مرض القلب، فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، يريد ما فيها من سوء العقيدة وعداوة النبيِّ ﷺ وحزنهم منه ومما جاء به، ويجوز أن يشمل ما دَخَل في قلوبهم من الضعف والجبن والخَور عند مشاهدتهم لعزَّة المسلمين، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾، وذلك بما ذكرنا أنَّ من طبيعة الإنسان إذا تمادىٰ في الباطل أن يزداد ضلالاً، ويجوز أن يشمل أيضاً شدَّة الهَمِّ مما سيفوتهم من مراكز الرياسة باستقرار أمر الرسول ﷺ، وفيه التجوُّز بإسناد الفعل إلىٰ الله دون السبب؛ لأنه سبحانه هو خالقُ هذه السُّنن العامَّة في الإنسان (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية)، ولا يَبعُدُ أن تدلَّ الآية علىٰ الدعاء عليهم أيضاً، جمعاً بين المعنيين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧]، ومثل ذلك هو من أساليب القرآن، كالجمع بين الحقيقة والمجاز، والله أعلم.

وقد سجَّل عليهم بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾، أي: في دَعْواهم الإيمان ونفاقهم في ذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟

(١) أي: في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، ولم يقل: وما يعلمون.

إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

ثمَّ شرع في تعديد بعض قبائحهم المُنْبَعِثَةِ عمَّا حكىٰ عنهم من الكفر والنفاق، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بما تصدّون عن سبيل الله مَنْ آمن وتبغونها عِوَجاً، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: بالتمسُّك بما كان عليه الآباء؛ لأنهم أعرف وأدرىٰ بالطريق الصحيح، فكيف ندع ما تلقَّيناه منهم ونأخذ بشيءٍ جديد؟!

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنهم كانوا يقولون: إنما نريد الإصلاح بين المؤمنين وأهل الكتاب[1].

وأشاروا بكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ إلىٰ أنَّ ذلك من الوضوح بحيث لا ينبغي أن يُرتابَ فيه، فردَّ الله سبحانه عليهم الوصف رداً عنيفاً بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾، أي: بهذا الفساد؛ لأنه أصبح غريزةً في طباعهم لـمَّا تمكَّن فيهم بسُوء التربية والتقليد الأعمىٰ. فالآيةُ ردٌّ شديد لدعواهم، وسخطٌ عظيم عليهم، وتجهيلٌ شنيعٌ لهم، لِـمَا اشتملت عليه من المؤكّدات.

ونفيُ الشعور للإيذان بأنَّ ذلك من الأمور المحسوسة ولكن لا حسَّ لهم.

وهكذا الكلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، أي: أنؤمن إيماناً مثل إيمان هؤلاء السفهاء المتفانين في الإسلام وطاعة محمد، ولم يحتاطوا لأنفسهم إذا ما تغلّبت قريش؟! أمَّا نحن فبين بين، ثم نكون مع من تكون له الغلبة من الطرفين. والظاهر أنهم لا يقولون ذلك إلا لمن يثقون به من ذوي رَحِمِهم الذي يُعاتبونهم وينصحونهم، أو من ذوي طبقتهم، ويبدو أنَّ تفاني المخلصين

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١: ١٩٠).

كان يزيد في لهيب حقدهم، فردَّ الله سبحانه عليهم الوصف رداً عنيفاً بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾، أي: لفَرْط جهلهم عن مَدارك الحق والصواب، فلم يُدركوا أنَّ الحق مع محمد ﷺ، ولا بدَّ للحق أن ينتصر، وأنَّ دينه هذا هو دين السعادة في الدارين.

وفي كلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ ذِكْرُ العامِّ وإرادةُ الخاصّ، وهو من المجاز المُرسَل، وللإشارة إلىٰ أن المؤمنين هم الناس لا غيرهم، و«أل» في قولهم: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ للعهد الذهني، يشيرون به إلىٰ الناس المؤمنين. ويجوز أن يكون الكلامُ حكايةً لقولهم، أو حكايةً لضمائرهم. ومَنْ حَسِبَ الضَّلالَ هُدىٰ رأىٰ الهدىٰ ضلالاً.

والسَّفَهُ: خفَّة العقل وضَعْفُ الرأي، والسفيه: هو الجاهل بمواضع المنافع والمضار، والذي يُضيِّع من حيث يرىٰ أنَّهُ يحفظ، ويعصي من حيث يرىٰ أنه يُطيع.

ثمَّ تابع البيان وشرح نفاقهم الذي يعدُّونه صواباً وغيره سفهاً لما يَرَوْن فيهم من الاحتياط، فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾، والمراد من الشياطين: رؤساؤهم وكُهّانُهم دعاةُ الفتنة وعمّال الفساد.

وقال بعض المفسِّرين: إنَّ شياطينهم هم اليهود؛ إذ هم الذين أغْرَوا المنافقين العرب بالنفاق والخداع.

وهذه الآية بمضمونها تتناول المُذَبذَبين في الانقلابات الإصلاحية لا يجهرون بالجديد خشية أن ينخذل حِزبُه، ولا بالقديم حذراً من أن يتقلص ظلُّه، فيكونون بين بين، ويُماشون الطرفين، حتىٰ يتبيَّن الفوز لأحد الفريقين، وهو نفاقٌ وجُبْن مَشين[1].

---

(١) لكنْ ينبغي التحرُّز والتيقُّظ في كون هذه الانقلاباتِ والدعواتِ إصلاحيةً فعلاً، فلا يخفىٰ أن كثيراً مما أُشيع عنه ذلك ما كان في حقيقته وواقعه إلا إفساداً.

ثم عقَّب علىٰ قولهم وعملهم هذا مُشاكلاً له بقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾، وفي هذه الجملة ما ذكرناه في قوله: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] من المعنيين معاً: الخير والدعاء، وما ذكرناه في قوله: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧] من أنَّ هذا المدَّ إنما يكون بسنَّة الله العامَّة في طباع الإنسان وأخلاقه.

وسمَّىٰ إمهاله إيَّاهم في طغيانهم استهزاءً بهم، علىٰ طريقة المشاكلة، والعرب تُسمي الجزاء علىٰ الفعل باسم الفعل نفسه.

وفي قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ إسنادُ الفعل إلىٰ الله مع التلميح إلىٰ السبب، وهو انطباعهم علىٰ الطغيان والعَمَه عن الحق، فإنه هو المدّ والتمادي، (كما جاء بيان ذلك في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية). والعَمَه في البصيرة كالعَمَىٰ في البصر.

ثم نعىٰ عليهم بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾، وهذه الجملة مَسُوقةٌ لتقرير ما قبلها وتعليله، ولبيان كمال[١] جهالتهم فيما حُكي عنهم من الأقوال والأفعال، بإظهار غاية سَماجتهم[٢] وغباوتهم، وتصويرِها بصورةٍ ما لا يكاد يَتَعاطاه من له أدنىٰ تـمييز.

وصورةُ هذا التعبير استعارةٌ بليغةٌ في تشبيه الضلالة بسَـقَطِ المتاع[٣] والهُدىٰ بالثمن الغالي.

ثم قرَّر ما فاتهم من فوائد الهدىٰ بقوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾، فقد صوَّر ذلك بصُورة خسارة التجارة، علىٰ طريقة الاستعارة التهكُّمية، وهي من البلاغة بمكان، والجملةُ ترشيحٌ للشراء في الجملة التي قبلها.

---

(١) في «تفسير» أبي السعود ـ والنقل منه ـ (١: ٤٨): وبيانٌ لكمال.

(٢) في «تفسير» أبي السعود (١: ٤٨): سماجتها.

(٣) سَقَطُ المتاعِ: رديئُه وحقيره. «لسان العرب» (سقط).

ثم مكّن المعنىٰ وجرّد الاستعارة بقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾، أي: في تعاطي العمل الـمُشين. وفي هذا الكلام زيادةٌ في التهكّم والتقريع، حيث جاءتهم الهداية وتـمكّنوا من أخذها، فلم يُعيروا لها أذناً صاغيةً ولا قلباً واعياً. ومن أساليب القرآن تعقيبُ المجاز بالحقيقة، والإيجابُ بسَلْب ضِدِّه.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ثمَّ ضرب الأمثال لهم ولشياطينهم من أحبار اليهود، لزيادة الكشف عن حالتهم في تصويرها من ناحية أخرىٰ، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾(١)، أي: مثلهم كَمَثل رجل كان في ظلمة فأُوقد له نارٌ أضاءت ما حَوْله حتىٰ عرف ما يتّقي، ثم أُطفئت فعاد في ظلماته.

ضرب الله سبحانه هذا المثل لمنافقي أهل الكتاب ولأحبار اليهود في عصر الدعوة الذين حَمَلوا بعضَ الأوس والخزرج علىٰ النفاق بإغوائهم وتضليلهم، فقد آتاهم الله ديناً وهداية عمل بها سَلَفُهم، ثم انحرف عنها خلفُهم فضَلُّوا، وكانوا ينتظرون دين محمد، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فغضب الله عليهم.

---

(١) لا يختص قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ...﴾ [البقرة: ١٧] هذا بمن خُوطبوا به فحسب، بل ينطبق علىٰ كلِّ من جاءهم دين وهداية إلهية عمل بها سلفهم فجنوا ثمرها وصلح بها حالهم، ولكنهم انحرفوا عن سَنَن سلفهم في الأخذ بمفاهيم تلك الهداية والعمل بحقيقتها، وظنوا أن ما كان عند سلفهم من نعمة وسعادة وأخلاق إنما كان أمراً خُصّوا به بمعجزة إلهية، ولم يفكروا بأنه كان من نتيجة الأخذ بتلك الهداية علىٰ وجهها الصحيح، لذلك لم يطمعوا بما كان عند سلفهم ولم يجهدوا أنفسهم في الحصول عليه، وحرَّفوا مفاهيم تلك الهداية ومقايسها. (المؤلف).

فالآيةُ مَثَلٌ لمن آتاه الله ضَرْباً من الهدىٰ فأضاعه واستبدله بالضلال[١]، والتعبيرُ عن المعاني وإفادةُ المقاصد بطريقة ضرب الأمثال، أسلوبٌ من أساليب القرآن، وطريقٌ من طرقه المنوعة في البيان؛ لأن المثل يرفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفيَّة ويُبرزها للعيان ظاهرة جلية.

والعرب تستعمل لفظ «الذي» في الجمع، كلفظي «ما» و«مَنْ»، فتراعي في ضمائره اللفظ والمعنىٰ، فتعيد إليه ضميرَ الفرد نظراً للَّفظ، وضميرَ الجمع نظراً للمعنىٰ. وعلىٰ هذا الاستعمال جاء هنا ضميرا كلمتي ﴿حَوْلَهُۥ﴾ و﴿بِنُورِهِمْ﴾.

ويجوز أن يكون في أسلوب الآية لمحة أخرىٰ، وهي أنَّ العربي إذا أراد تقرير معنىً في النفس يجمع عليه التعبير بالتشبيه والحقيقة أو المجاز والحقيقة معاً، فيقول: خالد أسدٌ لا يُجارىٰ في الحرب، وصادفت بحراً أدهشني بيانُه، ولما كان من أساليب القرآن العظيم أن يَسبُكَ المعنيـين أو المعاني تحت صيغة واحدة وتركيب واحد، جرىٰ علىٰ هذه القاعدة في هذا الأسلوب؛ فبعد أن تكلَّم عن حال المنافقين وشياطينهم بطريقة التشبيه والتمثيل، وعبَّر عن المشبَّه به بلفظ المفرد، وهو: «الذي»، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾، غيَّر الأسلوب في جواب الشرط وعبَّر بالحقيقة فقال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ علىٰ طريقة الجمع بين الحقيقة والمجاز في أسلوب القرآن، فكانت هذه الجملة مُتضمِّنةً لتكميل معنىٰ التشبيه ومُصَرِّحة بحال الـمُشبَّهين المتحدَّث عنهم، جمعاً بين المعنيين.

وفي قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ما في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] من

---

(١) كذا، والأصل أن يُـقال: واستبدل الضلالَ به، فالباء داخلة علىٰ الـمتروك، كقوله تعالىٰ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

إسناد الفعل إلىٰ الله باعتبار سُننه العامة في طبيعة الإنسان، فإنه إذا انطبع علىٰ الضلال لا يميل إلىٰ الهدىٰ.

ثم نعىٰ عليهم ضلالَهم هذا وأنَّبَهم عليه، فقال: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ أي: صمٌّ عن سماع الحق والصواب، بُكمٌ عن التكلم بها، عُمْيٌ عن رؤيتها، وهذا إشباعٌ للمعنىٰ السابق وتصويرٌ لإصرارهم علىٰ الضلال، وإنما سجَّل عليهم الصَّمَم والبكمَ والعَمَىٰ؛ لأنهم لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وعقولهم، فكأنها لم تكن.

ومن أساليب اللغة: نفيُ الشيء لعدم نفعه، فتقول: هذه ليست بشجرة؛ إذا لم تثمر. وذكْرُ الألسن بدل العقول لأنها أدوات التعبير عنها.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾، أي: فهم لذلك لا يرجعون عن الضلال إلىٰ الهدىٰ، وعقّب المجاز بالحقيقة علىٰ أسلوب القرآن.

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

ثم ضرب لهم مثلاً عن حالتهم النفسية تجاه القرآن، فقال: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾، أي: كدويٍّ مطر غزير، هذه صفتُه وهذه حالهم فيه. وذلك لأنهم قد تمكَّن فيهم تقليدُهم لسَلَفِهم بضلالات دينهم الموروث، فهي تَحُولُ دون الاقتباس الصحيح من نور الهداية، فإذا قرعتْ خُرافاتِهم قوارعُ هذا النور الساطع تَغاضَوْا عنه وسَفَّهوه، حماقةً وبَلَهاً، رُغماً عن أنه قويٌّ جليٌّ نقيٌّ.

فقوله: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ تصويرٌ لذلك البَلَه،

واستعارةٌ تخيليَّة مبنيَّة علىٰ تشبيههم في تغاضيهم عن قوارع هذا النور الساطع، بمن يَسُدُّون آذانهم من الصَّواعق حَذَرَ الموت، حماقةً وبلهاً، فقد سِيقَت هذه الاستعارةُ لتصوير ناحيتين من نواحي نفوسهم، وبيان أمرين من أمورهم، فهي تُصوِّر شدَّة بلههم وحماقتهم البالغة الحد، وتُشنِّع عليهم في ذلك، لأنَّ سدَّ الآذان ليس من أسباب الوقاية من الصواعق، ولكنه شأن الصبيان. وكذلك تُقرِّر إعراضَهم عن الحقِّ الجليِّ القويِّ، وصَمَمَهم وتعاميَهم عنه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ تهديدٌ لهم وتوعُّد، في طيَّاته تسخيفٌ عن صُورة حَذَرهم السخيف، وهو تمثيلٌ لعدم الإفلات منه تعالىٰ، وكنايةٌ عن ذلك؛ لأنَّ المحاط به لا يمكنه أن ينفلت.

وتعقيبُ الإجرام بالوعيد من أساليب القرآن فلا تغفل عنه. وقد وضع الظاهر موضع الـمُضمَر فقال: ﴿مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ولم يقل: محيط بهم؛ للإيذان بأنهم إنما كانوا كذلك بكفرهم، وليكون الكلام تهديداً عاماً يشملهم وغيرَهم من الكَفَرة، وذلك من أساليب القرآن وخصائصه (كما جاء في المادة الحادية عشرة من المقدمة الثانية).

ثم عاد إلىٰ تكميل المَثَل وتحرير حالتهم من ناحية أخرىٰ، ناظراً إلىٰ حالتهم مع البرق بعد بيان حالتهم مع الرعد، فقال: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾، وهذا تصويرٌ لشدَّة تلك القوارع من ذلك النور الساطع.

ثم صوَّر مجال أفكارهم في نوره حيناً، واصطدامهم بضلالات التقليد حيناً آخر، فقال: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾، أي: وقفوا، يعني: كلما نوَّر لهم البرق مَسْلَكاً مشوا في مَطْرح نوره خطوات يسيرة، وإذا خفي البرق وقفوا في أماكنهم علىٰ ما كانوا عليه وهم مُتحيِّرون. والمراد: أنهم يظهر لهم الحق فيعزمون علىٰ اتِّباعه، وتسير أفكارهم في نوره، ولكنهم لا يلبثون أن يصطدموا بضلالاتِ التقليد

لآبائهم، وظلماتِ ما انطبعوا عليه، فيقفون عند ذلك ويعارضون، أو يحتارون ويرتبكون، فهدَّدهم بسَلْب تلك المواهب التي لم ينتفعوا بها، مبيِّناً ضعفهم تجاه قوَّة الله القوية وقهره الغالب، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾، وفيه إيذانٌ لقدرة الله العلية المرهوبة الجانب، ملائمٌ لقوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ ومكملٌ له.

هذا وكما يجوز أن يكون المثلان معاً لصِنفَي المنافقين وشياطينهم علىٰ ما تقدَّم، يجوز أن يكونا للكافرين والمنافقين علىٰ حدٍّ سواء؛ لانطباقهما عليهما معاً، لأن من الكافرين من كان يتطلَّب الإصلاح في الدين، كابن أبي الصَّلت[1] وأبي عامر الراهب[2] وأمثالهما كأبي جهل، فلما جاءهم محمد ﷺ بالحقِّ أعرضوا عنه حسداً ولؤماً، وكذلك بعض رؤساء قريش يعلمون أنَّ محمداً ﷺ علىٰ الحق، ولكنه الحسد والخوف علىٰ المراكز، كما جاء عنهم في سورة فاطر: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، من ذلك قولةُ أبي طالب لما طلب منه النبي ﷺ أن يؤمن، قال: والله إني أعلم أنك علىٰ حق، ولكن لا يسعني أن تُعَيِّرَني عجائز قريش.

ويجوز أن يفترق الـمَثَلان، فيكون المثل الأول لعموم أهل الكتاب بما فيهم

(١) هو أبو الحكم أمية بن أبي الصَّلْت الثقفيُّ شاعر جاهلي معروف، والد سيدنا حنظلة الغسيل رضي الله عنه، قدم دمشق، وقيل: هو الذي أراده الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا...﴾ الآية [الأعراف: ١٧٥] «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٩: ٢٥٥).

(٢) هو أبو عامر عبد عمرو بن صيفي، كان يُعرف بالراهب في الجاهلية، نَفَس علىٰ رسول الله ﷺ [أي: حسده] وأظهر كفره، مات كافراً عند هرقل بعد الفتح. «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (١: ٣٨٠).

منافقوهم، والمثل الثاني لعموم المشركين بما فيهم منافقوهم، دون أن نخصَّهما بالمنافقين منهما؛ لأن الكلام السابق عن الكفار والمنافقين يلائمهما ويشملهما، فكل ذلك مُحتَمَل.

وعلىٰ كلٍّ، فهؤلاء كلهم ظهر لهم الحق فالْتَوَتْ عنه قلوبُهم، وبَزَغ عليهم نور الهداية فغَشِيَتْهم الشهوات والأهواء.

هذه هي صنوف الناس بالنسبة للانتفاع بهذا القرآن، بيَّنها الله لنبيِّه؛ إذ لا بدَّ له من معرفتها ليعامل كل طائفة بما يناسب نَـزْعتها، فيَطْمَئِنَّ للمتَّقين ويُجابه الكافرين ويَحذر المنافقين.

ثم قال في «المنار»: عقَّب الأستاذُ الإمام[1] تفسيرَ هذه الآيات بتنبيـهٍ ارتاع له الخامل والنبيه، فبيَّن أن القرآن هادٍ ومرشدٌ إلىٰ يوم القيامة، وأنَّ معانيه عامة شاملة، فلا يَعِدُ ويُوعِد ويعظُ ويُرشِدُ أشخاصاً مخصوصين، وإنما نِيطَ وعدُه ووعيدُه وتبشيرُه وإنذارُه بالعقائد والأخلاق والعادات والأعمال التي تُوجَد في الأمم والشعوب أياً كانت، فلا يَغْتَرَّنَّ أحدٌ بقول بعض المفسرين: إن هذه الآيات نزلت في المنافقين الذين كانوا في عصر التنزيل، فيتوهَّم أنها لا تتناوله وإن كانت منطبقةً عليه؛ وذلك لأنه لم يتَّخذ القرآن إماماً وهادياً، ولم يستعمل عقله ومشاعره فيما خُلقت له، بل اكتفىٰ عن ذلك بتقليد آبائه ومعاصريه[2].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» لمحمد رشيد رضا (١: ١٥٠).

عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وبعد أن ندَّد بالمشركين وأهل الكتاب والمنافقين وشنَّع عليهم بضرب الأمثال، خاطب الناس وقد تهيَّأت عقولهم بتلك المواعظ أن يعبدوا ربَّهم الذي تقتصر أفعالُ الألوهية وصفاتُها عليه تعالىٰ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، فضمَّن الآيةَ البرهان القاطع في استحقاقه وحده لأنْ يُعبَدَ؛ لِـمَا له من الأعمال العظيمة والمنن الجليلة علىٰ الناس أجمعين.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ جملةٌ حاليةٌ بمعنىٰ: راجين أن تنخرطوا في سلْكِ المتقينَ سَخَطَ الله وعذابَه، فهو تكميل للتعليل، ومفادُه أن الغاية راجعة إليكم.

ثم تابع البرهان مُعدِّداً عليهم نِعَمَه في غضون بيان أعماله الجليلة من أفعال الربوبية؛ حثاً لهم علىٰ المسارعة إلىٰ العبادة، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، أي: جعل لكم الأرض صالحةً لحياة الإنسان وسُكْنَاه، وبنىٰ السماء بنظام عجيب؛ من بعض مقتضياته هبوب الرياح وإنشاء السحاب الذي هو أحد العوامل في بقاء النوع الإنساني، ناهيك بما في الشمس وحركةِ الأرض حولها من الأثر العظيم في تلك الحياة، وهذا قليل من كثير.

وفي كُـلِّ شيءٍ لـه آيـةٌ تَدُلُّ علىٰ أنه واحـدُ[1]

(١) اختُلف في نسبة هذا البيت، فنسبه الجاحظ في «المحاسن والأضداد» (١: ١٦٨) لأبي نُواس، ونسبه الثعالبي في «أحسن ما سمعت» (١: ٩)، و«التمثيل والمحاضرة» (١: ١١)، والقيرواني في «زهر الآداب وثمر الألباب» (٢: ٣٨٧) لأبي العتاهية، ونسبه الراغب الأصفهاني في «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» (٢: ٤١٠) للبيد.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، أي: وأنتم من أهل العقل والمعرفة، وتعلمون أنه لا نِدَّ له في تلك الأعمال العظيمة.

ويجوز أن تكون هذه الجملة الحالية، للمبالغة في تقبيح شأنهم وسُوء طَوِيَّتِهم[١] في جريانهم علىٰ خلاف البديهي الظاهر، لأنَّ علم هذه الأمور طبيعيٌّ في البشر.

ثمَّ احتجَّ سبحانه لنبيِّه ﷺ علىٰ مُشركي قومه وكفار أهل الكتاب في أن الكتاب الكريم ـ الذي من جملته ما تُلِيَ من الآيتَينِ الناطقتَينِ بوجوب العبادة والتوحيد لله تعالىٰ وحده ـ مُنزَّلٌ من عند الله علىٰ رسوله حقاً، وجعل ذلك كالتقرير لقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾[٢] في دعواكم أنَّ القرآن من كلام محمد، أي: فإن كنتم تَدَّعون ذلك فأتوا بسورةٍ من مثله، وادْعُوا مَنْ يحضُر معكم ويُعاونكم علىٰ ذلك ممَّن شئتُم ما عدا الله سبحانه، فإنه لا يقدِرُ علىٰ مثله إلا الله وحده، أو ادْعُوا الذين يشهدون لكم بأنَّ ما قلتموه يشبه القرآن، يريد: لا أحد يُقرُّكم علىٰ ذلك.

وهذا الكلام من باب التعجيز وإلقام الحجر، وقد أحالهم في الحكم إلىٰ أنفسهم فلم يجرؤوا أن يحكموا لأنفسهم، لأن الأمر واضح. وقد قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا، ولكنهم لم يقولوا، وإنما هو جَدَلٌ مجرَّد وسفاهة؛ لأنَّ القول يفضحهم ويقيمُ الحُجَّة عليهم بجلاء.

وكل بليغ متذوِّق للبلاغة والبيان لا يملك إلا الإقرار بأنَّ القرآن من غير جنس

---

(١) الطَّوِيَّة: الضمير. «لسان العرب» (طوي).

(٢) السخافة كل السخافة: مَنْ يسمع هذا ثم يقول: إن القرآن يجوز أن يترجم بلغات أخرىٰ! (المؤلف).

ما يعهدُه سَمْعُه وذوقُه، وأنَّ مُبلِّغه محمداً ﷺ لا يخرج عن طَوْق البشر في الكلام، فلا يقدِرُ أن يخْتلقه أو يفتري به، وكلامه ﷺ ـ رغماً عن بلاغته ـ كالخرز واللآلئ بالنسبة للقرآن.

وقد تحدَّاهم أولاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ثم بعَشْر سور، ثم بسورة من مثله، فسكتوا وذلوا واستكانوا.

والمراد من السورة: الكلام في موضوع واحد. أما كلمة ﴿دُونِ﴾ فقد توسَّعت فيها اللغةُ حتىٰ أخرَجَتْها مَخْرج أداة الاستثناء في مثل هذا التركيب.

وإنما قال: ﴿نَزَّلْنَا﴾ ولم يقل: أنزلنا؛ لأن التنزيل يدلُّ علىٰ التدريج الذي نَزل عليه القرآن، وإنما قال: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: «من دوننا»، لإدخال الروعة وتربية المهابة باسم الجلالة، وهذا أسلوب القرآن، فلا تجهل.

ثم فرَّع علىٰ ذلك منتقلاً من التحدِّي إلىٰ التَّحذير بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾، وهذه الجملة تهديدٌ عام يشملهم وغيرَهم. والجملة الاعتراضية: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾، تُسجِّل عليهم العَجْز المستمر في ذلك، وأنّىٰ لهم أن يأتوا بأقصر سورة من مثل هذا القرآن الـمُعجِزِ بتراكيبه وأساليبه وأنواع صُوَرِ تعابيره وبياناته، ورِفْعةِ علومه وآدابه، وجلال حِكَمِه وأحكامه، وسَعَةِ معانيه ومدلولاته، ودقَّة إشاراته وتلميحاته، وسَدَاد تربيته وتوجيهاته، وصحَّة سياساته واجتماعياته. تلك التي لو اجتمعت الإنسُ والجنُّ علىٰ أن يأتوا بمثلها لا يقدرون، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وقد أجهز عليهم بالحكم المؤبَّد بقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾، وكان قد تحدَّاهم بأن يأتوا بمثله، ثم بأن يأتوا بعَشْر سور من مثله، ثم قلَّل الطلب فقال: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، فعجزوا وانخذلوا.

والوَقود ـ بفتح الواو ـ: كلُّ ما يُوقد به النار من المواد المشتعلة، كالوَضوء ـ بفتح الواو ـ للماء الذي يُتوضَّأ به. وما أرهَبَ التهديدَ بقوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فإنه تهديدٌ وبيانٌ للناس عن هَوْل تلك النار التي وَقُودُها الحجارة لشدَّتها، رغماً عن أنَّ الحجارة ليست مادةً مشتعلة.

ففي الكلام ترهيبٌ رهيبٌ مكّنه بقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، فإنَّ هذه الجملة تدلُّ علىٰ شدَّة الاعتناء بتحضيرها، وذلك يستلزم كَثْرَة ما بها من هَوْل وعذاب. أعاذنا الله من شرِّها وعذابها، إيَّاه نعبد وبه نستعين، وهو أرحم الراحمين.

وقد أقام لازمَ جواب الشرط مقامَه علىٰ نهج القرآن؛ لأن الجواب: فاعلموا أنه من عند الله.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وبعد أن أشبع الكلام في المشركين والمنافقين وأحوالهم ومصيرِهم، ذكر المؤمنين ومصيرَهم، زيادةَ تحسيسٍ في الترغيب والترهيب، فالضدُّ يُظْهِرُ حُسْنَه الضِّدُّ. وذلك من خصائص القرآن في بلاغته (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وإنما غيَّر الأسلوبَ ليَظهَرَ كمالُ التباين بين الفريقين، ولذلك صدَّر الجملة بالتبشير.

والأعمال الصَّالحة: هي ما أُشيرَ إلىٰ أمهاتها في الفاتحة، وجاءت تفاصيلها في تضاعيف القرآن.

والاقتصار في وصف الجنان علىٰ جريان الأنهار، جاء علىٰ نهج القرآن في مواقف الوصف، فإنه يقتصر علىٰ بعض الصفات الرائعة بطريقة اللَّمْحة الدالة، ولا يتعمَّق ولا يَسْتقصي الوصف إلا إذا اقتضىٰ البيانُ ذلك، واسْتَدْعاه الغرض.

ثم ذكر ما تمتاز به ثمرات هذه الجنات، فقال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾.

قال أبو مسلم[١]: المراد: شدَّة التشابه بين ثمار الجنة في جميع الصفات.

وعن ابن عباس ومجاهد: هي متشابهةٌ في الشكل متفاوتةٌ في الجودة[٢]. وعن عكرمة: أن المراد مشابهة ثمرة الجنة لثمرة الدنيا إلا أنَّ ثمرة الجنة أطيب[٣]. وعلىٰ هذا المعنىٰ يكون قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: في الدنيا، ولما استَحْكَمَ الشَّبَهُ جعَل ذاتَه ذاتَه.

ثم تابع الكلام عمَّـا لهم من النعيم في تلك الجنان، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من كل ما يُنغِّص الحياةَ الزوجيةَ من النقائص البدنية التي تُشين الجسم، والنقائص الخُلُقية التي تُشين الروح، أي: مُبالَغٌ في تطهيرهنَّ وتزكيتهنَّ، فليس فيهنَّ ما يُعاب من خُبْث جسديّ حتىٰ ما هو في الدنيا طبيعي، كالحيض والنفاس، ولا نفسيّ، كالمكر والكيد وسائر مساوئ الأخلاق؛ لأنهنَّ طُهِّرنَ كلَّ أنواع التطهير.

ونساء الجنات من المؤمنات الصَّالحات، وهنَّ المعروفات في القرآن بالحُور العين، أو الحور العين صنفٌ آخر مُضاف إليهنَّ وهو الأصح، والله أعلم.

---

(١) يعني: الأصفهاني.

(٢) روىٰ الطبري في «تفسيره» (١: ٣٩٠). عن مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ لونه مختلفاً طعمُه، مثل الخيار والقثاء.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١: ٣٩١).

وقال ابن القيم: لم يثبت في نساء الجنة حديثٌ صحيحٌ بأكثرَ من زوجتين لكلِّ رجل[١]. وقال في «المنار»: وفي «الصحيح»: «إنَّ لكلِّ رجل في الجنة زوجين اثنتين». قال العلماء: إحداهُنَّ من نساء الدنيا، والأخرىٰ من نساء الجنة، وما وَرَد من كثرتهنَّ لا يصحُّ منه شيء[٢].

أقول: ولكن جاء في الحديث: «إنَّ للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوَّفة، طولُها ستون ميلاً، فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن، فلا يرىٰ بعضهم بعضاً» رواه الشيخان[٣]. إلا أنه يحتمل مع الزوجات غيرهنَّ من الأهل، والطوافُ لا يُلازم المسيس.

وصُحبة الأزواج في الآخرة كسائر شؤون الآخرة الغيبيَّة، نؤمن بما أخبر به الله تعالىٰ، لا نزيد عليه ولا ننقص، ولا نبحث في كيفيَّته، وإنما نعرف بالإجمال أنَّ أطوار الحياة الآخرة أعلىٰ وأكمل من أطوار الحياة الدنيا بما لا يُقدَّر، ونحن نعلم أنَّ الحكمة في لذة وَطْء الأزواج في الدنيا هي التناسل وإنماء النوع، ولم يرد أنَّ في الآخرة تناسلاً، فلا بدَّ أن تكون لذَّة المُصاحَبة هناك نوعاً آخر أسمىٰ وأعلىٰ، والله أعلم. وإننا نؤمن بذلك ولا نبحث عن حقيقته؛ إذ ليس ذلك في الإمكان.

---

(١) «حادي الأرواح»، ص١٠٩.
وقد روىٰ أحمد (١٧١٨٢)، والترمذي (١٦٦٣) عن المقدام بن معدي كَرِب قال: قال رسول الله ﷺ «للشهيد عند الله ست خصال: ... ويزوّج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين...»، وقال الترمذي: حديث صحيح غريب.

(٢) «المنار» (١: ١٩٦)، والحديث رواه البخاري (٣٢٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «أول زمرة تدخل الجنة علىٰ صورة القمر»، وفيه: «لكل امرئ زوجتان من الحور العين».

(٣) رواه البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨) واللفظ له، عن أبي موسىٰ الأشعري.

هذا مُلخَّصُ ما قاله الأستاذُ الإمام، وهذه هي طريقته المثلىٰ في الإيمان بالغيب، من غير قياسٍ لعالَـمِه علىٰ عالَـمِ الشهادة.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ما معناه: إنَّ كل ما جاء عن الآخرة مما في الدنيا ليس بينهما مشابهةٌ إلا بالاسم(١).

أقول: ولا يبعد أن يكون هناك وطءٌ دون تناسل أو شبيه به، والله أعلم.

وجاء عن أمِّ سلمة رضي الله عنها قالت: «قلت: يا رسول الله، أَنِساءُ الدنيا أفضلُ، أمِ الحورُ العين؟ قال: «نساء الدنيا أفضلُ من الحور العين كفضل الظِّهارة علىٰ البِطانة». قلت: يا رسول الله، وبمَ ذلك؟ قال: «بصلاتهنَّ وعبادتهنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ، أَلْبَسَ اللهُ عز وجل وجوهَهنَّ النور وأجسادَهنَّ الحرير، بيضُ الألوان، خُضْرُ الثياب، صُفْرُ الحَلْيِ، مجامرهُنَّ الدُّرّ، وأمشاطُهنَّ الذهب، يقلن: ألا نحنُ الخالدات فلا نموت أبداً، ألا نحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً، ألا ونحن المقيمات فلا نَظْعن أبداً، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً، طُوبىٰ لمن كنّا له وكان لنا»، قلت: يا رسول الله، المرأة منا تتزوَّج الزوجين والثلاثةَ والأربعةَ في الدنيا، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها، مَنْ يكون زوجُها منهم؟ قال: «يا أمَّ سلمة، إنها تُخيَّر فتختار أحسنَهم خُلقاً. فتقول: أيْ ربِّ، إنَّ هذا كان أحسَنَهم معي خُلقاً فزوِّجْنيه»(٢).

ثم أكمَلَ البيان عن النَّعيم الذي تضمَّنه هذا الوعد الكريم بقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝٢٥﴾، لأنَّ النعيم مهما كان عظيماً إذا لم يكن خالداً يكون مُنغَّصاً، ففي هذا البيان تكميلٌ للبهجة والسرور.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١: ٣٩٢).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٣: ٣٦٧)، و«الأوسط» (٣١٤١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧: ٢٥٥): رواه الطبراني وفيه سليمان بن أبي كريمةَ، ضعَّفه أبو حاتم وابن عدي.

والخلودُ في اللغة: طول الـمُكْث، ومن كلامهم: خلد في السِّجن. وفي الشرع: هو الدوام الأبديُّ، أي: لا يخرجون منها ولا هي تفنىٰ بهم فيزولوا بزوالها.

وفَّقنا الله لما يجعلنا من خيار أهلها من المعرفة الصحيحة والأعمال الصالحة التي ترتقي بها الأرواحُ، وتسعد(١) لذلك الفلاح.

وقد ذُكر في وصف الجنة ودرجاتها أحاديثُ، بعضها موضوع، وبعضها منكر(٢)، ومن ذلك ما روي عن أبي هريرة وعمران بن حصين أنهما قالا لمن سألهما: علىٰ الخبير سَـقَطْت، وأنهما سألا رسول الله ﷺ وذكرا وصفاً طويلاً، فيه: «أنَّ في الجنة للرجل الصالح ألوفاً من البيوت، في كلٍّ منها ألوف من الحور العين»، وهو حديث منكر من دسائس الوضَّاعين(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وبعد أن أثبتَ سبحانه أنَّ هذا الكتاب مُنزَّل من عند الله بما تحدَّاهم به بقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، أجاب عن شُبهة لهم، وهي وجود مَثَلِ البعوضة والعنكبوت

---

(١) في تفسير «المنار» (١: ١٩٦) والكلام منه: وتستعدُّ.

(٢) ولكن هناك أحاديث صحيحة ثابتة، ليت المؤلف أشار إليها.

(٣) ذكره ملا علي القاري في كتاب «الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» (١: ٢٤٨) فقال: حديثُ علىٰ الخبير سقطت. جاء عن جماعة من أهل العلم ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما.

فيه، مما لا يليق أن يكون كلاماً لله بزعمهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾[1]، فالآية تتميمٌ للردِّ علىٰ من يرتاب في أنَّ القرآن مُنَزَّل من عند الله، أي: إنَّ الله سبحانه لا يرىٰ من النقص ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أوضح به مَهَانة شركهم وشركائهم بأجْلىٰ بيان، وأثبتِ برهان.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ يَشْتَبهون بكَوْن هذا القرآن من عند الله، لأنه يحوي مثل هذه الكلمات، فبيَّن سبحانه أن مِثْلَ هذا الـمَثَلِ يكون هدايةً للمؤمنين وضلالاً للكافرين، فقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: الحائدين في فهم الحقِّ عن سواء السبيل.

---

(١) ويجوز أن يضاف إلىٰ هذا الوجه وجه آخر، وهو أن ما ألمع به سبحانه إلىٰ وصف الجنة والنار إنما هو لمحة دالة وتمثيل ضئيل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ ـ أي: لا يرىٰ من النقص ـ ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾. واستعمال كلمة المثل للبيان قد جاء في القرآن كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الحج: ٧٣]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ [الزخرف: ٥٧] فقد قال المفسرون: المراد منه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وكلمة: ما، صفة للمثل تفيد التقليل، أي: مهما كانت درجته من الضؤولة ما دام يجلي المعنىٰ، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ إذ أنَّ كل ما جاء عن الآخرة مما في الدنيا ليس بينهما مشابهة إلا بالاسم، كما جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ إن للمتموِّلين جناناً في الدنيا تجري من تحتها الأنهار، فيها من أنواع الفواكه والثمار، ينكرون بذلك اليوم الآخر، ويرتابون في كون هذا البيان من عند الله العلِّي القادر، ويظنّونه خيالاً من عالم الحياة الدنيا يُصوِّره شاعر ماهر، فألمع سبحانه في الردِّ عليهم إلىٰ أنَّ الكلام عن عالم الغيب لا يكون إلا باللمحة الدالة والتمثيل؛ لأن اللغة لا تفي علىٰ الوجه الكامل بذلك الحال الجليل. (المؤلف).

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ وهو المحافظةُ علىٰ سلامة الفطرة والغريزة الدينية، والسَّيْرُ بها نحو الكمال، تلك الفطرة التي ألمع سبحانه إليها بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي: من ذلك العهد والسَّيْر إلىٰ الهدف الأسمىٰ والكمال المنشود، يقطعونه بالضلال والإضلال، ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذلك الفسادَ الكبيرَ الذي حَادَ بالإنسان عمّا خُلق ودُعيَ إليه. لذلك نَعىٰ عليهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾، وأيُّ خسارة أعظم من خسران الدنيا والآخرة! أعاذنا الله.

ويجوز أن يُراد بالعهد أيضاً: ما أخذه سبحانه علىٰ أهل الكتاب في التوراة من اتِّباع محمد ﷺ والتَّصديق بما جاء به، وأن يُراد بقطع ما أمر الله به أن يُوصَل: معارضتُهم له بَدلَ تأييدهم إيّاه. وكذلك معارضة المشركين ومحاربتهم محمداً ﷺ وأتباعَه، وهم من ذوي رَحِمِهم وقُرباهم، فقد قطعوا الرَّحِمَ التي أمر الله سبحانه أن تُوصَل، فهم يفسدون في الأرض بمقاومة الحق وقطع الأرحام، فخسروا الدنيا والآخرة.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

وبعد أن عدَّد لهم تلك القبائح، وذلك الضلال الفاضح، الذي يُوجبُ سخطه عليهم، ويقتضي مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع، التفتَ إلىٰ خطابهم وتوبيخهم علىٰ شركهم

وإنكارهم الحشْرَ وإمكانَه، ومَزَج ذلك بالاستدلال عليه بدليل القدرة في الإحياء والإماتة، فقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[١]، أي: كيف تشركون به وتنكرون قدرتَه علىٰ الإعادة وقد أوجدكم بعد أن لم تكونوا، أمَا كان عليكم أن تفقهوا أنَّ مَنْ فعل بكم ذلك هو القادرُ علىٰ إعادتكم وعلىٰ كلِّ شيء، وهو المستحق وحده لأن يُعْبَد.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ معطوفٌ علىٰ قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ عطفَ الدعوىٰ علىٰ الدليل؛ لأنَّ من قَدَر علىٰ ذلك يقدر علىٰ هذه الإعادة، إذ الإماتة من أعجب أحوال الطبيعة لو كانوا يفقهون.

ومن بلاغة القرآن وطرق إعجازه: عرضُه قصَّةَ الحياة كلها من قبل ظهورها بمرحلة إلىٰ ما بعد انتهائها بمرحلة، في هذه المقاطع الأربعة القصيرة، جلَّ مَنْ هذا كلامه.

ثم تابع الاستدلال جامعاً بين دليل القدرة ودليل المنَّة، تقريراً لاختصاصه بالألوهية، ولقدرته علىٰ الحشر، وتوبيخاً لهم علىٰ مقابلة الإحسان بالإساءة، فوق عَمَهِهِم عن الحق في الإيمان بالله وحده واتِّباع هُداه، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾،

---

(١) يُعجِّب سبحانه وتعالىٰ من أمر هؤلاء الذين ينكرون قدرة ربهم علىٰ إعادتهم وحشرهم، وهم يدركون أنهم كانوا في العدم، ثم تفضَّل عليهم بالوجود، وأغدق عليهم النعم من السماء والأرض. ويذكرهم بالإماتة التي لا ينكرونها، ويلمع إلىٰ أن إعادة الحياة عليهم بعد الموت أمر هيِّن علىٰ من هذا شأنه تعالىٰ؛ لأن الإماتة أمر عجيب ليس الإحياء بأعجب منها. (المؤلف).

فما أبدعَ هذا التركيب! صورتُه استدلالٌ ومادتُه تأنيب، وذلك من إعجاز هذا القرآن العظيم، فإنه لما استعظم المشركون أمر الحشر والإعادة دلَّهم بخلق السماوات والأرض وما فيهما، علىٰ قدرته علىٰ الإعادة وهَوْنها عليه، مؤنِّباً إياهم علىٰ الكفر والإنكار.

وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، إنما هي لتفاوت ما بين خِلقة الأرض والسماء في العظمة، لا للتراخي في الزمن، وهذا كثير في القرآن، ومن خصائص تراكيبه.

ويجوز أن يكون الإتيان بـ﴿ثُمَّ﴾ لإفادة أنه خبرٌ جديدٌ جيءَ به بعد الخبر الأول، وهو من أساليب اللغة وخصائص القرآن.

والاستواء: الاستقامة في البدن اهتماماً وقصداً للعمل، وهو هنا مُستَعارٌ من حال المخاطبين من البشر، حيث إنَّ المهتم بالعمل يتوجَّه إليه مستوياً معتدلاً، واستعارةُ صفات المخلوقين للخالق سبحانه وتعالىٰ؛ تقريباً للأفهام، هي من خصائص القرآن ونوعٌ من مجازاته (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدِّمة السادسة).

وحاصل المعنىٰ من قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أنه قَصَد إليها بعناية، وجَعَلها خلقاً عظيماً[1].

ويجوز أن يكون المرادُ من جمع السماوات طبقاتِ النجوم[2]، فإنَّ طبقاتها

---

(١) قال ابن كثير في «تفسيره» (١: ٢١٣): ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قصد إلىٰ السماء، والاستواءُ هاهنا تضمَّن معنىٰ القصد والإقبال؛ لأنه عُدِّيَ بـ«إلىٰ». اهـ.

(٢) هذا تأويل باطل، وطبقات النجوم: زحل، والمشتري، والمريخ، والزُّهرة... وكل هذه الكواكب في السماء الدنيا التي تعلونا، ولا نرى فيها إلا اللون الأزرق، ولا نعرف ماذا وراءها، وكل ما نرى من النجوم التي يصل إلينا ضوؤها بعد ملايين السنين الضوئية ـ كما يقول علماء الفلك ـ كلها في السماء الدنيا، لقوله عزَّ وجل: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] أي: =

متفاوتةٌ في البُعْد تفاوتاً كبيراً، هذا ما أراه. والله أعلم[١]. ويجوز أن يكون للتكثير لا

= بالنجوم، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]. ولكن ماذا بعد السماء الدنيا؟ لا نعرف عنها شيئاً لأنه ملكٌ واسع عظيم، الله أعلم به. وينظر ما كتبته حول السماوات السبع والرد على من أوّلها بالكواكب السيّارات السبع في شرحي لِـ«العقيدة الإسلامية» للمكي بن عزوز ص١٥٩-١٦١.

(١) تكرر في القرآن الكريم ذكر (السماوات السبع) بصيغ مختلفة، فذكرها في هذه السورة، وفي سورة النبأ ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]، وفي سورة تبارك: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، وكذلك في سورة نوح علىٰ لسانه لقومه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، وفي سورة المؤمنين سماها (طرائق): ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

وقد اختلف المفسرون، وخصوصاً المعاصرين منهم، في تحديد مدلول السماوات. وذهب بعضهم مثل الإمام محمد عبده في تفسير (جزء عمّ) إلىٰ أن (السبع الشداد) هي: ما فيه الكواكب السبع السيارة المشهورة، وخصّها بالذكر؛ لظهورها ومعرفة العامة لها، وإلا فقد بنىٰ ما هو أعظم منها، وهو ما وراءها من عوالم السماوات.

وكذلك فسرها بالسيارات السبع: الشيخ عبد القادر المغربي في «تفسيره» لجزء تبارك، في تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣].

وكذلك العلامة الطاهر بن عاشور، الذي قال في «التحرير والتنوير» (٣٠: ٢٣): «يجوز أن يراد بالسبع: الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يومئذ، وهي: زُحَل والمشتري والمرِّيخ والشمس والزُّهرة وعُطارد والقمر».

وقال: «وهذا المحمل هو الأظهر، لأن العبرة بها أظهر؛ لأن المخاطبين لا يرون السماوات السبع، ويرون هذه السيارات، ويعهدونها دون غيرها من السيارات التي اكتشفها علماء الفلك من بعد».

والحقيقة: أن هذه ليست تسمية لغوية، ولا اصطلاحية أهل الفلك، وكلمة (السماوات) لغةً وعرفاً أوسع وأشمل من (السيارات السبع)، كما أن عامة الناس لا يعرفون من هذه السيارات السبع إلا الشمس والقمر، والأخريات لا يعرفها إلا أهل العلم بها. وكل ما نراه من النجوم =

للتحديد، وذلك من خصائص القرآن واللغة معاً(١).

= إنما يظهر في مواقعه من السماء الدنيا. أما حقيقة السماوات السبع وما يجري فيها، وما فوقها من الكرسي الذي قال الله فيه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومن العرش الذي هو أعظم الـمخلوقات عامة، ولذا قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]؛ فذلك كله مما لا دراية للناس به.

(١) تكرار الآية يدل علىٰ أن المراد بالسبع التحديد لا للتكثير، ويدل علىٰ ذلك حديث الإسراء المشهور في «الصحيحين» واجتماعه ﷺ بالأنبياء، ففيه: «ثم انطلقنا حتىٰ أتينا السماء الدنيا، فاستفتح جبريل ﷺ ...» الحديث. وفيه: أنه لقي في السماء الدنيا آدم ﷺ، وفي الثانية: عيسىٰ ويحيىٰ عليهما السلام، وفي الثالثة: يوسف، وفي الرابعة: إدريس، وفي الخامسة: هارون، وفي السادسة: موسىٰ، وفي السابعة: إبراهيم. انظر البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

وما ورد من هذه الأعداد يحمل علىٰ الحقيقة لا علىٰ التكثير، فقد ذكر أهل العلم أن اللفظ يجب حملُه علىٰ الحقيقة، لأنها الأصل، ما لم يترجح غيرها بشهرة أو غيرها، قال السبكي في «الأشباه والنظائر»: حملُ اللفظ علىٰ ما يتبادر إلىٰ الذهن أولىٰ، ومن ثَمَّ يُحمَلُ علىٰ الحقيقة ما لم يترجح المجاز بشهرة أو غيرها. وقال الزركشي في «البحر المحيط»: إذا كان الاسم له حقيقة ومجاز وورد الخطاب به، فإنه يحمل علىٰ الحقيقة.

ولمزيد الفائدة وإزالة الشبهة نذكر أن مفهوم العدد هو أحد أنواع مفهوم المخالفة الذي يُبحَثُ في علم أصول الفقه، ومن المعلوم أن علم أصول الفقه فيه مباحث لغوية كالأمر والنهي، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، والظاهر والمؤول، وفيه مباحث اختلف أهل العلم في إفادتها للدلالة، هل هي لغوية لفظية أم هي عقلية؟ ومن هذه المباحث: مبحث المفهوم، قال الزركشي في «البحر المحيط»: هل المفهوم مستفاد من دلالة العقل من جهة التخصيص بالذكر، أو مستفاد من اللفظ؟ قولان، وبالثاني قطع الإمام في «البرهان»، وردّه الكرخي في «نكته» بأن اللفظ لا يُشعِرُ بذاته، وإنما دلالته بالوضع، ولا شك أن العرب لم تضع اللفظ دالاً علىٰ شيء مسكوت عنه، فإن اللفظ إما أن يشعر بطريق الحقيقة أو المجاز، وليس المفهوم واحداً منهما، وبنىٰ علىٰ =

= هذا أنه لا يصح الاستدلال بكون أهل العربية صاروا إلىٰ المفهوم، فإنهم إنما أخذوه بطريق الاستدلال بالعقل، وقد يخطئون، فيكون إذن نسبتهم كنسبة غيرهم من المخالفين. اهـ.
وعلىٰ أية حال، فدلالة مفهوم المخالفة من القواعد الأصولية، ولها علاقة بوضع اللغة عند بعض أهل العلم. ومفهوم العدد أحد أنواع مفهوم المخالفة، وهو حجّةٌ عند جمهور أهل العلم.
قال الشوكاني في «إرشاد الفحول»: الحق ما ذهب إليه الأولون ـ يعني: القائلين بحُجِّية مفهوم العدد ـ، والعملُ به معلوم من لغة العرب ومن الشرع، فإن من أمر بأمر وقـيّده بعدد مخصوص، فزاد المأمور علىٰ ذلك العدد أو نقص عنه، فأنكر عليه الآمرُ الزيادة أو النقص، كان هذا الإنكار مقبولاً عند كل من يعرف لغة العرب، فإن ادعىٰ المأمور أنه قد فعل ما أمر به، مع كونه نقص عنه أو زاد عليه، كانت دعواه هذه مردودة عند كل من يعرف لغة العرب. اهـ.
ولا يتعارض إثباتُ حجية مفهوم العدد مع النصوص التي يظهر منها إغفالُ قَصْد خصوص العدد، كذِكرِ العدد للمبالغة أو التنبيه علىٰ ما فوقه، قال الزركشي: محلُّ الخلاف فيما لم يُقصَد به التكثير، فأما المقصود به كالألف والسبعين وغيرهما، مما جرىٰ في لسان العرب للمبالغة، فلا يدل بمُجرَّده علىٰ التحديد. ذكره ابن فورك ....، واستثنىٰ ابن الصباغ في «العدّة» ما إذا كان في العدد تنبيه علىٰ ما زاد عليه، كقوله: «إذا بلغ الماء قُلّتين» فإنه تنبيه علىٰ أن ما زاد عليهما أولىٰ بأن لا يحمل. اهـ.
ثم إن ما تقدم لا علاقة له بكون الأعداد تدل بمنطوقها علىٰ معدودهاحقيقة؛ فإن هذا من المنطوق لا المفهوم، وبالتالي لا يصحُّ القول بأن عدَّ السماوات بسبع، وأيام الخلق بسِتّ، والطيور التي أحياها الله لخليله بأربع ـ لا يلزمُ منه أن تكون هذه الأعداد حقيقية! بل هذا لازم، ولكن يبقىٰ الخلاف في: هل مثل هذه النصوص يصحُّ الاحتجاج بها علىٰ نفي خلق الله لسماوات أخرىٰ غير هذه السبع، وخَلْـقِه لخلقٍ آخر غير السماوات والأرض في غير الأيام السِّتّ، وإحياء غير الطيور الأربعة للخليل في غير هذه القصّة، وهكذا؟
وقد تلمّس بعض العلمـاء الحكمة في تكرار العدد سبعة، فقالوا فيما نقله الزرقاني في «شرح الموطأ» ١ : ٥١٨: قال بعض العلماء: حكمة هذا العدد أنه لـمّا كان للوترية أثر عظيم في التذكير بالوتر الصمد الواحد الأحد، وكان للسبعة منها مدخل عظيم في الشرع، جعل تكبير صلاة العيد وتراً، وجعل سبعاً في الأولىٰ لذلك، وتذكيراً بأعمال الحج السبعة من الطواف، والسعي، =

= والجمار تشريفاً إليها، لأنه النَّظر إلىٰ أكثر، وتذكيراً بخالق هذا الوجود بالتفكُّر في أفعاله المعروفة من خلق السماوات السبع والأرضين السبع وما فيها من الأيام السبع. انتهىٰ.

وللعلامة ابن القيم كلام قيِّم في هذه المسألة، قال في «زاد المعاد» (٤: ٩٨): «وأما خاصية السبع فإنها قد وقعت قدراً وشرعاً، فخلق الله عز وجل السماوات سبعاً، والأرضين سبعاً، والأيام والإنسان كمل خلقه في سبعة أطوار، وشرع الله سبحانه لعباده الطواف سبعاً، والسعي بين الصفا والمروة سبعاً، ورمي الحجارة سبعاً سبعاً، وتكبيرات العيدين سبعاً في الأولىٰ، وقال: «مروهم بالصلاة لسبع»، و«إذا صار لغلام سبع سنين خُيِّر بين أبويه»، في رواية أخرىٰ: «أبوه أحقُّ به من أمه»، وفي ثالثة: «أمُّه أحقُّ به»، وأمر النبي ﷺ في مرضه أن يُصَبَّ عليه من سبع قِرَب، وسخّر الله الريح علىٰ قوم عاد سبع ليال، ودعا النبي ﷺ أن يُعينه الله علىٰ قومه بسبع كسبع يوسف، ومثّل الله سبحانه ما يضاعف به صدقة المتصدق بحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة، والسنابل التي رآها صاحب يوسف سبعاً، والسنين التي زرعوها دأباً سبعاً، وتضاعف الصدقة إلىٰ سبعمئة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، ويدخل الجنة من هذه الأمة بغير حساب سبعون ألفاً، فلا ريب أن لهذا العدد خاصية ليست لغيره ...» إلخ.

وللشيخ عطية محمد سالم رحمه الله كلام نفيس لخص فيه ما قاله صاحب «العذب الفائض في علم الفرائض» يُوضح فيه بجلاء خصوصية العدد سبعة، قال: «إن الأعداد بعَدِّ السبعة مكرَّرة المكرَّر، وإن نهاية العدد حقيقة هو العدد سبعة، كما يقال بأن المئة تكرار العشرة، والألف تكرار المئة، وهكذا.

وبيان ذلك علىٰ حدِّ قولهم: أن كلاً من الأعداد واحد واثنين وثلاثة، أعداد أولية، أي: ليست مركّبة من مكرَّر، بناءً علىٰ أن الواحد ليس داخلاً في العدد، وأنّ ابتداء العدد من اثنين. ثم تأتي الأربعة مجموع الاثنين، والستة مجموع الثلاثة مرتين، والسبعة مجموع الثلاثة والأربعة، وما فوق السبعة ففيها تكرار المكرّر، وتكرار المكرَّر لانهاية له، فالثمانية تكرار الاثنين أربع مرات، ولو قيل: هي مجموع الأربعة مرّتين، لقيل: إن الأربعة نفسَها تكرار الاثنين، فلا تخرج عن تكرار المكرّر، والتسعة تكرار المكرّر، وهو الثلاثة ثلاث مرات. والعشرة تكرار الاثنين خمس مرات.

ولذلك قال ابن القيم: «والسبعة جمعت معاني العدد وخواصّه»، وبناء علىٰ ذلك يكون العدد سبعة هو النهاية للعدد، وما بعده تكرار المكرَّر إلىٰ ما فوقه من الأعداد. والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ثم انتقل إلىٰ بيان أمر آخر من أمور الله الإيجاديَّة التي تستلزم اختصاصَه بالألوهيّة، وفي طيَّاته أمور:

الأول: النعمة علىٰ بَنِي الإنسان في كيفيَّة أصل خِلقتِهم وكرامتهم.

والثاني: توقيف بني الإنسان علىٰ ما بينهم وبين الشيطان من عداوة طبيعيَّة، وأنه يحاول فيهم الزيغ والزَّلل علىٰ الدوام، فعليهم أن يتَّقوا ذلك ويحترسوا منه بما أعطاهم الله من عقل ودراية.

والثالث: أنَّ ما تقدَّم من شرك المشركين ونفاق المنافقين إنما هو أثرٌ من غَواية الشيطان، وقد خصَّ الخطابَ بتوجيهه إلىٰ النبيِّ ﷺ؛ للإيذان بأنَّ فحوىٰ هذا الكلام ليس مما يهتدىٰ إليه بأدلة العقل، كالأمور المشاهدة التي نبَّه عليها الكَفَرةَ بطريق الخطاب العام، وإنما طريق هذا هو الوحي الخاصُّ به ﷺ.

والمهم فيه أنه سبحانه أراد أن يبيِّن سبب جعل الإنسان مختاراً في تصرُّفاته فيفسد في الأرض، ولم يجعله مقسوراً علىٰ فعلٍ كالملائكة حتىٰ لا يفسد، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ مختاراً في تصرُّفاته[1]، لا مقسوراً علىٰ

---

(١) فحُذف هذا الوصف اعتماداً علىٰ السياق، علىٰ حدّ قوله تعالىٰ: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] =

فعل الخير كالـملائكة، إذ لا يقدرون أن يستفيدوا من خيراتها، ولا أن يستفيدوا من أعمالهم. ويجوز أن يُفهَمَ ذلك من لفظ «خليفة»؛ لأنه يدلُّ علىٰ كمال التصرُّف، وذلك لا يكون إلا بالاختيار، ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾[1]، وإنما قالت الملائكة ذلك لما علمت أنه مختار في تصرُّفاته لا مَقْسورٌ علىٰ الخير مثلها، والله أعلم.

أي: أَتَسْتَخْلِفُ مَنْ هذه صفتُه ونحن المعصومون؟! قال: إني أعلم من المصلحة في استخلافه ما هو خفيٌّ عنكم لا تعلمونه.

= أي: لتُبعثُنَّ، وقوله: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾ [ق: ٣] أي: نُبعَثُ ونرجع؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق: ٣]، فقد حذف جواب القسم وجواب الشرط اعتماداً علىٰ السياق، وذلك من بلاغة القرآن العالية، وإعجازه العظيم، وحذف إيجازه العجيب. (المؤلف).

(١) الغرض من قصة آدم ووجهُ ربطها بالسياق: بيانُ منشأ كفر أولئك الكافرين والمنافقين الذين لم يهتدوا بهذا القرآن، وكانت حالهم معه كما مثَّلها لهم، فبيَّنت القصة منشأ ذلك فيهم، ضمن بيان طبيعة الإنسان. وقسم القصة إلىٰ ثلاثة فصول؛ ألمع في الفصل الأول منها إلىٰ أنَّ الإنسان مختار في تصرُّفاته، فلذلك يصدر عنه الخير والشر، وليس كالملك المقسور علىٰ فعل الخير. وإنما جُعِلَ بهذه المثابة من الاختيار في التصرف؛ ليكون ذا علم كَسْبي واسع يستخدم به مواهب هذه الأرض وينتفع بها.

وألمع في الفصل الثاني إلىٰ أنه سبحانه كرَّم هذا الإنسانَ، وفضَّله علىٰ سائر المخلوقات، ونبَّهه علىٰ استعداده للغَواية والضلال، وحذَّره من ذلك.

ثم أثبت له الأمر بالتجربة في الفصل الثالث من القصة، وأعلمه أن إرسال الرسل إنما هو لتوجيهه للنهج الصحيح والطريقة المثلىٰ، والمحافظة علىٰ طبيعته الكريمة الناصعة، فإنْ أعرض عنهم دنَّس طبيعته وارتدَّ إلىٰ أسفل سافلين. وكان من أصحاب النار كأولئك المنافقين والكفار. (المؤلف).

وإنما عدَّىٰ كلمة ﴿وَنُقَدِّسُ﴾ باللام للإشارة إلىٰ تضمينها معنىٰ الخضوع والانقياد.

وذهب الأستاذ الإمام إلىٰ أنّ هذه الآيات من المتشابهات التي لا يمكن حَمْلُها علىٰ ظاهرها؛ لأنها بحسب قانون التَّخاطب: إما استشارة، وذلك محال علىٰ الله تعالىٰ، وإما إخبارٌ منه سبحانه للملائكة واعتراضٌ منهم ومُحاجَّة وجدال، وذلك محال أيضاً[١]، وقد وَصَف القرآنُ الملائكةَ وصفاً صريحاً حيث قال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠][٢].

---

(١) أما يجوز أن تكون صُورة هذه المحاورَة حكاية لما دار في خلد الملأ الأعلىٰ عن كشف الحكمة في خلق طبيعة الإنسان مختاراً في تصرُّفاته بحيث ينتج عنه الخير والشر، وما انتهوا إليه من إدراكهم أن ذلك ليكون علمُه يصلح لمهمته ويتَّسع لها، وهي الاستفادة من خزائن الأرض ومواهبها، والله أعلم.

وفي الكلام تصريح بأنَّ الإنسان في جِبِلَّتِه من الاستعداد لأنواع العلوم الدنيوية ما لم يكن عند الملائكة، ومن كان كذلك صلح لأن يكون خليفة في الأرض دونهم. (المؤلف).

وقوله عن المحاورة: إنها حكاية لما دار في خلد الملأ الأعلىٰ؛ كلام باطل، وتأويل متعسِّف. وينظر الرد على حمل كلام الملائكة على غير الحقيقة في التعليق على مقدمة التفسير للمؤلف غفر الله له (١: ٥٣٨).

(٢) ذكر المفسرون أوجهاً في بيان قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

الوجه الأول: أن الملائكة قالت ذلك بعد إعلام الله تعالىٰ لهم بطبيعة ذرية آدم عليه السلام، وأنهم يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وهذا مرويّ عن ابن عباس وابن مسعود وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم كما نقل ذلك القرطبي في «تفسيره» (١: ٢٧٤)، وابن كثير في «تفسيره» (١: ٢١٨). =

والسلفُ يفوِّضون الأمر إلىٰ الله في فهم حقيقة مثل ذلك، ومعلومٌ أن الله سبحانه يعلمنا بمضمون كلامه ما يُقرِّب المعاني من عقولنا. أما الخلف فيجعلون الكلام علىٰ

= الوجه الثاني: أنهم لـما سمعوا لفظ: خليفة، فهموا أن في بني آدم من يُفسِد؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، والفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم، ورَدْعهم عن المحارم والمآثم.

الوجه الثالث: ما نقله القرطبي رحمه الله وغيره: أن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء، وذلك لأن الأرض كان فيها الجنُّ قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء. فبعث الله إليهم إبليسَ ومن معه حتىٰ ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، «تفسير القرطبي» (١: ٢٧٤) ثم خلق الله آدم فأسكنه إياها. وهذا مروي عن ابن عباس وأبي العالية.

أما قولُ الملائكة فليس علىٰ وجه الاعتراض علىٰ الله تعالىٰ، وإنما هو ـ كما قال ابن كثير رحمه الله ـ سؤالُ استعلام واستكشافٍ عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربّنا ما الحكمةُ في خَلْق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك فنحن نُسبِّح بحمدك ونُقدِّس لك، أي: نُصلّي لك، ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلّا وقع الاقتصار علينا؟

فقال الله تعالىٰ مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: أعلم من المصلحة الراجحة في خَلْق هذا الصنف علىٰ المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأُرسِل فيهم الرسل، ويوجد منهم الصِّدِّيقون والشهداءُ والصالحون والعُبّاد والزُّهّاد والأولياء والأبرار والمُقرَّبون والعلماءُ العاملون والخاشعون له والمُحِبُّون له تبارك وتعالىٰ المُتبعون رُسُلَه صلوات الله وسلامه عليهم. انتهىٰ كلام ابن كثير في «تفسيره» (١: ٢١٦).

فسؤالُ الملائكة إنما كان علىٰ سبيل الاستعلام والاستكشاف عن الحكمة من خلق آدم، وليس علىٰ وجه الاعتراض، ولا علىٰ وجه الحسد لآدم وذريته، حاشاهم من ذلك، فهم كما قال الله عنهم: ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ * لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

التمثيل[١] تقريباً للأفهام وتشخيصاً لما يفيده الكلام من معرفة حال النشأة الآدميَّة وما لها من المكانة والخصوصيَّة.

أقول: فإنَّ القرآن كثيراً ما يُصوِّر المعاني بصُورة السؤال والجواب، أو بصُورة الحكاية لما في ذلك من قوة البيان والتأثير علىٰ النفوس، فهو يُوجِّه بها الأذهان بقوة إلىٰ ما وراءها من المعاني، كقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، فليس المراد أنَّ الله تعالىٰ يستفهم منها وهي تُجاوبه، وإنَّما هو تمثيل لسَعَتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا، وأنها ستحوي عدداً كبيراً[٢]. وكقوله تعالىٰ بعد ذكر الاستواء إلىٰ خلق السماء: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فقد قالوا: ليس هناك أمرٌ بالقول علىٰ الحقيقة، ولا جواب لذلك القول، ولكن الكلام علىٰ التَّمثيل، يُبيِّن به سُهولةَ ذلك عليه، وأنَّ خِلْقَتَها كانت من غير تكلّف ولا مشقَّة، بل هي بمنزلة ما يقال للمأمور: افعل، فيفعل من غير تريُّث ولا توقُّف، فعبَّر عن هذا بالأمر والطاعة[٣].

---

(١) إنما يسلك الخلفُ هذا المسلك حيثُ يمتنعُ حَمْلُ الكلام علىٰ ظاهره لاستحالته عقلاً، وفي دعوىٰ الاستحالة هنا نظر؛ إذ من الممكن إجراءُ الكلام علىٰ ظاهره من المحاور، لكنها لم تكن استشارةً لهم، ولا اعتراضاً وجدالاً منهم، بل كانت استفهاماً لوجه الحكمة في هذا الفعل، كما تقدّم بيانُه في التعليق قبله.

والقاعدةُ المُقرَّرةُ عند أهل العلم: أن الأصل في الكلام حَمْلُه علىٰ الحقيقة، إلا إذا جاءت قرينة تصرفه إلىٰ المجاز، ولا قرينة هنا.

(٢) وهذا فيه نظر أيضاً، فإنه لا يمتنع أن يخلق الله للنار إدراكاً، ويكونُ سؤاله لها تقريراً لا استفهاماً.

(٣) وهذا فيه نظر كسابقه، ومن المعلوم في اللغة وأصول الفقه: أنَّ الأصل في الكلام حَمْله علىٰ الحقيقة إلا إذا جاءت قرينة تصرفه إلىٰ المجاز، ولا قرينة هنا تصرفه عن ظاهره. وينظر في مقدمة الكتاب =

وهكذا الكلام في حكاية خطاب الله سبحانه للملائكة ولإبليس، يُراد به بيان الواقع في صفة طبيعة المَلَك، وطبيعة الإنسان، وطبيعة الشيطان، تحذيراً للإنسان من القوة الشرِّيَّة فيه، كاشفاً ما دار في خَلَد الملائكة عن هذا المخلوق، أو دار فيما بينهم، ويُلمع إلىٰ ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، وقولُه تعالىٰ في الآية ٦٩ من سورة صٓ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ والله أعلم.

وعلىٰ كلٍّ فلا تغفل عن أنَّ كلام الله سبحانه كبقية صفات الله العليَّة؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، فكذلك صفاته. وعليه فلا يمكننا أن نفهم من ظاهر المحاورة إلا أنها إجمالُ بيانٍ عن طبيعة الإنسان وما دار في خاطر الملائكة عنها، والله أعلم[1].

وقد اختلف المفسِّرون في معنىٰ «الخليفة»، والأقرب: أن المراد بالخليفة مَنْ يتولَّىٰ عمارة الأرض، فقد استخلف الله الإنسان علىٰ غيره من المخلوقات، بما ميَّزه به من قوَّة العقل، ليُظهر عَجَائب صُنعه وأسرار خليقته في هذه الأرض، حيواناتها ونباتاتها ومعادنها وكنوزها. وظهورُ خلافته يكون بسعة علمه ودقة إدراكه وتنوُّع إيجاده، والله أعلم.

ويجوز أن يكون المرادُ: أنه يَخلُف بعضُه بعضاً علىٰ عمارة الأرض والاستفادة من مواهبها.

= الجواب المفصل عن استدلال المؤلف في هذه الآية وتوسُّعه في حمل الكثير من الآيات على المجاز، وهي على الحقيقة.

(١) الأصلُ حَمْلُ ما ورد في القرآن علىٰ الحقيقة، لأنها الأصل، ما لم يترجح المجاز بقرينة، وبناء عليه، فلا يحمل اللفظ القرآني علىٰ التمثيل والرمز إلا بدليل قرينة تصرفه إلىٰ المجاز، ولا قرينة هنا تصرف الكلام عن ظاهره، قال السبكي في «الأشباه والنظائر» (١: ٢٧٤): حمل اللفظ علىٰ ما يتبادر إلىٰ الذهن أولىٰ، ومن ثَمّ يُحمَلُ علىٰ الحقيقة ما لم يترجح المجاز بشهرة، أو غيرها.

وقيل: بل المراد أنَّ الله سبحانه يُوحي بشرائعه علىٰ أفرادٍ من هذا الإنسان يَصْطفيهم، ليكونوا خلفاء عنه في بيان ما يوحي به إليهم للناس.

أما فهم الملائكة أن هذا الصنف الجديد يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فقد قيل: إن الملائكة إنما قالت ذلك لأنَّ الله سبحانه أوْقَفَهم علىٰ طبيعة هذا الخليفة بأنه مُستعدٌّ للخير والشرّ باختياره.

أو صرَّح لهم بأنه سيكون من ذريَّة هذا الخليفة مَنْ يعصي ويسفك الدماء، علىٰ ما روي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم[1]، فيكون في الآية احتباك واكتفاء، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية)، فقد حذف هذه الجملة من الآية الأولىٰ اكتفاءً بها في الآية الثانية، والتقدير: إني جاعلٌ في الأرض خليفةً وسيكون من ذُرِّيَّته من هو شرير... إلخ، ومثل ذلك من نهج القرآن، فإنه يحذف من السؤال ما يدلُّ عليه الجواب، ومن المقدَّم ما يدل عليه المؤخَّر.

أو لأنهم فهموا مِنْ جعلِه خليفةً في الأرض أنه مختار يتصرَّف في شؤونه كما يشاء، وبذلك يصدر منه الخير والشر، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، إذ قد فهموا أنَّ مثل هذه الطبيعة المختارة في تصرُّفاتها ينشأ عنها مثل هذا العمل.

أو أنهم شعروا أنَّ هذا سيكون علىٰ غرار الجن؛ لكونه مِثْلَهم مختاراً في تصرُّفاته غيرَ مقسور كالمَلَك.

أو أنهم فهموا ذلك لبُعْد نظرهم فيما يختصُّون به من العلم والنظر، والله أعلم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١: ٤٥١ - ٤٥٢).

وهو ملخَّص كلامهم الذي جال في خاطرهم: ما الحكمة في خلق هذا النوع ذا إرادة مطلقة واختيار لا حدَّ له، فربما اتَّجه بإرادته هذه إلىٰ خلاف المصلحة والحكمة، وذلك هو الفساد؟

وعلىٰ هذا كلِّه يكون معنىٰ قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: إني خالقٌ نوعاً واسعَ التصرُّف مختاراً فيه.

وأما علىٰ القول بأنَّ الكلام علىٰ التمثيل، فلا حاجة حينئذٍ للتوجيه والتأويل، والله أعلم؛ لأنَّ سَعَة العلم والإيجاد لا يكون إلا مع الاختيار، فلا يكون خليفةً إلا به.

قال الأستاذ الإمام: ولما كانت الملائكةُ أعلَمَ بشأن الله في أفعاله وعلمه وحكمته، كان قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: جواباً مُقْنِعاً لهم[1]. حيث ردَّهم إلىٰ اليقين بأدنىٰ تنبيه، شأن مَنْ له ثقةٌ تامّة بآخَرَ في علمه وحكمته، فإذا بَدَرَت منه بادرةٌ بعكس ذلك يرجع إلىٰ رُشْده وثقته بأدنىٰ تنبيه، وقد أثبت الله سبحانه لذاته العلم بحكمة هذه الخلافة ونفاه عنهم.

وتابع الأستاذ الإمام كلامه بقوله: ثم فصَّل سبحانه ما جرىٰ تفصيلاً، بعد أن أجمل الجواب إجمالاً، وأظهر أنَّ الإنسان إنما يكون خليفة بالعلم وما يتبعه من العمل بموجبه، فقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، ويجوز أن يُرادَ: ما يحتاجه في بساطته الأولىٰ ضمن الاستعداد العام، والله أعلم.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ أي: من العلوم المناسبة لطبيعتنا وعالمنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

(١) تفسير «المنار» (١: ٢١٤).

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1]، فهذه الآية تُبيِّن بمضمونها أنَّ علم الملائكة وعملَهم متناسبان مع طبيعتهم، وأنَّ علم الإنسان وعملَه متناسبان مع طبيعته وفي اتِّجاهات منوعة، وبهذه الخاصَّة التي فطر الله الناس عليها كان الإنسان أجدَرَ بالخلافة للأرض من الملائكة، وهذه هي حُجَّة الله البالغة علىٰ الملائكة التي بيَّنها لهم بعد ما نبَّههم إلىٰ علمه المحيطِ بما لا يعلمون.

فمعنىٰ ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ ﴾: أنه أودع في نفسه استعدادَ علمِ جميع الأشياء التي في متناوله[2]، من غير تحديدٍ ولا تعيين مِثلِ تحديد علم الملائكة في اتجاه خاص. وإنما خصّ الأسمـاء بالذكر للإلـماع إلىٰ تحديد علم الإنسان وقلَّته بالنسبة إلىٰ إحاطة علم الله وشموله، فهو محدود بما يتعلَّق به من مفردات أحوال الطبيعة مما يدخل تحت سيطرة العقل والتفكير، ولأن معرفة المسمَّيات والموضوعات هي أوَّلُ العلم بها والمعرفة عنها والبحث عن خصائصها ونتائجها.

---

(١) قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾، أمَا يؤذن هذا بأن ما كان من الملائكة هو مجرَّد خواطر أبانها الله سبحانه وكشف عنها، وقد انتهىٰ بهم الخاطر إلىٰ أنَّ هذا المخلوق بهذه الطبيعة سيكون أعلم منهم بعلوم الأرض وشؤونها، وهذه هي الحكمة في خلقه علىٰ هذه الصفة. والله أعلم. (المؤلف).

وقد تقدم ما فيه من ضعف وإشكال، وعلىٰ الـمُعتَمد من أن المحاورة جرت علىٰ ظاهرها؛ يكون قوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ مناسباً للمحاورة الظاهرة، وقوله: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ مناسباً للحكمة الخفية عنهم، أو استطراداً، أو إطناباً.

(٢) إيداعُ النفس الإنسانية هذا الاستعداد مُسلَّم، لكن قَصْر المعنىٰ عليه فيه نظر، فالظاهر أن آدم أُودع في نفسه هذا الاستعداد، وعُلِّم الأسماء أيضاً.

وهكذا خُلق الإنسان مستعداً للكمال بهذه العلوم الطبيعية والاستفادة منها، فقد خصَّه سبحانه بالاستعداد العلمي والعملي الواسع المدىٰ، ضمنَ هذه الدائرة التي هو فيها من أحوال الطبيعة وعالمها، إذ قد منح الله الإنسان من القوىٰ والمواهب ما لا يدخل في حُسْبان حاسب، إدراكاً لا تُعجِزه حقيقةٌ، وعقلاً لا تَكِلُّهُ معضلةٌ، وأملاً فسيحاً يبعث علىٰ اقتناء ما يَقصُرُ العمرُ عن استيعابه، فيدفع الثاني إلىٰ إتمام ما بدأ به الأول، وهكذا حتىٰ يتكامل ذلك الأمل، ويتكامل بتكامُله وتتابُعه العمران، فاقتضىٰ ذلك الهدف أن يكون الإنسان ذا إرادةٍ مطلقة واختيارٍ لا حدَّ له، ليكون واسعاً في تصرُّفاته، منقاداً فيها لقوَّته العقلية، لا مقسوراً علىٰ اتجاهات خاصة كالمَلَك.

فالإنسان يمتاز باستعداد علميٍّ وعمليٍّ أرضيٍّ عن سواه من العوالم ذوات العقول، وهذا هو سرُّ اختيار الله سبحانه للإنسان أن يكون خليفةً في الأرض، أو أن يقال: لما جعله خليفةً في الأرض، اقتضىٰ أن يخلقه سبحانه علىٰ هذه الطبيعة من العلم الواسع والاختيار في التصرُّف، وهذا هو معنىٰ قوله ﷺ: «إنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته»[١]، أي: ذا اختيار مطلق وإرادة حُرَّة وعلم غزير وعمل واسع لا ينتهي إلىٰ حدِّه، وإنتاجٍ لا يُشابهه فيه مخلوق، والله أعلم.

قال الأستاذ الإمام: وقد علمت الملائكةُ من ذلك أنَّ في فِطْرة هذا الخليفةِ واستعدادِه علمُ ما لا يعلمون، وتبيَّن لهم وجه استحقاقه لمقام الخلافة في الأرض، وأن كل ما يُتَوَقَّعُ من الفساد وسفك الدماء ممَّن يُخلُّ بطبيعته منهم، لا يذهب بحِكمةِ الاستخلاف وفائدته[٢]. وقد أعطاه الله هذه المواهب؛ ليُظهِرَ بها أسرار الخليقة.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري في كتاب «الاستئذان» (٦٢٢٧)، ومسلم في كتاب «الجنة» (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تفسير «المنار» (١: ٢١٤).

وضمير: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ يرجع إلىٰ الـمُسمَّيات المفهومة من الأسماء، وفيه تغليب العقلاء، وقُرِئ: (عَرَضَهُنّ) و(عَرَضَها).

ومعنىٰ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾: أنَّ مَنْ كان هذا شأنُه فلا يخلق شيئاً إلا بحكمته، ولا يجعل الخليفة في الأرض غيرَ قادر علىٰ أداء خلافته. والذي يُبدونه: هو ما يظهر أثرُه في نفوسهم، وأما ما يكتمونه: فهو ما يوجد في غرائزهم وتنطوي عليه طبائعُهم.

وقد عرَّفنا الله سبحانه بهذه القصة قيمة أنفسنا، وما أودع في فطرتنا ممَّا نمتاز به عن غيرنا من المخلوقات، فعلينا أن نجتهد في تكميل أنفسنا بالعلوم التي خُلقنا مُستعدِّين لها من دون الملائكة وسائر الخلق؛ لتظهر حكمة الله فينا.

أقول: والذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ: أنَّ الله سبحانه خلق الملَك كاملاً في طبيعته صالحاً لعالمه علماً وعملاً، وخلق الإنسان مستعداً للكمال في طبيعةٍ واسعةِ المدىٰ في العلم والإيجاد، وهيَّأ له من المواهب ما تتكامل به تلك الطبيعة إلىٰ حدٍّ بعيد، إذا سار صاحبها في تنميتها وتوجيهها وتدريبها بحسب الخطط التي رسمها الله له في تعاليمه وعلىٰ لسان أنبيائه.

والحكمة في هذا الفرق بين الإنسان والملك: تأهيل الإنسان ليكون خليفة في الأرض، يستفيد من خيراتها الكامنة والظاهرة، الجليَّة والخافية، بهذا الاستعداد المودَع فيه، إذا تدرَّب وتكامل، وذلك لشدَّة حاجته لتلك الخيرات، بخلاف الملَك، فإنه ليس له حاجةٌ في شيء منها، لذلك كان الإنسان مُستعداً لبلوغ الكمال العلمي في الطبيعة إلىٰ أقصىٰ الغايات دون الملائكة، وإن كان العلم المختصُّون به عظيماً كريماً. وكذلك أعدَّه الله لمقامات من الكمال يعجز عن إدراكها التصوُّر والخيال، ومتَّعه بخاصتي الإرادة الواسعة والاختيار المطلق، وأراه طريقي الاعتدال والانحراف، بالفطرة والوحي،

وصرَّح له بأنه إن اعتدل نال كماله الماديَّ والأدبي، وإن انحرف ارتطم بأوحال الحِطَّة والتسفُّل، وارتدَّ إلىٰ ما دون عالم الحيوان، كما هي السنة الطبيعية في هبوط العالي.

وتخصيصُ الإنسان بهذه الخصائص هو معنىٰ قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم علىٰ صورته»[١]، إذ لا يلزم من قولك: إن الله خلق يوسف علىٰ صورة القمر أنَّ للقمر يدين ورجلين، إنما هو تشبيه في الإشراق رغماً عن أنَّ القمر لأعظَمُ[٢] بما لا يُقدَر، مهما بلغ الإنسان الجميل من الجمال.

قال في «المنار»: ومن فوائد هذه القصة أننا نستنتج منها أنَّ أسرار الله تعالىٰ وحِكَمَه تخفىٰ علىٰ الملائكة، فنحن أَوْلىٰ بأن تخفىٰ علينا، فلا مَطْمَعَ للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحِكَم الأحكام، لأنه لم يُؤْتَ من العلم إلا قليلاً[٣].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم فصَّل الناحية الآتية في تاريخ خلق الإنسان بعد أن أجملها ومهَّد لها فيما سبق، وذلك لما في هذه الناحية من بيان نعمة التكريم والتَّمنُّن عليهم، والتحذير مما يحيط بهم، والتنبيه إلىٰ أنَّ شرك هؤلاء المشركين إنما هو من إفسادهم لطبيعتهم، وتسهيلهم لوسوسة الشيطان لهم في ذلك. وجعل الكلام تمهيداً إلىٰ بيان ما أخذه من العهد علىٰ بني آدم، وهو الإيمان بالهدىٰ الذي يأتيهم منه تعالىٰ، والاتِّباع للرسول الذي يأتيهم به، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾، وذلك أنَّ الله سبحانه بعد أن عـرَّف الملائكة بمكانة آدم، وَوَجْـهِ

(١) سبق تخريجه قريباً ص٦٨.

(٢) أي: من يوسف.

(٣) تفسير «المنار» (١: ٢١٣).

جَعْلِه خليفةً في الأرض؛ أمرهم بتكريمه، وعبَّر عن ذلك بالسجود، وهو سجود لا نعرف صفته، ولكنَّ أصولَ الدين تُعلِّمنا أنه ليس بسجود عبادة. وقال البيضاوي: إنما أُمرت الملائكة والجن بالسجود(١). واكتفىٰ بالتعبير بالملائكة علىٰ طريقة إيجاز القرآن.

أقول: فقد حذف من المستثنىٰ منه ما دلَّ عليه بنوع المستثنىٰ، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية)، لأن إبليس من الجنِّ لقوله تعالىٰ: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، فكان التقدير: وإذ قلنا للملائكة والجن اسجدوا لآدم.

وقال الأستاذ الإمام(٢): إذا صحَّ الجريُ علىٰ أنَّ الملائكة تُطلَقُ أيضاً علىٰ القوىٰ والخاصيَّات الموجودة في المخلوقات(٣)، إذ إنَّ كل أمر كلِّي قائم بنظام مخصوص تمَّت

---

(١) تفسير البيضاوي المعروف بـ«أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (١: ٧١).

والبيضاوي هو ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي (...– ٦٨٥هـ) قاض مفسِّر علَّامة، له: «طوالع الأنوار» في التوحيد، و«نظام التواريخ». «الأعلام» للزركلي (٤: ١١٠).

(٢) يعني: الشيخ محمد عبده، ونقله عنه تلميذه محمد رشيد رضا في تفسير «المنار» (١: ٢٢٣– ٢٢٤).

(٣) هذا كلامٌ باطل لا يجوز اعتقادُه في الملائكة، فإن الملائكة مخلوقات مستقلة بأنفسها ووظائفها عن المخلوقات الأخرىٰ، ويجب الإيمان بهم، وهو ركن من أركان الإيمان الستة، كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وفي «صحيح مسلم» (٨) أن النبيَّ ﷺ سئل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خيره وشره». اهـ.

وقد وصف الله الملائكة بأنهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال فيهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، =

له[١] الحكمة الإلهيَّة في إيجاده، فإنما قِوامه بروح إلهي سُمِّي في لسان الشرع: مَلَكاً،

= وقال فيهم أيضاً: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]. وفي «صحيح مسلم» (٢٩٩٦) عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «خُلِقَت الملائكةُ من نور».

وقد جعل الله تعالىٰ لهم أجنحة يطيرون بها، كما قال تعالىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر:١]، وثبت في «الصحيحين» ـ البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأىٰ جبريل له ستُّمئة جناح.

وقد منحهم الله تعالىٰ عِظَمَ الخلق، ففي «سنن أبي داود» (٤٧٢٧) عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أُذِنَ لي أن أُحدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكة الله من حَمَلةِ العرش، إنّ ما بين شَحْمةِ أذنِه إلىٰ عاتقه مسيرةُ سبعمئة عام».

ومن الملائكة مَنْ هم مُوكَّلون من قِبَلِ الله عزّ وجلّ بتدبير بعض الأمور في السماوات والأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

وإليك بعض ما ثبت في الكتاب والسنة من أسمائهم والأمور المُوكَلة إليهم:

١ـ منهم الموكل بالوحي من الله تعالىٰ إلىٰ رسله، وهو: جبريل الأمين عليه السلام.

٢ـ ومنهم الموكل بالقطر (المطر) وتصاريفه، وهو: ميكال أو ميكائيل عليه السلام.

٣ـ ومنهم الموكل بالصُّور ونفخه، وهو: إسرافيل عليه السلام.

٤ـ ومنهم الموكل بقبض الأرواح، وهو: مَلَكُ الموت وأعوانه.

٥ـ ومنهم الموكل بحفظ أعمال العباد وكتابتها من خير أو شر، وهم: الكرام الكاتبون، فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات.

٦ـ ومنهم الملائكة الذين يتعاقبون فينا، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار.

٧ـ ومنهم الملائكة السيَّاحون الذين يسيحون يتبعون مجالس الذكر.

٨ـ ومنهم الموكل بحفظ العبد في يقظته ومنامه وفي كل حالاته.

٩ـ ومنهم الموكل بفتنة القبر، وهما: منكر ونكير عليهما السلام.

١٠ـ ومنهم الموكل بالجنة، وهم: خزنة الجنة، وفي مقدمتهم رضوان عليه السلام.

١١ـ ومنهم الموكل بالنار، وهم خزنة النار، وفي مقدمتهم مالك عليه السلام. والله أعلم.

(١) في تفسير «المنار»: به.

فلا يُستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ لـمّا خلق الأرض ودبَّرها بما شاء من القوىٰ الروحانيَّة التي بها قوامها ونظامها، وجَعَل كل صنف من القوىٰ مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات، لا يتعدّاه ولا يتعدّىٰ ما حُدِّد له، من الأثر الذي خُصَّ به؛ خَلَق بعد ذلك الإنسان وأعطاه قوة بها يكون مُستعداً للتصرُّف بجميع هذه القُوىٰ المحيطة به وتسخيرِها في عمارة الأرض، وعبَّر عن تسخير هذه القُوىٰ له بالسجود الذي يفيد معنىٰ الخضوع والتَّسخير، وجعله ـ بهذا الاستعداد الذي لا حدَّ له، والتصرُّفِ الذي لم يُعط لغيره ـ خليفةً لله في أرضه، لأنه أكمل الموجودات في هذا الأرض، واستثنىٰ من هذه القوىٰ واحدة عبَّر عنها بإبليس، وهي التي تُعارض اتِّباع الحق، وتصدُّ عن عمل الخير، وتُنازع الإنسان في صَرْف قواه إلىٰ المنافع والمصالح التي تتمُّ بها خلافته، فيصل إلىٰ الكمال الوجودي تلك الخلافة التي خُلِقَ مُستعداً للوصول إليها. انتهىٰ بتصرُّف(١).

---

(١) ولا يخفىٰ ما فيه من تكلُّف شديد، وتأويل بعيد، بلا قرينة تدل عليه، ولا إشارة تُومئ إليه، فلا يكون له حظٌّ من القبول، بل هو مبنيٌّ علىٰ قوله في أوله: «إذا صَحَّ الجريُ علىٰ أن الملائكة ...»، وكيفَ يصحُّ هذا وهو مُصادِمٌ لصريح الآيات؟!

وسجود الملائكة لآدم سجودٌ حقيقي، فإنهم قد امتثلوا كلُّهم أمر الله بالسجود، ويدل لهذا تأكيدُ سجودهم بالمؤكدات في قوله تعالىٰ: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [ص: ٧٣]. وقد أعلم الله سبحانه وتعالىٰ الـملائكةَ قبل خَلْق آدم عليه السلام بأنه سيخلق ﴿بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]، وتقدّم إليهم بالأمر متىٰ تمَّ خَلقُه وتسويتُه أن يسجدوا إكراماً له، وإعظاماً وامتثالاً لأمر الله عز وجل، فامتثل الملائكة كلهم ذلك، إلا إبليس أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين، وقد وردت هذه القصة في سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وصٓ.

ولم يخبرنا الله تعالىٰ أن أحداً غير إبليس امتنع من السجود، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾. =

وقد قالوا: إنَّ لكلِّ إنسانٍ شيطاناً، وهي قوَّة نزَّاعةٌ إلىٰ الشرِّ يحدث منها في نفس الإنسان خواطر السُّوء فيقاومها العقل حتىٰ تكون الغَلَبة لأحدهما، فإذا كان العقل لم يُفسِدْهُ صاحبُه بمفاسد التربية وسوء القدوة، فالغَلَبة له، وإلا فالغلبة لها[1]. وقال ﷺ:

= وتأويلُ السجود بتسخير القوىٰ باطل، وقد ذكر ابنُ تيمية رحمه الله تعالىٰ في «مجموع الفتاوىٰ» (٤: ٣٤٥): أن هذا القول ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارىٰ، وإنما هو من أقوال الملاحدة المتفلسفة الذين يجعلون الملائكة قُوىٰ النفس الصالحة. فقد سئل رحمه الله: هل سجد ملائكة السماء والأرض؟ أم ملائكة الأرض خاصة؟ فأجاب:

الحمد لله، بل سجد له جميع الملائكة، كما نطق بذلك القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [صَ: ٧٣] فهذه ثلاث صيغ مقررة للعموم وللاستغراق، فإن قوله: ﴿ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ يقتضي جميع الملائكة، فإن اسم الجمع المعرف بالألف واللام يقتضي العموم، كقوله: ربُّ الملائكة والروح، فهو ربُّ جميع الملائكة. الثاني: ﴿كُلُّهُمْ﴾ وهذا من أبلغ العموم. الثالث: قوله: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ وهذا توكيد للعموم.

فمن قال: إنه لم يسجد له جميع الملائكة؛ بل ملائكة الأرض؛ فقد ردّ القرآن بالكذب والبهتان. وهذا القول ونحوه ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارىٰ، وإنما هو من أقوال الملاحدة المتفلسفة الذين يجعلون الملائكة قوىٰ النفس الصالحة، والشياطين قوىٰ النفس الخبيثة، ويجعلون سجود الملائكة طاعة القوىٰ للعقل، وامتناع الشياطين عصيان القوىٰ الخبيثة للعقل، ونحو ذلك من المقالات التي يقولها أصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم من القرامطة الباطنية ومَنْ سلك سبيلهم من ضُلّال المُتكلِّمة والمتعبدة.

وقد يوجد نحو هذه الأقوال في أقوال المفسرين التي لا إسناد لها يعتمد عليه ... اهـ.

(١) روىٰ مسلم (٢٨١٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرج النبيُّ ﷺ من عندي ليلاً، فغرتُ عليه، فجاء فرأىٰ ما أصنع، فقال: «ما لك يا عائشة، أغرت؟» قلت: وما لي لا يغار مثلي علىٰ مثلك؟ قال: «قد جاءك شيطانك؟» قلت: يا رسول الله، أو معي شيطان؟ قال: «نعم». قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: «نعم ـ وفي رواية: إن لكل إنسان شيطاناً ـ ولكن ربي أعانني عليه حتىٰ أسلم». =

«ما من أحد يصبح إلا ومعه ملك يناديه: يا عبد الله هَلُمَّ إلىٰ الخير، وشيطان يناديه: بل هَلُمَّ إلىٰ الشر»[١].

وقال صاحب «المنار»: يَشعُر كل من فكَّر في نفسه، ووازن بين خواطره عندما يهمُّ بأمر فيه وجْهٌ للحق للخير، ووجْهٌ للباطل والشر، بأن في نفسه تنازعاً، كأنَّ الأمر قد عُرِض فيها علىٰ مجلس شورىٰ، فهذا يُورد، وذاك يدفع، واحد يقول: افعل، وآخر يقول: لا تفعل، حتىٰ ينتصر أحد الطرفين، ويترجَّح أحد الخاطرين[٢].

قال الإمام الغزالي[٣]: فسبب الخاطر الداعي إلىٰ الخير يُسمَّىٰ مَلَكاً، وسبب الخاطر الداعي إلىٰ الشر يُسمَّىٰ شيطاناً، واللطف الذي يتهيَّأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمَّىٰ توفيقاً، والهفو الذي يتهيَّأ به لقَبول الشر يُسمَّىٰ إغواءً وخِذلاناً، فإنَّ المعاني المختلفة تحتاج إلىٰ أسامي مختلفة[٤]. انتهىٰ باختصار.

= وروىٰ مسلم (٢٨١٤) عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وَكَّل الله به قرينه من الجن». قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير».

أقول ـ والله أعلم ـ: وفي هذا إيماء إلىٰ أن في كل إنسان نزعة إلىٰ الشر، فإن ذلَّلها وتسلَّط عليها استَسْلَمت له وانقادت وهانت عليه فسلم منها. (المؤلف).

والصوابُ حملُ الشيطان هنا علىٰ ظاهره، أما هذه النزعة فهي غيرُ الشيطان، ويُستدلُّ علىٰ ثبوتها بما أُضيف إلىٰ النفس من التزيين والتسويل والتطويع ونحوها في عدة آيات من القرآن الكريم.

(١) لم أقف عليه.

(٢) تفسير «المنار» (١: ٢٢٣).

(٣) هو حجَّة الإسلام، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطُّوسي (٤٥٠- ٥٠٥هـ) أعجوبة الزمان، له نحو مئتي مصنف منها: «تهافت الفلاسفة»، و«الاقتصاد في الاعتقاد»، و«المنقذ من الضلال». «سير أعلام النبلاء» (١٩: ٣٢٢- ٣٤٦).

(٤) «إحياء علوم الدين» (٣: ٢٧).

أقول: وذلك لأنَّ الله سبحانه خَلَقَ الإنسان مختاراً في تَصرُّفاته، تابعاً لإرادته وخواطره، وهذه الخواطر تَتكيَّف بكيفيَّة التربية والتوجيه والتشكيل، فإن كان صالحاً فهي صالحة، وإن كان فاسداً ففاسدة، فالإنسان ابن التربية والتوجيه.

ويقول علماء النفس: إنَّ الذات البشريَّـة تنقسم بنتيجة التربية إلىٰ ثلاثة أقسام: الذات السفلىٰ، والذات العليا، والضمير.

فالذات السُّفلىٰ: هي التي تحوي الغرائز في حالتها الهمجيَّة؛ لسوء تربيتها، وكلُّ همِّها أن تصلَ إلىٰ أهدافها، وإنْ أساءت التَّصرُّف وعَبَثت بالقيود الاجتماعية والقوانين النظامية من شرعيَّة ووضعيَّة، ولا تريد أن تخضع للعقل والضمير.

والذات العليا: هي التي تَتَكوَّن صفاتُها من التربية الحَسَنة للغرائز الطبيعية، والنشأة السامية، والثقافة والتهذيب الصَّحيحَيْن، ويكون همُّها التَّمثُّل بالـمُثُل العليا، والتَّفوُّق في ذلك بمعونة العقل والضمير.

فالذات السُّفلىٰ إذا غلبت تهوي بالإنسان إلىٰ أسفل سافلين. لذلك حذَّر منها القرآن وعبَّر عنها بهذه القوة الشريرة التي يُمثِّلها الشيطان، أو هو عبارة عنها[1]. وبعبارة أخرىٰ: هي أنَّ هذه النَّـزْعة الاختياريَّـة الضروريَّـة في الإنسان هي المجال لتلاعب الشيطان، والله أعلم، لأنَّ الآية من الآيات المتشابهات[2].

---

(١) هذا فهم غير صحيح نشأ عن معنًىٰ فاسد، فالذات السُّفلىٰ أو النفس الأمَّارة بالسوء يُوسوِسُ لها الشيطان ولا يمثِّلها، وليس هو عبارة عنها.

وهذا القول يوحي ظاهرُه إنكارَ وجود الشيطان، لا سيما جملة «وهو عبارة عنها»، وإنكار الشيطان هو مذهب الملاحدة من الفلاسفة ومَنْ وافقهم من العقلانيين، كما نصَّ علىٰ ذلك ابن تيمية، ونقلتُ كلامَه قريباً ص٧٤.

(٢) بل الآية محكمة، وقد تكلّف المؤلف ـ سامحه الله ـ في تفسيرها.

والذاتُ العُليا إذا غَلَبت تَسْمُو بالإنسان إلىٰ أعلىٰ عليين. وهو الكمال المنشود لبني الإنسان في عالَم الغيب وعالَم الشهود.

وعلىٰ هذا يكون فحوىٰ الآية إيماءً إلىٰ أنَّ سائر القوىٰ الطبيعيَّة خاضعةٌ للإنسان سوىٰ ما فيه من استعداد الشر الناجم عن إفساده لطبيعته، فإنَّ ذلك يغلبه علىٰ أمره، فحذَّره منه سبحانه غاية الحذر، وهذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤ – ٥]، والله أعلم بمراده.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه ما جَرَىٰ بينه وبين الملائكة وإبليس في تاريخ خلقِه آدم، بيَّن سبحانه ما كان بينه وبين آدم، وما جرىٰ بين آدم والشيطان فيما بعد بتأثير وساوسه، للإلماع إلىٰ منشأ كفر الكافرين ونفاق المنافقين الذين سبق البيان عنهم في أول السورة، وللتحذيـر من ذلك، فقال: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا﴾ أي: من ثمارها، أكلاً ﴿رَغَدًا﴾ أي: واسعاً، ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي: من أيِّ مكان منها أردتما، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

وأكثر المفسِّرين علىٰ أنَّ المراد من الجنة: الجنة التي وُعد المتَّقون، كما سيأتي تحقيقه في بيان مَغْزىٰ القصة.

وقال الإمام أبو منصور الماتريدي في «تفسيره»: نعتقد أنَّ الجنة هذه بستان من البساتين، أو غَيْضة من الغياض، كان آدمُ وزَوْجُه مُنعَّمَين فيها، وليس علينا تعيينُها ولا البحثُ عن مكانها[١]. انتهىٰ.

وقد قال بذلك أبو حنيفة رضي الله عنه وغيره. قال الألوسي: وممَّا يؤيد هذا الرأي أن الله خلق آدم ليكون خليفة في الأرض هو وذرِّيته[٢]. فالخلافة منهم مقصودة بالذات، فلا يصحُّ أن يكون وجودُهم فيها عقوبةً عارضة. انتهىٰ.

ولم يعيِّن الله سبحانه هذه الشجرة، فلا نقول في تعيينها شيئاً، ولعلَّ في خاصيَّة هذه الشجرة ما هو سبب خروجهما من حال إلىٰ حال، أو كان النهيُ مجرَّدَ ابتلاء وامتحان منه تعالىٰ، كما ابتلىٰ سبحانه جيش بني إسرائيل بالنهر مجرَّد ابتلاء، لا لخاصيَّة فيه.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾[٣]، أي: حَمَلهما علىٰ الزلَّة وحوَّلهما عن هذه الجنة بهذه

---

(١) نقله المؤلف عن تفسير «المنار» (١: ٢٢٩) ولم أقف عليه في «تفسير» أبي منصور.
وأبو منصور الماتريدي: هو محمد بن محمد بن محمود (...- ٣٣٣هـ) من أئمة أهل السنة والجماعة، له: «التوحيد»، و«أوهام المعتزلة»، و«تأويلات أهل السنة». «الأعلام» للزركلي (٧: ١٩).

(٢) «تفسير» الألوسي المسمىٰ بـ«روح المعاني» (١: ٢٢٢).
والألوسي: هو شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (١٢١٧- ١٢٧٠هـ) مفسِّر محدِّث أديب من المجدِّدين، له: «روح المعاني»، و«غرائب الاغتراب» في التراجم، و«دقائق التفسير». «الأعلام» للزركلي (٧: ١٧٦).

(٣) لما أبان سبحانه عن طبيعة آدم نظرياً، أراه ذلك في نفسه عملياً: أدخله الجنَّة التي أُعدت للمتقين، ونهاه عن شيء امتحاناً، كما ابتلىٰ بني إسرائيل بالنهر، فوسوس الشيطان إلىٰ آدم، وزيَّن له أن الأكل من هذه الشجرة يؤدي إلىٰ الخلود، فارتكب آدم هذا المنهيَّ عنه، وأكل من الشجرة، فلم يبق ـ بمعصيته لله سبحانه ـ صالحاً للبقاء في الجنة، فأخرجه منها وأهبطه إلىٰ الأرض، وقال له: سأرسل لك ولذرِّيَّتك شرائع تَـتَضمَّن تعاليمَ وتوجيهاتٍ، بها تحافظون أهليتكم لدخول =

الفعلة، فتارةً يقول لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، وتارةً يقول لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، إلىٰ أمثال ذلك.

وقد ضمَّن «أزلَّ» معنىٰ: حوَّل، وعدَّاها تعديتها، وعطف عليها بقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي: من النعيم والكرامة، ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ يعني: آدم وزَوْجَه وإبليس، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: أنتم والشيطان. قال الراغب: الهبوط: الانحدار علىٰ سبيل القهر(١). أو كما يقال: هبط من بلد إلىٰ بلد، كقوله تعالىٰ: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ أي: أن استقراركم في الأرض وتمتُّعكم فيها ينتهيان إلىٰ زمن محدود، وليسا بدائمين. وفي الكلام مجازُ نسبةِ ما يتعلق بالأبوين والذريَّة إلىٰ الأبوين وحدهما لأنهما الأصل، أو هو من البيان العامِّ بعد الخاصِّ علىٰ نهج القرآن في مثله، لأن من أساليب القرآن أن ينتقل من خطاب خاصٍّ إلىٰ خطاب عامٍّ وبالعكس، (كما جاء في فقرة (ز) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية).

ثم بيَّن ما كان بعد ذلك من أمر آدم، وقال: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أي: ألهمه الله إيَّاها، وهي كما في سورة الأعراف: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فكان آدم عليه السلام يدعو الله سبحانه بهذه الكلمات، ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾(٢)، وإنما اكتفىٰ بذكر شأن آدم لأنَّ حوّاء

= الجنة والخلود فيها، فَضْلاً عن أنها تكفل لكم سعادة بينكم في الدنيا والوئام فيها والراحة والرفاه، ومن أعرض عن هذه التعاليم من أفراد أو جماعات ناله شقاء الدنيا وشقاء الأخرىٰ، وخلد في نار جهنم أبد الآبدين. هذا رأيي. والله أعلم. (المؤلف).

(١) «المفردات» ص٨٣٢.

(٢) يكرر القرآن هذه القصة ليقرر في الأذهان عداوة الشيطان للإنسان وابتلاءَه به في هذه الحياة، =

تَبَعٌ له، وعلىٰ هذه القاعدة طُوِيَ ذِكرُ النساء في أكثر مواقع الكتاب والسنة في الأوامر والنواهي وبيان المصير، فيكتفي بذكر المذكَّر عن ذكر المؤنَّث علىٰ طريقة التغليب والتبعية، لأنَّ ذلك من خصائص اللغة وعُرْف التخاطب.

ومُحصَّل القصة: الإيماء إلىٰ أن الإنسان مخلوقٌ رائدُه عقلُه، يتصرف في شؤونه خيراً وشراً، وفي ذلك مجال للزلل بإغواء المغوين، فلْيَحذَر الإنسان ذلك، ولا يغفل عن إضلال المضلِّين وإغواء الشياطين.

قال في «المنار»: أما مسألة عصمة آدم فالجريُ علىٰ طريقة السلف يَذهبُ بنا إلىٰ أنَّ العصيان والتوبة من المتشابه كسائر ما وَرَدَ في القصة، فليس الكلام علىٰ ظاهره، إذ لا يركن العقل إلىٰ ذلك الظاهر. ويجوز أن نقول: إن تلك المخالفة صَدَرت منه قبل أن تُدركه النبوَّة. وقد يكون الذي وقع منه نسياناً، فسُمِّي استعظاماً لأمره: عصياناً، كما جاء في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، والسهو لا ينافي العصمة(١).

= كي يحذر من وسوسته ويتَّقي شرها؛ لأن اتِّباعها خسران مبين للدنيا والأخرىٰ.

ومَغْزىٰ القصة: أن للإنسان جانب خير يصل بتنميته إلىٰ السعادة، وجانب شر يصل بتوسعته إلىٰ الشقاء، فليغتنم الأول، وليحذر الثاني. والتعاليم الإلهية ـ التي هي في القرآن العظيم ـ كفيلة بهذا الأمر الخطير، وقد جعل الله سبحانه المخلوقات الـمُدرِكة ثلاثة أصناف: صنفاً للدار الأخرىٰ، وهم الملائكة. وصنفاً للدار الدنيا، وهو الحيوان الأعجم. وصنفاً للدارين، وهم: الإنس والجان. ففي الإنسان ناحيتان: ناحية ملكيَّة، وناحية حيوانية. ومظهر الأولىٰ: العقل والعلم والأخلاق الشريفة والعبادة لله وما ينجم عن ذلك. ومظهر الثانية: الشهوة والغذاء والتناسل والتنافس والاختيار في التصرُّف والإيجاد وما يُلابس ذلك. وإنما جَعَله الله بهذه المثابة ليكون أهلاً للأمرين: عبادة الله تعالىٰ والتمسُّك برضاه، وتعمير الأرض والاستفادة من مواهبها وخيراتها لينال فيها مبتغاه. (المؤلف).

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٣٢- ٢٣٣).

أقول: ويجوز أن يكون هذا كله من تتمة البيان في صفة طبيعة الإنسان، والله أعلم.

ثم استأنف الكلام لبيان صفحة أخرىٰ من صفحات الهبوط، ونتيجةٍ ثانية من نتائجه، فقال: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾[1]، وعلىٰ الشقِّ الثاني من هذا البيان: كان شأن الذين ختم الله علىٰ قلوبهم وكفروا بهذا القرآن.

وإيراد كلمة الشك في ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ للجَرْي علىٰ سَـنَن العظمـاء في إيراد «عسىٰ» و«لعل» في موقع القطع والجزم. وكذلك «إن» بدل «إذا».

---

(١) تُبيِّن الآية أنَّ الله سبحانه لم يترك الإنسان منذ خلَقَهُ دون أن يرسل له الهدىٰ والشرائع بالوحي علىٰ لسان أنبيائه، فقد أرشده منذ ذلك الحين إلىٰ المعرفة الصحيحة في ذات الله وتوحيده، وإلىٰ ما يلائم ما خُلِقَ له من طلب الكمال والسعادة في الدارين، ويبعده عما يُخِلُّ بذلك، وبيَّن له المصير في الحالين؛ ليكون علىٰ بصيرة من أمره. وهذا حقٌّ لا يُتَصوَّرُ غيره، ولا يخطر لمن يعرف سنن الشرائع السماوية خلافه.

ولكن لا بأس أن نضيف إلىٰ هذا ما أثبته المحققون في دراسة الأمم المنقرضة ودياناتها، فقد جاء في كتاب «يوم الإسلام» لأحمد أمين، ص١٥ ما يلي: أثبت الدكتور ماركس موللر مكتشف اللغة السنسكريتية والمتخصِّص في دراسة الأديان الشرقية، أثبت أن الناس كانوا في أقدم عهودهم علىٰ التوحيد الخالص، وأن الوثنية عرضت لهم بفعل رؤسائهم الدينيين.

أقول: وقد جاء عنه ﷺ فيما يرويه عن ربِّه عز وجل: «إني خلقت عبادي حنفاءَ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمَتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يُشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً». (المؤلف).

والحديث رواه مسلم (٢٨٦٥)، عن عياض بن حمار رضي الله عنه. وقوله: «فاجتالتهم» أي: استخفَّتْهم فجالوا معهم في الضلال. «النهاية في غريب الحديث والأثر» (جول).

وفي تعقيب القضيَّة بهذا البيان إيماءٌ إلىٰ شدَّة حاجة الإنسان إلىٰ هذا الهدىٰ من الرحمن، يدفع به عنه وساوس الشيطان، ويستعين به علىٰ الكمال المنشود من بني الإنسان، وتقييداً لاختياره حتىٰ يكون باقياً علىٰ هدايته الطبيعية، جارياً علىٰ الأسباب الصحيحة في نَيْل السعادتين في الدنيا والأخرىٰ نتيجة الهدايتين الطبيعية والتعليمية.

والمعنىٰ: أن الله سبحانه سيرسل للبشر بين فترة وأخرىٰ شرائعَ هدىٰ علىٰ لسان رسلٍ أنبياء، فمن اتَّبع ذلك الهدىٰ نَجَا، ومن أعرض عنه هلك. ومَغْزىٰ هذه النتيجة مع تلك المقدمة: أنَّ بني الإنسان مخلوقون للجنة ما لم يُفسدوا طبيعتهم بالإعراض عن تعاليم الله المؤدية بتلك الطبيعة إلىٰ أن تكون أهلاً لهذه الجنة. فإذا أعرضوا عن تلك التعاليم أفسدوا تلك الطبيعة، وأصبحت لا تصلح لسُكنىٰ الجنة إلا أن يعودوا بها إلىٰ الإصلاح بالتوبة والتمسُّك بتلك التعاليم التي يُرسلها سبحانه إلىٰ البشر بين فترة وأخرىٰ علىٰ لسان أنبيائه. هذا ما ظهر لي من السياق. والله أعلم.

فبيَّن أنه سبحانه سيتابع البشر بإرسال هداية شرعيَّة، تُساعد الهداية الطبيعية، فمن تمسَّك بها أمن من الشقاء، ومن أعرض عنها وقع في البلاء.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ أصناف الناس في عصر التنزيل، وأردف البيانَ بالكلام عن بني

إسرائيل الذين أعرضوا عن هذا الهدىٰ بعد إذ جاءهم علىٰ لسان محمد ﷺ[١]، فقد تقدَّم لمحُ حالهم في بقيَّة السورة، وذلك لأن النبيَّ ﷺ عندما هاجر إلىٰ المدينة، نَصَبَ له أحبارُ يهودها العداءَ حسداً وبغياً، ومال إليهم المنافقون من الأوس والخزرج[٢]، فكان أولئك الأحبار يسألونه أسئلةَ عِنادٍ وتعنُّت وتلبيس للحقِّ بالباطل، فأنَّبهم سبحانه علىٰ كفرهم هذا، مُذكِّراً إيَّاهم بـنِعَمِه علىٰ بني إسرائيل، ومُعدِّداً عليهم هناتِـهم

(١) وهناك وجه آخر لربط الكلام الآتي عن بني إسرائيل بما قبله من السياق: بعد أن أنهىٰ الكلام عن حال المشركين والمنافقين المعارضين للنبيِّ ﷺ وما تَبعَ ذلك من التكشيف والتعليق عليه، التفتَ إلىٰ بني إسرائيل مُعنِّفاً إيَّاهم علىٰ موقفهم هذا مع النبيِّ ﷺ وتكذيبهم له ومحاولة إفسادهم لأمره، بينما كان عليهم أن يكونوا أول مؤمن به لما يعرفونه عنه بما عندهم من علم الكتاب، ولكنهم لانطباعهم علىٰ معارضة الأنبياء والتعنُّت معهم والمشَاغَبة ضدَّهم، كانوا أول كافر به، وسَرَد ما كان لهم من مَاضٍ بعيد في التكذيب والتمرُّد والعصيان، عريقٍ في الكفر والطغيان، والتلاعب بالشرائع والأديان، والعبث بها، واللَّيِّ والتَّحريف لها، والكتمان لتعاليمها ووصاياها، إلىٰ غير ذلك من معاداة الحق وطمس معالـمه، ونشـر الباطل وتنويع مسالكه، حتىٰ استقصىٰ لهم تلك الأحوال مقرونة بالتأنيب والتشنيع واللعن والإبعاد، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾. (المؤلف).

(٢) كان ليهود المدينة عند أهلها مكانة دينية وعلمية واجتماعية مستمدة من أنهم أهل كتاب سماوي، وذوو مهارة بالتجارة والصناعة والزراعة، وكانوا مندمجين في الحياة العربية، فزادهم ذلك رسوخاً في مركزهم وقوةً في مكانتهم، فلما قدم النبيُّ ﷺ المدينة خشوا علىٰ هذه الامتيازات التي كانوا يتمتَّعون بها، ثم رأوا الناس ينصـرفون عنهم إلىٰ النبي ﷺ، ويتَّخذونه مرجعهم الأعلىٰ ومرشدهم الأعظم وقائدهم المطاع، فكان ذلك حافزاً لهم علىٰ التنكّر والحقد والتآمر والصَّد عن الإسلام، ووجدوا فريقاً من العرب يشتركون معهم في هذه النزعات، فبثُّوا فيهم الريب والشكوك بعد إسلامهم، فأصبحوا منافقين يخادعون الإسلام والمسلمين، وذلك ما أنَّبتهم عليه الآيات في السياق. (المؤلف).

وقبائحهم[١]، ومقابلة النِّعم بالكفران، ودعاهم إلىٰ الإيمان بعد أن تهيَّأت نفوسُهم بما سَبَق من الإرشاد والبيان، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

و﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

وإنما ذكَّرهم بالنعمة هنا حثّاً لهم علىٰ اجتناب الباطل وتأنيباً عليه. ومن جملة النعم عليهم: أن جعل فيهم أنبياء وملوكاً بعد أن كانوا عبيداً للقبط.

وبعد أن ذكَّرهم بنِعَمِه عليهم التي من جملتها إرسال الرسل إليهم، أمرهم بالوفاء بذلك العهد الذي أخذه عليهم، وهو الإيمان بالرسل والتَّحوُّل من الشريعة المنسوخة إلىٰ الشريعة الناسخة، كما أخذ علىٰ ذلك ميثاقَ جميع النبيين في قوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ...﴾ [آل عمران: ٨١].

فقد أمرهم بالوفاء بهذا العهد، فقال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ بالإيمان والطاعة، ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾[٢]، أي: بحُسْن الإثابة. والعهدُ يضاف إلىٰ كلِّ واحد ممَّن يتولىٰ طرفيه.

---

(١) عُني القرآن بتاريخ بني إسرائيل وما لهم من ماض عريق في الإفساد والتكذيب، والتلاعب والعبث بالآيات المنزلة، واللَّيِّ والتحريف والكتمان، وغير ذلك من التصرُّفات التي تدل علىٰ الأصالة في التمرُّد والعصيان، والعراقةِ في الكفر والطغيان؛ ليعتبر بهم المؤمنون، ويتجنَّبوا سلوكهم المشين. (المؤلف).

(٢) أخذ الله العهد علىٰ الأمم بأن يؤمنوا بكل نبي جاءهم مصدِّقاً لما معهم، ويتحوَّلوا من الشريعة المنسوخة إلىٰ الشريعة الناسخة، أخذ هذا العهد علىٰ الأمم بواسطة أنبيائهم، وقد ذكر ذلك القرآن في سورة آل عمران فقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ – ٨٢] إلىٰ قوله: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

=

ثم أكَّد الأمرَ بالوفاء، بالتحذير عن المخالفة، علىٰ أسلوب القرآن في مثل ذلك (كما جاء في المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾، وهي من أروع عبارات التحذير. وتقديمُ الضمير للزيادة في مدلول الجملة، وخطفُ ياء المتكلم من سنن القرآن للتخفيف.

وقد فسَّرت العهدَيْن آيةُ المائدة: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [المائدة: ١٢].

ثم فرَّع علىٰ هذا الأمر والتَّحذير، الأمرَ بالإيمان بمحمد ﷺ وقرآنه، لأنه من مُتمِّمات العهد، فقال: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ وهو: القرآن، ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ أي: التوراة، ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ أي: ولا تبادروا إلىٰ الكفر به والجُحود له مع جدارتكم بالسَّبْق إليه؛ لأنه مُصدِّق لما معكم، وتعرفون حقيَّته وصِدقَه من كتابكم. واستعمالُ معنىٰ الأوليَّة في ذلك معروف في الكلام البليغ، فلا يُقصد بالأوليَّة هنا حقيقتها اللغوية، وإنما يُراد بها المبادرة.

ثم تابع المعنىٰ بطريقة عطف السبب علىٰ المسبَّب، فقال: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾، أي: لا تستبدلوا حظوظ الدنيا بحظوظ الآخرة التي لا يُقابلها شيء، فحظوظ الدنيا - مهما بلغت من الكمال - تافهةٌ بالنسبة إلىٰ حظوظ الآخرة؛ لأن كل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون النار عافية.

وإنما لم يُدخِل الباء علىٰ الثمن؛ لأنه أبلغ في التقريع أن يُدخِلَها علىٰ المثمن القيم، فهو أكثر تخييلاً بأنه جُعِل ثمناً للقليل.

= فقد أبان أنه لم يبق الآن من الشرائع ما هو معمولٌ به إلا شريعة الإسلام، وتوعَّد من يتَّبع غيرها من الأنام، فأصبح الدين مقصوراً عليها إلىٰ يوم الدين. (المؤلف).

ثم أردف النهيَ بالتحذير، فقال: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾، أي: ولا تتقوا فوات حظوظ الدنيا.

وبعد أن أمرهم باتِّباع الحقِّ المنزل، وتَرْكِ الكفر به والعناد، والغَواية والضلال، أمرهم بترك الإغواء والإضلال الذي كانوا يتعاطونه مع المنافقين وكفار قريش، فقال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: لا تخلطوا الحقَّ المنزل بالباطل الذي تَخْتلقونه وتفترونه، أو المعنىٰ: لا تُموِّهوا الحق بالباطل، ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ أي: بهذا التَّلبيس. وفيه إشعار بأنَّ كتمان الحق الناتج عن التلبيس هو مدار التقبيح.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ جملة حالية جاءت لزيادة التقبيح، وليست قَيْداً؛ ليكون لها مفهوم المخالفة.

قال في «المنار»: بيَّنَتْ هذه الآية مَسْلكهم في الغَواية والإغواء في سياق النهي عنه، فقد جاء في كتبهم التَّحذيرُ من أنبياءَ كَذَبةٍ، وجاء فيها أيضاً أنه تعالىٰ يبعث فيهم نبيّاً من ولد إسماعيل يقيم بهم[1] أمة، وأنه يكون من ولد الجارية هاجر، وبيَّن علاماتِه بما لا لَبْس فيه ولا اشتباه، ولكنَّ الأحبارَ والرؤساء كانوا يَلبِسون علىٰ العامة الحقَّ بالباطل، فيوهمونهم أنَّ النبيَّ ﷺ من الأنبياء الذين نَعَتَتْهم الكتب بالكَذَبة ـ حاشاه ـ، ويكتمون ما يعرفونه من نُعوته التي لا تنطبق علىٰ سواه، وما يعلمون فيه من أنه من الأنبياء الصَّادقين. وكُلُّه ظاهرٌ فيه عليه الصلاة والسلام بأكمل المظاهر.

ومن اللبس أيضاً: ما يفتريه الرؤساء والأحبار، فيكون صاداً لهم عن سبيل الله وعن الإيمان بنبيِّه، عن ضلالٍ وجهلٍ، وهو لَبْس أصول الدين بالمُحْدَثات والتقاليد التي زادوها علىٰ الكتب المنزلة، بضروب من التأويل والاستنباط من كلام بعض

---

(١) في تفسير «المنار» به. وهو الأصح لأن الضمير عائد إلىٰ إسماعيل.

المتقدِّمين وأفعالهم، فكانوا يروون عن سَلَفِهم هذه الزياداتِ في الدين حتىٰ في كتب الأنبياء، ويعتذرون بأنَّ الأقدمين أعلَمُ بكلام الأنبياء وأشدُّ اتِّباعاً لهم، فهم الواسطة بينهم وبين الأنبياء، وعلىٰ مَنْ بعدَهم الأخذُ بما يقولون دون ما يقول الأنبياء، إذ يصعب عليهم فَهْمُ كلامهم بزعمهم[1]. انتهىٰ.

وإنك سترىٰ القرآن العظيم يُكثر من التَّحدُّث عن بني إسرائيل بالظلم والعدوان والمعاكسة لما جاءتهم به أنبياؤهم من الأحكام والحِكم، ولم يُكثر من التحدُّث في مثل ذلك عن بقيَّة الأمم الظالمة مثلهم، مع أنها كثيرة في صفحات الأزمان الغابرة، وقد تعرَّض لها القرآن وتكلَّم عنها، ولكنه لم يتكلَّم كثيراً عن أمرها بمثل ما أكثر عن بني إسرائيل، وذلك لأن بني إسرائيل أكثرُ اتِّصالاً بالعرب، وأكثرُ اختلاطاً بالبيئة التي بُعِثَ بها محمد ﷺ، وأقربُ في الزمان إلىٰ عصر نزول القرآن، ولوجود عدد منهم في المدينة المنورة، ومعارضتهم للدين ومشاغبتهم فيه كالمشركين.

ولما أمرهم سبحانه وتعالىٰ بالإيمان، ونهاهم عن لَبْس الحقِّ بالباطل، ذلك النهي الذي مُؤدَّاه الحثُّ علىٰ التمسُّك بالحق والإيمان بمحمد ﷺ وما جاء به، أمرهم بإقامة الشريعة التي جاء بها هذا القرآن، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾، فهذه أمهات ما جاء في القرآن، فكأنه قال: وتمسَّكوا بما جاء من الحقِّ وكونوا من جماعة المسلمين.

والإقامة: الإتيان بالشيء مقوماً كاملاً، والمراد: أن يكون المصلي حاضرَ القلب، يناجي ربَّه، يخافه ويرجوه. وملاك ذلك: أن لا يُحدِّث نفسه بشيء أثناء الصلاة، وذلك لا يكون إلا بالتدريب والمران.

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٤٣).

وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ معطوف علىٰ قوله: ﴿وَءَامِنُواْ﴾.

وقوله: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فيه تنويهٌ بأمر المسلمين، وإيماءٌ إلىٰ أنَّ ما يُسمِّيه اليهود صلاةً في دينهم ليس من الدين في شيء، وإنما هو من مخترعاتهم وتحريفاتِهم الباطلة، أو هو مما نُسخ بنَسْخ دينهم.

وبعد أن أمرهم بالإيمان والدخول في زمرة المؤمنين أنَّبهم علىٰ إعراضهم عنه، مخالفين ما أمرَتْهم به التوراةُ من وجوب اتِّباع محمد ﷺ إذا جاء، وعلىٰ سوء سلوكهم في أمر التوراة، مُساوقاً السياق في هذه القضية، فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: قُبْحَ ما تصنعون، أو: أفلا عقل لكم، والظاهر أنَّ الآية نقدٌ للأمة بعمل رؤسائها وحَمَلة كتابها من الأحبار والعلماء. والكلام تفنيدٌ لادِّعائهم الإيمانَ بالتوراة، بأنَّ هذا الادِّعاء علىٰ خلاف ما يقتضيه ظاهر حالكم.

وقد عرَّفنا سبحانه وتعالىٰ بهذا النقد أنَّ ما يُسمَّىٰ في العرف إيماناً ـ وهو الإيمان الذي لا سلطان له علىٰ القلب ولا تأثير له في إصلاح العمل ـ لا يكون إيماناً صحيحاً ولا يُعبأ به، إذ لا قيمة للقول إذا كذَّبه العمل.

وهذا الضرب من الخِذلانِ يَعرِضُ لكثير من أرباب الأديان عند فساد الحال، وما أجمل التعبير عن هذه الحالة بنسيان الأنفس! فإنَّ من شأن الإنسان أن لا ينسىٰ نفسه من الخير، ولا يحب أن يسبقه أحد إلىٰ السعادة، فكأنه يقول: إذا كنتم موقنين بوعد التوراة علىٰ البر، ووعيده علىٰ تركه، فكيف نسيتم أنفسكم في ذلك وأعرضتم عمّا جاء فيها من وجوب اتِّباعكم لمحمد ﷺ إذا جاء؟!

وعن أبي مسلم في تفسير الآية: إنهم كانوا يأمرون العرب بالإيمان بمحمد إذا بُعث، فلما بُعث كفروا به، فهذا ليس بفعل مَنْ يعقل.

ولما كان الكلام في توبيخهم علىٰ سيرتهم الـمُعوَجّة يتضمَّن بيانَ مرض النفوس المتأتّي من عدم الصبر علىٰ التمسُّك بالتعاليم الإلٰهيَّة والقيام بمقتضياتها، لوَّن الخطابَ، فانتقل من الخطاب الخاصّ إلىٰ الخطاب العامِّ علىٰ نهج القرآن في مثله، ووصَفَ الدواء الناجع العام في استصلاح النفوس، فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[1]، وهذا ذِكرٌ لحكم عام يندمج فيه بعضُ شأن الحكم السابق، ومثلُ ذلك من خصائص القرآن، (كما جاء في المادة السابعة من المقدِّمة الثانية في تنويع أساليب القرآن).

ويجوز أن يكون في الكلام انفصالٌ وانتقالٌ للمؤمنين يعالجهم به تجاه الكافرين، وذلك من أساليب القرآن، يُجْري الكلامَ علىٰ أمرٍ بعد أن كان يُجريه علىٰ غيره؛ لداعٍ يقتضيه.

أما الاستعانة علىٰ إصلاح النفس بالصبر، فلأنَّ الصبر الحقيقي هو احتمالُ المكروه بنوعٍ من الرضا والتسليم، وذلك بتذكُّر وعد الله بالجزاء الحسن للصابرين، وهذا الصبر هو الذي يقي الإنسان من الخسران، كما تفيده سورة العصر.

وأما الاستعانة بالصلاة، فلأنها أقرب إلىٰ إرجاع النفس إلىٰ الله تعالىٰ، لما لحقيقتها من التأثير في الروح إذا أدِّيت كاملةً، وإلىٰ هذا الكمال أشار سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: هذه الاستعانة، ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: شاقَّة وثقيلة، واستعمالُ الكِبَر بدل الثقل من باب التَّجوُّز بالملزوم عن اللازم؛ لأن الكِبَر يستلزمُ الثقل، فهي ثقيلةٌ ﴿إِلَّا عَلَى

---

(١) يجوز أن يكون قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾ كلاماً مع بني إسرائيل، فهو يأمرهم بالدخول في الدين والاستعانة بالصبر والصلاة علىٰ ما يتبقىٰ عندهم من الهواجس والقلق علىٰ المصالح والمراكز. ويجوز أن يكون في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾ انفصالٌ في الكلام والتفاتٌ به إلىٰ المؤمنين؛ يثبِّتهم تجاه هؤلاء المعاندين. ومثل هذا من نهج القرآن وأساليبه. ويجوز أن يكون لهما معاً. والله أعلم. (المؤلف).

﴿ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: الـمُخْبتين إلىٰ الله بقلوبهم، ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

فإذا كان قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ...﴾ موجَّهاً إلىٰ بني إسرائيل، يأمرهم به أن يدخلوا في الدين، ويستعينوا بالصبر والصلاة علىٰ ما يبقىٰ عندهم من الهواجس في حُطام الدنيا والمراكز؛ يكون قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ...﴾ استبعاداً لصدور ذلك منهم؛ لأنهم ليسوا أهلاً لهذه التضحية.

ثم قال صاحب «المنار»: وعلّق الأستاذ الإمام علىٰ قوله: ﴿يَظُنُّونَ﴾، وقال: فالإيمان بلقاء الله هو الذي يُوقِفُ الـمُعتَقِدَ عند حدوده، ولو لم يكن الاعتقاد يقيناً؛ فإن الذي يغلب علىٰ ظنِّه أنَّ هذا الشيء ضارٌّ يجتنبه، أو أنه نافع يطلبه، ولذلك اكتفىٰ هنا بذكر الظن، وهو هنا أبلغ في التقريع؛ لأنَّ فيه إيماءً إلىٰ أنَّ هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر ويَنسَونَ أنفسَهم وهم يقرؤون الكتاب، لا يَصِل إيمانهم بالله وبكتابه إلىٰ درجة الظنِّ الذي يأخذ صاحبُه بالاحتياط. انتهىٰ(١).

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ...﴾ جملةً معترضةً في السياق، التفتَ بها إلىٰ المؤمنين يُثبِّتهم تجاه مقاومة هؤلاء، ويكون قد أجْرىٰ الكلام علىٰ المؤمنين أثناء جريانه علىٰ بني إسرائيل، ومثل ذلك من أساليب القرآن، والله أعلم.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ثم ذكَّرهم سبحانه وتعالىٰ بنعمه عليهم علىٰ سبيل التَّفصيل، وأعاد الجملة

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٥٠- ٢٥١).

المذكِّرة لهم بذلك علىٰ سبيل الإجمال، لتكون هزّاً لهم من رَقْدتهم، وتمهيداً لما بعدها من التفصيل، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾، ثم خصَّ منها ما فيه إحساسٌ بالشرف وشعور بالكرامة، لأنَّ في ذلك استعداداً للنفوس بقبول الموعظة والاستئناس لها بمعونة العزيمة الصادقة التي هي من خصائص النفوس الكريمة، فقال: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾، وهذا الفضل علىٰ العالمين إن كان بكثرة الأنبياء فيهم، فهو ظاهرٌ علىٰ عمومه؛ لأنه لا يُعرف شعب من الشعوب يُزاحم الإسرائيليين في هذه المزيَّة، ولا يُنافي ذلك أن يَفضُلَهُم أخسُّ الشعوب إذا هم انحرفوا عن هَدْي أنبيائهم، واهتدىٰ إليها ذلك الشعب الذي كان مفضولاً.

وإن كان المرادُ من التَّفضيل: القُربَ من الله تعالىٰ بمرضاته، فلا بدَّ من تخصيصه بأولئك الأنبياء والمهتدين بهم من أهل زمانهم والتابعين لهم فيه، ومن تقييده بمدَّة الاستقامة علىٰ العمل الذي استحقّوا به التفضيل، تدل الآية علىٰ ذلك بدلالة الاقتضاء، وهو من خصائص اللغة.

وقال قتادة والحسن ومجاهد: علىٰ عالَـمِي زمانهم وعصرهم.

أقول: ويجوز أن يكون ذلك التفضيل بجَعْل نبوَّة ذلك العصر فيهم، وانتدابهم لنشر تلك الشريعة، كما خصَّ العربَ في عصرهم بنبوَّة محمد ﷺ، واختارهم علىٰ سواهم لنشرها في العالمين، وفضَّلهم في ذلك، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾.

وبعد أن حَسَّسهم بالكرامة ترغيباً لهم علىٰ العمل، قَرَنَ ذلك بالترهيب الباعثِ علىٰ العمل أيضاً، جمعاً بين الأمرين علىٰ أسلوب القرآن في مثله، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾،

والعدل: الفِداء والبدَل، والضمير «هم» لما دلَّت عليه «النفس» الثانية الواقعة في سياق النفي، إذ المراد بها المجرمون.

والآية تعريضٌ بما كان عندهم من الاعتماد علىٰ شفاعة الشافعين وتقريب القرابين، فخرج الكلام مَخْرَج العموم، والمراد به الخصوص، ومثل ذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

والمعنىٰ: أنَّ ذلك يومٌ تنقطع فيه الأسباب، وتبطل منفعة الأنساب، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، ولا يُمنَعُ المجرمُ من عقاب الله.

وقال الأستاذ الإمام: إنه نفيٌ عام، فما وَرَدَ في إثبات الشفاعة يكون علىٰ هذا من المتشابهات، وفيه يقضي مذهبُ السلف بالتفويض والتسليم، وإنها مزيَّة يختص الله بها من يشاء. وأما في مذهب الخلف فهي دعاءٌ يستجيبه الله تعالىٰ لمن يُريدُ فيمن يُريدُ من أهل الاستحقاق(١).

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

ثم تابع سبحانه تَعداد النعم علىٰ بني إسرائيل مفصِّلاً ما سبق من الإجمال،

(١) في جَعْل النفي عاماً، والقول بأن الآية من المتشابهات، وتقييد الشفاعة بأهل الاستحقاق: مَيْلٌ إلىٰ مذهب المعتزلة، والذي عليه أهل السنة والجماعة: أن النفي المذكور في هذه الآية هو مقتضىٰ العدل، أما الشفاعة فمَحْضُ فضل، يُكرمُ الله به من يشاء من عباده لمن يشاء دون استحقاق، فلا يتعارضان.

فقال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، أصل السَّوْم: الذهابُ في طَلَب الشيء، فهو بمعنىٰ: يبغون لكم سُوءَ العذاب، أي: يُكلِّفونكم ما يَسُوؤكم ويُذِلُّكم من العذاب.

ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: كفصائل الأنعام يُذبحُ ذكورُها وتُستبقىٰ إناثُها للاستيلاد والاستفادة منها، أي: يقتلون ذُكْران نَسْلِكم ويَسْتَبْقون إناثَه أحياء؛ لإضْعافكم وإذلالكم المُفْضي إلىٰ قطع نسلكم وإبادتكم، ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾، إذ قتل الرجال وإبقاءُ النساء يفترشها الأعداءُ غاية الذلِّ ومنتهىٰ المصائب والبلاء.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: وفي ذلكم العذاب والتنجية منه بلاء من ربكم وامتحان عظيم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

قال الأستاذ الإمام: خاطب الذين كانوا في زمان النبي ﷺ بما كان لآبائهم، لأنَّ الإنعام علىٰ أمة بعنوان: إنها أمة كذا، هو إنعام شامل للأمة، مَنْ أصابه ذلك الإنعام في أفرادها، ومَنْ لم يُصبه، كما يصحُّ الفخرُ به منهم أجمعين(١).

ثم ذكر سبحانه صورة التَّنْجية العجيبة في سياق تفصيل النِّعم عليهم، وكيف كانت سبباً لغرق آل فرعون والخلاصِ منهم، وهي من أكبر النعم علىٰ بني إسرائيل، فقال: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، والباء للتعدية أو الملابسة، وقيل: للسببية، أي: فرقنا البحر بسبب دخولكم إياه حتىٰ أصبحت فيه مسالك.

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٥٧).

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: جملةٌ حاليةٌ فيها مزيد التَّحسيس بالنعمة والتَّلذُّذ بالخلاص منهم، والإشعار بالهَوْل، فتكون رمزاً للتهديد، والله أعلم.

وبعد أن ذكر نِعمةَ الإنْجاء من استعباد الظالمين، ذكر النعمة التي وَلِيَتْها[1]، وذكَّرهم بما كان من كفرهم إيَّاها، وضمَّن ذلك تَسْليته ﷺ عن عدم ارعوائهم عن الجِبِلَّة التي وَرثوها عن أسلافهم، وهي معارضة الهدىٰ والرشاد، والانحراف عن الحقِّ والسداد، وارتكاب العناد والفساد، فقال: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لإعطائِه التوراة، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾، وهذا التذييل لبيان أنهم قد انطبعوا علىٰ الظلم والفساد، والانحراف عن الحق.

قال أبو مسلم: الظلم في اللغة: النقص للحق، وفي هذه الآية بيانُ أنَّ معاندتهم للنبيِّ ﷺ ليست ببِدْعٍ من أمرهم، وإنما ذلك معهود منهم مع رؤية الآيات وإغْداق النِّعم عليهم.

وفيها أيضاً تسليةٌ للنبيِّ ﷺ ممَّا كان يُشاهد من المشركين واليهود، بما كان يُجابه موسىٰ من قومه مع وضوح الآيات، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وبعد أن ذكَّرهم بذلك الظلم، ذكَّرهم بتَفَضُّله عليهم بالتوبة، وعبَّر عنها بالعفو الذي هو جزاؤها، فقال: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: هذه النعمةَ بدوام التوحيد والطاعة، وفي صورة التعبير بقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ إيماءٌ إلىٰ شناعته وتناهي قُبحه، أي: عَفَوْنا عنكم بعد توبتكم من ذلك الأمر، علىٰ شَنَاعته وفظاعته.

(١) أي: تلتها وجاءت بعدها.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.

ثم قفَّىٰ علىٰ ذلك بذكر إيتائهم الكتاب، وهو المنَّة الكبرىٰ، فقال: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾، أي: فلا تقعوا في وثنيَّة أخرىٰ، ولتعرفوا أنَّ ما سيجيء به محمد ﷺ هو هُدىٰ ونورٌ يُرجعكم إلىٰ الأصل الذي تفرَّقتم عنه.

وقد اختلف المفسِّرون في معنىٰ «الفرقان»، فقال بعضهم: هو وصف التوراة، وقال بعضهم: هو ما أُوتيه موسىٰ من الآيات والمعجزات. وقال الأستاذ الإمام بعد حكاية القولين: ولكنَّ ذِكْرَهُ بعد «الكتاب» معطوفاً عليه دليلٌ علىٰ أنَّ المراد به: ما في الكتاب من شرائعَ وأحكام مُفرِّقةٍ بين الحقِّ والباطل والحلال والحرام[1].

ثم بيَّن سبحانه كيفيَّة وقوع التوبة والعفو وتفصيل ذلك، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾، وهذا الأمر بالتوبة وطلب الغفران؛ للإشعار بفظاعة تلك الغَواية، وشناعة هاتيك الجهالة، تجاه من برَّأهم، ثم ذكر صورة التوبة بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بأن يقتل بعضكم بعضاً. والمراد: استسْلامُ العصاة لإجراء القِصاص فيهم من جانب غير العصاة، أو جانب الحكام منهم، أو المنفِّذين منهم للقصاص، فيكون في الكلام إسنادُ ما هو للأفراد إلىٰ المجموع، وعلاقةُ هذا التجوُّز: اتِّحاد الأمة، وأنها كالنفس الواحدة، أو فيه إجراء الوحدة بالنوع مَجْرىٰ الوحدة بالشخص. ويشبه هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

---

(١) تفسير «المنار» (١ : ٢٦٣).

ويحتمل أن يكون المعنىٰ: لِيَبْخعْ[1] كلُّ من عَبَدَ العِجْلَ نفسَه انتحاراً، إذ من علامة التوبة النَّصوح الإتيانُ بأعمال تشقُّ علىٰ النفس، وما كانت لتأتيها لولا ذلك الشعور الذي يُحدثه الذنب، والفاء للسببية، والثانية للتعقيب لأن القتل من تمام التوبة، أو للتفسير لأنَّ القتل مَظْهر تلك التوبة، وقد حثَّ عليه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾؛ لأنه يُطَهِّركُم من رِجْسِ الشِّرك الذي دَنَّستُم به أنفسَكُم، ويجعلكم أهلاً لما وعدكم به في الدنيا، ولمثوبته في الآخرة.

وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ معطوف علىٰ محذوف، لأنه خطاب منه تعالىٰ علىٰ نهج الالتفات الذي هو من أساليب القرآن، إذ هو في الظاهر من كلام الله تعالىٰ، لا تتمة لكلام موسىٰ عليه السلام، أي: ففعلتم ما أُمرتم به، فتاب عليكم، وهو بيانٌ لنعمة الله تعالىٰ عليهم بقَبول التوبة منهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ تذييلٌ علىٰ وَجه التَّعليل لما قبله، وبيانٌ لمنَّة الله العظيمة، وإعلانٌ لبابِهِ المفتوح لكلِّ من يُريد الوصول والدخول.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم ذكر معاندةً أخرىٰ من معانداتهم، وفي سياقها بيانٌ لنعم أخرىٰ من نِعَمِ الله عليهم، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ

---

(١) بَخَعَ يَبْخَعُ: أقرَّ به وخضع له وتذلل وأطاع. «لسان العرب» (بخع).

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥﴾، أي: واذكروا إذْ قلتم لنبيِّكم: يا موسىٰ لن نُصدِّق بما جئتَ به تصديقَ إذعان واتِّباع حتىٰ نرىٰ الله عياناً جهرةً فيأمرنا بالإيمان لك.

والجهرة في الأصل: مصدر قولك: جَهَرتُ بالقراءة، استُعير للمُعَاينة الواضحة، لما بينهما من الاتِّحاد في الوضوح والانكشاف، وهي استعارةُ صفةِ المسموعات لصفة المُبْصَرات.

وقال القفّال(١): أصل الجهرة من الظهور، يقال: جَهَرتُ الشيء، بمعنىٰ: كشفته. فتكون حقيقة.

ونَصْبُها علىٰ المصدرية؛ لأنها نوعٌ من الرؤية، أو حالٌ من الفاعل أو المفعول به. وقرئ بفتح الهاء علىٰ أنها مصدر كالغَلَبة، أو جمع كالكَتَبة.

قال بعض المفسِّرين: القائلون هم السبعون المختارون لميقات التوبة عن عبادة العجل.

وقال الأستاذ الإمام: سؤالُ بني إسرائيل رؤيةَ الله تعالىٰ واقعةٌ مستقلّة لا تتَّصل بمسألة العجل، وهي معروفة عند بني إسرائيل ومنصوصة في كتابهم، وذلك أنَّ طائفةً منهم قالوا: لماذا اختُصَّ موسىٰ وهارون بكلام الله تعالىٰ من دوننا؟! وانتشر هذا القول في بني إسرائيل، وتجرَّأ جماعةٌ منهم بعد موت هارون، وهاجوا علىٰ موسىٰ وبني هارون، وقالوا لهم: إنَّ نعمة الله علىٰ شعب بني إسرائيل هي لأجل إبراهيم وإسحاق، فتشمل جميع الشعب، وقالوا لموسىٰ: لست أفضل منّا، فلا يحقُّ لك أن تترفَّع وتَسُودَ

---

(١) هو الشاشي، أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل (٢٩١- ٣٦٥هـ)، من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب، له: «أصول الفقه»، و«محاسن الشريعة»، و«شرح رسالة الشافعي». «الأعلام» للزركلي (٦: ٢٧٤).

علينا بلا مزيَّة، وإننا لن نؤمن لك حتىٰ نرىٰ الله جهرةً، يريدون حالة تكليمه لموسىٰ، فأخذهم إلىٰ خيمة العهد، فانشقَّت الأرض وابتلعتْ طائفةً منهم، وجاءت نار من الجانب الآخر فأخذت الباقين، وهذه النار هي المعبَّر عنه بالصاعقة، وهل ثمَّة مِن نار غيرُ الاشتعال بالكهرباء؟ وهو ما تُحدثُه الصَّاعقةُ التي تُحدِثُ الانشقاق في الأرض أيضاً. وقد أخذ هذا العذابُ تلك الطائفةَ والآخرون ينظرون، وهكذا كان بنو إسرائيل يتمرَّدون ويُعاندون موسىٰ عليه السلام، وكان سَوْط عذاب الله يُصَبُّ عليهم، فرُمُوا بالأمراض والأوبئة، وسُلِّطت عليهم الهوامُّ وغيرُها حتىٰ أماتت منهم خلقاً كثيراً، فمُجاحدتُهم ومُعاندتُهم للنبيِّ ﷺ لم تكن بِدْعاً من أعمالهم. انتهىٰ[١].

والخطاب مُوجَّه للمجموع، إذ منهم المأخوذون والناظرون، وخطابُ المجموع بما هو واقع من البعض أمرٌ جارٍ في اللغة، ومن خصائصها ومن سَنَنِ القرآن (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة السادسة عشرة من المقدمة الثانية)، ويجوز أن يعود ضمير ﴿وَأَنتُمۡ﴾ إلىٰ الأمة، ويُراد بالنظر تحقُّق الأمر لها، والله أعلم.

وقد بيَّن سبحانه نعمتَه عليهم بعد هذه النقمة، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٥٦﴾، ذهب الأستاذ الإمام في هذه الآية إلىٰ المعنىٰ المجازي، فقال: إنَّ المراد بالبعث هو كَثْرة النَّسل[٢]، أي: أنه بعدما وقع الموت بالصاعقة وغيرها،

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٦٦- ٢٦٧).

(٢) وفيه عدولٌ عن الظاهر من غير مُقتَضٍ، فأقلُّ ما يُقال فيه: إنه مرجوح. وقد صرَّح بضعف القول ابنُ الجوزي في «زاد المسير» (١: ٦٧).

والصواب: أن معنىٰ الآية هو إحياؤهم بعد الموتة التي ماتوها بسبب الصاعقة المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]، فقد روىٰ عبد الرزاق في «تفسيره» =

وظَنَّ أنْ سينقرضوا، بارك الله في نَسْلِهم، ليُعِدَّ الشعب بالبلاء للقيام بحقِّ الشكر علىٰ النِّعَم التي تمتَّع بها الآباء الذين حَلَّ بهم العذاب بكفرهم لها.

قال في «المنار»: والعبرة الاجتماعية في الآيات أنَّ الخطاب في كلِّ ما تقدَّم كان مُوجَّهاً إلىٰ الذين كانوا في عصر التَّنزيل، وأنَّ الكلام عن الأبناء والآباء واحدٌ لم تختلف فيه الضمائر، حتىٰ كأنَّ الذين قتلوا أنفسهم توبةً والذين صُعِقوا بعد ذلك هم المُطالَبون بالاعتبار وبالشكر، وما جاء الخطاب بهذا الأسلوب إلا لبيان معنىٰ وحدة الأمة، واعتبار أنَّ كل ما يبلوها الله به من الحسنات والسيِّئات وما يُجازيها من النِّعم والنِّقم، إنما يكون لمعنًىٰ موجود فيها، يصحُّ أن يُخاطَبَ اللاحق منها بما كان للسابق، كأنه وقع منه، ليعلم الناس أنَّ سنَّة الله في الاجتماع الإنساني أن تكون الأمم متكافلة، يَعتَبِر كلُّ فرد منها سعادتَه بسعادة سائر الأفراد، وشقاءَه الدائم بشقائهم، ويتوقَّع نزول العقوبة به إذا فَشَت الذنوب في الأمة، وإن لم يواقعها هو، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]. وهذا التكافل في الأمم هو المعراج الأعظم لِرُقيِّها؛ لأنه يحمل الأمة التي تعرفه علىٰ التعاون علىٰ الخير والمقاومة للغير[1]، فتكون من المفلحين.

ثم ذكر نعمتَيْن أُخرَيَين منَّ بهما علىٰ بني إسرائيل فكفروهما، ولكنه لم يذكر ما كان به الكفران، بل طواه وأشار إليه بما ختم به الآية من أنهم لم يظلموا الله تعالىٰ بتلك الذنوب، وإنما ظلموا أنفسهم. وذلك من أساليب القرآن وضروب إيجازه (كما جاء في

= (٧٣) عن معمر عن قتادة في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ❁ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٥- ٥٦] قال: أخذتهم الصاعقة، أي ماتوا، ثم بعثهم الله تعالىٰ ليكملوا بقية آجالهم. اهـ.

(١) في تفسير «المنار»: للشر.

المادة الثالثة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾، فهذه هي النعمة الأولىٰ من النعمتين.

قال الأستاذ الإمام: هذه نعمةٌ مستقلةٌ متَّصلةٌ بما قبلها في سياق الذكر، منفصلةٌ عنها في الوقوع، فإن التَّظليل استمرَّ إلىٰ دخولهم أرض الميعاد. ولولا أن ساق الله إليهم الغمام يُظلِّلهم في التِّيه لسَفَعَتْهم الشمس(١).

ثم ذكر النعمةَ الثانية، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾، وكل ما مُنِحَ من الله تعالىٰ يُسمّىٰ إيجادُه إنزالاً، ومنه: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ [الحديد: ٢٥]، علىٰ أن المنَّ ينزل كالنَّدىٰ، وهو مادة لزجة حلوة تشبه العسل، تقع علىٰ الحجر وورق الشجر مائعةً ثم تجمد وتجف، فيجمعها الناس. قالوا: ومنها الترنجين(٢)، وبه فسَّر «المنَّ» بعضُ المفسِّرين.

وأما «السَّلْوىٰ» فقد فسَّروه بالساماني، وهو طير معروف.

ويصح أن يكون النزول علىٰ حقيقته لتحقُّقه في أحد الأمرين وهو المن. وإسناد الفعل إلىٰ أمرين يصح في أحدهما؛ هو من خصائص اللغة، فيكون من باب تغليب ما لأحد الأمرين علىٰ كليهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ فيه تمنُّنٌ عليهم وزيادةٌ في التَّحسيس لهم بالنعمة العظمىٰ. قالوا: وإنَّ بني إسرائيل أكلوا المنَّ أربعين سنة، وإن طعمَه كالرقاق بالعسل.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ أي: بعصيانهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٦٧)، وقوله: لسفعتهم. أي: لغيَّرت لون بشرتهم وسوَّدته. «لسان العرب» (سفع).

(٢) نوع من أنواع العسل. «تكملة المعاجم العربية» لرينهارت بيتر (٧: ٢٠٧).

يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ تذييلٌ للبحث وتقريرٌ لقاعدة مهمَّة، وهي أنَّ كل ما يطلبه الدين من العبد فهو لمنفعته، وكل ما ينهاه عنه إنما يُقصَدُ به دفعُ الضَّرَر عنه، ولن يبلغ أحدٌ نفعَ الله فينفعَـهُ، ولن يبلغ أحد ضُرَّه فيضرَّه، كما ثبت في الحديث القدسي(١)، فكل عمل ابن آدم له أو عليه، وليس لله منه نفع أو ضرر، فالذين يُعرِضون عن تعاليم الله يضيعون مصالحهم ويُعرِّضُون أنفسهم لمهاوي الرَّدىٰ في الدنيا والأخرىٰ، ويظلمونها بذلك.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ثم ذكَّرهم سبحانه بنعمة أخرىٰ من نعمِهِ عليهم، ومعاندة أخرىٰ من معانداتهم وكفرانهم، فقال:

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ(٢) نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

---

(١) يشير إلىٰ الحديث الذي رواه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر، وفيه: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني».

(٢) قوله سبحانه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ قرئ بالرفع وبالنصب، وعلىٰ الأول: يكون خبراً لمبتدأ محذوف، أي: سؤالنا حطة، أي: نسألك أن تحط عنا خطايانا. وعلىٰ الثاني: يكون مصدراً نائباً عن فعله، أي: حطَّ عنا خطايانا. وقيل: بل المعنىٰ أمرُنا حَطَطْنا القرية ودخلناها، يقولون ذلك شكراً لله وتحدّثاً بنعمه، كما دخل رسول الله ﷺ هو وأصحابه رضي الله عنهم مكة فاتحاً لها شاكراً الله ذاكراً، ويجوز أن يكون المراد من تبديلهم للقول أنهم دخلوا متبجِّحين زاهين بغلبهم، غير ذاكرين لتوفيق الله لهم في ذلك، والله أعلم. وهو حال ينبئ عن عدم تمسُّكهم بأوامر الله ومطالبه سبحانه. (المؤلف).

قال الأستاذ الإمام: ونسكت عن تعيين القرية كما سكت القرآن، فقد أُمر بنو إسرائيل بدخول بلاد كثيرة، وكانوا يُؤْمرون بدخولها، خاشعين لله خاضعين لأمره، مُسْتشعرين عَظَمته وجلاله، ونعَمه وأفْضَاله، وهو معنىٰ السجود وروحُه المراد منه(١). والمراد بالحطَّة: الدعاء بأن تُحطَّ عنهم خطاياهم الآتية من التقصير في العمل وكُفران النِّعم. وتبديلُ القول بغيره: عبارةٌ عن المخالفة، والتعبيرُ بقوله: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ أدلُّ علىٰ المخالفة والعصيان من كلِّ تعبير آخر.

ونسكت كذلك عن تعيين نوع الرِّجْز، كما هو شأننا في كلِّ ما أبهمه القرآن، وقد ابتلىٰ الله بني إسرائيل بالطاعون غير مرَّة، وابتلاهم بضروب أخرىٰ من النِّعم، في أثر كل ضرب من ضروب ظُـلْمِهم وفسوقهم، ومن أشدِّ ذلك: تسليطُ الأمم عليهم، وحَسْبُنا ما جاء في القرآن عبرةً وتبصرةً، فنُعيِّن ما عيَّنه ونُبهم ما أبهمه، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال بعض المفسِّرين: إنَّ المراد بالقرية: بيت المقدس، وفيه باب يُسمَّىٰ إلىٰ الآن «باب حطة».

وقال في «مجمع البيان»: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾، أي: فخالف الذين عَصَوا وفعلوا ما لم يكن لهم أن يفعلوه، وغيَّروا ما أمروا به، فقالوا غير ذلك، واختلف في ذلك الغير، فقيل: إنهم قالوا بالسريانية: هاطا سماقاتا، ومعناه: حنطة حمراء(٢)،

---

(١) المراد من السجود معناه الحقيقي وهو الانحناء ووضع الجبهة علىٰ الأرض، ولا داعي لصرف اللفظ العربي الواضح الذي جاء في الآية القرآنية إلىٰ معنىٰ مجازي بعيد متكلَّف. وكلام الأستاذ في تفسير «المنار» (١: ٢٦٨).

(٢) في «مجمع البيان»: حنطة حمراء فيها شعيرة.

وكان قصدهم بذلك الاستهزاء[١]. أو طلب الحنطة دون حطِّ الخطايا، لأنهم أناس ماديُّون.

أقول: ويجوز أن يُراد بالتبديل أنهم دخلوا زاهينَ مُتبجِّحين غيرَ ذاكرين لتوفيق الله لهم ولا شاكرين لذلك، والله أعلم.

وإطلاقُ القول على المقول الذي يُراد به، سائغٌ في اللغة وعُرْفِ التخاطب.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم ذكَّرهم بنعمة أخرىٰ كفروها، وكان ذلك في التِّيه حين استولىٰ عليهم العطش، فقال: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، قال الأستاذ الإمام: أمره أن يضرب بعصاه حجراً من حجارة تلك الصحراء، وعُبِّر عنه في سِفر الخروج بالصخرة، فضرب، ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي: بعدد أسباطهم، و﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[٢] أي: عَيْنَهم الخاصَّة بهم.

ثم امتنَّ علىٰ بني إسرائيل في هذه النعمة واغتباطهم بما مَنَحهم من العيش الرغد في مُهاجَرِهِم، فقال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾، فعبَّر عن الحال الماضية بالأمر ليستحضر سامعُ الخطاب أولئك القوم في ذهنه، ويتصوَّر اغتباطهم فيه كأنهم حاضرون الآن والخطاب يُوجَّه إليهم، ومثل ذلك قوله: ﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: (من رزقنا) كما يقتضيه: ﴿فَقُلْنَا﴾، وذلك للإيذان بأنَّ الأمر بالأكل والشرب لم يكن بطريق الخطاب،

---

(١) «مجمع البيان» للطبرسي (١: ٢٣٠) [طبعة مؤسسة الأعلمي].

(٢) تفسير «المنار» (١: ٢٧٠).

بل بواسطة موسىٰ عليه السلام، وهذا ضربٌ من ضروب إيجاز القرآن وأساليبه التي لا تُجارىٰ في دقَّة الإشارة، وفيه تحسيسٌ بالنعمة أردفه بالنهي عن بَطَرها وكفرانها، فقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ كثيراً من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص وفصولها، ويقولون هنا: إنَّ الاستسقاء وضَرْب الحَجَر كان قبل التِّيه، وقبل الأمر بدخول تلك القرية، فذكرت هنا بعد تلك الوقائع.

والجواب عن هذه الشبهة ـ إن سلَّمناها لهم ـ: هو أنه لم يقصد القرآنُ بالقصص التأريخَ وسَرْدَ الوقائع بحسب أزمنة وقوعها وتسلسلها، وإنما المراد بها الاعتبار والعظة، ومتىٰ كان هذا هو الغرض فيجب أن يكون ترتيبُ الوقائع في الذكر علىٰ الوجه الذي يكون أبلَغَ في التذكير، وأدعىٰ إلىٰ التأثير حسب السياق.

ولما كان الغَرَضُ من هذه القصص هنا: النعمَ متَّصلةً بأسبابها لتُطلب بها، وبيان النِّقم بعللها لِتُتَّقىٰ من جهتها، فهذا السياق هنا هو الموافق لهذا الغرض.

ثم إنَّ الباحثين في التاريخ لهذا العهد قد رجعوا إلىٰ هذا الأسلوب في التقديم والتأخير؛ لأن الغرض معرفة سِيَرِ الماضين، وما كان لها من النتائج والآثار، فالطريق الصحيح: أن ننظر في كلِّ حادثة من حوادث التاريخ المهمة، ونُبيِّن أسبابها ونتائجها من غير تفصيل. فهذا ضَرْبٌ من ضروب الإصلاح العلمي جاء به القرآن(١). وكم للقرآن من إصلاح؟.

وقال بعض المفسِّرين: إنما غيَّر القرآن الترتيب الواقعيَّ في هذه الوقائع لإبراز

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٧١).

كلِّ واحدة منها في مَعرِضِ أمرٍ مستقلٍّ واجب التذكُّر والتذكير به، ولو رُوعي الترتيب الواقعي في الذكر لفُهِمَ أنَّ الكل أمرٌ واحد أُمِرَ بتذكُّره والتذكير به.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ثم ذكَّرهم سبحانه وتعالىٰ بكفرانهم لنعمةٍ أخرىٰ متَّصلة بما قبلها، وهو إنزال المنِّ والسَّلوىٰ عليهم، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

قال في «المنار» ما ملخَّصه: مع كثرة آيات الله القائمة علىٰ نبوَّة موسىٰ وصدق وعده لبني إسرائيل بالتمكُّن من الأرض الموعودة، والخروج من الظلم والذلِّ الذي كانوا فيه؛ لم تَسْتيقنه أنفسهم، بل كانوا علىٰ رَيْب من ذلك، وكانوا يظنُّون أنَّ موسىٰ عليه السلام خدعهم بإخراجهم من مصر، وجاء بهم في البريَّة ليُهلكهم، فلذلك دأبوا علىٰ إعناته والإكثار من الطلب، حتىٰ ييأسَ منهم فيرتدَّ بهم إلىٰ مصر، حيث أَلِفُوا الذلة، ولهم مَطْمَعٌ في العيش وأملٌ في الخلاص من الهَلَكَة[1].

فما ذكره عنهم في هذه الآية إنمـا هو علىٰ حدِّ قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، ويُرشد إلىٰ ما فيه من الإعنات قولُهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، فقد عبَّر عن مسألتهم بما فيه حرف النفي الذي يأتي لسَلْبِ الفعل في مستقبل

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٧٣- ٢٧٤).

الزمان مع تأكيده، فكأنهم قالوا: اعلم أنه لم يبق لك أمل في بقائنا معك علىٰ هذه الحالة من التزام طعام واحد، فإن كانت لك منزلة عند الله كما تزعم، فادْعُهُ يُخْرِج لنا ما يمكن معه أن نبقىٰ معك إلىٰ أن يتم الوعد الذي وعدك ووعدتنا، وهم يعلمون أنهم في بريَّة غير مُنْبِتةٍ مِثْلَ هذا.

وقد وصفوا الطعام بالواحد مع أنه نوعان، فلأنهما طعامُ كلِّ يوم. ويقال لمن يأكل كلَّ يوم عدّة ألوان لا تتغيَّر: إنه يأكل من طعام واحد.

والمراد من البَقْل: ما يطعمه الإنسان من أطايب الخضر، والقثاء: هي أخت الخيار.

ولما قالوا ذلك، ﴿قَالَ﴾ موسىٰ؛ تَقْريعاً لهم علىٰ أَشَرِهِم، وإنكاراً لتبرُّمهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾، وفي صورة التعبير إشارةٌ إلىٰ إعناتهم الذي قَصَدوه من وراء هذا السؤال. والـ﴿أَدْنَىٰ﴾ في اللغة: الأقرب، واستعير للأخسِّ والأدْوَنِ، كما استُعير البُعد للرفعة.

ثم تابع التقريع وقال: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ من الأمصار، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: فإنكم إن هبطتموه ونزلتموه وجدتم فيه ما سألتم، أما هذه الأرض التي قضىٰ الله أن تقيموا فيها إلىٰ أجل محدود، فليس من شأنها أن تُنْبِتَ هذه البقول.

وتحرير المعنىٰ: إن أردتم الخلاصَ ممَّا كرهتم، فإنَّ ذلك بأيديكم، أقدِموا علىٰ محاربة مَنْ يليكم من سكان الأرض الموعودة، فإنَّ الله سبحانه كَفَل لكم النَّصرَ عليهم، وعند ذلك تجدون طلبكم في الأمصار التي تدخلونها، فالتَمِسوا طلبكم بأفعالكم إن أردتم.

وبعد أن ذكر كفرانهم للنعمة وإعناتهم في هذا الطلب، بيَّن ما نالهم من الجزاء الدنيوي بذلك، فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾، والذلُّ: خُلُق خبيث

من أخلاق النفس، يُضاد الإباء والعزَّة، وأثره يُسمَّىٰ المسكنة، ويُراد به فَقْدُ المُلْكِ وما يتبعُه من العزِّ والسلطان. ويجوز أن يكون في الجملة من لطف المسلك ما يشير إلىٰ منشأ جُبْنهم وإحْجامهم عن المحاربة وهبوط الأمصار، فتكون الجملة في موضع التعليل لمضمون ما قبلها.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا به، وهذا كما يقال: رَجَع ـ أو عاد ـ بصفقة المغبون، إذا كان ذلك آخر شوطه ومنتهىٰ سعيه. وتنكير الغضب للدلالة علىٰ أنه نوع عظيم من سخطه جلَّ شأنه.

ثم عقَّب بيانَ هذا الجزاء ببيانٍ مُجمَل عن سببه، وإن عُلِمَ ذلك من السياق؛ ليكون تصريحاً بالتشنيع عليهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فإنهم بإحراجهم لموسىٰ عليه السلام، وإعْناتهم له في المطالب مع كثرة ما شاهدوا من العجائب، وما أظهر الله لهم من الغرائب، قد دلّو علىٰ أن لا أثر للآيات في نفوسهم، فهم بها كافرون في الحقيقة. والنفوس لا تتحلَّىٰ بالفضائل والشجاعة والإقدام إلا بالثقافة الصحيحة.

ثم تابع البيان عن السبب، وأشفعه بقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: حَنَقاً عليهم، ومن كان كذلك أمَا يكون موضعاً لغضب الله ونِقَمِه ومُسْتَحقاً لها؟ وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فيه زيادة في التشنيع، أما قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ فهو إجمال بعد التفصيل، وهي جملة مُؤكِّدة لسابقتها مُقرِّرة لها، جاءت علىٰ نهج القرآن بصورة نظريَّة عامة لبيان أسباب ما ينال الأمم من الجزاء والبلاء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم استطرد في بيان أحوال المعتدلين والمؤمنين، وبيان مصيرهم علىٰ نهج القرآن

في المقابلة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾، ولفظة ﴿مَنْ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الثانية بَدَلَ خاصٍّ مِن عامٍّ. ويجوز أن تكون بدلاً من كليهما، علىٰ أن تكون بياناً لسبب الحكم.

قال الأستاذ الإمام: هذه الآية بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة، وإنما وَرَدَ الكلام علىٰ هذا الأسلوب البديع متضمِّناً لجميع مَنْ تمسَّك بهَدْي نبيٍّ سابق وانتسب إلىٰ شريعة سماوية ماضية، ليدل علىٰ أنَّ الجزاء السابق وإن حكي علىٰ أنه من خطأ اليهود، فإنه لم يُصِبْهم إلا لجريمة قد تشمل الشعوب عامة، وهي الفسوق عن أوامر الله، وانتهاك حُرماته، فكلُّ مَنْ أجرم كما أجرموا سقط عليه من غضب الله ما سقط عليهم، و علىٰ أنَّ الله جلَّ شأنه لم يأخذهم بما أخذهم لأمر يختصُّ بهم، علىٰ أنهم من شعب إسرائيل أو من ملّة يهود، بل ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون، فعمادُ الفلاح ووسيلةُ الفوز بخيري الدنيا والآخرة إنما هو صدقُ الإيمان بالله تعالىٰ، بأن يكون المؤمن قد ارتقىٰ بإيمانه مُرتقىً يشعر فيه بِالجلال الإلهي، فإذا رَفَع بصره إلىٰ الجناب الأرفَع، أغْضَىٰ هيبةً وأطرق إلىٰ العبوديَّة خشوعاً، وإذا أطلق نظره فيما بين يديه، شعر في نفسه عزَّةً بالله، فيكون عبداً لله وحده سيِّداً لكلِّ شيء بعده. هذا هو الإيمانُ المرضيُّ عند الله تعالىٰ، الذي يكون أصلاً لتهذيب أخلاق صاحبه، ومصدراً لأعماله الحسنة المرضية(١).

قال في «المنار»: أطمع الله تعالىٰ بهذه الآية بني إسرائيل، بعدما قرَّعهم بالنُّذُر التي تكاد تُوقع اليأس في قلوبهم، وبيَّن لهم ولسائر الناس أنَّ المَنفَذَ إلىٰ هذا الطمع،

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٧٧ - ٢٧٨).

بل البابَ الذي يؤدِّي إلىٰ هذا الرجاء: هو الجمع بين الأمرين اللَّذَيْن بَعث لتقريرهما الأنبياءَ عليهم السلام، وهما: الإيمان الصحيح اليقيني، والعمل الصالح(١).

والآية تدلُّ علىٰ أنَّ أهل الأديان ـ وهم الذين بلغتهم دعوة النبيِّ علىٰ وجهها وبشرطها ـ إذا آمنوا بالله واليوم الآخر علىٰ الوجه الصحيح الذي بيَّنه نبيُّهم وعملوا الأعمال الصالحة، فهم ناجون مأجورون عند الله تعالىٰ.

أقول: ولا يتـصوَّر هذا في حقِّ غير المسلمين، إلا في أزمانهم الأُوَل، قبل أن يعبثوا بشرائعهم، وقبل أن تُنسَخَ وتُبدَّل بغيرها، والبشر كله مسؤول عن معرفة الديانة الصحيحة بما أعطاه الله من العقل السليم الذي اكتشف فيه من الخفايا العظيمة والتي وصل إليها اليوم.

وفي الآية إتباعُ الكلام وتخليلُ السياق بما كان فيه نشاطٌ وعظةٌ للسامع علىٰ نهج القرآن في ذلك (كما جاء في مفهوم المادة الخامسة من المقدمة الثانية)، فبعد أن ذكر السبب الذي سجَّـل عليهم ذلك الوبال والغضب، وهو كفرانُهم للآيات وقـتلُهم الأنبياء، وعصيانُهم واعتداؤهم المتواصل، أتْبَعَ ذلك ببيان حال المؤمنين من المسلمين ومن سائر المِلَل، وبيان مصيرهم، لأن فيه نشاطاً وعظةً للسامعين.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ثمَّ عاد وتابع السياق في جناياتهم، فذكَّرهم بكفران آية عظيمة أخرىٰ، فقال:

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٨٢).

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ قائلين: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم ﴾ من أحكام التوراة، ﴿بِقُوَّةٍ ﴾ أي: بجِدّ وعزيمة، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ ﴾ أي: لا تَـنسَوْهُ وانشروه في الناس.

والميثاق: هو العهد الذي أخذه عليهم. والمفهوم من أخذ الميثـاق: أنهم قبلوا الإيمان وعاهدوا موسىٰ عليه السلام، أو الإيمان نفسه هو الميثاق، لأنه يستلزم التعهُّد والتمسُّك به. ورفعُ الطور فوقهم حتىٰ ظنُّوا أنه واقع بهم: هو من آيات الله التِّسع ومعجزاته التي جاءتهم لتقويةِ إيمانهم وأخْذِ ما أوتوا من الكتاب بقوةٍ واجتهادٍ. وذِكرُ ما فيه وعدمُ نسيانهم: إنما يكون بالمحافظة علىٰ العمل به، فإنَّ العمل بالشيء هو الذي يجعل العلم به راسخاً في النفس مستقراً عندها.

وبعد أن أمرهم بذكر ما فيه، لأنَّ الذِّكر الدائم يثبت العمل، وَصَلَه بذكر فائدته، وهي إعداد النفس لتقوىٰ الله عزَّ وجل، فقال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي: راجين أن تنخرطوا بذلك في سِلك المتَّقين؛ لأنَّ المواظبة علىٰ العمل بما يُرشد إليه الكتاب، تطبع في النفس مَلَكَة مراقبة الله تعالىٰ، فتكون بها تقيَّة نقيَّة راضية مرضية، والعاقبة للتقوىٰ.

ورفعُ الطُّور فوقهم آيةٌ كونية من الآيات التي يُخَوِّف الله بها عبادَه، ويُجْريها علىٰ أيدي الأنبياء، وإن كانت بأسباب طبيعيَّة معروفة أو غير معروفة[1]. ويجوز أن يكون هذا الرفع بحركة زلزال قويّ قَلَع الجبل إلىٰ فوق وعاد إلىٰ موضعه، وإن حَدَثَ به بعض الخلل والتفسُّخ والتفنّش.

وبعد أن ذكَّرهم بتلك الآية الكونيَّة وما اتَّصل بها من الهداية لهم، ذكَّرهم بما

---

(١) وقد تكون بغير أسباب، فتكون معجزةً خارقةً للعادة، أي: خارقةً للسُّنن الكونية والأسباب الطبيعية.

كان منهم من التَّولِّي عن الطاعة والإعراض عن القَبول، وامتنَّ عليهم بما عاملهم به من الفضل والرحمة والصفح عما يستحقّونه من المؤاخذة والعقوبة، فقال: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي: لسعادة الدنيا وهي التمكُّن في الأرض المقدَّسة، ولسعادة الآخرة وهي خيرٌ ثواباً وخيرٌ أملاً، فمن فضله وإحسانه أن وفَّقكم للعمل بالميثاق بعد ذلك، بتكثير الأنبياء فيكم، يحثُّونكم علىٰ الصَّلاح والإصلاح.

ثم ذكَّرهم بكُفْرةٍ أخرىٰ ونكال آخر، فقال: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

أباحَ الله تعالىٰ لبني إسرائيل العمل في ستّة أيام من الأسبوع، وحَظَر عليهم العمل في يوم واحد، وهو يوم السبت، وفَرَض عليهم في هذا اليوم الاجتهادَ في الأعمال الدينية إحياءً للشعور الديني في قلوبهم، وإضعافاً لِشَرَهِهِم في جَمْع الحُطام وحُبِّهم للدنيا، فتَجَاوزت طائفةٌ منهم حدودَ الله تعالىٰ في السبت واعتدَوها، فكان جزاؤهم علىٰ ذلك جزاءَ مَنْ لم يرض نفسه بآداب الدنيا[1]، وجزاءُ مثله هو الخروجُ من محيط الكمال الإنساني، والرتوع في مراتع البهيمية. من «المنار»[2].

وقد اختلف المفسِّرون في معنىٰ: ﴿ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾، فقال الجمهور: الأمر للتكوين، وهو حقيقة في مَسْخهم قردة، ثم موتهم علىٰ إثْر ذلك.

وقال مجاهد: لم تُمسَخ صُوَرُهم، ولكن مُسِخَت قلوبهم فمثِّلوا بالقردة، كما مُثِّلوا

---

(١) في «المنار»: «الدين»، وعلىٰ هذا يكون ضبط العبارة هكذا: «مَنْ لم يُرضِ نفسَه بآداب الدين».

(٢) (١: ٢٨٤).

بالحمار في قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، ومثل قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، و علىٰ هذا يكون المراد: أنهم أفسدوا طبائعهم وحرَّفوا فِطَرهم تحريفاً أخرجوها عن طبائع البشر السليمة، وضلّوا عن الطريق السويِّ ضلالاً بعيداً.

والخسوء: الطرد والصَّغار. وضمير: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ يعود إلىٰ العقوبة، أو القرية؛ ويريد أهلها المعتدين. وعلىٰ الأول: يُراد بـ«ما لديها وما خلفها»: الذنوبُ الحديثةُ والقديمةُ، و علىٰ الثاني: يُراد القرىٰ القريبة منها والبعيدة. والنكال علىٰ الأول: الجزاء، و علىٰ الثاني: الاعتبار.

أما علىٰ رأي مجاهد، فيكونون قد أصبحوا في الخِسَّة وتشوُّه الطباع كالقِرَدة، وكان ذلك نكالاً لعمل المبتدئين بالاعتداء، ولعمل من اتَّبع أثرهم، وموعظةً للمتقين، الذين أدركوا أنَّ التلاعب بتعاليم الدين، يُجرِّد الإنسان من إنسانيته، ويردُّه إلىٰ أسفل سافلين[1].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ
أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾
قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ
إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ
جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا

---

(١) تقدَّم التعليق علىٰ مَيْل المؤلف إلىٰ حَمْل المَسْخ علىٰ مَسْخ معنوي في المقدمة (١: ٦٤٧-٦٤٨) وإبطاله.

كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

ثم ذَكر قصَّةً من قصصهم تدلُّ علىٰ سَفَههم، وخفَّة أحلامهم، وجَهْلهم بعَظَمة الله، وما يجبُ أن يُقابَلَ به أمرُه من الاحترام والامتثال، وإن لم تظهر حكمتُه بادئ الأمر، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، قال أبو السعود: وسَبَبُه: أنه كان في بني إسرائيل شيخ موسر، فقتله بنو عمِّه طمعاً في ميراثه، فطرحوه علىٰ باب المدينة، ثم جاؤوا يطالبون بدمه، فأمرهم الله تعالىٰ أن يذبحوا بقرة لاكتشاف القاتل، فاستغربوا من هذا الأمر، و﴿قَالُوا﴾ لموسىٰ لـمّا قال لهم ذلك: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾، لأن الهزؤ في أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهلٌ وسَفَه، فنفىٰ عنه عليه السلام ما توهَّموه من قِبَلِهِ علىٰ أبلغ وَجْه وآكده، وذلك بالاستعاذة منه، استفظاعاً له(١).

فلمَّا تبيَّن لهم الجِدُّ من كلامه: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما صفتها وما حالها؟ ﴿قَالَ﴾ موسىٰ: ﴿إِنَّهُ﴾ تعالىٰ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي: لا مُسِنَّة ولا فتيَّة، ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: وسط في السنِّ، ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ يحثُّهم علىٰ الامتثال، ويَزْجُرهم عن المراجعة.

ولكنهم لـم يقنعوا، و﴿قَالُوا﴾ له: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي: ناصعُ الصُّفرة خالصُها، ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: بكمال لونها ووَصْفِها.

---

(١) تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم» (١: ١١٠- ١١١).

وأبو السعود: هو محمد بن محمد بن مصطفىٰ العمادي (٨٩٨- ٩٨٢هـ)، مفسِّر شاعر من علماء الترك المستعربين، له: «تحفة الطلاب»، و«تسجيل الوقف». «الأعلام» للزركلي (٧: ٥٩).

ولكنهم لم يقفوا عند هذا الحدِّ أيضاً، بل زادوا في الاستكشاف، و﴿قَالُواْ﴾ له: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، كأنَّهم يريدون بيان حقيقتها، بحيث تمتازُ عمَّا عَدَاها ممَّا تُشاركها في الأوصاف المذكورة والأحوال المشروحة في أثناء البيان، ولذلك علَّلوه بقولهم: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ يعنُونَ أنَّ الأوصاف المبيَّنة يشترك فيها كثير من البقر، فلا نهتدي بها إلىٰ تشخيص ما هي المأمور بها، ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠﴾ أي: إلىٰ ذلك بما تزيدنا من البيان عن مُشَخَّصاتها.

فأمره سبحانه أن يُبيِّن لهم ذلك بقوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ أي: ليست بقرةَ حَرْثٍ ولا سَقْيٍ، ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾ أي: من العيوب وأثر العمل، ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: ليست فيها بُقعةٌ أو بُقَعٌ تُخالف لون جلدها.

فلما سمعوا هذا البيان ﴿قَالُواْ﴾ لموسىٰ عليه السلام: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بحقيقة وَصْف البقرة، ولم يبق لنا في شأنها اشتباه، ثم فتَّشوا، وبعد الجهد عَثَروا علىٰ بقرة مستكملة لهذه الصفات المبينة ﴿فَذَبَحُوهَا﴾.

وأما قوله: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾ ففيه تشنيعٌ عليهم وحكايةٌ لتردُّدهم في قَبول هذا الحكم، أو المراد: ما قَارَبوا أن يذبحوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم وانقطع ما كان من تنطُّعهم وتعنُّتهم.

وعن ابن عباس رضِيَ الله عنهما: لو ذبحوا أيَّ بقرة أرادوا لأجْزأتهم، ولكن شدَّدوا علىٰ أنفسهم فشدَّد الله عليهم[1]. انتهىٰ.

فالتنطُّعُ في الدين والإحفاءُ في السؤال أثناء نزول الأحكام ممَّا يجرُّ إلىٰ التشديد فيها. فمن شدَّد شُدِّد عليه، ولذلك نهىٰ الله تعالىٰ هذه الأمة أيام نزول القرآن عن كثرة

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢: ٢٠٤)

السؤال بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۞ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠١ - ١٠٢].

وعنه ﷺ: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك مَنْ كان قبلكم كثرةُ سؤالهم، واختلافُهم علىٰ أنبيائهم»(١). ومعنىٰ عفا الله عنها: لم يأمر بها.

قال في «المنار» ما ملخَّصه: رُوعيَ في قصص بني إسرائيل بيانُ المِنَنِ التي مَنَحهم الله إيَّاها، وضروب الكُفْران والفسوق التي قابلوها، وما كان في أثر ذلك من تأديبهم بالعقوبات، وابتلائهم بالحسنات والسيِّئات، وكيف كانوا يُـحْدِثون في أثر كل عقوبة توبةً، ويَحْدُثُ لهم في أثر كلِّ توبة نعمةٌ، ثم يعودون إلىٰ بَطَرِهِم وينقلبون إلىٰ كفرهم(٢).

أما هذه الآيات فقد جاءت علىٰ غير هذا الأسلوب حسب خصائص القرآن في تلوين الأساليب، فقد ذكر أولاً وسيلة الخلاص، وهي ذَبْحُ البقرة، بما يُعجب السامع ويشوِّقه إلىٰ معرفة ما وراءها، فالمفاجأة بهذا الأمر والجدال الذي وقع فيه يثير الشوق في الأنفس إلىٰ معرفة السبب والغاية، فتتوجَّه الفكرة بأجمعها إلىٰ تلقِّيه، حتىٰ يتبيَّن في آخرها أنَّ ذبحَ البقرة كان لفَصْل النزاع في واقعةِ قَتْلٍ لم يُعرَف فيها القاتل، وكانوا قد طلبوا من موسىٰ عليه السلام الفَصْل فيها وبيان القاتل، ولما أمرهم بذبح البقرة استغربوه؛ لما يعتقدون من أنَّ فيه مباينةً لما يطلبون، فقالوا: أتـتخذنا هزواً؟ وهذا من سَفَههم وخفَّة أحلامهم وجهلهم بما يجب أن يقابل به أمر الله من الاحترام والامتثال، وإن لم تظهر حكمته باديَ الرأي، ولا أقلّ من أنها قربان، وهم يعدّون القربان من أعظم

---

(١) رواه مسلم (١٣٣٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تفسير «المنار» (١: ٢٨٧).

القُربات، وسيكون ذلك تشريعاً لهم في الحَلِفِ علىٰ دَرْءِ تُهمة القتل، كما جاء عندهم في أول الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الاشتراع.

وبعد أن ذكر وسيلة الخلاص، وهي ذبح البقرة، بأسلوب يُعجب السامع ويُشوِّقه إلىٰ معرفة ما وراء ذلك، ذكر الجرم، وهو قتلُ النفس والمدارأة فيه، فقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي: فكان كلٌّ منكم يدرأ التهمة عن نفسه إلىٰ غيره، ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)﴾ أي: من إخفاء القاتل وتُهمة الأبرياء.

وهذا هو أول القصة المحتوية علىٰ المخالفة، وهي القتيل، ثمَّ التنازع في القاتل. وإنما فعل ذلك ليَظهَرَ كلٌّ من الأمرين مُستَقلاً بنفسه واجبَ التذكير والتذكُّر، ولو راعىٰ الترتيب الواقعي لظهر أمراً واحداً ولم تتكرَّر العبرة فيه، وليتناسق السياق المبني علىٰ بيان ما دأبوا عليه من معارضة الأنبياء والإعنات وتلبيس الحقِّ والتملّص من أحكام الله وعهوده، فيكون السياق مُتَّحداً ومُتَسَلْسِلاً في هذا الأصل والخاصَّة.

وأسند القتل إلىٰ الأمة لأنها متكافلة كالشخص الواحد في مثل ذلك، فيجبُ عليها أن تتآمر بالمعروف وتَتَناهىٰ عن المنكر.

ثم ذكر تشريع الحكم لكشف الحقيقة بذبح البقرة، فقال: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، والذي عليه أكثر المفسِّرين: أنَّ الضمير يعود إلىٰ المقتول، أي: اضربوا المقتول ببعض هذه البقرة، فضربوه فحَيِيَ.

ثم قال تعالىٰ علىٰ أسلوب القرآن في تعقيب مثل هذا الموقف بالاستدلال علىٰ الحشر: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: كما أحيا هذا المقتول بعد موته يُحيي الموتىٰ يوم القيامة، وإحياءُ هذا المقتول آيةٌ علىٰ قُدرته سبحانه وتعالىٰ علىٰ إحياء الموتىٰ، والكلام علىٰ معنىٰ: إن الله أراكم هذه الآية حتىٰ تكمل عقولكم فتؤمنوا

بقواعد الدين، ولاسيما مسألة البعث، لذلك قال تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: قدرةَ الله تعالىٰ علىٰ ذلك، فكانت الشرائع السابقة تأتي بالآيات الفعلية؛ لأنَّ عقول البشر لم تكتمل كما كملت قبيل نزول القرآن، فلذلك جاء بخطاب العقل لا بالعواطف.

وقال بعض أهل العصر: إنَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا...﴾ قصَّةٌ أخرىٰ مستقلَّـة عن سابقتها، والضمير في ﴿اضْرِبُوهُ﴾ يعود علىٰ المتَّهم بالقتل، والضمير في ﴿بِبَعْضِهَا﴾ يعود إلىٰ جثَّة المقتول؛ لأنَّ ذلك يُرْهبُه ويملكُ عليه شعورَه، فتبدر منه بوادر تُنْبئ عن فعلته[1].

---

(١) هذا تأويلٌ متكلَّف، ولا أعلمُ به قائلاً ممَّن تقدَّم من المُفسِّرين، والتفسير الأول ـ كما يقول المؤلف رحمه الله ـ أتمُّ وأجلىٰ.

فالضمير في قوله تعالىٰ: ﴿اضْرِبُوهُ﴾ يرجع للقتيل، وفي قوله سبحانه: ﴿بِبَعْضِهَا﴾ يرجع للبقرة، والمراد بإحياء الموتىٰ: هو بعثُهم بعد الموت. وقد روي عن بعض السلف بيانُ العضو الذي ضُرِبَ به القتيلُ فحَيِيَ بإذن الله وتكلّم وذكرَ مَنْ قتله.

قال ابنُ كثير في «تفسيره» (١: ٣٠٢- ٣٠٣): هذا البعضُ أيَّ شيء كانَ من أعضاء هذه البقرة فالمعجزةُ حاصلةٌ به، وخَرْقُ العادة به كائن، وقد كان معيَّناً في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدةٌ تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبيّنه الله تعالىٰ لنا، ولكن أبهمه، ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانُه، فنحن نُبهمُه كما أبهم الله.

ولهذا روىٰ ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧٥٠) بإسناده إلىٰ ابن عباس، قال: إن أصحاب بقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتىٰ وجدوها عند رجل في بقر له، وكانت بقرة تعجبه، قال: فجعلوا يعطونه بها فيأبىٰ، حتىٰ أعطوه مِلْءَ مسكها دنانير، فذبحوها فضربوه ـ يعني القتيل ـ بِعُضْوٍ منها، فقام تَشْخُب أوداجُه دماً، فسألوه فقالوا له: من قتلك؟ قال: قتلني فلان.

وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنه ضُرِبَ ببعضها.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: فضربوه فحيي، ونبّه تعالىٰ علىٰ قدرته وإحيائه الموتىٰ بما شاهدوه من أمر القتيل، حيثُ جعل تبارك وتعالىٰ ذلك الصنعَ حجّةً لهم علىٰ المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والفساد، والله تعالىٰ قد ذكر في هذه السورة ما خلقه في إحياء الموتىٰ، =

ويدَّعي صاحب هذا الرأي أنَّ الفنَّ الحديث أثبت ذلك في إظهار الجرائم، حيث أثبت أنَّ المجيءَ بالمجرم إلىٰ مكان الحادثة، وذِكْرَ بعض تفاصيل الحادثة أمامه، واستجوابَه علىٰ أثر ذلك؛ يبعثه إلىٰ التكلُّم بالواقعة إجمالاً، أو تبدر منه بوادر تُنْبئ بجرمه إن كان مجرماً.

ويكون معنىٰ إحياء الموتىٰ: حفظ الدماء، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فالإحياء معناه: الاستبقاء، ومعنىٰ ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يُعلِّمكم أحكامه وإرشاداته.

أقول: ويجوز ـ والله أعلم ـ علىٰ هذا التوجيه أن يكون المعنىٰ: كما رأيتم صحَّة هذا الإرشاد، فاعلموا أنَّ ما يأتي عن الله سبحانه من الآيات عن إحياء الموتىٰ ومتعلّقاته أمرٌ صحيحٌ واقع. هذا ولكن التفسير الأول للآية أتمُّ وأجلىٰ.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه أنه قد طرأ عليهم بعد رُؤْية تلك الآيات، ما أزال أثرَها من قلوبهم، وذهب بعبرتها من عقولهم. وتلك عادتهم كلما طال الأمد علىٰ توبتهم التي يُجدِّدونها إثر كل عقوبة يعاقبون بها، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

= في خمسة مواضع: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]. وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي مر علىٰ قرية وهي خاوية علىٰ عروشها، وقصة إبراهيم والطيور الأربعة. انتهىٰ باختصار.

والعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ يفيد أنَّ الأوَّلين منهم قد خَشَعت قلوبهم لما رأوا في زمن موسىٰ عليه السلام ما رأوا، ثم خَلَف من بعدهم خَلْف كان أمرُ قسوتهم ما وصفه عزَّ وجل. ويجوز أن تكون كلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستفظاع تلك القسوة منهم بعد مشاهدة الآيات.

والقسوة: الصلابة، وهي من صفات الجماد استُعيرت للقلوب.

وكذلك ﴿أَوْ﴾ الترديدية مستعارةٌ من حال المخاطبين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، فارجع إلىٰ تفسيره في سورة الصافات. ويجوز في ﴿أَوْ﴾ هنا أن تكون للتقسيم، بمعنىٰ أنَّ أقلَّها قسوةً تُشبه الحجارة، ومنها ما هو أشدُّ منها قسوة.

ثم ذكر وجه تلك المفاضلة بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ومنها الحجر الذي ضربه موسىٰ بعصاه، فانفجر منه اثنتا عشرة عيناً، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾، والمعنىٰ: أنَّ هذه الحجارة ـ علىٰ صَلَابتها وقسوتها ـ تتأثَّر بالماء اللطيف، فيشقها وينفذ منها بقلَّة أو كثرة، فيُحيي الأرض وينفع النبات والحيوان، وأما هذه القلوب فلم تَعُدْ تتأثَّر بالحِكَم والنُّذُر، ولا بالعِظات والعِبَر، فالحِكَمُ لا تقوىٰ علىٰ شقِّها والنفوذ منها إلىٰ أعماق الوُجْدان، وأنوارُ الفطرة قد انطفأت فيها فلا يظهر شعاعها علىٰ إنسان. ومجمل المعنىٰ: أنَّ من الحجارة ما يشقُّه الماء اللطيف القليل منه أو الكثير بإذن الله.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنَّ من الحجارة ما تتأثَّر بالحوادث التي يُحدثها الله في الكون، كالصواعق والزلازل، والشُّهب والنيازك، منقادة لأحكام الله، وقلوبكم لا تتأثَّر بتلك الإرشادات الإلَهيَّة فلا تفيد فيها المؤثِّرات كما أفادت في الأحجار. وفي صورة عَقْدِ المشابهة بين الحجارة وقلوبهم بهذه الطريقة من المفاضَلَة بلاغةٌ بالغةُ المرمىٰ قويَّة التصوير، من أبلغ صور إعجاز القرآن.

والقلوب يُعبَّر بها عن الوُجْدان، ويُعبَّر بها عن العقل، ويُعبَّر بها عن النفس الناطقة، لأنَّ من شأن القلب أن يتأثَّر مما يتأثر منه الوجدان أو العقل أو الروح، كما قال في «المنار»(١).

والمعنىٰ: إن هذه القلوب قد فَقَدت خاصَّةَ التأثر والانفعال بما يُرَدَّد عليها من المواعظ والآيات، التي هي من خواصِّ الروح الإنساني، حتىٰ كأنَّ أصحابَها هَبَطوا من درجة الحيوان إلىٰ درجة الجماد كالحجارة، بل نزلوا عن درجة الحجارة، لأنَّ الحجارة علىٰ صَلَابتها وقسوتها لا تماثلهم.

ثم هدَّدهم سبحانه بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٧٤﴾، فهو توعُّدٌ ترتجفُ له القلوب، وتَقشَعِرُّ له الأجسام. عافانا الله عن ذلك. وتعقيبُ الكفر والضلال بالوعيد هو من نهج القرآن.

﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٧٥ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٧٦ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٧٧ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ۝٧٩﴾.

وبعد أن عدَّد هَنَاتِ بني إسرائيل، ونَعَىٰ عليهم جناياتهم، فسَرَد ما كان لهم من

---

(١) (١ : ٢٩٢).

ماض بعيد في التَّكذيب والتمرُّد في الكفر والطغيان، والتلاعب في الشرائع والأديان، واللَّيِّ والتَّحريف والكتمان، لَفَتَ الخطابَ إلىٰ النبي ﷺ والمؤمنين يُيَئِّسُهُمْ من إيمانهم، وقَرَنَ ذلك ببيان كفرهم بكتابهم وتلاعُبهم به، وضمَّن الكلامَ صورةً من تدليسهم علىٰ المسلمين، ونفاقهم معهم، وتآمرهم عليهم، وإلباسهم علىٰ الناس، وجعل ذلك تتمَّةً لما فَرَّع عليه من أسباب التَّيئيس، وزيادةً فيه، وأحاط البيان بدلائل سابقة ولاحقة علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ﴾ أي: ينقادوا لكم ويُصَدِّقوكم، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

ففي هذه الجملة زيادةُ بيانٍ علىٰ السياق في تضافر أسباب الإبعاد عن الإيمان مضافاً إلىٰ ما تقدَّم من الطِّباع السيِّئة والعصيان.

وقال في «المنار»: كان الظاهر أن يكون الخطاب للنبي ﷺ خاصَّة، ولكنْ خاطبَ المؤمنين معه لأنهم كانوا يشاركونه في الألم من إيذائهم، والطمع بهدايتهم، فأشركهم بالتسلية، ولأنَّ طَمَعَ بعض المؤمنين بإيمانهم كان يحملهم علىٰ الانْبساط معهم في المعاشرة إلىٰ حدِّ الإفْضاء إليهم ببعض الشؤون المِلِّيَّة المَحْضة، واتِّخاذهم بِطانة، وكان يَعقِبُ ذلك من الضرر ما يَعْقِبُ، حتىٰ نهاهم الله تعالىٰ عن اتِّخاذ البطانة من دون المؤمنين، إذا كانوا موصوفين بأوصاف هؤلاء، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

والآية الآتية تدلُّ علىٰ هذا الإفضاء أيضاً(١).

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٩٤).

وقال أكثر المفسِّرين في معنىٰ الآية: إنهم كانوا يسمعون التوراة ويُؤوِّلونها تأويلاً فاسداً حسب أغراضهم. قال ابن جرير[١]: لو كان المرادُ بها هنا تحريفَ كلام التوراة المكتوب لَـمَا قال: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾. فزيادة «يسمعون» هنا لا بدَّ لـها من حكمة، ولولا ذلك لجاء الكلام علىٰ نَسَق الآيات الأخرىٰ التي ذكر فيها التحريف، كأن يقول: وقد كان فريقٌ منهم يُحَرِّف كلام الله، وقد حقَّق ابن جرير رواية عن ابن عباس: أنَّ المراد بهذا الفريق: السبعون رجلاً الذين اختارهم موسىٰ من قومه، فسمعوا كلام الله، فلم يَمْتثلوا أمره، وحرَّفوا القول في إخبارِهم قومَهم حين رجعوا إليهم، فيكون معنىٰ «كلام الله»: كلامه لموسىٰ وقت المناجاة.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ نصٌّ في التعمُّد وسُوء القصد.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيه زيادةٌ لتقبيح شأنهم وسوء طوِيَّتِهِمْ.

قال في «المنار» تعليقاً علىٰ سماعهم كلام الله تعالىٰ: إنهم سمعوه علىٰ الوجه الذي لا نعرفه، وإنما نعرف أنهم صحبوا موسىٰ إلىٰ حيث كان يُناجي الله تعالىٰ، وكان من شأن الله تعالىٰ معهم أن صدَّقوا بأنَّ ما جاء به موسىٰ عليه السلام هو وحيٌ من الله تعالىٰ. والتَّصديقُ بذلك لا يتوقَّف علىٰ معرفة كيفيته[٢] وكُنْهه، فإنَّ أكثر ما نُصَدِّق به تصديقَ يقين لا نعرف حقيقته وكنهه، ولا كيفيَّة تكوينه وإيجاده[٣].

أقول: ومثل ذلك كثير في موجودات هذا الكون وسننه فضلاً عن أحوال الله

---

(١) في «تفسيره» (٢: ٣٤٧).

(٢) أي: كيفية سماعهم له، وسماعُهم صفةٌ لهم، فيصحُّ أن تُكيَّف، سواء عُرفت الكيفية أو جُهلت، أما كلامُ الله تعالىٰ فصفةٌ من صفاته لا تُكيَّف.

(٣) تفسير «المنار» (١: ٢٩٤- ٢٩٥).

سبحانه، فهذه حبَّة البُر مثلاً ونبتُها واستواؤها علىٰ سوقها، وبذرة التين مثلاً وتشجُّرها وإثمارها، فهو أمر نُصدِّق به تصديقَ يقين، ونُشاهده مشاهدةَ عيان، دون أن يتوقَّف علىٰ ذلك معرفة كيفيَّتِهِ وكُنه حقيقته، وكذلك قوة الكهرباء وآثارها جليَّة وحقيقتُها خفيَّة، وهذه عملية التذكُّر وعملية الإدراك ليس أحد يعلم كيف تتمُّ كل واحدة منها، رغماً عن أنها حقيقة واقعية مستفيضة، وأمثال ذلك كثير. ولا ننسىٰ أن كلام الله سبحانه كسائر صفاته لا يمكن أن تُدرك حقيقته، كما لا يمكن أن نُدرك حقيقة ذاته تعالىٰ، وإنما نستدلُّ علىٰ ذاته وصفاته بآثاره، فموسىٰ عليه السلام فهم عن الله دون أن يعرف الكيفية، ولا تنسَ أن الأنبياء وإن كانوا بشراً فإنهم كُمَّلٌ، وبهذا الكمال كان فيهم مواهب ومزايا لا تُوجد بسائر البشر. هذا رأيي. والله أعلم.

وسأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام: «هل ترىٰ ربك»؟ فقال: «كيف أرىٰ ربي؟ لا أعلم أكثر مما تعلم»[1].

وبعد بيان ما صَدَر عن أشباههم من أسلافهم، بيَّن ما صَدَر عنهم بالذات من الشنائع المؤيسة من إيمانهم، فقال: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

والمرادُ من الفَتْح هذا: الإنعامُ عليهم بالشريعة والأحكام والبشارة بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام، شبَّه الذي يُعطَىٰ الشريعة بالمحصور يُفتَحُ عليه، فيخرج من الضيق، أو بمن هو خارج الباب فيفتح له.

أما قوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ فقد قال ابن الأنباري: معناه: في حكم ربكم، كما

(١) لم أقف عليه.

يقال: هذا حلال من عند الله، أي: في حكمه. وقال البيضاوي[١]: أي: ليحتجُّوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه، فجعلوا مُحَاجَّتهم بكتاب الله وحكمه مُحَاجَّة عنده، كما يقال: عند الله كذا، ويُراد به: أنه جاء في كتابه وحكمه.

والمراد بحُكم الله: حكمُه في التوراة بصفة محمد ﷺ، وذلك أنه كان قوم من اليهود ـ ليسوا من المعاندين ـ إذا لقُوا المسلمين حدَّثوهم بما في التوراة من صفة محمد ﷺ، فنهاهم كبراؤهم عن ذلك وقالوا لهم: لا تُخبروهم بما في التوراة من صفة محمد فيُحاجُّوكم به في كتابكم. وعلىٰ هذا يكون الكلام عن المجموع لا عن الجميع.

والضمير في: ﴿قَالُوٓا۟﴾ الثانية غيرُه في الأولىٰ، ومثل ذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن (كما جاء في الفقرة (ز) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، ويجوز أن يكون الضمير الثاني عينَ الأول.

والمعنىٰ: إذا اختلَوْا فيما بينهم لامَ بعضهم بعضاً بهذه الملامة.

فقال تعالىٰ مُؤنِّباً لهم: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾، أي: فكيف يُسِرُّون الكفر ويُعلنون الإيمان، وكيف يكتمون من صفات النَّبيِّ ﷺ ما كتموا، ويُحرِّفون من كتابهم ما حرَّفوا؟! فهو توبيخٌ لهم وتقريع، وبيانٌ لمكان الغباوة فيهم، وفي طيَّاته توعُّد وترهيب.

ثم ذكر لهم خياناتٍ كبرىٰ في الدين، وأنَّبهم عليها تأنيباً رهيباً بعد أن مَهَّد لها بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾، وهذه هي كالمقدِّمة للآيات الآتية التي هي محطُّ التأنيب. ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

---

(١) في «تفسيره» (١: ٣٤٨).

قال في «المنار»: وهذا هو شأن عامَّتهم، لا علم لهم بشيءٍ من الكتاب، وما عندهم من الدين إنما هو أمانيُّ يتمنَّونها وتجول صُورها في خيالاتهم، وظُنونٌ يُلهُون بها أنفسَهم، وهذا هو محلُّ الذم، لا مجرَّد كونهم أمِّيِّين، فإنَّ الأُميَّ قد يتلقَّىٰ العلم عن الثقات ويعقله عنهم بدليله، فيكون علمه صحيحاً[1].

ومنهم من فسَّر «الأماني» بالقراءة، أي: إنَّهم لا حظَّ لهم من الكتاب إلا قراءة ألفاظه من غير فهم ولا اعتبار يظهر أثرهما في العمل.

وقد وَرَدَ التمنِّي بمعنىٰ القراءة، ومنه قول الشاعر:

تمنَّـىٰ كـتابَ الله أولَ ليلـةٍ   تمنِّيَ داودَ الزَّبُورَ علىٰ رِسْلِ[2]

وهذا النوع من التَّمنِّي قد برز فيه المسلمون حتىٰ سبقوا من قبلهم، فقد أمسَوْا أكثر الأمم تلاوةً لكتابهم، وأقلَّهم فهماً له واهتداءً به، وذلك مما يُؤسف له غاية الأسف.

ومن مباحث اللفظ: أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ استثناء منقطع، لأنَّ العلم المنفيَّ قاصرٌ لا يشمل الأماني، ويصح أن يكون متعدِّياً، والآية علىٰ حدِّ قولهم: ما علمت فلاناً إلا فاضلاً، ويكون المعنىٰ أنهم: إنما يعلمون من الكتاب أنه مجموعة أماني، يُمنُّونها أنفسهم، فهم لا يأخذون منه إلا ما هو لهم، ويمدُّهم في غرورهم. وأما ما يُنَبِّههم علىٰ سيِّئات أعمالهم، فكأنه غير معروف لهم من الكتاب.

وبعد أن ذكر حالة هؤلاء الأُميِّين، ذكَرَ حالة الرؤساء والعلماء وما كانوا يستغلُّونه من أميَّة هؤلاء لفائدتهم الدنيَّـة، فتوعَّدهم علىٰ ذلك، وأنَّبهم تأنيباً فاضحاً، فقال:

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٩٧).

(٢) ذكره الأنباري في «الزاهر في معاني كلمات الناس» (٢: ١٥١)، وأبو البقاء الكفوي في «الكليات» (ص٣٢٠) دون نسبة.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: يفعلون ذلك لقاءَ مراكزَ موهومةٍ أو دراهمَ معدودة، ثم كرَّر الوعيد وفصَّله وهوَّله تهويلاً مريعاً بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾، فبيَّن أن التَّوعُّد لهم من ناحيتين.

وقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾، فيه زيادةٌ في التَّشنيع وتمكينٌ في التقريع، وإنما قال: ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، لأنَّ كلَّ ما يُباع به الحقُّ فهو قليل، مهما كان شأنه ومقداره.

قال الأستاذ الإمام ما مُلخَّصه: كان علماؤهم يُلبِّسون علىٰ الناس بتأليف الكتب الدينيَّة علىٰ أنها مأخوذة من كتاب الله، ويُودعونها آراءهم، وهذه الكتب هي مَثار الأماني والغرور الذي يجول في عقول أولئك الأميين[1].

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ثم ذكر ضرباً من ضروب تلك الأماني التي تكتبها الأحبار بأيديها، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، فأنَّبهم علىٰ ذلك أبدع التأنيب، وقرَّعهم أهزأ التقريع بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾، وهذا من أسلوب الهزل في الجد، تهكُّماً بهم، ومثله في القرآن كثير، (كما جاء في المادة الخامسة عشرة من المقدمة الثانية).

ثم عقَّب النهج الإنكاري التَّهكُّمي ببيان الحقيقة علىٰ أمرهم، علىٰ أسلوب القرآن في مثل ذلك (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة الرابعة من المقدِّمة الثانية)، فقال:

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٩٩).

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠﴾؟ نعم، إنهم يَهرِفون بما لا يعرفون، ويقولون علىٰ الله ما لا يعلمون. وهذا الأسلوب البديع في الردِّ والإنكار وتقرير الحقيقة، هو من أساليب القرآن المعجزة والمنوعة في البيان.

ولبعض المفسِّرين وَجْهٌ آخر في الفقرة الأخيرة، وتحريره: أنه إنما قال: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مع أنهم يعلمون عدم وقوعه، للمبالغة في التوبيخ والنكير، لأنهم إذا استحقوا التوبيخ علىٰ افترائهم مع جهلهم، فما ظنُّك بافترائهم وهم يعلمون، كإنكارهم رسالة محمد ﷺ.

ثم بيَّن حقيقةَ الأمر ضِمنَ تشريع كُلِّيٍّ مستمر المدىٰ، وسَبَكَه علىٰ إبطال دعواهم، فقال: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٨١﴾، أي: ليس الأمر كما تَـتَمنَّون وتزعمون، بل تمسُّكم النار وتمسُّ كلَّ مَنْ علىٰ شاكلتكم ممَّن أحاطت به خطيئـته. وإحاطةُ الخطيئة به: أن تأخذ بجوانب إحساسه ووجدانه، فيصبح أسيرَ الشهوات، سجينَ الموبقات، رهين الظلمات. وإنما يكون ذلك بالاسترسال في الذنوب، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، ففي ﴿يَكْسِبُونَ﴾: معنىٰ الاسترسال والاستمرار والانطباع، و﴿رَانَ عَلَىٰ﴾ بمعنىٰ: غطَّاه وغمره.

قال صاحب «الكشاف»(١): كلمة ﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لما بعد النفي، وهو قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي: بلىٰ تمسّكم، والقاعدة العامة في ذلك: أن كلَّ من كسب سيئة وأحاطت به خطيئـته فهو من أصحاب النار، خالد فيها؛ لا يُخفَّفُ عنهم العذاب ولا هم يُنصَرون.

---

(١) (١: ١٨٥).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم قابل مصير أولئك الخاطئين بمصير الصَّالحين، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾، فبيَّن مصير الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح وما يَنْبعث عنه من الأعمال الصَّالحات. والضمير ﴿هُمْ﴾ في الجملتين لإفادة القَصْر وتأكيد مضمون الجملة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

ثم شرع في بيان قبائح أخرىٰ لأسلافهم، تُنْبئ عن اليأس من إيمان أخلافهم، لمشابهتهم لهم بالتربية والخُلُق، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾، وذلك بإرسال موسىٰ إليهم بالتوراة التي من أهم مندرجاتها: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾، ثم قال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، فغيَّر الأسلوب عن النَّسق السابق، وجَعَله بصيغةٍ وَوَضْعٍ يدلُّ علىٰ شدَّة الاهتمام بهذا

الحكم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية)، واستعمل المصدر ﴿حُسْنًا﴾ بمعنىٰ الوصف للمبالغة.

والقولُ الحَسَنُ: هو النافع في الدِّين والدُّنيا، فهو يشمل النصيحةَ والأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر. والتَّلطُّفُ بالقول والكلامُ الحسن مصدرٌ للنجاح عظيم، والمجتمع الذي يسودُ فيه يكون هادئاً مريحاً؛ لأنَّ كثيراً من المشكلات تنشأ من رداءة السلوك ورديء الكلام.

ثم تابع البيان في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بنفس الأسلوب الدالِّ علىٰ الاهتمام. وإقامةُ الصلاة إنما تكون بالإخلاصِ لله، والصِّدق في التوجُّه إليه، والخشوع لِعَظَمَتِهِ وجلاله، ولا يحضر معه شيئاً أبداً، وذلك يكون في التمرُّن والتدرّب، وليس فيه صعوبة بعد ذلك، ولا تكون بمجرَّد الإتيان بصورة الصلاة ورسومها الظاهرة.

وبعد تفصيل أمهات الميثاق، ذكر ما كان من أمرهم، فقال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾، وهذا هو محطُّ التَّشنيع والتقبيح. والالتفاتُ من الغيبة إلىٰ الخطاب؛ لإفادة مزيد التأنيب والتقريع.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾، فيه زيادةٌ في التَّشنيع. وقوله: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ تأكيدٌ للمبالغة في هذا المعنىٰ المستفاد من التولِّي. والخطابُ لمجموع الأمة، لاعتبارها كالشخص الواحد، يُخاطبها بما كان عليه السلف وما عليه الخلف، وينسبها للأمة جمعاء علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة السادسة عشرة من المقدمة الثانية).

وبعد أن ذكَّرهم بأمهات الأحكام في العبادات والمعاملات وما كان من إهمالهم

لها وتركهم إيَّاها، ذكَّرهم بأهم المنهيَّات التي أخذ الله الميثاق عليهم باجتنابها، وما كان من نقضهم إياها وارتكابهم لها، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾، أورد النهي عن سفك بعضهم دمَ بعضٍ، وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وأوطانهم، بلون من التعبير يؤكِّد معنىٰ وحدة الأمة، ويُحدث في النفس أثراً شريفاً من التكاتف والتضامن.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ يجوز أن يكون خطاباً للعموم، والإتيان بـ﴿ثُمَّ﴾ للإيذان بأهمِّية ذلك الإقرار. والمعنىٰ: أنكم أقررتم مُؤْذنين بوجوب المحافظة عليه، مُؤكِّدين ذلك، شاهدين علىٰ أنفسكم. وهو علىٰ حدِّ قولهم: أقر فلان شاهداً علىٰ نفسه.

ويجوز أن يكون خطاباً لمن كان منهم في عصر القرآن، بأنهم مُقِرُّون بهذا الميثاق ويشهدون به، فالحُجَّة ناهضةٌ عليهم إذ يقتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي: في ذلك الإخراج والقتل. فقوله: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ بيانٌ للمراد من القتل والإخراج، إذ كان بنو قينقاع من اليهود حلفاءَ الأوس، وبنو قريظة وبنو النَّضير حُلفاءَ الخزرج، وكلُّ فريق يُظاهر حلفاءه من العرب ضدَّ إخوانه من اليهود في ذلك القتل والإخراجِ.

ومما يستوجب العجب أنهم كانوا إذا اتَّفقوا مع الحلفاء علىٰ فَدْي الأسرىٰ، يَفْدي كلُّ فريق من اليهود أسرىٰ أبناء جنسه وإن كانوا من أعدائه، ويعتذرون عن هذا بأنهم مأمورون في الكتاب بفَدْي أسرىٰ شعب إسرائيل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ﴾ أي: والحال أنه كما يجبُ عليكم فداؤهم، ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

فأنَبَهُم بقوله: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾، فتعملونَ بفداء الأسرىٰ ولا تعملون بتحريم القتال والإخراج، ينكر عليهم هذا العمل، ويُوبِّخهم عليه.

ثم سجَّل عليهم جزاءه، فقال: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وهو ما ينتج عن التَّفرُّق بينهم من الذلِّ والهَوَان والغلَبة علىٰ أمرهم، وما يتبع ذلك من الأمور.

وبعد أن بيّن جزاءهم في الدنيا بيَّن جزاءَهم في الأخرىٰ، فقال: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِ﴾، وإنما غيَّر صيغة النَّظْم للإيذان بكمال الفرق بين الجزاءين، ثم ختم السياق بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٨٥﴾، وفيه غاية التَّهديد والوعيد.

ثم أكَّد الوعيد الشديد، وبيَّن السبب العام بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: جعلوا حظوظهم من الحياة الدنيا بدلاً من الآخرة، بما فرَّطوا في جَنْب الله، وأهملوا من شريعته، حتىٰ لم يتَّبعوا منها إلا ما يوافق أهواءهم، ولا يُعارض شهواتهم، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٨٦﴾.

وقوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ كناية عن التَّيئيس من النَّجاة. أعاذنا الله.

وأحكامُ القرآن لا تقتصر علىٰ مَنْ تنزل فيه، بل تعمُّ كل مَنْ تصدق عليه، والمسلمون إذا قاتلوا إخوانهم في الدين ـ منفردين أو مع الأجانب ـ يشملهم هذا التأنيب والوعيد.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ۝٨٧ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٨٨﴾.

ثم شَرَع في بيان جنايةٍ أخرىٰ من جناياتهم، وصدَّر الكلام بالجملة القَسَمِية لإظهار كمال الاعتناء به، وللإشارة إلىٰ أنَّ محمداً لم يكن أول نبيٍّ أُرسِلَ حتىٰ تنكروا أمره هذا الإنكار، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾، وهم يُوشَعُ وشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعُزير وحزقيل وإلياس واليسع وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ وغيرهم(١)، عليهم الصلاة والسلام، وكلهم جاؤوا لتنفيذ أحكام التوراة من دون نَسْخ، إلا عيسىٰ فقد نسخ بإنجيله بعضَ أحكامها، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، وهو الوحيُ الذي يُؤيِّد الله به الأنبياء، وهو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وإضافة «الرُّوح» إلىٰ «القُدس» من إضافة الموصوف إلىٰ الصفة لإفادة المبالغة في الاختصاص، وهي مثل مسجد الجامع، وحق اليقين، وما شابه ذلك.

ثم عقَّب هذا بموقفهم تجاه إرسال الأنبياء إليهم، مسبوكاً علىٰ توبيخهم وتقريعهم بمعاملاتهم الفظيعة الشنعاء معهم، فقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ كزكريا ويحيىٰ. والإتيانُ بالمضارع لاستحضار صورة القتل الفظيع في ذهن السامع، وذلك من البلاغة العالية. ولا يخفىٰ ما في قوله: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ من النقد اللاذع الشنيع. وإدماجُ المساوئ في الاستفهام التوبيخي ـ مفاجأةً للنفوس بقوة التَّشنيع والتقبيح ـ هو من أساليب القرآن، (كما جاء في المادة الرابعة عشرة من المقدمة الثانية). وتقديمُ المفعول للتشويق إلىٰ الحكم.

---

(١) بعض من ذكرهم المؤلف وعدَّهم في الأنبياء لم يرد في إثبات نبوَّتهم نصٌّ من القرآن أو السنَّة الصحيحة، وإنما ورد ذلك في أخبار أهل الكتاب، فلا يُجزَم بنبوَّتهم.

وبعد أن ذكر لهم تلك القبائحَ المُوجبةَ للإعراض عنهم، وحكايةِ حالهم لغيرهم، التفتَ من الخطاب إلىٰ الغيبة، وذكر ما كانوا يعتذرون به عن عدم إيمانهم بالكتاب، واهتدائهم به، فقال:

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾[١]، والأغلف: ما يلفُّه الغلاف، ومرادهم: إننا لا نعقل قولك، ولا يَنْفُذُ إلىٰ قلوبنا مفهوم دعوتك، وقد ردَّ الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، أي: إنَّ قلوبهم ليست غُلفاً لا تفهم الحقَّ بطبعها وأصل خِلْقتها، وإنَّما أبعدهم الله تعالىٰ من رحمته بسَببِ كفرهم بالأنبياء السابقين، وبالكتاب الذي تركوا العملَ به وحرَّفوه اتِّباعاً لأهوائهم، لأنَّ التَّمادي علىٰ الإعراض والكفر يُفسِدُ الطبيعة، فيحجب القلب عن نور الحقِّ، ويعمي البصيرة، ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾. والقلَّة لا يكون لها سلطان علىٰ القلوب، و﴿مَّا﴾ مزيدة للمبالغة في القلّة.

وفي الآية إيماء لحقيقة طبيعة الإنسان، وهي أنَّ فطرتَه سالمةٌ من كلِّ خلل، ولكنها تفسد بمفاسد التربية وسوء القدوة.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ

(١) قال أرسطو: لا ينفع الدليل وإن كان قاطعاً مع محاولة العناد، ولا ينفع البرهان وإن كان قوياً مع فساد التصوُّر، ولا ينفع الحديث وإن كان شافياً مع سوء الاستماع، ولا تنفع البيِّنة علىٰ الباطل مع الإلف والعادة له. (المؤلف).

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

ثمَّ ذكر لهم هذه الجناية الكبرىٰ والخيانة العظمىٰ، وهي الغرضُ الأساسي من سَرْد هذه القصص، والغايةُ القصوىٰ منها، وذلك أنهم كانوا أولَ كافر بهذا الكتاب، مع أنَّ الواجب يَقْضي عليهم بأن يكونوا أوَّلَ مؤمن به، فعادَ بالسياق إلىٰ ما بدأه به، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، و«الاستفتاح» معناه: طلب الفَتْح، وهو الفَصْل في الشيء والحكم فيه، ويُستعمل بمعنىٰ النصر؛ لأنه فَصْل بين المتحاربين. وكانت اليهود تستفتح علىٰ مُشْركي العرب بالنبيِّ المُنْتَظر، يقولون: إنه سيظهر فينصر كتابُه التوحيدَ الذي نحن عليه، ويخذل الوثنيَّةَ التي تنتحلونها ويُبطلها، فيكون مُؤيِّداً لدين موسىٰ.

روىٰ محمد بن إسحاق عن أشياخ من الأنصار: أنَّ هذا نزل فيهم وفي يهود المدينة قالوا: كنا قد عَلَوْناهم قهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، وهم يقولون: إنَّ نبياً سيبعث الآن نتبعه، قد ظلَّ زمانه، نقتُلكم معه قَتْلَ عادٍ وإرم(١).

ثم عطف بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾، وذلك لكونه بُعث من العرب، فحملهم الحسد علىٰ الكفر بما جاء به، جُحُوداً وبَغْياً، فسجَّل عليهم بقوله: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾، ولم يقل: «عليهم»؛ ليكون الكلام حُكماً عاماً علىٰ

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢: ٣٣٢- ٣٣٣).

كلِّ مَنْ كفر، بحيث يشمل مدلولَ الضمير وغيرَه، علىٰ نهج القرآن في مثله، وللإيماء إلىٰ أنَّ لَعْنَهم بسبب كفرهم.

ثم قبَّح شأنهم مُلمعاً إلىٰ أنه لا سبب لعنادهم إلا الحسد، فقال: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، و﴿ٱشْتَرَوْا۟﴾ بمعنىٰ «باعوا». وذكر ابن جرير: أنَّ «اشتروا» بمعنىٰ «ابتاعوا»[1]، والمعنىٰ: أنهم يزعمون قد أنقذوا أنفسهم بما فعلوا، فيكون تهكُّماً بهم. وقوله: ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ تعليلٌ للكفر لا لشرائهم[2]، و«البغيُ»: الحسد، والطلب لـما لا حقَّ له فيه، والمراد: إنكارهم الوحي إلىٰ محمد ﷺ حَسَداً له لأنه ليس من بني إسرائيل.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ لأنهم اسْتوجبوا غضباً حديثاً بالكفر بالنبيِّ ﷺ، فوق ذلك الغضب الذي لحقهم من قبلُ بإعنات موسىٰ عليه السلام والكفر به، وهو الذي ذكره سبحانه سابقاً بقوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١].

وبعد أن سجَّل عليهم عذاب الدنيا توعَّدهم بعذاب الآخرة، فقال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ أي: مقرونٌ بالإهانة والذل، مقابل تكبُّرهم علىٰ الحق. ويجوز أن يكون هذا عاماً لعذاب الدنيا والآخرة معاً، فيكون تذييلاً لما قبله، وإنما لم يقل: «ولهم» لِـمَا في المُظْهَر من بيان التعليل بالوصف، وليكون الكلام حكماً عاماً يشمل مدلول الضمير وغيره. وذلك من سَنَنِ القرآن في كثير من الفواصل.

ثم ذكر اعتذاراً لهم وقرنه بالردِّ والإبطال، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ

---

(١) «تفسير الطبري» (٢: ٣٤٠).

(٢) ضمَّن ﴿بَغْيًا﴾ معنىٰ كرهاً، فعدَّاها تعديتها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. (المؤلف).

أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي: من الكتب الإلهيّـة، فذكر العامَّ وأراد به الخاصّ، وهو القرآن. وإنما سلك هذا المَسْلك وأتىٰ بهذا التعبير، إيذاناً بتحتُّم الإيمان به من حيث مشاركته لما آمنوا به من قبلُ في الإنزال من الله، وموافقته له في المضمون، وتنبيهاً علىٰ أنَّ الإيمان بما عَـدَاه مما أنزل الله من غير إيمان به ليس بإيمان بما أنزل الله. ولذلك شنَّع عليهم بقوله: ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ يعنونَ به التوراة، ويدسُّون أنهم غير مُلزمين بالإيمان بغيره، أو أنهم لا يثقون إلا به أنه من عند الله، كما حكىٰ عنهم سبحانه بقوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ أي: القرآن ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ من التوراة، فيلزمهم من الكُفر به الكفرُ بما آمنوا به، لأن الكفرَ بما يمـاثل الشيء ويصدِّقه كفرٌ بذلك الشيء[1].

قال في «المنار»: صيغة الدعوة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾، تُشْعِرُ بوجوب الإيمان بما أنزل الله تعالىٰ، لأنه هو الذي أنزله، لا لأنَّ المنزَّل عليه فلان أو فلان، ولذلك لم يقل: آمنوا بما أنزل علىٰ محمد ﷺ، فإنَّ ما أنزل [لو أنزل] علىٰ غيره لوجب الإيمان به؛ لأنَّ الوحي هو المقصود بالذات، والأنبياء إنما هم مُبَلِّغون، فتقييدُ الخضوع لوحي الله ـ بكونه لا بدَّ أن يكون مُنَزَّلاً علىٰ شخص من شَعْبٍ كذا ـ تحكُّمٌ علىٰ الله، وقضاءٌ عليه بأن تكون رحمتُه مقيَّدة بأهواء فريق من خلقه، فإيرادُ الدعوة بما ذكر من الإطلاق، مع إيراد الجواب مقيَّداً بقيد: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾، يُشعر بقوَّة حُجَّة الدعوة، ووَهْن ما بُني عليه الجواب من الشبهة[2].

---

(١) والآية تشعر بأنَّ الله سبحانه إذا جدَّد شريعة يجب علىٰ البشر كلِّه أن يؤمن بها. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٨١]. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (١ : ٣١٧) وما بين معكوفين منه.

وبعد أن بكَّتهم[١] ببيان التناقض في أقوالهم، بكَّتهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم، فقال: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ بما أُنزِلَ عليكم، فالقتل للأنبياء ينافي الإيمان ويناقض الادِّعاء به، وما قيمة الدعوىٰ إذا كذَّبها العمل؟

ثم سَرَدَ عدَّة أعمال لهم تناقض دعواهم الإيمانَ بما أنزل عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرة والأحكام الباهرة، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ أي: في اتِّخاذكم العجل إلـهاً بعد تلك المعجزات. وأيُّ ظلم أعظم من هذا الشرك المشين بعد بيان الحق المبين؟! وأين إيمانكم بما أُنزِلَ عليكم؟!

وقد سبق التذكير باتِّخاذ العجل في سياق آخر، وهو أنَّ النِّعم التي أسْبَغَها الله تعالىٰ علىٰ بني إسرائيل لم يكن لها من شكرٍ عندهم إلا اتِّخاذُ عجل يعبدونه من دون الله. وهاهنا يقول: إنَّ هذا العمل يناقض دعواكم الإيمان، وإنَّ الآيات البيِّنات الدالَّة علىٰ النبوَّة والوحدانيَّة لم تزدكم إلا إيغالاً في الشِّرك وانهماكاً في الوثنية.

وهكذا تتكرَّر القصص أو النُّبَذ منها في القرآن، ولكلِّ مرة سياقٌ وأسلوبٌ وغرضٌ غير الأول، كما في الآية الآتية أيضاً.

ثم تابع الكلام عن أعمالهم التي تناقض دعوىٰ إيمانهم بما أنزل إليهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ قائلين: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ أي: مما أُمِرتُم به في التوراة، ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بكلِّ جهدكم دون تقصير، ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي:

---

(١) بكَّته تبكيتاً: إذا قرَّعه بالعذْل تقريعاً. «لسان العرب» (بكت).

ما فيها، سمـاعَ فَهْم وتدبُّر، وسمـاعَ طاعةٍ وقَبول. وقد سبق الكلام عن رفع الطُّور فارجع إليه.

ثم التفت عن الخطاب إلىٰ الغيبة إبعاداً أو تهجيناً لهم، لإعراضهم عن ذلك، فقال: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين، ولكن المراد أنهم فهموا الميثاق ولم يعملوا به، ففيه تجوُّز بالقول عن الفعل، وهو من خصائص اللغة وأساليب القرآن[1]. فهذا القول مثال آخر للتناقض بين أقوالهم وأفعالهم.

وهذه القصَّة قد تكرَّرت أيضاً كما تكرَّرت سابقتها علىٰ نهج تكرار القصص في القرآن، ولكنْ لكلِّ مرة سياقٌ وأسلوبٌ ونَظْمٌ خاصّ وغَرَضٌ جديد، (كما جاء في المادة الثانية عشرة من المقدِّمة الثانية).

وبعد أن سَجَّل عليهم هذه المعَانَدة بهذه الصُّورة الشنيعة، كرَّ إلىٰ بيان حالة العَجْل بصورةٍ تشبهها في بيان فساد طبيعتهم، ليجمع بينهما في شدَّة المخالفة، فقال: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[2]، ويجوز أن يكون هذا في موضوع التعليل لما تضمنَّه قولهم: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، أي: إن تشبُّعَهم بالكفر يمنعهم من الطاعة

---

(١) هذا محتمل، لكن الأظهر أنهم نطقوا بذلك حقيقةً، فهو المعنىٰ الظاهر من لفظ الآية الكريمة، ولا قرينةَ تقتضي العدول عنه.

(٢) تكرَّر في هذا السياق ذكر اتِّخاذ العجْل ورفع الطور، فذُكرا في السابق تأنيباً لهم علىٰ تعقيب النعم بالكفران، وذُكرا هنا رداً لدعواهم الإيمان بما أنزل عليهم. ومحصَّل الكلام: أن لا صحَّة للدعوىٰ إذا كذَّبها الظاهر ولا قيمة لها، فهو نقض لجوابهم، وإن كان منقوضاً بطبيعته، لأن طلب الإيمان بما أنزل الله لا يتحقَّق بالإيمان بما نَسَخه الله، فضلاً عن أن دعوىٰ الإيمان به قبل نسخه كان غير صحيح، إذ يناقضه العمل. والتأنيب مُوَجَّه إلىٰ مجموع بني إسرائيل لا إلىٰ جميعهم، بدليل ما سبق من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ....﴾ [البقرة: ٦٢]. ومثل ذلك من خصائص اللغة وعُرف التخاطب. (المؤلف).

والإيمان. وهذه الاستعارة من فرائد الاستعارات، فإنه استعار لهذه الحالة حالةَ الثوب عند ما يتشرَّب بالصبغ لا يزول منه.

والمعنىٰ: أنَّ مَيْلهم لعبادة العجل كان شديداً، لِـمَا كانوا عليه من الوثنية في مصر، فقد رَسَخ ذلك في قلوبهم بطول الزمن، وَوَرِثَـهُ الأبناء عن الآباء. ولا شك أنَّ مَيْل اليهود للوثنيَّة متأصِّل فيهم لطول ما خضعوا للأمم الوثنيَّة في تاريخ حياتهم.

ثم صرَّح بتفنيد ادِّعائهم الإيمان، بصورة تهكميَّة بديعة، فقال: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: بئسما يأمركم به ذلك الإيمان، من الأعمال التي منها عبادةُ العجل وقَتْلُ الأنبياء، ومُحصَّلُهُ: إنَّ دعواكم الإيمان ليس لها ظلٌّ من الحقيقة، إذ يكذِّبها العمل.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

ثم انتقل إلىٰ تبكيت آخر لدعوىٰ من دعاويهم الباطلة مفنِّـداً لها، وهي أنهم شعبُ الله الخاص، ولهم الجنَّة دون سواهم، ولن تمسَّهم النار إلا أياماً معدودات، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: في دعواكم أنه لن يدخل الجنَّـة إلا من كان هُـوداً، وأنكم شعبُ الله المختار فلن تمسَّكم النار إلا أياماً معدودات. أي: إن كنتم تتيقَّنون أنَّ الآخرة خُلقت لكم لتتنعَّموا بها؛ فتمنَّوا الموت الذي يُوصلكم إلىٰ ذلك النعيم الذي لا مُزاحِمَ لكم فيه، إذ لا يُعقَلُ أن يرغب الإنسان عن السعادة ويختار الشقاء عليها.

والغرض من هذه الحجة: إظهار كذبهم بطريق التَّحدِّي، وهي حُجَّة عليهم في أنفسهم، وليست حُجَّة إلزامية لهم أمام الناس، علىٰ أنه يجوز أن تكون إلزاماً ظاهراً بعدم هذا الإيمان، لأنَّ مَنْ يثق بأن سعادة الآخرة سينالها لا مَحَالة، يرغب بالموت، ولا أقلَّ من أن يكون ذلك وقت الاحتضار، والله أعلم.

وقد روي عن كثير من الصحابة رضي الله عنه تَمَنِّي الموت عند القتال، وإقدامُهم العجيب طلباً للشهادة، وما ذلك إلا لصدق إيمانهم بما أعدَّ الله للمؤمنين في الدار الآخرة. وهكذا تكون درجةُ عدم الجَزَع من الموت بنسبة درجة الإيمان الصحيح والأعمال الصالحة، ودرجةُ الجزع بعكسها.

وقال الأستاذ الإمام: إنَّ الكلام حُجَّة علىٰ مُدَّعي الإيمان، واستحقاقَ ما أعدَّه الله لأهله في الآخرة، تُقنعُهم في أنفسهم بأنهم إما صادقون في دعواهم، وذلك إذا كانوا يتمنَّون في أنفسهم الموت والوصول إلىٰ الدار الآخرة، ويبذلون أرواحهم في سبيل الله بارتياح، إذا كان حفظُ الحقِّ يقتضي بَذْلَها، وإما كاذبون فيها، وذلك إذا كانوا شديدي الحِرص علىٰ هذه الحياة، وليس المراد به الحجّةَ الإلزاميةَ أمام الناس، ولذلك كانت العبرة في الآية عامة، فهي وإن كانت واردةً في سياق الاحتجاج علىٰ اليهود، يجب علىٰ المسلمين أن يتَّخذوها ميزاناً ليقينهم، لأن الله سبحانه أنزلها لذلك[1].

ثم عقَّب نهجَ إلزامهم بالتَّحدِّي لهم، بنهج التسجيل عليهم بضدِّه، علىٰ أسلوب القرآن في مثل ذلك (كما جاء في الفقرة (د) و(هـ) من المادة الرابعة من المقدِّمة الثانية)، فقال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وصورة هذا التسجيل تُؤيِّد ما قاله الأستاذ الإمام من أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ حُجَّة عليهم في أنفسهم، لا حُجَّة

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٢٢).

إلزامية أمام الناس، فإنَّ هذا التعليل صريح بأنَّ المانع لهم من تمنِّي الموت هو ما يعرفونه في أنفسهم من أنهم عاصون مقترفون للذنوب.

وقد أسند الفعل إلىٰ الأيدي لأنَّ أكثر الأعمال تُزاوَل بها، حتىٰ أصبح هذا التعبير كنايةً عن الإجرام، في عُرْفِ اللغة، ومعناه: بما قدَّموه من عمل سَيِّئ.

ثم قرَّر مضمون هذا التسجيل، بتذييل متضمِّن للتهديد، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٩٥﴾ أي: في أمورهم التي من جملتها ادِّعاءُ ما ليس لهم، ونفيُه عن غيرهم. أو عليم بالظالمين الذين يستحقّون العذاب.

ثم أكَّد المضمون السابق، وهو عدمُ الارتياح للآخرة، مبالغةً في تكذيبهم، أكَّده ببيان حالهم وشدَّة حرصهم علىٰ الحياة، فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾، والتنكير للتحقير، أي: وإن كانت في بُؤْس وشقاء، وبهذه المناسبة ذَكَر طائفةً من المشركين تُشْبِهُهُم في ذلك فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾، قال أبو مسلم: في الكلام تقديم وتأخير. والتقدير: ولتجدنَّهم وطائفةً من الذين أشركوا أحرَصَ الناس علىٰ حياة. والجمهور علىٰ أن قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ لبيان قسم من المفضَّل عليهم في هذه الخاصَّة، خصَّهم بالذكر بعد العموم، لأنهم عُرفوا بشدَّة الحرص علىٰ الحياة وتمنِّي طول البقاء في الدنيا، حيث لا يؤمنون بحياةٍ بعدها، وعليه فالجارُّ متعلق بـ﴿أَحْرَصَ﴾.

فمعنىٰ الآية: إنك لتجد اليهود أحرصَ علىٰ الحياة من جميع الناس، حتىٰ من الذين أشركوا.

ثم استأنف الكلام لبيان هذا الحرص الشديد، فقال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ـ ولفظ «الألف» في عرف اللغة يُعبَّر به عن المبالغة في الكَثْرة ـ وإنما يودُّ ذلك لأنه يعرف من نفسه أنه مخالف لكتابه، ويتوقَّع سخط الله وعقابه في الآخرة، فيتمنَّىٰ لو

امتدَّت له الدنيا وعُمِّر فيها، ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾، يُسَفِّه رأيهم في هذه الأمنية. أي: وما تعميرُه الطويل بمُبعدِهِ عن العذاب المُعَدِّ له، وكل آتٍ قريب.

واختار الأستاذ الإمام أنَّ الضمير في قوله: ﴿وَمَا هُوَ﴾، مُبهَمٌ يفسِّره ما بعده(١). أي: التعمير. وأكثر المفسِّرين على أنه للشأن أو لـ«أحدهم» في قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾.

ثم ذيَّل الكلام بهذا التهديد، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾، والبصير في كلام العرب: العالِـمُ بكُنْه الشيء، الخبيرُ به. أي: إن الله سبحانه عليمٌ بخفيَّات أمورهم، فهو مُجازيهم بها لا محالة.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

ثم ذكر تَعِلَّةً أخرىٰ من تعلَّاتهم واعتذارهم عن عدم الإيمان بالنبيِّ ﷺ وبما جاء به من البيِّنات والهدىٰ، وهي أنَّ جبريل الذي ينزل بالوحي علىٰ النبي ﷺ عدوٌّ لهم، لأنه كان قد أنذرهم بخراب بيت المقدس، فلا يؤمنون بوحيٍ يجيء هو به. فَفَنَّدها سبحانه وَرَدَّها عليهم وسَفَّه رأيهم بقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

ومعنىٰ الرد: أنَّ القرآن مُنَزَّل من عند الله لا من عنده، فليست عداوته مُسَوِّغةً

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٢٣).

لنُكران ما نزل به من عند الله، كيف وقد نزل ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب السماويَّة التي تقدَّمته، ومنها التوراة، فهو من طبيعتها ونمطها، وهذه حُجَّةٌ ثانية عزَّزها بثالثة، فقال: ﴿وَهُدًى﴾ أي: من الضلالات والبدع التي طرأت علىٰ الأديان، فألقَتْ أهلَها في حضيض الهوان، ويهدي المؤمنين إلىٰ ما يُصلح شأنَهم في الدارين، ثم أيَّدها برابعة، فقال: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

وخلاصة الردود: إنكم إذا كنتم تعادون جبريل لأنه قد أنذر بخراب بيت المقدس، فهو إنما أنذر المفسدين، وقد أُنزِلَ هذا القرآن من عند الله هُدىٰ وبشرىٰ للمؤمنين، فما لكم أن تتركوا هذه البشرىٰ وهذه الهداية بهذا الكتاب المُصَدِّق لكتابكم والمنزَّل بإذن الله، إن كنتم مؤمنين، ما لكم أن تتركوه لأنَّ الذي نَزَل به نَزَل بإنذار أهل الفساد، فهذا غير مُسْتَوجِب للترك ولا مُجيز له ولا مُسوِّغ.

وبعبارة أخرىٰ: إنه لا وجه لمعاداته، بل تجبُ محبَّتُه، فإنه نزَّل عليك كتاباً مُصدِّقاً لكتبهم هادياً لشرائعهَا، يُبشِّر العاملين بها بالجنَّة، فلا جَرَم أنَّ معاداتِه خلافُ الحقِّ والإنصاف، بل هو السَّفَه والاعتساف، لا منطق فيه ولا تعقُّل.

وهذه التَّعِلَّةُ هي أشدُّ هُراءً وخطلاً من التَّعِلَّتين السابقتين اللتين ذكرهما وردَّهما عليهم، وهما قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١]، وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨]. وإنما ذكر القرآن هذه التَّعِلَّة الثالثة مع شدَّة هرائها وخَطَلها؛ لأنها أفظَعُ مما سبق في الإيذان بشدَّة تعنُّتهم وعِنَادِهم، وأفضَحُ لسخافتهم وهَوَجهم.

وبعد أن أقام الحجج علىٰ حماقتهم وسخفهم في دعوىٰ عداوة جبريل، بيَّن حقيقة حالهم في هذه العداوة؛ مُلْمِعاً إلىٰ أنها مُسْتَتْبِعة بحكم الاستلزام لعداوة جميع الملائكة، تلك العداوة الموجبة لعداوة الله، وذلك كفرٌ مُوجب لعذاب الله، وصدَّر

الكلام بعداوة الله إيذاناً بأن عداوتَه عداوتُهم، ويجوز أن يكون نزَّل كفرهم بما أنزل الله بمنزلة العداوة لله، وتوعَّدهم علىٰ كلِّ ذلك بطريقة المشاكلة، فقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ أي: بكفره بما يُنزل من الهداية، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ أي: برفض الحقِّ والخير الذي فُطروا عليه، وكراهة قيامهم بما يَعهَدُ به إليهم ربُّهم عزَّ وجل، وهم لا يَعْصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: بتكذيب بعضٍ وقَتْل بعضٍ، ﴿وَجِبْرِيلَ﴾ لأنه يَنْزل بالآيات والنُّذُر.

وقوله: ﴿وَمِيكَىٰلَ﴾ إنما ذُكر علىٰ وجه التكميل والاستلزام، وذلك لأنهم يزعمون أنهم يُحِبُّونه وأنهم كانوا يؤمنون بالنَّبيِّ ﷺ لو كان هو الذي ينزل بالوحي عليه، فأشار سبحانه أنَّ مَنْ كان عدواً لجبريل فإنه عدوٌّ لميكال أيضاً؛ لأنَّ فطرتهما واحدة، فمن عَادَاها في أحدهما فقد عاداها في الآخر، وبيَّن أنَّ مَنْ عادىٰ الله سبحانه وعادىٰ هؤلاء المقرَّبين عنده الذين جعلهم رحمةً لخلقه بنقل رحمةِ الله وتعاليمه إليهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨﴾، أي: فإنَّ الله عدوٌّ له؛ لأنه كافر بالله ومُعَادٍ له، والله عدوٌّ للكافرين. فإقامة الـمُظْهَر مقام المُضْمَر، لبيان أنَّ سبب عداوة الله لهم إنما هو الكفر، فإنَّ الله سبحانه لا يُعادي قوماً لذواتهم ولا لأنسابهم، وإنما يكره لهم الكفر ويُعاقبهم عليه معاقبة العدو للعدو.

قال الأستاذ الإمام: هذا وعيدٌ لهم بعد بيان فساد العلَّة التي جاؤوا بها، وهم لم يدَّعوا عداوةَ هؤلاء كلِّهم، ولكنهم كذلك حسب الاستلزام وفي نفس الأمر، فأراد أن يبيِّن حقيقة حالهم في الواقع، وهي أنهم أعداءُ الحقِّ وأعداءُ كل من يُمثِّله وينقله ويدعو إليه، فالتَّصريح بعداوة جبريل كالتَّصريح بعداوة ميكال الذي يزعمون أنهم يحبُّونه، وأنهم كانوا يؤمنون بالنبي ﷺ لو كان هو الذي ينزل بالوحي عليه، ومُعَاداة القرآن كمعاداة سائر الكتب الإلٰهيَّة؛ لأن الغرض من الجميع واحد، ومُعَادَاةُ محمد ﷺ كمُعَادَاة

سائر رسلِ الله؛ لأنَّ وظيفتهم واحدة. فقولهم السابق وحالُهم يدلَّان علىٰ مُعَاداة كل مَنْ ذُكِرَ، وهذا من ضروب إيجاز القرآن التي انفرد بها(١).

ثم قال في «المنار»: قد تقدَّم غيرَ مرة أنَّ عذاب الله وانتقامَه من الكَفَرة الفَجَرة لا يشبه انتقام ملوك الدنيا وزعمائها، وإنما قَضَت سُنَّته تعالىٰ بأن يكون لكلِّ عمل يعمله الإنسان في ظاهره أو في نفسه وضميره أثرٌ في نفس العامل يُزكِّيها أو يُدسِّيها، وسعادةُ الإنسان في الآخرة وشقاؤه تابعٌ لآثار اعتقاداته وأعماله في نفسه. ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦](٢).

ثم نوَّه بشأن ما سبق بيانُه، وأنه حقٌّ ثابت وقولٌ صادق، ببيان أن القرآن منزلٌ من عند الله، وكل ما جاء فيه حقٌّ ثابتٌ، وأنه في نفسه آيات بيِّنات، وما يكفر بها إلا الفاسقون الذين خرجوا من نور الفطرة وانغمسوا في ظلمات التقليد، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾، أي: الذين خرجوا عن هداية الفطرة، وانطبعوا علىٰ الضلال بتقليد الضَّالِّين، مثل هؤلاء الكفرة المتمردين.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ معارضتهم ومعاداتِهم لرسول الله ﷺ نَبْذٌ للعهد الذي أخذه الله عليهم في التوراة أن يؤمنوا بهذا الرسول إذا جاء، ونَـبْذٌ للعهود التي أخذها عليهم رسول الله ﷺ حين قَدِمَ المدينة أن لا يفسدوا عليه، وأن لا يكونوا مع أعدائه المشركين، ولكنَّهم نقضوا تلك العهود، وأوْغَلوا في العِناد، ونَـهَجوا معه منهج أسلافهم مع سليمان عليه السلام في شدَّة التَّضليل والمشاغبات، حسب دَيْدَنهم المعهود في الفساد، وشرح ذلك شرحاً جلياً، فقال: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾،

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٢٥).

(٢) المصدر السابق (١: ٣٢٦).

والمراد بالعهود هنا: عهودهم للنبيِّ ﷺ، ولما كان لفظ «فريق» يُوهم العدد القليل، وكان الواقع أن الذين كانوا يَرونَ الوفاء له ﷺ قليلون، وأنَّ الناقضين هم الأكثرون؛ أضرَبَ عنه، وقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٠﴾، فهم لا أيمان ولا عهودَ لهم لأنهم لا إيمان لهم.

ولما كان هذا شأنهم نبذوا كتاب الله تعالىٰ كما قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهو التوراة، ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم اليهود ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ وهو التوراة التي يفاخرون بها ويحتجُّون بأنهم مكتفون بهدايتها؛ نَبَذوها ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، أي: ولم يعملوا بما فيها من البشارةِ بالنبيِّ ﷺ والأمرِ باتِّباعه، ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١﴾ ذلك فيها، وهذه الشناعةُ هي علَّـةُ جميع ما صَدَر عنهم من الشناعات في مُعاداة النبي ﷺ ومُجاحَدته.
«نَبَـذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ» مَثَلٌ يُضرب للترك والإعراض عن الشيء.

قال الأستاذ الإمام: ليس المراد بنَبْذِ الكتاب وراءَ ظهورهم: أنَّهم طرحوا التوراة برمَّته، وتركوا التَّصديق به في جملته وتفصيله، وإنما المراد أنهم طَرَحوا جزءاً منه، وهو ما يُبشِّر بالنبيِّ ﷺ ويُبيِّن صفاته، ويأمرهم بالإيمان به واتِّباعه، فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكارهم له، بمن يُلقِي الشيءَ وراءَ ظهره حتىٰ لا يراه فيتذكره، وتَرْكُ الجزء منه كتركه كلِّه، لأنَّ ترك البعض يَذهَبُ بحُرْمة الوحي من النفس، ويُجرِّئ علىٰ ترك الباقي.

ولا فرق في هذا الحكم بين اليهود والنصارىٰ، فكلٌّ منهما مُبشَّر بالنَّبيِّ ﷺ في كتابه، وكلٌّ منهما قد نَبَذَ الكتاب فلم يعمل به في ذلك[1]. فاليهود نَبذوا كتابَ الله الـمُبشِّرَ بنبوَّة محمد ﷺ والآمِرَ لهم باتِّباعه ونَصْره.

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٢٨).

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: اتَّبعوا دقائقَ الخبائث في تشكيك الناس في أمر النبيِّ ﷺ والمشاغبات ضدَّه، كما كانت تُلقي وتَنشُرُ شياطينُ الإنس المتآمرة الهدَّامة في عهد مُلكِ سليمان ونبوَّته، ومن ذلك أنهم كانوا يقولون: إنَّ ملك سليمان قائمٌ علىٰ أساس السحر والطلسمات، وليس بنبوَّة قائمة علىٰ أساس الوحي والمعجزات.

فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، أي: لم يكن أمره قائماً علىٰ سحر وخُزَعْبِلات، بل علىٰ وحيٍ ومعجزات، وكيف يكون تكليمُ الطيور والنمل وتسخيرُ الجنِّ والريح خُزعبِلات، كلا، ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ بتلك المعجزات، وأخذوا يُشاغبون و﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ أي: الإفكَ والمشاغباتِ ودقائقَ الخبائث والمخاتلات، لينشروا ذلك بين أصحابهم، ويصدُّوهم عن دين سليمان عليه السلام.

وقد جاء في تاريخ ملك سليمان: أنه لما عَظُم أمرُه اسْتراب مَلِكُ بابل الذي كانت له مطامع في سورية وفلسطين، وحلَّ منه الجزع محلَّ الطمع، فأوفد إلىٰ بيت

المقدس شخصين من دُهاة بطانته، يحملان من التعاليم في المشاغبات ما يُفْسدان به علىٰ سليمان ملكَه ومقامَه، فاعتـنقا اليهودية وأظهرا الزهد في الدنيا والتقشُّف في العيش باسم الدين، فالتفَّ حولهما الناس، واتَّخذا من بينهم دعاةً أخذوا يَسْتَهوون الرأيَ العام، ويُفسِدون الأفكار، ويُوغرون الصُّدور علىٰ سُليمان، بما يُوسوسون به للناس من البَوْن الشاسع بين ما هم عليه من التـقشُّف الذي يَسْتدعيه الدين بزعمهم، وبين ما عليه سليمان من أُبَّـهة الملك ورَغَد العيش، ونسبوا استخدامه للقوىٰ الطبيعية والجن إلىٰ السحر والطلسمات، وربما رَمَوه بالكفر، زاعمين أنَّ في نسائه وثنيات.

وكان الرأيُ العام يعتقد أنَّ هذين الشخصين مَلَكان، أو رجلان زاهدان تقيان كالمَلَكين، والعُرْفُ يطلق اسمَ الـمَلَكِ علىٰ الصَّالح، فكان يعتقد العامة قد أُنيطَ بهما أو أنزل الله عليهما في بابل هذه التعاليم ليبيِّنا للناس أمر سليمان وحقيقة شأنه، فقاما ينشران ذلك في البلدان.

وقد أنَّبهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ هذا الاعتقاد الفاسد والنشر والاتِّباع له، واصفاً هذين الشخصين بما يدَّعيانه أو يصفهما به الناس، فقال: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾[١]، أي: واتَّبعوا مُـشَاغَباتِ وإفسـادات هذين الشخصين

(١) يجوز أن تكون (ما) في قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ نافية، والجملة معطوفة علىٰ قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾، ومفادها: نفيُ ما يتقوَّلونه من أن هذه التعاليم الخبيثة التي تُتلىٰ عليهم من جانب شياطينهم، إنها تعاليم منزلة من عند الله علىٰ الملكين ببابل لينشراها بين الناس.
ثم خصَّ بالذكر من بين أولئك الشياطين: الناشرَين لهاتيك التعاليم الخبيثة، هاروت وماروت؛ ليبيِّن أنهما اللذان يُذيعان تلك التقوُّلات، وليذكر شدَّة خبث تعاليمها، وأنها تفكُّ أقوىٰ الروابط فتفرِّق بين المرءِ وزوجه والأخ من أخيه، كما تفعل المبادئ الهدَّامة من العداوة والبغضاء بين الأقارب والأصدقاء في شأن اعتناقها والأخذ بها ونشرها بين الناس. =

المتبوعَين اللذين يَدَّعيان أنهما مَلَكان، أو يعتقد الناس فيهما أنهما مَلَكان أو رجلان صالحان كالمَلَكين، أُنزل عليهما هذه التعاليم ببابل، ليكشفا أمر سليمان وخُزعبلاته للناس.

وذُكر عن الحسن البصري أنه كان يقول: إنهما عِلْجان من أهل بابل[١]. وعلىٰ هذا يكون التعبير بالإنزال والوصف بالـمَلَكين جاء[٢] تماشياً مع زَعْمِهم

= وبعبارة أخرىٰ: يجوز أن تكون (ما) نافيةً نَفَىٰ بها الإنزال والملكيَّة معاً، ثمَّ استأنف الكلام ونصب ﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ علىٰ التَّبيين والتَّحذير، علىٰ حدِّ قولهم: المحتال والخدَّاع، ويقرب منه قوله تعالىٰ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]، ثم شرح حالهما في المشاغبات السِّحريَّة وابتدأ بأنهما لا يُلقِّنان مبدأهما لمن طَلَب الدخول فيه، ولا يُظْهرانه علىٰ أسرار جمعيتهما حتىٰ يأخذا عليه العهد بأن يهتمَّ فيه بقوة، وأن لا يرتدَّ عنه بعد الدخول فيه، فإن كفر به بعد ذلك ابتُلي ابتلاءً شديداً، ويلقنان أعوانهما خبائثَ المشاغَبات علىٰ سُليمان التي تُفرِّق أمتن الروابط، وتُوهي أقوىٰ العقائد، يبثُّونها في الناس فيفرِّقون بين الوالد وولده، والأخ وأخيه، والزوج وزوجه، وينشرون العداوةَ والبغضاء في المجتمع، كما تفعل سائر المبادئ الخبيثة بين الناس، فيتفرَّقون في أمرها قبولاً ورفضاً ومقاومةً وتأييداً. هذا رأيي في الآيات، والله أعلم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ علىٰ تقدير النفي: بعد أن نفىٰ لهم هذا الاعتقاد الفاسد؛ من أن هذه التعاليم نَزَلت من عند الله علىٰ المَلَكين ببابل، ليحذِّرا الناس من كذب سليمان في ادِّعاء النبوة وكفره. استأنف الكلام لبيان الصحيح الواقع في شأن هذه التعاليم الخبيثة، وهذين الشخصين الدَّجَّالين اللذين يلقبونهما بالملكين، وسلك في ذلك مسلك التحذير، ونصب الاسمين عليه فقال: ﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾. (المؤلف).

(١) ذكره ابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث» ص ١٧٨.

(٢) قد جاء مثل هذا التعبير بالإنزال والوصف بالملكين تماشياً مع زعمهم في قوله تعالىٰ في سورة سبأ: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥]، حيث إنَّ التعبير =

ومُجاراةً له مسبوكة علىٰ التَّشنيع والتَّسفيه.

ويُـؤنسُ لهذا الرأي أن القرآن أنكر علىٰ المشركين حين اقترحوا نزول مَلَـكٍ عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥](١).

وبعد أن أَنَّبهم علىٰ هذا الاعتقاد السخيف في أمر هاروت وماروت، واتِّباعهم خِطَّتهما، ذكرَ سبحانه حقيقةَ أمر هذين الدجَّالَين وشأنَهما في تمويههما علىٰ الناس وسِحْرهما لهم، وإرهابهما للداخل في جمعيتهما، عن الإفلات منهما، فقال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: بمبادئنا وتخرج عليها. وهذا علىٰ أصول الجمعيَّات السريَّة الهدَّامة؛ يقول رؤساؤها للداخل في جمعيَّتهم حين يأخذون عليه

= بـ«ما أجرمنا» عن إيمان المؤمنين مبنيٌّ علىٰ اعتقاد المشركين بأنَّ محمداً وأتباعه مجرمون بخروجهم علىٰ دين الآباء وإحداثهم ديناً جديداً. ومثله قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]. فقد جاءت هذه التعابير القرآنية بحسب اعتقاد المخاطبين، ويقال: لعلَّ لهذا مجاز الوصف علىٰ زعم الزاعم. (المؤلف).

(١) اختلف الـمُفسِّرون في قصة هاروت وماروت اختلافاً طويلاً، واستندوا في كثير من أقوالهم إلىٰ إسرائيليات دخيلة، أو أحاديث واهية. والذي عليه المحققون: أن هاروت وماروت كانا مَلَكَيْن حقيقةً، أنزلهما الله ليعلِّما الناس السحر؛ ابتلاءً من الله لعبادِه، فيكون فعلُهم هذا طاعةً لله لا معصية فيه، مع تحذيرهم الناس فيما يُعلِّمونهم وبيان الكفر فيه.

و«ما» موصولة وليست بنافية علىٰ هذا التفسير.

أما آيةُ الإسراء فنفت إنزال الملائكة رسلاً، ولم تَنْفِ إنزالهم لغرض آخر، فلا تعارض بينها وبين إنزال هاروت وماروت، بل ثبت في أحاديث عديدة نزول الملائكة لأغراض شتىٰ، وفي نزول جبريل عليه السلام علىٰ مريم ليهب لها غلاماً دلالةٌ علىٰ جواز ذلك أيضاً.

العهدَ والميثاقَ: إنْ كفرتَ بمبادئنا تُقتل غِيلةً بيد الفدائيين، فلا يمكنه الخروج منها أبداً، وإنْ رأىٰ كلَّ مكروه.

ثم أجمل سبحانه تعاليمهما الخبيثة وقوَّتها في المشاغبة والإفساد، فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي: ما هو من أدقِّ أساليب الإغـواء والاستـهواء، يفرِّق بين المرتبطين بأقوىٰ الروابط، وقد عبَّر عن المعنىٰ المراد بطريق الكناية، إذ يريد أنها تعاليم خبيثة تُمَزِّق أمتن الروابط وأوثق العلاقات، لأنها من المكر والخديعة بمكان.

ثم ألـمع تعالىٰ إلىٰ أنَّ مثل هذا المكر لا يمشي علىٰ أقوياء الإيمان، لأنَّ الإيمان الصَّادق يُنير البصيرة، فلا يلتبس علىٰ صاحبه الحقُّ بالباطل، ولأنَّ العقيدة الصحيحة المستقرَّة لا يُزعزعها شيء، ولكن المكر والخديعة يُؤثِّران علىٰ ضعاف الإيمان، وعلىٰ أرباب الكفر والخذلان، وأومأ إلىٰ أنَّ ذلك جاء علىٰ السنة الكونيَّة العامَّة فقال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، إذ قد جرت سُنَّته تعالىٰ في طبيعة الإنسان أنه إذا أفسد فطرته بمفاسد التربية والكفر والخذلان تمشي عليه التمويهات والزعبرات؛ لأنه يفقد نور البصيرة وجوهر العقل السليم، كما قال تعالىٰ في الشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

ثم أفاد سبحانه أن هذه التعاليم الخبيثة المختلفة، تضرُّ بنفوس مَنْ يَخْتلقها ومن يعتنقها ضرراً فادحاً؛ لأنها تفسدها وتحيد بها عن فطرتها، فتُحطِّمُها وتردُّها إلىٰ أسفل سافلين، حسب السنن الكونية في طبيعة البشر، فقال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ ويُحطِّم نفوسهم، ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي: في إحباط أمر سليمان ولا أمر الرسول عليهما الصلاة والسلام، لأن المؤمن الصادق الإيمان لا ينخدع بالخزعبلات، ولا بوساوس الشياطين والمشاغبات؛ لِـمَا عنده من نور البصيرة والنظر الصحيح.

ثم شَنَّع عليهم وسفَّه أمرَهم حيث أعرضوا عمَّا يعرفونه من الحق، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي: لقد علم أهل الكتاب من اليهود في عصر التَّنزيل أنَّ مَن استبدل ما تَتْلو الشياطين بكتاب الله عز وجل وتعاليمه العادلة الموصلة لسعادة الدارين ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي: ليس له نصيبٌ من نعيم الآخرة وهنائها، علموا ذلك من نصِّ التوراة، فتولَّوا عنه وهم معرضون.

ثم نعىٰ عليهم، فقال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟﴾ أي: باعوا ﴿بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث استبدلوا بعملهم هذا نعيم الآخرة بشقائها[1] ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: لو كانوا من أهل العلم والمعرفة والبصيرة والوجدان.

فأنَّبَ القرآن في هذه الآيات اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ؛ بأنَّهم اتَّبعوا معه ما تَبِعَه أسلافهم الدجَّالون والمشاغبون في ملك سليمان ونبوَّته.

ثم أردف هذا النهج الانتقادي بالنهج الإرشاديِّ علىٰ أسلوب القرآن في مثل ذلك، وصفاً للدواء بعد بيان الداء، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ وما جاء به من عند الله وعملوا بمقتضاه، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ اللهَ العليَّ العظيمَ، ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: لنالهم ثوابٌ جزيل من عند الله، وذلك ﴿خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: لو كان قد بقي فيهم شيءٌ من نور البصيرة والعرفان.

هذا ما رأيته من تفسير هذه الآيات، إذ ينسجم مع السياق ويتناسب، والله أعلم بمراده.

---

(١) والصواب أن يُقال: استبدلوا شقاء الآخرة بنعيمها، فالنعيم هو المتروك، والباء تدخل عليه في مثل هذا الاستعمال.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا
ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ
وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا
لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

ثم تابع الكلام عن دسائس اليهود وفساد أمرهم، وشرح حالهم، ناهياً المؤمنين عن كلمة يَفترِصُها اليهودُ منهم للتورية بالدسِّ والامتهان، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ﴾ حتىٰ لا تحتاجوا إلىٰ نظر وتأنٍّ. وكلمة ﴿رَٰعِنَا ﴾ كانت تدور علىٰ ألسنة الصحابة رضي الله عنهم في خطاب النبي ﷺ. والمعنىٰ: راقِبْنا وتأنَّ بنا إذا تكلَّمت، وانتظر ما يكون من شأننا في حفظ ما تُلقيه علينا وضَبْطه.

والمشهور في كتب التفسير: أنَّ سبب النهي هو أنَّ اليهود المنافقين الذين يحضرون مجالس الرسول ﷺ، افترصوها وصاروا يخاطبون بها النبيَّ ﷺ لاوِين ألسنَتَهم بها لتوافق كلمةَ شَتْم بلسانهم العبراني، قيل: كانوا ينطقون بها: راعينا، وهي في العبرانية كلمةَ سبٍّ يتسابُّون بها فيما بينهم. وقيل: كانوا يلوون بها ويريدون بتحريفها نسبتَه ونسبةَ كلامه في الدين إلىٰ الرعونة. وفي سورة النساء: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ [النساء: ٤٦]. فنهىٰ الله سبحانه المؤمنين عن استعمال هذه الكلمات التي افترصتها اليهود للشتم والأذىٰ، وأمرهم بكلمةٍ خيرٍ منها تفيد ما كانوا يريدونه بها، وهي كلمة ﴿ٱنظُرْنَا ﴾، وأمرهم أن يُحسنوا الاستماع حتىٰ لا يحتاجوا للاستمهال،

فقال: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾، ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾ لبيان أنَّ ما صدر عن اليهود من سُوء الأدبِ في خطاب الرسول ﷺ هو أثرٌ من آثار الكفر، يعذَّبون عليه العذاب الشديدَ في الآخرة، ففيه تحذيرٌ وتبصيرٌ للمؤمنين، ووعيدٌ للكافرين.

ثم بيَّن سبحانه للمؤمنين أنَّ أكبر باعث لهذه المخالفات والمعاندات من اليهود هو حَسَدُهم وبُغْضُهم لكم، جزاء دينكم القويم، لا فرق بين أهل الكتاب والمشركين في ذلك، فقال: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، أما أهل الكتاب، ولاسيما اليهود، فيحسدون العرب أن يكون فيهم الكتاب والنبوَّة، وهو ما كانوا يحتكرونه لأنفسهم، فهذا هو مصدر حَسَدِهم. وأما المشركون فلعداوتهم وخيبة آمالهم حيث اسْتَتَبَّ أمر المسلمين واسْتَفحل، وكانوا يظنُّونه سيفشل، وكان بعض رؤسائهم يقول: إذا كانت المفاخر في بني هاشم، والرياسة في بني هاشم، والنبوَّة في بني هاشم، فما بقي لنا؟ يحسدونهم علىٰ ذلك.

ثم ردَّ عليهم سبحانه بما يُبيِّن جهلهم في هذا الحسد، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾، فما أشدَّ حمق الحاسد! وما أجهله! وهذا تسخيف لعقولهم، وإلقامُ حَجَر لهم.

ومرمىٰ الآية: أنَّ الله سبحانه بعلمه الواسع وحكمته البالغة، يختصُّ لنبوَّته مَنْ يَصْلُح لها، ويُرسله بشريعةٍ ملائمةٍ لتقدُّم النوع الإنساني ورُقيِّه في مضمار هذه الحياة، كلَّما اقتضت الحكمة ذلك، فتقوم هذه الشريعة الجديدة مقام ما قبلها ناسخةً لها. وذلك بتبديل بعض أحكامها وإضافة بعض الأحكام إليها، حسبما تقتضيه الحكمة وتتطلَّبه مصلحة البشر حتىٰ بدأ أول تكامل النوع الإنساني في العلوم والمعارف، فنزل القرآن واستقرَّ به أمر الأديان، ولم يَبْقَ لليهوديَّة والنصرانيَّة مكانٌ. ألمح سبحانه إلىٰ ذلك،

فقال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[١]، وعلىٰ هذا

---

(١) لما كان قوله تعالىٰ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يتضمَّن إرسال الرسل وتجديد الشرائع، أردفه ببيان الحكمة من ذلك، فأومأ إلىٰ أن إرسال الرسل نوعان:

نوع لإعادة معالم الشريعة التي نبذت وراء الظهر بالتحريف، فيأتي الرسول لإظهار قواعدها المطموسة، وحَمْل الناس علىٰ العمل بها، وذلك مثل رسالة داود وسليمان وزكريا ويحيىٰ عليهم السلام، فإنهم أرسلوا لإقامة شريعة التوراة المطموسة المعالم والمحرَّفة الأحكام. فمثل هؤلاء الرسل يأتون بمثل الشريعة السابقة ويدعون الناس للتمسُّك بها والعمل بمقتضاها.

ونوعٌ لنسخ الشريعة السابقة بشريعة أخرىٰ خير منها، كشريعة موسىٰ وشريعة محمد عليهما السلام، فإنَّ القرآن العظيم أنزل بعد أن تدرَّج النوع الإنساني في الرقيِّ والكمال، محتوياً علىٰ تعاليم وتوجيهات للبشر تصلحُ لكلِّ حال ومآل إلىٰ يوم القيامة، فلذلك كانت شريعته خاتمة للشرائع علىٰ الإطلاق، إذ لا حاجة لغيرها بعدها، فقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ راجع إلىٰ قوله: ﴿نَنسَخْ﴾، وقوله: ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ راجع إلىٰ قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ لبيان هذين النوعين من الإرسال الذي تضمَّنه قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بوجوه المصالح وتدابير الأمور في ملكوت السموات والأرض، وهو علىٰ كل شيء قدير.

وإنما قال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ الآية، ولم يقل: من شريعة، ليتناول البيانُ الشريعةَ كلَّها أو الآيات منها؛ لأن الشريعة مجموعة آيات وتعليمات. والله أعلم.

فائدة: حول قوله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآية.

جاءت الشرائع السماوية من لدن آدم إلىٰ نزول القرآن متَّحدةً في العقيدة وأصول الدين، متدرِّجةً رُقياً في صور الأعمال والعبادة، وفي التهذيب والثقافة نحوَ الكمال، كما يتدرَّج الصبيُّ في العلم والعمل حتىٰ إذا بلغ أشدَّه واستوىٰ ألقي إليه العلم العالي ومقاليد الأعمال العظيمة، وطُلب منه القيام بها والسعي في إنجازها.

وهكذا كان أمر الشرائع الإلهيَّـة لنوع الإنسان، من مبدئه البدائي إلىٰ أوَّل تكامله الإنساني في المعرفة يحبُو نحو الكمال وتحبو معه الشريعة كذلك، وتنسخ شريعة بأخرىٰ أعلىٰ منها في التهذيب =

يكون ذكر الآية من ذكر الجزء وإرادة الكل، وإنما عبَّر بهذا التعبير ليشملَ الكلامُ نسخ آيةٍ من شريعة بآيةٍ أخرىٰ منها(١).

= والثقافة، حتىٰ وصل إلىٰ أول درجة من كمال الاستعداد للثقافة العالية، أنزل الله سبحانه إليه ما ظلّ يهديه في الشـرائع السابقة، وهو هذا القرآن العظيم، علىٰ لسان هذا الرسول الكريم، وخُتمت بهما الشرائع والأنبياء، وبقيت هذه الشريعة الغرّاء هي شريعة البشر إلىٰ يوم الدين، وطُلب منه أن يضمَّ إلىٰ لغته المحليَّة لغة هذا الدين العربية العالمية، فيتّحد العالم في اللغة والثقافة والدين، ويعيش بهذه الوحدة سعيداً في دنياه سعيداً في أُخراه. (المؤلف).

(١) لا شك أنّ الله تعالىٰ ينسخُ من التشريعات ما شاء كلما اقتضت الحكمة ذلك، ولا شك أن الشرائع السابقة لشريعة الإسلام قد نسختها شريعة محمد ﷺ؛ لأن اللهّ ختم بها جميع الشرائع، وأرسله إلىٰ الإنس والجن.

وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصـراني، ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار». رواه مسلم (١٥٣).

وقد نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» (٨: ٢٤٥) الإجماع علىٰ أن الإسلام نَسَخَ جميع الشرائع السابقة.

أما قول الله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، فمعناه ـ كما قال ابن جرير في «تفسيره» (٢: ٤٧١) ـ: ﴿مَا نَنسَخْ﴾ أي: ما ننقل من حكم آية إلىٰ غيره، فنبدله ونغيره، وذلك أن نحول الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ. انتهىٰ المراد منه.

فقد دل هذا الكلام علىٰ أن المراد ما ينسخ من حكم آية إلىٰ غيره، ويدل لهذا سببُ نزول الآية، فقد قال الواحدي في «أسباب النزول» (١: ٢١): قال المُفسِّرون: إن المشركين قالوا: أترون إلىٰ محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، ما هذا في القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ..﴾ الآية، وأنزل أيضاً: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ..﴾ الآية. انتهىٰ. =

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يريد لها الخير، ولا معارض لأمره، ولا مُعقِّب لحكمه، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾، فقد استشهد سبحانه بما ذكر علىٰ قُدرته تعالىٰ علىٰ الإتيان بما هو خيرٌ من المنسوخ حسبما تقتضيه المصلحة في شأن خلقه تعالىٰ، وعلىٰ أنه وليُّ المؤمنين ومريدٌ لخيرهم، وأضاف إلىٰ ذلك تهديد من ينحرف ويعارض. فالآية ردٌّ لتبجُّحهم، وبيانٌ لأنَّ الله سبحانه يبعث الرسول بشريعة متَّفقة بفروعها مع زمنه، وبعد عصر أو دهر يبعث رسولاً آخر بوحي آخر يكون فيه بُعد تبدُّل لفروع الشريعة الأولىٰ حسب رُقيِّ النوع الإنساني، فيمحو حُكماً ويُثبت حُكماً آخر حتىٰ نضج العقل البشري، فجاء هذا القرآن الشامل المنطبق علىٰ ما كان وما يكون بقواعد كليَّة، والصالح لشؤون البشر إلىٰ يوم القيامة، وفيه تبديلٌ لبعض فروع الشريعة السابقة، حسب الحكمة البالغة، بمقتضىٰ علم الله الواسع الذي أحاط بكلِّ شيء، وقدرته العظيمة التي وَسِعَت كلَّ شيء، ورأفته بالناس أجمعين. هذا ما أراه في تفسير الآية علىٰ ضوء ما فسَّرها به أبو مسلم.

ومعنىٰ: ﴿نُنسِهَا﴾: نَجْعلها مَنْسيَّةً أو نأمر بتركها، وهذا في نسخ الآية بالآية.

= ومن أمثلة ذلك ما ورد في الحديث من أن الآيات الأولىٰ من سورة المزمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٤] نُسِخَت بالآية التي في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠].

ففي «صحيح مسلم» (٧٤٦) عن سعد بن هشام: «أنه سأل عائشة فقال: يا أمَّ المؤمنين؛ أنبئيني عن قيام نبي الله ﷺ؟ قالت: ألستَ تقرأ هذه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؟ قلت: بلىٰ، قالت: فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبيُّ الله ﷺ وأصحابُه حَوْلاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتىٰ أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيفَ، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة». انتهىٰ.

وقيل: معنىٰ ﴿نُنسِهَا﴾: نبقيها، مثل نُنسِئْها، فقد قال ابن عباس: معناه: نتركها لا نبدِّلها(١). وقال السُّدِّيّ: معناه: نتركها لا ننسخها(٢). وقرئ: (نَنْسَأْهَا)، و(نُنْسِئُهَا)، أي: نُرجئها ونُؤخِّرها.

ويجوز أن يكون المرادُ من قوله: ﴿نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ الشريعة المنسوخة حديثاً، ومن قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ الشريعةَ المنسوخةَ قديماً من شرائع الرسل التي لم يقصص علينا أمرها، أو الرسل التي تقادم عهدها ولم نعلم من أحكام شريعتها شيئاً، والله أعلم.

أما قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، فتوضِيحُه: أنَّ كل تجديد في الشرائع ينشأ عن حاجة ماسَّة إليه من أحوال الشعوب والأمم، علىٰ سُنَّة التدرُّج الطبيعي في رُقيِّ نوع الإنسان، فكلَّما ازداد رُقياً تُبَدَّلُ له الأحكام بما هو خير منها حسب قانون التدرُّج في رُقيِّ النوع، وذلك ضمن تبدُّل الشريعة نفسها، وتبدُّل بقية الأحكام بمثلها، بمعنىٰ: تبقىٰ بعينها في الشريعة الجديدة أو بتحوير قليل، وكذلك تأتي الشريعة الجديدة بتصحيح ما أخطأ البشرُ في فهمه من الشريعة المنسوخة، وإصلاح ما تعمَّدوا تحريفَه منها علىٰ هذه الوتيرة بعد ذهاب نبيِّهم وتطاول العهد أيضاً، إما بأحسن منها حسب ما يَقْتضيه قانون التدرُّج المذكور، أو مثلها علىٰ وجه الصحَّة، وذلك في بقيَّة الأحكام التي لا يُراد تبديلُها. هذا ما رأيته، والله أعلم. ولا يخفىٰ أنَّ التبديل لا يكون في الاعتقاديات ولا في الطبيعيَّات(٣).

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٦٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢: ٤٧٦).

(٣) ولم يتعرض المؤلف رحمه الله إلىٰ النسخ في فروع الأحكام في الشريعة الواحدة، والعلةُ المذكورةُ في كلامه في تجويز نسخ الأحكام وتبديلها في شريعة سابقة بشريعة لاحقة، هذه العلةُ نفسُها واردةٌ في تجويز نسخ الأحكام الفرعية في الشريعة الواحدة.

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

ثم أجرىٰ الكلام علىٰ ضعفاء الإيمان من المسلمين الذين أثَّرت فيهم مشاغبات اليهود الخبيثة، علىٰ نمط ما كان يفعله أسلافهم في عهد سُليمان، فأخذوا يُكثرون السؤال والجدال، فأنكر القرآنُ عليهم، فقال: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾، وإن كانت تلك الآيات فعلية وهذه قوليَّة، ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾[1] [البقرة: ١٠٨]، والتقدير:

---

(١) قوله: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ...﴾ تُؤذن الآية أنَّ اليهود لما اتَّبعوا في الـمُشَاغَبات والتَّشكيكات مع المسلمين خطَّة أسلافهم في عهد سليمان أثَّر ذلك في ضعفاء الإيمان مثل قولهم: إنَّ أحكام القرآن مغايرة لأحكام التوراة، وإنَّ محمداً لم يأتِ بالمعجزات كما أتىٰ موسىٰ، وأمثال ذلك، فأخذ هؤلاء الضعفاء يكثرون السؤالات من رسول الله ﷺ لـمّا رانَ علىٰ قلوبهم، فأنَّبهم سبحانه بهذه الآية، وجَعَل هذا كعمل بني إسرائيل عَدَمَ الثقة في أحكامهم. ويجوز أن تكون الآية معطوفة علىٰ محذوف، علىٰ نهج القرآن في مثلها، والتقدير: أَقَنِعْتُمْ بهذا البيان أم تريدون... إلخ. أو معطوفة علىٰ: ألم تعلم؛ لأنه من خطاب الخاص مُراداً به العام. ويجوز أن تشمل الآية اليهود؛ لأنَّ محمداً ﷺ جاءَ رسولاً لكلِّ البشر ورسالتُه وقرآنه العربي عالميان.
ووجه الربط في قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ ....﴾، تُلهم هذه الآية: أنَّ ما كان يفعله اليهود من المشاغبات والتشكيكات علىٰ نَمَط ما كان يفعله أسلافهم في عهد =

أَقَـنِعْـتُمْ بهذا البيـان أم تـريدون.

ويجوز أن يكون الخطاب لعموم المخاطبين في عصر التنزيل، يُحذِّر به ضعفاء الإيمـان من تشكيك هؤلاء المضلِّلين في أمر النسخ للشرائع، ويؤنِّب المشركين علىٰ اقتراحهم الآيات كما اقترح بنو إسرائيل علىٰ موسىٰ رؤيةَ الله جهرة، أو أن يجعل لهم إلهاً كما للمصريين، وعلىٰ كلٍّ فقد أرشدنا الله تعالىٰ بهذا إلىٰ أنَّ التفنُّن في طلب الآيات الكونيَّـة، وفي التعنُّت وعدم الإذعان لما يجيء به النبيُّ من الآيات القوليَّـة، هو دأب المطبوعين علىٰ الكفر. والكلامُ معطوفٌ علىٰ مُقدَّر مفهوم من السياق، وذلك علىٰ نهج القرآن (كما جاء في المادة العاشرة من المقدِّمة الثانية).

وتُلهم الآية أنَّ اليهود قد نَجَحوا في دسِّهم وتشكيكهم بين ضعفاء المسلمين حتىٰ صار بعضُهم يجادل ويسأل، فأنَّبهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك.

ثم تابع الكلام في البيان المنطوي علىٰ التَّحذير من التورُّط فيما تضمَّنه السياق من قبول آراء اليهود في شيء من أمور دينهم، وذكر المنشأ ووجه العلَّة في ذلك، فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾، وفيه تنبيهٌ للمسلمين علىٰ أنَّ ما يبدو من أهل الكتاب أحياناً من إلقاء الشُّبه علىٰ الإسلام، وتشكيك بعض ضعفاء المسلمين في بعض أحكامه المخالفة

= سليمان عليه السلام؛ قد أثَّر بعض التأثير علىٰ ضُعفاء الإيمان من المؤمنين، كما أثَّر علىٰ المشركين، فأخذ ضعفاء الإيمان يقترحون ويسألون من الرسول ﷺ أشياء أنكرها عليهم القرآن وصدَّهم عنها وألمع إلىٰ أنَّ ذلك يضادّ الإيمان.

وقوله: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ [البقرة: ١٠٩] يُؤْذِنُ بأنَّ بعض المؤمنين طلبوا الإذن من الرسول بالبطش بهؤلاء المشاغبين، فأمرهم سبحانه بالصبر والعفو والأناة، أو هي للأمر بالتحمُّل والثبات. (المؤلف).

للتوراة، إنما هو مكر السُّوء، يبعث عليهِ الحسدُ واعتقادُهم أنَّ هذا الأمر إذا تمَّ للمسلمين سيدخلون تحت سلطانهم لا محالة.

وقيَّد الكلام بما فيه الزيادة في النقد والتشنيع، فقال: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أي: بانطباق ما يحفظون من بشارات كتبهم بنبيٍّ آخرِ الزمان عليه الصلاة والسلام.

وفي جميع الآيات المتقدمة ـ ولاسيما آية النسخ ـ تمهيدٌ إلىٰ ما سيأتي من أمر تحويل القبلة الذي سيستغله اليهود، وتثبيتٌ للمسلمين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم أمر الله تعالىٰ المؤمنين بأن يقابلوا هذا الحَسَدَ وما ينبعث عنه بما يليق بهم من محاسن الأخلاق، وهو العفوُ عن هؤلاء الحسَّاد المغرضين، فقال: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾، قال الأستاذ الإمام: وفي أمره تعالىٰ لهم بالعفو والصفح، إشارةٌ إلىٰ أنَّ المؤمنين علىٰ قلَّتهم هم أصحاب القدرة والشوكة، لأنَّ الصَّفْح إنما يُطلب من القادر، وفيه إيذانٌ بأنَّ أهل الحق هم المؤيَّدون بالعناية الإلَهيَّة، ثم صرَّح بذلك فقال: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾، فوعدهم بأنْ سيمدُّهم بمعونته، ويؤيِّدهم بنصره علىٰ قلّة عددهم، وقرَّر ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩﴾.

ثم قال الأستاذ الإمام: وبعد أن وَعَدهم بالنَّصر دلَّهم علىٰ بعض وسائل تحقُّقه، وهي الصلاةُ التي تُوثِّق عروة الإيمان وتُعلي الهمَّة وترفع النفس بمُنَاجَاةِ الله العليِّ الكبير، والزكاةُ التي تَصِلُ بين الأغنياء والفقراء، فتتكوَّن باتِّصالهم وحدة الأمة، فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وقد مضت سنة القرآن بقَرْنِ الزكاة بالصلاة؛ لأنَّ الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد، والزكاة لإصلاح شؤون الاجتماع[1].

---

(١) تفسير «المنار» (١ : ٣٤٨).

وإقامة الصلاة ليست عبارة عن أدائها مطلقاً، وإنما هي عبارة عن القيام بحقوقها الروحيَّة في صورتها العمليَّة، وذلك بالتوجُّه إلىٰ الله تعالىٰ، ومناجاتِهِ، وإشعار القلب عظمته، فبهذا الشعور ينمُو الإيمان، وتقوىٰ الثقةُ بالله، وتتنزَّه النفس أن تأتي بالفواحش والمنكرات، وتستنيرُ البصيرة فتكون أقوىٰ نفاذاً في الحق وأشدَّ بعداً عن الأهواء، فنفوس المصلِّين جديرة بالنصر؛ لما تُعطيها الصلاة من القوة المعنويَّة، ومن الثقة بقدرة الله العليَّة. كما أنَّ الزكاة قوامٌ للنصر ومُعينٌ عليه؛ لأنها القوة الماديَّة.

وبعد أن تبيَّن أنَّ إقامة هذين الركنين من وسائل النصر والسلطان في الدنيا، بيَّن لهم أيضاً أنها من أسباب السعادة في الآخرة، ولكن البيان جاء بصورة قاعدة عامة علىٰ أسلوب القرآن في تعقيب الأمر الخاصِّ بأمر عام يشمله وغيره، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ أي: فلا يضيع عنده عمل من الأعمال التي تصدر عنكم.

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

ثم رجع بالكلام إلىٰ محوره السابق، وعاد إلىٰ بيان سخافاتهم وضلالاتهم، علىٰ نهج القرآن في العودة، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، وهُودٌ: جمع هائد، كعُوذ جمع عائذ. وهاد يهود بمعنىٰ: تاب ورَجَع إلىٰ الحقِّ. أي: قالت اليهود: لن يَدْخُلَ الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارىٰ: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، فردّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، أي: ذلك ما يتمنَّونه ولا يُدركونه.

وتُطلق الأمنية علىٰ كلِّ ما لا حُجَّة عليه، لذلك طالبهم سبحانه بالبرهان علىٰ ما

يدّعون، فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾، فبيَّن لنا أنَّ قولهم هذا هُراء؛ إذ لا حُجَّة له في كتبهم المنزلة. وإنما طالبهم سبحانه وتعالىٰ بالبرهان؛ ليُقرِّر لنا قاعدةً لا توجد في غير القرآن من الكتب السماوِّية السالفة، وهي أن لا يُقبَل من أحدٍ قولٌ لا دليل عليه، وذلك لأنَّ الأمم التي خُوطبَت بالكتب السماويَّة السالفة، لم تكن مُسْتَعدَّة ومتأهِّلة لاستقلال الفكر ومعرفة الأمور بأدلتها وبراهينها.

ثم قرَّر الردَّ عليهم مُبيِّناً حقيقة الأمر في استحقاق دخول الجنة، ومُؤْذناً بأنَّ بابها مفتوح لكلِّ مَنْ يعمل ذلك، سواء كان منهم أو من غيرهم، فقال: ﴿ بَلَىٰ ﴾، وهي كلمةٌ تذكر في الجواب لإثبات نفيٍ سابق. والمعنىٰ: إن الجنة مفتوحة لكل مَنْ يعمل لها عملها، وهو ما بيَّنه سبحانه بقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: بأن توجَّه إليه وحده وخصَّه بالعبادة، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: مُخلص له في العلم الصالح المطلوب منه، ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يُدخله الجنَّـة برحمته خالداً في سعادتها، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: يوم الفزع الأكبر، فنفىٰ عنهم ما يَرهقُ الكافرين والمسيئين. وفيه تعريضٌ لأولئك المنكرين الضَّالِّين.

والإفراد في الضمائر باعتبار لفظ ﴿مَنْ﴾، والجمع باعتبار معناها، علىٰ نهج القرآن في ذلك. وإنما عبَّر بالأجر؛ للإيذان بقوَّة ارتباط دخول الجنَّة بالعمل المذكور كما يرتبط العامل بأجرته.

وأما ما جاء في الحديث: «لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله، ولكن بفضل الله»[١]؛ فالمرادُ منه: أن عمل الإنسان مهما بلغ فإنه ضئيل بالنسبة إلىٰ الجزاء العظيم الجليل، وذلك من فضل الله[٢].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ارتباطُ دخول الجنة بالعمل: ارتباطٌ شرعي، أي: وضعه الشارع، فهو مَحْضُ فَضْلٍ من الله تعالىٰ، =

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

ثم أتبع هذه الدعوىٰ منهم بما يناقضها من قولهم، وهو تضليلُ كلٍّ فريق منهم لصاحبه، مُبيِّناً سَفَهاً آخر من سفاهاتهم وعَمَاياتِهم في أمر الدين، مُقرِّراً فيه أنهم يقولون أقوالاً مجرَّدة عن المنطق والبرهان، والعلم والعرفان، ففي القول السابق ذَكَر أنه قولٌ مجرَّد عن البرهان، وذكر لهم هاهنا قولاً مخالفاً للمنطق باستلزامه التناقض والهذيان، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[1]، فكفروا بعيسىٰ وهم يتلون التوراة التي تُبشِّر به، وتذكر من العلامات ما ينطبق عليه. ولا تزال اليهود إلىٰ اليوم تدَّعي أنَّ المبشَّر به في التوراة لَمَّا يأتِ بعد، وتنتظر ظهوره وإعادته الملك إلىٰ شعب إسرائيل، وهذا هو المسيح الدجال، والله أعلم.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لإنكارهم المسيح المتمِّم لشريعتهم، ولكن هؤلاء النَّصارىٰ لم يفطنوا أنَّ هذا النفي العام يتضمَّن نقْضَ التوراة، وهي جزءٌ من شريعتهم، فكان يقول كلُّ فريق منهم ما يقول، ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: يتلو كلٌّ منهم كتابه، فكتاب الأوَّلين التوراةُ يبشِّر برسول منهم وهو عيسىٰ، ظهر ولم يؤمنوا به، فهم مخالفون لكتابهم، وكتاب الآخِرين الإنجيلُ يقول بلسان المسيح: إنه جاء متمِّماً

= فلا يكون فيه للعبد استحقاق، وبه يكونُ الحديثُ المذكور علىٰ ظاهره، وجَعْلُ الفضل في المقابلة من حيث المقدار: تضييقٌ للمعنىٰ وحَصْرٌ له.

(١) الآية تلمع بمعنيين: جهالة منطقهم وتناقضه، وإيقاع بعضهم ببعض حنقاً وكرهاً. ولذلك أردفها بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ.....﴾؛ لأن ذلك هو مصدر ما يأتي من السعي في الخراب المادي للمعابد. (المؤلف).

لناموس موسىٰ لا ناقضاً له، وهم قد نقضوه بقولهم هذا؛ لأن عموم قولهم يستلزم إنكار اليهوديَّة بجملتها، فدينهم واحد، ترك بعضهم أوَّله وبعضهم آخره، فلم يُؤمن به كله أحد منهم، والكتاب الذي يقرؤونه حُجَّة عليهم.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا دأب الضَّالِّين في كل عصر، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: علىٰ نحو ذلك السخف، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ من مُشْركي العرب وغيرهم من الملل ﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ ﴾ حيث قالوا: إنَّ محمداً وأتباعه ليسوا علىٰ شيء، وتعصَّب كلٌّ لملَّته التي جَعَلها جنسيَّة، وزعم أنها هي المنجية لكلِّ من وُسِمَ بها، والحقُّ وراء ذلك، إنما هو إيمانٌ خالص وعملٌ صالح، لا قوميَّـة ولا عنصرية، ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾ أي: يُحقُّ الحقَّ ويجعل أهله في النعيم، ويُبطل الباطل ويُلقي بأهله في الجحيم.

والذي أراده سبحانه للبشر المتدرج في الرقي أن تكون الأديان كالصفوف العلمية، تنتقل من دين إلىٰ دين حتىٰ بدأ أوّل كماله ختمها بدين عالٍ سماوي يحوي من القواعد ما يكفي للبشر إلىٰ آخر الدنيا، وهو القرآن، وقال: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾.

ثم نعىٰ عليهم وعلىٰ المشركين فظيعةً أخرىٰ من فظائعهم، كان ما قبلها مقدِّمة لها ووسيلة؛ لأنها صادرةٌ من تضليل بعضهم لبعض ومقاومتهم لهم، فقال: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ﴾، ويُؤذِن السياق أنَّ

عموم الآية كما يشمل مَنْ صَدَّ المؤمنين عن مساجد الله، ومن سَعَىٰ في خرابها بالفعل، يشمل أيضاً مَنْ عطَّلها عن عبادة الله الحقَّة، وشغلها بعباداتٍ باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، والله أعلم، لأن كلَّ ذلك سَعْيٌ في الخراب، ومَنْشأُ السعي في الخراب الفعلي إنما هو تضليل بعضهم لبعض، إذ في جملة ذلك معارضةُ الضالِّ للمهتدي ومنعُه عن إقامة شعائره في المعابد.

ومن الذين منعوا مساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمه: مشركو مكة؛ منعوا النبي ﷺ وأصحابَه من دخول مكة يوم الحديبيَّة، وذلك فوق ما أنهم قد عطَّلوها عن عبادة الله الحقَّة، وشغلوها بعبادات باطلة.

ومن الذين سَعَوا في خرابها: مُشْرِكُو الرومانيـين، عندما خرَّبوا بيت المقدس، وهَدَموا هيكل سليمان عليه السلام، بإغْراء المسيحيين لينتقموا من اليهود. ثم لما اعتنق الرومان المسيحيةَ حرَّفوها وجعلوها تُضَاهي دينهم في التثليث، وخرَّبوا معابدها معنوياً بهذه المسيحية المحرَّفة، وأمثال ذلك في الواقع والتاريخ كثير.

ثم بيَّن ما كان يجب عليهم من حُرمة المساجد وعبادة الله فيها علىٰ وَجْه الحقِّ والصواب، علىٰ نهج القرآن في إرداف النقد بالإرشاد، وضَمَّنَ ذلك مبالغة في النعي عليهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ أي: خاشعين، أي: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخضوع، فَضْلاً عن الاجْتراء علىٰ تخريبها أو تعطيلها، أو الإغْراء بذلك، أو إشغالها بعبادات شركيَّة باطلة. فالكلامُ زيادةٌ في التأنيب والتفظيع، أردفه بالوعيد، فقال: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: بالذل والهوان والجهل الفاضح في أمر الأديان، ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

ولما نوَّه سبحانه بأمر المساجد، ونعىٰ علىٰ مَنْ خرَّبها وقذَّرها، قَرَنَ ذلك ببيان أنَّ

الأرض كلّها مسجد، إيذاناً بعدم الاختصاص الذي ربَّما يشعر به هذا التنويه بأمر المساجد، فيظنّ أنَّ مثل هذا المنع مُسوِّغ لترك العبادة، وإلماعاً إلىٰ أنَّ ما كان مشروعاً علىٰ مَنْ قبلنا خُفِّف عنا، وخاطب المسلمين مُهوِّناً المنع عليهم، بأنَّ الأرض كلها مساجدُ لهم، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: له كل الأرض، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ﴾ أي: في أيِّ مكان صلَّيتم مُوَلِّين وجوهَكُم شَطْر القبلة ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ يُوسِّع في أحكامه علىٰ عباده، ﴿عَلِيمٌ ١١٥﴾ بمصالحهم وبالمتوجِّه إليه أينما صلَّىٰ وعبد، فاعبد الله حيثما كنت، وتوجَّه إليه أينما حللت.

فالآية بيانٌ للتساهل في مواضع الصَّلوات، تبيِّن أنَّ الأرض كلَّها مساجد إذا ولَّينا وجوهنا للقبلة، والمراد بوجه الله هنا: رضاؤه.

وفي الآية نَسْخٌ أو إبطالٌ لما كان عليه أهل الملل السابقة من أنَّ العبادة لله تعالىٰ لا يصحُّ أن تكون إلا في الهيكل والمعبد المخصوص، وبيانٌ في أنَّ الأرض كلها مسجد لله، فالمنعُ عن المسجد لا يمنع عن عبادة الله سبحانه، ولا يضرُّ إلا المانع، إذ يعودُ وباله عليه. وفيها أيضاً تمهيدٌ لما سيأتي من أمر تحويل القبلة، وذلك علىٰ نهج القرآن في ازدحام المعاني والأغراض في التركيب الواحد، وقَصْد الأهداف المنوَّعة.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ١١٩﴾.

ثم عاد إلىٰ السياق السابق في تعداد مخازي أهل الكتاب والمشركين وتقوُّلاتهم وجهالاتهم الباطلة، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، فهذا عطفٌ علىٰ قوله

تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ١١١]، عَطَفَه عليه إيماءً إلىٰ أنه من الكفر الذي لا يحقُّ لصاحبه أن يدخل الجنَّة، وإنما هو من أهل النار، ويجوز أن يكون الواو للابتداء؛ لأنَّ السياق في معرض سَرْد القبائح والتلاعب في الاعتقاد، فيجوز فيه الاستئناف.

قال في «المنار»: ويصحُّ أن يُنْسَب هذا إلىٰ اليهود والنصارىٰ والذين لا يعلمون جميعاً؛ لأن الله تعالىٰ أخبرنا في كتابه في مواضع منه بأن اليهود قالت: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، وأنَّ النصارىٰ قالت: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، وأن المشركين قالوا: إن الملائكة بنات الله. ولا فرق في الأحكام التي تُسند إلىٰ الأمم بين كونها صَدَرت من جميع أفراد الأمة أو صدرت من بعضهم، فإنَّ هذا الإسناد مُنْبِئٌ بتكافل الأمة، وقد نُقِلَ أنَّ كلمة: «عُزير ابن الله» قالها بعض اليهود لا كلّهم، وكذلك اعتقاد أنَّ الملائكة بنات الله، لم يكن عاماً في مشركي العرب، وإنما عُرِف عن بعضهم.

وقد ردَّ سبحانه وتعالىٰ عليهم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، وهي كلمة تفيد التنزيه مع التعجُّب(١).

ثم أضرب إلىٰ بيان الحق، فقال: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾، وتقرير الردِّ: أنَّ كلَّ ما في السماوات والأرض لا يتجاوز أن يكون أحد مخلوقاته الخاضعة تحت مُلكيَّته وقَهْره، وليس هذا معنىٰ الولد والبنوَّة، فلا يتصوَّر هذا الأمر في جَنْب الله.

وقال في «المنار»: نزَّه تعالىٰ نفسه بكلمة «سبحانه» التي تفيد التنزيه مع التعجُّب مما ينافيه، كأنَّ الذي يعرف الله تعالىٰ لا ينبغي أن يصدر عنه مثل القول الذي يشعر بأنَّ

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٥٩).

له تعالىٰ جنساً يماثله، فإنَّ قائلَ ذلك لا يكون علىٰ علم بالله تعالىٰ، ومقدِّراً جلالَه، وإنما يكون زاعماً فيه المزاعم، وظاناً فيه الظُّنون؛ لأنَّ هذا الولد الذي نسبوه إليه تعالىٰ لا يخرج عن أن يكون من العالم العلوي أو السُّفلي، ولا شيء منهما مجانسٌ له عزَّ وجل، بل جميع ذلك من مخلوقاته ومُلْكٌ له قانتٌ لعزَّته وجلاله خاضعٌ لقهره مُسخَّرٌ لمشيئته، نعم إنَّ له تعالىٰ أن يختصَّ مَنْ شاء بما شاء، كما اختصَّ بعض الأنبياء بالوحي، وبعضَ مخلوقاته بالعظمة، ولكن هذا التَّخصيص لا يرتقي بالمخلوق إلىٰ مرتبة الخالق، وهي الألوهيَّة، بل لا يخرجه عن حدود جنسيَّته[١].

وقد غلَّب في الملكيَّة ما لا يعقل، فاستعمل ﴿مَا﴾ بدل (مَنْ)، فقال: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ المراد بتسخيرها له التَّسخير الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار، ويستوي في ذلك العاقل وغيره، ولكنه في غير العاقل أظهر. ولما ذكر القنوت لله تعالىٰ، جمعه بضمير العاقل؛ لأنَّ من شأنه أن يكون من العقلاء، فغلَّب فيه العقلاء، وذلك من البلاغة العالية.

ثم زاد هذا الحكم بياناً وتأكيداً بقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾، فما الذي يماثله في هذا حتىٰ يُشرَك به؟ تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وقد ألمع إلىٰ أن خلق عيسىٰ من دون أب لا يقتضي أن يكون ابناً لله، وليس هو أمراً غريباً علىٰ الله؛ لأن أمره سبحانه بين الكاف والنون.

ثم ذكر قبيحة أخرىٰ من قبائح مشركي العرب، وماثَلَها بقبائح غيرهم من أهل الكتاب، ويجوز أن تكون تمثيلاً لقوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٨] علىٰ تقدير أن يكون الخطاب فيها لأمة الدعوة مطلقاً، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٥٩- ٣٦٠) بتصرف.

يَعْلَمُونَ﴾ أي: الجاهلون بالكتاب والشرائع وصفات الله سبحانه من مُشركي العرب: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كما كلَّم هذا وأوحىٰ إليه وهو بشر مثلنا، ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ أي: من الآيات التي اقترحناها. وهذا بيانٌ لِقَدْحِهم في النبوَّة بعد أن بيَّن قدحَهم في الآية السابقة بالوحدانيَّة، وهذا القول ناشئٌ من جهلهم أنَّ الأنبياء بحكم ما لها من كمال تختصُّ خِلقةً بمزايا من قوَّة الرُّوح تصلح بها للاتِّصال بالوحي والتلقِّي منه، ولا يصلح لذلك كل بشر.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا دأبُ مَنْ قبلهم من مُـعَارضي الأنبياء في الأمم الغابرة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، فقد أنكروا علىٰ رسلهم اختصاصهم بالوحي من دونهم، واقترحوا عليهم الآيات تعنُّتاً وعناداً، فقد ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: عقولهم في بَلَاهة المنطق وسخافة التفكير، وفي مُكابَرة الحقِّ واستبْعاد أن يكون واحدٌ من البشر رسولاً يُوحَىٰ إليه، وفي اقتراح الآيات تعنُّتاً وعناداً، وإن اختلفت الصُّور؛ فطلبَ قومُ موسىٰ مَثَـلاً رؤْيَةَ الله جهرةً، وطلبَ قومُ محمَّد مثلاً أن يرقىٰ في السماء أمامهم فيأتيهم بكتاب يقرؤونه، وطلبوا أن يُنزِّل عليهم ملائكةً أو يروا ربَّهم، فهم في سَخَافة العقل ومكابرةِ الحق والعِناد متشابهون، كما قال تعالىٰ في سورة الذاريات: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

ثم ردَّ عليهم سبحانه وتعالىٰ بأنَّ أحسن الآيات قد أتـتهم ولم يعقلوها، فقال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾[1]، أي: آتيناهم آيات عظـاماً، لو أنهم

---

(١) كانت آيات الأنبياء التي تؤيد دعواهم آيات كونية عجيبة، كالعصا لموسىٰ، وإبراء المرض لعيسىٰ، وأمثال ذلك، فلما بلغ تدرُّج الإنسان في العلم والفهم والعرفان أول درجة الكمال، ختم الله الشرائع بنزول القرآن يخاطبهم بالعقل والبرهان؛ لأنه أجلىٰ للحق وأوضح للبيان لقوم يوقنون. (المؤلف).

يوقنون، وهي آيات القرآن التي يظهر بها الحق بطريق منطقي مقبول واضح، لا يشتبه فيه الفهم، ولا يَحار فيه الذهن، كما في الآيات الكونيَّة، وإنما لم يتعرَّض لردِّ طلبهم التكليم؛ لظهور بطلانه بنفسه.

وبعد أن بيَّن لجاجهم في اقتراح المعجزات على سبيل التَّعنُّت، وإصرارهم على الباطل، خَتَم السياق المتضمِّن لإنكارهم رسالته، بما فيه تسليةٌ له ﷺ، وردٌّ عليهم، وتمحيصٌ وتقريرٌ للحقِّ، ضمن البيان لوظيفة الرسول، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالشيء الثابت المتحقِّق، ﴿بَشِيرًا﴾ بسَعَادتي الدنيا والآخرة لمن يتَّبعه، ﴿وَنَذِيرًا﴾ بشقائهما لمن يخالفه، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ أي: لست بمسؤول عنهم في انحرافهم عن الصواب، وإنما هم المسؤولون، فلا يضرُّك تكذيب المكذِّبين.

ومحصَّل الكلام: أنك مكلَّف بتبليغ الرسالة وقد فعلت، فلا عليك إن كذَّبوا. وفي عنوانهم[1] بأصحاب الجحيم، إيعادٌ لهم وتحقيرٌ ووعيدٌ رهيب.

وفي الآية من العبرة أنَّ الأنبياء بُعثوا معلِّمين لا مُسيطرين ولا مُكرِهين، فإذا جاهدوا فإنما يجاهدون دفاعاً عن الحق لا إكراهاً عليه.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه شدَّة تمسُّكهم بباطلهم، ويأسه من إيمانهم به، وقطَعَ طمَعَهُ في ذلك، فقال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ زاعمين أنهم على ملَّة إبراهيم وذُرِّيَّتِهِ عليهم السلام.

---

(١) أي: تسميتهم بهذا الاسم وإطلاقه عليهم كالعنوان لهم.

قال الأستاذ الإمام: من شأن الإنسان أن يتألَّم من القبيح أشدَّ التألُّـم، إذا وقع ممَّن لا يتوقع منه، وكان النبيُّ ﷺ يرجُو أن يبادر أهل الكتاب إلىٰ الإيمان به، وأن لا يرىٰ منهم المكابرة والمجَاحَدَة والعناد، لموافقته لهم في طابع دينهم ومقاصده من توحيد الله تعالىٰ والإخلاص له وتقويم عِوَج الفطرة الإنسانية الذي طرأ عليها بسبب التقاليد، ولذلك كان يخاطبهم بمثل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وغيرها من الآيات، فلما رأىٰ من إعراضهم عن إجابة دعوته وإسرافهم في مُجَاحدته أشدَّ مما رأىٰ من مشركي العرب الذين جاء لِـمَحْق دينهم، كَبُر ذلك عليه، فجاءت هذه الآية لتسليته ﷺ عمَّا كان يجده من عنادهم وإيذائهم، كما جاء غيرها من الآيات، ولتيئيسه من إيمانهم حتىٰ لا يبقىٰ له مَطْمع فيه(١).

ثم أمره تعالىٰ في مقابلة ذلك بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾، أي: اجْهَر بقول الحق، وهو أنَّ الهدىٰ الصحيح هُدىٰ الله الذي أنزله علىٰ أنبيائه دون ما أضافه إليه اليهود والنصارىٰ بأهوائهم.

ثم لوَّن الخطاب، فأتىٰ بخطاب العين مراداً به الغير، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الخامسة)، فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ التي أضافوها علىٰ كتبهم ﴿بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾.

وهذا تهديدٌ عظيم تَرعَدُ له الفرائص، وتقشعرُّ منه الأبدان، وليس هذا زَجْراً له ﷺ، إذ لا يخالف ذلك ما في نفسه وانطباعاته، وإنما هو أسلوب من أساليب القرآن

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٦٥) بتصرف.

تجده كثيراً فيه. والمراد: شدَّة التفظيع لما تعلَّقت به هذه الأهواء من الشرك والكفران.

وقال في «المنار»: إنَّ من المعلوم أنَّ شرط (إنْ) لا يقتضي الوقوع، فهو لا يدلُّ علىٰ أن اتِّباع أهوائهم متوقَّع منه ﷺ، وإنما هو فرض لبيان مضمونه بلون من ألوان شدَّة البيان.

وَقال الأستاذ الإمام: مَنْ تدبَّر هذا الإنذار الشديد الموجَّه من الله تعالىٰ إلىٰ نبيِّ الرحمة المؤيَّد بالكرامة والعصمة، علم أنَّ المراد به الوعيد والتشديد علىٰ الأمة، فإنَّ الله تعالىٰ يخاطب الناس كافَّة في شخص النبي ﷺ، كما جرىٰ عرف التخاطب مع الرؤساء والزعماء، فقد يقال للملك: إذا فعلت هذا كانت عاقبته كذا، والمراد: إذا فعلته دولتك أو أمتك.

أقول: ويجوز أن يكون مثل هذا الأسلوب للمبالغة في التفظيع.

ثم استدرك علىٰ هذه الآية الـمُيئِّسة من إيمان أهل الكتاب، بأنَّ منهم مَنْ آمن أو يُرجىٰ إيمانه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فأخذوا ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يتدبَّرونه ويفهمونه فهماً صحيحاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هم الذين يقدرون شأنَ ما جئتَ به، و﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ إيماناً صحيحاً، ﴿وَ﴾ أما ﴿مَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾ من الرؤساء المعاندين والـمقلِّدين الجاهلين، وهم الأكثرون، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ أي: للسعادة الأبديَّة.

قال الأستاذ الإمام: عبَّر عن التدبُّر والفهم، بالتلاوة حقَّ التلاوة، ليُرشدنا إلىٰ أنَّ ذلك هو المقصود من التلاوة، وأن مَنْ يتلوه علىٰ غير هذه الصورة، فهو كَمَثَل الحمار يحمل أسفاراً[١].

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٦٨).

أقول: وعلىٰ هذا فكيف بترجمة القرآن إلىٰ لغة من اللغات، وكيف يتلوه هذه التلاوة مَنْ لم يتعلّم العربية، فلذلك كانت عالميةً كالقرآن والدين الإسلامي.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٢٢) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾.

ثم دعا أهل الكتاب إلىٰ ترك أسباب الغرور المانع من الإيمان بهذا القرآن، وذكّرهم بما له عليهم من المنن والإحسان، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٢٢)﴾، وتمحيصُ ذلك بأن خصَّهم في عصر نزول التوراة دون سائر الأمم، فإنزالها عليهم وانتدابهم لنشرها في الأمم، كما خصَّ العرب بمثل ذلك. وقد تكرَّرت فذكرها أولاً مصدِّراً بها الكلام الذي دعاهم فيه إلىٰ اجتناب الباطل، وذكرها ثانياً مصدِّراً بها الكلام الذي دعاهم فيه إلىٰ اعتناق الحقِّ لتكون هزاً لهم في كلا الموقفين. وإنما ذكَّرهم بهذه الميزة ليثيرَ فيهم الحِرصَ علىٰ التمسُّك بأسبابها، لأنَّ الوصف بالشرف مَثَارٌ للنخوة وحثٌّ علىٰ العمل.

وقد جَعَل هذا تمهيداً لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي: فلا ينفعكم أن تعتذروا بأنهم كنتم متَّبعين لرؤسائكم وعُلمائكم في ذلك الفهم، ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾، وكانوا يعتقدون بالمكفِّرات تُؤْخذ عدلاً عمّا فرطوا فيه، ويعتقدون بشفاعة أنبيائهم لهم[1]، فأوضح لهم الحقَّ بأسلوب تهديدي قرَّره بقوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾، ومَنْ يمنعهم من الله وعذابه؟ أعاذنا الله.

---

(١) ذكر هذا الأمرَ بعضُ المُفسِّرين، وهو غيرُ مُستبعَد في شأن بني إسرائيل المخاطبين في الآية قبل هذا بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ..﴾ [البقرة: ٤٠]. وينظر ما علقتُ عليه في مقدمة التفسير حول الشفاعة (١: ٧٧٩-٧٨١).

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا
يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ
وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ
قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن
كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ
ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن
ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ
فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ
فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

ثم عقَّب سياق الكفر بسياق الإيمان علىٰ نهج القرآن في مثله، ناظراً إلىٰ ما ألمعتْ إليه آية: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠] من ادِّعاء صحَّة ما هم عليه من عقيدةٍ وأعمال، وأنها تُطابق ما جاء به إبراهيم وذُرِّيَّته عليهم السلام، وضَمَّنَ الكلامَ مُحاجَّة الإسرائيليين ومشركي العرب بأنَّ هُدىٰ الله هو ما عليه النبيُّ ﷺ؛ من التوحيد والإسلام الذي هو ملَّة إبراهيم عليه السلام، وأنَّ ما هُم عليه أهواء زائفةٌ، وما يدعونه من أنهم علىٰ ملَّته غير صحيح، وذلك لبيان ما صَدَر عن إبراهيم وأبنائه الأنبياء مما يُصرِّح بالتوحيد وبطلان الشرك وبصحَّة نبوة محمد ﷺ، ذاكراً في ذلك تاريخ إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ أي: بواجبات ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾[1].

---

(١) وجه ربط قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ...﴾ بالسياق: لما ذكر في السياق السابق الطويل أحوال مشركي العرب والمنافقين، وأحوال بني إسرائيل، وأنَّبهم علىٰ قباحة تصرُّفهم في أمر الدين ونَـبْذ كتابهم المبين، وعلىٰ بَـلَاهة منطقهم في عقائدهم الباطلة وأفكارهم المتناقضة =

قال الأستاذ الإمام ـ مُعلِّقاً علىٰ قول بعض المفسِّرين في تفسير الكلمات: أنها الخصال العشر؛ التي منها الختان وقصُّ الشارب[١] ـ قال: إنَّ هذا من الجُرأة الغريبة علىٰ القرآن، ولا شك عندي في أنَّ هذا مما أدخله اليهود علىٰ المسلمين ليتَّخذوا دينهم هزؤاً، وأيُّ سخافة أشدُّ من سَخَافة من يقول: إنَّ الله ابتلىٰ نبياً من أجلِّ الأنبياء بمثل هذه الأمور؟! وأثنىٰ عليه بإتـمامها، وجَعَل ذلك كالتمهيد والتَّرويض لجَعْله إماماً للناس وأصلاً لشجرة النبوَّة، وإنَّ هذه الخصال لو كُلِّف بها صبيٌّ مميِّز لسَهُـلَ عليه إتمامها، ولم يُعَدَّ ذلك منه أمراً عظيماً. والحقُّ أنَّ مثل هذا يُؤْخَذ كما أخبر الله تعالىٰ به، ولا ينبغي تعيين المراد منه إلا بنصٍّ عن المعصوم ﷺ[٢].

أقول: وإن كان ولا بدَّ من البيان، فالأَوْلىٰ أن تُحمل «الكلمات» علىٰ الأوامر الإلَهِيَّة وتنفيذها، أشباهَ تركِ ولدِه وزوجِه بوادٍ قَفْرٍ مُوحش تنفيذاً لأمر الله، ومحاولة

= وسَخَافة دعاويهم وشناعة كفرهم وَلَـيِّ ألسنتهم وطَعْنهم في الدين، عَرَضَ صورةً من الدين الصحيح والعقائد السليمة والعبادة المستقيمة في تاريخ إبراهيم عليه السلام، لأنَّ العرب وبني إسرائيل من ذُرِّيته ويدَّعون أنهم علىٰ شريعته، فَعَرَض ذلك لبيان باطلهم وضلالهم وللمبالغة في الردِّ علىٰ أكاذيبهم وافتراءاتهم وتعلُّلاتهم السخيفة وتبجُّحاتهم المُزْرية، علىٰ نهج القرآن في الكلام عن المؤمنين بعد الكلام علىٰ الكافرين؛ ليتبيَّن الحال للناظرين، ولا عدوان إلا علىٰ الظالمين. (المؤلف).

(١) يشير إلىٰ الحديث الذي رواه البيهقي (١: ٥٣) من حديث عمار بن ياسر مرفوعاً: «عشر من الفطرة: المضمضة، والاستنشاق، والسواك، وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، وغسل البراجم، والانتضاح بالماء، والختان».

والبراجم: هي مفاصل الأصابع، واحدتها: بُرجُمة. وفي معناها كُـلُّ ما يجتمع فيه الوسخ من البدن.

(٢) تفسير «المنار» (١: ٣٧٣- ٣٧٤).

ذبح ابنه تنفيذاً لأمر الله، ومناهضة قومه بكلّ قوة حتىٰ أدّىٰ الأمر إلىٰ محاولة إحراقه بالنار وإخراجه من الديار، إلىٰ أمثال ذلك من عظائم الأمور، والله أعلم، فإنَّ الأنبياء تُروَّض وتُبتلىٰ بما أيْسَرُه يَـجْزَع له كلُّ جَلِدٍ جَسُور، ولا يقوم علىٰ مثله صَبْر صَبُور، وليس ذلك بشيءٍ في جانب مقام النبوَّة المستهدف لعظائم الأعمال وجلائل الأمور. ولا يُعارض هذا أنَّ بعض هذه الأمور جَرَت في أثناء نبوَّته؛ لأن اختبار النبيِّ يكون قبل النبوَّة وأثناءها تدريباً له، ولأنَّ الكلام هنا عَرَض لها، فلا فرق فيه بين السابق واللاحق.

فلما أتمَّ إبراهيم عليه السلام تلك الأمور التي ابتلاه الله وامتحنه بها علىٰ وجهها الأكمل، ﴿قَالَ﴾ تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ تنشر فيهم الدين الصحيح والعمل الصالح. ويظهر من السياق أنَّ المراد بالإمامة درجة عالية في مَسْلك النبوة، والله أعلم. أما إبراهيم عليه السلام، فقد افترص هذا الرضا من الله عزَّ وجل وطلب ما أُلـهِمَ من أن تَتَعاقب هذه الكرامة في عقبه، كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: قال: واجعل من ذُرِّيتي أئمةً للناس، وهذا إيجازٌ في الحكاية عنه لا يُعْهَد مثله إلا في القرآن.

فأجاب سبحانه طلبه بقوله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾، فهذه إجابة ضمنيَّة خفيّة لدعوته ﷺ، وعِدةٌ إجمالية منه تعالىٰ، بتشريف بعض ذريته عليه السلام بنَيْل عهد الإمامة حسبما طلب، فلم يُبعث بعده نبيٌّ إلا كان من ذُرِّيَّته ومأموراً باتِّباع ملَّته.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: لا يكون ذلك إلا مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، لأنَّ العالم غارق في الظلم والظلام، وفي العبارة من الإيجاز ما يتناسب مع إيجاز ما قبلها من الدعاء، فقد صيغت الإجابة بصيغة الطلب نفسه.

ثم قال الأستاذ الإمام: وقد أخذوا من هذه الآية حكماً أصولياً، وهو أنَّ الظالم لا يجوز أن يُولَّىٰ منصب الإمامة العظمىٰ، واشترطوا لصحَّة الخلافة فيما اشترطوا: العلم والعدل(١). لأنَّ المراد بالظالمين: المشركون، والشِّرك جهل وظلم عظيم.

ثم ذكر سبحانه ما كَلَّف به إبراهيم عليه السلام بعد نَـيْله للإمامة، وهو بناء البيت وتطهيره، وسَبَكَ العبارة بصورة تزدحم فيها المعاني، زيادةً علىٰ الغرض الأصلي، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، مذكِّراً العرب بهذه المنة، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، واختار «المثابة» علىٰ «المَزار» لأنها تتضمَّن هذا وزيادة، وتـتناسب مع قوله: ﴿وَأَمْنًا﴾ بمعنىٰ: مَأمناً لهم في بلاد المخاوف التي يُتَخَطَّف الناس فيها مِن حولهم بالقتل والسَّلب، وذلك لأنَّ العرب في الجاهلية كانت تشنُّ الغارات بعضها علىٰ بعض، وتقتل وتأسر وتسلب، ولا يُحترَمُ منهم إلا أهل هذا البيت.

وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ جملةٌ اعتراضية في خلال قصَّة بناء إبراهيم لهذا البيت، تشير إلىٰ اتِّخاذه لهذا الغرض، ووجوب حَجِّه. فأمرنا بذلك مُعجِّلاً قبل إتمام السياق، اهتماماً بالأمر، علىٰ نهج القرآن وبلاغته في مثل ذلك. فالجملة بمقتضىٰ السياق تمنُّنٌ وتنويه، وبمقتضىٰ الصيغة أمرٌ وتشريع.

وفي هذه الآيات تمهيدٌ آخرُ لما سيأتي من أمر تحويل القبلة أيضاً فوق الغرض المنوط بها علىٰ نهج القرآن في ازدحام المعاني والأغراض في أكثر تراكيبه وأساليبه.

أما مقام إبراهيم فقد قال بعضهم: إنه الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء الكعبة، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس وقتادة وجابر وغيرهم. وقال آخرون: إنه الحرم كله، وهو مرويٌّ عن النخعي ومجاهد. وعن عطاء: أنه مواقف الحج كلها(٢).

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٧٦).

(٢) روىٰ هذه الآثار الطبري في «تفسيره» (٢: ٣٣-٣٤).

ويظهر من قوله تعالىٰ: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ أن المراد بالمصلّىٰ: معناه العام، وهو المعبد كما ذهب إليه بعض المفسِّرين. وعليه، فيكون المراد من المصلّىٰ: المدَّعىٰ، أي: ما يُدعىٰ الله فيه وما يُتَوجَّه فيه إليه، فيكون المراد من الصَّلاة هنا معناها اللغوي لا الاصطلاحي، ولكنه يشمله لأنه أعمُّ منه.

وإضافة البيت إلىٰ الله تعالىٰ للتعظيم، إذ كل شيء عظَّمه الله تعالىٰ أضافه إلىٰ نفسه كما في قوله تعالىٰ: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، و(خليل الله)، و(روح الله). وعبَّر بالتطهير عن البناء؛ تعبيراً بالغاية، وتهجيناً للمشركين عن تلويثه بالأصنام.

وبعد أن نوَّه بشأن هذا البيت زيادةَ تنويه، ألمع إلىٰ التَّنويه بشأن بلدِ هذا البيت، ذاكراً سبحانه الحال الثالث من أحوال إبراهيم عليه السلام، وهو دعاؤه لهذا البلد وأهله المؤمنين منهم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فخصَّ بدعائه المؤمنين كما هو اللائق به، ولكنَّ الله واسعُ الرحمة، جَعَل رزق الدنيا عاماً للمؤمن والكافر، فاستجاب دعاء إبراهيم عليه السلام بأوسع ممَّا طلب، مُبيِّناً أنَّ فَضْله لا يختصُّ بالمؤمن، إلا أنه في حقِّ الكافر متاع في الدنيا فقط، حيث قال: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾، وفي الآية إيجازٌ بليغٌ، والتقدير: قال: أرزق مَنْ آمن ومَنْ كفر، ولكن أمتِّع به الكافر قليلاً في الدنيا، ثم أضْطرُّه إلىٰ عذاب النار في الآخرة.

قال في «المنار»: ذكَّر الله تعالىٰ العرب أولاً بنعمته عليهم بهذا البيت، إذ جعله مثابةً للناس وأمناً، وبدعاء إبراهيم عليه السلام لبلد البيت، واستجابة الله تعالىٰ دعاءه، إذ جعله بلداً آمناً تُـجْبىٰ إليه الثمرات من البلاد البعيدة فيتمتَّع أهله بها، وهي نِعَمٌ

يعرفونها لا ينكرونها. وانتقل منها إلىٰ التذكير بالنعم المعنويَّة، فذكر عَهْدَه إلىٰ إبراهيم وإسماعيل بأن يُطَهِّر بيته للطائفين والعاكفين والركَّع السجود، لِيُنَبِّههم بإضافة البيت إلىٰ نفسه أنه لا يليق أن يُعبَدَ فيه غيرُه، وبتطهيره لأجل الطواف والاعتكاف والصلاة أنه يجب تنزيهه عن الأصنام والتماثيل وعبادتها الفاسدة، وعن سائر الأعمال الذميمة كطواف العريان، وكانوا يَفْعَلونه.

ثم ذكَّرهم بعد هذا بأنَّ إبراهيم هو الذي بنىٰ هذا البيت بمساعدَةِ ابنه إسماعيل، وذكَر لهم من دعائهما هناك ما يُرشدهم إلىٰ العبادة الصحيحة والدين الحق، ويَجْذبهم إلىٰ الاقتداء بذلك السلف الصَّالح الذي ينتمون إليه ويفاخرون به[1]. فقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ قائلين: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾، وشرفُ هذا البيت إنما هو بتسمية الله إيَّاه بيتَه، وجَعْلِهِ موضعاً لضروبٍ من عبادات مخصوصة فيه لا تكون في غيره.

ثم تابعا الدعاء فقالا: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي: منقادَيْن خاضعَيْن. والمراد: ما يشمل التوحيد والإخلاص والعمل جميعاً، ﴿وَ﴾ اجْعَل ﴿مِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، وقد غَلَب استعمال النُّسُك في عبادة الحج خاصَّة، واستعمال المناسك في معالمه وأعماله، كمواقيت الإحرام والوقوف والطواف وأمثال ذلك.

ثم قالا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾، وهذِهِ الفاصلة تعليلٌ للدعاء، ومزيدُ استدعاء ورجاء للإجابة.

وقد قيل: إذا أراد العبد أن يُستجاب له فَـلْيدع الله عزَّ وجل بما يناسب ذلك الدعاء من أسمائه وصفاته.

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٨٣).

ويختلف اتهام هؤلاء الأبرار لأنفسهم باختلاف معرفتهم بصفات النفس وما يعرض لها من الآفات في سَيْرها، ومعرفتهم بكمال الله عزَّ وجل، ومعنىٰ القرب منه واستحقاق رضوانه، ولذلك قال بعض العارفين: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين.

واعلم أنَّ الظاهر يدلُّ علىٰ أنَّ أول ما جرىٰ من الأمور المحكيَّة في هذا السياق هو الابتلاء وما يتبعه، ثم الدعاء للبلد، ثم رَفْعُ قواعد البيت، ثم جَعْلُه مثابةً للناس، والأمرُ بتطهيره. وإنما غيَّر في الترتيب الوقوعي في الحكاية لتنظيم الشؤون الصَّادرة عن الله سبحانه في سلك مستقلّ، وتنتظم الأمور الصادرة عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من الأفعال والأقوال في سلك آخر.

أما قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فإنما وقع في تَـضاعيف الأحوال المتعلِّقة بإبراهيم عليه السلام لاقتضاء المقام ذلك، بحيث لم يكن منه بُدّ، وكذلك وقوع قول إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ في كلامه سبحانه.

ثم تابعا الدعاء، فبعد أن طلبا أن يكون من ذُرِّيَّتهما أمةً مسلمةً منقادةً لأوامر الله تعالىٰ، طلبا طريقَ هدايتها، فقالا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، والضمير يعود إلىٰ الأمة المسلمة التي سأل اللهَ إبراهيمُ أن يجعلهم من ذُرِّيَّته، وقد أجاب الله هذه الدعوة بإرسال خاتم النبيين، كما وَرَد في الحديث: «أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسىٰ»[1] إلخ، وإنما خصَّ إبراهيم بالذكر لأن إسماعيل تَبَعٌ له.

ثم ذكرا مهمة ذلك الرسول، فقالا: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ

---

(١) رواه أحمد (١٧١٥٠) ـ وقال مُخرِّجوه: حديث صحيح لغيره دون قوله: «وكذلك أمهات النبيين ترين» ـ، والحاكم (٣٥٦٦) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه.

وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾، وهذه الكلمات من إبراهيم عليه السلام تُقرِّر الصِّلة التاريخية المتينة التي تربط هذا النبيَّ وأمته بذَيْنِكَ النبيَّين الجليلَيْن ودينهما. وهذه الفاصلة تعليلٌ لإجابة المؤمَّل، بأنه مما تَقْتضيه الحكمة، وبأنَّ الله سبحانه لا يُغْلَب علىٰ ما يريد. والأنبياء لا تدعو بمثل هذا الدعاء وتطلب مثل هذا الطلب، إلا بعد الوحي الإلهامي من الله، بأنَّ ذلك بالحسبان.

وقد عُلِمَ مِن عَهْدِ بناء البيت إلىٰ إبراهيم وتطهيره لعبادته ودعائه بهذا الدعاء: أنَّ ملَّته هي توحيد الله، وإسلام القلب إليه، والإخلاص له بالأعمال، وتعظيم البيت، وإقامة المناسك فيه؛ لذلك بكَّت الله سبحانه المشركين بقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾(١)، أي: امتهنها واستخفَّ بها. كأنه تعالىٰ يقول: هذه ملَّة أبيكم إبراهيم الذي تنتسبون إليه وتفخرون به، فكيف ترغبون عنها وتنتحلون لأنفسكم أولياء لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً(٢).

ثم إنه تعالىٰ لما حكم بسَفَاهة مَنْ رَغِبَ عن ملَّة إبراهيم عليه السلام، بيَّن السبب والوجه، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بهذه الملَّة، فجعلناه إماماً للناس، وجعلنا في ذُرِّيتـه الكتاب والنبوة، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ لجوار الله، وذلك بعمله بهذه الملَّة، ودعوته إليها، وإرشاده الناس بها. فملَّةٌ جَعَلَت لإبراهيم هذه المكانة عند الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة لا يَرغَبُ عنها إلا من سَـفِه نفسَه وجَنىٰ علىٰ إدراك عقله، فاستحبَّ العَمَىٰ علىٰ الهُدىٰ.

---

(١) السفه: هو أن يرىٰ النفع في موضع الضرر، والضرر في موضع النفع، فيجوز أن يضمَّنَ «سَفِهَ» معنىٰ: خسر، أي: خسر نفسه بهذا النظر الفاسد. (المؤلف).

(٢) كانت قريش تنتسب إلىٰ إبراهيم وإسماعيل، وتدعي أنها علىٰ ملة إبراهيم، وسائرُ العرب تبعاً لها، وكانت تعتقد أنها أهدىٰ من الفرس والروم باتباعها لإبراهيم. (المؤلف).

وإنما آثَرَ الجملة الاسميَّة في جانب الصَّلاح في الآخرة؛ لأنه أمرٌ خفيٌّ يحتاج إلىٰ تأكيدٍ أشدَّ من تأكيد الاصطفاء.

ثم حكىٰ حالة خامسة عن أحوال إبراهيم عليه السلام، وسَبَك العبارة علىٰ أن تكون تصويراً للاصطفاء، وتعليلاً له ولكونه من الصَّالحين، كما هو أسلوب القرآن في بلاغة التراكيب وضروب الإيجاز، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي: اصْطَفَاه إذْ دعاه إلىٰ الإسلام بما أراه من آياته، ونَصَبَ له من بيِّناته، فأجاب الدعوة، و﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾، وفي هذا الوصف إيذانٌ بكمال إسلامه المبنيِّ علىٰ النظر والاستدلال.

وقد نشأ إبراهيم ﷺ في قوم يعبدون الكواكب ويتَّخذون الأصنام، فأراه الله حُجَّته وأنار بصيرته، فنفذت أشعتُها في العالم الشمسي ونظامه، وأدركت أن لجميع العالمين رباً واحداً منفرداً بالخلق والتدبير. وحاجَّه قومه فَبَهَرهم ببرهانه وأفحمهم ببيانه، وقد قصَّ الله تعالىٰ خبره معهم في سورة الأنعام[1].

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

ثم ذكر تعالىٰ تكميلَه عليه السلام لغيره، إثر ذكر كمالِهِ في نفسه، توكيداً لوجوب الرغبة في ملَّته، فقال: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ أي: بالملَّة أو بالخصلة التي ذكرت أخيراً ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ بنيه، وهذا العطف بيانٌ لتكميل يعقوب أيضاً لغيره إثر بيانِ كمالِهِ في

(١) في الآيات ٧٤-٨٣.

نفسه، إيذاناً بتسلسل تلك الوصيَّة فيهم، فكانا يوصيان بها بنيهما قائلين: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي: اختاره لكم؛ بهدايتكم إليه، وجَعَل الوحي فيكم، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ وهذا لونٌ بليغ من ضروب تعابير القرآن، يدلُّ علىٰ الحثِّ بأن يبالغوا في تمسُّكهم بالإخلاص والانقياد إلىٰ الله. علىٰ حدِّ قولهم: مت وأنت شهيد.

ثم قال في «المنار»: ذَكَرَ ملَّةَ إبراهيم وحُكْمَ الراغب عنها، ووصيَّتَه بَنِيه بها، ووصيَّةَ حفيده يعقوب بَنِيه بها أيضاً، وذلك يشعر بأنَّ بني إبراهيم كانوا يوصُون بما أوصاهم أبوهم. فإن يعقوب أخذ الوصيَّة عن أبيه إسحاق، وذلك من ضروب الإيجاز الدقيق في القرآن.

ثم أراد أن يقرِّر أَمْرَ هذه الوصيَّة ويؤكِّدها، ويقيم الحجَّة بها علىٰ أهل الكتاب متندِّراً عليهم، فقال: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾[1]، وخلاصة هذه الوصية: عقيدة التوحيد والتنزيه، وإسلام القلب لله تعالىٰ، والإخلاص له.

وصورةُ الكلام لونٌ بليغ وبديع من التَّقريع للمشركين علىٰ تمسُّكهم بدين الشرك، وادِّعائهم أنه دينُ إبراهيم عليه السلام. وإبراهيمُ وأولاده كانوا يوصُون بالتوحيد والتنزيه، أو هو تقريعٌ لليهود كذلك.

و﴿أَمْ﴾ للعطف علىٰ محذوف، كما هي سنة القرآن (المذكورة في الفقرة (ب) من المادة العاشرة من المقدِّمة الثانية).

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٩٢).

والتقدير: أكنتم غائبين أم كنتم شهداء؟ وهذا الاستفهامُ ملفوفٌ بتندُّر وهُزْءٍ، وفيه مبالغةٌ في التقرير، أي: إني أزيدكم علماً بهذه الوصيَّة وحرصهم عليها. ويجوز أن تكون «أم» لمجرَّد الاستفهام.

ثم عقَّب النهج التقريعي التهكُّمي، بالنهج التَّصريحي، مُلمِعاً إلىٰ أنَّ بينكم وبينهم تَبايناً بعيداً، فقد كانوا علىٰ الحق، وأنتم علىٰ الباطل، فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾، وفي هذه الفاصلة تنـزيلٌ لهم منزلة غير الراضين عن عبادتهم، إيماءً لبُعدهم عنهم، ومبالغةً في مغايرتهم لهم، وشدَّةَ قطع لأطماعهم عن الانتفاع بحسنات أسلافهم، فلا ينتفع أحد بعمل غيره إذا لم يكن له شيء في العمل، ولا يُجزىٰ أحد بعمل غيره، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩ – ٤١]. وهذا القانون المقرَّر في الكتب السماوية قديمها وحديثها بلا خلاف فيها.

وقال الإمام الغزالي: إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والدُه دونَه، والظمآن يُرْوَىٰ بشُرب والدِه، فالعاصي يَنْجو بصلاح والده[1].

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٣٥)﴾.

ثم أعاد مضمون قوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وأكمل الردَّ عليه بعد أن تهيَّأ الكلام بذكر تاريخ إبراهيم عليه السلام

(١) يراجع كلام الغزالي في «الإحياء» (٣: ٣٨٥).

وديانته عائداً بالكلام إلىٰ محوره السابق - وهو مساوئ بني إسرائيل وضلالهم الشنيع - علىٰ نهج القرآن في العودة، فقال: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾، وفي هذا الكلام إيجازُ القرآن وسَبْكُه الخاص. والمراد: قالت اليهود: كونوا هُوداً، وقالت النصارىٰ: كونوا نصارىٰ. كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، وإنما يُوجز القرآن مثل هذا الإيجاز، اعتماداً علىٰ ظهور المراد بدلالة الاقتضاء ومعونة السياق. وذلك من البلاغة العالية.

ومعنىٰ الآية: إن اليهود يدعون إلىٰ اليهودية التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها، والنَّصارىٰ يدعون إلىٰ النصرانية التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها، لذلك قال تعالىٰ مُلقِّناً لنبيِّه ﷺ البرهان في مُحاجَّتهم: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٣٥﴾ أي: نتَّبع ملَّة إبراهيم الذي لا تنازعون في هُداه ولا في هَدْيه، فهي الملة الحنيفيَّة التي لا انحراف فيها ولا زَيْغ، المبنيَّة علىٰ التوحيد والتَّنزيه بلا وثنيَّة ولا شرك.

والحنيف في اللغة: المائل. وإنما أطلق علىٰ إبراهيم هذا اللقب أو الوصف؛ لأنَّ الناس في عصره كانوا علىٰ طرائق مُنوَّعة من الشرك والكفر، فخالفهم كلهم، وتنكَّب عن طرائقهم.

وفي هذا الردّ عليهم تعريضٌ ببطلان دَعْواهم اتِّباع إبراهيم عليه السلام. وإنما الذين يتَّبعونه المؤمنون بدين الإسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٣٥﴾ تعريضٌ بأنه ليس منهم وليسوا منه في شيء، وتعقيبٌ لإثبات الشيء بنفي ضدِّه، علىٰ نهج القرآن في ذلك.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

ثم خاطب المؤمنين وأرشدهم إلىٰ طريق التوحيد والإيمان بضَرْب من التفصيل، تحقيقاً للحقِّ في مقابلة دعوىٰ اليهود والنصارىٰ الباطلة، فقال: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾، ثم غيَّر الأسلوب تفخيماً لشأن المنزَّل إلينا فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: فكلُّهم رسل الله، وكلُّ شرائعهم من أم الكتاب، فلا نقول كما يقول غيرنا: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ولكنها أتت متدرِّجة تدرُّج صفوف العلم، وينسخ الثاني الأولَ مثل قوانين الدولة.

وإنما قال: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾، ولم يقل: (لا نُفرِّقُ بينهم)؛ للتنصيص علىٰ عدم التفريق بين كلِّ فرد وفرد منهم، ثم أكمل البيان بقوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: مُنقادون لله مُذْعنون.

والمنزَّل إلينا: القرآن، والمنزَّل إلىٰ إبراهيم: الصُّحُف، وعَدَّها كذلك مُنزَّلةً علىٰ إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط؛ لأنهم مكلَّفون بالعمل بها. وما أوتي موسىٰ: التوراة، وعيسىٰ: الإنجيل. وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ إجمالٌ لما قبله وتقرير. وقيل: المراد بما أنزل: الشرائع، وبما أُوتوا: المعجزات والآيات الكونيَّة.

ثم بكَّتَ أولئك المعاندين بهذا الأسلوب الإفْحامي، فقال: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ

مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن ذلك ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ فألمع سبحانه بدلالة الإيماء ومَعُونة السياق إلىٰ أنَّ غرضهم من هذه الدعوىٰ: الشقاق والمشَاغَبة والخصام والتنصُّل من الإيمان بالقرآن، وأنَّ الله سبحانه سيكفيك شرَّهم وفسادهم، فلا تهتمَّ لأمرهم.

وفي صيغة الكلام مقابلةُ فَهْم وقَلْبٌ للوصف، أي: إن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، لا إنْ آمنتم بما آمنوا به اهتديتم.

وفيه أيضاً تسليةٌ له ﷺ وتثبيتٌ، وإنما جرَّد الخطاب له في الكفاية مع أنها للكُلِّ؛ لأنه الرئيس يُخاطَب بما هو للمجموع.

وقيل: الكلام من باب الاستدراج وإرخاء العنان، أو من باب التعجيز والتبكيت، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]. والمعنىٰ: فإن حصَّلوا ديناً آخر مثل دينكم، مماثلاً له في الصحَّة والسَّداد؛ فقد اهتدوا، وإذ لا إمكان له؛ فلا إمكان لاهتدائهم إلا بهذا الدين.

ثم عبَّر عن الإيمان بما ذكر علىٰ الوجه الذي فصَّل، ووصفه بقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾، وإنما عبَّر عنه بهذه العبارة وَوَصفه بهذا الوصْف، لكون هذا الإيمان تطهيراً للمؤمنين من أوْضَار الكفر، وحليةً تُزيِّنهم بآثاره الجميلة وأحواله الجليلة، كما أنَّ شأن الصَّبغ بالنسبة إلىٰ الثوب كذلك. وهي مصدرٌ منصوب علىٰ الإغراء، وقيل: مصدرٌ مؤكِّد لقوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، لكونه بمثابة فعله أو لازمه، لأن الإيمان تكييف للنفس كالصَّبغ، وتثقيفٌ لها بأحسن أنواع التثقيف.

وقال الأستاذ الإمام: تُشير هذه الآية إلىٰ أنه لا حاجة في الإسلام إلىٰ تمييز المسلم من غيره بأعمال صناعيَّة كالمعموديَّة عند النصارىٰ مثلاً، وإنما المدار فيه علىٰ ما صبغ الله

به الفطرة السليمة من الإخلاص وحبِّ الخير والاعتدال والقَصْد في الأمور، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠](١).

ثم نوَّه سبحانه بشأن هذه الصبغة، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾، وعلىٰ رأي الأستاذ فيما بيَّن من التلميح، يكون في الكلام مشاكلة تقديرية، وذلك لأنَّ النصارىٰ كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمُّونه المعموديَّة، ويزعمون أنه تطهيرٌ لهم، وبه تتحقَّق نصرانيَّتهم، فردَّ الله سبحانه عليهم وكذَّبهم بطريقة المشاكلة، مُبيِّناً أنَّ هذا الدين الصحيح هو صبغة فطرية إلٰهيَّة، لا صبغة كاذبة وهميَّة كصبغتكم.

وإجمال البحث عن السياق: أنَّ الملَّة الصحيحة هي ملَّة إبراهيم، وهي لم تكن يهوديَّة ولا نصرانيَّة، وإنما هي صبغة إلٰهيّة، صبغة الله التي لا صُنع لأحد فيها، بل هي بريئة من اصطلاحات الناس وتقاليد الرؤساء، فهي الجديرةُ بالاتِّباع، ولكن التقاليد والتحريفات والمواضعات قد طمستها؛ لذلك جاء محمد ﷺ ببيانها ودعوة الناس إلىٰ الرجوع إليها.

ومن مباحث اللفظ: أنه يجوز أن يقال فيه: إنَّ قوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ منصوب علىٰ الإغراء، وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾ معطوف عليه بتقدير القول، أي: الزموا صبغة الله وقولوا: ونحن له عابدون.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ١٣٩ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا

(١) تفسير «المنار» (١: ٤٠٠).

ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تلقينه إلزامَهم وإفحامَهم بطريقة ثانية، فقال: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ أي: بدعواكم الاختصاص بالقُرب منه، وزعمكم أنكم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لن يدخل الجنَّة إلا مَنْ كان هُوداً أو نصارىٰ، من أين جاءكم هذا القرب والاختصاص دوننا، ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ وربُّ العالـمين؟ فنسبة الجميع إليه واحدة، هو الخالق وهم المخلوقون، وهو الربُّ وهم المربوبون، وإنما يتفاضلون في الأعمـال البدنيَّـة والنفسيَّـة، فلنا اعتقادنا ولكم اعتـقادكم، ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾، وروح الأعمال: الإخلاص، فهو وحده الذي يجعلها مقرِّبةً لصاحبها من الله، ووسيلةً لمرضاته، ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ من دونكم، فإنكم اتَّـكلتُم علىٰ أحسابكم وأنسـابكم، واغْترَرتُم بما كان من صلاح آبائكم وأجدادكم.

والإخلاص: هو أن يأتي الإنسان بأعمال نقيّة لا يشوبها أدنىٰ رياء أو شرك، وهو من الصفات الروحيَّة التي تسمُو بالمرء إلىٰ منزلة رفيعة من الخُلق الإنساني.

ثم عطف علىٰ قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ قولَه: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾، فـ﴿أَمۡ﴾ هنا هي المعادِلةُ للهمزة في قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾، علىٰ معنىٰ: أيُّ الأمرين تأتون: إقامة الـحُجَّة وتنوير البرهان علىٰ حقيَّة ما أنتم عليه فقد أبطلناه عليكم، أم التَّشبُّث بذيل التقليد والافْتراءُ علىٰ الأنبياء بأنهم علىٰ دينكم، ولم يحدث اسم اليهودية والنصرانية إلا من بعدهم. وإنما قَرَنَ الشقَّ الأول بالرد بقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾، ولم يقرن الشق الثاني، وهو ما بعد ﴿أَمۡ﴾ بالردِّ؛ لأنه ظاهر البطلان.

ثم انتقل إلىٰ طريقة أخرىٰ في المحاجَّة والإلزام عن تزكيتهم لأنفسهم وادِّعاءِ

أنهم هم المرضيُّون عند الله، فقال: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ﴾ أي: بالصنف المرضيِّ عند الله من الشرائع والأحكام وأربابها ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ أعلَمُ بها يُرضيه وما لا يُرضيه، أو: وقد أبطل دعواكم بأنهم منكم.

ثم زاد في إلزامهم بالتَّشنيع عليهم في كتمانهم الحقَّ الذي يعرفونه في ذلك، مُلْمِعاً إلىٰ أنَّ مثل هؤلاء كيف يكونون مرضيين عند الله؟ فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وهي شهادة كتابهم المبشِّر بأنَّ الله يبعث فيهم نبياً من بني إخوتهم العرب من أبناء إسماعيل.

ثم أكَّد التوبيخ والتقريع بالوعيد، فقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ خابوا وخسروا.

ثم ختم المحَاجَّة بتكرير الجملة السابقة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾، لأنَّ ما قبلها مُـماثِلٌ لما قبل سابقتها، فهي للمبالغة في زَجْرهم عمَّا هم عليه من الافتخار بالآباء، والاتِّكال علىٰ أعمالهم، والادِّعاء بأنهم علىٰ ملَّتهم، وسالكون مَسْلكهم، وسائرون علىٰ آثارهم. وهذا الوجه هو الصواب. وقد نزَّلتهم الآية منزلة غير الراضين عنهم، زيادةَ إبعادٍ لهم عنهم، وزَجْراً عن فخرهم بهم.

وقيل: بل الخطاب السابق بهذه الجملة لهم، وهذه لنا للحثِّ علىٰ العمل، وأن لا نكون مثلهم في شبه تلك الأعمال، وأن لا نغترَّ بشفاعة سلفنا الصالح، ونجعلها وسيلة في النجاة إذا نحن قصَّرنا في عملنا، فليس للإنسان إلا ما سعىٰ.

وعليه، فالمراد بالأمة في الأولىٰ: الأنبياء عليهم السلام، وفي الثانية: أسلاف اليهود. أما علىٰ الرأي الأول: فالمراد بالأمة: الأنبياء في الآيتين[1].

---

(١) ما يأتي من الكلام عن القبلة مقتطف من «المنار» ببعض تصرُّف. (المؤلف).

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

ثم انتقل إلىٰ أمر تحويل القبلة، مُساوقاً بالكلام مشاغبات اليهود والمشركين، ومُنبِّهاً علىٰ ما سيكون منهم في هذا الأمر من المشاغبات، ومبيِّناً أنَّ هؤلاء السفهاء الضَّالِّين المضلِّين سيتهزونه ذريعةً لإثارة الفتن والتضليل في ضعفاء النفوس وضعفاء الإيمان، ويتَّبعون فيه معهم ما اتَّبعته الشياطين علىٰ عهد سليمان.

وقدَّم الكلام علىٰ ما سيثيره السفهاء في ذلك قبل الكلام عليها اهتماماً به ومساوقةً لمساوئ أهل الكتاب، وذلك مما تقتضيه البلاغة العالية في دقَّة المسلك، فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ...﴾(١)، أي: إنا سَنُحَوِّلك عن الصخرة(٢) إلىٰ الكعبة، وحينئذ سيقول

---

(١) كان النبي ﷺ وأصحابه قبل الهجرة يستقبلون الكعبة في صلاتهم، قبلة أبيهم إبراهيم عليه السلام، فلمَّا هاجروا أمروا بالتوجُّه إلىٰ بيت المقدس، واستمرَّ ذلك نحو سبعة عشر شهراً، ثم أمروا ثانياً بالتوجُّه إلىٰ الكعبة، إحياءً لذكرىٰ المسجد الحرام في القلوب، وفتحاً لباب الأمل بالرجوع إليه، وإثارةً لحميَّتهم في ذلك، ليُخلِّصوه ممَّن منعهم منه.
وقيل: كان ﷺ يُصلِّي بمكة إلىٰ بيت المقدس والكعبةُ أمامه، فلمَّا هاجر إلىٰ المدينة لم يمكن الجمع بينهما، فصلَّىٰ إلىٰ بيت المقدس أول مَقْدَمِهِ المدينةَ واستدبر الكعبة سبعة عشر شهراً، ثم أُمِرَ باستقبال الكعبة المشرفة لما ذكرنا. (المؤلف).

(٢) لم يثبت أن التوجُّه في الصلاة إلىٰ بيت المقدس كان من أجل الصخرة، فإن كان لا بُدَّ من تعيين بقعة أصغر من بيت المقدس، فالأصح أن يُقال: إلىٰ المسجد الأقصىٰ، دون تخصيص بالصخرة.

ما يقول السفهاء ويُشاغِبون ما يُشَاغبون، لأنهم متىٰ وجدوا مَـجَالاً للمشاغبة لم يألوا جُهداً.

والألف واللام للعهد، إذ المراد بهم مَنْ كانوا موضوعَ البحث في السياق السابق، وهم أهل الكتاب والمنافقون والمشركون من العرب، وعَنْوَنَهُم بهذا العنوان للإيماء إلىٰ مبالغتهم في الكذب المتعمَّد والبُهتان، في سبيل تضليلهم للناس وإفسادهم، لأنَّ السفيه هو البهَّات الكذَّاب المتعمِّدُ خلافَ ما يعلم، فهم يعلمون أنَّ توجُّهكم للكعبة حقٌّ واجبٌ عليكم، يعلمون ذلك من كتابهم المبين أنَّ النبيَّ المبشَّر به سيستقبل الكعبة، ولكنهم بـهتاناً وتضليلاً يقولون: ﴿مَا وَلَّـٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ وهي: بيت المقدس.

فلقَّن الله سبحانه نبيَّه ﷺ الحُجَّة البالغة والحكمة السديدة في أمر الاستـقبال بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: إنَّ الجهاتِ كلَّها لله، لا فَضْل لجهة منها بذاتها علىٰ جهة، وإنَّ لله سبحانه وتعالىٰ أن يُخَصِّص منها ما شاء فيجعله قبلة لمن يشاء، لتكون جامعةً وشعاراً لهم في عبادتهم، وهو الذي ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: يصل سالُكه إلىٰ سعادة الدارين.

وليست القبلة إلا إشعاراً بأنَّ مساجد المسلمين في القارات الخمس كلِّها مربوطة بهذا المسجد، فتتوحَّد بذلك الأمة جمعاء في أهم عمل لها، ثم أوجب سبحانه علىٰ كلِّ مستطيع أن يزور هذا المسجد مرة في عمره، وجَعَل ذلك في أيام خاصَّة ليحتشدوا علىٰ عبادة تـشعر بالإجابة لله علىٰ أذان إبراهيم عليه السلام، وبصورة مظاهرة بالتلبيـة والتمجيد والتحميد لله.

وفي هذه الجملة أيضاً إشارة إلىٰ تفنيدهم وتفهيمهم أنَّ الأصل الهداية إلىٰ الصراط

المستقيم، بما ينزله سبحانه من الشرائع، لا التوجُّه إلىٰ جهة مخصوصة، أو إلىٰ بيت المقدس. ومحصَّل الجواب: أن ذلك بتوجيه الله الذي يعلم كل شيء ويفعل ما يشاء.

ثم وجَّه الخطاب إلىٰ المؤمنين؛ مُلمعاً إلىٰ أنَّهم ممَّن هداهم الله وأناط بهم أمر هداية الناس، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ هَدَيناكم و﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[1] أي: معتدلةً وعلىٰ صراط مستقيم، بما أنزل عليكم من هذا الدين المبين، وواسطةً في تبليغ غيركم من الناس أجمعين، ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي: فيما تُعلِّمونهم من هذه الشريعة الفاضلة الكاملة، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ أي: فيما يبلِّغكم من رسالات ربه.

ومُلخَّص المعنىٰ: أنَّ الله سبحانه جَعَل القِبلة في بلادكم، وبعثَ النبيَّ ﷺ منكم وبلغتكم؛ لتكونوا معلِّمين للناس هذه الشريعة الغرَّاء المعتدلة، وشهداء عليهم، ويكون الرسول مُبلِّغاً لكم وشهيداً عليكم. فالآية تُؤْذن بأن الله سبحانه وتعالىٰ انتدبَ العربَ لنشر هذا الدين المبين بين الأمم المتفرِّقين، وجَعَلهم مسؤولين عن ذلك، وخصَّ هذه المنقبةَ بهم، كما جَعَل القبلة في بلادهم، لأنهم هم الذين يفهمون لغة القرآن فهماً صحيحاً، فيتحتَّم عليهم أن يكونوا أئمةً ومعلِّمين للأمم التي لا تفهم تلك اللغة بهذه المثابة، يعلِّمونهم الدين ولغة هذا الدين، فإنَّ تعلُّمَ اللغةِ العربية ـ التي هي لغة هذا الدين

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ...﴾، قال بعض المفسرين: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: الذين كانوا قبلكم، تشهدون عليهم بمقتضىٰ ما علمتموه من كتابكم أنَّ الله سبحانه بعث أنبياء إلىٰ أمم، فآمن من آمن وكفر من كفر، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: بأنه أتاكم بكتاب من عند الله، فآمن من آمن وكفر من كفر. وقد اختار سبحانه الأمة العربية لنشر هذا الدين المبين؛ لأنها كانت تمتاز عن سائر الأمم بسَعة المدارك وألمعيتها، ووَفْرة المواهب ونُضوجها، وسلامة الأخلاق وكرم معدنها، وثراء لغتها الدقيقة الأنيقة، التي هي مقياس النُّبل والإنسانية، ومعيار الأصالة والمدنيَّة. (المؤلف).

المبين ـ واجبٌ علىٰ كلِّ مسلم، بل علىٰ كلِّ البشر، لأن الله سبحانه طَلَبَ أن يكون هذا الدين ولغته عالميَّتَين. وكلُّ من أحسن اللغة العربية ودان بدين الإسلام فهو عربيٌّ، كبلال وصهيب وسلمان وسيبويه والبخاري وأبي حنيفة النعمان.

وقد جاء عنه ﷺ: «ألا إنَّ العربية اللسان»[١].

ومحصَّل البيان: أنه لما كان قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يشير مضمونه بمعونة السياق إلىٰ أنَّ الأمر باستقبال الكعبة منَّـةٌ من الله علىٰ العرب لإتمام النعمة عليهم، بأن تكون القبلة في بلادهم، إحياء لمآثرهم القديمة في زمن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أردفه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ يمتنُّ علىٰ العرب أيضاً وينتدبهم لنشر هذا الدين العالمي ولغته العربية في الآفاق بين الناس.

ومفاد الكلام: أننا جَعَلناكم واسطةً بين الرسول وبين الأمم لتكونوا شهداء علىٰ الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذَكَرَ الشَّهادةَ وأراد التعليمَ؛ لأنَّ المعلِّم يشهد علىٰ درجة التلميذ في تطبيقِهِ العلمَ علىٰ العمل. ويؤيِّد هذا الرأي ما جاء في آخر سورة الحج من قوله تعالىٰ: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، وما جاء في سورة الزخرف من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٤: ٢٢٥) من حيث أبي سلمة بن عبد الرحمن، وفيه: «ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم، إنما هي لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي». وقال ابن عساكر عقبه: هذا حديث مرسل، وهو مع إرساله غريب، تفرَّد به أبو بكر سلمىٰ بن عبد الله الهذلي البصري، ولم يروه عنه إلا قرة. وقال ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» ص١٦٩: هذا الحديث ضعيف، وكأنه مركب علىٰ مالك، لكن معناه ليس ببعيد، بل هو صحيح من بعض الوجوه.

وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، فارجع إليه ودقِّق النظر فيه يتَّضحْ لك الأمر جلياً. هذا رأيـي. والله أعلم.

وكذلك ما جاء في حديث الأعرابي الذي بال في المسجد من قوله ﷺ: «فإنما بُعثتم ميسِّرين ولم تُبعثوا معسِّرين»[١]. فكلمة: (بُعثتم) تُؤْذن بذلك.

وأما ما قاله المفسِّرون في الآية، فأولاه ما مُلَخَّصه: أنَّ اسم الإشارة في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ يعود إلىٰ الهداية إلىٰ الصِّراط المستقيم، أي: علىٰ هذا النَّحو من الهداية هَدَيناكم وجعلناكم أمة وسطاً معتدلين، بمعنىٰ: أنزلنا عليكم شريعةً تجعلكم ذوي أخلاق فاضلة؛ لأنَّ الفضيلة وَسَط بين طرفين كل منهما[٢] رذيلة، كالشجاعة مثلاً؛ فإنها وسط بين التَّهوُّر والجبن، وكالكرم؛ فإنه وسط بين التبذير والبخل، وهكذا سائر الفضائل.

وإنما أنزلت عليكم هذه الشريعة المكوَّنة من الكمالات الإنسانية والفضائل الأخلاقية، لتنشروها بين الناس وتكونوا شهداءَ عليهم، وحُجَّةً علىٰ المتطرِّفين منهم بما فرَّطوا في جَنْب الله، ويكون الرسول شهيداً عليكم بما وافقتم سُنَّته، وما كان لكم من الأسوة الحسنة فيه إذا استقمتم علىٰ صراط الهداية، ويكون حُجَّة عليكم إذا انحرفتم عنها. وذلك لأنَّ ما هُدِيتُم إليه هو الكمال الإنساني الذي ليس بعده كمال، وقد انتُدِبْتُم لنشره بين البشر علىٰ اختلاف الأجناس.

قال الأستاذ الإمام: يقال: إنَّ هذا خبر عظيم بمِنْحةٍ جليلة، ومنَّة بنعمة كبيرة، فكيف جيء به معترضاً في أطواء الكلام عن القبلة ولم يجئ ابتداءً، أو في سياق تعداد الآلاء والنِّعَم؟

---

(١) رواه البخاري (٢٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في الأصل: «منهم».

والجواب: أن الله تعالىٰ عَلِم أنَّ الفتنة بمسألة القبلة ستكون عظيمة، وأنَّه سيقول أهل الكتاب تمويهاً وتضليلاً: إنَّ محمداً ليس علىٰ بيِّنة من ربِّه، لأنه غيَّر قبلته، ولو كان الله هو الذي أمره بالصلاة إلىٰ بيت المقدس، لما نهاه عنه ثانياً، وصَرَفه عن قبلة الأنبياء. ويقول المنافقون: إنه صلىٰ أولاً إلىٰ بيت المقدس، استمالةً لأهل الكتاب ودهاناً لهم، ثم غلب عليه حبُّ وطنه وتعظيمه فعاد إلىٰ الكعبة، فهو مُضْطرب لدينه.

وأمثال هذه الشبهات، مع كونها تدلُّ علىٰ عدم الاعتدال في أفكار قائليها، وتؤثر في نفوس المسلمين، فالمطمئنُّ الراسخ في الإيمان يحزن لشكوك الناس وتشكيكهم في الدين، والضعيف غير المتمكِّن ربما يَضْطرب ويتزلزل؛ لذلك بدأ الله سبحانه بإخبار المسلمين بما سيكون بعد التحويل من إثارة رياح للشبه والتشكيك، ولقَّنهم الحُجَّة، وبيَّن لهم ما فيها من الحكمة، وبيَّن لهم منزلتهم من سائر الأمم، وهي أنهم أمة وسط لا تَـغْلو في شيء، ولا تقف عند الظواهر، وأنهم شهداء علىٰ الناس وحُجَّـة عليهم، باعتدالهم في الأمور كلِّها، وفهمهم لحقائق الدِّين وأسراره، ومن أهمِّها: أنَّ القِبلة التي يُتوجَّه إليها لا شأن لها في ذاتها، وإنما العبرةُ فيها باجتماع أهل المِلَّة علىٰ كيفيَّة واحدة عند التوجُّه إلىٰ الله تعالىٰ بأمر منه.

ولما كانت نسبة الجهات إليه سبحانه وتعالىٰ واحدة؛ إذ لا تحصره ولا تحدُّه جهة، كان التزام الجهة المعيَّنة منها لغير مُجرَّد الاتِّباع لأمر الرسول المبلِّغ عن الله تعالىٰ، مَيْلاً مع الهوىٰ، أو تخصيصاً بغير مُخصِّص، وكلاهما مما لا يرضاه لنفسه العاقل المعتدل بعدما ثبت بالواقع أنَّ الرسول الذي أمر به لم يأمر إلا بما ظهرت فائدته ومنفعته للمُمتثلين له من إصلاح النفوس وحَمْلها علىٰ الخير وتَوُجُّهها إلىٰ البِرِّ، مما دلَّ علىٰ أنه مؤيَّد من الله تعالىٰ وموثوق به(١).

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٦).

لذلك بيّن سبحانه وتعالىٰ الحكمة في هذا الأمر، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، والأكثرون علىٰ أنَّ المراد بالقبلة التي كنت عليها: بيت المقدس، فقد أُمِروا باستقبالها مدَّة، ثم أُمروا بالتَّحوُّل عنها، وما ذلك إلا ليتبيَّن الثابت علىٰ إيمانه ممَّن لا ثبات له؛ لأنه عُرضة لرياح تغدو به وتروح، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ففي مثل هذه الاختبارات تَغْذيةُ الإيمـان بالطاعة من المؤمن الصَّادق وانكشاف الكفر والنفاق من المنافق. أي: إن الله تعالىٰ يختبر بما يظهر به صِدقَ الصادقين ورَيْبَ المرتابين.

وقال بعض المحقـقين: إنَّ هذه الجملة من قبيل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، فالرؤيا لم تكن في نفسها فتنة، وإنما افتـتن الناس إذ أُخبروا ولم يفقهوا المرادَ منها، فظنوا أنها تكون حالاً، فأنكروا لمَّا صدَّتهم قريش عام الحديبية، كذلك كان أمر تحويل القبلة، أنكره الجهَّال ورأوه عظيماً، أما الذين هَداهُم الله إلىٰ فقه ذلك، فكانوا يرونه أمراً حكيماً، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾، وهم المحافظون علىٰ الاعتدال في الفكر والإدراك، وفي الميْل والرغبة؛ لأنهم يُدركون أنَّ الكعبة هي قِبلةُ المسلمين، وإنَّما صرفهم الله عنها أول الإسلام، لأنها مشغولة بالأصنام، حتىٰ [إذا] قَرُبَ زمنُ فتح مكة وتطهير البيت من الأوثان، أمرهم باستقباله حثاً لهم علىٰ الفتح والتَّطهير العاجل.

وقد ألمعت الآية إلىٰ أنَّ قول من يقول: لو كان محمدٌ علىٰ حقٍّ لما اتَّجه يوماً إلىٰ بيت المقدس، ويوماً إلىٰ المسجد الحرام. وقول مَنْ يقول: قد رَجَع محمد إلىٰ قبلة العرب وسيرجع إلىٰ دينهم. كلاهما هُراء وإضْلال وبُعْد عن الحقِّ إلىٰ الضلال.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ معهودٌ في القرآن كثيراً، ومثله: ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا

رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]، وقوله: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، والعقل والنقل متَّفقان علىٰ أنَّ علمه تعالىٰ قديمٌ لا يتجدَّد.

وللمفسِّرين في هذه الألفاظ أقوال، ذكر الأستاذ الإمام أظهرها، فقال ما مثاله: جرت عادة العرب في لغتها أن تنسب للرئيس والكبير ما يحدث بأمره وتدبيره، يقولون: فتح الأمير البلد، وقاتل الجيش، وكثيراً ما يقولون هذا والأمير ليس واحداً من العاملين، فهو أسلوب معهود إذا أُريدَ إسناد الفعل إلىٰ الجمهور أسندوه إلىٰ المقدَّم فيهم، ولما كان الله تعالىٰ وليَّ الذين آمنوا وخاطبهم خطاب السيد؛ صحَّ بحسب هذا الأسلوب العربي أن يذكر الفاعل بصيغة الجمع التي تشمل المتكلِّم وغيره، وإن كان غيره هو المقصود بالفعل.

فمعنىٰ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: إلا ليعلم عبادي المؤمنون بإعلامي إيَّاهم. وقد علم المؤمنون في هذه الفتنة من هو الثابت علىٰ اتِّباع الرسول ﷺ، ومن هو المنافق الذي قَلَبَته ريحُ الشبهة علىٰ عقبيه. فكان المنافقون مع المؤمنين بحيث لا يُميَّزُ أحدهم الآخر لقيامهم جميعاً بأداء الأعمال الظاهرة المطلوبة، فانكشف شأنهم بهذا التَّحويل.

وهكذا كان سبحانه وتعالىٰ يُمحِّص ما في القلوب بما يبتلي به الناس من الفتن والاختبارات ليعلم بعضهم بعضاً، كما قال تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

قال صاحب «المنار»: وثَـمَّ وَجْـهٌ آخر جرىٰ عليه بعض المفسِّرين في تفسير ﴿لِنَعْلَمَ﴾، هو أدق من هذا، وهو أنَّ المراد بالعلم في مثل هذا: علمُ الظهور والوقوع، وذلك أنَّ الله تعالىٰ يعلم الأشياء علماً أزلياً، ويتعلَّق هذا العلم بها قبل وقوعها أنها

ستقع، وبعد وقوعها أنها وقعت، والجزاء يترتَّب علىٰ ما وقع بالفعل. فقوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ هنا: يُراد به الثاني، أي: لنعلم عِلمَ وقوع ووجود، يترتَّب عليه الثواب والعقاب. وليس معناه أنه تجدَّد له عِلمٌ لم يكن، حاشاه من ذلك، وإنما التَّجدُّد في الشيء المعلوم بمعنىٰ: أنه لم يكن موجوداً ثم وُجِدَ وظهر، كأنه قال: ما جعلنا القبلة جهة بيت المقدس إلا لِنُحَوِّلَها ونمتحنَ المؤمنين بالتَّحويل، ليظهرَ ما ثَبَت في العلم القديم من اتِّباع بعض الناس للرسول واستقامتهم علىٰ هدايته، وانقلاب بعضهم علىٰ عَقِبَيه، وإظهار ما أكنَّه في نفسه من الرَّيْب، وبذلك يمتاز المهتدون من الضَّالِّين، وتقوم الحُجَّة للمؤمنين علىٰ الكافرين(١).

ثم قال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾، وأكثر المفسرين علىٰ أنَّ المراد بالإيمان هنا: الصلاة؛ لأنها أثر الإيمان، إذ وَرَدَ أنَّ بعض المؤمنين أحبُّوا أن يعرفوا حال صلاتهم قبل التَّحويل، ولا سيما ضعاف الإيمان منهم، الذين كان يُشكِّكهم اليهود بقولهم: إذا كان سَمْتُ المسجد الأقصىٰ غير حق فقد أضاع النبيُّ عبادةَ الذين صَلُّوا إليه، وإن كان حقاً فلا معنىٰ للتحوُّل عنه. يتَّبعون بمثل هذه المشاغبات ما كانت تَتْلو الشياطين علىٰ مُلك سليمان من المشاغبات الخبيثة المزلزلة لضعفاء الإيمان وقُصَراء النظر.

أما الأستاذ الإمام فقد قال: إنَّ السياق يدلُّ علىٰ أنَّ الإيمان هنا مُستَعْمَلٌ في معناه الحقيقي، فإنه لما بيَّن أمر الفتنة في تحويل القبلة، وبيَّن أنَّ من الناس من ينقلب إلىٰ الكفر ويترك الإيمان، ومنهم من يثبت علىٰ إيمانه، عالماً أنَّ الاعتماد في مثل مسألة القبلة علىٰ اتِّباع الرسول ﷺ، لأنَّ الجهات في نفسها متساوية، لا فضل لجهة منها علىٰ جهة، بشَّر

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٨).

هؤلاء المتَّبعين بأن يُجْزَون علىٰ إيمانهم الجزاءَ الأوفىٰ، فلا يضيع الله أجرهم ولا يَلِتُهُم من ثَباتهم علىٰ اتِّباع الرسول شيئاً[١]. لذلك خَتَم سبحانه الآية بهذه الجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ فبيَّن أنَّ توفيةَ الله المؤمنَ المخلصَ أجرَه هي من آثار رأفته ورحمته سبحانه وتعالىٰ، فلا يُخشىٰ أن تتخلَّف.

وقال المفسِّر الجلال: الرأفة: شدَّة الرحمة، وقُدِّمَ الأبلغ للفاصلة[٢]. وأنكر الأستاذ الإمام هذا القول أشدَّ الإنكار، ويُنكِرُ مِثلَه في كلِّ موضع، فيقول: إنَّ كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها، فليس فيه كلمة تقدَّمت ولا كلمة تأخَّرت لأجل الفاصلة؛ لأنَّ القرآن لا التزام فيه للسجع، وينزَّه الله عن الضرورة.

ثم قال: وعندي أنَّ الرأفة أثرٌ من آثار الرحمة، ولا تُستعمل إلا في حقِّ مَن وقع عليه بلاءٌ، والرحمة تتناول ذلك وتتناول الإحسان المطلق، فذِكْرُها بعد الرأفة من قبيل الدليل بعد الدعوىٰ، كما تُحب البلاغة وترضىٰ، كأنه قال: إنَّ الله رؤُوفٌ بالناس لأنه ذو الرحمة الواسعة، فلا يُضيعُ عملَ عاملٍ منهم[٣].

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٠).

(٢) تفسير الجلالين، ص ٦٩. والمعهود في الكلام أن يؤخَّر الأبلغ ليكون له بعدَ غيره فائدة. والعكس كان هنا لتناسب الفواصل. والمراد بالجلال هنا: السيوطي (ت ٩١١) لا الجلال المحلي (٨٦٤).

(٣) تفسير «المنار» (٢: ١١).

تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

وبعد أن ذكر للمؤمنين ما سيثيره السفهاء في هذا الأمر، ولقّنهم الحُجَّة ببيان ما في ذلك من الحكمة، وأنه أمرٌ منطبق علىٰ هدايتهم الصحيحة وموافقٌ لها، شَرَع في أمرهم بالتَّحوُّل، بعد مقدِّمة وجيزةٍ مُبيِّنةٍ شدَّةَ تشوُّقه ﷺ لذلك، وأنه تعالىٰ يعلمه منه، فوعده بإنجازه، وقَرَنَ الوعد بالإنجاز، وذلك من البلاغة العالية التي لا تكون إلا في القرآن الـمُعجز بتراكيبه وأساليبه، فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

كان أنبياء بني إسرائيل يصلُّون إلىٰ بيت المقدس، وكانت صخرةُ المسجد الأقصىٰ قبلتَهم[1]، وقد صلّىٰ النَّبيُّ ﷺ والمسلمون إليها زمناً، فأخذ اليهود يزهون علىٰ المسلمين، بأنَّ اتِّجاههم إلىٰ قِبلتهم اعترافٌ بأنهم علىٰ الهدىٰ، وبأن النبيَّ والمسلمين إنما يأخذون الهُدىٰ منهم، وبأنهم أَوْلىٰ أن يتَّبعوهم، وأن يندمجوا فيهم لا العكس، فحَزَّ هذا في نفس النبيِّ ﷺ، وانبثقت فيه أمنية التَّحوُّل عن سَمْتِ المسجد الأقصىٰ، لا سيما وقد ظهر من اليهود ما أيأسه منهم.

(١) في تعيين الصخرة نظر، حيثُ لم يثبت ذلك بالأدلة المعتبرة، وغايةُ ما فيه: ما ورد في كتب بني إسرائيل وأخبارهم، وهم غير مأمونين عليها، فلا يُستند إليها.

فكان النبيُّ ﷺ يتشوَّق لاستقبال الكعبة، ويتمنَّىٰ لو حوَّل اللهُ القِبلةَ إليها، بل قال المفسِّر الجلال: إنه كان ينتظره، لأن الكعبة قبلة أبيه إبراهيم، والتوجُّه إليها أدعىٰ إلىٰ إيمان العرب. أي: وعلىٰ العربِ المعوَّلُ في ظهورِ هذا الدِّين العالمي العام، ولغة هذا الدين التي يجب أن تكون عالميةً واجبةَ النشر هي لغتُهم، لأنهم كانوا أكمل استعداداً من جميع الأنام.

ولعله كان يسمع تألماً أو انتقاداً، أو يرىٰ حَيْرة من العرب المسلمين وغير المسلمين، من الاتِّجاه إلىٰ المسجد الأقصىٰ وإهمال الكعبة، وهي بيت الله الـمُقدَّس منذ قديم الأحقاب.

ولعله أيضاً كان يعلم أن تحوُّله للكعبة لا يكون إلا إذا قَرُبَ موعدُ فتح مكة وتطهيرها من الأوثان، فكان يتشوَّق لذلك غاية التشوُّق إلىٰ التحول.

وقال الأستاذ الإمام: ولا بُعْدَ في تشوُّفه إلىٰ قبلة إبراهيم، وقد جاء بإحياء ملَّته وتجديد دعوته، ولا يُعَدُّ هذا من الرغبة عن أمر الله تعالىٰ إلىٰ هوىٰ نفسه، كلا، إن هوىٰ الأنبياء لا يعدو أمرَ الله تعالىٰ وموافقةَ حكمته ورضوانه، ولو كان لأحد منهم هوىٰ ورغبةٌ في أمر مباح مثلاً، وأَمَرَ اللهُ تعالىٰ بخلافه لانقلبت رغبتهم فيه إلىٰ ما أمر الله تعالىٰ ورضيه، بل المقام أدقُّ والسِّرُّ أخفىٰ.

قال: وإنَّ روح النبي منطويةٌ علىٰ الدين بجملته، قبل أن ينـزل عليه الوحي بتفصيل مسائله، فهي تشعر بصفائها وإشراقها بحاجة الأمة التي بعث فيها، شعوراً إجمالياً كلياً، لا يكاد يتجلَّىٰ في جزئيَّـات المسائل وآحاد الأحكام إلا عند شدَّة الحاجة إليها، والاستعداد لتشريعها. عند ذلك يتوجَّه قلب النبيِّ إلىٰ ربه، طالباً بلسان استعداده بيانَ ما يشعر به مجملاً، وإيضاح ما يلوح له مبهماً، فينزل الروح الأمين علىٰ قلبه، ويخاطبه

بلسان قومه عن ربه، وهكذا الوحي إمداد في موطن استعداد، ولا كسبَ فيه للعباد، وإذا كان حُكمٌ شُرِعَ لسببٍ مؤقَّت، وزمنٍ في علم الله معيَّن، تشعر روحُ النبي بذلك في الجملة، فإذا تمَّ الميقات وأَزِفَ وقتُ الرُّقِّي إلىٰ ما هو أفضل، وجدت روح النبيِّ من الشعور بالحاجة إلىٰ النسخ، ما يُوجِّهها إلىٰ الشارع العليم والديَّان الحكيم، كما كان يتقلَّب وجه نبيِّنا ﷺ في السماء تشوُّفاً إلىٰ تحويل القبلة، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

قال في «المنار»: وفسَّر بعضهم تقلُّب الوجه بالدعاء، وحقيقةُ الدعاء: هو شعور القلب بالحاجة إلىٰ عناية الله تعالىٰ فيما يطلب، وصدق التوجُّه إليه فيما يرغب، ولا يتوقَّف علىٰ تحريك اللسان بالألفاظ، فإنَّ الله ينظر إلىٰ القلوب وما أسَرَّت، فإن وافقتها الألسنة فهي تَبَعٌ لها، وإلا كان الدعاء لَغْواً يُبغضه الله تعالىٰ، فالدعاءُ الديني لا يتحقَّق إلا بإحساس الداعي بالحاجة إلىٰ عناية الله تعالىٰ، وعن هذا الإحساس يعبر اللسان بالضراعة والابتهال.

فهذا التفسير ليس بأجنبي من سابقه، فتقلُّب الوجه في السماء: عبارة عن التوجُّه إلىٰ الله تعالىٰ، انتظاراً لما كانت تشعر به روح النبي ﷺ وترجوه من نزول الوحي بتحويل القبلة، ولا تدلُّ الآية علىٰ أنه كان يدعو بلسانه طالباً هذا التحوُّل ولا تنفي ذلك.

وهذا التَّوجُّه هو الذي يُحبُّه الله تعالىٰ، ويهدي قلبَ صاحبه إلىٰ ما يرجوه ويطلبه، لذلك قال الله عزَّ وجل: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾، وقرن الوعد بالإنجاز[2] ومَهَّد له به، وذلك من مقتضيات البلاغة العالية، فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾،

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٢ - ١٣).

(٢) في تفسير «المنار»: بالأمر.

والشَّطرُ يُطلق علىٰ مَعَان، الظاهر منها هنا: النحو والجهة، فالواجب استقبال جهة الكعبة في حال البُعْد عنها وعدم رؤيتها[١]. والتعبير بالمسجد الحرام بدل الكعبة إيذان بهذا التساهل، والله أعلم.

ثم أمر بذلك المؤمنين، فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، أي: في أيِّ جهة كنتم منه، شرقاً أو غرباً أو شمالاً أو جنوباً، فولُّوا وجوهكم شَطْره واتِّجاهه، فيكون مركزاً لدائرة المسلمين، يربط بين قلوبهم وأبدانهم أينما كانوا، ربطاً لوحدتهم العابدة بوحدة الله المعبودة، فيتكون من ذلك قوة روحية ومادية لا تنفصم عُراها، لو كانوا يعلمون.

وقد زادت ذلك متانةً فريضةُ الحجِّ التي تجمع بينهم فعلاً في هذا المركز العظيم.

وقد عُهِدَ من أسلوب القرآن أن يكون الأمرُ يُؤْمَر به النبي ﷺ ولا يُذْكَرُ أنه خاص به أمراً له وللمؤمنين به، فإذا أريد التخصيص جيء بما يدل عليه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وإنما أمر الله المؤمنين في هذه الآية بما أمر به النبي ﷺ فيها نصاً صريحاً، ولم يَكْتَفِ بأمره، للتأكيد الذي اقتضته الحال في حادثة القبلة، فإنها كانت حادثة كبيرة اسْتَتْبعت فتنة عظيمة، فأراد الله أن يُعلم المؤمنين بعنايته بها ويُقرِّرها في أنفسهم، فأكَّد الأمر بها وشرَّفهم بالخطاب مع خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام، لتشتدَّ قلوبهم وتطمئن نفوسهم، ويتلقوا تلك الفتنة التي أثارها المنافقون والكافرون بالحزم والثبات علىٰ الاتِّباع.

وبعد هذا، عاد إلىٰ بيان حال السفهاء مثيري الفتنة في مسألة تحويل القبلة، فقال

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٣).

تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، أي: يعلمون أنَّ تولِّيَ المسجدِ الحرامِ هو الحقُّ المنزَّل من الله علىٰ نبيِّه؛ لأنهم يعلمون من كتابهم أن النبيَّ المبشَّر به سيستقبل الكعبة، ولكنهم يكتمون ذلك سَفَهاً وتضليلاً.

وجمهور المفسِّرين علىٰ أن أكثر أولئك الفاتنين كانوا من أهل الكتاب المقيمين في الحجاز، ولولا ذلك لم تكن الفتنة عظيمة، لأنَّ كلام المشركين في مسائل الوحي والتشريع قلَّما يُلتفت إليه، وأما أهل الكتاب فقد كانوا معروفين بين الناس بالعمل، ومن كان كذلك فإنَّ عامَّـةَ الناس تقبل كلامَه ولو نطق بالمحال؛ لأن الثقة بمظهره تَصُدُّ عن تمحيص خبره، فهو في حاله الظاهرة شُبْـهَةٌ إذا أنكر، وحُجَّةٌ إذا اعترف، ولأنَّ الجمـاهير من الناس قد اعتادوا علىٰ تقليد مثله من غير بحث ولا دليل، وقد جرىٰ أصحابُ المظاهر الدينية والعلمية علىٰ الانتفاع بغرور الناس بهم، فيقولون ما لا يعتقدون، ويُسنِدون ما يقولون إلىٰ كتبهم، كذباً وتأويلاً، كما كان يفعل أحبار اليهود.

وقد كذَّب الله هؤلاء الخادعين، وبيَّن لهم أنهم يقولون ما لا يعتقدون، كأنه يقول: إنَّ هؤلاء قد قام عندهم الدليل علىٰ ما سبقت به بشارة أنبيائهم من صحَّة نبوة الرسول، ويعلمون أنَّ أمر القبلة كغيرها من أمور الدين، قد جاء به الوحيُ عن الله تعالىٰ، وأنه الحقُّ لا محيص عنه، ولكنهم ينكرون ذلك تضليلاً وإفساداً.

وقد بلغ الأمر باليهود أن قالوا للرسول ﷺ: ارجع إلىٰ قبلتنا نتَّبعك ونؤمن بك، وما يريدون إلا الفتنة والطعن في الدين، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، فهو المطَّلعُ علىٰ الظواهر والضمائر، الحسيبُ علىٰ ما في السرائر، الرقيب علىٰ الأعمال.

ثم قال في «المنار»: وكان ﷺ حريصاً علىٰ هداية أهل الكتاب، راجياً بإيمانهم ما لا يَرجُوه من إيمان المشركين، فبمقدار حرصه ورجائه كان يُحزنه عروض الشُّبَه لهم في

الدين، ويَتَمنَّىٰ لو أُعطي من الآيات ما يَمْحُو كلَّ شبهة لهم، فلما كانت فتنة تحويل القبلة بمُخَادعتهم الناس، أخبره تعالىٰ بأنهم غير مشتَبِهين في الحق فتُزال شُبَهُهم، وإنما هم قوم معاندون مُجاحِدون عن علم وتقصُّد.

ثم أعلمه أنَّ الآيات لا تُـؤثِّر في المعاند، ولا تُرجع الجاحد عن غيِّه[1]. فقال: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾، فلا يَحْزُنْك قولهم ولا إعراضُهم، لا تَحْسَبنَّ الآياتِ والدلائلَ مُؤثِّرةً فيهم وصارفةً لهم عن عنادهم، فهم قوم مقلِّدون لا نظر لهم ولا استدلال.

وكما يَأَّسه من اتِّباعهم قبلَـتَه، أيأسهم من اتِّباعِهِ قبلتَهُم، فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾، فإنك الآن علىٰ قبلة إبراهيم الذي يُجِلُّونه جميعاً، ولا يختلف في حقيَّة ملَّته أحدٌ منهم، فهي الأجدر بالاجتماع عليها وترك الخلاف فيها، فإذا كان اتِّباعكُم إبراهيمَ لا يُزحزحهم عن تعصُّبهم لما ألفوا، وعنادهم فيما اختلفوا، وإذا كان التقليد يحولُ بينهم وبين النظر في حقيقة معنىٰ القبلة، وكون الجهات كلِّها لله تعالىٰ، وأنَّ الفائدة فيها الاجتماع دون الافتراق، فأيُّ دليل أم آيةٍ تُرجعُهم عن قبلتهم، وأيُّ فائدة تُرجىٰ من موافقتك إيَّاهم عليها؟

ألم تر كيف اختلفوا في القبلة، فجَعَل النَّصارىٰ لهم قِبلةً غير قبلة اليهود التي كان عليها عيسىٰ بعد موسىٰ، ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ لأنَّ كلاً منهم قد جمد بالتقليد علىٰ ما هو عليه، والمقلِّد لا ينظر في آية ولا دليل، ولا في فائدةِ ما هو فيه، والمقارنةُ بينه وبين غيره، فهو أعمىٰ لا يبصر، أصمٌّ لا يسمع، أغْلَفُ القلب لا يعقل[2]. إذ لا منفعة للعقل مع غلبة العاطفة أو الانطباع علىٰ التقليد.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٤- ١٥).

(٢) المصدر السابق (٢: ١٥).

ثم هدّد بهذا التهديد المبنيِّ علىٰ الغرض والتقدير، تهويلاً للأمر، كما هو أسلوب القرآن في مثل هذا الموقف، أو هو خطاب للأمة في شخص النبيِّ ﷺ علىٰ نهج القرآن في مثله (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الخامسة)، فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ أي: إننا قد أقمنا لك مسألة القبلة علىٰ قاعدة العلم الذي عَرفتَ به أنَّ نسبة الجهات إلىٰ الله تعالىٰ واحدة، وأنَّ جمود أهل الكتاب علىٰ ما هم فيه إنما جاءهم من التقليد وحرمان أنفسهم من النظرة، وإنَّ طعنهم فيك وفيما جئت به من أمر القبلة وغيره ليس إلا مُجاحدة ومُعانَدة لك، مع العلم بأنك النبيُّ الموعود به في كتبهم؛ يأتي من ولد إسماعيل ويُصلِّي إلىٰ القبلتين، فبعد هذا العلم كلِّه لا ينبغي لأحد من أتباعك المؤمنين أن يفكروا في أهواء القوم استمالةً لهم، إذ لا محل لهذه الاستمالة، والحقُّ قويٌّ بذاته وغنيٌّ بمن ثَبَتَ عليه. وَمَنْ عَدَلَ عنه مُجاراةً لأهل الأهواء لِما يرجُو من فائدتهم واتِّقاء مَضَرَّتهم، فهو ظالمٌ لنفسه وظالمٌ لمن يَسْلك بهم هذا السبيل الجائر.

قال الأستاذ الإمام: هذا الخطاب بهذا الوعيد لأعلىٰ الناس مقاماً عند الله هو أشدُّ وعيداً لغيره ممَّن يتَّبع الهوىٰ ويحاول استرضاء الناس بمُجاراتهم علىٰ ما هم عليه، فإنه أفرده بالخطاب مع أنَّ المراد أمَّـتُهُ خاصَّةً، إذ يستحيل أن يتَّبع هو أهواءهم، وأن يُجارِيَهُم علىٰ شيءٍ نهاه الله تعالىٰ عنه، وذلك ليتنبَّه الغافل ويعلم المؤمنون أن اتِّباع أهواء الناس - ولو لغرض صحيح - هو من الظلم العظيم الذي يقطع طريق الحق، ويُردي الناس في مهاوي الباطل. كأنه يقول: إنَّ هذا ذنب عظيم لا يُتَسامَحُ فيه مع أحد، حتىٰ لو فُرِضَ وقوعُه من أكرم الناس علىٰ الله تعالىٰ، لَسَجَّل عليه الظلم، وجَعَله من أهله الذين صار وصفاً لازماً لهم، وما للظالمين من أنصار، فكيف حال مَنْ ليس له ما يقارب

مكانته عند رَبِّه عزَّ وجل؟ نقرأ هذا التشديد والوعيد، ونسمعه من القارئين، ولا نَزْدجر عن اتِّباع أهواء الناس ومُجاراتهم علىٰ بدعهم وضلالاتهم!

ثم قال في «المنار»: وبعد أن ذكر أنَّ الذين أُوتوا الكتاب يعلمون أنَّ ما جاء به النبي ﷺ في أمر القبلة هو الحقُّ من ربهم، ولكنَّهم يُنكِرون ويَمْكُرون، ذكر ما هو الأصلُ والعلَّةُ في ذلك العلم، وهو علمهم بنبوَّة محمد ﷺ علماً يقيناً، فكيف لا يعلمون أنَّ ما جاء به من أمر تحويل القبلة هو حقٌّ ووحيٌ من الله تعالىٰ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ أي: إنهم يعرفون النبيَّ ﷺ بما في كُتُبهم من البشارة به، ومن نُعُوته وصفاته التي لا تنطبق علىٰ غيره، وبما ظهر من آياته وآثار هدايته، بذلك كله يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

قال عبد الله بن سلام رضِيَ الله عنه ـ وكان من علماء اليهود وأحبارهم ـ: أنا أعلم به من ابني[1]. فقال عمر رضِيَ الله عنه: لِـمَ؟ فقال: لأني لست أشك في محمد أنه نبيٌّ، فأما ولدي فلعلَّ والدته خانت.

فقد اعترف مَنْ هداه الله من أحبارهم ـ كهذا العالم الجليل، وكتميم الداري من علماء النصارىٰ ـ بأنهم عَرَفوه ﷺ معرفةً لا يتطرَّق إليها الشك[2].

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ أنه الحق الذي لا مِرْية فيه، فمن كان هذا خُلُقَه فماذا يرجىٰ منه؟ وقد أَسْنَدَ هذا الكتمان إلىٰ فريق منهم، إذ لم يكونوا كلهم كذلك، فإنَّ منهم من اعترف بالحق وآمن واهتدىٰ به، ومنهم من كان يَجْحده عن جهل، ولو علم به لجاز أن يقبله.

---

(١) ذكره المناوي في «تخريج أحاديث تفسير البيضاوي» (١: ١٩٥) وقال: أخرجه الثعلبي من حديث ابن عباس.

(٢) تفسير «المنار» (٢: ١٧).

ثم خاطب عزَّ وجل نبيَّه ﷺ بلون من ألوان شدَّة التـثبيت، وحذَّر الأمة في شخص الرئيس، علىٰ نـهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ مبتدأ وخبر، أي: إنَّ العمدة في معرفة الحقِّ هو الوحي يأتيك من عند ربِّك، فلا تلتفتْ إلىٰ أوهام هؤلاء الجاحدين المعاندين، فإنها لا تصلح شبهة علىٰ الحقِّ الصريح الذي علَّمك الله فتمتري به.

والنهيُ في هذه الآية كالوعيد في الآية السابقة، وجّه الخطاب به إلىٰ النبيِّ ﷺ والمراد به أمتُه وأتباعه، أي: من كان منهم غير راسخ في الإيمان، وخُشي عليه الاغترار بمظاهر أولئك المخَادعين الذين يغترُّ بأمثالهم الأغرار في كلِّ زمان ومكان.

وذهب بعض المفسِّرين إلىٰ أن الضمير في ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ لِـمَا ذكر من أمر القبلة، إذ في كتبهم أنَّ الرسول المبعوث من ولد إسمـاعيل يُصلِّي إلىٰ القبلتين. والظاهر عَوْدُه للنبي ﷺ.

ثم أردف الكلام بحُجَّة أخرىٰ تُرغِم أنوفَ المعارضين في أمر القبلة، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي: لم تكن جهةٌ من الجهات قبلةً لكلِّ الملل، وإنما لكلِّ أمة من الأمم جهةٌ تُولِّيها في صلاتها. فإبراهيم وإسماعيل كانا يوليان الكعبة، وكان بنو إسرائيل يستقبلون صخرة بيت المقدس، وكان الأنبياء المتقدِّمون يستقبلون جهات أخرىٰ، فليست الجهة أُساً من أسس الدين الثابتة التي لا تـتبدَّل، كتوحيد الله والإيمان بالبعث والجزاء، وإنما هي من الفروع المتبدِّلة بتَبَدُّل الأديان والأزمان، فإذا كان كذلك فالواجب فيها الاتِّباع المحض، والتَّسليم لأمر الوحي، وإن لم تظهر حكمة التَّخصيص للناس.

﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: باتِّباع الوحي، وإيَّاكم والجدلَ والمشاغباتِ في أمثال هذه الأمور، وقد فصَّل «الخيرات» بقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ...﴾ [البقرة: ١٧٧] في الآيات الآتية.

ثم وعد المؤمنين وتوعَّد المعارضين، ناظراً إلىٰ بيان اختلاف جهات الأمم في استقبال القبلة، وساق البحث إلىٰ ما يلائم البعث، مبيِّناً أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ يأتي بهم في أيِّ جهة ماتوا، وأيَّ جهةٍ استقبلُوا، يحاسَبُون عمَّا عملوا، فقال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾، لا فرق في اختلاف القبلة وقُربها وبُعدها، وهذا علىٰ نهج القرآن في ذكر البعث في غضون البحوث عند كلِّ مناسبة تقتضيه، (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية). وإنما ذَكَّرَ هنا بالجزاء يوم البعث، ترغيباً بالخيرات، وترهيباً عن المخالفات.

ثم أتىٰ بدليل قدرته علىٰ البعث، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾، فإنَّ كثيراً من هذه الفواصل تُذكَرُ كالدليل للدعوىٰ (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة الثالثة من المقدمة الثانية).

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

ثمَّ إنه بعد هذا التعليق علىٰ الأمر بتولية الوجوه نَحْوَ المسجد الحرام، أعاده تأكيداً، فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، فأعاد الأمر في صورة أخرىٰ ليُبيِّن أنه شريعة عامة في سائر الأماكن والبلدان، أي: في أيِّ مكان كنت من المعمورة دانية من المسجد أو قاصية، فَوَلِّ وجهك شَطْره واتِّجاهه. وقد وثَّقَ الأمر

وأكَّده وَرَدَّ علىٰ المشاغبين بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: الثابت الموافق للحكمة، ثم حثَّ المؤمنين علىٰ اتِّباع ذلك بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي: فيُجازيكم علىٰ ذلك أحسن الجزاء، وقُرئ: (يعملون) علىٰ صيغة الغيبة، فيكون وعيداً للكافرين وتهديداً لهم.

ثم أعاد الحكم مرةً ثالثةً ليقرِّر أنه شريعةٌ عامَّـةٌ في كلِّ زمان ومكان، لا يختصُّ ببلاد دون بلاد، حضراً وسفراً، وليُعلِّله ويبيِّن حكمته، فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ أي: في أسفارك ومَغَازيك، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وبعد أن أمره ﷺ أمَرَ أمتَهُ أيضاً تقريراً للحكم واهتماماً به، فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ من أقطار الأرض مقيمين أو مسافرين، ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ واتجاهَه.

قال في «المنار»: ابتدأ هذه الآيةَ بصيغة الأمر الواردة في الآية التي قبلها، وجمع فيها بين خطاب النبي ﷺ وخطاب الأمة؛ ليترتَّب علىٰ ذلك ما يأتي من التعليل وبيان الحكمة، وهو قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، وليس هذا الجمع والإعادة لمجرَّد التأكيد كما قال بعض المفسرين، وإنما هو تمهيدٌ للعلَّة وتوطئةٌ لبيان الحِكَم الموصولة به، وهو أسلوب معهود عند البلغاء.

والمراد بالناس: المحاجُّون في القبلة المعروفون، وهم فريقان: أهـل الكتاب، والمشركون. ووجهُ انتفاء حُجَّتهم علىٰ الطعن في النبوَّة بتحويل القبلة عن بيت المقدس إلىٰ الكعبة: هو أنَّ أهل الكتاب كانوا يَعرفون من كتبهم أنَّ النبيَّ الذي يُبعث من ولد إسماعيل يكون علىٰ قبلته، وهي الكعبة. فجَعْلُ بيت المقدس قبلةً دائمةً حُجَّةٌ علىٰ أنه ليس هو النَّبيُّ المبشَّر به، فلما كان التحويلُ عرفوا أنه الحقُّ من ربهم، وأنَّ المشركين كانوا يَرَوْنَ أنَّ نبياً من ولد إبراهيم جاء لإحياء ملَّته، لا ينبغي له أن يستقبل غير بيت ربِّه

الذي بناه جدُّه إبراهيم، وقد جاء التحويل موافقاً لما يَرَوْنه، فانتفت حُجَّة الفريقين[١].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ بالعناد وإبغاء الـمُشَاغَبات، فهم لا يهتـدون بكتاب، ولا يعتبرون ببرهان، ولا ينظرون إلىٰ حِكَمِ الأمور وأسرارها، بل يُجادلون في الله وشَرْعِـهِ بلا هُدىٰ ولا كتاب منير، وهم الذين أثاروا الفتن وحرَّكوا رياح الشُّبه في مسألة القبلة، ولا قيمة لما يقول هؤلاء، فإنهم هم السُّفهاء، كما وصفوا في الآية الأولىٰ، ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ أي: في مشاغباتهم، إذ لا مرجع لكلامهم من الحقِّ، ولا تـمكُّن له في النفس؛ لأنه لا يستند إلىٰ برهان عقليّ ولا إلىٰ هدىٰ سماويٍّ، ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ أي: فإنني أنا العليُّ القدير، وقد وَعَدتكم بأن أُمكِّن لكم دينكُم الذي ارتضيتُ لكم، وأُبدلكم من بعد خوفكم أمناً، وإنني لا أُخلِفُ الميعاد.

ثم ذكر العلـة الثانية أو الحكمة الثانية، فقال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾، وذلك برجوعهم إلىٰ البنيان؛ لأنه معبدُهم، وأشرف أثر عندهم ينسب إلىٰ أبيهم إبراهيم الذي بناه ورفَعَ قواعده لعبادة الله تعالىٰ، ولا شك أنَّ كلَّ أمر يصدر من الله تعالىٰ فامتثاله نعمة، إلا أنه إذا كان فيه حكمةٌ ظاهرةٌ وشرفٌ يتعلق بتاريخها، وكان أثره حميداً نافعاً فيها، تكون النعمة أتم، والمنَّة أكمل، ولذلك عبَّر بالإتمام.

وذكر الأستاذ الإمام من الحكمة في جَعْل القبلة في أول الأمر بيتَ المقدس: أن الكعبة كانت في أول الإسلام مشغولة بالأصنام والأوثان، وكان سلطان أهل الشِّرك مُتمكِّناً فيها، والأمل في انكشافه عنها بعيداً، فصرفه الله أولاً عن استقبال بيت مدنَّس بعبادة الشـرك، وإن كان الله أمر إبراهيم عليه السلام بتطهيره للطائـفين والعاكفين والركَّع السجود؛ صَرَفه إلىٰ بيت المقدس قِبلةِ اليهود الذين هُم أقرب إلىٰ ما جاء به من

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٠).

التوحيد والتنزيه، ولما قَـرُبَ زمنُ تطهير البيت الحرام من الأصنام والأوثان وعبادتها وإزالة سُلطة الوثنيين عنه، جَعَله الله تعالىٰ قِبلةً للمُوحِّدين، ليُوَجِّه النفوس إليه ويحثَّها عليه. فيكون ذلك مقدِّمة لتطهيره، وإتمام النعمة بالاستيلاء عليه، والسير فيه علىٰ سُنَّة إبراهيم من التوحيد والعبادة الصحيحة لله تعالىٰ وحده[1].

أقول: وعلىٰ هذا يكون قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ وعداً لهم بقُرب فتح مكة، وهي من أكبر النعم؛ لأنَّ بها اسْتَتَبَّ أمر الدعوة، وقويت شوكة الإسلام.

ثم ذكر سبحانه حكمةً ثالثةً لتحويل القبلة، فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ أي: ليُـعِدَّكُم بذلك إلىٰ الاهتداء بالثبات علىٰ الحقِّ والرسوخ فيه، فإنَّ المعارضات والمُحَاجَّات تُظْهر ضَعْفَ الباطل وزهوقَه، وتُبيِّن قوَّة الحق وثبوته، وتجعل العِلْمَ به مُفَصَّلاً بعد أن كان مُجْمَلاً، فهي مُدْرِجةُ الكمال لأهل اليقين، فكانت الفتنةُ التي أثارها السفهاء علىٰ المؤمنين في مسألة القبلة مُعِدَّةً للاهتداء ووسيلةً للثبات علىٰ الحق.

قال في «المنار»: ثم نظر وقارن لإتمام النعمة عليهم بقوله: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ أي: يتمُّ نعمته عليكم باستيلائكم علىٰ بيته الذي جَعَله قِبلةً لكم، وبتطهيركم إيَّاه من عبادة الأصنام والأوثان، البيت الذي هو موضعُ شَرَفِكم وفخرِكم، كما أتـمَّها عليكم بإرساله رسولاً منكم، فالقبلة في بلادكم، والرسول من أمتكم، والخطاب للعرب كما هو ظاهر[2]. ولا يُعارض هذا كونُه رسولاً للعالمين؛ لأنَّ الكلام هنا في التَّمنُّن علىٰ العرب الذين هم أصلُ أهل الدين المبين، أي: لنضيف إليكم نعمة إلىٰ نعمة. وقيل: بل يجوز أن يكون الخطاب عاماً، والمراد بكونه منهم: أنه من البشر لا من المَلَك، أو علىٰ اعتبار أنَّ العربيَّ مَنْ أحسنَ العربيةَ ودخل في الإسلام.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٢١- ٢٢).

(٢) المصدر السابق (٢: ٢٢- ٢٣).

ثم وصف هذا الرسولَ بالأوصاف التي كان بها نعمةً تامةً ورحمةً شاملة، فقال: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: الدالَّة علىٰ أنَّ ما جاء به من التوحيد والهداية هو الحقّ من عند الله. والآيات تتعلَّق بإثبات العقائد وأصول الدِّين، وهي المَقْصِد الأوَّل منها، ويليها تهذيبُ الأخلاق، ولذلك قال: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: يُطهِّر نفوسكم من الأخلاق السافلة والرذائل الممقوتة، ويُخَلِّقها بالأخلاق الحميدة، ويُخَلِّصُكم من العقائد الوثنيَّة وأدرانها ووساوسها التي تعبث بالعقول، وتأسر النفوس، فتخضع لبعض المخلوقات، ترجُو خيرَها وتخشىٰ ضُرَّها، وتزعمُ أنها تتقرَّب بها إلىٰ خالقها، وهي بذلك في ضلال بعيد ومَرْمىٰ سحيق.

ثم نصَّ علىٰ المتلو، ونوَّه بشأنه، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، قال الإمام الشافعي رضِيَ الله عنه: الحكمة هي سُنَّة الرسول ﷺ.

وقال الأستاذ الإمام: السنةُ العمليَّة المتواترة هي المبيِّنةُ لتفصيل ما أجمله القرآن[1]،

---

(١) تقييد السنة التي تُبيِّن مُجمَلَ القرآن بالعملية أولاً، والمتواترة ثانياً؛ محلُّ نظر، فالذي عليه الأصوليون: أن خبر الآحاد الصحيح ـ سواء كان حديثاً قولياً أو عملياً أو غير ذلك ـ صالحٌ لبيان مجمل القرآن أيضاً، والخلاف بينهم في تخصيصه لعامِّ القرآن دون بيان مجمله.

ووجوبُ العمل بخبر الواحد قد تضافرت عليه الأدلة من كتاب وسنة، وهو مذهبُ الصحابة رضيَ اللهُ عنهم، ومذهبُ تابعيهم بإحسان. فقد عمل الصحابة بالآحاد، وحاجّوا بها في وقائع خارجة عن العَدِّ والحصر، من غير نكير مُنكِر، ولا مدافعة دافع، فكان ذلك منهم إجماعاً علىٰ قبولها وصحَّة الاحتجاج بها.

ومن أشهر ما يُمثِّلُ به علماء مصطلح الحديث لخبر الآحاد حديث: «إنما الأعمال بالنيات» حيث تفرَّد عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه بروايته عن النبي ﷺ، وتفرّد علقمة بن وقاص الليثي بروايته عن عمر، وتفرّد محمد بن إبراهيم التيمي بروايته عن علقمة، وتفرّد يحيىٰ ابن سعيد الأنصاري =

= بروايته عن محمد بن إبراهيم، قال الحافظ ابن حجر في «شرح نخبة الفكر»: وقد وردت لهم متابعات لا يعتبر بها.

أما الدليلُ علىٰ قبول خبر الواحد من السنة؛ فبَعثُه ﷺ إلىٰ الآفاقِ مُعلِّمين وداعين، كمعاذ ابن جبل وأبي موسىٰ الأشعري ودحية بن خليفة الكلبي، ولو كان خبر الواحد لا تقوم به حجة لكانت بعثتُه لهم ﷺ عبثاً، والله أعلم.

أما من أنكر وجوب العمل بما استوفىٰ شروط الصحة والقبول من السنة ـ قولية أو فعلية أو تقريرية ـ فهو مبتدع مخالف للإجماع.

وأما أقسام السنة ودورُها في بيان القرآن وتفصيل أحكامه، فهذا بحث طويل ولا تتَّسع له هذه التعليقة، ولكن نذكر لك أشياء رئيسة يُهتدىٰ بها إلىٰ المقصود، ويُعرَف من خلالها أوجُهُ بيان السنة للقرآن وارتباطها الوثيق به، فالسنة علىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تُؤكِّد ما في القرآن وتُوضِّحُه، كما في «الصحيحين» عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «بُني الإسلام علىٰ خمس شهادة إلا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان»، أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

القسم الثاني: تُبيِّن ما في القرآن، وذلك من عدة جوانب:

الأول: بيان مُجمَله، كبيان عدد ركعات الصلاة وما يتبع ذلك، وبيان الحج والعمرة ونحو ذلك.

الثاني: تخصيص عامِّـه، كالنص علىٰ البيوع المحرمة وإخراجها من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

الثالث: تقييد مُطلَقه، كتقييد قول الله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١]، حيثُ قيَّدتها السنةُ بالثلث فما دون.

الرابع: توضيح مُشكِله، كتوضيح قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] حين أشكل هذا علىٰ الصحابة وشق عليهم، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، أخرجه البخاري (٣٣٦٠)، ومسلم (١٢٤). فبيّن لهم أن المراد ظلم الشرك.

الخامس: بَسْط مختصره، كبسط قصة أصحاب الأخدود التي جاءت موجزة في القرآن الكريم. =

وإظهار ما في أحكامه من الأسرار والمنافع، ولهذا أطلق عليها لفظ الحكمة، فالسنة العمليَّة التي علَّمتهم كيف يهتدون بالقرآن، ومرَّنتهم علىٰ العدل والاعتدال في جميع الأحوال، لأنها التربية العملية بمُوجب تعاليم القرآن، فقد أوقف النبيُّ ﷺ أصحابه رضِيَ الله عنهم علىٰ فقه الدين، ونَفَذ بهم إلىٰ سرِّه، فكانوا حكماء علماء، عُدولاً نجباء، حتىٰ كان أحدهم ليَحْكُمُ المملكةَ العظيمة فيقيم فيها العدلَ ويُحسن السياسة، وهو لم يحفظ من القرآن إلا بعضه، ولكنه فَقِهَهُ حَقَّ فِقْهِهِ، وطَبَعَ نفسَهُ عليه. وفقهُ الدين ومعرفة أسرار الأحكام هو غير التزكية، ولكنه يتَّصل بها ويُعِين عليها، حتىٰ يطابق العلمُ العملَ.

وهذه الآية نبأ عن استجابة دعوة إبراهيم عليه السلام حينما دعا بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1] [البقرة: ١٢٩].

ثم نوَّه بشأن هذا التعليم للكتاب والحكمة، مُبيِّناً أنَّ ما يتناوله من المواضيع لا

= السادس: نسخُ بعض أحكامه، كنسخ الوصية للوالدين وعموم الورثة في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

السابع: التفريعُ علىٰ أصل مقرَّر في القرآن، كمنع أكل أموال الناس بالباطل، ولو كان عن رضا من الطرفين في العقود المحرمة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وبيّنت السنة أن العقود المحرمة لا تجوز ولو حصل التراضي.

القسم الثالث: أن تكون السنة مُوجِبةً أو محرِّمةً لحكم سكت القرآن عنه، كإيجاب زكاة الفطر، وكتحريم نكاح المرأة علىٰ عمتها أو خالتها، وتحريم كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير، وتحريم الذهب والحرير علىٰ الرجال، وغير ذلك. والله تعالىٰ أعلم.

(١) تفسير «المنار» (١: ٢٥).

يمكن معرفته إلا به، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: ما لا طريق للناس في معرفته بالنظر والفكر، وهو ما لم يُعلم إلا بالوحي، كأخبار عالَـم الغيب في اليوم الآخر وأمثال ذلك.

وبعد أن امتنَّ عليهم بإتمام النِّعَم، علَّمهم ما يحفظها ويُديمها، فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ أي: بما أتممتُ عليكم من النِّعم، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ أي: بإدامتها والثواب عليها.

قال الأستاذ الإمام: وهذه الكلمة عظيمة جداً، وهو الربُّ ونحن العبيد، وهو الغنيُّ عنا ونحن الفقراء إليه.

ثم حثَّ علىٰ ذلك بالتنبيه إلىٰ وجوب مقابلة الإحسان بالإحسان، فقال: ﴿وَاشْكُرُواْ لِي﴾ هذه النِّعَمَ بالعمل بها وتوجيهها إلىٰ ما وُجدت لأجله بحسب السنن الإلهيَّة، ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ أي: ولا تكفروا نِعَمي ـ التي منها العقل والسمع والبصر ـ بإهمالها أو صرفها إلىٰ غير ما وُجدت لأجله بحسب السنن الإلهيَّة العادلة.

وفي الآية تحذيرٌ لهذه الأمة مما وقعتْ فيه الأممُ السالفةُ، حيث حوَّلت الدِّينَ عن قُطبه الذي يدور عليه(١). وعطَّلت أحكامه بالتأويل والتبديل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

ثم قال في «المنار» ما ملخَّصه: وبعد أن ذكر سبحانه في الآيات السابقة افتتانَ

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٢٦).

الناس بتحويل القبلة، وإزالةَ شبه الفاتنين والمفتونين، وإقامةَ الحُجج علىٰ المشاغبين، وحِكَم التَّحويل وفوائده للمؤمنين، ولا جَرَم أنَّ أهل الحق كانوا يُلاقونَ من أهل الباطل وأشياعِهِ صعوباتٍ كبيرةً، أمرهم سبحانه أن يستعينوا بالصبر والصلاة علىٰ ما يُلاقونه من الشدائد في سبيل الحق، والدعوة إلىٰ الدين، والمدافعة عنه وعن أنفسهم، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾، فوصفهم بالإيمان إثْرَ ما يُوجبه ويقْتضيه، تنشيطاً لهم، وحثاً علىٰ مُراعاة ما يعقبه من الأمور[1].

والمراد بالصبر: مَلَكةُ الثبات والاحتمال التي تُهوِّن علىٰ صاحبها كلَّ ما يُلاقيه. ولا شك أنَّ هذه هي أمُّ الفضائل التي تُربِّي مَلَكات الخير في النفس، إذ ما من فضيلةٍ إلا وهي محتاجة إليها، وعليه جَرَىٰ النبيُّ ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان، حتىٰ فازوا بعاقبة الصبر المحمودة، ونَصَرهم الله تعالىٰ مع قلَّتهم وضَعْفهم، علىٰ جميع الأمم مع قوَّتها وكَثْرتها، وإنما كان ذلك بالصبر، ومَنْ لم يَسْتَعن علىٰ عمله بالصبر لا يتمُّ له أمر، ولا يثبت علىٰ عمل، ولاسيما الأعمال العظيمة، ومَنْ يزعم أنه عاجز عن تحصيل هذه المَلَكَة، فهو خائنٌ لنفسه مُحتقرٌ نعمة الله تعالىٰ عليه.

وقد جَرَتْ سُنَّة القرآن أن يُنبِّه إلىٰ الصبر في كلِّ مقام يشقُّ علىٰ النفس احتمالُه، وقد ذُكِرَ في نيفٍ وسبعين موضعاً.

وأما الحاجةُ إلىٰ الاستعانة بالصلاة علىٰ تأييد الحقِّ والقيام بأعبائه، فوجهُها محجوبٌ لا يكاد ينكشف إلا للمصلِّين الذين هم في صلاتهم خاشعون، تلك الصلاة التي أكثَرَ من ذكرها الكتاب العزيز، ووَصَفَ ذويها بفُضْلىٰ الصفات، وهي الصلاة المشتملة علىٰ التوجُّه إلىٰ الله تعالىٰ، وحضور القلب معه سبحانه، واستغراقه في الشعور

---

(١) تفسير «المنار» (٢ : ٢٨).

بهيبته وجلاله وكمال سلطانه، تلك الصلاة هي التي قال فيها جلَّ ذكره: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال فيها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وليست هي مجرَّدَ الصُّورة المعهودة من القيام والركوع والسجود والتلاوة باللسان فقط كما نفعله الآن، تلك التي يسهل علىٰ كلِّ صبيٍّ مُميِّز أن يتعوَّد عليها، والتي نشاهد [لدىٰ بعض] المعتادين عليها الإصرارَ علىٰ الفواحش والمنكرات، واجتراحَ الآثام والسيئات، وأيُّ قيمة لتلك الحركات المجرَّدة الخفيفة في نفسه حتىٰ يصفها ربُّ العزَّة والجلال بالكِبَر إلا علىٰ الخاشعين. وإنما جُعلت تلك الحركات والأقوال صورةً للصلاة؛ لتكون وسيلةً لتذكير الغافلين وتنبيه الذاهلين، ودافعاً يدفع المصلِّي إلىٰ ذلك التوجُّه المقصود، الذي يملأ القلب بعظمة الله وسلطانه، حتىٰ يستسهلَ في سبيله كلَّ صعب، ويَستَخِفَّ بكل كَرْب، ويسهلَ عليه عند ذلك احتمالُ كلِّ بلاء، ومقاومةُ كل عناء، فإنه لا يَتَصوَّر شيئاً يعترض في سبيله إلا ويرىٰ سيِّدَه ومولاه أكبر منه، فهو لا يزال يقول: الله أكبر، حتىٰ لا يبقىٰ في نفسه شيءٌ كبير إلا ما كان مُرْضِياً لله تعالىٰ الذي يُلجَأ إليه في الحوادث، ويُفزَعُ إليه عند الكوارث.

ثم علَّل الأمر مُنوِّهاً بشأنه في أنه يعين علىٰ عظائم الأمور، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾، والمعيَّة هنا معيَّة المعونة، فالصَّابرون موعودون من الله بالمعونة والظَّفَر، ومَنْ كان الله مُعينَهُ وناصرَهُ لا يغْلبه شيء، وإنما يكون الصبر معيناً علىٰ جلائل الأمور وعظائم الأعمال، إذا أصبح عادة مألوفة وطبيعة راسخة. من «المنار» بتصرف(١).

وقال الأستاذ الإمام: إنَّ من سُنَّة الله تعالىٰ أنَّ الأعمال العظيمة لا تتم، ولا ينجح

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٢٨- ٣٠).

صاحبُها، إلا بالثبات والاستمرار، وهذا إنما يكون بالصبر، فمن صبر فهو علىٰ سُنَّة الله، والله معه بما جعل هذا الصبر سبباً للظَّفَر؛ لأنه يولِّد الثبات والاستمرار الذي هو شرط النجاح، ومن لم يصبر فليس الله معه؛ لأنه تنكَّب سُنَّتَه، ولن يَثْبُتَ فيبلُغَ غايتَه(١).

وبعد أن دعاهم إلىٰ الاستعانة بالصبر والصلاة علىٰ مقاومة المعارضين، رغَّبهم ببيان شأن من يُقتَل منهم، زيادةً في التثبيت وتمهيداً لما بعدها، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي: بحياتهم، إذ ليست في عالم الحسِّ الذي يُدرَك بالمشاعر. والمعتمد عند الأستاذ الإمام: أنها حياة غيبيَّة تمتاز بها أرواح الشهداء علىٰ سائر أرواح الموتىٰ من الناس، بها يُرزقون وينعَّمون، ولكننا لا نعرف حقيقتها ولا الرزق الذي يكون بها، ولا نبحث عن ذلك؛ لأنه من عالَم الغيب الذي نؤمن به ونُفوِّض الأمر فيه إلىٰ الله تعالىٰ.

قال بعض المفسِّرين العصريين: وفي الآية دلالةٌ علىٰ أن الأرواحَ جواهرُ قائمةٌ بأنفسنا تبقىٰ بعد الموت درَّاكةً، وبذلك نطقت الآيات والسُّنن، وعليه دلَّ العلم الحديث، وإنما خصَّ الشهداء بذلك لما يَسْتدعيه مقام التَّحريض علىٰ الشهادة، وفيه نصٌّ علىٰ أنَّهم مُختصُّون بمزيدِ القُرب من الله سبحانه وتعالىٰ ومميِّزات الحياة الثانية(٢).

وبعد أن ذكر الله سبحانه فَضْل الشهادة التي استُهدِفَ لها المؤمنون في سبيل الدعوة إلىٰ الحقِّ والدفاع عنه، ألمع إلىٰ أنَّ من طبيعة القيام بالإصلاح أن يقترن بالصعوبة والشدائد، وذكر مجموع المصائب التي سيلاقونها في سبيل ذلك، فإنَّ الإعلام بالمصائب قبل وقوعها يجعل النفوسَ مُسْتَعِدَّةً لتحمُّلها متوطِّنة لتلقيها، ولا سيما إذا وُعدت بالجزاء

---

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٠).

(٢) انظر: قصة الشهيد ثابت بن قيس في سورة الحج (٥: ٢١٦) (المؤلف).

الكبير علىٰ الصبر عليها، فقال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾.

أقول: وهذا أمر منتظر في أثناء كلِّ نهضة وانقلاب، إذْ يتعرَّض القائمون به لذلك قبل أن يتمَّ ويَسْتَتِبّ، وقد أومأت هذه الآية إلىٰ أنَّ مجرَّد الانتساب للإيمان لا يقتضي سَعَة الرزق وقوة السلطان وانتفاء المخاوف والأحزان، وإنما يجري ذلك بسُنن الله تعالىٰ في الخلق. والمؤمنُ الموفَّقُ يستفيد من مجَاري الأقدار، إذ يتربَّىٰ ويتأدَّب بمقاومة الشدائد والأخطار.

ثم ذيَّل البيان بهذا التسجيل العام، فقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾، وفيه إيذانٌ بأن هذه الأمور هي التي تُكتَسَبُ بها مَلَكَةُ الصبر التي يُقرَنُ بها الظفر، ويكون صاحبها أهلاً لأن يبشَّر بحُسْن العواقب في الأمور كلها.

ثم ذكر من وصف الصابرين قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾، قال في «المنار»: وليس المراد بالقول مُجُرَّد النطق بهذه الكلمات، وإنما المراد التلبُّس بمعناها، والتحقُّق في الإيمان بأنهم من الله، وإلىٰ الله يرجعون، فهو الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيء، ولا يفعل إلا ما سبقتْ به الحكمةُ وارتضاه النظامُ الإلهيُّ المعبَّر عنه بالسنَّة الطبيعية[1]، فيجبُ أن ينطلق اللسان بالكلمة بدافع الشعور بهذا المعنىٰ وتمكُّنه من النفس. فأصحاب هذا الاعتقاد والشعور هم الجديرون بالصبر إيماناً وتسليماً، بحيث لا يملك الجزعُ نفوسَهم، ولا تُقعِدُ المصائب همَّتهم، بل تزيدهم ثباتاً ومثابرةً،

(١) هذه السنن الطبيعية هي الـمُعبَّر عنها بالعادة في كلام العلماء السابقين، والعادة: قانون وضعه الله تعالىٰ لأفعال عباده، فلا حكم لـها علىٰ أفعال الله تبارك وتعالىٰ، ويدل عليه أنه سبحانه وتعالىٰ خرق العادة فيما أيَّد به رُسُلَه من معجزات، فقول المؤلف: إنه تعالىٰ لا يفعل إلا ما ارتضاه النظام الإلهي الـمُعبَّر عنه بالسنة الطبيعية؛ مما لا يُوافَقُ عليه.

فيكونون هم الفائزين. ولا ينافي الصبر والثبات ما يكون من حزن الإنسان عند نزول المصيبة، بل ذلك من الرحمة ورقَّة القلب، ولو فقد الإنسان هذه الرحمة لكان قاسياً؛ لا يُرجىٰ خيره، ولا يُؤمن شره[1].

ثم خَتَم القول ببيان الجزاء بالإجمال، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، أما الصَّلوات فالمراد بها: أنواع التكريم وإعلاء المنـزلة عند الله والناس، وأما الرحمة: فهو ما يكون لـهم في نفس المصيبة من حُسْن الصبر والعزاء والتسليم للقضاء، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ أي: إلىٰ ما ينبغي عمله في أوقات المصائب والشدائد، إذ لا يَسْتحوذ الجزع علىٰ نفوسهم، ولا يذهب البلاء بالأمل من قلوبهم، فيكونون هم الفائزين بخير الدنيا والراحة فيها، الـمُسْتَعدِّين لسعادة الآخرة، بِعُلوِّ النفس وكَرَم الأخلاق.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾.

ولما كان في تحويل القبلة إلىٰ البيت الحرام توجيهٌ لقلوب المؤمنين إلىٰ الاستيلاء عليه، لتطهيره من الشرك والآثام، وكان قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ وعداً ضمنياً لفتح مكة، وقد قرَّره بما يُعين عليه، وهو الصبر، وبيان حال الشهداء، ذكر بعده حكماً من أحكام الحج؛ تأكيداً لتلك البشارة، وزيادةً في التثبيت، كما تقدَّم في ذكر الصلاة، وبياناً لأنَّ حكم الصَّفا والمروة ليس من مُواضعات المشركين الذين رَغبوا عن ملَّة إبراهيم وعبثوا بها، علىٰ نهج القرآن في دقَّة المسالك وتعدُّد الأغراض والمقاصد، فجعل الكلام بحسب السياق حثاً وتحسيساً لفتح مكة التي جُعِلَت قبلةً وعداً وتأييداً، وبحسب

(١) تفسير «المنار» (١: ٣٣).

النظم حكماً وتبييناً، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، فإذا تمَّ لكم فتح مكة ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

كان على الصَّفا والمروة صنمـان للمشركين، وكانوا إذا طافوا بهما مَسَحوهما، فتحرَّج المسلمون عن الطواف بهما، وكانوا يرون أنَّ الطواف بهما من مُبْتَدَعات الجاهلية، فأنزل الله هذه الآية مُبيِّناً أنه من شعائر الله وأعلام مناسكه، فمن حجَّ أو اعتمر وَجَبَ عليه السعيُ بينهما(١).

ثم نوّه بشأن هذه الشعائر ببيان أنَّ الله سبحانه لا يُضيع أجر من أحسن عملاً، فقال: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: فعل طاعة من الخيـر فرضاً أو نـفلاً، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ فلا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها وجازى عليها. وعبَّر عن المجازاة

(١) إنَّ العبادة منها شعائر يجتمع الناس لها، وتقصد الأمة بعملها إظهار الدين والإشعار به والاجتماع والتآلف على عبادة الله تعالى، وكل أعمال الحج من هذا القبيل، ولا بدَّ في الشعائر أن تتخصَّص بمكان وتتوقَّت بزمان؛ لأجل جمع الناس عليها، كما في الحج ومناسكه، وأداء ذلك في مكة المكرمة.
ومن العبادة ما ليس بشعائر، وهو ما يقصد به تربية كلِّ فرد نفسه وتزكيتها، كالصوم وصلاة السنن في البيت، ولا سيما صلاة الليل، فإنها تُهذِّب النفوس وتمنعها من المفاسد، وتُنمِّي المَلَكات الفاضلة، وتُربِّي الإخلاص، وتُجنِّب الرياء.
ومن العبادة ما لا حظَّ للنفس والعقل فيها لبُعد مَرْماها ودقَّة مبْناها، وقد تكون لمجرَّد الامتثال وتغْذية الإيمان بالطاعة الصادقة في كلِّ ما يأمر به الله سبحانه، سواء عُلمت حكمته وفائدته أو لم تُعلم، ومن هذا النوع بعض أعمال الحج ومناسكه، وربما كان لرمي الجمار مدخل في نفي الوساوس الناجمة عن عدم إدراكنا لِـحكَم تلك الأحكام، فجعل إظهاراً لشيء [من] تلك الوساوس والتبري منها، والله أعلم. (المؤلف).

بالشكر مبالغةً في نوع هذا الإحسان، وما أكبر شكر الله للمحسنين! اللهمَّ اجعلنا ممن سَبقت لهم منك الحسنىٰ، يا أرحم الراحمين.

وعن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: قلت لعائشة رضِيَ الله عنها: «إني لأظنُّ أنَّ رجلاً لو لم يطف بين الصفا والمروة ما ضرَّه. قالت: لِـمَ؟ قلت: لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾، فقالت: ما أتمَّ الله حجَّ امرئ ولا عُمرته لم يطف بين الصفا والمروة، ولو كان كما تقول لكان: (فلا جناح عليه أن لا يطوَّف بهما)، وهل تدري فيما كان ذاك؟ إنما كان ذاك أنَّ الأنصار كانوا يهلُّون في الجاهلية لصنمين علىٰ شطِّ البحر يقال لهما: إساف ونائلة، ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة، ثم يحلقون، فلما جاء الإسلام كرهوا أن يَطُوفوا بينهما، للذي كانوا يصنعون في الجاهلية. قالت: فأنزل الله عزّ وجل: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ إلىٰ آخرها»[1]. وفي رواية: «قلت لها وأنا صغير».

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

ثم عاد إلىٰ أصل السياق وما تضمَّنه من عبث أهل الكتاب بكتابهم، بالتأويل والتحريف في معانيه، إذ الكلام عن القبلة هو من نفس السياق؛ لأنَّ اعتراض أهل

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٧٩٠)، ومسلم (١٢٧٧). ولم أقف علىٰ رواية: «قلت لها وأنا صغير».

الكتاب علىٰ تحويل القبلة ـ مع أنه معلوم من كتابهم: أن النبيَّ الذي يُبعث من ولد إسماعيل، يكون علىٰ قبلته وهي الكعبة ـ وإنكارهم أنهم مأمورون فيه باتِّباعه، إنما هو من تحريفهم وتأويلهم لذلك الكتاب، وقد بيَّن حكم هؤلاء العابثين، بصُورة تشريع عام، لا يقتصر عليهم، وذلك من أساليب القرآن، فقال عائداً إلىٰ السياق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾، فالآية صورةُ حكم عام يشملهم وغيرَهم، علىٰ نهج أساليب القرآن في الإيجاز والعموم، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية). وفيها إيذانٌ بأنهم لم يقتصروا علىٰ كتمان الشهادة للنبي ﷺ بالتأويل كما مرَّ، بل كتموا ما في الكتاب من الهُدىٰ والإرشاد، بضروبٍ من التأويل، حتىٰ أفسدوا الدين وانحرفوا بالناس عن صراطه المستقيم. والكتمانُ قد يكون بالسَّتر والإخفاء، وقد يكون بإزالة شيء ووَضْعِ غيره في موضعه.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ ليس المراد أنه ينبغي ويُطلَبُ لعنهم، وإنما المراد أنهم بفعلتهم هذه يكونون موضعَ لعنةِ اللاعنين الآتي ذكرها في حقِّ المُصرِّين علىٰ الكفر، حيث يظهر في الآخرة للعوالم أنهم لم يستحقوا الرحمة.

ثم بيَّن بطريقة الاستثناء مصيرَ مَنْ تابَ وآمن منهم، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ﴾ أي: عَمَلَهم، ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ أي: ما كانوا يكتمونه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾.

ثم قرَّر تعالىٰ مصير مَنْ أصرَّ منهم علىٰ الكفر حتىٰ الممات، وبيَّن ذلك بصورةِ قاعدةٍ عامة تشملهم وغيرَهم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي:

في النار، وقد أُضمِرَت من غير ذكرٍ تفخيماً لشأنها وتهويلاً لأمرها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة). أو في اللعنة، بمعنىٰ أنها دائمة فيهم.

وفي كلٍّ من التقديرين: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ أي: لا يُمهلون، أو لا يُنظَرُ إليهم نظرَ رحمةٍ وامتنان، وإنما عبَّر هنا عن اللعنة بالجملة الاسمية، للإيذان بدوامهم فيها؛ لأنَّ الجملة الاسميَّة تدلُّ علىٰ الثبوت.

وبعد أنْ هَدَم أباطيل أولئك الضَّالِّين والمشركين وبيَّن مصيرهم الهائل، بنتيجة ذلك الشِّرك والضلال، ذكر الطريقَ المنجي من ذلك المصير وهو التوحيد، ودَعاهُم إليه، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد والدعوة إلىٰ الرشاد، وفي تعقيب الكفر والضلال بما يُرشد للنجاة والفلاح، وصفاً للدواء بعد بيان الداء. وبيَّن سبحانه صَمَدانيَّته التي يجب أن يُعتمد عليها، فيما يقول وفيما يُنزِل، وأن لا يُعتمد علىٰ سواه، إذ لا مُسْتَحِقَّ لذلك إلا الله، وكل ما يقال فيما يخالف هذا فهو سَفَهٌ وضلالٌ. وَوَصَلَ البحثَ بالتوحيد وتأكيده، والشرك وتفنيده، والتوعُّد عليه، فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ أي: فبرحمته العظيمة لا يُوجِّهكم إلا لما فيه الخير والصلاح، فلا تشركوا به أحداً، ولا تأخذوا أحكام الدين عن غيره أبداً.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

ثم أيَّد وحدانيَّته واستحقاقه أن يُعبَدَ وحده، بما أوجد في هذا الكون من عجائب

تدلُّ علىٰ اختصاصه تعالىٰ بصفات الألوهيَّة وأفعالـها، وعلىٰ رحمته الشاملة وخيره العميم، وعلىٰ أنَّ تشريعاته في الخيريَّة والإتقان مثل مخلوقاته العظيمة في ذلك الشأن، فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: من آيات بيِّنات يُدهِشُ المتأمِّلين بعضُ ظواهرها، فَضْلاً عما اكتشف العلماء من عجائبها، وإني ذاكر لك شيئاً من ذلك؛ لترىٰ ما يَروعُك ويُدهشك، جلَّ من هذه قدرته وأفعاله.

جاء في كتاب «عجائب الكون»: اتَّـخذ الفلكيون لقياس أبعاد الشمس والقمر والكواكب السيَّارة «الميل» وحدةً قياسية، فقالوا: إنَّ بُعد الشمس عنا ثلاثة وتسعون مليوناً من الأميال، فلو فرضنا صاروخاً طار إليها بسرعة ثمانية وثمانين ميلاً في الساعة، يصلها في مئة وعشرين سنة، وهكذا قاسوا بقية الكواكب، وإنما الشمس نجمٌ من النجوم، وهي أقرب نجم إلينا، وبقية نجوم السماء كلُّها شموس، تضيء الكواكب التي معها في مجراتها، وبينها ما هو أكبر من شمسنا ثلاثين مليون مرة، ولكننا نراها صغيرة لبُعدها الشاسع، ولذلك لم يتمكَّن الفلكيون أن يقيسوا ذلك البُعد بالأميال كما قاسوا بُعْدَ الشمس وتوابعها، إذ يتعذَّر استعمال الأعداد لتلك الأميال، لكثرتها غير المتناهية، فاستعانوا في قياسها بسرعة النور الذي يسير في الثانية مئة وستة وثمانين ألف ميل، فإذا ضُرب هذا العدد في ستين كانت الدقيقة الضوئية، وإذا ضُرب الناتج في ستين أخرىٰ كانت الساعة الضوئية، وإذا ضُرب هذا الناتج في أربع وعشرين كان اليوم الضوئي، وإذا ضرب الناتج الأخير في ثلاثمئة وخمسة وستين كانت السنة الضوئية، وهي حوالي ستة ملايين مليون ميل، فيتَّخذون هذه السنة الضوئية وحدةً قياسية لبُعد النجوم التي لا عداد لها.

وقد قالوا: إنَّ الشمس يصل ضوؤها إلينا في ثماني دقائق، وإن أقرب نجم إلينا بعد الشمس يصل نوره إلىٰ الأرض في أربع سنوات ونصف سنة، أي: إن بُعْدَه عنا

يزيد علىٰ خمس وعشرين مليون مليون ميل. ومعنىٰ هذا: النور الذي نراه من هذا النجم قد خرج منه قبل أربع سنوات ونصف سنة، فلو فرضنا أنْ تلاشىٰ هذا النجم لسببٍ ما، فإننا نبقىٰ متمتِّعين بنوره في المحل الذي كان فيه مدَّة أربع سنوات ونصف سنة، غير شاعرين بما حدث له من التلاشي.

وهكذا يصل إلينا نور النَّجم المُسَمَّىٰ بالنَّسر الطائر في أربعة عشر سنة ونصف، ونجم السماك الرامح يصل نورُه إلينا في مدَّة خمسين سنة، ومن النجوم ما هو أبعد من ذلك بكثير جداً. وإنَّ بعض المجموعات النجومية والسدائم الكونية قد خرج منها الضوء منذ ألوف السنين، فإنَّ سديم المرأة المسلسلة[1] يزيد علىٰ ستمئة ألف سنة، وإن أبعد ما كشفت عنه النظارات الفلكية من السدائم، يبعد عنا مئة وأربعين مليون سنة ضوئية، وعلىٰ الرُّغم من دقَّة الآلات لم يكشف من النجوم البعيدة إلا أوائلها، والأقسام التي أصبحت معروفة من الكون ليس شيئاً بالنسبة إلىٰ ما يزال مجهولاً، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩].

وقد بيَّن العلم في أوائل القرن الثامن عشر للميلاد أنَّ هذه النجوم في حركة دائمة، فقد كان قبل ذلك يعتقد أنَّ هذه النجوم ثوابت لا حركة لها، وقد وجد الفلكيون أنَّ معدل حركة النجوم هذه تقدَّر بمئات الملايين من الأميال في السنة، وأنَّ هذا الفضاء أوسع مما يتصوَّر الإنسان مهما شطَّ به الفكر وحلَّق به الخيال، فهو علىٰ كثرة نجومه لم تزدحم فيه، بل لم تشغل منه إلا جزءاً صغيراً، وأنَّ معدَّل المسافة بين نجم وآخر يقدَّر بثلاثمئة مليون ميل. وهذه المسافة تجعل الاصطدام بعيد الوقوع غير محتمل، فلو فرَّقنا وأطرنا في جوِّ القارات الخمسِ عشرَ نحلات، لكان احتمال تصادم اثنتين منها أقرب

---

(١) إحدىٰ المجرّات.

من احتمـال تصادم نجمين في الفضاء، ولكان جو الأرض أكثر ازدحاماً بالنحل من ازدحام الفضاء بالنجوم، وعلىٰ الرغم من الفراغ العظيم الموجود بين النجوم فـإنَّ مجموعها الكُلّي كبير جداً يستحيل تصوُّرُه.

ويقول الفلكيُّون: إننا لكي نتخيَّل المجموعَ الكُلِّيَّ لنجوم السماء عدا السدائم يجب أن نتصوَّر لذلك العدد مكتبةً ضخمة تحوي علىٰ الأقل نصف مليون كتاب كلٌّ منها خمسمئة صحيفة.

وإذا كنا نطالع صفحة في الدقيقة مدة ثماني ساعات في اليوم، فلا بدَّ من سبعمئة سنة لقراءة هذه المكتبة عن آخرها، ولو كنَّا نعدُّ النجوم بسرعة ألف وخمسمئة نجم في الدقيقة، لاستغرق عدُّ النجوم كلها سبعمئة سنة.

وهناك المجتمعات النجميَّة وهي التي قد تجمَّعت في أشكال كروية تعرف بالعناقيد والمجتمعات النجميَّـة، ويختلف عدد النجوم فيها من خمسة آلاف نجم إلىٰ مئة ألف نجم، وذلك فيما أمكن كشفه. وتدور نجوم كلِّ مجتمع بعضُها حول بعض خاضعةً لنظام الجاذبية العامة، وهذه المجتمعات علىٰ أبعاد شاسعة عنا، وتتراوح بين ثمانية عشر ألف سنة ومئة وثمانين ألف سنة ضوئية في المدىٰ الذي قدرت أن تكشفه لنا النظارات الفلكية، فمجموع الجاثي مثلاً يصل نورها إلينا في ثلاث وثلاثين ألف سنة، وهي تبعث من الضوء مليونين ونصف مليون مرة قدر ما تبعثه الشمس، ومع ذلك لا يُرىٰ إلا بصعوبة، فلا عجب إذا ظهرت المجتمعات الأخرىٰ التي أبعادها تزيد علىٰ ذلك بكثير، لطخاً سحابية، لأنها تبعد عنا مئة وأربعين مليون سنة ضوئية، وقد كشف منها إلىٰ حدٍّ الآن مليونان من السحائب.

أما الفضاء الذي تشغله الواحدة من هذه المجتمعات، فقد دلَّت الأرقام علىٰ أن

قُطْرَ بعضها يزيد علىٰ ألف سنة ضوئية، وأنَّ معدَّل المسافة بين نجم وآخر في أيِّ مجتمع لا يقلُّ عن عشرة ملايين مليون ميل، وهذا المقدار يجعل الاصْطدامَ بين هذه النجوم بعيدَ الاحتمال في هذه المجتمعات أيضاً.

وهذا الكون العظيم خَلَقَه سبحانه بمشيئة وإرادة وما مسَّه من لغوب، فهذا هو معبودنا جلَّ جلاله لا نشرك به أحداً، خاب المشركون والذين يجعلون له ولداً. اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم.

وقد ظهر لك أنَّ هذه الأرض التي نعيش عليها، ليست إلا ذرةً تدور حول شمس من شموس عديدة انتثرت في الفضاء انتـثار الرمال في الصحراء، فاقرأ عند ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، لتفهم معناها فهمـاً إجمالياً، إذ لا يحيط علمـاً بذلك إلا العليمُ العلَّام، سبحانه وتعالىٰ عمَّا يشركون، ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١]، لاسيما الذين يقولون: ليس لهذا الكون خالق، وينكرون البديهيات.

ولا تقلُّ عظمةُ الكون امتداداً في الزمان، عن عَظَمته امتداداً في المكان، ولكن الوقت لا يتَّسع لبيان ذلك، فنكتفي بلمحة عَجْلىٰ، فنقول: قال علماء الفلك: إنَّ عمر الشمس يُـقَدَّر بنحو خمسة ملايـين مليون سنة، وإنَّ عمر الأرض يُـقدَّر بنحو ألفي مليون سنة، فهي منفصلة منها، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وعمر الحياة علىٰ الأرض يقدَّر بنحو ثلاثمئة مليون سنة، وعمر الإنسان عليها يقدَّر بنحو ثلاثمئة ألف سنة، فهو مخلوق حديث وآخر أنواع المخلوقات، والله أعلم، قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ

يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١]. أَمَّا تكوُّن الأجرام السماويَّة ومبدؤها فيعجز العلم عن تحقيقه. أفلا يكون في ذلك كلِّه دلالة علىٰ اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة وانفراده بها.

وقال أحد علماء الغرب: لا أستطيع أن أدركَ كيف يُصَعِّدُ أحدٌ نظرَه إلىٰ السماء ثم ينكر وجود الله.

أقول: وكل ما ذكرناه من امتداد هذا الكون وإعمار كائناته قد تحقَّق بالطرق العلمية الحديثة، التي أظهرت كثيراً من الحقائق الراهنة البعيدة المدىٰ في خفايا هذا الكون وعجائبه ومحتوياته، أفلا يكون لنا ثقةٌ بهذه الطرق العلمية إذا أنبأتنا عن امتداد هذا الكون في المكان والزمان، وأبعاد هذه السماوات؟

وإذا أردت الاطلاع علىٰ بعض آيات السماوات وعجائبها، فاقرأ أمثال كتاب «النجوم في مسالكها»(١) لترىٰ ما يدهشك ويريعك حتىٰ إنك لتقول:

يكاد الذي يتلو غريبَ حديثها — يظنُّ خيالاً أو أحاديثَ مفتري(٢)

ثم تابع سبحانه دليل الإبداع والمنَّة، فقال: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وذلك بما أودع الله في الماء من خاصَّة حَمْل الأجسام حسب نظام العَوْم، فكلُّ ذلك يجري علىٰ سنن طبيعية مُطَّردة أودعها الله في طبيعة الماء لإفادة الناس، فإنَّ البحر طريق عظيم في المواصلات بين القارات والبلاد النائية، ولولا هذا النظام الطبيعي لتعطَّل قسم كبير لا يُستهان به من مصالح الناس، فقوله: ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ بيانٌ لِعَظَمة منَّته تعالىٰ بذلك علىٰ الناس ومظهر رحمته، وتنبيهٌ لهم علىٰ ما يجب عليهم من الإيمان والشكر فضلاً عن عدم الكفر.

---

(١) في علم الفلك للسير جمس جينز.

(٢) البيت لشكيب أرسلان، الشاعر اللبناني المتوفىٰ سنة ١٩٤٦.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ أي: وما في سُنَن تجمُّع البخار ثم انقلابه إلىٰ ماء من عَظَمَة في هذا النظام البديع، وقد شرح العلماء المتَخَصِّصون في ذلك كيفيَّة تكوُّنه ونزوله، ولم يخرج شرحهم وبيانهم عن الكلمة الوجيزة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]. وفي كلمة «السماء» مجازٌ مرسل، أراد بها السحاب؛ لعلاقة المجاورة.

ثم وصف هذا الماء بأعظم آثاره، فقال: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، وهذا كما يتناول الإحياء المتكرِّر في كل سنة يتناول الإحياء الأول عندما انفصلت الأرض من الشمس، وكانت مائرة ملتهبة تَـتَبخَّر من حرارتها مادة الماء، فتُلاقي في الجوِّ برودة، تجعلها ماء ينزل علىٰ الأرض فيبرد من حرارتها، حتىٰ صار سطحها ماءً، وظهرت بعد ذلك اليابسة، وخلق الله عليها النبات والحيوان، ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، فهذا العطف يجوز أن يكون علىٰ ﴿أَنزَلَ﴾ أو علىٰ ﴿أَحْيَا﴾.

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فالرياح هي التي تُـثير السَّحاب وتسوقُه إلىٰ حيث يُمطر وتُـفرِّقُ شملَه أحياناً، وهو يتكوَّن بنظام ويتفرَّق بنظام عَجيبَيْن، يعرف ذلك العلماء المُتخصِّصون، ومن لا يعرف ذلك لا يفهم كونها آية فهماً تفصيلياً.

وإنما أخَّر السحاب المُسخَّر عن إنزال الماء من السماء، عكس الترتيب الطبيعي؛ ليُعدَّ آيةً مستقلةً كما عُدَّ كل أمر من الأمور المسرودة آيةً مستقلة، وذلك لأنَّ كلَّ واحد منها مُسْتتبع لآثار معيَّنة ونتائج مخصوصة بها. ولو رُوعي في النَّظم الترتيبُ الطبيعيُّ لتُوُهِّمَ كونُ المجموع المرتَّب بعضه علىٰ بعض آيةً واحدة.

ويجوز أن يكون في قوله: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلماعٌ

إلىٰ نشأته وتكوُّنه، حيث ينشأ من الأرض بخاراً، ويتصاعد إلىٰ طبقات الجوِّ الباردة فينقلب ماء.

ولـما جُعل كلُّ واحد من هذه الأمور آيةً مستقلة، قال تعالىٰ: ﴿ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤ ﴾ فإنَّ آيات الوجود تنطق بوحدانيَّة الـمُوجِد المعبود. وقد أوضحت هذه الآيةُ الأدلةَ والبراهينَ علىٰ وجود الله ووحدانيته وعِظَمِ قُدرته وجليلِ حكمته وعميمِ رحمته في الناس واختصاصه بالألوهية.

وقد قال العلماء: إنَّ لله كتابين: كتاباً مخلوقاً وهو الكون، وكتاباً منزَّلاً وهو القرآن. وقد أجمع المفكِّرون علىٰ أن أسمىٰ أغراض الدين هو نقل الإنسان من حظيرة الحيوانية إلىٰ حظيرة التفكير، وإعداده لأن يحيا حياة الفضيلة والاستقامة والتقوىٰ والكمال الصحيح.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧ ﴾.

ثم بيَّن سبحانه ركاكةَ آراء المشركين وسخافةَ عقولهم، إثر تقرير وحدانيَّته تعالىٰ، وتحرير الآيات الكونيَّة الباهرة الملجئة للعقلاء إلىٰ الاعتراف بالتوحيد والتنزيه، وأنه يستحيل أن يشاركه مشارك في ذلك، فقال مُندِّداً بهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ ﴾ بعد كل ذلك ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ﴾ أي: من حُبِّ هؤلاء لأندادهم، أو من حُبِّ كل شيء. ويجوز أن يكون اسمُ التفضيل ليس علىٰ

بابه، ولكنه للمبالغة في الوصف، أي: يُحِبُّونه حُباً شديداً، ولا يشركون في حبِّه أحداً.

والأنداد: الأمثال والأشباه، وهو أعمُّ من الأصنام والأوثان، فيشمل العظماء الذين يخضع لهم بعض الناس خضوعاً دينياً ألوهياً.

وقوله: ﴿ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾، فيه ثلاثة أقوال، فقيل: المعنىٰ: كحُبِّهم لله، يعني: أنَّ المشركين يُسَوُّون بين الله وبين شركائهم في المحبة، وقيل: بل المعنىٰ كالحب اللازم لله عليهم، وقيل: كحُبِّ المؤمنين لله.

وللحبِّ أسباب، منها ـ وهو المقصود هنا ـ: أن يعتقد أنَّ في المحبوب قدرةً عظيمةً ونفوذاً كبيراً، مع ثقته بأنه يهتمُّ لأمره، ويعطف عليه، بحيث يمكنه اللجوء إليه عند الحاجة. المؤمنون يَقْصُرون ذلك في الله سبحانه وتعالىٰ، أما المشركون فيُسَوُّون بين الله والأنداد في ذلك، فإذا ضايقهم أمر أو نزل بهم ضُرٌّ؛ لجؤوا إلىٰ بشر أو صخر، أو توسَّلوا بحيوان أو قبر، أو استشفعوا بزيد أو عمرو، لجلبِ نفعٍ أو دفع ضر(١).

وقد ردَّ الله سبحانه عليهم، وسبك الردَّ علىٰ الإنذار والتوعُّد، وضمَّن ذلك اختصاص القوة والقدرة بالله، فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾، وهذا تهديد بأبلغ تعبير وأروعه، وبأسلوب من أساليب القرآن المصوغة للمبالغة في تهويل الخطب وتفظيع الأمر، فإنه تعبير يتجلّىٰ رَوْعَةً وهَوْلاً، ويتعالىٰ شرفاً ونُبلاً. جلَّ مَنْ هذا كلامه.

---

(١) التوسل بنبي أو عبد صالح والاستشفاع بهم إذا كان مع اعتقاد أنه يضرُّ وينفع فهو نوع من الشرك، وهو داخل في معنىٰ اتخاذ الأنداد من دون الله، بخلاف التوسل والاستشفاع به مع اعتقاد أن الضرر والنفع بيد الله. وعدم التفرقة بين الحالتين خطأ ينبني عليه تكفير جماعات من المسلمين بغير وجه حق. والكلامُ في الثاني كلامٌ في مسألة فقهية، يجري البحثُ فيها من حيثُ الجوازُ أو المنع، لا في مسألة عَقَدية.

وقد أقام بيان القدرة المرهوبة مقام جواب ﴿لَوْ﴾، للإيذان بأنه لا يُحيط به البيان، وأنه مما لا يستطيع السامع أن يسمعه لما فيه من الهول، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة العاشرة من المقدمة الثانية)، أي: لرأوا أمراً هائلاً وأن القوة لله جميعاً.

وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ ظرفٌ ثانٍ أو بدلٌ من ﴿إِذْ يَرَوْنَ﴾، ذَكَرَهُ لشرح حالهم التعيس، لبيان أثر ذلك الهوْل وما يكون لهم من التقاطع والندم، والتَّحسُّر والتلاوم، وَلاتَ ساعةَ مَنْدَم. أعاذنا الله.

والمعنىٰ: إذ تبرَّأ الرؤساء من الأتباع، واعترفوا ببطلان ما كانوا يدَّعون في الدنيا ويدْعونهم إليه، من فنون الكفر والضلال، واعتزلوا عن مخالطته وقابلوهم باللعن، ﴿وَ﴾ ذلك عندما ﴿رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ فرأىٰ الرؤساء أن قد تضاعف عليهم العذاب بسبب إغوائهم لهؤلاء الأتباع، ورأىٰ الأتباع أنْ قد حلَّ بهم العذاب الشديد من جرَّاء ما أغواهم به هؤلاء الرؤساء، فتذكَّر كلٌّ منهما للآخر، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: العلاقات التي كانت بينهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: إلىٰ الدنيا، أي: ليت لنا ذلك ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ اليوم، ثمَّ ختم البيان بما يُشعر بندمهم وتيئيسهم من نجاتهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ فلا تفيدهم الأماني، ولا يُجْديهم الندم نفعاً، والحسرةُ: شدَّة الندم والكَمَد[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

---

(١) الكَمَد: الحزن المكتوم. «لسان العرب» (كمد).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

ثم خاطب أولئك الرؤساء الذين يعبثون بعقول الأتباع، ليحملوهم علىٰ أن يحبُّوهم ذلك الحبَّ الذي تقدَّم ذكره في الآية السابقة، ويستغلّون منافعهم وأموالهم، خاطبهم بهذه الآية العامة التي تشملهم وغيرَهم. وقد جعلها وما يليها حلقة وَصْل ختم بهما السياق السابق، المتضمِّن للتنديد بالضَّالِّين المكذِّبين الذين عَبَثوا بشرائع الله تأويلاً وتبديلاً، يتَّبعون في ذلك خُطوات الشيطان، ومَهَّد بهما للسياق اللاحق المبيِّنِ إلىٰ نهاية السورة تشريعاتِ الله الصحيحة وأحكامَه الواجبة الاتِّباع، التي تأخذ بهم إلىٰ الرُّشد والفلاح، واشتمل علىٰ تحليل الطيبات وتحريم الخبائث، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ[1] كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: فلا تتَّبعوا خطواته في الأقوال والأعمال، ولا سيما في التَّحريف والتضليل، وتحريم ما لم يُحرِّم الله وتحليل ما لم يُحلل، وتنشروا ذلك بين الأتباع بُغْيَةَ السيادة عليهم والحصول علىٰ منافع الدنيا، فإنَّ ذلك سبب الدمار وعذاب النار.

---

(١) لما كان مضمون السياق السابق يدلُّ علىٰ أنَّ المعارضين لا يتَّبعون حدود الله ويعبثون بتشاريعه تحريفاً وتبديلاً، شرع سبحانه في السياق الآتي ببيان أحكامه الواجبة الاتباع، فكانت هذه الآية وما يليها حلقة وَصْل ختم بها السياق السابق، ومهَّد للاحق، ونعَىٰ بها علىٰ المعارضين من أهل الكتاب والمشركين، تمسكهم بعقائدهم الضالة وتشريعاتهم الباطلة التي يتَّبعون فيها خطوات الشيطان، وأعقب ذلك بالتشريعات الصحيحة، والتوجيهات السَّديدة التي يجب اتِّباعها، فتَسَلْسَلت إلىٰ انتهاء السورة. (المؤلف).

وقوله: ﴿ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾ تحسيسٌ بالنِّعم، وتمهيدٌ لما بعدها من النهي عن كفرانها باتِّباع خطوات الشيطان. والمراد به ما تَقَدَّمَ لهم من الأقوال والأفعال من مبدأ السورة إلىٰ هنا، وأمثال ذلك، كتحريم السائبة والوصيلة من المشركين، وإنكار أهل الكتاب ما جاءهم في كتبهم عن رسول الله ﷺ. فالآية ردعٌ للبشر عما صدر من بعضهم، علىٰ نهج القرآن في إسناد ما هو للبعض إلىٰ الكل، إيماءً للتضامنِ ووجوبِ التناهي بينهم وكفِّ العقلاء للسفهاء.

وفي قوله: ﴿حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الله سبحانه لا يُحِلُّ إلا الطيب، ولا يُحرِّم إلا الخبيث.

قال في «المنار»: أما السُّوء فهو كل ما يَسُوؤُك وقوعُه أو عاقبتُه، فمن الشرِّ ما يقدُمُ عليه المرء مُندفعاً بتزيين الشيطان له، حتىٰ إذا فعله فاجأه السوء، ومنه ما لا يظهر السوء في بدايته، ولكنه يتَّصل بنهايته.

وأما الفحشاء فكلُّ ما يقبح في أعين الناس من المعاصي والآثام. والفحشاء في الغالب أقبح وأشد من السوء. وإنّما يُعرف الشيطان بهذا الأثر الذي يُنسب إليه، وهو وحيُ الشر وخواطرُ الباطل، والإفساد للنفس هو منشأ هذا الوحي والخواطر الرديئة، وقد قالوا: إنَّ لكل إنسان شيطاناً، وهو قوَّة نزَّاعة إلىٰ الشرِّ(١) تُحدِثُ له خواطر السوء. ومن أقبح ما يوسوس به: أن يحمل الإنسان علىٰ التَّقوُّل علىٰ الله بما لا يعلم، فيُحرِّم ما لم يُحرِّم، ويُحلِّل ما لم يُحلِّل، فإنَّ هذا هو الأصل في إفساد العقائد وتحريف الشرائع(٢).

---

(١) تفسير «الشيطان» بهذه القوة غير صحيح، نعم.. لا ينكر وجود مثل هذه القوة في النفس الإنسانية، لكن تفسيرُ «الشيطان» بها غير صحيح، وقد تقدَّم التعليقُ علىٰ هذا المعنىٰ في المقدمة (١: ٥٦١).

(٢) تفسير «المنار» (١: ٧٢).

ثم أنّبهم ـ بما فيهم الأتباع ـ على تقليدهم الأعمىٰ، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾، ولو كان للمُقلِّدين قلوبٌ يفقهون بها، لكانت هذه الآية كافيةً بأسلوبها لتنفيرهم من التقليد الأعمىٰ، فإنها حُجَّة عقليةٌ لا تُنقَض، إذ أبعَدُ الناس عن معرفة الحق المقلّدون الذين لا يبحثون ولا يستدلون، ولذلك ضرب الله لهم المثل في الآية الآتية، فقال: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي: في اتِّباعهم هذا لمتبوعيهم وتقليدهم لآبائهم دون معرفةِ الحقِّ من الباطل بالوعي والبرهان ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴿١٧١﴾﴾، فضَربَ الله لهم هذا المَثَل، زيادةً في تقبيح شأنهم والازدراء عليهم، فشبَّه حالهم بحال الغنم مع الراعي يدعُوها فتَقبِل، ويَزْجُرها فتنزجر، وهي لا تعقل مما يقول شيئاً ولا تفهم له معنىٰ.

وتشعر هذه الآية بأن ليس القَصْدُ من الإيمان والتكليف بالأعمال الصَّالحات أن يُذلَّل الإنسان للخير فقط، بل هناك ما هو أسمىٰ من ذلك مضافاً إليه، وهو أن يترقّىٰ عقلُه وتسمو نفسُه بالعلم والعرفان، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المُرضِي لله سبحانه وتعالىٰ، ويترك الشر لأنه يفهم سوءَ عاقبته ومضرَّته لنفسه أو بالفرد أو بالمجتمع. ولولا ذلك لم يَنْه عنه سبحانه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

ولما كان مضمون السياق ـ ولا سيما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ [البقرة: ١٦٨] ـ يدلُّ علىٰ أنَّ المعارضين لا يتَّبعون حدود الله، ويعبثون بتشاريعه تحريفاً وتبديلاً، أتبعه سبحانه

في السياق الآتي، ببيان أحكامه الواجبة الاتِّباع دون ما يشرعه هؤلاء لأنفسهم علىٰ نهج القرآن في إتباعِ النقد بالرشاد والدعوة إلىٰ الإرشاد، وسَلْسَلَ ذلك إلىٰ آخر السورة.

أما صاحب «المنار»: فقد قال في وجه الربط: وبعد أن بيَّن تعالىٰ حال الذين يتَّخذون الأنداد من دونه، وأشار إلىٰ أنَّ سبب ذلك حبُّ الحطام وارتباطُ مصالح المرؤوسين بمصالح الرؤساء في الرزق والحياة، وخاطب الناسَ كلَّهم بأن يأكلوا من الأرض إذ أباح لهم جميع خيراتها وبركاتها، بشرط أن تكون حلالاً طَيِّباً، وبيَّن سوء حال الكافرين المقلّدين الذين يقودهم الرؤساء كما يقود الراعي الغنم، لا يدركون حكمةً ولا يفقهون قولاً. بعد هذا كله وجَّه الخطاب إلىٰ المؤمنين خاصَّة؛ لأنهم أحقُّ بالفهم وأَجْدَرُ بالعلم وأحرىٰ بالاهتداء[1]. فنبَّههم إلىٰ عدم الالتفات إلىٰ أولئك الحمقىٰ الذين أُبيحت لهم خيرات الأرض، فطفقوا يُحلُّون بعضها ويُحرِّمون بعضها بوساوس رؤسائهم، فقال[2]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ لأنها ليست من الطيِّبات.

أما تحريم الميتة فلأنها لا بد أن قد ماتت بعلة يُخشىٰ ضررُها، وكذلك الدم، وأما لحم الخنزير فهو مُولِّدٌ للدودة الوحيدة وغيرها لا سيما في البلاد الحارة[3]. وأما ما أُهِلَّ

(١) تفسير «المنار» (٢: ٧٧).

(٢) لما كان مضمون السياق السابق ـ ولا سيما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ [البقرة: ١٦٨] ـ يدلُّ علىٰ أنَّ المعارضين لا يتَّبعون حدود الله ويعبثون بتشاريعه تحريفاً وتبديلاً، شرع سبحانه في السياق الآتي ببيان أحكامه الواجبة الاتباع، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾. (المؤلف).

(٣) قوله: ﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ ذُكِرَ في تقرير للمعهد الطبي في الولايات المتحدة أن تلك البلاد التي تأكل لحم الخنزير تختلف نسبة الإصابة بديدان التريكينيلا، بين ٥-٣٥ في المئة علىٰ اختلاف =

به لغير الله، أي: ما ذُبح باسم صنم، أو نبيٍّ، أو ولي، فلأنه من أعمال الوثنية يُفسِد الروحَ ويمرضُها[١].

وإنما قال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ ولم يقل: واشكروا لي، لتربية المَهَابة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

وقد ألمعنا فيما سبق إلىٰ أنَّ هذه الآية مبدأ سياق جديد مناسب لما قبله، فإنَّ ما تقدَّم من أول السورة إلىٰ ما قبل هذه الآيات، كله في القرآن والرسالة وأحوال المنكرين للداعي، وما جاء فيها من الأحكام فإنما جاء بطريق العرض والاستطراد، وهذه الآية ابتداءُ قسم جديد من الكلام، وهو سَرْدُ أنواع الأحكام، إذ لما كان مضمون سياق الآيات السابقة يقضي بأنَّ الله سبحانه مُسْتقل في أمر التشريع، ولا يجوز لأحد أن يضع أحكاماً تشريعية دينيَّة، عقَّبه بسياقٍ سَرَدَ فيه أهم الأحكام التي شرعها سبحانه وتعالىٰ، فإنه يذكر فيه أحكام محرَّمات الطعام، وأحكام القصاص، والوصيَّة، والصوم، والحج، والنكاح، والطلاق، والرضاع، والصدقات، والربا، والدَّيْن، وغير ذلك. وبدأها ببيان أحكام الأطعمة، وذكر المحرَّمات منها.

= تلك البلدان في نسبة تناولها له، كما أن أعراضها تظهر علىٰ ملايين من أهالي تلك البلاد بأشكال شتىٰ، مثل ارتفاع الحرارة والنزلات المعدية والمعوية وآلام العضلات والمفاصل. ويقول التقرير المذكور في خِتامه: ويُحتَملُ أن بضعة آلاف من الوفيات سنوياً سببُها هذه الدودة. فما أعظم حكم الإسلام! وما أكبر عنايته بالأرواح والأجسام! وإنَّما حرمت هذه الأربعة لأنها من الخبائث. والحصر في الآية إضافي بالنسبة إلىٰ ما كانت تحرمه الجاهلية علىٰ نفسها من بَحيرة وسائبة ووصيلة وحام، وليست هي جميع المحرَّمات. (المؤلف).

(١) قد تظهر الحكمة في تحريم ما حرَّم الله، وقد تخفىٰ، وليس لظهورها أو خفائها أثرٌ في الانتهاء عنها واجتنابها، لأن هذا الاجتناب مُرتَّبٌ علىٰ ورود النهي الجازم المفيد للتحريم، لا علىٰ ظهور الحكمة في تحريمه.

ثم إنه بعد أن ذكر هذه المحرَّمات من المطعومات، استثنىٰ منها حالة الاضطرار، فقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: إلىٰ الأكل،بأن لم يجد ما يسدُّ رَمَقه سواه، ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير طالبٍ له قَصْداً وراغبٍ فيه لذاته، فهذه حال مؤكّدة للاضطرار، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الشيء بسَلْب ضدِّه، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: ولا مُتَجاوز في ذلك الأكل قَدْر الضرورة، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ لأنَّ إلقاءه بنفسه إلىٰ التَّهلكة بالموت جوعاً أشدُّ ضرراً من أكل الميتة وما عُطف عليها، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ يسامح المضطرين.

قال في «المنار»: وفي هذه الفاصلة نكتة دقيقة لا تظهر إلا لصاحب الذوق الصحيح في اللغة، وهي أنَّ ما ذكر في تحديد الاضطرار دقيق جداً، ومرجعهُ إلىٰ اجتهاد المضْطر، ويَصْعُبُ علىٰ مَن خارت قواه من الجوع أن يعرف القدر الذي يُمسِكُ الرَّمق ويقي من الهلاك بالتدقيق، وأن يقف عنده. والصادق الإيمان يخشىٰ أن يقع في صنف الباغي والعادي بغير اختيار، فالله تعالىٰ يُبشِّره بأن الخطأ المتوقَّع في الاجتهاد في ذلك مغفورٌ له ما لم يتعمَّد تجاوزَ الحد. والله أعلم[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾.

ثم ذكر مصير أولئك الرؤساء الذين يُضَلِّلون أتباعهم بما يكتمون من التشريع ويشرعون من عندهم، وبما يُحرِّمون عليهم وما يُحلُّون لهم من تلقاء أنفسهم أو بالتأويل،

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٨١).

وتوعَّدهم بالوعيد الرهيب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المنوَّه عنه في التوراة والإنجيل: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ وكلُّ ثمن يؤخذ عِوَضاً عن الحقِّ فهو قليل في جَنْب ما يفوت من سعادة الحق، وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، وقد توعَّدهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، وكلمةُ ﴿فِي بُطُونِهِمۡ﴾ تمكينٌ للأكل وتقريرٌ له، علىٰ حدِّ قولهم: نظرت بعيني. والمعنىٰ: إن ما يأكلونه ثمناً لكتمان الحق سَيُوردُهم النار، ﴿وَ﴾ فوق ذلك ﴿لَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وهذه الجملةُ مُستعارةٌ من حال المُخاطَبين. وهي عبارة عن غضبه العظيم عليهم، وتعريضٌ بحرمانهم ممَّا أتيح للمؤمنين من فنون الكرامات السنيّة والزلفىٰ، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: لا يُطهِّرهم بالمغفرة والعفو، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾. أعاذنا الله.

ثم نعىٰ عليهم مُصوِّراً عَمَلَهم القبيح وسوءَ نتائجه وما ينبعث عنه من الخسران العظيم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾، وهذا العطف بالواو بين جُزءَي الصلة إنما هو من عطف المعلول علىٰ العلة؛ لأنَّ هذا المعطوف أثر المعطوف عليه، وقوله: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾ تهديدٌ رهيبٌ في طيَّات التَّجهيل والتَّعجيب، علىٰ نهج القرآن في سَبْك التركيب علىٰ عدَّة معان. وهذا كما يقال للذي يَتَعرَّض لما يُوجب غضب الملك: ما أصْبَرَكَ علىٰ السجن، أي: إنَّه لا يتعرَّض لهذا إلا من هو شديد الصبر علىٰ العذاب.

قال الأستاذ الإمام ما مثاله: إنَّ الكلام في أكلهم النارَ والتَّعجُّبِ من صبرهم علىٰ النار، هو تصويرٌ لحالهم وتمثيل لمآلهم[1].

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٨٦).

ثم علَّل ما سجَّله عليهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ذلك الحكم الذي سُجِّل عليهم وقُرِّر في شأنهم، إنما هو لمخالفتهم الكتاب الذي جاء بالحق. والحقُّ لا يُغالب ولا يُخالف؛ لأنَّ الحقَّ مطابق للسنن الكونيَّة، ومخالفتها تُؤدِّي إلىٰ التلف والهلاك، إذ لا ضَرَر في الدارين علىٰ الفرد والأمة إلا من مخالفة السنن الكونيَّة والخروج عنها. ولا يكفل بيان هذا الأمر علىٰ الوجه الصحيح إلا مقرَّرات هذا القرآن العظيم والنور المبين.

ثم ذكر حكماً آخر في الكتاب غير حكم كتمانه، وهو حكم الاختلاف فيه، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾، فهو يفهمنا أنَّ الخلاف فيه بُعْدٌ عن الحق ككتمانه؛ لأنَّ الحق واحد وهو ما يدعو إليه هذا الكتاب الذي ينطبق علىٰ الحق الواقع والهدىٰ والرشاد.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

ثم مهَّد للبحث الآتي في الأحكام الشرعية، بالإجمال للبحث الأصلي السابق، وهو الجدال في أمر القبلة، فأعاده إلىٰ الذاكرة علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (و) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، مُبيناً أن أمر القبلة ليس بالشيء المهم، وإنما المهم استباق الخيرات التي فصَّلها، فقال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، وفيه ذكرُ العام وإرادةُ الخاصّ، أي: ليس البر أن تُولُّوا وجوهكم لجهة معيَّنة في ناحية من الأرض.

وهذا ردٌّ علىٰ أهل الكتاب الذين أكبروا أمْرَ تحويل القبلة عن بيت المقدس - كما تقدَّم في آيات التحويل - وحكمَه، وطال خَوْضُهم فيه، وأكثروا المشاغَبات وأثاروا العَجَاج المزعج حتىٰ شغلوا المسلمين، فهو يُهَوِّن أمرَ تحويل القبلة ويُبيِّن أنَّ الجمود علىٰ ناحية مُعيَّنة في ذلك ليس من البر، بل الجهات كلُّها ليست من البرِّ في ذاتها، إلا بعدَ أن يَخُصَّها اللهُ لذلك، وإنما البرُّ بالإيمان بالله والامتثالِ لأوامره، والإيمانِ باليوم الآخر، وأن يعمل صالحاً يرضاه الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ[1] مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾، فنفت كلمة «ليس» أن يكون البر فيما دَرَجَ عليه الجاهلون من الأمور الفاسدة والمظاهر الجوفاء، وأثبتت كلمة «لكن» أصولَ الإيمان والحق والسلوك المستقيم، وأنها هي البرُّ المرضيُّ عند الله.

والبر: جماع الخير والإحسان، وبيَّنت الآية ثلاثة أنواع منه: البر في العقيدة[2]

---

(١) البرُّ: جماع الخير بسائر أنواعه، فيشمل العقيدة والعمل والخلق، وقد جمعت الآية ذلك.
فالأول: الإيمان بالله وحده، والإيمان بالملائكة المستعدة لتلقِّي الوحي من الله، والإيمان بالكتاب، وهو الشريعة التي ينزلها الله علىٰ البشر بواسطة الوحي، والإيمان بالنبيين الذين هم بمقتضىٰ كمالهم البشري مستعدُّون للاتِّصال بالوحي والتلقِّي منه، والإيمان باليوم الآخر حياته وجزائه، نعيمه وشقائه.
والثاني: البرُّ بالعمل الصالح، وهو شُعَبٌ كثيرة. وجماعُهُ: بذل النفس والمال ابتغاء مرضاة الله وهناء خلق الله، وقد ذكرت الآية جملة منه.
والثالث: البرُّ في الخلق وجماعه الإنسانية، وقد ذكرت الآية منه الوفاء بالعهود، ومقاومة الطوارئ دفاعاً عن الفرد والمجموع، والصبر علىٰ ذلك. (المؤلف).

(٢) البرُّ في العقيدة: أن نُجرِّده من الشريك والنقيض حتىٰ من الرياء في الأعمال وأن يُنسبَ إليه ظلم أو محاباة، فتوحِّده توحيداً خالصاً، وتنزِّهه تنزيهاً دقيقاً ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾. فإنَّ الله سبحانه لايقبل عملاً فيه ذرة من شرك أو رياء. (المؤلف).

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، والبر في العمل، والبر في الخُلُق، وهذا القسم منها هو ثمرة البر في العقيدة.

وفي الكلام إخبار عن المعنىٰ بالذات، وهو معهود في الفصيح من اللغة العربية، والغرض منه تمثيل المعنىٰ في الشخص، فيكون أجلىٰ وأتم. ولو قال: (ولكن البر إيمان بالله) فات هذا الغرض[1].

قال في «المنار»: والإيمان المطلوب هو: معرفةٌ حقيقيَّةٌ تَمْلِك العقلَ بالبرهان، والنفسَ بالإذعان، حتىٰ يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إلىٰ المؤمن من كلِّ شيء ويُؤْثِرَ أمرهما علىٰ كلِّ شيء. ومن ذلك: الإيمان باليوم الآخر والاعتداد له. أما الملائكة: فهم خَلْق روحانيٌّ عاقل قائم بنفسه، وهو من عالَـمِ الغيب، كاليوم الآخر، فلا نبحث عن حقيقتهم، ولكن نؤمن بهم حسبما جاء في كتاب الله المنزَّل علىٰ رسوله ﷺ. والإيمان بهم أصل الإيمان بالوحي، لأن الوحي مَلَك يفيض العلم بإذن الله علىٰ روح النَّبيِّ، بما هو موضوع الدين. ولذلك قدَّم ذكر الملائكة علىٰ ذكر الكتاب. والكتاب: هو الوحيُ

---

(١) بَيَّنَ نَظْمُ الآية حقيقة البر والبار معاً نفياً وإيجاباً، علىٰ نهج القرآن في إيجاز السَّبْك والاحتباك. فكأنه قال: ليس البر أن تولوا ولا البار من يُولِّي، ولكن البر أن تؤمنوا بالله والبار من آمن بالله، فرمز إلىٰ ذلك بالموصول الاسمي بدل الموصول الحرفي، علىٰ نهجه في مثله، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية). وإنما قال: ولكن البر، ولم يقل: ولكن البار من آمن بالله؛ لأن المصدر يدل علىٰ الوصف، والوصف لا يدلُّ علىٰ المصدر، وذلك من البلاغة العالية التي ينهجها القرآن.

ثم قال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾، فغيَّر الأسلوب وعبَّر بالوصف للاهتمام بهذا الأمر. وقد زاد في التغيير في قوله: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، فأضاف إلىٰ التغيير بالوصف المخالفة في الإعراب، مبالغةً في الاهتمام، فنصبه علىٰ التخصيص، وذلك من نهج القرآن، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). (المؤلف).

المنزَّل من الله تعالىٰ علىٰ أنبيائه لِيُبيِّنوه للناس، إذ فيه لهم كمال الإنسانيَّة وسعادة الحياتين الدنيويَّة والأخرويَّة، يحتوي علىٰ بيان عالم الغيب من اليوم الآخر وما يكون فيه. والإيمان بالنبيين يقتضي الاهتداء بهَدْيهم والتخلُّق بأخلاقهم والتأدُّب بآدابهم، ويتوقَّف هذا علىٰ معرفة سيرتهم والعلم بسنتهم(١).

وبعد بيان قسم الإيمان من البر، بيَّن قسم العمل منه، فقال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾،وهذا أول حكم في توزيع المال حتىٰ لا يكونَ دُولةً بين الأغنياء، وفي هذا القيد بلاغةٌ عاليةٌ، إذ فيه تَتْميمٌ للكلام، وتكميلٌ لصورة في إنفاق المال تتناول إطعام الطعام، فقد رسم في الذهن أروع صورة منه، حيث إنهم يسمحون به وهم أحوج ما يكونون إليه.

والجود بالنفس أقصىٰ غاية الجود(٢)

قال الأستاذ الإمام: وهذا الإيتاء غير إيتاء الزكاة الآتي، وهو ركنٌ من أركان البر وواجبٌ كالزكاة، فقد أمر الله تعالىٰ المؤمن أن يعطي من غير الزكاة ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، فهم أحقُّ الناس بالبرِّ والصِّلة، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ كي لا تسوءَ حالهم وتفسدَ تربيتهم فيكونوا بلاءً علىٰ أنفسهم وعلىٰ الناس، ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ لأنهم لما كانوا عاجزين عن كسب ما يكفيهم وَجَبَت مساعدتهم ومُواساتهم.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قيل: المراد به: المنقطع في السفر بحيث لا يتَّصل بأهل ولا

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٩٠- ٩٢).

(٢) هو عجز بيت نسبه ابن عبد ربه في «العقد الفريد» (١: ٩٩)، والعسكري في «ديوان المعاني» (١: ١٠٣- ١٠٤) لمسلم بن الوليد وصدره:

يجود بالنفس إن ضنَّ الجواد بها

قرابة، وفي الأمر بمُواساته وإعانته في سفره ترغيبٌ في السياحة[١]. ولا تبعد الصيغة عن أن يُراد بها: مَنْ لا مأوىٰ له ولا مَلْجأ من أرباب الفقر المدْقع والضر المفجع. وفي هذا العنوان وبهذا التعبير عنهم تهييجٌ للعطف عليهم والرأفة بهم؛ لأنَّ مسكنهم الطرقات.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ أي: الذين تدفعهم الحاجة إلىٰ تكفُّف الناس، وقد جاء عن رسول الله ﷺ: «لا تحلُّ المسألة لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سَوَيٍّ، إلا لذي فقر مُدْقع، أو غُرْم مُفْظع»[٢]. والسويُّ: الصحيح البدن. والـمِرَّة: القوة. والفقر المدقع: الشديد. والغُرْم المفظع: الدَّين الثقيل. وكان الشافعي رضِيَ الله عنه يقول: قد يكون الرجل بالدرهم غنياً مع كسبه، ولا يغنيه الألف مع ضعفه في نفسه وكثرة عياله[٣].

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي: فكاك الأسرىٰ، وعتق الأرقّاء منهم، وإعانة المكاتَبين منهم علىٰ أداء ما كاتبوا عليه من المال للأسياد. وفي جَعْل هذا حقاً واجباً في أموال المسلمين دليلٌ واضح علىٰ رغبة الشريعة في عِتْق المماليك، واعتبارها أنَّ الإنسان خُلِقَ حُراً إلا في أحوال عارضة تقتضيها المصلحة العامة.

ثم عطف علىٰ إيتاء المال علىٰ حُبِّه إقامةَ الصلاة؛ لأنه هو الركنُ الركينُ الرُّوحانيُّ من قسم البرِّ العملي، فقال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٤]، وإقامةُ الصلاة لا تتحقَّق بأداء

(١) تفسير «المنار» (٢: ٩٤).

(٢) رواه الترمذي (٦٥٣) وقال: حديث غريب من هذا الوجه.

(٣) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (١: ٣٢٦).

(٤) جاء عنه ﷺ: «ليس للمرء من صلاته إلا ما عَقَل منها»، يعني: إلا ما كان قلبه حاضراً فيها، يدرك ما يقرأ فيها وما يسبح ويدعو ويثني به علىٰ الله.

وروىٰ أبو داود (٧٩٦) بالسند عن عمار بن ياسر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الرجل =

أفعال الصَّلاة وأقوالها فقط، وإنْ جاء بها المُصَلِّي تامَّةً علىٰ الوجه الذي يذكره الفقهاء؛ لأنَّ ما يذكرونه هو صورة الصلاة وهيئاتُها، وإنما البرُّ والتَّقوىٰ في سرِّ الصلاة وروحها الذي تصدر عنه آثارها من إصلاح الطباع، والنَّهي عن الفحشاء والمنكر، وتَـقْوية العزيمة والمُجَادلة في الحق، وأمثال ذلك، وهذا لا يتمُّ إلا بمراقبة الله تعالىٰ في صلاته، واستشعار عَظَمته وسلطانه، وتذكُّر ذلك السَّناء الإلَهي، وتوجُّه القلب إليه، واستغراقه في ذكره ومناجاته ودعائه، فلا يبالي بما لقي من الشدائد في سبيله، فهذا هو البرُّ في إقامة الصلاة، وملاك ذلك كلِّه: أن لا يُحَدِّثَ نفسه علىٰ شيءٍ من أمور الدنيا أثناء الصلاة، ولا يملك المصلِّي هذه الإقامة إلا بالدُّربة والمران.

ثم قال: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، إذ لا تُذكَرُ الصلاة في القرآن غالباً إلا ويُقرَنُ بها إيتاء الزكاة؛ لأنها ركنٌ عظيم من أركان البر، وبَذْلها في سبيل الحق مُهذِّب للروح، ومُصلح للحياة الاجتماعية، إذ لا يتمُّ أمر بدون مال.

ثم قطع الأسلوب وغيَّر نَسَقَه عن سابقه، إشارةً لامتياز هذا النوع من البر في أحوال المعيشة، وتنبيهاً إلىٰ الاهتمام به، وإيثاراً لاسم الفاعل الدالِّ علىٰ الاستمرار،

= لينصرف ـ أي: من صلاته ـ وما كُتب له إلا عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها». فالرجل يصلي الصلاة وما كتب له من ثوابها إلا بقدر ما حضره من الإدراك والخشوع والإخلاص لله تعالىٰ. ولا يكون ذلك إلا بأن يتدرَّب ويتمرّن أن لا يُحدِّث نفسه بحديث، وأن يُصْغي لما يقول من قراءة وثناء ودعاء. فإقامةُ الصلاة لا تحصل إلا بالتدرُّب عليها والتمرين.(المؤلف).

وحديث: «ليس للمرء من صلاتـه» ذكره الغزالي في «إحياء علوم الدين» (١: ١٥٩)، وقال العراقي في «تخريجه»: لم أجده مرفوعاً، وروىٰ محمد بن نصر المروزي في «كتاب الصلاة» من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلاً: «لا يقبل الله من عبد عملاً حتىٰ يشهد قلبه مع بدنه».

وحديث: «إن الرجل لينصرف من صلاته» رواه أبو داود (٧٩٦)، وأحمد (١٨٨٩٤).

فقال: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾، فإنَّ الإيفاء بالعهود والعقود من أهم الأمور في نظام المعيشة والعمران.

ثم غيَّر النَّسق ثانياً، ولكن بعلامة الإعراب، مبالغةً في اختصاص المعنىٰ الآتي بالعناية والاهتمام، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾، ﴿ٱلۡبَأۡسَآءِ﴾: البؤس، وهو الشدَّة والفقر، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: السقم والوجع، ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾: وقت القتال وجهاد العدو.

ثم ختم البيان بالتَّسجيل الآتي، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أي: في دعوىٰ الإيمان، دون الذين قالوا: آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ لأنَّ التقوىٰ الحقيقيَّة هي ما ذكر من الأعمال والأحوال، لا التعصُّب في الاتجاه إلىٰ ناحيةِ قبلةٍ مُعيَّنة قد أمر الله بالاتِّجاه إلىٰ غيرها.

والتقوىٰ: هي أن تجعل بينك وبين سَخَط الله وقايةً، بأن تَتَحامىٰ أسبابَ خِذلانِهِ لك في الدنيا وعذابه في الآخرة. ويتضمَّن ذلك إحكامَ ما بين الإنسان وخالقه، وما بينه وبين الناس. فتجد هذه الكلمة في أكثر آيات القرآن الأخلاقية والاجتماعية. والمراد بها: أن يتَّقي الإنسان ما يُغْضِب ربَّه، وما فيه ضرر لنفسه أو إضرار لغيره من الناس.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾.

ثم شرع في بيان بعض الأحكام الشرعيَّة التي هي من البر المطلوب، وساقها علىٰ وَجْه التلافي لما فرط من المؤتمرين بأمر الشيطان، والمتَّبعين لخطواته، المُخِلِّين بها ذكر

من أصول الدين وقواعده، التي عليها بُنيَ أساسُ المعاش والمعاد. وعلىٰ وَجْه الإعلام عن اختصاص التشريع به تعالىٰ، وأنّه هو المشرِّع الذي يجب اتِّباعُ أحكام تشريعه، وذلك بعد أن مهَّد بأنَّ أمر القبلة ليس بالشيء المهمّ، وإنما المهمُّ ما أصلح النفوسَ والمجتمعات من الشرائع والأحكام.

وقدَّم البيان عن الحكم الصحيح للقصاص، لأنه كان فوضىٰ في الجاهلية، فعجَّل به إبقاءً علىٰ وحدة المؤمنين إذا حَدَث فيها هذا الحادث الأليم، ولأنَّ حفظ النفس من أهم أغراض الشرائع، لذلك قدَّمه، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ ﴾.

كانت العرب تجري في قصاصها علىٰ نظام أوجدته العادات والتقاليد، فقد كانت القبيلة كلُّها مسؤولة عن جناية فردٍ منها، ومكلَّفةٌ بحمايته، لذلك قلَّما كان وليُّ المجْني عليه يكتفي من الجاني، أو يَقْصُرُ الطلبَ عليه، ولاسيما إن كان المجْني عليه شريفاً أو سيداً في قومه. فكانت تتحكَّم في القصاص علىٰ قَدْر قوة القبائل وضعفها، فَرُبَّ حر كان يُقْتَلُ من قبيلةٍ فلا ترضىٰ قبيلته بأخذ القاتل به، بل تطلب به رئيساً، وأحياناً كانوا يطلبون بالواحد عشرة، وبالأنثىٰ ذكراً، وبالعبد حراً، فإن أُجيبوا وإلا سفكوا دماءاً كثيرة في سبيل ذلك، فجاءت الآية ناهية عن هذا العمل، ومُعرِّضة بالمشركين الذين اشتركوا في المشاغبات في أمر تحويل القبلة، بما مَفاده أنَّ البرَّ أن تَتَجنَّبوا في أخذ الثأر مِثلَ هذا الظلم والطغيان، لا أن تنكروا تحويل القبلة من مكان إلىٰ مكان.

فالآية بمقتضىٰ السياق تفيد التَّجهيل والتأنيب، وبمقتضىٰ الصيغة تفيد إنشاء حكم من أحكام البر موجَّهاً للمؤمنين فيه إرشاد وتهذيب. ومُحصَّله: أن يُقْتَصَّ من القاتل وحده، ذَكَراً كان أو أنثىٰ، حُراً أو عبداً، يقتصُّ منه للمقتول، ذكراً كان أو أنثىٰ، حراً أو عبداً. والله أعلم. وهذا هو القصاص الشرعي.

ولا تدلُّ الآية علىٰ أنَّ الحرَّ لا يُقْتل بالعبد والرجل لا يُقتل بالمرأة، لأن منطوق لفظ «القصاص» في أول الآية حكمٌ منصوصٌ عام يشمل ذلك، ولا يُعارضه مفهوم التفصيل؛ لأنَّ المفهوم لا يُعارض المنطوق، ولأنه لا يعتبر إلا حيث لم يظهر للتخصيص غرضٌ سوىٰ اختصاص الحكم. وقد علمت الغَرَض من هذا التفصيل والتخصيص هنا، فلا يُعتبر مفهوم المخالفة فيه، كما قُرِّر ذلك في أصول الفقه.

قال الأستاذ الإمام: والآية جاريةٌ علىٰ أسلوب القرآن في مخاطبة جماعة المؤمنين في الشؤون العامة والمصالح، لاعتبار الأمة متكافلةً ومطالبةً بتنفيذ الشريعة وحفظها، وبالخضوع لأحكامها، لأنَّ الأمة ـ في نظر القرآن ـ كالشخص الواحد. ففي هذا الخطاب بالقصاص يدخل القاتل، لأنه مأمور بالخضوع لحكم الله، ويدخل سائر المسلمين لأنهم مأمورون بمساعدة الشرع وتأييده، ومراقبة من يختارونه للحكم به وتنفيذه[1]. ويدخل الحاكم لأنه مأمور بالتنفيذ.

وبعد أن ذكر سبحانه وجوب القصاص وهو أصل العدل، ذكر أمرَ العفو، وهو مقتضىٰ التراحم والفضل، فقال: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾، كان القصاص علىٰ القتل محتَّماً عند اليهود، ولكن القرآن جاء وسطاً، يفرض القصاص إذا أصرَّ عليه أولياء المقتول، ويُجيز الدية إذا عَفَوا. وأولياء المقتول الذين جعل الله لهم هذا الحق: هم عُصْبَتُه الذين يعتزُّون بوجوده ويُهانون بفقده.

وعبارة الآية تُشعر بأنَّ الله تعالىٰ يُحبُّ من عباده العفو، وأنه يُعتبَر ويتحقَّق وإن لم يكن تاماً متفقاً عليه من جميع أولياء الدم. فإن عَفَا بعضُهم يُرجَّح جانبه علىٰ الآخرين،

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٠٣).

كما يدلُّ عليه تنكير ﴿شَيْءٌ﴾، فقد ذهب جمهور المفسرين إلىٰ أنه نائبٌ عن المصدر، أي: عُفي له شيءٌ من العفو، بأن ناله بعضُه ممَّن لهم المطالبة به. ويؤيِّد هذا ويؤكِّده التعبيرُ عن العافي بلفظ «الأخ»، ذلك العنوان الذي يُحرِّك عاطفةَ الرحمة والحنان، وهو كما قال المفسِّرون يُؤْذِنُ بأنَّ القتل لا يقطع أخوة الإيمان.

وقوله: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾، الاتِّباع: اللحاق، أي: علىٰ العافي أن يطلب الدية من القاتل بالمعروف، بأن لا يُرهقه من أمره عُسراً.

وقوله: ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: علىٰ القاتل أن يُؤدِّي بإحسان، بأن لا يماطل ولا ينقص ولا يُسيء في كيفيَّة الأداء، ويجوز العفو عن الدية أيضاً، كما في قوله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢]. من «المنار» بتصرُّف[١].

وقد أكَّد في الترغيب بهذه الجملة المسبوكة علىٰ الامتنان حيث قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا الحكم - وهو سقوط القِصَاص عند العفو - ﴿تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾، وفيه إيذانٌ بأنه حكمٌ انفرد به الدين الإسلامي، ذلك الدين المشتمل علىٰ التراحم والتعاطف والعفو والإحسان.

ثم توعَّد من اعتدىٰ بعد الصلح وقال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد العفو عن الدم والرضا بالدية بأن انتقم من القاتل، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ قيل: معناه: أنه يتحتَّم قَتْلُ الولي العافي هو أو غيره إذا قَتَلَ القاتِلَ بعد العفو، ولا يجوز العفو عنه، بل يقتله الحاكم وإن عفا عنه وليُّ المقتول. إلا أنَّ الجمهور علىٰ أن حكمه كحكم القاتل

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٠٣-١٠٤).

ابتداءً، وعليه مالك والشافعي. والمراد حينئذ بالعذاب الأليم: عذاب الآخرة. قال الأستاذ الإمام: وهو الصحيح، وفي الحديث ما يُؤيِّده[١].

ثم علَّل مشروعيَّة القصاص وبيَّن حكمته علىٰ وجه بديع، حيث جَعَل الشيء محلاً لضدِّه، فقال: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾[٢]، لأنه يمنع من كثرة تَسرُّب هذه الجريمة البشعة علىٰ حياة الناس، وبيانُ الأسباب والحِكَم لوضع الأحكام العملية كإقامة البراهين والأدلة للمطالب العقلية، يُعرف بالأول العدلُ وما يتفق من المصالح، كما يُعرف بالثاني الحقُّ من الباطل والصحيحُ من الفاسد. وبذلك يكون الحكمُ أوقَعَ في النفس، وأبْعَثَ علىٰ المحافظة عليه، وأدعىٰ للرغبة في العمل به.

وقد بيَّنت هذه الآية حكمة القصاص بأسلوب لا يُسامىٰ، وعبارةٍ لا تُحاكىٰ، فقرَّرت ضرورة نظام القصاص في هذه الحياة بأخصر عبارة وأدقِّها.

ومن دقائق البلاغة فيها: أن جعل الضدَّ متضمِّناً لضدِّه، وهو الحياة في الإماتة التي هي القصاص، وعرَّف «القصاص» ونكَّر «الحياة» للإشعار بأنَّ في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، لا يُقْدَرُ قَدْرُه، ولا يُجهَلُ سِرُّه.

ثم قال تعالىٰ بعد هذا البيان للحكمة والبرهان: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، فخصَّ بالنداء أصحابَ العقول الكاملة للتنبيه علىٰ أنهم هم الذين يفقهون سرَّ هذا الحكم وما اشتمل عليه من الحكمة والمصلحة العامة.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٠٥). وانظر في معنىٰ ذلك ما رواه ابن أبي شيبة (٥: ٤٦٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المصالح التي شرعت العقوبات دفاعاً عنها وحماية لها خمس: حفظ الدين وشُرع له قتل المرتد، وحفظ النفس وشُرع له القصاص، وحفظ النسل وشُرع له حد الزنىٰ، وحفظ العقل وشرع له حد شارب الخمر، وحفظ المال وشُرع له حد السارق وقطاع الطرق. (المؤلف).

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾، فجعله تعليلاً لشرع القصاص، أي: تتّقون الاعتداء وسفك الدماء. من «المنار»[1] بتصرف.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

ولما كان السياق في بيان الأحكام وتفصيل البرِّ المطلوب فيما تقدَّم من الكلام، فبعد أن ذكر حكم القصاص في القتل، وهو ضَرْبٌ من ضروب الموت، ذكر حكم ما يُطلب ممَّن يحضره الموتُ، علىٰ نهج القرآن في المناسبات والانتقالات، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية). وفيه تعقيب الحكم الخاصّ بالحكم العام الذي يشمله وغيرَه، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

فهذا بيانٌ لحكم آخر من الأحكام المذكورة في هذا السياق، ذكره بمناسبة القصاص، وهو حكم الوصيَّة. والخطابُ فيه موجَّه إلىٰ الناس كلِّهم بأن يوصُوا بشيءٍ من الخير، لا سيما في حال حضور الموت، لتكون خاتمة أعمالهم خيراً، وهو علىٰ نَسَق ما تقدَّم في الخطاب بالقصاص، من اعتبار الأمة متكافلةً يُخاطَبُ المجموعُ منها بما يُطلب من الأفراد، وقيام الأفراد بحقوق الشريعة لا يتمُّ إلا بالتعاون والتكافل والائتمار والتَّناهي، فلو لم يأتمر البعض وَجَب علىٰ الباقي حَمْله علىٰ الائتمار.

وفسَّروا «الخير» بالمال الكثير، كما فسَّره به بعض الصحابة، وهذه الكثرة تعتبر

---

(١) (٢: ١٠٧).

بالعُرْف، فهي تختلف باختلاف الأشخاص ومراتبهم وحاجاتهم العرفية، فَرُبَّ مقدار يُعَدُّ كثيراً عند شخص، ويُعَدُّ فقراً وعَدَماً عند آخر. والمعروف: العدل.

وقد حقَّق الأستاذ الإمام أنَّ الآية غير منسوخة بآية المواريث، لأنها لا تناقضها، بل تؤيدها، لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ﴾ [النساء: ١١]، وهذا الأسلوب ينافي النسخ، فإنَّ الله سبحانه إذا شَرَع للناس حكماً وعلم أنه مؤقت، وأنه سينسخه بعد زمن، لا يؤكِّده ويوثقه بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾، وبقوله: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾.

أقول: فإنَّ هذا التهديد المُرْهب يحثُّ علىٰ العمل بها وينافي النسخ[١]، فالأستاذ الإمام مصيبٌ في قوله، وقد أفاض الأستاذ الإمام في هذا البحث، ونقله صاحب «المنار» في تفسيره[٢]، فارجع إليه فإنه بحثٌ مفيدٌ.

ثم استثنىٰ من هذا التبديل المنهي عنه قوله: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾، الجنف: المَيْل عن الحقِّ والعدل خطأً. والإثم: التعمُّد في ذلك. كأنه قال: إنْ خرج الموصي في وصيَّته عن المعروف والعدل خطأً أو عَمْداً، فتنازع الموصىٰ لهم، فينبغي أن يتوسَّط بينهم من يعلم ذلك ويصلح الأمر بنوع من التبديل في الوصية.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: أن يُصْلح مِنْ قَصْد الموصِي قبل إنجاز الوصيَّة إن كان فيما صمَّم عليه من توزيع وصيته إجْحاف في حقِّ البعض. وعبَّر بـ«خاف» بدلاً عن:

(١) قد يكونُ الأمر مؤقتاً، لكنه مما تَضِنُّ به الأنفس ـ كما في الوصية ـ أو يشقُّ عليها، فيناسبُه التأكيد حثاً علىٰ الائتمار به، وترهيباً عن مخالفته، ولا يكون التأكيد ـ والحالةُ هذه ـ منافياً للنسخ، فتأمل.

(٢) تفسير «المنار» (٢: ١١٤).

رَأْيٍ أو عَلِمَ، تبرئةً للموصي من القطع بجنفه أو إثمه. إذ ربما يكون له وَجْهٌ حسن في نيته، وتحامياً من تقييد التصدِّي للإصلاح، بالعلم بذلك يقيناً. وللتعبير عن مثل هذا العلم بالخوف شواهدُ في كلام العرب. وهذا المصلح مثاب مأجور، ومُستثنىٰ من عموم النهي عن تبديل الوصية، وإنما الأعمال بالنيات، ولذلك ختم الحُكْمَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ إشعاراً بأن مَنْ خالف بعضَ المخالفة لأجل المصلحة، ورائدُهُ الإخلاصُ فهو مغفور له.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

ولما كان الكلام في سَرْد أحكام متتالية سَرَدها بنتيجة بيان أنَّ الله سبحانه مستقلٌّ

بالتشريع، يردُّ بذلك علىٰ المشركين، وينصُّ علىٰ ما اشترعه من الأحكام، ويفصِّل البرَّ المطلوب فيما تقدَّم من الكلام، ذكر حكم الصوم، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[1]، وفي هذا التنظير تخفيفٌ علىٰ

---

(١) تؤذن هذه الآية بأن الله سبحانه قد فرض الصيام علىٰ جميع البشر في سائر عصوره منذ آدم عليه السلام، إصلاحاً للأرواح والأبدان، وقد أيَّد علمُ الطب الحاضر حاجةَ الإنسان الملحَّة إلىٰ الصيام، لصحَّة بدنه ووقايته من الأمراض، فإنه ينقي البدن من سائر الترسُّبات المضرَّة ومن الشحوم المحيطة بالقلب إذا زادت عن الحاجة وطغت عليه، حيث تكون خطراً تولد الأمراض القلبية، ولذلك قال ﷺ: «صوموا تصحوا» [قلت: رواه الطبراني في «الأوسط» (٨٣١٢)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢: ٤٩): رواته ثقات.].

ثم قال تعالىٰ: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ إيذاناً بأنها قليلة بالنسبة للسنة الكاملة، ومنقِّية للبدن مما ترسَّب فيه طوال هذه المدة من الرواسب المضرة.

ثم قال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ أي: فمن حضر منكم الشـهر فليصمه. وهذه العبارة أدلُّ علىٰ المبالغة في التأكيد والشمول؛ لأنها تشمل كلَّ حي من أفراد الإنسان المسلم، فإنَّ الحي منهم يحضر الشهر، أما الذي لم يحضر فهو من مات قبل هلاله. فهذه العبارة للمبالغة في تقرير الوجوب والشمول، إلا ما استثناه سبحانه بقوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ والإطاقة: منتهىٰ القدرة، ولا يقال: أطاق رفع هذا الشيء، أو أطاق حمله إلا إذا كان ذلك الفعل غير منـتظر منه ولا في مُكْنَتِهِ، لذلك حمله الصحابة رضي الله عنهم علىٰ الشيخ الفاني، فقد أفطر أنس رضي الله عنه سنتين في آخر عمره وكان بلغ تسعاً وتسعين سنة، ثم نوَّه سبحانه بأمر الصوم للتمسُّك به في أقصىٰ الطاقة فقال: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾.

ثم رغَّب بذلك فقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ فرغَّب سبحانه باطلاعه علىٰ أعمالنا وأحوالنا، وأنه يجيب دعوة الداعي لا سيما إذا كان قد أجاب دعوة الله في أحكامه وتوجيهاته وأطاعه ولبّاه. فاستجيبوا له أيها المؤمنون فيمـا يأمركم به سبحانه فقد وعدكم عليه بالجزاء =

النفس، وتنويهٌ بشأن الصوم، وإيماءٌ إلىٰ أنه مما يحتاج إليه البشر روحاً وجسماً، فهو من ضروريات الحياة.

وفيه أيضاً إعلامٌ بوحدة الدين في أصوله ومقاصده، وتأكيدٌ لأمر هذه الفريضة، وترغيبٌ فيها، وهو من تشبيه الفرضيَّة بالفرضيَّة، ولا تدخل في الكميَّة والكيفيَّة.

ثم ذكر سبحانه حكمة إيجاب الصوم علينا، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾، أي: ليُعِدَّكم الصومُ للتقوىٰ وإصلاح النفس، بترك الشهوات المباحة الميسورة، امتثالاً لأمره واحتساباً للأجر عنده، فتتربَّىٰ بذلك العزيمة والإرادة، علىٰ ضَبْط النفس وترك الشهوات المحرَّمة والصبر عليها.

وقد جاء في الحديث: «الصيام نصف الصبر»[1]، فالصيام يُحرِّر الإرادة الإنسانيَّة، ويجعلها تَبَعاً لأوامر الله، لا لرغائب النفوس، فشَرَعَه سبحانه للناس كي يُدَرِّبهم علىٰ قيادة شهواتهم، ويَكُفَّهم عن الانقياد لها فهو ليس تعذيباً جسمانياً، ولكنه تدريبٌ علىٰ تحمُّل المشاق، كما أنَّ الرياضة البدنية ليست محاولةً لهدم الجسم الإنساني، ولكن تدريب له وتعمير.

ثم قال في «المنار»: ومعنىٰ «لعلَّ»: الإعدادُ والتهيئة. وإعدادُ الصيامِ نفوسَ

= الأوفىٰ، لاسيما في الصيام الذي قرنه بهذا الإعلام. وجاء في الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أجزي به» فهو يدلُّ علىٰ عظم الجزاء. (المؤلف).

قلت: حديث «الصوم لي...» متفق عليه، رواه البخاري (٧٤٩٢)، ومسلم (١١٥١)، عن أبي هريرة.

(١) رواه ابن ماجه (١٧٤٥) عن أبي هريرة، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناد الحديث من الطريقين معاً ضعيف. فيه موسىٰ بن عبيدة الربذي، ومدار الطريقين عليه، وهو متفق علىٰ تضعيفه.

الصائمين لتقوىٰ الله تعالىٰ يَظْهَر من وجوه كثيرة، أعظمها شأناً وأظهرها أثراً: أنه أمرٌ مَوْكُول إلىٰ نفس الصائم، لا رقيبَ عليه فيه إلا الله تعالىٰ، وسرٌّ بين العبد وربِّه لا يُشْرف عليه أحدٌ غيره سبحانه. فإذا ترك الإنسان شهواته ولذّاته، لمجرَّد الامتثال لأمر ربِّه والخضوع لإرشاد دينه، مدَّة شهر كامل في السنة، مُلاحِظاً أنه لولا اطِّلاعُ الله تعالىٰ عليه ومراقبتُه له لما صَبَر عن تناولها وهو في أشدِّ التَّوْق إليها، فلا جَرَم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة مَلَكَة المراقبة لله تعالىٰ، والحياء منه سبحانه أن يراه حيث نهاه.

وفي هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالىٰ والاستغراق في تعظيمه وتقديسه أكبرُ مُعِدٍّ للنفوس ومُؤَهِّل لها إلىٰ سعادة الروح في الدنيا والآخرة. انظر هل يُقْدِم مَنْ تُلابسُ هذه المراقبةُ قلبَه، علىٰ غشِّ الناس ومخادعتِهم؟ هل يسهل عليه أن يراه الله آكلاً لأموالهم بالباطل؟ هل يحتال علىٰ الله تعالىٰ في منع الزكاة وهَدْم هذا الركن الركين من أركان دينه؟ هل يجترح السيئات ويَسدُلُ بينه وبين الله ستاراً؟ كلا، إن صاحب هذه المراقبة لا يسترسل في المعاصي؛ إذ لا يطول أمدُ غفلته عن الله تعالىٰ، وإذا نسي وألَمَّ منها بشيء يكون سريع التذكُّر قريب الفيء والرجوع بالتوبة الصحيحة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فالصيام أكبر مُربٍّ للإرادة، وكابحٍ لجماح الأهواء، فروح الصوم وسرُّه في هذا القصد والملاحظة التي تُحدِث هذه المراقبة، وهذا هو معنىٰ تشبيه الشارع ﷺ الصوم بالوِجَاءِ في كَسْر سَوْرة الشهوة(١)؛ لأنَّ المراد أنَّ تأثيره في تربية النفس وتقوية الإيمان يجعل صاحبَه مالكاً لنفسه يَصْرِفُها حسب الشرع لا حسب الشهوة والهوىٰ.

---

(١) يشير إلىٰ الحديث الذي رواه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠) عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

ثم بيّن تعالىٰ: أن الصيام الذي كتبه علينا مُعيَّن محدود، فقال: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ أي: مُعيَّنات بالعدد، أو قليلات في السنة، وهي أيام رمضان، كما روي عن ابن عباس وغيره(١). ويُؤْذِنُ نَظْم الآية بضرورة صيام الإنسان أياماً معدودات في السنة لمصلحة روحه وبدنه، ولذلك فَرَضَه الله علىٰ البشر أجمعين.

ولما كان فرضُ الصيام بالصيغة المذكورة يفيد العموم، استثنىٰ(٢) من يشقُّ عليهم أداؤه ومَنْ هم عُرضة للمشقَّة، فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

ثم ذكر نوعاً آخر ممن استثنىٰ، وهو من لا يستطيع الصوم إلا بمشقة شديدة، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾(٣)، والإطاقة: هي أقصىٰ حدِّ المشقة، إذ لا يقال: أطاق الشيء؛ إلا إذا كان من المنتظر أن لا يقدر عليه، ثم قُدِّرَ بكلِّ جهد ومشقة، أي: من لا يستطيع الصوم إلا بمشقة شديدة. وقد فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما هذا النوع بالشيوخ الذين بلغوا من السنِّ ما لا يتحمَّلون معها مشقة الصيام.

وقد أفطر أنس بن مالك رضِيَ الله عنه بعدما كبر، عاماً أو عامين قبل وفاته، وأطعم كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً، وكان عمره تسعاً وتسعين سنة.

وقال الأستاذ الإمام: الإطاقة: أدنىٰ درجات الـمُكْنَة والقدرة علىٰ الشيء، فلا تقول العرب: أطاق الشيء، إلا إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف، بحيث يتحمَّل

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١١٧ - ١٢١).

(٢) لا يخفىٰ أن هذا الاستثناءَ استثناءٌ من وجوب الأداء في الحال، لا في أصل الوجوب.

(٣) الفرق بين الطاقة والوُسع: أنَّ الطاقة أدنىٰ درجات القدرة. والوُسعُ: ما تتَّسع له القدرة ولا يستغرقها، بل تزيد عليه. (المؤلف).

به مشقة شديدة. فالمراد بالذين يطيقونه هنا: الشيوخ والضعفاء والحوامل والمراضع يَخَفْنَ علىٰ الأجنَّة والأطفال ونحوهم، كالفَعَلَةِ الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقَّة، كاستخراج الفحم الحجري من مناجمه، وأشباه ذلك[١].

أقول: وقد ظهر في زماننا نَعْرةُ فسقٍ وضلالٍ من بعض المارقين من الدين، أخذوا يتأوّلون هذه الآية بأنها رخصة عامة لاستبدال الصوم بالفدية مطلقاً. ولَعَمْري إنَّ هذا هو السخف والضلال المبين، فضلاً علىٰ أنه الكفر والفسوق المناقض لما كان عليه السلف الصالح وإجماع المسلمين، إذ هو معنىً لا تتحمَّله الآية ولا السياق، يعرف ذلك مَنْ يعرف من أساليب الكلام، وهو خَطَلٌ بيِّنٌ لعدَّة وجوه:

الأول: أن العرب تقول: طاق الشيء وأطاقه، بمعنىٰ: لم يتمكَّن من فعله إلا بمنتهىٰ الجهد وعظيم المشقَّة، ولذلك فهم منها الصحابة والتابعون ـ الذين هم أعلم بمدلولات الألفاظ اللغوية وأساليب القرآن ـ أنها مُخْتصَّة بالشيخ الفاني الذي بَلَغ من العمر ما لم يتمكَّن معه الصوم إلا بجهد لا تتحمَّله طاقته.

الثاني: ليس من المنطق أن يحتِّم القضاء علىٰ المريض الذي رَخَّص له بالفطر مع عذره، ثم يرخص بالفدية وحدها للصحيح القدير. تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

الثالث: أن أسلوب التخيير الذي جاء في القرآن محصور في أسلوب واحد معروف النَّظْم، يتكوَّن من العطف بـ«أو»، وذلك مثل التخيير أو الترتيب في فدية القتل غيرِ العمد والظهار واليمين وصيد المحرم. وهذا الأسلوب لا يشابهها بوجه من الوجوه.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٢٥ - ١٢٦).

وهذه الملاحظاتُ ظاهرةٌ لا تحتاج إلىٰ بيان، ولكن أردت أن أقرع بها سَمْعَ هؤلاء الجهَّال المأفونين، والضلَّال التائهين، وإن كان مثل هذا الخطل لا يدعو إلىٰ الاهتمام والكلام.

هذا، ويحتمل أن تكون الآية امتداداً لما قبلها وتتميماً له، فهي تصنِّف المرضىٰ والمسافرين صنفين: صنفاً لا يطيقون الصوم فعليهم القضاء فقط، وصنفاً يطيقونه في الجملة فعليهم القضاء والكفارة.

ويجوز أن يكون هذا التصنيف للمرضىٰ فقط، والله أعلم.

وقد قال بعض الفقهاء في الحامل والمرضع يجبُ عليها القضاء والكفارة أخْذاً من ذلك، والله أعلم.

ثم قال تعالىٰ بعد بيان الواجب الحتم والرخصة فيه: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾، وذلك بأن يزيد علىٰ تلك الأيام المعدودات صيام أيام تطوعاً، ويحتمل أن يكون المراد بتطوع الخير: الزيادة في الفدية، أو المعنيين معاً، وهو الأَوْلىٰ؛ لعموم اللفظ، ومثل ذلك من أساليب القرآن.

ثم أردف الكلام بالترغيب بالصيام، فقال: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: الصيام خير لكم لما فيه من رياضة الجسد والنفس وتربية الإرادة وتغذية الإيمان وتقويته بمراقبة الله تعالىٰ. ويدفع عن النفس والجسم الكثير من الأمراض، ويقيها الكثير منها، وهو يُهذِّب الطباع، ويستثير الرحمة، ويحيط الإنسان بكثير من الفوائد والخيرات، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والمعرفة. أو: إن كنتم تعلمون وَجْه الخير فيه، لا إن كنتم تصومون تقليداً من غير فقه ولا علم بسرِّ الحكم.

وقد أُثر عنه ﷺ أنه قال: «صوموا تصحُّوا»[١]، فالصيام وإن كان فيه كُلفة العلاج لا شك أنه مفيدٌ فائدتَه. فقد قالوا: إنه يُفني المواد المترسِّبة في البدن، ويُجفِّف الرطوبة الضَّارَّة، ويُطهِّر الأمعاء من السُّموم، ويذيب الشحم الذي هو شديد الخطر علىٰ القلب. وقال بعض أطباء الإفرنج: إنَّ صيام شهر واحد في السنة يُذهِبُ الفضلات الميتة في البدن مدَّة سنة كاملة.

وقال طبيب أمريكي ينصح قومه: بالانقطاع عن الطعام مُدَداً من الأيام في كل عام؛ لأن الجراثيم ما دامت تجد الطعام متوفِّراً في جسم الإنسان، فإنها تتكاثر وتنمو، وبالصوم تضعف وتذبل، ثم امتدح الدين الإسلامي حيث فرض الصيام.

أقول: وذلك إذا رُوعيت فيه حِكمة الصوم، وهي راحة المعدة، فيجب أن يكون الأكل في الفطور والسحور معتدلاً صحياً، وتحت الشبع، ويكون الشرب كذلك، لا إفراط فيه أيام الصيف. وبالجملة، يجب أن تُراعىٰ فيه القواعد الصحيَّة في المأكل والمشرب، والنوم واليقظة، والعمل والراحة، إلىٰ غير ذلك من الأمور الصحيَّة. ومن الجهل أن يملأ الصائم مَعِدَته عند الفطور بأنواع من الأطعمة حتىٰ يشكو البِطْنة وآلامَها، ثمَّ ينسب ذلك إلىٰ الصيام.

وعلىٰ كلٍّ فقد قرَّر جهابذة الأطباء أنَّ الصوم علاجٌ لعدد من الأمراض الفتَّاكة، كالضغط الشرياني، وتَشَحُّم القلب، وتحميض الدم، كما أنه هُدْنةٌ سنوية تستريح فيها أجهزة الجسم عامة، والجهاز الهضمي خاصَّة، من عناء العمل، وتُعطي فرصةً للتخلُّص من السموم والمواد الدهنية الزائدة عن حاجة الجسم، جلَّت حكمة الحكيم العليم.

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٨٣١٢)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢: ٤٩): رواته ثقات.

ثم بيَّن تعالىٰ تلك الأيام المعدودات وحكمة تخصيصها، فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1]، فأدمج في بيان الأيام حكمةَ تخصيصها بهذا الشهر، وهي كونه نَزَل فيه القرآن، وفاضَتْ علىٰ البشر هدايةُ الرحمن، فحقَّ أن يُعبَدَ الله تعالىٰ فيه ما لا يعبد في غيره، تذكُّراً لإنعامه بهذه الهداية، وشكراً عليها، فيكون ذلك كفاءَ فيضِهِ الإلهي بالإحسان.

أما معنىٰ إنزال القرآن في رمضان ـ مع أنَّ المعروف باليقين أن القرآن نزل مُنجَّماً متفرقاً في مدَّة البعثة كلِّها ـ فهو: أنَّ ابتداء نزوله كان في رمضان، وذلك في ليلة منه سُمِّيت ليلة القدر، أي: الشرف، وكانت ليلةً قام فيها الملائكة بحفاوة عُظمىٰ لهذا الحَدَث، حتىٰ مطلع الفجر، كما جاء في سورة القدر ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [آية رقم: ٤-٥]، وسُمِّيت أيضاً الليلة المباركة، كما جاء في سورة الدخان [آية رقم: ٣]، وإن ابتـداء هذا النزول كان فرقاً بين الحق والباطل. وإطلاق الأمر علىٰ ابتدائه هو من خصائص اللغة ومتعارفٌ بين أهلها، فإنك تقول: نزل المطر في ساعة كذا، لأوَّل ساعة ابتدأ فيها نزوله، وإن استمرَّ بعد ذلك ساعات عديدة.

ثم قال تعالىٰ بعد بيان فضيلة شهر رمضان بإنزال القرآن فيه: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ

---

(١) لما كان ممَّا يألفه الناس ويقترن بالحكمة أن يحتفلوا بذكرياتهم العظيمة ذات الأثر الخالد حين تمرُّ عليهم أزمنتها، رفع سبحانه شأن رمضان الذي ابتدأ فيه نزول القرآن، فخصَّه بما أوجب علىٰ الناس من الصيام، دون غيره من الشهور والأيام، ذكرىٰ لهذا الحدث الجلل، الذي أخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور، وهداهم إلىٰ الصراط المستقيم، وسعادة الدارين، وحقيقة الإنسانية التي خلق لها الإنسان، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. (المؤلف).

ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾، قال الأستاذ الإمام: إنما عبَّر بهذه العبارة، ولم يقل: (فصوموه)، لِـمِثْل الحكمة التي لم يُحدِّد فيها القرآن مواقيتَ الصلاة، وذلك أنَّ القرآن خطاب الله العام لجميع البشر، وهو يعلم أنَّ من المواقع ما لا شهور فيها، ولا أيام معتدلة، بل السنة كلُّها قد تكون فيها يوماً وليلةً كالبلاد القطبية، فالمدَّة التي يكون فيها القطب الشماليُّ في ليل وهي نصف السنة، يكون فيها القطب الجنوبي في نهار، وبالعكس. ويقصر الليل والنـهار ويطولان علىٰ نسبة القرب والبعد عن القطبين أو عن خطِّ الاستواء، أرأيت هل يكلِّف الله تعالىٰ مَنْ يقيم في جهة القطبين وما يقرب منها أن يصلِّي في يومه وهو نصف سنة خمس صلوات؛ إحداها حين يطلع الفجر، والثانية بعد زوال الشمس، إلخ، ويكلِّفه أن يصوم شهر رمضان بالتعيين ولا رمضان له؟

كلا، إنَّ من الآيات الكبرىٰ علىٰ كَوْن هذا القرآن من عند الله المحيط عِلمُه بكل شيء، لا من تأليف البشر، ما نراه فيه من الاكتفاء بالخطاب العام الذي لا يتقيَّد بزمان مَنْ جاء به ولا مكانه، ولو كان من عند النبيِّ ﷺ لكان كل ما فيه مناسباً لحال زمانه وبلاده وما يليها من البلاد التي يعرفها، إذ لم تكن العرب تعرف أنَّ في الأرض بلاداً نهارُها كعدَّة شهْرٍ أو أشهر من شَهْرنا وأشهرنا[1]، ولياليها كذلك.

فمنزِّل القرآن ـ وهو علَّام الغيوب وخالق جميع البلاد والأفلاك ـ خاطب الناس كافَّة بما يمكن أن يتمثَّلوه، فأطلق الأمر بالصلاة، والرسول بيَّن أوقاتها مفصَّلاً بما يناسب حال البـلاد، وإن كان ذلك بالوحي أيضاً، فبيَّن حال البلاد المعتدلة التي هي القسم الأعظم من الأرض، وإذا وَصَل الإسلام إلىٰ أهل البلاد التي أشرنا إليها، يمكنهم أن يَقْدُرُوا أوقاتاً للصلاة باجتهادهم، وبالقياس علىٰ ما بيَّنه النبيُّ ﷺ من أمر الله المُطْلَق.

(١) في تفسير «المنار»: «كعدّة أَنْهُرٍ أو أشهر من أنهُرِنا وأشهرنا».

وكذلك الصيام، فلم ينصّ بحكم رمضان إلا علىٰ مَنْ شهد الشهر وحَضَره، والذين ليس لهم شهرٌ مثله يسهل عليهم أن يَقْدُروا له قَدْرَه.

وقد ذكر الفقهاء مسألة التقدير بعدما عرفوا بعض البلاد التي يطول ليلُها ويقصر نهارُها، والبلاد التي يطول نهارها ويقصر ليلها، كما ذكرنا، واختلفوا في التقدير علىٰ أيِّ بلاد يكون، فقيل: علىٰ البلاد المعتدلة التي وَقَع فيها التشريع كمكة والمدينة. وقيل: علىٰ أقرب بلاد معتدلة إليهم(١).

وتحرير ما قاله الأستاذ الإمام: أنَّ اختيار هذه العبارة للنصِّ علىٰ وجوب صيامِ شهرِ رمضان، بصورته الكاملة ذات الأيام التسعة والعشرين أو الثلاثين، أما الذين ليس لديهم مثل هذا الشهر، وهم الساكنون في مناطق أقرب إلىٰ القطبين وأبعد عن خط الاستواء، حيث لا يظهر عندهم الشهر علىٰ مثل هذا النظام، ولم تكن لديهم أيام وليال شبيهة بأيامنا ولياالينا، وربما يكون نهارهم عدَّة أشهر وليلهم كذلك، فألمعت هذه العبارة إلىٰ وجوب تقدير أيام لهم وليال، بساعات مكة أو أقرب ما يليهم من البلدان التي يظهر فيها نظام الشهر كاملاً مشهوداً. هذا ـ أظنه ـ محرَّر ما قاله الأستاذ الإمام.

أما أنا فأتـذوَّق من قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: أنه أمرٌ بوجوب الصوم بعبارةٍ أدل علىٰ الوجوب والشمول، إذ إنها بمعنىٰ أنَّ الصوم يجب علىٰ كلِّ حيٍّ ـ وإن كان هناك مُسْتَثْنيات ـ، فكلُّ حيٍّ يشهد الشهر ويحضره، يقال عنه: شهد الشهر، أما الذي لم يشهده فهو من مات وفات. ففي هذه الصورة من التعبير كثيرٌ من تأكيد الوجوب. ولذلك أعاد الكلام علىٰ الرخصة للمريض والمسافر فيما يأتي تقريراً لها، بعد هذا التأكيد علىٰ الصوم. هذا ما تراءىٰ لي من عبارة هذا النص، والله أعلم.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٣١).

وقال في «المنار» ما ملخصه: وبعد أن عظَّم سبحانه أمر الصوم في نفسه وبيَّن أنه خيرٌ ويُندبُ التطوُّع به، ثم حدَّد الواجب منه بشهر رمضان الذي له من الفضل والشرف ما له، أعاد الكلام علىٰ الرخصة تأكيداً لها، فقال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ لئلا يتوهَّم بعد ذلك أنه لا تُحمَدُ فيه الرخصة، ولَعَمْري إن تأكيد الصوم بمثل ما أكَّد الله تعالىٰ به يقتضي تأكيد أمر الرخصة، ولولا ذلك التأكيد ما أتاها مُتَّق، بل إننا نرىٰ الصحابة رضِيَ الله عنهم كانوا علىٰ تأكيد أمر الرخصة في القرآن يَتحامَوْنَ الفطر في السفر أولاً، حتىٰ إنَّ النبيَّ ﷺ كان يأمرهم به في بعض الأسفار فيتريَّثون حتىٰ يفطر أمامهم.

ثم امتنَّ سبحانه وتعالىٰ علىٰ العباد بهذا التخفيف، فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي: فيما يشرعه لكم من الأحكام.

ونظم الآية يُشْعر بالحثِّ والترغيب في إتيان الرخصة، ويُشعر بأنَّ الأفضل أن يصوم إذا لم تلحقه مَشَقَّة أو عُسْر، وإلا كان الأفضل أن يفطر. وهذا أصل من أصول الدين عبَّروا عنه بقاعدة: (المشقَّةُ تجلِبُ التيسيرَ).

وقد اختلفوا في معنىٰ اللام من قوله تعالىٰ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾، وقد اختار الأستاذ الإمام: أنها لتقوية الفعل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الصف: ٨]، فهي في سياق: يُريد الله.

ثم حملهم علىٰ التمسُّك بأوامره تعالىٰ وتشريعاته التي منها الصوم، ببيان أنه شاهدٌ لهم ورقيب، ومَـزَجَ بهذا البيان معنىٰ آخر، علىٰ نهج القرآن في سَبْـك المعاني والأغراض، وهو رجاء الإجابة في الدعاء، ولا سيما من الصائم، ذكر ذلك علىٰ طريقة

القرآن في تعقيب الأمر بما يشمله وغيرَه؛ لأن الدعاء يشمل العبادة، فبعد أن ذكر الصوم؛ وعد بقَبوله وعظَّم المكافأةَ عليه، وإجابة الدعاء فيه، فقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

قال البيضاوي(١): لـما أمرهم سبحانه وتعالىٰ بصوم الشهر ومراعاة العدَّة، وحثَّهم علىٰ القيام بوظائف التكبير والشكر، عقَّبه بهذه الآية الدالة علىٰ أنه خبير بأحوالهم، سميع لأقوالهم، مُجيب لدعائهم، مُجازٍ لهم علىٰ أعمالهم، تأكيداً له وحثاً عليه. بمعنىٰ أنه مزجَ بما يذكِّر بعظمة الله، ويبعث علىٰ مراقبته والتوجُّه إليه، ويحمل النفوس علىٰ التمسُّك بما أمر به، (كما جاء ذلك في المادتين الثالثة والخامسة من المقدِّمة الثانية في أساليب القرآن).

وعلىٰ كلٍّ، فالآية وعدٌ علىٰ قَبول الدعاء، ومضاعفة الأجر للصائم، وتُلمِعُ إلىٰ أنه لا وساطة بين الله سبحانه وبين عباده، كما يزعم أرباب الوسائط ويفعلون.

أما معنىٰ قرب الله تعالىٰ، فقد قالوا: إنه القرب بالعلم، بمعنىٰ أنَّ علمه محيط بكلِّ شيء، فهو يسمع أقوال العباد ويرىٰ أعمالهم.

ويقول البيضاوي(٢): هذا تمثيل لكمال علم الله تعالىٰ بأفعال العباد وأقوالهم، واطِّلاعه علىٰ أحوالهم، بحالِ مَنْ قَرُب مكانُه منهم.

أقول: وقد استعار هذا من حال المخاطبين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

---

(١) في «تفسيره» (١: ١٢٥).

(٢) المصدر السابق (١: ١٢٥).

وقال الأستاذ الإمام: يصحُّ أن يكون من قُرب الوجود، فإنَّ الذي لا يتحيَّز ولا يَتَحدَّد تكون نِسَبُ الأمكنة وما فيها إليه واحدة، فهو تعالىٰ قريبٌ بذاته[1] من كلِّ شيء، إذ منه كل شيء إيجاداً ومَدَداً، وإليه المصير.

قال في «المنار»: هذا الذي قاله الأستاذ الإمام هو من الحقائق العالية، وعليه السادة الصوفية، فقد قال أحد العلماء في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] إنه القرب بالعلم، وكان أحد كبار الصوفية حاضراً فقال: لو كان هذا هو المراد لقال تعالىٰ في تـتمَّة الآية: (ولكن لا تعلمون)، ولكنه لم يَنفِ العلم عنهم، وإنما قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾، وليس من شأن العلم أن يُبْصَرَ فينفي هنا إبصارَه، وإنما ذلك شأن الذات. انتهىٰ بالمعنىٰ. وهو مذكور بنصِّه في كتاب «اليواقيت والجواهر» للشعراني.

وعلىٰ كلِّ حال: لازم القُرب موجود، وهو العلمُ الكامل بأحوالهم وأقوالهم، وعدم الحاجة إلىٰ رفع الصوت، وإلىٰ الواسطة بينه وبين عباده في الدعاء وطلب الحاجات، كما كان عليه المشركون في التوسُّل بالشفعاء والوسطاء إلىٰ الله تعالىٰ[2]، كأنه قال: فأخْبِرْهم بأنني قريب منهم، وأنني أقرب إليهم من حبل الوريد[3].

---

(١) قوله: «بذاته» لم يرد به النص، والأصل في هذه المباحث التقيُّد بالألفاظ المنصوص عليها، وزيادةُ هذه اللفظة يلزمُ منها لوازمُ فاسدة، فينبغي تركُها، وإن كان الشيخ محمد عبده قد احترز عن هذا اللازم الفاسد بقوله قبلها: «فإن الذي لا يتحيَّز ولا يتحدَّد تكون نِسَبُ الأمكنة وما فيها إليه واحدة». وينظر ما كتبته حول هذه الكلمة في المدخل الثاني من مداخل التفسير (١ : ١٠٣).
وعلىٰ كُلّ، فالله تعالىٰ قريبٌ من خلقه بصفاته لا بذاته.

(٢) مع اعتقادهم أن هؤلاء الشفعاء والوسطاء تأثيراً بالضر والنفع.

(٣) تفسير «المنار» (٢: ١٣٥).

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[١]، أي: ولا سيما الصائم في رمضان، وهذا تكميلٌ للبحث وتوسيعٌ للبيان، وقد جاء في الأثر: أن الله سبحانه «لا يستجيب الدعاء من

---

(١) استشكل بعضهم موقع الدعاء وفائدته، مع أنَّ الله سبحانه قد قضىٰ الأمور وقدَّرها من الأزل، ولا تبديل لقضاء الله، فقد رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف، كما جاء في الأثر، ونرىٰ كثيراً من الدعاء لا يقترن بالإجابة.

والجواب: إنَّ دعاء العبد معلوم لله سبحانه من الأزل، مشترك في ذلك مع القضاء والقدر، فيكون عنصراً من عناصر تنظيم القضاء والقدر، مرعياً فيها، وقد قُرن أزلاً بالإجابة أو المنع أو لحكمة اقتضت ذلك، ونحن لا علم لنا بالأمرين، وعلينا أن ندعو الله بمطالبنا، فإما أن يكون قد اقترن أزلاً بالإجابة فيقع، أو بوقوع ما هو الأصلح منه للداعي، والله يعلمُ ونحن لا نعلم، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. أو يقترن بعدم وقوع كليهما لأسباب اقتضت ذلك، أو لحكم إلهيَّة، وحينئذ يُعوِّضنا الله ثواب الدعاء في الآخرة، كما جاء ذلك في الأثر. وكل نوع من الثلاثة إجابة منه تعالىٰ وخير وإحسان، فعلينا بالدعاء والله يفعل ما يشاء.

وعن أبي خزامة قال: «قلت: يا رسول الله، أرأيت رُقىً نسترقيها، ودواء نتداوىٰ به، وتُقاة نتقيها، هل تردُّ من قدر الله شيئاً؟ قال: (هي من قدر الله)». رواه أحمد. (المؤلف).

وقوله: كما جاء في الأثر: «رفعت الأقلام وجفت الصحف» إشارة إلىٰ الحديث الذي رواه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٦٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يا غلام إني أعلِّمك كلمات، احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأما حديث أبي خزامة: «هي من قدر الله» فقد رواه أحمد (١٥٤٧٢)، والترمذي (٢٠٦٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

قلب غافل لاهٍ»، فعلىٰ الداعي أن يتوجَّه إلىٰ الله بقلبه ولسانه، قال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله سبحانه لا يستجيب الدعاء من قلب غافل لاهٍ»(١).

وينبغي أن يُعلمَ أن هناك فرقاً بين إجابة الدعاء وبين قضاء حاجة الداعي؛ فإجابة الدعاء محقَّقة، وإعطاء المطلوب قد يكون عاجلاً أو آجلاً، وقد يُعوِّضه عنه في الدنيا أو في الآخرة تَبَعاً للحكمة والسنن الكونيَّة، وقد يكون الخير في غير ما يَطلب، فيَصْرِفُ الله عنه ذلك بدعائه، فمقتضىٰ الإجابة مختلف عندنا وعند الله.

وقد ورَدَ في الحديث الصحيح: أنَّ الإجابة تكون بإحدىٰ ثلاث: «إما أن يُعجِّل له دعوته، وإما أن يدَّخرها له، وإما أن يكفَّ عنه من السوء مثلها»(٢).

وإجابةُ الدعاء: إلهامُ النفس العمل المفيد طبق الأسباب الصحيحة، فالعارف بالشريعة وبسُنن الله الكونيَّة لا يقصد بدعائه إلا هدايته إلىٰ الأسباب التي تُوصله إلىٰ تحصيل رَغَباته، ونَيْل مقاصده، فهو إذا سأل الله أن يزيد في رزقه لا يقصد أن تمطر له السماء ذهباً ولا فضة، وإنما يريد أن يُوفِّقه الله للأسباب. وإذا سأل اللهَ شفاءَ مريضه الذي أعياه علاجه، فإنه لا يريد أن يخرق العادة ويبطل السنن الكونيَّة، بل يريد توفيقه إلىٰ العلاج الذي يكون سبب الشفاء. ومَنْ ترك السعي والكسب: وطلب أن يُؤْتىٰ مالاً وغنىٰ، فهو جاهلٌ مأفون. وكذا المريض الذي لا يتَّخذ الدواء ولا يتمسَّك بالأسباب؛ لأنهما لا يُراعيان سُنن الله في هذا الكون ومُلابساته.

ولما كان الغرض من قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٩) عن أبي هريرة، وقال: هذا حديث غريب.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٧١) وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وأحمد (٢٢٧٨٥)، عن عبادة بن الصامت.

إعلاماً برؤية الله لعبادة عبده، وبياناً لما يُذكِّر بعظمة الله، ويبعث النفوس علىٰ مراقبته، ويحملها علىٰ التمسُّك بما يأمر به، وكله هدىً ورشاد، وتوجيه وسداد، وكان الكلام امتداداً للدعوة إلىٰ الصوم، وحثاً عليه؛ أردفه بقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ أي: فلْيُجيبوا دعوتي لهم إلىٰ الإيمان والأعمال النافعة لهم، كالصيام وغيره ممَّا أدعوهم إليه، لعلّهم يرشدون للوصول إلىٰ سعادة الدارين.

ثم عاد إلىٰ سَرْد بقية أحكام الصوم، فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ فبيَّن ما امتاز به صومنا من الرخصة التي لم تكن لمن قبلنا، وذلك أنَّ الصحابة رضي الله عنهم فهموا من قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: أنَّ التشبيه يتناول كيفيَّة الصوم أيضاً، فكانوا إذا أفطروا يأكلون ويشربون ويتغشون النساء إلىٰ وقت النوم، فإذا نامَ أحدهم ثم استيقظ من الليل صام ولو كان في أول الليل؛ لأنَّ أهل الكتاب كانوا يصومون كذلك.

وقال البخاري: لما نزل صوم شهر رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، فبيَّن الله لهم الحكم[1].

والرفث: كلمةٌ جامعة لكلِّ ما يُريده الرجل من المرأة فيما يتعلَّق بالجماع، وعُدِّيَ بـ «إلىٰ» لتضمُّنه معنىٰ الإفضاء والوصول.

وقوله تعالىٰ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ يكنّىٰ به عن المخالطة وشدَّة الاتصال، فهو كلام مستأنف سيقَ لبيان سببِ الحكم كما قال الزمخشري في «الكشاف»[2]، أي: إذ كان بينكم وبينهنَّ هذه الملابسة والمخالطة، فإنَّ اجْتنابهن عَسِرٌ عليكم.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٠٨) عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) (١: ٢٥٧).

ولفظ ﴿لِبَاسٌ﴾ مصدر: لابسه، بمعنىٰ: خالَطَه وعَرَف دخائله.

وقال ابن عباس: معناه: هُنَّ سَكَن لكم وأنتم سَكَن لهنّ(١). وقد اعتبر ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وعلىٰ كلٍّ، فالآية تمثيلٌ وتصويرٌ لقوة العلاقة ووثاقة الرابطة الاجتماعية، وإشعارٌ بمُوجبات الحفظ والرعاية، والرحمة والمودَّة والعناية، وبذلك كان الزواج عهداً شريفاً، وميثاقاً غليظاً، ترتبط به القلوب، وتـختلط به المصالح، ويندمج كلٌّ في الآخر فيتَّحد شعورهما، وتلتقي رغباتهما وآمالهما، ويكونان كشخص واحد.

ثم ذكر سبب البيان، فقال: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تنتقصونها بعض ما أحلَّ الله لـها، توهُّماً منكم أنَّ مَنْ قبلكم كان كذلك. ولم يقل: (تختانون الله) للإشعار بأنَّ الله تعالىٰ لم يُحرِّم عليهم ذلك.

وقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ لا يقتضي أنه كان محرَّماً، كقوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ [المائدة: ٩٦]، فقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أي: تجاه خطئكم في اجتهادكم هذا وتحريمكم علىٰ أنفسكم ما لم يُحرِّم الله عليكم، فبيَّن لكم الرُّخْصة في ذلك.

وفي لفظ التوبة والعفو إيناسٌ لهم؛ لأنَّ ذلك كان منهم ورعاً.

ثم كرَّر الرخصة مُفرِّعاً إيَّاها علىٰ التوبة، وضمَّنها بعضَ ما يلزم بيانُه في ذلك، وقال: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾(٢)، أي: ما حدَّده لكم في نظام

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣: ٤٩٢).

(٢) يجوز أن يكون ﴿كَتَبَ﴾ بمعنىٰ: فَرَض، وعدَّاه باللام لتضمُّنه معنىٰ: شرع. والله أعلم. ثم عطف علىٰ المباشرة ما يُشاركها في الحكم، وذكر الحدَّ النهائي لهما. وفي ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ شيء من التغليط. (المؤلف).

الفطرة من جعل المباشرة سبباً للنسل، فَـلْتكن مباشرتكم بقصد إحياء سُنَّـة الله في الخليقة.

ثم بيَّن حكماً آخر من أحكام الصيام يتضمَّن كيفية الصيام، وإباحة الأكل طوال الليل، علىٰ خلاف صيام أهل الكتاب، وعطفه علىٰ الأمر بالمباشرة لإفادة التَّشريك في الحكم، فقال: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: يُباح لكم الأكل والشرب كالمباشرة عامَّة الليل، فمتىٰ تبيَّن الفجر وَجَبَ الصيام. والتعبير بالخيط يدلُّ علىٰ وجوب التدقيق في طلوع الفجر الصادق، إذ بعد انتشار الضياء ولو قليلاً لا يُسمَّىٰ خيطاً.

وبعد أن حدَّد لهم المبدأ حدَّد لهم النهاية، فقال: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾، فبيَّن مبدأ الصوم ونهايته بطريقة التَّحديد تفصيلاً للحكم.

ثمَّ استثنىٰ من عموم إباحة المباشرة بعد أن أكمل البيان عنها ببيان مبدأ الصوم ونهايته، استثنىٰ مباشرتهنَّ في المساجد، وذلك تَـتْميمٌ للبحث وتكميلٌ للحكم، لأنَّ الاعتكاف كما يقع في رمضان يقع في غيره، علىٰ نهج القرآن في توسيع البيان، وفي تعقيب الأمر الخاصِّ بالأمر العام الذي يشمله وغيرَه، فقال: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾.

ثم ختم السياق بما يحمل علىٰ التمسُّك بما سبق من الأحكام، وجَعَله تمهيداً لما بعده، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، والنهيُ عن قُربها أبلغ في التحذير؛ لأنه يُرشد إلىٰ الاحتياط الدقيق، كالشاب يُداعب امرأته في النهار، لا يثق بالوقوف عند الحدِّ المباح، وكوجوب مراعاة الاحتياط التام في أمر الفجر وأمر الليل في الصيام.

وقال بعضهم: لا تقربوها بالتأويل والتحريف، ولا بالرأي والهوىٰ، بل اقبلوها كما هي. وعلىٰ هذا، يكون فيها تعريضٌ للصحابة رضِيَ الله عنهم، حيث اخْتَانوا أنفسهم بالرأي والتأويل، باتِّباعهم لأهل الكتاب.

ثمَّ بالغ في التَّنويه بشأن هذه الأحكام التي انتظمها السياق، ونبَّه لموضع عَظَمة الهداية فيها والرشاد، فقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝١٨٧﴾ أي: علىٰ هذا النَّحْو من البيان، يُبيِّن لهم آياتِهِ لِيُعدَّهم للتقوىٰ والتَّباعد عن الوهم والهوىٰ.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٨﴾.

ثم عاد فذكر حكماً آخر، فيه شَبَهٌ بحكم القصاص من حيث التَّعريض بالمشاغبين في أمر القبلة، وكان فيهم المُرابون، فأوْمأ إلىٰ أنَّ الأَوْلىٰ بكم أن تَتَناهوا عن أكل أموال الناس بالباطل، لا أن تُثيروا هذه المُشَاغبات. وقد ألمع بذلك ضمن هذا الحكم العام من الأحكام المفصّلة للبر المطلوب، فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[1]، فالآية بمقتضىٰ صِيغتها، حكمٌ عام من أحكام البرِّ الذي يجب أن يهتمَّ به، وبمقتضىٰ السياق: تَقْريعٌ وتأنيب لأولئك المشاغبين المرابين.

---

(١) خلل السياق بالنهي عن أكل أموال الناس بالباطل ليعرِّض بأهل الكتاب الذين كان هذا ديدنَهم، وهم الذين أثاروا فتنة أمر القبلة. أي: إنَّ مثل هذا العمل يحق أن يُهْتَمَّ باجتنابه، لا أمر القبلة وتحويلها. ولكن ذكر ذلك بصورة حكم عام نظمه في سلك الأحكام، علىٰ نهج القرآن في ذلك، كما أبطل عبثهم في أمر القصاص والأخذ بالثأر، بحكم آية القصاص السابقة، وعَرَّض بهم في الأمرين معاً. (المؤلف).

وهناك مناسبةٌ أخرىٰ للربط ولو بعيدة، وهي اتفاقُه مع الصَّوم في أنهما مَنْعٌ عن الأكل وإن اختلف في النوع، وفي أن الأول أمرٌ بين العبد وربه، والثاني أمرٌ بين العبد والعبد.

وإنما وَرَدَ هذا الحكم بهذه العبارة للإشعار بوحدة الأمة وتكافلها، وللتنبيهِ علىٰ أنَّ احترام مال الغير هو احترامٌ وحفظٌ لمال نفسه، واستحلالُ مال الغير يُجرِّئ الغير علىٰ استحلال ماله. فما أبلغ هذا الإيجاز! وما أجدره بوصف الإعجاز! أما الباطل فهو ما لم يكن في مقابلة شيءٍ حقيقي معاوضٍ به.

وبعد أن بيَّن هذا الحكم العام، خصَّ نوعاً منه بالذكر تكميلاً للبيان، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾، وضمير ﴿بِهَآ﴾ يعود إلىٰ قضيَّة الأموال المفهومة من السياق، أي: لا تُلقوا بحكومة الأموال إلىٰ الحكام وتستعينوا بقوَّة البيان ليحكموا لكم فتستحلُّوها، وأنتم تعلمون أن لا حقَّ لكم فيها؛ لأنَّ حكم الحاكم إذا أخطأ لا يُحِلُّ الباطل.

وقد جاء عنه ﷺ: «إنَّما أنا بشرٌ مثلكم، وأنتم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم ألحن بحُجَّته من بعض فأقضي له علىٰ نحو ما أسمع منه، فمن قضيتُ له بشيء من حقِّ أخيه، فإنما أقضي له قطعة من النار»[1].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣)، عن أم سلمة.

لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

ولما كانت الأهلَّة لها علاقة بشهر الصيام، ومعاملات الأموال، وبأشهر الحج، وبالقتال في الأشهر الحرم، جَعَل الكلام عنها في درج هذه الأبحاث التي هي تفصيل للبرِّ المطلوب، وأدمَجَ في ذلك الكلام عن القتال في المسجد الحرام، يردُّ علىٰ اعتراض المشركين، والكلام عن الحج، ربطاً للمواضيع المتنوِّعة المتناسقة، ومُواصَلَة للأحكام التَّشريعيَّة التي هو بصَدَد سَرْدِها في هذا السياق المتضمِّن لأنواع البر، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[1]، وطريقة السؤال والجواب من أساليب القرآن الحكيم في الإرشاد والبيان، تأتي فيه كثيراً، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية).

---

(١) تلهم الآيات ـ والله أعلم ـ أنَّ السؤال كان من جانب المشركين وأهل الكتاب بواسطة ضعفاء الإيمان والمنافقين. ومَرْمَىٰ السؤال: تعريضٌ ومشاغبةٌ عن غزوات المسلمين في الأشهر الحرم، وفي الأماكن القريبة من الحرم، وقتال المشركين فيها، فردَّ عليهم أولاً بما كان لهم من سخافة في إتيان البيوت من ظهورها إذا كانوا محرمين بالحج، مُعرضاً بذلك عن تفاهة سؤالهم هذا، كما هو شأنهم في فلج المنطق. ثم أجاب بما خلاصته: أنَّ الأشهر الحرم لا تحمي مجرماً، ولا تكون مانعاً من الدفاع والتأديب، وفصَّل الصور المباحة من ذلك، وَحَدَّ حدودها في الأشهر الحرم والمكان المحرّم معاً، علىٰ نهج القرآن في توسيع البيان إذا اقتضىٰ الشأن. هذا ما أراه، والله أعلم. (المؤلف).

ومعنىٰ الآية: إنَّ الأهلَّة مواقيتٌ لهم في صيامهم وحَجِّهم من العبادات، وفي نحو عدَّة النساء وآجال العقود من المعاملات، فإنَّ التوقيت بها يسهل علىٰ العالم بالحساب والجاهل به، وعلىٰ أهل البدو والحضر، فهي مواقيتٌ لجميع الناس، بخلاف السنة الشمسيَّة، فإنها لا تصلح إلا للحاسبين من أهل الحضر، بعد ارتقاء العلوم الرياضية.

وقيل: إن السؤال عن الأهِلَّة وقع منهم بالفعل، لِمَ تبدو صغيرة ولا تزال تنمو حتىٰ تكون بدوراً؟ ثم لا تزال تَضْؤل حتىٰ تكون أهلَّة؟

فيكون في هذا الجواب الحكيم إشارةٌ إلىٰ أنه ليس من وظيفة الدين إلا الحقائق الأولية، وحكم تعلُّقها بالإنسان لا المعلومات المأخوذة من بضاعة العلوم الناقصة، مهما بلغت من الرقي(١). وهل يليق بقانون تشريعي أن يذكر فيه مثلاً بعض مسائل الفلك؟ كلا! فكيف بالقرآن العليِّ الشأن. لذلك قال تعالىٰ مُعرِّضاً بهم: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾، فهذا الكلام تمثيل لوجوب التعقُّل والسَّداد في الأعمال والأقوال، وتعريضٌ لهم بأنَّ من يسأل النبيَّ عمَّا لم يبعث لبيانه ولا يتوقَّف عرفانه علىٰ الوحي، فهو في طلبه الشيء من غير مطلبه، كمن يطلبُ دخولَ البيت من ظهره دون بابه.

وقال بعض المفسِّرين: إنَّ الحكم الذي أفادته الآية هو إبطال ما كانوا يفعلونه في الجاهلية إذا هم أحرموا بالحج، من إتيان البيت من ظهره، وتحريم دخوله من بابه، تحرُّجاً من التظلُّل بالسقوف أثناء الإحرام، ذكره بمناسبة ذكر مواقيت الحج.

---

(١) في صرف السائلين عن العلَّة إلىٰ الحكمة إيذانٌ بأنَّ القرآن إنما جاء لبيان العقائد والأعمال للمكلَّفين، لا لبيان الحقائق الكونيَّة، وما جاء فيه من الإلماع لها أحياناً فإنما سيقَ برهاناً علىٰ وجوده سبحانه أو توحيده أو قدرته التي لا يعجزها أمر البعث والحساب، وأمثال ذلك، فلا يتكلم عن حقائق الأشياء، وإنما يتكلّم عن حكم تعلقها بالإنسان. (المؤلف).

وأقول: إنَّ من خصائص القرآن ازدحامَ المعاني في التركيب الواحد، فيجوز أن يُراد المعنيان، الأول يكون تعريضاً، والثاني تحقيقاً وتشريعاً، والأول بحسب السياق، والثاني بحسب النَّظْم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم ختم الكلام بما يحثُّ علىٰ التمسُّك بالأحكام السابقة، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ أي: إنَّ البرَّ هو تقوىٰ الله، فاتقوا الله رجاءَ أن تفلحوا في أعمالكم.

ولما كان السياق في سَرْد الأحكام بمناسبة بيان اختصاصه سبحانه بالتشريع، وفي تفصيل البِّر المطلوب، فبعد أن مهَّد بالسؤال عن الأهلَّة وبيَّن أنها مواقيت للعبادات ولا سيما الحج، وأشهره حُرُم، وهناك مظنَّة أن يَصُدَّهم المشركون عنه فيتحرَّجون عن قتالهم.

فبعد هذا التمهيد الذي فيه إلماعٌ إلىٰ ما جرىٰ قُبيل صلح الحديبية ممَّا في علم الله، من تحرُّج الموقف بين المشركين والمسلمين، والمبايعة تحت الشجرة علىٰ الموت، ذكر حكم قتال المشركين في الأشهر الحرم وعند المسجد الحرام، إذا بدؤوهم بذلك، فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، فوردت هذه الآية في الإذن بالقتال للمُحْرمين وفي الأشهر الحرم، إذا فُوجئوا بالقتال بَغْياً وعدواناً. وقد علَّل الإذن بأنه مدافعة في سبيل الله، وسيأتي تفصيله في الآية التالية.

ثم ختم الآية بهذا التأديب العام العادل، فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾، والمراد هنا نهيهم عن الاعتداء بالقتال، كأن يبدؤوهم به، أو يقتلوا مَنْ لا يقاتل كالنساء والصبيان والشيوخ والمرضىٰ، أو غير ذلك من أنواع الاعتداءات. وهذا الحكمُ وهذا الأدب هو أعلىٰ ما يتصوَّر في الإنسانية ومعناها الصحيح.

ثم علل النهي بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: أينما أدركتموهم، ولو في أرض الحرم، ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: من مكة. وهذه الجملة مسبوكة من الحكم والتعليل معاً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. ومُؤدَّىٰ التعليل: المقابلة بالمثل.

ثم زاد التعليل حُجَّةً بقوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: إنَّ فتنتَهم إيَّاكم في الحرم عن دينكم ـ بالإيذاء والتعذيب، والإخراج من الوطن، والمُصادَرة للمال ـ أشدُّ قبحاً من القتل فيه.

ثم قيَّد عموم هذا الحكم بقوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾، فشرط لجواز مقاتلتهم عند المسجد الحرام أن يبدأ المشركون بذلك، فيدافع المؤمنون عن أنفسهم اضْطِراراً.

ولما كان القتل في المسجد الحرام أمراً عظيماً، أكَّد الإذن فيه بشرطه، فقال: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ﴾ فيه ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾، وإنما لم يقل: (فقاتلوهم)؛ للإشعار بأنه سبحانه يَعِدُهم بالنصر عليهم والغلبةِ لهم.

ثم علَّل ذلك الحكم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾.

ولما كان الغرض من هذا القتال هو المقابلة والدفاع عن النفس، قال تعالىٰ في إتمام بيان الحكم: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ أي: كَفُّوا عن القتال، فكفُّوا عنهم، أو كفّوا عن الكفران، فإنَّ الله يقبل منهم. وقد أقام التعليل مقام الجواب، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ أي: يمحو عن العبد ما سَلَف إذا هو تاب عمّا اقترف.

ثم كرَّر الأمر بالقتال؛ لِيُبيِّن ما هو الغاية والغرض منه، فقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا

تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: حتىٰ لا تكون لـهم قوة يفتنونكم بها، ويُـؤْذونكم لأجل الدين، ويمنعونكم من إظهاره أو الدعوة إليه، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي: ويكون دينُ كلِّ شخص خَالصاً لله، لا أثر لخشيةِ غيره فيه، فلا يُفْتَنُ عنه ولا يُؤْذَىٰ فيه.

ثم كَرَّر الأمر بالكفِّ عنهم إذا هم كَفُّوا، تقريراً له، وسَبَكَ الكلام علىٰ التعليل العام، المقرِّر لقاعدة عامة من قواعد العدل، يشمل هذا الحكم وغيره، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ أي: فلا عدوان عليهم؛ لأنَّ العدوان لا يجوز أن يكون إلا علىٰ الظالمين، تأديباً لهم.

ففي الكلام إيجازٌ بالحذف واستغناءٌ عن المحذوف بالتعليل الدالِّ عليه. وذِكْـرُ المُظْهَر في مَوْضع المُضْمَر؛ لبيان هذا التعليل والرمز إليه، ولتعقيب الحكم الخاصِّ بحكمٍ عام يشمله وغيرَه، وكل ذلك من سنن القرآن الحكيم، (كما جاء في بعض مواد المقدمة الثانية).

ويجوز أن يكون المعنىٰ: فلا عدوان إلا علىٰ مَنْ كان ظالماً منهم، بارتكابه ما يُوجب القصاص، إذا وُجد. أي: فلا يُحارَبون إذا انـتهوا، وإنما يُـؤْخَذُ المجرم منهم بجريمته إذا كان بينهم مجرم.

ثم زاد تعليل الإذن بالقتال بياناً، ببنائه علىٰ قاعدة عادلة، فقال: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾[1]، فذكر هذه القاعدة حُجَّةً لوجوب مُقَاصَّة المشركين

---

(١) أقام المشركون ضجَّة قوية مُفْتَعَلة ضدَّ المسلمين عندما تبايعوا علىٰ الموت في الحديبية تحت الشجرة بعد أن منعوهم من دخول مكة لأداء العمرة، ذلك البلد المحرم الذي جعله الله سواء العاكف فيه والبادي، ولا يجوز منذ أسَّسه إبراهيم عليه السلام، وقال له سبحانه: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، لا يجوز أن يمنع منه عابد أو قاصد، فلما منعهم المشركون من دخول مكة، جرت هذه البيعة في =

علىٰ انتهاك الشهر الحرام، بمقابلتهم بالمثل، جزاءً وفاقاً. والدفاعُ عن النفس أمرٌ مُحتَّم، الشرُّ بالشرِّ والبادئ أظلم.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وسمَّىٰ الدفاع والجزاء اعتداءً للمُشاكَلَة. فبيَّن تعالىٰ أنَّ المحظور في الأشهر الحرم العدوان بالقتال، لا المدافعة عن النفس. ثم حدَّد هذه الرخصة ونظمها بهذا الأدب العالي، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: فلا تعتدوا عن الحدِّ في الجزاء، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ أي: بالمعونة والتأييد وحُسْن العاقبة.

والـحُرُمات: جمع حُرمة، وهي ما يجب احترامه والمحافظة عليه.

ثم ذكر ما يتوقَّف عليه القتال في سبيل الدفاع عن الحق، وهو الإنفاق، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في سبيل الدفاع عن الحق لله تعالىٰ.

ثم ذكر علَّة هذا الأمر وحكمتَه، ضمن حكم آخر عام، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، أي: لا تُمسكوا عن الإنفاق في الاستعداد للقتال،

= الحديبية وفي شهر ذي القعدة، فانتهز المشركون وقوعَ هذا الحلف في الحديبية الداخلة في حرم مكة، وفي شهر ذي القعدة المحرم، وأثاروا عَجَاجة وشَغَباً مثل الذي أثاره اليهود والمنافقون في أمر تحويل القبلة، وقد أبان القرآن سَفَههم وخُبث عملهم وسوء نظرهم في أمر القبلة، كما مرَّ بيانه. وردَّ هنا مشاغبات المشركين في بيعة الحديبية بقوله: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾، فرخَّص سبحانه للمؤمنين أن يُدافعوا عن أنفسهم إذا تعرَّض لهم العدوُّ في أرض الحرم أو في الأشهر الحرم، دفاعاً عن النفس، وعن الحقِّ المبين، فلمَّا منعهم المشركون من دخول مكة لأداء واجبهم نحو ربِّهم، رَخَّص للمسلمين مقاتلتهم في الحرم، وردَّ الإثم علىٰ المشركين المانعين الظالمين. (المؤلف).

فإنَّ ذلك يُضْعِفُكُم ويُمكِّن الأعداء منكم فتهلكون. ويدخل في عموم صيغة هذا النَّهي نقصانُ العلم بصنع آلات الحرب، وكذلك بالطرق الحربيَّة وفنونها التي يعرفها العدو، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾، فالأمر بالإحسان هنا علىٰ عمومه وبأنواعه، أي: أحسِنوا كلَّ أعمالكم وأتقِنوها فلا تُهملوا إتقانَ شيءٍ منها. ومن ذلك: التوسُّع في الإنفاق في الفنون الحربيَّة.

ويدلُّ السياقُ دلالةً واضحةً علىٰ أنَّ الجهاد في الدين الإسلامي لم يُشـرَع إلا لحماية الدعوة، كي تنتشر في البشر وفي كرة الأرض؛ لأنَّ محمداً ﷺ رسولٌ للعالمين، والدينَ الإسلاميَّ دينٌ عالميٌّ، ولغةَ كتابه العربي لغةٌ عالمية، أوجبه وأوجبها علىٰ البشر في جانب لغاتهم غير العربية، والله أعلم؛ لأنَّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به واجب، وأقوىٰ الروابط البشريَّة: اللغة والدين، ولذلك اهتمَّ بها الأعاجم وأتقنوها، وألَّفوا بها الكتب والموسوعات، كسيبويه[١] والفيروزآبادي[٢] وأمثالهما.

وقد قالوا: لم يشهد التاريخ أمة قوية رحيمة بالضعفاء في فتوحها كالأمة العربية. وقد اعترف بذلك المنصفون من مُؤرِّخي الإفرنج، فهذا جوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسي يقول: ما عرف التاريخ فاتحاً أعدلَ ولا أرحمَ من العرب. وما يتجنَّىٰ به أعداء الإسلام من دعواهم أنَّ الإسلام قام بالسيف، فقول يُكذِّبه التاريخ، ولا يُؤيِّده مَنْ ينظر إلىٰ الأمور بعين الإنصاف، ويَدَعُ التعصُّب وراءه ظهرياً.

---

(١) هو أبو بشر، عمرو بن عثمان (١٤٨ - ١٨٠هـ) إمام النحو وحجّة العرب، وهو أول من بسط علم النحو، له: «الكتاب». «سير أعلام النبلاء» (٨: ٣٥١- ٣٥٢).

(٢) هو مجد الدين الشيرازي، أبو طاهر محمد بن يعقوب (٧٢٩- ٨١٧هـ) من أئمة اللغة والأدب، وكان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير، له: «القاموس المحيط»، و«سفر السعادة». «الأعلام» للزركلي (٧: ١٤٦- ١٤٧).

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾.

وبعد أن ذكر حكم القتال عند المسجد الحرام، انتقل إلىٰ أحكام الحج، مشيراً إلىٰ ما سيكون من غلبتهم لهم ومن فتحهم لمكة.

وابتدأ بحكم متعلق بالحج والقتال معاً، وهو الإحصار والمنع من الحج، من جانب العدوّ المقاتل، ابتدأ به ليكون حلقة وَصْل بين البحثين، بعد أن مهّد له بما تقدّم

إضافةً إلىٰ مناسبةِ وقعة الحديبية ومَنْعِ المشركين للمسلمين من دخول مكة لأداء العمرة، فقال: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ بأداء المناسك علىٰ وجهها، والإخلاص لله وحدَه، ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: مَنَعكم العدو من الوصول إلىٰ مكة كما جرىٰ في الحديبية ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: فعليكم ما تيسَّر من الهدي فداءً عن الإحلال، ﴿وَلَا﴾ تحلّوا من إحرامكم و﴿تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾.

اعلم أنَّ الدخول بالحج أو العمرة يكون بالإحرام، وهو نيَّةُ النسك عند الابتداء به مُهِلًّا بالتلبية، ولبسُ غير المخيط. والخروجُ منه ـ ويُعبَّر عنه بالإحلال والتَّحليل ـ يكون بحلق الرأس أو تقصير شعره. فالنهيُ عن الحلق هنا: عبارة عن النهي عن الإحلال قبل بلوغِ الهدي إلىٰ المكان الذي يَحِلُّ ذبحه فيه، وهو في حال الإحصار من عدو، حيث يُحصر الحاج؛ لأنه ﷺ نَحر في الحديبية[1]. أما إذا كان الإحصار من مرض، فالكعبة هي المحل، لقوله تعالىٰ: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣].

وبمناسبة ذِكرِ الحلق ذَكَرَ حكم مَنْ يُؤذيه تركُ الحلق واللبس في الإحرام، فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ يَضْطره مرضه إلىٰ لبس شيء من ثيابه المعتادَة، ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ يَضْطره إلىٰ الحلق أو التغطية، ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ أي: فله أن يحلق أو يلبس ثيابه أو يُغطِّي رأسه، وعليه فديةٌ من هذه الأجناس.

جاء في تعليق البخاري: ويُذكَرُ عن ابن عباس وعطاء وعكرمة: ما كان في القرآن: أو، أو، فصاحِبُه بالخيار. وقد خيَّر النبي ﷺ كعباً رضِيَ الله عنه في الفدية[2].

---

(١) رواه مسلم (١٧٨٦) عن أنس بن مالك «أنه ﷺ نحر الهدي في الحديبية».

(٢) «صحيح البخاري» (٨: ١٤٤)، وتخيير النبي ﷺ رواه البخاري (١٨١٧) عن كعب بن =

وعن ابن عون عن أيوب قال: الصيام ثلاثة أيام، والنسك شاة، والمساكين

ثم أكمل البيان بذكر الحكم عند عدم الإحصار، فقال: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ أي: كنتم في حال أمن، ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ أي: فمن أهَلَّ من الميقات في أشهر الحج بالعمرة وتابع مناسكها حتىٰ أتمَّها وتحلَّل منها، وبقي بمكة حلالاً متمتِّعاً بمحظورات الإحرام، حتىٰ جاء يوم التروية، فأحرم بالحج من مكة، فعليه ما تيسَّر من الهدي؛ لأنه أحلَّ وتمتَّع بحريَّة التَّحلُّل، ثم أحرم بالحج من غير الميقات، لذلك جُبِرَ بالهدي.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ أي: الهدي؛ لعَدَمه أو عدم المال، ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ أي: في أيام الإحرام بالحج، وتمتد إلىٰ يوم النحر، ﴿وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ أي: إلىٰ بلادكم، ويصدُقُ بالشروع في الرجوع، وعليه بعض الأئمة وغيرهم من السلف، حيث قالوا: يجزيه الصوم في الطريق. وقال أبو حنيفة: معناه: إذا فرغتم من أعمال الحج. وقال مالك: إذا رجعتم من منىٰ. ولا يخفىٰ أنَّ الاحتياط أن يصومها بعد الوصول إلىٰ أهله، تحقيقاً لظاهر المعنىٰ من هذا اللفظ.

ثم أجمل العدد فقال: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾؛ إزالةً لوهم مَنْ عساه أن يتوهَّم أن كلَّ واحد من القسمين يُغْني بانفراده.

= عجرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ رآه وأنه يسقط علىٰ وجهه فقال: أيؤذيك هَوامُّك؟ قال: نعم، فأمره أن يحلق وهو بالحديبية، ولم يتبيَّن لهم أنهم يحلُّون بها، وهم علىٰ طمع أن يدخلوا مكة، فأنزل الله الفديةَ، فأمره رسول الله ﷺ أن يطعم فَرَقاً بين ستة، أو يهدي شاةً، أو يصومَ ثلاثة أيام. وقوله: «فرقاً». قال ابن منظور في «لسان العرب» (فرق): الفَرَق بالتحريك مكيالٌ يسع ستة عشر رطلاً، وهي اثنا عشر مدّاً، وقيل: الفَرَق خمسة أقساط، والقسط نصف صاع.

(١) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٠٣٠) عقب حديث كعب بن عجرة.

ثم بيّن تعالىٰ أنَّ التمتع بالعمرة إلىٰ وقت الإحرام بالحج وما يتبعه من الأحكام خاصٌّ بالآفاقيين دون أهل الحرم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لأنَّ مَنْ كان من أهل مكة فليس عليه عمرة، وإنما العمرة للآفاقي، وذلك لأنَّ العمرة تعمير البيت بالطواف، والمكيُّ حاضر البيت يعمره كل ساعة بالطواف، لأنَّ أهل الآفاق هم الذين يحتاجون إلىٰ هذا التمتُّع، لما يلحقهم من المشقَّة بالسفر.

ثم ختم الآية بما يحمل علىٰ التمسُّك بمندرجاتها، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٩٦)﴾ أي: لمن لم يتقه. ويُقابلُ التمتُّع: القِران، وذلك بأن يدخل مكة مُحرماً ويظلَّ كذلك حتىٰ يخرج إلىٰ عرفات، ويعودَ منها إلىٰ مكة ويطوفَ ويسعىٰ ويحلَّ الإحرام. وثالث الأنواع: الإفراد، وهو أن يُحرم بالحج ويُتِمَّه، ثم يخرج إلىٰ أدنىٰ الحِلِّ، فيُحرم ويأتي بالعمرة، وهذا لا يحتاج إلىٰ هدي.

ثم بيَّن تعالىٰ الوقت الذي يؤدَّىٰ فيه الحج، فقال: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ أي: الوقت الذي يؤدَّىٰ فيه الحج أشهر يعلمها الناس، وهي: شوال وذو القعدة وذو الحجة. والمراد من ذي الحجة: عشر منها. وذِكرُ الكل وإرادةُ البعض من خصائص اللغة. والقرينةُ هنا معرفةُ الناس للمراد منها، أي: إنَّ الحج يؤدَّىٰ في هذه الأشهر، ولا يلزم أن يكون من أول يوم منها إلىٰ آخر يوم، بل معناه: أنه يصحُّ الإحرام به من غُرَّة أولـها وتنتهي أركانه وواجباته في أثناء آخرها. فالوقوف في التاسع من ذي الحجة، وبقية المناسك في أيام العيد كما بيَّنته السُّنَّـة، بخلاف بقية السَّنَـة، فلا ينعقد فيها حج، وإنما تنعقد العمرة فقط. والمراد من هذا البيان: تثبيت المعلوم من لدن إبراهيم عليه السلام.

ثم بيَّن الآداب التي يُؤكَّـدُ التأديبُ بها علىٰ الحاج، فقال: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ

ٱلۡحَجَّ﴾ أي: أَوْجَبه علىٰ نفسه بالشـروع فيه، ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾، الرفث: كلمة جامعة لكلِّ ما يريده الرجل من المرأة، يُطلق ويُراد به الجماع، ويُراد به خطاب الرجل المرأة فيمـا يتعلَّق بالجماع، ويُراد به دواعي الجماع ومتعلقاته. وقيل: المراد به الفحش. والفسوق: الخروج عن حدود الشرع. والجدال: التـنازع، والتنازع مظنَّة في الحج لكثرة الاجتماع وتضارب الحاجات وتنوُّع المسلمين المختلفي العادات واللغات والعقول والسلوك والأجسام والقوات، فهو امتحان لقوَّة الإيمان والتدرُّب علىٰ التآلف مع المسلمين علىٰ اختلاف هذه النَّواحي فيهم، كما أنَّ هذه الآداب اللسانية والعملية للمُحرم تعظيمٌ لشأنه ولشأن المكان والحال، لأنه دَخَـل بالإحرام والإهلال من الميقات، في حدود الحرم والحظيرة المقدَّسة التي يجب أن تُحترم بكلِّ الآداب وبمكارم الأخلاق، ولأنه يجب علىٰ المرء في أوقات العبادة والحضور مع الله تعالىٰ أن يكون علىٰ أكمل الآداب وأفضل الأحوال، وناهيك بدخول حدود البيت الذي نسبه تعالىٰ لنفسه وبحضوره.

وإنما آثر النفيَ علىٰ النَّهي، للمبالغة في إيجاب الحكم، بتخييل أنه قاعدةٌ مقرَّرة معروفة. ولذلك أعاد لفظ الحج مُظْهَراً لتكون الجملة بذاتها قاعدةً مستقلةً تامَّة، ولو أعاده مُضْمَراً لتعلَّقت الجملة بما قبلها، ولم تصلح أن تكون قاعدة تامة مستقلة بذاتها.

وهناك وجه آخر، وهو أنه متىٰ توفَّرت العناية بالاسم في الكلام يُؤتىٰ بالظاهر منه موضع المُضْمَر؛ لأنَّ الكناية لا تبلغ مبلغ التصريح، كما جاء في «دلائل الإعجاز»[1]، وذلك علىٰ حدِّ وضع لفظ الجلالة موضع ضميره في كثير من آيات القرآن.

---

(١) ص٦٩. وهو للجرجاني، أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (...- ٤٧١هـ) أحد أئمة اللغة، وهو واضع أصول علم البلاغة. له: «أسرار البلاغة»، و«إعجاز القرآن»، و«العوامل المئة». «الأعلام» للزركلي (٤: ٤٩).

ثم ذكر سبحانه بعد هذه الأحكام ما يحمل علىٰ التمسُّك بها، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: لا زاد إلا زاد الأعمال الصالحة، فهي خيرُ ما يُدَّخر ويهتم للحصول عليه. أو المعنىٰ: إنَّ الزاد الذي يعين علىٰ الأعمال الصالحة هو خير الزاد، ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ أي: مَنْ له لبٌّ وعقل فَلْيَتَّقِني.

وقيل أيضاً في معنىٰ هذه الآية: وتزوَّدوا، أي: احملوا معكم الزاد في سفركم إلىٰ الحجِّ، فهذا الزاد هو خير الزاد؛ لأنه زاد يوصل إلىٰ تقوىٰ الله، بأداء مناسك الحجِّ. وعليه، فالآية تدلُّ علىٰ الترغيب بتقوىٰ الله لأنها غذاء الروح، وهي أن لا يفقدك حيث أمرك و لا يراك حيث نهاك. وتدلُّ أيضاً علىٰ وجوب الاعتماد علىٰ ماليَّته في الحج لا علىٰ الصَّدقات، فذلك ليس من التقوىٰ، كما جاء في تعليقات البخاري عن سبب النزول(١).

ولما كان ربما يسبق إلىٰ الفهم وجوبُ الزهد عن كسب المال أثناء السفر إلىٰ الحج، وأنه يَحرُم فيه ما كانت عليه العرب في جاهليتها من التجارة والكسب في موسم الحج، كما يحرُم الرفثُ والفسوق والجدال، أزال هذا الوهم ببيان أنَّ الكسب في أيام الحج غير محظور، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

كان العرب في الجاهلية إذا أَزْمَعوا الحجَّ إلىٰ مكة من أصقاع شبه الجزيرة، جعلوا عكاظَ الواقع بين نخلة والطائف موعدَهم في هلال ذي القعدة، يقيمون بها عشرين يوماً، يتَّخذونها سُوقاً لتجارتهم ومُبادَلَة البضائع فيما بينهم، ويكون في جانب ذلك

---

(١) رواه البخاري (١٥٢٣) عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. رواه ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة مرسلاً.

مباهاة بالشعر والأدب بين شعراء القبائل وخطبائهم. وإنما يتَّخذون ذلك إذاعةً لقبائلهم في هذا المجتمع، وإشادةً بفخرهم وتفوُّقهم علىٰ غيرهم، ثم ينصرفون إلىٰ مجنَّة يقيمون فيها عشرة أيام كذلك.

فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلىٰ ذي المجاز[١]، فأقاموا أسواقهم بها ثماني ليال، ثم تَرَوَّوا من مائها في اليوم الثامن، وانصرفوا إلىٰ عَرَفة، لذلك سُمِّي اليوم الثامن بيوم التروية، وبقي هذا الاسم إلىٰ اليوم، ولكنه بقي دون مُسمّىٰ.

وبديهيٌّ أنَّ الذين يحضرون هذه الأسواق هم الذين كانوا يريدون التجارة، فأما مَنْ لم يكن له تجارة ولا بيع، فإنه يخرج من أهله رأساً إلىٰ عرفة. وكان من لا يريد التجارة من أهل مكة يخرج يوم التروية، وظلَّ الحال علىٰ ذلك حتىٰ جاء الإسلام، وخَلَع علىٰ الحج من الجلال ما تضاءل إزاءه أمر التجارة. وهناك ظنَّ قوم أنَّ الحج والتجارة لا يجتمعان، وفكروا في إبطال الأسواق، فنزلت الآية، وأباحت التجارة قبل الحج وأثناءَه، فبقيت الأسواق حتىٰ نهبها الثوَّارُ الذين خرجوا من مكة في الثلث الأول للقرن الثاني الهجري، فتُركت.

وقد ورد في أسباب النزول عن ابن عباس أنه قال: كانت عكاظ ومجنَّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثَّموا أن يتَّجروا في الموسم، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية[٢].

قال الأستاذ الإمام: كان بعض المشركين وبعض المسلمين في أول الإسلام يتأثَّمون في أيام الحج من كلِّ عمل، حتىٰ كانوا يقفلون حوانيتهم، فعلَّمهم الله تعالىٰ أنَّ الكسب

---

(١) سيأتي قريباً أن عكاظ والمجنة وذي مجاز هي أسواق في الجاهلية.

(٢) رواه البخاري (٢٠٥٠).

طلبُ فَضْلٍ من الله لا جُناح فيه مع الإخلاص. وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يُشْعر بأنَّ ابتغاء الرزق مع ملاحظة أنه فَضْل من الله نوعٌ من العبادة(١).

ثم قال تعالىٰ في إتمام التعليم: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾، المشعر: المَعْلَم الظاهر، والوصف بالحرام للإيذان بأنه داخلٌ في الحرم إذ هو حدوده، وهو المزدلفة. والإفاضة من المكان: الدفع منه، مُستعار من إفاضة الماء.

قال في «المنار»: وعرفات أعرَفُ من أن تُعرَّف. وذكروا وجوهاً للتسمية، أحسنها أنه يُتعرَّف فيه إلىٰ الله بالعبادة، أو أنه يُشْعِر بتعارف الناس فيه من سائر الأصقاع. ويوم عرفة: اليوم الذي يقف فيه الحاج بعرفات، وهو تاسع ذي الحجة. ولعرفاتٍ أربعة حدود: حَدٌّ إلىٰ جادَّة طريق المشرق، والثاني: إلىٰ حافات الجبل الذي وراء أرضها، والثالث: إلىٰ البساتين التي تلي قَرْنَيها علىٰ يسارِ مستقبلِ الكعبة، والرابع: وادي عُرَنة؛ بضم ففتح. وليس عُرَنة ولا نَمِرَة من عرفات. والوقوف بعرفات أعظم أركان الحج(٢). وكلُّها موقف، والمشعر الحرام: جبلٌ بالمزدلفة يقف عنده الإمام، ويُسمَّىٰ: «قُزَح»، وسُمِّي «مَشْعَراً» لأنه مَعْلَم للعبادة، وَوُصِفَ بالحرام لحُرمته، وقيل: هو المزدلفة كلّها من مَأْزِمَي(٣) عرفات إلىٰ وادي مُحَسِّر، بكسر السين المهملة المشدَّدة. وليس هذا الوادي من مزدلفة ولا من منىٰ. والمعنىٰ: أنه يُطلب من الحاج إذا نزل من عرفات إلىٰ المزدلفة أن يذكر الله عند المشعر الحرام، بالدعاء والتكبير والتهليل والتلبية(٤).

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٨٥).

(٢) حيث يجتمع الحاج في صعيد واحد، يدعو ويُلبِّي، وهي رَوْعة لا تُشبهها رَوْعة. (المؤلف).

(٣) المأْزِم: مضيقٌ بين جَمْعٍ وعرفة. «لسان العرب» (أزم).

(٤) تفسير «المنار» (٢: ١٨٦).

وفي حديث جابر عند مسلم: أنَّ النبيَّ ﷺ أتىٰ المزدلفة، فصلىٰ بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسبِّح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتىٰ طلع الفجر، فصلىٰ الفجر حين تبيَّن له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء ناقتَه، حتىٰ أتىٰ المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبَّره وهلَّله ووحَّده، فلم يزل واقفاً حتىٰ أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس[١].

والمبيت بمزدلفة من جملة مناسك الحج، وتُسمَّىٰ المزدلفة: جَمْعاً. وقوله: «ولم يُسبِّح بينهما»، يريد: لم يُصَلِّ سُنَناً.

قال الأستاذ الإمام: أمر بالذكر عند المشعر الحرام للاهتمام به؛ لأنهم ربما تركوه بعد المبيت، ولم يَذكُر المبيتَ لأنه كان معروفاً لا يُخشىٰ التهاون فيه، والقرآن لم يبيِّن كل المناسك، بل المهم منها، وبيَّن النبيُّ ﷺ الباقي بالعمل[٢].

أقول: وكان ﷺ يقول عندما كان يباشر النُّسك: «خذوا عني مناسككم»[٣].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ أي: واذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هدايةً حسنة، وأراكم مناسكَكُم وعباداتكم الصَّالحة التي ضَلَّ عنها غيرُكم، وأرشدكم إليها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾، و﴿إِن﴾ مخففة، واسمُها ضميرُ شأن، أي: وإنه كنتم قبل هذا العهد تشركون بالله وتأتون بأعمال ليست من شعائر الله.

ثم أمرهم بإبطال ما كانت عليه قريش، وهو وقوفهم بمزدلفة ترفُّعاً عن

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) تفسير «المنار» (٢: ١٨٧).

(٣) رواه مسلم (١٢٩٧) من حديث جابر بن عبد الله رضِيَ الله عنهما.

الوقوف بعَرَفة مع سائر العرب. فقال: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ أي: من عهد إبراهيم عليه السلام، ويُشعر من قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ بتشريع عام في المنع من التمايز عن الناس في مثل ذلك، أي: ليكن وقوفكم بعرفة وغيرها مع الجماهير من الناس ولا تشذُّوا عنهم، بما تُسوِّل لكم أنفسكم من أنكم ممتازون عليهم بملك أو رفعة منزلة، فيكون خطاباً لمثل هؤلاء الناس أو خطاباً عاماً للناس بما فيهم هؤلاء، أتمَّه بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ أي: من الأعمال التي أحدثتموها بعد إبراهيم، من تغيير تلك المناسك علىٰ حسب ما أوْحَت إليكم أهواؤكم، ثمَّ وعدهم بغفران ما سلف منهم، بعبارة مسبوكة علىٰ التعليل، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ أي: يغفر لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

ثم أمرهم بإبطال عادةٍ أخرىٰ من عوائد الجاهلية أيضاً، كانوا يفعلونها أثناء حجِّهم، وهي وقوفهم بمِنىٰ يتفاخرون بآبائهم نثراً وشعراً كما كانوا يفعلون في الأسواق، فأمرهم سبحانه أن يستبدلوها بذكر الله تعالىٰ بعد قضاء المناسك، وهي أعمال الحج، فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ فأمرهم سبحانه أن يذكروا الله تعالىٰ بعد إكمال أعمال الحج، كما كانوا يذكرون آباءهم في الجاهلية أو أشدَّ ذكراً، يدعونه ويكبِّرونه ويُهلِّلونه ويُوَحِّدونه.

وكان النبيُّ ﷺ قد خطب في حَجَّة الوداع فأرشدهم إلىٰ ترك المفاخرات، ومما قال في ذلك: «أيها الناس، إنَّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فَضْل لعربي علىٰ عجميٍّ، ولا لعجميٍّ علىٰ عربيٍّ، ولا لأحمرَ علىٰ أسود، ولا لأسودَ علىٰ أحمر إلا بالتقوىٰ، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلَّغت»[١].

---

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩) عمن سمع خطبة النبي ﷺ. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣: ٥٨٦): رجاله رجال الصحيح.

وقيل أيضاً في معنىٰ الآية: إنَّ مَنْ عَزَم علىٰ الحج أخذ شوقُه يتزايد يوماً فيوماً، ويذهل عن أهله وأبويه، ويتمنَّىٰ لو طار إلىٰ البيت الحرام بقادمتي جناح، ولا يزال هذا شأنه حتىٰ يتم مناسك الحج، وهناك تَتحوَّل القلوب إلىٰ الأوطان بنسبة ذلك النسيان، ويشتد بها الشوق إلىٰ الأهل والأبوين والجيران، اشتداداً عظيماً، وهنا يحاول الشيطان أن يجد الثغرة التي يدخل منها إلىٰ القلب، فعليك أن تعالجه بذكر الله.

ثم ألمع إلىٰ الحثِّ علىٰ التمسُّك بما جاء في السياق من الأحكام، علىٰ نهج القرآن في مثله، وذلك ببيان صِنفَي الناس ومصيرهم، ليَحمِلَنا علىٰ التمسُّك بأحكام الله، فنكون من الصنف الثاني المقبولين عند الله، وعبَّر بالقول عن الطلب والعمل، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وأتىٰ بفاء التفريع؛ ليدلَّ علىٰ أن مَنْ يهتم بذكر الآباء والافتخار بأمور الدنيا هو من الصنف الأول، ومَنْ يهتم بذكر الله ويتبع ما أمر به هو من الصنف الثاني، فقال: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾[1]، الخلاق: النصيب والحظُّ.

ذكر تعالىٰ أن هذا الفريق يطلب حظَّ الدنيا مطلقاً، ولم يقل: إنه يطلب فيها حسنة؛ لأن من كانت الدنيا كلَّ همِّه لا يبالي أكانت شهواتُه وحظوظُه حسنةً أم سيئة،

---

(١) هذا في موضع التعليل لما تضمَّنه ما قبله من النهي عمَّا كان يفعله الجاهليون بعد قضاء المناسك من اتِّخاذ الأسواق الأدبية والمجتمعات للتفاخر بالآباء والأجداد، فقد ألمع سبحانه إلىٰ أن أولئك الأبناء والآباء والأجداد، إنما هم ممَّن ليس لهم في الآخرة من خلاق، فلا وجه للمفاخرة بهم والتمجيد، سوىٰ في حظوظ الدنيا وحدها، ألمع إلىٰ ذلك ضمن هذه الجملة المعترضة في السياق، صنَّف بها الناس إلىٰ صنفين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، والله أعلم.
وهذا القول يتناول أيضاً المادي البحت الذي لا يلفت إلىٰ الروح وجهاً، ولا يُوجِّه إليها نظراً. (المؤلف).

فهو يطلب الدنيا من كل باب، ويسلك إليها كل طريق، لا يميِّز بين حرام وحلال، ونافع لغيره وضار، فباستيلاء حبِّ الدنيا عليه لم يكن للآخرة وما أعدَّه الله فيها للمتَّقين من الرضوان موضعٌ من نفسه، ليعمل له ويرجوه، ويدعو الله فيه، كما أنه لا يخاف ما توعَّد الله به المجرمين فيها ويتحاشاه، فيلْجأ إليه تعالىٰ، بأن يقيه شرَّه. فحرمانُ هذا الفريق من خَلاق الآخرة هو أثرُ كسبه وسُوء اختياره وتفضيله حظوظ الدنيا الفانية علىٰ سعادة الأخرىٰ الباقية. وما أبلغ حذف مفعول «آتنا» في هذا المقام! فهو من دقائق الإيجاز التي تَحار فيها الأفهام، وتعجز عنها قرائح الأنام.

ثم ذكر القسم الثاني، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾ أي: ومنهم مَنْ يطلب خير الدنيا والآخرة، لا حظوظ الدنيا كيفما كانت كالفريق الأول، لأن هذا لا يتَّفق مع طلب حظِّ الآخرة. وطلبُ الحياة الحسنة في الدنيا يكون بالأخذ بأسبابها وسُننها. وأعظمُها وأنفعُها: الثقة بالله والإخلاص له، وقَصْد الخير في الأعمال كلها، وتوقِّي الشرور كلها. وطلبُ الحياة الحسنة في الآخرة يكون بالإيمان الخالص والعمل الصَّالح، وطلب الوقاية من النار يكون بترك المعاصي والشهوات المحرَّمة، مع القيام بالفرائض المحتَّمة. هذا هو الطلب بلسان القلب والعمل، وأما الطلب بلسان المقال، فهو يصدق ذلك، بما يُذكِّر القلب بأنَّ هذه الأسباب من الله، وقد مضت سُنَّته بأن يُعطِي بها فضلاً منه ورحمة.

ولم يذكر في التقسيم مَنْ لا يطلب إلا حسنة الآخرة؛ لأن التقسيم لبيان ما عليه الناس في الواقع ونفس الأمر بحسب داعي الجِبِلَّة وتأثير التربية وهَدْيِ الدين، ولا يكاد يُوجد في البشر من لا تتوجَّه نفسه إلىٰ حُسْن الحال في الدنيا، مهما كان غالياً في العمل للآخرة، أو لو وجد لا يكون مرضياً عند الله لقوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

ثم قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ فبيّن صريحاً أنهم يُعطَونْ ما دعوا الله فيه، ولكن بكسبهم، وهذا نصٌّ فيما تقدَّم من معنىٰ الدعاء، وأنه لا بدَّ أن يكون طلب اللسان مطابقاً لما في النفس من الشعور بالحاجة إلىٰ الله تعالىٰ، بعد الأخذ بالأسباب والسعي في الطرق التي مضت بها سنة الله تعالىٰ.

أقول: ويجوز أن يكون المرادُ من القول في الآية: فِعلَ ما يؤدِّي إلىٰ كسب الدنيا وحدها أو كسب الدنيا والآخرة معاً. والتجوُّز بالقول عن الفعل من أساليب القرآن (كما جاء في الفقرة (أ) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة في مجازات القرآن). ولهذا قال: ﴿مِّمَّا كَسَبُواْ﴾، ولم يقل: (لـهم ما طلبوا). والمعنىٰ: إنهم لما كانوا يطلبون الدنيا بأسبابها، ويسعون للآخرة سعيها؛ كان لهم حظٌّ من كسبهم هذا في الدارين علىٰ قدره. أما من اقتصر كسبُه علىٰ الدنيا فإنه ينحصر حظُّه فيها ويخسر الآخرةَ ويناله شقاؤها، كما ينال المرضُ من يُهمل الأسباب الصحيَّة والقوانين الطبيعية.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴿٢٠٢﴾﴾ أي: يُوفِّي كل كاسب أجرَه عَقِبَ عمله وبحَسَبه، لأنَّ سنَّته مَضَت بأن تكون النتائج آثارَ الأعمال، فهو يُوفِّي كلَّ عامل عمله بلا إبْطاء، ومن ذلك أن كلَّ قول أو عمل صالح ينكت في القلب نكتة بيضاء، وكلَّ سَيِّئ منها ينكت نكتة سوداء، وكما يكون الجزاء سريعاً في الدنيا كذلك يكون في الآخرة. فإنَّ أثر الأعمال يظهر للمرء عقب الموت، وهو أوَّلُ قدم يضعها في عالم الآخرة.

وأما سرعة الحساب يوم الحساب، فهو ـ والله أعلم ـ يكون بإدراك الناس كلهم دفعة واحدة لأعمالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فيدرك كلُّ واحد ما عمل من خير أو شرٍّ، ويعلم ما له وما عليه، وما يستحق علىٰ كلِّ عمل من نعيم أو شقاء. فسرعة الحساب: عبارة عن إطلاع كلِّ عامل علىٰ عمله أو إعلامه

وإشعاره دفعة بما له ممَّا كسب، وما عليه ممَّا اكتسب، وذلك يتمُّ في لحظة قصيرة لسائر الناس. وقد وَرَدَ: أنَّ الله تعالىٰ يحاسب الخلائق كلَّهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا[١]، ووَرَد: في قَدْر فواق ناقة، أي: حَلْبها. ووَرَدَ: بمقدار لمحة البصر، ويجوز أن يكون للأعمال آثارٌ ومظاهرُ تبرز علىٰ الأرواح والأبدان، يراها كلُّ ذي عيان، والله أعلم. وذلك مصداقٌ لقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وبعد أن أمر بذكر الله عند المشعر الحرام، وكانوا لا يذكرونه هناك، وأمر بذكره عند تمام قضاء المناسك بعد أيام منىٰ، حيث كانوا يذكرون مفاخر آبائهم، أمرهم بذكره تعالىٰ فيما بين ذلك تتميماً للبحث، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ هي أيام منىٰ، كما جاء في الحديث[٢]، وهي أيام التشريق الثلاثة من حادي عشر ذي الحجة إلىٰ ثالث عشر، وهي التي يرمون فيها الجمار وينحرون فيها هَدْيَهم وضحاياهم، ويذكرون الله عند كلِّ عمل من تلك الأعمال.

وقد جعل الله تعالىٰ التخيير في التعجيل والتأخير مشروطاً بالتقوىٰ فقال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا حرج عليه، ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ إلىٰ ثالث ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أيضاً، وذلك ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ اللهَ ووقف عند حدوده، فإنَّ التقوىٰ هي الغرض من الحجِّ، ومن كل عبادةٍ. أو أنَّ ذلك التخيير لمن لم يكن قصده به حظاً من حظوظ النفس وأهوائها، وإنما صرح بنفي الإثم فيها للردِّ علىٰ أهل الجاهلية، حيث

---

(١) تقدم تخريجه في المقدمة (١: ٦٠٩).

(٢) لم أقف علىٰ حديث يدل علىٰ هذا المعنىٰ، وإنما روي عن ابن عباس، ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٢: ٤٥٨).

كان منهم من يُؤثِّم المتعجِّل، ومنهم من يُؤثِّم المتأخر. وقوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ إيذانٌ بأن الجاهليِّين آثمون علىٰ كلتا الحالتين؛ لأنهم ليسوا من المتَّقين.

ثم أمر بالتقوىٰ بعد الإعلام بمكانتها، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ أي: وكونوا علىٰ يقين بأنكم تُجمعون وتُساقون إليه، فيُريكم جزاءَ أعمالكم، والعاقبة للمتقين. وإنَّ العلم بذلك هو الذي يُصلح النفوس ويُزكِّي الأرواح، حتىٰ تَتَوجَّه إلىٰ الخير وتتَّقي الشرور والمعاصي. وإنما أمر سبحانه وتعالىٰ بالذكر في هذه الأيام، ولم يأمر برمْي الجمار؛ لأنَّ رمي الجمار هو من الأعمال التي يعرفونها ويعملون بها، وقد أقرَّهم عليها، فخصَّ بالذكر المهمَّ الذي هو روح الدين، وهو ذكر الله تعالىٰ عند كل عمل من تلك الأعمال أيام منىٰ، وتلك سنَّة القرآن حيث يذكر إقامة الصلاة مثلاً والخشوع فيها، وذكر الله تعالىٰ ودعاءَه فيها، ولا يذكر كيفيَّة القيام والركوع والسجود، وإنما يترك ذلك لبيان النبي ﷺ لها بالعمل، كما جاء عنه ﷺ: «صلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي»[١]، وقال في الحج: «خُذُوا عنِّي مناسكَكُم»[٢].

وبيَّنت السنة أيضاً أنَّ ذكر الله تعالىٰ في هذه الأيام هي التلبية والتكبير أدبار الصلوات وعند ذبح القرابين ورمي الجمار وغير ذلك من الأعمال، وكذلك في غير الأعمال، فقد روي عن ابن عمر رضِيَ الله عنهما: أنه ﷺ كان يكبِّر بمنىٰ تلك الأيام، وعلىٰ فراشه، وفي فُسطاطه، وفي مجلسه، وفي مَمْشاه، في تلك الأيام جميعاً[٣].

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٠٠٨)، ومسلم (٦٧٤)، عن مالك بن الحويرث.

(٢) رواه مسلم (١٢١٨) عن جابر بن عبد الله رضِيَ الله عنهما.

(٣) ذكره البخاري معلّقاً موقوفاً علىٰ ابن عمر، باب التكبير أيام منىٰ، قبل حديث (٩٧٠)، ووصله ابن حجر في «تغليق التعليق» (٢: ٣٧٩).

قال في «المنار»: أرشدنا سبحانه وتعالىٰ في آيات المناسك السابقة أنَّ المراد منها ومن كل العبادات، هو تقوىٰ الله تعالىٰ بإصلاح القلوب، وإنارة الأرواح بذكر الله تعالىٰ واستشعار عَظَمته وفضله، وأنَّ طلب الدنيا من الوجوه الحَسَنَة لا يُنافي التقوىٰ، بل يُعينُ عليها، بل هو مما يهدي إليه الدين، خلافاً لأهل الملل السابقة، حيث ذهبوا إلىٰ أنَّ تعذيب الأجساد وحرمانها من طيِّبات الدنيا هو أصل الدين وأساسُه. وأرشدنا سبحانه إلىٰ أن مَنْ يطلب الدنيا وحدها ويجعل لذَّاتها أكبرَ همِّه، ليس له خَلَاق في الآخرة، لأنه مُخلِد إلىٰ حضيض البهيميَّة، لم تَسْتنر روحُه بنور الإيمان، ولم يرتق عقله في معارج العرفان.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾.

ولما كان محلُّ التقوىٰ ومنزلُها القلوبَ دون الألسنة، وكان الشاهد والدليل علىٰ ما في القلوب الأعمال، دون مجرَّد الأقوال، ذكر في الآيات الآتية أن الناس في دلالة أعمالهم علىٰ حقائق أحوالهم ومكنونات قلوبهم قسمان، فقال[1]: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: يُعجبك قوله، وأنتم في هذه الحياة؛ لأنكم تأخذون بالظواهر، وهو منافق اللسان، يُظهر خلاف ما يُضمر، ويقول ما لا يفعل، ويُوهم أنه نصيرٌ للحق والفضيلة، مُتَّقٍ لله في السرِّ والعَلَن، لا يُريد للناس إلا الخير.

---

(١) هذا تصنيف آخر للناس معطوف علىٰ التصنيف الأول ومتمِّم له، والله أعلم. (المؤلف).

﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ أي: يحلف بالله علىٰ أنَّ ما في قلبه موافقٌ لما يدَّعي ويقول، وفي معنىٰ الـحَلِف أن يقول الإنسان: اللهُ يعلمُ ويشهد بأني أُحبُّ كذا، أو أريد كذا، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٦]، وهو تأكيد معروف في كلام العرب، حتىٰ قال العلماء: هذا آكدُ من اليمين. والمعنىٰ: إنَّ أحدهم لَيُبالغ في الخلابة والتودُّد إلىٰ الناس بالقول، ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ أي: وهو في نفسه أشدُّ الناس مُخاصمةً وعداوةً لمن يتودَّد إليهم، أو هو أشد خصمائهم[١]. أو المعنىٰ: أنه قويُّ العارضة في الجدل، يُحجُّ بها المنكر عليه أو المعارض له.

وفي الآية وجهٌ آخر ذهب إليه بعض المفسِّرين، وهو أنَّ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلِّق بالقول. والمعنىٰ: يُعجبك قوله إذا تكلَّم في شؤون الحياة الدنيا، فيستهوي أهل السلطان والسيادة.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ شيئاً من أمر الناس ﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ بما يكون من أثر إفساده واعتدائه، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ أي: يبغضه ويغضبُ علىٰ مَنْ يتعاطاه.

وفي ﴿تَوَلَّىٰ﴾ معنىٰ آخر، وهو: أن صاحب تلك الدعوة القوليَّة التي ذكرناها، إذا أعرض عن مُخاطِبِهِ وذهب إلىٰ شأنه، فإنَّ سعيَه يكون علىٰ ضدِّ ما قال. يدَّعي الصلاح وهو يسعىٰ بالفساد.

وهذه الآية ترشدنا إلىٰ التمييز بين الناس بأعمالهم وسيرتهم، وعدم الاغترار بزُخرف القول.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ١٩٦).

ولما كان الإفساد يصدر تارةً عن الجهل وسوء الفهم، وأحياناً عن إفساد الفطرة وسُوء القصد، وكان مَنْ يعمل السوء بجهالةٍ سريعَ التوبة مبادراً إلىٰ قَبول النصيحة، وكان شأن الآخر الإصْرارَ علىٰ ذنبه كالمستهزئ بربِّه، ذكر من صفة المفسد ما يُميِّز بينه وبين المخطئ، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: حَمَلته الأنفة وحميَّة الجاهلية علىٰ اللَّجاج[1] بذلك الإثم الذي نُهي عنه؛ عناداً، وهذا من قولهم: أخذته بكذا؛ إذا حملته عليه. والمعنىٰ: أنه إذا أُمِرَ بمعروف أو نُهِيَ عن منكَر، تسرَّع إليه الغضب، فيؤذي ويعاكس. فسجَّل عليه سبحانه بقوله: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾، وهذا أعظم وعيد بأبلغ تعبير.

ثم ذكر الفريق الثاني، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى﴾ أي: يبيع ﴿نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

قال في «المنار»: وكان من مقتضىٰ المقابلة أن يُوصَفَ هذا الفريق بالعمل الصالح، مع مطابقة قوله لعمله وموافقة لسانه لما في قلبه، والآية تضمَّنت هذا الوصف وإن لم تنطق به، كما هي بلاغة القرآن في تراكيبه، فإنَّ من يبيع نفسه لله لا يبغي ثمناً لها غير مرضاته، لا يتحرَّىٰ إلا العملَ الصالح وقولَ الحق والإخلاص في القلب، وهذا هو المؤمن الذي يعتدُّ القرآن بإيمانه[2]. لذلك قَرَنه بما يتضمَّن الجزاء الأوفىٰ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ أي: يُنيلهم ما حاولوه من مَرْضَاته وثوابه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ

---

(١) اللَّجاج: أن يحلف علىٰ شيء ويرىٰ غيرَه خيرٌ منه فيقيم علىٰ يمينه ولا يحنث. «لسان العرب» (لجج).

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٢٠٢).

ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾.

وبعد أن بيّن تعالىٰ اختلاف الناس في الصلاح والفساد، والإصلاح والإفساد، أراد أن يهدينا إلىٰ أنّ شأن المؤمنين الاتفاق والاتحاد، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾(١).

والسِّلم: المسالمة والانقياد، فيطلق علىٰ السلام وعلىٰ دين الإسلام، و﴿كَآفَّةً﴾ حالٌ من السِّلْم، فهي تفيد وجوب أخذ الإسلام بجملته دون إهمال شيء منه.

وذهب بعض المفسِّرين إلىٰ أنَّ ﴿كَآفَّةً﴾ ترجع إلىٰ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فهي بمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»(٢).

ومن ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: الفواحش والمنكرات كلها.

أما قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، فقد قال أبو مسلم: إنَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ من صفات البليغ الذي يُعْرب عن ضميره. فالمراد: إنه قويُّ التأثير عليكم بوسوسته.

---

(١) هذا خطاب للمؤمنين بما فيهم ضعفاء الإيمان، أمرهم أن يأخذوا بجميع دين السلم هذا ولا يزلُّوا في بعضه بخداع المضللين، وتوعَّدهم علىٰ الزلل، ثم توعَّد المضللين بالآية التي تلي، فهو تفريع علىٰ تصنيف الناس، يحمل به المؤمنين أن يكونوا من الصنف الممتاز. (المؤلف).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

ثم ختم السياق بما يحمل علىٰ التمسُّك بما سبق بيانه، بعبارة مسبوكة علىٰ التهديد، فقال: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أي: من الأحكام والتوجيهات في ثنايا هذا السياق، أو في ثنايا القرآن، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ أي: فاعلموا أنه يحلُّ بكم العقاب، لأنه عزيزٌ لا يُغْلَبُ علىٰ أمره، حكيمٌ لا يُهمِلُ أمور غيره، ولا يُنزل العقاب إلا في حينه، فهو يُمهِلُ ولا يُهمِل. أو المعنىٰ: إنَّ هذه البيِّنات ناتجة عن علم وحكمة، فالزَّلل عنها جريمة لا تُغْتَفَر، وفساد كبير. فقد حذف جواب الشرط، وأقام مقامه بيان الحجَّة وتقرير البرهان، وهذا من ضروب إيجاز القرآن، (كما جاء في المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ أصل السياق، وهو الكلام عن المعارضين والمشاغبين، وتوعَّدهم علىٰ مُعارضتهم، وعدم إيمانهم ودخولهم مع المؤمنين في السِّلم كافَّة، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾، و﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنىٰ: ينتظرون، وهي كثيرة الاستعمال في القرآن.

وإتيان الله: بمعنىٰ: إتيان أمره، وهو من أساليب العرب المعروفة، يقولون: حاربهم الأمير، وإنما حاربهم قائدُه وجُندُه. أو نُفوِّض أمر ذلك المعنىٰ إلىٰ الله.

والغمام: السحاب. ويجوز أن يُراد به معناه الحقيقي، إذا كان المراد بالآية الوعيد بعذاب الدنيا، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، أما إذا أريد بها عذاب الآخرة فيجوز أن يُراد بالغمام ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، ويُحتمل أن يراد سحيق

الأجرام، أو المادة السديمية التي تكوَّنت منها السماوات، وهي ما عبَّر عنه في بدء التكوين بالدخان، فإنَّ مادة التكوُّن تعود بعد الانحلال إلىٰ ما كانت قبل التكوين، والله أعلم.

فالآيةُ توعُّدٌ لهم بيوم القيامة وما فيه من حال عصيب، والتعبيرُ بإتيان الله أدلُّ علىٰ الترهيب، والله أعلم.

والحق أنَّ ذلك من الأمور الغيبيَّة، نُفوِّض الأمر فيها إلىٰ الله. وعلىٰ كلٍّ، فمفاد الآية: الترهيب الرهيب، والوعيد الشديد.

وقولُه: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ جملة حالية، يجوز أن يُراد به أنَّ الله سبحانه لا يقبل حينئذ توبة تائب؛ لأن ذلك إنما يكون يوم القيامة. ويجوز أن يكون المعنىٰ: لا ينتظرون غير ذلك؛ لأنه أمرٌ قَضاهُ الله وأبرمه، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾ أي: فيضع كلَّ شيء في مَوْضعه الذي قَضاه، ويُجازي كلَّ عامل بعمله.

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾.

ثم أنَّبَ بني إسرائيل وتوَعَّدهم علىٰ مُعارضتهم الشديدة للرسول ﷺ، مع أنه قد بيَّن لهم عنه في التوراة بآيات بيِّنات، فقال: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖ﴾، وفيه دقّة إشارة إلىٰ أنَّهم إذا استمرُّوا علىٰ المجاحَدة والخصام، وأعرضوا عن

الدعوة إلىٰ الدخول في هذا السلام، فليس ذلك بِدْعاً منهم ولا دليلاً علىٰ أنهم لم يتبيَّنوا حقيَّة الإسلام، ولكن معارضة الحقِّ قد انطبعوا عليها، وهم فيها دائبون.

ثم أردف ذلك بالتهديد العام، فقال: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ عليه بالآيات الدالَّة علىٰ الحق ويتلاعب بها ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ بالبيان، وأيـَّدت الحق بالبرهان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ أي: لـمن خالف شرعتـه ومنهاجه. وهذا تهديدٌ علىٰ التحريف والتأويل[1] للشرائع المنزلة التي ينعم الله بها علىٰ العباد، وهو عام لجميع الأمم، ويشمل الإهمال أيضاً، لأن النتيجة واحدة وإن اختلفت المقدِّمات.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ الأمر الباعث لهم علىٰ ذلك التحريف والتلاعب، فقال: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أُشربت محبتُها في قلوبهم حتىٰ تهالكوا عليها وتهافتوا فيها، وباعوا بها آخرتهم، مُعرضين عنها، لاهينَ عن أمرها، ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأنهم مُعرضون عن الإغراق في لذات الدنيا المزيَّفة، وملاهيها الباطلة، ويرون الكياسة في الاستعداد لما بعد الموت، وذلك بترقية النفس بالتهذيب الصحيح، والتَّحلِّي بالفضائل، فيسخر الكافرون منهم علىٰ ذلك.

فردَّ الله سبحانه علىٰ هؤلاء الساخرين مُبيِّناً عُلوَّ كرامةِ هؤلاء المؤمنين يوم القيامة، نتيجةَ ما يهزؤون به عليهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: إذا اسْتَعلَوْا علىٰ المؤمنين في هذه الحياة القصيرة الفانية، بما يكون لهم من الأتباع والأنصار والمال والسلطان، نتيجةَ تهافتهم علىٰ تحصيل زخارف هذه الحياة، فسينال المتقون في الحياة الأبديَّة الباقية حظوظاً عليَّـةً، ليست حظوظ هؤلاء الكفار في دنياهم شيئاً مذكوراً بالنسبة لتلك الحظوظ الرفيعة الشأن.

---

(١) يعني: التأويل الباطل الذي لا يدل عليه دليل، ولا تُرشد إليه قرينة، وفيه إبطال معنىٰ النص، كتأويلات الباطنية ومَنْ نحا نحوهم.

وإنما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ ولم يقل: والمؤمنون، للإيذان بأن الإيمان وحده لا يؤدي لذلك، إذا لم تصحبه التقوىٰ وصالحاتُ الأعمال.

ثم أكمل الردَّ سبحانه ببيان أنَّ أرزاقَ الدنيا ونعيمَها ـ حسب سنة الله تعالىٰ فيها ـ مبذولة للتقيِّ والشقيِّ، إذا اتَّبع سُنَّـة الله الكونيَّـة في الحصول عليها، وجدَّ في طرق الكسب الصحيحة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾﴾، ولا تعلُّق لذلك بالكفر ولا بالإيمان، ولكن بالسَّعي الصحيح والإحسان في طرق الكسب، كما جرت سُنَّته تعالىٰ فيه.

ويجوز أن يكون الكلام تذييلاً لما قبله؛ لأنَّ الرزق قد يشمل نعيم الآخرة، فهو يُنوِّه بكثرة ذلك النعيم، ويجوز أن يكون من التعقيب بما يشمل ما قبله وغيره، علىٰ نهج القرآن في ذلك.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ هذا الانحراف عن الحقِّ ليس هو من أصل الطبيعة، فلا فرق بين طبيعة الكافر وطبيعة المؤمن في أصل الخِلْقة، لأنَّ كلَّ مولود يولد علىٰ الفطرة، ولكنه ناتجٌ من تحريف الكافر طبيعَته، بمفاسد التربية، فقال: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾[1]،

---

(١) ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ في انطباعهم علىٰ معرفة الحق من الباطل، لقوله تعالىٰ: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨]، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ليساندوا هذه الفطرة ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ لـمن تـمسَّك بالحق، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لـمن خالفه وأعرض عنه، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ...﴾ ولفظ «كان»، لمجرَّد الثبوت ولا تدل علىٰ المضيِّ، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٩٦]، فالآية تعقيبٌ علىٰ السياق الذي جاء فيه تصنيف الناس، والتنويه بشأن المحسنين، والتأنيب للمسيئين، بأنهما في أصل خِلقتهم متساوون، وللصلاح مستعدّون، ولكن في التربية مختلفون، فضلاً لهم من تربيتهم لا من أصل خلقتهم. =

أي: فيما هو مقتضىٰ أصل الخِلْقة والجبلّة، من الهداية الطبيعية والغريزة الدينية والأخذ بما يُرشد إليه العقل في الاعتقاد والعمل، ولكنهم بحكم اختيارهم في تصرُّفاتهم، مُعرَّضون لأن يحرِّفوا عقولهم عن جادّة الحق، بكسبهم وصُنع يدهم وسُوء نشأتهم، كما أشار إلىٰ ذلك الملائكة بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فأضاف سبحانه إلىٰ هدايتهم بالطبيعة هدايتهم بالشريعة.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: فكانت الشريعة مُساندةً للطبيعة في السَّيْر مع الحقّ وتجنُّب الباطل، تَردُّ الضالِّين إلىٰ سبيل الحقِّ في العمل والإيمان، إلا أنَّ مَنْ آمن منهم بشريعته، كانت لا تلبث أن تنحرف وتخرج أجيالهم تدريجياً بمرور الزمن بالتأويل والتحريف من أصل الشريعة، وتنحدر إلىٰ الشرك بعد الإيمان، وعن الحق إلىٰ الضلال، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: جَوْراً وتغلُّباً، وطلباً للرياسة في مذهب جديد يكوِّنونه بتغيير بعض معالم الدِّين، ليختصُّوا فيه بأتباع وموالين، أو لسوء التربية والتقليد الأعمىٰ، يكونون للضلال مُتَّبعين، وعمّا أُرسل إليهم معرضين، ومن ذلك مشركو قريش، حيث خرجوا عن دين إبراهيم عليه السلام.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم أهل الإيمان الصادق في كلِّ دين، المحافظون

= كما يُرشد قوله تعالىٰ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ أنَّ الله سبحانه خلق الناس أمة واحدة في التسوية والاعتدال، وتمييز الخير من الشر في أصل خلقتهم، وأرسل لهم الشريعة لتساعد هذه الطبيعة، فتسلك سبيل التزكية وتجتنب سبيل التدسية أي: سبيل الغواية والفساد. وهذا كما إذا قلت: نبت النوىٰ نباتاً حسناً طبيعياً، فأرسلت له البستاني يساعده في طبيعته، يُداريه ويسقيه، يُقوِّم منه ما التوىٰ، ويُعدِّل ما حَناه الهواء. (المؤلف).

علىٰ طبيعتهم والمُزكُّون لها، أو هم المؤمنون بمحمد ﷺ والمهديُّون بهذا القرآن العظيم الذي حوىٰ سائر كتب الله المنزلة وشرائعه المرسلة؛ هداهم ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: لما اختلف فيه أولئك المختلفون ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الصريح. وهذه الهداية إنما هي ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتيسيره ولطفه سبحانه وتعالىٰ. وهذا القيد لإفادةِ منَّةِ الله تعالىٰ علىٰ المؤمنين بهذه الهداية العظيمة.

وفي التعبير بالإيتاء بدل الإنزال؛ إيماءٌ إلىٰ كمال تمكُّنهم من الوقوف علىٰ ما في تضاعيفه وثناياه، وفي ﴿ٱخْتَلَفُوا۟﴾ إسنادُ فعل الأغلبية إلىٰ الجميع، للإيذان بتكافل الأمم وتضامنها.

ثم ذيَّل الكلام بما زاد في التَّمنُّن، بعبارة تشملهم وغيرَهم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وهم الذين لم يُحرِّفوا طبيعتهم بكسبهم وسوء تصرُّفهم، فالله يهديهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ أي: يُوصِلُ سالكه إلىٰ السعادة.

ومُحصَّل الكلام: أنَّ الله سبحانه خَلَقَ البشر مُستعداً للهداية بطبيعته، وللخير بفطرته، وأيَّد فيه ذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فكانت الحُجَّة البالغة لله علىٰ الناس فيما اختلفوا فيه وخرجوا من الهداية إلىٰ الضلال، بإفسادهم لفِطَرهم، وأخذوا يقاومون الحقَّ والهدىٰ إذ جاءهم علىٰ لسان أنبيائهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

وبعد هذا البيان من الله سبحانه، التفت إلىٰ المؤمنين، يحثُّهم علىٰ مقاومة هذه المعارَضَة للحقِّ من جانب اليهود والمشركين إلىٰ الحدِّ الأقصىٰ، لأنَّ المنازل الرفيعة في

الجنان لا تُنال إلا بالجهاد في سبيل الله للمعارضين للحق والـمُفسِدين الـمُضلِّين، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[1]، يقولون ذلك طلباً ودعاء للنصر واستطالةً لمدَّة الشدَّة.

وليس في هذا الطلب نقصٌ يُعابون عليه، فإنَّ كل مخلوق لا يعلم من غيب الله ما يعلم الله، لا بد أن يمسَّهُ مثل هذا الضجر من استبطاء نصر الله للحق[2] الذي بُعِثَ به ذلك الرسول، حتىٰ يكون الكمال لله وحده، إذ لا يعلم حكمة ذلك إلا الله.

وهذه الآيةُ معطوفةٌ علىٰ محذوف يُفهم من السياق، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

وقد بيَّن لهم سبحانه وتعالىٰ سُنَّته في خلقه، وهي أنَّ القائمين بالدعوة ونشر الهداية يُجابهون صعوباتٍ جمَّة. وهكذا كان أمر الماضين من القائمين بمثل هذه الدعوة، مسَّتهم البأساء والضرَّاء واشتدَّ عليهم الأمر حتىٰ استبطؤوا نصر الله، ثم جاءهم النصر، ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾، هذه هي السنة الطبيعية في سبيل نشر الدعوة وتبليغها للناس. ولا يمكن أن يكون نشر الـهداية التي تكون واسطةً لدخول الجنة أمراً هيِّناً، يفعلها صاحبُها من دون مشقَّات عظيمة واختلاف عليه.

---

(١) لما كان السياق متضمِّناً للحرب بين المؤمنين والمشركين بنوعيها الحارة والباردة، من مشاغبات ومناوشات المؤمنين علىٰ الصبر، مبيناً أن مثل ذلك سنة من سنن الاجتماع في الانقلابات، ومن اسْتَهْدَفَ عظائمَ الأمور صَبَرَ علىٰ مرارة المقدّمات. (المؤلف).

(٢) لو قال: الضجر من إيذاء أقوامهم وما أصابهم من البأساء والضراء، والإلحاح في طلب النصر من الله وتعجيله؛ لكان أولىٰ.

وفي هذه الآية تتميمٌ للآية: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥]، أتىٰ بها بعد أن تهيأ مكانها هنا لأداء الغرضين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾.

ولـما كان من سُنَّة القرآن أن يكون بيان التوحيد، وبيان الوعظ والنصيحة، وبيان الأحكام، مختلطاً بعضها ببعض، ليكون كلٌّ منها مؤيداً بالآخر ومؤكداً به، (كما جاء في المادة الثالثة من المقدِّمة الثانية)، عاد بعد الوعظ والإرشاد إلىٰ السياق في بيان الأحكام التي هي من البر، وذلك مِن هذه الآية إلىٰ قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ .... ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وابتدأ ببيان كيفيَّة إنفاق الأموال، مراعاةً لِلُطْفِ المَسْلك، لأنَّ الإنفاق هو الركن المهم في الثبات تجاه المقاومين ودفاعهم، وفي تخفيف البأساء والضراء عن البائسين من جرَّائهم، فقال: ﴿ يَسْأَلُونَكَ[1] مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ

(١) وهناك وجه آخر لربط آية ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾، لما كان من أساليب القرآن العودة علىٰ الموضوع =

﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ وهم الذين لا يفي كَسْبُهم بحاجتهم، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المتشرِّد في الطرقات من أرباب العاهات أو المسافر المحتاج للنفقات.

وفي الكلام احتباكٌ يُفْهَم من الجواب، إذ يدلُّ علىٰ أنَّ السؤال كان مُركَّباً من فرعين: أفضل ما يُنفَقُ وأفضل مَنْ يُنفَقُ عليه، واختصر السؤال اكتفاءً بما في الجواب، علىٰ نهج القرآن في الإيجاز، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

والخير: المال الذي يُغني أو يسدُّ الحِوَج. ويجوز أن يكون بياناً للمال الذي يحقُّ أن ينفق منه، وهو الكثير. أما قوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ فأراد به مُطلَقَ الإحسان، بدلالة النهج والأسلوب.

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ تشويقٌ وحَمْلٌ علىٰ العمل بذلك.

ثم تابع السياق في سَرْد الأحكام، وخصَّ بالذكر هاهنا مشروعيَّة القتال، مراعاةً لِلُطف الـمَسْلَك في وجوب مقاومة المعارضين، وجمعاً بين بذل المال وبذل النفس في سبيل الله وتقريراً لآية ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾.

قال في «المنار» بعد أن نقل ما قاله المفسِّرون والأستاذ الإمام في وجه الكُره، قال: وثمَّ وجه آخر، وهو أنَّ كُرهَهُم للقتال لم يكن خوفاً علىٰ أنفسهم أن يبيدوا، ولا علىٰ الحقِّ الذي حملوه أن يضيع ـ كما ذكر ذلك الأستاذ الإمام ـ وإنما هو حبُّ السلامة والرحمة بالناس، التي أودعها القرآن في نفوسهم، وثبَّتها الإيمانُ في قلوبهم، واختيار مُصَابـَرة

= لتقريره، أو لشرح ناحية أخرىٰ من نواحيه، عاد إلىٰ موضوع الإنفاق في آية ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وذكر أفضل ما ينفق وأفضل من ينفق عليهم، ورغَّب في ذلك. وكذلك الحال في آية القتال الآتية. (المؤلف).

الكفار ومجادَلتِهم بالدليل والبرهان، دون مجالَدتِهم بالسيف والسِّنان، رجاءَ أن يدخلوا في السِّلم كافَّة ويتركوا خطوات الشيطان[1]. هذا هو وَجْه نظرهم في كراهية القتال، ولكن حكم الأشياء ونتائجها ومُعمَّياتُها خَفِيَتْ عليهم، كما قال تعالىٰ لهم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾، فقياسُكم جميعَ الكافرين علىٰ أنفسكم وتوقُّعُكم أن يزيِّن لهم من الإيمان ما زُيِّن لكم، هو من الأَقْيِسَة الباطلة، فإنَّ الاستعداد في النفوس يتفاوت تفاوتاً عظيماً، بتفاوت تربيته وتنميته، فمنهم مَنْ ساءت خليقته بتحريفه لها، وأحاطت به خطيئـته، حتىٰ لم يَبْق لروح الحق مَنفَـذٌ إلىٰ عقله، ولا لحبِّ الخير طريقٌ إلىٰ قلبه، فلا تنفع فيه الدعوة، ولا تُرجىٰ له الهداية. ومثل هذا الفريق في الأمة كمثل الدم الفاسد في الجسم، فإنه إذا لم يخرج يفسده، فلم يأمر الله سبحانه بقتالهم إلا رحمة بمجموع الأمة أن تفسد بهم. وأنتم ـ أيها المؤمنون ـ لا تعلمون كُنْه استعداد الناس، ولا ما يكون من أثره في مستقبلهم، وإنَّما الله هو الذي يعلم ذلك، فامتثلوا أمره.

وبالإجمال، إنه تعالىٰ أورَدَ العبارة علىٰ صورة بليغة تُهوِّن أمرَ القتال علىٰ النفوس، بأسلوب إيجاز القرآن وبلاغة تراكيبه في تقرير نظرياته العامَّة، مُؤْذناً أن ذلك مَبْنيٌّ علىٰ علم الله العظيم وحكمته البالغة.

ومن حكمة الجهاد ما قالوا: إن النفوس الإنسانيَّـة كالأجسام؛ تَعرِضُ لـها الأمراض، وتعطِّلها عمَّا خُلقت له، وتتعاصىٰ فيها حتىٰ لا يصلح معها الإرشاد والتقويم بالموعظة والكلام، وحينئذ لا يسهل تحويلها من الشر إلىٰ الخير، بل تحتاج إلىٰ داع قويٍّ بقهره، قويٍّ ببصره، قويٍّ بحُجتِّه، فيه من المناعة الخلقية ما يتقوىٰ به علىٰ احتمال ما يُرمَىٰ به ممّا يستفزُّ الحليم ويستنفد صبر الكريم، ويعجب له الرجل العادي.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٢٤٩).

وهكذا كان حاله ﷺ مع قريش وسائر المعاندين؛ صَدْعٌ بالحق بأمر الله وصبرٌ عليهم، فلما لم تنفعهم المواعظ وحدها، وعارضوا الدعوة معارضةً قويَّة، واشتطُّوا في ذلك، فرض الله عليه قتالهم، فقام بذلك حتىٰ رضي الحقّ وانتصر علىٰ الباطل. فلم يكن السيف في يده إلا مشرط الجرّاح يَبتُرُ به ما فسد من الأعضاء. فسار ﷺ علىٰ هذه السنَّة الكونيَّة، ولم يقتصر علىٰ الحُجَّة والبرهان في المواضع التي لا تنفع فيها الحُجَّة ولا يقنع البرهان، وذلك بأمرٍ من الله العليم الحكيم، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

ويؤيِّد هذا ما جاء عنه ﷺ أنه بعد أن غلب المشركين وأوقع بهم في بدر، كان يمرُّ بعد انتهاء المعركة بين قتلاهم، ويكرر قوله: «نُفَلِّقُ هاماً». فيتمُّ أبو بكر البيت، ويقول:

...... مـــن رجـــالٍ أعـــزةٍ   علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما[1]

وفيه دليل علىٰ أَلَـمِه ﷺ من الضرورة التي ألجأته إلىٰ قتل صناديد قريش الذين قاوموا دعوته أشدَّ المقاومة، وأخرجوه من بلده، ثم تبعوهم إلىٰ دار هجرتهم يقاتلونهم فيها ليبيدوهم.

ثم أكمل هذا البيان بإعادة بيان حكمة إباحة القتال في الشهر الحرام وفي البلد الحرام، وبيان العذر في ذلك، إشباعاً للكلام في هذا البحث الذي أثار فيه المشركون ضجة تهويشيَّة زاعمين أنه خَرْقٌ لتقليد مقدَّس، وهو هُدْنةُ الأشهر الحرم، فأعاد البحث عن ذلك بعد أن قطعه دفعاً للسأم من طول البحث وتنشيطاً للذهن، علىٰ نهج القرآن

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤: ٢٥)، والبيت نسبه ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» (٢: ٦٣٤) للحصين بن الحمام. والحصين هو المرّيّ الذبياني، أبو يزيد (... نحو ١٠ ق هـ) شاعر فارس جاهلي، وكان سيد بني سهم بن مرة، له ديوان شعر.

في العودة، (كما جاء في الفقرة (و) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ بمعنىٰ: أنَّ القتال فيه مستنكر جداً، ﴿وَ﴾ لكن ﴿صَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الطريق الموصل إليه، ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: بالله سبحانه، ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: وصدٌّ عن المسجد الحرام، وهو مَنْع المؤمنين من الحجِّ والاعتمار كما في يوم الحديبية، ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ وهم النبيُّ ﷺ والمهاجرون، كل ذلك ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: من القتال في الشهر الحرام ومُبرِّر له.

ويُؤْخذ من هذه الآية أنَّ من سنَّةِ الإسلام ارتكابَ أخفِّ الضررين، ودَفْعَ الضرر الأشدّ بالضرر الأخف. وعلىٰ هذين المبدأين أباح الدينُ أكلَ الميتة وبقيَّة محرَّمات المأكولات عند الاضطرار، إبقاءً علىٰ الحياة.

ثم صرَّح بالعلَّة العامة لمشروعيَّة القتال، وهي فتنة الناس عن دينهم، فقال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: إنَّما يريد المشركون أن يفتنوكم عن هذا النور الذي أنزله الله عليكم، ويردُّوكم إلىٰ دينهم إن استطاعوا، وهذا العملُ إجرامٌ كبير أشدُّ من إجرام القتال في الشهر الحرام بكثير. ودفعُ الضرر الأشدِّ بالضرر الأخفِّ سنةٌ صحيحة وشريعةٌ مستقيمة. وكان المشركون يفتنون المؤمنين عن دينهم بالإيذاء والتعذيب، كما فعلوا بعمار بن ياسر وعشيرته، وصهيب وخباب، وغيرهم.

حكىٰ خباب رضِيَ الله عنه قال: لقد رأيتُني يوماً وقد أُوقد لي نارٌ وضعوها علىٰ ظهري، فما أطفأها إلا ودك ظهري[1]، أي: دهنه. فهذا نموذج من فتنة المشركين لضعفاء المسلمين. أفلا يستحقُّون المقاتلة، دفاعاً لهم، ولو في الأشهر الحرم؟

ثم ذكر ما يضمره لهم المشركون وحذَّرهم العاقبة، فقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١ : ١٤٤).

حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾، فبيّن سبحانه وتعالىٰ للمسلمين ما صمَّم عليه المشركون تجاههم، وحذَّرهم من الارتداد مهما بلغ بهم الحالُ من عداء المشركين الشديد لهم. أما حبوط الأعمال، فلأنَّ العمل الصالح إنما ينفع بحُسْن أثره في النفس، ونفوسُ الكفار يوغِلُ فيها الفساد فتفقد الاستعداد لذلك الأثر، فيسلمهم هذا الحال إلىٰ عذاب النار. أعاذنا الله. وكذلك الأعمال الصالحة إذا لم يكن معها عقيدة صحيحة لا يكون لها أثر صالح في النفوس.

والإشارة بلفظ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إلىٰ ﴿مَن﴾، باعتبار المعنىٰ، وهو صنف المرتدين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم رغّب المؤمنين بالثبات تجاه هؤلاء المقاتلين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ وبهذا الرجاء يَسْتَبْسِلون في مقاتلة هؤلاء الكفرة المعارضين، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ يغفر لهم ما عَسَاه يفرط منهم، ويتغمَّدهم برحمته ورضوانه.

وفي الآية إيماءٌ لما ينال المشركين والمرتدين من عكس ذلك، علىٰ نهج القرآن في الاكتفاء والإيجاز والإيماء. وإنما كرَّر الموصول مع أنَّ المراد بهما صنف واحد، لتفخيم شأن الهجرة والجهاد، فكأنه مُستقل في تحقيق الرجاء.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن

تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

ثم تابع السياق في سَرْد الأحكام، وخصَّ المجتمع والعائلة حتىٰ انتهىٰ إلىٰ آية (٢٤٣): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ ...﴾، وذكر حكم الخمر والميسر اللذين اتَّبع فيهما الكفار والمشركون خطوات الشيطان، مُلمِعاً إلىٰ أنَّ من البرِّ تركَهُما، فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾؛ لأنَّ مضرَّتهما كبيرة في البدن والنفس والعقل والمال، وكذلك في التَّصافي وارتباط الناس بعضهم ببعض، ولا إثم إلا فيما كان ضاراً[1]، ولا يوجد إثم من الآثام يدخل ضرره في كثير من الأشياء مثل الخمر والميسر الذي هو أكل لأموال الناس بالباطل، وقعود عن الأعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية كالتجارة والزراعة والصناعة وغيرها. وبالإجمال، إنَّ التجارب العلميَّة والمشاهدات الاجتماعيَّة التي أيَّدتها الإحصاءات، متظافرة متضامنة علىٰ إثبات فداحة مضار الخمر والميسر في الأمة والأسرة والأفراد.

﴿وَ﴾ فيهما ﴿مَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ ضئيلة، وأهم منافع الخمر: بعض المعالجات الخارجية، كتطهير الجروح والقروح، وأهم منافع الميسر: استفادة الفقراء من مَيْسر الجاهلية إذ كانوا يتعاطونه علىٰ جزور تُفرَّق للفقراء، ويدفع ثمنها الخاسرون. هذا نفع الخمر والميسر، وذاك ضررهما.

﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[2] مادياً واجتماعياً وأخلاقياً وطبياً. وهذا إرشاد

---

(١) لكن قد يخفىٰ ضرره، ولذا لم يُعلَّق الإثم في النصوص الشرعية علىٰ الضرر، وإنما عُلِّق علىٰ مخالفة الأمر وارتكاب النهي.

(٢) الخمر أساس الشرور وأصل البلايا وسبب الدمار، تَضرُّ بالإنسان جسماً وعقلاً، إذ تفسد العقل =

إلىٰ مَدْرك علَّة التحريم. ويؤذن بأنَّ مدار التحريم في المحرَّمات علىٰ أن يَغْلِبَ الضررُ منها ما فيها من النفع. فكلُّ ما كان كذلك فهو حرام.

ومن هذا الإرشاد تقرَّرت القاعدتان في الإسلام، قاعدة: دَرْءُ المفاسد مقدَّمٌ علىٰ جلب المصالح، وقاعدة: ارتكاب أخف الضررين.

أما قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ فقد جاء علىٰ سُنَّة القرآن في بيان بعض الأحكام بصورة السؤال والجواب، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية)، ولا يلزم منه وقوع السؤال فعلاً(١).

وبعد أن ذكر حكم ما يُستهلك المال في سبيل الإثم والضرر، أردفه بحكم ما يُنفق منه في سبيل الخير والنفع والأجر، ووجوب الاقتصاد فيه، جمعاً بين المتضادَّين، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، إذ الضدُّ يُظهِرُ حُسْـنَه الضِّدُّ، وعَوْداً إلىٰ بحث الإنفاق، وتتميماً له، أرجأه ليرتبط بمنع الميسر الذي كان فيه بعض النفع للفقراء، إيمـاءً إلىٰ أنَّ في الإنفاق البريء عوضاً عنه، وبياناً إلىٰ أنَّ الإنفاق يكون في هذا السبيل، لا في ذاك

= وأحكامه، وتمحُو الذاكرة، وتقلِّل التفكير، وتشوشه، وتُسبِّب اختلالاً في جهاز التنفس، وتضعف القلب، وتلهب الكليتين، وتخرب ألياف الكبد، وتمزِّق العصارات والغشاء في الجهاز الهضمي، وتخرش النسيج العصبي، حتىٰ قال غلادستون: فتـك الخمرة بالناس أشد من فتك الطاعون والحرب والمجاعات، لو كانوا يعلمون. وأما الميسر والقمار واليانصيب، فأقل ما فيه أنه استفادة شخص بأضرار ألوف من الناس. والكاسب يحصل علىٰ المال لا في مقابلة عوض، والخاسر يخسر ماله ويدفعه تغريراً واعتباطاً. والشريعة الغرَّاء تأبىٰ أمثال هذه المعاملات الفاسدة بين الناس. والميسر مَتْلفة للمال، مَضْيَعة للثروات، مَفْسدة للمروءات، خراب للديار، فلا شيء أضرُّ في مثل ذلك من القمار. (المؤلف).

(١) هذا بعيد، بل الظاهر وقوع السؤال فعلاً، ولا مانع منه، فلِمَ العدولُ عنه إذن؟

السبيل، وعلىٰ هذه الصورة لا علىٰ تلك الصورة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾، وإنما أتىٰ بالعاطف للإيذان باتِّصاله بما قبله، وهكذا ما يأتي بعده من الأسئلة.

قال الواحدي: أصل «العَفْوِ» في اللغة: الزيادة، قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: ٩٥]، أي: زادوا علىٰ ما كانوا عليه قبلُ من العدد(١). وقال القفَّال: العفو: ما سهُل وتيسَّر، ومنه: عَفَوْت عنه، أي: تَسَاهلت وتيسَّرت. ففي المادة معنىٰ التخفيف. فالمراد من العفو في الآية: ما سَهُل وخَفَّ. وهو بعينه معنىٰ الفضل الذي لا يضر بالمنفق. وإنما أورده بهذه العبارة المطلقة البليغة، ليُقدِّره كل قومٍ أو فرد في كلِّ عصر بحسب ما يليق بحالهم؛ لأنه خطاب عام ليس خاصاً بحال الناس في زمن البعثة، وإنما يتناول حالهم في سائر الأوضاع والأزمان.

وقد قال ﷺ: «خير الصدقة ما أبقت غنىٰ»(٢)، وعنه ﷺ: «طوبىٰ لـمن أنفق الفَضْلَ من ماله»(٣)، وعن جابر بن عبد الله قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل بمثل البيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله، خذها صدقة، فوالله لا أملك غيرها، فأعرض عنه، ثم أتاه من بين يديه، فقال ﷺ: «هاتها» مغضباً، فأخذها منه، ثم حذفه بها، بحيث لو أصابته لأوجعته. ثم قال: «يأتيني أحدكم بماله لا يملك غيره، ثم يجلس يتكفَّف الناس، إنما الصدقة عن ظَهْرِ غِنىٰ، خذها فلا حاجة لنا فيها»(٤).

---

(١) تفسير «الوسيط» للواحدي (١: ٣٢٤).

(٢) رواه أحمد (١٥٥٧٧) عن حكيم بن حزام، بلفظ: «خير الصدقة ـ أو: أفضل الصدقة ـ ما أبقت غنىٰ، واليد العليا خير من اليد السفلىٰ، وابدأ بمن تعول». ورواه مسلم (١٠٣٤) بلفظ: «عن ظهر غنىٰ».

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦٩).

(٤) رواه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٤٧٧١).

ثم ختم سبحانه وتعالىٰ الكلام بعبارة تدلُّ علىٰ الاهتمام بما تقدَّم من الأحكام وغيرها، لِعِظَم أمره في الأحوال الاجتماعيَّة والروحيَّة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: القوليَّة في الأحكام الشرعيَّة، أي: يُبيِّنها علىٰ هذه الصُّورة الواضحة المقرونة بمدرك العلة وواضح البرهان ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى﴾ أمور ﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ لأنَّ هذه الآيات المبيِّنة نظامٌ لهما معاً، تُبيِّن لكم ما ينفعكم فيهما، فتفكَّروا واعتبروا.

وإذا كان السؤال في الآيات واقعياً(١) يكون تعدُّد هذه الأسئلة يدلُّ علىٰ حرصهم لمعرفة ما يرضي الله، وما له أثر صالح في حياتهم، ولا سيما الحياة الشخصيَّة والاجتماعيَّة.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ النكتة في الجَمْع بين السؤال عن الخمر والميسر والسؤال عن الإنفاق في آيةٍ واحدة هي المقارنة بين حالِ فريقين من الناس؛ فريقٍ ينفق المال في سبيل الإثم، وفريقٍ ينفقه في سبيل الله، يزيل به ضرورة إخوانه المساكين، ويرفع به شأن أمته، بما يجعله للمصالح العامة وأعمال الخير(٢).

ثم ذكر حكماً من أحكام أموال اليتامىٰ كان قد أشكل عليهم بعد نزول بعض الآيات فيها، مراعاةً لِلُطْفِ المَسْلَك مع إنفاق العفو وحفظ الاعتدال في الأموال، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

عن ابن عباس رضِيَ الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾

---

(١) وهو الحق الذي لا محيد عنه، وليست الأسئلة افتراضية أو توهمية، كما توهمه المؤلف، غفر الله له.

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٢٦٩).

[النساء: ١٠]، انطلق مَنْ كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه، فيحبس له حتىٰ يأكله أو يفسد، فاشتدَّ ذلك عليهم، فذكروه لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية[1] بهذا الحكم: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾[2]، فأزالت شبهة المتأثمين. والمعنىٰ: إن القيام عليهم لإصلاح نفوسهم بالتهذيب والتربية، ولإصلاح أموالهم بالتثمير والتنمية، خير من إهمال شأنهم وتركهم لأنفسهم تفسد أخلاقهم وتضيع أموالهم وحقوقهم.

وقوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ كشفٌ لشبهة المتحرِّجين، ومعنىٰ ذلك: أن لا وجه للتحرُّج من مخالطتهم في المأكل والمشرب والمكسب، فهم إخوانكم في الدين، ومن شأن الإخوة أن يكونُوا خلطاء وشركاء.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ فوضع سبحانه وتعالىٰ للضمير والوجْدان حداً وقاعدةً يرجع إليها في هذا الشأن، وهي مراقبة الله سبحانه وتعالىٰ في ذلك، وهو يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصُّدور.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذه الرخصة والسهولة إنما هي من رحمته في شؤون البشر ورأفته فيهم، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾؛ يبيِّن مزيَّة الشريعة وسهولتها، أي: لأحرجكم وضيَّق عليكم وأوقعكم في العَنَت والمشقَّة، بأن يُكلِّفكم القيام بشؤون اليتامىٰ وتربيتهم وحفظ أموالهم ولا يأذن لكم بمخالطتهم، ولا بأكل لقمةٍ واحدة من طعامهم، ولكنه لسَعَة رحمته ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، و﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

---

(١) رواه أحمد (٣٠٠٠)، والطبري في «تفسيره» (٤: ٣٥٠).

(٢) جاء هذا في السور المكية، كسورة الضحىٰ والماعون وغيرهما، المبالغة في العناية باليتيم والنهي عن قربان ماله إلا بالتي هي أحسن. (المؤلف).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعارضه شيء، ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ يفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة العامة[1].

وقد تضمَّنت الآية بيان منَّة الله تعالىٰ علىٰ الناس في تشريعه الحكيم.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

ثم تابع السياق في سَرْد الأحكام التي هي من البرِّ المطلوب إيجاباً أو سلباً، وذكر حكم نكاح المشركات والمشركين، مُراعاةً للطف المسْلك في النهي عن المضار العامة كالخمر والميسر، ناهياً عن مصاهرتهم حذراً من مضرَّتهم في عدوانهم والاقتباس من أحوالهم وشؤونهم، فقال: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، ثم بالغ بالحَمْل علىٰ الانزجار، مُصَدِّراً الجملة بلام الابتداء، فقال: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ مع ما لها من شرف الحرية ورفعة الشأن، بل ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ لمالها وجمالها. و«لو» هذه لاستقصاء الأحوال علىٰ وجه الإجمال، وتدخل علىٰ أبعد الأحوال ليكون ما عداه داخلاً بالأَوْلىٰ.

وبعد أن نهىٰ عن نكاح المشركات بهذه الصورة المؤكدة، نهىٰ عن إنكاح المؤمنات للمشركين، فقال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تزوِّجوا منهم المؤمنات ﴿حَتَّىٰ

---

(١) تقدم التعليق علىٰ مثل هذه العبارة (٢: ٣٧٢).

يُؤۡمِنُواْۚ﴾، ثم بالغ في النهي بقوله: ﴿وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ﴾ حُرٍّ ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ﴾.

ثم عَلَّل النهي بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المشركات والمشركون ﴿يَدۡعُونَ﴾ مَنْ يقارنهم ويعاشرهم ﴿إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ أي: إلىٰ ما يُؤدِّي إليها من الكفر والفسوق، لأنَّ الزواج أقوىٰ مُقْتض للتسامح في شؤون كثيرة تؤدي إلىٰ الوقوع في المهالك والضلال، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ أي: بواسطة عباده المؤمنين؛ مَنْ يقارنهم ﴿إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ أي: بتيسيره وتوفيقه، ﴿وَ﴾ هكذا ﴿يُبَيِّنُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ مقرونةً بالحُجج والبيِّنات ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾ حكمة الأحكام.

ثم تابع سَرْد الأحكام، وذكر حكم المحيض من أحكام المضارِّ العامَّة؛ مراعياً لطف المسلك في سبق ذكر النكاح، فإنه ملائِم له، لاسيما إذا كان المشركون يبالغون منه في عزلة النساء كاليهود، فقال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى[1] فَٱعۡتَزِلُواْ

(١) قال بعض الأطباء ما مختصره: الأذىٰ في هذه الآية عام يشمل معنيين: الأول: الإيذاء والضرر. والثاني: القذر المهجوج. والوطء أثناء الحيض فيه هذان النوعان من الأذىٰ، لكلٍّ من المرأة والرجل، إذ يتسبَّب عنه في المرأة زيادة احتقان في جهاز التناسل وإرهاق عصبي، فضلاً عن أن رغبتها للمباشرة الجنسية تكون حينئذ معرضة خاملة، فتكره الرجل، وليس الأذىٰ الذي يلحق بالرجل من جراء هذا الوطء بأقل منه في المرأة، إذ قد يصاب بالتهاب صديدي في مجرىٰ البول، بانتقال بعض جراثيم الحيض إليه، فضْلاً عما قد يحدث له من الشعور العميق بالاشمئزاز الذي قد يسبِّب له عقدة نفسية تؤثِّر علىٰ قواه الجنسيَّة، أو كراهيةً لزوجته وإعراضاً عنها.
وقد روي أن اليهود والمجوس كانوا يبالغون في التباعد عن الحائض، والنصارىٰ يجامعونها ولا يبالون بالحيض، وإن أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها في بيت، أشد من فعل اليهود والمجوس، لهذا توجَّه بعض المسلمين بالسؤال من النبي ﷺ عمَّا يحل لهم وما يحرم عليهم في مخالطة الحائض، فنزلت الآية، وقصرت المنع علىٰ الوطء فقط، والاستمتاع فيما بين السرَّة والركبة. (المؤلف).

ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِۖ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ﴾ لأنه أذىً منهنَّ وعليهنّ ﴿حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾[١] ﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ﴾ أي: بالغُسْل أيضاً فوق طهارتهنَّ بانقطاع المحيض، ﴿فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ وهو مَوْضع النَّسل الذي كوَّن الله تعالىٰ الفطرة عليه، ثم أكَّد هذا المعنىٰ بمضمون قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾، فإنه يتضمَّن النهيَ عن غير ذلك بحكم مدلول المخالفة.

ثم قرَّر المعنىٰ بقوله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ فعقد المشابهة بين الاستيلاد والاستنبات، وهذا يتضمَّنُ النهيَ عن إتيانهنَّ في غير المأتىٰ الذي يتحقَّق به معنىٰ الحَرْث والاستيلاد، فوق ما تضمنَّه قوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾. وقوله: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾[٢] ترخيصٌ بالكيفيَّة في الموضع المخصوص للحَرْث والاستيلاد. ولذلك أعاد لفظ «الحرث» مظهراً. ويؤيد هذا ترغيبه وترهيبه سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾، فهذا إنذارٌ للَّذين يخالفون عن أمره، وتبشيرٌ للذين يقفون عند حدوده ويتَّبعون هَدْيَه، ولا أنفع للإنسان في مستقبله الأخروي من الولد الصالح.

---

(١) بيَّن رسول الله ﷺ نوع الاعتزال بأنه الامتناع عن الوطء فقط لا غير، فقد جاء عن عائشة رضِيَ الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يأمرني فأتَّزر، فيباشرني وأنا حائض». متفق عليه [رواه البخاري (٣٠٢) ومسلم (٢٩٣)].

يريد ﷺ بهذا الفعل بيان خطأ اليهود ومعارضتهم، فإنهم كانوا يعتزلون الحائض اعتزالاً تاماً لا يؤاكلونهنَ ولا يشاربونهنّ، وربما لا يجلسون معهنّ حتىٰ يطهرن، فأراد ﷺ أن يبيِّن لنا المراد من الاعتزال في هذه الآية، وأنه لا يتجاوز حرمة الوطء فقط. (المؤلف).

(٢) يجوز أن تكون ﴿أَنَّىٰ﴾ هنا بمعنىٰ: متىٰ، فتكون ترخيصاً بالزمن المطلق، ما لم يكن هناك مانع شرعي كالحيض والصيام. (المؤلف).

أقول: وفي عطف ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ علىٰ قوله: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ بلاغةٌ عالية من بلاغات القرآن، إذ فيه إيماءٌ إلىٰ أنْ لا يجعلوا كلَّ همِّهم في هذهِ الملاذِّ، بل يهتمُّون بأمر أُخْراهم.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

وبعد أن نهىٰ عن أمرٍ متعلِّق بالطبيعة نهىٰ عن أمر متعلِّق بالاجتماع يضرُّ بالبر المطلوب، وهو اليمين التي تكون عُرْضَة دون عمل خير يقدَّم للنفس أو للغير، بأن يحلف أن لا يُحْسِن إلىٰ فقير مُعيَّن، أو أن لا يشارك في جمعية تقوم بعمل نوع من البر أو الإصلاح، إلىٰ أمثال ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾، والعُرْضة: لها معانٍ، أظهرُها هنا: أن تكون بمعنىٰ المانع المعترض دون شيء، أي: لا تجعلوا الحَلِفَ بالله تعالىٰ مانعاً بينكم وبين عمل من أعمال الخير، بأن تحلفوا علىٰ ترككم ﴿أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، فهذا أمر مخالف للبر، فاللهُ سبحانه لا يرضىٰ أن يكون اسمه حجاباً دون الخير ومانعاً له، فكثيراً ما يُسْرِع الإنسان إلىٰ الحَلِف بألا يفعل كذا وهو خير، وأن يفعل كذا وهو شر، فنهانا الله سبحانه عن ذلك، لأن فيه التباطؤ عن تقديم الخير، وفيه جَعْلُ القسم بالله مانعاً من هذا التقديم.

ثم ختم السياق بما يحمل علىٰ التمسُّك بما ذكر فيه، والانزجار عمَّا تضمنه هذا النهي، فقال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ أي: لا تخفىٰ عليه من أمركم خافية. وعبَّر بالأيمان عن الخير المحلوف عليه بطريقة المجاز المرسل، كما قال عليه السلام في حكم هذا الآية: «إذا حلفت علىٰ يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فَأْتِ الذي هو خير، وكفِّر

عن يمينك»[١]، فقوله: «حلفت علىٰ يمين» فيه التعبير باليمين عن المحلوف عليه، وذلك من خصائص اللغة، (كما جاء في المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

ويجوز أن يكون المعنىٰ: ولا تجعلوا لفظة الجلالة معرَّضة للحلف بها علىٰ ذلك، ولما كان بعض هذه الأيمان تجري علىٰ لسانهم بحكم العادة من دون قصد، ذكر حكم اللغو من الأيمان، تتميماً للبحث، فبيّن تعالىٰ أنَّ اليمين لا ينعقد إلا إذا كان عن قَصْد وتصميم، فقال: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[٢]، واليمين اللغو: هو الذي لا يُرادُ به التوثيق، وذلك ما يقع في الكلام حَشْواً غير مقصود، فلا يُؤَاخذكم الله تعالىٰ عليه بوجوب الكفارة، ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم﴾، أي: تلزمكم الكفارة ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، وذلك إذا نويتَ الحلف وقَصَدت اليمين.

ثم ذكر علّة السماح بلغو اليمين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ أي: يُسامح بما لم تتقصد القلوب من مظاهر الذنوب.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

وتكميلاً للبحث عن أحكام الأيمان ذكر أيضاً حكم الإيلاء الذي كان في الجاهلية

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢)، عن عبد الرحمن بن سمرة.

(٢) اختلفوا فيما هو اللغو؛ فذهب مالك وأبو حنيفة إلىٰ أنها اليمين علىٰ الشيء يظنُّ الرجل أنه علىٰ يقين منه، فيخرج الشيء علىٰ خلاف ما حلف عليه. وهذا مرويٌّ عن الحسن وقتادة ومجاهد.
وقال الشافعي: لغو اليمين: ما لم تنعقد عليه النيَّة، مثل ما جَرَت به العادة من قول الرجل في أثناء المخاطبة: لا والله، بلىٰ والله. وهذا القول مرويٌّ عن عائشة رضِيَ الله عنها.
وقيل: هو الحلف علىٰ المعصية، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس رضِيَ الله عنهما. والله أعلم. (المؤلف).

ممَّا يجعل فيه اليمين عرضة للإحسان في عشرة النساء، متَّبعين خطوات الشيطان في ذلك؛ لأنه أمر مخالف للبر، فقال: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾، والإيلاء: هو أن يحلف الرجل لا يقرب زوجتَه. ويقع ذلك عند المغاضبة والغيظ، والحلفُ عليه حلفٌ علىٰ ما لا يرضىٰ الله تعالىٰ به؛ لـما فيه من ترك التوادِّ والتراحم وحُسْن العشرة الواجبة بين الزوجين، وما يترتَّب علىٰ ذلك من المفاسد في نفسيهما وفي عيالهما، ولذلك أنزل الله فيه هذا الحكم، وهو انـتظارُهم مدَّة أربعة أشهر لا أكثر، ﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي: رجعوا إلىٰ نسائهم؛ بأن حنـثوا في اليمين وكفَّروا عنه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ أي: فيغفر لهم، لأنَّ الفيئة توبةٌ في حقِّهم.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من حلف علىٰ يمين قطيعة رحم أو معصية، فبرُّه أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه»(١).

﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ أي: فليراقبوه ولا يجعلوا ذلك إيذاءً ومُضَارَّة، بل يقيمون فيه حدود الله، ويجعلونه كما أمر الله.

وخلاصة الحكم: أن الـمُؤْلي ينتظر مدَّة لا تزيد علىٰ أربعة أشهر، فإما أن يرجع عن إيلائه ويكفِّر عن يمينه، وإما أن يُطلِّق زوجته طلاقاً شرعياً بدون مضرَّة.

والإيلاءُ من عادات الجاهلية الأثيمة، فقد كان الرجلُ الكارهُ لامرأته لا يحب أن يتزوَّجها غيرُه، فيحلف أن لا يقربها أبداً، ويتركها؛ لا مزوَّجة ولا مطلَّقة، وكان المسلمون في ابتداء الإسلام يفعلون مثل هذا بحسب العادة، فأنزل الله سبحانه هذا الحكم، وأزال الضرر عنهنَّ، فضرب للزوج مدَّة يتروَّىٰ فيها؛ فإن رأىٰ المصلحة في ترك هذه المضارَّة، رجع وحنث في اليمين وكفَّر، وإن رأىٰ المصلحة في المفارقة فارقها،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤: ٤٤٢).

والله سبحانه سميعٌ لأقوالهم عليمٌ بنيَّاتهم، فإن كانوا يريدون بذلك إيذاء النساء ومُضَارتهنَّ فهو يتولَّىٰ عِقابَهم، وإن كان لهم عذر شرعي ـ وهو التربية وإقامة حدود الله في ذلك الإيلاء، أو اليأس من إمكان العشرة في ذلك الطلاق ـ فإن الله غفور رحيم.

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾.

وبمناسبة ذكر الطلاق، ذكر حكم العدة، فقال: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾، والقُرْءُ: الانتقال من الطهر إلىٰ الحيض، لذلك عبَّر به قوم عن الطهر، وقوم عن الحيض. ومعنىٰ ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: يَتَرَيَّثْن وينتظرن، ويكْفُفْن جماح أنفسهن. وفي الكلام من لطف الإشارة والنزاهة في العبارة ما لم يُعهَدْ مثلُه إلا في القرآن.

وأورد الحكم بلفظ الخبر لتأييده والاهتمام به؛ لأنَّ الذهن يتصوَّر أنهنَّ ممتثلات جاريات علىٰ ذلك، وهو من شؤونهن، وهذا من أساليب القرآن في مثل هذا المقام. والغرض من هذا التربُّص: العلمُ ببراءة الرَّحِم من الزوج السابق. والمراد من المطلَّقات هنا: مَنْ تحقَّق فيهنَّ معنىٰ الزوجيَّة، وهُنَّ غير الآيسات والصغيرات اللاتي ذكر حكمهنّ في سورة الطلاق.

ثم بيَّن حكمة هذا التربُّص والتَّريُّث عن الزواج مدَّة ثلاثة قروء في سياق حكم آخر عام، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وهي معرفةُ مرجع الولد، ومهلةُ التفاهم للتراجع وتلافي الندم، فقال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، وفي هذا التعبير تحذيرٌ شديدٌ، وتهديدٌ عظيمٌ عن الكتمان.

ثم أفرد الحكمة الثانية ضمن حكم آخر، وهي الرجعة، فقال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في زمن التربُّص، وهي العدة. وصيغة التفضيل: إما لإفادة أنَّ الرجل إذا أراد الرجعة والمرأة تأباها، وجب إيثار قوله علىٰ قولها، وإما تمكينٌ للردع المستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾؛ لأنَّ ذلك الكتمان للتعجيل بالزواج من الأجنبي، وإلحاق جنينها به. فصيغة التفضيل للتنديد والتأنيب عن ذلك. والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ﴾ خطابٌ وتكليفٌ عام للأمة، باعتبار تكافلها ومسؤوليتها عن الإصلاح، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. ويجوز أن يكون الضمير للبعولة، فيكون الكلام حينئذ قيداً للأحقيَّة. والمعنىٰ: هم أحقُّ بالرد إن لم يُمْسِكُوهنَّ ضراراً ليعتدوا. أما إذا أراد من المراجعة أن لا تتزوَّج بغيره، فلا حقَّ له. وقيل: إنه ليس بشرط للصحة، ولكنه حثٌّ علىٰ الإصلاح، وزَجْر عن قصد الضَّرر، أُخرِجَ مَخْرَجَ الشرط، للمبالغة في ذلك.

ففي هذه الآية حكمةٌ أخرىٰ للعدَّة، وهي إمكان المراجعة وتلافي الندم. وهذا لطفٌ كبير من الله سبحانه وتعالىٰ، وحرصٌ من الشارع علىٰ بقاء العصمة الأولىٰ، وعلىٰ مصلحة الزوجين والأولاد.

ولما كانت إرادة الإصلاح بردِّ المرأة إلىٰ العصمة إنما تؤتي ثمرتها إذا قام كلٌّ منهما بالحقوق الواجبة عليه، ذكر ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بحسب العُرْف والعادة، فأحال حقوق كلٍّ من الزوجين علىٰ الآخر إلىٰ العرف والعادة؛ لأنها تختلف باختلافها. وهذه كلمة جليلة جمعت ـ علىٰ إيجازها ـ ما لا يؤدَّىٰ بالتفصيل إلا في بحث طويل، فهي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساويةٌ للرجل في جميع الحقوق إلا أمراً واحداً ذكره بقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[1]، وهي درجة الرياسة البيتيَّة المفسَّرة بقوله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ...﴾ [النساء: ٣٤]، فارجع إليه.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ للترهيب والإيماء إلىٰ ما في هذه الأحكام السابقة من الحكم، وللحَمْل علىٰ التمسُّك بتلك الأحكام.

قال الأستاذ الإمام: وهذه المنزلة التي رفع النساء إليها لم يرفعهنَّ إليها دينٌ سابقٌ، ولا شريعة من الشرائع، بل لم تصل إليها أمة من الأمم قبل الإسلام[2].

---

(١) المرأة في الإسلام قسيمة الرجل، لها من الحقوق ما له، وعليها ما عليه، ولا فضل إلا أن يقوم الرجل بما له من قوَّة الجلد وبسطة اليد واتِّساع الحيلة فيلي رياستها، فهو بذلك وليها، يحيطها بقوته ويذود عنها بدمه، وينفق عليها من كسب يده. فأما فيما سوىٰ ذلك، فهما في السرَّاء والضرَّاء علىٰ سواء. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٢٩٨).

ومن جملة تلك الحقوق: توزيع الأعمال بين الزوجين، فعلىٰ المرأة تدبير المنزل، وعلىٰ الرجل السَّعيُ والكسب. ولا ينافي ذلك استعانة كلٍّ منهما بالخدم والأُجراء إذا كانت هناك حاجة وضرورة.

وبعد أن ذكر الطلاق بصورة مُجملة في قوله: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ... ﴾، فصَّله وجَعَل ذلك التفصيل كالبيان لأحقيَّة البعولة بالرد، فقال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ أي: مرَّةً بعد مرَّةٍ، وفي كلِّ مرة تجربةٌ لفراق مُؤَقَّت مع بقاء الفرصة لإرجاع العلاقات الزوجيَّة.

ومن حكمة الإسلام وتمام ملاءمته للسنن الاجتماعية: عَدَمُ تحريم الطلاق بتاتاً؛ لأنه ليس شراً علىٰ الإطلاق، بل هناك ضرورات تقتضيه، وقد أمر سبحانه وتعالىٰ بإجراء التحكيم قبل الطلاق، قال تعالىٰ في سورة النساء: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ .... ﴾ [النساء: ٣٥]، وجاء في الحديث: «أبغض الحلال إلىٰ الله الطلاق»[1]، فدلَّ علىٰ أنَّ الطلاق لا يحسن إلا عند ضرورة تقتضيه لأنه هدم للعائلة.

ومن حكمة الله سبحانه وتعالىٰ: أن جعله مرَّةً بعد مرّة، ليكون للزوج وقتٌ كافٍ وفرصةٌ سانحة للتروِّي والرجوع وتلافي الندم، إن كان الأمر صادراً عن غضب، ولتكون فرصةً كافية للصلح والتفاهم بين الزوجين، إن كان سوء التفاهم هو الباعث علىٰ الطلاق.

وبعد تَبْيِنكَ المرَّتين: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: ليس لكم بعد

---

(١) رواه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨)، عن ابن عمر. وقال الحافظ في «فتح الباري» (٩: ٣٥٦): وأعل بالإرسال.

المرتين إلا أحد أمرين: إما إمساك بمعروف، أي: بحُسْن عشرة ولُطْف معاملة، أو تَسْريحٌ وفراقٌ بإحسان إليها واتِّـقاء إهانتها والإساءة إليها. وذلك بصورة الطلاق السُّنِّي، وأن لا يذكرها بسوء بعد مفارقتها، ولا يُنفِّر الناس منها، وأن يؤدي لها حقوقها المالية: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾، ويدخل في ذلك الـمهر وغيره مما يعطيه الرجل امرأته علىٰ سبيل التمليك، فلا يحلُّ أن يأخذ منه شيئاً، بل يجب أن يمتِّعها بشيءٍ من ماله، وهو من الإحسان المقرَّر في الآية والمصرَّح به في قوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

ومحلُّ هذا الحكم: إذا كان الزوج هو الذي اختار فراق المرأة ورغب عنها، أما إذا كانت هي الراغبة عنه الطالبة لفراقه، وخيف أن تتوسَّل إليه بالنشوز وسوء العشرة، لكراهتها إيَّاه، أو لسوء خلقها، لا لمضارَّته لها، فلا جُناح عليهما حينئذ فيما يأخذه منها لإطلاق سـراحها، إذ لا يكلف خسارة امرأته وماله بغير ذنب، وفي ذلك قال تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: فيما تعطيه إيَّاه ليخلعها.

وقد جاء عن ابن عباس رضِيَ الله عنهما: «أن جميلة بنت عبد الله بن سلول امرأة ثابت بن قيس بن شمـاس، أتت النَّبيَّ ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتبُ عليه في خُلُق ولا دين، ولكن لا أطيقه بُغْضاً، وأكره الكفر في الإسلام ـ تريد: كفر نعمة العشيـر وخيانته، وتعني بالخيانة: إضمـار البغض ـ. قال ﷺ: «أَتَـرُدِّين عليه حديقَـته؟» ـ وكان أمْهَـرَها إيَّاها ـ، قالت: نعم. قال: «اقبَـلْ الحديقةَ وطلِّقها تطليقة»(١).

(١) رواه البخاري (٥٢٧٣).

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «أيُّما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة»(١).

ثم ختم سبحانه وتعالىٰ الآية بوعيدِ مَنْ يخالف هذه الأحكام، فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنَّ الطلاق الرجعي مرتان، وأنه يكون بلا عوض، وقد يكون بعوض؛ بيَّن الطلاق الباتَّ والدرجة النهائية، وجعله تفصيلاً وتوضيحاً لقوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ فقال: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أي: فإن طلَّقها بعد المرتين طلقة ثالثة ـ وهي المراد بقوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ ـ فلا يملك مراجعتها بعد ذلك، إلا إذا تزوَّجت بآخر زواجاً صحيحاً عادياً، وذلك لأنَّ الطلاق الأول ربما جاء من غير رويَّة تامَّة، ولكن الطلاق الثاني لا يكون كذلك؛ لأنه لا يكون إلا بعد الندم والمراجعة، ويكون الاختيار بينهما قد تمَّ، فإنْ هو عاد وطلَّق ثالثة لم يبق هناك مجال للتردُّد بأنَّ وفاقهما غير ممكن، فعلىٰ كلٍّ منهما أن يبحث له عن قرين آخر. أما إذا نكحت زوجاً آخر وتبدَّلت عليها الأزواج والأحوال، فمن الممكن أن يتبدَّل الخُلُق، أو وجهة النظر بهذه الطوارئ.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: الزوج الأول والمرأة ﴿أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ التي أوجب سبحانه مراعاتـها علىٰ الزوجين من الحقوق، لتبدُّل نظر كلٍّ واحد منهما في الآخر بعد هذا العارض.

---

(١) رواه أبو داود (٢٢٢٦)، والترمذي (١١٨٧) وقال: حديث حسن، وأحمد (٢٢٣٧٩)، عن ثوبان.

ثمَّ ختم الآية بالتنويه بشأن هذه الأحكام، فقال: ﴿وَتِلْكَ﴾ أي الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ وهذا التخصيص في البيان، للإيذان بعِظَمِ الحِكَم التي في هذه الأحكام، وأنه لا يعلمها إلا العالمون. وذلك فوق ما فيه من اسْتفزاز الشعور والحثِّ علىٰ التمسُّك بهذه الأحكام الجليلة، فلا يُهملها إلا الجاهل، إذ لا يعلم قيمتها وحكمها.

وعن ابن عباس رضِيَ الله عنهما قال: سئل رسول الله ﷺ عن المُحلِّل فقال: «لا، إلا نكاح رَغْبة، لا دلسة ولا استهزاء بكتاب الله عز وجل»(١).

وعن عمر رضِيَ الله عنه قال: «لا أُوتَىٰ بمُحلِّل ولا مُحلَّل له إلا رجمتهما»(٢).

أقول: وتسميته مُحلِّلاً تسميةٌ لغوية وعادية، لا شرعية. أو من مَجَاز الوصف علىٰ زعم الزاعم، وذلك من خصائص اللغة.

وربما يتبادر إلىٰ الذهن أنَّ التحليل علىٰ هذه الصورة قد وقع في صدر الإسلام، ولذلك جاء الكلام عنه، وهدَّد عمر رضِيَ الله عنه عليه، كلا، لم يقع ذلك، وإنما هو مما يتبادر إلىٰ الذهن، فمنعته الشريعة منعاً باتاً من أول الأمر، وردَّ ﷺ علىٰ هذا السائل الزاعم رداً عنيفاً، وقد ألمعت الشريعة أنَّ الطلاق لا يسوغ إلا بعد الاقتناع التام بأنَّ اجتماع هذين الزوجين أصبح ألماً لا يُطاق، وأنَّ انفصالهما خير لهما ولأطفالهما علىٰ ما به من مصائب وويلات، فهو شر يُدفع به ما هو أشر منه، علىٰ نهج الشريعة الإسلامية في اتِّباع أخف الضررين.

ثم بيَّن تعالىٰ الواجب في معاملة المطلقات، فقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي:

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١: ٢٢٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٧٣٦٣).

طلاقاً رجعياً ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وهو انقضاء زمن العِدَّة، وفي الكلام تجوُّز بالفعل عن مقاربته ومشارفته، (كما جاء في المادة الرابعة من المقدمة السادسة). والمعنىٰ: إذا قاربن الأجل وإتمام العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فاعْزموا أحد الأمرين: إمساك المرأة بالمراجعة، أو إطلاق سبيلها، ويكون رائدكم الإحسان في كليهما، كما مرَّ بيانه فيما سبق.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ أي: ولا تُراجِعُوهنَّ لِتَضُرُّوهُنَّ بتجدُّد عدتهنَّ. وهذه الجملة تأييدٌ وتقريرٌ للإمساك بمعروف وتوضيحٌ لمعناه، وزَجْرٌ عما كانوا يتعاطونه من ذلك علىٰ عادتهم في الجاهلية. ثم توعَّد عليه، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: بتعريضها لسَخط الله.

ثم قرن هذا التوعُّد بوعيد آخر عام، لمن يتعدَّىٰ حدود الله في الأحكام، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾، ولا شكَّ أنَّ الذي يُخالف أمر الله وينقض هذه العهود بعد توثيقها، طلباً لشهوة من شهواته، أو استمساكاً بعادة من عاداته، فهو جدير بأن يعدَّ مستهزئاً بآيات الله، ومن ذلك مُعَاطاة التَّحليل، فقد جاء مَنْعُه والزَّجْر عنه كما تقدَّم، وفي هذا حثٌّ للمسلمين علىٰ احترام صلة الزوجيَّة، والبعد عما كانوا يفعلونه في الجاهلية، من اتِّخاذ هذه الصلة لعبةً بأيدي الشهوات.

وبعد التحذير من التهاون بحقوق النساء بالترهيب، قرَّرها في النفوس بطريقة الترغيب فيها، ببيان المنَّة في هداية الدين التي هي منها، علىٰ نهج القرآن في الترادف، (كما جاء في فقرات المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾.

قال الأستاذ الإمام: نعمةُ الله عليكم: هي إرسالُ هذا الرسول وبيانُ الحدود

والحقوق التي تحفظ لكم الهناء في الدنيا، وتضمن لكم السعادة في الآخرة، فما بعدها من قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم ...﴾، عطفُ تفصيل وتفسير لها. والحكمة: هي سرُّ الكتاب.

ثم قال: وفي النعمة وجه آخر، وهي هذه الرحمة التي جعلها الله بين الرجال والنساء، وامتنَّ بها علينا في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وذهب بعضهم إلىٰ أنَّ النعمة هنا عامَّة، تشمل نِعَم الدنيا والدين(١).

ثم ختم الكلام بما يحمل علىٰ التمسُّك بهذه الأحكام، وأن تُفْعَل بصورة صحيحة سديدة، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ أي: فلا تخفىٰ عليه من أمركم خافية، ويُشرِّع لكم من الأحكام ما هو صالح لكم، بل أنتم في أشدِّ الحاجة إليه.

ثم ذكر حكم المرأة المطلَّقة بعد انقضاء العدة، فقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، والمراد ببلوغ الأجل: هو انقضاء العدَّة؛ بمعناه الحقيقي، لا قُرْبُه كما في الآية السابقة. قال الإمام الشافعي رضِيَ الله عنه: دلَّ سياق الكلامين علىٰ افتراق البلوغين(٢). أي: فيكون المعنىٰ هنا: فإذا انقضت عدتهنَّ، ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ أي: المطلِّقين لهنّ رجعياً، أو المستحدثين الذين يُرِدْنَ نكاحهم. والعَضْل: المنع. أي: لا تمنعوهنَّ من الرجوع إلىٰ أزواجهن، أو التزوُّج بغيرهم ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعاً وعادة، بأن لا يكون هناك شيء يخلُّ بالمروءة والشرف.

ورجَّح الزمخشري في «الكشاف»(٣) أنَّ الخطاب للأُمَّة، واختاره الأستاذ الإمام

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٣١٧).

(٢) انظر «تفسير الرازي» (٦: ٤٥٥).

(٣) (١: ٣٠٦).

فيه وفي أمثاله من خطابات القرآن، لأنَّ الأُمَّة متكافلة في المصالح العامة، والحكمة في هذا الخطاب العام: أن يعلم المسلمون أنه يجب علىٰ مَنْ علم منهم بوقوع المنكر أن ينهىٰ عنه.

ثم أردفه بوعيد من يخالف ذلك، فقال: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، وهذه الآية حَثٌّ علىٰ التمسُّك بتلك الأحكام، وتتضمَّن أنَّ الإيمان الصحيح يقتضي الفعل بموجبه، وأنَّ من لم يعمل ويتَّعظ فليس بمؤمن.

والخطاب في ضمير الإشارة ـ وهو الكاف ـ إما للجمع، وهو سائغ في اللغة، فإنه يستعمل للمفرد والجمع، أو هو للجمع علىٰ تأويل كل واحد واحد، أو للرسول ﷺ مراداً به العموم، علىٰ طريقة خطاب الرئيس مع المرؤوسين، وهي من خصائص اللغة.

وقال البيضاوي: الخطاب للنبيِّ ﷺ للدِّلالة علىٰ أنَّ حقيقة المشار إليه أمرٌ لا يكاد يتصوَّره كل أحد[١].

وقد قيل: إنَّ الكاف المفردة يجوز أن تستعمل في كلِّ خطاب، مفرداً كان أو مثنىٰ أو جمعاً، وهي لغة بعض العرب الفصحاء.

ثم أكَّد الحث ببيان وجه الحكمة الذي هو كالتعليل، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾، لأنَّ عَضْل النساء والتضييق عليهنَّ مدعاةٌ لفساد الأخلاق وشقاء البيوت، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ دقائقَ الأحكام وبالغاتِ الحِكَم.

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ

(١) «تفسير البيضاوي» (١: ١٤٤).

بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾.

ثم انتقل إلىٰ أحكام الرضاعة لأنها من متمِّمات البحث، فقال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ﴾ ومنها المطلقات ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ فبيَّنت الآية تمام المدَّة، ونصَّت علىٰ أنَّ التقدير تحقيقيّ لا تقريبيّ، وأشعرت بالرخصة بدونها، إذا لم يكن هناك حاجة لإتمام الرضاعة، كما سيأتي التصريح به بقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا...﴾.

ثم بيّن نفقة الإرضاع، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ أي: الأب ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾، وفي اختيار التعبير بالوالدات والمولود له دون الأمهات والآباء؛ إشعارٌ بعلَّة الحكم، وبما تقتضيه الولادة من الاستحقاق والاستعطاف، وهي من أنواع بلاغة القرآن في لطف المأخذ ودقَّة الإشارة.

وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ معناه: أنَّ هذا الرزق والكسوة نوعاً ومقداراً، إنما يكون بحسب العُرْف والعادة في أمثالهم، وقد علَّل ذلك بقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، والوسع: ما تتَّسع له القدرة ولا يستغرقها، بخلاف الطاقة فإنها آخر درجات القدرة.

ثم أكمل التَّعليل وتـمَّم الحكم بهذا التفصيل، فقال: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾، وكلمة ﴿تُضَآرَّ﴾ تـحتمل البناء للفاعل والبناء للمفعول، فيحرم أن يتأتّىٰ من أحد الوالدين إضرار بالآخر بسبب الولد، فلا ينبغي أن تمتنع الأم من إرضاعه تعجيزاً للوالد بالتماس الظِّئر، أو تكلِّفه من النفقة فوق وُسْعِه، إلىٰ أمثال ذلك. ولا ينبغي للأب أن يمنع الأم من إرضاع ولدها، وهي له أرأم وبه أرأف، أو

يُضيِّـق عليها في النفقة مع الإرضاع، أو يمنعها من رؤيته بعد تمام الحضانة، إلىٰ أمثال تلك الأوضاع والأحوال، فكلٌّ ذلك يشمله النهي.

ثم ذكر مَنْ يقوم مقام الأب في هذه الأحكام عند فَـقْدِه، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي: عند فَقْد المولود له. وهذا القيد مفهوم من التعبير بالوارث؛ حسب بلاغة القرآن في تراكيبه وكلماته المختارة لدقَّة الإشارة ولطف الإلماع والتلميح.

ثم ذكر حكم الفطام، فقال: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لهمـا أن يفطماه قبل هذه المدَّة أو بعدها إذا اتَّفق رأيهما علىٰ ذلك لمصلحةٍ اقْتَضته، وليس لأحدهما الاستبدادُ في ذلك دون الآخر.

وقال أبو مسلم: يحتمل الفِصالُ معنىً آخر، وهو إيقاعُ المفاصلة بين الأم والولد، بأن ترضىٰ بضمِّه إلىٰ أبيه يستأجر له ظئراً ترضعه، ويرضىٰ هو بذلك، لا يُضارَّ به أحدهما الآخر.

وبهذه المناسبة ذكر حكم الاسترضاع، فقال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: ما أردتم إيتاءَه بالصُّورة المتعارفة. وقال قتادة(١) والزهريُّ: أي إذا سلَّمتم ما آتيتم من إرادة الاسترضاع بأن رضِيَ كلٌّ واحد من الأبوين بذلك.

أقول: وهذا المعنىٰ علىٰ قراءة (أَتَيْتُم) بمعنىٰ: عملتم وفعلتم. أي: إذا تمَّ الاتفاق بينكم في الفصال أو الاسترضاع أو كليهما، وكان علىٰ صورة مرضيَّة متعارفة. أما علىٰ

---

(١) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي البصري (٦١- ١١٨هـ) مفسِّر حافظ ضرير أكمه، قال عنه الإمام أحمد: قتادة أحفظ أهل البصرة. «سير أعلام النبلاء» (٥: ٢٦٩- ٢٨٣)، و«الأعلام» للزركلي (٥: ١٨٩).

قراءة: ﴿ءَاتَيْتُم﴾ بمدِّ الهمزة، بمعنىٰ: وافقتم عليه، أو بمعنىٰ: أعطيتم. فقد قيل في معنىٰ الآية: إذا سلمتم ما أردتم إيتاءه المراضعَ من الأجور، بحسب المتعارف المستحسن شرعاً وعادة، لأن المرضع إذا لم تُعامَل معاملةً حسنة لا تبرُّ بالطفل ولا تُعنىٰ بشؤونه.

ثم ختم الآية بما يبعث علىٰ التزام أحكامها، كما هو أسلوب القرآن، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ فما أشدَّ هذا التهديد والوعيد علىٰ ترك العناية بالأطفال، ومضارَّة كلٍّ من الوالدين بالآخر! فليعتبر بذلك المسلمون، ولا يتركوا تربيةَ الأولاد للمصادفة والاتفاق.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

وبمناسبة ذكر عِدَّةِ المطلَّقات، ذكر عدَّة الوفاة تتمياً للبحث، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

قد مرَّ الكلام علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾، عند قوله تعالىٰ: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ

﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فارجع إليه. والمراد بالأزواج هنا: الزوجات. وهذا الاستعمال فصيح، إذ يطلق الزوج علىٰ الرجل والمرأة، إشعاراً باتحادهما. والمعنىٰ: إنَّ عدَّة النساء اللاتي يموت أزواجهنّ، أربعة أشهر وعشر ليال، حداداً علىٰ أزواجهنَّ. وهذا الحداد الشرعيُّ المطلوب منهنَّ قاصرٌ علىٰ ترك الزينة والطيب وعدم الخروج من المنزل إلا لضرورة، وعدم التعرُّض بالأزواج والتعريض بالزواج.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: أتـممْنَ عدَّتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بحسب العُـرْف والعادة مما كان محظوراً عليهنَّ في العدَّة من التَّزيُّن والتَّطيُّب والتَّعرُّض للخُطَّاب والخروج من المنزل.

وهذه المدَّة خاصَّة بحداد الزوجات علىٰ الأزواج، كما نصَّ عليه. وأما في غير الأزواج فلا يحلُّ هذا الحداد أكثر من ثلاثة أيام، كمـا جاء عن رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ لامرأة تؤمنُ بالله واليوم الآخر أن تُحِدَّ علىٰ ميِّت فوق ثلاث، إلا علىٰ زوج أربعة أشهر وعشراً»(١).

قال في «المنار»: وقد سُئل الأستاذ الإمام عن الحكمة في كون عدَّة الوفاة أربعةَ أشهر وعشراً، فأجاب: إنَّ مثل هذا ليس علينا أن نبحث عنه، وإنما نبحث عما يشير الكتاب إلىٰ حكمته إشارةً ما(٢).

ويقول البعض: إنَّ زيادة المدة هنا علىٰ مدة براءة الرحم، وفاءً لحقوق الزوجيَّة، وبراءةً للنفس من الكآبة والحزن، فوق براءة الرحم.

ثم ختم الآية بما يبعث علىٰ التزام أحكامها، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٢٨٠)، ومسلم (١٤٨٦)، عن أم حبيبة.

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٣٣٢).

ثم ذكر ما يجوز عمله في مدَّة العِدَّةِ من متعلّقات الخطبة وملابساتها، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾، والمراد بالنساء: المعتدَّات لوفاة أزواجهنَّ، إذ اللام للعهد. قالوا: ومثلهن المطلَّقات طلاقاً بائناً. وأما الرجعيَّات فلا يجوز التعريض لهنَّ، لأنهنَّ لم يخرجن عن عصمة بعولتهن بالمرة. والتعريض: إفهامُ المخاطب ما تريد بإشارة دقيقة، والإكنان في النفس: أن يضمره من دون ذكره.

ثم علَّل ذلك بقول: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: في أنفسكم وخطرات قلوبكم، وليس ذلك مما تملك أيديكم.

ثم استدرك بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾، قال ابن عباس: كأن يقول لها: إني أحبك، عاهديني أن لا تتزوَّجي غيري، ونحو هذا(١).

ثم أكَّد الاقتصار علىٰ التعريض بقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، قال الأستاذ الإمام [٢: ٣٣٨]: هو ما يُعهَدُ مثلُه بين الناس المهذبين بلا نكير. والفائدة منه: التمهيد وتنبيه الذهن حتىٰ إذا تمَّت العدَّة كانت المرأة عالمةً بالراغب والراغبين، فإذا سبق إلىٰ خطبتها المفضول، ردَّته إلىٰ أن يجيء الأفضل عندها.

ثم صرَّح بما فهم من سابق القول، فقال: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي: حتىٰ تنتهي مدَّة العدَّة التي فرضها القرآن وكتبها.

ثم قرن الأحكام بالموعظة علىٰ سُنَّة القرآن، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾، وفي هذا من التحذير عما في نفس الخاطب ما فيه.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢: ٤٣٩).

ثم ختم السياق المليء بعبارات التحذير، ببيان أنَّ للإنسان مَخْرجاً بالتوبة إذا هو تَعدَّىٰ شيئاً من الحدود، وأراد الرجوع إلىٰ الله تائباً راغباً، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ لا يُعجِّل بالعقوبة، بل يُمهِل، ليُصلِحَ المجرمُ بحُسن العمل ما أفسده بما سبق من الزَّلل.

ثم عاد إلىٰ بيان أحكام المطلّقات، علىٰ نهج القرآن في التنقُّل والعودة، فاستثنىٰ من الأحكام السابقة في حقهنَّ المطلَّقاتِ اللاتي لم يُدخَل بهن، فقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: لا يلزمكم شيء من العِدّةِ وعدم التعرض بالخطبة مما مرَّ بيانه، ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ بالدخول بهن.

ثم أضاف حكماً آخر، وهو عدم وجوب المهر في هذه الحالة ما لم يُذكَر، فقال: ﴿أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ وهي المهر، و﴿أَوْ﴾: إما بمعنىٰ «إلا» التي يُنصَبُ المضارع بعدها بـ«أن» مضمرة، أي: إلا أن تفرضوا، وإما بمعنىٰ الواو، أي: وما لم تسمّوا مهراً. ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهنَّ شيئاً يتمتَّعن به، ولتكن هذه المتعة علىٰ حسب حالكم في الثروة؛ ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ أي: علىٰ الغنيِّ بنسبة غناه، وعلىٰ الفقير بنسبة فقره. وأكَّد ذلك سبحانه بقوله: ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بحسب ما يتعارف به الناس بينهم علىٰ اختلاف أصنافهم وأحوالهم وشرفهم.

ثم بالغ في التأكيد، فقال: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾، فرمزت الآية إلىٰ أن ذلك إحسان في التعامل، وتطييبٌ لخاطر المطلَّقة، واعترافٌ بأنَّ هذا الطلاق لم يكن لأمر يوجب عليها الغضب والمقت. وقد جاء في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

ثم ذكر حكم المفروض لـها، فقال: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي: فالواجب عليكم إعطاؤهنَّ نصف المهر الذي سمَّيتموه وفرضْتُموه فيما بينكم، ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ بأن يَسمَحْنَ لكم به، فلا يأخذْن منكم، تَعفُّفاً ورفعة، ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ وهو الزوج بأن يسمح تكرُّماً، بالمهر كله، ولا يسترجع منها النصف.

ثم أيَّد هذا ورغَّب فيه بقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، وهذا تذكيرٌ بما تقتضيه الإنسانيَّة، وهو أن لا تَتنكَّر العائلتان فيما بينهما من جراء هذا الطلاق.

ثم ختم الآية بما يبعث على التزام أحكامها والتحذير من المخالفة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ أي: فلا تخفى عليه من أمركم خافية.

﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

ولما كان من خصائص القرآن وأساليبه التذكيرُ والإرشادُ بعد تقرير الأحكام أو في تضاعيفها، حَمْلاً على التَّمسُّك بها، (كما جاء في فقرات المادة الخامسة من المقدمة الثانية)، وكانت الصلاة أكبر مذكِّر بعظَمَة الله، ومَنْ حافظ عليها بصورتها الصحيحة، فهو جديرٌ بالوقوف عند حدود الله والعمل بشريعته، وكان من نهج القرآن أن يذكِّر بها مجرَّدةً أو مقرونةً بحكم جديد، كلما سنحت الفرصة بالتذكير بها، (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، جاء بعد بيان الأحكام السابقة قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ وذلك من أعظم البر. أي: صَلُّوا لله خاشعين، إذ القيام بمعنى الصلاة، من إرادة الكل بالجزء، ومنه

قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨]، أي: لا تُصَلِّ فيه، وقوله ﷺ: «مَنْ قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»[١].

وللعلماء في الصلاة الوسطىٰ أقوال، أصحُّها أنها صلاة العصر؛ لحديث علي رضِيَ الله عنه: «شَغَلُونا عن الصَّلاة الوسطىٰ، صلاةِ العصر»[٢].

وقال الأستاذ الإمام: يتبادر إلىٰ فهمي أنَّ المراد بالصلاة الوسطىٰ[٣]: الصلاة الفُضْلىٰ، وهي التي يحضر فيها القلبُ وتَتَوجَّه بها النفسُ إلىٰ الله، ويقوِّي هذا قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾، فهو بيانٌ لمعنىٰ الفَضْل في الفُضْلىٰ وتأكيدٌ له، إذ قالوا: إنَّ في القنوت معنىٰ المداومة علىٰ الضراعة والخشوع[٤].

وقال سعيد بن المسيب: المرادُ بالقنوت هنا المعروفُ في صلاة الصبح[٥]. وهو - إن صحَّ - يُرجِّح أنها الصلاة الوسطىٰ.

وقيل: ليس المراد من الوسطىٰ صلاةً بعينها، ولكن المراد بها كل صلاة تتوسَّط أحوال الشخص الشاغلة ومهماته، ولذلك جاء في السنة بيانُها بكلِّ واحدة من الصلوات الخمس، علىٰ حسب حال المخاطَب في نوع أشغاله عندما يسأل عنها ﷺ.

ثم أكَّد وجوب المحافظة علىٰ الصلاة، بما فيه إشعارٌ بأنها لا يجوز إهمالها في أية

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧).

(٣) في تفسير «المنار»: «الفعل» بدل «الوسطىٰ».

(٤) تفسير «المنار» (٢: ٣٤٧).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٧: ١٢٩). وسعيد بن المسيب هو المخزومي القرشي، أبو محمد بن أبي وهب بن عمرو (١٣- ٩٤هـ)، الإمام العَلَم، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه. «سير أعلام النبلاء» (٤: ٢١٧).

حالة من أحوال الإنسـان، فقال تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾، قال الأستاذ الإمام: هذا تأكيدٌ للمحافظة، وبيانُ أنَّ الصلاة لا تسقط بحال، والسبب في ذلك أنها عملٌ قلبيٌّ[1] لا يمكن الاستغناء عنها في تَغْذية الإيمان بالله، كي لا يغفل عن ذكره. إذ لا ريب أنَّ هذه الهيئة التي اختارها الله تعالىٰ للصلاة هي أفضل مُعين علىٰ استحضار سلطانه وتذكُّر كرمه وإحسانه. فإنَّ قولك: (الله أكبر) في فاتحة الصلاة، وعند الانتقال فيها من عمل إلىٰ عمل، يعطيك من الشعور بكون الله أكبرَ وأعظَمَ من كلِّ شيء تشغل به نفسك، وتُوجِّه إليه همَّك، ما يَغْمر روحك ويستولي علىٰ قلبك وإرادتك.

وفي قراءة الفاتحة من الثناء علىٰ الله تعالىٰ، وتذكُّرِ رحمته وربوبيَّته، ومعاهدته علىٰ اختصاصك إيَّاه بالعبادة والاستعانة، ودعائه لأن يهديَكَ صراطَه الذي استقام عليه مَنْ سَبقَت لهم منه النعمة من عباده الصالحين ما فيها.

وكلُّ ما تقرأ من القرآن بعد الفاتحة، له في النفس آثارٌ محمودة تختلف باختلاف مَا في القرآن من المعارف العالية والحِكَم البالغة والعبر العظيمة والهداية القويمة.

وانحناؤك للركوع والسجود بعد ذلك يُقوِّي في النفس معنىٰ العبوديَّة، وتَذَكُّرَ عظمة الألوهيّة، ونِعَم الربوبيَّة، لما في هذين العملين من علامة الخضوع والخروج عن المألوف. وكذلك ما شُرع فيها من تسبيح الله وتذكُّر عظمته.

وإذا تعذَّر عليك الإتيان ببعض تلك الأعمال البدنيَّة، فإن ذلك لا يسقط عنك هذه العبادة القلبيَّـة التي هي روح الصَّلاة، مع الإشارة إلىٰ تلك الأعمال البدنية بقدر الإمكان الذي لا يَمنَعُ منه مدافعةُ الخوف الطارئ.

---

(١) أي: بَدَني قلبي، إلا أن الصورة البدنية فيها يمكن أن تنتقل من حال إلىٰ أخرىٰ، أما الصورة القلبية فلا يُتَصوَّرُ سقوطها، كما سيأتي بيانُه في كلامه.

فالآية تعلِّمنا أنه يجب أن لا يُذْهِلنا عن الله تعالىٰ شيءٌ من الأشياء، ولا يَشْغلَنا عنه شاغلٌ، ولا خوفٌ في حال من الأحوال، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، أي: فصَلُّوا مشاةً أو راكبين، كيفما اتَّفق، لا يمنعكم من أداء ذلك ملاحمة القتال، ولا مقاومة العدو، ولا دفع الصائل، ولا الفرار من الأسد. ويأتي هذا الخائف من أقوال الصلاة بما يأتي، ويومئ بالركوع والسجود بقدر الاستطاعة، ولا يلتزم التوجُّه إلىٰ القبلة. وقاسَ الفقهاء علىٰ ذلك أحوال المرض وتناولوا في الإيماء إلىٰ حدِّ العين. وهذا حكمُ صلاة الخوف في غير ساحة القتال، وأما صلاة الخوف بإزاء العدو، فهي مذكورة في سورة النساء.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ أي: إذا زال خوفكم واطْمأننتم فأتمُّوا الصلاة كما تعلمون ممَّا علَّمكم الله. وإنما عبَّر عن الصلاة بالذكر؛ لأنه معظمُ أركانها، ولأنها تذكرةٌ بالله لمن ينسىٰ، وتزكيةٌ لمن يخشىٰ. وفي التعبير عن أدائها علىٰ الوجه المعروف، بقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾؛ تعريضٌ بفَضْلِه فيهم، وتمنُّنٌ عليهم بهذا التعليم والتوجيه الذي فيه سعادتهم.

وهذه الجملة جاءت علىٰ سُنَّة القرآن في مَزْج المعاني بما يذكِّر بفضل الله علىٰ الناس، وهذا من أعظم الصور في السبك والنظم في أساليب القرآن. من «المنار» بتصرف[1].

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ

(١) تفسير «المنار» (٢: ٣٥١- ٣٥٢).

وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ بيان بقية الأحكام الزوجيَّة، علىٰ نهج القرآن في التنقُّل في المواضيع، والعودة فيها، (كما جاء في فقرات المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية). فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ فَلْيُوصوا ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فإنَّ ذلك من البر. أي: علىٰ الزوج أن يُوصي أولياءَه لا يُخْرجون زوجته من منزله إلىٰ نهاية الحَوْل، وأن تُمتَّع بما تحتاجه، وعلىٰ الأولياء أن يُنفِّذوا ذلك.

قال في «المنار»: والسبب في هذا: ما عُلم من عادة العرب في إلزام المرأة بيتَ زوجها المتوفىٰ سنة كاملة، فلمَّا جعل الإسلام عدَّتها أربعة أشهر وعشراً، كان من مُقْتضاه أن يُخْرجها الورثة من البيت بعد مضيِّ العدة، فإذا كانت غير راغبة في الزواج يشقُّ عليها خروجها من بيتٍ كانت علاقتها به قوية جداً. فكان علىٰ الزوج الوفِّي أن يُوصي بعدم إخراجها من هذا البيت، إلىٰ مدة سنة كاملة، تقضي فيها حُزنها وتَسْليٰ[1] فيه زوجها، وأن لا تُكلَّفَ النفقةَ علىٰ نفسها ما دامت في هذا البيت، جَبْراً لقلبها[2]. أما إذا اختارت الخروج من نفسها فلا جناح علىٰ أولياء الميت فيما تفعله في نفسها مما هو معروف شرعاً وعادة، من التعرُّض للخطَّاب بعد العدة، بمعنىٰ أنهنَّ يُخيَّرن بين المقام والخروج، فإن أقمن فليس للورثة مَنْعُهنَّ من ذلك، وإنْ خَرَجْن فليس عليهنَّ المنع، كما هو مفاد الآية الآتية.

ولا تعارض بين هذه الآية وما سبق في آية العدَّة؛ لأن تلك لبيان واجبٍ من

---

(١) يقال: سلوت إذا نسيتُ ذِكْرَه «لسان العرب» (سلا).

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٣٥٦).

واجباتها، وهذه لبيان حقٍّ من حقوقها، فلها أن تَتَمتَّع ببيت زوجها إلىٰ آخر الحَوْل إن أرادت. وإنْ أرادت أن تَتَزوَّج بعد انقضاء عدَّتها وتخرج من بيت زوجها المتوفَّىٰ، فلها ذلك.

وذهب بعض الصحابة والتابعين إلىٰ أنَّ الأمر بهذه الوصيَّة كان للندب، وتهاون الناس به كما تهاونوا في كثير من المندوبات، كاستئذان الأولاد الذين لم يبلغوا الحُلُمَ عند دخول بيوتهم في الأوقات الثلاثة التي هي مظنَّة التهاون بالسَّتْر؛ قبل صلاة الفجر، وحين وضع الثياب من الظهيرة في أيام الحرِّ، ومن بعد صلاة العشاء.

واختار الأستاذ الإمام أنَّ الوصيَّة من الله، وهي للندب لا للوجوب. والتقدير: والذين يُتَوفَّونَ منكم ويذرون أزواجاً، فالزموا وصيَّةً من الله لأزواجهم: أن يُمَتَّعنَ متاعاً، ولا يَخْرُجنَ من بيوت أزواجهنَّ إلىٰ تمام الحَوْل، فإن خَرَجْنَ من تلقاء أنفسهنَّ فلا جناح عليكم ـ أيها الأولياء ـ فيما فعلن في أنفسهنَّ من المعروف الذي لا يُخلُّ بالشرف شرعاً وعادة، كالتعرُّض للخطَّاب بعد العدَّة، والتزوُّج، إذ لا ولاية لكم عليهنَّ، فلا يُمنَعْنَ إلا من الـمُنْكَر الذي يمنع منه العُرْفُ شرعاً أو عادة.

واختار أبو مسلم أنَّ معنىٰ الآية: والذين يُتَـوفَّونَ منكم ويَذَرون أزواجاً، وقد أوصَوْا وصيَّة لأزواجهم بنفقة الحول وسُكنىٰ الحَوْل، فإنْ خَرَجن قبل ذلك وخالفْنَ وصيَّة الزوج بعد أن يُقِمْنَ المدَّة التي ضربها الله لهنَّ، فلا حرج فيما فعلنَ في أنفسهن من معروف، أي: نكاح صحيح؛ لأن إقامتهنَّ بهذه الوصية غير لازمة.

قال: والسبب أنهم كانوا في الجاهلية يوصون بالنفقة والسكنىٰ حَوْلاً كاملاً، وكان يجب علىٰ المرأة الاعتداد بالحول. فبيَّن الله تعالىٰ في هذه الآية أنَّ ذلك الاعتداد غير واجب.

نقل عنه هذا الإمام الرازي في «تفسيره» وارتضاه، وبيَّن وجوه الرِّضا فيه. ثم قال: وإذا عرفت هذا فنقول: هذه الآية من أولها إلىٰ آخرها تكون جملة واحدة شرطيَّة، الشرط فيها: هو مضمون قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً[١] لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، والجزاء: هو قوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾. فهذا تقدير أبي مسلم، وهو في غاية الصحَّة[٢]. انتهىٰ.

وذهب جمهور المفسِّرين إلىٰ أنَّ هذا الحكم كان في أول الإسلام، فكانت عدَّةُ الوفاة سنةً كاملة مُجاراةً لعادات العرب، ولكن مع تخيير المرأة في الاعتداد في بيت الميت، فإن اعتدَّت فيه وجَبَت نفقتها من تَرِكَتِهِ، وحَرُمَ علىٰ الورثة إخراجُها، وإن خرجت هي سَقَطَ حقُّها في النفقة. وقالوا: إنه لم يكن يومئذ للمرأة من ميراث زوجها إلا هذا المتاع والنفقة، ثم نُسِخَت هذه الآيةُ بجَعْل العدَّة أربعةَ أشهر وعشراً، وذلك بالآية السابقة المتقدِّمة عليها بالذكر والمتأخِّرة عنها بالنزول. فيكون الإصلاح لتلك العادة في الاعتداد لوفاة الزوج وما يتبعه من الحِدَاد عليه قد حصل بالتدريج، شبه تحريم الخمر. فأُقرَّت مدَّة العدة أولاً، ولكن مُنع أن تكون بتلك الحالة الرديئة المتَّبعة في الجاهلية، ثم نُسخت المدَّة بما تقدَّم.

وقد نقل الرازي عن مجاهد رأياً آخر وارتضاه، وهو: أنه في عدَّة المتوفىٰ عنها زوجها آيتان: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ

(١) أقول: وعلىٰ هذا يكون قوله: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ بدلاً من ﴿أَزْوَٰجًا﴾ بدل اشتمال. أو يكون ﴿وَصِيَّةً﴾ مصدراً نائباً عن فعله، والجملة صفة لـ﴿أَزْوَٰجًا﴾. أي: أزواجاً موصىً لهنَّ بهذه الوصية. (المؤلف).

(٢) «تفسير الرازي» (٦: ٤٩٣).

أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وهذه الآية. فيجب حَمْلُ الآيتين علىٰ حالتين، فإن اختارت الإقامة في دار زوجها المتوفَّىٰ والنفقة من ماله فعدَّتها سنة، وإلا فعدَّتها أربعةُ أشهر وعشرٌ، فيكون للعدَّة علىٰ قوله أجلٌ محتَّم وهو الأقل، وأجلٌ مخيَّر فيه وهو الأكثر(١).

قال في «المنار»: أقول: إنَّ قول مجاهد هذا بعيد جداً، وإن فضَّله الرازي علىٰ قول الجمهور(٢).

ثم قال في «المنار»: وقد خَتَم سبحانه وتعالىٰ الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٤٠﴾ للتذكير بأنَّ لله العزَّة والغَلَبة فيما يُريد من تحويل الأمم عن عادات ضارَّة إلىٰ سنن نافعة تَقْتَضِيها الحكمة، كتحويل العرب عن عاداتهم في العدَّة والحداد، بجَعْل المرأة أسيرةً ذليلةً مقهورةً مدَّةَ سنة كاملة، إلىٰ ما هو خيرٌ من ذلك، وهو إكرامُها ما دامت في بيت زوجها بين أهله، وعَدَمُ الحَجْر علىٰ حريتها إذا أرادت الخروج منه ما دامت في حظيرة الشرع وآداب الأمة المعروفة. فهذه الحكمة البالغة توافق مصلحة الأفراد والجماعات في كلِّ زمان ومكان(٣).

ثم قال تعالىٰ بعدما تقدَّم: ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١﴾ فذكر هذا الحكم العامَّ الذي يشمل ما تقدَّم وغيرَه، يُبيِّن فيه أنَّ المتعة مشروعةٌ لكلِّ مطلَّقة. وروي هذا عن بعض الصحابة والتابعين، وبعض الأئمة، وهو الصحيح.

ثم ختم الكلام عن هذه الأحكام بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٤٢﴾ حثاً علىٰ التمسُّك بتلك الأحكام المبيَّنة، وتنبيهاً لموضع الحكم

---

(١) «تفسير الرازي» (٦: ٤٩٢)

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٣٥٦).

(٣) المصدر السابق (٢: ٣٥٧).

فيها، وتحذيراً عن المخالفة. والمعنىٰ: إن الله سبحانه يبيِّن لعباده أحكام دينهم علىٰ هذا النَّحو من البيان الذي تُقْرَنُ فيه الأحكام بعللها وأسبابها وبيانِ فوائدها، ليكونوا علىٰ بصيرةٍ من دينهم، عالمينَ بانطباق أحكامه علىٰ مصالحهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

ثم عاد بالكلام إلىٰ مبحث القتال، علىٰ طريقة القرآن في العَوْد إلىٰ المباحث المهمة، المرَّة بعد الأخرىٰ لتقريرها في النفوس، مُردفاً السياق بالقصَّة الآتية، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأحكام والمواعظ بالقصص، للاستشهاد علىٰ هلاك المخالفين لأحكام الله وسننه، ولا سيما الدفاع وحفظ الكيان.

وقد تضمَّنت هذه القصة بيان أن الله سبحانه حكيم في أحكامه وأعماله، فكلُّ أحكامه وسُننه موافقةٌ للحكمة والمصالح العامة[١]، وأنَّ من أعرض عنها هوىٰ وتردَّىٰ، فإن عاد وتمسَّك بها استقام واهتدىٰ إلىٰ صراط مستقيم. وقد خصَّ بالذكر أمر الدفاع، من بين سائر الأحكام المتقدِّمة، وأنَّ الإعراض عنه يؤدِّي إلىٰ تَلَف الأمة، ليدعم ما سبق من الأمر بقتال المعارضين وقمْع شرِّهم، ويحذر من التهاون والجبن في ذلك، فقال تعالىٰ مُستشهداً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، وكلمة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إذا خُوطب بها مَنْ لم ير ما تتعلَّق به لتعريفه به، (كما جاء ذلك مُفَصَّلاً في الفقرة (ج) من المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية).

---

(١) تقدَّم التعليق علىٰ مثل هذه العبارة ص٣٣٧.

ففي هذه القصة عَوْدٌ إلىٰ الترغيب بالقتال في سبيل الله، دفاعاً عن حرِّية الأمة، وحفظاً لكيانها، ودواماً لاستقلالها، وذلك علىٰ نهج القرآن في العود إلىٰ المباحث المرة بعد المرة، (كما جاء في الفقرة (و) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، لأنَّ ذلك أوقع في الهداية والإرشاد، وتمكينها في النفوس.

ويجوز أن يكون الكلام انتقالاً من تلك الأحكام المسرودة السابقة، إلىٰ حكم القتال في سبيل الله، متابعةً لسَرْد الأحكام التي هي من البرِّ واستباق الخيرات، ولكنه قدَّم عليه بيان حكمة القتال بأسلوب قصصي، زيادةً في التبصرة والاتعاظ.

قال الأستاذ الإمام: أطلق القرآن القول في هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم ولم يُعيِّن عدَدَهم ولا أمتَهم ولا بلدَهم، ولو علم لنا في التعيين والتفصيل فائدة، لتفضَّل علينا بذلك في كتابه المبين. فلا نُدخِلُ فيه شيئاً من الروايات الإسرائيلية التي ذكروها، وهي صارفةٌ عن العبرة، لا مزيد كمالٍ فيها.

والمتبَادَر من السياق: أنَّ أولئك القوم قد خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدوٍّ مهاجِمٍ لا من قلَّتهم، فقد كانوا ألوفاً، أي: كثيرين، وإنما هو الحذر من الموت الذي يُولِّده الجُبْنُ في أنفس الجبناء، فيريهم أنَّ الفرار من القتال هو الواقي من الموت، وما هو في الحقيقة إلا سبب الموت، لأنه يمكِّن العدوَّ من الرقاب[١]. ويُحفِّزه إلىٰ الفتك بهم، استهانةً بأمرهم.

وقد خرجوا فارّين من الموت، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ أي: أماتهم بإمكان العدوِّ منهم[٢]. وإطلاقُ القولِ علىٰ الفعل من خصائص اللغة وأساليب القرآن، فالأمر أمر

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٣٦٢).

(٢) إن هـؤلاء ماتوا موتاً حقيقياً، ثم أحياهم الله، وأكثـرُ كلام المفسِّرين علىٰ أنهم خرجوا فراراً =

التكوين، أي: قضت سنَّته في خلقه بأن يموتوا بما أتوه من سبب الموت، وهو تمكينُ العدوِّ المحارب من أقفائهم بالفرار، ففتك بهم، وقتل أكثرَهم، وأفنىٰ قوتهم، وأزال

= من الأمراض، وقيل: من العدو. ولم نرَ مَن ذكرَ تمكُّن العدو منهم وهم أحياء، وأنهم استقلوا بعد ذلك، ولا يسوغُ تأويل الآية بذلك لمخالفته لتفسير السلف ولظاهر النص، فقد ذكر أهل العلم أنه لا يُعدَلُ عن الظاهر إلىٰ المؤوَّل إلا بدليل يجعلُه أقوىٰ من الظاهر الذي يتبادر إلىٰ الذهن.

قال وكيعُ بنُ الجرّاح في «تفسيره»: حدثنا سفيان، عن ميسرة بن حبيب النهدي، عن المنهال بن عمرو الأسدي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣] قال: كانوا أربعة آلاف، خرجوا فرارا من الطاعون، قالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت، حتىٰ إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: ﴿مُوتُوا۟﴾ فماتوا، فمرَّ عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربهم أن يحييهم، فأحياهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، الآية.

ذكـرَه ابنُ كثير في «تفسيره»، وسنـدُه حسَن. ولم يذكر ابن كثير خلافاً في هذا لابن جريج ولا لغيره.

وفي «زاد المسير» لابن الجوزي (١: ٢١٩): وفي معنىٰ حذرهم من الموت قولان: أحدهما: أنهم فرُّوا من الطاعون، وكان قد نزل بهم. قاله الحسن والسُّدِّي. والثاني: أنهم أمروا بالجهاد ففرُّوا منه. قاله عكرمة والضحاك. وعن ابن عباس كالقولين.

وفي «تفسير البغوي» (١: ٣٢٨): قال أكثر أهل التفسير: كانت قرية يقال لها: داوَرْدان، قِبَلَ واسط، بها وقع الطاعون، فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة، فهلك أكثر من بقي في القرية وسلم الذين خرجوا، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا كانوا أحزم منا، لو صنعنا كما صنعوا لبقينا، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن إلىٰ أرض لا وباء بها، فوقع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها، وخرجوا حتىٰ نزلوا وادياً أفيح، فلما نزلوا المكان الذي يبتغون فيه النجاة ناداهم مَلَكٌ من أسفل الوادي وآخرُ مِن أعلاه: أنْ موتوا، فماتوا جميعا. انتهىٰ.

استقلالهم، وفرَّق شملهم، وذهبت جامعتُهم، حتىٰ صاروا لا يعدّون أمة؛ لأنَّ مَنْ بقي منهم خضعوا للغالبين واندمجوا فيهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعد مرور الأزمان عليهم وانتباههم لما هم فيه من الذلة والهوان، وتشبُّثِهم بإنقاذ أنفسهم من ذلك، ﴿أَحْيَـٰهُمْ﴾ ومعنىٰ حياتهم: عَوْد الاستقلال إليهم(١). وذلك من رحمة الله تعالىٰ في البلاء، يُصيب الناس فيكون تأديباً لهم، ومُطَهِّراً لنفوسهم مما عرض لهم من دنس الأخلاق الذميمة.

أشعر الله سبحانه أولئك القوم بسُوء عاقبة الجُبْن والخَوف والفشل والتَّخاذل بما أذاقهم من مرارتها، فجمعوا كلمتهم ووثَّقوا رابطتهم حتىٰ عادت لهم وحدتُهم قويَّة، فاعتزُّوا وكَثُروا إلىٰ أن خرجوا من ذُلِّ العبوديَّة التي كانوا فيها إلىٰ عزِّ الاستقلال. فهذا معنىٰ حياة الأمم وموتها، فالموتُ والإحياءُ واقعان علىٰ القوم في مجموعهم لا في جميعهم، علىٰ ما عهدنا في أسلوب القرآن. وإطلاق الحياة علىٰ الحالة الشريفة، والموت علىٰ مقابلها، معهود في القرآن أيضاً، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في وَضْع تلك السنن والأحكام التي منها أن جَعَل المصائب والعظائم مُحيِيَةً للهمم والعزائم. تَفسُدُ الأخلاقُ في الأمم، فتسوء الأعمال، فيسلِّط الله علىٰ فاسدي الأخلاق النكباتِ، ليتأدَّب الباقي منهم، فيجتهدوا في إزالة الفساد وإدالةِ(٢) الصلاح، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

---

(١) هذا تأويل متعسف، والصواب إبقاء الآية علىٰ معناها الظاهر، إذ لا مانع منه، ولا دليل علىٰ خلافه.

(٢) الإدالةُ: الغَلَبَةُ. «لسان العرب» (دول).

لجهلهم بحِكَم ربِّهم في أعمـاله وأحكامه، فلا يشكرون تلك الأعمال، ولا يقدِّرون تلك الأحكام.

فلا تكونوا كذلك أيها المؤمنون، بل تمسَّكوا بأحكام الله، لأنها حكيمة، واعتبروا بما نزل عليكم، وتأدَّبوا به، واعلموا أنَّ الجبن عن مدافعة الأعداء هو الموت المحفوف بالخِزْي والعار، والذل في الديار، والمؤدِّي إلىٰ عذاب النار. فلا تقصِّروا في حماية جامعتكم في الـمِلَّة والدِّين، ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ لا يخادَع ولا يخفىٰ عليه ضمير، فلا ينفعكم ما تعتذرون به عن أنفسكم في التقصير. من «المنار» بتصرف[١].

ثم قال: ولا يشتـرط أن تكون القصة في مثل هذا التعبير واقعة[٢]، بل يصحُّ مثله في القصص التمثيليَّة، إذ يُراد: أنَّ من شأن مِثلِها في وضوحه أن يكون معلوماً حتىٰ كأنه مرئيٌّ بالعين. وتكون هذه القصة التمثيليَّـة إنما سيقت لبيان حِكْمة الحُكم الذي أُخِّر عنها، وهو قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيكون الانتقال في السياق من تلك الأحكام المسرودة مع بيان حكمتها والتنبيه لفائدتها، إلىٰ حكم آخر سبقته حكمتهُ مبينةً بأسلوب قصصي، زيادةً في التعبير ومبالغةً في الحَمْل علىٰ الاعتبار، كمـا تقدَّم بيانه.

---

(١) تفسير «المنار» (٢: ٣٦٢- ٣٦٥).

(٢) بل يُشتَرَط هذا، وكلام الله يُنزَّهُ عن تمثيل يُعبَّر عنه بما يُشعِرُ سامعَه أنه واقع، وليس بواقع، والتمثيل فيه له أساليبه الواضحة التي تُمَيِّزه عن القصص.
ومن المُقرَّر عند أهل العلم أن الأصل حَمْلُ القرآن علىٰ الحقيقة، ما لم يترجح المجاز بشهرة، أو غيرها، وبناء عليه فلا يحمل اللفظ القرآني علىٰ التمثيل والرمز إلا بدليل قرينة تصرفه إلىٰ المجاز، ولا قرينة هنا تصرف الكلام عن ظاهره.

ويرىٰ جمع من المفسِّرين منهم ابنُ كثير بسنده عن ابن جريج وعطاء: أنَّ هذا مَثَل لا قصةٌ واقعةٌ[١]، ضُرِبَ للعظة والتأمُّل فيما ينطوي عليه؛ ليكون أفعل في النفس وأدعىٰ إلىٰ الزَّجْر. والمراد منه: أنَّ سُنَّة الله في خلقه جَرَت بأن تموت الأمم باحتمالها الظلم وقبولها الجوْر والعَسْف[٢]، حتىٰ إذا فاقت من سباتها، وتنبَّهت من غفلتها، قام بعض أفرادها بتدارك ما فات والاستعداد لما يُرقِّي شأنَها، وتبذل في ذلك كلَّ مرتخص وغال، وتتلمَّس كل الوسائل التي تُحقق لها ما تصبو إليه، ولا يصدُّها عن ذلك ما يَحُول دونها من العوائق حتىٰ تفوز ببُغْيتها وتنالَ أمنيتها. ومن ثَمَّ أُثر عن عليٍّ كرم الله وجهه أنه قال: «بقية السيف هي الباقية»[٣]. أي: هي التي يَحيَا بها أولئك الميِّتون.

ولما كان القتال للدفاع عن الحقِّ، يتوقف علىٰ بذل المال، ذكر بعده حكم الإنفاق، بعبارة تستفزُّ النفوسَ، وأسلوبٍ يبسط الأكفَّ. علىٰ أسلوب القرآن في جعل بعض الجمل متمِّمة لما قبلها ومقرِّرة حكماً عاماً بنظمها، فقال:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ تلطَّفَ سبحانه في استدعاء عباده إلىٰ أعمال البر والطاعة بما يعمُّ الصَّرف علىٰ الدفاع والإحسان إلىٰ المُعْوزين بأنواعهم، علىٰ أسلوب القرآن في تعقيب الحُكم بحُكم آخر يعمُّه وغيرَه.

وقال الأستاذ الإمام: هذا التعبير بمثابة الهزِّ والزلزال لقلوب المؤمنين، فقلبٌ لا يلين له ويندفع به إلىٰ البذل قلبٌ لا يمسُّه الإيمان.

---

(١) لم أجده في «تفسير ابن كثير»، ونسبه لابن كثير أيضاً ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٢: ٤٧٨) عن ابن جريج عن عطاء: أن هذا مَثَل لا قصة واقعة.

(٢) العَسْفُ: السير بغير هداية والأخذ علىٰ غير الطريق. «لسان العرب» (عسف).

(٣) ذكره الجاحظ في «البيان والتبيين» ص ٣٧٠ بلفظ: بقية السيف أنمىٰ عدداً وأكثر ولداً.

أيُّ لطفٍ من عظيمٍ يُداني هذا اللطف من الله تعالىٰ بعباده، الغنيِّ عن العالمين، الفعَّالِ لما يريد، يرشد عباده ـ الذين أنعم عليهم بفضل من المال واختصَّهم بشيء من النعمة ـ إلىٰ مواساة إخوانهم، بما فيه سعادتهم وسعادة من يعيش معهم. ويهديهم إلىٰ بَذْلِ شيء من فضول أموالهم التي أنعم الله بها عليهم، وصَرْفِها في المصالح العامَّة التي فيها صلاحُ حالهم، وحفظُ شرفهم واستقلالهم. فيُبرز[١] هذا الهَدْيَ والإرشاد في صورة الاستفهام، دون صيغة الأمر والإلزام، ويُسمِّي نفسه مقترضاً، ليشْعُـرَ قلبُ الغنيِّ بمعنىٰ الحاجة التي ربما تصيبه يوماً ما. ثم هو يَعِدُه بمضاعفةِ ذلك العطاء. أيكون هذا اللطف كلُّه منه بعبده الذي غَمَره بنعمته وفضْلِه علىٰ كثير من خلقه، ثم يجمد قلب هذا العبد، وتنقبض يدُه، لا يستحي من ربه، ولا يثق بوعده[٢]؟!

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ أي: يُضيِّق علىٰ بعض الناس لجهلهم بسُنن الله في كسْب المال، وعدم نهوضهم للسعي في ذلك وسَيْرهم بمقتضىٰ تلك السنن، ويُوسِّع للَّذين يسيرون بمقتضىٰ تلك السنن الطبيعية بقدر اعتنائهم في تطبيقها وتجويدها. لا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر، وبَرّ وفاجر، وبمقتضىٰ هذه السنة الكونية لا يستقلُّ الإنسان برجاحة عقله، بل له حاجة إلىٰ معونة الله وتوفيقه بتسخيـر الأسباب له وتسهيلها. فيجب علىٰ مَنْ وفَّقه الله لنَـيْل الغِنىٰ أن يُساعد من حُرِمَ من ذلك؛ تنسيقاً لِسُنن الله الكونيَّة، واستدامةً لنعم الله عليه، فالله سبحانه هو مُقلِّب الأحوال ومُغيِّر الأوضاع، ولو شاء أن يغني فقيراً ويفقر غنياً لفعل، فإنَّ الأمر كلَّه له، بيده القبض والبسط والغِنَىٰ والفقر، وهو واضع السُّنن والهادي إليها والموفِّق للسير عليها. فليس حظُّه الأغنياء

(١) في «المنار»: فيبرِّر.

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٣٦٩).

علىٰ مواساة الفقراء، والإنفاق في المنافع العامَّـة والخاصَّة من حاجة به أو عجز منه سبحانه، كلا، بل هي هداية الإنسان إلىٰ سنن الله في هذا الكون، وإلىٰ طرق الشكر علىٰ النعم، بما يحفظها ويُـفْضي إلىٰ المزيد فيها، حتىٰ يبلغ كمـاله الاجتماعي الذي أعدَّه له بحكمته.

ثم ختم الآية بمـا يـحثُّ علىٰ العمل بمقتضىٰ تلك الـهداية، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ فلا تُهملوا ما يأمركم به واحذروه.

روىٰ الطبري عن ابن مسعود رضِيَ الله عنه: قال لما نزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، قال أبو الدحداح: «وإنَّ الله يُريد منا القرض؟! قال النبي ﷺ: «نعم يا أبا الدحداح». قال: ناولني يَدَك، فناوله يدَه. قال: فإني قد أقرَضْتُ ربي حائطي، حائطاً فيه ستمئة نخلة. ثم جاء يمشي حتىٰ أتىٰ الحائط، وأمّ الدحداح فيه في عيالها، فناداها: يا أمّ الدحداح، قالت: لبيك. قال: اخرجي من الحائط فإني قد أقرضته لربي»(١).

زاد غيره: فقال النبي ﷺ: «كم من عِذْق رداح لأبي الدحداح»(٢).

والآية مَثَلٌ لتقديم العمل العاجل طلباً للثوب الآجل.

والمراد من القرض: العمل الصالح مطلقاً، المنتظم للجهاد انتظاماً أوَّلياً. والمراد بحُسْنه: الإخلاص فيه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥: ٢٨٤-٢٨٥). والحديث رواه مسلم (٩٦٥) عن جابر بن سمرة.

(٢) رواه أحمد (١٢٤٨٢)، عن أنس.

وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

ثم أردف قصَّة الذين خرجوا من ديارهم بقصَّة أخرىٰ واقعية تاريخية، مؤيِّدة لها في المضمون، تقلع من نفوسهم خوفَ الجهاد وإن كانوا قليلي العدد، وهي قصَّة قوم بني إسرائيل اشتدَّ شعورهم بالحاجة إلىٰ مدافعة العادين عليهم واسترجاع ديارهم وأبنائهم من أيديهم، حتىٰ طلبوا من نبيِّهم زعيماً يقودهم في ميدان الجِلاد(١)، وقاموا بما قاموا به من الاستعداد، ولكن ضَعْفَ نفوسهم كان قد بلغ منهم مبلغاً لم تنفع معه تلك العدَّة، فتولَّوا وأعرضوا للأسباب التي أشير إليها، وأُلهِمَ القليل منهم، كما هو شأن الأمم عند الانتباه بعد النوم والسبات، فيعودون إلىٰ رُشْدهم، واعتبروا فانتصروا.

حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾، وكلمة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في مثل هذا المقام مستعارةٌ للتعبير عن الأمر المتحقِّق بعبارة الظاهر المرئيّ، تصويراً لِتَحقُّقه، وإذا خُوطب بها مَنْ لم يعلم ما تعلَّقت به، كما هنا، تكون لتعريفه به وإعلامه عنه. ﴿ٱلْمَلَإِ﴾: القوم يجتمعون للتشاور، ولا مفرد [له]. وقيل:

---

(١) أي موضع الضرب بالسيف في القتال. «لسان العرب» (جلد).

الملأ: الأشراف من الناس. أي: ألم تَرَ إلىٰ أهل الحَلِّ والعقد من بني إسرائيل، ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أقم لنا أميراً يقودنا إلىٰ الحرب، ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾ أي: أتوقَّع منكم الجُبْن عن القتال إن كُتب عليكم من جانب الله. وإنَّما فصل بين «عسىٰ» وخبرها بالشرط للاعتناء به.

وكان دأبُ بني إسرائيل أن يقومَ أمرهم بمَلِكٍ يجتمعون عليه يُجاهد الأعداء ويُجري الأحكام، ونبيٍّ يطيعه الملك ويقيم أمر دينهم، ويأتيهم بالخبر من ربِّهم.

فلما قال لهم ذلك ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾، وذلك أنَّ جالوتَ مَلِكَ العمالقة الذين كانوا يسكنون ساحل بحر الروم، بين مصر وفلسطين، ظهر علىٰ بني إسرائيل، وأخذ ديارهم، وسَبَىٰ أبناءهم، وضرب عليهم الجزية، وأخذ توراتهم التي كانوا قد أخرجوها إلىٰ ساحة الحرب يستنصرون بها.

وهذا التعبيرُ في أسلوب النفي أبلغُ تعبير وآكَدُه؛ لأنه يتضمَّن نفي جميع الأسباب الموجبة للسلب، وإثبات الأسباب المقتضية للإيجاب. وهي: اغتصاب بلادهم، وإخراجهم من ديارهم، واستعباد أبنائهم، إلا أنَّ ذلك العزم كان مِنْ أكثرهم زعماً مجرَّداً.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ﴾ جُبناً وخَوراً ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، وذلك أنَّ الأمم إذا قهرها العدو ونكَّل بها، يُفسد بأسها، ويغلب عليها الجُبن والمهانة. فإذا أراد الله إحياءها بعد موتها يَنفُخُ روح الشجاعة والإقدام في خيارها، وهم الأقلّون، فيعملون ما لا يعمل الأكثرون.

قال الأستاذ الإمام: «وفي الآية من الفوائد الاجتماعية: أنَّ الأمم التي تفسد أخلاقُها وتضعف قد تُفكِّر في المدافعة عند الحاجة إليها، وتعزم على القيام بذلك، ولكنهم إذا باشروا العمل ضَعُفوا وجبنوا، وقد توعَّدهم الله على ذلك فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٤٦﴾ أي: الذين يظلمون أنفسهم وأمتهم بتخاذلهم عن الجهاد والدفاع عنها، فيصبحون في الدنيا أذلاء مستضعفين، وفي الآخرة أشقياء معذبين»[1].

ثم فصَّل القصة بعد أن أجملها، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ وأمركم بالجهاد معه، ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾، وإنما قالوا ذلك لأنهم قد اعتادوا الخضوع للأغنياء والشرفاء الـمُسْتبدّين، وإن لم يمتازوا بصفاتهم الذاتيَّة، ومعارفهم وأخلاقهم النفسيَّة، ولأنَّ طالوت ليس من سلائل الملوك ولا من سلائل النبوَّة. وقد كان الـمُلْكُ في سِبْط يهوذا بن يعقوب، والنبوَّة في سِبْط لاوي بن يعقوب، وطالوت من سبط بنيامين.

فبيَّن الله تعالى فيما حكاه عن نبيِّه أنهم مُخطئون في زعمهم أنَّ استحقاق الملك يكون بالنَّسَب وسَعَة المال، وإنما يكون بالصفات الذاتية الممتازة وبالعلم، و﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ أي: سَعَة ﴿فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾، فعطف السبب على المسبَّب في قوله: ﴿ٱصْطَفَىٰهُ﴾، ﴿وَزَادَهُۥ﴾، أي: اختاره لما أودع فيه من الاستعداد الفطري للمُلك، وميَّزه بسَعَة العلم والدراية، وبالقدرة على المدافعة والرياسة، ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ممَّن يجعل فيه الخصائص، ويوفقه للأسباب.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٤٧﴾ على طريقة القرآن في التنبيه

(١) تفسير «المنار» (٢: ٣٧٧).

علىٰ الدليل بعد الحكم، والتذكير بأسمائه الحُسْنىٰ وآثارها، أي: واسع القدرة والتصرُّف، إذا شاء شيئاً اقْتَضَتْهُ الحكمة في نظام الخليقة وقع لا محالة، عليمٌ بوجوه الحكمة، يضعُ الأشياء في مواضعها حسب حكمته البالغة، فلا يضع سننه سُدىٰ.

ويظهر أنهم طلبوا آيةً تدلُّ علىٰ اصْطفاء الله له وتمليكه عليهم، فاكتفىٰ القرآن بالجواب، علىٰ نهجه في مثل ذلك، ولم يذكر سؤالهم، وتابع التفصيل بقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ وهو صندوق التوراة ﴿فِيهِ﴾ لكم ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ واطمئنان، إذ فيه رُضَاضُ[١] الألواح، ﴿وَ﴾ فيه ﴿بَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ وهي عَصَا موسىٰ وشيءٌ من ثيابه وعمامة هارون وشيءٌ من آثاره، يأتيكم ذلك معاداً من العمالقة الغاصبين له، ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وأولىٰ ما قيل في تفسير حَمْل الملائكة له: أن البقرتين كانت تجرَّان العَجَلة التي عليها التابوت من عمالقة بلاد فلسطين إلىٰ بني إسرائيل، كما سيأتي في تفصيل القصة، كانتَا تسيران بإلهام الملائكة وحراستها، إذ ليس معهما سائق من البشر، فالكلام علىٰ حدِّ قولهم: حمل فلان متاعه، وإنما حملته راحلتُه[٢].

ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ أي: إنَّ رجوع التابوت من الفلسطينيين إليكم علىٰ هذه الصورة بعد يأسكم من رجوعه، آية لكم علىٰ ملوكيَّة طالوت عليكم.

وتلخيص القصة: أنه كانت حروب بين الفلسطينيين وبني إسرائيل، فانتصر الفلسطينيون، وأخذوا التابوت من بني إسرائيل بعدما نكلوا بهم تنكيلاً. وكان صموئيل

---

(١) رُضاض الشيء: فُتاتُه. «تاج العروس» للزبيدي (رضض).

(٢) بل أولىٰ ما قيل: حَمْلُ الآية علىٰ ظاهرها دون حاجة إلىٰ هذا الإغراق في التأويل.

قاضياً لبني إسرائيل، وهو نبيُّهم الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً ففعل، كما تقدَّم. وكان رجوع هذا التابوت آيةً من الله لِـمُلْكِ طالوت.

وقالوا في سبب إتيان التابوت: إنَّ أهل فلسطين ابتُلُوا بعد أخذ التابوت بالفئران في زروعهم فتشاءموا منه، واعتقدوا أنَّ إله إسرائيل انتقم منهم، فأعادوه على عجلة تجرُّها بقرتان، ووضعوا فيه فئراناً من الذهب، جعلوا ذلك كفارة لذنوبهم. ملخص من تفسير «المنار» بتصرُّف(١).

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

ثم قالوا: ولما كانوا كارهين لـملكه، ثم أذْعَنوا من بعد، وكان إذعان الجميع ورضاهم مما لا يمكن العلم به إلا بالاختبار والابتلاء، أراد الله سبحانه أن يبتليَ هذا القائدُ جندَه، ليعلمَ المطيعَ من العاصي، والراضي من الساخط. فإن طاعة الجيش للقائد وثقتَه به من شروط الظفر، وأحوَجُ القواد إلى اختبار الجيش مَنْ وَلِيَ على قوم وهم له كارهون. أو كان فيهم من يكرهه، فقال تعالى حاكياً لهذا الاختبار: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي: خرج بهم من بيت المقدس ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يَذُقْهُ ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا

(١) تفسير «المنار» (٢: ٣٨٣- ٣٨٤).

مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦ﴾ فقد أعلم طالوت جنوده بأنهم سيمرُّون علىٰ نهر يمتحنهم به بإذن الله، فمن شرب منه فلا يُعَدُّ من أشياعه المتَّحدين معه في أمر القتال، إلا أن يكون ما يشربه قليلاً، فإن الغُرْفَة تُؤْخذ باليد مما يتسامح به، ومن لم يَذُقْهُ بالمرَّة فهو الذي يُركن إليه ويوثق به.

فالابتلاء سيكون علىٰ ثلاث مراتب:

مرتبةٌ من يَشرب فيُروىٰ، لا يُبالي بالأمر، وحكمُه أن يتبرأ منه.

ومَرتبةُ مَنْ يأخذ بيده غرفةً يبلُّ بها ريقَه، وهو مقبول.

ومرتبةُ مَنْ لا يذوقه بالمرَّة، وهو الولي النصير الذي يوثق باتحاده، ويُعوَّلُ علىٰ جهاده.

ثم بيَّن تعالىٰ ما كان من نتيجة اختبارهم، حيث تبيَّن أن المطيع المؤمن إيماناً صادقاً منهم قليل، فقال: ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾، وذلك لأنهم قد اعتادوا العصيان، وفسد بأسُهم، وتزلزل إيمانهم، ولم يبقَ فيهم من أهل الإيمان والغيرة علىٰ الدين إلا القليل.

ثم ذكر ما جرىٰ بين المطيعين وغيرهم من المحاورة التي أظهرت صدق إيمان المطيعين وإخلاصهم، وفشل الآخرين وخبثهم، فقال: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ والتحق بهم الباقون الذين نزلوا علىٰ النهر وشربوا وارتَوَوا، ﴿قَالُواْ﴾ أي: أولئك الشاربون: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ فأجابهم المخلصون، بما حكىٰ عنهم سبحانه بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ وهؤلاء الذين يظنُّون أنهم ملاقو الله هم الذين جاوزوا النهر مع طالوت، ولم يتخلَّفوا عنه للشرب.

وقد أفادت الآية أنَّ الإيمان بالله تعالىٰ والتصديق بلقائه، من أعظم أسباب الصبر والثبات في مواقف الجِلاد.

وكلمة ﴿يَظُنُّونَ﴾ هنا للمبالغة في التعبير عن قوة يقينهم واعتقادهم. فقد قال الرازي: إنَّ من خصائص اللغة إذا أريد المبالغة في اليقين، يؤتىٰ بلفظٍ وُضع للشك(١).

ثم تابع الكلام عن المؤمنين، فقال: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ﴾ جبّار فلسطين ﴿وَجُنُودِهِۦ﴾ دعَوُا الله مراعين في صورة طلبهم الترتيب الطبيعي و﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتيسيره ونصره وتأييده، ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾، وكان أحدَ أفراد جيش طالوت المؤمنين، قتل ﴿جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي: جعَله ملكاً ونبياً وأنزل عليه الزبور. ولم يجتمع المُلكُ والنبوةُ لأحد قبله من بني إسرائيل، وإنما كان الملك في سبط، والنبوة في سبط. كما مرَّ بيان ذلك.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

ثم بيّن تعالىٰ حكمة الإذن بالقتال، فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: بغلبة أهل الباطل والفساد، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ

(١) لم نقف على قول الرازي في «تفسيره».

ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ حيث أذِنَ لأهل الصلاح أن يدفعوا أهل الفساد وأهل الباطل، وفوّقهم عليهم، وجَعَل لهم السلطان في الأرض.

ثم ختم سبحانه وتعالىٰ السياق بما فيه تنويهٌ بشأنه، مُحتجاً بذلك علىٰ حقيَّة هذا القرآن، وأنه منزَّل من الله تعالىٰ، وأنَّ من نزل عليه هو رسول الله، فقال: ﴿ تِلْكَ ﴾ أي: البيِّنات والقصص التي قَصَصْناها عليك، إنما هي ﴿ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾، ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾، أي: إذ لولا الرسالة لما تُليت عليك تلك الأحكام والقصص، لمعرفة مواضع العبر والبيِّنات، ولتبليغها للناس، وفي هذا الكلام تعريضٌ بأنَّ ما يقوله بنو إسرائيل في هذه القصة مخالفاً لهذا، فهو باطل وتحزُّب.

ومن نهج القرآن أنه يقرِّر بهذه الحُجَّة نبوته ﷺ إثر أكثر القَصص الذي يقصُّه عليه.

ووجه الحجة: إنك لم تكن في أزمنة وقوعها، ولا تعلم شيئاً من التاريخ عنها، ولو تعلَّمته لجئتَ به تخليطاً علىٰ النَّحو الذي عند أهل الكتاب أو غيرهم من القصَّاصين، بخلاف ما قُصَّ عليك، فإنه هو الحقُّ المبين والصدق اليقين.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

ثم قال في «المنار» نقلاً عن الأستاذ الإمام، ما خلاصته: وبعد أن رغَّب في بذل المال والنفس في سبيل الله، وضَرَب لذلك الأمثال، وختم سبحانه وتعالىٰ السياق بأن

ما ذُكر هو آيات الله تعالىٰ يتلوها عليه بالحق، وشهادته له بأنه من المرسلين، أي: الذين كانوا أقطاب الهداية ومحلّ التوفيق والعناية، ذَكَر أولئك الرُّسل الذين هو منهم صلوات الله تعالىٰ عليهم، ومُبيِّناً تفضيلَ بعضهم علىٰ بعض، وخَصَّ بالذكر أو الوصف مَنْ بقي لهم أتباعٌ، وذكر ما كان من أمر أتباعهم من بعدهم في الاختلاف والاقتتال، فقال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: بمآثر جليلة مع استوائهم في اختيار الله تعالىٰ إيَّاهم للتبليغ عنه، وهداية خلقه إلىٰ ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وقد بيَّن هذا التفضيل في بعض المفضَّلِين، فقال: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ مِن وراءَ حجاب، فلا يُدرىٰ كيف كان التَّكليم، ولكنه إيمانٌ مع إيقانٍ دون إدراكٍ لحقيقة الشأن، وذلك مثل موسىٰ عليه السلام، قيل: ونبيّنا أيضاً عليه الصلاة والسلام، وكان ذلك ليلة المعراج. ولا يجوز لنا البحث عن كيفيَّة تكليم الله لرسله.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ هذا الكلام مما لا يمكن أن يعرفه إلا النبي المُكَلَّم، حتىٰ إنه لا يستطيع أن يُفهمه لغيره(١).

أقول: وكثير من الحقائق التي لا نشك فيها لا نعلم عن كيفيتها، فهذه عملية التذكُّر والإدراك نفسها لا أحد يعرف كيف تتمُّ له هذه الحقيقة. ومن المعلوم أنَّ الأنبياء عليهم السلام من أكمل البشر، مُزوَّدون بالقدرة علىٰ استلهام المعلومات عن الله سبحانه بطريقة خارجة عن نطاق الحواس، يجري فيهم ذلك دون أن يعلموا كيفيته. والله أعلم. فما علمه موسىٰ عليه السلام هو إيمان مع إيقان دون إدراك لحقيقة الشأن، والله أعلم.

وقال بعض العلماء: إنه من نوع تكليم الله للملائكة.

أقول: ويجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون الملك المقرَّب منطبعاً علىٰ أن يحسَّ بالتوجُّه

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٣-٥).

إلىٰ الأمر الأعلىٰ، فيلحظه وينطبع في هُوِّيته ما يلحظ، أو شبيهاً بمثل ذلك، والله أعلم بأسراره[١].

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان عن التفصيل: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: في مراتب الفَضْل ومعارج الكمال.

وقد ذهب جماعة المفسِّرين إلىٰ أنَّ المراد به نبيُّنا ﷺ، أو إبراهيم عليه السلام، وقيل: أولو العزم من الرسل.

ثم ذكر من الذين لهم أتباع: عيسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، و﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ هي: ما يتبيَّن به الحق من الآيات والدلائل. و﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ هو: روح الوحي الذي يُؤيِّد الله به رسله. والكلمة من إضافة الموصوف إلىٰ الصفة.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ اختلاف البشر علىٰ أنبيائهم، وأشار إلىٰ أنَّ منشأ ذلك الاختلاف إنما هو الطبيعة الإنسانيَّة التي خلقها الله مُستعدَّة لذلك، إذا أفسدها صاحبها، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من الأمم، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: علىٰ أيدي هؤلاء الرسل، وذلك بأن يخلقهم مُسْتعدّين للهداية وعمل الخير فقط كالملائكة، لا مُسْتَعِدِّين للأمرين بحكم اختيارهم وحريَّة تصرُّفهم، ومَهْدِيِّين بفطرتهم للنَّجْدَين، ﴿وَلَٰكِنِ﴾ لم يشأ سبحانه وتعالىٰ ذلك؛ لأنه غير مُوافق للحكمة التي خَلَق الله البشر بمقتضاها، ومن ذلك أن جعلهم خلفاء الأرض، يتصرَّفون فيها بمواهبهم، ومعارفهم المكتسبة، رائدُهم العقل، وسائقُهم الأمل.

---

(١) هذا القول لا يصح. وليت المؤلف ـ غفر الله له ـ اقتصر علىٰ ما ذكره أولاً: لا يجوز لنا البحث عن كيفية تكليم الله لرسله.

فلمّا خلقهم سبحانه وتعالىٰ ذوي إرادة مطلقة، مختارين في تصرُّفاتهم حتىٰ يقدروا علىٰ العمل والإيجاد، وكانوا بذلك الاختيار مُستعدِّين للحقِّ والخير بطبيعتهم، وللباطل والشر بإفسادهم لها، ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾ بمقتضىٰ ذلك الاستعداد، ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ﴾ وهم الذين لم يفسدوا طبيعتهم، ﴿وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَ﴾ وهم الذين أفسدوا طبيعتهم، فأعرضَتْ نفوسُهم عن الإيمان، وتنكَّبت عن الصِّراط المستقيم، ﴿وَ﴾ بعد أن خلقهم علىٰ هذه الطبيعة أيضاً ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾ وذلك بأن يخلقهم مُسْتعدِّين لأن يعذر المختلفون بعضهم بعضاً، فلا يهتمُّون بالدفاع عن الحقِّ والنضال عنه، ومقاومة الباطل وجهاد أهله، وانتصار كلِّ ذي رأي لرأيه، أو أن يُوطِّن كلُّ فريق منهم نفسه، علىٰ أن يقف عند رأيه ويسعىٰ له بالفطنة والوئام، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الحكمة لم تشأ ذلك، لئلا يسلبهم القدرةَ علىٰ العمل والنشاط بإبطال موهبة التنافس بينهم، وإن ﴿ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ أي: من مقتضيات الحكمة العالية التي تَخفىٰ علىٰ غير ذوي الألباب، إذ لولا استعداد الناس بأن يدفع الله شرَّ بعضهم ببعض؛ لفَسَدَت الأرض، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وفي تكرار جملة: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾، تقريرٌ لأنَّ الله سبحانه هو الذي أراد للإنسان حريَّة التصرُّف في أعماله، وجعل له عقلاً يفرِّق بين الخير والشر، إن لم يفسده صاحبه بمفاسد التربية وسوء القدوة.

وتوضيح ذلك ما قاله الأستاذ الإمام، وهو: أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ لم يخلق البشر بقوىٰ محدودة متساوية في أفرادهم، لا تتجاوز ما به طلب قوام الجسم، بالإلهام الفطري والإدراك الجزئي، كالأنعام السائمة، والطيور الحائمة. وإنما خلق الإنسان وجَعَل له عقلاً يتصرَّف في أنواع شعوره، وفكراً يجول في طرق حاجاته البدنيَّة والنفسيَّة، وجعل ارتقاءه في إدراكه كسبيّاً ينشأ ضعيفاً فيقوىٰ بالتدريج، حسب التربية التي يُحاط بها،

والتعليم الذي يَتَلقَّاه، وتأثير حوادث الزمان والمكان والأسوة والتجارب، وجعل هداية الدين له أمراً اختيارياً لا وضعاً اضطرارياً. فهي معروضةٌ أمامه يأخذ منها بقدر استعداده كما هو شأنه في الأخذ بسائر أنواع الهداية والاستفادة من منافع الكون.

هذه هي سنَّة الله تعالىٰ في الإنسان، وهي منشأ الاختلاف. فهو يقول: لو شاء الله أن يجعل سنَّته في تبليغ الدين وعَرْضِه علىٰ الناس هكذا، بأن يجعله من إلهاماتهم العامَّة وشعورِهم الفطريِّ، كشعور الحيوان وإلهامه ما فيه منفعته؛ لكانوا في هداية الدين سواء، يسعدون به أجمعون، فتمنعهم بياناته أن يختلفوا فيقتتلوا. ولكنه خلق الإنسان علىٰ غير ما خلق عليه الحيوان، خلقه ذا إرادة مطلقة يتأتَّىٰ منها الاختلاف في المآرب؛ ليكون نشيطاً في العمل والإيجاد، وذلك بحسب حكمته تعالىٰ.

وكان هذا هو سبب الاختلاف في أهل الأديان، فمنهم مَنْ آمن إيماناً صحيحاً فأخذ الدين علىٰ وجهه، إذ فهمه حقَّ فهمه. ومنهم من لبسه مقلوباً، وحكَّم هواه في تأويله، فكان كافراً به في الحقيقة، وإن كان غالياً فيما أحدث فيه من مذهب أو طريقة، وكان ذلك مَدْعاة التخاصم وسبب التنازع والتقاتل[1].

أما قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَـتَلُواْ﴾، فالمراد: أنه سبحانه بعد أن فَطَر الإنسانَ علىٰ الاستعداد للاختلاف، فلو شاء أن يجعلَ في الطبيعة أن يعذر المختلفون بعضهم بعضاً، ويُوطِّن كلُّ فريق منهم نفسه علىٰ أن ينتصر لرأيه بالحُجَّة، ويسعىٰ إلىٰ مصلحته بالفطنة، لما اقْتتلوا علىٰ ما يختلفون فيه. ولكنه جَعَلهم درجات في الفَهْم والحَزْم، وأودع في غرائزهم المدافعة عن حقيقتهم التي يعتقدونها، والنضال دون مصلحتهم بكلِّ ما قدروا عليه من قول وعمل. فالقويُّ بالرأي يُحارَب بالرأي، والقويُّ بالسيف يُقاوم

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٧).

بالسيف. فكان الاختلاف في الرأي والمصالح معاً مع عدم العذر، مُؤدّياً إلىٰ الاقتتال لا مَحالة، والله سبحانه يفعل ما يُريد حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة(١) الخفيَّة عن إدراك البشر. هذا ما قاله الأستاذ الإمام بتصرُّف قليل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾.

ثم عاد إلىٰ الأمر بالإنفاق بأسلوب ترهيبي، بعد أن نَدَب إليه بأسلوب ترغيبي بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا .... ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وذلك علىٰ نهج القرآن في العودة إلىٰ الكلام في الشيء الذي يُريد أن يبحث عنه مُشْبعاً، (كما جاء في الفقرة (و) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ ﴾، فأمر بالإنفاق ولكن بأسلوب الترهيب. وكان قد ذكر أمر الإنفاق في الآيات السابقة بأسلوب التَّرغيب كما مرَّ بيانه، وذلك لأنَّ الأكثرين يفعل في نفوسهم الترهيبُ ما لا يفعله الترغيبُ.

وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ تحسيسٌ وتهوينٌ واسْتِدْرارٌ بأنَّ الذي يُطْلَب منهم، إنَّما هو من رزق الله لهم، ولولا ذلك لما نالوه، فلا يبخلوا به. وقد فسروا البيع بالافتداء.

وقد أعقَبَ التحذيرَ من ذلك اليوم الهائل، ببيان أنَّ الذي يقع في هَوْله إنما يقع بفعله وظلمه لنفسه، فقال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ أي: والكافرون هم الذين ظلموا أنفسهم، فلم يتَّقوا ذلك اليوم، وما ظلمهم الله لأنه سبحانه وتعالىٰ لم يخلقهم

(١) لو اقتصر المؤلف رحمه الله علىٰ ذكر الحكمة لكان أحسن، فقد وردت النصوص الشرعية بوصف الله بها، أما المصلحة فلا، ولا يخفىٰ أيضاً أن المصلحة هنا: هي مصلحة العباد، ومراعاة مصلحة العباد نوع من الحكمة، أما أن تكون المصلحة متعلقة بالله تعالىٰ فهذا لا يُتصوَّر أصلاً في حقِّه سبحانه.

مَطْبوعين علىٰ الكفر، بل خلقهم مُسْتعدّين للإيمان، ولكنهم أفسدوا استعدادهم بسُوء تصرُّفهم فيه، فأعرضوا عمّا جاءهم من الحق، وكيَّفوا نفوسهم بكيفيَّةٍ أهَّلتهم للشقاء في ذلك اليوم.

وقد قرَّرت الآية أن السعادة الأخرويّة لا تُنال بالفداء، ولا بإسعاد الأخلّاء، ولا بشفاعة الشفعاء، وإنما العُمدة فيها علىٰ اعتدال النفس في أخلاقها وأعمالها التي من جملتها الإنفاق.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

ثم ردَّ علىٰ الكافرين كفرهم، ببيان اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة وصفاتها، وجعله كالتعليل لإسناد الظلم لهم في إشراكهم بالله، مع أنَّ اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة أوضح من الشمس في رابعة النهار، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ أي: الحيُّ بذاته المبالغُ بالقيام بتدبير خلقه. بمعنىٰ: المدبِّر لهم علىٰ أكمل نظام، ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ والسِّنة: النعاس، وعطف النوم عليها لتأكيد نفي هذه الصفة عنه تعالىٰ. وإنما بالغ بنفي هذه الصفة عنه تعالىٰ؛ لتقرير ضدِّها له سبحانه. وتقريرُ الوصف من طريقة سَلْبِ ضدِّه هو أبلغ طريقة في التقرير. والجملة كلها تمكين لصفة القيوميَّة، وتقريرٌ لمضمونها.

ثم ذكر سبحانه عِظَمَ شأنه وسَعَة سلطانه، فقال: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكاً وإيجاداً وتسخيراً، وقهراً وتصريفاً وتدبيراً. فهو وحده المستحق للألوهية، فكيف يشركون به من لا يخلق شيئاً وهم يُخلَقون، فالكافرون هم الظالمون.

وبعد أن قرَّر التوحيد مقروناً بالدليل، ردَّ علىٰ المشركين الذين يشركون به شركاء يزعمون أنهم شفعاء لهم عند الله، فقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1]، وفي صورة العبارة بيانٌ لكبريائه وعِظَم شأنه، وأنه لا يُدانيه أحد، ليقدر علىٰ تغيير ما يريده شفاعة وضراعة، ولا يملكون منه خطاباً، فَضْلاً عن أن يُدانيه عناداً ومناصبة.

ومعنىٰ هذه الحقيقة: أنه لا يمكن أن يوجَد شفيع عنده لأحد إلا من بعد إذنه، وليس لأحد حقٌّ في الإخبار عنه تعالىٰ بمَنْ يشفع عنده ومَنْ يقبل شفاعته إلا بإعلام منه، وذلك لا يكون إلا بوحيٍ منه.

وقد ثبت في وحي هذا القرآن أنه لا يشفع أحدٌ عنده بإذنه إلا مَن ارتضاه للشفاعة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، علىٰ أحد الرأيين في الآية.

---

(١) يجوز أن يكون في قوله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ الاستثناء من مضمون ما قبله، بالحمل علىٰ المعنىٰ. أي: لا ينصرف أحد من الفزع الأكبر إلىٰ مستقر الأمان والسعادة في الآخرة، إلا بإذنه سبحانه وتعالىٰ، لا بشفاعة شفيع، وإنما ذلك يكون بالإيمان الصحيح والعمل الصالح، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]. والله أعلم.
ومحصَّل الكلام علىٰ المعنىٰ الأول: أنه لا يجرؤ أحد مهما كان مقرَّباً أن يبادئه سبحانه بالشفاعة لأحد، إلا من بعد أن يأذن له سبحانه بذلك. والشفاعة لا تُغيِّر شيئاً قَدَّرَهُ الله وقضاه. وفي الكلام ردٌّ علىٰ الكافرين في اعتمادهم علىٰ الشفعاء. (المؤلف).

وثبت في هذا الوحي أيضاً أنَّ هؤلاء المأذون لهم بالشفاعة لا يشفعون إلا لمن كان الله راضياً عنه بإيمانه وعمله الصالح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ما وَرَدَ من أحاديث الشفاعة محمول علىٰ الدعاء الذي يفعل الله تعالىٰ عقبه ما سبق في علمه الأزلي أنه سيفعله، مع أنا نقطع بأنَّ الشافع لا يُغيِّر شيئاً من علمه، ولا يُحدث تأثيراً في إرادته، وإنما تظهر بها كرامة الله لعبده بما أوقع من الفعل عقب دعائه»[1].

أقول: وذلك لأنَّ تعلُّق علمه تعالىٰ بالمعلومات ـ ما كان منها وما يكون ـ واحدٌ لا يتغيَّر ولا يَتَجدَّد من الأزل إلىٰ الأبد، ولا يغيب عن علمه شيء مما كان وما سيكون، وكلُّه حاضر في علمه سبحانه علىٰ الدوام، لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذرَّة في الأرض ولا في السماء، عالم بسلوك الشخص وأقواله وأفعاله، وما سيجري عليه، يعلم كلَّ ذلك علماً أزلياً أبدياً، ومنه دعاؤه إيَّاه تعالىٰ، وقد نظمه في ميزانيته[2]، وقدَّره له قَبولاً أو رفضاً أو تبديلاً بما هو خيرٌ له أو بما جدَّ له في الآخر، فكلُّ ذلك في علم الله عند أمر الـمَلَك عند ولادة هذا الشخص بكتابة رزقه وأجله وشقي أو سعيد، فكلُّ ما سيجري علىٰ الإنسان مما له مانع أو مُقْتض، حاضرٌ في علم الله عندما يأمر المَلَكَ بهذه الكتابة، فما أصابه لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه. فالدعاءُ داخلٌ في تنظيم القضاء والقدر من الأزل، وكذلك الشفاعة.

أما قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فيجوز أن يكون للإنذار والتهديد،

---

(١) يُنظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» ص ٤٤٥.

(٢) أي: قضائه وقَدَره، والتعبير بها أَوْلىٰ من المذكور.

ويجوز أن يكون تعليلاً لتحديد الشفاعة، مُستعاراً من الـمتعارف في الشفاعة لدىٰ السلطان العادل، حيث يُبيِّن الشفيع ما يخفىٰ علىٰ السلطان من أحوال المشفوع له التي تستحق العطف والرحمة، فهي تبيِّن أنَّ الله سبحانه يعلم أحوالهم تـمام العلم؛ ما ظهر منها وما بطن، فلا مـجال ولا معنىٰ للشفاعة عنده إلا أن تكون بطريقة الدعاء منه سبحانه. وهو المراد من الاستثناء كما سبق، والأنبياء لا تدعو من الله إلا ما يقع في نفسها أنه أمرٌ مَرْضيٌّ لله. والله أعلم.

وقال الأستاذ الإمام: وهذا إنذارٌ للمسلمين أن لا يكونوا كأهل الكتاب يتَّكلون في نَجَاتهم علىٰ شفاعة أسلافهم وصالحيهم.

ثم عطف عليه قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ ليدلَّ بهما علىٰ تفرُّده تعالىٰ بالعلم الذاتي التامّ الدال علىٰ وحدانيته. والمراد بـ«ما شاء»: ما يوحي به إلىٰ الرسل، ممَّا كان خفياً علىٰ البشر.

ثم أتىٰ بهذه الجملة التَّمثيليَّـة الدالَّة علىٰ عِظَم شأنه عزَّ وجل، وسَعَة سلطانه، وإحاطة علمه بالكائنات خَفِيَتْ أو ظهرت، صَغُرت أو عَظُمت، فقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، قال كثيرٌ من المفسِّرين ـ منهم القفال والزمخشري[1] ـ: إنَّ الكلام تصويرٌ لعظمته وتمثيلٌ لكبريائه، ولا كرسيَّ ولا قيام ولا قعود. ولكنه سبحانه خاطب عباده في تعريف ذاته وصفاته، بما اعتادوه في ملوكهم وعظمائهم[2].

(١) قوله: «كثير من المفسِّرين» تهويل لا يُوافَقُ عليه، بل الأكثرون علىٰ إثبات عالم الكرسي. وليته نقل كلام محمد رشيد رضا في «المنار» (١: ٣١): بأن الكرسي مخلوق من علم الغيب الذي نؤمن به، ولا نبحث عن حقيقته، ولا نتكلم فيه بالرأي.

ثم إثباتُ الكرسي مظهرٌ من مظاهر القدرة، فلا يلزم منه قيام ولا قعود.

(٢) «الكشاف» (٢: ٣٢٨).

أقول: وذلك علىٰ نهج القرآن في استعارة المعنىٰ الذي يُسْنَدُ لله تعالىٰ، من صفات المخاطَبين ليقرِّبه من الأفهام، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

وقال الأستاذ الإمام: السياق يدلُّ علىٰ أنَّ الكرسيَّ هو العلم الإلهي، وبذلك قال بعض المفسِّرين[١] وأهل اللغة، ويقال: كَرِس الرجل ـ كفَرِح ـ أي: كثُر علمه وازدحم علىٰ قلبه. والمراد هنا: أنَّ عِلْمَه تعالىٰ محيط بما في السماوات والأرض[٢]. حفظاً وتدبيراً، وإحصاء وتقديراً.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾، أي: لا يُثقله ويُكلِّفه حفظ عوالم السماوات والأرض، ولا يشقُّ عليه، لأنَّ أفعاله مجرَّد إرادة[٣]. وإن هذه الصفات التي جاءت في الآية تملأ القلب بعَظَمة الله وجلاله، وسَعَة قدرته وكماله، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ أي: يتعالىٰ أن يكون شأنه كشأن البشر في حالٍ من الأحوال، فالتعبير عنه سبحانه بصفات الملوك، فيه تجوُّز وتوسُّع في المقال ليتقرَّب المعنىٰ إلىٰ الأفهام.

وبعد أن بيَّن سبحانه وتعالىٰ شؤونه الجليلةَ الموجبة للإيمان به وحده، الذي هو

---

(١) فقول المؤلف في تفسير الكرسي: إنه «قول كثير من المفسِّرين» يخالف ما ينقله عن محمد عبده، بأنه قول بعض المفسّرين، وتفسير الكرسيِّ بالعِلم هو قول ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير، واختاره الطبري. والذي يظهرُ أنهم فسّـروا الآية بذلك، ولا يلزمُ منه نفيُ حقيقةِ الكرسيّ، فقد وردت فيه عِدّة أحاديث.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٢٨).

(٣) لعله يريد أن أفعاله سبحانه لا تتخلف عن إرادته، كما أنها لا تحتاج إلىٰ مزاولة بالآلات، بل تترتبُ علىٰ إرادته وقدرته بحسب علمه سبحانه وتعالىٰ.

أساس الدين المبين، قرَّر ذلك بأنه أمرٌ تهدي إليه الفطرة وتُرشد إليه المشاهدات الكونيَّة، وقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[١].

قال في «المنار»: وهذه قاعدةٌ كبرىٰ من قواعد الدين الإسلامي، وركنٌ عظيم من أركان سياسته، فهو لا يُجيز إكراه أحد علىٰ الدخول فيه، ولا يسمح لأحد أن يُكْرِه أحداً من أهله علىٰ الخروج منه. وإنما نكون متمكِّنين من إقامة هذا الركن وحفظ هذه القاعدة، إذا كنا أصحابَ قوة ومَنَعة نحمي بها ديننا وأنفسنا، لندعو إلىٰ سبيل ربِّنا بالحكمة والموعظة الحسنة، ونُجادل المخالفين بالتي هي أحسن[٢]. ولذلك فرض الله الجهاد في سبيل الله، فهو لحفظ كيان الإسلام وسَيْره في الأنام بطبيعته المرنة ونوره المبين، وليس الجهاد للإكراه علىٰ الدين، بل ليكون الإسلام قوياً واسع الرقعة والمجال، قابضاً علىٰ السياسة والسلطان، لأن الله سبحانه أنزله ديناً لكلِّ البشر، ولغته عالميَّة لما بعده من بني الإنسان.

ثم علَّل عدم الإكراه بقوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾، وهذا التعليل يُؤْذِن بأنَّ الدين الإسلامي انتشر بقوته الروحية لا بقوة السيف، كما يتقوَّل المغرضون، ويُؤْذن بأن لا حاجة إلىٰ الإكراه بعد أن تبيَّن من نعوته تعالىٰ ـ التي يمتنع توهُّم اشتراك الغير في شيءٍ منها ـ حقِّيَّة الإيمان والتوحيد الذي هو الرُّشد الموصل إلىٰ السعادة الأبديَّة،

---

(١) في آية الكرسي ردٌّ لكفر الكافرين الظالمين، ببيان اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة مقروناً بالبراهين القطعية من صفاته تعالىٰ، وتعقيبها بآية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ تفريع عليها بأنَّ ما جاء فيها من البراهين الواضحة من صفاته سبحانه يجعل البشر ملزماً بالتوحيد دون حاجة إلىٰ القسْر عليه والإكراه، يدرك ذلك كل من بقي فيه شيءٌ من نور البصيرة وسلامة العقل والإدراك. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٣٣- ٣٤).

وبطلان الكفر والشرك الذي هو الغي المؤدي إلىٰ الشقاء السَّرمدي، تبيَّن هذا لكلٍّ من له أدنىٰ مُسْكة(١) من العقل والدراية.

لذلك فرَّع عليه بقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ وهو ما يكون سبباً للطغيان والخروج عن الحق من مخلوق يُعبَد، ورئيس يُقلَّد، وهوىً يُتَّبع، فمن يكفر بذلك بعد ما تبيَّـن له أنَّ كلَّ شيء هو بمعزل عن استحقاق الألوهية، لأنه بمعزل عن أفعالها وصفاتها، ﴿وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ وحده لما أدرك من نعوته الجليلة المقتضية لاختصاص الألوهيَّة به، فلا يَعبد إلا إيَّاه، ولا يرجو غيره، ولا يخشىٰ سواه، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ فلا يسقط ولا يُخشىٰ عليه الهلكة، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ يعلم ما تُكنُّه القلوب وما تدَّعيه الألسنة، فلا تخفىٰ عليه منكم خافية، ويعلم المؤمن حقاً من غيره. ويجوز أن يُراد بالرُّشْد: عموم ما في الدِّين من السَّيْر علىٰ الهدىٰ.

ثم بيَّن خطة المؤمنين وخطة الكافرين ونتيجة كلٍّ منهما، فقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لا سلطان لأحد علىٰ اعتقادهم إلا الله، وبذلك ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وبمـا يوحي قلبياً إليهم من طُرق الهداية وسُبل الرَّشاد، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ﴾ الذي فطروا عليه ﴿إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ بما يُلقون إليهم من أنواع الغَوَاية والضلالة.

ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٢)، فبيَّن ما سينالهم في الآخرة من الجزاء الأليم السَّرمدي الدائم، تنبيهاً وإيقاظاً.

---

(١) يقال مُسْكَة من خير بالضم أي بقية «لسان العرب» (بقي).

(٢) في صورة التركيب اكتفاء وإيماء إلىٰ أن الذين آمنوا هم أصحاب الجنة خالدين فيها. وإنما أفرد النور وجمع الظلمات لوحدة الحق وتنوُّع الباطل. وإنما لم يقل: (والطاغوت وليُّ الذين كفروا) للاحتراز عن وضعه موضع الاسم الكريم في المقابلة. والطاغوت يطلق علىٰ المفرد والجمع. (المؤلف).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾.

ثم استشهد علىٰ تحقيق الخطتين بالقصة الآتية، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾.

قال الأستاذ الإمام: الكلام مُتَّصل بما قبله وشاهد عليه، كأنه يقول: انظر إلىٰ إبراهيم كيف كان يهتدي بولاية الله إلىٰ الحُجج القيمة، والخروجِ من الشبهات التي تُعرَضُ عليهِ، فيظلُّ علىٰ نور من ربِّه، وانظر إلىٰ الذي حاجَّه كيف كان بولاية الطاغوت له، يعمىٰ عن نور الحُجَّة، وينتقل من ظلمة من ظلمات الشكوك إلىٰ أخرىٰ.

والاستفهام في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، للتعجيب من هذه المَحاجَّة، وغباوة صاحبها وغروره، مع الإنكار عليه.

وقوله: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ واقعٌ موقع التعليل والتأنيب، ومعناه: إن الذي حَمَله علىٰ هذه المُحاجَّة هو إعطاء الله الملك له، فكان منشأ إسرافه في غروره، وسببَ

كبريائـه وإعجابه بقدرته[١]. وفيه نقد مؤلم وتأفين شنيع، حيث قابل إحسان الله إليه بالإساءة، ونعمته عليه بالكفران.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: أنه جعل ملكه الذي أعطاه الله إيَّاه ذريعةً لادِّعاء أنه إله، ففيه سخرية واستهزاء.

ثم فصَّل صورة المحاجَّة، فقال: ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾، وكأنه كان قد سأله عن ربه الذي يدعو إلىٰ عبادته، وقد كَسر الأصنام التي تُعبد من دونه، وسفَّه أحلام عابديها لأجله، فأجابه بهذا الجواب، فأنكر الملكُ الطاغيةُ مُـدَّعياً هذا الوصف لنفسه، و﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ أُحْيِـي مَنْ حُكم عليه بالإعدام بالعفو عنه، وأُميت من شئت إماتته بالأمر بقتله، فدلَّ جوابه هذا علىٰ أنه لم يفهم قول إبراهيم ﷺ، أو هو مموِّه مُتَغَابٍ، وهو الظاهر.

ثم قال الأستاذ الإمام: لم يقل: (فقال: أنا أحيي وأميت) بالفاء، لأنه جواب منقطع عن الدليل لا يتَّصل به بالمرة، فإنه أراد أنه يكون سبباً للإحياء والإماتة، والكلام في الإنشاء والتكوين، لا في اتِّخاذ الأسباب والتوسُّل في الشيء المكوَّن. فالمراد بالذي يُحيي ويميت، الذي يُنشئ الحياة في جميع العوالم الحيَّة، من نبات وحيوان وغيرهما، ويُزيل الحياة بالموت. وعبَّر بـ(الذي) الدال علىٰ المعهود المعروف صلته دون (مَنْ) التي فيها الإبهام، وبالمضارع الدال علىٰ التَّجدُّد والاستمرار، لإفادة أنَّ هذا شأنه دائماً.

ولـما رأىٰ إبراهيم عليه السلام أن هذا الطاغية لم يفهم أنَّ المراد بالذي يُحيي ويُميت: مصدر التكوين الذي يحيا كل حي بإحيائه، ويموتُ بقطع إمداده له بالحياة أو هو مُموِّه مُتَغَابٍ؛ لم يلتفت إلىٰ إبطال مقالته، لأنها من الجلاء بحيث لا تخفىٰ، وعَدَل عن

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٣٩).

هذا الدليل إلىٰ دليل أوضح. وقد حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

والذي يراه صاحب «المنار»: أن هذا إيضاحٌ لقوله، وإزالةٌ لشبهة الخصم، لا أنه جواب آخر. والمعنىٰ: إنَّ ربي الذي يُعطي الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته، هو الذي يُطلع الشمس من المشرق، أي: هو المكوِّن لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التي نُشاهدها عليها، فإن كنتَ تفعل كما يفعل، فغيِّر لنا نظام طلوع الشمس، وائْتِ بها من الجهة المقابلة للجهة التي جَرَت سُنَّة الله تعالىٰ بظهورها منها.

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي: أدركته الحيْرة، وأخذه الحصْرُ من نُصوع الحجَّة وسطوعها، فلم يُحِرْ جواباً[1]. حيث فهم أنَّ مراد إبراهيم عليه السلام أنَّ هذا النظام في سَيْر الشمس لا بدَّ له من فاعل حكيم، إذ لا يكون مثله بالمصادفة والاتفاق، وإنَّ ربي الذي أعبده هو ذلك الفاعل الحكيم الذي قَضَتْ حكمته بأن تكون الشمس علىٰ ما ترىٰ.

ثم ختم سبحانه الكلام بما يُشعر بمنشأ كفر هذا الكافر وإصراره، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ أي: إن سُنَّته تعالىٰ مضت في طبيعة الإنسان أن مَنْ تشبَّع منهم بالظلم، وهو الضلال والإعراض عن النور الإلَهي، بفساد التربية وسوءِ القدوة، لا يمكنه أن يميل إلىٰ الهداية أبداً.

ثم ضرب سبحانه وتعالىٰ مثلاً آخر لهداية الدين للمؤمنين إلىٰ البعث والنشور، وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، وتقريب أمر البعث إلىٰ الأذهان، وقدرة الله عليه، فقال: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾، وقدَّروا في الكلام: أرأيت، علىٰ طريقة الاكتفاء،

(١) تفسير «المنار» (٣: ٣٩).

لإثبات التعجيب أيضاً، وقالوا: إنَّ التـقدير: أو رأيتَ مَثَـلَ الذي مرَّ علىٰ قرية، في إلمام ظلمة الشُّبهة به وإخراج الله إيَّاه منها إلىٰ النور، وإنما جاء بالكاف للتنبيه علىٰ تعدُّد الشواهد، لأن مُسْتَبْعدي الإحياء كثيرون.

وأقول: يجوز أن تكون هذه الكافُ مقدَّرةً في المثل الأول أيضاً علىٰ نهج القرآن في الاحتباك، فقد حذف نظيرها، من المثل الأول اكتفاءً بها، وحذفت كلمة «أرأيت» من هذا المثل اكـتفاءً بنظيرتها في المثل الأول، والتقدير: ألم تر إلىٰ مَـثَل الذي حاجَّ إبراهيم... إلخ، أو رأيتَ مَـثَل الذي مـرَّ علىٰ قريـة ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، و«العروش»: جمع عرش، وهو السقف.

وكلمة «خاوية» لها معنيان: الأول: بمعنىٰ ساقطة، والثاني: بمعنىٰ خالية.

وقد اختلفوا في معنىٰ الآية علىٰ وجهين: فقيل معناها: وهي ساقطة علىٰ سقوفها، وذلك بأن سقطت السقوف أولاً ثم تهدَّمت الجدران عليها. من قولهم: خوىٰ البيت. وقيل: معناها: وهي خالية من أهلها ثابتة علىٰ سقوفها. وكِلا المعنيين يُؤْذن بخراب الديار وفناء أهلها.

فلما رأىٰ هذا المارّ هذه القرية علىٰ هذه الحالة، ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ أي: كيف يُحيي الله أهل هذه القرية بعد فنائهم؟ يُظهر استعظامه لكيفيَّة ذلك وحَيْرته منها. ويجوز أن تكون ﴿أَنَّىٰ﴾ بمعنىٰ: متىٰ، ومفاد الكلام: التَّحسُّس بشدَّة حال هذه الأرواح من جرّاء طول المدة التي مرَّت عليها، والتي ستمرُّ بعد ذلك. والله أعلم. وإذا لم يكن هذا هو غرض السائل، فلا أقلَّ من أن يكون عنصراً فيه مهماً، لأنَّ ما في الجواب من السؤال عن اللُّبث يُؤَيِّد ذلك بمقتضىٰ أساليب القرآن، والشبهةُ قد تعرض للمؤمن(١)، فيطلب المَخْرَج منها بالبرهان.

---

(١) في كونها شبهة عرضت لهذا الرجل ـ ولعله أحد الأنبياء كما يرىٰ بعضُ المفسرين فيقولون: =

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾[١] أي: أقامه، مأخوذ من قولهم: بعث الناقة، إذا أقامها من مكانها. وفي اختيار الكلمة إشارة إلىٰ سهولة هذا الإحياء عليه تعالىٰ.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ من الموت ما يمتدُّ زمناً طويلاً يفقد به صاحبُه الحسَّ والإدراك والحركة من غير أن تُفارق الروح البدن بالمرَّة مثل ما كان لأهل الكهف، وقد عبَّر عنه تعالىٰ بالضرب علىٰ الآذان. قال صاحب «المنار»: ولعل وجه هذا التعبير هو أنَّ السمع آخر ما يُفْقَد من إدراك مَنْ أخذه النوم أو الموت[٢].

ثم قال في هذه الآية ما ملخَّصه: وقد ثبت في هذا الزمن أنَّ من الناس من تحفظ

= إنه عُـزَير ـ نظر، والسؤالُ عن الكيفية لا يؤثر في حقيقة الإيهان بالفعل والإيقان به، كما قرَّره المؤلف نفسُه في مواضع من هذا التفسير.

(١) يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن ما جرىٰ لـهذا القائل عين ما جرىٰ لأصحاب الكهف من النوم الطويل، ولكن القرآن عبَّر هنا عن ذلك بالموت جرياً علىٰ المعنىٰ العرفي ومناسبة السؤال، وعبَّر عنه في أصحاب الكهف بالضرب علىٰ الآذان جرياً علىٰ المعنىٰ الحقيقي. هذا ما أظنه. والله أعلم.

ومن أساليب القرآن وخصائصه: أن يطوي في السؤال ما يدلُّ عليه الجواب، فيظهر أنَّ السائل ـ والله أعلم ـ استطال الأزمان المارَّة علىٰ أهلها واستعظم شدَّة شعورهم تجاه ذلك، فأبان له سبحانه أنهم يرونها قليلة وإن كانت عديدة بنظر أهل الدنيا، لأن الأزمان تقصر أو تنعدم في حياة الأرواح المجرَّدة عن الأبدان، مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] علىٰ أحد المعنيين. فالزمان والمكان من خصائص المادة. هذا ما يظهر لي. والله أعلم.(المؤلف).

وتفسيرُه الموت هنا بالنوم الطويل؛ فيه عدولٌ عن ظاهر اللفظ من غير مقتضٍ، بل سياق الآية يُمنعه، ويُرجِّحُ تفسير الموت بحقيقته المعروفة، والله أعلم.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٤٢).

حياته زمناً طويلاً من شهر أو أقل إلىٰ أربعة أشهر يكون فيها فاقد الحس والشعور، ويُعبِّرون عن ذلك بالسُّبات، وهو النوم المُسْتغرق الذي سمّاه الله وفاة. ويجري ذلك علىٰ سُنَن طبيعيَّة[1] لم يهتد إليها الأكثرون.

وقد أجرىٰ الله تعالىٰ إماتة هذا الميِّت علىٰ مثل هذه السنن. والله أعلم.

ثم بعثه و﴿قَالَ﴾ له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ يقول ذلك اسْتقصاراً لمدَّة لبثه. فيظهر ـ والله أعلم ـ أن الأرواح بعد ما تتجرَّد عن الأبدان ينعدم لديها الزمان والمكان، كما قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، علىٰ أحد المعنيين.

وبعد أن قال ذلك ﴿قَالَ﴾ تعالىٰ مُبيِّناً حقيقة حاله: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يفسد بمرور السنين.

وهذه الظاهرة العجيبة أيضاً، يجوز أن تكون جاريةً علىٰ سُنَن الله الطبيعية التي اهتدىٰ الناس إلىٰ شبهها من حفظ الأطعمة مدةً طويلة وإن لم يهتد لها تماماً علىٰ عين هذه الصورة، والله أعلم[2].

ومفاد الكلام ومُحصَّله: أنَّ النواميس الطبيعيَّة ليست محصورة بما نعلمه منها، بل هناك نواميس لا نعلم عنها شيئاً، منها: نواميس حفظ الأجسام من التفسُّخ والتَّسنُّه، ومنها: رفع الأزمان في حياة الأرواح المجرَّدة عن الأبدان.

---

(١) تقييدُه ذلك بجريانه علىٰ سنن طبيعية مما لا يُوافَق عليه، نعم... بعضُه يجري علىٰ سنن طبيعية، وبعضه لا يجري عليها فيكون خارقاً للعادة.

(٢) بل هذه الظاهرة العجيبة خارجة عن السنن الطبيعية، والله سبحانه الذي خلق السنن الكونية يخرقها إذا شاء، وما توصَّل إليه الناس من حفظ الأطعمة لمدة طويلة لا يقاس علىٰ الإماتة ثم الإحياء.

ففي الآية إيذانٌ له بأن ما تنكره الآن بناء علىٰ ما تعلمه من النواميس، غير منكر في الآخرة لاختلاف النواميس، والله أعلم.

وقد اختلفوا في المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾، فقيل: معناه: انظر كيف مات وتفرَّقت أو تفتَّت عظامه، فلولا طول المدة لم يكن كذلك.

وقيل: معناه: انظر كيف بقي حياً طول هذه المدَّة، علىٰ عدم وجود مَنْ يعتني بشأنه[1]. ويجوز أن يكون نام نَوْمةَ صاحبه وانتبهَ انتباهه مثل كلب أهل الكهف، والله أعلم.

وعلىٰ كلٍّ ففي أمر الحمـار والطعام والشراب بيانٌ لأنَّ سنن الله في الكائنات لا تقتصر علىٰ ما نعرفه منها، وإنَّ ما نعرفه قطرة من بحر خضمٍّ لا يعلمه إلا الله، ولا سيما أحوال الآخرة.

ثم قال: ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ إذ يُشاهدونك وأنت من أهل الأزمان الخالية، ويشاهدون فيك قُدرة الله العليَّة. وفي الكلام العطف علىٰ المحذوف علىٰ نهج إيجازات القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

وتقدير الكلام علىٰ ما ذكره الأستاذ الإمام: لنزيل تعجُّبك ونُريك آياتنا في نفسك وطعامك وشرابك وحمارك، ولنجعلك آية للناس[2].

---

(١) دعوىٰ أنَّ الحمار بقي حياً طوال هذه المدة، إبطالٌ للمراد من الآية، وهي: الجواب عن السؤال الذي مرَّ علىٰ القرية الخاوية ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾؟ فبقاء الحمار حياً طوال هذه المدة باطل من القول، وتعسُّف بالتأويل، والمعنىٰ الصحيح الذي أشار إليه المؤلف أولاً في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أي: انظر كيف مات وتفرَّقت أو تفتَّتت عظامه.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٤٣).

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، فقال من ذهب إلىٰ أنَّ الحمار مات: إنَّ المراد بالعظام هنا عظامُه. ومعنىٰ «ننشزها»: نُنمِّيها ونُركِّبها بعد أن تَفَصَّلت وتحلَّلت، لتشاهد كيفيَّة الإحياء في غيرك بعدما علمته في نفسك.

ومن قال: إنَّ الحمار لا يزال حياً، يقول: إنَّ المراد من العظام جنسُها، فقد قال الأستاذ الإمام: إنه بعد أن أراه الآية التي تكون حُجَّة خاصَّة لمن رآها، نبَّهه إلىٰ الحُجَّة العامَّة والدليل الثابت الذي يُمكن أن يُحتجَّ به علىٰ البعث في كلِّ زمان ومكان، وهو سنَّة الله تعالىٰ في تكوين الحيوان وإنشاء لحمه وعظمه في بطن أمه أو بيضته، فالإنشاء معناه: الإحداث والتقوية، والإنشاز معناه: التنمية، لأنَّ الذي ينمو يعلو ويرتفع. كأنه يقول: كما أطلعناك علىٰ بعض الآيات الخاصَّة التي تدلُّك علىٰ قدرتنا علىٰ البعث، نهديك إلىٰ الآية الكبرىٰ العامة فافتكر بها، وهي كيفيَّة التكوين، كيف أنَّ الله سبحانه ينشئ عظام الحيوان والإنسان ثم يُنمِّيها ثم يكسوها لحماً، كما قال تعالىٰ: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤].

والقرآن يُكرِّر الاحتجاج بهذه الآية الكونية التي هي أصل النشأة، ويستدلُّ بها علىٰ إمكان الحشـر، قال تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أي: ظهر واتَّضح له ما ذكر، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾[1] علماً يقيناً مُؤيَّداً بآياتِ الله في نفسي وفي الآفاق.

---

(١) لما كان سؤال المار علىٰ القرية ليس له نظير في عالم المادة، لم يكن إفهامه بطرق العلم النظرية، حتى أعلمه سبحانه ذلك بطريقة عملية في نفسه، ولـما كان سؤال إبراهيم عليه السلام الآتي =

والتعبير بصيغة المضارع للإشعار بأنه إنما قال ما قال بناءً علىٰ الاستبعاد العادي، واستعظاماً للأمر، وإلا فإنَّ علمه بقدرة الله تعالىٰ التي لا يستعصي عليها أمر، علمٌ مستمرٌّ لم يتغيَّر ولم يتبدَّل.

ويظهر لي ـ علىٰ نهج القرآن في إجمال السؤال والدلالة عليه بتفصيل الجواب، والله أعلم ـ أنَّ السائل استطال مدَّة البرزخ من الأزمان الطويلة التي مرَّت علىٰ أمثال أهل هذه القرية، وتخيَّل صعوبة ذلك عليهم، ولا سيما أنَّ ما مرَّ عليهم قليلٌ من كثير ممَّا سيمرُّ عليهم، فبيَّن له سبحانه بالواقع أنَّ له سُنناً في كونه ونظامه تُقرِّب البعيد وتجعل الـمُدَدَ الطويلة قصيرة؛ إذ الأرواح المجرَّدة لا تتقيَّد بالزمان والمكان، والله أعلم، فعلم السائل علماً واقعياً قدرةَ الله سبحانه علىٰ ذلك ونظامَه في أمر البرزخ، وأنَّ السنن الماديَّة التي نعرفها مخالفةٌ لسنن ما وراء الطبيعة والعالم الثاني. والشبهة قد تعتري المؤمن فيسأل عنها ويستوضحها، وقد يطلب زيادةَ علم في الموضوع، وذلك لا مَعَرَّة فيه ولا إجرام.

قال صاحب «المنار»: وسأل الأستاذَ الإمامَ سائلٌ عن كيفيَّة هذا التكلُّم مع الله؟

= مما له نظير في عالم الطبيعة، أفهمه إياه بطريقة نظريَّة، وهي المقايسة بالطير، بطريقة قياس المجهول علىٰ المعلوم، وتكشيفه وإيضاحه به.

وفي القصتين إيماءٌ إلىٰ أنَّ الخفاء في ناحية من نواحي الموضوع العلمي يقع حتىٰ للأنبياء والصدِّيقين، وبما أنه سبحانه وليُّهم، يُـخْرجهم من تلك الظلمة إلىٰ نور اليقين بالإيضاح والتبيين. والله أعلم.

ولذلك كان النبي ﷺ يسأل من جبريل، وربما يستمهله جبريل حتىٰ يسأل من الله عزَّ وجل فيجيبه، وكان ﷺ إذا سئل عن أمر لم يكن له فيه علم، أو فيه بعض خَفَاء، يتوقَّف عن الجواب حتىٰ يأتي به الوحي من الله. (المؤلف).

فقال: إنَّ الله تعالىٰ لم يُبيِّنه، وهو مما لا يُدركه كلُّ سامع، فكانت الحكمة في عدم بيانه. وإنما سأل السائل، لأن الأستاذ جرىٰ علىٰ أنَّ الذي مرَّ علىٰ القرية صدِّيق، أما علىٰ القول بأنه كان نبياً فهذا التكليم كان من الوحي، ولا يَبعُدُ أن يكون ما في القصة لنبيٍّ قُرِّرت به الحجَّة هكذا، كما وقع لإبراهيم عليه السلام، وقد يقع في نفوس الصِّدِّيقين من المعاني والأفكار الصحيحة ما لا يقع في نفوس غيرهم، فيعدّ من إلهام الله تعالىٰ إيَّاهم ذلك، كإلهام أم موسىٰ ما أُلهمت به، وقد يُعبَّر عنه بالوحي، ويحكىٰ عنه بمثل ما يحكىٰ عن التكليم(١)(٢).

ثم ذكر مثالاً آخر لولاية الله تعالىٰ للمؤمنين وإخراجه إيَّاهم من الظلمات إلىٰ النور، وهو كالذي قبله من آيات البعث أو شيء من مُلابساته.

وأما المثال الأول ـ وهو مُحاجَّة مَنْ آتاه الله تعالىٰ الـمُلكَ لإبراهيم عليه السلام ـ فهو من الآيات علىٰ وجود الله واختصاصه بالألوهيَّـة. والحكمةُ في ذِكرِ مثال واحد في إثبات الربوبيَّـة، ومثالَيْن في إثبات البعث: أنَّ منكري البعث أكثر من منكر الألوهية، لذلك ذكر مثالاً ثانياً لإثبات مُلابسات البعث، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ

---

(١) أقول: أما يحتمل أن يكون أسلوبُ المكالمة حكايةً لما دار في خاطره وما جرىٰ له وعليه، كما ذكرتُ مِثلَه في كلام الله مع الملائكة في شأن آدم، وفي كلام الله مع إبليس، وفي كلام الله الآتي مع إبراهيم عليه السلام، والعلم عند الله الحكيم العليم. (المؤلف).

قلت: هذا الاحتمال الذي يقرره المؤلف ـ غفر الله له ـ باطل، فكلام الله مع الملائكة ومع إبليس ليس حكاية لما دار في خواطرهم، كما سبق تقريره، وكذلك كلام الله تعالىٰ مع هذا الرجل في هذه القصة، وكلامه مع إبراهيم عليه السلام في القصة الآتية، فاللفظ صريحٌ في التكليم والمحاورة، وهو غير محتمل لحمله علىٰ حكاية ما يجول في الخواطر بحسب لغة العرب، نعم.. هو محتمل لأن يكون تكليماً مباشراً أو بواسطة، والقرائن تُعيِّن الثاني، فينبغي المصير إليه.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٤٤).

تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، وهذا معطوف علىٰ ما قبله، والتقدير: أَوَرأيتَ إذ قال إبراهيم... إلخ، وإنما قدَّم بين يدي الدعاء كلمةَ الاستعطاف، وهي ﴿رَبِّ﴾، مبالغةً في استدعاء الإجابة.

فلما قال إبراهيم ذلك ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ له: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِن﴾؟ وهذه الهمزة للإثبات والتحقيق، يُشبهها قول جرير:

ألستُم خيرَ مَن ركبَ المطايا[1]

والمعنىٰ: أوَلست قد آمنتَ وصدَّقتَ أني أُحيِّي الموتىٰ وأصنعُ ملابساتِ ذلك ومتعلقاته؟

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿بَلَىٰ﴾ قد أوحيتَ إليَّ فآمنتُ وصدَّقت، ﴿وَلَٰكِن﴾ تاقَتْ نفسي للخبر وزيادة العلم بعد الخبر، وللوقوف علىٰ كيفيَّة هذا السِّرّ؛ ﴿لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ بزيادة العِرفان بعد خبر الوحي وإدراك البرهان. فهو يتطلَّب علماً اطمئنانياً لا علماً ابتدائياً، وتفصيلاً بعد الإجمال.

قال ابن عباس: لأرىٰ من آياتك وأعلَمَ أنك قد أحببتَني وأجبتَني لما طلبت[2].

قال الأستاذ الإمام: وفي قوله تعالىٰ لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِن﴾ وهو أعلَمُ بإيمانه ويقينه، إرشادٌ إلىٰ ما ينبغي للإنسان أن يقف عنده ويكتفي به في هذا المقام،

---

(١) هو صدر بيت له عجزه:

وأندىٰ العالمين بطون راحِ

وهو في ديوانه ص٩٣.

وجرير: هو ابن عطية بن حذيفة الخَطَفي بن بدر الكلبي اليربوعي (٢٨- ١١٠هـ)، من أشعر أهل عصره، وكان عفيفاً من أغزل الناس شعراً. «سير أعلام النبلاء» (٤: ٥٩٠- ٥٩١)، و«الأعلام» للزركلي (٢: ١١٩).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢: ٥٠٩).

فلا يتعدَّاه إلىٰ ما ليس من شأنه، كأنه يقول: إنَّ الإيمان بهذا السرِّ الإلهي والتسليم فيه لخبر الوحي ودلائله وأمثاله المشابهة: هو منتهىٰ ما يُطلَبُ من البشر، فلو كان وراء الإيمان والتَّسليم مُطَّلَعٌ لناظر، لبيَّنه الله لك. وفي هذا الإرشاد لخليل الرحمن تأديبٌ للمؤمنين كافّة، ومنعٌ لهم من التفكّر في كيفية التكوين وأسراره، وإشغالِ نفوسهم بما استأثر الله تعالىٰ به، فلا يليق بهم البحث عنه.

وقد فهم بعض الناس من هذا السؤال: أن إبراهيم عليه السلام كان قلقاً مُضْطرباً في اعتقاده بالبعث. وما أبلدَ أذهانَهم وأبعدَ أفهامهم!

وقد ورد في «الصحيحين»: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم»[١]، أي: إننا نقطع بعدم شكِّه كما نقطع بعدم شكِّنا، أو أشد قطعاً. وليس في الكلام ما يُشعِرُ بالشك، فإنه ما من أحد إلا هو يؤمن بأمور كثيرة إيماناً يقينياً، وهو لا يعرف كيفيَّتها، ويودُّ لو يعرفها. فهذا الراديو ينقل الكلام من الأماكن البعيدة، ويوقن كلُّ الناس أنه ينقل الصوت حقيقة، ويقلُّ فيهم العارفُ بكيفية نَقْله، أفيقال فيمن طلب بيان هذه الكيفية أنه شاكٌّ بالأمر؟ كلا، فإنَّ طلبَ المزيدِ في العلم، والرغبةَ في استكناه الحقائق، والتَّشوُّفَ إلىٰ الوقوف علىٰ أسرار الخليقة، مما فطر الله عليه الإنسان. وأكمَلُ الناس علماً وفهماً أشدُّهم لذلك طلباً، وأكثرُهم تتبُّعاً للوقوف علىٰ المجهولات وأسرار الكون. وقد كان طَلَبُ الخليل عليه السلام رؤيةَ كيفية إحياء الموتىٰ بعَيْنه من هذا القبيل، فهو طلبٌ للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه القدسيَّة من معرفة خفايا أسرار الربوبيَّة، لا طلبٌ للطمأنينة في أصل عقيدة الإيمان بالبعث، الذي عرفه بالوحي والبرهان، دون المشاهدة والعيان. هذا ما قاله صاحب «المنار» بتصرُّف[٢].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١)، عن أبي هريرة.

(٢) تفسير «المنار» (٢: ٤٥-٤٦).

فلما قال إبراهيم عليه السلام ذلك ﴿قَالَ﴾ له تعالىٰ: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ وأكثرُ المفسِّرين علىٰ أنَّ ﴿صُرْهُنَّ﴾ بضم الصاد أو كَسْرِها؛ بمعنىٰ: أَمِلْهُنَّ إليك، مِن قولهم: صاره يَصيرُه أو يَصُورُه؛ بمعنىٰ: أمالَه.

وقالوا: إنَّ إبراهيم عليه السلام لما طلب من ربه أن يُطلِعَه علىٰ كيفيَّة إحياء الموتىٰ، أمره تعالىٰ أن يأخذ أربعةً من الطير ويُميلَهن إليه؛ ليتأمَّل فيهنَّ ويعرف أشكالـهنّ وهيئاتهن؛ لئـلا يلتبس عليه بعدُ الإحياء، ثم يُقطِّعُهنَّ أجزاء يُفرِّقها علىٰ عدة جبال. وقالوا: حذف من الكلام (وقَطِّعْهنَّ) لدلالة السياق عليها، ومثل ذلك من سُنَّة إيجاز القرآن.

وقال بعضهم: ﴿صُرْهُنَّ﴾ بمعنىٰ: قطِّعهن، لا بمعنىٰ: أَمِلْهُنّ، من قولهم: صاره يَصيرُه؛ إذا قطعه وفصله صوراً صوراً، يتعدَّىٰ بنفسه. ويكون قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلِّقاً بـ﴿خُذْ﴾، أو متعلِّقاً بمحذوف يكون حالاً من الضمير، أي: فصُرْهُنَّ مقرَّبةً مُمالةً إليك.

وقالوا: إنَّ إبراهيم عليه السلام قد فعل ذلك، ثم دَعَاهُنَّ، فأحياهنَّ الله وجِئْنَ إليه أحياء كما كُنَّ. وخالفهم أبو مسلم المفسِّر الشهير، فقال: ليس في الكلام ما يدلُّ علىٰ أنه فعل ذلك، وما كلُّ أمر يُقصَد به الامتثال، فإنَّ من الخبر ما يأتي بصيغة الأمر، لا سيما إذا أريد زيادة البيان، كما إذا سألك سائل: كيف يُصنَع الحبر مثلاً؟ فتقول: خذ كذا وكذا، وافعل به كذا وكذا، يَكُنْ حبراً. تريد كيفيتَه، ولا تعني تكليفَه صُنعَ الحبر بالفعل.

قال: وفي القرآن كثيرٌ من الأمر الذي يُراد به الخبر، والكلام هاهنا مَثَل لإحياء الموتىٰ وعَوْد الأرواح إلىٰ الأجساد، علىٰ سبيل السهولة ودون اختلاف. ومعناه: خُذْ أربعةَ أنواع من الطير، فضُمَّها إليك وآنِسْها بك حتىٰ تأنس وتصير بحيث تجيبُ

دعوتك، فإنَّ الطيور من أشدِّ الحيوان استعداداً لذلك، بسائر أنواعها، أو بأكثرها، لا سيما أنواع خاصَّة منها، ثم اجْعَل كلَّ جزء منها علىٰ جبل، ثم ادْعُها، فإنها تُسْرع إليك عارفةً أماكنها، لا يمنعها تفرُّق أمكنتها وبُعدُها من ذلك. كذلك أمْرُ ربك إذا أراد إحياء الموتىٰ يدعوهم بكلمة التكوين: كونوا أحياءً، فيكونوا أحياءً، كما كان شأنه في بَدْء الخلق إذ قال للسماوات والأرض: ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا: أتينا طائعين. من «الرازي» بتصرُّف(١).

وقد ذكر ما أوردوه علىٰ أبي مسلم، وما أجاب به عنه، والمدارك التي جعلت أبا مسلم يميل لهذا الرأي، ويقول به، فارجع إليه(٢).

---

(١) «تفسير الرازي» (٧: ٣٤).

(٢) قول أبي مسلم هذا فيه تكلُّف ظاهر، ويكفي في ردِّه أن النوع لا يُسمَّىٰ جزءاً لجنسه، وكذا الفَردُ لا يُسمّىٰ جزءاً لنوعه، فالجزء المذكور في قوله: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ لا بدَّ أن يكون قطعة من شيء لا تحيا بنفسها. وقد استشعر المؤلف قوة هذا الإيراد علىٰ قول أبي مسلم، فحاول أن يجيب عنه في كلامه الآتي، فانظره.

كذلك فإن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ يردُّ ما قاله أبو مسلم، وأقرَّه المُؤلِّفُ عليه.

وليعلم أن إبراهيم عليه السلام لم يشك في قدرة الله علىٰ إحياء الموتىٰ، وذلك أنه قرّر في الآيات التي قبلها إيمانه بهذه الحقيقة، حينما قال للنمرود: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، ولأن الشك يَبْعُدُ وقوعه عمن رسخ الإيمان في قلبه، فكيف بمن بلغ رتبة النبوة، ودخل النار راضياً محافظة علىٰ دينه؟!

وليُعلم أن سؤال الله تعالىٰ آية من الآيات مشروع لآحاد الناس كما هو مشروع للأنبياء، سواء كان ذلك طلباً لزيادة الإيمان، أو لدعوة الناس للإسلام.

وقد وقع مثل هذا من غلام الأخدود، كما روىٰ قِصّتَه مسلم في «صحيحه» (٣٠٠٥)، وفيها: «.. فبينما هو كذلك إذ أتىٰ علىٰ دابة عظيمة، قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر =

أقول: وكلمة ﴿ٱدۡعُهُنَّ﴾ أكثر ملائمةً لرأي أبي مسلم، وربما يَرِدّ في بادئ الرأي علىٰ أبي مسلم قولُه تعالىٰ: ﴿إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا﴾، ولم يقل: واحداً.

والجواب البديهي أولاً: أنَّ عدد الأشياء يتجزَّأ، وأجزاؤه آحاد، وثانياً: أنه إنما عبَّر بهذا التعبير لأنَّ المراد به إبعادها عن مركزها مُتفرِّقة، بأيِّ صورة كانت، سواء كان ذلك بجَعْل كل اثنين منها علىٰ جبل، أو بجَعْل اثنين علىٰ جبل، وواحد علىٰ جبل، وآخر علىٰ جبل، أو بجَعْل كل واحد علىٰ جبل، لا فرق في ذلك. وقد قال سبحانه في تصنيف أهل النار: ﴿لِكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤][(١)].

ويجوز أن يُراد بالأربعة: مطلق العدد؛ لأنه أكثر من أقل الجمع[(٢)]، ويكون المعنىٰ: فَخُذ عدداً من الطير... إلخ، فيكون ذِكرُ الجزء واضحاً في الكلام.

= الساحر، فاقتل هذه الدابة، حتىٰ يمضي الناس، فرماها فقتلها، فمضىٰ الناس»، ووقع كذلك للطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه أنه لـما أسلم قال للنبي ﷺ: إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلىٰ الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية، تكون لي عوناً فيما أدعوهم إليه، فقال: «اللهم اجعل له آية» قال: فخرجت إلىٰ قومي حتىٰ إذا كنت بثنية تطلعني علىٰ الحاضر، وقع نور بين عيني مثل المصباح، قال: فقلت: اللهم في غير وجهي، فإني أخشىٰ أن يظنوا أنها مثلة لفراقي دينهم، فتحولت في رأس سوطي. انظر «أسد الغابة» (٣: ٧٨). والله أعلم.

(١) السياق هنا يدلُّ علىٰ أن الجزء هو مجموعة من الأفراد، ولا يمكن حَمْلُه علىٰ الجزء الحقيقي، وهو بعضُ الفرد الواحد، فيتعين القول بذلك، بخلاف سياق قوله: ﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا﴾ فإن المعنىٰ الظاهر منه: هو بعضُ الفرد الواحد، لا الواحد من الأربعة، فلا ينبغي العدول عن هذا المعنىٰ الظاهر من غير قرينة.

(٢) هذا غير سائغ في لغة العرب، فإنها تستعمل ألفاظ الأعداد لعددها الحقيقي، إلا أعداداً بعينها استعملتها العرب في حقيقتها تارة، وفي معنىٰ التكثير تارة، كالسبعة والسبعين. والأصلُ حَملُ الكلام علىٰ حقيقته، إلا أن يدلَّ دليلٌ علىٰ صَرْفه إلىٰ المجاز.

وكذلك ربما يعثر الفِكر في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾، فيظن أنَّ في طلب الرؤية دلالةً علىٰ أنه أراد أن يُريه كيفيَّة ذلك بالعيان. والجواب: أنَّ من سنن القرآن تصوير الأمر المتحقِّق بالظاهر المرئي، فيستعير له الرؤية، وقد جَرَىٰ هنا علىٰ هذه السنَّة، فذكر الرؤية وأراد الإفهام بوضوح وجلاء. أي: أفهِمْني ذلك إفهاماً جلياً، ومثل ذلك سائغ في عُرْف التَّخاطب.

ويؤيِّد رأيَ أبي مسلم أنَّ ما ذكروه من هذه العمليَّة لا تدلُّ علىٰ الكيفيَّة، وإنما تدل علىٰ الإيجاد، ويؤيِّده أيضاً ختامُ الكلام بهذه الفاصلة: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾، ولم يقل: (علىٰ كل شيء قدير). والمعنىٰ: إنه بعزَّته تعالىٰ غالبٌ علىٰ أمره، وبحكمته تعالىٰ جَعَل أمر الإعادة موافقاً لحكمة التكوين.

وقد ظهر لي من الآية علىٰ ضوء ما قاله أبو مسلم: أنَّ المراد منها البيانُ التمثيليُّ لا حكاية أمر واقع، وأنَّ طلب إبراهيم عليه السلام إنما كان عن كيفيَّة عَوْدة كلِّ روح إلىٰ جَسَدِها من دون اختلاف وارتباك، يُفهَمُ هذا من فحوىٰ الجواب علىٰ نهج القرآن في إيجاز السؤال، اعتماداً علىٰ تفصيل الجواب[1]، (كما جاء في الفقرة (١)

---

(١) إن سؤال إبراهيم وقع بـ«كيف؟»، فدلّ علىٰ الاستفهام عن حالِ شيء موجودٍ مُقرَّرٍ عند السائل والمسؤول، فكان السؤال عن هيئة الإحياء لا عن ذات الأحياء، وكأن سيدنا إبراهيم أراد أن يترقىٰ في هذا المقام من علم اليقين إلىٰ عين اليقين، بدليل قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ أي ليزداد سكوناً بالمشاهدة المنضمة إلىٰ اعتقاد القلب، لأن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب، ولذلك قال النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلىٰ ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي» رواه البخاري (٣٣٧٢)، أي إذا كان الشك متطرقاً إلىٰ الأنبياء، لكنت أنا أحق به منهم، وقد علمتم أني لم أشك، فاعلموا أنه لم يشك، وإنما قال النبي ﷺ ذلك تواضعاً، وقبل أن يُعلم أنه أفضل الأنبياء. وقد ذكرنا لك =

من السادة الثامنة من المقدمة الثانية).

وعبارة: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تتَّسع لمثل هذا المعنىٰ بحسب عُرْف التخاطب[١]، فيغلب علىٰ الظن أنه هو المراد، وإذا لم يكن هذا مُرتكز الجواب، فلا أقلَّ من أن يكون عنصراً فيه مهماً. والله أعلم.

وفي مادة هذا الجواب ودلالة تمثيله إيماءٌ إلىٰ أنَّ الأرواح لا يزال لها اتِّصالٌ وتآلف بأجسادها بعد الموت، مثل تآلف الطيور بأوكاره التي سكنتها مدَّة وبعدت عنها، فهي لا تجهل مواقعها وأعيانها مهما بعدت عنها وانقطعت الصِّلة بها، فمتىٰ ما أفلتت عادت إليها، كما نجد ذلك في كثير من أنواع الطيور، سيما المهاجرة منها.

فجعل سبحانه وتعالىٰ هذا الأمر في الطيور تـمثيلاً وتنظيراً لعودة كلِّ روح إلىٰ جسدها بعد إعادته، من دون ارتباك، وأجاب به إبراهيم عمَّـا سأله، توضيحاً للأمر وتمثيلاً له. والله أعلم.

ومما يخطر ببالي ـ والعلم عند الله ـ أنه يجوز أن تكون هذه المحاورةُ حكايةَ حالة نفسيَّة وخاطر مرَّ بفكر إبراهيم عليه السلام، فالتمس له حلاً، فهداه الله لهذا الجواب. كما خطر لي مثل هذا في مكالمة الله للملائكة في خلقة آدم، فعلَّقت عليه هناك[٢]. والله

= ذلك لتعلم حقيقة سؤال إبراهيم، قال القرطبي في «تفسيره» (٣: ٣٠٠): «والفكر في صورة الإحياء غير محظور، كما لنا نحن اليوم أن نفكر فيها، إذ هي فكر فيها عبر، فأراد الخليل أن يعاين، فيذهب فكره في صورة الإحياء».

(١) هذه دعوىٰ تفتقر إلىٰ دليل، ولو فتحنا هذا الباب لادعىٰ كل أحد أن آيات القرآن تتسع لمعانٍ يُورِدُها بحسب عرف التخاطب! والأصل: أنه لا يُصار إلىٰ مثل ذلك، إلا بقرينة دالةٍ عليه، تنسجم مع السياق.

(٢) وتقدَّم هناك نقدُه وبيانُ ضعفه، ولا ينقضي العجب من المؤلف رحمه الله كيف صار إلىٰ هذا الرأي في مواضع، مع ظهور ضعفه لمخالفته صريح اللفظ.

أعلم. وهذا مجرَّد رأيي في الموضوعين للمبالغة في التنزيه، فإن أصبتُ فالحمدُ لله، وإن أخطأت فأستغفر الله وأتوب إليه.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾.

ثم عاد سبحانه وتعالىٰ إلىٰ الترغيب في الإنفاق بصورة تمثيلية مجسَّمة، علىٰ سبيل القرآن في العودة إلىٰ الكلام عن الشيء الذي يريد أن يبحث عنه بحثاً مشبعاً، فينوِّع فيه المواعظ، (كما جاء في الفقرة (و) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، فعاد إليه بعد أن مهَّد له في القصص بإثبات البعث والجزاء، مبالغةً في الحثِّ عليه؛ لأنَّ ذلك يستدعي أن يُقدِّم الإنسان لآخرته ما ينال به السعادة ويدفع الشقاء، فحرَّضه سبحانه علىٰ الإنفاق، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: لا ينحصر فَضْله، ولا يُحدَّد عطاؤه، ولا يَضِيقُ عليه ما يتفضَّل به من الزيادة والتضعيف، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ بمن يستحقُّ المضاعَفة، ويضع الأحكام في مواضعها، وإن لم تعلموا حكمة ذلك.

وهذا الـمَثَلُ من أبلغ الأمثال في التـرغيب للإنفاق، وأوضحِها بياناً في ذلك المعنىٰ. وفائدة الإنفاق تعود إلىٰ قوة الأمة وسعادتها وحفظها من العدوان، إذا أُنفق في سبيل تهذيبها وتأليفها وتقويتها، بنشر العلوم والمعارف والصناعة الراقية، وذلك يُنقِذُها من الجهل والذلِّ وسوء الحال وحطّة الفقر وفوضىٰ العطالة والبطالة ونتائجها السوداء، فتصبح عزيزةَ الجانب، وافرةَ الحرمة، قليلاً فيها الجهل والفقر والمرض، فيكون هذا الإنفاق كمثل أَبْرَكِ بذرٍ في أخصَبِ أرضٍ وحقل.

ثم بيّن صفة الإنفاق الكامل علىٰ الفقراء، وما لصاحبه في الآخرة من عظيم الجزاء، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ أي: يوم يحزن الْمُمْسِكون عن الإنفاق في سبيل الله.

والمنُّ: هو أن يَتَبَجَّحَ الـمُحْسن بإحسانه لمن أحسن إليه، ويذكرَه دائماً، ويُظهِرَ بذلك تَفَضُّلَه عليه. والأذىٰ: أن يَتَطاولَ ويترفَّع دائماً علىٰ مَنْ أحسن إليه بسبب إنعامه عليه. وقيل: هو يشمل المنّ أيضاً، فهو أعمُّ منه. والإتيان بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لإظهار رتبة هذا المعطوف وعُلوِّ شأنه.

ثم أكّد النَّهيَ عن المنِّ ببيان أنَّ القولَ الجميل يُرَدُّ به السائل أو يدعو به الناس للإنفاق في مشروع من المشاريع الخيريَّـة والمصالح العامَّـة، خيرٌ عند الله وأبقىٰ من صدقةٍ مَتْبوعةٍ بالمنِّ والأذىٰ؛ علىٰ نهج القرآن في تلوين الكلام عن الغرض الواحد بأساليبَ مُنوَّعة، زيادةً في تقريره وتحليله، فقال: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: أن تقولَ قولاً تؤيِّدُ به مصلحةً عامة، فتنفق من مالك، أو تردُّ به السائل رداً جميلاً تستوجب به مغفرة الله، ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ والمراد من هذا البيان: شدَّة تقبيح أمر المنّ والأذىٰ، لا تهوين أمر الصدقة، بتفضيل القول المعروف عليها.

وعطفُ (المغفرة) علىٰ (القول المعروف) من عطف المسبَّب علىٰ السبب. وقيل: ليس المراد بها مغفرة الله، وإنما المراد مغفرةَ المسؤول عمَّا صدر من السائل من إلحاح به أو من نسبة التقصير إليه.

ثم ختم الكلام بما يُلمح لحكمة الأمر بالإنفاق، مُدْمجاً في ذلك الحثَّ عليه، علىٰ نهج القرآن في السَّبْك، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ أي: ولكنْ يأمر بالصدقة بينكم لتنظيم حالة الاجتماع، حسب السنن الكونية الحكيمة التي اقتضت تفضيل بعضكم علىٰ بعض في الرزق، وتعاونكم في شؤونه وسائر شؤون الحياة، ﴿حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ لا يُعجِّل بعقوبة مَنْ يستحقُّ العقاب، ممَّن لم يمتثلوا أوامره، ويتنكَّبون عن صراط الله العزيز الحكيم، ولكنه يُمْهِل ولا يُهْمِل. وفيه تقريعٌ للغنيِّ المُمْسِك، وبيانٌ لمنشأ صبره عليه سبحانه.

ثم تابع المعنىٰ في تقرير الموضوع وتمكينه في النفوس، بالتمثيل والأسلوب الخطابيِّ التقريريِّ، فمثَّل مثالاً للصدقة الـمَتْبوعة بالمنِّ والأذىٰ، يفيد أنه لا فائدة منها للمُنفق، ولا أجرَ لها، ولا ثوابَ عليها، واستَتْبع بطريقة التنظير نوعاً آخر من الإنفاق يشترك في هذه النتيجة، وهو الإنفاق المصحوب بالرياء، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ أي: لا تُحبطوا أجرَها بواحدٍ منهما، فتكونوا ﴿ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: فإنه لا يرجُو ثواباً ولا يخشىٰ عقاباً، فلا يُنفقُ إلا رياءً وسُمْعة.

﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ في نتيجة إنفاقه هذا ﴿ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗا ﴾ أي: كَمَثَل حَجَر أملس عليه تراب، فأصابه مطر شديد أزاله عنه، فتركه ليس عليه شيءٌ من ذلك التراب، وقد كان منظرُ التراب حينما بدا به المطر يخدع بالخِصب والإنبات، ولكن ما لبث أن زال وانكشف الحال. وهذا من أبدع الأمثال؛ لعدم بقاء

الأثر، ونفيُ الاستفادة من الشيء يُظهِرُ أنه لا يستفيد من تلك الصَّدقة المقرونة بالمنِّ أجراً وثواباً.

ثم ذكر التصريح بعد التمثيل، علىٰ نهج القرآن في مثله، وذلك من أبلغ وجوه البلاغة، فقال: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لا ينتفعون بما أنفقوا، كالذي يأخذ شيئاً بيده فيفلت منه ولا يقدر علىٰ استرجاعه.

ثم علَّل مصدر ذلك العمل منهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ أي: مَضَتْ سُنَّته تعالىٰ في أنَّ الإيمان هو الذي يهدي قلبَ صاحبه إلىٰ الاستفادةِ من الخير وجَعْلِه بالصورة المثمرة، أما التَّمادي في الكفر والإعراض فيَحجُبُ القلبَ عن نور الحق ويُعمي البصيرة. وفيه تعريضٌ بأنَّ كلاً من الرياء والمنِّ والأذىٰ من خصائص الكفار، ولا بدَّ للمؤمنين أن يجتنبوها.

ومُحصَّل الآية: أنَّ المنَّ والأذىٰ هادمٌ للفائدة المقصودة من الصَّدقة، وهي تخفيفُ بؤس المحتاجين، وكشفُ أذىٰ الفقر عنهم، إذا كانت الصدقة للأفراد، أو تنشيط القائمين بخدمة الأمة ومساعدتهم، إذا كانت الصدقة تُجمَعُ في مصلحة عامة؛ وذلك لأنَّ المنَّ يُؤذي الفرد والمجتمع، ويزيد في كسر نفوس البائسين، وكلُّ عمل لا يؤدِّي إلىٰ الغاية منه فهو حابط فاشل.

هذا وجه بطلانه وحبوطه في الدنيا، أما في الآخرة فلأن أثر هذه الأعمال في النفس إنما يكون إذا كانت لوجه الله، وتوجَّه القلب فيها إلىٰ الله، واستشعر عظمته وجلاله، وطلب منه الرحمة والغفران، فيعود ذلك إلىٰ إصلاح النفس، واستحقاق الفضل والإحسان في اليوم الآخر. أما المرائي المنَّان فإنه يتوجَّه إلىٰ مَنْ يُرائيه، ويطلب ثناءَهُ ورضاه، فلا يحصل علىٰ إصلاح الروح وتهذيب الأخلاق، لذلك مَثَّله سبحانه

بـ﴿صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾؛ لأنه لا ينتفع به في الدنيا؛ إذ المنُّ والرياءُ يجعلانه مبغوضاً عند من أحسن إليه وعند الناس أجمعين، ولا ينـتفع به في الأُخرىٰ؛ إذ لم يكن لوجه الله، فلا أجر له عند الله في زُمْرة المخلصين، وذلك لأن الإيمان هو الذي يهدي صاحبه إلىٰ الإخلاص.

وبعد أن بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنَّ ترك الـمنّ والأذىٰ شرطٌ لحصول الأجر علىٰ الإنفاق في سبيل الله، وأنَّ العدول عن الصَّدقة التي يتبعها الأذىٰ إلىٰ قول وعمل آخر يُكرَمُ به الفقير أو تُؤيَّد به المصلحة العامة، خيرٌ من نفس تلك الصَّدقة في الغاية التي شُرعت لها، وأقبل علىٰ المؤمنين فأدَّبهم بهذا الأدب العالي، ونهاهم نهياً صريحاً أن لا يُبْطلوا صَدَقاتِهم بالمنِّ والأذىٰ، وقارنَ بين الذي يفعل ذلك وبين الذي يُنفِقُ مالَه رياءً وسمعةً من المشركين، وضَرَبَ لهم المثل في فقدان أثر تلك الصَّدقة، والانتفاع بها أجراً وثواباً، بعد هذا كلِّه أتبع سنَّة القرآن في المقابلة بين الأصناف، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقابل الـمَثَل الذي ضربَه للمرائين في عدم الاستفادة من صدقتهم بضَرْبِ المثل للمُخلِصين في الإنفاق ومضاعفة ثمرته لهم، فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بانطباعٍ من النفس وتثبيتٍ منها، ولا يكون ذلك إلا بتعويدها علىٰ البذل في مواطن الإحسان، الـمُنْبَعِث عن صادق الإيمان، فمَثَلُهم ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ فإن أشجار الرُّبىٰ تكون أرْبىٰ وأزْكىٰ، تنتفع بالمطر الخفيف وهو الطَّل، والغزير وهو الوابل.

لذلك قال تعالىٰ في إتمام الوصف: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: ثَمَرَها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي: مِثْلَين، بمعنىٰ: أنها تُعطي ثمراً كثيـراً بقدر مِثْلَين من غيرها من الأشجار التي لم تكن علىٰ الربوات، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ يكفيها ويُصْلح شأنها لحُسْن موقعها بالنسبة للشمس والري، وجَوْدة تُربتها وكَرَم مَنْبتها.

ثم ختم الآية بقوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٦٥﴾ حثاً على التمسُّك بها تقدَّم أمراً ونهياً، وتذكيراً بأنه لا يَخْفىٰ عليه الـمُخلِص من الـمُرائي، وتحذيراً من خفيِّ الرياء المحبط للأجر والثواب.

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَابٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢٦٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٢٦٧ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦٨ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٦٩ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ۝٢٧٠﴾.

ثم عاد فضَرَبَ مَثَلاً للمنَّان الـمُبْطِل لِصَدقته والـمُرائي المُبْطِل لعمله، في عدم الاستفادة منه في الآخرة، ضربَه بمن يفقد أعزَّ ما عنده في أحوج ما يكون إليه، وصدَّره بصيغة الإنكار، فقال: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَابٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، قال السيوطيّ في «الإتقان» ما مُلخَّصه: وإنما وَصَف الجنةَ بهذا الوصف الممتاز من الجنان، ليُعظم مُصابَ صاحبها بها[١].

ثم أكمل الوصف بقوله: ﴿ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي: من كلِّ ما يكون في الجنان الفائقة من أنواع الثمار، وإنما ذكر هذا ليشتدَّ الأسف علىٰ إفسادها.

---

(١) «الإتقان» (٣: ٢٥٢).

ثم قال في وصف صاحبها: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ ليبيِّن شدَّة حاجته إليها. وعِظَمَ مُصابه فيها.

ثم أكمل الوصف بما يوجب زيادةَ تعظيم المصاب، فقال: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾.

ثم ذكر استئصال الجنة ـ التي ليس لهذا المصاب بها غيرها ـ بالهلاك في أسرع وقت. حيث قال: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ والإعصار: ريحٌ عاصفة مستديرة كهيئة العمود. والمراد: أنَّ الـمُنفِقَ سيكون يوم القيامة عند شدَّة الحاجة إلىٰ ثواب نفقته، مِثلَ هذا الشيخ بما أصابه.

ثم ختم البيان مُنوِّهاً لشأنه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا البيان في التمثيل ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ أي: في العواقب لتنالوا الرغائب، وتَتَجنَّبوا المصائب.

ثم بيَّن لنا سبحانه وتعالىٰ ما ينبغي مراعاتُه في الـمتصدَّق به؛ ليكمل الإرشاد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ فأمرنا أن نتصدَّق بالجيِّد المستطاب. ثم ساوق الكلام بقوله: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فعبَّر بهذه الصِّلة تذكيراً بالمنَّة، وتزهيداً بما ينفق به، لأنه من الله، وهو الذي أعطاه. ثم أكمل الإرشاد بهذه المروءة العالية، فقال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ﴾ أي: لا تَعمَدوا إلىٰ الرديء من أموالكم ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ وَ﴾ الحال ﴿لَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي: إذا أعطيتموه ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ وهذه الجملةُ الحالية فيها أبلغ تصوير لرداءة ذلك الشيء، وتتضمَّن التوبيخ والتقريع بأبلغ وَجْه.

ثم ختم الكلام بمـا يُلمح لحكمة تفاوت الأرزاق، والأمر بالإنفاق لتـلافيه، ويُلمع إلىٰ أنَّ ذلك التفاوت ليس عن عجز في القدرة، ولكن لنظام اجتماعي اقتضته

الحكمة البالغة، فقال ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ أي: عن إنفاقكم، ولو شاء لأغنىٰ الناسَ أجمعين، ولكن ذلك مخالفٌ لتسخير بعضكم لبعض، فجعل في هذا التوجيه تنظيماً لأحوالكم الاجتماعية حسب السنن الإلهية، حيث جعل من مقتضيات تلك السنن أن يكون في الناس الغني والفقير، والعامل والأمير، وواجبٌ علىٰ الأغنياء أن ينفقوا علىٰ الفقراء تكميلاً لهذا النظام الحكيم، والله سبحانه ﴿حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ أي: في أفعاله التي ليس فيها نقص ولا إخلال، ولكنَّها الحقُّ والصوابُ والكمالُ. ويجوز أن يُراد بها صيغة الفاعل، فيكون المعنىٰ: هو حامدٌ لمن يقوم بالإنفاق علىٰ الوجه المبيَّن في السياق، فيكون حثاً عليه.

وفي أمرهم بأن يعلموا ذلك مع ظهور عِلمِهم به، توبيخٌ لهم علىٰ ما يصنعون، وإيذانٌ بأنَّ ذلك من نتيجة الجهل بسُنن الله الكونيَّة.

ثم عقّب ما تقدَّم من الأمر بالإنفاق، وقرَّره وحثَّ عليه، بهذا البيان التحذيري عن البخل، فقال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهي البخل، فهو عند العرب من أفحش الفواحش، والمراد: الوسوسة بالحرص استعداداً لِـمَا يولِّده الزمن من الحاجات. وإنما عبَّر عن ذلك بالوعد لوقوعه في مقابلة وعد الله علىٰ طريقة المشاكَلَة، أي: يُخوِّفكم الفقر إذا أنفقتُم ويُغريكم علىٰ البخل، ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ فإنه جَعَل الإنفاق كفَّارةً لكثير من الخطايا، وسبباً لنموِّ المال، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]. وفي حديث «الصحيحين»: «ما من يوم يُصبح فيه العباد، إلا مَلَكان ينزلان، يقول أحدهما: اللهمَّ أعطِ مُنفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهمَّ أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»(١).

---

(١) رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم ختم الوعد بما يُقرِّره، فقال: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لا ينحصر فَضْلُه، ولا يُحَدُّ عطاؤه، ولا يضيقُ عليه ما يتفضَّل به من الزيادة والكثرة، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ يعلم كيف يضع فَضْلَه، وقد وضع هذه النُّظُمَ الاجتماعية عن علم وحكمة فاتَّبعوها، ولا تتَّبعوا سبيل الذين لا يعلمون.

قال في «المنار»: وبعد أن ذكر ما يعدُنا به جلَّ شأنه، وما يعدُ به الشيطانُ، ذكر ما نحن في أشدِّ الحاجة إليه للتمييز بين ما يقع في النفس من الإلهام الإلهي والوسواس الشيطاني(١). وهو الحكمة والسَّداد في النظر، فقال: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وآلة الحكمة: هي العقل السليم الذي يُربَّىٰ علىٰ طبيعته، ولم يُفسِده صاحبُه، فيُدرك الأشياء علىٰ ما هي عليه صحَّةً أو فساداً، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ أي: أصحاب العقول الصحيحة السالمة من التحريف والإفساد. فنسأله تعالىٰ أن يجعلنا من أُولي الألباب، ويُؤْتينا الحكمةَ وفَصْل الخطاب.

ثم أكَّد سبحانه وتعالىٰ الترغيبَ بالإخلاص في النفقة، والترهيبَ من المزيِّفات لها، ببيان أنَّ عِلمَه محيط بدقائق ما نعمل فيها وما نقصد منها، وذلك لنختار لأنفسنا أفضلَ ما نُحبُّ أن يعلمه عنا، فقال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ فلا تفعلوه إلا علىٰ الوجه الذي يريده الله سبحانه، وأضاف إلىٰ الإنفاق قضيَّةُ النذر؛ لأنه يأتي فيه ما يأتي في الإنفاق، وهو قسمان:

نَذْرُ قُربةٍ لله تعالىٰ، كأن ينذر صياماً، أو إنفاقاً في وجه بِرّ.

ونذرُ لجاج، كقوله: إنْ شفىٰ الله فلاناً فعليَّ كذا. وقد قال ﷺ في نذر اللَّجاج:

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٦٣).

«لا تنذروا، فإنَّ النذر لا يُغْني من القَدَر شيئاً، وإنما يُستَخرَجُ به من البخيل»(١). وعن أنس رضي الله عنه قال: «رأىٰ النبيُّ ﷺ رجلاً يُهادَىٰ بين رجلين، فقال: «ما هذا؟» قالوا: نذر أن يمشي إلىٰ بيت الله، قال: «إنَّ الله غنيٌّ عن تعذيب هذا نفسَه، مُروه فليركب»(٢).

ثم توعَّد المخالفين لسُنن الله وتشريعه بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ أي: ينصرونهم يوم الجزاء، فيدفعون عنهم العذاب. وتتناول الجملة أولئك المشركين المرائين وغيرَهم من الضَّالِّين.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

ولما بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنَّ الرياء يَمْحَقُ ثواب الصَّدقة، ذكر أنَّ إظهارها وإبداءها ليس من الرياء في ذاته، إذا لم تُقرَن بتلك النيَّة السيئة، فقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ أي: فنِعْمَ خَصْلةً إبداؤها؛ لأنَّ فيه تشويقاً للأغنياء علىٰ البذل والعطاء، إذ

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٦٠٨)، ومسلم (١٦٣٩)، عن ابن عمر.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٨٦٥)، ومسلم (١٦٤٢).

المنافسة فطريَّة في الإنسان، حتىٰ في الحصول علىٰ الأجر والثواب، ولأنَّ الصَّدَقة من شعائر الإسلام التي لو أُخفيت لَـتُوهِّمَ منعُها، ﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ لما في الإخفاء من البُعد عن مثار الرياء، والمحافظة علىٰ كرامة المعطىٰ له، فتكون بعيدةً عن مُزيِّفات الصَّدقات، فيقبلها الله منكم قَبولاً حَسَناً، ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ﴾.

ثم خَتَم الآية بما يحمل علىٰ إخلاص النيَّة في حالة الإبداء، وعلىٰ الترغيب والتطمين عليها في حالة الإخفاء، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾ أي: فلا تخفىٰ عليه نيَّاتكم في الإبداء، ولا أعمالكم الحسنة في الإخفاء، ولا يضيع منها شيء وإن قلَّ، فهي مُحصاة لكم.

وقال أكثر العلماء: إنَّ أفضليَّة السِّرِّ علىٰ العلانية إنما هي في صدقة التطوع، لا في الفريضة، فإنَّ إظهارها أفضل؛ لإظهار شعيرة من شعائر الدين، وقوَّةُ الدين بإظهار شعائره، ولما في ذلك من القدوة الحسنة، ولأنَّ احتمال الرياء بعيد في أداء الفرائض. بل قالوا: إنَّ الإظهار أفضل لمن يرجو اقتداءَ الناس به في صدقته، ولو كانت تطوُّعاً، ومثلُ هذا الحكم يجري في جميع الفرائض والتطوُّع.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: «صدقةُ السِّرِّ في التطوُّع تَفضُلُ علىٰ علانيتها سبعين ضعفاً، وصدقةُ الفريضة علانيتُها أفضلُ من سرِّها بخمس وعشرين ضعفاً»(١). وهذا الحكم في جميع الفرائض والتطوُّع.

وبعد أن أطلق سبحانه وتعالىٰ إيتاءَ الفقراء ومَصْرِفَ هذه الصدقات الـمُتَطَوَّع بها، ألْـمَعَ إلىٰ أنَّ هذه الصَّدقات تُصْرَف للمؤمن والكافر منهم معاً، لا كالزَّكوات،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥: ٥٨٣).

فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وهم الذين حافظوا علىٰ سلامة فِطَرِهم ونور بصائرهم. أي: إنَّ أمر الناس في الاهتداء مَنُوطٌ بما وضعه سبحانه من السُّنن الكونيَّة في تطوُّر العقول، ولم يَرْضَ سبحانه أن يكون الضلال مانعاً من العطف علىٰ صاحبه في الحقوق الإنسانية.

فقال الأستاذ الإمام: إنَّ الآية السابقة قد أطلقت إيتاءَ الفقراء وجَعَلته علىٰ عمومه الشامل للمؤمن والكافر معاً. وقد أرشد الله سبحانه المؤمنين في هذه الآية إلىٰ عدم التَّحرُّج من الإنفاق علىٰ المشركين(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يأمرنا أن لا نَتصدَّق إلا علىٰ أهل الإسلام، فأمره سبحانه وتعالىٰ أن يتصدَّق علىٰ المؤمن والكافر، فنزلت هذه الآية»(٢). وعنه أيضاً أنه قال: «كان أناسٌ من الأنصار لهم أنسباء وقرابة، وكانوا يتَّقون أن يَتَصدَّقوا عليهم، ويريدون أن يُسلِموا، فنزلت هذه الآية»(٣).

ثم ذكر فائدة هذا الإنفاق في الدنيا والآخرة، وبدأ ببيان فائدته الدنيوية فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ لأنَّ ذلك يكون حلاً للمشكلة الاجتماعيَّة التي يخشىٰ العالم عواقبَها، وهي تذمُّر الفقراء من الأغنياء، وتتضمَّن هذه الآية أيضاً الحكمة في تعميم الإنفاق علىٰ المؤمن والكافر الذي أشار إليه بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾.

ثم دفع وَجْه الشعورِ بتَحرُّج الإنفاق علىٰ الكافر، فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾، فلا فَرْقَ بين أن يكون الـمُعْطىٰ له مؤمناً أو كافراً. وقيل: الآية خبرٌ بمعنىٰ النهي، أي: لا تنفقوا إلا بهذا القصد.

(١) تفسير «المنار» (٣: ٧٠).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢: ٥٣٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٥: ٣٨٨).

ثم ذكر الفائدة الأخرويَّة للإنفاق، فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ أي: بنقصٍ أبداً.

ثم رَغَّبَ في أخصِّ الأصناف التي يُنفَقُ عليها، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: للكسب والاستفادة من تجارةٍ أو زراعة مثلاً، أي: اجْعَلوا صدقاتِكم لهؤلاء.

وقد روي عن سعيد بن جبير: أنها نزلت في قوم أصابتهم الجراحاتُ في سبيل الله، فصاروا زَمْنىٰ، فجعل لهم في أموال المسلمين حقاً[1]. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت في أهل الصُّفَّة الذين هاجروا بدينهم وتركوا أموالهم، فحيلَ بينهم وبينها، فهم محصورون في سبيل الله، وعلىٰ حفظ القرآن وتحفيظه[2]. وكان حفظُ القرآن وتحفيظُه إذ ذاك أفضَلَ العبادات علىٰ الإطلاق.

وعلىٰ ضوء هذه الآية، ثاب المسلمون في العصور الأولىٰ للإنفاق علىٰ طلاب علوم الدين والقرآن، أثناء النهضة العلمية التي انتهت ببناء المدارس وتأثيثها بالكتب والحاجيات، وإعانة طلبة العلم والعلماء، بإجراء الرواتب والـمُخصَّصات، وأوقفوا لذلك الأوقاف الطائلة حتىٰ كانت تلك النهضة العلمية في العصور الأولىٰ الإسلامية غُرَّةً في جبين الدهر، وعَلَماً من أعلامه.

والقاعدة الأصولية: أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكلُّ من اتَّصَفَ بمثل هذه الصفات من الفقراء، كان له حكم مَنْ نزلت فيهم، ويعدُّ من أخصِّ الأصناف التي رغَّبت الآية بالإنفاق عليهم.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥: ٥٨٨).

(٢) رواه أبو عبد الرحمن السُّلَمي في «الأربعين الصوفية» (١: ٣-٤).

ثم تـمَّم الوصف، فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ وهذه أعلىٰ صفة في حشمة النفس وعُلُوِّها، وذلك لما هم عليه من المبالغة في التَّنَزُّه عن الطمع فيما في أيدي الناس. ثم تابع المعنىٰ ببيان أنَّ حالهم هذا لا يخفىٰ علىٰ الألمعيِّ اللبيب، فقال: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾، وهو الأثر الذي لا يخفىٰ علىٰ الفَطِن، ثم مكَّن الوصف بقوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: إلحاحاً. وفي الكلام نفيُ الشيء بإيجابه؛ إذ ظاهرُ الكلام توجُّه النفي إلىٰ القيد وهو الإلحاف، ولكن المراد نفيُ السؤال مطلقاً. وإنما قيَّد السؤال بهذا القيد لأن ذلك هو حال السائلين المعتاد، فليس لهذا القيد مفهومُ مخالفة.

ثم ذيَّل الكلام بهذه الجملة المرغِّبة في الإنفاق علىٰ الوَجْه الذي سبقت الهداية إليه، فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ أي: لا يخفىٰ عليه حُسْنُ النية وتحرِّي النفع.

ثم تابع الترغيبَ في الإنفاق علىٰ وجه التَّنويه بشأن الذين يُعمِّمون الأوقات والأحوال بالخير والصدقة، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، وهذا التعبير يُشعِرُ بأن هذا الأجر عظيمٌ، ثم أردَفَه بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ أي: يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا مَنْ أتىٰ الله بقلب سليم.

وقد نوَّع سبحانه وتعالىٰ في هذا السِّياق الأساليب والتعابير في الحثِّ علىٰ الإنفاق والصَّدقات؛ ليجعله تمهيداً لمنع الربا وسدِّ ثغرته. وكلُّ ذلك يدلُّ علىٰ روح الإسلام وحبِّه للتعاون والضمان الاجتماعي، تحقيقاً للوحدة التي يبتغيها. وفيه إلماحٌ ضمنيٌّ إلىٰ الحثِّ علىٰ تحصيل المال من وجوهه الحقَّة؛ ليتأتَّىٰ ذلك الإنفاق المطلوب في وجوه البرِّ

والإحسان، فلا يجوز التزهيد بجَمْعِه، ولكن التزهيد في الإفراط بحبِّه والاقتصار على كَنْزه، والتَّباهي به، وكيف يُزهَّدُ في جَمْعِهِ وقد وُعِدَ مُنفِقُه بالأجر العظيم والثواب الجزيل؟!

وقد استمرَّ السلف الصالح في صدر الإسلام يفهمون هذه الآيات فهماً صحيحاً، ويدركون أغراضها وأهدافها، ويعملون بمقتضاها، فصانوا بلادهم وأنفسهم، وأيَّدوا الوحدة الإسلامية والتضامن بين أفراد الأمة، وقويت الروابط بينهم، فلم يحقد الفقراء على الأغنياء، ولم ينظر الأغنياء إلى الفقراء نظر المُدِلِّ الفخور.

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ
ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن
رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ
لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ
لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا
كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

وبعد أن نوَّه بشأن الإنفاق وبَذْل الصَّدقات بأساليب مُنوَّعة، ورَغَّب في ذلك أعظم ترغيب، لما فيه من المنافع والروابط الاجتماعية، شَرَع في ذكر الربا لِـمَا بينه وبين الصَّدقة من التَّضادّ؛ إذ الربا استغلال لحاجة المحتاج، والصدقة معاونة له ومساعدة تدفع الحاجة إلى الربا، على نهج القرآن في تعنيب الشيء بضدِّه، (كما جاء في الفقرة

(ب) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، لأنَّ الضدَّ يُظهِرُ شأنَه الضدُّ؛ لذلك تعرَّض له مبيِّناً الفرق بينه وبين المتصدِّق في حالة النفس والضمير والوجدان، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾(١).

---

(١) ألا يجوز أن يكون تشبيه حالة المرابي بحالة الممسوس؛ لأنَّ نفسيَّته مُضْطربة، فتكون تصرُّفاته وتقوُّلاته كذلك، لا يدري أيعطي الدَّين أو يباع الرهن، مع دموع العين، إلىٰ أمثال هذا من نزعات وهواجس مُقْلِقات؟!. (المؤلف).

قلت: ذكرتُ في تفسيري «المُعين» في معنىٰ هذه الآية ما نصُّه: «الذين يتعاملون بالربا أخذاً وإعطاء، فلا يُقْلعون عنه، ولا يتوبون إلىٰ بارئهم منه، ويَرَوْنَ مع ذلك أنَّهم لا يفعلون شيئاً منكراً، ويرفضون حكم الله في تحريمه، حالهم وهم يأكلون الربا ـ إذْ يسلب الإثراء بغير حقٍّ عاطفتَهم الإنسانيَّـة، ويجعل أفكارَهم ونفوسَهُم مُضْطربةً دائمةَ التطلُّع لـمضاعفة رؤوس أموالهم من جَهْد الآخرين، واستغلال ضروراتهم ـ كالمجنون ذي الحركات الـمُضْطربة، يمشي ويتعثَّر، ويصطدم بالأشياء، وتأتيه الخَبْطات من كلِّ جانب، وهو لا يرىٰ الشخص المسؤول عن الضربات التي تتهاوىٰ عليه من كلِّ جهة، فكأنمـا يتخبَّطه شيطانٌ خبيث عديم الرحمة، خفيٌّ لا تراه أعين الناس؛ ذلك الذي نَـزَل بهم من العذاب لرفضهم حكم الله في تحريم الربا، واعتراضهم عليه بقولهم: إنَّما البيعُ مثلُ الربا، فكما أن البيع يؤدِّي إلىٰ الربح وهو حلال، فكذلك الربا يؤدِّي إلىٰ الربح وهو حلال في نظرهم أيضاً، مع أنَّ الحقيقة تُثبت أن البيع ليس مثل الربا، فالربا ظلم واستغلال بغير حق، ووسيلة لمنع التعاطف والتعاون الاجتماعي عن طريق القرض الحسن، وهو كذلك ربح لا يُـقابله جهد ولا ضمان خسارة، وربح البيع يُقابله ضمان الخسارة المُحتملة، فكيف يكون البيع مثل الربا؟! وأحلَّ الله لكم الأرباح في التجارة بالبيع والشراء، لـما فيها من نفع للأفراد والجماعات، وحرَّم الربا الذي هو زيادة في المال لأجل تأخير الأجل، لما فيه من استغلال وضياع وهلاك.

فمن جاءَهُ نصحٌ مقرونٌ بما يُثير الرَّغبة والرهبة من ربِّه، فانتهىٰ عن أكل الربا، فلا يُؤَاخَذ علىٰ ما مضىٰ من ذنبه قبل نزول التحريم، وأمرُهُ إلىٰ الله، فيما يستقبل من زمانه، فإن استمرَّ علىٰ =

وهذا الكلام من عُرْف اللغة، ومقتبسٌ من مزاعم الـمُخَاطَبين الجارية بينهم مَـجْرىٰ الأمثال، كالعنقاء والسَّعالي والغول وأمثال ذلك، فهي من أساليب الكلام وخصائص التعابير، يُفهَمُ لها معانٍ مُتعارفةٌ بين الناس، وإن كان ما تَصْدُق عليه العبارة شيئاً وهمياً[١]، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. (كما جاء في الفقرة (ب) والفقرة (هـ) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

والمراد من القيام: العيش والكَوْن، أي: لا يكونون ولا يعيشون إلا كما يعيش الممْسوس في اضْطراب العقل الناتج عن قلق النفس من سُوء المصير. والغرضُ من هذا الكلام: التَّنفيرُ من الربا والتبشيعُ لحال آكِلِه، وتشبيه المرابي في حاله وارتباكه وعيشه بالمتخبِّط المصْروع.

ثم علَّل هذا وبيَّن وَجْهَ ارتكابهم له بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ وهذا القول يجوز أن يكون بمعناه الحقيقي، ويجوز أن يكون المراد به الفعل، إذ التَّجوُّز بالقول عن الفعل من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

= توبته فالله لا يضيع أجره، ومَنْ عاد إلىٰ أكل الربا بعد التحريم مُسْتَحلاً له، فأولئك البُعداء عن رحمة الله أصحاب النار الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، هم فيها دائمو البقاء، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها».

(١) الظاهر من كلام المؤلف رحمه الله أنه يريد: أنّ مسَّ الشيطان للإنسان وتخبُّطه بسبب ذلك هو من عُرْفِ اللغة، يُفهَمُ منها معانٍ مُتعارَفةٌ بين الناس، وهذا كلامٌ له وَجْهٌ من الاحتمال، وقال به بعضُ المُفسِّرين، والمُرادُ به نفيُ المسِّ البدني دون الوسوسة المُصـرَّح بها في نصوص الكتاب والسنة، وقد تقدَّم بيانُ ذلك في المقدمة (١: ٦٩٠).

أما القولُ بأنّ الشيطان نفسَه أمرٌ وهميٌّ فهذا باطلٌ لا وَجْهَ له البتة، ولا يُفهَمُ من ظاهر عبارة المؤلف هنا، وإن كانَ هو يميلُ إلىٰ القول بأنه قوّة نزّاعة إلىٰ الشر في مواضع من هذا التفسير، وقد تقدَّم التعليقُ علىٰ ذلك في المقدمة (١: ٥٦١).

والمعنىٰ: أنهم جَعَلوا الربا عملاً تجارياً حلالاً مثل البيع، لا فرق بينهما ﴿وَ﴾ الحالُ قد ﴿أَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾(١)، فأقام هذه الجملة مقام الدليل؛ لأنه سبحانه لا يُـحلُّ إلا ما فيه النفع، ولا يُحرِّم إلا ما فيه الضَّـرَر. فهذه الجملةُ تُلمعُ إلىٰ الفرق بين حالات البيع الشارحة للصدور وحالات الربا القابضة للنفوس، وتشير إلىٰ أنهما متباينان كلَّ التباين، وذلك لأنَّ التجارة مصلحة اجتماعية عمرانية عُظمىٰ، وعملية حيوية كبرىٰ. أما الربا ـ وهو أساس الرأسمالية الجائرة، واستغلال حاجة المحتاجين ـ فهو من أكبر المفاسد الاجتماعية وأضرِّ الأضرار الاقتصادية، لذلك اختلف حكمُهما لدىٰ الحكيم العليم(٢).

ومن أسباب تحريم الربا: كونه كسباً غير طبيعي يؤدِّي إلىٰ الاستغلال وتكديس الثروات، وكونه مخالفاً لمبدأ الإسلام في التعاون والتراحم، ووجوب سدِّ الأغنياء فقرَ الفقراء.

ثم أردَفَ الكلامَ بهذا الحكم، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأحكام بالقواعد

(١) الإسلام يقرِّر أنْ لا جزاء إلا علىٰ الجهد والعمل، ولا يجوز أن يكون مجرَّد المال وسيلةً لزيادة المال، ويضع قيداً منيعاً في طريق تضخُّم الثروات علىٰ حساب حاجة الأفراد للمال واضطرارهم لاستدانته بالربا، ويمنع أن ينال القاعدون الكسالىٰ جزاءً لا يستحقُّونه، بمجرَّد توظيف أموالهم، فيضمنون الربح وهم قاعدون، وتتضاعف ثرواتهم وتتضخَّم، وتُخلُّ بالتوازن الاقتصادي والاجتماعي، علىٰ نحو ما هو مُشاهَد في العالم الرأسمالي المتعفِّن. وقد أدرك رسول الله ﷺ من الآية أنَّ الزيادة من غير عِوَض ولا مقابل هي السِّرُّ في تحريم الربا، فجاء عنه: أنَّ «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، مثلاً بمثل، وسواء بسواء، يداً بيد»، الحديث. (المؤلف).

والحديث رواه البخاري (٢١٧٦)، ومسلم (١٥٨٤)، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) قال اللورد كينس الأستاذ في جامعة كمبردج الإنكليزية: لا نُبالغ إذا قلنا: إنَّ جميع الآفات الاجتماعية ناتجة عن الربا. (المؤلف).

العامة التي تشملها وغيرها، فقال: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي: يُعفىٰ له عمّا كان فَعَلَه منه قبل التحريم. والمراد به هنا: ما كان أخذه من الربا في الجاهلية. وقوله: ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه إيذانٌ إلىٰ وجوب تحرِّي الظروف، فإنْ كان هناك أحوالٌ تستدعي الردَّ فالردُّ أفضل، والله أعلم. أو المعنىٰ: أنه يُجازيه بحُسْن الثواب إن كان انتهاؤه عن صِدقِ نيّـة وإخلاص.

ثم ذكر الحكم المقابل، وسبكه علىٰ الوعيد، فقال: ﴿وَمَنۡ عَادَ﴾ بعد التَّحريم إلىٰ ما نُهي عنه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾، فهذا جزاؤهم في الآخرة.

ولما ذكر سبحانه وتعالىٰ الربا بعد الصَّدقة للمقارنة بينهما، ذكر هنا الفرق بينهما ببيان أثرهما في الدنيا والأخرىٰ، فقال: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

قال الأستاذ الإمام[(١)]: وذلك بما يلاقي المرابي من عداوة الناس، وما يُصاب بنفسه وماله من أثر ذلك؛ لأنه يكون عدوَّ المحتاجين وبغيضَ المُعْوزين، وقد تُفْضي هذه العداوة والبغضاء إلىٰ كثير من الأضرار[(٢)].

أما المتصدِّق فبعكس ذلك في الدنيا، وأما في الآخرة، فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «مَنْ تصدَّق بعدل تمرة من كَسْب طيِّب ـ ولا يقبل الله إلا طيباً ـ فإنَّ الله يقبلها بيمينه، ثمَّ يُربِّيها لصاحبها كما يربِّي أحدكم فَلوَّه حتىٰ تكون مِثلَ الجبل»[(٣)]، والحديث من باب التمثيل كما هو ظاهر، والمراد به: عِظَمُ الجزاء.

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٨٤).

(٣) متفق عليه. رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤). عن أبي هريرة، والفَلُوُّ: المُهر الصغير. «النهاية في غريب الحديث» (٣: ٤٧٤).

ثم توعَّدهم بهذا التوعُّد العام علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ أي: مُصِرٍّ علىٰ تحليل المحرَّمات كالـمُستَحِلِّ للربا. وفي صِيَغ المبالغة إلماعٌ إلىٰ أنَّ آكِلَ الربا إنما يكون من الانهماك في الإثم المؤدِّي إلىٰ الكفر.

ثم ذكر حال المؤمنين العاملين بما جاءهم عن الله من الأحكام، ومنها الزكواتُ والصدقاتُ، وبيَّن مصيرهم بطريقة المقابلة، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما جاء من عند الله، ومنها أمر الربا والصدقات، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: الأعمال التي تصلح بها نفوسهم ممَّا جاء عن الله سبحانه حسب المخططات التي يرسمها، والأوضاع التي يرتضيها، فتجنَّبوا الربا، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدَّوها مُقامةً، وذلك بالإخلاص فيها لله، والصِّدقِ في التوجُّه إليه، والشعور بمناجاته بما اشتملت عليه من ذكر وآيات، ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التي تُزكِّي النفس من الرذائل التي منها الحرص المؤدِّي إلىٰ أمثال الربا، ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ أي: فلهم هذا الوعد الكريم من الله سبحانه.

وجملةُ الآية تعريضٌ بآكل الربا الذي يستغلُّ حاجةَ الفقير، وتمهيدٌ لقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾، فقد وصفهم في هذا التركيب بالإيمان وذكَّرهم بالتقوىٰ تهيئةً لنفوسهم، ثم أمرهم بترك ما بقي من الربا، ناظراً في ذلك للمرابين منهم قبل التحريم، ثم وصل ذلك بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ لإثارة الشعور بالإيمان، والحثِّ علىٰ التمسُّك بما تقرَّر من البيان.

وقال الأستاذ الإمام[١]: أي: إن كان إيمانكم تاماً شاملاً لجميع ما جاء به محمد ﷺ من الأحكام، فذروا بقايا الربا[٢].

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٨٥).

ثمَّ توعَّدهم بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ أي: فإن لم تتركوا ما بقي من الربا، ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: فاعلموا أنكم علىٰ حرب من الله ورسوله، بمعنىٰ: أنكم محاربون لهما. وهذا أروعُ تهديد في النهي عن أمر من أمور الأحكام، يُنْبئ عن فظاعة شأن الربا وضرره الاجتماعي الوخيم، ولذلك أوصَدت الشريعةُ كلَّ الطرق المؤدية له، وسدَّت جميعَ الأبواب التي يُخشىٰ منها الوصول إليه، سداً للذريعة، فأوصدت كلَّ نافذة وإن كانت مثل سَمِّ الخياط، وقد جاء أنَّ رسول الله ﷺ أمر عامِلَه علىٰ مكة أن يُؤذِنَ المرابين بحربٍ إن لم يَرْضَوا بحكم الله هذا[(١)].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: رجعتُم عن الربا امتثالاً لأمر الله، ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ بنقص شيءٍ من رأس المال. وهذا أعدَلُ حكم في هذا النوع من الربا، وهو ما عُقِدَ قبل النهي والوعيد، ويُلمع إلىٰ أنَّ من واجب الغني أن يُقْرِضَ الفقير تجاه رهن يأتي بيانه.

ثم ذكر ما يجب أن يُفعَلَ مع الـمُعْسِر من الغُرماء، فقال: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي: وإنْ وُجِدَ غريمٌ مُعسِرٌ من غرمائكم فأمهِلوه إلىٰ وقت يَساره؛ لِيَتمكَّنَ من الأداء، وقال ﷺ: «من أنظر مُعْسراً أو وَضَع له، أظلَّه الله يوم القيامة تحت ظل عرشه، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه»[(٢)].

ثم بالغ في ندبهم إلىٰ الإحسان إليه، فقال: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: وتصدُّقُكم علىٰ هذا المُعْسِر بوضع هذا الدَّين عنه وإبرائه منه خيرٌ لكم من إنظاره

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦: ٢٣) عن ابن عباس من حديث طويل، وفيه: «إن رضوا وإلا فآذنهم بحرب».

(٢) رواه مسلم (٣٠٠٦)، عن أبي اليسر.

وإمهاله. وهذا ترغيبٌ بالسماح للمَدين الـمُعْسِر؛ لِـمَا فيه من التعاطف والتراحم ورضا الفقراء عن الأغنياء، وفي ذلك من أسباب هناء العيش في الأمة ما أشار بالتنويه عنه بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والمعرفة.

وفي صورة هذا التعبير زيادةٌ في الحثِّ علىٰ التمسُّك بما سبقت الهداية إليه، سيَّما أمر الـمُعْسِر والتَّصدُّق عليه بوضع الدَّيْن عنه.

ثم ختم سبحانه وتعالىٰ آيات الربا بهذه الموعظة العامّة التي تُسهِّل علىٰ المؤمن إذا وعاها أن يسمح بأعزِّ الأشياء لديه، رجاء أن يلقىٰ الله تعالىٰ علىٰ أحسن حال، وذلك علىٰ نهج القرآن في ختام آيات الأحكام بالمواعظ والعبر. (كما جاء في بعض فقرات المادة الثالثة والخامسة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ وقالوا: هذه آخر آية نزلت، فختم القرآن كما ختم البحث بهذا الإنذار، للمبالغة في التحذير من ذلك اليوم الرهيب الذي يجعل الولدان شيباً، ليحمل علىٰ التمسُّك بهذا الشَّرع الـمُنجي من ذلك الهوْل المريع.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا

تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ الشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

ثم شرع في بيان كيفيَّة المعاملات في الـمُدَايَنة والـمُكَاتَبة، علىٰ مقتضىٰ السياق في سَرْد الأحكام وبيان أنواع البر وأصنافه، وعلىٰ أسلوب القرآن في تنويع المباحث، (كما جاء في بعض فقرات المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، ولأن الكلام السابق في المعاملات المالية؛ فقد بدأ بالترغيب في الصَّدقات والإنفاق في سبيل الله، وثنَّىٰ بالنَّهي عن الربا، ثم جاء بأحكام الدَّيْن والتجارة والرَّهْن، وألمع إلىٰ السَّلَم والقَرْض؛ ليكونَ منها وسيلةً للحصول علىٰ المال عِوَضاً عن الربا، ويجدَ الفقير مُتنفَّساً لسدِّ حاجته بالدَّين البريء تجاه رهن أو كتابة، فقد مهَّد للربا بالترغيب في الإنفاق، وأردفه بأحكام الدَّين والقَرْض؛ للإيذان بأنَّ الصَّدقات والمُداينات النزيهة يجب أن يَسُدَّا ثَغْرةَ الربا في الأنظمة الاجتماعية، ويُصْلِحا عَوزَ الـمُعْوِزين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾.

قال الأستاذ الإمام: هذا أمرٌ عام للمتعاملين، وفيهم الأُميُّ الذي لا يكتب، لذلك احتيج إلىٰ قوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِالْعَدْلِ﴾، وقد ذكروا أنَّ العَدْلَ في الكاتب يستلزم العِلمَ بشروط المعاملات التي تحفظ الحقوق[1].

ثمَّ أوْصَىٰ هذا الكاتب أن لا يَتخلَّف إذا دُعي لذلك، فقال: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ فَلْيُراعِ منّـةَ الله عليه في ذلك التعليم، وَلْيَقُم بواجب شكرها بأن يفيد الناس بعلمه هذا.

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ١٠٠).

وفي هذه الجملة تذكيرٌ للناس بفضل الله عليهم في التعليم، علىٰ سُنَّة القرآن في مَزْج الأحكام بما يُغذِّي التوحيد، ويُنمِّي الاعترافَ بفضل الله وشكر نِعَمِه، وهو علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

ثم أكَّد المعنىٰ بالأمر بالكتابة بعد النهي عن الإباء عنها، فقال: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾، ثم بيَّن واجبَ مَنْ عليه الحقُّ في ذلك فقال: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: وَلْيُلْقِ علىٰ الكاتب ما يكتبه، بأن يُبيِّن الحقَّ الذي عليه؛ ليكون إملالُه حُجَّة عليه، تُبيِّنها الكتابة وتحفظها. والإملال والإملاء: بمعنىٰ: واحد، وفيه إبدال الهمزة باللام.

ثم حذَّره من التَّلبيس والكتمان بقوله: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ بأن يُبيِّن الحقَّ الذي عليه كما هو، ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾، وإنما جمع في التَّحذير بين الاسم الجليل والنعت الجليل، تشديداً في العدل، ومبالغةً في التَّحذير من الغدر.

ثم بيَّن حكم القاصرين من المدينين، فقال: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾ وهو ضعيف الرأي لا يُحسِنُ التصرُّف بالمال، ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ وهو الصبيُّ، ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ كالألكن والأخرس، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: مَنْ يتولَّىٰ أمورَه ويقومُ بها عنه.

ثم تابع الكلام، فأتمَّ البيان عن معاملة المداينة بالأمر بالاستشهاد وبيان حكمه، فقال: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟﴾ علىٰ ذلك ﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ أي: رَجُلَين قد حَضرا عَقْدَ المعاملة، أو يحضران الإقرارَ والإملال.

ومعنىٰ ﴿اسْتَشْهِدُوا﴾: اطلبوا منهما أن يشهَدا عند الحاجة. والسياق مع الصيغة التي هي للمبالغة والكمال، يدلَّان علىٰ أنَّ وصف الكمال الذي منه العدالة، مُعتَبرٌ فيمن يُستَشهَد، كما اعتبر مثلُه في الكتاب والوليّ.

ثم قال صاحب «المنار»: وقوله: ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ ـ والخطاب للمؤمنين ـ يدلُّ علىٰ أنهم لا يستشهدون مَنْ لم يكن منهم. وكَوْنُ استشهاد غيرهم ليس مشروعاً لهم أو ليس جائزاً ـ عملاً بمفهوم الصفة ـ لا يعدُّ نصاً علىٰ أن شهادته إذا هو شهد لا تصح، أو لا تدل علىٰ شيء. ولكن العلماء اتفقوا علىٰ شروط في الشهادة الشرعيَّة، منها: الإسلام والعدالة، وذلك لهذه الآية، ولقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، وجَعلوا قوله تعالىٰ في آية الوصيَّة: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] خاصّاً بمثل تلك الواقعة.

وقد حقَّق العلامة ابن القيم[١]: أنَّ البيِّنة في الشرع أعمُّ من الشهادة، في قوله ﷺ: «البيِّنة علىٰ من ادَّعىٰ، واليمين علىٰ من أنكر»[٢]، فكلُّ ما يتبيَّن به الحق بيِّنة، كالقرائن القطعيّـة. ويمكن أن تدخل شهادة غير المسلم في البيِّنة بهذا المعنىٰ الذي استدلَّ عليه بالكتاب والسنة واللغة، إذا تبيَّن للحاكم بها الحق[٣].

ثم أتمَّ البيان عن حكم الاستشهاد، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا﴾ أي: مَنْ تستشهدونهما ﴿رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ أي: فليُسْتَشهَد رجلٌ وامرأتان ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾ أي: دينَهم وعدالتَهم ﴿مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ الذين شهدوا الأمر وحضروه. وإنما وَكَـلَ الأمر فيه إلىٰ

---

(١) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزُّرعي الدمشقي المشهور بابن قيّم الجوزيّة (٦٩١- ٧٥١هـ)، تتلمذ لابن تيمية، ونصر أقواله في كتبه، له تصانيف كثيرة، منها: «إعلام الموقعين»، و«زاد المعاد».

(٢) رواه الترمذي (١٣٤٢) عن ابن عباس، وقال: حسن صحيح، والعمل علىٰ هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم.

(٣) تفسير «المنار» (٣: ١٠٢)، وكلام ابن القيم في «الطرق الحكمية» ص١٣٥.

رضا الـمُسْتشهدين لقلَّة الثقة في تحمُّل بعض الشهداء ـ ولا سيما النساء ـ للشهادة وحفظه لها بالضبط والدقَّة.

ثم بيّن علَّة جَعْلِ المرأتين بمنزلةِ رجلٍ واحد بقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، وذلك لقلَّة ضَبْط المرأة وعنايتها في مثل هذا النوع من أحوال الحياة، بخلاف الرجل، لذلك احتيج إلىٰ اثنتين لتُذكِّرَ كلٌّ منهما الأخرىٰ، وتُعينَها علىٰ مراجعة الفكرة في القصة، فتكون شهادتُها مُتمِّمةً لشهادة رفيقتها، ولذا أعاد لفظ ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾ مظهراً، ولم يقل: «فتذكِّرها الأخرىٰ»، إذ ليس المعنىٰ: لئلا تنسىٰ واحدة فتذكرها الثانية، وإنما المراد أن تَتَراجعا في تذكُّر الواقع بينهما، قبل الحضور لأداء الشهادة.

ثم ذكر واجب الشهداء، فقال: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ أي: إلىٰ تحمُّل الشهادة. وقيل: إذا ما دُعُوا للشهادة أو أدائها.

ثم أكَّد وجوب الكتابة، فقال: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ أي: لا تَكْسَلوا من كتابة الدَّين أو الحق، سواء كان صغيراً أو كبيراً. وهذا دليل علىٰ أنَّ الكتابةَ واجبةٌ في المقدار الصغير والكبير.

ففي الآية إرشادٌ إلىٰ عدم التهاون بشيءٍ من الحقوق أن يترك بلا كتابة، وهي قاعدةٌ عُظْمَىٰ من القواعد الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أحرىٰ بإقامة العدل، ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ أي: أعونُ علىٰ إقامة الشهادة علىٰ وجهها، وأقرب إلىٰ انتفاء ارتياب بعضكم من بعض؛ فإنَّ هذا الاحتياط في كتابة الحقوق والإشهاد عليها، وتقوىٰ الله، والعدل مع المتعاملين والكتَّاب والشهداء، يمنع كلَّ رِيْبة وكلَّ ما يترتَّب علىٰ الارتياب من المفاسد.

وقيل: المراد انتفاء الرَّيْب في جنس الدَّيْن وقَدْره وأجله ونَحْو ذلك.

وقال ابن جرير: المراد انتفاء الريب في الشهادة[١].

قال الأستاذ الإمام[٢]: وهذه مزيَّة ثالثة تُؤكِّد القول بالأخذ بها، والاعتماد عليها، وجَعْلها مُذكِّرة للشهود، والاحتجاج بها إذا استُوفيت شروطها. وفيه دليلٌ علىٰ أنَّ للشاهد أن يطلب وثيقة العقد، ليتذكَّر ما كان علىٰ وجهه الصحيح، ويشهد به[٣].

ثم استثنىٰ من ذلك قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ وذلك بأن يأخذ المشتري المبيعَ والبائعُ الثمنَ، فلا حَرَجَ في تَرْك كتابتها ولا إثم؛ إذْ لا يترتَّب عليه شيء من الارتياب الذي يجرُّ غالباً إلىٰ التَّنازع والتخاصم وما وراء ذلك من المفاسد.

ثم قال في «المنار»: وفي نفي الجُناح إشارة إلىٰ أنَّ كتابة ذلك أَوْلَىٰ، وهو إرشادٌ إلىٰ استحباب ضَبْط الإنسان لماله وإحصائه لِـمَا يرد عليه وما يصدر عنه، وذلك من الكمال المدني، ومن أسباب ارتقاء أمور المكسب. ولم يجعل هذا حتماً؛ لأنه ممَّا يشقُّ علىٰ غير المرتقين في المدنية.

وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ قيل: معناه: هذا التبايع المذكور هنا، وهو التجارة الحاضرة الخالية من الكتابة. وقيل: مطلقاً[٤]. ويجوز أن يراد المبايعات ممَّا عدا الأمور التجارية، كبيع العقارات والبيوت والـمُستَغلّات. وقد جعلت لها الحكومات دوائر خاصّة لتسجيل تلك البيوعات والإشهاد عليها، عملاً بهذه الآية.

---

(١) «تفسير الطبري» (٦: ٧٨).

(٢) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٣) تفسير «المنار» (٣: ١٠٥).

(٤) المصدر السابق (٣: ١٠٦).

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، لفظ ﴿يُضَآرَّ﴾ يحتمل البناء للفاعل والبناء للمفعول.

والمعنىٰ علىٰ الأول: نَهْيُ الكاتب والشهيد أن يضرَّ أحدَ المتعاملين؛ بعدم الإجابة أو بالتحريف والتغيير ونحو ذلك.

والمعنىٰ علىٰ الثاني: نهيُ المتعاملين عن ضُرِّ الكاتب أو الشهيد؛ بأن يُدْعَيا إلىٰ ذلك وهما مشغولان بمُهمٍّ لهما، فيُكلَّفان تَرْكَه. وعلىٰ هذا المعنىٰ: إذا قيل بأنها تُرشد إلىٰ إعطائهما أجرةَ ما يحمِّلان من الكلفة، لم يكن ببعيد، كما عليه الحكومات اليوم. وقد ذهب بعض الأصوليين إلىٰ جواز استعمال المشترك في معنييه، واللفظ في حقيقته ومجازه، وعلىٰ ذلك فيجوز أن يُراد هنا بـ﴿يُضَآرَّ﴾: البناء للفاعل والبناء للمفعول معاً؛ لأنه من قبيل المشترك.

ثم أردف النَّهيَ بالتسجيل بالفسق علىٰ المرتكب مبالغةً في التحذير، فقال: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ أي: ما نُهيتُم عنه من ضرار الكاتب والشهيد، ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ﴾ أي: خروجٌ عن حدود طاعة الله إلىٰ معصيته.

ثم ختم السياق بالموعظة العامة التي تُعين النفس علىٰ الامتثال في جميع الأعمال، علىٰ نهج القرآن في ختام الأحكام بالمواعظ، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ومن ذلك: أن تتمسَّكوا بما تقدَّم من الهُدىٰ والإرشاد.

ثم نوَّه بشأن ما سبق من التعاليم، وألمع إلىٰ أنها مَبْنيَّة علىٰ المصالح العامة والمنافع الاجتماعية، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: إنَّ أوامرَ الله سبحانه كلَّها إرشادٌ لكم، وفي هذه الأحكام قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وسلامة رابطتكم من أن يعتريها خَلَلٌ بالتخاصم والتنازع وما إلىٰ ذلك من المفاسد، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

فإذا شَرَع لكم شيئاً من الأحكام، فإنما يشرعه عن علم يُحيط بأسباب دَرْءِ المفاسد وجَلْب المصالح.

ثم ذكر حالةً للرخصة عن الكتابة واستبدالها بالرهن، وذلك عند فقدان كاتب العدل، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾، فهذا بيانٌ ورخصةٌ لترك الكتابة إذا تعذَّرت أو لم تـتيسَّر، كما يكون في حالة السفر، وحينئذ يقوم الرهن مقامها.

ثم أردف الكلام بهذا الحكم العام الذي يتناول الرهنَ والوديعةَ وما إلىٰ ذلك، وتوعَّدهم علىٰ خيانتها، فقال: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾، فأنذر سبحانه الـمُؤْتَمن عن الخيانة والغدر والإنكار، ولـمَّح له بأنه وإن لم يكن عليه شَاهَـدٌ ولا حُجَّـة وليس له رَهْن، فإنَّ الله سبحانه هو الشاهدُ والرقيب والمحاسب. وجَمَع بين الاسم الجليل والنعت الجليل[1] مبالغةً في التحذير. ويجوز أن يكون معنىٰ الآية مزدوجاً من الحكم والإرشاد.

ثم عاد بالكلام علىٰ الشهادة، وتوعَّد أروَعَ توعُّد علىٰ كتمانها، فقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ وهذا نهيٌ عن كتمان الشهادة بعد النَّهي عن إباء تحمُّلها ـ الملحوظ علىٰ أحد الوجهَيْن في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ ـ وتأكيدٌ للنهي عن كتمان الشهادة بمثابة شهادة الزور، في الإثم والوعيد.

ثم ختم الآية أو السياق بالتحذير المتضمِّن لوعيد المخالفين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

---

(١) أي: بين لفظ الجلالة والوصف بالربوبية. والصواب ـ والله أعلم ـ: والنعت الجميل، كما في «تفسير أبي السعود» (١: ٢٧٠)، و«روح البيان» لإسماعيل حقي البروسوي (١: ٤٤٠)، و«تفسير القاسمي» (٢: ٢٣٤).

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

ثم ختم السورة بهذه الآيات الباعثة على الإخلاص في الأعمال، وصِدْق الإيمان، والمبيِّنة لحقيقته، والمُؤْذنة بسهولة التكاليف؛ تهويناً لأمرها، والمُشْعِرَة بوَجْهِ الحكمة في مشروعيَّتها وتكليفنا بها، والمتضمِّنة إرشادنا لطلب العَفْو منه تعالىٰ فيما يصدر عنا لا عن قَصْد أو إصرار، ودعائنا إيَّاه أن يُخفِّف عنا ما كلَّف به الأممَ العاتية المتعنِّتة من التكاليف الشاقَّة إصلاحاً لها. وفيه إرشادٌ لنا أن لا نفعل فِعلَهم فيصيبَنا ما أصابهم.

وصدَّر ذلك ببيان قُدرة الله العظيمة؛ لإثارة الشعور بالحذر منه تعالىٰ، ومن مخالفة أحكامه، ومن سُوء النيَّة في الأعمال، فقال: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خَلْقاً ومُلْكاً، وفي هذه الآية من دليل القدرة والسلطان ما فيه تقريرٌ لما سبقها من الوعيد بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وتمهيدٌ لما بعدها من مُحاسبته لِـمَمْلوكيه، علىٰ وجه التحذير، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

وقد عبَّر بهذه الآية عن كمال القدرة، كما عبَّر عن إحاطة العلم بقوله: ﴿وَإِن

تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[1]، وإنما أظهر اسم الجلالة في موضع الإضمار، تربيةً للمهابة. واكتفىٰ بـ«ما في النفس» عن العمل؛ لأنَّ العمل يكون مسبوقاً بالعزم، فيكون ما في النفس أعمَّ منه؛ لأنه إما أن ينفَّذ أو لا ينفَّذ، وكلاهما مَجْزِيٌّ عليه؛ إذ القاصد يُجازىٰ علىٰ القصد وإن لم ينفِّذ، فإن نفَّذ جُوزي علىٰ القصْد وعلىٰ العمل معاً. وهذا وعيدٌ عام يتناول التحذير من كتمان الشهادة وعدم أدائها علىٰ وجهها.

---

(١) للعلماء في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ كلام كثير، وتحريره: أنَّ الذي يجري في النفس خمسة أصناف:

١ـ الهاجس: وهو ما يلقىٰ في النفس ولا يجول فيها.

٢ـ والخاطر: وهو ما يلقىٰ في النفس ويجول فيها.

٣ـ وحديث النفس: وهو تردُّد النفس بين فعل الخاطر وتركه.

٤ـ والهمّ: وهو توجُّه النفس نحو الفعل والميل إليه.

٥ـ والعزم: وهو التصميم علىٰ الفعل بعد توافر أسبابه.

فالأصناف الثلاثة الأولىٰ لا مُؤاخَذة فيها ولا مسؤولية عليه، حيث لا قدرة للإنسان علىٰ دفعها. أما الهمّ فإن كان بسيئة ولم يفعلها فلا مُؤاخَذة فيه أيضاً، وإن كان بحسنة ولم يفعلها كُتبت له حسنة؛ تكرُّماً من الله وفضلاً. وأما العزم فيتعلق به الجزاء ثواباً وعقاباً، فالعزمُ علىٰ الكفر كفر وإن لم يفعل، والعزم علىٰ المعصية معصية كذلك، يُعاقب عليه الإنسان، ولكن دون عقاب الفعل، إلا إذا ترك فعل المعصية باختياره وندم علىٰ عزمه، فإنَّ الله سبحانه يتلقَّاه بواسع رحمته ويكتبها له حسنة.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك في كتابه، فمن همَّ بحسنة فلم يفعلها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلىٰ سبعمئة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن عملها كتبت سيئة واحدة». متفق عليه. (المؤلف).

والحديث المذكور رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١)، عن ابن عباس.

فهذه الآية مُقرِّرةٌ للسابق مُمهِّدةٌ للاحق، وقاعدةٌ عامَّة في ذاتها، علىٰ نهج القرآن وأساليبه في مثل ذلك. ومفادها: أنَّ الله سبحانه محيطٌ علمُه بما في الضمائر والسرائر كما يَعلَم الظواهر، والإبداءُ والإخفاءُ سيَّان عنده تعالىٰ، يعلم خائنة الأعين وما تُـخْفي الصُّدور، ويُحاسب علىٰ ما ظهر وما خَفي، لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد قال المحقِّقون ـ واختاره الأستاذ الإمام[1] ـ: أنه يُستثنىٰ من ذلك الخواطر السانحة، والوساوس العارضة، وحديث النفس الخاطف الذي لا يصل إلىٰ درجة القصد الثابت والعزم الراسخ، والذي يُقرَنُ حالاً بالعودة إلىٰ الحقِّ والإعراض عن الباطل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فهذه الأمور لا تدخل في مفهوم الآية كما قال المحققون واختاره الأستاذ؛ لأنها غير ثابتة ولا مُستقرَّة في النفس.

وقوله: ﴿مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يفيدُ الثبات والاستقرار، ولكنه إذا مضىٰ مع تلك الخواطر واسترسل فيها حتىٰ رَسَخت فيه وتمكَّنت منه تكون عملاً يُجازىٰ عليه؛ لأنه سايرها مختاراً، فأثَّرت في نفسه وطبعتها طبعاً خاصّاً. وهذا التأثير هو متعلّق الجزاء ومناطه كما سيأتي بيان ذلك قريباً[2].

وهاك مثلاً لما ذكرنا: الحسد يبعث في النفس خواطرَ إزالةِ نعمة المحسود، حتىٰ إنَّه إذا تمكَّن أن يفعل معه شيئاً من ذلك ولو بإغراء الغير عليه فعل، لتمكُّن الخاطرة من نفسه، وامتلاكها لـمَنَازع فِكرِه، فمثل هذه الخاطرة مما يُحاسب عليها ـ أبداها أو أخفاها ـ لأنه سبحانه يُحاسِب علىٰ خطرات النفوس الثابتة المصمَّم عليها، كما يُحاسَب

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ١١٤-١١٦).

علىٰ أعمال الجوارح الواقعة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ومن المعلوم أنَّ الأعمال الاختياريَّة وبعضَ الخواطر للإنسان لها آثار في النفس تُزكِّيها أو تُدسِّيها، ومن سُنَّة الله في الإنسان أن يرتقيَ أو يَتَسفَّلَ نفساً وفعلاً بهذه الأعمال والخواطر من الفضائل والرذائل، فيكونَ لها أثر في النفس، وهو متعلَّق الجزاء ومَنَاطُه، فيُحاسِبَ سبحانه وتعالىٰ عليها، ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي لم تصل أعمالُه أو خواطرُه المنكرة إلىٰ أن تكون مَلَكاتٍ له راسخة؛ لأنه يعقبها الندم والتوبة والعودة إلىٰ حظيرة الحق والصواب، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[1] وهو الذي تصل أعماله المنكرة إلىٰ حدِّ المَلَكات الراسخة؛ إذ لا يعقبها ندم ولا توبة.

وذلك لأنَّ مشيئة الله سبحانه لا تجري إلا بالحق والعدل، وفي سُنن مُطَّردة، فإنما

---

(١) هذه الجملة ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يُعقب بها القرآن ملكيَّة السماوات والأرض أو يعقبها بالملكيَّة؛ لبيان أنَّ له سبحانه فيها التصرُّف المطلق والسلطان، وبيده التعذيب والغفران، وليس المراد أنه يُجري ذلك جزافاً واعتباطاً، كلا، لأن مشيئته تعالىٰ لا تجري إلا بالحقِّ والعدل الدقيق حسب القانون العام الذي أقرَّه سبحانه بمثل قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، فقد شاء سبحانه تعذيبَ مَنْ أفسد فطرته ودسَّاها بالعقيدة الخاطئة والأعمال السيئة، والغفرانَ لمن حافظ علىٰ سلامتها وزكّاها بالعقيدة الصحيحة والأعمال الصالحة، فلا يُجزَونَ إلا بما كانوا يعملون، ولا يظلمُ ربك أحداً. وعلىٰ هذا النظام تجري مشيئتُه سبحانه في تعذيبه وغفرانه، ولن تجدَ لسنة الله تبديلاً، فالآيةُ علىٰ حدِّ قولهم: المَلِكُ يَنصِبُ ويَعزِلُ من يشاء، ويرفع ويخفض مَن يشاء، فإنه يُقال هذا والمَلِكُ لا يفعلُ شيئاً منه إلا لأعمال تصدرُ عنهم تقتضي الأمر وتُؤدّي إليه. (المؤلف).

يشاء سبحانه تعذيبَ مَنْ يستحق التعذيب، وغفرانَ هَفَوات مَنْ يستحق الغفران؛ إذ قد سبقت مشيئته الأزليَّة أن يُعذِّب مَنْ أفسد فطرتَه ودسَّاها، وهو الكافر والعاصي، وأن يغفر هَفَوات من حافظ علىٰ سلامتها وزكَّاها، وهو المؤمن الطائع، وأن يكون للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولا يُجْزون إلا بما كانوا يعملون، وجاءت بذلك الأنبياء والكتب المنزلة، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، والله أعلم.

فالآيةُ علىٰ حدِّ قولهم: الـمَلِكُ ينصبُ ويَعزِلُ مَنْ يشاء، ويرفع ويخفض من يشاء. فإنه يقال ذلك، والملك لا يفعل شيئاً منه إلا لأعمالٍ تصدر عنهم، تقتضي ذلك الأمر وتؤدي إليه، ولا يفعل ما يفعل إلا بالحكمة والنظر الصحيح.

قال الأستاذ الإمام[١] ما مختصره: وقد يظنُّ من لا يؤمن بالكتاب كلِّه أن في هذا سبيلاً للمروق من التكليف؛ لأنَّ أمر المغفرة والتعذيب موكول للمشيئة، والرجاء فيه أقرب، وهذا ضلالٌ عن فهم الكتاب بالمرة، فالآية إنذارٌ وتخويفٌ ليس فيها موضعٌ للقطع بمغفرة ذنبٍ ما، وإن كان صغيراً[٢]. وإنما هو بيان لسلطان الله المطلق وقدرته البالغة.

أقول: ولكون الكلام للإنذار والتخويف أردَفَه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾؛ إذْ قدرتُه تعالىٰ موضعٌ للخوف والحذر، فنسأله العناية والتوفيق، والهداية لأَقْوَم طريق، وليس الأمر جُزافاً كما يزعم الجاهلون، فيقيمون علىٰ الذنوب، ويُصرُّون عليها، ويُمنُّون أنفسهم بالمغفرة، فذلك هو الضلال البعيد، فقد قال رسول الله ﷺ: «الكيِّس مَنْ دان نفسَه وعمل لِـمَا بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّىٰ علىٰ الله الأماني»[٣].

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ١١٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٥٩) عن شداد بن أوس، وقال: هذا حديث حسن.

وإنما الأمر مَنُوطٌ بأعمال وعقائد تُكيِّفان النفس بكيفيَّةٍ تُؤهِّلها لنعيم الآخرة أو شقائها. وقد ألمع إلىٰ ذلك سبحانه فيما أنزل علىٰ أنبيائه من الشرائع والتعاليم، والقانونُ الأساسي في ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، والجزاء مُرتَّب علىٰ العمل ترتيباً طبيعياً(١)، والله أعلم.

ثم قال في «المنار» ما مختصره: ولما ذكر في هذه السورة كثيراً من أحوال الكافرين والمرتابين ومُحاجَّتهم، ناسَبَ بعد هذا ختام السورة بالشهادة للمؤمنين مع النبيِّ ﷺ بالإيمان، وهم المهتدون تـمامَ الاهتداء، ولقَّنهم من الدعاء ما ستعلم حكمتَه، فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، وإنما لم يذكر اليوم الآخر لاندراجه في الإيمان بكتبه.

والمعنىٰ: أنَّ كلاً منهم آمن بوجود الله ووحدانيَّته وتنزيهه وكمالِ صفاته وحكمته وسُنَّته في خلقه، وبوجود الملائكة الذين هم السُّفراء بين الله وبين الرسل من البشر، ينزلون بالوحي علىٰ قلوب الأنبياء، بتلك الكتب المنزلة ومحتوياتها(٢).

---

(١) يعني: أن العمل الصالح أو السيِّئ له أثر علىٰ النفس الإنسانية، وهذا الأثر يستتبع الجزاء ـ ثواباً أو عقاباً ـ بحكم قانون طبيعي، أي: توجيه طبيعة النفس بكيفيتها التي آلت إليها نتيجة عملها. وهذا مما لا يوافق عليه المؤلف؛ إذ لا دليل عليه أولاً، ثم إنه يُوقع في عدة إشكالات، منها رفع درجات بعض المؤمنين زيادة علىٰ ما ينالون بأعمالهم، والعفو عن بعض المذنبين، والشفاعة لبعض العاصين، بل لبعض أصحاب الكبائر كما ورد في الحديث: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» أخرجه الترمذي (٢٤٣٥) من حديث أنس، وقال: حسن صحيح غريب. فلو كان ترتُّبُ الثواب والعقاب علىٰ العمل تابعاً لقانون طبيعي لَـمَا جازت هذه الأمور ونحوها، وإنما الترتُّب شرعي، بمعنىٰ: أنه تابع لما حكم الله به في شريعته، وأخبر به علىٰ ألسنة رسله، وما دام كذلك فهو من أخبر أيضاً بالعفو والشفاعة ونحوهما، فلا إشكال.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ١١٩).

فالمؤمنون بأولئك الرسل يؤمنون ويقولون: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾. وإنما لم يتعرَّض لنفي التفريق بين الكتب، لأنَّ نفيَ التفريق بين الرسل يلزم منه نفيَ التفريق بين الكتب. وهذا القولُ تخطئةٌ لأهل الكتاب الذين يؤمنون ببعضٍ ويكفرون ببعض.

أما المؤمنون فقد آمنوا بجميع رسله وكتبه، ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ثم قالوا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾، وهذا الدعاء بالمغفرة اعترافٌ بالعجز عن الإيفاء بالسمع والطاعة علىٰ ما ينبغي، وإقرارٌ بما لا يخلو عنه البشر من التقصير، يقرِّر بمضمونه مضمونَ ما سبقت الهداية إليه في السورة، لأن طلب الغفران ينبعث عن الشعور بالحاجة إليه، نتيجةَ رسوخ ما تقرَّر في النفس من أثر ذلك الإرشاد السابق. ومثلُه قولُه: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ لأنه اعترافٌ بالرجوع إليه للحساب والجزاء.

ثم أعاد الكلام عمّا سبقت الهداية إليه من التكاليف، فهوَّن أمْرَها علىٰ النفوس، وبيَّن أنها غير زائدة علىٰ ما في الوسع، وسَبَك ذلك علىٰ إظهار المنَّة ومُراعاة الحكمة فيها والمصلحة، فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] أي: من شأنه تعالىٰ وسُنَّته في شَرْع الدين أن لا يُكلِّفَ عباده ما لا يطيقون، ولا تَسَعُه قدرتهم.

ثم بيَّن وَجْهَ الحكمة في هذا التكليف، فقال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[2]، ومفاد هذه الجملة في وجه حكمة التكليف: أنه لما كان الإنسان مطبوعاً

---

(١) الوسع: ما تتَّسع له القدرة ولا يَسْتغرقها، بخلاف الطاقة، فإنها آخر درجات القدرة. والآية تُؤذن بأن الله سبحانه ـ بمقتضىٰ حكمته ورحمته ـ جَعَل التكاليف الإسلامية داخلَ حدود الطاقة البشريَّة، تتَّسع لها قدرتهم ولا تضيق عنها. (المؤلف).

(٢) في الآية تصريح بأنَّ الإنسان مُخيَّر في أعماله، مُطْلق التَّصرُّف بها، من غير جَبْر ولا قَصْر، وهناك =

علىٰ أنَّ لأعماله الاختياريَّة أثراً في نفسه، تُزَكِّيها أو تُدَسِّيها؛ كان الثوابُ والعقابُ أثراً طبيعياً[١] لها. لذلك كان من الحكمة أن يبعث الله سبحانه بالرسل لبيان الخطَّة المُنْجِيَة من الخطَّة المُرْدية، فكان ذلك هذا التَّكليف الذي ليس هو فوق وُسْع الإنسان وطاقته، وإنما هو ممَّا تتَّسع له القدرة، ولا يستغرقها، ويُلائمها.

واختار الأستاذ الإمام[٢] ما قاله الزمخشري في الآية، وهو أن الفرق بين «كسب» و«اكتسب» كالفرق بين «عمل» و«اعتمل»، فكلٌّ من «اعتمل» و«اكتسب» يفيد التكلُّف.

فالآية تدلُّ علىٰ أنَّ فطرة الإنسان مجبولةٌ علىٰ الخير، وأنه يتعوَّد الشَّرَّ بالاعتمال والتأسّي. والمعنىٰ: أنَّ لها ثوابَ ما كسبت من الخير، وعليها عقابَ ما اكتسبت من الشر.

وقد اختلف الناس من غير المسلمين في الإنسان: هل هو خيِّر بالطبع أو هو شريرٌ بالطبع؟ وإلىٰ أيِّ الأمرَيْن يكون أمْيَلَ بفطرته، مع صَرْف النظر عمَّا يتَّفق له في تربيته؟

ويقول الأستاذ الإمام: لا شكَّ أنَّ الميل إلىٰ الخير ممَّا أُودع في طبع الإنسان، وأما المَيْل إلىٰ الشر فإنه يَعرِضُ للنفس بأسباب ليست من طبيعتها، ولا من مقتضىٰ فطرتها[٣].

= برهان عقليٌّ جاهز بهذا الاختيار، وهو إجماع الأمم مع اختلاف مذاهبها ومآربها علىٰ فائدة التربية والتهذيب، وسعيها في ذلك بالفعل سعياً حثيثاً، فهو اعتراف بالإجماع علىٰ أن الإنسان مخيَّرٌ غير مجبور، وأنه ابنُ التربية والتهذيب. (المؤلف).

(١) تقدَّم قريباً التعليقُ علىٰ هذا المعنىٰ، ونَقْدُ كون الثواب والعقاب أثراً للعمل من جهة الطبيعة.

(٢) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٣) تفسير «المنار» (٣: ١٢١)، وانظر «الكشاف» (١: ٣٣٢).

أقول: ويكون ذلك نتيجة انحطاط الإنسان، وسوء تصرُّفه، وإفساده لطبيعته، بحطَّة التربية، وسوء الدراسة، وسَفَالة البيئة، ورداءة الخلطاء، وغير ذلك.

وهذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ – ١٠]، ومعنىٰ قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤ – ٥].

وبعد أن بيَّن سبحانه شأنَ المؤمن في السمع والطاعة وطَلَبِ المغفرة، علَّمنا هذا الدعاء، فقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وإنما أمرنا أن نستعفيَهُ من النسيان والخطأ؛ لِـمَا فيهما من عدم العناية بالاحتياط، وفيه إيعازٌ وإيماءٌ إلىٰ ما ينبغي عَمَلُه من بذل الجهد في الاحتياط للأمر، والتحرِّي والتفكُّر والتذكُّر، وأخذِ الدين بقوَّةٍ وعَزْمٍ، كي لا يكون هناك إهمال، ويكون الذنب جديراً بالمغفرة.

ثم تابع الدعاء بقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، وفيه إشعار بما كان من بعض التشديد في شريعة مَنْ قبلنا، إصلاحاً لعنادهم، وبالتخفيف عنا. والإصر: العبء الثقيل. وهذا دعاءٌ في زمن التشريع؛ يُلمع بطبيعة هذه الشريعة، ويُبشِّر بأنَّ الله تعالىٰ لا يُكلِّفنا بما يشق، ويمتنُّ علينا بذلك.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ فيه استعفاء عن العقوبات التي لا تُطاق بعد الاستعفاء عمَّا يؤدِّي إليها من التكاليف الشاقَّة. وقيل: هو تكرار للأول، وتصويرٌ للأمر بصورة ما لا يستطاع مبالغةً فيه، أي: لا تُحمِّلنا ما يثقل علينا. وإنما كرَّر كلمة ﴿رَبَّنَا﴾ لإبراز مزيدِ الضَّراعة له تعالىٰ.

وهذه الآيات صِيَغُها دعاء، وحقائقُها بيانٌ للُطفِ الله سبحانه بنا فيما شَرَعه لنا، فهي وصفٌ لطبيعة شريعتنا التي جاءت في ثنايا هذا القرآن.

ثم ختم المضامين السابقة بما يُقرِّرها، علىٰ نهج القرآن في التقرير، فقال: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾.

ثم أتىٰ بهذه الجملة الـمُعلِّلة لسابقها ولاحقها، فقال: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾، فقد لمح بها لقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وألمع إلىٰ أنه سبحانه يؤيِّد المؤمنين وينصرهم، ومهَّد بها لقوله: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ أي: المقاومين لنا والمعارضين لديننا. ووَجْهُ إتمام هذا السياق بالدعاء بالنصر علىٰ الكافرين: الإيماءُ إلىٰ وجوب مُدافَعةِ هؤلاء المعارضين لإقامة هذا الدين المبين، والسَّاعين في مَحْقِهِ ومَحْقِ مَنْ آمن به من المسلمين. والله أعلم.

وقد بدأ السورة بالإيمان، وختمها بالإلماع إلىٰ أنه سببٌ للفوز، فإنَّ في هذه الفقرات الشريفة إشارةً إلىٰ أنَّ إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله تعالىٰ ـ حسبما أمر في تضاعيف هذه السورة الكريمة ـ غايةُ مطالبهم.

قال في «المنار»: استحسن الأستاذ الإمام تفسير الجلال[1] النصر بالغلبة بالحُجَّة وبالسيف، وقال: إنَّ النصر بالحُجَّة هو أعلىٰ النصر وأفضلُه، لأنه نصرٌ علىٰ الروح والعقل، والنَّصرُ بالسيف إنما هو نصرٌ علىٰ الجسد[2].

وقال في شأن هذا الدعاء كلِّه ما مثاله: إنَّ الله تعالىٰ ما علَّمنا هذا الدعاء لأجل أن نلوكَه بألسنتنا، ونُحرِّك به شِفَاهَنا فقط، كما يفعل أهل الأوراد والأحزاب[3]، بل

---

(١) يعني الإمام جلال الدين السيوطي المتوفىٰ سنة ٩١١هـ فقد بدأ الإمام جلال الدين المحلِّي تفسير القرآن من سورة الكهف إلىٰ آخره، ثم عاد إلىٰ الفاتحة، ولم يُتمَّه، فأكمله الإمام جلال الدين السيوطي، فسُمِّيَ «تفسير الجلالين».

(٢) تفسير «المنار» (٣: ١٢٦)، وكلام الجلال في «تفسير الجلالين» (١: ٦٤).

(٣) لو قال: كثير من أهل الأوراد والأحزاب؛ لكان أقرب إلىٰ الدقة، وأبعد من إطلاق القول جزافاً، =

علَّمنا إيَّاه لأجل أن ندعوَه به مخلصينَ له لاجئينَ إليه، بعد أن نأخذَ ما أنزله بقوة، والعمل به علىٰ قدر الطاقة، واستعمال ما يصل إليه كَسْبُنا من الوسائل والذرائع التي هي وسائل الاستجابة في الحقيقة. فمن دعاه بلسان مقالِهِ ولسان حالِهِ معاً فإنه يستجيبُ له بلا شك، ومن لم يعرف من الدعاء إلا حركة اللسان مع مخالفة الأحكام وتنكُّب السُّنن، فهو بدعائه كالساخر من ربِّه الذي لا يستحق إلا مَقْتَه وخِذلانَه، فإذا كان سبحانه قد بيَّن لنا سبب المغفرة والعفو، وهدانا إلىٰ طُرق الغَلَبة والنصر، فأعرضنا عن هدايته، وتنكَّبنا سُنَّته في خليقته، ثمَّ طلبنا منه ذلك بألسنتنا دون قلوبنا وجوارحنا، أفلا نكون نحن الجانين علىٰ أنفسنا؟

أقول: وقد جاء في الحديث، قال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله سبحانه لا يستجيب الدعاء من قلبٍ غافلٍ لاهٍ»(١).

وتوقُّف الدعاء علىٰ العمل يستلزم توقُّفه علىٰ العلم، فلا يكون الداعي داعياً حقيقةً كما يحبُّ الله ويرضىٰ، إلا إذا كان قد عرف ما يجبُ عليه من الشريعة وسنن الاجتماع، واتَّبعَه بقدر استطاعته، فإذا اتَّخذت الأمةُ الوسائلَ التي أُمِرَت بها، ودَعَت اللهَ تعالىٰ أن يُثبِّتها، ويُتمَّ لها ما ليس في وُسْعِها من أسباب النصر، فإنَّ الله تعالىٰ يستجيب لها، كما ورد في الحديث: «إنَّ هذه الأمة لا تُغْلب من قلَّة»(٢).

= والمؤلف رحمه الله يُنبِّه في مواضعَ من هذا التفسير إلىٰ أن القرآن يُراعي الدقة في أحكامه فيقول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ٧]، ونحوها من الآيات، فكان ينبغي عليه هنا سلوك هذا المسلك الدقيق.

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٩) عن أبي هريرة، وقال: حديث غريب.

(٢) رواه أحمد (٢٧١٨) عن ابن عباس بلفظ: «لن يُغلبَ قومٌ عن قِلَّة يبلغون أن يكونوا اثني عشَرَ ألفاً».

ومَنْ أهمل الوسائل، فطلب النصر مثلاً وهو غيرُ عامل بأسبابه، أو الشفاءَ وهو غير مُتمسِّك بقوانين الصحَّة، فأجدر به أن لا يُستجاب دعاؤه، إذْ لا تبديل لِسُنَن الله. والله أعلم.

فإن قيل: إنَّ قضاء الله سبحانه في الأمور أزليّ، والله سبحانه يقول: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩]، فما فائدة الدعاء؟

فالجواب: إنَّ عِلْمَ الله سبحانه بما كان وما يكون أزليٌّ، لا يَعْزُب عنه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السمـاء، ودعاءُ الناس سابقِهم ولاحقِهم معلومٌ لله من الأزل، وقد جعله سبحانه في قضائه وقَدَره علىٰ هذا الداعي من الأزل أيضاً؛ لأنه يعلمه سبحانه من الأزل.

وقد جاء في الحديث: «إنَّ الله سبحانه يأمر الـمَلَكَ أن يكتب للجنين رِزقَهُ وأجلَه وشقياً أو سعيداً»(١)، ومبنىٰ هذه الكتابة: علمُ الله الأزليّ فيما سيصدر عن هذا المولود في حياته من أعمال وأقوال تُؤدِّي إلىٰ مقدار الرِّزق والأجلِ، والسعادةِ والشقاءِ. والدعاءُ واحدٌ منها، يعلمُه سبحانه من الأزل، ولا يغيبُ عنه إلىٰ الأبد، فهو مَرْعيٌّ فيما قدَّره الله له وقَضَاه، والله أعلم.

فنسأله تعالىٰ التوفيق، والهداية إلىٰ أقوم طريق، وحَسْبُنا الله ونِعمَ الوكيل.

انتهىٰ الجزء الأول(٢) بانتهاء سورة البقرة، ويبتدئ الجزء الثاني بابتداء سورة آل عمران.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٣٣٣)، ومسلم (٢٦٤٦)، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله وكَّل في الرحم مَلَكاً، فيقول: يا ربِّ نطفةٌ؟ يا ربِّ علقةٌ؟ يا ربِّ مضغةٌ؟ فإذا أراد أن يخلُقَها، قال: يا رب أذَكَر؟ يا ربِّ أُنثىٰ؟ يا ربِّ شقيٌّ أم سعيدٌ؟ فما الرزقُ؟ فما الأجلُ؟ فيُكتب كذلك في بطن أمِّه».

(٢) حسب تقسيم المؤلف رحمه الله تعالىٰ في الطبعة الأولىٰ لهذا الكتاب.

سُورَةُ آلِ عِمْرَان

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام علىٰ محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فهذا هو الجزء الثاني[(١)] من تفسير «أَوْلىٰ ما قيل في آيات التنزيل» لرشيد الخطيب الـموصلي. ويبتدئ بسورة آل عمران، وهي مدنيَّـة، وآيها مئـتان، نزل القسم الأول بسبب الوفد النَّـجْراني[(٢)]، وكان مؤلفاً من ستين شخصاً، علىٰ ما ذكرت الروايات. منهم أربعة عشر من أشرافهم، وثلاثة من كبار رجال دينهم، فاجتمعوا بالنبيِّ ﷺ في مسجده وعليهم الحِبَرَاتُ[(٣)]، وجرتْ بينهم مجالسُ مناظرات، كان أهمُّها مواضيع ولادة عيسىٰ عليه السلام وصلتـه بالله، ولكنهم لم يَـرْعَوُوا عن عقيدتـهم، فطلبهم إلىٰ الـمباهَلَة فلم يُـجيبوا الطلب، وانصرفوا قائلين: ليكن كلٌّ منا علىٰ ما هو عليه، وقبلوا الجزية، وقد مهَّد لذكر ذلك الجدل ببيان توحيد الله وذكر صفاته، إيماءً لنفي الألوهية عن عيسىٰ، وبيان نبوَّته، بإنزال الإنجيل عليه، مثل إنزال الكتب علىٰ الرسل، فقال:

---

(١) حسب تقسيم المؤلف في الطبعة الأولىٰ.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٦: ١٥١ - ١٥٢)، عن محمد بن جعفر.

(٣) الحِبَرَات: جمع حِبرَة؛ بُرْدٌ يمانٍ. «لسان العرب» (حبر).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ
يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ
عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾
هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾[1] وقد تقدَّم الكلام عنها في سورة البقرة، فارجع إليه.

---

(١) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنه مختص بأفعال الألوهية، ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ بذاته لا سبيل عليه للفناء، فهو منزَّه عن ولد يخلفه، ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ أي: القائم علىٰ تدبير خلقه علىٰ أكمل نظام، فهو مُنزَّه عمَّن يعاونه، ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ وفيه أنَّ عيسىٰ رسول الله، ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب السماويَّة، فهو حقٌّ كما هي حق، ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ * مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾، وجعل الإنجيل شريعةً لرسوله عيسىٰ كما كان التوراة شريعةً لموسىٰ. ثم أنَّب وتوعَّد من يكفر بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾، ثم ألمع إلىٰ أنَّ شرائعه في هذه الكتب مطابقةٌ للحقِّ والواقع، جالبةٌ للنفع والخير، دافعةٌ للشرِّ والضر؛ لأنها مبنيَّة علىٰ علمه الواسع، في الكون والواقع، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ ...﴾، ثم ردَّ علىٰ منْ يدَّعي ألوهيَّة عيسىٰ لأنه خُلِقَ من غير أب، بما يضيف إلىٰ سَعَة علمه تعالىٰ بالأسباب سَعَةَ حكمته وقدرته، فلا عَجَب ولا عُجاب، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾، فلا عَجَب من أن يخلق عيسىٰ من [غير] أب، ثم أنتج ما بدأ به السورة من اختصاصه بالألوهية، عَوْداً علىٰ بدء، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ثم بيَّن تلاعب الضالِّين بتأويل متشابه آيات الكتاب، بما يوافق ضلالاتهم، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ...﴾. (المؤلف).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ أي: الحيُّ بذاته، فهو سَرْمَديٌّ أبديٌّ لا حاجة له إلىٰ ولد يَخْلُفُه أو يعاونه سبحانه. ﴿ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ وهي صفةُ مبالغةٍ من القيام بتدبير خلقه ورعاية شؤون كونه، دون أن يَؤُودَه ذلك، فلا حاجة لمعاونٍ وشريك، وهذا تقريرٌ لحقيقة التوحيد الذي هو أعظم قواعد الدِّين.

وقد مهَّد به لقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ إذ فيه ما يُحقِّق أنه من عند الله تعالىٰ، فلا يحتاج إلىٰ دليل من غيره علىٰ حقِّيته، وإنما دليله نفسه، فكلُّه حقٌّ وصدقٌ، حالَ كونه ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: لما تَقدَّمه من الكتب المنزَّلة علىٰ الأنبياء. أي: من نفس طبيعتها ومحتوياتها، فهو حقّ كما هي حقّ، وصدْقٌ كما هي صِدْق، والنَّظير يُشابه النَّظير، والتعبير بما بين يدي الشيء عمَّا تقدَّمه هو من مَجاز الكلام وخصائص اللغة.

ثم خصَّ بالذكر ـ علىٰ طريقة التَّنظير ـ بعضَ تلك الكتب المتقدِّمة، وما انْطَوَت عليه من الهداية أيضاً، فقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ وعبَّر بالتَّنزيل للقرآن والإنزال لغيره؛ لأنه نزل مُنجَّماً، بخلافها. ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾، وهو وصفٌ لجنس كتب الشريعة، لأنها تُفرِّق بين الحق والباطل، فهو من عطف الصفة علىٰ الموصوف، وعطف المُجْمَل علىٰ المفصَّل؛ لأنَّ هذا الوصف يعمُّ سائر الكتب السماويَّة. أي: إنَّ هذه الكتب المنزَّلة إنما أنزلها للفرق بين الحقِّ والباطل.

لذلك تَوعَّد وندَّد بالمخالفين لها والعابثين بها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هذه التي أنزلها لهداية عباده وإرشادهم إلىٰ طرق السعادة في المعاش والمعاد، ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ بما يلقي الكفر في عقولهم من الأباطيل التي تُطفئ نورها، فلا تُبصر الحقَّ، فينجرُّون إلىٰ المفاسد التي تُدنِّس نفوسهم وتُدسّيها، فيستحقون العذاب، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ فهو بعزَّته يُنفِذُ سنَّته، فينتقم ممَّن خالفها، بسُلطانه الذي لا

يُعارَض، ونظامه الذي لا تَتَخَلَّف نتائجه إيجاباً وسلباً. والانتقام: من النقمة، وهي السطوة والعقوبة، لا بمعنىٰ التَّشفِّي بالعقوبة؛ لأنه مُحَال علىٰ الله تعالىٰ.

ثم ذكر ما يُؤْذن بأنَّ تلك الكتب هي الأنظمة التي يحتاجها البشر، وما يُشعر بوعيد المخالفين لها، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾، فهو يُنزِّل لعباده من التعاليم والشرائع ما يعلم أنَّ فيه صلاحهم إذا أقاموه. وكذلك يعلم حقيقة أمرهم في سرِّهم وجهرهم، لا يَـخْفىٰ عليه أمرُ المؤمن الصَّادق، وأمر الكافر والمنافق.

ثم بَرْهَن علىٰ ذلك بدليل القدرة والإبداع، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الوعد والوعيد بدليل القدرة، ومهَّد به لما يأتي من الكلام عن أمر عيسىٰ عليه السلام، وخَلْقِهِ من دون أب، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، يشير إلىٰ دقَّة تركيب الرَّحِم وبَدَاعةِ عمليَّته وإنتاجه، ويُومئ إلىٰ الردِّ علىٰ مَنْ يَسْتعظم ولادةَ عيسىٰ من غير أب، بأنَّ ما تعلمونه من أحوال الطبيعة وسُننها قليلٌ من كثير لا تعلمونه، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ثم بنىٰ علىٰ هذه القدرة البالغة تقريرَ التوحيد، ونفيَ الولد والشَّريك، مُحْضاً للنتيجة بعد البرهان، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ أي: فإنَّ مَنْ وضع تلك الأنظمة الدقيقة، والسُّنن الطبيعية، في الخلق والتكوين، عليمٌ حكيمٌ، وعزيزٌ حليمٌ، لا يغلب علىٰ ما قضىٰ به علمه، وتعلَّقت به إرادته، فهو واحد لا شريك له في إبداعه وتكوينه. وهو بهذه الأفعال وهذه الصِّفات التي لا يشاركه فيها أحد، يستحقُّ وحده أن يُعْبَدَ وَيُؤَلَّه. فهو الإلهُ الحقُّ، لا إله غيره، وسائرُ كتبه المنزلة مشحونة بالحكمة، والموعظة الحسنة، والتوجيه الصحيح.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

ثم شرع في إبطال شُبههم الناشئة عمّا نطق به القرآن في نَعْت عيسىٰ عليه السلام، إثر بيان قدرته واختصاص الربوبيَّة به سبحانه وتعالىٰ. وذلك أنَّ هؤلاء المجادلين النَّجْرانيين قالوا: يا محمد، ألست تزعم أنَّ عيسىٰ كلمةُ الله ورُوحٌ منه؟ فقال: بلىٰ، فقالوا: حَسْبُنا؛ لأن العبارتين عندهم بمعنىٰ: ابن الله. فردَّ عليهم سبحانه بإيضاح شبهتهم، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[1]، أي: الأصل الكافي، والعُمدة الذي يُرجَعُ إليه فيه، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ...﴾.

قال الأستاذ الإمام: والآيةُ كلُّها ردٌّ لاستدلالهم ببعض آيات القرآن علىٰ تمييز عيسىٰ عن غيره من البشر؛ إذ وَرَد فيه أنه روحُ الله وكلمتُه. فهو يقول: إنَّ هذه الآيات هي مِن المتشابهات التي اشْتَبَهَ عليكم معناها، حتىٰ حاولتم جعلها ناقضةً للآيات المُحكَمة في توحيد الله وتنزيهه وبُنوَّة عيسىٰ.

أقول: والمتشابه عند المفسِّرين هو: ما يُوهم ظاهرُه معنىٰ لا يليق بجلال الله،

(١) أُمُّ الشيء: أصله أو مرجعه، والمراد به هنا: الكلمة أو الجملة التي لا تحتمل إلا معنىٰ واحداً قطعياً. وهناك مفردات أو جمل تحتمل أكثر من معنىٰ، فإذا تعارض في الظاهر هذا الصنف مع الصنف الأول يجب حَمْله علىٰ الصنف الأول القطعي بالوجه الذي تزول منه المعارضة؛ لأنه يُعلَمُ بديهياً أنه هو مراد المتكلم بهذين الكلامين. (المؤلف).

ولا يتَّفق مع دلالة الـمُحْكَم في تنزيه الله عن صفات الحوادث. فإما أن يؤمن به المسلم علىٰ وجهٍ لا يتنافىٰ مع التنزيه، ويبقىٰ سرُّه محفوظاً، لا يعلمه إلا الله، وإما أن يَصرِفَه عن ظاهره إلىٰ معنىٰ مجازيّ حسب عرف التخاطب ومدلولات التراكيب.

وأما الذم فهو علىٰ مَنْ يتَّبع المتشابه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله إلىٰ مآربه، وهو حالُ أهل القصد الفاسد، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ حَسْبَما يشتهونه من التأويلات الزائفة، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إما لدقَّة مدلوله، وإما لبُعْد حقيقته عن مَدَاركنا. ومن ذلك معرفة ذاتيَّات الروح، وأحوال الآخرة، وصفات الله سبحانه، وإطلاق (كلمة الله) علىٰ عيسىٰ عليه السلام، ومكالمته للملائكة في شأن آدم، ومكالمته لإبليس[1]، وأمثال ذلك.

ومن الزَّيْغ ما يستغلُّه أهل البدع والأهواء من إجمال القرآن في بعض المواضيع، فيصرفونه لأهوائهم وبدعهم بالتحريف والتأويل. والمراد هنا: الردُّ علىٰ النَّجْرانيين في استغلالهم إطلاق القرآن: (كلمة الله) علىٰ عيسىٰ، وعندهم: كلمة الله؛ بمعنىٰ: ابن الله. والقرآن يريد بها كلمة التكوين في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ومثل قوله تعالىٰ: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وليست الإضافة إلا إضافة المملوك إلىٰ المالك، والمخلوق إلىٰ الخالق. وإنما أطلق هذا الوصف علىٰ عيسىٰ كما أطلقه علىٰ آدم للإيذان بأنه فردٌ من أفراده، وإن لم يكن له أبٌ لم ينقص فيه شيء، ولكن هذا شأن الذين في قلوبهم مرضٌ في المتشابه، وهم في فِرَقِ الإسلام أيضاً كثيرون.

أما الراسخون في العلم فيعلمون من تلك الآيات ما لا يعلمه غيرهم، ويفهمون

---

(١) في كون هذين الأخيرين من المتشابه نظر، وقد تقدَّم التعليق علىٰ ذلك في سورة البقرة (١: ٦١).

من تلك الأحوال والصفات فهماً إجمالياً عن حقائقها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فعبَّر بهذه العبارة عن علمهم الإجمالي فيها. والله أعلم.

ثم ختم هذا البحث بقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ أي: لا يعقل الحقَّ ويفقَهُ الحكمَ إلا أربابُ القلوب النَّيِّرة، والعقول الكبيرة المتفوِّقة، فهم الذي يُدركون أنَّ تلك المدلولات بعيدة المنال، لا تفي بتوضيحها لغةُ الإنسان، وما يُعلَمُ من عبارات البيان. فإذا عبَّر عنها هذا القرآن بعُلوِّ بيانه، واختيار كلماته، وبلاغة سَبْكه وتركيبه، اشْتَبَه الأمر علىٰ غير الراسخ، واستغلَّه المُغْرِض، وأدركه أولُو الألباب إدراكاً إجمالياً، كما ذكرنا[١]. والله أعلم.

ولما كان المتشابه مَزَلَّةَ أقدامٍ لغير أُولي العلم، ومَفْتنةً للزائغين من أرباب الفتنة، أرشدنا سبحانه وتعالىٰ إلىٰ التثبُّت فيه بهذا الدعاء، وجَعْله منهجاً لنا، فقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾، وفي قوله: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾، إسنادُ الفعل إلىٰ الله، مجرَّداً عن أسباب الزيغ الكسبيَّة، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية)، وهذه الرحمة اللَّدُنِّية هي العناية الإلهيَّة والتوفيق، وهي من مواهب الله السَّنيَّة.

ثم أكمل الدعاء بهذا التَّسجيل المتضمِّن للوعد والوعيد، تقريراً للحاجة إلىٰ ما ذكر من طلب التثبيت، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لينالوا ثوابك العظيم، أو عقابك الأليم، ثم ذكر في موضع التعليل والتقرير لهذا التسجيل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾، وإظهارُ الاسم الجليل مع الالتفات من الخطاب

---

(١) وعلينا أن نحمل المتشابه علىٰ النصوص المحكمة. (المؤلف).

إلىٰ الغيبة؛ لإبراز كمال التعظيم والإجلال، وتربية الخشية منه تعالىٰ في ذلك اليوم الرهيب، وللإشعار بعلّة الحكم، فإنّ الألوهيّة منافيةٌ للإخْلاف.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾.

وبعد أن بيّن الدينَ الحقَّ، وهو التوحيد والتنزيه، شَرَعَ في بيان حال مَنْ كَفَر وأعرض عنه، وسَبَكه علىٰ التهديد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، فأومأ إلىٰ منشأ اغترارهم بالباطل، وهو اعتِزازهم بأموالهم وأولادهم، واغتِرارهم بها. وفي صورة التركيب تلميحٌ إلىٰ اشتغالهم بها عن الحقِّ. وقد توعَّدهم عليه بقوله: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾ الوَقُودُ ـ بالفتح ـ: ما تُوقَدُ به النار من حَطَب ونحوه.

ثم ذكر سبحانه تمثيلاً وتنظيراً لهؤلاء الكافرين الذين استَغنَوا بما أُوتوا في الدُّنيا عن الحقِّ، فعارضوه وناهضوه حتىٰ بطش بهم، فقال: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ أي: علىٰ مُستَحقّيه، إذ مَضَتْ سُنَّته بأن يكون العقاب أثراً طبيعياً تلقائياً للذنوب والسَّيِّئات، يَقْوىٰ بقوّتها ويضعف بضعفها.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾.

وبعد التمهيد بهذا البيان صرَّح بالتهديد نصّاً، فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من نصارىٰ نَجْران واليهود ومشركي قريش المغرورين بحَوْلهم وقوَّتهم، الـمُعْتزِّين بأموالهم وأولادهم: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: في الآخرة، ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ أي: بئس جهنَّم المُسْتَقر والمأوىٰ الذي مَهَّدوه لأنفسهم. والآياتُ الدالَّة علىٰ اغتِرار هؤلاء المشركين بالأموال والأولاد، واعتِزازهم بهما، كثيرةٌ في القرآن، وكذلك كان نصارىٰ نَجْران.

ثمَّ أيَّد التَّهديد بالـمَغْلوبيَّة لهؤلاء الـمَغْرورين والمُعْتزِّين بكَثْرة أموالهم وأعوانهم، مُسْتَشْهداً بوقعة بدر، علىٰ سُنَّة القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم﴾ أي: يرىٰ الكفار المؤمنين ﴿مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾، وذلك من ألطاف الله الخفيَّة. وإيثارُ صيغة الجمْع في ﴿يَرَوْنَهُم﴾ للدّلالة علىٰ شمول الرؤية لكلِّ واحد من آحاد الفئة. وصورة العبارة تدلُّ علىٰ القوة المعنويَّة للمسلمين، التي هي مصدر التأييد من الله، ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: ممَّن يستحقُّون التأييد ويتَّبعون سُنَنَ الله في ذلك النصر المبين.

ثم بالغ في التأكيد والتنبيه إلىٰ موضع العبرة فيه، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ أي: أصحاب العقول النَّيِّرة التي لم يُفْسِدْها صاحبها. والتعبيرُ بالأبصار عن العقول مجازٌ مرسل، علاقته السببيَّة؛ لأنَّ إدراك البصر يَنْبعث عنه إدراك العقل، وهو أبلغ من الحقيقة.

وهذه الآية تذكيرٌ بوقعة بدر، وما كان فيها من النصر المبين علىٰ كثرة الكافرين وقلَّة المؤمنين، ولم تُغْنِ أولئك المغرورين أموالُهم وأعوانُهم شيئاً.

وفي قوله: ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إشارةٌ إلىٰ مصدر القوة؛ لأنَّ القتال إذا

كان في سبيل حمايةِ الحقِّ مع اليقين بأنَّه الحقُّ، تَوَجَّهت النفس إليه بالتضحية، واثقةً بأنَّ وراء قوَّتها معونةَ الله وتأييده.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ (١٤) ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (١٥) ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٦) ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ (١٧) ﴾.

ولـمّا ذكر حال هؤلاء المغرورين بالأموال والأولاد، وتوعَّدهم، ذكر مصدر افتتان الناس عموماً بمثل ذلك، وسَبكه علىٰ التَّنديد، علىٰ نهج القرآن في ذكر القواعد العامَّة إثر المسائل الخاصَّة تشملها وغيرها، فقال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ ﴾ أي: النَّجيبة، إذ لا تُوضَع السِّمات إلا عليها، ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾.

قال الأستاذ الإمام: لم يكن الغرضُ تقبيحَ حبِّ هذه الأشياء، كيف وقد فطر الله الناس علىٰ حُبِّها، فإنَّ الله سبحانه ما فطر الناس علىٰ شيء قبيح. وإنما المراد أن لا يكون حبُّ هذه الأشياء سبباً للتفريط بما عند الله من الخير الباقي العظيم الذي لا يماثله شيء ولا يوازنه خير، لذلك قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ (١٤)﴾، والمتاع: الشيءُ الوقتي الذي لا يدوم، بل ينقضي بسرعة ومدَّة قصيرة. وقيل: إنَّ الآية نزلت بسبب اندهاش المسلمين من هيئة الوفد النجراني، إذ كان عليه حُلَلٌ من الحِبَرَات الدِّيباجيَّة الموشَّاة بالوشي، فألمع سبحانه إلىٰ التَّزهيد بها والتهوين.

وبعد أن بيّن شأن مُزَخْرَفات الدنيا بأنها مَتاعٌ تافِهٌ قصير زائل، وقابلها بما عند الله تعالىٰ من حُسْن المآب، فصَّل ذلك المآب علىٰ صورة المُبَايَنة بينه وبين ذلك المتاع الزائل التافه، مُبيِّناً أنَّ خيرَ الآخرة عظيمٌ لا يُوازِنُه ولا يُماثِلُه نعيم، وهو باقٍ خالدٌ لا يَحُول ولا يَزُول، فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ أي: المتاع الذي تَقَدَّم ذكرُه من النساء والبنين وأبهة النَّجْرانيين.

وفي صورة التركيب وتصديره بالاستفهام توجيهُ النفوس وتشويقُها إلىٰ الجواب المذكور بقوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: مما يعهد في نساء الدنيا من الشوائب الماديَّة والمعنويَّة، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهو أكبر من تلك اللذات كلِّها، كما قال تعالىٰ في سورة التوبة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

ثم ختم الآية بما يحمل علىٰ التَّمسُّك بالأسباب المؤدِّية لذلك المآب، والتدقيق والإتقان في عملها، لتكون مُرْضيَةً لله تعالىٰ، ومُفْضِيَةً إلىٰ ذلك، فقال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾، وفيه إشعارٌ بأنه ليس كلُّ من ادَّعىٰ التقوىٰ في نفسه أو بلسانه يكون مُتَّقياً لله تعالىٰ، وإنما المتَّقي مَنْ عمل ما يُرضيه، وأَخْلَصَ النِّيَّة فيه.

ثم وَصَف أهلَ التقوىٰ الحقيقية بشأنٍ من شؤونهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾، فهم لتأثُّر قلوبهم بالتقوىٰ التي هي ثمرة الإيمان، تفيض ألسنتُهم بالاعتراف بهذا الإيمان، في مقام الابتهال والدعاء. وفيه إيذانٌ بمعونة السياق إلىٰ أنهم زاهدون في زخارف الحياة الدنيا؛ لأنَّ الإنسان كلَّما ارتفع بروحه وعقله وشعوره إلىٰ جانب الله سبحانه، ابتعدَ عن هذه الحياة الفانية، وأصبح ينظر إليها وهي تحته نظراً ضئيلاً حقيراً.

ثم تابع الوصف لهؤلاء المتَّقين، مُبيِّناً الصفات التي استحقُّوا بها تلك الدرجات، فقال: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾، والقنوت: يُطلق بإزاء معانٍ عدَّة، منها: السكوت، والدعاء، والطاعة، والتواضع، وإدامة الحج، وإدامة الغزو، والقيام في الصلاة.

والاستغفار المطلوب ما يُقرنُ بالتوبة النصوح؛ فإنَّ المستغفر من الذنب وهو مُصرٌّ عليه كالمستهزئ بربه، ولا قيمة للَّفظ.

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وبعد أن بيَّن تعالىٰ جزاءَ المتَّقين، وبيَّن حالهم في إيمانهم، ومدح أصنافهم الكاملين في أوصافهم، بيَّن أصلَ الإيمان وأساسَه، رامزاً إلىٰ أنَّ دلائله ظاهرةٌ جليَّة، وشواهدَه عظيمةٌ عَليَّة، فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾، والشهادة بالشيء: الإخبار به عن علم بالمشَاهَدَة الحسيَّة، أو المعنويَّة، وهي الحُجَّة والدليل.

وشهادة الملائكة إنما تكون للأنبياء عندما يُوحَىٰ إليهم، وتكون مقرونةً بعلم ضروريّ هو عند الأنبياء أقوىٰ من جميع اليقينيات البديهيَّة.

وشهادةُ أُولي العلم تُقْرَنُ عادةً بالدلائل والحجج.

وأما شهادةُ الله فهي عبارة عن البراهين الكونيَّة الدالَّة علىٰ التوحيد والتنزيه، والآيات الدالة علىٰ صدق الرسل.

وفي كـلِّ شيءٍ لـه آيـةٌ تدلُّ علىٰ أنه واحـدُ[1]

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، تعالىٰ الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً.

ومُحصَّل الكلام: أنَّ الله سبحانه بيَّن وحدانيَّته، بنَصْب الدلائل الكونيَّة في الآفاق والأنفس، فإنَّ ما في هذا الكون من العظائم يُبَرْهِنُ علىٰ وَحدانيَّة خالقه واختصاصه بصفات الألوهيَّة واستحقاقه وحدَه لأن يُعبد. ثم أنزل الآياتِ الناطقةَ بذلك بواسطة الوحي من الملائكة، وبيَّن ذلك أُولو العلم بالدلائل الواضحة والحُجَج الدامغة.

أما القيام بالقسط فهو: العدل في الدين والشريعة، وفي الكون والطبيعة فجَعَل سُنَنَ الخليقة في الأكوان والإنسان قائمةً علىٰ أُسس العدل والإحكام في النظام والانتظام. فمن نظر في هذه السُّنن ونظامها المُحْكَم الدقيق، يتجلَّىٰ له عدلُ الله العامُّ في كلِّ شيء، وكذلك أحكامُه تعالىٰ في التشريعات ـ العبادات، والآداب، والمعاملات ـ مَبْنيَّـةٌ علىٰ أساس العدل بين القوىٰ الرُّوحيَّة والبدنيَّة، وبين الناس بعضهم مع بعض.

ثـم قَـرَنَ هـذه الشـهادة بتسجيـل الـحكم، فـقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾، والتعرُّض لوَصْفي العزَّة والحكمة للإيذان بظهور أثرهما في آثاره تعالىٰ.

---

(١) سبق تخريجه والاختلاف في قائله ص٤٣.

ومُحصَّل الكلام: شهد الجميعُ بأنَّه الإله الواحد الذي أقام نظام الكون بالقسطاس العادل والتوازن المُحْكَم، وشرَعَ الأحكام علىٰ وَفْق مصالح العباد، بالحكمة والموعظة الحسنة، فسبحانه من إلهٍ عادلٍ عزيز حكيم.

ثم أردف إثبات التوحيد ببيان الدِّين الحقِّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(١)، لأنه نهجٌ من مناهج الحياة، موضوعٌ طبق القوانين الطبيعية التي سَنَّها الله للعباد، وهو يوفِّق بين الوجهتين الروحيَّة والماديَّة في الحياة الإنسانيَّة، ويَسْمُو بالنفس إلىٰ الذروة العليا من السمو، فلم يَدَع من صلة دينيَّة بين المرء وربِّه، غير الاعتقاد الصحيح في ذات الله، والعملِ الصالح خالصاً لوجهه الكريم. وهو يُسيِّر الإنسان في أنْبل السُّبل في هذه الحياة، يُخلِّقه بالأخلاق الفاضلة، ويحثُّه علىٰ العلم والمعرفة، وإدراك ما في هذا الكون من سنن كونيَّة وآيات ربَّانية، ويأمره باستثمار ما خَلق فيه من المواهب ذات الفوائد والمنافع، ويحمله علىٰ التمسُّك بالنظم الاجتماعية الصحيحة، ويُغْريه بالتضحية في سبيل الحق، فلا تجد مثل هذا في غيره من دين ولا نظام.

هذا إذا أُريدَ بلفظ «الإسلام» هنا المعنىٰ الاصطلاحيّ، أي: الدين المحمديّ الإسلاميّ. ويجوز أن يُراد به المعنىٰ المصْدَريّ، أي: الانقياد له تعالىٰ وحده. وهذا هو روحُ الشرائع السماويَّة الصحيحة كلِّها، قبل أن يعبثَ بها البشر ويُؤَوِّلها ويُحرِّفها.

وقد ذكر سبحانه خروجَ أهل الكتاب عن هذه المَحَجَّة الواضحة التي جاءتهم

---

(١) دين الإسلام دين يدعمه العلم، ويُؤازره العقل، ويُسايره المنطق والوجدان، يحثُّ الناس علىٰ البحث والنظر والتدقيق، ويذمُّ التقليد الأعمىٰ، والاتِّباع من دون تفكير. والإسلام ـ بمعناه المصدري ـ: حاجة طبيعية من حوائج النفس الإنسانية، لا غنىٰ عنه لها، ولا تعويض؛ لأن الانقياد إلىٰ الله أمر ظاهر في الطبيعة والشريعة. (المؤلف).

بها أنبياؤهم، والسببَ الباعث لهم علىٰ ذلك، مُلْمِعاً إلىٰ أنَّ ما يتقوَّلونه ليس من أصل كتابهم، ولكنهم اختلقوه، فقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: إنما كان السبب في خروجهم عن هذا الطريق المستقيم، بعدما بَيَّنَتْهُ لهم أنبياؤهم، هو البغْيُ بين الرؤساء، وقَصْد التَّفوُّق والتفاضل في حطام الدنيا، فهو الذي حَمَلهم علىٰ هذا الاختلاف، حتىٰ اتَّخذ كلٌّ منهم لنفسه من هذا الدين مذهباً، وجَمَع عليه أتباعاً، لِيَتَفوَّق علىٰ غيره من الرؤساء، أو يمتاز.

ثم ختم البيان بما يدلُّ علىٰ التوعُّد، فقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالَّة علىٰ وَحْدة الدين ومَحجَّته، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ يوفِّي كلَّ كاسب أجرَه، وكلَّ مكتسِبٍ جزاءَه، عقب عمله، بحسبه وقدره؛ لأنَّ سنَّته مَضَت بأن تكون النتائج آثارَ الأعمال، فهو يُوفِّي كلَّ عامل عمله بلا إبطاء. وكما يكون الجزاءُ سريعاً في الدنيا، كذلك يكون في الآخرة، فإنَّ أثر الأعمال يظهر للمرء عقب الموت، مُرتَّباً علىٰ أعماله، وهو أول قدم يضعه في باب عالم الآخرة. وقد مرَّ تفسير مِثل هذه الآية بأوسع من هذا في سورة البقرة(١).

ثم لقَّن سبحانه رسوله كيفيَّة المُحَاجَّة لأهل الكتاب تجاه دينهم هذا الذي اختلفوا فيه ـ ومنهم وفد نجران ـ وبيَّن له المنهج الذي يجب أن ينهجه في دعواه لهم إلىٰ هذا الدين المبين الصحيح عند الله، كما تقدَّم النصّ عنه في الجملة السابقة، فقال: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ أي: جادلوك بعد أن جئتهم بالحق اليقين، وأقمت عليه البيِّنات والبراهين، ودمغت الباطل بالآيات والدلائل، ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ أي: أقبلتُ عليه بعبادتي، مُخْلِصاً له مُعْرِضاً عمَّا سواه أنا ومن اتَّبعني من المؤمنين.

---

(١) في الآية ٢٠٢ منها.

قال الأستاذ الإمام: كأنه يقول: إنَّ مَنْ يقصد إلىٰ الحِجَاج بعد تأييد الحقِّ وتفنيدِ الباطل، لا يقصد إلا إلىٰ المجادلة والمشاغبة لمحض العِناد والمشاكسة[1]. فأعرِضْ عنه وقل: أسلمتُ وجهيَ لله أنا ومن اتَّبعني.

ثم أمره أن يعيد عليهم الكرَّة، ويختم المُحَاجَّة بالاستفهام التقريريِّ الذي هو بمثابة الأمر، فقال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي: الذين لا كتاب لـهم من مشركي العرب. ووضع الموصول موضع الضمير[2] لإفادة مضمون الوصفين، فإنَّ الأول يقتضي التقريع عن الإعراض عن الهدىٰ بعد إذ جاءهم، وهم أهل كتاب يمكِّنهم أن يميزوا الهدىٰ من الضلال، والثاني: يقتضي التجهيل الشنيع للمشركين علىٰ عدم الأخذ بتعاليمَ أتتهم وهم أحوجُ الناس إليها، لموضع أمِّيَّتهم وعدم علمهم. فأمره سبحانه أن يسألهم هذا السؤال المؤنِّب: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ أي: لَمَّا وَضَحت الحُجَّة أو لاً؟!

وقال البيضاوي: نظير هذا الاستفهام: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[3] [المائدة: ٩١].

أقول: أي: للإيذان بأنَّ أمر الإلزام قد بلغ الغاية، وأنَّ الأعذار قد انقطعت.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ لِـمَا فيه خيرهم، وفازوا بالحظِّ الأوفر، ونَجَوْا عن مَهَاوي الضلال، ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ وأعرضوا عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقد أدَّيته، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ يُجازيهم بإجرامهم وإعراضهم عن الصِّراط المستقيم.

ثم فصّل هذا التَّوعُّد الإجمالي بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الناطقةِ

---

(١) «تفسير المنار» (٣: ٢١٤).

(٢) أي: قال: وقل للذين أُوتوا الكتاب، مع تقدُّم ذكر «أهل الكتاب» في السياق، فكان الظاهر أن يقول: وقل لهم وللأميين.

(٣) «تفسير البيضاوي» (٢: ١٠).

بحقيقة الإسلام علىٰ الوَجْـهِ الذي مرَّ تفصيله، ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ والأول: يشمل المشركين وأهل الكتاب، والثاني: خاصٌّ بأهل الكتاب، ونسبةُ هذا الفعل إليهم باعتبار ما كان من سلفهم، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن؛ لأنَّ الأمة ـ في تكافلها وجَرْي لاحقها علىٰ إِثْر سابقها ـ واحدةٌ بالنوع كالشخص الواحد. والقيد الأخير: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ للمبالغة في التَّبشيع والتَّشنيع، لا لتخصيص الحكم، فلا مفهومَ مخالفةٍ له. ثم أتىٰ بهذه الجملة الصادقة عليهم وعلىٰ غيرهم، فقال: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وهم الحكماء والمصلحون وأتباعهم، الذين يرشدون الناس إلىٰ الصِّراط المستقيم، الذي ضلّوا عنه، ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ وما أبلغ الاستعارة التَّهكميَّة بهذه البشارة! فهي من بلاغة القرآن التي لا تُطَاول. وقيل: بل الكلام علىٰ الحقيقة؛ لأنَّ التبشير يشمل كل ما تتأثَّر له بشْرة الوجه من خير أو شر. والغرضُ من هذا البيان عن اليهود: تسليتُه ﷺ بأنَّ مَنْ هذا شأنُه مع الأنبياء والمصلحين، ليس غريباً إعراضُه عنك ومعاكستُه لك.

ثم بيَّن مصيرهم في الدارين، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الدنيويَّة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بفشلها ﴿وَ﴾ الأخرويَّة في ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾، لأنَّ العمل الصالح إنما ينفع بحُسْن أثره في النفس، ولا يتمُّ ذلك إلا بسلامة العقيدة وصلاحها، ونفوسُ هؤلاء قد أوْغَلَ فيها الفساد، ففقدت الاستعداد لقَبول ذلك الأثر، فأسلمهم إلىٰ العذاب الأليم، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ وهذا تهديدٌ رهيب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم التفت إلىٰ خطاب الرسول يُعجِّبه بأعجب شأنٍ من شؤون أهل الكتاب في الدين لذلك العهد، مُلْمِعاً بعموم الآية إلىٰ التعريض بالوفد النَّجراني، وإعراضه عن الدعوة للدين الإسلامي، ومجادلته في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فقد كانوا يَتولَّونَ عن حكم التوراة إذا خالف أهواءهم، وكانوا ربما تحاكموا إلىٰ النَّبي ﷺ عازمينَ علىٰ قَبول حُكمه، حتىٰ إذا كان علىٰ غير ما أحبوا خالفوه، كما فعلوا يوم زنىٰ بعض أشرافهم وحكَّموه، فحكم بينهم بمثل حكم كتابهم، فتولَّوا وأعرضوا عن قَبول حُكمه؛ لأنهم إنما فزعوا إليه ليُخفِّف عنهم.

وهذا النقد مُوجَّه إلىٰ هذه المخاتلة دون نظر إلىٰ صحَّة كتابهم أو نسخه. وقوله: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يشير إلىٰ أنهم نَسُوا حظاً مما ذكروا به.

ثم علَّل شأنهم هذا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، ومن ذلك: دعواهم أنَّ النبوة لا تتجاوز بني إسرائيل، وأنهم غير مُكلَّفين إلا بالتوراة، فبيَّن تعالىٰ أنَّ افتراءهم هذا هو الذي غرَّهم وجرَّأهم علىٰ مثل تلك الأعمال والأقوال؛ حيث يزعمون أنهم مهما عملوا لا جزاء عليهم عدا تلك الأيام التي عبدوا فيها العِجْلَ لا غير، ومن هذا الافتراء اعتمادُهم واتِّكالهم علىٰ اتِّصال نسبهم بالأنبياء.

وقد ردَّ عليهم سبحانه بما فيه توعُّدٌ لهم وتزييفٌ لمزاعمهم وغرورهم، وسَبَك ذلك علىٰ بيان القاعدة العامة في الجزاء وتقرُّرها، فقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: لا يُنقَص من جزائهم شيءٌ يستحقُّونه. وفيه تهويلٌ لما سيكون من أمرهم، واسْتعظامٌ لما أعدَّ لهم من

العذاب، وردٌّ لافتراءاتهم. وَوَجْه الردّ: أنَّ المرء مُرْتَهَنٌ بعمله خيراً أو شراً، ولا دخل لاتصال نسبه بالأنبياء(١) في شيء من ذلك، وسيرون هذه الحقيقة.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) ﴾.

ولما كانت هذه المعاندات والمشاكسات من المشركين وبني إسرائيل للنبيِّ ﷺ ناشئةً من خوفهم علىٰ مراكزهم ورياستهم أن تزول بظهوره، وكذلك تصلُّبُ النَّجرانيين في دينهم وإعراضُهم عن الإسلام ناشئٌ عن هذا الغرض أيضاً، وكان من نهج القرآن أن يعقب بدليل علىٰ النقد والوعيد، قال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ أي: بمقتضىٰ الأسباب الصحيحة والسنن الكونية، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿تُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾، فما أصاب الإنسانَ من حسنةٍ فمن الله، وما أصابه من سيئةٍ فمن نفسه(٢)، فالخيرُ كلُّه من التَّمسُّك بسُننك، والشـرُّ من مخالفتها بمقتضىٰ تقديرك؛ ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ فكلُّ أعمالك وتشريعاتك ناتجٌ عن نظام مُحكم جليل.

أما الأستاذ الإمام، فقد قال ما مُلخَّصه: إنَّ هذا الكلام تسليةٌ للنبيِّ ﷺ في مقام بيان عِناد هؤلاء المنكرين ومكابرة هؤلاء الجاحدين، وردٌّ عليهم؛ لأن منشأ ذلك إنما هو إنكار المشركين نبوَّته ﷺ بغياً وحَسَداً، وإنكار أهل الكتاب نبوَّته لأنهم ينكرون أن

(١) وقد ألمع القرآن إلىٰ هذه الحقيقة في آخر سورة التحريم بامرأة نوح وامرأة لوط. (المؤلف).

(٢) أي: بسبب واستحقاق من نفسه، والحسنة والسيئة من الله سبحانه خلقاً وإيجاداً.

يكون نبيٌّ من غير بني إسرائيل، وأدمج فيه تذكيره بقدرته تعالىٰ علىٰ نصره وإعلاء كلمته ودينه، وقد عُهِدَ في غير موضع من القرآن مثل ذلك. والـمُلكُ يشمل النبوَّة أو هو لازمٌ من لوازمها، قال تعالىٰ: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤][1].

وقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٢٦﴾ برهانٌ علىٰ ما قبله وتحقيقٌ له. وقد أردفه بما يُؤيِّد البرهان بالواقع علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يُدخل ما نقص من ساعات الليل في النهار، فيجعلها زائدة في ساعاته، ويُدخلُ ما نقص من ساعات النهار في الليل، فيجعلها زائدة في ساعاته. وهو عبارة عن التناوب بين قِصَر الليل والنهار وطولهما، الناشئ من النظام الشمسي البديع. وهو من الدلائل علىٰ قدرته سبحانه وتعالىٰ وحكمته.

ثم قال: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾، وذلك كالحيوان من موادِّه الملقِّحة والعكس، والنبات من بذوره والعكس، وفي ذلك من الدليل علىٰ قدرته تعالىٰ ما يُرغم أنفَ المنكر الجاحد الجهول. ولا يَرِدُ ما يقوله العلماء من أن في النطفة والبيضة والبذرة حياةً، يريدون ما بها من قوة التوليد والإنبات؛ لأنَّ هذه الحياة التي يطلقونها عليها اصطلاحية لأهل الفنِّ في عرفهم، دون العرف العام الذي يراعيه التنزيل.

ثم أيَّد الخاص بالعام علىٰ نهج القرآن، فقرَّر مضمون الآية السابقة، وهو: إعطاء الملك من يشاء، ونزعه ممن يشاء... إلخ، بقول: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٢٧﴾ أي: إنه يرزق من يشاء بغير تضييق ولا تقتير. أو بمعنىٰ: أنه سبحانه لا يطلب منكم

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٢٢).

علىٰ ذلك الرزق جزاء، كما يطلب الأسيادُ من العبيد، فلا يُحاسبكم حسابَ الأسياد لعبيدهم علىٰ أرزاقهم، وطلب ما يقابلها من الخدمة والوفاء، أو بمعنىٰ: أنَّ ذلك لم يكن في حسبان المرزوق.

ولا يُعارض مِثلَ هذه الآية ما جاء في القرآن من أنَّ أمر الرزق منوطٌ بالسَّعي، ويتأتىٰ حَرْثُ الدنيا لمن سَعَىٰ له سعيه، لأنَّ ذلك هو الذي شاءه الله بسُنَّته الكونيَّة. فالآياتُ تشير إلىٰ أنَّ الله سبحانه يُعطي خيره في الملك والرزق لـمن سَعَىٰ له سَعْيه المطلوب، ولا تعلُّق لذلك بالعقيدة والدِّين، وإنما هو بالسَّعي وتعاطي الأسباب، وحَرْثُ الآخرة يكون بالسعي بمقتضىٰ الدين الصحيح والعقيدة الصحيحة.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

ولما كان السياق في مجادلة الكافرين وتَصلُّبهم في مقاومة الحق ودين الإسلام، أمر المؤمنين أن لا يتَّخذوا أولياء من المقاومين لهم منهم؛ لئـلا يكون ذلك ذريعةً إلىٰ تجسُّسهم عليهم، ولا سيما إذا كان ذلك طلباً لحظوظ الدنيا، فقال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك بأن تُقدَّم في تلك الولاية مصلحةُ الكافرين علىٰ مصلحة المؤمنين، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: يكون بينه وبين الله

غاية البعد، بمعنىٰ: تنقطع صلة الإيمـان بينه وبين الله، كمـا قال تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ وهذا استثناء من أعمّ الأحوال، أي: تَرْكُ موالاة الكافرين علىٰ المؤمنين حَتْمٌ في كلِّ حال، إلا في حال الخوف من شيء تـتَّقونه منهم، فلكم حينئذٍ أن تُوالوهم بقدر ما يتقىٰ به ذلك الشيء. وهذه الموالاة تكون صوريَّة؛ لأنها للمؤمنين لا عليهم.

قال الأستاذ الإمام: والظاهر أن الاستثناء منقطع، والمعنىٰ: ليس لكم أن توالوهم علىٰ المؤمنين، ولكن لكم أن تتقوا ضرَرَهم بموالاتهم. وإذا جازت موالاتُهم لاتِّقاء الضرر، فجوازُها لأجل منفعةِ المسلمين يكون أَوْلىٰ(١). فالآية لا تدلُّ علىٰ أنه لا يجوز للمسلمين أن يتحالفوا ويتفقوا مع غيرهم، إذا كان الحلف والاتِّفاق لمصلحتهم. وقد حالف النبيُّ ﷺ خزاعة وهم علىٰ شركهم(٢). وقد فصَّلَتْ هذا الـموقفَ سورةُ الـمُمتَحنة(٣).

ثم توعَّد علىٰ مخالفة هذا النهي بصورة تحذير عام، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ فيُجازي كلًّا بعمله.

ثم أكمل تحذيره بما يحمل علىٰ شدَّة التجنُّب والإخلاص فيما ينهىٰ عنه سبحانه وتعالىٰ، وشدَّة الحيطة فيما يُبيحُ منه للمصلحة كالتُّقاة، وذكر ذلك بصورة بيان عام علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾، ففي هذه الآية تنظيمٌ للتقاة، وتحذيرٌ من

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٣٠).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣١)، عن المسور بن مخرمة.

(٣) في الآيتين ٨ و٩ منها.

أن يكون بها غير اتِّقاء الضرر أو أن تكون زائدة عن الحاجة، فإنَّ الله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه النفوس وتختلج به القلوب. وقد سَبَك الآية علىٰ بيان دقَّة علمه وحكمته وسَعَة قدرته سبحانه وتعالىٰ، وجَعَله مُستَنَداً للتحذير وتأييداً له.

ثم تابع المعنىٰ في التَّحذير لذلك الـمُوالي، ببيان هَوْل اليوم الذي ينفذ فيه الوعيد، فقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ فتنعم به وتفرح، ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ أي: حتىٰ يتأخَّر تنفيذُ الجزاء، لما ينالها من جرَّائه. وهذا أبلغُ تصوير لهول ذلك اليوم وشدَّة الحساب فيه.

ثم كرَّر التحذير هنا أيضاً، حثّاً علىٰ عمل الخير، وكفّاً عن عمل السوء، فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ فقد أعاد هذه الجملة لهذه الغاية، وليقرن بها قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: ومن رأفته أنه يُمهِلُهم ويحذِّرهم ويُنذِرُهم كي لا يقعوا في الهاوية، ويندموا حيث لا ينفع الندم، وإنه أكثَرَ التحذيرَ من عاقبة السُّوء لئلا تنسىٰ. ومن رأفته تعالىٰ: أنْ جعل الفطرةَ سليمةً ميَّالة بطبعها إلىٰ الخير، وتتألَّم مما يعرض لها من الشر، إذا لم يحرفها صاحبها ويفسد طبيعتها بصنعه، وأنْ جعل للإنسان أنواعاً من الـهداية يرجح بها الخير علىٰ الشر، كالعقل والدين، ومن رأفته أن جَعَل جزاء الخير مضاعفاً، وجَعَل أثر الشر في النفس قابلاً للمَحْوِ بالتوبة والندم والعمل الصالح، فكلُّ ذلك من رأفته تعالىٰ بالإنسان.

ثم عاد بالكلام إلىٰ محوره السابق مع الكافرين، فبعد أن دعاهم سبحانه وتعالىٰ إلىٰ الإيمان به والإيمان برسوله بأسلوب التهديد والوعيد، دعاهم إلىٰ ذلك أيضاً من طريق آخر نفسي إلزامي. وذلك أنَّ اليهود كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وأنَّ قريشاً كانت تقول عن أصنامها: إنما نعبدهم حُباً لله؛ لأنهم يُقرِّبوننا إليه زُلفىٰ. بل كلُّ

مَنْ يؤمن بوجود الله يدَّعي أنه يُحبُّ الله، وإن عارض شرائعه أو عبث بها، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِـمَا سلف مِمَّن آمن وأصلح، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ به يتولَّاه برحمته وإحسانه.

ثم أكَّد أنَّ سبب الحبِّ إنما هو الطاعة لله باتِّباع ما جاء به رسوله، وإنما أكَّده بالتكرار ليقْرن به ضدَّه، وهو أن الإعراض عنه هو سبب الحرمان من ذلك الحب، علىٰ طريقة نهج القرآن في تقرير الشيء بسَلْب ضدِّه، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بامتثال ما جاء به من الله، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن ذلك وأعرضوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ الذين تَصرِفُهم أهواؤهم عن النظر الصحيح في آيات الله وما أنزل علىٰ رسوله. فإن ادَّعوا أنهم يحبُّون الله فما قيمة الدعوىٰ يكذبها العمل؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا
مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ
مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾
فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ
وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وبعد أن فنَّـد مزاعمهم الباطلة في شـأن عيسىٰ عليه السلام، وشـنَّع عليهم فيها، وبيَّن مآربهم منها، وتوعَّدهم عليها، شرع في بيان أمر عيسىٰ علىٰ الوجه الصحيح، وأنه من جملة الـمُصْطَـفَيْنَ الأخيار الذين اصْطَفَاهم الله لرسالته إلىٰ البشر، وأوحىٰ إليـهم بشـريعتـه فـقـال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾[١]، وعليه فلا وَجْه لإنكار اصْطفاء محمد ﷺ ليبلِّغ عنه تعالىٰ كما اصْطفىٰ أمثاله أولئك.

وآل عمران: عيسىٰ ومريم وأمها. وعمران: هو أبو مريم.

ثم ذكر ما رمز به إلىٰ علَّة ذلك الاصطفاء واشتراكهم فيه، فقال: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ أي: إنهم متساوون في الجدارة لذلك الاصْطفاء، يَنزِعُ كلَّ نبي في رَحِم أمه عِرْقٌ لنبي آخر من أجداده في السلسلة البشرية، والله أعلم.

ومعنىٰ اصطفائهم: أنه سبحانه وتعالىٰ جعلهم صفوةً للعالمين، بجَعْل النبوَّة والرسالة فيهم، فآدم أبو البشر ارتقىٰ هذه المرتبة بعد أن اجْتباه الله وتاب عليه وهدىٰ، وكان في ذُرِّيته من النبيِّين والمرسلين من شاء الله تعالىٰ. وأما نوح، فبعد أن نجَّاه الله ومن معه في الفُلْك جاء من ذُرِّيَّته كثير من النَّبيين والمرسلين. وبعد هود فَشَتِ الوثنيةُ في البشر حتىٰ ظهر فيهم إبراهيم عليه السلام، وتتابع النبيُّون والمرسلون من أهله، وكان أرفعَهم قَدْراً آلُ عمران، قبل أن تُختَمَ النبوةُ بولد إسماعيل عليه السلام، حيث اصْطفىٰ محمداً ﷺ بعد ذلك.

وبعد أن ذكر اصْطفاء آل عمران، بيَّن كيفيَّةَ اصْطفائهم وصورةً منه، وقد مهَّد

---

(١) بعد أن ألمع عن زَيْغ أهل الكتاب ـ ومنهم النجرانيُّون ـ في مجادلتهم مع النبيِّ ﷺ في أمر عيسىٰ عليه السلام، وتأويلهم ما جاء في الآية من أنه كلمة الله وروح منه بما يلائم بدعتهم الشنيعة وضلالهم البعيد، حرَّر حقيقة أمره بأنه لا يعدو كونه عبداً لله مُصطفىٰ من ذريَّة المُصْطَفَين الأخيار، وألمع إلىٰ أنه في أعجوبة ولادته لا يبعد عن ولادة يحيىٰ من أبوين عاقرين، ودون خلق آدم من غير أبوين، كما سيأتي في سياق هذا القصص وتفصيله. وفي قوله: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ ردٌّ علىٰ قول المسيحيين بأنَّ عيسىٰ مُنْبثق من الله، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً. ويجوز أن يكون هذا الوصف وصفاً لكلِّ آلٍ بانفراده. (المؤلف).

له بها جعله تذييلاً لما قبله، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، أو جَعَله تعليلاً لما تقدَّم من حُسْن الاصطفاء، وتـمهيداً لما بعده من سماع الدعاء، فقال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمن يطلب اصْطِفَاءَه وقبوله، ﴿عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ بمَنْ يستحقُّ الاصْطفاء والقبول، كما كان ذلك، أو كما سمع ذلك.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ أي: مُخْلَصاً للعبادة والخدمة في بيت المقدس، ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥﴾ بما في الضمائر. فأنْجزَ سبحانه لها الإجابة كما سيأتي.

قال الأستاذ الإمام: وَرَدَ ذكر عمران في هذه الآيات مرتين، فبعضهم يقول: إنهما واحد، وهو أبو مريم، ويستدلُّ علىٰ ذلك بورودهما في سياق واحد. وأكثرهم يقول: إنَّ الأول أبو موسىٰ عليه السلام، والثاني: أبو مريم عليها الرضوان، وبينهما ألفٌ وثمانمئة سنة تقريباً. وذكر تفصيل ذلك علىٰ ما هو معروف عند اليهود.

قال: والمسيحيون لا يعترفون بأنَّ أبا مريم يُدعىٰ عمران، ولا ضَيْر في ذلك؛ فإنه لا يلزم أن تكون كلُّ حقيقةٍ معروفةً عندهم، وليس لهم سَنَد لنسب المسيح يُحتجُّ به، فهو كسلسلة الطريق عند المتصوفة، يزعمون أنها متَّصلة بعليٍّ أو بالصدِّيق، وليس لهم في ذلك سَنَد يُحتجُّ به.

ثم قال في «المنار»: وأقول: إنَّ نسب المسيح في إنجيلَيْ «متّىٰ» و«لوقا» مختلِف، ولو كُتب علىٰ علم لَـمَا وقع فيه الخلاف[1].

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان عنها: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾؛ تتحسَّر

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٣٨).

وتتحزَّن، ولكنه سبحانه نوَّه بشأن ما وضعت وعجَّل به، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ يريد أنها وضعت أنثىٰ جليلةَ القَدْر ولا تدري. فدفع بهذه الجملة ما يُوهمه كلامُها المحكيُّ من الاستنقاص. والتعجيل بهذه الجملة قبل إتمام حكاية كلامها يُؤْذِنُ بالاهتمام بهذا التَّنويه والدفع، ويُعَجِّل بإدخال السرور عليها بَدَل الحزن والتَّحسُّر. وبعد هذا التعجيل، علىٰ نهج القرآن في فصل السياق، ودَرْج غيره فيه مما يُلابسه ويتعلَّق به ويقتضي تعجيله، أي: بعد التَّعجيل بالتنويه، تـمَّم كلامها المحكيَّ عنها، فقال: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾ أي: في هذا الأمر الذي أردتُ، وهو: خدمة بيت المقدس، ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ أي: أعصمها وذريَّتها بك منه. وفيه إيماءٌ إلىٰ أنها مُصَمِّمة علىٰ إنجاز نَذْرها وإن كانت أنثىٰ، فإن لم تكن جديرةً بالسِّدانة فلتكن من العابدات فيه.

وبعد هذه الجملة الدُّعائية، بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنه قَبِلَ نَذْرَها واستجاب دعاءَها، حيث قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ﴾ أي: تقبَّل مريم من أمها، ورضيَ أن تكون مُحَرَّرةً للانقطاع لعبادته وخدمة بيته، ولم يكن يقبل قبلها إلا من الذكور. والصيغة تدلُّ علىٰ المبالغة، فهي أبلغ من صيغة: قَبِلَها، وزاده مبالغةً وصفُه بالحسن، كأنه قال: فقبلها ربُّها أكرمَ قَبولٍ حَسَنٍ، ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ أي: ربَّـاها في خيره ورزقه، وعنايته وتوفيقه، تربيةً حسنةً شاملةً للروح والجسد، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: جعَله كافلاً لها وقائماً بتدبير شؤونها، وهو زوج خالتها.

ثم ذكر ما يدلُّ علىٰ عناية الله سبحانه بها، فقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ أي: من دون حُسْبان من المرزوق، ولا توقُّع منه. أو المعنىٰ: أنه سبحانه

لا يطلب علىٰ رزقه جزاء، كما يطلب الأسياد من العبيد. وهذه الجملة الأخيرة: إما من كلامها، فيكون متمِّماً له، وإما من كلامه عزَّ وجل فيكون مستأنَفاً. وليس في الكلام ما يدلُّ علىٰ أن ذلك جرىٰ بخوارق العادات، بل يجوز أن يكون بتسخير الله الناس لها. والله أعلم[1].

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من تنبُّه شعور زكريا عليه السلام ورغبته بطلب الولد من الله تعالىٰ، عندما رأىٰ لُطْفَ الله تعالىٰ بمريم، وعنايته بها، ونجابتها في نفسها، وتقواها لله، فقال: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: عندما رأىٰ من حال مريم ما أعجبه ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ لو يكون له ولدٌ صالحٌ مثلها و﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

وقد أُوذِنَ أيضاً بسماع ندائه واستجابة دعائه، حيث قال تعالىٰ: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، والجمهور علىٰ أن المراد بالملائكة: جبريل مَلَكُ الوحي، وقالوا: إنَّ العرب تُخبر عن الواحد بلفظ الجمع، تُريد به الجنس المتحقِّق في الواحد. قال ابن جرير: يقال:

---

(١) بل جريان ذلك لمريم من خوارق العادات، وإلا فما وجه تعجُّب زكريا من ذلك، إذ تسخير الله الناس لها أمر عاديٌّ لا يدعو للاستغراب. ثم ما هو وجه دعاء زكريا بطلب الولد وقد بلغ من الكبر عتياً وزوجه عاقر إلا بعدما رأىٰ خوارق العادات التي جرت لمريم عليها السلام.

خرج فلان علىٰ بغال البريد[١]، وإنما ركب بغلاً واحداً، ويقال: فلان ركب السفن، وإنما ركب سفينة واحدة[٢].

وقال بعضهم: إنما المراد جماعة من الملائكة نادته ﴿وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ والظاهر أنَّ المراد: وهو قائم يدعُو بذلك الدعاء، إذ الصلاة بمعنىٰ الدعاء، فقالوا له: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾ أي: بولَدٍ اسمُه يحيىٰ، ﴿مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بعيسىٰ عليه السلام الذي كان بكلمة: «كُنْ»، لا بالسُّنَّة العامة في توالد البشر، ﴿وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا﴾ أي: يحبس نفسه ويمنعها مما ينافي الفضل والكمال اللائق بها، ﴿وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ وهذا القَيْد لبيان الواقع مبالغةً في التمنُّن، أو المعنىٰ: من القوم الصَّالحين، وهم أهل بيته.

فلما سمع زكريا عليه السلام هذه البشارة، طَغَتْ عليه بمقتضىٰ الطبيعة البشرية مَـوْجةٌ من شدَّة الحرص علىٰ تحقُّق مأربه في أمر محبوب، ظهرت تباشير الطمع فيه، فأخذ يُعدِّد ما هنالك من الموانع الطبيعيَّة ليسمع ما يُطَمئنُه عنها، و﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾؟ فَطَمَّنه سبحانه و﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾ أي: لا يحُول دون مشيئته شيء. ففهم زكريا فهماً إجمالياً أنَّ هناك سُنناً طبيعيَّة أخرىٰ لا يعلمها، تقوم بصدِّ الموانع[٣]. والله أعلم.

فحينئذٍ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾ أي: علامةً تتقدَّم ذلك وتُؤْذِنُ به، ﴿قَالَ﴾ تعالىٰ: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾ قيل: معناه: أن تترك ذلك مُختاراً

---

(١) في «تفسير الطبري»: البُرُد.

(٢) «تفسير الطبري» (٦: ٣٦٤).

(٣) بل فهم زكريا عليه السلام أن الأمر خارجٌ عن سنن الطبيعة خارقٌ للعادة. وفي إخباره بأن الأمر فعلٌ لله وربطِهِ بمشيئته سبحانه إشارةٌ إلىٰ إخراجه عن سنن الطبيعة.

بأمرٍ من الله تعالىٰ، للتفرّغ لعبادة الله. ويؤيده ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ وإن كان الذكر يجوز أن يكون بالقلب. وقيل: بل المراد أن يعجز عن خطاب الناس بحَصْر مُؤَقَّت يَعْتري لسانه. ويُرجِّح هذا القولَ أنَّ الآية تكون بغير المعتاد. والله أعلم.

وقالوا في وجه السؤال الأول أقوالاً أخرىٰ، منها: اشتبه عليه الأمر أيُعْطَىٰ الولد من امرأته العجوز أم من امرأة أخرىٰ يتزوَّجها، فقال ما قال. ومنها: أنه إنما قال ذلك علىٰ سبيل الاستعظام لقدرة الله تعالىٰ، والتعجُّب الذي يحصل للإنسان عند ظهور آية عظيمة.

وقال الأستاذ الإمام في ملخَّص أسئلة زكريا عليه السلام: الصواب أنَّ زكريا عليه السلام أحبَّ بمقتضىٰ الطبيعة البشريَّة أن يتعيَّن لديه الزمن الذي ينال به تلك المنحة الإلَهية ليطمئن قلبه ويبشِّر أهله، فسأل عن الكيفيَّة أولاً، ولما أُجيب بما أُجيب به، سأل ربَّه أن يخصَّه بعبادةٍ يتعجَّل بها شكره، ويكون إتمامُه إيَّاها آيةً وعلامةً علىٰ حصول المقصود، فأمره أن لا يُكلِّم الناس ثلاثة أيام، بل ينقطع للذكر والتسبيح مساء صباح مدَّة ثلاثة أيام، فإذا احتاج إلىٰ خطاب الناس أوْمأ إليهم إيماء[1].

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم تابع المعنىٰ في بيان اصْطفاء آل عمران، بعد أن استطرد عمَّا كان من أمر زكريا،

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٤٦).

حينما رأىٰ حال مريم عليها السلام، فعاد إلىٰ إتمام البحث عنها، ليوصله بالكلام علىٰ عيسىٰ عليه السلام؛ إيذاناً بأنَّ ولادته من دون أب معجزةٌ لا تقلُّ عنها ولادةُ يحيىٰ من أم عجوز وأب قد بلغ من الكِبَرِ عِتِيّاً، إذ كلتاهما أمر خارق للنواميس الطبيعيَّة المعروفة لنا[١]، ولكنَّ سننَ الله الكونيَّة لا تحصيها البحار مِدَاداً والأشجار أقلاماً.

وقد عطف علىٰ قوله السابق: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ بيانَ شخصية مريم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾، والاصطفاء الأول: هو قَبولها مُحَرَّرةً لخدمة الله في بيته، مع أنَّ ذلك كان خاصاً بالرجال. أما التطهير: فقد قال الأستاذ الإمام: هو التطهير من كلِّ ما يُسْتَكرَهُ ويُسْتَنْقَص، كسَفَاسف[٢] الأخلاق وذميم الصفات وغير ذلك. والاصْطفاء الثاني: هو أنْ جعلها تَلِدُ نبياً من غير أن يَمَسَّها رجل[٣]. وهي كرامة عظيمة.

قال أبو السعود: ثم كرَّر النداء للإيذان بأنَّ المقصود بالخطاب ما يُراد بعده، وأنَّ ما قبله من تذكير النعم كان تمهيداً لذكره وترغيباً في العمل بموجبه، فقال: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[٤].

---

(١) بل كلتاهما أمرٌ خارقٌ للنواميس الطبيعية المعروفة لنا والمجهولة، وفي سياق كل قصةٍ منهما ما يدل علىٰ ذلك، وتقدم في التعليق قريباً الإشارةُ إلىٰ أحدها من قصة زكريا ويحيىٰ عليهما السلام، أما قصة عيسىٰ فمن أظهر الأدلة فيها علىٰ أن الأمر خارقٌ للسنن الطبيعية بالكلية: تعليقُ الأمر عند استغرابه بـ«كن» وتشبيهه بخلق آدم، ولم يكن خلق آدم بناموس طبيعي.

(٢) في تفسير «المنار»: كسَفْساف.

(٣) تفسير «المنار» (٣: ٢٤٧).

(٤) «تفسير أبي السعود» (٢: ٣٥)، وتدل هذه الآية علىٰ أنَّ الصلاة ذات الركوع والسجود معروفة عند الأمم قبلنا في شرائعهم السماوية ومطلوبة منهم. والله أعلم. (المؤلف).

قال في «المنار»: وهذا الخطاب ليس بشرع خُصَّت به، وإنها هو إلهامٌ بمكانتها عند الله. وبما يجب عليها من الشكر بدوام القنوت والصلاة. والقنوت هنا: بمعنىٰ لزوم الطاعة مع الخضوع. والركوعُ مع الراكعين: صلاتها مع المصلِّين في المعبد. وقد كانت مُلازِمةً لمحرابه[1].

ثم أردف الكلام بما يعلِّق به القرآن علىٰ كثير من قصص الأنبياء، وهو البرهان بمضمون القصة علىٰ أنَّ هذا القرآن إنما هو من عند الله تعالىٰ؛ لأنه يتكلم عن أمور بعيدة عن النظر، خفيَّة علىٰ البشر، وعن التاريخ المجهول لأرباب الخبر، بمعنىٰ: أنَّ الإخبار عن مضمونها إخبار عن المغيَّبات التي لا تُعْرف إلا بالوحي.

وخلاصة الحُجَّة: إنك لم تكن في أزمنة وقوع هذه القصة، ولا تعلم شيئاً من التاريخ عنها، ولو تعلَّمته لجئتَ به تخليطاً علىٰ النحو الذي عند أهل الكتاب أو غيرهم من القصَّاصين، بخلاف ما قُصَّ عليك، فإنه هو الحق المبين. فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي قَصَصْناه عليك ـ يا محمد ـ من أخبار مريم وزكريا، إنما هو ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ في كفالتها ولم يتَّفقوا إلا بعد القرعة. وقد أدمج في هذا التعليق بيانَ تخاصُمِهم علىٰ كفالتها واقتراعهم في ذلك، علىٰ سُنَّة القرآن في السَّبْك والإدماج.

والأقلام: سهام يقترعون بها، وتُسمَّىٰ عند العرب القداح والأزلام أيضاً.

وقد نفىٰ مشاهدته لمجلس الخصام والاقتراع علىٰ طريقة التهكُّم بالمعارضين لنبوته ﷺ والمنكرين لها.

ويجوز أن يكون هذا الاستشهاد مبنياً علىٰ ما يعلمه قومه من أنه ﷺ أُمِّيّ، ونشأ

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٤٧).

بين قوم أُميين، فلم يَبْـقَ له طريقٌ للعلم سوىٰ الوحي والمشاهَدَة، فإذا أنكروا الوحي لم يبق إلا المشاهدة التي نَـفَاها علىٰ سبيل التهكُّم لاستحالتها. فهذا استدلال بطريقة السَّبْر والتقسيم من طرق الاستدلال، يستعمله القرآن كثيراً.

ومضمون الكلام: تصديقٌ لنبوَّته ﷺ، وأنَّ ما جاء به هو وحيٌ من عند الله.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾.

ثم تابع البيان عن اصطفاء آل عمران، وشرع في خبر عيسىٰ بعد قصة أمه، وقصة زكريا عليهم السلام، فقال: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي: الذين أنعم الله عليهم وأصلح حالهم، وهم الأنبياء الذين تَعرِفُ مريمُ سيرَتَهم.

والمراد من الملائكة: جبريل عليه السلام، لقوله تعالىٰ في سورة مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]. والعرب تخبر عن الواحد بلفظ الجمع كما مرَّ بيانه.

وفي لفظ «الكلمة» وجوه، منها: أنَّ المراد كلمةُ التكوين، وذلك أنه لما كان أمر الخلق والتكوين وكيفيَّة صدروه عن الباري عزَّ وجل، مما يعلو عقولَ البشر، عبَّر عنه سبحانه بقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، فكلمة: «كُنْ» هي كلمة التكوين، وهي كلمة عامة في كلِّ شيء. وإنما أُطلقت علىٰ المسيح هاهنا

لأنَّ الأشياء تُنسب في العادة والعرف العام إلىٰ أسبابها، ولما فُقِدَ في تكوين المسيح وعلوق أمه به ما جعله الله سبباً للعلوق حسب الطبيعة العامة في البشر، أُضيف هذا التكوين إلىٰ كلمة الله؛ ذلك السبب العام، وأُطلِقَت الكلمة علىٰ نفس المكوَّن إيذاناً بذلك.

ومنها: أنه أطلق علىٰ المسيح «كلمة الله» للإشارة إلىٰ بشارةِ الله أمه به، والمعنىٰ: أنَّ الله يُبَشِّرُكِ ببشرىٰ من عنده هي ولدٌ لك اسمُه المسيح عيسىٰ ابنُ مريم، وجيهاً في الدنيا والآخرة.

ويجوز أن يُراد بالكلمة: السنة الكونيَّة من كلماته وسُنَنِهِ التي لا تَنفَدُ ولو كان البحر لها مِدَاداً. والله أعلم.

والمسيحُ: لقب الـمَلِكِ عندهم، لما مضت به تقاليدهم من مَسْح الكاهن كل مَنْ يتولىٰ الـمُلْكَ بالدهن المقدَّس. ولكن الظاهر من الآية: أنَّ كلمة «المسيح» عَلَمٌ ثانٍ لعيسىٰ. واللفظ إذا أُطلق عَلَماً لا يُراد فيه معناه اللغوي ولا يُراعَىٰ ذلك، وقد يُلمح به للمعنىٰ تلميحاً، فالله سبحانه يُلمِعُ إلىٰ أنَّ عيسىٰ أفضل من الملوك. والله أعلم.

والوجيه في الدنيا: من كانت له مكانة في القلوب واحترام في النفوس. والوجيه في الآخرة: من كان علىٰ منزلة رفيعة ومكان عليٍّ، يراه الناس فيها، فيعلمون أنه مُقرَّب عند الله ويُبجِّلونه.

وأما قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾، فقد قال أبو مسلم: العطف للمقارنة، ومعناه: أنه لا فرق بين كلامه في المهد وكلامه كهلاً، وهي غايةٌ في المعجزة. وقيل: بل المراد أنه يكلِّم الناس في المهد، لإظهار طهارة أمه، وعند الكهولة بالوحي والنُّبوَّة. فهو تَنْويهٌ بالشأنَيْن. والكهولة: أكمل سنِّ الإنسان.

ثم حكىٰ ما كان من استغرابها من هذه البشارة بحسب العادة، واستكبارها لها،

بقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧)﴾.

قال في «المنار»: اعلم أنَّ الكافرين بآيات الله ينكرون الحَمْل بعيسىٰ من غير أب، جموداً علىٰ العادات، وذهولاً عن كيفيَّة ابتداء خلق جميع المخلوقات، ألا يَـرَوْن كل يوم من شؤون الكون ما لم يكن معتاداً من قبل، فمنه ما يعرفون له سبباً ويُعبِّرون عنه بالاكتشاف والاختراع، ومنه ما لا يعرفون له سبباً ويُعبِّرون عنه بفلتات الطبيعة. ومعنىٰ ذلك: أنها جاءت من غير طريق الأسباب المعروفة.

ويمكن تقريب هذه الآية الإلٰهية من السُّنن المعروفة بوجهين:

أحدهما: أنَّ الاعتقاد القويَّ الذي يستولي علىٰ القلب، ويستحوذ علىٰ المجموع العصبي، يُحدِثُ في عالم المادة من الآثار ما يكون علىٰ خلاف المعتاد، فكم من سليم اعتقد أنه مصابٌ بمرض كذا، وليس في بَـدَنه شيء من جراثيم هذا المرض، فولَّد له اعتقاده ـ أو ساعد ـ تلك الجراثيم، وصار مريضاً. وكم من امرئ سُقي الماء القراح أو نحوه، فشربه معتقداً أنه سمٌّ ناقع، فمات مسموماً به. والحوادث في هذا الباب كثيرة أثبتتها التجارب.

وإذا اعتبرنا بها في أمر ولادة المسيح، نقول: إن مريم لـما بُـشِّرت بأنَّ الله تعالىٰ سيَهَبُ لها ولداً بمحض قدرته، وهي علىٰ ما هي من صحَّة الإيمان وقوة اليقين انفعل مزاجها بهذا الاعتقاد، انفعالاً فَعَلَ في الرحم فِعْلَ التلقيح، كما يفعل الاعتقاد القوي في مزاج السليم فيمرض أو يموت، وفي مزاج المريض فيبرأ، وكان نَفْخُ الروح الذي وَرَدَ في سورة أخرىٰ مُتمِّماً لهذا التأثير(١).

---

(١) في نقل المؤلف كلام رشيد رضا وإقراره، في تقريب حَمْل مريم عليها السلام، تكلّف بعيد، وإبطال لحقيقة المعجزة في حمل مريم وولادتها لعيسىٰ.

الوجه الثاني: أنّ الله سبحانه وتعالىٰ المُسَخِّر للأرواح المنبثّة في الكائنات قد أرسل رُوحاً من عنده إلىٰ مريم، فتمثَّل لها بَشَراً سوياً، ونفخ فيها، فأحدثت نَفْخَتُه التلقيح، فحملت بعيسىٰ عليه السلام. والله أعلم. انتهىٰ بتصرف(١).

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه بعد أن أكمل المعترضة ما سيكون من أمر هذا الولد وعُلُوِّ شأنه، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جنسَ الكتب الإلـهيّة، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: العلمَ الصحيح والبصيرة الصادقة، ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ فذكرهما أولاً بالجنس، ثم نصَّ عليهما بالاسم، إظهاراً لشرفهما. علىٰ أنه يجوز أن يُراد بذكرهما: فِقهُ أحكامهما وأسرار مسائلهما، ﴿وَ﴾ يُرسِلُه ﴿رَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يُعلن لهم: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: جئتكم مُحتجاً علىٰ صِدْق رسالتي بمعجزة، وهي: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ أي: أُسوِّي وأُصوِّر لكم منه ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

قال الأستاذ الإمام: وغاية ما يُفْهَم من الآية أنَّ الله تعالىٰ جعل فيه هذا السِّر، ولكن لم يقل: إنه خلق بالفعل، ولم يرد عن المعصوم أنَّ شيئاً من ذلك وقع. وقد جرَت

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٥٣ - ٢٥٥).

سنَّة الله تعالىٰ أن تجريَ الآيات علىٰ أيدي الأنبياء عند طلب قومهم لها[١]. وكذلك يقال في قوله: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فإنَّ قصارىٰ ما تدلُّ عليه العبارة أنه خُصَّ بذلك. وأما وقوع ذلك بالفعل فهو يتوقف علىٰ نقلٍ يُحتج به.

قال في «المنار» بعد هذا تعليقاً عليه: ولعلَّ آية سورة المائدة أدنىٰ إلىٰ الدلالة علىٰ الوقوع من هذه الآية، وهي: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]. فإنَّ جَعْلَ ذلك متعلَّقَ النعمةِ يُؤْذِن بوقوعه[٢]، إلا أن يقال: إنَّ جَعْل هذه الآية مما يجري علىٰ يديه عند الطلب منه، نعمة عظمىٰ[٣].

أقول: وإنما خُصَّ بهذه المعجزة لأنَّ السنَّة الإلَهيَّة مضت بأن تكون معجزةُ كل نبيٍّ من نوع ما اشتهر في زمنه وانتشر؛ ليعرف أهل العصر قيمتها وعظمتها، وكان الطبُّ في زمن عيسىٰ عليه السلام فاشياً دارجاً، وإبراء الأكمه من المستحيلات بحسب الفنِّ عندهم، ثم أتبعها بما هو أشدّ استحالة، وهو إحياء الموتىٰ بإذن الله، وحينئذ لم يبق في العقول شبهةُ استحالةِ لخلق عيسىٰ من دون أب، لأنها ليست بأغرَبَ من إحياء الموتىٰ؛ لأنَّ الله سبحانه إذا كانت قدرته تُجري مِثلَ هذه المعجزة علىٰ يد بشر، فكيف يَعجِزُ سبحانه عن خلق عيسىٰ من دون أب؟!

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٥٦).

(٢) هذا استدلالٌ قوي، والجوابُ ـ الذي أورده احتمالاً بعده ـ جوابٌ ضعيف، فلا مناصَ من القول بوقوع ذلك فعلاً علىٰ يد عيسىٰ عليه السلام بإذن الله.

(٣) تفسير «المنار» (٣: ٢٥٦).

ثم تابع الكلام عن المعجزات، فقال: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: أُنبئكم بالمغيَّبات عني من أحوالكم. ففيه ذكر الخاص وإرادة العام. والحكمةُ في ذكر هذا الخاص كونُه أمراً ظاهراً عندهم، لا يشكون فيه.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ أي: إنَّ فيما ذكر لحُجَّة لكم علىٰ صدق رسالتي ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: إن كنتم ممَّن يتأتَّىٰ منه الإيمان، أو هي للحثِّ علىٰ الإيمان.

ثم قال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي: إنه لم يأت ناسخاً للتوراة، بل مُصدِّقاً لها، عاملاً بها، ولكنه نسخ بعض أحكامها كما قال: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، فقد كان حُرِّم علىٰ بني إسرائيل بعضُ الطيِّبات بظلمهم، حتىٰ أحلّته الشريعة العيسوية.

ثم أجمل التفصيل السابق علىٰ سبيل التقرير والتأكيد، وليفرِّع عليه الأمرَ بالتقوىٰ، والحثَّ علىٰ التمسُّك بما جاء به، فقال: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ شاهدةٍ علىٰ صحَّة رسالتي، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ أي: فيما آمركم به وأنهاكم عنه.

ثم مَحَّضَ النتيجة، وهي أمرهم بعبادة الله وحده، لأنه هو المستحقُّ لذلك، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.

ثم بيَّن أنَّ هذا هو الطريق الموصل إلىٰ الله، فقال: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ أي: يَصِلُ صاحبُه إلىٰ سعادة الدارين.

وقال الأستاذ الإمام: إنما أعاد ذكر المجيء بالآية، للتفرقة والفصل بين ما قبلها وما بعدها[1].

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٥٧).

وقال البيضاوي: إنَّ الأولىٰ لتمهيد الحُجَّة، والثانية لتقريبها إلىٰ الحكم، ولذلك رتَّب عليها بالفاء قولَه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: لـمّا جئتكم بالمعجزات الباهرات والآيات الظاهرات، فاتَّقوا الله في المخالفات، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه[1].

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

ثم انتقل من البشارة بعيسىٰ إلىٰ ذكر خبره مع قومه، وطَوَىٰ خبر ولادته ونشأته اكتفاءً بآيات البشارة الدالة عليها، ومثل هذا من ألوان إيجاز القرآن في بلاغته، فقال: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ وأنَّ تلك الآيات لم تُجْدِهِم نفعاً، توجَّه إلىٰ البحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه، و﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: مخلصون لله منقادون إليه. وحواريُّ النبي: مَنْ ينصره ويُخلص له في النصر والمعُونة، وليس النصر خاصاً بالقتال، بل يشمل الدعوةَ إلىٰ الدِّين، والعملَ به. والإيمانُ الصحيحُ يَصْرف النفس في العمل بمقتضاه.

ثم تَضَرَّعوا إلىٰ الله تعالىٰ، مُخْلصين له النيَّة، طالبينَ منه المثوبة بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: للرسول بتبليغ الدعوة، وعلىٰ قومه بما كان منهم من الكفر والجحود. فحذف معمولَ «الشاهدين» ليعمَّ المشهودَ لهم والمشهودَ عليهم.

---

(١) «تفسير البيضاوي» (٢: ١٨).

ثم حكىٰ ما كان من مكر الكافرين، وردِّ كيدهم في نحرهم، فقال: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾، والمكر في الأصل: التدبير الخفي. ويجوز أن يكون في الكلام مشاكلة بديعية، أي: مكر أولئك الذين أحسَّ عيسىٰ منهم الكفر فحاولوا قتله، وأبطل الله مكرهم فلم ينجحوا فيه. ولا يبعد أن يكون هذا التدبير الخفيُّ شبيهاً بتدبير أمر رسول الله ﷺ ليلة الهجرة حيث يقول: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾.

وبشَّره الله سبحانه وتعالىٰ بإنجائه من مكرهم، وجَعْلِ كَيْدِهم في نحرهم، وحكىٰ تفصيل ذلك بقوله: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[1]، أي: مميتك موتاً طبيعياً لا أُسلِّط عليك من يقتلك، وأُطهِّرك من سُوء

(١) الظاهر أنَّ المراد الوفاة الطبيعية المعروفة، وأما حديث الرفع والنزول في آخر الزمان، فحديثُ آحاد لا يثبت به أمر اعتقاديّ، إذ المطلوب في الاعتقادات الأدلة القطعيَّة المؤدية إلىٰ اليقين، وليس هذا منها. ويُحتمل أن يُؤوَّلَ نزوله وحكمه بشريعة القرآن، بغَلَبة روح رسالته وسرِّها، وهي الرحمة والمحبة والسلام، إذ هي روح تعاليم عيسىٰ عليه السلام، وموجودة في ثنايا القرآن، فيكون المراد بالحديث: الإيماء إلىٰ صلاح الزمان والأخذ بشريعة القرآن، علىٰ الوجه الصحيح، مدة من الزمن. وأما قتله للدجال؛ فالمراد: إزالة المبادئ الزائفة والعقائد الزائفة، =

جوارهم، وخُبْث صُحبتهم، ودَنَس معاشرتهم، أو بإنجائك مما كانوا يرومونه بك من الشَّرِّ، فلم ينالوا شيئاً مما كانوا يريدونه بالمكر والخديعة، كما أنقذ محمداً ﷺ من قريش بالاختفاء، ثم بالهجرة عندما همُّوا بقتله والتَّخلُّص منه. أما عيسىٰ عليه السلام فقد توفَّاه الله علىٰ إثر الهجرة والاختفاء. والله أعلم.

وقيل: المراد من التَّوفِّي معناه اللغوي، وهو: أخْذُ الشيء كاملاً مُوَفًّىٰ. والمراد من رفعه إليه: إيصالُه إلىٰ مكانٍ لا يملك الحكم فيه عليه إلا الله، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩]، وهو يريد الشام والنجاة.

قال في «المنار»: والمعنىٰ المتبادر: إني مميتك وجَاعِلُك بعد الموت في مكان رفيع عندي. والله سبحانه يضيف إليه ما يكون فيه الأبرار من عالم الغيب قبل البعث وبعده. كما قال في الشهداء: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩](١).

= وإزالة الخرافات والقشور عن الشريعة وتعاليمها، تلك الخرافات التي جاءت من الدجَّالين ومن الضَّالين، لأنها تزول بتقرير الشريعة علىٰ الوجه الصحيح. والله أعلم.

هذا ملخص ما قاله صاحب «المنار» [٣: ٢٦١] نقلاً عن الأستاذ الإمام في هذا المقام، وعقب عليه بقوله: ولكن ظواهر الأحاديث الواردة في أمر النزول تأباه، ولأهل هذا التأويل أن يقولوا: إنَّ هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنىٰ كأمثالها من هذا الصنف من الأحاديث، ينقل فيها الراوي ما فهمه، وانطبع في مخيَّلته وتصوراته. والله أعلم. (المؤلف).

قلت: أما كونُ الأحاديث في ذلك أخبارَ آحاد؛ فغير مُسلَّم، إذ قد بلغت مبلغ التواتر، وصُنِّف في بيان ذلك مصنفات، من أحسنها «التصريح بما تواتر من نزول المسيح» للكشميري، و«نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسىٰ قبل الآخرة» للكوثري.

وأما التأويل المذكور فظاهرُ التكلُّف، شديدُ التعسُّف، واحتمالُ أن ينقل الراوي ما فهمه وانطبع في مخيلته فمسألة لها ضوابطها عند المحدثين، ولا يصحُّ إيرادها هكذا علىٰ عواهنها، لا سيما أن كثرة الأحاديث الواردة في المسألة تنفي هذا الاحتمال.

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٦٠).

أقول: ولا يبعد أن يُراد بالرفيق الأعلىٰ: مقرُّ أرواح الأنبياء. والغرض: تقرير الإماتة له عليه السلام.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: جاعل الذين اتَّبعوك ونَصَروك عندما عرضتَ عليهم الإيمان ودَعَوتَهم إليه، فوق الذين كفروا بك وقاوموك. أي: سأُفوّقهم عليهم في الروحيَّات، أو: والماديَّات أيضاً. وجَعلَ يوم القيامة نهايةً لتفوُّق أولئك المتَّبِعين لشريعته من أنصاره، ليصلَه بالتفوُّق الثاني المعلوم، وهو تفوُّق الآخرة، وللمبالغة في ذلك.

وقد توعَّد المخالفين ووعد المتَّقين، فقال: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وهو الحقُّ الذي جئتَهُم به عن الله، فعارَضُوك فيه وخالفوك.

ثم فصَّل صورة الوعد والوعيد بهذا البيان العامّ، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾، وقد عذَّب الله أولئك اليهود المعاصرين والمعارضين، عذَّبهم في الدنيا بتسليط الأُمم عليهم وإذلالها لهم، ولَعَذابُ الآخرة أخزىٰ، وهم لا يُنْصَرون.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ثم أومأ لعلَّـة هذا الجزاء بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: لأنفسهم بالخروج عن سُنن الفطرة، والكفر بما جاء به الأنبياء من الله سبحانه لإصلاح النفوس وهدايتها لطرق الفلاح في الدارين.

ثم خلَّل السياق ببيان أنَّ ما جاء فيه عن قصَّة عيسىٰ عليه السلام هو الحق اليقين، وما خالفه مما يتقوَّلون فهو كذبٌ وبهتانٌ عظيم، وسَبَكَ الكلام علىٰ المضمون الذي يختم به أغلب القصص، وهو أنَّ الوجه الصحيح الذي صيغت عليه القصة

يُبَرهِنُ علىٰ نبوَّته ﷺ، وعلىٰ أنَّ القرآن الذي جاء بها كذلك إنما هو من عند الله تعالىٰ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ هو ﴿مِنَ ٱلْآيَٰتِ﴾ الدالة علىٰ نبوّتك ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ الذي يُبيِّن وجوه العبر في الأخبار، والحِكَم في الأحكام، فيهدي المؤمنين إلىٰ لُباب الدِّين وفقه الشريعة وأسرار الاجتماع البشري، وأمثال ذلك. ولامُ البعدِ في اسم الإشارة لشرف المُشَار إليه.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

قال في «المنار» ما محصَّله: وبعد أن بيَّن سبحانه خَلْقَ عيسىٰ، ومجيئَه بالآيات، وما كان من أمر قومه في الإيمان والكفر به، كشف شبهة المفتونين بخَلْقه علىٰ غير السنة المعتادة، والمُحَاجِّين فيه بغير علم ـ ومنهم وفد نجران ـ وردَّ علىٰ المنكرين لذلك، فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: إنَّ شَبَهَ عيسىٰ في خلق الله إيَّاه علىٰ غير مثال سبق، وفي غير السنة الطبيعية المعتادة، كشأن آدم في خلقه علىٰ غير مثال سبق، وفي غير السنة الطبيعية المعتادة، حيث ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[1]، أي: ثم كوَّنه تكويناً.

---

(١) بعد طول المناقشة مع الوفد النجراني، وانخذالهم في جميع شبههم، قالوا: هل رأيت إنساناً من غير أب، وعيسىٰ ليس له أب من البشر، فمن أبوه؟ فكانت هذه الآية جواباً لهم. ومؤداها: إن الذي خلق آدم من غير أم وأب، خلق عيسىٰ من دون أب، فليس ذلك سبباً لجعْله إلهاً أو ابناً للإله، وإلا لكان آدم أولىٰ بذلك. (المؤلف).

والمعنىٰ: ثم قال له كلمة التكوين، وهي: «كن»، فيكون.

وكلمة التكوين من صفة المشيئة، لا من صفة الكلام، وهي عبارة عن توجُّه الإرادة إلىٰ الشيء ووجودِه بها حالاً، فهي مجموع الكلمتين. وهل يعزُّ علىٰ صاحب هذه المشيئة أن يخلق عيسىٰ من غير أب؟

والعطف يتمُّ لبيان التكوين الآخر؛ لأنه يفيد تراخِيَه وتأخُّرَه عن الخلق الأول.

وهل كان في هذه المدَّة علىٰ صفة واحدة أم تقلَّب في أطوار مختلفة؟ الله أعلم بذلك[١]. والثاني أظهر لموافقته للسنَّة الكونيَّة، وهي التَّطوُّر والتَّدرُّج في الأشياء وتنشئتها.

ثم قال في «المنار» نقلاً عن الأستاذ الإمام: وفي هذا إرشادٌ إلىٰ أنَّ أمر الخِلْقة[٢] يشبه بعضه بعضاً، فكلُّه غريبٌ بالنسبة إلينا إذا تفكَّرنا في حقيقتها وعِلَلِها، ولا شيء منه بغريب عند الموجِد المبدِع. أما القوانين المعروفة في علم الخليقة، فهي قد استُخرجت ممَّا نعهده ونشاهده فقط، وليست قوانين قامت البراهين علىٰ استحالة ما عداها، كيف وإننا نرىٰ الشيءَ الكثير ممَّا يخالفها، ويُعبِّرون عنه بفلتات الطبيعة، وهو إنما خالف ما نعرفه لا ما يعلم الله تعالىٰ. وما يُدرينا أنَّ لكل هذه الشواذِّ والفلتات سُنناً مُطَّردة لم تظهر لنا، وكذلك شأن خَلْق عيسىٰ[٣]، فكونه علىٰ غير المعهود ليس مزيَّة تقتضي أن يكون إلهاً أو ابن إله. وإذا كان عيسىٰ قد خُلِقَ من بعض جنسه، فآدم قد خُلِقَ من غير

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٦٣).

(٢) في تفسير «المنار»: الخليقة.

(٣) قياس معجزة خَلْق عيسىٰ عليه السلام علىٰ شواذِّ العادات وفَلَتاتها أمرٌ في غاية النكارة، وكان الأولىٰ بالمؤلف ـ غفر الله له ـ أن لا يروِّج كلام محمد عبده، ويكتفي بكَوْن خَلْقِ عيسىٰ عليه السلام معجزة إلهية.

جنسه، فهو أولىٰ بالمزيَّة لو كانت، وبالإنكار إن صح. علىٰ أن ما نعرفه من الخِلْقة ليس لنا منه إلا الظاهر، نَصِفُهُ ونقول به وإن لم نعقله، وماذا نعقل من الرابطة بين حبَّة الحنطة ونبتِها واستوائِها علىٰ سوقها وتناسب أوراقها وغير ذلك؟[١]

وقال الجاحظ[٢] في رسالة «الرد علىٰ النصارىٰ»: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ في الأعجوبة التي تعجبون منها، وإنما هي في آدمَ أعجب. فإن كان المسيح قد خُلق من غير أب، فآدم قد خُلق من غير أم وأب؛ ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾، فأيُّ الأمرين أعجب؟ ولا عجب في سنن الله تعالىٰ. فإن كانت خِلْقة عيسىٰ من دون أب تستدعي أن يكون إلهاً أو ابن الإله، فخِلْقة آدم أوْلىٰ بذلك من خِلْقة عيسىٰ، كيف وإنَّ الأعجوبة في آدم عليه السلام أبدع، وتربيته أكرم، ومنقلبه أعلىٰ وأشرف، إذ كانت السماءُ دارَه، والجنّةُ منزلَه، والملائكةُ خدَّامَه[٣].

ثم ختم سبحانه البيان عن أمر عيسىٰ بقوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: إنَّ ما قَصَصناه عليك من نبأ عيسىٰ هو الحقُّ من ربك، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[٤] أي: في أمر عيسىٰ، القائلين فيه بغير علم. وهذا من خطاب الأمة في شخص النبي ﷺ، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الخامسة).

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٦٤).

(٢) هو أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي (١٦٣- ٢٥٥هـ)، العلامة المتبحّر ذو الفنون وصاحب التصانيف. له: «الحيوان»، و«البيان والتبيُّن»، و«البخلاء». «سير أعلام النبلاء» (١١: ٥٢٦-٥٣٠)، و«الأعلام» للزركلي (٥: ٧٤).

(٣) «المختار في الرد علىٰ النصارىٰ» ص٨٣ مختصراً.

(٤) بعد أن وَضَحت الحقيقة لوفد نجران ولم يذعنوا للحُجَج والأدلَّة، بل تمادَوا في الخصومة واللجاج، أمره سبحانه بدعائهم لهذا الحق الإلهي الواضح، أو يعطوا الجزية، فرضوا بدفع الجزية، فأهل نجران هؤلاء هم أول من دفع الجزية من أهل الكتاب. (المؤلف).

وبعدما ذكر من وجوه الدلائل علىٰ فساد قول النصارىٰ في عيسىٰ، تزييفاً لجميع شُبههم علىٰ سبيل الاستقصاء، حتىٰ بَـلَغ الأمر إلىٰ الغاية القصوىٰ التي لم يَبْقَ معها مجالٌ للشك، تحدَّىٰ سبحانه وتعالىٰ الـمعاندين بطريقة نفسانية، وقال: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ أي: في شأن عيسىٰ وأمه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ﴾ عنه ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ القطعي في هذه الآيات البيِّنات، ولم يرتدعوا عمَّا هم عليه من الغيِّ والضلال، ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ يقال: ابتهل الرجل؛ إذا دَعَا وتضرَّع. ويقال: ابتهل القوم؛ إذا تلاعنوا. وتُسمَّىٰ هذه الآيةُ آيةَ المباهَلَة.

وقد ورد من عدَّة طرق أن النبي ﷺ دَعَا نصارىٰ نجران للمباهلة فأبوا[1].

وهذا الطلب يدلُّ علىٰ قوَّة يقين صاحبه وثقته بما يقول، أما كون النبي ﷺ والمؤمنين كانوا علىٰ يقين مما يعتقدون في عيسىٰ عليه السلام فحَسْبُنا في بيانه قوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾. فالحكمةُ في الدعوة إلىٰ المباهلة هي إظهارُ الثقة بالاعتقاد واليقين فيه، وتحدِّي المعارضين في ذلك.

وإنما قدَّم في الكلام أعزَّة أهله علىٰ نفسه مع أنَّ المباهلة مظانّ التلف، والرجل يفادي بنفسه دون أهله في الأخطار، للإيذان بقوة يقينه بأنه لن يُصيبهم في ذلك شائبةُ مكروه، وهذا هو السِّرُّ في تقديم جانبه عليه السلام علىٰ جانب المخاطبين؛ ليُشعرهم بذلك.

قال الأستاذ الإمام: وأكثر الروايات علىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ اختار للمباهلة علياً

---

(١) أخرجه ابن المغازلي في «مناقب علي رضي الله عنه» (٣١٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وسيأتي أيضاً ذكر المباهلة قريباً في كلام المؤلف.

وفاطمة ووَلَدَيْهما[١]، ويحملون كلمة «نِساءَنا» علىٰ فاطمة، وكلمة «أنفُسَنا» علىٰ علي فقط، ومصادر هذه الروايات الشيعةُ، ومقصدهم منها معروف. وقد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا، حتىٰ راجَتْ علىٰ كثيرٍ من أهل السُّنَّة، ولكنَّ واضعيها لم يُحسنوا تطبيقها علىٰ الآية، فإن كلمة: «نِساءَنا» لا يقولها العربيُّ ويُريد بها بنته، لا سيما إذا كان له أزواج. وأبعدُ من ذلك أن يُراد بـ«أنفسنا» عليّ عليه الرضوان.

ثم إنَّ وفد نجران الذين قالوا: إنَّ الآية نزلت فيهم لم يكن معهم نساؤهم وأولادهم، فكلُّ ما يُفهَمُ من الآية أمرُ النبي ﷺ أن يَدعو المُحَاجِّين والمُجادِلين في عيسىٰ من أهل الكتاب إلىٰ الاجتماع رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويجمع هو المؤمنين رجالاً ونساء وأطفالاً، ويبتهلون إلىٰ الله تعالىٰ بأن يلعن الكاذبَ فيما يقول عن عيسىٰ عليه السلام.

وهذا الطلب يدلُّ علىٰ قوة يقين صاحبه وثقته بما يقول، كما يدلُّ امتناعُ مَنْ دُعُوا إلىٰ ذلك من أهل الكتاب، سواء كانوا نصارىٰ نجران أو غيرَهم، علىٰ امترائهم في حِجَاجِهم ومُماراتهم فيما يقولون، وزلزالهم فيما يعتقدون، وكونهم علىٰ غير بيِّنة ولا يقين[٢].

وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالىٰ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ...﴾، قال: فجاء بأبي بكر وولده، وبعمر وولده، وبعثمان وولده، وبعليّ وولده[٣]. انتهىٰ. وهذا يخالف رأي الشيعة وقولهم في آية المباهلة، ويؤيد الرد عليهم في ذلك.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٦١٧)، عن الحسن.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٢٦٥).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٩: ١٧٧).

ثم أجمل السياق بالتقرير، وبما نتج من إبطال ألوهيَّة عيسىٰ، والإلزام بالتوحيد، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الذي قَصَصْناه عليك ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ وما عَدَاه باطل، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لا شريك له ولا ولد، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ والتعرُّض لوَصْفَي العزَّة والحكمة هاهنا لأمرين: الأول: أنه سبحانه وتعالىٰ لا يُساويه مُسَاوٍ، فيكون له شريكاً في ألوهيته، أو ندّاً في ربوبيته. والثاني: أنه سبحانه قويٌّ عزيز. وإنما يُمهل الكافرين ويمدُّ لهم في الدنيا، لما تقتضيه حكمته سبحانه وتعالىٰ، فهو يُمهلهم ولا يُهملهم. ولذلك توعَّدهم بقوله:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: ولم يُجيبوا الدعوة إلىٰ المباهَلَة، ولم يقبلوا عقيدة التوحيد الخالص؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: للنفوس والعقول في إصرارهم علىٰ الباطل، حتىٰ عَمِيَت بصائرهم عن نور الحقِّ، واحتجبت بظلام الضلال. وإنما لم يقل: عليم بهم، ليكون الكلام تهديداً عاماً يشمل مدلول الضمير وغيره، وللإيماء إلىٰ أنَّ سبب التهديد هو هذا الفساد، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

ولما بيَّن سبحانه وتعالىٰ القَصَص الحق في شأن عيسىٰ والمُخْتلفين فيه، وأقام الحُجَّة العقلية علىٰ المغالين فيه بجَعْله ربّاً وإلهاً، ثم ألزمهم بالامتناع عن المباهلة، لم يبق إلا أن

يأمر نبيَّه ﷺ بأن يدعوهم إلىٰ الحقِّ الواجب اتِّباعُه في الإيمان، دعوة المنتصر في حقه، القوي في برهانه، الحريص علىٰ خير خصمه وسعادته، وهو تقرير وحدانيَّة الألوهية، ووحدانيَّة الربوبيَّة، المتَّفق عليها بين الأنبياء، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: نعبد الله وحده مخلصين له الدين، لا نشرك به شيئاً.

وهذه الآية أساسُ الدِّين المتين، وأصله الأصيل، ولذلك كان النبي ﷺ يدعو بها أهل الكتاب إلىٰ الإسلام، كما ثبت في كتبه إلىٰ هِرَقل[1] والمقوقس[2] وغيرهما ممَّن دعاهم إلىٰ الإسلام من الملوك والرؤساء من أهل الكتاب.

وبعد أن حاجَّ النصارىٰ فيما يقولونه في أمر عيسىٰ عليه السلام، حاجَّ اليهود والنصارىٰ معاً فيما يقولونه في إبراهيم عليه السلام[3]، وهو ادِّعاء كلٍّ منهم أنَّ شريعته مطابقة لشريعة إبراهيم عليه السلام، وأنه منهم وعلىٰ ملَّتهم، فقال: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فتدَّعي كلُّ ملة منكم أنه علىٰ دينها، ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أنَّ الكتاب المنزَّل يكون ديناً لمن بعده لا لمن قبله.

---

(١) رواه البخاري (٦)، عن ابن عباس.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١: ٢٦٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٦: ٤٩٠)، عن ابن عباس: «اجتمعت نصارىٰ نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارىٰ: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً! فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾».

وبعد أن جهَّلهم أفْظَعَ التجهيل، قرَّعهم أشْنَعَ التقريع، فقال: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي: اسْتَسَغْتُم واسْتَجَزْتُم المُحَاجَّة فيما تدَّعون العلم به، وهو شريعتكم، فتدَّعون أنَّ شريعة التوراة والإنجيل مخالفة لشريعة القرآن، ولا سيما في أمر عيسىٰ، فقامت عليكم الحُجَج، ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهو: شريعة إبراهيم، فتدَّعون أنها عينُ شريعتكم، ومخالفةٌ لشريعة محمد عليهما السلام؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ وقد قال سبحانه: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وكيف تدَّعون بشريعة إبراهيم وأنتم لا تعلمون عنها شيئاً؟

ويجوز أن يُراد ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أمر عيسىٰ، فرغماً عن قربهم منه في الزمن ضلَّ الفريقان به ضلالاً بعيداً، فكيف يكون حالهم في أمر إبراهيم وقد مرَّت عليه الدُّهور الطوال؟!

فبيَّن سبحانه ما يعلم من أمر إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا ﴾ أي: مائلاً عن كلِّ ما كان عليه أهلُ عصره من الشرك والضلال، ﴿مُّسْلِمًا﴾ وَجْهَهُ إلىٰ الله تعالىٰ وحده، مُخْلِصاً له الدين والطاعة، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[1] الذين يُسَمُّون أنفسَهم الحنفاء، ويدَّعون أنهم علىٰ ملة إبراهيم،

---

(١) تلمع هذه الآية ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا ...﴾ إلىٰ أنَّ طابع اليهودية والنصرانية إشراكٌ مُصْطنع، صنعته الأحبار بتحريفها وتأويلها، وأنَّ دين موسىٰ وعيسىٰ الإسلام لله وحده، كدين إبراهيم عليهم السلام. وأنَّ الدين واحد عند الله، دعا إليه أول رسول، كما دعا إليه آخر رسول، ظهر علىٰ لسان أولهم، وكمل علىٰ لسان آخرهم. وليس من المعقول أن يصدر للبشر من الحكيم العليم أديان مُتَباينة متناقضة، وهو سبحانه الذي أنبأ آدم عليه السلام بأنه سَيُوالي علىٰ البشر =

وهم قريش ومَنْ وافقهم من العرب. ففيه تعريضٌ بأنهم من المشركين، وردٌّ لادِّعائهم أنهم علىٰ ملَّته، وتعريضٌ لليهود والنصارىٰ كذلك.

وليس المراد بكونه مسلماً أنه كان علىٰ مثل ما جاء به محمد ﷺ من الشريعة بالتفصيل؛ لأنَّ شريعة محمد ﷺ جاءت من بعده أيضاً، وإنما المراد ما ذكرناه، وهو طبيعة الشرائع في التوحيد والتنزيه، والطاعة والانقياد.

ثم بيَّن أنَّ شريعة إبراهيم أقربُ إلىٰ شريعة محمد عليهما السلام، فأصحاب هذه الشريعة أحقُّ بادِّعائه لموافقتهم له في أكثر ما شرع لهم، فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: الذين لا يتوجَّهون ولا يميلون إلىٰ غيره في كشف ضُرٍّ ولا طلب نفع مثل هؤلاء المشركين، فالمسلمون أوْلىٰ بإبراهيم وأحقُّ من أولئك المجرمين الذين يزعمون الانتماءَ إليه. وهكذا الأمر في موسىٰ وعيسىٰ؛ لدخول شريعتهم في شريعة القرآن، فالشريعة السالمة تقرب من أختها، لا المحرَّفة.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه أنَّ أهل الكتاب عدلوا عن الحق، وأعرضوا عن الحُجَّة، بيَّن أنهم فوق ذلك يَسْعَوْنَ في إضْلال مَنْ آمن بالرسول من ضُعفاء الإيمان، بإلقاء الشبهات، فقال: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ بضروب من إلقاء الشكِّ

= هدًىٰ ورشاداً، له من الخلود ما لنعم الله تعالىٰ من الخلود علىٰ العباد، وطبيعته بكلِّ أصنافه ووجدانه توحيدٌ لله وتنزيهٌ وطاعة وانقياد. (المؤلف).

في النفوس، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾ بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾، لأن الذي يُجادل عن الباطل يتمكّن الباطل فيه إلىٰ حدٍّ بعيد، إذ باشتغالهم بطرق الإضلال وتحضير الشُّبه، يتمكّن الضلال في نفوسهم. وفي هذا بيانٌ لطبيعة من طبائع الإنسان واستعداداته. ويجوز أن يكون المراد ما ينتج لهم عن ذلك من الضرر الدنيوي والأُخروي.

ونفيُ الشعور للإيذان بأنَّ ذلك من الأمور المحسوسة، ولكن لا حسَّ لهم.

ثم بيَّن سبحانه حقيقة ما هم فيه من الضلال، وسَبَكه علىٰ التقريع، فقال: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾، والشهادة تتضمَّن أكمل العلم. أي: تدركون هذه الآيات القوليَّة والفعليَّة معنىً وحساً[1].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: تخلطون الحقَّ الذي جاء به الأنبياء، ونزلت به الكتب، وهي عبادة الله وحدَه، وعملُ البرِّ والخير، والبشارة بنبيٍّ من بني إسماعيل يعلِّم الناس الكتاب، لِـمَ تخلطون هذا بالباطل الذي ألحقه به أحبارُكم ورهبانُكم من التأويلات والآراء؟ وتجعلون ذلك ديناً يجب اتِّباعه وأنه من عند الله؟ ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ من الأحكام الإلهيَّة الصحيحة والبشارة بمحمد ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ حقيَّة ذلك؟ ما أفظع هذا التأنيب و أشدّه توبيخاً! لو كانوا يعلمون.

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

---

(١) ويجوز أن يُراد بالشهادة: العلم اليقيني مبالغةً فيه، وأن يُراد بالآيات: القوليَّة والكونيَّة. (المؤلف).

ثم ذكر سبحانه صُورةً من صُوَر تضليلهم وتآمرهم في ذلك، فقال: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: عن إيمانهم بمحمد إلىٰ دينهم الأول. فأرادت هذه الطائفة أن تُضَلِّل بعض الناس بهذا الخداع، حتىٰ يقولوا: لولا أن ظَهَر لهم بطلان الإسلام لَـمَا رجعوا عنه بعد أن فهموه وعرفوا حقيقته، وهم أهل علم وكتاب. فقد تآمروا أن يَتَظاهروا مدَّة قصيرة بتصديق القرآن والإيمان به، حتىٰ إذا اطْمأنَّ لهم المسلمون أعلنوا شكوكَهم في بعض المسائل وأحدثوا بلبالاً[1] في ضعفاء المسلمين.

ثم أكمل حكاية قول هؤلاء الكائدين المضلِّلين، فقال: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، وفي تفسيرها أقوال:

الأول: قال صاحب «الكشاف»: المعنىٰ: لا تُظهروا إيمانكم بأن يمكن أن يُؤْتىٰ أحدٌ مِثلَ ما أوتيتم إلا لأهل دينكم، دون غيرهم، أي: أسرُّوا تصديقكم بأن المسلمين قد أُوتوا من شريعة الله مثل ما أُوتيتم، ولا تُفْشوا هذا إلا لأشياعكم وحدهم دون المسلمين، لئلا يزيدهم ثباتاً، ودون المشركين لئلا يدعوهم ذلك إلىٰ الإسلام. وكذلك لا تؤمنوا لغير أتباعكم أنَّ المسلمين يُحاجُّونكم يوم القيامة بالحق ويُغالبونكم عند الله تعالىٰ بالحُجَّة.

هذا ملخص ما قاله صاحب «الكشاف» في تفسير الآية، وهو مبنيٌّ علىٰ أنهم كانوا ينكرون جواز بعثة نبيٍّ من العرب بألسنتهم فقط، مكابرةً وعناداً للنبي ﷺ، لا حقاً واعتقاداً. وأنهم كانوا لا يُصرِّحون باعتقادهم المُستكنّ في نفوسهم إلا لمن آمنوا له من قومهم ووثقوا به، لما هم عليه من المكر والخديعة[2].

---

(١) البَلْبَال: الهمُّ ووسواسُ الصدر. «الصحاح» (بلل).

(٢) ينظر «الكشاف» (١: ٣٧٤).

وعلىٰ هذا البيان يكون قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ جملةً معترضةً بين الفعل ومفعوله، عجَّل بها التَّخْييبَ لعملهم هذا المنبعث عن تمسُّكهم بدينهم المحرَّف والدعاية له.

وقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ مفعول لـ﴿تُؤْمِنُوٓاْ﴾. وقوله: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ معطوف علىٰ المفعول.

ثم ذيَّل الكلام بهاتين الجملتين، مُلقِّناً الردَّ عليهم لنبيِّه ﷺ، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ممَّن يَسْتَحقُّه وتَقْتضي الحكمة إعطاءه، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: لا ينحصر فَضْلُه في أمة أو فرد، ولا يُحَدُّ عطاؤه، ﴿عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ أي: يعلم أين يضعُ فَضْلَه، ويعلم حيث يجعل رسالته، فهو ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ممَّن يكون أهلاً لها، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ أي: فلا يَقْتصر فَضْلُه علىٰ أمَّة دون أمَّة، أو نَسَب دون نَسَب، وإنما ذلك تابعٌ لمشيئة الله تعالىٰ، حسبما تقْتضيه الحكمة والمصلحة العامة(١)، لا لوساوس المغرورين.

القول الثاني: إنَّ معنىٰ الآية أنهم كانوا يَتَناهون عن تصديق من يقول ذلك ويَـدَّعيه من غير أمَّتهم، كأنهم قالوا لأُمتهم: إذا قال لكم قائل: إنه يجوز أن يُؤْتىٰ غيرُكم النبوَّة مثل ما أُوتيتم، أو يُحاجُّوكم به عند ربكم، فكذِّبوه ولا تؤمنوا له.

ولما كانت هذه الدعوة تَتَضمَّن بظاهرها اختصاصَهم بفَضْل الله، وأن ليس أحدٌ ينال من الله ما نالوه؛ عجَّل عليهم بالرد بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، ثم أكمل الرد بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ...﴾. وعلىٰ هذا المعنىٰ تكون الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ في آخر سورة الحديد: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ [الحديد: ٢٩]. والله أعلم.

---

(١) تقدَّم التعليق علىٰ مثل هذه العبارة (٢: ٣٧٢).

القول الثالث: إنَّ معنىٰ الآية: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: لا تُصدِّقوا إلا نبياً يُقرِّر شرائع التوراة، أما من جاء بتغيير شيء من أحكامها فلا تُصدِّقوه. وتكون حكاية كلام اليهود قد انتهت بقوله: ﴿دِينَكُمْ﴾، ويكون ما بعده من كلام الله رداً وتوبيخاً لهم، وتأنيباً علىٰ أمرهم هذا. والمعنىٰ: أتفعلون ما تفعلون كراهةَ أن يُوتىٰ أحد مثل ما أوتيتم، أو يُحاجُّوكم به عند ربكم، لمخالفة أحكامهم لأحكامكم؟ ثم ذيَّل الكلام بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ...﴾.

القول الرابع: إن الكلام ليس من تتمة مكائد الكائدين، ولكنه كلام مستأنف خاطب الله به المؤمنين إثر حكاية كيد الكائدين، فهو بمثابة إرشاد لهم بالتَّوقِّي من تلك المكائد، بأن لا يثقوا إلا بالمؤمنين، ولا يُخدَعوا بمكائد الكافرين. والمعنىٰ: لا تؤمنوا أيها المؤمنون إلا لمن تَبعَ دينكم، ولا تُصدِّقوا بأن يؤتىٰ أحدٌ مِثلَ ما أُوتيتم من الدِّين، ولا تُصَدِّقوا بأن يكون لأحد حُجَّة عليكم عند ربكم؛ لأنَّ دينكم خيرُ الأديان، وأنَّ الهدىٰ هدىٰ الله، وأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء... إلخ.

ويدلُّ علىٰ هذا المعنىٰ ما قاله الضحَّاك: إنَّ اليهود قالوا: إنا نُحاجُّ عند ربنا من خالفنا في ديننا، فبيَّن تعالىٰ أنهم هم المدحوضون والمغلوبون، وأنَّ المؤمنين هم الغالبون[1]. وتكون جملة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراضية، عجَّل بها بيان عظمة الهداية التي خصَّهم الله بها. وجملتا التذييل تأييدٌ لها وتقريرٌ لمضمون ما قبلها.

---

(١) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» (٣: ٩٣).

والضحّاك هو أبو القاسم ابن مزاحم البلخي الخراساني (...- ١٠٥هـ)، مفسِّر من أوعية العلم، وهو تابعي حدّث عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري. وغيرهم. «سير أعلام النبلاء» (٤: ٥٩٨- ٦٠٠).

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

ثم بيَّن حالاً أخرىٰ من أحوال أهل الكتاب، تُمثِّلها طائفة أخرىٰ تخون الأمانة وتستحلُّ أكلَ أموال من ليس من الإسرائيليين، غروراً في الدين، وتأويلاً في الكتاب. حيث جعلوا نهيَه عن الخيانة في حقِّ بني إسرائيل فقط. وللاحتراس عن توهُّم أنَّ ذلك عامٌّ فيهم، صَدَّرَ الكلامَ ببيان الطائفة الأمينة منهم تكميلاً للبحث وتدقيقاً في الحق، علىٰ نهج القرآن في تحرِّي الصدق الدقيق، فقال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾، ثم بيَّن مصدر ذلك فيهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾.

والظاهر أن الصنف الثاني من اليهود كلهم أو بعضهم. والله أعلم.

والمراد من الأميين: العرب. خصَّهم بالذكر لأنه يتكلَّم عن العلاقة بينهما، وإلا فهم يقولون: إن كل من ليس من شعب الله الخاصِّ، وليس من أهل دينه، فلا حقوقَ له، ولا حُرمة لماله، وليس علينا تَبِعةٌ ولا ذنب في أكله بالباطل. فردَّ الله سبحانه عليهم هذه المزاعم بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أنه ليس في التوراة إباحةُ خيانة الأميين، وأكل أموالهم بالباطل، وإنما هو التأويل الباطل.

قال في «المنار»: وفي خبر هؤلاء المحرِّفين والمؤولين من العبرة لنا ـ معشر المسلمين ـ ما فيه. فإن فينا من يقول الآن: إنه يجوز أكل أموال غير المسلمين في دار الحرب، ثم إنهم

يفسِّرون دار الحرب كما يشاؤون، وإنهم بهذا يُحلُّون الخيانة، وهي من كبائر المعاصي، فيتناولهم هذا الوعيد(١).

ثم أتبع سبحانه وتعالىٰ الكلام ببيان القاعدة العامة في النجاة، علىٰ نهج القرآن في تقرير قواعده وسُننه العامة، إثْر أحكامه الخاصة، أو إبطال المزاعم الضالَّة وبيان الحق بعد بيان الباطل، وقد صدَّر ذلك بتقرير الردِّ عليهم، فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: عليكم سبيلٌ وإثمٌ كبير في ذلك، ولكن النَّاجي هو ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ الذي عاهد الله به، أو عاهد الناس عليه، ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ الإخلاف والغدر، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ فيجعلهم محلَّ عنايته ورحمته في الدنيا والآخرة. وهذه الخصال لا تكون إلا في المؤمنين.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ ورود الجواب بهذه العبارة أفادنا قاعدةً عامة من قواعد الدين، وهي أنَّ الوفاء بالعهود، واتِّقاء الإخلاف وسائر المعاصي والخطايا، هو الذي يُقَرِّب العبد من ربِّه، ويجعله أهلاً لمحبته، لا كونه من شعب كذا. وفيه تعريضٌ بأنَّ هؤلاء اليهود ليسوا من أهل التقوىٰ(٢).

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ جزاءَ أهل الغَدْر والإخْلاف بصُورة قاعدة عامة؛ تتناول اليهود الزاعمين أنْ ليس عليهم شيء إذا أخلفوا العهد مع الأميين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وهذا القيد للتشنيع والإيماء إلىٰ أنَّ كل ثمن مهما بلغ من الكثرة، هو قليل بالنسبة إلىٰ ما عند الله، كيف لا، والأمر يؤدي إلىٰ هذا الجزاء الأليم، الذي فصَّله بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيبَ لهم من نعيمها، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾. قال القفَّال:

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٨٠).

(٢) المصدر السابق (٣: ٢٨١).

هذه الكلمات يُرادُ بها شدَّة سَخَط الله عليهم، أي: يُعبِّر عن كرهه لهم سبحانه وغضبه عليهم، ﴿وَلَهُمْ﴾ فوق ذلك ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾. وبالجملة: إنَّ منطوق الآية يدلُّ علىٰ أنهم يعذَّبون بأنواع من عذاب الآخرة، وإن كنا لا نعلم كُنهَها بالتفصيل؛ لأنها فوق ما ندركه ونتصوره. والله أعلم.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

ثم بيَّن حال طائفة أخرىٰ من قبائح أهل الكتاب، ونوعاً آخر من كفرهم وإضلالهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾، فأكَّد الخبر بتعمُّدهم التحريف، وسجَّل عليهم الكذبَ الصريحَ، والتحريف المتقصّد. وهذا نقدٌ للأمة بعمل رؤسائها وأحبارها، واتِّباع الأتباع لهم في ذلك، وبيانٌ لما انطبعوا عليه من الضلال والتضليل.

قال الأستاذ الإمام ما حاصله: هذا اللَّيُّ هو: أن يعطي الناطق للَّفظِ معنًىٰ آخر غير المعنىٰ الذي يظهر منه. مثال ذلك: الألفاظ التي جاءت علىٰ لسان سيدنا عيسىٰ عليه السلام ككلمة «ابن الله»، وتسمية الله أباً له، وأباً للناس. فقد كان ذلك استعمالاً مجازياً في لغتهم، كما أُطلق لفظ «ابن الله» في كتب العهد القديم علىٰ إسرائيل وغيره،

فهو مجازٌ قطعاً ومعروف في الدارج عندهم، ولكن لواه بعضهم، فنقله إلىٰ الحقيقة، بالنسبة إلىٰ المسيح وحده[١].

أقول: فهم يقولون هذا ليطابق عقيدة الرومان الوثنيَّة في التثليث، وهي الإله الكبير، وابنه الوحيد، وزوجه. فالرومان أولُ مَنْ قال في المسيحية بهذا القول، وقرَّروه في مجامع الآستانة، ثم تبعهم سائر النصارىٰ فيه. وعليه، فهم يفسِّرون اللفظ بغير معناه المراد في الكتاب، يُوهمون الناس أن الكتاب جاء بذلك، ثم تبعهم فيه من بعدهم وثبتوا عليه.

فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ﴾ به ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ بعد أن يُؤتىٰ كل ذلك: ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا النَّفيُ للشأن، وهو أبلغ أنواع نفي الوقوع، أي: ذلك مما لا يمكن أن يقع. ثم بيَّن الواقع الذي يقوله ذلك النبي، فقال: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: ولكن يأمرهم النبيُّ الذي أُوتي الكتاب والحكم بأن يكونوا منسوبينَ إلىٰ الربِّ مباشرةً، ومواظبين علىٰ طاعته، نتيجةَ مدارستهم الكتاب المنزَّل من عند الله؛ إذ بعلم الكتاب علىٰ الوجه الصحيح، وتعليمه، والعمل به كذلك، يكون الإنسان ربّانياً، لا يعبد إلا الله، ولا ينحرف عن الحقِّ والصدق فيما جاء من الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾، و(لا) هذه هي التي يُجاء بها لتأكيد النفي السابق.

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٨٤) وهذا علىٰ تسليم أن تكون هذه الألفاظ التي نراها في كتبهم الآن لم تعبث بها يدُ التحريف والتبديل، والتحريف إنما ورد علىٰ المعاني فحَسْب، وهو رأيٌ يميلُ إليه المؤلف في مواضع من هذا التفسير، تبعاً للشيخ محمد عبده، لكن الصواب بخلافه، فالتحريف نال الألفاظ والمعاني جميعاً.

ثم أردف النفي بالإنكار، للمبالغة في تقرير الغرض، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية في أساليب القرآن)، فقال: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ بمقتضىٰ الفطرة، وبما جاءكم به موسىٰ؟!

وقال الأستاذ الإمام: معناه: إنه ما كان للمسيح أن يأمر أهلَ الكتاب الذين بُعث فيهم بعبادته، بعد إذ كانوا مُوحِّدين بمقتضىٰ ما جاء به موسىٰ[(١)].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

ثم أكَّد مضمون ما سبق من حال الأنبياء، ومن تقريع الناقضين لعهدهم، مع التضمُّن لإثبات نبوة محمد ﷺ، ووجوب اتِّباعه؛ لأنَّ شريعتهم قد نُسخت، أكَّد ذلك ضِمْنَ تقرير قاعدةٍ عامَّة في نسخ الشريعة المُحْدَثة اللاحقة للشريعة القديمة السابقة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾[(٢)].

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٨٧).

(٢) جاءت الشرائع السماوية من لدن آدم إلىٰ نزول القرآن متَّحدةَ العقائد وأصول الدين، مُتدرِّجةً في صور العبادات والأعمال، والثقافة والتهذيب، تحبو حبو النوع الإنساني في طريق الكمال، كما يتدرَّج الصبي في العلوم والأعمال، حتىٰ إذا بلغ أشدَّه واستوىٰ، ألقي عليه الأنواع العالية من العلوم والمعارف، وطُلب منه الأعمال التي لم تكن في مقدرته أيام صبوته، وهكذا كانت حال الشرائع من النوع الإنساني، من مَبْدئه البدائي في الثقافة إلىٰ أول تكامله في المعرفة، تحبُو =

اللام في ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم﴾ لتوطئة تفصيل الـميثاق؛ لأنَّ فيه معنىٰ القسم والاستحلاف، و(ما) التي دخلت عليها اللام، هي المتضمنة لمعنىٰ الشرط، والمعنىٰ: لمهما آتيتكم، أو لئن آتيتكم، واللام في ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ﴾ لام جواب القسم المفهوم من أخْذ الميثاق، وقد سدَّ هذا الجواب مَسَدَّ جواب الشرط حسب خصائص اللغة.

وقيل: ذكر النبيِّين وأراد الأممَ التي جاؤوا لتبليغها بالكتاب المنزَّل عليهم، وفيه ذلك الميثاق. والمعنىٰ: إنَّ الواجب علىٰ الأمم التي أُوتيت الكتاب، إذا جاءهم رسول مُصدِّق لما معهم ليكون من الله حقاً لا من موضوعات البشر، فيجب أن يؤمنوا به وينصروه. وقد وجب ذلك بميثاق الله علىٰ أنبيائهم، أو ميثاقه علىٰ أنفسهم علىٰ لسان أنبيائهم.

وتحرير المقال: إنَّ الله سبحانه ينسخ الشريعة السابقة بشريعة لاحقة تتضمَّن ما يصلح للبشر حسب رقيِّه النوعي، ذلك فيمـا عدا الأسس الثابتة التي لا تـتبدَّل، وهي عقيدة التوحيد والبعث والحساب والنعيم والعذاب والطاعة والانقياد، فيجب علىٰ الأمة أن تدخلَ في الشريعة الجديدة الناسخة لشريعتها، وتـتركَ المنسوخة التي كانت عليها. ويدخل في هذا العموم أمرُ أهل الكتاب مع محمد ﷺ. وهذا المعنىٰ هو الظاهر من الآية وعمومها.

= بحَبْوه، وترقَّىٰ برُقيِّه في مضمار التهذيب، حتىٰ وصل أول درجة الكمال، فكانت تنسخ الشريعة السابقة بالشريعة اللاحقة، وكانت كلُّها تَعِدُ بالشريعة الكاملة، وهي شريعة محمد ﷺ، وتأمر باتباعها إذا نزلت؛ لأنها شريعة عالميَّـة عامة لجميع البشر، تنسخ كل ما تقدَّمها من الشرائع بحكم كمالها وشمولها لها، فعندما نزل القرآن العظيم بهذه الشريعة الكاملة، وَجَبَ علىٰ البشر كله أن يتَّبعها ويتمسَّك بها، وأن يتعلَّم لغتها العربية ليفهمها بها، ولتكون هي اللغة العالمية، يتفاهم بها البشر، كما أنَّ شريعتها الشريعة العالمية لسائر الناس، فكل بشر يجب عليه أن يتعلَّم هذه اللغة إلىٰ جانب لغته القوميَّة؛ لأن ما لا يتمُّ الواجب إلا به واجب أيضاً. (المؤلف).

وقيل: إن الميثاق أُخِذَ علىٰ الأنبياء ليأخذوه علىٰ أُممهم بتصديق محمد ﷺ إذا بُعث، ويأمرهم بنصرته علىٰ أعدائه إن أدركوه. وهذا هو المرويُّ عن علي وابن عباس وقتادة، واختاره أبو علي الجبائي[١] وأبو مسلم. ويكون معنىٰ ﴿جَآءَكُمْ﴾: جاء أممكم وأتباعَكم، وهو من خطاب العين مراداً به الغير، (كما جاء في القاعدة الثالثة عشرة من المقدمة الخامسة)، وإنما خرج الكلام علىٰ النبيين؛ لأنَّ ما لزمهم لزم أممَهم، ويجوز أن يبقىٰ الكلام علىٰ حقيقته، ويكون للمبالغة في تقرير الحكم، وقد جاء عنه ﷺ: «لو كان موسىٰ حيّاً لما وسعه إلا أن يتّبعني»[٢].

ثم ﴿قَالَ﴾ تعالىٰ مُسجِّلاً علىٰ من أخذ عليهم الميثاق: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: عهدي، سمّي به؛ لأنه يُؤْصَر، أي: يُشَدّ، ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ﴾ تعالىٰ: ﴿فَاشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: فَلْيشهد بعضكم علىٰ بعض، وأنا معكم شاهد عليكم جميعاً.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ هذا الأمر بالشهادة دليل علىٰ ترجيح قول جعفر الصادق[٣]: إنَّ العهد مأخوذ من الأنبياء علىٰ أممهم. والمعنىٰ: إنَّ الله تعالىٰ أمر الأنبياء بأن يشهدوا علىٰ أممهم بذلك، وهو سبحانه معهم شهيد.

---

(١) هو محمد بن عبد الوهاب البصريُّ (٢٣٥- ٣٠٣هـ)، شيخ المعتزلة، ورئيس علماء الكلام في عصره، صاحب التصانيف، له: «الأصول»، و«التعديل والتجويز»، و«الاجتهاد». «سير أعلام النبلاء» (١٤: ١٨٣- ١٨٤)، و«الأعلام» للزركلي (٦: ٢٥٦).

(٢) رواه أحمد (١٤٦٣١)، وأبو يعلىٰ (٢١٣٥)، عن جابر. وقال الحافظ في «الفتح» (١٣: ٥٢٥): وفي سنده مجالد بن سعيد، وهو ليّن.

(٣) هو أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط الهاشمي القرشي (٨٠- ١٤٨هـ)، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، وكان من أجلّاء التابعين. «الأعلام» للزركلي (٢: ١٢٦).

وقال أيضاً: إنَّ العبارة ليست نصاً في أنَّ هذه المحاورة وقعت، وهذه الأقوال قِيلَت. والمختار: أنَّ المراد بها تقريرُ هذا المعنىٰ، وتوكيدُه علىٰ طريقة التمثيل(١)، والله أعلم.

ثم سجَّل عليهم سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَـٰسِقُونَ ٨٢﴾ أي: الخارجون عن نُور الفطرة ونظام الدِّين الذي جاء عن المرسلين. ومحصَّل الكلام: إنكم ـ يا أهل الكتاب ـ مُلزمون باتِّباع محمد ﷺ، والتَّصديق بشريعته، بمقتضىٰ الميثاق الذي أُخذ علىٰ كلٍّ من موسىٰ وعيسىٰ؛ أنه إذا جاء نبيٌّ بعده، وصدق بما معه، يؤمن به وينصره، فإذا لم تفعلوا فأنتم ناقضون لعهد الله، ولستم من الدِّين الحقِّ في شيء.

وقال في «المنار»: أي: إنَّ من مقتضىٰ ذلك الميثاق أنَّ دين الله واحد، وأنَّ دعاته متَّفقون مُتَّحدون. فمن تولَّىٰ عن هذه الوحدة ولم يؤمن بالنبيِّ المتأخِّر ولم ينصرْه، فقد خرج عن ميثاق الله، وليس من دينه الحق في شيء.

ولما بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنَّ دينه واحد، وأنَّ رسله متَّفقون فيه، قال في مُنكري نبوة محمد ﷺ: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾، والمعنىٰ: أيتولون عن الإيمان بعد هذا البيان، فيبغون غير دين الله الذي هو الإسلام، ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ وهو ما يكون عند الشدائد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، وقال في آية أخرىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٩٠).

لكن المختارُ إجراءُ الكلام علىٰ ظاهره المتبادر منه؛ لعدم امتناع هذا الظاهر، وعدم ورود ما يصرف عنه.

دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وكذلك ما يكون عند الموت والإشراف على الآخرة، ولكن ذلك إسلام لا ينفع[١].

ويجوز أن يراد بـ﴿مَن﴾ العاقل وغيره، تغليباً للعاقل. فكلُّ مخلوق عُلْوي وسفليّ منقادٌ لله سبحانه فيما خُلِق له يؤدِّيه بطبيعته حقَّ أدائه على أحسن نظام، كما جاء في آخر سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ...﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم ختم الآية بما فيه وعدٌ للمؤمنين ووعيدٌ للكافرين، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: فيجزيهم بما كانوا يعملون.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

وبعد أن ذكر تولِّيَ هؤلاء عن الإسلام المطلوب، أمرنا بالإقرار به والتصريح بما لزم ضمناً من وجوب الإيمان بكلِّ ما جاءت به الأنبياء، مخاطباً الأمة في شخص النبي ﷺ، فقال: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾[٢]، وهذا هو الإسلام الذي كان عليه جميع

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٢٩١- ٢٩٢).

(٢) ما أُنزل على إبراهيم هي الصحف، وكان أولاده وأحفاده إلى زمن موسى مكلَّفين بها. وقوله: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ إجمال لما قبله. ويجوز أن يُراد بما أوتي موسى وعيسى، المعجزات. (المؤلف).

الأنبياء، ولذلك قفَّىٰ عليه بقوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[١]، أي: للنعيم المقيم. وقد جاء عنه ﷺ: «لو كان موسىٰ حياً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتَّبعني»[٢].

فالدينُ الإسلامي يَعُدُّ الدين السماوي بجملته ديناً واحداً، جاء في أزمان متفاوتة وأطوار مُتعدِّدة، والدين الإسلامي هو الطور الأخير والنهائي من أطوار هذا الدِّين الواحد، فهو يُصدِّق ما تقدَّمه ويُهيمِنُ عليه، ويعدُّ المؤمنين أمة واحدة مهما اختلفت أزمنتهم وأمكنتهم، وفي أيِّ طور من أطوار هذا الدين كانوا ودَرَجوا قبل أن يبدّل بطور لاحق ودين جديد.

وقد جاء عنه ﷺ: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء قبلي كمثل رجل بنىٰ داراً، فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبِنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجَّبون ويقولون: لولا موضعُ اللَّبِنَة، فأنا اللَّبِنَة، وأنا خاتم النبيين»[٣].

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ

---

(١) إن الدِّين كلَّه واحد عند الله سبحانه، وقد سار مع النوع البشري يحبو في الرقي مع حَبْو البشر في الرقي، ودعا إليه أوَّلُ رسول كما دعا إليه آخرُ رسول، ظهر علىٰ لسان أولهم آدم عليه السلام، وكمل علىٰ لسان آخرهم محمد ﷺ، وهو التوحيد والابتعاد عن الشرك، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥]. ليس من المعقول أن يصدر للبشر من الحكيم العليم أديان متباينة متعارضة متناقضة، وهو الذي أنبأ آدم عليه السلام بأنه سيُوالي علىٰ البشر هدىٰ ورشاداً، له من الخلود ما لنعم الله تعالىٰ من الخلود علىٰ العباد، وطبيعته بكل وحداته توحيدٌ لله وتنزيهه، وطاعةٌ له وانقياد، واتحاد وتلاؤُمٌ بين الجماعات والأفراد. (المؤلف).

(٢) تقدَّم تخريجه قريباً ص٥٠١.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦)، عن أبي هريرة.

ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ
إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تبكيت المتولِّين عن الإسلام، وسَبَكه علىٰ التهديد والوعيد، فقال: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: بعد أن آمنوا بكتبهم، ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: التي تبيَّن بها الحقُّ من الباطل. وعن الحسن: أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، رَأَوْا نعتَ محمَّد ﷺ في كتابهم وأقرُّوا وشهدوا أنه حقٌّ، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ...﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فلما بُعث من غيرهم، وجاءهم بالبيِّنات من ربِّهم، حسدوا العرب علىٰ ذلك، فأنكروه بعد إقرارهم.

وفي الآية إسنادُ نفيِ الفعل إلىٰ الله مع ذكر سَبَب المنع، وهو الكفر بعد الإيمان، والإنكار بعد الشهادة، والإعراض بعد مجيء البيِّنات، حيث إنَّ ذلك يحجب القلوب عن نور الحق ويُعمي البصائر. ومفاد الآية: استبعاد هدايتهم لِـمَا ذكر من السبب.

ثم أردف الاستبعاد بالتقرير، علىٰ نهج القرآن في أساليبه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: لأنفسهم بإطفاء نور العقل ومَحْقِ الاستعداد لمعرفة الحق، فهم لا يهتدون إلىٰ الصِّراط المستقيم الموصل إلىٰ سعادة الدارين. ووضع الوَصْف ـ وهو الظلم ـ مَوْضع الضمير؛ لبيان سبب الحرمان من الهداية بصورةِ قاعدةٍ تشملهم وغيرَهم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

وفي الكلام أيضاً إسنادُ نفي الفعل إلىٰ الله مع ذكر السبب، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية). والمعنىٰ: مَضَت سُنَّته تعالىٰ أنَّ مَنْ تَشَبَّع بالظلم والكفر حتىٰ أصبح له ديناً وخُلقاً، لا يمكنه أن يُقْلع عنه أبداً.

ومن مباحث اللفظ في الآية: أنَّ قوله: ﴿وَشَهِدُوٓاْ﴾ معطوف علىٰ ﴿إِيمَٰنِهِمْ﴾؛ لما في المصدر من معنىٰ الفعل، كأنه قال: بعد أن آمنوا وشهدوا، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١٨]، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). والقول الثاني: إن الواو للحال بإضمار «قد»، أي: والحال قد شهدوا أنَّ الرسول حق.

ثم أتبع الكلام ببيان جزائهم ومصيرهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: سخطهم.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في جهنم، فالضمير يعود علىٰ المفهوم في الذهن، وهو في القرآن كثير، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الحادية عشرة من المقدمة الثانية).

ثم أكمل البيان بقوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: لا يمهلون.

ثم استثنىٰ من ذلك مَنْ ذكرهم بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ﴾ أعمالَهم بما صار للإيمان الراسخ من السلطان علىٰ نفوسهم والتصريف لإرادتهم، أو أصلحوا نفوسَهم بالأعمال الصالحة التي تمدُّ الإيمان وتُغذِّيه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ فينالهم من مغفرته ما يُزَكِّي نفوسهم بمقتضىٰ سُنَّته، ويُصيبهم من رحمته ما يُؤَهِّلهم لدخول جنَّته.

قال الأستاذ الإمام: عطف الإصلاح علىٰ التوبة؛ لأنَّ التوبة التي لا أثر لها في العمل لا شأن لها ولا قيمة في نظر الدِّين. ولذلك جرىٰ القرآن علىٰ عطف العمل الصالح عليها عند ذكرها، أو وَصْفِها بالنَّصوح[١].

ثم ذكر مَنْ لا تُقبل توبتهم، وهو في حكم الاستثناء المنقطع من الاستثناء السابق للتائبين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ وشهادتِهم أنَّ الرسول حق، ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بمقاومة الحقِّ والصدِّ عن سبيل الله، لأنَّ ازدياد الكفر إنما يكون بما يُنمِّي الكفر ويُقوِّيه من الأعمال التي يقاوم بها الإيمان، فأولئك ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾؛ لأنهم ـ لتمكُّن الكفر منهم ـ لا يتوبون إلا عند الإشراف علىٰ الهلاك أو عند الموت، فلم يعقب توبتَهم إصلاحٌ لأنفسهم.

وقال صاحب «الكشاف» والبيضاوي: المراد أنهم لم يتوبوا لتمكُّن الكفر منهم[٢]. وعبَّر بهذه العبارة تغليظاً في شأنهم، ولهذا ذيَّل الكلام بقوله: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: المتمكِّنون في الضلال. وعلىٰ هذا، يكون مُحصَّل الكلام من قبيل نفي الشيء بإيجابه، ظاهرُه نفيُ القبول، وحقيقتُه نفيُ التوبة. أي: لن يكون لهم توبة فتُقبَل.

وقال القاضي والقفَّال وابن الأنباري[٣] في تفسير الآية: إنه تعالىٰ لما قدَّم ذكر من

---

(١) تفسير «المنار» (٣: ٣٠١).

(٢) «الكشاف» (١: ٣٨٢)، و«تفسير البيضاوي» (٢: ٢٧).

(٣) ابن الأنباري: هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد (٢٧١ - ٣٢٨هـ) الإمام الحافظ ذو الفنون من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، قيل: كان يحفظ ثلاثمئة ألف شاهد في القرآن. له: «الزاهر»، و«الأضداد»، و«غريب الحديث». «سير أعلام النبلاء» (١٥: ٢٧٤-٢٧٩)، و«الأعلام» للزركلي (٦: ٣٣٤).

كفر، وبيَّن أنه أهلٌ للَّعنة إلا أن يتوب، ذكر في هذه الآية أنه لو كفر مرَّةً أخرىٰ بعد تلك التوبة، فإنَّ التوبة الأولىٰ تصير غيرَ مقبولة، حتىٰ كأنها لم تكن[١]. فالكلام عندهم متسلسل في طائفة واحدة.

ثم ذكر مصير هؤلاء الكفار الذين ماتوا علىٰ الكفر، ولكن بصورة حكم عام يشملهم وغيرَهم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾.

قال في «الكشاف»: هذا كلامٌ محمولٌ علىٰ المعنىٰ، كأنه قيل: فلَنْ تُقبَلَ من أحدهم فديةٌ ولو افتدىٰ بملء الأرض ذهباً[٢].

قال الأستاذ الإمام: الكلام في هذا الجزاء من التمثيل، والمراد: أنه لا طريق للافتداء[٣]. والذي أراه: أنه أتىٰ بهذا النظم لِيَتَشَخَّص عِظَمُ المقدار في الذهن، ثم أتىٰ بالحكم، ثم نصَّ علىٰ نوع الجزاء، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، ثم كنَّىٰ عن استدامة هذا العذاب وتمكينه بقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾ يريد أنهم لم يفلتوا من ذلك العذاب ولم ينجوا منه أبداً، أعاذنا الله.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾.

وبعد هذا البيان دعا إلىٰ الإيمان، علىٰ نهج القرآن، وخصَّ من فضائله: الإنفاق، تعريضاً بما عند اليهود من حرصٍ وشدّةِ بخل، وعَوْداً إلىٰ سياق أهل الكتاب، وتكميلاً لردِّهم في مشاغبات أمر القبلة، وجعل الكلام بصورة خطاب عامٍّ ليشمل المؤمنين،

---

(١) ذكر كلامهم الرازي في «تفسيره» (٨: ٢٨٦).

(٢) «الكشاف» (١: ٣٨٤).

(٣) تفسير «المنار» (٣: ٣٠٤).

علىٰ نهج القرآن في جعل الكلام تتمَّةً لما قبله، وتمهيداً لما بعده، وقاعدةً عامة بحسب نظمه وصيغته، فقال: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾(١) الذي يتنافس فيه المتنافسون ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: من كرائم أموالكم وأحبها، ثم رغَّب في ذلك، فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ أي: فيُجازيكم بحسبه، جيداً كان أو رديئاً.

وأخرج أربابُ الصحاح: لما نزلت هذه الآية جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله، إنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيْرُحَاء، فضعها ـ يا رسول الله ـ حيث أراك الله، فقال عليه السلام: «بَخٍ بَخٍ، ذلك مال رابح، وإني أرىٰ أن تجعلها في الأقربين»، فقسمها في أقاربه(٢). و«بيرحاء»: حائط نخل في المدينة مستقبلة المسجد فيها ماء طيب.

---

(١) أرىٰ في هذه الآية ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ شبهاً بآية ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وعَوْداً إليها، فكما كانت تلك تعقيباً علىٰ ما جاء قبلها من مناقشة أهل الكتاب في أمر القبلة ورد شبههم ومشاغباتهم، مبيناً أن البر بما سرده من أحكام صالحة للبشر لا بمشاغباتهم في أمر القبلة وأمثالها، عقَّب هنا ما جاء في هذا السياق من مشاغباتهم ومخادعاتهم، ببيان أنَّ البر هو اتِّباع شرائع الله، وخص الإنفاق بالذكر؛ لأنه من أهم تعاليم الإسلام، فيكون بياناً عاماً لهم وللمسلمين، وتعريضاً بما عندهم من حرص وإعراض شديد عن الإنفاق. ثم أتبع ذلك بالردِّ عن شبهتهم بأنَّ محمداً يدَّعي أن شريعته كشريعة إبراهيم، ولم يحرِّم ما حرَّم الله علىٰ بني إسرائيل من بعض الأطعمة، وقرن ذلك بالعودة إلىٰ ما يشاغبون به من أمر القبلة، وردها عليهم كذلك؛ لتتقاربَ الآيتان. والله أعلم. والقرآن مثاني، يعود إلىٰ المواضيع المرَّة بعد المرَّة.
ويجوز أن يكون قوله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ استدراكاً لدفع ما يتبادر إلىٰ الأذهان من قوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [آل عمران: ٩١] من أن الإنفاق لا يفيد. فأبان أن الإنفاق عنصر مهم من عناصر البر للمؤمنين، ولن ينالوا البر حتىٰ ينفقوا من أحسن أموالهم وأعزِّها عليهم، وقد جاء هذا استطراداً في سياق الكلام. فهو بيان لما ينفع المؤمنين ويقبل منهم، ذكر إثر بيان ما لا ينفع الكافرين ولا يقبل منهم. والله تعالىٰ أعلم. (المؤلف).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨)، عن أنس.

وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها، فقال: هذه في سبيل الله، فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامةَ ابنَه، فكأن زيداً وجد في نفسه، وقال: إنما أردتُ أن أتصدَّق به، فقال ﷺ: «أما إن الله قد قبلها منك»[١].

قال في «المنار»: وهذا من آيات سياسته ﷺ للقلوب، رأىٰ أنَّ زيداً وأبا طلحة قد خرجا بعاطفة الإيمان عن أحبِّ أموالهما إليهما، علىٰ تعلُّق القلوب بكرائم الأموال، فجَعَل ذلك في الأقْربين منهما؛ ليثبِّت قلبيهما، فلا يكون للشيطان سبيلٌ إلىٰ الوسوسة لهما بالندم أو الامتعاض إذا رأيا ذلك في أيدي الغرباء[٢].

وقال الأستاذ الإمام في وجه الربط للآية بسابقها، ما مُلَخَّصه: الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ...﴾ أيضاً لأهل الكتاب، فلا يزال الكلام فيهم. ومن سُنَّة القرآن أن يقرن الكلام في الإيمان بذكر آثاره من الأعمال الصالحة، وأدلُّها عليه: بذلُ المال في سبيل الله. فلما حَاجَجَ أهل الكتاب في دعاويهم في الإيمان والنبوَّة وما إلىٰ ذلك، أيَّد المُحَاجَّة بأنهم مخالفون لميزان الإيمان الصحيح، وهو الإنفاق في سبيل الله من الأموال المحبوبة، مع الإخلاص وحُسْن النية. فهو يؤيِّد إلزامه إيَّاهم بقوله: يا أيها المدَّعون لتلك الدعاوىٰ، قد آثرتم شهوة المال علىٰ مَرْضَاة الله، وإذا أنفق أحدكم شيئاً فإنما ينفق من أردأ ما يملك، فكيف تدَّعون هذه الدعاوي التي لا مظهر لها في نفوسكم[٣]؟!

أقول: ويجوز أن يكون الكلام تشريعاً عاماً، يدخل فيه إلزام أهل الكتاب بمخالفة أحوالهم لهذا التشريع، جاء علىٰ نهج القرآن في تعقيب المعنىٰ الخاص بالمعنىٰ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦: ٥٩٢)، عن أيوب مرسلاً.

(٢) تفسير «المنار» (٣: ٣٠٧).

(٣) المصدر السابق (٣: ٣٠٥-٣٠٦).

العام الذي يشمله وغيره، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، فالكلامُ تشريعٌ بحسب الصيغة، وإلزامٌ لأهل الكتاب بحسب السياق، على نهج القرآن في مثله.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

وبعد أن ألزم أهل الكتاب بما ألزمهم به في هذا الباب، أجاب عن شبهتين من شُبَهِهم، فيما يأتي فقال: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾، فهذه الآية جواب عن الشبهة الأولىٰ، وهي كما قال الأستاذ الإمام: قالوا: إذا كنتَ ـ يا محمد ـ علىٰ ملّة إبراهيم والنبيين من بعده كما تدَّعي، فكيف تستحلُّ ما كان مُحَرَّماً عليهم من الطعام، فلا ينبغي لك أن تدَّعي أنك مُصدِّق لهم، ومُوافق لهم في الدين، ولا أن تخصَّ إبراهيم بالذكر، وتقول: إنك أَوْلىٰ الناس به[1].

وتوضيح الرد: أنَّ كل الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل، ولإبراهيم من قبلُ بالأَوْلىٰ، ثم حرَّم الله عليهم بعض الطيِّبات في التوراة عقوبةً لهم وتأديباً، كما قال تعالىٰ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]. فالمراد

(١) تفسير «المنار» (٤: ٤).

بـ«إسرائيل»: شعبُ إسرائيل كما هو مستعمل عندهم، لا يعقوب نفسه، ومعنىٰ تحريم الشعب ذلك علىٰ نفسه: أنه ارتكب واجترح السيئات التي كانت سبب التحريم، كما صرَّحت به الآية، فكأنه يقول: إذا كان الأصل في الأطعمة الحِلّ، وكان تحريم ما حُرِّمَ علىٰ إسرائيل تأديباً علىٰ جرائمَ أصابوها، وكان النبيُّ وأمته لم يَجْترحوا تلك السيئات، فلِمَ تُحَرِّمُ عليهم الطيبات.

ثم استند علىٰ التوراة في هذا الدفع، فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: فإنها تُـؤْذِنُ أنَّ التحريم كان عقوبةً لكم، لا لـخُبثٍ في هذه المحرَّمات. هذا ما أثبته الأستاذ الإمام في معنىٰ الآية.

أما صاحب «المنار» فيرىٰ في الآية غير هذا الرأي، حيث قال: والمتبادر عندي أنَّ المراد بما حرَّمه إسرائيل علىٰ نفسه: ما امتنعوا عن أكله وحرَّموه علىٰ أنفسهم بحكم العادة والتقليد، لا بحكم الله. كما يُعهَدُ مِثلُ ذلك في جميع الأمم، ومنه تحريم العرب للبحائر والسوائب وغير ذلك، مما حكاه القرآن عنهم(١).

أقول: وعلىٰ هذا الرأي يكون قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ متعلقاً بـ﴿حَرَّمَ﴾، وعلىٰ الرأي الأول يكون متعلقاً بقوله: ﴿حِلًّا﴾.

ثم ختم الآية بما فيه وعيد لهم، فقال: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ البيان، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: لأنفسهم، بدَفْعِها إلىٰ ما تستحقُّ عليه العذاب الأليم.

وبعد أن أمر ﷺ بإلزامهم بهذه الحجَّة الواضحة، أمره أن يدعوهم إلىٰ الحق، فقال: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ أي: فيما أنبأني به، ﴿فَٱتَّبِعُوا۟﴾ ما أدعوكم إليه ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ

(١) تفسير «المنار» (٤: ٥).

حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: الذين يبتغون الخير من غيره سبحانه. والحنيف: المائل. والمراد به: مَيْلُه عن سائر طرائق الكفر في عصره.

أما الشبهة الثانية، فهي - كما قال الأستاذ الإمام أيضاً -: أنهم قالوا: إنَّ الله وعدَ إبراهيم بأن تكون البركة في نَسْل ولده إسحاق، وجميع الأنبياء من ذريَّة إسحاق كانوا يعظِّمون بيت المقدس ويصلون إليه، فلو كنتَ علىٰ ما كانوا عليه لعظَّمتَ ما عظَّموا، ولما تحوَّلتَ عن بيت المقدس وعظَّمتَ مكاناً آخر اتَّخذته مُصَلًّىٰ وقبلة، وهو الكعبة، فخالفتَ الجميع[1]. فكان جواباً عن هذه الشبهة قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

وتقرير هذا الجواب: إنَّ البيت الذي نستقبله في صلاتنا هو أول بيت وُضع مَعْبداً للناس، بناه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام لأجل العبادة خاصَّة، ثم بُني المسجدُ الأقصىٰ؛ بيتُ المقدس بعده بقرون[2]، بناه سليمان بن داود عليهما السلام سنة ألف وخمس قبل الميلاد، فصحَّ أن يكون النبيُّ ﷺ علىٰ ملَّة إبراهيم، ويتوجَّه بعبادته إلىٰ حيث يتوجَّه إبراهيم وولده إسماعيل.

ثم استشهد علىٰ ذلك بقوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: فيه دلائلُ وعلاماتٌ ظاهرة لا تَخفىٰ علىٰ أنه بناهُ إبراهيم عليه السلام، منها: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾، أي: موضع قيامه فيه للصلاة والعبادة، تعرف ذلك العرب بالنقل المتواتر، وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء الذين بقيت معالـمهم. فأيُّ دليل أبيَنُ من هذا، علىٰ كون

(١) تفسير «المنار» (٤: ٤).

(٢) بل بُني المسجد الأقصىٰ بعد المسجد الحرام بأربعين عاماً، كما ثبت في حديث أبي ذر عند البخاري (٣٣٦٦) و(٣٤٢٥)، ومسلم (٥٢٠). والذي صنعه سليمان عليه السلام هو تجديدُ بنائه.

مُستَقْبِل هذا البيت مُتّبعاً لإبراهيم، وإنَّ هذا البيت أوَّل بيت من بيوت العبادة الصحيحة المعروفة في ذلك العهد، وُضِعَ ليعبدَ الناسُ فيه ربَّهم؟

﴿وَ﴾ منها أن ﴿مَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ فهي آية بيِّنة علىٰ ذلك التبريك، لا يمتري فيها أحد. وذلك أن العرب كلَّها قد اتَّفقت علىٰ احترام هذا البيت وتعظيمه، لنسبته إلىٰ الله، حتىٰ إنَّ من دخله يأمن علىٰ نفسه، لا من الاعتداء عليه فقط، بل من أن يثأر منه أيضاً. مضىٰ علىٰ هذا عملُ الجاهلية علىٰ اختلافها في المنازع والأهواء، وكثرة ما بينها من الأحقاد والأضغان، وأقرَّه كذلك الإسلام.

﴿وَ﴾ منها أنه ﴿لِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، فهذا بيان آية ثالثة من آيات هذا البيت جاءت بصيغة الإيجاب والفرضيَّة، في ذكر مزاياه، ودلائل كونه أولَ بيوت العبادة المعروفة المباركة، وبيان ذلك للمعترضين من اليهود علىٰ استقباله في الصلاة.

فهذا الكلام يفيد بمقتضىٰ السياق معنىً خبرياً في إفادة المزايا التي تؤيد اتخاذ هذا البيت قِبلة، وبمقتضىٰ الصيغة معنىً إنشائياً، وهو وجوبُ الحج علىٰ المستطيع من هذه الأمة. أشار إلىٰ ذلك الأستاذ الإمام بقوله: هذه الجملة ـ وإن جاءت بصيغة الإيجاب ـ هي واردةٌ في معرض تعظيم البيت. وأيُّ تعظيم أكبر من افتراض حجِّ الناس إليه؟ وما زالوا يحجُّونه من عهد إبراهيم ﷺ إلىٰ عهد محمد ﷺ، ولم يمنع العربَ عن ذلك شركُها، وإنما كانوا يحجُّون عملاً بسُنَّة إبراهيم عليه السلام. وهذه آيةٌ متواترةٌ علىٰ نسبة هذا البيت إلىٰ إبراهيم عليه السلام. وبهذا وما سبقه يبطل اعتراض أهل الكتاب، وثبت أن النبي ﷺ علىٰ ملة إبراهيم دونهم. من «المنار» بتصرف[1].

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٩).

وقال الإمام الرازي عند ذكر قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: اعلم أنه تعالىٰ لما ذكر فضائل البيت ومناقبه؛ أردفه بذكر إيجاب الحج[١]. وفي قوله تعالىٰ: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بيان لموقع الإيجاب ومحله، والاستطاعة تختلف باختلاف الأشخاص. وقد سُئل الإمام مالك رضي الله عنه عن هذه الآية، فقال: الناس في ذلك علىٰ طاقتهم ويُسْرهم وجَلَدهم[٢].

أقول: فالاستطاعة في الرجل: الجَلَدُ واليسر، وفي المرأة زيادةً علىٰ ذلك: وجود المحْرَم الذي يصاحبها، فإذا تحقَّقت الثلاثة وجب الحجُّ عليها.

ثم ختم الآية بوعيد هؤلاء المعارضين المعاندين، فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[٣]، والمراد بهذا الكفر: جُحود كون هذا البيت أولَ بيتٍ وُضِعَ للناس في العبادة الصحيحة، وضعه إبراهيم عليه السلام، كما بيَّنته الآية، وعدم الإذعان لِـمَا فرض الله من حجِّه والتوجُّه إليه بالعبادة، وعدم التَّسليم بأنه أحقُّ بالقبلة من بيت المقدس. وإنما أتىٰ بهذا التهديد الليِّن؛ لأنه يشمل ضِعافَ الإيمان الذين تأثَّروا بمُشَاغبات اليهود والمنافقين.

وقيل: المراد بالكفر: تَرْكُ الحج من المستطيع، والعبارة للتغليظ والتشديد؛ لأنَّ

---

(١) «تفسير الرازي» (٨: ٣٠٣).

(٢) «تفسير القرطبي» (٤: ١٤٨ - ١٤٩).

(٣) جعل ابن القيم الكفر نوعين: كفر عمل وكفر اعتقاد. والأول: مثل ترك الصلاة تهاوناً لا جحوداً، وكذلك سائر الفرائض، فهو كفر لا يُخرج صاحبَه من المِلَّة، ولا يبيح دمه، ولا تنفسخ منه زوجته. والثاني: أن يجحد شيئاً مما علم نصّاً أن رسول الله ﷺ جاء به من عند الله، فتلك ردَّة تبيح الدم، وتفسخ الزوجة، وتمنع الإرث. (المؤلف).

وانظر كلام ابن القيِّم في «الصلاة وأحكام تاركها» (١: ٥٦ - ٥٧).

القرآن يتوسَّع بكلمة الكفر فيُطْلقها علىٰ الجاحدين، ويُطْلقها علىٰ مَنْ يُخالف مقاصد الدين.

وقد ألمع بإثبات مزايا هذا البيت، وأنه أول بيت وُضِعَ للناس، إلىٰ إثبات أنَّ تحويل القبلة من بيت المقدس إليه، هو نسخٌ للأمر بما فيه خيرٌ منه وأولىٰ.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

وبعد أن أقام سبحانه الحجَّة علىٰ أهل الكتاب، وبيَّن بطلان شبهاتهم علىٰ نبوَّة محمد ﷺ، وكونه علىٰ ملَّة إبراهيم عليه السلام، أمره أن يُبكِّتهم علىٰ كفرهم وضلالهم في ذلك، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في بيته، الدالَّةِ علىٰ كونه أولَ بيتٍ وُضِعَ لعبادته، وعلىٰ بناء إبراهيم له، وتعبُّده فيه قبل وجود بني إسرائيل وبيت المقدس. أو بآياته علىٰ صحَّة نبوة محمد وإحيائه لملَّة إبراهيم الذي تعترفون بنبوَّته وفضله، ومنها ما ذُكِر عن البيت، ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: مُطَّلع علىٰ عملكم هذا. وفيه تهديدٌ وتوعُّد لهم شديد.

ثم أمره بتوبيخهم علىٰ الإضلال والإغواء وصدِّ الناس عن سبيل الإيمـان، وابتغائها عِوَجاً، إثر توبيخهم علىٰ الضلال والغَواية والكفر عن علم منهم، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ أي: لِـمَ تَصْرفون عن الإيمان من أراد الإيمان بالله، وذلك بإلقاء الشبهات الباطلة، مكابرةً وكيداً للنبيِّ ﷺ، ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: قاصدين بهذا العمل أن تجعلوا سبيل الله هذه مُعوجَّة، لا تصل إلىٰ السعادة، وذلك بعبثكم بها وتحريفكم لها، أو تجعلوا سبيل الله هذه معوجة في نظر من يُؤمن لكم،

ويغتر بكيدكم، ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي: تعرفونها حقَّ المعرفة بأنها سبيل الله المستقيمة لا عِوَجَ فيها ولا نقيصة، عارفون بما ورد فيها من البشارات عن الأنبياء، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يتوعَّدهم ويُهدِّدهم علىٰ عملهم هذا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

وجَّه الخطاب إلىٰ المؤمنين، تحذيراً لضعفاء الإيمان عن طاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم، إثر توبيخهم بالإغواء والإضلال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾[1]، وتعليق الرد بطاعة

---

(١) اليهود شعب خبيث قد تدرَّب من أقدم الأجيال علىٰ الدسائس بين الأمم، والعمل في الظلام، وتشكيل الجمعيات السرية، وإثارة الفتن بين الأقوام، وقد مهر في ذلك؛ لأنه لا يحب أيَّ جنس من أجناس البشر، وأيَّ ملة من مللهم، ويعتقد في نفسه أنه شعبُ الله الخاصُّ، وقد جعل الله بقية الشعوب عبيداً له، وأحلَّ له نفوسهم وأموالهم. وقد قرر الباحثون أن الأدوار التي قام بها الشعب اليهودي ـ ولا تزال هدفه ـ أدوار قاسية في الأمم، ومفسدة للديانات والإنسانية، يبثُّون بينهم الثورات والمبادئ الهدامة، والفتن الماحية للشعوب. ولما جاء الإسلام عادَوْهُ حسب مبدئهم وطبيعتهم، ولعبوا دوراً مهماً في المدينة، عمدوا إلىٰ التشكيك في الدين الجديد، وإثارة الشبهات، وقد نزل في ذلك آيات البقرة، ومنها: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]. ولعبوا كذلك في محاولة إحياء العداوة بين الأوس والخزرج، وإثارة الأحقاد بينهم والضغائن، وقد نزل في ذلك آيات آل عمران، ومنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾، ولولاها لنجحت دسيستهم فيهم. وقد لعب اليهود أدواراً مهمة في إفساد تعاليم الإسلام عند الباطنية والقرامطة والإسماعيلية وأمثالهم، واشتركوا في قتل عمر وعثمان رضي الله عنهما. (المؤلف).

فريق منهم ليس للتخصيص، وإنما هو لونٌ من ألوان بلاغة القرآن في المبالغة في التحذير والوقاية.

ثم أردف الكلام بما يزيدهم تثبيتاً، وصاغه بصورة إنكار وقوعهم في شرك المضلِّين، مع توفُّر الموانع عن الوقوع، استبعاداً لذلك ومبالغةً في الإنكار، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ يبيِّن لكم ما أنزل إليكم من آيات الله التي هي روح الهداية وحفاظ الإيمان. والآية تثبيتٌ في صورة استبعاد بعد استِتْباب الأسباب، وهدىً وإرشادٌ إلىٰ التمسُّك بما أرسل إليهم، أي: لا ينبغي لكم أن تلتفتوا إلىٰ شُبَهِ أهل الكتاب، بل يجب أن ترجعوا عند كلِّ شبهة تسمعونها منهم إلىٰ الرسول، حتىٰ يكشف لكم ما خفي عليكم.

ثم تابع التثبيت في صورة الترغيب بعد أن سبكه علىٰ الترهيب، فقال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ وبكتابه ويتمسَّك به ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ لا يضلُّ فيه السالك، ولا يخشىٰ عليه من المهالك، فلا تروجُ عنده الشبهات، ولا تروق في عينه التُّرَّهات.

وقيل: إنَّ الآية نزلت عندما فَتَنَ شاس اليهودي بين الأوس والخزرج، بعد مَقدَم رسول الله ﷺ عليهم، وأثار بينهم عداوتهم القديمة، وأعادها عليهم جاهلية، فتنادوا للقتال، ثم ثابوا لرُشْدهم بعدما وعظهم الرسول ﷺ، وأدركوا أنهم مفتونون(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦: ٥٥- ٥٦)، عن زيد بن أسلم. وقال الحافظ في «الإصابة» (١: ١٥٩): إسناده مرسل، وفيه راوٍ مبهم.

فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ
ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ
وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ
وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ
ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

وبعد أن حذَّر المؤمنين بأنواع من التحذير وختم ذلك ببيان أنَّ الهداية إنَّما تكون بالاعتصام، أَمَرَهم به وبالتمسُّك بالإسلام والتقوىٰ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي: احذروه كلَّ الحذر، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ بأن تحافظوا علىٰ ما يأمركم به الإسلام، حتىٰ الموت. وجماعُ تقوىٰ الله حقَّ التقاة: أن يراه الله حيث أمره، وأن لا يراه حيث نهاه. وقد جاءت هذه الآية في مقابلة قوله تعالىٰ: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

ثم زاد علىٰ الأمر بالإسلام والتقوىٰ الأمرَ بالتكاتف والتعاضد، والاتفاق علىٰ الحقِّ المرسل لهم، وأن لا يتفرَّقوا عن سبيله، وأن يستعينوا علىٰ ذلك بتذكُّر ماضيهم وحاضرهم؛ ليدركوا فائدته العظمىٰ، وثمرته الجُلَّىٰ، فقال: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ ، فاستعار حبل الله للقرآن، كما جاء في الحديث: «حبلُ الله هو القرآن، فمن أخذ به أمن من السقوط»(١)، أي: فتمسَّكوا به، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ

---

(١) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٢: ١٣٤)، عن زيد بن أرقم مرفوعاً، ورواه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢١: ٢٧٣) موقوفاً علىٰ ابن مسعود، بلفظ: «حبل الله هو القرآن».

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴾، فجاء الإسـلام ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾، وقد جعل هذا كالدليل علىٰ أنَّ الاعتصام بالقرآن يؤدِّي للاتِّفاق والاتِّحاد والتآلف والتناصر، تلك الخصال التي ينتج عنها كل خير، ويندفع بها كل ضَيْر.

وبعد أن ذكر الثمرة الدنيويَّة له ذكر الثمرةَ الأخرويَّة، فقال: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ أي: كنتم كذلك بوثنيتكم وشركم بالله وما يتبعه من الخرافات والمفاسد التي أطفأت نور الفطرة، وهبطت بالأرواح إلىٰ درْكٍ سافل، فاستعدَّت للشقاء في دار البقاء، فأنقذكم منه بهذا الإيمان والنور والعرفان الذي أنزله إليكم علىٰ لسان نبيكم ﷺ.

ثم نوَّه بشأن هذا السِّياق، وحَسَّس بمكانة ما جاء فيه من الهداية والإرشاد، فقال تعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ أي: مِثْلَ هذا البيان يبيِّن الله لكم آياته، ليُعِدَّكُم ويُؤَهِّلَكم للاهتداء إلىٰ ما فيه سعادة الدارين.

ومُحصَّل الآيات: يُصوِّر لنا موقفَ دسٍّ وتضليل وإفساد وفتنة، وقفه اليهود من المسلمين والدعوة الإسلامية، واستهدفوا به إيجاد ثغرة في صفوف المسلمين، ويبدو من صيغة الآيات وقوة تحذيرها للمسلمين وتنديدها باليهود، أنه كاد أن يكون لهذا الموقف أثرٌ غيرُ محمود لولا أن تدارك الله المسلمين بتثبيته وهدايته، وأمرهم بالاعتصام والاتفاق، مُبيِّناً لهم الفائدة الجُلَّىٰ التي تعود عليهم من ذلك.

ثم رَسَم لهم خطَّة لحفظ ذلك الاتفاق والتعاضد، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر بما يشمله وغيره، وأمر المؤمنين أن يكون بينهم مَنْ يرشد ضعفاء الإيمان فيهم أن لا يتأثَّروا بغَواية المضللين التي تضمَّنها السياق، فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

وقد نقل صاحب «المنار» بعد هذا ما قاله الأستاذ الإمام أثناء تدريس هذه الآية، وملخَّصه: اختلف المفسرون في قوله تعالىٰ: ﴿مِّنكُمْ﴾؛ أمعناه: بعضكم؟ أم (مِن) بيانية؟ والمعنىٰ: ولتكونوا أمة. الظاهر الثاني، علىٰ حدِّ قولهم: ليكن لي منك صديق حميم. وذلك بحكم ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، و﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، و﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، إلىٰ غير ذلك من مضامين الآيات التي تدلُّ علىٰ مثل هذا المعنىٰ.

ثم إنَّ هذه الدعوة إلىٰ الخير والأمر والنهي لها مراتب:

فالمرتبة الأولىٰ: هي دعوة هذه الأمة وسائر الأمم إلىٰ الخير، وأن يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدىٰ.

والمرتبة الثانية: هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلىٰ الخير، وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر.

وله طريقان:

أحدهما: الدعوة العامة. قال: كهذا الدرس ببيان طُرُق الخير وحكمة الدِّين إلىٰ غير ذلك من المزايا التي حواها ديننا المبين، وإنما يقوم علىٰ هذه الطريق خواصُّ الأمة العارفون.

والطريق الثاني: الدعوة الجزئيَّة الخاصَّة، وهي ما يكون بين الأفراد بعضِهم مع بعض، ويستوي فيه العالِم والجاهِل، كالنهي عن الشر والتحذير منه، وأمثال ذلك من التواصي بالحق والتواصي بالصبر. وإن ما نحن فيه الآن من سوء الحال هو أثر التفريط في هذا الأمر مدَّة أزمان طوال.

وجملة القول: أنَّ الدعوةَ إلىٰ الخير والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر فَرْضٌ

حَتْمٌ علىٰ كل مسلم(١). وإني أسأل الله سبحانه أن يجعل تفسيري هذا دعاية إلىٰ سبيله خالصاً لوجهه الكريم.

ثم قال في «المنار»: وبعد أن أمر سبحانه وتعالىٰ بأن تكون منا أمةٌ تدعو إلىٰ الخير وتأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر، وبيَّن أنَّ أولئك هم المفلحون دون سواهم، لأنهم هم الذين يقيمون الدين ويحفظون سِياجَه، وبهم تتحقَّق الوحدة المقصودة منه؛ نهانا عن التفرق والاختلاف الذي يذهب بتلك الوحدة ويتعذَّر معه القيام بتلك الدعوة الصالحة، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ وهم أهل الكتاب تفرَّقوا في الدِّين وكانوا شِيَعاً، كل شيعة تذهب مذهباً يخالف مذهب الأخرىٰ، وصار كلٌّ ينصر مذهبه ويدعو إليه ويُخطِّئُ ما سواه حتىٰ تعادَوْا واقتتلوا. فهذه الآية مُتمِّمةٌ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وامتدادٌ لها.

وقال الأستاذ الإمام: إنَّ هذه الآية كالدليل علىٰ أنه يجب أن تكون وجهة الأمة الداعية الآمرة الناهية واحدة؛ لأنَّ الذين سبقوهم لم يفلحوا لعدم وحدتهم(٢).

ثم ذكر جزاءهم في الآخرة، وسبكه علىٰ التوعُّد، فقال: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، وفي بيان هذا الوصف لذلك اليوم صورة شنيعة من التوعُّد والتهديد لأولئك المتفرِّقين المختلفين من بعد ما جاءتهم البيِّنات، تدلُّ علىٰ شدَّة سخطه عليهم، والتوبيخ الشنيع لهم، وتوعدهم بإدخالهم في زمرة الذين تسودُّ وجوههم. كما أن فيه ترغيباً للمؤمنين ووعداً لهم بإدخالهم في زمرة الذين تبيضُّ وجوههم. وقيل: إنَّ بياض الوجوه وسوادَها هنا من باب الحقيقة، وقيل: من باب

(١) تفسير «المنار» (٤: ٢٤-٢٩).

(٢) المصدر السابق (٤: ٣٨-٣٩).

الكناية، كما يقال فيمن لم يتدنَّس بمعاب: هو أبيض الوجه، وفي عكسه: هو أسود الوجه. أو أن ابيضاضَ الوجوه عبارةٌ عن المسرَّة، واسودادَها عبارةٌ عن المساءة والغمِّ.

ثم فصَّل مصيرَ الفريقين، فقال ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لـهم: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾، ويجوز أن يكون المراد بيان الشأن، لا الحكاية عن قول يقع بالفعل(١).

وقد اختلف المفسرون في المراد من قوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، وذكروا وجوهاً نقلها الرازي حتىٰ قال: ومنها: أن المراد: أكفرتم بعدما ظهر لكم ما يُوجب الإيمان، وهو الدلائـل التي نصبها الله تعالىٰ علىٰ التوحيد والنبوة. والدليلُ علىٰ صحَّـة هذا التأويل قولُه تعالىٰ فيمـا قبل هذه الآيات: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠]، فذمَّهم علىٰ الكفر بعد وضوح الآيات وشهودها، وقال للمؤمنين: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾. ثم قال هاهنا: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، فكان ذلك محمولاً علىٰ ما ذكرناه حتىٰ تصير هذه الآية مقرِّرةً لـما قبلها. ثم قال: وقيل: هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شِيَعاً(٢).

وقال صاحب «المنار» ما ملخَّصه: الكفر في عُرْفِ القرآن ليس خاصاً بما يعدُّه الفقهاء والمتكلمون كفراً، وهو جَحْد الـمُجمَع عليه المعلوم من الدين بالضرورة، ولكن القرآن يَعُدُّ العمل الخارج عن مقاصد الدين الحقيقية كفراً، وقد عدَّ المتفرقين في الدين كفاراً ومشركين، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ

---

(١) والأول هو الظاهر، والثاني ضعيف.

(٢) «تفسير الرازي» (٨: ٣١٩).

وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢]، وقال عز وجل لنبيِّه ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقد فهم السلف الصالح من الكتاب والسنة أنَّ للإيمان شُعَباً كثيرة، والاعتصامُ بالوحدة وتركُ التفرُّق والاختلافِ[١] من أعظم شُعَبه[٢].

وبعد أن ذكر مصيرَ الذين اسودَّت وجوهُهم، ذكر مصيرَ الذين ابيضَّت وجوهُهم، فجَعَل اللفَّ والنشر على غير الترتيب؛ ليكون مطلع الكلام ومقطعه في بيان حال المؤمنين وجزائهم، فقال: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾ أي: في نعمه وإحسانه وجنَّته.

ثم ختم السياق بما يقرِّره وينوِّه بشأنه، فقال: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي: لا مجال للشك فيها والشبهات، ولا للاحتمال والتأويلات، فلا عذر لمن تفرَّق فيها واختلف، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨)﴾ فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، وإنما يريد هدايتهم إلى ما تكمل به فطرتُهم، ويتمُّ به نظامُ اجتماعهم. فإذا خرجوا عن أمره وحلَّ بهم البلاء، فإنما يكونون هم الظالمين لأنفسهم بخروجهم عن الصِّراط المستقيم، وتيههم في بَيْداء الضلال البعيد.

ثم أعقب الإرشاد والموعظة والوعد والوعيد بدليل قدرته وببيان عظمته وسلطانه؛ ليحملهم على التمسُّك بما تقدَّم، على نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة الخامسة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)﴾ فيُجازي المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته.

---

(١) أي: فيما لا يجوز فيه الاختلاف، لأنه يكون حينئذ اختلافاً مذموماً.

(٢) تفسير «المنار» (٤: ٤٤).

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

ثم استأنف الكلام بما يثبِّت المؤمنين الخُلَّص علىٰ ما هم عليه من الاتفاق علىٰ الحق، والدعوة إلىٰ الخير، والاعتصام بالله، ويُثير النخوة فيهم، فلا يُغْوَىٰ ضعفاؤُهم بمشاغبة أهل الكتاب فيتفرَّقوا مثلهم، فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، وإنما قدَّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ الإيمان بالله مع أنه مقدَّم علىٰ كل الطاعات؛ لأنهما سياج الإيمان وحفاظُه.

وفي قوله: ﴿كُنتُمْ﴾ وجهان:

أحدهما: أنها تامَّة لا تدلُّ علىٰ المضي، وإنما هي لمجرد الثبوت. والمعنىٰ: وُجدتم خير أمة. كأنه قال: أنتم خير أمة في الوجود الآن، لأن جميع الأمم قد غلب عليها الفساد، فلا يُعرَفُ فيها المعروف، ولا يُنكَرُ فيها المنكر، وليست علىٰ الإيمان الصحيح الذي يمنع أهله عن الشرِّ، ويصرفهم إلىٰ الخير. وأنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، يظهر أثره في العمل. وعن بعض الصحابة: أن المعنىٰ: كنتم خير الناس للناس، حيث سعيتم بعد إيمانكم في إدخالهم الإسلام؛ ذلك الدين المنجي.

الوجه الثاني: أنها ناقصة. والمعنىٰ: كنتم في علم الله، أو كنتم في الأمم السابقة، كما في كتبها المبشِّرة بكم.

والأَوْجَهُ عندي: أنها علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، لا تدلُّ علىٰ المضيِّ، ولكنها لتحقيق مضمون ما تدخل عليه، (كما جاء في المادة الثانية من المقدمة الرابعة)، فهي هنا لتقرير أنهم خيرُ أمة أخرجت للناس.

وقال أبو مسلم: إن هذا القول يُقالُ لمن ابيضَّت وجوههم، والمعنىٰ: كنتم فيما سبق من أيام حياتكم خيرَ أمة أخرجت للناس، بهذه الصفات التي كنتم عليها، فكان لكم هذا الجزاء الحسن. فالكلام عنده تتمَّة للآيات السابقة، وفي مقام التعليل لها.

ثم نعىٰ علىٰ أهل الكتاب أنهم لم يؤمنوا هذا الإيمان المؤدِّي إلىٰ هذه النتائج، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد والدعوة إلىٰ الرشاد، وصفاً للدواء بعد بيان الداء، فقال: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾، وفي صورة العبارة إيماءٌ إلىٰ أنهم إنما آثروا البقاء علىٰ دينهم، حباً من الرؤساء بالرياسة، ولو آمنوا نالوا الرياسة في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة.

ثم بيَّن أنَّ هذا الحكم علىٰ أهل الكتاب إنما هو علىٰ أكثر أفرادهم لا جميعهم، فقال: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

ثم بيَّن ضعف كَيْدِ الفاسقين منهم، تسليةً للمؤمنين، وتثبيتاً لهم، فقال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ أي: إنهم لا يقدرون علىٰ إيقاع الضرر بكم، ولكن يؤذونكم بالمشاغبات الفاشلة، أو: إلا ضرراً خفيفاً، ليس له كبيرُ تأثيرٍ، ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ منهزمين، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ عليكم ما داموا علىٰ حالتهم ودُمتم علىٰ حالتكم.

ثم سجَّل عليهم الجزاء الدنيوي، وسبكه علىٰ التعليل لما قبله، فقال: ﴿ضُرِبَتْ

عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ ووُجِدوا، ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: إلا بعهدٍ من الله وعهدٍ من الناس في الذمَّة والأمان. وعهدُ الله: حكمُه بوفاء العهود.

ثم أومأ إلىٰ الجزاء الأخروي، بقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا مُسْتوجبين له. ثم عاد إلىٰ تكميل الجزاء الدنيوي، فقال: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ وهي الهوان والصغار. ثم علَّل مجموع الجزاء بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُسبَّبٌ ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾، وهذا القيد لزيادة التشنيع عليهم.

ثم ذكر منشأ هذا الأمر الشنيع فيهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُسبَّبٌ ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢﴾، أي: جرَّأهم علىٰ ذلك ما كانوا عليه من العصيان، وما كانوا عليه من الاستمرار علىٰ الاعتداء، فتدرَّجوا إلىٰ أكبر الموبقات، وهي الكفر وقتل الأنبياء، فصار هذا خلقاً للأمة وطبعاً لها، يتوارثه الأبناء عن الآباء بلا نكير، ولهذا نُسِبَ إلىٰ متأخريهم عَملُ متقدِّميهم. ويبدو أنَّ بعض المسلمين كانوا يخشون ما لليهود من قوة مال وسلاح وعُدد وحصون، وأنَّ هذه الخشية كانت مَنْفذاً ينفذ منها اليهود إليهم في الدسِّ والكيد، فهوَّن سبحانه وتعالىٰ شأنهم، ولفت نظر المسلمين إلىٰ واقع أمرهم من الذلة والمسكنة والجبن والصغار.

﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾.

ثم عاد إلىٰ بيان أنَّ هذا الحكم علىٰ أهل الكتاب إنما هو باعتبار أكثريتهم، وأنَّ منهم مؤمنين، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالاستثناء لتحقق الواقع، فقال:

﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ أي: ليس أهل الكتاب كلُّهم علىٰ ما ذكر لهم من قبائح الأعمال، بل كان ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ علىٰ الوجه الصحيح، ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: الذين صلحت نفوسُهم، فاستقامت أحوالُهم وحَسُنت أعمالهم، وهؤلاء هم الأقلُّون الذين لم يُحرِّفوا ولم يُبدِّلوا، والذين آمنوا بمحمد ﷺ إيماناً صحيحاً، وقاموا بعبادة الله حقَّ القيام، وبتطبيق شريعته علىٰ أحسن الوجوه، فأولئك من الصالحين.

﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي: فلن يضيع ثوابه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ وما تنطوي عليه نفوسُهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

وبعد أن ذكر مصير مَنْ آمن بهذا القرآن من أهل الكتاب، عاد وذكر مصير مَنْ أصرَّ علىٰ الكفر منهم ومن غيرهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، قال الأستاذ الإمام: إنما ذكر الأموال والأولاد؛ لأن المغرور إنما يصدُّه عن اتِّباع الحق أو النظرِ في دليله الاستغناءُ بما هو فيه من النِّعم، وأعظمُها الأموال والأولاد. فالذي يرىٰ نفسه مستغنياً بمثل ذلك، قلَّما يوجِّه نظره إلىٰ طلب الحق، أو يُصْغي إلىٰ الداعي إليه(١).

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٦٢).

ومعنىٰ الآية: لا تدفع عنهم قوتُهم العصبيَّة والماليَّة التي يعتزُّون بها، ما سينالهم من عذاب الله.

ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١٦﴾، فلا تنفعهم أموالهم حتىٰ يفتدوا بها، ولا ينتفعون بما كانوا أنفقوه منها.

ثم مثَّل حالهم في إنفاق أموالهم التي فتنتهم فشغلتهم عن الحق أو أغْرَتْهم بمقاومته، فقال: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: شدَّة بَرْد، ﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾، وفي قوله: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ إيماءٌ إلىٰ أنَّ الإنسان هو الذي يولِّدُ المصائبَ لنفسه بمعاكسته لسنن الله المادية والروحية، والشرائع كلها منطبقة علىٰ السنن، والله سبحانه لا يقبل عملاً فيه مثقالُ ذرة من شرك أو رياء، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ في عدم انتفاعهم بإنفاق أموالهم، ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝١١٧﴾ بإفسادهم لطبائعهم وإخراجها إلىٰ الكفر والضلال، فأصبحت لا تنفع منها الأعمال، وبإنفاق تلك الأموال في الطرق التي تؤدِّي إلىٰ الخيبة والخسران، بحسب سنن الله في نظام الاجتماع وتعاليم الدين، وقد أنفقوا أموالاً طائلة ونفوساً عزيزة في مقاومة هذا الدين، فخابوا وخسروا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝١٢٠﴾.

ثم حذَّر المؤمنين من اعتمادهم علىٰ هؤلاء، وشرح لهم حالتهم وما يضمرونه لهم، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾، والبطانة ـ ومثلها الوليجة ـ: هو من يتَّحد بك وحدة حال، وتثق به، وتُطلعه علىٰ أسرارك، وتعتمد عليه في الرأي والمشورة. فحذَّر الله سبحانه المؤمنين أن يعتمدوا مثل هذا الاعتماد علىٰ غيرهم.

وعلَّل ذلك بقوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: فساداً، بمعنىٰ: لا يُقصِّرون في فشلكم، و﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾ والعَنَت: الهلاك والتلف، أي: يتطلَّعون بشوق ولهف إلىٰ تلفكم وهلاككم، ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي: بفلتات لسانهم، مع الحرص والمبالغة في ضبط أنفسهم، وإخفاء ما يكتمون من بُغْضِكم، كما قال: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، ثم ختم البيان بما يزيد في التحذير والانتباه، فقال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾، وفي هذا الكلام مبالغةٌ في التحذير.

ثم تابع الآيات في بيان حال المؤمنين وحالهم، فقال: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ وهذا بيانٌ لأثر الإسلام في المسلمين، حيث يحبُّون أشدَّ الناس عداوة لهم، فيتألَّمون عليهم إذا أصابتهم مصيبة أو بلاء. وذلك لأن الإسلام دينُ حبٍّ ورحمة وتساهل وتسامح.

ثم عطف ما يتضمَّن التعليل لتلك المحبة، فقال: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ﴾. والمراد من الكتاب: جنسُه، بمعنىٰ: سائر ما أنزل من الكتب، كما يقال: كثر الدرهم في أيدي الناس. والمعنىٰ: إنكم تؤمنون بجميع ما أنزل من كتاب، سواء منه ما نَزَل عليكم وما نزل عليهم، فليس في نفوسكم ما يحملكم علىٰ بغضهم. فهذه الجملة من قبيل التعليل لما قبلها. وذهب بعضهم إلىٰ أنَّ جملة ﴿وَتُؤْمِنُونَ ﴾ حالٌ من قوله: ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾، فتكون للمبالغة في التأنيب.

ثم ذكر نفاقَهم وخُبثَ نواياهم نحو المسلمين، فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: إذا لَقُوا المؤمنين ألانُوا لهم القولَ، مُداهنةً لهم، وقالوا: آمنا وصدَّقنا بما جاء به محمد ﷺ، فإذا خَلَوا فيما بينهم أظهروا ما في نفوسهم من شدَّة الغيظ نحو المسلمين. فأمره أن يُوغِرَهم ويَغُمَّهم بقوله: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾، فإنَّ الإسلام لا يزداد إلا عزَّة.

ثم ختم الآية ببيان أنَّ الله سبحانه مُطَّلع علىٰ خفايا أمورهم، وما يضمرونه في أنفسهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾ فلا يخفىٰ عليه أمركم وما تُضْمرون في أنفسكم.

ثم بيَّن حَسَدَهم وسوءَ طويَّتِهم تجاههم، فقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ حالةٌ ﴿حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ﴾ حالةٌ ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أي: شدَّة ﴿يَفْرَحُواْ بِهَا﴾، والتعبير بالمسِّ للحسنة إشعارٌ بأنهم يسوؤهم ما يصيب المسلمين من خير وإن قَلَّ.

ثم أرشدهم سبحانه وتعالىٰ إلىٰ ما إن تمسَّكوا به سَلِموا من كَيْدهم، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: إنْ تتحمَّلوا منهم، وتتَّقوا وتتحذَّروا من دسائسهم، ومن ذلك أن لا تتَّخذوا منهم بطانة، لا يضرُّكم ما يُدبِّرونه لكم من المكايد. ثم زاد في طمأنتهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ١٢٠﴾ والمُحيطُ بالشيء واقفٌ علىٰ دقائقه وغالبٌ علىٰ أمره.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٢٢﴾.

ثم استشهد علىٰ مضمون قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ ...﴾ بوقعة بدر وما فيها من نصر المؤمنين علىٰ قلَّتهم وذلّتهم ـ كما سيأتي ـ وذلك بما اتقوا وصبروا، واستشهد بوقعة

أُحد وما فيها من التأديب والتنبيه إلىٰ عناية الله سبحانه بهم في أحوالهم، وولاية الله لهم، فلم يضرُّهم كيدهم مع همِّ الطائفتين من المسلمين بالفشل، ثم وقوع المصيبة بهم بعد ترك الرماة الصبر والتقوىٰ، عندما أوقفهم الرسول لحماية الجبل ـ كما ستأتي الإشارة إليه بعد ـ فقال: ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ سَحَرَ يوم السبت، سابع شوال من سنة ثلاث للهجرة، ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: تُوَطِّنهم وتُنزلهم أماكن ومواضع في الشِّعب من أُحُد لأجل القتال فيها، منها: موضع للرماة، وموضع للفرسان، وموضع للحماية، إلىٰ غير ذلك مما يقتضيه الفنُّ الحربيُّ المسمَّىٰ بتعبئة الجيش، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾[1] لم يَخفَ عليه شيءٌ من أقوال المشيرين عليك بالخروج إلىٰ

---

(١) خرج رسول الله ﷺ يوم أحد بألف رجل، انخذل منهم عبد الله بن أُبي ومَنْ معه من المنافقين، وكانوا ثلاثمئة، وقالوا: لو نعلم قتالاً لاتَّبعناكم. ولما رجع هؤلاء خارت عزائم طائفتين من المؤمنين وهمَّتا أن تفشلا والله ثبَّتهما بما عندهما من إيمان صادق. ولقد نصر الله المؤمنين علىٰ المشركين في أول الأمر قبل أن يترك الرماة موقعهم، فلما رأوا هذا النصر، توهَّموا أن لا حاجة بحماية الموقع، ونزلوا لجمع الغنائم، إلا عشرة منهم، فأحاط بهم العدو لقلّتهم وأفناهم، ثم أحاط بجيش المسلمين من ورائهم، فوقعت الهزيمة فيه، وانقسموا حسب درجة إيمانهم ثلاث فرق: فرقةٌ استمرت في الهزيمة حتىٰ وصلت المدينة، وفرقةٌ وقفت حَيْرىٰ تقاتل وهم أكثر الصحابة، وفرقة ثبتت مع النبي ﷺ وهم بعض الصحابة. ثم تراجعت إليه الفرقة المبتعدة لما صَرَخ أحد المشركين بأنَّ محمداً قتل، وكان ﷺ في وجه العدو يقاتل وحده، حتىٰ قال المقداد بن الأسود: والله ما زلت قدمه شبراً واحداً عن وجه العدو، وتفيء إليه طائفة من أصحابه مرة وتفترق مرة أخرىٰ.

أقول: فقد جرىٰ هذا الفشل للمؤمنين أخيراً من جراء ترك المحافظين للثغر، ولم يصبروا ويتقوا الله والرسول، حيث أمرهم أن لا يتركوا الثغر أبداً ولو رأوا النصر. (المؤلف).

وانظر قصة الرماة وغزوة أحد في «تاريخ الطبري» (٢: ٤٩٩ - ٥١٣).

لقاء المشركين في أُحد، أو المشيرين عليك بانتظارهم في المدينة، وهو يعلم نيَّة كلِّ قائل منهم، إن كان مُخلِصاً في مَشُورته أو غير مُخلِص، كعبد الله بن أُبي ومَنْ معه.

قال ابن جرير: إنَّ الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ والمراد أصحابه[1]. يضرب لـهم مثلاً أو مثلين علىٰ صدق وعده الذي تضمَّنه قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، فهو يذكِّرهم بما كان يوم بدر إذْ نصرهم علىٰ قلَّتهم وذلَّتهم لأنهم صبروا واتقوا، وبما كان يوم أحد من حفظهم من كيد المنافقين أولاً، ثم ما كان من وقوع المصيبة بهم عند ترك الرماة الصبر والتقوىٰ. ومثلُ هذا الذنب لا يكون عقاباً قاصراً علىٰ مَن اقْتَرفَه، بل يكون عامّاً.

وقد تابع الكلام عن ذلك، فقال: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ أي: تتركا المُضيَّ للقتال افْتِتاناً بكيد المنافقين الذين رجعوا من العسكر. والهمُّ: حديث النفس بالشيء. والفشل: ضعفٌ مع جبن. والطائفتان: هما بنو سَلِمة وبنو حارثة من الأنصار، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: مُتولِّي أمورهما، لصدق إيمانهما، لذلك صرف الفشل عنهما وثبَّتهما، فلم تُجيبا داعي الضعف الذي ألمَّ بهما عند رجوع المنافقين الذين كانوا زهاء ثلث العسكر، بل تذكَّرتا ولاية الله للمؤمنين، فوثقتا به وتوكَّلتا عليه، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ بعد أن يأخذوا أُهبتهم وعُدَّتهم، إقامةً لسنن الله تعالىٰ في أكوانه. فالتوكلُ غذاءٌ روحي يدفع الخوف والقلق، ويستنزل توفيق الله تعالىٰ في التبصير علىٰ ما يلزم من العمل.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ

---

(١) «تفسير الطبري» (٧: ١٥٩).

ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾.

ولما كان سَبَبَ الهم بالفشل وسوسةُ الشيطان لهم بأنهم أصبحوا ضعفاء بعد أن رجع ثلث العسكر من المنافقين، وتركهم في قلَّة، ذكَّرهم بنجاحهم علىٰ قلتهم في وقعة بدر؛ لأنهم التزموا فيها جميعهم الصبر والتقوىٰ، ولم يحدث لهم ما يخالف ذلك، كما حدَث للرماة في وقعة أُحد، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ سابعَ عشرَ رمضان من السنة الثانية للهجرة نصراً مُؤَزَّراً، ﴿وَأَنتُمْ﴾ حينئذٍ ﴿أَذِلَّةٌ﴾ لقلّتكم وكثرتهم عَدَداً وعُدَداً.

ثم ألمح إلىٰ أنَّ سبب ذلك النصر هو التقوىٰ، فأمرهم بها وقال مُعرِّضاً بواقعة أُحُد: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ أي: تقومون بواجب الشكر علىٰ فَوْزكم وظَفَرِكم، فَطَوىٰ السبب وذكر المسبَّب علىٰ نهج القرآن. أو: لعلكم تنالون ما تشكرون الله عليه من مثل النصر والظفر الذي نِلْتموه بتقواكم في واقعة بدر.

وقد ذكره فقال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ للنصر، فحقَّق سبحانه وتعالىٰ وعد نبيِّه ﷺ لهم، ووعدهم بالزيادة عليه تَقْوِيةً لقلوبهم، وضمَّنه الوعد بفوزهم ولكن بشرطه، وهو الصبر والتقوىٰ، فقال: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ حيث إنكم في أشدِّ الضيق منهم، وعلىٰ أكمل الاستعداد لهم والتضحية، ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾؛ من: سَوَّمَ الخيل: أرسلها، وسَوَّم علىٰ القوم: أغار عليهم ففتك بهم.

فشرط سبحانه وتعالىٰ لهذا النصر: الصبر والتقوىٰ، ولم يُحقِّقوا هذا الشرط علىٰ أكمله يوم أُحُد، حيث خالف الرماةُ أمرَ رسول الله ﷺ، فلم يتحقَّق لهم المشروط.

وقد تضمَّنت الآية: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ ...﴾ شروطاً ثلاثة؛ مردُّها: الحصول علىٰ مَلَكَة الصبر، والسَّداد في تطبيق الفنِّ الحربي الذي عُبِّر عنه بالتقوىٰ، وهجوم العدو عليهم وهم علىٰ أُهْبة هذا الاستعداد والتضحية. والله أعلم.

قال في تفسير «المنار»: إمداد الملائكة للمؤمنين إنما هو بالإلهامات الصَّالحة التي تُثَبِّتهم وتُقَوِّي عزيمتهم[1]. وقال ابن جرير في قوله تعالىٰ: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢]: قَوُّوا عَزْمَهم وصحِّحوا نيَّاتهم[2].

أقول: ولا يزال المشتغلون بالحروب يتحدَّثون عن أحوالهم النفسيَّة أثناء ذلك، وأنهم أحياناً رُغْم شدَّة الموقف وحراجته يشعرون بانشراح صدر وابتهاج، كأنهم في ساعة أُنس أو حفلة عرس، ويشعرون أحياناً مع رفاه الموقف وبساطته، برُعْب شديد وانقباض يضيق علىٰ الروح. ويعبِّر أرباب الفنِّ الحربيِّ عن مثل هذا بالقوة المعنويَّة.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنَّ الإمداد بالملائكة ليس هو ملاك أسباب النصر، وإنما هو من جملة الأسباب المعنوية، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ﴾ ليَسْكُنَ به رَوْعُكم، ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ التي طَرَقَها الخوفُ من كثرة عدوكم واستعداده، ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي لايمتنع عليه شيء في تنظيم الأمور، ﴿ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾ الذي يُدبِّر الأمر علىٰ خير سَنَن.

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٩٢)، وهذا نوعٌ من إمداد الملائكة للمؤمنين، وحَصْرُ الأمر فيه خطأ، فقد ثبت أن الملائكة قاتلت يوم بدر، وفي آية سورة الأنفال: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال: ١٢] دلالةٌ علىٰ ذلك مع ما ورد فيه أيضاً في أخبار السيرة.

(٢) «تفسير الطبري» (٣: ٤٢٨).

ثم ذكر سبحانه الغايةَ من هذا النصر، والحكمةَ من هذا القتال، فقال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: بالقتل والأسر، كما كان في وقعة بدر، وكذلك في وقعة أحد أول الأمر، ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي: بالقهر والهزيمة، كما في وقعة الأحزاب. والكبت: شدَّة الغيظ، أو وهنٌ يقع في القلب؛ يكبتهم ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ منقطعي الآمال.

وقال البيضاوي: ﴿أَوْ﴾ هنا للتنويع[1]. والمعنىٰ: أنه يقطع طائفة، ويكبت طائفة، ويتوب علىٰ طائفة، ويعذِّب طائفة. فيكون قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[2] جملةً معترضةً بين المعطوف عليه والمعطوف، وهو قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، وقد عجَّل بها علىٰ نـهج القرآن في تعجيل المهم، والمعنىٰ: أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذِّبهم في الآخرة والأولىٰ إن أصرُّوا علىٰ الكفر، ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ لأنفسهم بهذا الإصرار.

ويجوز أن يكون: ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ وما بعدها منصوبين بـ«أنْ» مضمرة معطوفين علىٰ الأمر بعد سبكهما بالمصدر. أي: ليس لك من أمرهم شيء أو توبتهم أو تعذيبهم. ويجوز أن يكون المعطوف عليه فعلاً منصوباً مقدَّراً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

---

(١) «تفسير البيضاوي» (٢: ٣٧).

(٢) يجوز أن تكون هذه الجملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، جاءت مُعجَّلاً بها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، ويجوز أن تكون مستأنفة، مهَّدَ بها لبيان حالةٍ لهم أخرىٰ. وعلىٰ كلّ، فالمراد بهذه الجملة بيان سلطان الله المطلق، وحِكَمِه الخفية، ردَّ بها علىٰ حرصه ﷺ علىٰ إيمانهم، وتمنّيه لو لم يكونوا بهذه المثابة، فالآية علىٰ حدِّ أمثالها من الآيات بهذا المعنىٰ. وعلىٰ الاستئناف يكون قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إما معطوفاً علىٰ فعل مُقدَّر منصوب، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وإمّا مسبوكاً بمصدر مع «أنْ» المُضمَرة ومعطوفاً علىٰ الأمر أو الضمير المُؤوَّل، والتقدير: ليس لك من أمرهم أو توبتهم أو تعذيبهم شيء، وإنما الأمر لله، أو: وإنما أمرهم لله. (المؤلف).

وعلىٰ هذين يكون قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ جملةً مستأنفة، للإيذان بأنَّ الأنبياء بُعثوا معلِّمين لا مُسيطرين ولا مُكرهين، فإذا جاهدوا فإنما يجاهدون دفاعاً عن الحقِّ بإذن من الله، لا إكراهاً عليه. والمعنىٰ: إنك عبد مأمور بإنذارهم وبجهادهم لا غير. وهذا بيانٌ لحدود الرسالة ومداها. والله أعلم.

ثم أكَّد سبحانه وتعالىٰ هذه الحقيقة التي بيَّنها في هذا التقسيم، مقدِّماً بيان قدرته وسلطانه علىٰ ذلك، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ومَنْ كان كذلك كان حقيقاً أن يكون له الأمر كلُّه في السماوات والأرض، يتصرَّف فيه حسب حِكَمِه الخفيَّة، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: الذي آثر أسباب المغفرة، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: الذي آثر أسباب التعذيب، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدىٰ.

وقد يظنُّ مَنْ لا خبرة له بتعابير القرآن العظيم ومراميه، أنَّ في مثل هذه الآية سبيلاً للمُروق من التكاليف الدينية؛ لأنَّ أمر المغفرة موكول للمشيئة، والرجاء فيه أقرب، وهذا ضلالٌ عن فهم مقاصد الكتاب العزيز. فإنَّ مشيئة المغفرة والتعذيب جاريةٌ علىٰ سنن حكيمة مُطَّردة قاطعة، فلا يشاء سبحانه إلا تعذيبَ مَنْ يستحقُّ التعذيب والشقاء، ورحمةَ مَنْ يستحق الرحمة والهناء. إذ قد سبقت مشيئته الأزليَّة أن يُعذِّب من أفسد فطرته ودسَّاها، وهو الكافر والعاصي، وأن يرحم من حافظ علىٰ سلامته وزكَّاها، وهو المؤمن الطائع، وأن يكون للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وجاءت بذلك الأنبياء، والكتب المنزلة، فلا شيء بعد الذرَّتين، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]. فالصلةُ بين كلِّ من هذين الأمرين صلةٌ طبيعية وسنةٌ كونية لا تتبدَّل، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]. وإنما تأتي مثل هذه الآية في سياق بيان سلطان الله القاهر، تحذيراً وإنذاراً. والله أعلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

قال الأستاذ الإمام ما مُلخَّصه: ولما كان من مُوادَّة بعض المؤمنين لليهود، واتِّخاذهم بطانةً، أنَّ منهم مَنْ رابىٰ كما يُرابون، وكان البعض الآخر مظنَّة أن يُرابي توسُّلاً لجَلْب المال بسهولة، استطرد إلىٰ ذكر حُكم الرِّبا في هذا السياق، ناهياً للمؤمنين عن عمل آخر من شرِّ أعمال اليهود، ومن يَقْتدي بهم من المشركين، وأشدِّها ضرراً، وهو أكلُ الربا أضعافاً مضاعفة(١).

وذكر الرازي نقلاً عن القفَّال في وجه رَبْط السياق ما معناه: ولما كان ما أنفقه المشركون في هذه الوقائع الحربية من الأموال إنما كان قد جمعوه ووفَّروه من طريقة الربا، وكانت أنظار المؤمنين مظنَّة أن تتأثَّر بذلك، فيحزّ في نفوسهم ويكبتها؛ أزاح عنهم هذا الهاجس(٢). وقد سَبَكَ الآية علىٰ التراحم والتوادِّ والتعاون وتعليم الإنسان أنه ليس كالحيوان الذي لا تعرف الرحمة إلىٰ قلبه سبيلاً، ذاكراً سبحانه النهي عن الربا وأضراره، بعد ذكر هذه الحوادث الحربية(٣)، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ

(١) تفسير «المنار» (٤: ١٠١).

(٢) «تفسير الرازي» (٩: ٣٦٣).

(٣) يبيّن وجه الربط بين آية الربا هاهنا وبين ما قبلها من السياق، ما سبق في سورة البقرة، أن عقَّب مباحث القتال بآيات الإنفاق، ورغَّب فيه كثيراً سداً لنفقات الحروب واحتياجاتها المالية. أما هنا فقد عقَّب مبحث القتال بالنهي عن معاطاة الربا، دفعاً لما يَرِدُ علىٰ الخاطر من أنَّ المشركين إنما قدروا أن يجمعوا هذا الجمع الحاشد في وقعة أحد، لأنَّ المرابين أرباب الأموال الطائلة من قريش شاركوا مشاركة فعَّالة في نفقة هذا الجيش، وبذلك توفقوا. فألمعت الآية إلىٰ ضرر الربا =

﴿ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾[1]، وهذا القيد لا للاحتراز، بل لزيادة التوبيخ والتشنيع، فلا مفهومَ مخالفةٍ له.

وهذا النوع من الربا هو ربا النسيئة، وهو الذي كان شائعاً في الجاهلية. وهو كما قال الإمام أحمد: أن يكون له دَيْن فيقول له: أتقضي أم تُربي؟ فإن لم يَقْضِ زاده في المال فزادهُ في الأجل.

وقال ابن القيِّم: وأما ربا الفَضْل فإنما حُرِّم لسدِّ الذريعة، وما حُرِّم لسدِّ الذريعة يُباح للمصلحة الراجحة ـ هذا ظنه ـ ثم أفاض القول في حِلِّ بيع الحلي المباح بأكثر من وزنه من جنسه، وحقَّق أن للصنعة قيمةً في نفسها، ولا تتم مصلحة الناس إلا به. من «المنار» بتصرف[2].

ثم ختم سبحانه وتعالىٰ هذا النهي، بما يحمل علىٰ الامتثال في الوجه الذي ذكره، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في أهل الحاجة والبؤس فلا تُحمِّلوهم من الدَّيْن هذه الأثقال، التي ربما تخرب بيوتهم، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾ بالتراحم والتعاون المؤدِّيَيْنِ إلىٰ التآلف والتوادّ. وتلك هي السعادة والفلاح فوق ما هنالك من سعادة الآخرة ونعيمها.

= المضاعف بالأحوال الاجتماعية، ولا يسوغ التشريع الصحيح أن يدفع الضرر الاجتماعي بضرر اجتماعي آخر، ولكن ينفق علىٰ الحروب من الضرائب الشرعيَّة والنفقات الخيريَّة في سبيل الله التي رغَّب بها القرآن في غير هذا الموضع. والله أعلم. (المؤلف).

(١) يقرِّر الإسلام أن لا جزاء إلا علىٰ الجهد والعمل، ولا يجوز أن يكون مجرد المال وسيلة لزيادته، ويضع حاجزاً منيعاً في طريق تضخّم الثروات علىٰ حساب حاجة الأفراد للمال، واضطرارهم لاستدانته بالربا. ويمنع أن ينال القاعدون الكسالىٰ جزاء بمجرَّد توظيف أموالهم فيضمنون الربح، وهم قاعدون، وتتضاعف ثرواتهم وتتضخَّم وتخل بالتوازن الاقتصادي والاجتماعي، علىٰ نحو ما هو مشاهد في العالم الرأسمالي المتعفِّن. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٤: ١٠٢).

ولذلك أردفها بقوله: ﴿وَاتَّقُوا﴾ بذلك أيضاً ﴿النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)﴾ فتحرَّزوا عن متابعتهم فيما يتعاطونه من الربا وغيره. ويروىٰ عن أبي حنيفة رحمه الله أنه يقول: هذه أخوفُ آية في القرآن، فقد أوعد الله المؤمنين بالنار المعدَّة للكافرين إن لم يتَّقوه في اجتناب محارمه.

ثم عقَّب الوعيد بالوعد؛ ترهيباً عن المخالفة، وترغيباً في الطاعة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في كلِّ ما أمركم به ﴿وَالرَّسُولَ﴾ الذي يبلِّغكم أوامره ونواهيه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾ في الدنيا بصلاح حال مجتمعكم، وفي الآخرة بحُسن الجزاء علىٰ أعمالكم، فإنَّ الراحمين يرحمهم الرحمن، كما ورد في الحديث[1].

وإيراد (لعلّ) في الموضعين للإشعار بعزَّة منال الفلاح والنجاة.

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)﴾.

ثم أكمل الترغيب بقوله: ﴿وَسَارِعُوا﴾ أي: بتلك الإطاعة وامتثال هذه الأوامر واجتناب هذه النواهي ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، وإنما خصَّ العَرْضَ بالذكر، للمبالغة في تمثيل السَّعَة؛ لأنه إذا كان هذا عرضها فما ظنُّك

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، و«الترمذي» (١٩٢٤)، بلفظ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَن الأرض يرحمكم مَن في السماء»، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

بطولها، أو أنَّ العرض معناه السَّعة مطلقاً. وإنما السماوات والأرض في هذا الفضاء كسفينة في بحر محيط، ولا يعلم سَعَة الفضاء وما يحويه إلا الله. ثم بالغ في الدعوة إلىٰ هذه الجنَّة التي اكتفىٰ بعظم سَعَتها عن عظم شأنها، مُسجِّلاً بقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

ثم فصَّل صفات أولئك المتقين، المؤدِّية إلىٰ دخول هذه الجنة، مُسْتوفياً في ذلك مبادئ الرُّشْد والصلاح، والفوز والفلاح، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: في حال الرَّخاء والسَّعة، وحالة الضيق والعُسْرة. وقد بدأ وَصْفَ المتقين بالإنفاق؛ ليقابله بربا المرابين في الآية السابقة، ويسدَّ به ثغرته، ويقيمه مقامه. فإن الربا استغلال الغنيِّ حاجة الـمُعْوِز، والصدقة إعانة له، فهما ضدَّان، ومن أساليب القرآن أن يُردف الشيء بضدِّه تقريراً له في النفوس، (كما جاء في المادة الرابعة من المقدمة الثانية).

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾(١)، وهو أشدُّ الغضب، ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بالتجافي عن ذنب مَنْ أذنب معهم، وتَرْكِ مُؤاخذته مع القدرة عليه. وفي هذا إيماءٌ إلىٰ حُسن موقع عفوه ﷺ عن الرماة الذين خالفوا أمره في وقعة أُحُد، وعمَّن مثَّل بحمزة رضي الله عنه، ثم أسلم، وإيماءٌ إلىٰ كظم المؤمنين غيظَهم عن الرماة بعد أن سبَّبوا لهم الانحدار وشدَّة الإضرار.

ثم غيَّر الأسلوب في سَرْد صفات المتقين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ للإيماء إلىٰ أنَّ هذه الصفات محبوبة عند الله، وأنها من أجلِّ الإحسان الذي يُحبُّه الله، واتَّصف به هؤلاء المتقون.

---

(١) الغضب من الرذائل الخلقية التي لها أسوأ الأثر في الفرد والمجتمع، فهو يفقد الرُّشد والصواب، ويجعل صاحبه وحشاً ضارياً، لا يدري ما يفعل. والانفعال الذي يثيره الغضب ضارٌّ بصحة الإنسان كما أنه ضار بمصلحته. والحِلْم يُصلح الأمرين معاً. (المؤلف).

ثم أكمل بقية صفات هؤلاء المتقين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ وهي الفعلة الشديدة القبح، ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ وظُلمُ النفس يُطلق علىٰ كلِّ ذنب. وقيل: المراد بالفاحشة: الكبيرة، وبظلم النفس: الصغيرة. فإذا فعلوا ذلك ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بتذكُّر نهيه ووعيده وعظمته وجلاله ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ بأن يلجؤوا إلىٰ الله نادمين متألِّمين طالبين منه تعالىٰ أن يغفر لهم هذه الزلَّة. وفي الكلام إيماءٌ إلىٰ الرماة الذين خالفوا أمر النبيِّ ﷺ في وقعة أُحُد، فدار علىٰ المسلمين ما دار.

ثم علَّق علىٰ ذلك بما يشعر أنهم أصابوا الهدف في هذا الذكر والاستغفار، وسلكوا الطريق المستقيم، فقال: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؟

ثم قرَّر لهم صدق الاستغفار بسَلْبِ ضدِّه، وهو الإصرار، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ أنَّ الله قد نهىٰ عنه وتوعَّد عليه. والآية هادية إلىٰ أنَّ المتَّقين لا يُصرُّون علىٰ ذنب يرتكبونه صغيراً كان أو كبيراً، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ثم أكَّد لهم الوعد بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ هذا الجزاء العظيم.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ
﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ
ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ
ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

ثم رجع إلىٰ تكميل قصة أُحُد، علىٰ نهج القرآن في الفصل بين آيات الموضوع الواحد، بما يقتضيه السياق من الاستطراد والتعليق، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، وسلك في بيان بقية القصة مسلك التشجيع والتأديب، مُسْتَقْصياً سائر مواقف الوقعة، مُبيِّناً لهم أغلاطهم، ومُحلِّلاً مشاكلها بطريق المنطق الوجداني الصحيح، وناقشهم فيما كان لبعضهم من أفكار وأعمال، فقال: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي: إنكم إذا رجعتم إلىٰ آثار الأمم الماضية وتاريخها، تجدون أنَّ عاقبة المكذِّبين الخذلان، وإن كانوا في أثناء الصِّراع قد يُحرزون الغَلَبة، لتمسُّكهم بأسبابها الكونيَّة، وإهمال أهل الحقِّ لتلك الأسباب في الجملة. ويجوز أن يكون المراد التنبيهَ والتَّحسيسَ بسوء عاقبة مَنْ عارض تلك السُّنن ومَنْ أهملها، فكلاهما كانت عاقبته وخيمة، وخصَّ المكذبين بمقتضىٰ السياق.

وفي الآية إرشادٌ بوقائع التاريخ وتشجيعٌ وتأديب. وَوَجْهُ التشجيع بها: هو ما تضمَّنته من الوعد بأن عاقبة هؤلاء المشركين خذلانٌ مبين، كما كانت عاقبة أمثالهم من المكذبين. ومن هذا الوجه تكون هذه الآية كالمقدمة لما يأتي، من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

أما وجه التأديب: فهو الإرشاد الضمنيُّ إلىٰ أنَّ مشيئته تعالىٰ في أمور خلقه إنما تجري علىٰ سُنَن حكيمة، وطرائق قويمة، فَمَن سار علىٰ سنَّته الكونية في الحرب مثلاً ظفر بمشيئة الله، وإن كان ملحداً أو وثنياً. ومن تنكَّبها خسر، وإن كان صدِّيقاً نبيّاً. وعلىٰ هذا يتخرَّج انهزام المسلمين في وقعة أُحُد، فما من قائد يُخالفه جندُه، ويتركون حماية الثغر الذي يؤتَون من قِبَله، ويُخلُّون بين عدوهم وبين ظهورهم، والعدو مُشْرِف عليهم، إلا كان جيشه عُرضةً للانكسار، إذا كَرَّ العدو عليه وقطع له خطَّ الرجعة، وإن كان القائد نبيّاً.

ثم افتتح الموضوع بحلقة وصل، ونوّه بشأن السياق وما فيه من وعظ وإرشاد، بقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾[١] أي: في أن سنن الله حاكمة علىٰ رسله وأنبيائه، كما هي حاكمة علىٰ سائر خلقه. لذلك قال عليٌّ رضي الله عنه لأصحابه: إنَّ هؤلاء قد انتصروا باجتماعهم علىٰ باطلهم، وخُذِلتُم بتفرُّقكم عن حقِّكم[٢]. وفي هذا دَحْضٌ لشبهة المشركين والمنافقين، إذ قالوا: لو كان محمد رسولاً لَـمَا نيل منه.

قال الأستاذ الإمام: وإنَّ إرشاد الله إيَّانا إلىٰ أنَّ له في خلقه سنناً، يوجب علينا أن نجعل هذه السننَ عِلماً من العلوم المدوَّنة، لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة علىٰ أكمل وجه. فيجب علىٰ الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يُبيِّنون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العِلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبيَّنها العلماءُ بالتفصيل عملاً بإرشاده. والعلمُ بسنن الله تعالىٰ من أهمِّ العلوم وأنفعها، والقرآنُ يُحيل عليه في مواضع كثيرة منه، وقد دلَّنا علىٰ مَأْخذه من أحوال الأمم[٣]. فقد قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨] أي: فينالهم قسطهم من تلك السنن.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

---

(١) «هُدىٰ»: مرفوع بضمة مقدرة علىٰ الألف المحذوفة لفظاً لالتقائها مع التنوين. (المؤلف).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٨٤٠٩).

(٣) تفسير «المنار» (٤: ١١٤ – ١١٥).

ثم فرَّعَ علىٰ وجه التشجيع والتثبيت المومأ إليه في الآيات السابقة قولَه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ أي: بصدق وعد الله بنصر مَنْ ينصره، وجعل العاقبة للمتَّقين المتَّبعين لسنَّته في نظام الاجتماع، وإن عَرَض لهم بعض الفشل عندما يقع منهم تنكُّبٌ عن بعض تلك السنن خطأ، يثوبون لرُشدهم، ولا يعودون لمثل ذلك.

ثم زاد في التهوين عليهم وتسليتهم عن اندحارهم، فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: إن يكن السلاح قد عمل فيكم عَمَلَه يوم أحد، فقد أصاب المشركين أيضاً مِثلَ ما أصابكم في ذلك اليوم فضلاً عن يوم بدر، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ حسب طبائع الحرب وسُننها والتمسُّك أو الإهمال لقواعدها وأصولها، ليقومَ بذلك العدل ويستقرَّ النظام، ويعلم الناظر في السنن العامة أنه لا محاباةَ في هذه المداولة، بل من تمسَّك بتلك السنن نال نتائجها الحسنة، ومن انحرف عنها أصابه سوءُ هذا الانحراف. وما ذلك إلا ليتمَّ العدل والنظام، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وقد تقدَّم بيان مثل هذه العبارة في سورة البقرة، فارجع إليه. والمعنىٰ: ليظهر علمُه في ذلك، ويتبيَّن لكم مؤمنكم من غيره، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ وفيه وجهان:

أحدهما: أنه من الشهادة في القتال، ويكون في صورة التعبير تنويهٌ عظيم بشأن الشهداء في سبيل الله.

والثاني: من الشهادة علىٰ الناس.

والأول هو الذي يسبق إلىٰ الذِّهن في هذا المقام، فيكون هو الظاهر. وإنما سُمِّي هؤلاء المقتولون شهداء؛ لأنهم يشاهدون بعد الموت من الملكوت ونعيمِه ما لا يكون لغيرهم.

وعندما بيَّن منزلة المؤمنين، قرنها بمصير الكافرين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ يكنّي بذلك عمَّا لهم من العذاب المهين في مقابلة نعيم المؤمنين. وللإشعار بهذه المقابلة عبَّر عن مصيرهم هذا بعدم المحبة، إيماءً لمحبة الله تعالىٰ للمؤمنين.

ثم عطف علىٰ كلمة ﴿يَتَّخِذَ﴾ وما قبلها قولَه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾، وتمحيصُ الذَّهَب: إظهارُ زَيْفِه من نَضَاره، وكذلك كان الأمر في أُحد، تميَّز المؤمنون الصادقون من المنافقين، وتطهَّرت نفوس بعض ضعفاء المؤمنين من كدورتها، فصارت تِبْراً خالصاً، وعلموا أنَّ سُنن الله في خلقه لا تتبدَّل لمسلم ولا لغيره، وعلىٰ المسلم أن يكون أكثر تمسُّكاً بها، ثم يتوكَّل علىٰ الله، وعلموا أنَّ الأخطاء والأضرار التي تقع في العالم الإنساني، إنما هي بالميْل عن قانون الفطرة، والانحراف عن سُنن الله في خلقه وتكوينه، ولا يستثنىٰ من ذلك نبي ولا رسول، إذ ليس لسنن الله تبديل ولا تحويل.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا
رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ
عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ
نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

وبعد أن بيَّن لهم حكمة ما أصابهم، وأنه منطبق علىٰ سننه، وفي ذلك من الهداية والإرشاد والتَّسلية ما يُربِّي المؤمن علىٰ الصفات التي ينال بها الغَلَبَ والسيادة بالحق، ووعظهم بأنه ينبغي لهم أن لا يضعفوا ولا يحزنوا إذا انغلبوا أحياناً، أو اشتدَّت عليهم الدائرة، وبعد ذلك كلِّه بيَّن لهم أن سعادة الآخرة لا تُنال أيضاً إلا بالجهاد والصبر،

فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾، والجهاد هنا بمعناه اللغوي، وهو الدفاع عن الدِّين وأهلِه، وإعلاء كلمته بسائر أنواع الدفاع الذي منها الحرب لتسهيل نشر الدعوة، ومنها: ما ابتلي به المؤمن من مدافعة الباطل ونصرة الحق، ومنها: بثُّ الفكرة الصالحة في الناس ودعوتهم إلىٰ الخير ومقاومة المقاومين في ذلك. ﴿وَلَمَّا﴾ بمعنىٰ: لم، إلا أن فيه ضرباً من التوقع. ونفيُ العلم هنا بمعنىٰ نفي وقوع المعلوم، أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم ذلك.

ومحصَّل الآية: إنه تعالىٰ يقول للمؤمنين: أجَرَيتُم علىٰ تلك السنن؟ أتدبَّرتم تلك الحِكَم؟ أم حَسِبتُم كما يحسب أهل الغرور أن تدخلوا الجنَّة من دون أن تقوموا بالجهاد في سبيل الجهاد حقَّ القيام، ومن دون أن تتمكَّن صفة الصبر في نفوسكم تمام التمكُّن، والجنة إنما تُنال بهما، ولا سبيل إلىٰ دخولها بدونهما، فقد قال أبو مسلم في ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾: إنه نهي وقع بحرف الاستفهام الذي يأتي للتبكيت. ومن عادة العرب أن تأتي بهذا الجنس من الاستفهام للتبكيت.

أقول: والآية تتضمَّن عتاباً لضعفاء الإيمان، ممتزجاً بالتشجيع والوعد الكريم بالجزاء في جنَّات النعيم.

ثم عاتب رجالاً غابوا عن بدر، فتمنَّوا يوماً مثله يلقون فيه العدو، فيفعلون أعظم مما فعل أهل بدر، فلمَّا كان يوم أُحُد ولَّىٰ منهم مَنْ ولَّىٰ، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾، ومعنىٰ تمنِّي الموت: تمنِّي الشهادة في سبيل الله، ومَنْ تمنَّىٰ شيئاً لا ينبغي أن يُحزنه لقاؤه، ومَنْ وَصَل فيما يعتقده إلىٰ حد اليقين لا يرىٰ في سبيله مشقَّة، مهما بلغ به الجهد في الحصول عليه. وإنما جعل الخطاب عاماً مع أن بعضهم ثبت في وقعة أحد ثَبَاتَ الجبال؛ ليكون الكلام تربيةً عامة.

فهذه الآية تُنبِّه كلَّ مؤمن إلىٰ اتِّقاء الغرور بحديث النفس والتمنِّي والتَّشهِّي، حتىٰ إذا جاء دَوْرُ الفعل، زال ذلك الشعور، وتَهْديه إلىٰ امتحان النفس بالعمل الشاق، حتىٰ يأمن الدعوة الخادعة. وعلىٰ هذه الطريقة لام المسلمين عموماً علىٰ ما وقع من بعضهم، إذ بلغهم إشاعة قتل النبي ﷺ في أحد، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ بالموت أو القتل، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ حتىٰ قال بعض ضعفاء المسلمين: لَيْت عبد الله بن أُبي يأخذ لنا من أبي سفيان أماناً. وقال قوم من المنافقين: لو كان نبياً لما قُتِل[(١)]. وهكذا انقلب ضعفاء الإيمان علىٰ أعقابهم، ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾، وقد وَعَدَ بأن ينصر نبيَّه ويعزَّ دينه، ولا يحولَ دون إنجاز وعده ارتدادُ بعض الضعفاء والمنافقين علىٰ أعقابهم، ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ له نعمةَ الإسلام بثباتهم وصدقهم، حيث لم تُزلزلهم تلك الإشاعات، حتىٰ قال أنس بن النضر رضي الله عنه: يا قوم، إن كان محمد قُتل فإن ربَّ محمد لم يُقْتل، فقاتلوا علىٰ ما قُتل عليه، اللهمَّ إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثمَّ شدَّ بسيفه ولا زال يقاتل حتىٰ قُتل، بعد أن فتك بهم[(٢)].

وقد كان لهذه الآيات وما بعدها أجمَلُ العواقب في تهذيب نفوسهم فيما بعد، فكانت عزائمهم ماضية، وهممهم عالية، فلم يهنوا ولم يضعفوا ولم يستكينوا فيما حاولوه من جسيم الأمور، ولم يتزلزلوا في الحروب وغيرها عند فَقْدِ الرؤساء.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ كلمة ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ من قبيل المثل، تضرب لمن رجع عن الشيء بعد الإقبال عليه. والآية تهديهم وإيَّانا إلىٰ أنَّ الرسول ليس مقصوداً

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (١: ٤٤٩).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣)، عن أنس بن مالك.

لذاته فيبقىٰ للناس، وإنما المقصود من إرساله ما أُرسِلَ به من الهداية، فيجب العمل بها من بعده كما وجب في عهده. وتُرشدنا وإيَّاهم إلىٰ أن لا نجعل المصائب الشخصية دليلاً علىٰ كون مَنْ تُصيبُه علىٰ باطل أو حق. فإنَّ من الجائز عقلاً والواقع فعلاً أن يُبتلىٰ صاحب الحق بالمصائب والرزايا، وأن يُبتلىٰ صاحب الباطل بالنعم والعطايا، كما أنَّ عكس ذلك جائز وواقع[١].

قال في «المنار»: أقول: وفي الآية من الهداية والإرشاد أيضاً أنه لا ينبغي أن يكون استمرار الحرب وعدمُه متعلِّقاً بوجود القائد، بحيث إذا قُتل ينهزم الجيش أو يستسلم للأعداء، بل يجب أن تكون الأعمالُ والمصالحُ العامة جاريةً علىٰ نظام ثابت لا يزلزله فَقْدُ الرؤساء. وهذا ما عليه نظام الحروب والحكومات في هذا العصر. وقد كان أكثر الناس في العصور القديمة تبعاً لرؤسائهم، يحيَون لحياتهم ويُخْذَلون بموتهم، حتىٰ إنهم يَرَوْنَ أنَّ وجود الجيش العظيم بعد فَقْدِ القائد كالعدم.

إنَّ الأمة التي تَقدُر هذه الهداية قَدْرَها، تُعِدُّ لكل عِلْم تحتاج إليه ولكلِّ عمل تقوم مصالحها به رجالاً كثيرين، فلا تفقد معلماً ولا مرشداً ولا حاكماً ولا قائداً ولا رئيساً ولا زعيماً، إلا ويوجد فيها مَنْ يقوم مقامه، ويؤدِّي لها من الخدمة ما كان يؤديه سَلَفُه، فهي لا تحصر الاستعداد لشيءٍ من الأشياء في فردٍ من الأفراد، ولا تقصر القيام بأمر من الأمور علىٰ نابغ واحد من النابغين، ولا يتجرأ فيها حاكم ولا زعيم علىٰ احتكار علم من العلوم، أو عمل من الأعمال، بل تتسابق فيها الهِمَمُ إلىٰ الاستعداد لكلِّ شيء يمكن أن يصل إليه كسبُ البشر، وينال منه العامل بقدر همَّته وسعيه وتأييد التوفيق له. فأين نحن معاشر المسلمين من هذه الهداية اليوم؟[٢]

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ١٣٣).

(٢) المصدر السابق (٤: ١٣٥-١٣٦).

ثم قال: وقد قال ابن القيم: إنَّ هذه الآية كانت مقدِّمةً وإرهاصاً، بين يدي وفاة رسول الله ﷺ(١).

أقول: ولا ينافي هذا طول المدَّة فيما بينها وبين الوفاة؛ لأنَّ توطين نفس الأمم علىٰ الشيء وإعدادَها له لا يكون إلا بزمن طويل، حتىٰ يستقرَّ في الأذهان، وتنطبعَ عليه النفوس.

قال الأستاذ الإمام: ثم وبَّخ من اندهش من خبر موته ﷺ، كأنهم بسبب زلزالهم وزعزعة عقائدهم قد جعلوا موته جناية منه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي: مؤقَّتاً بوقت معلوم. ولفظ (كتاب) مصدر نائب عن فعله. قال: وفي الآية معنىً آخر، وهو أنه ما دام محيانا ومماتنا بيد الله، فلا محلَّ للجُبْن والخوف، ولا عذر في الوهن والضعف(٢).

وقال أبو السعود: ساق الكلام مساق التمثيل، بتصوير الموت بالنسبة إلىٰ النفوس بصورة الأفعال الاختيارية التي لا يتسنَّىٰ للفاعل إيقاعها والإقدام عليها بدون إذنه تعالىٰ، مبالغةً في تحقيق الموت، وأنه لا بدَّ واقع. وفيه من التَّحريض علىٰ القتال ما لا يخفىٰ(٣).

قال الأستاذ الإمام(٤): ثم ردَّ استدلالَ مَن استدلَّ بما حلَّ بالمسلمين علىٰ أنَّ ما هم عليه غيرُ الحقِّ، مُبيِّناً هذه الحقيقة الثابتة التي لا تَتَبدَّل، فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ

---

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣: ٢٠١).

(٢) تفسير «المنار» (٤: ١٣٦).

(٣) «تفسير أبي السعود» (٢: ٩٤).

(٤) تفسير «المنار» (٤: ١٣٨).

ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾[١]. وقد اكتفىٰ بفعل الإرادة عن تعاطي الأسباب، علىٰ نهج القرآن في إيجازه.

ومعنىٰ الآية ـ علىٰ ما قاله الأستاذ الإمام ـ: أنَّ لنَيْل ثواب الدنيا سُنناً، ولنَيْل ثواب الآخرة سُنناً، فمن سار علىٰ سنن واحدة منها وَصَل إليها. فإذا كان المشركون قد استظهروا علىٰ المسلمين هذه المرَّة، فلأنهم طلبوا بعملهم الدنيا وأخذوا له أُهبته، وقصَّر المسلمون في اتِّباع السنن في ذلك.

ولما كان في صورة العبارة تأنيبٌ للمسلمين، سيما من شغلتهم الغنائم وتركوا الثغر، خصَّ المخلصين الذين أبْلَوْا بلاءً حسناً بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾[٢] نعمةَ الله عليهم بصَرْفِ ما أعطاهم الله من القوىٰ والقدَر فيما خُلقت

---

(١) في الآية إلماع إلىٰ أمرين: الأول: أنَّ لسعادتي الدنيا والآخرة أسباباً. والثاني: أن الحرب الحقّة من جملة تلك الأسباب. أما كونها سبباً لسعادة الدنيا، فلأنها تفضي إلىٰ التغلّب علىٰ المبطلين، ونشر الحق والصلاح والطمأنينة في العالمين. وأما كونها سبباً لسعادة الآخرة، فلأنَّ الله سبحانه وَعَدَ المحاربين بما تضمَّنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

ومعنىٰ الآية: ومن يرد ثواب الدنيا وسعىٰ له سعيه نؤْته منه، ومن يُرد ثواب الآخرة وسعىٰ له سعيه نؤته منه، فتكون الآية تقريراً للمعنىٰ السابق وتعليلاً للواقع. (المؤلف).

(٢) يجوز أن يكون المراد بالشاكرين: المتمسكين بالسنن المؤدية إلىٰ ثواب الدنيا والآخرة. والمراد من الجزاء: نيلهم لذلك الثواب المترتب علىٰ تلك الأسباب. والله أعلم. والشكر: هو العمل الصالح، قال تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، ويمكننا أن نقول: هو تطبيق ما جاء في ثنايا هذا القرآن من أوامر ونواهٍ في السلوك والأخلاق والعبادات، فكلها منطبقة علىٰ السنن الكونية إيجاباً وسلباً، والإيجاب يؤدي إلىٰ الحسنات والسلب يؤدي إلىٰ السيئات، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. والله أعلم. (المؤلف).

لأجله من طاعة الله، كأنس بن النضر وأمثاله الذين صبروا في هذه الواقعة، وثبتوا مع النبيِّ ﷺ، بحفظهم قوة إرادتهم، فكانوا السبب في انجلاء المشركين عن المسلمين.

قال صاحب «صفوة العرفان» مستمداً من مثل هذه الآية: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، قال ما محصَّله: إنَّ من أحكام الله العامة العدلَ الدقيق الشامل لجميع عباده، لا فرق بين مسلم وكافر، فمن عمل صالحة للدنيا، وكان مصيباً فيها، علىٰ الوجه الذي كوّنه ووصفه سبحانه وتعالىٰ في دساتيرها، وجدها فيها. ومن عمل صالحة للأخرىٰ، وكان مُصيباً فيها علىٰ الوجه الذي بيَّنه الله سبحانه في نظامها وأحكامها، انتهىٰ إليها، وتمتَّع بثوابها، وناله الخير. ومن تنكَّب عن ذلك أو أعرض أو أهمل، حُرِمَ منها وناله الشر، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]، ولذلك ترىٰ من الناس من يكفر بالله، وهو متمتِّع بخير الدنيا مغمور في نعيمها، وترىٰ من هو مؤمن إيماناً قوياً، ولا يكاد يجد قُوت يومه. كلُّ ذلك أثرٌ من آثار العدل الإلهي، ومن تنظيم أوضاع الدارين تنظيماً طبيعياً ثابتاً عادلاً، فإن الأول وإن كفر في عقيدته فقد أحسن في إدارة أعماله، وإتقان أسلوبها، ووزنها بالقسطاس المستقيم، فأثابه الله تعالىٰ في الدنيا علىٰ قَدْر اجتهاده وتطبيق سننه فيها. وأما الثاني فإنه وإن آمن بالله حتىٰ وصل إلىٰ مرتبة الصدِّيقين، فقد أهمل إتقان أعماله الدنيوية ووزنها بالقسطاس المستقيم، فلا يَجْني من وراء ذلك إلا العدم الفاقة، وقد قال تعالىٰ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

هذا العدل الإلهي سَارٍ بين الأمم في مجموعها، كما هو سارٍ بين الأشخاص علىٰ انفرادها، فإنَّ الأمة الكافرة إن جدَّت واجتهدت، ونهجت نهج النظام الصحيح في

أمورها الدنيوية ووزنتها بالقسطاس المستقيم، وَصَلت من الرِّفعة والسؤدد إلىٰ أعلىٰ مقام، بنسبة إتقانها للنظام الصحيح في سنن الطبيعة من هذا الكون، ولا يمنعها الله بسبب كفرها أن تسود علىٰ أمة مؤمنة إذا كانت لا تساويها في النظام والعمل بالدساتير الكونيَّة؛ لأنَّ الله سبحانه مُنزَّه عن المحاباة، قال تعالىٰ للمؤمنين: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

وبعد أن نبَّه سبحانه وتعالىٰ في الآيات السابقة ضعفاءَ المسلمين إلىٰ مواضع أخطائهم في هذه الوقعة حتىٰ أصابهم ما أصابهم؛ أتبعه بالبيان الآتي، تقريراً لذلك التنبيه، وزيادة في التثبيت والتأديب والإرشاد، فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾، (كأين) بمعنىٰ: كم الخبرية، ومعناها: أنَّ ما دخلتْ عليه كثير، والرِّبيُّون: هم الربانيون، أي: المؤمنون، ومعنىٰ الكلام: إن كثيراً من الأنبياء قاتـل معهم كثير من المؤمنين، ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ﴾ قال قتادة: فمـا وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما عجزوا وما تَضَعْضَعُوا لِقَتْلِ نبيهم. وقال ابن إسحاق: فما وَهَنوا لقتل النبيِّ وما ضَعُفوا عن عدِّوهم، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم، وذلك هو الصبر، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ علىٰ مقاساة الشدائد.

ثم ذكر لـهم مظهراً من مظاهر ذلك الصبر المقرون بالضراعة إلىٰ الله تعالىٰ، وإخلاص النية في طلب التثبيت والنصر منه تعالىٰ، فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾، فهذا القول يُنبئُ عن قوة إيمانهم، وصدق إرادتهم، ومَضَاء عزيمتهم.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بالنصر والظَّفَر والسيادة في الأرض، وما يتبع ذلك من العِزّة والكرامة وحسن الأُحدوثة وشرف الذِّكر، ﴿وَ﴾ آتاهم كذلك ﴿حُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بنَـيْل رضوان الله وقُربه، والنعيم في دار كرامته، بما «لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر» كما ورد في الخبر[1]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ لأنهم يقيمون سنته، ويظهرون بأعمالهم حكمته. وحبُّ الله: كناية عن مضاعفة الإحسان إليهم.

وقد اتَّفق المفسرون في أن الآيات تأديبٌ للمؤمنين، وتوبيخ لمن فرَّط منهم ما فرط، لذلك تابع السياق، بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾.

قال الأستاذ الإمام ما حاصله: الخطاب لـمن سمع قول أولئـك القائلين من المنافقين: ارجعوا إلىٰ إخوانكم ودينكم[2]. وذلك عندما غُلِبَ المسلمون، وأُشيعَ أنَّ محمَّداً قُتل. وقول بعض ضعفاء الإيمان: ليت ابن أُبيّ يطلب لنا الأمان من أبي سفيان.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: أعددتُ لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خطر علىٰ قلب بشر....».

(٢) تفسير «المنار» (٤: ١٤٤).

والمعنىٰ: إن طلبتم الأمان من المشركين وكان حالكم معهم حالَ المغلوب مع الغالب، يَتَولَّوا عليكم وتكونوا معهم أذِلَّاء مقهورين حتىٰ يردُّوكم عن دينكم، ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ للدنيا والآخرة. فلا ينبغي لكم أن تفكروا في ولاية أبي سفيان وحزبه، ولا عبد الله بن أُبيّ وشيعته، إذا أصابكم مثل هذا الابتلاء، ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ بالتوفيق لأسباب النصر، فاطلبوا المعونة منه، بعد المحافظة علىٰ الأسباب.

ثم طمأنهم بأنَّ عاقبة النصر لهم، وسَبَكَ ذلك علىٰ بيان أنَّ هؤلاء المشركين ـ وإن غلبوكم لإخلالكم بسببٍ من أسباب النصر ـ فهم مغلوبون لا مَحَالة، لشركهم الذي أفسد قلوبهم وطبيعتهم، وجعلها عُرضة لوقوع الرُّعب، فقال: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾[1]، وهذا القيد لمزيد التبكيت والمبالغة في التجهيل. ومن لم يطمئن في دينه يكن مضطرب القلب، عُرضةً للتأثُّر بخطرات الوهم وكثرة الوساوس المؤدِّية إلىٰ الفشل والاندحار، بخلاف الإيمان الحقيقي الصادق.

---

(١) هذه سُنَّة الله في خلقه؛ كلُّ معاند للحق يتظاهر بالقوة والجلد وهو ممتلئ القلب خوفاً ورعباً. وكانت رهبة الكافرين من المؤمنين عظيمة جداً، إذ يرون أنفسهم أمام قوم يتسمون للموت، ويقبلون عليه بعزيمة صادقة، إقبالهم علىٰ ما يرغبون. وقد ظلَّ أمر المؤمنين علىٰ ذلك فكانت تفرُّ أمامهم الجيوشُ الجرَّارة، وتخرُّ من رعبهم عروشُ الجبابرة، حتىٰ غيَّروا ما بأنفسهم، فغيَّرهم الله وهانوا، إلىٰ أن أصبحوا غثاء كغثاء السيل، يتداعىٰ عليهم المستعمرون تَدَاعي الأكَلَة علىٰ قصعتها، كما جاء في الحديث. ولا يزالون كذلك حتىٰ يُغيِّروا ما بأنفسهم ويعودوا إلىٰ ما كانوا عليه في صدر الإسلام. (المؤلف).

والحديث الذي يشير إليه المؤلف رواه أحمد (٢٢٣٩٧)، وأبو داود (٤٢٩٧) عن ثوبان رضي الله عنه.

وبعد أن ذكر جزاءهم في الدنيا بالفشل ذكر جزاءهم في الآخرة، فقال: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ ومستقرُّهم هذه النار التي استحقُّوها بظلمهم وكفرهم بآيات الله ومُعَانَدة الحق ومقاومة أهله.

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

ثم ذكَّرهم سبحانه وتعالىٰ أن النصر كان قد جاءهم في مبدأ هذه الوقعة، كما وعدهم الله، ولكنه فارقهم لما فرَّطوا بسبب من أسبابه، فقال: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ وهو: نصرُ المؤمنين حتىٰ في هذه الوقعة، ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم ﴾ أي: تقتلون المشركين قتلاً ذريعاً، مِن: أحسَّه، إذا أبطل حسَّه، وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ ﴾ أي: بتأييده تعالىٰ، وكان ذلك في أول الوقعة قبل الفشل.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾ أي: ضعفتم في الرأي والعمل، فلم تقووا علىٰ حبس أنفسكم عن الغنيمة، ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ فقال بعضكم: ما بقاؤنا هنا وقد انهزم المشركون؟ وقال الآخرون: لا نخالف الرسول. وهكذا تنازعتم ﴿وَعَصَيۡتُم﴾ رسولَكم وقائدَكم، بترك أكثر الرماة للمكان الذي أقامهم فيه يحمون ظهورهم بنَضْح المشركين بالنَّبل. وكان ذلك الفشل ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ من النصر والظفر، فكان ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ كالذين تركوا مكانهم وذهبوا وراء الغنيمة، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ كالذين ثبتوا من الرماة مع أميرهم عبد الله ابن جُبير، وهم نحو عشرة، والذين ثبتوا مع النبي ﷺ، وهم ثلاثون رجلاً.

أي: صدقكم وَعْدَه ونصركم علىٰ قلَّتكم وكثرة المشركين، واستمرَّ هذا النصر إلىٰ أن فشلتم وتنازعتم، وعَصَيْتم وانحرفتم عن سنن الله في أصول الحرب، ففقدتم شرط النصر، وهو تقوىٰ الله؛ لعصيانكم لرسوله الذي أمركم أن لا تنفكُّوا من هذا الثغر في الجبل، فعندئذ لم تبقوا مستحقِّين لهذه العناية، لمخالفتكم لسُننه في استحقاق النصر الذي وعد به أهل الثبات والصبر، فقد نصركم قبل تفريطكم بأسباب النصر.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ بعد التفريط؛ ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ أي: صَرَفكم عنهم بفشلكم ليمتحنكم، ويَمِيْز الصادق من غيره، والضعيف الإيمان والقوي الإيمان، ليعدّكم للنصر الكامل، والظفر الشامل في المستقبل.

﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ بعد ذلك التمحيص الذي مَحَا أثر الذنب من نفوسكم، حتىٰ ظهر أثرُ هذا العفو في وقعة حمراء الأسد، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾ فلا يَذَرُهم علىٰ ما هم عليه من ضعف يُلِمُّ ببعضهم، أو تقصير يهبط بنفوس غير الراسخين منهم، حتىٰ يَبْتَلِيَ ما في قلوبهم، ويُمَحِّص ما في صدورهم، فيكونون من المُخْلِصين.

ولقد كانت غزوةُ أُحُد درساً نافعاً للمسلمين في حروبهم، وبهذا الاعتبار كانت نصراً في معناها، وإن كانت هزيمةً في صورتها واندحاراً.

ثم فصَّل صورةَ صَرْفِهم وانصرافهم، فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ من ساحة الحرب، أي: تذهبون منهزمين، ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: لا تلتفتون إلىٰ مَنْ وراءكم بنجْدة، لشدَّة دهشتكم، ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾: إليَّ عبادَ الله، إليَّ عبادَ الله، أنا رسولُ الله، من يكرُّ فله الجنة.

وبعد أن بيَّن حالتهم الفعليَّة، بيَّن حالتهم النفسيَّة، وقال: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ أي: فَجَازاكم الله غماً، بسبب الغمِّ الذي أصاب الرسول من فشلكم وهزيمتكم. أو غماً مُتَّصلاً بغمّ، حيث نال العدوُّ منكم ونلتم من أنفسكم، إذ صِرتُم من الدهشة يَضْرِبُ بعضُكم بعضاً، وفاتتكم الغنيمة التي طمعتم فيها. وعلىٰ الأول تكون الباء للبدل، وعلىٰ الثاني للإلصاق.

وإنما أدَّبكم الله بهذا التأديب، تدريباً لكم، ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من غنيمة ﴿وَلَا﴾ علىٰ ﴿مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ من قروح أو مصيبة، أي: ليكون ذلك خُلقاً لكم، فإنَّ التربية إنما تكون بالعمل والتمرين الذي به يكمل الإيمان وترسخ الأخلاق. وهذا محصول آخرُ من محصولات الواقعة، وهو الهداية إلىٰ أنَّ الحياة الدنيا تكون سِجَالاً؛ يوماً لك ويوماً عليك، فعلىٰ الإنسان أن يُوَطِّد نفسه لذلك، ولا يظن أنَّ الخير لا شرَّ بعده، أو الشرَّ لا خيرَ بعده.

ومُلخّص المعنىٰ: لكي تتمرَّنوا علىٰ تجرُّع الغموم، وتَتَعوَّدوا علىٰ احتمال الشدائد. واستفاد المسلمون من هذه الغزوة أخلاقاً عاليةً، فأصبحوا أكثر طاعة للرسول الكريم، وأشدَّ تماسكاً اجتماعياً، فحققوا الانتصارات المتتالية، فطهَّروا الجزيرة من الرجس والأوثان.

وقال في «الكشاف»: ويجوز أن يكون الضمير في ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ للرسول، أي: آساكم في الاغتمام، فكما غمَّكم ما نزل به من كسر الرَّباعية والشجَّة وغيرهما، غمَّه ما نزل بكم. يعني: فأثابكم غمّاً اغتمَّه لأجلكم، بسبب غمٍّ اغتَمَمتُموه لأجله، ولم يُثرِّبكم علىٰ عصيانكم ومخالفتكم لأمره. وإنما فعل ذلك لِيُسَلِّيكم وينفِّس عنكم، لئلا تحزنوا علىٰ ما فاتكم من نصر الله، ولا علىٰ ما أصابكم من غَلَبة العدو[١].

ثم ذيَّل الكلام بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ أي: فلا تعتذروا عن أنفسكم ولا تخادعوها، فإنَّ الخبيرَ بأعمالكم المحيطَ بنفوسكم، لا يخفىٰ عليه من أمركم خافية، وإنما المعمول علىٰ علمه وخبرته، لا علىٰ أعذاركم.

وتلخيص الحادث: هو أنه لما دارت معركةُ أحد كان النصرُ في بدئها للمسلمين، وكادوا يكسبون المعركة، وقد كان فريقٌ من المسلمين قد أُمروا أن يكونوا في موقف دفاعيٍّ خاصٍّ، فلما رأوا النصر كاد يتم للمسلمين، اقترح بعضُهم تَرْكَ المكان واللحاق بالجيش لمشاركتهم بالغنائم خشية أن تُؤْخَذَ من دونهم، وخالف في ذلك البعض الآخر مفضِّلين التزام ما أمرهم به النبي ﷺ، من الوقوف في ذلك الموقف، ففارق المقترحون المكان، فجاءت فرقةٌ من العدو واحتَـلَّت ذلك المكان، ثم قطعت خطَّ الرجعة علىٰ جيش المسلمين، فاخْتلَّ التدبير الحربي، ولم يلبث الموقف أن تغيَّر، وانقلبت الحرب علىٰ المسلمين، ودبَّ الذُّعر فيهم، وانهزموا صاعدين من المعركة مغمومين، ولكنَّ النبيَّ ﷺ ظلَّ ثابتاً في الميدان يدعُو الناس إليه، وقد استجاب له فريق من المُخْلصين وأمكن بذلك تلافي الموقف في الجملة.

وقد تابع البيان عن تفاصيل الوقعة، فقال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً

---

(١) «الكشاف» (١: ٤٢٧ - ٤٢٨).

نُّعَاسًا ﴾[١]، أي: اطمئناناً في القلوب أعقبه نوم، ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ وهم أقوياء الإيمان بالله وبالنصر.

وقد اتَّفق المفسرون وأهل السيرة علىٰ أنَّ المؤمنين قد أصابهم يومَ أُحُد شيءٌ من الضعف والوهن، لما أصابهم من الفشل والعصيان، وقَتْل طائفة من كبارهم وشجعانهم، فكانوا بعد انتهاء الوقعة قسمين:

قسم منهم ذكروا ما أصابهم فعرفوا أنه كان بتقصير من بعضهم، وذكروا الله ووَعْدَه بنصر المؤمنين، فاستغفروا لذنوبهم، ووَثِقوا بوعد ربِّهم، وعلموا أنهم إن كان غُلبوا في هذه المرَّة، فإنَّ الله سينصرهم في غيرها، حيث إنَّهم لا يعودون إلىٰ مثل ما وقع منهم فيها من عصيان قائدهم ورسولهم، فأنزل الله عليهم النُّعاس أمنةً، فاستردُّوا ما فقدوا من القوة. هذا هو القسم الأعظم.

وأمَّا القسمُ الثاني، وهم طائفة ضعفاء الإيمان، يخالطهم المنافقون؛ فكانت تتقاذفهم الأفكار، وعجبوا مما وقع، كأنه مُنافٍ لحقيَّة الدِّين وصحَّته، لاعتقادهم أنَّ النصر وحقيَّة الدِّين متلازمان، وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، فنُلام إنْ وَلّينا أو غُلبنا، إذ كان الله لا يريد أن ينصر محمداً. ولم ينتبهوا إلىٰ أنَّ الخير من الله والشر من الإنسان[٢]، كما جاء في القرآن. فأمر سبحانه نبيَّه ﷺ أن يردَّ عليهم بما يُرشدهم إلىٰ أنَّ الأمور كلَّها ترجع إلىٰ الله فيما وضع لها من أنظمة وأسباب، فمن تعاطىٰ الأسباب

(١) يجوز أن يكون ﴿أَمَنَةً ﴾ مصدراً مفعولاً به، و﴿نُّعَاسًا ﴾ بدلاً منه، أو أحدُهما مفعولاً والآخر حالاً منه، أو حالاً من المخاطبين مؤولاً بالمشتق. ويجوز أن يكون ﴿أَمَنَةً ﴾ جمعاً كـ«بَرَرة»، فلا يحتاج إلىٰ التأويل. (المؤلف).

(٢) أي: منه كَسْباً وسبباً، وإن كان من الله تقديراً وإرادةً وخَلْقاً.

علىٰ الوجه الصحيح في الأمر الذي يريده ناله، وإلا فهو خائب لا محالة، وإن كان النبيَّ وأصحابَه، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ لا أمر النصر وحده، أي: إنَّ كل ما يجري فهو بحسب سُننه تعالىٰ في خَلقه ونظامه الذي ربط فيه الأسباب بالمسبَّبات، ومنه نصر مَنْ ينصره من المؤمنين، إلا أن سوءُ التصرُّف بتلك الأسباب، هو الذي يؤدِّي إلىٰ الضرر والفشل والخذلان.

ثم أتىٰ بهذه الجملة الحالية المبيِّنة لأمرهم، والمؤكِّدة لمضمون ما قبلها، والمتمِّمة له مع التفصيل والتَّحرير، فقال: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي: إن هذه خواطرُ وهواجسُ شَغَلَتْ نفوسَهم، ولكن لا يُظْهرونها لك.

ثم أعاد البيان عن تلك الخواطر مرة أخرىٰ بصُورةٍ أوضح، وأجابهم عنها فقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي: لو كان أمرُ النصر والظفر في أيدينا ـ كما يَعِدُنا به محمد ـ لما وَقَع فينا القتل، أو لو أنه سمع مشُورتنا بعدم الخروج لما كان ما كان، وذلك لأنَّ المنافقين وضعاف الإيمان كانوا قد أشاروا عليه بأن يُحاصروا في المدينة، ولا يخرجوا لمقابلة جيش المشركين في أحد، فأخذوا يُقرِّرُون رأيهم ويستدلون عليه بما وقع لهم، غافلين عن تحديد الآجال. فأمر سبحانه نبيَّه ﷺ أن يُنبِّههم إلىٰ ما غفلوا عنه، ويُرشدهم إليه، فقال: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: لو كنتم وادعينَ في بيوتكم في سلْمٍ وأمان، لَـخَرَجَ من بينكم مَن انتهت آجالهم إلىٰ حيث يقتلون، إذا علم الله أنَّ آجالهم ستنتهي بالقتل في هذا المكان. أي: فإنما كان ما كان لمجيء آجال مَن قُتِلَ منكم.

﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: ولأجل أن يمتحنَ الله نفوسَكم فيظهرَ لكم ما انطَوَتْ عليه من ضعف أو قوَّة في الإيمان،

ويُطهِّرها من الضعف حتىٰ تصل إلىٰ الدرجات العُلىٰ من الإيقان، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ فلا يَخفىٰ عليه شيءٌ من أمركم، وإنما يمتحنكم ليُظْهِرَ أمرَكُم لأنفسكم فلا تنخدعوا بالشعور العارض لها، كما انخدع الذين تمنَّوا الموتَ من قبل أن يَلْقوه، فلمّا لَقُوهُ ضعفوا.

فاشتمل الجواب علىٰ وجهين: الأول: أنَّ الآجال محدودة، فإذا دَنَا الأجل لا يمنع منه شيء أبداً. والثاني: التمحيص، وهو أن يتبيَّن للجماعة وزن قوتها، بانكشاف حال الضعفاء ومرضىٰ القلوب والمؤمنين حقاً، لأنَّ ذلك مما يخفىٰ أمره لديهم، حتىٰ تظهره الشدائدُ، وربما يخفىٰ الضعف حتىٰ علىٰ صاحبه.

ثم تابع البيان عن أحوال وقعة أُحُد بإعلان العفو عن المنهزمين ضمن توبيخهم وتأنيبهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ من أعمالٍ طَبَعَتْهم علىٰ الطمع أو حِرْصٍ خُلقي فيهم رغم صلاحهم وإخلاصهم في الدين، فإنهم ما زلُّوا وانحرفوا عن مكانهم وتركوها إلا مُترخِّصين في ذلك، إذ ظنُّوا أنه ليس للمشركين رجعةٌ من هزيمتهم، فلا يترتَّب علىٰ ذهابهم وراء الغنيمة ضَرَرٌ. وكان هذا الترخُّصُ والتأويلُ للنهي الصريح عن التَّحوُّل وتركِ المكان سبباً لكلِّ ما جرىٰ من المصائب.

ومعنىٰ (اسْتَـزَلَّ): حَمَلهم علىٰ الزلَّة. وقيل في معنىٰ الآية: إنَّ الكلام يشمل الـمُصْعِدين والمنهزمين، ولا سيما التَّعبير بالتولِّي أيضاً، وأنَّ بعض ما كسبوا من قبل هو الذي أحدث الضعف في نفوسهم حتىٰ أَعْدَتْها إلىٰ ما وقع منها.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ لا يُعاجل بعقوبة المذنب، ليتوبَ ويُصلِحَ نفسَه ويغفر له.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ثم قال في «المنار»: ولما بيّن سبحانه وتعالىٰ للمؤمنين أنَّ هزيمةَ من تولّىٰ منهم يوم أُحُد كانت بوساوس من الشيطان، اسْتَزَلَّهم بها فزلُّوا، أراد أن يُحذِّرهم من مثل تلك الوساوس التي أفسد الشيطان بها قلوب الكافرين[1].

وأقول: إنه عاد إلىٰ قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، علىٰ نهج القرآن في العَوْدة إلىٰ المهمّ زيادةً في تقريره، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾، والمراد من الذين كفروا: المنافقون، كعبد الله بن أُبي وأصحابه. ومعنىٰ: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ قالوا في شأن إخوانهم إذا ضربوا في الأرض. والمراد: إخوانهم في النسب والقرابة، وقيل: بل هم الذين يبعثهم النبيُّ ﷺ في مهمّة فيلقون حَتْفهم. ومعنىٰ: ﴿ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: سافروا. و﴿غُزًّى﴾ جمع غازٍ، وهو المقاتل في الحرب.

ومُلَخَّص الكلام: لا تكونوا كهولاء الذين قالوا فيمن ماتوا ما قالوا؛ لأنَّ لكلِّ نفس أجلاً لا تَتَعدَّاه، وهم إنما يقولون ذلك إثارةً لشجون أهل الشهداء، وتثبيطاً عن الجهاد في سبيل الله. فهذا إعادةُ بيانٍ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وزاد عليه بياناً بأنَّ مثل هذا الفكر والقول لا ينبغي أن يصدر من مؤمن، وإنما يصدر من الكفار.

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ١٥٩).

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يزيدهم ضعفاً، ويُورِّثهم فشلاً، ﴿وَٱللَّهُ﴾ هو الذي ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، فلا تجري الحياة والموت بغير أمر الله وفي أجله وسببه.

ثم ختم الآية بما فيه تحذير للمؤمنين أن يماثلوهم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ فاعملوا ما يُرضي الله ولا تهابُوا الموت، ولا تجعلوا فيكم مَوْضعاً لوساوس الشيطان، وقد أُثر عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال عند موته: ما فِيَّ موضِعُ شِبْرٍ إلا وفيه ضَرْبَةُ سيف أو طعنةُ رمح، وها أنا أموت علىٰ فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعينُ الجبناء[1].

ثم لفت نظرهم إلىٰ ما في القتل والموت في سبيل الله من السعادة الأخرويَّة الدائمة، فقال: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ يعني: الكفرة وما يجمعونه من منافع الدنيا وطيِّباتها، لأنَّ حظوظ الدنيا لذَّة مؤقَّتة ضئيلة، بخلاف حظوظ الآخرة ولذَّاتها الدائمة الجليلة.

ثم قَرَنَ الترغيبَ بالترهيب، علىٰ نَهج القرآن، فقال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾. والمراد من الموت والقتل في هذه الفقرة: ما هو أعمُّ مما في الفقرة التي قبلها المختصَّةِ في سبيل الله والحرب. ولذلك قدَّم في الأولىٰ القتل علىٰ الموت لكثرته في الحروب. وقدَّم في الثانية الموت علىٰ القتل، لأنه أكثر ملائمة للحالة الطبيعية والواقع في غير الحروب.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (١٦: ٢٧٣)، وذكر في «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢: ٤٣٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١: ٣٨٢): «العير». بدل «البعير».

ثم لفت الخطاب إلىٰ النبي ﷺ، مُنوِّهاً بعَفْوه عن خطئهم هذا ولطفه بهم، وسَبَكَ الكلام علىٰ إرشاده إلىٰ أن يديم معهم مِثلَ هذا اللطف والعفو عند الزلل، لأنه من أداة الرياسة، ومن مُوجبات الطاعة والائتلاف. وأمره أن يُشاورَهم في الأمر الذي يريده ويتداولَ به مع أُولي الشأن منهم، ليكونوا علىٰ بصيرةٍ فيه حتىٰ لا يخالفه مخالف، ثم يعزم عليهم بإنجازه، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهي أنْ خَصَّك بمكارم الأخلاق ولِيْن الجانب والرفق واللطف، إلىٰ غير ذلك من عظائم الصِّفات التي أوْدَعَها اللهُ فيك، بنتيجة إنزال القرآن عليك وتَخَلُّقِكَ به، ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ وعَفَوْتَ عنهم وعاملتَهم بالرفق واللطف، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولم يأتلفوا بك ويسكنوا إليك.

ثم قَرَّر القاعدةَ العامَّة في الإرشاد المُسْتَنْتَجَة من هذا البيان، فقال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يَتَعلَّق بحقوقك، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يتعلَّق بحقوق الله، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾(١) أي: لِيَقِفُوا علىٰ سِرِّ ما نُكلِّفهم به، أو: لا تُعْرِض عن مَشُورتهم بسبب أنهم أخطؤوا هذه المرَّة، ودَاوِمْ عليها في الأمر الذي يعرض لك في الحروب استظهاراً بآرائهم، وتطييباً لقلوبهم، وتبصيراً لهم.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ علىٰ أمر عَقِبَ هذه المشاورة واطمأنَّت به نفسك، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾

---

(١) للرسول ﷺ جانبان: جانب المبلِّغ عن ربِّه، وهذا لا رأي لأحد في منصوصه، ولا تَدخُلُ فيه المشاورة، بل يجب فيه الاتِّباع بمنصوصه. وجانب الإمامة والقيادة العامة للمسلمين في تنظيم شؤونهم، وطاعته في ذلك واجبة أيضاً، وقد أمره سبحانه في هذا الجانب أن يشاور أمته قبل أن يُصدر أمره في الموضوع، ثم ما يصدر عن أمر أو نهي يجب علىٰ المسلمين اتباعه أو اجتنابه.

وفي المشاورة والمداولة تكشيف لوجوه النظر للنتائج والعواقب، وحينئذٍ يتمسَّكون به عن بصيرة وعرفان، ولا يهملونه بتأويل وساوس وتوضيح شيطان، كما فعل هؤلاء الرماة، وهم يجهلون عواقب ما يفعلون. (المؤلف).

في إمْضَاء ذلك الأمر، فهو الذي يُرْشِدُك ويُصْلِحُ شأنَك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ عليه تعالىٰ بعد مُعَاطاة الأسباب، فيُرشدُهم ويُوفِّقهم إلىٰ ما فيه خَيْرُهم وصلاحُ شأنهم وترويجُ أمورهم.

والآية تُبيِّن أنَّ التوكُّل يكون بعد تَعَاطي الأسباب وأخذ الأُهْبة، فهو غذاءٌ روحيٌّ، يدفع القلقَ والخوف. وكذلك تُبيِّن ما يجب أن يكون عليه الرئيس من قُوَّةٍ في لين، وهذه هي صفة المؤمن الصادق الإيمان.

وخلاصة المعنىٰ: أنه قد كان من أصحابك في هذه الوقعة ما كان مما يُؤَاخَذون عليه، فلِنْتَ لهم وعاملتَهم بالحُسْنَىٰ بهذه الرحمة العظيمة التي خصَّك الله بها، وجَعَل القرآن مُمدّاً لها، بما هداك إليه من الآداب العالية، والحِكَم السامية التي هوَّنت عليك المصائب، وعَلَّمتك منافعها وحِكَمَها وحُسْن عواقبها للمُعْتبر بها، فلا تُؤاخِذْهُم إذا أخطؤوا، ودُمْ علىٰ المشاورة معهم، وواظب عليها وإن أخطؤوا الرأي فيها، فإنَّ الخير كلَّ الخير في تربيتهم علىٰ المشاورة، فإذا استخلصتَ لك رأياً وعَزَمْتَ بعد ذلك، فتوكَّل علىٰ الله وامْضِ في الأمر، فإنَّ الله تعالىٰ يُعينُك ويُصْلح شأنك.

وفي الآية إيماءٌ إلىٰ وجوب إمْضاء العزيمة متىٰ استكملت شروطها التي من أهمها المشورة. وسرُّ ذلك: أنَّ نقض العزائم خَوَرٌ في النفس وضَعْفٌ في الأخلاق، يجعل صاحبَه غيرَ موثوق به في قول أو فعل، لا سيما إذا كان رئيساً لحكومة أو قائدَ جيش. ومن ثَمَّ لم يُصْغِ النبي ﷺ إلىٰ مَشُورة مَنْ رَجَع عن رأيه الأول، وهو الخروج إلىٰ أُحد حين لبس ﷺ لأَمَتَهُ[١] وخرج؛ إذ رأىٰ أنَّ هذا شروع في العمل بعد أن أَخَذَ الشورىٰ في الجملة. والرئيس إذا شَرَع في العمل تنفيذاً للشورىٰ وملخَّصِها، لا يجوز

---

(١) اللأْمَةُ: الدِّرع. «لسان العرب» (لأم).

أن ينقض عزيمتَه ويُبطِلَ عملَه، ولو كان يرىٰ أنَّ أهل الشورىٰ أخطؤوا الرأي والتدبير، كما حَدَثَ في مسألة أحد. ولا يزال أهل السياسة والحروب في البلاد ذات الحضارة والمدنيَّة يَجْرون علىٰ هذه القاعدة ويجعلونها دستوراً لأعمالهم، ونظريةً من نظريات الفن.

وعلىٰ كلٍّ، فالله سبحانه يريد أن تكون سياسة المسلمين قائمة علىٰ مبدأ الشورىٰ مهما كانت نتيجتها، وأن لا يَسْتبدَّ فردٌ أو أفرادٌ في أمرهم؛ لأنه إذا كانت الشورىٰ واجبة علىٰ رسول الله ﷺ الذي يمتاز بكماله العقليِّ والروحيِّ واتِّصاله بالوحي الإلهي، فهي علىٰ غيره أوجب.

أما طريقة هذه الشورىٰ فقد وكلها القرآن إلىٰ أهل الزمان، ويجوز أن تكون بصورة المجالس النيابية الآن، أو اللجان، والله أعلم.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ
ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ
مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾
لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

ثم استأنف الكلام لبيان وجوب التوكّل علىٰ الله بعد المشاورة والعزيمة المبنيَّة علىٰ أَخْذ الأُهبة والاستعداد بما يُستطاع من حَوْل وقوة، فقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ لسبب العمل بسننه وما يكون لكم من القوة والثبات بالاتّكال علىٰ توفيقه ومعونته، ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ بما كسبت أيديكم من الفشل بسبب معاكسة الدساتير

الطبيعيَّة، كعصيان القائد في اتِّباع الخطَّة التي رسمها وشبه ذلك، ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ إذ مَنْ ذا الذي يقدر أن يُغيِّر سُنَنَ الله الكونيَّـة، ويَجْري بها علىٰ خلاف مَجْراها الطبيعي.

ثم بيَّن شأن المؤمنين الصَّادقين، وأخْرَج البيان مَخْرج الأمر، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾، وقد عُلم من فحوىٰ الآيات ومضامينها أنَّ التوكُّل إنما يكون مع الأخْذ بالأسباب، ومنها: الشورىٰ، لتقليب وجوه العمل واختيار أصلحها وأسدِّها. وأنَّ تركَ الأسباب بدعوىٰ التوكُّل إنما هو جَهْل بالشرع، أو فساد في العقل. فالتوكل محلُّه القلب، والعملُ بالأسباب محلُّه الأعضاءُ والجوارح.

وقد كان لهذه الآيات التي في هذا السياق تهذيبٌ عظيمٌ في نفوس الصحابة وتابعيهم، ظهر أثره في حروبهم وفتوحاتهم وأنواع إداراتهم وسياساتهم، حتىٰ كانت ولا تزال موضعاً للإعجاب في علوِّ الهمم ومضاء العزائم وجلائل الأعمال.

ثم تابع الكلام عن أحوال وقعة أُحُد، مُومِئاً إلىٰ ما أضمره الذين تركوا المركز الذي وضعهم النبيُّ ﷺ فيه، وسبكه علىٰ بيان حكم يتَّصل به من أحكام الحرب، وهو حكم أخْذِ شيء من الغنيمة قبل القسمة، ونزَّل خواطرهم في أمر الغنيمة منزلة مَنْ يظنُّ ذلك بالنبيِّ ﷺ، وقرَّر ذلك بقاعدة عامة، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

الأصل في الغل: الأخذُ بخُـفْية، كالسرقة، وغلب في السـرقة من الغنيمة قبل القسمة. واستعملت الكلمة هنا بمعنىٰ أوسع علىٰ طريقة المبالغة في التعبير والتَّبشيع فيه. ولذلك استُعمِلَ نفيُ الشأن لأنه أبلغ في النفي. فقد روىٰ مقاتل وغيره: أنَّ الرماة قالوا حين تركوا المركز الذي وضعهم النبي ﷺ فيه: نخشىٰ أن يقول النبي ﷺ: مَنْ

أخذ شيئاً فهو له، وأن لا يقسم الغنـائم. وقال لهم النبي ﷺ بطريقة المبالغة في الردِّ والتشنيع: أظننتُم أنّا نغلُّ ولا نقسم لكم[١].

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ليفتضح به، ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ في ثواب أو عقاب.

ثم رتَّب علىٰ ذكر هذا الجزاء العام هذا التَّنويعَ والتفريق، مُلْمِعاً بُعْدَ ما بين خُلُق الأنبياء وخُلق أمثال الغالّين، وأنهم بعيدون عن ذلك، لا سيما ذلك النبي الذي منَّ به علىٰ المؤمنين، فقال: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما يرضي الله ﴿كَمَنۢ﴾ أغضبه حتىٰ ﴿بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ ذلك المأوىٰ الذي يأوي إليه، والمنتهىٰ الذي ينتهي إليه.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ لكلٍّ من هذين الصنفين درجات، فقال: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أن كلاً ممَّن يتَّبعون رِضْوانَ الله ومَن يَبُوءون بسَخَطه ذوو درجات متفاوتة، لأنها أثرٌ طبيعيٌّ لمقدار ارتقاء الأرواح أو تَدَنِّيها بالأعمال الصالحة أو السيئة، إذ قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ فلا يُظلَمون شيئاً إنْ أحسنوا أو أساؤوا.

ثم أردف السياق المشتمل علىٰ شأن الرسول ﷺ معهم ورحمته بهم، ببيان منَّته تعالىٰ علىٰ الناس بإرسال هذا النبي الكريم المتَّصف بهذه الصفات العالية، والساهر علىٰ مصالحهم وتربيتهم وتخليصهم من العقائد الزائفة، وضمَّنه الرد علىٰ وهمهم، فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: عربياً من جنسهم، فذلك مـمّا يدعُو إلىٰ أن يَظنُّوا به خيراً، وإلىٰ أن يكونوا أول المؤمنين به، وإنْ أُرسل

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٩: ٤٠٢).

رحمةً عامّةً، وللناس كافّةً، ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من العقائد الزائفة وما يتبعها من الأفكار الفاسدة، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: جنس الكتاب السماوي وما فيه من الحكمة، أو القرآن والسنَّة وما ينبعث عنهما من تعلّم أسرار الأحكام وفقهها، والمصلحة فيها، والطريق إلىٰ العمل بها، ومعرفة الحقائق ببراهينها، ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ يعبدون الأصنام، ويتَّبعون الأوهام، أُميِّين لا يقرؤون ولا يكتبون فيعرفوا حقيقة جهالتهم وبَشَاعة ضلالهم. فضَلالُهم أبْيَنُ من ضلال أهل الكتاب.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

وبعد تبرئة الرسول ﷺ وبيان ما بُعِثَ لأجله، عادَ الكلام إلىٰ كشف الشبهات التي عرضت للغزاة في واقعة أُحُد، والرد علىٰ المنافقين، وبيان ضلالـهم في أقوالهم وأفعالهم، فقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ يومَ أُحُد بقتل سبعين منكم، ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ في ذلك اليوم أوّل الأمر من قبل أن ترك الرماة مركزهم، حتىٰ قتَلَ حمزة رضي الله عنه وحده نحوَ الثلاثين. ويوم بدر دوَّختموهم بقتلكم سبعين من المشركين وأَسْر سبعين، ولما أصابتكم مصيبة أُحُد ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾؟ تعجبون ممَّا حلَّ بكم، وأنتم مؤمنون، وفيكم رسول الله! لا تعجبوا، إنَّ ذلك إنما جاءكم من معاكستكم لِسُنَن

الكون في الأنظمة الحربيَّة. فوجود الرسول بينكم لا يحميكم مما تَقْتَضيه معاكسة هذه السنن الكونيَّة.

قال الأستاذ الإمام(١): الكلام إنكارٌ لِتَعَجُّبهم، وبيانٌ لمنَّة الله تعالىٰ عليهم في واقعة أُحُد، فإنَّ خِذلانهم فيها لم يبلغ خِذلان المشركين في بدر، علىٰ قلَّة المسلمين. كأنه يقول: لماذا نسيتم فَضْلَ الله عليكم في بدر فلم تذكروه، وأخذتم تعجبون مما أصابكم في أحد؟ فالإمام يجعل الميقات بين بدر وأحد.

وبعد أن بيَّن لهم ذلك، أمر نبيَّه ﷺ أن يُقَرِّعهم بأنَّ ما نالهم إنما جاء من جهتهم، بمعاكستهم للدساتير الطبيعية والأنظمة الحربية، فقال: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: بتركِكم الموضع الذي وضعكم الرسول فيه، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ لا يُعجزه تنفيذ سُننه بعقاب المسيء وإثابة المُحْسن، وإقامة العدل والنظام العام في الكائنات، بربط الأسباب بالمسبَّبات، فلا يشذّ عن ذلك مؤمنٌ ولا كافر، ولا برٌّ ولا فاجر.

ويجوز أن تكون هذه الفاصلةُ احتراساً عمَّا يَرِدُ من سوء الفهم، تفيد أنَّ إصابتهم بهذه المصيبة لم تكن عن عَجْز في قُدرة الله لنصرهم، فهو علىٰ كلِّ شيء قدير، ولكنَّها جاريةٌ حَسَب سنن الله الكونيَّة، ولا تبديل في سنن الله ولا مُحاباة.

وقد أومأ إلىٰ هذا المعنىٰ بقوله الآتي: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمقتضىٰ سننه الكونية.

وقال الأستاذ الإمام ما محصَّله: وبناء علىٰ كون وَجْهِ تعجُّبهم هو وجودَ الرسول ﷺ فيهم، أومأ إلىٰ أنَّ الرسول ﷺ لا ينفع أمةً قد خالفت السنن والطبائع، فلا تغترُّوا بوجودكم معه مع المخالفة لله وله، فهو لا يحميكم ممَّا تقْتضيه سُننُ الله فيكم، فقال

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا عجزاً في القدرة ولا قهراً للإرادة، وإنما هو بإرادة الله الأزليَّة وقضائه السابق، بأن تكون السُّنن العامَّة في الأسباب والمسبَّبات مُطَّردة ـ لا يُستثنىٰ منها نبيٌّ ولا رسول[1] ـ فكلُّ جندي يخطئ الرأي، ويعصي القائد، ويخلِّي بين العدو وبين ظهره، يُصَاب بمثل ما أُصبتم، أو بما هو أشد منه[2]. فإنما كان ذلك لإجراء السنن العامة فيكم ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾، وقد تقدَّم الكلام علىٰ معنىٰ عِلم الله في مثل هذه الآية من سورة البقرة، فارجع إليه. والمراد: ليظهر علمه في ذلك ويتبيَّن لكم مؤمنكم من غيره. وإنما لم يقل: المنافقين، كما قال: المؤمنين؛ لأنَّ النفاق لم يكن صفة ثابتة لهم كثبوت إيمان المؤمنين، فإن منهم من تاب بعد ذلك.

ثم ذكر صورةً من نفاقهم بطريقة عطف التفسير، فقال: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْ﴾ عن وطنكم وأهليكم، ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ﴾ ولكننا نرىٰ أنَّ الأمر ينتهي بغير قتال. وهؤلاء عبد الله بن أُبي وأتباعه، ثلاثمئة رجل من المنافقين، انْعَزلوا عنه ﷺ قبل أن يَصِلُوا أُحداً وعادوا إلىٰ المدينة تَخْذيلاً للمسلمين، مُتَعلِّلين بقولهم: لو نعلمُ قتالاً لاتَّبعناكم[3]. ويجوز أن يكون مرادهم بهذا القول: لو نُحْسِنُ قتالاً لاتَّبعناكم. يَتَندَّرون ويستهزئون ويُرَاوِغُونَ بذلك، دَغَلاً وإغاظةً للمؤمنين، فَسَجَّل عليهم سبحانه بقوله: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ وليسوا في

---

(١) بل ثبت استثناء الرسل والأنبياء من بعض الأسباب والسنن في عدة وقائع، فظهرت علىٰ أيديهم المعجزات، وخَرَقَ الله لهم العادات، لكن حكمة الله تعالىٰ في وقعة أُحُد اقتضت أن لا يخرق عادته، بل يجريها علىٰ ما هي عليه، تأنيباً وتأديباً.

(٢) تفسير «المنار» (٤: ١٨٥ - ١٨٦).

(٣) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢: ٦٤).

الوسط وبين بين، لظهور صفته فيهم، وانطباق آيته عليهم، فهم ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ مراوغةً ونفاقاً، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ من الكيد للمسلمين، وإيقاع الفشل فيهم، وتخذيلهم، وتربُّص الدوائر بهم.

قال الأستاذ الإمام ما معناه: «إنما قال: هم أقرب إلىٰ الكفر، ولم يقل: إنهم كفار، إرشاداً لنا أن لا نتهجَّم علىٰ الكفر بالعلامات والقرائن، ولكن نقول به مع الاحتراس والتَّخمين»[١].

وبعد أن ذكر من نفاقهم تَقاعُدَهم عن نُصْرة رسول الله ﷺ، واحتجاجَهم لذلك بما فَضَح نفاقهم وما يُضْمرون من الكفر، ذَكَر من نفاقهم أيضاً ما هو أشنع من ذلك، وهو تَـثْبيطهم لغيرهم ودَعْواهم لضعفاء الإيمـان أن يقعدوا عن الحرب كما قعدوا، وتأنيبهم لـمن قتل منهم، بأنهم لو أطاعوهم في القعود ما قُتلوا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي: في إخوانـهم ﴿وَقَعَدُوا۟﴾ عن الحرب: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ في القعود ﴿مَا قُتِلُوا۟﴾، وغرضُ المنافقين من هذا التأنيب: الدسُّ لإثارة شُجون أهل الشهداء في وقعة أحد، التي كان فيها آلام مُرَّة علىٰ المسلمين، فهم يهيّجون عليهم تلك الآلام ويُؤَجِّجونها بقولهم: لو أطاعونا وتخلَّفوا كما تخلَّفنا ما قُتِلوا. فدَحَضَ الله حُجَّتهم بقوله: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: لو كان لكم رأيٌ صائب في دَرْء الموت عن غيركم، لَـدَرأتم به عن أنفسكم إذا جاء أجلكم، إن كنتم صادقين، أو: إن كنتم صادقين في دَعْواكم أنهم لو قعدوا ما قُتلوا.

ومُؤَدَّىٰ هذا الرد: أنَّ عدم قتلكم إنما كان لبُعْد أجلكم، وليس كل مَنْ يُحارب يموت، ولا كلُّ من لا يُحارب يَسلم من الموت. وكثير ممَّن لاقوا الحروب يَعجَبُ من

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ١٨٧).

كثرة الوقائع التي يَسلَمُ فيها المخاطرون ويهلك الحَذِرون، وإن كثيراً منهم يصابون إصابات قوية ولا يموتون، وإن كثيرين يخرجون من الـمَعْمَعَة سالمين، ولا يلبثون بعدها أن يموتوا حَتْفَ أنوفهم، كما يموت كثير من القاعدين عن القتال. فما كلُّ مقاتل يموت، ولا كلُّ قاعد عن الحرب يسلم.

ولقد روي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال عندما حضرته الوفاة: لقد شهدت مئة زحف أو زهاءه، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربةٌ بسيف أو طعنةٌ برمح، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعينُ الجبناء(١).

والآية تُنبئ عن خُبْث هؤلاء المنافقين، فإنهم لم يكتفوا في وقعة أُحُد بتَخَلُّفهم، بل حاولوا حَمْلَ غيرهم عليه من المخلصين الذين كانت تربطهم بهم روابط القُرْبىٰ والعصبيَّـة، ولكنهم لم يسمعوا لهم. وفي صورة التعبير لمحةُ التَّحدِّي بطريقة التـندُّر والـهُزْء.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

---

(١) سلف تخريجه ص٥٦٤.

وبعد أن شنَّع عليهم نفاقَهم وتخلُّفَهم عن القتال، ذكر جلالة شأن مَنْ يُقْتل في سبيل الله، وأنهم يتمنَّون أن يلحق بهم إخوانهم لِـمَا هم فيه من الفضل العميم والنعيم المقيم، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾[١]، وفي هذا تأنيبٌ للمنافقين القائلين: لو أطاعونا ما قُتلوا. فيقول تعالىٰ: إنَّ من قُتلوا في سبيل الله ليسوا محزونين علىٰ قتلهم بل مسرورون، وليسوا بأموات ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: في عالَم جليل غير هذا العالَم، ولكرامته وشرفه أضافه تعالىٰ إلىٰ نفسه. فهذه العنديَّة عنديَّةُ شرف وكرامة، لا مكان ومسافة.

فالآية ردٌّ آخر لقولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾، ومُحصَّلُه: أنَّ الشهادة لا يؤنَّب عليها من تَـصَدَّىٰ لها، لأنها ربحٌ عظيم، وليست بخسران كما تتوهَّمون. والمعتمد عند الأستاذ الإمام في هذه الحياة: أنها حياة غيبيَّة لا نبحث عن حقيقتها، ولا نزيد فيها علىٰ ما جاء به خبر الوحي شيئاً، ونُفوِّض الأمر فيها إلىٰ الله تعالىٰ، ولكن نعلم أنها تمتاز بها أرواح الشهداء علىٰ أرواح سائر الناس.

أقول: وقد جاء في الأثر[٢] بطريقة التمثيل[٣] عن تلك الحياة: أن أرواح الشهداء

---

(١) انظر: قصَّة ثابت بن قيس (٥: ٢١٦). (المؤلف).

يعني: في سورة الحج، آية ٧ وما بعدها. ورقم الجزء والصفحة المذكور إنما هو بحسب الطبعة الأولىٰ للكتاب.

(٢) رواه مسلم (١٨٨٧)، عن ابن مسعود مرفوعاً بلفظ: «... أرواحهم في جوف طير خُضْر، لها قناديلُ معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثمَّ تأوي إلىٰ تلك القناديل، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطِّلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيَّ شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن تردَّ أرواحنا في أجسادنا حتىٰ نُقتَلَ في سبيلك مرة أخرىٰ، فلما رأىٰ أنْ ليس لهم حاجةٌ تُركوا».

(٣) كان الأجدر بالمؤلف رحمه الله أن يبقىٰ سائراً علىٰ ما قرَّره قبل سطرين من تفويض المعنىٰ إلىٰ =

في أجواف طير خُضْر، تَرِدُ أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلىٰ قناديل من ذهب مُعلَّقة في ظل العرش. قالوا: وذلك لتنال لذة كاملة بواسطة الجسم، فوق اللذة الروحيَّة؛ لأنَّ الإحساس بواسطة الأجسام يكون أقوىٰ منه في الأرواح المجرَّدة. ولذلك يعيد سبحانه الجسم إلىٰ الروح يوم القيامة. والله أعلم. وكلُّ ما جاء في الأحاديث عن العالم الأخروي جاء بطريقة التَّمثيل[١]؛ لأنَّ التصريح لا يفي بذلك، ويمتنع عن الذهن إدراك الحقيقة، إذ لا مجانسة بينه وبين العالم الدنيوي، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يشبه ما في الآخرة ما في الدنيا إلا بالاسم[٢].

ثم تابع البيان عنهم، فقال: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: مسرورين بما أعطاهم الله من فَضْله زيادةً علىٰ ذلك الرزق، ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ قال الأستاذ الإمام: إنما قال: ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾، للدلالة علىٰ أنهم وراءهم، ويَقْتفون أثَرَهم، ويَحْذُونَ حَذْوَهُم قَدَماً بقَدَم. فهو قَيْدٌ فيه الخبرُ والحثُّ والترغيبُ والمدحُ والبشارة، وهو من البلاغة بالمكان الذي لا يُطَاوَل. والمعنىٰ: يتوقَّعون أن يبشَّروا في وقت قريب بقدومهم عليهم مقتولين في سبيل الله كما قُتلوا، مُسْتَحقِّين من الفَضل

= الله تعالىٰ، فكما أن حياة الشهداء ثابتة من غير خوض منا في حقيقتها وكيفيتها، فكذلك ما ورد في هذا الأثر نُثبته من غير خوض في حقيقته، ولا نقول: إنه تمثيل.

(١) في هذا الإطلاق نظر، فإن أراد إجراء الألفاظ علىٰ معانيها المتبادرة منها، مع العلم بأن المعاني علىٰ وجه وكيفية غير التي هي عليه في الدنيا، فصحيح. وإن أراد أنها لا تُجرىٰ علىٰ هذه المعاني، وإنما هي تمثيل عن سعادة أو لذة أو قضاء شهوة أو نحو ذلك، فغير صحيح، ولعل تتمة كلام المؤلف تُشعِر بالمعنىٰ الأول الصحيح، والمعنىٰ الثاني هو مسلك الفلاسفة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١: ٣٩١- ٣٩٢) بلفظ: ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء.

الإلـهيِّ مثل ما أُوتوا(١). واختار الزجّاج(٢) وأبو مسلم: إنَّ الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم هم إخوانهم الذين لا يُحصِّلون فضيلة الشهادة، فلا ينالون مثل درجتهم(٣)، وقوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ بَـدَلُ اشتمال من ﴿الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾، أي: يَسْتَبْشِرونَ بهم من حيث إنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ويجوز أن يكون المعنىٰ: يُسرُّون ويفرحون بحال الذين لم يلحقوا بهم من إخوانهم عندما علموا أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ثم تابع البيان عن أحوال الشهداء، فقال: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي: يتوقَّعون علىٰ الدوام تَجدُّد نِعَمِ الله عليهم وفَضْله، أو يُسرُّون ويفرحون بذلك. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ ـ بفتح أنّ ـ عطفٌ علىٰ «فَضْل»، مُنْتَظِمٌ معه في سِلْكِ المُسْتَبْشَر به. والمعنىٰ: يَسْتَبْشرون بنعمة الله وفَضْله وكونه لا يضيع أجر المؤمنين. وقرأ الكسائي بكسر «إنّ»(٤)، فتكون الجملة تذييلاً مؤيِّداً لمعنىٰ ما قبلها.

والتعبير عنهم بالمؤمنين، للإيذانِ بسمُوِّ رتبة الإيمان، وكونه مناطاً لما نالوه.

ثم ذكر هؤلاء الذين لم يلحقوا بهم، فوصفهم بما فيه مزيد كرامة لهم، فقال: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾، وهم إخوان أولئك الشهداء الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم. دعاهم الرسول ﷺ إلىٰ اتِّباع أبي سفيان وجيشه في

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ١٩٣).

(٢) هو أبو اسحاق إبراهيم بن محمد بن السري، (٢٤١- ٣١١هـ) عالم بالنحو واللغة، بل كان نحويَّ زمانه، له: «معاني القرآن»، و«الاشتقاق»، و«الأمالي». «سير أعلام النبلاء» (١٤: ٣٦٠)، و«الأعلام» للزركلي (١: ٤٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١: ٤٨٩).

(٤) «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص٢١٩).

حمراء الأسد، فاستجابوا لله وللرسول علىٰ ما بهم من القروح البالغة التي أصابتهم في أُحد، حتىٰ أنهكت قواهم[١].

ويجوز أن يكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ...﴾ مبتدأ أو بدلاً من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾ خبر على الأول، و﴿مِنۡ﴾ للبيان، والمقصود من الجمع بين الوصفين: المدح والتعليل، لا التقييد؛ لأن المستجيبين كلَّهم محسنون ومُتَّقون. وهو استئناف علىٰ الثاني، و﴿مِنۡ﴾ للتبعيض؛ لأن من المؤمنين الصادقين من لم يخرج معه إلىٰ حمراء الأسد[٢]، لموانع في أنفسهم وأهليهم. فهم الذين لا يضيع الله أجرَهم، ولكنهم لا يستحقون الأجر العظيم الذي استحقَّه الذين خرجوا معه وهم مُثْقَلون بالجراح، ومُرْهَقُون من الإعياء، إلىٰ استئناف قتال أضعافهم من الأقوياء.

ثم بيَّن سبحانه ناحيةً أخرىٰ من عِظَم نواحي تلك الاستجابة الصادقة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾، وهذا الموصول بَدَلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ...﴾.

والمعنىٰ: إنَّ المثبِّطين أخذوا يقولون: إنَّ قريشاً قد تجمَّعوا لقتالكم فلا تخرجوا إليهم، ﴿فَزَادَهُمۡ﴾ قولُ المثبِّطين ﴿إِيمَٰنٗا﴾ وثقةً بالله، ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾. وقد خذل الله المشركين، فعادوا إلىٰ مكة ولم يحاربوا.

ولما وصل المسلمون إلىٰ حمراء الأسد لم يجدوا أحداً، وكُفُوا شرَّ أعدائهم ﴿وَٱتَّبَعُواْ

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢: ١٢٠).

(٢) سيأتي تخريجه قريباً ص٥٨٠.

رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾، فإن كان قد أكرمهم بذلك في الدنيا، فقد يُعطيهم ما هو أعظم وأكرم في العُقْبىٰ. وفي هذا إيلامٌ للمُتَخلِّفين وإظهارٌ لخطَل رأيهم حيث حَرَمُوا أنفسهم ممَّا فاز به هؤلاء.

وقال بعض المفسِّرين: إنَّ الذين قال لهم الناس: هم أهل بدر الصُّغرىٰ، لا أهل حمراء الأسد، وإنما هم الذين استجابوا لله. وكانت بدر الصُّغرىٰ سنة أربع للهجرة، أي: بعد أُحد بسنة، وعَدَهم فيها أبو سفيان، ولما حضرها المسلمون حسب الوعد لم يجدوا فيها أحداً من المشركين وكُفُوا شرَّ أعدائِهم، كما كان الحال في حمراء الأسد.

ثم أدَّب المؤمنين عموماً بأن لا يهتمُّوا بتخويف المبطِّئين، ولا يخافوا كثرة المشركين، فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ﴾ الناس ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ المشركين، ويُهوِّل أمرهم في أعينها بوسوسته، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ وهذا الوصل لإثارة الشعور بالإيمان، حَمْلاً لهم علىٰ التَّمسُّك بهذا البيان. والمراد: تذكُّر قدرة الله العظيمة والاعتماد عليه. فـ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ولا يزال العالم إلىٰ اليوم يشاهد من الجيوش الإسلامية شجاعة فائقة، مع ما مُنِيَ به المسلمون من ضعف في العقيدة والإيمان، وجهل بكثير من شؤون دينهم.

وقد أرشدتنا الآية إلىٰ أنَّ في استطاعة الإنسان أن يقاومَ أسبابَ الخوف، ويُعوِّد نفسه الاستهانة بها، وذلك بالتربية والتَّمرُّن والتعوُّد علىٰ الإقدام.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ

لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾﴾.

ثم التفت إلىٰ النبيِّ ﷺ، فخاطبه بما فيه، تسليةً له عمّا سَاءَهُ من مُعَاوَدَة المشركين للقتال في حمراء الأسد(١)، علىٰ إثْر وقْعة أُحد، ومن مَشَاغَبة المنافقين وقولهم: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾، فقال: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾ أي: في نُصْرته، وهم اليهود والمنافقون يُسَارعون في نُصْرة المشركين ويشاغبون، ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ فعلَّق نفيَ الضَّرر به تعالىٰ، لتشريف النبيِّ والمؤمنين، وللإيذان بأنَّ مُضارَّتهم بمنزلة مُضَارَّتِه سبحانه وتعالىٰ. وفيه مزيدُ مبالغة في التَّسلية وتلميحٌ إلىٰ العناية بهم.

ثم أردف الكلام بما يدلُّ علىٰ أنهم يضرُّون بذلك أنفسَهم، فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ أي: إنهم بصنيعهم هذا أصبحوا علىٰ حالة من فساد الفطرة تقتضي حرمانهم من نعيم الآخرة، بسنَّةِ الله وإرادته، ﴿وَلَهُمۡ﴾ فوق ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

ثم عقَّب هذا الحكمَ الخاصَّ بهؤلاء الكَفَرَة بحكمٍ عامٍّ يشمل الكفرة عموماً، للإيذان بأن هذا الفشل ليس خاصّاً بهؤلاء المسارعين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾﴾، يُعرِّض بابن أُبيّ وأصحابِه الـمُخَذِّلين المشاغبين. وفي صورة التعبير بشرائهم الكفرَ بالإيمان تلميحٌ إلىٰ سخافة عقولهم، وإيماءٌ لعَمَىٰ بصيرتهم، فلا يخاف منهم ولا من مكايدهم وتدبيرهم، لأنَّها ناتجة عن عقل سخيفٍ وبصيرةٍ عمياء وجهالة جهلاء.

---

(١) انظر قصة حمراء الأسد في «السنن الكبرىٰ» للنسائي (١١٠١٧).

ثم عاد إلىٰ تهوين أمر غَلَبة الكفار للمسلمين في أُحد، علىٰ سُنَّة القرآن في العودة إلىٰ الشيء المرَّة بعد المرَّة؛ مبالغةً في تقريره، إذ كان من الأمور التي يراد تـقريرها في النفوس، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾، ومحصَّل الآية: أنَّ الخير ليس في الإمهال للإنسان ليعمل بحسب استعداده وميوله ما يشاء، فإنَّ هذه سنة الله في جميع البشر، وإنما الخيرَ في الإمْلاء وطُول العمر، مع العمل الصالح.

قال في «المنار» نقلاً عن الأستاذ الإمام: بيَّن الله سبحانه لنا بمضمون هذه الآية سنة حكيمة من سننه في الاجتماع البشري، وهي أنَّ الإنسان يبلغ الخيرَ بعمله الحسن، ويقع في الضَّيْر بتقصيره في العمل الصالح، وتشميرِه في عمل السيئات. والعبرةُ بالخواتيم، فكأنه قال: إنَّ هذا الإملاء للكافرين ليس عنايةً من الله بهم، وإنما هو جَرْيٌ علىٰ سُننه في الخلق، وهي أن يكون ما يُصيب الإنسان من خيرٍ وشرٍّ هو ثمرة عمله. ومن مقتضىٰ هذه السنة العادلة: أن يكون الإملاء للكافر علَّة لغروره، وسبباً لاسترساله في فجوره، فيوقعه ذلك في الإثم الذي يترتَّب عليه العذاب المهين[1].

أقول: وعليك أن ترجع إلىٰ (القاعدة الثامنة عشرة من المقدمة الثانية) لتزداد وقوفاً علىٰ معنىٰ مثل هذه الآية؛ مما يوهم ظاهرُه أنَّ الله تعالىٰ يكيد للكافرين ليوقعهم في الضلال، وليس كذلك، وإنما هو تقرير لسنَّة الله الكونية، كما ذكره الإمام، وهي أنَّ مَنْ تمادىٰ في الضلال يسترسل به ولا تنفعه المواعظ.

وفي الآية من مواضع العبرة أنَّ من شأن الكافر أن يزدادَ كفراً بطول العمر،

(١) تفسير «المنار» (٤: ٢٠٥).

والتَّمكُّن من العمل في ذلك. ويقابله المؤمن الدائب، كلما طال عمره كَثُرت حسناته وازدادت خَيْراته، كما جاء في الحديث[1].

ثم عاد إلىٰ بيان الحكمة في وقعة أحد، وأنها لتمحيص الخبيث من الطيِّب علىٰ نهج القرآن، حيث يعودُ في كل عطفة من عطفات البحث إلىٰ الشيء الذي يريد أن يبحث عنه بإشباع، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ لتعرفَ الجماعة ما فيها من دَخَل زائف، فتتَّقي ضَرَرَه وتعرف وزن قوَّتها الحقيقية، ويعرفَ ضعيف الإيمان مَوْضعَ الضعف منه؛ لأنَّ ذلك مما يَخفَىٰ علىٰ صاحبه، حتىٰ تظهره الشدائد.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي: لم يكن من شأنه تعالىٰ وسُنَّته في خلقه أن يُطلعكم علىٰ الغيب، حتىٰ يطلعكم علىٰ ما أراد من حِكَم أو ما فيكم من دخل؛ لأنَّ طبيعتكم لا تلائِم الاطِّلاع علىٰ الغيب، فلا تقدرون أن تتعرَّفوا دخائل النفوس إلا بهذه الطريقة. وفي هذه إشارةٌ إلىٰ أنَّ تلك الابتلاءات ممَّا تَقْتضيها الحكمة التي لا يُمكنكم أن تعلموها. فما كان الله لِيُطْلِعَكُم علىٰ الغيب، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيُطْلعكم بواسطتهم علىٰ ما تحتاجون إليه من الغيب في أمور دينكم ودنياكم، فعليكم أن تتَّبعوا شريعةَ رسولكم وسُنَّته وتوجيهاته، فهي علىٰ مُقْتضىٰ ما غاب عنكم من الحِكَم التي لا تعلمونها، ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فهم الذين يهدونكم للصراط المستقيم والدِّين القويم.

---

(١) روىٰ الترمذي في «سننه» (٢٣٣٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٤١٥) عن أبي بكرة أن رجلًا قال: يا رسول الله، أيُّ الناس خيرٌ؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله»، قال: فأيُّ الناس شرٌّ؟ قال: «من طال عمره وساء عمله». وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ثم ختم الكلام ببيان أنَّ الإيمان بما جاء به الرسل والعمل بمقتضاه، فيه ـ فوق المصالح الدنيوية والحِكَم الربَّانية ـ السعادةُ الأخرويَّة والثوابُ العظيم، فقال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

ولما كانت واقعةُ أُحُد أشدَّ واقعة أحسَّ المسلمون فيها بألم القلب؛ لأنهم لم يكونوا يتوقَّعون مثل ذلك بعد رؤيتهم بوادر النصر في واقعة بدر، كانت عناية الله سبحانه وتعالىٰ ببيان فوائد المسلمين فيها عظيمة جداً كما رأيت.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ
سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾
لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ
الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ
لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ
يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ
قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ
وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ
الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

وبعد أن أنهىٰ الكلام عن واقعة أُحُد وما تخلَّلها من التعليق والتحليل للأغلاط والمشكلات والشُّبهات، تحقيقاً لإثبات أنَّ الصبر والتقوىٰ والتَّوقِّي من مخالفة السنن الكونية حافظةٌ من كلِّ كَيْد ومن كلِّ سوء، وبيَّن أنَّ ما أصابهم في أُحد إنما هو من عند أنفسهم، جاء من مخالفة السنة الحربية، وهي ترك الموضع الحربي الذي وضعهم فيه

رسول الله ﷺ، وألقىٰ التَّبِعَةَ عليهم، وحقَّق مصداق قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

فبعد أن أشبع الكلام في هذه الـمناقشة، وأوقفهم علىٰ أغلاطهم، وحلَّ لهم مشكلاتهم وشُبهاتهم، ولم يَبْق لهم شيءٌ من ذلك، عَادَ إلىٰ بيان حال اليهود، وهو محور الكلام الأصلي، وابتدأ الكلام بهذا الحكم العام المتضمِّن للتعريض بضُعفاء الإيمان، وللتحريض علىٰ بذل المال في الجهاد، إثر التحريض علىٰ بذل النفس فيه، في الآيات المتقدِّمة، علىٰ نهج القرآن في مثله، ليكون حلقة وصْل، وسجَّل الوعيد الشديد لمن يبخل ببذل المال في سبيل الله، فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ من إنفاقه. ولا يخفىٰ ما في صلة الموصول من الزيادة في التأنيب والتقريع.

ثم نصَّ علىٰ ما فُهِمَ ضمناً من أنَّ ذلك البخل شرٌّ لهم، للمبالغة فيه، علىٰ نَـهْج القرآن في مثل ذلك، وهو إرداف الشيء بضدِّه وإردافُ النفي والإثبات أو العكس تقريراً للمعنىٰ، فقال: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾.

ثم بيَّن بعض ذلك الشر بقوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، والتطويق: إما من الطاقة بمعنىٰ التكليف، أي: سيكلَّفون ذلك في الآخرة، فلا يجدون إليه سبيلاً. كقوله تعالىٰ: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]، وإما من الطوق، أي: سيجعل ما بَخِلوا به طَوْقاً في أعناقهم، فلا يجدون عنه مَصْرفاً. وكلاهما بمعنىٰ: إنهم سيحملون تَبِعة ما بَخِلوا به.

ثم بيَّن سخافة نظرهم في البخل، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: إنَّ ما يتوارثه الناس من آثارهما، من مال وغيره، ماديّاتٍ أو معنوياتٍ، كلُّه لله، ويعود لله، فمَا لَهم يبخلون عليه بما أعطاهم من فضْله، ولا ينفقونه في سبيله. أو المعنىٰ: إنه يرث

منهم ما يُـمْسكونه ولا ينفقونه في سبيله تعالىٰ عند هلاكهم، وتبقىٰ عليهم الحسْرة والندامة.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾، فيَجْزي كلَّ عامل بما عمل.

ثم عاد إلىٰ سياق أهل الكتاب وأردف الكلام بذكر شناعة اليهود، فقال: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾، وذلك أنهم لما طُلب إليهم أن يبذلوا شيئاً من أموالهم وسمعوا قوله تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قالوا تهكُّماً بالقرآن، علىٰ وجْه الطعن والعيب والتعنُّت والتخطئة: أتزعم أنَّ الله يستقرض منا؟ وما استقرض منا إلا لفقره وغنانا! يتندَّرون بذلك. فتوعَّدهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك أشدَّ وعيد، إضافةً علىٰ ما في الصيغة السابقة من التهديد، فقال: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾.

ثم قَرَن بهذه الشَّنيعة شنيعةً أخرىٰ، للإيذان بأنهما في العِظَم سِيَّان، وللتنبيه علىٰ أنَّ ذلك دَيْدَنُهم وخُلُقُهُم، فقال: ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾، فسَنُعاقبهم علىٰ ذلك أشدَّ العقاب، ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم زيادةً في إيلامهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ فهي عاقبة أعمالكم التي ظلمتم بها أنفسكم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ فلا يجعل المفسدين كالمصلحين، ولا يجعل المتَّقين كالفجار. وفيه إيماءٌ إلىٰ أنَّ عملهم هذا ليس من ذات طبيعتهم، ولكن من إفسادهم لها، فما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وفي قوله: ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾ نسبةُ ما للسلف إلىٰ الخلف، إذ كانوا علىٰ دَيْدنهم وسلوكهم في الفساد، ومثل ذلك من خصائص اللغة ومناهج القرآن. ونظير هذه الآيات قوله في سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ...﴾ [المائدة: ٦٤]. فانظر إليه.

ثم ذكر مَسَاءَةً أخرىٰ من مساوئهم يَتَعنَّتون بها ويكذبون علىٰ الله، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ في الاعتذار عن عدم الإيمان بمحمد ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾[1]، قال الأستاذ الإمام: والأظهر أن يكون المعنىٰ: حتىٰ يفرض علينا تقريبَ قربان يُحرق بالنار. فقد كان من أحكام الشريعة عندهم أن يحرقوا بعض القرابين.

قال في «المنار»: والقرابين في بني إسرائيل علىٰ قسمين: دموي، وغير دموي. فالقرابين الدمويَّة تكون من الحيوانات الطاهرة، كالبقر والغنم والحمام. وغير الدموية هي: باكورة المواسم والخمرُ والزيتُ والدقيقُ. والقرابين عندهم أنواع، منها: المحرَّقات والتَّقَدُّمات، وذبائح الخطيئة، وذبائح الإثم، وكانوا يحرقون المحرَّقات بأيديهم[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: أتزعم أنه أُوحي إليك بكتاب، وقد عُهِدَ إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسول حتىٰ يأتينا بقربان تأكله النار، ويكون لها دويٌّ خفيف تنزل من السماء، فإن جئتنا بهذا صدقناك[3].

وقد أمر الله نبيَّه ﷺ أن يَردَّ عليهم، فقال: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الواضحات ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ أي: بإحراق القَرابين،

---

(١) يظهر لي ـ والله أعلم ـ أنَّ مرادهم: لا نؤمن لرسول إلا أن يأتينا بشريعة مثل شريعتنا، وذكروا أمر القربان؛ لأنه ميزة خاصَّة بشريعتهم. يفهم هذا من الجواب، علىٰ نهج القرآن؛ لأنَّ حاصله أنَّ زكريا ويحيىٰ جاءا بمثل شريعتكم، فلمَ قتلتموهما أو قتلتم يحيىٰ؟ يُثْبت بهذا دَيْدَنهم وسلوكهم في معاكسةِ الرسل مطلقاً، علىٰ أيِّ وجه كانوا، وبأيِّ شريعة جاؤوا، شريعتهم أو غير شريعتهم. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٤: ٢١٩- ٢٢٠).

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٩: ٤٤٥).

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ في زعمكم أنكم تؤمنون بمَنْ هذه صفتُه، أو أنكم لا تؤمنون بي، لأني لم آمر بإحراق القرابين، أو لم آتِ بهذه المعجزة، وأولئك قد فعلوا.

وإنما أسند القتل إلىٰ هؤلاء المُخَاطَبين الذين كانوا في زمن النبيِّ ﷺ، مع أنَّ ذلك وقع من أجدادهم في الأزمان الغابرة؛ لأنَّ الأمة تعتبر وحدةً واحدةً، فتُخاطب بما فعل أوائلها وأواخرها معاً، لأن سلوكها متقارب يتأثر جيل عن جيل.

ثم ذكر ما فيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ عن تكذيبهم له، وعدم إيمانهم به، فقال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾، ففي الآية زيادةُ تنبيه له عن طبائع الأمم وأحوال الاجتماع.

ثم أكَّد التسلية بما يتضمَّن الوعد له ﷺ بالمكافأة العظمىٰ، تجاه ما يناله من الأذىٰ في سبيل الدعوة، ويَتَضمَّن الوعيد والتَّجهيل لأولئك المكذِّبين الـمُشِيعِين لموته في وَقْعة أُحُد، وللقائلين: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾؛ خِذلاناً للمؤمنين وشماتةً بهم، ذكر ذلك عندما تهيّـأ السياق للوعيد العام للكافرين والوعد للمؤمنين، فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ أي: ما مضىٰ منها فحُـلْمٌ، وما بقي فأمانيٌّ وخيالاتٌ، فماذا علىٰ مَن استبدل بهذه الحياة الفانية حياة سعيدة خالدة إذا استشهد في سبيل الله.

قال الأستاذ الإمام: الحياة الدنيا: هي السُّفْلىٰ أو القُرْبىٰ، والمراد منها حياتنا هذه. أي: معيشتُنا الحاضرةُ التي نَتَمتَّع فيها باللذَّات الحسيَّة كالأكل والشرب، أو المعنويَّة كالجاه والمنصب والسيادة، وهي علىٰ كلِّ حال متاعُ الغرور، لأنَّ صاحبها مغرورٌ مخدوع،

فهو يتعب لما لا يستحقُّ التعب، ويشقىٰ لتوهُّم السعادة، ويَصرِفُه غرورُه بها عن تكميل نفسه بالمعارف والأخلاق التي ترقىٰ بروحه إلىٰ سعادة الآخرة[1].

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

وبعد أنْ سلّاهم عمّا أصابهم يوم أُحد، وَوَطّن نفوسهم، أَخَذَ يُبصِّرهم بسنن الاجتماع ونُظُمه الثابتة التي لا تَتَغيَّر، وهي أنَّ النهضات لا تتمُّ في طرق مفروشة بالورود، ولكن بالصُّعوبات، فأبان لهم أنهم سيجدون بعدُ في أداء مهمتهم كثيراً من الشدَّة والأذىٰ، فقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ بفرض الصدقات والبذل في سبيل الله والجهاد، وبما سينال أموالهم وأنفسهم من جرَّاء ذلك من المُصادَرَة لأملاكهم في مكة، ومن الجوائح[2] والآفات والمصائب، إذ كل ذلك أمرٌ لا بد منه في الانقلابات والنهضات الإصلاحية، وما يُلابسها من مقاومات.

﴿وَ﴾ كذلك ﴿لَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ بأقوالهم وأفعالهم، وذلك أمر لا مَحالة ممَّن يُدْعَون لِنَبْذ دينهم واتِّباع دين جديد وعادات جديدة.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ علىٰ ما ينالكم ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الفشلَ بالتدبير الصحيح، ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ أي: من الأمور التي يجب العزم عليها والصبر في سبيل

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٢٢٣ - ٢٢٤).

(٢) جمع جائحة، وهي: الشدَّة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سَنَةٍ أو فتنة. «لسان العرب» (جوح).

نشر الدعوات. وقيل: المراد من التقوىٰ: معناها العرفي، وهو شاملٌ لما قبله، وهي: أن يمتثل ما هَدَىٰ الله إليه فعلاً وتركاً، فإنها من عَزْم الأمور.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

وبعد أن حكىٰ سبحانه عن اليهود شبهاً ومطاعنَ في نبوَّته ﷺ وأبطلها، أتىٰ بما يُؤْذن أنه كان يجب عليهم أن يكونوا أوَّل المؤمنين، إذ قد أُخِذَ عليهم العهدُ بذلك في التوراة، وسَبَك الكلام علىٰ ذكر حالة أهل الكتاب عموماً، من عدم امتثالهم لما أمرهم الله به وأخذ عليهم الميثاق، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ لا بالرفع ولا بالتأويل والتحريف. ولكنهم نَقَضُوا الميثاق ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فتلاعب سَلَفُهم بالدين لِنَيْل المناصب واستغلال الناس، فكانوا مَغْبونين في ذلك البيع؛ لأنهم استحقُّوا به العقاب الشديد. ومهما يكن الثمن في جانب ذلك فهو من متاع الدنيا، ومتاعُ الدنيا قليل. وقد جَرَت كلمة ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مَجْرىٰ المثل في ترك الشيء وعَدَم المبالاة به.

ثم بالغ في تهجين أمرهم هذا، وقال: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾، وما أشدَّ خسران مَنْ يبيع الصلاح العامَّ في الدنيا، والنعيمَ الدائم في الآخرة، بثمن بَخْس دراهمَ معدودة ومناصبَ مفقودة! وهذه الآية ـ وإن كانت لليهود والنصارىٰ ـ فإنَّ بعض مدلولها ينطبق اليوم علىٰ المسلمين، فإنهم مع حفظهم لكتابهم، وتلاوتهم له علىٰ الدوام، قد تركوا تبيينه للناس علىٰ الوجْه المفيد، وفَقَدوا هدايتَه، وعَمِيَتْ عليهم عِظَاتُه وحِكَمُه

وأسراره، واعترفوا بأنَّهم انحرفوا عنه، وصار القابض علىٰ دينه كالقابض علىٰ الجمْر.

ثم تابع المعنىٰ وذَكَر حالاً آخر من أحوال أهل الكتاب، مُتمِّماً للأول في تقرير مضمون ما سَبَق، عائداً بفحوىٰ الكلام إلىٰ محوره السابق عن وفد نجران الذين فرحوا بموقفهم تجاه مجادلة رسول الله، في تفسيرهم معنىٰ «كلمة الله» في حقِّ عيسىٰ، بما يلائم عقيدتهم، علىٰ نهج القرآن في العودة للتذكير بما سبق، وتوعَّدهم علىٰ ذلك، فقال: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا ﴾ من التأويل والتحريف للكتاب، وقُدرتهم علىٰ الإقناع والتمويه في أنَّهم أئمة مُصْلحون، يجبُ أن يُقْتدىٰ بهم، ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ من خير وصلاح، فيقال عنهم: إنهم حَمَلة الكتاب وحُفَّاظه، ومُفسِّروه وعلماؤه، ومُبيِّنوه ومُسْتَنْبطو مقاصدِه، وهم علىٰ نقيض من ذلك، إذ حوَّلوه عن الهداية إلىٰ ما يوافق الأهواء من مآرب وضلال، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: بمَنْجَاة منه، أو بُعْد عنه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

وعن علقمة بن أبي وقاص: أن مروان قال لبوَّابه: «اذهب يا رافع إلىٰ ابن عباس، فقل: لئن كان كلُّ امرئ فرح بما أتىٰ وأحبَّ أن يُحْمَدَ بما لم يفعل مُعَذَّباً، لَنُعَذَّبَنَّ أجمعون. فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه، إنما دَعَا النبي ﷺ يهود، فسألهم عن شيء فكتموه إيَّاه وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾». من البخاري[1].

أقول: أما يجوز أن تكون علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]. والله أعلم.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٥٦٨)، ومسلم (٢٧٧٨).

ولما كان من سنن القرآن وأساليبه في البيان: أن يختم كل حُكم أو عدَّة أحكام بذكر الله تعالىٰ والأمر بتقواه والتذكير بدلائل قدرته وألوهيته ووحدانيته، حَمْلاً للتمسُّك بتلك الأحكام، (كما جاء في المادة الخامسة من المقدمة الثانية)، عَقَّبَ السياق السابق بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾
ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ
أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟
بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا
وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ
رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟
وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

وبعد أن أطال الكلام عن المُبْطلين وشُبهاتهم من أهل الكتاب وغيرهم وردِّها، وعن بيان الحقِّ الواضح في الدعوة إلىٰ الله وتوحيده وتنزيهه، ذكر المؤمنين أُولي الألباب واستفادتهم من أدلة الكون في التوصُّل إلىٰ التوحيد والتنزيه والإيمان الصحيح، والتجاءَهُم إلىٰ الله وإعراضَهُم عمّا سواه، وقَبولَ الله سبحانه وتعالىٰ لهم واستجابةَ دعائهم، ووَعْدَهُ إياهم بالوعد الكريم. وعرَّض بهؤلاء المُعَارضين المشاغبين وبعَمَىٰ بصيرتهم عن آيات الله الكونيَّة الدالَّة علىٰ حقيَّة هذا الدين المبين، وعلىٰ اختصاص الله سبحانه بالألوهيَّة، واستحقاقه وَحْدَه بأن يُعْبَدَ ويُلجأ إليه. وذلك علىٰ نهج القرآن في المقابلة، (كما جاء في المادة الرابعة من المقدمة الثانية).

وقد جعل مفتتح الكلام متابعة دليل القدرة، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾[1]، والخَلْق: هو التقدير والترتيب الدالُّ علىٰ النظام، ولا شك أن في نظام السموات والأرض آيات عظيمة، أقلُّها التوازن في التقارب والتجاذب والتناسب علىٰ كثرتها وعظمتها. جلَّ مَنْ هذا صنعه، وهكذا تشريعه للعباد.

وهذه الآيات يختلف ظهور عظمتها للعقول، باختلاف دقَّة النظر وسَعَة المعرفة. فعلماء الهيئة والأرصاد يعرفون من نظام السماوات والأرض ما يُدهش العقل ويُحيِّر اللُّبَّ. وقد مرَّ بيان شيء منه في سورة البقرة في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] فارجع إليه. وأما سائر الناس فحسبهم هذه المناظر البديعة والأجرام الرفيعة وما فيها من آيات ظاهرة وآثار باهرة تنادي بعظمة المُبدِع الحكيم، واستحقاقه وحده أن يُعْبَد، إذْ لا يُشاركه في هذا الأمر العظيم شريكٌ ولا شبيهٌ ولا مثيلٌ. وهذا هو الباب الذي تدخل منه الروح، فتعرج في مراقي الكمال إلىٰ مستوىٰ تشعر فيه بعَظَمَة هذا الوجود ومَنْ أوجده، وأنه هو وحده المستحقّ للعبادة والتقديس، وهذا هو معنىٰ آية النور، والمراد منها: أنَّ هذا الكون بما فيه من دقائق يظهر عَظَمة الخالق وربوبيَّته واختصاصه بالألوهيَّة وحده دون من سواه.

---

(١) قيل لأعرابي: بم عرفت الله؟ فقال: البعرة تدل علىٰ البعير، وآثار الأقدام تدل علىٰ المسير، فسماء ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، ألا يدلان علىٰ الحكيم الخبير؟!

وقال العلامة هرشل الإنكليزي من أكبر علماء الفلك: كلَّما اتَّسع نطاقُ العلم ازدادت البراهين الواسعة القوية علىٰ وجود خالق أزلي لا حدَّ لقدرته ولا نهاية لعظمته. فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا علىٰ تشييد صرح العلم، وهو في الحقيقة صرحُ عَظَمةِ الخالق وحده. (المؤلف).

وقصة الأعرابي ذكرها الرازي في «تفسيره» (٣: ٣١٩).

ثم ذكر صفات أُولي الألباب هؤلاء، وما استفادوه من نظرهم في إبداع هذه السماوات ومبدعها، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، والمراد من ذلك: الاعتماد علىٰ الله، والسؤال منه في سائر الأوضاع والشؤون والأحوال، وتذكُّر عظمته ونِعَمِه وفَضْله وحِكَمِه، حتىٰ ينتهي هذا التفكير إلىٰ العلم بأنَّ الله سبحانه لم يخلق هذه الأشياء الكونيَّة بهذا الإبداع والإتقان باطلاً وعبثاً، وإنما هو أمرٌ له ما وراءه من مصير وقرار، فإما الجنة أو النار، فيستجيرون من النار، كما حكىٰ ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾، ولكن لمقاصدَ نبيلةٍ وغايات جليلة، ينال المحسن منها أعظمَ نصيب، ويحُلُّ بالمسيء ما يصيبه من عذاب السعير وآلام اللهيب، ﴿سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾.

ومحصَّل الكلام: أنهم ينظرون إلىٰ هَيْبة ذلك الربِّ العظيم الذي خَلَق تلك الأكوان الدالَّة علىٰ عِظَمِ قُدرته وجبروته، فيعلمون أنَّ من عارضه وعَصَاه، فلا مَلْجَأ له ولا مَهْرَب ولا استقرار، ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾.

ثم ذكروا صورةَ إيمانهم وسرعةَ استجابتهم، وقَرَنوا ذلك بتتميم الدعاء لِنَيْل ثمرته التي وَعَدَ الله بها المؤمنين، فقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾ وهو الرسول ﷺ، دعانا ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾، وعدّىٰ الفعل بـ«علىٰ» لتضمُّنه معنىٰ الإنزال، علىٰ نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية).

ثم أكَّدوا ذلك الدعاء بقولهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: بإدخالنا النار التي يُخزىٰ مَنْ دخلها. ففي الجملة مقابلةٌ لقوله: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾.

ثم ختموا الدعاء بهذا الثناء، فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾، فسجَّلوا بهذا التَّسجيل طلباً للاستجابة ورجاءً لها، فسجَّل لهم سبحانه بقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ علَّة هذه المساواة بين الذكر والأنثىٰ، بقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ الأمر الذي استحقُّوا به ما طلبوا من تكفير السيِّئات، فقال: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فاكتفىٰ من صفات الجنات بأبرز صفاتها. ومثل هذا الاكتفاء من خصائص اللغة وأساليب القرآن. وكان ذلك الجزاء ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

ثم ختم الكلام بما فيه أكبر رجاء، وأعظم أمل، وأكرم وَعْد للمحسنين، فقال: ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾ فضْلاً منه ورحمة، وإن كان قد رتَّبه علىٰ الأعمال والأسباب.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (١٩٨)﴾.

ولما كان ضعفاء المؤمنين يَسْتبطئون وَعْدَ الله لهم، ويَرَوْنَ تَفَوُّق الكافرين في بعض أحوال الدنيا مُنغِّصاً لهم، ومُخْدشاً لنفسيَّتهم، بيَّن لهم تعالىٰ حَقَارة ما أُوتي الكَفَرة من حظوظ الدنيا، وسُوء مغبَّته عليهم، وعظمة ما أوتي المؤمنون من نعيم الآخرة وجزائها الأوفىٰ، مُخَاطباً في ذلك النبي ﷺ علىٰ طريقة خطاب الرئيس بما يُراد من

الاتباع، وضمَّنه الإيماء إلىٰ ضؤولة ما وقع من غَلَبة المشركين في أُحد، ووعيدهم فقال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ للمتاجر والمراعي والمزارع آمنين مُعْتزِّين، فذلك ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾ زائل، ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾.

هذا المصير الذي قابله بمصير المؤمنين، فقال: ﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، والنُّزل: ما يُهيَّؤ للضيْف النازل معجَّلاً، وهذا هو النعيم الجسماني، ﴿وَمَا﴾ لهم فوق ذلك ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ من النَّعيم الروحاني برضوان الله الأكبر ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ من متاعِ الدنيا الذي يتقلَّب به الكفّار.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

وبعد أن بيَّن حالَ المؤمنين وما أعدَّه لهم من الثواب، وحالَ الكافرين وما هيَّأه لـهم من العقاب، ذكر فريقاً من أهل الكتاب يهتدون بهذا القرآن، وكانوا من قبل يهتدون بما عندهم من هَدْي الأنبياء، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالاستثناء تحقيقاً للحقِّ الدقيق، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وهذه الآية في حكم الاستثناء مما سبق في الجملة علىٰ أهل الكتاب.

فسجَّل لهذا الصنف منهم بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ثم علَّل هذا الوعد الكريم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ أي: يوفِّي كلَّ كاسب أجرَه بحسبه علىٰ إثر عمله، لأنَّ سنَّته مَضَتْ أن تكون النتائج آثار الأعمال

ومرتَّبة عليها، فهو يوفِّي كلَّ عامل عمله بلا إبطاء، وكما يكون الجزاء سريعاً في الدنيا حيث تظهر نتائج الأعمال عند انتهائها، كذلك يكون في الآخرة، فإنَّ أثر الأعمال يظهر للمرء عَقِبَ الموت، وهو أول قدم يضعه في باب عالم الآخرة.

وقيل أيضاً في معنىٰ ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾: أنه يحاسب الخلق كلَّهم كنفس واحدة، بحيث يَتَمثَّل لهم كل عمل سبق منهم. وهذا الانكشاف السريع هو سُرعة الحساب، إذ يُدرِكُ كلُّ واحد منهم ما عمل من خير أو شر، فيعلم ما له وما عليه، وما يستحقُّ علىٰ كل عمل منها من نعيم أو عقاب.

ثم ختم سبحانه وتعالىٰ السورة التي احتوت علىٰ مواقف المؤمنين مع المعارضين والمقاومين، بهذه الوصيَّة للمؤمنين، لأنها هي التي يَتَحقَّق بها إيفاءُ الوعد بالنَّصر في الدنيا، وحُسْن الجزاء في الآخرة، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ﴾ علىٰ ما يلحقكم من الأذىٰ، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ الأعداء، أي: غالِبُوهُم بالصبر والثبات، والغلبةُ للصابرين، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ الثغور كي لا تُؤْخَذوا منها علىٰ غِرَّة، كما وقع لكم في أُحد حين ترك الثغرَ حرَّاسُه.

والصبر عدَّة الحياة، لأنها كدح وجهاد، فإن لم يكن الإنسان معتاداً علىٰ الصبر خَارَتْ قُواه، وضَعُفَ عن مواصلة السَّيْر، وفشل في أموره. والمصابرة: المُغَالَبة في الصَّبر، لأن النجاح للغالب فيه، والتقوىٰ هو العنصر المهمُّ في الفلاح، لذلك قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ لأنَّ فيها اتِّقاء لمعاكسة سُنن الله.

ومُصَابَرَةُ الأعداء لا تكون إلا بالتفوُّق في العلوم والصناعات، ولا سيما الحربيَّة منها، فهي واجبةٌ علىٰ المسلمين في هذا العصر، بحكم الدلالة الضمنيَّة لهذه الآية وغيرها، لأنَّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، كما قُرِّر في الأصول. والله أعلم.

وأما التقوىٰ، فقد قال الأستاذ الإمام: هي أن تَـقيَ نَـفْسَكَ من الله، أي: من غَضَبه وسَخَطه وعقوبته. ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته ومعرفة ما يُرضيه وما يُسْخطه، ولا يَعرِفُ هذا إلا من فهم كتابَ الله تعالىٰ، وعَرَف سُنَّة نبيِّه ﷺ، وسيرةَ سلف الأمة الصالح، مُطالباً نفسه بالاهتداء بذلك كلِّه، فمَنْ أعـدَّ نفسه لذلك الفلاح فقد فاز بالسعادة الأبديَّة. جعلنا الله من الفائزين.

ومن سُنَّة القرآن: أن يذكر الصبر في كلِّ مقام يشقُّ علىٰ النفس، وقد ذكره في نيِّف وسبعين موضعاً منه، إذْ مما لا شك فيه أنَّ الأفراد والأمم إذا عرفت الغايةَ والوسيلة وعملت واستمرَّت وصابرت وصَبَرت، نالت بعون الله الغاية؛ لأنَّ ذلك من سُنن الله الطبيعيَّة، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولا يتمُّ الصبر في الحروب إلا مع العُدد القويَّـة، فاتِّخاذها وصُنْعها من أكبر الواجبات وأعظمِها شأناً، ونحن عن هذا غافلون.

* * *

فهرس محتويات المجلد الثاني

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥-٨
أثر هذا القرآن في المجتمع الذي يسود فيه	٩-١٠
تفسير سورة الفاتحة	١١-١٨
تفسير سورة البقرة	١٩-٤٣٧
تفسير سورة آل عمران	٤٣٩-٥٩٧

❋ ❋ ❋

تفسير القرآن العظيم
المسمّى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

تأليف العلامة الشيخ

رشيد الخطيب الموصلي
١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلد الثالث
تفسير سورة النساء إلى نهاية سورة الأعراف

اعتنى به وقدم له

مجد أحمد مكي

أروقة

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مَجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

سُورَةُ النِّسَاءِ

وهي مئة وسبعون وخمس أو ست أو سبع آيات في العدّ، علىٰ خلاف في فاصلتين.

وهي مدنية وإن اختلف في آية منها أنها نزلت في مكة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]؛ لأنَّ ما عليه المحقِّقون: أنَّ المدنيَّ ما نَزَلَ بعد الهجرة حيث اتُّخذت المدينة عاصمة الإسلام، ولا عبرة بموضع النزول.

فحكم ما نزل بمكة عام الفتح، أو عام حجَّة الوداع، كحكم ما نزل في الحديبية وبدر وغير ذلك من المواضع التي كان يخرج إليها النبيُّ ﷺ لغزو أو نُسُك، علىٰ عزم العودة إلىٰ المدينة، فهي مدنية.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[1]، افتتح السورة بالأمر بالتقوىٰ حَمْلاً علىٰ التَّمسُّك بما يأتي فيها من الأحكام. وبما أنَّ كثيراً من هذه الأحكام

---

(١) تبيِّن الآية أنَّ هذا البشر المنتشر في الأرض من الذكور والإناث المختلف المواطن والأجناس والألسنة والألوان والغرائز والميول، يرجع كله إلىٰ أب واحد وأم واحدة، فالبشر كله أسرة واحدة، أبوهم آدم والأم حواء. وحق علىٰ أبناء الأسرة الواحدة أن يتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ ولا يتنافروا علىٰ الإثم والعدوان. ولذا أعاد الله الأمر بتقواه مقروناً بمراعاة حقوق الأرحام، ومذكِّراً إياه بما يكون منه من الالتجاء إلىٰ الله في الشدائد والملمَّات، فالواجبُ عليه تقواه وعبادته وحده دون سواه. كما أنه حافز قويٌّ إلىٰ امتثال ما جاء في السورة من أحكام الضعيفين: اليتامىٰ والنساء.
وقوله سبحانه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، هذه العبارة يُعبِّر بها القرآن علىٰ تنويع الإنسان إلىٰ ذكر وأنثىٰ بحسب الحكمة، ضمَّن فيها كلمة ﴿خَلَقَ﴾ معنىٰ: كثَّر، وعطف عليه ﴿خَلَقَ﴾ الثانية السبب علىٰ السبب، ويجوز عَوْدُ ضميرِ ﴿مِنْهَا﴾ إلىٰ ضمير «كُم» باعتبار الأمة، وضمير ﴿مِنْهُمَا﴾ إلىٰ مطلق الزوجين، والله أعلم. (المؤلف).

يتعلَّق بتنظيم العلاقة بين الزوجين أتىٰ بجملة الصِّلة هذه، لإثارة الشعور بالعطف، والحثِّ علىٰ حُسْن العشرة وتنظيم الصلات بينهما. وقد عُنِيَت السورة بتركيز الأمة داخلاً وخارجاً، فذكرت كثيراً من أحكام النساء وتنظيم الأسرة لتركيزها من الداخل، وعُنيت بمعالجة أمر دفاع الأعداء لتركيزها من الخارج.

وقال الأستاذ الإمام: افتتح سبحانه السورة بتذكير الناس المخاطَبين بأنهم من نفس واحدة، فكان هذا تمهيداً وبراعةَ مَطْلع لما في السورة من أحكام القرابة بالنَّسب والمصاهرة، وما يتعلَّق بذلك من أحكام الأنكحة والمواريث[١].

ثم قال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، قال أبو مسلم: خَلَقَه من جنسها فكان مِثلَها، وذلك من مقْتضيات الحكمة في نظام التناسل. والذي يظهر لي أنَّ في الآية إلماعاً إلىٰ اقتضاء التآلف وتنظيم العلاقات بين الزوجين بحكم هذه الخِلْقة. ويجوز أن يكون المراد من قوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ التَّمنُّن والتَّنبيه إلىٰ عَظَمة القدرة والحكمة في كمال نظام التناسل بسائر أسبابه، إبقاءً للنوع الإنساني. فالمعنىٰ: خَلَق من الجنس ذكراً وأنثىٰ ليتمَّ التناسل. ولذلك قال: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ أي: من مطلق الزوجين ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾، وعلىٰ تقدير أنَّ المراد بالنفس الواحدة آدم، يكون المراد بالرجال الكثيرة والنساء: أولاده وأحفاده.

وقال الأستاذ الإمام ما معناه: نكَّر ﴿رِجَالًا﴾ ﴿وَنِسَآءً﴾ وأكَّدهما بقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ علىٰ طريقة الاكتفاء، إشارةً إلىٰ كثرة الأنواع، وإلىٰ أنه ليس المراد بالتثنية في قوله: ﴿مِنْهُمَا﴾ آدم وحواء، بل كلّ زوجين[٢].

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٢٦٤).

(٢) المصدر السابق (٤: ٢٧١).

أقول: ولا سيما ما صار منهما عشيرة أو قبيلة. والزوجان وحدة واحدة؛ لأنَّ كلاً منهما مُتَمِّمٌ للآخر، وقد أشار سبحانه بمُوجبات هذه الوحدة إلىٰ دواعي الحُنُوِّ والعطف والشَّفقة والرحمة بين بني الإنسان، ولا سيما بين الزوجين.

وفي قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ تكريرٌ للأمر بالتقوىٰ، وتذكيرٌ لوجه آخر من مُوجبات الامتثال، وهو الإشعار برهبته سبحانه. فإنَّ سؤال بعضهم بعضاً بالله تعالىٰ بأن يقول: أسألك بالله، وأنشدك الله، علىٰ سبيل الاستعطاف مسبوكاً علىٰ التَّخويف بالله، يقتضي الاتِّقاء من مخالفة أوامره ونواهيه.

ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾، فقرن اتِّقاء الأرحام باتِّقاء الله للحَمْل علىٰ مزيد الاهتمام بها.

ومحصل الآية: أنَّ التساؤل به يُؤْذن بالرهبة منه، ووجوب الطاعة والإحسان. وكذلك أمر الرَّحِم في هذا الشأن، فاستثار وشيجة[1] الرحم التي تجمع بين الناس ذكوراً وإناثاً، وتجعلهم وحدة واحدة.

ثم ختم الآية بما يحمل علىٰ التمسُّك بما جاء فيها من وصايا، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾[2]، أي: مُشْرفاً علىٰ أعمالكم. وفي هذه الفاصلة كثير من الحضِّ علىٰ الامتثال، فإنَّ من يشعر بأنَّ الله مُشْرِفٌ علىٰ أعماله، يخافه ويتقيه.

وقد جعل هذا تـمهيداً لما يأتي من الأحكام، كحكم اليتيم والمرأة. أي: فإن لم تجمعكم بهما رَحِمٌ خاصَّة، فرَحِمٌ عامة، فاتَّقوا الله واتَّقوها.

---

(١) الوشيجة والواشجة: الرَّحِمُ المُشْتبكةُ المتَّصلةُ «لسان العرب» (وشج).

(٢) بدأ سبحانه السورة بما يوقظ الشعور بالقُربىٰ العامة والنَّسب العام في بني الإنسان، وبوجوب مراعاة هذا الرحم، بالعطف والحنان، وبالتوادِّ والتكافل، وبمراعاة الحقوق والعدل والإنصاف، يحملهم بذلك علىٰ ما يأتي في تضاعيف هذه السورة من الأحكام الاجتماعية، والقواعد الإنسانية، ويُحذِّرهم بتقوىٰ الله عن مخالفة ذلك. ثم شرع في تفصيل تلك الأحكام. (المؤلف).

ثم شرع في تفصيل ذلك التمهيد، بذكر بعض مواضع الاتِّقاء، فقال: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ أي: لا تبدلوا الرديء من أموالكم بالجيِّد من أموالهم، وتخصيص هذه المعاملة بالنَّهي؛ لخروجها مَخْرَج العادة، حيث كانوا يعملون هذا في أموال الأيتام، لا لإباحة ما عداها.

ومثلُ هذا قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾، وإنما عدَّىٰ الفعل بـ«إلىٰ» لتضمُّنه معنىٰ الضم، بصورة الأخذ والاستيلاء عليها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية).

وقد ذكر صورتين للتصرُّف السَّيِّئ في أموال اليتامىٰ، ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ أي: إثماً عظيماً.

ثمَّ ربط حكم المعاملة مع اليتامىٰ بحكم الأنكحة الشاملة لهنَّ ولغيرهنَّ، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر بما يشمله وغيرَه، علىٰ طريقة قاعدة تشريعيَّة عامة، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، وجعل الآية بحسب السِّياق طريقاً للخلاص من تخوُّف الوقوع في ظلم اليتيمات حين التزوُّج بهنَّ، وضمَّنها الرخْصة في تعدُّد الزوجات، وانتهىٰ بالأمر الأول إلىٰ الأمر الثاني، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: لا تعاملوهُنَّ بالعدل إذا تزوَّجتُموهُنَّ استخفافاً بحقوقهنَّ لأنهُنَّ رُبِّينَ عندكم، فلا تَتَزوَّجوا بهنَّ، إذ قد جَعَل الله لكم مندوحةً عن ذلك، بما أباحه لكم وَوَسَّع عليكم في نظام الزواج، ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الرشيدات ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[1]

---

(١) تضمَّنت هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ الرخصة في تعدّد الزوجات، وعلَّقت عليه الزجر عن جَوْر اليتامىٰ اللاتي تحت أمرهم وفي حَوْزتهم. وفحواه: إنَّ لكم في الرخصة بتعدُّد الزوجات مُتَّسعاً عن استغلال اليتامىٰ =

واتركوا التَّزَوُّج بيَتَاماكُم هذه إنْ خِفْتُم أَلَّا تُقْسِطُوا مَعَهُنَّ، حَذَراً من ذلك.

فهذه الآية بمقتضىٰ السِّياق حَلٌّ لمشكلة الخوف من عدم الإقْساط، وبمقتضىٰ نظمها، تقريرٌ لقاعدة تَعدُّد الزوجات، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. وحاصل معناها: وإنْ خفتم أنْ لا تقسطوا في اليتامىٰ لو تزوَّجتموهُنَّ، فانكحوا من غيرهنَّ ما طاب لكم من النساء مثنىٰ وثلاث ورباع.

وعن عروة رضي الله عنه: «أنه سأل خالَته عائشةَ أمَّ المؤمنين رضي الله عنها عن هذه الآية، فقالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون شريكة في ماله فلا يُنكِحُها غيرَه، كراهية أن يشركه أحد في ماله، فنُهوا عن ذلك»[١].

أقول: تريد أنه لا يتزوّجها إلا رغبةً في مالها. ولا شك أن مثل هذا الزواج لا يُنتظر فيه العدل وحُسْن العشرة والوفاء.

وفي رواية عنها رضي الله عنها: فيتزوّجها علىٰ مالها ويُسيء صحبتها[٢].

وقال الأستاذ الإمام: كأنه يقول: إذا أردتم التزوُّج باليتيمة، وخفتم أن تُسهِّلَ عليكم الزوجيَّة أن تأكلوا أموالَها، فاتركوا التزوُّج بها، وانكحوا ما طاب لكم من النساء الرشيدات مثنىٰ وثلاث ورباع[٣]، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ فيما بينهنَّ أيضاً ولو في أقلِّ الأعداد المذكورة كما خفتم ألا تعدلوا في حقِّ اليتامىٰ، ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ ولا تزيدوا عليها،

= اللاتي في قبضتكم، علىٰ الوجه الذي تريدونه في الزواج بهنّ، وهو الطمع في مالهنّ لا الرغبة بهنّ، فيجرُّ ذلك إلىٰ سوء معاملتـهن والجَوْر عليهن. فاتركوا مثل هذا الزواج، لأن لكم في الرخصة بتعدُّد الزوجات متَّسعاً عنه ومَنْجاة من وَرْطاته. (المؤلف).

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٥٧٤)، ومسلم (٣٠١٨).

(٢) رواه البخاري (٥٠٩٨).

(٣) تفسير «المنار» (٤: ٢٨٣).

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من السَّراري، أو اقتصروا عليهنّ، فإنه أحرىٰ أن لا تـجُوروا عليهنَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ۝٣﴾ أي: الاقتصار علىٰ الزوجة الواحدة أقرب أن لا تجوروا.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: لئـلا تكثر عائلتكم، ويشتدّ عليكم العيش. فتكون الفقرة للترغيب بترك تعدُّد الزوجات، والاقتصار علىٰ الواحدة، لمن لا يأمن من نفسه الجوْر، أو العجز عن إعالة العيال. والله أعلم.

والظاهر من هذه الآية: أنَّ إباحة تعدُّد الزوجات تكون عند الحاجة، ومشروطة بالثقة في إقامة العدل بينهنَّ، والأمن من الجَوْر عليهنَّ، في المبيت والطعام والكسوة والسكن وحُسْن العشرة. فالمراد: العدل في الحقوق، لا في المَيْل القلبي، وإنما جاء ذلك في الآية الآتية (١٢٩).

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾.

ثم تـمَّم بيان حكم الأنكحة، فقال: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ أي: مهورهنَّ ﴿نِحْلَةً﴾ أي: عطيَّـةً وهِبةً، غيرَ قابلة للاسترداد، وليست عِوَضاً عن شيء؛ إذ ليس المهور أثماناً تُملك بها الرقاب. وهذا تكريمٌ للمرأة ورفعٌ لمستواها، حتىٰ إنها لو سمحت ببعضه فلا بأس، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ أي: غير مُـخْبَثات بما يَضْطرهنَّ إلىٰ السمـاح به من جانبكم، ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾ أي: لا إثم فيه ولا

عقاب. وأما إذا كان ذلك لا عن طيب نفس فهو الرديء الخبيث، والنِّحْلة: مفرد النِّحَل، استعارها للصَدُقات تنويهاً بشأنها.

ثم علَّق علىٰ قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ وقولِه: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾؛ بهذا الحكم العام المتمِّم للموضوع المالي بطريقة تشريعيَّة عامة، تشملها وغيرَها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك أحياناً، فإنه يتم الموضوع، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾، قَوَامُ الأمر وقيامه: نظامه وعماده وما يقوم به. أي: جعل بها قوام أموركم ومعايشكم، فوصفها بهذا الوصف للتنبيه علىٰ موقعها الحيوي، وعلىٰ أنَّ الاهتمام بحفظها من عَبَث أيدي السُّفهاء ضروري.

والسفيه: من لا يُحسن التَّصرُّف في ماله لِصِغَرٍ أو خَبَلٍ أو طيشٍ أو تبذير. وقد قالوا: السَّفَهُ: طَيْشٌ في الشَّخص يبعثه علىٰ التصرُّف في ماله خلافاً لمصلحته، مع عدم اختلال عقله. فمنعه الشارع عن التَّصرُّف بماله صيانةً له من الضياع. ومن معنىٰ الآية: أعطوا كلَّ يتيم مالَه إذا بلغ، وكلَّ امرأة صداقَها إذا كانت رشيدة. أما إذا كان أحدهما سفيهاً، لا يُحسن التَّصرُّف في ماله، فيجب أن تحفظوه له حتىٰ يرشد.

وليس هذا الحكم خاصاً باليتيم والمرأة، ولكنه عام لكلِّ من لا يُحْسِنُ التصرُّف في ماله، كما تدلُّ عليه الصيغة، فهو تعقيبٌ للحكم الخاص بقاعدة عامة تشمله وغيرَه، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

وإنما قال: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ ولم يقل: (أموالهم)، مع أنَّ الخطاب للأولياء، والمال للسفهاء؛ إيماءً لوحدة المجموع، وإجراءً للوحدة بالنوع مجْرىٰ الوحدة بالشخص، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]. كأنَّ المال شيءٌ واحد، ينتفع به نوع الإنسان علىٰ الإطلاق.

وقال الأستاذ الإمام: في هذه الجملة من الآية تحريضٌ علىٰ حفظ المال، وتعريف بقيمته، فلا يجوز للمسلم أن يُبذِّر أمواله، وكان السَّلفُ من أشدِّ الناس محافظةً علىٰ ما في أيديهم، وأعرَفِ الناس بتحصيل المال من وجوه الحلال[١].

ثم بيّن سبحانه وتعالىٰ المعاملة التي يجب أن يُعامَلَ بها السفهاء بعد حَجْرهم عن المال، فقال: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾، وإنما قال: ﴿فِيهَا﴾، ولم يقل: (منها)؛ لأن المراد كما قال في «الكشاف»: اجعلوها مكاناً لرزقهم بأن تتَّجروا فيها، حتىٰ تكون نفقتهم من الأرباح[٢]، ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥﴾ وهو الوعد الجميل، وتطييب القلب بأنَّ المال مالُه يحاول أن يحفظه له. ويشمل هذا القول أيضاً النُّصح لهم والإرشاد، والتأديب الحسن، والتهذيب المفيد.

وحاصل الكلام: أنَّ المال قوامٌ لحياة الأمة كلِّها، يجب أن يتصرَّف به صاحبُه حسب الخطة التي وضعها الله له، ومن لم يفعل حُجِرَ عليه.

وفي قوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ إلماعٌ إلىٰ أنَّ رؤوس الأموال لا تبقىٰ مُجمَّدة، بل يجب استثمارها.

ثم عاد إلىٰ الأيتام، علىٰ نهج القرآن في المهم، وذكر سبحانه الشرط أو الصفة التي تستحقُّ بها الأيتام أن يُعطَوْا أموالَهم، فقال: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ أي: اختبروهم ودرِّبوهم وثقِّفوهم علىٰ استثمار المال، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾، ومعنىٰ بلوغ النكاح: بلوغ السِّنِّ التي يكون بها المرء مستعداً لذلك، وقد قدّروا السن الخامسة عشرة فما حولها. فقد شرط لدفع مال اليتيم إليه أمرين: الأول:

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٣١٤).

(٢) «الكشاف» (١: ٤٧٢)

البلوغ، والثاني: الرُّشْد في التَّصرُّف؛ من نَجَابة وحُسْن صُنع ومعرفة بصالح الأمور. أي: فإنْ آنستم منهم بعد البلوغ رُشْداً، فادفعوا إليهم أموالهم، وإلا فعليكم أن تستمرُّوا علىٰ الابتلاء والاختبار حتىٰ تؤنَسُوه منهم.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ ما تقدَّم من الأمر بإيتاء اليتامىٰ أموالهم كان مجملاً. وفي هذه الآية تفصيلٌ لكيفيَّة الإيتاء ووقته. وقد اختلف العلماء في ابتلاء اليتيم كيف يكون؟ فقال بعضهم: يُعطىٰ شيئاً من المال ليتصرَّف فيه، فإنْ أحسَنَ التصرُّف كان راشداً، وإلا كان علىٰ سَفَهِه. وقال بعضهم: لا يُعطىٰ شيئاً، ولكن يُحضِرُهُ الولي المعاملات المالية ويختبره فيها[1]. والأول أصوب، لأن العلم النظري ليس كالعملي.

ثم قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾، قال الأستاذ الإمام: قيّد النهي بالإسراف، وهو صَرْف مال اليتيم في غير محلِّه، ولو علىٰ اليتيم نفسه[2]. وقيّده بالبدار والمسابقة لكبر اليتيم؛ لأنَّ الوليَّ الضعيفَ الذمَّة يستعجل ببعض التصرُّفات في مال اليتيم التي له منها منفعة، لئلا تفوته إذا كبر اليتيم، وأخذ ماله. فلما كانت هاتان الحالتان من مواضع الضعف التي تعرض للإنسان، نبَّه الله سبحانه وتعالىٰ عليهما، ونهىٰ عنهما ليراقب الوليُّ ربَّه فيهما إذا عرضتا له.

أما الأكل منها بغير تلك الأحوال الخائنة، فقد ذكر حُكْمَهُ بقوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: فمن كان منكم غنياً غير محتاج إلىٰ شيء من مال اليتيم الذي تحت ولايته، فَلْيعفَّ عن الأكل من ماله، أي: فليجعل عمله في صَوْن اليتيم وحفظِ ماله مجاناً بلا عوض؛ يبتغي به وجه الله ورضاه، ومن كان فقيراً

(١) تفسير «المنار» (٤: ٣١٦).

(٢) المصدر السابق (٤: ٣١٨).

لا يستغني عن الانتفاع بشيءٍ من مال اليتيم الذي يشغل بعض وقته في تثميره وحفظه، فليأكل منه بالمعروف، وهو ما يبيحه الشرع ولا يستنكره أرباب المروءة. أي: بالصورة التي لا ينكرها أهل العُرْف ولا يعدُّونها طمعاً ولا خيانة، كالأجرة المناسبة، ومصاريف العمل الضروريَّة.

ثم ذكر سبحانه أنه يجب الإشهاد علىٰ دفع الأموال إليهم، فقال: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾، ثم ختم السياق بما يحمل علىٰ دقة الصدق والأمانة في أمر أموال الأيتام، فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ أي: علىٰ ما أظهرتم وأسررتم. وفي هذه الفاصلة تهديدٌ رهيبٌ في أمر الأيتام والنساء.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

وبعد أن ذكر أحكام أموال الأيتام، أكمل البحث ببيان أنْ لا فَرْقَ بين البنين والبنات من الأيتام في الميراث، ولكن ذكر ذلك في صورةٍ قاعدةٍ عامة، علىٰ نهج القرآن في إرداف الأمر الخاصِّ بالأمر العامِّ الذي يشمله وغيرَه، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية). فذكر أن لا فرق بين الرجال والنساء في الميراث، خلافاً لما كان في الجاهلية من عدم توريث النساء، صغيرات كُنَّ أو كبيرات، ولا يُورِّثون البنين الصغار مطلقاً، أو مما يخصُّ الرجال، كالخيل وعُدد الحرب، فأبطل ذلك بهذا التشريع، جاعلاً للكلام

قاعدة عامة يشمل ما قبلها على نهج القرآن، فقال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، ومالُ اليتامىٰ في الأغلب إنما يكون من الوالدين والأقربين. ثم قرّر ذلك بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ أي: لا فرق بين القليل من المال والكثير منه، فقد جعل الله فيه لكلِّ صنف منهما ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ أي: حقاً معيَّناً لا ينقص ولا يزيد، كما ستبيِّنه آية المواريث.

فهذه الآية في إبطال ما كانت عليه العرب في الجاهلية من هَضْم حقِّ الضعيفين؛ اليتيمِ والمرأةِ من الميراث، ذكرها حيث تهيّأ مكانُها. وقد كان بعض الجاهلية يمنعونها من المال كلِّه، وبعضهم يمنعونها مما يخصُّ الرجال كالخيل والآلات الحربية وشبهها، لذلك جاء الحكم مقرراً بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾، دفعاً لتوهُّم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة.

ثم ذكر سبحانه أدباً نبيلاً يتعلَّق بقسمة هذه الأموال الموروثة بين الوارثين، فقال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ للميِّت ممَّن ليس له حقُّ الميراث، أو أُولو القُربىٰ للوارث، ﴿وَ﴾ كذلك إذا حَضَر ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ الذين لا يرثون، ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي: من ذلك المال المقسوم شيئاً مناسباً.

قال الأستاذ الإمام: الخطابُ لمن يُقْسَمُ عليهم المال. وقد أرشدت الآية إلىٰ اعتبار أنَّ هذا المال رزقٌ ساقه الله إلىٰ الوارثين عَفْواً، بغير كسب منهم ولا سعي، فلا ينبغي أن يبخلوا به علىٰ المحتاجين من ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين، ومنهم مَنْ يكون الحرمانُ مَدْعاةَ حَسَدِه للوارث، كأقربائه غير الوارثين. وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾ فهو ما تطيبُ به نفوس هؤلاء المحتاجين عندما يأخذون ما يُعطاهم، حتىٰ لا يثقل علىٰ عزيز النفس منهم ما يأخذه، ويرضىٰ الطامع في أكثر مما

أعطي، بما أعطي. فإنَّ من الفقراء مَنْ يُظهِرُ استقلالَ ما ناله واستكثارَ ما نال سواه، فينبغي أن يُلاطَفَ مثل هذا ولا يغلظ له في القول.

ثم قال: والحكمة في الأمر بقول المعروف: أنَّ مِن عادة الناس أن يتضايقوا ويتبرَّموا من حضور ذوي القربىٰ مجلسَهم في هذه الحالة، ومن كان كارهاً لشيء تظهر كراهته في فلتات لسانه. فعلَّمنا الله تعالىٰ هذا الأدب العالي.

وقال سعيد بن جبير: إنَّ الأمر بهذا الرزق للوجوب، وهجره الناس كما هجروا العمل بآية الاستئذان عند دخول البيت.

ثم عاد سبحانه بالكلام عن الأيتام، كشأن القرآن في الموضوع المهم، فحذَّر من معاملتهم بغير الحُسْنىٰ، وسَبَك التعبير علىٰ ما يثير الشعور في ذلك، فقال: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾، والقول السديد يظهر في الإنصاف وحُسْن العشرة. فأمرهم سبحانه أن يُحسنوا معاملتهم مالياً وأدبياً، كما يحبون مثل ذلك لذريَّتهم الضعفاء لو ماتوا وتركوهم، وحذَّرهم من ترك ذلك.

وقال الأستاذ الإمام(١) في أحد رأييه: إنَّ الكلام للأوصياء والأولياء الذين يقومون(٢) علىٰ اليتامىٰ. فبعد أن أوصىٰ بحفظ أموالهم وحُسْن تربيتهم بابتلائهم واختبارهم بالعمل، ليُعرَفَ رُشْدُهم، أمرهم بإحسان القول لهم أيضاً، فإنَّ اليتيم يجرحه أقلُّ قول يُهين، ولا سيما ذكر أبيه وأمِّه بسوء، وقد جرت العادة بتساهل الناس في ذلك. ويروىٰ عن مُفسِّري السلف: أنَّ الآية في ولاة اليتامىٰ؛ يأمرهم الله أن يُحسنوا

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) في تفسير «المنار»: يقولون.

معاملتهم، كما يُحبون أن يُحسن الناس معاملة ذُرِّيَّتهم الضعفاء، لو تركوهم وماتوا عنهم[١].

وقد اختار ابن جرير: أن ما قبل هذه الآية، وهو قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ إنما هي في قسمة الوصايا، وأنَّ هذه الآية إنما هي في الذين يحضرون مُوصياً يوصي في ماله[٢]، ويكون له ذرية ضعفاء. فالله تعالىٰ يأمر هؤلاء أن يخافوا علىٰ ذرية هذا الرجل مِثلَ ما يخافون علىٰ ذُريتهم، لو تركوا ذرية ضعافاً، فلا يقولوا في الوصية ما يمكن أن يضرَّ بذرية الموصي، بل يقولوا قولاً سديداً، بأن يرغِّبوه فيما يرضون مِثلَه لأنفسهم ولذرِّيتهم من بعدهم.

وعلىٰ هذا، فحاصل معنىٰ الآية: إذا حَضَرْتَ وصيةَ ميت، فمُرْهُ بما كنتَ آمراً به نفسَك، وخَفْ علىٰ وَرثته ما كنت تخافه علىٰ ضَعَفَةِ أولادك لو تركتهم بعدك.

وقيل: هي أمر للمؤمنين كافَّة أن يتبصَّروا في أمر ذريتهم، فلا يُسرفوا في الوصيَّة، فقد كان بعضهم يُحب أن يوصي بجميع ماله، كما في حديث سعدِ المتَّفَقِ عليه. وفيه: أنَّ النبيَّ ﷺ لم يأذَنْ له بالثلث إلا بعد المراجعة المرَّة بعد المرَّة، وقال: «الثلث، والثلث كثير، لأنْ تَذَرَ أولادك أغنياء خيرٌ من أن تَذَرَهم عالةً يتكفَّفون الناس»[٣]. وعلىٰ هذا، فيكون معنىٰ الآية: ليتقوا الله في ذُرِّيَّتهم، وليقولوا في تقرير الوصيَّة قولاً سديداً، أي: قريباً من المصلحة بعيداً عن المضرَّة.

وقيل: إنَّ الآية تحذيرٌ لأرباب الأموال من أن يَتَصرَّفوا بأموالهم تصرُّفَ إسرافِ

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٣٢٧).

(٢) تفسير «الطبري» (٧: ٩، ١٣).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١٦٢٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

يؤدِّي إلىٰ حرمان ذرِّيَّتهم من بعدهم وإيقاعهم في الفقر والفاقة، عقَّبَ بها البحثَ المالي.

أقول: ولا بُعْدَ أن تشمل كل ذلك، والله أعلم، علىٰ نهج القرآن في مثله.

ثم ختم السياق بالتهديد والتَّوعُّد لمن يأكل أموال اليتامىٰ بالباطل، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ لا أكلاً بالمعروف، ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا﴾ أي: يأكلون ما هو سببٌ لتعذيبهم بالنار، ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ فيعذّب ظاهرهم وباطنهم بهذه النار.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾.

ولما تضمَّن السياقُ إبطالَ ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث النساء، وبيَّن سبحانه أنَّ للنساء نصيباً مفروضاً كما للرجال، فصَّل ذلك النصيب ضمن بيان أحكام الميراث، علىٰ نهج القرآن من تعقيب الشيء بقاعدة تشريعيَّة عامة تشمله وغيره، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، وعلىٰ نهجه في تتميم الموضوع إذا عرض في السياق، فقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ أي: للذكر مِثْـلُ نصيب أُنثَيـين، ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ أي: فإن كان الأولاد بنات ثلاثاً فما فوق ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ والِدُهُنَّ المتوفىٰ، أو والدتهنَّ، ﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُ﴾.

فذكر في هذه الآية فروض الأولاد، وهم أقرب الطبقات إلىٰ الميِّت، فبيَّن أنهم

إن كانوا ذكوراً وإناثاً، فللذكر ضعف نصيب الأنثىٰ، وإن كُنَّ إناثاً فقط؛ فللواحدة النصف، ولما فوق الثنتين الثلثان، والجمهور علىٰ أن للبنتين الثلثين أيضاً كالجمع. وقال أبو مسلم: يستفاد هذا من قوله تعالىٰ: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. فإن الذكر مع الأنثىٰ الواحدة يرث الثلثين، ولذلك عطف عليه حكم الجمع والواحدة، وترك التثنية اكتفاء، وخصَّ ما فوقها بالذكر منعاً لـما يرد علىٰ الوهم من تعدُّد الحصص بتعدُّد البنات. ومنهم من قاس حكمهما علىٰ الأخوات، فإنه ذكر حكمهنَّ في آخر السورة بقوله: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]، كما ترك هناك حكم الجمع من الأخوات احتباكاً مع حكم البنات هنا، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

وقد فهم من هذا التفصيل أنَّ البنات لا يستغرق فرضهنَّ التركة، وفهم أنَّ للواحدة النصف مع قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أنَّ الولد الذكرَ إذا انفرد يأخذ التركة كلَّها، كما فهم من فحوىٰ قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أنَّ الولدين أو الأكثر من الذكور تُقسَمُ التركة بينهما أو بينهم علىٰ السواء.

ثم انتقل من حكم الأولاد إلىٰ حكم الوالدين، وهم في المرتبة الثانية من مُسْتَحقِّي الأقربين الذين يتَّصلون بالميِّت بغير واسطة، فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي: أبوي الـميِّت. وهذا الضمير معلوم من السياق، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية) أي: لأبوي الميت، ويريد: أمَّه وأباه، علىٰ طريقة التغليب، ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ فهما سواء في هذه الفريضة لا يتفاضلان كما يتفاضل الذكور والإناث من الأولاد والإخوة. وذلك لِعِظَمِ مقام الأم، وللإيماء إلىٰ وجوب احترامهمـا علىٰ السواء. وهذا ﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: إنْ كان للميِّت ولدٌ واحد فأكثر، وما زاد علىٰ الثلث يكون لأولاده علىٰ التفصيل المتقدِّم. ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ

وَلَدٌ﴾ مـا؛ لا ولد صُلْب، ولا ولد ابن، أو ابن ابن، فنـازلاً، ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ فقط، ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ والباقي للأب فرضاً وتعصيباً، كما هو معلوم من انحصار الإرث فيهما.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ﴾ أي: للميِّت ﴿إِخْوَةٌ﴾ ذكوراً أو إناثاً من الأبوين أو من أحدهما، ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ ولا يحجبها الواحد. واختلفوا في الاثنين، وأكثر الصحابة علىٰ أنهما كالجمع. وهذا السُّدُس الذي حَجَبوها عنه هو للأب أيضاً عند وجوده، فيكون له خمسة أسداس، سدس بالفرض والباقي بالتَّعصيب، ولا شيء للإخوة لأنه يحجُبُهم، إذ يُدْلُون به، وكلُّ من يُدْلي بواسطة تحجُبه تلك الواسطة. فإن لم يكن لهم أب فهو لهم، وعليه الجمهور. أما عند ابن عباس فالسُّدُس لهم مع وجود الأب[1].

وقد اختلفوا أيضاً في حكم الأبوين مع أحد الزوجين، فالجمهور علىٰ أنَّ الزوج يأخذ نصيبه وهو النصف إنْ كان رجلاً، والربع إنْ كان أنثىٰ، ويكون الباقي للأبوين، ثلثه للأم وباقيه للأب.

وقال ابن عباس: ثلث التركة كلها للأم، ويأخذ الأب ما بقي بعد نصيب الإخوة. وقال: لا أجد في كتاب الله ثلث الباقي[2].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٧: ٤٠)، ولفظه: «عن ابن عباس: أنه دخل علىٰ عثمان رضي الله عنه فقال: لِـمَ صار الأخوان يردّان الأم إلىٰ السدس، وإنما قال الله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾، والأخوان في لسان قومك وكلام قومك ليسا بإخوة؟ فقال عثمان رحمه الله: هل أستطيع نَـقْض أمر كان قبلي، وتوارثه الناس، ومضىٰ في الأمصار؟».

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٢: ٢٢٨) بعدما نقل هذا الأثر: وفي صحة هذا الأثر نظر، فإن شُعْبة هذا تكلَّم فيه مالك بن أنس، ولو كان هذا صحيحاً عن ابن عباس لذهب إليه أصحابه الأخصاء به، والمنقول عنهم خلافُه.

(٢) رواه الدارمي في «سننه» (٢٨٧٦).

ثم بيَّن تعالىٰ أن حكم هذا الميراث إنما يكون ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ﴾ إذا ﴿يُوصِي بِهَآ﴾ الميتُ ﴿أَوۡ دَيۡنٍ﴾ يكون عليه. فيُؤدَّىٰ الدَّيْن إن كان، وتُنفَّذُ الوصيَّة إنْ أوصىٰ من المال قبل إخراج أنصباء الورثة. وما بقي يُقْسَم عليهم بحسب التفصيل السابق. وعطفُ الدين علىٰ الوصية بـ﴿أَوۡ﴾ دون الواو؛ لا لمنع الجمع، ولكن للإيذان بأنهما متساويان في الوجوب.

ولما كانت العقول لا تهتدي إلىٰ حكمة تلك التقديرات والأنصباء، وربما يتأثَّر الإنسان بوضعيَّة وحادثة خاصَّة، فيعتقد أنَّ القسمة لو وقعت علىٰ غير هذا الوجه كان أنفع وأصلح، سيما وقد كانت العرب في جاهليَّتها لا تورث إلا الرجال الأقوياء دون الضعفاء والصبيان والنساء؛ استناداً علىٰ أنَّ النفع في الأقوياء من الرجال فقط؛ لأنهم هم الذين يدافعون الأعداء، ردَّ الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك كلِّه بقوله: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾ صحيحاً، فاتَّبِعوا ما فرض الله عليكم ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: فرضه عليكم وأُمرتم به، فهو أعلم منكم بما هو أقرب نفعاً لكم مما تقوم به مصالحكم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾ لا يَشْرَع لكم من الأحكام إلا ما فيه المصلحة العامة والمنفعة الصحيحة.

وذهب بعض المفسِّرين إلىٰ أنَّ الجملة متعلِّقة بالوصيَّة المُلْمَع إليها بآية: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ﴾، كما ذكر ذلك ابن جرير فيما تقدَّم، أي: لا تدرون أيُّ آبائكم وأبنائكم أقربُ لكم نفعاً، أَمَنْ يُوصي ببعض ماله فيمهِّد لكم طريق المثوبة في الآخرة بإمضاء وصيَّته، وذلك من أعمال البِرِّ تُباشرونه فتكونون جديرين بأن تفعلوا مثله، والخير داعيةُ الخير، أَمْ مَنْ لم يُوص بشيء فيوفر لكم عَرَض الدنيا؟ بل الله أعلم بذلك منكم، فعليكم أن تمتثلوا أمره، وتقفوا عند حدوده، ولا تتبرَّموا بإمضاء الوصيَّة وإن كَثُرت، ولا تذكروا الموصي إلا بالخير.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)﴾.

ولما فرغ من بيان فرائض عمود النسب، شَرَع في بيان فرائض القرابة من السبب، فقال: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ المدخولات بهنَّ؛ إذ هُنَّ اللاتي يَتحقَّق فيهن معنىٰ الزوجيَّة. وقيل: لا يشترط أن تكون مدخولاً بها، بل يكفي مجرَّد العقد، وعليه العمل. فلكم ممَّا تركنَ النصفُ ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ مّا، منكم أو من غيركم، ذكراً كان أو أنثىٰ، واحداً كان أو أكثر، من بطنها مباشرة أو من صُلب بنيها أو بني بنيها فنازلاً؛ لأن ابن الابن كالابن. وهذا ما عليه الجمهور وبه العمل. وروي عن ابن عباس: أن ولد الولد لا يَحجُب[1].

وبعد أن ذكر فَرْضَ الزوج من زوجته عند عدم وجود الولد أو ولد الولد، ذكر فَرْضَه مع الولد أو ولد الولد، فقال: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾

(١) ذكره الألوسي في «تفسيره» (٤: ٢٢٩).

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ﴾، فأعاد هذا القيد مع طبقة النساء، وسيُعاد في كلِّ موضع من مواضعه أيضاً لتأكيده.

وبعد أن ذكر فريضة الزوج من زوجته، ذكر فريضة الزوجة من زوجها، فقال: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ﴾ مّا، على التفصيل السابق في أولادهنّ. وإن كان للميِّت زوجتان فأكثر اشتركتا أو اشتركن فيه بالمساواة، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ﴾.

وبعد أن بيّن أحكام الأولاد والوالدين والأزواج، وكلٌّ منهم يتّصل مباشرة بلا واسطة، شَرَع في بيان فرائض من يتّصل بالميت بالواسطة، فقال: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾ تُورَثُ كلالة، وهو مَنْ ليس له ولدٌ وإن سفل، ولا والدٌ وإن علا، وعليه أكثر الصحابة؛ لأنَّ الكلالة لغةً: الإحاطة، ومنه الإكليل؛ لإحاطته بالرأس. وإنما سُمّي مَنْ عدا الوالد والولد من القرابة بالكلالة؛ لأنهم كالدائرة المحيطة بالإنسان، وأما قرابة الولادة فكالشجرة أصول وفروع. ويجوز أن تكون الكلالة بمعنى الضعف والإعياء؛ لأنه مُتحقِّق فيمن لا أصول له ولا فروع.

أي: إن كان الميِّت رجلاً أو امرأةً موروثاً كلالة، ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ لأم، لأنَّ الأخوين من العَصَب قد بُيّن حكمهما في آخر السورة تحت عنوان الكلالة أيضاً كما سيأتي، ولأن قوله: ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ يدلُّ على أنهم إنما يأخذون فرض الأم. وقد وَرَدَ هذا عن الصحابة أيضاً. وإنما لم يكن فرقٌ بين الذكر والأنثى؛ لأنَّ كلاً منهما حلَّ محل أمه فأخذ نصيبها، وإذا كانوا متعدِّدين أخذوا الثلث وكانوا فيه سواء، لا فرق بين ذكرهم وأنثاهم، لما ذكرنا من العلة. وذلك ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ كما تقدَّم في نظيره.

وفي ﴿يُوصَىٰ﴾ قراءتان: فتح الصاد وكسرها[١].

ثم حذَّر عن قصد الإضرار بالوصية، فقال: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ أي: بتلك الوصيَّة؛ بأن يُوصي لمن ليس محتاجاً، إضراراً بالورثة. وقد حدَّد النبي ﷺ الوصيَّة الجائزة بالثلث، وقال: «والثلث كثير»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ الضرار في الوصيَّة من الكبائر[٣]. وكذلك الدَّيْن إذا أقرَّ به مضرّةً للوارث. وجاء هذا القيد في إرث الكلالة لأنه مظنَّة لذلك. لأنَّ الذي ليس له ولد يتصدَّىٰ لحرمان الوارث.

ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يوصيكم بذلك وصيَّةً منه عزَّ وجل، فهي جديرةٌ بالإذْعان لها والعمل بموجبها، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمَصَالحكم ومنافعكم، وبنيَّات المُوصين منكم، ﴿حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ لا يسمح لكم بأن تعجلوا بعقوبة مَنْ تستاؤون منه ومضَارَّته بالوصيَّة، ولا يعجل بعقاب من لا يعمل بأوامره، ولكن يُؤخِّرهم ليومٍ تشخص فيه الأبصار، فإمهالُه من حِلمِه تعالىٰ.

ثم ختم البحث بما يحمل علىٰ التمسُّك بهذه الأحكام، علىٰ نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الخامسة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ

---

(١) «السبعة في القراءات» ص٢٢٨.

(٢) تقدَّم تخريجه قبل بضع صفحات.

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٣١٥٧٨).

عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾، وإنما قال في ذكر أهل الجنة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وفي ذكر أهل النار: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾؛ للإشارة إلىٰ تمتُّع أهل الجنة بالاجتماع، وأُنس بعضهم ببعض، والمترفون يُسَرُّون بمثل هذا التمتُّع، وأما الذي في النار فإنَّ له من العذاب ما يشغله عمَّن معه، فكأنه وحيد.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

ولما ذكر في الآيات المتقدِّمة الأمرَ بالإحسان إلىٰ النساء ومعاشرتهنَّ بالجميل وإعطائهن صَدُقاتهنَّ نِحْلةً وسائر حقوقهنَّ وما يتصل بهذا الباب، ضمَّ - إلىٰ ذلك بطريقة المقابلة في الحقوق - التغليظَ عليهنَّ فيما يأتينه من الفاحشة، مُبيِّناً ذلك بصورةِ حكمٍ آخر من الأحكام المتعلِّقة بالرجال والنساء من أحوال الزوجيَّة، علىٰ نهج القرآن في المقابلة وفي تتميم الأحكام وتكميلها، فقال: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ أي: من المسلمين، ولفظ الأربعةُ يطلق علىٰ الذكور. قال الزهريُّ[1]: مضت السنّة من رسول الله ﷺ والخليفتَيْن بعده أن لا تُقبَلَ شهادةُ النساء في الحدود[2]. وكأنَّ حكمة ذلك إبعاد النساء عن مواقف الفُحش والجرائم والعقاب والتعذيب، رغبةً في أن يكُنَّ دائماً غافلات عن القبائح، لا يُفكِّرن فيها ولا يَخُضْن مع أربابها.

---

(١) هو الحافظ الفقيه، أبو بكر، محمد بن مسلم بن شهاب، الزهري القرشي، رأى عدداً من الصحابة (ت١٢٤هـ). «سير أعلام النبلاء» (٥: ٣٢٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢٨٧١٤).

﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ عليهنَّ بإتيانها. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ أي: فاحبسوهنَّ في بيوتهنَّ وامنعوهنَّ الخروج منها، عقاباً لهنَّ، وحيلولة بينهنَّ وبين الفاحشة ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾، وقد فسَّر الجمهور «السبيل» بما شرعه الله تعالىٰ بعد نزول هذه الآية من حدِّ الزنىٰ في سورة النور، ورَوَوا أنَّ النبيَّ ﷺ قال بعد ذلك: «قد جعل الله لهنَّ سبيلاً؛ الثيب: جلد مئة ورجم بالحجارة، والبكر: جلد مئة ثم نفي سنة»[1]. ثم نُسخ الجلد عن الثيِّب وبقي الرجم فقط بفعل النبي ﷺ، فإنَّه رَجَم ماعزاً ولم يجلده[2]. وهذا الحديث مُبيِّن للسبيل لا ناسخ له، حتىٰ قال الزمخشري: إنَّ من الجائز أن يبقىٰ الإمساك في البيوت معمولاً به بعد الحد أيضاً. وقال بعضهم: بل هي منسوخة بآية النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]. وقد ذكرتُ في سورة النور زيادةَ بيان عن هذا البحث، فانظر إليه.

وقال أبو مسلم: إن هذه الآية في السِّحاق، ومعنىٰ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾: امنعوهنَّ الخروج. ومعنىٰ: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾: هو النكاح المُغْني عن السِّحاق. وقال الأستاذ الإمام: معناه: أن تُعرِضَ عن هذه الطبيعة وتترك العادة وتنساها.

أما قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾، فقد قال أبو مسلم: هذه في حقِّ اللواط. وقوله في سورة النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]. خاصٌّ بالزنىٰ.

وقال الأستاذ الإمام: الحق أن ما ذهب إليه أبو مسلم هو الراجح[3].

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٠)، وأبو داود (٤٤١٥)، والترمذي (١٤٣٤)، عن عبادة بن الصامت.

(٢) رواه مسلم (١٦٩٥)، عن بريدة بن الحصيب.

(٣) أبو مسلم ينكر وقوع النسخ في القرآن، لذلك فإنه يحاول تفسير الآيات ـ التي قال الجمهور =

أما الإيذاء فقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه بالتَّعيير والضرب بالنعال[1]. وعن مجاهد وقتادة والسُّدِّي: أنه بالتعيير والتوبيخ فقط[2]. وإنما يكون هذا الإيذاء بعد الثبوت بشهادة الأربعة. ويُكرَّر بالتكرار حتىٰ يتوبا، ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ﴾ أي: كفُّوا عن إيذائهما بالقول والفعل؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ١٦﴾ وإنما شَرَع العقاب لينزجر العاصي ولا يَتَمادَىٰ فيما يفسده فيهلك. ولفظ: ﴿كَانَ﴾ في مثل هذا الموضع إنما هو لتحقيق وتقرير مضمون الوصف وتأكيده، ولا دلالة له علىٰ المضيّ، (كما جاء في المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾.

ثم بيّن سبحانه وتعالىٰ شرط قَبوله للتوبة بقاعدة عامَّة، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر الخاصّ بالأمر العام الذي يشمله وغيره، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إنَّ التوبة التي قضىٰ الله سبحانه بقبولها علىٰ نفسه بوَعْدِه الذي هو أثرُ كرمه وفضله، ليست إلا ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، وقالوا: المراد بالجهالة عدم التفكير في العاقبة لا عدم العلم بكونه سوءاً. والمراد من الوقت القريب: انتهاء سَوْرة تلك العاطفة والميل.

= بنَسْخها ـ بما لا تكون به منسوخة، والشيخ محمد عبده يتابعه في ذلك، وسار المؤلف سَيْرهما، وليس ذلك بسديد. وكلام الأستاذ في تفسير «المنار» (٤: ٣٦٠).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨: ٨٥).

(٢) المصدر السابق (٨: ٨٤).

وفي عموم هذه الآية شرحٌ للإصلاح الذي جاء في الآية السابقة، أي: تابوا مثل هذه التوبة، فأعرضوا عنهم وكفُّوا عن عتابهم، لأنَّ الذين يتوبون مثل هذه التوبة لم تُحِطْ بهم خطيئتهم، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ هم الذين ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ لأنَّ السوء لم يرسخ في نفوسهم، بل كان خاطفاً، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾ يَضَعُ الأحكام في موضعها، كما تقتضيه الحكمة والمصلحة[1]. وهذه هي صفة التوبة في وجهها الأكمل، الذي ضمن سبحانه قبولَها فيه، ولا يلزم من ذلك أنه لا يقبل غيرَها.

ثم بيَّن الصفة العامة للتوبة التي لا يضمن قبولها، فقال: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾، لأنَّ هؤلاء قد أحاطت بهم خطيئتهم، وانطبعوا على السوء، فأصبح لهم مَلَكَةً وخُلقاً.

وقال الأستاذ الإمام ما معناه: قال هنا: ﴿إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾، فبيَّن أن أحد هؤلاء يدَّعي التوبة، وإنما مَثَلُه كَمَثَل رجل كان يعيث فساداً، فلما ظفرت به القوة وشعر بالجزاء استغاث وقال: لا أعود لذلك، وهو لا يلبث أن يعود إذا أفلت؛ لأنه مُتَشبِّع بالسُّوء لا ينفر منه ولا يستقبحه. ولهذا قيَّد القول بكلمة ﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾، والآنيَّة تنافي الاستمرار الذي دلَّ عليه بمضارع ﴿يَتُوبُونَ﴾ في الآية السابقة. فهولاء مثل الذين ذكرهم بقوله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾، وهذا العطفُ للمقارنة والمساواة؛ لأنَّ كليهما قد رَسَخ فيه السُّوء وانطبع عليه. ويجوز أن يُراد: الذي يندم بعد الموت على ما فعل ويطلب العودة لِيصلِحَ العملَ ـ ولا عودة ولا توبة ـ خابوا وخسروا.

وليست هذه الجملة في سياق التوبة، وإنما ذكرت للتنظير وبيان المصير. ولذلك

---

(١) تقدم التعليق على مثل هذه العبارة في سورة البقرة (٢: ٣٧٢).

قال: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ﴾ ولم يقل: (ولا للذين)، وإنما هي معطوفة علىٰ مضمون ما قبلها، باعتبار أنَّ الصنفين متساويان في السوء والبُعد عن الله، وأن لا خير لهما عند الله.

وقال بعضهم: إن المراد بالكفر هنا: الفسق، وهذا التعبير من باب التغليظ، ثم سجَّل عليهم الوعيد بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ أي: في دار الجزاء.

وما رواه أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما من قوله ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغر»[1]، فالمراد به أنه لا ينبغي لأحد أن يقنط من رحمة الله، وييأس من قبول التوبة علىٰ الصُّورة الحقَّة التي ذكرها الله، ما دام حياً. وليس معناه: أنه لا خَوْفَ علىٰ العبد من التَّمادي في الذنوب إذا هو تاب قبل الموت بساعة. والظاهر أنَّ الآيات بيَّنت التوبة المقبولة والتوبة المردودة، وقد جاء في الحديث: «الله أفرحُ بتوبة عبده من العقيم الوالد، والضالِّ الواجد، والظمآن الوارد»[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) «مسند الإمام أحمد» (٦١٦٠)، ورواه الترمذي (٣٥٣٧) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤٢٥٣)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه بهذا اللفظ ابنُ هبة الله في التوبة (٥)، وهو متفقٌ عليه بلفظ: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من أحدكم إذا استيقظ علىٰ بعيره قد أضلَّه بأرض فلاة»، رواه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧)، عن أنس.

ثم عاد إلىٰ أحكام النساء والميراث، فبيَّن حكماً للنساء جاء فيما بينهما، مدرِجاً في ذلك الأمر بالإحسان إليهنّ، والنهي عن مُضَارّتهنَّ والعبث بحقوقهنَّ، وصدَّر الكلام بالتَّشنيع علىٰ ما كانوا عليه في الجاهلية، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾.

كانت العرب تحتقر النساء، وتَعُدُّهُنَّ من قبيل المتاع، حتىٰ كان الأقربون يرثون زوجة من يموت منهم كما يرثون ماله، فَحرَّم الله هذا العمل من أعمال الجاهليَّة. وقد كانوا يَتزوَّجون مَنْ يُعْجبهم حُسْنُها، ويُزوِّجون من لا يعجبهم أو يُمسكونها حتىٰ تفتدي بما كانت ورثت، أو ما كانت أخذت من صداق، أو المجموع من هذا وذاك.

وقال بعضهم: بل معنىٰ الآية: لا يحلُّ لكم أن ترثوا أموال النساء كَرْهاً؛ بأنْ تُمسكوهن علىٰ كُره لأجل أن ترثوهنَّ.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: لا تُضَارُّوهنَّ ولا تُضيِّقوا عليهنَّ لِيَكرهْنكم ويَضْطرون إلىٰ الافْتداء منكم ببعض ما آتيتموهنّ.

ثم استثنىٰ من ذلك حالة واحدة لجواز هذا العَضْل، فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.

قال الأستاذ الإمام: روي عن بعض مُفسِّري السَّلف: أن الفاحشة هنا هي الزنىٰ، وعن بعضهم: أنه النشوز، وعن بعضهم: أنها الفُحْش بالقول. والصواب: عدمُ تعيينها وتخصيصها، بل تبقىٰ علىٰ إطلاقها، تشمل هذه كلَّها وغيرَها، كالسرقة مثلاً، فإنها من الأمور الفاحشة الممقوتة عند الناس، ولكن يجب أن يُعتبر في الفاحشة المرخِّصة للعضل هذا الوَصْفُ المنصوص عليه، وهو أن تكون مبيِّنة، أي: ظاهرة فاضحة لصاحبها. وإنما شَرَطَ هذا القيد، لئلا يظلم الرجلُ المرأةَ بإصابتها الهفوةَ واللَّممَ، أو بمُجرَّد سوء الظن والتهم.

وإنما أبيح للرجل أن يُضيِّق علىٰ امرأته إذا أتت بالفاحشة المبيِّنة؛ لأن المرأة قد تكره الرجل وتميل إلىٰ غيره، فتؤذيه بفُحش من القول أو الفعل، ليَمَلَّها ويسأم معاشرتها، فيطلِّقَها، فتأخذَ ما كان آتاها وتتزوَّجَ آخر، تتمتَّع معه بمال الأول. وربما فعلت معه بعد ذلك كما فعلت بالأول. وإذا عَلِمَ النساءُ أنَّ العَضْلَ والتضييق بيد الرجال، ومما أُبيحَ لهم إذا هُنَّ أهنَّهم بارتكاب الفاحشة المبيِّنة، فإنَّ ذلك يكفُّهُنَّ عن ارتكابها الاحتيال بها(١).

ثم عقَّب هذا الحق الذي أعطاه للرجال، بما يُنظِّمُه تنظيماً عادلاً لا جَوْر فيه، وهو أمرُه سبحانه وتعالىٰ للرجال بحُسْن عُشرة النساء، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الحكم الخاص بحكم عام يشمله وغيرَه، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: يجب عليكم أن تُحسنوا عشرة نسائكم، بأن تكون مصاحبتكم ومخالطتكم لهنَّ بالمعروف الذي تعرفه وتألفه طباعُهُنَّ، ولا يُستنكر شرعاً ولا عرفاً ولا مروءة. فالتضييق في النفقة، والإيذاء بالقول والفعل، وكثرة عبوس الوجه وتقطيبه عند اللقاء، كلُّ ذلك ينافي العشرة بالمعروف. وفي المعاشرة معنىٰ المشاركة والمساواة، أي: عاشروهنَّ بالمعروف وليعاشرنكم كذلك. والغرض أن يكون كلٌّ منهما مَدْعاةَ سرور الآخر وسَبَبَ هنائه.

ثم أرشدهم سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أن يَتحمَّلوا ويصبروا علىٰ الكُرْه الطبيعي، ولا يتعجَّلوا بالفراق، فقد يأتي الخير مما يكره، فقال: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لعيب في الخُلق أو الخَلق، مما لا يعدُّ ذنباً لهنَّ، لأنَّ أمره ليس في أيديهن، أو لا يخلو عن مثله النساءُ، أو لمَيْل منكم إلىٰ غيرهنَّ، فاصبروا ولا تَعْجَلوا بمُضَارتهنَّ ولا بمفارقتهن، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٣٧٣).

﴿تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ فهذا الرجاء علّة لما دلَّ عليه السياق من جزاء الشرط، وهو فاصبروا عليهن فعسىٰ... إلخ، وأقيم مقامه علىٰ نهج القرآن، (كما جاء في المادة العاشرة من المقدمة الثانية). ومن الخير الكثير: الأولاد النُّجباء، فرُبَّ امرأة يملُّها زوجها ويكرهها، ثم يجيئه منها ما تقرُّ به عينُه من الأولاد النُّجباء، فيعلُو قدرُها عنده. ومن الخير الكثير: أن يصلح حالها بصبره وحُسْن معاشرته، فتكون أعظم أسباب هنائه في انتظام معيشته وحُسْن خدمته. لا سيما إذا أصيب بالأمراض أو الفقر أو العوز.

وإنَّ التعليل في الآية يرشدنا إلىٰ قاعدة عامة تأتي في جميع الأشياء، لا في النساء خاصَّة، وهي أنَّ بعض ما يكرهه الإنسان يكون فيه خير له، متىٰ جاء دور ذلك الخير تظهر قيمة ذلك الشيء المكروه، وهي قاعدة عَرَف العقلاء صدقَها بالتجارب. وللتنبيه لـها قال تعالىٰ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا﴾ ولم يقل: وعسىٰ أن تكرهوا امرأة. من «المنار»[1].

وقد قالوا: إذا قَصَرَ الرجل مَيْلَه ونَظَره علىٰ زوجته دام بينهما الودُّ وحُسْنُ الحال، واطمأنَّت نفسُه علىٰ السعادة بها. أما إذا لم يَتَعوَّد ذلك ولم يقيِّد نفسه بهذا القيد، تَنَغَّص عَيْشُه واحتقر محاسنَ زوجته، بحكم القرب منها؛ لأنَّ النفس المهملة تميل إلىٰ الـمُشاهَد الغريب، وتحقر الحاضر القريب، فينـتج عن ذلك من التَّعاسة ما لا يحمد عُقْباه، ولا ينتبه له صاحبه ويفطن له إلا بعد أن ينال منه السُّوء كلَّ منال. فالغضُّ عن المُشْتَهيات، ويأسُ النفوس من طلب المُسْتَحْسَنَات، يُطيِّبُ العيشَ مع الزوجة وغيرها من حالات الحياة.

---

(١) (٤: ٣٧٥).

ثم أكمل السياق وتمّم البحث بالنَّهي عن استرداد شيءٍ من المهر إذا فارقها لمجرَّد الكره الطبيعي، والرغبة والهوىٰ، وهي لم تأت بفاحشة مبيِّنة، علىٰ نهج القرآن في ذكر القواعد التشريعية العامة إثر الأحكام الخاصَّة لتشملها وغيرها، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية). فقال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ لعدم طاقتكم الصبرَ علىٰ معاشرتها بالمعروف، وهي لم تأت بفاحشة مبينة، ﴿وَ﴾ قد ﴿ءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ فذكر أعلىٰ المهور ليدخل ما دونه بالأَوْلىٰ، أي: ولو كان ما أعطيتموه لـهُنَّ من المهر مقداراً كبيراً، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ سواء كان مقبوضاً لهنَّ أو في ذمتكم.

ثم أردف النهي بالإنكار مُبيِّناً وَجْهَ القبح، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ يُعظِّم ذلك ويُفظِّعُه. والمراد من البهتان هنا: الباطل.

وقال الأستاذ الإمام[١]: إنَّ ذكر إرادة الاستبدال مبنيٌّ علىٰ الغالب في مثل هذه الحالة، وليس شرطاً في هذا الحكم، فإنْ طلَّقها لا ليتزوَّج بغيرها، فلا يحُلُّ له أيضاً أخذُ شيء من مالـها، كما يُعلَمُ من اشتراط الإتيان بفاحشة مبيِّنة[٢]. لِحِلِّ الأخذِ لبعضِ ما آتاها، حسبما تبيَّن سابقاً.

ثم وضَّح منشأ الإنكار والتنفير من أخذ شيء من المهر، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾، وهذا تذكير بالعهد وتحسيسٌ به، وتنفيرٌ من أن يحطم هذا التَّحطيم. وفي هذا الوصف تَنْويهٌ

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٤: ٣٧٦).

بشأنه وأنه ليس كبقية العقود. ولهذا التعبير قيمتُه في الإيحاء والتَّحسيس بموجبات الحفظ والرحمة والمودة والوفاء.

قال الأستاذ الإمام: وفي التعبير بقوله: ﴿بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إشارةٌ إلىٰ كون كل واحد من الزوجين بمنزلة جزءِ الآخر وبعضِهِ المتمِّم لوجوده(١).

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

ولما ذكر النهي عن الحالة الجاهلية، وهي إرثهم النساء كرهاً، أكمل البحث بالنهي عن حالة جاهلية أخرىٰ متَّصلةٍ بها ملابسةٍ لها، وهي نكاحُ الابن امرأةَ أبيه عندما يرثه، فقال: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وهذا الاستثناء علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأحكام التي يقمع بها رذيلة من الرذائل، بما يُؤْذن بالعفو عن عقوبة ما سلف من ذلك، فهو لبيان أنَّ ما قد مضىٰ من ذلك يغفره الله

(١) تفسير «المنار» (٤: ٣٧٦).

بلطفه ورحمته إن أقلع عنه صاحبه وتاب، فلا مُؤَاخَذَة علىٰ مَنْ فعل ذلك في الجاهلية وقد ماتت؛ فالاستثناء إنما هو من مؤدَّىٰ النهي وهو استحقاق الإثم علىٰ المرتكب، لا من نفس الحكم. ومثله الآيةُ الآتية: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، فلا يجوز إبقاء نكاح من جمع بين الأختين أو نكح زوجة أبيه فيما سلف، ولكن يجب الفسخ. وقد فَسَخ رسول الله ﷺ كل ذلك عند نزول هذه الآيات.

ثم علَّل النهي بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾، والفاحشة: هي الشديدة القبح. والمقت: المبغوض عند ذوي الطباع السليمة. وبئس العمل هذا النكاح.

قال الإمام الرازي: القبح ثلاثة أصناف: عقليٌّ، وشرعيٌّ، وعاديٌّ[1]. وقد وصف الله هذا النكاح بكلِّ ذلك، فأشار إلىٰ الأول بقوله: ﴿فَٰحِشَةً﴾، وإلىٰ الثاني بقوله: ﴿وَمَقْتًا﴾، وإلىٰ الثالث بقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾.

والمراد من الآباء: ما يشمل الأجداد. والمراد من نكاحهم: مجرَّد العقد وإن لم يدخل بها الأب.

ولما بيَّن سبحانه وتعالىٰ حُرْمَةَ نكاح زوجة الأب والجد، تابع البيان عن المُحرَّمات من النساء، تَتْميماً للبحث في أحكام النساء، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فإنه إذا ذكر أمراً جرىٰ في إتمام البحث عنه إذا اقْتَضَتْه الحال، إذ من البلاغة والأصول الشرعيّة أن لا يتأَخَّر البيان عن وقت الحاجة. فذكر المحرَّمات من النَّسب والرضاع والمصَاهَرة؛ حفظاً لروابط شريفة لا ينبغي أن تعرض بالزواج وملابساته، إلىٰ الأضرار وانتهاك الحشمة والوقار، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ

---

(١) «تفسير الرازي» (١٠: ٢٢).

وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ في نكاح الربائب. وقولُه: ﴿فِي حُجُورِكُم﴾، خرج مخرج الغالب، فلا مفهومَ مخالفةٍ له، فهي تحرم وإن لم تكن في حجر الزوج، ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ لا للذين تَتَبنَّونهم، والحليلة: الزوجة.

ثم ذكر ما يحرم بسبب عارض، فقال: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾، سواء كان بعقد نكاح أو بملك يمين. وقيل: بل هو خاصٌّ بالنكاح، فلا يجوز الجمع بين الأختين بنكاح ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، فلا مؤاخَذَة علىٰ مَنْ أسلم وقد فعله في الجاهلية إذا كانت إحدىٰ الأختين قد ماتت وقت نزول هذا التحريم. أي: فقد غفر لكم إثم ذلك إلىٰ وقت نزول الآية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ فاقطعوا ذلك ولا تعودوا لمثله.

وإنما حرَّمت الشريعة العلاقة الجنسيَّة بين الرجال والنساء الذين يتَّصلون نَسَباً وسبباً بهذا الاتِّصال القريب؛ لتكون علاقتُهم مَبْنيَّةً علىٰ الطهر والحشمة والاحترام، فضلاً عن الأضرار الفُسْلُجية في النسل والأولاد.

وفائدة استثناء ما سلف في الآيتين: الإفصاح بأنَّ الأولاد الذين كانوا في النكاحين قبل التحريم أولادٌ شرعيُّون لهم حقوقهم الشرعيَّة الكاملة. ومثلُ ذلك مَنْ كان عنده خمس نسوة قبل التحريم، ففارق إحداهن، فإنَّ أولاده منها شرعيّون.

ثم أكمل البيان عن المحرَّمات بسبب عارض، فقال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ وهُنَّ ذوات الأزواج، يقال: أُحْصِنَت المرأة؛ إذا تزوَّجت. فلا يحلُّ نكاح ذوات الأزواج.

وإنما ذكر هذا ليستثنىٰ منه قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وهُنَّ المَسْبيَّات في حرب دينيَّة، إذا رأىٰ الإمام أنَّ من المصلحة أن لا تُعاد السبايا إلىٰ أزواجهِّن الكفار في دار الحرب، فعند ذلك يَنحَلُّ عَقْدُ زوجيتهن، ويكُنَّ حلالاً لكم بالشروط المعروفة في الشريعة، ومنها: أن لا يُسبىٰ معها زوجها، فإنْ سُبِيَ معها زوجها فلا تحلُّ لغيره. ومنها: الاستبراء بوضع الحامل لحملها، وحيضُ غير الحامل ثم طُهرُها.

ثم قرَّر الحكم بقوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: كتب الله عليكم تحريم هذه الأنواع كتاباً مؤكّداً، ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: ما عَدَا من ذكرن.

قال الأستاذ الإمام: قد يقال: إن ما ذكر هنا من المُحرَّمات مجملٌ فصَّلته السنَّة بأوسع منه، فجعلت كل ما يحرم بالنسب يحرم بالرضاع، وحرَّمت الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها، وحرَّمت المشركة والمرتدة، وحرَّمت الجدات وإن عَلَوْن، وبنات الأولاد وإن نزلن(١).

والجواب: إنَّ بعض ما ذكر يُؤْخَذ مما تقدَّم، فإنَّ الله تعالىٰ ذكر من كلِّ صنف من المحرَّمات بعضَه، فدخل في الأمهات الجدَّات، وفي البنات بنات الأولاد... إلخ، وبعضها يُؤْخذ من آيات أخرىٰ، كتحريم المشركة والمطلقة ثلاثاً علىٰ مطلِّقها، كما في سورة البقرة. ويجوز أن يقال: إن ما ذُكر هاهنا من المحرَّمات هو من النوع الذي يكثر في الواقع، ولا يدخل في حلِّ ما وراءه ما حُرِّم بنصوص أخرىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ معناه: أُحِلَّ لكم ما وراء ذلكم، إرادةَ أن

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٧) وما ذكر من قوله: ما يحرم بالنسب يحرم بالرضاع. إشارة إلىٰ الحديث الذي رواه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

تطلبوه بأموالكم، تدفعونها مهراً للزوجة أو ثمناً للأَمَة، ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ أنفسَكم ومَنْ تطلبونها بمالكم عمَّن عداكما، بداعية النَّسل، ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي: لا بداعية سفح الماء في أيٍّ كانت، إشباعاً للذة. والسِّفاح: الزنىٰ. وإنَّما حرَّمه سبحانه حفظاً للفضيلة وإبقاءً علىٰ سلامة الغريزة الجنسية وعدم تهيُّجها وتعريضها للمهالك، وحِصْناً للأنساب ولأمور أخرىٰ غير ذلك، تقتضيها الصحَّة وشرف الإنسانية.

ثم صرَّح بمضمون ما تقدَّم من وجوب المهر، فقال: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، والاستمتاع: الانتفاع والتَّلذُّذ. وفي الكلام التَّجوُّز بلفظ الفعل عن إرادته ومقاربته، (كما جاء في المادة الرابعة من المقدمة السادسة في أنواع المجازات في القرآن)، أي: فمن أردتم أن تستمتعوا بها في التزوج، فقدِّموا لها المهر، فذلك واجبٌ حال كون تلك الأجور ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: حصَّة مقدَّرة مفروضة. ولا يصحُّ النكاح من دون مَهْر، فإن لم يُسمَّ في العقد وَجَبَ مهر المثل بالدخول. ولذلك يُسمَّىٰ أجراً؛ لأنه بقي كالدَّيْن. والله أعلم.

ثم رخَّص سبحانه وتعالىٰ في جواز نقص تلك الفريضة إن سُمِّيت، أو زيادتها، أو حَطِّها بالكلية، إن كان ذلك عن تَراضٍ، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾، كأن يفرضوا أولاً فيما بينهم مقداراً خاصاً للمهر، ثم بعد ذلك يَتَواطؤون ويتفقون علىٰ زيادته أو نَقْصِهِ أو حَطِّه بالكلية، فلا بأس بذلك.

ثم ختم السياق بما هو كالدليل، والإلماع بالحكمة لذلك التفصيل في هذه الأحكام، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾، فيضعُ لعباده من الشرائع بحكمته ما يعلم أنَّ فيه صلاحَ حالهم ما تمسكوا به.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا

مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم رخَّص في نكاح الإماء لمن لم يستطِع نكاحَ الحرائر لسببٍ من الأسباب، مُبيِّناً ما يجب في هذا النكاح، وما يترتَّب عليه، وما فيه من نقيصة، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ أي: غِنىً وفَضْلاً من المال والحال والمركز الاجتماعي ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وقد فسَّروا المحصنات هنا بالحرائر خاصَّة، لدليل مقابلتها بالفتيات، وهي: الإماء. والحرية عندهم كانت داعية الإحصان بمعناه العام، وهو العفاف. إذ البغاء شأنُ قِلّةٍ من الإماء عندهم، ولذلك قالت هند للنبي ﷺ عندما كان يأخذ علىٰ النساء العهد والمبايعة، وفيها: (ولا تزنين)، قالت: «أوَتزني الحرة؟»(1)، تقول ذلك علىٰ سبيل الإنكار، لأنه غير مألوف عندهم، ولكن البيعة عامة والتشريع عام، فلا وَجْه للإنكار، وإن كان زنىٰ الحرة غير مألوف عندهم إذ ذاك. والله أعلم.

فرخَّص الله سبحانه نكاح الإماء علىٰ عِلَّاته لمن لم يستطع نكاح الحرائر، بقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، فجعل هذه الرخصة بعد تعذُّر نكاح الحرائر وامتناعها عليه، لأنَّ التزوُّج بالأمة يجعل نَسْلَه مملوكاً لمولاها.

ثم مَحَا النعرة التي كانت عندهم، وهي الترفُّع عن نكاح الإماء، وعَدُّه سُبَّةً وعاراً، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾، يشير إلىٰ أنَّ الإيمان قد رفع شأن الفتيات

---

(1) رواه أبو يعلىٰ في «مسنده» (٤٧٥٤)، عن عائشة. وقال الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤: ١٥١): في إسناده مجهولات.

المؤمنات، وساوىٰ بينهُنَّ وبين الحرائر في الدين، وهو أعلم بحقيقة هذا الإيمان ودَرَجات قوَّته وكماله، فرُبَّ أَمَةٍ أكمل إيماناً من حُرَّة، فتكون أفضل عند الله. فلا يصحُّ مع هذا أن تعدُّوا نكاح الأمة عاراً.

ثم ذكر وجهاً آخر لَمحْوِ تلك النَّعرة، فقال: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٍ﴾ أي: أنتم أيها المؤمنون أحراركم وعبيدكم إخوة في الإيمان، بعضكم من بعض. فلا ينبغي أن تعدُّوا نكاح الأمة عاراً عند الحاجة إليه.

ثم ذكر ما يجب من نكاحهن، فقال: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾، والمراد بالأهل: الموالي المالكون لهنَّ. فهذا هو الأمر الأول.

والأمر الثاني قوله: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: أعطُوهُنَّ مهورهُنَّ حَسَب العرف والعادة. والتعبير بالأجور هنا دون المهور للتميُّز بين صفة ما يُعطىٰ للحرائر، وصفة ما يُعطىٰ للإماء. والله أعلم.

ثم ذكر الأمر الثالث، فقال: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾، أي: حال كونهنَّ مُتزوِّجات منكم لا مستأجرات للبغاء، جَهْراً أو سراً، كما كان الحال مع بعض الإماء في الجاهلية، فقد كان من الإماء بغايا عامة، وكان منهنَّ بغايا خاصَّة ببعض الرجال. ففرض في نكاح الإماء مِثلَ ما فرض في نكاح الحرائر مع الإحصان وتكميل النفوس بالعفَّة، لكلٍّ من الزوجين.

وبعد التأنيس في نكاح الأمة لم يُهمل الإشارة إلىٰ نقصها، وذلك ببيان الحكم التشريعي فيها المستلزم للنقص، وهو أنَّ عليها نصف ما علىٰ الحرَّة من العذاب إذا أتت بفاحشة بعد هذا الإحصان، فقال: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾ بالتزوُّج ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ أي: الحرائر ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ المبيَّن في سورة النور.

والحكمة في ذلك: كَوْن الحرَّة أبعَدَ عن دَوَاعي الفاحشة، والأَمَةُ عُرْضةً لها، ضعيفةً عن مقاومتها، بضعف مركزها ونفسيَّتها، وبروزها ومخالطتها للرجال في بعض الأحوال، فرحم الشارعُ ضعفَها.

وهذه الآية من جملة الأدلة التي يستدلُّ بها المنكرون للرجم في الزنىٰ، إذ لو وَجَبَ علىٰ الحرَّة المحصنة رَجْمٌ، لزم أن يكون الواجب علىٰ الأمة نصف الرجم وذلك باطل، لأنَّ الرجم مؤدَّاه الموت فلا منصف له. ولا دليل لهم، لأنَّ الآية لا تزيد علىٰ أنَّ الأمة لا رَجْم عليها بعد الإحصان، وحكمها كما كان عليه قبل الإحصان. والله أعلم. فخالَفْنَ الحرائر في ذلك.

وبعد أن بيَّن هذا الحكمَ المُؤْذِنَ بنقص الأمة عن الحرة، ذكر شرط الرخصة في هذا النكاح، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الترخيص ﴿لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾، والعنت: المشقَّة والجهد والفساد. أي: ذلك الذي أُبيح لكم من نكاح الإماء عند العجز عن الحرائر، جائزٌ لـمن خَشِيَ علىٰ نفسه الضرر والفساد من التزام العفة ومقاومة داعية الفطرة وكبتها.

وإنَّما أخَّر هذا الشَّرط ولم يقرنه باستطاعة الطَّوْل مع أنه مُتمِّم له، لا يصحُّ نكاح الأمة إلا عند وجوده؛ لأنَّ مفتتح الآية كان مبنياً علىٰ التأنيس في هذا الأمر الذي كانوا يعدُّونه في الجاهلية عاراً وسُبَّـة، وهذا الشرط المتمِّم يشير إلىٰ حِطَّة هذا النكاح، فلا يتلاءم مع التأنيس، لذلك أخَّره حتىٰ بيَّن أنَّ حكم من تأتي منهنَّ الفاحشة نصف حكم الحرة، فأشعر هذا الحكم بنقصٍ في الأمة، وحينئذ أردف الكلام بتـتمَّة شرط صحَّة هذا النكاح ـ وهو خوف العَنَت ـ ليتناسق تناسقاً بلاغياً، ويتلاءم تلاؤماً منطقياً، نظراً لما قرَّر.

فدَلّت الآية علىٰ التحذير من نكاح الإماء، وأنه لا يجوز الإقدام عليه إلا عند الضرورة. والسبب في ذلك أمور: منها: أن الولد يتبع الأمَّ في الرِّقِّ للسيد، وهو أمر يوجب النقصَ في حقِّ ذلك الإنسان، وفي حقِّ ولده. ومنها: أنَّ الأَمَةَ قد تعوَّدت الوقاحة بالبروز ومخالطة الرجال. ومنها: أنَّ حقَّ المولىٰ عليها في الخدمة أعظمُ من حقِّ الزوج، فربما احتاج الزوج إليها جِدّاً، ولا يجد إليها سبيلاً، لأنها في خدمة السيد. إلىٰ غير ذلك من أسباب النقص، لذلك ختم هذه الرخصة بقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، قال الأستاذ الإمام: لما فيه من تربية الإرادة، ومَلَكة العفَّة، وتحكيم العقل علىٰ الهوىٰ(١)، ومن عدم تعريض الولد للرِّق، ولفساد الأخلاق بالإرث، لأنَّ في الإماء ذلةً ومَهَانةً وتبذُّلاً، وربما ورث الولد شيئاً من إحساسها ووجدانها وعواطفها الخسيسة(٢).

ولما كانت الآيات السابقة فيها أمور كثيرة يكون الإنسان فيها عُرضة للهفوات واللَّمَم، ختمها بهذه الفاصلة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٥﴾ لمن استقصىٰ جهده في إطاعة أوامر الله، فيغفر ما صَدَر عنه من اللَّمَم.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾.

ولما كان من سُنن القرآن الحكيم تعقيبُ الأحكام الشرعيَّة بما يُبيِّن حكمها وعللها، (كما جاء في المادة الخامسة من المقدمة الثانية)، عقَّب الآيات السابقة بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، واكتفىٰ بهذه الجملة، علىٰ نهج القرآن في الإيجاز، مشيراً إلىٰ

---

(١) في تفسير «المنار»: وتحكيم العقل بالهوىٰ.

(٢) تفسير «المنار» (٥: ٢٣).

ما تضمَّنته من أنَّ في ذلك التحريم لِلمُحَرَّمات حِكَماً وفوائدَ تعود للجسد والروح والأخلاق وقواعد الاجتماع. فالله سبحانه وتعالىٰ يُريد لكم الخير العميم في بيان هذه الأحكام وإيجابها عليكم، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بهذا البيان ﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ممَّن أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين، وهَدَاهُم لسنن الفطرة بما أنزل عليهم من الشرائع، كما أنزل عليكم، ومنه هذه الأحكام، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بعد أن تبتم عمَّا سلف منكم مما كان يخالف هذه الأحكام. ورمز بالتوبة إلىٰ معنىٰ الإصلاح والسعادة؛ لأنه لازِمُها. أي: ويُصْلح أحوالكم الاجتماعية والأخلاقية، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦)﴾ يضعُ الأحكام موافقةً للمصالح والمنافع، وأنتم لا تعلمون كثيراً مما يضركم.

ثم قابل بين ما يريده سبحانه وتعالىٰ لنا من النفع، وما نريده لأنفسنا من الضرر، ونسعىٰ إليه بميولنا الناشئة عن تحريف الفطرة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ والتوبة تتضمَّن الردَّ إلىٰ الصواب، أي: يُريد أن يردَّكم إلىٰ طريق الحقِّ والصواب بهذه الأنظمة، فذكر التوبة علينا من بين وجوه النفع العديدة اكتفاءً بالمهم الشامل، وذلك من أساليب القرآن. وقد تضمَّن الكلام معنىٰ الإصلاح والتثقيف والسعادة أيضاً كما في الآية السابقة، لأنَّ الإصلاح من لوازم التوبة، أو هي هو.

والمعنىٰ: أنَّ الله سبحانه يُريدُ بوَضْع أحكامه اعتِدالَ أحوالكم وإصلاحَ أوضاعكم ومحافظةَ طباعكم، ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ بميولهم الناشئة عن انحراف الفطرة، يريدون لكم ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ عن صِراط الفطرة فتُؤْثروا داعيةَ الشهوة الحيوانية علىٰ كلِّ داعية. فالآية تُومئ إلىٰ أنه يَجبُ علىٰ المؤمن أن يملك نفسه تجاه الشهوات، ويسير في الخطَّة التي رسمتها الشريعة فيها، لا أن تملكه نفسُه وشهواته في ذلك وينساب ويتردَّىٰ؛ إذ يستحيل أن تقومَ أُمةٌ يكثُر فيها مِثْلُ هؤلاء الأفراد الذين

يكون زمامُ عقولهم بأيدي شهواتهم، وإنما تكون الأمم الصَّالحة السعيدة بأفراد تكون زمامُ شهواتهم بأيدي عقولهم، والإنسانيَّة: الاعتدال والتوسُّط في الأقوال والأفعال، كِلا طرفي قَصْدِ الأمور ذميمٌ.

وفي صورة التعبير إشارةٌ إلىٰ أنَّ هذه الأحكام تراعي الوسط الأنفع في ذلك. فهي في الشهوات والميول، تسْلك بالناس مسلك الاعتدال، ولهذا تابع السياق بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ ولا يُكلِّفكم فيما فيه مشقَّة شديدة عليكم، وراعىٰ معكم التخفيف. ومن تخفيفه: أن أباح لكم عند الضرورة نكاح الإماء. ثم علَّل التخفيف بقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ لا يقدر علىٰ المقاومة كثيراً، ولا يحمل ثِقَلَ التضييق، فإذا لم يَتَوَقَّ ويتثبَّت، يصرعه الهوىٰ، وتغلبه الشهوات. وقد قرن سبحانه تكاليفَه بالتخفيف والتسهيل والاعتدال، ويشير عمومُ هذه الآية إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ قد راعىٰ ذلك في وضع الأحكام، ولم يحرِّم إلا ما في إباحته مفسدة عظيمة، يمكن للإنسان أن يتجنَّبها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

ثم قال في «المنار»: قال الأستاذ الإمام: كان الكلام من أول السورة إلىٰ هنا في معاملة اليتامىٰ والأقارب والنساء، ثم في معاملة سائر الناس، ومدار الكلام في تلك المعاملات علىٰ المال، حتىٰ إنه لما ذكر ما يحِلُّ وما يحرم من النساء لم يُخرِج الكلامَ عن أحكام المال، فقد ذكَرَ ما يُفرض لهنَّ، وما يجب من إيتائهنَّ أجورَهنَّ.

وبعد ذكر تلك الأنواع من الحقوق المالية، ذكر قاعدةً عامةً للتعامل المالي(١) ـ أي: علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر الخاصِّ بقاعدة عامة تشمله وغيرَه ـ فحَرَّم التَّعدِّيَ علىٰ المال والنفس، وقرنهما بما تضمَّنه السياق من مثل ذلك في حقوق النساء وشؤونهن، فقال(٢): ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾(٣)، وهذا الاستثناء منقطع. والمعنىٰ: لا تقصدوا إلىٰ أكل أموال الناس بالباطل، ولكن اقصدوا أن تربحوا بالتجارة الصَّادرة عن تراضٍ منكم. وتخصيصها بالذكر دون سائر أسباب الملك؛ لكونها أكثر وقوعاً، وللترغيب في التجارة لشـدَّة حاجة الناس إليها. ولكون إتلاف المال سبباً يؤدِّي إلىٰ إتلاف النفس

(١) تفسير «المنار» (٥: ٣٣).

(٢) لما كان فيما تقدَّم من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [النساء: ٣]، وقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا﴾ [النساء: ٦]، وقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ [النساء: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [النساء: ١٠]، وفي الوصية والمواريث، وقوله: ﴿لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]، وقوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا﴾ [النساء: ٢٠]. وقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤]. وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم﴾ [النساء: ٢٤] الآيات، لما كان في كل تلك الآيات وجوهٌ محتملة لأكل الأموال بالإثم والعدوان والاعتداء علىٰ بني الإنسان، عقبها بهذه القاعدة العامة الشاملة لما قبلها وغيره علىٰ نهج القرآن؛ لتكون زَجْراً عن ذلك وحفظاً لتلك الأحكام. فالآية امتداد لتلك الآيات وَتَتْميمٌ لها علىٰ أسلوب القرآن. والله أعلم. (المؤلف).

(٣) خصَّ الله سبحانه وتعالىٰ التجارة بالذكر لأنها عنصرٌ اجتماعيٌّ لا غنىٰ عنه، فوق ما أنها تطبع المرء علىٰ خصال حميدة إذا سار فيها بمقتضىٰ الصدق والإخلاص، لأنها تجعل منه رجلَ كَدٍّ وعمل واقتحامِ صعاب، وتجعله ذا بصيرة نافذة وفكرة نيِّرة وعزيمة صادقة، إلىٰ غير ذلك من الأخلاق العالية، والمراس الشديد النافع. (المؤلف).

ـ حقيقةً أو حكماً ـ قرنه به، للإيماء إلىٰ ذلك. وهذا بحسب سياق الجملة الآتية ودقَّة المسلك. أما صيغتها فحكم مستقل عقَّب به الأول لتساويهما في الضرر والنتيجة.

قال البقاعي[1]: لما كان المال عديل الروح، ونهىٰ عن إتلافه بالباطل، أردفه بالنهي عن إتلاف النفس، ولكون أكثر إتلافهم لها بسبب الأموال.

أقول: يجوز أن يكون ذلك للإيذان بتساويهما في المنزلة، ويجوز أن يكون فيه زيادة تقرير لأكل الأموال بالباطل، بمعنىٰ أنَّ فيه ضرراً كبيراً بصاحب المال، وبالمجتمع كلِّه، فعبَّر عن هذا الضرر بقتل الأنفس مبالغة، أو لأنه يؤدي إلىٰ النزاع، والنزاع يؤدِّي إلىٰ القتل فعلاً، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، بإزهاق الروح أو بإتلاف المال. فتكون الجملة بحسب السياق تقريراً لما قبلها، وبحسب النظم نهياً عن قتل الأنفس بسائر أنواعه وأسبابه، واختير هذا التعبير للإشعار بالوحدة، ومثله ما تقدَّم من قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾ [النساء: ٢٩]، فهو من إجْراء الوحدة بالنوع مجْرىٰ الوحدة بالشخص، ثم خَتَم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: ومن رحمته أن أوْجَبَ عليكم هذه الأحكام المنظِّمة لشؤونكم.

ثم عقَّب علىٰ ما تقدَّم، بالتهديد للمرتكبين، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ أي: لا يقف أمامَه حِلمُه ورحمتُه، فلا يَغْترَّ المغترون.

وبعد أن حذَّر المرتكبين وتوعَّدهم، بشَّر المُجْتنبين ووَعَدَهم، علىٰ سُنَّة القرآن في

(١) هو برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط (٨٠٩- ٨٨٥هـ)، مؤرِّخ أديب، أصلُه من البقاع في سورية، له: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» ويعرف بـ«تفسير البقاعي»، و«سر الروح»، و«أخبار الجلاد في فتح البلاد». «الأعلام» للزركلي (١: ٥٦).

المقابلة وبيان القواعد العامة، فقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ أي: في الجنَّة. ويُطلق «الكريم» علىٰ كل ممتاز من نوعه.

ونقل عن ابن عباس: إنَّ كلَّ ما عُصي الله به، فهو كبيرة(١). وعن النبي ﷺ: «إنَّ الكبائر: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرَّم الله، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والزنىٰ، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور»(٢).

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

ولما نهىٰ الله سبحانه المؤمنين عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن قتل الأنفس، عقَّبه بالنَّهي عمـا يؤدِّي إليه من الطمع في أموال الناس والتمنِّي لها والحسد عليها، وأرشدنا إلىٰ استعمال المواهب والجد في الكسب؛ لما نرومه لأنفسنا من الخير، فهو الذي يوصلنا إلىٰ ما نتمنَّـاه حسب سُنن الله في هذا الكون، ولا فرق في ذلك بين الرجال والنساء، ووصله بالسياق، فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ أي: لا فائدة بمُجرَّد

---

(١) ذكره الألوسي في «تفسيره» (٥: ١٨).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩)، عن أبي هريرة، بلفظ: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هُنَّ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

التمنِّي والتحاسد، ولكن وَجِّهوا أنظاركم إلىٰ ما يقع تحت كسبكم حَسَب سُنَن الله الكونيَّـة، فتنافسوا فيه، فإنَّ معالجة الاكتساب تُؤدِّي إلىٰ الحصول علىٰ نصيب من الكسب، للرجال فيما يخصُّهم، وللنساء فيما يخصُّهنَّ. ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: بطريق السعي والكسب، لا بطريق الكسل أو النهب والغصب، فإنَّ باب الله مفتوح لـمن يتمسَّك بسُنـنه في الحصول علىٰ الرزق والمال؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ فنظَّمَ الأمور من الرزق وغيره بحَسَب علمه الواسع علىٰ دساتير مُطَّردة لا تتغيَّر.

فالآية بحَسَب السياق: علَّةٌ للنهي عن هذا التمنِّي والحسد، ومن حيث الصيغة: تقريرٌ للمساواة بين الرجال والنساء في الاكتساب من فَضْل الله، وأنه أمرٌ مشروعٌ للنساء كما للرجال، وإن اختلفت طرق كسبيهما وصناعتيهما، كما يَتَساويان في الاستفادة من الميراث وإن اختلفت حِصَصُهما.

ولما كان في هذه إشارة إلىٰ القاعدة العامة في اكتساب الثروة، وهي اتِّباع الطرق الطبيعية في ذلك، انتقل من ذكر الغالب وهو الكسب، إلىٰ غير الغالب وهو الإرث، عائداً إلىٰ البحث وتقريرِ مسائله ومباحثه، رابطاً بين السياقين، ومتمِّماً لأحكام الميراث، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كمـا جاء في المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ﴾[1]، والموالي: من لهم الولاية علىٰ التركة. أي:

(١) بعد أن نهىٰ في السياق عن أكل الأموال بالباطل، ثمَّ نهىٰ الرجال والنساء عن التحاسد، قـرَنه بمـا قـرَّر به ما سبق من قوله تعالىٰ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧] تلك الآية التي أثبت بها حقوقَ النساء في الميراث كمـا للرجال، ونقض بها عمل الجاهليَّـة في عدم توريث النساء والولدان. فمعنىٰ ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾: لكلٍّ من الرجال والنساء وراثـة ووارثون، لأن الـموالي هم =

لكلٍّ من الرجال الذين لهم نصيب ممَّا اكتسبوا، والنساء اللواتي لهنَّ نصيب مما اكتسبن، جعلنا موالي لهم حقّ الولاية علىٰ ما يتركون من كسبهم. وهؤلاء الموالي هم: ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ بالنكاح، أي: جميع الورثة من الأصول والفروع والحواشي والأزواج، كما تقدَّم تفصيل ذلك في أول السورة.

فالمراد هنا بالذين عَقَدَت أيمانكم: الأزواج. وإنما أسند العقد إلىٰ الأَيمان، إذ المتعارف في العقد أن يكون مصافحة باليدين اليُمْنيين. وهذا هو قول أبي مسلم، فكلُّ واحد من الزوجين يصير له حقُّ الإرث بالعقد، ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: فأعطوا هؤلاء الموالي نصيبَهُم المفروض لهم، ولا تنقصوهم منه شيئاً.

وقيل: المراد بالذين عَقَدَت أيمانكم: مولىٰ الموالاة الذي نُسخ حكمُه بآية الأرحام، وكان يرث السدس من مال حليفه.

ويجوز أن يكون ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ وما بعده فاعلاً لـ﴿تَرَكَ﴾، والمعنىٰ: لكلٍّ من الرجال والنساء جَعَلنا مواليَ لهم حظوظ وأنصباء ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾.

ولما كان الميراث موضعاً لطمع بعض الوارثين، ولا سيما من يكون في أيديهم

= الوارثـون وصْفٌ تضمَّن الـمصدر علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، والله أعلم.
فبيَّنت الآية وجهاً آخر من وجوه الحصول علىٰ المال، بعد أن بيَّنت الحصول عليه من طريق الكسب بالأعمال، وهو الوراثة، ثم بيَّنت مصدر هذه الوراثة ومحلَّها، وهو تَرِكة الوالدين والأقربين وما ملكت الأيمان. وقد اختلفوا في الأخير، فمنهم مَنْ رآه الزوج، ومنهم مَنْ رآه المعتق، ولا يبعد عن نهج القرآن أن يحتملهما معاً.
هذا ما أراه في تفسير الآية، والله أعلم، وعليه تكون الآيات تأديباً عن الحسد وتوجيهاً إلىٰ طلب الكسب بالأعمال، وقد يحصل علىٰ المال بالميراث. (المؤلف).

المال، لإقامة الموروث منه معهم، قال تعالىٰ بعد الأمر بإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: إنه تعالىٰ رقيبٌ عليكم، حاضرٌ يشهد تصرُّفكم في أعمالكم.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

ثم عاد بالكلام إلىٰ ما سَبَقَ من ملابسات النكاح ومتعلقاته، علىٰ نهج القرآن في العودة وتتميم المباحث، وذكر واجبات العائلة التي أحدثها النكاح، وبيَّن النظام فيها والرباط والتأديب، فذكر رياسة الزوج وسببها وأحكام سلطته، وحالات النساء، وكيفيَّة حلِّ المنازعات الزوجيَّة، فقال: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1]، وهذه ميزةُ تكليف أكثر مما هي ميزة تشريف، أي: يقومون بأمرهنَّ ويهتمون بحفظهنَّ ولهم الرياسة عليهنَّ، وذلك لأمرين:

---

(١) المرأة في الإسلام قسيمةُ الرجل، لها من الحقِّ ما له، وعليها ما عليه، ولا فضل إلا أن يقوم الرجل بما له من قوة الجلَد وبَسْطة اليد واتِّساع الحيلة، فيلي رياستها، فهو بذلك وليُّها، يُحيطها بقوته، ويذودُ عنها بدمه، وينفق عليها من كسب يده. فأما فيما سوىٰ ذلك، فهما في السرَّاء والبأساء علىٰ سواء. وتَرْكُ زمام البيت في يد المرأة وَضْعٌ للأمور في غير نصابها، وهو تحميل العبء للكاهل الضعيف. والفاء في قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ للتفريع علىٰ إثبات القواميَّة للرجال، لإفادة أن علىٰ النساء إطاعتها والعمل بمقتضاها، ولبيان أحكامها سلباً وإيجاباً. (المؤلف).

أمر وَهْبيٌّ فطري، وهو تميُّز الرجال علىٰ النساء ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في المزايا الفطرية والخصائص الجنسية.

وأمر كَسْبيٌّ ﴿وَ﴾ ذلك ﴿بِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ في المهور وتوابعها، والنفقات الزوجية والبيتية بأنواعها.

وملخَّص الآية: إنَّ الزوجية حياة اجتماعية تقتضي وجود رئيس يُرْجَع إليه، حين اختلاف الآراء والرَّغَبات، حتىٰ لا يعمل كلٌّ ضدَّ الآخر، فتنفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام. والرجل هو الأحقُّ بهذه الرياسة، لأنه أعلَمُ بالمصلحة، وأقدَرُ علىٰ التنفيذ، ولأنه المكلَّف بالإنفاق وبحماية المرأة وكفايتها جميع شؤونها.

والنساء تحت تأثير هذه الرياسة قسمان: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾[1] منهنَّ ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مطيعاتٌ لله تعالىٰ ولأزواجهنّ، و﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ وأكبر حافز لذلك: الحياء والدين. والغيب هنا: ما يُسْتَحَىٰ من إظهاره من كلٍّ ما هو خاصٌّ بأمور الزوجيَّة.

ومعنىٰ ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾: بما أراد الله حِفظَه في حالة الغيبة عن الأزواج. وقد جاء في الحديث: «خير النساء التي إذا نظرت إليها سَرَّتْك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غِبْتَ عنها حَفِظَتْكَ في مالك ونفسها»[2]، وقرأ الآية.

---

(١) يختار العاقل الأرض إذا أراد الزراعة لتُثمر ثمراً جيداً، وتنتج نتاجاً حسناً. والمرأة هي الحرث الذي يُثمر النوع الإنساني، فإذا لم يُعْنَ بها العاقل عنايته بالأرض، كانت قيمة النوع الإنساني في نظره دون قيمة محصولات الأرض. وإنسانٌ هذه عقليَّته يُعَدُّ لا عقل له، بل يكون بجهله هذا مثل الحيوان في الإدراك والتمييز، ويكون بسفهه في مستوىٰ البُلْهِ والمجانين، حيث يميل إلىٰ شهوته دون ذريته. (المؤلف).

(٢) رواه بهذا اللفظ أبو داود الطيالسي في «مسنده»(٢٤٤٤)، والطبري في «تفسيره» (٨: ٢٩٥)، عن أبي هريرة. =

وقال في «المنار»: إنَّ هذه العبارة من دقائق كنايات القرآن البليغة؛ تقرؤها خرائدُ العذارىٰ جهراً، ويفهَمْن ما تُومِئُ إليه مما يكون سراً، ويَصرِفُهُنَّ آخرُها إلىٰ التمادي في التفكير فيما يطَّلع عليه علام الغيوب(١).

قال الأستاذ الإمام: وإنَّ هذا القسم من النساء ليس للرجال عليهنَّ شيء من سلطان التأديب، وإنما سلطانهم علىٰ القسم الثاني الذي بيَّنه وبيَّن حُكْمَه بقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾(٢) أي: خروجهنَّ عن حقوق الرجل والإفلات من رياسته، فأدِّبوهنَّ.

وقد جعل للتأديب مراتبَ ثلاثاً، وقال: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾، فلكلِّ صنفٍ من النساء ما يليق به، ويكفي في رَدْعِه.

فهناك صنف من النساء لا يُؤثِّر فيه الوعظ، ولا يكترث بالهجر؛ فأُبيح للرجال نوعٌ من التأديب المادي لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة، وهو الضربُ غير المبرِّح لترجع إلىٰ صوابها. وجاء في الحديث: أن يكون هذا الضرب غير مبرِّح(٣)، بمعنىٰ: غير مُؤْذ ولا شائن. وهذه المراتب تكون علىٰ التَّدرُّج، ولا يكون الضرب إلا آخر المراتب، وذلك إذا لم يُفِدْها الوعظ ولا الهجر، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾.

= ورواه النسائي في «سننه» (٣٢٣١)، وأحمد في «مسنده» (٧٤٢١) بلفظ: «التي تسرُّه إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فيما يكره في نفسها وماله».

(١) تفسير «المنار» (٥: ٥٨).

(٢) المصدر السابق (٥: ٥٩).

(٣) رواه مسلم (١٤٧) (١٢١٨) من حديث جابر في حجة الوداع فقال: «فإن فعلنَ فاضربوهن ضرباً غير مبرح».

قال الأستاذ الإمام: أي: إنْ أطَعْنَكُم في واحدةٍ من هذه الخصال التأديبيَّة، فلا تَبْغُوا بتجاوزها إلىٰ غيرها(١).

ثم ختم الآية بما فيه وعيدٌ لمن يَتَجاوز الحد في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾، وسلطانه عليكم فوق سلطانكم علىٰ نسائكم.

وإذا لم تُفِدْ هذه المراتب التَّأديبيَّة، يركن إلىٰ المحاكمة التي فصَّلها سبحانه بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾، وهذا حكمٌ من أعظم الأحكام الاجتماعية قد أهمله الحكام، وأهملته حكومات الإسلام. والخطاب مُوَجَّه للأمة وللحكام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا في الرجل والمرأة إذا تفاسد الذي بينهما؛ أمر الله تعالىٰ أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، ورجلاً مثله من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء حَجَبوا عنه امرأته وقسروه علىٰ النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة، قسروها علىٰ زوجها ومنعوها النفقة، فإن اجتمع أمرهما علىٰ أن يُفرِّقا أو يجمعا، فأمرهما جائز(٢).

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: فلا يشرع لكم إلا ما به صالحكم.

﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ

(١) تفسير «المنار» (٥: ٦٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨: ٣٢٥).

وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾.

وبعد أن ذكر أحكام الزوجين من شؤون البيت، أوصىٰ سبحانه بالإحسان إلىٰ الوالدَيْـن والأقربين والجيران وسائر مَنْ يستحق الإحسان، ليكون البيت في راحة وأمان، مُحاطاً برعاية الله سبحانه وألطافه، وصدَّر ذلك بالإحسان في عبادة الله، فإنه ملاك الأمر كلِّه، وحاملهُ علىٰ التمسُّك بالأحكام المحيطة بها سابقاً ولاحقاً، فقال[١]: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: الجار القريب منك بالنَّسب، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ أي: الجار الذي لا قرابة بينك وبينه، ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما فيه قولان: الرفيق بالسفر[٢]، والمنقطع إليك يرجو نفعك[٣]. أقول: ولا يبعد أن يشمل الصديق. وروي عن علي رضي الله عنه: أنه المرأة[٤]، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قيل: هو المنقطع في السفر، وقيل: هو بمعناه العام يشمل اللقيط والمتسوِّلين

---

(١) انظر إلىٰ عناية الدين الإسلامي بأمر المجتمع، جماعاتٍ وأفراداً، وما يشرع لسلامته وتماسك بنائه من شرائع وبيانات. والباء في قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ للإلصاق، فهي تُؤْذن بوجوب الإحسان إليهما دون انفصام، وفي ذلك من الدلالة علىٰ تأكيد الإحسان إليهما والعناية بهما ما ليس في كلمة (إلىٰ). وفي هذه الآية إتمام لآداب البيت والجيران، وتفصيل لأنواع الإحسان. (المؤلف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨: ٣٤١).

(٣) المصدر السابق (٨: ٣٤٤).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٣٠٢).

في الطرقات أيضاً، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾[١] من فتياتكم وفتيانكم، فأحسِنوا إليهم، ولا تُكَلِّفوهم ما لا يطيقون.

وقد تضمَّنت هذه الآية ما يسمُّونه اليوم بالضمان الاجتماعي، وهو الإنسانية الكاملة المطبوعة علىٰ العطف والإحسان، ولا شك أنَّ ذلك يكفل للأمة العزَّة والسيادة والبقاء عليهما.

ثم ختم الآية بما يحمل علىٰ التَّمسُّك بهذه الوصايا، وهو سَلْبُ الرضا عمَّن يخالفها، وتشمل غير المؤمنين بالأَوْلىٰ، وقد وَصَفه بأخصِّ صفاته، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ فيه إيماءٌ إلىٰ أنَّ هذا الصنف لا يقوم بهذه الواجبات. فالجملة بحسب السياق، وعيدٌ لمن لم يتمسَّك بهذه الأوامر من أهل الكتاب والمشركين الذين منعهم حرصُهم علىٰ مراكزهم وثرواتهم من الإيمان برسول الله ﷺ، عنونه بهذا العنوان لأنه مصدر المخالفة لهذه الوصايا التي هي من الإسلام، وبحسب الصيغة: نهيٌ عن خُلق ممقوت عند الله، والويل لمن لا يُحبه الله. و(المختال) هو: المتكبر الذي تظهر آثار الكِبْر في حركاته. و(الفَخُور) هو: الذي تظهر آثار الكِبْر في أقواله. وهذا الصنف لا يرىٰ عليه حقاً؛ لا لخالق ولا لمخلوق. وليس من الكِبْر أن يكون الإنسان وقوراً في غير غِلْظَة ولا احتقار للغير.

ثم تابع الكلام عن أولئك المعارضين المخالفين، ببيان صفاتهم القبيحة التي هي مصدر المخالفة لهذه الوصايا والشريعة التي جاءت بها، إيذاناً للمؤمنين أن يتجنَّبوها، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أن يشاركوهم ﴿بِٱلْبُخْلِ﴾[٢]

---

(١) جمعت هذه الآية من أنواع الإحسان ما لو عمل بها الناس؛ لعمَّ فيهم الخير والوئام، وهو غاية ما تصبوا إليه الإنسانية من إقرار السلام، ونشر المحبة بين الناس. (المؤلف).

(٢) إذا بذل غنيٌّ من الأغنياء الطيبين شيئاً من ماله في غاية سامية وغرض شريف، حاول كثير =

﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ كي لا ينفقوا منه علىٰ من ذكر، فتوعَّدهم بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: هيَّأنا لهم بكفرهم وكِبْرهم وبُخلهم وعدم شكرهم، عذاباً ذا إهانة، أي: يجمع بين الألم والإهانة. وإنما قال: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: (لهم)، للإيذان بأنَّ هذه الأخلاق والأعمال إنما تكون من الكَفُور، لا من المؤمن الشَّكُور.

ثم ذكر صنفاً آخر من هؤلاء المخالفين المختالين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فهم يفضِّلون ما عند الناس من المدح والثناء علىٰ ما عند الله من الثواب والجزاء.

ثم بيَّن مصدر هذه الصفات فيهم، فقال: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ أي: إنَّ الحامل لأولئك المُختالين علىٰ هذه الصفات، وعلىٰ المخالفة للوصايا السابقة والدِّين الذي جاء بها، إنما هو وسوسة الشيطان ومصاحبة الأشرار.

والآية تشير إلىٰ أنَّ التقصير في هذا الحقِّ شأن المتكبِّرين المُختالين؛ لأنهم لا يرون في الحياة إلا حقوقَ أنفسهم، ومنازعَ شهواتهم، ولا يَرَوْنَ حقاً عليهم لغيرهم، خالقاً كان أو مخلوقاً. وقد صنَّفهم إلىٰ صنفين: بخلاء ومرائين، فالبخيلُ يمنع الحقَّ الذي عليه، والمرائي ينفق لا يريد وَجْهَ الله ومجرَّد الإحسان، ولكن يقصد أن يجلب لنفسه الفخرَ الكاذب. أما الذي ينفق لوجه الله فهو يحصل علىٰ هذا الجزاء، ويأتيه مدح الناس من

= من أبناء صنفه الأغنياء التنديد به والمؤامرة ضدَّه، لتحطيم هدفه السامي، وإحباط مَسْعَاه المحمود، أو أن يُوسوسوا له بكلِّ خبيثة لترك هدفه، والإعراض عن مُبْتغاه، كي لا ينحطوا به، ويتميَّز عنهم في مسعاه. ومن ذلك أن يقولوا: إن هذه المبالغ لا تصل إلىٰ الهدف المسمَّىٰ، وإنما يأكلها الجامعون. (المؤلف).

دون إثم، وبصورة أعلىٰ وأفضل. وقد سجَّل القرآن أنَّ هذين الخلقين ليسا طبيعيين في الإنسان، ولكنهما ناشئان من إفساد الطبيعة المنبعث فيهم من قرناء السوء.

قال الأستاذ الإمام: وفي الآية تنبيهٌ إلىٰ تأثير قُـرَناء المرء في سيرته، وما ينبغي من اختيار القرين الصالح، وتَعْريضٌ بتنفير أولئك الأنصار من مقارنة أولئك اليهود الذين كانوا ينهونهم عن الإنـفاق في سبيل الله، ويُغْرونـَهُم بالحذر من الفقر وسوء المغبَّة.

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

ثم وبَّخهم علىٰ الجهل بمكان المنفعة والمصلحة، وعلىٰ الاعتقاد في الشيء بخلاف ما هو عليه، مُتْبِعاً النقدَ بالإرشاد، واصفاً للدواء بعد تشخيص الداء، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾، فرَعَـوْا هذه النعمة وتحسّـسوا بأنها من الله، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ فهلّا اكـتفوا بعلم الله بهم، ولم يلتمسوا رئاءَ الناس بذلك الإنفاق. ويجوز أن تكون الفاصلة لمجرَّد الوعد والوعيد.

والتعبير بـ«ماذا عليهم» أبلغُ تعبير في التوبيخ علىٰ التفريط بما كان من السهل عليهم ـ لو رشدوا ـ أن يجمعوا بين منفعة الدنيا وسعادة الأخرىٰ؛ لأن الناس حينئذ يذكرونهم ويقدرونهم أكثر ممّا إذا راءَوْا بأعمالهم وفاخروا بها؛ لأنهم لو أخلصوا العمل لله لَـمَا فاتتهم منفعة الدنيا ولفازوا بسعادة العُقْبىٰ.

ثم أردف التوبيخ بهذا البيان، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ من الأعمال الخالصة له حتىٰ لو كانت بمقدار ذرَّة من الهباء، ولا يعاقب بغير استحقاق للعقوبة، ﴿وَإِن تَكُ﴾ تلك الذرَّةُ ﴿حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ أي: إنه يزيدُ للمحسن في إحسانه، ﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾ أي: ويُعطي علىٰ الحسنات عطاءً كبيراً فضلاً منه ونعمة، والله ذو الفضل العظيم، يعطي هذا العطاء في مقابلة الأعمال، كما تُؤذن به كلمة «أجر»، فلا مطمع فيه للمهملين ولا للمسيئين، والله أعلم، لأنَّ الثواب والعقاب تابعان لتأثير الأعمال في النفس، بتزكيتها أو تَدْسيتها، فالعملُ الصالح يرفعها، والسَّيِّئُ يحطُّها، ولكلٍّ درجات.

ثم فرَّع علىٰ هذه البيان ما يتضمَّن حِفظَ الأعمـال عليهم بعد أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وإنذارَهم الرهيب، ووعيدَهم ومصيرَهم، وذلك بقوله: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾ أي: يشهد بمـا كانوا عليه من فساد العقائد وقبائح الأعمـال، وهو نبيُّهم، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ۝٤١﴾.

ثم بالغ في التهديد بهذا التعبير الرهيب عن الموقف العصيب، فقال: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ۝٤٢﴾، وهذا أروعُ تهديد علىٰ كتمان الحقِّ. وتسويةُ الأرض بهم: عبارة عن مواراتهم بها خجلاً، فهي كنايةٌ عن ندمهم العميق، وهَلَعهم الشديد، وخجلهم الفظيع، من جرَّاء ما كتموا من الحقِّ الذي يعرفونه من كتابهم عن أمر النبيِّ ﷺ، وعن الوحي الذي جاء به. فتكون جملة: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ۝٤٢﴾ جملةً حالية. أي: يودُّون أن يُدفنوا في الأرض ولا يسألون عن الكتمان والعصيان.

وقيل: هي معطوفة علىٰ جملة ﴿يَوَدُّ﴾ أو مستأنفة. والمعنىٰ: ولا يقدرون يومئذ علىٰ كتمان ما عملوه من سيِّئات. والتعبير بالموصول بدل الضمير(١) للإشعار بعلة ما اعتراهم، وليكون الكلام عاماً فيمن يكون مثلهم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة لتشريفه، للزيادة في تقبيح حال مكذِّبيه، فإن من حقِّ الرسول أن يُؤمَنَ به ويُطَاع، لا أن يُكفر به ويُقاوَم ويُعصىٰ.

وجاء في السيرة النبوية عن هذه الآية: أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبيُّ ﷺ: «اقرأ عليَّ القرآن»، قلت: أقرأ عليك! وعليك نزل؟ قال: إني أحبُّ أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء، حتىٰ أتيت إلىٰ هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، قال: «حَسْبُكَ الآن»، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تَذْرِفان(٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

وبمناسبة التشنيع علىٰ هذه الرذائل، والحَمْل علىٰ الابتعاد عنها، والموقف العصيب لأربابها المشركين وأهل الكتاب، ذكر حكم الصلاة مع السُّكْر، علىٰ وجه النهي، تمهيداً لتقبيح الخمر وتحريمه، وهو من بقايا رذائل الجاهلية والمشركين، وعلىٰ نهج القرآن في الأمر بالصلاة أثناء الكلام عن المشركين ومقاومتهم، تثبيتاً للمؤمنين وعلاجاً لتقوية

---

(١) يعني: في قوله: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، حيث أظهر ذِكرَهم، ولم يقل: يودُّون.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠).

عزمهم، وقد يقرن بها بعضاً من أحكامها وأوصافها، أو متعلّقاتها كما فعل هنا متَّبعاً نهج القرآن في مثله[١]، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[٢]، فالنهيُ عن السُّكْر في الصلاة أمرٌ بأدائها كاملة، وجعل ذلك تمهيداً وافتتاحاً لبيان عدَّة أحكام متناسقة في متعلِّقات الصلاة. وهذا التعليل والغاية للنهي يفيدان وجوبَ الشعور والعلم بما يقوله المصلِّي من تلاوة وذكر، والعلم به معناه: الفهم له وحضور الذهنِ لتَصوُّره. ونَـهْيُ القرب أبلَغُ في إفادة تحريم الخمر وحُرْمَة الصلاة.

وبمناسبة النَّهي عن الصلاة مع السُّكْر، ذكر النَّهيَ عن الصلاة مع الجنابة؛ تتميماً للبحث، وتنسيقاً للأحكام، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ وهو مَنْ أصابته الجنابة، ويقال للواحد والمثنَّىٰ والجمع مذكراً أو مؤنثاً، أي: ولا تقربوا الصلاة وأنتم جُـنُب في حال من الأحوال ﴿ إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ أي: مُجْـتَازي طريق، بمعنىٰ:

---

(١) لما كان من نهج القرآن عند ذكر ما للكافرين من العواقب الوخيمة أن يحذر المؤمنين من ذلك الموقف ويبيِّنَ لهم الطريق المنجي، فعندما ذكر هؤلاء الذين يَـتَمَنَّونَ عند الحساب لو تُسوَّىٰ بهم الأرض خجلاً من كتمان بيانات الله وتعليماته، استطرد إلىٰ حثِّ المؤمنين علىٰ الاهتمام بأهم ما ينقذ من ذلك الموقف، وهو العناية بأمر الصلاة والبُعد بها عما يشينها ويُفقدها خاصَّتها وثمرتها، وأكمل ذلك ببعض أحكام لها، علىٰ نهج القرآن في مثله. وبعد أن استطرد إلىٰ هذا عاد إلىٰ السياق السابق بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ...﴾ [النساء: ٤٤] الآيات. (المؤلف).

(٢) من نهج القرآن أن يأمر بالصلاة علاجاً لتثبيت المؤمنين في كلِّ موضوع يكون الكلام فيه عن المعارضين، فتصدَّىٰ لها هنا مع بيان حكم من أحكامها علىٰ وجه النهي، وهو إتيانها مع السكر قبل تحريم الخمر، وإتيانها مع الجنابة. فهي لبيان حكمٍ بمقتضىٰ الصيغة، وللتثبيت بحسب السياق. (المؤلف).

مسافرين. فرخَّصت الآيةُ للجنب إذا كان مسافراً فاقداً للماء أن يقرب الصلاة بالتيمُّم الآتي حكمُه، وجعلته تمهيداً له.

وقيل: المراد بالصلاة هنا: موضعها، أي: المساجد. والآية تنهىٰ عن مُكث الجُنب في المساجد، وتُرخِّص بالمرور إذا كانت له حاجة، أو باجتياز الطريق إذا كان من المسجد. والمعنىٰ الأول أظهرُ وأنسبُ بالسياق. ويجوز أن يُراد المعنيان معاً.

ثم ذكر الغاية التي ينتهي عندها هذا النهي، فقال: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾، أي: لا تقربوا الصلاة؛ لا بأدائها ولا بالمُكْث في مكانها إلىٰ أن تغتسلوا.

قال في «المنار» ما مُلَخَّصه: الاغتسال عبارةٌ عن إفاضة الماء علىٰ البدن كله. ومن شأن الجنابة أن تُحدِثَ تهيُّجاً في المجموع العصبي، يتأثر به البدن كلُّه، ويعقبها فتور وضعف يزيله الماء. ولذلك جاء في الحديث: «إنما الماء من الماء»[1]. فأوْجَبَ الله سبحانه ـ فيما جعله غايةً للنهي عن صلاة الجنب ـ أن يتحرَّىٰ الإنسان في صلاته النظافة والنشاط، كما أوجب ـ فيما جَعَله غايةً للنهي عن صلاة السكران ـ أن يَتَحرَّىٰ فيها الفهم وتدبُّر القرآن والذكر.

ولما استثنىٰ عابر السبيل بمعنىٰ المسافر، من نهي الجنب لقُرب الصلاة، ذكر حكم التَّيمُّم، وأنه يسدُّ عند هذا المسافر مَسَدَّ الغسل إذا فقد الماء، ولكنه ذكر ذلك بصورة قاعدة تشريعية عامَّة للتيمم تشمل ما قبلها وغيره، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، فذكر نوعين من الأسباب المرخِّصة للتيمم بدل الغسل والوضوء معاً، ثم قال: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فذكر نوعين من الأسباب المقتضية للتيمُّم والطهارة، نوعاً يقتضي التَّيمُّم بدل الوضوء،

---

(١) رواه مسلم (٣٤٣)، عن أبي سعيد الخدري. وانظر تفسير «المنار» (٥: ٩٦).

ونوعاً يقتضي التَّيمُّم بدل الغسل، وخصَّ هذين النوعين بالذكر لأنهما أكثر وقوعاً، وأخَّر قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً﴾ ولم يقيِّده بحال؛ ليعمَّ السفر والحضر إذا فُقِدَ فيهما الماء. ومثل هذا الاحتباك من أساليب القرآن.

ويجوز أن يكون المرضُ والسفرُ وفَقْدُ الماء مُرخِّصاتٌ ثلاثة، كلٌّ منها مستقلٌّ بذاته كما ذهب إليه البعض، وسيأتي الإيماء إليه عن الإمام(١). والله أعلم. ويكون ترتيب الآية علىٰ أنه ذكر أولاً سببين مُرَخِّصين، ثم ذكر موجبَيْن أدمجهما في مرخِّص ثالث مستقلٍّ أيضاً، وهو فَقْد الماء؛ ليتهيَّأ عطفه علىٰ ملامسة النساء، فيؤذن بأنَّ الحدث الأكبر في التيمُّم كالحدث الأصغر، سواء بسواء. والله أعلم.

ثم ذكر الحكم في الجواب، فقال: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، أي: اقْصُدوا تراباً نظيفاً نزيهاً، أو أرضاً نزيهة؛ لأنَّ الصعيد هو: التراب، أو وَجْه الأرض، أو كلُّ ما حصل منها.

وحكمة التيمُّم ـ والله أعلم ـ: المواظبة علىٰ الصلاة كي لا يؤدِّي تركُها إلىٰ التعوُّد علىٰ التهاون بها والإهمال لها، وهي عبادة محتومة وفريضة موقوتة، لا هوادةَ فيها ولا مندوحةَ عنها، وتكرارها يديم تذكير المرء مراقبة الله تعالىٰ وتقواه.

ثم بيَّن صورة التيمم، وقال: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ تمثيلاً لمعظم عمل الوضوء.

وقد علَّل هذا الترخيص والتيسير بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾، ويطلق العفو بمعنىٰ: اليُسر والسهولة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾[الأعراف: ١٩٩].

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده، وستأتي مناقشة هذا القول قريباً.

وقال الأستاذ الإمام: بل معنىٰ الآية: أن حكم المريض والمسافر إذا أراد الصلاة، كحكم المُحْدِث حَدَثاً أصغرَ أو ملامس النساء ولم يجد الماء، فعلىٰ هؤلاء التيمُّم فقط[1].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

وبعد أن ذكر تلك الأحكام وما عليها من الوعد والوعيد، عقَّب ببيان أحوال بعض الأمم من حيث أخذُهم بأحكام دينهم وعَدَمُه؛ ليذكِّر الذين خُوطبوا بالأحكام المتقدِّمة بأنَّ الله تعالىٰ مهيمنٌ عليهم كما هيمن علىٰ من قبلهم. فإذا هم قصَّروا يأخذهم بالعقاب الذي رتَّبه علىٰ ترك أحكام دينه في الدنيا والآخرة. وقد صدَّر البيان بالنَّعي

---

(١) جَعَل الشيخ محمد عبده رخصة التيمُّم للمسافر علىٰ إطلاقها، أي: حتىٰ وإنْ توفَّر له الماء فإنه يتيمَّم. وظاهر الآية غير محوجٍ لهذا التفسير الذي نقله المؤلف عن الشيخ محمد عبده، لأنَّ المريض ضعيف، والمسافِر مع المحدث حدثاً أكبر صنفٌ ثانٍ، أما المريض فخصوصيَّته أنه لا يشترط له انعدام الماء، لأنه يحتمل في حقِّه عدم القدرة علىٰ استعمال الماء لمرضه. أما المسافر والمحدث حدثاً أصغر أو حدثاً أكبر فخصوصيتهما هي اشتراط انعدام الماء فقط. أما إنْ وجد الماء فلا مفرَّ لهم من استعماله. وهذا الاجتهاد الذي نقله المؤلف عن الشيخ محمد عبده مخالفٌ للسنَّة والإجماع، والثابت من السنة ما جاء في «صحيح البخاري» (١٣٩) عن أسامة بن زيد في وضوء النبي ﷺ في المزدلفة، وقصة وضوئه في السفر التي رواها البخاري (٣٦٣) ومسلم (٢٧٤) عن المغيرة بن شعبة، وكما في قصة الحديبية التي رواها البخاري (٣٥٧٦) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وغير ذلك كثير. وكلام الأستاذ في تفسير «المنار» (٥: ٩٧).

علىٰ خَلْفِ أولئك الأمم، حيث حُرِموا هداية هذا الدين، وحذَّر المؤمنين بأنهم أعداؤهم الألدَّاء، يحاولون أن يُضِلُّوا كما ضَلُّوا، ويكيدون لهم لِيَرُدُّوهم عن دينهم إن استطاعوا، وضمَّن ذلك عنايتَه بهم وحفظَهم منهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1]، وعنونهم بهذا العنوان زيادةً في التشنيع عليهم؛ لأنَّ من مقتضىٰ ذلك أن لا يعرضوا عن الهدىٰ بعد إذ جاءهم، ولكنهم كانوا علىٰ خلاف ذلك، ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ كما ضَلُّوا.

فنعىٰ عليهم بما أضاعوا وحرَّفوا، وبيَّن أنهم يُحاولون إضلالَهم، وحذَّرهم منهم بأبلغ تعبير يدلُّ علىٰ عنايته سبحانه بالمؤمنين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ ومكائدهم التي يكيدون لكم بها في الخفاء، وإبراز الخديعة في ثوب النصيحة، وإظهار الولاء لكم والرغبة في نصركم.

ثم أردف ذلك ببيان مزيد عنايته سبحانه وتعالىٰ بهم، تشجيعاً لهم، فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ يتولىٰ شؤونكم بإرشادكم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ ينصركم علىٰ أعدائكم، بتوفيقكم للعمل بأسباب النصر، من الاجتماع والتعاون والتناصر، وإعداد جميع ما يستطاع من وسائل القوة، فثِقُوا به ولا تتولَّوا غيرَه. أو المراد: لا تُبالُوا بهم وبما يَسُومُونكم به من السُّوء، فإنَّ الله نصيركم.

قال الأستاذ الإمام[2]: وإنما قال: ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لأنهم لم يأخذوا

---

(١) بعد أن استطرد بذكر الصلاة وبعض شؤونها لأنها المُنْجِية من الموقف الوخيم الذي ذكره للكافرين، عاد بالكلام إلىٰ محوره السابق، وبيَّن حال اليهود المعارضين الكاتمين لما يعرفونه في كتابهم من نبوة محمد ﷺ، ناعياً عليهم بما أضاعوا وحرَّفوا، وبتصدِّيهم لإضلال غيرهم في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾. وهذا وجهٌ آخر للربط بين الآيات. (المؤلف).

(٢) يعني: الشيخ محمد عبده.

الكـتاب كلّه، بل تركوا كثيراً من أحكامه لم يعملوا بها، وزادوا عليها، والزيادة فيه كالنقص[١].

ثم بيَّن هؤلاء الأعداء وشَرَح حالتهم التي نعىٰ بها عليهم، فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، و﴿مِّنَ﴾ بيانٌ لـ«الذين» الأولىٰ، أي: هم من اليهود.

ثم بيَّن صورةً من شرائهم الضلالةَ ومشاغباتهم بكتابهم ضد الإسلام، فقال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾؛ إما بالتأويل والحَمْل علىٰ غير معناه، وإما بتغيير في مواضع جُمَل الكتاب، حتىٰ اختلط وتشوش.

ثم خصّ من ذلك ما كان لهم من خُبْث ومَلْعنة وكفر في مكالمتهم مع الرسول ﷺ ودغش[٢] في ليِّ الألفاظ، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا﴾، يقولون ذلك ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أي: فتلاً بها، وصَرْفاً للكلام عن نهجه، فيريدون سباً ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ بالاستهزاء والسخرية بالنبيِّ ﷺ، ونسبته إلىٰ الرعونة في كلمة: ﴿رَٰعِنَا﴾.

أما قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فيجوز أن يكونوا يـهمسون بها فيما بينهم، ففضحهم القرآن. أو هي عبارة عما كانوا ينقضونه من العهود، ومن نهج القرآن التعبير بالقول عن الفعل أحياناً.

وأما قولهم: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، فيريدون به الدعاء عليه في موضع الدعاء له، ليّاً وتمويهاً بأنهم يريدون بها: لا سمعتَ مكروهاً، وإنما هم يريدون بها الدعاء عليه بفَقْدِ السمع. قاتلهم الله.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ١١٢).

(٢) أي: اختلط. «لسان العرب» (دغش).

ثم عقَّب ذلك بما يعقب به علىٰ مواقف الضلال، من الدعوة إلىٰ الهدىٰ والرشاد، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ أي: لو أنَّهم قالوا: سمعنا قَوْلك، وأطَعْنا أمرك، واسْمَع ما نقول، وانظرنا. أي: أمهِلْنا وانتَظِرْنا، ولا تُعجِّل علينا في إلقاء مواعظك وإرشادك. أو انْظُرنا نَظَرَ رعاية ورفْق، لكان هذا القول خيراً لهم وأقوم مما قالوه، لما فيه من حُسْن العاقبة لهم، وعظم الفائدة.

﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: أبعَدَهم عن الصواب بسبب كفرهم، بمعنىٰ: مَضَتْ سُنَّته تعالىٰ في طباع البشر وأخلاقهم أن يمنع الكفرُ صاحبَه من مثل هذه الرؤيَّة؛ لأنَّ التَّمـادي علىٰ الكفر والإعراض يحجب القلب عن نور الحقِّ، ويُعْمي البصيرة، ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ أي: إيماناً قليلاً لا يُعتَدُّ به، إذ لا يصلح عمل صاحبه، لأنَّ القلة لا يكون لها سلطان علىٰ القلوب، أو: إلا قليلاً منهم كعبد الله بن سَلَام وأصحابه، فإنَّ الأمة مهمـا فَـسَدَت يبقىٰ منها بعض أفراد قلائل، تغلب سلامةُ الفطرة عليهم، ويكونون هم السابقين إلىٰ كلِّ إصلاح جديد، فذلك سُنَّةٌ من سُنَنَ الله في الاجتماع. وهذا مِنْ تحرِّي الصِّدق الدقيق والحق الحقيق في القرآن العظيم وأساليبه العالية البعيدة المنال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

وبعد أن حكىٰ عن اليهود أنواعَ مكرهم وإيذائهم، وندَّد بهم، دَعَاهُم إلىٰ الإيمان والإعراض عن ذلك، وقَرَن الدعوة بالوعيد الشديد إذا هم لم يقبلوها، فقال تعالىٰ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، كان قد عنونهم في الآية السابقة بقوله: ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ نعياً عليهم بما أضاعوا وحرّفوا، وعنونهم هنا بقوله: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ إلزاماً لهم بما حفظوا وعرفوا. وقد مهّد به لقوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ فكونه مُصدِّقاً لما معهم يستلزم أن يؤمنوا به؛ لأنَّ المتساويَيْن مُتَّحدان، فمن لم يؤمن بأحدهما لم يؤمن بالثاني، فدعواكم الإيمان بالتوراة غير صحيح. لذلك أنذرهم علىٰ عدم الإيمان به بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ أي: من قبل أن ننزل بكم هذا العقاب.

والطَّمْس في اللغة: هو إزالة الأثر وإخفاؤه، كما تُطْمس آثار الدار. والظاهر أنَّ المراد به هاهنا المعنىٰ المجازي. وقد ذكر المفسِّرون في ذلك وجوهاً، منها: أنَّ المراد تقبيح الوجوه بما يلاقونه من الذلِّ والكآبة عندما يُغْلَبون عن أمره. وقال مجاهد: نطمس وجوهاً عن صراط الحق فنردَّها علىٰ أدبارها في الضلالة(١). والذي أراه ـ والله أعلم ـ أنَّ المراد: انحراف حواس الوجه عن إبصار الحقِّ وسماعه، نتيجةَ الإعراض عن تعاليم الله التي جاءت في هذا القرآن، والتمادي في العناد، فيكونون كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ مبالغةٌ في ذلك المعنىٰ. أي: نجعل مقدَّم الوجه مِثلَ قَفاه في الخُلوِّ من ثمرات هذه المواهب، والله أعلم.

ويجوز أن تكون الآية من نمط قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥]، أي: بإفساده لفطرته وسوء عمله.

ومحصَّل الكلام: حثُّهم علىٰ الإيمان قبل أن يَتمادوا في الكفر، ويلجُّوا به، فيتمكَّن

---

(١) «تفسير مجاهد» ص٢٨٣.

منهم ظلام القلب وعَمَىٰ البصيرة، فلا يعودون يدركون شيئاً من الهدىٰ والنور، والله أعلم.

ثم ذكر شقاً ثانياً في التهديد، فقال: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾، قال أبو مسلم: اللعنُ هنا بمعنىٰ الإهلاك. وقد مرَّ الكلام علىٰ مثله لأصحاب السبت في سورة البقرة، ويأتي مِثلُه لأصحاب العِجْل في سورة الأعراف أيضاً.

والذي أراه أنَّ اللعن يعود إلىٰ النفس لتكون كنفس القِرَدة ولا تبقىٰ نفساً إنسانية. وأما الطمس فيعود إلىٰ المواهب العقليَّة فلا تُدرك الحقَّ بتاتاً ولا تراه. والله أعلم.

ثم ختم التهديد بما فيه زيادة في التقرير والوعيد، فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: نافذاً لا محَالة.

ثم أردف دعوتهم إلىٰ الإيمان ببيان فظاعة الشرك، وأنه افتئاتٌ علىٰ الله، واجْتَراءٌ عليه، وأنَّ الله لا يَغْفره لِـعِظَم فَظَاعته، مُؤْذِناً بأنَّ ما تقدَّم من الوعيد الشديد لأهل الكتاب إنما هو لجريمة الكفر والشِّرك التي انحدروا إليها، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] من عبادِهِ المذنبين؛ وذلك لأنَّ نسبة الاعتقاد إلىٰ الأعمال كنسبة القلب إلىٰ البدن، إذا صَلَحَ صَلَحَ البدنُ كلُّه، وإذا فَسَدَ فَسَدَ البدنُ كلُّه. ومشيئته سبحانه موافقةٌ لحكمته وجارية علىٰ مقتضىٰ سُنَّته في خليقته، وهي أن لا

---

(١) وذلك لأنَّ الشرك فيه منتهىٰ فساد الأرواح وضلال العقول، فكلُّ ما يأتي به صاحبه من أعمال البر والخير لا يقوىٰ علىٰ إضْعاف مفاسده وشروره وفتكه بالعقول والأرواح، فتظلُّ متردية سقيمة لا خير فيها ولا صلاح. أما الإيمان الصحيح الراسخ فهو قوَّةٌ للروح وصحَّةٌ لمزاجها ومَنَاعةٌ لها من الأمراض والتَّردِّي، فإذا ألمَّ بصاحبها هَفْوة من سوء الأعمال، أو زلة من زلات الميول والأحوال، ندم حالاً علىٰ ما فعل، وأنَّب نفسه علىٰ ما احتمل، وثاب إلىٰ رُشْدِه، ومحَا أثرها من نفسه. (المؤلف).

يغفر الذنوب التي لا يتوبُ صاحبها عنها[١]، ولا يُتبعُها بالحسنات التي تُزيل آثارها من نفسه.

ثم علَّل عدم الغفران للشرك، بما فيه من افتراءٍ علىٰ الله واجتراءٍ عليه عظيم، فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ لا يُمْحَىٰ أثره من النفوس حتىٰ يغفر، وأيُّ ذنب أعظم من أن يشرك الإنسان خالقَه وخالقَ السماوات والأرض وما فيهنَّ من عظائم بأحدِ مخلوقاته الذي لا يدفع عن نفسه أذىٰ بعوضة أو ما هو أدون؟! تعالىٰ الله عمَّا يقول الظالمون عُلواً كبيراً، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، فلا يعجِّل بعذاب المعارضين، بل يُمهلهم لعلهم يثوبون إلىٰ رُشدهم فيغفر لهم الذنوب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾.

ثم نقد هؤلاء اليهود، وشنَّع عليهم فيما كانوا يقولونه من أنَّ الله سبحانه يكفِّر لهم ذنوبهم ويغفرها لهم؛ لأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم شعب الله الخاصُّ، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ ويزعمون أنهم أزكياء بَررة، سَفَهاً وغروراً، ﴿بَلِ﴾ هو الخطل والهراء، و﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه هو الذي ﴿يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، بهدايتهم

(١) لو قال: وهي أن يغفر الذنوب التي يتوب صاحبها عنها؛ لكان أحسن، فهذا الذي ورد فيه الوعدُ من الله تعالىٰ. أما الذنوب التي لم يتب صاحبها منها؛ فقد ورد فيها الوعيد بالعذاب، كما ورد فيها عموم آيات الرحمة والمغفرة والشفاعة ونحو ذلك، فيبقىٰ غفرانها تحت مشيئة الله، يُرجىٰ لصاحبها ويُخافُ عليه.

إلىٰ العقائد الصحيحة والآداب الكاملة، ويعلم المفسد من المصلح، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ أي: لا يُنقَصون من جَزاء أعمالهم شيئاً ولو كان ضئيلاً. و(الفتيل): ما يكون في شقِّ نواة التمر مثل الخيط. تضرب العرب به المثل في الشيء الحقير أو الزهيد.

ولما كانت تزكيتهم لأنفسهم تَتَضمَّن تزكيتهم لعقيدتهم في الشِّرك والضلال، بالغ في تهجين أمرهم، فقال: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بكفرهم وبما يقولونه عن ذلك في تزكية أنفسهم، ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ أي: كفىٰ كذباً وإثماً هذا الافتراء علىٰ الله.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

ثم أردف هذه الشناعة بما هو أشنع منها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وهذا العنوان هنا للأمرين معاً: النَّعيُ عليهم بما أضاعوا وحرَّفوا، والإلزامُ لهم بما حفظوا وعَرَفوا. أي: أُوتُوا نصيباً من الكتاب يأمرهم بالتوحيد، وهم يُعْرِضون عنه، و﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ أي: يقولون لهم: أنتم أقوم ديناً، وأرشد طريقة.

والتعبير عن قريش بعنوان (الكفر)، و بكلمة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، والتعبير عن المؤمنين بعنوان: (الإيمان)، ليس من قِبَلِ القائلين، بل من جهة الله تعالىٰ تحقيراً للمشركين وتشريفاً للمؤمنين بوصف الإيمان؛ ليكون هذان التعبيران زيادةً في التشنيع علىٰ من رجَّح المتَّصفين بالكفر وبأقبح القبائح علىٰ المتَّصفين بأكمل الإيمان وأعلىٰ الفضائل.

و(الجبت) أصله: الجِبْس، وهو الرديء الذي لا خير فيه، ويُراد به هنا الأوهام والخرافات والدجل. و(الطاغوت): ما تكون عبادته والإيمان به سبباً للطغيان والخروج عن الحقِّ من مخلوق يُعبد، ورئيس يقلَّد، وهوًىٰ يتَّبع. ولذلك قالوا: الجبت: الكاهن أو الساحر أو الصنم. و(الطاغوت): كلُّ رأس في الضلال والاستفهام للتعجيب والتشنيع.

ومعنىٰ الآية: ألم تنظر إلىٰ حال هؤلاء الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب، كيف حُرموا هدايته، فهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، أو بنصرة أهلها من المشركين علىٰ المؤمنين المُصدِّقين بنبوَّة أنبيائهم وحقيَّة كتبهم، أوَلم تعجب من حال هؤلاء يندفعون مع الضلال والطغيان وإغواء الشيطان، ويقولون عن دين قريش: إنه أهدىٰ مِن دِينك! وهم يعلمون أنه باطل، يقولون لقريش عَبَدَةِ الأوثان: أنتم أهدىٰ من أتباع محمد. وكانت قريشٌ تعتمد علىٰ أهل الكتاب في أنهم أهل علم بالأديان.

ومُؤدّىٰ الآية: إنهم يكذِّبون بدينك، وهم يعلمون أنه الحقُّ من ربهم، ويقولون عن دين قريش: إنه أهدىٰ مِن دِينك! وهم يعلمون أنه باطل، يقولون ذلك تَبَعاً لرؤسائهم وكهَّانهم المضللين لهم. وهذا هو معنىٰ الإيمان بالجبت والطاغوت.

ويجوزُ أن يكون التعبير بالجبت بمعنىٰ الصنم عن هؤلاء الرؤساء، زيادةً في التشنيع، مأخوذاً من قولهم للجاهل المتبوع: هذا كالصنم، والله أعلم.

ثم سجَّل سبحانه عليهم الجزاء بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: قَضَتْ سُنَّته في خلقه أن تكون أعمالهم هذه وانطباعهم عليها سبباً لبُعْدهم عن مُوجبات رحمة الله، ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾ والتعبير بعدم النَّصير كنايةٌ عن اسْتِدامةِ العذاب.

ولما كان مصدرَ هذا القول والفعل منهم تضليلُ رؤسائهم لهم بأنَّ النبوة محصورة فيهم، قرَّعهم علىٰ طريقة السخرية بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: التصرُّف في الكون، حتىٰ يخصُّوا النبوة فيهم، ولا يُعطونها لغيرهم. واختار الأستاذ الإمام: أن ﴿أَمْ﴾ إذا وقعت في أول الكلام تكون للاستفهام المجرَّد[1]. والاستفهام هنا للسخرية، فعقّبه بهذا التشنيع اللاذع علىٰ طريقة الاستِتْباع من أنواع البديع، يشنعهم بالبخل الفظيع، وقال: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾، و(النقير): هو النقرة أو النكتة في ظهر نواة التمرة، يُضرَبُ به المثل للشيء الحقير التافه أو القليل جداً. وكذلك يُضرَبُ المثل بالقطمير، وهو القشرة الرقيقة علىٰ النواة، بينها وبين التمرة.

ومعنىٰ الآية: لو كان لهم نصيب من الملك والتَّصرُّف في الكون، أو السلطان في الأرض، لَسَلَكُوا فيه طريقَ البخل والأَثَرَة، وذلك بحَصْر منافعه ومرافقه في أنفسهم، فلا يُعْطُونَ الناس نقيراً منه. يُقرِّر بذلك ما قد تأصَّل فيهم من شدَّة البُخْل والحسد وحُبِّ الأَثَرَة، فيشقُّ عليهم أن ينتفع منهم غير اليهودي، وإذا صار لهم مُلكٌ حرصوا علىٰ منع الناس من أدنىٰ النفع وأحقره. ومن كانت هذه حاله، حرص أشدَّ الحرص علىٰ ألا يَظهر نبيٌّ من العرب، يكون لأصحابه ملك، يخضع لهم فيه بنو إسرائيل.

لذلك أردف هذا التَّشنيع المسبوك علىٰ السخرية بهم، بتقرير حقيقة مبعث تلك

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ١٢٩).

الأقوال من أنفسهم، علىٰ نهج القرآن في تعقيب المجازات بالحقائق، فقال: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: النَّبيَّ ﷺ والمؤمنين ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ يعني: النُّبوَّة والكتاب وتباشير الملك والرياسة الظاهرة في ازدياد العزِّ والنصر يوماً فيوماً.

ثم ردّ عليهم الإنكار الذي تضمَّنَتْه كلمة الحسد، وألزمهم بما هو مُسَلَّم عندهم، فقال: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا ٥٤﴾، فبيَّن سبحانه أنَّ فضل الله تعالىٰ لا ينحصر في أمة دون أمة، وقد أعطىٰ آل إبراهيم الملك والنبوة، والعربُ منهم لأنهم من ذريَّة ولده إسماعيل. والملك يشمل النبوَّة أو هو لازمٌ من لوازمها، ولا يبعد أن يُرادَ بآل إبراهيم: موسىٰ وداود وسليمان عليهم السلام.

قال الأستاذ الإمام(١): والحاصل أنَّ اليهود يومئذ كانت لا تعدو حالهم هذه الأمور الثلاثة: إما غرور خادع، يظنُّون أنَّ فضل الله محصورٌ فيهم، ورحمته تضيقُ عن غير شَعْب إسرائيل من خلقه.

وإما حُسبان أنَّ ملْكَ الكون في أيديهم، فهم لا يسمحون لأحدٍ بشيء منه ولو حقيراً كالنقير.

وإما حسد العرب علىٰ ما أعطاهم الله من الكتاب والحكمة والملك الذي ظهرت مبادئ عظمته(٢).

وبعد بيان تلك الحقائق والشؤون عنهم، قال فيهم: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي: بالنبي ﷺ، ﴿وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ٥٥﴾ لمن صدَّ عنه وآثر إرضاءَ حسده علىٰ اتِّباع الحقِّ.

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٥: ١٣٠).

وقيل: ضمير ﴿ بِهِۦ﴾ يعود إلىٰ الكتاب الذي أُوتيه آل إبراهيم. والكلام تكميلٌ للإلزام، ببيان حالهم تجاه ما يأتيهم من الحقِّ.

وقيل: بل المعنىٰ: فلم يكن في ذلك توهين أمره. فكذلك لا يُوهِنُ كفرُ هؤلاءِ أمرَك.

ثم فصَّل هذا الوعيد بصورة بيان عام، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ ﴾، لأنَّ الذوق والإحساس يصل إلىٰ النفس بواسطة الحياة في الجلد. يقول العلم الحديث: إنَّ أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف. وقد ألمع القرآن إلىٰ هذه الحقيقة قبل أن يكشفها الإنسان بقرون عديدة، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ٨٢].

ثم ختم الآية بما يقرِّر ذلك ويدلُّ علىٰ الحكمة فيه، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ ﴾ أي: إنه غالبٌ علىٰ أمره، وكلُّ ما يفعله مبنيٌّ علىٰ الحِكَمِ البالغة.

ثم ذكر في مقابلة مصير الكافرين، مصيرَ المؤمنين، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ من الأدناس الحسيَّة والمعنويَّة التي تَعْرض لنساء أهل الدنيا، ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ وهذا الوصف للمبالغة في المعنىٰ. أي: ظلاً وارفاً، وأراد به: عَيْشاً رغيداً، فعبَّر عنه بأخصِّ صفاته.

قال الراغب: الظلُّ: أعمُّ من الفيء، يقال: ظلُّ الليل. ويقال لِكُلِّ مَوْضع لم تَصِله الشمس: ظل، ولا يقال: فَيْءٌ إلا لِـمَا زال عنه الشمس[1].

---

(١) «المفردات في غريب القرآن» ص٥٣٥.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

ولما تعرَّض لذكر الملك في الآيات السابقة، ولمح إلىٰ أنَّ المؤمنين سينالونه كما ناله آل إبراهيم، استطرد علىٰ وَجْه التقرير لذلك التلميح، بأن أمرهم أن يتَّبعوا في إدارة حكومتهم هذه الدساتير العامة العادلة الصالحة لتنظيم ملكهم واستدامته، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[1]، والأمانات: كلمة عامة تشمل جميع الحقوق من ماليـة وعلمية وعملية. وقد فهموا من عموم هذه الآية: دفع الوظائـف الإدارية ـ ولا سيمـا الرياسة ـ إلىٰ مُسْتَحقِّيها وأهلها، كما وَقَع في قضية مفتاح الكعبة، حيث دفعه ﷺ إلىٰ عثمان بن طلحة وتلا هذه الآية[2]. وكما وقع في مبايعة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين.

وبعد أن ذكر هذا الدستور العام في شأن إعطاء الوظائف الإدارية إلىٰ أهلها،

---

(١) قال السبكي في وجه الربط ما محصله: جاءت هذه الآية بعد السياق الذي تَضَمَّن خيانة اليهود للنبيِّ ﷺ ما يعرفونه من كتبهم بأنه النبيُّ المنتظر، وأنه يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، فخانوا هذه الأمانة وقالوا للمشركين: أنتم أهدىٰ سبيلاً من محمد وأصحابه. فجاءت هذه الآية عامة بوجوب تأدية الأمانات إلىٰ أهلها، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر الخاصِّ بالأمر العام الذي يشمله وغيرَه. (المؤلف).

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢: ٣٤٠- ٣٤١)، وعزاه لابن مردويه، عن ابن عباس بلفظ: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فلما أتاه قال: أرني المفتاح ... ثم نزل عليه جبريل ـ فيما ذُكِرَ لنا ـ بِرَدِّ المفتاح، فدعا رسولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾».

أردفه بوجوب العدل العام في الحكومة وفي سائر الأحكام، فقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾، ثم ذيّل البيان عن هذين الدستورين بما يدلُّ علىٰ عِظَمِ شأنهما، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي: نِعْمَ الإرشاد والتوجيه ما يَعِظُكم الله به من أداء الأمانة، وإعطاء الإدارة إلىٰ أهلها، والحكم بالعدل، لأنه لا يعظكم إلا بما فيه صلاحكم وفلاحكم(١). ثم ختم الآية بما يحمل علىٰ التمسك بذلك علىٰ الوجه الصحيح، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

---

(١) لم يقرر القرآن شكلاً خاصاً للحكومة الإسلامية، بل أودع ذلك للعصور والظروف، ولكنه قدَّر لها عناصر خاصَّة، منها: إعطاء الوظائف لأرباب الكفاءة بلا مُحاباة، وذلك بعموم قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾.

ومنها: العدل في الأحكام وسائر ملابسات الحكومة، وذلك بقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾.

ثم نوّه بذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾. أي: نِعْم ما يُرشدكم به ويوجِّهكم إليه.

ومنها: جعل الأمر شورىٰ بين من يحسن رأيهم ويعتمد عليهم، وذلك بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٨]، وقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومنها: أن لا يُذاع سرٌّ للحكومة إلا إذا أعلنته هي نفسُها، وذلك بقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

ومنها: إطاعة الأمة لأولي الأمر، وإذا حدث شيء من المشاكل بينهم، فالحَكَم: هذا القرآن، وما فيه من توجيه وبيان، وذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، إلىٰ غير ذلك من الأسس والعناصر التي أشار إليها القرآن في ثناياه.

أما في أمر الدفاع، فقد أوْجَبَ القرآن أن يكون المسلمون في طليعة الأمم، في الفنون الحربية والصناعات الحربية والتضحية والثبات في الحروب، مالاً وبدناً، وهكذا كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين. (المؤلف).

ثم ذكر الدستور الثالث من دساتير الحكومة ونظامها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾[1] مع أُولي الأمر ﴿فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى

---

(١) تأمرنا الآية بإطاعة الحكومة، وتُرشدنا إلىٰ أنَّ لنا حقَّ النزاع لها إذا تجاوزت حدود الله، وتأمرنا أن نرجع في حلِّ ذلك النزاع إلىٰ الكتاب والسنة. وإعطاءُ حقِّ النزاع للأمة فيه دليلٌ ظاهر علىٰ أن منشأ السلطة من الأمة، فهي التي تنصب الرئيس؛ لأنَّ حقَّ التنازع في الشيء لا يكون إلا لمن يملكه، أو يكون له وجهُ حق فيه. ويؤيِّد ذلك ما ثبت أنَّ أبا بكر رضي الله عنه كان مُدَّةَ خلافته يستكشف ميول أهل الحلِّ والعقد من الناس إلىٰ مَنْ يكون خليفة بعده، فانتهىٰ إلىٰ أنَّ أكثريتهم الساحقة تميل إلىٰ عمر رضي الله عنه، فرشَّحه للخلافة وبايعه الناس، وكان عمر رضي الله عنه مدَّةَ خلافته يستطلع الناس فيمن يحبون أن يكون خليفةً بعده، فانتهىٰ إلىٰ أنَّ الأكثرية الساحقة تميل إلىٰ ستة من الصحابة رضي الله عنهم، فجعلها بينهم لينتخبوا واحداً منهم، وقال للذي أوكله عليهم: تجمعهم بعد ستة أيام يتشاورون فيها، فإن أجمعوا علىٰ واحد منهم فذاك، وإن اختلفوا: فإن اتفق اثنان علىٰ واحد وأربعة علىٰ واحد فكونوا مع الأربعة، وإن انقسموا ثلاثة وثلاثة فكونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف.

فهذا كلُّه يدلُّ علىٰ أنَّ تنصيبَ الرئيس لا يجوز أن يكون بالوراثة، ولا بالاستبداد، وإنما يكون بانتخاب أكثريَّة الأمة، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورىٰ: ٣٨].

وأحسنُ الطريقة للشورىٰ في هذا العصر: المجالس النيابية ومجالس الشيوخ، علىٰ أن يكون الأول من أشخاص الأمة العالمين بالسياسة والمخلصين، ينتخبهم أرباب الوعي والدراية من الأمة علىٰ أصحِّ وجوه الانتخاب وأعدلِـهِ، وينتخب المجلس رئيساً من بينهم، ويختار الرئيس مجلساً للشيوخ من سائر الأمة، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ يتناول التوظيف في الحكومة الإسلامية، فيجب فيه مراعاة الأكفاء، وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أن يستعمل العدل في المحاكم وفي سائر الوظائف. وكان ﷺ لا يوظف ولا يستعمل علىٰ الناس إلا الكفءَ النزيه، وكذلك كان يفعل الخلفاء الراشدون.

قال عمر رضي الله عنه لمن حضره من الصحابة رضي الله عنهم: أرأيتم إن استعملتُ عليكم =

﴿ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، وأُولو الأمر: هم أهلُ الحل والعقد، كالأمراء والحكام ورؤساء الجند وغيرهم، فيجب أن يتشاوروا في تقرير ما ينبغي العمل به، وإن اختلفوا وتنازعوا وَجَبَ عليهم أن يرجعوا إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله وما فيهما من القواعد العامة والسيرة المطَّردة(١)، فما كان موافقاً لهما عُلِمَ أنه صالح لنا وَوَجَبَ الأخذ به، وما كان مخالفاً لهما ومنحرفاً عنهما عُلِمَ أنه غير صالح ووَجَبَ تركه. وبذلك يزولُ التنازع وتجتمع الكلمة.

وإعطاءُ حق التنازع للأمة دليلٌ قاطع علىٰ أن الإمام لا يكون إلا بالانتخاب، لا بالوراثة. فالملوكية الوراثية لا تصحُّ في الإسلام، ولذلك اعترض الصحابة علىٰ معاوية وقالوا له: جعلتها كسرويَّة. ويؤيِّد ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٨] فلا تكون الشورىٰ إلا بالمجالس النيابية.

ثمَّ حضَّهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ التَّمسُّك بهذا الدستور بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ

= خيرَ من أعلم ثم أمرته بالعدل، أكنت قضيت ما عليَّ؟ قالوا: نعم. قال: لا، حتىٰ أنظر في عمله، أعَمِلَ ما أمرته أم لا؟ فما كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا، ومن غاب عنا أولينا فيه أهل القوة والأمانة، فمن يُحسن نزده، ومن يُسيءُ نعاقبه. فهذه هي أصول الحكومة الإسلامية لا يجوز فيها غير ذلك، وأن تكون عربية بطابعها ولغتها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣] إلىٰ غير ذلك من الآيات. (المؤلف).

والرواية المذكورة عن عمر أخرجها ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤: ٢٧٩- ٢٨٠).

(١) في إعطاء حق التنازع للأمة في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ..﴾ دليل علىٰ أنَّ حكومة الإسلام ينتخبها الشعب أو أهل الحل والعقد منه، وإلا لما كان له حق التنازع، لأنه لا يكون إلا لصاحب الحق. فإنَّ لصاحب الحق المقال، وكذلك توجيه الخطاب للأمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾، فيه دليلٌ قاطعٌ علىٰ أنَّ منشأ السلطة من الشعب والأمة قطعاً، بالانتخاب الصحيح، لا بالقَسْر والوراثة. (المؤلف).

﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، فإنَّ المؤمن بالله حقاً لا يُؤْثر علىٰ حكم الله شيئاً، والمؤمن باليوم الآخر يهتم بجزاء الآخرة أشدَّ من اهتمامه بحظوظ الدنيا. وفيه تعريضٌ علىٰ أنَّ من لا يُؤْثر اتباع الكتاب والسنة علىٰ أهوائه وحظوظه، ولا سيما في مسائل المصالح العامة، لا يكون مؤمناً بالله واليوم الآخر إيماناً يعتدُّ به.

ويجوز أن تكون هذه الآية بياناً لمصادر العدل الذي أمر الله به، وأنها إطاعة الله في أحكام كتابه أولاً، ثم إطاعة رسوله في أحكام سُنته ثانياً، ثم إطاعة أهل الرأي من أرباب النظر والتشريع والتوجيه ثالثاً، فيما لم يكن فيه كتاب ولا سنة. وقد أمَرَت أربابَ الرأي هؤلاء أن يرجعوا إلىٰ أحكام الله ثم أحكام رسوله ﷺ، ويتنوَّروا بهما، والله أعلم، وهذا هو سبيل الاجتهاد، فقد ألمعت الآية إلىٰ وجوبه علىٰ مَنْ هو أهل لذلك.

وبعد أن رغَّب في التمسُّك بهذه الأحكام من الوجهة الأخرويَّة، بيَّن أيضاً أنها من المصالح الدنيويَّة، تحقيقاً لروح هذا الدين الفطري الجامع بين مصالح الدارين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ أي: ما ذكرناه من الأحكام والرد خيرٌ لكم في الدنيا، وأحسن مآلاً وعاقبةً في إصلاح أموركم وتنظيم أحوالكم.

وقيل: المراد بأُولي الأمر: العلماء الذين يفهمون كتابَ الله ويستثمرونه في الحوادث ويفهمون سنَّة رسوله القوليَّة والفعليَّة، فهم قادةُ الأمة في الدين، الذين يُدركونَ أسراره، ويفهمونَ أغراضه، ويحيطونَ بأحوال زمانهم وأُمتهم إحاطةً تمكِّنُهم من تطبيق الكتاب والسنَّة تطبيقاً صحيحاً، ومن الاجتهاد لاستنباط الأحكام المحقِّقة لمصلحة الأمة في دائرة الكتاب والسنة. وذلك هو معنىٰ الردِّ إلىٰ الله ورسوله.

ويجوز أن يُراد المعنيان معاً، وعلىٰ هذا جرىٰ سلفُ الأمة، واستثمر العلماء نصوصَ الكتاب والسنة، ووضعوا قواعد الدولة الإسلامية كاملة في زمانهم، ولم يكن

لهم شهوة في الخلاف، بل كانت وِجْهة الجميع بيان أحكام الله، حسب اجتهادهم الخالص لله، لكنَّ الأحداث غيَّرت مجرىٰ الأمور، وحبُّ الجاه والمال والسلطان لوىٰ الناس عن الحق. وكان أصحاب الأهواء يحاولون ردَّ أهوائهم إلىٰ الدين، ليقال: إنهم علىٰ الحق، غير خارجين عن حدود الله. فتعسَّف الناس في التأويل، وجدَّت مذاهب وآراء تبرأ منها اللغة، ويتجافىٰ عنها الدين، وتعصَّب لها أصحابها ومُقلِّدوها؛ تعصَّب لها أصحابُها علىٰ علم بضلالهم، ولكن لمآربَ في أنفسهم، وتعصَّب لها مقلِّدوها كذلك، أو علىٰ جهل وحُسْن نيَّة. فتفرَّق المسلمون فِرَقاً وأحزاباً تحمل كل فرقة عداءً لمخالفيها، ولم يكن مثل هذا في صدر الإسلام، وعند صَالحي الأمة وكبار الأئمة(١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

وبعد أن تمَّ الاستطراد إلىٰ بيان دساتير الحكومة الإسلامية، عادَ بالكلام إلىٰ محوره السابق، وافتتحه بتبكيت أولئك المنافقين من اليهود الزاعمين بأنهم مؤمنون، مُبيِّناً في ذلك لوناً من التمرد علىٰ هذا الوضع التشريعي العظيم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى

(١) خلط المؤلف ـ رحمه الله ـ في كلامه هنا بين الاختلاف الفقهي والاختلاف العَقَدي، فكلامه في أوله في الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية، وهذا اختلاف فقهي، ثم انتقل إلىٰ الكلام عن أهل الأهواء وأصحاب التعسُّف في التأويل، وهذا اختلاف عَقَدي، والتسوية بينهما في سياق واحد غير سديد.

﴿ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهو كل رأس في الضلال.

والظاهر من سياق هذه الآيات أنها نزلت في قوم من اليهود المنافقين يُظهِرون الإسلام والمودَّة للمسلمين والولاء لهم وهم كاذبون، فهم يريدون أن يتحاكموا إلىٰ الطاغوت، ﴿وَ﴾ الحال ﴿قَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بهم في هذه المحاكمة ﴿أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾﴾ فيجعل بينهم وبين الحقِّ مسافة بعيدة.

وقد تابع البيان في ذلك عنهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾﴾، فتوعَّدهم بقوله: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، قال أبو مسلم ما معناه: إنَّ في هذه الآية بشارةً بأنَّ المنافقين سيقعون في مصيبة تفضح أمرَهم، وتكشف سِرَّهم.

أقول: وتكون هذه المصيبة بما قدَّمت أيديهم، أي: ممَّا عملوا من سيِّئات بباعث النفاق والخبث الباطن، فإنَّ الأعمال السيِّئة يَتَرتَّب عليها آثار سيئة وعواقب ضارَّة، فإذا أصابتهم بذلك بعض الكوارث انْخَذَلوا وفَزعوا وانكشف حالهم، ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ يُخادعونك عن هذه المحاكمة، ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ بيننا وبين خصومنا الذين لا يَرضَون إلا بحكم طواغيتهم، ولم يكن ذلك منّا إعراضاً عنك وعن حكمك ودينك.

وقيل: بل معنىٰ الآية: فكيف يفعلون إذا أطْلَعَكَ اللهُ علىٰ شأنهم في إعراضهم عن حُكم الله، وبيَّن أنَّ عملهم يكذِّب دعواهم الإيمان، وأنهم يستحقُّون العقوبة والإذْلال ليكونوا عبرةً لغيرهم، ثم جاءوك يحلفون بالله ما أردنا بها عملنا إلا إحساناً

في المعاملة وتوفيقاً بيننا وبين خُصومنا، يقولون ذلك نفاقاً وتخلُّصاً؟ وقيل: المرادُ بالمصيبة نفسُ فضيحتهم هذه بإعلام الله ورسوله عنهم في أمرهم هذا.

وبعد أن كشف أمرهم، بيَّن تعالىٰ لرسوله ما يجب أن يعاملهم به، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾ من الكفر والحقد والكيد وتربُّص الدوائر بالمؤمنين، ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾ أي: فاصرف وجهك عنهم ولا تَبْتَشَّ بهم، ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾ بما يَزجرهم، ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾﴾، و﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ متعلِّق به، أي: يحدث فيها أثراً بعيداً، ونظراً عميقاً. وكان ﷺ في بلاغة القول في المحل الأرفع.

قال في «المنار»: والإعراض عنهم يُحدث في نفوسهم الهواجسَ والخوفَ من سوء العاقبة؛ لأنهم يخشون أن تنزل سورة تفضح أمرهم وتأمر بمعاقبتهم(١). وهذه الظنون تَعُدُّهم للتأمل فيما يلقىٰ عليهم من المواعظ والأقوال.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾.

ثم شنَّع علىٰ مَنْ يرغب عن التحاكم إلىٰ الرسول، ويُؤْثر عليه التحاكم إلىٰ الطاغوت، وبيَّن أنَّ كل رسول يجب طاعته والتحاكم إليه، فقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بإرادته وأمره. والإذن في الشيء: الإعلام بإجازته والرخصة فيه أو الإيجاب.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ١٨٦).

قال الأستاذ الإمام: وهذا كالدليل علىٰ استحقاق أولئك المنافقين للمَقْت؛ لأنهم لم يَرضَوا بحكم الرسول ﷺ(١).

ثم أنَبهم ببيان الخطَّة التي كان عليهم أن يتَّبعوها لتلافي هذه الشناعة، وجَعل صورةَ العبارة مُؤْذنةً بأن مثل هذا التلافي مُنتَظَر ممَّن له أدنىٰ مُسْكَةٍ من العقل، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد والدعوة إلىٰ الرشاد، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بهذا العمل ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ من ذنبهم وندموا أن اقترفوه، وحَسُنت توبتُهم، ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: دَعَا الله أن يغفر لهم، ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ وهذا وعدٌ كريمٌ وبابٌ عظيمٌ للتائبينَ المنيبينَ إلىٰ الله.

وبعد هذا البيان، قرَّر الحقيقةَ الواجبةَ الاتِّباع، فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: تنازعوا فيه من القضايا، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ﴾ بقضائك ﴿تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ طائعين منقادين لحكمك.

ومعنىٰ ﴿شَجَرَ﴾: اختلط واختلف. وسُميَ الشجر شجراً؛ لاشتجار أغصانه وتداخلها واختلافها في بعضها واختلاطها. ويطلق علىٰ النزاع والخصام.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ١٨٩).

ثم أنّبهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ عدم امتثالهم لهذه التكاليف مع خفَّتها، فكيف لو كُلِّفوا بتكاليفَ شاقّةٍ كما كُلِّف أسلافهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ مهاجرين، كما كتبنا علىٰ بني إسرائيل من هجرة وتيه وإصر وأغلال، فلو كتبنا عليهم مِثلَ ذلك ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[1]، وهم أصحاب العزائم القوية الذين يُؤْثِرون رضوان الله علىٰ حظوظهم وشهواتهم، ولكننا لم نكتب في شريعة القرآن إلا ما هو سهلٌ علىٰ بني الإنسان.

عقَّب النقد بالإرشاد علىٰ نهج القرآن، وجعل بين مبدأ السياقين حلقة وصلٍ، ثم بيَّن تعالىٰ ما كانوا يحصلون عليه من الفوائد العظيمة في الدنيا والآخرة لو آمنوا بك والتزموا هذه التكاليف السهلة التي يُؤْمَرونَ بها، ونعىٰ عليهم ذلك الخسران، معقِّباً النقدَ بالإرشادِ علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدنيا؛ لأنَّ تلك التعاليم تحفظ مصالحهم وتصلح اجتماعهم، ﴿وَ﴾ كذلك تكون ﴿أَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ لهم في أمر دينهم؛ لأنَّ مزاولة هذه الأوامر تطبع الأخلاق العالية والمَلَكات السامية في نفوس العاملين بها، وتُؤهِّلهم لسعادة الدنيا ولنعيم الآخرة، كما

---

(١) يجوز أن يكون في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ...﴾ تلميح ومقارنة بين الطلبين؛ طلبِ أن يتوبوا ويجيئوا إلىٰ الرسول يطلبون منه الاستغفار، وطلبِ أن يقتلوا أنفسهم بهذا الجرم، كما طلب من أسلافهم عندما عبدوا العجل وعصوا الله والرسول. أي: إنهم لم يطلبوا الاستغفار مع خفَّته، فكيف لو كلَّفناهم بقتل أنفسهم، والهجرة من ديارهم، كما كلَّفنا أسلافهم عندما ظلموا أنفسهم. والله أعلم.

أما هجرة الرسول ﷺ وأصحابه فكانت هجرة مؤقتة لم تلبث أن زالت بالفتح واسْتتباب الأمن.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: ولو أننا طلبنا منهم ما طلبناه منكم من الهجرة والجهاد العسير ما فعلوه إلا قليل منهم. والله أعلم. (المؤلف).

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ يصل صاحبُه إلىٰ سعادة الدارين.

وقد بيَّن سبحانه وتعالىٰ نعيم الآخرة قاعدةً عامة، علىٰ نهج القرآن، بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾، وفي هذه الجملة معنىٰ التكريم والتعظيم، أي: وما أَحْسَنَ رِفْقَةَ هؤلاء. بمعنىٰ أن هؤلاء الأصناف هم أحسن الرفقاء، ومرافقتهم أحسن المرافقات. والصِّدِّيقون دون الأنبياء في الفضيلة.

ثم ختم الكلام بهذا التَّمنُّن، فقال: ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ أي: بمقادير الفضل وأهل استحقاقه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

قال في «المنار»: وبعد أن بيَّن قواعد الحكومة الإسلامية، ثم شدَّد النكير علىٰ من يرغب عن حكم الرسول إلىٰ حكم غيره من أهل الطغيان، وكان في السياق ذِكرُ

المعتدين والمعارضين، شَرَع يُبيِّن لنا بعضَ الأحكام الحربية والسياسية، ويُبيِّن لنا الطريق الذي نسير عليه في حفظ مِلَّتنا وحكومتنا من الأعداء الذين يعتدون علينا[١].

أقول: ويجوز أن يكون من تتمَّة الربط أنه بعد أن ذكر نظام الحكومة الإداري، عقَّبه بنظام الحكومة الحربي، وضمَّنه وجوب التكاتف وترك التخاذل، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ بأن تعدُّوا للعدوِّ القوة الشخصية والفنية والآلية والاجتماعية وسائر أنواعها، وتبيَّنوا مبلغَ استعداده وقوته في ذلك، وتُمارسوا ما يقتضيه الاستعداد الحربي والفنون الحربية في كل عصر، ثم تجمَّعوا للحرب، ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾[٢]، و(الثُّبات): جمع ثُبَةٍ، وهي: الجماعة. أي: انفروا جماعاتٍ علىٰ قدر الحاجة، أو انفروا نفيراً عاماً إذا اقتضىٰ الحال. وهذا الأمر يستلزم حتماً أن تتدرَّب سائر أفراد الأمة في كل عصر علىٰ فنون الجهاد في ذلك العصر، وتتمرَّن علىٰ مختلف نواحيها، وأن تتمكَّن من صنع الأسلحة الدارجة في عصرها، وأن تتفوَّق في الأمرين معاً علىٰ سائر الأمم، لأنَّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو من الواجب. وعلىٰ مثل هذا كان السَّلف الصالح، عندما كانوا يفهمون القرآن فهماً صحيحاً.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٠٣).

(٢) من قواعد الاجتماع ووقائع التاريخ: أنَّ الأمم لا يتم كيانها، ولا يستقل أمرها، ولا يستقر قرارها إلا باستقرار حالها الداخلي والخارجي. والأول: أساسه إصلاح الأسرة بالتوجيهات الصحيحة، وإصلاح الشؤون المالية كذلك، واستقامة النظم التي تُساس بها، وقد تكفَّلت سورة النساء بوضع كثير من هذه الأحكام.

والثاني: أساسه احتفاظ الأمة بشخصيتها، واستعدادها لمقاومة الشر الذي يطرأ عليها، والعدو الذي يطمع فيها، وقد قرَّر ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ الآيات.

ويجوز وجه آخر للربط، وهو: أنه بعد أن ذكر للمؤمنين ما لأعدائهم من القصد السيئ نحوهم، أمرهم بالحزم والحَيْطة وأخذ الأُهبة، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾. (المؤلف).

ثم نعىٰ علىٰ المنافقين تَخاذُلَهم وتَخْذيلَـهُم، وعلىٰ ضعاف الإيمان من بين جماعة المؤمنين خِذلانَهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، والتَّبطِيء: يطلق علىٰ الإبطاء، وعلىٰ الحَمْل علىٰ البطء معاً، فضعيفُ الإيمان يُبْطِئُ عن السير، أي: يتباطأ. وصيغة التشديد فيه للمبالغة في الفعل وتكراره، والمنافق يتباطأ عن السير بنفسه ويُبَطِّئُ غيرَه.

وقد شرح سبحانه حال ضعفاء الإيمان، توبيخاً لـهم وحثاً لهم علىٰ تطهيرهم لنفوسهم وتزكيتها، فقال: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ﴾ هذا المتباطئ: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ أي: لهذه الحرب، فيصيبني ما أصابهم، ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كالظفر والغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: ليقولنَّ قَولَ من ليس منكم، ولا تجمعه بكم مودَّة ولا صحبة، ولا من شأنه أن يخرج معكم.

ثم رَغَّب بالقتال بمـا لَـهُ من الثواب الجزيل عند الله، وحَـرَّض عليه، فقال: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، و(شرىٰ) تـأتي للضـدّ، وهنا بمعنىٰ: باع. والمعنىٰ: إنْ تباطأ هؤلاء فليقاتـل المخلصون الذين باعوا دنياهم بآخرتهم، ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾.

ثم التفت من الغيبة، وخاطبهم خطاب مَنْ ينكر علىٰ قوم تأخُّرَهم عن القتال مع توفُّر المُوجِبَات، زيادةً في الحثِّ لهم عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا عُذْرَ لكم أن لا تقاتلوا في سبيل الله لإقامة التوحيد مقام الشرك، وإحلال الخير محلَّ الشر، ﴿وَ﴾ إنقاذ ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ المحصورين في مكة، وتخليصهم من ظلم الأقوياء الجبَّارين، وتعذيبهم لهم وفتنتهم في دينهم.

ثم بيَّن حالهم بما يُغْري بإنْجادهم، ويَحُضُّ علىٰ السَّعيِ في إنقاذهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ مُسْتَنْجدين: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

ثم ذكر وجهاً آخر للترغيب في القتال والتَّشجيع عليه، وسَبَكَه علىٰ التَّبرير له والتَّحريض فيه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهو كلُّ رأس في الشر والفساد، ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

قال الأستاذ الإمام[١]: هذه الآيةُ جوابٌ عمَّا عساه يَطُوفُ بخواطر أولئك الضعفاء، وهو أننا لا نقاتل لأننا ضعفاء والأعداءُ أكثرُ منا عَدداً وأقوىٰ عُدداً، فدلَّهم الله تعالىٰ علىٰ قوَّة المؤمنين التي لا تُعادلها قوة، وضعفِ الأعداء الذي لا يفيدهم معه كيدٌ ولا حيلة. وذلك أنَّ المؤمنين يقاتلون في سبيل الله، وهو تأييد الحق الذي يُوقن به صاحبُه، وصاحبُ اليقين والمقاصد الصحيحة الفاضلة تَتوجَّه نفسه بكل قواها إلىٰ إتمام الاستعداد، ويكون أجدَرَ بالصبر والثبات، وفي ذلك من القوة ما ليس في كثرة العَدد والعُدد[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٥: ٢١٢).

تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾﴾.

ثم ذكر شأناً آخرَ من شؤون ضعفاء الإيمان، وهو إقدامهم وشدَّة جُرأتهم في الحروب الباطلة أيّام جاهليَّتهم، وخَوَرُهم وجُبْنُهم من الحروب في سبيل الحق أيام الإسلام، فقال: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ ﴾، وتوضيح الآية: إنَّ الحروب بين الأوس والخزرج كانت متواصلة قبل مجيء النبيِّ ﷺ، ولم تنقطع إلا بعد اعتناقهم الدين الذي هذَّب نفوسهم وكفَّهم عن الاعتداء وأمرهم بذلك. وهذا هو معنىٰ قوله: ﴿ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾، أي: إنهم كانوا يتسابقون في جاهليتهم إلىٰ نُصرة الباطل والتحمُّس له والتفاخر بالشجاعة فيه والإقْدام عليه، فلما فُرِضَ عليهم القتال بعد الإسلام لاشتداد الحاجة إليه لِنُصْرة الحق وتأييده، كَرِهَهُ ضعفاءُ الإيمان جُبْناً وخَوَراً، فأنكر عليهم ذلك التناقض.

والاستفهام للتعجيب من حالهم؛ كيف كانوا يشنُّون الغارات في سبيل الباطل طَوْعاً، فلمّا أُمروا بالجهاد في سبيل الحق كَرِهُوه وخَشُوا الأعداءَ مثل خشيتهم الله أو أشد، أو مثل خشية الله عند المؤمنين الصَّادقين أو أشد؟!

وكلمة ﴿أَوۡ﴾ إما للتنويع، أي: البعض كانوا كذا والبعض كانوا كذا، وإما لتصوير المبالغة في الشدَّة. فبعد أن كان ضعفاء الإيمان هؤلاء يُقدِمون علىٰ الحروب في سبيل الباطل بكلِّ جُرأةٍ وبسالةٍ، أصبحوا يخشون الحرب في سبيل الحق خشيةً عظيمة، ﴿وَ﴾ من شدَّة خورهم ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ أي: إلىٰ

وقت آخر ولو قليلاً، ريثما نقوىٰ، يقولون ذلك تـملُّصاً من القتال وخوفاً منه. وربما كانوا يرون أنَّ قوة المسلمين ما تزال ضعيفة لا تقوىٰ الآن علىٰ قتال المشركين.

فأمر سبحانه نبيَّه أن يُطيِّبَ نفوسَهم بهذا الإرشاد، فقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، أي: إن علَّة استنكاركم وطلبكم الإنظار فيه والإمهال إنما هي خشيةُ الموت والرغبةُ في متاع الدنيا ولذَّاتها، وكل ما يتمتَّع به في الدنيا فهو قليلٌ بالنسبة إلىٰ متاع الآخرة، لأنه محدود فانٍ، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ لأنَّ متاعها كثير باقٍ لا نَفَاد له ولا زوال، وإنما يناله من اتَّقىٰ الأسباب التي تُدنِّس النفس بالشرك وبالأخلاق الذميمة، كالجبن والقعود عن نصرة الحق، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ أي: لا تُنقصون من الجزاء الذي تستحقُّونه بأثر أعمالكم في أنفسكم مقدارَ فتيل. وهو: ما يكون في شقِّ النواة مثل الخيط. يُضرَب مثلاً في القلة والحقارة.

ثم جاء بما يُذهِبُ أعذارَهم، ينفُخُ روحَ الشجاعة والإقدام في المُستعدِّين منهم، وذلك ببيان أنَّ الأجل إذا جاء لا يؤخَّر ولا يدفعه دافع، فقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي: في قصور عالية منيعة، فعلامَ الجبن؟ والموت أمرٌ طبيعيٌ لا مناص منه.

فإذا لم يكنْ مـن المـوتِ بُـدٌّ فمِنَ الجهل أن تكونَ جبانـا(١)

ثم حدَّث عنهم ـ بما بهم المنافقون واليهود ـ فأجرىٰ الكلام علىٰ الأخيرين بعد أن أجراه علىٰ الأول، وهم ضعفاء الإيمان، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، ذاكراً شأناً آخرَ من الشؤون الدالَّة علىٰ مرض القلب والعقل، فقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ حالةٌ ﴿حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ زعماً منهم أنَّ الله أكرمهم بها عنايةً بهم، وهَرباً من الإقرار بأن

---

(١) البيت للمتنبي وهو في «شرح ديوانه» للواحدي ص٣٣٣ وفيه (العجز) بدل (الجهل).

شيئاً من ذلك أثر ما جاء به الرسول من الهداية، وما حَاطَهم به من التربية والرعاية، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ حالةٌ ﴿سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: من شُؤم محمد ﷺ. وهذه مقالة المنافقين واليهود عندما أصاب المدينة سَنَةٌ مُجْدِبة.

فأمره أن يردَّ عليهم زعمهم الباطل، ويُرشدهم إلىٰ الحق، ويُبيِّن لهم سنَّة الله في الخلق، بقوله سبحانه: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: حسب سُنَّته في نظام الأسباب والمسبَّبات. ولا ينتج شيءٌ من غير سبب وعلة[1].

فالسنن الكونية نوعان: نوع لا شأن للإنسان في تكييفها كالخِصْب والجدب مثلاً، ونوع للإنسان شأنٌ في التَّصرُّف بها وتكييفها كالصحَّة والمرض مثلاً. فمِثلُ هذه يكون خيرُها من الله وشرُّها من الإنسان، يناله بمخالفة سُنن الله ونظامه الكوني، سواء في ذلك أحوال الأفراد وأحوال الجماعات. ولا شرَّ إلا بمعاكسة ذلك النظام والانحراف عنه، ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ ولا يعقلون مدارك الأشياء بوجوهها الصحيحة؛ إذْ مَنْ عَرَفَ نظام الاجتماع وسنن الله في الأسباب والمُسبَّبات التي جَعَلها في هذا الكون، لا يقول بأنَّ سيئة تقع بشُؤم أحد، ولكن يُسنِدُ كلّ شيء إلىٰ سببه الحقيقي، أو إلىٰ الله واضع تلك الأسباب والسُّنن.

ثم بيَّن تعالىٰ حقيقة هذا الأمر ونظامه في تصرُّفات الإنسان بتلك السنن، مخاطباً الأمة في شخص النبي ﷺ، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي: ما أصابك من حسنة فإنما هي لاتِّباعك سُنن الله المعدَّة للحسنات، وما أصابك من سيئة فلِمَيْلك عن تلك السنن وخروجك عليها وانحرافك عنها.

---

(١) في هذا الإطلاق نظر، وقد تقدم التعليق علىٰ مسألة الأسباب والسنن الكونية عدة مرات.

وتفصيل ذلك: أن الإنسان لا يقع في شيء يسوؤه إلا بتقصير منه في اسْتِبانةِ الأسباب وتعرُّف السنن. فالسوء معنىٰ يعرض للأشياء بسُوء تَصرُّف الإنسان فيها، وباعتبار حدوث ما يسوؤه من ذلك، وليس ذاتياً لـها. ولذلك يُسنَـدُ إلىٰ الإنسان، بمعنىٰ أنه هو الذي يحرف المنافع ويُحوِّلها إلىٰ مَضَار، أو يعاكس السنن فيَصْطَدم بها، إذ إنَّ الأضرار التي تقع في العالم الإنساني من كليَّةٍ وجُزئيَّةٍ ليس لها علَّة سوىٰ الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سُنَّة الله في خلقه وتكوينه.

مثال ذلك: المرض، فهو من الأمور التي تسُوءُ الإنسان، وإنما يُصيبه من تقصير في السَّيْر علىٰ سنَّة الفطرة في الغذاء والعمل والوقاية، ونحو ذلك من معاكسة السنن الصحيَّة، فيجيء مثلاً من تخمة قادَتْه إليها الشهوةُ، أو من إفراط في التعب أو الراحة، أو من عدم اتقاء أسباب الضرر، كـتعريض نفسه للبرد القارس، أو الحر اللافح، أو العدوىٰ، إلىٰ غير ذلك من المعاكسات. وقُـل مثل ذلك في الأحوال العامة وأمراض الاجتماع.

ومحصل الآيتين: أنَّ الله سبحانه نَـظَّم الأمور وسَنَّ السنن، وكلُّها خير، فإذا سايرها الإنسان لا يصيبه إلا الخير والحسنات، بنتيجة سُنن الله وما يترتَّب عليها، وإن انحرف عنها وعاكسها أصابه الشرُّ والسيِّئات، بنتيجة الانحراف وما يترتَّب عليه. فالشرُّ أمرٌ سلبيٌّ في سُنَن الكون لا إيجابي؛ لأنه لا يتأتَّىٰ منها، ولكن من معاكستها. وعلىٰ هذا، فمعنىٰ كون الشر من عند الله: أنه نتيجة للانحراف عن سنن الله وأنظمته في هذا العالم، وذلك الانحراف المسبِّب للشر ناشئٌ بصنع الإنسان نفسه وكسب يده.

وجاء عنه ﷺ أنه قال: «لبيك وسَعْديك، والخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إليك»[١].

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم (٧٧١)، عن علي بن أبي طالب.

هذه هي الحقيقة الكونية في سنن الله، فالشرُّ من هذا النوع إنما يكون من سُوء تصرُّف الإنسان في تلك السنن، أو إهمالها والانحراف عنها خطأً أو عمداً، بحكم قانون المخالفة في النظام الكوني، حتىٰ إنَّ بعض الأمراض الموروثة إنما هي من جناية الآباء علىٰ الأبناء بعد جنايتهم علىٰ أنفسهم، بانحرافهم عن سُنن الفطرة ونظام الكون، وليس في أصل الطبيعة شيء من ذلك، بصورة إيجابية، والله أعلم، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]. فينبغي للإنسان حينما يُصيبه شيءٌ من الشر أن يبحث عن سبب له مُتأتٍّ من نفسه وتقصيره، لأنه إنما أصابه ذلك لانحرافِه عن السنن التي وضعها الله أو تهاونِه فيها.

وبعد أن أبطل سبحانه زَعْمَهم الفاسدَ في حقِّه ﷺ، ذكر جلالَ منصبه وعظيمَ مكانته عنده، فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ أي: علىٰ صحَّة رسالتك، وما علىٰ الرسول إلا البلاغ، وليس له دخل فيما يصيب الناس من الأعراض، ولا قدرة له علىٰ تغيير سُنن الكون ونظم الاجتماع. وأما الحسنات والسيِّئات فهي من الله نتيجةَ مُسَايرةِ الإنسان سننَ الطبيعة أو معارضتِها، وليس بشؤم أحد ولا بيُمْنِهِ أبداً.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

وبعد أن ذكر تحقُّق رسالته، وثبوتها بشهادته تعالىٰ، بيَّن حكم الرسالة، وسَبَك ذلك علىٰ الردِّ لهؤلاء المنافقين الذين يزعمون أنهم مطيعون لله، فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ لأنَّ الرسول مُبلِّغ أوامرَ الله المنطبقة علىٰ نظام الله الكوني، ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾

وأعرض ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ أي: ليس من شؤون الرسالة أن تُكْرِهَهُم علىٰ الطاعة، ولستَ مسؤولاً عنهم. فالإيمان والطاعة إنما يكونان بالاختيار، بعد الاقتناع والاختبار، لأن الإنسان مختارٌ في تصرُّفاته. وفي هذا تسليةٌ له ﷺ عن إعراضهم، علىٰ نهج القرآن في تسليته ﷺ إثْرَ بيان عِناد المنكرين ومكابرة الجاحدين.

ثم ذكر شأناً آخر من شؤون نفاقهم في صورة طاعتهم، فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ إذا أمرتهم بأمر أو بالجهاد أو دَعَوتهم إليه، يقولون: ﴿طَاعَةٞ﴾ أي: أطعناك وقبلنا أمرك. ويجوز أن يراد بالقول الفعل، إذ التعبير بالقول عن الفعل هو من أساليب اللغة، ومن نهج القرآن، أي: يظهرون الطاعة فيما أمرتهم به، ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ أي: خرجوا منصرفين إلىٰ بيوتهم، ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ﴾ أي: دبَّرت في نفسها ليلاً غير الذي تظهره أو تقوله عندك، إعراضاً عن أمرك بعد أن أظهروا الطاعة لك، ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ وسيُجازيهم عليه، ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ ولا تُبال بما يُبيِّتون. أو المراد: لا تُقبل عليهم بالبشاشة ليرتدعوا، ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في شأنهم، ولا تخش ما يُضمِرون وما يُبيِّتون، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾.

ولما كانت تلك الشؤون صادرةً عن هؤلاء المنافقين، لاعتقادهم أنه ﷺ غير صادق في دعوىٰ النبوة، ومُفْترٍ لهذا القرآن، أنحىٰ عليهم باللائمة والإنكار فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ فيدركوا من حقائقه الراهنة الثابتة بالبراهين القاطعة الواضحة أنه من عند الله، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾[1]، واللازم باطل، فالملزوم مثله. ومن يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن في تصوير الحق حتىٰ في

(١) سُئل أعرابي: لِـمَ آمنت بمحمد؟ فقال: لأني ما رأيت محمداً ﷺ يقول لشيءٍ: افعل، والعقل يقول: لا تفعل، ولا رأيته يقول لشيء: لا تفعل، والعقل يقول: افعل. (المؤلف).
وذكره الشيخ محمد أبو زهرة في «زهرة التفاسير» (٣: ١٣٤٣).

بيان سرائرهم وخفايا أمورهم، وفي أصول العقائد وقواعد التشريع وفلسفة الآداب وسياسة الشعوب وفنون القول وألوان العبر، والكلام علىٰ الخلق والتكوين ووصف الكائنات وسنن الاجتماع ونواميس العمران وطبائع المِلَل والأقوام، وإيراد الشواهد وضرب الأمثال وتكرار القصة الواحدة بالعبارات البليغة المتشابهة تنويعاً للعبرة وتلويناً للموعظة، مع موافقة ذلك كلِّه للحق، وتواطئه علىٰ الصدق، وبراءته من الاختلاف والتناقض، وتعاليه عن التفاوت والتباين. وفوق ذلك ما فيه من العلم الإلهي، والخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة وما فيها. أمَا ـ وسِرِّ القرآن ـ لو أنَّ المسلمين استقاموا علىٰ تدبُّر القرآن والاهتداء به في كل زمان، لَـمَا فَـسَدت أخلاقُهم وآدابُهم، ولَـمَا زال ملكهم وسلطانهم، ولَـمَا صاروا عالةً في معايشهم وأسبابهم علىٰ سواهم. من «المنار» بتصرف[1].

وكلَّما اتَّسعت دائرة العلوم والمعارف، ونَـمَت أحوال العمران، واتَّسع نظر الإنسان، زاد إيمان الناس بهذا القرآن؛ إذ تتحقَّق روابط الصلة بين العلم وهذا الدين، وتتناسق أحكامه مع نواميس الاجتماع وشؤون الكون أجمعين. وكل ذلك يُرشد إلىٰ كونه من عند الله الحكيم العليم، وإلىٰ وجوب الاهتداء بهديه لموافقته لنواميس الفطرة والسُّنن في المصالح العامَّة والخاصَّة، وأخْذه بيد مَنْ تمسَّك به إلىٰ سعادة الدنيا والأخرىٰ. ولا تتمُّ الإنسانية إلا بالأخذ بتعاليمه، ولا إنسانية بدون ذلك.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٤١).

ثم أنكر عليهم أيضاً وعلىٰ ضُعَفاء الإيمان وضَعَفة المؤمنين إذاعتَهم للأمور العامة المتعلقة بالأمن والخوف، وبيَّن الواجب في ذلك، وهو الرد علىٰ أُولي الأمر الذين هم أعلم بما ينبغي أن يعمل، وأقدر علىٰ اسْتنباط ما يجب أن يتَّبع، فقال: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾.

قال الأستاذ الإمام: أي: إنهم من الطيش والخفَّة بحيث يستفزُّهم كلُّ خبرٍ عن العدو يصل إليهم، فتنطلق ألسنتهم بالكلام فيه وإذاعته بين الناس. وما كان ينبغي أن تشيع في العامة أخبار الحرب وأسرارها، ولا أن تخوض العامة في السياسة، فإنَّ ذلك مما يضر، وأقله ضرراً: علم جواسيس العدو بأسرار أمتهم[1]. وقد يكون الخبر عن العدو دسيسة في طيَّاتها الضرر والخذلان، وليس لهم مدارك تصل إلىٰ ذلك، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ أي: الذين يستخرجون خفاياه بدقَّةِ نظرِهم من أرباب الرأي.

وهذه الآية تُلمع بأنَّ أهل الشورىٰ في الإسلام هم الذين لـهم عِلمٌ ومعرفةٌ باسْتنباط الدقائق السياسية والقواعد الإدارية، والمدرَّبون علىٰ ذلك.

ثم ختم الآية بالتمنُّن العام الشامل لعموم المسلمين بما فيهم ضعاف الإيمان، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإرشادكم إلىٰ طريق الحقِّ في مظانِّ الاشتباه، ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ وعملتم بآراء المنافقين ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ منكم أُوتوا من صَفَاء الفطرة وسلامتها ما يعرفون به الحقَّ والصواب.

قال الرازي: ولما أمر سبحانه وتعالىٰ في الآيات السابقة بالجهاد، ورغَّب فيه أشدّ الترغيب، وذكر شدّةَ سَعْيِ المنافقين في تثبيط المسلمين عن الجهاد، أعاد الأمرَ به والحثَّ

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٤٢).

عليه بصورة أشدَّ، وحدَّد واجبه[١]، فقال: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وأما قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ﴾ فهو تعليلٌ لما قبله وتعليقٌ علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠]، وتتميمٌ له وتقرير. أي: لا يَضرُّك ما فعلوا ولا تَلْزَمُكَ تَبِعتُه. وفيه غايةُ التوبيخ لهم، وكذلك قوله: ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، إذ في وَصْف المؤمنين تعريض بحِطَّة درجة أولئك الضعفاء الإيمان عن رتبة المؤمنين الخُلَّص، وبعدم الاعتماد عليهم.

وقد وعد المسلمين بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وكلمة ﴿عَسَى﴾ للتنبيه والإعداد، فهي هاهنا بمعنىٰ الخبر والوعد. وقد ذيَّل هذا الوعد بما يدل علىٰ إنجازه وتحقيقه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ۝٨٤﴾، فلا يخيفنَّكم - أيها المؤمنون - بأس هؤلاء الكافرين وشهرتهم.

قال في «المنار»: ويُؤْخَذ من الآية أنَّ الله تعالىٰ كلَّف نبيَّه ﷺ أن يقاتل الكافرين الذين قاوموا دعوته بقوتهم وبأسهم، وإنْ كان وحده. وهي تدل علىٰ أنه أعطاه من الشجاعة ما لم يُعْطِ أحداً من العالمين، وسيرته ﷺ تدل علىٰ ذلك[٢].

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ۝٨٥ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ۝٨٦ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ۝٨٧﴾.

وبعد أن أمره بأن يقاتل الكافرين وإن كان وحده، وأن يُحرِّض المؤمنين علىٰ

---

(١) «تفسير الرازي» (١٠: ١٥٧).

(٢) تفسير «المنار» (٥: ٢٤٨).

القتال معه ليُؤازِروه ويَشفَعوه، رغَّبهم بمعاونته وشفاعته ونُصرته، ولكن ذكر ذلك بصورة قاعدة عامة تشملها وغيرَها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾، قال الراغب: الشفع: ضمُّ الشيء إلىٰ مثله[1]. والشفاعة: الانضمام إلىٰ آخر ناصراً له وسائلاً عنه.

فالمعنىٰ الذي يقتضيه السياق: مَنْ يجعل نفسَه شَفْعاً لك بعد أن أُمِرتَ بالقتال وحدك، وهي الشفاعة الحسنة لأنها نَصْرٌ للحق وتأييد له. ومثلُ ذلك كلُّ من ينضمُّ إلىٰ مُحسِن ويشفعه، فمن يشفع مثل هذه الشفاعات ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ أي: بما يناله من الفوز والشرف والغنيمة في الدنيا، عندما ينتصر الحق علىٰ الباطل، وبما يكون له من الثواب في الآخرة، أدرك النصر في الدنيا أو لم يدركه.

﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾ بأن ينضمَّ إلىٰ عدوِّك، فيقاتل معه أو يخذل المؤمنين، ومثلُه كلُّ من يُعينُ علىٰ الباطل وعلىٰ السيئات ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾[2] أي: نصيبٌ مُضاعَف من سوء عاقبتها، وهو ما يناله من الخذلان في الدنيا، والعقاب في الآخرة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: حافظاً وشاهداً ومُجازياً. قال الراغب: أصل

---

(١) «المفردات» ص٤٥٧.

(٢) تعرضت الآية: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ..﴾ لأمرين اجتماعيين من أهم الشؤون: أن يشفع الرجل أخاه في نَيْل مأربه الحق، أو يشفع له عند غيره في قضاء حاجته المرضية، يعاونه ويناصره فيهما. وأمرت الآية الثانية: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ ..﴾ بالرد علىٰ التحية بما يؤلِّف القلوب ويقلع الضغائن، وبالتقرُّب إلىٰ من يريد التقرب وإصلاح ذات البين، كما تقتضي الإنسانية. وقد سيقت الأولىٰ حضاً علىٰ مناصرة رسول الله ﷺ ووعيداً لمن يناصر عليه أعداءه. وأردفت بالثانية دعوة للسلم متىٰ جَنَح له العدو وأخلص فيه، مَيْلاً للتآلف بين البشر وجمعهم علىٰ الحق. (المؤلف).

الكلمة من القائم علىٰ الحيوان يقيته[١]، فإنه لا يغيبُ عنه من أمره شيء. وقال الزَّجّاج: الـمُقيت: القدير[٢].

ثم أمرهم سبحانه في الآية الآتية أن يقابلوا أعداءهم بالسلام إذا بدؤوهم بذلك؛ لأنهم لم يُؤْمَروا إلا بقتال مَنْ قاتلهم، أو أمرهم أن يتقرَّبوا من أعدائهم إذا أظهروا لهم التقرُّب وتنصَّلوا من المخالفة والعداء بصورة صادقة.

ويرىٰ الأستـاذ الإمام[٣]: أنه بعد أن علَّم الله المؤمنين طريقة الشفاعة الحسنة والسيئة، وهي من أسباب التواصل والتوادّ بين الناس، علَّمهم سنة التحيَّة بينهم ومع مَنْ يلقونه في أسفارهم؛ لأنها من أسباب التَّوادِّ والتواصل كذلك، فقال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[٤]. وحُسْنُ الجواب يكون بحُسن معناه أو بحُسن كيفيَّة أدائه ولطف بشاشته.

أقول: والذي أراه أنَّ الآية بحسب السياق إرشادٌ وتوجيهٌ للمؤمنين بأنْ يُلاينوا أعداءهم إذا وجدوا منهم صِدقَ تقرُّبٍ ومجاملة، وبحسب الصيغة تعليمٌ لهم بسنة التحيَّة وأصولها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

---

(١) انظر «المفردات» ص٦٨٧.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٨٥).

(٣) يعني: الشيخ محمد عبده. والكلام في تفسير «المنار» (٥: ٢٥٣).

(٤) بعد أن ندب ورغّب في التعاون علىٰ الحُسْنىٰ ومهمّات الأمور ناظراً إلىٰ وجوب التكاتف في الدفاع عن الدين ونُصْرة المسلمين تجاه المعتدين، أمرهم بما يَتَضمَّن قَبول المسالمة إذا وقع من الأعداء طلبٌ صادقٌ لها، ورجوع إلىٰ الحق، ومَيْل إلىٰ الرشد والصواب، أمرهم بذلك ضمن قاعدة عامة في صورة الرد علىٰ التحية، وحُسْن المجاملة فيها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. ويجوز أن تكون الآية سيقت للشكر علىٰ الشفاعة الحسنة وأمثالها، أدمجه في وجوب الرد علىٰ التحية. والله أعلم. (المؤلف).

وردُّ التحية من الفضائل التي دعا إليها القرآن، لأن تَرْكَ الرد رذيلة تُثير العداوة والبغضاء، إذ تُؤْذن بالتحقير والاستخفاف، والردُّ بأفضل منها غايةٌ في السُّموِّ الأدبي وتقرير المحبة بين الناس.

وذكر الرازي لاتِّصال الآية بما قبلها وجهين:

الأول: أنه لما أمر المؤمنين بالجهاد، أمرهم أيضاً بأن يرضوا بالمسالمة إذا رضي الأعداء بها. فهذه الآية عنده كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، كما ألمعتُ إلىٰ ذلك في مبدأ البيان.

والثاني: أنَّ الرجل كان يلقىٰ الرجل في دار الحرب فيُسلِّم عليه، فقد لا يلتفت إلىٰ سلامه ويقتله، فمنع الله المؤمنين من ذلك، وأمرهم بأن يقابلوا كلَّ مَنْ يُسلِّم عليهم أو يُكرمهم بنوع من الإكرام، بمثل ما قابلهم به أو بأحسن منه(١).

ثم ختم السياق بما يحمل علىٰ التَّمسُّك بما سبق من الأحكام علىٰ الوجه الذي سبقت الهداية إليه، وعلىٰ أن يراعي في تطبيقها الدقّة والإخلاص، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾.

ثم تابع هذا الحُسْبان وقرَّره بتقرير التوحيد والبعث، وبتحقيق الوعد والوعيد، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فلا تشركوا به، ولا تقصِّروا في طاعته والخضوع لأمره، فسيحاسبكم عليه يوم القيامة.

وبعد أن أكَّد الخبر بلام القسم، بَالَغَ في تحقيق إنجازه بهذه الجملة المفعمة بالتقرير والتثبيت، فقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾، فالذي يَعِدُكم به أو يتوعَّدكم عليه سَيُنفِّذه لا محالة.

---

(١) «تفسير الرازي» (١٠: ١٦١).

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ
ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا
تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ
وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ
جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ
فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ
يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ
وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ البحث عن المنافقين بعد الاستطراد، علىٰ نهج القرآن في العودة، وذكر انقسام رأي المسلمين في أمر بعض المنافقين، وبيّن المواقف التي يجب أن يقفوها منهم، وفرّع علىٰ ما سبق نَقْدَ الاختلاف فيهم، فقال: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

قال الأستاذ الإمام: المنافقون هنا: غير مَنْ نزلت فيهم آيات البقرة وسورة المنافقين وأمثالهنّ من الآيات، وإنما هم فريق من المشركين كانوا يُظهرون المودّة للمسلمين والولاء لهم وهم كاذبون فيما يُظهرون. فكان المؤمنون فيهم قسمين: قسمٌ يرىٰ أن يُعامَلَ هؤلاء كما يُعامَلُ غيرهم من المجاهرين بالعداوة، وقسمٌ يرىٰ أن يُعَدُّوا من الأولياء، ويُستعان بهم علىٰ سائر المشركين المعادين لهم جهراً(١).

فأنكر الله عليهم ذلك، وأيّد الإنكار بقوله فيهم: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾،

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٦٢).

أي: كيف تتفرَّقون في شأنهم، وأنَّ الله قد أركسهم وصَرَفهم عن الحقِّ[١] الذي أنتم عليه، وذلك بما كسبوا من أعمال الشرك والمعاصي، إذ قد جرَت سُنَّة الله تعالىٰ في خِلْقَةِ الإنسان أنَّ من تَشَبَّع بالضلال لا يمكنه أن يعودَ إلىٰ الحق، بل يقاومه ظاهراً أو خفياً. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾[٢]، وإنما أسند الإضلال إلىٰ الله سبحانه؛ لأن الضلال ناتج من معاكسة الضالِّ لسُنن الله الدينيَّـة، وليس المراد أنَّ الله سبحانه يضلُّه قَصْداً وطبيعة[٣]، فالله مُنزَّه عن ذلك.

ومعنىٰ الآية: أي: من أضلَّه الله بمخالفته لدينه ومعارضته له ليس في استطاعتكم أن تُغيِّروا سُنن الله في نفوس الناس، فتُصلحوا شأن من تمكَّن فيه الضلال وتهدوه إلىٰ سواء السبيل، كيف ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ بمقتضىٰ سننه فيمن تشبَّع بالضلال وانطبع عليه، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ٨٨﴾ في تحويله عن ذلك[٤]؛ لأنَّ الإنسان مثل جام التَّصوير

---

(١) أي: نكَّسهم وأذلَّهم في كفرهم وارتدادهم، وردَّهم إلىٰ أحكام الكفار، بسبب ما اكتسبوا من الأعمال الخبيثة.

(٢) المعنىٰ الراجح في هذه الآية وأمثالها، وهو ما رجحته في تفسيري «المعين»: أتريدون ـ أيها المؤمنون المنخدعون بالمنافقين المتخلِّفين عن الهجرة ـ أن تنسبوهم إلىٰ الهداية مع أنَّ الله قد أثبت لهم الضلال، ومكَّنكم من الحكم عليهم بذلك استدلالاً بأقوالهم وأفعالهم التي تكشف عن حقيقة كفرهم.

(٣) لا شك أن ضلال العبد واقع باختياره وكَسْبه، كما أنه واقع بإرادة الله تعالىٰ وخَلْقِهِ، فنفي «القصد» في عبارة المؤلف غير صحيح، أما الطبيعة فكأنَّ مراده أن الله لم يجبله علىٰ الضلال، بل علىٰ الاختيار، وهذا معنىٰ صحيح.

(٤) المعنىٰ الراجح في هذه الآية وأمثالها في كتاب الله: ومن يحكم الله عليه بالضلال حكماً مُسْتنداً إلىٰ علمه وحكمته وعدله، فلن تجد له ـ أيها الراغب في تبرئته والحكم عليه بالهداية ـ سبيلاً لتبرئته ممَّا هو عليه من الكفر المحقَّق الذي بَدَت دلائله في أقواله وأفعاله.

ينطبع فيه ما يُصادفه أول الأمر، فإذا صادفه الضلال وتلقَّاه بالتربية والتقليد الأعمىٰ لا يُمْحَىٰ منه أبداً حتىٰ يحلَّ محلَّه الهدىٰ والرشاد.

ثم أيَّد أمرَهم بإظهار نواياهم، وحِرْصِهم علىٰ ارتداد المؤمنين عن دينهم، فقال: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ﴾ معهم ﴿سَوَآءً﴾، هذه هي نواياهم وأمانيُّهم ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وأنصاراً لينصروكم علىٰ أمثالهم من المشركين ﴿حَتَّىٰ﴾ يؤمنوا و﴿يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويتَّحدوا بكم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ وأعرضوا عن الإيمان والهجرة ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾، وإنما أمر الله سبحانه المؤمنين أن يعاملوهم بهذه المعاملة لأنهم كانوا يُوهمونهم أنهم معهم، ويقتلون كل مسلم ظفروا به، فأمرهم أن يعاملوهم بهذه المعاملة.

واستثنىٰ منهم من تُؤْمَن غائلتُهم بأحد أمرين، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: يصلون إلىٰ قوم معاهدين لكم فيدخلون في عهدهم، ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ أي: ضاقَتْ صدورُهم عن قتالكم وعن قتال قومهم، فهم لا يُحِبُّون أن يقاتلوا المسلمين حفظاً للعهد أو للودِّ، ولا يحبُّون أن يقاتلوا قومهم لأنهم قومهم. فمنع القرآنُ قتالَ هذين الصنفين، فما أعدل تعاليم القرآن! وما أكرم أصول الإسلام!

ثم أتىٰ بهذه الجملة المتضمِّنة لمنَّة الله في مسالمة هؤلاء للمؤمنين، والحاملة علىٰ التمسُّك بما أمرهم به من الكفِّ عنهم، شكراً لهذه المنَّة، والمسبوكة علىٰ التعليل لما قبلها من الاستثناء، والتمهيد لما بعدها، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ أي: إنَّ من رحمته تعالىٰ أن كفَّ عنكم بأسَ هاتين الفئتين وصَرَفهم عن قتالكم بموقفهم هذا، ولو شاء الله لسلَّطهم عليكم فَلَقاتلوكم.

ومُحصّل الكلام ما قاله في «المنار»: إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ - بتوفيقه ونظامه في الأسباب والمسبَّبات، وسننه في الأفراد والجماعات - جَعَل الناس في ذلك العصر أزواجاً ثلاثة:

فمنهم سليمو الفطرة مستقلُّو الفكر، وهم الذين سارعوا إلىٰ الإيمان.

ومنهم المتوسطون في ذلك، وهم الذين رجَّحوا مسالمة المسلمين، فلم يكونوا معهم من أول وهلة مثل الصنف الأول، ولا أشداء عليهم مثل الصنف الثالث.

ومنهم الـمُوغِلون في الضلال والشرك، والراسخون في التقليد، وهم المحاربون لهم.

وإذا كان وجود المسالمين بمشيئة الله تعالىٰ الموافقة لِحِكَمِه وسُننه، فلا يثقل عليكم اتِّباع أوامره بترك قتالهم، ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ ووثقتم بهم ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾؛ إذ من قواعد ديننا: ألا نعتدي إلا علىٰ من يعتدي علينا، ولا نقاتل إلا من قاتلنا. وهذا تقريرٌ للحكم الذي فُهِمَ ضمناً مما قبله. وإلقاء الشيء: إظهاره بحيث يُدرَكُ جلياً، فهو هنا يَتَضمَّن الوثوق من المسالمة(١).

ثم ذكر حال طائفة أخرىٰ من المنافقين وحكمهم، فقال: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ مخادعين ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ يُظْهرون لكلٍّ أنهم منهم؛ نفاقاً وخدعة، ففضحهم بهذا البيان، فقال: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾، والركس: القلب علىٰ الرأس، أي: كلَّما حَمَلهم المشركون علىٰ مساعدتهم في قتال المسلمين، فعلوا ونكلوا عن المسالمة، ونكسوا علىٰ رؤوسهم، في نفاقهم وإظهار أنهم مع المسلمين.

وقد بيَّن الله تعالىٰ حكم هؤلاء بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ ظاهراً

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٦٦).

جلياً موثوقاً، ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ بالتزام الحياد التام، وتجنُّب الدسائس؛ فإن لم يفعلوا ذلك ويُؤْمَنْ غدرُهم وشرُّهم ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ أي: حيث وجدتموهم وتمكَّنتم منهم، فقد قامت الحُجَّة لكم عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ٩١﴾ أي: حُجَّة واضحة. وقد ذكر الحجَّة بدل الحكم عليهم بالقتال، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك من ذِكرِ السبب مكان المسبَّب والعكس.

وهذا السياق يؤيِّد أنَّ القتال لم يُشرع في الإسلام إلا للضرورة، ومنها: الوقوف دون نشره في الأمم، وذلك من أحكامه العادلة وأصوله الكاملة ومبادئه الجليلة، وهي الحرب للمُحَارب، والوفاءُ للمعاهَد، والسِّلم للمُسَالِم، وعدم الطمأنينة للمُخَادع إلىٰ أن يَجْنح للمسالمة علىٰ وَجْهٍ يدعُو إلىٰ الطمأنينة، أو يقاتل لاعتباره عدواً محارباً. ولذلك كانوا يطلبون من الأمم إحدىٰ ثلاث: الدخول في الإسلام دون تفريق، أو إعطاء الجزية فيكونون رعية، أو الجهاد.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٩٢ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾.

ولما أمر سبحانه وتعالىٰ بقَتْل هؤلاء المنافقين، ومن المعلوم أن أمر النفاق غير جليٍّ، كان من المحتمل أن يقع خطأ في ذلك، فيقتل المؤمن والمعاهَد، بتوهُّم أنه من

هؤلاء المنافقين، فبيَّن سبحانه وتعالىٰ حكم ما يقع من هذا الخطأ، بصورة قاعدة تشريعية عامة تشمله وغيـرَه، علىٰ نهج القرآن في مثله، فهي تـتميمٌ للبحث بحسب السياق، وتشريعٌ عام بحسب الصيغة، وصاغ العبارة بصيغةٍ تؤذن بوجوب التدقيق في تحرِّي حال المظنون، حَذَراً من أن يكون مؤمناً، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾.

وهذا الضربُ من النفي يسمَّىٰ نَـفْيَ الشأن، وهو أبلغ من نفي الفعل، أي: ما كان من شأن المؤمن ـ من حيث هو مؤمن ـ أن يقتل أحداً من أهل الإيمان إلا خطأ؛ لأنَّ الإيمان ـ وهو صاحب السلطان علىٰ النفس والحاكم علىٰ الإرادة والمصرِّف لها ـ يمنعه أن يجترح هذه الكبيرة عمداً، ولكنه قد يفعل ذلك خطأ.

فالآية بحسب السياق تعليلٌ لما جاء في الآية السابقة من النهي عن قَتْل مَنْ جاء محصور الصَّدر، إذ لا يجوز أن يَقْتُلَ المؤمنُ عمداً مَنْ كان فيه أدنىٰ مظنَّة من إيمان يُخفيه خَشْيةَ المعتدين، ولكن قد يقع فيه خطأ، فبيَّن حكم القتل الخطأ بصورة قاعدة عامة تشمل ما قبلها وغيره، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال:

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أي: إلا أن يعفُوا عنها ويُسقِطوها باختيارهم. وسُمِّيت الدية: العَـقْل؛ لأنَّ الأصل فيها عند العرب: الإبلُ تُعقَـلُ في فناء دار المقتول، وقد فرضها ﷺ مئةً من الإبل أو قيمتها[1].

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٤١)، وأحمد (٦٧١٩)، عن عبد الله بن عمرو بلفظ: «أن النبي ﷺ قضىٰ أن مَن قتل خطأ فديته مئة من الإبل؛ ثلاثون بنت مخاض، وثلاثون بنت لبون، وثلاثون حِقّة، وعشرة بنو لبون ذكور».

وجاء في الأثر: كانت قيمة الدية علىٰ عهد رسول الله ﷺ ثمانمئة دينار أو ثمانية آلاف درهم، حتىٰ استخلف عمر فقام خطيباً، فقال: إن الإبل قد غلَت. ففرضها عمر علىٰ أهل الذهب ألف دينار، وعلىٰ أهل الوَرِقِ اثني عشر ألفاً من الدراهم، وعلىٰ أهل البقر مئتي بقرة، وعلىٰ أهل الشياه ألفي شاة، وعلىٰ أهل الحلل مئتي حلّة، وترك دية أهل الذمة لم يرفعها فيما رفع من الدية. رواه أبو داود[١].

وقال البعض: إنَّ تنكير الدية في الآية يُشعر بأنها غير واجبة التحديد والتعيين، ولكن تختلف باختلاف العُرْف والزمن، بالصورة التي تصلح أن تكون عوضاً صحيحاً[٢].

وقد اختلفوا في دية الكافر، فقيل: إنها علىٰ النصف من دية المؤمن.

ثم تابع سبحانه وتعالىٰ البيان عن أحكام الدية، وقال: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: فإن كان المقتول من أفراد أعدائكم إلا أنه مؤمن ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فقط، ولا تجب الدية لأهله، لأنهم محاربون لكم، ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي: معاهدة سلم أو ذمّة ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: الواجب في قتل المُعاهَد والذِّمي من قوم مُعاهَدين وذِمِّيين، هو نفس الواجب في المؤمن من قوم مؤمنين، وهي الدية والكفارة، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة التي يعتقها، كأن انقطع الرقيق كما هو الآن ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾، فإن أفطر يوماً بغير عذر شرعي استأنف وكان ما صامه قبله كأن لم يكن. وإنما شرع الله ذلك ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عليكم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ

---

(١) برقم (٤٥٤٢).

(٢) الضعفُ في هذا القول ظاهر، فالدية عقوبة منصوصة ليست تعزيرية، وما كان من العقوبات كذلك فشأنه أن يكون مُحدَّداً ومُقدَّراً شرعاً.

عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ في وَضع الأحكام التي تُصلح نفوسكم وتُحسِنُ تأديبكم. وإنما جعل هذه العقوبة على الخطأ، لأنه لا يخلو من التهاون وعدم العناية بالاحتياط.

ثم ختم السياق بإتمام ما بدأه به وتكميله، على نهج القرآن في مثل ذلك، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾، فبيَّن جزاء قتل المؤمن عمداً، بما يوافق مفهوم هذه الآية من كونه ليس من شأنه أن يصدر إلا عن مشرك من هؤلاء المعارضين للمؤمنين، فقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾، وهذا الجزاءُ العظيم لا يُشبِهُ إلا جزاء الشرك، أعاذنا الله. وإنما أخَّره ليختم به السياق مبالغةً في التحذير والإنذار الذي بدأ به الآية.

ويجوز أن تكون هذه الآية بحسب السياق تدورُ حول محور البحث عن المشركين والمنافقين، تتوعَّد مَنْ قتلَ منهم مؤمناً أثناء قتالهم ـ والله أعلم ـ ختم بها السياق.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾.

قال الأستاذ الإمام[1]: وبعد هذا أراد تعالىٰ أن ينبِّه المؤمنين علىٰ ضربٍ من ضروب قتل الخطأ، كان يحصل في ذلك العهد عند السفر إلىٰ أرض المشركين لقتالهم، وذلك أنَّ الإسلام كان قد انتشر، ولم يبق مكان في بلاد العرب وقبائلهم يخلو من المسلمين أو ممَّن يميل إلىٰ الإسلام، ويتربَّصون الفُرَص للاتصال بأهله للدخول فيهم، فأعلم الله المؤمنين

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

بذلك، وأمرهم أن لا يحسبوا كلَّ مَنْ يجدونه في دار الكفر كافراً، وأن يتبيَّنوا فيمن تظهر منهم علامات الإسلام، كالشهادة أو السلام الذي هو تحية المسلمين، وعلامة الأمن والاستئمان، وأن لا يحملوا مثل هذا علىٰ المُخادَعة، إذ ربما يكون الإيمان قد طاف علىٰ هذه القلوب وألمَّ بها، إن لم يكن قد تمكّن فيها[١]، فقال عزَّ شأنه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: سِرْتُم في جهاد أعدائكم ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ في قتل مَنْ أشكل عليكم أمرُه، وتثبّتوا في استكشاف شأنه، ولا تَتعجَّلوا.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ ﴾ أي: لمن أظهر السلام بصُورة واضحة أو اسْتَسْلم لكم، مُظْهراً أنه من أهل مِلَّتكم ودعوتكم، لا تقولوا له: إنك ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ﴾ بذلك ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهو الحصول علىٰ المَغْنَم، وما أذن الله لكم في قتال الذين يقاتلونكم لتكونوا مثلهم في أطماعهم الدنيويَّة، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ مِن رزقه وفواضل نِعَمِه.

وقد هدىٰ الله المؤمنَ بهذه الآية إلىٰ أن يتَّهم نفسَه، ويفتش عن قلبه، ولا يبني الظن علىٰ ميله وهواه.

ثم زاد المعنىٰ بياناً بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾ أي: تَسْتَخْفُونَ بدينكم من قومكم كما يستخفي هذا الذي ألقىٰ إليكم السلام بدينه من قومه، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بالهجرة والقوة حتىٰ أظهرتم الإسلام ونصرتموه، وقيل: بل المعنىٰ: كذلك كنتم كفاراً مِثلَ مَنْ قَتَلتُم بتُهمة الكفر، فمنَّ الله عليكم بالهداية إلىٰ الإسلام، فمنكم من أسلم لظهور حقية الإسلام له من أول وهلة، ومنكم من أسلم تَقيَّة أو لسبب آخر حتىٰ حَسُن إسلامه عندما خبر الإسلام وعرف محاسنَه.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٨٢).

ثم كرَّر الأمر بالتَّبيُّن، للمبالغة في التَّحذير عن الوقوع في مثل هذا الخطأ، وقرنه بالوعيد، وقال: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ ولا تأخذوا بالظنِّ في مثل ذلك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ لا تخفىٰ عليه نيَّاتكم وأعمالكم، وإذا أخطأتم في العفو عن الكافر فهو أهونُ بكثير من الخطأ في قتل المؤمن.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

ولما كانت هذه المعاتبة عمَّا صدر منهم، وهذا التكرار في طلب التَّبيُّن المقرون بالتحذير والوعيد، ربما يجعل في القلوب شيئاً من الفتور في أمر الجهاد، أردف الكلام ببيان فضيلة المجاهد وعُلوِّ درجته، وذكر ذلك بصورة قاعدة تشريعيَّة تكريميَّة عامة، علىٰ نـهج القرآن في مثله، فقال: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ عن الجهاد في سبيل الله ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ كالأعمىٰ والمُقْعَد والزَّمِنِ والمريض، ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾(١).

ثم فصَّل ذلك التفاوت المفهوم من نفي المساواة بقوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أولي الضرر ﴿دَرَجَةً﴾ عظيمة، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، لأنَّ قعود هؤلاء القاعدين ليس تكاسلاً وتباطؤاً، بل لا صُنع لهم فيه. هذا هو فضل

---

(١) لما جاء في السياق الأمر بالجهاد رغَّب فيه وذكر فضيلته، ولما كان الجهاد فرض كفاية؛ إذا قام به من يندفع بهم العدو ويحصل بهم الغلب، سقط عن الباقين، كان القائمون به هم أهل الحظ الوافر، فبيَّن أولاً امتيازهم بذكر الدرجة، ثم ذكر عظم أعطيتهم بذكر الدرجات. وقيل: الدرجة فيما خوَّلهم في الدنيا، والدرجات ما جَعَله لهم في الآخرة، وإن كان المؤمنون كلُّهم موعودين بالحسنىٰ. (المؤلف).

المجاهدين علىٰ القاعدين أُولي الضرر، أما فَضْلهم علىٰ القاعدين غير أُولي الضَّرر فقد بيَّنه بقوله: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ بأموالهم وأنفسهم ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ تكاسلاً وإيثاراً للراحة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾؛ بيَّنه بقوله: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً﴾ لما سبق لهم من الذنوب ﴿وَرَحْمَةً﴾ لا حدَّ لمنتهاها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

ثم وَصَل الكلام عن أولئك المُخْتفين بدينهم والتوصية بهم، وعن المجاهدين في سبيل الله، بالكلام عن وجوب الهجرة من ديار الشرك إلىٰ دار الإسلام، تمكيناً لهم من أداء دينهم وإظهاره، وتقْويةً للمسلمين، وقَرَنَ ذلك بالتوعُّد لمن يتركها مع القدرة عليها.

وقال في «المنار»: لما كانت بلاد العرب في ذلك العهد قسمين: دار هجرة المسلمين ومَأْمنهم، ودار الشرك والحرب. وكان غير المسلم في دار الإسلام حراً في دينه لا يُفْتن عنه، وحُراً في نفسه لا يُمنَعُ أن يسافر حيث شاء. وأما المسلم في دار الشرك فكان مُضْطهداً في دينه، يُفتَنُ ويُعذَّب لأجله، ويُمنَعُ من الهجرة إن كان مُسْتَضْعفاً لا قوَّة له ولا أولياء يحمونه؛ كانت الهجرة لأجل هذا واجبة علىٰ كلِّ مَنْ يُسلِم، ليكون حُراً في دينه، آمناً في نفسه، وليكون ولياً ونصيراً للنبيِّ ﷺ والمؤمنين الذين كان الكفار يهاجمونهم المرّة بعد المرّة، وليتلقَّىٰ أحكام الدين عند نزولها.

وفي مثل هذه الحال ينقسم الناس بالطبع إلىٰ أقسام؛ منهم من ذكرنا.

ومنهم القوي الشجاع الذي يُظهِرُ إيمانَه وهجرتَه، وإن عرّض نفسه للمقاومة.

ومنهم مَنْ يُـؤْثر البقاء في وطنه بين أهله، لأنه ـ لضعف إيمانه ـ يؤثر مصلحة الدنيا التي هو فيها.

ومنهم الضعيف الـمُستَضعَف الذي لا يقدر علىٰ التحفّظ من مراقبة المشركين وظلمهم، ولا يدري أية حيلة يعمل، ولا أي طريق يسلك.

وقد بيَّن الله تعالىٰ حكم من يترك الهجرة لضعف دينه وظلمه لنفسه مع قدرته عليها لو أرادها، ومَنْ يتركها لعجزه وقلَّة حيلته وظلم المشركين له. وابتدأ بالصنف الأول، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1] بتركهم العملَ بالحق وإقامةَ الدين كما ينبغي خوفاً من الأذىٰ مع قدرتهم علىٰ الهجرة إلىٰ مأمن من ذلك، إنَّ هؤلاء قد بيَّن سبحانه مصيرَهُم ومحاورة الملائكة لهم بما حكاه بقوله: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: في أيِّ وَضْع كنتم؟

قال صاحب «الكشاف»: معنىٰ: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين، حيث قدروا علىٰ المهاجرة ولم يهاجروا، فاعتذروا من تقصيرهم الذي وُبِّخوا عليه، و﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2] أي: إننا لم نستطع أن نكون في شيء يعتدُّ به من أمر ديننا لاستضعاف الكفار لنا.

---

(١) إنَّ هذه الآيات امتدادٌ لما سبق من الترغيب في أمر الجهاد؛ لأنَّ هذه الزمرة تركت الهجرة واللحوق بجيش المسلمين مع أنها قادرة عليها. وفوق ذلك أنها لا تقدر علىٰ إتمام فرائض الإسلام وواجباته في مكانها. (المؤلف).

وما سلف من كلام المؤلف في المتن هو في تفسير «المنار» (٥: ٢٨٩).

(٢) «الكشاف» (١: ٥٥٥).

فردَّ الملائكة عليهم هذا العذر، و﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾، وأنتم قادرين علىٰ ذلك، وتُحرِّروا أنفسكم من رقِّ الذل الذي لا يليق بالمؤمن، ولا هو من شأنه، وتلتحقوا بالمؤمنين وتكونوا عَوْناً لهم علىٰ أعدائهم، وتشدُّوا أزرهم؟ فَسَجَّل عليهم سبحانه هذا الوعيد، وقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾[١]، فتَوعَّدهم كما يَتَوعَّد الكفار؛ لأنَّ الهجرة للقادر كانت شرطاً لصحَّة الإسلام. وقيل: بل جهنم لهم مأوىٰ مؤقتٌ علىٰ قدر تقصيرهم وما فاتهم من الفرائض.

وأخرج البخاري[٢] عن ابن عباس: أنهم أناسٌ من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم علىٰ رسول الله ﷺ.

وقيل: بل كانوا من المنافقين الذين أظهروا الإسلام ولم يتبطَّنوه.

وقال صاحب «الكشاف»: هذه الآية دليل علىٰ أنَّ الرجل إذا كان في بلد لا يتمكَّن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب، أو علم أنه في غير بلده أَقْوَمُ بحقِّ الله وأَدْوَمُ علىٰ العبادة، حقَّت عليه المهاجرة[٣].

وقال الأستاذ الإمام[٤] في تفسير هذه الآية: فهُم لحبِّهم لبلادهم وإخْلادهم إلىٰ أرضهم وسكونهم إلىٰ أهليهم ضعفاءُ في الحق لا مُسْتَضْعَفون[٥]. مثل الذين

(١) هذه الآية هي التي حفزت المؤمنين الأُوَل علىٰ الهجرة من مكة قبل الفتح. وعلىٰ هذا جاء قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن: ١٤]، يعني: الذين يكرهون الهجرة ويصرفون الآباء والأزواج عنها. (المؤلف).

(٢) (٤٥٩٦).

(٣) «الكشاف» (١: ٥٥٥).

(٤) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٥) تفسير «المنار» (٥: ٢٩٠).

استثناهم الله سبحانه من هذا الوعيد، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ أي: عفواً للمخالفات التي لها أعذار مقبولة فلا يُؤاخذ عليها.

ثم رغَّب سبحانه بالهجرة تنشيطاً لهؤلاء المستضعفين، وتحريضاً عليها وعلىٰ استنباط الحيَل لها، فقال: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، أراد بالـمُراغَم: المأوىٰ والمخْلَص والمُتحوَّل وطيبَ المهجر، يُراغمُ به أنوف الأعداء، وباعتبار الجنس وصفه بالكثرة، وأراد بالسَّعة: سَعَـة العيش. وهذا ترغيبٌ في الهجرة من دار الكفر إلىٰ دار الإسلام من حيثُ أمرُ الدنيا، وأما من حيث الآخرة فقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ يغفر ما سبق له من الذنوب، ﴿رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ يشملُه بعطفه ويَغْمُرُه بإحسانه. فقد وعد سبحانه مَنْ يهاجر فيصلُ إلىٰ دار الهجرة بالظفر والسَّعة، ووَعد من يموت في الطريق قبل بلوغها بأجر عظيم، يضمنه له عزَّ وجل.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا

مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

قال في «المنار» ما معناه: ولما كان السياق في أحكام الجهاد في سبيل الله، وجاء فيه حكم الهجرة، ذكر رخصة القَصْر للصلاة في هاتين الحالتين، علىٰ نهج القرآن في تنويع المواضيع للمناسبات والملابسات، وعدم تأخير البيان عن وقت الحاجة، فقال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾[١].

قال ابن جرير: فِتنَتُهُم إيَّاهم: حَمْلُهم عليهم وهم ساجدون[٢].

وقال الأستاذ الإمام: هذه الآيات في بيان من سافر للجهاد، أو هاجر في سبيل الله، إذا أراد الصلاة وخاف أن يُفتن عنها. وهذا القَصْرُ ليس هو قَصْرَ الصلاة الرباعية في السفر المبيَّن بشرطه في كتب الفقه، فذلك مأخوذ من السنة المتواترة. وأما هنا فهو في صلاة الخوف، كما وَرَدَ عن بعض الصحابة وغيرهم من السلف[٣].

ثم بيَّن الكيفية في صلاة الجيش في الحرب بقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ ولا يُلقُوها، وتبقىٰ الطائفة الأخرىٰ مراقبةً للعدو، تحرس المصلِّين، ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي: المصلُّون الذين قاموا معك ﴿فَلْيَكُونُوا﴾ أي: الذين يحرسونكم ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾ لأنَّ أحوجَ ما يكون المصلِّي للحراسة إذا كان ساجداً، ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ﴾ وهم الذين كانوا يحرسون و﴿لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ كما فعل مَنْ قبلهم.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٩٦- ٢٩٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٩: ١٢٣).

(٣) تفسير «المنار» (٥: ٢٩٩).

ويجوز أن يكون المرادُ من الذين يكونون من ورائكم: نفسَ الذين سجدوا، أي: فليذهبوا للحراسة، ولتأت الطائفة الأخرىٰ للصلاة. وعلىٰ كلٍّ، فيجوز أن تكون كلمة (وراء) بمعناها الحقيقي، أو مُسْتَعارة للحفظ والحراسة، وهو الأَوْلىٰ، فلا يشترط أن يكونوا وراءهم بالفعل، ولكنهم يكونون في المحل الذي تـقْتضيه الحراسة والدفاع، وقد علَّل ذلك بقوله: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾.

ثم رخَّص سبحانه بعد حَمْل السلاح في الصلاة للجميع، أو للبعض إن كان هناك عذرٌ، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾؛ إذ يشقُّ حَمْلُ السلاح وقت الصلاة في مثل المطر، وربما أفسده الماء لأنه سبب الصدأ. وأمرهم عند ذلك بالحذر من العدوِّ كأن يجعلوها في مُتناولهم وقريباً منهم، فقال: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ فإنَّ عدوَّكم لا يَغْفُل عنكم ولا يرحمكم.

ثم ختم الآية بما فيه بشارة لهم بالغلب، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ أي: بما هداكم إليه من أسباب النصر وقبولكم لها.

ثم أدَّبهم بما يجب أن يتَّصفوا به علىٰ الدوام حتىٰ في حالة الحرب، فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي: في سائر الأحوال، وذلك بأن تَتَذكَّروه وتستعينوا به في كلِّ ما يعرض لكم من مشاكل الحياة، صَغُرَت أو جَلَّت، وتعتمدوا عليه وتصمدوا إليه.

ثم أعقب الرخصة في صلاة الخوف بوجوب إتمامها مع الإقامة في غيره، زيادةَ اهتمام بها، فقال: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائتُوا بها مُقامةً تامَّة الأركان ونظام الجماعة.

ثم ختم السياق بمـا هو كالتَّعليل لوجوب المحافظة علىٰ الصلاة حتىٰ في وقت الـخوف، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾ ﴾ أي: فرضاً مؤكَّداً في أوقاتها المعيَّنة، لا عُـذْر لتركها ولا لتأخيرها عن وقتها مهمـا كلَّف الأمر واشتدَّ الحال.

ومن دلائل الاهتمـام بها: أنها فُرضت في السماء أثناء المعراج، في جذوة من الإشراق، ولم يكن أمرها كبقية الفرائـض، وفُرِضت أولاً خمسين لتستوعب العمر بحُكْمِ روحيَّة الإنسان ومَلَكيَّته، ثم خُفِّفت إلىٰ خمس بحُكْمِ شواغل ماديَّته، رحمةً منه تعالىٰ، ورمزاً إلىٰ أنَّ هذه الخمسة في عداد الخمسين، فكلُّ ذلك من أمارات عَظَمةِ شأنها، وقوَّة أثرها في شأن الإنسان دنيا وأخرىٰ، والله أعلم.

ولما بيَّن شدَّة عداوة الكفار لهم وتربُّصَهم غَفْلَتَهم ليوقعوا بهم، نهىٰ عن الضعف في لقائهم، وأقام الحجَّة علىٰ أنَّ المشركين أجدر بالخوف منهم، فقال: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ ﴾ وهو إحدىٰ الحُسنَـيَـين: النصر أو الجنة بالشهادة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمـا تعملون وما تُضمِرون ﴿حَكِيمٗا ﴿١٠٤﴾﴾ فيما يضعُ لكم من الأنظمة والتكاليف.

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

وبعد أن أمر المؤمنين أن يأخذوا حِذْرَهُم من الأعداء المجاهرين، عادَ بالكلام إلىٰ الأعداء المنافقين، علىٰ نهج القرآن في العودة، وحذَّر من تدليسهم وتضليلهم، وبيَّن ذلك في حادثةٍ صدرت منهم مع النبيِّ ﷺ في بعض الغزوات، حيث حاولوا أن يحملوه بإيهامهم وتضليلهم أن يحكم حكماً خاطئاً، باعتماده علىٰ كلامهم، وذلك أنَّ رجلاً منهم سَرَق درعاً ولما خاف أن يُعثَرَ عليه، طرحها في بيت يهودي، فقال اليهودي: ما سرقتها، ولكن طُرحت عليَّ. فقام المنافقون يُبرِّؤون السارق، ويُلقون التُّهمة علىٰ اليهودي، واندفَع معهم بعضُ المؤمنين ببساطة وحُسْن نيَّة، وبعضُ من دخلوا في الدين حديثاً، وأدخلوا علىٰ الرسول أنَّ هذه التهمة هي من كيد اليهود للإسلام، حتىٰ مال النبيُّ ﷺ إليهم ببعض القول، وكاد أن يحكم بقطع يد اليهودي، فأطلع الله رسوله علىٰ جليَّة الأمر، وأمره أن لا يلتفت إليهم، ولا يقبل منهم، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أي: من الأحكام فاحكم به، ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾[١] تُخاصِمُ عنهم وتُناضِلُ دونهم، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ مما يَعرِضُ لك من نَحْوِ مَيْل إلىٰ مَنْ تراه ألحن بحُجَّته، أو تُحسن الظن به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦﴾ يَغفِرُ لك خطأك بعد أن يُشعرك به[٢].

والآيةُ بعمومها تتضمَّن تشريعاً عاماً، وهو تحريم إهمال التدقيق في الحكم.

ثم صرَّح بما فُهِمَ ضمناً، مبالغةً في النهي، وقرناً له بالوعيد، فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ بتعريضها لِغَضَب الله وتحميلها ما لا يرضاه، حيث

---

(١) إنَّ التعبير عمَّا فات عليه ﷺ من تَغْرير المنافقين والتَّمويه عليه، بالمخاصمة عنهم، جاء علىٰ طريق المبالغة في النقد، والتغليظ في العتاب والتوجيه. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩: ١٨٤ - ١٩٥)، عن ابن زيد.

يحملونها علىٰ الخيانة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾، والويل لمن لا يحبه الله. وفي هذا التعبير مبالغة في شدَّة التوعد.

ثم بكَّتهم وشنَّع عليهم، فقال: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ حياءً منهم وخوفاً من ضررهم، فيلقون بالسرقة في بيت بريء، ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: لا يَستَحيُونَ منه وهو عالمٌ بهم، ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ أي: يُدبِّرون ويُزوِّرون ليلاً ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: قولاً مُزَوَّراً لأجل تبرئة أنفسهم ورَمْي غيرهم بخيانتهم وجريمتهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ لا يفوتُه شيءٌ منه، وسيُجازيهم عليه.

ثم أنَّبهم وسَخَّفهم في محاولتهم دفع التُّهمة عن السارق بالتَّمويه، وضمَّنه التوعّد، فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ أي: مُهَيْمناً وحاكماً غير الله، يوم يكون الخصمُ والحكمُ هو الله سبحانه المحيط بكلِّ شيء علماً. والمعنىٰ: هَبُوا أنكم موَّهْتُم عنه في هذه الحياة وأنقذتموه من القصاص، فمن يُموِّه عنه غداً عند الله.

وأتىٰ بصيغة الجمع في المُجادَل عنه أيضاً، ليتناول الكلام كلَّ مَنْ كان كذلك، علىٰ نهج القرآن في مثله، ليكون حكماً عاماً.

قال الأستاذ الإمام: وإنَّ مثل هؤلاء الخائنين يُوجَدون في كلِّ زمان. وهذا النَّهيُ لم يكن مُوَجَّهاً إلىٰ شخص النَّبيِّ ﷺ خاصَّة، وإنما هو تشريعٌ وُجِّه إلىٰ المكلَّفين كافَّة في خطاب النبيِّ ﷺ، ليكون تشريعاً مستمراً[١].

وقيل: إن الآيات جاءت في أهل بيت من المنافقين، جادل عنهم جيرانُهم من المؤمنين بحُسن نية، فالنهيُ عن المجادلة خطابٌ لهم في شخص النبي ﷺ، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، أو خطابُ المفرد للنبي ﷺ وخطابُ الجمع لهم.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٣٢٥).

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

ثم ذيَّل الكلام بهذا البيان العام فتحاً لباب التوبة، فقال: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا ﴾ يسوءُ به غيرَه، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ بعمل تختصُّ جريمته به، ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة الصادقة واسترضاء ذلك الغير، ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ إذ باستطاعة كلِّ مؤمن إذا زلَّت قَدَمُه بخطيئة ثم ندم وتألَّم أن يلجأ إلىٰ الله سبحانه نادماً متألماً، طالباً منه أن يغفر له زلَّته، وأن يمنحه عفوَه ورحمتَه.

ثم تابع الكلام ببيان أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ لا يضرُّه عملُ السُّوء، وإنما ضرره علىٰ صاحبه، فقال: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾، فنهيُه سبحانه عن الآثام إنما هو لمصالح الناس، لا لمصلحته تعالىٰ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ فيما يضعُ لكم من الأوامر والنواهي. فهو بعلمه تعالىٰ حدَّد الشرائع التي يضرُّ تجاوزُها، وبحكمته جَعَل لها عقاباً يضرُّ المتجاوز لها، فهو إذن يضرُّ نفسه ولا يضرُّ الله شيئاً.

ثم تمَّم البيان بما يتعلَّق بنفس السياق لتقرير حكم عام يشمل هذه القضية وغيرَها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً ﴾ وهو ما يُفعَلُ خطأً، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ وهو ما يُفعَلُ عمداً وقصداً، ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ أي: فيكون جُرْمُه عظيماً، جرم الإثم، وجرم اتِّهام غيره به وتزويره عليه. فهو أمر لا يُغتفر ولا يهون.

وبعد أن ذكر هذا الحكم العامَّ المتعلِّق بالسياق، عادَ إلىٰ نفس السياق مُكَمِّلاً له ومُقَرِّراً، علىٰ نهج القرآن في العودة واستقصاء البحث بالتحليل من سائر وجوهه، وضمّن الكلام تأديباً له ﷺ وتمنُّناً، فقال: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ بإعلامك ما هم عليه ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ عن الحكم العادل، بتُهمتهم لليهودي البريء، إما نفاقاً منهم إن كانوا منافقين، وإما توهُّماً أن الإسلام يبيح الانتصار للمسلم علىٰ غيره ولو بمثل ذلك إن كانوا من ضَعَفة الإيمان أو الحديثين فيه، فجاءك الوحيُ معرِّفاً لك ما أضمروه من البهتان، ﴿وَمَا ﴾ كانوا ﴿يُضِلُّونَ ﴾ بذلك ﴿ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ بانحرافهم عن الصراط المستقيم، الذي هدىٰ الإسلام إليه، ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ لأنك اندفعت مع ظاهر الحال، والله عاصِمك من الضلال، ﴿وَ﴾ قد ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ وهي فقهُه ﷺ بمقاصده، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾.

ثم ندَّد بأمر النجوىٰ في سياق الكلام علىٰ أولئك المتناجين المبيِّتين للمكيدة بقسميهم، وهم المبيِّتون غير الذي يقول الرسول بعد أن قالوا له: طاعة، والمبيِّتون ما لا يرضىٰ اللهُ من القول، وهو تُهمة اليهودي، أو يدبِّرون مكيدة لهم. وجعل الكلام شاملاً للذين يرمون الأبرياء أيضاً، أو يغمُّون الناس ويحزنوهم، ولذلك أخَّره، وذكره بصورة قاعدة تشريعيَّة عامة تشملهم وغيرهم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾(١)، والضمير عام لكلِّ مُناجٍ ومُتكلِّم.

ثم استثنىٰ من عموم اللفظ قولَه: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾(٢)، فالكلام بحسب السياق تعليقٌ علىٰ ما سبق، وبحسب الصيغة تشريعٌ عام، علىٰ نهج القرآن في مثله. وهو تنديدٌ بطبيعة النَّجوىٰ وحالِها، وأنها لا تكون

(١) مثل هذا التركيب يدل علىٰ ثلاثة أصناف: الصنف المتحقِّق خيره وهو ما بعد الاستثناء. وصنفان سيِّئان: أحدهما: يتحقق شره، والثاني: لا خير فيه ولا شر، فهو منفيٌّ عنه الخير أيضاً. وعلىٰ حدِّ هذه الآية قولُه تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، فهذا البعض مُتحقِّق الإثم، وما عداه محتمل للإثم والسلامة علىٰ اختلاف في الجهة الغالبة، وللاحتراس من الوقوع في الإثم أمرنا بالاجتناب عنه ما لم يكن فيه ضرورة كالحذر والوقاية، وعدم الإضرار بالغير، وهذا هو الصنف الثالث ما بين البعض والكثير.
والإصلاح بين الناس من أهم العناصر الاجتماعية؛ لأن العداوة بين شخصين تجرُّ إلىٰ العداوة بين العائلتين وأصدقائهما، وقد تتطوَّر إلىٰ انقسام الأمة إذا كان الشخصان من الرؤساء، وربما إلىٰ سفك الدماء. فالإصلاح من صفات النفس الرفيعة، يفضي إلىٰ النفع والخير، ويجعل الأمة متماسكةً تسعىٰ للمصالح ودرء المفاسد. (المؤلف).

(٢) هذه الأمور الثلاثة في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ هي جماعُ الخير المتعلِّق بشؤون الناس، لا يكاد يشذُّ عنها شيءٌ منه؛ لأن الصدقة تمثِّل النفع المادي، والأمر بالمعروف يمثِّل النفع الروحي، والإصلاح بين الناس يمثل دفع الشر عن الأفراد والجماعات، لا فرق بين مؤمن وكافر، فالدول المتحاربة والقبائل المتقاومة والفرق المتنافسة والأفراد المتشاكسة، كلٌّ هؤلاء يطلب سبحانه الإصلاح بينهم، ويراه خيراً عظيماً. فهو يحب أن يكون الناس جميعاً متآلفين، تربط بينهم صلات الإنسانية والمحبة والتعاون، ويكره أن يفرقهم التناكر والتخاذل. وإنما أتىٰ بهذا البيان جرياً علىٰ سنة القرآن إذا ذكر قصة أو حادثة قفَّىٰ عليها بما يرشد الناس إلىٰ تجنُّب ما جاء فيها من شرور، وما تضمنته من أحوال رديئة خارجة عن الحق والصواب. (المؤلف).

في الغالب إلا بشرٍّ وإفساد، كما جرىٰ لهؤلاء. فالآيةُ ـ بحسب الصيغة ـ للنَّهي عن النَّجوىٰ، لأنها قليلةُ الخير كثيرةُ الشر، مظهر من مظاهر الإثم والعدوان، كما أشارت إلىٰ ذلك سورة المجادلة.

وقال الأستاذ الإمام: إنَّ الكلام في الذين يختانون أنفسهم، ويَسْتَخْفون من الناس ولا يَسْتَخْفون من الله. ومعنىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾: أنَّ الغالبَ عليهم الشرُّ، فهو الذي يجري في نَجْواهم، لأنه أكبر همِّهم.

ثم استثنىٰ من عموم اللفظ علىٰ طريقة الاستثناء المنقطع، هذه الأمور الثلاثة، بمعنىٰ: أنَّ أكثر النجوىٰ لا خير فيه، إلا أن تكون النجوىٰ في هذه الأمور الثلاثة. والنكتة في ذكر الكثير هنا هو أنَّ من النَّجوىٰ ما يكون في الشؤون الخاصَّة بالمتناجين بما لا يُراد إفشاؤه، فلا تُوصَف بالشرِّ ما لم تضرَّ بالغير، ولا هي من أنواع الخير، وإنما المراد بالنجوىٰ الكثيرة المنفي الخير عنها: النجوىٰ في شؤون الغير من الناس، ولذلك استثنىٰ منها الأمور الثلاثة التي هي مجامع الخير للناس(١). وقد نوَّه بشأنها بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ لا رياءً وسُمْعةً ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

وبعد أن بيَّن وَعْدَه بالجزاء الحسن للذين يتناجَون بالخير، ويبتغون بنفع الناس مَرْضَاةَ الله عزَّ وجل، بيَّن وعيده لأولئك الذين يتناجون بالشر، ويبيِّتون ما يكيدون به للناس، والذين يقولون للرسول: طاعة، ثم يبيِّتون غير ذلك، بيَّنه بصورة قاعدة عامة، علىٰ نهج القرآن في مثله، ناظراً إلىٰ أولئك الذين يُظهِرون الطاعة، فإذا خرجوا بيَّتوا غير الذي يقولون، فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: نتركه وما شاء من اختيار الضلال، ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

(١) تفسير «المنار» (٥: ٣٣٠).

وقوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ يُؤْذِن بأنَّ الإنسان مختار في تصرُّفاته، مستقل في إرادته، وعلىٰ ذلك مدار الثواب والعقاب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾.

ثم علَّل جزاء هذه المشاقَّة المتضمِّنة للشرك والناشئة عنه، ببيان فظاعة الشرك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، ومشيئتُه سبحانه إنما تجري بحسب سنَّته وحكمته، وقد جرت سنَّته بأن يغفر للمؤمن من الصغائر واللَّمَم بما يفعله من حسنات، كما جاء في الأثر[١]: إنَّ الصلاة تمحو ما بينها وبين سابقتها مما يصدر عن المصلِّي من لمم وهفوات، وكذلك الحج والصيام. أما ما فوق ذلك، فقد جرت سنَّته تعالىٰ بألَّا يغفر الذنوب إذا لم يَمْحُها صاحبها بالتوبة[٢] المتبوعة بالحسنات

(١) روىٰ مسلم (٢٣٣) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الصلاة الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة، كفارة لما بينهنَّ، ما لم تُغْش الكبائر».

(٢) هذا مَيْلٌ من المؤلف رحمه الله إلىٰ مذهب المعتزلة في هذه المسألة، وفيه عدولٌ عن ظاهر لفظ الآية، فقد وعد الله تعالىٰ بغفران الصغائر، فنقول به. أما الكبائر فقد توعَّد عليها بالعقاب من جهة، فصار هذا العقاب مُستَحَقاً لصاحبها ما لم يتب، لكنه داخل في عموم آيات الرحمة والمغفرة فيُرجىٰ له ذلك، وعليه فيكون صاحب الكبيرة تحت المشيئة، وهو ظاهر لفظ الآية.

والأعمال الصالحات، التي تُزيل آثارها من نفسه. وعلىٰ هذا الأصل بُنِيَ عدمُ غفران الشرك؛ لأنه يفسد النفوس منتهىٰ الفساد، ويُضِلُّ العقول غايةَ الضلال ويجعل الرُّوحَ قَتاماً سَخاماً، سفيلة شقيَّة، لذلك علَّل سبحانه عدم غفران الشرك بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾، وأيُّ ضلال أبعد من ضلال مَنْ يشـرك بالله الخالق البارئ سبحانه مَنْ لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤]! وجاء عنه ﷺ أنه قال: «أتاني آتٍ من ربي، فأخبرني أن من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة». قال: فقلت: وإن زنىٰ وإن سرق؟ قال: «وإن زنىٰ وإن سرق»(١). والمعنىٰ: أنه يدخل بعد أن يجازىٰ بأعماله السيئة، أما المشرك فقد حرَّم الله عليه الجنة، ومأواه النار، وإن عمل بعض أعمال إنسانية يخفَّف عنه العذاب.

ثم بيَّن تعالىٰ بعض أحوال المشركين بالله، تسخيفاً لهم وتنديداً بهم، فقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ قيل: المراد بالإناث هنا: الموتىٰ؛ تُطلق عليهمُ العربُ لفظَ الإناث لضعفهم وعجزهم، فقد كانوا يُعظِّمون الموتىٰ ويدعونها، كما يفعل كثير من أهل الكتاب ومُسلمي هذه العصور(٢).

وقيل: هي الأصنام كاللات والعُزَّىٰ ومناة. قال الحسن: لم يكن حيٌّ من أحياء

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٢٢٢)، ومسلم (٩٤)، عن أبي ذر.

(٢) قَرْنُ مسلمي هذه العصور بأهل الكتاب ومشركي العرب؛ مما لا يُوافَقُ عليه المؤلف رحمه الله، فما يصدر من المشركين من خطاب الأموات ودعائهم ناشئ عن اعتقاد أنهم يضرون وينفعون، أما ما يصدر من بعض المسلمين مما يشبه ذلك فغالبه من باب التوسل، وفيه خلافٌ مشهور، وألفاظُ بعض العوام في ذلك منشؤها الجهل، فالواجب تعليمهم وإرشادهم للصواب، علىٰ أن اعتقادهم سليم في الغالب، وهو أن النفع والضر بيد الله وحده.

العرب إلا ولهم صنمٌ يعبدونه ويسمُّونه: أنثىٰ بني فلان. وقيل: كانوا يُخَلِّعون عليها من الحلي ما يخلعونه علىٰ نسائهم وبناتهم.

وعلىٰ كلّ، ففي هذه اللفظة زيادةٌ في التَّسخيف والتَّشنيع. وقُرئ: (إلا أوثاناً)[١].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾؛ إذ هو الذي سَوَّل لهم عبادتها. كما حكىٰ تعالىٰ عنه بقوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾.

قال الأستاذ الإمام: هو ما للشيطان في نفس كلِّ أحد من الاستعداد للشرّ الذي هو أحد النَّجْدَين. فهذا هو عَوْنُ الشيطان علىٰ الإنسان.

قال صاحب «المنار» ما مُلَخَّصه: وهذا القول وأمثاله في القرآن المجيد، في مخاطَبة إبليس مع الباري عزَّ وجل، إنما هو من الأقوال التكوينيَّة التي يعبَّر بها عن تكوين العوالم والمخلوقات وما خلقها الله عليه[٢]، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصِّلت: ١١]. والمعنىٰ: أن الشيطان خُلِقَ هكذا مُغْوياً للبشر مضلاً لهم[٣]. فأكثر الناس بمعاشرتهم للمفسدين منهم، يبدِّلون طبيعتهم الصحيحة التي طبعهم الله عليها وهداهم بها كما هدىٰ سائر المخلوقات، يبدلونها بمصاحبتهم للأشرار منهم إلىٰ طبيعة قبيحة، مخالفة لشريعتهم الغرَّاء وطبيعتهم الصحيحة المهدية بهداية الله.

ثم تابع الحكاية عنه في بعض أنواع الغَواية بقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن الحق،

---

(١) «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» لابن جني (١: ١٩٩).

(٢) تقدم التعليق علىٰ هذا التفسير في قصة آدم في سورة البقرة ص٦٧، وبيَّنتُ هناك أن الصواب إجراء هذه الأقوال علىٰ المحاورة الواقعية، أما القول بأنها تمثيلٌ أو أقوال تكوينية فلا دليل عليه، بل فيه العدول عن الظاهر من غير مقتضٍ.

(٣) تفسير «المنار» (٥: ٣٤٨).

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ بالأماني الباطلة، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وهو ما كانوا يفعلونه بالأنعام من وَسْمها لأصنامهم وخرافاتهم، وذلك بشقٍّ مخصوص في الأذن، أو قطع مخصوص لبعضها، كالبحائر التي كانوا يقطعون أو يشقون آذانها شقاً واسعاً، ويتركون الحَمْل عليها، وكان هذا من أسخف أعمالهم الوثنية وسَفَه عقولهم، ولهذا خصَّهم بالذكر وإن كان داخلاً فيما قبله، وكذلك قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾(١).

وقد ذهب الأستاذ الإمام إلىٰ أنَّ المراد تغيير الفطرة الإنسانية بتحويل النفس عمَّا فُطرت عليه من الاعتدال وصحَّة الأعمال، إلىٰ الانحراف وعمل الرذائل والمنكرات،

---

(١) أي: الفطرة الإنسانية، فقد خلق الله سبحانه الإنسان في أحسن تقويم، وطبعه لتوجيه ذلك التقويم إلىٰ ما أراد الله به سبحانه من السير نحو الكمال وأحسن الأحوال، وأرسل له الأنبياء بالشرائع والتعاليم الملائمة له والمساندة لطبيعته. فإذا تمسَّك بها وعمل بمقتضاها حافظ علىٰ طبيعته ونمَّاها وسار بجودة فطرته وحُسْن تقويمه نحو الهدف الذي خُلق له وهو الكمال، وأحسن الأحوال. وإذا أخرجه الشيطان بوساوسه عن تلك التعاليم، فلم يقبلها وخالفها أو قبلها وأهملها، غيَّر طبيعته عمَّا خلقها الله عليه وحَادَ بها عمَّا خُلقت له وسار معها نحو الانحطاط والتَّسفُّل، فـرُدَّت إلىٰ أسفل سافلين، وانحَطَّت بذلك المسخ والتحطيم إلىٰ ما يشبه أخسّ طبائع الحيوانات وأرذلها، في التَّصرُّف المشين. وقد أشبعتُ الكلام عن هذا الأمر في سورة «والتين» (٨: ٢٨٧-٢٨٨). فارجع إليه.

والحاصل: أن قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عبارة عن الشرك وملابساته، وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ يريد به الخروج عما فطروا عليه من الاستعداد للإيمان، إلىٰ ما انحرفوا إليه من الشرك، كما جاء في الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء، وإنهم أتتهم الشياطين فاجْتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي... ». (المؤلف).

والحديث رواه مسلم (٢٨٦٥)، عن عياض المجاشعي.

فإنَّ الله سبحانه قد أحسَنَ كلَّ شيء خلقه، وهؤلاء يفسدون أنفسهم بتحريف الفطرة(١).

وذهب أكثر المفسِّرين إلىٰ أنَّ المراد به التغيير الحسِّي، كحَلْق الوجه، وأمثاله.

ثم ختم الآية بما فيه تنديد وتهديد، فقال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فينحدر مع غوايته ويترك هداية الله، ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ في مَعَاشه ومعاده.

ثم حرَّر غَواية الشيطان لهم، فقال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ في التَّقرُّب إلىٰ الله بواسطة مَنْ يزعُمون أنهم يُقَرِّبونهم إلىٰ الله زُلْفىٰ، ويحملهم أن يعتقدوا في بعض المخلوقين أنهم في شؤون الله يَتَدخَّلون، ينفعون في الأمور أو يضرُّون، كما يحملهم أن يعتقدوا النفعَ من المضارِّ كالربح من الربا والقمار، والضرر من المنافع كالخسارة من الصدقة والإنفاق في الخير، إلىٰ أمثال ذلك، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾، أي: أباطيل يَفْتريها فيغترُّون بها. والغرور: إظهار النفع بما فيه الضرر، فوساوسه أباطيل وسرابٌ بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماء حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئاً.

ثم سجَّل علىٰ أولئك المغرورين مصيرهم، فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ أي: مَهْرباً ونجاة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٥٩).

ثم أردف مصيرَهُم بمصير المؤمنين، كما هو نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي تُصْلح نفوسهم، وَفْقَ ما جاء عن الله سبحانه وتعالىٰ، ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾، أما أولئك المغرورون المُعْرِضُون عن شريعة الله، فقد اغترُّوا بخداع الشيطان ووقعوا في أحبولته.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا الوعد الكريم إنما يكون بالاستحقاق لا بالأمانيّ، فقال: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ إذ كانوا يرون أنهم شعب الله الخاص، لن تمسَّهم النار إلا أياماً معدودة.

ثم قرَّر الحق في ذلك بصورة قاعدة عامة، فقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، لأنَّ الجزاء حسب سنَّة الله تعالىٰ أثر طبيعي للعمل، فإن كان سيئاً يصيبُ روح صاحبه ويُكيِّفها بكيفيَّة سيئة تنال بها العقاب، فيعود عليه بالوبال والنَّكال، من أيِّ ملة وعنصر كان، ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ فلا يُجْديهم نفعاً أولئك الأنبياء الذين ينتسبون إليهم ويستشفعون بهم، ولا يعملون بتعاليمهم الصحيحة. وقد جاء في الحديث: «الكيِّس مَنْ دان نفسه وعمل لِـمَا بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسَه هواها وتمنَّىٰ علىٰ الله الأماني»[(١)].

وبعد أن بيَّن النظام العام في عمل السُّوء وجزائه، بيَّن النظام العام في عمل الصالحات وجزائها، فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ وهي الأعمال التي تصلح بها النفوس مما جاء عن الله سبحانه وتعالىٰ في الأوامر والنواهي، من أيِّ شعب كان ذلك العامل، ومن أيِّ صنف كان، ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وبما جاء عن الله

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) وقال: حديث حسن، وأحمد (١٧١٢٣)، عن شداد بن أوس.

علىٰ الوجه الصحيح، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بزكاة أنفسهم وطهارة أرواحهم، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ أي: ولا يُنقَصون شيئاً وإن قلّ من أعمالهم الصالحة، فلا يُهمَلُ شيءٌ منها، وإن كان في القلّة مِثلَ نقير النواة.

وفي هذه الآية وما قبلها من الموعظة ما يهدم صروح الأمانيِّ من جهلاء المسلمين الذي يعتمدون علىٰ الشفاعة والقرابين، والذين يظنون أنَّ مجرَّد الانتماء إلىٰ الإسلام أو الصُّلحاء كفيلٌ بالنجاة، وقد جاء عن ﷺ: «ليس الإيمان بالتَّمنِّي، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل»(١).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

قال في «المنار»: ولما بيَّن تعالىٰ أن أمر النجاة، بل السعادة، منوطٌ بالعمل الصالح والإيمان معاً، أتبعه ببيان درجة الكمال في ذلك، وهو الدين القيِّم، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في ذلك(٢)، إذ يخلص له التَّوجُّه، ولم يَتوجَّه معه ولو ببعض التوجُّه لغيره، ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن الوثنيَّة التي عمَّت الأرض كلَّ الميل، متمسِّكاً بالتوحيد والتنزيه.

وقد نوَّه سبحانه بشأنه، فقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ أي: اصْطَفاه لتوحيده وإقامة دينه، وكان كاملَ الحب لله، وقد تخلَّل ذلك الحبّ روحه، ولذلك عادىٰ أباه وقومه في حبِّه تعالىٰ والإخلاص له.

---

(١) رواه السُّلَمي في «الأربعين الصوفية» ص٦، عن أنس بن مالك.

(٢) تفسير «المنار» (٥: ٣٥٧).

وقيل: بل المعنىٰ: خصَّه بكرامات تُشبه كرامات الخليل عند خليله، حيث حَبَاه بأقصىٰ سلامة الفطرة، وقوة العقل، وصفاء الروح، وكمال المعرفة، وفنائه في التوحيد، وثباته في ذلك. فهو علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ لـموسىٰ عليه السلام: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١].

وقال الأستاذ الإمام: ثم ختم السياق بالآية الآتية: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ للتذكير بقدرته علىٰ إنجاز وعده ووعيده في الآيات التي قبلها، وللتدليل علىٰ أنه الـمُسْتحقُّ وحده لإسلام الوجه له والتوجُّه إليه في كلِّ حال، ولنفي ما ربما يسبق إلىٰ الأذهان من اللوازم العادية في اتِّخاذ الله إبراهيم خليلاً، كأنْ يتوهَّم أحد أنَّ هنالك شيئاً من المناسبة أو المقاربة، فبيَّن تعالىٰ أنَّ كلَّ ما في السماوات والأرض ملكٌ له ومن خِلْقتِه[1] مهما اختلفت صفات المخلوقات ومراتبها في أنفسها والمميزات، فهو يُحيط بها إحاطةَ قَهْر وتَصَرُّف وتسخير، وإحاطةَ علم وتدبير، ونسبتها إليه نسبة الخالق إلىٰ المخلوق لا غير.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ

---

(١) في تفسير «المنار» (٥: ٣٥٩): خلقه.

حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

ولما كان من أساليب القرآن الكريم أن يذكر شيئاً من الأحكام، ثم يذكر عقيبه آيات كثيرة في الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويخلط بها آياتٍ دالةً علىٰ كبرياء الله وجلال قدرته وعظمة إلهيته، ثم يعود مرةً أخرىٰ إلىٰ بيان الأحكام، (كما جاء في المادة الثالثة والخامسة من المقدمة الثانية، وفي الفقرة (و) من المادة الأولىٰ منها)؛ عاد بعدما تقدَّم من الآيات إلىٰ أحكام النساء واليتامىٰ، وقرَّر ما سبق منها، فقال: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ﴾، وهذا من أساليب القرآن أيضاً، يضع الأحكام في صورة السؤال والجواب والاستفتاء والفتيا، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية).

ويجوز أن يكون قد وقع الاستفتاء فعلاً[1]، والمعنىٰ: يطلبون منك ـ أيها الرسول ـ الفتيا في المُشْكل والغامض من أحكام النساء في الحقوق الماليَّة والزواج والخصام والصُّلح والفراق والعشرة إلىٰ أمثال ذلك، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾، والمراد بالذي يُتلىٰ عليكم: ما تقدَّم من الآيات في أوَّل السورة في شأن هذه الأحكام، وفيما بعد آيات الفرائض، أي: إنَّ الله يفتيكم بما سيُبيِّنه هنا، وكذلك يفتيكم به ما تقدَّم من الآيات. فلفظ (ما) معطوف علىٰ لفظ الجلالة أو ضميره المستكن، والكلام علىٰ حدِّ قولهم: أغناني الأمير وإعطاؤه.

---

(١) وهو الحق الذي لا محيد عنه، فهو الذي يفهمه السامع من سماع الآية، وإيراده بصيغة سؤال وجواب دون وجودهما في الواقع مما يُنزَّه عنه القرآنُ الكريم.

والمعنىٰ: أفتيتكم قبلُ فعودوا إليه. والمراد ما تقدَّم في السورة من الآيات في هذه المواضيع، يُذكِّرهم سبحانه أن يَتَدبَّروها ويتأمَّلوا معانِيَها ويعملوا بها، لأنَّ الإفتاء هو بيان ما يدقُّ ويخفىٰ. وإيثارُ صيغة المضارع في ﴿يُتْلَىٰ﴾ للإيذان باستمرار التلاوة.

والآية تتضمَّن قَطْعَ أملهم من الترخيص في بعض ما ذكر سابقاً من الأحكام، إذ من المتوقَّع بعد أن منعتهم الآيات السابقة في أول السورة من العبث بحقوق النساء واليتامىٰ، فعرفوا شدَّة التَّبِعَـة في ذلك، أن يقع لهم اشتباه في بعض الوقائع المتعلقة بذلك، كأن تُحدِّث بعضَهم نفسُه: هل يحلُّ له أن يمنع اليتيمة ما كَتَبَ الله لها ما دام يرغب أن يَنكحها، ويشتبه بعضهم: هل يدخل الحب في العدل بين النساء، إلىٰ أمثال تلك الاشتباهات. فكانت هذه الآية قاطعةً لهذا الأمل، ماحيةً لهذه الشبه، مُحتِّمةً أن يتَّبعوا نصَّ ما تقدَّم من الآيات في ذلك، وما جاء هنا في تكميلها، وبيان ما لم يُبيَّن سابقاً من الأحكام المتعلقة بالنساء.

أي: لا يفتيكم إلا بما تُلي عليكم سابقاً من الأحكام في شأن يتامىٰ النساء اللاتي كنتم لا تُعطونهنَّ ما لهُنَّ من الإرث، و[ترغبون أن] تنكحوهنَّ للتمتُّع بأموالهنَّ، فلا تَنكحونهنَّ ولا تُنكحونهنَّ غيرَكم ليبقىٰ مالهُنَّ في أيديكم. وكذلك لا يفتيكم إلا بما تُلِيَ عليكم سابقاً من الأحكام في شأن المستضعفين من الولدان الذين كنتم لا تعطونهم حقوقهم من الميراث لصغرهم. فلا تَـتَوهَّموا أنكم باستفتائكم هذا يفتيكم بغير ما تقدَّم، نزولاً عند رغباتكم، بل يفتيكم بنفس ما تقدَّم، ويُذكِّركم بما سبق من الآيات في حقِّ المرأة واليتيم، أن تتدبَّروها وتفهموا ما احتوت عليه وتعملوا بها، فلا حكم فيهما سوىٰ تلك الأحكام السابقة، وعليكم أن تُعْنَوْا عناية خاصة بتحرِّي العدل في معاملة اليتامىٰ والإقساط إليهم علىٰ أتمِّ الوجوه وأكملها، ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ فيُجازيكم عليه الجزاء الأوفىٰ، ويتفضَّل عليكم بالفضل الأسمىٰ.

وقد ورد في نزول الآية: أنَّ حِصْنَ بن عُيينة قال للنبي ﷺ: بلغَنا أنك تُعطي البنت والأخت النصف، وإنما كنا نُورِّثُ مَنْ يشهد القتال ويحوز الغنيمة، فقال ﷺ: «بذلك أُمرت»(١).

ثم ذكر ما وعد ببيانه والإفتاء به هنا من تتمة أحكام النساء، فقال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ أي: تجافياً ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة.

رُوي عن بعض مفسِّري السلف: أن هذه الآية نزلت في الرجل تكون عنده المرأة يكرهها لِكِبَر سنِّها أو دمامتها، ويريد التَّزوُّج بخير منها، ويخاف أن لا يعدل بينها وبين الجديدة، فيكاشفها بذلك، ويُخيِّرها بين الطلاق وبين البقاء عنده بشرط أن تُسقط عنه حقها في القَسْم، أي: حصَّتها من المبيت عندها. ومثله الرجل الذي عنده امرأتان يكره إحداهما ويريد فراقها إلا أن تُصالحه علىٰ إسقاط حقِّها في المبيت، أو يعجز عن النفقة عليهما، فيريد أن يطلِّق إحداهما إلا أن تُصالحه علىٰ إسقاط حقِّها من النفقة، إلىٰ غير هذه الصور من صُور الصلح المبنيِّ علىٰ التَّراضي والمعاشرة بالمعروف.

ثم بيَّن تعالىٰ السبب الذي يحُولُ بين الزوجين وبين الصُّلح الذي فيه الخير لأجل أن نتقيه، فقال: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ يقال: أحضره الشيء؛ أي: أتاه به، وأُحضر الشيء؛ أُتي به إليه. والمراد: بيان انطباع النفوس عليه، أي: إنها عُرْضَةٌ له، وحاضرٌ عندها. فعلىٰ كلٍّ من المتصالحين أن يغلب علىٰ ما جُبلت عليه الأنفس من الشحِّ ولا يبخل بما ينبغي بَذْلُه والتسامحُ فيه من مال أو حقوق زوجية، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟

(١) لم أقف عليه.

﴿وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٢٨﴾، فقد حثَّ علىٰ إحسان العشرة والتوقِّي من الإعراض والنشوز.

ثم بيَّن حكماً آخر في هذه القضية، صدَّره بما هو كالتعليل لما قبله والتمهيد لما بعده، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[١]، أي: في الوجدان النفسيِّ والميل القلبي، مما لا يملكه الإنسان باختياره. وقد جاء عنه ﷺ في ذلك قوله: «اللهمَّ إن هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك»[٢]، فالعدل هنا غير العدل في أول السورة؛ لأن تلك في العدل بالحقوق، وهذه في العدل بالقلوب. لذلك أمر سبحانه بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ بأن تجمعوا إلىٰ مَيْل القلب عنها مَيْل المعاملة أيضاً ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ كأنها لا مُزوَّجة ولا مُطلَّقة، فإنَّ الذي يُغفَر لكم من الميل وما يترتَّب عليه هو ما لا يدخل في

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ إذا قيل: آية تعدد الزوجات مشروطة بالعدل، وهذه الآية تدل علىٰ نفي الاستطاعة علىٰ العدل، نقول: العَدْلان مختلفان في المعنىٰ، فالعدل المشروط إنما هو العدل المادي، أي: في المبيت والطعام والكسوة والسكن وحُسْن العشرة، وهو من المستطاع الميسور. والعدل هنا إنما هو العدل الروحي في مَيْل القلب ودرجة الحب، وهو أمر وجدانيّ ليس بيد الإنسان، ولا مطلوب ومشروط في تعدُّد الزوجات، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول بعد أن يعدل بين زوجاته في العدل المادي: «اللهم هذا قسْمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»، يعني: درجة الحب والقلب والميل. وقد أتىٰ الإصلاح بمعنىٰ ترك المخاصمة. يقال: أصلح القوم، أي: تركوا النزاع. ويكون المعنىٰ: وإن تتركوا المخاصمة بينكم ويغفر كلٌّ منكم للآخر تتبعون بذلك شأن الله؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. (المؤلف).

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠) عن عائشة. وقال الترمذي: رُوي مرسلاً وهو أصح. وصحَّحه ابنُ الملقِّن في «البدر المنير» (٧: ٤٨١).

الاختيار، ولا يكون من تعمُّد التقصير والإهمال، ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ في معاملة النساء، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ظلمهنَّ يغفر لكم ما دون ذلك ممّا لا تملكون، من مَيْل القلب عنهنّ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾.

ثم ذكر لحلّ المسألة وَجْهاً آخر، فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ خَشْيَةَ أن لا يقيما حدودَ الله ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾، وربما يُهيّئ لكلّ منهما زوجاً صالحاً، أو عيشاً مريحاً، ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ في فضله، ﴿حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ في أحكامه.

فالآية تُشجِّع علىٰ هذا الفراق الواقع بعد استحالة الوفاق؛ لأنَّ مضرَّته ـ وإن عَظُمَت ـ تكون دون مَضرَّة الحياة القائمة علىٰ الكُرْه والشِّقاق، لأنّها جحيمٌ لا يُطاق.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

ثم أردف بيان هذه الأحكام ببيان عظمته وسلطانه، والوصيَّة بتقواه، حملاً علىٰ التمسُّك بتلك الأحكام، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة الخامسة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً ومُلكاً وتدبيراً.

ثم ذكر ما أوصىٰ به الناس أجمعين، مما يترتَّب علىٰ ذلك السلطان فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في إقامة سُنَنه وشريعته لتعلُوَ معارفُكم، وتَصْطلحَ شؤونُكم، وتزكُو نفوسُكم، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يُنْقِصُ كفرُكم من ملكه شيئاً، ولا يختل به، وإنما ضررُه عليكم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ فلا يحتاج إلىٰ شكركم، وكلُّ أوامره خيرٌ لكم.

ثم أعاد تذكيرهم بذلك السلطان، تمهيداً لِتَوعُّدهم علىٰ الكفر، وبياناً لقُدرته علىٰ إنجازه ومراقبته لخلقه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ أي: مُهَيمناً ورقيباً فاحذروه، فهو ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بعذاب يُنزله بكم، ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ يحلُّون محلَّكم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ إذ بيده ملكوتُ كل شيء.

قال في «المنار»: وفي الآية تنبيهٌ للناس وتوجيهٌ لأفكارهم إلىٰ التأمُّل في سُنَنه تعالىٰ في حياة الأمم وموتها، وكَوْن هذه السُّنن قد تعلَّقت بها المشيئة فلا مردَّ لها[١].

ثم أشار إلىٰ أنَّ الإسلام بتعاليمه يهدي أهله إلىٰ سعادة الدارين، وأن ذلك إنما يكون بامتثال أحكامه، فقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[٢]، فلا تكتفوا بطلب الأدنىٰ الفاني، وتتركوا الأعلىٰ الباقي، والجمع بينهما

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٣٦٩).

(٢) أي: من كان يريد ثواب الدنيا وحدَها فهو خاسر، إذ عند الله ثوابُ الدنيا والآخرة، ومن تعاطىٰ أسباب كلٍّ منهما نالهما. والعملُ للآخرة لا يتنافىٰ مع العمل للدنيا، بل العمل الدنيوي لو قَصَدَ به تأدية الواجب يُؤْجَر صاحبُه عليه ويكون من عمل الآخرة، كالتجارة والزراعة يُقصَدُ بها نفعُ الناس وخدمتهم، أو تحصيل الرزق الحلال. حتىٰ النكاح إن قَصَدَ به التعفّف والنسل فإنه يُؤْجر عليه. وهكذا سائر الأعمال مع صحة القصد وإخلاص النية.
قال ﷺ: «من كانت الآخرةُ همَّه جعَلَ الله غِنَاهُ في قلبه، وجَمَع له شَمْلَه، وأتَتْه الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همَّه، جعَلَ الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له». (المؤلف).
والحديث رواه الترمذي (٢٤٦٥)، عن أنس بن مالك.

ميسورٌ لكم باتِّباع هذا الدين وتعاليمه المؤدِّيةِ إلىٰ سعادة الدارين، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ بما يتعاطىٰ الإنسان من قول أو فعل، ولذلك لا يأمركم إلا بما فيه خيركم، فراقبوه وامتثلوا أمره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

وبعد أن نهاهم فيما سبق عن المُحاباة في الحكم في قوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ الآيات [النساء: ١٠٥]، عادَ ونهاهم في الآية الآتية عن المُحاباة في الشهادة متمِّماً ومؤكِّداً لما سبق، ومُعرِّضاً بمن اندفع إلىٰ المحاباة في قضية اليهودي السابقة من ضعفاء الإيمان، وذكر ذلك ضمن حكم عامٍّ مستقلٍّ جديد، تهيأ له السياق، علىٰ نهج القرآن في مثل هذه البلاغة العالية، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: العدل، ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ بأن تتحرَّوا في الشهادة الحق الذي يَرضاه، ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ بالإقرار بالحق، ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ولا تدفعكم الشفقة علىٰ المحَاباة، ﴿إِن يَكُنْ﴾ المدَّعي أو المدَّعىٰ عليه ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ فلا تعاونوا الفقير علىٰ الغني خلاف الحق، إذ الحق أحقُّ أن يُتَّبع، ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ وتُؤثروه علىٰ ﴿أَن تَعْدِلُواْ﴾، بل آثروا العدل علىٰ الهوىٰ، ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾ الشهادةَ أو الحكمَ عن الحق وتُلبسوا فيهما، ﴿أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ عنهما فتكتموا الشهادة أو تَجُوروا في الحكم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ فلا يُهمل لكم ذلك، بل يحاسبكم عليه حساباً شديداً، ولا تخفىٰ عليه نياتكم.

ثم أردف السياق بما يحمل علىٰ التَّمسُّك بما جاء فيه علىٰ الوجه الذي سبق بيانُه، فأمر المؤمنين أن يُخْلصوا الإيمان بالله ورسوله وبهذا الكتاب الذي يأمرهم بهذا الهدىٰ، حتىٰ يقيموا كلَّ ما يأمرهم به الله علىٰ لسان رسوله في هذا الكتاب، ويأتوا به علىٰ الوجه الأكمل، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، ثم أمر المؤمنين أن يؤمنوا بسائر الكتب المنزلة؛ لأنها من جنس هذا الكتاب، وعبَّر عنها بلفظ الجنس، فقال: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾ ليعلموا أنَّ الله تعالىٰ لم يترك عباده في الزمن الماضي سُدىٰ محرومين من البيِّنات والهدىٰ. ولا يقتضي ذلك أن يعرفوا أعيان تلك الكتب، ولا أن تكون موجودة، ولا أن يكون الموجود منها صحيحاً غير محرّف، لأنّ المراد الإيمانُ بمُجْمَل ذَواتها الأولىٰ المنزلة من الله تعالىٰ، والمنسوخ سابقها بلاحقها. فالآية تأمر المؤمنين أن يؤمنوا بسائر الكتب المنزلة، كما هم مأمورون بالإيمان بهذا القرآن.

ثم قرَّر الأمرَ ببيان مصير مَنْ لا يؤمن بسائر الكتب المنزلة والملائكة والرسول واليوم الآخر، علىٰ نهج القرآن في تقرير الشيء بسلب ضدِّه، فقال: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ
لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ
أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ
فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ
فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠
ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ

نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾.

ثم ذكر حالَ أناس من أصحاب هذا الضلال البعيد ومصيرَهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾، إذ بذبذبتهم بين الإيمان غيرِ المرتكز والكفر، قد طُبع علىٰ قلوبهم، حسب سنَّة الله في طبيعة البشر وفطرتهم، فلا يُرْجَىٰ لهم أن يهتدوا إلىٰ سبيل من سُبُله، ولا يغفر لهم ما دنَّسَ أرواحَهم من ذنوبهم، وكان شوطهم الأخير التركُّز في الكفر والموت عليه.

وقد قيل في هؤلاء قولان:

الأول: أنهم اليهود، آمنوا بموسىٰ ثم كفروا بعبادتهم العِجْلَ، ثم آمنوا عند عَوْدة موسىٰ إليهم، ثم كفروا بعيسىٰ، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ.

والثاني: أنهم قوم من المنافقين تكرَّر منهم الارتداد وأصرُّوا علىٰ الكفر، وازدادوا تمادياً في الغيِّ. وهذا هو الأنسب بقوله: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾.

ثم ذكر لهم صفةً من صفات نفاقهم التي يتخلَّلون فيها ويستُرونها، ففضحهم بها، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لاعتقادهم أنَّ الدولة قد تكون لهم، فيجعلون لهم يداً عندهم، أو لأنهم هم أرباب السيطرة والسلطان في الحاضر.

وقد أنَّبهم وجهَّلهم علىٰ ذلك فقال: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ أي: القوة والغَلَبة؟! خابوا وخسروا، من كان يبتغي العزَّة فليكن من حزب الله، ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

والغالب في البشارة أن تستعمل فيما يَسُرّ، فهي مأخوذة من انبساط بشْرة الوجه، كما أن السرور مأخوذ من انبساط أساريره. وعلىٰ هذا، يكون استعمالها فيما يسوءُ من باب التهكُّم. وقيل: إن البشارة تستعمل فيما يسوء وما يسرُّ استعمالاً حقيقياً، لأنها الإخبار بما يظهر أثره في بِشْرة الوجه من نتيجة أحد الأمرين.

ثم عقَّب الكلام بهذا الخطاب العام الذي يتوجَّه إلىٰ كل مَنْ يُظهِر الإيمان من صادق ومنافق، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر الخاص بأمر عام يشمله وغيرَه، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، والمراد به تنبيه المؤمنين، وتشديد علىٰ هؤلاء المنافقين، فقال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن الكريم ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، والـمراد من الذي نزل عليكم في الكتاب: هو قوله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]، والأنعام مكية، وهذه مدنية. نزلت الأولىٰ في مُشركي مكة، إذ كانوا يخوضون في الكفر وذمّ الإسلام والاستهزاء بالقرآن، وكان بعض المسلمين يجلسون معهم في هذه الحال، ولا يستطيعون الإنكار عليهم لضعفهم وقوة المشركين، فأُمروا بالإعراض عنهم، وعدم الجلوس إليهم في هذه الحال، وكان الأمر مُوجَّهاً إلىٰ المسلمين، ولكن في شخص النبيِّ ﷺ، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم إن يهود المدينة كانوا يفعلون فِعلَ مشركي مكة، وكان المنافقون يجلسون معهم ويستمعون لهم، فنهىٰ الله المؤمنين علىٰ الإطلاق عن ذلك، وجعل الآية تشديداً في توبيخ المنافقين، ورداً لتظاهرهم بالإيمان.

ولا يبعد أن يكون بعضُ ضعفاء المؤمنين كانوا يتردَّدون علىٰ مجالس الزعماء

المنافقين، ويغضُّون عمَّـا كان يدور في بعضها من كفر وهزءٍ بآيات الله وبنبيِّه، فشدَّد الإنكار عليهم.

ثم توعَّد الفريقين المستهزئين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾، فهذا وعيدٌ للفريقين المستهزئين من الكفار ومقرَّبيهم من المنافقين بأنهم سيجتمعون في العقاب كما اجتمعوا علىٰ الإثم. ويُؤْخذ من هذه الآية أنَّ السكوت عن المنكر منكر، يَحمِلُ فيه الساكتُ مثلَ إثمِ الفاعل، فلْيعتبر بهذه الآية أهلُ هذا الزمان.

ثم ذكر شناعة أخرىٰ لهؤلاء المنافقين الذين يتَّخذون الكافرين أولياء، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي: ينتظرون ما يحدثُ لكم، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يطلبون مشاركتكم في نعمتكم، ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ من الظفر، ﴿قَالُوٓاْ﴾ لهم ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ألم نتمكَّن منكم فأبقينا عليكم، ﴿وَ﴾ ألم ﴿نَمْنَعْكُم﴾ ونحفظكم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن ثبَّطناهم عنكم.

فتوعَّدهم سبحانه بقوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حكماً يليق بشأن كلٍّ منكم. ثم طمأن المؤمنين برعايته لهم وحفظهم منهم، فقال: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾، فقد ضَمِنَ سبحانه وتعالىٰ بوعده هذا النصرَ للمؤمنين الصَّادقي الإيمان، بالشروط التي طالما ذكرها القرآن؛ ومنها: الجهاد في سبيل الله احتساباً وامتثالاً لأمر الله، وإعلاءً لكلمته وابتغاءً لرضوانه. ومنها: الجَرْيُ علىٰ السنن الطبيعيَّة في الحروب وفنونها، بما في ذلك من عَدد وعُدد تماثل العدو، مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ومنها: الاتحاد والشجاعة والثبات والصبر علىٰ آلام الحرب وويلاتها ولأوائها وشدائدها، كما قال تعالىٰ للمؤمنين في أول النهضة الإسلامية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾.

ثم بيَّن تعالىٰ أن هؤلاء المنافقين لم تقتصر مُخَادعتهم عليكم، وإنما هم بنفاقهم يُخَادعون الله سبحانه وسيجازيهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ أي: يفعلون ما يفعل الـمُخَادِع من إظهار الإيمان وإبطال نقيضه، ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ لأنَّ عاقبتهم علىٰ خلاف ما يُحِبُّون، فعبَّر عن ذلك بالخداع. أو المراد المجازاة، وعبَّر عنها بالمخادعة ليتَشَاكل مع خداعهم. والمشاكلة من أنواع البديع.

ثم ذكر شيئاً من مخادعتهم بقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ أي: متثاقلين، كالـمُكْرَه علىٰ الفعل، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ ليحسبوهم مؤمنين، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ قيل: المراد: أنهم لا ينطقون إلا بالأذكار الجهريَّـة التي يسمعها الناس، كالتكبيرات مثلاً. وقيل: بل المعنىٰ: لا يُصَلُّون إلا قليلاً، وذلك إذا كانوا مع المؤمنين. ويجوز أن يُراد الأمران معاً.

ثم نصَّ علىٰ نفاقهم بصيغة الذم، فقال: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: مُضْطربين بين الإيمان والكفر، فهم ﴿ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي: لا يُخلصون في الانتساب إلىٰ واحد من الفريقين؛ لأنهم يطلبون المنفعة، ولا يدرون لمن تكون العاقبة. وهذا

الوصفُ يتناول المتردِّدين في الانقلابات الإصلاحيَّة الذين لا يجهرون بالجديد خشية أن ينخذل حزبُه، ولا بالقديم حذراً من أن يتقلَّص ظلُّه، فيكونون بين بين، ويُماشون الطرفين، حتىٰ يتبيَّن الفوز لأحد الفريقين، وهو نفاق وجبن مشين(١).

ثم بيَّن وَجْهَ ذلك فيهم ومصدرَه منهم، فقال: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾﴾ في هدايته. وفيه تيئيسٌ له ﷺ من إيمانهم. والمعنىٰ: إنَّ مَنْ تشبَّع بالضلال، حتىٰ أصبح له ديناً أو خُلقاً، لا يمكنه أن يرجع إلىٰ الحق والهدىٰ حسب سُنَّة الله في طبيعة البشر. وفي الكلام إسنادُ الفعل إلىٰ الله تعالىٰ، مع عدم بيان السبب، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية).

ثم نهىٰ المؤمنين ـ بما فيهم ضعفاؤهم ـ عن موالاة الكفار نهياً صريحاً مع زيادة في التحذير ـ وإن كان في بيان حال المنافقين مُزْدَجر عن ذلك ـ مبالغةً في الزَّجر والتحذير لضُعفاء الإيمان، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ ثم زاد في التحذير والردع بطريقة الإنكار، فقال: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ أي: حُجَّة بيِّنة علىٰ استحقاقكم العذابَ. وهذا أوقَعُ وأرهَبُ عبارة في التحذير. وأراد بالكافرين ما هو أعمُّ من المنافقين.

ثم ذكر جزاء هؤلاء المنافقين وسجَّل مصيرهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وهو الطبقة التي في قَعْر جهنم، فجزاؤهم أشدُّ من جزاء الكَفَرة الصُّرحاء. ودلَّ الكلام علىٰ أنَّ دار العذاب دَرَكاتٌ بعضُها أسفل من بعض، كما أنَّ

---

(١) لكن ينبغي أن يُلاحظ هنا أيضاً أن جماعةً من الـمُخلِصين الصادقين تردَّدوا في هذه الانقلابات الإصلاحية، لا جُبناً ونفاقاً، بل شكاً في كونها إصلاحيةً فعلاً، بل عاندها بعضُهم وعاداها لِـمَا كان يعلم من شأنها وحقيقتها، وتبين أن لذلك الشك ولهذا العلم ـ في أحيان كثيرة ـ نصيبٌ من الصحة كبير، ففرق بين الجبن والنفاق وبين التعقُّل والتأني.

دار النعيم درجات بعضها أعلىٰ من بعض. ثم زاد في تهديدهم، فقال: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ وهذه كناية عن استدامة عذابهم.

ثم استثنىٰ من هذا العموم مَنْ تاب من النفاق والكفر وأصلح العمل، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟﴾ أعمالهم لزوال نفاقهم ورسوخ إيمانهم، وبما صار للإيمان الراسخ من السلطان علىٰ نفوسهم والتصريف لإرادتهم. أو أنهم بعد رسوخ إيمانهم أصلحوا نفوسهم بالأعمال الصالحة التي تمدُّ الإيمان وتُغذِّيه، وأصبحوا ينصحون لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وذلك باتِّباع ما جاء عن الله مما يقي من عذابه، بحسب ما بيَّنه في هذا القرآن المجيد، ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾[1] عزَّ وجل، بأن يتَّقوه حقَّ تقواه، ويتوجَّهوا إليه وحده، فلا يدعوا من دونه أحداً، لا لكشف ضُرٍّ ولا لجَلْب نفع، ولا يُراؤون في عبادة الله، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ التائبون، الذين هم لتلك الأعمال عاملون، يكونون ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم أصبحوا منهم، ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم عقَّب استثناء التائبين بصيغة بديعة عليّة تدلُّ علىٰ الإنكار ونفي الفائدة من تعذيب المؤمنين بما فيهم التائبون، مبالغةً في تقرير الاستثناء من التعذيب، فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ أي: يثيب المحسنين أضعافاً مضاعفة. وهذا الاستفهام مُفيد للنفي علىٰ أبلغ الوجوه، وقد صاغ العبارة بصورة الإنكار ونفي الفائدة من تعذيب المؤمن العامل، مبالغةً في استحقاقه الإحسان وإغداق الخير والثواب عليه.

---

(١) الإخلاص هو: أن يأتي الإنسان بالأعمال نقية لا شرك فيها ولا رياء، وهو من الصفات الروحيَّة التي تسمُو بالمرء إلىٰ منزلةٍ رفيعة من الخلق الإنساني. (المؤلف).

ومؤدّىٰ الكلام: أن الله سبحانه قَضَتْ حكمتُه ومَضَتْ سُنَّته بأن يكون للإيمان الصحيح والأعمال الصالحة أثرٌ صالح في النفس، يُكيِّفها بكيفيَّة ويُشَخِّصها بشخصيَّة تُؤهِّلها للسعادة في دار الآخرة، حَسَب سُنن الله الكونية حسب التربية الصحيحة والدراسات العالية التي تجعل صاحبَها صالحاً للمراكز السامية، وأن يكون للأعمال السيئة أثرٌ في النفس يُكيِّفها بكيفيَّة تُؤهِّلها للشقاء في تلك الدار. وليس ذلك انتقاماً منه تعالىٰ للشرير، وإنما هو نتيجة طبيعية تكوينيَّة لأعمال الشرير نفسِه تعودُ عليه بالوبال، والله أعلم، وكان العقاب مرتباً علىٰ النفاق، فلمّا زال زال.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

ولما هتك سبحانه سَتْر المنافقين وفضحهم ألمع إلىٰ ما يجري مَجرىٰ العذر في ذلك ضمن قاعدة ثقافية عامة، أدَّب بها المؤمنين تأديباً عالياً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ لأنه مَجْلَبة للعداوة والبغضاء، ومُؤَثِّر في نفوس السامعين تأثيراً ضاراً، فإنَّ الناس يَقْتدي بعضُهم ببعض، ويَقْتفي بعضُهم أثر بعض في الخير والشر، ورُبَّ كلمة خبيثة تفتح لمن تَعْلق بنفسه باباً من الفساد. ولهذا نرىٰ علماء التربية يصُونون كتبهم من كلمة خبيثة أو مستهجنة، وكذلك القرآن. والله أعلم. و(السُّوء من القول): ما يسوء مَنْ يُقال فيه.

ثم استثنىٰ من ذلك العموم قولَه: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ فجَهر بالشكوىٰ مِن ظلمه شارحاً ظُلَامَتَه. ولا ظلم أفظع من الشرك، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقد ذيَّل الكلام بما يدلُّ علىٰ أنه تعالىٰ في عَوْن هذا المظلوم علىٰ الظالم، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾.

وحبُّ الله الشيء: رضاؤه به وإثابتُه عليه. واللهُ سبحانه لا يحبُّ السُّوء بالقول ولا بالفعل، لا بالجهر ولا بالإخفاء. وإنما خصَّ الجهر بالقول لمناسبة السياق الذي جاء به تأنيبُ المنافقين وتشهيرهم.

وهذه الآية مقرِّرةٌ لقاعدة أدبية عامة بحسب الصيغة، وجاريةٌ بحسب السياق مَجْرىٰ العذر عمّا سَبق من فضيحة أمر المنافقين الظالمين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. والله أعلم.

ثم أكمل البيان بذكر حُكم إبداء الخير وإخفائه، سواء كان قولاً أو عملاً، وحُكم العفو عن السُّوء وعدم مُؤاخَذَةِ فاعله به، فرغَّب المؤمنين بهذه الدرجة العالية من الفضائل، بعد أن رخَّص لهم بالجهر عن ظلم الظالمين، فقال: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾(١)، يعفو عن مقدرةٍ، فتخلَّقوا بأخلاقه، وهو أن يُقابِلَ العفو بمثله، ويُجْزل المثُوبة للمُبْدين والمُخْفين. وأورَدَ العفو مع المقْدرة وخصَّه بالذكر في معرض جواب الشرط، فجَعَل الجواب للعفو عن السوء، دون سواه، لأنه المقصود والمتناسب مع السياق، وللإيذان بأنه أهم الخصال الثلاث، بل هو العمدة في السياق، نظراً لحكم الجهر بالسُّوء فإنه يدور عليه. فالآية تُرغِّبُ بالعفو عنه بدلاً من الجهر به والتَّشهير، بعد أن رخَّص بذلك في الآية الأولىٰ. ومثل هذا في أساليب القرآن.

---

(١) إنَّ الدين الإسلامي يدورُ علىٰ دعامتين: صِدقٍ مع الحق، وخُلق مع الخلق. وهذا الخلق محصور في أمرين أيضاً: إيصال النفع إليهم، ودفع الضرر عنهم. وقد جمعت الآية ذلك، فإبداء الخير وإخفاؤه يتضمَّن إيصال النفع، والعفو عن السوء أعلىٰ أنواع دفع الضرر. ففي الآية ترغيب بأعمال الخير وبالأخلاق العالية، فاحرص علىٰ ما رغَّبك الله فيه، واعفُ عمَّن ظلمك، وصِلْ من قطعك، وأحسِنْ إلىٰ مَنْ أساء إليك، فذلك ما يرضي الله تعالىٰ. (المؤلف).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾﴾.

ثم ردَّ عليهم دَعْواهم الإيمان في مَعْرض بيان حقيقة الإيمان وملاكه، ومصير غير المؤمن إيماناً صحيحاً، والمؤمن إيماناً صحيحاً، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾(١)، وقد فسَّر نوعاً من التفريق بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾، فهذا عطف تفسير، وفيه التَّجـوُّز بالقول عن الفعل، وهو من خصائص اللغة وأساليب القرآن. أي: يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالرسل؛ لإنكارهم الوحيَ وزعمهم أنَّ مَنْ يدَّعي النبوَّةَ إنما يأتي بشيءٍ من عنده؛ ومن أرباب هذه العقيدة: البراهمةُ من الهنود، وأكثر الـمُلحِدين في العصر الحاضر من هذا الفريق. أو يؤمنون ببعض الأنبياء دون بعض، كاليهود والنصارىٰ، فالنصارىٰ لا يؤمنون بمحمد ﷺ، واليهود لا يؤمنون به ولا بعيسىٰ عليهما السلام.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ من عند أنفسهم. أي: عقيدةً يَبْتدعونها في أنفسهم، كالإيمان بالله دون الرسل، أو الإيمان ببعض الرسل دون بعض، فيقول اليهود: إن موسىٰ نبيٌّ بني إسرائيل، ويقول النصارىٰ: إنَّ محمداً نبي العرب.

---

(١) في هذه الآية عطف السبب علىٰ المسبَّب. والتفريق بين الله ورسله: الإيمان بالله والكفر برسله، ويتحقَّق ذلك بالكفر برسول واحد؛ لأن إنكار الشيء إنكار لما يُماثله. وإذا كان الإيمان مركباً من شطرين: إيمان بالله وإيمان بالرسل، فالكفر بأحدهما كفر بالمجموع، ولا وسط فيه؛ لأن المركَّب من أمرين ينعدم بانعدام أحدهما. ولذلك قال تعالىٰ: ﴿هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾، ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾، بمعنىٰ: أعددنا وهيَّأنا. والمراد بهم: هؤلاء الذين أنكروا رسالة محمد ﷺ. (المؤلف).

فسجَّل عليهم سبحانه وتوعَّدهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ أي: يَصحَبُه ذلٌّ وإهانة.

ثم ذكر المؤمنين حقاً، وبيَّن مصيرهم، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾، بل اعتقدوا برسالة جميعهم وعملوا بشريعة مَنْ كانوا في تاريخه ما لم تُنسَخ، إذ جميعهم مُرسَلٌ من الله علىٰ التتابع، بشرائعَ ثابتةِ الأصول مُتبدِّلةٍ في بعض الفروع بتَبدُّل الأزمان، وبرُقيِّ نوع الإنسان في المعرفة والثقافة والوجدان. وكلُّ شريعة تنسخ ما قبلها ويتحتَّم علىٰ مَنْ حَضَرها من الـمُرسَل إليهم أن يعملوا بها، ولا زال الأمر كذلك، حتىٰ بلغ النوعُ الإنساني أوَّلَ كماله، فأرسل إليه شريعة القرآن، وجعلها ديناً عالمياً ناسخاً لجميع الأديان. فالعاملون بها هم المؤمنون حقاً، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ يغفر هفوات مَنْ صحَّ إيمانه علىٰ الوجه المذكور، ويرحمه بكرمه وإحسانِه وعظيمِ إفضاله.

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ١٥٣ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾.

وبعد أن بيَّن حال الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض من أهل الكتاب، عناداً وضلالاً، عقَّب ببيان آخر عن تعنُّتاتهم ومخالفاتهم الشنيعة، ومثَّل به للتفريق وعدم الإيمان ببعض الرسل، فقال: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ حيث قالوا: إنَّ موسىٰ قد جاء بألواح من عند الله، فائتِنا بلوح محرَّر بخط سماوي أنك

رسول الله. فلا تَعجَبْ منهم، فهذا شأنهم في التعنُّت والانحراف عن الحق، ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، والخَلَفُ والسَّلَفُ في الأخلاق والسلوك سواء، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ علىٰ يد موسىٰ عليه السلام، ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ أي: ولم نستأصلهم بالعذاب مع كونهم مستحقِّين للاستئصال، ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ أي: حُجَّةً ظاهرةً، وهي التوراة. أو المراد: أننا سلَّطناه عليهم، فأخْضَعناهم علىٰ تمرُّدهم وعصيانهم.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ أي: أجْرَينا لهم هذه المعجزة، بسبب ميثاقهم؛ ليخافوا ولا ينقضوه. وكان من هذا الميثاق: أن يأخذوا ما أُنزل إليهم بقوة ويعملوا به مُخْلصين. والظاهر أنَّ رفع الطور كان آية من الآيات الكونية، وقد سبق بيانه في سورة البقرة(١).

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوا باب القرية التي ستغلبون أهلها، خاضعين لله مائلي الرؤوس خاشعين لله شاكرين، ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾(٢) أي: لا تتجاوزوا حدودَ الله فيه بالعمل الدنيوي، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ علىٰ ذلك ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾، فنقضوه وخالفوا جميع ما أمرناهم به وانحرفوا عنه عناداً وصَلَفاً(٣).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ

---

(١) وتقدَّم التعليق علىٰ رأي المؤلف فيه هناك (٢: ١١٠).

(٢) حرَّم الله عليهم الشغل يوم السبت، وجعله خاصاً للعبادة، فاحتالوا لحبس الأسماك فيه وصيدها يوم الأحد. (المؤلف).

(٣) الصَّلَف: هو الغلوُّ في الظَّرْف والزيادة علىٰ المقدار مع تكبُّر. «لسان العرب» (صلف).

بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ﴾ فعلنا بهم ما فعلنا من اللعن والغضب، وضَرْب الذلة والمسكنة، وتمزيق وحدتهم، وإزالة ملكهم، والتسليط عليهم. تلك الأمور التي دلَّت عليها قَصَصُهم في القرآن، فقد طوىٰ ذكر ذلك اكتفاءً بما هو معلوم في غير هذا الموضع من القرآن، وذكر السبب، فقال: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ وهذا القيدُ للزيادة في التشنيع عليهم، ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفٞۚ﴾ جمع أَغْلَف، وهو الذي عليه غلاف يمنع نفوذ الشيء إليه. أي: إنَّ قلوبنا لا يَنفَذُ إليها شيءٌ مما جاء به الرسول، فلا تُدركه ولا يؤثِّر فيها، كما حكىٰ الله عن المشركين بقوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ...﴾ [فصِّلت: ٥].

وقد ردَّ الله عليهم هذا الزعم ببيان الحقيقة في أمرهم، فقال: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥٥﴾﴾ أي: أبعدهم الله عن الصواب بسبب كفرهم وانغماسهم في الضلال، ولم تكن قلوبهم غُلْفاً بالطبع والخِلْقة، ولكن مَضَت سُنَّته تعالىٰ في طباع البشر وأخلاقهم أن يمنعَ الكفرُ صاحبَه من الرويَّة والنظر في الحق، فلا يؤمن إلا إيمـاناً قليلاً ضئيلاً لا يعتدُّ به؛ لأنه لا يُصلِحُ عملَ صاحبه، إذ القلّة لا يكون لها سلطان علىٰ القلوب. أو المعنىٰ: فلا يؤمن منهم إلا قليل، كعبد الله بن سلام وأصحابه، فإنَّ الأمة مهمـا فسدت يبقىٰ منها بعض أفراد قلائـل تغلب سلامة الفطرة عليهم، ويكونون هم السابقين إلىٰ كل إصلاح جديد. وهذا الاستثناء من تحرِّي الحق الدقيق في القرآن.

ثم تابع الكلام عن بيان سبب الجزاء، وعَطَفَ علىٰ قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم ...﴾ قولَه: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بعيسىٰ عليه السلام، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ﴾ أمِّه ﴿مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، ووصَفَه بصفة الرسالة مبالغةً في تفظيع تَصَدِّيهم لهذا العمل المزعوم، فقد حفظه الله منه، كما حكىٰ ذلك بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ أي: والحال أنهم ما قتلوه ـ كما زعموا متبجِّحين بالجريمة ـ وما صلبوه كما ادّعوا وشاع بين الناس، ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾(١) أي: مُوِّه عليهم الأمر ولُبِّس، أو وقع لهم الشَّبَهُ أو الشبهة، فظنُّوا أنهم صَلبوا عيسىٰ، وإنما صلبوا غيره.

---

(١) قال ابن حزم في الجزء الأول من كتاب «الملل والنحل» [١: ٥٦-٥٧] ما ملخَّصه: ولكن شُبِّه لهم، أي: مُوِّه عليهم أنه قُتل وصُلب، ولم يكن ذلك واقعاً. وإنك إذا دقَّقت ما جاء في الأناجيل التي بأيديهم عن حادثة الصلب رأيتها تقول: إنه صُلب ليلاً عند افتراق الناس عن الفصح، وكان ذلك في مكان بعيد عن المدينة مستورٍ عن الناس، فلم يره إلا امرأة من العامة يقال لها: مريم المجدلية، فأنت ترىٰ ما يُحيط هذه الرواية من الضعف واحتمال التمويه. وعليه، فيكون قوله: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ كلاماً جارياً علىٰ عامة الناس المُمَوَّه عليهم، بعد إجرائه علىٰ المُمَوِّهين بأنهم قتلوه وصلبوه. ومثل هذا الإجراء المتباين هو من أساليب اللغة ونهج القرآن. ويجوز إجراء الكلام كلِّه علىٰ المجموع الذين فيهم المشبِّهون بأمر القتل والمشبَّه لهم، وذلك أيضاً من أساليب اللغة.

أقول: وإذا قيل: إذا كان المسيح لم يصلب، لم يوقف له علىٰ أثر بعد ذلك. والجواب: إن هذه الشبهة لم تَرِدْ علىٰ الذين يقولون رُفع بجسمه وروحه إلىٰ السماء، وإنما تَرِدُ علىٰ الذين قالوا: توفاه الله في الدنيا ثم رفعه كما رفع إدريس عليه السلام، ولا غرابة في الأمر، فإن أخاه موسىٰ عليه السلام كان بين الألوف من قومه، فانفرد عنهم ومات في مكان لم يعرفه أحد منهم، كما هو منصوصٌ في آخر سفر تثنية الاشتراع في أسفار التوراة. (المؤلف).

والقائلون إنه عليه السلام رُفع بجسمه وروحه إلىٰ السماء من غير موت: هم جمهور العلماء قديماً وحديثاً، وقولهم هو الصواب.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي: في أمر الصلب، فقال بعضهم: صُلب، وقال بعضهم: لم يُصلب. أو في عيسىٰ، فقال بعضهم: ليس هذا عيسىٰ، وقال بعضهم: إنه هو، ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ في ذلك. وقد كان المسيحُ صاحبَ آيات وخوارقَ عادات، فقد رَوَوا عنه أنه قال لهم: إنهم يشكُّون فيه. وقال مرقس: إنه ظهر لهم بهيئة أخرىٰ، ثم إنهم أشاعوا أنَّ يهوذا الذي صُلِبَ بَدَلَ المسيح؛ أنه انتحر ندماً علىٰ ما فرط منه من دلالته علىٰ المسيح. وقالوا: إن يهوذا الإسخربوطي هذا كان يشبه المسيح في صورته شبهاً قوياً. ويجوز أن يكون نَدَمُه دفعه للاستسلام للصلب بَدَل المسيح.

ثم أعاد الجملة الآتية بصورة أقوىٰ تأكيداً للنص علىٰ الحقيقة، فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ أي: إنهم قتلوا شخصاً شاكِّين بأنه عيسىٰ، أو مُموِّهين ومُلبِّسين بأمر الصَّلب. وقد أنقذ الله عيسىٰ من الذين كفروا بعناية منه تعالىٰ، كما أنقذ محمداً ﷺ من قريش بالاختفاء ثم الهجرة حينما همُّوا بقتله، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يُغلَبُ علىٰ أمره، ﴿حَكِيمٗا (١٥٨)﴾ تجري الأمور بحسب حِكَمِهِ الدقيقة، وله في الحوادث حِكَم لا ندركها. وقد علَّقنا علىٰ الرفع والنزول في آخر الزمان عند مثل هذه الآية من سورة آل عمران.

ويجوز أن يكون في قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ مقابلةٌ لدعوىٰ الصَّلب؛ لأنَّ فيه ضَعَة وإهانة، فقابل هذا الادِّعاء الكاذب بأنَّ الله توفَّاه وفاةً فيها رِفعةٌ وكرامة، أو المراد أنه توفَّاه ورفعه إلىٰ الرفيق الأعلىٰ مع أرواح الأنبياء عليهم السلام[1]. والله أعلم.

---

(١) وقول عامة العلماء وجماهيرِهم من المفسِّرين والفقهاء والمتكلمين وغيرهم: أنه عليه السلام لم يمت، وإنما رفعه الله إلىٰ السماء حياً، وسينزل آخر الزمان قبل قيام الساعة إلىٰ الأرض، ثم يموت. وهو القول الصواب.

وبعد أن سَرَد تاريخ اليهود مع عيسىٰ، بيَّن أنَّ كلَّ واحد من أهل الكتاب سيعرف عند موته الحقَّ في أمر عيسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: عند الغَرْغرة[1] ـ كما قال في حقِّ المُحْتَضر: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] ـ إذ تنكشف حينئذ له الحقائقُ بتجرُّد الروح من هذا البدن العائق، فيدرك الحق في أمر عيسىٰ ابن مريم، كما يُدرك غير ذلك من الأمور العظيمة الغيبية وحقائق الأحوال، ويندم علىٰ ما فعل، وقال: فيعلم اليهودي أنَّ عيسىٰ رسولٌ من الله صادق في رسالته، ويعلم النصرانيُّ أنَّ عيسىٰ عبد الله ورسوله، وأنه لم يُصلب وليس بإله ولا ابناً لله، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ كما هو شأن غيره من الأنبياء في أممهم، وكما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه ما كان من اليهود من نَقْض العهود والكفر وقَتْل الأنبياء، فرَّع علىٰ ذلك ما كان من جزائهم الدنيوي، وقَرَن به مساوئ أخرىٰ من مساوئهم ـ

---

(١) وهذا علىٰ القول بأن الضمير في ﴿مَوْتِهِۦ﴾ يعود إلىٰ الكِتابي، وهو قولٌ في تفسير الآية، والقول الثاني: أن الضمير يعود إلىٰ عيسىٰ عليه السلام، حيثُ يظهرُ لهم عند نزوله إلىٰ الأرض قبل موته أنه ما زال حياً، فيؤمنون به، ويكذبون دعوىٰ الصلب. وهو الأرجح في تفسير الآية.

علىٰ نهج القرآن في التقريع ـ زيادةً في تبريره للحكم والتحريم، فقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، وهي المذكورة في سورة الأنعام في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ...﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقد عجَّل البيان بالتَّحريم كما تقتضيه البلاغة.

ثم تابع البيان عن السبب فقال: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾، وهذا العطف يجوز أن يكون للمغايرة في الوصف فقط، ويكون المراد بهذا الأكل: الربا نفسَه. ويجوز أن يكون للمغايرة بالذات بأن يكون المرادُ بالثاني غيرَ الأول، كما قالوا: المراد به الرشوة وغيرها.

قال في «المنار»: أي: فإذا كان هؤلاء اليهود قد استحقُّوا ـ بظلمٍ ما ظلموا به أنفسَهم ـ أن نُحرِّم عليهم طيِّبات كانت قد أُحِلَّت لهم ولمن قبلهم، فحرَّمناها عليهم عقوبةً وتربيةً، لعلَّهم يرجعون عن ظلمهم، فكيف لا يستحقُّون أكبر الخِزْي والنَّكال بنقضهم ميثاقَ ربِّهم، وقتلهم لأنبيائه ورسله، وكفرهم بالمسيح، وبَهْتهم لأُمِّه، وتَبَجُّحهم بدعوىٰ قتله وصلبه[1].

وقال الزَّجَّاج: إن قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ بَدَلٌ من قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ...﴾[2]، وكلاهما متعلِّق بقوله: ﴿حَرَّمْنَا﴾، وعليه يكون وجه الربط بين الآيتين بيانَ جزائهم الدنيوي علىٰ هاتيك الأعمال المنكرة كلِّها.

وبعد أن بيَّن جزاءهم في الدنيا بيَّن جزاءهم في الآخرة، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾، وإنما قال: ﴿مِنْهُمْ﴾ ليستدرك قوله: ﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ

---

(١) تفسير «المنار» (٦: ٤٩).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ١٢٧).

مِنۡهُمۡ﴾ أي: الآخذون باليقين دون التقليد، ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ وهذا من عطف الصفة على الصفة لموصوف واحد، أخبر عنه بقوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾، ويجوز أن تكون هذه الجملة بياناً للمؤمنين أو حالاً منها.

ثم تابع الصفات بقوله: ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فقطع هذه الصفة بالنصب على الاختصاص مبالغةً بشأنها من بين الصفات المتسقة، على نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

ثم تابع الانتساق بقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، فاستدرك من أهل الكتاب الموصوفين بهذه الصفات، وسجَّل لهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾، فقابل بما سجَّل لهؤلاء من النعيم المقيم، ما سَجَّله على أولئك من العذاب الأليم.

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾.

قال في «المنار»[1] ما معناه: ثمَّ ختم الكلام في مُحَاجَّة اليهود، ومهَّد للكلام في مُحَاجَّة النَّصارىٰ الآتية ببيان أنَّ الوحيَ جنسٌ واحد، وأنه لو كان إيمانهم بمن يدَّعون الإيمان بهم من الرسل السابقين صحيحاً مبنياً على الفهم والبصيرة، لـمَا كفروا

(١) (٦: ٥٥).

بمحمد ﷺ، فقال عزَّ وجل: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾[١]، والوحيُ: عرفان يجدُه النبيُّ مع اليقين بأنه من قِبَلِ الله، بواسطةٍ أو بغير واسطة.

وقد بدأ بنوح لأنه أقدم نبيٍّ مُرسَل بارز في التاريخ القديم، وكان قبله آدم وإدريس علىٰ الولاء، وبعد نوحٍ بفترة من الأزمان فيها من الرسل التي لم تُقصَصْ علينا قَصَصُهم، جاء هود وصالح، فهما داخلان في عموم قوله: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾، وبعد فترةٍ من الأحقاب فيها من الرسل التي لم تُقْصَص علينا قَصَصُهم، جاء إبراهيم ومن بعده، ولذلك فَصَلَ الكلام فيهم عن سابقه، فقال: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ﴾، وكلُّ مَنْ ذُكر بعد إبراهيم هو من ذُرِّيَّته، ويُسَمَّون: أنبياء بني إسرائيل، وقيل: إنَّ الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في ولد إسماعيل. والمراد بالوحي إليهم: الوحيُ إلىٰ الأنبياء الذين بُعثوا فيهم، وخصَّ منهم بالذكر أشهر المرسلين.

ثم غيَّر النسق فقال: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾، لأنَّ لِزَبورِ داود شأناً خاصّاً في كتب الوحي أو عند أهل الكتاب، أو لأنه واسطة بين قارئه وبين الله تعالىٰ، إذ كلُّه مناجاة لله سبحانه؛ تهليل وتحميد وتمجيد. أي: آتينا داود كتاباً يناجي به الله سبحانه ويمجِّده. ويجوز أن يكون تخصيصه بالذكر لأنه غير مشتمل علىٰ تشريع وأحكام، كما في غيره من الكتب السماوية. أي: آتيناه كتابَ قراءةٍ ومناجاة، لا كتابَ تشريع وأحكام. والله أعلم.

---

(١) لما ذكر سبحانه في الآيات السابقة تعنُّت اليهود في الإيمان بمحمد ﷺ، بيَّن في هذه الآية أنَّ الوحي الذي نزَّله عليك كالوحي الذي نزَّل علىٰ سائر الأنبياء الذين تعترف اليهود بنبوَّتهم، ولكنه شططُ اليهود وطبيعتُهم في الإعنات. فاللهُ يشهدُ لك بما أنزل عليك والملائكة المقرَّبون، وكفىٰ بالله شهيداً. (المؤلف).

ثم قال: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: وأرسلنا غير هؤلاء الرسل، وقد قصصناهم عليك قبل تنزيل هذه السورة، وهم المسرودةُ أسماؤهم أو المبيَّنةُ قَصَصُهم في السور المكية.

وأجمَعُ الآيات لأسماء الأنبياء قولُه تعالىٰ في سورة الأنعام المكية في سياق الكلام عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٨٦].

وأجمَعُ السور لقصصهم سورة هود وسورة الشعراء المكيّتان.

ومن الأنبياء العرب: هود وصالح وشعيب.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ وهم المرسلون إلىٰ الأمم العريقة في القدم المجهولِ علمُها وتاريخُها.

ثم غيَّر النسق بقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾[1] وهو الوحيُ بلا واسطة كما تقدَّم، ولذلك سمّاه تكليماً. أي: فما لهم ينكرون عليك ما هو دون ذلك، لأنَّ هذه المنقبة ممتازة من بين ضروب الوحي، وفيها عظيم امتنان.

واستدلوا بتأكيد الفعل علىٰ كَوْن تكليم الله لموسىٰ لم يكن وحياً بواسطة الملك،

(١) ابتدأ هذه السلسلة بإبراهيم وختمها بموسىٰ عليهما السلام؛ لأن كلاً منهما ذو شريعة مستقلة كاملة. أما ما بينهما، فالقسم الأول كان تابعاً لشريعة إبراهيم، والقسم التالي كان تابعاً لشريعة موسىٰ؛ لأنَّ عيسىٰ عليه السلام جاء مكملاً لشريعة موسىٰ، وزبور داود لم يزد علىٰ التسبيح والمناجاة، وليس فيه تشريع جديد. هذا ما أظنه، والله أعلم. (المؤلف).

وإنما هو من جنس كلام الله للملائكة أو شبيه به. والله أعلم. وإدراك موسىٰ عليه السلام لكلام الله تعالىٰ لا يتوقَّف علىٰ معرفة كُـنْهه، فإنَّ كثيراً مما نُصدِّق به تصديقَ يقين لا نعرف حقيقته ولا كُنهَه ولا كيفيَّة تكوينه وإيجاده، فهو عِرفانٌ مع إيقان، دون إدراكٍ لـحقيقة الشأن. فعملية التذكُّر والإدراك نفسها ليس أحد يعرف كيف تتم له هذه الحقيقة، مع أنها عملية وعلمية. ومن المعلوم أن الأنبياء عليهم السلام من أكمل البشر، مُزَوَّدون بالقُدرة علىٰ استلهام المعلومات بطريقةٍ فوق نطاق الحواس، يجري فيهم ذلك الإيحاء ولا يعلمون كيفيَّته، كما لا يعلم كل إنسان كيفيَّة إدراكه للأشياء وتذكُّره لها. فموسىٰ عليه السلام يُدرِكُ كلام الله سبحانه ولا يعلم كيفيَّة ذلك[1]. والله أعلم.

ثم أجمل الكلام عن الرسل بقوله: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي: لمن آمن وكفر، وإنما أُرسلوا ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ حيث يدَّعون أنهم ما كَفَروا وأجرموا إلا لجهلهم ما يجبُ عليهم. وقد تكرَّرت حُجَّة الله هذه علىٰ الناس في كثير من آي القرآن عند الكلام علىٰ الرسل أو مُحاجَّة غير المؤمنين. ومعناها: إننا إنما أرسلنا الرسل إزالةً لهذا العذر.

وخلاصة المحاجَّة في هذه الآيات: الردُّ علىٰ هؤلاء المنكرين لنبوَّته ﷺ، بأنهم لماذا ينكرون عليك، فقد أوحينا إلىٰ رُسُلٍ من قبلك، وأنزلنا علىٰ بعضهم كتباً كما نزَّلنا إليك، بل قد كلَّمْنا بعضهم تكليماً، وهم يعلمون كلَّ ذلك، فما ينكرون عليك إلا تعنُّتاً وعناداً، وحسداً واغتياظاً.

وقد قَرَنَ الكلام بما يدلُّ علىٰ أنَّ الصبر عليهم لم يكن عن عجز في القدرة، ولكن

---

(١) أي: كيفية إدراكه لكلام الله، أما كلام الله فلا يُكيَّف.

لحكمة تقتضيه، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾، ومِنْ عزَّته وحكمته أن لا يُجاب المتعنِّت إلىٰ مطلوبه، في أن يُنزلَ عليك كتابٌ في قرطاس، كما طلبوا.

ثم استدرك علىٰ ما علم من السياق من إنكارهم نبوَّته ﷺ، مع أنها في مرتبة الوضوح، ثم استدرك علىٰ ذلك بقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: إنَّهم لا يقرُّون بنبوَّتك لكن الله يشهد بما أنزل إليك، وقد أنزله بعلمه وهديه الذي لم تكن تعلمه أنت ولا قومُك من قبل إنزاله إليك، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ بذلك أيضاً؛ لأنَّ الذي نزل به إليك هو الروح الأمين منهم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

وبعد أن تجلَّت الحجَّة وثبتت النبوة، أنَّب الذين يُصِرُّون علىٰ كفرهم، وندَّد بهم، وقرَّر ضلالهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾ حتىٰ لم يعودوا يُبصِرون ما تجلَّت به هذه السبيل من الوضوح والاستقامة، ولا يفقهون أنها هي الموصلة إلىٰ ساحل الفلاح والسلامة.

ثم أنذرهم وتوعَّدهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟﴾ بكفرهم وقُبح عملهم المؤدِّي بهم إلىٰ العذاب الأليم ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: ليس من شأنه ولا من مُقْتضىٰ سنَّته في خلقه أن يغفر لهم ذلك الكفر والظلم يوم الحساب؛ لأنَّ الكفر يؤثِّر في النفس ويُكيِّفها بكيفيَّة من فساد الفطرة، تجعلها بعيدةً عن الهداية المؤهّلة للغفران ودخول الجنان. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾.

ثم استثنىٰ بطريق المشاكلة والسخرية والاستثناء المنقطع قوله: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾، لأنه من مقتضىٰ سُنَّته وحكمته، فلا تحول دونه رأفته ورحمته.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

وبعد انتهاء هذا السياق المبيِّن لطريق الحقِّ من طريق الضلال، انتدب الناس لاتِّباع طريق الحق وأمرهم بالإيمان، وأشفعه بالوعد للمجيب والوعيد للمُعْرض، تنبيهاً علىٰ أنَّ الحُجَّة قد لزمت ولم يبق عُذْر لمتخلِّف، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾[1] ولصالحكم، لأنَّ الإيمـانَ يؤهِّلكم

(١) بعد أن دحض شبه اليهود في تكذيبهم لمحمد ﷺ، وأقام الأدلّـة علىٰ صدقه، طلب إلىٰ الناس كافّة ـ وفي ضمنهم اليهود ـ أن يؤمنوا بهذا الرسول، وبالكتاب الذي جاء به، وشهد الله عليه والملائكة المقربون. وإن يكفروا به فلن يضروا الله شيئاً، وسيجازيهم علىٰ ذلك جزاء وفاقاً. (المؤلف).

للسعادة الأبديَّة، ويُطهِّركم من الأدناس الحسيَّة والمعنويَّة، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: فإنَّ الله غنيٌّ عن إيمانكم، لأنَّ له ما في السماوات والأرض، فأقام العلَّة مقام المعلول، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

ثم ذيَّـل الكلام بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾، فلا يأمر بأمر إلا عن علم وحكمة بالغة.

ومن مباحث اللفظ أن ﴿خَيْرًا﴾ خبر لـ«يكن» المحذوفة هي واسمها، والتقدير: يكن الإيمان خيراً لكم.

وبعد أن أنهىٰ الكلام في مُحاجَّة اليهود الذين فرطوا كل التفريط في أمر عيسىٰ عليه السلام والكفر به وإهانته، ودَحَض شُبهاتهم؛ التفتَ إلىٰ النصارىٰ ودَحَض شُبَـهَهُم أيضاً في شأن عيسىٰ، وإفراطهم كل الإفراط في تعظيمه وتـقديسه إلىٰ حدِّ الألوهية، ومَزَج الكلام بالحجاج والنهي والتنديد والإنذار، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾[(١)]، فـتُجاوِزُوا الحدود التي حدَّها الله لكم، فإنَّ الزيادة في الدين كالنقص فيه، كلاهما مُخْرِجٌ له عن وصفه وصورته، ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ إما بنصٍّ دينيٍّ متواتر[(٢)]، وإما ببرهان عقليٍّ قاطع. وليس لكم علىٰ مزاعمكم في المسيح شيء منهما، ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

---

(١) أي: مثل قول اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن شعب الله الخاص، ولا تكون النبوة إلا فينا. وقول النصارىٰ بألوهية عيسىٰ عليه السلام، وقولهما: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] وأمثال ذلك. (المؤلف).

(٢) كأنه يريد: في أصول المسائل العقدية؛ بقرينة السياق، وإلا فاشتراط التواتر غير مُسلَّم.

رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ أي: كلمة التكوين أو البشارة وأنه بشر، ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أي: إنه لا يختلف عن بقية البشـر في كونـه جسداً وروحاً من الله[1] ومخلوقاً من جنس المخلوقات الروحيَّة الجسميَّة وهي الإنسان. كما جاء في خلق الإنسان: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ [السجدة: ٩]، أي: نفخ فيه من هذا النوع الممتاز فيما عنده، ولشرفها وامتيازها أضافها سبحانه إلىٰ نفسه. والإلقاء: التمكين، وقد جزمت مريم بالحَمْل عند إعلام الله به بواسطة الملك؛ لأنَّـها صِدِّيقة، فجزمت بهذا الإعلام من الله، والجَزْمُ بالشيء يُولِّده[2]. والله أعلم.

وبعد أن قـدَّم تلك الـمقدِّمة في الإرشاد والـهدي إلىٰ طريق الرشاد، أمرهم بالإيمـان الصحيح، فقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ﴾؛ الأب والابن والرُّوحُ القُدُس، ويريدون بالروح القدس: ما يقابل قوله تعالىٰ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم: ١٢]، علىٰ اعتبار أن الإضافة إضافة الجزء إلىٰ الكل، وإنما هي إضافة الملك، كقول القائل: أعطيناه من مالنا، وقول الصانع: أعطيناه من مصنوعاتنا، لا سيما إذا كانت تلك المصنوعات ممتازة. والله سبحانه منزَّه عن الروح، وإنما هو حيٌّ قيوم.

أو: الله والمسيح وأمه، كما قال تعالىٰ: ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦]؟

---

(١) الراجح في معنىٰ أن عيسىٰ عليه السلام روح منه، أي: أنه روح ابتُدئ خلقُها من الله تعالىٰ لا من غير الله، ولا أنه بعضٌ من الله! فـ«من» ابتدائية وليست تبعيضة. وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣] يعني: أن ابتداء خَلْق ذلك كلّه من الله سبحانه لا من إله غيره.

(٢) لم يثبت هذا، والصحيح الذي لا ينبغي العدول عنه: أن حَمْلَ مريم عليها السلام كان معجزة خارقة للعادات والسنن، وتفسيره علىٰ قوانين الطبيعة غير ممكن.

وقال في «المنار»: فآمِنوا بالله إيماناً يليق به، وهو أنه واحد أحدٌ، فَرْدٌ صَمَد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُواً أحد. تنزَّه عن صفات المُحْدَثات، ونسبتها إليه واحدة، وهي أنها مخلوقة وهو الخالق، ومملوكة وهو المالك. فمن الجهل الفاضح أن يُجعَلَ له نِدٌّ وكفءٌ فيها، أو يقال: إنه حَلَّ أو اتَّحد بشيء منها.

وآمِنوا برسله كلِّهم كما يليق بهم، وهو أنهم عبيدٌ له خصَّهم بضَرْب من العلم والهداية بالوحي إليهم؛ ليعلِّموا الناسَ كيف يُوحِّدون ربَّهم ويعبدونه ويشكرونه، وكيف يُزَكُّون أنفسهم ويُصلحون ذات بينهم.

﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ الآلهة ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾؛ الأب والابن والروح القدس، أو: الله ثلاثة أقانيم؛ كلٌّ منها عينُ الآخر، فكلٌّ منها إله كامل، ومجموعها إله واحد، فتُسَفِّهوا أنفسَكم بترك التوحيد الذي هو ملَّة إبراهيم وسائرِ الأنبياء عليهم السلام، والقول بالتثليث الذي هو عقيدة الوثنيين الطَّغام[1]، ثم تدَّعون الجمع بين التثليث والتوحيد الحقيقي، وهو تناقضٌ تُحيله العقولُ ولا تقبله الأفهام، ﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾[2] فإن الانتهاء يوصلكم إلىٰ السعادة، والبقاء علىٰ هذه العقيدة الفاسدة يوصلكم إلىٰ الشقاء الأبدي.

فلا تقولوا ثلاثة، ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ليس له أجزاء ولا أقانيم، ولا صاحبة ولا ولد، ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ فإنه تعالىٰ ليس له جنس فيكون له منه زوج، إذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، والمسيحُ وأمُّه جملةٌ من ذلك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ في تدبير

(١) هم أراذل الناس وأوغادُهم. «لسان العرب» (طغم).

(٢) تفسير «المنار» (٦: ٧١- ٧٢).

المخلوقات وحفظ المُحْدَثات، لا حاجة له إلىٰ معين أو نصير، وكفىٰ به وكيلاً لمن يَكِلُ أموره إليه، ولم يحاول الخروج عن سُنَّته وشرائعه.

ثم صرَّح بما تضمَّنه قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وصاغ العبارة علىٰ وجه يردُّ علىٰ أولئك الضَّالِّين غُلوَّهم وضلالهم، ويقرِّر ما سبق من التنزيه والتوحيد، فقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، ثم توعَّد الناس بقوله: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ وهذا يشمل الـمُلحِدين والمشركين والـمُهمِلين لعبادته والضَّالين فيها، ومنهم الُمغالون في أمر عيسىٰ عليه السلام ومَنْ لـفَّ لفَّهم، حيث قالوا فيه علىٰ الله غير الحقِّ، ولم يُنزِّهوه سبحانه ولم يُوحِّدوه، ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ ويُحاسِبُهم علىٰ ذلك.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ وهذه الفاصلة إنما تأتي لزيادة الترهيب والتوعد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

وبعد أن أقام سبحانه الحُجَّة علىٰ النصارىٰ، وفيما قَـبْلُ علىٰ اليهود، وقد أقام الحجَّة قبل ذلك علىٰ المنافقين والمشركين، خاطب الناس، وقد تهيَّأت عقولُهم لقبول الدعوة، فدعاهم إلىٰ اتِّباع برهانه والاهتداء بالنور الذي أنزله، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وهو القرآن العظيم الذي نوَّه شأنه بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ يُضيء لصاحبه سُبُلَ السلام. والعطفُ لاختلاف الوصفَيْن، وغيَّر الأسلوب تعظيماً لشأن الـمُنزَل، وتمنُّناً بنعمة التنزيل.

ثم بيَّن مصير المؤمنين به، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾، وفي الكلام عطف المسبَّب علىٰ السبب؛ لأنَّ الإيمان سبب الاعتصام، والاعتصام: الاحتماء. وأما قوله: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾؛ ففي ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ عطفُ السبب علىٰ المسبَّب؛ لأن الهداية سبب الإدخال. وهذا الصِّراطُ المستقيم، يصل سالكه إلىٰ سعادة الدارين. وأما المُعرِضون عنه فليسوا علىٰ شيء، وإن مَلَؤُوا الدنيا جلبةً وضوضاء.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

ثم ختم السورة بهذا الحكم المتمِّم لأحكام الفرائض التي تكلَّم عنها في السورة، علىٰ أسلوب القرآن في الختْم بما بدأ، وفي تفريق الموضوع باستطرادات متسلسلة لمناسبات مقتضية، ثم العودة إلىٰ الموضوع مرَّة بعد المرَّة، (كما جاء في المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾، وقد مرَّ الكلام عن المعنىٰ اللغوي للكلالة في أول السورة فارجع إليه، إلا أنه ذكر فيما سبق نصيب الكلالة إذا كانوا إخوة لأم، وذكر هنا نصيبَ الكلالة إذا كانوا من العَصَب، وفي الجملة اكتفاء، علىٰ نهج القرآن، فقد حذف لفظ الكلالة من جملة الاستفتاء اكتفاءً بوجودها في الفتيا. والتقدير: يستفتونك في الكلالة قل: الله يفتيكم فيها.

ومُحَصَّل معنىٰ الكلالة: هو أن يموت ميِّت وليس له ولد ولا والد، كما اختصر ذلك بقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾، والمراد بها: مَنْ ليست لأم فقط؛

لأنَّ فَرْضَ الأخت للأم: السدس، وقد مرَّ بيانه سابقاً. أما هذه ـ وهي الشقيقة أو لأب ـ ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ الميت، ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أي: وإنَّ هذا المرء يرثُ أخته الشقيقة أو لأب إذا ماتت ولم يكن لها ولد ذكر ولا أنثىٰ ولا والد، كما عُلِمَ من معنىٰ الكلالة.

ثم ذكر نصيب الأختين فيها، فقال: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

ثم ذكر نصيب الجمع المختلط من الإخوة والأخوات في الكلالة، فقال: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ﴾ أي: الذين يَرِثُون كلالةً ﴿إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

ثم ختم الكلام بما يحمل علىٰ الاهتمام بكلِّ ما سبق من الأحكام، ويُنبِّه علىٰ عِظَمِ ما بها من الهداية والإرشاد، فقال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الأحكام حفظاً لكم من ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ أي: كي لا تَضِلُّوا، وقد وضعها لكم عن علم وحكمة تتَّفق مع مصالحكم وما به الخير لكم وصلاح ذات بينكم، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ لا يضعُ الأحكام إلا بحسب المصالح الصحيحة العامة.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ محمد وآله أجمعين.

وبعد،

فهذا هو الجزء الثالث[1] من تفسير القرآن المُسمَّىٰ: «أَوْلىٰ ما قيل في آيات التنزيل» يبتدئ بسورة المائدة، وهي مدنيَّة، مئة وعشرون آية، وقد نزلت بعد عقد صُلح الحديبية الذي كان يعتقد كثير من الصحابة أنَّ فيه غبناً فاحشاً علىٰ المسلمين، فضاقوا به ذرعاً، والذي تقرَّر فيه قضاء عمرة الحجِّ في العام المقبل، فقرَّرت السورة الوفاءَ بالعقود؛ تقريراً لهذا العهد، وبيَّنت بعض ما يخصُّ الحج.

(١) حسب تقسيم المؤلف في الطبعة الأولىٰ.

سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قالوا: العقود ضربان: عقدٌ بين الله تعالىٰ وبين العبد، وهي: الأحكام التي يأمر بها المؤمنين ويعهدُ بها إليهم. وعقدٌ بين العبد وغيره من البشر، كالنكاح والبيع والمعاهدة وغيرِ ذلك من المعاملات الشخصية القائمة بين متعاقدين؛ فردين أو صنفين.

وذكَرَ الجلالُ أنَّ سورة النساء قد اشتملت علىٰ عدَّة عقود، بعضها صريحة وبعضها ضمنية.

فالصريحة: عقد النكاح، وعقد الصَّداق، وعقد الحلف، وعقد المعاهدة والأمان.

والضِّمنيَّة: عَقْد الوصيَّة والوديعة وغيرهما مما يدخل في عموم قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

فكانت هذه الآية حلقةَ وَصْل بين السورة السابقة واللاحقة، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة الثالثة من المقدمة الثانية)، فهي من حيث الصيغةُ حكم مستقلٌّ قائمٌ بذاته، ومن حيث السياق تقريرٌ للسياق السابق في سورة النساء، وحَمْلٌ علىٰ العمل به، وتنفيذ ما جاء فيه من أحكام العقود، والمحافظة عليها. كما هي براعةُ استهلال وتمهيدٌ للسياق اللاحق وحثٌّ علىٰ التَّمسُّك بما جاء فيه من الأحكام التي هي عقود وعهود بين الله تعالىٰ وبين المؤمنين.

ومن ذلك بعض مقرَّرات الحجِّ التي مهَّد إليها بقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيما بعدُ في هذه السورة من تحريم الميتة والمنخنقة والموقوذة وما أكل السبع، الآية. فقد أمروا بمطلع السورة أن يتمسَّكوا بهذه الأحكام الـمُدْرَجة فيها ولا يُغيِّروا منها شيئاً.

وقد جعل الله هذا الحِلَّ عامّاً في سائر الأحوال، إلا في حال واحدة ذكرها بقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: وأنتم مُحرِمون بالحج، أو داخلون في أرض الحرم، فقد استثنىٰ من حِلِّ بهيمة الأنعام في سائر الأماكن والأحوال الصَّيدَ في حالة الإحرام، أو من أرض الحرم، فإنَّ ذلك قد حَرَّمه الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾، ولا يريد سبحانه بفضله وإحسانه إلا ما فيه خيرُنا وصالحُنا، علىٰ حسب علمه المحيط وحِكَمِهِ البالغة.

ولما نهىٰ سبحانه عن إحلال الصيد في الإحرام الذي هو من شعائر الحج، أردفه بما يقرِّره من بيان القاعدة العامة، علىٰ نهج القرآن في ذكر القواعد العامة إثر الأحكام الخاصَّة لتشملها وغيرها، وتكون مستمرة المدىٰ. والقاعدة هنا: هي النهي عن العبث بسائر الشعائر الدينيَّـة، كالصَّدِّ عن المسجد الحرام، كما فعل المشركون في الحديبية،

فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾[١] أي: لا تنتهكوا حُرمتَها أو تُهملوها أو تمنعوا منها، وهي علائم دينه التي تبيِّن لكم الضَّالَّ من المهتدي، والهدىٰ من الضلال. ومن ذلك: مناسك الحج وفرائضه، بل اعملوا فيها بما بيَّنه لكم الله.

ثم عطف علىٰ الشعائر عَطْفَ الخاص علىٰ العام، فقال: ﴿وَلَا﴾ تُحِلُّوا ﴿ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾[٢] فتستأنفوا القتال مع المشركين فيه، ﴿وَلَا﴾ تُحِلُّوا ﴿ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾.

و﴿ٱلْهَدْىَ﴾: هو الذي يُرسَلُ إلىٰ بيت الله من الأنعام، للتوسعة علىٰ مَنْ هناك مِن عاكف وباد. و﴿ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾: هي الإبل تُـقَلَّد بخيط أو شِبهِهِ علامةً علىٰ أنها هدية لبيت الله، وتُرسَلُ لعين الغرض.

والمعنىٰ: لا تُحِلُّوا الهدي مُقلَّداً ولا غير مُقلَّد، أي: تمنعوه من الوصول. وهذا تمهيدٌ لقوله: ﴿وَلَآ﴾ تُحِلُّوا قتالَ ﴿ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: يطلبون التجارة والحجَّ معاً. فأمرنا سبحانه أن لا نخيفَ مَنْ قَصَدَ بيتَه من المسلمين، ولا نؤذيَه ونُسيءَ معاملته حتىٰ في البيع والشراء، ولا نمنعه وَهَدْيَه من الوصول إلىٰ البيت.

---

(١) قد مـرَّ الكلام علىٰ معنىٰ (الشعائر) في سورة البقرة عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] فارجع إليه. (المؤلف).

(٢) إنَّ بعض المؤمنين ثَقُل عليهم بعض شروط صلح الحديبية، وكانوا يودُّون أن يقاتلوا المشركين، وإن استقبلهم شوال. فألمعت الآية إلىٰ الإنكار علىٰ هذه الرغبة، مُلمِحةً إلىٰ أن ذلك لا يعد دفاعاً يغتفر مثله في الأشهر الحرم الآن، لأن القوم رضوا بالصلح والهدنة فلا سبيل لمقاتلتهم، إذ لم يبق مجال لمضمون قوله تعالىٰ: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ...﴾ الآية [البقرة: ١٩٤]. هذا رأيي، والله أعلم. ويجوز أن يكون ـ كالذي بعده ـ نهياً للمؤمنين أن يفعلوا ما فعله المشركون أو صمَّموا عليه من قتالهم في الشهر الحرام، وصدِّهم للهَدْي، ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾، تعريضاً بفظاعة ذلك وتقريراً لقاعدة عامة، علىٰ نهج القرآن في تقرير القواعد والتشريعات. (المؤلف).

وقال أبو مسلم: المراد بالآية: الكفار الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، فلما زال العهد بسورة براءة زال الحظر، وكانوا يبتغون الفضل والرضوان فيما يُصلِحُ لهم دنياهم بالتجارة، فأمر سبحانه أن لا يُعجِّل لهم بالعقوبة.

أقول: وعلىٰ كلٍّ؛ فالآيةُ حكمٌ عام في النهي الشديد عن التصرُّفات المعيقة والمُخِلَّة بمناسك الحج وشعائره، أو بالأمان العام لقاصدي بيت الله الحرام. فكلُّ ذلك من أكبر المحرَّمات.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ مُتمِّم لقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، وغايةٌ له، ذكره بعد انتهاء سَرْد المحرَّمات وتناسُقِها، وهو تصريحٌ بما فُهِم ضمناً من قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾. والغاية منه: تقرير هذا الحِلِّ في الحكم، علىٰ نهج القرآن في مثله.

ولما كان قوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾، فيه إشارةٌ إلىٰ ما فعله المشركون مع المؤمنين عام الحديبية من صدِّهم عن البيت، وتعريضٌ بهم؛ نهىٰ المؤمنين أن يقابلوهم بمثله بعد الفتح انتقاماً، فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ فتكونوا مثلهم، فضمَّن (يجرم) معنىٰ: يحمل، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، وفي المادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة في أنواع مجازات القرآن). و(الشنآن): البُغْض، وهذه الآية تؤيد قول أبي مسلم.

ولما أدَّبهم بهذا الأدب العالي، أردفه بقاعدة عامَّة تشمله وغيرَه، علىٰ نهج القرآن في تقرير القواعد العامة المستمرةِ المدىٰ إثر الأحكام الخاصَّة منها وأيدها بها، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[1]، وذلك لا يكون إلا إذا

---

(١) البرُّ: كلُّ عمل نافع صالح. والتقوىٰ: تجنُّب كل ضار. والإثمُ: يشمل كلَّ رذيلة. والعدوان: =

خضع المسلمون لتعاليم دينهم بعيدين عن العصبية الجنسية والعصبية المذهبية، فلا يكون بينهم خلافٌ في نزعة من النزعات، وحينئذ يكونون كما أراد الله سبحانه منهم: وحدة واحدة وشخصية واحدة في دينهم ودنياهم ومعناهم ومبناهم، فهذا الحكم يأخذ بالمسلمين إلىٰ السُّموِّ عن مواطن الأهواء، ويُشيع فيهم حبَّ الإيثار، ويجعل منهم قوة رهيبة مُوجَّهة إلىٰ الخير والإصلاح، ولا يكون بينهم نزاع ولا شقاق.

ثم ختم الكلام بما يحمل علىٰ التمسُّك بما فيه من الأحكام، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)﴾ فلا تُهملوا ما يأمركم به.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)﴾.

= الظلم بسائر أنواعه. فهما يتناولان كل ما يعود علىٰ الفرد أو المجتمع بالضرر والفساد. فالتعاونُ علىٰ البر والتقوىٰ، والكفُّ عن الإثم والعدوان: من أعلىٰ الصفات النفسيَّة، وأبرزِ منافع الحياة الاجتماعية، ينهض بالمجتمع إلىٰ المستوىٰ الراقي الرفيع المفضي إلىٰ راحة المجموع والرفاه عليه، وتخفيف آلامه. وقد أدركت ذلك العلوم الحديثة، وانتبهت الأمم إلىٰ ميزة هذا التعاون، فانتشرت الجمعيات الخيرية لتوفير الراحة ودفع الآلام. (المؤلف).

ثم أكمل ما حَلَّ بما حرُم، علىٰ نهج القرآن في الإكمال والمقابلة، ونظم في سلك هذه المحرَّمات والمنهيات ما حرم من بهيمة الأنعام التي وعد ببيانها بقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، تكميلاً وتحديداً لبيان ما أحلَّ ببيان ما حرَّم، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾، أما تحريم الميتة والدم فلاحتوائهما علىٰ الجراثيم المتلفةِ لصحّة الإنسان(١). وأما لحم الخنزير، فقد ذكر في تقرير للمعهد الطبِّيِّ في الولايات المتحدة الأميركية أنه في تلك البلاد التي تأكل لحم الخنزير تختلف نسبة الإصابة بديدان التريكينيلا بين ٥ و٣٥ في المئة علىٰ اختلاف تلك البلدان في نسبة تناولها له، كما أن أعراضها تظهر علىٰ ملايين من أهالي تلك البلاد بأشكال شتَّىٰ، مثل ارتفاع الحرارة، ونزلات معدية معوية، وآلام في العضلات والمفاصل. ويقول التقرير المذكور في ختامه: ويحتمل أن بضعة آلاف من الوفيات سنوياً سببُها هذه الدودة. فما أعظم حكمة الإسلام! وما أكبرَ عنايتَهُ بالأرواح والأجسام!

ثم تابع البيان في المحرَّمات، فقال: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، وهذا إنما حُرِّم لضرره بالروح والعقل والدِّين. والمراد به: ما ذُبح أو نُحر علىٰ ذِكرِ غير اسم الله تعالىٰ من المخلوقات التي يُعظِّمها بعض الناس تعظيماً دينياً، ويتقرَّبون إليها بالذبائح.

و(الإهلال): رفع الصوت، وكانوا يذبحون لأصنامهم فيرفعون صوتهم قائلين: باسم اللات والعزىٰ. ورفعُ الصوت ليس شرطاً للتحريم، وإنما هو بيان للواقع والمعتاد، فلا مفهوم مخالفة له. وإنما حَرُمَ مِثلُ هذا النوع حفظاً للعقيدة الإسلامية، وابتعاداً عن مظاهر الشرك والوثنية.

---

(١) هذا من باب بيان حكمة الحكم، لا علته، فالحكم ثابت سواء وُجِدَ الضرر أم لا، وسواء تمَّ الاحتراز عنه أم لا، وكذا القول فيما سيأتي في لحم الخنزير، ويدل عليه أن المؤلف رحمه الله ختم كلامه بقوله: «فما أعظم حكمة الإسلام».

ثم ذكر صنوفاً أُخَرَ من المحرَّمات يعرض لها أسباب يغلب فيها الموت، وقد يبقىٰ فيها رمق من الحياة أحياناً. فذكر حُكمَها فقال: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ وهي التي ماتت بشدَّة الضرب؛ بأن تُضْرَب حتىٰ تنحلَّ قواها وتموت، ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ وهي التي ماتت لوقوعها من عُلو إلىٰ أسفل، ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ وهي التي ماتت من إثر النطح، ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي: افترسه بعض الوحوش. والسبب في تحريم هذه الأنواع صحيٌّ بدني محض[١].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ استثناءٌ من جميع ما ذكر من المحرَّمات الخمس، فإنها تحلُّ إذا أُدرِكَتْ وفيها رمقٌ محقّق من الحياة، وذُكِّيت تذكية صحيحة.

ثم ذكر نوعاً آخر من المحرَّمات بسبب ديني روحي، فقال: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، وكان للعرب حجارة تعبدها وتذبح عليها القرابين لمعبوداتها، أو للحجارة نفسها. وإنما أخَّره ليعطف عليه ـ تكميلاً للبحث ـ تحريمَ عمل آخر كانوا يعملونه في الجاهلية، وهو قوله: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ كما كانت تفعل الجاهلية.

ومعنىٰ (استقسم): طلَبَ معرفةَ ما يقسم له في المستقبل ويكون، وإنما نظم هذا مع مُحرَّمات الطعام؛ لأنَّ تحليل كلٍّ منهما منشؤه الأوهام. و(الزُّلَم) بضمٍّ ففتح: عودٌ كالسهم يتَّخذون منها ثلاثةً، يُكتَب علىٰ أحدها: أمرني ربي. وعلىٰ الثاني: نهاني ربي. والثالثُ غُفْلٌ[٢] ليس عليه كتابة. فإذا أراد أحدهم سفراً أو غزواً أو زواجاً أو بيعاً أو غير ذلك، أجال هذه الأزلام في كنانتها، واستخرج منها واحداً، فإن خرج له الزُّلَمَ المكتوب عليه: أمرني ربي، مضىٰ لما أراد. وإن خرج له المكتوب عليه: نهاني ربي، أمسك

---

(١) وهذا حكمة، وليس علةً أيضاً.

(٢) يقال: قِدْح غُفْل: لا خير فيه ولا نصيب له ولا غُرْم عليه. «لسان العرب» (غفل).

عن ذلك. وإن خرج الغَفَلُ، أعاد الاستقسام. فقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي: خروجٌ عن نور الحق، وانغماس في عَمَىٰ البصيرة، وتوغُّل في ظلام الضلال والجَهَالة العمياء؛ إذ لا مَدْخَل لمثل ذلك في علم المستقبل، ولكنها الخُرافات.

ويُلحق بالأزلام ما يشبهها من وسائل الاستقسام التي يعتادها الناس اليوم، كالاستخارة بحبَّات السبحة وفنجان القهوة؛ إذ كل ذلك مثل الاستقسام بالأزلام، ومثل إثمه سواء بسواء.

وكذلك كان للمشركين نوع آخر من الاستقسام بالأزلام إذا اجتمعوا في الحرم يهلُّون بذبائحهم للأصنام، وينحرون جزوراً يسهمون عليها بالأزلام، ويسمُّونه الميسر، فأبطل سبحانه كل ذلك وأنكر عليه.

ولما كان الأمر بالوفاء بالعقود يتناول عقد صلح الحديبية نظراً، لأن المؤمنين ضاقوا به ذرعاً، كما جاء في سورة الفتح التي نزلت قبل المائدة مباشرة، فبعد أن أمرهم بالوفاء به، بيَّن لهم أن خوفهم منه لم يكن في محلِّه، بعد أن يئس الكفار من زوال دينهم، وخَنْقِه في مهده كما كانوا يزعمون ويرومون، فلا يرهبوا دعاية المشركين ضدَّ هذا الدين المبين بعد اليوم ولا حركاتهم، إذ قد كَمُلَ وتمَّت به النعمة علىٰ المسلمين، وقويت سُلطتهم، فلا ينبغي لهم ـ وقد بدَّلهم بضعفهم قوةً، وبخوفهم أمناً، وبفقرهم غنىٰ ـ أن يخشوا غير الله الذي جرَّبوا فَضْلَه عليهم وإعزازه لهم، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن﴾ زوال ﴿دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ أي: فيما أرضاه لكم وآمركم به من الوفاء وغيره، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾. الحمد لله علىٰ الإسلام والسنيَّة حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، اللهم إني أعوذ بك من أن أُشرك بِك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك ممَّا لا أعلم، وأنـزِّهُك عن كلِّ ما لا يُرضيك، فاقبَلْ مني يا أرحم الراحمين.

وقد نزلت هذه الآية ليلة عيد الأضحىٰ، في حَجَّة الوداع، وعَيَّدَ المسلمون في اليوم الثاني من نزولها، وقد قُبض رسول الله ﷺ بعد مضي واحد وثمانين يوماً علىٰ نزول هذه الآية الـمُشْعرة بتمام نزول القرآن العظيم، وكمال ما جاء به من الدين المبين، وإنهاء الرسالة، وهي آخر آية نزلت ما عدا آية: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فإنها نزلت بعدها.

وبعد هذا الاستطراد عاد إلىٰ السياق، ورخَّص للمُضْطر أن يتناول شيئاً مما ذكر من محرمات الطعام، مع بيان شروط تلك الرخصة، فقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ③﴾ لا يؤاخذ علىٰ ذلك، وهذا متَّصل بذكر المحرَّمات، وما بينهما اعتراض. و(المخمصة): شدَّة الجوع، و(المتجانف للإثم): المتعمِّد له والجائِرُ فيه. فالآية تُرخِّص أكْلَ كُـلِّ شيء مما ذُكر من المحرَّمات للجائع الـمُضْطر، علىٰ أن لا يتعدَّىٰ حدودَ الضرورة. وهذه الجملة من الأصول الكلية في يُسْر الشريعة الإسلامية.

وبعد أن بيَّن ما حرَّمه عليهم، بيَّن ما أحلَّه لهم، مفصِّلاً الإجمالَ في أول السورة، ولمح إلىٰ الوجه والحكمة في التحليل والتحريم، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، فذكر الحكم بطريقة السؤال والجواب، وهو أسلوب من أساليب القرآن، (كما جاء الكلام عنه في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية).

و(الطيِّبات): هي ما تستطيبها النفوسُ السليمةُ الفطرةِ المعتدلةُ المعيشةِ بمقتضىٰ طبعها، فتأكلها باشتهاء، وكلُّ ما أُكِلَ كذلك يهضم بسهولة ويغذي غذاء صالحاً. وفيه تلميحٌ إلىٰ أنَّ كلَّ ما حَرُم فهو خبيث رديء، وكل ما أُحِلَّ فطيِّبٌ هنيء. فأما البحر فكلُّ حيوانه يؤكل، وأما البر فقد جاء الحديث بالنهي عن أن يؤكل من حيواناته كلُّ

ذي ناب من السباع[١]، وكل ذي مِخْلب من الطير[٢]، وما عَدَا ذلك من حيواناته فهو من الطيِّبات، سوىٰ الحشرات. وعند أبي حنيفة: السَّبُعُ: كلُّ ما يأكُل اللحمَ.

وبعد أن ذكر حِلَّ الطيِّبات بالتذكية المفهومة من مقابلتها بصيد الجوارح الآتي، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، عطف عليه حِلَّ الصيد بشرطه الآتي، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي: معلِّمين لها الصيد، مشتقٌّ من الكلب؛ لأنه الغالب في الصيد. وفي قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ تذكيرُ الناس بفضل الله عليهم في التعليم والتعلُّم، والتنويه بشأن هذا القرآن ومنَّة الله به وبتعاليمه علىٰ الناس، علىٰ سُنَّة القرآن في مَزْج الأحكام بما يُغذِّي ويُنمِّي الاعتراف بفضل الله وشكر نعمه. وقد قَيَّدَ حِلَّ ما يصيد الجارح، بأن يكون مما أدَّبه الناس وعلَّموه الصيد حتىٰ يكون قَتْلُه له كتذكية. و(ما) موصولة علىٰ حذف مضاف، أي: أحل لكم صيد ما عَلَّمتُم، أو شرطية جوابها قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

وقد جاء عن عَدِيِّ بن حاتم رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «إذا أرسلتَ كلابك المعلَّمة وذكرتَ اسم الله فكُلْ مما أمسكن عليك، إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون إنما أمسك علىٰ نفسه»[٣].

وفي رواية: «إذا أرسلتَ كلبك المعلَّم فاذكر اسم الله، فإن أمسك عليك فأدركتَه حياً فاذبحه، وإن أدركتَه قد قتل ولم يأكل منه فكُلْهُ، فإنَّ أَخْذَ الكلب ذكاة»[٤].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٥٥٣٠)، ومسلم (١٩٣٢)، عن أبي ثعلبة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن أكلِ كُلِّ ذي ناب من السباع.

(٢) رواه مسلم (١٩٣٤)، عن ابن عباس قال: نهىٰ رسول الله ﷺ عن كُلِّ ذي ناب من السِّباع، وعن كُلِّ ذي مخلب من الطير.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٥٤٨٧)، ومسلم (١٩٢٩).

(٤) رواه مسلم (١٩٢٩) (٦).

ورُوي عن بعض السلف الأخذُ بظاهر عموم ما أمسكن، فقالوا: كل ما جاء به الكلب أو غيره ـ أكَـلَ منه أو لم يأكل ـ فهو قد أمسكه علىٰ صاحبه، فله أكله.

أما حدُّ التعليم فقد اكتفىٰ بعض العلمـاء بطاعة الكلب ونحوه لمعلِّمه ثلاث مرات. وعند الشافعية: العبرة بالعُرْف في ذلك. وأما عند الجمهور. فحقيقة التعليم: أن يطلبَ الكلبُ أو البازي الصيدَ إذا أُغري به، ويجيبَ إذا دُعي. ويسمَّىٰ ذلك إشلاء واستشلاء.

وقد اختلف العلماء في حكم التسمية: أواجب أم سنة؟ ولكلٍّ من الفريقين أدلة علىٰ مُدَّعاه.

والمَغْزىٰ في التسمية والحكمةُ فيها: هي الإشارة إلىٰ أنَّ الذبح وإزهاق الروح أمر عظيم لولا إحلال الله له، فهو إنما يُفْعَلُ باسمه تعالىٰ. وفيها أيضاً إبعادٌ عمّا كان يعمل المشركون من الذبح لغير الله. والله أعلم.

ثم ختم السياق بما يحمل علىٰ التمسُّك بما جاء فيه، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٤﴾ أي: احذروا مخالفة أمر الله في تحليل ما أحلَّه وتحريم ما حرَّمه، فإنَّ الله يُوفِّي كلَّ عامل أجرَه عقب عمله، إنْ خيراً أو شراً؛ فإنَّ سُنَّته مَضَتْ أن تكون النتائج آثار الأعمال بلا إبطاء، وكما يكون الجزاء سريعاً في الدنيا يكون في الآخرة، فإنَّ أثر الأعمال يظهر للمرء عقب الموت مباشرةً، فيُدرك كلَّ ما عمله من خير أو شر، ويعلم ما له وما عليه، وما يستحق علىٰ كل عمل من نعيم أو عقاب. والله أعلم.

ثم أعاد بيان إحلال الطيِّبات ليمهِّد به لما بعده ويشير إلىٰ أنه من الطيبات، وصاغ التعبير بصيغة تتماثل مع قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي ﴾، لتتوافر معها علىٰ بيان المنَّة في إكمال النعمة، أي: كما أتممتُ عليكم نعمتي فيما يتعلَّق

بالدين، أتممت عليكم نعمتي فيما يتعلق بالدنيا. ومنها: إحلال الطيبات، خلافاً لبعض الأمم السابقة التي حرَّم الله عليهم الطيبات بظلمهم، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ ومن ذلك ما يأتي من حِلِّ طعام أهل الكتاب ومناكحتهم.

والباعث علىٰ بيانه هاهنا: هو أنَّ أهل الكتاب في الأصل أهل توحيد، ثم سَرَتْ إليهم نَزَعات الشرك، وكان هذا مظنَّة التشديد في مواكلتهم ومناكحتهم، كما شُدِّدَ في أكل ذبائح مُشركي العرب ومناكحتهم، فبيَّن لنا سبحانه وأعلَمنا أن لا نُعامِلَ أهل الكتاب معاملة المشركين في ذلك، وأحلَّ لنا مواكلتهم ونكاح نسائهم، وجمع بينهما للتناظر، فقال في بيان حلِّ مواكلتهم: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾، وفسَّر الجمهور الطعام هنا بالذبائح واللحوم؛ لأنَّ غيرها حلالٌ بقاعدة أصل الحِل، ولم تحرم حتىٰ من المشركين.

وقد اشترط جمهور الفقهاء أن يكون مما أُحِلَّ لنا وذكِّي بذكاتنا. وشذَّ بعض الفقهاء فقالوا: وإن ذُكِّي بذكاتهم.

ثم عطف علىٰ حِلِّ أكل ذبائحهم حِلَّ مناكحة نسائهم تكميلاً للبحث، وسوَّاهُنَّ بالنساء المؤمنات تقريراً للحكم، فقال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فإنهنَّ حِلٌّ لكم كالمؤمنات.

وقد اختُلِف في المُحصَنات، فقيل: هُنَّ العفيفات، وهو الأَوْلىٰ. وقيل: هُنَّ الحرائر.

ثم شرط لِحِلِّ المحصنات إيتاءَهن المهور، فقال: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، وقد عبَّر عن المهور بالأجور كما عبَّر في بعض آيات سورة النساء[1].

---

(١) يعني الآية ٢٤.

ثم قيَّد الحِلَّ بأن يكون ذلك النكاح علىٰ وَجْه الإحصان لا السفاح، فقال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾، فأكّد الإحصان بسَلْب هاتين الصفتين.

ولـمّا كانت إباحة ذبائح أهل الكتاب والتَّزوُّج بالكتابيات رفعت من شأن أهل الكتاب وميَّزتهم عن المشركين، أردَفَ ذلك ببيان أن الكفر يحبط العمل، وإن كان لصاحبه شأنٌ من بعض الوجوه، وذكر ذلك بصورة قاعدة عامة في الكفر، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾، وذلك لأن الكفر بالإيمان يُفسِدُ النفس فساداً عظيماً، فلم يصلح معه عمل يطبعها بما يؤهِّلها لنعيم الآخرة؛ إذ كل ما كان مع الكفر من الأعمال الحسنة النوع فليس لها في نظر الإسلام سوىٰ قيمة الطلاء. ويجوز أن يراد بالعمل الحابط: ما يسمُّونه عبادات، وأما الأعمال الخيرية؛ فإن لم تقترن بالشِّرك والرياء فقد تُخفِّفُ العذاب ـ والله أعلم ـ كما جاء في الحديث عن أبي طالب[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٢٠٨)، ومسلم (٢٠٩)، عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: «يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: نعم، هو في ضحضاح من نار ـ أي: قريبٍ من القعر ـ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار».

ولما كانت الصلاة من أهم العهود التي بين العبد وبين الله سبحانه، ومن أعظم مظاهر الإيمان الذي يحفظ كيان الأعمال الصالحة التي تطبع صاحبها بما يُؤهِّله لسعادة الدارَيْن، أدرَجَها مع الأحكام التي انتظمها السياق، ذاكراً لها بحكم من أحكامها الوضعية، وهو الوضوء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وفيه التجوُّز بلفظ الفعل عن مقاربته، (كما جاء في المادة الرابعة من المقدمة السادسة)، أي: إذا أردتم الصلاة توضؤوا ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ جمع مرفق، وهو أعلىٰ الذراع وأسفل العَضُد، ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ وقد اختلفوا في الباء: أهي للتأكيد فيجب مسح كلِّ الرأس، أم للتبعيض فيكون الواجب مَسْح بعضه؟ ثم عطف علىٰ قوله: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ قولَه: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ وهما العظمان الناتئان عند مفصل الساق من الجانبين. وإنما أخَّر الأرجل مع أنها معطوفة علىٰ الأيدي؛ لرعاية أمر الترتيب في أعضاء الوضوء بمقتضىٰ هذا النسق، ولذلك فَرَضَه الشافعيُّ رضي الله عنه.

وبعد أن ذكر الوضوء ذكر الغسل، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾، أي: إذا قمتم إلىٰ الصلاة وكنتم جُنباً فتطهَّروا طهوراً كاملاً؛ بأن تغتسلوا، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ [النساء: ٤٣]، و(الجنب): مَنْ أصابته الجنابة. يقال للواحد والمثنّىٰ والجمع مذكراً ومؤنثاً.

ولما بيَّن وجوب الطهارتين؛ بيَّن الرخصة في تركهما عند المشقَّة أو العجز؛ لأن الدين يُسْر لا حرج فيه، فقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ مرضاً يضرُّ فيه استعمال الماء أو يشق، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ حيث يعزُّ فيه الماء أو يتعذَّر. ثم ذكر سببين؛ أحدهما: من موجبات الوضوء، والثاني: من موجبات الغسل، وأدمجهما في حالة ثالثة مرخِّصة قيَّدهما بها وهي

فقد الماء، فقال: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ وهو المكان المنخفض الذي كان يُؤْتىٰ لقضاء الحاجة، ثم صار كنايةً عنها، ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وكنّىٰ به عن الجماع، ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ أي ـ والله أعلم ـ: إذا كنتم علىٰ حال من هذه الأحوال الثلاث ـ المرضِ أو السفرِ أو فقدِ الماء عند الحاجة إليه لإحدىٰ الطهارتين ـ ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي: فاقصدوا تراباً أو مكاناً من وجه الأرض طاهراً لا نجاسة عليه، ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ أي: فاضربوا بأيديكم عليه وألصقوها بوجوهكم وأيديكم إلىٰ الرُّسْغَين، بحيث يُصيبها أثر منه.

وقد جاء مِثْلُ هذه الآية في سورة النساء[1]، واستوفيت فيها البحث، فارجع إليه.

والحكمة من التيمُّم: المحافظة علىٰ الصلاة، لأنَّ الصلاة كانت علىٰ المؤمنين كتاباً موقوتاً، لا عُذْر لتركها علىٰ كل حال، والوضوء شرطٌ لها، ولكنه سبحانه خفَّف علينا ببدله في أحوال ثلاثة: المرض، والسفر، وفقد الماء. علىٰ سُنَّته سبحانه في أن يُسهِّل علىٰ الناس كل ما لا يستطيعونه أو يشق عليهم. فأبدل الطهارة الماديَّة ـ وهي الطهارة بالماء ـ بالطهارة الرمزيَّة ـ وهي التيمُّم ـ؛ حفظاً للدوام علىٰ الصلاة وحرصاً عليها.

ولما ذكر فرض الوضوء وفرض الغسل وما يحلُّ محلَّها عند تعذُّرهما أو تعسُّرهما، بيَّن حكمة شَرْعِها لنا وفائدتها لنفوسنا، وضمَّن ذلك بيان قاعدة من أعظم قواعد الشريعة السمحة، فقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾، لأنه غنيٌّ عنكم لا يُريد بما يشرعه لكم مصلحةً له، ولا إحراجاً وتضييقاً عليكم، وإنما هو لمصلحتكم وفائدتكم والتخفيف عليكم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ

---

(١) وهي الآية ٤٣ منها.

نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، فيبيِّن لكم هدايتكم في كلِّ حال من الأحوال، ويرشدكم لما به الكمال الإنساني والسمو الروحاني وتزكية النفوس والرضوان الأكبر والنعيم المقيم، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٦﴾ أي: وَلِيُعِدَّكُم بذلك لدوام شكره وذكره.

ثم ذكَّرهم بالنعمة وهي الإسلام، وبالعهد الذي أعطوه في السمع والطاعة، تنبيهاً لهم وتنشيطاً للقيام بعمل هذه الواجبات علىٰ أكمل صورة، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالهداية إلىٰ الإسلام ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ أي: عَهْدَه الذي عاهدكم به حين بايعتم رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة في اَلمنْشط واَلمكْره والعُسْر واليُسْر، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أن تنقضوا عَهْدَه بالمخالفة لما أمركم به ونهاكم عنه في هذه الآيات وغيرها، أو تُحرِّفوا شيئاً فتنسوا حظاً منه كما فعل أهل الكتاب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ لا يخفىٰ عليه ما تحويه الضمائر فَضْلاً عن المظاهر.

وفي هذه الآية دلالةٌ صريحةٌ علىٰ أن الأحكام التشريعيَّة داخلة في العهود، كما ذكرنا ذلك في مفتتح السورة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٠﴾.

وبعد أن ذكَّرهم بالميثاق، نَدَبهم إلىٰ إقامة الأحكام، وأضاف إلىٰ ذلك ما فيه دقَّة مسلك مع الوفاء بالعقود، وهو الشهادة بالقسط وإقامة العدل، رامزاً إلىٰ ما سيكون لهم من السلطان، وناظراً إلىٰ صُلح الحديبية، آمِراً المؤمنين بالتمسُّك به والسكينة إليه،

فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ أي: مبالغين بالقيام بأوامر الله أداءً وتنفيذاً بصورتها الصحيحة حتىٰ تكون مقوَّمة لا نقص فيها. ففيه الحثُّ علىٰ عمل الواجبات السابقة وغيرها كاملةً مقوَّمةً غير منقوصة.

ثم أضاف إليه الحثَّ علىٰ أن يكونوا ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾، والشهادة بالقسط تَتَضمَّن إظهار الحق وبيانَه دون مُحاباة لمشهودٍ له ولا لمشهودٍ عليه، كما قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ أي: لا يحملنَّكم بُغضُكم لقوم وعداوتُكم لهم علىٰ أن لا تعدلوا في حكمهم. فلا عُذرَ لمؤمن إذا لم يعدل، حتىٰ مع عدوه؛ لأن الحق فوق الأهواء وحظوظ النفس.

ثم أكَّد التَّحذير وقرَّره بالأمر، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿ٱعْدِلُواْ﴾، فهو فَـرْضٌ عليكم لا هوادة فيه، ثم أردف الأمر بالعدل وقرَّره بالترغيب فيه، وذكر ذلك علىٰ وجه التعليل، فقال: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: لاتِّقاء عقاب الله وسخطه. والضمير يعود إلىٰ العدل المفهوم من ﴿ٱعْدِلُواْ﴾، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

ثم ختم الكلام بما يحمل علىٰ التمسُّك بما سبق، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم إن كانت حقاً أو باطلاً، عدلاً أو جَوْراً، شكراً أو كفراً.

ولما كانت هذه الفاصلة تشير إلىٰ جزاء العاملين المتَّقين وضدِّهم؛ فصَّله بقوله[1]: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وقد حذف الموعود به مبالغةً في تعظيمه

---

(١) يجوز أن يكون بيان المصير هذا في موضع التعليل للأمر بالتقوىٰ والحث عليه، ولما قبله. (المؤلف).

وعدم تحديده، ولكنه استأنف البيان فذكر شيئاً مجملاً من ذلك الموعود به، فقال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ أي: مما لا عَيْنٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

ثم بيَّن مصير المكذِّبين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾، وفي التعبير بأصحاب الجحيم من الإيماء إلىٰ التأبيد والخلود ما لا يقوم به كلمة أخرىٰ. فأعظِمْ ببلاغة القرآن! جلَّ مَنْ هذا كلامُه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثم ذكَّرهم ببعض نِعَمِهِ عليهم، زيادةً في الحثّ علىٰ التمسُّك بتلك الأحكام والقيام بالقسط في أمر صُلح الحديبية، وأن لا تضيق صدورُهم منه؛ لأنهم في عناية الله، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾، فقد جاء عن أنس رضي الله عنه: «أنَّ ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا علىٰ النبيِّ ﷺ وأصحابه من جبال التنعيم عند صلاة الفجر، ليُوقعوا بهم ويُصيبوا منهم، فأخذهم رسول الله ﷺ، ثم أعتقهم، وكان ذلك سبب الصلح. وهذه الحادثة كانت في الحديبية، بلغت النبي ﷺ، فأرسل لهم كميناً أسر بعضهم وأتىٰ بهم النبيَّ ﷺ»[١].

وكذلك الآية تذكر بحادثة بني النضير عندما حاولوا أن يغتالوا النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنه[٢].

---

(١) رواه مسلم (١٨٠٨)، وأبو داود (٢٦٨٨).

(٢) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٣: ٣٥٤-٣٥٥).

وبقصة المحاربي حين استلَّ سيف النبي ﷺ وهو منفردٌ عن أصحابه غافلٌ عنه، وقال: من يمنعك؟ قال: «الله»، فوقع السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: «من يمنعك»؟ فقال: كُنْ خيرَ آخِذٍ، فعفا عنه، إلىٰ آخر القصة[1].

وهناك وقائعُ أخرىٰ كثيرة كفَّ الله فيها أيدي المشركين عن المؤمنين، ذكرنا بعضها في سورة الفتح.

ثم ختم الكلام بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ الذي كفَّ أيديهم عنكم، وتوكَّلوا عليه وحده، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾، ولا تحصل حقيقة التوكُّل إلا بالسَّيْر علىٰ سُنة الله في مراعاة نظام الأسباب والمسبَّبات مع التوكل.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وبعد أن ذكَّرنا الله سبحانه بميثاقه الذي واثقنا به علىٰ السمع والطاعة لخاتم

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤١٣٩)، ومسلم (٨٤٣)، عن جابر بن عبد الله.

رسله، ذكر لنا أخْذَ مثل هذا الميثاق علىٰ اليهود والنصارىٰ، وما كان من نقضهم ميثاقَه، ومن عقابه لهم علىٰ ذلك في الدنيا، وما ينتظرون من عقاب الآخرة، لنعتبر بحالهم ونتَّقي حَذْوَ أمثالهم. وصدَّر البيان باللام الـمُوَطِّئة للقسم؛ لإظهار كمال الاعتناء به، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: ليَعمَلُنَّ بالتوراة، ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ والنقيب في القوم: من يُنقِّب عن أحوالهم، ويبحث عن شؤونهم. ونقباء بني إسرائيل: هم زعماء أسباطهم الاثني عشر. والمراد ببعثهم: إرسالهم مع فرقهم لمقاتلة الجبَّارين المعارضين.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ لهم: ﴿إِنِّى مَعَكُمْ﴾ أي: بالمعُونة والنصر ما دمتم محافظين علىٰ ميثاقي، و﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾ أي: الذين سأرسلهم لكم بعد موسىٰ، ومنهم عيسىٰ ومحمد ﷺ، ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ والتعزير: النصر مع التعظيم. أي: عظَّمتموهم ونصرتموهم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: وبذلتم من المال والمعروف فوق ما أوجبه الله عليكم بالنصِّ، ولا سيما في سبيل الجهاد ونصرة الرسل، فكنتم بذلك كمن أقرض ماله لغنيٍّ وفيٍّ موثوقٍ به يأخذه منه وافياً عند الحاجة إليه. وفي هذا التعبير هزٌّ للنفوس واستدرارٌ للأكف.

أي: فأُقسِمُ لئن فعلتم ذلك ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: لأُزيلنَّ بتلك الحسنات أثر ما سلف لكم من السيئات، فلا يبقىٰ في نفوسكم منه ما يؤدِّي بكم إلىٰ العقاب، ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

وبعد أن بيَّن تعالىٰ العمل الصالح، والوعد بالجزاء الحسن عليه، أعقبه ببيان حال مَنْ كان علىٰ ضدِّه، وبيان من عادَ بعد الهُدىٰ إلىٰ الضلال، وقال: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ الذي يُوصِلُ إلىٰ صلاح القلب وتزكية النفس المؤهِّلَين للنعيم المقيم.

ثم بيَّن تعالىٰ أنهم نقضوا الميثاق ولم يعملوا بتوراتهم حسبما شرع الله لهم فيها، فكان من أمرهم وجزائـهم ما ذكره بقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي: لنقضهم ميثاقَنا الذي أخذناه عليهم وواثقناهم به ﴿لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، ومعنىٰ هذا: أنَّ نقض الميثاق وما ترتَّب عليه من المعاصي والكفر، كان ـ بحسب سُنَّة الله تعالىٰ في تأثير الأعمـال في النفوس ـ مُبْعِداً لهم عن كلِّ ما يستحقُّون به رحمةَ الله وفَضْلَه، ومُقسِّياً لقلوبهم حتىٰ لم تَعُدْ تؤثِّر فيها حُجَّة ولا موعظة.

ثم شَرَح بعض صور نقض الميثاق، فقال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، وذلك بتحريف المعاني، بحَمْل الألفاظ علىٰ غير ما هي له، أو بتحريف الألفاظ نفسها، ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: طائفةً من أصل كتابهم، وفسَّر بعض العلماء النسيان بترك العمل بقِسْمٍ منه. وكلا المعنيين واقع؛ فإن التوراة التي أُخِذَ العهد والميثاق علىٰ بني إسرائيل بحفظها، قد فُقدت باتفاق مُؤرِّخي اليهود والنصارىٰ عند سَبْي البابليين لليهود، وما كان عندهم إلا هذه النسخة، ولم يكونوا يستظهرونها، كما كان المسلمون يستظهرون القرآن في عهد النبيِّ ﷺ، وقد حقَّق كثير من مُؤرِّخي الفرنجة أن هذه التوراة التي بين أيديهم كُتبت بعد موسىٰ ببضعة قرون، كتبها عزرا الكاهن، بعد أن أُذن إلىٰ بني إسرائيل بالعودة إلىٰ بلادهم.

ثم أضاف إلىٰ نقض الميثاق فظيعةً أخرىٰ من فظائعهم، فقال: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، والعرب تعبِّر بصيغة الفاعل عن المصدر أحياناً، كالعكس، فاستعملت القائلة بمعنىٰ القيلولة، والخاطئةُ بمعنىٰ الخطيئة. والمعنىٰ: إنك لا تزال تَطَّلِعُ من هؤلاء اليهود المجاورين لكم علىٰ خيانة بعد خيانة، حتىٰ إنهم قد حاولوا اغتياله، كما مرَّ آنفاً.

ثم استثنىٰ من ذلك بعضهم بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، كعبد الله بن سَلَام وإخوانه

الذي أسلموا. والأمة مهما فسدت طِباعُها لا بُدَّ أن يبقىٰ منها بعض أفراد قلائل تغلب سلامةُ الفطرة عليهم، يكونون هم السابقين إلىٰ كل إصلاح جديد.

ثم أمره سبحانه وتعالىٰ أن يقابل تلك الخيانة منهم بعد فشلهم وفضيحتهم وذلِّهم، بما يليق به من مكارم الأخلاق وعُلُوِّ الجناب، وقال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه ما كان من أمر اليهود في نَقْضِهم ميثاقَهم، بيَّن ما كان من أمر النصارىٰ في ذلك، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، وفي هذا التعبير مبالغة في التأنيب؛ لأنهم إنما سَمُّوا أنفسهم بهذا الاسم ادِّعاءً منهم لِنُصرة الله تعالىٰ، بقول الحواريين لعيسىٰ عليه السلام: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وقد حكىٰ حالهم سبحانه بقوله: ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ علىٰ ذلك ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾، وفي هذا التعبير تأنيبٌ لهم علىٰ ما ضيَّعوا من كتابهم، كما فعل من قبلهم، وذلك لأن الذين كانوا يتَّبعون الأنبياء من الأمم الغابرة لم يمض علىٰ أعقابهم مدَّة من الزمن حتىٰ يخرجوا عن الدين الصحيح إلىٰ التحريف والتبديل، تحت تأثير الرؤساء الذين يُريد كلٌّ منهم أن يجعل له كياناً خاصاً يتميَّز به عن الآخر وحزبه. فيتَّخذ صِبْغَةً خاصَّة للدين، ويدَّعي أنها هي الصحيحة التي يجب اتِّباعها، ولا تزال تلك الصِّبغة تشتد وتبتعد عن الأصل، حتىٰ يصبح الدين غير ذلك الدين، ويفقد روحه وأصله السماويَّ، ويدخل في حدود الأديان الوثنيَّة والعقائد الشركيَّة بتوالي الأزمان.

وهكذا كان أمر اليهود والنصارىٰ، فأنَّبهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ فعلهم هذا، ثم بيَّن ما كان بينهم من التفرقة من جراء ذلك، وقال: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: فكان نسيانهم لحظٍّ من كتابهم، واختصاص كل فرقة منهم بشكل من التحريف سبباً لوقوع الاختلاف بينهم والتفرُّق في الدين. وذلك يوجب ـ بحسب السنن الإلهية في طبيعة البشر ـ العداوة والبغضاء، فكان هذا جزاءهم في الدنيا، ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾ في الأخرىٰ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ من نقض الميثاق ونكث العهد وتبديل الكتاب وتحريف العقيدة والأوامر والنواهي، وذلك عندما يحاسبهم ويجازيهم. فأقام التَّنْبِيءَ عن العمل مقام الجزاء، علىٰ نهج القرآن في ذلك.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

وبعد بيان فظائعهم المنبِّه لـهم علىٰ سوء أمرهم، وجَّه إليهم الخطاب بالدعوة إلىٰ الإسلام الـمُنْقِـذِ لـهم من هذا الضلال، وَصْفـاً للدواء بعد تـشخيص الداء، ولكنهم لم يقبلوا، فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ

﴿كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾، يعني ـ والله أعلم ـ: يعفُو عن كثير مما كنتم تخفونه لِثِقَلِهِ عليكم، بمعنىٰ: أن شريعته رفعت كثيراً من الأغلال التي كانت عليكم في شريعتكم، فلا تُضَيِّعوا هذه الشريعة فتنقلبوا خاسرين.

ثم نوَّه بشأن الـمُرْسَل به لما ذكر، وللمبالغة في الحثّ علىٰ اعتناقه، فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ بالإيمان به والعمل بموجبه ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ في الدنيا والآخرة. وهذا التعبير يتضمَّن المقابلة لقوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾. وأفرد ضمير ﴿بِهِ﴾ للإشارة إلىٰ أن الكتاب هو النور، وأنهما واحد. وتقديم الصفة وعطف الموصوف عليها للاهتمام بشأن الصفة، وهي النور.

ثم بيَّن تلك الهداية بقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتيسيره وسننه وإرادته، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ يصل سالكه إلىٰ ساحل النجاة ومواطن السعادة في الدنيا والأخرىٰ.

ثم بيَّن ما كفر به النصارىٰ دون ما كفر به اليهود، لما فيه من عظم الفظاعة، فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وقال الرازي[١] والبيضاوي: هذا لازمُ معتقدهم، ونُسِبَ إليهم توضيحاً لجهلهم، وتفضيحاً لمعتقدهم الذي يلزم ذلك[٢].

أقول: إنَّ هذا لازمُ قولِ من يقول منهم: إنَّ الجوهرَ الذي هو الله اتَّحد بالمسيح

---

(١) انظر «تفسير الرازي» (١١: ٣٢٧- ٣٢٨).

(٢) «تفسير البيضاوي» (٢: ١٢٠)، والكلام منه.

وحلَّ به وتدرَّع، فباطنه لاهوت، وظاهره ناسوت. ولازم هذا القول: أنَّ الله هو المسيح. فكفَّرهم سبحانه وتعالىٰ، ثم ردَّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: قل ـ يا أيها الرسول ـ لهؤلاء الجَهَلة المتجرئين علىٰ مقام الألوهية بهذا الزعم السخيف: إنَّ المسيح وأمه من المخلوقات التي هي قابلة لطروء الهلاك والفناء عليها، كسائر أهل الأرض، فما هما إلا عبدان من عباد الله. وقد ألمع إلىٰ هذا بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فهو المستحق للألوهية وحده، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: فإذا خلق عيسىٰ من دون أب، لا يلزم أن يكون ابناً لله، ولكنه مخلوق بقدرة الله القادر علىٰ كل شيء.

ثم بيَّن ما يقوله اليهود والنصارىٰ معاً من السخافة التي تشبه تلك السخافة، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وإطلاق «الابن» علىٰ المحبوب المقرَّب وَرَدَ كثيراً في العهد القديم. والمعنىٰ: إننا مختصُّون بمزيد الشفقة والمحبة من الله تعالىٰ، وإنَّ عنايتَه بنا أشدُّ وأكمَلُ من عنايته بمَنْ سوانا.

فأمر الله سبحانه رسوله أن يردَّ عليهم زَعْمَهم هذا بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي: في الدنيا كما تعلمون من تاريخكم الماضي، في استيلاء الأمم عليكم وتخريبِهم بلادَكم ومسجدَكم، واستعبادِهم لكم، وتكرُّر ذلك فيكم، ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ تجري عليكم سنن الله كما تجري علىٰ سائر البشر، والله سبحانه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يستحق المغفرة، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ممن يستحقُّ العذاب، ومشيئته تعالىٰ تجري علىٰ حِكَم وسُنن مطردة لا مُحاباة فيها ولا هَوادة، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾، وأعاد الآية هنا تذكيراً بقدرة الله العظيمة وسلطانه الشامل، وذلك لإثارة الشعور بالحذر منه تعالىٰ ومن مخالفة أحكامه، ولذلك

ختمها بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾، أما نظيرة هذه الآية فيما سبق فقد جاءت دليلاً علىٰ اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة، وعلىٰ قدرته القاهرة، وتَصَرُّفه بسُنن هذا الكون، وخَلْقِهِ ما يشاء، حتىٰ خلق عيسىٰ من دون أب، ولذلك ختمها[١] بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

قال في «المنار»: وبعد أن أقام الله الـحُجَّة علىٰ أهل الكتاب ودَحَض شُبهتهم التي غرَّتهم في دينهم، ذَكَّرهم بحُجَّته عليهم يوم القيامة إذا هم أصرُّوا علىٰ غرورهم وضلالهم، فقال: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أي: قد جاءكم رسولنا المعهود لكم، والمبشَّـر به في كتبكم، والمنتظر في اعتقادكم؛ فإنَّ الله أخبركم علىٰ لسان موسىٰ: أنه سيقيم نبياً من بني إسماعيل إخوتكم. وعلىٰ لسان عيسىٰ ابن مريم: بأنه سيجيء بعده البَارَقْلِيط[٢]؛ روحُ الحقِّ الذي يعلِّمكم كلَّ شيء. ولا تزال هذه البشارات في كتبكم وإن حرَّفتموها، بسُوء فهم أو بسُوء قَصْد منكم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ ﴾ أي: علىٰ حين فترة، بمعنىٰ: بعد فترة وانقطاع من الرسل. وهذه الحال تُؤْذِن بشدَّة الحاجة للرسول المبيِّنِ لما انطمس من الشرائع، كما تشير إلىٰ ما طرأ علىٰ الشريعة الأولىٰ من التحريف.

ثم علَّل مجيء الرسول للذين هم في أشد الحاجة إليه بقوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أي: إزالةً لهذا العذر، ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ ولم يبق لكم حُجَّة ولا اعتذار، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ لا يُعجزه أن يُريَكم صدقَ نبيِّه، بنصر دعوته وإعلاء كلمته. ويجوز أن تكون الفاصلة تأييداً أيضاً لما تضمَّنته الحجَّة من إثبات

---

(١) أي: ختم نظيرة هذه الآية، وهي الآية التي قبلها.

(٢) تفسير «المنار» (٦: ٤٩).

الحشر والحساب الذي توعَّدهم فيه بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾، ففيها زيادةُ تقرير للإنذار والوعيد. والله أعلم.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم ذكر لبني إسرائيل هذه القطعة التاريخية التي يَتجلَّىٰ فيها خُلُقُهم في مكابرة الحق ومعاندة الرسل الذين أخذ الله عليهم العهد باتِّباعهم، ذكر ذلك تسليةً له ﷺ، وزيادةَ عرفان بطبائع الأمم وسنن الاجتماع البشري، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا[1] وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾؛ يجوز أن يكون المراد: إنقاذهم من استعباد القبط، فأصبحوا مالكين لأنفسهم، لهم كيان مُستقل بموسىٰ وهارون وأعوانهم. ويجوز أن يكون الكلام من نوع شعور الأنبياء بمستقبل أممهم في شأن من شؤونهم بواسطة الوحي النفسي، وهو الإلهام. ويجوز أن يراد بالملوك: داود وسليمان عليهما السلام لأنهما منهم، قاله بوحي نفسي. ويجوز أن يراد: أن الله جعلكم أرباب خدم وحشم بعد ذل فرعون، والله أعلم، لأن بني إسرائيل صار لهم أنبياء وملوك عديدون بعدما انفكُّوا من استعباد الفراعنة. والله أعلم. =

يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾، فذكَّرهم بالنعمة إثارةً للنخوة؛ لأنَّ الشعور بالشرف يثير الحماس لمحافظته والدفاع عنه، وجعل ذلك تمهيداً لهم علىٰ انتدابهم لاحتلال الأرض المقدَّسة، كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ وهذا الوصف بالصلة تذكيرٌ بصدق وَعْدِ الله لهم بالنصر، وإشعارٌ به؛ تشجيعاً لهم وتهويناً عليهم. ثم أكَّد الأمر بالدخول بالنهي عن ضدِّه وبيان ما يترتَّب عليه؛ تحذيراً لهم من ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾.

ولكن هذه المعالجة النفسيَّة لم تُجْدِهم نفعاً، فعاندوا وعارضوا و﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾، فهذا الجواب يُظْهِرُ طبيعتهم في معارضة الأنبياء ومعاندتهم، كما يُظهر جُبْنَهم وذلَّهم، وذلك لأنَّ استعباد المصريينَ لبني إسرائيل قد أذلَّهم وأفسدَ عليهم بأسهم. وكان بنو عناق من الكنعانيين الذين يسكنون فلسطين أدنىٰ الأرض المقدَّسة أُولي قوة وأُولي بأس شديد، فخافوهم وجَبُنُوا تجاههم وعَصَوا رسولَهم لـمَّا أمرهم بمحاربتهم، إلا أنَّ الأمة مهما فسدت أخلاقها لا تعدم أن يكون فيها أفراد بقي فيهم شيءٌ من سلامة الفطرة وصحَّة الطباع، تندفع إلىٰ الحقِّ وتُؤيِّده.

وهكذا كان في بني إسرائيل أناسٌ صالحون، حكىٰ سبحانه عن بعضهم تأييدَهم للحقِّ بقوله: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ الله منهم دون العدو، وقد ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ بالتثبيت، واتَّفقتِ الرواة علىٰ أنَّ هذَيْن الرجلَيْن من صالحي بني إسرائيل: هما يوشع بن نون وكالب بن يفنة؛ وفاقاً لرواية التوراة عند أهل الكتاب، فهما اللذان كانا يحُثَّان القوم علىٰ الطاعة ودخول أول بلد للجبَّارين ثقةً بوعد الله وتأييده. كما قال

= وأما إيتاؤهم ما لم يؤت أحداً من العالمين؛ فيجوز أن يكون إنزال التوراة عليهم؛ لأنه أول كتاب سماوي جامع. والله أعلم. (المؤلف).

تعالىٰ في حكاية قولهما: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ أي: باب المدينة، ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾ أي: بنصر الله وتأييده لكم، إذا أطعتم أمره وصدقتم وعده، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: وعليكم بعد أن تعملوا ما يدخل في طاقتكم من طاعة ربكم، أن تَكِلُوا أمركم إليه، وتثقوا به فيما لا يصل إليه كسبُكم، فإنَّ التوكُّل إنما يكون بعد بَذْل الوسع في مراعاة السنَّة الطبيعيَّة وامتثال الأمر.

ولكنهم لم تنفعهم موعظة الرجلين، بل أصرُّوا علىٰ التَّمرُّد، كما حكىٰ عنهم سبحانه بقوله: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾، فأكدوا لموسىٰ بأنهم لا يدخلون تلك الأرض ما دام فيها الجبَّارون، وأنهم ليسوا بأهل للقتال. فإن كنت أخرجتَنا من مصر بأمر ربك لنسكن هذه الأرض التي وعدنا الله بها ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ حتىٰ تستأصل شأفة الجبَّارين، أو تتمَّ هزيمتهم.

وهذا القول يدل علىٰ منتهىٰ التمرُّد والخذلان، وضعف القلب والإيمان، وسماجة الطبع وبلادة العقل والحطة والنذالة، والجهل بسنن الله في الكون، وأنه سبحانه يدفع الأمم بعضها ببعض، حتىٰ تعود إلىٰ حظيرة الحق والصواب، ولكنهم يعتقدون أن الأمور تجري عن طريق خوارق العادات، وعجائب المعجزات.

ثم اسمع ما يقوله موسىٰ عليه السلام من بثِّ الحزن والشكوىٰ، مع الإيمان والثقة بالله والخشية منه، فقد ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: إذا أخذتَهم بالعقاب علىٰ فسوقهم وخروجهم عن الحق بانحراف طبائعهم حتىٰ بدَّلوا الطاعة بالعصيان. وقد أقام هذا اللازم ـ وهو طَلَبُ إنجائه وأخيه ـ مقامَ الملزوم، وهو طَلَبُ مجازاتهم، إيذاناً بتحقيق الوقوع.

وقد أجاب الله له ذلك بنوع آخر غير استئصالهم: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: إنَّ الأرض المقدَّسة مُحرَّمة علىٰ بني إسرائيل تحريماً فعلياً لا تكليفاً شرعياً، مدَّة أربعين سنة، يسيرون في بريَّة من الأرض تائهينَ متحيِّرين، لا يقدرون أن يعودوا إلىٰ مصر خوفاً من المصريين، ولا أن يدخلوا الأرض المقدَّسة خوفاً من الكنعانيين، ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: فلا تحزن عليهم، فإنهم خرجوا بانحراف فطرتهم من نُور العقل إلىٰ عَماء البصيرة، فاستحقُّوا هذا التأديب الإلهي لتعديل طبائعهم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ أصل البحث رامزاً إلىٰ أنَّ الذي صَرَف اليهود عن الإيمان بالنبيِّ ﷺ، وحَمَلهم علىٰ عداوته والمعارضة له، إنما هو استعداد الحسد في طبيعة الآدميين، إذا صادفها ما يكوِّنه فيه ويُنمِّيه ويدفع إليه؛ إذ الحسد ليس غريزة ذاتية في الإنسان، ولكنه مُنبعث عن غريزة الطموح وحُبِّ التفوُّق، إذا فسدت بمفاسد التربية. والحسد إذا

قوي يدفع صاحبه إلىٰ ترك التعقُّل وسوء التصرف، لذلك أمر الله نبيَّه أن يقصَّ علىٰ اليهود قصَّة ابني آدم الصالحِ والفاسدِ؛ رامزاً إلىٰ أن ذلك الإعراض عنك ناتج من انطباعهم علىٰ الحسد، فقال: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ليعلموا أنَّ حالك معهم كحال ابن آدم الصالح مع أخيه الفاسد الحسود. أو المعنىٰ: اتْلُ ذلك علىٰ الناس ليعلموا أنَّ معارضة اليهود إنما هي من حسدهم وبغيهم، ولتعلم أن حكمة الله فيما شرعه علىٰ الباغين.

ثم فصَّل القصة فقال: ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾، ولم يُبيِّـن لنا تعالىٰ كيف عَلِمـا أنه تُـقبِّل من أحدهما دون الآخر. ويحتمل أن يكون وقتئذ علامةٌ طبيعيةٌ عليه، أو يكون بشعورٍ وجدانيٍّ، لأنَّ النفس عندما تكون في حالة بَساطة، كما هو شأنها في أول أدوارها، أو في تربية بسيطة قليلة المعرفة، يقوىٰ معها الحسُّ الباطني، فتدرك خفيَّات الأمور، كما يُقرِّر ذلك علماءُ النفس. ويحتمل أن يكون ذلك بوحي من الله لأبيهما آدم عليه السلام[1].

ولما علم ذلك الذي لم يُتـقبَّل منه ﴿قَالَ﴾ للذي تُـقُبِّلَ منه مُـتَوعِّداً إيَّاه: أُقسِمُ ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَ﴾، ولم يَرْعَ العهدَ الذي أخذه الله علىٰ بني الإنسان أن لا يتظالموا، فأجابه بما يتضمَّن القاعدة العامة للقَبول وعدمه، وسَبَكَ ذلك علىٰ الاعتذار، و﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ أي: إن كان الله لم يتقبَّل منك فارجع إلىٰ نفسك فحاسِبْها علىٰ السبب، وإني لم أذنب إليك في ذلك ذنباً تقتلني به.

ثم أكمل الجواب ببيان حقيقة أخرىٰ، وهي ما يجبُ علىٰ الناس فيما بينهم من

---

(١) علموا قبولَ القربان من سنَّة بني إسرائيل بأن أكلته النار كما ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٢: ١٦٦).

احترام الدماء وحفظ الأنفس، ولا سيما الأخوة، فقال: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾، وهذا الخُلُق العالي والنظر السديد إنما ينبعث من الانطباعات الدينيّة الصحيحة، وذلك الهَوَج والحمق ينبعث من ضعف الدِّين. وإنما عبَّر بالجملة الاسمية ثانياً دون المضارع المنفي؛ لأنَّ نفي الصفة أبلغ من نفي الفعل، لأنَّه يدلُّ علىٰ أنَّ الفعل ليس من شمائله أبداً.

ثم أكَّد النَّفي ببيان علَّته، فقال: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

ثم قرَّر هذا البيان بالتذكير بعذاب الآخرة، فقال: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾، أي: إني أُريد من اتِّقاء مقابلة الجناية بمثلها أن ترجعَ ـ إنْ فعلتَها ـ مُتلبِّساً بإثمي وإثمك، أي: إثم قَتْلك إيَّاي، وإثمك الخاص بك الذي كان من شؤمه عَدَمُ قبول قُربانك. وقيل: بل المعنىٰ: إنَّ القاتل يحمل في الآخرة آثام مَنْ قتله.

وبعد أن سمع منه هذا الكلام بقي متردِّداً بين الإقدام والإحجام، حتىٰ غلبته هواجسُ الشرِّ المتأتِّية من إفساد طبيعته، ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾، ومعنىٰ: (طوَّع): جعَله يطيع، وقد ضمَّنه معنىٰ: سَهَّلَ، أي: إنَّ النفس لا زالت تعالجه بوساوسها وهواجسها حتىٰ طاع هواه ولان ومال إلىٰ هذا الفعل الرهيب، ففعله ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ في الدنيا أخاه الصالحَ، وفي الآخرة نعيمَها الدائم.

وقد تبيَّن من القصة: أنَّ الحسد يدفع صاحبه إلىٰ ترك التَّعقُّل وسُوء التَّصرُّف، ويتبيَّن أن الذي يَتمسَّك بشريعته يحافظ علىٰ طبيعته، فيعرف الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال، ويعمل بالأول ويعرض عن الثاني، والذي يهمل شريعته يفسد طبيعته، فيرتكب الثاني وقد يتعاطىٰ الإجرام.

ولما كان هذا أولَ قَتْلٍ ومَوْتٍ وقع في بني آدم، لم يعرف هذا القاتل الأول كيف يواري جثّة أخيه المقتول التي يسوؤه أن يراها بارزة، أي: أنهم لم يعرفوا بعدُ أن يدفنوا موتاهم، وكانت تؤلمه جثة أخيه التي اعتدىٰ عليها، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ لأنَّ من عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء ودفن شيئاً، فتعلم منه الدفن، وانتبه له، و﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ التي تسوؤني رؤيتها.

ولما تبيَّن جَهْلُه له عَلِمَ أنه إنما أقدَمَ علىٰ قتل أخيه لجهله وقلة معرفته، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ علىٰ قتله.

ويدلُّنا هذا علىٰ أن الإنسان في نشأته الأولىٰ كان في منتهىٰ السذاجة، وأنه لاستعداده الذي يَفْضُلُ به سائر أنواع الحيوانات كان يستفيد من كل شيء علماً وخبرة، ويرتقي بالتدريج. وقد تعلم القتل من الحيوان أيضاً، كما تعلَّم منه الصيد.

وفي الآية دليلٌ واضح علىٰ أن النوع الإنساني يتدرَّج في مدارج الكمال وسُمُوِّ العلم والمعرفة كلما مرت عليه الدهور وتعاقبت العصور، لم يُنزِل الله القرآن إلا بعد وصول الإنسان أول درجة من الكمال؛ ليدرك ما فيه من عظمة وجلال، وكان الصحابي رضي الله عنه يتعلمه، فيحكم البلاد، ويدبر شؤونها أحسن تدبير.

وقوله: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ كلمة تحسُّر وتلهُّف تُقال عند حلول الدواهي والعظائم، والألف مقلوبة عن ياء المتكلم. والنداء للويلة لإفادة حلول سببها.

ولما كان مَرْمَىٰ هذه القصة بيان استعداد البشر لإفساد فطرته واندفاعه في سبيل الشر والجناية، سيما مع الجهل وفساد الفكر، عقَّب عليها بقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: من أجل أنَّ أكثر بني إسرائيل كابن آدم هذا في إفساد الطبيعة

وسوء النظر والحسد الشرير، كتبنا عليهم هذا الحكمَ الثقيل، وهو: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ لأنه انتهك أكبر حقٍّ للإنسان. ولا تدلُّ الجملة علىٰ أنَّ هذا الحكم لم يكتب علىٰ مَنْ قبلهم، كما لا يدلُّ أن آدم خُلِقَ من طين علىٰ أن الأجناس الأخرىٰ لم تخلق من طين؛ لأن إسناد شيءٍ لشيءٍ لا يستلزم اختصاصه به. وقد أُخرِجَت هذه الجملة مخرج التهويل والتبشيع؛ لأنَّ الجرأة علىٰ القتل مَرَّةً تُذهِبُ بالحُرمة وتُجرِّئُ علىٰ القتل الكثير في المجتمع فتفسده، ولأن الواحد يُمثِّل النوع في جملته، فمَن استحلَّ دماً بغير حق يستحلُّ دمَ كل أحد، فتكون نفسه ضارية بالبغي.

والجمهور علىٰ أنَّ تخصيص بني إسرائيل بالذِّكر في هذا التشريع الشديد؛ للتعريض بإفسادهم لطبيعتهم، حتىٰ أسرفوا في البغي وقتلوا الأنبياء، ولأن التوراة أول كتاب أحكام سماويّ نزل بعد الصُّحف الأُولىٰ، أو في الدورة الأخيرة من دورات التشريع السماوي. ويجوز أن يكون تخصيصهم بالذكر لأنهم موضوع البحث في السياق، والله أعلم.

ثم أكمل البيان العام بما يقابله، فقال: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا﴾ أي: أنقذها من هلاك ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾، لأنَّ من كان سبباً لحياة نفس واحدة وإنقاذها من التَّلف أو الضيق واللهف، فهو يحمل بين جَنْبيه قلباً يدفعه إلىٰ مثل هذا العمل كلما صادفه، ولا يألو جهداً في إنقاذ كل من رآه كذلك وتخليصه، ولا يدَّخر وُسْعاً أن ينقذ الأُمة الـمُتردِّية كلَّها إذا تمكَّن، وهو الإنسان الكامل من بين أفراد الإنسان.

ويجوز أن يكون المراد بـ«الناس جميعاً»: المجتمع، وبالإحياء: إحياؤها بإقامة القصاص لها، فهو يُحيي المجتمع. والله أعلم.

وعلىٰ كلٍّ، فالآية من أساليب الخطاب المعروفة للتفخيم أو التهويل، صَدْرُها للتشنيع في أمر القتل والاعتداء، وعَجُزُها للتفخيم في أمر العطف والإخاء، وفيه إيماءٌ إلىٰ أنَّ الطمأنينة في المجتمع حقٌّ من حقوق العموم.

وفي الآية إرشاد إلىٰ ما يجب من وحدة البشر وحرص كُلٍّ منهم علىٰ حياة الجميع وحياة الفرد إلا بحقِّه، والابتعاد عن ضرر الفرد والجميع، وانتهاكُ حرمة الفرد انتهاكٌ لحرمة الجميع، والقيام بحقِّ الفرد بمقدار ما قرَّر له الشرع قيامٌ بحقِّ الجميع(١).

ولما خصَّ بني إسرائيل بهذا التشديد، للتعريض بإفسادهم لطبيعتهم، وإسرافهم في البغي والفساد، أردفه بهذا البيان المُؤْذِن بنقضهم هذا العهد الذي كتبه عليهم أيضاً، تأييداً للحُجَّة عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ في سائر ضروب البغي والفساد.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم ذكر الجزاء العامَّ للمفسدين الـمُسْرفين في الإفساد، ولا سيما المحاربين

---

(١) أنزل الله القرآن المبين علىٰ البشر بهذا الدين العظيم بعد أن بلغ النوع الإنساني رُشْدَه في المعرفة والإدراك؛ ليكون ديناً عالمياً واحداً، وتكون لغته كذلك يتعلمها كلُّ أحد في جانب لغته، ليتم بها التفاهم والتعارف والتوادُّ والتآلف بمعونة فهم تعاليم هذا الدين المبين وتوجيهاته الإنسانية القيمة، فيكون البشر أمة واحدة، كالعائلة الواحدة، ولكن الشياطين من أبنائه أبعدته عن هذا الهدف السامي والمقام الرفيع. (المؤلف).

لشرائع الله ومَنْ جاء بها من الرسل؛ ليشملَ أهلَ الكتاب الذين جاء ذِكرُهم في السياق وغيرَهم، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر الخاص بما يشمله وغيره، وعيداً لهم وإنذاراً، وتقريراً لقواعد الأحكام العامة، فقال: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وذلك بمحاربة الشرائع التي يرسلها مع رسله، وبمحاربة المتمسِّكين بها، ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾[1] حيث عارضوا الدعوة بكل قواهم، وكذلك حكم مَنْ تعاقدوا علىٰ الفساد وقطع الطريق، أو تعاقدوا ضدَّ أُولي الأمر وخرجوا عن الطاعة، وأضرُّوا بالفرد والمجتمع[2]، فجزاؤهم: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ

---

(١) هذا حكم عام بعد الكلام عن المعارضين، وهم الذين يحاربون شريعة الله والرسول الذي جاء بها، سواء يحاربون بالسيف أو باللسان.
وقوله: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ وصف عام يشمل هذا الصنف من المفسدين وغيرَهم، ولذلك دخل تحت هذا الوصف قُطَّاع الطرق وأصنافُ المفسدين في المجتمع إفساداً كبيراً.
وتؤيد هذه الآيةُ حكمَ سعد بن معاذ في بني قريظة بعد خيانتهم العظمىٰ في وقعة الأحزاب، ونزولهم علىٰ حكمه بعد المحاصرة، حيث حكم بقتل مقاتلتهم وسبي نسائهم وأطفالهم، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت عليهم بحكم الله، وبه أُمِرت».
وقوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ ...﴾ أنواع للحكم يُنْظَرُ فيها إلىٰ درجة إفسادهم ونوعه، ويوكل بذلك إلىٰ الحاكم أو السلطان. والله أعلم. (المؤلف).
وسيأتي تخريج قصة سيدنا سعد بن معاذ مع بني قريظة في التعليق التالي.

(٢) يجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون بمقتضىٰ هذا التشريع حكم سعد بن معاذ بقتل بني قريظة، لتلبُّسهم بالخيانة العظمىٰ في أحرج الأوقات علىٰ المسلمين. وذلك أنَّ النبي ﷺ عقد أول قدومه المدينة معاهدة مسالمة مع يهودها، فلما كانت وقعة الأحزاب وتحرَّج في أثنائها موقف المسلمين، اتفق بنو قريظة مع الأحزاب علىٰ أن يساعدوهم في كل شيء، ويثوروا علىٰ المسلمين من الداخل، فتأزم الموقف تأزماً شديداً حتىٰ بلغت القلوبُ الحناجرَ. ولكنه سبحانه بلطفه الخفيّ خَذَل العدو، فتراجع عن المدينة، وكفىٰ الله المؤمنين القتال. وحينئذ أمر النبي ﷺ =

﴿وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من أرضهم إلىٰ أخرىٰ فتتفرق العصابة.

وهذا التنويع في الجزاء باعتبار تنوُّع الجنايات، فيُقدَّر لكلٍّ منها واحدٌ من هذا الجزاء، فيُقْتَلُ إذا قَتَل، ويُقْتَلُ ويُصلَبُ إذا قَتَل وسَلَب، ويُقْطَع إذا سَلَب ولم يَقْتل، ويُنْفىٰ إذا لم يقتل ولم يتمكَّن من السلب ولكنه أخاف الناس. وهذا رأي جمهور الفقهاء.

وقيل: هو علىٰ رأي الحاكم، فيما يقتضيه الجرم من أحد هذه الأنواع. والتشديد في سدِّ الذرائع ركن من أركان السياسة.

والأصل في كلمة الحرب في اللغة: التعدِّي بسلب المال، أو إزالة الأمن. وقد يكون ذلك بقتل وقتال أو بدونهما. فالآية تدلُّ دلالة صريحة علىٰ أنَّ هذا العقاب لمن يُفسِدُ في الأرض بالسَّلب والنَّهب، أو القتل، أو إهلاك الحَرْث والنَّسل، أو ما شابه ذلك. وقد روي ذلك عن مجاهد، واعتمده عامة الفقهاء، حتىٰ إنَّ بعض المفسِّرين جعل صدر الآية مبالغةً في فظاعة هذا العمل، فهو محاربة لله ولرسوله، لأنه اعتداء علىٰ الحق والعدل الذي أنزله الله علىٰ رسوله، وعدم إذعانٍ لدينه وشرعه في حفظ الحقوق.

= بمُحَاصَرة بني قريظة، وكانوا بمسافة قصيرة عن المدينة، وبعد شيء من المقاومة استسلموا ونزلوا علىٰ حكم سعد بن معاذ، فحكم عليهم بقتل المقاتلة وسَبْي النساء والأطفال. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله، وبه أمرت»، فقتل منهم يومئذ ثلاثمئة مقاتل. فالآية بصيغتها حكمٌ مستقلٌّ عام يشمل الخيانة العُظمىٰ للمسلمين والنهب والسلب وإهلاك الحرث والنسل، إلىٰ أمثال ذلك من الفساد في الأرض، وبمقتضىٰ السياق عن أهل الكتاب يمكن أن يكون فيها إلماعٌ بهذا الحادث وصحَّة الحكم فيه وفي مثله، علىٰ أولئك المسرفين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، والله تعالىٰ أعلم. (المؤلف).

والحديث المذكور متفق عليه، رواه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨)، عن أبي سعيد الخدري.

وعلىٰ كلٍّ، فالآيةُ بحسب السياق تعقيبٌ لما قبلها، وبحسب النظم حكمٌ عام، علىٰ نهج القرآن في مثله، والله أعلم.

ثم بيّن تعالىٰ أنَّ هذا الجزاء هو الجزاء الدنيوي فقط، أما جزاؤهم الأخرويّ فهو عذابٌ عظيم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من العقاب هو ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾، أي: ذلٌّ وفضيحةٌ ليكونوا عبرةً لغيرهم، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣)﴾ بقدر تأثير إفسادهم في تدنيس أرواحهم وتدسية أنفسهم.

ثم استثنىٰ من هذا الحكم التائبين منهم، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)﴾، وهذه الصيغة تُؤْذِن بالترغيب بالعفو عنهم من حيث الحقوق العامة، فوق ما تؤْذِن بقَبول الله سبحانه لتوبتهم، والله أعلم، لأنَّ توبتهم ـ وهم في قوة ومَنَعَة لا يتمكَّن منهم الحاكم ولا يقدر عليهم ـ جديرة بأن تكون توبةً خالصةً لله صادرةً عن اعتقاد بقبح الذنب، والعزم علىٰ عدم العودة إلىٰ فعل مثله، وليس سببها الخوف من عقاب الدنيا، وإذن فهم قد تركوا الإفساد ومحاربة الله ورسوله تركاً صادقاً.

وقال الرازي: قال الشافعي رضي الله عنه: لما شرح ما يجب علىٰ هؤلاء المحاربين من الحدود والعقوبات، استثنىٰ منه ما إذا تابوا قبلَ القُدْرة عليهم، وضَبْطُ الكلام: أنَّ ما يتعلَّق من تلك الأحكام بحقوق الله تعالىٰ، فإنه يسقط بعد هذه التوبة، وما يتعلَّق منها بحقوق الآدميّين فإنه لا يسقط. ويحتمل أن يسقط كُلُّ حدٍّ لله بالتوبة قبل القدرة علىٰ مستحقِّه[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ

(١) «تفسير الرازي» (١١: ٣٤٨).

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

وبعد أن أشبع الكلام عن انتقاد أهل الكتاب وغرورهم، وبالغ في التشنيع عليهم والتهديد والتأنيب، وذكر حكم المفسدين؛ التفت إلىٰ المؤمنين وقد تهيَّأت نفوسهم من هذه المواعظ لقبول الإرشاد، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ بفعل الطاعات وترك المعاصي، ﴿وَجَٰهِدُواْ ﴾ الكفارَ وجاهدوا أنفسكم ﴿فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾. وهذه الآية وأمثالها في القرآن هي ملاك وجوه البر الموصلةُ إلىٰ سعادة الدارين، وهي اجتناب محَارم الله ونواهيه، وطلب التقرُّب إليه بالعبادات، وفعل الخيرات، ومجاهدة النفس، وكبحها عن التَّوغُّل في الهوىٰ والشهوات، فذلك هو طريق السعادة والفلاح في الدنيا والأخرىٰ.

وقيل: إنَّ الوسيلة هي منزلة في الجنة، وقيل: بل هي مطلق التوصُّل إلىٰ فَضْل الله ونعيمه في الآخرة، ويكون ذلك بفعل الطاعات وترك المعاصي بعد الإيمان بالله تعالىٰ.

ويجوز أن يكون المراد بتقوىٰ الله: الحذر من معاكسة سُنَنه. وابتغاء الوسيلة: الأخذ بتلك السنن الموصلة إلىٰ سعادة الدارين. والله أعلم.

ثم بالغ في الترغيب في ذلك بذكر مصير الكافرين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾، لأنَّ سنَّته تعالىٰ قد مَضَت بأن سبب الفلاح والنجاة إنما يكون من نفس الإنسان لا من خارج عنها، وقد أبان ذلك بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩ - ١٠]، فلا نَجاة إلا بتزكية النفس بالفضائل والأعمال الصَّالحة.

ثم بيَّن حالهم أثناء مكابدة العذاب، فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ أي: دائم لا ينفك أبداً. وصورة التعبير تُؤذِن بتيئيسهم وتقنيطهم. أعاذنا الله من ذلك بفضله ورحمته، وهو أرحم الراحمين.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

ولما ذكر حكم المفسدين في الأرض، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل جهراً ويغصبونها، وذلك في مضمون قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ ...﴾، عاد فتمَّم البحث عن أصناف المفسدين، وذكر حكم السُّرَّاق الذين يأكلون أموال الناس بالباطل سراً، فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا تحولُ رحمتُه دون جزاء المستحقين، ﴿حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ يضعُ الأحكامَ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة العامة.

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ نفسَه وزكَّاها بأعمال البر، حتىٰ أزال عنها تلك الأدران، وعمَّر منها ذلك الفساد والخراب، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي: إنَّ الله يقبل توبته، فلا يُعذِّبه في الآخرة. وقد اختلفوا في سقوط الحدِّ عنه، فقال بعضهم: لا يسقط. وقال بعضهم: يسقط. وقد خصَّت السنة القطع بما له قيمة في الجملة، فما دون ذلك لا قطع فيه، ولكن فيه التعزير، وجعلت نصاب القطع ما يساوي ربع دينار.

ثم ختم السياق بما يردع النفوس عن الاعتراض علىٰ هذا الجزاء الشديد، فقال:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾(١) مِمَّن يستحقون التعذيب أو المغفرة، لأن مشيئته تعالىٰ تجري علىٰ سُننٍ مُطَّردة في هذا الكون، ولا يصدر عنه شيء إلا بالحكمة والعدل، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ لا يُعْجزه شيءٌ في تدبير ملكه، ولا يمنعه مانع من تنفيذ أمره.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) الآية بيانٌ لسلطان الله المطلق وقدرته القاهرة، وأن بيده سبحانه التعذيبَ والشقاءَ والمغفرة والهناء، وليس المعنىٰ أنه سبحانه يُجري ذلك اعتباطاً وجُزافاً، كلا، فإن مشيئته تعالىٰ لا تجري إلا بالحق والعدل، وفي سنن مُطَّردة، فلا يشاء سبحانه إلا تعذيبَ من يستحق التعذيب والحرمان، والغفرانَ لمن يستحق المغفرة والرضوان؛ إذ قد سبقت مشيئته الأزلية أن يعذِّب من أفسد فطرته ودسّاها، وهو الكافر والعاصي، وأن يغفر الهفوات لمن حافظ علىٰ سلامتها وزكّاها، وهو المؤمن الطائع، وأن يكون للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولا يُجزونَ إلا بما كانوا يعملون، وجاءت بذلك الأنبياء والكتب المنزلة، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، والله أعلم.
فالآية علىٰ حدِّ قولهم: الـمَلِكُ يَنصِبُ ويَعزلُ من يشاء،ويرفع ويخفض من يشاء. فإنه يقال ذلك، والملك لا يفعل شيئاً منه إلا لأعمال تصدرُ عنهم تقتضي ذلك الأمر وتؤدي إليه (المؤلف).

ثم عاد إلىٰ بيان مساوئ أهل الكتاب، وذكر لهم من ذلك ما يتناسب مع السياق من الكلام عن الإفساد في نفاقهم ومشاغباتهم وتجسُّسهم، وفيما هو أكبر من ذلك، وهو نَقْضُهم عَهْدَ الله بتحريفهم الحدود، ومحاولتهم أن يُموِّهوا تحريف حدّ الزنىٰ علىٰ النبيِّ ﷺ(١)، فأحزنه ذلك، فسَلَّاه سبحانه ببيان طبائع البشر المفسودة ووعظه، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾، وقد شرح ذلك بقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ وهم المنافقون، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ والمراد به: ما يقوله رؤساؤهم في النبي ﷺ وفي أحكام الدين التي يتلاعبون فيها بأهوائهم. ويجوز أن يكون المعنىٰ: سمّاعون لكلام الرسول ﷺ لأجل تحريفه والكذب عليه واستنباط الشُّبهات منه.

ثم ذكر لهم شناعةً ثانيةً من هذا النوع، فقال: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي: يَتَسمَّعون عليك لهم، بمعنىٰ: هم جواسيس عليك لرؤسائهم وذوي الكيد فيهم من أعدائك.

وقوله: ﴿لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ صفة أخرىٰ لـ«قوم»، أي: لقوم لم يحضروا مجلسك وتجافَوْا عنك تكبُّراً أو إفراطاً في البغضاء، وأرسلوا إليك جواسيسهم. وقيل: هم يهود خيبر. والسمّاعون لهم: بنو قريظة.

---

(١) يشير إلىٰ الحديث المتفق عليه؛ رواه البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩)، عن ابن عمر: رضي الله عنهما قال: أُتي رسول الله ﷺ بيهودي ويهودية قد أحدَثا جميعاً، فقال لهم: ما تجدون في كتابكم؟ قالوا: إن أحبارنا أحدثوا تحميم الوجه والتجبية، قال عبد الله بن سلام: ادعُهم يا رسول الله بالتوراة، فأُتي بها، فوضع أحدُهم يدَه علىٰ آية الرجم، وجعل يقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له ابنُ سلام: ارفع يدك، فإذا آيةُ الرجم تحت يده، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما، قال ابنُ عمر: فرجما عند البلاط، فرأيت اليهودي أجنأ عليها [أي: أكبَّ ومال عليها ليَقيَها الحجارة]. «النهاية في غريب الحديث» (جنأ).

وقد اختُلِفَ في المراد مِن وصف المنافقين، فقيل: المراد به عموم المنافقين. وقيل: المراد به منافقو اليهود.

وكذلك اختُلِفَ في قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾: أهما وصف لليهود فقط، والواو للاستئناف في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾، أم لهم وللمنافقين معاً، والواو للعطف؟ وهو الأرجح بمقتضىٰ السياق.

واختُلِفَ في اللام في قوله: ﴿لِلْكَذِبِ﴾، وقوله: ﴿لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾: أهما للتعليل أم للتقوية؟ ويختلف المعنىٰ في كلٍّ ذلك، ولا يخفىٰ المراد علىٰ تقدير كلٍّ منها، فتدبَّر ذلك.

وأما قوله عنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾؛ فمعناه في المنافقين: أنهم يُحرِّفون ما يسمعونه عن النَّبيِّ ﷺ ويكذبون عليه، ومعناه في اليهود: أنهم يُحرِّفون كَلِمَ التوراة؛ إما تحريفاً لفظياً بإبدال كلمة بكلمة، أو بإخفائه وكتمانه، أو الزيادة فيه والنقص منه. وإما تحريفاً معنوياً بحمل اللفظ علىٰ غير ما وُضِعَ له، أو علىٰ ما لا يتحمَّله.

ثم ذكر صورة من تلاعبهم بالدين ومراوغتهم في الحكم في حادثة زنىٰ تقاضَوْا فيها عند النبيِّ ﷺ، فقال: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ أي: يقولون لمن أرسلوهم إلىٰ الرسول ﷺ ليسألوه عن حكم رجل وامرأة منهم زَنَيا، وأرادوا أن يُحابوهما بعدم رجمهما، يقولون لهم: إن أُعطيتم من قِبَلِ محمد حكماً بالجلد عِوَضاً عن الرجم فخذوه وارضوا به؛ وإن لم تُعْطَوْه؛ بأن حكم بأنهما يُرجَمان، فاحذروا قبول ذلك والرضاء به.

ومجمل القصة: أنَّ شريفاً من خيبر زنىٰ بشريفة وهما مُحْصَنان، وحدُّهما في التوراة: الرجم، فكرهوا رَجْمَهما لشرفهما، فبعثوا رهطاً منهم إلىٰ بني قريظة ليسألوا

رسول الله ﷺ عن ذلك، وقالوا: إنْ أَمَرَكم بالجلد فاقبلوا، وإنْ أَمَرَكم بالرجم فلا تقبلوا. فأمرهم بالرجم فأبَوا.

وقد نعىٰ عليهم سبحانه كفرهم وضلالهم بقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ واختبارَه لإظهار ضلاله بما أفسد من طبيعته، ومَحَا من نور بصيرته، بمفاسد التربية وسوء القدوة، ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ من الهداية والرشد، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾، لأنَّ من سنَّة الله تعالىٰ وإرادته التكوينيَّة في قلوب البشر، أنها إذا تمَادت في الباطل والفساد، وصار ذلك من مَلَكاتها الثابتة؛ تفقد الاستعداد للاهتداء.

ثم ذكر جزاءهم مُتوعِّداً إيَّاهم، فقال: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ وهو ما يلحقهم من الذُّلِّ والهوان، ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾، وأعاذنا الله من ذلك.

ثم أعادَ وَصْفَهم بأنهم سمَّاعون للكذب، وأضاف إليه ما يُناسبه من وصفهم بكَثْرة أكل السُّحت، ليفرِّع علىٰ ذلك ما أمره به من كيفيَّة معاملتهم، فقال: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾، وقد فسَّر ابن مسعود السُّحتَ بالرشوة في الدين، وابن عباس بالرشوة في الحكم، وعليّ رضي الله عنه بالرشوةِ مطلقاً[١]، وقال بعض المفسِّرين: إنه الحرام الذي فيه عار، كالرشوة وحلوان الزانية وأمثال ذلك.

وبعد أن وصفهم بهذا الوصف وبيَّن حالتهم هذه، أمره أن يعاملهم بما يأتي فقال: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي: فإن جاؤوك متحاكمين إليك، فأنت مُخيَّر بين الحكم بينهم أو الإعراض عنهم وتركهم إلىٰ رؤسائهم، ﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـًٔا﴾، وإن ساءتهم الخيبة واشتدوا في الإفساد، فالله حافظك

---

(١) ذكر هذه الأقوال السيوطي في «الدر المنثور» (٣: ٨٠- ٨١).

من غائلتهم، ﴿وَ﴾ أما ﴿إِنْ﴾ اخترتَ الحكم بينهم و﴿حَكَمْتَ﴾ فيهم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾. ولا تخشىٰ غائلتهم ومشاغبتهم. والمراد: إنك إن اخْترتَ الحكمَ بينهم فلك ذلك أيضاً، فاحكم بينهم. وإنما ذكر القسط لبيان الواقع، إذ لا يُتَصَوَّرُ منه ﷺ خلافُ القسط. ويجوز أن يكون ذلك للتنويه بشريعته وَوَصْفاً لها، بمعنىٰ أنها عَدلٌ وقسطٌ في سائر الأحكام.

ثم ختم الكلام بما ينوِّه بشأن العدل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ حَمْلاً للأمة علىٰ التمسُّك به في أحكامهم، مهما كلَّفهم ذلك من مشقَّة وغائلة وتنفير.

ثم أشار إلىٰ ما انطوت عليه نفوسُهم من المكر والخديعة، فقال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ولا يرضَوْنَ بحكمك. وهذا تعجيبٌ من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه، وتعجيبٌ من تولِّيهم، مع أنَّ الحكم منصوصٌ عليه في كتابهم الذي يدَّعون الإيمان به، وتنبيهٌ إلىٰ أنهم لم يقصدوا بهذا التحكيم معرفةَ الحقِّ وإقامة الشرع، وإنما طلبوا ما هو أهون عليهم وإن لم يكن ذلك حُكمَ الله علىٰ زَعْمِهم، فلما رأوه موافقاً لحكمهم تولَّوا وأعرضوا. ويجوز أن يكون تعجيباً من إعراضهم عن حكمه ﷺ، وهو مماثل لما في التوراة. والله أعلم. وهذا هو الأَوْلىٰ.

والذي أراه أن محطَّ التَّعجيب قولُه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾، وقولُه: ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ مجرَّدُ سندٍ لهذا التعجيب. أي: كيف يتولَّون عنه وهو مطابق لما في التوراة؟ وعليه، فليس فيه دلالةٌ علىٰ جواز عملهم بالتوراة بعد نزول القرآن، ولكنه برهانُ جدالٍ فقط، أو هو منسوخ بالقرآن. والله أعلم.

وبعد أن عجَّبه من أمرهم هذا تعجيباً منطوياً علىٰ بيان ما في أنفسهم من خديعة،

قرَّر ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ٤٣﴾ أي: لم يكن طلبهم للتحاكم إليك إيماناً واطمئناناً بحكمك، وإنما هم في ذلك مُخادِعون. أو المعنىٰ: ليسوا بمؤمنين بما في توراتهم.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٤٤ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٥ ﴾.

قال في «المنار»: ثم تابع السياق ببيان كون التوراة كانت هدايةً لبني إسرائيل، فأعرضوا عن العمل بها، لِـمَا عرض لهم من الفساد، وبيان مثل هذا في الإنجيل وأهله، ثم انتقل إلىٰ ذكر القرآن وإنزاله ومزيَّته، مشيراً في كل ما ذكر إلىٰ أن العبرة بالاهتداء بالدين، لا بمُجَرَّد الانتمـاء إليه، وإن إيثار أهل الكتاب أهواءهم علىٰ هداية دينهم هو الذي أعماهم عن نور القرآن والاهتداء به، فقال[1]: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾[2] وُجوهَهم لله مُخلصين له الدين، وهم أنبياء بني إسرائيل، يحكمون بها ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ بأنها شريعة لهم، ﴿وَ﴾ كذلك يحكم بها ﴿ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ المنسوبون إلىٰ الربِّ تعالىٰ وهم الكَهَنة، ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ وهم العلماء، فيحكم هؤلاء في الأزمنة والأمكنة التي لم يكن بها أنبياء ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ

(١) إنما يريد القرآن بالتوراة والإنجيل: المنزَّلين من الله تعالىٰ، لا اللَّذَيْن في أيدي اليهود والنصارىٰ في العهد الحاضر؛ لأنهما من صنع أيديهم. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٦: ٣٢٨).

﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ أي: بما ائتُمِنوا عليه من كتاب الله، وطُلِبَ منهم حِفظُه من التلاعب به، وكانوا رُقَباء عليه وعلىٰ تطبيق أحكامه، وقلنا لهم: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾، وهذا النَّهيُ لونٌ من ألوان الحَمْل علىٰ الاهتمام والعناية بشأن العدالة.

وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تتركوا الحقَّ في مقابلة منفعة دنيوية، فإنها تافهة بالنسبة إلىٰ ما يفوتكم من ثواب الآخرة العظيم.

ثم ذيَّل الكلام بهذا البيان العام، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ليتناول ما قبله وغيره. ووَجْهُ الكفر عَدَمُ إذعانهم لما في كتاب الله.

ثم جاء بمثال من أحكام التوراة، فقال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي: بما ثَبَتَ له من حقِّ القصاص، بأن عفا عن الجاني، ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ يكفِّر الله بها ذنوبه، ويعفو عنه كما عفا عن أخيه، وقوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ إجمالٌ بعد التفصيل، أو تتميمٌ للبيان.

ثم كرَّر البيان العام، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾، ووَجْهُ الظلم: عدمُ عدلهم في الحكم. فسجَّل علىٰ المخالفين الظلم بعد أن سَجَّل عليهم الكفر.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم ذكر الإنجيل وعيسىٰ بعد أن ذكر التوراة، فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ أي:

آثار أولئك النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة، قفَّينا ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: عاملاً بها غير ناسخ لها[1]، ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ مُضافاً إلىٰ التوراة ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، «مُصدِّقاً» معطوفٌ علىٰ محلِّ الجملة قبله؛ لأنهما حالان من الإنجيل، وكذلك المصدران بعده لتأويلهما بالوصف، أي: مقرِّراً له ومؤيِّداً، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

وكلمةُ ﴿مُصَدِّقًا﴾ الأولىٰ حالٌ من عيسىٰ، والثانيةُ حالٌ من الإنجيل ومعطوفةٌ علىٰ محل قوله: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾، لأنها حال من الإنجيل أيضاً.

وقوله: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ صفة ذاتيَّة للإنجيل أيضاً، وقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ صفةٌ فعليَّة له، أي: إنه يؤثِّر هذا التأثير في المتقين الذين لم يفسدوا فِطَرهم ولم يفقدوا نور استعدادهم لقَبول ذلك.

ثم أردفَ الكلام عن الإنجيل أيضاً بمثل ما قال لأهل التوراة، مما يحمل علىٰ العناية بشأن العدالة في أحكامه والتمسُّك بآدابه، فقال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ من الآداب والأحكام، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: الخارجون عن حظيرة الدين. ووَجْهُ الفسق: عَدَمُ تأدُّبهم بما في الإنجيل؛ لأنَّ الإنجيل آداب وعمل بأحكام التوراة، والفسق: التملُّص من الحق وإلقاؤه وراء الظهر. فسجَّل علىٰ المخالفين الفسق بعد أنْ سَجَّل عليهم الكفر والظلم، استقصاءً لبيان ما يجرُّ إليه الإعراض عن حكم الله من الأحوال. فمن لم يحكم به لأنه لم يؤمن به فهو كافر، ومن يؤمن به ولم يحكم به لِـهَوَىٰ ومآربَ فهو فاسق، وكلٌّ منهما ظالم للمحكوم عليه بالعدول عن الحق والعدالة.

---

(١) أي: في الجملة، وإن وقع له النسخُ في بعض الأحكام.

وقيل: الكفر والظلم والفسق كلماتٌ تَتَوارد في القرآن علىٰ حقيقة واحدة، وتردُ بمعانٍ مختلفة حسب السياق.

وأقول: ألا يجوز أن يكون الكفر في حقِّ مَنْ يستخفُّ بحكم الله، أو يراه غير صالح لعصره بزعمه، أو ينكر أنه من الله. والظلم في حقِّ مَنْ يعدل عنه لمِيْل شخصيّ وافق هواه، فحاد به عن الحق ولواه. والفسق في حقِّ من لا يهمُّه أعَدَلَ أم جار، ولكنه يدورُ مع الهوىٰ كيفما دار؟ هذا رأيي. والله أعلم بمراده.

أما إذا نظرنا إلىٰ معانيها اللغوية، فالكفر: هو ستر الحقِّ وإخفاؤه، والظلم: هو الجَوْر ووضع الشيء في غير موضعه، والفسق: هو الخروج عن طريق الحق والصلاح. وهذه المعاني الثلاثة ـ وإن اختلفت في المفاهيم ـ فهي مُتَّحدة في الماصدق، أي: فيما تصدق عليه. وهذا معنىٰ قولهم: تتوارد علىٰ حقيقة واحدة بمعانٍ مختلفة.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

ثم ذكر القرآن ومكانه من الكتب التي قبله، وألمع إلىٰ أنَّ حكمته اقتضت تعدُّد الشرائع وتدرُّج مناهج الهداية بمقتضىٰ تَدَرُّج النوع الإنساني في الدِّراية، فما كان قبل القرآن فهو مُقدِّمات له ووسيلةٌ، والقرآنُ هو المقصود والعمدة من بين جميع الشرائع،

أنزله بعد أن استعدَّ له البشر برُقيِّ المعرفة وسَعَة الوجدان في نوع الإنسان بعد مرور الزمان ووصوله أول درجة الكمال من المعرفة وسَعَة الإدراك، فقال: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أي: وأنزلنا إليك الكتاب الكامل الذي أكملنا به الدين، فكان هو الجديرَ أن ينصرف عليه اسم الكتاب عند الإطلاق، وهو القرآن. وهذه هي حكمة التعبير بـ«الكتاب» بعد التعبير عن كتاب موسىٰ باسمه الخاص: «التوراة»، وعن كتاب عيسىٰ باسمه الخاص: «الإنجيل». وقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أي: علىٰ جنس الكتاب الإلهيّ، أي: هو المرجع لجميعها والمسيطر عليها.

ثم أتىٰ بمـا هو كالنتيجة لهذا السياق، ناظراً لقصة التحكيم قبله؛ تلك القصة التي أتىٰ بالسياق تتميماً لمضمونها وتعليلاً وتأنيباً عليها، حتىٰ ذكر إنزال القرآن عليه، فوصل الكلام بها وقال: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: فاحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله إليك من الأحكام والحدود دون ما أنزل إليهم؛ لأنَّ شرعك ناسخٌ لشرائعهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ولو إلىٰ ما صحَّ من شريعتهم؛ لأنها نُسِخَتْ بالقرآن.

ثم علَّل الأمر والنهي بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، لأن الشرائع العملية وطُرُقَ التزكية الأدبية تختلف باختلاف أحوال الاجتماع واستعداد البشر المتدرج في التقدُّم بتقدُّم الأزمان وزيادة العرفان؛ لأنَّ الإنسان بطبيعته يَحْبُو في مدارج الرقيِّ النوعي، بحركته النوعيَّة، فلذلك تدرَّجت الشرائع، وتفاوتت في بعض مظاهرها، ونسخت اللاحقةُ السابقةَ منها. وإنما يتَّفق جميع الرسل في أصل الدين، وهو توحيد الله، وإسلام الوجه له بالإخلاص والإحسان، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل والحشر والحساب والنعيم والعذاب.

ثم علّق علىٰ هذا التعليل بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ليس اختلافكم من عجز في قدرة الله، ولا قَسْراً لإرادته، وإنما هو مما اقتضته الحكمةُ من خلقكم مختارين في تصرُّفاتكم ليتزايد عملُكم علىٰ الدوام، وتُؤدُّوا خلافتكم في الأرض استنباطاً وإيجاداً. والله أعلم.

قال في «المنار»: أي: ولو شاء الله تعالىٰ أن يجعلكم ـ أيها الناس ـ أمةً واحدةً ذات شريعة واحدة ومنهاج واحد؛ بأن يخلقكم علىٰ استعداد واحد مَقْسور لا يتدرَّج، ويُلزِمَكم حالةً واحدة في أخلاقكم وأطواركم وفي معيشتكم وسلوككم، بحيث تصلح لها شريعة واحدة في كل زمن. وحينئذ تكونون كسائر أنواع الخلق التي يقف استعدادُها عند حدٍّ معيَّن، مطبوعة عليه، كالطير والنحل والنمل مثلاً، ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ ذلك لأنَّ مشيئته تجري بمقتضىٰ الحكمة، بل جعلكم نوعاً ممتازاً يرتقي في أطوار الحياة بالتدرُّج، علىٰ سنة الارتقاء، فلا تصلح له شريعة واحدة من أول نشأة النوع إلىٰ نضوج كماله، وآتاكم من الشرائع والمناهج في الفهم والهداية في طَوْر طفوليَّة النوع وغلبةِ المادة عليه ما يصلح له، وفي طور تمييزه وغَلَبة الوجدانيات النفسيَّة عليه ما يصلح له، حتىٰ إذا بلغ النوع سنَّ الرشد، ومستوىٰ استقلال العقل بظهور ذلك في بعض الأقوام بالقوة وفي بعضها بالفعل، ختم له الشرائع والمناهج بالشريعة المحمدية المبنيَّة علىٰ البرهان والدليل، ومداخلة العقل في الفهم[١].

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: ليعاملكم بذلك معاملةَ المُختبِر لاستعدادكم فيما أعطاكم من الشرائع والمناهج، فتظهر حكمته في تمييزكم عن غيركم من أنواع الخلق،

---

(١) تفسير «المنار» (٦: ٣٤٦).

﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ لأنها هي المقصودة بالذات من الشريعة، ومنهج الدين في الدنيا والآخرة.

ثم ختم الآية بما يحمل علىٰ التمسُّك بصحيح الأعمال، فقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: إن الأمر سيؤول إلىٰ ما يزول معه الشكُّ ويحصل معه اليقين، وذلك عند مُجَازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. فأقام التَّنبيءَ مقام الحساب والجزاء، علىٰ نهج القرآن في ذلك.

وفي قوله: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ ...﴾ دليلٌ واضح علىٰ أن الإنسان مختار في تصرُّفاته.

وبعد أن بيَّن سبحانه أنه قد نوَّع الشرائع والأحكام وغيَّرها، حسب تطوُّرات البشر النوعية وتدرُّجه في التقدُّم، وأنَّ الشريعة المحمدية هي الأخيرة من تلك الأنواع، جاءت بعد تكامل البشر في التطوُّر، قرَّر النتيجة السابقة في السياق، وهي الأمر بالحكم بينهم بما أنزل الله، مُبيِّناً أنَّ ذلك من أهم أركان الشريعة، ومُلمِعاً إلىٰ أنَّ هذه الأحكام هي المنطبقة علىٰ أحوال البشر بعد اليوم والملائمة لشؤونه إلىٰ نهايته. فعطف علىٰ «الكتاب» ـ من قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ـ قولَه: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: وأنزلنا إليك أنِ احكم. ويجوز أن يكون معطوفاً علىٰ جملة: ﴿وَأَنزَلۡنَآ﴾، بتقدير: وأمرنا أنِ احكم بينهم بما أنزل الله، ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ ولو لمصلحة تأليف قلوبهم وجَذْبهم إلىٰ الإسلام، فالحقُّ لا يوصَلُ إليه بطريق الباطل، ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ بأن يقولوا: إنَّ في التوراة الحكم بكذا وكذا، أي: خلاف لحكمك، وهذا التعبير لمجرَّد المبالغة في التحذير.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وأعرضوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره، ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ في هذه الحياة الدنيا قبل الآخرة. والمراد من «بعض ذنوبهم»: ذنب تولِّيهم هذا. وإنما عبَّر عنه بذلك إيذاناً بأنَّ لهم ذنوباً كثيرةً ينالونها في الآخرة.

ثم هوّن عليه أمر تولّيهم بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: خارجون بإفسادهم لفطرهم من نور الحق إلىٰ ظلمات الضلال، فلا يزال أهل الفسق والضلال أكثر من أهل الحق والهدىٰ والرَّشاد، فلا يَرُعْكَ ما تراه من فسوقهم وخروجهم عن الحق إلىٰ الباطل(١).

ثم أنّبهم علىٰ تولّيهم عن قَبول الحكم بما أنزل الله، فقال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ وهو التفريق في إجراء الأحكام بين القوي والضعيف، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: بدينه، ويُذْعنون أنه موضوع حسب الحِكَم والمصالح، لا مُحاباة فيه ولا جَوْر. واللام للبيان، وتفيد هنا معنىٰ: عند. وحكم الجاهلية: هو تفضيل الشريف علىٰ الوضيع في إجراء الأحكام علىٰ الثاني دون الأول، وهو حكم مُخَرِّبٌ للعمران، مُفْسِدٌ للنظام والمجتمع وطبيعة الإنسان.

---

(١) أنزل الله سبحانه القرآن بالدين الإسلامي بعد أن بلغ النوع الإنساني رُشْده في المعرفة وسَعَة الإدراك، ليكون ديناً عالمياً ناسخاً لكلِّ ما تقدَّمه من الأديان، وتكون لغته كذلك. فيدرك البشر كله من علوم هذا الدين وتوجيهاته الإنسانية القيمة ما يجعلهم أمة واحدة، بل عائلة واحدة في التآلف والتفاهم بلغة هذا الدين، والتوادّ والتراحم بمقتضىٰ مبادئ هذه الملة الإنسانية، إذ لا معنىٰ للإنسانية سوىٰ مبادئ هذا الدين وتوجيهاته. هذا ما أراده سبحانه من البشر كلّه بعدما أنزل عليه هذا القرآن، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

هذا ما أراده سبحانه من هذا الدين للبشر أجمعين، ولكن الشياطين من أبناء هذا الجنس أبعدته عن هذا الهدف السامي والمقام الرفيع، وردَّت أكثره إلىٰ أسفل سافلين، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤ - ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. (المؤلف).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾.

ثم أردف السياق بنهي المؤمنين ـ بما فيهم ضعفاء الإيمان ـ عن اتِّخاذ هؤلاء اليهود والنصارىٰ أولياء، يثقون بهم في أحوالهم وأسرارهم؛ لأنهم متألِّبون عليهم كارهون لهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ بأن تَثِقوا بهم في أحوالكم وأسراركم، ثم أقام مقامَ التعليل قولَه: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ أي: فلا يخلص لكم فريقٌ علىٰ فريق، وإنما يخلصون لبعضهم. ثم توعَّد علىٰ ذلك توعُّداً شديداً، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ وهم الذين يُؤيِّدونهم في آرائهم ويُقوُّونهم علىٰ المسلمين، أو يخذلون المسلمين إرضاءً لهم. وقد قيَّد ابن جرير الولاية بكونها لأجل الدين[1]، كما كانت الحال في ذلك العصر، إذ قام المشركون وأهل الكتاب يعادون المسلمين ويقاتلونهم لأجل دينهم.

قال في «المنار»: وعليه، فإذا حالف المسلمون أمةً غيرَ مسلمة علىٰ أمةٍ مثلِها لاتفاق مصلحة المسلمين مع مصلحتها، فلا يدخل هذا تحت عموم هذا النهي. والله أعلم[2].

ثم بيَّن وَجْـهَ معاداتـهم للمؤمنين في دينـهم، فـقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ أي: لأنفسهم بإفسادها وإخراجها من طبيعتها، حتىٰ صار ذلك خُلقاً

---

(١) «تفسير الطبري» (١٠: ٤٠٠).

(٢) تفسير «المنار» (٦: ٣٥٦).

لها ومَلَكةٌ فيها، فإنهم بذلك يفقدون الاستعداد للهداية حسب سُنَّة الله في خِلْقَةِ البشر، فلا يميلون لهذا الدين وأهله.

وقيل: هذا تعليلٌ للوعيد وبيانٌ لسببه، وهو أنَّ من يُوالي أعداء المؤمنين الذين نَصَبوا لهم الحرب وينصرهم أو يستنصر بهم، فهو ظالم لنفسه بوضع الولاية في غير موضعها. وبهذه الولاية تفسد فطرته، فيفقد الاستعداد للهداية علىٰ وجهها المطلوب.

ثم أكمل البحث بشرح حال المنافقين في موالاتهم لأهل الكتاب والمشركين، وختمه بوعد الله للمؤمنين، تثبيتاً لهم علىٰ ترك هذه الموالاة التي نُهوا عنها، فقال: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: مُعْتلُّو الإيمان، وهم المنافقون، ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: في موالاتهم، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ فنحتاج إلىٰ نُصْرَتهم لنا، لذلك نتَّخذ يداً عندهم في السَّرَّاء، ننتفع بها إذا مسّت الضراء. والمراد: أنهم يخشونَ أن تدولَ الدولة لليهود أو للمشركين علىٰ المؤمنين، لأنهم غير موقنين بوعد الله بنصرة رسوله وإظهار دينه. فقال تعالىٰ رداً عليهم وتهديداً لهم، ضمن تقرير نصر المؤمنين: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ فيهم ﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ علىٰ ما فعلوا ونافقوا، ﴿وَيَقُولُ﴾ حينئذ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بعضهم لبعض متعجّبين من عاقبة المنافقين وفضيحة أمرهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾؟!

وقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ يحتمل أن يكون من تتمَّة قول المؤمنين، ويحتمل أن يكون من قول الله سبحانه تعقيباً علىٰ قول المؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ولما نهىٰ عن موالاة اليهود والنصارىٰ إذا كانت تلك الموالاة تأييداً لهم وتقويةً علىٰ المسلمين، كما في آية الممتحنة، وبيَّن أن موالاتهم هذه مستدعيةٌ للارتداد، حيث قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، وفصَّل أمر مَـنْ يُواليهم من المنافقين، أردفَ ذلك بمخاطَبَة ضعفاء الإيمان ومرضىٰ القلوب في جملة المؤمنين، وحذَّرهم من الموالاة بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: أشدَّاء علىٰ الكفار رحماء بينهم، يحبُّون الله ولا يُوَادُّون مَنْ كفر به، ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي: كالمنافقين الذين يخافون لَوْم أوليائهم من اليهود إذا هم قاتلوا مع المؤمنين. وهذا الوصف يدلُّ علىٰ قوَّة الإيمان؛ لأنهم بتلك القوَّة لا يخافون لَوْم لائم علىٰ ما يُصيبهم في سبيل الله، وذلك لأنهم لا يبتغون إلا مرضاة الله.

ثم امتنَّ عليهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي ذكر من الصفات العالية ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن سلمت فِطَرُهم فسَلِمَ لهم نور العقل وجلاء البصيرة التي وهبها الله لهم، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ لا ينحصر فَـضْلُه، ويضع الأشياء في مواضعها بحَسَب علمه وحكمته.

وبعد أن بيَّن سبحانه مَنْ لا تجوز ولايته، بيَّن مَنْ تجب ولايته، وأنه لا وليَّ لهم سواه، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ليس لكم ـ أيها المؤمنون ـ ناصرٌ ينصركم إلا الله تعالىٰ ورسوله وأنفسكم، بعضكم أولياء بعض، فَلْيُؤيِّد بعضُكم بعضاً ولا تَتَخاذلوا.

ولما كان لقب «الذين آمنوا» يشمل كلَّ مَنْ أسلم في الظاهر، خصَّه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يأتون بها مُقَامَةً علىٰ وجهها الصحيح، دون المنافقين ﴿ ٱلَّذِينَ

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، والذين يأتون بصُورة الصلاة يُراؤون بها الناس. أما هؤلاء المؤمنون الذين أُمِرْتُم بتَوَلِّيهم فإنهم يُخلصون صلاتهم لله تعالىٰ، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: خاشعون لله خاضعونَ لأمر الله طيِّبةً به نفوسُهم. هذا إذا كانت الواو للحال من فاعل الفِعْلَين، أما إذا كانت استئنافية، فيجوز أن يكون المراد من الركوع المبالغة في مواظبتهم علىٰ النوافل، والله أعلم، لأن الركوع يأتي بمعناه الاصطلاحي، ويأتي بمعناه اللغوي. وهي بمنزلة آية البقرة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]. وكآية آل عمران في مريم عليها السلام[١].

وإنما أفرد لفظ ﴿وَلِيُّكُمُ﴾؛ لأنَّ الولاية قد تكون من أكثر من واحد، أو للإيماء إلىٰ أن الوليَّ الناصر بالذات هو الله تعالىٰ، وأنَّ ولاية الرسول والمؤمنين تبعٌ لولايته.

ثم نوَّه بشأن هذه الولاية وثمرتها، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: فهم حزبُ الله، وحزبُ الله هو الغالب.

والآية تدلُّ علىٰ أنَّ المؤمنين كانوا في ذلك العصر طبقتين: طبقةً مخلصة كلَّ الإخلاص لله ولرسوله وللإسلام، وفانيةً فيهم كل الفناء، وقائمة بواجباتها كل القيام. وطبقةً ثانية هي دون تلك بمراحل متفاوتة، والآيةُ تدعوها إلىٰ أن تكون تابعةً لآثار الطبقة الأولىٰ التي نوَّهت بشأنها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ

(١) يعني: الآية ٤٣، وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ النَّهي عن اتخاذهم أولياء واصفاً لهم بوصف آخر، يُومئ إلىٰ الملة، ويُهيِّج فيهم النخوة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أمر الموالاة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾، فلا تضعوها في غير موضعها.

ثم بيَّن استهزاءهم بحكم من أحكام الدين، فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ولو عقلوا معنىٰ الأذان لخشعت قلوبُهم واستكانت نفوسُهم. وأكثر هذا الاستهزاء أو أشدُّه من اليهود، كما يُعلَمُ ذلك من ردِّ الله تعالىٰ عليهم في الآيات التالية، بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ علىٰ الرسل. أي: هل تنكرون وتعيبون علينا إلا إيمانَنا الصادق بالله وتوحيده وتنزيهه، وإثبات صفات الكمال له؟ ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ خارجون عن حقيقة هذا الإيمان الصحيح، وليس لكم من الدين إلا العصبيَّة الجنسية والتقاليد الباطلة. فكيف تعيبون الحسن من غيركم، وترضون القبيح من أنفسكم؟ فالاستفهام للتبكيت والتجهيل.

ثم ترقَّىٰ في الإنكار علىٰ استهزائهم إلىٰ ما هو أنكىٰ وأشد منه تبكيتاً وتشنيعاً عليهم، وذلك بما فيه من التذكير بسُوء حالهم مع أنبيائهم، وما كان من جزائهم علىٰ

فسقهم وتمرُّدهم، بأشد ما جازىٰ الله تعالىٰ به الفاسقين الظالمين لأنفسهم، وهو اللعنُ والغضبُ والمسخُ الصُّوري أو المعنوي النفسي، فقال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ أي: جزاءً وعقاباً ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾[1]، أي: مسخهم في الصورة أو الروح، أو القلوب والعقول، علىٰ خلافٍ في ذلك. وقيل: هو كالتمثيل[2]، أي: صاروا كالقِـرَدَة في نزواتها والخنازير في اتِّباع شهواتها. والمراد أنهم أفسدوا طبائعهم وحرَّفوا فطرهم تحريفاً أخرجوها به عن طبائع البشر، فردُّوا إلىٰ أسفل سافلين، وضلوا ضلالاً بعيداً، بَعُدوا به عن رحمة الله. وأفرد الضمير في قوله: ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ باعتبار لفظ ﴿مَن﴾ وجمعه في قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ باعتبار معنىٰ ﴿مَن﴾، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وإنما أفراد الضمير في «لعن» و«غضب» لأن ذلك يتعلق بالفرد.

وقوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ فيه قراءتان:

الأولىٰ: بنصب «الطاغوت» علىٰ أنه مفعول به، ﴿وَعَبَدَ﴾: فعلٌ ماضٍ معطوفٌ علىٰ ﴿لَّعَنَهُ﴾، أي: من لعنه الله وعبد الطاغوت، فيكون عطف السبب علىٰ المسبَّب. أو من لعنه الله وعبد الطاغوت.

---

(١) تُلهِمُ هذه الآية أن استهزاءهم كان ينطوي علىٰ انتقاصهم للمؤمنين وتصويرهم أشراراً ضالِّين مُضلِّين، فلقَّن الله سبحانه رسوله أن يفنِّدهم بما يدحض بهتانهم، ويردُّ الوصف عليهم، مُثْبتاً ذلك بالواقع، بعد أن مهَّد لهذا الرد بنزاهة عقيدة المؤمنين وكمال إيمانهم. ومفاد الرد: أن المؤمنين ليس كما تُصوِّرونهم وتبهتونهم، ولكن هل أُنبئكم بمن هم أشرّ من ذلك وأنكىٰ جزاء، هم مَنْ غضب الله عليهم وجعل منهم القردة والخنازير، أي: تحوَّلت طبائعهم إلىٰ هذه الطبائع. (المؤلف).

(٢) وهو أضعفُ الأقوال في تفسير الآية وأبعَدُها، والصحيح من الأقوال المذكورة قبله: أن المسخ وقع في الصورة، لأن فساد الروح أو القلب أو العقل لا يُقال عنه: مَسْخ، في اللغة بحسب الحقيقة، والحقيقة هي المُقدَّمة ما دامت ممكنة.

والثانية: بجرِّ «الطاغوت»، فيكون «عُبَّد» جمع عابد، مثل خُدَّم وخادم، وهو معطوف على «القِرَدة»، أي: وجَعَل منهم القردةَ وعبيدَ الطاغوت، بإفسادهم لفطرهم وخروجهم من نور البصيرة والنظر الصحيح، إلىٰ ظلام التقليد والجمود علىٰ الضلال(١).

و﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾: كلُّ رأس في الضلال، وكلُّ ما يُعبد من دون الله.

ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، إذ لا مكان لهم في الآخرة إلا النار. أو المرادُ من إثبات الشر لمكانهم: إثباتُه لأنفسهم من باب الكناية، مثل: خبيث الثوب، خبيث الدار. أي: هم أشرُّ الناس، ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ أي: عن قَصْد طريق الحق. والـمَثُوبة: الجزاء مطلقاً. وقيل: هي الجزاء الحسن، واستعمالها هنا في الجزاء السَّيِّئ تهكُّم.

ثم تابع شرح حالهم بالكلام عن حال منافقيهم، فقال: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي: خرجوا من عندك كما دخلوا لم يُؤثِّر فيهم ما سمعوا منك. والباء للمُصَاحَبَة والملابَسَة. وهذا تعبيرٌ عن النفاق بأبلغ الوجوه، يُسَجِّل عليهم بقاءَهم علىٰ الكفر المتأصِّل فيهم، وأنَّ ما يَدَّعونه من الدخول فيكم بالإيمان، إنما هو مُجرَّد مُخادَعة ونفاق، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ثم تابع الكلام عنهم بشرح حال أكثرهم، فقال: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾، وهو الدنيء من المحرَّم. فسجَّل عليهم التوبيخ بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم وبَّخ الربانيين والأحبار علىٰ إهمالهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتىٰ

---

(١) انظر القراءة في «المحتسب» (١: ٢١٤).

آل الأمر بهؤلاء إلىٰ ما قصَّه عنهم، فقال: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ قال ابن عباس: ما في القرآن أشدّ توبيخاً من هذه الآية[١]. والصُّنع: إجادةُ الفعل، ففيه تهكُّم بديع.

وفي الآية تأنيبٌ شديدٌ لمن يتهاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سيما من كان أهلاً لذلك.

ويجوز أن يكون في الآية تأنيبٌ للرؤساء بعد تأنيب الأتباع، أي: كان عليهم أن يهتدوا ويهدوهم. وكلمة ﴿لَوْلَا﴾ للتحضيض التهكُّمي التأنيبي. ويجوز أن يكون حضّاً حقيقياً، علىٰ نهج القرآن في الدعوة إلىٰ الإيمان بعد نقد الكفر والعصيان.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

ثم بيَّن شيئاً من قولهم الإثمَ مُشنِّعاً عليهم ومُشَهِّراً بهم، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، قال الجاحظ: يعنون أنه سبحانه يضيق العيش علىٰ الفقراء؛ لأنَّ اليهود قوم جبريَّة، والجبريَّة تُبَخِّل الله مرة وتُظَلِّمه أخرىٰ، وهو لازمُ عقيدتها، وإن لم تُقرَّ بلسانها[٢].

وروي عن مجاهد: أنهم قالوا: لقد أجْهَدَنا اللهُ حتىٰ جعل يَدَهُ في نحره؛ يريدون: أنه ضيَّق عليهم الرزق.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠: ٤٤٩).

(٢) «رسائل الجاحظ» (٣: ٣٤٥).

ويجوز أن يكون هذا الموقف منهم منبعثاً مما كان يملأ صدورهم من الغيظ والسخط من رسوخ قدم النبي ﷺ وانتشار دعوته، ومقاطعة المسلمين لهم بسبب مواقف الكيد والجحود، حتىٰ أثّر ذلك علىٰ حالتهم الاقتصادية، فدفعهم إلىٰ ما كان منهم من سُوء الأدب في حقِّ الله. فقال تعالىٰ رداً عليهم وتوعُّداً لهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾، فهو دعاءٌ عليهم يُناسب جُرْمَهم هذا، وجزاءٌ لهم بالطرد والإبعاد من رحمة الله. فما زالوا أبخَلَ الأمم، لا يبذل أحدهم شيئاً ما لم يَرَ أن من ورائه ربحاً.

وبعد ذكر الجزاء صرَّح بالرد، فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، ومشيئتُه تعالىٰ تجري حسب الحكمة وفي سَنَن مُطَّردة لا تتبدَّل، أي: بل هو صاحب العطاء الشامل والجود العميم، يُعطي حسبما تقتضيه الحكمة، لا علىٰ رغائب البشر.

وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ كنايةٌ عن منتهىٰ السخاء، مأخوذٌ من حال المُخَاطَبين، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية)، لأنَّ الذي يكون في منتهىٰ السخاء يُعطي بيديه لكثرة السائلين.

ولما كان مضمون ما تقدَّم يدل ـ فوق ما ذكرنا ـ علىٰ شدَّة حرصهم علىٰ الدنيا وما إليها، أردفه بما يتضمَّن أن إنكارهم لنبوته ﷺ من جملة ذلك، وألمع إلىٰ أنَّ سوء أدبهم هذا مُنْبعِثٌ عن هذا الإنكار وما تسبَّب عنه، فقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾[1]؛ حَسَداً منهم وبغياً أن يكون نبيٌّ من غيرهم، وغضباً لذلك، رغماً عمَّا يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة من صحَّة ما أنزل إليك.

---

(١) ومن ذلك: لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ [البقرة: ٢٤٥]، تصدَّىٰ كثير من الصحابة إلىٰ وقف أعزِّ أموالهم للفقراء والمصالح الخيرية، أما اليهود فقد قالوا استهزاءً بالآية وإنكاراً لصحَّة القرآن ونبوة محمد ﷺ، قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]. ومن ذلك: العجاجة التي أثاروها في تحويل القبلة، وأشباههما. (المؤلف).

ثم أزاح ما عسىٰ أن يُتوهَّمَ من ضررهم له ﷺ من جرَّاء هذا الحسد، فقال: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ إذ كانوا يسعون لتأليب المشركين ضدَّ النبيِّ ﷺ فتفشل خططهم.

ثم ذكر انطباعهم علىٰ الفساد، وجعله في موضع التعليل لما قبله أو التقرير، وقرنه بالوعيد، فقال: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾، فيُجازيهم علىٰ ذلك جزاءً شديداً. فالآيةُ تدلُّ علىٰ شدَّة سعيهم بالفساد وفشلهم فيه. وكثيراً ما كانوا يُغرونَ المشركين بالنبيِّ ﷺ والمؤمنين. ومنشأُ تلك العداوة فيهم: عَبَثُهم بالدين حتىٰ أصبح غير مُرَبٍّ للنفوس، وأصبح التنافس والتشاحن والتحاسد والتباغض خُلُقَهم الدائم وشأنهم العميم. وضمير: ﴿بَيْنَهُمُ﴾ قيل: يعود لليهود، وقيل: لهم وللنصارىٰ.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

وبعد أن بالغ في ذمِّهم وتهجين طريقتهم، بيَّن الطريقة الصحيحة التي لو اتَّبعوها نَجَحوا وربحوا، علىٰ نهج القرآن في الدعوة إلىٰ الإيمان بعد نقد الكفر والطغيان؛ وصفاً للدواء بعد تشخيص الداء، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾.

وبعد أن بيَّن جزاءهم في الآخرة علىٰ ذلك، بيَّن جزاءَهم في الدنيا وصلاحَ حالهم إذا أقاموا دينهم علىٰ الوجه الصحيح، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[1]

---

(١) لا يقدح أن للتوراة والإنجيل الصحيحَيْن لم يبق لهما وجود عندهم، لأن الكلام علىٰ التمثيل والإلزام الجدلي. وإنما الآن مندمجان في القرآن، فإقامته إقامة لهما. (المؤلف).

الصحيحَيْن بالعمل بهما علىٰ أقوم الوجوه، ﴿وَ﴾ كذلك أقاموا ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ علىٰ لسان هذا النبي الذي بشَّرت به كتُبهم، ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾[1] أي: من بركة أمطار السماء ونبات الأرض. وهي كنايةٌ عن سَعَة رزقهم مع الراحة والهناء، وذلك لأنَّ في إقامة شرائع الله علىٰ وجهها الصحيح إصلاحاً للنفوس، وتنظيماً للأحوال، ووقوفاً عند الحقوق، وأماناً في المعاملات، وتآلفاً بين الأفراد والجماعات، وفي صلاح المجتمعات تفاهمٌ وتَحابٌّ، وخيرٌ وبركات، وسعادةٌ ورفاه، وسَعَةٌ في الرزق وعيشٌ رغيد.

وفي هذا تنبيه إلىٰ أنَّ ما أصابهم من الضَّنْك والضِّيق إنما هو من شؤم جناياتهم، وعدم إقامتهم التوراة والإنجيل الصحيحَيْن، وفقد الثقة في المعاملات والمعاهدات، وفساد المجتمعات، لا من قصور في فيض الله وعظيم عطائه. وفيه إشارة إلىٰ أنهم لو أقاموهما لَـمَا عاندوا النبيَّ ﷺ ذلك العناد ولآمنوا به، لأنهما يأمرانهم بذلك، وحينئذ لم يقاطعهم المسلمون هذه المقاطعة التي أثَّرت في حالتهم الاقتصادية أثراً بالغاً.

ويجوز أن يراد بقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾: أسلافُهم الذين كانوا زمن العمل بهما، وبقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ المعاصرون لرسول الله ﷺ ومَنْ بعدهم؛ لأن الصِّنفَيْن وحدةٌ واحدة.

ولما كان القرآن العظيم عاليَ الشأن في الضبط وتحرِّي الحق الدقيق والعدل في الأحكام علىٰ الأشياء وتمحيص الحقائق، أردف البيان السابق العام عن أهل الكتاب بهذا التَّخصيص الاستثنائي، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالاستثناء لتحقيق الحق

---

(١) لا شرَّ يحدث للفرد والجماعات إلا بمعاكسة سنن الله الكونية، والكتب السماوية كفيلة بالحفظ من ذلك. (المؤلف).

الدقيق، فقال: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: ليسوا كـلُّهم كذلك، بل منهم أمة معتدلة في أمر الدين من السلف والخلف؛ لأنَّ الأمة مهما أوْغَلت في الفساد لا تخلو من أفراد يحافظون على سلامة فِطَرِهم ونور بصيرتهم، ولكنهم لا يقدرون علىٰ رَدْعِها لقلَّتهم وضآلة صوتهم وخُفُوته. وهكذا تهلك الأمم بكثرة الذين يعملون السوء من أشرارها، وقلة الذين يعملون الصالحات من أخيارها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

وبعد أن ناقش أهل الكتاب والمنافقين، ودَحَض شُبَهَهم، وأنَّبهم علىٰ معارضتهم لهذا الدين المبين، وحَكَم بكفرهم، التفت إلىٰ الرسول ﷺ يأمره بقوةٍ أن يبالغَ في الدعوة إلىٰ ما أُنزل عليه من ربِّه، ولا يألوا جهداً فيها، ولا يهتم بهؤلاء المعارضين، لأنه سبحانه عاصمُه منهم وحابطٌ لخبائـثهم، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[1]، عَنْوَنَه بالرسالة للإيذان بأنها من موجبات التبليغ.

ثم شدَّد عليه بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾.

ثم بيَّن سبحانه شدَّة عنايته به، فلا يخشىٰ مكروهَهم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

ثم علَّل ذلك من ناحية السُّنن الكونيَّـة والنشأة الإنسانيَّـة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: لا يهديهم إلىٰ طريق النجاح فيما يَهِمُّون به من صدِّك،

(١) هذه الآية امتداد لما في السياق من معارضة أهل الكتاب وغيرهم، وتعقيب بمـا فيه حضٌّ علىٰ الثبات وتأييد وتشجيع. وختمها بما فيه تهوينٌ لأمر الكافرين المعارضين. (المؤلف).

فيكونون خائبين؛ لأنَّ المتشبِّع بالكفر والضلال لا يهتدي للطرق الصحيحة والرؤية الصادقة بالنسبة إلىٰ المؤمن إيماناً صحيحاً، والمسلم إسلاماً صريحاً.

ويجوز أن تكون هذه الفاصلة بياناً لوجه ما تضمَّنه السياق من تصلُّب هؤلاء الكافرين في معارضتهم لهذا الدين المبين، فتكون تعليلاً لذلك، علىٰ نهج القرآن في مثله. أي: إن ذلك ناشئٌ من تشبُّعهم بالكفر والضلال، فإنَّ مَنْ تشبَّع بهما فَقَدَ الاستعداد للهدىٰ والرشاد، حيث يُمحَىٰ منه صفاءُ القلب ونورُ البصيرة.

وفي الآية تسليةٌ له وتهوينٌ عليه، أي: إنَّ هذا هو المنتظر منهم لفساد طبيعتهم، فلا يثقل أمرُهم عليك.

وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أُخْرِجَ مَخرَجَ التَّشديد والإغْراء بمضمونه، وذلك لونٌ من ألوان شدَّة البيان في القرآن. وهذا المضمونُ والإغراءُ يُلْمِعُ بفَحْواه أنَّ الرسول ﷺ معصومٌ عن كلِّ ما يُخلُّ بذلك، وأنه أدَّىٰ الرسالة علىٰ أكمل الوجوه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

وبعد أن أمره بالتبليغ ـ طاب علىٰ السامع أو ثقل ـ أمَرَه أن يُجابه أهل الكتاب بهذه الحقيقة المُرَّة، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الصحيحَيْن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: في هذا القرآن. والإقامة: أن يُعمَلَ به مقوماً علىٰ وجهه الصحيح، وفيهما الإيمان بمحمد ﷺ.

وفي الآية عبرةٌ للمسلمين، وأنهم ليسوا علىٰ شيء أيضاً ما لم يقيموا ما أُنزل إليهم من ربهم، ولا يكفيهم مجرَّد الانتماء إلىٰ الإسلام والتسمية به. فحُجَّة الله علىٰ جميع عباده واحدة بلا تفريق.

وهذا الكلام مبنيٌّ علىٰ الإلزام الجَدَلي، فلا يكون حُجَّة علىٰ أنَّ الكتب التي في أيديهم هي توراة وإنجيل صحيحان، ولا علىٰ وجوب عملهم بها الآن، وإنما المراد إقامة التوراة والإنجيل الصحيحَيْن اللذَين تضمَّنهما القرآن، وفيهما وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ واتِّباعه، وفاقاً لما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [الآيات من سورة آل عمران: ٨١].

ثم أعاد الجملة الآتية تيئيساً من إيمانهم، أو إيمان الكثير منهم، فقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ لأنـهم ينظرون إليه بعين العصبية والعدوان، لا بعين الإخلاص وتحرِّي الحق وتبيُّنه، ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٦٨﴾ إذا لم يؤمنوا، وقد وضع الظاهر موضع الـمُضمَر، للإيماء علىٰ علَّة الحكم، وهي تشبُّعهم بالكفر، فهو الذي يمنعهم من الإيمان، حَسَب سُنَّة الله تعالىٰ في طبيعة الإنسان.

ثم أردف ما تقدَّم، ببيان حقيقة الإيمان والمؤمنين ومصيرهم، ومصير أولئك القليل من أهل الكتاب المقيميـن له، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٩﴾، وإنما كان ذلك قبل أن تُنْسَخ كـتبُهم، وقبل أن يعبثوا بها. ومن هؤلاء كذلك مَنْ عُذِّب علىٰ توحيد الله ورُمي بالزندقة لرفضه تقاليد الكنائس والبدع التي شَرَعها الأحبار والرهبان في مجتمعاتهم. وهذا وعدٌ كريم وأجرٌ عظيمٌ، لا حرمنا الله منه.

وإنما رفع (الصابئون) لأنه مُقْحَم في السياق وجديدٌ فيه، إذ لم يكن مشهوراً أنهم من أهل الكتاب، فهو علىٰ معنىٰ: والصابئون كذلك، لأنَّهم أهل كتاب أيضاً. فنبَّه علىٰ هذا بتغيير نسق الإعراب، وذلك من أساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية)، وقدَّمه علىٰ «النصارىٰ» ليتمَّ الترتيب، ولم يفعل مثل هذا في الآية الشبيهة في سورة البقرة؛ لأن السياق هناك لم يكن في أهل الكتاب، وإنما كان في اليهود. والله أعلم. جلَّ مَنْ هذا كلامه، وخاب مَنْ يقول بترجمة القرآن.

وقد كان الصابئون علىٰ ملَّة إبراهيم قبل أن يحدث فيها الشرك. وقيل: هم من أتباع يحيىٰ، فهم قبل النصارىٰ.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

ثم أعاد التذكير بأخذ الميثاق علىٰ بني إسرائيل، فختم السياق بما بدأه به، علىٰ نهج القرآن في مثله، وقد ذكر معه إرسال الرسل إليهم، وما كان من تمرُّدهم وعُتُوِّهم، فقال: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، والمراد بأخذ الميثاق: إرسال الشريعة وتكليفُهم بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾، فكانوا ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: بما يُخالف أهواءهم، وما يُضادُّ شهواتهم، من الأحكام الحقَّة، ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ فأفادت الآية أنهم بلغوا من الفساد واتِّباع الأهواء الدرجةَ القصوىٰ. والتعبير عن القتل بالمضارع دون الماضي لاستحضار صورته المنكرة في الذهن كأنه واقع في الحال. وفي تقديم المفعول تشويقٌ للمتأخر، ففيه تنبيهُ الذهن إلىٰ شَنَاعة الفعل.

ثم زادهم شناعةً ببيان أنَّ منشأ تماديهم في هذا الفساد والتمرُّد والعتو، إنما هو غرورهم وزَعْمُهم الباطل بأنهم أبناء الله وأحباؤه، فلا يصيبهم ببلاء، فقال: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: حسبوا أنهم لا يصيبهم بلاءُ ما يفعلون؛ لأنهم مقرَّبون عند الله، وآمِنون من عذابه، ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ عن آيات الله في كتبه المؤْذنة بعقابه للأمم المُفْسِدة، وأن ذلك من سنن الله في خلقه، وعن سماع المواعظ التي جاءهم بها الرسل، وأنذروهم عقاب الله لمن نقض ميثاقه، فعَمُوا وصمُّوا عن كلِّ ذلك، فسَلَّط الله عليهم البابليين فجاسُوا خلال الديار، وأحرقوا المسجد الأقصىٰ، ونَهَبوا الأموال، وسَبَوُا الأمة، وسلبوها الملك والاستقلال، ﴿ثُمَّ﴾ تابعوا وأقلعوا عن الفساد و﴿تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ ورحمهم وأعاد إليهم ملكهم وعزَّهُم، ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ مرةً أخرىٰ، فأفسدوا وتمرَّدوا، وعَتَوْا وقتلوا الأنبياء كزكريا ويحيىٰ، فسلَّط الله عليهم الفُرْسَ ثم الروم، فأزالوا ملكهم واستقلالَهم، وسيأتي هذا أيضاً في سورة الإسراء.

أما قوله: ﴿كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ فهو بَدَلٌ من الواو في الفِعْلَين. والغرض منه: تحرِّي الحق الدقيق في الحكم عليهم، علىٰ نهج القرآن في مثله. بمعنىٰ: أن ذلك لم يكن مستغرقاً لجميع أفرادهم، وإنما هو الغالب فيهم، لأنَّ الأمة ـ مهما أوْغلَت في الفساد ـ لا تَعدِمُ أفراداً منها سَلِمَت فِطَرُهم وبقي فيهم بقية من نور البصيرة، ولكن العبرة بالغالب لا بالقليل النادر، فإنه لا يؤثر في صلاح ولا فساد. ثم توعَّدهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١﴾.

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ

وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾.

ثم انتقل من بيان حال اليهود وفظائعهم، إلىٰ بيان حال النصارىٰ وفساد عقيدتهم، ونقضهم لميثاق الله الذي هو قبولُهم للدين وما جاء فيه، فقال: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾، وهذا قولُ طائفة منهم، وهي التي تقول: إنَّ الجوهر ـ الذي هو الله ـ حلَّ في المسيح وتدرَّع به، فباطنُه لاهوت، وظاهرُه ناسوت.

وقال البيضاوي والرازي: إنَّ هذا لازمُ قولِهم: إن فيه لاهوتاً؛ لأن معناه الحلول. وقد نسب إليهم لازمَ قولهم، توضيحاً لجهلهم بما يلزم في عقيدتهم هذه من أنَّ الله هو المسيح، وتفضيحاً لمعتقدهم هذا، وتشنيعاً عليهم[1].

ثم ردَّ عليهم اعتقادهم هذا، ببيان ما قد قاله المسيح لهم، من التوحيد والتحذير من الشِّرك، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾، هذا ما قاله لهم المسيح، أمَرَهم بالتوحيد الخالص، وقفَّىٰ عليه بالتَّحذير من الشرك، والوعيد عليه، وهم ينسبون له ادعاء الألوهية.

ثم ذكر سبحانه شناعةَ طائفة أخرىٰ من طوائفهم، وقرنها بالردِّ والوعيد، فقال:

---

(١) انظر «تفسير البيضاوي» (٢: ١٢٠)، و«تفسير الرازي» (١١: ٣٢٧-٣٢٨).

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ وهم: الله والمسيح ومريم، أو الأب والابن وروح القدس. وهذه بعينها عقيدة الرومان، فإنهم يقولون: الإله وزوجته وابنه الوحيد.

فردَّ عليهم بقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو الله سبحانه وتعالىٰ.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: الذين أصرُّوا علىٰ هذا الكفر، وبقوا عليه، لَيَمَسَّنَّهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ في الآخرة. وهذا وعيدٌ رهيب.

وبعد أن ألزمهم بقول المسيح عليه السلام، وتوعَّدهم إذا بقوا علىٰ باطلهم، رغَّبهم بالتوبة، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد، فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدىٰ.

ثم ذكر الحقَّ في أمر المسيح، مقروناً بالبرهان العقلي في الردِّ عليهم، وتسخيف عقيدتهم في ألوهيته، فقال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ وهو مِثلُهم وواحدٌ منهم، لا يمتاز عليهم بشيء، ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ كسائر الصِّدِّيقين، فهما بَشَران كسائر البشر، ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: لا يمتازان بشيءٍ عن حقيقة الإنسان، فكيف يكون المسيح إلهاً؟!

ثم عجَّب من حال هؤلاء المدَّعين هذه الدعوىٰ في المسيح، وجهَّلهم، فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ بالحُجج الدامغة علىٰ بطلان دعواهم، ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: يُلْعَبُ بعقولهم، ويُصْرَفون عن الحق.

ثم ذكر وجهاً آخر في تبكيتهم والردِّ عليهم، فقال: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن

دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، فهذا دليلٌ آخر علىٰ بطلان عقيدتهم في المسيح وردٌّ عليهم، ذيَّله بما فيه أمران: اختصاص الألوهية بالله تعالىٰ، ووعيدهم علىٰ إشراكهم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ الذي يحيط عِلمُه بجميع الأشياء، فهو وحده المستحقّ للألوهية، ولا يخفىٰ عليه من أمرهم خافية، فلهم الويل مما يصفون.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ
قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟
وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا
كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا
قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟
يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ثم جمع الخطاب للفريقين؛ اليهود والنصارىٰ، بالدعوة إلىٰ الحقِّ والرَّشاد، بعد أن فنَّد أضاليلهم وأباطيلهم بالانفراد، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، وضمَّن ﴿تَغْلُوا۟﴾ معنىٰ: تقولوا ـ علىٰ نهج القرآن في التضمين ـ فعدَّاه تعديتَه.

قال في «المنار»: الغلوُّ: الإفراط وتجاوز الحدِّ في الأمر، فإذا كان في الدين فهو تجاوز حدِّ الوحي المنزَّل إلىٰ ما تهوىٰ الأنفس، كجَعْل الأنبياء والصالحين أرباباً ينفعون ويضرُّون، بسلطة غيبيَّة لهم، فوق سنن الله في الأسباب والمُسبِّبات الكسبيَّة، واتِّخاذهم لأجل ذلك آلهةً يُعبدون، فيُدعَوْن من دون الله تعالىٰ، أو مع الله، سواء أُطلق عليهم لقب الرَّبِّ والإله ـ كما فعلت النصارىٰ ـ أم لا، وكشَرْع عبادات لم يأذن بها الله، كزيارة

العتبات عند الشيعة، وتحريم ما لم يُحرِّم الله، كالطيِّبات التي حرَّمها القُسوس والرهبان علىٰ أنفسهم وعلىٰ مَنْ اتَّبعهم مبالغةً في التنسُّك، سواء كان ذلك لوجه الله أم كان رياءً وسمعة. ونهىٰ الله سبحانه وتعالىٰ أهل الكتاب الذين كانوا في عصر التنزيل عن هذا الغُلُوِّ الذي كان عليه مَنْ قبلَهم من أهل ملَّتهم، وعن التقليد الذي كان سببَ ضلالتهم، فذكَّرهم بأنَّ الذين كانوا قبلهم قد ضلُّوا باتِّباع أهوائهم في الدين، وعدم اتِّباعهم فيه سنَّةَ المرسلين والنبيين والصَّالحين من الحواريين الذين كانوا مُوحِّدين ولم يكونوا مُفْرِطين ولا مُفَرِّطين، وإنما كانوا للشرك والغُلُوِّ مُنكِرين[1]. فنهاهم أن يتبعوا أسلافَهم الضالِّين، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ من الناس، ثم نعىٰ عليهم بقوله: ﴿وَضَلُّواْ﴾ بذلك ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾، وهم المشركون المثلِّثون، كالرومان وغيرهم من أرباب عقيدة التثليث.

وكان الرومان يقولون بالأب والابن والزوجة، فلما اعتنقوا النصرانية قالوا بالأب والابن والروح القُدُس، ويعنون ما جاء في القرآن: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] علىٰ أن الإضافة من نوع إضافة الجزء إلىٰ الكلِّ، والله سبحانه منزَّه عن الروح، وإنما هو حيٌّ قيُّوم، والروح مخلوق ممتاز من مخلوقات الله. والإضافة لمجرَّد التعظيم، مثل: بيت الله، وناقة الله، وخليل الله، وأمثال ذلك.

وقد قرن الله سبحانه هنا الرُّوحَ بثلاثة أصناف من المخلوقات: الإنسان والجن والملك. وقوله تعالىٰ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] للإشارة إلىٰ أن عيسىٰ كبقية الناس، وإن لم يكن له أب، فإنه فَرْدٌ من بني الإنسان كما قال في آدم: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

---

(١) تفسير «المنار» (٦: ٤٠٥).

ثم أشار سبحانه إلىٰ أنَّ مصدر انتشار ذلك الضلال فيهم إنما هو سكوتُ المهتدين عن المُضلِّين الأوَّلين، وتقاعدُهم عن معارضتهم وردِّهم بالحُجَّة الدامغة، وأنهم بعملهم هذا نقضوا عهدَ الله الذي أخذه عليهم في تَناهيهم عن المنكر، فقال: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ﴾ أي: في الزَّبور والإنجيل. والله أعلم.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾.

ثم فسَّر الاعتداء بقوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾، وفي قوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ﴾ إلماعٌ بإدخال الساكت في حكم الفاعل. والله أعلم. فنعىٰ عليهم ذلك وأنَّبهم بقوله: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ والنَّهيُ عن المنكر هو حِفَاظُ الدين وسياجُ الفضائل والآداب، والسكوتُ عنه مُشَجِّعٌ لأربابه، وسببٌ لانتشاره، ومَفْسَدَةٌ للأخلاق ومِقْراضٌ للأمم. وعلىٰ كلٍّ فالآية نَقْدٌ للرؤساء بعد نَقْد الأتباع.

وفي الآية عبرةٌ لنا معشر المسلمين، وتنبيهٌ إلىٰ أنَّ سبب انتشار الفساد والضلال فينا إنما هو من سكوت العارفين عن الجاهلين، والمهتدين عن الضالين، في بيان الحق باليقين، وتقاعدِهم عن القيام بوجه المُضِلِّين وردِّهم بالحجج الملزمة والبرهان المبين، لأن أحكام الله تعالىٰ في سائر الأمم علىٰ السواء، لا تختصُّ بها أمةٌ دون أمةٍ، ولا محاباة فيها ولا هوادة. اللهم اجعل تفسيري هذا دعايةً لسبيلك، وخالصاً لوجهك الكريم.

ثم ذكر سبحانه لرسوله حالاً من أحوالهم الحاضرة التي هي من آثار تلك السيرة الراسخة، فقال: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ﴾ من مُشْركي قومك ويُحَرِّضونهم علىٰ قتالك، وأنت تؤمن بالله وما أنزله علىٰ أنبيائهم، والمشركون لا

يُوحِّدون الله ولا يؤمنون بكتبه ولا برسله. فنعىٰ عليهم وأنَّبهم بما سبكه علىٰ التوعُّد، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، والمصدرُ المؤوَّلُ مخصوصٌ بالذم، وفيه بلاغة إيجاز القرآن، وهي إقامة المسبَّب مقام السبب، وهو ما أوجب ذلك السخط من أعمالهم.

ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾، أعاذنا الله.

ثم نفىٰ عن أكثرهم الإيمان، وألزمهم بواضح البرهان، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ﴾ الذين يدَّعون الانتماء إليه، وهو موسىٰ عليه السلام، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ما اتَّخذوا الذين كفروا أولياءَ لهم، ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: خارجون عن حظيرة الدين. وذهب مجاهد إلىٰ أنَّ المراد بالذين يتولَّون هم اليهود والمنافقون[1]. وقيل: بل المراد منافقُو اليهود.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

ثم ختم هذا السياق في مُحاجَّة أهل الكتاب بهذه الآيات التي بيَّن فيها حالتَهم النفسيَّة في عداوة المؤمنين ومَوَدَّتهم، ودرجةَ قُربهم منهم وبُعْدهم عنهم، وكذا حالة

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٦: ٢٥٤) دون ذكر اليهود.

المشركين مع المؤمنين، ذكرها بالتبع، فقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، ثم خصَّ بالذكر صنفاً منهم أهلَ علم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ عن الإذعان للحقِّ إذا ظهر لهم واستبان، ولا يقولون كما يقول اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه فكيف نكون تبعاً للعرب؟!

وفي الذين نزل فيهم هذا التفصيل قولان:

أحدهما: أنهم يهودُ الحجاز ومشركو العرب ونصارىٰ الحبشة، أو وفدٌ جاء من نصارىٰ العرب الذين هم في شمال الجزيرة، أو أغلب مَنْ كان من النصارىٰ في المدينة أو في مكة[1]. علىٰ أقوال في ذلك، فيكون الكلام عمَّن كان في تلك المنطقة من هذه الأصناف في عصر التنزيل، سواء وفدوا أو انتقلوا إليها عندما وعدهم عيسىٰ عليه السلام بظهور نبيٍّ في هذه المنطقة، وعليهم أن يتَّبعوه. والخطاب للنبيِّ ﷺ.

والثاني: أنه عامٌّ في عصر التنزيل.

والأول هو الظاهر، ويؤيِّده قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، لأنَّ المراد به أناسٌ مخصوصون في عصر

---

(١) كان في مكة والمدينة جاليات من نصارىٰ الروم من التجار وغيرهم، يأتون لغرض اقتصادي، وحقيقة أمرهم: يأتون لمراقبة ظهور النبي الذي بشَّر به عيسىٰ يكون في ذلك الزمن وتلك المنطقة من الأرض، وعلىٰ هذا الضوء كان وجود قس بن ساعدة وورقة بن نوفل وبحيرا الراهب، وأمثالهم. وكان من هذا النوع خديجة وأبو بكر رضي الله عنهم. وكانت طبقة أخرىٰ تتصل بهذه الجاليات، وكان منهم أبو جهل في شبابه وأبو عامر الراهب وأمية بن [أبي] الصلت وأمثالهم، إلا أن هذه الطبقة تنكَّرت عند ظهور الرسول حَسَداً ولؤماً ولم تؤمن به. (المؤلف).

التنزيل، أو نصارىٰ الحبشة، فقد جاء هذا في السيرة والتاريخ عنهم، إذ هذا هو الظاهر منها.

ثم بيَّن تعالىٰ ما كان من مقالهم بعد بيان ما كان من حالهم، فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: الذين شَهِدوا بأنه حقٌّ. أو المراد: أتباع محمد ﷺ الذين علموا لهم هذا الوصف من كتبهم، وهم يُريدون بهذا القول إنشاء الإيمان والتضرُّع إلىٰ الله تعالىٰ بأن يقبله منهم ويجعلهم من أمة محمد ﷺ.

وقال ابن عباس: هؤلاء هم النجاشي وأصحابه، قرأ عليهم جعفر الطيار سورةَ مريم، فأخذ النجاشي تبنة من الأرض، وقال: والله ما زاد علىٰ ما قال الله في الإنجيل مثل هذه، وما زالوا يبكون حتىٰ فرغ جعفر[1].

ثم حكىٰ سبحانه عنهم ما تملَّك قلوبهم من هذا الإيمان؛ بسبب وضوح الأمر لديهم، وتحقُّق صدق هذا الرسول عندهم، وأنَّ أتباعَه هم المفلحون، فقال: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾، وهذا النَّظم والتركيب من أعلىٰ تعابير البيان عن مثل هذا الشعور والحنان. فهم يستبعدون عدم إيمانهم، مع وضوح الحق وتبيُّن الصدق وتحقُّق الفلاح، ويُظهِرون تحقيق إيمانهم وتقريره، بإنكار انتفائه مع قيام الداعي الذي هو الطمع في الانخراط مع الصَّالحين. أي: كيف لا نؤمن به بعدما ظهر لنا أنه البارقليط روح الحق الذي بشَّر به المسيح عليه السلام؟!

وقد آذنهم سبحانه وتعالىٰ بقَبول إيمانهم هذا، وأثابهم عليه بهذا الوعد الكريم، وقال: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٢: ٤١٤).

وعلينا أن نقف في وصف نعيم الآخرة علىٰ ما جاء به القرآن الكريم، وصحَّت به السنة النبوية، لأنه أمر لا يتصوَّره الفكر ولا تفي به العبارةُ، إذ لا يتَّفق مع عالَـمِنا هذا في شيء إلا بالأسماء.

ثم قفَّىٰ علىٰ ذلك بمصير الكافرين، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

وبعد أن استقصىٰ المناظرة مع اليهود والنصارىٰ، عاد إلىٰ بيان الأحكام التي بدأت بها السورة، علىٰ نهج القرآن في مَزْج آيات الأحكام بآيات المناقشة والمواعظ والعبر، وما إلىٰ ذلك، (كما جاء في المادة الثالثة من المقدمة الثانية)، وجعل وَجْهَ الربط هنا: الرَّدْعَ عما يتبادر إلىٰ الأذهان من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ من الرغبة بالرهبنة والتبتُّـل وترك التمتُّع بالطيِّبات، كما فهمه قليلٌ من الصحابة وعملوا به[1]؛ لأنَّ ذلك لم يستهدفه الإسلام، ولم يُرِدْ أن يكون فيه طبقة بهذه الصفة، وهو الذي أحلَّ الطيبات وحرَّم الخبائث، ورفع الإصْـر والتـكاليف التي كانت في

---

(١) يشير إلى الحديث المتفق عليه؛ رواه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢)، عن سعد بن أبي وقاص قال: ردَّ رسول الله ﷺ علىٰ عثمان بن مظعون التبتُّل، ولو أذِنَ له لاختَصَينا.

الشرائع السابقة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا﴾ تتَّبعوا خطوات أهل الكتاب في الغُلوِّ و﴿تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ تبتُّلاً ورَهْبنة وتنسُّكاً، ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ بتجاوز حدود شريعته الموضوعة عن علم وحكمة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧﴾ حدودَ ما شَرَعه الله، ولو بقَصْدِ التنسُّك والتَّزهُّد، إذ لا رهبانية في الإسلام، والزيادة مشوِّهة كالنقصان. ويجوز أن يكون من جملة معنىٰ ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾: لا تتجاوزوا حَدَّ الاعتدال والتوسُّط في تناول الطيِّبات. والله أعلم.

ثم صرَّح بما تضمَّنه النهي، زيادةً في التقرير، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾، فلا تتجاوزوا حدودَه فيما أحلَّ أو حرَّم، فالدينُ الإسلاميُّ يُعطي الجسم حقَّه، والروح حقَّه، ويجعل الاقتصار علىٰ الثاني اعتداءً وتقصيراً، وينهىٰ عن التبتُّل وتَرْك حظوظ الدنيا، ويُوجِّه إلىٰ الأخذ من كلٍّ منهما بنصيب، وقد جاء في الأثر: «ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه، حتىٰ يصيب منهما جميعاً، فإنَّ الدنيا بلاغٌ إلىٰ الآخرة، ولا تكونوا كَلًّا علىٰ الناس»[1]. علىٰ أنْ لا نصل إلىٰ حدِّ الاعتداء والإسراف.

والخلاصة: أنه ينبغي للمؤمن أن يتمتَّع بما تيسَّر له من الطيِّبات بلا تأثُّم ولا تحرُّج، وهو بذلك عاملٌ بشرع الله مقيمٌ لسُنَّة الفطرة التي فطر الناس عليها، كما أنَّ امتناعه عن الطيِّبات التي رزقه الله إياها بقصد التقرب إلىٰ الله، مع الداعية الفطرية إلىٰ الاستمتاع بها، إثمٌ يجْنيه علىٰ نفسه في الدنيا، ويستحقُّ عليه العتاب في الأُخرىٰ، لزيادته في دين الله قُربات لم يأذن بها الله، ولإضاعته حقوقَ الله وحقوقَ عباده، كإضاعة حقوق امرأته وعياله. والتحريمُ والتحليلُ تشريع، وهو من حقوق الله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٥: ١٩٧).

وعن الحسن البصري: إنَّ الله أدَّب عباده فأحسَنَ أدبهم، فقال: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ﴾ [الطلاق: ٧]. وعنه: أنه قيل له: فلان يتحرَّج من أكل الفالوذج، ويقول: لا أُؤدِّي شكره. قال: أفيشرب الماء؟ قالوا: نعم. قال: إنه جاهل، إنَّ نعمة الله عليه في الماء البارد أكبر من نعمته عليه في الفالوذج[١].

ولما كان مثل هذا التحريم علىٰ النفس يقترن عادةً بالعهد واليمين، كما حَدَث ذلك للصحابة الثلاثة الذين كانوا سببَ نزول هذه الآيات، فإنهم تبتَّلوا وحرَّموا علىٰ أنفسهم النساء وطيبات الطعام واللباس، وتعاهدوا عليه، فنهاهم الله تعالىٰ عن ذلك بالآية السابقة، ذكر حكم الأيمان ليتحلّلوا من تَعاهُدِهم، فقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، وقد ذكرتُ هذا مفصَّلاً في تعليق علىٰ مثل هذه الآية من سورة البقرة[٢]. والذي عليه المحققون أن معنىٰ لغو اليمين قول المتكلِّم: لا والله، بلىٰ والله، كلّا والله، يَصِلُ بها كلامَه من دون قصد. كما روي ذلك عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها[٣].

وقال الراغب: «اللغو من الكلام: ما لا يعتد به، وهو الذي يُورَد لا عن رُويَّة، فلا مؤاخذة عليه»[٤].

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أي: بما صمَّمتم عليه وقَصَدتموه. وقد جاء عنه ﷺ: «إذا حَلَفتَ علىٰ يمين، فرأيتَ غيرَها خيراً منها، فائتِ الذي هو خير،

---

(١) ذكرهما الزمخشري في «تفسيره» (١: ٧٠٥).

(٢) يعني: الآية ٢٢٥ منها.

(٣) رواه مالك في «الموطأ» (٧٥٥)، والشافعي في «مسنده» (١١٠٧)، عن عائشة قالت: لغوُ اليمين قولُ الإنسان: لا والله، وبلىٰ والله.

(٤) «المفردات» ص٧٤٢.

وكفِّر عن يمينك»[١]، كما قال تعالىٰ: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ﴾، وجاء في تعليقات البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء وعكرمة: إن ما كان في القرآن ﴿أَوۡ﴾ فصاحبُه بالخيار[٢].

ثم قرَّر هذا الحكم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡ﴾.

ثم حذَّر من الحلف والحنث، فقال: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾، فلا تبذلوها في كل أمر، ولا تحنثوا بها إذا حلفتم. ولا يجوز الحلف بغير الله وأسمائه وصفاته.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «من حلف بغير الله فقد كفر»[٣].

ثم ختم السياق بتمنُّنه تعالىٰ علينا ببيان تلك الأحكام المهذِّبة لنفوسنا، حملاً علىٰ التمسُّك بها، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٨٩﴾ أي: بالعمل بها، وتدريب نفوسكم عليها، أو تشكرونه علىٰ ما هداكم إلىٰ هذه الأعمال المهذِّبة لنفوسكم والمُصْلحة لأحوالكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٩٢ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٧١٤٧)، ومسلم (١٦٥٢)، عن عبد الرحمن بن سمرة.

(٢) ذكره البخاري معلَّقاً مجزوماً به في «صحيحه»، باب قوله تعالىٰ: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ قبل حديث (٦٧٠٨).

(٣) رواه الترمذي (١٥٣٥) ـ وقال: حديث حسن ـ ، وأحمد (٦٠٧٢)، والحاكم (٤: ٣٣٠) عن ابن عمر. وصحَّحه الحاكم علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

ولما كانت الخمر من الخبائث وليست من الطيِّبات، ذكر النَّهيَ عنها في هذا السياق المتضمِّن للرخصة في تناول الطيِّبات، إذ ربما يَرِدُ علىٰ الوهم الدنيء والذوق الرديء أنَّ الخمر من الطيِّبات، وقد قَرَنها بالميسر والأنْصاب والأزلام؛ تسويةً بها، وتكميلاً للبحث، وتعميماً للنهي عمَّا كان عليه الجاهلية من الرذائل واتِّباع خطوات الشيطان وتعاطي الخبائث، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ وهو: كُلُّ مُسكِرٍ من أيِّ نوع اسْتُخرج، ﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾ وهو: القمـار بأيِّ صورة كان، ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ وهي: الأصنام تُذبح عندها القرابين، وأراد نفس القرابين، من ذكر السبب وإرادة المسبَّب، ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ وهي: سهامٌ يَسْتَقْسِمُونَ بها. وقد تقدَّم الكلام عليها فيما سبق من هذه السورة[1]، كلُّ ذلك ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وهذا القيدُ نصٌّ في كون الرِّجْس هنا معنوياً[2].

قال الراغب: الرِّجْسُ: الشيءُ القذر[3]. وقوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ محمولٌ علىٰ جميع ما ذكر من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام. والذي أراه أنَّ كلمة «رجس» تأتي في القرآن لما اشتدَّ قبحه وعَظُم تحريمه. وقوله: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ كناية في اللسان العربي وفي أسلوب القرآن عن غاية القبح ونهاية الشر، أو المراد: وَسْوَسَتُه لهم بذلك. والله أعلم.

---

(١) يعني: في الآية ٣.

(٢) لكنْ ليس فيه نفيُ النجاسة الحسية أيضاً، فتُطلب من جهة أخرىٰ، وقد ثبتت هذه النجاسة ـ عند جمهور الفقهاء ـ في الخمر دون غيرها من المذكورات معها.

(٣) «المفردات» ص٣٤٢.

وبعد أن ذكر العلَّـةَ ذكر الحكمَ، فقال: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أي: هذا الرِّجْس، أو ما ذكر، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ في الدنيا والآخرة بتزكية نفوسكم، إذ بالتزكية يتحقَّق الكمال الإنساني، وهو مصدر كل خير.

ثم خصَّ الخمر والميسر بتفصيل ما فيهما من المفاسد الدينيَّة والدنيويَّة المقتضية للتحريم، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إنَّ الخمر والميسر مَصْدَرٌ لهذه المفاسد الثلاث؛ لأنَّ السكران لا يعقل ما يقول، وقلبُ المقامر مشغولٌ إلىٰ هذا الحد أو أبعد.

ويجوز أن يُخَصَّ الأول بالميسر، والثاني بالخمر. والميسر يُعوِّد الناس علىٰ الكسل وطلبِ الرزق من السُّبُل الوهميَّة، وفيه خرابُ البيوت، والانتقالُ طفرةً من الغنىٰ إلىٰ الفقر المدقع الكئيب. أعاذنا الله. وإنما خصَّ الخمر والميسر بهذا البيان دون ما قُرن بهما؛ لأن بيان تحريمهما هو المقصود بالذات هنا، أما الأنصاب والأزلام فكان المؤمنون قد تركوهما، لأنهما من أعمال الجاهلية وخرافات الوثنية. وإنما قرنهما بهما للإيماء إلىٰ مُساواتهما في الفظاعة، لذلك قال عمر رضي الله عنه عند نزول الآية: أقُرِنْتِ بالميسر والأنصاب والأزلام، بُعْداً لكِ وسُحْقاً[1].

وقد جاء في سبب النـزول: أنه كان قد وقع شقاق ونـزاع بين صَحبٍ من المسلمين[2] مما هو مألوفُ الحدوث في حالة السكر وتعاطي الخمر، وإنَّ الحادث كان

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣: ١٦٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠: ٥٦٩)، عن سعد أنه قال: صنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعانا. قال: فشربنا الخمر حتىٰ انتشينا، فتفاخرت الأنصار وقريش، فقالت الأنصار: نحن أفضل منكم! قال: فأخذ رجل من الأنصار لحيىٰ جمل، فضرب به أنفَ سعد، ففزره، فكان سعد أفزر الأنف. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلىٰ آخر الآية.

خطيرَ الأثر، حتىٰ استثار حنق الناس وأسفهم، فكانت مناسبة ملائمة للخطوة النهائية إلىٰ حظر الخمر حظراً باتاً، لمعالجة الحالة الحادثة، ولتكون تشريعاً عاماً مستمرَّ المدىٰ، علىٰ نهج القرآن في نزول آياته، وتقرير بياناته في المناسبات والحوادث الملائمة لذلك.

وبعد أن بيَّن مفاسدهما أكَّد الحكم بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾، وهذه الصيغة من أبلغ صيغ النَّهي؛ لأنَّ فيها إيذاناً بأنَّ أمر المنع والتحذير قد بلغ الغاية، وأن الأعذار قد انقطعت.

ثم أكَّد الحكم ثانياً بهذا الأمر العام المقرون بالتهديد، فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما يأمركم به علىٰ لسانه، ﴿وَاحْذَرُوا﴾ العصيان.

ثمَّ هدَّد غير المطيعين بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾، وقد أدَّاه، وحسابكم وعقابكم عند الله، واللهُ شديد العقاب. قالوا: ولم يُؤَكَّدْ شيءٌ في القرآن بعد الربا وبعد التبذير مِثلَ هذا التأكيد.

ثم عاد إلىٰ آية تحريم الطيِّبات، وعقَّبه ببيان العفو عمَّا سلف عذراً للماضين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فإنّه يُعقب الأحكام التي يقمع بها رذيلةً من الرذائل بما يُؤْذن بالعفو عمَّا سلف من ذلك. ويظهر أن الذين كانوا يتعاطون الخمرة من المسلمين، هَلَعَوا من أسلوب الآيات وسَلْكها الخمر في سِلْك عبادة الأصنام، فسكَّن الله سبحانه هَلَعَهم، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ أي: ليس عليهم إثم فيما تناولوه من قبل. يقال: طَعِمَ الشيءَ يَطعَمُهُ، أي: ذاق طعْمَه. وهو يستعمل في الطعام والشراب. ومن الأول: قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ [الأحزاب: ٥٣]. ومن الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩]، أي: مَنْ لم يَذُقْ طعمَه.

وقد قيَّد هذا العفو بقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا﴾، فكرَّر التقوىٰ وقَرَن الأولىٰ بالإيمان والثانية بالإحسان، للإيذان بأنَّ شرط العفو دوام التقوىٰ المقرونة بالإيمان والإحسان في كلِّ ما يؤمرون به وينهون عنه.

ثم ذكر علَّة العفو عنهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾، وفيه حثٌّ علىٰ الإحسان وترغيبٌ فيه، وقد جاء عنه ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)].

وَوَرَد في عدَّة روايات أنَّ بعض الصحابة اسْتشكلوا عند نزول الآية السابقة في الخمر، حالَ مَنْ مات من المؤمنين، حيث جاء فيها أنه يَصُدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة. وكان الله سبحانه قد عرَّض بتحريم الخمر قبل نزول آيات المائدة، بما تبيَّنه في سورة البقرة والنساء[(٢)]، فظنُّوا أنهم مُقصِّرون في اجتهادهم السابق، وفهمهم لحكم الخمر. فنزلت هذه الآية عُذْراً للماضين، وحُجَّة علىٰ الباقين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، عن أبي هريرة.

(٢) وذلك في الآية ٢١٩ من سورة البقرة، والآية ٤٣ من سورة النساء.

ثم ذكر حكم الصيد في الإحرام، لأنه مستثنىٰ من حِلِّ الطيّبات المتقدِّم الذكر في قوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٨]، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾، وهذا الوصف للصيد يُراد به كثْرتُه وسهولتُه وإمكانُ الاستخفاء بالتمتُّع به. أي: يبتليكم به علىٰ هذه الصورة وأنتم مُحرمون، ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: حال كونه غائباً عن أعين الناس، غير خائف ولا مُراءٍ، فيمتثل الأمر مُخْلصاً لله. ووجْه الابتلاء بذلك: أنَّ الصيد ألذُّ الطعام وأطيبُه عندهم، وناهيك باستطابته وشدَّة الحاجة إليه في السفر الطويل. وسهولةُ تناول اللذيذ تُـغْري به، فالامتناع منه يدلُّ علىٰ التقوىٰ.

ثم شدَّد التَّحذير من الخلاف وتوعَّد المخالفين، فقال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد أن بيَّن لكم أنه سيَخْتبركم بهذا الأمر الموضوع خاصَّة للاختبار، ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ لأنَّ من خالف بعد أن تبيَّـن له الأمر يستحق أعظم الجزاء. والظاهر أنَّ هذا كان اختباراً خاصّاً للمؤمنين في الحديبية[١]، باعثاً لهم علىٰ تثبيت العزم في تنفيذ أوامر الله والرسول، ولا سيما في مقاومة المشركين التي هم في صَدَدِها ومتعرِّضون لها، وتطبيق الـمعاهدة التي ثـقلت عليهم. وذلك علىٰ حدِّ الحكمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ [البقرة: ٢٤٩]، والله أعلم.

وبعد هذا البيان والتمهيد به عاد إلىٰ النَّهي العام عن الصيد في الإحرام الذي تقدَّم في أول السورة[٢] ليقرنه ببيان حُكْمِه وكفارته، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟

---

(١) لعل وجه الابتلاء في هذا الحكم الشرعي في الحديبية أظهر منه في غيرها، لكن هذا لا يدل علىٰ الخصوصية، فقد جاء الحكم عاماً، وكل حكم شرعي فيه معنىٰ الابتلاء، وسيأتي في كلام المؤلف قريباً تصريحه بعموم الحكم في هذه المسألة.

(٢) يعني: في الآية الأولىٰ منها.

﴿ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾ أي: وأنتم مُحرمون بالحج أو العمرة، إذ فيه انتهاكٌ لشعائر الله، فإنَّ الحج مرحلة سلام كامل.

ثم بيَّن حُكْمَه، فقال: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي: فعليه جزاءٌ من الأنعام مماثلٌ لِـمَا قتله، ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: يحكم بالجزاء المماثل رجلان من أهل العدالة والمعرفة منكم أيها المؤمنون، ووَجْه الحاجة إلىٰ حكم العَدْلَين: أنَّ المماثلة بين النَّعَم ـ وهي الإبل والبقر والغنم بأنواعها ـ وبين الصَّيد الوحشي ـ وأنواعه كثيرة ـ: مما يخفىٰ علىٰ أكثر الناس.

ثم بيَّن ما يُصنع بهذا الجزاء، فقال: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ أي: يُجعَلُ هذا المماثل من النعم هَدْياً يُذْبَح في مكة، حيث تؤدَّىٰ المناسك، ويفرّق لحمه علىٰ المساكين من أهل الحرم، ﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ بقيمةِ ما يُماثله من النعم، يُعطىٰ لكلِّ مسكين مُدٌّ من الطعام عند الشافعية، ونصف صاع عند الحنفية، ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾ أي: عَدْلُ عَدَدِ المساكين بأن يصوم بَدَلَ كل مسكين يوماً.

ثم علَّل هذا الجزاء بقوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦ﴾ أي: لينال سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام.

ثم بيَّن ما هو من سنَّة القرآن عند تشريع الأحكام، وهو ذكر العفو عما سلف، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾، قال الجمهور: أي: إنَّ الجزاء في الدنيا إنما يمنع العقاب في الآخرة إذا لم يتكرَّر الذنب، فإن تكرّر استحقَّ صاحبه الجزاء في الدنيا والعقاب في الآخرة. والانتقام: من النقمة، وهي: السطوة والعقوبة. وقد يستعمل في لغة التخاطب بمعنىٰ التَّشفِّي، وهو بهذا المعنىٰ محال علىٰ الله.

ثم جمع بين إحلالِ صيد البحر وأكلِه للمحرمين، وتحريم صيد البر وأكله عليهم، إيذاناً بالفرق بينهما، فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: ما يُصاد في سائر أنواع المياه، ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ وهو ما يطفو منه علىٰ وَجْه الماء، وما يبقىٰ بعد الجَزْر.

ولما كان إحلال صيد البحر مظنَّة أن يتبادر منه أنه خاص في رُكَّاب البحر، دفع ذلك بقوله: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي: للمقيم والمسافر، ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: مُحْرمين في الحج أو العمرة.

وقيل: الكلام هنا أعمُّ من تحريم قتل الصيد، فإنه يشمل أخذه من غير قتل. وقيل: يشمل أكلَه وإنْ صاده غيرُ المحرم، لأنَّ المراد من طعامه أكلُه. والكلمةُ مرعيةٌ في الفقرة الثانية أيضاً. والتقدير: وحُرِّم عليكم صيدُ البر وطعامُه ما دمتم حُرماً، علىٰ نهج القرآن في إيجاز الاكتفاء، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

أقول: وتخصيص التحريم بالاصطياد أَظْهَر، إذ قد جاءت أحاديث الآحاد بترخيص أكل المحرم مما يصيده غيرُ المحرم.

ثم ختم الكلام بما يحمل علىٰ التمسُّك بهذه الأحكام، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩٦﴾ أي: فالتزموا أحكامه وما يشرعه لكم.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٩٧ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٨ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝٩٩ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠٠﴾.

ثم ذكر حكمة تحريمِ صيد الحَرَم وصيد المُحْرِم، وتعليله ضمن البيان عن فوائد الحج، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا

﴿لِلنَّاسِ﴾، وقوام الأمر وقيامه: نظامه وعماده وما يقوم به. أي: بها قوام مصالحهم الروحيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة، ومن مقتضيات ذلك: أن تكون حَرَماً آمناً يُؤْمَنُ الاجتماعُ فيها. وللمبالغة في زيادة انطباع نفوس الناس علىٰ احترامها، حرَّم حتىٰ صيدها، ﴿وَ﴾ للغرض[1] عَيْنِه شرع ﴿ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ وجعله موسماً للحج، ليكون فيه زيادة مبالغة علىٰ الاحترام والردع عن الأذىٰ، تسهيلاً لأمر الحج، ﴿وَ﴾ شرع ﴿الهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ وهي: البُدْنُ تُـقَلَّدُ للإيذان بأنها تُهْدىٰ إلىٰ الكعبة، طُعْمَةً لمساكينها وتعظيماً لها، ليزدادَ انطباعُ الناس علىٰ احترامها.

وروىٰ ابن جرير عن قتادة: إن هذه الأشياء حواجز أبقاها الله في الجاهلية بين الناس ليسهل أمر الحج[2].

ولما كان كَوْن الحج ومناسكه قواماً لأمر الناس، أدقَّ من أن تدركه كثير من الأفهام، وأوسعَ من أن تُحيط بتحديده المدارك والأوهام، عمد إلىٰ تقريره بأسلوب القرآن المعجز، فنبَّه إلىٰ أنَّ واضعَ هذا النظام وجاعلَ هذا القوام هو الذي يعلم السرَّ في السماوات والأرض، فلا تكون أحكامه وشرائعه إلا للحكمة والمصلحة العامة، ولكنكم لا تُدركون أكثر تلك الحِكَم لدقَّتها وبُعدها عن الأفهام، فيجب أن تُفوِّضوا الأمر إلىٰ العليم العلَّام، فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ويعلم ما فيه المصالح والمنافع والحِكَم، ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

---

(١) التعبير بالغرض في أفعال الله تعالىٰ وأحكامه فيه مؤاخذة، لأن «الغرض» فيه معنىٰ البعث علىٰ الفعل وتشريع الحكم، فيكون فيه نوعُ تأثير، والله سبحانه هو الـمُؤثِّر في غيره، وغيره لا يؤثر فيه مطلقاً، لذلك ينبغي التعبير بالحكمة، إذ ليس فيها هذا المحذور.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١: ٩٣).

ثم أتبع الصفة الفعلية في سَعَة علمه، بالصفة الذاتية فيه، لمزيد التقرير، فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

ثم أردف آيات الأحكام بالترهيب والترغيب، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن دسَّىٰ نفسه بالشرك والفسوق والعصيان، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ لمن زكَّىٰ نفسه بالإيمان والتوحيد والأعمال الصالحة والتمسُّك بحدود الله، فلا يُؤاخذه بما سَلَف، ولا بما يعمل من السوء بجهالةٍ إذا بادَرَ إلىٰ التوبة والإصلاح.

وقد أبلغكم الرسول، و﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾(١)، فيجازيكم علىٰ الإحسان حُسْناً، وعلىٰ الإساءة سوءاً(٢).

ولـمّا بيّن سبحانه الجزاء في فحوىٰ الكلام، وأنه مَنُوطٌ بالأعمال، رغَّب في الجيّد منها مُؤْذناً بأنّه يقابَل بأكرم الثواب، وصاغ ذلك بصورة مثلٍ عامٍّ برهانُه منه، فقال:

---

(١) الذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن هذا التعقيب علىٰ كل ما تقدم في السياق للحَمْل علىٰ ما جاء فيه صريحاً أو ضمناً. ومحصَّله: أن الرسول بلَّغكم، فهذا وما علىٰ الرسول إلا البلاغ، والله سبحانه هو المحاسب، ويعلم ما ظهر وما بطن، وسوف يُجازي علىٰ السيئات جزاءً وفاقاً، وعلىٰ الحسنات الجزاء الأوفىٰ. ثم أشار إلىٰ هذا المعنىٰ بقاعدة عامة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. ومُحصَّلها: الفرق الكبير بين الطيب والخبيث، وإنْ قلَّ ذلك الطيب، وكان الخبيث بالغ الكثرة والمقدار، يرمز إلىٰ الفرق البعيد بين من يتمسَّك بتعاليم الله سبحانه، ومن يُعرض عنها أو يقاومها لينال حظوظ الدنيا أو شهواتها ويتَّبع هواه. فلذلك أردفها بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. (المؤلف).

(٢) هذا التعبير مما قد يُتَسامَحُ فيه من باب المقابلة، لكن الأَوْلىٰ اجتنابُه، تأدُّباً مع الله تبارك وتعالىٰ، ولأن جزاءه سبحانه عَدْل، فلا يُوصَفُ بأنه سُوء مطلقاً، وإنما هو سوء علىٰ مَنْ يصيبه، ولذلك قال سبحانه: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]، ولم يقل: ليجزي الذين أساؤوا بالسُّوأىٰ. والله أعلم.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ إذ إنَّ كثرة الخبيث مهما بلغت لا تزيده إلا خبثاً. والخطاب في ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ عامٌّ لكلِّ مُخاطَب، ومثله سائغ في عرف التخاطب.

ثم فرَّع علىٰ ذلك بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ بجَوْدة الأعمال، وهذا الوصف لإثارة الانتباه، أو لأنَّ أهل البصيرة هم الذين يعتبرون.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ للإيذان بأنَّ الفلاح موقوفٌ علىٰ التقوىٰ، لا يتأتىٰ بغيرها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ثم أردف بيان الأحكام بهذا النِّظام المؤذِن لنا بأن لا نتشدَّق في فهمها واستنباط فروعها، فتؤول إلىٰ صورة لا نتحمَّلها أو لا يريدها الله سبحانه، كما تشدَّق بنو إسرائيل في فهم أوصاف البقرة التي طَلَبها الله منهم، وضمَّن ذلك أن الرسول ﷺ قد أدّىٰ وظيفته في البلاغ علىٰ أكمل الوجوه، ولم يترك شيئاً دون بيان حتىٰ يُسأَل عنه.

وقد جاء هذا النَّهي في سياق التَّلميح إلىٰ أنَّ بعض الأحكام لا تُدرَكَ حكمتُها ـ كما في بعض شعائر الحج ـ فجعل الكلام نهياً عن الاعتراض علىٰ الحكم إذا لم تظهر حكمته، وعن الإلحاح فيما سكتت عنه الشريعة رحمةً بنا، وخصَّ القسم الثاني في الإيضاح، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، وإنما سكَتَ عنها رحمةً بنا. وقد قال ﷺ للأعرابي الذي سأله عن فريضة الحج: أفي كلِّ سنةٍ هي؟ قال: «ويحك، ماذا يؤمِّنك أن أقول: نعم، ولو قلت:

نعم، لوجبت»[١]، ولا يتبادرنَّ إلىٰ الذهن أنه ﷺ يقول: نعم، من نفسه، كلا! فقد جاء عنه ﷺ: «إني لا آمركم إلا بما أمرني الله به، ولا أنهاكم إلا عما نهاني الله عنه»[٢]. وإنما يعني أنهم لو سألوه عن المسكوت عنه لجاء الوحي بالجواب الإيجابي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي: فإنَّ اللهَ يُبْدِيها لكم علىٰ لسان رسوله، كما أبداها في بقرة بني إسرائيل.

والآية تُـؤْذن بأنَّ الله سبحانه سكت عن بعض التكاليف التي كلَّف بها الأمم السابقة رحمةً بالمسلمين، فلم يُكلِّفهم إلا بما لا بدَّ لهم منه، ولا غنىٰ لأحد عنه. والله أعلم.

وقد جاء في الحديث: «إن الله تعالىٰ فرض فرائضَ فلا تُضيِّعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان، فلا تسألوا عنها»[٣].

وعنه ﷺ: «ذروني ما تركتكم، فإنمـا أهلك مَنْ كان قبلكم كثرةُ سؤالـهم، واختلافُهم علىٰ أنبيائهم»[٤].

---

(١) رواه الطحاوي (١٤٧٤) عن أبي أمامة الباهلي.

ورواه مسلم (١٣٣٧) عن أبي هريرة قال: خطبنا رسولُ الله ﷺ فقال: «أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحجَّ فحُجُّوا، فقال رجل: أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت، حتىٰ قالـها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت: نعم، لوجبت، ولَـمَا استطعتُم. ثم قال: ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتُم، وإذا نهيتكم عن شيء فدَعُوه».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه الطبراني (٢٢: ٢٢١)، والدارقطني (٤: ١٨٣)، عن أبي ثعلبة الخشني. وحسَّنه النووي في «الأربعين».

(٤) متفق عليه، رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، عن أبي هريرة.

والآيةُ تدلُّ علىٰ أنَّ البيان منه تعالىٰ لا يتأخَّر عن وقت الحاجة.

قال في «المنار» ما مُلخَّصه: وثمَّ وَجْهٌ ثانٍ في معنىٰ الجملة، وهو: إن تسألوا عن تلك الأشياء في زمن نزول القرآن وعهد التَّشريع يُظهرها الله لكم. فالله تعالىٰ يُبيِّن لعباده بنصِّ الخطاب ما لا بدَّ منه لصلاح أَمْرَيْ معادِهم ومعاشِهم، وبفحوىٰ الخطاب أو الإشارة ما يفتح لهم بابَ الاجتهاد، فيُعْمَلُ بما يظهر أنه الحق والمصلحة، ويُتْرَكُ ما يَظهَرُ أنه الباطل والمفسدُ[1]. وإذا كان الأمر كذلك فالواجب أن يُتْرَكَ أمرُ التشريع إليه تعالىٰ، لأنه أعلم بمصالح العباد من أنفسهم. فلا تسألوا عن أشياء إنْ أُبْـدِيَتْ لكم أحكامُها تَسُوؤُكُم وتُحْرِجُكم. ومتىٰ سألتم عنها في عهد التشريع لا بد أن تجابوا وتُبيَّنَ لكم، ولكن هذا البيان قد يسدُّ في وجوهكم بابَ الاجتهاد الذي فوَّضه إليكم، فاسكتوا ما دام قد ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ وسكت عن بيانها رحمةً بكم بمقتضىٰ حِلمه ومغفرته، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

وفي معنىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ وَجْهٌ آخر، وهو: أنَّ الله سبحانه قد عفا عما كان منكم قبل هذا النهي من السؤال عن مثل تلك الأشياء، فلا يعاقبكم عليها لسَعَة مغفرته وحِلْمه، وذلك علىٰ نهج القرآن إذا نهىٰ عن أمر عفا عمَّا كان منه قبل النهي، فهي كقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥]. ويكون تأنيث الضمير علىٰ هذا المعنىٰ، باعتبار الخصلة أو الفعلة أو الأسئلة. ويجوز إرادة المعنيين معاً، إذ لا مانع منهما معاً، علىٰ نهج القرآن في مثله.

ثمَّ وضَّح حكمة النهي، بما كان في مثلها عن الأمم الماضية، من الإعراض بعد الإبداء لصعوبتها، فقال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

---

(١) تفسير «المنار» (٧: ١١٢ - ١١٣).

أي: قد سار هذا السَّير وسأل هذا النوع من الأسئلة مَنْ كان قبلكم من الأمم، فلمَّا كَثُرت عليهم الأحكام وتشدَّدت، مَلُّوها وفسقوا عن أمر ربهم.

وفي «تفسير الرازي» ما مُلخصه: «وقيل: بل المعنىٰ في قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾: أنهم سألوا الآيات الكونية، كقوم صالح سألوا الناقة ثم عقروها، فلما اختلف السؤالان في النوع اختلفت العبارة، فقال في المؤمنين: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ﴾، وفيمن قبلهم من الأمم: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾، ولم يقل: سألوا عنها»[1]. ووجه المقارنة بينهما: أنَّ النوعين يشتركان في وصف واحد، وهو الطلب والخوض في الفضول، وعدم العمل بموجب المسؤول.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

ثم عاد بالكلام إلىٰ محوره السابق، وهو النَّهيُ عن تحريم الطيِّبات، تتميماً للبحث، علىٰ نهج القرآن في مثله. وذلك أنه لما نهىٰ سبحانه عن تحريم الطيبات التي أحلها الله لنا، وعن الاعتداء وتجاوز الحد فيما شرعه الله، وكان فحوىٰ الآيات ينبئ عن أن التشريع أمر منوط به سبحانه، وأنه يكون علىٰ مقتضىٰ المصالح والحِكَم، تهكَّم علىٰ الجاهلية المشركين بما شرعوا لأنفسهم، وبكَّتهم لتحريم الطيبات علىٰ أنفسهم بقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾، فبعد أن نهىٰ عن تحليلهم الخبائث في الخمر والميسر، نهىٰ عن تحريمهم الطيِّبات بمثل هذه الخرافات.

---

(١) «تفسير الرازي» (١٢: ٤٤٥).

وإنما قدَّم الصنف الأول وأخّر هذا الصنف؛ ليتناسب آخرُ الموضوع مع صدره، وهو النهي عن تحريم الطيبات، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك ـ والله أعلم ـ ليذكِّرَ آخرُ الكلام بأوله، وينبِّهَ عليه، وليقرِّر بها آيةَ النهي عن التشدُّق في الأحكام والتدخُّل فيها.

والبحيرة: الناقة تنتج خمسة أبطن، فيبحرون أذنها، أي: يشقُّونها شقاً واسعاً، ويحرمونها علىٰ أنفسهم.

والسائبة: هي المنذورة لآلهتهم، يُحرِّمونها علىٰ أنفسهم أيضاً، لا يُحمل عليها ولا تُحلب إلا لضيف، ولا يُجَزُّ صوفها.

والوصيلة: الشاة التي ينذرون ذكور نتاجها لآلهتهم، فإذا ولدت توأماً ذكراً وأُنثىٰ، يعفون الذكر، لأن أخته وَصَلَتْه.

والحامي: الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن، فيقولون: حمىٰ ظهره، فلا يُحمل عليه ولا يُمنَعُ ماءً ولا مرعىٰ.

وقد جاء لهذه الصفات تفسيرات متباينة بعض التباين، وأظنها تختلف مدلولاتها وأوضاعها عند قبائل العرب، فمن ذلك ما قيل: إنَّ **البحيرة**: هي الناقة نُتِجَت(١) خمسةَ أبطن، فإن كان الخامس ذكراً نحروه، فأكله الرجال والنساء، وإن كان أنثىٰ بَحَروا أذنها، أي: شقُّوها وكانت حراماً علىٰ النساء لحمها ولبنها، فإذا ماتت حلَّت للنساء. **والسائبة**: هي البعير يُسيَّب بنذر يكون علىٰ الرجل، إن سلَّمه الله من مرض أو بلَّغه مَنزِلَه، يفعل به ذلك، فلا يُحبس عن رعي ولا ماء ولا يركبه أحد. **والوصيلة** من الغنم: كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا، فإن كان السابع ذكراً ذُبِحَ فأكل منه

---

(١) يقال: نُتِجَت كذا أبطناً، فهو يتعدَّىٰ للمفعول به، وإن كان علىٰ صيغة المجهول. (المؤلف).

الرجال والنساء، وإن كانت أنثىٰ تُركت في الغنم، وإن كان توأماً ذكراً وأنثىٰ، قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبح لمكانها، وكان لحمها حراماً علىٰ النساء، وكذلك لبن الأنثىٰ، إلا أن يموت الذكر أو الأنثىٰ فيحل أكله للنساء والرجال معاً. والحامي: هو الفحل ينتج منه عشرة أبطن، فيُحْمَىٰ ظهرُه فلا يُركب ولا يُمنع من كلأ أو ماء.

فهذه أربعة نعوت لأربعة أنواع من محرَّمات الأنعام التي حرمتها الجاهلية علىٰ أنفسها، جهلاً وضلالاً، ولم يحرمها الله، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ في تحريمها، حيث يفترون بدعْواهم أنها محرَّمة من الله، ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝١٠٣﴾ أنهم يفترون علىٰ الله الكذب، بتحريم ما حرَّموا علىٰ أنفسهم(١).

ثم نعىٰ عليهم جمودَهم علىٰ التقليد الأعمىٰ، وتمسُّكَهم بالضلال، وصدودَهم عن الرشد، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ۝١٠٤﴾ أي: أيتَّبعون آباءهم ولو كانوا في منتهىٰ الجهل والضلال.

قال في «المنار»: وبعد أن بيّن الله بطلان التقليد، وهو أن يتبع المرء غيره من الناس في فهمه للدين، ورأيه فيه، بغير علم ولا حُجَّة(٢)، أمر المؤمنين بصيغة الإغْراء أن يهتمُّوا بإصلاح أنفسهم، بالعلم الصحيح والعمل الصحيح، فإذا فعلوا فلا يضرُّهم مَنْ ضلَّ من الناس عن الصراط السوي بالجهل والتقليد، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ

---

(١) يقال: أول من سنَّ هذا التشريع عمرو بن لُحي الخزاعي. ويجوز أن يكون هو أول من بدأ به، ثم تكامل بعده علىٰ هذه الصور، واختلف في القبائل. (المؤلف).

(٢) التقليد: منه المذموم الـمُحرَّم، كالتقليد في العقائد أو في الأحكام المخالفة للنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة ـ كما هنا ـ ومنه المأمور به لمن لم يبلغ درجة الاجتهاد، وذلك في الأحكام الفقهية الظنية، فقد قال سبحانه: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾[(١)]؛ إذ لا تزر وازرةٌ وِزْرَ أخرىٰ[(٢)]. ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾، وهذه الآية فيما بيننا وبين الكافرين، لا فيما بين المؤمنين أنفسهم، فإنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر واجبٌ بينهم، وإهماله إثم كبير وخلل عظيم، إذ تَرْكُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسادٌ كبير في المجتمعات ومقراضٌ عظيم للأمم. والمنقول عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: أن هذه الآية تسلية للمؤمن إذا قام بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلم يفلح. وذلك لأن السلف متَّفقون علىٰ أنَّ المؤمن لا يكون مهتدياً بمجرَّد إصلاحه لنفسه، إذا لم يهتمَّ بإصلاح غيره، ويَأْمُرْ بالمعروف وينْهَ عن المنكر، إذ هما من جملة الاهتداء، بل هما عملٌ عظيم في حفظ هذا الدين ونشره في البشر أجمعين. اللهم اجعل تفسيري هذا هدايةً للناس، ودعايةً إلىٰ سبيلك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ

---

(١) أرىٰ في وجه الربط: أنه لما ذكر في السياق هذه الألاعيب من جَهَلة البشر، التفت إلىٰ المؤمنين يحملهم علىٰ التمسُّك بما جاءهم من الأحكام، ويبيِّن لهم أنَّ تَبِعَة هؤلاء الضَّالين لا تضرُّهم شيئاً، ذكر ذلك رضاء عن المؤمنين وسخطاً علىٰ الكافرين. والله أعلم.

وهناك وجه ثالث، وهو: لما كان السياق في تأنيب المشركين وإعراضهم عن هذا الحق المبين، وكان المؤمنون يتألمون من بقاء أقربائهم علىٰ الشرك والإعراض عن القرآن، عقَّب ذلك بما يتضمَّن التهوين عليهم والتطمين. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٧: ١٧٦).

مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

ثم تابع سَرْدَ الأحكام مراعياً دقَّة المسلك مع الفقرة الأخيرة ومناسبة السياق، فإنه لما أنّب سبحانه غير المسلمين علىٰ سيرتهم وإعراضهم عن الهدىٰ وتقليدهم الأعمىٰ لآبائهم في الضلال، وحطَّ من شأنهم لِفَرْط جهلهم وضِيقِ مداركهم مما يُبعِدُهم عن الإنسانية والأمانة والصدق وأحوال المجتمع، استدرك وبيَّن أن ذلك لا يمنع من استشهادهم علىٰ الوصيَّة في السفر إذا لم يكن أحد من المسلمين.

وقد مهَّد لذلك بما ذَكَّرنا سبحانه وتعالىٰ به من الموت والحساب في قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾، فأرشدنا إلىٰ الوصية قبل الموت حتىٰ يبيِّن الشخص ما له وما عليه، وإلىٰ العناية بالإشهاد عليها ولو من هؤلاء الضَّالِّين، إذا لم يكن أحد من المسلمين، وذلك للاهتمام بالوصيَّة وأن لا تُضَيَّعَ في السفر، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أي: من المسلمين. أما في السفر فيجوز أن يكونا من غير المسلمين، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: إن سافرتم، ﴿فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ولم يكن معكم من المسلمين، فاستَشْهِدوا من غيرهم.

ثم بيَّن سبحانه كيفيَّة أداء غير المسلمين للشهادة، فقال: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ليشهدَ جماعةُ المُصلِّين هذا المَحْضَر وأداء الشهادة. وذلك لأنَّ مسجد النبي ﷺ كما كان مجلسَ إرشاد ووعظ، كان مجلسَ قضاء أيضاً. وكان هذا المجلس يلتئم بعد الصلوات.

وقال الأكثرون: المراد صلاة العصر؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ حلّف عَدِيّاً وتميماً في هذا الوقت. والحكمة في ذلك: حضور الناس بكثرة في هذا الوقت، لأنه وقت فراغ من الأشغال، فكان ذلك تتميماً للحكمة في هذه الشهادة، أو هو الوقت الذي يقعد فيه الحكام للفصل في المظالم والدعاوىٰ.

ثم ذكر كيفية شهادتهما، وقال: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾، وذلك ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ وشككتم في صدقهما. أما الأمين فيصدَّق بلا يمين. وجاءت هذه الجملة معترضة بين القسم والمقسَم عليه، وهو ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾ أي: لا نحلف كاذبَين متحيِّـزَين ممالئَـين لأحد، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ منا، يبالغون في التنزُّه عن الحلف الكاذب، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: التي أُمِرْنا بإقامتها. وإضافةُ الشهادة إلىٰ الله لتعظيم شأنها، والترهيب من التلاعب بها. والجملة معطوفة علىٰ جملة: ﴿لَا نَشْتَرِى﴾ داخلة معها في المُقْسَمِ عليه.

ثم يؤكِّدان ذلك بقولهما: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: إن كتمناها.

وبهذا الحلف يثبت الحق بهذه الشهادة، وتبرأ ذمتُهما إن كانا قد ائتُمِنا علىٰ بضائع الوصية، ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ بعد هذا الحلف ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ أي: بالكذب أو الكتمان في الشهادة، أو بالخيانة وكتمان شيء من التركة في حالة ائتمـانهما عليها، كما ظهر في الواقعة التي كانت سبب النزول، فالواجب حينئذ أن يُرَدَّ اليمين إلىٰ الورثة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ في الحبس والتحليف علىٰ الوجه الذي ذكر ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي: جُني عليهم أو حُكِمَ عليهم. وهذا إذا قُرئ الفعل بصيغة المجهول، أما إذا قُرئ بصيغة المعلوم[1]، فيكون معناه: من الذين وقع عليهم الحقُّ، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] أي: وقع التقطُّع بينكم.

---

(١) «السبعة في القراءات» ص٢٤٨.

وبعد أن وُصِفَ الآخران بكونهما من الذين وقع الحقُّ عليهم، فتعرَّفا أو تخصَّصا بالموصول، أبدَلَهما أو وَصَفَهُما بقوله: ﴿ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ ﴾ بالميت والأقربان إليه. فقد سوَّغ وصف النكرة بالمعرفة بيانُها بـ﴿مِنَ﴾ الداخلة علىٰ الموصول.

ثم ذكر كيفيَّة شهادتهما بقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ ﴾ أي: في هذه الشهادة أو في هذا الطلب، ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ يبالغون في التنزُّه عن الحلف الكاذب، أو الطلب الكاذب.

ثم بيَّن تعالىٰ حكمة شرعه لهذه الشهادة وهذه الأيمان علىٰ هذه الصورة، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ ﴾ أي: أقرَبُ ﴿أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ أي: إن هذه الصورة التي ذُكِرَت لأداء الشهادة ورد اليمين إلىٰ الورثة، إن عُثِرَ علىٰ شيء في الشهادة الأولىٰ، هي التي تضمن صحة أداء مُتحمِّلي الشهادة الأولىٰ من غيركم، لأنها تحمل الشاهدَين أن يؤدِّيا شهادتهما علىٰ وجه الحق، خشية أن تُردَّ اليمين إلىٰ الورثة بعد حلفهما فيفتضحا. فمن لم يمنعه خوف الله لضعف دينه أو فقده، يمنعه خوفُ الفضيحة علىٰ ملأ الأشهاد. ويجوز أن تُضَمَّنَ كلمةُ ﴿تُرَدَّ﴾ معنىٰ: تُطلب.

وتُـؤْذن الآية بأن الشاهد الذي يُرتاب في شهادته يجب علىٰ الحاكم أن يعالجه بما يستظهر به الحق، ولو بالمحاورة في الكلام، حتىٰ يستنبط منه الصدق علىٰ أقرب الوجوه للواقع. والله أعلم.

ثم ختم الكلام بما يبعث علىٰ التزام الحقِّ في الأحكام، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ ما تؤمرون به، ثم ندَّد بالمخالفين وبيَّن الحاجة لهذه الصورة في شهادة الضالِّين عن الدين بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ أي: الذين أفسدوا طبيعتهم فخرجوا عن نور الفطرة وجلاء البصيرة إلىٰ ظلمة الجهالة وفساد الطبع والإعراض عن الدين، فإنهم لا يرون الحقَّ ولا ينكرون الباطلَ لفساد طبيعتهم.

أما القصةُ التي كانت سَبَبَ نزول هذه الآية ـ كما جاء في الصحاح ـ فهي كما يلي: أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال: كان تميم الداري وعَدِيٌّ بن بداء رجلَيْن نصرانيَّيْن يتَّجران إلىٰ مكة في الجاهلية، ويطيلان الإقامة بها، فلما هاجر النبيُّ ﷺ حَوَّلا متجرهما إلىٰ المدينة. فخرج بديل بن أبي مارية مولىٰ عمرو بن العاص تاجراً حتىٰ قدم المدينة، فخرجوا جميعاً تجاراً إلىٰ الشام، حتىٰ إذا كانوا ببعض الطريق، اشتكىٰ بديل، فكتب وصيَّته بيده، ثم دسَّها في متاعه، وأوصىٰ إليهما، فلما مات فتحا مَتاعَه، فأخذا منه شيئاً، ثم حَجَراه كما كان، وقدما المدينة علىٰ أهله، فدفعا متاعه، ففتح أهلُه متاعَه، فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به، وفقدوا شيئاً فسألوهما عنه، فقالوا: هذا الذي قبضناه له ودفع إلينا. فقالوا لهما: هذا كتابه بيده، قالوا: ما كتمنا له شيئاً، فترافعا إلىٰ النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية إلىٰ قوله: ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْأَثِمِينَ ﴾، فأمر النبيُّ ﷺ أن يستحلفوهما في دُبر صلاة العصر ـ مُجْتَمَع الناسِ ـ بالله الذي لا إله إلا هو ما قبضنا له غير هذا ولا كتمنا. فمَكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم ظهر معهما علىٰ إناء من فضة منقوش مُـموَّه بذهب، فقال أهله: هذا من متاعه. قالا: نعم، ولكننا اشتريناه منه، ونسينا أن نذكره حين حلَـفنا، فكرهنا أن نكذب نفوسنا. فترافعوا إلىٰ النبي ﷺ فنزلت الآية الأخرىٰ: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾، فأمر النبي ﷺ رجلَيْن من أهل الميت أن يحلفا علىٰ ما كتما وغيَّبا ويستحقانه، ثم إن تميماً الداري أسلم بعد هذا وبايع النبيَّ ﷺ، وكان يقول: صدق الله ورسوله، أنا أخذت الإناء[1].

وفي رواية أخرىٰ عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ قال: برئ الناس منها غيـري وغير عَدِيٍّ بن

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١: ١٨٧ - ١٨٨).

بداء، وكانا نصرانيَّيْن يختلفان إلىٰ الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما، وقدم عليهما مولىٰ لبني سهم ـ يقال له: بديل بن أبي مريم ـ بتجارة، ومعه جام من فضة يريد به الملك، وهو أعظم تجارته، فمرض وأوصىٰ إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك إلىٰ أهله. قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمنا أنا وعدي بن بداء، فلمَّا قدمنا أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقدوا الجام، فسألونا عنه. فقلنا: ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره. قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ، تأثَّمت من ذلك، فأتيتُ أهله فأخبرتهم الخبر، وأدَّيتُ إليهم خمسمئة درهم. وأخبرتهم أنَّ عند صاحبي مثلها، فأتوا به رسول الله ﷺ، فسألهم البيِّنة فلم يجدوا. فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم علىٰ أهل دينه، فحلف فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا، فنزعت الخمسمئة من عدي بن بداء(١).

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾
إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ
تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ
وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٥٩) وقال: هذا حديث غريب وليس إسناده بصحيح، والطبري في «تفسيره» (١١/ ١٨٦ - ١٨٧)، عن تميم الداري.

وقال ابن كثير بعد أن ذكر الحديث في «تفسيره» (٣: ٢١٩): وقد ذكر هذه القصّة مرسلةً غيرُ واحد من التابعين منهم: عكرمة، ومحمد بن سيرين، وقتادة. وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير. وكذا ذكرها مرسلة: مجاهد، والحسن، والضحاك. وهذا يدل علىٰ اشتهارها في السلف وصحتها.

وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾.

ثم عاد بالكلام إلىٰ مُحاجَّة أهل الكتاب، بأن ما كان في تاريخ نبوَّة عيسىٰ، إن هو إلا معجزات أيَّده الله بها علىٰ نسق معجزات الأنبياء، وبما سيكون يوم القيامة من إنكاره وتفصيله وتبرئته من اعتقادهم الألوهية فيه، علىٰ نهج القرآن في العودة المرَّة بعد المرَّة إلىٰ ما يريد الإشباع بالكلام عنه، (كما جاء في الفقرة (و) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية). وافتتحه بالتذكير بيوم الجمع والحساب، وسؤال الرسل عن أممهم، ليكون وجه الاتصال في الآية ما فيها من الحمل والحثِّ علىٰ التمسُّك بالأحكام المتقدمة، والرد والتنديد بالكفار الذين جرت المناقشة معهم في السياق في أمر شركهم، وفي أمر عيسىٰ عليه السلام، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾، والمراد من هذا السؤال: توبيخ أممهم، وإقامة الحُجَّة علىٰ الكافرين. ولذلك كان الجواب: ﴿قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾، وهذا ليس بنفيٍ لعلمهم علىٰ الإطلاق، وإنما هو نفيٌ لعلم الإحاطة الذي هو خاصٌّ به تعالىٰ؛ لأنهم لا يعلمون بواطنَهم ولا حالَ مَنْ لم يروه من أممهم.

ويجوز أن يكون هذا الجواب المُقْتَضَب ناشئاً عن هَوْل الموقف الذي أنساهم كل شيء، وأذهلهم عن الذكرىٰ ـ والله أعلم ـ فأحالوا العلم إلىٰ الله. اللهم كن لنا في ذلك الموقف الرهيب، ولا تكن علينا يا أرحم الراحمين.

ويجوز أن يكون المراد: لا علم لنا بعد علمك. والله أعلم.

وبعد أن ذكر سؤالَ الرسلِ وجوابَهم بالإجمال، بيَّن سؤالَ وجوابَ واحدٍ منهم بالتفصيل؛ ليكون نموذجاً لتفصيل أحوال الباقين، وخصَّ عيسىٰ عليه السلام ليكون

الكلام امتداداً لما سبق، وتمكيناً لإقامة الحُجَّة علىٰ مَن يدَّعون اتِّباعه في دينه، وهم الذين حاجَجَتْهُم هذه السورة فيما يقولون في رسولهم أَوْسَعَ حِجَاجٍ، وأقامت عليهم البرهان إثر البرهان، وقد أعاد عليهم الكرَّة في الإلزام بالمعجزات التي أنعم بها علىٰ عيسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو مَلَكُ الوحي الذي يُؤيِّد اللهُ به الرسلَ بالتعليم الإلهي والتثبيت، أي: جعلتك رسولاً مؤيداً بالوحي الإلهي.

ثم ذكر نعمة أخرىٰ، فقال: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ وهذا العطف للمقارنة والمساواة، فقد قَرَن الحالين لبيان أنهما علىٰ نَسَق واحد، مقترنان برزانة الرأي والتدبير. فكلامُه في المهد مِثلُ كلامه وهو كهل. وهذه معجزة أيَّده الله بها، أو هو إرهاص، وهو ما يصدر عن الرسل من الغرائب قبل الرسالة.

ثم ذكر نعمة أخرىٰ، فقال: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، فذكرهما أولاً بالجنس والوصف، ثم خصَّهما بالذكر، إظهاراً لشرفهما.

ثم تابع الكلام عن المعجزات بأسلوب الامتنان، فقال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ أي: تصنع وتسوِّي ﴿مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ أي: بتسهيلي وتيسيري، ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ أي: بتكويني وإيجادي، بأن يظهر ذلك علىٰ يده عليه السلام، ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ وهو من وُلِـدَ أعمىٰ، ولكن أراد به الأعمىٰ مطلقاً، من ذكر الخاصّ وإرادة العامّ، مبالغةً في العمىٰ، ﴿وَ﴾ تُبرِئُ ﴿الأَبْرَص بِإِذْنِى﴾. وفي ظاهر قوله: ﴿بِإِذْنِى﴾، إشارةٌ إلىٰ أنَّ المسيح لم يُعْطَ هذه القوة دائماً، بل كانت تقع إذا أذن الله له بذلك عند الحاجة إليها، تأييداً لنبوَّته، والله أعلم.

ثم أعاد كلمة ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ للاهتمام بهذه المعجزة،

وكذلك قوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وفي هذا زيادةُ تعريض وتقريع للكفار الذين حكىٰ عنهم بقوله: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ أي: ظاهر، لا من جنس الآيات التي جاء بها موسىٰ، والمعنىٰ: فكذَّبوك مع ظهور معجزاتك، وأرادوا قَتْلَكَ وصَلْبَك، وكَفَفْتُهم عنك.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ وهم الذين يُخْلصون للرجل سراً وجهراً، فألهمتُهم ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ أي: واذكر نعمتي عليك حين ألهمتُ الحواريين المحافظين لسلامة طباعهم أن يؤمنوا بك، وقد كذَّبك جمهور بني إسرائيل، فجعلتهم أنصاراً لك، يُؤيِّدون حُجَّتك، وينشرون دعوتك.

ثم ذكر ما جرىٰ بينه وبينهم لبيان نعمةِ معجزة أخرىٰ ظهرت من جرَّاء ذلك، فقال: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1]، قال العلماء: إنَّ سؤالهم عن الاستطاعة بحسب الحكمة الإلهية لا

---

(١) الحوارِيُّون لعيسىٰ كالأنصار لمحمد عليهما السلام، وعلىٰ اعتبار أنَّ هذه الآيات تدل علىٰ شكهم، لا تعارض الآيات التي جاءت في حقِّهم، ودلَّت علىٰ إيمانهم كاملاً خالصاً، إذ من المعلوم =

بحسب القدرة، أي: هل ينافي ذلك حكمة ربك؟ وإن هذا السؤال لأجل اطمئنان القلب بإيمان العيان لا للشكِّ في قدرة الله علىٰ ذلك، فهو علىٰ حدِّ سؤال إبراهيم عليه السلام رؤيةَ كيفيَّة إحياء الموتىٰ.

وذهب بعضهم إلىٰ أن هذا من المجاز المرسل، فقد أطلق الاستطاعة علىٰ الفعل لأنها لازمة له، أي: هل يفعل ذلك، ولا حكمة مانعة منه.

فأجابهم عيسىٰ و﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾، ولا تقترحوا مِثلَ ما اقترح أسلافكم علىٰ موسىٰ، لئلا تكونَ فتنة لكم. فإنَّ من شأن المؤمن الصادق الإيمان أن لا يطلب من ربِّه أن يعيش بخوارق العادات، وعلىٰ غير السنن التي جَرَت عليها معايش الناس. أو المعنىٰ: اتقوا الله وقوموا بواجب الإيمان من العمل والتوكل عسىٰ أن يعطيكم ذلك.

فبيَّنوا ما دعاهم إلىٰ هذا السؤال، وأنه ليس إزاحةً لشبهة، بل طلباً لمنفعة، حيث

= أن الدعوات تبتدئ بمرحلة من التردُّد في نفوس الـمَدْعُوِّين، تختلف باختلاف استعداد الأفراد لإدراك الحق وقَبوله، فمنهم مَنْ يبادر إلىٰ الإيمـان، ومنهم من يمتد به التردُّد حتىٰ يرىٰ ما يُطَمْئِنُه. وما كان تأخُّر مثل عُمَرَ وخالدٍ بالذي يبعدهم عن مرتبة النُّصرة للحق والصدق في الإيمان بمحمد ﷺ ودعوته.

وعلىٰ قراءة: (هل تستطيع ربك) أي: سؤالَه، لا يبقىٰ هذا الإشكال الصُّوري أيضاً. ويجوز حَمْل قراءة الجمهور علىٰ معنىٰ هذه القراءة، أي: أَمِنَ الممكن أن يُطلب منه هذا الطلب. ومن العلماء من يرىٰ أن المائدة المسؤولة لم تُنَزَّل؛ لأنه لما قيل لهم: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أشفقوا من ذلك واستعفوا من طلبهم واستغفروا ربهم، وقالوا: لا نريدها. وممن قال بهذا الرأي بعض مُفسِّري السلف، كالحسن وقتادة ومجاهد. والجمهور يقولون: إن قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ وعدٌ، ووعدُ الله لا يتخلَّف. ويقول مخالفوهم: إنه وعد مقيَّد بما رُتِّب عليه من نزول العذاب، فلما أشفقوا وطلبوا العفو لم ينفذ. والله أعلم. (المؤلف).

﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ أكل تبرُّك، أو لأننا في حاجة إلىٰ الطعام، ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بما نُؤمِنُ به من قَبولنا عند الله، بضمِّ علم المشاهدة إلىٰ علم السمع منك، وعلم النظر والاستدلال، ﴿وَنَعْلَمَ﴾ بالمشاهدة ﴿أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ ما وعدتَنا من ثمرات الإيمان، أو المعنىٰ: لتكون معجزة لك، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ (١١٣)﴾ عند بني إسرائيل، فيؤمن المستعد للإيمان، ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

ويجوز أن يكون ضمير ﴿صَدَقْتَنَا﴾ راجعاً للأمة بما فيها المتكلّمون، وهم يريدون الأمة بمجموعها لا بجميعها، ومثله من خصائص اللغة، فلا يُعارض إيمان الحواريين الطالبين لها.

ويجوز أن تكون الجملة عبارةً مبالغاً فيها عن العلم الاطمئناني، لا العلم الابتدائي، علىٰ حدِّ قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فلما رأىٰ عيسىٰ عليه السلام أنَّ لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، وأنهم لا يُقلِعون عنه، أزْمَع علىٰ استدعائها، فدَعا الله كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ﴾ علىٰ صدق نبوتي، ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (١١٤)﴾.

فاقترن دعاؤه عليه السلام بالإجابة، و﴿ قَالَ ٱللَّهُ ﴾ تعالىٰ: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١١٥)﴾ وأيُّ عذر لمن يرىٰ الآيات من رسوله، ثم يقترح آية أخرىٰ مبيَّنة علىٰ وجه مخصوص، فيُعطَىٰ ما طلب، ثم ينكص علىٰ عقبيه، ويكون من الكافرين.

وقد جَرَت سُنَّة الله تعالىٰ في مُقْتَرِحي الآيات إذا كفروا بعدها، أن يستأصلهم بالعذاب.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

ثم عاد بالكلام عما يجري يوم القيامة من المحاورة مع الرسل، لتوبيخ الكافرين، وإقامة الحجَّة عليهم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يريد سبحانه بهذا السؤال توبيخَ الكَفرة وتبكيتهم، بما أجاب به عيسىٰ عليه السلام، حيث ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي: ليس ذلك من شأني، ولا مما يصحُّ وقوعُه مني. وهذا اللونُ من النَّفي أبلَغُ في البراءة من نَفْيِ القول، لأنَّ نَفْيَ الشأن يستلزم نَفْيَ الفعل بالدليل.

ثم أكَّد هذا النفي بحُجَّة قاطعة، فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ وهذا إقرارٌ بالعبودية دليلُه منه، وقد أيَّده بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾، وبعد التنصُّل وإقامة البرهان علىٰ براءته، بيَّن حقيقة ما قاله لقومه، وضمَّنه ما يؤكِّد براءته مما أسندوه إليه، واعترافه بأنه عبدٌ مثلهم، يمتاز عليهم بالرسالة فقط، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

أقول: وإن الدعوة لله وحده واضحة في الأناجيل التي بين أيديهم لو كانوا يفقهون. فقوله فيها: «أبي الذي في السماوات»، مثل قوله فيها للحواريين: «أبيكم الذي

في السماوات»، فهو في كليهما تعبير مجازيٌّ ظاهر لا خفاء فيه. وكان يجري هذا الكلام في أنبياء بني إسرائيل، ولكن مجامع القسطنطينية حرَّفته بالتأويل في حقِّ عيسىٰ عليه السلام بتأثير عقيدة الرومان الشركية التثليثية، عندما دخلوا في النصرانية وشكَّلوا هذه المؤتمرات، وكانوا يعتقدون بالإله وزوجته وولده، فجعلوا عقيدتهم بالأب والابن والروح القدس، جمعاً بين عقيدتهم الشركية وبين النصرانية.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: كنتُ أراقبهم فيما يقولون وفيما يفعلون، فأُقرُّ الحق وأنكر الباطل، مدَّة وجودي فيهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ وانتهت رسالتي فيهم ومراقبتي لهم، فلا عِلمَ لي عنهم بعد ذلك، ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ وهذا تذييل مُقرِّرٌ لما قبله، ومُؤْذِنٌ بأنه شهيدٌ عليهم وعليه، حين كان بينهم أيضاً. وقد علَّقنا علىٰ أمر الوفاة والنزول في آخر الزمان عند مثل هذه الآية من سورة آل عمران[1].

وفي الآية تصريحٌ بأنه مُتوفّىٰ منذ فارق قومه[2]، وفي الكلام إيماءٌ إلىٰ أنَّ عيسىٰ عليه السلام لم يعرف شيئاً من ذلك إلا بعد أن عرَّفه الله سبحانه بهذا السؤال.

ثم قَرَن بالشهادة نتيجتَها، فقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي: إن تُعذِّب مَنْ يستحقُّ العذاب من المشركين منهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ و[أنتَ] أحقُّ بأمرهم من نفسهم، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: وإن تَغْفِر لمن يستحق المغفرة ممن لم يضلَّ هذا الضلالَ منهم ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ

---

(١) يعني: الآية ٥٥ منها.

(٢) نعم، الآية مُصرِّحة بالتوفي، لكن الخلاف في معناه، فقال بعض العلماء: التوفي هنا بقبض الروح، وإليه يميل المؤلف، وقال الجمهور: التوفي: أخذُ الشيء وافياً، والموتُ نوعٌ منه، فيكون المعنىٰ هنا: فلما استوفيتَ لي مدتي بينهم وأخذتَني إليك بالرفع إلىٰ السماء.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ أي: القادر القويُّ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة العامة. والضمير الراجع إلىٰ جملتهم، هو ضمير الجنس، يَصدُقُ ببعض الأفراد.

وخلاصة المعنىٰ: إنك إن تُـعَذِّبْ فإنمـا تُـعَذِّبُ مَنْ يستحق التعذيب، وإن تَغْفِرْ فإنما تَغْفِرُ لمن هو أهلٌ لذلك؛ إذ قد سبقت المشيئة الأزليَّة أن يعذِّب من أفسد فطرته ودسَّاها، وهو الكافر العاصي. وأن يرحم مَنْ حافظ علىٰ سلامتها وزكَّاها، وهو المؤمن الطائع، وجاءت بذلك الأنبياء والكتب المنزلة. والله أعلم.

ويجوز أن يكون الكلام مُجَرَّدَ بيان عن كمال سلطانه تعالىٰ، لأنَّ الشرك لا يُغفَرُ لأصحابه. فهو كما تقول: الملك هو الذي يثيب ويعاقب، وتريد أنه يُثيب ويعاقب بالاستحقاق، وأنه هو صاحب السلطان لا يعارضه أحد في ذلك.

وبعد انتهاء كلام عيسىٰ عليه السلام المحكي عنه يومَ يَجْمَعُ اللهُ الرسل، ووصول القضية إلىٰ حكم الله، ذَكَر مصير المؤمنين منهم ومن غيرهم، فقال: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فجزاهم أحسن الجزاء، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ لأنه جزاءٌ فوق ما كانوا يظنون ويؤمِّلون، جزاهم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَر علىٰ قلب بشر.

ثم نوَّه سبحانه بشأن هذه السعادة فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾، وأيُّ فوز أعظم من أن يُعطَىٰ الإنسان من النعيم حتىٰ يرضىٰ؟! اللهمَّ لا تحرمنا من هذه السعادة، يا أرحم الراحمين.

ثم ختم سبحانه الكلام بدليل قدرته علىٰ إنجاز ما وَعَد، وعلىٰ استحقاقه وحده أن يُؤَلَّه ويُعبَد، فقال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾، فهو المستحقُّ للألوهيَّة وحده دون سواه، وهو القادر علىٰ تنفيذ ما ذكر من إجراءات الله في وَعدِهِ ووعيده، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير.

سورة الأنعام

مكيَّة إلا آية: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [١١١]، وهي مئة وخمس وستون آية، وقد نزلت دفعة واحدة، فدعا النبي ﷺ الكُتَّابَ فكتبوها من ليلتهم.

وينحصر الغرض منها في إثبات التوحيد والنبوة، ودَحْض مذاهب الـمُبطِلين والملحدين، وإبطال ما ابتدعوه من تحليل الحرام وتحريم الحلال من الطيِّبات، تقرُّباً لأصنامهم.

وهي من بين السور المكيَّة ذات شأن كبير في تركيز الدعوة؛ تقرِّر حقائقَها، وتفنِّد شُبَهَ المعارِضين، وتردُّهم علىٰ أعقابهم خائبين. فهي في ذلك ذات امتياز خاص، كما قاله جمهور العلماء، وقد كثُر فيها الأسلوب التَّلقيني المصدَّر بقوله: ﴿قُلْ﴾، والمتضمِّن لقوَّة الحُجَّة والبرهان.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦)﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ بإيجاد النظام الشمسي، من أنظمة هذا الكون، ذلك النِّظام الذي له الأثر العظيم في حياة الإنسان ومعاشه، ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)﴾ أي: يَعدِلون به غيرَه ويُسوُّون به مَنْ لا يَخلُقون شيئاً وهم يُخلَقون. فما أفظع هذه الضلالة! وما أشنع هذه الجهالة!

ثم تابع الكلام علىٰ ما يستحقُّ به الحمد والتوحيد، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ علىٰ تَبايُنِ ما بينكم وبين الطين من الشؤون والخصائص والطبائع. فما أعظم هذه القدرة! وما أقدرَها علىٰ إعادتكم بعد الموت إلىٰ حياة أخرىٰ! لا إله إلا هو. وفي هذا مجازُ نسبةِ ما للأصل إلىٰ الفرع من مجازات القرآن، (كما جاء في المادة الأولىٰ من المقدمة السادسة). ويجوز أن يبقىٰ الكلام علىٰ الحقيقة، لأنَّ عناصر الأصل تبقىٰ في

الفرع، ويجوز أن يكون المراد كونَ المنيِّ متولِّداً من الأغذية بما فيها النبات، وهو مُتولِّد من الأرض ومكوَّن منها. والله أعلم.

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ﴾ وقدَّر ﴿أَجَلًا﴾ لموت كلِّ فرد منكم، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ تعالىٰ لإعادتكم وبعثكم بعد موت الجميع، وانقضاء عمر الدنيا، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ وتشكُّون في بعثكم هذا، وترونه غير ممكن، ولا تلتفتون إلىٰ ما في خلقكم من طين وفي حياتكم الأولىٰ وموتكم من قدرة الله وصنعه العظيمين العجيبين، لتعلموا أنَّ مَنْ فعل هذا يفعل ذاك، بل هو أهون عليه، وله المثل الأعلىٰ.

وبعد أن قرَّر الحشر، قرَّر توحيد الله وسلطانه المُطْلَق، وألمع إلىٰ ما سيجريه من الجزاء، فقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مُعترَفٌ به وبألوهيَّته فيهما، وبعظيم صنعه بهما، وقوَّة سلطانه عليهما، و﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ أي: ما تعملون من خير أو شر، فيجازيكم عليه الجزاء الوفاق والأوفىٰ.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ هؤلاء الكافرين لم يلتفتوا إلىٰ تلك الآيات الكونيَّة والبراهين القطعيَّة الدالَّة علىٰ وحدانيَّته وقدرته علىٰ البعث، ونعىٰ عليهم إعراضَهم عنها، وخِذلانَهم في ذلك، فقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ مُنزَّلة ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ تُنبِّئهم عن آياته الكونيَّة في الآفاق وفي أنفسهم، وتُعلِّمُهم كيف يسلكون ويسيرون في دنياهم، لِيَحْسُنَ مصيرُهم فيها وفي أخراهم، ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ غير متدبِّرين لـما تدلُّ عليه من العلم اليقين، والصراط المستقيم.

ثم أنَّبهم علىٰ ذلك وتوعَّدهم فقال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، وهو هذا القرآن وما بيَّنه لهم من أحوال الآخرة، نعيمِها وشقائِها، وارتباط ذلك بأعمالهم في الدنيا وإيمانهم بالله، ولكنهم كذَّبوه واستهزؤوا بما وَعَدهم وتوعَّدهم به، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾.

وهذا يجوز أن يُراد به عذاب الآخرة، ويكون «مجيء الأنباء» مستعاراً لمشاهدة القيامة وما بعدها، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

ويجوز أن يُراد ما توعَّدهم به من عذاب الدنيا أيضاً، كخذلانهم يوم بدر، ولذلك قفّىٰ عليه بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، والقرن من الناس: القرن المتعاصرون في زمن واحد. ولزيادة التَّهديد بيَّـنَ حالَ هؤلاء الـمُهْلَكين، مع تفوُّقهم عليهم، بقوله: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ كالمصريـين القدماء، يصفهم بالقوَّة والقهر للأمم، والقدرة علىٰ الصناعة، واستثمار كُنوز الأرض وخيراتها، ويصف بلادهم بكثرة الريِّ والخِصْب، ولكنَّهم قابلوا نِعَم الله بالكفر به مثل هؤلاء، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ رغم قوَّتهم وقدرتهم، ولم تُغنِ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾، وهذا بيانٌ لكون ما توعَّدهم به هو سُنَّـة الله في مُكـذِّبي الأنبياء، وفاسدي الأخلاق والنفوس. فإذا نظرنا إلىٰ الأمة التي تعقب الحروب والويلات، نراها تختلف عن سلفها في تحسين أخلاقها، وحفظ الحقوق والمساواة فيما بينها، وقلة الانغماس في الشهوات وما ينشأ عنها من المفاسد، وتنتبه للحقِّ ومناصرته وللأوضاع الاجتماعية الصحيحة في الجملة.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

ولـمّا كان ﷺ يعجب من كفر قومه به وبما نزل عليه مع وضوح برهانه وظهور إعجازه، ويضيق صَدْرُه لذلك، ويبلغ منه الحزن والأسف كلَّ مبلغ، بيَّن له سبحانه أسباب ذلك الكفر ومصادره من طباع البشر وأخلاقهم إذا فسدت بمفاسد التربية والتقليد، ليعلم أنَّ الحجة ـ مهما كانت ناهضة ـ فإنها لا تُجْدي نفعاً إلا عند مَنْ كان محافظاً علىٰ سلامة فطرته واستعداده لقبول الحق، فلا تَعرِضُ له موانعُ الكبر والعناد، خلافاً لمثل هؤلاء الذين بيَّنَ شدَّة عنادهم، وأن ما يَدَّعونه من الشبه إنما هو تعنُّت وشقاق، فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ أنْ آمِنوا بمحمّد، كما اقترحوا ذلك، ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ورأوه بأعينهم نازلاً عليهم، ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ عناداً وتعنُّتاً: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ قد خُيِّل لنا، وما ثَمَّ كتابٌ نزل، ولا قِرطاس لُـمِس. كما قال تعالىٰ في هذا المعنىٰ في سورة الحِجْر: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]، ولا علاج للمكابرة والعناد. وهذا حال الإنسان إذا فَسَدَت طبيعته بتَدْسِيَتِه لنفسه، فيفسد عقلَه ونَظَرَه من أثر ذلك.

ثم ذكر لهم اقتراحاً آخر من هذا النوع، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، اقترح هذا أهل مكة، اقترحوا أن يُنزَّل علىٰ الرسول مَلَك من السماء يكون معه نذيراً مؤيِّداً له أمامهم، كما في سورة الفرقان(١)، كما حكىٰ الله سبحانه عن غيرهم أيضاً مِثـلَ هذا الاقتراح في غير هذه السورة.

وقد ردَّ الله تعالىٰ عليهم من وجهين: فبيَّن أولاً أنَّ هذه الاقتراح يُفْضي بهم إلىٰ تعجيل العذاب لهم إن لم يؤمنوا، فقال: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ فلم يؤمنوا ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ

---

(١) في الآية ٧ منها.

﴿لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾، بل يُعجِّلُ لهم بالعذاب، حسب سُنَّة الله في مُقْتَرِحي الآيات إذا لم يُؤمنوا بعد أن يُعْطَوها، كما مَضَتْ بذلك سُنَّة الله في الأوَّلين.

وبيَّن ثانياً أنَّ هذا الاقتراح لا يُزيل التباسَهُم الذي لبَسوه علىٰ أنفسهم، فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ أي: لجعلناه مُتَمثِّلاً في صورة بشر ليمكنهم رؤيته وسماع كلامه، إذ لا يمكن للبشر أن يُدرك الملك علىٰ صورته الأصليَّة إلا الأنبياء أحياناً، وحينئذ يعتقدون أنه بشر مثلهم، لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية، فيقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسونه علىٰ أنفسهم، باستنكار كَوْنِ الرسول بشراً. وقد عبَّر عن هذا باللبْس عليهم تجوُّزاً، وأسند اللبْس عليهم إلىٰ الله، بحَسَب سُنَنه الكونيَّة في طبيعة الإنسان وطبيعة الملك.

وبعد هذا الردِّ توعَّدهم بأن ينالهم ما نال أمثالهم من مُعَاندي الرسل قبلهم، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ أي: من عذاب الاستئصال الذي كانوا يتوعَّدونهم به ويسخرون منهم عليه، و(حاق) بمعنىٰ: أحاط ونزل.

ولما كان ذلك ممّا يرتاب فيه مشركو مكة الذين يجهلون التاريخ، أمر الله سبحانه رسوله بأن يدلّهم علىٰ الطريق الذي يُوصلهم إلىٰ علم ذلك بأنفسهم، فقال: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ديار عاد وثمود وأشباههم، ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ للرسل حيث تشاهدون من آثارهم وتسمعون من أخبارهم أنهم فَنُوا وأصبحت ديارُهم بلاقِعَ[1] بعد أن عَمَروها أكثر مما عمَرتم دياركم، لأنهم أعلم منكم بعلوم العمران، وأقدرُ منكم علىٰ ذلك بكثير. فالكلام علىٰ التَّهديد والاعتبار.

(١) البلاقعُ: التي لا شيء فيها. «لسان العرب» (بلقع).

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

وبعد أن بيَّن من عِنادهم وضلالهم المقرون بالردِّ عليهم والتقريع لهم، ما شاء أن يُبيِّن، وتوعَّدهم بما جرىٰ علىٰ المكذِّبين من أمثالهم، أمر نبيَّه ﷺ أن يُلقي عليهم برهان التوحيد، مَسْبوكاً علىٰ إلزامهم بما لا يمكنهم إنكاره، فقال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟

ولما كان جواب هذا السؤال بديهياً لا يحتمل الإنكار ولا ينكرونه، أمره بأن يجيب هو بالجواب، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (أ) من المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ لا خلاف بيني وبينكم في ذلك، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً إلىٰ غيره.

وإتيانُ السائل المجادل بالجواب، يَحْسُن إذا كان ما يأتي به هو عَيْنُ ما يعتقده المسؤول وما يجيب به إن أجاب، وإنما يسبقه إليه ليبني عليه شيئاً مِن لوازمه؛ مما يجهله المسؤول، أو يغفل عنه، أو ينكره لجهله أو غفلته عن كونه لازماً لما يعرفه ويعتقده.

ثم أضاف إلىٰ إثباتِ التوحيد إثباتَ الحشر، علىٰ أسلوب القرآن في السبك والجمع بينهما، فقال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ (١) لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ذلك اليوم الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

---

(١) يريد ـ والله أعلم ـ أنه خلق الإنسان ليكون سعيداً في الدارين، وجهَّزه بطبيعة صالحة لذلك شاعرة به، وأرسل له تعاليم تُعينه في بُغْيته، ولكن أكثرهم أهملها أو عارضها، فانغمس في الشقاء. (المؤلف).

قال في «المنار» ما ملخَّصه: والمعنىٰ: أنَّ الله تعالىٰ الذي تُقِرُّون معي بأنَّ له ما في السماوات وما في الأرض، قد أوْجَبَ علىٰ ذاته العليَّة الرحمةَ بخَلْقه، كما يُعلَمُ ذلك من إفاضة نِعَمِهِ عليهم ظاهرةً وباطنة. ومن مقتضىٰ هذه الرحمة: أن يجمعَكم إلىٰ يوم القيامة الذي لا رَيْب فيه، أي: ليس من شأنه أن يرتاب فيه مَنْ تَدَبَّر دلائلَ رحمة الله وحكمته وقدرته.

فإن البيان عن هذا الجمع لأجل الحساب والجزاء رحمةٌ بالمكلَّفين تحملهم علىٰ تهذيب النفس، وتنـزعهم عن الفوْضىٰ واستباحة الظلم، فيكون مجتمعهم سعيداً، وتُؤهِّلهم لنعيم الآخرة العظيم المقيم. أي: إنَّ من أصول دينه القويم ـ الذي هو مَظْهَر رحمته العليا الموافق لفطرته التي فَطَر الناس عليها ـ أن لأعمال البشر جزاءً فطرياً هو أثر لازم للعمل بحسب سنَّته تعالىٰ في تأثير الأعمال النفسية والبدنية في إصلاح الأنفس أو إفسادها[١]. ويُفْضي الأول: إلىٰ نعيم الدارين، والثاني: إلىٰ شقائهما إفضاءً طبيعياً. والله أعلم.

ثم خصَّ بالذكر مِنْ ضمير ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ قولَه: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: أخصُّ من بينهم الذين خَسروا أنفسهم؛ تنبيهاً لهم وإيقاظاً.

ثم علَّل ذلك الخسران بقوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾، والفاء للسببية، أي: إنما خَصَصناهم بهذا التنبيه والوعيد لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فسوف يَـرَوْنَ هَوْل ذلك اليوم.

ثم تابع دليل القدرة والتوحيد، بذِكْرِ أفعال الله وصفاته المقتضية لاختصاصه

---

(١) تفسير «المنار» (٧: ٢٧٢).

بالعبادة، فقال: ﴿وَلَهُۥ﴾ مُلْكاً وإيجاداً ﴿مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَ﴾ ما تحرَّك في ﴿ٱلنَّهَارِ﴾[(١)]، وقد اكتفىٰ بذكر السُّكون عن ذكر الحركة المقابلة له، علىٰ نهج إيجاز القرآن في مثل ذلك. وخَصَّ السَّكَن بالذكر؛ للإيماء إلىٰ حكمة النوم في الليل ورحمته فيه، إذ لولاه لما عاش حيوان؛ لأنه يستعيد به ما فقده من قواه في النهار بعمله وحركته، ففيه إشارةٌ إلىٰ نِعَمِ الله ورحمته التي كتبها علىٰ نفسه وذكرها في السياق.

ثم أردف السكون المقتضي للخَفَاء، بما يناسبه من خصائص الربوبيَّة، وذكرها علىٰ سبيل الوعد والوعيد، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ أي: لا تخفىٰ عليه منكم خافية.

قال أبو مسلم: ذكر في الآية الأولىٰ السماوات والأرض، إذ لا مكان سواهما. وذكر في هذه الآية الليل والنـهار، إذ لا زمان سواهما. والزمان والـمكان هما ظرفا المُحْدَثات، فأخبر سبحانه أنه مالك للمكان والمكانيَّات والزمان والزمانيَّات، لا يخفىٰ عليه شيء من أمرهما.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

وبعد هذا البيان الملزم بألوهيَّة الله وحده، لاقتصار أفعال الألوهيَّة وصفاتها عليه، أمره أن يُؤنِّبهم علىٰ الشِّرك بأبلغ التأنيب، وهو أن يوجِّه الإنكار إلىٰ نفسه بدلاً من توجيهه إليهم، تقريراً لكون ما يدعو إليه من اختصاص العبادة والتوجه لله وحده

---

(١) لا يبعد إذا قلنا: إنَّ الآية من باب نسبة الشيء لما هو لواحد منهما، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن. (المؤلف).

تعالىٰ هو الحق المبين، فقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مُبدِعها ومُنظِّمها، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ وهي من خصائص الألوهية. وفي هذا تعريضٌ بمن اتَّخذ أولياء من دونه من البشر المحتاجين للطعام، والعاجزين عن الخلق والإيجاد، فكيف يكونون آلهة؟!

ثم أردف الإنكار والنقد بالتوجيه، علىٰ نهج القرآن في إرداف النقد بالإرشاد، فقال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ من لَدُنْ ربِّي ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، وقيل لي: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ الذين اتَّخذوا من دونه أولياء. وإضمارُ القول من أساليب القرآن. وهذه الجملة تكميلٌ للجملة السابقة بأسلوب بليغ يشير إلىٰ فظاعة الشرك والتحذير منه.

ثم أمره أن يتابع البيان عن جزاء مَنْ يخالف ذلك، بنفس الأسلوب السابق فقال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾، فقدَّم ذكر الخوف علىٰ شرطه اهتماماً به. والكلام علىٰ الفرض، أي: فرض وقوع العصيان مني. وشرطُ ﴿إِنْ﴾ لا يقتضي الوقوع، فهو لونٌ من ألوان شدَّة البيان أو تحقُّق الخوف علىٰ كلِّ من عصىٰ، علىٰ نهج القرآن في مثله. وفي الآية إشارةٌ إلىٰ أن هذا اليوم لا محاباة فيه لأحد مهما كان عظيماً، وأنه منوط بالأعمال.

ثم تابع وصف ذلك اليوم بالـهول، فقال: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ ذلك العذابُ ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ الله، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ لِـما يتبعه من النعيم المقيم. اللهُمَّ اصْرِف عنا ذلك الهول، يا أرحم الراحمين.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

ثم أتىٰ بما ينهجه القرآن علىٰ أثر بيان عناد المنكرين من تثبيته ﷺ ضدَّهم، ووَعْـدِهِ بالحفظ من مكرهم، وذكر ذلك بصورةِ حقيقـةٍ عامة، علىٰ نهج القرآن في مثله. وقد نظمه في سلك دليل التوحيد وجعله تكميلاً له، فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾(١).

قال في «المنار»: إنما قابل الخير بالضُّرّ، ولم يقابله بالشر؛ لأن الضُّرَّ من الله تعالىٰ؛ ليس شراً، وإنما هو تربية واختبار للعبد، يستفيد به من هو أهل للاستفادة(٢).

ومعنىٰ الآية بعمومها: إنْ أصابك ـ أيها الإنسان ـ ضُرٌّ اقْتَضَته سُنَّةُ الله تعالىٰ؛ فلا صارفَ له إلا الله، يكشفه عنك بتوفيقك للأسباب حسب لطفه الخفيّ، فله الحمد. وكذلك إن يَمْسَسْك بخير.

ثم تابع الكلام بما هو مُكمِّل له ومؤيِّد، فبعد أن أثبت لجلاله كمال القدرة، أثبت له كمال السلطان، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي: المتسلِّط الغالب، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ يضع الأمور حسب الحكمة البالغة، والخبرة الواسعة.

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم ختم سبحانه الأوامرَ القوليَّة والبراهين العقليَّة التي سبقت في بيان حقيقة الدين وإبطال الشرك وإثبات الوحدانية، ختمها وأشفعها بشهادته لرسوله وشهادة

---

(١) إنما يكون هذا الضر من معاكسة سُنن الله الكونيَّة، فنسبته إلىٰ الله باعتبار تلك السُّنن، والمسبِّبُ له هو الإنسان نفسه، مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٧: ٢٧٩).

رسوله له، فقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾، وقد طوىٰ من الكلام قولـهم: (الله أكبر شهادة)، سواء كان ذلك بتصريحهم أو لا؛ لأنهم لا ينكرونه.

ثم أمره أن يُبيِّن لهم أنه تعالىٰ يشهد برسالته وصدق ما جاء به، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: علىٰ صدقي في دعوىٰ الرسالة، ودعوىٰ الوحدانية لله، فهو يشهد علىٰ صدقي فيهما بآياته في القرآن، وآياته في الأكوان، وآياته المودعة في العقل والوجدان.

ثم لخَّص الدعوىٰ التي شهد الله له عليها، فقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: ولأُنذر كلَّ من بَلَغه القرآن بعدي إلىٰ يوم القيامة؛ لأنه دين عالميٌّ ناسخ لجميع الأديان السماوية قبله، ولغته عالمية لأنه لا يمكن أن يُعرف إلا بها، وقد بَلغ القرآنُ كلَّ أمة علىٰ وجه البسيطة بواسطة سَلَفِنا الصَّالح الذي نشر دينَه في الآفاق، ولم يَأْلُ جُهداً في ذلك، وعلىٰ البشر الذي اكتشف العجائب في هذا العصر أن يُحقِّق الدين الصحيح لِيَنْجُوَ به من شقاء الآخرة، وينال سعادتها جهداً، وعلىٰ هذا يكون البشر علىٰ معرفة بهذا الدين العالمي، ولا عُذْر له في التقليد الأعمىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣].

ثم أمر الله تعالىٰ رسوله بالشهادة له بالوحدانيَّة التي جَحَدها المشركون، وبراءته من قولهم بالشرك، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾؟! ينكر عليهم ذلك ويتحقّقه منهم، كأنه يَسْتَبْعد أن يقوله عاقل.

ثم أمره أن يجيب هو بأنه لا يشهد كما يشهدون، إذ لا يجهل كما يجهلون، فقال: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾.

ثم أمره أمراً آخر بأن يشهد بنقيض ما يزعمون، ويتبـرَّأ مما يزعمون، ويُبيِّن الحقيقة الواضحة الراهنة، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ١٩﴾، فما

أبدع هذا التعبير! إنه في منتهىٰ البلاغة، جلَّ مَنْ هذا كلامه. وهو علىٰ نهج القرآن في الجمع بين نقد المشركين وإرشادهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وبعد أن ذكر ما ذكر من الحُجَج علىٰ صدق رسالته، ومنها: شهادة الله في هذا القرآن وفي الكتب القديمة، شَنَّع علىٰ المنكرين من أهل الكتاب إنكارَهم ما يعرفون من صدق رسالته، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾، ثم خصَّ بالوعيد منهم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: بإنكارهم الحقَّ الذي يعرفونه فيه، وقد حكم عليهم بقوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1] إيثاراً لِـمَا لهم من الجاه والمكانة والرياسة في قومهم، علىٰ الاعتراف برسالته التي يعرفونها والإيمان به؛ لاعتقادهم أنَّ هذا الإيمان يسلبهم ذلك.

ولـما كان إنكارُ الحق مع العلم به هو أعظم أنواع الظلم، لا سيما فيما يتعلّق بالله ورسله وشرائعه، شنَّع عليهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، كَمَنْ يزعم أنَّ له ولداً أو شريكاً، أو زاد في دينه ما ليس منه، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ المنزّلة كالقرآن المجيد، أو الكونيَّة الدالة علىٰ وحدانيَّته، أو التي يُؤيِّد بها رُسُلَه.

---

(١) يجوز أن تكون الفاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ للتفريع. ويكون المعنىٰ: الذين خسروا أنفسهم بتدسيتهم لها وإفسادهم لطبيعتها لم يروا الحقَّ حقاً فيتَّبعوه، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئت به من الحق. ويجوز أن تكون الفاء للتعليل، والمعنىٰ: إنَّ عدم إيمانهم سبب خسارتهم لأنفسهم، إذ أوقعوها به في شقاء الدنيا والآخرة. ولو أنهم آمنوا وعملوا بالتعاليم التي جئتهم بها لنالوا السعادة في الدارين. (المؤلف).

ثم بيَّن سُوءَ عاقبتهم، ببيان عامٍّ في الظالمين، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢١)﴾، بل عليهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدار.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦)﴾.

ثم بيَّن شيئاً من عدم فلاحهم وسوء مصيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢)﴾، وهذه الإضافة هي من نوع الإضافة لأدنىٰ ملابسة، أي: الشركاء الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لله، يُدعَوْنَ ويُستعانون كما يُدعىٰ ويُستعان، وأنهم يُقرِّبونكم إلىٰ الله زُلْفىٰ، ويشفعون لكم عنده. وهذا الاستفهام للتوبيخ والاحتجاج.

وكان جوابهم عليه ما حكاه عنهم سبحانه بقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾(١)، والمراد من الفتنة هنا: الشرك، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(٢)، فالمراد بيان مصير الشرك، أي: لم تكن عاقبة شركهم الذي فَتَنهم

---

(١) هذا النفي للمبالغة في التَّبرُّؤ، لا للإنكار والتكذيب. ويجوز أن يكون تكذيباً ناشئاً عما علموا من الحقِّ طول الأزمان التي مرَّت عليهم بين الموت والحساب، لأن العقيدة تتغير تغيراً شديداً بتغيُّر العلم وقوة الإبصار. ويجوز أن يكون هذا بياناً لصنف من المشركين. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧١٨١).

وقاتلوا عليه إلا التبرؤ منه يوم القيامة، إذ إنهم حينئذ ينكشف الأمر لهم، ويخجلون من الشِّرك، ويشعرون أنه لا يفعله عاقل. ويجوز أن ينسوه لطول المدَّة، وبما يدركون من عظمة الله، ولا يُصدِّقون أنَّ أحداً ينحط إلىٰ هذا القول السخيف، وهذا شأن بعضهم.

فَعَجَّبه سبحانه وتعالىٰ من جوابهم هذا، وقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: في دار الدنيا بزَعْمِهم أنهم اتَّخذوا شفعاء يشفعون لهم عند الله، وأنَّ هذا تعظيمٌ لله لا كفرٌ به، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾ من الإشراك، في الآخرة. ومُحصَّله: أنهم لم يجدوا من عملهم ما كانوا منه يُؤَمِّلون، وخَسِرَ هنالك المُبطِلون.

ثم ذكر حال فريق منهم عند سماعه للقرآن، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ إذا تَلَوْتَ القرآن، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، فشبَّه الحُجُب والموانعَ المعنويَّة بالحُجُب والموانع الحسيَّة، وهي الأكِنَّة والوَقْر، واستعارها لها.

قال في «المنار»: ومعنىٰ هذا الجعل: ما مَضَت به سنَّة الله تعالىٰ في طباع البشر من كون التقليد الذي يختاره الإنسان لنفسه، يكون مانعاً له من النظر والاستدلال والبحثِ عن الحقائق، فهو لا يستمع إلىٰ متكلِّم ولا إلىٰ داعٍ للتمييز بين الحق والباطل. وإذا وصل إلىٰ سمعه قولٌ مخالف لـما هو دينٌ له أو عادة، لا يتدبّره ولا يراه جديراً بأن يكون في موضع المقابلة والتنظير مع ما عنده من عقيدة أو رأي أو عادة[1]. كما بيَّن سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ من الآيات الدالة علىٰ صحَّة نبوتك وصدق دعوتك ﴿لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾، لأنهم لا يتدبَّرونها ولا يُدركون المراد منها. وكان من نتيجة ذلك ما حكاه سبحانه عنهم بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ في دعوتك لهم، ﴿يَقُولُ

(١) تفسير «المنار» (٧: ٢٩٠).

ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: قَصَصهم وخُرافاتهم. يعني: إنهم لا يعقلون مما في القرآن إلا قصص الأمم، ويقولون عنها: إنها حكايات وخرافات، ويقولون هذا القول أيضاً في حقِّ الحشر والحساب والنعيم والعذاب وما إلىٰ ذلك. وإنما وَضَع الموصول مَوْضع الضمير؛ ذمّاً لهم بصفة الكفر، وإشعاراً بعلَّة ذلك القول.

ثم تابع المعنىٰ عنهم بقوله: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ أي: يَنْـهَوْنَ الناس عن سماع القرآن، ﴿وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُ﴾ أي: يبعُدون عنه كلَّ البُعْد، ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ﴾ بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أنَّ إعراضهم عنه يُبْعدهم عن طريق النجاة والسعادة، ويؤدِّي بهم إلىٰ طريق الشقاء والهلاك في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم ذكر شيئاً من ذلك الهلاك الأُخروي وندمِهم الشديد حينذاك، فقال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾، وهذا ندم بعد فوات الأوان، أعاذنا الله. ونَصَبَ الفعلَ بإضمار «أن» بعد الواو، إجراءً لها مَجْرىٰ الفاء. والمعنىٰ: إنْ رُددنا لم نكذِّبْ ونكن من المؤمنين. وجواب (لو) محذوف للمبالغة في التهويل، علىٰ نهج القرآن والتقدير: لرأيت هَوْلاً عظيماً، ولرأيتهم في أشدِّ الجزع والثبور.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ قولهم هذا نتيجة ما شاهدوه من الهَوْل الذي كانوا يعلمون عنه في الدنيا، ببيان الله له في كتابه المنزَّل، ولكنهم ما كان في وُسْعِهم تصديقُه، إذ قد أوْغَل فيهم الكفر والفساد. ولهذا المعنىٰ أتىٰ بكلمة ﴿بَلۡ﴾ وكلمة ﴿بَدَا﴾، فقال: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ﴾ ويكذبون به ﴿مِن قَبۡلُ﴾، وإنما قال: يخفون، إيذاناً بأنَّ الغريزة الدينيَّة في

الإنسان لا تنعدم تماماً مع تصلُّب الفساد، ولكنه يغلبها، إلا عند الشدائد، فإن زالت الشدَّة عاد الغلب، ولو بعد مثل هذا الموقف الرهيب. كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ في ادِّعاء الإصلاح إذا عادوا إلىٰ الدنيا، لأن الفساد إذا أصبح مَلَكة للروح، وطبعاً لها لا يُمكن الإقلاعُ عنه أبداً. هذا ما مَضت به سُنَّة الله في طبيعة الإنسان.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم بيَّن شأناً آخر لصنف آخر من هؤلاء المكذِّبين، وهو إنكار البعث وندمهم الشديد عندما يعلمون ذلك ويرونه عياناً، فقال: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أليس هذا هو البعْث الذي كنتم فيه تمترون؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم نعىٰ عليهم بقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾، وهذا من باب التمثيل واستعارة الحالة الماديَّة للحالة المعنويَّة، إشعاراً بشدَّة الثقل والشقاء.

ثم شنَّع ونعىٰ عليهم بقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾، وافتتاح الجملة بـ«ألا»، للمبالغة في التَّشنيع.

ثم ختم السياق بما يحضُّ علىٰ الانتباه والاهتمام للآخرة، فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ كأعمال الصبيان ولعبهم، ثم ينصرفون عنه إلىٰ غير طائل. وهكذا الحياة الدنيا بالنسبة إلىٰ عَظَمة الآخرة، إذ كلُّ نعيم دون الجنة حقير، كما قال: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾، أي: ألم تكونوا من أهل العقل والمعرفة، فتتبصَّروا وتتمسَّكوا بتعاليم هذا القرآن.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وبعد الكلام عن حال هؤلاء المشركين وعنادهم، ذكر ما فيه تسلية له عن ذلك، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ فيك وفي دعوتك ونبوَّتك من تكذيب وطعن وتنفير عنك، فلا تهتمّ لذلك، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾، ووَجْهُ التسلية: أنَّ تكذيبه عليه السلام تكذيبٌ لآياتِ الله، واللهُ من ورائهم محيط، فهو وعدٌ لهم بخذلانهم وبالغَلَبة عليهم.

ثم تابع المعنىٰ في التسلية بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي منها وَعْدُه للرسل بالنصر. ثم قرَّر مضمون الوعد الكريم له بالنصر بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ﴾ أي: في هذا القرآن ﴿مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ في النصر لهم بعد التكذيب والصبر، فاصْبِر كما صبروا؛ تَظْفر كما ظفروا.

ويجوز أن يُراد بـ«كلمات الله»: سننه الكونية والتي منها معارضة الرسل من جانب مَنْ أفسدوا طباعَهم من البشر.

ثم أردف الكلام بما يؤكِّد وجوب الصبر تجاه تكذيبهم، والإعراض عن اقتراحاتهم للآيات كما يأتي، وعبَّر عن ذلك بصورة من صور شدَّة البيان، فقال: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ ممّا طلبوا، أي: إن استطعت أن تَغُوص إلىٰ أعماق الأرض، أو تصعد إلىٰ أعالي السماء فتأتِيَهم بما طلبوا من الآيات، فافعل. وما دمتَ تعلم أنَّ ذلك أمرٌ مَنُوط بعلم الله وحكمتِه وقدرتِه وسُننِه الكونيّة، فأعرض عنهم ولا تذهبْ نفسُك عليهم حَسَرات.

وهذا الكلام لم يكن مُوجَّهاً للنبيِّ ﷺ علىٰ سبيل التقريع، كما يُوهم ظاهره، وإنما هو بيانٌ لهؤلاء الجهَّال، عن حدود الرسالة، وأن الرسول مهما عَظُم في الكمال ليس في قدرته أن يأتي بشيء من الآيات كالتي طلبوها. وأمَرَه أن يجيبَهم بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

ثم أكمل البحث ببيان ما طَبَع اللهُ البشرَ عليه من الاستعداد للخير والشر معاً، وضمَّن ذلك أنَّ معارضتهم هذه لم تكن عن عجزٍ في القدرة، ولا قَسْراً للإرادة الإلهية، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ بأن يَخْلقهم مُسْتعدِّين لذلك فقط كالملائكة، إلا أنّ تلك الخِلْقةَ مُخالفةٌ للحكمة التي اقتضت خَلْقَ الإنسان بهذه الطبيعة الحرة، وهَدْيه للنَّجْدَين، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ بسُنَن الله في أنواع خلقه حسبما تقتضيه الحكمة ويتطلّبه التدبير. وليس الجهل عيباً بهذا المعنىٰ، إذ لا يمكن للبشر مهما بلغ من الكمال أن يحيط بكلِّ شيء علماً، ولا أن يعلم عن مثل ذلك علماً إجمالياً إلا بعد

التنبيه عليه من جانب الله. ومن هذا المعنىٰ قولُه تعالىٰ لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ الناس ـ بحسب طبيعتهم هذه ـ منهم مَنْ يحافظ علىٰ صلاحها ويُزكِّيها، ومنهم مَنْ يفسدها ويُدسِّيها. والصنف الأول: هو الذي يهتدي بالهُدىٰ ويتَّبعه فينال في الآخرة الجزاء الأَوْفىٰ، والصنف الثاني: هو الذي يُعرِض عنه أو يقاومه فيناله العقاب الأليم، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وهم القسم الأول، يسمعون كلامَ الله ووحيَه سماعَ فَهْم وتدبُّر، ويستجيبون له.

أما القسم الثاني ﴿وَ﴾ هم ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: موتىٰ القلوب الذين أماتوها بإفسادها ومَحْق نور استعدادها، فلا يستجيبون، وسينالهم العقاب الأليم حين ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾، وفي قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ استعارةٌ أو توريةٌ بديعة، عقد فيها المشابهة بين الميت والجَمَل البارك.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

ثم أكمل السياق بوجه آخر من الردِّ علىٰ اقتراح الآيات، فنبَّههم إلىٰ أنَّ أفعال الله تعالىٰ في هذا الكون كلُّها آيات لو كانوا يعقلون، فلمَ يقترحون آيةً ومِنْ حَوْلِهِمُ الآيات! وأدمج في الكلام أنَّ عدم إجابتهم في طلب الآية المخصوصة ليس عن عَجْز في القدرة الإلهية، ولكنه بابٌ من أبواب الحكمة الربانية، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن

﴿رَبِّهِۦ﴾ كما أُنزل علىٰ موسىٰ وعيسىٰ، ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾[١] إذا اقتضتِ الحكمةُ ذلك، لا إذا اشتهوْها، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وُجوهَ الحِكَمِ في أفعال الله.

ثم ذكر لهم ما حولهم من الآيات وهم عنها غافلون، فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في النُّظم الاجتماعية والأحوال المعاشيَّة والشؤون الحيويَّة، تدلُّ علىٰ حكمةِ الخالق القدير واختصاصه بالألوهيَّة. ولو تدبَّروا القرآن لرأوا آياتٍ وبراهينَ علىٰ الحقِّ اليقين لا تُحصىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾، فقد قلَّبَ سبحانه لهم فيه العِبَر، ونوَّع لهم الحجج والبينات، وأوقفهم علىٰ المصير، وأنهم سيُعادون، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[٢]، ويُجازىٰ المعرضون جزاءً

---

(١) الذي أراه في هذه الآيات أنَّ الله سبحانه أمر نبيَّه ﷺ أن يقول لهم: إنَّ الله سبحانه لا يُعجزه أن يُنزل آية كما طلبتم، ولكن الحكمة لا تقتضيه. ثم بيَّن أنَّ هذا الكون كلَّه آياتٌ ومن ذلك أن جعل سبحانه أصناف الحيوان أمماً أمثالكم لهم نُظم معاشيَّة وشؤون حيويَّة.
ثم بيَّن سبحانه أنه قد نوَّع لهم في هذا القرآن الحُجج والبيانات، وَقَلَّب لهم الأمر علىٰ سائر صفحاته، فلم يبقَ فيه غموض ولا خفاء.
ثم توعَّدهم بعد ذلك علىٰ الإعراض والمعارضة، بما سينالهم بعد الحشر والحساب، فقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾. وعليه، فالمراد من الحشر: حَشْرُ هؤلاء المجرمين، لا حشر البهائم والطيور وغير العاقلين. والله أعلم. أي: بينّا لهم في الكتاب كلَّ شيء، وسنحشرهم ونجازيهم علىٰ الكفر به والإعراض. (المؤلف).

(٢) قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ معطوف علىٰ جملة ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ أو مستأنف، لأن معناه: أوضحنا لهم كل شيء في هذا الكتاب، فلم يبق لهم حجَّة لطلب الآيات، فتوعَّدهم بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، لأن ﴿ثُمَّ﴾ قد تأتي لتجديد بيان عن خبر مهم عظيم. (المؤلف).

وِفَاقاً. فكلُّ ما في الكون آيات تكشف الحقَّ الثابت المستقر، ﴿وَ﴾ لكن ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ لا يَرَوْنَ الحق ولا يسمعون الهادي إليه سماعَ فَهْم وتدبُّر، ولا ينطقون بما عرفوا عنه، ولا يقرُّون ولا ينتبهون لـما يُحيط بهم من الحُجَج الدامغة والبراهين القاطعة.

ثم عقّب على هذا ببيان منشئه فيهم، فقال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٣٩﴾، وهذه المشيئةُ جاريةٌ على مشيئته سبحانه لفطرة الإنسان في انطباعاته وتَكَوُّنِ أخلاقِه في الهدى والضلال والخير والشر بصنعه، وذلك بحَسَب سُنَّة الله في تأثير الأعمال النفسيَّة في صلاح الأنفس أو فسادها. فمن سَلِمت له فِطرتُه بما صادفت من تربية صحيحة، وحافظ على نور بصيرته، هُدي إلى الصِّراط المستقيم، ومن أفسد فطرته بمخالطة الفاسدين واتِّباع الضَّالِّين، ضلَّ عن الهدى بعد إذ جاءه. وكذلك مَضَت سُنَّة الله في البشر أن يعرض المستكبر عن دعوة مَنْ يراه دونه بحسب نظره، وإن ظهر له أنَّ ما يدعو إليه هو الحق والصواب. وأن يعرض المقلِّد عن النظر في الآيات والدلائل ويصرّ على تقليده. وفي الكلام إسناد الفعل إلى الله من دون ذكر للسبب، على طريقة القرآن في مثله، (كما جاء في القاعدة السابعة عشرة من المقدمة الثانية في أساليب القرآن).

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ۝٤١﴾.

وبعد هذا السياق أمر الله نبيَّه أنْ يذكِّر المشركين بما أَوْدَعَ في فطرتهم من توحيده عزَّ وجل، وما يظهر من ذلك في شعورهم رغم أنوفهم، عندما تصيبهم الشدائد. وسَبَك ذلك على تهديدهم بعذاب الدنيا الذي يستهزئون به، وأنه إذا نزل بهم فلا

يفزعون إلا إليه، وأضاف إلىٰ ذلك تَوعُّدَهم بعذاب الآخرة، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾[(١)] أي: أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ أي: في الدنيا، ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: إن صَدَقتُموني في المقال، ولم تكتموا الحال.

ثم أردف الاستفهام بالتقرير، علىٰ نهج القرآن في أساليبه، فقال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: تتركونهم مَنسِيِّين وتخصُّونه حينئذ وحدَه بالدعاء والالتجاء دون شركائكم، إذ تعلمون أنهم لا يقدرون علىٰ شيء، وهذا الشعور الحقيقي حينئذ إنما يكون بسائق الغريزة الدينيَّة، والفطرة البشريَّة، حيث تندفع النفس إلىٰ الله وحده، كما تنبعث لطلب الغذاء عند الجوع، إذ تشعر أنْ لا ملجأ إلا إليه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تسليته ﷺ بتذكيره بسُنَّة الله في اسْتئصال المعاندين للرسل بعد أن يستدرجَهم بالإمهال، علىٰ نهج القرآن في العودة إلىٰ المبحث المرة بعد المرة، ولكنه زاد في هذه المرة ما فيه تنبيهٌ وتحذيرٌ للمعاندين، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فلم يؤمنوا ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: الشدائد ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: الآفات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ إلىٰ الله ويتوبون من كفرهم، إذ مضت سُنَّته تعالىٰ أن يجعَل الشدائدَ مربيةً لنفوس الناس.

---

(١) قال البصريون: الضمير مفعول به، والمعنىٰ: أرأيتم أنفسكم، وقال الكوفيون: هو لتأكيد الخطاب والمعنىٰ: أرأيتم، ومحصل المعنيين: أخبروني. (المؤلف).

ثم وصف الدواء بعد تشخيص الداء، علىٰ نهج القرآن، وقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ وأصلحوا شأنهم وآمنوا، لَسَلِمُوا من الاستئصال، ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ بما يوسوس إليهم من تحسين الثبات علىٰ ما هم عليه، وما كان عليه آباؤهم.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من البأساء والضَّراء التي تكون للإنذار قبل عذاب الاستئصال ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ليستوفوا حظوظَهم من الدنيا، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ منها ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾ بعذاب الاستئصال ﴿بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: مُتحسِّرون ذالُّون يائسون من النجاة.

﴿فَقُطِعَ﴾ بذلك ﴿دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسَهم بتكذيب الرسل والإصرار علىٰ الشرك، واستُؤْصِلوا عن آخرهم، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ علىٰ نَصْره لرُسله واستئصال الظالمين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

وبعد أن أنذرهم بحال الأمم المعارضة للرسل وبمصيرهم، ذكَّرهم ثانياً بدليل التوحيد، وهو اختصاصه سبحانه بأفعال الألوهيَّة، ولكن بأسلوب جديد، يتضمَّن قدرته سبحانه علىٰ ما يقترحون وعلىٰ أكثر من ذلك، وسَبَكَه علىٰ التهديد والوعيد بعذاب الدنيا فَضْلاً عن الأخرىٰ، وضمَّنه التنبيه إلىٰ نِعَمِ الله الفطريَّة عليهم، وأنه إن

سلبها منهم فمَنْ يأتيهم بمثلها، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾، فأصبحتم لا تسمعون ولا تبصرون ولا تعقلون؟ ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي: هل تقدر آلهتكم علىٰ شيء من ذلك؟ فهو تبكيتٌ لهم علىٰ مقابلة هذه المواهب بالكفر والعصيان ولم يستعملوها في النظر الصحيح وإدراك البرهان.

ثم ختم السياق بما ينطوي علىٰ التَّعجيب والتَّأنيب، فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ بتنويع الحجج والبيِّنات والبصائر، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ عنها ويُعرِضون، ولا يسمعون ولا ينتفعون. والعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ لإفادة أن ذلك الصُّدوف مع تصريف الحجج علىٰ هذه الصورة كان مُستبعداً وغير مُتصوَّر.

ثم توعَّدهم علىٰ ذلك، وسَبَكَ الكلام علىٰ التنبيه والإيقاظ، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: بعد ظهور أماراته، فماذا يكون من أمركم ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾؟!

ثم أردف ذلك ببيان أنَّ الله سبحانه يبعث الرسل للتبشير والإنذار، فينجِّي المؤمنين ويُعذِّب المكذِّبين، فقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ بالثواب العظيم علىٰ الطاعة والإيمان، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالعقاب الأليم علىٰ الكفر والعصيان، ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ نفسه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾، فقد وعدهم الله سبحانه بهذا الوعد الكريم المُؤْذِن بالنعيم المقيم، ثم توعَّد الكافرين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: بما كانوا يخرجون عن جادَّة الإيمان إلىٰ وعورة الكفر والطغيان، فيستحقُّون العذاب المهين.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ

أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

ثم أمره سبحانه أن يردَّ علىٰ هؤلاء المعاندين الذين يقترحون عليه الآيات الكونيَّة، بردٍّ آخرَ سلبيٍّ، يَتضمَّن بيان حدود النبوَّة، وعَجْزها عن متعلِّقات القدرة الإلهية، فقال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أتصرَّف بها ما أشاء من أرزاق العباد وشؤون المخلوقات، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ حتىٰ تسألوني عن الساعة، أو وقت نزول العذاب، أو ما شابه ذلك.

قال في «المنار»: والغيب قسمان: غيبٌ حقيقيٌّ مطلق، وهو ما غاب علمُه عن جميع المخلوقين، حتىٰ الملائكة المقرَّبين، وفيه يقول الله عزَّ وجل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. وغيبٌ إضافيٌّ، وهو ما غاب علمُه عن بعض المخلوقين دون بعض، كالذي يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره، ولا يعلمه البشر مثلاً. وإن ما يُظْهِرُ تعالىٰ عليه الرُّسُل، هو من الغيب الإضافي الذي لم يُؤتَ أحدٌ من خلقه الاستعدادَ لعلمه، وليس داخلاً في علومهم الكسبيَّة.

وأما ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها، ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب أو عجزهم عن استعمالها، فلا يدخل في عموم معنىٰ

الغيب الوارد في كتاب الله. ومن ذلك ما قد يصل إلىٰ حدِّ العلم من الإدراكات النفسيَّة الخفيَّة كالفراسة والإلهام. وأكثر هذا النوع من الانكشاف: لوائحُ تلوحُ للنفس لا يُجْزم بها إلا بعد وقوعها، وأظهر شروط هذا النوع من الإدراك: قوة الاستعداد الفطري في النفس لذلك، وتوجُّه النفس إلىٰ المُدْرَك[1] توجُّهاً قوياً، لا يُعارضه اشتغال قوَىٰ بغيره من المُدْرَكات. وكثيراً ما يقع هذا في حال مرض عصبيّ أو انفعال نفسيّ قوي يَحْصُرُ هَمَّ النفسِ كلَّه فيه، فيكون هناك فاعل وقابل، أو مُرسِل ولاقِط، وقد يكون ذلك في حالة صفاء الروح. انتهىٰ بتصرُّف[2].

وهناك أنواع أخرىٰ من الانكشافات النفسيَّة غير هذا النوع، فقد ثبت في الحديث الصحيح: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان «من المُحَدَّثين»[3].

وقد عبَّر ﷺ عن مَلَك الإلهام بأنه: «واعظُ الله في قلب كلِّ مؤمن»[4].

وجاء في الحديث أيضاً: «إنَّ للشيطان لـمّةً بابن آدم، وللمَلَك لـمّةً، فأمَّا لـمّةُ الشيطان فإيعادٌ بالشرِّ وتكذيب بالحقِّ، وأما لـمّة المَلَك فإيعادٌ بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فَلْيعلم أنه منه تعالىٰ فَلْيَحمد الله، ومَنْ وجد الأُخرىٰ فَلْيتعوَّذ بالله

(١) في تفسير «المنار»: المدارك.

(٢) تفسير «المنار» (٧: ٣٥٣- ٣٥٤).

(٣) رواه البخاري (٣٤٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «إنه قد كان فيما مضىٰ قبلكم من الأمم محدَّثون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم، فإنه عمر بن الخطاب».
ورواه مسلم (٢٣٩٨)، عن عائشة.

(٤) رواه أحمد في «مسنده» (١٧٦٣٤) عن حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه بلفظ: (مسلم) بدل (مؤمن). وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣: ١٧١) ـ بلفظ المؤلف ـ وقال: ذكره رزين، ولم أره في أصوله، عن ابن مسعود.

من الشيطان»[١]. وكلُّ هذا ليس من خوارق العادات، وإنما هو من عالم الأسباب والمسبَّبات.

ثم تابع الكلام في الردِّ علىٰ المعاندين بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، قال في «المنار»: فأعاد هنا كلمة: ﴿لَآ أَقُولُ﴾، ولم يُعدها في نفي علم الغيب، لأنَّ نَفْيَ علم الغيب ونَفْيَ التَّصرُّف في خزائن الله يؤلِّفان التبرُّؤ من دعوىٰ واحدة؛ هي دعوىٰ الصفات الخاصَّة بالله تعالىٰ. وأما نفيُ ادعاء المَلَكِية فهو شيءٌ آخر، فأعيد العامل لإفادة ذلك، كأنه قال: إنني لا أدَّعي صفاتِ الإله حتىٰ تطلبوا مني ما لا يقدر أو ما لا يعلمه إلا الله. ولا أدَّعي أني مَلَكٌ حتىٰ تطلبوا مني ما جعله الله في قدرة الملائكة، بل ادَّعيتُ أني عبدُ الله ورسوله. وإنما وظيفة العبدِ الطاعةُ، ووظيفة الرسول التبليغ.

وعبَّر عن هذا المعنىٰ بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من ربّي، أي: ما أفعل ـ من حيث أنا عبد ورسول ـ إلا اتِّباعَ ما يُوحيه إليَّ مَنْ أرسلني، من تبليغ دينه بالتبشير والإنذار والعمل به[٢].

ثم أردفه بما يُبيِّن الفرق بين المهتدي بهَدْي الوحي، والضالِّ عنه، تنويهاً بشأن المهتـدي، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، فعبَّر عن المتَّبع بالبصير، وغير المتَّبع بالأعمىٰ، لأنَّ العمل بغير الوحي يجري مجرىٰ عمل الأعمىٰ، والعمل بمقتضىٰ الوحي يجري مجرىٰ عمل البصير، ثم أَنَّبهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾.

وبعد بيان حال هؤلاء الضَّالِّين الذين أفسدوا فِطَرَهم حتىٰ لم يبق فيهم شيء من

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٨٨) عن ابن مسعود. وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وهو حديث أبي الأحوص، لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث أبي الأحوص.

(٢) تفسير «المنار» (٧: ٣٥٥- ٣٥٦).

نور القلب وجلاء البصيرة، أمره أن يُعرض عنهم ويشتغل بهدي الذين سَلِمَت فِطَرُهم وبصائرهم، فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾، فإنهم هم الجديرون بفهم حقيقة الرسالة، والانتفاع بالنُّذُر. والكلام عطفٌ علىٰ مُقدَّر، علىٰ نهج إيجازات القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة العاشرة).

والتقدير: أعرِضْ عن هؤلاء الضَّالِّين، وأنذِر الذين يخافون أن يُحشَروا إلىٰ ربهم.

ثم أردف الأمر بالإنذار بالنهي عن ضدِّه، تقريراً له، علىٰ نهج القرآن في ذلك، وصاغ الكلامَ من مادَّة فيها تنديدٌ بالمشركين، إذ يطلبون منه ﷺ أن يطرد عنه فقراء المؤمنين، لأنهم لا يدخلون في دينِ هؤلاءِ من أهله. وغَرَضُهم من هذا الطلب: أن يَصُدُّوا عن هذا الدين الأقوياء من قريش، بإثارة الحميَّة فيهم والكبرياء، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾(١) ورضاه، أي: يتوجَّهون إليه مُخلصين له الدِّين. وهذا تنويهٌ بشأنهم.

ثم رشَّح النَّهي وقوّاه بهذه الجملة الاعتراضية، فقال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم

(١) لما نزل مبدأ المساواة بين الناس علىٰ أساس قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وبدأ الرسول ﷺ بتطبيقه نَفَر ذلك المشركون من زعماء قريش وأنكروا هذا المبدأ، وطلبوا إذا أراد النبي أن يدعوهم إلىٰ الإسلام، أن يفردهم بالدعوة، ثم تنزلوا أن يفرد لهم مجلساً خاصاً لا يجتمع معهم فيه صعاليك المسلمين. فنزلت هذه الآية، تنهىٰ الرسول ﷺ عن ذلك. والآية شبيهة بآية الشعراء عن قوم نوح: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] الآية. (المؤلف).

﴿مِن شَيْءٍ﴾ تتميمٌ للقاعدة، وهي: أن لا تُسأل نفسٌ عن نفس شيئاً، وإيماءٌ إلىٰ أنه مسؤول عن طَرْدِ من يَغْشاه لسماع تبليغه مهما كان شأنه، وتضمينٌ لمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقولُه: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ تفريعٌ وجوابٌ لنفي الحساب تنتهي به الجملة الاعتراضية، وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ تفريعٌ وجوابٌ للنهي عن الطرد في صدر الجملة، ويجوز أن يُعطَفَ علىٰ ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾.

وهذه الآيةُ متمِّمةٌ أيضاً لتحديد وظائف الرسول، فإنه تعالىٰ صرَّح أنَّ الرسول لا يملك حسابَ المؤمنين ولا جزاءَهُم، بعد أن صرَّح في الآية السابقة أنه لا يملك التَّصرُّف في الكون ولا يعلم الغيب، وأنه ليس بمَلَك، وصرَّح قبلها بقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ...﴾. وليس الغرضُ من هذه الآية ظاهرَها، وهو التَّشديد علىٰ النبي ﷺ بأن لا يطرد المؤمنين، لأنَّ ذلك أمرٌ غير واقع ولا يخطر له ببال، ولكن المراد بها التَّبكيت للمشركين والرد عليهم، علىٰ نهج القرآن في مثله.

فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: مرَّ الـملأ من قريش علىٰ النبي ﷺ، وعنده صهيبٌ وعمار وخبَّاب ونحوُهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، اطرد هؤلاء عنك، فلعلك إنْ طردتهم أن نـتَّبعك، وكانوا يقولون: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا[1]. وهذا العمل منهم نوع من المشاغبة، فإنهم كانوا يسعَون في التفريق والتنفير بأنواع منوَّعة، كما كانوا يصدُّون الأقوياء بإثارة الحميَّة والكبرياء.

ثم ذكر أنَّ منشأ ذلك فيهم طبيعتهم المفسودة بسوء التربية، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: جعلنا ـ بحسب سُنَّـتنا في غرائز البشر وأخلاقهم ـ بعضَهم

---

(١) رواه أحمد (٣٩٨٥)، والطبري في «تفسيره» (١١: ٣٧٤). وقال الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (٧: ٨٨): ورجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة.

فتنةً لبعض، تظهر به حقيقة حاله الرديئة، لا سيما ما ينشأ من إفساد غريزة حب التفوُّق، ومن ذلك ما كان من إعراض هؤلاء المشركين عن الدين، تحاشياً عن المساواة بضعفاء المسلمين، وإنكاراً أن يسبقوهم إليه لو كان هو خيراً، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ أي: لا يتـأتّىٰ ذلك؛ لأنهم يزعمون أنهم مُفَضَّلون عليهم بما أعطاهم الله من الغنىٰ والجاه والقوة، فلو كان هذا خيراً لمنحهم إياه دون هؤلاء الضعفاء.

وقد بيَّن الله تعالىٰ لهم مِثلَ هذا الخطل في آيات كثيرة من القرآن، ومنشأُ ذلك فيهم تشبُّعهم بالغرور وفساد النظر. وقد ردَّ الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾، وهذا الاستفهام للتقرير والردِّ علىٰ أكمل الوجوه وألطف الأساليب.

ووجهُ الرد: أنَّ الحقيق بمنِّ الله تعالىٰ وزيادة نِعَمِه، إنَّما هم الذين يقدِّرونها ويعرفون حقَّ المُنعِم بها، فيشكرونها له باستعمالها فيما تتمُّ به حكمتُه، وتُنال مرضاتُه، لا مَنْ كفروا نِعَمَهُ، وبَطَرُوا وعَتَوا عن أمره.

ثم أردف النَّهي عن طردهم، بما يُلْمِعُ إلىٰ الأمر بضدِّه، تقريراً للغرض، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فأمره بتكريمهم، وقد ضمَّن هذا الأمر تبشيرهم بالمغفرة لما مضىٰ منهم، وذكر ذلك بصورة حكم عام، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي: سَفَهٍ وخفَّةِ عقل، كغضب شديد يؤدِّي إلىٰ عمل سَيِّئ، أو شهوة طائشة تقودُ إلىٰ سَيِّئ كذلك. فالمراد بالجهالة: ما يقابل الرويَّة والحكمة. وقيل: المراد بالجهالة: الجهل الذي يقابله العلم، أي: فمن عمل سوءاً لجهله به ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾ أي:

ثم رجع نادماً وأصلح عمله بأن أتبَعَ السُّوءَ بعمل يُضَادُّه ويَذهَبُ بأثره حتىٰ يعود إلىٰ النفس زكاؤها وطهارتها، وتصير كما كانت في أصلها، أهلاً لنظر الربِّ وقُربه، ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ وهذه الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والتوبة: تغييرُ المرء نفسَه وتحويلُها من السُّوأىٰ إلىٰ الحسنىٰ مقروناً بالندم وألم الضمير.

ثم قال في «المنار»: وهذه قاعدةٌ من قواعد الدين، وأسٌّ من أساسه، أمر الله تعالىٰ رسوله أن يُبلِّغها لمن يدخلون في هذا الدين ليهتدوا بها، حتىٰ لا يغترُّوا برحمة الله ومغفرته مطلقاً وجزافاً، فيحملهم الغرورُ علىٰ التفريط في جَنْب الله، والغفلة عن تزكية أنفسهم، وعن المبادرة إلىٰ تطهيرها من إفساد الذنوب لها، كي لا تحيط بها خطيئتها(١).

ثم ختم البيان بما يحمل علىٰ الاهتمام به، ويتضمَّن الإعذار بعد الإنذار، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: ومِثلَ هذا التفصيل الواضح وعلىٰ نحوه نُفَصِّل الآيات المنزلة في بيان الحقائق والأحكام ليهتدي بها أهل النظر الصحيح، لِـمَا فيها من العلم والحكمة والموعظة والعبرة، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ للنظرة والبصيرة ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ المعارضين.

فقولُه: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ معطوفٌ علىٰ فعل محذوف، حسب نهج القرآن في أنواع الإيجاز.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا

(١) تفسير «المنار» (٧: ٣٧٦).

عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تلقينه لرسوله ما يُحاجُّ به المشركين من بلاغ الوحي وناصع البراهين، وضمَّنه النهي عن سلوك سبيل المجرمين، فقال: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ثم كرَّر الأمرَ اعتناءً بشأن المأمور به، وزيادةً في البيان، فقال: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾، وفي هذا تجهيلٌ لهم وتنصيصٌ علىٰ أنهم ـ فيما هم فيه ـ تابعون لأهواء باطلة، وليسوا علىٰ شيء مما ينطلِق عليه اسم الدين أصلاً.

ثم قرَّر الكلام بما يدلُّ علىٰ أنه انتهىٰ عمَّا نهي عنه لكونه في غاية الضلال، فقال: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾، والعدولُ إلىٰ الجملة الاسمية للدلالة علىٰ الاستمرار.

ثم زاد في التقرير والبيان بأنه علىٰ حق في ذلك، فقال: ﴿قُلْ إِنِّى﴾ فيما أخالفكم فيه ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ هداني إليها بالوحي والعقل.

قال في «المنار»: والبيِّنة: كل ما يُتبيَّنُ به الحقُّ من الحُجج والدلائل العقليَّة، والشواهد والآيات الحسيَّة. والقرآنُ بيِّنة مشتملةٌ علىٰ أنواع كثيرة من الحُجَج، والبيِّنات العقلية والكونية، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كَذَّبْتُم بِهِۦ﴾، فكيف تُكذِّبون أنتم ببيِّنة البيِّنات علىٰ أظهر الحقائق وأبين الهدايات، ثم تطمعون أن أتَّبعكم علىٰ ضلال مبين لا بيِّنةَ لكم عليه إلا مَحْض التقليد الأعمىٰ؟! فالكلام دَحْضٌ لهم وتشنيعٌ عليهم وتبكيت(١).

---

(١) تفسير «المنار» (٧: ٣٧٨).

ولـما ذكر بيِّنته وتكذيبهم بها، قفَّىٰ عليه بردِّ شبهةٍ تخطر عند ذلك بالبال، ومن شأنها أن يقع عنها منهم السؤال، وهي أنَّ هذا القرآن قد أنذرهم عذاباً يحُلُّ بهم إذا أصرُّوا علىٰ عِنادِهم وكفرهم، ووعد بأن ينصر رسوله عليهم، وقد استعجلوا النَّبيَّ ﷺ في ذلك، فكان عَدَمُ وقوعه شبهةً لهم علىٰ صدق القرآن، لجهلهم بسُنن الله تعالىٰ في الأكوان وفي شؤون الإنسان، فأمر الله تعالىٰ رسوله أن يقول لهم: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: ليس عندي ما تطلبون أن يُعجِّل الله لكم من وعيده، بمعنىٰ: ليس ذلك بيدي، ولا أنا عليه بقادر، حتىٰ تطالبوني به وتَتَحَدَّوْني، وتعدُّون عَدَمَ إيقاعه حُجَّةً علىٰ تكذيبه وتكذيبي، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ما الحكم في ذلك وغيره من التصرُّف في شؤون الأمم إلا لله وحده، وله في ذلك سُنَنٌ حكيمة ومقاديرُ منتظمة، تجري عليها أفعاله، وآجالٌ مُسمَّاة تقع فيها، فلا يتقدَّم شيء عن أجله ولا يتأخر، ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ في وعيد أفعاله وأحكامه، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ في الأمور، لأنه الحكم العَدْل، المحيطُ علمُه، والنافذُ حُكمُه في كل شيء.

ثم عاد إلىٰ الجواب بصيغة أخرىٰ، ومن جهة ثانية، فقال: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ أي: في مَكِنَتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من أمر عذابكم ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ بإهلاكي حالاً للظالمين منكم الذين يصدونني عن تبليغ دعوتي، ويصدُّون الناس عني، فإنَّ الإنسان خُلق من عَجَل.

ثم قرن ما تضمنه الكلام من كَوْن الأمر بيد الله، قَرَنه بما يُؤْذِنُ بحكمة الإمهال، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: أعلم بضمائرهم وشؤونهم وما يقتضي في عقابهم من التأجيل والتعجيل، بحسب الحِكَم البالغة والمصالح العامة.

قال في «المنار»: أي: أعلَمُ بالذين تمكَّن الظلم من أنفسهم وأحاط بها، فلا رجاء

برجوعهم منه إلىٰ الإيمان والحق والعدل، وبالذين ألمَّ بهم الظلم وألـمُّوا به، ولكنه لم يَمْحُ نورَ الفطرة من أنفسهم، ولم يَذهَبْ باستعدادهم للاهتداء إلىٰ الحق الذي أدعوهم إليه(١).

ومؤدَّىٰ كلامه: أنَّ الله سبحانه يؤجِّل العقاب رجاء أن يهتدي المستعدون للهداية، ثم يمحق الله المصرِّين علىٰ الكفر والضلال.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم ساق السياق وأيَّد مضمونه ببيان سَعَة علم الله سبحانه واختصاصه بعلم الغيب، فقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فهو وحده الذي يعلم وقت إنجاز وَعْدِهِ لرسوله بالنصر، ووعيده لأعدائه بالعذاب.

ثم بيَّن دقةَ عِلمِه سبحانه وسَعَتَه تأييداً لذلك، فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾ لم يقتصر علمُه سبحانه علىٰ ذوات الأشياء، بل يتناول عمومَ أحوالها حتىٰ ﴿مَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ وهو علم الله تعالىٰ المحيط بكلِّ شيء، وقد شبهه بالمكتوب في ثباته وعدم تغيُّره(٢). والله أعلم.

---

(١) تفسير «المنار» (٧: ٣٨٠).

(٢) المراد باللوح المحفوظ ـ كما قال غير واحد من أهل التفسير ـ: الكتاب الذي كتب الله فيه =

ومن مباحث اللفظ: أن لفظ ﴿حَبَّةٍ﴾ وما بعدها معطوفٌ علىٰ ﴿وَرَقَةٍ﴾، وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ بدل من الاستثناء السابق. وقُرئ برفع (حَبَّة) وما بعدها، وحينئذ تكون مبتدأ و﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ خبَرَها.

ثم قَرَنَ بين حكمته في أفعاله وعلمه الواسع وقُدرته العظيمة علىٰ نقل الذوات من النوم إلىٰ اليقظة، ومن الموت إلىٰ الحياة، واستقلاله بحفظها في جميع الأحوال، وتدبيرها علىٰ أحسن الوجوه، قَرَنَ بين ذلك كله جَمْعاً بين دليلَي الاختصاص بالألوهيَّة والقدرة علىٰ الحشر وعلمه سبحانه بأعمال الخلق التي تُؤدِّي بهم للنعيم أو للجحيم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ما صنعتُم بالجوارح، وهي الأعضاء، سُمِّيت جوارح تشبيهاً لها بجوارح السباع، وكذلك التَّوفِّي مجَازٌ في النوم، أطلقه عليه تشبيهاً له بالموت.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في النهار، كلامٌ مستأنف أو معطوف علىٰ

= مقادير الخلق قبل أن يخلقهم، وهو الكتاب المبين المذكور في الآية المشار إليها في قول الله تعالىٰ: ﴿... وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقد ذكر بهذا اللفظ وبغيره في آيات كثيرة من كتاب الله تعالىٰ، جاء في «تفسير الطبري»: قال أبو جعفر: يقول تعالىٰ ذِكرُه: ولا تسقط ورقةٌ في الصحاري والبراري، ولا في الأمصار والقرىٰ، إلا الله يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، يقول: ولا شيء أيضًا مما هو موجود، أو مما سيوجد ولم يوجد بعد، إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسوم عددُه ومبلغه، والوقت الذي يوجد فيه، والحالُ التي يفنىٰ فيها، ويعني بقوله: مبين ـ أنه يبين عن صحة ما هو فيه، بوجود ما رُسم فيه علىٰ ما رُسم. انتهىٰ.

وينظر ما يأتي في التعليق علىٰ ما نقله المؤلف عن محمد عبده في تفسير قوله تعالىٰ في سورة البروج: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾، وأطلق البَعْثَ علىٰ اليقظة تشبيهاً له بـها، وأخَّر هذه الفقرة عن سابقتها مع أنَّ النَّظْمَ يقتضي العكس في الظاهر، لتتَّصل بعلَّتها المقصودة بالذكر في السياق، وهي قوله: ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: يُوقظكم ويُرْسِلُكم في أعمالكم لأجلِ أن يُقضىٰ وينفَّذ الأجل المسمَّىٰ في علم الله تعالىٰ لكلِّ فرد منكم، فإنَّ لأعماركم آجالاً مقدَّرة مكتوبة لا بدَّ من قضائها وإتمامها، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ إذا انتهت آجالكم وتمَّم، ﴿ثُمَّ﴾ يبعثكم كما كان يبعثكم من مضاجع النوم ويحشركم و﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ فيُحَاسبكم عليه ويَجْزيكم به، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر.

وموقع هذه الآية في السياق ما تضمَّنته من الوعد والوعيد، لما جاء فيه من ذكر سلوك الكافرين وسلوك المؤمنين وكذلك ما يمدُّها. وفي الكلام تنبيهٌ علىٰ أنَّ القادر علىٰ البعث لمن تُوفي بالنوم، قادرٌ علىٰ البعث لمن تُوفي بالموت. وقال ﷺ: «إنكم لتموتُنَّ كما تنامون، ولتُبعَثُنَّ كما تستيقظون، ولتُجزَوُنَّ بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً»[1].

ثم ذكر البعث والحساب بصيغةٍ أخرىٰ، علىٰ أسلوب القرآن في تَرادُفِ الجمل مع الزيادة في الثانية، مُبْتَدِئاً بذكر قهره للعباد واستعلائه عليهم وإرساله الحَفَظة لإحصاء أعمالهم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، وقد جاء عنه ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار...»[2] إلىٰ آخر الحديث.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ في تقديمٍ ولا

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٣: ٤٤٠) عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما بلفظ: «والله لتموتن، ثم لتبعثن ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيء النار». وذكره القرطبي في تفسيره (١٥: ٣٦١) بلفظ: «كما تنامون فكذلك تموتون وكما توقظون فكذلك تبعثون».

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٢٢٣)، ومسلم (٦٣٢)، عن أبي هريرة.

تأخير عن الأجل المُسمّىٰ. ويجوز أن يعود الضمير للحَفَظة، ويكون المعنىٰ: أنهم يُحصُونَ لهم وعليهم كلَّ ما عملوا، ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ عبَّر هنا بصيغة الجمع ليفيد العموم، وبصيغة المجهول ليتهيأ ذكرُ اسم الجلالة، ووَصْفُه بما وَصَفَه به، ليدلَّ علىٰ أنَّ الردَّ إليه حَتْم. ولا يخفىٰ أنَّ تأثير هذا الوصف علىٰ النفس أعظم من تأثير ضمير التكلُّم.

ثم زاد في التأثير بقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾، فأتىٰ بـ«ألا» الافتتاحية للتنبيه علىٰ الاهتمام بمضمون الجملة، وعرَّف الحكم لإفادة الحصْر، أي: إنَّما الحكم له لا لغيره، ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ يُوفِّي كلَّ كاسبٍ أجرَه عَقِبَ عمله بلا إبْطاء؛ لأنَّ سُنَّته في الكون مَضَتْ أن تكون النتائج آثار الأعمال، وكما يكون الجزاء سريعاً في الدنيا يكون كذلك في الآخرة، فإنَّ أثر الأعمال يظهر للمرء عقب الموت، وهو أول قَدَم يضعه في عالم الآخرة، وهكذا سرعة الحساب يوم الحساب، تكون بإدراك الناس كلِّهم أعمالهم كلَّها، فيُدرِك كلُّ واحد جميعَ ما عمل من خير أو شر، ويعلم ما له وما عليه وما يستحق علىٰ كلٍّ من نعيم أو عذاب.

﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٦٤ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧﴾.

وبعد أن ذكر قَـهْرَه وسلطانَه وحِفْظَه وإحسانَه، ذكر دليل قدرته ومنَّته ضمن تذكيرهم بشعورهم بالتوحيد فطرةً رغم أنوفهم، وذلك عند الشدائد حيث تَتَجرَّد أرواحهم بتأثير ذلك الحال من عوائقها التي عرضت لها بتَدْسيتهم لأنفسهم وإفسادهم

لفِطَرِهم، فقال: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ المراد بظلماتهما: مجاهيلهما ومتاهيهما، لا سيما أثناء ظلام الليل واشتباه المعالم، وكذا أثناء ثوران البحر، إذ تُطلَقُ الظلمة علىٰ كلِّ شدَّة لها عاقبة سيئة مجهولة تُخشىٰ. فإنهم في تلك الحال يُنيبون إلىٰ الله قائلينَ بلسان شعورهم: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: منتظمين في سلك أهل الشكر من المؤمنين.

ولـما كان جوابُ هذا السؤال قد بلغ من الظهور بحيث لا يقدر علىٰ إنكاره مُنكِر، أمَرَه بالجواب علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (أ) من المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ المرَّة بعد المرَّة، ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ بعد زوال الشدَّة وعَوْدِ الكثافة والدناسة إلىٰ أرواحكم، وذلك لأنَّ نفوسهم حينئذ تَتَجرَّد من شركها الطارئ عليها بإفساد صاحبها لها، وتلتجئ إلىٰ الله وحده بحكم طبيعتها، فإذا انكشف الضرُّ عنها، عاد إليها الدنس العارض الذي انطبعت عليه بالتقليد والبيئة الفاسدة.

ثم ذكَّرهم بقدرته علىٰ تعذيبهم، إثر التذكير بقدرته علىٰ تَنْجيتهم، وسَبَكَه علىٰ التهديد والردِّ علىٰ استعجالهم العذاب تَعنُّتاً، فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ بالصواعق والطُّوفان وحَبْس المطر والريح الشديدة ونحو ذلك، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ بالخَسْف والقحط وبعض الأمراض الوبائية ونحو ذلك، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بالحروب فيما بينكم.

ثم ختم الكلام بما يتضمَّن تعجيبه من جمودهم علىٰ باطلهم، رغماً عن إيضاح الحق وبيانه لهم، فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نُنوِّع المواعظ فنجعلها علىٰ أنحاء شتىٰ، ومنها ما طريقه العقل ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾، ولكنهم لم يفقهوا. والفقه:

فهمُ الشيء بدليله وعلَّته المُفْضية إلىٰ الاعتبار والعمل به. وإنما يُرجىٰ الحصول علىٰ مثل ذلك بتنوُّع البيانات وتعدُّد البيِّنات.

وبعد بيان قدرته سبحانه علىٰ إرسال العذاب بالصُّورة المذكورة المريعة، تَوَعَّد المكذِّبين، ووَعَدَه بالنصر عليهم، فقال: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ أي: بالعذاب الذي تُوُعِّدوا به، أو بالقرآن علىٰ ما صَرَّفْنَا فيه من الآيات الجاذبة إلىٰ الإيمان؛ كَذَّبَ به ﴿قَوْمُكَ﴾ أي: المُعانِدون منهم، مِنْ ذِكْرِ العامِّ وإرادةِ الخاصّ. كذَّبوا به ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثابت المتحقِّق.

فأمره أن يقابل تكذيبهم هذا بقوله: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾، وهذا القول يتضمَّن تهديدَهم بالله سبحانه وبعذابه، وتَسْليتَه عن إعراضهم، علىٰ نهج القرآن في تسليته ﷺ إثْرَ بيان عناد المنكرين ومُكابرة الجاحدين.

والمعنىٰ: لستُ بمسيطر عليكم ولا مسؤولاً عن كفركم، وإنما أنا رسول ونذير لكم بين يَدَي عذاب شديد.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: وقتٌ يتحقَّق فيه ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾، وفي هذا تهديدٌ مريعٌ.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم تابع الكلام عن هؤلاء المكذِّبين، مُبيِّناً ما يجب علىٰ المؤمنين تجاههم حالةَ خَوْضهم في التكذيب لهذه الآيات، وقد بيَّن ذلك بصورة عامَّة تشمل أمثالهم من أهل البدع والضلال الذين يُؤَوِّلون الآيات بالباطل، لتأييد ما استحدثوا من المذاهب والآراء، وتفنيد أقوال خصومهم بالجدل والمراء، علىٰ نهج القرآن في تعقيب المعنىٰ الخاص بالمعنىٰ العام الذي يشمله وغيره حكماً عاماً. وخاطب المؤمنين في شخص النبيِّ ﷺ، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالتكذيب والتأويل الفاسد، والاستهزاء والطعن فيها، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بترك مجالستهم والقيام عنهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

ثم ذكر حكم الناسي، فقال: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ فمتىٰ تذكَّرت ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾، قال مجاهد: نُهِيَ ﷺ أن يقعد معهم إلا أن ينسىٰ[1].

ولما كان هذا النَّهْيُ يترك شيئاً من الخوف في قلوب المؤمنين، لا سيما الذين كانوا يقعدون مع هؤلاء المشركين قبل النَّهْي، هوَّن عليهم بقوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾ أي: من حساب هؤلاء الخائضين ﴿مِّن شَيْءٍ﴾، فلا يُحاسَبون علىٰ شيءٍ من خوضهم، ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ أي: ولكن عليهم أن يُذكِّروهم ويَعِظُوهم ويقوموا عنهم زجْراً وتحقيراً لهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ عقابَ الله، ويتركون الخوض في آيات الله. أو المعنىٰ: ولكن هذا النَّهي تذكيرٌ للمؤمنين، لعلَّهم يتَّقون كلَّ ما لا ينبغي لهم من مثل سماع الخوض في آيات الله بالباطل. والذكرىٰ الأُولىٰ بمعنىٰ التذكرة، والثانية: بمعنىٰ التذكير. والتقوىٰ الأولىٰ عامَّة، والثانية خاصَّة بالخائضين. ويجوز أن يكون القيام عنهم تذكيراً لهم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١: ٤٣٨).

ثم أردف السياق بما فيه حثٌّ للنبيِّ ﷺ علىٰ الاهتمام بأمر الدعوة إلىٰ هذا الدين، والإعراض عن هؤلاء المشركين وعدم المبالاة بهم. وفي صورة التعبير إيماءٌ لعناية الله سبحانه برسوله وتشجيعٌ له، فقال: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي: صُوراً ورسوماً؛ لا تُزكِّي نفساً، ولا تُطهِّر قلباً، ولا تُهذِّب خُلقاً، ولا تُصلح فاسداً.

ثم ألـمع إلىٰ ما دفعهم إلىٰ هذا العمل، وهو الإفراط في طلب الدنيا، فقال: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي: بالقرآن وحذِّر ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: تُقهَرَ قهراً شديداً، لأنَّ كلمة (تُبْسل) فعل مجهول من البسالة، أي: تُؤخذ ببَسالةٍ أخذاً وبيلاً حال كونها ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ أي: وإن تَفْتَدِ بكل فداء لا يُقبَل منها، والكلامُ كنايةٌ عن أنه لا نجاة ولا خلاص.

وبعد أن ذكر هذا البيان العامَّ في جزاء النفس المجرمة، خصَّ بالبيان جزاءَ أولئك المكذِّبين، وأجرىٰ الكلام عليهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ﴾ أي: عُذِّبوا ببسالة وشدَّة ﴿بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وهو الـماء في أشدِّ غليانه، ﴿وَ﴾ لهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾، وذلك ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ويكذبون بهذا الدين.

ويجوز أن يكون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ تـتمَّةً للبيان العام السابق عليه ينصُّ علىٰ نوع العذاب لتلك النفوس. أما أولئك المكذِّبون فداخلون في عموم هذا الوعيد.

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ

كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

وبعد أن قرَّر في الآيات السابقة بيِّنات التوحيد ودلائله، أردفَ ذلك بهذه الآية المُجَهِّلة لهؤلاء المكذِّبين المستهزئين بالدين، والمفنِّدة لهم والمُسَخِّفَةِ لعقولهم والهازئة بهم، فقال: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ ونُشرِكُ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإيمان والتوحيد. والاستفهام للإنكار والتَّجهيل، أي: أيعقل أن نختار هذه الحال السُّوأىٰ؟

ثم شبَّه المرتد عن هذا الدين القويم بعد الإيمان به بهذا التَّشبيه البليغ الذي عرَّض فيه بهؤلاء المشركين الذين يدعونه لدينهم، وهذا شأنهم فيه، فقال: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ قائلين له: ﴿ٱئْتِنَا﴾ عُدْ إلينا. فشبَّه مَنْ يرتَدُّ مشركاً بعد الإيمان بالمُستهام الذي يَضِلُّ في الفلوات حَيْران لا يهتدي، تاركاً رفاقَه علىٰ الجادَّة ووَضَحِ الطريق، ينادونه: ائتنا، عُدْ إلينا، عُد إلىٰ الطريق الواضح. فلا يستجيب لهم لانحداره وراء ما تَراءىٰ له من الغيلان بغير عقل ولا بصيرة.

هذا شأنُ المؤمنين مع المشركين في دعواهم إلىٰ الإيمان، وامتناعهم عنه، وبقائهم في الضلال المبين. وهذا التشبيهُ مبنيٌّ علىٰ المتعارف الموهوم بين الناس من استهواء الجنِّ[1]، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة من مجازات القرآن).

ثم أردف الإنكار بالتقرير، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ لا ما تَدْعون إليه من أهوائكم، اتِّباعاً لما ألفيْتُم عليه آباءكم، ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ

---

(١) تقدَّم التعليقُ علىٰ هذا المعنىٰ في المقدمة ص٦٩٣.

لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ فأسلمنا، ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ ففعلنا، ثمَّ ختم الكلام بما يحمل علىٰ الامتثال، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

ثم تابع الكلام بما يُنبِّه علىٰ قدرته العظيمة، تحقيقاً لأمر الحشر، وإثارة للشعور به والعمل بما يؤدِّي إلىٰ السعادة فيه والحذر منه تعالىٰ، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فلا يترك الناس سُدىٰ، ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾ أي: يوم إعادة الإيجاد والتكوين، يتحقَّق ذلك الحق اليقين، وهو ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ في بَـعْثِ مَنْ في القبور إلىٰ الحشر والنشور، ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ فلا تملكُ يومئذ نفسٌ شيئاً، وهو ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ فلا يغيبُ عليه من الأمر شيء، ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء بمقتضيات العلم والحكمة البالغة، ﴿ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ بمقتضيات الأشياء حسب علمه الواسع الدقيق.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

ثم أردف السياق بما كان من أمر إبراهيم عليه السلام، بمقتضىٰ كماله الفطريِّ، من اهتدائه للحقِّ منذ صغره، وتضليله عَبَدة الأصنام، واستنْباطه لبراهين التوحيد وبطلان الشرك، ومن أنه جاء بالدعوة إلىٰ التوحيد، أردف السياق بهذا ليحتجَّ ويردَّ

علىٰ هؤلاء المشركين المعاندين الذين يدَّعون أنهم علىٰ ملَّة إبراهيم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾، والضلال لغةً: العدولُ عن الطريق المُوصِل إلىٰ الغاية، والمبين: الواضح، إذ من السَّفَه الفاضح عبادة الإنسان مَنْ هو مثله، فَضْلاً عمَّا هو دونه.

وقد ذكر تعالىٰ وَجْهَ هداية إبراهيم عليه السلام، وفرَّع عليه وجه هَدْيه لقومه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] أي: كما أرينا إبراهيم بطلان ما كان عليه قومه وضلالهم، كنا نُريهِ أيضاً المرة بعد المرة عجائبَ السماوات

---

(١) الذي أظنُّه ـ والله أعلم ـ أن ما جرىٰ لإبراهيم عليه السلام من النظر في ملكوت السماوات إنما كان في صغره وعند مبدأ انتباهه للتفكير والاستنباط، فأخذ يُحلِّل ببصيرته عبادة قومه للكواكب والشمس والقمر، ويُقلِّب فيها وجوه النظر، فانجلىٰ له خَطَل قومه في هذا الأمر، وتبيَّن له أنَّ خصائص هذه الكواكب ـ وإن كانت جليلة ـ لا تُؤهِّلها أن تكون آلهة وأرباباً؛ لأن المتغيِّر يكون من أشخاص هذا العالم، فلا يصح أن يكون إلهاً، وإنَّ الذي يستحقُّ ذلك إنما هو خالقها ومُدبِّرها الذي وَهَبَ لها هذه الخصائص. فأخذ يحاور أباه في الصغر، ثم قومه وهو فتىٰ في هذا الشأن، ويزداد فيه بُعْدَ نظر، يصحبه تمكين، حتىٰ جاءته النبوَّة وأتاه اليقين. وعلىٰ هذه الوتيرة كان سائر الأنبياء والمرسلين ينتبهون إلىٰ مثل ذلك من صِغَرهم، بمقتضىٰ كمالهم البشري. فقد كان محمد ﷺ في صغره يرىٰ أنَّ عبادة قومه لهذه الأصنام ضلال بعيد، ولذلك لم يعبد صنماً قط، ثم تطلَّب له ديناً فقلَّب اليهودية والنصرانية في ذلك الحين، فرآها مشحونةً بالضلال، فتوجَّه إلىٰ الله سبحانه أن ينقذه من هذه الحيرة، ويهديه سواءَ السبيل. ولم يزل مُتحيِّراً حتىٰ أتاه اليقين من ربِّ العالمين، وهداه إلىٰ صراطه المستقيم بالوحي المبين. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٧] أي: مُتحيِّراً في أمرك فهداك للرُّشْد والفلاح. (المؤلف).
قلت: ما ذكره المؤلف من أن النبيَّ ﷺ قلَّب اليهودية والنصرانية بحثاً عن الدين الحقّ؛ كلامٌ لا يُوافَقُ عليه، لعدم ثبوت ذلك في روايات السيرة النبوية، ولو كان لاتخذه المشركون مطعناً في دعوته عليه السلام، ولم يفعلوا، فدلَّ علىٰ أنه لم يكن.

والأرض وبدائعها، وعَظَمةَ الله وسلطانه فيهما، ليعلم من اختصاص أفعال الألوهية وصفاتها في خالقهما، أنه هو المستحق وحده للعبادة والتوحيد لا مخلوقاته، ﴿وَلِيَكُونَ﴾[1] في ذلك ﴿مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ (٧٥)﴾ فيكون أهلاً لاصْطفائه والإيحاء إليه. وهذا هو الدليل القاطع المؤدي إلىٰ الإيقان في وجود الله سبحانه وصفاته العليَّة، وتوحيده واستحقاقه للألوهية والجلال.

وبعد أن اصْطَفاه الله نبياً ورسولاً عَمَد إلىٰ نشر الدعوة في قومه، وأراد هدايتهم من طريق النظر والاستدلال، لأنهم أهل علم ونظر، فعمد إلىٰ إبطال عقيدتهم في تأليه الكواكب بصورة مُستدرجة لإقبالهم عليه، وغير مُنفِّرة لهم، ومُنبِّهة لشعورهم علىٰ خطئهم الفاضح. وجعل طريقة المناظرة معهم هادئة مُتدرِّجة إلىٰ الأقوىٰ فالأقوىٰ من الحُجَّة والبرهان، فابتدأ بوصفها في الربوبية، ثم أظهر الشك في ذلك، كما حكىٰ عنه سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ قيل: هو المشتري، وكان من جملة ما يعبدون. فجارىٰ خصمه في المناظرة ليكون النقض والإبطال أشدَّ تأثيراً وأحكم إلزاماً و﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾، وجعل صورة الكلام تمهيداً للإنكار علىٰ قومه، واستدراجاً لهم في سماع حُجَّته علىٰ بطلان هذه المقالة، إذ أوهمهم أنه موافقٌ لهم علىٰ زعمهم، ثم كرَّ علىٰ هذا الزعم بالنقض والإبطال، بانياً دليله علىٰ قاعدة الحسِّ ونظر العقل، فبيَّن لهم أنَّ الأُفولَ لا يجوز علىٰ الإله، كما حكىٰ الله سبحانه عنه بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ (٧٦)﴾ أي: إنه محكوم عليه بنظام، وليس بحاكم مطلق، فلا يجوز أن يكون رباً لهذا الكون.

وقد تَضمَّنت الآية إقامة الدليل علىٰ حدوث العالم، بحركات الكواكب وتبدُّل أوضاعها.

---

(١) كلمة ﴿وَلِيَكُونَ﴾ معطوفة علىٰ محذوف، حسب نهج القرآن في أنواع الإيجاز. (المؤلف).

وهكذا تَدَرَّج من النجم إلىٰ القمر، كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ أي: مبتدئاً في الظهور، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ﴾ مُسْمِعاً مَنْ حوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾، وهذا تعريضٌ بضلال قومه. والغالب أنَّ المناظرة في القمر كانت في غير ليلة المناظرة في الكواكب، عملاً بالإمهال بين مناظرة وأخرىٰ، لأنه أصلَحُ في الإقناع وأجْلَبُ للنفوس، فكان يتظاهر بعبادتها ثم يُبطِلها.

ثم تدرَّج من القمر إلىٰ الشمس، كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾، وفي هذا الوصف مبالغةٌ في المجاراة، وتمهيدٌ قويٌّ لإقامة الحُجَّة البالغة عليهم، واستدراجٌ لهم إلىٰ التَّمادي في الاستماع له، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ وقامت الحُجَّة عليهم؛ صرَّح بشركهم وتبرَّأ من عقيدتهم، و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾، وهذا هو مَحَطُّ المناقشة وهدفها[1].

ثم قفَّىٰ علىٰ التصريح بشركهم ببيان عقيدته الحقَّة، وهي التوحيد الخالص، فقال: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

---

(١) الذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أنَّ مفاهيم هذه المناظرة كانت تدورُ في مخيلة إبراهيم عليه السلام منذ الصِّغر، ولكنه جادل بها قومه في الكبر. وما يتخلَّلها من خطاب قومه كان في الصغر خطاب تفكير، يؤنِّب بها قومه في ذهنه، وكان عند المجادلة خطاب مشافهة. وقد جريت في تفسير الآيات مَجْرىٰ المفسِّرين، حيث يعتبرون الدور الثاني، وهو المجادلة الشفهية، فَسِرْتُ سَيْرَهُم في التفسير، وخالفتهم في الهوامش والتعليق. (المؤلف).

ولو بقي المؤلف رحمه الله جاريًا مجرىٰ المفسِّرين لكان أَوْلىٰ، فلا دلالةَ في الآيات علىٰ دَوْرَين من المجادلة، ثم حَمْلُ القول المُصرَّح به في الآية علىٰ أنه كان تفكيرًا في المخيلة غير صحيح، ولو فتحنا هذا الباب لأفسَدْنا كثيراً من المعاني المقصودة في كتاب الله.

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾، والتعبير بـ«فاطر السماوات والأرض» - وهو وَجْهُ الحجَّة في الآية، أي: أؤمن بالله لا بمخلوقاته - يتناسب مع رؤية تلك الأجرام والمُحَاجَّة بها.

وظاهر ما حكاه سبحانه عن إبراهيم عليه السلام: أن قومه كانوا يتَّخذون الأصنام آلهةً لا أرباباً، ويتَّخذون الكواكب أرباباً لا آلهة. والإله: هو المعبود، والربُّ: هو المتصرِّف المُدبِّر للكون. فهم يعتقدون أنَّ تدبير الكون صادرٌ عن هذه الكواكب.

والأصل في اختراع عبادة غيرِ الله من حَجَر أو شجر أو شمس أو قمر، هو أنَّ بعض ضِعَاف العقول رأوا بعضَ ظواهر قُدرته تعالىٰ في بعض مخلوقاته، فتوهَّموا أنَّ ذلك فيها إنما هو صفةٌ من صفات ألوهيَّتها، فعبدوها، ثم أقاموا مقامها في الأرض أصناماً تُذكِّرهم بها. وهكذا كان قوم إبراهيم عليه السلام، فاتَّخذوا الكواكب أرباباً لاعتقادهم أنَّ لها تأثيرات في تدبير العالم الأرضي، فكانوا يعتقدون أنَّ الشمس ربُّ الناس، والقمر ربُّ الملوك، والمشتري ربُّ العدل، والمريخ ربُّ الحرب، والزهرة ربُّ السعادة، وعطارد ربُّ العلم والحكمة. وهكذا كانوا في جهل عميق وضلال بعيد.

ويجوز أن يكون ما أرىٰ الله سبحانه إبراهيمَ عليه السلام من هذا النظر والتَّبصُّر في ملكوت السماوات والأرض، إنما كان منذ صغره، فتبرَّأ مما كان عليه قومه، كما وقع لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام، وبعد أن اشتدَّ ساعدُ إبراهيم عليه السلام في هذا النظر والاستدلال، وقويت عنده الحجَّة، وتمكَّن من المناظرة، أخذ يناظر قومه فيه ويُسفِّه رأيهم في دينهم. والله أعلم. وعلىٰ هذا، يكون قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ليس بخطاب مواجهة مطلقاً، ولكنه تبرُّؤٌ بصورة خطاب خيالي وحديثٍ نفسي في حال الصغر، وخطابٌ حقيقيٌّ في حال الكبر والمناظرة مع قومه[1].

---

(١) تقدّم التعليقُ علىٰ هذا المعنىٰ وبيان ضعفه قريبًا ص ٣٣٠.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾.

ولـما حاجَّ إبراهيمُ عليه السلام قومَه ببيان بطلان عبادة الأصنام وربوبيّة الكواكب، وبإثبات وحدانيَّة الله تعالىٰ، ووجوب عبادته وحده، وهي الحنيفيَّة البيضاء، حاجُّوه هم أيضاً ببيان أن اتِّخاذ الوسطاء لا يُنافي الإيمان بالله، وخوَّفوه أن تمسَّه آلهتهم بسُوء، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ من الكواكب والأصنام أن تُصيبني بسُوء، فإني أعلمُ عِلمَ اليقين أنها لا تَضُرُّ ولا تنفع، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾ بي، وهذا استثناء منقطع، أي: فإنه يقع ما يشاء ولا يقع سواه. فقد شاء سبحانه أنَّ مَنْ يعاكس نظام الصحة مثلاً يمرض، ومن يعاكس نظام الكسب تسُوءُ حاله ويفتقر، وهكذا، ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ فلا يخرج عن علمه شيء. ومشيئتُه سبحانه تَجْري بحسب ذلك العلم، وقد نظَّم الكون علىٰ سنن مُطَّردة، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾ لتدركوا ذلك في سنن هذا الكون وأنظمته.

ثم ردَّ عليهم بوجه آخر يردُّ به تخويفهم له من معبوداتهم. ومحصَّله: كيف تنكرون عليَّ الأمنَ في موضع الأمن، ولا تنكرون علىٰ أنفسكم الأمنَ في موضع الخوف، فقال: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾ من الكواكب والأصنام العاجزة، ﴿وَلَا تَخَافُونَ

﴿أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ فافتياتُكُم علىٰ خالقكم القويِّ العزيز بهذه الدعوىٰ الكاذبة هو الذي يجب أن يُخاف ويتَّقىٰ.

وهذا القيد ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ إنما هو لزيادة البيان في البطلان، وللإيماء إلىٰ أنَّ الحقَّ لا يثبت إلا بالبرهان.

ثم مَـحَّضَ الإلزام، وجعله علىٰ وجه التَّسخيف، وقال: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والبصيرة.

وبعد هذا الاستفهام التبكيتي، صرَّح بالجواب عنه، مبالغةً في التبكيت وتوضيحاً للحقيق بالأمن، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: بشيءٍ من الشرك في العقيدة، أو الشرك المطلق في العبادة كما تفعلون، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ إلىٰ الحق، ومَنْ عداهم من أرباب الشِّرك هم في ضلال مبين، ومُهدَّدون بعذاب الله في الدنيا والآخرة.

وقيل: إنَّ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ...﴾ من كلام الله تعالىٰ، فَصَلَ به القضاء بين إبراهيم ومَنْ حَاجَّـهُ من قومه. والمراد من الأمن هنا: ما يقابل الخوف المذكور في السياق.

والظاهر أنَّهم لـما لم يجدوا حُجَّة عقليَّة علىٰ شركهم بالله، خوَّفوه أن تمسَّه آلهتهم بسوء، ولا بدَّ للمحجوج من بارد العذر، وكثيراً ما يَضْطرب المقلِّد لسماع الحُجَّة، إذ يُومِضُ في قلبه نورُها، ثم يعود إلىٰ سابق وهمه، خائفاً مما لا يُخيف، راجياً مما لا يُرجىٰ، كما يُشاهَدُ لدىٰ زائري قبور الصالحين والأولياء الذين يتوهَّمون أنَّ هذه القبور تدفع عن زائرها الضررَ، وتكشف عنه السُّوءَ، وتدرُّ عليه الرزقَ، وتكْبت العدوَّ، إما بتصرُّفهم في الخلق، وإما لأنهم مُقَرَّبون عند الله، ولا يرون هذا شيئاً ناقضاً للإيمان الصحيح،

وفي مثله يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦][١].

ثم ختم هذه المُحَاجَّة بالتنويه بشأنها، تبكيتاً للمشركين، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي: أرشدناه إليها.

ثم نوّه بشأن إبراهيم عليه السلام، مُمتنّاً عليه بما آتاه من كمال العقل وقوّة الحُجَّة ورِفْعة النبوة، فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ فيما يفعله من رفع وخفض. وفيه تلميحٌ أيضاً إلىٰ أنَّ الرسول ﷺ ممَّن رفع درجتهم، وإظهارٌ لمزيد لطفه به عليه الصلاة والسلام.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن
ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا
وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ
إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ
عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ
فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل
لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

---

(١) لا ينبغي تنزيلُ الآيات الواردة في المشركين شركًا صراحًا علىٰ المؤمنين الذين يقع لهم خطأ في التعبير؛ بسبب جهلهم بالألفاظ ودلالاتها، مع سلامة اعتقادهم من حيث نسبة النفع والضرّ إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ وحده، والواجب تعليم العوام وإرشادهم إلىٰ الصِّيَغ السليمة والعبارات الصحيحة.

وبعد أن بيَّن رَفْعَ درجة إبراهيم عليه السلام، بيَّن فَضْلَه ونِعَمَه عليه في جعل الكتاب والحكمة والنبوة في ذريتـه، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي: بما آتيناهم من النبوَّة والحكمة وقوَّة الحجة ونور البصيرة.

ثم ألمع إلىٰ أنَّ هذه الهداية قديمةٌ في البشر، فقال: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ إلىٰ مِثْلِ ما هَدَيْنا إليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ من النبوة والحكمة وإرشاد الخلق وتلقين الحجة.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذه النعمة والكرامة لم تقتصر علىٰ أولاد إبراهيم الأَدْنَيْنَ فقط، ولكن شملت بعض ذريته أيضاً، فقال ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

ثم ذيَّـل بهذا الوعد الكريم الـمسبوك علىٰ التَّمنُّـن، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾، والإشارةُ إلىٰ ما يُفهَمُ من النظم الكريم من جزاء إبراهيم عليه السلام.

ثم تابع السَّرْد فقال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾، فقد امتازوا بشدَّة الزهد عن الدنيا، والإعراض عن سلطانها.

ثم تابع السرد فقال: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: فضَّلنا سائر الأنبياء علىٰ العالمين.

وهذه الآيات أجمعُ الآيات لأسماء الأنبياء.

وقد ذهب بعض المفسِّرين إلىٰ أنَّ الضمير في ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ لنـوح، لأنَّ لوطاً ويونس ليسا من ذُرِّية إبراهيم. وذهب سائرهم إلىٰ أنَّ الضمير عائدٌ إلىٰ إبراهيم، لأنَّ

الكلام في شأنه، وما آتاه الله من فَضْله. وإنمـا ذكر نوحاً لأنه جدُّه، فهو لبيان نِعَمِ الله عليه في أفضل أصوله، تمهيداً لبيان نِعَمِه عليه في الكثير من فروعه. وإنَّ يونس من ذريَّة إبراهيم، وإنَّ لوطاً ابن أخيه، وقد هاجر معه، فهو يدخل في ذرِّيته بطريق التَّغليب، ويُعَدُّ منها كذلك بطريق التَّجوُّز في عرفهم العام الذي يُسمُّون به العَمَّ أباً. والمذكورون كلهم مفاعيلُ لـ﴿هَدَيْنَا﴾.

ثم قال في «المنار» ما مُحصَّله: وقد ذكر الله تعالىٰ في هذه الآيات الثلاث أربعة عشر نبياً لم يُرتِّبهم علىٰ حسب تاريخهم وأزمانهم؛ لأنه أنزل كتابَه هدىٰ وموعظة، لا تاريخاً، ولا علىٰ حسب فضلِهم ومناقبِهم، لأنه ليس كتابَ مناقب، وإنما هو كتابُ تذكرةٍ وعِبرة.

وقد جعلهم ثلاثة أقسام، لمعانٍ في ذلك جامعةٍ بين كل قسم منهم، متناسبةٍ مع سياق التمنُّن علىٰ إبراهيم بشرف ذريته.

فالقسم الأول: داود ومَنْ ذكر معه. والمعنىٰ الجامع بين هؤلاء: أنَّ الله تعالىٰ آتاهم الملك والإمارة والحكم والسيادة مع النبوَّة والرسالة، فداود وسليمان كانا مَلِكَيْن، وأيوب كان أميراً غنياً كثير الإحسان، ويوسف كان وزيراً عظيماً، وموسىٰ وهارون كانا حاكمَيْن ولم يكونا مَلِكَيْن.

والقسم الثاني: زكريا ومَنْ ذكر معه، وهؤلاء قد امتازوا بشدَّة الزُّهْد في الدنيا والإعراض عن سلطانها.

والقسم الثالث: إسماعيل ومَنْ ذكر معه، أَخَّر ذِكرَهم لعدم الخصوصيَّة، وقفَّىٰ علىٰ ذكرهم بالوصف العام للأنبياء، وهو التَّفضيل علىٰ العالمين(١).

---

(١) تفسير «المنار» (٧: ٤٨٩- ٤٩٠).

ثم تابع الكلام عما ذكر من أحوال الأنبياء، فقال: ﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ فعطفه على قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾، فهو في سياق ﴿هَدَيْنَا﴾، والمفعول محذوف يُفهَمُ من التبعيض، أي: وهَدَيْنا من آبائهم وذريَّاتهم وإخوانهم ـ أي: أتباعهم ـ جماعاتٍ كثيرة، وقوله: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ معطوفٌ على ﴿فَضَّلْنَا﴾. وأُعيدَ ذِكرُ الهداية لبيان متعلّقها، وهو قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ أي: يَصِلُ سالكُه إلى سعادة الدارين.

ثم نوَّه بشأن هذه الهداية، وسَبَك ذلك على الامتنان بها، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الهدى ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وهذه الهداية على نوعين: هداية ليس لصاحبها سَعْيٌ لها ولا هي مما يُنال بالكسب، وهي النبوَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، وهداية قد تنال بالكسب والاستعداد مع اللطف الإلهي والتوفيق.

ثم أتى بهذه الجملة الفرضية لبيان عِظَم الشرك، تهديداً لأولئك المشركين وتنديداً بهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: ولو فُرِضَ أنْ أَشرَكَ هؤلاء الأنبياء المنوَّه بشأنهم بالله سبحانه وتعالى ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ من أعمالهم العظيمة التي نوَّهنا عنها، ولم تنفعهم شيئاً مع الشرك بالله. والغرض من هذا: بيانُ فظاعة الشِّرك وحَبْطه للأعمال من أيِّ مكان، لأنه يفسد النفوس إلى حدٍّ لا يصلح معه عَمَلٌ أبداً.

ثم قفَّى على هذا الغرض؛ إبعاداً له عن هؤلاء العظماء، ببيان عُلوِّ شأنهم وكمال فَضْلهم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، والمراد من الكتاب: جنسه، ومن الحكم: العلم والفقه به، ولا يبعد أن يراد بالحكم معناه الحقيقي، لأنه لازمٌ للنبوة طبعاً. والله أعلم.

والمراد من إيتاء الكتاب: الأمر بالإنذار به، سواءٌ نزل عليه أو علىٰ غيره. وبهذا يتفاضلون في الدرجة، فمن نزل عليه كتاب أعلىٰ درجةً ممَّن لم ينزل عليه كتاب.

ثم ختم الكلام بما هو كالنتيجة له والغرض منه، وهو التَّشنيع علىٰ المشركين الذين ساق قصة إبراهيم عليه السلام حُجَّةً عليهم، والتنويه بالمؤمنين الذين ساق القصة حُجَّةً لهم؛ ذكر ذلك بطريقة الاستطراد، فقال: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: بهذه الثلاثة: الكتاب والحكم والنبوة، أو بالنبوة الجامعة للباقين؛ فإنْ يكفر بها ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: كفَّار قريش. وذلك لأنهم بكفرهم برسول الله ﷺ وما أنزل عليه من القرآن كافرون بما يُصدِّقه، فإن يكفروا بالنبوَّة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ وهم أصحابُ رسول الله ﷺ ومَنْ جاء بعدهم.

ثم التفت إلىٰ النَّبيِّ ﷺ مُخاطباً له بهذا الإرشاد، وسَبَكه علىٰ التنويه بشأن أولئك الأنبياء والتكريم لهم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: الأنبياء المذكورون هم ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.

وهذا الخطاب يجوز أن يكون عامّاً لكلِّ مُخاطَب أو للأمة، ولكن في شخص النبي ﷺ، علىٰ أسلوب القرآن في مثل ذلك. ويكون المراد من الاقتداء بهَدْيِهم: التوحيد والتنزيه.

ويجوز أن يكون خاصاً به ﷺ. ويكون المعنىٰ: اقْتَدِ بهم ـ أيها الرسول ـ فيما يتناوله كَسْبُك وعملك، مما بُعثت به من تبليغ الدعوة، وإقامة الحُجَّة، والصبر علىٰ التكذيب والجحود، وإيذاء أهل العناد والجمود، وإعطاء كلِّ حال حقَّه من مكارم الأخلاق وأحاسن الأعمال.

وقد كان ﷺ مهتدياً بهداهم كلِّهم، فكانت مناقبه وفضائله الكسبيَّة أعلىٰ من

مناقبهم وفضائلهم، لأنه اقتدىٰ بها كلِّها، فاجتمع له من الكمال ما كان مُتفرِّقاً فيهم، مُضافاً إلىٰ ما أُوتيه دونهم. ولذلك شهد له ربُّه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ثم ختم السياق المتضمِّن لدعوته ﷺ بما يختم القرآن به أكثر دعوات الأنبياء لأقوامهم، وهو أنهم لا يسألون علىٰ هذه الدعوة أجراً، يُبَرهنون بذلك علىٰ أنه لا غَرَض شخصياً لهم من وراء تلك الدعوة، ولا استفادة دنيويَّة، وإنما هي إرشاد الله لعباده بواسطة أنبيائه، فقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ حتىٰ تتهموني بأنَّ لي غَرضاً شخصياً وهدفاً دنيوياً بهذه الدعوة، كلا ﴿إِنْ هُوَ﴾ الذي أدعوكُم إليه ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ من الله ﴿لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾، يذكِّرهم بما يجب عليهم لِيَقُوا أنفسَهم من النار، وينالوا رحمةَ العزيز الغفَّار، ويحوزوا الراحة في الدنيا والسعادة في الأخرىٰ.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

وبعد أن بيَّن شأن أولئك الرسل وهدايتهم بما هداهم الله به من إنزال الكتب والشرائع عليهم، وأنَّ الرسول الأعظم ﷺ واحدٌ منهم، شنَّع علىٰ هؤلاء المشركين إنكارهم للوحي والنبوة وكفرهم بها، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[1] في اللطف

---

(١) يجوز أن يكون هذا الكلام تصويراً لهؤلاء المنكرين لرسالة محمد ﷺ، وإنزال القرآن عليه، وهم قد عبثوا بكتابهم السماوي غايةَ العبث، فهم لم يَقْدُرُوا الله سبحانه في لطفه بعباده وعظيم =

بعباده والرحمة بهم، وتوجيههم إلىٰ الرَّشاد بإرسال الرسل لهم، وإنزال الكتب عليهم، ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ فإنَّ إنكارهم لِـمَا أنزل الله علىٰ البشر من الشرائع والتعاليم معناه: أن الله سبحانه خلق البشر مُختاراً في تصرُّفاته، ولم يُبيِّن له المنهج الذي يلزم أن ينهجه في تلك التَّصرُّفات لينال الخير والسعادة، ويَتَجنَّب الشرَّ والشقاء، ولا سيما في الأمور التي لا يدركها عقلُه من أحوال الآخرة وشؤونها. وذلك يُنافي الرحمة منه سبحانه واللطف والحكمة والجلال.

وقد دَحَضَ سبحانه هذا الزعم منهم مشاركاً معهم مَنْ يعلِّمونهم هذا الإنكار، وهم اليهود الذين يَخْدعونهم بهذا الإنكار، ويُضلِّلونهم بما لا يعتقدون.

ويجوز أن تكون حكايةُ القرآن عن قولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ مبالغةً في إنكارهم بنبوَّة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، وذلك مِنْ ذكر العامّ وإرادة الخاصّ، وهو مِنْ عُرف التخاطب.

فأمر الله نبيَّه ﷺ أن يُلزِمَهم بما لا ينكرونه، فقال بطريقة الاستفهام الإلزامي التقريري: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾، ثم استطرد إلىٰ بيان تلاعبهم به استطراداً واستتباعاً بديعاً، وزاد في تأنيبهم والتشنيع عليهم، مُلمعاً إلىٰ شدَّة احتياجهم لتجديد الشريعة، فقال: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، فضمَّن هذا الإلزام الفاضح نَقْدَ اليهود والتَّشنيع عليهم بإخفائهم بعض نصوص

= إحسانه حقَّ قدره، حيث أنكروا أن يرسل الله سبحانه للبشر رسولاً بكتاب جديد يُوجِّههم للصراط المستقيم، بعد أن ضلُّوا عنه ضلالاً بعيداً. وكان عليهم أن يشكروه علىٰ ذلك، ولكن قابلوه بالكفران. فهو يُؤنِّبهم علىٰ هذا الإنكار غايةَ التأنيب، بأبدع التعبير، وأبلغ التقريع. (المؤلف).

التوراة علىٰ عِظَم شأنها. ومن ذلك إخفاؤهم أمر البشارة بمحمد ﷺ وبيان صفاته، وإخفاؤهم حكم الرَّجْم للزاني المُحْصَن وإبطالُه في ذوي الوجاهة منهم دون عامة الناس، وفتاويهم في تحليل الحرام بصور من التأويلات إرضاءً لشهوات الملوك وكبار الأغنياء، لقاءَ أموال يأخذونها منهم. أي: تركتم العمل بجميعه علىٰ الصورة التي نزل عليها ﴿وَ﴾ الحالُ قد ﴿عُلِّمْتُمْ﴾ به ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ من عظيم الأحكام وجليل التَّعاليم والآداب، ففرَّطتُم به وتركتُموه وراءَ ظهوركم.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ وصفاً للقرآن، ذكره بعد أن بيَّن عبثهم بتوراتهم. أي: إنَّ توراتكم أصبحت ـ بعد أن أخفيتم بعضها وتلاعبتم بها ـ غير صالحة للتشريع. وقد أنزل إليكم عِوَضَها هذا القرآن العظيم الذي فيه ما ليس موجوداً في سائر الكتب السماوية.

والمعنىٰ الأول: مفاد قول قتادة، والمعنىٰ الثاني: مفاد قول مجاهد(١).

ثم أمره أن يجيب علىٰ هذا السؤال بالجواب القطعي الذي لا ينكرونه، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أنزل ذلك الكتاب، وهو الذي أنزل هذا الكتاب، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ﴾ في الباطل وإخفاء الحق ﴿يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ كما يلعب الصبيان، ويقولون: ما أنزل الله من شيء، ينكرون نبوَّتك، ويعارضون دعوتك، فلا تهتم بأمرهم، فإنَّما عليك البلاغ وعلينا الحساب. وَوَجْه الإلزام: كيف تنكرون نزول القرآن علىٰ محمَّد لأنه بشر، وأنتم مُصَدِّقون بنزول التوراة علىٰ موسىٰ وهو بشرٌ مثله؟

وبعد هذا الإلزام صرَّح بما تضمَّنه من أنَّ هذا القرآن هو أحد تلك الكتب السماويَّة ومُصَدِّق لها، علىٰ طريقة القرآن في التصريح بعد التلميح أو التضمين، (كما

---

(١) ذكر قولهما ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤: ١٣٤٣).

جاء في الفقرة (و) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآنُ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ما تقدَّمه من الكتب السماوية أنزلناه عليه لتبشِّر، ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ به ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وأمُّ القرىٰ: هي مكة، وخصَّها بالذكر لأنها مركز الدعوة وعاصمتُها والوطنُ الذي نشأ فيه ﷺ. ولذلك سمّاها أم القرىٰ. ويكون المراد ممَّا حولها: سائر بلاد العالم، باعتبار أنَّ مكة المركز والقبلة لهذه الدعوة العامة الموجهة لكافَّة الناس.

وقوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ معطوف علىٰ محذوف، علىٰ نهج القرآن في مثله، وخصَّه بالذكر لأنه هو منشأُ الدعوة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهم أتباع محمد ﷺ ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، فيه تعريضٌ بغير المؤمنين به من أهل الكتاب بأنهم لا يؤمنون بالآخرة إيماناً صحيحاً، إذ لو كانوا يؤمنون بها إيماناً صحيحاً لآمنوا بهذا القرآن. وما مَثَلُ مؤمني أهل الكتاب بهذا القرآن عند نزوله إلا كَمَثَلِ قومٍ ضلُّوا الطريق في صحراء مُهلكة، فجاءهم مَنْ أرشدهم إليه وقبلوا منه، فإذا هم به مؤمنون، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ لأنها أكبرُ عاملٍ في نَيْل تلك السعادة والفوز والنجاة، والجملةُ تقريرٌ لإيمانهم وتنويهٌ به.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

وبعد أن بيَّن أنَّ الوحي من شؤونه تعالىٰ، وأنَّ القرآن وحيٌ من الله أنزله علىٰ محمد ﷺ كالتوراة التي يعترفون بإنزالها علىٰ موسىٰ، قفَّىٰ علىٰ ذلك بالوعيد لمن كَذَب علىٰ الله أو ادَّعىٰ الرسالة، أو ادَّعىٰ أنه قادرٌ علىٰ الإتيان بمثل هذا القرآن، تقريراً لما سبق وزيادةَ إثبات له، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ باتِّخاذ الشركاء أو قال: ما أنزل الله علىٰ بشر من شيء، ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾، وفي هذا تلميحٌ بصدق محمد ﷺ في دَعْواه النبوة. وقالوا: إنَّ الآية تدل أيضاً بفَحْواها علىٰ شيءٍ من غيب القرآن، وهو ما حدث بعد ذلك من ادِّعاء بعض الكذَّابين للنبوَّة والوحي، كمُسَيلمة الكذاب، ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كمَنْ قال من المشركين: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١]، وهم يعلمون أنهم لا يقدرون، ولكنهم يشاغبون ويكذبون.

ثم توعَّدهم بهذا الوعيد العام الذي يشملهم وغيرَهم، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ إليهم بالعذاب؛ قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الذُّلَّ والهوان، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من اتخاذ الشركاء له، ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ فلا تؤمنون بها؛ بغْياً وعِناداً، وعُتواً وفساداً.

ثم قفَّىٰ علىٰ هذا بما يُذَكَّرُون به يوم القيامة تذكيرَ تأنيب وتنديم، مما كانوا يجحدونه ويستبعدونه، ومما كانوا يعتزُّون به أو يثقون بشفاعته، فقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ أي: منفردينَ عن الأموال والأولاد، وعن الشفعاء والنصراء، ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: علىٰ حياةٍ مِثلِ حياتكم الأولىٰ، وقد كنتم تنكرون ذلك، ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ أي: ما أعطيناكم من الخَوَل كالعبيد والأموال والأنعام والمراكز الاجتماعية،

مما كان سبباً في إعراضكم عن الحق؛ تركتموها ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾(١) فلَمْ تَقْدَمُوا بشيءٍ منها، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ مع الله، والأديانُ الوثنية قائمةٌ علىٰ عقيدة الفداء والشفاعة، وفي هذه الآية تشنيعٌ ونعيٌ علىٰ المتورِّطين في هذه العقيدة.

وفي صورة التعبير مَثَارٌ للندم والشعور بالخيبة، قرَّره بقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ﴾ الوَصْلُ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وبين الشفعاء، ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ من الفداء والشفاعة، وساء ظنُّكم وخَاب.

وإنما أكَّد الخبر بلام الابتداء في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾، مع أنَّ المجيء قد وقع، تذكيراً لهم بما كان من جحودهم إيَّاه واستبعادهم لوقوعه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

وبعد أن شنَّع علىٰ المشركين في السياق المنتهي، وندَّد بهم وتوعَّدهم، وبيَّن ما سيلحقهم من الخيبة والندم، وَوَعَت العقول ورهبت النفوس، دَعَا إلىٰ التوحيد المُنقِذِ

---

(١) كان زعماء العرب المقاومون لدعوة النبيِّ ﷺ يدركون أنَّ الأمر ليس مجرَّد عقيدة وتبديل عادة، ولكنه نهجٌ يحطم عليهم كل أُسسهم الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تقوم عليها أوضاعهم ومصالحهم وعيشهم الأرستقراطي، لذلك قاوموه أشدَّ المقاومة، وشنُّوا عليه تلك الحرب الشعواء باللسان والسنان، وخاصموه ذلك الخصام الشديد، فكان كلُّ ذلك دفاعاً عمَّا خوَّلهم الله من مال ومراكز اجتماعية، تركوها بعد موتهم وذهبوا مجرَّدين، فهو يُجَهِّلهم وينعىٰ عليهم بما ضلُّوا بأنفسهم، بسبب أمور لم تفدهم شيئاً، بل تخلَّوا عنها في أحرج الأوقات وأشدِّ الأحوال، فوق ما كانت سبباً لإعراضهم وبلائهم. (المؤلف).

من ذلك، ذاكراً من صفاته تعالىٰ وأفعاله ما يستلزم اختصاصَه بالألوهية وانفرادَه بأن يُعبَدَ ويُقصَد، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد والدعوة إلىٰ الرشاد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ يُنْبِتُ منهما الزرع والشجر، فهو بذلك ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، ولما كانت هذه الجملة تفسيراً للأولىٰ وبياناً لها، عَطَفَ علىٰ الأولىٰ ولم يَعطِفْ عليها، فقال: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ فهو معطوف علىٰ ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ الذي هو بمعنىٰ: مُخْرِج الحي من الميت. ولذلك عبَّر باسم الفاعل دون الفعل.

وإخراج الحيِّ من الميِّت كإخراج النبات من بذوره، والحيوان من مواده. وإخراج الميِّت من الحي كإخراج الحبوب من النبات، والمواد من الحيوان. ولا يَرِدُ ما يقوله العلماء من أن في النطفة والبيضة والبذرة حياة؛ يريدون ما بها من قوة التوليد والإنبات، لأنَّ هذا الإطلاق اصْطلاحٌ لأهل الفنِّ في عُرْفهم دون العرف العام الذي يجيء به التنزيل.

وبعد أن ذكر تلك الصفات والأفعال لله تعالىٰ، قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذي تُدْعَون لعبادته وحده، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: تُخدَعون وتُصرَفون لعبادة غيره ممَّن لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون، ويُلْعَبُ بعقولكم وأنتم لا تفقهون؟

ثم تابع الكلام عن أفعال الألوهية وصفاتها المقتصرة عليه تعالىٰ، فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ أي: مُخرِجُ ضياء الصبح من ظلام الليل، بما أبدع في وضع النظام الشمسي، ﴿وَ﴾ من ذلك أنه ﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾، ولولا هذا السكن لما دامت حياة إنسان ولا حيوان، إذ به يستعيد ما فَقَده من قُواه أثناء عمل النهار، ﴿وَ﴾ منه أنْ جعل ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ بضبط دقيق، ونظام مُتْقَن، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجعل السديد العظيم هو ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾، فكيف تُشركون به مَنْ لا يَخْلُقون شيئاً وهم يُخلَقون؟!

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

ثم ذكر مِنَّة أخرىٰ ضمن إبداعٍ آخر، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾(١) أي: في ظلمات الليل في البرِّ والبحر، وإضافةُ الظلمة إليهما للمُلابَسَة، أو المراد بها: مشتبهات الطرق والجهات ليلاً في البر والبحر، لإطلاق الظلمة علىٰ كلِّ أمر مجهول الغاية.

ومن المعلوم أنَّ هذه الفائدة من النجوم هي واحدة من فوائد كثيرة لا يحصيها العدّ، ولا يستقصيها العلم، ولكن هذا مسلك من مسالك القرآن يُساوِقُ به السياق إذا اقتضاه البيان.

قال في «الكشاف»: وكان اهتداؤهم بالنجوم قسمين: أحدهما: معرفة الوقت من الليل أو من السنة. والثاني: معرفة المسالك والطرق والجهات. وإنما فصل هذا عن

---

(١) من المعلوم أنَّ كون النجوم هدايةً في ظلمات البر والبحر ليس هو كل ما يُراد منها، فإنَّ ما أنيط بهذه النجوم من جلائل المقاصد وعظائم الآثار لا يُحصيه العدّ ولا يستقصيه العلم والعرفان، ولكن مثل هذا التحديد والاقتصار مَسْلك من مسالك القرآن، يُساوق به السياق إذا اقتضاه الحال، واستدعاه المقال، فذلك من أنواع إيجازاته وألوان أساليبه وعباراته، حيث يكتفي من الشيء العظيم بلمحة دالة، أو بشأن واحدٍ يتعلق بالسياق أو بالغرض. (المؤلف).

سابقه لأنَّ عالم النجوم هو العالم السماويُّ العظيم، والنظام الشمسيُّ جزءٌ صغير منه مُـخْتَصٌّ بعالمنا، وفائدته عظيمة علينا، ولذلك خصَّه بالذكر أولاً، فذكر الإصْبَاح والليل والشمس والقمر، ثم ذكر النجوم على العموم. وقد ذكرنا شيئاً من تفصيل العالم النجمي في سورة البقرة فارجع إليه.

ولعظمة شأن هذا السياق، ذيَّل الآية بقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

وبعد أن ذكَّرنا الله سبحانه وتعالىٰ بآياته الكونيَّة في الأرض وفي السماء، ذكَّرنا ببعض آياته في أنفسنا، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، قال صاحب «المنار»: وعندي أنَّ المُستَقَرّ: الروح، والمُستَودَع: الجسم[1]. أقول: وهذا علىٰ اعتبار أن تكون الصيغة اسمَ مفعول لا اسمَ مكان، وعلىٰ تقدير أن تكون اسمَ مكان للنفس، فقد قيل: المستقر: الآخرة، والمستودع: الدنيا.

وقال أبو مسلم: المستقر: الأب، والمستودع: الأم. فجعلهما مكاناً للنطفة، وإنما جعل الأب مُستَقَرَّ النطفة لأنها تتولَّد منه.

أعتقد أن المراد من النفس حوَّاء، لأنَّ الرحم هو مَعمَلُ الولد، ومن مواده تكوَّن، وليس للرجل إلا التلقيح، وهو جزءٌ لا يتجزأ، والمراد بالمستقر: الحياة الآخرة، وبالمستودع: الحياة الدنيا. والله أعلم.

ولـما كانت أطوار الروح وأطوار تخليق الإنسان ممَّا تَحار في شأنه ذوو الألباب، ذيَّل الكلام بقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾، إذ الفقه دقَّةُ النظر في فهم الأمور واستنْباط خفاياها وإدراك مزاياها، ولا سيما أمر الآخرة.

---

(١) تفسير «المنار» (٧: ٥٣٤).

ثم ذكَّرهم بنوع آخر من آيات التكوين العجيبة والامتنان العظيم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وإنما التفت إلىٰ التكلُّم لإظهار كمال العناية بهذا الإخراج الذي فصَّله بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي: شيئاً أخضَرَ مُتشعِّباً، ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ بعضه فوق بعض، علىٰ نظام وتنسيق بديع مُتْقن سديد. وهذا تفصيلٌ لِـمَا لا ساق له من النبات ونتاجه، عطف عليه حال نظيره من الشجر، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾، والقِنوان: جمع قنو، وهو العِذْق، وهو من النخل كالعنقود من العنب. والطلع: أول ما يطلع منه قبل أن يتعثكل. وقوله: ﴿دَانِيَةٌ﴾ معناه: متدليةٌ ومتقاربٌ بعضها من بعضها لكثرتها، وقد زاد جمالها بهذا الوضع والتنسيق.

ثم عطف علىٰ قولِه: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ قولَه: ﴿وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا﴾ في بعض الصفات لشدَّة تشابهها وتقاربها، ﴿وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ في بعض أُخَر، أي: متقارب في بعض الصفات ومتباعدها في بعض. وهذا الاشتباه بين أنواع كل واحدٍ منها، فالرمان مثلاً منه الحلو والحامض والمرّ. وهكذا أيضاً تَتَمايز أنواع العنب والزيتون لوناً أو شكلاً أو طعماً، وتتطوَّر الثمار أطواراً عديدة بين طلعها ونضوجها. لذلك قال: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ إذا أينع، أي: نَضَجَ وبَدَأ صلاحُه، وتأمَّلوا صفاته ومميِّزاته في كلٍّ من الحالين ـ الإثمار والإيناع ـ وما بينهما، يظهر لكم من لطف الله وتدبيره وحكمته في تقديره وتطويره ما يدلُّ أوضَحَ الدلالة علىٰ وجوب توحيده في الألوهية والربوبية ونفي كل شريك.

ويجوز أن يكون في الآية تنبيهٌ وإلفاتُ نظر إلىٰ تطوُّرات الإنسان من الطفولة إلىٰ الشيخوخة، ومن الحياة إلىٰ الموت، ثم من الموت إلىٰ الحياة الثانية، فكلُّها تطوُّرات تستلزمها أنظمة طبيعيَّة وسنن كونيَّة. والله أعلم.

ثم ختم السياق بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾، فإنَّ المؤمن مُستعدٌّ للنظر والتدقيق في آثار الله، فهو يُدرك أنَّ مَنْ كانت هذه قدرته لا يُعْجِزُه الحشر والإعادة.

ومن بلاغة القرآن أنَّ ما بدأ به هذا البحث من إخراج الحي من الميت والميت من الحي يتناول سائر هذه الأنواع المذكورة في هذه الآيات وأطوارها، فكأنها تفصيلٌ له وتمثيل؛ لأنَّ الحبَّ حيٌّ يُنبت، والتين لا يُنبِت. وقد لوَّن الخطاب وتفنَّن في طرق الإعراب للتنبيه إلىٰ ما فيه من أنواع في الإبداع والتخليق.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

وبعد أن ذكر الآيات الدالة علىٰ عَظَمة الله تعالىٰ واستحقاقه وحده لأن يُعْبَد، حكىٰ بعض ضروب الشِّرك لبعض مشركي العرب، استخفافاً بعقولهم واستهجاناً لبلادتهم، إذ لم ينتبهوا لـمثل آثار الله هذه المستلزمة لاختصاص الألوهية به تعالىٰ، ويجعلون له شركاء، فقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾، وأتىٰ بصيغة البدلية ولم يقل: وجعلوا الجنَّ شركاءَ لله، لإفادة الغرابة من أمرين، الأول: جَعْل شركاء لله العظيم الذي هذا شأنه. والثاني: كونهم من الجن. فهم يشركون به غيره ﴿وَ﴾الحالُ أنه تعالىٰ هو الذي ﴿خَلَقَهُمْ﴾، وليس لشركائهم شيءٌ في ذلك الخلق، أفلا يعقلون؟!

ثم ذكر سخافةً أخرىٰ لبعضٍ آخرَ مُبيِّناً أنها ناشئةٌ من خُرْقِهم وحُمْقِهم، فقال:

﴿وَخَرَقُوا۟﴾ أي: اختلقوا بسخافتهم ﴿لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فسمّىٰ مشركو العرب الملائكةَ بناتِ الله، وسَمَّىٰ غيرهم بعضَ الأنبياء أبناءَ الله، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)﴾ أي: هو مُنَزَّه عن ذلك مُتعال عنه، كيف لا وهو ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقها علىٰ أبدع نظام، وكلُّ ما في الكائنات من إيجاده، ونسبتُها إليه نسبةُ المُبْدَع إلىٰ مَنْ أبدعه، والمخلوق إلىٰ من خَلَقه سبحانه. وليس له جنس حتىٰ يكون له منه زوج وولد، كما قال تعالىٰ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ ينشأُ الولدُ من ازدواجه بها، ولا معنىٰ للولد إلا ما كان كذلك، وإنما صدور جميع الكائنات عنه صدور إيجاد وإبداع، ﴿وَ﴾ هو قد ﴿خَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ خلقاً، ولم يلده ولادة، فما خرقتم له من الولد مخلوق له لا مولود، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)﴾ يردُّ علىٰ مَنْ يدَّعي أنَّ عيسىٰ ابنُ الله لأنه خُلِقَ من دون أب من البشر، فبيَّن سبحانه أنه يعلم كيف يخلق ولداً من دون أب، ولا يستلزم ذلك أن يكون ولداً لله، سبحانه وتعالىٰ عما يقولون علواً كبيراً. وهاتان الجملتان لتقرير نفي الولد[١].

---

(١) وتصلح أن تكون الآية رداً علىٰ ما يشمل أقوال الفلاسفة القائلين بأن العقول والنفوس تصدر عنه تعالىٰ صدور المعلول عن العلّة، كما تصدر أشعة الشمس عن الشمس، ويزعمون أنها الملائكة، وأن العقول بمنزلة البنين، والنفوس بمنزلة البنات، فقوله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ معناه: أنه سبحانه مُبدعها إبداعاً وخالقها خلقاً، وقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ نفيٌ للولد والولادة المعهودة، وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ نفيٌ للولادة العقليّة، وهي التولُّد والانبثاق والصدور، وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ نفيٌ لما يدَّعيه بعضهم من أنه سبحانه لا يتعلق علمه إلا بالكليات، إلىٰ أمثال ذلك من التقوُّلات والتَّخرُّصات الصادرة عن الهوس والوهم والضلال. تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ للإشارة إلىٰ أنه سبحانه يعلم ما يقتضي أن يكون عليه بعض المخلوقات من التمايز، ولا يخرجها ذلك عن حدود العبودية لله. (المؤلف).

وبعد هذه البراهين المُفحِمَة، مَحَّضَ النتيجة بالدعوة إلىٰ التوحيد والعبادة له تعالىٰ؛ لأنه لا يُماثله شيء وخالق كل شيء، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ ولا تُشركوا به شيئاً ﴿وَ﴾ ارهبوه إذ ﴿هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ يتصرَّف فيه بقدرته، ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ فلا تَخفىٰ عليه مِن أمركم خافية، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ الذي لا تُدرِكُ كُنْهَهُ العقول، والذي يُدرِكُ دقائق الأشياء وخفيَّات الأمور، فيُجري أمره وحُكمَه بمقتضاها، كما يجري إبداعه لبعض مخلوقاته لِحِكَمٍ تقتضيها، فالله يعلمُ وأنتم لا تعلمون. وهذه الصِّفات هي صفاتُ الإلهِ الحق، وهي أعظمُ دليلٍ علىٰ ألوهيَّته؛ لأنَّ من شأن الإله أن لا تُدركه الأبصار.

﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥﴾.

ثم نبَّه إلىٰ مكانة ما سبق من العلم والهداية؛ زيادةً في التَّحسيس والحَمْل عليها، مُجْرياً الكلام علىٰ لسان رسوله، علىٰ نهج القرآن ونَقْلِه من إجراء إلىٰ إجراء آخر، فقال: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: براهين واضحة تُبصِّركم الحق، ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦ﴾ ثمرةُ ذلك الإبصار، ﴿وَمَنۡ عَمِيَ﴾ عن الحق ﴿فَعَلَيۡهَا﴾، أي: فسوءُ نتيجة ذلك العمىٰ علىٰ نفسه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤﴾ يُراقب أعمالكم ويُحصيها عليكم، وإنما أنا بشير ونذير، والله علىٰ كل شيء حفيظ.

ثم ختم السِّياق بما يتضمَّن التَّنويه بشأنه وتوبيخهم علىٰ الجمود في الباطل مع هذا البيان الحافز، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: مِثلَ هذا التنويع في البيان وتوضيح الحُجَّة والبرهان نُصرِّف الآيات. أما قوله: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ فمعطوفٌ

علىٰ محذوف، حسب نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). أي: ليهتدي بها المستعدّون، وهم المحافظون علىٰ سلامة فِطَرِهم، وليقول المعاندون: دَرَسْتَ هذا علىٰ غيرك، وليس هذا بوحي. وهذا قول البعض منهم. وهذه اللام هي التي تسمىٰ لام العاقبة والـمآل، أما لام التعليل الحقيقي ففي قوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ إذ هم الذين يتأمَّلونه ويتبيَّنون حقيقة ما فيه من أنواع البيان المؤيَّد بالحجة والبرهان.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

ثم أردف السياق المتضمِّن لمعارضتهم وتعنُّتهم، رغم وضوح البرهان، أردفه بما يتضمَّن تثبيته وتسليته ﷺ عن ذلك، علىٰ نهج القرآن في تعقيب مثل هذا السياق بالتسلية والدعوة إلىٰ الرشاد، فقال: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ﴾ بالصبر والحلم ﴿عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ وتعنُّتهم، ﴿وَ﴾ ليس تعنُّتهم هذا قهراً للإرادة، إذ ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ بأن يخلق البشر مؤمنين طائعين بالفطرة كالملائكة، ولكن مضت سُنَّته وحكمته بأن يكونوا عاملينَ مختارينَ، ليكونوا علماء عاملين في الأرض مستقرِّين، وهداهم بالطبيعة والشريعة. وبهذا الاختيار في التَّصرُّف صاروا مُسْتَعدِّين للإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والطاعة والفسق. فأما غرائزُهم وفِطَرُهم فكلها خير، وأما تصرُّفهم فيها وكَسْبهم بها لعلومهم وأعمالهم فمنه الخير والشر، وذلك تابعٌ لما يَتَهيَّأ لهم من نوع التربية والتنشئة والتثقيف، لا من أصل الخِلقة والتكوين، وبذلك تكونُ الحُجَّة البالغةُ لله علىٰ الناس أجمعين.

وبعد أن أمر الله رسولَه بتبليغ وحيِهِ بالقول والفعل، وأمره بالإعراض عن المشركين في مقابلة جحودهم وطعنهم في الوحي، وعلَّل صدور ذلك منهم بأنَّ مِنْ مقتضىٰ سُنَّتِهِ في خَلْق البشر مختارين أن يكونوا مُستعدِّين للهداية والضلال، أكَّد الأمر ببيان حدود الرسالة؛ للإيذان بأنَّ من مقتضىٰ حكمته في بَعْث الرسل أن يكونوا مُبلِّغين لا مُسَيْطرين، فعليهم أن لا يَضيقوا ذَرْعاً بانحراف الناس ومعارضتهم، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم لِتُحاسبهم عليها، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ تتولَّىٰ أمورهم وتسأل عنها؛ لأن الوكالة تستلزم السيطرة والمسؤولية، وإنما أنت بشير ونذير، والله هو الوكيل الحفيظ. وفي هذا بيانٌ لوظيفة الرسول، وأنه مُبلِّغ لا مسيطر، وهادٍ لا جبَّار، فينبغي أن لا يضيق ذَرْعاً بما يَلقىٰ من المعارضين من الازدراء والطعن في الدين، فاللهُ يتولَّىٰ أمرهم، ويجازيهم جزاءً وفاقاً.

ثم عطف علىٰ أمر الرسول ﷺ بالإعراض عنهم والصبر عليهم، نهيَ المسلمين عن سبِّ آلـهتهم، كي لا يقابلوا ذلك بالـمثل، فـقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ومعنىٰ: ﴿عَدْوًۢا﴾: مقابلةً بالمثل، من قولهم: عَدَا عليه؛ إذا هَجَم أو قابل. وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لاعتقاد السَّابِّ أنَّ خَصْمَه لا يعبد الله حقيقةً، فإذا سَبَّ معبودَه يعتقد أنَّه لم يسب الله تعالىٰ. أو المراد من نفي العلم: نفيُ الشُّعور؛ لصدور السَّبِّ منهم في حالة الغضب والملاحاة في المراء والجدال.

وفي الآية تأديبٌ للمسلمين يتمشىٰ مع السنة الطبيعية البشرية، ولا سيما المنحرفة، وهي أنَّ كلَّ امرئ يرىٰ أنَّ ما هو عليه هو الحق والصواب، فلا يتحمَّل تسفيهاً فيه، فالسبُّ يزيد المشكلةَ تعقيداً والعِنادَ تَصَلُّباً وتشديداً، فعليهم أن يتركوا أمرهم لله ما داموا مُصرِّين علىٰ الكفر، وسَيَنالون جزاءهم يوم القيامة.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: أنهم قالوا: يا محمد، لتنتهينَّ عن سَبِّك آلهتَنا أو لَنَهْجُونَّ ربَّك[١]. وفي رواية غيره: أو نشتم مَنْ يأمرك[٢].

وقال الراغب: سبُّهم لله ليس علىٰ أنهم يسبُّونه صريحاً، ولكن يَخُوضون في ذكره، فيذكرونه بما لا يليق به، ويتمادَوْن في ذلك بالمجادلة، فيزدادون في ذكره بما تنزَّه عنه تعالىٰ[٣].

ثم بيَّن منشأ ذلك فيهم حَسَب السُّنَّة التكوينيَّة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي: مَضَتْ سُنَّة الله في أخلاق البشر وشؤونهم أن يَسْتَحسنوا ما يَجْرُون عليه ويتعوَّدونه، ممَّا كان عليه آباؤهم، أو مما استحدثوه لأنفسهم، سواء كان عن تقليد وجهل أم علىٰ بيِّنة وعلم، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ وينجلي للمُحِقِّ أنه مُحِقٌّ ورابحٌ، وللمُبْطِل أنه مُبْطلٌ وخاسرٌ، وينال كلُّ صنف جزاءه الذي يستحق، ولا يظلم ربك أحداً. وكثيراً ما يكتفي القرآن بذكر التَّنْبِيءِ عن الجزاء، إيذاناً بإحْصائه لأعمالهم ومجازاتهم بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧٧٦٠).

(٢) المصدر السابق (٧٧٦٢)، عن السُّدِّيّ.

(٣) «المفردات في غريب القرآن» ص٣٩١.

ثم ذكر للمعاندين حالةً أخرىٰ من تعنُّتهم وردَّها عليهم، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ كونية ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي: يؤمنون بصدق رسوله إذا جاء بآيةٍ مُعجِزة، كآية موسىٰ.

فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فهو وحده القادر عليها، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[الرعد: ٣٨].

ثم خاطب المؤمنين الذي يَتمنَّونَ مجيءَ الآية ليؤمن المعاندون، ونبَّههم إلىٰ سُنن الله الكونيَّة في أخلاق البشر، فقال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ لانطباعهم علىٰ الكفر والعِناد، ﴿وَ﴾ بذلك ﴿نُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ باستنْباط الاحتمالات والتأويلات ﴿وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ بتوهُّم التَّخيُّلات. وذلك لِـمَا انطبعوا عليه من الضلال بإفسادهم لِفِطَرهم، وفَقْدِهم لنور بصائرهم، ولعدم وجود صلة عقلية قطعية بين الآية وما أُريدت له من إثبات رسالة الرسل في البراهين العملية، فيُسارع إلىٰ نفوسهم الشك بعد الإصرار، كما جرىٰ لقوم صالح بعد إيجاد الله الناقة لهم كما طلبوا، فلم يعتقدوا أنها آية من عند الله، ولم يؤمنوا بمن جاء بها ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: كما أنهم لم يؤمنوا بالنبيِّ ﷺ أول مرة. أي: يكون شأنهم بعد وجود الآية كشأنهم في عدم إيمانهم من أول الأمر. وذلك لسُنَّة الله في أخلاق الإنسان وانطباعاته إذا تشبَّع بها، فإنه يعارض ويُوهي كلَّ مخالفة لها، ويَتخيَّل لذلك الاحتمالات والتأويلات. كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤ - ١٥].

﴿وَ﴾ هكذا ﴿نَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾، والعَمَه: التَّردُّد في الأمر من الحيرة فيه، فهم يتردَّدون في الآية أهي الحقُّ المبين أم السحرُ الذي يخدع الناظرين؟

والأرجح اتِّباعه بعدما تبيَّن، أم المكابرة له والجدال فيه أَنَفَةً وكِبْراً؟ ورسوخهم في الطغيان والكفر والعصيان هو سبب تقليب القلوب والأبصار هذا التقليب، وإنما أسند ذلك إلىٰ الله تعالىٰ، نظراً لسُنَّته في طبيعة الإنسان، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية).

ثم تابع المعنىٰ ببيان ما هو أبلغ وأشدُّ في تصوير تعنُّتهم وعدم إيمانهم ولو رأوا أعظم الآيات، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ فرأوها المرَّة بعد المرَّة، ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ منهم في ذلك بإحيائنا إيَّاهم، آيةً لك وحُجَّةً علىٰ صدق ما جئت به عن الله، ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ أي: جمعنا عليهم كلَّ شيء من الآيات والدلائل أمام أعينهم، وسقناه إليهم قبيلاً قبيلاً؛ ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي: ما كان من شأنهم ولا من مقتضىٰ استعدادهم الذي أفسدوه بصنعهم أن يؤمنوا، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا أن يكونوا علىٰ السنة الكونيَّة التي شاءها الله، في إمكان إيمان مَنْ أفسد فطرته بمفاسد التربية وسوء القدوة، وهي أن يبقىٰ فيه بقية من نور البصيرة والتفكير الصحيح، وإلا فلا. هذا ما أراه، والله أعلم.

وجاء في تفسير «المنار» ما ملخصه: والقرآن يعقب باستثناء المشيئة علىٰ كل مؤبَّد لا لإفادة نقض التأبيد، بل لإفادة أنَّ ذلك المقرَّر والمؤبَّد مبنيٌّ علىٰ النواميس التي شاءها الله بحَسَب الحكمة العامة، ولو شاء غيرها لفعل. فالمعنىٰ: إلا أن يشاء الله غير تلك النواميس في تكوُّن الأخلاق والميول في البشر. ومؤدَّىٰ هذا الاستثناء الجزمُ بعدم إيمان هؤلاء، لأنه جارٍ بحسب طبيعة الإنسان وجِبلَّتِهِ في الانطباعات علىٰ الميول التي ترسخ فيه بفعله وسيره وكسبه لعلومه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ تلك السننَ الطبيعية، لذلك يتمنَّىٰ بعض المؤمنين لو يُؤْتىٰ مُقْتَرِحو الآيات ما اقتَرحُوهُ؛ لظنِّهم أنَّ ذلك يكون سبباً لإيمانهم، وهم واهمون؛ لأنه سبحانه شاء أنَّ من دسَّىٰ نفسه وأفسدها

بمفاسد التربية لا يُمكِنُه أن يرجع إلىٰ الحقِّ مهما جاءه من الآيات الكونيَّة ووسائل الإيمان.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

قال في «المنار»: ولـمَّا تضمَّن القول السابق أنَّ أولئك المشركين المُقتَرِحينَ للآيات أعداء للنبيِّ ﷺ، وما اقترحوا إلا لاعتقادهم أنهم لا يُؤْتَونه، فيكون ذلك باباً للطعن في رسالته، أراد الله تعالىٰ تسليتَه ببيان أنَّ مثل ذلك يجري مع جميع الأنبياء حسب السنة البشريَّـة أيضاً، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[1]؛ إذ الجنُّ مكلَّفون باتِّباع الشرائع المنزلة علىٰ الأنبياء، كما تُؤْذِنُ بذلك سورة الجن؛ ومنهم مَنْ يؤمن، ومنهم من يكفر ويعارض.

والعدو يُطلَقُ علىٰ المفرد والمثنىٰ والجمع، وعلىٰ المذكر والمؤنث، أي: كما جعلنا هؤلاء أعداءً لك، جعلنا لكلِّ نبيٍّ أعداءً من عُتاة الإنس ومَرَدَة الجن.

ومعنىٰ هذا الجعل: أنَّ سنة الله تعالىٰ في طبائع البشر مَضَتْ بأن يكون الشرير العاتي عن الحق، أي: الذي لا ينقاد له كِبْراً وعناداً، يكون عدواً للدعاة إليه من الأنبياء والهُدَاة، خوفاً علىٰ زعامته ومركزه وهنائه وترفه، وكذلك مَرَدَة الجن، فيجتمع هؤلاء ويتعصَّبون، و﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي: يُوحي شياطينُ الإنس بعضهم إلىٰ بعض، وشياطين الجن كذلك، وقد عدّ الأتباع شياطين أيضاً بحكم التبعية. ويجوز أن يكون الإيحاء بين شياطين الجن وشياطين الإنس.

---

(١) تفسير «المنار» (٨: ٥).

وعلىٰ كلٍّ من المعنيين، فالمراد: يُزَخْرِفُ بعضُهم إلىٰ بعضٍ القولَ خداعاً حتىٰ يتواطؤوا ويتدابروا في نشر الدعايات، وترويج الأكاذيب المموَّهة والمزخرَفة، لإعاقة نشر الدعوة وتثبيطها، بطُرق دقيقة خدَّاعة لا يفطن لبطلانها الجاهلون. وما ذلك إلا نتيجة الإفساد لسُنَن الله في طبيعة البشر، لا عَجْزاً في القدرة الإلهيَّة، ولا قَهْراً للإرادة الربَّانية، كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، وذلك بأن يخلق الإنسان مقسوراً علىٰ الخير كالملائكة. ولكن شاءت حكمته تعالىٰ في هذا البشر أن يكون مُخْتاراً في سلوكه، فكان مُسْتعداً للحقِّ والباطل في تصرُّفاته وكسبه للعلوم والأفعال، فأفسد الضالُّ طبيعتَه وسلك طريق الضلال، وهذا هو مؤدَّىٰ قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، وقول الله لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ إذ لو لم يجعله مختاراً في تصرُّفاته لَـمَا حَصَل علىٰ العلم الذي جعله معمِّراً وخليفة فيها.

وقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿يَفْتَرُونَ﴾ بحسب المعنىٰ، أي: فذَرْهُم ليفتروا ولتُصغىٰ.

ثم ذيَّل الكلام بما يُقوِّي عَزْمَه ويُلْمِعُ له بالغَـلَبة عليهم والوعد بخذلانهم، فقال: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: مِنْ كَذِبٍ، ويَخْلقون مِن إفك، فإنهم لا يضرُّونك شيئاً. واستقم كما أمرت، فإنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب، وما يفعلون هذا الفعل إلا إقناعاً لضمـائرهم وتغريراً لأتباعهم، ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ﴾ ممَّن أفسدوا فطرهم، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ من غير بحث في صحّته ولا تفكير، ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ من المعاصي.

فدلَّت الآية علىٰ أنَّ وَحْيَ الشياطين لا يتأثَّر به إلا مرضىٰ القلوب، فيُفتنون به من دون تمحيص، ويفعلون ما يغضب الله. فقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ معطوفٌ علىٰ مقدَّر،

حسب نـهج القرآن في مثـله. ويـجوز أن يكون قوله: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ ...﴾ معطوفًا علىٰ ﴿يُوحِي﴾، وأن يكون قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ ...﴾ جملةً معترضة.

ومُحصَّل الكلام: أنهم يتحاورون بزخرف القول وخداعه ليقنعوا ضمائرهم بعقيدتهم الزائفة، ولتصغىٰ إلىٰ ذلك القول أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة، وليَرْضَوْهُ ويقبلوه ويَقْترفوا ما يجرُّ إليه من الشِّرك والضلال زاعمين أنه الهدىٰ والصلاح.

﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

وبعد أن أشبع الكلام عن مُقْتَرحي الآيات، وبيَّن أنهم لا يؤمنون ولو أُعطوا ما اقترحوه، لتمكُّن الكفر من قلوبهم، لقَّن الحُجَّة القاطعة لنبيِّه ﷺ، وهي أنَّ هذا القرآن أكبرُ الآيات الدَّالَّة علىٰ صدق رسالته، لو كانوا يعقلون. علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد، فقال: ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا ﴾ يحكم بيني وبينكم في هذا الأمر، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا﴾ بالبراهين القاطعة، والحُجج الناصعة، في إثبات التوحيد وإبطال الشِّرك وإثبات الحشر والحساب، كما أنَّ فيه دلالةً واضحةً بطبيعته وعظمته وبلاغته علىٰ أنه كتابٌ من عند الله لا ريب فيه، فإنزاله مشتملاً علىٰ الحكم التفصيلي للعقائد والشرائع، وقواعد الأخلاق والاجتماع، والعبر والمواعظ وغيرها، علىٰ لسان رجل أُمِّيٍّ منكم، هو أكبر دليل واضح علىٰ أنه آية من عند الله تعالىٰ، لا من عنده، وأيُّ آية أعظم من هذا تريدون.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ كعلماء اليهود والنصارىٰ ﴿يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، قال في «المنار» ما ملخَّصه: وبيان هذا من وجهين:

أحدهما: أن العالم بالشيء يُميِّز ما كان منه حقاً وما لم يكن، وما كان خالصاً وما لم يكن. فعلماءُ أهل الكتاب يعرفون أنَّ هذا القرآن من أعلىٰ الكتب السماوية وأكملها.

وثانيهما: أن في الكتب الأخيرة كالتوراة والإنجيل بشارات بالنبيِّ ﷺ(١).

فأَمْرُ نزول هذا القرآن من الله تعالىٰ أمرٌ واضح بيِّن لا شك فيه ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾، وهذا خطاب للأمة في شخص النبيِّ ﷺ، علىٰ نهج القرآن في مثله، وللمبالغة في النهي، علىٰ نهج القرآن في مثله، مما هو غير مخالف لما في نفسه ﷺ، ومبنيٌّ علىٰ أنَّ مشركي العرب يثقون بأهل الكتاب ويعتمدون علىٰ أقوالهم، فشهادتهم بذلك حُجَّة عليهم.

وفي صورة التعبير زيادةُ مبالغةٍ في تقرير رسالته. وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ علىٰ إضمار القول، أي: قل: أفغير الله، وذلك علىٰ نهج القرآن في مثله.

ثم ختم السياق بما يدلُّ علىٰ تحقيق ما جاء فيه وتقريره، ويُنبِّه إلىٰ مكانة ما سَبَق من العلم والهداية، فقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ في الأخبار والأحكام، أو: فيما وعدك به من نصرك علىٰ هؤلاء المُقْتَرِحينَ للآيات استهزاءً وتَعَنُّتاً، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فيما يقوله ويقرِّره، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ فلا يَخْفىٰ عليه من أمرهم خافية، ولا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا

(١) تفسير «المنار» (٨: ١٠).

ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

ولما كان ما سبق يدلُّ بمضمونه علىٰ أنَّ الخطط الصحيحة هي التي يُوحيها الله تعالىٰ إلىٰ رُسله وأنبيائه للبشر، فمَن اتَّبعها فهو مهتدٍ، ومَنْ أعرَض عنها فهو ضالّ، وعلىٰ أن هناك شياطينَ يزخرفون الباطل لِيُضِلُّوا به الجُهَّال، خاطب الأمة في شخص النبيِّ ﷺ محذِّراً إياهم من الخداع، ومبيِّناً أن أكثر أهل الأرض ضالُّون مُضلُّون، مفتونون فاتنون، ينبغي أن يُحذر منهم، فقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ فيما يعتقدون وينكرون، وفيما يُحلِّلون ويُحرِّمون، و﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: إن الله سبحانه هو الذي يعلم خطط الهداية من خطط الضلال. وإنما ذكر الضَّالِّين والمهتدين بدل طرق الضلال والهداية؛ ليدلَّ الكلام علىٰ الوعد والوعيد أيضاً لمن يتمسَّك بتلك الطرق ولمن لا يتمسَّك بها. والآية نصٌّ بأن أهلَ الحقِّ قليلون، وأهلَ الباطل كثيرون.

وبعد أن ذكر أن أكثر أهل الأرض ضالُّون مُضِلُّون عَـرَّض بخطط المشركين الضالة في ذبائحهم لغير الله تعبُّداً، واستتبع حكم الذبائح، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾، يحثُّهم علىٰ التَّمسُّك بما شَرَعَه لهم في أمر الذبائح والإعراض عن الطرق الضالة فيها.

قال في «المنار»: أي: إذا كان أمر أكثر الناس علىٰ ما بيَّنْتُه لكم، فكُلُوا مما ذُكِرَ

اسمُ الله عليه من الذبائح، دون غيره من ذبح أهلِ الضلال، إن كنتم بآياته التي جاءتكم بالهدىٰ والعلم مؤمنين، وبما يخالفها من ضلال الشرك والكفر والجهل مُكذِّبين. وحكمة الاهتمام بهذه المسألة في هذا السياق، وقَرْنها بمسائل العقائد: هو أنَّ مُشْركي العرب وغيرَهم من أهل الملل، جَعَلوا الذبائح من أمور العبادات، بل نظموها في سلك أمور[1] الدين والاعتقادات، فصاروا يتعبَّدون بذبح الذبائح لآلهتهم ومَنْ قدَّسوا من رجال دينهم، ويُهلُّون لهم بها عند ذبحها. وهذا شركٌ بالله، لأنه عبادةٌ تُوَجَّهُ إلىٰ غيره، وسواءٌ سُمِّي ذلك الغير إلهاً معبوداً أم لا[2].

وهذا هو الوجه لذِكرِها في هذه السورة بين مسائل الكفر والإيمان، والشرك والتوحيد.

ثم حثَّهم علىٰ التمسُّك بما شَرَع لهم في أمر الذبائح، والإعراض عما كان فيها من الأضاليل، بصورةٍ من صور تفنُّن القرآن في ابتداع التعابير، حيث نزَّلهم منزلة مَنْ لم يتمسَّك بشرائع الله بعد أن بُـيِّنت مفصَّلة، ولم يبقَ عذر لمعتذر. والغرض من ذلك: المبالغة في الحَمْل علىٰ التمسُّك بما شرع، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وذلك في أول سورة المائدة[3]، وفيما يأتي من هذه السُّورة، وكان قد نَزَل قبل هذه الآية.

ثم استثنىٰ من ذلك المحرَّم قوله: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾، وقد مرَّ بيانُه في سورة المائدة فارجع إليه[4].

---

(١) في تفسير «المنار»: أصول.

(٢) تفسير «المنار» (٨: ١٥ - ١٦).

(٣) سورة المائدة من آخر ما نزل من السور المدنية، وهذه السورة مكية، والصواب في معنىٰ: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ أي: قد بيَّن سبحانه لكم في هذه السورة ما حرَّم عليكم أكْلَه من الحيوانات.

(٤) يعني: في الآية ٣ منها. =

ثم أعاد ما ذكره سابقاً من أن أكثر الناس ضالُّون مُضِلُّون، تقريراً لهذا الحثِّ ومُسَاوقةً للبحث، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ من الناس ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ غيرهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ الزائفة، ويجرون في ذلك ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مُقْتَبسٍ من وحي أو مُستنبطٍ من حُجَّة؛ لأنَّ منطق الهوىٰ مختلفٌ جداً عن منطق العقل؛ إذ المقدِّمات في منطق العقل هي التي تُولِّد النتيجة، فتكون صحيحة. أما منطق الهوىٰ فالنتيجةُ هي التي تُولِّد المقدِّمات، بمعنىٰ: أنَّ صاحب الهوىٰ يلتمس له براهين تُساعده فيما يهوىٰ، ولو كانت خاطئة أو وهمية. فتوعَّدهم بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ المتجاوزين لحدودِ الحقِّ إلىٰ الباطل.

ثم ألمع إلىٰ القاعدة العامَّة في تشريع الله لتلك الأحكام، وهي جَلْبُ المصالح ودَرْء المفاسد، ولكنه جَعَل الكلام حضّاً علىٰ تجنُّب ما نهىٰ الله عنه وحَرَّمه، سواء كان حِسِّياً أو معنوياً، وسواء كان ضَرَرُه ظاهراً أو خفياً، فقال: ﴿وَذَرُوا ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ وهو ما ظهر قُبْحُه وضَرَرُه، أو ما ظهر علىٰ الجوارح، ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ وهو ما خفيَ قُبْحُه وضَرَرُه عليكم من المُحَرَّمات، أو ما لم يظهر علىٰ الجوارح بصُورة جليَّة من قبائح الأحوال النفسيَّة.

ثم هدَّد المخالفين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: بقدر ما كانوا يُصيبون فِطرَتَهم بالإفساد والتدسية.

ثم أردف الأمر بالأكل مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه بالنهي عن ضدِّه، تقريراً له وتأكيداً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ

= والمراد بقوله: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾: إلا أن تدعوكم الضرورة إلىٰ الأكل مما حُرِّم عليكم؛ بسبب شدة المجاعة، فلكم أن تأكلوا منه بمقدار الضرورة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌ﴾(١) أي: خروجٌ عن حدود ما حدَّه الله في الذبائح، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وهذا تصريح بما فُهِمَ من الآية السابقة من تحريم ما يذبحونه قرابين لآلهتهم، إذ هو من أظهر أعمال الشرك.

وقد تابع المعنىٰ بهذا التقرير، والزيادة في البيان، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ من الإنس والجن الذين يُوحي بعضُهم إلىٰ بعضٍ زُخرُفَ القول غروراً ﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾ بالشبهات والخزعبلات، ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ﴾ في ذلك ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ مِثلُهم. فإنَّ التعبُّد بالذبائح لغير الله شرك، كدعاء غير الله، ولو كان بقصد التوسُّل والتقرُّب بذلك الغير إلىٰ الله، كما يفعل الوثنيون. ومن المعلوم أنَّ المؤمنين حقاً لا يفعلون ذلك، ولكنه معنىٰ فرضيّ ولونٌ من ألوان بلاغة القرآن في شدَّة البيان، يرمي إلىٰ شناعة هذا الأمر وفظاعته والتشديد فيه. فأين هذه الآية من هذه العصور التي فَشَا فيها الجهل بروح الدين، وأخذ الجُهَّال، يُقرِّبون القرابين للأنبياء والصالحين. فيجوز أن تكون الآية من غيب القرآن ترمي إلىٰ مَنْ سيكون كذلك من أهل العصور والأزمان التي يضمحلُّ فيها هَدْيُ القرآن. والله أعلم.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا

---

(١) الذي أراهُ أنَّ الله سبحانه حرَّم ذبح المشرك، لأنَّ ذبح الحيوان أمر كبير، أحلَّه للمؤمنين تكريماً لهم، وحرَّمه علىٰ المشركين، والله أعلم. واستثنىٰ منهم أهل الكتاب؛ لأن الشرك أنواع بعضه أشد من بعض. (المؤلف).

كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

ولما بيَّن سبحانه طريق الهداية وطريق الضلال ضَرَبَ مثلاً للمتمسِّكين بكلٍّ منهما، وبُعْد التفاوت بينهما، وضمَّن الكلام التنويه بشأن القرآن، فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ بالكفر والجهل ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ بالإيمان والعلم، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ بالقرآن ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ في حُسن السيرة وكمال الأعمال وشرف الفعال، ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ يتخبَّط في حطة الأخلاق ودناسة الأعمال، وقد انطبع عليها انطباعاً، فهو ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾؟

ثم بيَّن أن منشأ ذلك طبيعة الإنسان، وأنه ابن التربية، فإذا تربَّىٰ علىٰ الضلال يراه هدىٰ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، وذلك بانطباعهم عليه وتمكُّنهم فيه، فلا يرونه إلا حقاً، ثم ذكر مصدر ذلك فيهم، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملون، بحَسْب سُنَّة الطبيعة في خلق الإنسان، إذا انطبع علىٰ عملٍ يراه حسناً وإن كان قبيحاً، ويدافع عنه بأنواع طُرُقِ المدافعة، أي: كما جعلنا ذلك في سنن الطبيعة ﴿جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾[1]،

(١) قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] الآيات. اعلم أنَّ جَعْلَ الله سبحانه وتكوينه الكائنات علىٰ نوعين: نوع يكون الجعل مقصوداً لذاته، ونوع يكون لازماً للأول عارضاً له، تقول: جعل الله العين مُبْصِرةً، وجعلها مستعدَّة أن تتألَّم بضوء الشمس، وبالغبار الداخل فيها =

= مثلاً. فالجعل الثاني لازم للجَعْل الأول عارضٌ له لا بدَّ منه، ولكن الله سبحانه بحسب حكمته في خلقه جعل الأجفان والأهداب تحفظها من تلك المؤذيات، فإذا قصَّر الإنسان في إطباق الجفن عمّا يؤذيها حدث له ذلك العرض، وناله من جرّائه الشرُّ والضررُ.

وعلىٰ وتيرة الجعل الثاني يأتي مضمون معنىٰ هذه الآيات وأمثالها، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، [الإسراء: ٤٦]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥]، وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، إلىٰ أمثال هذه الآيات؛ إذ كل هذا ناتج من جَعْل الإنسان مختاراً في تصرُّفاته تابعاً لإرادته يتصرَّف في أمره كيف يشاء ضمن إمكانيَّاته، فيمكنه أن يسلك طريق الخير والهدىٰ، ويمكنه أن يَسْلك طريقَ الشر والضلال، وربما يزعم أنه الحق والرشاد، إذا فَسَدت طبيعته بمفاسد التربية. ولكنَّ الله سبحانه احتاط للإنسان كما احتاط للعين بالأجفان، فخلق الإنسان مطبوعاً بفطرته علىٰ معرفة الحقِّ والرشاد، كما طبع البذرة علىٰ الإنبات وإخراج الخيرات، ما لم تفسد طبيعتها بمفاسد خارجيَّة كالتَّسوُّس والتعفُّن مثلاً. وهكذا الإنسان إذا لم يتأثر بالتربية الفاسدة وسوء القدوة، فإنه حينئذ يحافظ علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته، ويندفع إلىٰ ما خلقه الله له من طلب الكمال، ومن اتباع الهُدىٰ وترك الضلال في الأقوال والأفعال. وإذا فسد بالتربية الفاسدة انحدر إلىٰ الباطل والضلال في عقائده وأعماله، فتَمكَّن منه الفساد، وفقد الاستعداد إلىٰ الهدىٰ والرشاد. وهذا هو مُجمَلُ ما تقدَّم من الآيات، وهو المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

ثم إن الله سبحانه أضاف إلىٰ ما ذكرنا من الاحتياط الطبيعي للإنسان ما أرسله إليه من التعاليم والتوجيهات علىٰ لسان أنبيائه، وضمن شرائعه المنزلة، فكان هذان الأمران بمثابة ما للعين من أهداب وأجفان، فلم يبق علىٰ الله حُجَّة للإنسان. وهذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، أي: ولو شاء لخلق الإنسان كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. ولكن لا يكون ذلك الإنسان حينئذٍ قادراً علىٰ استنباط مواهب الأرض والحصول علىٰ خيراتها، ويبطل معنىٰ جَعْلِهِ خليفةً فيها؛ لأنَّ ذلك لا يتمُّ إلا إذا كان هذا الخليفة يتصرَّف في شؤونه كيف يشاء ويفعل ما يريد، ضمن ما خلقه الله فيه =

وذلك بحسب سنَّة الطبيعة أيضاً، وهي الحرص علىٰ كبريائهم بين أقوامهم ومراكزهم فيهم، فيُنوِّعون الخداع لأتباعهم، كي يتَّفقوا معهم علىٰ معارضة الأنبياء والهداة، استبقاءً لـمراكزهم الاجتماعيَّـة وزعاماتهم القوميَّـة، ﴿وَ﴾ لكنهم في ذلك المكر ﴿مَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾، وذلك لأنَّ الذي يَتَمادىٰ في الضلال يزداد فيه ويشتدُّ عليه الوبال، لأنه يلتمس الشبه لإقناع أتباعه بضلاله، فيزيده ذلك بُعداً عن سواء السبيل.

ثم ذكر شيئاً من معارضتهم، فقال: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أي: حتىٰ ينزل علينا الوحيُ كما ينزل عليهم. وهذا بمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]. وقد ردَّ الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: لا يجعلها لكلِّ البشر، ولكن يجعلها فيمن يخلقه لها، كما قال تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

ويمكن فهم ذلك بأنَّ الله سبحانه يخلق الرسول في منتهىٰ الكمال البشريِّ، ومن هذه الناحية يتَّصل بالملك[1]، إذ لا يكون بحكم كماله بينه وبين الملك حدٌّ حاجز وأمر

= من الإمكانيات. هذا ما أراه، والله أعلم، وأن الله سبحانه هدىٰ سائر مخلوقاته بالطبيعة، قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١-٣]، إلا الإنسان فقد هَداه بالطبيعة وهداه بالشريعة، فإذا حافظ علىٰ هاتين الهدايتين وعمل بهما فاز، وإذا أفسدهما خاب وخسر خسراناً مبيناً في دنياه وأخراه. (المؤلف).

(١) بل من هذه الناحية، ومن ناحية أخرىٰ أيضًا، وهي صدورُ الأمر من الله تعالىٰ للمَلَك بالاتصال بأحد عباده ليكون رسولًا. فالكمال البشري وحده غير كافٍ في كون أحد البشر رسولًا، لأنّ الرسالة اصطفاء واختيار من الله تعالىٰ.

عازل. وليس هذا الكمال في غير الأنبياء من البشر؛ لأنَّ بينه وبين الملك بُعْداً عظيماً وحاجزاً منيعاً بحكم عَدَم الكمال، فالأنبياء بشرٌ ولكنهم ليسوا كسائر البشر؛ لما فيهم من المواهب التي يحتاجونها، وسائر البشر لا يحتاج ذلك. هذا ما أراه، والله أعلم.

وفي هذا الرد تأفينٌ لهؤلاء القائلين وتسخيف، قُفِّيَ بالوعيد المهين جزاءَ تجبُّرهم، فقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلة وهَوَان جزاءَ تكبُّرهم وعُتُوِّهم، ﴿وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤﴾ أي: بالرسل، ويصدُّون عما جاؤوا به ويستهزؤون.

ثم قفَّىٰ علىٰ السياق ببيان حال المُستَعِدِّ للهداية بمحافظته علىٰ سلامة فطرته، وحال الفاقد لذلك الاستعداد، بإفساده لطبيعته وتَدْسيته لنفسه، وجعَلَه كالتعليل لما قبله، فقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ[1] يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾[2]، وذلك بمحافظته علىٰ سلامة فطرته التي فطرها الله علىٰ الإيمان بالله وحده، وطهارة نفسه من الخُلُقَيْن المُكْتَسَبَين من إفساد الطبيعة الصادَّيْن عن إجابةِ دعوةِ الحق، وهما: الكِبْر والحسد، وبتَحلِّيها بالهادِيَيْن إلىٰ الحقِّ والرَّشاد، وهما: استقلالُ الفكر الصَّادُّ عن تقليد الآباء والأجداد، وقوَّةُ الإرادة الصارفةُ عن اتِّباع الرؤساء.

ثم بيَّن حال الفاقد لذلك الاستعداد بإفساده لفطرته، فقال: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[3] أي: إذ عُرضت عليه الدعوة

---

(١) هداية توفيق ومعونة، لأنه اتجهت إرادته الصادقة إلىٰ الإيمان.

(٢) أي: تطبيق الإسلام في سلوكه علىٰ مقدار قوة إيمانه.

(٣) أي: ومَن يُرِدِ الله أن يُيسِّرَ له سبل الضلال، لأنه كفر بإرادته الحرة بما يجب أن يؤمن به، يَجْعَل صدره شديد الضيق لا يطيق الخضوع والطاعة لله. فالإنسان هو الذي يختار بإرادته الحرَّة سبيل الإيمان، أو يختار سبيل الكفر، فإن اختار سبيل الإيمان انشرح صدره لتطبيقات الإسلام، =

إلىٰ الإسلام ضاقَ صَدْرُه، وانفعلت منها نفسُه كُرْهاً لها. وذلك لإفساده لفطرته وتَدْسيته لنفسه حتىٰ تمكَّنت منها رذيلتا الكِبْر والحسد اللتان تَصْرِفانِه عن التأمُّل في الحقِّ واستِبانته، وتمكُّن منها التقليد الذي سَلَب منه استقلال الفكر والنظر. وإنما نسب الهداية والإضلال إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأنه واضع هذا النظام الطبيعي في أخلاق البشر، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية).

وفي قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ دلالةٌ علىٰ نظرية ضغط الهواء، وإيذانٌ بأنَّ طبقاته تـقلُّ كثافتها كلَّما بَعُدت عن الأرض، فيجد المرتفع حَراجةً في صدره إذا وَصَلَ إلىٰ الطبقات العليا لقلَّة مادة الأوكسجين. وهذه الحقائق لم يهتدِ إليها العلم إلا بعد مئات السنين، وهذا من جملة الأدلة الكثيرة الدَّالَّة علىٰ أنَّ القرآن تنزيلٌ من ربِّ العالمين.

وقد شَبَّه بحالِ المرتفع إلىٰ السماء حالَ مَنْ أفسد فطرته بمفاسد التربية والنشأة علىٰ الضلال، إذ دُعي للإسلام.

ثم ختم البيان بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: علىٰ هذا النَّحْو من سُنن الله في خلق الإنسان وتأثير أعمـاله النفسيَّـة والجسميَّـة في صلاح النفس وفسادها، ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ وهو كلُّ ما يَسوءُ أو يُسْتَـقذَر، أو هو اللَّعنة في الدُّنيا والعذاب في الآخرة، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ١٢٥﴾، لأنه يترتَّب علىٰ عدم الإيمان ترتُّباً طبيعياً لا مَناصَ منه. وذلك لأنَّ عدم الإيمان إنما يجري بمقتضىٰ إفساد المرء لطبيعته كما ذكرنا، فيَترتَّب عليه هذا السُّوء كما يترتَّب المرض علىٰ عَدَم مراعاة قواعد الصِّحة وسُنَنها الطبيعيَّة.

= وإن اختار سبيل الكفر انقبضت نفسه، وضاق صدره، وهذا من سنن الله وقوانينه في النفوس البشريَّة.

ثم خَتَم السياق بالتنويه بشأن ما جاء فيه، والحثِّ علىٰ العمل بمقتضاه، فقال: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ لا عِوَجَ فيه ولا التواء، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ فيه ﴿ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

و﴿لَهُمْ﴾ بتمسُّكهم به وسلوكهم فيه ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ في الدنيا والآخرة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ من صالح الأعمال، في سلوكهم هذا الصِّراط المستقيم. وناهيكَ بشأن مَنْ يتولّاه الله ويرعاه هدىً وصلاحاً.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

ثم بيَّن ما يكون من أمر هؤلاء الضَّالّين والمضلِّين لهم عند الحشر والحساب، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ ونقول لهم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾[1]،

---

(١) تلمع هذه الآية بوحدة الصنفين في التكليف والمصير والمسؤولية عن التشريع المنزّل علىٰ =

والمراد: الأشرار من الفريقين. والاستكثار منهم: يكون بإغوائهم بالوسوسة، وجعلهم من حزبهم، من قوله: استكثر الأمير من الجند، أي: أخذ منهم كثيراً. والمعنىٰ: أخذتم منهم أتباعاً كثيرين، أو المعنىٰ: خالطتموهم بجامع المشابهة بالضلال، كما تؤذن بذلك سورة الجن، وآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: الذين تَوَلَّوْهُم وأطاعوهم في وسوستهم وما ألقوه إليهم من وحي الغرور، أو الذين شاركوهم في الضلال: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: تمتّع كلٌّ منا بالآخر طول حياته، ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي: الذي حدَّدتَه لنا وهو يوم البعث والجزاء، ويجوز أن يكون تعبيراً بالقول عن الفعل[1]، وهو من أساليب القرآن. والمراد من هذا إظهار الحسْرة والندامة إِثْرَ اعترافهم بالضلال.

أما حكم الله تعالىٰ فيهم فهو ما ذكره بقوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يكون إلا ما شاء الله، يعني: هذا الحكم وهذا الخلود. وهذا الاستثناء يقترن بكثير من التأبيدات في القرآن، وليس هو لقطع ذلك التأبيد وتخصيصه، بل لتقريره بأنَّ الله قد شاءه فهو الواقع، ولإفادة أنَّ هذا الخلود المؤبَّد مبنيٌّ علىٰ النواميس التي شاءها الله بحسب الحكمة، وللإشارة إلىٰ أنَّ مشيئته تعالىٰ لا يغلبها أمر، ولكن أفعاله تعالىٰ تجري بحسب الحكمة البالغة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فيما تتعلّق به مشيئته،

= الأنبياء، كما تُؤذِن بذلك مضامين سورة الجن. وكذلك تُلْمع إلىٰ أنَّ أشرار الجن يميلون إلىٰ أشرار الإنس ويخالطونهم، وإن كانوا لا يشعرون بهم. والأخيار من الجن يميلون إلىٰ الأخيار من الإنس ويخالطونهم دون أن يعلموا بهم. وبذلك تُؤذن مضامين سورة الجن أيضاً. والله أعلم. (المؤلف).

(١) وهذا بعيد، بل لا عبرة به، لتصريح الآية بالقول وعدم امتناعه في نفسه.

﴿عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ بما يستحقُّه كلٌّ من الفريقين، ومن ذلك جزاؤهم المنصوص عليه؛ إذ إنَّ أفعاله تعالىٰ لا تخرج عن الحكمة والرحمة والمصلحة والعدل، فلا يفعل عَبَثاً ولا جَوْراً ولا باطلاً، بل هو مُنزَّه عن ذلك كما يُنزَّه عن سائر النقائص، وإنه حميدٌ مجيد.

ولما بيَّن سبحانه وتعالىٰ أن أشرار الجن والإنس يَتَولَّىٰ بعضُهم بعضاً، بيَّن أن ذلك إنما يكون بكسبهم المفسد لطبيعتهم، لا بأصل خِلْقـتِهم، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي: نُوَلِّي أشرار الجنِّ أشرار الإنس، أو بعض أشرار الإنس علىٰ بعض بسبب ما كانوا يكسبون من الكفر والضلال ويتَّحدون فيه.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: نجعل بعضهم موالياً لبعض بحكم مساواتهم في السلوك والانطباعات، ويقتفي بعضهم أثر بعض في ذلك، لأنَّ سنة الله في طبيعة البشر قَضَتْ أن يكون لكلِّ عمل من الأعمال النفسيَّة والبدنيَّة التي تصدر منهم، تأثير في أنفسهم يصير بالتكرار عادةً فخُلُقاً، ثم مَلَكَةً راسخة لا يمكنهم أن يتخلَّوا عنها. وكذلك قَضَتْ سنة الله في طبيعة البشر بأنَّ الأفراد والجماعات يميل كلٌّ منهم إلىٰ مَنْ هو علىٰ شاكلته، ويتولَّىٰ بعضهم بعضاً في التعاون والتناصر فيما يشتركون فيه، علىٰ مَنْ يخالفهم فيه، إن الطيور علىٰ أشكالها تقع.

وبعد أن وبَّخ معشر الجن علىٰ إغواء الإنس، أنَّب المَعْشَرَيْن علىٰ كفرهم وإهمالهم لليوم الآخر الذي أنذرهم به الرسل، فقال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ[١] يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فلم يكن جوابهم إلا

---

(١) إنَّما الرسل من الإنس، ولكن يجوز أنْ يُنسَب للاثنين ما هو لواحدٍ منهما إذا اتَّحدا في الحكم، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن. وقد جاء انفراد الإنس بالرسل في سورة الجن. (المؤلف).

أن ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾، فهناك يعترفون بكفرهم وظلمهم لأنفسهم، مُظْهِرينَ الحسْرةَ والنَّدم، معترفين باستحقاقهم العذاب، فبيَّن مصدر ذلك فيهم، فقال: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فأعرضوا عن الآيات واتَّبعوا الأهواء والشهوات، ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ بتلك الآيات والنُّذُر التي جاءهم بها الرسل، فاستحقوا العذاب.

والجنُّ عالمٌ غيبيٌّ لا يُعرَفُ عنه إلا ما وَرَدَ به النص.

وقوله: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، ظاهره: أنَّ كلاً من الفريقين قد أرسل منهم رسلاً إلىٰ قومهم، ولكن جمهرة العلماء يقولون: إنَّ الرسل كلَّهم من الإنس، كما حكىٰ ذلك سبحانه عن الجنِّ بقوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١ - ٢]، ولكن من عُرف اللغة أن يُنسَبَ للاثنين ما هو للواحد منهما عند الكلام عنهما معاً.

ثم بيَّن وجه العدل والرحمة في إرسال الرسل، ثم بعد ذلك كلِّه سجَّل سبحانه علىٰ الناس بأن له الحقَّ والعُتْبىٰ في هذا التهذيب بعد التبصير، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِرَ من إتيان الرسل يقصُّون علىٰ الأمم آيات الله إنما هو لغاية ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ أي: عمَّا يجب عليهم أن يتَّقوه.

ولما بيَّن في هذا السياق أحوالَ أهل الثواب والعقاب، وأنَّ للمؤمنين دار السلام، ومثوىٰ الكافرين النار. خَتَمه ببيان التفاوت في الدرجات بين أفراد كلِّ صنف، نسبةً لعمله، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾، فيُجازي المحسنَ بإحسانه العظيم، والمسيء بسيِّئاته علىٰ قدر أعماله، والإحسانُ صحَّة من عند الله، والإساءة مرض يقترفه الإنسان بمخالفة سُنن الله نتيجةً تلقائية، والله أعلم، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ثم أردف السياق ببيان أنَّ طلبه سبحانه من الثقلين أن يتَّبعوا شرائعه ليس لحاجة له في ذلك، ولكن من رحمته بهم، يُوجِّههم إلىٰ سبيل سعادتهم في الدارين، ويصبر عن عُصَاتهم إلىٰ يوم الدين، وضمَّنه التهديد للمعتدين، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الوعد بالوعيد، فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: عن أعمالكم وعن كل شيء، ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ التي وَسِعَتْ كلَّ شيء.

ثم ذكر من أثر رحمته إبقاءَه علىٰ العُصَاة، وإمهالَه لهم مع قُدرته عليهم، وسَبَكَ ذلك علىٰ الإنذار، فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ قد أنجاهم، أذهب من معهم وأبقاهم، وهم نوح ومَنْ حُمِلَ معه في السفينة، فهو يُلمح إلىٰ تلك الحادثة وإلىٰ الإنذار بها.

وبعد أن أنذرهم بعذاب الدنيا، أنـذرهم بعذاب الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

وبعد أن بيَّن حالهم ومآلهم أمر رسوله أن يخاطبهم بهذا الوعيد المسبوك علىٰ الدعوة إلىٰ الرشاد، فقال: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، قيل: المكانة: مستعارة للمقدرة، والمعنىٰ: اعملوا منتهىٰ مقدرتكم واستطاعتكم في مقاومة الدعوة. والجملة للاستهانة بمكايدهم. وقيل: المكانة: مستعارة للأحوال الشخصية والعقائـد الدينية والسلوك. والمعنىٰ: اعملوا علىٰ شاكلتكم التي أنتم عليها، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ علىٰ شاكلتي التي هداني ربي إليها، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ والإضافة للمُلابَسَة، أي: العاقبة الحُسْنىٰ لهذه الدار بتأثير عمله.

ثم صرَّح لـهم بمـا يُرشدهـم إلىٰ تلك العاقبة ولمن تكون، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾، والشرك ظلم عظيم.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ مبحث الذبائح، علىٰ نهج القرآن في العَوْدة، وخصَّ الجاهلية بالبيان، وذكر نوعاً آخر من ضلالهم في التحريم والتحليل بأهوائهم من غير علم، وشنَّع علىٰ سخافة عقولهم، فقال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: مما خلق لهم، وفي هذا القيد زيادةٌ في النقد والتسخيف، وتلميحٌ لكفران النعمة، حيث جَعَلوا مما أنعم الله به عليهم ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ أي: الزرع ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: المواشي؛ لله ﴿نَصِيبًا﴾، ولشركائهم منها نصيباً، ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ أنهم يتقرّبون به إليه، وهم يشركون معه آلـهة أخرىٰ، ﴿وَ﴾ يقولون: ﴿هَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾، فيجعلون نصيبَ الله تعالىٰ لِقِرَىٰ الضِّيفان والتَّصدُّق علىٰ المساكين، ونصيبَ آلهتهم لسَدَنتها وما ينفق علىٰ معاهدها، فإنْ نما نصيبُ آلهتهم وتَضاعف دون نصيب الله تركوا نصيبها لها، وقالوا: لو شاء الله نمَّىٰ نصيبه. وإنْ نما نصيبه وتضاعف دون نصيبها، قالوا: لا بدَّ لها من نفقة فيأخذون نصيبه ويعطونه لسَدَنتها.

وقد أجمل ذلك بقوله: ﴿فَمَا كَانَ﴾ منه ﴿لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فلا يصرفون منه للضيفان والفقراء أبداً، ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ أي: يصرفون منه أحياناً للسدانة والقرابين ومعاهد

الأوثان. فشنَّع عليهم لتجاوزهم حدودَ الله بالتشريع من عند أنفسهم وشركهم بالله، فقال: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝١٣٦﴾ في هذه الخرافات والسخافات.

وهذا التأنيب إنما هو لمجرَّد اتخاذ الشركاء وخصِّهم بنصيب، وأما التحريف في الأنصباء فإنما ذُكِرَ لبيان الواقع، أو للزيادة في التسخيف.

ثم ذكر لهم أمراً آخر مما كانوا عليه من أعمال الشرك والقبح والجهالة المفرطة، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ حيث زيَّنوا لهم أن يجعلوا أولادهم قرابين للآلهة. وكان الرجل ينذر في الجاهلية: لئن وُلِدَ له كذا غلاماً، لَيَنْحَرَنَّ أحدهم، وخبر عبد المطلب في ذلك معروف[1].

والمراد بالشركاء هنا: الكهَّان وسَدَنة الأصنام، فإنهم يطيعونهم إطاعة إذعان وخضوع في التحريم والتحليل وتقريب القرابين من الإنسان والحيوان للآلهة والأوثان، ويضلِّلونهم بأن ذلك من دين إبراهيم، حيث حاول ذَبْحَ إسماعيل عليهما السلام.

ثم علَّل ذلك التزيين وغيَّاه بقوله: ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡ﴾ أي: لِيُهْلِكُوهُم ولِيَخْلِطُوا عليهم ما كانوا يدَّعونه من دين إسماعيل وملَّة إبراهيم عليهما السلام، بمثل هذه الوثنيَّة والأعمال الفظيعة. وقيل: إنَّ المراد أنهم يُلْبِسُون عليهم دينَهم الذي وَجَب أن يكونوا عليه من الدين الصحيح ويُشَوِّهونه في نظرهم.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ معارضتهم هذه لم تكن عن عجز في قدرة الله، فقال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ بأنْ يُغيِّر سُننه الطبيعيَّة في خلق الإنسان، وذلك بأن يخلق الناس

(١) ذكر القصة الطبري في «تاريخه» (٢: ٢٣٩).

مطبوعين علىٰ عبادةِ الله طَبْعاً لا يستطيعون غيرها كالملائكة، وحينئذ لا يصلح أن يعمر الأرض ويكون خليفة فيها، لتحديد علمه وقدرته بسلب اختياره. والله أعلم. ولكنه بمقتضىٰ حكمته خَلَقَهم مختارين مُستعدِّين للتأثُّر بكلِّ ما يَرِدُ علىٰ أنفسهم من الضلال، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ في تحريمهم وتحليلهم، فلا يُحزنك أمرهم، فإنَّ من سنَّة الله أن يغلب الحقُّ الباطلَ ولو بعد حين.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

ثم ذكر ثلاثة أنواع أخرىٰ من أحكامهم المُخْتَرعة بشركهم وضلالهم.

فالأول منها: ما حكاه بقوله: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ﴾، والحِجْرُ: بمعنىٰ المحجور، كالذِّبح بمعنىٰ المذبوح، والطِّحن بمعنىٰ المطحون. وذلك أنَّهم كانوا يقتطعون بعض أنعامهم وأقواتهم من الحبوب وغيرها، ويمنعون الأكل والتصرُّف فيها إلا فيما يخصُّونها له من الضيفان أو سَدَنة الأوثان، أو الرجال دون النساء، أو العكس، يفعلون ذلك تعبُّداً ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾.

والنوع الثاني: ما ذكره بقوله: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾، وذلك بأن تُترك فلا تُركب، وهي البحيرة والسائبة والحامي، وقد تقدَّم بيانها في سورة المائدة[1].

---

(١) في الآية ١٠٣ منها.

والنوع الثالث: ما ذكره بقوله: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ في الذبح، بل يُهلُّون بها لآلهتهم، ويذكرون اسم آلهتهم عليها عند الذبح.

وجعلوا هذه الأنواع الثلاثة ديناً نسبوه إلىٰ الله ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾، فتوعَّدهم سبحانه بقوله: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

ثم ذكر ضرباً آخر من أحكامهم وتشريعاتهم السخيفة الضَّالة، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ من الألبان والأجِنَّةِ ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ أي: حلالٌ لهم خاصَّة، وتأنيثُ ﴿خَالِصَةٌ﴾ باعتبار معنىٰ ﴿مَا﴾؛ لأنها ألبانٌ وأجنَّة، والتذكير في قوله: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ أي: علىٰ إناثـنا باعتبار لفظ ﴿مَا﴾، وإنما ذَكَـرَهُنَّ بلفظ الأزواج؛ للإيذان بأنه لا فرق بينهما عند الله، أي: ما في بطونها محرَّم علىٰ إناثنا، ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ أي: وإن ولدت ميتة ﴿فَهُمْ﴾ أي: الذكور والإناث ﴿فِيهِ﴾ أي: فيما في بطنها ﴿شُرَكَآءُ﴾ يأكلون منها جميعاً.

وقيل المراد بالأنعام: البحائر والسوائب، فكانوا يجعلون لبنها للذكور، ويُحرِّمونه علىٰ الإناث، وإذا ولدت ذكراً جعلوه خالصاً للذكور لا تأكل منه الإناث، وإذا كان ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث وهم يأكلون ما يخرج ميتاً في هذا النوع، يتَّخذون ذلك ديناً.

فتوعَّدهم سبحانه علىٰ ذلك بقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ الكذبَ علىٰ الله في هذا التحليل والتحريم، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ لا يحكم بمثل هذه الأحكام الباطلة الجاهلة، وإنما يجعل أحكامه في مَوْضعها من الحكمة، وثوابُه وعقابُه كذلك، ولا يخفىٰ عليه خافية من عمل المحسنين والمسيئين.

ثم سجَّل عليهم بهذا الحكم المنطوي علىٰ التَّوعُّد والتبكيت الفاضح لهم، فقال:

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(١) ﴿ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ ﴾ في هذه الأعمال والأحكام ضلالاً بعيداً، ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

وهذا العطف علىٰ طريقة القرآن في تعقيب الإيجاب بسَلْب ضدّه، مبالغةً في تقرير الحكم، أي: إنهم لم يكن عندهم في الأحكام والأعمال شيءٌ من هداية العقل أبداً، وأيُّ جهالة أجهَلُ من أن يقتل الرجل بنته مَخافةَ الفقر أو السباء، ويَغْذُو كلبَه أحسن الغذاء.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

ثم ذكر سبحانه ما أنعم به علىٰ الإنسان في هذه المطعومات من الحرث والأنعام، وما في تكوينها من حكمة وإبداع، إيذاناً بأن تشريعه سبحانه مِثْلُ صنيعه في ذلك ومبنيٌّ عليه، فأنَّىٰ للبشر أن يُشرِّع، وإلماعاً بإنكاره عليهم تحريمَ ما لم يحرِّم وتشريعَ ما لم يشرع، وتسخيفاً لهم حيث يشركون مع هذا الإله المنعم العظيم إلهاً هزيلاً مَهيناً، فذكر

(١) هو خسرانٌ لعاطفة الأبوّة، عاطفة الرحمة والشفقة، وخسرانٌ لما يحصل عليه الإنسان في حياته وبعد مماته من النسل والولد؛ من نُصْرة وعزّ وفخر ومعونة في الحياة، وأثر طيِّب بعد الممات، يتمثل في الأبناء والأحفاد. (المؤلف).

الحرث أولاً، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ﴾ كالكروم وأمثالها من المرفوعة على العرائش، ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ﴾ وهي التي تعتمد على سيقانها من سائر الأشجار الباسقة.

ثم ذكر تنوُّع الثمار في الجنس الواحد، فقال: ﴿وَ﴾ أنشأ ﴿ٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي: منوّعاً ثمرُه، ثم نبَّه إلى تشابُهِ النوعين في شكل الشجر واختلافهما في الثمر، فقال: ﴿وَ﴾ أنشأ ﴿ٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا﴾ شَجَرُهما في النظر ﴿وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ في الثمر، أو المراد: أنَّ أصناف كلِّ نوع منهما تَتَشابه أشجاره وتتفاوت ثماره، كالزيتون الأسود والأخضر، والرمان الحلو والحامض مثلاً، إلى غير ذلك، فقد جاء في آية (٩٩) السابقة: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾، ولا شك أنه أشار بكل لفظ إلى نوع من هذه المعاني.

ثم عقب بالمُمْتَنِّ به، وقَـرَنه بطلب الشكر الفعلي، فقال: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾، وفي الأمر بالأكل إيذانٌ بالإباحة، وإنكارٌ على تحريم ما حرَّم الجاهليون على أنفسهم.

ثم أردف الأمر بالأكل بالنهي عن الإسراف فيه، فقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ في كلِّ شيء؛ لأنه أمرٌ يضرُّ بالصحة ونُظم الاجتماع والاقتصاد، ويُخرجُ عن الاعتدال المطلوب في أحوال الإنسان، والذي بُنيت عليه الشرائع المنزَّلة. وفي الإسراف استهلاكٌ لنصيب الغير في المجتمع، وقوله: (إن الله لا يحبهم) كناية عن ابتعادهم بذلك عن الله.

ثم ذكر الأنعام، وأدمج فيه الإنكار على ما تَـقَوَّلوه من التحريم فيها، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ أنشأ لكم ﴿حَمُولَةً﴾ تَحمِلونَ عليها أثقالكم، وتُسخِّرونها في

أعمالكم كالإبل، ﴿وَفَرْشًا﴾ وهي صغار الأنعام المفروشة في الأرض كالغنم، تتَّخذونها ذبائح، ومن جلودها وأصوافها فرشاً.

ثم قال تعالىٰ ممتناً ومُنكِراً علىٰ ما حرَّم الجاهليون علىٰ أنفسهم منها: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من هذه الأنعام وغيرها، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ بتحريم ما لم يُحرِّم الله، وغير ذلك من أنواع الإغواء، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢)﴾ فاحذروا وَساوِسَه وتضليلاته.

ثم ردَّ عليهم ما يتقوَّلونه في تحريم وتحليل بعض شؤون هذه الأنعام وأنواعها، بطريقة جدليّة يسمِّيها أهل الجدل: طريقة السَّبْر والتقسيم، أو طريقة الحصر، وهي أن يَسْتقصيَ سائر الأوصاف فيُبطل صلاحَ عِلِّـيَّةِ كلِّ واحد منها للتحريم إلزاماً للخصم، فقال تعالىٰ: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ بالنصب علىٰ أنه بَدَلٌ من قوله: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾؛ ﴿مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثىٰ، ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ كذلك، ﴿قُلْ﴾ في الردِّ عليهم: ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ من الأجنَّة؟ يريد: أنْ ليس في هذه الأنواع إلا هذه الصفات؛ الذكورة والأنوثة، واشتمال الأرحام، يعني: التوالد، وكلُّ واحدة منها لا تصلح علَّة للتحريم، وأنتم تجعلون عِلَـلَ التحريم دائرة عليها، كما جاء البيان عنها في تفسير آية المائدة(١)، والتحريم لا ينبني ويبنىٰ إلا علىٰ الضرر الذاتي(٢)، فهل في الذكورة والأنوثة أو الأجنَّة شيء من ذلك.

ثم قرَّر الإلزام بطلب دليل عقلي، فقال: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣)﴾

---

(١) يعني: الآية ١٠٣ منها.

(٢) الحكم إنما ينبني علىٰ علته، وليس الضرر علةً لكل المحرَّمات من المطعومات، وإنما هو حكمة للتحريم، فما ورد النصّ بتحريمه فهو حرام، سواءٌ عُلم ضَرَرُه أم لا، وسواء حصل الاحتراز عن ضرره أم لا.

أي: تكلَّموا عن التحريم والتحليل بطرق علمية لا همجية، يُبيِّن أنْ لا وَجْهَ يعقل لتحريمهم لها، ولا علَّة لذلك، وإنما هو جهلٌ فاضح وافتراء علىٰ الله بغير علم ولا عقل رشيد.

وقد بدأ في هذا التفصيل بنوع الفرش، لأنه الأنسب في مقام إنكار تحريم الأكل لبعضه دون بعض بغير مُخصِّصٍ، بعد أن قدَّم في الإجمال ذكرَ الحَمولة، لأنها أهمُّ في الخلق والإنشاء والمنَّة، ثم تكلَّم عن الحمولة، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

وبعد هذا التبكيت انتقل إلىٰ تبكيت آخرَ ساخر، علىٰ طريقة القرآن في مثله، وضمَّنه طلبَ الدليل العقلي، فقال: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ أي: أم شاهدتم ربكم فوصَّاكم بذلك؟! يهزأ بهم ويشنِّع عليهم.

وبعد أن أثبت عليهم الافتراء، عقلاً ونقلاً سجَّل عليهم بهذا التوعُّد، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ثم علَّل منشأ ذلك فيهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ لأنفسهم بإفساد مواهبهم وطَبْعِها علىٰ الضلال والتقليد الأعمىٰ حتىٰ أصبحوا لا يرون الحقَّ ولا يبصرونه.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

وبعد الإنكار علىٰ تحريم ما حرَّم الجاهليون، افتراءً علىٰ الله، بيَّن ما حرَّمه الله علىٰ عباده من الطعام، بعبارة تُؤْذن أنَّ مثل ذلك لا يكون إلا بالوحي، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد والدعوة إلىٰ الرشاد، فقال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ أي: علىٰ آكِلٍ يأكله ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ ذلك المأكول ﴿مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾.

ثم علَّل تحريمَ هذه الأشياء بقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ أي: إن هذه الثلاثة خبيثةٌ ضارَّة بالأبدان، ولذلك حُرِّمت.

ثم ذكر ما هو مُحرَّم لأمر معنويّ روحيّ، فقال: ﴿أَوْ﴾ إلا أن يكون ﴿فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، وهو ما يُتَقَرَّبُ به إلىٰ غير الله، لـما في ذلك من الشِّرك العظيم الموجبِ للتحريم، لضرره بالأرواح والعقول، كالنذر للأنبياء والصِّدِّيقين والصَّالحين، فهو فسقٌ أُهِلَّ لغير الله.

ثم رخَّصَ تناول هذه المحرَّمات للمُضْطر، بالشرط الآتي، فقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: فمن دفعته ضرورةُ المجاعة غيرَ قاصدٍ لذلك المحرَّم ومريدٍ له ولا متعدياً قدر الضرورة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾، فلا يُؤَاخذه بأكل ما يسدُّ رَمَقَه منها، ويدفع به الهلاك عن نفسه. وقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ حال مؤكدة للاضطرار.

وقد اختلفوا في هذه الآية: أهي لـمجرَّد الرد علىٰ الجاهلين الذين حرَّموا علىٰ أنفسهم ما حرَّموا، فيكون حَصْرُها إضافياً بالنسبة إلىٰ ما حرَّموا، أم هي كلُّ المحرَّمات ولا حرام سواها؟

فمن قال بالأول احتج بما جاء عن رسول الله ﷺ من تحريم لحوم الحُمُر الأهلية[١]

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٥٥٢٧)، ومسلم (١٩٣٦)، عن أبي ثعلبة قال: حرَّم رسول الله ﷺ لحوم الحمر الأهلية.

وكلِّ ذي ناب من السباع[١] ومِـخْلب من الطير[٢]، وما تعافه الطباع السليمة من الحشرات ونحوها.

وممن قال بالثاني: ابنُ عمر[٣] وابنُ عباس[٤] وعائشةُ[٥] رضي الله عنها، وهم من أعلم الصحابة. وحَملوا ما جاء عن النبي ﷺ فيما عداها علىٰ الكراهة أو المصلحة الوقتية أو الدائمة.

ونقل السبكيُّ[٦] عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال ما معناه: إنَّ الكفار لـما

---

(١) متـفق عليه، رواه البخاري (٥٥٣٠)، ومسلم (١٩٣٢)، عن أبي ثعلبة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن أكلِ كُلِّ ذي ناب من السباع.

(٢) رواه مسلم (١٩٣٤)، عن ابن عباس قال: نهىٰ رسول الله ﷺ عن كُـلِّ ذي ناب من السِّباع، وعن كُلِّ ذي مخلب من الطير.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٠٠٧)، عن نميلة الفزاري، عن أبيه قال: كنتُ عند عبد الله ابن عمر، فسأله رجل عن أكل القنـفذ، فقرأ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾، فقال شيخ عنده: سمعتُ أبا هريرة يقول: سُئل عنه رسولُ الله فقال: «خبيث من خبائث». فقال ابن عمر: إن كان قاله رسولُ الله فهو كما قاله.

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٠٠٦) بلفظ: ليس من الدوابِّ شيء حرام إلا ما حرَّم الله في كتابه، قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾.

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٠١١) عن القاسم قال: كانت عائشة إذا سُئِلَت عن كُـلِّ ذي ناب عن السباع، وكُلِّ ذي مخلب من الطير، قالت: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾. ثم تـقول: إن البـرمة لتكون فيها الصفرة.

(٦) تاج الدين أبو نصر، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (٧٢٧-٧٧١هـ)، قاضي القضاة، فـقيه مؤرِّخ، له: «طبقات الشافعية الكبرىٰ»، و«جمع الجوامع». «الأعلام» للزركلي (٤: ١٨٤). =

حرَّموا ما أحلَّ الله، وأحلُّوا ما حرَّم الله، وكانوا على المضادَّة والمُحَادَّة، جاءت الآية مناقضةً لغرضهم، فكأنه قال: لا حلالَ إلا ما حرَّمتموه، ولا حرامَ إلا ما أحللتموه من الميتة وما يتبعها، ولم يقصد حِلَّ ما وراءه، إذ القَصْدُ إثباتُ التحريم لا إثباتُ الحِل.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ ما حَرَّمه علىٰ بني إسرائيل خاصَّة، عقوبةً لهم، لا علىٰ أنه من أصول شرعه، فكان من الملحق بالمستثنىٰ في حقِّهم لا في حقِّنا، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: دونَ غيرهم من أتباع الرسل ﴿حَرَّمْنَا﴾ فوق ما ذكر من الأنواع الأربعة ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ كالإبل والسباع وبعض الطيور، وهو أعمُّ من ذوات المَخْلب، لأن المَخْلب خاصٌّ بما يصيد، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ واستثنىٰ من الشحوم ما علق بالظهر أو الأمعاء أو اختلط بعظم، فقال: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ أي: الأمعاء، ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، فهذه أنواع ثلاثة من الشحوم مُخْرَجةٌ من التحريم.

ثم بيَّن تعالىٰ سبب هذا التحريم عليهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أي: جزاءً وعقوبةً لهم علىٰ بغيهم وظلمهم لأنفسهم.

وقولُه: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ تأكيدٌ لكون هذا التحريم كان جزاءً لهم علىٰ بغيهم، لا تشريعاً ملائماً لأحوال الطبيعة، علىٰ أصول شرعه سبحانه كما يدَّعون، ولذلك قفَّىٰ عليه بقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ ...﴾، ويجوز أن يكون هذا توعُّداً لمشركي مكة ختم به السياق، أي: فإن لم تُفِدْهُمْ هذه الحججُ والبيِّنات وكذَّبوك ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ

= ووالده أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي (٦٨٣- ٧٥٦هـ)، شيخ الإسلام في عصره، صاحب المصنفات، منها: «السيف المسلول»، و«الاعتبار ببقاء الجنة والنار». «الأعلام» للزركلي (٤: ٣٠٢).

وَاسِعَةٍ﴾؛ يُمهل المكذِّبين لعلهم أن يعودوا إلىٰ رشدهم، فإن لم يؤمنوا أهلكهم بعذاب الاستئصال، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۢ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

ثم حكىٰ سبحانه عنهم نوعاً آخرَ من كفرهم وعقائدهم الباطلة، وفنَّده عليهم، فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۢ﴾(١) مثل البَحيرة والسائبة، ولم يُريدوا بهذا الكلام الاعتذار عن ارتكاب هذه القبائح، وإنما يُريدون أنَّ ما فعلوه حَقٌّ ومَرْضيٌّ عند الله تعالىٰ، لأن عقيدتهم: ما شاء الله وقع، وما لم

---

(١) يجوز أن تحمل هذه الآية علىٰ قولهم بالجَبْر، وأنهم يعنون أنَّ الإنسان مجبور في أعماله نازل فيها عند إرادة الله بزعمهم ومشيئته، جهلاً منهم لمعنىٰ الإرادة والمشيئة، ويُؤْنس لهذا الحمل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، لأنه يؤذن بأن الله تعالىٰ خلقكم مختارين، فتصرَّفتم هذا التَّصرُّفَ المشين بنتيجة الاختيار. ولو شاء أنْ يَقْسركم علىٰ عمل الخير لفعل، ولكن الحكمة اقْتَضَت جَعْلَكُم مُخْتارين، فأفسدتُم فطرتكم، وأسأتُم السلوك والاعتقاد. وعلىٰ مثل هذه الشُّبهة يجري بعض الجهَّال اليوم من عصاة المسلمين؛ يعتذرون بها عن ارتكابهم الآثام وتضييعهم للأحكام، فيقولون: لو شاء الله لهدانا، ولكنه شاء أن نكون ضالِّين. تعالىٰ الله عن ذلك عُلواً كبيراً، وساءت عقيدة هؤلاء المجرمين، ولا يدرون أنَّ الله هداهم منذ بعث بهذا القرآن محمداً رسولاً للعالمين. (المؤلف).

يشأ يمتنع وقوعُه، وكلُّ ما وقع فهو بإرادة الله، وما كان بإرادة الله، فهو حقٌّ ومقبولٌ[1].

ولـما كان قولـهم هذا يتضمَّن أمرين: الأول: أنهم علىٰ حقّ. والثاني: تكذيبهم لـما جاء به محمد ﷺ مما يخالف عقيدتهم، توعَّدهم أولاً علىٰ التكذيب، بما جَرَىٰ علىٰ أمثالهم من المُكَذِّبين، وضَمَّنه الرد عليهم بأنَّ أولئك لو كانوا علىٰ حقٍّ لما اسْتَأْصَلَهم الله بالعذاب، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ رُسُلَـهُم، وقالوا مثلَ قولهم، ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ أي: بعذاب الاستئصال، وتبيَّن لأنفسهم أنهم كانوا في هذا التكذيب وهذه العقيدة علىٰ الضلال.

ثم أمره أن يردَّ عليهم الأمر الثاني بقوله: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ﴾ في إثبات ما تدَّعون بأنَّ ما أنتم عليه إنما هو من الله ﴿فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾، وهذا ردٌّ مُشْرَبٌ بتجهيلٍ وتأفينٍ وتندُّرٍ. ووجه الرد: أنَّ العقائد والأحكام لا يجوز أن تكون إلا بعلم صحيح عن الله بواسطة الوحي والكتب المنزَّلة، فهل عندكم شيء من ذلك في عقيدتكم هذه، يُلزِمُهم بذلك ويُبَكِّـتُهُم ويسخر منهم، ثم يُشْفِعُه بقوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: في أعمـالكم وعقيدتكم هذه ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، وإنَّ الظن لا يغني من الحق شيئاً، ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ في ذلك وتكذبون علىٰ الله.

ثم أتبع البيان وأكمل الردَّ وقرَّر الدحضَ بقوله: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ عليكم، وهي أنه تعالىٰ قد طبع فِطَرَكُم علىٰ الهُدىٰ والرشاد، وبصورة اختيارية، بمقتضىٰ حكمته تعالىٰ، غير مجبورين في أعمالكم، ولكنَّ سُوءَ تصرفكم في فطركم برداءة التربية والتقليد الأعمىٰ، أخرجها عن الهدىٰ إلىٰ الضلال، فإشراككم وتحريمكم لما لم يُحَرِّم،

---

(١) عقيدتهم جبريَّة، تسوِّغ الشرك وتحريمَ ما أحلَّ الله، وأنه لا مسؤولية عليهم فيما هم عليه من ربِّهم!!

إنما هو من نفسكم وباختياركم، وبمعارضتكم رُسُلَ ربكم وتعاليمه إليكم، ولم يكن ذلك قَسْراً للإرادة، ولا عجزاً في القدرة، ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ وذلك بأن يخلقكم مفطورين قَسْراً علىٰ الطاعة وقَبول الحق كالملائكة، ولكن لم يشأ ذلك لأنه ليس موافقاً لحكمة الله تعالىٰ فيكم حين جعلكم خلفاء الأرض، تلك الحكمة التي كان من شأنها أن خلق الإنسان مُطلَقَ التصرُّف رائدُه عقلُه، فكان بذلك مُستعدّاً لاتِّباع الحق والباطل، وعمل الخير والشر، ويُرجِّحُ بعض ما هو مُستعدٌّ له باختياره.

وبعبارة أخرىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ عليكم حيث هداكم للخير والصلاح بالفطرة والوحي، ولكن جعلكم مختارين في أخذ تلك الهداية ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ بصورة قَسْريَّة، بحيث يجعلكم لا تقدرون علىٰ عمل غير الخير والصلاح، ولكن الحكمة اقتضت أن تكونوا مختارين في أخذ تلك الهداية، لا مقسورين عليها جامدين، لتكونوا ذوي علم واسع وقدرةٍ كاملةٍ لتعمروا الأرض بإيجادكم وأعمالكم.

ويتلخَّص ردُّه سبحانه لشبهة هؤلاء المشركين بحُجَّتين:

الأولىٰ: أنَّ الله سبحانه عاقب المشركين السابقين لسوء فعلهم، ولو كانت أعمالهم بمشيئة الله لَـمَا عاقبهم عليها، فالاعتذار بالمشيئة كذب وجهالة.

والثانية: أنَّ الله تعالىٰ لم يقل مثل هذا القول علىٰ لسان أحد من رسله، وطالب المشركين بدليل علميٍّ علىٰ زعمهم هذا، دَحْضاً له وإبطالاً.

ثم أمر رسولَه أن يطلب منهم الشُّهداء علىٰ ما تضمَّنه قولهم من دعواهم تحريم الله عليه مما ادَّعَوْهُ من المحرَّمات، تهكُّماً بهم وزيادةً في إفحامهم، فقال: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾، وللمبالغة في الإنكار عليهم أتىٰ بالتحذير المبنيِّ علىٰ الفَرْضِ والتقدير، فقال: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: فلا تسكت عن

ذلك، بل بيّن الحقّ، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ غيرَه من شركائهم.

فالكلامُ صورةٌ من صور الإبطال، أتىٰ به علىٰ هذا النوع من التعبير، وذلك علىٰ نهج القرآن في التفنُّن في البيان، والتنويع في الردِّ والإنكار.

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

ثم أمر رسوله أن يُبيِّن أصولَ المحرَّمات وجوامعَها في الأعمال والأقوال، وما يقابلها من أصول الفضائل والبر، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد، ولتتبيَّن حُجَّة الله البالغة أيضاً في قواعد تشريعه المَرْضِيَّة عند العقول السليمة والفِطَر المستقيمة، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين يتَّبعون أهواءَهُم فيما يُحلِّلون ويحرِّمون: ﴿تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، وقد ضمَّن ﴿حَرَّمَ﴾ معنىٰ: أوجب وقَضَىٰ، علىٰ نهج القرآن في التَّضمين، فلذلك قال: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ سواء كان باتِّخاذ الأنداد له تعالىٰ أو الشفعاء أو الوسطاء، أو كان باتِّخاذ الأرباب الذين يشرعون الأحكام، ويَتحكَّمون في الحلال والحرام، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ والتعبير بالمصدر للمبالغة، ونسق هذا مع

المحرَّمات باعتبار ضدِّه، فهو عَطْفٌ بالمعنىٰ، أو باعتبار تضمينه ﴿حَرَّمَ﴾ معنىٰ: قضىٰ، ولذلك عطف علىٰ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ أي: من فقر، وكانوا يفعلون هذا الفعل يتَّقون به ـ في زعمهم ـ غائلةَ الفقر التي يجلبها عليهم الإنفاق علىٰ الأولاد، وعارَ الفاحشة والسَّبْيَ للبنات في القتال الدارج بينهم، وعارَ التزوُّج بزوج هو دونهم في الشرف والمكانة. وخصَّ بالذكر الأول، لأنه يستحقُّ الجواب في الجملة.

وينطبق ذلك علىٰ مَنْ يقتل الأجنَّة في بطون أمهاتها بالعلاج. والله أعلم.

فبيَّن تعالىٰ أنه هو الرزاق الوهَّاب، فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، ولستم لهم برازقين. وفي هذا تجهيلٌ لهم وتأفين، وإنما قالَ هنا: ﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، وقال في سورة الإسراء: ﴿نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]؛ لمطابقةِ كلٍّ منهما لسياقه؛ إذ أرادَ هنا الفقرَ الواقعَ والأولادُ صغارٌ، حيث قال: ﴿مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾، أما في سورة الإسراء فقد أراد الفقر المتوقَّع في المستقبل، حيث قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، فأومأ إلىٰ أنَّ هؤلاء الأولاد ربما يكونون حينئذ كاسبين لكم، فقدَّم في كلٍّ من السياقين ضمان رزق الكاسب بالذات، وغيره بالتَّبع، إيماءً إلىٰ أنَّ الله سبحانه قد جعل كَسْبَ العباد سبباً لحصول الرزق.

ثم تابع البيان فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، والفواحش: ما عَظُم قُبْحُه من الأفعال والخصال.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ أهل الجاهلية كانوا يُحرِّمون ما ظهر من الزنىٰ، ويقولون: إنه لؤم. ويستحلُّون ما خَفي، ويقولون: لا بأس به[١].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨: ١٩٣).

ثم تابع البيان، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلَها، وهذا القيد لاستفزاز الشعور والمبالغة في النهي، ثم استثنىٰ من ذلك قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهو ما يُبيح القتل شرعاً، كالقصاص، ثم أكّد تلك الوصايا بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾ والإشارة إلىٰ الوصايا الخمس المتقدِّمة، واللام فيها للدلالة علىٰ بُعْد مَدَىٰ ما تدلُّ عليه الوصايا المشار إليها من الحِكَم والأحكام والمصالح الدنيويَّـة. ولذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾، أي: ما فيها من المصالح والحِكَم.

ثم ذكر الوصيَّة السادسة، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ما يُفعَلُ به من تثميره وتنميته ورجحان مصلحته والإنفاق منه علىٰ تربيته وتعليمه. والنَّهيُ عن قُرب الشيء: أشدُّ أنواع النهي عنه، وأبلَغُ صورةٍ في النهي؛ لأنه يُخيِّل المنهيَّ عنه ويُصوِّره بالشيءِ المخيف، وقد حدَّد ذلك بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، و(الأَشُدّ): جمع شِدّة، بمعنىٰ القوة والكمال فيها، مثل: أَنْعُم جمع نعمة. والمراد ببلوغ الأشد: بلوغ سن الرشد، وقال ﷺ: «لا يُتْمَ بعد بلوغ»[١]. والقرآن يُعبِّر بالنَّهي عن القُربان في النهي عمّا من شأنه أن تميل إليه النفوس وتدفع إليه الأهواء، فيبالغ في التحذير عنه بهذه العبارة.

ثم ذكر الوصيَّة السابعة علىٰ طريقة العطف بالمعنىٰ، وكذلك ما بعدها، فأتىٰ بصيغة الأمر بالشيء، بَدَلَ النَّهي عن ضدِّه، كما فعل فيما تقدَّم في الإحسان بالوالدين، فقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، وأراد بالميزان: العدل والضبط في سائر أنواع الأعمال والمعاملات.

ولما كان إجراء ذلك بالدِّقَّة لا تَـتَمكَّن منه النفوس علىٰ السَّواء، قَـرَنه بقوله:

---

(١) رواه الطبرني في «المعجم الكبير» (٤: ١٤) عن حنظلة التميمي مرفوعاً: «لا يُتمَ بعد احتلام، ولا يُتمَ علىٰ جارية إذا هي حاضت». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤: ٤١١): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، والله عليمٌ بذات الصُّدور، لا يخفىٰ عليه أمر مَنْ يُجهِدُ نفسَه في ذلك أو يقصر.

ويجوز أن تكون هذه الجملة بياناً لكون تكاليف الله سبحانه لعباده كلها في متناول قدرتهم، فليس لهم عذر في إهمالها أو التقصير فيها. وهذا هو الراجح، فأتىٰ بهذه الجملة معترضةً في أثناء هذه الوصايا للحَمْل علىٰ التمسُّك بها.

وبعد أن ذكر العدل في الأعمال، ذكر العدلَ في الأحكام والأقوال، في الوصية الثامنة، فقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المقولُ عليه أو له ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: ذا قرابة منكم.

ثم ذكر الوصية التاسعة، فقال: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾، وهذا يشمل ما عهده الله تعالىٰ إلىٰ الناس علىٰ ألسنة رسله، وبما آتاهم من العقل والوجدان والفطرة السليمة، أي: الهدايتين الفطريَّة والتشريعيَّة، ويشمل ما يعاهد الناس عليه بعضُهم بعضاً.

ثم ختم هذه الوصايا الأربعة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ أي: ما فيها من الصَّلاح لكم، فيحملكم ذلك علىٰ العمل بها، أو رجاء أن يذكِّر بعضكم بعضاً في هذه التعاليم والوصايا.

ثم أتبع هذه الوصايا العظيمة التي جاءَت في سائر الكتب السماويَّة، بهذه الوصيَّة العاشرة، وهي التَّمسُّك بهذه الشريعة التي منَّ الله بها علىٰ البشر بعد كماله واستعداده لها، فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ أي: قل: إنَّ هذا القرآن الذي أدعوكم إليه وأدعوكم به إلىٰ ما يُحييكم، هو صراطي ومنهاجي الذي أسلكه إلىٰ مرضاة الله ونَيْل سعادة الدنيا والآخرة، وهو الدين القويم والشرع الحنيف، وهو الذي وصَّاكم الله به علىٰ لسان أنبيائه وفي كتبه السابقة أنْ إذا جاء فاتَّبِعُوه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الأخرىٰ

التي تُخالفه، وهي سائر الأديان، سواء كانت وضعيَّةً أو سماويَّةً مُحرَّفةً أو منسوخةً، ﴿فَنَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(١). والآية تُرشد إلىٰ أنَّ أنواع الضلال وطرقه كثيرة لا

---

(١) خلق الله الإنسان للكمال والإدراك الواسع، والقدرة علىٰ الأعمال العظيمة والإيجاد، وعلىٰ الإرادة المطلقة، إذ لا يتمُّ ما قبلها إلا بها، فالإنسان مختار في تصرُّفاته، تابع فيها لإرادته ورغباته. ولما كانت هذه الحرية المطلقة في السلوك والأعمال تؤدِّي إلىٰ الخطأ والصواب، والحق والباطل، كما يشاء ويهوىٰ، جهَّزه سبحانه للحق والصواب بهدايتين: هداية الطبيعة ما لم يفسدها وهداية الشريعة. وقال تعالىٰ عن الأولىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، وقال تعالىٰ عن الثانية: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ - ٣٩]. وقد سار النوع الإنساني يحبو في مدراج الكمال يتدرَّج من درجة إلىٰ أخرىٰ، مُتنقِّلاً مع ذلك من شريعة إلىٰ أخرىٰ أوسع منها وأعلىٰ مقاصد ومفاهيم، كما ينتقل الصغير في المدرسة من صفّ إلىٰ أرقىٰ منه، وكان سبحانه يعده بإعطائه آخر شريعة تكون في منتهىٰ الكمال، يختم بها الشرائع، ويجعلها عالمية عامة في البشر، حتىٰ وصل إلىٰ أول درجة من الكمال في العلوم والمعارف، ثم جاء الإنجيل يبشِّر بها، ومعناه في السريانية: البشارة. فكانت منتظرة عند أهل الكتاب، حتىٰ جاء محمد عليه السلام، وأنزل عليه القرآن، فقال سبحانه فيه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾، وقد حدَّد سبحانه في هذا الصراط حريَّة الإنسان وميوله كي لا ينحدر مع هواه فيهوي في مهاوي الحطَّة والرذائل، بحكم اختياره الطبيعي وحريته المطلقة في التصرُّف، وينحدر إلىٰ أسفل سافلين، فقيَّده سبحانه في شهواته ورغباته بقيود شريفة معتدلة تليق بالإنسان، وترفعه عن دَرَكة الحيوان كي يسعد في الحياتين، ويبعد عن الشقائين؛ شقاءِ الدنيا وشقاءِ الآخرة، فوضع له في هذا الصراط لافتات تُنذره بمواضع الخطر، وتُرشده إلىٰ مواطن السلامة وصحَّة النظر، وجعل له موازين تضبط ما يحِلُّ له فعله من الرغائب، وما يحرمُ عليه من المثالب، ويُؤدي به في الحياتين إلىٰ المتاعب والمصائب، فأبعده عن ذلك وردَعَه عن الهبوط إلىٰ ما هنالك، ووجَّهه إلىٰ الصراط المستقيم الذي يَصلُ بالإنسان إلىٰ ساحة النجاة والمقام الكريم. (المؤلف).

حَصْر لها، أما الهداية فهي نوعٌ واحدٌ وسبيلٌ واحدة، وهي ما يهدي إليه هذا القرآن، ثم حث علىٰ التمسُّك بها وتجنُّب سائر السبل بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ ما يحيدُ بكم عن هذه الطريق، فيشقيكم ويُرديكم في دنياكم وأُخراكم.

فَلْيَنظر أُولو الألباب من المسلمين وغيرهم إلىٰ هذه الأصول وشؤونها العظيمة الحيوية في الاجتماع والمدنية، ليعلموا أنَّ مثل هذه التَّعاليم لا تصدر إلا عن الله العليم الحكيم.

وقد أوردَ بعضها بصيغة النهي، وبعضها بصيغة الأمر، فالتي مَناطُ الخير فيها تَـرْكُ المُحرَّمات، ذُكِرَتْ بأسلوب النهي. والتي مَناطُ الخير فيها فِعْلُ ما يقابل المحرَّم، ذُكِرَتْ بأسلوب الأمر، بمقتضىٰ البلاغة العالية من أساليب القرآن.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

ثم عطف علىٰ هذا السياق سياقاً آخر بـ«ثُمَّ»، التي هي لمجرَّد ذكر الخبر، بعد الخبر، لا للترتيب والتراخي، وهو لبيان أنَّ محمداً ﷺ نبيٌّ أنزل عليه كتاب كما أُنزل علىٰ موسىٰ، فما وجه الإنكار عليه، وكتابه أعظم من كتابه. وافتتح هذا السياق الجديد بالمقارنة بين التوراة والقرآن، إذ أنزله كما أنزلها، بياناً وإرشاداً، لئلا يكون للناس علىٰ الله حُجَّةٌ، فقال: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: ثم إننا كنا قد آتينا موسىٰ الكتاب ﴿تَمَامًا﴾

للنعمة والكرامة ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾ الاتِّباعَ والاهتداءَ به، ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ من أحكام الشريعة، ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ للناس ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ١٥٤﴾ أي: ليُعِدَّهم للإيمان بالبعث والحساب والتهيُّؤ لذلك.

ولتضمُّن كلمة ﴿تَمَامًا﴾ معنىٰ التفضُّل عُـدِّيَت بـ﴿عَلَى﴾، وإنما خصَّ «مَن أحسَنَ»؛ لأنه هو الذي يُحسِنُ التَّمسُّك بهذه التعاليم أيضاً ويهتدىٰ بها.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: آتينا موسىٰ الكتاب تماماً لتعاليم الكتب السابقة، علىٰ مَنْ أحسن الاتِّباع لها والاهتداء بها.

ثم أردفَ الكلام عن التوراة، بالكلام عن القرآن ونوَّه به، وأمر باتِّباعه لأنه المنجىٰ، فقال: ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن الذي يُـتْلَىٰ عليكم هو ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ أي: فيه نماءٌ وزيادةٌ علىٰ ما جاء في التوراة، لأنه جامعٌ لكلِّ أسباب الهداية الملائمة للبشر إلىٰ انتهائه من الدنيا، ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ﴾ ما نهاكم عنه، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥﴾ في الدنيا والآخرة.

ثم ذكر وجه الاعتذار فيه وشدَّة الحاجة إليه، فقال: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦﴾ أي: أنزلناه لئلا تقولوا يوم الحساب معتذرين عن شرككم وإجرامكم: إنمـا أُنزل الكتاب الهادي علىٰ اليهود والنصارىٰ، ونحن لم نكن نعلم من مثل علمهم شيئاً، ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡ﴾ إلىٰ الـحق، ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ وهو هذا القرآن، ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد إذ جاءته، ﴿وَصَدَفَ عَنۡهَا﴾ أي: أعرض وصـدَّ عنـها، ﴿سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ١٥٧﴾.

والمراد بالطائفتين هنا: اليهود والنصارىٰ في أول أمرهم عندما كانوا مؤمنين حقاً، قبل أن يُحرِّفوا كتبهم ويزيغوا عن الحق، وإنما يُقرَنُ دائماً القرآن بالتوراة، لأنَّ كلاً منهما شريعة كاملة. أما الإنجيل فأكثره عظات، والزبور أكثره ثناء ومناجاة، فكانا تكميلاً للتوراة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

وبعد أن توعَّدهم بالعذاب علىٰ صُدوفهم، فصَّل بعضَ ذلك الوعيد العام، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، او استئصالهم بالعذاب، ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ أي: أمرُه وتـحقُّق وعده بنصر المؤمنين وخِذلانِ الكافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢]. أو المراد: حسابُـه للناس، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الـمُقْتَرحة عليك منهم، ولم يؤمنوا، فيستأصلهم الله بعذاب من عنده. أو المراد: نفس العذاب، لأنه إنما يكون بآياتٍ كونيَّة. أو المراد: بعض آيات القيامة كطُلوع الشمس من مغربها، إذ ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، وتضمَّن الكلام ثلاثاً: الأولىٰ: النفس المؤمنة، والثانية: هي التي آمنت حديثاً إيماناً صحيحاً أعقبه أعمال صالحة، لا النفس التي آمنت خوفاً من العذاب؛ لأنَّ هذا الإيمان لا يُجْدي نفعاً، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ

فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥]، والمراد بهذا الإيمان الذي لا خير فيه: هو الإيمان الاضْطراري بعد مجيء العذاب أو مُقدِّماته.

ثم أكَّد الوعيد بقوله: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ما تتوقَّعون بنا، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾ ما نَتوقَّعُه بكم.

وقد كان مشركو قريش يعتقدون في بادئ الأمر أنَّ دعوته ستظلُّ في نطاقها الضيِّق، فإذا ما لقي حَتْفَه عاجلاً أو آجلاً تلاشَتْ دعوتُه، وتفرَّق أصحابه، وعادوا إلىٰ دينهم. ولما نوَّه بشأن القرآن وأمر باتِّباعه، أومأ إلىٰ أنَّ الاختلاف فيه يُخرِجُ المختلفين من زمرة أهله، كما أنَّ اختلاف أهل الكتابين في كتابيهما أخرَجهم عنهما، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، والمراد مِن جَعْلِ الرسولِ بريئاً منهم: تضليلُهم وتحذير الأمة من مثل فعلهم.

ويجوز أن تتضمَّن الجملة: أنك غير مسؤول عنهم، لأنَّ الإنسان إنما يُسألُ عمّا نيطَ به من عمل، وإنما كُلِّفتَ بالتبليغ وقد أدَّيته، فلا شيءَ عليك إن لم يؤمنوا مطلقاً، أو لم يؤمنوا علىٰ الوجه الصحيح.

والآية بعمومها تتناول الذين حادوا عن طريقة محمد وأصحابه ببدَع تُشوِّه العقيدة أو تُحرِّف العبادة، وهم أهل البدع والفِرَق الإسلامية التي مزَّقت وحدة الإسلام[١]، وقالوا: إنَّ الآية من إخبارات القرآن الغيبيَّة عن المستقبل، وقد تَوعَّد هؤلاء المتفرِّقين في الدين بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (١٥٩)﴾.

---

(١) يعني: التي وقع اختلافها في أصول العقائد، فمالت عن الطريق السَّوي والعقيدة النقية الصحيحة، ولم تسلم من فساد في اعتقادها.
أما الاختلاف في فروع العقيدة وفي المسائل الفقهية، فهو أمرٌ مقصودٌ للشارع محمودٌ عنده، وهو واقعٌ قطعاً لابتنائه علىٰ أدلة ظنية.

ثم قفَّىٰ علىٰ ما تقدَّم من السياق الإرشادي، ببيان الجزاء العام في الآخرة علىٰ الحسنات والسيِّئات، مُلمعاً إلىٰ أنه سبحانه لا يظلمهم، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ مِنَّةً مِنه تعالىٰ وفَضْلاً، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ رحمةً منه وعدلاً، وذلك بحَسَب سُنَّة الله تعالىٰ في تأثير الأعمال السيئة في تدسية النفس وإفسادها، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ في ذلك، لأنهم هم الذين خرجوا عمّا يحفظ لهم سعادتهم إلىٰ ما أوقعهم في ذلك الهلاك والشقاء، بتكييف نفوسهم بهذه الكيفيَّة السيئة المؤدِّية إليه.

قال الراغب: الحسنة والسيئة ضربان: ضَـرْبٌ باعتبار الشرع كما في هذه الآية، وضَرْبٌ باعتبار الطبع، وذلك ما يستخفُّه الطبع وما يستثقله، نحو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾[1] [الأعراف: ٩٥]، فهما في الأولىٰ شرعيتان، وفي الثانيتين طبيعيتان من الآيات الثلاث.

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

ثم خَتَـمَ السُّورة بهذه الآياتِ الكريمة المناسبةِ لجملتها في أسلوبها ومعانيها،

---

(١) «المفردات» ص٤٤١-٤٤٢.

ألـمَعَ فيها إلىٰ أصول الدين وتقرير التوحيد، وكَوْن الجزاء علىٰ الأعمال، ختمها بها إجمالاً لـما سبق، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يصل سالكُه إلىٰ سعادة الدارَيْن؛ هَدَاني ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ يصلح ويقوم به أمر الناس في الحياتين، لأنه يُساير الطبيعة البشرية الفردية والاجتمـاعية مسايرةً صحيحةً فطريَّةً بمقتضىٰ ما خلقها الله عليه وأراده فيها من الكمال، فهو يشرع للدنيا كما يشرع للأخرىٰ، ويضع لها مناهج الخير والنفع العام والمصلحة الصحيحة المنطبقة علىٰ سُنَن الكون ونظام الاجتماع الصحيح، مراعياً في ذلك الأحوال الماديَّـة والروحيَّة، سُداهُ الوحدة الأخويّة الإنسانيّة، ولُحْمَتُه السعادة الدنيويَّة والأخرويَّة الأبديَّة، حيث يسمُو بالنفس إلىٰ الذروة العُليا من الفضائل ومعاني الإنسانية، ويهدف أن يجعل البشر في منتهىٰ الرقيِّ والكمال، فالإنسان الذي تتمُّ فيه معاني هذا الدين علىٰ وجهها الصحيح هو الإنسان الفاضل الكامل الجليل بالمعنىٰ الصحيح لهذه الأوصاف، وإن أردتَ شاهداً علىٰ ذلك فراجع تاريخَ من شئت من الأشخاص المتمسِّكين بهذا الدين علىٰ وجهه الصحيح في صدر الإسلام.

يكاد الذي يُروَىٰ غريبـاً حـديثُهم يُظَنُّ خيالاً أو أحاديثَ مُفْـتري(١)

و(قِيَم): مصدر قام، بمعنىٰ: اعتدل. وأصله: قِوَم، علىٰ وزن: كِـبَر وصِغَر، فقُلِبَت واوه ياء، وقد وُصف به للمبالغة.

ثم بيَّـن هذا الدين بكونـه: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الذي تعتـرف به العرب واليهود والنصارىٰ، ودينه هو دين الإخلاص لله وحده الذي بَعَثَ به جميعَ رسلِهِ، وقرَّره في جميع كتبه، فكان إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن جميع ما سواه من أديان الشرك والباطل

---

(١) البيت لشكيب أرسلان، الشاعر اللبناني المتوفىٰ سنة ١٩٤٦.

والضلال. وقد أكَّده بالصيغة السلبيَّـة، علىٰ نهج القرآن في الترادف والتقرير، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾، وفي هذه الصيغة أيضاً تعريضٌ بهم وتكذيبٌ لهم في دعواهم أنهم علىٰ ملَّة إبراهيم.

ثم بيَّن روحَ هذا الدِّينَ بصورة إجماليَّة، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾، والنُّسك: العبادة. قال في «الكشاف»: أي: ما آتيه في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح كله لله[1]. ولا شك أنَّ الذي يُوطِّن نفسه علىٰ أن تكون حياته لله ومماته لله؛ يتحرَّىٰ الخيرَ والصلاحَ في كلِّ عمل من أعماله، فهذا هو مقتضىٰ الدين الحنيف ومؤدَّاه.

ثم نزَّه الله تعالىٰ وأكَّد التوحيدَ والإخلاصَ له، فقال: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ أي: فلا أُشركُ معه أحداً بكلِّ وجهٍ من وجوه الشرك فيما أعمله له، ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ فلا أخالف أمره، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ إليه، ومُسَارِعٌ إلىٰ ما أمرني به.

ثم قرَّر التوحيد بصُورة إنكار للشِّرك مَسبوكٍ علىٰ الدليل، فقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ لا يُحمَلُ عنها منه شيء، فكيف أُغرِّرُ بها؟!

قال في «المنار»: وهذه الجملة معطوفة علىٰ الجملة الحالية قبلها، لأنها مُـتمِّمة لتعليل الإنكار وتقرير التوحيد، وهي قاعدةٌ من أصول دين الله تعالىٰ الذي بعث به جميع رسله، كما قال تعالىٰ في سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ - ٤١]. وهذه القاعدة من أعظم أركان الإصلاح

(١) «الكشاف» (٢: ٨٤).

البشري في أفرادهم وجماعاتهم، لأنها هادمةٌ لأساس الوثنيَّـة، وهو طلبُ دفع الضرر وجَلْب النفع بواسطة بعض المخلوقات العظيمة الممتازة ببعض المزايا، سواء من البشر أو من غيرهم، فيجعلونهم واسطةً بينهم وبين ربِّهم ليعطيَهم ما يَطلبون، أو ليحملوا أوزارهم، أو يحملوا الباري تعالىٰ علىٰ رفعها عنهم حتىٰ لا يُعاقبهم عليها، وعلىٰ إعطائهم نعيم الآخرة(١).

فقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تقريرٌ للجملة السابقة، وإنما عبَّر عن النفس بالوازرة؛ للإشارة إلىٰ أنَّ كلَّ نفس لا تَـسْلَم من الوزر في الغالب، وإن اختلف نوعه، وهي تحمل وِزْرَها وحدها، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ من أمر الأديان واختلافكم فيها، ويُجازيكم عليه بما تستحقون. والمراد: أنَّ الأمر سيؤول إلىٰ ما يزول معه الشكُّ، ويحصل معه اليقين، وذلك عند مُجَازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

ثم أجمل السياق بهذه الآية، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يَـخلُفُ بعضكم بعضاً، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ في الجاه والمال وغيرهما؛ ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: لِيَختبركم فيما أعطاكم، أي: يعاملكم معاملةَ المُخْتبر، فيبني الجزاء علىٰ العمل؛ ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لأنَّ سُننه قَضَتْ أن تكون النتائج آثاراً للأعمال من دون تَراخٍ، فمن عمل بما يُخالِفُ سُنَّته الكونيَّة وشريعته العليَّة نالته نتائج ذلك العمل في الدنيا والأخرىٰ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ للتوَّابين الأوَّابين الذي يُزيلون بتوبتهم ذلك الأثرَ من النفوس، فتصبح ناصعة نقيَّة، كما يُنقَّىٰ الثوب الأبيض من الدَّنَس.

---

(١) تفسير «المنار» (٨: ٢١٧).

ومن بلاغة القرآن تأكيد الجملة الثانية باللام، دون الأولىٰ لأنها في العقاب.

وقيل: الخطاب في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ...﴾ للأمة المحمَّدية، وأنه جعلهم خَلَفاً لمن سبقهم من الأمم، وانتدبهم لإقامة دينه وشريعته ونَشْره في الآفاق، فمن أحسَنَ فلنفسه، ومَنْ أساء فعليها، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

سُورَةُ الأَعْرَافِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام علىٰ محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فهذا هو الجزء الرابع[1] من تفسير القرآن العظيم المسمّىٰ «أوْلىٰ ما قيل في آيات التنزيل»، يبتدئ بسورة الأعراف المكيَّة، وهي مئتان وست آيات، تقصد إلىٰ ما تقصد إليه سائر السور المكية، من تقرير أصول الدعوة الإسلامية، وهي التوحيد والرسالة، وإثبات البعث والجزاء. ولم تَدَعْ هي والتي قبلها شبهة لمنكري ذلك حتىٰ أفحمتهم، وألزمتهم بالحقِّ اليقين، وبأقطع البراهين. وقد احتوت علىٰ الإنذار والاعتبار بقصص الأوَّلين وما جرىٰ عليهم، فأخذت المشركين بطريقة الترهيب والترغيب، بعد أن أخذتهم سورة الأنعام التي قبلها بطريقة النظر والاستدلال.

* * *

(١) حسب تقسيم المؤلف رحمه الله في الطبعة الأولىٰ لهذا الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ
لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ
إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾
فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ
﴿٩﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾﴾ وقد مرَّ الكلام علىٰ الحروف التي تُبتَدَأُ بها السور في أول سورة البقرة فارجع إليه. وأوْلىٰ ما قيل فيها: إنها لتنبيه الفكر إلىٰ ما يأتي بعدها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ لتبلِّغه للناس، ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ في القيام بتبليغه وما يتبع ذلك من صعوبات، ولا تَضِقْ صدراً بتكذيبهم له وإعراضهم عنه، فإنما أنزلناه إليك ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ الكافرين ﴿وَ﴾ يكون ﴿ذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ لأن تعاليمه فطرية، والمؤمن يحافظ علىٰ سلامة فطرته فيدرك حقيقتها وحقيَّتها بأدنىٰ التفات.

ثم خاطب العموم مُحذِّراً ومذكِّراً، فقال: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وهو هذا الكتاب، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يدعونكم لاتِّباعهم، ويضعون لكم أحكاماً من تلقاء أنفسهم.

ثم ذيَّلَ هذا الخطابَ بما يُؤْذِنُ بالتبكيت والتأسُّف فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ وتتَّعظون بها توعظون به وتعتبرون. أو المراد: قلَّة مَنْ يتذكَّر من البشر، ينعىٰ عليهم بذلك.

ثم أردف هذا بالإنذار، فقال: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ ذكر الفعل وأراد مُقَاربَته أو إرادته أو الحكم به، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في المادة الرابعة من المقدمة السادسة)، أي: أردنا إهلاكها أو حكمنا به عليه لإعراضها عمَّا جاءها من رسول وكتاب. ويجوز أن يُراد بالفعل نفس الإهلاك، أجمله ثم فصَّله بقوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ﴿بَيَاتًا﴾ أي: ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝٤﴾ أي: وقت القيلولة. والمراد: أنهم آمنون غير مفكِّرين به ولا حاسبين له حساباً، ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥﴾ أي: فما كان لهم في الدعوىٰ إلا الاعتراف باستحقاقهم للعذاب، والمراد: ما ينبعث عن ذلك من التَّحسُّر والندامة. وعبَّر بالدعوىٰ عن الاعتراف، مبالغةً في تقريره. ويجوز أن يكون المراد بالدعوىٰ: الاستغاثة، وقرنوها بالاعتراف للمبالغة في الاستعطاف. ويجوز أن تبقىٰ علىٰ معناها وفيها بداعة في المعنىٰ، أي: بعد أن كانوا يَدَّعون أنهم علىٰ حقٍّ في دينهم، أدركوا حينئذ أنَّهم علىٰ ضلال.

ثم بيَّن عذابَهم الأخرويَّ إثر بيان عذابِهم الدنيويِّ، فقال: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نسأل المرسلين عمَّا بلَّغوا، ونسأل الناس عما أجابوا»[(١)].

أقول: وذلك لإلزامهم وإقامة الحجة عليهم، ولذلك أردفه بقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ أعمالَهم ﴿بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧﴾ عنهم، وهذا أرهبُ وعيدٍ لمن كان له قلب

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢: ٣٠٦).

أو ألقىٰ السمع وهو شهيد؛ إذ فيه إيماء إلىٰ أنَّ السؤال لم يكن للاستعلام، وإنما هو لإخبارهم عما حدث منهم، إقامةً للحجة، أي: لم يغب عنا ما عملوا من عمل وما اكتسبوا من إثم، فقد أحصيناه ونسوه.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ فلا تظلم نفس شيئاً، ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: فمن رَجَحت موازين أعماله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بالكفر وكثرة السيئات، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ إذ حرموها السعادة التي كانت مستعدة لها لو لم يفسدوا فطرتها بالكفر والمعاصي، واستحقّوا العذابَ الأليم، ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ أي: في الكفر بها والإعراض عنها، وإن الكفر والشرك لظلمٌ عظيم.

وقد أفرد الضمير العائد إلىٰ ﴿مَن﴾ نظراً للفظها، وجمع اسم الإشارة إليها نظراً لمعناها(١)، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وعُرف اللغة المتّبع.

قال الأستاذ الإمام في الكلام علىٰ الميزان: ومن عجيب ما قاله البعض: أنه ميزانٌ بلسان وكفتين كأطباق السماوات والأرض، ولا يعلم ماهيَّته إلا الله!! فماذا بقي من ماهيَّته بعد بيان لسانه وكفَّتيه حتىٰ يُفوِّض الأمرُ إلىٰ الله من بعد ذلك البيان؟! ومثل هذا الكلام جرأةٌ علىٰ غيب الله بغير نصٍّ صريح متواتر عن المعصوم ﷺ، ولم يرد في الكتاب إلا كلمة الميزان. فعليك أيها المؤمن المطمئن أن توقن بأنَّ الله سبحانه يزن الأعمال، ويُميِّز لكلِّ عمل مقداره، ولا تسل: كيف يزن، ولا كيف يقدِّر، فهو أعلم بغيبه. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

---

(١) يعني بالضمير العائد علىٰ «مَن»: الهاءَ في قوله: ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾، ويعني باسم الإشارة إليها: قولَه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾.

وإنَّ البشر اليوم قد اختـرع من الموازين ما هو أتقنُ وأضبطُ من ذات الكفتين واللسان، ذلك الميزان الخشن غير المتقن، فكيف بالحكيم الخبير أن يستعمل ذلك الميزان الذي اخترعه البشر قبل أن يبلغ به العلم ما بلغ.

علىٰ أنَّ الموزون هنا معانٍ ومعقولاتٌ، فما هو وجه احتياجها لكِفَّة بوسع الأرض والسماوات. وإنما ذلك قول ما لا يعرف الإيمان بالغيب.

وإذا كان العلم الحديث قد كشف موازين للحرِّ والبـرد واتِّجاه الرياح والأمطار إلىٰ غير ذلك، أفيعجز القادر علىٰ كلِّ شيء عن وضع موازين للأعمال النفسيَّة والبدنيَّة التي سمَّاها الدِّين: الحسنات والسيئات، بما تحدثه في الأنفس من الأخلاق والصفات الثابتة فيها.

أقول: وأظن أنَّ الوزن كناية عن علم الله الدقيق بمقتضىٰ الذرَّتين[1]. والله أعلم.

---

(١) هذا ظنٌّ بعيد، فقد ورد ذِكرُ الكفتين في وصف الميزان في السنة الصحيحة، أما ما نقله المؤلف آنفاً عن الأستاذ الإمام ـ يعني: الشيخ محمد عبده ـ من كون هذه الأحاديث أخبار آحاد، فلا يضر، فأصل الميزان ثابت في القرآن الكريم والسنة المتواترة، ثم الكلام في وصفه وكيفيته مما يُقبلُ فيه الحديث الصحيح ولو كان آحاداً، وقد انتهىٰ المؤلف رحمه الله إلىٰ الظن في آخر كلامه فقال: «وأظن أن الوزن كناية...»، فإذا كان كذلك فلا يُترك الحديث بحجة ظنية ثبوته.

هذا، وقد عرف الناس في عصرنا موازين شتَّىٰ لكلِّ الأشياء، وليس من الضروري أن يكون الميزان هو ذا الكفتين، فقد عرفنا موازين القَبَّان، وليس بكِفَّتين، وعرَفنا موازين تزن القمح والغلال ونحوها، وليس بكِفَّتين، وعرَفنا موازين المياه، وموازين الحرارة، وموازين الضغط الجوي، إلخ.

وميزان الله سبحانه الذي يزن به أعمال الناس يوم القيامة، هو واحد من هذه الموازين، أو هو غيرها كلِّها، ولكنه ميزان أو مقياس أو مقدار لا يشكُّ أحد في عدالته، وصواب تقويمه. وفيه يقيس الله ويزن الحسنات والسيئات، والطاعات والمعاصي، والصغائر والكبائر، والإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والسنة والبدعة، ويعرف مقاديرها وقِيَمها، والاختلاف بينها، وأحياناً يكون دقيقاً جدًّا، وقليلاً جدًّا، وكثيراً جدًّا. =

= ونقل الفخر الرازي حول مدلول الموازين قولين: «أنه جمع موزون، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله. وهذا قول الفرَّاء. قال: ونظيره يقال: عندي درهم بميزان درهمك.. إلخ. والثاني: أنه جمع ميزان، أي معيار الوزن وأداته. قال المتكلِّمون: إن نفس الحسنات والسيئات لا يصحُّ وزنها، خصوصًا وقد تقضيا، بل المراد: أن الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات توزن، أو يجعل النور علامة الحسنات والظلمة علامة السيئات، أو تصور صحيفة الحسنات بالصورة الحسنة، وصحيفة السيئات بالصورة القبيحة، فيظهر بذلك الثقل والخفَّة. وتكون الفائدة في ذلك ظهور حال صاحب الحسنات في الجمع العظيم، فيزداد سرورا، وظهور حال صاحب السيئات، فيكون ذلك كالفضيحة له عند الخلائق».

علىٰ أنه يقال اليوم: إن أقوال الإنسان وأعماله باقية، وهي يمكن أن تؤخذ وتصفَّىٰ وحدها، وتقدَّم للإنسان يراها، هي بنفسها، وليس شيئا نائبا عنها، وهذا يوافق ظاهر ما في القرآن الكريم، حين يبيِّن للإنسان أنه يجد أعمالا ذاتها، ويراها ويشهدها، لا أنه يجد ثمرتها أو جزاءها، أو ثواب الله عليها، أو عقاب الله عليها.

ومن هنا نجد قول الله تعالىٰ في سورة الزلزلة: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۞ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦-٨]، فنقول: ﴿يَرَهُۥ﴾، أي: مثقال الذرَّة من الخير أو من الشرِّ الذي عمله، علىٰ الظاهر المظنون، دون تأويل.

وفي بعض الأحيان نجد المجرمين وأمثالهم، مقرِّين بالحقِّ الذي يظنُّ مَن ظنَّ أنه فَنِي وانتهىٰ من يوم عُمِل في الدنيا، ولكن القرآن يقول لنا: إنه باقٍ، وإن الإنسان يجده ويراه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وكثير من هذه الآيات واضحة لا تحتاج إلىٰ تأويل، ولا إلىٰ إخراجها عن ظاهرها الذي جاء به القرآن، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

فتأويل المؤلف للميزان بعلم الله تكلُّف ممجوج. وينظر أيضاً ما سيأتي تعليقاً علىٰ كلامه في الميزان في سورة الزلزلة.

ثم ذكَّرنا بمنَّته علينا لنشكره باتِّباع أوامره فيما أنزل في هذا الكتاب، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي: جعلنا لكم في الأرض أوطاناً تستقرُّون فيها وتنتقلون إليها بمختلف أنواع الوسائل، وجعلنا لكم فيها ضروباً شتَّىٰ من المنافع التي تعيشون فيها عيشةً راضيةً، من خُضر وثمار ونبات وأنعام وطيور وأسماك وأشربة ومياه عَذْبة، وأنواع لا تُحصىٰ من العقاقير لمعالجة الأمراض، ولكنكم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾، يؤنِّبنا بسُوء حالنا تجاه نِعَمِه الغزيرة علينا.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ
لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن
طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ
يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ
لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ
مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ
فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا
مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ
ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا
سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل
لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾
قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم بيَّن نعمته علينا في كيفيَّة خِلْقتنا وكرامته لنا، وأدمج فيه سببَ الظلم بالآيات، وبيان استعدادنا أن نتأثر بالأرواح الـمَلَكية والشيطانية، تحذيراً لنا عن الثانية، فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ فيه نسبة ما يتعلق بالأصل إلىٰ الفرع، ومثل ذلك من مجازات القرآن. (كما جاء في الفرع الثالث من المادة الأولىٰ من المقدمة السادسة في أنواع مجازات القرآن). والمعنىٰ: خَلقْنا البذرةَ والبنيةَ الأولىٰ لآدم ثم سوَّيناها بشراً سوياً. ويجوز أن تكون كلمة ﴿ثُمَّ﴾، لا للتراخي، بل لإفادة عَظَمة المعطوف بها وتميُّزه عن المعطوف عليه، أو لذكر الخبر بعد الخبر اهتماماً به.

ثم ذكر قصة آدم مع إبليس، وهي تمثِّل خلقةَ الإنسان وكرامتَه وفطرتَه، وما فيها من الميْل إلىٰ الشرِّ قريناً للميل الطبيعي إلىٰ الخير بحكم اختياره في تصرُّفاته، وخطر ذلك عليه إن لم ينظِّم أعماله بما آتاه الله من عقل وحكمة، ويستعين علىٰ ذلك بما أودعه الله في فطرته من مناعة ما لم يفسدها بصنعه، وبالتمسُّك بما أنزله الله إليه علىٰ لسان رسله من تعاليم وتشريع وأحكام، أشار إلىٰ ذلك كلِّه، فقال: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ وهذا السجود سجودُ تكريم وتحية، أنَّبَهُ سبحانه وتعالىٰ علىٰ تركه، و﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ أي: ما حملك ألا تسجد، فضَمَّن «منع» معنىٰ: «حمل»، وعدَّاها تعديتَها، وذلك من خصائص اللغة، ومن نهج القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، وفي المادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة في أنواع مجازات القرآن).

﴿قَالَ﴾ إبليسُ متعلِّلاً ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ ولا ينبغي للأشرف أن يُكرِّم من دونَه.

ويجوز أن يكون هذا مجردَ خواطر إبليس ذكرها سبحانه بصورة محاورة[1]،

---

(١) هذا عدولٌ عن ظاهر اللفظ من غير مقتضٍ، فالحملُ علىٰ حقيقة المحاورة هنا لا مانع منه، وهو ما يدل عليه ظاهر اللفظ، فيتعين القول به. وينظر تعليقي على كلام المؤلف حول كلام الملائكة في مقدمة التفسير (١: ٥٣٨).

والله أعلم(١). وعلىٰ كلٍّ فقصة إبليس هي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، فنحن نؤمن به، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة التي فيها آدم. وعَوْدُ الضمير إلىٰ ما يُفهَمُ من السياق، من أساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). وقد مرَّ الكلام عن هذه الجنة وعن إبليس في سورة البقرة، فارجع إليه. والظاهر أن هذه صورة مقتضية ومختزلة عن آدم والملائكة وإبليس إلىٰ حدِّ دخول آدم الجنة وخروجه منها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. والله أعلم.

ثم علَّل الأمر بالهبوط بقوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأنها مكانُ الامتثال والطاعة، ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾(٢) فقد أظهر حقيقتَكَ الاختبارُ والابتلاءُ، وهذه مجازاة له بضدِّ ما أراد.

فلما أحسَّ اللعين بأمره: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ﴾ سبحانه مريداً

---

(١) بل هو خطاب بين الله سبحانه وبين إبليس، وتكرار القصة في القرآن، يمنع ما ذكره المؤلف من أنها مجرَّد خواطر.

(٢) يجوز أن يكون هذا الأمر بالهبوط والخروج لإبليس إنما حكىٰ به نفس الأمر الذي تضمَّنه قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨]، أفرده هنا بالحكاية؛ لأن هذا الجزء من القصة يخصُّ إبليس وحدَه، وكذلك قوله: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨]. فيكون هذا هو الخروج والهبوط الذي وقع بعد وسوسة إبليس لآدم وحواء، فأُخرِجوا منها جميعاً لغَوايتهما به. ويؤيِّد هذا الرأيَ سياقُ سورة البقرة في هذه القصة، فإنه لم يذكر فيه إلا قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾. ويجوز أن لا يعود إلىٰ الجنة ضمير ﴿مِنْهَا﴾ في قوله لإبليس: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾، وقوله: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾، وضمير ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، بل يعود إلىٰ منزلته التي كان فيها واعتزَّ بها وتكبَّر، فيكون طرداً له منها وإبعاداً. هذا ما أراه، والله أعلم. (المؤلف).

ومنشئاً ـ كما يقول للشيء: كن، فيكون[١] ـ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾. قال ابن كثير: أجابه سبحانه إلىٰ ما سأل لِـمَا في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تُخالَفُ ولا تُمانَعُ ولا معقِّب لحكمه[٢]. وقد قالوا في قصة آدم وإبليس: إنَّ الكلام لبيان الواقع في طبيعة الشيطان وطبيعة الإنسان وتأثُّرها بها، كما سيأتي بيانه.

وقد مثَّل سبحانه قوَّة إحاطة استعداد الشرِّ بطبيعة الإنسان وصوَّرها في قوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾، فأصُدُّهم عنه وأقطعُه عليهم؛ بأن أُزيِّن لهم سلوكَ طُرق أخرىٰ غير الطريق المستقيم الذي يصل سالكُه إلىٰ السعادة التي أعدَّها سبحانه لمن تتزكَّىٰ نفسُه بهداية الدين والحق وتكميل الفطرة. وأسند الإغواء إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأنه خالقُ الطبيعة المستعدَّة لذلك، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الأولىٰ). وذلك لأنَّ التكوين علىٰ قسمين: ذاتي وعَرَضي، فقد كوَّن سبحانه العين للإبصار تكويناً ذاتياً، وكان من خصائصها أن تتألم بضوء الشمس وبالغبار تكويناً عَرَضياً، فاحتاط لها بالأهداب والأجفان. وهكذا في سائر مخلوقات الله التي منها الإنسان والشيطان، حيث خلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته، وبهذه الطبيعة يميل إلىٰ الخير إذا حافظ علىٰ سلامة فطرته، ويميل إلىٰ الشرِّ إذا أفسد طبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة، فتُغْويه وساوس الشيطان. وإسنادُ الإغْواء إلىٰ الله باعتبار السُّنَّة العامة في طبيعة الاختيار في الجنِّ والإنس، لا الملك. والآيات تدلُّ علىٰ أنه كان مختاراً في عصيانه، بانياً إيَّاه علىٰ شبهةٍ احتجَّ بها، ومُؤدَّاها الاعتراض علىٰ الحكمة في أمر الله.

---

(١) وهذا أيضاً عدولٌ عن حَمْل «القول» علىٰ حقيقته ـ علىٰ ما يدلُّ عليه ظاهر اللفظ ـ إلىٰ معنىٰ مجازي، فيحتاج إلىٰ قرينة، وهي هنا غير ظاهرة. نعم، جوَّز جماعة من المفسرين مثلَ هذا المعنىٰ المجازي في قوله: «كن»، والقرينة هنا أنَّ الخلقَ تابع للإرادة والقدرة لا للقول، فجاز هذا الحملُ، بخلاف الذي هنا، والله أعلم.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣: ٣٩٣).

وقد صوَّر قوَّةَ تدخُّله في أمرهم بصُورة العدو يحيط بعدوه من جميع جهاته، وذلك بما حكاه عنه سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ فلا أدعُ جهةً من جهاتهم الأربع إلا وأهاجمهم منها، ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي: لنعمك عليهم فيما يهديهم إلىٰ تكميل فطرتهم من تعاليم رسلك، أي: لا يكون ذلك صفةً لازمةً لأكثرهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ولا تجد أكثرهم مُوحِّدين(١).

والآيةُ تمثِّل إحاطة استعداد الشرِّ بالإنسان من كلِّ نواحيه، وتُؤْذِنُ بوجوب شدَّة الاحتراس من ذلك بما أعطاه الله من العقل، ومن قوَّة الاستعداد للخير، كما جَهَّز العين بالأجفان.

أما حكم الله تعالىٰ فيه، فهو ما حكاه بقوله: ﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴾ يقال: ذَأَمَ الشيءَ، أي: عَابَهُ واحتقَره. ودَحَرَ العدُوَّ: طَرَدَهُ. فالمراد: اخْرُج منها مُحتقراً مطروداً. وهذا بمعنىٰ اللعن. وكان الأمر الأول بالهبوط مقروناً ببيان سببه، وهذا الأمر بالخروج مقرون ببيان صفته.

ثم حذّر البشر عن اتباعه ببيان مصير متبعيه، فقال: ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾، وقد اسْتَشْكَل البعض خطاب الله تعالىٰ للشيطان في هذا التَّحاور، واستشكلوا أمر الله تعالىٰ إياه بإغواء البشر وإضلالهم المبين، كما في قوله في سورة الإسراء: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤].

والجواب: أنَّ الخطاب للتكوين، كما صرَّح به ابن كثير(٢). فهو عبارة عن بيان

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢: ٣٤٢).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣: ٣٩٣)، ولفظه: إنه «أمرٌ قَدَريٌّ كوني»، وكذا نصَّ في تفسير الآية=

الواقع في صفة طبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان، وقد أشبعنا البحث عن ذلك في لاحقة المقدمة الثانية فارجع إليه. والتعبير بالقول عن الفعل هو من خصائص اللغة وأساليب القرآن، فقد قال تعالىٰ في سورة سبأ: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [سبأ: ١٩]، فقد عبَّر بالقول عن العمل السيئ الذي اقتضىٰ الخراب ونتج عن ذلك الابتعاد في الأسفار.

هذا ما كان من أمر إبليس. أما ما كان من أمر آدم، فهو ما حكاه سبحانه بقوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾، والنَّهيُ عن قُرب الشيء أبلغُ من النَّهي عنه. وقد تقدَّم الكلام علىٰ هذه الجنة في سورة البقرة فارجع إليه.

ثم ذكر صورة إغواء الشيطان لهما، فقال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾[1]، أي: كان هذا غرضه من هذه الوسوسة، أو أن اللام للعاقبة، بمعنىٰ: أنَّ هذه كانت العاقبة والنتيجة. ويجوز أن يُراد بالسَّوآت: نواحي الشر منها وتأثُّرهما بالإغواء ـ والله أعلم ـ ولكن المعنىٰ العرفي أظهرُ في السياق[2]، وسيأتي معنىٰ السَّوآت قريباً.

ثمّ ذكر صورة الوسوسة بقوله: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: الذين لا يموتون أبداً.

= المذكورة من سورة الإسراء (٥: ٩٤) على ذلك فقال: «هذا أمر قَدَريّ».

(١) والظاهر من هذه العبارة أن الشيطان ملازم للإنسان لا ينفكُّ عنه. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) بل هو المُتعيِّن، فلا يسوغ المعنىٰ المذكور مع قوله تعالىٰ بعد قليل: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ أي: حلف لهما: ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ والتدلية: الإنزال، أي: أوقعهما وأنزلهما وحطَّهما بغروره لهما، وصيغة المفاعَلَة في المقاسَمَة تدلُّ علىٰ أنهما عارضا، ثم أقنعهما بكثرة الحلف والإغواء، فإنَّ المقاسمة تدلُّ علىٰ ذلك بحكم المشاركة، أو تدلُّ علىٰ التكرار منه، وهذا يدل علىٰ ما للإنسان من الاستعداد للانحراف عن الصِّراط السويِّ والتأثُّر بالخداع والتضليل، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: عَرِيَا من النور الذي كان الله تعالىٰ ألبسهما، فبدت بشرتهما حتىٰ بدت فروجُهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة[١].

وقال في «المنار»: والأقرب عندي أنَّ معنىٰ ظهور سوآتهما لهما أنَّ شهوة التناسل دبَّت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة، فنبَّهتهما إلىٰ ما كان خفياً عنهما من أمرهما، فخَجلا من ظهورهما وشعرا بالحاجة إلىٰ سترها[٢]. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[٣]، وقد عصىٰ آدم ربَّه بعد عصيان إبليس، وكان الفرق بينهما أن آدم عاد إلىٰ رُشْدِ الإنسانيّة،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢: ٣٥٥) من قول وهب بن منبه.

(٢) تفسير «المنار» (٨: ٣١١).

(٣) كرَّر القرآن قصةَ آدم وإبليس ليتقرر في الأذهان عداوة الشيطان للإنسان وابتلاؤه به في هذه الحياة، كي يحذر من وسوسته ويتقي شره، فاتباعها خسران مبين للدنيا والأخرىٰ. ومغزىٰ القصة: أن للإنسان جانبَ خير يصل بتنميته إلىٰ السعادة، وجانب شرٍّ يصل بتنميته إلىٰ الشقاء، فلْيغتنم الأول، ولْيحذر الثاني. وأن التمسُّك بالتعاليم الإلهية هي وحدها الكفيلة بذلك، والمنجية منه. (المؤلف).

وتيقَّظت نوازع التقوىٰ فيه، وتاب إلىٰ ربه فتاب عليه وهداه واجْتباه وجَعَله مَوْضعَ مغفرته ورحمته، ثم أوحىٰ إليه شريعته وهدايته. وأنَّ إبليس أصرَّ علىٰ عصيانه واحتجَّ علىٰ ربِّه، فلعنه وأخْزاه وجعله موضعَ عدله في عقابه، وقصَّ أمرَهما عبرةً للمعتبرين وموعظةً للمتقين، ورمزاً إلىٰ أنَّ هذا حالُ المعارضين لأوامر الله، والمعرضين عنها.

وقد تاب الله سبحانه علىٰ آدم ضمن بيان المآل، و﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، والخطاب لآدم وحواء والشيطان. أي: اهبطوا من هذه الجنة، أو من هذا المكان، والشيطان عدوٌّ لكما، ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إلىٰ زمن مُقدَّر في علم الله، وهو يوم القيامة.

ثم أجرىٰ الكلام علىٰ الإنسان وحده، وفصَّل هذا الاستقرار وأطواره بقوله: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ للحساب، كما قال تعالىٰ: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وما وَرَدَ في هذه القصة من التفسير بالمأثور فكثير منه مأخـوذ من الإسرائيليات عن زنادقة اليهود الذين دخلوا في الإسلام للكيد والإفساد، وكان الرواة ينقلون عن الصحابي أو التابعي ما مصدره تلك الإسرائيليات، فيغتر به بعض الناس، ظانّين أنه لا بدَّ له من أصل مرفوع إلىٰ النبي ﷺ؛ لأن مثله لا يعرف بالرأي.

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ

تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ
اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا
وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ
الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ
يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم قال في «المنار»: وبعد أن قصَّ الله سبحانه علىٰ بني آدم نشأتهم الأولىٰ وما خُلقوا مُسْتَعِدِّين له من السعادة ونعيم الجنَّة، وما يصدُّهم عن ذلك من وسوسة الشيطان وإغوائه، رتَّب عليها هذه النصائح الهادية لهم إلىٰ أقوم طريق، تربيةً لأنفسهم، وذلك علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد، وابتدأها بالتذكير بالنعم المادية، فقال: ﴿يَٰبَنِي ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾(١)، والريش والرياش: لباس الزينة، أو ما ظهر من اللباس أو الأثاث(٢).

ولا يخفىٰ ما في التَّمنُّن علينا باللباس والريش من كمال المناسبة مع السياق، وعُرْي آدم وحواء ونَزْع الشيطان لباسهما بمعصيتهما. والمراد بإنزال ما ذكر: أنَّ الله تعالىٰ خلق لبني آدم مادته من القطن والصُّوف والحرير وغيرها، وخلق لهم من الغرائز والقوىٰ والمعرفة التي مكَّنتهم من صنع اللباس من تلك المواد. وكثيراً ما يأتي الإنزال في القرآن

(١) تُلْمِع الآية إلىٰ أن الستر من أهداف الحكمة الإلهية، وأن ترك الستر مخالف لذلك. وسريان هذه العادة من الأجانب الذين حُرِمُوا من النظر في آداب الله وإرشاداته ضلال بعيد، اتباع لوساوس الشيطان عنيد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٨: ٣١٨- ٣١٩).

بمعنىٰ الخلق والإيجاد، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

ثم عقَّب عليه بما يُرغِّبُ بنعيم الآخرة عن نعيم الدنيا، فقال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: الإيمان والعمل الصالح ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[1] من الرياش، أي: إنَّ النعيم بلباس الآخرة ورياشها المنبعث عن التقوىٰ خيرٌ من ذلك الرياش الدنيوي بما لا يُقدَّر.

واختار أبو مسلم ما يروىٰ عن زيد بن علي بن الحسين من أن المراد بلباس التقوىٰ: لباسُ الحرب الذي يُتَّقىٰ به العدو.

وبعد أن تمنَّن بهذه النِّعم دلَّل بها علىٰ قدرته وعظمته واختصاصه بأفعال الألوهيَّة، واستحقاق أن يُعبَدَ وحدَه، كما هو نهج القرآن في الجمع بين هذين الأمرين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من نعم الله إنَّما هو ﴿مِنْ ءَايَـٰتِ﴾ عظمة ﴿ٱللَّهِ﴾ يُحسِّس الناس بها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ فَضْلَ الله وقُدْرَته ومِنَّتَهُ عليهم واستحقاقَه وحدَه أن يُعْبَد ويُرْجَىٰ ويُصْمَد إليه. ويجوز أن تكون الآية للتنويه بشأن ما جاء في السياق من إيقافنا علىٰ شأننا وطبيعتنا لنتَّقي ونَتَحذَّر.

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ إلىٰ قوله ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يجوز أن يكون في الكلام اكتفاء. والمعنىٰ: أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم ورياشاً تتجمَّلون به وتتباهَون، وأنزلنا عليكم بهذه التعاليم المارَّة الذكر في السياق لباسَ التقوىٰ، تتقون به شرور الحياة الدنيا وشرور الحياة الأخرىٰ، واكتفىٰ عن ذلك بقوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ علىٰ نهج القرآن في مثله. والله أعلم. وبهذا يظهر وجه المناسبة جلياً في السياق. وأفادت القصة أن للإنسان جانبَ خير يتلقَّىٰ به أوامر ربه وينفذها ويصل إلىٰ سعادته في الدارين، وجانبَ شرٍّ به يستجيب لوسوسة الشيطان وغوايته فيناله الشقاءُ في الدارين. فعلىٰ الإنسان أن يعرف كَيْدَ الشيطان ويحترس منه بهداية شريعة الرحمن. (المؤلف).

وبعد أن قصَّ ما وقع لآدم من وسوسة الشيطان، حذَّر أبناء آدم من الشيطان، كي لا ينزع عنهم لباس التقوىٰ، فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾، ومن سنن العربية: إعادة النداء في مقام التذكير والوعظ. وفي إعادة جملة: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا ﴾ استفزازٌ للشعور وتنبيهٌ بالحطَّة.

ثم بيَّن شدَّة تدخُّلِه بهم وخفاءَهُ عنهم، تأكيداً للتَّحذير، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ أي: جنوده وحزبه من أشرار الإنس والجن، ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾؛ لأنَّ تدَخُّل هذه الشياطين في أنفس البشر وفعلَها بها كَتَدَخُّل الميكروبات في أجسادهم وفعلها بها سواء بسواء، لا فرق بينهما إلا أن الأولىٰ روحيَّة، والثانية ماديَّة، فَمَنْ توقَّىٰ منها سَلم، ومن لم يتوقَّ منها عبثت به عبثاً خبيثاً.

ويجوز أن يكون الكلام بياناً لخفاء طُرق الـخبائث والتَّضليل التي يدخل بها المضلِّلون أتباع الشيطان علىٰ الناس.

ثم بيَّن أنهم لا يقدرون أن يؤثِّروا ويُغْوُوا إلا الذين أفسدوا طبائعهم بمفاسد التربية وسُوء القدوة، فلم يؤمنوا إيماناً صحيحاً، أو لم يكونوا مؤمنين، فقال: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: مَضَتْ سُنَّتنا في الخلق أن يميل كلُّ شيء لما يناسبه ويشاكله. ومن ذلك أن يميل الشياطين ـ الذين هم شرار الجنِّ ـ لشرار الإنس، ويكونون أولياء للذين لا يؤمنون. كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. والجن كالإنس، منهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم البَرُّ ومنهم الفاجر، كما يُعْلَمُ ذلك مما بيَّنته سورة الجن، فالذين لا يؤمنون إيماناً صحيحاً يكونون مستعدِّين لقَبول وسوسة الشياطين من أشرارهم، كما أنَّ الذين يضعفون بِنيَتَهم ويُهملونها، يكونون مُسْتَعدِّين لِقَبول جراثيم المرض والتأثُّر بها. والذين يؤمنون بالله إيماناً صحيحاً

ويَتَمسَّكون بتعاليمه، يَتَبَصَّرون إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان فلا يتأثَّرون به، كما أنَّ الذي يتمسَّك بنصائح الطبيب وقواعد الصحة يَسْلَم من فتك الجراثيم.

ثم ذكر من آثار ولاية الشياطين لغير المؤمنين عقيدتهم الضالَّة في أعمالهم الضالَّة تقليداً لآبائهم الضَّالِّين واعتقاداً بأنَّ ذلك مَرْضيٌّ لربِّ العالمين، فردَّ عليهم، فقال: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾. ومن تلك الفواحش المعنية هنا: طواف المشركين بالبيت عُراة، وشبهتهم الشيطانية في ذلك أنهم لا يطوفون ببيت ربهم في ثياب عَصَوه بها. فأمر الله نبيَّه أن يدحض دعواهم هذه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم أردف السَّلْبَ بإيجاب ضِدِّه، علىٰ نهج القرآن، فبيَّن شيئاً مما يأمر به تعالىٰ، وكله محاسن أعمال، ومكارم أخلاق، وصحة عقائد، ونزاهة أرواح، فقال: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي: العدل والاعتدال في الأمور كلِّها، وهو التوسُّط بين الإفراط والتفريط فيها. والوسط في اللباس الذي يناسب أن يُعبَدَ الله فيه: هو أن يكون حلالاً نظيفاً، ﴿وَ﴾ أمر أن ﴿أَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ وهذا معطوف علىٰ معنىٰ ما قبله، علىٰ نهج القرآن في مثله، لأنَّ المعنىٰ: أقسطوا وأقيموا، أو نقول: صحَّ عطف «أقيموا» و«ادعوه» علىٰ «القسط»؛ لأنهما ـ مع «أنْ» المقدَّرة ـ مَصْدران.

وإقامة الشيء: إعطاؤُه حقَّه وتوفيتُه شروطَه. والمراد به هنا توجُّه القلب وصحَّة القصد، أي: توجَّهوا إلىٰ الله تعالىٰ عند كل صلاة بحضور القلب وصَرْف الشواغل، مخلصين له الدين، لا تشركوا به غيره.

ثم أتىٰ بما يذكِّر بالبعث والحساب، حثّاً علىٰ العمل، وجعله في موضع التعليل لما قبله والحض علىٰ التمسُّك به؛ لما تضمَّنته الجملة من الإنذار، لأن المرجع إلىٰ الله أمر

محقَّق واقع، فقال: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ وهذه الجملة من أبلغ الكلام الـمُعْجِز، فإنها دعوىٰ متضمِّنة للدليل بتشبيه الإعادة بالبدء، وهو أهون عليه، وله المثل الأعلىٰ. ووجه الاستدلال: أنَّ الحشر للأجسام ليس بأعجب من النشأة الأولىٰ، إلا أنها لما كانت محسوسة لم تشعر بعجبها وعظمتها؛ لأنَّ التَّعجُّب والإنكار إنما يكون لشيءٍ لم يُشاهد مثله ولم يُعرف أسبابه ومؤثِّراته، وكيف تكون النَّشأة الأولىٰ أقل شأناً من الثانية، وهي إنما تتكون من نطفة ماء لا تزال تتطوَّر في الرَّحم حتىٰ تكون ولداً، ولا يزال الولد يتطوَّر حتىٰ يكون إنساناً كاملاً، وربما كان عظيماً بعلمه وتفكيره واستنْباطه واكتشافه، أو قائداً ماهراً في توجيه جيشه، أو ملكاً جباراً في قهره وسلطانه، وأصله نطفة مَهِينَة.

وبعد أن ذكر الحشر وأيَّده بالبدء، بيَّن أنهم يعودون إليه تعالىٰ فريقين: ﴿ فَرِيقًا ﴾ قد ﴿هَدَىٰ ﴾ الله، ﴿وَفَرِيقًا ﴾ قد ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ﴾ أي: جزاؤها، وكلٌّ من الهداية والضلالة تتكوَّن بواسطة أسبابها الكسبيَّـة؛ لأن الله تعالىٰ قد خلق الإنسانُ مُسْتعدّاً لهما بكسبه واختياره، كما يدلُّ عليه التعليل للضَّالِّين بقوله: ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: فأطاعوهم في كلِّ ما يُـزيِّنون لهم من الفواحش والمنكرات، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

وبعد أن بيَّن في السياق أنَّ المشركين إذا فعلوا فاحشةً قالوا: الله أمرنا به، وردّ عليهم وبيَّن أنهم اتَّـخذوا الشياطين أولياء في ذلك، وكان من فواحشهم أن يطُوفوا بالبيت عُراة؛ لأنَّهم يُحَرِّمون الطواف بثيابهم، والطعام الذي أتوا به من أهلهم، فإن تهيأ لهم من قريش مَنْ يُعيرهم ثياباً طافوا بها وإلا طافوا عُراة، ولذلك ذكر الحكم الآتي وضمَّنه التعريض بهم، فقال: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾، وفي الآية حثٌّ علىٰ الاعتناء بالنظافة والتجمُّل، لاسيما في المساجد والمجتمعات.

ثم أمر بالاعتدال في أخذ الزينة وتجنُّب السَّرَف فيها، وذكر ذلك في حكم آخر

مكمِّل للأول، علىٰ نهج القرآن في مثله، وجَعَل نَظْم الكلام تتميماً للقسط والعدل والصَّلاح والاعتدال الذي يأمر به الله، فعطف علىٰ قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ قولَه: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ ليكون المعنىٰ: تجمَّلوا في اللباس وكُلوا واشْرَبوا ولا تسرفوا، ولكن اعتدلوا فيها، فأوجب الاعتدال في اللبس والأكل والشرب وما إلىٰ ذلك؛ لأنه من قوانين الصحَّة والاقتصاد والاجتماع، فأمره بالتوسط بين التفريط الذي يدفع إليه البخل والتقشُّف، والإفراط الذي يحمل علىٰ الترف والتكبُّر، لكي لا يفتتن الإنسان بزخارف هذه الحياة، حتىٰ تملك عليه عقله، وتُؤثِّر علىٰ روحه، فتحطَّها وتصرفها عن الكمال الباقي إلىٰ الخيال الفاني. فما أعظم هذه التعاليم لو عقلها المسلمون.

ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ والويْل لمن لا يُحبُّه الله، فمبدأ الإسلام التوسُّط في كل الأمور.

وبعد أن نهىٰ عن الإسراف فيها، أنكر علىٰ من يتزهَّد عنها ويتقشف وهو واجد، فقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ تعريض بعُرْيِ قريش في الطواف، وفي هذا الوصف تمنُّن عليهم، وهو مرعيٌّ أيضاً في قوله: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ أي: دون الخبائث. وفي وصف الطيِّب تلميحٌ إلىٰ مَسْلك العلة في التَّحليل والتَّحريم، وإيذانٌ بأنَّ الله تعالىٰ لا يُحرِّم علىٰ الناس إلا الخبائث. وتُلمع الآية إلىٰ الإنكار علىٰ التَّقشُّف والتبتُّل والروحيَّة البحتة.

ثم أردف الإنكار بهذا التقرير المتضمِّن للتكريم في الدنيا، وللوعد الكريم في الآخرة، فقال: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أصالةً ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، والكفار تَبَعٌ لهم فيها، حال كونها ﴿خَالِصَةً﴾ لهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: في الآخرة، لا يُشاركهم فيها الكفار، أو المعنىٰ: إنها تكون للمؤمنين يوم القيامة منقَّحة عن كلِّ شائبة دنية أو منغِّصة.

ثم ختم الكلام بما يحثُّ علىٰ إدراك ما في تلك الأحكام من الحِكَم، والعمل

بمقتضاها، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: نفصِّلها لأهل العلم والمعرفة فيدركون فيها سنن الاجتماع وطبائع البشر وطرق الحضارة الصحيحة الشريفة.

وبعد أن أنكر تحريم زينة الله التي أخرج لعباده والطيِّبات من الرزق التي أخرجها لهم أيضاً، قفَّىٰ ببيان أصول المحرَّمات العامة، ملمحاً لوجه علة التحريم ومسلكها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهذا القيد لزيادة التشنيع، ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ وهذا القيد لزيادة البيان في البطلان، ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ كقولكم: إنَّ الله أمركم بما تعملون وتتقوَّلون من كفر وفواحش، وكوصفه بما لا يليق من الصفات والأفعال؛ لكونكم لا تَقدُرونه حقَّ قَدْره، ولا تدركون عَظَمته وجلالَه، فتنكرون إنزال الشرائع، وتجعلونه سبحانه يخلق خلقه ويتركهم دون هداية وإرشاد.

والإثم: كل عمل لا يحل. والبغي: التجاوز والتسلط.

ثم ختم السياق بما يتضمن توعُّدُ هؤلاء المعارضين المكذبين، ويُبيِّنُ سبب إمهالهم، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ لم تؤمن برسولها ﴿أَجَلٌ﴾ معيَّن لاستئصالها، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ والساعةُ لغةً: أقلُّ مدة من الزمن. وفي قوله: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ تكميل للمعنىٰ المطلوب، أي: إنهم لا يستأخرون كما أنهم لا يستقدمون.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

وبعد أن أكمل السياق المشتمل علىٰ البيان المقرون بما يُرْهب المعارضين والمخالفين، ويُهيِّئ النفوس لسماع الإرشاد وسلوك سبيل الرشاد، عاد إلىٰ النصائح الهادية، وَوَعظ الناس بهذه الموعظة العامة العظيمة الشأن، التي هي الأصل لما تقدَّم من البيان، وهي اتِّباع الرسل والاستجابة لهم، كي لا يقعوا في المهالك، فقال: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى﴾ التي تُبصِّركم بالهدىٰ وتُبعدكم عن الضلال ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ثم فرّع علىٰ ما تقدم من البيان والتبيان، وعلَّل هذا الإنذار بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن أوجب علىٰ عباده ما لم يُوجبه الله، أو حرَّم عليهم ما لم يُحرِّم الله، وهؤلاء هم المحرِّفون لشرائع الله، وهم نوع من المكذِّبين، ثم ذكر النوع الثاني، فقال: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ المنزّلة ولم يؤمن بها، فلا جرم أن ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: ينالهم نصيبهم من العذاب، بحسب ما بيَّنه الكتاب المنزل في حقِّ أمثالهم، ومن ذلك ما ذكره تعالىٰ بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي: رُسُل الموت ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟﴾ لهم تنديماً مُشْرَباً بتهكُّمٍ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ ادْعُوهم ليُنْجوكم

أو يشفعوا لكم. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: ضلّ أمرهم عنا واشتبه علينا وظنناه هدىٰ، وقد كان الأمر إفكاً وضلالاً. وهذا الجواب يُشعر بيأس وندم عميق، ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ لما تبيَّن لهم الحق ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

أما حُكم الله تعالىٰ فيهم فقد ذكره بقوله: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: مع أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، وكان أمرها كأمركم، فادخلوا معها ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾، ثم فصَّل ما يجري حينئذ بينهم من التخاصم علىٰ هذا التوريط والتورُّط، فقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أي: لعنت اللاحقةُ السابقةَ علىٰ ما أضلَّتها باتِّباع الكفر، وورَّطَتْها في هذه الورطة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: إذا اجتمعوا وأدرك بعضهم بعضاً ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي: أهل كل عصر منهم لأهل العصر قبلهم، أو أُخرىٰ كُلِّ أمةٍ لأُولاها، أو السفلة والأتباع للقادة والرؤساء: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ عذاب ضلالهم وإضلالهم، ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: كلُّ صنف منكما يستحقُّ الضعف، ولكنَّكم جَهَلة لا تُدركون، أما القادة فلِما ذُكِرَ من الضلال والإضلال، وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم الأعمىٰ، رغماً عن أنَّ الله سبحانه طبعهم علىٰ الهدىٰ والإيمان، فكان ذلك لهم حالة يسرىٰ يسَّرها الله عليهم في أصل خِلقتهم، ثم أرسل لهم الأنبياء بالتعاليم الملائمة لهذه الطبيعة والباعثة لهم علىٰ الكمال الذي خُلِقُوا لأجله، ولكنَّهم حرَّفوا طبيعتهم بالتربية السيئة، وقلَّدوا رؤساءهم تقليداً أعمىٰ، من دون بصيرة ورويَّة. فهم في هذا الأمر لا يتميَّزون عن الأتباع في استحقاقهم ضَعْف البلاء.

وهذا مفاد قوله: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: تمايز وقلَّة قصور، لأنكم اتَّبعتمونا من غير رويَّة وتفكير، كما ضَلَلْنا نحن من غير رويَّة وتفكير، ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: أنَّ الكسب هو مدار العذاب

مهما كان سببه، وكلٌّ منهما قد اكتسب الإثم بصنعه وتقصيره رُغماً عن هدايته بالطبيعة والشريعة.

ثم ذكر نوعاً آخر من جزاء المكذِّبين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لأرواحهم بعد الموت كما تُفتَّح للمؤمنين، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وتقريراً لهذا النفي علّق الدخول بالمحال استبعاداً له وتمحيلاً، فقال: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي: ثَـقْبة الإبرة. والعرب تَضْرب المثل لما لا يكون بنحو قولهم: لا أفعله حتىٰ يشيب الغراب، وحتىٰ يبيضّ القار(١)، وحتىٰ يلج الجمل في سَمِّ الخياط. وهم يريدون بذلك أنهم لا يفعلونه أبداً. فالمراد هنا: أنَّ هؤلاء لا يدخلون الجنة بحال، ولا ينالون شيئاً مما ناله المؤمنون. ثم علّق علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وبعد أن ذكر حرمانهم من دخول الجنة، ذكر دخولهم جهنم وصورةَ عذابهم فيها، فقال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: أغطية من نار جهنم، وهذا تصويرٌ لإحاطة النار بهم، سجّلٍ وذيّـل عليه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾، وقد عبّـر عنهم بالمجرميـن تارة وبالظالـمين أخرىٰ، إشعاراً بأنهم ـ بتكذيبهم الآيات ـ اتَّصفوا بكل واحد من ذينك الوصفين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) هو شيء أسود تُطلَىٰ به الإبل والسفن. «لسان العرب» (قير).

ثم ذكر حال المؤمنين علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقبل أن يُبيِّن مصيرَهُم وما استفادوه من السعادة بهذا الإيمان والعمل، عجَّل بما ينبئ أنَّ هذه الأعمال الصالحة التي أدت إلىٰ السعادة الآتية ليس فيها كُلْفة فوقَ الطاقة، فقال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾، فأومأ سبحانه إلىٰ أنَّ أحكام الأعمال الصَّالحة المؤدية للسعادة الأبديَّة مقرونة باليُسر، وموضوعة بحَسَبه، فلم يضع الله حكماً خارجاً عن طاقة البشر ووسعه. والمراد من هذا البيان الـمُعَجَّل: ترغيبُ العامل، وتبكيتُ المُعْرض والمتراخي، وتنديمه بأنه لم يكلَّف كبيراً في سبيل هذا المصير العظيم والثواب الجزيل الذي ذكره بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه أن نعيمهم مُخلَّص من كل نغص، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾، وهو ما يكون من عداوةٍ أو حسدٍ في الدنيا، فلم يبق في قلوبهم أدنىٰ لوْثة منه، إذ لا يكون في تلك الدار وأهلها ما هو من أسباب تنغيص النعيم فيها. وهذا وما بعده مقابلٌ لما جاء في السياق عن الكافرين من ندمهم وتلاومهم وتلاعنهم وشقائهم في الجحيم. ولا شك أنَّ للموازنة بين الصنفين تأثيراً عظيماً علىٰ النفوس تُحرِّك فيها عوامل الرغبة والرهبة، فالضدُّ يُظهِرُ حُسْنَه الضِّدّ. فما أعظم هذا اللون من الوعظ والإرشاد.

ثم ذكر من نعيمهم العظيم أبرز صفاته، فقال: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهم في غرفاتِ قصورِهم، فشكروا الله علىٰ هذه النعمة، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي: للإيمان الصحيح والعمل الصَّالح الذي كان سبباً لهذا الجزاء العظيم والنعيم المقيم، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ إليه بأنفسنا ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إليه بالفطرة التي فَطَرنا عليها، وبالرُّسل الذين أرسلهم لإرشادنا إليه وتعليمنا لطرقه ووسائله، ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فهذا مصداقُ ما وعدنا من الجزاء علىٰ التوحيد والعمل الصالح، ﴿وَنُودُوٓاْ﴾ من قِبَل الله عزَّ وجل: ﴿أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وفي الآية دلالة واضحة علىٰ أن الجنَّة تنال بالعمل، وفي ذلك آيات وأحاديث كثيرة[١].

أما قوله ﷺ: «لن يُدخِلَ أحداً عَمَلُه الجنةَ إلا أن يتغمده الله بفضله»[٢]، فمحمول علىٰ أنَّ عمل الإنسان مهما كان عظيماً لا يُقابِل هذا الجزاء العظيم والنعيم المقيم لولا رحمة الله وفضله، وإنما مثله مثل مَنْ يعمل عملاً يستحق ديناراً فيُعطىٰ مئة ألف دينار فضلاً وكرماً[٣]. والظاهر أنه ﷺ قال ذلك بياناً للمتنطِّعين الذين عَزَموا أن يُواصلوا الصيام والقيام ويهجروا النساء، مثل عثمان بن مظعون[٤] وأصحابه، فبيَّن لهم أنَّ الله

---

(١) منها ما رواه البخاري (٣٥٢٧)، ومسلم (٢٠٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله، يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله، يا أم الزبير ابن العوام عمة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد اشتريا أنفسكما من الله، لا أملك لكما من الله شيئاً سلاني من مالي ما شئتما».

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦)، عن أبي هريرة.

(٣) كلام المؤلف رحمه الله يُشعِرُ بأنه يرىٰ أن الجنة تُنال بالعمل؛ بمعنىٰ: أن العبد يستحقُّ ثواباً من الله علىٰ عمله، إلا أن هذا الثوابَ المُستَحَقَّ دون الذي وعده الله به، فلهذا عَلَّقَ دخول الجنة في الحديث علىٰ الفضل لا علىٰ العمل.
وفي هذا مَيْلٌ إلىٰ مذهب المعتزلة بإيجاب الإثابة علىٰ الله تعالىٰ لعباده المؤمنين الطائعين. أما أهل السنة فمذهبهم أن الإثابة من أصلها محضُ فضل من الله، وأيُّ استحقاق للعبد وعملُه كلُّه - مهما بلغ - لا يجزي شكر نعمة من نعم الله تعالىٰ.
وما ورد من تعليق الثواب بالعمل فلأن الله تبارك وتعالىٰ جعل العمل سبباً لنيل الثواب، وبهذا يحصل التوفيق بين الأدلة.

(٤) من أجِلّة الصحابة، فتمثيلُه به لقوله فيما سبق: «للمتنطعين» مما لا يُوافقُ عليه.

سبحانه حدَّد حدوداً لما أراده منكم وتفضَّل عليكم في مقابلة ذلك بنعيم الجنَّة فضلاً منه وكرماً. وليس في الغُلوِّ زيادة لمستزيد.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ
حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا
عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟
أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ
قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ
عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟
ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟
عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ
يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه ما يكون بين أصحاب النار وأصحاب الجنة من المحاورة التي تزيد أهلَ الجنة عرفاناً بقيمة إنعام الله عليهم، وتزيد أهلَ النار حَسْرة وشقاءً بما فرَّطوا في جَنْب الله، فقال: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ﴾، وهذا النداء لا يقتضي قُرب المكان علىٰ ما هو معهود في الدنيا، فعالَـمُ الآخرة تغلب فيه الروحانيَّة علىٰ ظلمة الكثافة الجسديَّة، والروح ينعدم لديها الزمان والمكان، فيمكن للإنسان يومئذ أن يسمع من بعيد المسافات، ويرىٰ من أقاصي الجهات. وما ظهر الآن من المخترعات في تقريب التخاطب بين الناس من المسافات البعيدة والتواصل بينهم كذلك علىٰ نواميس طبيعية، يجعلنا نُدرك في الجملة علىٰ ضوئها أمر هذا النداء وأمثاله. والله أعلم.

وإنما لم يقل: (ما وعدكم) لأنه أرادَ به الوعدَ المُطْلَق الموجَّه في الدنيا إلىٰ الناس كافَّة، هو الجنَّة للمؤمنين والنار للكافرين.

وسؤال أهل الجنة هذا سؤال زُهو وتَـبَجُّح وافْتخار بحُسْن حالهم، وتَهكُّم وتذكير بما كان من جناية أهل النار علىٰ أنفسهم بتكذيب الرسل.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤)﴾ لأنفسهم بإفساد فطرتهم حتىٰ خرجوا بها عما يحفظ لهم سعادتهم إلىٰ ما أوقعهم في هذا البلاء المبين. والتأذين: رفع الصوت بالإعلام بالشيء. واللعنة: عبارة عن الطرد والإبعاد مع الخِزْي والإهانة.

ثم وصف هؤلاء الظالمين بما يلمح إلىٰ علَّة هذا الحكم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وهو بكسر العين: مختصٌّ بما ليس بمَرْئيّ، وبفتحها: مختصٌّ بالمرئيات، أي: يطلبون الطريق الـمُعْوج الذي لا يوصل إلىٰ السعادة، أو يَبْغُون لسبيل الله عِوَجاً، بأن يصفوها بالزيغ والميل عن الحق، ويكون المراد: إلقاء الشكوك والشُّبهات في دلائل الدين الحق، أو يجعلونها مُعوجَّة بتشويه سبيل الله بشوائب كثيرة مما اخترعوه، كالشِّرك وتحريم ما لم يُحرَّم وتحليل ما حَرَّم وغير ذلك، ويجوز أن يراد سائر هذه المعاني.

وأما قوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ (٤٥)﴾ فهو خاصٌّ بمنكري البعث من أولئك الظالمين، وهم شرُّ تلك الفرق. ويجوز أن يعمَّ الجميع؛ لأنَّ سائرهم لا يؤمنون بالآخرة علىٰ وجهها الصحيح.

ثم تابع الكلام عن أهل الجنة وأهل النار، وبيَّن موقفاً يكون قبيل الدخول، فقال: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أي: بين الفريقين ﴿حِجَابٌ﴾ أي: سور عازل، ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ منه، أي: علىٰ أعالي ذلك السور العازل ﴿رِجَالٌ﴾ واختار أبو مسلم أنهم ملائكة في صُورة رجال، يَرَوْن أهل الجنة وأهل النار جميعاً قبل الدخول فيهما، و﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ﴾

فتعرَّضوا لهم، ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تهنئةً لهم وتقريراً لأعينهم، ولو ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ بَعدُ ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ في دخولها، مُترقِّبون لصدور الأمر بذلك. ويحتمل أن يكون هذا حديثاً عن أصحاب الأعراف، أو عن أهل الجنة والذي يقول بالثاني يرىٰ أنَّ رجال الأعراف هم عُدول الأمم والشُّهداء علىٰ الناس.

ثم تابع الكلام عن أصحاب الأعراف، فقال: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: أبصار رجال الأعراف ﴿تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا﴾ متعوِّذين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ لأنفسهم، حيث حرموها بتدسيتهم لها من السعادة الأبدية، وأوقعوها بهذا الشقاء المديد. وهذه الجملة للإشعار بما لهم من هول شديد وعذاب أليم.

وقال غير أبي مسلم من المفسِّرين: إنَّ أصحاب الأعراف رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم، يَطْمعون في دخول الجنة ويهنئون أهلها ويستعيذون من النار ويخشونها. فهذه أقوالٌ ثلاثة في رجال الأعراف.

ثم تابع البيان عن أهل الأعراف، فقال: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ من مُسْتحقِّي النار ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾، و﴿قَالُوا﴾ لهم مُؤنِّبين ومُندِّمين: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ من المال ﴿وَ﴾ لا أغنىٰ عنكم ﴿مَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وتَعتزُّون به في الدنيا علىٰ ضُعفاء المؤمنين من القوة والمَنَعة والعصبيَّة.

ثم زادوا في تبكيتهم وقالوا لهم مشيرين إلىٰ أولئك المستضعفين، وهم مُنعَّمون في الجنَّة أو مُترقِّبون لصدور الأمر بهم إليها: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ في الدنيا أنهم ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، وهذا هو مُؤدَّىٰ مثل قوله تعالىٰ: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]. ومؤدَّىٰ مثل قوله تعالىٰ: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. والله أعلم.

ويجوز أن يراد بالقسم: شدَّة الإصْرار، أو أن تكون المقالة علىٰ حقيقتها وصريحها، قد كانوا يقولون للمؤمنين: إنكم مخدوعون ومحمد ساحر خدَّاع، فَقَوْلُ أصحاب الأعراف لهم هذا القول إنما هو علىٰ طريقة التَّهكُّم والتنديم والتعريض والتذكير بما كانوا يعتقدون ويقولون ويفعلون.

ثم يهنئون هؤلاء المستضعفين من المؤمنين بقولهم لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ وقال بعض المفسِّرين: إنما هذا هو أمر وإذن لهم من قبل الله تعالىٰ بدخول الجنة، ﴿وَ﴾ بعد أن استقرَّ بكل من الفريقين القرار: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أي: قلبوا حقيقة الدين وجعلوه صُوراً ورُسوماً لا تُزكِّي نفساً ولا تُطهِّر قلباً ولا تُهذِّب خُلقاً ولا تُصلح فاسداً، وسلخوه عما وضعه الله سبحانه طبقاً لذلك.

ثم ألْـمَعَ إلىٰ ما دفعهم إلىٰ هذا العمل، وهو الإفراط في جانب الدنيا، فقال: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، ثم وصل سبحانه حكايةَ قولهم بحكمه عزّ وجلّ، وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: نفعلُ بهم ما يفعل الناسي بالمَنسِيّ، وهو عدم الاعتداد بهم وتركهم في النار تركاً مؤبَّداً ﴿وَ﴾ ذلك من جرّاء ﴿مَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾. وكلمة ﴿مَا﴾ مصدرية.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

وبعد البيان عن مصير هؤلاء المكذِّبين الرهيب، دعاهم إلىٰ الإيمان وقد تهيَّأت نفوسُهم بهذا الإيقاف والتَّبْصير وسَبَك الكلام علىٰ التوعُّد، وعلىٰ بيان وجْه آخر من المصير إن لم يؤمنوا، فقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ بما يحتاج إليه البشر لتزكية نفوسهم وتكميل فِطَرِهم وسعادتهم في معاشهم ومعادهم، فجعلناه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾، وبيَّنا لهم فيه مصيرهم إن لم يؤمنوا، أفلا يؤمنون ليُسلموا من الهَوْل العظيم؟

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: ما يَؤُول إليه ويَتَحقَّق به وعده ووعيده من وقوع أمر البعث والحساب والجزاء كما ذكر، فإنه ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: تركوه في الدنيا كالمنسيّ فلم يهتدوا به، يقولون حينئذٍ مظهرين ندمهم لما انكشف لهم الأمر: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فعارضناهم ولم نهتد بهديهم، ﴿فَهَل لَّنَا﴾ الآن ﴿مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيتمنَّون الخلاصَ بكلِّ وسيلة يتصوَّرونها حسب عقليتهم وانطباعاتهم. وهذا التَّمنِّي مَظْهَرٌ من مظاهر الندم العظيم واليأس العميق.

وقد سجَّل عليهم سبحانه بما فيه تنديمٌ لهم وتحسير، ونعىٰ عليهم فقال: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ علىٰ الله من الوسطاء الذين يزعمون أنهم يُقرِّبونهم إليه زُلفىٰ، ويشفعون لهم عند الله. فما أشدَّ هول هذا الموقف الرهيب! وما أعظم هذا الإرشاد والتأديب!

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا

تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

ثم قفّىٰ علىٰ الآيات التي توعَّدهم فيها علىٰ الشِّرك بالآيات التي تدلُّ علىٰ استحقاقه سبحانه للألوهية وحده، وعلىٰ قدرته البالغة التي لا يعجزها شيء عن إنجاز وعده ووعيده، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ليس المراد من هذه الأيام: أيام الأرض التي يُحدُّ ليلُ اليوم ونهارُه بأربع وعشرين ساعة. فإن هذه الأيام إنما وجدت بعد خلق الأرض ضمن النظام الشمسي الذي هو من جملة خلق السماوات والأرض، وإنما يراد بها ـ والله أعلم ـ أطوار ستة مرَّت بها السماوات والأرض في مدَّة تكاملها وتكوُّنها علىٰ هذه الصورة، كأن كانت دخاناً ثم ماء ثم صار بعضها غازاً وبعضها ناراً وبعضها يابسة، ثم استعدَّت الأرض بعد البرودة واليَبَس لوجود النبات والحيوان فيها مثلاً، وهكذا والله أعلم، فإن اليوم في اللغة هو الزمن الذي يمتاز عن غيره بعمل أو أثر يكون فيه. فأيام الله تعالىٰ التي أمر موسىٰ أن يذكِّر قومه بها هي أزمنة نعمه عليهم، أو أزمنة استئصال الأمم المعارضين، كقوم نوح مثلاً.

ويؤيد هذا الرأي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، فقد أكمل خلقها سبحانه في هذه المدة، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[1] يدبِّر أمر هذه السموات والأرض

---

(١) مذهب السلف: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسه وسمَّىٰ بها ذاته في كتابه وتنزيله، أو علىٰ لسان رسوله من غير زيادة عليها ولا نقصان منها، ولا تجاوز لها ولا تشبيه لها بصفات =

وأمر مَنْ فيهما ويسيطر عليهما، وهو مستعار من حالة الـمَلِكَ يُدبِّر أمر مملكته بعد تكوينها واستقرارها، ويسيطر عليها، علىٰ نهج القرآن في استعارة المعنىٰ الذي يسند إلىٰ الله تعالىٰ من حالة المخاطبين، تقريباً للأفهام، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة)، فإن الله سبحانه وتعالىٰ يُخاطب الناس في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم.

وجاء في «دلائل الإعجاز»(١): أنَّ بعض المفسِّرين توهَّموا في الألفاظ الموضوعة علىٰ الـمَجَاز أو التَّمثيل أنها علىٰ الحقيقة أو علىٰ ظواهرها، فأفسدوا المعنىٰ وأبطلوا الغرض، ولم يُوفَّقوا لِـمَا هو المقصود، وما به يراد(٢).

وقال أبو مسلم: العرش: مصدر من قولهم: عرش يَعرِشُ عَرْشاً، بمعنىٰ: بنىٰ، فإنَّ كلَّ بِناء يسمىٰ عَرْشاً، وبانيهِ يُسمَّىٰ عارشاً، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] أي: يبنون، وقال في صفة القرية: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢]. والمراد: إنَّ تلك القرية خلت منهم مع سلامة بنائها وقيام سقوفها. فعلىٰ قول أبي مسلم هذا يكون معنىٰ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: ثم أشرف علىٰ بنيان السماوات والأرض، يدبِّر

= المخلوقين، ولا سمات الـمُحْدَثين، ولا تفسير لها ولا تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أمرُّوها كما جاءت، وردُّوا علمها إلىٰ قائلها، وفوَّضوا معناها إلىٰ المتكلِّم بها، وهو الله سبحانه وتعالىٰ. ومن ذلك ما جاء عنه تعالىٰ من المجيء والنزول واليد والوجه والاستواء علىٰ العرش، فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثبات الصفات وإجراؤها علىٰ ظاهرها، ونفي الكيفية عنه؛ لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، وإثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفيَّة، فكذلك إثبات الصفات، إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]. ومذهب الخلف: تأويلها بمعان تلائمها بحسب عرف اللغة وأساليب التخاطب. (المؤلف).

(١) للجرجاني.

(٢) «دلائل الإعجاز» ص٣٠٥.

أمره وأمر مَنْ فيه بعد إيجاده؛ وفيه استعارةٌ من حالة المخاطبين أيضاً. وهذه العبارة وأمثالها يعبّر بها القرآن لتحقُّق الوجود والثبوت والعظمة لله تعالىٰ في الأذهان بصُورة تتناسب مع تَصُوُّرات الإنسان، فيعبِّر عن المعقول بصورة المحسوس.

ثم ذكر أثراً محسوساً من آثار تدبير ذلك البنيان، فقال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾[١] أي: جَعَل الليل يُغَطِّي النهار ويَسْتره و﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: سريعاً بسرعة دوران الأرض اليومي، ﴿وَ﴾ ذلك لأنه سبحانه جعل ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ في نظام عظيم محكم الضبط والإتقان ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ تعالىٰ وتدبيره، ثم أجمل الكلام ومَحَّض النتيجة من تلك المقدمات بقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فلا مثيل له في تنظيم خلقه وإحكام صنعه، وتدبير أمره وإتقان تشريعه، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: تَكَاثَر خَيْرُه وتَعَالىٰ شأنه. وقد أشار سبحانه بقوله: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ إلىٰ أنَّ شريعته في الإتقان كنظامه في الأكوان.

وبعد أن بيَّن سبحانه قدرته العَلِيَّة واستحقاقه وحده للألوهيَّة، أمرهم بما يكون لازماً لذلك، وهو إفراده تعالىٰ بالعبادة والدعاء، فقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: في هذه الحال، وفي هذه الحال. والتضرُّع: الابتهال إلىٰ الله تعالىٰ، ولا يكون إلا بصُورة الجَهْر. والخُفْيَة[٢]: الإسرار، أي: ادعوه جهراً وسراً. ولا تعتدوا في الدعاء بتوسُّط

---

(١) يجوز أن يكون في الكلام اكتفاء؛ علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، والتقدير: ويغشي النهار الليل بطلب كلٍّ منهما الآخر حثيثاً. ويؤيِّد الاكتفاء آيتا التكوير والإيلاج في قوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، وقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]. وهذا الإحثاث من الحِكَم البالغة، إذ لو تراخىٰ أكثر من ذلك لاختلَّ أمر الحياة في الحيوان والنبات، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ * عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٨-٩]، وعلىٰ تقدير عدم الاكتفاء، رُوعي أنَّ الظلام هو يستر الضياء. (المؤلف).

(٢) لا يبعد أن يراد بالخفية: الدعاء لا باللسان، ولكن بتوجُّه القلب إلىٰ الله، وتعلُّقه به وحده، وقَصْر=

أحد والتوجُّه لغيره، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: مُتجَاوزي الحدود في كلِّ شيء.

ومن الاعتداء في الدعاء: المبالغة في رفع الصوت، والطلب غير المشروع، والطلب الذي لا يقترن بالوسائل الطبيعية، كطلب النصر علىٰ الأعداء دون استكمال الأسباب، وطلب الغنىٰ بلا سَعْيٍ للكسب، وطلب المغفرة مع الإصرار علىٰ الذنب؛ لأن سُنن الله سبحانه في الأسباب والمسبَّبات لا تبدَّل ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، وشر الاعتداء في الدعاء: التوجُّه إلىٰ غير الله فيه، ولو ليشفع له عنده(١).

﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعمل ضائرٍ ولا بحُكْمٍ جائرٍ مما ينافي صلاحَ الناس في أنفسهم وعقولهم وعقائدهم، ومن ذلك: نشر الشرك، فلا تفسدوا فيها ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ الذي خلقها الله عليه طاهرة نقيَّة من كل فساد.

ثم أعاد الأمر بالدعاء الذي يشمل العبادة مَصْحُوباً بما يردع عن الإفساد في الأرض، وهو الخوف من عقابه والطمع برحمته وإحسانه، فقال: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فذلك هو الإحسان في الدعاء الذي يحبُّه الله، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾. وجاء في الحديث: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله سبحانه لا يستجيب لدعاء من قلب غافل لاهٍ»(٢).

= ما لَهُ عليه راجياً أن يعطيه ما أراد، أو ينقذه من بؤسٍ أصابه من نفسه أو من العباد، والله أعلم. ويجوز أن تكون الواو لمطلق الجمع لا للتنويع، والمراد: الجمع بين القلب واللسان في الصلوات والدعوات، وهذا هو الأولىٰ بالمراد، ومن الاعتداء: الدعاء من غير الله، ولو بطريق التقرب إلىٰ الله، والدعاء دون معاطاة الأسباب. (المؤلف).

(١) إلا علىٰ الوجه الوارد في السنة الصحيحة، كحديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه عند الترمذي (٣٥٧٨) وغيره.

(٢) رواه الترمذي (٣٤٧٩) وقال: حديث غريب، والحاكم (١: ٦٧٠) وقال: هذا حديث مستقيم=

وقال ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»[١].
والمراد من الإحسان: الإحسان في أعمالهم، إذ الإحسان مطلوبٌ في كلِّ شيء، يهدي إليه الدِّين وروحه وقواعده الكليَّة، وإجابة الدعاء مَرْجُوة متىٰ استكملت شرائطها وآدابها، فإن لم تكن بإعطاء الداعي ما طلبه، فربما كانت بما يعلم الله أنه خير له.

ثم عقَّب سبحانه السياق الذي تَضَمَّن الوعدَ والوعيدَ بدليل حكمته ومنَّته وقدرته علىٰ الحشر والحساب، وذكَّرنا سبحانه وتعالىٰ بشيءٍ من رحمته في إنشاء السَّحاب وإحياء الأرض بالنبات، ليعيشَ عليها الإنسان والحيوان، وما في تكوين ذلك من حكمة وقدرة وإبداع، إيذاناً باستحقاقه وحده أن يُدعىٰ ويُلتجأ إليه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾ أي: مُبشِّرات ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ حيث تُثير الأعاصير من البحار، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: حَمَلته وسَارَت به ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: مكان لا نبات فيه أو جديب، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ علىٰ اختلاف أنواعها.

ثم استطرد إلىٰ ما في إحياء الأرض بالنبات بعد موتها باليَبَس، من الدلالة علىٰ القدرة علىٰ البعث والمشابهة له، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾، وهذه دعوىٰ متضمِّنة للدليل، علىٰ طريقة تشبيه النظير بالنظير، فإنَّ إخراج الموتىٰ من الأرض كإخراج النبات منها، كلٌّ منهما يجري علىٰ سنن طبيعية مؤدية إليه، والذي يَقْدِرُ علىٰ هذا يقْدِر علىٰ ذلك لو أنكم تتفكَّرون وتتذكَّرون.

= الإسناد تفرد به صالح المري و هو أحد زهاد أهل البصرة و لم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي، عن أبي هريرة.

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة وضي الله عنه، ورواه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فاللهُ سبحانه يُجلِّي لنا زمنَ الحشر ويوضِّحه بتشبيهه بزمن الربيع، فكما أنَّ أيام الربيع تختصُّ بالإنعاش والإحياء للنبات، بحيث لا يكون له مثيل في أيام الصيف المحرقة ولا في أيام الشتاء القارسة، ولا نستغرب ونستنكر علىٰ الربيع ما يأتي به من عجائب في إنبات النبات إذا جاء، كذلك زمن الحشر يغاير هذه الأزمان بطبيعته وإنعاشه، فهو يُحيي الأجسام الإنسانية كما يُحيي الربيع النبات. فالذي يكون في ذلك لا يتعجَّب من طبيعته لإحياء الأموات، كما لا يتعجَّب الإنسان من إحياء الربيع للنبات وإنعاشه له. ولو فرض أنَّ الزمان كلَّه صيف مُحْرِق أو شتاء قارس فقط، لم يخطر ببال أحد أنه يمكن أن يكون زمان من الأزمان ينعش النبات هذا الإنعاش، ويحييه هذه الحياة، فكذلك لا يخطر ببالنا، ولا نقدر الآن أن نتصوَّر زمان إحياء الأموات، لأنه يأتي مرةً واحدة بعد انقضاء زمن هذه الحياة ملائماً لتلك الحال، والله أعلم. لذلك يُجلِّي لنا القرآن العظيم أيام البعث والنشور بما نعرفه من أيام الربيع وإحياء النبات بعد يبْسه، كلَّما ذكر إحياء الأرض بالنبات بعد يبسها ويشبهه به.

ثم سَاوَقَ الموضوع بما يتَضَمَّن مَثَل المؤمن والكافر، والبَـرِّ والفاجر، وما يَنجُم عنهما من الأعمال، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الكلام عنهما بضَرْب الأمثال لهما أحياناً، وقد ضمَّنه هنا معنىٰ كنائياً، وجَعَل المعنىٰ القريب تَتْميماً لإنزال الماء وإنبات الثمرات، والمعنىٰ البعيد تمثيلاً لمن تمسَّك بالشريعة واستفاد منها لمحافظته علىٰ سلامة طبيعته، ومَنْ أعرض عنها لإفساده لها، فقال: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي: المكان الكريم التربة ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: بتيسيره وسُننه في كونه، ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ من البلاد والأماكن، كالأرض السَّبِخة[1]، ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباتُه ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: بعسر وصعوبة، فيكون قليلاً عديم النفع رديئاً.

---

(١) السَّبخَة: الأرض تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر. «لسان العرب» (سبخ).

ثم نبَّه إلىٰ مكانة ما سَبَق من العلم والهداية، وخصَّ بالتنبيه من لم يفسد فطرته، وهم المؤمنون، وعَنْونهم بالشكر تقريراً لإيمانهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ نِعْمةَ الله تعالىٰ، فيتفكَّرون فيها ويعتبرون بها، ويحافظون عليها. وشكره تعالىٰ: إنما يكون بامتثال أوامره.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

ثم أردف هذا السياق المشتمل علىٰ الدعوة إلىٰ التوحيد وإنكار الشرْك بمصير المؤمنين والمشركين، وذلك بقصص الأنبياء مع أُممهم التي لم تؤمن بهم، وما أصابها من عذاب الاستئصال، ذكره بعد أن مهّد له في السياق السابق بقوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ...﴾ [الأعراف: ٣٥]، وجعلها كالتعليق عليه، وقصَّ خبر الأنبياء المشهورين في الأمة العربية؛ لأنها هي المُخاطَبَةُ أولاً بهذه الشريعة والـمُنْتَدَبَةُ لنشرها بين الأمم، فوضع ما أصاب المعارضين لأنبيائهم أمام أعين المكذِّبين بمحمد ﷺ تحذيراً وإنذاراً، فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ﴾ وناداهم بهذا العنوان استمالةً لما أمرهم به بقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ لأن أفعال الألوهية وصفاتها مقْتصرة عليه، وزيادة ﴿مِّنْ﴾ لتأكيد النـفي وعمومه، ثم علَّل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ : ينذرهم عاقبةَ شركهم، وإعراضِهم عما جاءهم به نبيُّهم.

ثم حكىٰ ما أجابوه به بقوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ وهم أشراف القوم ورؤساؤهم الذين يملؤون العيون رُواءً بما يكون عادة من تأنُّقهم بالزيِّ الممتاز، قالوا له معارضين دعواه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ أي: في دعواك هذه. وصيغةُ الجواب تُشْعر بالعُنف والغِلْظة، أي: إنك ضالٌّ ضلالاً بيِّناً، بنهيك إيانا عن عبادة وَدٍّ وسُواعٍ ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْر؛ الذين هم وسيلتنا وشفعاؤنا عند الله تعالىٰ، يقبلنا ببركتهم ويُعطينا سؤالنا بوساطتهم لِـمَا كانوا عليه من الصلاح والتقوىٰ. ونحن لا نرىٰ أنفسنا أهلاً لدعائه والتَّوجُّه إليه رأساً.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ فأعادَ عليهم هذا العنوان: يا قوم، للإشعار بأنه لا يُريد لهم إلا الخير الذي يريده لنفسه، لأنهم قومه.

ثم أردف النفي والإنكار بهذا الاستدراك فقال: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ إليكم ليهديَكم سبيل الرشاد، فأنا ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾، والجمع باعتبار تعدُّد المواضيع التي أهمها التوحيد والإيمان بالرسل وباليوم الآخر. أي: فأنا أبلِّغكم هذه الرسالات، ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أن تتَّبعوها. وإنما أتىٰ باللام مبالغة في إمحاض النُّصح المعزَّز بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: إني علىٰ علم من الله أوحاه إليَّ لا تعلمون منه شيئاً، فإذا نَصَحْتُ لكم فإنما أنصح عن يقين.

ثم ردَّ عليهم إنكارهم علىٰ رسالته الذي تضمَّنه قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ وموعظةٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ﴾ لسانِ ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ عاقبة كفركم ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ ما يُسخط ربكم من الشِّرك، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: وليعدّكم لرحمة ربكم المرجوَّة لكلِّ من أجاب الدعوة.

وفي قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ بيان لشبهتهم علىٰ الرسالة، وهي أنَّ الرسول كيف

يكون بشراً مثلهم؟ فكأنهم كانوا يَـرَوْن أنَّ الاشتراك في البشريَّة والصفات العامة يقتضي التساوي في جميع الخصائص والمزايا، ويمنع الانفراد بشيء منها. والمشاهدة أكبر برهان علىٰ بطلان هذه القضية، فالتفاوت في الغرائز والصفات الفاضلة، والاختلاف في القوىٰ العقليَّة والمعارف والأعمال الكسبيَّة جِدُّ عظيمٍ في البشر، وليس في أنواع الحيوان ما يشبه الإنسان في مثل هذا التفاوت، ولو فُرِضَ التَّساوي أيضاً في نوع الإنسان فهل يمنع ذلك أن يختصَّ اللهُ بعضَ عباده بما هو فوق المعهود من الغرائز والمكتسبات، كلا، بل هو علىٰ كلِّ شيء قدير، يزيد في الخلق ما يشاء، وقد قَضَت به مشيئته ونَفَذتْ به قدرته.

ثم ختم القصَّة بما كان من تكذيب قومه له، وما أصابهم من عذاب الاستئصال بالغرق، فقال: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي: شديدي العَمَىٰ غير مُسْتَبْصرين، وذلك بإفسادهم لفطرتهم حتىٰ انطبعوا علىٰ الضلال وأصبحوا لا يُبْصِرون الحقَّ وإن كان جلياً، ولا تَتوجَّه بصائرهم إليه. وقدَّم ذِكرَ التَّنجية علىٰ ذكر الإغراق، تعجيلاً بالتأنيس قبل تَسرُّب الخوف إلىٰ المؤمنين، علىٰ نهج القرآن في مثل هذا النظر والبيان. وقد جاءت القصة مفصَّلة في سورة هود.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى
وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟
ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ

رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٖ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

ثم عطف علىٰ قصة نوح وقومِه قصةَ هود وقومِه لنفس الغرض، وهو أن يعتبر المشركون بمصير هؤلاء الأمم المكذِّبين للرسل، فقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: أحد أفراد عشيرتهم.

قال في «المنار»: إنَّ الله سبحانه يرسل الرسول من قومه ليفهموا عنه، حتىٰ إذا ما استعدَّ البشرُ للجامعة العامة أرسل الله خاتم الرسل إليهم كافَّة، وفَرَض عليهم توحيدَ اللغة لتوحيد الدِّين الذي أريد به توحيدُ البشر وإدخالُهم في السِّلم كافَّة أجمعين[1].

ولما أرسل الله هوداً إلىٰ قومه دعاهم إلىٰ التوحيد و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ لأن أفعال الألوهية وصفاتها مقتصرة عليه، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ما يُسْخطه من الشِّرك والمعاصي، وعذاباً مثل عذاب قوم نوح. وقد جاء في سورة هود: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]. فيجوز أن يكون قال لهم هذا وذاك في وقت واحد، أو كان يقول لهم هذا مرَّة وذاك أخرىٰ، أو يكون من تنويع البيان في بلاغة القرآن تعبيراً بما يناسب السياق.

ثم حكىٰ سبحانه ما أجابوه به، فقال: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ أي: خفَّة عقل، ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ في دعوىٰ الرسالة عن الله.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ولا يختار

(١) تفسير «المنار» (٨: ٤٤١).

سبحانه لرسالته إلا أهلَ العقل الراجح والحِلْم الواسع، وقد جئتكم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ علىٰ ما أذكره لكم عن الله تعالىٰ.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وموعظة ﴿عَلَىٰ﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ من بأس الله أن يُحيط بكم إذا أصْرَرْتُم علىٰ المعارضة والشرك. وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم بمثل هذه الإجابة الصادرة عن الحكمة، والإغْضَاء عما يصفونهم به من السَّفاهة والضلال، أدبٌ عال وخُلقٌ عظيم، وتعليمٌ للعباد كيف يجب أن يُقابلوا السُّفهاء ويغضُّوا عن قالة السوء.

ثم ذكَّرهم بنِعَم الله عليهم تحسيساً بواجب الشكر بامتثال أوامره وحَمْلاً علىٰ الإيمان، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، وفي هذا تعريضٌ وتحذيرٌ لهم مما وقع لقوم نوح من العذاب وإيماء إليه.

ثم تابع الكلام علىٰ النِّعم، فقال: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي: زيادةً في القوة والمعرفة، وسَعَة في الملك والحضارة والاستيلاء، ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: اذكروا نِعَمَ الله هذه واشكروها له باتِّباع أوامره لعلكم تفوزون بما أعدَّه للشاكرين.

هذا ما قاله لهم نبيُّهم وما وَعَظهم به، ولكنهم أعرضوا وتَعنَّتوا و﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ باتِّخاذ الشفعاء عند الله، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ به من العذاب علىٰ عدم الإيمان بما جئتنا به، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ في إنذارك، يستخفون بوعيده لهم ويستهزؤون.

﴿قَالَ﴾ لهم هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ بإصْراركم علىٰ العِنَاد والكفر. قال الزمخشري ما معناه: إنَّ الرجس هنا: العذاب علىٰ

الشِّرك(١)، وسُمّيَ بهذا الاسم لأنه جزاء ما استعير له الرِّجس، وهو الشرك. وقال غيره: الرجس: الاضطراب، ومثله: الرِّجْز.

ثم بكَّتهم بقوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ أي: ما نزَّل الله بها من حُجَّة ولا برهان يُصَدِّق زعمكم بأنها تُقَرِّبكم إلىٰ الله زُلفىٰ. وفي هذا زيادةُ بيان في التجهيل والبطلان، وإيماءٌ إلىٰ أنَّ الحق لا يثبت إلا بالبرهان.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أي: العذاب الذي طلبتموه بقولكم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾ ولكنِّي مُوقنٌ وأنتم مُرتابون، وجادٌّ وأنتم هازلون.

ثم بيَّن سبحانه مصيرَ هود عليه السلام ومصيرَ قومه هؤلاء، فقال: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من المؤمنين ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ﴾ بها ﴿مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾، وذلك حيث استأصلهم بريح تُدمِّر كلَّ شيء بأمر ربها، فأصبحوا لا يُرىٰ منهم إلا مساكنهم، وكذلك يجزي الظالمين.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾.

ثم عطف علىٰ قصة هود قصةَ صالح كذلك، فقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ

---

(١) انظر «الكشاف» (٢: ١١٨)، و(٣: ٤٥٣).

قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ لأنَّ أفعال الألوهية وصفاتها مقتصرة عليه، وفوق ذلك ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: آية كونية عظيمة القدر ومعجزة ظاهرة الدلالة علىٰ صحَّة رسالتي منه تعالىٰ، وقد بيَّنها بقوله: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، وأضافها إلىٰ اسمه تعالىٰ؛ تعظيماً لأمرها، لما امتازت به من خِلْقتها علىٰ غير السنَّة الطبيعيَّة، وَفْقاً لما طلبوا. وقد أمرهم الله تعالىٰ فيها بقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

ثم ذكَّرهم بِنِعَم الله عليهم تحسيساً لهم بها لعلَّهم يرجعون عن غيِّهم، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ وفي هذا إيماءٌ إلىٰ عذابهم وتحذيرٌ لهؤلاء من مثله.

ثم تابع التذكير بالنعمة، فقال: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مَكَّنكم في أرضكم، وهي الحِجْر بين الحجاز والشام، آمنين رافهين مطمئنين ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ ونِعَمَه عليكم، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ بتبديل الشكر بالكفر. وعَثَىٰ بمعنىٰ: أفسد. فالآية تذكِّرهم بما أنعم الله عليهم من الحضارة والعمران والقوة والبأس والعلم والصناعة، ولاسيما في فنِّ الهندسة والبناء، وتدعوهم إلىٰ شكر الله علىٰ هذه النِّعم.

ويجوز أن يراد من نحت الجبال: تعبيد الطرق فيها ليتهيَّأ البناء والسكن عليها، أو المراد: نحت الصخر منها لبناء البيوت. وفيه ذِكْرُ المسبَّب وإرادةُ السبب، أو ذِكْرُ المحل وإرادة الحالّ.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ

رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من عُتوّ الكافرين منهم وعنادهم وجدالهم مع المؤمنين، فقال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ﴾ وهم الرؤساء والأشراف المتجبِّرون ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: من قومه، وهو يدل عما قبله أيضاً.

قال في «المنار»: مضت سُنَّةُ الله تعالىٰ بأن يسبق الفقراء المستضعفون من الناس إلىٰ إجابة دعوة الرسل واتِّباعهم، وإلىٰ كل دعوة إصلاح، لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تبعاً لغيرهم، وأن يكفر بها الملأ أكابر القوم المتكبِّرون والأغنياء المُترَفون؛ لأنه يشقُّ عليهم أن يكونوا مرؤوسين، ويخضعوا للأوامر والنواهي التي تُوقف شهواتهم عند حدود الحقِّ والاعتدال(١). لذلك قالوا للمؤمنين تهكّماً واستخفافاً: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾، وصيغة الجواب هذه من المؤمنين تُشعر بأنَّ إيمانهم صادق مُتكوِّن من علم اليقين.

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: تمرّدوا عليه، ﴿وَقَالُوا﴾ تهكّماً واستخفافاً: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ به من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة ﴿فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: خامدين موتىٰ لا حراك بهم.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ بأمرٍ من الله ونجاةً له إثر ما شاهد ما جرىٰ عليهم، ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾، وفي صيغة الكلام تأسُّف وتحزُّن عليهم، لعَدَم إيمانهم الذي جرَّهم إلىٰ البلاء في الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير «المنار» (٨: ٤٤٨).

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

ثم عطف علىٰ قصةِ صالح قصةَ لوط، فقال: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾، والاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: أتفعلون الفِعْلة البالغة منتهىٰ القبح والفحش. ثم بالغ في التأنيب بقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، و﴿مِنْ ﴾ الأولىٰ مزيدة لتأكيد النفي وإفادة معنىٰ الاستغراق، و﴿مِّنَ ﴾ الثانية للتبعيض والبيان. والجملة مَسُوقَةٌ لتأكيد النكير. والمعنىٰ: أنتم أوّل من ابتدعها. ولذلك اشتقَّ لها العرب اسماً من لوط، وهي اللواطة؛ المبيِّنة بقوله: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾، وصورةُ التعبير تشير إلىٰ بهيميَّة هذه الفِعْلَة في الحطَّة، وأنها خارجةٌ عن مُقْتضىٰ الفطرة والتعقُّل، وما اشتملت عليها الغريزة من الحكمة في النساء، وهي بقاء النوع. لذلك أسند الإسراف إليهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أي: متجاوزون في الفُحش والدناءة لحدود الطبيعة والفطرة والحكمة فيها إلىٰ تصرُّف سفيل.

ولما آلمهم وأخزاهُم عَمَدوا إلىٰ السَّفاهة، دَأْبَ أمثالِهم عندما يُفْحَمون، واحْتجُّوا بحُجَّة زادتهم خِزْياً وشَناعة، وذلك ما حكاه عنهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾، وقد سَجَّل عليهم هذا الجوابُ الخزْيَ والعارَ في العقل والذوق والأخلاق. وعلىٰ هذه الوتيرة ما يقوله الفَسَقة إذا وَعَظهم أحد الصُّلحاء: ليبعد عنا هذا المتقشِّف، ولْيُرِحْنا من زهده وبرودته.

وضمير ﴿أَخْرِجُوهُم ﴾ يعود إلىٰ لوط والمؤمنين به، وكلمة ﴿يَتَطَهَّرُونَ ﴾ كلمة استهزاء منهم أو تعريض بهم وبنجاستهم وسفالتهم.

ثم ذكر ما كان من أمره وأمر قومه، وقال: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي: من الهالكين؛ لأنها لم تؤمن، ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ من الحجارة الـمُهلِكة، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾. وهذا الخطابُ عام في الأمر بالنظر والاعتبار لكلِّ من يسمع القصة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

ثم عطف علىٰ قصة لوط قصة شعيب، فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ لاقتصار أفعال الألوهية وصفاتها عليه، و﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: معجزةٌ واضحةٌ علىٰ صدق رسالتي إليكم، ولم تُذْكَرْ معجزتُه في القرآن، كما لم تُذْكَرْ أكثر معجزات الأنبياء. وقد قال نبينا ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي ما مِثْلُهُ آمن عليه البشر»(١). أو المراد بالبيِّنة هنا: ما آتاه الله من النبوَّة والحكمة والتَّشريع. إذ البيِّنة ما يتبيَّن به الحق فتشمل المعجزات الكونيَّة والبراهين العقليَّة، والتعاليم الدينية الإلهيَّة. وشُعيبٌ نبيٌّ من أنبياء العرب.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢)، عن أبي هريرة.

ثم أردف الدعوة إلىٰ التوحيد ببيان بعض الأوامر والنواهي، وقال: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ إذا بعتم، ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ إذا اشتريتم. وإنما خصَّ هذا بالذكر من بين سائر شؤونهم الرذيلة؛ لأنه كان فاشياً فيهم ومعروفين به، كما كان الأمر السابق في شأن قوم لوط. والبخس أعمُّ من نقص المكيل والموزون. فإنه يشمل التلاعب في المُسَاومات والغش والحيل التي تنقص بها الحقوق. ويشمل بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل.

ثم نهاهم عن سائر أنواع الفساد، فقال: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ أي: بعد أن جعلها الله صالحةً بكلِّ ما فيها، تفسدونها بإفساد الدين والأخلاق، وإفساد العمران بأكل أموال الناس بالباطل والبغي والعدوان.

ثم ختم الدعوة بما يحثُّ عليها، فقال: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: امتثالُ ما أُمِرتم به وتَرْكُ ما نُهِيتُم عنه، ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ في دينكم ودنياكم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: إنْ كنتم عازمينَ علىٰ الإيمان. وهذا الشرط لزيادةِ الحثّ علىٰ التمسُّك بما دعاهم إليه.

ثم تابع النهي، فقال: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾ أي: بالشر كُلَّ مَن يريد أن يتبعني، ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي: تبغون الشريعة أن تكون معوجة حسب مواصفاتكم وتقاليدكم، أو المعنىٰ: تريدون بتمويهكم وتضليلكم أن تُصوِّروا شريعتي مُعْوَجَّة، إذ تصفونها بالزيغ والميل عن الحقِّ وتشكِّكون الناس فيها.

وتوضيح المعنىٰ: أن من سُنَّة الله في خلق البشر وطباعه أن يكون الأبعدُ داراً أقرَبَ استجابةً للدعوة، والأقربُ داراً أبعَدَ استجابة. فلما رأىٰ قومُه أن الغير أخذ يقبل دعوته ويهتدي بها، وأخذت الناس تَفِدُ عليه، شَرَعوا يصدُّون الناس عنها، ويريدون بواسطة التضليل والتمويه أن يُصوِّروا هداها ضلالاً واستقامتَها عوجاً.

ويجوز أن يكون معنىٰ: ﴿وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾: تُحرِّفونها ـ بعبثكم بها وتشويهكم لها ـ عما جاء بها الأنبياء، يُشير إلىٰ ما هم عليه من شريعتهم التي حرَّفوها.

ثم ذكّرهم بنعَم الله عليهم حثّاً لهم علىٰ قَبول هذه الدعوة، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ﴾ بالنَّسل والمال. ويجوز أن تكون الجملة تذكيراً بحادثة نوح عليه السلام.

ثم حذَّرهم عاقبة الفساد، فقال: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ من الشعوب المُجَاوِرَة لكم، كقومِ لوطٍ وقوم صالح وغيرهم، كيف أهلكهم الله بفسادهم.

ثم وَعَد مَنْ آمن به بالنصر، وتوعَّد مَنْ لم يؤمن به بالخذلان والقهر، فقال: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، فإن لم يعتبر كفارُكم بمعاقبة من قبْلَهم، فَسيَرَوْن ما يحلُّ بهم. والأمر بالصبر تهديدٌ ووعيدٌ.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

ولما ألزمهم بحُجَّته وتَوَعَّدهم علىٰ مخالفته، عمدوا إلىٰ السفاهة وعارضوا البرهان بالعدوان، كما هو شأن السُّفهاء إذا دُعُوا إلىٰ الحقِّ وانقطعت حُجَّتهم. وقد حكىٰ ذلك عنهم بقوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وما ندين به من تقاليدنا الموروثة، ﴿قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: كيف نعود فيها ونحن كارهون لها، ناقمون عليها؟! ومُؤدّىٰ هذا القول: إنكم لم

تعلموا أنَّ الدِّين الحقَّ يملك النفس، ويحكم علىٰ الوجدان والعقل، وَيُضَحِّي صاحبُه في سبيله النفسَ والنفيس، والأهلَ والوطن.

وبعبارة أخرىٰ: إنَّ الإيمان بالعقيدة عملٌ قلبيّ عقليّ، يكون بالإقناع والبرهان، ولا يكون بالقَسْر والإكراه.

ثم أردف الإنكار بالتفظيع، وضمَّنه أنَّ قلوبهم تَيقَّنت الإيمان بالله وحده، وأدركت بصيرتُهم ذلك إدراكاً جلياً، فكيف يعودون في ملتكم، فقال: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ أي: نجّانا من الانتماء إليها بما هدانا إليه.

ثم أكَّد الرفض بما يزيدهم تيئيساً، فقال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، وهذا التعبير في النفي آكد تعبير؛ لأنه نفيُ الشأن، ويَتضمَّن نفي جميع الأعذار. والتقييد باستثناء المشيئة للمبالغة في تقريره؛ إذ من نهج القرآن أن يُعقِّبَ باستثناء المشيئة علىٰ التأييدات والقطعيات، لا لإفادة نقضها كما يُوهمه الظاهر، بل لإفادة أن ذلك القطع أو التأبيد مبنيٌّ علىٰ السنن الكونية التي شاءها الله بحسب الحكمَةِ البالغة، ولو كانت الحكمة في غيرها لشاء ما به الحكمة من غيرها. فمؤدَّىٰ هذا الاستثناء: الجزم بعدم العودة، إذ قد شاءه الله بمقتضىٰ علمه الواسع وحكمته البالغة في جِبِلَّةِ الإنسان ما لم يعبث بها بسُوء تصرُّفاته، أن يدرك الحقَّ حقاً والباطل باطلاً، وأن يتمسَّك فيما اعتقد ولا يحيد عنه أبداً. ففيه نهايةُ التيئيس لهم من العودة في ملَّتهم.

ثم استعانوا علىٰ معارضتهم وتوعُّدهم لهم بالله سبحانه، كما حكىٰ ذلك عنهم بقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فهو يكفينا أمْرَ تهديدكم وتوعّدكم، ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: ربنا احكم بيننا وبينهم وافصل بالحقِّ الذي مَضَتْ به سُنَّتك في التنازع بين المرسلين والكافرين.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

ولما يئس الملأُ من عَوْدتهم في مِلَّتِهم، ورَأَوْا صَلابتهم في دينهم، خافوا أن يكثرَ المهتدون به من قومهم، فحَذَّروهم من ذلك؛ مُبيِّنين لهم أنه ليس من مصلحتهم، وفيه ضرر عليهم، كما حكاه سبحانه بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ أي: لشرفكم ومَجْدكم بإيثار ملَّته علىٰ ملَّة آبائكم وأجدادكم، وباعترافكم أنهم كانوا كافرين ضالِّين، وخاسرون لثروتكم وربحكم بترك ما حَذِقْتموه من فنون الخداع في البيع والشراء.

ولما أصرُّوا علىٰ كفرهم وعنادهم ومقاومتهم لرسولهم الذي أُرسل إليهم، استأصلهم الله بعذابه، كما حكىٰ ذلك بقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ أي: الزلزلة، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ أي: مَوْتىٰ لا حِراك بهم، أو ميِّتين وهم باركون علىٰ رُكَبِهم، أو مُنكبُّون علىٰ وجوههم.

ثم عارض سبحانه قولَهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ بقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ أي: قد هلكوا وكأنهم لم يكونوا ولم يقيموا في هذه القرية ولم يعيشوا فيها. يقال: غني في المكان؛ إذا طال مُقامه مُسْتغنياً به عن غيره.

ثم قابل قولهم: ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ لسعادة الدنيا والآخرة.

ثم ذكر ما كان من شعيب بعد أن شاهد ما جرىٰ عليهم، فقال: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾

بأمرٍ من الله عندما جاءهم العذاب، ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ﴾ فلم تنتصحوا، ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ﴾ أي: أحزَنُ الحزن الشديد ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾ حذَّرتُهم عاقبة غيِّهم فلم يسمعوا ولم يطيعوا؟.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾.

ثم أجمل ما تقدَّم من القصص، بالتعليق عليها بهذا البيان، وهو أنه سبحانه لا يأخُذ الـمُعَارضين بعذاب الاستئصال من أوَّل الأمر، ولكنه يستدرجهم لعلهم يثُوبون إلىٰ رُشْدهم، فيأخذهم أولاً بالشدائد والأمراض، ثم يزيل عنهم ذلك ويأتيهم بالخِصْب والرَّخاء، فينسبون حالهم الأول إلىٰ مجرَّد طبيعة الزمن، ثم يأخذهم بَغْتة بعذاب الاستئصال، فقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ فلم يؤمنوا به، ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ وهي الشدَّة والمشقَّة كالحرب والجدب وشدة الفقر، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وهي ما يضرُّ الإنسان في بدنه ونفسه ومعيشته، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾ لنا ويرجعون عن غيِّهم، ﴿ثُمَّ﴾ بَلَوْناهم بضدِّ ذلك، و﴿بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾، والمراد بالسيئة والحسنة هنا: الطبيعيّتان، أي: ما يستخفُّه الطبع ويستحسنه، وما يستثقله ويستاء منه، وذلك كاليُسر بعد العسر، والغنىٰ بعد الفقر، والرخاء بعد الشدَّة، والأمن بعد الخوف، ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي: تراجعوا ونموا، ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي: إنَّ هذه أمور طبيعية تعرض دائماً للبشر، وتلك عادة الزمان في أبنائه، فيصرفونها عن كونها آيةً للتخويف إلىٰ كونها شؤوناً طبيعية لا يَسلَمُ منها فَرْدٌ ولا أُمة، ولم يعلموا أنها توفيق أقدار لأقدار من الله سبحانه وتعالىٰ تخويفاً وتأديباً، وبينما هم كذلك يغشاهم عذاب الاستئصال، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾ إذ جاءهم علىٰ حين غفلة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

وبعد الكلام عن الضَّالِّين وما جرىٰ عليهم من تَعَاسة وشقاء، دعا إلىٰ الهدىٰ، وبيَّن ما يَنْبعث عنه من سَعَادة ورخاء، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، ناعياً علىٰ المكذِّبين خُسرانَهم وشقاءَهم بالعذاب، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أما بركات السماء فالأمور الروحانيَّة المؤدية إلىٰ الكمال الروحي، وأما بـركات الأرض فالأمور المادية من الـخيرات، أي: لـجمعنا لهم بين السعادتَيْن الدنيوية والأخروية؛ لأن قواعد الدين وإرشاداته تؤدِّي إليهما معاً إذا رُوعيت علىٰ وجهها الصحيح، ﴿وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ بما جاءهم من الحق، ولم يهتدوا بهَدْيه، ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ من أعمال الشِّرك الخرافية المفسدة للعقول، ومن المعاصي الهادمة لنظام الاجتماع؛ إذ ينتج عن ذلك أضرار فظيعة بحسب سُنَن الكون ونواميس الفطرة التي فطر الله عليها الناس. فيكون أَخْذُهم بالعقاب أثراً لازماً من آثار كَسْبِهم وتصرُّفاتهم السيِّئة في نفوسهم.

وقيل: المراد بالبركات: المادية فقط، فبركات السماء: المطر وشبهـها، وبركات الأرض: النبات وشبهه، أي: علىٰ صفة لم يعهدوها.

وقيل: المراد: لوسَّعنا عليهم الخير ويسَّرناه لهم من كلِّ جانب؛ لأن أنظمة الشريعة منطبقة علىٰ أنظمة الطبيعة، والشر لا يأتي إلا من معاكستها.

وبعد إكمال هذا السياق المُنبِّه للعقول، والمُوقِظِ من السُّبات، والمبيِّن ما جرىٰ علىٰ المكذِّبين للأنبياء في الأمم الغابرة، أنذَرَ الحاضرين من كفار قريش وأمثالهم بمجيء

العذاب علىٰ حين غِرّةٍ وهم غافلون، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا﴾ أي: يُبيّتُهُمْ تبييتاً ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ ليلاً.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ مستأنسين فرحين.

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: تدبيره الخفيَّ في تعذيبهم، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ لأنفسهم بإفسادهم لها وتغشية بصيرتها وحرمانها من السعادة التي كانت مُستعدّة لإحرازها لولا تصرُّفهم السيئ بأنفسهم، وتدسيتهم لها.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ثم أردف هذا الإنكار بلون آخر منه، وهو التهديد علىٰ غفلتهم وعدم اعتبارهم بمن قبلهم، الذين أهلكهم الله بذنوبهم، وورَّث هؤلاء أرضهم وديارهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾[1]، كما فعلنا

---

(١) بعد أن عرضت القصص ما جرىٰ علىٰ المكذِّبين لأنبيائهم من عذاب الاستئصال، أنّب قريشاً بهذا الاستفهام، وتوعَّدهم بما ملخصه: أوَلم يكشف لهم مصيرَهم السيِّئ ما قَصصناه عن مصير من سبقهم في مسلكهم هذا، وذكّرهم بأنهم كانوا خلفاً في الأرض لأولئك السلف، إيماء ومبالغةَ تحسيسٍ بالوعيد. ثم بيَّن أن منشأ عدم انتفاعهم بهذه المواعظ إنما هو فساد تربيتهم وانطباع قلوبهم عليها، فهم لا يُلقون السمع إلىٰ ما يخالف ميولهم وما وجدوا عليه آباءهم وما انطبعوا عليه. وتلك سنة الله في الإنسان إذا أفسد طبيعته بمثل هذه المفاسد. ولذلك قال: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، ولم يقل: فهم لا يفقهون؛ لأنَّ من أعرض قلبُه عن موضوع لا يلقي إليه سمعه، فضلاً عن فهمه؛ إذ لا يراه جديراً بالإصغاء، فضلاً عن الفقه والإدراك. (المؤلف).

بمن ورثوها منهم، كقومِ نوحٍ عليه السلام، وقد ضمَّن ﴿يَهْدِ﴾ معنىٰ «يبيِّن» فعدَّاه باللّام. علىٰ نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، والمادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة).

والمعنىٰ: أوَلم يَردَع هؤلاء ما فعلناه بأسلافهم الذين أهلكناهم، وورّثناهم أرضهم، وأننا لو نشاء لفعلنا بهم لذنوبهم مِثلَهم، وورَّثنا أرضهم لقوم آخرين، ﴿وَ﴾ لكن بحسب سُنَنِنَا في طبيعة الإنسان وأخلاقه ﴿نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بما أحاط بها من الكفر والذنوب، فإنها تُعمي القلوب، وتحجب البصائر عن نور الحق، وتُصِمُّ الآذان عن سماعه، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ المواعظَ والإرشادَ سَماعَ وعيٍ وإدراك، ولا يرتدعون بما جَرَىٰ علىٰ أمثالهم من الأمم الغابرة.

وفي الكلام إسناد الفعل إلىٰ الله بمقْتضىٰ سُنَنه الكونيَّة مع التلميح إلىٰ السبب، علىٰ نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية في خصائص القرآن). وجملة ﴿وَنَطْبَعُ﴾ مستأنَفة.

ثم أجمل ما تضمَّنه السياق من سُنن الله تعالىٰ في طبائع البشر وشؤون الفطرة، وخاطب بذلك النبيَّ ﷺ، ليزيده تحسيساً بالأمر، تسليةً له عن معارضة المشركين وعدم إيمانهم، فقال: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ التي بَعُد عهدُها، وطال الأمدُ علىٰ تاريخها، وجَهِلَ قومُك حقيقةَ حالِها، ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾ يريد ما ذكره في السياق. ثم أجمل ذلك فقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: ما كان من شأنهم أن يؤمنوا بعد مجيء البيِّنات، بما كانوا قد كذَّبوه قبل ذلك؛ لانطباعهم علىٰ الكفر والضلال، كما انطبع عليه أسلافهم، حتىٰ أصبح لهم مَلَكةً وخُلقاً، يُعارضون كلَّ ما خالفه ولا يرونه حقاً. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾؛ إذ يملك الكفرُ قلوبَهم، ويحجبُ بصائرَهم عن نور الحق ووضح الهدىٰ.

ثم أجرىٰ الكلام علىٰ عموم البشر بصورة عامة، تسليةً للرسول إذ يعارضه الناس، ونَعَىٰ عليهم تفريطَهم بالعهد الذي أخذه عليهم بما تقدَّم من قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ...﴾ [الأعراف: ٣٥] الآية، فنعىٰ عليهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖ﴾، وقال الراغب: عهد الله تارة يكون بما ركزه في عقول البشر[1]. وطَبَعَهم عليه من معرفة الله بتوحيده وتنزيهه ـ أقول: وهذه هي الهداية الطبيعية والغريزة الدينية ـ وهو معنىٰ قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ ...﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآتي في هذه السورة، وتارة يكون بما أمرنا به علىٰ لسان الرسل، وهذه هي الهداية الشرعية.

ثم قـرَّر هذا النَّعي والبيان بقوله: ﴿وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾ أي: خارجين عن دائرة استعداد طبائعهم للخير والرشاد، إلىٰ دائرة استعدادهم للشرِّ والفساد، وذلك بسُوء تَصرُّفهم في أنفسهم.

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٠٣ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾.

وبعد ذكر قصص الأنبياء الذين استأصل الله أممهم إذ لم يؤمنوا إلا قليلاً منهم، عاد

---

(١) «المفردات» ص٥٩٢.

إلىٰ البحث، وذكر قصَّة موسىٰ وفصَّلها من سائر نواحيها؛ ليكون ذلك نموذجاً لما طوي في القصص قبلها واختصر فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ حيث كفروا بها كِبْراً وعناداً ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

وهذا تشويقٌ لتوجيه النظر لما سيقصُّه تعالىٰ من عاقبة أمرهم بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، وضمَّن كلمة ﴿حَقِيقٌ﴾ معنىٰ: حريص، ولذلك عدّاه بـ«علىٰ» لتفيد الجملةُ توكيدَ الصدق في دعواه الرسالةَ، وقد زاد في التوثيق بقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ علىٰ صِدْق دَعْواي، ﴿فَأَرْسِلْ﴾ يا فرعون ﴿مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ بأن تُطْلِقَهم من أَسْرك وتُعْتِقَهُم من رقِّك ليذهبوا معي إلىٰ دارٍ غيرِ دارك، ويعبدوا فيها ربَّهم وربَّك.

﴿قَالَ﴾ فرعون لموسىٰ عليه السلام: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ كما ادَّعيت ﴿فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ﴾ موسىٰ ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: بيِّنٌ أمرُه لا يشكُّ الناظر إليه أنَّه ثعبان، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ﴾ تتلألأ ﴿لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾، وحينئذ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ يُضلِّلون الدهماء[1] حفظاً لمراكزهم فيهم وحكومتهم وسلطانهم عليهم، ويستنجدونهم لمقاومة موسىٰ وما جاء به، قالوا لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ بدَعْواه هذه وسِحرِه هذا، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾؟ يستشيرون الأمة، ويُنبِّهون فيها شعور النخوة والنقمة علىٰ موسىٰ والمعارضة له.

وهذا تبليغٌ واستشارة للأمة من جانب الملأ علىٰ لسان فرعون، إذ هؤلاء الملأ كانوا الواسطةَ بين الأمة وبين فرعون في أخذ الرأي من الأمة ونَقْلِهِ إلىٰ فرعون. ولذلك كان

---

(١) الدهماء: العدد الكثير. ودهماء الناس: جماعتهم وكثرتهم. «لسان العرب» (دهم).

الجواب بخطاب المفرد لفرعون حيث ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾، ويجوز أن يكون قوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ حكايةً لمداولة الملأ فيما بينهم في القضية، ومناقشة بعضهم لبعض في صورة القرار الذي يجب أن يتَّخذوه في هذا الأمر.

ثم حكىٰ بعبارةٍ مُجمَلةٍ صُورةَ القرار الذي اتَّخذه الملأ بنتيجة المداولة، وصورة عَرْضِهِ علىٰ فرعون للتنفيذ بقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخِّر أمْرَهما حتىٰ تحضر السَّحرة، ﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾ أي: أرسِلْ إلىٰ البلدان مَنْ يجمع لك السَّحَرة حتىٰ ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾﴾ أي: بفنون السِّحر، ماهرٍ فيها، فيكشفون للأمة ما جاء به موسىٰ فلا يفتتن به أحد.

فأرسَلَ وحَشَر كلَّ مَنْ له مهارة بفنون السحر، وقد كان قدماء المصريين قد تخصَّصوا بدراسة السحر والتمويه، وتفنَّنوا فيه ﴿وَ﴾ لما ﴿جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ﴾ مستفهمين ومطالبين: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ ومكافأةً ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ﴾ فوق ذلك ﴿لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ عندنا إذ ذاك.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ
أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾
فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي
ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ
لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ
رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

فلما اجتمعوا بموسىٰ عليه السلام في المحل الـمُعَدّ للمغالبة علىٰ مشهدٍ من الناس، ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ يُخيِّرونه في التقدُّم أو التأخُّر، إظهاراً لثقتهم بأنفسهم واعتدادهم بسحرهم. وغرضُهم من ذلك: إرهابُه بزعمهم، وإظهارُ عدم المبالاة به.

﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ﴾ أنتم، وفيه إيذانٌ بعدم مبالاته بهم، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ بأن خيَّلوا إليهم ما لا حقيقة له، ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ أي: بالغوا في إرهابهم بما صنعوا، ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ في بابه، كما بيَّن ذلك في غير هذه الآية.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فألقاها، ﴿فَإِذَا هِىَ ﴾ حيَّةٌ عظيمة، ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ أي: ما يأتون به من الإفك والتمويه، فأظهرت بطلانه وبيَّنت حقيقة أمره في نفسه. قال الراغب: الإفك: كلُّ مصروف عن وجهه، ومنه قيل للرياح العادلة عن الـمَهَابّ: مؤتفكة(١).

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: ظهر وثبت الحق، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ أي: ظهر بطلانُه للناظرين، وتبيَّن لهم أنه تمويه وحِيَل.

﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ ﴾ أي: غُلب إذ ذاك فرعونُ وملَؤُه، ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ أي: عادوا من ذلك المجتمع أذلةً خائبين، لِـما بدا للناس من صَغَارِهم.

﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ألقاهم اندهاشهم من عِظَم المعجزة، أي: لم يتمالكوا مما رأوا ـ وهُم أعلم الناس في التمييز بين آيات الله تعالىٰ التي لا يقدر عليها غيرُه، وبين السِّحر الذي هو مِن صناعات البشر ـ فخرُّوا سُجَّداً مُذْعِنين مُسْلمين أنَّ عَمَلَ موسىٰ إنما هو معجزة عظيمة، وليس من السحر الذي يعملون، وإنما هو من صُنْع الله

---

(١) «المفردات» ص٧٩.

تعالىٰ. فملأت هذه المعجزة عقولَهم يقيناً، وقلوبَهم إيماناً، ولم يَبْقَ في أنفسهم أدنىٰ مكان لفرعون وعظمته الدنيوية الزائلة، ولا سيما قد ظهر لهم صَغَارُه أمام هذه الآية، وكان من نتيجة ذلك أنْ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، وهذا الإبدال للتقرير والتحرير وإظهار اليقين.

فلما رأىٰ فرعون اتِّضاحَ تفوُّق موسىٰ، واتِّباع السَّحَرة له، سُقِطَ في يده، فتذرَّع لباطله وعناده بالاحتجاج عليهم بالسَّبق إلىٰ اتِّباع موسىٰ قبل أن يقرِّر أمر الاتِّباع بنفسه ويأذن لهؤلاء بذلك، واتَّهمهم بالمُمالأة لموسىٰ، والاتِّفاق معه علىٰ انخذالهم أمامه وإظهار تفوُّقه عليهم، مُدَّعياً أنَّ في الأمر تدبيراً وصنيعة.

وقد حكىٰ ذلك عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: قبل أن آذن أنا لكم بالإيمان به حسبما اتفقنا عليه؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ علىٰ اتِّفاق بينكم أظهرتُم به تفوُّقَ موسىٰ عليكم؛ ﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ بسَلْبِ ملكهم وتمليك بني إسرائيل. واستفزَّ بهذه الجملة شعورَ القبط نحوه ضد السحرة وضد موسىٰ.

ثم أردف ذلك بالوعيد فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾، فأجمل الوعيد بهذه الجملة للتهويل، ثم فصَّله بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي من كلِّ شق يداً أو رجلاً بالتخالف، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ وأنتم علىٰ هذه الحالة المشوَّهة؛ لتكونوا عبرة لمن تُحدِّثه نفسه بالكيد لنا والترفُّع عن الخضوع لعظمتنا.

أما السحرة فلم ينخذلوا بهذا التهديد لتمكُّن الإيمان من نفوسهم، و﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ فلا نبالي بوعيدك شَغَفاً بلقاء الله والتمتُّع بحُسن الجزاء. وهكذا يكون الإيمان بالله واليوم الآخر قوةً عظيمة، وشجاعةً فائقة، وصبراً غريباً علىٰ الشدَّة والمشقة،

وكذلك يكون في المقاومة والحروب. ويجوز أن يعود ضمير ﴿إِنَّآ﴾ إليهم وإلىٰ فرعون، فيكون في الكلام تخويفٌ له بالله إذا مسَّهم بذلك السُّوء.

ثم قرَّعوه مُؤْلِمَ التقريع بقولهم: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾، ثم فزعوا إلىٰ الله وقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ غيرَ مفتونين بتهديد فرعون. فجمعوا بكلامهم هذا بين كمال الإيمان والإسلام لله.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

هذا ما كان من أمر السَّحَرة وفرعون. أما ما كان من أمر الملأ من البيت المالك والحاشية والأمراء والوزراء، فقد أغْرَوْا فرعونَ علىٰ التَّصلُّب والانتقام، كما حكىٰ الله سبحانه عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ أحراراً آمنين؛ ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لتكونَ عاقبتهم أن يُفْسدوا قومك عليك في أرض مصر بإدخالهم إيَّاهم في دينهم، وجَعْلِهم تحت سلطانهم، ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ مَنْبوذين. فلما أغْرَوْهُ بهذا الإغراء المُهَيِّج ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: سنعودُ إلىٰ ما كنّا تركناه من تقتيل ذكور مواليدهم وإبقاء إناثهم فقط؛ حتىٰ يضعفوا فلم يبق لهم قوة، أو ينقرضوا، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ فما أذلَّهم وأبعدَهم أن يُفسِدوا علينا أمْرَنا.

أما ما كان من أمر موسىٰ وقومه تجاه هذا الموقف، فقد وعظهم وحرَّضهم علىٰ الثبات والصبر علىٰ تجبُّر فرعون وطغيانه وظلمه، ووعدهم بحُسْن العاقبة، كما حكىٰ الله

سبحانه بقوله: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ ﴾ لا لفرعون ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

ولكنهم ـ لضعف عقيدتهم وخَوَر عزيمتهم ـ أجابوا بما حكىٰ الله عنهم بقوله: ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾، ومفاد هذا التَّذمُّر: أنَّ مجيء موسىٰ لم يُفِدهم شيئاً، بل زاد عليهم الأذىٰ بزعمهم، فردَّ عليهم ردَّ الأنبياء و﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي: ليختبركم بذلك. وهذا الجواب يتضمَّن التسليةَ لهم والتعريضَ بهم.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه ما نال فرعونَ وقومَه من الجزاء، بنتيجةِ تجبُّرهم وكفرهم بآيات الله، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾، وكما تستعمل كلمة «آل» في القرابة القريبة، تستعمل أيضاً في الموالين والمتابعين. والمراد من أخذِهم بالسنين: ابتلاؤهم بجدْبٍ وقحطٍ ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾، أي: جعلنا هذا الجزاء مقدِّمة بين يَدَي عذاب الاستئصال، لعلهم يرجعون عن غيِّهم ويثُوبون إلىٰ رُشْدِهم، ولكنهم لم يفعلوا، وحملوا ذلك علىٰ غير محمله.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ من خِصْبٍ ورَخَاءٍ ولو أثناء ذلك القحط والبلاء، ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ باستحقاقنا وقَبولنا عند الله، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من الجدب والغلاء ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي: يتشاءمون بهم، ويقولون: هذا من شؤمهم.

فردَّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وأراد بالطائر: الشؤمَ والسُّوءَ الذي أصابهم، وعبَّر عنه بالطائر للمشاكلة مع كلامهم، وهو نوع من البديع. والمراد: أنَّ شؤمهم ناتجٌ عن معاكسة نظام الله؛ لأنه سبحانه هو واضعُ نظام الكون في سُنن مُطَّردة تكون فيها المسبَّبات نتيجةً للأسباب، وأنزل الشرائع ملائمةً لتلك السنن، والله أعلم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ ذلك، فيقولون ما يقولون.

ثم ذكر ما كان من إصرارهم علىٰ الكفر والعناد، وإرسال أنواع أخرىٰ من العذاب والآيات الكونية عليهم، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: بمصدِّقين لرسالتك.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ وهو الأمطار المُغْرقة للزرع وغيرها، ﴿وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ وهو القُرادُ(١) أو السُّوسُ الذي يُفسِدُ الحنطة، ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ فملأت بيوتهم وأمتعتهم وثيابهم وفرشهم وكلَّ شيء لهم، حتىٰ ضَجُّوا من ذلك، ﴿وَ﴾ أرسلنا عليهم ﴿ٱلدَّمَ﴾ ظهر في مياههم وأفسدها.

فجعل الله سبحانه هذه المصائب والنكبات ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾، والتَّفصيل هو التبيين. والمعنىٰ: آيات واضحات الدلالة علىٰ غَضَب الله عليهم وانتقامه منهم، وعلىٰ صدق رسالة موسىٰ التي عاندوها ولم يقبلوها. ولكنهم لم يؤمنوا أيضاً ولم يعتبروا بهذه الآيات، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ لأنهم ـ وإن كانوا قد فزعوا أثناء الآيات

---

(١) دويبة تكون في مآخير الحوافر والمناسم. «لسان العرب» (صفر). أو: دويبة تعض الإبل. (قرد).

إلىٰ موسىٰ يطلبون أن يدعو الله لهم - فإنهم لم يلبثوا أن عادوا إلىٰ كفرهم وعِنادهم لما كشف الله عنهم ذلك، كما حكاه سبحانه بقوله: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾ أي: هذا العذابُ التي تَرْتجز وتَضْطرب له القلوب، ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ وهو أن تدعوه فيجيبك، ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ كما طلبت، ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ ﴾ وهو موعد الغرق الذي قضىٰ الله أن يستأصلهم به، ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ ولم يَفُوا بما وعدوا به موسىٰ.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ عند بلوغ الأجل المضروب لهم، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ ﴾ أي: البحر، وذلك ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾، وتحرير المعنىٰ: إنهم كانوا يُظْهِرونَ الإيمان عند كلِّ آية من آيات العذاب، ثم يُكذِّبون، حتىٰ إذا انقضىٰ الأجل المضروب لهم انتقمنا منهم، لأنهم كذَّبوا بالآيات كلِّها القوليةِ والفعليةِ، وكانوا غافلين عمّا يؤدِّي إليه ذلك من عذاب الدنيا والآخرة، حسب سُننِ الله في هذا الكون وشرائعه.

والانتقام: من النقمة، وهي: السطوة والعقوبة، وقد يستعمله عُرْفُ التخاطب بمعنىٰ التَّشفِّي، وهو بهذا المعنىٰ مُحال علىٰ الله سبحانه.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

وبعد أن ذكر مصير الأقباط، ذكر مصير بني إسرائيل. وقد جعل مبدأ الكلام حلقةَ وَصْلٍ للسياقين، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ في مصْر بالاستعباد وذبح الأبناء، أورثناهم ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ

﴿وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ بالخِصْب والخير تحقيقاً لوعدنا، واللام في «القوم» للعهد الذهني أو الذِّكْرِيّ، وهم الـمُسْتَضْعَفون من بني إسرائيل والباقون في أرض مصر، أي: أورثناهم جانبَي مصر الشرقي والغربي بما في ذلك الشام وفلسطين، ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ وهي وَعْدُه تعالىٰ إياهم بالنصر والتمكين في أرض مصر وأطرافها، في قوله تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ ...﴾ [القصص: ٥]، ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾ من الأبنية والقصور التي كانت تُسخَّر بنو إسرائيل في تعميرها ظلماً واستعباداً ﴿وَ﴾ كذلك دمَّرْنا ﴿مَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ من الحدائق والجنان، كعرائش العنب ونحوها.

ويجوز أن يكون التدمير علىٰ حقيقته أو بمعنىٰ إخْلائها منهم وإيراثها بني إسرائيل. والله أعلم. فتكون الآية تقريراً لما قبلها وإردافاً، ويُؤْنِسُ للثانية آية الشعراء: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ [الشعراء: ٥٧] إلىٰ قوله: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾.

ثم ذكر ما كان من أمر بني إسرائيل بعد ذلك الإنعام عليهم، فقال: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾ في بلاد العرب، فلما رأوهم ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ حنيناً منهم إلىٰ ما ألفوا في مصر من عبادة آلهة المصريين وتماثيلهم. والنظرةُ تُوَلِّدُ الفكرة.

قال في «المنار» ما ملخصه: وعُلِمَ بهذا الطلب أنهم لم يكونوا قد فهموا التوحيد والتنزيه الذي جاء به موسىٰ، كما فهمه مَنْ آمن مِن سَحَرة المصريين؛ لأنَّ السَّحَرة كانوا من العلماء، وأما هؤلاء الإسرائيليون فكانوا من العامَّة الجاهلين، الذين بلَّد الذلُّ أفهامَهم، وإنما اتَّبعوا موسىٰ لإنقاذه إياهم من ظلم فرعون وتعبيده لهم، لا لِفَهْمِ حقيقةِ التوحيد بالآيات الدالة عليه. فالتوحيد الـمَحْضُ الخالص من شوائب الشرك والوثنية هو غاية ما يرتقي إليه عرفان البشر، وهو الكمال الإنسانيُّ المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: ليحصروا عبادتهم لي ولا يعبدون غيري. ولو عقل جميع بني إسرائيل كُنْهَ التوحيد لَـمَا وقع من تَبَرُّمهم بالتكاليف وتمرُّدهم علىٰ موسىٰ عليه السلام ما قصَّه تعالىٰ علينا في هذا القرآن، مما هو من مواطن العجب، ومنه هذا الطلب[1]. لذلك ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾، وهذا الوصف يشمل كلَّ ما يصلح له؛ من عدم العلم والسَّفه معاً، فإنهم لم يدركوا مقام التوحيد وما يجب فيه من تخصيص الله سبحانه بالعبادة بلا واسطة ولا مظهر من المظاهر، كالتماثيل.

وبعد أن ذكَّرهم بجهلهم هذا، بيَّن لهم فساد ما طلبوه، فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مَقْضِيٌّ عليه بالدمار بما سيظهر من التوحيد الحق في هذه الديار، ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ أي: زائلٌ لا بقاء له. وهذا يتضمَّن البشارة منه عليه السلام بزوال الوثنيَّة من هاتيك الديار.

وقال البغوي[2]: إنَّ طلب بني إسرائيل هذا لم يكن عن شك منهم بوحدانيته

---

(١) تفسير «المنار» (٩: ٩٤- ٩٥).

(٢) هو محيي السنَّة شيخ الإسلام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (٤٣٦-٥١٠هـ) الشيخ الإمام العلامة القدوة المفسر صاحب التصانيف منها: «شرح السنة»، و«معالم التنزيل»، و«الجمع بين الصحيحين»، «سير أعلام النبلاء» (١٩: ٤٣٩- ٤٤٣)، و«الأعلام» (٢: ٢٥٩).

تعالىٰ، وإنما كان غَرَضُهم إلهاً يُعظِّمونه ويتقرَّبون بتعظيمه إلىٰ الله تعالىٰ، وظنوا أن ذلك لا يضر بالديانة، فقال لهم موسىٰ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[1] ما يجب من إفراد الربِّ تعالىٰ بالعبادة من غير واسطة، ولا سيما الأصنام والتماثيل لبعض المخلوقات، فإنها من أعظم أنواع الشرك.

أقول: ويجوز أن يكونوا فهموا من أولئك القوم في بلاد العرب أنهم إنما يعبدون هؤلاء الأصنام ليقرِّبوهم إلىٰ الله زُلفىٰ، فطلبوا هم مثل ذلك من موسىٰ.

ثم أتبع البيانَ بالإنكار عليهم، مستنداً علىٰ ما أَوْلاَهُم سبحانه من النِّعَم، فقال: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أي: أطلب لكم إلهاً غير الله، ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ بما جدّد لكم من هداية الدين. والوصفُ بالتعظيم يثير التَّحمُّس لمحافظته.

ثم ذكَّرهم سبحانه وتعالىٰ بنعمة الإنْجاء من آل فرعون، حيث أنجاهم برسالة موسىٰ هذه، فقال: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾، فدفع الله عنكم هذه النقمة، وأعطاكم هذه النعمة.

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

---

(١) «تفسير البغوي» (٢: ٢٢٧).

ثم شرع في بيان بَدْءِ الوحي بالشريعة لموسىٰ عليه السلام وإنزال التوراة، فقال: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، قيل: أمره الله أن يصوم ويتقرَّب إلىٰ الله ثلاثين يوماً، ثم نزلت التوراة عليه في العشر التوالي.

وقال أبو مسلم: إنَّ موسىٰ عليه السلام بادر إلىٰ ميقات ربه قبل قومه عند إتمام الثلاثين، فلما أعلمه تعالىٰ خبر قومه رجع إليهم، ثم عادوا إلىٰ الميقات في عشرة أخرىٰ، كما يُفهَمُ من سورة طه.

وقد استخلف موسىٰ عليهم أخاه هارون، للحكم بينهم، والإصلاح فيهم. كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾، والغَرَضُ من هذه الوصية: زيادةُ الاهتمام بإتقان الإدارة وإحكامها.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، وكيفية هذا الكلام[1] هي من الغيب الذي لا شبيه له ولا نظير في هذا العالم. وإدراكُ موسىٰ عليه السلام لكلام الله تعالىٰ لا يتوقَّف علىٰ معرفة كيفية ذلك وكُنْهه، فإن أكثر ما نُصدِّقُ به تصديقَ يقين لا نعرف حقيقتَه وكُنهه ولا كيفيَّةَ تكوينه وإيجاده. ويجوز أن يكون من نوع كلامه تعالىٰ للملائكة كجبريل عليه السلام[2]، مع العلم أنه قد جاء في الأثر: أنَّ الملأ الأعلىٰ لا يعلم عن كُنْه

(١) يُريد: كيفية التكليم، أما الكلام ـ الذي هو المعنىٰ القائم بذات الله ـ فهو صفة من صفاته تعالىٰ لا تُكيَّف، كما أن ذاته سبحانه وتعالىٰ لا تُكيَّف.

(٢) الملك الـمُقرَّب ـ والله أعلم ـ يحس بالأمر الأعلىٰ، فيلحظه وينطبع في هويته، أو يحدث له ما هو شبيه بذلك من الإدراك، والله أعلم بأسراره سبحانه. (المؤلف).

قلت: وهذا أيضاً من الغيب الذي لا ينبغي الخوض فيه إلا بدليل، فالواجبُ علينا أن نُثبت أن الله سبحانه وتعالىٰ متصفٌ بصفة الكلام، وكلامه لا يُشبه كلام خلقه، ثم الأسلم أن لا نخوض في تعيين كيفية تكليمه سبحانه لبعض خلقه، والله أعلم.

ذات الله شيئاً أكثر مما نعلمه نحن، بمعنىٰ: أنهم لا يدركون كُنْهَ ذاته تعالىٰ كما لا ندركه نحن، وإنما يدركونه لآثاره كما ندركه نحن، وجبريل عليه السلام يدرك الوحي عن الله سبحانه وينزل به علىٰ الأنبياء، كما أدرك موسىٰ كلام الله سبحانه، ولا يعرف الكيفية، لأن الوحي عرفان مع إيقان دون إدراك لحقيقة الشأن، وكثير من الحقائق لا يُدرَكُ كُنهُها رغماً عن تحقُّقها، فهذه عملية التذكر والإدراك نفسها ليس أحد يعرف كيف تتم هذه الحقيقة(١).

ومن المعلوم أن الأنبياء عليهم السلام من أكمل البشر، مُزَوَّدون بالقدرة علىٰ استلهام المعلومات عن الله سبحانه بطريقة خارجة عن نطاق الحواس، يجري فيهم ذلك العرفان والإيقان، ويدركونه ولا يعلمون كيفيَّته، كما لا يعلم كل إنسان كيفيَّة إدراكه للأشياء وتذكُّره لها. فموسىٰ عليه السلام يدرك كلام الله سبحانه دون أن يعلم كيفية ذلك، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورىٰ: ٥١]، فهذا الكلام لموسىٰ هو من النوع الثاني، فلو سُئل موسىٰ: كيف كَلَّمَك ربك؟ لا يقدر أن يُشَخِّصَ ذلك، مع إدراكه له يقيناً؛ لِـمَا في الأنبياء من المواهب العظيمة في التلقِّي عن الله بحكم قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، والله أعلم.

فلما كلَّمه ربُّه هذا النوعَ من الكلام، اسْتَشْرفت نفسُه الزكيَّة للجمع بين فضيلة الكلام وفضيلة المعرفة من طريق الرؤية، علىٰ مثال هذا الكلام وطريقه، و﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ بأن تجعل لي من القوَّة علىٰ حَمْل تجلِّيك ما أقدر به علىٰ ذلك، ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ فنفىٰ إمكان ذلك بالنفي المستغرق، ثم استدرك سبحانه بما يدل علىٰ تعليل النفي، فقال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾، وصورة هذا التعليل

(١) لم أقف عليه.

تُخفِّفُ عن موسىٰ عليه السلام شدَّة وَطْأة الرد، وتُبيِّن سببه بطريق الخبرة، حيث أعلمه ما لم يكن يعلم، من أنه لا يقوىٰ شيء من هذا الكون علىٰ تحمُّل تجلِّيه سبحانه وتعالىٰ، كما بيَّن ذلك بقوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ بحيث انكبس وصار سهلاً، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ من هَوْل ما رأىٰ ﴿صَعِقًا﴾ مَغْشياً عليه.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من غشيته، ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أنْ أسألك الرؤية أو مثيلها، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾[1] بأن لا أحد يراك[2].

﴿قَالَ﴾ سبحانه وتعالىٰ له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ ولا تسأل أكثر من ذلك.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

---

(١) قيل: إنَّ موسىٰ إنما طلب الرؤية ليعلِّم قومَه الذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] بأنهم طلبوا محالاً. (المؤلف).

قلت: سياقُ الآيات لا يُساعد عليه، بل يردُّه.

(٢) مال المؤلفُ رحمه الله تعالىٰ هنا إلىٰ قول المعتزلة في نفي الرؤية، ولذا جعل «لن» للنفي المستغرق، وجعل التوبة توبةً من سؤال الرؤية. لكنْ ليس في الآية نفيُ الرؤية مطلقاً، بل تعليقُها علىٰ استقرار الجبل ـ وهو أمر ممكن في نفسه ـ يدل علىٰ إمكانها، كما أن سؤال موسىٰ عليه السلام ـ وهو رسولٌ عارفٌ بالله وما يليقُ به مما لا يليق ـ يدلُّ علىٰ إمكانها، وقد جاءت الأدلةُ الصريحةُ بإثباتها في الآخرة، فوجب القولُ به، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

ثم ذكر تفصيل تلك الرسالة، فقال: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ ﴾ أي: أعطيناه ألواحاً وكتبنا له فيها ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من كلِّ نوع من أنواع الهداية، فكانت ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لكلِّ نوع من أصول التشريع، وهي أصول العقائد والآداب والأحكام، وهذه الألواح هي التوراة.

وقد أمره سبحانه وتعالىٰ أن يُجهد نفسه في تبليغها وأخْذ الأمة بها، فقال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجدّ وعزيمة، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ وهذه الصيغة هنا ليست للتفضيل، بل للكمال، أي: بهذه المواعظ ذات الحُسْن التامّ، ومثل ذلك من خصائص اللغة.

ثم وعدهم بنصرهم علىٰ أعدائهم الأقباط، وجعل صيغة التعبير تُؤْذِنُ بالتهديد الشديد للأعداء، فقال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ وما يجري عليها بخُلُوِّها من أهلها، يريد بها أرض مصر. والكلام يتضمَّن وعدهم بالاستيلاء عليها، وتوليتهم إيَّاها؛ لأنَّ الإراءة تتحقَّق بذلك، ففيه وَعْدٌ لهم ووعيدٌ للكافرين.

ثم أكمل الوعد الكريم، وضمَّنه البيان عن استعداد البشر لتكذيب دعاة الحق والخير، ولا سيما الذين قد أفسدوا غرائزهم بانطباعهم علىٰ الضلال، وخصَّ بالذكر منهم الرؤساء المتكبِّرين، الذين يزعمون أنهم عظماء قومهم، فلا ينبغي لهم أن يتَّبعوا مَنْ دوهم سنّاً وقوةً وثروةً وعصبية، وسَبَكَ البيان علىٰ أنَّ من سُنَن الله تعالىٰ أن يقْذِفَ بالحقِّ علىٰ الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وتكون العاقبة للمتَّقين، فقال: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾، وهذا القَيْدُ لزيادة التنديد والتفنيد، وليس باحترازي، وهو من أساليب القرآن.

وهذا الصَّرف بحسب سنن الله الكونية في طبيعة الإنسان إذا أفسدها، ومن ذلك:

التكبُّر عن سماع الحق، أي: إنَّ من شأن الكِبْرِ أن يصْرِفَ أهله عن النظر والاستدلال علىٰ الحقِّ والهدىٰ، فيكونون دائماً من المكذِّبين بالآيات الدالة عليهما، كما كان حال فرعون ومَلَئِه.

ثم شرح حال أولئك المنصرفين عن الحق، فقال: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لأنهم لا يُبْصرون ما فيها من الحق، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لأنهم لا يُبْصرون ما فيه من الرُّشد، بل يَـرَوْنه ضلالاً فلا يسلكونه، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لأنهم قد انطبعوا عليه بمفاسد التربية والتقليد الأعمىٰ، والإنسان يرتاح لما ألف وينكر ما يخالف ذلك.

وملخَّص الكلام: أنَّ صفة هؤلاء الذين مرَّنوا علىٰ الضلال وانطبعوا عليه أن ينفروا من الهُدىٰ والرَّشاد، ويأنسوا بسبيل الغيِّ والضلال، ويرونه مستقيماً فيتَّبعونه، وقد علَّل ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ يعني: أنَّ الله تعالىٰ لم يخلقهم مطبوعين علىٰ شيءٍ مما ذكر، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم. ومن طبع نفسه علىٰ الضلال يغفل عن طريق الهدىٰ والرشاد، ولا يُعيرُها نَظَرَ تأمُّل واعتبار.

ثم بيَّن أنَّ أولئك المكذِّبين لا ينفعهم ما يعملون من الأعمال؛ لأنها أعمال فاسدة ليس لها ثمرة ولا نتيجة، وذلك لأنها غير منطبقة علىٰ السنن الكونية، بحكم إعراضهم عن شرائع الله سبحانه وتعاليمه، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ لأنَّ الأعمال الصَّالحة تنبعث عن العقيدة الصالحة؛ ولأن العمل إنما ينفع بحُسْن أثره في النفس، ونفوسُ هؤلاء قد أوْغَلَ فيها الفساد بسوءِ العقيدة، فيستحيل فيها الجيِّد رديئاً. وذلك كلُّه بإفسادهم لغرائزهم بسُوء تصرُّفهم بها وتربيتهم لها.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ جزاء الآخرة إنما هو أثر للأعمال في الدنيا، يترتَّب عليها ترتُّب

إيجاد العلة للمعلول[١]، فقال: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ بكسب أيديهم نتيجة إفسادهم لنفوسهم؟

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ حكاية صفحة أخرىٰ من القصة علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فذكر ما كان من أمر بني إسرائيل بعد ذهاب موسىٰ عليه السلام إلىٰ أرض الميعاد، واستخلاف هارون عليهم ووصيَّته له بأنه يحكم سياستهم، ويتقن إدارتهم، فقال: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾، وهذا من التَّجوُّز في استعمال اللفظ لصُورة مدلوله، كالفرس لصورته المرسومة. وقوله: ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ استعارة تخييليَّة رُشِّحت بها الاستعارة الأصلية؛ ليتمكَّن في الذِّهن أنَّ الصورة كانت متقنةَ الصنع، فيرتاب الناظر إليها أنها عجل حقيقي من ذوات الخوار، لا صنعي، (كما جاء ذلك في المادة الثانية والعشرين من المقدمة السادسة في أنواع المجازات في القرآن). وهذا الترشيح شبيه بقوله

(١) نسبةُ إيجاد المعلول إلىٰ العلة غيرُ صحيحة، وهو مَيْلٌ من المؤلف رحمه الله إلىٰ قول المعتزلة بتولُّد المعلول من العلة، والحقُّ أن التأثير والإيجاد إنما هو لله تعالىٰ وحده، كما هو قولُ أهل السنة والجماعة. وترتُّب الجزاء علىٰ العمل إنما هو بترتيب من الله سبحانه، فلا يكون من باب العلة العقلية، بل هو سبب شرعي. وينظر الجواب المفصّل على دعوىٰ المؤلف هذه في مقدمة الكتاب.

تعالىٰ في سورة تَبَّتْ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥]. وقيل: بل صنعه علىٰ وَضْع يدخل فيه الهواء فيُصوِّت كالصافرة، ثم قرَّعهم علىٰ سَخَافتهم وغباوتهم فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: ألم يرَوْا أنه فاقد الكلام والشعور، فَضْلاً عن أن يكون له صفة الإله الحق من الهداية والإرشاد، فقوله: ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ زيادة في الاستدلال، وتكميل له ببيان صفة الإله الحق.

ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ لأنفسهم بهذا الجهل المبين.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾[1] باتِّضاح جهلهم، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ ضلالاً بعيداً بعملهم هذا، ندموا و﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ هذه الزلَّة العُظْمىٰ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ لأنفسهم بالكفر والضلال.

ثم ذكر ما كان من أمر موسىٰ عليه السلام تجاه هذا الحادث من قومه، فقال: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾، والأسف: شدَّة الحزن والغضب، ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾: أي: من بعد ذهابي إلىٰ مُناجاة الله تعالىٰ.

ثمَّ وبَّخهم بقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ قال عطاء: يريد: أعجلتم سخط ربكم[2]. ويجوز أن يكون المعنىٰ: سبقتم شريعة ربكم التي وَعَدَنا بها، واتَّخذتم لكم شريعةً باطلة، يؤنِّبهم بذلك ويَسْخَرُ بهم، ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ من يديه ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ من ذَوائبه[3]؛ لشدَّة غضبه لله تعالىٰ، وأَسَفِهِ لما فعل قومه، وظنِّه بتقصير أخيه، إذ كان

---

(١) هذه الجملة يُعبَّر بها عن العلم بالخطأ والندم والذم. (المؤلف).

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٥: ٣٧٣).

(٣) جمع ذُؤابة، وهي: منبت الناصية من الرأس. «لسان العرب» (ذأب).

الواجب عليه ـ في اجتهاد موسىٰ ونظره ـ أن يَرْدَعَهم ويكفَّهم عن عبادة العجل، كما فعل هو حيث سحقه بالمبرد وألقاه في اليم، أو أن يَتبَعَه إلىٰ جبل الطور إن لم يقدر علىٰ عمل شيء، كما حكىٰ الله عنه ذلك في سورة طه: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٢-٩٣].

أما هارون فاعتذر، و﴿قَالَ﴾ لموسىٰ مستعطفاً: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾ إذ لم آلُ جهداً في الإنكار عليهم والنصح لهم، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ﴾ هؤلاء ﴿ٱلْأَعْدَآءَ﴾ بتعنيفي، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ لأنفسهم بعبادة العجل.

ومن المعلوم أنَّ موسىٰ لم يكن يعتقد أنَّ أخاه منهم وعلىٰ شاكلتهم، ولكن هارون نَزَّلَه لفعله هذا معه منزلة مَنْ يعتقد به ذلك؛ مبالغةً في الاعتذار. فالكلام مُخرَّج علىٰ مقتضىٰ الظاهر، لا علىٰ الحقيقة، وذلك مما تقتضيه البلاغة.

فلما اعتذر بهذا الاعتذار، لانَ له موسىٰ واستغفر له ولنفسه، و﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ما أغلظت له، ﴿وَ﴾ اغفر ﴿لِأَخِى﴾ ما عساه قَصَّره فيه، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾. والسياق يدلُّ علىٰ أنَّ هارون كان دون موسىٰ في قوَّة الإرادة وشدَّة العزيمة، وهو ما اتفق عليه علماؤنا وعلماء أهل الكتاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

أما حكم الله تعالىٰ في هذه القضية، فقد ذكره بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ علىٰ الله.

ثم ذكر حكم التائبين منهم بصورةِ حكم عام، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أي: من بعد تلك التوبة ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ ۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾.

ثم قصَّ سبحانه وتعالىٰ ما كان من أمر موسىٰ بعد زوال غضبه، فقال: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾، لأنَّ خَوْفَ الله يجعله مُستعداً للنظر والتدقيق فيما يرضي الله ويغضبه، ليتمسَّك بالأول ويتنكّب عن الثاني. وقد استعار صفة السكوت للغضب للإشارة إلىٰ أنه هو الذي كان يُغْريه بالكلام. ويجوز أن يكون من إيجازات القرآن بطريق الحذف والاكتفاء. والتقدير: ولما سكت موسىٰ وذهب عنه الغضب.

والنُّسْخةُ من النَّسْخ؛ كالخُطْبة من الخِطاب.

ثم قصَّ سبحانه وتعالىٰ ناحيةً أخرىٰ من القصة، فقال: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ ﴾[١] أي: من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾. وقد اختلف المفسِّرون في هذا الميقات: أهو الميقات الذي تقدَّم الكلام عنه، فتكون الآية عَوْداً وتفصيلاً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك؟ أم هو ميقات آخر؛ وقَّته الله لهم بعد حادثة العجل، للاعتذار وتأكيد التوبة منها؟ ولكلٍّ من الفريقين أدلة وتوجيهات.

ثم ذكر ما كان من أمرهم: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾[٢]، وقد اختلفوا كذلك في سبب أخذ الرجفة إياهم: أكان طَلَبهم رؤيةَ الله جهرة، كما تقدَّم في سورة البقرة، أم سبباً آخر؟ ولكلٍّ منهم أدلّة وتوجيهات.

---

(١) وفي قوله: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ ﴾ حذف وإيصال من أساليب العرف. والتقدير: واختار موسىٰ من قومه. (المؤلف).

(٢) أي: لما أخذتهم الصاعقة والزلزلة، توجَّه موسىٰ إلىٰ الله بالتَّضرُّع، واستشفع بما سبق له سبحانه فيهم من الرحمة والإحسان عندما نجاهم من آل فرعون، و﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ أي: يا رب، فكما أنجيتنا من فرعون وعملِه فيما مضىٰ، فاغفر لنا جريمة هؤلاء الجهال ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟! حاشاك وأنت أرحم الراحمين. ثم اعترف بأنهم مستحقُّون للجزاء بما ظهر من حال هؤلاء، فقال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، فتَنَه فِتْنةً؛ بمعنىٰ: خَبرَهُ خِبْرة. أي: اختبره وعلم حاله عن تجربة وأمر واقع، يريد: أن الوقائع أظهرت ما طويت عليه سرائرهم، فأنت ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي: تُظهِرُ بهذه الاختبارات ضلالَ ﴿مَن تَشَآءُ﴾ إظهارَ ضلاله، ﴿وَتَهْدِى﴾ أي: تُظهرُ بهذه الاختبارات هدايةَ ﴿مَن تَشَآءُ﴾ إظهارَ هدايته. ثم أكمل الاسترحام والتضرُّع بقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ إلخ، وفي موقف موسىٰ هذا شيء من طبيعة موقف رسول الله ﷺ في بدر ودعائه بقوله: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد في الأرض». ولكن موقف نبيِّنا ﷺ كان خوفاً من استئصال الكافرين الأقوياء بعَدَدهم وعُددِهم لأتباعه المؤمنين الضعفاء في ذلك، وموقفُ موسىٰ عليه السلام خَوْفٌ من عذاب الفتنة العام إذا وقع، فيشمله والمؤمنين؛ لأنه لا يصيب الذين ظلموا خاصَّة، كما جاء في الآية. والله أعلم. (المؤلف). وحديث: «اللهم إن تهلك..» رواه مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم.

وأراد موسىٰ عليه السلام بهذا الكلام ذِكرَ العفو السابق لاسْتجلاب العفو اللاحق والاستشفاع به إليه، يعني: إنهم كانوا قبل هذا مستحقِّين للإهلاك بعبادتهم العجل، ولم يكن من موانعه إلا عَدَمُ مشيئتك إيَّاه ورحمتُك بهم، فحيث عَفَوْتَ عنهم في تلك الجرائم، فأسترحمك أن تعفوَ عنهم في هذه الجريمة. وروحُ الكلام استعطافٌ ودعاءٌ من الله تعالىٰ أن يعفو عنهم في هذه الجريمة أيضاً، فقد استشفع بعفوه سبحانه عنهم فيما سبق لعفوه عنهم في هذه المرة أيضاً، والله أعلم، أو استشفع بتَنْجيته لهم من فرعون ومَلَئِهِ لعفوه عنهم الآن.

ثم أتبع الكلام بالاستعطاف أيضاً، فقال: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾، فهذا الاستفهام مَرَدُّه الاسترحام بشأنه ورأفتِهِ العامة أن لا يفتنهم بالفتنة التي لا تُصيب الذين ظلموا منهم خاصَّة. أي: ربَّنا لا تُهلِكنا بما فعل هؤلاء.

ثم قرن التَّضرُّع وطلب العفو عنهم بالاعتراف بأنهم مُسْتَحقّون العقوبةَ إذا لم ينلهم عفوُ الله؛ إذ قد ظهر كفرُهم وضلالُهم بنتيجة امتحانهم واختبارهم، فقال: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾[1]، يقال: فتن الذهب؛ إذا عمل به ما ينكشف أنه مغشوش، ويقال: فتَنَهُ فِتْنَةً؛ بمعنىٰ: خَبَرَه خِبْرة، أي: علم أمرَه عن واقع وتجربة.

---

(١) الفتنة: الاختبار، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن: ١٥] أي: اختبار يظهر فيها أثر صلاح نفوسكم أو فسادها، فالصالح يقبل الحق ويُجريه علىٰ ماله وولده، وغير الصالح يتعصَّب لماله وولده ضدَّ الحق ويتعسَّف به. والمعنىٰ هنا: إنَّ في الحوادث والمصالح اختبارات لله سبحانه في بني الإنسان، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الكهف: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك: ٢] أي: ليختبر أعمالكم في الحياة الدنيا ويجازيكم بها في الآخرة. وكلمة «فَتَنَ» في أصل اللغة معناها: اختبر. ولكن يقال: فتن المعدن، أي: وضعه في نار ليختبره. ففيها معنىٰ الشدَّة من جرَّاء الوضع في النار، وفيها معنىٰ الاختبار، وفيها معنىٰ التنقية، فتأتي في الكلام بأحد هذه المعاني أو بمعنيين منها أو بالمعاني الثلاثة. وكذلك لفظ: البلاء، وما تصرَّف منه؛ يأتي علىٰ هذه الوتيرة. (المؤلف).

ومعنىٰ الآية: إنَّ هذه الوقائع والعوارض ما هي إلا امتحاناتُك واختباراتُك التي تجعلها سبباً لظهور استعداد الناس، وما طُوِيَت عليه سرائرهم من ضلال وهداية، وما يستحقُّون من عقوبة ومثوبة، فأنت ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ أي: تُظْهِرُ بها ضلالَـهُم، وهم الذين أفسدوا غرائزهم وطبعوها علىٰ الضلال، حتىٰ لم يَبْقَ فيهم من نور القلب وجلاء البصيرة ما يَرَوْنَ به الحقَّ ويبصرون وَجْهَ الصواب. فإذا اختُبروا بمثل هذه الاختبارات ظهرت نتيجة ذلك فيهم، حيث يميلون إلىٰ جانب الضلال والعِنَاد، ويُعرِضون عن جانب الهدىٰ والسَّداد، ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ أي: تُظهِرُ بها هدايتهم، وهم الذين حافظوا علىٰ غريزتهم من الفساد، فكانوا يبصرون ببصائرهم السليمة، ويدركون الهدىٰ بعقولهم المستقيمة، فإذا اخْتُبِرُوا بمثل هذه الاختبارات، ظَهَرَ هُداهُم ومالوا إلىٰ جانب الخير والرشاد، والصلاح والسَّداد.

وإنما أسند الإضلال والهداية إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأنه خالق تلك الطبائع الغريزية في الإنسان، المستعدة للهدىٰ والغَواية، بتصرُّفاته في نفسه حسناً وإساءة، علىٰ نهج القرآن في أمثال ذلك، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدِّمة الثانية).

ثم أكمل الاسترحام والتضرُّع بقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ حياةً ﴿حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كذلك؛ ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تُبْنا إليك ورجعنا. فضمَّن الهداية معنىٰ الرجوع، علىٰ نهج القرآن في التضمين، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، وفي المادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة).

وقد أجابه سبحانه وتعالىٰ بقاعدة عامة في شأن العقاب والثواب؛ ليكون حلقةَ وَصْل بين الكلام عن موسىٰ ومحمد عليهما السلام، وذلك ما جاء بقوله: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ وهم الذين يستحقُّونه بما كَسَبَت أيديهم؛ لأنَّ مشيئته تعالىٰ تجري

بمقتضىٰ الحق والعدالة، ثم قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: إنَّ عذابي خاصٌّ ورحمتي عامَّة في سائر المخلوقات، وسيختصُّ قسمٌ عظيم منها بالمتقين. وهذا ـ والله أعلم ـ معنىٰ قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾(١) من أيِّ الأمم كانوا؛ السابقين أو اللاحقين الذين منهم أمة محمد ﷺ.

وقيل: إنما أعاد الموصول بالعطف مؤكداً بالضمير، للإشارة إلىٰ أنَّ الأول عام فيمن استمرَّ علىٰ التزام التقوىٰ وأداء الزكاة من قوم موسىٰ الذين دعا لهم بطلب الرحمة والمغفرة من الله تعالىٰ، والثاني: خاصٌّ بمن يدركون بعثة خاتم الرسل عليه السلام ويتبعونه.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ...﴾؛ بَدَلٌ منه، أو عطفُ بيانٍ عليه وحدَه دون الأول. وقيل: بل إنما فَصَل اسم الموصول هنا؛ لأنه بيانٌ مستأنف للموصولَيْن اللذَيْن قبله معاً مُتّحدٌ معهما في الماصدق، لأنها كلَّها تَصْدُقُ علىٰ أتباع ﷺ، وإن اختلفت في المفهوم. والأمِّيَّة: وصف خاصٌّ بمحمد ﷺ، وهي آية من آيات نبوته.

ثم قال في إتمام الوصف: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾ أي: المتَّبعون له من بني إسرائيل اليهود منهم والنصارىٰ، يجدون وَصْفَه ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾(٢)

---

(١) إنَّ الشرائع السماوية كلَّها مشروع واحد بالنوع، تدرَّجت نحو رُقيِّ النوع الإنساني، فكان السابق يُعَرِّفُ عن مجيء اللاحق ويوصي باتِّباعه، ولا سيما الشريعة النهائية التي تَمَّ بها هذا المشروع، وكان يكمِّل اللاحقُ منها السابقَ، ويندمج السابق باللاحق بمقتضىٰ قانون النسخ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. فعلىٰ المؤمن بأحدها أن يؤمن بكلِّها بحكم وحدتها النوعية؛ ما سبق منها وما لحق، ولا ينكر واحدةً منها، لأن من أنكر واحدة منها فقد أنكرها كلَّها، لوحدتها النوعية، وأن يتَّبع ما كان في عصره منها، ومعمولاً بها فيه. هذا ما أراه، والله أعلم. (المؤلف).

(٢) يقول المؤرخون حتىٰ الغربيون: إنَّ التوراة التي بأيديهم كتبها عزرة الكاهن بعد ألف وخمس مئة =

الصحيحَيْن، لا اللَّذَيْن بأيديهم الآن، فإنهما معاً قد بشَّرا به، حتىٰ إنَّ معنىٰ الإنجيل: البشارة. وخصَّ بهذا الاسم لهذه الغاية؛ لأنه إنما جاء ليُبشِّر بقُرب مجيء هذه الشريعة وهذا النبيّ المنتظر ﷺ. وقد فَصّل ذلك في تفسير سورة الصف، فارجع إليه.

ثم ذكر خلاصة ما جاء به هذا النبي ﷺ، فقال: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، وفي هذه الصفات تنويهٌ بشأن الشريعة الإسلامية، وتلميحٌ إلىٰ وجوه التشريع فيها.

والمعروف: ما تعرف العقول السليمة حُسْنَـه وتـرتاح له. والمنكر: عكسُه[1]. والطيِّبات: ما تستطيبه الأذواق السليمة من المطعومات والمشروبات، والخبائث: ما تستقذره منها. ويشير نَظْم الآية إلىٰ أنَّ الدين الإسلامي لا يمنع من لذَّةٍ إلا إذا كان في إصابتها ضَرَرٌ علىٰ مصيبها أو علىٰ أبناء جنسه، ولا يحرِّم إلا ما فيه تَعَاسةٌ أو بلاءٌ حالاً أو مآلاً، فلْينظر المسلمون طبيعة شريعتهم التي أضاعوها، ولينظر أهل الكتاب إلىٰ ما جاءهم من الخير فأعرضوا عنه ومَقَتُوه.

ثم تابع البيان مُجْرِياً الكلام علىٰ بني إسرائيل، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يُـخفِّف عنهم ما كُلِّفوه بظلمهم، من التكاليف الشاقَّة. والإصْر: الشدة.

= عام، عند عودتهم من الأسر، وإنَّ الأناجيل التي بأيدي النصارىٰ إنما هي تاريخ لحياة عيسىٰ عليه السلام، كتبها بعض القِدِّيسين، فعندما يذكر القرآنُ التوراةَ والإنجيلَ يعني بها اللذَيْن أنزلهما الله. (المؤلف).

(١) في مسألة التحسين والتقبيح العقلي خلافٌ طويل، وأصح الأقوال فيها: أن العقل يُدرك حُسْنَ بعض الأشياء وقبح بعضها، ويخفىٰ عليه الحسنُ والقبحُ في بعضها، وفي الحالَيْن لا يترتب علىٰ هذا الإدراك حُكمٌ شرعي، ولا ثواب وعقاب. وهو قول الحنفية.

ثم نوّه بأمر متّبعي هذا النبيّ وفلاحهم، وبيّن كيفية اتّباعه بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ أي: بهذا الرسول ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: عظّموه ووقّروه، ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وهو: القرآن واستضاؤوا به ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾.

ثم قفّىٰ علىٰ هذه التمهيدات التي هيّأت لاتّباعه، وأردفها ببيان عموم بعثته ﷺ، ودعوة الناس كافّة إلىٰ الإيمان بالله وبكلماته المنزّلة ورسوله الذي أنزلت عليه، وأمره بالدعوة إلىٰ ذلك، فقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ بدينٍ عالميٍّ أرسلني به ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ وأفعال الألوهيّة وصفاتها مُقْتصرة عليه، ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ التي أنزلها لهدايتكم، وهي مظهر علمه وحكمته ورحمته، فآمِنوا بالله وصدِّقوا برسولِهِ هذا، ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ فيما جاء به وأنزل عليه، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ لِـمَا فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ يجوز أن يكون من كلام الله مستأنفاً، أو مُفرّعاً علىٰ السياق، ويجوز أن يكون مـما أمر الرسول بتبليغه.

ولما حصر الفلاح باتّباع النبيِّ ﷺ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، عقَّب عليه بقوله: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ﴾[1] أيضاً ﴿أُمَّةٞ﴾ كانوا ﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي جاءهم

---

(١) ويجوز أن يكون هذا علىٰ نهج القرآن إذا نَقَد أمة، وكان فيها قلة من الصُّلَحاء، يستثنيهم تحرِّياً=

به موسىٰ، ﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾ إذا حكموا بين الناس. فضمّن ﴿يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾ معنىٰ: يحكمون، وعدّاه تعديتَه. وهذا كالمستثنىٰ ممن سبق الكلام عنهم من قوم موسىٰ. والظاهر أنَّ هؤلاء كانوا في عصره وبعد عصره إلىٰ حَدٍّ ما.

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾.

ثم انتقل إلىٰ سياق آخر من أخبار قوم موسىٰ في التِّيه، ونِعَمِهِ عليهم، ومقابلتِهم كلَّ ذلك بالتمرُّد والكفر، فقال: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗا﴾ أي: اثنتي عشرة فرقةً تُسمَّىٰ أسباطاً، أي: أمماً وجماعات، يمتاز كلٌّ منها بنظام خاصّ في معيشته وبعض شؤونه. فالأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب. وقوله: ﴿أُمَمٗا﴾ بيان للمعنىٰ الاصطلاحي للأسباط.

ثم ذكر مِنَّته عليهم، فقال: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾ وهم هؤلاء الأسباط: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ أي: انفجرت ﴿مِنۡهُ

= للحق الدقيق، ويجوز أن يكون تتميماً للكلام عن الـمُتَّبِعين منهم للرسول الذين جاء الكلام عنهم في السياق، فيكون تقريراً لما سبق. (المؤلف).

ﱡﭐ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ ﴾ منهم، أي: علم أناس كلّ سِبطٍ ﴿ مَّشۡرَبَهُمۡ ﴾ أي: عَيْنَهم الخاصَّة بهم، تنظيماً لأمرهم في التِّيه، ﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ ﴾ لِيَقِيَهم من لفح الشمس، ﴿ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ ﴾ طعاماً لهم. وقد مرَّ تفسيرهما في سورة البقرة(١).

ثم امتنَّ عليهم مُحسِّساً بقوله: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ ﴾، وإنما وضع هذا الوصف للمَنِّ والسلوىٰ موضعَ الضمير لتعظيم شأن المنَّة بهما، وفي ذلك تحسيسٌ بالنعمة وإلزامٌ لما كان يجب عليهم من الشكر باتِّباع أوامر الله والسَّيْر بمقتضىٰ الشريعة التي كانت سبباً لذلك، ولكنهم قابلوها بالكفر والتمرُّد حسب عادتهم، وقد أنبأ عن هذا بقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ بكفرهم وعنادهم؛ لأنَّ الله غنيٌّ عن عباده، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ ﴾ بذلك ﴿ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠ ﴾ حيث خَرَجوا عمَّا يحفظ لهم سعادتهم في الدارين، إلىٰ ما يُرْديهم فيهما. والسعادة ليست بجمع المال، ولكن بالأخلاق والأحوال وحُسْن الفعال، وفي الآخرة سعادة وعيش رغيد.

ثم ذكر لهم شنيعةً أخرىٰ، فقال: ﴿ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ ﴾ أي: ادعوا بأن تُحطَّ عنكم خطاياكم، أو قولوا: لقد حَطَطْنا رحالنا في القرية التي وعدتنا، فنشكرك يا ربنا، ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ أي: مُخْبتين متواضعين، شكراً لله علىٰ ما أنعم اللهُ عليكم في ذلك، فإن فعلتم ﴿ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ ﴾، وفوق ذلك ﴿ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ ﴾ في عملهم جزاءً وافراً، فَقَطْعُ الجملة بحذف الواو، والاستئنافُ يدلُّ علىٰ عَظَمة الزيادة.

ثم ذكر ما كان من أمرهم تجاه هذه الأوامر، وقال: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ

---

(١) في الآية ٥٧.

﴿قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ أي: خالفوا تلك الأوامر ولم يفعلوها. وقد مرَّ تفسير هذه الآيات في سورة البقرة(١).

ثم بيّن جزاءهم بقوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: عذاباً تَضْطرب له القلوب وترتجز، وذلك ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾ أي: الحقَّ والعَدْلَ بكفرهم وعنادهم، وهو ظلمٌ عظيم، ويُتْبِعُون النِّعَم بالكفر والعصيان.

﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾.

ثم ذكر لهم جريمة أخرىٰ، وهي الاعتداء علىٰ السبت، وصاغها بصيغة التأنيب التقريعي، فقال: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي: قريبةً منه، ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ أي: يَتجاوزون حُكمَ الله بالصيد المحرَّم عليهم فيه. وقد ابتلاهم الله وأظهر خبثهم، ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ﴾ أي: سَمَكُهم، وإضافةُ الحيتان إليهم إما لأنها في قريتهم، أو لما كان من ابتلائهم بها واحتيالهم علىٰ صيدها، إذ كانت تأتيهم ﴿يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا﴾ أي: ظاهرةً علىٰ وَجْه الماء؛ لشُعورها بالأمان ذلك اليوم، ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡ﴾ لشعورها بالخطر.

ثم ختم الآية بما فيه تبريرٌ لهذا التضييق عليهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾ أي: نختبرهم بمثل هذا التشريع ليظهر فسقهم.

---

(١) في الآيات: ٥٨-٦٠.

وكانت الحيتان في هذه القرية قد اعتادت أن لا يتعرَّض لصيْدها أحدٌ يوم السبت، فأمنت وصارت تظهر فيه، وتخفىٰ بقية الأيام، فاحتالوا لحبسها يوم السبت وصَيْدها في غيره، فظهر فِسْقُهم؛ لأنَّ الحبس والصيد سواء. والحيوان يعتاد بطبيعته، ويُدرَّب علىٰ تحديد المُدَدِ الزمانية لعارضٍ يعرض له فيها ويتكرَّر عليه، أو عمل يُدَرَّبُ فيه. ويجوز أن يراد بالبلوىٰ: الابتلاء.

ثم تابع الكلام علىٰ بقية متعلقات هذه الجريمة في النهي عنها، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ أي: قياماً بالواجب، وهو النَّهيُ عن المنكر لعلهم يرتدعون. وفي الآية من الإيجاز البليغ ما لا يوجد نظيرُه في غير القرآن. فهي تدلُّ علىٰ أنَّ أهل القرية كانوا ثلاث فرق: فرقة العادين علىٰ السبت، وفرقة الواعظين لهم، وفرقة اللائمين للواعظين علىٰ وعظهم لهم.

ثم ذكر ما نال العادين والواعظين من الجزاء الدنيوي بقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: فلما نسي العادون ما ذكَّرهم به الواعظون، بأن أعرضوا عنه كالمنسي، ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ أي: شديد البُؤْس ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ أي: بسبب فسقهم المستمر الذي منه الاعتداءُ في السبت، أي: بسبب خروجهم عن نظام الدين، بالإعراض عن أوامر الله تعالىٰ ونواهيه والتلاعب فيه.

والآية ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين ونجاة الصَّالحين الذين نَـهَوْهُم عن عمل السُّوء وارتكاب المنكر، وسكتت عن حكم الفرقة التي أنكرت علىٰ الواعظين، فقيل: إنها لم تَنج، لأنها لم تَنْهَ عن المنكر، بل أنكرت علىٰ الذين نهوا. وقيل: بل نجت لأنها كانت يائسةً من فائدة النهي، جازمةً بأنَّ القوم قد استحقوا عقاب الله بإصرارهم فلا يفيدهم

الوعظ. فالاستفهام لا للإنكار، ولكن للاستبعاد. وقد رجَّح الزمخشري هذا الرأي(١)، ورُوِيَ أيضاً عن ابن عباس وتلميذه عكرمة. ويجوز أن يكون الوعظ عاماً لا خاصاً بقضية السبت.

ثم أعاد الكلام ليُفَصِّلَ ذلك العذاب البئيس، زيادةً في التهويل، وقال: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾. وقيل: بل إنَّ هذا عذابٌ ثانٍ غيرُ العذاب البئيس الذي نالهم. وقد اختلفوا في كَوْن هذا المسخ للأبدان أو للأرواح، والأظهر الثاني(٢)، بمعنىٰ: أنهم أفسدوا طبائعهم وحرَّفوا فطرهم تحريفاً أخرجوها به عن طبائع البشر، حتىٰ انحطَّت إلىٰ طبائع القردة، فرُدُّوا إلىٰ أسفل سافلين. وهذا المسخ كثيرٌ في البشر؛ لقوله تعالىٰ في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤ – ٥] والعُتُوُّ: التكبُّر والطغيان. والله أعلم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه وتعالىٰ ما كانت ترتكبه بنو إسرائيل من الـمُعَارَضات

---

(١) انظر «الكشاف» (٢: ١٧٠).

(٢) بل الأظهر مسخُ الأبدان، كما تقدم بيانه تعليقاً على مقدمة المؤلف لتفسيره (١: ٦٤٧).

والخروج علىٰ الأوامر والنواهي، ذكر ما نالهم من الجزاء الدنيوي بمقتضىٰ سُنَّة الله في عقاب الأمم العاصية، حيث يُسلِّط عليهم أمماً أخرىٰ، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، كما جاء في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ...﴾ [الإسراء: ٤]، والتأذُّن: الإعلام المكرَّر، والمراد به هنا: تكرار الإعلام بهذه السُّنَّة الطبيعية في تأديب الأمم العاصية، وأنها لا تتخلَّف، وقد أيَّد ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خَرَجَ عن أوامره ونواهيه، بمعنىٰ أنَّ سُنَّة الله تعالىٰ مَضَت أن تكون النتائج أثراً للأعمال من دون تأخير، فَمَنْ أساء العمل وعاكس السنن الكونية أصابته النتائج السيئة علىٰ إثر ذلك، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ لمن تاب عَقِبَ الذنب توبةً أصلحت نفسه فأصلح عمله.

ثم بيَّن تعالىٰ كيف كان بَدْءُ إذلال اليهود بإزالة وحدتهم وتمزيق جامعتهم وتشتيتهم في الأمم، فقال: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دونَ الصَّلاح، أو هم منحطُّون عن الصَّلاح بالكفر والفسق، ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾، وهذا يُؤذن بأن البلايا والاختبارات إنما هي للتهذيب والتمحيص، فالمستعدُّ للخير يرعوي بها عن غَيِّه، والمستعدُّ للشرِّ يزداد ضلالاً علىٰ ضلاله، ويظهر منه ذلك للناس.

والظاهر أنَّ هذا هو حال الصَّدر الأول منهم، أما من بعدهم فقد ذكرهم كذلك بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ ـ بسكون اللام ـ ويغلب استعماله في الشرِّ، كما هو مراد هنا، حيث قال عنهم: ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: التوراة، فكان من شأنهم فيها ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: هذا الحطام الحقير من متاع الدنيا. والمراد: الاتِّجار بالدين والمُحاباة بالحكم والفتوىٰ تجاه ما يأخذونه من ذلك الحطام، فيبيعون دينهم بدنياهم، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ولا نُؤاخَذُ بما أذنبنا، فإننا شعبُ الله الخاصُّ وسلائلُ أنبيائه، ﴿وَإِن

﴿يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أي: مستمرون علىٰ الرشوة في الدين، يريد: أنهم مُصِرُّون علىٰ الذنب عائدون إلىٰ مثله غير تائبين، وإنما وعد الله بالمغفرة التائبين.

وقد أنَّبهم وَرَدَّ عليهم بقوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، فكيف يبيعونه بعَرَضِ هذا الأدنىٰ؟ وما بالهم يجزمون بأن الله سيغفر لهم مع إصرارهم علىٰ ذنوبهم، فهم يقولون ويعملون علىٰ خلاف ما في الكتاب؟ ﴿وَ﴾ قد ﴿دَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ وعلموا تعاليمَه ومقرَّراتِهِ.

ثم أضاف التَّجهيل والتَّحسيس إلىٰ التأنيب، ودعا إلىٰ الهدىٰ بعد نقد الضلال، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وصفاً للدواء بعد تشخيص الداء، فقال: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾، فكيف تستبدلون الأدنىٰ المؤدِّي إلىٰ العقاب بالنعيم المخلَّد من الثواب؟

ثم أردف البيان عن هؤلاء بالبيان عن مصير المتَّقين منهم، علىٰ نهج القرآن في إرداف نقد الأمة الضالة باستثناء القلَّة الصالحة منهم تحرِّياً للحق، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾، وأقام المُظْهَرَ مقامَ المُضْمَرِ للإيماء إلىٰ العلَّة. و﴿يُمَسِّكُونَ﴾ لغةٌ في: يتمسكون.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ السياق ـ وزيادةً في التأنيب علىٰ تلاعبهم بالدين ـ ذكر العهد الذي أخذه عليهم في العمل بالتوراة بكل جهد، وضَمَّنه بيانَ الهدايتَيْن اللتين هَدىٰ بهما الإنسان: الهداية الشرعية والهداية الطبيعية، وأنه لم يَبْقَ للإنسان حجَّةٌ علىٰ الله بعدهما، فقال: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ وكان معجزةً رهيبةً وآيةً من آياتهم التسع،

وقد مرَّ البيان عن هذا في سورة البقرة[١]، وللتقرير بأنه أمر حقيقي، ذكر رهبتهم منه، فقال: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ فهذا ترشيحٌ وتحقيق لما قبله.

وبعد أن أرهبهم بِنَتْقِ الجبل علىٰ هذه الصُّورة، أمرهم بأخذ العهد علىٰ أكمل الصُّور، للإيذان بأنَّ هذه المعجزة كانت لهذه الغاية، فقال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ من أحكام التوراة ﴿بِقُوَّةٖ﴾ أي: اعملوا بما فيه بكل جهدكم، ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ علىٰ الدوام، ولا تنسوا منه شيئاً، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١﴾ أي: ليُعِدَّكم ذلك للتقوىٰ. ولكنهم اشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، وعبثوا بأحكام التوراة تجاه شيءٍ من حطام الدنيا التافه الحقير.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ تـمكينٌ وتحقيقٌ لنتق الجبل بالفعل. وهي آيةٌ كونيةٌ من آيات الله التي يُخوِّف بها عباده، وإن كانت بأسباب طبيعية معروفة أو غير معروفة[٢]. ويجوز أن تكون هذه الآية بحركة زلزال بركانيّ قوي رفع الجبل عالياً وعاد إلىٰ مكانه ومَقَرِّه، وإن حدث به شيء من الخلل. وفي الآية تعريضٌ بأنهم لم يأخذوا العهد في أول أمرهم إلا بالترهيب، فكيف بهم الآن؟!

﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٧٤﴾.

وبعد كلِّ ما تقدَّم من بيان إرسال الرسل وإنزال الكتب لهداية البشر إلىٰ صلاح الدارين وإبعادهم عن الشِّرك بالله، الذي هو ـ مع ضلاله الفظيع في نفسه ـ أساسُ كلِّ

---

(١) في الآية ٦٣.

(٢) وقد تكون بلا سبب طبيعي، فالعقلُ لا يمنع ذلك؛ لأنه أمر ممكنٌ في نفسه، والأسباب الطبيعية إنما هي أحكام عادية، أي: جرت بها العادة، فلا تُقيِّد بها أفعالُ الله تعالىٰ.

ضلال في النظم الاجتماعية، وفي النفوس الروحانيَّة، وبعد كل ذلك ذكر ما أودع أيضاً في الفطرة من الهداية إلىٰ الحقِّ والرَّشاد، والاستعداد إلىٰ الإيمان الصحيح والتوحيد والتنزيه المغروس في نفوس العباد، وهو المسمَّىٰ بالغريزة الدينية؛ ذكره ليكون تتميماً لحجَّة الله علىٰ الناس، ودفعاً لما يرد في خاطر الجاهل من أنَّ هؤلاء الضَّالِّين لو لم يطبعهم الله علىٰ الضلال لما ضلوا. وقد ذكر ذلك بطريقة التَّمثيل(١) ـ والله أعلم ـ فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وكوَّنها في أرحام الأمهات علىٰ العقيدة الصحيحة بالخالق تعالىٰ، وهي التوحيد والتنزيه، فلا يمكن لأحد أن يتجرَّد منها بتاتاً مهما حاول بلسانه ودافع ببرهانه؛ لأنَّ هذا الشعور الروحانيَّ تحمله الروح من عالم الأرواح، وبسنن الفطرة وطبيعتها، رغم أنف صاحبها، ويظهر ذلك فيه جلياً عند الشدائد التي تَسُدُّ عليه المنافذ، فلا يتوجَّه حينئذ إلا إلىٰ الله مهما كانت عقيدته.

والقرآن العظيم يضرب المثل في ذلك للمشركين إذا ركبوا البحر وتَهيَّجَ عليهم الموجُ، لا يلجؤون إلا إلىٰ الله، فإذا انكشف عادوا إلىٰ الشِّرك العارض الذي تطبَّعت عليه نفوسهم، فإذا هم مشركون.

فهذا الميثاقُ الفطريُّ المطبوعُ عليه الإنسان في التوحيد والتنزيه ما لم يفسده بصنعه؛ هو المعنيُّ ـ والله أعلم ـ بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾(٢).

---

(١) بل بطريقة الإخبار عن أمر وقع علىٰ الحقيقة، والقولُ بالتمثيل عدولٌ عن ظاهر اللفظ من غير سبب مُوجِب لذلك.

(٢) هذه الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨] وقوله تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] وأمثال ذلك من الآيات ـ والله أعلم ـ فهي تشير إلىٰ انطباع الإنسان علىٰ الهدىٰ بخلقته ما لم يفسد طبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة، والله أعلم. وعليه، فيكون الإنسان مهدياً بهدايتين: هداية طبيعية، وهداية تشريعية. وسائر المخلوقات مهدية بالهداية الطبيعية فقط؛ لذلك كانت الحجة البالغة لله عز وجل علىٰ الإنسان. (المؤلف).

وهذا القول قولُ إرادةٍ وتكوين، لا قولُ وحيٍ وتلقين[(١)]، (كما جاء في لاحقة المقدِّمة الثانية عند الكلام علىٰ مكالمة الملائكة ومكالمة إبليس)[(٢)]، فهو شبيه بقوله تعالىٰ:

---

(١) وهذا تفريعٌ علىٰ القول بالتمثيل الذي اختاره المؤلف، وتقدَّم التعليق عليه، أما علىٰ القول بأن الأمر علىٰ الحقيقة، فالقولُ هنا قولُ وحي وتلقين، وهو الراجح.

(٢) هناك فرق كبير بين إنكار عالم الذر وأخذ الميثاق علىٰ آدم وذريته، وبين إنكار كون ذلك تفسيراً لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وأن الميثاق الثابت في السنة هو الميثاق الذي تشير إليه الآية. فأهل السنة من حيث الجملة يؤمنون بالميثاق وعالم الذر، كما قال الطحاوي في عقيدته: «والميثاق الذي أخذه الله تعالىٰ من آدم وذريته حق». اهـ.

ولكنهم اختلفوا في كونه تفسيرا للآية، وجمهورهم يفسر الآية بذلك؛ للأحاديث والآثار المروية فيه، وبعضهم ينكر ذلك ويفرق بين الميثاق المشار إليه في الآية، وبين الميثاق الثابت في الأحاديث والآثار، ويضعف ما جاء منها مصرحا بالإشهاد عليهم في عالم الذر، ويفسر الإشهاد في الآية بالفطرة علىٰ التوحيد، ويقصر دلالة الأحاديث علىٰ إثبات القدر السابق واستخراج صور بني آدم وتميز أهل السعادة من أهل الشقاوة، وهذا ما قرره ابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (٢: ١٠٠٤) حيث قصر دلالة الأحاديث الصحيحة علىٰ ذلك، ثم قال: وأما الآثار التي فيها أنه استنطقهم وأشهدهم وخاطبهم فهي بين موقوفة ومرفوعة لا يصح إسنادها... وبالجملة: فالآثار في إخراج الذرية من ظهر آدم وحصولهم في القبضتين كثيرة لا سبيل إلىٰ ردها وإنكارها، ويكفي وصولها إلىٰ التابعين فكيف بالصحابة! ومثلها لا يقال بالرأي والتخمين، ولكن الذي دل عليه الصحيح من هذه الآثار إثبات القدر، وأن الله علم ما سيكون قبل أن يكون، وعلم الشقي والسعيد من ذرية آدم، وسواء كان ما استخرجه فرآه آدم هو أمثالهم أو أعيانهم، فأما نطقهم فليس في شيء من الأحاديث التي تقوم بها الحجة ولا يدل عليه القرآن. اهـ.

وهذا هو ما رجَّحه جماعة من أهل العلم كابن تيمية وابن كثير وغيرهم، ومن هؤلاء الأستاذ رشيد رضا الذي نقل المفسِّر الشيخ رشيد الخطيب فحوىٰ كلامه دون أن يصرح باسمه، حيث قال في تفسير المنار (٩: ٣٢٥): «والمعنىٰ: واذكر أيها الرسول في إثر ذكر ميثاق الوحي علىٰ =

= بني إسرائيل خاصة، ما أخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشر عامة، إذ استخرج من بني آدم ذريتهم بطناً بعد بطن، فخلقهم على فطرة الإسلام، وأودع في أنفسهم غريزة الإيمان، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أن كل فعل لا بد له من فاعل، وكل حادث لا بد له من محدث، وأن فوق كل العوالم الممكنة القائمة على سنة الأسباب والمسبَّبات، والعلل والمعلومات، سلطاناً أعلى على جميع الكائنات، وهو الأول والآخر، هو المستحق للعبادة وحده.. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي: أشهد كل واحد من هذه الذرية المتسلسلة على نفسه بما أودعه في غريزته واستعداد عقله قائلاً قول إرادة وتكوين، لا قول وحي وتلقين، ألست بربكم فقالوا كذلك بلغة الاستعداد ولسان الحال، لا بلسان المقال: بلى أنت ربنا والمستحق وحده لعبادتنا. فهو من قبيل قوله تعالى بعد ذكر خلق السماء: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وهذا النوع من التعبير والبيان يسمى في عرف علماء البلاغة بالتمثيل، وهو أعلى أساليب البلاغة وشواهده في القرآن وكلام البلغاء كثيرة». اهـ.

وعلق على ذلك صاحب كتاب «منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة» فقال: وبهذا يميل الشيخ رشيد إلى أحد القولين في تفسير هذا الميثاق، وهو الرأي القائل بأنّ استخراج الذريَّة هو خلقه تعالى لها جيلاً بعد جيل على ترتيبهم في الوجود، على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء، ودلهم بخلقه على أنه خالقهم، فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد، فتكون هذه الآية من باب التمثيل.. وهذا الرأي قد قال به من قبله بعض السلف، ومن القائلين به: ابن تيمية وابن القيم.

وأما الرأي الثاني، وهو المؤيد بالأحاديث المرفوعة والموقوفة فهو: أن الله أخرج جميع ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الذر، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ثم أرسل بعد ذلك الرسل مذكِّرة بذلك الميثاق. اهـ.

ثم قال: الرأي الثاني هو الصواب، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن، وتؤيده الأحاديث الصحيحة، المرفوعة والموقوفة، ومنها وأصرحها حديث ابن عباس وقد صح مرفوعاً، فوجب المصير إليه وطرح ما سواه، ومما يؤيد المرفوع الآثار الموقوفة، وعدم بيان الميثاق في بعض الأحاديث ليس مستلزماً لعدمه. اهـ.

ورجح ذلك أيضاً العلامة الشنقيطي في «أضواء البيان» (٢: ٤٣) وقال: هذا الوجه يدل له الكتاب والسنة... اهـ. ثم بيَّن ذلك. =

= وهذا هو الراجح إن شاء الله، وأن الإشهاد في الآية حقيقي، سواء أكان ذلك خاصا بالأرواح أو كان لها في أجسادها.

قال ابن القيم في كتاب «الروح» ص١٦٣: قال ابن الأنباري: مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية: أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم في صور الذر، فأخذ عليهم الميثاق: أنه خالقهم وأنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك وقبلوا، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم، كما جعل للجبل عقلا حين خوطب، وكما فعل ذلك بالبعير لما سجد، والنخلة حتىٰ سمعت وانقادت حين دعيت.

وقال الجرجانىٰ: ليس بين قول النبي ﷺ: «إن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته» وبين الآية اختلاف بحمد الله؛ لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد أخذهم من ظهور ذريته، لأن ذرية آدم لذريته بعضهم من بعض، وقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي عن الميثاق المأخوذ عليهم، فإذا قالوا ذلك كانت الملائكة شهودا عليهم بأخذ الميثاق.. قال: وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق إنما أخذ علىٰ الأرواح دون الأجساد، لأن الأرواح هي التي تعقل وتفهم ولها الثواب وعليها العقاب، والأجساد أموات لا تعقل ولا تفهم، قال: وكان إسحاق بن راهويه يذهب إلىٰ هذا المعنىٰ، وذكر أنه قول أبي هريرة، قال إسحاق: وأجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد، استنطقهم وأشهدهم. اهـ.

وكلام الإمام ابن راهويه نقله أيضاً الحافظ ابن عبد البر في «التمهيد» (١٨ : ٨٩)، ثم قال بعد بحث المسألة: ومعنىٰ الآية والحديث أنه أخرج ذرية آدم من ظهره كيف شاء ذلك، وألهمهم أنه ربهم، فقالوا: بلىٰ، لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. ثم تابعهم بحجة العقل عند التمييز، وبالرسل بعد ذلك؛ استظهارا بها في عقولهم من المنازعة إلىٰ خالق مدبر حكيم يدبرهم بها لا يتهيأ لهم ولا يمكنهم جحده، وهذا إجماع أهل السنة والحمد لله. اهـ.

ثم قال بعد ذلك: لزم التنبيه علىٰ أن إنكار عالم الذر بالكلية، وأنه لم يُستخرج بنو آدم من ظهره ولا أخذ عليهم ميثاق، أن هذا القول غلط، وأن الأحاديث والآثار ترده، وأن اتفاق أهل السنة علىٰ خلافه، ولذلك نسبه الحافظ ابن عبد البر لأهل البدع. فقال في «التمهيد» (١٨ : ٩٥): وأما أهل البدع فمنكرون لكل ما قاله العلماء في تأويل قول الله عز و جل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ [الأعراف: ١٧٢] قالوا: ما أخذ الله من آدم ولا من ذريته ميثاقا قط قبل خلقه إياهم، وما خلقهم قط إلا في بطون أمهاتهم، وما استخرج قط من ظهر آدم من ذرية تخاطب. اهـ.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. والله أعلم.

وهذه هي حُجَّة الله البالغة علىٰ عباده التي طالما ذكرها القرآن بقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، أي: عليكم. فلم يبق ـ بعد هذه الفطرة الصحيحة وبعد إرسال الرسل بالتوحيد والبيان لتأييدها ـ أيُّ عُذْرٌ للبشر في الشِّرك والجهالة. ولذلك ردَّ عليه سبحانه وتعالىٰ العذر بقوله: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: فعلنا هذا ـ منعاً لاعتذاركم أو احتجاجكم يوم القيامة بأنكم غافلون عن مثل هذا، أو فعلنا هذا ـ وهو الهداية الطبيعيَّة وإرسال الرسل بالشريعة ـ حَذَرَ أن تقولوا ذلك، ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ فلم نعرف غير الاقتداء بهم، ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ الذين اخترعوا الشرك ورأيناهم عليه، ولم نحسن غيره، ولم نعرف سواه؟ فأخذناه عنهم ثقةً بهم.

والمراد في وجهة الرد: أنَّ الله تعالىٰ لم يقبل عذر التقليد منهم، ولا الغفلة من بعد ما أقام الحُجَّة عليهم، حُجَّة الفطرة والعقل، وحُجَّة إرسال الرسل وإنزال الكتب في ذلك الأمر.

ثم ختم البيان بما يدلُّ علىٰ تحقيقه والتنويه بشأنه، ويزيد في وجوب الانتباه إليه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ ليعلموا جليَّة الأمر، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ عن جهلهم وتقليدهم الأعمىٰ.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

ثم ضرب مثلاً لهؤلاء المكذِّبين بآيات الله المنزَّلة مع ما يؤيِّدها من الغريزة الدينية بقصة عالِـمٍ أو صِنفٍ لم يعمل بعلمه، فتولاه الشيطان حتىٰ أضلَّه، وشرح بهذا المثل كيفية وقوعهم في هذا الضلال رغم تكوينهم علىٰ الهداية، فقال: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[1] أي: عَلِمَها وحفظ أحكامها، ولكنه عمل بخلافها. والعلم الذي لا يُعمَلُ به ولا يكون مَلَكةً لصاحبه، لا يكون له أثر في الأعمال ولا في النفوس ولا يلبث أن يزول، فمَثَلُه ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، وهكذا زالت التعاليم منه وانسلخ منها، ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ إذ لم يبقَ لديه من نور العلم والبصيرة ما يحول دون قبول وسوسته، فغوي بها.

وتحرير المثل: أنَّ هؤلاء المكذِّبين بآيات الله المنزَّلة علىٰ رسوله ﷺ، مع إيضاحها بالحُجَج والدلائل، كالعالِـمِ الذي حُرِمَ ثمرةَ الانتفاع من علمه في عمله، حيث لم يعمل به؛ لأنَّ كلاً منهما لم ينظر في الآيات نظر تأمُّل واعتبار، ولم يأخذها بعَزْم وقوة.

ثم عَقَّبَ علىٰ ذلك ببيان أنَّ انسلاخَه من الآيات وخروجَه عليها لم يكن قَسْراً للإرادة الرَّبانية، ولا عن عجز في القدرة الإلهيَّة، ولكنها تابعة للسنن الكونية في خلق الإنسان، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ بأن يخلق له الهداية

---

(١) بعد أن شرح في السياق حال بني إسرائيل، وبيَّن تلاعبهم بكتابهم ابتغاءَ المزيد من حطام الدنيا، لحرصهم الشديد عليها وإخلادهم إليها. ثم ألمع إلىٰ أنَّ ذلك فيهم ليس من أصل خلقتهم، ولكن من إفسادهم لطبيعتهم، وتقليدِ لاحقيهم لسابقيهم تقليداً أعمىٰ دون نظر وبصيرة بما وهبهم الله؛ بعد ذلك كلِّه، أمر نبيه أن يبيِّن لهم حالهم هذا، ومصيرهم فيه بهذا البيان والتمثيل المنطبق عليهم. (المؤلف).

خَلْقاً، ويحمله عليها طبعاً، فإنَّ ذلك لا يُعْجِزُه سبحانه، ولكنه مخالفٌ لسنَّته الحكيمة في خَلْق الإنسان، حيث خَلَقه مُخْتاراً يتصرَّف في شؤونه بعقله المكْتَسَب؛ ليكون ذا قدرة واسعة علىٰ العلم والتفكير والإرادة والعمل والإيجاد. تلك المواهب المعنية بالأثر القائل: «إن الله خلق آدم علىٰ صورته»(١)، أي: في الاختيار وسَعَة العلم والإيجاد. هذا هو مفاد الجملة والمراد منها، والله أعلم. ولذلك أسند الإخلاد إلىٰ هذا المنسلخ، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾(٢).

قال في «المنار»: أي: ولكنه اختار لنفسه التَّسفُّل المنافيَ لتلك الرفعة، بأن أخلد ومال إلىٰ الأرض وزينتِها، وجعل كلَّ حَظِّهِ من حياته التمتُّع بما فيها من اللذائذ الجسدية، فلم يرفع إلىٰ العالم العلوي رأساً، ولم يوجِّه إلىٰ الحياة الروحية الخالدة عَزْماً، واتَّبع هواه في ذلك.

وقد مضت سنة الله في خلق نوع الإنسان بأن يكون مختاراً في عمله المستعدِّ له في أصل فطرته؛ ليكون الجزاء عليه بحَسَبِه، وأن يبتليه ويمتحنه بما خلق في هذه الأرض

---

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد في «مسنده» (٨٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ورواه مسلم (٢٦١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «إذا قاتل أحدُكم أخاه فليجتنب الوجه؛ فإن الله خلق آدم علىٰ صورته».

(٢) قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالغ في طلب حظوظ الدنيا، وتطرَّف في ذلك، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ولم يتَّبع تعاليم الدين المعتدلة في طلب تلك الحظوظ، ولم يقف عند الحدود ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ أي: فكان تعبُه متواصلاً، وهمُّه متزايداً في سائر حالاته، ومشقاتُه متتابعةً ومتوالية حتىٰ في مَسَرَّاته.

يصوِّر لنا بهذا التمثيل حالة هذا المنسلخ من تعاليم الله، والمبالغ في اتباع هواه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وَوَجْه تلاوة هذا النبأ؛ لنحذر خطَّته، ونعارض الهوىٰ، ونتَّبع ما جاءنا من الحق من عند الله. (المؤلف).

من الزينة والملذَّات، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وأن يُوَلِّي كل إنسان ما تولَّىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

وقد مضت سُنَّة الله تعالىٰ بأنَّ اتِّباع الإنسان لهواه دون ما تَقْضي به تعاليم الله مما فيه المصلحة والفائدة له، من حيث هو جسد وروح، يُضِلُّه عن سبيل الله الموصلة إلىٰ سعادة الدنيا والآخرة، وينحدر به في سبيل الشيطان الـمُرْدية المهلكة، قال تعالىٰ لخليفته داود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦](١).

ثم ضرب المثل لهذا الـمُنهَمِك في أمر الدنيا ولذائذها، الـمُعرِض عن الآخرة ونعيمها، ولم يعتدل في أمرهما معاً، بقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ بالتهديد والضرب، ﴿يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ وادعاً أميناً ﴿يَلْهَث﴾ أيضاً. والمراد ـ والله أعلم ـ: أنه كان من إخلاده إلىٰ الأرض واتِّباعه لهواه وإجهاد نفسه في ذلك، في أسوء حال، خلافاً لما كان ينبغي من نعمة العيش وراحة البال، فهو في همٍّ دائم مما شأنه أن يهتمَّ به وما شأنه أن لا يهتمَّ به من صغائر الأمور وخسائس الشهوات، وكذلك هو في تعب مستمر في الشدّة والرخاء، وهمٌّ ناصب في النعيم والشقاء، حرصاً علىٰ نَيْل هذه الحياة الدنيا. وهذا هو وَجْهُ الشبه بينه وبين الكلب اللاهث علىٰ كلِّ حال، وهكذا يكون شأن كلِّ من ينسلخ عن تعاليم الله في هذه الحياة.

ثم ختم البيان بما يزيد في التحذير والإرشاد، فقال: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ

---

(١) تفسير «المنار» (٩: ٣٤١).

كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ، فاقْتَصَر همُّهم علىٰ الحياة الدنيا، وأخلدوا إليها باتِّباع الأهواء والشهوات، وفيه إيماءٌ إلىٰ أنَّ شرائع الله وتعاليمه إنما جاءت لتُرشد الناس إلىٰ طريق السعادتين في الدنيا والأخرىٰ، وأحلَّت لهم الطيِّبات، ولكن بصورة معتدلة، دون انهماك في الشهوات.

ثم أكَّد عليه أن يُبيِّن للناس هذا البيان، وأن يوقفهم علىٰ هذا الحق الحقيقي، وقال: ﴿فَٱقْصُصِ﴾ لهم هذا ﴿ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ ، وهذه الجملة تدلُّ علىٰ تعظيم شأن ضَرْب الأمثال في تأثير الكلام، وكونِهِ أقوىٰ من سَوْق الدلائل والحجج المجردة.

وهذا المثل يدلُّ ويكشف لنا أنَّ الراحة في الدنيا، والسعادة في الأُخرىٰ، إنما تكون باتِّباع شرائع الله وتعاليمه القيمة، ولذلك أنزلها الله، ثم زاد الكلام تأنيباً للمتلو عليهم بقوله: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وقَبُحت حالتهم ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ بما اختاروه لها من الإعراض عن التمسُّك بآيات الله وحرمانها من الاهتداء بهدي الله المؤدِّي للسعادتين الدنيوية والأخروية.

ثم أجمل البحث بصورة قاعدة عامَّة تتضمن سببَ عنادهم وتصلبهم في ضلالهم، فقال: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ وهو الذي آثر أسباب الهدىٰ باستعمال عقله وحواسه، بمقتضىٰ الفطرة وإرشاد الدين لسلوك سبيل الهدىٰ، ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ الفائز بالسعادتين، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ وهو الذي آثر أسباب الضلال بإفساده لطبيعته، وترك استعمال عقله في آيات الله تعالىٰ، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ لسعادة الدنيا والآخرة، أعاذنا الله.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ .

ثم فصَّل سَببَ الخسران، وذكر كثرة هؤلاء الخاسرين، بأسلوب من أساليب القرآن المسبوكة علىٰ التقريع والتوبيخ والتحقير، فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: أبرزنا وأظهرنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

ثم ذكر صفاتِهم التي ساقتهم لذلك، فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ أفسدوها فأصبحوا ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحقَّ، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾ كذلك ﴿لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الموجودات وما فيها من الدلالة علىٰ ألوهية الخالق وحده، وأنه لا ثاني له ولا شريك ولا شبيه ولا مثال، ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ﴾ كذلك ﴿لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الـهُدىٰ والـرَّشاد، ثم شنَّع عليهم بقولـه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ إذ ليست حياة الإنسان إذا غاضَ منها الإيمان واخْتَلَّت فيها العقيدة إلا كالحياة البهيمية، حيث يصبح الشخص فيها حيواناً بحتاً، شأنه شأن سائر الحيوان، لا همَّ له إلا أن يأكل ويشرب ويتلذَّذ بالشهوات البهيمية تبعاً لهواه. وأساس هذه الأعمال: إفساد الإنسان لطبيعته بالتربية السيئة والتقليد الأعمىٰ. وإنما يتميَّز الإنسان عن الحيوان بالحياة المعنوية الروحية. والعقيدةُ والإيمانُ هما أساسُ هذه الحياة وقوامها.

وبعد أن شبَّههم بالأنعام، أضْرَبَ في بيان الحقيقة إلىٰ ما هو أشنع فقال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، وذلك لأن الأنعام تحافظ علىٰ هدايتها الطبيعية، وهؤلاء بإفسادهم لطبيعتهم يفقدون كلَّ استعداد للهداية والرشاد. فالأنعام تستعمل مواهبها فيما خُلِقَت له وقُصِرَتْ عليه، وهؤلاء لا يستعملون مواهبهم فيما خُلِقَت له واتَّسعت إليه من مدارك الخير والرشاد. لذلك أنَّبهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ عما أعطاهم الله من الاستعداد لما فيه صلاحُهم وسعادتُهم في الحياتين، فهم أضلُّ من جميع أنواع الحيوان التي لا تجني علىٰ نفسها ما يجنيه الكافر علىٰ نفسه.

وتـحرير ذلك: أنَّ الحيوانَ لديه شعور طبيعي لا يخطئ فيه ولا يضلّ؛ لأنه لا

يفسده، بخلاف الإنسان، فإنه إذا أفسد عقله بمفاسد التربية، لا يكاد يصيب من الأمور الروحية شيئاً، وإنما يرىٰ الضلال هدىً، والهدىٰ ضلالاً، وهذا هو معنىٰ ما جاء في آخر سورة الأحزاب من قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وحمل بمعنىٰ: خان[١].

وبعد هذا التَّنديد، دَعَا الـمُستَعدِّين إلىٰ التوحيد، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد علىٰ الضلال ببيان طريقة الهُدىٰ، وَصْفاً للدواء بعد تشخيص الداء، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، يقال: دَعَاه بكذا؛ أي: سمّاه به. وإذا دعوت رجلاً بـ«كريم» مثلاً، فإنك تتذكَّر أثر كرمه وتقدُّره عليه. فالمراد تذكُّر أسمائه تعالىٰ وتذكُّر آثارها فينا وفيما خلق لنا، وإشعارُ القلب بذلك؛ لنشكره ولا نكفره. أي: لله سبحانه أحسن الصفات وأكملها، وأنها مصادر لفيض كلِّ خير في الحياتين، فخُصُّوه بالعبادة وادْعُوه بها أو صِفُوه، ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ أي: لا يشكرون آثارها فيهم، وإنما يقابلونها بالكفر والعصيان. وقال الراغب: الإلحاد في أسمائه علىٰ وجهين: أحدهما: أن يُوصَف بما لا يصحُّ وصفه به. والثاني: أن تُتأوَّل أوصافه علىٰ ما لا يليق به[٢] من تحريف أو تشبيه أو تعطيل، أو ما ينافي الكمال. ثم هدَّد الملحدين بقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

وبعد أن بيَّن حال مَنْ ضَلُّوا، بَيَّن حال من هُدوا، وقابل الكَثْرة بالقلَّة، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالاستثناء تحقيقاً للحق الدقيق، فقال: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ إذا حكموا في عقائدهم وأعمالهم. وهذه الجملةُ مقابلةٌ لقوله:

---

(١) هذا ما رجحه المؤلف وذهب إليه في تفسير سورة الأحزاب، وتقدم الجواب علىٰ هذا الترجيح (١: ٤٤٧-٤٤٨).

(٢) «المفردات» ص٧٣٧.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾، وكلتاهما تفصيلٌ لإجمال قوله تعالىٰ: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾، وقد جاء هذا التفصيل علىٰ طريقة اللفِّ والنَّشر المفرَّق، ليكون مطلع الكلام ومقطعه في المهتدين.

ثم ذكر حال المكذِّبين من أمة الدعوة، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ أي: سنأخذهم درجةً بعد درجة. والمراد: أنهم يسترسلون في غيِّهم وضلالهم من حيث لا يدرون شيئاً من عاقبة أمرهم. ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ والإملاء: الإمْداد في الزمن والإمهال والتأخير، والكيد كالمكر، وهو التدبير الخفي الذي ينخدع الـمَكِيدُ بمظهره حتىٰ ينتهي إلىٰ ما يسوؤه.

والمعنىٰ: أُمْهِلُ هؤلاء المكذِّبين في العمر وأمدُّ لهم في أسباب المعيشة، فهم يستوفون ذلك بمقتضىٰ سُنني في نظام الاجتماع البشريّ، وعاقبة أمرهم الخسران.

وليس المراد أنَّ الله سبحانه يوقعهم في المعاصي لينتقم منهم، فالله سبحانه مُنزَّه عن كلِّ ما يُوهم المكر والجور، كلا، بل إنَّ الله سبحانه يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤]. وإنما هو بيانٌ لحالهم المنبعث عن سوء تصرُّفهم بأنفسهم وبعقولهم، بحسب سنن الله في خلق الإنسان، ولونٌ من ألوان تعابير القرآن في فنون البيان الذي يراد به المبالغة في التنبيه والإيقاظ، (كما جاء ذلك في المادة الثامنة عشرة من المقدمة الثانية)، فيكون المراد: انخداع هذا الكافر بأنه مقبول عند الله مرضيٌّ لديه، بدليل ما يُغْدق عليه من نِعَم وإحسان، ولا يدري أنَّ الله سبحانه لا يقطع نِعَمَه من المسيئين، بحكم عظمته وفضله وإحسانه العميم.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

ثم قفَّىٰ علىٰ وعيد المكذِّبين وإيقافهم علىٰ أمرهم، بالإنكار علىٰ مصدر شُبَهِهم في تكذيبهم ـ المارِّ الذِّكر في السياق ـ لدعوته ﷺ، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾، وفي التعبير ﴿ بِصَاحِبِهِم ﴾ تمكينٌ للإنكار؛ لأنهم يعلمون ماضِيَهُ حقَّ المعرفة، بحكم الصُّحبة والـمُخَالَطة، فهو يُشَنِّع عليهم خطأهم العظيم في هذه الشبهة الدالَّة علىٰ عنادهم وتعنُّتهم المشين، ويُنبِّههم لعلهم يَثُوبون لرشدهم، ثم أردف الإنكار بالتقرير، فقال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾.

ثم دعاهم إلىٰ الدليل الواضح في أنَّ ما جاء به الرسول من توحيد الله الذي أنكروه عليه أمر ظاهر، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي: الملك العظيم فيها وعجائبها وبدائعها، ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ ﴾ فيهما ﴿مِن شَيْءٍ ﴾، فيُدركوا أنَّ أفعالَ الألوهيَّة وصفاتِها ظاهرةٌ فيه مقتصرةٌ عليه تعالىٰ، كيف لا وهو خالق هذا الكون بما فيه من عَظَمة وإبداع؟!

ثم عطف التهديد علىٰ التنبيـه، فقال: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ وقدومهم علىٰ الله، وكفىٰ بالله حسيباً.

ثم ختم الكلام بهذا التَّجهيل والإنكار، فقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ إنْ لم يؤمنوا بهذا القرآن الواضح البيان والناصع البرهان.

ولكن ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ وهو الذي آثر أسباب الضلال وتشبَّع بها ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ لأنَّ سُنَّة الله في نظام طبيعة الإنسان: أنَّ من تَشبَّع بعَمَه الضلال لا يمكنه أن يعودَ إلىٰ بصيرة الهدىٰ، والله سبحانه لا يُعجِّل عليهم بالعقوبة ويُمْهِلُهم إلىٰ يوم الحساب، وهذا معنىٰ الاستدراج، والعَمَه: أشد العمىٰ وأقبحه.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

ولما كان الكلام مُتضمِّناً للإرشاد والوعيد للضَّالِّين، وتحذيرهم من يوم الدين، قرَّرهُ بالكلام عن تحقيق أمر الساعة الذي ينكرونه، وَجَعَله مَساوقاً للسياق في الردِّ علىٰ المنكرين، وعلىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالوعيد، فقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ بمعنىٰ: أيَّ وقت ترسو سفينةُ هذا العالم؟ أي: يقف ويفسد نظامه وتقوم قيامته. وقد راعىٰ القرآن في التعبير بالمرسىٰ دقَّة هذا المعنىٰ في أمر القيامة، علىٰ نهجه في بلاغة التصوير، ولو كان ذلك غير ملحوظ في صورة سؤالهم وصيغة عبارتهم، ولا في متناول عقولهم، كما هو شأنه في الحكاية عن الغير، (كما جاء ذلك في أول المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

وقد أمر نبيَّه أن يُجيبهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾، وليس ذلك مما علَّمنيه، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ﴾ المحدَّد لها ﴿ إِلَّا هُوَ﴾ تعالىٰ، بمعنىٰ: لا يكشف حجاب الخفاء عنها إلا الله، ولا يكون ذلك إلا في الوقت المعيَّن لها.

ثم بيَّن عظمة أمرها وشدة شأنها، فقال: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ثَقُل وقعُها وعَظُمَ أمرُها فيهما جميعاً؛ إذ تَتَصادم الأجرام السماوية ومعها الأرض تصادماً مريعاً لخلل يصيبهما من الوهي الناتج عن اضمحلالها بتقادم العهد عليها، كما هو شأنُ كلِّ بناء قديم، والله أعلم.

ثم بيَّن أنَّ هذا الحادث إنما يكون فجأة من دون سابقة إنذار، فقال: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: علىٰ حين غفلة، كما جاء في الحديث: «ولتقومنَّ الساعة، وقد نشر الرجلان

ثوبَهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعة، وقد دفع أحدكم أكلته إلىٰ فيه فلا يَطْعَمُها»(١). والمعنىٰ: أنها تَبْغَتُ الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم المعتادة.

ثم أعاد الكلام علىٰ السؤال عنها، وقَرَنه بما يُؤْذن أنه ﷺ يعلم استئثار الله سبحانه وتعالىٰ بعلمها، فهو لا يسأل عنها، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾؛ من الحفاوة، بمعنىٰ: الاهتمام بالأمر، أي: يسألونك هذا السؤال، كأنك مبالغ في سؤال ربِّك عنها. وفي صورة التعبير تقريعٌ لهم، وقد أمره أن يكرِّر الجواب للمبالغة في التأكيد والتيئيس، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ اختصاصَ عِلمِها به تعالىٰ، ولا حكمةَ ذلك.

ثم أمره أن يُبيِّن لهم حدودَ الرسالة، ويُفهِّمَهم أنَّ الرسول لا يعلم إلا ما علمه الله؛ لأنه بشر مثلهم، فقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مِنْ نَفْعٍ أَقْدَرَني علىٰ جَلْبه، وضَرٍّ أَقْدَرَني علىٰ منعه، وسخَّر لي أسبابها. ولا أعلم الغيب، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾، وهذه الآية من أعظم أصول الدين وعقائده، تُبيِّنُ حدودَ الرسالة التي أجملها بقوله: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾، وهذا كالتعليل لما تقدَّم من نفي امتيازه علىٰ البشر، وبيان أنَّ مَنْصب الرسالة مُقْتصر علىٰ هذا القدر.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٦)، عن أبي هريرة.

﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ
أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ
ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ
أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا
يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾.

ولما كان من منهج القرآن تذكيرُ المشركين بما طبعهم عليه خِلْقة، من غريزة التوحيد، كما جاءت الإشارة إليه في الآية المتقدمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾، وكان من نهجه تذكيرُ المشركين إلىٰ مظهر ذلك فيهم عندما تصيبهم شدَّة، فيلجؤون إلىٰ الله وحده قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]؛ عقَّب هذا السياق ببيان ظهور هذا التوحيد الفطري عند شدَّة الحَمْل والولادة من المشركين، ولجوئهم إلىٰ الله وحدَه في كشفها عنهم، ولم يلبثوا أن يعودوا إلىٰ شركهم بعد أن كشفها عنهم. وقدَّم لذلك مقدِّمة تتضمَّن اختصاصه بالألوهية، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهذه العبارة يُعبِّرُ بها القرآن عن تنويع الإنسان إلىٰ ذكر وأنثىٰ بمقتضىٰ الحكمة، وضمَّن «خلَقَ» معنىٰ: كثَّر، وعطف عليها ﴿جَعَلَ﴾ عَطْفَ السبب علىٰ المسبَّب. أي: جعل من النوع ذكراً وأنثىٰ؛ ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليسكن الذكر إلىٰ الأنثىٰ بالنكاح الصحيح، ويتمَّ التناسل، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: من غير مشقَّة ولا استثقال، وذلك من حكمة الله تعالىٰ، ثم يثقل بالتدرُّج فلا يؤذي، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ عند قُرْبِ الوضع، وكان في هذه الحال شدَّة وآمال، لجأ الزوج

والزوجة عند ذلك إلىٰ الله وحده، بدافع غريزة التوحيد، و﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي: لئن سَهَّلت الولادة ورزقتنا ولداً صالحاً كاملَ الخلقة، ظاهرَ ملامح النجابة؛ ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾، وهذا أمر طبيعي لكلِّ والد ووالدة، يُعلِّقان أملاً كبيراً علىٰ المولود، كما قرَّر ذلك علماء النفس.

ولكن لا يلبث هذا اللجوء إلىٰ الله وحده أن يزول من المشركين بزوال الشدّة وانفراج الكربة، ويعودان إلىٰ شركهما، ويحمدان ويشكران مع الله معبودَيْهما علىٰ زوال الشدة وإسداء النعمة، كما قال تعالىٰ:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾[1]، وأتىٰ بواو الجمع لإرادة جنس المشركين؛ لأنَّ الخطاب في الآية كان عاماً، والتثنية بالنسبة لجنسَي الذكر والأنثىٰ، والجنسُ يصدق ببعض أنواعه وببعض أفراده، لذلك نَسَب المقالة

(١) يشعر الإنسان ـ بطبيعته المجرَّدة في حال الشدَّة الشديدة، وفي حال الرغبة الأكيدة، بالحاجة إلىٰ الله سبحانه، والاستعانة به وحده، شعورَه بالحاجة إلىٰ الطعام والشراب عند الجوع والعطش، وسواء في ذلك المؤمن والمشرك، فإذا زالت الشدة أو انقضت الحاجة، عاد علىٰ المشركين إشراكهم؛ لأنه أمر عارض علىٰ طبيعتهم ومرض متلبِّس لها لا تتجرَّد منه إلا في مثل هاتين الحالتين، لما يطرأ عليها من الهز العنيف. لذلك يعتري الوالدَيْن المشركَيْن ما يعتريهما من الالتجاء إلىٰ الله وحده والدعاء منه سبحانه عند تكامل الحمْل؛ أن يُسَهِّل الوضع، وأن يجعل ولدهما ذا شأن وكمال وعزٍّ وإقبال، حتىٰ إذا ما جاء الولد وحقَّقا بعض تلك الرغبة، عادا إلىٰ شركهما كأنهما لم يلجآ إلىٰ الله وحده في هذا الطلب الذي حَصَلا عليه، فتعالىٰ الله عما يشركون.
فهذه الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣]، وقوله في سورة يونس: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله في سورة العنكبوت: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، والقرآن مثاني؛ لأنه للوعظ والإرشاد. (المؤلف).

إلىٰ الجنس، وإنْ كان فيه الموحِّدون والمشركون، علىٰ نهج القرآن في مثله، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]، مع أنَّ قائل هذا القول المشركون منه، وكقوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، وذلك كما جاء في النوع الأول والثاني من المادة الأولىٰ من المقدمة السادسة، وهو نسبة ما للبعض إلىٰ الكلِّ.

ثم بيَّن سبحانه سَخَافة عقولهم بهذا الشرك وعبادتهم بعض أبناء جنسهم؛ لأنهم يجدون فيهم بعض الخصائص الممتازة، وقد تردَّد الكلام في هذه الآيات تارة عنهم، وتارة عن الأصنام التي يتمثّلونهم بها، وقد بدأهم بذلك فقال: ﴿ أَيُشْرِكُونَ ﴾ بالله سبحانه ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾، فكيف يكون هذا المخلوق العاجز إلهاً؟! وهذا الوصف باعتبار من يَتمثَّلونهم بهذه الأصنام من الصَّالحين والعبقريين.

ثم زاد في البيان والتَّشنيع عليهم بما هو أحطُّ من ذلك باعتبار صنميّتهم، حيث أجرىٰ الكلام علىٰ الأصنام التي يتمثَّلون بها أولئك الأشخاص، فقال: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾، فهم أحطُّ من البهائم؛ لأنَّ البهائم تتبعكم إذا دعوتموها، وهؤلاء ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾، فكيف تعبدون مَنْ هم أحطُّ من البهائم؟! يُنبِّهُهم بذلك علىٰ فَظَاعة خطئهم، وقُبْح صنيعهم وشَناعة اعتقادهم.

ثم عاد فأجرىٰ الكلام عليهم باعتبار الأشخاص الذين يتمثَّلونهم بالأصنام، وزادهم تقريعاً بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ ولدتهم الأُمهات، فكيف يكونون آلهةً وشركاء لله؟

ثم ذكر صفاتِهم وأحوالَهم باعتبار كونهم أصناماً وكونهم أشخاصاً أمواتاً، وقال: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ في زَعْمِكم أنهم يقدرون علىٰ ما لا تقدرون عليه.

ثم زادهم تجهيلاً وتسخيفاً بقوله: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أي: إنَّ لكم - أيها العابدون - هذه المواهب، وليس لمعبوديكم هؤلاء منها شيء، فأنتم أكمل منهم في ذلك، فكيف تقبلون الإله يكون دونكم بكثير؟!

ثم أكمل النقد بالتعجيز والتحدِّي والاستهانة، فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ أي: إن كان لشركائكم شيءٌ من التأثير، فلتمسّني بسُوء، فهذا وقتُ ظهوره.

ثم علَّل عدم الاكتراث بقوله: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ﴾ عليَّ هذا ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الناطقَ بوحدانيَّته في ربوبيَّته، والمؤيِّدَ لها بجَليٍّ وقَويٍّ براهينه، والموجِّهَ لسعادة الدارين بسديد تعاليمه، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ الذين صَلُحت نفوسهم بالعقائد الصحيحة، فينصرهم علىٰ المشركين الفاسدي العقائد. وفي هذا مقابلةٌ لما سبق من مَهَانة شركائهم وعجزهم، قرَّرها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾، فأين مَنْ يتولاني ممَّن يَتولَّونكم؟

وبعد أن نفىٰ قُدرتهم علىٰ النَّصر، مكَّنه بما فيه تسخيفٌ وتهجينٌ وتندُّرٌ عليهم، فيما يناسب السياق، فقال: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ﴾ أي: وإن تدعوهم ليهدُوكم إلىٰ الحق، أو إلىٰ ما تنتصرون به لا يسمعوا.

ثم أجرىٰ الكلام باعتبار الصنمية، فقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي: فهم فاقدون لحاسَّة البصر، كفقدهم لحاسَّة السمع، فكيف يكونون آلهةً مَنْ هم بهذه المثابة من الحطة والخمول؟!

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾.

وبعد أن ندَّد بالمشركين وشِركِهم وجهالاتِهم؛ أمر رسوله ﷺ أن يُعرِض عنهم ولا يتألَّم منهم، وأن يمضي في أداء رسالته، وقَرَنَ ذلك بالتلميح إلىٰ مزايا شريعته، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد والتنديد بالإرشاد، فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ وهو الميسور من الأموال والأخلاق، فقد أمره بالتساهل وتَرْكِ الاستقصاء والتشدُّد في القَضاء والاقْتضاء والخطاب والجواب، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ وهو ما حَسُنَ فعلُه في العقل الصحيح السليم، أو في الشرع الكريم، فلا ينكره العقل المذكور ولا الشرع المبرور، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فلا تُـمارِهم ولا تَـضِقْ بهم ذَرْعاً وصدراً. وهذا هو الدستور الـخُلقي الذي يجب أن يتحلَّىٰ به كلُّ من تصدَّىٰ للإصلاح.

والهدف من هذه الجملة: الأمر بأن يمضي لشأنه في نشر الدعوة علىٰ هذه الصورة، ولا يهتمَّ بمعارضة المعارضين. وأَجْمَلَ الشريعةَ بهذا الإجمال البديع الـمُلمِع إلىٰ جمالها وكمالها، وأمره أن يتمسَّك بها لما فيها من المثل العليا.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي[1] في «أحكام القرآن»: قال علماؤنا: هذه الآية من ثلاث كلمات، قد تضمَّنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، حتىٰ لم يَبْقَ فيها حسنةٌ إلا وَعَتها، ولا فضيلةٌ إلا شرحتها، ولا أكرومةٌ إلا افتتحتها، وأخذتِ الكلماتُ الثلاثُ أقسامَ الإسلام الثلاثة؛ فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ تولىٰ بالبيان جانب اللين ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء والتكليف، وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ تناول جميع المأمورات والمنهيات،

---

(١) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي (٤٦٨-٥٤٣هـ) العلامة الحافظ القاضي صاحب التصانيف منها: «العواصم من القواصم»، و«عارضة الأحوذي في شرح الترمذي»، و«الناسخ والمنسوخ». «سير أعلام النبلاء» (٢٠: ١٩٧-٢٠٤)، و«الأعلام» (٦: ٢٣٠).

وألمع إلىٰ أنها ما عُرِفَ حكمُه واتَّفقت القلوبُ علىٰ علمه، فلا تنكره، فلا يقول الشرع: افعل، والعقل يقول: لا تفعل، ولا يقول الشرع: لا تفعل، والعقل يقول: افعل. وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ تناول جانب الصفح بالصبر الذي يتأتَّىٰ للعبد به كُلُّ مراد في نفسه. ولو شرحنا ذلك علىٰ التفصيل لكان أسفاراً[1].

وملخَّص المعنىٰ: اقبل منهم ما يخفُّ عليهم من الأموال، وما لا يكلفهم من الأعمال، واسْلُك معهم في البيان والإرشاد طريقَ ما يعرفون، واصْفَح عن جاهلهم الصفْحَ الجميل. ومؤدَّىٰ ذلك: أننا لم نكلِّفهم إلا بما هو مَيْسور لهم، ولم نأمرهم إلا بما فَضْلُه معروفٌ لديهم، فأعرِضْ عن الجاهلين وأدِّ الرسالة للعالمين. وسَبْك ذلك علىٰ مزايا هذه الشريعة الغرّاء.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

وبعد بيان هذه النبذة من أصول العقائد والآداب والتَّشريع، التي جعلها امتداداً للسياق، علَّمَنا سبحانه كيف نعالج وَسْوَسة الشيطان إذا عرضت لنا في عقائدنا ونوايانا وأعمالنا، وهَيَّئْنا من قول الحق، وجعل الآية حلقةَ وَصْلٍ تعليقاً علىٰ ما قبلها وتمهيداً لما بعدها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾، وهذه الآية باعتبار ما قبلها تثبيت، وباعتبار صيغتها تشريع، أي: إذا عرض لك نَخْسٌ من الشيطان في العقائد والتشريع والتوجيه بالاعتراض عليها فاستعذ بالله.

---

(١) «أحكام القرآن» (٢: ٣٦٣).

وهذا إرشادٌ للأمة يُخاطَبُ به النبي ﷺ، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وهناك وجه آخر للربط، وهو أنه سبحانه ـ بعد أن علَّمه كيف يتوقَّىٰ شرَّ السفهاء الجاهلين ـ علَّمه كيف يتوقَّىٰ شر الشياطين. والنَّزْغ: النَّخْس، كأنه ينخسه ليحثَّه علىٰ المعارضة أو علىٰ المعاصي.

ومعنىٰ «استَعِذ»: استَعصِمْ بالله والجأ وتوجَّه إليه لِيُعيذَكَ من شرِّ هذا النَّـزْغ. وذلك لأنَّ الإنسان يشعر بتنازع دواعي الخير والشر، والحق والباطل في نفسه. وإنَّ لداعية الحق والخير مَلَكاً يوفِّيها، ولداعية الباطل والشر شيطاناً يقوِّيها. وإنَّ النبيَّ ﷺ بيَّن هذا بقوله: «إنَّ للشيطان لـمّةً بابن آدم، وللمَلَكِ لَـمَّة، فأما لَـمَّة الشيطان فإيعاز بالشرِّ وتكذيبٌ بالحق، وأما لَـمَّة الملك فإيعازٌ بالخير وتصديقٌ بالحقّ، فَمَنْ وَجَد ذلك فَلْيَعلم أَنَّه من الله، فَلَيَحْمَد اللهَ علىٰ ذلك، ومن وَجَدَ الأُخرىٰ فَلْيتعوَّذ من الشيطان»[1].

ثم ذكر سبحانه في سياق الإرشاد وَجْهَ سلامة المتقين ودأبهم إذا عرضت لهم وساوس الشيطان، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾، وذلك بأن يهمَّ بالذنب فيذكر الله فيتركه، إذ لا شيء أقوىٰ علىٰ طَرْدِ وساوس الشيطان من ذِكرِ الله ومراقبته في السرِّ والعلن؛ لأنَّ ذلك يُقوِّي في النفس حُبَّ الحق وداعي الخير، ويُضْعِفُ فيها الـمَيْلَ إلىٰ الشرور والآثام. فقويُّ الروح بالإيمان والتقوىٰ غير قابل لتأثير الشيطان في نفسه، وإذا أذنب بادَرَ إلىٰ الندم والتجأ إلىٰ التوبة والاستغفار، فيكون مَثَلُ نفسِه كمَثَلِ بيتٍ تَتَعاهده ربَّتُه بالكَنْس والـمَسْح وسائر وسائل التنظيف، كلّما ألمَّ به دنس أو أصابه غبار.

---

(١) رواه الترمذي في «سننه» (٢٩٨٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفيه: «فإيعاد» بالموضعين قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

ثم ذكر حالة غير المتقين، فقال: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ أي: إن أتباع الشيطان تمدُّهم الشياطينُ بالإغْواء والتَّزيين للمعاصي، فيندفعون إليها أكبر اندفاع.

ثم بيَّن نوعاً من الإغواء متضمِّناً ما يعتقده المشركون بالقرآن من أنه من كلام محمد ﷺ، وضمَّن النَّظْم تجهيلاً لهم وتشنيعاً عليهم، وتحقيقاً بأنه من عند الله، فقال: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ أي: وإذا لم تأتهم بآية قرآنية لواقعة من الوقائع يريدونها قالوا: لولا عملت آيةً بها وألَّفتَها، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ ولستُ بمُجْتبٍ شيئاً من القرآن من نفسي كما تظنون، بل ﴿هَٰذَا﴾ الذي جئتُ به إليكم إنما هو ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: هدايةٌ يُتبصَّرُ بها الحق والصواب، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ فاتَّبِعُوه ولا تضلُّوا عن سبيله.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

ولما وصف القرآن العظيم بهذه الصفات العليَّة، أمر بالاستماع له والإنصات والتدبُّر، فقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ بتدبُّره وفهمه المؤدِّي إلىٰ التمسُّك بأسباب الرحمة والرضوان، لأنَّ كمال الإيمان واليقين لا يكون إلا بذلك.

ثم ذكر آداب القراءة والسماع، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر الخاص بالأمر العامِّ الذي يشمله وغيرَه، فقال: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ أي: اذكُره متضرِّعاً خائفاً وبصوتٍ وسطٍ دون الجهر وفوق التخافت، إذا قرأت أو سمعتَ من آيات القرآن ما يَقْتضي ذلك.

قال ابن جرير: إنَّ الأمر بالذكر هنا مُوَجَّه إلىٰ مستمع القرآن، أُمِرَ بأن يتدبَّر في نفسه ما يسمع[1].

وأقول: يجوز أن يشمل بعموم لفظه مستمعَ القرآن وغيرَه، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الحكم الخاصِّ بالحكم العامِّ الذي يشمله وغيرَه، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، ولذلك أردفه بقوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي: في الصباح والمساء، وإنما خصَّهما بالذكر لأنهما طرفا النهار والليل، فأراد أن يستوعبهما، وذلك من خصائص اللغة، أو لأنهما وقت الفراغ من عمل المعاش، فخصَّهما لعمل المعاد وتذكُّر الله سبحانه بأسمائه وصفاته وآياته ونِعَمِهِ وآلائه، وخشيته والحذر من عذابه.

ثم أردف الأمر بالنهي عن ضدِّه، علىٰ نهج القرآن، مُؤْذِناً بأنَّ الغفلة لا تجوز مطلقاً، فقال: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ أي: عن ذكر الله تعالىٰ في سائر الأوقات. فمن غفل عن ذِكرِه تعالىٰ مَرِضَ قلبُه وضَعُفَ إيمانُه واستحوذ عليه الشيطان فأنساه نفسَه.

ثم عزّر سبحانه هذا الأمر والنهي بما يعدُّ خير أسوة للناس، وهو التشبُّه بالملائكة والمشاركة لهم في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: يُنزِّهونه عن كلِّ ما لا يليق به وبعظمته وكبريائه وجلاله من اتِّخاذ النِّدِّ والشريك والظهير والمساعد، ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ ويتضرَّعون.

وقد شَرَعَ الله تعالىٰ لنا السجود عند تلاوة هذه الآية أو سماعها، إرغاماً للمشركين، واقتداءً بالملائكة المقرَّبين، ومثلها آيات أخرىٰ بمعناها في الجملة تأتي في القرآن. وهذه هي الأُولىٰ في ترتيب المصحف. (من «المنار» بتصرف)[2].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٣: ٣٥٣).

(٢) تفسير «المنار» (٩: ٤٦٥).

فهرس محتويات المجلد الثالث

الموضوع — الصفحة

تفسير سورة النساء ٥-١٦٩
تفسير سورة المائدة ١٧١-٢٨٢
تفسير سورة الأنعام ٢٨٣-٤٠٢
تفسير سورة الأعراف.. ٤٠٣-٥١٧

❁ ❁ ❁

تفسير القرآن العظيم
المسمى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

تأليف العلامة الشيخ
رشيد الخطيب الموصلي
١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلد الرابع
تفسير سورة الأنفال إلى نهاية سورة الإسراء

اعتنى به وقدم له
مجد أحمد مكي

أروقة

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٠٠٩٦٢٦) ٤٦٤٦١٦٣)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

سُورَةُ الأَنفَالِ

مدنيَّة، وهي ستٌّ وسبعون آية

تتعرَّض السورة لشؤون حَدَثت في غَزوة بدر، منها:

- كراهية بعض المسلمين للخروج.
- ثم كراهيتهم للقتال بعد الخروج.
- واختلافهم في كيفيَّة قسمة الغنيمة بعد النصر.
- واختلافهم في الأسرىٰ وما بهم يفعلون.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ ومن نهج القرآن أن يُبيِّن الأحكام أحياناً بصورة السؤال والجواب، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية). وفي الجواب إيماءٌ إلىٰ أنَّ تقسيمها لا يرجع إلىٰ رأيهم حتىٰ يختلفوا فيه، فهو مُشْرَبٌ بتأنيب. والمراد من هذه الأنفال: ما غنموه يوم بدر، وكذلك يُراد بها: ما يجعله الإمام من المال لمن يركب خطراً، بأن يقول: من فعل كذا له كذا من المال. ومنه قوله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سَلَبه»[1]. وكأنَّ هذا لم يُرْضِ بعضَ أفراد الجيش لإنقاصه للغنيمة، فنزلت الآية. وقيل: إنَّ الشبان قالوا: إنَّ الغنيمة لنا، وقال الشيوخ: كنا رِدْأً لكم. وذلك عندما قال ﷺ يوم بدر: «من فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا»[2]، فتقدَّم الفتيان ولزم المشيخة الرايات فلم يبرحوها.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٣٢١)، ومسلم (١٧٥١)، عن أبي قتادة.

(٢) رواه أبـو داود (٢٧٣٧)، والحاكم (٢: ٣٥٦) عن ابن عباس وصحَّح الحاكم الإسناد علىٰ شرطهما، ووافقه الذهبي.

وقال الراغب: النفل: هو الغنيمة، وتنوُّع العبارة لاختلاف الاعتبار، فلكونه مظفوراً به يقال له: غنيمة، ولكونه منحة من الله يقال له: نفل أو فيء[1]، فاختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات.

ومعنىٰ الآية: قل: الأنفالُ لله يحكم فيها بحكمه، والرسولُ يقسمها بحسب حكم اللـه تعالىٰ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تـتَنازعوا فيها، ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ بالوفـاق والتعاون، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في قسمة الغنائم، وفي كلِّ أمر ونهي وقضاء وحكم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾.

ثم بيَّن وَصْفَ المؤمنين الكُمَّل لتحريك النَّخوة والـخشية، حَمْلاً علىٰ التمسُّك بالحكم، وأَخْذِهِ بقوة، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. والمراد بذكر الله: ذكرُ القلب لِعَظَمته وجلاله، أو لوعده ووعيده ومحاسبته لخلقه، وغير ذلك من صفاته وأفعاله. والمراد من الوجل: استشعار الخوف منه تعالىٰ.

ثم تابـع الوصف فقـال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي: يقيناً في الإذعان، وقوةً في الاطمئنان، وسَعَةً في العرفان، ونشاطاً في الأعمـال، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ فلا يرجون غيرَه، ولا يَجْشَعون في أمر الغنائم حرصاً علىٰ المكاسب. والتوكُّل أعلىٰ مقامات التوحيد، ولا يجوز إلا بعد مُعَاطاة الأسباب الطبيعية، كما ورد في الآثار النبويَّة.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يُـؤَدُّونها حقَّ أدائها من الخشوع واستشعار القلب بما فيها من قراءةٍ ودعاء وأفعال. وذلك هو اللباب والروح للصلاة، وهو المراد منها. ولا يكون إلا بالتدريب والمران، حتىٰ يكون طبيعةً يُطبَعُ

---

(١) «المفردات» ص٨٢٠.

عليها الإنسان، وهي أن لا يخطر بباله في الصلاة سوىٰ الله تعالىٰ. وقال ﷺ: «الإحسان أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تَراه فإنَّه يراك»[١]. وصورة ذلك: أن يتدبر في صلاته معاني قراءته وأذكاره.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③﴾، ولا يحرصون في جمع المال وحطام الدنيا. وأتىٰ بجملة الصلة تبصرةً للنفوس بأن ما يُنفَقُ إنما هو من الله وإلىٰ الله، لتزداد سخاءً.

ثم سجَّل لـهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المتَّصفون بهذه الصفات ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، ثم بيَّن مآلهم من الكرامة بقوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من منازلِ الرِّفعة ومراقي السعادة والنعيم. وذلك بنسبة أعمالهم ﴿وَ﴾ لهم ﴿مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④﴾ في الجنَّة ودار الخلود.

وقد عالجت الآياتُ نفوسَ المؤمنين وتطهيرَها من الاختلاف الذي ينشأ عن حبِّ المال، وهو أكبر أسباب الفشل في الأمة، ولذلك قدَّمه في البيان.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ⑤ يُجَٰدِلُونَكَ
فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ⑥ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى
ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ
ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ⑦ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ⑧
إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ⑨ وَمَا
جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ⑩﴾.

---

(١) سلف تخريجه (٣: ٢٥٧).

ثم بيَّن أن حالهم في كراهتهم لتقسيم الأنفال بالسويَّة مع كَوْنه حقاً، كحالهم في كراهتهم لخروجك إلىٰ هذه الغزوة مع كَوْنه حقاً، أدركوا حُسن عاقبته فيما بعد، فقال: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ ﴾ أي: إنَّ الأنفال لله يحكم فيها بالحق، وإنْ كره ذلك بعضُ المتنازعين، كما أخرجك ربك من بيتك إلىٰ بدر بالحق، وفريقٌ من المؤمنين كارهٌ لذلك، فنلتُم ما نلتُم من الظَّفَر والكرامة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

فهذه الآية بحسب السياق تنظير، وبحسب الصيغة تأنيب، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. وخلاصتها: عَقْدُ المشابهة بين كرههم للمساواة في الأنفال وهي الحق، وكرههم للخروج إلىٰ القتال، ثم رأوا حقيَّته وعاقبته المحمودة. فيكون الكلامُ عَقْدَ مشابهةٍ بين أول الواقعة وآخرها في الجدال منهم في الحق، فيكون قوله: ﴿كَمَآ﴾ إما مفعولاً مطلقاً أو خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: وذلك كما.

ثم سرد واقعة بدر، وابتدأها بتفصيل معارضة الذين كانوا كارهين لها، فقال: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ ﴾.

قال في «المنار»: وبيان ذلك: أنَّ المسلمين كانوا في حال ضعف، فكان من حكمة الله تعالىٰ أنْ وَعَدهم أوَّلاً إحدىٰ الطائفتين علىٰ الإبهام، كما سيأتي في الآية، فتعلَّقت آمالُهم بطائفة العير القادمة من الشام، لأنها كَسْبٌ عظيم لا مشقَّة في إحرازه؛ لِضَعْف حاميته، فيَتَعوَّضون بها ما سلبهم المشركون بعد هجرتهم من بيوت وأموال.

فلمَّا ظهر أنها فاتتهم، وأنَّ طائفة النفير العام خرجت من مكة بكلِّ ما كان عند قريش من قوة، وقَرُبَت منهم، وتعيَّن عليهم قتالُها، إذ تبيَّن أنها هي الطائفة التي وعدهم الله تعالىٰ، إذ لم يبق غيرها، صَعُب علىٰ بعضهم لقاؤها علىٰ قِلَّتِهم وكَثْرتها، وضَعْفِهم

وقوَّتها، وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها، وطفقوا يعتذرون للنبيِّ ﷺ اعتذارات جدليَّة بأنهم لم يخرجوا إلا للعير؛ لأنه لم يذكر لهم قتالاً فيستعدوا له، كأنهم يحاولون إثبات أن مراد الله تعالىٰ بإحدىٰ الطائفتين: العير، بدليل عدم أمرهم بالاستعداد للقتال.

ولكن الحق قد تبيَّن، بحيث لم يبق لجدالهم وَجْهٌ إلا الجبن والخوف، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾[1]، فهذا تمثيل لجزعهم الشديد من لقاء عدوٍّ يتفوَّق عليهم عَدَداً وعُدداً تفوُّقاً عظيماً. ولكن الحرب أصبحت حالةً واقعةً لا محيصَ عنها، وأصبحوا تجاه الأمر الواقع، ولا سيما بعد أنْ علم كلُّ فريق بالآخر، إذ نَزَلا في منطقة واحدة صدفة، علىٰ غير ميعاد.

وما بيَّنـه صاحب «المنار» من التفصيل: هو مفادُ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[2]، وهي طائفة العير. وإنما عبَّر عنها بهذا التعبير للتعريض بكراهتهم للقتال وطمعهم في المال، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: يريد الله بوعده غير ما أردتم، يريد طائفةَ النفير العام من قريش؛ ليُفنيَهم ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧﴾، ودابر القوم: آخرهم الذي يأتي في دُبُرهم ويكون من ورائهم، ولن يَصِلَ إليه الهلاك إلا بهلاك مَنْ قبله من الجيش. وهكذا كان الظفر ببدر فاتحةَ الظفر فيما بعدها، إلىٰ أن قطع الله دابرَ المشركين بفتح مكة، وما تَخلَّل ذلك من نَيْلهم من المؤمنين في أُحُدٍ وحُنَين إنما كان تربيةً لهم.

وقال صاحب «الكشاف» في معنىٰ الآية: يعني: أنكم تريدون الفائدة العاجلة

---

(١) تفسير «المنار» (٩: ٤٩٩).

(٢) لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام بتجارة قريش، كان لزاماً أن ينزعها منهم عوضاً عن أموال المهاجرين التي استولت عليها قريش ظلماً وعدواناً في مكة، وصادرتها بعد هجرتهم. (المؤلف).

وسَفْساف الأمور، وأن لا تَلقَوْا ما يَرْزؤكم في أبدانكم وأموالِكم، واللهُ عزَّ وجلَّ يريد معاليَ الأمور وما يرجع إلىٰ عمارة الدين ونُصرة الحق وعُلوِّ الكلمة والفوز في الدارين، وشتّـان ما بين المرادين. ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكَسَر قوَّتَهم بضعفكم، وغَلَب كثرتَهم بقلَّتِكم، وأذلَّهم وأعزَّكم، وحَصَل لكم ما لا تقابل أدناه العير وما فيها[1]. ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ وهو الإسلام، ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ وهو الشرك، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ من المشركين. أي: رغماً عن أنفسهم. ولا يكون ذلك إلا بقتل أئمة الكفر ورؤسائه من صناديد قريش المعاندين، الذين خرجوا إليكم من مكة ليستأصلوكم، لا بالاستيلاء علىٰ العير.

والحقُّ الأول ـ في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ـ إنما المراد به: القتال لطائفةِ النفير العام، مع ضمان النصر للمؤمنين ومَحْقِ الكافرين، والحقُّ الثاني ـ في قوله تعالىٰ: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ ـ المراد به: الإسلام، وهو المقصد والهدف، والأول وسيلةٌ وتمهيدٌ لنشره.

ثم ذكَّرهم بلطف آخر من ألطافه الخفيَّة التي لمسوا ثمرتَها، فقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ حين ضاقت عليكم الحِيَل، والتجأتم إليه أن يُمِـدَّكم بنصره، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وألهمكم ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ وعدد الألف إنما يأتي في اللغة لإرادة الكثرة. وأراد بالإرداف: المبالغة في الكَثْرة والتَّضعيف، وهو مأخوذٌ من حالة المخاطَبين، إذ ضاعفوا جيش القتال، يرتدف الفارسان علىٰ البعير لكثرة العدد، ويجوز أن يكون المعنىٰ: يُردفونكم وراءهم، فيكون كنايةً علىٰ تثبيتهم إيَّاهم. والله أعلم.

وقد جاء في «الصحيح»: أنَّ رسول الله ﷺ لما نظر إلىٰ أصحابه، وهم ثلاث مئة

---

(١) «الكشاف» (٢: ١٩٩-٢٠٠).

وبضعة عشر، ونظر إلىٰ المشركين فإذا هم ألف وزيادة، استقبل القبلة، ثم مدَّ يده وجعل يهتف بربِّه: «اللهمَّ أنجِزْ لي ما وعدتَني، اللهمَّ إن تَهلِك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبَد في الأرض»[١].

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا الإمداد أمرٌ روحانيّ[٢]، يؤثِّر في القلوب فيزيد في قوتها المعنوية، فقال: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾ لكم وعلامةً بأنه ينصركم علىٰ عدوكم، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ فتلْقَوْا أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فهو الـمُسَخِّر لأسباب القوة المعنويَّة التي هي مصدرُ النصر ومبعثُه، ومن ذلك: تسخيرُ الملائكة تُخالِطُ المؤمنين، فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُغْلَبُ علىٰ أمره، ﴿ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ يضع الأشياء في موضعها المقتضي.

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

ثم ذكَّرهم بلطف آخر منه تعالىٰ، يُظهِرُ إلقاء القوة المعنوية عليهم، فقال: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ تعالىٰ، أي: تأميناً لكم من الخوف، لأن الفرق عظيمٌ بينكم وبينهم في العَدَد والعُدَد. ومثلُ هذا يوجب عادةَ الاضْطِرابَ والقلقَ المؤدِّي إلىٰ الأرق،

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) بل كان الإمدادُ بالملائكة أمراً حقيقياً واقعياً، كما تقدَّم التنبيه إليه في التعليق علىٰ الآية ١٢٤ من سورة آل عمران.

ولكنَّ الله بلطفه أوْدَعَ فيكم غير هذه الحالة النفسية، فَغَشِيَكُم النعاسُ تأميناً لكم وإراحة، وذلك لأنَّ من غَلَبَ عليه النعاس لا يكون خائفاً، ولا يشعر بالخوف، فلا تتأثر أعصابه وقوته المعنوية، حتىٰ يشتبك بالقتال بكلِّ جرأة واطمئنان، فباتوا ليلة هادئة. وعلىٰ هذا، فيكون تغشية النعاس سبباً للاطمئنان. ويجوز أن يكون المعنىٰ: أنَّ الله سبحانه أوْدَعَ فيكم قوة معنوية وطمأنينة نفسيَّة، حتىٰ غشيكم النعاس ونمتُم مطمئنين، فيكون الاطمئنان سبباً للنعاس.

وروي عن عليٍّ رضي الله عنه: «لقد رأيتُنا يوم بدر وما فينا إلا نائم، غيرَ رسولِ الله ﷺ يُصلِّي تحت شجرةٍ حتىٰ أصبح»(١).

ثم ذكّرهم بلطف آخر، فقال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾، وذلك أنَّ المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم علىٰ الماء، فظمئ المسلمون وظلُّوا دون ماء طهور، وكان بينهم رمال، فألقىٰ الشيطان في قلوب ضعفاء الإيمان منهم هذه الهواجس: تزعمون أنَّ فيكم نبياً وأنكم أولياء الله، وأنتم علىٰ هذه الحال، وهم علىٰ ما ترون؛ لا ظمأ ولا رمال، وقد عطشتم، وغداً يجهدكم العطش، فإذا قَطَعَ أعناقَكم مَشَوْا إليكم، فقتلوا من أحبُّوا وساقوا بقيتكم إلىٰ مكة مأسورين. فحزنوا حزناً شديداً، بمثل هذه الخواطر والوساوس، فأنزل الله من السماء ماء، فسَالَ عليهم الوادي، فشَرِبَ المسلمون وتطهَّروا، وخزَّنوا الماء بحياض، فذهب وسوسة الشيطان عنهم واطمأنَّت قلوبُهم، وثبتت أقدامُهم علىٰ الدَّهاس(٢) والرمال لتلبُّدها بالمطر(٣).

---

(١) رواه أحمد (١٠٢٣)، وابن خزيمة (٨٩٩).

(٢) هي كل أرض سهلة يثقل فيها المشي. «لسان العرب» (دهس).

(٣) لم يقع هذا المطر علىٰ المشركين مع قربهم منهم. ويجوز أن تكون جملة: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ كلاماً جامعاً بين الحقيقة والمجاز. (المؤلف).

ثم فصَّل صورة النصر بالملائكة وإنجاز الوعد بالغلب، فقال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ والمعيَّة هنا مجاز عن الإعانة، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، أي: إني مُعينكم، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و﴿إِذْ﴾ في الموضعين متعلق بالفعل: استجاب لكم. هذا هو الظاهر. كما أنَّ الظاهر هو أنَّ التثبيت إنما هو بإلهامهم لهم تذكّر وعد الله ورسوله، وأمثال ذلك مما يُثبِّتُ القلوب ويُغَذِّي القوة المعنوية.

أما قوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾؛ فيجوز أن يكون خطاباً للملائكة، أو للنبيِّ ﷺ والمؤمنين. وقوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ مُوجَّهٌ إلىٰ المؤمنين علىٰ ما عليه المحقِّقون، أي: فاضربوا الأعناق واقطعوا الأيدي أيها المؤمنون، لأني سأُلقي في قلوبهم الرعب منكم. وعليه، فالظاهر أنه معطوف علىٰ قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، إما علىٰ اعتبار أنَّ قوله: ﴿سَأُلْقِي ...﴾ خطابٌ للرسول وأتباعه، فيكون قوله: ﴿فَاضْرِبُوا﴾ معطوفاً عليه، وخصَّ البنان بالذكر ـ مراداً بها الأصابع ثم الأكفّ بطريقة المجاز المُرسَل ـ لأنها أداة التصرُّف في الضرب. وضَرْبُ الأعناق والأيدي من أمْيَز حرب الميدان عند التحام الجيشين واشتباكهما في القتال.

ثم علَّل ما تقدَّم من إلقاء الرُّعب والأمر بالضرب بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: قاوموا وعارضوا ما جاء به الرسول من عند الله، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾.

ثم خاطب المشركين المنكسرين المخذولين بما به تنديمٌ لهم وتأليمٌ وتوعُّد، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ أي: ذلكم هو الجزاءُ الدنيوي، فذُوقوه في الدنيا، وهو القتل والانكسار والانهزام أمام فئة قليلة العدد من المسلمين، أما العذاب الأخروي فقد ذكره بقوله: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ثم أردف السياق بهذا الحكم العام ليشمله وغيره، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا ﴾ أي: زاحفين لقتالكم، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾ مُنهزمين، وإن كانوا أكثرَ منكم عَدَداً وعُدَداً.

ثم ذكر حكمه في المولِّين، فقال: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ ﴾ كأنْ يقتضيَ الفنُّ الحربي التقهقر أو الانسحاب إلىٰ مكان أصلح، أو ليخدع العدو بانسحابه، ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ ﴾ أي: منتقِّلاً من فئة قوية إلىٰ فئة ضعيفة من المسلمين لتقويتها، فَمَنْ يولِّهم دُبـرَه لغير ذلك ﴿فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

ثم وصل النهي عن التولِّي بما يدلُّ علىٰ عناية الله تعالىٰ بهم ومعونته لهم، إيذاناً بأنهم أَوْلىٰ من العدو بالثبات والصبر، فقال: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡ ﴾ بتأييده لكم ورَبْطِهِ علىٰ قلوبكم، ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ بإلقاء الرُّعب في قلوبهم. وإنما فعل هذا لتكون كلمةُ الله هي العليا ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ له حُسْنُ عاقبة ومآل، أي: لِيُظْهِرَ حُسْنَ عمل المؤمنين وقوَّةِ إيمانهم وعُلوِّ سمعتهم بهذا الاختبار؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ﴾ وبحسب ذلك يُجري الأمورَ والأحكامَ، ولا تخفىٰ عليه من أمركم خافية.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الإبْلاءُ والإظهار هو الغرض الأول من تأييدكم، ﴿وَ﴾ الغرض الثاني: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾ بهذا التأييد، حيث مكروا بالنبيِّ ﷺ والمؤمنين، وحاولوا القضاء علىٰ دعوة التوحيد، فأضعَفَ قوَّتهم، وأذلَّ جبروتَهم.

ثم وبَّخهم وتهكَّم بهم، ونقل الكلام من الغَيْبة إلىٰ الخطاب؛ مبالغةً في التأنيب، وضمَّنه الإرشاد بعد النقد، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾؛ ذكر أصحاب السِّيَر والحديث: أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهمَّ أيُّنا كان أقطعَ للرَّحِم بما لا يعرف، فأحِنْهُ الغَدَاة، أي: أوقِعْهُ في المحنة غداً(١). ويدلُّ هذا منه علىٰ أنه كان واثقاً بدينه مغروراً به، مع أن أكثر أكابر مجرمي مكة كان كفرُهم كِبْراً وعناداً. ويجوز أن يراد بالفَتْح: الحكم والقضاء.

ثم أتبع ذلك بإرشادهم، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن عداوة النبيِّ ﷺ ومعارضة دينه وتدخلوا فيه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

ثم توعَّدهم علىٰ المقاومة ثانياً بإعادة الكرَّة عليهم، فقال: ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ لمقاتلته ﴿نَعُدْ﴾ لما رأيتم من كَسْركم وإتلافكم، ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فلا تدفع عنكم بأسَ الله، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾ بالمعُونة والولاية والتوفيق، فلا تضرُّهم قلَّتهم ولا كثرتكم شيئاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾.

---

(١) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١١١٣٧). وفيه: «فافتح الغد» بدل «فأحنه الغد».

ثم أدَّب المؤمنين عن موقف ضعفائهم الذي ألمع إليه في أمر الأنفال، وفصَّله في أمر المجادَلة عند الخروج إلىٰ القتال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ كلامَ الله المصرِّحَ بوجوب موالاته ونصره.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ سماعَ تفقُّهٍ واعتبارٍ يتبعه الانتفاع والعمل، وهم الكَفَرة والمنافقون الذين شنع عليهم بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وهم الذين لا يُلقُون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة. فكانوا لِفَقْدِ منفعة السمع كالذين فقدوا حاسَّتَه، ولعدم قول الحق كالذين فقدوا قوة النطق، ولعدم الاعتبار بالموعظة كالذين فقدوا فضيلة العقل الذي يُميِّز بين الحقِّ والباطل ويُفرِّق بين الخير والشر. وفي التعبير بالدوابِّ تحقيرٌ لهم وتأنيب.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ سبب ذلك فيهم إنما هو إفسادهم لفطرتهم حتىٰ لم يبق فيهم خير أبداً. وقد عبَّر عن ذلك بعدم العلم به تعبيراً عن اللازم بالملزوم، إذ يلزم من عَدَم عِلمِ الله بالشيء عَدَمُ وجودِه، فقال: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾ أي: ولو عَلِمَ الله فيهم بقيَّة استعداد للإيمان والهدىٰ ببقية من نور الفطرة لم تطفئها مفاسدُ التربية وسوء القدوة؛ لأسمَعَهم الكتابَ والحكمةَ سماعَ تفقُّه وتدبُّر، ﴿وَ﴾ لكنهم قد انطمس منهم نورُ الفطرة وجلاءُ البصيرة بما ذكر، فلذلك ﴿لَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ﴾ عن القَبول والإذْعان، ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ بقلوبهم، نافرون من الحقِّ لفساد طبيعتهم.

ومُحصَّل المعنىٰ: لو كان قد بقي فيهم بقية من الاستعداد الطبيعي للهدىٰ والرشاد لم يستوعبها إفساد التربية، لسمعوا ما جاءهم في هذا الكتاب المبين من الهدىٰ والإرشاد، ولكنهم قد أفسدوا طبيعتهم بالكليَّة، وكان من نتيجة ذلك أنْ صدُّوا عمَّا جاء من الهدىٰ

في هذا القرآن، حيث رأوه ضلالاً وتولَّوا عنه وهم مُعْرِضُون. وإنما أسند الفعل إلىٰ الله سبحانه؛ لأنه هو الذي طبع الإنسان علىٰ هذه الطبيعة المستعدَّة للهدىٰ والضلال باختيار صاحبها، واتِّباع ما يميل إليه، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وبعد أن نبَّه المسلمين إلىٰ ما لمسوه من ثمرات هذا الدين وأحرزوه به من ألطاف ربِّ العالمين، دعاهم إلىٰ طاعة الله به ورسوله، ليدومَ ذلك الخير عليهم، ونوَّه بشأن ما سَبَق في السياق، ضِمنَ التنويه بالشريعة كلِّها، وأنها حياة الإنسانية، لا معنىٰ لها سواها، وحثَّ المؤمنين علىٰ التمسُّك بها وبتوجيهاتها، ناظراً إلىٰ ما كان من كُرْهِ بعضهم عندما أُمِروا بمحاربة المشركين وانتدابهم لوقعة بدر، علىٰ نهج القرآن في العودة والتتميم، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ من تشريعاتِ الله وتوجيهاته، إذ بها الحياة وبدونها الممات. وملاكها: هو هذا القرآن، إذ به تكمل الفطرة الإنسانية، وتسعد الحياة الدنيوية والأخروية، إذ هو النظام الصالح للبشر، يُصلِحُ النفوس ويُنظِّم الأحوال الاجتماعية تنظيماً ملائماً للفطرة وللمصالح العامة، ويجعل الحياة سعيدة من جميع النواحي والوجوه. وفي ذلك كلُّ الخير والفلاح لبني الإنسان.

ومن جملة الحياة التي يدعو إليها الرسول: هي الجهاد في سبيل الله؛ لأنه سببُ القوَّة والعزَّة والسلطان. والاستجابة بمعنىٰ: الإجابة، والسين والتاء للمبالغة.

ثم ختم الكلام بما فيه تحذيرٌ منه تعالىٰ؛ لأنه مُطَّلع علىٰ خفايا الأمور وأسرار النوايا، فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾(١) بمعنىٰ أنه سبحانه أقرب إليه منه، وأعلم منه بهواجسه وخواطره، يُعَرِّض بما كان عند ضعفاء المؤمنين من مَوْجِدةٍ(٢) وعَدَم رضا في أمر بدر والذهاب إلىٰ القتال، ومن تَنازُعِهم في الأنفال وغير ذلك من الهفوات، بمعنىٰ: أنَّ الله سبحانه أقرب إلىٰ خطرات الإنسان من نفس الإنسان، فالكلامُ تمثيلٌ لدقَّة علم الله سبحانه في أحوال البشر وهواجسه وخطراته، فهو بمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وقيل: المراد بها التحذير من تغلُّب الهوىٰ وتقلُّب القلوب، فهي مشابهةٌ لقوله تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وذلك لأنَّ الإنسان مهما كان فيه من حياة الضمير ويقظته وقوَّة إيمانه وإخلاصه قد يعرض له أسباب وأحداث تلمُّ به، فينحرف عن الحقِّ بالتأويل، وما يزال ينحدر حتىٰ يكونَ بينه وبين الإخلاص الأول بونٌ شاسع. أو تَعرِضُ له شبهةٌ تُزَعْزِع اعتقاده، أو شهوةٌ يغلب فيها الغيُّ رشادَه، فيطيع هواه أو يسير وراء وساوس الشيطان، أعاذنا الله.

---

(١) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، قُتِلَ أخي عُمير، فقَتَلتُ به سعيدَ ابنَ العاص، وأخذت سيفه، فأتيت به رسول الله ﷺ، فاستوهبته منه، فقال: «ليس هذا لي ولا لك، اطرحه في القبض»، فطرحته ولي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخْـذِ سَلَبي، فما جاوزت إلا قليلاً حتىٰ نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فاذهب فخذه». أقول: فإلىٰ مثل هذه الـمَوْجِدَة القلبية، يذكّر سبحانه الإنسان، بدقّة علمه بشؤونه ما خفي منها وما ظهر. (المؤلف).

والحديث رواه أحمد (١٥٥٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣٧٥٧)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) المَوْجِدة: العتب. «القاموس المحيط» (عتب).

ثم أكمل التحذير بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٤﴾.

وذكر صاحب «المنار» في الآية وجهاً آخر، فصَّله تفصيلاً واسعاً، وإجماله: أنَّ من سُنَّة الله في البشر الحَيْلولة بين المرء وبين قلبه الذي هو مركز الوجدان والسلطان علىٰ إرادته وعمله[1]. إذ من سُنَّة الله في البشر أنَّ مَنْ يتَّبع هواه في أعماله ويستمرُّ علىٰ ذلك ويُدْمِنُه الزمن الطويل، تَضعُفُ إرادته في هواه، حتىٰ تذوب وتفنىٰ فيه، فلا تعود تؤثِّر فيه المواعظ والعبر. وهذه الحالة يُعبَّر عنها بالختم والرَّيْن والطبع علىٰ القلب، وإسنادُ الفعل إلىٰ الله تعالىٰ لأنه خالق هذه السنة في طبيعة البشر، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية في خصائص أساليب القرآن).

وبعد أن أمر المؤمنين بإطاعة الرسول والاستجابة له؛ لأنَّ كلَّ ما يأمرهم به هو حياةٌ لهم وكمال، حذَّر عن الأعمال التي تَـجْلب الأضرار العامة، مُلمِعاً إلىٰ ما كان من بعضهم في غزوة بدر، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الشيء بما يشمله وغيرَه، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ أي: واتَّقُوا وقوعَ الفتن القوميَّة والـمِلِّيَّة العامَّة، التي من شأنها أن تقع بين الأمم علىٰ مصالحها العامة من الملك والسيادة، أو التفرُّق في الدين والشريعة، والانقسام إلىٰ الأحزاب والمِلَلِ والنِّحَل. ومنشأُ ذلك: التساهل في الأحكام والمطالب بالتأويل، فإنه يؤدِّي إلىٰ انحلال المجتمع وفساده، ونَشْر التَّميُّع والفَوْضىٰ في الدين، وحدوث الفِرَقِ والمذاهب الباطلة والأحزاب المتنازعة.

روىٰ أحمدُ وغيره عن مُطرِّف قال: قلنا للزبير: «يا أبا عبد الله، ضيَّعتُم الخليفة حتىٰ قُتِل - يعني عثمان رضي الله عنه - ثم جئتُم تطلبون بدمه، فقال: كنا نقرأ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً

---

(١) تفسير «المنار» (٩: ٥٢٧).

لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾، ولم نكن نحسب أنّا أهلُها، حتىٰ وقعت فينا حيث وقعت»[١].

ثم أردف التحذير عن ذلك بالتهديد الشامل للمرتكبين، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ لمن خالف سُنَنَه التي لا تبديل لها ولا تحويل، ولمن خالف هدايةَ الدين المزكيةَ للنفوس، ولمن أحدث انقساماً في الصفوف.

ثم ذكّرهم بفوائد هذا الدين وما في أوامره ونواهيه من المصالح الدنيويَّة والأخرويَّة، وخصَّ بالإيماء هذه الوحدة الجديدة، وهذا النظام الجديد، وما ينتج عنه من فوائد وحياة اجتماعية، والغرَضُ من ذلك: الحَمْلُ علىٰ التمسُّك بهذا الدين المؤدِّي إلىٰ تلك المصالح، والاستدلالُ بالواقع علىٰ أنه حياة اجتماعية وخير عميم في الدنيا والأخرىٰ، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ لِضَعْفكم وتفرُّق وَحْدَتكم، فكنتم أذِلّاءَ تحت سيطرة الأمم، ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ وضمَّكم إلىٰ بعضكم، ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ليُعِدَّكم لشكره تعالىٰ بنشر هذا الدين في الآفاق وفي أنفسكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) رواه أحمد (١٤١٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧: ٩٩): رواه أحمد بإسنادَيْن؛ رجال أحدهما رجال الصحيح.

ثم سَاوَقَ البحث بما يُكمل الأمر بالاستجابة لله وللرسول، وقرنه بالنَّهي عن تقديم المال وترجيحه علىٰ ذلك، حيث تشاحنوا في الأنفال، وأغلظ في التعبير عنه عندما ألمع إليه تحت ذِكرِ قاعدة الخيانة، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ بتعطيلِ أو تهوينِ أوامره ونواهيه وتعدِّي حدوده وانتهاك محارمه وحقوقه التي بيَّنَها لكم في كتابه، ﴿وَ﴾ لا ﴿تَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ فيما بينكم من الحقوق في المعاملات، أو بينكم وبين أولياء أموركم من الشؤون السياسية، ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ مَفاسِدَ الخيانة وسوءَ عاقبتها.

ولكن ربما يدفعكم إلىٰ ذلك الحرصُ علىٰ المال والولد، فلا تفعلوا ذلك ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ لكم واختبارٌ لمطويَّات نفوسكم، يظهر بها ما إذا بقي في نفوسكم من نور الفطرة ما يوقفها موقف الاعتدال في معاملة الأموال والأولاد. فالتَّقيُّ يقبل الحق علىٰ ماله وولده ويُجريه، وغيرُه يتعصَّب لماله وولده ضدَّ الحق ويتعسَّف فيه، ويتهاون في دينه ولا يتهاون فيها، فلا تفعلوا ذلك ﴿وَ﴾ واعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾؛ لا تكون الأموال والأولاد في جَنْبه إلا شيئاً تافهاً، فلا تبيعوا العظيم بالتافه.

ثم أردف هذا التأديب بما يُرغِّب فيه من بيان ثمرته، ويُبرهَنُ به علىٰ أنَّ تعاليم الله حياة عالية وثقافة سامية، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ أي: يَجْعَل لكم بمقتضىٰ هذه التقوىٰ والتمسُّك بهذه التعاليم مَلَكَةً من العلم والحكمة والعرفان، تُفرِّقون بها بين الحقِّ والباطل، والضارِّ والنافع، وتُميِّزون بين النور والظلمة، والحُجَّة والشبهة، وهذه الملكةُ هي الثقافَةُ العالية والتهذيبُ الصحيح، والتقوىٰ: أن نفهم تعاليم الله ونمارسها، فتكون لك ملكة في عملها وحكمتها، ينبعث عنها الوقوف عند حدود الله، ترجوه بها وتخشاه.

وتحرير الكلام: أنَّ التقوىٰ هي ـ كما قال الأستاذ الإمام[١] ـ: أن تقيَ نفسَك من الله ومن غضبه وسَخَطه وعقوبته، ولا يمكن هذا إلا بعد معرفة الله ومعرفة ما يُرضيه وما يُسخِطُه، ولا يعرف هذا إلا مَنْ فهم كتاب الله تعالىٰ وعرف سُنةَ نبيِّه ﷺ وسيرةَ سلف الأمة الصالح، مُطَالباً نفسه بالاهتداء بذلك كلِّه[٢]. ومن أعدَّ نفسه هذا الإعداد فرَّق بين الحقِّ والباطل، والضارِّ والنافع، والحُجَّة والشبهة، والنور والظلمة، وذلك هو الفرقان، ﴿وَ﴾ بنتيجة هذا الفرقان وكمال الإيمان تَصْطلح أعمالكم، ومتىٰ صَلَحَت ﴿يُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾، فالتمسُّك بتعاليم الله والعمل بمقتضاه يَكْفَلان لكم سعادةَ الحياتين الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم ذكَّر الرسولَ ﷺ بعنايته به وحفْظِهِ له، بعد أن ذكَّر المؤمنين عامَّةً بنصرهم علىٰ ضَعْفِهم وعنايته بهم، إيماءً لفوائد هذا الدين وعناية الله سبحانه بأهله ومُتَّبعيه، وتثبيتاً له ﷺ، كَي لا يخاف لَوْمَة لائم، ولا صَوْلة جائر، ولا حرب مُعتَدٍ أثيم، وانتقالاً من الكلام عن المؤمنين إلىٰ الكلام عن الكافرين، وبياناً لوجوب محاربتهم أجمعين، فقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قبيل الهجرة بما يدبِّرون فيما بينهم من وسائل الإيقاع بك والتغلُّب علىٰ أمرك؛ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالحبس والشدِّ بالوثاق منعاً لك عن لقاء الناس، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة، علىٰ اختلافٍ في آرائهم التي انتهت بأن يجمعوا عصابة، من كل قبيلة واحداً، يشتركون في قَتْلِهِ، فيتفرَّق دَمُهُ في القبائل، فترضىٰ قبيلته بالدية مهما

(١) هو الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٤: ٢٦١).

بلغت[1]، ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾، والمكر: التدبير الخفيُّ. وفي الآية مُشَاكَلة، وهي من بديع الكلام. والمراد بمكر الله: إبطالُ مكرهم وحِفْظُه منهم بتدبير الله وهم لا يعلمون.

وتذكير النبيِّ ﷺ بهذه المواقف المكِّيَّة في العهد المدني؛ يُلهِمُ أنها من أشدِّ المواقف نكايةً ووقعاً.

ويجوز أن يراد من الإثبات: المنعُ من الخروج عن مكة خشيةَ أن ينتشر أمرُه، فيكون ضدَّ الرأي الثالث، بناءً علىٰ اختلاف آرائهم. والله أعلم.

وتحرير الآية: أنَّ قريشاً اجتمعت سرّاً ليُدبِّروا أمراً يَتخلَّصون به منه، ودارت بينهم هذه الآراء الثلاثة، ولكنَّ الرأي الأول وَهَىٰ وضَعُفَ بينهم؛ إذ رأوه غيرَ ممكن، وكذلك الرأي الثالث لم يوافقوا عليه؛ لأنهم تبيَّنوا وتحقَّقوا أنه إذا خرج إلىٰ غيرهم يَقْوَىٰ أمرُه لحلاوة ما عنده والرغبة فيه، فأجمعوا علىٰ الرأي الثاني، واعتمدوا علىٰ أن يأخذوا من كلِّ قبيلة غلاماً نشيطاً، فيضربونه بسيوفهم ضربةَ رجل واحد، فيتفرَّق دمُه في القبائل، فلا تقدر بنو هاشم علىٰ مقاومتهم، فيقبلون الدية اضطراراً. فأتىٰ جبريل عليه السلام وأمَرَه أن لا يبيت في مَضْجَعِهِ الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم، وأذِنَ الله له بالهجرة، فاختفىٰ مع أبي بكر رضي الله عنه بغار ثور، ومنه هاجر إلىٰ المدينة.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣١ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ

(١) «تفسير الطبري» (١٣: ٤٩٥).

ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه مكابرةً من مكابرات هؤلاء المشركين المعاندين الماكرين، ذكرها في سياق بيان استحقاقهم لمحاربة بدر وما جرىٰ عليهم فيها، وقولهم بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ المُنَزَّلةُ في القرآن الذي يعجز عن مثله الثقلان، فيما أودع فيه من علم وحكمة وتشريع وقصص وبيان، وما له من التأثير في نفس كل إنسان، بقدر ما أُوتي من بلاغة وعقل وقلب ووجدان، ﴿قَالُواْ﴾ صَلَفاً ووقاحة، وسَفَهاً وضلالة: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، نَقَلَ هذا القولَ جمهورُ رواة التفسير عن النضر بن الحارث من بني عبد الدار[1].

ثم أردفوا ذلك بما هو أكذب منه، وهو قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: قَصَصُهم وأحاديثُهم التي سُطرت في الكتب علىٰ علّاتها، وليس هو بوحي من عند الله؛ يقولون ذلك وقد دُعوا إلىٰ أن يأتوا بأقصر سورة من مثله فعجزوا، ولكنْ لا دواء للوقاحة والمكابرة والعناد.

ثم حكىٰ سبحانه لهم صَلَفاً آخرَ أشنعَ من هذا وأشدَّ عناداً، فقال: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وقد ردَّ عليهم سبحانه ببيان أنَّ المانع من تعذيبهم بعذاب الاستئصال الذي استحقوه وطلبوه تهكُّماً، إنما هو وجوده ﷺ بين أظهرهم، وتتابُع انتشار الدعوة فيهم،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣: ٥٠٤).

فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ تُنْذِرُهم وتُمنِّيهم، فلعلَّهم يهتدون، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾(١) ويتوبون واحداً بعد واحد، أي: ما كان الله ليستأصلهم بالعذاب وفيهم هذان المانعان. ويجوز أن يكون المعنىٰ: أن الله لا يُعذِّبُهم وأنت فيهم، كما أنه لا يُعذِّبُهم لو كانوا مستغفرين مؤمنين.

وبعد أن بيَّن المانع من تعذيبهم، بيَّن استحقاقهم للعذاب الذي أمهلهم فيه، وأنكر عليهم أمانَهم من الله وثقتهم في ذلك، فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾، فنزَّلهم منزلة المعترضين علىٰ تعذيبهم، وأنكر عليهم اعتراضَهم، وبيَّن سَبَبَ التعذيب فقال: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ المسلمين ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ في الحديبية، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي: مُستحقِّين للولاية عليه لشركهم ومفاسدهم، ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وهم المسلمون، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أنه لا حقَّ لهم في الولاية علىٰ هذا البيت، وأنَّ الحقَّ فيه للمؤمنين. والتعبير بـ«أكثرهم» هو من أساليب القرآن لدِقَّة البيان.

ثم عطف علىٰ الحكم ما هو حُجَّة علىٰ صحَّته، وهو بيان حالهم في أفضل ما بُني

---

(١) تضمَّن مفادُ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ ...﴾ إظهارَ وثوقهم في أنهم لا يستحقون العذاب فلا ينزل بهم؛ لأنهم علىٰ حقٍّ ومحمد علىٰ باطل، فبيَّن سبحانه لهم: إنما لم يعذِّبهم لا لأنهم علىٰ حق، بل لأنَّ الرسول فيهم يدعوهم إلىٰ الحق، ولعلهم فيما بعدُ يستجيبون ـ أكثرهم أو بعضهم ـ بالتدريج. فلذلك لم يعذِّبهم، كما لم يعذِّبهم إن استجابوا واستغفروا بالفعل، يردّ عليهم ما تضمَّنه كرمهم من إظهار اعتقادهم أنهم لا يستحقُّون العذاب بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ...﴾، ومُحصَّل الرد: أن اغتصابهم ولاية هذا البيت وهم ليسوا أهلاً لها؛ من المسلمين وهم أهلٌ لها، وصدُّ المسلمين عنه يوم الحديبية؛ كيف لا يكون سبباً لغضب الله عليهم وتعذيبهم؟

وردَّ عليهم ما تضمَّنه الكلام من إظهار اعتقادهم أنهم علىٰ حق، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ...﴾، ومفادُه: أنَّ من كانت صلاته هذه الصلاة، وعبادته في البيت هذه العبادة؛ كيف يكون علىٰ حق في دينه ومرضياً عند الله؟! (المؤلف).

المسجد لأجلـه، وهو الصلاة، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾، والـمُكاء: الصفير، والتَّصْدية: التصفيق. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كانت قريش تطوف بالبيت عُراةً تُصفِّر وتُصفِّق»(١)، ورُوِي عن سعيد بن جُبير: «أنهم كانوا يعارضون النَّبيَّ ﷺ في الطواف فيُصفِّرون ويستهزئون»(٢).

ثم سجَّل سبحانه عليهم التوعُّد بقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾، وإذا أريد به ما جرىٰ عليهم يوم بدر وهو الظاهر؛ لأنّ ما قبله يدلُّ علىٰ استحقاقهم لهذه الحرب، وما بعده يؤيِّده. وعليه؛ يكون الكلام لزيادة الإيلام والتنديم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

ثم تابع الكلام في تأنيبهم والنَّعي عليهم وتجهيلهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ في مقاومة المسلمين ـ ومن ذلك ما أنفقوه في واقعة بدر ـ ﴿ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، وفي هذا زيادةُ تأنيبٍ وتشنيع، والكلام يشمل أمثالَهم في كلِّ زمن، ثم بيَّن عاقبةَ ذلك عليهم ووبالَه، فقال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ لذهابها

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩٠٤٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣: ٥٢٤).

سُدًىٰ، وخسرانها عبثاً، فإنهم يُقاتَلون ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾، وهذا ما ينالهم في الدنيا، أما ما ينالهم في الآخرة فهو ما توعَّدهم به بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ثم سَبَـك بيان الغاية من الحرب وغَلَبِ المؤمنين للمشركين، ودَرَجَه علىٰ بيان مصيرهم، فقال: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾[1]، وقد أُخِذَ هذا المعنىٰ من حالة قِطَعٍ مؤذيةٍ منتشرة في الطريق، تُجمَعُ منه وتُكَدَّس جانباً؛ لِيَسْلَمَ المارَّة من أذاها. والمعنىٰ: أنه سبحانه يجمع الخبيث منضَّداً بعضه إلىٰ بعض ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾.

ثم سجَّل ونعىٰ عليهم بهذا الحكم المسبوك علىٰ التنديم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ لأنهم خسروا أموالهم وأنفسهم في هذا العمل الذي عاد عليهم بالوبال والنَّكال وسُوء المآل.

وبعد هذا البيان الـمُهِزّ للنفوس والمهيِّئ للعقول، أمر رسوله ﷺ أن يدعوَهم إلىٰ الهدىٰ، فاتحاً باب التوبة علىٰ مِصراعَيْه، وإسدالِ الستار علىٰ الماضي، علىٰ نهج الدعوة إلىٰ الرشاد وأصول الإرشاد، وعلىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد علىٰ الضلال بالدعوة إلىٰ سبيل الهدىٰ، وصفاً للدواء بعد تشخيص الداء، وسَبَكَ الكلام علىٰ وَعْدِ المتبعين ووعيد الـمُعرِضين، فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلىٰ العداء للمؤمنين ومعارضة الرسول ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ وهي استئصالُ شأفة الذين عادَوُا الرُّسُلَ وصدُّوهم عن مهمتهم، فلا بد أن تنالهم هذه السنَّة الـمُطَّردة التي أيَّدها بالحثِّ علىٰ قتالهم، فقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾

---

(١) يجوز أن يراد تكتُّل الكفار مع بعضهم وانعزالهم عن المؤمنين بحكم المبدأ والدين، والله أعلم. فهو من أسباب إلقائهم في جهنم علىٰ هذه الصورة. (المؤلف).

منهم ضدَّ الدعوة، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ لا يستطيعُ أحد أن يَفتِنَ أحداً عن دين الله، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾، فيُجازيهم عليه الجزاء الأوفىٰ، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ ولم ينتهوا عن كفرهم وفتنتهم وقتالهم لكم ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ يتولَّىٰ نَصْرَكم عليهم، وهو ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾، فلا يَضِيعُ مَنْ تولَّاه، ولا يُغْلَبُ مَنْ نصره ووالاه.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ بيانُ السبب الذي يُبيح الحرب.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ وصف غزوة بدر وما فيها من الحِكَم والعِبَر والأحكام، مُبتَدِئاً هذا السياق بحكم شرعي يتعلَّق بالقتال، جعَله وَصْلاً كمَّل فيه ما ابتدأ به السورة من حكم الأنفال، وفصَّل به ذلك الإجمال، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ والغنيمة: ما يناله المسلمون من المنقولات في حرب الكفار عُنْوة، ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ فيُصْرَفُ هذا الخُمُسُ فيما يُرضي الله من مصالح الدين العامة، ومنها: مَصْرِف الدفاع عن كيانه، وذلك بعد أن يأخذ الرسول كفايتَه لنفسِهِ وخاصَّةِ أهله، وما يحتاج إليه للوفود والقُصَّاد، ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: أقربائه، وهم الذين حُرِّمت عليهم الصَّدقة كما حُرِّمت عليه؛ تكريماً له. وأعاد اللام في (ذي القربىٰ) دون غيرهم؛ لِدَفْعِ توهُّم اشتراكهم في سَهْم الرسول ﷺ.

ثم تابع التصنيف فقال: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾، والمراد بهم: الفقراء، فقد ذهب أخصُّ العلماء إلىٰ أنَّ المسكين والفقير قسمان لصنف واحد، أو هما صفتان مترادفتان علىٰ

موصوف واحد بالذات، وإن اختلف بالاعتبار، وتختلف العبارات باختلاف الاعتبارات.
وأرباب الرأي الأول يقولون: الفقير: مَنْ لا يحصل علىٰ ما يقع موقعاً من كفايته، والمسكين: مَنْ يحصل علىٰ مثل ذلك، ولكنه لا يكفيه ويكفي عياله. وقيل: بالعكس.

والمراد بقوله: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: المسافر الذي نَفِدَ ما يُوصله إلىٰ أهله. ولعلَّ هذا السهم للتشجيع علىٰ الأسفار المفيدة للمسلمين.

ثم وصل هذا الحكم في الغنيمة بما يَحْمِلُ علىٰ التمسُّك به، مُعزِّزاً ذلك بالتذكير بنِعَم الله عليهم في هذه الوقعة الحربية، فقال: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ واليوم الآخر، ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ في بدر من عظائم العِبَرِ في ذلك النصر المبين، الذي فرَّق به بين الحقِّ والباطل في تلك الوقعة الفاصلة المقرونة بمعونة الله وعنايته وقدرته ورعايته، التي انتصف فيها الإسلام من أعدائه، وقام للمسلمين بسببها شوكةٌ وسلطان، وكانت نقطةَ تحوُّل عظيم للمسلمين، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

وقيل: المراد بيوم الفرقان: يوم أول نزول القرآن، وبيوم التقىٰ الجمعان: يوم بدر، وإنما جمع بينهما لأنَّ كليهما كان يوم سابع عشر من رمضان؛ لأنه وقعت فيه ظاهرتان عظيمتان، وإن اختلفت سَنَتُهما. كما يقال: يوم عاشوراء فيه نَجت سفينةُ نوح، وفيه نَجَا موسىٰ من الغرق، وبين اليومَيْن أحقاب؛ إذ المراد اختصاصُ نوع هذا اليوم بهذه الوقائع والخصائص المباركة التي حدثت فيه، والله أعلم.

ومعنىٰ إيمانهم به: اعتقادُهم بأنَّ ذلك من فَضْل الله عليهم وعنايته بهم ورعايته لهم.

﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ

هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم وَصَلَ البحث بتفصيل تلك العِبَرِ الـمُنزَلة يوم بدر الدالة علىٰ عظم القدرة والتدبير، فقال: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بأقرَبِ الجانبَين من الوادي إلىٰ المدينة وفيه الماء، إذ نزل المطر ـ المارُّ الذِّكرِ ـ فيه دون غيره، ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ أي: والأعداء في الجانب الأبعد من الوادي، والرمل رخو تسوخ فيه الأقدام؛ لأنه لم يُمْطَر كما مُطِرَ الجانبُ الأدنىٰ. فهذه هي إحدىٰ العبر. ومُحصَّلُها: أنه تعالىٰ أصْلَحَ موضعكم ـ وهو العُدْوة الدنيا ـ بإنزال المطر عليها حتىٰ أصبحت صالحةً للجوَلان فيها بتلبُّد رَمْلها، وفوق ذلك تجمَّع لكم ماءٌ للتطهُّر والشرب. أما موضع العَدُوِّ ـ وهو العُدْوة القصوىٰ ـ فلم يُصِبْها المطر مع قُربها من موضعكم، وظلَّت رملية رديئة خالية من ماء الشرب، فكان لذلك أثرُه العظيم في غَلَبِكُم عليهم.

والعبرة الثانية: أنه سبحانه جمع بينكم وبين عدوِّكم، رغماً عن أنكم لا تريدون لقاءه ولم تتأهَّبوا له، إذ قد خرجتم لاغتنام العِير من ركب أبي سفيان، وذلك لا يحتاج إلىٰ كبير عناية، ولم يخطر لكم أنكم تجتمعون بهذا الزحف الحاشد من قريش الذي خفَّ للنجْدة، فقضىٰ سبحانه أن لا تدركوا العير رغماً عن قُرْبِكم منها، وتكونوا أمام أمر واقع، وهو محاربة هذا الجمع الزاحف عليكم، والذي نزلتم وإيَّاه في منطقة واحدة صدفة، والتقيتم به، فلم يكن إلا الحرب، وكل ذلك التدبير منه تعالىٰ لأجل أن يجعلَ لكم الغَلَبة والفوز عليهم، رغماً عن قلتكم وعدم أُهبتكم للحرب، ليَظْهَرَ بذلك لهم ولكم إنجازُ وعد الله سبحانه بخذلانهم ونصركم عليهم، ويتبيَّن أنكم علىٰ الحقِّ وأنهم علىٰ الباطل.

كمَا فصَّل سبحانه ذلك كلَّه بقوله: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾، أي: والعير التي خرجتم للقائها أسفلَ منكم، وهو ساحل البحر، ولو علمتم بها لاتَّبعتُموها وما التقيتُم بالمشركين في هذا المكان.

﴿وَلَوۡ﴾ فُرِضَ أنكم ﴿تَوَاعَدتُّمۡ﴾ معهم علىٰ القتال، ثم علمتُم حالكم وحالهم؛ ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾(١) لكراهتكم للحرب علىٰ قلَّتكم، وعدم إعدادكم شيئاً من العدَّة لها، وانحصار همكم في أخذ العير واغتنامها، ولأنَّ غرض الأكثر منهم كان إنقاذ العير دون القتال؛ لأنهم كانوا يهابون قتال رسول الله ﷺ؛ لأنَّ كفر أكثرهم به كان عناداً لا اعتقاداً، ﴿وَلَٰكِن﴾ قُدِّرَ هذا التلاقي، وهُيِّئَت له هذه الأسبابُ، عن غير قَصْد من الفريقين، ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ وهو القتال المُفْضي إلىٰ خِذلانِهم ونصركم عليهم، وذلك ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ أي: ليتبيَّن ـ بإنجاز وعد الله بنصر المؤمنين مع قلَّتهم علىٰ الكافرين مع كثرتهم ـ أنَّ المؤمنين علىٰ حقٍّ والكافرين علىٰ باطل، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ بما يُخْفيه ويكنُّه كلٌّ منكم، ﴿عَلِيمٌ ٤٢﴾ في وَضْع الأمور مواضعها اللازمة.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ﴾ بدلاً من قوله: ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ﴾ بَدَلَ مُفصَّل من مُجمَل.

---

(١) أُخبِرَ النبيُّ ﷺ بقفول ركب قريش من الشام إلىٰ مكة علىٰ الطريق المارِّ ببدر، فأمر أصحابه بالخروج، وخرج معهم يريدون العير، وقال: لعل الله يُنفِلُكُمُوها. وبلغ أبا سفيان ـ وهو أمير الركب ـ خروجُ رسول الله ﷺ هذا، فأمر الركب أن يأخذ بسِيف البحر، ويترك الطريق المارَّ ببدر، وأرسل رسولاً إلىٰ أهل مكة يُعلمهم بالأمر ويستنفرهم للنجدة، فخرجوا إلىٰ بدر ليشغلوا وجه رسول الله ﷺ عن تتبُّع العير، فصادفوه ببدر وهو يظنُّ أن الركب يمر علىٰ بدر، فوقعت اللقيا علىٰ غير ميعاد، وأصبح الحرب أمراً واقعاً، وأصبح المسلمون تجاه أمر واقع. (المؤلف).

وملخَّص الكلام: أنَّ واقعة بدر لم يقع فيها سابق تصميم، وإنما حدثت فجأة أثناء خروجهم لأخذ القافلة، فلم تتهيَّأ، وصادفوا قريشاً قد اجتمعت لنُصرة القافلة ومحافظتها، ولم يكن بدٌّ من القتال، فكانوا أمام أمر واقع، فأنجز الله ما وعدهم به من النصر والظَّفَر.

ثم ذكر عِبرةً أخرىٰ من أسباب النصر علىٰ العدُوّ قدَّرها الله لهم، فقال: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، وهذا الظرف بَدَلٌ ثانٍ من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، مُبيِّناً لأسبابه وألطاف الله فيه.

والمعنىٰ: إنَّ الله تعالىٰ أرىٰ رسوله رؤيا مناميَّة، مَثَّل له فيها عَدَدَ المشركين قليلاً، فأخبر بها المؤمنين، فاطمأنت قلوبهم، وقويت آمالـهم بالنصر عليهم، ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في أمر القتال؛ إذ منكم القويُّ الإيمان والعزيمة، يقول: نطيع الله ورسوله ونقاتل مهما كلَّف الأمر، ومنكم الضعيف الذي يَتَثبَّط عن القتال بمثل الأعذار التي جادلوا بها الرسول ﷺ، كما تقدَّم في قوله تعالىٰ: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ من التنازع والفشل بما أراكم واسْتَدرَجكم، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ من شعور الجبن والجزع، والإيمان والتوكُّل.

ثم بيَّن تعالىٰ أنه أراهم مِثْلَ ذلك في اليقظة أيضاً بسنة من سنن الله، وأرىٰ العدوَّ كذلك؛ ليتمَّ الأمر، فقال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ وذلك بما أودع في قلوبكم من الإيمان بوعد الله لكم بالنصر، ومن الاستهانة بهم، حتىٰ إنكم لم تكترثوا بهم ونمتُم تلك الليلة مطمئنين، ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ وذلك لقلَّتكم بالفعل، ولـمَا كان عندهم من عُجْب وغرور.

وإنما فعل سبحانه ذلك ليُقْدِمَ كلٌّ منكم علىٰ قتال الآخر؛ هذا واثقٌ بنفسه مُدْلٍ

بيأسه، وهذا مُتّكِلٌ علىٰ ربِّه واثقٌ بوعده، حتىٰ إذا ما التقيتم ثبّتكم وثبّطهم ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه بنصركم عليهم ﴿أَمْرًا كَانَ﴾ في عِلمِهِ ﴿مَفْعُولًا﴾، وهو أن تكون كلمةُ الله هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا السفلىٰ. ومن ثَمَّ هيّأ الأسباب وقدّرها تقديراً، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ فلا ينفذ إلا ما قضاه وقدّر أسبابه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

ثم أرشدهم تعالىٰ إلىٰ القوة المعنوية للمقاتلين التي جرت في واقعة بدر، وكانت هي السَّببَ الجالبَ للنصر والظفر لهم، وإلىٰ أحوال عدوِّهم التي كانت السَّببَ في خِذلانِهم؛ ليكون ذلك تثقيفاً عاماً لهم؛ يتّبعون الأول ويتجنّبون الثاني في كلِّ حروبهم. وهذا النمط من الاستنباط والمعرفة من الوقائع يُسمّىٰ «العِبرة» في لسان الشرع، وفي العصر الحاضر عند علماء التربية يسمىٰ «النقد والتكشيف»، ويعدُّونه من وسائل الإيضاح في التربية والتثقيف، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، بتذكُّر قدرته ووعده بنصر الرسل والمؤمنين ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ لأنَّ الثبات والاستعانة بالله وسيلتان من وسائل الفوز.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في هذه الأوامر الـمُرشِدةِ إلىٰ أسباب الفلاح وفي غيرها، فطاعة القائد العام ركنٌ من أركان الظفر، وهي ملاكُ النظام، فكيف إذا كان القائدُ رسولَ الله المؤيَّدَ من لَدُنْهُ بالوحي والإلهام، ثم أيَّده بقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾ أي: قوتكم، وقد استُعيرت الريحُ للقوة، إذ لا يوجد في الأجسام أقوىٰ منها. وهذا النَّهيُ مُلْمِعٌ إلىٰ مُشَاحنتهم في الأنفال وغير ذلك، ومُسَاوِقٌ للأمر بالثبات، ومُتمِّمٌ للغَرَض منه ومُقرِّر بقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ علىٰ ما تكرهون من شدَّة، وما تلاقونَ من بأس العدو وغير ذلك؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ معيَّةَ نصْرٍ وتوفيق، يُقوِّيهم ويُعينهم، ومَنْ كان الله معه علىٰ هذه الصورة فلا يغلبه شيء. والصبر أعظم أسباب النجاح، والعاقبة للصابرين.

وقد اشتملت الآية علىٰ خمس وصايا حربية يهتمُّ بها العِلمُ الحربيُّ الحديث، وهي:

١ ـ الثبات عند لقاء العدو.

٢ ـ والقوة المعنوية، وهي هنا الاستمداد من الله سبحانه.

٣ ـ وطاعة الله وطاعة رسوله فيما يأمر به من شؤون القتال؛ لأن طاعة القائد العام تُفْضي إلىٰ النصر والتأييد.

٤ ـ وترك النزاع، لأنه يؤدي إلىٰ مقاساة الشدائد.

٥ ـ الصبر، لأنه أقوىٰ عنصر في الثبات، والغَلَبُ به مقرون.

وبعد أن أمرهم بالآداب الفاضلة والصفات الحسنة من عناصر القوة المعنوية، نهاهم عمَّا كان عليه خصومهم من الصفات الرديئة، تكميلاً لإرشادهم إلىٰ عناصر القوة، بتحذيرهم من أسباب الخذلان، وذكر لهم بعض أحوالهم القبيحة، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝٤٧﴾ فهو يُجازيهم عليه في الدنيا والآخرة بمُقْتضىٰ سنَّته في ترتيب الجزاء علىٰ

صفات النفس وتكيُّفاتها. والبَطَر: ضَرْبٌ من إظهار الفَخْر والاستعلاء، يُعرَفُ في الحركات المتكلَّفة والكلام الشاذّ.

قال البغوي: نزلت هذه الآية في المشركين حين أقبلوا إلىٰ بدر، ولهم بغيٌ وفخر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفَخْرِها تُحادُّك وتكذِّب رسولك، اللهمَّ فنَصْرَك الذي وعدتَني»(١).

ثم تابع البيان عن هؤلاء المشركين الذين خرجوا لقتال المؤمنين بغياً وعدواناً وبطراً ورئاءً، فقال: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ﴾ لهم قولاً نفسانياً بما ألقاه في هواجسهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: لا أحدَ يغلبكم؛ لشدَّة بأسكم وكثرة عددكم وقوة عُدَدِكُم، ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي: ناصحٌ لكم ومعينٌ ومُسَاعِد؛ يريد بذلك ما يُغْريهم به وما يُلقيه في هواجسهم من أنكم علىٰ الحق، وخصومَكم علىٰ الباطل، وأنَّ آلهتكم ستُعينكم عليهم وتنصركم. هذه خواطرهم الشيطانية. ولذلك روي عنهم أنه قالوا: اللهمَّ انصُرْ أهدىٰ الفئتَيْن وأفضَلَ الدِّينَيْن. ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي: التقَتا واصْطَدَمتا ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ يائساً من حالهم، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

ويجوز أن تكون هذه الجملةُ كنايةً عن ظهور كذب تلك الهواجس السابقة لهم(٢)، والتَّبيُّن لأنفسهم أنهم كانوا مخدوعين ضالِّين بتلك الأفكار، والله أعلم؛ لأنهم رأوا من المؤمنين قوَّة من إيمانهم بدينهم ودفاعهم عنه لا يقابلها قوة، ولم يألفوا مثلها في حروبهم.

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٣: ١٦٨). وكلام البغوي في «تفسيره» (٢: ٢٩٩).

(٢) وهذا من البُعْد بمكان، والصواب: أنَّ إبليسَ قال ذلك حقيقةً من غير أن يشعر به أحد منهم، لكن أطلعنا الله تعالىٰ عليه.

فالكلام تمثيلٌ لما قد رأوه في المسلمين من شجاعة وبَسَالة نشأت من صبرهم وصدق إيمانهم وتذكُّرهم لوعد الله. هذا ما أراه. والله أعلم.

وقال في «المنار»: ومعنىٰ هذا: أنَّ جند الشيطان كانوا مُنْبثِّين في المشركين؛ يوسوسون لهم بملابستهم لأرواحهم الخبيثة ما يُغريهم ويَغُرُّهم، كما كان الملائكة مُنْبثّين في المؤمنين؛ يلهمونهم بملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبِّتون به قلوبهم، ويزيدهم ثقةً بوعد الله بنصرهم. فلما تراءت الفئتان وأوشك أن يتلاحما فرَّ الشيطان بجنوده من بين المشركين، لئلّا تصل إليهم الملائكةُ الملابسة للمؤمنين، وهما ضدان لا يجتمعان، ولو اجتمعا لقوي أقواهما ـ وهم الملائكة ـ علىٰ أضعفهما. فخَوْفُ الشيطان إنما كان من إحراق الملائكة لجنوده[1]. وهذا الخطاب الذي جاء في الآية لا يتوقف مثلُه علىٰ سماع المخاطبين له. ومثلُه قوله تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

وقد روىٰ ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن الشيطان ألقىٰ في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم»[2].

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قولٌ آخر، وهو: «أن الشيطان تمثَّل في صورة سراقةَ بنِ مالك بن جعشم سيد بني مدلج، وقال للمشركين ما قَصَّتْهُ الآية الكريمة، فلما رجع مَنْ رَجَع منهم إلىٰ مكة كانوا يقولون: هزم الناسَ سراقةُ، فلما بلغه ذلك قال: والله ما شعرتُ بمسيركم حتىٰ بلغتني هزيمتكم، فلما أسلموا علموا أنَّ ذلك كان الشيطان»[3]، إلا أنَّ هذه الرواية ضعيفة السند، والرأي الأول هو الصحيح. والله أعلم.

---

(١) تفسير «المنار» (١٠: ٢٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣: ٩).

(٣) المصدر السابق (١٣: ٧).

وقد جاء في السيرة: أنَّ طائفةً من أهل مكة تردَّدت بين النفير والقعود؛ لأنَّ بين قريش وكنانة ثـأراً في دماء، فإذا هي خفَّت للقاء محمد خافت أن تهاجمها من خلفها، وكادت هذه الحجّةُ تُرجِّحُ وتُؤيِّدُ رأيَ القائلين بالقعود، لولا أن جاء مالك بن جعشم المدلجي، وكان من أشراف كنانة، فقال: أنا لكم جارٌ من أن تأتيكم كنانة من خلفكم، فرجح رأي القائلين بالنفير، فنفروا جميعاً، لم يتخلَّف شيخ ولا شاب.

ثم بيَّن شيئاً من تزيين الشيطان ووسوسته وإلقاءاته علىٰ المنافقين وضعاف الإيمان الذين لم يشتركوا في الوقعة خوفاً وهلعاً، فقال: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾، فالظـرف ﴿إِذْ﴾ متعلـق بـ﴿زَيَّنَ﴾، و﴿الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم﴾ هم ضِعافُ الإيمان، تثور بهم الشكوكُ والشبهاتُ تارةً فتزلزل اعتقادهم، وتسكن تارةً فيكونون كسائر المسلمين.

ومعنىٰ الآية: أنَّ المنافقين وضِعافَ الإيمان كانوا يعتقدون أنَّ المسلمين مغرورون بدينهم في مُحَارَبة قريش، وأنهم لا نجاةَ لهم؛ لأنهم أضعافُهم عَدَداً وعُدَداً. فقال تعالىٰ رداً عليهم وتقويةً لعزم المؤمنين: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ توكُّلَ إذعانٍ واطمئنانٍ بعد أن يعمل ما في وُسعه من الأسباب؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالىٰ يكفيه ما يهمّه، لأنه ﴿عَزِيزٌ﴾ غالبٌ علىٰ أمره، ﴿حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ يضع كلَّ أمر في موضعه علىٰ ما جرىٰ عليه النظام والتقدير في سنته. ومن ذلك: نصرة الحق علىٰ الباطل. وقد تدخُل عنايته تعالىٰ بالمتوكِّلين عليه في باب الآيات وخوارق العادات، كمـا حَصَل في غزوة بدر هذه. من «المنار» بتصرُّف(١).

---

(١) تفسير «المنار» (١٠: ٢٨).

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه حالَ هؤلاء الكفار عند خروجهم لقتال المؤمنين، وطَوَاه علىٰ ما نالهم من عذاب الدنيا، أشفَعَه ببيان شيءٍ مما سينالهم في الأخرىٰ، ولكنْ ذكرَه ببيان عام لجميع الكفار، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قتلىٰ بدر وغيرهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ وهو ضَرْبٌ من عالم الغيب، فلا يقتضي أن يراه الناس. وقوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ علىٰ تقدير القول، والمراد به المبالغةُ في الإيلام، والحريق: عذاب النار الذي يكون بعد البعث.

ثم علَّل ذلك بأنه من كَسْبِهم وسوء تصرُّفاتهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فيخرجون بسُوء تصرُّفاتهم عما يحفظ لهم سعادتهم، إلىٰ ما يؤدي بهم إلىٰ البلاء.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ دأبَ هؤلاء المشركين الذين قُتِلوا ببدر ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ لمن يستحق عقابه. والدأب: العمل الذي يستمرون عليه. وهذه الجملةُ مَسُوقَةٌ لبيان أنَّ ما حلَّ بهم من العذاب إنما هو بسببِ إصرارهم علىٰ الكفر واستمرارهم عليه، كما كان الأمر في أمثالهم من الأمم.

ثم علَّل ما فُهِمَ من النظم الكريم من كَوْن ما حلَّ بهم من العذاب مَنُوطاً بأعمالهم

السيئة، حَسَب سُنن الله الكونيَّة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وذلك أنَّ الله سبحانه خَلَق الناس مطبوعين علىٰ معرفة الحق والمَيْل إليه، وأرسل لهم رُسُلاً بتعاليم تُرْبي فيهم ذلك الميل، فإذا حافظوا علىٰ هذه النِّعمة نالوا ثمرتَها، وهي السعادة في الدارَيْن، وإذا غيَّروها بالتربية السيئة والإعراض عن التعاليم الإلهيَّة؛ تغيَّرت النتيجة بالشقاء في الحياتَيْن. والله أعلم.

وقال في «المنار»: دلَّت هذه الآية علىٰ أنَّ نِعَمَ الله تعالىٰ علىٰ الأقوام والأمم مَنُوطةٌ ابتداءً ودواماً بأخلاقٍ وصفاتٍ وعقائدَ وعوائدَ وأعمالٍ تقتضيها، فما دامت هذه الشؤون لاصقةً بأنفسهم مُتمكِّنةً منها؛ كانت تلك النِّـعَم ثابتة لثباتها، ولم يكن سبحانه لينزعها منهم انتزاعاً بغير ظلم منهم ولا ذنب، فإذا هم غيَّروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يترتَّب عليها من محاسن الأعمال؛ غيَّر الله عندئذ ما لديهم، وسَلَب نعمته منهم(١). ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ لا تخفىٰ عليه من أمرهم خافية.

ثم استشهد علىٰ هذه القاعدة بما جَرَىٰ علىٰ آل فرعون وغيرهم؛ حيث سُلِبَتْ نعمة الله منهم لما غيَّروا من أعمالهم وأخلاقهم، فقال: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الذي وهبهم العقلَ ليَدَّبَّروها، والقدرةَ والسلطانَ ليعملوا بها، فصرفوا تلك المواهب في غير ما خُلِقت له، ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

قال في «المنار» ما ملخَّصه: وحاصل المعنىٰ: أن ما يحفظه لنا التاريخ من وقائع الأمم إنما هو جارٍ علىٰ سنن الله المطَّردة في هذا الكون، وأنه أثر طبيعيٌّ لكفرهم وظلمهم وفسادهم(٢).

---

(١) تفسير «المنار» (١٠: ٣٣).

(٢) المصدر السابق (١٠: ٤١).

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

وبعد أن شرح أحوال مَنْ أهلكهم الله في وقعة بدر من شرار الكَفَرة، شرع في بيان أحوال الباقين منهم بما فيهم اليهود، وفصَّل أحكامهم، وصدّر الكلام بتشنيع عام ليكون حلقة وَصْل، تعليقاً علىٰ ما قبله، وتمهيداً لما بعده، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وأصرُّوا علىٰ الكفر ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾، وعبَّر عنهم بـ«شرِّ الدواب» لإفادة أنهم ليسوا بشَرٍّ فقط، بل هم أحطُّ من العجماوات وأشرُّ من أشرارها، لأنَّ لها بعض المنافع، وهؤلاء كلُّ أمرهم شر.

وقد بدأ ببيان حكم الناقِضِين للعهد، وهم يهود المدينة، كانوا عاهدوا الرسول علىٰ الحياد، ثم نقضوا العهد، كما بيَّن ذلك بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ﴾ أي: من هؤلاء الكفَّار، والذين عاهَدَهُم منهم هم يهود المدينة، وقوله: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ﴾[1] يَصدُقُ علىٰ طوائف يهود المدينة في جملتهم، وهم ثلاثُ فِرَق، كلٌّ منها عاهدت الرسول ﷺ، ثم نقضت العهد. ويَصدُقُ علىٰ بني قريظة وحدهم، فإنهم نقضوا العهد، واعتذروا بمعاذير، فغَضَّ عنهم رسول الله ﷺ وجدَّد عهدهم، ثم نقضوه ثانياً يوم الخندق، وانضمُّوا إلىٰ المشركين يحاربون الرسول معهم، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ تلك العهود.

---

(١) لما هاجر الرسول ﷺ إلىٰ المدينة عامل اليهود بالحُسْنىٰ، وتَعَاهَدوا معه أن لا يخونوا ولا يمالئوا الأعداء، فنقضوا العهد وجدَّدوه، ونقضوه وحاولوا اغتياله، تارة بالسم، وتارة بالإيقاع به، فأمره سبحانه بالفتك بهم، ومن ذلك فَتْكُه ببني قريظة. (المؤلف).

فبيَّن سبحانه حُكمَه فيهم بقوله: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾، والتثقيف: الحِذْق في إدراك الشيء. والمعنىٰ: إنْ أدركتَهم وتغلَّبتَ عليهم فنَـكِّل بهم تنكيلاً يكون عبرةً وسبباً لتَفَرُّقِ مَن وراءَهم من الأعداء واتِّعاظهم بهم. وقد فعل ذلك ﷺ ببني قريظة، حيث قتل مقاتليهم صَبْراً، وسَبَىٰ ذراريَهم بأمر الله[1]؛ لخيانتهم العُظْمىٰ يوم الخندق بنقض العهد، واتِّفاقهم مع العدو. وقد جَعَلَت الآية مَنْ لا يكون عنده فضيلةُ الوفاء بالعهد مجرَّداً من معنىٰ الإنسانية، وعبَّرت عنهم بشرِّ الدواب.

ولما كانوا ينقضون العهد ويلتحقون بالعدو وقت الضيق وفي أحرج المواقف، أمره بالحيطة وتلافي الأمر قبل وقوعه، فقال: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أي: إنْ تتوقَّع من قوم معاهدين، نَقْضَ عهدك معهم خيانةً منهم، بأن يظهر لك من الدلائل والقرائن ما ينذر به، فاقطع عليهم طريق الخيانة لك قبل وقوعه، بأن تَنْبِذَ إليهم عَهْدَهم؛ أي: تُعلِمَهم بفَسْخِهِ وعَدَم تقيُّدك به.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾، وفيه إيماء أيضاً إلىٰ تحذيره ﷺ من المناجَزَة قبل الإنذار والإعلام؛ لأنَّ مناجزتهم الحرب ـ وهم علىٰ تَوَهُّم بقاء العهد بينكم ـ خيانة لهم.

وجاء في «طبقات ابن سعد»: أنه نزلت في بني قينقاع[2].

ثم أنذر سبحانه أولئك الخائنين بما سيحلُّ بهم، فقال: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾

---

(١) رواه البخاري (٤١٢١)، ومسلم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) «الطبقات الكبرىٰ» (٢: ٢٢).

أنهم ﴿سَبَقُوٓاْ﴾ وغَلَبوا بهذه الخيانة والخديعة، ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ اللهَ بمكرهم وخيانتهم لرسوله.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

ولما صار المشركون وأهل الكتاب يداً واحدة في معارضة النبيِّ ﷺ ومعاداته، بيَّن تعالىٰ للمؤمنين ما يجب عليهم، استعداداً للحرب التي لا مفرَّ منها، نظراً لهؤلاء الأعداء وضماناً للسِّلم، فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1]، وهذه الآية توجب علىٰ

---

(١) لقد أراد الإسلام لأهله أن يكونوا أقوياء بالإيمان الصحيح والأخلاق الكريمة والعمل الصالح، وأقوياء بالاستعداد الحربيّ، والتأهُّب دائماً للدفاع عن كيان الأمة وحقوقها، وقد كانوا بالفعل هم أهلَ العزَّة في الأرض والهيبة في عيون الأمم، فلما تهاونوا وقصَّروا في ذلك الاستعداد من كل نواحيه؛ هانوا بنظر الأمم وذلُّوا، واستولىٰ عليهم الطامعون بجميع أنواع الاستيلاء، وفقدوا حقوقَهم وكرامتِهم ومركزهم الرفيعَ الذي كان لهم بين الأمم والشعوب.
وترشد هذه الآية بعمومها إلىٰ ما يجبُ في سبيل المحافظة علىٰ الأمة وكيانها من اتِّخاذ الحَيْطة والحذر من الأعداء، وفيها إلماعٌ إلىٰ أنَّ الحقَّ لا بدَّ في بقائه وتمتُّع الناس به من قوَّة تحميه، وهذه قضية تشهد لها وقائعُ التاريخ، وكثيراً ما رأينا أنَّ رأي صاحب القوة حقٌّ، ولو كان ظاهرَ البطلان، وأن رأي الضعيف باطل، ولو شَهِدَ له القرآن؛ رأينا ذلك في آراء الأفراد، ورأيناه في مبادئ الجماعات ومطاليبها. فالقوة سلاح للحقِّ يحبه ويرعاه، ولذلك أمر الإسلام بالجهاد، =

المسلمين أن يكونوا في مُقدّمي صناع العُدَد الحربية، كلّما تجدَّد نوعها فكان مستطاعاً للبشر؛ لأنَّ الجهاد فرضٌ من فرائض الإسلام، وأن الاستعداد له والتَّمرُّن عليه من لوازم هذه الفريضة؛ إذ حُكْمُ الوسائل حُكْمُ المقاصد، فالذي لا يتمُّ الواجب إلا به واجبٌ أيضاً، ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يتسابقون إلىٰ حالات الجهاد وإعداد السلاح.

ومن فروض الكفاية علىٰ المسلمين: إعداد الطيارات والغوَّاصات، بل والقنابل الذريَّة، وهم آثمون كلُّهم بتَرْكِ ذلك، لأنها أصبحت في استطاعة البشر، ولذلك أردف هذا الحكم العام بما كان متعارفاً وقت النزول، فقال: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ وهي العناية بتربية الجياد منها وترويضها علىٰ الخطط الحربية، وعلىٰ هذا فمن الواجب علينا الآن أن نسبق العدو في صنع آلات الحروب، لا أن نشتريها منهم.

ثم علَّل ذلك الحكم العامَّ بقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الذين يتربَّصون بكم الدوائرَ، ويناجزونكم الحرب كلَّما رأوكم ضعفاء، ﴿وَ﴾ كذلك تُرْهِبون ﴿ءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أي: دون هؤلاء المعروفين لديكم، ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ لأنهم يُخفُون لكم العداء، أو من أعداء المسلمين الذين سيكونون في الأجيال الآتية، ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وأنتم لا تعلمون عنهم شيئاً.

وإنما ذكر رباط الخيل؛ لأنها كانت عدَّة الحرب إذ ذاك، أما الآن فيقاس عليها بالقياس الجلي الطائرات والدبابات والمدافع وغير ذلك، فيجب علىٰ المسلمين وجوباً محتَّماً صُنْعُ كلِّ ذلك. وهذا الإعداد هو ما يسمِّيه العُرْفُ الحديث: السِّلم المسلَّح؛ لأنَّ معناه الإرهاب وقطع الطمع بهم.

= وجعله ركناً من أركانه، وحثَّ عليه في كثير من سور القرآن، وقد أدركت الأمم اليوم ذلك، فهبت تتدرَّع بالقوة والصبر والتضحية بالنفس والنفيس لاستحصال حقِّها الضائع وشرفِها المهدور. (المؤلف).

ثم حضَّ علىٰ إنفاق المال، لأنه يُعين علىٰ القتال، فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: تنالون جزاءً وافياً في الآخرة وفي الدنيا. ومن ذلك: أنَّ القويَّ المستعدَّ لمقاومة المعتدين بالقوة قلَّما يعتدي عليه أحد، فأنتم تنالون بهذا الإنفاق حظاً وافراً في الدنيا والأخرىٰ، كما قال: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: لا تُغْبنون بهذا الإنفاق، بل تربحون في الدارين ربحاً عظيماً.

ولما كان السِّلم هو المقصود الأصلي من هذه الحرب، أمر نبيَّه ﷺ بإيثار السِّلم علىٰ الحرب متىٰ وجد إلىٰ ذلك سبيلاً بقوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ فلا يَخفىٰ عليه مكرُهم وتوسُّلهم بالصُّلح إلىٰ الغدر، وسيكفيك كَيْدُهم. يقال: جَنَح للشيء، بمعنىٰ: مَالَ إليه.

وهذه الآية أكبرُ دليلٍ علىٰ أنَّ الدين الإسلاميَّ دين مُسَالَمَة معقولة، وأنه يأمر بالجهاد لمحافظة نشر الدعوة ومدافعة المعتدين، فإنْ تهيَّأت فالسِّلم هو المبدأ الأساسي له، ولَعَمْري إنَّ هذا النوع من الحرب هو النوع الكامل النزيه بغاياته ومبرِّراته وحدوده، كيف لا وهو محصورٌ بالدفاع عن النفس وعن العقيدة وحريتها وحرية الرأي والدعوة إلىٰ ذلك؟! وقد رُوعيت فيه الحُرُمات الإنسانية تمام الرعاية، لذلك يأمر الله سبحانه نبيَّه ﷺ بالجنوح للسلم إن جَنَحوا له، ولو كان فيه دخن أو يخشىٰ أن يكون فيه خديعة، إلىٰ أن تتبيَّن خديعتهم، فإنَّ الله حافِظُهُ من مكرهم، حيث وعده بذلك فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ بجنوحهم للسِّلم، ويفترصوه لأجل الاستعداد للحرب، أو انتظار غِرَّة، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك شرَّهم.

ثم استشهد علىٰ ذلك بما كان من التأييدات الماضية، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ يوم بدر ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ من المهاجرين والأنصار الذين هيَّأهم لك، ﴿وَأَلَّفَ

بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بعد ما كان بين الأوس والخزرج من التفرُّق والعداء الشديد، الذي رسخ بالحروب الطويلة والضغائن الموروثة، وجمعهم علىٰ الإيمان بك وبَذْلِ النفس والنفيس في مناصرتك، و﴿لَوْ﴾ كنت ﴿أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ للتأليف بينهم؛ ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بهذا الدين المبين وهدايتهم إليه. والتآلفُ بين القلوب من أقوىٰ وسائل التعاون وأنجعِها، وأجْدىٰ وسائل التحاب، والتآلف: قوة الإيمان.

وفي الآية إيماءٌ واستشهادٌ علىٰ أنَّ هذه الشريعة حياة وإنسانية.

ثم ختم الآية بما يتناسب مع الغرض الأصلي منها، وهو كفاية الله لرسوله، فقال: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ لا يُغْلَب علىٰ أمره، ﴿حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ يَضَعُ الأمور مواضعَها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ثم بيَّن تعالىٰ ما يجب علىٰ المؤمنين من الثبات وإظهار المتانة، ولو كان العدوُّ أقوىٰ منهم عَدَداً وعُدَداً، ولا سيما في مبدأ الانقلابات الـمُصْلِحة والنهضات الصالحة.

وقد افتتح هذا السِّياق بما ختم به السياق السابق من كفاية الله لنبيه ﷺ وعنايته به وتأييده بالمؤمنين؛ ليكون حلقةَ وَصْل، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ فلا تَخْشَ من محاربة العدو إذا بادأك، ولا من خيانته في الصُّلح أو نَقْضِهِ للعهد أو غير ذلك.

ثم حثَّ المؤمنين علىٰ الجهاد ونُصرة الحق، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾، قال الراغب: التحريض: الحثُّ علىٰ الشيء بكثرة التزيين له، وتسهيل الخَطْبِ فيه(١). والمعنىٰ: رغِّبهم فيه لأنه من ضرورات الاجتماع البشريِّ، كأنه يقول: حُثَّهم علىٰ ما يقيهم من أن يكونوا حَرَضاً أو يكونوا من الهالكين؛ لأنَّ الأمة الحربية مرهوبةُ الجانب بنسبة قوَّتها عَدَداً وعُدَداً وصناعةً حربية وفنوناً عسكرية، فكلُّ ذلك واجبٌ مُحتَّم علىٰ المسلمين، حتىٰ يكونوا كلَّ وقت أقوىٰ الأمم أجمعين. فهذه من جملة الحياة التي أمرنا الله بالاستجابة لها بقوله: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، كما أمرنا أن لا نتنازع ولا نتفرق.

ثم أردف هذه المقدِّمة بهذا الأمر الذي أتىٰ به علىٰ صُورة الشرط زيادةً في تقريره، وعلىٰ صورة الخبر مبالغةً في تحقيقه، مومئاً إلىٰ ما جرىٰ في بدر، فقال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾، والمراد من الصبر هنا: ما يسمَّىٰ في اصطلاح الحرب بالاستماتة، والله أعلم، وذلك لأنَّ هذا الصبر مُنْبعث عن الأخلاق الإسلامية الصحيحة التي منها الثبات ومَضَاء العزيمة ورباطة الجأش وتحمُّل الشدائد والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وتلك قوة عظيمة يَضْؤُل في جانبها كلُّ قوة.

وهذا الكلام خبرٌ بمعنىٰ الإنشاء والأمر، بدليل التخفيف في الآية الآتية، وإنما جاء بهذه العبارة ولم يأت بما ينصُّ علىٰ أن الواحدة بعشرة؛ لأنَّ المطلوب أن تكون هذه القوة في مجموع الجيش، لا في كلِّ فردٍ منه، إذ قد يكون في بعض أفراده ضعفاءُ وبعضُ أفراد يقابل أكثر من العشرة، ولذلك تابع هذه الصيغة وقـرَّرها بقوله: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾، ونكتةُ إيراد هذا الحكم بلفظ الخبر الإشارةُ

(١) «المفردات» ص٢٢٨.

إلىٰ جَعْله بشارةً للمؤمنين الفقهاء الصابرين، بأنهم يكونون كذلك فعلاً، بفقههم ونظرهم الصائب، كما يُفهَمُ ذلك من فحوىٰ التعليل بقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝٦٥﴾ ما تفقهون من حكمة الحرب، وما تكون وسيلة له من المقاصد العالية.

ومعنىٰ اللفظ الخبري: إنْ يُوجَد منكم عشرون صابرون يغلبوا بتأثير إيمانهم وصبرهم مئتين من الذين كفروا المجرّدين من هذه الصفات الثلاث. والآيةُ تُشْعِرُ بأن العِلمَ مَصْدَرُ البسالة والقوة المعنوية، كما أنه مصدر القوة المادية من الصناعات الحربيّة والفنون العسكريّة التي بها يكون التفوُّق والغَلَبُ والصبر. وتشتمل الآية علىٰ معنًىٰ آخر، وهو أنهم قوم جَهَلة بالله تعالىٰ وباليوم الآخر، لا يُقاتِلون احتساباً وامتثالاً لأمر الله تعالىٰ وإعلاءً لكلمته وابتغاءً لرضوانه كما يفعله المؤمنون.

ثم أردف الحكم بما فيه تخفيفٌ له بعد استِتْباب الأمر واستقرار النهضة، فقال: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾، والآية تُشْعر بأنَّ الضعف لا يراعىٰ في أول الانقلاب، بل يطلب فيه التضحيةُ ونكرانُ الذات لشدَّة الحاجة إلىٰ المقاومة، وكذلك إذا تعرَّض للخطر الشديد دارُ الإسلام وكيانُه وعزَّته وسلطانه، بخلافه بعد استقرار الأمر. وتدلُّ علىٰ أن أدنىٰ ما يجب علىٰ المؤمنين في قتال الكفار أن يصبر الجيش علىٰ مِثلَيْه في العدد، كما قال: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بتيسيره، أو بإرادته ومشيئته تعالىٰ: وأصل الإذن: إباحة الشيء والرخصة في فعله. وهي من الله تعالىٰ، إما أمر تكليف أو إباحة وترخيص. وعلىٰ كلٍّ، فالآيةُ تدلُّ علىٰ أدنىٰ ما يجب ثبات المؤمنين عليه، وهو تحديدٌ لقوله تعالىٰ: ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ثم ختم الآية بما يُرَغِّب بالصبر، ويُبيِّن أنه مصدر الغَلَب والظَّفَر، فقال: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝٦٦﴾، والمراد من المعيَّة: النصر والتأييد. هذا رأيي، والله أعلم.

وقال في «المنار»: هذه الآية رخصةٌ خاصَّةٌ بحال الضعف، كما كان عليه المؤمنون في الوقت الذي نزلت فيه، وهو غزوة بدر[١].

والمراد من الضعف: ما يعمُّ الماديَّ والمعنويَّ، فقد كانوا لا يجدون ما يكفيهم من القُوت، ولم يكن لديهم إلا فرس واحد، وأنهم خرجوا بقَصْدِ لقاء العير، غير مستعدِّين للحرب، ومع هذا كلِّه كانوا أقلَّ من ثلث المشركين الكاملي العدة، ولما كملت للمؤمنين القوةُ كما أمرهم الله أن يكونوا في حالة العزيمة كانوا يقاتلون أضعافهم إلىٰ عشرة أمثالهم أو أكثر وينتصرون عليهم. وهل تمَّ لهم فَتْحُ ممالك الروم والفرس وغيرهم إلا بذلك، وكان القدوة الأولىٰ في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ في عهده ومن بعده، فقد كان الجيش الذي بعثه رسول الله ﷺ إلىٰ مؤتة من مشارف الشام ثلاثة آلاف، وأقلُّ ما روي في عدد الجيش الذي قاتلهم من الروم ومتنصِّرة العرب مئة وخمسون ألفاً، وكان عدد الجيش في اليرموك أربعة وعشرين ألفاً، وروىٰ المؤرخون أن الجموع التي جمعها هِرَقْلُ تجاه هذا العدد زهاء مئتي ألف، وكان يأتيها المَدَدُ علىٰ الدوام. ورَوَوْا أن قتلىٰ الروم بلغت سبعين ألفاً.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

---

(١) تفسير «المنار» (١٠ : ٦٨).

ثم أردف هذا السياق ببيان حكم آخر من أحكام الغزو والجهاد، وهو وجوب إظهار الشوكة والقوة في مبدأ النهضة الدينية لتسهيل نشر الدعوة، وذلك بالإثخان في القتل للمستحقِّين ترهيباً للمعارضين، وسَبَكَ هذا الحكمَ بالإنكار علىٰ عملٍ وقع من النبي ﷺ وأصحابه علىٰ خلاف هذا النظام أدىٰ إليه اجتهادُهم بأنَّ ما أوقعوه بالأعداء في بدر كافٍ في الإثخان وجواز الأَسْرِ بعده، وذلك أنهم أخذوا أسرىٰ من الأعداء، ثم أطلقوا سراحهم بشيءٍ من المال افتدَوا به، فأنَّبهم علىٰ هذا العمل، فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: حتىٰ يبالغ في التفوُّق بالغَلَب وإظهار الشوكة والقهر للمعارضين، ليذلَّ الكفر ويقلَّ حزبه. وهذه قاعدة عظيمة من قواعد تمكين نشر الدعوة.

ثم بيَّن وجه خطئهم في هذا الاجتهاد، فقال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو المال الذي تأخذونه من الأسرىٰ، وإن كان للاستعانة به علىٰ الحرب، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: نَشْر الدين والإصلاح الذي هو سبب لنجاة الآخرة وسعادتها، وذلك لا يتمُّ إلا بإظهار الشوكة والقوة تجاه المعارضين، وقَطْعِ دابر المفسدين، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ يضعُ الأحكامُ حَسَب ما تقتضيه الحكمة ولا يرأف بالمفسدين، ويريد لحزبه المؤمنين أن يكونوا أعزّاء غالبين؛ لأنَّ ذلك من الحكمة أيضاً، إذ فيه الخير والنفع للبشر أجمعين. فليس لهم أن يأخذوا أسرىٰ إلا بعد الإثخان، كما قال في سورة محمد: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤].

ثم أردف هذا الإنكار بالتهديد المصدَّر بالعَفْو؛ تعجيلاً للمَسرَّة علىٰ المساءة، علىٰ نهج القرآن في مِثْلِه، فقال: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ في أن لا يعذِّبكم بهذا الذنب، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من فداء هؤلاء الأسرىٰ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾، ويجوز أن يراد به سوء النتائج.

قال في «المنار»: ثم إنه تعالىٰ أباحَ لهم كلَّ ما أخذوه من الفداء لئلّا يفهموا من الإنكار أنه مُـحَرَّم، وعَدَّهُ من جملة الغنائم التي أباحها لهم، وقال: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي: إذا كان الله تعالىٰ قد سَبَقَ منه كتابٌ في أنه يقتضي أن لا يعذِّبكم بهذا الذنب الذي خالفتم فيه سُنَّته وهَدْيَ أنبيائه، فكُلُوا مما غنمتُم من الفدية حال كونه حلالاً بإحْلَالِه لكم الآن طيِّباً لا خبث فيه، واجعلوا باقيَهُ في المصالح التي بُيِّنت لكم في قسمة الغنائم، ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في العَوْد إلىٰ فعل شيء في الدين قبل أن يُؤْذَنَ لكم فيه.

ثم قَـرَن التهديد بالتلطيف، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوب أهل الإيمان من عباده، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ بهم، فلا يعاقبهم بعد توبتهم منها[1].

وبعد هذا البيان والإنكار؛ لاطف سبحانه هؤلاء الأسرىٰ، ورغَّبهم بالإسلام لما فيه من خَيْرَي الدنيا والآخرة، وهدَّدهم وأنذرهم عاقبة بقائهم علىٰ الكفر وخيانة الرسول ﷺ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ﴾ بأن تكونوا مُستعدِّين للإسلام فتُسلِموا، ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ ومن ذلك ما تشاركون فيه إخوانكم المؤمنين من الغنائم التي تغتنمونها من الكفار، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما كان منكم من الشِّرك وما ترتَّب عليه من السيئات، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب من كفره ومن ذنبه، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ بالتائبين والمؤمنين.

---

(١) هذا تقييد للرحمة وتحجير لها من غير دليل، فرحمة الله تعالىٰ تشمل التائبَ وغيرَه، إلا أنها في التائب مجزومٌ بحصولها، لوعده تعالىٰ بها، ووعدُه سبحانه لا يتخلّف، أما غير التائب فتُرجىٰ له من غير جزم، حيثُ هي ممكنةٌ عقلاً، والتجاوز عن المسيءِ وارد، وتخلُّف الوعيد كَرَم، لكنْ علىٰ العبدِ أن يسارع إلىٰ التوبة لتحصيل الرحمة الـمجزوم بها، ولا يركن إلىٰ الرحمة المحتمَلة.

وإنما قال: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾، بَدَلَ: (إن يكن في قلوبكم خير)؛ لأن الذي يكون يَعلَمُه الله، فهو تعبيرٌ عن الملزوم باللازم.

وبعد أن رغَّبهم بالتوبة والإيمان، توعَّدهم علىٰ بقائهم في الكفر ومحاولتهم الخداع بإظهار الميل إلىٰ الإسلام، وخاطب بذلك النبي ﷺ، فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ بما يظهر بعضُهم من الـمَيْل إلىٰ الإسلام، والرغبة عن قتال المسلمين، ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ بمُقَاتَلَتِهم لرسوله، وباتِّخاذ الأنداد والشركاء له، والكفر بنِعَمِهِ وبرسوله، رغماً عما فطرهم عليه من التوحيد، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ رسولَه وسلَّطه عليهم.

فقوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾، جاء علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، وعلىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، أي: باستئصال أمثالهم بالعذاب. وفيه تهديدٌ ثانٍ لهم إن أضمروا ذلك، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ لا تخفىٰ عليه من أمرهم خافية، ﴿حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ يضع الأمورَ في مواضعها. فكُلُّ أحكامه وأعماله صادرةٌ عن علم وحِكمةٍ بالغة. ومن ذلك: نَصرُ المؤمنين علىٰ الكفَّار المعارضين، وإظهارُهم عليهم بالظفر والغَلَب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٞ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾﴾.

قال في «المنار»: ثم خَتَمَ هذه السورة الجامعة لأهم قواعد السياسة والحرب والسِّلم والأسرىٰ والغنائم؛ بما يناسبها من القواعد في ولاية المؤمنين بعضِهم لبعض بمقتضىٰ الإيمان والهجرة، وما يلزم ذلك من الأعمال، واختلافها باختلاف الأحوال(١).

وكان المؤمنون في عصر نزول هذه الآيات أربعة أصناف:

الصنف الأول: المهاجرون الأوَّلون إلىٰ زمن صُلح الحديبية.

الصنف الثاني: الأنصار، وهم أهل المدينة.

الصنف الثالث: المؤمنون الذين لم يهاجروا.

الصنف الرابع: الذين هاجروا بعد صُلح الحديبية.

فبيَّن أولاً المساواة في الفَضْل والمنزلة، ووجوب تَبادُلِ الولاء والنصر بين الصنف الأول والثاني لتقاربهم في الصفات وسَبْقِهم فيها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، ثم ذكر الصنف الثالث فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾(٢).

ثم خصَّ من عموم الوَلاية المنفية، شيئاً واحداً، فقال: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ

---

(١) تفسير «المنار» (١٠: ٩١).

(٢) تبيِّن هذه الآية أنَّ الحقوق المدنيةَ في الحكومة الإسلامية للمسلمين مشروطة بأمرين: الإيمان، وسُكنىٰ دار الإسلام. فالمؤمنون الذين يدينون بالإسلام ولم يتركوا تابعية دار الكفر ويهاجروا إلىٰ دار الإسلام ويستوطنوها؛ لا يكون لهم حقوقُ الإسلام المدنية في الحكومة الإسلامية، وإنما هي للمسلمين الذين يولدون فيها، أو ينتقلون من دار الكفر إليها، فهؤلاء متساوون في تلك الحقوق، وبعضهم أولياء بعض. أما الذين لم يهاجروا فلم يكن لهم من تلك الحقوق إلا الانتصار لهم في الدين إن استنصروا المسلمين. (المؤلف).

﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾، ثم استثنىٰ من هذا الحكم حالة واحدة، فقال: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: إنما يجب عليكم أن تنصروهم علىٰ الكفار الحربيِّين دون المعاهدين، إذ لا يجوز نقض العهود والمواثيق، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ فعليكم أن تقفوا عند حدوده.

وهكذا قرَّرت الآية وجوب تَبادُلِ الولاء والنَّصْرِ بين الأنصار والمهاجرين في الشؤون العامة العادية والحربية، وعدم وجوب الولاء في الشؤون العادية للَّذين تخلَّفوا عن الهجرة بإرادتهم، وارتَضَوُا البقاءَ في دار الكفر باختيارهم؛ لأن هذا الواجب إنما هو بين المسلمين الذين جمعت بينهم وحدة الدار، وحفَّزهم إخلاصُهم لدينهم إلىٰ تَـرْكِ دار الكفر، ولو خسروا أموالَهم ونأوا عن أوطانهم وذوي أرحامهم.

أما إذا وقع علىٰ هذا النوع من المتخلِّفين اضطهادٌ بسبب دينهم واستغاثوا بكم، فعليكم أن تُسْرِعوا إلىٰ نَجْدتهم، إذا لم يكن بينكم وبين الـمُسْتَنصَر عليهم عهد وميثاق.

وفي هذا رَوْعةٌ بالغة في احترام الإسلام للعهود والمواثيق، ولو أدىٰ ذلك إلىٰ عدم نجدة المسلمين، مع أنَّ روح الدين تحُثُّ علىٰ نجدة بعضهم لبعض وتُوجبه.

ثم خلَّـلَ هذا البيان ببيان وَلاية الكفار بعضهم لبعض؛ حَمْلاً للمؤمنين علىٰ مُباعدتهم وعدم الثقة بهم وإن كانوا أقارب، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: فكونُوا يداً واحدةً عليهم، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إن لم تفعلوا ما شرع لكم من وَلاية بعضكم لبعض وتناصُركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم، ومن الوفاء بالعهود للكفار المعاهَدين إلىٰ أن تنقضي عهودُهم أو تُنْبَذَ علىٰ سواء، إن لا تفعلوا ذلك ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ يكون فيه أعظم الخطر عليكم بتَخَاذلكم وفَشَلكم الـمُفْضي إلىٰ ظفر الكفار بكم واضطهادكم في دينكم لِصَدِّكم عنه، كما كانوا يَفْتِنُون ضعفاءَكم بمكة قبل الهجرة.

ثم نصَّ علىٰ تفضيل الصنفَيْن الأوَّلَيْن من المؤمنين علىٰ غيرهم، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾، فقد قاموا بأعمال جليلة وتضحيات عظيمة في نُصْرة الدِّين وإعلاء كلمة الله عندما كانوا ضعفاءَ وأعداؤهم أقوياءَ، وهذه شهادةٌ من الله تعالىٰ بكمال إيمانهم وتميُّزهم فيه عن غيرهم. ثم سجَّل لهم بقوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ في دار الجزاء.

ثم ذكر الصنف الرابع، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ ﴾، وهم من تأخَّر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولىٰ، أو عن نزول هذه الآيات أو صُلح الحديبية، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾، وهذا التعبير فيه إشارة إلىٰ تميُّز السابقين عليهم.

ثم ذكر الحكم العامَّ في هذا السياق، فقال: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ وشريعتِه، وذلك في التناصر في الحقِّ والتعاون في البرِّ.

ثم ختم الله هذا السياق بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾، فهو تذييل لأحكام هذا السياق، أو لجميع أحكام هذه السُّورة؛ يبعث علىٰ العمل بها بدقة وإخلاص.

وقيل: إنَّ الآية ـ بمقتضىٰ عمومها ـ تشريعٌ في توريث ذوي الأرحام وتقديمِ بعضِهم علىٰ بعض.

وقيل: كان المهاجر لا يَرِثُه مِنْ ورثته إلا المهاجر، ولا يَرِثُه مِن ورثته مَن لم يكن مهاجراً، حتىٰ نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٦] وعلىٰ هذا تكون الآية تشريعاً بحسب صيغتها، وحضاً للمؤمنين علىٰ التكاتف والتناصر بحسب سياقها، علىٰ نهج القرآن في مثله. والله أعلم.

وفيها إيماءٌ إلىٰ جَعْلِ صلة الإسلام من صلة الأرحام، ولذلك جعله تعليلاً لما سبق من الأحكام.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وهي مدنيَّة، مئة وثلاثون آية

نزلت في أواخر السنة التاسعة، وهي السنة التي خرج فيها النبيُّ ﷺ بالمسلمين إلىٰ تبوك بقصد غزو الروم، وخرج في أواخرها أبو بكر رضي الله عنه علىٰ رأس المسلمين لحجِّ بيت الله الحرام، فقرَّرت السورةُ قطعَ العلاقة بين المشركين والمسلمين، وبيَّنت ما كان عليه المنافقون من فتن وأحقاد ومفاسد وتفريق، وعالجت نفوسَ ضعاف المسلمين مما بدا منهم لـمّا أمر النبي ﷺ بالخروج إلىٰ تبوك(١).

وكان أقوىٰ انصبابها علىٰ زمرة المنافقين الذين دخلوا في الدعوة بعد أن استقرَّ النبيُّ ﷺ في المدينة، وتظاهروا بها وأبطنوا النفاق، وهم من أرباب المراكز الذين فوَّتت عليهم الدعوةُ مراكزَهم، فكانوا يميلون للمشركين وأهلِ الكتاب سراً، ولم يَدَعوا فرصةً يُلْحِقون بها الأذىٰ بالمسلمين إلا انتهزوها، وأكثَرت سُوَر القرآن الكريم من التَّحدُّث عنهم. واستمرَّ شأنُهم هذا إلىٰ أن استنفر النبيُّ ﷺ أصحابه إلىٰ غزو الروم، فتجلَّت سرائرُهم في أقبح صُوَرِ العداء، ففضحتهم سورةُ التوبة، فسُمِّيت بالفاضحة لذلك.

* * *

(١) «تفسير البغوي» (٤: ٨).

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

ولم يكتب الصحابة ولا مَن بعدَهم البسملة في أول هذه السورة؛ لأنها لم تنزل معها بسملة، كما نزلت مع غيرها من السُّور؛ لأن التبرُّؤ يلائم المفاجأة به والابتداء. والله أعلم.

وقيل: لأنها مع الأنفال سورة واحدة، وهو رأي ضعيف؛ لأنَّ كلاً منهما عالجت شؤوناً غير شؤون الأخرىٰ، فالأنفال عالجت شؤونَ بدر ونزلت في السنة الثانية من الهجرة، والتوبة عالجت شؤونَ تبوك ونزلت في السنة التاسعة من الهجرة. وعلىٰ اعتبار هذا الرأي يكون قوله تعالىٰ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ...﴾ امتداداً لقوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً...﴾ [الأنفال: ٥٨].

وقال البغوي: لما خرج النبيُّ ﷺ إلىٰ تبوك كان المنافقون يُرجِفون الأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأمر الله عزَّ وجل

بنقض عهودهم(١) بقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾(٢)، كان الوفاء بهذه المعاهدات من جانب واحد، وهو جانب المسلمين، أما المشركون فطالما عبثوا بهذه العهود وخرجوا عليها، حتىٰ تأَذَّنَ الله بالبراءة من الناكثين، وقد برِئَ اللهُ ورسولُه من إعطائهم العهود والوفاء بها إذ نكثوا، فالآية تنفيذٌ لما جاء في سورة الأنفال من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، والخوف إنما يكون بعد ظهور ما يدلُّ عليه من أعمال العدوان؛ لأنَّ مَنْ لم ينقض عهده لم يُظاهِرْ عدواً.

ثم أعطاهم الفرصة لينجوا بأنفسهم حيث شاؤوا، وذلك من رحمته الواسعة ورأفته العميمة، ومن العدل الرائع والإنصاف في معاملة المعاهدين والأحلاف، لا تجد مِثلَه في غير القرآن.

---

(١) «تفسير البغوي» (٢: ٣١٤).

(٢) نزلت سورة التوبة بعد غزوة تبوك، وكان الغرض منها تحديدَ علاقة المسلمين بأعدائهم في آخر عهد النبوة، وكانوا ثلاثة أصناف:

الأول: مشركو العرب، فأمرت المسلمين أن ينْبذوا عهود الذين لم يوفوا بعهدهم، وأُمهلوا أربعة أشهر، وأمرت بإتمام عهد من وفَّىٰ بعهده إلىٰ انتهاء مدته؛ لتخلص جزيرة العرب للمسلمين.

والثاني: مَنْ حارب المسلمين من اليهود والنصارىٰ، فأمرت بقتالهم وقبول الجزية منهم إذا سالموا.

والثالث: المنافقون، وقد فَضَحتهم السُّورة وكشفت أسرارَهم، وأمرت المسلمين بمُقاطعتهم والبُعْد عنهم.

وإنما سُمِّيت سورة التوبة؛ لما جاء فيها من ذكر التوبة في الآيتين ١١٧، ١١٨.

وقد ذهب كثير من الصحابة إلىٰ أنها مع الأنفال سورة واحدة، ولذلك لم تبدأ بالبسملة. وقد ختمت سورة الأنفال بالموالاة بين المسلمين وقطعها بينهم وبين الكافرين، وافتتحت سورة التوبة بمثل ذلك. (المؤلف).

ثم عَدَلَ عن الغيبة إلىٰ الخطاب؛ زيادةً في التقرير، ومبالغةً في التهديد، فقال: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ لا يُتَعَرَّض لكم، أي: أنتم آمنون في هذه المدَّة، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ﴾ بعدها ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ﴾ إذا بقيتم علىٰ شرككم، وسينصر الله عليكم رسولَه والمؤمنين، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ في الدنيا بالخيبة والفضيحة، وفي الأخرىٰ بالعذاب المهين.

ثم أمرهم أن يُبلِّغوا هذه البراءة تبليغاً عاماً يوم عَرَفة عند اجتماع الناس؛ ليصل ذلك الخبرُ إلىٰ الكل ويشتهر، فقال: ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ أي: إعلامٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾، وهذا الوصْف للمبالغة؛ إذ ليس له مقابل، فكلُّ حج يوصف بهذا الوصف، أي: أعلِنوا في هذا الاجتماع العام: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ من عهودهم وسائر خرافات شركهم وضلالهم.

ثم التفت من الغيبة إلىٰ الخطاب لزيادة التهديد، وقال: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ بالرجوع عن شركِكم، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة؛ لأن الهداية إلىٰ الإسلام هي السبب للسعادة فيهما معاً، ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن إجابة هذه الدعوة، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ﴾ بنصر المؤمنين عليكم.

ثم لفت الخطابَ وصَرَفَه إلىٰ الرسول ﷺ، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾، ولم يكد ينتشر إعلان هذه البراءة في النواحي والأطراف، حتىٰ ازدحمت المدينة بوفود القبائل الباقية علىٰ شركها؛ تُعلن إسلامها وإيمانها بالله ورسوله.

ثم استثنىٰ مَنْ حافظوا علىٰ عهدهم بإخلاص، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من الشروط، ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ التي عاهدتموهم عليها؛ لأن ذلك تقوىٰ لله، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

﴿ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ لله، ومن ذلك: الاتقاءُ لنقضِ العهود وإخْفارِ الذِّمم، ولسائر المفاسد المخلَّة بالنظام والعدل العام.

وهذه الآية تصريحٌ بأن البراءة إنما كانت من مشركين أخلُّوا بعهودهم، أو ظهرت عليهم دلائلُ الخيانة. وفيها رَوْعةٌ بالغةٌ في احترام الإسلام للعهود والمواثيق.

ثم أمر المؤمنين بما فُهِمَ ضمناً، وهو قتال المشركين بعد انتهاء أربعة الأشهر التي جُعِلَت فرصة لهم، كي لا يُؤْخَذوا علىٰ غِرَّة، رأفةً بهم وإنصافاً وعدلاً رائعاً من لطف الله وفضله العميم، فقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾[1] وهي تلك الأشهرُ الأربعة الممنوحة لهم والمحرَّمُ قتالُهم فيها، ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: في أيِّ مكان وجدتموهم من حِلٍّ وحَرَم، ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ والأخذ: الأسر، وقد رخَّص به في هذه الآية، والحصار يكون داخل حصونهم ومعاقلهم، بأن يُحاطَ بهم ويُمنَعوا من الخروج. وقعودُ المراصد: مراقبتُهم ومعرفة تجوالهم وتقلُّبهم في البلاد.

وإنما قرَّرت الآية هذا الحكم الحاسم في حقِّ الناكثين؛ لأنه لم يُؤْمَنْ جانبُهم بعد هذا النكث، إلا إذا أسلموا ودخلوا في حزب الله، لذلك قال: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الشِّرك ودخلوا في الإسلام ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ بالكفِّ عن قتالهم وحَصْرهم ورَصْدهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ يَغْفِرُ لهم ما سبق من الشرك وأعماله، ويرحمهم فيمَنْ يرحم من عباده المؤمنين.

والآية تفيدُ دلالةَ إقامةِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة علىٰ الإسلام، وتوجب لمن يؤدِّيها حقوقَ المسلمين.

ثم استثنىٰ من الأمر بقتلهم في عموم الأحوال والأماكن، حالةَ مَنْ طلب الأمان

---

(١) وجه وصفها بالحُرُم؛ كونها فرصة ممنوحة لهم يحرم قتالهم فيها. (المؤلف).

ليعلمَ ما أَنزَلَ الله وأمر به من دعوة الإسلام، إذ كانت الوفادة إلىٰ النبي ﷺ للاطِّلاع علىٰ حقيقة الإسلام قد كَثُرت جداً بعد أن انهدم الحاجز المنيع بينه وبين المشركين أثناء معاهدة الحديبية، وعلىٰ إثْر الفتح المكِّي، فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾(١)، وذلك لأنَّ بعض المشركين لم تبلغهم الدعوة بلاغاً تاماً مقنعاً، ولم يسمعوا من القرآن ما تقوم به الحُجَّة، وإنما أعرضوا وعادَوُا الداعِيَ وقاتلوه؛ لأنه جاء بتفنيد ما هم عليه من الشِّرك، وما كان عليه آباؤهم منه. فإذا طَلَبَ مِثْلُ هذا ذلك الأمانَ حتىٰ يسمعَ منك كلام الله ويَعِيَه، فأجِبْ طَلَبه هذا حتىٰ يكتفي من السماع، ثم أبلِغْهُ الأرض التي يأمن فيها، وبعد ذلك تُجري عليه أحكام المشركين إن لم يؤمن.

ثم علَّل هذا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ ما الكتاب وما الإيمان علماً صحيحاً، فلعلَّ عِلمَهم به يُجديهم نفعاً.

فَلْيَنظر المتبجِّحون بقوانينهم إلىٰ هذه الرأفة والرحمة، والحريَّة الرائعة والتساهل، ومراعاة المصالح العامَّة في الدين الإسلامي، والدقَّة في العدل والإنصاف فيه، هل يجدون لها شبيهاً في قوانين العالم، مهما بلغت من الرقي والمدنية؟

---

(١) يريد أنه يحرم اغتياله، ولا يحلُّ دمه وماله حتىٰ يصل مكان أمنه واستقراره، وحينئذ يصير في الحكم كالمصرِّين علىٰ الشرك. وقد قرَّر الفقهاء وجوبَ هذا الأمان لكل مستأمن، ويبيحون بهذا الأمان التبادل التجاري والصناعي والثقافي وسائر الشؤون الاجتماعية، ما لم يتصل شيء منها بضرر الدولة والمسلمين، ومعارضة الدين. وقد كان للإسلام من مشروعية الأمان وسيلة قوية في نشر دعوته في سائر البلدان. ثم بيَّن أنه إنما سهَّل لهم ذلك؛ لأنهم قوم جهَّال، ففسح لهم المجال في التعليم لحقيقة الدين. وفيه إرشاد إلىٰ معاملة أهل الجهالة المتأصلة بالحِلم والتيسير، وذلك كلُّه من مبادئ الإسلام. (المؤلف).

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ
عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ
قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ
سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ
﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ
ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ولما كان من عناية الله سبحانه في التَّشريع والإرشاد أن يقرنه ببيان حكمته والدواعي التي تقتضيه، والثمرات التي منه تُجنىٰ، وكانت المحافظة علىٰ العهود من أعظم مبادئ الإسلام يثقل نَبْذُها؛ عاد إلىٰ مبحث العهد، علىٰ نهج القرآن في العودة، وبيَّن أنَّ سبب النَّبْذ لعهود المشركين إنما هو الاحتراس من نَيْلهم للمؤمنين علىٰ غِرَّة. وابتدأ البيان بهذا الإنكار علىٰ المؤمنين الذين ربما يستثقلون ذلك النقض لرسوخ خلق الوفاء بالعهود في قلوبهم، وقد يكون بعضُهم عُرضةً لإنكار المنافقين عليهم وتأثّرهم بذلك، فبيَّن سبب النَّبذ بقوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾؟ وقد أنقص شِرْكُهم خُلُقَهم الطبيعيَّ، فهم ينقضون العهود إذا تضاربت مع أهوائهم ومآربهم، لأنهم لا يؤمنون بحُرُمات ولا يهتمون بالمُثل العُليا، فهم عند غَلبهم لا يُراعُون شيئاً من حقوق الإنسان لا سيما المعاهدات.

وقبل أن يشرح حالهم المقتضية لِنَبْذ العهد، عَجَّل باستثناء الذين استثناهم في الآية الرابعة، إشعاراً بأهمية الوفاء بالعهد، ما دام المعاهد لم يعبث به، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾، فأمر المؤمنين بالوفاء

بعهدهم ما دام المعاهدون مستقيمين علىٰ العهد. وزاد هنا قوله: ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، أي: بجوار الحديبية، تأكيداً للوفاء بعهدها.

ثم ذيَّل الآية بما يقرِّر الوفاء بالعهود إذا وفَّىٰ المعاهدون، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾ الذين يجتنبون قَطْعَ ما أمر الله به أن يُوصَل، ولا يغدرون ولا ينقضون الميثاق.

ثم شرع في بيان الحال الـمُقْتَضِية لنقض العهد مع غير هؤلاء المستقيمين فقال: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾، والإلّ: اسم يشمل العهد والعقد والحلف والقرابة. والذمة والذمام: العهد الذي يلزم من ضياعه الذَّم. وكان خَفْر الذِّمام ونقض العهد عندهم من العار. والمعنىٰ: كيف يكون لهم عَهْدٌ عليكم، وقد جربتموهم بنقض العهود سراً وعلناً؟

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: يُخادعونكم في حال الضعف وقلوبهم مملوءة بالحقد والضغن، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨﴾ أي: خارجون عن قيود العهود والمواثيق، لا يتمسَّكون بها. قد ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: أعرضوا عن سبيل الله، وصدُّوا غيرهم عنها؛ ليحافظوا علىٰ مراكزهم في هذه الحياة التي كثيرها قليل بالنسبة إلىٰ ما عند الله؛ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩﴾ من اشترائهم الكفر بالإيمان، والضلالة بالهدىٰ، واللهو الفاني بالنعيم الباقي، وكانوا من أجل ذلك ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ إذا ظهروا عليه وقدروا علىٰ الفَتْكِ به، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾ علىٰ حدود العهود، والبادئون لكم في ذلك.

وإنما أعاد الجملة لبيان أنَّ الحاملَ لهم علىٰ نقض عهودكم وعدم الاكتراث بها، إنما هو إيمانكم بالله وبرسوله ومخالفتهم لكم بذلك الإيمان، فزادهم بهذا الوصف تشنيعاً علىٰ تشنيع.

وبعد هذا فتح لهم باب التوبة، علىٰ نهج دعوة الإسلام، وبيَّن سبحانه ما يجب في حقِّهم إذا هم آمنوا، فقال: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن شِركِهم وصدِّهم عن سبيل الله، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾؛ لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم. وبهذه الأخوة يُهدَمُ كلُّ ما كان بينكم وبينهم من عداوة، إذ قد جاء في الحديث: «لله أفرحُ بتوبة عبده من العقيم الوالد، والضالِّ الواجد، والظمآن الوارد»(١).

ثم ذيَّل السياق وقطعه بها ينوِّه بشأن ما احتوىٰ عليه من البيان، فقال: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثم بيَّن ما يجب في حقهم إذا هم أصرُّوا علىٰ الكفر، فقال: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ بالاستهزاء والثَّلْبِ(٢) وصدِّ الناس عنه بذلك، ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي: عهودُهم كلا عهود؛ لأنها مخادعة لم يقصدوا بها الوفاء، فقاتلوهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾. وفي عنوانهم بـ«أئمة الكفر» إيماءٌ إلىٰ غُلُوِّهم، وبيان بأنَّ نكثهم هذا إنما أتىٰ من شدَّة كفرهم وإصرارهم عليه، فاستحقُّوا القتال. ويجوز أن يُراد الرؤساء بمن معهم.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٤: ٢٠٥)، وعزاه لابن عساكر في «أماليه»، عن أبي هريرة.

(٢) الثَّلْب: شدَّة اللوم والأخذ باللسان. «لسان العرب» (ثلب).

ثم حرَّضهم علىٰ قتالهم وأغْراهم بأوضح وجوه الأدلَّة وأجْلىٰ أساليب البيان علىٰ استحقاقهم ذلك، فقال: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ علىٰ عهودهم التي قطعوها لكم في الحديبية، ﴿وَ﴾ قبل ذلك ﴿هَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة، ثم قرَّر الاستحقاق بقوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ﴾ بالمعاداة والمقاتلة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فأنتم مُدافعون، فالبادئ أظلم.

ثم بالغ في التحريض والإغراء، فقال: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡ﴾ أي: أتتركون قتالهم جُبناً وخَوْراً؟! ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ لأنَّ المؤمن حقاً لا يخشىٰ إلا الله؛ لعِلمِهِ أنْ لا نافع ولا ضارَّ إلا الله.

وبعد هذا التَّحريض صرَّح بالأمر القطعي مع الوعد القطعي بإظهار المؤمنين عليهم، فقال: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ﴾ بذُلِّ الأَسْرِ والقَهْرِ لمن لم يقتل منهم ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾، كان هؤلاء المشركون قد نالوا منهم ما نالوا، فكان في صدورهم من المُوْجِدة والذُّلِّ ما لا شفاء له إلا بهذا النصر عليهم، فهو الذي يشفي صدورَهم ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن لم يفقد الاستعداد للإيمان من المشركين، فيوفقه للإيمان والتوبة، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾ يعلم ما لا تعلمون، ويُشرِّع لكم من الأحكام ما تقتضيه حكمتُه في إقامة دينه وإظهاره علىٰ الدِّين كلِّه.

وفي قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ إيجازُ الاكتفاء، وهو من إيجازات القرآن، والمراد: يتوبُ الله علىٰ مَنْ تاب. أو المراد: علىٰ مَنْ تاب توبةً نصوحاً؛ لأنه سبحانه لا يشاء إلا الحقَّ والعدل، ومُنزَّهٌ عن المحاباة.

ثم نزَّل المؤمنين بعمومهم منزلة الـمُسْتثقِلين لهذا الجهاد فأنكر عليهم، مُبيِّناً ما فيه

من تمحيص ضعف الإيمان والتهاون في حقوق الإسلام، تقريراً للسياق السابق، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي: حسبتم أنْ تُتركوا من غير امتحان في الجهاد حتىٰ يتبيَّن الذين يجاهدون منكم في الله حقَّ جهاده، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانـةً وصُحْبةً عميقةً من المشركين، يُطلِعونهم علىٰ أسرار المؤمنين وسياستهم، كما يفعل المنافقون ومرضىٰ القلوب من ضعفاء الإيمان، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ لا تخفىٰ عليه من أمركم خافية، ولكن بهذا التمحيص ينكشف أمْرُ بعضكم لبعض، فيأخذ المؤمنون حقاً ما يحتاطون به عمَّن معهم من مرضىٰ القلوب وأضرابهم.

وقد عبَّر سبحانه عن عدم تمييز المجاهدين وتبيُّنهم من المنافقين وضعفاء الإيمان بعدم عِلمِهِ بهم؛ لأن عَدَمَ عِلمِهِ بالشيء دليلٌ علىٰ عدم وجوده. وقد تقدَّم الكلام عن معنىٰ عِلْمِ الله هذا في سورة البقرة، عند قوله تعالىٰ: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم بيَّن وجهاً آخر لتبرير قتال هؤلاء المشركين وتوضيح أسبابه، وهو إبعادُهم عن المسجد الحرام ونَـزْعُه منهم؛ لأنهم ليسوا بأهلٍ له، وليُطهَّر من أصنامهم وألاعيب عباداتهم الباطلة، ويعاد إلىٰ نـزاهتـه وقداستـه الأولىٰ بعمـارة المؤمنين إياه بعباداتهم وأداء مناسكهم فيه، فقال: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ حالَ كونهم ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ بما كانوا يفعلونه فيها من عبادة الأصنام ونَصْبها في هذا البيت الحرام، فجعل عَمَلَهم هذا شاهداً علىٰ كفرهم.

ثم ذكر سبحانه حكمَه فيهم وبيَّن مصيرَهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ التي يعتقدونها من القُرَب، كبناية المسجد وسقاية الحاج؛ لأنَّ خساسة عقيدة الشرك تجعل النيَّةَ في الأعمال سيئة، فيستحيل العملُ الجيدُ معها رديئاً، فلا يؤثِّر في النفس الأثر المطلوب.

ويجوز أن يُـراد بالأعمـال التي يـجعلونها عبادة، وهم يظنون أنهم يُـحسِنون صُنْعاً، وهم يُسيئون صُنْعاً بذلك، فيكونون أهلاً للشقاء في الآخرة، ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ويجوز أن يراد بالأعمال عباداتهم، وإنما ذكر المساجد بصيغة الجمع؛ ليكون الحكم عاماً، علىٰ نهج القرآن في تقرير الأحكام. والمراد: أنـهم ليس لهم حقُّ الاستيلاء علىٰ المسجد الحرام، وهم علىٰ مثل هذا الكفر الصريح، و﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ إلىٰ ما يُحبّ الله ويرضىٰ من صورة عمارة مساجده.

وكلمة ﴿عَسَىٰٓ﴾ تـفيدُ الـرجاء والطمع بوقـوع الفعل. فتضمَّن الكلام الوعدَ للمؤمنين بالفتح المبين.

ثم قرَّر مضمون المعنىٰ، وهو أنَّ عمارة المسجد الحرام إنما تكون بعبادته وحده التي تزكُو معها الأعمال فتزكِّي النفوس لا بالعمارة المادية وأمثالها مع الشرك الذي تحبط معه الأعمال، فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: فاعلها المشرك ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ لأنفسهم بإفسادِ طبيعتهم ومَحْق استعدادهم لمعرفة الحق، فهم لا يهتدون في سيرهم إلىٰ الصراط المستقيم، الموصل لسعادة الدارين، بمعنىٰ أن من سنة الله في طباع البشر وأخلاقهم: أن يمنع الكفرُ صاحبَه من الرؤية والنظر الصحيح، فلا يهتدي إلى الحق، ولا يتوجه إليه.

ثم صرّح بما فُهِمَ ضمناً من عِظَم درجة المؤمنين المتصفين بتلك الصفات، لتقرير هذا المعنى في النفس، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ بمثوبة الله الفُضْلَىٰ، وكرامته العُليا المبيَّنة في الآية الآتية.

قال في «المنار»: فإن قيل: إنَّ هذا السياق يدلُّ علىٰ أنَّ ما يفتخر به المشركون من السقاية والعمارة له درجةٌ عند الله تعالىٰ، ولكنَّ درجةَ الإيمان مع الهجرة والجهاد أعظم(١).

قلنا: لا مراء في كَوْن هذَيْن العملَيْن هما من أعمال البر التي يكون لصاحبها درجةٌ عند الله إذا فُعِلَا كما يَرضىٰ الله، ولذلك أقرَّهما الإسلام دون غيرهما من وظائف الجاهلية، ولكن الشرك بالله يُحبطها ويُحبط غيرهما من أعمال البر التي كانوا يفعلونها في جاهليتهم، كإكرام الضيف وصلة الرَّحِم، وذلك لأنَّ الأعمال الصالحة إذا لم يكن معها عقيدة صالحة

(١) تفسير «المنار» (١٠: ١٩٨).

لا يكون لها أثر فعَّال في النفوس. ويجوز أن يكون نفعُها بتخفيف العذاب عنه لا بنَيْل النعيم، كما جاء في الحديث عن أبي طالب أنه في «ضَحْضَاح من نار»(١). والمشرك لا يدخل الجنة مهما عمل من الأعمال الإنسانيَّة؛ لأنَّ مَنْ يُشْرِك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار.

ثم بيَّن سبحانه ذلك الفوز الذي أسنَدَه إلىٰ المؤمنين، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ في كتابه المنزَّل علىٰ لسان نبيِّه المرسَل، ثم علىٰ لسان ملائكته عند الموت؛ ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: رحمة عظيمة خاصَّة من لَدُنْـهُ، ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ أي: نوع كامل من الرضا لا يشوبُه ولا يعقبُه سخط، ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ لا يُتصوَّر قَدْرُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وبعد أن أعلنَ سبحانه براءَته وبراءةَ رسوله من المشركين، وبيَّن الأسباب، وأمر بجهادهم لذلك، وحضَّ عليه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ ...﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾؛ عاد إليه بحُكم عامٍّ يشمله وغيرَه، علىٰ نهج

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه. والضحضاح: ما رقّ من الماء علىٰ وجه الأرض ما يبلغ الكعبين، فاستعاره للنار. «النهاية في غريب الحديث» (٣: ٧٥).

القرآن في مثل ذلك، وهذا الحكم هو إنكار الذات في سبيل مصالح المؤمنين، ونهىٰ المؤمنين أن يُوالُوا الأقاربَ إن اسْتَحبُّوا الكفر علىٰ الإيمان، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾؛ وذلك بأن ينصرَه في القتال ضدَّ المؤمنين، أو يَتَّخِذَه بطانةً ووليجة؛ يخبره بأسرار المؤمنين وما يستعدّون به لقتال المشركين.

ثم توعَّد المتولِّين لهم بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لأنفسهم بتعريضها للوبال، ولجماعتهم بالخيانة لهم.

ولما كانت البراءةُ من الكفَّار ـ علىٰ ما ذُكِرَ ـ شاقَّةً جداً، لأنَّ الرجل المسلم قد يكون أبوه أو أخوه أو ابنه أو عميله كافراً، والمقاطعة لهم كالـمُتعذِّر أو الـمُضِرِّ ضرراً دنيوياً فادحاً، أردَفَ ذلك بالعزم الأكيد في هذا النظام، للإيذان بأنه قاطعٌ لا هوادة فيه، وأنه يجب تحمُّل الصُّعوبات والمضَارِّ في سبيل نشر الدعوة للإيمان، وصاغ العبارة بصورة من التوعُّد والتهديد الرهيب للمخالفين، فقال: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1] أي: الخارجين عن الطاعة في أوامر الله، لأن مخالفتها مع الإصرار تَسْلُبُ نورَ الفطرة، فلا يهتدي صاحبُها لطريق الهدىٰ.

---

(١) إنما مُنيت الأمة العربية بالفشل الذريع في عصورها الأخيرة، والإخفاق في كلِّ مساعيها؛ لابتعادها عن هذا المبدأ العظيم، وتَغَلْغُل الأنانية المشينة في جميع أفرادها وفي سائر مناحيها، فلم ينج من ذلك عالم ولا جاهل، ولا رفيع ولا خامل، ولا سياسي ولا أمير، ولا غني ولا فقير، ومتىٰ وصلت الأمة إلىٰ مثل ذلك الدَّرْك من الحياة، فليس وراءها إلا الانحطاط العظيم والمهات. (المؤلف).

والآيات تُلهِمُ أنها نزلت عندما كان بعض المسلمين المهاجرين يقاسون أزمات نفسية في اضْطرارهم إلىٰ الوقوف موقف العداء من ذوي قُرْباهم ومَنْ لهم علاقة بهم في مصالح مادية، فحذَّرهم سبحانه عن ذلك وتوعَّدهم.

وفيها إلماعٌ إلىٰ أنَّ هذه الأنواع الثمانية من الحبِّ تجعل الجهاد مكروهاً، فوق ما له من بُغْض بمقتضىٰ ذاته. كما أنَّ فيها إيماءً إلىٰ أنه إذا وقع التعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا، وَجَبَ علىٰ المسلم نَبْذُ الثانية والتمسُّك بالأولىٰ.

وفي الآية تقريرٌ ضمنيٌّ لقاعدة عامَّة، وهي الوجوب القطعي لتغليب المصالح العامَّة علىٰ المصالح الخاصَّة، حتىٰ التي هو بأمسِّ الحاجة إليها وأعزِّها لنفسه وألـزِّها بعطفه وشفقته، ولا سيما من المصالح العامة ما فيه حِفظُ كيان الأمة وعِزُّها وتفوُّقها؛ لأنَّ ذلك هو مَرْمَىٰ الجهاد المطلوب في الدين، والآية تدل علىٰ ما يُسمَّىٰ بإنكار الذات في سبيل الأمة، وهو تقديم مصلحتها علىٰ مصلحته .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وبعد أن حضَّهم علىٰ قتال المشركين، وبيّن الأسباب المقتضية لذلك، وأنكر عليهم تقديم المصالح الخاصَّة علىٰ المصالح العامَّة؛ وَعَدَهم ضمناً بالعناية بهم ونَصْرِهم علىٰ أعدائهم، إذا هم أخذوا الأُهْبة وتَدَرَّعوا بقوة الإيمان، واستشهد علىٰ مثل تلك العناية بالتلميح إلىٰ وقعة بدر وفَتْح مكة وغيرهما.

وكذلك استشهد علىٰ الخِذلانِ والنصر بوقعة حُنَين حين ولّوْا أوّلَ الأمرِ مُدْبِرين لا يَلْوُونَ علىٰ شيء رغماً عن كثرتهم؛ لأنهم لم يَتَدرَّعوا بالإيمان جميعاً؛ لما بينهم من مُسلِمة الفتح في أول إسلامهم، ثم تداركهم سبحانه بعنايته، فكَرُّوا وانتصروا، فنبَّههم أنَّ نصرَ المؤمنين لا بالعصبيَّة ولا بالكثرة العدديّة، بل بصدق الإيمان والتضحية في سبيل الله، وما ينبعث عن ذلك من عناية الله بهم وإنزال السكينة عليهم، فقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾[1] وغُلِبْتُم أوّلَ الأمر، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ لا تَلْوُون علىٰ شيء، وكان ذلك إذ ولّىٰ المنافقون الأدبارَ في أول الأمر، وَوَلّىٰ علىٰ أثرهم ضعفاءُ الإيمان من طُلَقاء فتح مكة، ومِن ثَمَّ اضْطرب نظام الجيش، فولّىٰ أكثر المؤمنين بحركة لا شعورية.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] المُرْخِصينَ لأنفسهم

---

(١) إن هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾ بما فيها من تقوية العزم والوعد بالنصر، يجوز أن تكون تتميماً لما قبلها، تمهيداً لما بعدها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. (المؤلف).

(٢) لما فتح الله مكة للمسلمين، تقلّمت أظفار الشرك، وخضعت قريش لمحمد ﷺ، ولكن بقي للشرك دعاة وأنصار تتزعَّمهم ثقيف وهوازن، هالهم أن يفتح محمد مكة، وخشوا عاقبة ذلك علىٰ أنفسهم، وعقدوا أمرهم بينهم علىٰ غزو المسلمين قبل أن يغزوهم. فجمع لهم رسول الله ﷺ جيشاً فيه ألفان من أهل مكة المفتوحة حديثاً، حتىٰ وصلوا حُنيناً ـ وهو وادٍ قريب من الطائف ـ وقد دخل بعضَ جيشِ المسلمين شيءٌ من الغرور بكثرة عددهم، فلم يهتمّوا بثقيف، فأصيبوا بهزيمةٍ أولَ الأمر، وأخذ النبي ﷺ يردُّ بعزمه وقوَّته الروحية جماعة المنهزمين، وحملوا علىٰ الأعداء حملة واحدة تفرّق بها المشركون شَذَر مذر، وتمَّ النصر للمؤمنين، وبالقضاء علىٰ ثقيف وأتباعهم في غزوة الطائف التي أعقبت حُنيناً، تـمَّت الكلمة في جزيرة العرب لدين الله، ودخل الناس فيه أفواجاً. (المؤلف).

في سبيل الله. وإقامةُ الظاهر مقام الـمُضْمَر لإفادة أنَّ الرسول والمؤمنين حقاً هم في عناية الله وكَنَفِهِ؛ لما هم مُتَّصفون به من التضحية ونُكران الذات.

ثم تابع المعنىٰ بقوله: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وإنما وجدتُم أثرها في قلوبكم بما عاد إليها من ثبات الجأش وشدَّة البأس لِـمَا حضركم من التضحية في سبيل الله، ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأَسْرِ والسَّبْي، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ في الدنيا ما داموا يستحبُّون الكفر علىٰ الإيمان، ويعادون أهله، ويقاتلوهم عليه.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ التعـذيبِ في الدنيـا ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ مـن الكافرين الذين يثُوبون لرُشْدهم فيهديهم إلىٰ الإسلام، وهم الذين لم تَـحُطَّ بهم خطيئاتُ جهالات الشرك وخرافاته من جميع الجوانب، فيختم علىٰ قلوبهم بالجمود والإصرار علىٰ الجحود بمحض التقليد، ولكنْ بقي في نفوسهم بقيةٌ من نور الفطرة تُرجِعُهم لرُشْدهم، فيتوبونَ ويؤمنون، وهكذا كان حال أهل حُنين، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن يتوب ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ به وبسائر المؤمنين.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تقرير الموقف السابق في قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ...﴾، وهو وجوب تطهير المسجد الحرام من أيدي المشركين وإبعادهم عنه، علىٰ نهج القرآن في العودة إلىٰ المباحث المهمة، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي: قَـذَرٌ؛ بفساد اعتقادهم ووثنيَّـتهم، ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ

عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[١] أي: لا تُمَكِّنوهم من ذلك، وامنعوهم من أن يحجُّوا إليه من سائر البلاد العربية، كما كان عليه الأمر قبل هذا، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من جَرَّاء ذلك ﴿عَيْلَةً﴾ أي: فقراً وحاجة بقلّة المتاجر والمواسم من انقطاع هؤلاء المشركين عن بلدكم، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ وهذا القَيْدُ لتقوية إيمانهم وتعليق آمالهم بربِّهم، ولإعلامهم بوجوب مباشرة أسباب الرزق؛ لأنَّ مشيئته تعالىٰ تجري علىٰ سُنن حكيمة مُطَّردة، لا جُزاف ولا مُحاباة فيها ولا هوادة.

ثم ختم هذا النَّهي والتطمين بما يشعر أنَّ فيه حِكمةً عالية، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ فيما يشرعه لكم من أمر أو نهي، فكلُّه مصالح للعباد.

وفي هذه الآية إعلانٌ للمقاطعة وسدُّ الأبواب في وَجْه مَنْ بقي علىٰ شِركِهِ بعد الفتح؛ لأنَّ البيت أصبح طاهراً من مظاهر الشرك، وأصبحت تقاليد الحجِّ مثل ذلك، فكيف يسمح للمشركين بعمل تقاليد الوثنية فيه.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا

---

(١) تمَّ فتح مكة ولا تزال فلول المشركين في جزيرة العرب تقصد هذا البيت لتحجَّ إليه علىٰ ما عهدت في منهاجها الجاهلي: شرك حتىٰ في التلبية، وعُرْي في الطواف. ولا ريب أن اجتماع منهاج العبادة الشركية مع منهاج العبادة التوحيدية اجتماعٌ لا يقرُّه عقل ولا يقبله سلطان. (المؤلف).

مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ثم أردف السياق المتعلق بأحكام قتال المشركين المبدوء بقوله: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا ...﴾، والمتضمِّن لموجباته، أردفه بسياقٍ مُتعلِّق بأحكام قتال أهل الكتاب، ومُتضمِّن لموجباته، فقال: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ علىٰ الوجه الصحيح فيهما، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾، وإنما يدينون بدينٍ وَضَعَه لهم أحبارُهم وأساقفتهم بآرائهم الاجتهاديَّة وأهوائهم المذهبيَّة، وكان ذلك بعد أن فُقِـدَتْ نصوصُ التوراة أثناء سَبْيِ الإسرائيليـين، وفُقِدَت نصوص الإنجيل بعد الحواريين، وقام مقامها تشريعات المؤتمرات الفينيقية والقسطنطينة الرومانية.

ثم بيَّن المراد من الـمُتَّصِفِين بهذه الصفات، فقال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والمراد: جنس الكتاب الإلهي الذي يشمل التوراة والإنجيل والزبور وغيرَها.

ثم بيَّن الغايةَ التي يجب أن ينتهوا إليها في هذا القتال، فقال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ أي: عن قوَّةٍ منكم قاهرةٍ لهم، أو عن قدرةٍ لهم فلا يكلَّفون فوق قدرتهم، وفي صورة هذا التعبير الدالِّ علىٰ الانقياد مُلاءَمةٌ لقوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[1]، والمراد به: خضوعهم لسيادة المسلمين وأحكامهم وخَضْد[2] شوكتهم كي لا يشاغبوا ويقاوموا في

---

(١) وذلك لأنهم حينئذ يكونون قد ألقَوْا إليكم السَّلم، وكفُّوا أيديهم عنكم. وبهذا الجهاد يكون إخضاع قوىٰ الشر والفساد؛ لأن الله سبحانه لم يأمر بالجهاد إلا لتطهير العالم من الشرك والضلال الذي ضلَّ به العقل البشري، وحطَّ كرامة الإنسان ونزل به إلىٰ مستوىٰ الحيوان. (المؤلف).

(٢) الخَضْد: القطع. «لسان العرب» (خضد).

نشر الدعوة، ولتتيسَّر السبيل بهذه التبعيَّة لاهتدائهم بما يَرَوْنه من عدل المسلمين وهدايتهم وفضائلهم.

وقيل: ليس المراد بهذه الآية عمومَ أهل الكتاب؛ لأنه يخالف المبدأ الذي قرَّرته الآيةُ الثامنة من سورة الممتحنة(١) وأمثالها من الإلماع إلىٰ أنَّ الجهاد الإسلامي دفاعي لا عدائي(٢)، وإنما المراد الـمُتاخِمون لهم من الروم ومُتَنَصِّرةُ العرب الذين كانوا في مَشَارف الشام تابعينَ لدولة الروم، فقد بلغ النبيَّ ﷺ تجمُّعُ كثير منهم علىٰ حدود الشام لغزو الحجاز، فنزلت الآية تأمر المسلمين بردِّ عاديتهم، فجمع النبيُّ ﷺ أكبرَ عدد ممكن من المسلمين، حتىٰ بلغ جيشه ثلاثين ألفاً، وخرج بهم إلىٰ تبوك، وسُمِّي جيشَ العُسْرة لشدَّة صعوبة هذه الغزوة؛ إذ كانت الشُّقَّةُ بعيدةً، والحرُّ شديداً، والعدوُّ قوياً.

والآية تذكر أوصاف هذا العدو الواقعيَّة، إذ لو كان يؤمن بالله واليوم الآخر علىٰ الوجه الصحيح، ويدين دينَ الحق، ويحرِّم ما حرَّم الله؛ لَـمَا عزم علىٰ استئصال شأفة أناس مُتمسِّكين بالله وبدينه علىٰ الوجه الصحيح، ويُحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله، فحثَّت الآيةُ

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

(٢) ليس ببعيد أن يكون الإسلام قد فرض الجهاد لإنقاذ البشرية من الكفر والشرك والجهالة والعصبية والظلم والاستبداد، فكانت هذه الأهداف السامية التي أخلص في تحقيقها السلف الصالح، أنقذت عدداً غير قليل من شعوب العالم وأدخلتها في حظيرة الإسلام، وكانوا علىٰ شفا حفرة من النار، فأنقذهم منها وأنجاهم من عذاب أليم. (المؤلف).

قلت: وفي إطلاق قوله: «إن الجهاد الإسلامي دفاعي لا عدائي» نظر، فالجهادُ قد يكون دفاعياً، وقد يكون ابتدائياً لنشر الدعوة وهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، وعلىٰ الحالين لا يكون عدائياً، إذ أساسُه الرحمة بالناس.

المؤمنين علىٰ مُقَاتلة هذا العدو المعتزِّ بقوته والخارج علىٰ دين الله، يريد ليطفئ نور الله، حثَّ علىٰ مقاتلته حتىٰ يذلَّ ويُعطيَ الجزية وهو صاغر؛ كي لا يكون له بعد ذلك عليهم تجبُّر وطغيان. فالآيةُ مُخَصَّصةٌ ـ والله أعلم ـ بما سيأتي في آخر السورة من قوله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[١]، فإنها تدلُّ علىٰ أنَّ المراد بهم مَنْ ذَكَرْنا من الروم ومُتَنصِّرة العرب الـمُتاخِمين لهم. والله أعلم[٢].

والجزية: ضريبة شخصية توضع علىٰ الأشخاص. أما الخراج: فهو ضريبة توضع علىٰ الأرض.

---

(١) القول بالتخصيص بعيد، وغاية ما ذكر المؤلف من أوصاف الروم ومتنصِّرة العرب وأحوالهم أن يكون دخولهم في عموم لفظ الآية أظهر من غيرهم، وأن يكون تطبيق الآية عليهم أَوْلىٰ من علىٰ غيرهم، ويدل علىٰ ذلك أن هؤلاء الذين يَلُونَ المسلمين من الروم فُتحت بلادهم ودخلوا في الإسلام، صار حال البلاد التي بعدهم كحالهم المذكور في الكيد لهذا الدين، والاستعداد لحربه، فوجبت مقاتلتهم، وهكذا الأمر في كل عصر وبلد، وبه يظهر أن القول بأن الآية باقية علىٰ عمومها هو الصواب.

(٢) الدينُ الإسلاميُّ دين الفطرة والطبيعة البشرية، يسير بنفسه إلىٰ القلوب والعقول السليمة إذا لم يَعُقْهُ عائق، ولم يَصُدَّه عنا صادّ، كالماء يسير في منحدره بسهولة وسلاسة إذا لم يُمنع بسد ذلك المنحدر، وقد أنزل الله هذا الدين لسائر البشر، وكلَّف أهله أن يحاربوا المعارضين علىٰ أمور ثلاثة: إما أن يدخلوا فيه سلماً إذا كان قد سبق إليهم وارتضوه، فيكونون من أهله لا فرق بينهم أبداً، وأما أن يقبلوا الجزية فيكونوا رعيَّة في الدولة علىٰ العدل والحرية، ولا يُكرَهون علىٰ الدخول في الدين، لقوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ولا يمنعون من دخل منهم في الدين برغبته وكامل حريته، والدين لا يدخل القلوب بقوة، وإنما يدخل بالفهم والقناعة بأنه أمر صحيح. (المؤلف).

قلت: ولم يذكر الأمر الثالث، وهو أن يقاتلوا حتىٰ يخضعوا لأحد الأمرين الآخرين.

ثم فصَّل بعض التفصيل ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾؛ ناظراً إلىٰ عموم أهل الكتاب، علىٰ نهج القرآن وأساليبه في مثل ذلك، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ﴾ بهذا القول ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾، كالبراهمة والبوذيين واليابان وقدماء الفرس والمصريين والرومان القائلين بالتثليث: الإله الأب، وزوجته، وابنه الوحيد. فكلُّهم يعتقدون بعقيدة الابن والتثليث والحلول، وهذا قول فرقة من النصارىٰ، يقولون بالانبثاق والولادة العقلية الروحانية؛ إذ يقولون: إنَّ الجوهر ـ الذي هو الله ـ انبَثَقَ وتولَّدت منه الكلمة كتولّد القول من القائل، وتدرَّعت بإنسان مخلوق من مريم، فهم يقولون: تدرَّع اللاهوت بالناسوت. فالظاهر ـ وهو الدرع والقميص ـ بشر، والباطن ـ وهو الـمُتدرِّع ـ لاهوت، وهو الكلمة التي تولَّدت من الله.

وبالحلول المطلق تقول اليهود في النبيِّ عُزير، تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وبعض اليهود أطلقوا هذا اللقب علىٰ عُزير للتكريم، كما أطلقوه علىٰ إسرائيل وغيرِه من الأنبياء، ثم صَرَفَه بعض المتأخرين منهم علىٰ الحقيقة، كما فعل النصارىٰ في عيسىٰ.

وقد نُقل أن كلمة «عُزير ابن الله» قالها بعض اليهود لا كُلُّهم، وهم بعض يهود المدينة، ويحتمل أنه قد سبقهم غيرُهم في ذلك، فعجَّب الله سبحانه من شأن هؤلاء القائلين وعقيدتهم الشنعاء، بهذه الجملة التعجبيّة الإنكارية التَّوعُديَّة، فقال: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: كيف يُصْرَفونَ عن الحقِّ إلىٰ الباطل بالإغْواء والتَّضليل.

ثم تابع المعنىٰ في بعض تفصيل ما جاء في قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ في الآية المتقدِّمة، فقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، ليس المراد أنهم اعتقدوهم آلـهة، بل المراد أنَّهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم في التشريعات التي وضعوها لهم. فقد وَفَدَ عَدِيُّ بن حاتم إلىٰ النبيِّ ﷺ، وكان نصرانياً، فسمعه يقرأ هذه الآية، فقال: يا رسول الله، لسنا نعبدهم. فقال: «أليس يُـحرِّمون ما أحلَّ الله، ويُحِلُّون ما حرَّم الله فتتبعونهم؟ فتلك عبادتهم»(١).

وعليه، فيكون الشرك ضربَيْـن: شركاً في الألوهيَّة، وهو الشعور بسلطة وراء الأسباب والسُّنن الكونية لغير الله تعالىٰ. وشركاً في الربوبية، وهو الأخذ بشيء من أحكام الدين بالتحليل والتحريم من بعض البشر دون الوحي، كما فعلت المجامع الرسمية في تقرير دين النصرانية. وهو الذي أشارت إليه الآية: بكلمة: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ﴾.

وقال في «المنار»: والأظهر أن يكون المراد من الأحبار والرهبان: جملةُ رجال الدين في الفريقين، أي: من العلماء والعبَّاد، فذكر من كلِّ فريق ما حُذف مُقَابِلُه في الآخَر، علىٰ نهج القرآن في الاحتباك، أي: اتَّخذ اليهود أحبارهم وربانيِّيهم، والنصارىٰ قُسُوسَهم ورهبانَهم؛ أرباباً من دون الله، بإعطائهم حقَّ التشريع الديني وغير ذلك من حَقِّ الرب تعالىٰ. والرهبان عند النصارىٰ أدنىٰ طبقات رجال الدين، فاتِّخاذهم أرباباً يستلزم اتِّخاذَ مَن فوقهم من الأساقفة والمطارنة والبطاركة بالأولىٰ. فالرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء، والعوام يخضعون لتشريع الرهبان(٢).

وبعد أن أشرَكَ سبحانه وتعالىٰ بين اليهود والنصارىٰ في اتِّخاذهم رجالَ الدين

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥) وقال: هذا حديث غريب.

(٢) تفسير «المنار» (١٠: ٣١٧-٣١٨).

أرباباً شارعين، ذكر ما انفرد به النصارىٰ من اتِّخاذهم المسيحَ رباً وإلهاً يعبدونه، فقال: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، ويظهر من هذا التخصيص بالذكر ـ والله أعلم ـ أنَّ اليهود إنما عَنَوْا بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ لقبَ التكريم، كما أطلقوا ذلك علىٰ إسرائيل وداود وغيرهما، لا بالمعنىٰ الذي أراده النصارىٰ في المسيح، حيث أشركوا به الله.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ في كتبهم ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهذه الجملة الأخيرة تعليل للأمر.

ثم أردف التوحيد بالتنزيه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ به، يُشرِكون مَنْ لا يَـخْلُق شيئاً وهم يُـخْلَقون.

ثم نعىٰ عليهم عَمَلَهم هذا بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، والمراد: ما يُلقُونه من شُبَهٍ ومشاغبات. شبَّههم في كفرهم بتوحيد الله وتنزيهه، وفي شُبَهِهم ومُشاغباتهم في ذلك، بحال مَنْ يطلب بنَفْخِهِ إطفاءَ نور عظيم مُنْبثّ في الآفاق، أو مَنْ يحاول إطفاء نور الشمس بفيه حمقاً وبلاهة. وهذا الوصف في منتهىٰ السخرية والتسخيف والاستهجان. وقد أخزاهم الله بقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم بيَّن كيفيَّة هذا الإتمام وأيَّده بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾، وقد عَنوَنَهم بعنواني الكفر والشِّرك للإشارة إلىٰ أنهم قد جمعوا بينهما. وقد اختلفوا في مرجع الضمير في (يُظهِره) علىٰ وجهين:

الأول: أنه راجعٌ إلىٰ رسول الله ﷺ، والمعنىٰ: أنه يُظهِرُ هذا الرسول ويُطْلِعُه علىٰ كلِّ ما يحتاج إليه البشرُ من أمور الدين؛ عقائدِه وآدابِه وسياستِه وأحكامِه، وكتب الأديان ليست كذلك.

الثاني: أنَّ الضمير لدين الحق الذي أرسله الله به. ومعناه: أنه تعالىٰ يُعْلي هذا الدِّينَ ويرفع شأنه علىٰ جميع الأديان بالحُجَّة والبرهان والهداية والعرفان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم عاد وذكر شأن الأحبار والرهبان واستغلالهم للأتباع بمراكزهم هذه، يعيشون بها منهم عيشة الترف والتَّموُّل، وخاطب المؤمنين ليوقفهم علىٰ ذلك ويشملهم بالحكم الآتي، ويُحذِّرهم من عاقبته، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأنواع الطرق وضُروب التأويلات وخبائث الدعايات والتمويهات.

ثم ألمع إلىٰ ما يجمعونه من استغلال أتباعهم بذِكرِ حكم عام يشملهم وغيرَهم، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم بيَّن ذلك العذاب الأليم، فقال: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡ﴾، ويقال لهم مبالغةً في الإيلام: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ أي: إنكم كنزتم لأنفسكم هذا الوبال الأليم والبلاء العظيم، ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ذوقوا وَبَالَ كنزكم وجزاءَ عملكم وإمساككم عن إخراج ما يجب إنفاقه منه في سبيل الله. إذ المراد من إنفاقها في سبيل الله: إخراجُ ما عليها من الزكاة،

كما جاء في الحديث: «ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدِّي منها حقَّها، إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائحُ من نار، فيُكوىٰ بها جَنْبُه وجَبينُه وظهرُه»[1] الحديث. وإنما عبَّرت الآية بمطلق الإنفاق للمبالغة في ذلك.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

وبعد أن ذكر عَبَثَ أهل الكتاب بالدين، ذكر عَبَثَ المشركين كذلك في أمرٍ اتَّبعوا فيه اليهودَ، وهو: النَّسِيءُ كل أربع سنين في الأشهر القمرية؛ ليوفِّقوا بين السَّنَة الشمسية والسَّنَة القمرية، فاخْتَلَّ لذلك الحساب الديني كالحج ونحوه، وكذلك الزكاة لتعلُّقها بالحوْل، والبيان لا يتأخَّر عن وقت الحاجة، فذكره في مساءاتهم إذ ذكرها. وابتدأ البحث ببيان عِدّةِ الشهور عند الله، وبيان الـحُـرُم منها، فقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في عِلمِه المتعلِّق بالتكوين، ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إذ جعل القمر يدور حول الأرض اثنتي عشرة مرَّة كلَّما دارت الأرض حول الشمس مرة علىٰ التقريب، أو أنها اثنا عشر شهراً في حكمه التشريعي، لا ثلاثة عشر شهراً، كما يقتضيه حكم النسيء في بعض السنين.

قال في «المنار» ما مُلخَّصه: «المراد بهذه الشهور: الشهور القمرية، والسنة التي

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٤٠٢)، ومسلم (٩٨٧)، عن أبي هريرة.

تـتألف منها هي السنة الدينية، وهي اثنا عشر شهراً فيما كتبه الله وأثبته من نظام سَيْر القمر وتقديرِهِ منازلَ منذ خلق السماوات والأرض، ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَـةٌ حُرُمٌ﴾ فرض الله احترامها وحرَّم القتال فيها علىٰ لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ لتأمين الحجِّ وطرقِه، ونقلت العرب ذلك عنهما بالتواتر القولي والعملي، ولكنها أخلَّت بالعمل اتِّباعاً لأهوائها، كما يأتي بيان ذلك في الكلام علىٰ النَّسيء في الآية الآتية، وهو الغاية لما في هذه الآية. وهذه الأشهر منها ثلاثةٌ سَرْدٌ، وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم، وواحد فَـرْدٌ، وهو: رجب[1].

وحكمة تعظيمها وتحريم القتال فيها: تأمينُ الحج وطرقه؛ لأنَّ السفر إلىٰ مشاعر الحج في الحجاز والعَوْدة منه تكون في هذه الأشهر الثلاثة، فحرَّمها كما حرَّم مكة وما حولها في جميع السنة؛ لتأمين الحج وتأمين العمرة التي تؤدَّىٰ في كلِّ وقت. فكان الرجل يلقىٰ قاتل أبيه في أرض الحرم وفي غيرها في الأشهر الحرم؛ فلا يَعرِضُ له بسوء، علىٰ شدَّتهم في الثأر وضراوتهم بسفك الدماء، وحرَّم شهر رجب لتسهيل السفر لأداء العمرة فيه؛ لأنه أفضلُ أوقاتها.

ولولا اختصاصُه تعالىٰ لما شاء من زمان ومكان بالعبادة فيه وباحترامه، لَـمَا كان للأزمنة والأمكنة في نفسه مزيَّة في ذلك. وتقديرُ بعض الأمكنة أو الأزمنة بالـحُرمة هُدْنةٌ إلهية تُتيحُ للمتخاصمين من الأفراد والجماعات أن يحلّوا خصومتهم فيها، فيعود لهم الوفاق والوئام، ويعلو بذلك لواء الإسلام، لو كانوا يعلمون.

ثم نوَّه سبحانه بهذا النظام في الأشهر حَمْلاً علىٰ التمسُّك به، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: المستقيم الذي لا عِوَجَ فيه، والذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل،

---

(١) تفسير «المنار» (١٠: ٣٥٧-٣٦١).

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ تحريفاً وزيادةً بحكم النَّسيء، حيث تَـنسئون المحرَّم إلىٰ صفر كل أربع سنين، فيختلُّ نظام الأشهر، فلا تظلموا وتُشـرِّعُوا من أنفسكم، فتُحرِّموا أربعةً غير التي حرَّم الله، تتلاعبون بها حسب أهوائكم، وتفسدون شريعة إبراهيم في ذلك، لأنَّ الله سبحانه قد اختصَّ هذه الأزمنة والأمكنة بخصائص من العبادات والاعتبارات لِحِكَمٍ خاصَّة، فمن عَـبَثَ بها فقد ظلم نفسه بإبطال شريعة الله.

وكان هذا البيانُ عن العبث في الدِّين الحقِّ من جانب المشركين وهذا النهيُ تمهيداً لقـولـه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾، أي: فلا تَـتَّبعوهم وقاتلوهم حتىٰ في هذه الأشهر، أي: قاتِلوهم جميعاً كما يقاتلونكم جميعاً، فإنَّهم لا يقاتلونكم للعصبية ولا للكسب كدأبهم في قتال قويِّهم لضعيفهم، وإنما يقاتلونكم لدينكم، فكونوا في قتالهم يداً واحدة، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾، وهذه المعيَّة بمعنىٰ النصر والمعونة.

ثم أنَّبَ المشركين علىٰ ما كانوا يعبثون بالأشهر الحُرُم بالنَّسيء، فقال: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ أي: كفرٌ مضمومٌ إلىٰ كفرهم، ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ثم فسَّر هذا النسيء بقوله: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ بجَعْلِ شهر مكان شهر، ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، ثم نعىٰ عليهم بقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾، ثم علَّل ذلك مُبيِّناً منشـأه فيهم بقولـه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾، لأنَّ الكفر والانطباع علىٰ الضلال يمحقُ نورَ القلب، فلا يهتدي صاحبُه لمعرفة الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال، فإنَّ الهداية إلىٰ الحقِّ من توابع الإيمان وآثاره. فهؤلاء الكفار يظنون أنه يكفي لطاعة الله تحريمُ هذا العدد من الأيام أيّاً كانت، ولم يُـدرِكوا أنَّ لله سبحانه في تحريم عَيْنِ الأشهر خصائصَ وحِكَماً لا تكون في غيرها.

وتوضيح الآية: أنَّ العرب ورثت من ملَّة إبراهيم وإسماعيل تحريمَ الأشهر الحُـرُم لتأمين الحجِّ وطرقه، كما ورثوا مناسك الحج، وكانوا يُحرِّمون في هذه الأشهر القتال. ولما طال عليهم الأمد غيَّروا وبدَّلوا في المناسك وفي الأشهر الحُـرُم، وذلك أنَّ العرب كانت تقيم أسواقَها المشهورة في أول شهر ذي القعدة. ثم تَعرُجُ من هناك إلىٰ الحج في عشر ذي الحجة.

ولما رأوا اختلاف هذا الموسم من الصيف إلىٰ الشتاء والعكس، وهم يريدون ذلك أن يكون في موسم واحد ملائِم لا يتغيَّر، وكذلك لاحظوا أنَّ أسماء شهور السنة عندهم لا تنطبق دائماً علىٰ مسمَّاها، فشهر ربيع لا يكون دائماً في الربيع، وشهر جمادىٰ لم يصادف الشتاء دائماً، وكذلك رمضان لا يوافق علىٰ الدوام شدَّةَ الرمضاء والحر، ورأوا أنَّ يهود يثرب وما جاورها كانوا يتَّبعون طريقة في تلافي ذلك ومطابقة السَّنَة القمرية للسَّنَـة الشمسية، وهي إضافة بضعة أيام لكلِّ سنة قمرية؛ ليتمكَّنوا من تحديد أيام الأعياد عندهم، ومنها: عيدُ الفِصْح الذي يجب أن يُصادِفَ يومَ بَدْرٍ كامل بعد أن يَتَساوىٰ الليل والنهار في بَدْءِ فصل الربيع، فاتَّبع العرب طريقة اليهود هذه، فأضافوا شهراً إلىٰ سنتهم القمرية بعد كلِّ ثلاث سنوات منعاً لحدوث المخالفة بين أشهرهم وفصول السنة، وتطبيقاً للقمرية علىٰ الشمسية، وعبَّروا عن هذا بالنسيء.

وقد أخلَّ هذا النَّسيءُ بنظام الأشهر القمرية الدينية خللاً فادحاً، وقد عاد النظام إلىٰ وَضْعِهِ الطبيعي مراراً بمـا كان من تنقُّل الأشهر بتوالي النسيء، وكان من ذلك عَوْد النظام الصحيح في مبدأ الإسلام فاستقرّ، وقد نبَّه عنه النبي ﷺ في أحكامه المهمة التي ذكرها ونبَّـه عليه في خطبته في حَجَّة الوداع، فقال ﷺ في خطبته في هذه الحجة: «إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة: اثنا عشر شهراً، منها

أربعةٌ حُـرُم، ثلاثةٌ متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورَجَبُ مُضَرَ الذي بين جمادىٰ وشعبـان»[١]. وإنْ بيّن[٢] ذلك رسول الله ﷺ كي لا يبقىٰ أدنىٰ شك في نفوس بعض المسلمين في صحّة الأشهر القمرية منذ بدأ الإسلام، وذلك بدوران الزمان، والظاهر أنه إنما قال ذلك ببيان من الوحي. والله أعلم.

وقد تصحَّح ذلك الخلل في أول الإسلام، وإن تأخَّر البيان عنه صريحاً إلىٰ زمن حَجَّة الوداع، أو أعاده فيها إعادة وتقريراً، وفي قوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ نوعٌ من أنواع إيجاز القَصْر في القرآن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ثم أتبع السياق بسياق يتضمَّن غزوة المسلمين لأهل الكتاب في تبوك، وما جرىٰ فيها، وهو القَصْد الأصلي من السورة، وقد حثَّ المؤمنين في بَدْء هذا السياق علىٰ القتال

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٥٥٥٠)، ومسلم (١٦٧٩)، عن أبي هريرة.

(٢) أي: وقد بيّن.

بأسلوب إنكاريّ تهديديّ، ناظراً إلىٰ ضعاف الإيمـان والمنافقين الـمُسْتَخْفِين فيهم، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾(١)، والتثاقل: التباطؤ وعَدَمُ النشاط، وربما ينجرُّ إلىٰ التخلُّف .

---

(١) كان المسلمون فيهم مؤمنون صادقون في الإيمان يضحُّون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وفيهم ضعفاء الإيمان تثقلهم مشقَّة الطريق وشدَّة الحر وبُعْد الشقة، والحرص علىٰ ثمار بساتينهم، وقد نضجت، ورهبة العدو الشديد. وفيهم منافقون أعلنوا الإسلام خوفاً أو طمعاً، وسخروا في نفوسهم من النبي ﷺ أن يدعُـوَ لقتال الروم، وأخذوا يثبِّطون ويعتذرون عن السفر، ويثيرون الفتن ويرجفون الأراجيف، ويُدبِّرون المكايد ويضعون العراقيل.

وكان من المؤمنين حقاً مَنْ ساهم في تجهيز الجيش، ولا سيما عندما قال النبي ﷺ لمن أتوه ليحملهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، وكان ممن اشترك في تجهيز الجيش: أبو بكر رضي الله عنه، حيث خرج من كل ماله، وعثمان رضي الله عنه حيث جهز عدداً كبيراً من الجيش، وغيرهما من ذوي اليسار، كلٌّ علىٰ قدرته.

أما ضعفاء الإيمان والمنافقون، فمنهم من استأذن في التخلّف، ومنهم من انتحل الأعذار، ومنهم من أخذ يُثبِّط ضعفاء المسلمين، ومنهم من يُثير الفتن ويُرجف الأراجيف.

ورغماً عن كلِّ ذلك فقد أكمل الله لرسوله ما أراد، وتمَّ له إعداد الجيش علىٰ أكمل صورة، فما كاد يصلُ الرومَ نَـبَؤُهُ حتىٰ وقع الرعب في قلوبهم، وآثروا الرجوع إلىٰ بلادهم، فوصل جيش المسلمين إلىٰ تبوك ولم يجد لجيش الروم أثراً، فقام بها أياماً يتحداهم، وانتهز النبي ﷺ الفرصة، وأخذ يعمل علىٰ تأمين الحدود، فعاهد أمراءها وأقام بهذه المعاهدات المعاقل بينه وبين الروم، ثم عاد رسول الله ﷺ بالجيش إلىٰ المدينة، ولكنه ما زال مشغولاً بأمر الروم لاعتقاده أنهم لا يعدلون عن غزو المسلمين، فجهَّز الجيش الذي أَنْفَذَهُ بعد وفاته ﷺ خليفتُه الأول أبو بكر رضي الله عنه، بقيادة أسامة بن زيد، وبه توالت الفتوحات الإسلامية في بلاد الروم، وبلاد الفرس وامتدَّت كلمة الله علىٰ مُعظم أجزاء المعمورة في عهد خلفائه الراشدين رضي الله عنهم. (المؤلف).

وهذا خطابٌ للمؤمنين في جملتهم؛ تربيةً لهم بما وقع من الضعفاء منهم والمنافقين فيهم، وحضّاً للمُخلِصين أن يَرْدَعوا المتخلِّفين؛ ولأن الغزوة كانت جِدَّ عسيرةٍ؛ لكثرة الروم وقوّتِهم، وقِلّةِ الزاد لنفاذ التمر بحكم آخر السنة، وعزّة الماء لِبُعْدِ ما بين المائين في الطريق، وشدّة الحر لأن الزمن صيف، وقلة وسائط النقل لقلة إبلهم بالنسبة للنفير العام، وكان الفَرْدُ يزوِّد نفسه بوسائل النقل ونفقات السفر، والغنيُّ يزوِّد غيره بقدر الإمكان، فالسفر بعيد والحاجة شديدة؛ لهذا كلِّه تثاقل حتىٰ أفرادٌ من المؤمنين الـمُخلِصين، ولكنْ ما لبثوا أن نشطوا للنفير، فعاتبهم سبحانه بقوله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثم أنّبهم بقوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: أرضيتُم براحة الدنيا التافهة الفانية بدلاً من سعادة الآخرة العظيمة الباقية، ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى﴾ جَنْب ﴿ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا، حيث يستعبدكم العدوُّ بذلك ويَسُومُكم سُوءَ العذاب، ويُفنيكم الله، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يَنفِرُونَ مع رسوله وينصرونه، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾(١) بتثاقلكم عن نُصْرته، ﴿وَٱللَّهُ

---

(١) توجيه الخطاب في قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ ...﴾ إلىٰ عموم المؤمنين يدلُّ علىٰ وجوب القيام بإصلاح ما يبدو من بعض أفرادهم بحكم التواصي بالحق والتناهي عن المنكر. وقال الشعبي: لقد عُوتب بهذه الآيات أصحابُ رسول الله ﷺ ولم يخرج منهم إلا أبو بكر رضي الله عنه، فإنه كان مرضياً عنه ومثنياً عليه. والآية تدل علىٰ أن الجيش في الإسلام هو كل الأمة، ولا يعفىٰ من الجندية إلا من ذكر الله سبحانه بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ...﴾ [التوبة: ٩١]. وقد مضت سُنة الله في هذه الحياة علىٰ أن العزة والكرامة والسلطان إنما تكون للعاملين العاملين المجاهدين من بني الإنسان. أما المتـثاقلون المتخاذلون فلا بدَّ أن يكونوا مُسْتعبَـدِين للعدو =

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٣٩﴾، وقد وَعَدَه بالنُّصرة فهو ناصِرُه لا محالة، وتوعَّدكم بالتعذيب إن توليتم عن نُصرته وباستبدالكم بقوم آخرين.

ثم وبَّخهم بصيغة تتضمَّن استهانتَهم وعَدَمَ الاكتراث بهم، مُذكِّراً إيَّاهم بنصرة رسوله عند ما كان وحيداً فريداً، فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: فسينصره كما نصره بقدرته إذ أجمع المشركون علىٰ الفتك به، وأخرجوه من داره وبلده، ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ المعروف عندكم، وهو غار جبل ثور، حيث لا ناصر له إلا الله، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ لما رأىٰ منه أمارة الحزن والجزع: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بالنصر والمعونة والحفظ والعصمة.

ثم عطف علىٰ قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ ما يُفصِّل إجماله، فقال: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ والسكينة: هي بضمان النصر له ﷺ حتىٰ يبلِّغ الرسالة، فكان يشعر بذلك، فلم يضطرب وهو في تلك الحالة المرهبة الخطرة، ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فكانت تؤيِّده بالتثبيت، وتُخذِّل المشركين، وتُلقي الرُّعب في قلوبهم[1]، والتشويش في تفتيشهم، وكان من عاقبة ذلك أنْ خذَلَ الله الشرك وأظهر الإسلام، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغلَبُ علىٰ أمره، ﴿حَكِيمٌ ٤٠﴾ يضع الأمور في مواضعها. وأتىٰ بالجملة الاسمية للدلالة علىٰ الثبوت والاستمرار.

= ومقهورين، وهذا هو مؤدَّىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: بعد إفناء العدو لكم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾، أي: نتائج هذا التثاقل والتخاذل تعودُ عليكم، لا علىٰ الله سبحانه، ولا علىٰ غيركم وينزل بكم البلاء. (المؤلف).

وقول الشعبي ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤: ٢٠١)، وعزاه لابن المنذر.

(١) هذا المعنىٰ للجنود غير المرئية، يصحُّ في كل ما جاء في الغزوات من ذلك. (المؤلف).

والآية تُلْمِعُ إلىٰ حراجة الموقف، وذلك لأن زعماء قريش أدركوا العاقبة الوخيمة عليهم من جَرَّاء هجرته واتِّفاقه مع أهل المدينة، واندفعوا بكلِّ قوتهم للحيلولة دون ذلك، والفتك به مهما كلَّف الأمر، فمنعه الله منهم، واختفىٰ بهذا الغار حتىٰ هدأ الطلب.

ثم عَقَّبَ النهجَ الإنكاري بالأمر القطعي، علىٰ سُنة القرآن في ذلك، فقال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: مَنْ سَهُلَ عليه النفير ومَنْ ثَقُل، وذلك يكون بالقلَّة والكثرة في المال والعيال، ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ خيرٌ لكم في دنياكم؛ إذ لا حياة للأمم فيها ولا عزّ ولا سيادة إلا بالقوة الحربية، وخيرٌ لكم في آخرتكم؛ لأن السعادة فيها لـمن ينصر الحقَّ، ويقيمُ العدل، ويَتحلَّىٰ بالفضائل، ويَتخلَّىٰ عن الرذائل، باتِّباع الدين القويم، والعمل بالشرع العادل الحكيم. والمراد من سبيل الله: التمهيد لِـمَا رَسَمه الله لعباده من الإيمان وعمل الخير والدعوة لذلك.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ثم نقدهم بهذا النقد الـمرِّ الأليم، رامياً إلىٰ الذين تخلَّفوا وانتحلوا الأعذار، ولا سيمـا المنافقون، فقال: ﴿ لَوْ كَانَ ﴾ سفرك ـ أيها الرسول ـ ﴿عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ أي: يؤدِّي إلىٰ منفعة ومَتَاع قريبِ المأخذ، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ أي: وسطاً لا مشقَّة فيه ولا كلال، ﴿لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ﴾ أي: المسافة والطريق التي لا تُقطعُ إلا بتكبُّد المشقَّة، وكَبُر عليهم التَّعرُّض لقتال الروم في ديار ملكهم، وهم أكبر دول الأرض الحربية إذ ذاك، فتخلَّفوا جُبناً وحُباً بالراحة والسلامة.

والآية تُبيِّن أنَّ المنافقين كانوا يخرجون في الغزوات الـهيِّنة والمضمونة العاقبة، ويتخلَّفون عن مثل هذه الغزوة الشاقَّة، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ ﴾ بعد رجوعكم إليهم؛ ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾، ولكن لنا أعذار مانعة، وهكذا ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالحَلِف الكاذب لستر نفاقهم، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فيما يقولون ويدَّعون. فأتىٰ بالجملة الاسمية و«إنّ» المكسورة للدليل علىٰ الثبوت والاستمرار.

ثم عاتبه علىٰ إذنه لهم بالتخلُّف، وقدَّم العفو علىٰ العتاب؛ تعجيلاً بالتأنيس قبل تسرُّب الخوف إليه، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ بالقعود والتَّخلُّف كما أرادوا، وهَلَّا تَريَّثت بالإذن، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ﴾ في الاعتذار، ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فيه. فتعامل كُلاً بمـا يستحقُّ ويليق؛ لأنَّ الكاذبين لا يخرجون، سواء أذنتَ لهم أم لم تأذن. فلو تريَّثتَ لانكشف لك أمرُهم.

وعن مجاهد: «أنهم قالوا: استـأذِنوا، فإنْ أَذِنَ لكم فاقعدوا، وإن لم يَأذَنْ لكم فاقعدوا»[1]. وعن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما: «لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٧٧).

حتىٰ نزلت سورة براءة»[١]، والمراد: أنه لم يكن يعرفهم كلَّهم، ويعرف شؤونهم مُفَصَّلاً، حتىٰ نزلت.

والذنب في اللغة: كل عمل يَسْتَتْبِعُ ضرراً أو فَوْتَ منفعة أو مصلحة، وليس خاصاً بالمعصية. وفي اصطلاح الشريعة: ما يخالف دين الله. ولم يكن إذنُه لهم من النوع الثاني، وإنما هو من الأول[٢]؛ لأنه صادر منه عن اجتهاد أدىٰ به إلىٰ أنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خَبَالاً، ولأَوْضَعوا خلالهم يبغونهم الفتنة. ولكن حكمة الله سبحانه أبعَدُ مَرْمَىٰ وأعمق أثراً، وهي أنهم لا يخرجون إن أذن لهم أو لم يأذن، وحينئذ ينكشف للناس أمرُ نفاقهم. فهذا الذنب منه ﷺ من النوع الأول لا من الثاني؛ لأنَّ المجتهد مأجور وإن أخطأ، وليس بمأزور، ولكنْ «حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبين».

ثم بيَّن الفرق بينهم وبين المؤمنين، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي: لا يستأذنك هَرَبَ أن يجاهدوا، وليس من شأنهم هذا[٣]. ثم أتىٰ بهذه الجملة الاعتراضية وعداً للمؤمنين وتوعُّداً للمنافقين فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ له باجتناب ما يُسخِطُه وفِعلِ ما يُـرْضيه ونيتهم فيه.

---

(١) ذكره الخازن في «تفسيره» (٣: ١٠٣).

(٢) يعني: أنه ليس فيه ما يخالف الدين، ولكنه عملٌ يستتبع فَوْتَ منفعة، وهي تبيّنُ الصادقين منهم من الكاذبين، والأحسن أن يُقال: إنه يستتبعُ فَوْتَ منفعة أعظم من المنفعة الحاصلة به، فيكون من باب خلاف الأَوْلىٰ. علىٰ أنه ليس في الآية ذِكرُ «الذنب»، ولو عبَّر بالخطأ لكان أحسن وأبعد عن الإيهام.

(٣) هكذا في الأصل، وهو مختصر، والمعنى: لا يطلب السماح الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر في التخلف هَرَبَ أن يجاهدوا. فالمصدر المؤول في محل نصب مفعول لأجله، ولما حذف المضاف «هرَب» حلّ المضاف إليه في الإعراب محلّه، قال البيضاوي: «في التخلّف كراهةَ أن يجاهدوا».

ثم قـرَّر نفي الاستئذان عن المؤمنين بإثباته للمنافقين علىٰ طريقة حصر الوصف فيهم؛ تقريعاً لهم وتشنيعاً عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الديـن ومقـرَّراتـه، ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ مُتحيِّرين في أمرهم. وفي هذا الأسلوب تقرير لنفاقهم مقرون بالحجة.

ثم أردفه بحُجَّة أخرىٰ، فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ من الزاد والراحلة مما يُعدُّ لمثل هذا السفر البعيد، وكان الفَرْدُ يجهِّز نفسه. وهذه حُجَّة علىٰ كذبهم المعبَّر عنه بقوله: ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ بما حَدَث في قلوبهم من الخواطر والمخاوف التي تنشأ بمقتضىٰ سُنة الله من تأثير النفاق علىٰ نفوس أصحابه؛ لأنهم لم يؤمنوا بوعد الله، فلم يُعِدُّوا للخروج عُدَّته؛ لأنـهم لم يريدوه، وإنمـا أرادوا بالاستئذان سَتْـر ما عزموا عليه من العصيان.

وفي قوله: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ تحقيرٌ لهم وتهجينٌ. والمراد من «القاعدين»: الأطفال والعَجَزة والنساء. ونِسْبةُ التَّثبيط إلىٰ الله باعتبار سُنَنِه الكونيّة.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ في تخلُّف هؤلاء المنافقين مَصلحةً للمؤمنين، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: اضْطراباً في الرأي، وفساداً في العمل، وضعفاً في القتال. وذلك لأنَّ المتَّحِدينَ في العقيدة والمصلحة يتوافقون في الرأي، ويَتَعاضدون علىٰ الأمر، بخلاف المختلفين فيها سراً وجهراً، فإنهم يزيدون الأمر اضطراباً وضَعْفاً ومَفسَدَةً للنظام، كما حَدَث مثل ذلك في غزوة حُنين، فقد ولّىٰ المنافقون الأَدْبارَ في أول المعركة، وولّىٰ علىٰ أثرهم ضعفاءُ الإيمان مِن طُلقاءِ فتحِ مكة، ومِنْ ثَمّ اضطرب نظامُ الجيش فولّىٰ أكثر المؤمنين معهم مندفعين مع التيار، بلا شعور ولا تفكير، كما هو الشأن في مثل هذه الأحوال.

ثم تابع البيان عن إفسادهم، فقال: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ مِن قولِهِم: أوضع الراحلة، بمعنىٰ: أسرع بها، أي: لأسرعوا في السَّعي وراءَ الإفساد والفتنة بالنميمة وتفريق الكلمة، ﴿وَفِيكُمْ﴾ أناسٌ ضُعفاءُ الإيمان أو العَزْم أو العقل، ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ وقيل: بل المعنىٰ: فيكم أناسٌ منهم نمَّامون يسمعون من أقوالكم فينقلونها إليهم، أي: يتجسَّسون لهم عليكم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فلا تخفىٰ عليه منهم خافية.

ثم ذكر لهم شيئاً من إسَاءَاتهم الماضية، فقال: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ﴾ لكم ﴿ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ وأنواع التدبير والحِيَل والمكايد، فلم ينجحوا وفشلوا ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ بالنصر الذي وَعدك به ربُّك، وكانوا به يمترون، ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ﴾ له ﴿كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

ثم بيَّن نفاق أناس آخرين منهم اعتذروا عن اللحاق بغزوة تبوك، خشية أن تفتنهم

نساء الروم، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾، فردَّ سبحانه وتعالىٰ عليهم الوصف بهذا التسجيل، فقال: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي: يزعمون نفاقاً أنَّ في قعودهم اتِّقاءَ التعرُّض لنوع من الفتنة، وهو الإثم بنظرهم نساءَ الروم الجميلات، فَتَرَدَّوا في شرٍّ وفتنةٍ عظيم، وهو التخلُّف عن نُصْرة الحق الذي لا يعادله شيء، فتوعَّدهم بهذا الوعيد العام، فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾، فوضع الـمُظهَرَ مكان الـمُضْمَر؛ للإشارة إلىٰ كفرهم الذي حملهم علىٰ هذا الاعتذار النفاقي الشنيع.

ثم فضح ما يحملونه بين جوانحهم من الكُرْه للمؤمنين وتربُّص الدوائر بهم، وما يضمرونـه من النفاق المبين، فقال: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ من نصر أو غنيمة أو ظهـور ﴿تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ كالذي وقع في غزوة أحـد ﴿يَقُولُوا۟﴾ متبجِّحين: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل الوقوع، وذلك بالحزم والحذر، فتَخلَّفنا عن القتال، ولم نُلقِ بأيدينـا إلىٰ التهلكـة، ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ بما صنعوا.

وقد أمر الله نبيَّه ﷺ أن يُبيِّن لهم بُطلان ما بنوا عليه مَسَرَّتهم من الاعتقاد، فقال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ من نصر وغنيمة، أو تمحيص وشهادة، ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ يتولانا بالتوفيق والنصر، ونتولاه باللجوء إليه والتوكُّل عليه، فلا نيأس عند شدَّة، ولا نبطر عند نعمة، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ بعد مُراعاةِ السُّنن الطبيعية في مُعَاطاة الأسباب.

ثم أمره أن يُبيِّن لهم أنَّ ما يزعمونه مضرَّةً للمسلمين ـ وهي الشهادة ـ أنفَعُ لهم مما يعدُّونه منفعة ـ وهو النصر والغنيمة ـ وكلاهما حُسنىٰ، وأدمج في ذلك توعُّدَهم وتهديدَهم، فقال: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ الشهادة أو النصر،

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بأن يأذن لنا بقتلكم، ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ لعاقبتنا وعاقبتكم، إنْ أصْرَرْتُم علىٰ كفركم ونفاقكم. والتربُّص: الانتظار.

ثم أمره أن يُبيِّن لهم أنَّ كلَّ ما ينفقونه في أمر الجهاد أو غيره لم يُقْبل منهم لنفاقهم وإيغال الفساد في نفوسهم، ولأنهم في شكٍّ مما جاء به الرسول من أمر الدين والجزاء علىٰ الأعمال في الآخرة، فقال: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أي: أنفِقوا ما شئتم من أموالكم في الجهاد أو غيره مما أمر الله به، في حال الطَّوع للتقيَّة، أو الكُره خوفَ العقوبـة الدنيويَّـة، فلن يتقبَّل الله منكم شيئاً؛ ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: خارجينَ عن دائرة الإيمان، فلا تعتقدون بما جاء به الرسول من أمر الدين والجزاء علىٰ الأعمال في الآخرة.

ومُحصَّل الآية: أنَّ المنافقين حاولوا أن يَفْتَدُوا أنفسهم بالاشتراك مالياً في غزوة تبوك، فألهم الله نبيَّه رَفْضَ ذلك مع التعليل، وقد فصَّل ما في هذا التعليل من الإجمال بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾، فلم يكن ذلك منهم عن إيمان وعقيدة بالجزاء، ولكن عن خوف وتقيَّة، نفاقاً ورياءً. ومُحصَّل التعليل: أنَّ قَبول المال منهم قد يُتَّخذ دليلاً علىٰ تصديقهم فيما يَدَّعُونَه من نيَّات حسنة، ويُقدِّمونه من أعذار كاذبة، يُخْفون بها نفاقهم، ويظنونه قد تَـمَوَّه.

ثم رتَّب علىٰ ما تقدَّم هذا البيان، مخاطباً كلَّ سامع، فقال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يتعبون في جمعها، ثم تكون عليهم وبالاً، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فيُعذَّبون في الآخرة أشدّ مما عُذِّبوا في

الدنيا. وعلىٰ تقدير أن الخطاب للرسول، يكون المراد بها عبارة من عبارات التهوين والتزهيد في الشيء، ولا يُراد حقيقة معناها.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم ذكر صورة نفاقهم ومصانعتهم للمؤمنين، فقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: يخافون منكم، فيقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم. وكان هذا حالهم في آخر العهد المدني، عندما قلُّوا وضَعُفوا، وكانوا قبل ذلك كثيرين، يشعرون بالقوة والعزة، كما تُلهِمُه آياتٌ أخرىٰ.

ثم بيَّن شدةَ حالهم في هذا الخوف علىٰ طريقة التمثيل، فقال: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾، وهذا تعبيرٌ عن الوقاية بالقول والاعتذار، بعبارة تتضمَّن الوقاية بالفعل والاندحار. والمدخل: السَّرَبُ في الأرض يدخله الإنسان بمشقَّة. والجِماح: السرعة الشديدة، وهو صفة للفرس، استُعيرت لهم. والآيةُ تـمثيلٌ لخوفهم. أو المعنىٰ: أنهم لم يقدروا علىٰ تَـرْكِ بلدتـهم وفراق قومهم، فصانعوكم بالنفاق، ولو قدروا علىٰ الخروج من بينكم لخرجوا.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم ذكر قبيحةَ أناس آخرين منهم، فقَال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[١]، واللمز: العيبُ والطعن، فيقولون: هذه قسمة غير عادلة، أو يقولون: إنه يخصُّ أقاربه وأهلَ مودَّته، ويريدون بذلك وقوع الرَّيْبِ في النبيِّ ﷺ؛ ليكون ذلك وسيلةً لوقوع الرَّيْب في دعوته في قلوب ضعفاء الإيمان أو العقول، فهم لا يتركون فرصةً يمكن إدخال الشبهة منها إلا انتهزوها.

ثم بيَّن من حالهم ما يُظهِرُ نفاقَهم الصَّريح، وهو أنَّ من مآربهم بذلك اللمز: التوسُّلَ للحصول علىٰ نصيب منها، قد لا يرىٰ النبي ﷺ لهم حقاً فيه، فقال: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾؛ يغضبون، وإن لم يكونوا مستحقِّين للعطاء؛ إذ لا همَّ لهم من إظهار إسلامهم وادِّعائه إلا المنفعة الدنيوية.

ثم بيَّن ما كان يجب أن يكونوا عليه، كما هي سُنَّة القرآن في تعقيب النقد بالهدي والإرشاد، وصفاً للدواء بعد تشخيص الداء، فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي: كافينا في كلِّ حال، ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ لكان خيراً لهم. وهذا الإرشاد عام يشملهم ويشمل المؤمنين معاً؛ يُؤدِّبهم بأن يكونوا كذلك دائماً.

ولما كان لَـمْزُ هؤلاء المنافقين في الصدقات ناشئاً عن طلبهم ما لا يستحقون، أردف الكلام ببيان مُسْتَحقِّي الصَّدقات رَدْعاً لهم، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾، وقد اختلفوا في الفقير والمسكين أيهما أشد حاجة، قال ابن قتيبة: الفقير: هو الذي له بُلغة من العيش، والمسكين: هو الذي لا شيء له[٢]. ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾

---

(١) سيأتي مثل هذه الآية فيما بعد، فانظر تفسيرها. (المؤلف).

(٢) «غريب الحديث» لابن قتيبة (١: ١٩١).

وهم الـجُباة لبيت المال، ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم الذين يُرادُ استمالتُهم إلىٰ الإسلام أو تثبيتُهم فيه من ضِعافِ الإيمان، وقد قسمهم الفقهاء إلىٰ قسمين: مسلمين وكفار.

ويرىٰ أبو حنيفة رضي الله عنه: أنَّ سهم هؤلاء قد انقطع بإعزاز الله الإسلام، واحتجَّ بأنَّ مشركاً جاء يلتمس من عمر مالاً فلم يعطه، وقال: «مَنْ شاء فليؤمن، ومَنْ شاء فليكفر»(١)، وبأن عثمان وعلياً لم يُعطيا أحداً من هذا النوع(٢).

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي: إعانة الـمُكاتَبين من الأرقَّاء لفكِّ رقابهم من الرِّق. وهذا من رحمة الإسلام وعَدْلِهِ الرائع، ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ وهم الذين ركبهم الدَّيْن وتعذَّر عليهم أداؤه، والقائمون بجمع مالٍ لدفع فتنة أو لمصلحة عامة، ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهي المصالح العامة والمشاريع الخيرية(٣)، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المنقطع في السفر ويتعذَّر عليه الوصول إلىٰ أهله، وفيه ترغيبٌ في الأسفار لما فيها من الفوائد الاجتماعية.

وأرىٰ ـ والله أعلم ـ أن يتناول اللفظ بعمومه الـمُشَرَّدين في الطرقات، وفي وصفهم بأبناء السبيل استفزازُ الشعور نحوهم، وتهييجُ العطف عليهم والرأفة بهم. وكذلك تشمل اللقطاء، فيُصْرَف عليهم من الزَّكوات لتربيتهم تربيةً صحيحة، وإعدادهم أن يكونوا نافعين للأمة لا مُضرِّين.

ثم أتبع البيان بقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للحثِّ علىٰ العمل بما جاء فيه، من دون تغيير ولا هوادة.

---

(١) ذكره الغزالي في «الوسيط» (٤: ٥٥٧).

(٢) ذكره ابن قدامة في «المغني» (٧: ٣١٩).

(٣) وهذا رأي بعض العلماء المعاصرين، أما المتقدِّمون من الفقهاء فجمهورهم علىٰ أن المراد بمصرف «في سبيل الله»: ما يتعلق بالجهاد من تـجهيز الجيوش والجند وشراء آلات الجهاد وتصنيعها ونحو ذلك.

ثم أتىٰ بما هو كالتعليل له، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ فيما يشرعه ويفرضه، يُراعي فيه الحكمة والمصالح العامة.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

ثم ذكر قبيحةً أخرىٰ لأناس آخرين منهم، فقال: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: غِرِّيرٌ سريعُ الانخداع. وذلك من أكبر عيوب الرؤساء؛ لما يَتَرتَّب عليه من قَبول الغش. والظاهر أنهم قالوا ذلك تبجُّحاً بنجاحهم في الاستئذان، حيث أذِنَ لهم بمعاذيرهم الكاذبة.

وقد ردَّ الله سبحانه عليهم بالطريقة التي يُسمِّيها البلغاء: أسلوب الحكيم أو القول بالموجب، فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: نعم، هو أُذُن، ولكنه أذن خير لكم، لا يقبل مما يسمعه إلا الحق، وذلك من أعظم صفات الرئيس.

ثم ذكر له من الصفات ما ينبعث منه لهم أفضل الخير وأعلاه، فقال: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كلامُهم عنده مُصَدَّق. وقد ضمّن ﴿يُؤْمِنُ﴾ معنىٰ: يُصْغِي، فعدَّاه تعديته، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، أي: يُصغي لهم ويصدِّق قولهم. وفي الجمع بين الإيمان بالله والإيمان للمؤمنين إشارةٌ إلىٰ أنهما في الحقِّ سواء، لتحقُّق صدق المؤمنين، وإيماءٌ إلىٰ أنه ﷺ لا يؤمن للمنافقين. وإذا ظهر لهم ذلك، فإنما لكونه ﷺ مأموراً أن يبني الأمر علىٰ الظاهر، ويَدَعَ لله السرائر، وأما إذنه لهؤلاء المنافقين فمبنيٌّ علىٰ اجتهاده في أن وجود هؤلاء المستأذِنين المنافقين في الجيش مُضِرٌّ وغيرُ نافع.

ثم أكمل المعنىٰ بقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ إيماناً صحيحاً؛ إذ كان سبباً لإيمانهم وهدايتهم إلىٰ ما فيه سعادة الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾، ويجوز أن يكون بين الفِقْرة والتي قبلها مقابلةٌ في المعنىٰ، ومُلخَّصها: أنه أُذُن خير للذين آمنوا منكم، وأذنه رحمةٌ لهم. أما المنافقون الذين يُؤْذونه في ذلك فليسوا بمؤمنين؛ لأنَّ إيذاء الرسول بالقول أو الفعل فيما يتعلق برسالته ينافي الإيمان الذي هو سبب الرحمة، وجزاؤه العذاب الأليم.

ثم عاد إلىٰ الموضوع الأصلي في السياق السابق، وهو تخلُّفهم عن غزوة تبوك وملابساته وما دار حوله، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ نفاقاً وخداعاً. والخطاب للمؤمنين الذين أنَّبوهم علىٰ التَّخلُّف، فهم يُحاولون أن يُرْضُوهُم خداعاً، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ بالصِّدق والإخلاص. والإتيان بضمير الواحد بعد الاثنَيْن يكون لنكتة ومن خصائص اللغة. والنكتة فيه هنا: أنَّ إرضاء الرسول ـ من حيثُ هو رسولُ الله ـ عينُ إرضاء الله.

ثم زادهم تأنيباً وتشنيعاً بقوله: ﴿ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ كما يدَّعون ويحلفون. فتضمَّن الكلامُ إثباتَ عدم إيمانهم بالدليل الذي هو عدم الإرضاء.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: مَنْ يُشاقِقْهُ ويخالِفْه ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أبداً، و﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ أي: الذُّلُّ والنَّكالُ الشديد.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

ثم بيّن شأناً آخر من شؤون هؤلاء المنافقين التي فضحتها هذه السورة، فقال: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ حذراً مَشُوباً باستهزاء ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: تكشف عن أسرار نفاقهم وما يُضمِرونه من السوء للرسول ﷺ ودعوته. وهذا الحذر أثر طبيعيٌّ لهم؛ لأنهم شاكّون مرتابون في الرسالة، غير جازمين ببطلانها كالكفر.

قال أبو مسلم: كان إظهار الحذر منهم بطريق الاستهزاء. ولذلك قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: مُظْهِرٌ ما تخشونه من إنزال السورة في مخازيكم ومثالبكم ونفاقكم واستهزائكم بالرسول، وهي هذه السورة، حتىٰ سُمِّيت بالفاضحة، أي: فاضحة المنافقين.

وقال غيره: إنَّ الحذر كان حقيقاً، أما الاستهزاء فهو دأبهم ودَيْدَنهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

وقال قتادة وغيره: بينما رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وبين يديه أناس من المنافقين، قالوا فيما بينهم: أيرجُو هذا الرجل أن يُفْتَحَ له قصورُ الشام وحصونُها؟ هَيْهات هَيْهات(١). وقال بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم، والله لكأنا بكم غداً تُقادُون في الحبال، فأطْلَعَ الله نبيَّه علىٰ ذلك، فقال ﷺ: «احبِسوا عليَّ هؤلاء

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٤٩).

الركب»، فأتاهم، فقال لهم: «قلتُم كذا، قلتُم كذا». قالوا: يا نبيَّ الله، إنما كنا نخوضُ ونلعب، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ أي: إننا لم نكن جادِّين بهذه الأقوال ولا منكرين، بل هازلين لاعبين. وظنُّوا أنَّ هذا عُذرٌ مقبول؛ لجهلهم أنَّ اتِّخاذ الدين هزواً ولعباً، كفرٌ محْض.

فأمر رسوله أن يردَّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

ثم زادهم تقريعاً بقوله: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أي: قد أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾ بتوبتهم وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ بإصرارهم علىٰ النفاق.

قال في «المنار»: فإن قيل: ظاهر قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أنهم كانوا مؤمنين، فكفروا بهذا الاستهزاء الذي سمَّوه خَوْضاً ولعباً. وظاهر السياق أنَّ الكفر الذي يُسِرُّونه هو سببُ الاستهزاء الذي يُعلِنونه. قلنا[١]: كلاهما حق، ولكلٍّ منهما وجْه؛ فالأول: بيان لحكم الشرع، وهو أنهم كانوا مؤمنين حكماً، فلما تبيَّن منهم، كفروا حكماً أيضاً. والثاني ـ وهو ما دلَّ عليه السياق ـ هو الواقع بالفعل[٢].

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً

---

(١) القائل صاحب «المنار».

(٢) تفسير «المنار» (١٠: ٤٥٧).

وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم ذكر بياناً عاماً لحال جنس المنافقين، فقال: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ أي: متشابهون، كأنَّ كلاً منهم عَيْنُ الآخر. وفي صورة التعبير إيماءٌ إلىٰ تكذيبهم في ادِّعاء أنهم من المؤمنين ومُوالونَ لهم، وردٌّ لحَلِفهم السابق، وتقريرٌ لقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦].

ثم بيَّن صفاتهم العامة، فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾، ومن ذلك: صدُّهم الناسَ عن مبادئ الإسلام. ثم تابع الوصف بقوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله.

ثم أجمل حالهم، وسَبَكَه علىٰ مُجمَل الجزاء، فقال: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ ﴾ فيما يأمر به وينهىٰ عنه، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: حَرَمَهم من فوائد ذِكرِه وشكره وحُسْنِ عبادته، فيه مشاكلة في اللفظ.

ثم سجَّل عليهم وقرَّر أمرهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

ثم قفَّىٰ علىٰ بيان حالهم هذه بذكر ما أعدَّه لهم ولإخوانهم الكفار من العذاب، فقال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾، ثم هوَّل أمرها فقال: ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ ﴾ أي: تكفيهم عذاباً وحدها، وقد أضاف إليها قوله: ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: أبعَدَهم عن رحمته التي وعد بها المؤمنين في الآيات المقابلة الآتية،

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ أي: ثابتٌ لا يتحوَّل، والظاهر أنَّ هذا وَصْفٌ لعذابهم في جهنم. ويجوز أنَّه نوع آخر من العذاب فوق عذاب جهنم المعتاد.

وذِكرُ المنافقات إلىٰ جانب المنافقين يدلُّ علىٰ ما كان للمرأة في الحركة الإسلامية من دَوْرٍ مهم.

وبعد أن ذكر هذا البيان العام عن جنس المنافقين وصفاتهم في كل زمان ومكان، عاد إلىٰ النَّسق السابق وخاطب المنافقين الذين نزلت في شأنهم هذه السورة، فقال: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: أنتم أيها المنافقون المؤذون لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، كأولئك المنافقين الذين خَلَوْا من قبلكم في أقوام الأنبياء، مفتونون بأموالكم وأولادكم، مغرورون بدنياكم، كما كان أولئك مفتونين مغرورين بأموالهم وأولادهم.

وللمبالغة في الوعيد، بيَّن امتيازهم عليهم بالقوة في سائر أنواعها، إيذاناً بأنهم أدنىٰ للهلاك من أولئك، بحسب السنة الطبيعية، فقال: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ﴾ أي: تمتَّعوا بنصيبهم هذا من الدنيا واغترُّوا به، ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم﴾ أنتم كذلك ﴿بِخَلَـٰقِكُمْ﴾ من هذه الدنيا ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ﴾ من الأموال والأولاد والقوة، ولم يهتمُّوا إلا بذلك، ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطل والفساد ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾.

ثم نعىٰ عليهم، وذكر حُكْمَهُ فيهم جميعاً وفي أمثالهم بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فشلت، فدارت عليهم الدوائر، واسْتَأْصَلَهم العذاب، ﴿وَ﴾ كذلك حبطت في ﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾ بِتَدْسِيَتِهم لنفوسهم وإفسادهم لِفِطَرِهم، فكانت أعمالهم فاسدة فاشلة، نالوا بها العذاب الأليم، ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾، ومَنْ أعظَمُ خسارةً ممَّن خَسِرَ الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين! وإنما حبطت أعمال

الضال والكافر؛ لأنه كمَنْ يسير إلىٰ مكان في طريق لا توصل إليه، بل توصل إلىٰ شر عظيم وهلاك.

ثم أنَّبهم لعدم تذكُّرهم واعتبارهم بما جَرَىٰ علىٰ أمثالهم في أمم الأنبياء الماضية، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ﴾ وهي قرىٰ قوم لوط، يقال: ائتفكت البلد بأهلها، أي: انقلبت. فسُمِّيت قرىٰ لوط بذلك، بعد أن انقلبت بأهلها.

ثم شرح أمر هؤلاء الأقوام، فقال: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ فأعرضوا عنها وعاندوا الرسل فأخذهم العذاب، وهو الطوفانُ الذي أغرق قوم نوح، والريحُ العقيم التي أهلكت عاداً قومَ هود، والصيحةُ التي أخذت ثمود، والعذابُ الذي هلك به النمرود بعد أن حاول إحراق إبراهيم عليه السلام، والنارُ التي أحرقت قومَ شُعيب يوم الظلَّة، والخسفُ الذي نزل بقرىٰ قوم لوط وهم فيها، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ بما جَرَىٰ عليهم، إذ لم يخلقهم مطبوعين علىٰ الضلال، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ بتَدْسِيَتِهم لها، وإفسادهم لفطرتها حتىٰ أفقدوها الاستعدادَ للهداية الموصلة إلىٰ النعيم المقيم، وولَّدوا فيها الاستعدادَ للضلال المؤدِّي إلىٰ الشقاء الأليم، وخلود الجحيم.

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

ثم أردف البيان عن حال المنافقين وصفاتهم ومصيرهم، بالبيان عن حال المؤمنين وصفاتهم ومصيرهم، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ في الأخوَّة والمودَّة والنُّصرة الحربية وما يتعلق بها وغير ذلك دون المنافقين، إذ لا ولاية بينهم وبين المؤمنين ولا مودة. وفي المؤمنين بتأثير الإيمان ضِدُّ ما في المنافقين من الأقوال والأعمال، فهم ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾، وهذه الصفات تقابل من المنافقين أمْرَهم بالمنكر ونَهْيَهم عن المعروف وقَبْضَ أيديهم عن الصَّرف والإنفاق، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالىٰ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون.

ثم تابع البيان عن صفات المؤمنين بقوله: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ أي: يستمرُّون علىٰ الطاعة. وهذه الصفات تدلُّ علىٰ تضامنهم القوي وقيامهم بالواجبات الإسلامية من تعبديَّة وماليَّة واجتماعيَّة.

وأثبتت الآيةُ ولايةَ المؤمنين والمؤمنات بعضهم لبعض، والولاية: عبارة عن تعاونهم وتناصرهم فيما فيه خيرهم وصلاحهم؛ كلٌّ في حدود معرفته واستعداده، وكذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو حال يتدخَّل في السياسة والاجتماع، والله أعلم. فسجَّل لهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾، وفي هذا مقابلةٌ لنسيان المنافقين لله ونسيان الله تعالىٰ للمنافقين.

ثم أتىٰ بالفاصل بما يناسب صفات الله تعالىٰ، علىٰ صورة تعليل لما تقدَّم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يُغْلَبُ علىٰ أمره، ولا يمتنع عليه شيءٌ من وعده ووعيده، ﴿حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ لا يضع شيئاً منها إلا في موضعه.

ثم فصَّل مُجمَلَ قوله: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾؛ لِيُقابل ما توَعَّد به المنافقين والكفار، ويفسِّر بمفهوم المقابلة معنىٰ نسيانه لهم، فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من تلك الجنات شأناً، وأعلىٰ نعيماً وسعادة. والرضوان هو: النوع الكامل من الرضا الذي لا يعقبه سخط، و﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

وبعد هذا البيان أمر الله نبيَّه ﷺ أن يجاهد هؤلاء المنافقين لقمع شرِّهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: جاهِدْهُم أشدَّ المجاهدة.

ثم بيَّن جـزاءهم الأخـرويَّ، فقال: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ مصيرُهم هذا.

وعن ابن عباس رضي الله عنهمـا قال: «جهاد الكفار بالسيف والسِّنان، وجهاد المنافقين بالحجة والبرهان وبغلظة اللسان»[1]. وهذه السياسة الحكيمة كانت سَبَبَ توبة كثير من المنافقين.

ثم عاد إلىٰ النَّسْق السابق، وهو سَرْد قبائحهم وجرائمهم الموجبة لهذين الجزاءين

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤: ٣٥٨- ٣٥٩).

الدنيوي والأخروي، وابتدأ بما يتضمَّن إعادة الكلام عن استهزائهم السابق الذي اعتذروا عنه بما فيه كفر وفسوق، وهو الخوض واللعب، وإنما كرَّره للمبالغة في التأنيب والتفظيع، فقال: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ أي: وأظهروا الكفر بعد إظهارِهم الإسلام. ومن ذلك ما روي: أنَّ رسول الله ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرَيْن ينزل عليه القرآن، ويعيب المنافقين المتخلِّفين، فيسمعه مَنْ كان منهم معه، فقال بعضهم: لئن كان حقاً ما يقوله محمد عن إخواننا الذين خلَّفناهم، وهم ساداتنا وأشرافنا، فنحن شرٌّ من الحمير. فبلغ ذلك النبي ﷺ وأرسل إليه، فحلف بالله ما قال، وأنكر مقالته هذه التي تدلّ علىٰ تردُّده بصدق محمد ﷺ[١].

ومن ذلك قول عبد الله بن أُبي في غزوة بني المصطلق الذي حكاه الله عنه في سورة المنافقين بقوله: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨]، ولما بلغ قولُه رسولَ الله ﷺ أنكره وحلف أنه ما قال[٢].

ثم تابع الكلام عن جرائمهم، فقال: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ﴾، وهو اغتيال الرسول ﷺ في العقبة مُنصَرَفَهُ مِن تبوك، وذلك أنّه توافق خمسة عشر منهم علىٰ أن يزدحموا عليه إذا تَسَلَّمَ بالليل، فأخبره جبرائيل بذلك، فاحتاط للأمر[٣].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٨٣٠٣). والقائل هو الجُلاس بن سويد.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤)، عن جابر.

(٣) رواه أحمد (٢٣٧٩٢)، عن أبي الطفيل: «لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً فنادىٰ: إن رسول الله أخذ العقبة، فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة، ويسوق به عمار، إذ أقبل رهط متلثمون علىٰ الرواحل، غشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قَدْ، قَدْ»، حتىٰ هبط رسول الله ﷺ، فلما هبط رسول الله ﷺ نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمار، هل عرفت القوم؟» فقال: قد عرفت =

ثم شنّع عليهم عملهم هذا الذي قابلوا به نِعَمَ الله عليهم بوجود رسوله ﷺ بين ظهرانَيْهم، حيث اغتَنَوْا بعد فقر، وظهروا بعد خمول، فقال: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ ومنها الغنائم. وفي صيغة هذا التعبير: ما يشبه النوع البديعي الذي يسمُّونه: طريقة تعقيب المدح بما يشبه الذم، أو العكس. ومن صُوَره: أن يُؤتىٰ بأمر منفي، ثم يُؤتىٰ بأداة استثناء، فيَتوَهَّمُ السامعُ أن يؤتىٰ بشيء يُستثنَىٰ من المنفي، ولكن المتكلم يأتي بشيء موافق للمنفي، كما في هذه الصورة، حيث أتىٰ بما يُسخِّفُ الانتقام ويُؤنِّبُ عليه، والغرض منه هنا المبالغة في التشنيع. أي: لم يكن من وجوده ﷺ بينهم إلا أنهم نالوا كلَّ خير وسعادة من الغنىٰ وحسن الحال، فماذا ينقمون عليه؟

وبعد أن فضح مَساوِيَهم، وسَرَد جرائمهم؛ فَتَحَ لهم باب التوبة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، ووعدهم إذا تابوا، وتوعَّدهم إذا أصرُّوا علىٰ هذا النفاق، فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ من هذا النفاق ﴿يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾ أي: في الدنيا والآخرة. وقد حذفه اعتماداً علىٰ مجيئه في قوله: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ﴾ عما دُعُوا إليه من التوبة ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾ أي: لا يجدون حينئذ في كل

= عامة الرواحل والقوم متلثمون، قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه» قال: فسأل عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: نشدتك بالله، كم تعلم كان أصحاب العقبة، فقال: أربعة عشر فقال: إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر، فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله، وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقين حَرْبٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد. قال الوليد: وذكر أبو الطفيل في تلك الغزوة أن رسول الله ﷺ قال للناس، وذكر له: أن في الماء قلة، فأمر رسول الله ﷺ منادياً فنادىٰ: «أن لا يرد الماء أحدٌ قبل رسول الله، فورده رسول الله ﷺ، فوجد رهطاً قد وردوه قبله، فلعنهم رسول الله ﷺ يومئذ». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦: ٢٨٩): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

الأرض مَنْ ينصرهم ويُخلِّصهم من ذلك العذاب، فقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تمكينٌ وإيغالٌ لنفي النصير.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

ثم بيَّن حال طائفة أخرىٰ من أولئك المنافقين، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وأعاد اللام في «لنكونن» لتأكيد العَزْم علىٰ الاستعانة والتوسّل بفضل المال إلىٰ الاستقامة علىٰ منهج الصلاح، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

والآية تُلهِمُ ما كان قد عاد إلىٰ أهل المدينة من الخيرات والبركات من جرَّاء الهجرة النبوية والحركة الإسلامية، ولكن هؤلاء المنافقين منهم قابلوا الإحسان بالإساءة، وشاغبوا وأفسدوا علىٰ الدعوة سراً، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ الله، أي: جعَل عاقبةَ أمرهم ﴿نِفَاقًا﴾ راسخاً ﴿فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ للحساب أو بالموت. والمراد: بيان منتهىٰ الغاية التي لا رجاء معها للتوبة. وإنما رَسَخَ هذا النفاقُ فيهم ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾، وذلك بحَسَب سُنَّة الله في خَلْق الإنسان وجِبلَّتِه، حيث يكون لأعماله المستمرَّة أثرٌ راسخٌ في نفسه، يَصعُبُ أو يستحيل تغييره.

ثم وبَّخهم علىٰ ذلك بقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾، فكيف يَكذِبون عليه فيما يُعاهِدونه به، وعلىٰ الناس فيما يحلفون عليه باسمه؟

ثم ذكر قبيحةً أخرىٰ أيّد بفحْواها دِقّةَ علم الله في أمرهم، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾[1]، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ حثَّ الناس ذات يوم علىٰ الصدقة، فأتىٰ عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضتُ ربي أربعة، وأمسكت لعيالي أربعة، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيتَ وفيما أمسكت»[2].

وتصدَّق عاصم بن عَدِيّ بمئة وسق من تمر.

وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر، وقال: أَجَّرْتُ الليلة الماضية نفسي من رجل لإرسال الماء إلىٰ نَخْلِه، فأخذتُ صاعَيْن من تمر، فأمسكتُ أحدهما لعيالي، وأقرَضْتُ الآخر ربي. فأمر رسول الله ﷺ بوضعه في الصدقات.

فلمزهم المنافقون وقالوا: ما أعطىٰ عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وأما أبو عقيل فإنَّ الله ورسوله لغَنِيّانِ عن صاعه، ولكنه أحبَّ أن يُذكَرَ بنفسه ليُعْطَىٰ من الصدقات[3].

فقال تعالىٰ في بيان جزاء هؤلاء اللامزين الساخرين: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾، وهذا التعبير يُسمَّىٰ مُشاكَلَة، والمراد به جزاء الـمُماثَلَة، أي: جزاهم بمثل ذنبهم، فجعلهم

---

(١) أعاد ما سبق عنهم من اللمز في الصدقات، وزاد عليه في البيان، علىٰ نهج القرآن في ذلك، وذكر نوعاً آخر منه. (المؤلف).

(٢) رواه البزار في «مسنده» (٨٦٧٢)، وفيه: عندي أربعة آلاف؛ ألفان أقرضهما ربي، وألفان لعيالي.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤: ٣٩١).

سخرية للمؤمنين وللناس أجمعين، بفضيحته لهم في هذه السورة ببيان هذا الخزي وغيره من مخازيهم وعيوبهم، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

ثم بيَّن تعالىٰ أمْرَهم في حكمه عليهم، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، وعدد «السبعين» في عُرف العرب بمعنىٰ الكثرة، فليس المراد به العدد المعيَّن، وليس له مفهوم مخالفة، والمعنىٰ: مهما تُكثِرْ من الاستغفار لهم فلن يُستَجابَ لك فيهم. والأمر هنا بمعنىٰ الخبر، (كما جاء في الفقرة السادسة، من المادة التاسعة، من المقدمة السادسة). والظاهر أنه ﷺ كان يستغفر لهم رجاءَ أن يهديَهم الله فيتوب عليهم، ويغفر لهم، كما كان يدعو للمشركين كلَّما اشتدَّ إيذاؤهم له، ويقول: «اللهم اغفِرْ لقومي فإنهم لا يعلمون»[1].

وقد بيَّن سبب عدم مغفرته لهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: جَرَت سُنَّته في الراسخين في فسوقهم وتمرُّدهم أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والهداية إلىٰ الإيمان.

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢)، من حديث ابن مسعود.

ثم أعاد الكلام عن الذين تخلَّفوا وظلُّوا في المدينة، وبيَّن للرسول ما يجب أن يُعامِلَهم به إذا رجع إلىٰ المدينة، فقال: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾، والخِلافُ: مصدر، واستُعمِلَ ظرفاً بمعنىٰ: بَعْد، أي: فرحوا بذلك ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وحرَّضوا علىٰ ذلك، ﴿وَقَالُواْ﴾ لإخوانهم في النفاق: ﴿لَا تَنفِرُواْ﴾ معه ﴿فِي ٱلْحَرِّ﴾، يقولون ذلك تثبيطاً لهم، أو تثبيتاً لنفاقهم وإغراءً عليه، وتواصياً فيما بينهم.

فأمر الله سبحانـه رسوله ﷺ بتسفيـه أحلامهم، وتسخيف نظراتهم في ذلك، وسبكه علىٰ التوعُّد لهم، فقال: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾، ثم قرَّعهم بقوله: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ثم توعَّدهم مُبيِّناً ما يكون من عاجل أمرهم وآجله، فقال: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾، ثم بيَّن أن هذا البلاء جرُّوه علىٰ أنفسهم بكسبهم، فقال: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾، وجزاء كل عمل من جنسه، وكما يَدينُ المرء يُدان.

ثم بيَّن تعالىٰ ما يجب أن يُعامَلوا به من الجزاء في الدنيا، وضمَّنه التحذير من أن يشاركوه في قتال، فقال: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ ﴾ أي: ردَّك من سفرك ﴿ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ وإنما لم يقل: (فإن رجعك الله إليهم)؛ لأنَّ منهم مَنْ تاب من النفاق، ومنهم مَنْ خَرج معه، وما كلُّ مَنْ تخلَّف كان منافقاً. فأراد بالطائفة: المُصِرِّين علىٰ النفاق، أي: إن رجعتَ إلىٰ هؤلاء، ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾[١] معك في غزاة أو غير غزاة مما تـخرج لأجله، ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾ أي: لن يكون لكم شرف صحبة الإيمان بالخروج معي، ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ لا بالخروج والسفر إليه، ولا بالدفاع له.

---

(١) عاد رسول الله ﷺ للمدينة، وهو يفكّر في أمر الروم، لِعِلْمِه أنّهم لم يعدلوا عن غزو المسلمين، فجهّز الجيش الذي أنفذه بعد وفاته ﷺ خليفتُه الأول أبو بكر الصِّدّيق رضي الله عنه. (المؤلف).

ثم بيَّن سبب هذا الحرمان من شرف الخروج معه، فقال: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: إنكم رضيتم لأنفسكم بخِزْي القعودِ أوَّلَ مرَّة دُعيتُم فيها إلىٰ الخروج، واستُنْفِرتُم فلم تَنْفِروا، عصياناً لله ولرسوله، ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ من الصبيان والعَجَزة والنساء. وفي صورة الكلام تهجينٌ لهم وتحقير.

ثم بيَّن تعالىٰ حُكْمَه في شأن أمواتهم بعد ما بيَّنه في شأن أحيائهم، فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: خارجونَ عن حظيرة الإيمان.

ثم هوَّن أمر رؤسائهم وما يَعْتَزُّون به من أموالهم وأولادهم، وأومأ بوعده له بالظفر عليهم، فقال: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ حيث يتعبون في جمعها، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ فتكون عليهم وبالاً.

وقوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾ عبارةٌ من عبارات التهوين، ولونٌ من ألوان التزهيد في الشيء والاستهانة به، لا يُرادُ به حقيقة معناه، إذ ليس هذا من شأنه ﷺ.

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

قال في «المنار»: ثم بيَّن حالة المنافقين في أمر الجهاد بالمال والنفس الذي هو أقوىٰ آيات الإيمان بالله ورسوله وما جاء به، وما يقابل ذلك من حال المؤمنين الصادقين، وأثر تلك الحالتين في القلوب الذي هو مناط الجزاء، فقال: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ

وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾ والمراد من السورة: آيات في موضوع خاص في السورة؛ مِنْ ذِكْرِ الكُلِّ وإرادةِ الجُزْء، وهذه الآية معطوفة علىٰ ما قبلها من خبر المنافقين الذين تخلَّفوا عن الجهاد للجمع بين تلك الحالة الخاصَّة، وهذه الشنشنة[١] العامة. والمعنىٰ: أنه كلما نزلت سورة تدعو الناس ببعض آياتها إلىٰ الإيمان بالله والجهاد مع رسوله ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾[٢] أي: استأذنك أولو المقدرة علىٰ الجهاد بأموالهم وأنفسهم، بالتخلُّف عن القتال، ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: الضعفاء والمرضىٰ. وفي هذه العبارة تحقيرٌ لهم وحكايةٌ للسان حالهم.

ثم بالغ في ذلك بقوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي: النساء والأطفال، ثم بيَّن أنَّ منشأ ذلك فيهم إنما هو انطباعهم علىٰ الكفر، فقال: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بحَسَب سُنَّة الله تعالىٰ في أنَّ الذين ترسخ في نفوسهم الصفات الرذيلة يفقدون الاستعداد لأضدادها، وإذا وَصَل إلىٰ سمعهم قولٌ مخالف لما هو دين لهم أو عادة، لا يتدبَّرونه ولا يرونه جديراً بالنظر والتفكير، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ما يُخاطبون به من ذلك، مهما كان أمرُه وشأنه من الوضوح والجلاء في الحقِّ والصواب.

ثم ذكر حالَ المؤمنين ومصيرَهم في مقابلة حالِ المنافقين ومصيرهم، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ التي هي ثمرات الإيمان والجهاد؛ من شرف النصر ومَحْو كلمة الكفر وإعلاء كلمة الله وإقامة الحق والعدل بدين الله والسيادة في الأرض، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ الفائزون بسيادة الدنيا مع سعادة الآخرة، دون أولئك المنافقين الذين حُرِمُوا منهما بنفاقهم، وبما كان له من سُوء الأثر في أعمالهم وأخلاقهم.

---

(١) الشنشنة: الطبيعة والسجيّة «لسان العرب» (شنن).

(٢) تفسير «المنار» (١٠: ٥٠١).

ثم فسّر أهمَّ ما في ذلك الفلاح، فقال: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾، و﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

وبعد أن بيّن أحوال منافقي أهل المدينة، بيّن أحوال منافقي الأعراب البدويين، فقال: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ ﴾ أي: المعتذرون ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ في التَّخلُّف عن الخروج إلىٰ تبوك، ﴿وَقَعَدَ ﴾ عن الخروج وعن المجيء للاعتذار ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ من الأعراب، أي: الذين أظهروا الإيمان بهما كذباً وإيهاماً، وهؤلاء هم المنافقون الأقحاح، قعدوا ولم يعتذروا، جرأة علىٰ الله تعالىٰ، فسجّل عليهم بقوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾، فهذا الوعيد عامٌّ في المكذِّبين، وخاصٌّ ببعض المعتذرين، وهم الذين كان اعتذارهم نفاقاً.

ثم بيّن تعالىٰ الأعذار الشرعية المقبولة في التَّخلُّف؛ ليُعْلَم بُطلانُ ما عداها، فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ ﴾ وهم الشيوخ والصبيان والنساء، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ علىٰ أنفسهم إذا خرجوا للجهاد، ولا ما يتركون لعيالهم.

وكان المؤمنون حينئذ يُجهِّزون أنفسهم، فالفقير ينفق علىٰ نفسه بما يمكنه، والغنيُّ يُعاونُه ويُنفِقُ علىٰ نفسه وعلىٰ غيره بقدر سَعَته، كما فعلوا في غزوة تبوك، إذ لم يكن بَعْدُ بَيْتُ مالٍ يُنفَقُ منه علىٰ الغُزاة، وهذا العُذْر خاصٌّ، ويزولُ بوجود بيت مال للأمة يُنفَقُ منه عليهم. أي: ليس علىٰ هؤلاء ﴿حَرَجٌ﴾ وإثمٌ في القعود عن الجهاد ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في الطاعة وأداء الأمانة بالقول والعمل، ولا سيما ما تقتضيه حالة الحرب.

ثم مكَّن هذا المعنىٰ بهذه الفاصلة، فقال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: إلىٰ مُؤاخَذَتِهم وإيقاعِهم في الحرج.

ثم قفَّىٰ علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾، فهو يغفر لهم ما لا يَخْلو منه البشر من ضَعْفٍ في أداء الواجب، لا ينافي الإخلاصَ والنُّصحَ لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتهم.

ثم خصَّ بالذكر مِن بين الذين لا يجدون ما ينفقون، زُمْرةً خاصةً منهم، جرىٰ لهم مع الرسول ﷺ ما ذكره سبحانه تشريفاً لهم، فقال: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ولا ما يركبون.

ولما بيَّن أنَّ هؤلاء الأصناف ليس عليهم من سبيل، بيَّن مَنْ عليهم السبيل في مؤاخذتهم وإيقاعهم في الحَرَج، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ من النساء والأطفال، ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بحَسَب سُنَّة الله في أنَّ النفوس إذا أشبعت بالأخلاق الرذيلة تَفْقِدُ الاستعداد للأخلاق الفاضلة والإيمان الصحيح، ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ شيئاً من ذلك، ولا يُدْرِكون كُنْهَ حالِهم، ولا سُوء مآلهم، ولا ما هو سبب ذلك من أعمالهم.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا
اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ
لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

ثم شَرَعَ في بيان ما سيكون من أمر المنافقين الذين تخلَّفوا في المدينة وما حولها عن غزوة تبوك، مع الرسول ﷺ والمؤمنين، بعد عودتهم إليهم، فقال: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نُصدِّقكم، كيف و﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ﴾ بوَحْيِهِ إلىٰ رسوله عن شيء ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ التي تُسِرُّونها في ضمائركم، وهي مُخالِفةٌ لظواهركم التي تعتذرون بها، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ وسَيُعامِلُكم الرسولُ بما يأمره به الله، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي يعلم ما تُسِرُّون وما تُعلنون، وما تكتمون وما تُظْهِرون، وتُحشرون إليه ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾، ويُحاسِبُكُم بما تستحقُّون.

ثم استأنف الكلام، وقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ وتسامحوهم، أي: سيؤكِّدون إليكم اعتذارهم بالأَيمان الكاذبة إذا رجعتم إليهم من سفركم، لأجل أن تُعْرِضوا عن عَتْبِهم وتوبيخهم، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ إعراضَ إهانةٍ واحتقار، لا إعراض صَفْح وإعذار؛ ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي: قذر معنويٌّ يجب الإعراض عنه، تنزيهاً عن القرب منه.

ثم بيَّن جزاءَهم، فقال: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾

أي: إنَّ أَخْذَهم بهذا العذاب أثرٌ لازم من آثار كسبهم، بحسب سنن الكون التي نظمها الله تعالىٰ.

ثم أعاد الكلام عن حَلفِهم ليُرتِّب عليه ما يأتي، فقال: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ أي: فَرْضاً وتقديراً، وقد أعلمكم الله بحالهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾ الخارجينَ عن نُور الفطرة ونظام الدين بسُوء صنيعهم، فما الذي يُجْديهم رضاكم نفعاً؟ وهذا لونٌ من ألوان تقرير وجوب الإعراض عنهم، وعدم الاغترار بمَعاذيرهم الكاذبة، وأن لا يُجالسوهم ولا يكلِّموهم. ما أعظمَ هذا الوعيد الرهيب! وما أشنعَ هذا الموقف والتهديد المخيف! أعاذنا الله.

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) ﴾.

ثم استأنف الكلام عن حال سكان البوادي من المنافقين، فقال: ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ أي: من منافقي سكّان المدينة وغيرها من القرىٰ، وذلك بمقتضىٰ البداوة؛ لأنها تُغَلِّظُ الطباع وتُقَسِّي القلوب. وسكانُ البدو أقلُّ ذَوْقاً وأدباً من سكان الحضر، فهم محرومون من وسائل العلوم الكسبية والثقافة العقلية، ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ أي: أجدرُ بالجهل لحقيَّة هذه الشريعة من أهل الحضر المزوَّدين بالثقافة وتهذيب العقول، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧)﴾ بأمور عباده وما يحكم به عليهم، وما يُشرِّعه لهم، وما يجزيهم به.

ثم تابع الكلام ببيان صنف آخر من منافقي الأعراب، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي: ما يُؤْخَذُ منه من الزكاة، وما ينفقُه في سبيل الله والجهاد فيه، إنما يعدُّه مَغْرَماً وضريبةً إجباريَّة، لا يرجو من ورائه ثواباً عنه الله؛ لأنه لا يُؤْمن بالبعث والجزاء، فينفق ما ينفقه في سبيل الجهاد ضريبةً وتفادياً، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أن تدورَ عليكم ليتخلَّصوا منكم ومن التكاليف.

وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ يحتمل أن يكون دعاءً عليهم بما يتربَّصون بالمؤمنين، أو خبراً بحقيقة حالهم معهم، أو المعنيين معاً.

ثم ختم الكلام عنهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ لا يخفىٰ عليه اعتقادهم ونيَّاتهم، وسَيُجازيهم علىٰ ذلك.

ثم بيَّن حال المؤمنين من الأعراب، علىٰ نهج القرآن في المقابلة بين الصنفين، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾، وقد قابل بهذا تَربُّص المنافقين الدوائر بالمؤمنين؛ لأنه يدلُّ علىٰ كفر المنافقين وعدم إيمانهم باليوم الآخر، وقد قابل اتِّخاذهم ما ينفقون مَغْرماً بقوله: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: يتَّخذ ما يُنفِقُه وسيلةً لأمرين عظيمين؛ أولهما: القُربات والزُّلفىٰ عند الله، وثانيهما: صلوات الرسول، أي: أدعيته لهم ورضاؤه عنهم وثناؤه عليهم؛ لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدِّقين ويستغفر لهم. ولم يثبت بالنصِّ انتفاع أحد إلا بالدعاء، وما يكون المرء سبباً فيه؛ كالولد الصالح، والسُّنَّةِ الحسنة يُتَّبَعُ فيها. هذا ما قاله صاحب «المنار»[1].

ولكن جاء في بعض الآثار انتفاع الميِّت بصدقة الغير عنه، وثواب قراءته له، ولا يعارضه انقطاع عمل نفسه «إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح

(١) (١١: ١٠).

يدعو له»[١]؛ لأن المراد به أنه لم يَبْقَ له عمل نفسيّ إلا من هذه الثلاث، ولم يُـرَدْ أنه لا يـجوز التبرُّع له، فقد تبرَّع رجل بوفاء دينارين عن ميّت، فقبله النبي ﷺ وصلىٰ علىٰ الميت[٢].

وبعد أن أثنىٰ علىٰ مُؤْمني الأعراب واتِّخاذهم ما ينفقون قُربات، سَجَّل سبحانه بقَبول هذه القربـة، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾، ثم بيَّن جـزاءهم علىٰ ذلك، فقال: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ الخاصَّة فيمن رضي عنه.

ثم ذكر ما هو كالتَّعليل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ يَغْفِرُ للمُخْلِصين ما يقترفون من تقصير، ويرحم الصَّادقين في إيمانهم.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

ثم أردف الكلام عن مُؤْمني أهل البادية بالكلام عن مُؤْمني أهل الحضر؛ مقابلةً لـما تقدَّم من الكلام عن منافقي هذا الصنف، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ فقد كان لجميعهم في نُصرته ﷺ علىٰ أعدائه الألداء عملٌ يستحقُّ كُـلَّ إكبار وإجلال، حتىٰ ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما وفَّقهم له وأسْبَغَه عليهم من نِعَمِه الدينيَّة والدنيويَّة، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا[٣] ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾،

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أبو داود (٣٣٤٣)، والنسائي (١٩٦٢) عن جابر بن عبد الله.

(٣) جاءت «تحت» هنا بدون (مِن)، وفي أمثالها بـ(من)، ويظهر لي أنها كما تأتي بمعنىٰ الأسفل تأتي بمعنىٰ الأمام، ولعلَّ المراد بإحدىٰ الصيغتين: أنها أنهار وجداول تجري تحت الأشجار وفي=

و﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (١٠٠)﴾، اللهمَّ اجعلنا في صُحبتهم يا أرحم الراحمين.

﴿ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا
تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ
بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذۡ مِنۡ
أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)
أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤)
وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (١٠٥) وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٞ (١٠٦)﴾.

ثم عاد إلىٰ ذكر المنافقين، وبيَّن منهم صنفاً ماهراً في صنعة النفاق بحيث لا يُعرَفُ منه ذلك ولا يُدرَك، فقال: ﴿ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ الحضريين منافقون، ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: مَرَنوا عليه وحذقوه، حتىٰ بلغوا الغاية من إتقانه، بحيث لا يشعر أحدٌ به، حتىٰ خَفيَ علىٰ فِطْنَةِ الرسول ودِقَّةِ فِراسته، لذلك قال تعالىٰ له: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ﴾.

ثم ذكر حُكْمَهُ فيهم، فقال: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ في الدنيا؛ إحداهما: فضيحتهم هذه، والثانية: ما سيصيبهم من المصائب، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ في الآخرة ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾، أعاذنا الله، وذلك لِـمَا كان لهم من أذىٰ خفيٍّ وفساد بليغ.

= ثناياها، وبالآخرة: أنها أنهار عظيمة مستقلة تجري أمام الجنان، فيجمع فيها بين نضارتين: نضارة الجنات ونضارة الأنهار، ويجوز أن تكون الجنات أصنافاً بهذا الاعتبار، هذا رأي أراه. والله أعلم. علىٰ أنه يجوز أن تكون الصيغتان بمعنىٰ واحد، وقد جاء في القراءة الشاذة: (من تحتها). (المؤلف).

ثم ذكر قسماً ثالثاً ليسوا من المنافقين ولا من المؤمنين السابقين الذين رضي الله عنهم، بل من المؤمنين الـمُذنِبين، فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ وهم الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك لا عن نفاق، وقد ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ حيث خرجوا مع النبيِّ ﷺ في سائر غزواته، وتخلَّفوا في هذه الغزوة، فقال تعالىٰ فيهم: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: هم محالُّ الرجاء لقَبول الله توبتهم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾ لمن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدىٰ. وهؤلاء هم أو منهم الذين كانوا قد ربطوا أنفسهم في السَّواري، وحلفوا أن لا يُطلقونها إلا إذا أطلقها النبيُّ ﷺ، فقال: «لا أطلقها حتىٰ أُؤْمَر»[1]، فنزلت هذه الآية. والله أعلم.

ثم أردف الكلام بهذا البيان العام، وهو أنَّ الصدقة مُطهِّرة ومُزكِّية للنفوس، ليتناول البيان شأن هؤلاء الـمُذنِبين الذين خَلَطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، إذ تَخَلَّفوا عن غزوة تبوك لجمع محصولاتهم، فرغبوا أن يتصدَّقوا ببعضها أو كلِّها، تكفيراً عن ذنبهم المسبَّب عنها.

وقد جعل ذلك حكماً عاماً عقَّبَ به الخاصَّ ليشمله وغيرَه، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أي: المؤمنين بما فيهم هؤلاء المذنبون ﴿صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ من دَنَس البخل والطمع والأَثَرة، ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: ادْعُ لهم وأَثْنِ عليهم، ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ أي: دعاءَكَ المقتضي لرضاك عنهم وتقديرك لصدقتهم وثنائك عليهم ﴿سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ تَسْكُنُ به نفوسُهم وترتاح؛ لأنه من فصيلة الشكر والاعتراف بالفضل، وهو أمرٌ ترتاح له النفوس حتىٰ تتوسَّع رغبتها في الأعمال، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك سماعَ قَبول وإجابة، ﴿عَلِيمٌ ١٠٣﴾ بما فيه من الخير والمصلحة.

---

(١) رواه بالمعنىٰ الطبريُّ في «تفسيره» (١١: ٦٥٦) والذي ربط نفسه بالسارية أبو لبابة.

ثم زاد في التنويه بشأن التوبة والصدقة وكونهما مُطهِّرتَين للنفوس، فقال: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ لتتمَّ بذلك توبتُهم وتُغْسَل حَوْبتُهم. وفي التعبير بأخْذِ الله للصدقات ترغيبٌ كبير في الإعطاء. وقال أبو مسلم ما معناهُ: إنما يقصد بهذه الجملة: ألم تعلم كذا، تقرير المعنىٰ لا الاستفهام الحقيقي. فهو يقرِّر بقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ... ﴾ قَبولَ الله للتوبة وللصدقات. وينتظم في سياق هذا العلم قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: أنه هو الذي يقبل التوبة من كلِّ مُذنب يشعر بذنبه ويتوب عنه إلىٰ الله توبةً نصوحاً، وهو الرحيم للتائبين.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ...﴾ غيرَ عام، ولكنه خاصٌّ بهؤلاء الـمُذنِبين الذين اعترفوا بذنوبهم ورغبوا في إعطاء قسم كبير من أموالهم التي عاقتهم عن الخروج، عِوَضاً عن تخلُّفهم. والسياق خاصٌّ بهم، وهو الأقرب. والله أعلم.

وبعد أن بيَّن لهم شأن التوبة ترغيباً بها، رغَّبهم في العمل وأرشدهم إلىٰ طلب مَرْضَاةِ الله ورسوله والمؤمنين، بأعمالهم امتثالاً لأمر الله، فقال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وهذا معطوف علىٰ قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾، ومُكمِّل للغاية المتوخَّاة منه.

ثم ذكر لهم ما لذلك من الجزاء في الآخرة، فقال: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بالبعث بعد الموت، ولا يـخفىٰ عليه من أمركم شيء، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ ويُجازيكم عليه.

وبعد أن ذكر المتخلِّفين المنافقين؛ الـمُعْتذرين منهم نفاقاً وغير الـمُعتذرين جرأةً علىٰ الله، وذكر القسم الأول من الـمُتخلِّفين غير المنافقين، وهم الذين خَلَطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، واعترفوا بذنوبهم، وندموا علىٰ تخلُّفهم، واستكانوا وتابوا، وزكُّوا توبتَهم

بالصدقة وطَلَب دعاء الرسول واستغفاره، فتاب الله عليهم؛ ذكر القسم الثاني منهم، وهم الذين حَارُوا في أمرهم ولم يعتذروا للرسول ﷺ، لأنهم يعتقدون أنْ لا عُذْرَ لهم، وأرجؤوا إظهار توبتهم، هَضْماً لأنفسهم، وإرجاءً إلىٰ أن ينزل الله حكمه فيهم، فأرجأ الله الحكم القطعيَّ في أمرهم للحكمة التي يأتي بيانها، فقال: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ مُشْتَقٌّ من: أرجىٰ، بمعنىٰ: أرجأ، أي: مُرْجَؤُون ومُؤَجَّلون إلىٰ أن ينزل حكم الله فيهم.

قال ابن عباس[١] ومجاهد وعكرمة والضحاك[٢] وغيرهم: هؤلاء هم الثلاثة الذين خُلِّفوا ـ أي: عن التوبة عليهم ـ وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة مَنْ قعد، كَسَلاً ومَيْلاً إلىٰ الراحة وطِيب العيش تحت ظلال المدينة الوارف، لا شكّاً ولا نفاقاً، فكانت طائفة منهم ربطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لبابة وأصحابه بعد أن رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك حتىٰ تاب الله عليهم[٣]، وطائفة لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٠: ١٩٥).

(٢) روىٰ هذه الآثار الطبري في «تفسيره» (١٤: ٥٤٥-٥٤٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤: ٤٤٨-٤٤٩)، عن ابن عباس قوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ١٠٢]، إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ غزا غزوة تبوك، فتخلف أبو لبابة وخمسة معه عن النبي ﷺ، ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا، وأيقنوا بالهلكة، وقالوا: «نكون في الكِنِّ والطمأنينة مع النساء، ورسول الله والمؤمنون معه في الجهاد! والله لنوثقن أنفسنا بالسواري، فلا نطلقها حتىٰ يكون رسول الله ﷺ هو يطلقنا ويعذرنا»، فانطلق أبو لبابة وأوثق نفسه ورجلان معه بسواري المسجد، وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم. فرجع رسول الله ﷺ من غزوته، وكان طريقه في المسجد، فمر عليهم فقال: «من هؤلاء الموثقو أنفسهم بالسواري؟» فقالوا: هذا أبو لبابة =

المذكورون[١]، ولم يعتذروا لأنهم لا عُذْرَ لهم، فنزلت توبة أولئك وأُرْجِئَتْ توبةُ هؤلاء، حتىٰ نزلت آيتا التوبة في حقِّهم بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، إذ قُوبلوا من النبيِّ ﷺ والمجاهدين بالإهمال والمقاطعة، حتىٰ قاطعتهم نساؤهم، وظَلُّوا مُقاطَعين نَحْواً من أربعين يوماً، لا يكلِّمهم أحد.

وهذه الآية معطوفة علىٰ قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ...﴾ أي: وثَمَّ أناسٌ آخرون من المتخلِّفين غير المنافقين، مؤخَّرون لحكم الله في أمرهم، أو لأمره لرسوله بما يعاملهم به، ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾، وحكمة هذا الإبهام: إثارةُ الهمِّ والخوف في قلوبهم لِتَصحَّ توبتهم، وليكونوا عبرةً لغيرهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بحالِ عباده ونيَّاتهم، ﴿حَكِيمٞ ١٠٦﴾ بما يشرعه لهم ويحكم به عليهم، مما يفيدهم ويصلح أحوالهم وأعمالهم، ومن ذلك إرجاء أمر هؤلاء إلىٰ وقت آخر.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ

= وأصحاب له، تخلفوا عن رسول الله ﷺ، فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتىٰ تكون أنت الذي تطلقهم وترضىٰ عنهم، وقد اعترفوا بذنوبهم. فقال رسول الله ﷺ: «والله لا أطلقهم حتىٰ أومر بإطلاقهم، ولا أعذرهم حتىٰ يكون الله هو يعذرهم، وقد تخلفوا عني ورغبوا بأنفسهم عن غزو المسلمين وجهادهم!» فأنزل الله برحمته: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٠٢]. و«عسىٰ» من الله واجب، فلما نزلت الآية أطلقهم رسول الله ﷺ، وعذرهم، وتجاوز عنهم.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، عن كعب بن مالك، وهو حديث طويل.

أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

ثم أعاد الكلام عن المنافقين، علىٰ نهج القرآن في تفريق الموضوع الواحد والعودة إليه المرَّة بعد المرَّة تجديداً للذكرىٰ والعظة، فذكر لهم قبيحة أخرىٰ من أشنع قبائحهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾، وكانوا ـ علىٰ ما يذكره المفسِّرون ـ اثني عشر رجلاً من منافقي الأوس والخزرج. ولعلَّ بعض ضعفاء الإيمان كانوا قد شايعوهم مغرورين، لا يعلمون من مقاصدهم الخبيثة شيئاً.

وقد بيَّن سبحانه أنَّ الأغراض التي بَنَوه لأجلها أربعة:

الأول: أنهم اتَّخذوه لمضارَّة المؤمنين. وقال المفسِّرون: إنهم أرادوا أن يضرُّوا به أهل مسجد قباء المجاور له، وكان قد بناه النبي ﷺ حين مَقْدَمِهِ من مكة مهاجراً، وقبل وصوله إلىٰ المدينة. فبنىٰ المنافقون بجواره هذا المسجد مُضَادَّةً له وللمصلِّين فيه.

والثاني: الكفر، لأنهم يتمكَّنون في مسجدهم هذا من ترك الصلاة مع خَفَاء ذلك علىٰ المؤمنين، ومن التَّشاور بينهم في الكيد لرسول الله ﷺ وغير ذلك.

والثالث: التفريق بين المؤمنين الذين كانوا يصلون جميعاً في مسجد قباء.

والرابع: الإرصاد لِـمَنْ حارَبَ اللهَ ورسولَه، فيجد في هذا المسجد له عيوناً وأعواناً ومكاناً يأوي إليه ويدبر فيه المكايد، حتىٰ كان فيه جواسيس للروم وجيوشهم.

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان عنهم: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ ببنائه ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ من

تيسير صلاة الجماعة علىٰ الضَّعَفَة والعَجَزَة ومَنْ يحبسهم المطر، يحاولون بذلك إقناع الرسول ﷺ ليُصَلِّي لهم فيه، ويُبعِدون الشبهة عنهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٠٧﴾.

ثم بيَّن حكمه فيه، فقال: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾[1]، وهذا نهيٌ للرسول ﷺ ـ وللمؤمنين بالتَّبع ـ عن الصَّلاة فيه. وقد قابل ذلك بقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾، والظاهر أنَّ المراد به مسجد قُباء، ولكن جاء في الأثر: أنه مسجد النبي ﷺ[2]. ويجوز إرادة الجنس المرعي فيه هذا الوصف، فيشمل كلاً منهما لأنه أُسِّس علىٰ التقوىٰ.

وصيغة ﴿أَحَقُّ﴾ لا يراد بها التفضيل، ولكن المبالغة في الاستحقاق.

وقد علَّل ذلك بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾، والتَّطهير صيغة مبالغة تشمل الطهارتين النفسية والبدنية، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾ ويكره المتدنِّسين المنافقين. والظاهر من السياق أنَّ المراد من هذا التطهير ما يقابل صفات أولئك المنافقين أهل مسجد الضرار، ويجوز أن يشمل الطهارة المادِّيَّة.

ثم أردف الكلام بوعد المؤمنين ووعيد المنافقين، فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ

---

(١) لم يكد النبي ﷺ يتلقىٰ عن الوحي هذه الآيات بحق مسجد الضرار حتىٰ دعا جماعة من أصحابه وقال لهم: «انطلقوا إلىٰ هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه». ولم يلبثوا إلا قليلاً حتىٰ عادوا بعد أن وصلوا بتحريقه وهدمه إلىٰ الأرض، وتفرَّق عنه مُنشِئُوه المنافقون. (المؤلف).
والحديث رواه الطبري في «تفسيره» (١٤: ٤٦٨).

(٢) رواه النسائي في «السنن الكبرىٰ» (١١٢٢٨)، عن أبي سعيد الخدري أنه قال: تمارىٰ رجلان في المسجد الذي أسس علىٰ التقوىٰ من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي هذا».

عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾(١)، ثم علَّل كفرهم هذا بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي: مَضَتْ سُنَّته تعالىٰ أنَّ من انطبع علىٰ الكفر والظلم حتىٰ أصبح ذلك مَلَكَةً له وخُلُقاً، لا يهتدي إلىٰ الحق والإيمان.

ومن مباحث اللفظ: أنه استعار المكانَ القويَّ للتقوىٰ استعارةً مكْنية، واستعار شفا جرف هارٍ للكفر والنفاق استعارةً تمثيلية، وعقد المشابهة بينهما. وقوله: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ ترشيحٌ للبناء والنفاق معاً.

ثم صوَّر ثباتَ كفرِهم ونفاقِهم هذا ورسوخَه في قلوبهم تصويراً بليغاً، أدمج فيه شأن بنيانهم هذا بعد أن أمر رسوله ﷺ بتخريبه، فقال: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ ﴾ ذكرَ البنيانَ وأرادَ سببَه بطريقة الـمَجَاز الـمُرْسَل، أي: سبب بنيانهم وهو الكفر والنفاق ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ إلا بحيث لا يبقىٰ لها قابليَّة الإدراك؛ يُبيِّن بذلك أنَّ نفاقهم وكُفْرَهم راسخٌ فيهم لا يمكن تحويلهم عنه، فسيموتون وهم كفار، وخاصَّة المعنىٰ: لا يزال كفرهم ونفاقهم قائماً في قلوبهم حتىٰ تنقطع قلوبهم بالفناء، أو المعنىٰ: لا يزال البناء عالقاً في قلوبهم بعد أن أمر النبي ﷺ بتخريبه إلىٰ أن تَقَطَّعَ قلوبهم بالفناء، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ فحَكَم عليهم هذا الحكم بعلمه وحكمته.

وقال الزمخشري: المعنىٰ: لا يغيب عن قلوبهم ولا يضمحلُّ أثـرُه إلا أن تَقَطَّعَ

---

(١) في الكلام طيٌّ واختصار وحَمْلٌ علىٰ المعنىٰ، علىٰ نَهْج إيجاز القرآن في أساليبه. ومُحصَّل المعنىٰ: أنّ من عَمِلَ للتقوىٰ والرضوان، كمَنْ أسَّس بنيانه علىٰ أساس مكين، ومَنْ عملَ مع الكفر والعصيان، كَمَنْ أسَّس بنيانه علىٰ شفا جرف هار؛ إذ عاقِبَتُه الانهيار في نار جهنم وبئس القرار. فإنّ هذا المعنىٰ بهذا الأسلوب البديع، وبطريقة المقابلة والاكتفاء. والاستفهام الإنكاري من أساليب القرآن ومسالكه البديعة في البيان. (المؤلف).

قلوبهم قطعاً وتَفَـرَّقَ أجزاء، فحينئذ يسلون عنه، وما دامت سالمة فالريبة باقية متمكّنة فيها[١]. يريد: أن الشك والنفاق والحنق على الرسول وأتباعه متمكّنة منهم حتى الموت.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

وبعد بيان أحوال المنافقين بأنواعهم، وأحوال أصناف المؤمنين المقصِّرين، بيَّن حال المؤمنين حقَّ الإيمان من أيِّ ملة كانوا بصورة عامة، وما سينالونه من جزيل الإحسان، على طريقة المقابلة في القرآن، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ وهذا تمثيلٌ لإثابة الله المؤمنين على بَذْلِ أنفسهم وأموالهم في سبيله، ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

ثم أكَّد لهم هذا الوعد الكريم بقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: أنه قد سجَّل لهم هذا الوَعْدَ الحقَّ في الكتب الثلاثة المنزَّلة على أشهر رسله.

ثم مكَّن ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟

ثم زادهم تحسيساً بالفوز وبما يوجب المسرَّة، فقال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى

(١) «الكشاف» (٢: ٣١٣).

بَايَعۡتُم﴾ الله ﴿بِهِۦ﴾، والاستبشار: هو الشعور بالفرح الذي تنبسط به بِشْرة الوجه فيتألَّق نوراً.

ثم أتىٰ بما يدلُّ علىٰ التحسيس والتنويهِ بعَظَمةِ ذلك الربح، فقال: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

وقد صوَّرت الآية وَعْدَ الله للمؤمنين بصورة عَقْدٍ بين بائع وهم المؤمنون، ومُشْتَرٍ وهو الله سبحانه، علىٰ مبيع هو أنفُسُ المؤمنين وأموالهم، وثمنٍ هو الجنة. وسواء في ذلك قَتلوا أو قُتلوا أو سَلِموا، وتُنوِّه بربح الصَّفقة والفوز للمشترين.

ثم وصف سبحانه هؤلاء المؤمنين الخُلَّص بصفاتهم التي ربحوا بها هذا الربح الوافر، فقال: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ﴾ لله، ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ في الأرضِ لغَرَض صحيح من علم أو عمل، كالجهاد في سبيل الله، ﴿ٱلرَّـٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ لله تعالىٰ في صَلَواتهم. والقرآن يذكر الصلاة تارةً بلفظها، وتارةً ببعض أركانها.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي: شرائعه وأحكامه التي حدَّد فيها ما يجب وما يُحْظَرُ علىٰ المؤمنين.

ثم ختم السياق بما فيه مبالغةٌ في التوفيق بهذا الوعد الجليل، وتقريرٌ للأعين، وزفٌّ للبشرىٰ، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ أيها الرسول الأمين. ولم يذكر ما يُبشَّرون به لعِظَم شأنه.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّـٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

وبعد أن أتمَّ الكلام على البراءة من المشركين وبيان أسباب ذلك، وبيان أحوال إخوانهم المنافقين وما يتعلّق بذلك، أردف السياق بهذا الحكم المتمِّم له، وهو النَّهيُ عن الاستغفار للموتى منهم بدافع العطف والشفقة على القرابة والأعزاء، فقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ونفيُ الشأن هنا بمعنى النَّهي، وهو أبلغ منه. والمعنى: ما كان من شأن النبيِّ والمؤمنين ولا مما يجوز أن يقع منهم أن يستغفروا للمشركين، ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾، وذلك بموتهم على شركهم وكفرهم وضلالهم.

وكان ﷺ ـ والله أعلم ـ يستغفرُ لأبي طالب بعد موته، وبعضُ المؤمنين لآبائهم وأقاربهم المشركين[1]، فنهاهم الله عن ذلك. والآية تُلمع إلى نهي المؤمنين أن يستغفروا لمن مات كافراً.

ثم أردف هذا ببيان صورة وقوع الاستغفار من إبراهيم عليه السلام لأبيه، تفهيماً للفرق بين الاستغفارين، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ فكان يرجو إيمانه، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ بموته على الكفر والشِّرك والضلال، ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وترك الاستغفار له.

ثم مدحه بما هو مصدر ذلك منه، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[2]، والأوّاه:

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤)، عن المسيب بن حزن.

(٢) تُلهِمُ الآيات أن رسول الله ﷺ أراد أن يقتدي بقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]، فجاءت الآية مُبيِّنة للفرق بين الاستغفارين. ومحصّله: أنّ إبراهيم عليه السلام إنما استغفر لأبيه =

كثير التَّأوُّه والتَّحسُّر والتألُّم علىٰ كل متوجِّع وخاسر، ويطلق أيضاً علىٰ الخاشع كثير الدعاء والتَّضرُّع. والحليم: هو الذي لا يَسْتَفِزُّه الغضب، ولا يعبث به الطيش. وإنما كان إبراهيم عليه السلام يتأوَّه من خشية الله، ويتحسَّر علىٰ المشركين من قومه، ولا سيما أباه.

ثم أردف النهيَ الـمُعبَّر عنه بصيغة نفي الشأن في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ...﴾، أردفه بما يُهدِّئ رَوْعَهم عما صدر منهم من الاستغفار لآبائهم وبعض أقربائهم المشركين قبل النهي، علىٰ نهج القرآن في تعقيب المنهيات بما يُؤْذِنُ بالعفو عما سلف، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي: ما يجب اتِّقاؤه من محظورات الدين، وقبل البيان لا يعدُّ ما صدر منهم ضلالاً، ولا يؤاخذهم عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ فلا يحكم إلا بالحق والعدالة. ومعنىٰ «يُضِلُّهم»: يجعلهم ضَالِّين (١).

= وهو حيّ، وهذا الاستغفار بمعنىٰ طلب التوفيق له إلىٰ الهداية والرشاد، فلما مات علىٰ الكفر قطع الاستغفار له. فتُلهم الآية أنه لا يجوز الاستغفار للكافر بعد موته، ولكن يجوز الاستغفار له وهو حي، إذ هو حينئذ بمعنىٰ طلب التوفيق من الله لـهدايته وإرشاده ثم غفران ذنوبه، والله أعلم. (المؤلف).

(١) الأصح في تفسير هذه الآية وأمثالـها أن يُقال: وما كان الله ليحكم علىٰ قوم بالضلال، بعد إذ حكم عليهم بالهداية، بسبب ما كسبوه من إيمان وعمل صالح.

فمعنىٰ (يُضِلّ): يحكم عليهم بالضلالة نتيجة امتحان إرادتهم الحرة في الحياة الدنيا، وهذا من التدبُّر الأمثل في إسناد الفعل إلىٰ ما يُسنَدُ إليه، إذ لا يشترط لصحة الإسناد أن يكون المُسنَدُ إليه فاعلاً للشيء الذي تضمَّنه الفعل أو موصوفاً به.

ولقد وقع الجبريُّون في أخطاء كثيرة في موضوع القضاء والقَدَر، تصوُّراً منهم أن إسناد الفعل إلىٰ المُسنَد إليه لا يُفهَمُ منه إلا معنىٰ القيام مباشرةً بالفعل، مع أنّ المُسنَد إليه قد يكون هو الدالَّ أو الداعيَ للقيام بما تضمَّنه الفِعل، كما في الآية ٦١ من سورة الأنعام، والآية ٨٥ من سورة طه، والآية ٣ من سورة الإنسان، وغير ذلك كثير. =

ثم ختم السياق بما يقرِّر حقيَّـة ما جاء فيه، ويردُّ علىٰ ما تضمنَّه شركُ المشركين ونفاقُ المنافقين من إنكار التوحيد، ويُمهِّد لما يأتي بعده من العَفْو عن المقصِّرين، ويَدُلُّ علىٰ قدرة الله العظيمة، تحذيراً منه للمخالفين، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا شريكَ له في خَلْقهما، ولا في تدبير شؤونهما، ولا في التَّشريع الديني للمُكَلَّفين فيهما، ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ فلا تحيدوا عن هدايته فيما يأمركم به وينهاكم عنه، واحذروا عقابَه وعذابه في الحياة وبعد الممات.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

ثم أعاد الكلام عمَّا يتعلَّق بغزوة تبُوك، وقـرَّر الحكم في حقِّ الآخرين الذين أرْجَأَ الفَصْلَ في قَبول توبتهم، بعد أن أصدر عفواً عاماً في حقِّ المؤمنين المتاقلين، والمؤمنين

= كما يضافُ الفِعلُ إلىٰ المُسنَدِ إليه باعتبار أنه نسبَ ما تضمَّنه إلىٰ فاعله أو مَنْ قام به، كقولك: برّأتُه؛ إذا نسبتَه إلىٰ البراءة، وذكرتَ أنه بريء، ومثلُ ذلك: صوّبتُه، وخطّأتُه.

ومن الإسناد القرآني في حدود هذه العلاقة الكثير من الآيات ، كما في الآية ٤٩ و ٨٨ من سورة النساء، والآية ٢٧ من سورة إبراهيم، إلىٰ عشرات الآيات التى لا يُفهَمُ من إسنادها إلىٰ الله عزّ وجلّ أنه هو المُجبر، وهذا وأمثالُه يُسقِطُ المفاهيم الجبرية المُفسِدة لمعنىٰ القضاء والقَدَر الذي دلّت عليه النصوص الصريحة.

ويُنظَر لاستجلاء هذه القاعدة المهمة: كتاب «قواعد التدبُّر الأمثل» للمَيْداني رحمه الله تعالىٰ، القاعدة السابعة والثلاثون، ص ٦٦٥-٦٨١.

المتخلِّفين النادمين، وعن النبيِّ ﷺ حين أذِنَ في التخلُّف للمنافقين، فقال: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾، وقد فسَّر ابن عباس هذه التوبة(١) بقوله تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿وَ﴾ تاب علىٰ ﴿ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾، وهي غزوة تبوك، فتَجَاوز عن هَفَواتهم، لانغمارها في حَسَناتهم، ومن ذلك: تثاقلهم، وإنْ كان من أقلِّهم، حتىٰ وَرَد الأمر الحتم والتوبيخ علىٰ التثاقل. والعُسْرة: شدَّة الضيق. فقد كانت هذه الغزوة عسيرة جداً؛ لكثرة الروم وقوَّتهم، وقلة الزاد لنفاد التمر بحكم آخر السنة، وعزَّة الماء لبُعْد ما بين المائين في الطريق، وشدّة الحر، وقلَّة الرواحل، والنفير عام. لهذا كلِّه تثاقل حتىٰ أفراد من المؤمنين الخُلَّص، ولكن ما لبثوا أنْ نشطوا للنفير، فتاب الله عليهم، وتابَ عن المتخلِّفين النادمين من المؤمنين.

قال جابر بن عبد الله: كان فيها عُسْرة الظَّهْر، أي: ما يُحمَلُ عليه من الرواحل، وكان فيها عُسْرة الزاد وعسرة الماء(٢).

وقال ابن عباس لعمر رضي الله عنهم: حدِّثْنا عن شأن ساعة العسرة، فقال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش شديد، حتىٰ ظننا أنَّ رقابنا ستقطع، حتىٰ إنْ كان الرجل لَيَنْحَرُ بعيرَه فيعصر فرثه، فيشربه، ويجعل ما بقي علىٰ كبده. فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله، إنَّ الله قد عوَّدك في الدعاء خيراً فادعُ لنا، فرفع يديه فلم يرجعهما حتىٰ كانت السماء قد أهطلت، ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر»(٣).

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٨: ٢٧٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤: ٥٤٠).

(٣) المصدر السابق (١٤: ٥٤١).

ثم تعرَّض سبحانه لشأن المتثاقلين عن الخروج في هذه الغزوة، وهم الذين تباطؤوا ولم يَتَخلَّفوا، وتابَ عليهم بعد خروجهم ونَيْلهم هذه المشقَّة، فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ عن الصِّراط السَّويِّ بتثاقلهم عن النفير حين أمرهم الرسول ﷺ حتىٰ وَرَدَ الأمر الحتْم فيه، ووبَّخهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التوبة: ٣٨] إلىٰ آخر الآيات الثلاث، وكذلك المتخلِّفون النادمون من المؤمنين، وهم الذين خَلَطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، واعترفوا بذنوبهم تائبين، فأنَّبهم سبحانه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ والرأفة: العناية بالضعيف والرفق به والعطف عليه، والرحمة أعم وأوسع.

﴿وَ﴾ كذلك تاب ﴿عَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وهم الـمُرْجَوْن لأمر الله، الذين أُرْجِئَت توبتهم، وخُلِّفوا عمَّن اعتذروا وقُبِلَتْ توبتهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ خوفاً من أمر العاقبة، وتَـحَزُّناً من إعراض النبي ﷺ عنهم والمؤمنين وهَجْرهم إيَّاهم في المجالسة والمحادثة والتحية، حتىٰ إن الرسول ﷺ - علىٰ رأفته بأصحابه وبرِّه بهم - ما عادَ ينظر إليهم ولا يكلِّمهم وهم يطلبون دعاءه واستغفاره، ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ وهو أن يأتي الوحي بنتيجة أمرهم، ﴿ثُمَّ﴾ من بعد ذلك الضيق وتلك الشدَّة البالغة الحدّ نحواً من أربعين يوماً ﴿تَابَ﴾ الله ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أنزل قَبول توبتهم.

وقولُه: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ ...﴾، والمعنىٰ: إنما خُلِّفوا إلىٰ هذا الحدّ ليتُوبوا إلىٰ الله توبةً نصوحاً. ويجوز أن يتعلَّق بـ﴿تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾، والمعنىٰ: تَابَ عليهم بعد هذا التضييق كي يتوبُوا من أن يعودوا لـمثلها؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾.

وهؤلاء الثلاثة الـمُرْجَؤون هم: كعب بن مالك من بني سَلِمة، وهلال بن أمية من بني واقف، ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف. وقصَّتهم في كتب الحديث وكتب التفسير المطوَّلة، وهي من أروع القصص، وأعظم التأديب الإصلاحي، تظهر فيها عظمة نفوس أولئك العظماء الذين هم صفوة البشر ونَقَاوته.

ويجوز أن يكون إنما أضاف التوبة إلىٰ جميع المهاجرين والأنصار، ولم يخصّها بالمذنبين؛ اعتباراً للوحدة النوعيَّة المبنيَّة علىٰ التضامن في الأمة، بالتآمر والتناهي.

وللجَرْي علىٰ هذا النَّسَق أيضاً، ولتعقيب النقد بالإرشاد الذي هو من أساليب القرآن، قفَّىٰ بالخطاب الآتي الـمُوَجَّه إلىٰ ضُعفاء الإيمان الذين كانوا يسمعون للمنافقين، فيما كانوا يَبْغون من فتنة المؤمنين في التباطؤ والتثاقل عن غزوة تبوك، ويخوِّفونهم منها. فخاطب المؤمنين كلهم تعميماً للتأديب، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وحثاً للعامة علىٰ اتباع الخاصَّة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ باتِّباع ما أمر به وتَرْكِ ما نهىٰ عنه، ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ الـمُخْلِصين لله ولرسوله كلَّ الإخلاص، دونَ المنافقين الذين يُريدونَ أن تدورَ عليكم الدوائر. وفيه تعريضٌ بالـمُتَخلِّفين من المؤمنين.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ

يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

ثم أتبع هذا بتأكيد مضمونه، وهو وجوبُ الغزو مع رسول الله ﷺ وخطر التَّخلُّف عنه إلا بإذنه، فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: ما كان من شأنهم، وهم الذين بايعوا رسول الله علىٰ النُّصرة والمَنَعة، ولا ينبغي لهم التَّخلُّف عن الغزو مع رسول الله، مُؤْثِرين أنفسهم علىٰ نفسه في الشدائد، أي: لا ينبغي ذلك لأحدٍ منهم.

ثم رغَّب بعدم التَّخلُّف وَجَعَل الكلام علىٰ طريقة التعليل، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي: عطشٌ، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ أي: تَعَب، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي: جوع، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والجهادِ عن دينه وإعلاءِ كلمته، ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ من دخولهم بلدانهم واحتلالهم لها، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ من جَرح أو قَتْل أو أَسْر، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ يُجزَوْنَ عليه بالثواب العظيم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾، واسم التفضيل للمبالغة في الوصف لا للتفضيل.

ولما كان ما جاء عن توبيخ الـمُتَخَلِّفين وتَقْريعهم يحمل المؤمنين علىٰ أن لا يَتخلَّف أحدٌ عن الغزو حتىٰ في الغزوات التي لم يخرج فيها النبي ﷺ؛ أردف البحث بهذا البيان الاستثنائي، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾، أي: لا يجب علىٰ المؤمنين

ولا يُطلب منهم أن ينفروا جميعاً في كلِّ سريَّة تخرج للجهاد، فإنَّ هذه السرايا من فُروض الكفاية، لا من فُروض العين التي تجب علىٰ كلِّ فرد، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستَنفَرَهم للخروج نفيراً عاماً.

ثم أردف السَّلب بالإيجاب، وبيَّن الحكم اللازم في ذلك، وقال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ كالقبيلة وأهل المدينة ﴿طَآئِفَةٌ﴾ أي: جماعةٌ علىٰ قدر الحاجة.

ثم علَّل ما تضمَّنه الكلام من وجوب نفير البعض وبقاء البعض، بقوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ﴾ أي: ليَتأتَّىٰ للمؤمنين في جملتهم التفقُّه في الدين، وذلك بأن يحضر الباقون في المدينة ما يَتجدَّد نزولُه علىٰ الرسول ﷺ من الآيات، ويفقهوا ما يبيِّنه من ذلك بالقول والعمل، ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الذين نَفَروا للقاء العدو ﴿إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ﴾ أي: ليُعلِّموهم ما علموا وفقهوا، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ بمقتضىٰ هذه التعاليم ما يستوجب الحذرَ في الدنيا والأُخرىٰ. وإنما خصَّ الإنذار بالذِّكر من بين أنواع العلم في ذلك لأنه أهمها.

ثم قال في «المنار»: والآية تدلُّ علىٰ وجوب تعميم العلم والتفقُّه في الدين والاستعداد لتعليمه وتفقيه الناس فيه علىٰ الوجه الذي يصلح به حالُهم، ويكونون به هُداةً لغيرهم. وإنَّ المتخصِّصين لذلك لا يقلُّون عن المجاهدين في الدرجة؛ لأنَّ الجهاد نوعان: جهادٌ بالسيف والسِّنان، وجهادٌ بالحجَّة والبُرهان. والثاني هو الذي عليه مدار الدعوة إلىٰ الإيمان، وإقامة دعائم الإسلام(١).

ثم أردف هذا البيان المرخِّص للتخلُّف بالحثِّ علىٰ الجهاد؛ احتراساً من التراخي فيه، وحثاً علىٰ دفاع الروم المتاخمين لهم في تبوك وغيرها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَٰتِلُوا

---

(١) تفسير «المنار» (١١: ٦٢-٦٣).

﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ وتتَّصل بلادُهم ببلادكم، إظهاراً للشوكة، وتأميناً لنشر الدعوة لهذا الدين العالمي. وهي موجَّهة إلىٰ الأقرب فالأقرب، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورىٰ: ٧]، فهذه الآية ترشد المؤمنين إلىٰ طريقة السَّداد في هذا الباب، وذلك بأن يبدؤوا بقتال مَنْ يليهم، ثم ينتقلوا إلىٰ الأبعد فالأبعد. وهكذا فعل النبيُّ ﷺ وصحابته، حيث حاربَ قومه أولاً، ثم انتقلوا إلىٰ غَزْو سائر العرب، ثم إلىٰ غَزْو الشام والعراق، ثم ما وَليهما، ثم مصر ثم ما وَليها.

وهكذا تُـقرِّر الآية نظاماً سديداً في الجهاد، وهو وجوبُ ألا تُوزَّع القوَّة، بل تُوجَّه إلىٰ الأقرب فالأقرب من أعداء الإسلام البُغاة والمعتدين، فلا يشتغل المسلمون بحرب حتىٰ يفرغوا من غيرها ما أمكن، وقد حَثَّهم سبحانه علىٰ إظهار القوة، فقال: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: شدّة وبسالة في القتال، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ بالمعونة والنصر.

ويحتمل أن تكون الآية أمراً بالعودة لقتال الروم ونصارىٰ العرب الذين كانت غزوة تبوك لدفاعهم، ولذلك جَهَّز رسول الله ﷺ جيش أسامة بن زيد الذي أرسله أبو بكر الصِّدِّيق بعد وفاة الرسول لقتال الروم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

ثم أعاد الكلام عن المنافقين تجديداً للذكرىٰ، علىٰ سُنَّة القرآن في ذلك، فقال:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾ لإخوانه استهزاءً وسُخْريةً، أو إنكاراً وتشكيكاً: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾ بحقيَّة الإسلام؟

فردَّ الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ بما يَرْجُون من خير هذه الزيادة وأثرها في أعمالهم، وما يَنْبعث عن تلك الأعمال من مثوبة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي: شك وارتياب ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ راسخون علىٰ الكفر.

ثم قرَّر مضمون هذا الحكم بتوبيخهم عن غضِّهم النظر والتدبُّر بما يمتحنون به مما فيه عبرة لهم لو يعتبرون، ومن ذلك إنباءُ الله رسوله بما في قلوبهم، وفضيحتُهم بما يُسرُّون وما يُعْلنون من أعمالهم التي سبق تفصيلها في هذه السورة، فقال: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ﴾ أي: يُمْتَحنون ويُخْتَبرون ﴿فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ﴾ إذ لا يَخْلو كثير من السُّور من ذِكرِهم أو التلميح إليهم، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ ولو تذكَّروا وتدبَّروا لذهب بشكِّهم، وشَفَىٰ مرض قلوبهم.

ثم ذكر حال أولئك المنافقين، أو صِنفٍ آخرَ منهم عندما يكونون في مجلس رسول الله ﷺ وتنـزل تلك الآيات الفاضحة لـهم، فقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ قائلين: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ أي: يَتَسارقون النظر ويتغامزون بالعيون علىٰ الانسلال من المجلس خُفْيَةً؛ لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من أثر الإنكار والسخرية أو الذلّ والاكتئاب بالوحي الفاضح لهم، فقال تعالىٰ فيهم: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾ أي: صَرَف الله قلوبَهُم عن الاهتداء، بسبب أنهم لا يَتَدبَّرون ليفقَّهوا الحق، فهم لا يستعملون عقولهم في ذلك. وهذه الجملة للدعاء والخبر معاً، والمَغْزىٰ واحد.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

ثم ختم السورة بهذه الآية التي بكّتَ فيها المنافقين وزادهم تقريعاً، وامتنَّ بها علىٰ المؤمنين في عصر الدعوة وزادهم ترفيعاً، مُنوِّهاً بشأن ما سبق من البيانات والتعاليم والتوجيهات، ومُلْمِحاً إلىٰ أنَّ في هذا الرسول ما لا يصحُّ معه أن ينافقوه، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فالمنَّة به علىٰ العرب أعظم، وإن أُرسِلَ رحمةً للعالمين عموماً، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ والعَنَتُ: المشقة. والمعنىٰ: يثقلُ عليه مشقَّتُكم أو شقاؤكم؛ شفقةً بكم، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: في مصالحكم وهدايتكم التي هي أهمُّ المصالح، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ فإذا دَعَاهُم إلىٰ مشقَّة كالجهاد، فإنَّ ذلك لمنجاة مما هو أشقّ، وللحصول علىٰ ما تَتَضاءل كلُّ مشقّة في جانبه من السعادة الدنيوية والأخروية. والرأفة: العطف علىٰ الضعيف والشفقة عليه. والرحمةُ أعمُّ من ذلك.

ثم التفت إلىٰ النبيِّ ﷺ مُسَلِّياً له عن إعراض المشركين والمنافقين، فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرَضُوا عن الإيمان، وعارضوك بالسيف واللسان، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ يُدبِّر الأمور بتدبيره، ويُسيِّر الأحوال بعظيم تقديره، ومَنْ توكَّل عليه فاز وأفلح بكلِّ خير، وسَلِمَ من كل ضَيْر، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل.

* * *

سُورَةُ يُونُسَ

مكية، وهي مئة وتسع آيات

وموضوعها يدور على:

- إثبات أصول التوحيد وهدم الشرك.

- وإثبات الرسالة والبعث والجزاء، ورفع الشبهات عنها، وما يتعلَّق بذلك من مقاصد الدين الأصليَّة.

- وإثبات تنزيل القرآن، وإبطال شُبَهِهم عليه.

وخاتمة تتناسب مع السياق.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ
أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ
مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ
ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا
خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا
خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا
وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ
ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ
رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ
وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿الٓر﴾ مرَّ الكلام علىٰ هذه الحروف في أول سورة البقرة، وأَوْلىٰ ما قيل فيها: أنها للتنبيه والاهتمام بما يأتي بعدها، أو في أثناء السورة، ومن ذلك قوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: الآيات التي تألَّفت منها هذه السورة أو القرآن كلُّه ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ في معانيه

وأحكامه، وعِبَرِه وإرشاده، وطُرق هدايته وتعاليمه، وقد أنزله الله تعالىٰ علىٰ رسوله بواسطة وَحْيِه، كما أنزل ما قبله من الكتب علىٰ الأنبياء الماضين.

ثم عَجَّبَ من إنكار المشركين أن يُرسِلَ الله رسولاً من البشر لإنذارهم وتبشيرهم، مع أنَّ هذه سنة قديمة لله تعالىٰ في تاريخ الرسل، قد مضت بها سنة الأوَّلين، فقال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ من عاقبة الكفر، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، والقَدَم: مصدر بمعنىٰ السَّبْق، استُعمِلَ هنا وصفاً، وذلك من خصائص اللغة. ويجوز أن يراد بالقدم: قَدَمُ الرِّجْل، ذُكِرَ وأريد به السَّبْقُ في العمل أو القدومُ علىٰ الله، مِن ذِكر السبب وإرادة المسبَّب، كإطلاق اليد علىٰ النِّعمة. والشيء الصِّدق: هو المتَّصف بسائر الصفات المحمودة، يقال: رجُلُ صِدْق، وثوبُ صِدْق، وهكذا. والمراد بـ«قدم صدق»: سابقةُ العمل الصالح المؤدِّي إلىٰ المنزلة الرفيعة.

ثم ذكر إعراض المشركين وما يقولونه في شأن هذا الرسول، ذكره بطريقة الفصل دون الوصل؛ للإشارة إلىٰ أنه جواب سؤال نشأ مما قبله، كأنه قيل: ماذا قال الكافرون عن هذا الوحي، أو عن هذا الـمُوحَىٰ إليه؟ فقال: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ لِـمَا رأوه من قوَّة تأثير دعوته علىٰ الناس، وشدَّة ميلهم له وتمسُّكهم بما جاء به. وقُرئ: (لَسِحْرٌ) [1]، وحينئذ يُراد به القرآن. وهذا القول منهم يتضمَّن اعترافَهم بأنَّ ذلك فوق المعهود من البشر، رغم إعراضهم عنه وتكذيبهم له.

ثم أردف هذا الإنكار عليهم بدليل قدرته التي يَضْؤل في جانبها كلُّ عجيب، وضمَّن الكلام: الدعوة إلىٰ التوحيد، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى

---

(١) «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (١ : ٣١٦).

سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، فهذا الأثر العظيم من آثار قدرته تعالىٰ يُفنِّد عجبهم من وحي القرآن إلىٰ رسول أرسله إليهم؛ لأن مثل ذلك ليس بعجيب في جانب هذه القدرة العظيمة.

ومن جملة تدبير الأمر: إرسالُ الرسل للعالمين. ويشمل تدبيرُ الأمر: استمرارَ نظام هذا الكون في عمله لِـمَا جُعل له وأريد منه. والله أعلم. ونسبتُه إليه لأنه سبحانه خالق ذلك النظام.

والمراد بالأيام ـ والله أعلم ـ: الأطوار، فإنَّ اليوم في اللغة: هو الوقت الذي يحدُّه حَدَث يحدث فيه، وإن كان ألوفَ ألوفِ السنين من أيام هذه الأرض الفلكية التي وجدت بعد خلق الأرض ونظام سَيْرها. والمعنىٰ: إنَّ الله تعالىٰ أوجد السماوات والأرض في مُدَدٍ قدَّرها لها، وأطوار تنسّقت فيها، فإنَّ الخلق في اللغة: التقدير والتنسيق.

أما العرش، فقال أبو مسلم: العرش: مصدر مِن: عرش يعرش عرشاً، بمعنىٰ: بنىٰ، فكلُّ بناء يسمَّىٰ عرشاً. والمعنىٰ: ثم أشرف علىٰ البناء بعد استكماله، يُدبِّر أمره وأمر مَنْ فيه.

أقول: والأرجح أنَّ هذه العبارة وأمثالَها يعبِّر بها القرآن لِتَحَقُّق الوجود لله تعالىٰ في الأذهان بصورةٍ تتناسب مع تَصَوُّرات الإنسان، من باب التعبير عن المعقول بصورة المحسوس من عبارات القرآن، أو هي تمثيلٌ مُنتَزَعٌ من حال المخاطبين وتعبيرهم عن شأن الملوك والسلاطين إذا علَوا منصَّة الحكم والسلطان، لأنه سبحانه يخاطب عباده في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه في ملوكهم وعظمائهم، تقريباً للفهم، ولا يُراد به معناه الحقيقي(١)، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

---

(١) هذا مُسلَّم في «الاستواء»، لأن حقيقة معناه اللغوية: لا تليق بالله تعالىٰ، فيُفسَّر بنحو ما ذكر =

وقيل: بل المعنىٰ حقيقي، أي: ثم استوىٰ علىٰ عرشه الذي جعله مركز التدبير لهذا الملك الكبير، استواءً يليق بعظمته وجلاله وتنزيهه وكماله، يُدبِّر أمر ملكه بما اقتضاه علمُه وحكمتُه. وعلىٰ هذا المعنىٰ؛ لا تكون ﴿ثُمَّ﴾ لإفادة التراخي، بل لإفادة عظمة المعطوف بها، أو لـمجرَّد عطف الخبر علىٰ الخبر، وإفادة أنه خبرٌ جديد. علىٰ أنه يجوز أن يكون للتراخي في الزمن؛ لأن التدبير بعد الإيجاد، وإن كان العلم به قديماً، والله أعلم. وقد فَصَّلتُ هذه الآية في سورة الأعراف[1] بأكثر من هذا، فارجع إليه.

وبعد أن ذكر ما يَتضمَّن الدعوة إلىٰ التوحيد، أردفه بهذه الحقيقة المتضمِّنة لنقض عقيدتهم في شركهم، وأنَّ معبوداتهم شفعاء لهم، فقال: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾، وقد قال في «المنار» في وجه الردِّ ما مُلخَّصُه: معنىٰ هذه الحقيقة: أنه لا يمكن أن يوجد شفيع يشفع لأحدٍ عنده تعالىٰ إلا من بعد إذنه، وليس لأحدٍ حقٌّ في الإخبار عنه تعالىٰ بمن يشفع عنده، ومَنْ يقبل شفاعته إلا بإعلامٍ منه، وذلك لا يكون إلا بوحي منه تعالىٰ، وقد ثبت في وحي هذا القرآن أنه لا يشفع أحدٌ عنده بإذنه إلا من ارتضاه للشفاعة، فقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، علىٰ أحد مَعْنَيي الآية[2].

= المؤلف رحمه الله، ولا يلزم ذلك في العرش، فقد نطقت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بإثباته، ويَبعُد تفسيره بالبناء كما قال أبو مسلم، أو بأنه تمثيل كما قال المؤلف، إذ لا محذور في إثباته علىٰ حقيقته، بل إثبات العرش بمعنىٰ أنه جسم عظيم دال علىٰ عِظَمِ ملك الله تبارك وتعالىٰ، وقَرْنه بالاستواء ـ علىٰ المعنىٰ التمثيلي للاستواء ـ أبلغُ في تقرير هذا المعنىٰ التمثيلي من أن يكون كلٌّ من الاستواء والعرش وارِدَيْن علىٰ التمثيل.

(١) في الآية ٥٦ منها.

(٢) تفسير «المنار» (١١: ٢٤٣).

وثبت في هذا الوحي أيضاً أنَّ هؤلاء المأذونَ لهم بالشفاعة لا يشفعون إلا لمن كان الله تعالىٰ راضياً عنه بإيمانه وعمله الصالح وله هفوات، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1] [الأنبياء: ٢٨]، مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

ثم احتجَّ بما ثبت من اختصاصه تعالىٰ بوحدانية الربوبية، علىٰ استحقاقه وحدانيةَ الألوهية، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: ذلكم الموصوفُ بالخلق والتقدير والحكمة والتدبير والتَّصرُّف في أمر الشفاعة، يأذن بها لمن شاء فيمن شاء، هو الله ربُّكم ومُتَولِّي أمور العالم، ومنها أموركم، فاعبدوه وحدَه ولا تشركوا به شيئاً ولا معه أحداً، لا للشفاعة، ولا لأجل مطلب آخر من مطالبكم، فالشفعاء لا يملكون لكم من دونه نفعاً ولا ضراً، وإنما يملك ذلك ربُّكم وحدَه، وقد هداكم إلىٰ أسباب الضر والنفع الكسبية بعقولكم ومشاعركم وسخَّرها لكم، وهداكم إلىٰ أسباب النفع والضر الغيبية بوحيه وأقدركم عليها، وكل ما يطلب من المنافع والمضار فإنما يطلب من أسبابه التي سخَّرها تعالىٰ وبيَّنها لكم، وما عجز عنه العبد أو جهله من ذلك فالواجب عليه أن يدعو الله تعالىٰ وحده فيه. وهذا هو الركن الأول للدين الإلهي، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

وبعد أن قـرَّر اختصاصه بالربوبيَّة والتصرُّف في الكون، قـرَّر اختصاصه بالجزاء في يوم الحساب الذي أثبته بالدليل، مكملاً بذلك ما ردَّ به علىٰ المشركين في اعتقادهم بشفاعة الشافعيـن، وأدمج في الكلام الوعيد لـهم علىٰ ذلك، فقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ

---

(١) أي: لمن ارتضىٰ إيمانه وعمله الصالح، فيُشفَع له في هفواته كما قال، لكنْ فُسِّرت الآية بـ: إلا لمن ارتضىٰ أن يكون مشفوعاً له، فتكون أعم، وتشمل الشفاعة أيضاً أصحاب الكبائر، ولو بعد حين من العذاب، ويبقىٰ شمولها للكافر ممتنعاً بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وهو مذهب أهل السنة، خلافاً للمعتزلة.

جَمِيعًا﴾ أي: إلىٰ ربكم دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم وأوليائكم، ترجعون جميعاً بعد الموت وفناء هذا العالم الذي أنتم فيه، لا يتخلَّف منكم أحد أبداً، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ لا يُخْلَف.

ثم أكَّد تحقيق هذا الوعد بدليله فقال: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: يُنشِئُه عند التكوين، ثم يُعيدُه في نشأة أخرىٰ بعد الموت والفناء. وقد تضمَّنت الجملة قياس الإعادة علىٰ الخلق؛ لأنهما من جنس واحد، أو متماثلان، وألمعت كلمة ﴿ثُمَّ﴾ إلىٰ أنَّ الإعادة مُتمِّمةٌ للبَدْء والإيجاد.

ثم ذكر العاقبة والغاية لـهذه الإعادة، فقال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾، والحميم: الشديد الحرارة.

قال في «المنار» ما مُلخَّصُـه: ولعلَّ نكتة اختـلاف النظم والأسلوب في جزاء الفريقين وتعليل الرجوع إليه تعالىٰ، هي إفادة أنَّ المقصود بالذات من الرجوع إليه تعالىٰ هو جزاء المؤمنين الصالحين؛ لأنه هو الذي يكون به منتهىٰ كمال الارتقاء البشري للذين زكُّوا أنفسَهم في الدّنيا بما يكون لهم في الجنة من النعيم.

وأمّا جزاء الكافرين المفسدين لأنفسهم بتدسيتها وتدنيسها بالكفر والخطايا، وهي لها كأعراض الأمراض التي تُسبِّبها مخالفة سُنَّة الله في حِفْظ الخِلقة وصحَّتها، فليس هذا الجزاء من المقاصد التي اقتضتها الحكمة الإلهية في خَلْق الإنسان، ولكنه مقتضىٰ العدل في المظالم والحقوق، ومقتضىٰ معاكسة السُّنن الحكيمة في ارتباط الأسباب بالمسبَّبات والعلل بالمعلولات، ذلك الارتباط الذي هو مَرْمَىٰ الشريعة، فهو مثل عروض المرض لمخالفة سنن الصحة، فليس هو مستقلاً مقصوداً بالذات من الرجوع إليه تعالىٰ، وإنما هو ردُّ فِعْلٍ

من الإنسان نفسِه مُرتَّبٌ علىٰ عمله السَّيِّئ، فالشرك بالله والكفر بنِعَمِهِ واقتراف الخطايا المخالفة لشرائعه وللوجدان الفطري في الإنسان تدنِّس نفس فاعلها وتُفسِدها وتكيِّفُها بها يجعلها غير أهل للنعيم الروحاني[١] الخاص بالأنفس الزكية. فيكون العقاب في الآخرة أثراً طبيعياً لهذا الفساد، كما يكون المرض أثراً طبيعياً لمخالفة قوانين الصحة ووصايا الطبيب[٢].

ثم عاد إلىٰ تكميل اختصاصه بالربوبية بتفصيل ما أجمل في آية خلق السماوات والأرض، علىٰ نهج القرآن في العودة، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾، والضياء: يطلق علىٰ ما هو مشعٌّ بالذات، والنور: يطلق علىٰ ما بالعَرَض، إذ نور القمر ليس ذاتياً فيه، وإنما هو آتٍ له من ضياء الشمس، ﴿وَ ﴾ قد ﴿قَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ ينزل كُلَّ ليلة في واحدة منها لا يخطئها ولا يَتَخَطَّاها؛ يكون هلالاً، ولا يزال يتزايد حتىٰ يتكامل فيكون بدراً، ثم لا يزال يتناقص حتىٰ يكون محاقاً، وهكذا دواليك.

ثم بيَّن بعض فوائده المنوطة بالمكلفين، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ أي: لضبط عباداتكم ومعاملاتكم الدينية والمدنية. فإن هذا النظام الـمُشاهَد في الأشهر سَهْلُ الضبط علىٰ جميع الناس، خلافاً لحساب السنين الشمسيَّة والأشهر الشمسيَّة، لأن ذلك لا يعرفه إلا الحسَّاب، لذلك جعل الشرع الإسلامي شهر الصيام وأشهر الحج وعدَّة الطلاق وغيرها من الأمور الشرعية بالحساب القمري الذي يعرفه كلُّ أحد من سائر طبقات الناس. وكذلك لعبادتي الصيام والحج بمقتضىٰ الأشهر القمرية حكمة أخرىٰ، وهي دورانها في جميع فصول السنة،

(١) تقييدُه بـ«الروحاني» قد يُتوهَّمُ منه نفيُ النعيم الجسدي، والحقُّ أنهما جميعاً ثابتان، فكان ينبغي له أن يتركه أو يُوضِّحَه، والله أعلم.

(٢) تفسير «المنار» (١١: ٢٤٦-٢٤٧).

فيعبد المسلمون ربَّهم في جميع الأوقات؛ من حارَّة وباردة ومعتدلة وطويلة وقصيرة، ويتدرَّجون في ذلك، فلا يشعرون في الحر ومشقّته شعوراً قوياً لا يطاق، وذلك بسبب هذا التدرُّج.

ثم أتىٰ بوجه الاستدلال علىٰ الحشر والجزاء الذي ذكره في الآية السابقة، فقال: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ النظامَ العظيمَ ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الذي تقتضيه الحكمة، فهو أمرٌ له ما بعده من اليوم الآخر وما فيه، والله سبحانه ﴿يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ القرآنيَّة والتكوينيَّة، ويُنبِّه إلىٰ ما فيها من آثار القدرة العظيمة والحكمة البالغة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: لم يَطْمِسُوا بأعمالهم السيِّئة أنوارَ عقولهم النيِّرة، فيعلموا أنَّ هذا الخالق الحكيم لم يخلق الإنسان في أحسن تقويم تحت هذا النظام العظيم، ثم يتركه يحيا ويموت كالحيوان لا يُبعَثُ[1] ولا يعود.

ثم تابع هذا النَّسق من التبصير ودليل القدرة، فقال: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ طولاً وقِصَراً ناتجَيْن عن النظام الشمسي البديع الذي لا يتغيَّر، ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من عظائم وأنظمة لا تتبدَّل، ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من أنواع الجماد والنبات والحيوان وعجائبها وأنظمتها التي لا تتحوَّل؛ ﴿لَـَٔايَٰتٍ﴾ أي: لأنواعاً من الدلائل ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ الله، فتعلمون من ذلك قدرتَه علىٰ إعادة البشر في اليوم الآخر وجزائهم بالجنة والنار؛ لأنَّ تقوىٰ الله تجلو البصيرةَ وتنير القلوبَ.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: لقوم يحاولون اتِّقاء الله في نواهيه ومخالفة أوامره، لأنَّ الذين يدرسون سُنن الله الكونيَّة، يُدركون أنَّ الذين يخالفون سنن الصحة البدنية

---

(١) لكنْ ثبت في السنة النبوية أن الحيوانات تُبعَثُ وتُحشَر، ويُقتَصُّ لبعضها من بعض، كما في «صحيح مسلم» (٢٥٦٨)، ثم يُقال لها: كوني تراباً، فلعله يريد: لا يُبعَث للحساب والجزاء من نعيم وعذاب كبعث الإنسان.

يمرضون، والذي يخالفون سنن الاجتماع والعمران تخرب بلادهم ويذلون، فهكذا الذين يخالفون سُنن الله في تشريعه وهدايته ينالون البأساء والضراء في الدنيا، والعقاب الأليم والعذاب الشديد في الأخرىٰ، لأنَّ تشريعه سبحانه مطابق للسنن الكونية والفطرة الإنسانية.

ثم أردف السياق ببيان حال منكري البعث وجزائهم في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لأنهم لا يعتقدون به ولا يؤمنون بيوم الحساب، ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فصار كلُّ همِّهم محصوراً فيها، وكلُّ عملهم لها، ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ لسكون نفوسهم وارتياح قلوبهم بشهواتها ولذَّاتها، وهم الذين لم يستهدفوا غير هذه الحياة الدنيا، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ فلا يَتَدبَّرون المنزَّلةَ منها علىٰ رسوله وما فيها من المواعظ والعِبَر والمعارف والحِكَم، ولا يتفكَّرون في الكونيَّة وما تدلُّ عليه من حِكَمِه وسُنَنِه في خَلْقِه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ من الأعمال والعقائد المخالفة لِسُنَن الله في شريعته ونظام كونه.

ثم بيَّن حال المؤمنين وجزاءهم، علىٰ طريقة القرآن في المقابلة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ الصِّراطَ المستقيم الذي ينتهي بهم إلىٰ الحال السعيدة التي ذكرها سبحانه بقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾.

ثم بيَّن سبحانه شيئاً من حياتهم الاجتماعية والروحية في تلك الجنات، فقال: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، فهم يُنَاجُونَ ربَّهم، وذلك أكبر لذَّاتهم، ويفتتحون المناجاةَ بهذه الجملة إلماعاً عن رضاهُم بما نالوه من النعيم، ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: لم يكن بينهم نزاع ولا خصام، ويُحَيِّي بعضُهم بعضاً، وتُحيِّيهم الملائكة بهذا الكلام،

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ للإيذان بكمال الرِّضا بذلك النعيم. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢﴾.

ثم أردف الكلام بلون من التهديد مسبوقٍ علىٰ بيان سبب تأجيل الله للعذاب وإمهال المستحقين، وبناه علىٰ استهزائهم بالوعيد، وقوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، فقال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾[1] وأُهلِكوا ولم يُمْهَلوا، ولكن الله أرحم بهم من أنفسهم، يؤخِّر الكافرين منهم إلىٰ أجل مُسمًّىٰ، لعلهم يَثُوبون إلىٰ رُشْدهم.

---

(١) لو كانت سُنَّة الله أن يُعجِّل للناس الشرَّ إذا استعجلوه أو استوجبوه، كتعجيله لهم الخير إذا استعجلوه وتَعَاطوا أسبابه، لعجّل الشرَّ لهؤلاء، ولكن من سُنّته سبحانه أن يُمهل الظالمين ويؤخِّر جزاءهم إلىٰ أجل مُسمًّىٰ، فاكتفىٰ بالفعل عن مصدره، وبالمصدر عن فعله؛ علىٰ طريقة الاكتفاء والاحتباك من إيجازات القرآن. وزاد في جلاء المعنىٰ بقوله: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١﴾، إذ يوضح أنَّ معنىٰ ما قبله إنما هو تأجيل العذاب.

ويجوز أن يكون الاستعجال مضافاً إلىٰ المفعول به لا إلىٰ الفاعل، أي: استعجاله لهم بالخير، بمعنىٰ: تعجيله لهم بالخير. وعلىٰ كلٍّ، فالآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧، العنكبوت ٥٣]، وأمثالهم.

وهذا الكلام محمول علىٰ المعنىٰ، وهو من نهج القرآن، والمراد منه: ليس من سنن الله الكونية أن تتعجَّل نتائج الشر كما تتعجَّل نتائج الخير، ولو كان كذلك لَفَنِيَ الإنسانُ بمدة قصيرة من الزمان، بما يصدر عنه من ضلال وكفران. (المؤلف).

وقد وضع قوله: ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ موضع: تعجيله لهم بالخير. ويجوز أن يكون في الآية احتباكٌ واكتفاءٌ علىٰ سُنة القرآن، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية)، فاكتفىٰ بالفعل عن مصدره، وبالمصدر عن فعله؛ لأنهما بمعنىٰ: ولو يُعجِّل الله للناس الشرَّ تعجيله للخير، حيث يستعجلون الشر بأعمالهم وأقوالهم استعجالهم بالخير، لَقُضي إليهم أجلهم.

ولكنه سبحانه وتعالىٰ لا يُعَجِّل لهم ذلك، وإنما يُمهلهم ويؤخِّرهم إلىٰ أجل مُسمَّىٰ، كما أفاده قوله تعالىٰ: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ حتىٰ يأتي أمر الله تعالىٰ وهم غافلون. والعَمَه: شدة العمىٰ، وأراد به التَّحيُّر. فالآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]. والله أعلم.

ومحصَّل الآية: أنه سبحانه قد جعل نتائجَ عمل الخير مُعَجَّلةً يحصل عليها الإنسان عقب العمل، كالزراعة والصناعة والأعمال المعاشية، بخلاف أعمال الشر المُفْسِدة للروح، وأحوال الإنسان من كفر وطغيان وظلم وعدوان، فإنه لا يرىٰ نتائجها إلا بعد حين، أو في اليوم الآخر. هكذا سبقت كلمة الله، وبهذا مَضَتْ سُنَّته، واستقرَّ شؤونُ تكوينه. والله أعلم.

وقد ضمَّن ﴿قُضِىَ﴾ معنىٰ: عُجِّل، فعدَّاه تعديتَه. والمراد بالأجل: أجل العذاب، والمعنىٰ: لعجِّل لهم العذاب.

ثم توعَّدهم ضمن بيان غريزة الإنسان العامَّة وانطباعه علىٰ معرفة الله، وظهور ذلك فيه عندما يمسُّه الضر، إيماءً إلىٰ أن ما أشارت إليه الآية من استعجال أولئك الناس بالشر تعجيزاً لنبيِّهم ومبالغةً في تكذيبه، لو نزل بهم جأروا وتَضَرَّعوا إلىٰ الله في كشفه

وإزالته، فقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا ﴾ وهو حائرٌ في أمره، يَتَضرَّع بنا في جميع أوقاته وعلىٰ سائر أوضاعه؛ مُضْطَجِعاً ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾، والمراد: تملُّك ذلك الشعور له في كلِّ أوقاته وأوضاعه، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ وعاد المشرك إلىٰ شركه بعد ذلك التضرُّع بالله.

ثم بيَّن أنَّ رجوعَهم إلىٰ الكفر إنما هو من إفسادهم لغرائزهم بانطباعهم عليه، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ في الانطباع علىٰ الضلال ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ من الشرك والبطلان، وذلك حسب سنن الله في طبيعة الإنسان إذا تمادىٰ في الغيِّ وانطبع عليه وأصبح له مَلَكَة راسخة، فإنه يخرج عن مقتضىٰ طبيعته الصحيحة، ويرىٰ ما هو عليه هو الحقّ، وما يخالفه هو الباطل، وغير جدير بالنظر والاعتبار.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ثم أردف الكلام عن المسرفين، بالتهديد المسبوك علىٰ التنبيه والإرشاد، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ أنفُسَهم بالكفر والعصيان، والمعارضة

والطغيان، ﴿وَ﴾ كانت قد ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الدالَّة علىٰ صدقهم، ﴿وَ﴾ لكنْ ﴿مَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾ بعد أن فقدوا استِعدادَهم للإيمان، بانطباعهم علىٰ الكفر والعصيان، فأهلكناهم بذنوبهم في موعدهم المضروب لهم، و﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ أيها الموجودون ﴿خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: من بعد أولئك الهالكين من الأمم، جعلناكم تخلفونها، بما آتيناكم من أسباب المُلكِ والحكم؛ ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾، فمَنْ عَمِلَ مثلَهم نالَ جَزاءَهُم.

ثم ذكر لهؤلاء المجرمين هذا الاقتراح الدالَّ علىٰ منتهىٰ جهالتهم وعِنادهم، وقرنه بالردِّ عليهم، فقال: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ واضحاتِ الدلالة علىٰ إثبات التوحيد وبطلان الشِّرك ومهانة ملابساته، ﴿قَالَ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لعدم إيمانهم بالبعث: ﴿ٱئۡتِ﴾ يا مُحمَّد ﴿بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ بأن تَتصرَّفَ في بعض آياته بالتنقيح والتبديل، يطلبون ذلك لما يكرهونه منه، كتحقير آلهتهم وتكفير آبائهم. وقد يكون المعنىٰ: يا محمد، ارفع منه ما يؤنِّبنا أفظعَ التأنيب، ويُقرِّعُنا أشنعَ التقريع؛ إذ يزعمون أنَّ القرآن من عنده، فأمره سبحانه أن يردَّ عليهم بهذا الرد المجهِّل لهم، فقال: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ﴾ أي: ليس القرآن من عندي كما تزعمون، وإنما هو من عند الله، فلا يمكنني أن أُبدِّلَهُ بمحض رأيي؛ ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، فإنْ بدَّل الله تعالىٰ منه شيئاً بنسخه بَلَّغْتُهُ عنه، وما عَلَيَّ إلا البلاغ المَحْض.

ثم علَّل النفي بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ بتبديل قرآنه وتحريفه، ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾﴾.

ثم خصَّ بالجواب ناحيةَ ما رَمَوْا إليه من كَوْن القرآن من عنده لا من عند الله، وأثبت بالحُجَّة العقلية أنه من عند الله لا من عنده، فردَّ بذلك ما تضمَّنه كلامهم، فقال: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا أتلوه عليكم ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾، ولكنه شاء سبحانه أن يَمُنَّ عليكم بهذا العلم العظيم لتهتدوا به، وأمرني بتبليغه إليكم، ولم يكن لي علمٌ بشيء من ذلك قبله، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ لم أتْلُ عليكم فيه سورةً من مثله، ولا آيةً تشبه آياته، لا في العلم والعرفان، ولا في البلاغة ورَوْعة البيان؛ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ وتدركون أنَّ مَنْ عاش أربعين سنة لم يقرأ فيها كتاباً، ولم يُلقَّن من أحد علماً، ولم يتقلَّد ديناً، ولم يعرف تشريعاً، ولم يمارس أساليب البيان في أفانين الكلام؛ من شعر ولا نثر ولا خطابة، لا يُمكنه أن يأتيَ من تلقاء نفسه بمثل هذا القرآن المُعْجز لكم، بل لا يمكن لجميع الخلق حتىٰ الدارسين لكتب الأديان والحكمة والتاريخ أن يأتوا بمثله؟! فكيف تَقْترحون عليَّ أن آتيَ بقرآن غيره؟! وهذه حُجَّة عقليَّـة ناهضة علىٰ بطلان شُبهتهم الداحضة التي بَنَوا عليها مطالبة محمد ﷺ بالإتيان بقرآن غير هذا.

وفي هذه الفاصلة من لَـذْعةِ التعنيف والتخجيل، بقدر ما فيها من لفت النظر إلىٰ قوة الدليل.

ثم تـمَّم الردَّ عليـهم بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾، والأول: ما اقترحوه، والثاني: ما اجترموه. والمعنىٰ: أنا أنعي عليكم الثاني منهما، فكيف أرضىٰ لنفسي بالأول؟! وهو شرٌّ منه؛ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ثم حكىٰ سبحانه ادِّعاءَهم أنَّ معبوداتِهم شُفعاءُ لهم عند الله، وقَـرَنَه بالتسخيف

والردِّ والتبكيت، فقال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ أي: ما ليس له قدرة علىٰ ضُرٍّ يُخشىٰ، ولا نفع يُرْجَىٰ، فما وَجْه عبادته، أفلا تعقلون؟ وهذا الوصف للإيذان بأنه تعالىٰ وحده هو القادر علىٰ نفع مَنْ يعبده، وضرٍّ من يكفر به ويشرك بعبادته، ومَنْ كان كذلك فهو وحده الذي يستحقُّ أن يُعبد، فكيف يعبدون آلهةً غيره، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾؟

ثم أمره أن يردَّ عليهم بهذا الرد الذي هو غاية في التبكيت والتجهيل والتهكُّم، فقال: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، أي: أتخبرون الله تعالىٰ وتُعْلِمُونه بشيء لا يعلمُه من أمر هؤلاء الشفعاء؟

وقوله: ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ تأكيدٌ للنفي ؛ لأنَّ ما لا يعلمه الله لا يكون موجوداً، وما لا يوجد فيهما مُنتَفٍ حكماً.

ثـم أردف هـذا الـردَّ التـهكُّمي بالتنزيـه، فـقال: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ بوسائط وشفعاء.

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ

إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾.

ثم بيَّن ما كان عليه الناس في أصل فطرتهم من الوحدة في الدين الصحيح المبنيِّ علىٰ التوحيد، وما صاروا إليه من الاختلاف في ذلك، مُضَمِّناً الكلام أنَّ التوحيدَ أمرٌ فطري، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ علىٰ الفطرة الصحيحة المطبوعة علىٰ التوحيد والتنزيه[١]، ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ إذ أفسدوا فِطَرَهم بالانطباعات علىٰ الضلال، حتىٰ خرجوا من التوحيد الفطري إلىٰ أنواع من الشِّرك اختلقوها بأوهامهم وخيالاتهم، أو الآيةُ علىٰ حدِّ قوله ﷺ: «ما من مولود إلا ويولد علىٰ الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانِهِ أو يُمجِّسانه»[٢] الحديث.

ولفظ «كان» في الآية ليس فعلاً ماضياً، وإنما هو فعلٌ دالٌّ علىٰ الوجود والتكوين،

---

(١) لأنَّ كل مولود يولد علىٰ الفطرة الصحيحة الهادية لمعرفة الله وتوحيده وتنزيهه، وقد أرسل الله سبحانه للناس شرائع تساند لهم تلك الهداية الطبيعية وتهديهم سواء السبيل، وتوجِّههم التوجيهَ الصحيح، ولكنهم يخرجون أفراداً وجماعات إلىٰ الشرك وسوء التوجيه، بسوء التربية والتقليد الأعمىٰ، فيرون الحقَّ باطلاً والباطلَ حقاً، كما جاء في الحديث القدسي: «إني خلقتُ عبادي حنفاء، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأَمَرَتْهم أن لا يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً». (المؤلف).

والحديث رواه مسلم (٢٨٦٥)، عن عياض بن حمار، لكن بلفظ: «وأَمَرَتْهُم أن يُشركوا بي ما لم أُنزِّل به سلطاناً».

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة.

كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]، ومعنىٰ الآية: إنَّ الله سبحانه خلق الناس علىٰ طبيعة صحيحة تدرك الحقَّ من الباطل، والخطأ من الصواب، ما دامت تلك الطبيعة سالمةً لم يُفسِدها صاحبُها بمفاسد التربية وسوء التقليد.

ثم توعّدهم سبحانه علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في جَعْل الجزاء في الآخرة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ من أمر الدين، وعجَّل لهم العذاب علىٰ كفرهم به.

ثم ساوَقَ البحث بالردِّ علىٰ إنكارهم نبوَّةَ محمد ﷺ، لأنه لم يُنزِلْ عليه آيةً كونيةً كآيات الأنبياء، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فأمر الرسول بأن يَرُدَّ عليهم بقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ يعلم ما في إنزاله صلاح فيُنزله، وما ليس في إنزاله صلاح فلا يُنزله.

ثم هدَّدهم بأسلوب تَرْجية وتأميل، تحته تعريضٌ بأنه ربما يُنزِلُ آيةً في إهلاكهم، فقال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ لِـمَا يفعله بي وبكم. وكان مشركو قريش يعتقدون في بادئ الأمر أنَّ دعوته ستظل في نطاقها الضيِّق، فإذا ما لقيَ حَتْفَه عاجلاً أو آجلاً تلاشت دعوته وتفرَّق أصحابه وعادوا إلىٰ دينهم.

ويجوز أن يكون معنىٰ: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾: لم أَدْرِ أنه ينزل أو لم ينزل، فانتَظِروا إني معكم من المنتظرين.

ولم يكن ﷺ خلواً من الآيات الكونية، كإشباع العدد الكثير بقليلٍ من الطعام والشراب، وتسخير الله للمسلمين السَّحاب في مواقف اشتدَّت فيها حاجتهم إليه، وشفاء بعض المرضىٰ بدعائه ﷺ، وغير ذلك. ولكن هذه المعجزات لم تُجعَلْ حُجَّة علىٰ رسالته، ولا أُمِرَ بالتحدِّي بها، وإنما كانت بركةً من بركاته التي أنعم الله بها عليه. أما

الحُجَّة علىٰ نُبوَّته فهي هذا القرآن[١] الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهو يثبت النبوَّة والتوحيد والحشر بأدلة قاطعة وبراهين دامغة، ليكون هادياً للبشر علىٰ مدىٰ الزمن، مهما ارتقىٰ في مراقي العلم، وتَدَرَّج في مدراج العرفان.

وقد جاء عنه ﷺ: «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا أُعطِيَ ما مِثلُه آمَنَ عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتِيتُه وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثَرَهم تابعاً يوم القيامة»[٢].

والمراد من الوحي: هذا القرآن العظيم الذي فيه من الآيات والبراهين العلمية والعقلية الدالَّة علىٰ النبوَّة والرسالة الشيء الكثير. ويُرجىٰ أن ينتبه له البشر في هذه العصور العلمية، فيكون أكثرهم من المهتدين.

ثم ردَّ عليهم من وَجْهٍ آخر، وهو التلميح إلىٰ أنه لو كان هناك آيات ـ كما اقترحوا ـ لكابروا فيها ولم يُصدِّقوا، واسْتَشهَدَ عليه بتتميم مضمون ما سبق في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ ...﴾ [يونس: ١٢]، وكيف أنهم يَذِلُّون ويخنعون، فإذا كشف عنهم الضر يعودون إلىٰ شركهم، ويحملون مثل ذلك بعد النجاة علىٰ مجرَّد الأحوال العادية، ولم يعدُّوها آية كونية ولطفاً من الله، فقال[٣]: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا

---

(١) لتقدُّم النوع الإنساني في اتِّساع الفكر وبُعد النظر، لم يأت سبحانه في الشريعة الإسلامية بآيات كونية مجسَّمة تبهر الناس بالمنطق العاطفي، وتأخذهم بالتصديق الشعوري، ولكنه أتىٰ بآيات قرآنية تُنوِّر النفوس بالمنطق العقلي، وتعمرها بالتصديق اليقيني، كما قال تعالىٰ في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. (المؤلف).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هذه الآية تتضمَّن وعيداً، علىٰ نهج القرآن في تعقيب العتاب بالوعيد. (المؤلف).

لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ حيث يُعلِّلونها بالمصادفات وأنها من الأمور المعتادة، غير جازمين بأنها من ألطاف الله فيهم ورحمته بهم استجابةً لدعائهم منه تعالىٰ، ويعودون إلىٰ ما كانوا عليه من البغي والضلال، وهكذا يكون شأنهم في المعجزات إذا أُعْطُوها.

ويجوز أن يُراد بالمكر: مقابلة تلك الرحمة بالكفر والطغيان. فتوعَّدهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾ أي: أعجَلُ عقوبةً وأسرَعُ عذاباً من سرعتكم في انقلابكم عن الحق. وفي تسمية العقوبة مكراً مشاكلةٌ لمكرهم، وهذا من البديع، ثم أكَّد التهديد بقوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١﴾، وهُم الحفَظَة من الملائكة الذين وُكِّلوا بإحصاء أعمال الناس.

ثم أعاد ما سَبَق من مسِّهم الضُّرّ[1]، وكَشْفِهِ عنهم، ومكرهم فيه بصورة مُفَصَّلة، توضيحاً للمكر، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ بما خلق من السُّنن والوسائل الكونية التي تَتَّخذون بمُوجبها عُدَّة السير وأداته. ومن تلك السنن: طبيعة الماء لِعَوْم الفُلْكِ عليه، وذلك من نِعَمِ الله العظيمة عليكم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ أي: بالذين فيها.

والالتفات إلىٰ الغيبة للإيذان بما لهم من سُوء الحال الموجِبِ للإعراض عنهم، كأنه يذكر لغيرهم سوء أحوالهم ليُعجِّبهم منها. وقيل: ليس فيه التفات، بل معنىٰ قوله: ﴿إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾: إذا كان بعضكم في الفلك. فالضمير الغائب عائدٌ إلىٰ ذلك المضاف المقدَّر، أي: جَرَيْنَ بذلك البعض الراكب في الفلك ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ مُواتيةٍ لهم في جهة سَيْرهم، ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا﴾ أي: الفُلك أو الريح الطيِّبة. ﴿رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ عاكستها وأزعجتها، ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ ليهلكوا، فإذا كانوا

---

(١) كذا، ولعل الصواب: من مسِّ الضُّرِّ إياهم.

كذلك ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لا يتوجَّهون إلىٰ وليٍّ ولا شفيع، بل يرجعون إلىٰ الله وحده بفطرتهم المفطورة علىٰ التوحيد. فإنها تَتَجرَّد حينئذ بتأثير تلك الهزَّة مما دنَّسوها به من الانطباعات علىٰ الشِّرك، فيتضرَّعون إلىٰ الله وحده قائلين: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ الموحِّدين.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾ وانتهت تلك الهزَّة النفسية، ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالشرك والكفر ومعارضة الإيمان. وفي قوله: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ زيادة في التشنيع.

ثم أنَّب هؤلاء البغاة وتوعَّدهم ونبَّههم مخاطباً بذلك عمومَ الناس؛ ليكون تأديباً عاماً، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ لأنَّ وباله عليها؛ إذ تَـحْرِمونها من السعادة الأبدية بما لا يتجاوز ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ الفانية فينقضي ويـخلِّف وبـالاً طويلاً، أفـاده بقولـه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾ ونُجازيكم عليه الجزاء الوفاق. وحاصل المعنىٰ: إنكم تضرُّون أنفسكم ببغيكم هذا ضرراً كبيراً لغاية موقَّتةٍ ضئيلة، وذلك ما لا يفعله عاقل.

ثم وضَّح زهادةَ الدنيا وسرعةَ انقضائها ومفاجأةَ انتقالـها بهذا الـمثل البليغ، فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ فنبت ولبست به الأرض حُلَّـة قشيبة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ فوق خُضْـرتها الزاهية بأنواع الأزهار وألوانـها، ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ حاصلونَ علىٰ التمتُّع بثمراتها ومحصولاتها وجمالها ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ بجائحة من الآفات، ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ أي: كأنْ لم تكن أمسِ بذلك الغنىٰ العامر الخصيب.

وخلاصة المثل: تشبيـهُ سرعة تَقَضِّي مَتاع الـحياة الدنيا، بسُرعـة تَقَضِّي رَوْنق النبات الفتَّان الآخِذِ بمجامع قلب الإنسان، ولا سيما إذا أصابته آفة قبل الأوان.

ثم ختم الآية بما فيه تحسيسٌ بهذه العبرة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: عندهم فكر صحيح، ومنطق سديد.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وبعد أن بيّن زهادة الحياة الدنيا وحظَّ من شأنها مُعَرِّضاً بغرور المشركين بها، قَفَّىٰ علىٰ ذلك ببيان ما يدعُو إليه سبحانه من سعادة الآخرة ونعيمها الدائم المقيم، عكس الحياة الدنيا، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ عن كُلِّ عاهة وآفة، وهي الجنَّةُ ونعيمُها السالم من كلِّ ما ينغِّص ويُؤْلم، والدائمُ المقيم الذي لا ينقطع.

ثم بيّن أنه قد هيّأ لها الأسباب، وبيّنها في هذا الكتاب، فقال: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي لم يُفسِد فطرتَه بمفاسد التربية ومساوئ التقليد ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ يوصل إلىٰ تلك الدار.

ثم بيّن مصير الذين هداهم لذلك، فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ باهتدائهم بهذا الهدىٰ المثوبةُ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ كما يغشىٰ وجوه الذين أساؤوا، من الكآبة والظلمة والذلة، كما سيأتي.

ثم سجّل لهم بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم قابل بذلك مصير الذين أساؤوا، وأشار إلىٰ أنه لم يظلمهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ دون زيادة، جزاءً وفاقاً. وذلك بمقتضىٰ الحقِّ العادل، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وكآبة، عكس حال المحسنين.

ثم حقَّق الوعيد وقـرَّره بقوله: ﴿مَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: لا يرجُون النجاة من عذاب الله. ثم مثَّـل عِظَـمَ كآبتهم بقوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾، ثم سجَّل لهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم نصَّ بالكلام علىٰ الحشْر مُبيِّناً حال المشركين وتبرُّؤ شركائهم منهم، تبصرةً لهم وتذكيراً، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: المؤمنين والمشركين، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ لنُفصِّل بينكم، ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فـرَّقنا وكـرَّهنا بين المشركين وبين الذين جَعَلوهم شُركاء لله، كما يكون الحال بين الخصوم. بمعنىٰ: جَعَلنا بحكم الطبيعة كلاً منهم يكره الآخر، فالمشركون يكرهون الشركاء كُـرْهَ المتورِّط لمن يعتقد أنَّ البلاء جاء من جهته. ومثل ذلك من سنن الله في طبيعة الإنسان.

ثم حكىٰ ما يقوله لهم الشركاء، فقال: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ عندما كنا معكم في الدنيا، فما الذي حملكم بعد ذلك، أو: إنما كنتم تعبدون أهواءكم وتتَّخذون أسماءنا وتماثيلنا هياكل، ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ وحَكَماً ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، فهو العليم بحالنا وحالكم، ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ إيَّانا ﴿لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾، وهذه الغفلة علىٰ حقيقتها في حقِّ الصُّلحاء الذين عبدوهم بعد موتهم، سواء مثَّلوهم بالأصنام أو لم يُمثِّلوهم، أما في حقِّ الملائكة فالمراد بها عدم الرِّضا.

ثم ذكر ما يكون من أمرهم، فقال: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي: هنالك

تَخْتَبِرُ وتُدرك كلُّ نفسٍ ثمرةَ ما قدَّمت من عمل، وتعرف سعادته أو شقاءه، فيدرك المشركون تَعَاسةَ ضلالهم وعنادهم للصواب، ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ دون ما اتّـخذوا من دونه بالباطل من معبودين، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ من أمر الشفعاء والأولياء.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وبعد أن أوقفهم علىٰ مصيرهم، أقام الحُجَجَ عليهم في إثبات التوحيد وبطلان الشرك، ليحملَهم علىٰ التوحيد الـمُنقِذِ لهم من ذلك المصير، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بما يُنزلُه من المطر ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بما يُنبتُـه فيها، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وهذه الحجَّة مسبوكة علىٰ التَّمنُّن بالمواهب التي وَهَبها الله للإنسان، وعلىٰ التهديد بسلبها، مع الإيماء والتنبيه إلىٰ قدرته. وخصَّ هاتين الحاسَّتَين بالذكر؛ لأنَّ عليهما مدار الحياة الحيوانية، ولأنهما واسطة التعقُّل الذي به كمال البشريَّة وإدراك الحق.

ثم ذكر نوعاً آخر من مظاهر قدرته وخصائص ألوهيته، فقال: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ كالحيوان من موادِّه، والنبات من بذوره، والعكس. ولا يَردُ ما يقال: إن في النُّطَفِ والبذور حياة؛ لأن المراد الحياة العرفية لا العلمية، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ في الخليقة كلِّها بما أودَعَه في كُلٍّ منها من السنن الطبيعية وما أتقنه من النظام، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: فسيكون جوابهم عن هذه الاستفهامات الخمس: أنَّ فاعل ذلك كله هو الله، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: أتَعْلَمُون ذلك وتقرُّون به ولا تَتَّقون سَخَطَ الله وعقابَه من جرَّاء شرككم به وعبادتكم لغيره.

ثم قرَّر نتيجةَ ما تقدَّم بقوله: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي: عن الحقِّ إلىٰ الباطل، وعن الهُدىٰ إلا الضلال، فتُشركون به مَنْ لا يَخْلُقون شيئاً وهم يُخْلَقون.

ثم بيَّن سببَ ثباتهم علىٰ شركهم، وعدم مَيْلهم إلىٰ الإيمان، رغم هذه الحجج والمواعظ، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي: قَضَتْ سُنَّة الله تعالىٰ في غرائز البشر أنَّ الذين خرجوا عن حظيرة الحق وانطبعوا علىٰ الباطل، لا يميلون إلىٰ الهدىٰ والإيمان أبداً.

ويجوز أن تكون الآية بياناً لحكم الله فيهم، والمعنىٰ: حقَّت عليهم كلمةُ العذاب؛ لأنهم لا يؤمنون مع وضوح هذه البراهين، ونُصوع هذه الحجج الدامغة.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ثم ساوَقَ البحث باحتجاج آخر علىٰ اختصاص الألوهيَّة بالله تعالىٰ وبطلان الإشراك، وسَبَك الكلام علىٰ البعث ودليله، فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؟

ولما كان جوابُ هذا السؤال بديهياً؛ لأن مَنْ قدر علىٰ إيجاده من العدم يقدر علىٰ إعادته، أمَرَه أن يُجيبَ هو، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وتُصْرَفُون عن أمر ظاهر يتبيَّن بأدنىٰ تفكير. ومبنىٰ الاستدلال علىٰ بَدْء الخلق وحده؛ إذ إنه حُجَّة قطعية علىٰ اختصاصه سبحانه بالألوهية، وإنما ذكر الإعادة علىٰ وجه التدليل،

لأنَّ مَنْ قَدَرَ علىٰ البَدْء والإيجاد من العدم قَدَرَ علىٰ الإعادة، فهو من عطف الدعوىٰ علىٰ الدليل.

ثم وجَّه لهم سؤالاً عن شأن آخر من شؤون الربوبية المقتضية لاستحقاق الألوهية، فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ بنَوْعَي الهداية؛ الفطرية والتعليمية؟

ثم أمَرَه أن يُجيبَ هو، لأنه ظاهرٌ لا ينكرونه، أو بمنزلة الظاهر ولا يمكنهم أن ينكروه، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾، فقد هَدَىٰ البشرَ للإيمان بأمرين؛ بفطرته، وبإرسال الرسل وإنزال الكتب والتوفيق للنظر والاستدلال.

ثم مَـخَّضَ النتيجـة في هذا الاستفهـام الإنكاري عن إثبات التوحيد وإبطال الشِّرك بهذا البرهان القاطع الناصع الـمُشْرَب بالتسخيف للمشركين، فقال: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ أي: لا يهتدي ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾، وذلك شأن ما سوىٰ الله من سائر الخلق. والآية بعمومها تدلُّ علىٰ استهجان عبادتهم لهذه الأوثان التي لا تقدر أن تنتـقل من مكان إلىٰ مكان حتىٰ ينقلوها. أي: فهل يليق بمَنْ هذا شأنُه أن يكون إلهاً. ولذلك قـرَّعهم بهذَيْنِ التقريعَيْن المتواليين، وقال: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥﴾، والمعنىٰ: ماذا أصابكم؟! وكيف حكمتم أن يكون هؤلاء شركاء لله، أو وسطاء بينكم وبينه؟!

وبعد أن أقام أنواع الحجج والبراهين القطعية علىٰ توحيد الربوبية والإلهية، بيَّن مَهانة طرق المشركين الاعتقادية، فقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في معتقداتهم ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: إلا عقائدَ مبنيةً علىٰ الظن، ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ مما يطلب به اليقين، كالاعتقاد والدِّين. وفيه إشعارٌ بأن الحقَّ الصحيحَ لا يتحقق ولا يتبيّن إلا بالعلم اليقين. وإنما قال: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأنَّ بعضهم كانوا يعلمون أنَّ ما جاءهم به الرسول هو الحقُّ، ولكنهم يُعْرِضون استكباراً أو حسداً أو ضَنّاً برياستهم وزعامتهم.

هذا أمية بن أبي الصَّلت يقرُّ برسول الله ﷺ ويقصده ليؤمن به، ثم يعود فيقول: لا أؤمن برسول ليس من ثقيف[١]. وهذا أبو جهل يقول: والله ما كذب محمد قطُّ، ولكن إذا كانت السِّدانة والحِجابة في بني هاشم، ثم النبوة، فما بقي لنا[٢]؟ وهذا أبو طالب يرىٰ المعجزات ويقول: إني لأعلم أنك علىٰ الحق، ولولا أن يُعَيِّرَني نساءُ قريش لأقررتُ بها عَيْنَك[٣].

فنعوذ بالله من ظُلْمةِ حَسَد، وغباوةِ كِبْر، وحماقةِ هوًىٰ، تُغَطِّي نُورَ العقل، فيُعْرِضُ صاحبُها عن الحق الصُّراح.

ثم ختم السياق بهذا التهديد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ نقض قولهم: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ [يونس: ١٥]، علىٰ نهج القرآن في العودة إلىٰ المهمِّ من المواضيع حتىٰ يشبع الكلام عنه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كما تزعمون أيها المشركون.

قال في «المنار»: ونَفْيُ الشأنِ أبلَغُ وآكَدُ من نَفْي الشيءِ مباشرة، أي: ما كان هذا القرآن العظيم مع عُلـوِّ شأنـه في أسلوبـه ونَظْمه، وعلومه العالية، وحكمه السامية، وتشريعه العادل، وآدابه الـمُثْلىٰ، وتمحيصه للحقائق الإلهية والاجتماعية إلىٰ غير ذلك من

(١) ذكره أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» (٤: ١١٧).

(٢) ذكره الشربيني في تفسير «السراج المنير» (١: ٤٨٣).

(٣) رواه أحمد (٩٦٨٧)، والبزار (٩٧٥٢)، عن أبي هريرة.

الشؤون العالية، ما كان أن يَفْتريَه أحدٌ علىٰ الله من دونه ويُسنِدَه إليه، فهو أجَلُّ وأعلىٰ أن يُفْتَرَىٰ، ولا يقدر غيره تعالىٰ عليه، وهو بهذه الصفة المعجزة والمقام الرفيع، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ولكنه من الله تعالىٰ، وإنه تصديق الذي سبقه من الوحي، ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الإلهي، أي: جنسه، وهو ما شرعه الله للبشر في علمه الأزلي من العقائد والشرائع وشؤون الاجتماع وسنن الله في خلقه. ذلك الكتاب الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧﴾[1]؛ أنزله مُفصَّلاً بعد تلك الكتب المُجْمَلة، في أوّل ما تأهَّل لإدراكه النوعُ الإنساني، بعد تدرُّجه في المعرفة والعرفان، وضمَّنه كلَّ ما يحتاج البشر في شأن التشريع إلىٰ يوم القيامة، بصورة مُجمَلة أو مُفصَّلة. ولذلك ختم به الشرائعَ، إذ لا حاجة من بعده إلىٰ ما سواه.

ثم انتقل من بيان كونه أجَلَّ وأعلىٰ أن يُفترىٰ، لعجز الخَلْق عن الإتيان بمثله، إلىٰ حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين أنَّ محمداً ﷺ قد افترىٰ هذا القرآن، وعَطَفَ الكلامَ علىٰ مُقَدَّر، اتِّباعاً لمنهج القرآن في مثله، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: أيَقنعُون بهذا التحقيق أم يُصِرُّون علىٰ دعوىٰ الافتراء، فإنْ أصرُّوا فـرُدَّ عليهم بهذا التحدِّي و﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في أسلوبه ونظمه وهدايته وعلمه، ﴿وَٱدْعُوا۟﴾ معكم للمعاونة ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾ في زعمكم أني افتريته، وأنه من صُنعي. والغالب علىٰ الظَّنِّ أن العرب من أول ما سمعت القرآن أيقنت أنه غيرُ مقدورٍ للبشر، ولكنها تقول ذلك تعنُّتاً وعناداً، والله أعلم.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٩ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ

(١) تفسير «المنار» (١١: ٣٠١-٣٠٢).

بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وبعد أن كذَّب مزاعمَهم، بيَّن أن تكذيبَهم ناشئٌ من جهلهم بحقيقة ما اشتمل عليه القرآن، وذكر ذلك بأسلوب الإضراب، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ من جميع وجوهه ونواحيه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: ما يَؤُولُ إليه بالوقوع، أي: إنَّهم كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه جهلاً وعناداً، ومنه وعيدهم علىٰ كفرهم الذي لم يأتهم بعد، فلو ترىٰ حالهم حين يرونه، ثم سلَّىٰ الرسول ﷺ بإلفات نظره إلىٰ ما جَرَىٰ علىٰ المكذِّبين قبلهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ لأنفسهم بالتكذيب للرسل، استأصلهم العذاب؛ ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وبعد أن توعَّدهم بمثل عاقبة المكذِّبين قبلهم، أتىٰ بما له كالاستدراك علىٰ ذلك، وهو بيان الفرق بين عموم أمة الدعوة وعموم الأمم قبلها، حيث إن التكذيب في الماضين كان عامّاً إلا قليلاً منهم، فاستحقُّوا عذاب الاستئصال. وأما أمة الدعوة هذه من قومك في أم القرىٰ ومن حولها فالأكثر منهم مؤمنون أو سيؤمنون، وقليل منهم سيُصِرُّون علىٰ الكفر، فلا تستحقُّ هذه الأمة عذاب الاستئصال، ولكن سينال المكذِّبين وحدَهم نصيبُهم من عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: إن قومك لن يكونوا كأولئك الظالمين من قبلهم الذين كذَّبوا رسولهم إلا قليلاً منهم، فكان عاقبتُهم عذابَ الاستئصال، بل سيكون قومك قسمين: قسماً سيؤمن وهو الأكثر، وقسماً لا يؤمن، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فيُجازيهم جزاءً وفاقاً، وهو ما وقع في بدر، والله أعلم.

ثم أعاد التسلية بعد هذا البيان بصورة تُلائمه، فقال: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي:

أصرُّوا علىٰ تكذيبك ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ فلا يُؤاخِذ اللهُ أحداً بعمل الآخر.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

ثم وصف حالَ الذين لا يؤمنون من قومه شارحاً عدم إحاطتهم بعلمه، فقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾، ولكنْ لا يَتدبَّرون القول ولا يعقلونه، والسمع الذي لا يَنْبعث عنه الفهم والفقه: هو الصَّمَم، بل أقبح الصمم. ثم سبك تأنيبهم علىٰ تيئيس النبي ﷺ من هدايتهم، وقال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: ولو انضمَّ إلىٰ صَمَمِهم عدمُ عقلهم. والمعنىٰ: أنَّ إسماعَهم وتفهيمَهم ليس بممكن، لأن من انطبع علىٰ شيء، إذا وصل إلىٰ سمعه ما يخالفه، لا يراه جديراً بالنظر، لا سيما إذا لم يكن له ثقافة عقلية في نفس الموضوع.

ثم شرح حالهم في أفعاله ﷺ بعد ما شرح حالهم في أقواله، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾، ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الإيمان والهَدْي للحق فكأنه أعمىٰ العينين، ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ فكيف لو كانوا فاقدين لنور البصيرة أيضاً؟

ثم ختم البيان بما يُنْبِئُ أنَّ هذه الحالات ليسوا مخلوقين عليها خلقاً، وإنما هي نتيجة كسبهم وتحريف مواهبهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴾ أي: لم يكن من شأنه ولا من سُنَّته في خلقه أن يُنقِصَهم شيئاً من الأسباب والمواهب التي يهتدون بها إلىٰ ما فيه

خيرهم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ بتحريف تلك المواهب وإفساد تلك الغرائز، حتىٰ لا تكاد تصلح للهداية إلىٰ طريق الخير. فإنَّ غرائزَ البشر ومواهبَه كلَّها خيرٌ بذاتها وأصل خلقتها، ولكنه يُفسِدُها بسُوء التصرُّف بها. وأكبر عامل في ذلك فساد التربية وسوء العشرة.

ثم بيَّن مقدار ظلم المشركين لأنفسهم وخسارتهم لها بمقدار قلَّة مدة الدنيا بالنسبة لمدة الآخرة الطويلة المدىٰ، ليُدركوا مقدارَ الخسران، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: أن هذه الحياة الدنيا التي غرَّتهم بمتاعها الحقير الزائل، وحظوظها الدنيئة الزائفة، قصيرةٌ ستزول بموتهم، وسيُقَدِّرُون يوم القيامة قِصَرَها بساعةٍ من النهار، لا تَسَعُ أكثر من التعارف. وقيل: إنَّ المعنىٰ: أنهم يتعارفون بينهم يوم يحشرون، ويأخذون باللوم والتوبيخ والتحسُّر والندامة.

ثم نعىٰ علىٰ الـمُكذِّبين خسارتهم العظيمة لأنفسهم في ذلك اليوم، فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ إذ خسروا السعادة الأبديَّة، بإفسادِهم استعدادَهم للإيمان وعمل الصالحات الـمُزكِّية للنفس والـمُربِّية للروح، والمكيِّفة لها بكيفيَّة تُؤهِّلها لتلك السعادة العلية، فضَلُّوا الصواب، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ فيما اختاروه لأنفسهم من إيثار الخسيس الفاني علىٰ النفيس الخالد، أي: لم يكن عندهم في هذا العمل شيء من هداية العقل أبداً.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم أردف السياق المتضمِّنَ لعِنادهم وتكذيبهم، بما فيه تحقيقٌ لما يتوعَّدهم الله به في الدنيا، وأنه سَيَجزيه حالاً أو مآلاً، وما يَتوعَّدهم به في الأخرىٰ بعد رجوعهم إلىٰ الله، وسَبَكَ ذلك علىٰ تسليته ﷺ وتثبيته، وتـمَّم به الردَّ عليهم في تكذيبهم بما لم يأتهم تأويله،

فقال: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل وقوعه ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾، فيُجازيهم به جزاءً وفاقاً. وزيدت (ما) في (إنْ) الشرطية ونون التوكيد في فعل الشرط فكان توكيداً مزدوجاً. والمراد بذلك: تأكيد وقوع ما أوْعَدَ الله هؤلاء المشركين من العقاب في الدنيا، والمعنىٰ: أنَّ العذاب واقعٌ بهم لا محَالة، سواء رأيت بعضه أو لم تره، وبعد ذلك سيرجعون إلينا وينالون عقاب الآخرة الذي به يكذِّبون.

ولما بيَّن حالَ محمد ﷺ مع قريش وأكَّد لهم الوعيد، بيَّن أن حال كلِّ الأنبياء مع أقوامهم كذلك، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ يُرسَلُ إليهم؛ ليُبيِّن لهم أصول الدين من الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، والأعمال الصَّالحات والعبادات الملائِمة لاستعدادهم حسب تدرُّج النوع الإنساني في سَعَة المعرفة والكمال، لِتَتكيَّفَ النفس بكيفيَّة تُؤهِّلها لسعادتها في ذلك اليوم، وتُبعِدُها عن الشقاء، ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بذلك الدين الجديد فلم يؤمنوا به وبقُوا علىٰ ما كانوا عليه، وقامت الحُجَّة عليهم ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾، بل ينالون الجزاءَ العادل في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

وبعد أن أكَّد وقوع ما أوعَدَهم الله به من العذاب، ذكرَ استهزاءَهُم في ذلك الوعيد بصورة استبطاء، وقَرَنَه بالرد المسبوك علىٰ بيان حدود النبوة، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي:

كفارُ قريش للنبي ﷺ ومَن اتبعه من المؤمنين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي تتوعدون به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٨)﴾ في قولكم: إن الله سينتقم لكم منا، وينصركم علينا؟

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فَضْلاً عن أن أملك ذلك لغيرها، فليس بيدي ما تستعجلون به ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، فيكون ذلك متىٰ شاء، لا شأن لي فيه ولا مشيئة. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ في عذابها علىٰ تكذيب الرسل ﴿أَجَلٌ﴾ يُفسَحُ لهم فيه، قطعاً لمعاذيرهم ورجاءَ أن يثُـوبوا لرُشْـدهم، أما ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ الـمعيَّن لذلك ولم يؤمنوا ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩)﴾، ونفيُ الاستقدام لتمكين المعنىٰ أو تتميمه، أو لتضمين معنىٰ: فلا يملك رسولهم أن يُقدِّمه.

ثم تابع السياق بوجهٍ آخر من الجواب، وهو: ما الذي تتمكَّنون منه إذا جاءكم العذاب حتىٰ تسألوا عن وقت وقوعه؟ فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلون به ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلاً ﴿أَوْ نَهَارًا﴾؛ إذ لا يَعْدُوهُما الوقت. وقد أقام مقامَ الجواب هذه الجملةَ المصدَّرة بالإنكار التهديدي ملتفتاً من الخطاب إلىٰ الغَيبة؛ للإبعاد والتحقير مع التجهيل، فقال: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٠)﴾ وقد ضمَّن «يستعجل» معنىٰ: يتمكَّن، فعدَّاه تعديتَه، أي: ماذا يتمكنون أن يفعلوا إذا جاءهم العذاب في أيِّ وقت كان؟ وهذا الاستفهام للتهويل ووخامة العاقبة، أشفَعَه بعدم نفع إيمانهم وتصديقهم بعد وقوعه، فقال: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أي: بالعذاب. ويجوز أن يكون الضمير لله سبحانه، أي: إذا ما أتاكم عذابه آمنتم به، بمعنىٰ: آمنتم بالله وقت نزول العذاب بكم.

ثم أنَّبهم ونَعَىٰ عليهم بقوله: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١)﴾ أي: الآن آمنتُم بالعذاب أو بالله جَزَعاً، وقد كنتم قبل نزول العذاب تستعجلون العذاب مُكذِّبين مستهزئين.

وقد أردف البيانَ عن عذاب الدنيا بالبيان عن عذاب الآخرة، علىٰ نهج القرآن في

ذلك، وصاغَ العبارة بصيغة التحسيس والإيلام، فقال: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: العذابَ الدائمَ المستمرَّ الذي كنتم به تستهزئون. وزاد في تأليمهم بما هو كالتعليل للحكم ونفي للظلم، فقال: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ فأفسدتم مواهبَكم بسُوء تصرُّفاتكم فيها، وكيَّفتم نفوسَكم بكيفية هيَّأتها لِنَيْل هذا العذاب.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم أعاد الكلام علىٰ إنكارهم العذاب وعلىٰ تحقيقه، ولوَّن البيان بلون آخر، علىٰ نـهج القرآن في مثل ذلك، لأنَّ تقرير المعنىٰ في النفس والتهويل به عليها إنما يكون بالتكرار والتنويع في التعبير، وصاغ العبارة بصورة السؤال والجواب من أساليب القرآن، وإن لم يكن سؤالٌ في الواقع، (كما جاء في الفقرة (أ) من المادة الثالثة عشر، من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ أم هو مُجرَّد إرهاب وتخويف؟ وقد يكون السؤال للاستهزاء، فأمر سبحانه الرسول بقوله: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ لله عن إنزاله بكم.

ثم بيَّن هَوْل ذلك العذاب، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: لو فُرِضَ لكُلِّ نفس تلبَّست بهذا العذاب أنها تملك جميع ما في الأرض من موجودات؛ لفضَّلت أن تتجرَّد منه فداءً من ذلك العذاب لو تهيأ لها. وهذا أروع تعبير عن شدَّة ذلك العذاب وهَوْلِـهِ العظيم. أعاذنا الله.

ثم بيَّن حالتهم النفسية إذ ذاك بقوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، ثم بيَّن

تعالىٰ أن ذلك العقاب كان جزاءً عادلاً؛ جزاءً وفاقاً، فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ في ذلك، بل نالوا ما قدَّموه لأنفسهم، وأنهم هم الظالمون لها.

ثم ختم السياق بدليل قدرته علىٰ إنفاذ حُكمه وإنجاز وعده ووعيده، فقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وكلمة ﴿مَا﴾ أتىٰ بها لتغليب غير العقلاء، تقريراً لكمال قدرته سبحانه علىٰ جميع الأشياء، وبياناً لاندراج الكلِّ تحت ملكوته، يتصرَّف فيه كيفما يشاء، فهو قادرٌ علىٰ إنجاز وعده ووعيده، ووقوعُهما أمرٌ لا رَيْبَ فيه، كما قال: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ وهم منكرو البعث والجزاء ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ذلك ولا يُصدِّقون.

ثم تابع التحقيق بهذا التقرير المسبوك علىٰ الاستدلال والتوعُّد معاً، فقال: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾، فالذي يُحيي ويميت يقدر علىٰ إعادتكم، فتنالون ما تستحقون.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

ثم نبَّه إلىٰ مَكانة ما سَبَق من العلم والهداية؛ زيادةً في التحسيس بعظمة مواضيع هذا القرآن ومواقعها في التهذيب والتثقيف الـمُؤدِّيَيْنِ إلىٰ السعادة في الحياتين، والـمُجنِّبَين عن الشقاءَيْن علىٰ نهج القرآن في إرداف الوعيد بالدعوة إلىٰ الرشاد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وهذا القيد تذكير بما يستدعي الاتِّعاظ بها، لأنها من الله العليم الحكيم، ﴿وَ﴾ هي ﴿شِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ من الأمراض النفسية الـمُخلِّـةِ بالحياتَيْن، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ تهديهم إلىٰ ما فيه صلاح حالهم في هذه الحياة وما يُؤهِّلهم للسعادة الأبديَّة في تلك الحياة التي ألمع إليها ونوَّه عن عِظَم شأنها بقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ من متاع الحياة الدنيا.

والمراد من (فضل الله): الهداية بهذا القرآن، فهي السبب لسعادة المسلمين في الدنيا والأخرىٰ إذا تمسَّكوا بها وعملوا بمقتضاها علىٰ الوجه الصحيح، وأحوالُهم وتاريخُهم في صدر الإسلام شاهدٌ علىٰ ذلك. والمراد من الرحمة: السعادة، وأعاد الباء فيها للإيذان باستقلالها في استيجاب الفرح، وقدَّم الجارَّ والمجرور لإفادة القَصْر، وأتىٰ باسم الإشارة للتقرير، وأدخل الفاء عليه لإفادة معنىٰ السببية، أما الفاء الثانية فهي للجزاء في الشرط الضمني، أي: إنْ فرحوا فَلْيَفرَحوا بذلك.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾.

ثم تابع الردَّ والإنكارَ عليهم، بالإنكار علىٰ باطلهم في التشريع؛ مُلمِعاً إلىٰ شدَّة حاجتهم لهذا القرآن، فقال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ وكلُّ عطاء منه تعالىٰ يُعبَّر عنه بالإنزال، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وهكذا أنزل الله الرزق وأعطاكموه، ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ أي: فحرَّمتم منه ما لم يُحرِّم الله، وحلَّلتم ما لم يُحلِّل الله. وقد تقدَّم تفصيل ذلك في سورة الأنعام.

فأمر نبيَّه ﷺ أن يُؤنِّبهم ويبكِّتهم بقوله: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾، ووجه التبكيت: تحقُّق العلم بالشق الثاني، لأنَّ حقَّ التشريع في التحريم والتحليل لله سبحانه.

ثم توعَّدهم مشيراً إلىٰ سُوء حالهم وشدَّة عقابهم يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أن يُفعَل بهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يومَ تُجزىٰ كلُّ نفس بما عملت. وهذه الصيغة من أعظم صُور التهديد وأبلغ أساليبه.

ثم ختم السياق بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في كلِّ ما خلقه لهم من الرزق، وكلِّ ما شَرَعَه لهم من الدين، وكلِّ ما وَهَبَهم من العقل المميِّز بين الحق والباطل، والحسَن والقبيح، والضار والنافع، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ فضْلَه عليهم باتِّباع تعاليمه التي تُكمِل فِطَرَهم وتزكِّيها وتُؤهِّلهم لسعادة الدارين، فيَجْنون بهذا الإعراض علىٰ أنفسهم؛ إذ يحرمونها من السعادتين.

قال في «المنار» ما ملخَّصه: لما ذكَّر تعالىٰ عبادَه بفضله وما يجب عليهم من شكره، وبكون أكثرِهم لا يشكرونه كما يجب عليهم، عطف علىٰ ذلك تذكيرَه لهم بإحاطة علمه بشؤونهم وأعمالهم كلِّها صغيرِها وكبيرِها، جليلِها وحقيرِها، وبكل ما في العوالم عُلْوِيِّها وسُفْلِيِّها، ليُحاسبوا أنفسهم علىٰ تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته، وبدأ بخطاب أعظمهم شأناً في أعظم شؤونه، فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ أيها الرسول ﴿فِى شَأْنٍ﴾ أي: أمرٍ من أمورك المهمَّة الخاصَّة بك، أو العامة التي تُعالِج بها أمرَ الأمة في الدعوة إلىٰ سبيلك، ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي: وما تتلو من أجل ذلك من قرآن أُنزِلَ عليك، سواء كان ذلك تبليغاً له أو تنفيذاً لأوامره وأحكامه أو تعبُّداً به. وإنما خصَّ هذا بالذكر من بين أعماله ﷺ لأنه أعظمُ أعماله ومعظم شؤونه.

و﴿مِن﴾ الأولىٰ للتعليل، والثانية للتبعيض. ويجوز أن يكون ضمير ﴿مِنْهُ﴾

للكتاب المفهوم من السياق. والتعبير في خطابه ﷺ بالشأن ـ وهو الأمر العظيم أو ذو البال ـ يدلُّ علىٰ أنَّ جميع أموره وأعماله ﷺ كانت عظيمة، حتىٰ العادات منها، لأنه قدوة صالحة فيها.

ثم التفت إلىٰ خطاب الأمة كلِّها في شؤونها وأعمالها[1] فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صغيراً كان أو كبيراً ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي: رُقباء مُطَّلعين عليكم، ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تخوضون وتندفعون فيه، فنحفظه عليكم لنُنبِّئكم به، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي: لا يَبعُدُ عنه ولا يغيب عن علمه ولا يخفىٰ عليه ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي: مهما بلغ من القِلَّة والدِّقَّة، لا مما ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا﴾ مما ﴿فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾[2] أي: إلا وهو معلومٌ ومُحْصيّ عنده تعالىٰ[3]. وإنما ذكَّرهم سبحانه بذلك ليُحاسبوا أنفسهم علىٰ تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته، ولْيَستَبشِروا إذا أحسنوا فيها. وقدَّم ذِكرَ الأرضِ هنا لأنَّ الكلام مع أهلها، وأخَّره في آية «سبأ» المماثلة لها[4] وقدَّم السماء؛ لأنها في سياق ثنائه تعالىٰ علىٰ نفسه ووصفه بإحاطة علمه، فناسب تقديم السماء لأنها أعظم[5].

---

(١) فبعد أن كان يُجري الكلام علىٰ الرسول انتقل فأجراه علىٰ الأمة، ومثل هذا من خصائص اللغة وأساليب القرآن. (المؤلف).

(٢) هو علم الله سبحانه الأزلي الأبدي السرمديّ المتعلّق بما كان وما يكون، لا ينفك عنها ولا يتجدَّد. (المؤلف).

(٣) أي: وما يعزب عن شهود ربك من شيء، وما من شيء إلا هو مكتوب في كتاب مبين، هو اللوح المحفوظ.

(٤) يعني: قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣].

(٥) ولأنَّ الحديث في آية سورة سبأ عن الساعة التي تبدأ أحداثها بتبدُّلٍ في السماوات فالأرض.

ثم قابل تهديدَ الـمُفْتَرين علىٰ الله الذين لا يشكرون فضلَه باتِّباع تعاليمه التي أنزلها علىٰ لسان رسله، بتبشير المتَّقين الشاكرين، تطميناً لهم من مخاوف تحذيره وإنذاره فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم ذكر بعض صفاتهم التي عادت عليهم بذلك الفضل والأمان، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ اللهَ في جميع سُنَنِهِ الشرعية والكونية، فلا يعاكسون منها شيئاً.

ثمَّ صرَّح بما فُهِمَ ضِمْناً، فقال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، لأنهم اتَّبعوا ـ فوقَ سُنَنِ الله التشريعية ـ سُنَنَ الله الكونيةَ فيها ولم يهملوها، فنالوا كلَّ الخير، ﴿وَ﴾ كذلك لهم البشرىٰ ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لأنهم أقاموا سنن الله التشريعية المزكّية للنفوس والمؤهِّلة للنعيم المقيم؛ إذ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وقوانينه وسُنَنِهِ، ولا خُلْفَ في مواعيده. ثم نوَّه بشأن هذا الجزاء، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ينالونه من سعادةِ الدارَيْن ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾، والبشرىٰ: هي الحالة التي تتألَّق لها بشرة الوجه، وقد عبَّر بها عن الراحة والسعادة والسرور.

وقد جاء عنه ﷺ: «أنَّ أولياء الله: الـمُصَلُّون، ومَنْ يقيم الصلوات الخمس التي كتبها الله علىٰ عباده، ومَنْ يُؤدِّي زَكَاةَ ماله طيِّبةً بها نفسُه، ومَنْ يصومُ رمضان ويحتسب صَوْمَه، ويجتنبُ الكبائر»(١).

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

---

(١) رواه الحاكم (٤: ٢٨٨) عن عمير الليثي، وصحَّح إسناده علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وبعد أن بيَّن تعالىٰ لرسوله حالَ أوليائه ـ وكان هذا يتضمَّن الوعد بنَصْرِهِ ونَصْرِ مَن آمن به ـ أكمل تسليته بقوله: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ الذي يقولونه في تكذيبك والسعاية ضدّك، ولا تَخْشَ عاقبته، ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لا يملك أحدٌ من دونه شيئاً منها، و﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لما يقولون، ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ بما يفعلون، فيذلهم ويُحبط أعمالهم.

ثم ذكر دليل سلطانه وقدرته المستقلَّة بجميع الشؤون، تحقيقاً لقدرته علىٰ إنجاز ما تضمَّنه السياق من وعد الشاكرين ووعيد الـمُغْتَرِّين وتثبيت رسول رب العالمين، فقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً. وأتىٰ بـ﴿مَن ﴾ دون (ما)، تناسباً مع السياق المتضمِّن للوعد والوعيد للعقلاء.

ثم سفَّه أحلام مَنْ يعبدون غيره سبحانه، وهو الآخِذُ بناصيتهم، والمالكُ لضُرِّهم ونفعهم، فقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ﴾، وحاصل المعنىٰ: أنهم ليسوا شركاء، فهو ينكر عليهم ويسخِّفُهم، ويقرِّر جهلهم بقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ في ادِّعائهم أنهم شركاء لله؛ يجلبون نفعاً أو يكشفون ضراً أو يُقرِّبون إلىٰ الله زلفىٰ، إن يتَّبعون في ذلك ﴿ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ والوهم الفاسد، ﴿وَإِنْ هُمْ ﴾ في هذا الادِّعاء ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾، إذْ يكذبون ويهرفون بما لا يعرفون، ويخدعون أنفسَهم وهم لا يشعرون.

ثم تابع البيان عن اختصاصه تعالىٰ بصفة الألوهية وأفعال الربوبية تأييداً لنفي ما يخرصون به من الشركاء، فقال تعالىٰ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾ مظلماً ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ لتبتغوا من فضله، فمَنْ يشاركه في هذا العمل العظيم الحكيم؟! ثم أتىٰ بما فيه نظر للعقول، فقال: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ما تقدَّم سماعَ تبصُّرٍ وتفكير؛ ليعلموا أنه تعالىٰ جلَّ عن الشبيه والنظير والشريك والمعين. وفيه تعريضٌ بأن المشركين لا يسمعون ولا يعقلون. وفي هذا التبكيت بداعة من البلاغة

العالية في هذا القرآن العظيم، وهي صيغة الإيجاز بالمقابلة والاكتفاء، فقد حذف «مظلماً» اكتفاء بـ﴿مُبْصِرًا ﴾، و«لتبتغوا من فضله» اكتفاءً بـ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾، وفي القرآن إيجازاتٌ من الحذف والاكتفاء لا تُحصىٰ. جلَّ مَنْ هذا كلامُه.

﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم أردف الكلام بأشنع كفرهم وأسخفه، وتعقَّبه بالإبطال، فقال: ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ عمّا لا يليق به، ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ ﴾ بذاته عن الولد وعن كلِّ شيء، ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، فالذي يجعلونه ولداً إنما هو من المخلوقين لله تعالىٰ والمملوكين، وليس ذلك شأن المولودين. وكلمة ﴿مَا﴾ هنا لتغليب غير العقلاء تقريراً لكمال غناه سبحانه، وأنه يملك جميع الموجودات.

ثم شنَّع عليهم بالجهالة والسخافة ناقضاً قولَهم هذا، بأنه غير مُستند إلىٰ برهان، وكلُّ ما كان كذلك فهو باطل، فقال: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ﴾ أي: إنما تقولون شيئاً غير مُسْتَند إلىٰ عقل ولا إلىٰ منطق وبرهان، ثم أنكر عليهم هذه الجهالة والفرية الشنعاء، فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: كيف تنسبون إلىٰ الله هذه النسبة من دون علم ولا تفكير؟

ثم أمره أن يؤنِّبهم ويتوعَّدهم علىٰ ذلك بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ باتِّخاذهم الشُّركاء له أو بزَعْمِهم اتِّخاذَه ولداً لنفسه أو بغير ذلك، كالتَّحليل والتَّحريم وغيرهما من مسائل التشريع ﴿لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾، وصلاح حالهم الحاضر

﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

وقد أردف هذا السياق بقصص الأنبياء تأكيداً للتهديد والإرشاد، وتسليةً للنبيِّ ﷺ، وتوعُّداً للمشركين المعاندين، بأنهم ـ إنْ أصرُّوا على شركهم ـ فسيكون مصيرُهم مصيرَ أولئك المجرمين المعارضين من أقوام الأنبياء، فقال: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: واقرأ ـ أيها الرسول ـ على هؤلاء المشركين المكذِّبين مِن قومِكَ فيما أوعَدْتَهم مِن عِقاب الله لهم، ليقفوا على سابق سُنّته في المكذِّبين لرسله من قبلك، اقرأ عليهم خبَرَ نوح ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ أي: شقَّ عليكم إقامتي بين أظهركم، ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لكم، وأردتم التَّخلُّص مني بالإيقاع بي؛ ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ دون سواه، ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ أي: تجمَّعوا أنتم وشركاؤكم الذين تعبدونهم وتعاونوا على مقاومتي، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ﴾ الذي تعتزمونه ﴿عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ أي: فيه شيء من الحَيْرة والتَّخفِّي، بل جاهِروني به، ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ ذلك الأمر بأن تُنفِّذوه بالفعل، ﴿وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ أي: لا تُمهلوني في تنفيذه.

وقد ضمَّن ﴿ٱقۡضُوٓاْ﴾ بالقاف معنى «أفضُوا» بالفاء، وعدَّاه بـ«إلىٰ» ليؤدي المعنيين

معاً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة، وفي القسم الثاني عشر من المقدمة السادسة).

ومحصّل المعنىٰ: ثم أَفْضُوا إليَّ واقضوا عليّ، فعَدّىٰ ﴿ٱقْضُوٓاْ﴾ بـ«إلىٰ» لهذا الغرض بطريقة التضمين من أساليب القرآن. وإنما خاطبهم بهذا الخطاب إظهاراً لعدم المبالاة بهم والاستهانة بأمرهم ثقةً بالله سبحانه وتعالىٰ.

ثم أدمج التأنيب ضمن تبصيرهم علىٰ صدق دعوته بدليلٍ ملموس، فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عنّي مُصرِّين علىٰ إعراضكم عن تذكيري لكم ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ عليه ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ فتتّهموني بأني أبغي من وراء ذلك غَرَضاً دنيوياً، كالرئاسة عليكم والتملّك فيكم. كلا، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي أرسلني إليكم، فهو الذي يوفيني أجري.

ثم قَرَنَ الدعوة بالقول بالدعوة بالفعل، فقال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ المنقادين المُذْعِنين لما أدعوكم إليه من التوحيد.

وهكذا عالجهم بهذه المعالجة النفسيّة والحُجّة الإقناعيّة والبراهين الإلزاميّة، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وأصرُّوا علىٰ كفرهم وعِنادهم وتمرُّدهم، فحقَّت عليهم كلمةُ العذاب.

وقد بيَّن سبحانه ما كان من استئصاله لهم بالعذاب، مُقدِّماً تَنْجية نوح والذين آمنوا معه، لتعجيل المسرَّة لهم بذلك، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ يخلفون الهالكين ويكون بَشَرٌ ثانٍ، ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ثم ختم القصة بالتحسيس بالعبرة تهويلاً لما جرىٰ عليهم وتحذيراً لمن كذَّب الرسول ﷺ من قومه، وتسليةً له وتثبيتاً، فقال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه أنَّ ذلك لم يَزْجر مَنْ بَعْدَهُم من مُجْرمي أقوام الأنبياء، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي: أرسلنا من بعد نوح رسلاً مثله إلىٰ أقوامهم، كهُود

إلىٰ عاد، وصالح إلىٰ ثمود، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الباهرات، ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾[1] أي: فما كان من شأنهم أن يؤمن المتأخِّر منهم بما كذب به المتقدِّم مِنْ قَبْلُ استكباراً من الرؤساء، وتقليداً أعمىٰ من الدهماء. وتعقيبُ المتأخِّرين خطىٰ المتقدِّمين سنةٌ من سنن الاجتماع. ويتضمَّن الكلام أنَّ المتأخر لم يعتبر بما جرىٰ علىٰ المتقدِّم. وفي صيغة التعبير إيماءٌ إلىٰ وحدة شؤون الأمم المنحدرة بعضها من بعض أو المتَّصلة ببعضها، وهو نظام اجتماعي لا يتبدَّل.

ثم ذكر سبب ذلك الإصرار، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: علىٰ عقولهم ونفوسهم بتدسيتهم لها، ومحق نور فطرتها حتىٰ حَرَموها الهداية إلىٰ الصراط المستقيم المؤدِّي بسالكه إلىٰ النعيم المقيم، وأوقعوها في البلاء العظيم والعذاب الأليم.

ووَجْهُ طَبْع الله علىٰ قلوبهم: هو أنَّ سنَّة الله تعالىٰ مَضَتْ في أخلاق البشر وغرائزهم أنَّ من انطبع علىٰ الضلال من الأفراد والجماعات حتىٰ أصبح مَلَكَةً له وديناً راسخاً في نفسه، لا يسمعُ لما يُخالفه من الهُدىٰ والحق، ولا يستنير به ولا يُصْغي إليه.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ

---

(١) يلمع بهذا إلىٰ أن الأبناء تقتفي أثر الآباء في الضلال، إذا لم يتبصَّروا ولم يتدبَّروا. وهكذا يطبع الله علىٰ قلوب المعتدين الذين يقلِّدون سلفهم تقليداً أعمىٰ، فينشؤون علىٰ الضلال، ولا يؤمنون بما كَذَّبَ به سلفُهم، وإن كان كالشمس في وَضَح النهار. (المؤلف).

إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقد تابع السياق بذكر طبقة أخرىٰ قريبة من عصر الدعوة من أقوام الرسل الذين لم ينزجروا بما جرىٰ علىٰ المكذِّبين قبلهم، وقد فصَّل ذلك تفصيلاً وافياً، لما له من شديد الخطر وعظيم الأثر، إذ فيه من العبرة أنَّ قوة الحقِّ تثلُّ(١) العروش وتهدُّ أركان الباطل وإنْ تجبَّر أصحابه، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: إلىٰ فرعون مصر وأشرافِ قومه الذين يملؤون العين رُواء، وإلىٰ قومهم القِبطِ بالتَّبَع؛ لأنهم كانوا مستعبدين لهم؛ يكفرون بكفرهم ويؤمنون بإيمانهم، بعثنا لهم موسىٰ وهارون وعزَّزناهما ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ اليد والعصا ـ وجمع الاثنين جائز في اللغة ـ أو التسع المفصَّلة في سورة الأعراف، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عنها ولم يؤمنوا، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

ثم فصَّل هذا الإجمال، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهو الوحيُ إلىٰ موسىٰ، وتأييده بالآيات الكونية(٢) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ أي: ظاهر مُؤثِّر علىٰ النفوس.

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰٓ﴾ مُؤنِّباً لهم ومنكراً عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ هذا القول ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾؟ ثم بالغ بالإنكار فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؟! ثم وصله بما هو كالتقرير للإبطال أو كالدليل عليه، فقال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾، لأنَّ السحر شَعْوذة لا تلبث

(١) ثلَّ اللهُ عرشَهم، أي: هدم ملكهم. «لسان العرب» (ثلل).

(٢) الصواب أن يقول: بالآيات الإعجازيَّة، والمؤلف يُفسِّر معجزات الأنبياء بأنها تجري علىٰ سنن كونية غير معلومة للناس، والصواب أنها خارقة لهذه السنن غير جارية عليها، كما تقدَّم التعليق عليه في مواضع. يُنظر على سبيل المثال (١ : ١٨٢).

أن تنفضح. وإنما أنكر عليهم بهذا الإنكار؛ لأنهم أعرفُ الناس بالسحر، ولكنهم يكابرون. ويدلُّ علىٰ ذلك صورة هذا الإنكار.

ولما ألزمهم وانقطعت حُجَّتهم عمدوا إلىٰ التَّشبُّث بالتقليد وإسداء التُّهم، و﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: لتكون لك ولأخيك كبرياء الرئاسة الدينية، وما يتبعها من كبرياء الملك والعظمة في أرض مصر، أي: لا غَرَض لكما من هذه الدعوة إلا هذا، ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾ ومنقادين فيما يخرجُنا من دين آبائنا ويَسلُبُنا مُلكَنا وسلطانَنا.

ثم ذكر مُلَخَّص ما قاوم به فرعون دعوة موسىٰ، فقال: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ لِمَلَئِهِ: ﴿ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠﴾ ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾ حبالَهم وعِصِيَّهم المصنوعة بطريقة السِّحر والشَّعْوذة، ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُ﴾ أي: إنَّ الذي جئتم به إنما هو سحر وألاعيب مموّهة علىٰ الناظرين، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ أي: سيُظهر بطلانه للناس، ويدركون أنه صناعة خادعة وشَعْوذة باطلة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١﴾.

قال في «المنار» ما ملخَّصه: وهذه قاعدة عامَّة مبيِّنة لسنَّة الله في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد، وغَلَبة الحقِّ والصلاح للباطل والفساد، ﴿وَ﴾ ذلك حيث ﴿يُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ التكوينيَّة، وهي مقتضىٰ إرادته، وبكلماته التشريعيَّة التي يُوحيها[1] إلىٰ رسله[2]. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨٢﴾ أي: رغماً عن أنوفهم، ومن ذلك ما وعد سبحانه وتعالىٰ به موسىٰ من نصره علىٰ فرعون وإنقاذ قومه من عبوديته وظلمه.

---

(١) في «المنار»: يوجبها.

(٢) تفسير «المنار» (١١: ٣٨٣).

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

ثم ذكر ما كان من شأن موسىٰ مع قومه بني إسرائيل الذي أرسله الله لِيُخرِجَهم من مصر، فقال: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾(١).

قال في «المنار»: المتبادر إلىٰ فهمي: أنَّ عَطْفَ هذه الجملة بالفاء علىٰ ما قبلها لإفادة السببيَّة أو التفريع. والمعنىٰ: أنَّ إصرار فرعونَ وقومِه علىٰ الكفر بموسىٰ بعد خيبة السَّحَرة وظهورِ حقِّه علىٰ باطلهم، ثم عَزْمَه علىٰ قتله، كما قتل مَنْ آمن به من السَّحَرة، كل هذا أوقع الخوف والرُّعب في قلوب بني إسرائيل قوم موسىٰ، فما آمن له إلا ذريَّة من

(١) يلمع الكلام ـ والله أعلم ـ إلىٰ أنَّ الشبان لم ينطبع فيهم الضلال انطباعَه فيمن مارسوه طويلاً، فلا يزال فيهم بقية من نور الفطرة يمكن أن تعيَ الحقَّ وتتأثرَ بالإرشاد وتسلك سبيل الإرشاد. وضمير ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ يعود علىٰ الذرية، وأراد بهم أشراف بني إسرائيل والمترفون منهم. والمعنىٰ: أن هؤلاء الذرية آمنوا بموسىٰ مع خوفهم من سطوة فرعون ودسائس أشرافهم ومُتْرفيهم الذين لا يرغبون بقلب الوضع الحاضر لدولة فرعون؛ لأنه يسلب مراكزهم، ويُغيِّر أحوالَهم، ويفقدهم ثقة فرعون. وخصَّ الفتنة بفرعون، لأنه هو المسلِّط المنفذ، وملأُ بني إسرائيل أعوان له أو عيون. (المؤلف).

قومه، وهم الشبَّان، ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أي: أشراف قومهم الجبناء المرائين الذين هم عرفاؤهم وجواسيس عليهم عند فرعون فيما يطلب منهم، فإنَّ الملوك يَستَذِلُّونَ الشعوب ويستعبدونهم برؤساء وعرفاء منهم. فكان هؤلاء المؤمنون يخافون ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ فرعون. وقد ذكر الفتنة وأراد الجزاء، مِنْ ذِكْرِ السَّبَبِ وإرادةِ المسبَّب، أي: أن يقتلهم، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قويّ مُسْتبدّ متسلِّط في أرض مصر يفعل ما يشاء، ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: الـمُفْرِطين في الظلم والقهر والاستبداد[1].

﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ لما رأىٰ خوفهم من الفتنة: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ بعد التدرُّع بالصبر ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ منقادين لأمر الله.

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ وتضرَّعوا إليه تعالىٰ داعين بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: اختباراً لظلمهم حيث يتسلَّطون علينا ويفتنوننا عن ديننا بقوتهم وسلطانهم، ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ﴾ حُكم ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ وقهرهم واستبدادهم.

ولفظ «الفتنة» هنا: يجوز أن تكون بمعنىٰ الفاتن أو المفتون، أي: لا تجعلنا فاتنين لهم، أو لا تجعلنا مفتونين بهم. ومؤدّاه علىٰ الأول: لا تفتنهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً وظلماً بظهورهم علينا، حيث يظنُّون أنهم علىٰ الحق وأننا علىٰ الباطل، ولذلك ظهروا علينا. وعلىٰ الثاني: لا تَفتِنّا بهم فنضعف في اتِّباع نبيِّنا، أو نتولىٰ عنه فراراً من شدَّة ظلمهم لنا وإيذائهم وقهرهم.

فأنجزَ الله لهم سبحانه هذا التَّضـرُّع، وأمَرهم أن يأخذوا له بالأسباب، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾[2] تكون لكم ملاجئ تبوءون إليها

(١) تفسير «المنار» (١١: ٣٨٣-٣٨٤).

(٢) الظاهر أن الله سبحانه أمرهم أن يتَّخذوا لهم بيوتاً حصينة، وأن تكون متجاورةً ومتقابلة، لأنَّ =

وتعتصمون بها، ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: متقابلة في جهةٍ واحدة. فالقِبْلة في اللغة: ما يُقابل الإنسانَ ويكون تلقاءَ وجهِه، ومنه: قبلة الصلاة. ويصحُّ الجمع هنا بين المعنيين العامِّ والخاصِّ بقرينة قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولا يتعارض هذا الأمر مع المعنىٰ الأولىٰ وحده، ويجعل إقامة الصلاة مستأنفاً مستقِلاً؛ لأنه إنما أمرهم بإقامة الصلاة في هذا المعرض؛ لأنها تُعينُ علىٰ الصبر والثبات، لما فيها من مناجاة الله تعالىٰ.

ثم أمر موسىٰ أن يبلِّغهم وَعْدَ الله بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: بحفظ الله لهم من فتنة فرعون. وإنما أفرد موسىٰ بالأمر بالبشارة والتبليغ؛ لأنها وظيفة صاحب الشريعة، وهو موسىٰ دون هارون، فإنه وزيرٌ له وظهير.

ثم حكىٰ سبحانه وتعالىٰ ما كان من دعاء موسىٰ علىٰ فرعون ومَلَئِهِ، واستجابة دعوته، فقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ بعد أن يئس من إيمان فرعون وملئه، وأعَدَّ بني إسرائيل للخروج من مصر إعداداً دينياً ودنيوياً، قال مُتَوجِّهاً إلىٰ الله تعالىٰ في إتمام الأمر بعد قيامه بما يقدر عليه هو وبنو إسرائيل من الأسباب، قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وقد أثبت البحث والتنقيب في نواويس قبور المصريين القدماء التي كُشِفَتْ حديثاً أنَّ عظمة المصريين في مدنيتهم وحضارتهم ومقتنياتهم في آثارهم لا تُضارعها حتىٰ مدنية العصر الحاضر، مع ما بلغ العلم والرقيّ العقلي في النوع الإنساني، وفيما حُفِظَ في دور الآثار المصرية وغيرها من العواصم الأوربية ما يشهد بذلك، مع كثرة تلك الأموال، ووجود أنواع من الزينة والحُلي، لم تكن لتخطر علىٰ البال.

وقد جَرَت سُنَّة الله بأنَّ كثرة الأموال عند مَن يحرفون طباعهم ويفسدون غرائزهم،

= ذلك أدنىٰ لسلامتهم من الفتنة، ونجاتهم من أذىٰ القوم، وأخفىٰ لأداء واجباتهم وتدبير أمرهم. (المؤلف).

تُورث الكبرياء والعُجْب والخُيَلاء والطغيان، وإخضاع رقاب الناس لهم. لذلك قال موسىٰ: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾، وهذه اللام للعاقبة والصيرورة لا للتعليل، أي: فكانت عاقبة أمرهم أنْ كفروا بالنِّعَم وقابلوها بالعصيان والضلال البعيد. وقيل: هي للتعليل؛ لأن إيتاء النِّعم علىٰ الكفر استدراجٌ واختبار. وعلىٰ كلٍّ، فقد جعل هذا البيان توطئةً للدعاء عليهم، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: بالآفات والجوائح حتىٰ لا يرىٰ لها أثر.

ثم نسق مع الدعاء عليهم بيان تحريفهم لطباعهم ليكون كالتعليل الضمني له، وأخرَجَه مَخرَجَ الدعاء، وساقه مساقه، فقال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بما أحاطتْ بها خطيئاتهم حتىٰ أفقدوها نورها واستعدادها للهدىٰ والرشاد، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾، فهذا بيانٌ لـما قد انطبعوا عليه من الضلال والعناد، فيه نتيجة تحريفهم لطبيعتهم وإفسادهم لها.

وإنما أخرجه مَخرَجَ الدعاء ونَسَقَه معه، مبالغةً في إظهار اليأس منهم. ولذلك أمره سبحانه بالاستقامة علىٰ الدعوة كما سيأتي، ولم يكن ذلك منه عليه السلام إلا بعد أن يئس من إيمانهم، واشتدَّت فتنتهم علىٰ المؤمنين وعلىٰ نشر الدعوة.

والفاء للسببية، وقيل: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ معطوف علىٰ ﴿ لِيُضِلُّوا۟ ﴾ وما بينهما اعتراض.

ولما دعا موسىٰ عليه السلام بهذا الدعاء عليهم، آذنه سبحانه وتعالىٰ بقبول دعائه، و﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾، وتثنيةُ الضمير تُنْبئ باشتراك هارون عليه السلام مع موسىٰ بالدعاء، أو التأمين عليه، أو بالغرض منه. وإنما أسند القول أولاً إلىٰ موسىٰ وحده؛ لأنه هو صاحبُ الدعوة، وهارون وزيره فيها وناصره عليها. ويجوز أن يكون في تثنية الضمير إضافةُ ما للواحد إلىٰ الاثنين بحكم الاشتراك في أصل الأمر. وذلك من خصائص اللغة.

ولما كان غرضُ موسىٰ وهارون عليهما السلام من هذا الدعاء طَلَبَ إعانتِهما علىٰ هؤلاء المعارضين، أمرهما سبحانه ـ بعد الإيذان باستجابة دعائهما ـ بالثبات والاستقامة علىٰ نشر الدعوة، وقال: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ علىٰ ما أنتما عليه من دعوة فرعون وقومه إلىٰ الحق، ومن إعداد بني إسرائيل للخروج من مصر، ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: ولا تَسْلكان طريقَ الذين لا يعلمون سُنَّتي في خَلْقي، وإنجاز وَعْدي لرسلي، فتَستَعجِلا الأمر قبل أوانه.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ثم حكىٰ سبحانه ما كان من أمر فرعون وجنوده وغرقهم، وتنفيذ حُكمِهِ فيهم، فقال: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي: ليفتك بهم ظلماً وعدواناً، أو أتبعهم بسرعة سَيْر، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾، وقد فُصِّلت صورة هذا الغرق في غير هذه السورة، علىٰ نهج القرآن في الاكتفاء، (كما جاء في المادة الثانية عشرة من المقدمة الثانية)، وحين أدركه الغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ المنقادين له.

وفي هذه الآية دلالةٌ علىٰ أن المُحْتَضَر ينكشف له الحق الذي كان قد خفي عليه من أمر العقيدة والدين، ويذلُّ ويقرّ ويؤمن، ولكن لا يفيده ذلك؛ إذ لم يَعْقُبْ هذا الإيمانَ عملٌ صالح يُكَيِّفُ النفسَ من أهليتها للشقاء إلىٰ أهليتها للهناء بعد الموت، ولأنه إيمانُ

يأس وشدَّة خوف ومحاولة نجاة، لا إيمانٌ صادق، كما ينبئ عنه قوله تعالىٰ: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

ثم ذكر أنه سيجعله عبرةً لمن بعده، وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي: نجعلك علىٰ نَجْوة من الأرض لينظر إليك من كَذَّبَ بهلاكك ممن يعتقدُ بألوهيتك، أو يغترُّ بعظيم قوَّتك، و﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي: لتكون عِبْرةً لمن بعدك من الناس. وهكذا كان، وهو اليوم رهن المتحف المصري علىٰ ما يقال.

ثم عقَّب علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾، فيمرُّون بها كما تـمرُّ الأنعام في مَسارحها.

وبعد أن ذكر سبحانه خاتمة فرعون وجنوده، قفَّىٰ علىٰ ذلك بذكر عاقبة بني إسرائيل، وختم القصة بالنَّعي عليهم والتوعُّد والتأنيب، فقال: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾، والـمُبوَّأ: مكان الإقامة. وأضيف إلىٰ الصدق للتنويه بشأنه ولتحقّق وعد الله فيه، وهو منزلهم من بلاد الشام الجنوبية المعروفة بفلسطين. والشيءُ الصِّدْقُ: هو المتَّصِفُ بجميع الصفات الممتازة، يقال: رجلُ صدق، وعالمُ صدق، ورمحُ صدق، وهكذا. فالـمُبوَّأُ الصدق: المكان الطيِّب الممتاز، أي: جَعَل الله لهم خير مهجر في فلسطين. لذلك أردفه بقوله: ﴿وَرَزَقْنَـٰهُم﴾ فيه ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾، وقد أنزل عليهم نسخة الشريعة الـمُزكِّية لنفوسهم المُصْلحة لأحوالهم لو اتَّبعوها، ولكنهم لم يفعلوا، كما يُنْبئ عن ذلك قوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: فما اختلفوا اختلافهم الشديد إلا بعد أن جاءهم عِلمُ الدين المؤدِّي إلىٰ الائتلاف، وفيه مبالغة في التأنيب بفساد نفوسهم. وقيل: المراد من العلم هو ما كانوا موعودين به من نزول هذا القرآن علىٰ محمد ﷺ؛ إذ هو أكملُ وأتمُّ ما أنزل الله من علم الدين علىٰ لسان الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦] أي: مشحوناً بعلمه، والله أعلم.

ثم توعَّدهم علىٰ ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾، فيجازيهم علىٰ ذلك بما يستحقون.

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

ثم أردف قصص الأنبياء التي أتىٰ بها تسليةً للرسول ﷺ، أردفها بما يُقرِّر صِدْقَ القرآن في وَجْهِ بيانها، مخاطباً النبيَّ ﷺ بأسلوب من أساليب المُحاجَّة والإثبات، وهو أسلوب الشكِّ ليبني عليه اليقين، فقال: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ في هذه القصص من أمر موسىٰ ونوح وغيرهما، وما جرىٰ علىٰ المكذِّبين من تلك الأمم، ﴿ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي: ممَّن آمن منهم بك، فهم يقرؤون في كتابهم أنك مُرسلٌ من ربِّك.

وأسلوب فرض الشك هذا من أساليب العرب، يُعبَّر به للحضِّ علىٰ شيء يترتَّب عليه، أو للمبالغة في إثبات شيء كذلك، يقول أحدهم لابنه: إن كنت ابني فكن شجاعاً، أو فلا تكن بخيلاً، يريد حَمْلَه علىٰ الأمر، وهو لا يشك بأنه ابنُه حقاً.

ويجوز أن تكون هذه الآية من أسلوب مخاطبة الرؤساء بما يفعله الأتباع، وهو من أساليب العرب أيضاً، يقال للملك أو الرئيس: إذا فعلت هذا كانت عاقبته كذا، والمراد: إذا فَعَلَتْهُ دولتُك أو أُمَّتُك. فيكون خطاباً للأمة في شخص النبي ﷺ.

وإنما أَمَرَهُ أن يسأل من أهل الكتاب، لأنَّ مشركي قريش يعتمدون علىٰ أهل الكتاب، ويثقون بهم، ويقبلون آراءهم.

ثم قـرّر السياق بقول: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ فيما جاء في هذه القصص.

ثم عزّز التقرير بقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾، فهذا تثبيتٌ له بعد تسليته، وتقريرٌ لرسالته، يُعَرِّض بهؤلاء المكذِّبين المعارضين. وهذا الأسلوب أبلغ في تقريعهم وتأنيبهم وتوعّدهم من أيِّ أسلوب آخر.

ثم ختم السياق ببيان سِرِّ إصرار الكَفَرة علىٰ ما هم عليه من الكفر والضلال، قاطعاً طَمَعَه في إيمانهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]. فالمراد: هذه الكلمة التكوينيَّة في أخلاق الإنسان وغرائزه، وهي أنَّ من انطبع علىٰ الكفر والضلال بصُنعه وكَسْبه يفقد الاستعداد للاهتداء والرشاد، فهؤلاء ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾[1] من الآيات الكونية[2] كآيات موسىٰ التي اقترحوها عليك، والآيات المنزَّلة كآيات هذا القرآن العلميَّة العقليَّة الدالَّة بإعجازها اللفظي والمعنوي علىٰ أنها من عند الله، والدالة ببراهينها وبمنطقها العقليِّ والوجدانيِّ علىٰ حقيقة ما تدعوهم إليه وتنذرهم إيَّاه، ولكنهم لا يؤمنون ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾، وحينئذ لا ينفعهم الإيمان.

---

(١) كل مَنْ دسَّىٰ نفسه وأفسد فطرته بمفاسد التربية وسُوء القدوة وتمكّن منه الضلال، حقَّت عليه كلمةُ ربِّك بمقتضىٰ السنة التكوينية في طبيعة الإنسان، وهي: أنه لا يؤمن، وكل من حقَّت عليه كلمة ربك بمقتضىٰ هذه السنة التكوينية، لا يمكنه أن يؤمن، ولكن الله سبحانه ـ حين خلق الإنسان بهذه الطبيعة ـ جهَّزه بوقايتين: هدايته إلىٰ الحق بطبيعته المفطورة علىٰ ذلك، وهدايته بالشريعة. (المؤلف).

(٢) الصواب أن يُقال: الآيات الإعجازية، كما تقدَّم التعليق عليه في هذه السورة ص١٩٢.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ثم فرَّع على هذا البيان هذا التأسيفَ والتأنيبَ المطبوع على الدعوة والإرشاد، على نهج القرآن في مثل ذلك، وهو تعقيبُ النقد على الكفر بالدعوة إلى الإيمان، فقال: ﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلَّا ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من قرى أقوام أولئك الرسل ﴿ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ من العذاب الذي أُنذروا به، ثم استثنى من ذلك بطريقة الاستثناء المنقطع والاستدراك، قوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ قبل وقوع العذاب بهم، ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ فيها ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ مجيء آجالهم. وقد تضمَّن الكلامُ تأنيبَ أقوام الأنبياءِ على عدم الاقتداء بقوم يونس عليه السلام.

ثم علَّق على هذا السياق المبيِّن لسُنَّة الله في خلق الإنسان واستعداده للكفر والإيمان، وأنه إن انطبع على الكفر بنتيجة التربية الضالة والتقليد، لا يُؤمِنُ ولو جاءَتْهُ كلُّ آية، علَّق عليه بما يقرِّر ويُشعِرُ بأنَّ ذلك الإعراض منهم ليس قهراً لقدرة الله، ولا قَسْراً لإرادته تعالى، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، وذلك بتغيير هذه السنَّة في طبيعة البشر، بأن يخلقهم مَقْسُورين على الإيمان والخير، لا يميلون لغيره، وليس فيهم استعداد للكفر والشر كالملائكة، ولكن حكمة الله اقتَضَتْ أن يكون البشر مختاراً في تصرُّفاته ليكون خليفةً في الأرض، يتصرَّف فيها بفعله واختياره المطلق، وذلك يجعله مستعدّاً للهُدى والضلال، ورائدُه في الميل إلى كلٍّ منهما عقلُه وتفكيرُه، وهذان يتأثَّران بمُؤثِّرات التربية، وينطبعان بطوابع البيئة، ويتلقَّحان بالـمُصَاحَبة، حُسْناً وقُبْحاً.

وقد مهَّد بهذا البيان لتسليته ﷺ بقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟

مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: إنَّ هذا ليس في استطاعتك مهما حرصت عليه، إذ ليس في إمكانك تغيير سنن الله في طبيعة الإنسان.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾(١)، وذلك لأنَّ كلمة الله سبحانه قَضَتْ أنَّ من دسَّىٰ نفسه لا يُمكِنُه أن يؤمن. وهذا هو معنىٰ كونه لم يأذن الله له بالإيمان، أي: بحسب سُنَّته التكوينيَّة، كما لم يأذن لحبة البُرِّ إذا نَخَرَها السُّوسُ أن تَنبُت. فيُيَسِّرُ الإيمان للذين يستعملون عقولهم التي لم يفسدوا طبيعتها ولم يطمسوا نورها، ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ﴾ أي: الخِذلانَ والخِزْيَ الناجم عن الكفر والفجور ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾، لأنهم طمسوا نور عقولهم وأفسدوا طبيعتها بصنعهم.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

وبعد هذا البيان أمر نبيَّه ﷺ أن يُؤَنِّبهم ويُنبِّههم إلىٰ ما في السماوات والأرض من

---

(١) كل من زكَّىٰ نفسه وحافظ علىٰ سلامة فطرته ونفوذ بصيرته فقد أذن الله سبحانه له ـ بمقتضىٰ سنته الكونية في طبيعة الإنسان ـ أن يؤمن، وكلُّ مَنْ أذن الله له سبحانه أن يؤمن يُمكِنُه أن يؤمن، فكل من زكّىٰ نفسه وحافظ يُمكِنُه أن يؤمن. وكلُّ مَنْ دسَّىٰ نفسه ولم يحافظ علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته لم يأذن له الله سبحانه بالإيمان بمقتضىٰ سنته التكوينية فيه، وكل مَنْ لم يأذن له سبحانه بالإيمان بمقتضىٰ ذلك لا يُمكِنُه أن يؤمن، فكل مَنْ دسَّىٰ نفسه ولم يحافظ علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته لا يُمكِنُه أن يؤمن.

وخلاصة المعنىٰ: أنَّ الله سبحانه لما خلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته، هَدَاه إلىٰ الحق والصواب بهدايتين : هدايةِ الطبيعة، حيث جعله بطبعه ميَّالاً إلىٰ الحق ما لم يفسد طبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة، وهدايةِ الشريعة التي خصَّه الله بها دون سائر المخلوقات، فكلها مهدية بهداية واحدة، وهي هداية الطبيعة فقط. (المؤلف).

آيات بيِّنات دالة علىٰ وحدانيَّة الله تعالىٰ في الألوهية والربوبية، إقامةً للحُجَّة عليهم، فقال: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من الآيات البيِّنات والعجائب الباهرات التي تُنادي علىٰ اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة والربوبيَّة، إذْ لا شريك له في صنعها.

ثم رجع إلىٰ بيان حالهم في إصرارهم، وسَبَكَ ذلك علىٰ التأنيب والتوبيخ، فقال: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[1]، لأنَّ من انطبع علىٰ الشِّرك والضلال لا يميل إلىٰ الإيمان بالتوحيد، ولا يراه جديراً بالتفكير ورعاية النظر. والمؤمن هو الذي ينظر بنور الله؛ لأنه زكَّىٰ نفسه علىٰ فطرتها السليمة، ولم يُدسِّها، بخلاف المشرك والضال. ويجوز في (ما) أن تكون للنفي، أو للاستفهام بمعنىٰ النفي.

ثم أردف هذا بتنبيههم إلىٰ ما هم صائرون إليه إن أصرُّوا علىٰ شركهم، كما هي سُنَّة الله في أمثالهم، وقال ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ممَّن كذَّبوا الرسل حسبما قَصَصْنا عليك من قبل، لذلك ﴿ قُلْ ﴾ لهم مُنْذِراً ومُتوعِّداً: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ ما سيكون من عاقبتكم، ﴿ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

وبعد أن أنذر المشركين بالعذاب حسب سُنَّتِهِ تعالىٰ في الـمُصِرِّين علىٰ الشرك من أمثالهم، بيَّن سُنَّتَه تعالىٰ في تَنْجية المؤمنين، كَيْ لا يتسرَّب إليهم شيءٌ من الخوف، فقال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، وهذا معطوف علىٰ محذوف يُفهَمُ من السياق، علىٰ نهج القرآن في مثله، والتقدير: فنسهلك المكذِّبين ثم نُنجِّي رُسُلَنا والذين آمنوا. وقد قرَّر الوعد ببيان سُنَّتِهِ في ذلك، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: مَضَتْ سُنَّتُنا ـ إن استأصلنا بالعذاب الـمُصِرِّين علىٰ الكفر من أقوام الرسل ـ أن نُنَجِّيَ المؤمنين من بينهم.

---

(١) كل مَنْ آمن يُبصِرُ الحق وينظر بنور الله، وكل مَنْ لم يؤمن لا يُبصِرُ الحق ولا ينظر بنور الله. وكل مَنْ لا يبصر الحق ولا ينظر بنور الله لا تغنيه الآيات والنذر، فكل من لا يؤمن لا تُغنيه الآيات والنذر.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

ثم ختم السورة بالدعوة الفعلية إلىٰ العقيدة الإسلامية؛ مُبيِّناً حقِّيَّتها، ومُظْهِراً مزاياها التي يدعُو العقل السليم إلىٰ التمسُّك بها، مقارناً بينها وبين سَخَافة عقيدتهم ومَهانَتِها، فقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى ﴾ أي: من صِحَّة ديني الذي أدعوكم إليه، وأنه حقٌّ وما تدعون إليه باطل، فأنا متيقّن ذلك، ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ممَّن يعجز عن أمر نفسه، ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ بالموت، ثم يبعثكم فيُحاسبكم ويجازيكم. وإنما ذكر الوفاة لأنهم لا يشكُّون فيها، فأشار إلىٰ ما وراءها من الحساب، أي: إني أُخلِصُ العبادة لمن يقدر أن يفعل ذلك، لا لغيره ممَّن يعجز عن إنقاذ نفسه من الذباب.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: أُمِرتُ بأن أُقيمَ وجهيَ للدين القيِّم الذي لا عِوَجَ فيه، وأن أميلَ عن كلِّ دين سواه. والمراد: التوجُّه إليه وحده، في الدعاء والالتجاء. والدعاء مخُّ العبادة. وإنما غيَّر الأسلوب فأتىٰ بصيغة الأمر للاهتمام بمضمونه، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

ثم أردف الأمرَ بالنهي عن ضدِّه، علىٰ نهج القرآن في تقرير المعنىٰ، فقال: ﴿وَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ الذين يجعلون بينهم وبين الله حجاباً من الوسطاء والشفعاء. وهذا خطابٌ عام في شخص النبي ﷺ، علىٰ أسلوب العرب في خطاب الرؤساء بما يجب أن تفعله أُممهم. والمراد به إظهار المبالغة في تجنُّب الشِّرك.

ثم أتبعَ المعنىٰ المُجْمَلَ في النهي عن الشِّرك بالمعنىٰ المُفصَّل فيه، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أي: لا يقدر علىٰ شيء لك أو عليك، ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ لأنفسهم بهذه العقيدة الضالَّة، وبحرمانها من النعيم، وإلقائها في العذاب الأليم، وإنَّ الشِّركَ لَظُلْمٌ عظيم.

ثم قابل مَهَانةَ أولئك وعَجْزَهم بقُدرةِ الله العليَّة، وتَصَرُّفِهِ العظيم في شؤون خلقه، واختصاصه بصفات الألوهيَّة، وجَعَلَه كالتعليل لما قبله، فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بمقتضىٰ السنن الكونيَّة المقرَّرة في ذلك، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾، ولولا ذلك لأهلك الناس بذنوبهم في الدنيا قبل الأخرىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

ثم ختم البلاغ بهذا النداء الحاضِّ علىٰ الاهتداء بهذا القرآن، فقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ به ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾، لأنه ينال السعادة بهذا الاهتداء، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فإنما وبالُ ضلاله علىٰ نفسه بما ينالها من الشقاء، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: بمسيطر عليكم، أُكرِهُكُم علىٰ الإيمان به، ولكنِّي بشيرٌ ونذيرٌ لقوم يفقهون.

ثم أمره بالتثبُّت في نشر الدعوة والصبر علىٰ كلِّ ما يُصيبُه من جرَّائها حتىٰ يأتي وعد الله، فقال: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ علىٰ سُنَّته في الحكم بين المرسلين والمكذبين، ويُنْجِزَ لك ما وَعَدَك به من النصر والتأييد، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ وأصدَقُ الواعدين ومُؤيِّدُ المرسلين.

سُورَةُ هُودٍ

مكيَّة، وهي مئة وثلاث وعشرون آية

وموضوعها عينُ موضوع سورة يونس:

أصول عقائد الإسلام في الإلهيّات والنبوّات والبعث والجزاء وعمل الصَّالحات.

وقد فصَّل فيها ما أجمَلَه في سورة يونُسَ من قَصَص الرسل عليهم السلام، وتنزيل القرآن والحاجة إليه والتنويه بشأنه وتحدِّيهم به.

ثم ختمها بما يناسب السياق.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿الٓر﴾ مرَّ تفسيرها في سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها أنها للتنبيه والاهتمام بما يأتي بعدها، ومنه هنا قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: جُعلت منطبقةً علىٰ الواقع والحقيقة، مُحكَمةَ النَّظْم والتأليف، جليلةَ المعاني، بليغةَ الدلالة والتأثير، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ ببيان حقائق العقائد والأحكام والمواعظ، وسائر ما أُنزِلَ الكتابُ له من العلوم التربوية، والمعارف والفوائد الروحية، كيف لا وهو ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾؟ فكلُّ ما فيه: هدايةٌ وحِكَمٌ وعلومٌ ورشاد، بما يكفل السعادة في الدارَيْن للعباد.

ثم ذكر أعلىٰ ذلك شأناً، وهو الدعوة إلىٰ التوحيد وما إليه، فقال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾ نذيرٌ بالعذاب الأليم لِـمَنْ كفر وعصىٰ، وبشيرٌ بالنعيم المقيم لمن آمَنَ واتَّقىٰ.

ثم عطف علىٰ قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ قولَه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ في الحياة الدنيا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقبضكم فيه، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ في الحياة الأُخرىٰ، ويجازيه بما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ علىٰ

قلب بشر، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾[1] عما أدعوكم إليه، ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾، هَوْلُه شديد، وبُؤْسه مديد. أعاذنا الله.

ويجوز أن يكون هذا إنذاراً بعذاب الاستئصال في الدنيا، وأما عذاب الآخرة فقد ضمَّنه قولَه تعالىٰ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بعد موتكم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾، وليس ذلك المرجع في قدرته إلا أمراً يسيراً.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾.

وبعد أن دعا إلىٰ التوحيد، وذكَر البعثَ والجزاء، وبشَّر وأنذر، بيَّن حال المشركين عند تبليغهم الدعوة وإلزامهم بالحُجَّة، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾، وهذا تصويرٌ لما كان يحاوله بعض الكفّار والمنافقين عند سماع القرآن من الاستِخفاءِ منه بالإعراض عنه وثَنْي الصَّدر. ويجوز أن يكون ذلك منهم عند سماعهم قوارعَ التأنيب أو مجرَّدَ تمثيل لحالهم، والله أعلم، فكلمة ﴿أَلَآ﴾ لتحقيق الوقوع.

ثم بيَّن سبحانه عِلمَه الدقيقَ الواسع بهم، توعُّداً ونعياً عليهم، وجَعَله علىٰ نَسَق الكلام، فقال: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يأوون إلىٰ فراشهم، وقيل: بل المراد بذلك أن يحنيَ الشخصُ ظهرَه ويستغشي بثوبه ويُضْمِرَ همَّه في نفسه. وهذه صُورةٌ لأخفىٰ ما يحاول الرجل إخفاءه من الحال أو الكلام، وأنَّ الله سبحانه لا يخفىٰ عليه ما يُخفون، بل ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تكميلٌ للمعنىٰ، ذُكِرَ

---

(١) أي: تَتولَّوا.

للمُقايَسة وعدم الفَرْق، وليس داخلاً في صورة استغشاء الثياب. والمراد: استواء عِلمِهِ تعالىٰ بسِرِّهم وعلانيتهم علىٰ حدٍّ سواء.

ثم ذكر سبحانه من علمه ما هو أدقُّ من ذلك، فقال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ أي: بما تحويه الضمائر من التصوُّرات والهواجس.

ثم أكَّد سبحانه سَعَةَ علمه مُدْمِجاً في ذلك إحاطةَ رزقِه ودقةَ ضبطِه، علىٰ نهج القرآن في الإدماج، لأن تنظيم الرزق في هذا العدد الكبير مبنيٌّ علىٰ علم واسع وإحصاء دقيق بحيث لا يفوته شيء أين ما كان، فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ وهو عِلمُ الله الواسعُ الأزليُّ الأبديُّ السَّرْمديّ، لا يغيب عنه ما كان وما يكون وما هو كائن، يعلمه بعلم مُستمرّ لا يتجدَّد ولا ينقطع ولا يغيب.

والدابَّة: كل ما يدبُّ علىٰ الأرض من مخلوق.

وقد ذكروا للمُستقَرِّ والـمُستَودَع معانيَ بعضها علىٰ تقديرِهِ اسمَ مفعول، وبعضها علىٰ تقديرِهِ اسمَ مَكان. ومن أقوالهم: أن المراد بالمستقر: مكانُها من الأرض، والمراد بالمستودع: ما كانت فيه قبل ذلك من صُلب أو رَحِم أو بيضة أو قبل هذا الدور. ويجوز أن يراد بالمستقر: مأواها، وبالمستودع: ما تنتشر فيه. والله أعلم.

والمراد من الكتاب المبين: علم الله الواسع، أو هو كنايةٌ عن الإحصاء، سِيقَ لتقرير ما قبله، أو هو شيء استأثر الله بعلمه(١). والله أعلم.

---

(١) وهو اللوح المحفوظ، فقد روىٰ الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢: ٧٢) (١٢٥١١) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله خلق لوحاً محفوظاً من درّة بيضاء، صفحاتها من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، لله في كل يوم ستون وثلاثمئة لحظة، يخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويفعل ما يشاء». =

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

ثم أردف سَعَةَ عِلمِه تعالىٰ بسَعَة عَمَلِه وقدرته تكميلاً للسياق، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من أيام الله سبحانه وتعالىٰ في الخلق والتكوين، وليس المراد بها أيام الأرض؛ لأنها شيءٌ نتج بعد هذا الخلق. وقد مرَّ الكلام علىٰ مثل هذه الآية في سورة الأعراف[1] وغيرها، فارجع إليه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، قال أبو مسلم: العرش مصدر من قولهم: عرش يعرش عرشاً، بمعنىٰ: بنىٰ، وكلُّ بناء يُسمَّىٰ عرشاً، وبانيه يُسمَّىٰ عارشاً[2]. قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل: ٦٨] أي: يَبْنون، وقال في صفة

= ورواه الطبراني (١٠: ٣١٦) (١٠٦٠٥) في رواية أخرىٰ موقوفاً علىٰ ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧: ٩١: رجاله رجال الثقات. أقول: مثل هذا البيان لا يقال من قِبَل الرأي، فينبغي اعتماده.

(١) في الآية ٥٦ منها.

(٢) تقدَّم التعليق علىٰ قول أبي مسلم في العرش في تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف، وبيان أن الصواب إثبات العرش الذي هو مخلوق عظيم دالٌّ علىٰ عِظَمِ قدرة الله تعالىٰ وسلطانه.

القرية: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الحج: ٤٥]، والمراد: أن تلك القرية خَلَت منهم مع سلامة بنائها وقيام سقوفها.

فالمراد من قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: وكان بناؤه للسَّماوات والأرض علىٰ الماء[١].

وقيل: العرش مركز نظام الملك، مستعار من حالة ملوك المُخَاطَبين، علىٰ نهج القرآن في استعارة بعض المعاني المسندة له تعالىٰ مِنْ حالة الـمُخاطَبِين تقريباً للأفهام، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة)، ولأنه سبحانه يخاطب الناس في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم.

وقال ابن الجوزي[٢]: هذه العبارة وأمثالُها يعبِّر بها القرآن لتحقُّق الوجود لله سبحانه وتعالىٰ في الأذهان بصُورة تتناسب مع تصوُّرات الإنسان، من باب التعبير عن المعقول بصُورة المحسوس.

والمراد من الماء: ما يسمَّىٰ بالسديم في عرف علماء الفلك؛ لأنه شيءٌ بين الماء والبخار، وقد عبّر القرآن عنه تارة بالماء وتارة بالدخان تقريباً لعقولنا، والله أعلم. وهذا السديم هو أصل السماوات وما فيها والأرض وما عليها. فعلىٰ اعتبار أنَّ العرش كناية علىٰ السلطان، يكون المعنىٰ: كان سبحانه ولا شيء معه، ثم أوجد السَّديم فكان سلطانه

---

(١) بل المعنىٰ الصحيح: وكان عرش الله قبل خَلْقِهِ السماواتِ والأرضَ علىٰ الماء. والعرش: مخلوق عظيم فوق السموات السبع ومحيطٌ بها كما تقدَّم.

(٢) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (٥٠٨-٥٩٧هـ) علامة عصره بالتاريخ والحديث كثير التصانيف منها: «المدهش»، و«روح الأرواح»، و«الأذكياء وأخبارهم». «الأعلام» للزركلي (٣: ٣١٦-٣١٧).

عليه ولا شيء سواه، ثم أوجد منه سائر المخلوقات فكان عرشه عليها يُدبِّـرُ أمرها. هذا رأيي، والله أعلم. ويجوز أن يكون الفضاء مخلوقاً قبل السديم. والله أعلم.

ثم علَّل سبحانه خلقه للسماوات وما فيها والأرض وما عليها، بحكمة من حِكَم ذلك الخلق، خاصَّة بالبشر المكلَّفين، فقال: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، والقرآنُ يُعلِّل خَلْقَ الشيء بوجه ملائم للبحث من وجوهه المتعددة، أي: ليجعل ذلك وسيلة إلىٰ خلقكم واختباركم أيُّكم أحسنُ عملاً ليجازيكم علىٰ أعمالكم، يُعبِّر بهذا عمَّا لتأثير عمل الإنسان في مصيره في الآخرة، وأنَّ سعادتها وشقاءها يكونان بنسبة هذا العمل خيراً أو شراً.

وبعد أن نبَّه إلىٰ قدرة الله العظيمة الظاهرة للعيان في خلق السماوات والأرض، أنَّبَ المنكرين للبعث بقوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ ﴾ لِتُجزَوْا بأعمالكم، أنكروا ذلك علىٰ قدرة هذا الخالق العظيم، وكذَّبوا هذا القرآن الذي جاء بأمر البعث، كما حكىٰ ذلك عنهم بقوله: ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ أي: إنَّ هذا القرآن تُسْحَرُ به العقول، حتىٰ جَعَل أصحابَ محمد يُصدِّقون بالبعث. وقال القفّال[1] ما ملخَّصه: إنَّ معنىٰ الآية: إن القول بالبعث سحر مبين، أي: خديعةٌ ظاهرة البطلان، وضعتموها لمنع الناس عن لذّات الدنيا لينقادوا لكم، وليدخلوا تحت طاعتكم.

ثم عطف عليه ما يقوله هؤلاء المكذِّبون المنكرون، إذ أنذرهم الرسول ﷺ بعذاب الدنيا، وجَعَل ذلك وعيداً علىٰ إنكار الحشر، تحقيقاً لطريقة القرآن في تعقيب الوعيد للإنكار، فقال: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ أي: إلىٰ مدَّة مُعيَّنة مُقدَّرة في علم الله ﴿لَيَقُولُنَّ ﴾ مستهزئين: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ عنا؟

---

(١) هو أبو بكر الشاشي، سلفت ترجمته (٢: ٩٧).

فردَّ عليهم سبحانه متوعِّداً إيَّاهم بقوله: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي: إنَّ له يوماً يأتيهم فيه متىٰ انتهت المدة المعدودة المضروبة دونه، فيومئذ لا يَصرِفُه عنهم صارف، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ أي: وسيحيط بهم يومئذ من كل جانب ما كانوا يستهزئون به من العذاب.

ثم أردف استبطاءهم الاستهزائيَّ هذا ببيان حال الإنسان العامَّة، وطواها علىٰ تحقُّق الوعيد، وهي قنوطُه الشديدُ إذا أُنزِلَ به البلاء، وأمانُه المديد إذا بُدِّل بالرخاء، فيتكبَّر ويَتَجبَّر ويظنُّ أنَّ ما هو فيه من الخير لا شرَّ بعده ولا شقاء، يُلمِعُ بذلك إلىٰ منشأ هذا التَّبجُّح فيهم والاستهزاء. وقد ضمَّن ذلك أن صاحب هذه الطبيعة لا يتَّعظ بنعمة ولا نقمة، يردُّ بذلك علىٰ الاستبطاء، ويتوعَّدهم ضمناً بالانتزاع للنعمة، وصنَّف الإنسان صنفين، مُبيِّناً فيهما طبيعته الخلقية، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ كالصحَّة والأمن وسَعَة الرزق، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ﴾ بما يحدث من الأسباب بمقتضىٰ سُنَنِنا في الخلق والتكوين والأخذ والإعطاء؛ ييأس من عودتها، ويقنط من رَوْح الله. وأقام مَقامَ الجواب علَّته ومنشأه، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ أي: إنه في هذه الحال شديدُ اليأس من الرحمة، قَطُوعٌ للرجاء من عَوْدة تلك النعمة، كثير الكُفران لغيرها من النِّعم التي لا يزال يَتَمتَّعُ بها.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ أي: ذهب ما كان يَسُوؤني فلن يعود، ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ أي: إنه في هذه الحال لَشديدُ الفرح والمرح الذي يُـهَيِّجُه البطرُ بالنعمة، فلا يقابلها بشكر الله، فهو في حال الرخاء يَبْطَر ويكفرُ بنِعَم الله، فإذا تَبَدَّل عليه بالشدَّة يُقنِّطُه من رَوْح الله. وإذا كُشِفَتْ عنه أعرَضَ ونأىٰ بجانبه وأمن مِنْ بطش الله.

ثم استثنىٰ من جنس الإنسان فيما ذكر من حاله، المؤمنين الصابرين الصالحين، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ علىٰ ما أصابهم من الضَّرَّاء إيماناً بالله واحتساباً للأجر عنده، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حتىٰ عند الشدَّة، ولم تمنعهم منها الضرَّاء. وكذلك عند كشفها وتبديلها بالسَّرَّاء، لأنهم لا ينظرون إلىٰ الدنيا وما فيها إلا نظرهم إلىٰ المتاع الزائل الخسيس. ثم سجَّل لهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ واسعةٌ من ربِّهم تمحُو من أنفسهم ما عَلِقَ بها من ذنب وتقصير، ﴿وَ﴾ لهم كذلك ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ثم أردف هذا السياق بتهوين أمر المشركين للرسول ﷺ، وسبكه علىٰ تسليته وتثبيته، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾، وهذا التعبير لونٌ من ألوان بلاغة القرآن في شدَّة البيان، مبنيٌّ علىٰ الفرض والتقدير، يتكرَّر أمثاله في القرآن بصُور مختلفة، لا يُرادُ به حقيقة معناه، وإنما المراد هنا المبالغة في التحذير من أن يعجز ويتوانىٰ في تبليغهم إيَّاه وتكريره عليهم، نتيجة يأسه من إيمانهم. والغَرَضُ منه: الحَمْلُ علىٰ التشجيع والثبات في التبليغ بصورة شديدة من الكلام.

والمعنىٰ: لعلك إن تَحزَنْ وتَضِقْ ذَرْعاً من ﴿أَن﴾ يتعنَّتوا و﴿يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ يمتاز به عن غيره، لأن هذا أحسَنُ وأدلُّ ما يَرَوْن من نِعَم الله علىٰ الإنسان المقرَّب

منه تعالىٰ، ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يؤيِّد دعوته، إذ لا يتصوَّرون صِدقَ الرسالة إلا بمثل ذلك، فلا تَضِقْ ذَرْعاً بمثل قولهم هذا، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ وإنْ ساءهم إنذارُك وأطلق ألسنَتَهم فيك، ليس عليك هُدَاهُم، وإنما عليك دعواهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ فهو الـمُوكَّل بأمورهم والرقيبُ عليهم. وقد رَوَت الرواة أن الكفار كانوا يطالبون النبيَّ ﷺ بالمعجزات، ومن بينها: الإتيان بمَلَكٍ يُصَدِّقه، أو استنزال كنز يَغْنىٰ به، ويكون دليلاً علىٰ رعاية الله له، فلا يلتفت إليهم. ثم توحىٰ إليه الآيات يتلوها عليهم، فيسخرون منه، ويقولون: هلّا استنزلتَ كنزاً أو مَلَكاً مع هذه الآيات إن كنت تستنزلها من عند الله حقيقة. فيضيقُ صدرُه من تكذيبهم، ويكفُّ عن تلاوة الآيات عليهم أحياناً، فعاتبه الله علىٰ ذلك، وشجَّعه علىٰ عدم الاكتراث بقولهم، وأنه ليس إلا نذيراً، فيكفيه التبليغ، وعلىٰ الله أن يتولاهم بما يستحقون.

ثم تابع البيان عن تكذيبهم بالقرآن، وردِّهم بالتحدِّي، فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، وهذا معطوف علىٰ مُقدَّر، علىٰ نهج القرآن، والتقدير: أيرجعون عن غيِّهم أم يُصِرُّون ويقولون: افتراه. واختار الأستاذ الإمام[1] أن ﴿أَمْ﴾ في أول الكلام تكون للاستفهام[2]، وهو هنا للإنكار. والمعنىٰ: أيقولون أنَّ محمداً افترىٰ هذا القرآن؟

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ أي: علىٰ مثل ما فيه من تشريع دينيّ ومدنيّ وسياسيّ، وحِكَم ومواعظ وآداب، وأنباء غيبية عن الماضي والمستقبل، بمثل هذه التراكيب البديعة والأساليب العجيبة والبلاغة الحاكمة علىٰ العقول والألباب، والفصاحة المُسْتَعْذَبة في الأذواق والأسماع. ومن إعجازه: أنه يَتَلطَّفُ مع النفس الإنسانيَّة تارةً بالأداء العقلي الرقيق، وتارةً بالأداء البياني الـمُقنع، وتارةً بالبرهان الـمُلزِم الساطع.

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٥: ١٢٩).

وهذه المزايا هي الباعثة ـ والله أعلم ـ علىٰ اقتراح الإتيان بعشر سور من مثله دون سورة واحدة؛ لأنَّ التَّحدِّي باعتبار ما احتوىٰ عليه من ذلك لا يتم إلا بمثل هذا المقدار. والظاهر أنَّ المراد بالسورة جملة آيات تخصُّ موضوعاً معيَّناً، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [التوبة: ١٢٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ مُّحۡكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ [محمد: ٢٠]، وهذا هو المقدار الذي تتعارض في مثله البُلَغاء عادة، فيتماثلون أو يتفاضلون.

ولا يخفىٰ ما في قوله: ﴿مُفۡتَرَيَٰتٍ﴾ من الزيادة في النقد والسخرية بهم، وما في قوله: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من المبالغة في التَّحدِّي، وما في قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ من الزيادة والتمكين في ذلك المعنىٰ، والتفظيع في الردِّ عليهم، والتشنيع لدعواهم.

ثم ذكر النتيجة اللازمة والحُجَّة الناهضة، فقال: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، والضمير له ﷺ وللمؤمنين، لأنهم أتباعه في الأمر بالتَّحدِّي. قال أبو السعود: وفيه تنبيهٌ لطيف علىٰ أنَّ حقَّهم أن لا ينفكُّوا عنه ﷺ، ويُناصِبوا[1] معه معارضة المعارضين، كما كانوا يفعلونه في الجهاد معه. وفيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ ذلك مما يفيد الرسوخ في الإيمان والطمأنينة في الإيقان. ولذلك أدخلهم في عموم قوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾[2] الذي يعلم السِّرَّ في السماوات والأرض لا بعلم البشر، فأدخلهم في الخطاب مبالغة في التطمين.

ثم ذكر النتيجة الحاصلة فقال: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الذي أنزل هذا القرآن، إذ لا

---

(١) أي: وأن يُناصِبوا.

(٢) «تفسير أبي السعود» (٤: ١٩٢).

يقدر أحدٌ علىٰ ما يقدر عليه، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾؟ وهذا الاستفهام من باب التثبيت والترقية إلىٰ معارج اليقين.

وقيل: إنَّ الخطاب في قوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ للكفار، بدليل قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وذلك من خطاب الشخص ثم العدول إلىٰ غيره، (كما جاء في النوع الخامس عشر من المقدمة الخامسة في أنواع الخطاب في القرآن)؛ إذ من أساليبه أن ينتقل من إجراء الكلام علىٰ أمر إلىٰ إجرائه علىٰ آخر. وإذا لم يُعتبَر قولُه: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ خطاباً للكفار، نعتبر ذلك في قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وبعد أن قامت الحُجَّة القطعية علىٰ إعجاز القرآن وحقيَّة دعوة الإسلام بما يقطع ألسنة الـمُفْتَرين ويُبطِلُ معاذيرَهم، بيَّن لهم الصارف النفسي عنه، وهو إيثارهم الدنيا علىٰ الآخرة، وأوضَحَ لهم كَوْن هذا الصارف شراً لهم لا خيراً، إذ لا حظَّ لهم من حياتهم إلا شهوات الدنيا وزينتها. والإسلام يدعوهم إلىٰ إيثار الآخرة علىٰ الأُولىٰ، لأنَّ سعادتها هي السعادة الحقَّة، ويُبيح لهم الطيبات، ولكن من غير إسراف ولا إفراط، ويبيحُ الشهوات بحدود وقيود تجعلها إنسانيَّة لا حيوانية بهيمية.

وقد ألمع إلىٰ أنَّ مَنْ يخالف ذلك يناله شقاء الآخرة ويُحرَمُ من سعادتها، فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾[1] ويَصْرِفُ كل استعداده لها طلباً حيوانياً جنونياً، ولا يَصرِفُ من استعداده شيئاً للحياة الأخرىٰ، ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ وذلك حسب سُنَّته في الأسباب والمسبَّبات، فينالون منها شَأْواً لا يُستَهانُ به، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾، لأنَّ مدار ذلك علىٰ الأعمال السببية، لا علىٰ النيَّات والمقاصد الدينية.

---

(١) هذا بيان لمن لم يُسلِم رغماً عن ظهور أدلة الإسلام، فالآية تبيِّن أنَّ الله سبحانه لم يحرمه من سعادة الدنيا إذا تعاطىٰ ذلك، لأن أسباب سعادة الدنيا غير أسباب سعادة الآخرة، ولكلٍّ أسبابٌ تؤدي إليها. (المؤلف).

وتوضيح الأمر: أنَّ الله سبحانه خلق الإنسان، وقذف به إلىٰ الأرض، وركَّب فيه من القوىٰ والمواهب ما يسيطر به علىٰ قوىٰ الطبيعة، لاستثمارها والاستفادة منها، وما يستعين به علىٰ ما فوق ذلك من إصلاح الروح وتكييفها بما يُؤهِّلها للسعادة في الحياة الأخرىٰ، وأعانَهُ علىٰ ذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب والشرائع، لتوضيح الصِّراط المستقيم، فهو إنْ طَلَبَ الدِّين وحده ناله، وإنْ طَلَبَ الدِّين لذاته والدنيا تكميلاً لحياته حصَّلهما معاً، ووجد مِن قُواهُ ما يساعده علىٰ ذلك، وإن لم يُرِد إلا الدنيا وحدها بلغ مُنَاهُ منها، فإنَّ مِنَحَ الله معروضةٌ لكلِّ مَنْ طلبها بأسبابها الحقيقية، لا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر، وبَرّ وفاجر، كما قال تعالىٰ: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

ثم سجَّل سبحانه لهؤلاء الذين يريدون الحياة الدنيا وحدها، ويصرفون كلَّ استِعدادِهم لها دون الحياة الأخرىٰ، بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾، لأنهم لم يعملوا عملاً لنعيم الآخرة علىٰ الصورة الصحيحة المؤدّية إليه، حسب نظام الله تعالىٰ الذي علَّمنا إيَّاه بوحيه وشرعه، فلم تكن أعمالهم مُوصِلةً إليه، ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ أي: من أجلها، من ظاهر البر والإحسان، لأنَّ نفوسَهم قد أوغَلَ فيها الفساد، فلم يكن له تأثير في تزكيتها، كالـمَعِدة الفاسدة يدخلها الطعام الجيد فيعود رديئاً، ولأن الأعمال الصالحة إذا لم تقترن بعقيدة صالحة لم يكن لها أثر فعَّال في النفس، وكل ما كان كذلك فليس له قيمة في نظر الإسلام سوىٰ قيمة الطلاء، وهم كمَنْ يقصد أمراً ويسعىٰ إليه في غير أسبابه الموصلة، فسَعْيُه خائبٌ فاشلٌ لا مَحَالة. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ فلا ينالون به في الآخرة ثواباً، ولا يُخفِّف عنهم عقاباً، والله أعلم. والباطل يأتي بمعنىٰ: عدم النفع، وبمعنىٰ: عدم الانطباق علىٰ الواقع، وبمعنىٰ: عدم الوجود.

وفي الآية إيماءٌ إلىٰ أنَّ الإفراط في صَرْف القوىٰ الغريزية في شيء يؤدِّي إلىٰ التفريط في ضده.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ثم أتىٰ بما هو كحلقة الوصل بين السياق السابق واللاحق، فقابل بين مَنْ يهتدي ويهدي بالقرآن عن علم وبيِّنة، وبين مَنْ يكفر به ويُضَلِّل الناس عن جهل وتقليد، أو عناد وجحود، مُلمِعاً إلىٰ أنَّ الحظّ لمن جمع بين سعادة الدنيا والأُخرىٰ، أو انفرد بالأخرىٰ، فهو السعيد حقّاً، لا من انفرد بسعادة الدنيا وحدها، لأنه كفر بهذا القرآن، فقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، وهي ما حافظ عليه من نُور البصيرة الفطريَّة التي يتبيَّن بها الإنسان ويُميِّز بين الحقِّ والباطل والهدىٰ والضلال، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: ويتبع هذا النورَ الفطريَّ ويُؤيِّده نورٌ آخر إلهيٌّ منه تعالىٰ، وهو هذا القرآن. وإنما أعاد الضمير إلىٰ البيِّنة مذكَّراً باعتبار المعنىٰ، لأن المراد منها نور الفطرة.

ومحصَّل هذا: أنَّ الإنسان مَهْدِيٌّ بهدايتَيْن: هدايةِ الطبيعة، وهدايةِ الشريعة. وقيل: البينة: القرآن، والشاهد: الإنجيل الصحيح. ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو التوراة الصحيح، جاء شاهداً أيضاً، و﴿إِمَامًا﴾ مُتَّبعاً في الهدىٰ والتشريع، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن وعمل به. وشهادتُه له من وجهَيْن: تصريحه بالبشارة بنبوَّة محمد ﷺ، والتشابه فيما بين رسالة محمد وموسىٰ عليهما السلام.

ثم سجَّل لهؤلاء المهتدين بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بهذا القرآن إيمانَ معرفة وإذعـان، ويُوقنون بأنـه ما كان أن يُفْتـرىٰ من دون الله، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ الذين تحزَّبوا للصدِّ عنه من أهل مكة وزعماء قريش وأهل الكتابَيْن بعد نَسْخ كتابَيْهما ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

وبعد هذا التمهيد والبيان، أرشد بهذا الإرشاد العام الذي تضمَّنه الكلام، وقال: ﴿فَلَا تَكُ﴾ أيها المكلَّف بالإيمان به ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ وشكٍّ ﴿مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، ويجوز أن يكون الخطابُ للأمة في شخص النبي ﷺ، علىٰ أسلوب القرآن في مثل ذلك من شدة البيان.

ثم نعىٰ علىٰ المكذِّبين، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ويـجوز أن نجعل قولـه تعـالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ...﴾ جارياً علىٰ الرسول ﷺ . والمراد من البيِّنة: هي اعتقاده أن ما عنده وحيٌ من الله، يَرُدُّ علىٰ المشركين الذين يعتقدون أنّ ما عنده مُجرَّدُ هواجِسَ وخيالات، وأنَّ القرآن من صنعه . والله أعلم. والشاهد منه تعالىٰ: هو القرآن الـمُنزَّل من عند الله. وما في كتاب موسىٰ: هو ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ...﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يريد بهم الذين يؤمنون

بالتوراة علىٰ وجهها الصحيح، فلا تكن في مريةٍ منه، أي: من أمرك، فإنك علىٰ الحقِّ المبين، والله أعلم.

وبعد أن قابَلَ وفرَّق بين المؤمن بهذا القرآن والكافر به إصراراً علىٰ باطله، بيَّن مصير كلٍّ من الفريقين، وبدأ بوصف الثاني ناعياً عليه، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ في التشريع والأحكام، والعقائد والإيمان، والصفات والأفعال، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة لمحاسبتهم، وتُعرَضُ عليه أعمالهم وأقوالهم، ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ الذين يقومون بأمره للشهادة عليهم من الكرام الكاتبين والأنبياء المرسلين وصالحي المؤمنين، يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في الاعتقاد والتشريع. ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وصراطِهِ المستقيم، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يريدونها عَوْجَاء، أو يصفونها بالزيغ عن الحق، ويُشكِّكون الناس بها، ﴿وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وقد بالغ في التأكيد[1] لإفادة أنهم وإن كانوا يزعمون أنهم يؤمنون بالآخرة، فإنَّهم يؤمنون بآخرةٍ صوَّرها لهم خيالُ طواغيتهم الأوَّلين، ورؤسائهم الضَّالِّين، وأنها تُنالُ بالوسائط والقرابين، فليس هذا إيماناً بالآخرة، وإنما هو الكفر بها والضلال. هذا إذا لم يكُونوا من المنكرين لها بتاتاً، من الذين لا يؤمنون ببَعْثٍ ولا جزاء، ويقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

وقد توعَّدهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لم يكونوا مُعجِزين لله أن يعاقبهم في الدنيا، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يمنعونهم من عقابه، ولكن اقتَضَت حكمتُه البالغةُ أنْ يُؤخِّرهم إلىٰ الآخرة، وحينئذٍ ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ

(١) المبالغة في التأكيد: هي في إعادة ضمير «هم» في قوله: ﴿وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿ٱلْعَذَابُ﴾، وليس المراد من مضاعفة العذاب لهم في الآخرة: الزيادة عما يستحقّونه منه بمُقْتضىٰ سُنَّته تعالىٰ في إفسادهم لأرواحهم بكفرهم وتدسيتهم لأنفسهم؛ لأنَّ عذاب الآخرة إنما يكون جزاءً وفاقاً، ولكن المراد: تهويلُ أمر ذلك العذاب. والله أعلم.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ للقرآن والإصغاء له، كُرْهاً وإعراضاً، ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ما يُبصَرُ به من آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم الدالة علىٰ وحدانية الله وتنزيهه سبحانه، لأن مَن انطبع علىٰ ضلال لا يرىٰ ما يخالفه جديراً بالنظر والاعتبار.

ثم سجَّل ناعياً عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ إذ حَرَمُوها السعادة التي كانت مُسْتَعِدَّةً لها لو لم يُفسِدوها بالكفر والمعاصي، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ من اتِّخاذ الشفعاء عند الله.

ثم بالغ في تقرير خسرانهم لأنفسهم، فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾، واسم التفضيل هنا ليس علىٰ بابه، ولكن أتىٰ به للمبالغة في الخسران.

وكلمةُ ﴿لَا جَرَمَ﴾ تفيد التحقيق والتأكيد لما بعدها، قال الفرَّاء[١]: هي في الأصل بمعنىٰ: لا بدَّ ولا مَحالة، ثم كَثُرت فحُوِّلت إلىٰ معنىٰ القَسَم، وصارت بمعنىٰ: حقاً[٢]. ولهذا تُجاب باللام، نحو: لا جَرَمَ لأفْعَلَنَّ كذا. أي: حقاً أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

---

(١) هو أبو زكريا، يحيىٰ بن زياد بن عبد الله الديلمي (١٤٤-٢٠٧هـ) إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة. كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو، له: «المذكر والمؤنث»، و«الحدود»، و«المقصور والممدود». «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٠: ١١٨-١٢١)، و«الأعلام» للزركلي (٨: ١٤٥-١٤٦).

(٢) «معاني القرآن» للفراء (٢: ٨).

وبعد أن ذكر مصيرَ الكافرين، ذكر مصيرَ المؤمنين، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: خَشُوا واطمَأنَّت نفوسُهم بالإيمان، ولانَتْ قلوبُهم إلىٰ ذِكره، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ثم أجمَلَ المقابلةَ بين الفريقين بالتمثيل، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، ثم أردف الإنكار بالتأنيب، فقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا
مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ
بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ
فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾
وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ
أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا
تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا
يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ولما كان التكرارُ والتنويعُ في البيان أشدَّ تأثيراً علىٰ النفوس من إقامة الحُجَّة والبرهان، ولا سيما ما يَتضمَّن التهديد والتنكيل؛ أردف السياق بقصص الرسل مع المكذِّبين من أقوامهم، زيادةَ تسليةٍ له ﷺ وتأليف، وتحذيراً للمكذبين له وتخويفاً، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ بهذه الرسالة، وهي: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾، وقد تضمَّنت كلمة ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ معنىٰ العطف والشفقة عليهم.

ثم حكىٰ ما كان من جواب قومه له، بقوله: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾ أي: الذين يملؤون العَيْنَ رُوَاءً، وهم الأشراف والزعماء من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾، قالوا مُنكِرينَ عليه دعوتَه ومُـحَاجِّينَ له بما يتلخَّص في أربع شُبَه:

الأولىٰ: أنه بَشَرٌ مثلهم، وهي ما حكاه عنهم بقوله: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾، فكيف تكون رسولاً من الله؟! يقولون ذلك جاهلين أو متجاهلين تاريخ النبوات وانحصارها في البشر.

والثانية: أن الذين اتَّبعوه أراذِلُ ليسوا من أهل الفكر والبصيرة، وهي ما حكاه عنهم بقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾، أي: اتَّبعوك من دون نظر وتفكير.

والثالثة: أنه هو وخاصَّته لا يمتازون عليه بمُميّزات عظماء الرجال، وهي: القوة والجاه والمال، كما حكىٰ ذلك عنه بقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ ﴾ أنت وخاصّتُك ﴿ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ تمتازون به، كالقوة والكثرة والجاه، فيحملنا علىٰ اتِّباعكم.

والرابعة: أنكم مُؤْتَـمِرون علىٰ قَلْب الوضع وسَلْب الرياسة، وليس هناك إيمانٌ برسالة ولا اعتقاد، أي: لا خَبَرٌ جاء ولا وَحْيٌ نزل، وقد ألمع إلىٰ حكاية ذلك عنهم بقوله: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ في دَعْوىٰ الرسالة من الله، مُتوسِّلين بها إلىٰ سَلْب الرياسة ومُدَجِّلين.

فأجاب سبحانه عن مجموع تلك الشُّبَه بطريقة التداخل، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

وقد أجاب عن الشبهة الأولىٰ والرابعة بما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾، وهذا العنوان للتقرُّب والتأنيس، أي: يا أقربائي الذين أريد لهم الخير والفلاح: ﴿ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: علىٰ حُجَّة ظاهرة تُبيِّن أنَّ ما جئتكم به هو الحق من عند الله، ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ أي: خصَّني بذلك من بينكم، وهي النبوَّة وتعاليم الوحي التي هي سَبَبُ رحمة الله الخاصَّة لمن يهتدي بها، ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ وخفيت.

ثم أكمل الردّ ببيان أنَّ الله سبحانه لا يُلزِمُ الناسَ بشرائعه إلزاماً بالكُره والإجبار، ولكن بالتبليغ والإنذار، فقال: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴿٢٨﴾﴾، أي: ليس من سُنَّة الله أن يُلزِمَ الدين إلزاماً ويَقسُرَه قَسْراً، ولكن يُوحيه وحياً، فيبلغ الرسول ذلك للناس، وما علىٰ الرسول إلىٰ البلاغ.

ثم أيَّد ما تضمَّنه الكلام من إثبات نبوَّته، وألمع إلىٰ الردِّ علىٰ الشبهة الرابعة بقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾، فأكون متَّهماً عندكم بطلب المنفعة وإحراز الرياسة بهذه الدعوىٰ والدعوة، ﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ الذي أرسلني بهذا الأمر.

وقد أجاب عن الشبهة الثانية بما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾(١) لاحتقاركُم لهم ووَصْفكم إيَّاهم بالأراذل، جهلاً منكم بالمقاييس الحقَّة،

---

(١) إنَّ أقوىٰ الناس استعداداً لفهم دعوة الرسل، وأقربهم للاهتداء بها: هم الضعفاء والفقراء والمظلومون، وأعتاهم وأبعدهم عن قبولها: هم الـمُترَفون والمتكبِّرون؛ لأنهم يخشون علىٰ مراكزهم أن تنهار باتباع هذا الداعي الجديد. لذلك قال هرقل لما سأل أبا سفيان عن أتباع النبي ﷺ: «أضعفاءُ القوم يتبعونه أم رؤساؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. قال هرقل: وكذلك الرسل إنما يتبعهم ضعفاء أقوامهم قبل رؤسائهم». (المؤلف).

والقصة المذكورة جزء من حديث طويل، متفق عليه؛ رواه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣)، عن ابن عباس.

وعلىٰ سُنَّـة أكابر مُـجْرمي الكفار من جميع أقوام المرسلين، فإنَّـهم يـحتقرون أتباع الرسل.

ثم علَّل النفي بقوله: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة، أي: إنهم فائزون بلقاء الله عزَّ وجل مُقرَّبون لديه، فكيف أطرُدُهم فيخاصموني عند الله، ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وتظنُّون أنَّ الامتياز إنما يكون بالجاه والمال.

ثم تابع التعليل والتجهيل بقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾؛ إذ هو أمر عظيم، يقتضي عقاباً شديداً بمقتضىٰ عدل الله، مهما تكن صفة مَن اقترفه، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ كلَّ ذلك.

ثم أكمل الأجوبة، علىٰ طريقة القرآن في الاحتباك وسَبْك المعاني المنوَّعة علىٰ المقاصد المتعدِّدة في التركيب الواحد، فجعل الكلام محتوياً علىٰ الردِّ لسائر الشُّبه، تَصْريحاً أو إلماعاً، مُكرِّراً للمهم منها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾، وكان المشركون يظنُّون أنَّ هذه الأمور لازمة لمن كان نبياً مُرْسَلاً من الله تعالىٰ.

ومُحصَّل الرد: أنه الله سبحانه يختار رسولاً من البشر، لا علىٰ أساس مميِّزاتكم التي هي الثروة والجاه المزيف.

ثم تابع الكلام فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ من فقراء المؤمنين ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾[1] كما تقولون. وهذا لازمُ قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ ...﴾ ومطويٌّ

(١) إذا أراد الله سبحانه أن يتدارك أمة برحمته، فيعيد إليها الحياة الاجتماعية بواسطة التعاليم الإلهية، فلا يكون ذلك إلا عن طريق العامة منهم؛ لأنهم ـ لبُعدهم عن مناشئ الإصابات من الأمراض الاجتماعية ـ يكونون أبطأ تأثراً بأنواع الفساد الخلقي من الخاصَّة، فيبقىٰ فيهم من نور الفطرة، تصلح للرجوع بهم إلىٰ الحياة الاجتماعية الصحيحة، بواسطة التعاليم الإلهية. (المؤلف).

فيه. والمراد من الخير: ما وعد الله على الإيمان والهدى من سعادة الدنيا والآخرة.

ثم تـمَّم الكلام بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: إنْ كان إيمانُهم عن يقين وإخلاص، أو عن مصلحة دنيوية كما تزعمون. ﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ أي: إذ قلتُ ذلك فيهم، أو كذبتُ في دعواي للرسالة طلباً للرياسة، إني إذن ﴿لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾، ويجوز أن تكون هذه الفاصلةُ متعلِّقة بكلِّ ما تَقدَّم، أي: إني - إذا قلتُ شيئاً مما نفيتُه - إني إذن لمن الظالمين.

فلما ألزمهم بالـحُجَّة وظهرت لهم المحجَّة، ركبوا العناد بالسَّـفَاهة، على عادة المغلوبين بالحِجاج، كما حكى ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ ولم يَبْقَ عندنا شيءٌ نقوله، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من عذاب الله ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾، وهذا جواب تجبُّر وطغيان بعد أن انقطعت حُجَّتهم.

فردَّ عليهم و﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي: إنَّ ذلك بيد الله لا بيدي، فإن شاء أتاكم به ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ له، وإنْ شاء أخَّره لحكمة تقتضيه، إذ لكلِّ شيء عنده قَدْر، ولكلِّ قَدْر أجل، وما أنتم بفائتين.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ حسب سُنَّته الكونية في أنَّ المتشبِّع بالغيِّ والغرور والضلال، يفقد الاستعداد لقَبول النُّصح والهدى والرَّشاد، ويُعْرِضُ ولا يسمع في ذلك ما يقال.

ثم خوَّفهم وأنذَرهم ضمن التعليل بقوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: ومالكُ أموركم ومُدبِّـرُها ومُسيِّـرُها على سُنَّته المطَّردة في الخلق وفي طبائع الناس وما يَنْجُمُ عن نوع تربيتها من الحُسْن والقُبْح في النظر والأخلاق، وما ينبعث عن ذلك من خير أو شرّ وفساد، وإليه تُرجعون في الآخرة، فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

أما قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فهو من الجدل بالتي هي أحسن.

وقد اختلف المفسِّرون في أنها من قصَّة نوح، أم هي حكاية لقول مشركي مكة في تكذيب هذه القصص، مقرِّرة لمثيلتها السابقة في السورة؟ والفرق بينهما: أن الأُولىٰ مَطْويَّةٌ علىٰ الردِّ بطريقة النقض والإلزام بالتحدِّي، وهذه مطويةٌ علىٰ التأنيب والتَّسخيف، وقد جاءت معترضةً في قصَّة نوح.

والاعتراضُ بالجُمَلِ أثناء القصص والمواعظ وغيرهما معهودٌ في القرآن، ومن ذلك الاعتراض بالوصيَّة بالوالدين[1] أثناء موعظة لقمان لابنه، وكذلك قوله تعالىٰ في سورة طه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٣-٥٥]، فقد جاء معترضاً في المحاورة بين موسىٰ عليه السلام وفرعون.

ثم قال في «المنار» ما مُحرَّره: وللجُمَلِ والآيات المعترضة في القرآن حِكَمٌ وفوائدُ يقتضيها تلوين الخطاب، ومنها تنبيه الأذهان وتجديد النشاط في الانتقال من موضوع إلىٰ آخر، والتشويق إلىٰ سماع بقية الكلام الأول، بقطعه والانتقال إلىٰ موضوع آخر، ثم العودة إلىٰ إتمامه، وأمثال ذلك[2].

ومن المتوقع هنا أن يخطر ببال المشركين ـ عند سماع ما تقدَّم من هذه القصة ـ أنها مفتراة كما زعموا، لاستغرابهم هذا السبك في الجدال، والقوَّة في الاحتجاج، وأن يَصُدَّهم هذا عن استماع بقيتها. فيكون إيرادُ هذه الآية تجديداً للردِّ عليهم، وتنشيطاً لسماعهم بقية القصة.

---

(١) يعني: الآيتين (١٤، ١٥) من سورة لقمان.

(٢) تفسير «المنار» (١٢: ٦٠).

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

وبعد أن قطع القصة بما ذكر، عاد إلىٰ تكميلها، وذكر الحكم الفصل في قوم نوح، فقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾، وفي هذا إيذانٌ بقُرب نزول العذاب بهم.

وقبل التصريح بذلك عَجَّل بمسرَّة نوح عليه السلام، فأمره أن يتخذ السفينة المنجية له وللمؤمنين من الغرق، فقال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ وحمايتنا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ لك متىٰ تَصنعُه وكيف تَصنعُه، ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ وتطلب الرحمة بهم، ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ حيث حقَّت عليهم كلمةُ العذاب، وقُضي فيهم بالقضاء الحتم.

ثم حكىٰ ما كان من أمره بعد الإيحاء إليه بصنع الفلك، فقال: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي: وطَفِقَ يصنع الفلك كما أُمِر، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ وتَنادرُوا عليه؛ لقوله بالطوفان، ويظنُّون أنه مُصابٌ بالجنون والعَتَه. وكان يجيبهم بما حكىٰ سبحانه بقوله: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا﴾ اليوم ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ عندما يحلّ بكم العذاب والغرق ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ منّا الآن، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بعد تمام الفلك ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ بعد ذلك في الآخرة أيضاً ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ دائمٌ لا ينقطع أبداً. وسخريةُ نوح عليه السلام بهم مشاكلةٌ وليست بحقيقة، لأن ذلك ممتنع في حقِّه ﷺ، وإنما المراد بها استجهالهم.

ثم حكىٰ سبحانه دَوْرَ تنفيذ الحكم، فقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ بإهلاكهم، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ وهو إما كنايةٌ عن شدَّة الغضب عليهم، مثل: حَمِيَ الوطيس، أو كناية عن قوَّة انبعاث الماء؛ لأنَّ التنُّورَ يطلق علىٰ كُوَّة عين الماء. ولا يشترط في الكناية صحَّةُ إرادة المعنىٰ الحقيقي، كما لا يمتنع. وعليه، فيجوز أن تكون الطبيعة أثارت بركاناً فجَّر الأرض عيوناً، وأرسلت ذلك الماء، فكان ذلك اتفاق أقدار لأقدار[1]. والله أعلم.

وعلىٰ كل، فالمعنىٰ: حتىٰ إذا اشتدَّ طغيان الماء ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ ﴾ من أنواع الحيوان عدا الحيَّات وما شابهها مما تسكن خبايا الأرض وأجحارها فلا يضرها الماء[2]، والله أعلم، أو مما لا بدَّ للأرض منه ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾[3] ذكراً وأنثىٰ، كي لا ينقرض نَسْلُه بالطوفان، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الطوفان عمَّ كُرةَ الأرض، ﴿وَ﴾ كذلك

---

(١) نعم، يجوز ذلك كما يجوزُ الآخر، فيحتاج إلىٰ قرينة تدل عليه، فيبقىٰ القول الآخر أصح، وهو أن نَبْعَ الماء من أقطار الأرض إنما كان بأمر مباشر من الله تعالىٰ، لا بموافقة أقدار لأقدار، ويدل عليه سباقُ الآية وسياقُها، أما السباق فقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ فهو يُشعِرُ بالأمر المباشر الخارق للعادة والسنة الكونية، وأما السياق فقوله: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [هود: ٤٤]، فكما أن نهاية الأمر كان بالأمر المباشر فكذلك بدايته.

(٢) هذا الاستثناء فيه نظر، لأنه يخالف ظاهر لفظ الآية، ثم إن الذي لا يضر هذه الحيوانات هو الماء المعتاد، لا ماء الطوفان الذي لم يكن كسائر مياه الأرض، فهذا مما يُضعف الاستثناء أيضاً.

(٣) الظاهر أنَّ الحيوانات لما غمرها الماء طافت مذعورة وطلبت مَنْجاة، فلم تجد غير السفينة، فازدحمت عليها فأمر أن يحمل من كُلٍّ زوجين اثنين؛ لأنَّ ذلك هو الممكن لبقاء النسل. ولشدَّة اندهاشها وذعرها لم يعتدِ بعضها علىٰ بعض، أو لمعجزة من الله لنبيه ﷺ. هذا ما أراه، والله أعلم. وقيل: أُمِرَ أن يحمل من الحيوانات المنتفع بها فقط. ومن المحتمل أنَّ الحيات وبعض الحشرات التي تسكن في أجحار صغيرة من الأرض لا يقضي علىٰ كلها الماء ـ والله أعلم ـ إذ يمكنها أن تتحصَّن تحت الماء ببعض الأجحار الحصينة المسدودة. (المؤلف).

احمِلْ ﴿أَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ وهم الكفّار منهم، ﴿وَ﴾ احمِلْ ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ من قَوْمك، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾، وهذه الجملة إما للتأسيف أو لإتمام البيان، أو لهما معاً.

ثم حكىٰ ما قاله نوح عند ركوب السفينة، فقال: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾، وهذه الجملة تحتمل أن يكون قالها نوح عليه السلام عندما أمرهم بركوب السفينة، بشارةً بحفظ الله لها ولهم، وتحتمل أن يكون أمرهم بأن يقولوها كما يقولها هو تـيمُّناً ودعاء. وأتمَّ ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ يغفر الهفوات للناس برحمته الواسعة، وينجِّيهم من عذابِ مَنْ حقَّت عليه كلمةُ العذاب، فقد غفر لنا خطايانا ونجّانا من عذابه.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

ثم تابع البيان فصوَّر حال السفينة بعد ركوبهم فيها علىٰ هذا الماء الطاغي، إتماماً

لبيان رحمة الله بهم، وتصويراً لعظمته وحفظ الله لها، فقال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي: تجري بهم أثناءَ أمواج تشبه الجبال.

ثم ذكر مصير ابن نوح الذي لم يؤمن، فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ عن أهله الذين ركبوا السفينة، وعن الكفار أيضاً، فظنَّ نوح أنه نادِمٌ فقال: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ آمِن و﴿ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ المقضيِّ عليهم بالهلاك. وهكذا يملك الضلالُ النفسَ إلىٰ هذا الحد؛ لقوة انطباع الكفر والعناد فيه، فامتنع و﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ فبيَّن له أنْ ليس الأمر كما يزعم، فهو ليس بطغيان كالمعتاد، يُتَّقىٰ ضَرَرُه بما يُقدَر عليه من الأسباب، كما حكىٰ سبحانه ذلك عنه بقوله: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي: إلا مَنْ رحمه الله، فأمَرَ بحَمْلِهِ في هذه السفينة، ﴿وَ﴾ قد بدأ الماء يرتفع في أثناء هذا الحديث حتىٰ ﴿حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾، فصوَّرت وأوضحت الآية نوحاً الوالد الملهوف، يبعث النداء تِلْوَ النداء، وابنه الفتىٰ المغرور يأبىٰ إجابة الدعاء، والـموْجَةُ القويةُ العاتية تحسم الموقف في لحظة سريعة خاطفة، تجعله من الـمُغْرَقين.

وبعد أن قُضِيَ الأمرُ بإهلاك الظالمين وابتَلَع الماءُ كلَّ شيء ما عدا السفينة ومَنْ فيها، أمر الله سبحانه أمْرَ تكوين(١)، أن تعودَ الحال معتادة كما كانت، فقد حكىٰ ذلك بقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بإهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين، ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ السفينة ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أي: استقرَّت علىٰ الجبل المعروف بالجُودي بعد قليل، ويظهر أنَّ هذه المنطقة كانت هي المسكونة، والله أعلم.

---

(١) هذا محتمل، ويمكن أيضاً أن يكون أمراً حقيقياً، وهو الأوفق بسياق الآيات، والأبلغ في تقرير المعجزة. والظاهر أن قائل ذلك للسماء والأرض: مَلَكٌ من الملائكة، وخطابهما غير ممتنع، فالإدراك قوةٌ يُقدِرُ الله تعالىٰ عليها مَن شاء وما شاء من خلقه.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ من رحمة الله، أي: هَلاكاً وسُحقاً لهم، بما كان من رُسوخهم في الظلم، بإفسادهم لطبيعتهم.

ويعدُّ البلغاء هذه الآية أوجَزَ وأبلَغَ عبارة في القرآن.

ولا يبعد أن يكون أهل السفينة قد اتَّخذوا هذا الجبل مقراً لهم بعد هبوطهم عليه يعيشون فيه زرعاً وضرعاً، بعد أن انحسر عنه الماء. والله أعلم.

ثم عاد إلىٰ صفحة أخرىٰ من القصَّة، علىٰ نهج القرآن في العودة، فذكر فرعاً منها يشتمل علىٰ بيان أنَّ سنة الله في خلقه تجري علىٰ طبعها بلا مُحاباة لوليّ ولا نبي، وأن الأنبياء عليهم السلام يجوز عليهم الخطأ في اجتهادهم، ويُعَدُّ عليهم ذنباً بالنسبة إلىٰ مقامهم الرفيع ومعرفتهم الكاملة بربهم، فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ بدافع العطف والشفقة في إثر ندائه لابنه الذي تخلَّف عن السفينة، وظنَّ أنه ندم إذ رآه منعزلاً عن قومه، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ الذي وعدتَني بنَجاتهم إذ أمرتني بحَمْلهم في السفينة، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا خُلْفَ فيه، ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ بالحقِّ والعدل.

﴿قَالَ﴾ له سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذي أمرتُك أن تسلكهم في السفينة، ثم عَلَّل النفي بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أي: لأنَّ عمله غير صالح للإسلاك معك. والمراد أنه كان يعمل عمل الكافرين، والكفر يقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين، ويُوجبُ براءةَ المؤمنين منهم، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ...﴾ [الممتحنة: ٤]، فقد بيَّن سبحانه وتعالىٰ لنوح عليه السلام أنَّ المراد من الأهل: أَهْلُ دينِه منهم لا عمومهم. وقيل: إنَّ المعنىٰ: إنَّ سؤالَك إيَّاي عنه وطَلَبَك لنجاته عَمَلٌ غير صالح لا أرضاه لك.

ثم قال في «المنار» ما ملخَّصه: ويحتمل أنَّ نوحاً عليه السلام حين رأىٰ ابنَه بمعزل

عن الكفار ظنَّ أنه قد بَدَا له في كفره وجَنَح إلىٰ الإيمان، ووافق هذا الظنَّ رحمةُ الأبوة، فسأل الله أن يُحقِّقه. ولما كان هذا الاجتهاد ظنياً لا يليق بنبيّ ورسول من أُولي العزم أن يخاطب به ربَّه، عاتبه وأدَّبه عليه بقوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ صحيحٌ، ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الذين يسألون أن يبطل الله تشريعـه، أو حكمتـه وتقديره في خلقه، إجابةً لشهواتهم وأهوائهم في أنفسهم أو أهليهم أو مُحِبِّيهم.

فرهب نوح عليه السلام من ذلك الزَّجْر و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: إني أعتصم بك من أن أسألك بعد الآن ما ليس لي علمٌ صحيحٌ بأنه جائز لائق، ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾ ذنبَ هذا السؤال الذي سَوَّلَتْهُ لي رحمتي وشفقتي علىٰ ابني وطمعي برحمتك الواسعة، ﴿وَتَرْحَمْنِىٓ﴾ بقبول توبتي؛ ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ سعادتَهم الأبديَّة التي تُنال بطاعتك ورضاك[1].

وقد أُجيب من جانب الله تعالىٰ بما فيه إظهار الرضا عنه والمغفرة له والتبشير بما سيكون من أَمْره وأَمْرِ مَنْ معه، وقِسْمٍ من ذرِّيَّتِهم من الإحاطة بالخيرات والبركات والسعادة في الدنيا والآخرة، واقتصار قسم آخر من الذرية علىٰ نَيْل خيرات الدنيا وبركاتها دونَ سعادة الآخرة التي حُرِمُوها بما أفسدوا من فِطَرِهم، ومُحِقُوا من نور استعدادهم لتلك السعادة الأبديّة.

وقد حكىٰ ذلك سبحانه بما قاله لنوح عندما استوت السفينة علىٰ الجودي عائداً إلىٰ تتميم القصة، وباركه بقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ أنت ومَنْ معكم من السفينة إلىٰ الأرض ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ﴾ من المعايش وسَعَة الرزق ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ تتناسلُ ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾، ولا تزال مُمتَّعةً بالخيرات والبركات ونَيْل السعادة في الأخرىٰ لبقائهم

---

(١) تفسير «المنار» (١٢: ٧١-٧٢).

علىٰ سلامة فِطَرِهم الممنوحة لهم واستعدادهم للسبق إلىٰ تلك السعادة، ﴿وَ﴾ سيكون كذلك منهم ﴿أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الدنيا بأرزاقها وبركاتها، لعملهم بأسبابها، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ لإفسادِهِم طبائعَهُم التي كانت مُستَعِدَّةً للإيمان، وذلك السلام الربَّاني لو لم يفسدوها. وهؤلاء الأمم مثل: عاد وثمود ومَنْ لفَّ لفَّهم.

وهذا البيان إنما هو بيانٌ للبشر كلِّهم، وانقسامه إلىٰ أقسام: منهم مَنْ ينال الدنيا والآخرة، ومنهم مَنْ ينال الآخرة وحدَها، ومنهم مَنْ ينال الدنيا وحدها، ومنهم مَنْ لا ينال الدنيا ولا الآخرة؛ لأنه لم يعمل لكلٍّ واحدة منهما بمقتضىٰ التعاليم التي جاءت بها الشرائع.

ثم ختم القصة بما يُنوِّه بشأنها، ويُنبِّه إلىٰ ما فيها من الهداية والإرشاد والعلم الصحيح الدال علىٰ إثبات نبوته ﷺ، فقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ الوحي الذي نَزَل مُبيِّناً لها بهذا البيان، فمِن نَهْج القرآن أن يُبرهِنَ بهذه الحُجَّة علىٰ نبوَّته ﷺ إثر أكثر القصص التي يقصُّها عليه، حيث يبرهن بمضمونها علىٰ أنَّ هذا القرآن إنما هو من عند الله؛ لأنه يتكلم عن أمور بعيدة عن النظر، خفيَّة علىٰ البشر، وعن التأريخ المجهول لأرباب الخبر. بمعنىٰ: أنَّ الإخبار عن مضمونها إخبارٌ عن المغيّبات التي لا يُعرَفُ أمرُها صحيحاً إلا بالوحي، فيكون بيانها علىٰ هذا الوجه تصديقاً لنبوته ﷺ، وأن ما جاء به إنما هو من عند الله.

وبعد هذا البيان وختام القصّة، صرَّح بما هو الغاية من القصص، وهي تسليتُه ﷺ وتثبيتُه تجاه المعارضين، وقال له: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: فاصبر كما صَبَر نوح علىٰ قومه، فإنَّ سنَّة الله في رسله مع أقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتَّقين.

وفي هذه الخاتمة وهذه الفاصلة إشارةٌ إلىٰ أنَّ المراد من هذه القصَّة التأسِّي بنوح عليه السلام والتثبُّت تجاه مُشركي قريش، وكذلك القصص التابعة.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم قفَّىٰ علىٰ قصَّة نوح بقصَّة هود لنفس الغرض السابق في قصة نوح عليهما السلام، فقال: ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ في القومية ﴿هُودًا﴾، وفي قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ إشارةٌ إلىٰ أنه يحرص علىٰ مصلحتهم وما فيه خيرهم. فدعاهم إلىٰ الإيمان ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ الذين يُحزنني هلاكهم وشقاؤهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ولا تشركوا به شيئاً، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، فإن أفعال الألوهية وصفاتها مقتصرةٌ عليه، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ في اتِّخاذ الأنداد له والوسطاء.

ثم أيَّد دعوته بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: علىٰ هذا الإرشاد والنُّصح ﴿أَجْرًا﴾، فأكون متَّهماً عندكم بإرادة المنفعة الشخصية من وراء هذه الدعوة، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ وإياكم علىٰ الفطرة السليمة، فلم أُفسِدْها بالبدع والوثنيَّة، كما أفسدتُم فِطَرَكم.

ثم ختم الكلام بما يزيد في التنبيه، فقال: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٥١﴾ مما يكتنف دعوتي، إنها ليست لأغراض دنيويَّة، ولكنها دعوةٌ خالصة لله، والأجر العظيم فيها علىٰ الله.

ثم رغَّبهم بالماديات التي يشتدُّ شَغَفُهم بها، فقال: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ من وثنيتكم وشرككم ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾، وكانت بلادُهم الأحقافُ شديدةَ الحاجة إلىٰ المطر؛ لأنها أراضٍ رمليةٌ يُسرع إليها الجفاف، فيحتاج الزرع والشجر فيها إلىٰ كثرة المطر.

ثم أردف هذا بما كانوا يُعْنَوْنَ به عناية عظيمة، ويفخرون به علىٰ الناس، وهو القوة، فقال: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾، ثم ختم الكلام بالتحذير فقال: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عما أدعوكم إليه ﴿مُجۡرِمِينَ ۝٥٢﴾ علىٰ أنفسكم في ذلك.

وفي قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ إظهارٌ للشفقة عليهم والحرص علىٰ مصلحتهم.

ثم حكىٰ سبحانه وتعالىٰ ما كان من ردِّهم لهذه الدعوة وجحودهم للبيِّنة، فقال: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا﴾ علىٰ دعواك الرسالة ﴿بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾ المُجَرَّد وأنت بشرٌ مثلُنا، ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣﴾ أنك رسولٌ من الله، ﴿إِن نَّقُولُ﴾ في تكلُّمك بدعوىٰ الرسالة ﴿إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ وهو الجنون والهوج لإنكارك لها، وصَدِّك إيَّانا عنها.

وإنكارُهم للبيِّنة جحودُ عناد، لأن حُجَّتَه علىٰ وحدانيته تعالىٰ باختصاصه بأفعال الألوهية وصفاتها حُجَّةٌ قطعية موافقةٌ للعقل الصحيح والفطرة السليمة. وإن أرادوا بها المعجزة، فقد جاءهم بما طلبوا منها، فلم يَعتَدُّوا بها جحوداً وعناداً.

فقابل خَطَلَهم هذا وتَوَعُّدَهم المطويَّ فيه، بما حكاه سبحانه عنه بقوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ﴾ أنتم أيضاً ﴿أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ أنتم

وشركاؤكم، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: لا تُمهلوني ولا تُؤخّروا الفَتْكَ بي إن استطعتُم. وهذا جوابٌ لتَوَعُّدهم المطويّ، علىٰ نهج القرآن في الاكتفاء، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الثامنة من المقدمة الثانية)، حيثُ إنَّ القرآن يكتفي بتفصيل الجواب عمّا يُجمله في السؤال، فالكلام يدلُّ علىٰ أنهم تَوَعَّدوهُ بالإيقاع به، فأجابهم بهذا الجواب. وصورة الجواب تُؤْذِنُ بدرجة ثقة الأنبياء بالله سبحانه وتعالىٰ. ويكثر أمثال هذا الجواب عنهم عليهم الصلاة والسلام.

ثم بيَّن مصدر ثقته هذه بما هو كالتعليل، فقال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ ذلك الرَّبُّ العظيم الذي ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ تدبُّ علىٰ الأرض من أنواع المخلوقات ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ فهي تحت تصرُّفه وسيطرته وقهره، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾ في الحقِّ والعدل؛ لا يُسلِّط أهلَ الباطل من أعدائه علىٰ أهلِ الحقِّ من رُسله ومُتّبعيهم من أوليائه، ولا يضيعُ حقاً، ولا يفوته ظالم.

ثم أنذرهم بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: فإنْ تَـتَولَّوا ولم تنتهوا ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ وليس عليَّ غيـرُ البلاغ. وقد حَقَّت عليكم كلمـةُ العذاب، بإصْراركم، فسيُهلككم ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ﴾ بتولِّيكم عن الإيمان، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾﴾ ومُهَيْمِن، فكيف يضرُّه شيء؟!

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من مصيرهم واستئصالهم بالعذاب، وإنجائه هو ومَنْ آمن معه، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ خاصّة بهم، فوق العادة

من أسباب النجاة المعتادة، ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ شديدِ الفظاعة لم يُعْهَد مِثلُه، قد أصاب قوم هود.

قال في «المنار»: وأعاد فعل التنجية للفصل بين ﴿مِّنَّا﴾ التي هي صفةٌ للرحمة، وبين ﴿مِّنْ﴾ الداخلةِ علىٰ العذاب[١].

وقال الرازي ما تحريره: المراد من النجاة الأولىٰ: النجاةُ من عذاب الدنيا الذي أصاب قوم هود، وهو ما عبَّر عنه بالريح العقيم وغيرِ ذلك من التعابير الهائلة، ومن النجاة الثانية: النجاةُ من عذاب القيامة وما بعدها.

وإنما وصفه بالغِلْظة للتنبيه إلىٰ أنَّ عذابهم في الدنيا كان خفيفاً بالنسبة إليه؛ لأنَّ كلَّ عذاب دون النار عافية[٢].

ثم أجمل القصة لإعادة التحسيس، وسَبَك الكلام علىٰ التشنيع والتأنيب، فقال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ التي يُؤيِّد بها الرسل، ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ أي: جنسَهم، والجنس يتحقَّق في الواحد، أي: عَصَوْا رسولهم، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ من رؤسائهم الطغاة العُتاة، ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ يعني: عذاب الاستئصال، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ينالون لعنةً قصيَّةً وعذاباً غليظاً.

وذلك لما ذكره في موقع التعليل بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ بجُحودهم بآياته وتكذيبهم لرسله. ثم سجَّل ناعياً عليهم بقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

وتكرار كلمة ﴿أَلَا﴾ للمبالغة في التهويل، وتكرار اسمهم لزيادة التَّشنيع والتسجيل.

---

(١) تفسير «المنار» (١٢: ٩٩).

(٢) «تفسير الرازي» (١٨: ٣٦٦).

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

ثم قفَّىٰ علىٰ قصَّة هود مع قومه بقصة صالح مع قومه، فقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ في القومية ﴿صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أي: لأنَّ أفعال الألوهيَّة وصفاتها مُقتصرةٌ عليه، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾. وفي قوله: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ نسبة ما للأصل إلىٰ الفرع، والاستعمار: طلب التعمير، والاستفادة من خيراتها، وإنما نسب للفَرْع ما للأصل؛ لأنَّ عناصرَه تنتقل إليه، ويجوز أن يكون المراد بالإنشاء من الأرض: إنشاء البشر أجمعين؛ لأن النُّطَفَ تتكوَّن بواسطة الأغذية النباتية المكوَّنة من الأرض، فله عليكم هذه المنَّة، وهذا السلطان القاهر، وله فيكم هذه القدرة البالغة، ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ من اتِّخاذ الأنداد والشركاء ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ﴾ أي: كنتَ ـ قبل أن تدعونا إلىٰ تبديل ديننا ـ موضعَ رجائنا، لِـمَا لك من العقل والرأي، ولكن هذه الدعوة قد أفقدتك مركزَك بيننا، وحُسْنَ سمعتك فينا.

ثم احتجُّوا عليه بهذه الحُجَّة الواهية التي أضلَّت كثيراً من الأمم الماضية، وقالوا: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، وقد استمرُّوا أزماناً لا ينكر عليهم أحد. ثم سَنَدوا الحجَّة بقولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾، فوصفوا الشَّكَّ بالرَّيْب للمبالغة فيه.

وقد ردَّ عليهم سُخْفَهم، و﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ تُبيِّن وتُثبت صحَّة دعواي فيما أدعوكم إليه، ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ وهي الرسالة إليكم، ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ بكتمانها وترك الدعوة إليها، ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ بحضِّكم علىٰ إبقاء رجائكم فيَّ ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ أي: إيقاع في الخسران بإيثار ما عندكم علىٰ ما عند الله، واشتراء رضاكم بسخط الله، أو: فما تزيدونني بما تقولون لي غير المبالغة في نسبتكم إلىٰ الخسران.

ثم ذكر بيِّنته التي أعطاه الله إيَّاها علىٰ صدق رسالته وإنذارهم بالهلاك وعذاب الاستئصال إذا كذَّبوا بها، فقد مَضَتْ سُنَّة الله في المكذِّبين ـ إذا طلبوا آيةً كونيَّة علىٰ صدق الرسول، وأعطاهم الله إيَّاها، ثم أصرُّوا بعد ذلك علىٰ التكذيب ـ أن يستأصلهم الله بعذاب، فقال: ﴿وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ لأنها جاءت بلا وسائط وأسباب طبيعية معتادة، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ يمتحن الله بذلك طاعتَهم؛ لِيُظهِرَ للناس ولأنفسهم إصرارَهم علىٰ العصيان، فتقوم حُجَّة الله عليهم بأجْلىٰ تبيان.

وقد حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: قَتَلوها عَقِبَ ذلك الإنذار، غير مُصَدِّقين له ولا مُبالينَ بالوعيد، ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ﴾، ثم يأتيكم العذاب، ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ أي: واقعٌ لا محالة.

ثم ذكر مجيء العذاب، فقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ بإهلاكهم، ﴿نَجَّيْنَا﴾ منه ﴿صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَ﴾ هكذا نجَّيناهم ﴿مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: ذُلِّهِ ونكَالِه وما يتبعُه من سُوء الذِّكْر واللعنة والإبعاد من رحمة الله، ذلك الخزْي والنَّكال الذي أصاب المكذِّبين.

ثم استطرد بما فيه تهديدٌ لقريش وتمهيدٌ لما بعده، فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ قادرٌ علىٰ فعل مِثلِهِ بقومك إذا أصرُّوا علىٰ الجُحود.

وبعد أن عجَّل بالبيان عن نجاة صالح عليه السلام والمؤمنين من هذا العذاب، بمقتضىٰ نهج القرآن في حكم البلاغة العالية، ثم ذكر أَخْذَ الكافرين بالعذاب، فقال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾، وهي الصاعقة التي نزلت بقوم صالح، فأحدثت رَجْفةً في القلوب وزلزلةً في الأرض، وصُعق منها جميع القوم، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ﴾ أي: كأنْ لم يكونوا فيها ولم يقيموا بها، مِن: غَنِيَ بالمكان؛ إذا استقرَّ فيه وأقام، وجثم في المكان وتلبَّد فيه.

ثم ذيَّل ذلك البيان ناعياً عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ بإشراكهم به، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ من رحمة الله.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ

ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ ﴾.

ثم ذكر قصة إبراهيم مع الملائكة عليهم السلام، وما كان من أمر قوم لوط الذين لم يؤمنوا، فقال: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ الآتية، و﴿قَالُواْ﴾ له: ﴿سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ ﴾ أي: مَشْويّ بالرَّضْف، وهي الحجارة المَحْميَّة بحرِّ الشمس. وهو أنظف من المشويِّ علىٰ النار وألذُّ طَعْماً.

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ ﴾ أي: لا يأكلون منه، ﴿نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾، لأنَّ الضيفَ عادةً لا يمتنع عن الطعام إلا لريبة أو قَصْد سَيِّء، فزال ذلك عنه حيث علم أنهم ملائكة، و﴿قَالُواْ ﴾ له: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ ﴾ لإهلاكهم، وأنت ناجٍ بحفظ الله، ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ سارةُ ﴿قَآئِمَةٞ﴾ بين يديه ﴿فَضَحِكَتۡ ﴾[(١)] فرحاً بعذابهم لسيرتهم الخبيثة، ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ بن إسحاق.

فلما سمعت بهذه البشارة دفعها الحرصُ علىٰ تحقُّقها أن تستفهم كيف تُذلَّل الموانع الطبيعية العادية الموجودة فيها وفي زوجها، فأظهرت ذلك بصورة التَّعجُّب تمشياً مع خصائص اللغة في التعبير عمَّا يُخالج النفسَ من مثل ذلك، و﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ﴾، وهذا كلام أتىٰ للاستحياء والتعجُّب، أي: يا عَجَباه ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ ﴾ أي: بحَسَب العُرف والعادة.

فأجابها الملائكةُ علىٰ ظاهر كلامها، بما يتضمَّن التذكيرَ بقدرة الله علىٰ تذليل الموانع

---

(١) يجوز أن يراد به معناه الحقيقي، ويجوز أن يراد به التبسُّم أو المبالغة فيها، ويجوز أن يراد به الابتهاج، والله أعلم.

العادية وعظيم مِنَنِ الله الخاصَّة بأهل بيت النبوَّة، و﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ ﴾ أي: إنَّ رحمة الله تعالىٰ عليكم متكاثرة، وبركاته لديكم متوالية متعاقبة، وهي النبوَّة والمعجزات القاهرة للعادات، والتوفيق للخيرات العظيمة، فليس بكثيرٍ إتحافُكم بهذه الكرامة الغالية.

ثم ختم البيان بما يُلْمِعُ إلىٰ التعليل، فقال: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾ والمجيد: مَنْ لا يصدر عنه إلا ما يستحقُّ المدح والثناء، أي: إنَّ الله سبحانه مُسْتَوجِبٌ لأنواع الثناء والحمْد، حقيقٌ بأسْنَىٰ غايات الجلال والـمَجْد، لإفاضته النعم في الناس والمكرمات، وتأثيل(١) ذلك لأهل بيوت النبوات.

ثم ذكر ما كان من حِلْم إبراهيم عليه السلام وعطفه علىٰ قوم لوط لـمَّا علم بمجيء العذاب، وأدمج في طيَّات الكلام وصورة التعبير الإرشادَ له بعتاب خفي، فقال: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ ﴾ إذْ عَلِمَ أنَّ هؤلاء الضيوف ليسوا من البشر فيخاف منهم إن لم يأكلوا، وإنما هم من ملائكة العذاب لقومه، ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ في الكرامة بالولد واتِّصال النَّسْل، أخذَ ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ أي: يُجادل رُسُلَنا فيما أرسلناهم به من عقاب قوم لوط. وإنما جُعِلَت مجادلتُهم ومراجعتُهم مجادلةً له تعالىٰ، لأنَّها مجادلة في تنفيذ أمره.

ثم ذيَّل ذلك بما يدلُّ علىٰ الرضا عنه تخفيفاً لروعة العتاب، فقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾﴾، والأوَّاه: الرحيم، والحليم: هو الذي لا يتعجَّل بمجازاة من اعتدىٰ عليه، بل يتأنَّىٰ فيه ويرجو صلاحَه. وهذا كالدلالة علىٰ أنَّ جداله كان ناشئاً عن الحلم والرحمة، فأناب إلىٰ الله في ذلك.

ثم ذكر ما أجابتـه به الملائكةُ عن ذلك الجدال، فقال حكايةً عنهم: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ

---

(١) التأثيل: التأصيل، كما في «لسان العرب» (أثل).

﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدالِ في أمر قوم لوط والاسترحام لهم، ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وقُضيَ الأمر فيهم، ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ بجدال ولا شفاعة، فهو أمرٌ واقع، ما له من دافع.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ بيان ناحية أخرىٰ من القصَّة، وهي ما كان من إهراع قوم لوطٍ إليه للاعتداء علىٰ أضيافه، إذ إنَّ قصَّة لوط وقصة إبراهيم ممتزجتان ببعضها، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ بعد ذهابهم من عند إبراهيم، ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ عن احتمال ضيافتهم، لما يتوقعه من اعتداء قومه عليهم كعادتهم؛ لأنه لم يعرف أنهم ملائكة، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ شديدُ الأذىٰ.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يُهَرْوِلونَ ويُسْرعون، وقد علَّل ذلك بقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، فأشار بهذه الجملة إلىٰ أنَّ إسراعَهم كان لهذه الغاية المتأصِّلة فيهم، وهي من بلاغة القرآن في التدقيق والتلطيف للمعنىٰ، أي: وإنَّهم من قبل هذا كانوا منهمكين في عمل السيِّئات، فاتَلَفوها ولم يَبْقَ عندهم حسٌّ بقَباحتِها، ولذلك لم يَسْتَحْيوا من مجيئهم مُهْرِعين مُجاهِرين.

ثم ذكر ما كان من شدَّة امتعاض لوط عليه السلام من ذلك، فقال حكاية عنه: ﴿قَالَ﴾ لهم لوط: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يستعطفهم ويثير فيهم النَّخْوة، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، وليس هذا الكلام علىٰ حقيقته وظاهره، بل علىٰ طريقة نفي الشيء بإيجابه، وهي هنا لإظهار شدَّة امتعاضه من ذلك، وللمبالغة في إظهار تناهي خُبث ما يرومونه بأضيافه، أي: فِعلُكم هذا وطَلَبُكم له أبشَعُ وأفظَعُ من هذا الفعل إيقاعاً بي. فيكون الكلام إنكاراً عليهم بأشنع وجوه الإنكار، ولوناً من ألوان التبشيع والتفظيع، لا يُراد بعبارته حقيقةُ معناها. ويؤيِّد هذا المعنىٰ تحاشيهم وتنزيههم له بقوله الآتي: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: إننا نُنزِّهك عن ذلك ونرفع شأنك. فهذا يُؤيِّد هذا الرأي، في معنىٰ كلام لوط عليه السلام.

وقيل: إنَّ الكلام علىٰ الإرشاد، والمراد من البنات: نساء قومه، لأنَّ النبي في قومه كالوالد، أي: كفُّوا عن فعلكم هذا واكتفوا بالنساء عن الذكران، فهو الموافقُ للفطرة والغاية التي خُلِقْنَ لها، وهي بقاءُ النَّسْل، بخلاف فِعلِكم هذا. وعليه، فيكون نفيُ الحق الآتي نفياً للرغبة البالغة فيهنّ، أي: قد علمت أننا نميل إلىٰ هذا أكثر من ذاك. وصيغة التفضيل للمبالغة في الطُّهر، وليس علىٰ بابه، فلا مفهوم مخالفة لها. وهذا قول مرويٌّ عن ابن عباس(١) ومجاهد وسعيد بن جبير(٢)، أي: إنَّ غشيانكم لنسائكم هو الطُّهْرُ والموافقُ للفطرة، لا عملكم هذا القبيح المشين.

ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾، ثم زاد في التنديد والتوبيخ بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨﴾؟ أي: ذو رُشْد يعقل هذا فيُرشدكم إليه؟ ولا شك أنَّ الأمة التي تخرج إلىٰ هذا الحدِّ عن مُقْتضيات الطبيعة وسياجها، لا رشيدَ وازعاً فيها.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٠٨٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥: ٤١٤).

أما هم فقد نزَّهوه عما صَدَرَ عنه من نَفَثات صَدْرِه في أمر البنات، ولم يرتدعوا عن بُغْيتهم، و﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾.

فلما سمع منهم هذا الردَّ، ورأىٰ أن تبشيع هذه الفعلة بهذا التعبير الفظيع لم يَزِدْهم إلا إغراءً ولم يخجلهم، ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ لفعلتُ بكم ما فعلت، ﴿ أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ من أصحاب العصبيّات القويَّة؛ لنكَّلت بكم تنكيلاً. ويحتمل أن يكون قد قال لهم ذلك صراحة، أو قاله في نفسه، أو مع نفسه تألُّماً وتمنّياً، وإنَّما تَمَنَّىٰ ذلك لأنه لم يكن منهم، وإنَّما سمَّاهم قومه علىٰ المجاز، بمعنىٰ: أهل دعوته ووطنه الجديد الذي أُرسِلَ إليه، إذ هو غريب فيهم، لأنه جاء إلىٰ هذه الديار مع عمِّه إبراهيم عليهما السلام من أور الكلدانيِّين في العراق، فسكن إبراهيم أرض الكنعانيين، وسَكَن لوط مدن دائرة الأردن، وقاعدتـها سدوم. ويظنُّ كثير من الباحثين أنَّ بحيرة لوط قد غمرت موضعها بعد الخسف.

ثم حكىٰ ما كان من أمر الملائكة وإنجاء لوط مع أهله إلا امرأته، وإهلاك قومه، فقال: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ بسُوءٍ في نفسك ولا فينا. فطَمَسَ اللهُ أعيُنَهم، فلم يعودوا يُبْصِرون لوطاً ولا مَنْ معه، كما قال تعالىٰ في سورة القمر: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ [القمر: ٣٧]، فانقلبوا عُمياً يَتَخبَّطون، أو كما أعمىٰ الله قريشاً وهم حول رسول الله ﷺ في الغار يسمعهم ويراهم(١).

والظاهر أنه لم يَعلَمْهُم ملائكةً قبل أنْ قالوا له: ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾، وكان يظنُّهم

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١)، عن أنس بن مالك، أن أبا بكر الصِّدِّيق حدثه قال: نظرت إلىٰ أقدام المشركين علىٰ رؤوسنا، ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلىٰ قدميه أبصرنا تحت قدميه. فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

ضيوفاً من الناس، فخاف عليهم من شَنَاعة قومه، إذ كان هذا شأنُهم، وبعد أن عَرَّفه الملائكة بأنفسهم أمروه بقولهم: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: بطائفةٍ من الليل تكفي لتجاوز حدود هؤلاء القوم، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ وراءه لئلا يرىٰ العذاب أو يُصيبَه. ويجوز أن يكون المرادُ به مجرَّدَ الحث في السَّيْر.

ثم استثنىٰ من أهله ـ الذين أمره بالإسراء بهم تخلُّصاً من العذاب ـ امرأتَه، حيث كانت كافرة خائنة لدينه، فقال: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾.

ثم بيَّن قُرْبَ نزول العذاب بهم، رامزاً إلىٰ التعليل عن أمره بالسَّرْي ليلاً بهم، فقال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾.

ثم ذيَّل ذلك بما يكون كالجواب والتَّسلية لشدَّة تذمُّره منهم، فقال: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾، وفيه تخفيفٌ لِغَيْرة لوط. وحكمة إنجاز هذا العذاب عند الصباح: أنهم يكونون مجتمعين حينئذ في مساكنهم، فلا يفلت أحد منهم، والله أعلم.

ثم بيَّن سبحانه مُجْمَلَ صورة ذلك العذاب، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

قال في «المنار»: وسُنَّة الله في خَسْف الأرض في قطر من الأقطار: أن يَحدُثَ تحتَ تلك القطعة فراغٌ بقَدْرها، بسبب تحوُّل الأبخرة التي في جوفها، فينقلب ما فوقها إما مستوياً وإما مائلاً إلىٰ جانب من الجوانب، إن كان الفراغ تحتها أوسع[1]. وفي بعض هذه الأحوال يكون عاليها سافلها. ويجوز أن يكون معنىٰ ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أن ما كان سطحاً لها هبط وغار فكان سافلَها، وحلَّ محلَّه غيرُه من اليابسة المجاورة أو الماء.

---

(١) هذا ظنٌّ في موضع لا يُغني فيه الظن عن الحق شيئاً، فتعذيبُ الله تعالىٰ للظالمين، وإهلاكه للكافرين، لا يُقاسُ بمثل هذا مما جرت به العادة، فالمسألة معجزة غيبية لم يُطلَب منا العلمُ بكيفيتها.

والمرجَّح عند علماء طبقات الأرض: أنَّ قرىٰ لوط صارت تحت الماء المعروف ببحيرة لوط. أقول: ويعارض رأيهم هذا ظاهرُ قوله تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾، اللهم إلا أن يقال: عبَّر بهذا عن شأنها قبل أخذ البحيرة لها أو بعده، باعتبار ما كان، فذلك من خصائص اللغة، وعليه فيكون المراد نفس البحيرة، والله أعلم.

أما قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، فيجوز أن يكون ذلك قبل القلب أو في أثنائه. وفي سورة الذاريات: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]. وقال الحسن: الحجارة طين متحجِّر[١]. وقال الراغب: السِّجِّيل: حجر وطين مختلط، أصله فارسي فعُرِّب[٢]. وقيل: إنه من النار، وأصله سِجِّين، فأُبدِلَت نونه لاماً. وهذا موافق لرواية سِفْر التكوين. فإنْ صحَّ يكون من النيازك، أو من بركان من البراكين، تهيَّج في ذلك الوقت. والله أعلم[٣].

وقد وُصِفَ بقوله: ﴿مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾[٤] أي: متراكب، إذ ينزل بعضه في إثر بعض،

---

(١) لم أجده إلا في تفسير «المنار».

(٢) «المفردات» ص٣٩٨.

(٣) تفسير «المنار» (١٢: ١١٣-١١٤).

(٤) قيل: «منضود» صفة لـ«سِجِّيل»، تبين أنه متلبِّد متكاثف صُلب للغاية. ويقول علماء طبيعة الأجسام: إن مثل هذه الحجارة يحتوي علىٰ مادة معدنية تُكْسِبها صلابة وتماسكاً عظيماً بين أجزائها حتىٰ لا تتفكك بالتصادم مع الهدف المقصود، مثل: رصاصات المسدس الصغيرة المكونة من مواد معدنية ذات صلابة قوية. ونقل الرازي أنه ورد في الأخبار: أنَّ معنىٰ «مسوَّمة»: معلَّمة بخطوط حمراء. وقد ذكر علماء طبقات الأرض أن مثل هذه الحمرة تدل علىٰ أنها محتوية علىٰ خام أكسيد الحديد ذي اللون الأحمر الذي يُكْسِب الصخور التي تحويه صلابةً وكثافةً عظيمتين. ويستدل كذلك من قوتها علىٰ هذا التدمير، أنها ـ فوق صلابتها النادرة ولا بد أنَّها ـ قد كانت =

ويقع طائفةً بعد طائفة. وقد أجرىٰ هذا الوصف علىٰ السِّجِّيل مادةِ تلك الحجارة، ومثل ذلك من خصائص اللغة.

ثم تابع الوصف للحجارة نفسها، حيث أراد مفرداتها، فقال: ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي: مُعلَّمةً بعلامة خاصَّة عند ربِّك، وهذه كناية عن أنَّ كلَّ حجر منها لا تصيب إلا من أراد الله أن تصيبه، والله أعلم. والمراد: المبالغة في تمكين الإجراء وتحقيق الجزاء، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾؛ يحتمل أن يكون للتهديد، أي: وما هذه العقوبة ببعيدةٍ عن الظالـمين من قريش، ويحتمل أن يكون للتبصير، أي: وما هذه القرىٰ التي حَـلَّ بها العذاب بعيدة المسافة عن مُشركي مكة، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر: ٧٦]، وقـال تعـالىٰ: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ﴾ [الصافات: ١٣٧]. ويجوز أن يُراد به المعنيان معاً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، والله أعلم.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ

= مندفعة في سقوطها بسرعة هائلة، عندما أصابت مباني القرية فدمَّرتها. إذ يجوز أن يكون التدمير بنفس هذه الحجارة؛ لأن الواو لمطلق الجمع لا للترتيب. ويكون معنىٰ جَعْل عاليها سافلها: سقوط أعالي البناء علىٰ أسافله بنتيجة الانهدام، والله أعلم. (المؤلف).

وكلام الرازي في «تفسيره» (١٨: ٣٨٣).

وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾.

ثم قفَّىٰ علىٰ قصة لوط مع قومه بقصة شعيب مع قومه، فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ فأمرهم بتوحيد الله، و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ إذ تقتصر أفعال الألوهية وصفاتها عليه.

ثم نهاهم عن أشدِّ الرذائل التي فَشَتْ فيهم، فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: فيما تكيلون وما تزنون من المبيعات كما هي عادتكم، وكانوا تجاراً مُطفِّفين ﴿إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٢-٣].

ثم نبَّههم إلىٰ مَوْضع فضل الله فيهم؛ ليزجُرَهم بمعونة ذلك عمَّا هم عليه، فقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: بثروة واسعة في الرزق يجب أن ترفع أنفسكم عن دناءة بَخس حُقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل، فهو كفرٌ لنعمة الله عليكم بالغنىٰ والسَّعة، والواجب عليكم شكرها.

ثم حذَّرهم بقوله: ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ بكم؛ إذا أنتم أصرَرْتُم علىٰ شركِكم وكفركم بنِعَمِه. وهذا اليوم يصدق بيوم القيامة ويوم عذاب الاستئصال معاً.

ثم أمرهم بالواجب بعد أن نهاهم عن ضدِّه، علىٰ سُنَّة القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالحقِّ والعدل. وكرَّر النداء بـ﴿يَٰقَوْمِ﴾ لزيادة الاستعطاف.

ثم قَـرَنَ الأمر بما هو أعمُّ منه ومن النهي السابق، علىٰ نَهْج القرآن في تقرير الأحكام العامة إثر الأحوال الخاصَّة، فقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، فإنَّ البخس يشمل النقصَ والعَيْبَ في كلِّ شيء.

ثم أردَفَ الأمر والنهي بما يتمِّمُها ويزيد في تقريرهما علىٰ طريقة تقرير قاعدة عامة، فقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾، والعثو: الإفساد، فكلمة ﴿مُفْسِدِينَ﴾: حالٌ مُؤكِّدة له. وهذا نهيٌ عام آخر يتناول ما سبق وغيرَه، مثل قطع الطريق وتهديد الأمن والخروج علىٰ السلطان، وأمثال ذلك.

ثم خَتَم الإرشاد بما يزيده تأثيراً علىٰ النفوس، فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾، والإضافة للتكريم. يريد: ما يبقىٰ لديهم ممَّا يحصلون عليه بالطريقة المرضية عند الله، أي: ما يبقىٰ لكم بعد إيفاء الكيل والوزن من الربح، وما يبقىٰ لكم بحُسْن الأعمال من الأجر عند الله ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فإنَّ الإيمان هو الذي يُطهِّر النفس من دناءة الطمع، ويُحلِّيها بفضيلة القناعة والكرم والسخاء، ويُـرَغِّبها بالأجر والثواب.

ويجوز أن يكون الكلام حثاً علىٰ الإيمان ووعداً عليه، أي: إنْ آمنتُم فلكم عند الله بقيةٌ من الكرامة والنعيم لا يُقدَرُ قَدْرُها.

ثم أعذَرَ وأنذَرَ بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ أي: بمسيطر ووكيل، وإنما أنا مُبلِّغ ونصيح. أو المعنىٰ: ما أنا بحافظٍ نِعَمَ الله أن يزيلها عنكم.

ثم ذكر ما ردَّ به قومه عليه، فقال: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾، فردُّوا عليه دعواه من جانبيها؛ لأن الجزء الأول من الرد مُوجَّه إلىٰ دعواهم للتوحيد وعبادة الله وحده، والجزء الثاني مُوجَّه إلىٰ دعواه إياهم إلىٰ إيفاء المكيال والميزان، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم.

والمراد من الصلاة: إما معناها الحقيقي، وإما مطلق الدِّين، وإنما عبَّر بها عنه لأنها أظهر جزء فيه يرونه. والاستفهام للإنكار والاستهزاء. والمعنىٰ: أدينك هذا يأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، أو أن نتصرَّف في أموالنا بما نستطيع من حِذْقٍ واحتيال علىٰ الكسب من الناس.

ثم تابعوا الردَّ باستهزاء ثانٍ، فقالوا: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ يستهزئون ويُعَرِّضون بما يعتقدونه فيه من اتِّصافه بِضدّيها، وهما السَّفَهُ في الرأي، والغَوايةُ في الفعل بهوس الدين والصلاة، كما يقال للجاهل: إنَّك عالم، أو لمن به خبل: إنك عاقل، يُهزَأُ به ويُتَندَّر عليه.

قال الرازي: أو أن يكون المراد: إنك موصوفٌ عند نفسك وعند قومك بالحِلْم والرُّشْد، أو أنه كان مشهوراً عندهم بأنه حليم رشيد، كما كان صالح مَرْجُوّاً عند قومه قبل أن دعاهم إلىٰ التوحيد. فلما أمرهم بمفارقة طَريقتِهم قالوا له: أنت مَنْ نعرف، فكيف تنهانا عما ألفَيْنا عليه آباءَنا؟ ثم قال: وهذا الوجه أصْوَبُ الوجوه عندي. انتهىٰ[(١)].

فردَّ عليهم شعيب عليه السلام ما أوردوه عليه من ناحيتَيْه، بما حَكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أي: علىٰ حُجَّة واضحة من ربِّي فيما دعوتكم إليه، يريد النبوَّة والحكمة، ويردُّ علىٰ مقالتهم الشنعاء المقرونة بالاستهزاء في جَعْلِهم أمْرَه ونهيَه إياهم غيرَ مُستند إلىٰ سَنَد، ولكنه مُجرَّد سَفَه وهَوَس.

ثم استشهد بالواقع مِنْ وَفْرة ماله وسَعَة كَسْبه علىٰ أنَّ إيفاء الكيل والوزن أدنىٰ إلىٰ تنمية المال وعِظَم الكسب، فقال: ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، أي: بدون أن أبخَسَ حقَّ أحد أو أُطفِّف المكيال والميزان، وقد كان كثير المال.

---

(١) «تفسير الرازي» (١٨ : ٣٨٧).

ثم تابع الكلام بما يدلُّ علىٰ الإخلاص في النُّصح، فقال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ وإنما أختار لكم ما أختار لنفسي.

قال الرازي: فكأنه عليه السلام قال لهم: لـمّا اعترفتم بكمال عقلي فاعلموا أنَّ الذي أختاره لنفسي لا بدَّ أن يكون أقربَ الطُّرُق وأصْلَحها(١). وهذا القول من الرازي مَبْنِيٌّ علىٰ ما اختاره فيما سبق في معنىٰ قولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

ثم زاد الدعوة توثيقاً بقوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ ولا منفعة ذاتيّة لي بذلك. والتقييد بالاستطاعة لبيان سَعَة هذه الإرادة وبُعْدِ مَدَىٰ هذا العمل، لا للاعتذار عما ليس في وُسْعِه.

ثم قرن ذلك بالاستعانة بالله، فقال: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ
صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ
وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ
لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ
وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ
سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ
رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ
ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

---

(١) «تفسير الرازي» (١٨: ٣٨٨).

ثم أردف الإرشاد بالإنذار وبالتبصير بالعاقبة، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ زماناً ولا مكاناً ولا إجراماً. فقوله: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ مأخوذ من قولهم: جَرَمَ الذنب؛ إذا كسبه، والشقاق: شدَّة الخلاف والخصام. وقد ضمَّن (جرم) معنىٰ: حمل، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. والمعنىٰ: لا يحملنَّكم خصامُكم لي علىٰ الإصرار علىٰ الكفر، فيصيبكم ما أصاب أمثالكم من المكذِّبين.

ثم أردف التبصير والإنذار بالإرشاد، فقال: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ يقبل توبة التائبين، ويرحم المستغفرين، ويكثر المودَّة لهم بإحسانه ونِعَمِه.

فلمَّا عجزوا عن مُجادلته بالدليل والبرهان، وانقطعت حُجَّتُهم بعد هذا البيان، عَمَدوا إلىٰ السَّفاهة والطغيان، شأنَ أمثالهم عند انقطاع حُجَجِهم، كما حكىٰ عنهم ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، والفقه: الفهم الدقيق المؤثِّر في النفس الباعث علىٰ العمل، أي: ما نفهم سرَّ إبطال عبادة آلهتنا، وقُبْحَ حريَّة التصرُّف في أموالنا، وتوعُّدَنا بعذاب يصيبنا بمثل الأحداث الجويَّة التي نزلت بمن قبلنا، كأنَّ أمرها بيدك، أو كأنَّ ربَّك يصيبُ بها مَنْ تشاء، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ إنْ أردنا أن نبطش بك، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: لولا عشيرتُك الأقربون نَرعىٰ جانبهم، ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ وقتلناك شرَّ قتلة، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ وقويّ في ذاتك.

فأجابهم عن إدلالهم عليه هذا، بأنه مُعْتزٌّ بالله، لا برَهْطه، وهَدَّدهم علىٰ شِركِهم به، و﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ فأشركتم به ولم تحسبوا لبطشه حساباً، كالشيء الذي يُلقىٰ وراء الظهر، ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾، فيُحْصيه عليكم ويَجْزيكم عليه جزاءً وفاقاً.

ثم بيّن لهم أنه ماضٍ في الدعوة، غيرُ مكترث لتهديدهم، واثقٌ بنصر الله، فقال: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾ أي: علىٰ نهاية ما تتمكّنون منه، ﴿ إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ علىٰ مكانتي من دعوتكم إلىٰ التوحيد وأمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر.

ثم صرّح بالوعيد بعد التلميح، فقال: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ ﴾ أي: وانتظروا لما سيقع، إني معكم منتظر لذلك. وفي زيادة ﴿مَعَكُمۡ﴾ إظهارٌ لكمال الوثوق بعقيدته.

ثم ذكر وقوع العذاب بهم بعد أن قدّم نجاة المؤمنين بمقتضىٰ حكم البلاغة، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بعذابهم الذي أُنذروا به، ﴿نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ خاصّةٍ بهم، ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ ميّتين متلبّدين، ﴿ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾ أي: كأنْ لم يكونوا ولم يقيموا فيها.

ثم سجّل ناعياً عليهم بقوله: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ أي: هلاكاً لهم وبُعْداً من رحمة الله كما جرىٰ علىٰ ثمود.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

ثم أردف قصّة شُعيب مع قومه بقصّة موسىٰ مع فرعون وقومه، فقال: ﴿وَلَقَدۡ

أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشراف قومه، ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾﴾ أي: بذي رُشْد وهُدىٰ، بل هو الغيُّ والضلال، وسوف ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾ إلىٰ النار ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كما كانوا تابعين له في الدنيا، تَبِعُوه في الضلال ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾، وإنما عبَّر بالماضي لِتحقُّق الوقوع. ثمَّ أنّبهم ونَعَىٰ عليهم بقوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾﴾.

ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ﴾ الدنيا ﴿لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أخرىٰ لا تُقدَّر.

ثم نعىٰ عليهم مُسَمِّياً ذلك الورود رِفْداً، علىٰ طريقة التهكُّم، فقال: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾﴾، والرِّفْد: العطاء والعون للوافدين.

ثم أجمل ما تضمنَّه السياق من مصير الـمُكَذِّبين مُخاطباً بذلك النبي ﷺ، ليزيده تحسيساً بالأمر، وتسليةً عن معارضة المشركين، وتنويهاً بما في السياق من أنباء، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾﴾، فاستعمل لتلك القُرىٰ صفة الزرع، فوصف التي لها بقايا ماثلة وأطلال باقية بالقائم منه، ووصف القرىٰ العافيةَ الأثر المندرسةَ عن النظر بالحصيد. والأولىٰ مثل قرىٰ قوم صالح فهي ماثلة علىٰ قِدَم العهد بحادثتها، وذلك لأنها أراض صخرية ولم يُخْسَفْ بها. والثانية: مثل قرىٰ قوم هود ولوط.

ثم بيَّن سبحانه العدل في ذلك، فقال: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بما جرىٰ عليهم، لأنا لم نخلقهم فاسدين ضالِّين، ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ بإفسادها بالشِّرك والبغي والضلال، حتىٰ لم يَبْقَ فيها بقية من قَبول الحق وإيثار الخير علىٰ الشر، فكان ما جَرىٰ عليهم أمراً لازماً لفعلهم.

ثم قَرَنَ ذلك بالتأنيب والتجهيل والتنديم، فقال: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي: هلاك وتخسير وتدمير، وذلك باعتمادهم عليها وعبادتهم لها.

ثم ختم الكلام بما يزيد في التحسيس بما سَبَقَ من مصير المكذبين، وجعله على صورة قاعدة عامة، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾.

ثم ذكَّر بعذاب الآخرة بعد التذكير بعذاب الدنيا، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، ثم ذكر ما يجري في ذلك اليوم، زيادة في الوعظ والتنبيه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ للحساب والجزاء، ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ يشهده الخلائق كلُّهم، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: معدودٍ في علمنا، مُعيَّنٍ لدينا، لا يزيد ولا ينقص عن تقديرنا له بحكمتنا.

ثم ذكر بعض أحوال ذلك اليوم زيادةً في الوعظ والإنذار، فقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾؛ إذ لا يملك فيه أحدٌ قولاً ولا فعلاً تجاه عظمة الله.

ثم ذكر حالة تلك الأنفس، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ بالعذاب الدائم، ﴿وَ﴾ منهم ﴿سَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ بالنعيم المقيم. وقد فصَّل ذلك بقوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾، أعاذنا الله، وهذا تصويرٌ لشدَّة كربهم.

ثم بيَّن تأبيدهم فيها، فقال: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾، وهذه العبارة تستعملها العرب كنايةً عن الدوام الدائم، فجرىٰ القرآن في التعبير علىٰ حسب عُرف التخاطب، علىٰ نهجه في مثل ذلك، ولا يشترط في الكناية صحَّة المعنىٰ الحقيقي. ويجوز أن يُراد سماءُ كلٍّ من أهل النار وأهل الجنة وأرضُهم، وذلك ما فوقهم وما يستقرُّون عليه، فقد قال ابن عباس: لكلِّ جنة أرض وسماء. وروي مِثلُه عن الحسن والسُّدِّي[1].

أقول: ويجوز أن يُلمَحَ ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

ثم قرَّر هذا التأبيد بقوله: ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ علىٰ سُنَّة القرآن في تعقيب التأبيدات والقطعيات باستثناء المشيئة، لإفادة أن ذلك التأبيد أو القطع مبنيّ علىٰ النواميس التي شاءها الله بحسب الحكمة البالغة، ولو كانت الحكمة في غيرها لشاء ما به الحكمة.

فمؤدَّىٰ هذا الاستثناء: الجَزْم بما قبله، لا تقييدُه بمشيئة الله، كما يوهمه الظاهر، إلا أنَّ فيه إرشاداً إلىٰ التفويض إلىٰ الله في الأمور، وإشارةً إلىٰ أنَّ مشيئته تعالىٰ لا يغلبها أمرٌ ولا نظام؛ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ فهو إنْ شاء غيرَ ذلك فعل، ولكنْ مشيئتُه لا تتعلَّق إلا بما تقتضيه الحكمة في علمه الأزلي.

وبعد أن ذكر حال الأشقياء، ذكر حال السعداء، فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: لا يكون إلا ذلك؛ لأنه

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٢٢٩-١١٢٣٠، ١١٢٣٢).

شـاءه ربك، ولا يكون إلا ما شـاء ربك، وذلك ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ أي: دائماً غير منقطع ولا مبتور.

ثم ختم السياق بالغرض منه، وهو بيان أنَّ مصير مشركي مكة كمصير هؤلاء إن لم يؤمنوا، وسَبَكَ صورة العبارة علىٰ ما يتضمَّن زيادةَ تأكيدٍ في ذلك، بحسب عُرْفِ التخاطب في الأساليب العربية، فقال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: من عاقبة عبادة مشركي مكَّةَ ونتيجتِها الوخيمة عليهم. وهذا لونٌ من ألوان التحقيق والتوثيق، يجري علىٰ مثله القرآن، وإن لم يكن ليعتريه ﷺ المريةُ والشكُّ أبداً. ويجوز أن يكون الخطاب للأمة في شخص النبيِّ ﷺ، كما جرىٰ عُرْفُ التخاطب مع الرؤساء والزعماء، يقال للملك: إذا فعلت هذا كانت عاقبتُه كذا. والمراد: إذا فعلتْه أمَّتُك أو دولتُك.

ثم استأنف البيان عن المشركين المعارضين، فقال: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾، وفي صورة التعبير بلاغةٌ عالية في الوعيد والتندُّر الدقيق.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١١﴾.

ثم ذكَّرهم بقوم موسىٰ الذين آتاهم الكتاب فاختلفوا فيه، بغياً وتنازعاً علىٰ الرياسة مثلهم، وذكَّرهم بكلمة الله في تأخير جزائهم إلىٰ الآخرة، لأنهم لم يستحقُّوا عذاب الاستئصال في الدنيا، لإيمان بعضهم وصلاحه، فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بإنظارهم إلىٰ يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ في الدنيا، ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ أي: كفار قومك بما فيهم أهل الكتاب ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ أي: القرآن ﴿مُرِيبٖ ١١٠﴾. وعَوْدُ الضمير علىٰ ما هو معروف في الذِّهْن من خصائص اللغة.

فتوعَّدهم بقوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ منهم ﴿لَّمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ يوم القيامة، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ يُحصيها لهم ويُجازيهم عليها.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

ثم عقّب هذا السياق بسياق التحذير والإرشاد للمؤمنين، علىٰ سُنَّة القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: إذا كان أمر أولئك الأمم كما علمت، ووعيد المشركين والكافرين كما سمعت، فالزم الصراط المستقيم؛ أنت، ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ فيه بتجاوز حدوده غُلواً في الدين، فإنَّ الإفراط فيه كالتفريط، كلٌّ منهما زَيْغ عن الصِّراط المستقيم؛ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ فيجزيكم بحَسَبه.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: ولا تَستَنِدوا إلىٰ قومكم المشركين فتجعلوهم ركناً تعتمدون عليه، فتقرُّونهم علىٰ ظلمهم وتُشجِّعونهم عليه، ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾. وذهب بعض مفسِّري السلف إلىٰ أنَّ المراد: النهيُ عن الـمُداهَنة في الدِّين، والـمَيْل إلىٰ الظالمين، والرضاء بفعلهم، ومخالطتهم ومعاشرتهم.

ثم أرشدهم وهدَّدهم بقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ليس لكم مَنْ يتولّىٰ أموركم غير الله، ﴿ثُمَّ﴾ إنكم إذا اعتمدتم علىٰ الظالمين ﴿لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾، لأنه سبحانه لا ينصر مَنْ يركن إلىٰ الظالمين. فالتعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة علىٰ الغاية. ويجوز أن يكون المعنىٰ: لا أحد ينصركم من الله إن فعلتم ذلك. والله أعلم.

ثم أمرهم بأعظم العبادات التي يُستعان بها علىٰ ما ذكر من الأمر بالاستقامة

والنهي عن الطغيان وعن الركون إلىٰ الظالمين، علىٰ نهج القرآن في تعقيب المواقف الحرجة بالأمر بالصلاة. ووجَّه الخطابَ إلىٰ النبيِّ ﷺ جَرْياً علىٰ مُخاطَبة الرئيس والمرؤوسين في شخص الرئيس، أو علىٰ طريقة خطاب الخاص وإرادة العام، (كما جاء في المادة الثالثة من المقدمة الخامسة)، فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ قالوا: هذا يشمل الصبحَ والعصرَ، وأدخل بعضهم فيه الظهرَ بطريقة التوسُّع والاندماج. أما قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ فقد قالوا فيه: إنه يشمل صلاة المغرب والعشاء.

ثم علّل وجه الاستعانة بها، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، لأنَّ للأعمال الحسنة من تزكية النفس وإصلاحها ما يمحو منها تأثيرَ الأعمال السيئة وإفسادها وتسخيمها. وقد فسَّروا السيِّئات هنا بالصغائر. ثم علَّق علىٰ ما تقدَّم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: إنَّ في جميع ما ذكر من الوصايا لموعظةً للمتَّعظين الذين يراقبون الله ولا ينسونه.

ثم أمرهم كذلك بأعظم الأخلاق التي يُستعان بها علىٰ تحقيق ما مَرّ، مُخاطِباً النبيَّ ﷺ، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ أي: وَطِّنْ نفسك علىٰ احتمال المشقَّة في سبيل ما أُمِرتَ به وما نُهيتَ عنه في هذه الوصايا، وتذكَّر أجْرَ الله تعالىٰ علىٰ ذلك.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا

عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

ثم أردف السياق السابق في نزول عذاب الاستئصال في الأمم، ببيان أبرز أسبابه، وهو عدم التناهي عن الفساد واتِّباع الظالمين للشهوات، وعبَّر بصيغة التأسيف والتنديم، فقال: ﴿فَلَوۡلَا﴾ أي: فهلّا ﴿ كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ الذين أهلكناهم بظلمهم وفسادهم، واستأصلناهم لإصرارهم علىٰ الكفر؛ هلَّا كان فيهم ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ ﴾ من البصيرة والرأي والصلاح ﴿يَنۡهَوۡنَ﴾ أولئك الأقوام ﴿عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فيحول نهيُهم إياهم دون هلاكهم. كلا، لم يكن فيهم بقية من هؤلاء العقلاء الأخيار ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ باتِّباعهم هدايتنا، وكانوا منبوذين من جانب قومهم، مُهدَّدين مع رسلهم، لا يُقبَلُ أمرُهم ونهيهم، ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وهم الأكثرون منهم ﴿مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ فاستحقُّوا العذابَ الأليم. والترفُ مَفْسَدةٌ للفرد والمجتمع، يؤدي بالأمة إلىٰ الدمار، ولهذا وصف الله المترفين بالظلم والإجرام.

وقد تابع البحث ببيان أنَّ الله سبحانه لا يظلم أحداً، ولكنّ الكافرين هم الظالمون، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾، كلا، ولا يظلم ربك أحداً.

ثم أردف السياق المتضمِّن لمعارضة المكذِّبين للأنبياء والمرسلين، ببيان أنَّ أمرهم هذا لم يكن قهراً للإرادة الربانية، ولا عَجْزاً في القدرة الإلهية، ولكنه نتيجة إفساد للفطرة البشرية التي شاء الله أن يخلق الإنسان عليها بمقتضىٰ الحكمة البالغة، حيث خلق له عقلاً يتدخّل في سائر شؤونه، وجعله مطلق التصرُّف بإرادته، حسب الخطة التي يرسمها له رأيُه، وتنصرف إليها نفسُه، تلك الإرادة المتأثرة بشكل التنشئة والتربية وطابع البيئة والمحيط، ولو شاء أن يخلقه مقسوراً علىٰ فعل الخير مَجْبوراً علىٰ طاعة الله لفعل، ولكن

مشيئة الله سبحانه لا تجري جُزافاً، وإنما تجري بحسب الحِكَم والمصالح العامَّة والسُّنن الكونيَّة. وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن لا يَقسُرَ ويُحدِّد الإنسان في أعماله وتصرُّفاته كالملائكة، بل يكون واسع العلم والقدرة، حرَّ الاختيار والتصرُّف، يفعل ما يشاء، ويختار ضمن حدود مقدرته، وهذا هو معنىٰ ما جاء في الحديث: «إن الله خلق آدم علىٰ صورته»(١)، أي: ذا علم وإرادة وإيجاد؛ لأن الإنسان خُلِقَ ليَعمُرَ الأرض ويستفيد من خيراتها، والله أعلم.

وقد ألمع سبحانه وتعالىٰ إلىٰ هذا بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ أيها الرسولُ الحريصُ علىٰ إيمان قومه، الآسِفُ علىٰ إعراض أكثرهم عن إجابة دعوته واتِّباع هدايته، لو شاء ربك ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾(٢).

قال في «المنار» ما محصَّله: أي: علىٰ دين واحد بمقتضىٰ الغريزة والفطرة، لا رأيَ لهم فيه ولا اختيار. وإذن لما كانوا هم من هذا النوع من الخَلْق المسمَّىٰ بالبشر وبنوع

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١)، عن أبي هريرة.

(٢) جعلهم الله سبحانه مختاري التصرُّف في الأفعال وفي الاتجاهات العقلية؛ ليتشعَّب لهم العمل في مرافق الحياة الدنيا، فيتمّ فيهم الرقيّ والكمال المنشود لهم، ويكونوا مظهراً لأسرار خلقه المادية والمعنوية المنوطة بهم، إذ لا يتم ذلك إلا بتنوُّع وتوسُّع تفكيراتهم وتباينها، ليحظىٰ كلّ منهم بما لا يحظىٰ به الآخر، ويتم الكمال بالمجموع. ولو جعلهم أمة واحدة في نوع التفكير والاتجاه كالملائكة، لفات هذا الغرض المطلوب منهم، باعتبارهم خلفاء الأرض، يكتشفون ويستنبطون خفاياها، من كنوز واستعداد وأحوال وأوضاع، إلا أنه سبحانه لم يتركهم وشأنهم في أمر اجتماعهم وإصلاح أرواحهم، فأرسل لهم رسلاً تبيِّن لهم الخطط التي يجب أن يتَّبعوها في إصلاح حالاتهم الاجتماعية وخصائصهم الروحية، التي بها تتمّ سعادتُهم في الدارين، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها، وما ربك بظلام للعبيد. والمراد في قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ الذين يتبعون تعاليم الله سبحانه وبها يهتدون. (المؤلف).

الإنسان الذي جعله الله بمقتضىٰ حكمته خليفةً في الأرض؛ يَسْتنبط خيراتِها، ويتصرَّف بشؤونها التي لا تُحصىٰ، بل لكانوا في حياتهم الاجتماعيةِ كالنَّحل والنَّمل مقسورين علىٰ عمل محدود، وفي حياتهم الروحيَّة كالملائكة مفطورين علىٰ اعتقاد الحقِّ وطاعة الله عزَّ وجل، فلا يقع بينهم اختلاف. لكنه سبحانه لم يشأ ذلك، بل خلقهم بمقتضىٰ حِكمتِهِ كاسبين للعلم والمعرفة لا مُلهَمين، وعاملين بالاختيار وترجيح بعض المُمْكنات المتعارضة علىٰ بعض، لا مجبورين ولا مُضْطرِّين، وجعلهم متفاوتين في الاستعداد وكَسْبِ العلم والمعرفة واختلاف الاتجاه والاختيار، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ كذلك في كلِّ شيء حتىٰ في الدِّين الذي شرعه لتكميل فِطْرتهم وإزالة الاختلاف فيما بينهم، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ منهم، وهم الذين حافظوا علىٰ سلامة فطرتهم فاتَّفقوا علىٰ حكم كتاب الله فيهم. ولا يخفىٰ أن الجدال الحسن يوسِّع العلم والإدراك، ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، لأن في المجادلة الصحيحة النزيهة إظهار الحقائق[1].

ومحصَّل الكلام: أنه لم يخلقهم كبقية الحيوانات محدُودي التفكير، مُتقاربي الفهم والإدراك في حدود ضيقة، بل خلقهم في سَعَة العلم وبُعْد النظر وفَهْم الـمُدْركات، علىٰ جانب عظيم، فكانوا بحكم الطبيعة مختلفين في درجة الفهم وقوَّة الاستنباط، لأن ذلك أمرٌ طبيعيّ للعقل البشري، وفيه مجال لتقرير العلوم وتوسيعها وتوضيحها، فلذلك كانوا مُستَعدِّين للاختلاف والتفرُّق في علومهم ومعارفهم، وآرائهم وشعورهم، وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم في أعمالهم. ومنها الدين والإيمان، والطاعة والعصيان، فكانوا فريقين:

فريقاً حافظوا علىٰ سلامة فِطَرِهم واتَّفقوا في الدِّين، فجعلوا كتاب الله حَكَماً بينهم

---

(١) تفسير «المنار» (١٢: ١٦٠).

فيما اختلفوا فيه، فاجتمعت كلمتهم وكانوا أمة واحدة، فرحمهم الله بوقايتهم من شرِّ الاختلاف وغَوَائله في الدنيا، ومن عذاب الآخرة والأسباب المؤدية إليه.

وفريقاً أفسدوا فِطَرَهم بمفاسد التربية، واختلفوا في الدِّين كما اختلفوا في مصالح الدنيا ومنافعها وسلطانها، فكان بأسهم بينهم شديداً، فذاقوا عقاب الاختلاف والشقاق في الدنيا، وأعقبه جزاؤهم في الآخرة، فكانوا محرومين من رحمته بظلمهم لأنفسهم، لا بظلم منه لهم.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ التي قالها في غير المهتدين، وهي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: من عالـمَي الإنس والجن، يعني: الذين لم يهتدوا منهم بما أرسل به رسله لهداية المكلَّفين والحكم بين المختلفين. وعلىٰ هذا المعنىٰ، تكون اللام من قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ للعاقبة لا للتعليل.

ثم ختم السورة بالتنويه بما جاء فيها من العلم والهداية والتثبيت والعناية، فقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: نقصُّ عليك كلَّ نوع منها يؤدِّي إلىٰ تثبيت فؤادك في القيام بأعباء الرسالة ونَشْر الدعوة، لما فيه من زيادة العلم بسُنن الله في الأقوام، وما قاساه رُسُلهم من الإيذاء، فصبروا عليه، ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾ السُّورة أو في هذه الأنباء ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي دَعَا إليه جميع أولئك الرسل، وهو توحيد الله واتِّقاؤه، وامتثال ما يأمر به وتَرْكُ ما ينهىٰ عنه والإيمان بالبعث والجزاء، ﴿وَ﴾ هو ﴿مَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ الذين يتَّعظون بما حَلَّ بالأمم المكذِّبة من عقاب الله، ويتذكَّرون ما في ذلك، حسبما جاء في هذه السورة من عاقبة الكفر والظلم والفساد.

ثم زاده تثبيتاً بقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ واستطاعتكم من مُقاوَمة الدعوة، فسوف تَلقَونَ جزاء ذلك من العقاب والخذلان، ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

علىٰ مكانتنا واستطاعتنا من الثبات علىٰ الدعوة وتنفيذ أمر الله وطاعته، ﴿ وَٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ بنا ما تتمنَّون لنا من انتهاء أمرنا بالفشل أو غيره مما تتحدثون به، ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ ما وَعَدنا ربُّنا من النصر وظهور هذا الدِّين علىٰ الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، وإتمام نوره ولو كره المشركون، وعقاب المعاندين منهم في الدنيا بعذاب من عنده أو بأيدينا.

ثم خَتَم الختام بما يُلْمِعُ إلىٰ تحقيق ما جاء فيه من الوعد والوعيد، ويتضمَّن أنَّ وقت إنجاز ذلك من غيب الله، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، ومن ذلك: ما تنتظر من وعد الله لك ووعيده لهم، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ ليتمَّ لك ما وَعَدَك، إذ التوكُّل لا يصحُّ إلا مع معرفة الله بالعبادة والأخذ بالأسباب المستطاعة، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ أي: ما تعمله أنت والمؤمنون من عبادته والتوكُّل عليه والصبر علىٰ أذىٰ المشركين، فيُوفِّيكم جزاءه في الدنيا والأُخرىٰ، وما يعمله المشركون من الكفر والكيد لكم، فيُوفِّيهم جزاءهم كذلك، جزاءً وفاقاً.

انتهىٰ الجزء الرابع[1] بانتهاء سورة هود، ويبتدئ الجزء الخامس بابتداء سورة يوسف.

* * *

(١) حسب تقسيم المؤلف رحمه الله في الطبعة الأولىٰ لهذا الكتاب.

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام علىٰ محمد وآله أجمعين.

وبعد،

فهذا هو الجزء الخامس(١) من تفسير القرآن العظيم المسمّىٰ «أَوْلَىٰ ما قيل في آيات التنزيل». ويبتدئ بسورة يوسف، وهي مكية، وآيها مئة وإحدىٰ عشرة آية.

والغرض منها أولاً: إثبات تنزيل القرآن كسابقتها، ولكن أثبته هنا بحكاية هذه القصَّة التي لا يُمكن أُمِّياً مِثلَه أن يعلمَها بهذا الضبط والإتقان، كما قال تعالىٰ في آخرها: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ [يوسف ١٠٢].

وثانياً: بيان أنَّ النفس المطمئنَّـةَ المحافظة علىٰ جِبِلَّـتِها الناصعة والمتربية تربية صالحة، تثبت تجاه عواصف هذه الحياة، ولا تُغْريها الـمُغْريات، والنفس التي قد ساءت تربيتها، تعصف بها هذه العواصف والمُغْريات، وتُفْضي بها إلىٰ التَّسفُّل والشقاء في الدنيا والأخرىٰ.

---

(١) حسب تقسيم المؤلف في الطبعة الأولىٰ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ
ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ
نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿الٓر﴾ قد مرَّ تفسير هذه الحروف في أول سورة البقرة فارجع إليه، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارته إلىٰ ما يأتي بعدها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾، أي: إنَّ آيات هذه السورة هي آيات الكتاب المبين لما شاء الله بيانه من الحقائق.

ثم امْتَنَّ علىٰ العرب بإنزاله بلغتهم، واختيارهم لتبليغه بعد فهمه ودرايته، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾[1] معانِيَهُ ـ أيها العرب ـ وما تُرشد

(١) يقول المتخصِّصون في طبائع اللغات وشؤونها: ليست لغة تسامي اللغة العربية في أداء الأفكار العالية، والإفصاح عن أدقِّ معاني العلم الإلهي والتأثير في القلوب، فبالجمل الصغيرة منها تؤدي الموضوعات المهمة، وتكون قوية التأثير في القلوب. وهذا ما تحتاجه معاني القرآن الكريم. (المؤلف).

إليه؛ من مطالب الروح، ومدارك العقل، وتزكية النفس، وتثقيف الوجدان والحسِّ، وإصلاح الاجتماع العام؛ تلك الأمور التي تعود لصلاح الحال وسعادة المآل. ومن المعلوم أنَّ كلَّ أمة ينزل بلغتها كتابُ الشريعة يجب عليهم أن يكونوا هم الدعاةَ إليه، والناشرين تعاليمه في الأمم. وفي اختيار العرب لمهمة نشر الدعوة لأكمل شريعة ختم بها الشرائع، إيذانٌ بأنهم من خيرة البشر[1]، وقد جاء عنه ﷺ: «إنَّ الله اختار بني آدم فاختار منهم العرب، ثم اختار العرب فاختار منهم قريشاً، ثم اختار قريشاً فاختار

---

(١) إنما اختار الله سبحانه العرب دون سواهم؛ لإنزال شريعة القرآن عليهم، وانتدابهم لنشرها في العالمين؛ لِـمَا كان بهم من المزايا المؤهلة لذلك.

كانت العرب ممتازة باستقلال الفكر وسَعَة الحرية الشخصية، أيام كانت الأمم ترسف في عبودية الرياستين الدينية والدنيوية للكَهَنة والحكام، محظور عليها أن تخالف في مسألة عقلية أو عقيدة مِلِّية أو تصرُّفات مدنية أو مالية.

كانت العرب ممتازة باستقلال الإرادة في جميع الأعمال أيام كانت الأمم مذلَّلة مسخَّرة للملوك والنبلاء المالكين للرقاب والأموال، يستخدمونها كما يستخدمون البهائم، ويصرفونها كما يصرفون السوائم.

كانت العرب ممتازة بعزّة النفس وشدة البأس وقوة الأبدان وجرأة الجنان، أيام كانت الأمم مؤلفة من رؤساء أفسدهم الإسراف في الترف، ومرؤوسين أضعفهم البؤس والشظف، وسادة أبطرهم بغي الاستبداد، ومَسُودِين أذلَّهم قهرُ الاستعباد.

وكان في العرب فضيلة المساواة بين الأفراد، أيام كانت الأمم تنقسم إلىٰ طبقات بحكم القهر والاستبداد.

كانت العرب قد بلغت الكمال في فصاحة اللسان وبلاغة المقال، ودقّة التعبير عن الأغراض والمعاني، وإتقان الصنع في صَوْغ مفردات وتراكيب المباني، مما جعل لها السبق علىٰ سائر الأمم واللغات، وفي ذكر ذلك أهليةٌ كقادةٍ لنزول هذا القرآن عليهم دون غيرهم، وتكليفهم بنشره في العالمين، وجعلهم أساتذة لهم إلىٰ يوم الدين. (المؤلف).

منهم بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم، فلم أزل خياراً من خيار»[(١)].

ثم استأنف الكلام عن هذه الآيات التي هو في صدد البيان عنها، فقال: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي: بإيحائنا إليك هذه السُّورة من القرآن، ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ أي: فقد وجَّه نظراتك إلىٰ الحقِّ المبين والعلم الصحيح، ونبَّهك إلىٰ ما كنتَ غافلاً عنه ولم يَخْطُر لك ببال.

ثم شرع في بيان ذلك القصص، فقال: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في المنام ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، ثم بيَّن الصفة التي رآها عليها، فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾، فأعاد فعل الرؤية لتدلَّ علىٰ الوصف. فالأُولىٰ: تدلُّ علىٰ مُطْلق المشاهَدة، والثانية: تدلُّ علىٰ رؤيتها ساجدة. وقيل: إن إحداهما من الرؤيا، والأخرىٰ من الرؤية.

وإنمـا وصفها بالجمع المذكر السالم الذي لا يوصف به إلا العقلاء، ليشير إلىٰ أن سجودها كأنه كان عن اختيار. وقيل: إنما عبَّر بذلك؛ لأنَّ هذه الوصف ـ وهو السجود ـ خاصٌّ بالعقلاء، وكلُّ وصف خاصٍّ بالعقلاء يُجمع هذا الجمع، وإن اسْتُعمل لغير عاقل. وقيل: بل يستعمل الجمع المذكَّر في القصص دائماً؛ إذ يُنزَّل فيها غير العقلاء منزلة العقلاء.

---

(١) رواه الحاكم (٤: ٨٣)، والطبراني في «الكبير» (١٢: ٤٥٥)، و«الأوسط» (٦: ١٩٩) عن عبد الله ابن عمر، وفيه: «واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً».
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨: ٣٩٦): رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، وفيه حماد ابن واقد وهو ضعيف يعتبر به، وبقية رجاله وثِّقوا.

وقد فهم يعقوب عليهم السلام، واعتقد من هذه الرؤيا: أنَّ يوسف سيكون نبياً عظيماً ذا ظهور وسلطان، يسُودُ به أهلَه حتىٰ أباه وأمه وإخوته[1]، وخاف أن يسمع إخوتُـه ما سمعه، ويفهموا ما فهمه، فيحسدوه ويكيدوا لإهلاكه، فنهاه أن يقصَّ رُؤْياه عليهم، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾، وهذا التصغير للعطف والتَّحبُّب، يشفق عليه ويقول له: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ بوسوسة الشيطان لهم وإغوائه؛ لأنَّ الشيطان لا يضيع فرصةً مِثلَ هذه، فلا بدَّ أن ينتهزها إذا لم تُؤْخذ الحيطة منه. ومثلُ هذا يعلمه يعقوب عليه السلام، فاحتاط له بهذه الوقاية، وقرَّرها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾.

ثم شرع بتفسير الرؤيا بعد أن أوصاه بكتمها، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الشأن الرفيع الذي تمثَّل لك في رُؤْياك ﴿يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ لنفسه، ويَصْطَفيك علىٰ آلك، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ أي: الرُّؤىٰ، لتكون معجزةً لك. كما يدلُّ عليه قولُه الآتي لصاحِبَي السجن[2]، ويجوز أن يكون المراد ما هو أعمُّ من الرؤيا من كلِّ ما يوحيه إليه، فيكون المعنىٰ: ويُعلِّمك بالوحي ما لم تكن تعلم. ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بالنبوَّة والرسالة والملك والرياسة، ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ وهم أبواه وإخوته وذريته؛ لأنَّ شرف أحد أفراد العائلة العظيم شرفٌ لها. واستتبَعَ ذلك بما جعله مَرْجعاً ومُسْتنداً له في تعبير الرؤيا بهذه الصورة، فقال: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ بشرف النبوة.

وهذا التأويل من يعقوب عليه السلام بمَعُونة ما كان يعلمه من وعد الله لإبراهيم

---

(١) أقول: ومن هنا تولَّد حبُّه الشديد ليوسف، ذلك الحب الذي أغاظ إخوته عليها، وإنما أوَّل أبوه له هذا التأويل لعِلمِهِ أنَّ النبوة في هذا البيت بدعاء إبراهيم عليهم السلام. (المؤلف).

(٢) في الآية ٣٧ وما بعدها.

عليه السلام باصْطِفاءِ آله، وجَعْل النبوّة والكتاب في ذُرِّيَّته؛ إذ علم مِنْ رُؤْيا يوسُفَ عليه السلام أنه هو أحدُ الأنبياء الذين وعد اللهُ إبراهيمَ عليه السلام باصطفائهم من ذُرِّيته. فلهذا علَّل البشارة بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ أي: عليمٌ بمَن يَصْطفيه، حكيمٌ باصْطِفائه، وبإعداد الأسباب وتسخيرها له.

لذلك ازداد حبُّ يعقوب ليوسف عليهما السلام وعطفُه وحرصُه عليه، حتىٰ هاج ذلك ما كان يحذره من حسد إخوته وكيدهم له. ولاعتقاده بتحقُّق مآل رؤيا يوسف، لم يُصدِّق ما زعموه من أكل الذئب له، ولم ينقطع أمله منه، بل لم ينقص إيمانه بما أعدَّه الله له ولهم به، ولكنْ عِلمُه بذلك كان إجمالياً لا تفصيلياً. وما كان حزنه عليه إلا لفراقه، ولما جرىٰ له في هذا الفراق وصورته من آلام. وقد جاءت قِصَّتُه من أولها إلىٰ آخرها مُفصَّلةً لهذا الإجمال، تفصيلاً هو من أبدع بلاغة القرآن.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ
أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ
وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي
غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ
يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ
إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُواْ لَئِنْ
أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي
غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً
يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ
وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ
لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾.

وبعد أن قَدَّمَ مقدَّمتين:

المقدمة الأولىٰ: في صفة القرآن وكونه تنزيلاً من الله، دالاً علىٰ رسالة مَن أُنْزِل عليه، وكونه عربياً تقومُ به الحُجَّة علىٰ العرب الذين يعقلونه، وكون النبي ﷺ كان من قبله غافلاً عما جاءه فيه، لا يدري منه شيئاً. ونتيجة هذه المقدمة تأتي بعد تمام القصة في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ...﴾ [يوسف ١٠٢]، وفي ذلك حُجَّة قاطعة علىٰ أنَّ هذا القرآن تنزيلٌ من عند الله، وعلىٰ أنَّ مَنْ نزل عليه إنما هو رسول من الله.

والمقدمة الثانية: رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه فهماً إجمالياً، وحذَّره ما يُستهدَف له من كَيْد إخوته، وبشَّره بحُسْن عاقبته. ونتيجة هذه المقدمة: ما قاله لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ...﴾ [يوسف ١٠٠].

وبعد هاتين المقدمتين شرع في القصة، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ أي: الـمُتدبِّرين والباحثين، أي: لقد كان في قصَّة يوسُف وإخوته لأبيه أنواعٌ من الدلائـل علىٰ أنواع من قدرة الله، وحكمته، وتوفيق أقداره، ولُطْـفه بمن اصطفاهم من عباده، وتربيته لهم، وحُسْن عنايته بهم؛ كإفادتها: أنَّ النفس الإنسانيَّة إذا لم يفسدها صاحبها بمفاسد التربية تحافظ علىٰ نزاهتها وإطاعة ربها.

وإفادتها: أنَّ التربية الصَّالحة للنفوس تُزكِّيها تزكيةً جليلة، وتحولُ دون وصول التلويث والتدنيس إليها مهما قويت المُغْريات.

كما ألمعت إلىٰ أنَّ العاطفة تنقلب في لحظة من نقيض إلىٰ نقيض، إذا عَرَض لها ما يَصُدُّها عن ذلك، ولا سيما عواطف النساء، ولكن لا تلبث أن تعود، كما حَدَث لامرأة العزيز مع يوسُف حين انقلب حبُّها إلىٰ فَتْكٍ به عندما أعرض عن دعوتها له، وعرَّض

لها بخيانة زوجها، وهمَّت أن تقتله في تلك اللحظة، ثم عاد عليها الحب بعد ذلك الموقف الجافي، واشتدَّ بها إلىٰ حدِّ الشغف والجهار.

يَظهَرُ كلُّ ذلك للسائلين، أي: الباحثين الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها؛ لأنهم هم الذين يعقلون الآيات ويدركون مراميها.

ومن تلك الآيات: أنَّ إخوة يوسف لو لم يحسدوه لَـمَا ألقوه في غَيَابة الجبّ، ولو لم يلقوه لَـمَا وصل إلىٰ عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته أمانة يوسف وصدقه لَـمَا أَمِنَه علىٰ بيته ورزقه وأهله، ولو لم تُراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لَـمَا ظهرت نزاهته وعُرِفَ أمره بهذا الشكل العجيب، ولو لم تَخِبْ في كيدها وكَيْد صواحبها من النسوة لَـمَا أُلقي في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن لَـمَا عرفه ساقي الملك وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لَـمَا عرفه ملك مصر وعلم منه أمانةً فائقةً وعقلاً واسعاً، وقابليةً جديرة بالملك، فجعله علىٰ خزائن الأرض، ولو لم يتبوّأ هذا المنصب لَـمَا تمَّ له قولُه تعالىٰ حكايةً عن أبيه: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦].

فما من حلقة من هذه السلسلة إلا وكان ظاهرُها مُحرِقاً، وباطنُها مُشْرِقاً.

فهذه أنواع من آيات الله في القصة للسائلين، أي: للباحثين عن وقائعها الحسِّيَّة الظاهرة، وما هو أعلىٰ منها من علومها وحِكَمِها الباطنة، كعلم يعقوب بتأويل رؤيا يوسُف، وعلمه بكذبهم في دعوىٰ أكل الذئب له، ومن شهادة الله له بالعلم بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨]، ومن شمِّه لريح يوسُف منذ فَصَلت العير من أرض مصر قاصدةً أرض كنعان، ومِنْ علم يوسف بتأويل الأحاديث، ومن كَيْد الله له ليأخذ أخاه وما كان ليأخذه بشرع الملك، ومِنْ عِلمِهِ بأن إلقاء قميصه علىٰ أبيه يُعيدُه بصيراً بعد عَمَىٰ سنين كثيرة.

ففي القصَّة آيات بيِّنات، وعجائب باهرات. وفوق ذلك أنَّ كلَّ قضية خُتمت بخير، وكلَّ ضيق إلىٰ سَعَة، وكلَّ شدَّة إلىٰ رخاء.

ثم ابتدأ في سَرْد القصة وتفصيلها وحدوث ما توقَّعه يعقوب عليه السلام من وراء الرؤيا التي أمره بكتمانها حذراً من ذلك، فقال: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي: جماعة كثيرة العمل، ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ إذ يفضِّل غلامين ضعيفين من ولده لا يقومان له بخدمة نافعة علىٰ العُصْبةِ الكثيرة العَدَد والفائدة.

وكان من نتيجة هذا التنافس ما حكاه عنهم سبحانه من قولهم: ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ مجهولةً بعيدةً بحيث لا يهتدي إلىٰ العودة إلىٰ أبيه إنْ هو سَلِمَ من الهلاك، فإن فعلتُم به ذلك ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ أي: يعودُ حالكم مع أبيكم إلىٰ صلاح. وهذا المعنىٰ مَرْويٌّ عن الحسن.

ويجوز أن يكون هؤلاء الإخوة في تلك الحال لم يكونوا بلغوا الحلم، ولا توجَّه إليهم التكليف، وإن بلغوا حدَّ النفع والعمل، وقد يقع ممن قارب البلوغ من الغلمان مثل هذه الأفكار والأفعال. وهذا قول البلخي والجبائي(١)، ويُؤيِّده قراءة: (نَرْتَعْ ونَلْعَبْ) في الآية الآتية(٢).

---

(١) وهما من أئمة المعتزلة. وضعَّف الإمام الرازي في «تفسيره» (١٨: ٤٢٤) هذا القول بأنه «يبعد من مثل نبي الله يعقوب عليه السلام أن يبعث جماعة من الصبيان من غير أن يكون معهم إنسان عاقل يمنعهم من القبائح»، ثم اختار في آخر كلامه: أن «الجواب الصحيح: أنهم ما كانوا أنبياء، وإن كانوا أنبياء إلا أن هذه الواقعة إنما أقدموا عليها قبل النبوة».

(٢) وهي قراءة ابن كثير وأبي عَمرو وابن عامر. وانظر: «حجة القراءات» ص٣٥٥.

أقول: ولا تعارض في أنهم لم يبلغوا الحلم جميعُهم مع عددهم، إذ يجوز أنهم ليسوا من أم واحدة، بل من أمهات متعدِّدات، وكذلك لا تعارض له مع وعي يوسف الذي يدلُّ عليه صورة الرؤيا وقصِّها لأبيه؛ لأنَّ دَوْرَ التمييز من مثله يكون كاملاً عالياً.

وقد جاء في «مجمع البيان»: قيل لأبي جعفر[١]: أكان أولاد يعقوب أنبياء؟ فقال: لا، ولكنهم كانوا أسباطاً أولادَ أنبياء. ولم يفارقوا الدنيا إلا سعداء، تابوا وتذَّكروا ما صنعوا[٢].

وقال المرتضىٰ: لم يقم لنا حُجَّة بأن إخوة يوسف الذين فعلوا ما فعلوا، كانوا أنبياء، ولا يمتنع أن يكون الأسباط الذين كانوا أنبياء غير هؤلاء الإخوة، إذ ليس في ظاهر الكتاب أنَّ جميع إخوة يوسف فعلوا هذا.

فلما اقترحوا هذا الاقتراح في أمر إبعاد يوسف عن أبيه عليهما السلام أدركت أحدَهم رأفةُ الأخوة، فاقترح ـ إنْ هم أصرُّوا علىٰ إبعاده ـ أن يختاروا الشقَّ الثاني؛ لأنه أخفُّ الأمرين، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ إبعادَه لا محَالة، يدبِّرون هذه المكيدة وهذا التدبير بحكم منطق الصبيان الأقوياء. ويظهر أن القائل كان أوعاهم وأكبرَهم سناً، والله أعلم.

وغيابةُ الجبّ: حفرة بجانبه تكون فوق سطح الماء يدخلها من يُدلَّىٰ منه، لإخراج شيءٍ وقع فيه، أو إصلاح خللٍ عَرَض له. وعُلِمَ من التعريف بـ«أل» أنه جُبٌّ معروف

---

(١) يعني: الإمام محمد الباقر رضي الله عنه.

(٢) لم أجده.

هناك، حيث يرعون مواشيهم، وهو علىٰ طريق القوافل. والسيَّارة: جماعة المسافرين، يسيرون في الأرض للتجارة، يريد: أنهم يأخذونه حيث شاؤوا من الأقطار البعيدة.

وبعد ائتمارهم هذا واتِّفاقهم أن يجعلوه في غَيَابة الجب، كادوا لأبيهم في إرسال يوسُف معهم وتنفيذ ما ائتمروا به عليه، فقال تعالىٰ في حكاية ذلك عنهم: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: ليس فينا مَنْ يُـخِلُّ بنُصْحه ومحبته والشفقة عليه. وصورةُ التعبير تُؤْذِنُ بأنهم شاعرون بارتياب أبيهم منهم في أمر يوسف، فمهَّدوا بذلك لقولهم: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا﴾ إذ نخرج إلىٰ مراعينا ﴿يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾، وقرئ: (نَـرْتَعْ ونَـلْعَبْ)[1]. والاشتراك في اللعب لا يَبعُدُ أن يُفهَمَ من القراءة بالياء أيضاً، كما يُفهَمُ من القراءة بالنون، أي: يرتع ويلعب معنا. والرتوع: أكل ما يطيبُ لهم من البقول، مأخوذ من رتع الماشية.

ثم أكَّدوا له الوعد بالمحافظة مبالغةً في الكيد، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: من كلِّ سُوء وأذىٰ.

ثم ذكر ما كان من جواب أبيهم لهم بقوله: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي: يـحزنني فراقُـه، وأضاف إلىٰ ذلك قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ باشتغالكم، أو بلعبكم. قيل: لو لم يذكر خوفه هذا لَـمَا خطَر ببـالهم هذا العذر الذي دبَّروه، ولكن الحرص علىٰ الشيء والخوف عليه يجعل العواطف تغلب النفس والعقل، لا سيما والذئابُ كثيرة في أرضهم.

فأجابوه عمَّـا يخافه بما يَرجون أن يُطَمئِنَه، و﴿ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾، وهذا جواب شبَّان أو مَنْ يقارب الشباب من صبيان

---

(١) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر، كما سلف قريباً ص٢٨٠.

مُغْتَرِّين بقوَّتهم وعددهم ونَجْدتهم؛ لأنَّ الصبيَّ من هذا النوع يشعر بنفسه رجلاً شجاعاً.

ثم حكىٰ تنفيذ عَزْمِهم فيما ائتمروا عليه، وكذبهم في اعتذارهم لأبيهم، وما قابلهم به من تكذيب وصبر واستعانة بالله عز وجل، معتمداً علىٰ علمه الإجمالي في مستقبل يوسف من رؤياه التي رآها، فقال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ وحياً إلهامياً عند إلقائه: أنك ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ أنك أخوهم يوسف، لِـمَا يرونه عليك من فضل الله ونعمِهِ من مالٍ وجاهٍ وعزةٍ وسلطان، ولا يدرون أنه هو ذلك الضعيف الذي ألقَوْهُ في غيابة الجب. وسيتبيَّن هذا في آخر السورة عند ملاقاتهم به.

وجواب (لـمّا) محذوف، علىٰ نهج القرآن؛ إيذاناً بظهوره، أو إشعاراً بأنَّ تفصيله مما لا يُحيط به التعبير. وعلىٰ الأول؛ يجوز أن يُقدَّر: هدأ رَوْعُه واطمأنَّت نفسُه.

أما الإيحاء فلا يَبعُدُ أن يتناول مُجمَلَ ما سيكون من أمره، ولذلك صَبَر علىٰ ما جرىٰ وكتم ـ والله أعلم ـ ولكن القرآن خصَّ بالذكر هذا التنبؤ لأهميته في الواقع. والإلهام: وجدان تستيقنه النفسُ وتنساق إلىٰ ما يطلب، من غير شعور منها من أين أتىٰ. وقد هوَّن سبحانه بهذا الإيحاء مصيبته، فعلم أنها مصيبةٌ في الظاهر نعمةٌ في الباطن. وكم من النِّعم في طيَّات النِّقم! ومن مبادئَ مُحْرِقة تؤدِّي إلىٰ نهاياتٍ مُشْرِقة!

ثم ذكر ما كان من كيدهم، فقال: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ لِيُقنِعُوهُ بما يَبْغون، وقد بيَّنه بقوله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نلعب لعبة السباق، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ إذ لا يستطيع علىٰ هذه اللعبة معنا، ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ إذ أوْغَلْنا في البُعد عنه.

ثم بالغوا في إقناعه بقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: بمُصَدِّق لنا في قولنا هذا، لاتِّهامك إيَّانا بكراهة يوسُف وحسدنا له علىٰ تفضيلك إيَّاه علينا في الحُبِّ والعطف. فأنت لا تُصدِّق بقولنا هذا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

وقد عبَّر القرآن عن تمويههم وخديعتهم ومكرهم بهذه العبارة الفذَّة الدالة علىٰ كلِّ ذلك، فقال: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، والعربُ تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة في الوصف. وإنما قال: ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ ليصوِّر للقارئ والسامع أنه موضوع وَضْعاً مُصنَّعاً. وقد رُوي عنه عليه السلام أنه قال لهم: «هذا الذئب لم يترك في قميص يوسف أثراً لِـمخْلَبٍ ولا ناب!»[1]؛ يُريهم بهذا القول موضع كذبهم، ثم ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زيَّنت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[2] حتىٰ اقترفتموه، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لا

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (١٥: ٥٨٠): قال يعقوب: إن كان هذا الذئب لرحيماً! كيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه؟.

(٢) تُؤذن الآية أنَّ يعقوب عليه السلام أدرك يقيناً من تصنيع الدم ومن علمه الإجمالي في مستقبل يوسف أن ما يدَّعونه غير صحيح، ولذلك لا بُعْدَ أن قد ضايقهم في استكشاف الواقع، والغالب أنهم أقرُّوا بالصحيح دون تأخير، وعليه فلا بد أنْ قد أرسل علىٰ عَجَل مَنْ يُخرِجُه من غيابة الجب، ولكنهم لم يروه هناك، إذ قد أعقبت السيَّارة الحادث وأخرجته بعد قليل وأخفته. ويجوز عندما جاؤوا يكون كان يوسُف قد أخرج وهم لا يدرون. هذه الاحتمالات لا يعارضها السياق، وليس من شأن القرآن أن يفصِّل مثل ذلك، ولكنه ينتقل في القصص من أمر هام إلىٰ مثله ويترك الفراغ للذهن، يستنبطه السامع من أحوال الاجتماع وطبيعة الإنسان.
وهذا التحرير يلائم قوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟...﴾ [يوسف: ٨٧]؛ لأنه يفهم من ظاهره أن كذبة أكل الذئب لم تعلق في نفس يعقوب ولم يكترث بها في حينه، إلا أنَّ عمل السيارة بما كان فيه من صدفة جادَّة وسرعة إخفاء، كان له دور خطير في تطوير الحادث، ولذلك توعَّدهم سبحانه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩]. هذا ما أراه، والله أعلم. (المؤلف).

أشكو فيه إلىٰ أحدٍ، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ مِنْ أمرِ هذه المصيبة، ولا يزكّىٰ الذهبُ إلا بالنار، ولا المؤمن إلا بالـمِحَنِ الكبار.

وهذا هو الفصل الأول من قصّة يوسُف، وفيه من الآيات: إرشاد إلىٰ وجوب عناية الوالدين بأمر الأولاد، وتربيتهم علىٰ المحبَّة بينهم والعدل فيهم، واتِّقاء وقوع الحسد والتباغض فيما بينهم.

ومنه: اجتناب تفضيل بعضهم علىٰ بعض بما يعُدُّه المفضول إهانةً له ومُحاباةً لأخيه، وقد نهىٰ عن ذلك النبي ﷺ وعدَّه جَوْراً[١].

ومنه: سلوك سبيل الحكمة في تفضيل مَنْ فضّل الله بالمواهب الكسبية الفطرية، كمكارم الأخلاق والتقوىٰ والعلم والذكاء، وما نهىٰ يعقوبُ عليه السلام يوسفَ عن قَصِّ رُؤْياه علىٰ إخوته إلا من علمه بما يجب في ذلك، حفظاً لعواطفهم، ولكن الإنسان لا يملك قلبه. وقوةُ الحوادث وسرعتُها وظروفُها قد تغلب التدبير، ويكون لها أثر بالغ خطير.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ

---

(١) يشير إلىٰ الحديث المتفق عليه؛ الذي رواه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣)، عن النعمان بن بشير قال: أعطاني أبي عطية، فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضىٰ حتىٰ تشهد رسول الله ﷺ، فأتىٰ رسول الله ﷺ، فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟» قال: لا، قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» قال: فرجع، فرد عطيته.

غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

وأما الفصل الثاني من القصة؛ فيبيِّن مصيرَ يوسف بعد ذلك، واستعباده، وحادثته مع امرأة العزيز، وما يتبع ذلك. وقد بدأه سبحانه بقوله: ﴿وَجَآءَتْ﴾ ذلك المكانَ ﴿سَيَّارَةٌ﴾ علىٰ وزن جوَّالة وكشَّافة، وهي: قافلة التجارة، ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ أي: الذي يأتي لهم بالماء، ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ في ذلك الجبّ، فأبصره في الغَيَابة، فاستَبْشَر، فنزل عليه وأخذه، أو أدلىٰ دَلْوَه فتعلَّق به يوسف. والأول أظهر، وعندما رآه الوارد ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾، يُبشِّر نفسَه أو جماعةَ السيَّارة أو مَنْ كان علىٰ البئر منهم.

وكلمة: ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾ تَـتَبادر ممَّن يفاجئه السرور بلُقَطة ثمينة.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أي: أخفَوْهُ عن الناس لئلا يَدَّعيَه أحد من أهل المكان، وليكون بضاعةً لهم من جملة تجارتهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾، وهذه العبارة تدلُّ علىٰ الإنكار الشديد والوعيد الرهيب والعمل الفظيع في حادثة يوسف عليه السلام. أي: بما يعمل أهل هذه السيارة وما يعمله إخوة يوسف، وحكمة الله تعالىٰ فيه فوق ذلك، فكم لله من ألطاف خفيَّة تَدِقُّ عن الأفهام، وتَقصُرُ عن حماها الأوهام!

وكلمة: «أسَرُّوهُ» تُؤْذِن بأنَّ هناك طلباً له وتفتيشاً من جانب أبيه، ولكنَّ السيَّارة أخْفَته عليهم وأنكرته، ولا يَبعُدُ أن يتناول هذا الإسرار يوسف نفسه، فقد أخفَوْا عليه ما سيصنعون به من البيع بضاعة، وربما ذكر يوسفُ أمْرَهُ لهم وقالوا: نعيدك إلىٰ أبيك. وأبعدوه عن أعين الطالبين، والله أعلم.

وقيل أيضاً في معنىٰ ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾: إنَّ الوارد ومَنْ كان علىٰ البئر منهم اتَّفقوا

علىٰ أن يُخفُوا أمْرَه عن السيارة، ويخبروهم بأنَّ أهل الماء جعلوه بضاعةً عندهم، علىٰ أن يبيعوه لهم بمصر.

ثم ذكر ما كان من بيعه واستبعاده، فقال: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يقال: شَرَىٰ الشيء؛ أي: باعه، ويقال: اشتَراه، أي: ابتاعه. والمعنىٰ: باعوه بثمن زهيد، ومِثْلُه لا يُثَمَّن، ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ يَبْغُون الخلاصَ منه لئلا يظهر مَنْ يطالبهم به.

ثم ذكر عنايةَ من اشتراه به، حيث تفرَّس فيه النَّجابة ومَخايل النبوغ، وقد حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ وهو العزيز، بعد أن اختبَر سلوك يوسُفَ واطَّلع علىٰ ما فيه من نَجَابة وعُلوّ فطنة وسُمُوِّ أخلاق، قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ بأن يكون كواحدٍ منا لا كالعبيد والخدم. وعلَّل ذلك بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ بعد شبابه بالقيام ببعض شؤوننا الخاصَّة، أو شؤون الدولة العامة، لِـمَا يلوح عليه من مخايل الذكاء والنباهة، ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فيكونَ قرَّة عينٍ لنا ووارثاً لمجْدنا ومالنا، إذا تمَّ رُشْدُه وصَدَقت فراستي في نجابته.

وفُهِمَ من هذا الأمل والرجاء: أنَّ العزيز لم يكن له ولد، وما كان يرجو أن يكون له ولد. وقد روي أنه كان رجاؤه هذا كرجاء امرأة فرعون في موسىٰ، وكانت صالحة مُلهَمة. وأما العزيز فكان ذكياً صادق الفراسة، فاستدلَّ من كمال خلق يوسُف ونجابة ملامحه وعُلوِّ أخلاقه ونبوغ ذكائه وحُسْن خلاله، علىٰ أن حُسْنَ عشرته وكَرَمَ وفادته وشَرَفَ تربيته خيرٌ متمِّم لحُسْنِ استعداده الفطري.

ثم نبَّه سبحانه وتعالىٰ إلىٰ ما في إلهام الله لهذا العزيز بعناية يوسف من الحِكَم البالغة والتدابير الخفية، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: وعلىٰ هذا

النَّحو من التدبير والتسخير جَعَلنا ليوسف مكانةً عاليةً في أرض مصر، كان هذا العطف عليه والرجاء فيه من هذا العزيز مبدأها، وإن تقمَّصت الأسباب بثياب مُكْفَهِرّةِ اللون مُتَجَهِّمةِ الظاهر، فإنَّ فيها من التجارب والتدريب النفسي ما جعله مُستعدّاً لعظائم الأمور والقيام بالدعوة إلىٰ الله.

وقولُه: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ معطوفٌ علىٰ مقدَّر، علىٰ نهج القرآن، والمراد منه: تعبير الرؤيا ومعرفة حقائق الأمور بالعقل والإلهام، مما ينتهي به إلىٰ الغاية من هذا التمكين. ويجوز أن يكون المراد ما هو أعمُّ من ذلك، فيتناول كلَّ ما سَيُوحيه إليه سبحانه، فيكون المعنىٰ: ولنُعلِّمَه بالوحي ما لم يكن يعلم، ونُنجيه من كلِّ مأزق.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ فلا يُغْلبُ علىٰ شيءٍ منه، بل يقع كما يريد، فكلُّ ما وقع ليوسُفَ من إخوته ومن مُشْتَرِقِّيه وبائعيه، ومن توصية الذي اشتراه لامرأته بإكرام مَثْواه، وما وقع له مع هذه المرأة، وفي السجن، كلُّ ذلك قد كان من أسباب ما أراد الله تعالىٰ من تمكينه في الأرض، وإن كان ظاهره علىٰ خلاف ذلك، فكثيرٌ مما ظاهره مُحْرِق باطنُه مُشْرِق، والعكس جارٍ بحسب الحِكَمِ والمصالح، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾، بل يأخذون بظواهر الأمور.

ثم بيَّن صِدْقَ فراسة هذا الوزير ضمن بيان امتنان الله تعالىٰ علىٰ يوسُفَ عليه السلام، وذلك علىٰ نهج القرآن في إيجاز الإدماج، فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ جمع شِدَّة، مثل: أنعُم جمع نِعمة، وذلك باستكمال نموِّه البدنيّ والعقليّ، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قيل: المراد من الحكم: الحكمة، وقيل: المراد النبوَّة. ويجوز أن يُراد: ما سيؤول إليه أمْرُه من السلطان في الدولة، والله أعلم. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ الذين لم يُدنِّسوا فِطرتَهم، ولم يُدَسُّوا أنفسَهم بالإساءة في أعمالهم وإفساد عقائدهم.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم شرع في بيان حادثة يوسف مع امرأة العزيز؛ بياناً لنزاهته وكمال أخلاقه، فقال: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾[1]، وفي قوله: ﴿هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ إشارتان: الأولىٰ: سبب شدَّة مَيْلها له، والثانية: تَسلُّطها

(١) يظنُّ بعض علماء النفس: أنَّ ما يسمونه الأفعال المنعكسة يعمل في النفس عملَه دون سيطرة عليه أو قدرة علىٰ كفِّه، وذلك كرغبة الإنسان ومَيْله الشديد إلىٰ الشيء، أو الأمر الذي يحبه حباً جماً إذا رآه أو تهيأ له وقدر عليه، فلا يتمكن من كفِّ نفسه عنه وحفظها منه، ولاسيما إذا كان المَيْل إليه طبيعياً فطرياً. والصواب: أنَّ في قدرة الإنسان السيطرة علىٰ هذا الموقف بسهولة، إذ لم يكن قد أفسد إرادته بجريانه مع هواه من أول نشأته، وبعدم تربيته علىٰ تحمُّل ما لا يحب في العاجل لينال به الخيرَ في الآجل، فإن هو أفسدها استبدَّت به واستولت عليه، وإن هو نمَّاها علىٰ طبيعتها الصحيحة وثبَّتها علىٰ ترك الحب العاجل للخير الآجل، أوقَفَها عند حدِّها وعوَّدها علىٰ ذلك، فاستَسْلَمَت وانقادت. وهذا هو المراد من إرجاع جميع الأسباب إلىٰ اتِّباع الهوىٰ، لأنَّ من يتعوَّد علىٰ اتِّباع هواه حتىٰ يسيطر عليه ويستبدَّ به لا يتمثَّل له النفع الآجل، كما يستحوذ عليه الميل العاجل؛ لضعف نفسه وخَوَرِ إرادته عن مقاومة هواه. (المؤلف).

عليه بحكم السيادة. وجملة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أفصَحُ عبارة تدلُّ علىٰ الغرض والطلب في هذا الموضوع، أي: أقبِلْ إلىٰ ما هو مُهيَّأ لك.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ وهي جملة ملْؤُها التحاشي والتمنُّع، وقوفاً عند حدود الله. وما كانت تدري أنَّ نفسه ليست كنفوس الناس العاديين، وليست أخلاقه كالأخلاق الدارجة بين الناس، فبُهتت وانكسر هواها.

ثم تعلَّل بتعليلين: الأول: مثيرٌ لشعورها في حفظ كرامة زوجها، وتعريضٌ بها وتَقْريعٌ لها، وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾، يريد السيد: العزيز، ويُورِّي بالله سبحانه وتعالىٰ، ويجمع بين المعنىٰ الحقيقي والمعنىٰ المجازي. علىٰ أنَّ مضمون المعنىٰ الأول أيضاً لا يصدر إلا عن مُتَّقٍ لله حقَّ تقاته، فهو مُسْتَلزم للمعنىٰ الثاني، يدلُّ عليه بالدلالة الالتزاميَّة. وهذه التورية لا تفهمها المرأة، وإنما هي مُضْمَرة في نفس يوسُف عليه السلام، ولكنها فهمت منه التقريع والتأنيب لها بأنها داست كرامةَ زوجها وحقوقَه وحقوق الإحسان إليها، وحقوق الثقة بين الزوجين، وأنه قد راعىٰ حقوق الإحسان إلىٰ ما لا مزيد وراءه.

والتعليل الثاني: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وهو تعليلٌ حقيقيٌّ إيمانيٌّ يبيِّن حقيقة نفسه، وما هي منطبعة عليه، وحقيقة الأمر في ذاته، وأنَّ الله سبحانه مَخْشيٌّ الجانب، وإنَّما أنَّبها بهذا الأسلوب من التأنيب ولم يؤنِّبها صراحةً بالخوف من الله؛ لأنها ليست من ذوات التقوىٰ، ولكنها من ذوات الحشمة والآداب، إلا أنَّ شَغَفَها أوقعها.

فكان في هذا التأنيب زيادة إيلام وتقريع، وازدواج في الخواطر، وانعكاس في العواطف. فأثار هذا التَّمنُّعُ وهذا التقريعُ الضمني والاحتقارُ حفيظتَها ونَخْوَتَها، وانقلبت المراوَدة بصورة مفاجئة إلىٰ عَدَاوة وخصام، بنتيجةِ وَهْلة التحقير الفاضح.

وهذا أمر طبيعي بمقتضىٰ الأحوال النفسية، ففي اللحظة التي أعقبت هذا التعنيف غير المنتظر، انقلب فيها حبُّها له إلىٰ بُغْض شديد، إلىٰ البطش به بصُورة لا شعورية[١]، حكاه سبحانه وتعالىٰ مُقْتَضباً، علىٰ نـهج القرآن، فقال: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ ﴾ أن تَبطِش ﴿ بِهِۦ ﴾، فاضْطرَّ يوسف عليه السلام أن يدفع عن نفسه صيالها، ﴿وَهَمَّ﴾ أن يبطش ﴿بِهَا﴾ مُدافِعاً عن نفسه، ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ السابق[٢]، أي: لولا أنه رأىٰ من واجب زوجها عليه أن يحاول كَتْمَ الأمر بكل إمكانه، وهو إحسان سيده وسيدها له، ووجوب مقابلة الإحسان بالإحسان. فهذه الفكرة نفسها هي التي حالت بينه وبين دفع صيالها وهجومها بمثله؛ لأنه يؤدي إلىٰ ظهور الخبر وفضيحتها وفضيحة سيده الذي أكرم مثواه، إلىٰ الإساءة العظمىٰ به. فانضمَّت هذه الفكرةُ إلىٰ مراقبة الله سبحانه

---

(١) إنَّ الغضب ينبعث عنه كُرْهٌ عارض يزول بزواله، لكنه ينشأ عنه أعمال لا شعورية، يجري ذلك حتىٰ مع المحبوب. (المؤلف).

(٢) يقول علماء النفس: إن العاطفة تنقلب في لحظة من نقيض، إذا عرض لها فجأة ما يصدمها، ولا سيما عاطفة النساء. وهكذا كان أمر هذه المرأة، فعندما نزلت بحكم الحب الشديد من شرفها الرفيع إلىٰ هذه المنزلة الوضيعة، كانت تعتقد أن يوسُف لا يتردَّد في مطاوعتها إذا عرضت له نفسها علىٰ هذه الصورة، بل برضا وشغف. فلما فاجأها بهذا الموقف الـمُزْري بها، ونقدها بهذا النقد المؤلم والتشنيع الهاجن، انعكست لديها العواطف والخواطر، واستحقرت نفسها، وحنقت عليه، وهاجت، فانقلب الحب إلىٰ كُرهٍ وعداء، وفقدت شعورها وموازنتها وهمَّت أن تبطشَ به بدافعٍ لا شعوري غاضب، عندما أدركت احتقاره لها من جرَّاء هذا، وهاجمته غير حاسبة للموازنة والنتيجة أي حساب، فهمَّ بمدافعتها بالقوة، ولكن سرعان ما سَرَىٰ في نفسه أنه إن دافعها بالمقاومة وبطش بها، أساء أيضاً إلىٰ سيده بها سيَـشِيعُ من ذلك الأمر، فلم يَـرَ مَخْلصاً إلا بالفرار من أمامها ففعل، وبهذا صَرَف الله عنه السوء كما صرف عنه الفحشاء. والله أعلم. ويجوز أنْ يُراد بالبرهان هنا: حكم الله سبحانه، لأنه يتناول تحريم الزنىٰ والخيانة. (المؤلف).

وتعالىٰ وخشيته العظمىٰ، فلم يَرَ حلاً لذلك الموقف الحرج إلا بالفرار من أمامها، ففرَّ هارباً واتَّبعَتْهُ لتبطش به بحركة لا شعورية، واستبَقا الباب مُعْرضاً عن البطش بها كما أعرض عمَّا راودته عليه، فسلم من البطش بها كما سَلم من مُطاوَعَتها في المراودة.

وقد بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾، فلم يبطش بها، ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ فلم يُطاوِعْها، وقاوم الطبيعة في كلتا الحالتين، مُتنزِّهاً عن الأمرَيْن، بكلِّ حَصَانة وثبات، ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ بفتح اللام وهم آباؤه الذين قال تعالىٰ عنهم: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ * إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [صٓ: ٤٥ – ٤٧]، وإنما قال: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ ولم يقل: «لنصرفه عن السوء والفحشاء»؛ لأنه لم يَتَوجَّه إليهما، وهمُّه بدفع صيالها همٌّ بأمر مشروع، وُجِدَ مُقْتَضيه مُقْتَرناً بالمانع، وهو رؤيته برهان ربه فلم ينفِّذه، وفرَّ منها حيث رأىٰ الفرار هو الخير الذي تتمُّ فيه الحكمة، وتتحقّق به النجاة. وإنما عبَّر عن البطش بها بالسوء؛ لأن قتله للنفسِ الذي ربما يؤدي إليه الموقف مما يسوؤه، وإن كان دفعاً لصيالها، لا سيما وفيه إساءة عُظمىٰ إلىٰ سيِّده الذي أحسن مثواه. وفي هذا الموقف عبرة لأولي الألباب.

ثم قال في «المنار» ما مُلخَّصه: وقد وقع لبعض المفسِّرين في هذه الآية خَبْط وخَلْط يُنزَّه عنه كرام الناس، فَضْلاً عن الأنبياء المعصومين. والحق ما بينَّـاه، لأنَّ الهمَّ يُراد به مقاربة الفعل الذي يتنازعه عاملان نفسيان: عامل يدفع إليه، وعامل يمنع عنه، ثم يترجَّح فيه جانب المانع. وهذا إن صحَّ فرضاً علىٰ جانب يوسف عليه السلام في أمر المراودة، فلا يصحُّ علىٰ جانب المرأة، لأنها كانت عازمة غير مُتردِّدة[1]. علىٰ أنَّ فعل

---

(١) انظر تفسير «المنار» (١٢: ٢٣٥-٢٣٦).

الهمّ لا يُطلَقُ ولا يَصدُقُ إلا علىٰ ما هو غير طبيعي من شدائد الأعمال، فلا يقال: همَّ أن يأكل أو يشرب أو يلتذ.

أقول: ومع ذلك فإنَّ صيغة الهمِّ إذا عُدِّيت بالباء الداخلة علىٰ الأشخاص فقيل: همَّ بفلان، وهمَّ به، فلا تدل في الغالب إلا علىٰ البطش به؛ إذ لم تأتِ هذه الصيغة في الكلام العربي في الأكثر إلا كذلك.

وقد جاء في أوائل الجزء الرابع من «الملل والنحل»[(١)] لابن حزم[(٢)] عند الكلام في يوسف عليه السلام: إنَّ معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾: أنه همَّ بضربها والإيقاع بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥]، ولكنه امتنع من ذلك لبرهان أراه الله إيَّاه، فرأىٰ أنَّ الفرار أجْدىٰ من ضربها والفتك بها[(٣)]. وقد ذكر ابن حزم هذا المعنىٰ واعتمده بعد أن فنَّد سائر الآراء الواردة في هذه الآية وشنَّع عليها[(٤)].

---

(١) وهو: «الفصل في الملل والأهواء والنحل».

(٢) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد القرطبيُّ (٣٨٤-٤٥٦هـ) الإمام الأوحد البحر ذو الفنون الظاهريّ صاحب التصانيف. له: «المحلى»، و«جمهرة الأنساب»، و«الناسخ والمنسوخ». «سير أعلام النبلاء» (١٨: ١٨٤-٢١٢)، و«الأعلام» للزركلي (٤: ٢٥٤-٢٥٥).

(٣) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٤: ١٠).

(٤) قال أبو السعود ما مُلخَّصه: إن همَّه بها عبارةٌ عما له من الميل بمقتضىٰ الطبيعة البشرية مما لا يكاد يدخل تحت التكليف، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً. ألا يرىٰ أن ما سبق من استعصامه إنما هو تسجيل باستحالة صدور الهم منه بالمعنىٰ الحقيقي، وإنما عبَّر عن الميل الطبيعي بالهم، لمجرد وقوعه في صحبة همها بطريقة المشاكلة، وأشار إلىٰ تباين هميهما بإفراد كل منهما بتعبير، فلم يقل: «ولقد هما بالمخالطة» أو «همَّ كلٌّ منهما بالآخر». وأضاف إلىٰ ذلك تصدير الأول بما يقرره من المؤكدات وتعقيب الثاني بما يعفو أثره من قوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: حُجَّته =

ثم فصَّل ما كان من همِّها أن تبطش به، وتَرْكِ همِّه أن يبطش بها، فقال: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي: فرَّ يوسُف من أمامها هارباً إلىٰ باب الدار، يريد الخروج منه للنجاة منها، ترجيحاً للفرار علىٰ الهمِّ بالدفاع الذي رأىٰ فيه نقيصةً علىٰ سيِّده، وكفراناً لنعمته عليه أن يبطش بها. وتَبِعَتْهُ تبغي الفَتْكَ به أو إرجاعَه حتىٰ لا يفلت من يدها، وهي بزَعْمِها لا تدري أين يذهب إذا هو خرج ولا ما يقول وما يفعل؟ لأنها لا تعلم عنه إلا أنه فرد من أفراد الناس، وتـكَلَّفَ كلٌّ منهما أن يسبق الآخر، فأدركته ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ إذ جَذَبته به من ورائه جَذْبةَ غضبٍ لتفتكَ به.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾، وكانت النساء في مصر تلقِّب الزوج بالسيد، فلما رآها في هذه الحالة المنكرة ﴿قَالَتْ﴾ ملقيةً التَّبِعَة علىٰ يوسُف: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾، وكان هذا القول مكراً وخداعاً لزوجها، وهو منتظرٌ منها في موقفها هذا دفاعاً عن نفسها.

= الباهرة الدالة علىٰ قبح هذا الفعل وقُربه. والمراد برؤيته لها: كمال إيقانه بها إلىٰ مرتبة عين اليقين. والمعنىٰ: لولا ذلك العلم والإدراك لجَرَىٰ علىٰ مُوجب ميله الطبيعي الجِبِلِّيّ. وفائدة هذا الشرط: أن امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة، بل لـمحض العفة والنزاهة بمقتضىٰ خشية الله. وقد نصَّ أئمة البلاغة علىٰ أن ما بعد ﴿لَوْلَآ﴾ في أمثال هذه المواقع، يجري من حيث المعنىٰ مجرىٰ التقييد للحكم، كقوله تعالىٰ: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، فلا يتحقق هناك همٌّ أصلاً. وكل ما قيل في هذا الهم من الأقاويل، إنما هو خرافات وأباطيل تمجُّها الآذان، وتردها العقول والأذهان، ويل لمن لاكها ولَفَّقَها، أو سمعها وصدَّقها، كيف وقد قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي: بما فيه من موجبات العفة والعصمة، ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾. (المؤلف).
وكلام أبي السعود في «تفسيره» (٤: ٢٦٦-٢٦٧).

﴿قَالَ﴾ يوسُف عليه السلام مُبرِّئاً نفسه من هذه التُّهمة التي ألصقتها به: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ فامتنعتُ وفَرَرْتُ هارباً كما ترىٰ. فأصبحت القضية موضوعَ بحثٍ وتحقيق وتشاور بين زوجها وأهلها. أشار إلىٰ ذلك القرآن علىٰ نهجه في إيجاز الإشارة، فقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾[1] أي: حَكَمٌ عن علم كالمشاهَدة، فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ﴾ أي: شُقَّ أو قُطع من قدّام ﴿فَصَدَقَتۡ﴾ في دَعْواها أنه أراد بها سُوءاً؛ إذ يكون: لما وثب عليها أخذت بتلابيبه فجاذبها فانقدَّ قميصه وهما يتنازعان ويتصارعان، ﴿وَهُوَ﴾ إذ ذاك ﴿مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦﴾ في دعواه أنها راودته فامتنع وفرَّ أمامها.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ﴾ أي: من خلف ﴿فَكَذَبَتۡ﴾ في دعواها أنه هجم عليها ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾ في قوله: إنَّه فرَّ هارباً.

---

(١) يجوز أن تكون هذه الجملة عبارة عرفية يعبَّر بها عن جلاء الأمر ووضوح القضية، ولم يكن في الواقع حاكم ولا شاهد. فيراد بها أن براءة يوسف عليه السلام واضحة جليَّة بهذه العلامة البيِّنة الواضحة، والله أعلم. وقد لاحت للسيد هذه الملاحظة حالاً وبوضوح، فعلم أنها هي المجرمة، وقد حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾. وعلىٰ هذا الرأي يكون قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ﴾ مجرَّدَ تمهيد لقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ...﴾، وإلفاتَ نظر لصدقه وكذبها.

ويجوز أن يكون المعنىٰ علىٰ ظاهر اللفظ، وأن الشاهد هو أحد أفراد أهلها الذين اشتركوا مع زوجها في إجراء التحقيق والتقرير، فجاء النص بأنه من أهلها للمبالغة في نفي التهمة علىٰ يوسف عليه السلام، لأنه ـ بحكم كونه من أهلها ـ حريصٌ علىٰ دفع التهمة عنها، منعاً للعار بكل إمكانه، إلا أنه ـ لـمّا لم يمكنه ذلك لظهور الأمر ووضوح البرهان ـ اضْطُرَّ إلىٰ الإقرار بتهمتها وتبرئة يوسف، فكان ذلك مبالغة في تبرئته عليه السلام، وعبَّر عن ذلك بالشهادة لزيادة المبالغة في هذا المعنىٰ، والله أعلم. (المؤلف).

قلت: هذا الذي نحا إليه المؤلف رحمه الله تعالى هنا في تفسير «الشاهد» مما لا يُوافَقُ عليه، فما هو إلا تعسُّفٌ في التأويل، وتكلُّفٌ في الفهم.

أقول: وهذا النمط من التحقيق في إثبات الجرائم هو المسمَّىٰ اليوم بالتحقيق العَدْلي، سبق إليه القرآن قبل ألف وثلاثمئة سنة ونيِّف. والله أعلم.

﴿فَلَمَّا﴾ توصَّلوا إلىٰ هذا التحقيق الدقيق، وانتبه السيد للأمر؛ إذ ﴿رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ التفت إلىٰ زوجته مؤنِّباً ومعنِّفاً، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ المعهود منكنَّ مَعْشَرَ النساء في التَّنصُّل من الخطيئات واتِّهام الغير بها، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ لا قِبَلَ للرجال به، ولا يفطنون لِـحِيَلِكُنَّ في دقائقه. قالوا: ولِرَبَّاتِ القصور القِدْح الـمُعَلَّىٰ، لأنهنَّ أكثر تفرُّغاً من غيرهنَّ مع كثرة الكيادات إليهن.

ثم التـفت إليها وإلىٰ يوسف قائـلاً: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الكيد الذي جَرَىٰ لك ولا تتحدَّث به، ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ أيتها المرأة، ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: من جنس المجرمين مُرتكبي الخطايا، الـمُتعمِّدين لها. ولهذا غلَّب فيه جمعَ المذكر السالم، فلم يقل: من الخاطئات. وقيل: إنما لم يبطش بها الزوج لأنها من العائلة المالكة، وهو ليس منها، فلم يقدر علىٰ ذلك. ويجوز أن يكون ذلك من الاشتباه في الأمر، ولا سيما لم يكن فِعلٌ ولا اتِّصال، وإنما التهمة في المحاولة.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

قال في «المنار» ما مُلخَّصه: ثم ذكر حادثة فرعيَّة من حوادث هذه القصة؛ وهي

أنَّ نسوة من كبار بيوتات مصر مَكَرْنَ بامرأة العزيز لتَجْمَعَهُنَّ بهذا الشاب الذي فتنها جمالُه، وأذلَّها عفافُه وكمالُه، حتىٰ راودته عن نفسه وهو فتاها، ودَعَته إلىٰ نفسها، فردَّها خشيةً وطاعةً لله تعالىٰ، وحفظاً لأمانة المحسن إليه أن يخونه، مَكَرْنَ بها لتجمعهنَّ به، فيَرَوْن جماله، ويرىٰ جمالهنّ، ولعله يَصْبوا إليهنَّ ويجذبه من جمالهنَّ الطارئ المفاجئ له ما لم يَجْذبه من جمالها الذي ألِفَهُ قبل أن يبلغ أشدَّه، وكان نَظَرُه إليها نَظَرَ الرقيق إلىٰ سيدته أو الولد إلىٰ والدته.

وقد جاءت في السورة بأبدع صورة من الإيجاز والبلاغة، وأعلىٰ تعبير في الأدب والنزاهة، وهو قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ بصيغة جمع القلة، وهو ما بين الثلاثة إلىٰ العشرة: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: قد اخترَقَ حبُّه شَغَاف قلبها، أي: غلافَه المحيط به، وغاص في سويدائه، فملك عليها أمْرَها، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾[1].

وإنما قُلْنَ هذا القول مكراً وحيلةً ليصلَ إليها، فيحملها ذلك علىٰ أن تجمعهنَّ به بُغْيَةَ رؤيته واستمالتهنّ له، لذلك عبّر عنه سبحانه بالمكر، فقال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾[2]، وكان من الـمتوقَّع أن تسمعه لِـمَا اعتيد بين هذه البيوتات من التواصل بالزيارات واختلاف الخدم من كلّ منها إلىٰ الآخر، وهُنَّ ما قُلنَه إلا لتسمعه، فإن لم يصل إليها عَفْواً، احتَلْنَ في إيصاله قَصْداً.

---

(١) تفسير «المنار» (١٢: ٢٣٩-٢٤٠).

(٢) يجوز أن يكون إنَّما سمَّته مكراً توسُّعاً، وتريد به: أنهُنَّ لو كُنَّ في موقفها ما فعلن غير فعلها، وما تحمَّلن ضغط النفس تـجاه حُسنه المغري هذه المدة الطويلة، ولذلك فَـعَلْنَ ما أظهر أمره، فألزمتـهنَّ وصرَّحت بالأمر لإظهار عذرها، ولم تستحي منهنَّ بعد ما جرىٰ عليهنّ عند أول رؤيته. (المؤلف).

فلمَّا بلغها ذلك عنهن، حملها أن تجمعهنَّ به ليَرَيْنَ بأعينهنَّ من جماله وكماله ما يجعلهنَّ أن يَعْذُرْنها، لذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ﴾ أي: هيَّأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي: ما يتَّكِئْنَ عليه من الكراسيّ والأرائك، كما هو المعتاد في دُورِ الكُبَراء. ويجوز أن يكون كنايةً عن الوليمة، أي: دَعَتْهُنَّ إلىٰ وليمة طعام، حسب المعتاد، ومَكَرت بهنَّ كما مَكَرنَ بها، إذ هي تكريم لهنَّ في الظاهر، وإظهار لعُذْرها في الواقع، ﴿وَ﴾ كان من تمام الوليمةِ والمكرِ أنْ ﴿ءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ليقْطَعْنَ ما فرَّقت عليهنَّ من أنواع الفاكهة. ويجوز أن يكون هذا أمراً معتاداً، ولكونه نقطة الارتكاز نصَّ عليه.

وقد تعمَّدت أن يفاجئهنَّ وهُنَّ مشغولات بما يَقْطَعْنَه أو يقشرنه، ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، يجوز أن يكون قالت له ذلك، أو هو حكاية لما دبَّرته من أن يكون خروجه عليهنَّ وهُنَّ علىٰ تلك الحال، فكان لذلك من الدهشة عليهنَّ ما حكاه التنزيل بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي: أعظَمْنَ أمْرَه واندَهَشْنَ لحُسْنه الرائع وجماله البارع، وغِبْنَ عن شُعورهنّ، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: جَرَحْنَها جروحاً بالغة. قال الزمخشري: يقال: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي، أي: جرحتها[1] جرحاً بليغاً، ﴿وَ﴾ حينئذ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي: لم يُعْهَد له في الناس مثيل. وقد أكَّدن ذلك بقولهنّ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ تمثَّل بهذه الصُّورة البديعة؛ يُبالِغْنَ في إثبات أنه لا مَثيلَ له بين البشر.

وإنهُنَّ لنساء، وإنها لامرأة تعرف كيف تُـفْحِمُ النساء، فأفحَمَتْـهُنّ وصرَّحت بأمرها بعدما سلَّمن لها، ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي: هذا الذي خَلَبَ ألبابَكُنَّ في أوَّل وَهْلة هو الذي تَلُمْنَني علىٰ حُبِّه. فما قولكنَّ في أمري معه، وقد ترعرع في داري، وبلغ أشُدَّه بين سمعي وبصري، أخلو به في ليلي ونهاري؟

(١) «الكشاف» (٢: ٤٦٥).

﴿وَلَقَدۡ﴾ غازَلته بأنواع من الكلام الرقيق، والتحديق الأنيق، فلم يرفع إليَّ طرفاً، ولم يمِلْ نحوي عطفاً، وترأَّيتُ له في زينتي وما خَفِيَ من محاسني، ثم صارَحْتُه بالأمر و﴿رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ وأعرَضَ عني احتقاراً، وابتعد عني نفاراً.

أقول: وهذا هو موضع العبرة، فإنَّ نظره إلىٰ الله لم يَدَعْ في قلبه البشريِّ مكاناً خالياً لنظرات هذه العاشقة الواهلة التي شَغَفها حباً. وإن من أقوىٰ غرائز البشر حُبَّ الإنسان لمن يعتقد أنه يحبه. فهذا الموقف منه موقفٌ عظيم، يليق بذاته العظيمة وأخلاقه الكريمة، وهكذا يكون الإنسان إذا بَلَغ الكمال، وذلك هو موضع العبرة لأُولي الألباب، وقياس الإنسانية التي لم تفسدها الأحوال، ولم ترتطم في مستنقعات الأوحال. وآية للسائلين، ومن آيات هذا الموقف الرزين.

وبعد أن عَذَرَنها وتجرَّأت، هدَّدَتْهُ علىٰ مَرْأىٰ منهن ومَسْمَع، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾، وفي هذا التهديد من ثقةِ هذه المرأة بسُلطانها علىٰ زوجها الوزير الكبير ـ مع علمه بأمرها واستعظامه لكَيْدها ـ ما حقُّه أن يخيف يوسُف من تنفيذ إرادتها، وقد عِيلَ صَبرُها، وهتكت سَتْرها، وكاشفت نسوةَ كبار بلدها بما تُسِرّ وما تُعلن من أمرها، حتىٰ تواطأن معها علىٰ كيدها، ورَاوَدْنَه عن نفسه كما راودته عن نفسها، وهو تواطؤ لا قِبَلَ لرجل به إلا بمعونة الله وحفظه. لذلك دعا ربَّه مستنجداً، و﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: ٣٣] يقول: أيْ ربِّ الغالبُ علىٰ أمري، العالم بسرِّي وجهري، إن الحبس والاعتقال في السجن مع المجرمين حيث شظف العيش، أحبُّ إلىٰ نفسي وآثر عندي ممَّا يدعوني إليه هؤلاء النسوة من الاستمتاع بهنَّ في ترف هذه القصور وزينتها، والاشتغال بحبهنَّ عن حُبِّك، وبقُربهنَّ عن قُربك، وبمُغَازلتهنَّ عن مناجاتك.

ثم قال في «المنار»: وإنما يُشـرَحُ هذا الشرح بما يُعلَمُ من سياق القرآن وإيجاز أساليبه، ومن طباع الرجال والنساء، ومن التاريخ العام، والسنن والأخلاق والعادات، وسيرة الصالحين والأنبياء، دون حاجة إلىٰ ما لا سند له ولا دليل عليه إلا في الروايات الإسرائيليات(١).

أقول: وقد علق الزمخشري علىٰ القصة بقوله: ولو وُجد منه أدنىٰ زلة لنُعِـيَتْ عليه، وذُكرت توبتُه، كما نُعِيَتْ علىٰ آدم زلَّـتُه(٢). ولكنه وقفَ وقفةَ ذوي العَزْم والقوَّة وسُمِّي مُخْلَصاً. وإنما ذكرت قصتُه ليكون تثبُّته قدوةً للصالحين في مواقف العثار، وهذا الموقف في يوسُف عليه السلام من الآيات للسائلين.

ثم بالغ في استعانـة ربِّه ببيـانِ ضعفه البشـريّ تجاه هذا الحادث الـجَلَل، علىٰ طريقة التغليظ في الخوف والحذر، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ أي: من صنف السُّفهاء الذي تَسْتَخِفُّهم أهواء النفس، فيعملون السُّوء بجهالة، وهو ما يُخالف مقتضىٰ الحِلْم والأناة، ومقتضىٰ العلم والحكمة، فإنَّ من يعيش مثلي بين أمثال هؤلاء النسوة الماكرات الـمُتْرفات، لا مفرَّ له من الجهل إلا بعصمتك وحِفْظِك له بما هو فوق الأسباب المعتادة.

وهذا نفيٌ صريحٌ منه عليه السلام بأنه ما صَبَا إليهنَّ، ولا أحبَّ أن يعيش معهنّ، وإنما بيَّن مقتضىٰ الاستهداف لكيْد هؤلاء النساء، وسأل ربه أن يُديم له ما عوَّده من مضمون قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالكلام مُجرَّد إظهار لحراجة موقفه، واستمداد من الله سبحانه أن يديم عِصْمَتَه، ويُقوِّي عزيمتَه،

(١) تفسير «المنار» (١٢: ٢٤٥).

(٢) «الكشاف» (٢: ٤٥٧).

ويحفظه من كَيْدِهنَّ ومكرهنّ، علىٰ قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ويدل سياق القصة علىٰ أن الحَصَانَ عند نساء هؤلاء الأقوام ليس بالدرجة المرغوب فيها، والله أعلم.

وقد قَرَنَ سبحانه الدعوة بالإجابة، وقال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ لا يخفىٰ عليه شيء، وهذا هو نهاية الفصل الثاني من القصة.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

وأما الفصل الثالث؛ فيبتدئ بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ الدالة علىٰ براءته ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾، الظاهر أنَّ ضمير ﴿لَهُم﴾ يعود إلىٰ المجلس العائلي الذي تولّىٰ أمر التحقيق والتقرير في القضية، وظهرت لهم براءة يوسف،

وهم: العزيز وبعض أهل المرأة. ويجوز أن قد اشتركت هي أيضاً في هذا الرَّأي بعد أن يئست من استمالته إليها، انتقاماً ودفعاً عن سمعتها. والبِدَاءُ: تبدُّل الرأي. والمراد: أنهم تبدَّل رأيهم عن تبرئته إلىٰ أن يسجنوه لصالح المرأة وسمعتها، ولإخفاء الذِّكر وكفِّ الألسنة في إلقاء التَّبِعة علىٰ امرأة العزيز، ولإبعاده عنها.

إلا أنَّ هذا السجن كان بتدبير الله الخفيّ الذي يُعبِّر عنه جاهلوه بالـمُصَادَفة والاتفاق، فكان مُظْهِراً لمعجزة النبوّة، وتمهيداً لدعوة الرسالة، كما تجد ذلك في السياق الذي حكاه سبحانه بقوله: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ تبيَّنَ فيما بعدُ أنَّهما مملوكان لملِك مصر؛ أحدهما: خازن طعامه، والآخر: ساقيه. وقد تبيَّن لهما أنَّ يوسُف عليه السلام يُـحسِنُ تعبير الرؤيا. وقد رأىٰ كلُّ واحد منهما رؤيا، فَطَلبا من يوسُف عليه السلام تعبيرَها لهما.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ في تأويل الرؤيا.

وما قالا هذا القول إلا بعد أن رأيا من سَعَة علمه وحُسْن سيرته مع أهل السجن، ما جَعَلهما يَثِقانِ من ذلك. يُفْهَمُ هذا من صورة التعبير، وهو من إيجاز القرآن المعجز.

أما يوسُف عليه السلام فقد افترص ثقةَ هذَيْن السائلَيْن بعلمه وفضله، وإصغاءَهما لقوله، واهتمامَهما بما يسمعان من تأويله لرؤياهما. فبدأ حديثه بما هو أهمُّ عنده، وهو دَعْوَتُهما وسائرِ مَنْ في السجن إلىٰ توحيد الله عز وجلّ. وعُلِمَ من هذا أنّ وحي الرسالة جاءه بعد دخوله السجن، فتحقَّق قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ ﴾ [يوسف: ٣٣]، كما أنَّ وحي الإلهام جاءه عند إلقائه في غيابة الجبِّ علىٰ ما سبق.

ثم قال في «المنار»: وحكمة هذا من ناحيته: أنَّ الله تعالىٰ جَعَل له في كلِّ محْنَةٍ

ظاهِرةٍ مِنْحَةً باطِنة، وفي كلِّ بدايةٍ مُحْرِقةٍ نهايةً مُشْرِقة، تحقيقاً لما كان قد فهمه أبوه من اجتباء ربه له. وحكمته من ناحية دعوة الدين: أن أقوىٰ الناس وأقرَبَهم استعداداً لفهمها والاهتداء بها هم الضعفاء والمظلومون والفقراء، وأعتاهم وأبعدهم عن قَبولـها هم المترفون والمتكبِّرون.

بدأ يوسُف عليه السلام بالدعوة بعد مقدِّمةٍ في بيان الآية الدالة علىٰ صدقه والثقة بقوله، وهي إظهار ما منَّ الله به عليه من تعليمه ما شاء من أمور الغيب، وأقربها إلىٰ اقتناعهم ما يختصّ بمعيشتهم، فكان هذا ما يقتضيه المقام وتُوجبه الرسالة في جوابه لهم. وهو ما حكاه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾، قيل: المراد: لا يأتيكما طعام تَريانِهِ في الرؤيا إلا نبّأتكما بتأويله(١).

وقيل: المراد في اليقظة، والمراد من تأويله: ما أراده الباعثُ له من الغرض والقَصْد الحسن والسيىء، أو بيانُ صفةِ ذلك الطعام. وكان يقول لهم: اليوم يأتيكما طعام صفته كَيْتَ وكَيْت، فيكون كقول عيسىٰ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقيل: بل المراد: بيانُ كلِّ ما يهمُّهما من الأمور قبل وقوعها، وإنما خصَّص الطعام بالذكر لمناسبة ما استعبراه من الرؤيَتَيْن المتعلقتَيْن بالطعام والشراب، ليساوق الكلامَ ويشاكلَه.

ثم جَهَر بمنَّة الله عليه في ذلك، فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾.

ثم علَّل هذا اللطف والمنَّة منه تعالىٰ بقوله: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وهم المصريُّون الذين عاش بينهم، وحَافَظَ علىٰ فطرته فلم يتأثَّر بهم، وكانوا يعبدون

(١) تفسير «المنار» (١٢: ٢٥١).

الشمس ويعبدون العجل (أبيس)، ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾، وقد كرَّر الضمير مبالغةً في الإنكار، وتقريراً لكفرهم بالآخرة على وجهها الصحيح وإن ادَّعوا الإيمان بها، لأنهم يُصَوِّرون لهم آخرة بحسب عقائدهم الزائفة، ومن مقتضياتها: تحنيطُ أجسامهم، ودَفْنُ جواهرهم ومقتنياتهم معهم، ليتنعَّموا بها في آخرتهم المتخيَّلة.

وقد جعل تفنيدَه لـملَّة هؤلاء الأقوام داخلاً في مقدمة الدعوة إلى التوحيد، وتمهيداً لها، وأكمله بقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، وهي عبادة الله تعالى وحده دون سواه.

وقد بيَّن ذلك بعبارة تدلُّ على أن استحقاق الله سبحانه للاختصاص بالعبادة أمر ظاهر، ومفطور عليه البشر، فقال: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

ثم أردَفَ بيانَ نعمة التوحيد بالشكر، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث فَطَرَهُم على التوحيد والهُدى، ما لم يُفسِدوا فِطرَهُم، وأرسل الرسل إليهم بواسطة الوحي تنشر فيهم دعوتَه، وتُبيِّن لهم هدايتَه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ نِعَمَ الله عليهم، فيُشرِكون به مَنْ لا يَخْلُقون شيئاً وهم يُخلَقون.

ثم دخل في صُلب الدعوة؛ مُؤْذِناً بأنَّ صاحبَيْهِ هذَيْن هما ممَّن لا يؤمن بالله، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي: يا صاحِبَيَّ في السجن من هؤلاء القوم الذين لا يؤمنون بالله، ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾[1]؟! فضمَّنَ الكلامَ وَجْهَ القُبح

---

(١) في كلِّ شيء من موجودات هذا الكون آثارٌ بديعةٌ ومعالـمُ جليَّة تدل على وجود الله سبحانه واختصاصِه بالألوهية، كما تدل على عظيم صفاته؛ من علم وقدرة ورحمة وغيرها من صفات الله العلية، ولكن رغم ذلك الظهور ضلَّ الإنسان ضلالاً بعيداً، فكان منه ثنوية يقولون بإلـهين اثنين: إله للخير، وإله للشر. وكان منه تثليثية يقولون بالأب والزوجة والابن، أو الأب والابن =

في تعدُّد الآلهة، إذ إنه يؤدِّي إلىٰ التفريق بين البشر، ووَجْهَ الحُسْنِ بالاعتقاد بإله واحد يعبده البشر كلُّهم. ففيه ـ فوق حَقِّـيَّتِهِ ـ توحيدٌ لمنازع نفوسهم إلىٰ سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه، وفي ذلك نظام أُخُوَّتهم وملاك سعادتهم. وأدمج فيه أنَّ الذي يستحقُّ الاختصاص بالألوهيَّة هو الله المتصرِّف في هذا الكون، الخاضع له كلُّ ما فيه.

وتحرير البحث: أنَّ التوحيد للإله يجرُّ إلىٰ الاتِّحاد، وتَعْداد الآلهة ـ ولا سيما أن يتَّخذ كل قوم إلهاً مختصاً بهم، أو ديناً كذلك ـ فإنه يجرُّ إلىٰ التفريق، وأيُّ تفريق! فلو توحَّد البشر كلُّهم علىٰ عقيدة واحدة، اتَّحدوا وتقاربوا وائتلفوا وتَسَامحوا، ولم يتنازعوا إلا في أقل القليل(١)؛ إذ مما لا شك فيه أن مَنْبع الشرور والفساد هو تَعْداد الأرباب واختلاف العقائد والأديان، وألوهية الناس للناس، والاعتقاد بأنهم ـ بذواتهم أو برموزهم وهي الأصنام ـ يُقرِّبون إلىٰ الله زلفىٰ، ويتوسَّطون لهم في دفع الضر وجَلْب الخير من سائر نواحي الحياة، فإن هذه العقيدة وما يُلابسها تردُّ الإنسان إلىٰ أسفل سافلين.

وقد كان في أساطير الأولين من المشركين، بما فيهم المصريون القدماء: لكلِّ حال من أحوال الطبيعة إله، كإله الخصب، وإله الجَدْب. ولكلِّ شأنٍ من شؤون البشر

= المكوَّن من امرأة بشرية. وكان منه من وزَّع الألوهية بين آلهة متعددة؛ فجعل لكلِّ قوة من هذا الكون إلهاً خاصاً، ثم جعل علىٰ رأس الجميع إلهاً أكبر يلجؤون إليه ويأتمرون بأمره. ولكلِّ قوم آلهة تختصُّ بهم دون سواهم. وهكذا خَبَط العقل البشري خَبْط عشواء في إدراك ذات الله ومعرفة صفاته، رُغماً عن كونه سبحانه نور السماوات والأرض، يُظْهِرُ كلُّ شيء فيها جَلِيَّ ذاتِه وعظيمَ صفاتِه، وأنه واحدٌ لا شريك له ولا مثال. (المؤلف).

(١) جاء الدين الإسلامي ديناً للبشر كلِّهم، موحِّداً لهم كعائلة واحدة. فنزل القرآن ليكون للجميع، وتكون لغتُه لغةً للجميع؛ لأن الإسلام توحيد واتحاد وقرآن ولغة عربية، وانعدام كل واحد من هذا الثلاثة يُفقد الإسلام كمالَه، والله أعلم. (المؤلف).

إله، كإله السلم، وإله الحرب. ولكلِّ أمة آلهة من هؤلاء غير الأخرىٰ، تعتزُّ بها وتنافس. وهل من تفريق للبشر وتشتيت لعقائدهم ولأمرهم أكبر من هذا؟ يؤدِّي إلىٰ المخاصمة والتناحر في سبيل الوهم والضلال!

وبعد أن بيَّن مفاسدَ الشرك وسيِّئاتِهِ، ومصالحَ التوحيد وحسناتِهِ، وأنَّ المُسْتَحِقَّ للعبادة هو ذو القهر والسلطان، ردَّ عليهم عبادتهم لأسماء أصنام تعجز عن تدبير نفسها، وأدمج في ذلك أنَّ الدين والعقائد والأحكام لا تُقبَلُ إلا عن طريق الوحي، فقال: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ أي: من حُجَّة وبرهان.

ثم نصَّ علىٰ ما هو الدِّين الحقُّ المستقيم، فقال: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[1] أي: ليس الحكم الحقُّ في الربوبية والعقائد والعبادات الدينية والأحكام الشرعيَّة إلا لله وحده، يُوحيه لمن اصْطَفَاه من رسله، فلا يجوز لأحدٍ أن يضَعَ شرائع للبشر، أو ينفِّذ أمره في البشر، إلا إذا كان ذلك تنفيذاً لحدود شرائع الله. ولا يجوز لأحدٍ أن يضع خطة للبشر في العقائد والعبادات وسائر التشريع إلا إذا كان ذلك مُسْتَمَداً من وحي الله، علىٰ لسان أنبيائه عليهم الصلاة والسلام. فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالىٰ علىٰ ألسنة جميع رسله، لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة.

---

(١) إنَّ الأحكام الشرعيَّة يجب أن تُساير الطبيعة البشريَّة؛ الفرديَّة والاجتماعيَّة، الماديَّة والروحيَّة، وتكفل لها السعادة في الحياتين بصورة واقعية، ولا يمكن أن يعلم ذلك بحدود مضبوطة إلا الله سبحانه الذي يعلم مَنْ خلق وما يحتاج إليه، فهو وحده القادر أن يشرع للإنسان ما يلائم روحه وجسمه مُلاءَمَةً صحيحة، يكون له بها السعادة والفلاح. أما ما يخالف تشريع الله، ويعتقد الإنسان أنه من مصلحته؛ فذلك خديعة النفس، يُزيِّفها العقل الصحيح والوجدان النزيه. (المؤلف).

ثم بيَّن أوَّلَ أصلٍ بُنِيَ عليه الدِّين، وهو مدار البحث، فقال: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ غيرَ مشركين به شيئاً، ولو كان مَلَكاً كريماً أو نبياً مرسلاً، لأنه لم يخرج عن كَوْنه من مخلوقاته وعبيده، ميَّزه بقوىً من مادة جنسه، يتفوَّق بها شخصُه.

ثم ختم الدعوة بالتَّنصيص علىٰ أنَّ عقيدة التوحيد هي الحق، وما دون ذلك باطل، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: المستقيم الذي لا عِوَجَ فيه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ ذلك حقَّ العلم، لاتِّباعهم أهواءَ آبائهم ومُضلِّليهم.

ولما كانت الدعوة إلىٰ التوحيد فيها طمأنينةٌ نفسيَّةٌ للذي سيُؤَوِّلُ ويُعبِّر رؤياه بالصَّلْب، ولا سيما إذا نَجَحت الدعوة الدينيَّة فيه واقتَرنت بالإيمان، أخَّر تأويل رؤياهما عنها، وهذا هو الذي يقْتَضيه المنطق الصحيح والحِذْق البارع. فبعد أن دعاهما إلىٰ التوحيد والدين القيِّم، عبَّر لهما الرؤيا، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ وهذا هو الذي رأىٰ أنه يعصر خمراً، ويعني بالرب: الـمَلِك، ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ وهو الذي رأىٰ أنه يحملُ فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾.

ثم قرَّر التأويلَ والعَبْرَ بقوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾، وهذا نبأ زائد علىٰ تأويل رؤياهما، وَرَدَ مَوْرِدَ الجواب عن سؤال أو أسئلة في صفة ذلك التأويل، مثل: قطعِيٌّ هو أم ظنِّيٌّ؟ وما شابه ذلك. فهو يقول لهما: إنَّ الأمر قد بُتَّ فيه وانتهىٰ حكمُه.

والتعبير بقوله: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا... وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾، أبلغُ في هذا المقام وأنسبُ من ضمير الخطاب؛ لأنه يدفع بَشَاعة المجابَهة بأمر الصَّلب لمن رأىٰ أنه يُصْلَب، وإن كان المعنىٰ مفهوماً. وبهذا ينتهي الفصل الثالث من القصة.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ
ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ
يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ
إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ
الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا
فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي
أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ
إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا
تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ
فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي
بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا
عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ
نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

والفصل الرابع يشمل الحلقة الأخيرة من محنة يوسف عليه السلام، والحلقة الأولىٰ من نِعَم الله العظيمة عليه وأعمال نبوّته، ويبتدئ بقوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو الذي أوّل له رُؤياه بأنه سيسقي ربَّه خمراً، قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: عند سيِّدك الـمَلِكِ بما رأيتَ وما سمعتَ وما علمتَ من أمري. ويشمل هذا دعوته إيَّاهم إلىٰ التوحيد، واختصاصَه تأويل الرؤيا وإصابته فيه، وإنباءَهم بكلٍّ ما يأتيهم من طعام ونحوه قبل إتيانه، ويشمل كذلك أنه مسجون ظلماً.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: نَسِيَ الشرابيُّ أن يذكر يوسف عند الملك؛ لأنَّ من يَتَشبَّع بالشِّرك وملابساته، لا يهتم بمثل يوسُف وتَنَبُّؤاتِه. وقلَّةُ الاكتراثِ تُنْسي، ﴿فَلَبِثَ﴾ يوسفُ ﴿فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾، والبضع: ما بين الثلاث والتسع.

ثم جاءت عمدة هذا الفصل، وهي رؤيا الملك التي كانت واسطةً لِتَعَرُّفِه بيوسُف عليه السلام، ووقوفِهِ علىٰ عَظَمة شأنه، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ مُخاطِباً الملأ من رجال دولته وأشراف قومه: ﴿إِنِّيٓ﴾ رأيت فيما يرىٰ النائم رُؤْيا جليَّة ماثلة أمامي كأني أراها الآن، ﴿أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾ أي: يَأكُلُ البقراتِ السبعَ السِّمانَ سَبْعُ بقراتٍ مَهَازيلَ في غاية الضعف والهزال، ﴿وَ﴾ أرىٰ ﴿سَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾ قد آن حصادهنَّ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾ هذه ما معناها، وما تدلُّ عليه، ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وهذا حثٌّ لهم واسْتفزاز. يقال: عبَّر الرؤيا، أي: انتقل ببيانها من المعنىٰ الخيالي إلىٰ المعنىٰ الحقيقي، كمن يَعْبُرُ النهر من ضُفَّة إلىٰ أخرىٰ.

ثم ذكر ما كان من جواب الملأ له، فقال: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾ أي: قال الملأ: هذه الرؤيا من جنس أضغاث الأحلام، أي: الأحلام المختلطة من الخواطر والأخيلة التي يتصوَّرها الدماغ في النوم، فلا ترمي إلىٰ معنىً مقصود، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وهذا يحتمل نفي هذا النوع من الأحلام، أو نفي العلم بجنس الأحلام مطلقاً.

ولما شاع أمرُ رؤيا الملك، وبَلَغت مَسَامعَ الساقي؛ تذكَّر أمر يوسف ونبوغَه في عَبْرِ الرؤيا، فذكر ذلك لأُولي الأمر أو للحاشية في القصر، بما حكاه عنه بقوله: ﴿وَقَالَ

﴿ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من صاحِبَيْهِ في السجن، وهو الساقي، ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: تذكَّر يوسُفَ ووصيتَه بعد طائفة طويلة من الزمن، قال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: بتأويل هذا الحلم، وذكر لهم يوسفَ وعِلمَه الصحيح في عَبْرِ الأحلام وتأويلها، وقال لهم: ﴿فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ إليه.

فأرسلوه، فجاءه يَستَعبِرُه الرؤيا، وقال ما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي: الذي بلغ غايةَ الكمال بالصِّدق في الأقوال والأفعال وتأويل الأحاديث وعَبْر الأحلام: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾، وقَـرَن هذا الاستفتاء بما يتضمَّن رجاء أن يحقِّق ليوسف أمَلَه بالخروج من السجن، إثر انتفاع الملك ومَلَئِهِ بعلمه، فقال: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أولي الأمر ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ مكانتكم من العلم، فينتبهون لك، ويعلمون ما جهلوا من تأويل رؤيا الملك.

ثم حكىٰ سبحانه ما قاله يوسف عليه السلام في عَبْرِ الرؤيا، فقال: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: مُستمراً.

قال في «المنار» ما مفصَّله: قال يوسُف مُبيِّناً ما يجب عليهم عَمَلُه لتلافي ما تدلُّ عليه هذه الرؤيا من القحط وشدّته علىٰ البلاد والعباد قبل وقوعه، بيَّنه في سياقِ هذا التدبير العلمي. وهذا ضـربٌ من بلاغة الأسلوب والإيجاز لا تجد له مثيلاً في غير القرآن، خاطَبَ أُولي الأمر بما لقَّنه للساقي خِطابَ الآمِر للمأمور الحاضر، فأوجَبَ عليهم الشـروع في زراعة القمح دائبـينَ عليه دأباً مستمراً سَبعَ سنين بلا انقطاع. فالكلام خَبَـرٌ بمعنىٰ الأمر، وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به.

والدليل علىٰ كونه بمعنىٰ الأمر قوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ أي: فكلُّ ما حَصَدتم منه في كُلِّ زَرْعةٍ فاتركوه، أي: ادَّخِرُوهُ في سُنْبُلِهِ بطريقةٍ تحفظه من السُّوس بعد سَرَيان الرطوبة إليه، فيبقىٰ الحَبُّ لغذاء الناس والتبن لغذاء البهائم والدواب، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ في كلِّ سنة من هذه السنين، مع مراعاة الاقتصاد والاكتفاء بما يسدُّ حاجة الجوع.

فهذه السِّنُونُ السبعُ تأويل البقرات السَّبعِ السمان، والسُّنْبلاتُ السَّبْعُ الخُضْرُ علىٰ ظاهرها في كون كل سنبلة تأويلاً لزرع سنة من سِنِيِّ الخصب، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ في مَحْلِهِنَّ وجَدْبِهِنَّ ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾، وفي الآية إسناد الفعل إلىٰ الزمان الذي يقع فيه. وذلك من خصائص اللغة. والمراد: يأكُلُ أهلُـهُنَّ كلَّ ما قدَّمتُم لهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: مما تخزنون وتحرزون للبذر(١).

وفي هذه الآية تلويح إلىٰ تأويل العجاف التي أكلت السِّمان، بسِنِيِّ الجَدْب والمَحْل التي تَستَنفِدُ ما ادَّخَرُوهُ من محصول سنيِّ الخِصْب السابقة.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِر، وهو السبع الشِّداد، ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ما شأنه أن يُعْصَـر من الأدهان التي يأتدِمون بها، ومن الأشربة المباحة عندهم. والمراد أنه يكون عاماً عظيم الخِصْب، ويكون فيه للناس كلُّ ما يبغون. والإنباء بهذا زائد علىٰ تأويل الرؤيا، ليظهر منه أنَّ هذا التفصيل لم يعرفه يوسُفُ عليه السلام إلا بالوحي.

وقد عُلم بالبَدَاهة من فحوىٰ الكلام: أنَّ الرسولَ بلَّغ الـمَلِكَ ما قاله له يوسُف عليه السلام، وأنهم فهموا منه أن الخَطْب جَلَل، وأنَّ هذا الرجل ذو علم واسع، وتدبير

---

(١) تفسير «المنار» (١٢: ٢٦٣-٢٦٤).

لا يُستغنىٰ عنه في حالي السَّعة والشدَّة، وقد طوىٰ كلَّ ذلك القرآن، علىٰ سنَّته في الطيِّ والإيجاز، اكتفاءً بما يدل عليه، وهو هنا قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ لأسمع كلامه بأُذني، وأختبر تفصيل رأيه ودرجة عقله بنفسي، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ وبلّغه أمر الملك، ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ قبل شخوصي إليه، ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾، وفي كلمة ﴿رَبِّى﴾ جَمْعٌ بين الحقيقية والمجاز، فهم المَلِكُ منها أنه يريد سيِّده الوزير، وقد ورَّىٰ يوسف فيها بالله تعالىٰ، وأراد بموقفه هذا أن يستأنف لدىٰ الملك دعوىٰ الحكم عليه بالسجن، حفظاً لكرامته وإظهاراً لبراءته، كي لا يكون متَّهماً بتهمة تخلُّ بشرفه، فيكون خروجه من السجن عفواً عنه وإحساناً به.

فأراد بهذا الموقف أن يزيد في عُلوِّ شأنه ونزاهته، ويُفهِمَ ذلك للملك قبل خروجه. وهذا من دلائل عظمته عليه السلام. وإنما خصَّ في طلب التحقيق حالةَ تقطيعهنّ لأيديهن؛ لأنها تدلُّ دلالةً واضحةً علىٰ أنه لا صُنْعَ له بأمرهنّ؛ لأنهنَّ فَعَلْنَ ذلك بأنفسهن عن دهشة وانفعال نفسيّ. ومثل هذا يُسمُّونه اليوم بالطب العدلي أو اللمحة الدالة، وهو أن يستنتج من وضعية الجِراح وموضعها وصورتها حقيقةَ الجريمة والمجرم استنتاجاً واضحاً. وقد سبق إليه القرآن قبل ألف وثلاثمئة سنة ونيِّف. والله أعلم.

وفُهِمَ مِنْ أسلوب القرآن في الاكتفاء والإيجاز: أن الملك نزل عند إرادة يوسف عليه السلام، وتشكَّلت هيئة تحقيق تحت إشرافه، أو أجرىٰ هو التحقيق الدقيق بنفسه؛ يُفهَمُ ذلك من صورة المحاكمة التي حكاها سبحانه مجملاً بقوله: ﴿قَالَ﴾ أي: المَلِكُ للنِّسْوة: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: ما شأنكُنَّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، هل كان ميلٌ منه إليكنَّ ومغازلةٌ لكنَّ وتحرُّشٌ بكن؟

ولما كان تقطيعهنَّ لأيديهنَّ يكذِّب ذلك كلَّه؛ لأنه إنما صَدَرَ عن انفعالهنَّ النَّفسِيّ،

كان الجواب منهنَّ ما حكاه سبحانه بقوله: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، وهذا التعبير آكَدُ من نفي رؤية السُّوء منه شيئاً. وبعد ذلك ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ التي كانت معها الحادثة، وتبيَّن لها من أمره عَظَمةٌ وعِصْمةٌ نادرةُ المثال، ومِثْلُه لا يُكْذَبُ عليه، قالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر بعد خَفاء، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وهو لم يُراوِدْني، بل استَعصَمَ وأعرَضَ عني، ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ فيما اتَّهمني به من قبل، وحمله أدبه الأعلىٰ ووفاؤه الأسمىٰ لمن أكرَمَ مَثْواه وأحسن إليه، حمله علىٰ السكوت عن حقِّه إلىٰ الآن. ونحن جزيناه بالسيئة علىٰ الإحسان.

أقول: ولولا جلال النبوة واقتضاؤه أن لا تبقىٰ عليه هذه التهمة، وأن ترتفع عنه هذه الوصمة، لَـمَا فاه بهذا أبداً. والله أعلم.

ثم زادت علىٰ هذا البيان بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإقرار بالحق والشهادة بالصدق إنما جَهَرْتُ به ﴿لِيَعْلَمَ﴾ إذ يَبلُغُه ذلك عني ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ منذ سُجِنَ إلىٰ الآن، أي: بالنيل من أمانته أو الطعن في شرفه وعفَّته، بل صرَّحتُ للنسوة بأنني راوَدْتُه فاستَعْصَم، وهو شاهد، وها أنا أقرُّ بهذا أمام الـمَلِكِ ومَلَئِـهِ وهو غائب، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وإنما تكون عاقبة كيدهم الفضيحة والنكال. ولقد كِدْنا له فصَرَفَ ربُّه عنه كيْدَنا، وسَجَنّـاه فبرَّأه وفَضَحَ مكرنا، حتىٰ شهدنا له في هذا المقام السامي علىٰ أنفسنا.

ثم قال في «المنار»: وقد عُلِمَ من جملة الكلام أنَّ يوسف عليه السلام كان مَثَلَ الكمـالِ الإنسانيّ في العفَّة والصيانة لم يمسَّه أدنىٰ سوء من فتنة النسوة، كما شهد الله سبحانه له بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وشهدت النسوة بقولهنّ: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١]، وشهدت امرأة العزيز نفسها بقولها:

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]. وعُلِمَ أنَّ هذه المرأة كان لها مزايا في عشقها الذي كان اضطرارياً لا علاج له إلا الحيلولة بينها وبين هذا الشاب الذي بلغ منتهىٰ الجمال والكمال، فمن مزاياها: أنها لم تَتَّهِمْهُ بالجُنوح للفاحشة صراحةً، وكل ما قالته لزوجها إذ فاجأها لدىٰ الباب: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: ٢٥]، تعني به همَّه بضربها وتُورِّي به. وأنها في خاتمة الأمر أقرَّت بذنبها في مجلس الملك الرسميّ، إيثاراً للحق وإثباتاً لبراءة الـمُحِقّ. فأية مزايا أظهرُ من هذه لمن ابتُليت بمثل هذا العشق الشديد! (١)

ثم إنها ـ علىٰ تبرئة نفسها من خيانته بالغيب ـ اعترفت في الآية التالية بأنها لا تُبرِّئُ نفسها من الكيد له بطلب السجن، وأن ذلك كان من هوىٰ النفس الأمَّارة بالسُّوء، لأنَّ المرادَ تذليلُه لها وحَمْلُه علىٰ طاعتها بمجرد تخويفه، إذ لم تعتقد أن سيِّده يفعل به ذلك؛ لما له من الثقة بكماله. والله أعلم. كما حكىٰ ذلك عنها بقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾، وذلك إذا تهيأ لها تربية صالحة كاملة. وفيه وجه آخر: وهو: لئن بَرَّأتُ يوسُف من الإثم، فما أُبرِّئُ نفسي منه، فإنَّ النفس لأمَّارة بالسوء إلا ما رحم ربي.

ثم علَّلتْ رجاءها بمغفرة الله لها بعد توبتها بقولها: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾.

وقال بعض المفسِّرين في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ ...﴾: إنه من كلام يوسف عليه السلام، واتَّصل بكلام امرأة العزيز لظهور الدلالة، إذ هو كلام مؤمن قويِّ الإيمان.

أقول: وذلك من أساليب القرآن، فهو يُجري الكلام عن شخص أو أمر بعد

(١) تفسير «المنار» (١٢: ٢٦٨).

إجرائه عن آخر مُتمِّم له، اعتماداً علىٰ الظهور. والمعنىٰ: إنَّ الذي فَعَلْتُه من ردِّي رسول الملك إليه في شأن النسوة إنما فعلتُه ليَعلَمَ العزيز أني لم أَخُنْهُ بالغيب في زوجته، وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين، ثم بيَّن أنه لم يُرِدْ بهذا الكلام تزكية نفسه والتَّمجُّد بها، بل إظهار ما أنعم الله عليه من العصمة والتوفيق في ذلك، فإنَّ النفس أمَّارة بالسوء إلا ما رحم الله(١)، بأن تهيّأ لها تربية صالحة وتدريب صحيح.

فيكون الكلام بياناً للطبيعة البشريَّة، وهي التنازع فيما بين النفس والعقل، فإذا غَلَبَ العقلُ النفسَ يكون تسليمُها له وارتداعُها عن السقوط بتوفيقٍ من الله، ولا يكون ذلك إلا في تَقْوية النفس بتعويدها علىٰ مقاومة الرذائل وتمكّنها من الفضائل، فتنطبع علىٰ الخير، وتفرُّ من تَـعَاطي السُّوء واكتساب الشـرِّ فرارَها من الأسد، إذ تصبح هذه النفسُ وقد رُبِّيت فيها الطبيعة الإنسانية تربية صحيحة، ونَما منها الاستعداد للخير علىٰ ما خلقها الله عليه، فإذا هي ناصعة مشرقة لم تُـدَنَّسْ بمزاولة الرذائل والتعوُّد عليها، بخلاف النفس المفسودة، فإنها تصبح ـ بذلك الإفساد لها ـ دنيئة شريرة.

ومحصَّل الكلام: أنَّ كـلَّ مولود يولد علىٰ الفطرة الصحيحة، وإنمـا العَـوَجُ بالاعوجاج، والفَلَجُ بالانفلاج، ويحصل ذلك من نتيجة إفساد الإنسان طبيعته بمعاونة وساوس الشيطان.

ويقول علماء النفس ما مُحصَّله: إنَّ الذات البشريَّة تنقسم بنتيجة التربية والدخول في معترك الحياة إلىٰ ثلاثة أقسام: الذات السفلىٰ، والذات العليا، والضمير.

فالذات السُّـفلىٰ: هي التي تحوي الغرائـز الطبيعية في حالة سيئة همجية لسوء

---

(١) وهذا الكلام من يوسف علىٰ حدِّ قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. (المؤلف).

تربيتها، فكلٌّ همّها أن تصل إلىٰ أهدافها وإن أساءت التصرُّف، وعبثت بالقيود الاجتماعية والقوانين النظامية من شرعية ووضعية، ولا تريد أن تخضع للعقل والضمير.

والذات العليا: هي التي تتكوَّن صفاتُها من التربية الحسنة للغرائز، ومن النشأة السامية والثقافة الصالحة والتهذيب الصحيح، فيكون همُّها التمثُّل بالمُثُل العليا والتفوُّق في ذلك بمعونة العقل والضمير.

فإذا غلب التسفُّل علىٰ الذات هَوَتْ إلىٰ أسفل سافلين، وإذا غَلَبَ عليها السموُّ والصلاح ارتفعت إلىٰ أعلىٰ عليين، وذلك هو الكمال المنشود للإنسان في عالم الغيب وعالم الشهود.

وذاتُ يوسُفَ عليه السلام من أعلىٰ أنواع الذوات العليا، معصومة عن كلِّ ما يُدنِّسُها ويُدسِّيها، وذلك لِـمَا نشأت عليه من الصلاح والكمال. وقد شهد الله سبحانه ببراءة يوسف بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وشهدت الآيات الناطقة ببراءته، وشهدت النسوة ببراءته ونزاهةِ موقفه، رغماً عن عَظَمة الـمُغْريات وقوَّتها. وهذا هو موضع العبرة من السورة. والله أعلم.

وسأل مجاهدٌ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه: إنَّ الذين لا يشتهون المعصية أفضلُ أم الذين يشتهونها ولا يعملون بها؟ فقال عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣](١).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

---

(١) ساقه ابن كثير في «تفسيره» (٧: ٣٦٨)، بإسناد أحمد في «الزهد»، وفيه: «كُتب إلىٰ عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية...». وهو الصواب، لأن مجاهداً لم يدرك عمر.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وبعد إكمال التحقيق تبيَّن للملك من ثنايا البحث أنَّ يوسُف هذا نادر المثال بالعفة والأمانة والعلم والدراية، وأنه مَنْ لا يُهمَلُ مِثْلُه عن الاستخدام في إدارة شؤون الدولة، فطلب حضوره طلباً ثانياً ليرشِّحه لبعض الوظائف، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أجعله من خواصِّ حاشيتي، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ طويلاً واختبره دقيقاً، رأىٰ فيه مِن عقل ودراية وكمال وعُلوِّ جَناب وحُسْن خصال، ما رَبـا بها وعظم عنده عمَّا كان سمعه عنه، وعمَّا ظهر له منه في ثنايا التحقيق عن قضيته، لذلك ﴿قَالَ﴾ له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ أي: ذو مكانة ومنزلة عندنا، ومُؤْتـمن علىٰ كلِّ شيء. وهذا ترشيحٌ لإدخاله في سِلْكِ رجال الدولة، وتمهيدٌ لذلك، وعَرْضٌ عليه. وقال ابن عباس: يريد: مكَّنتُك من مُلكي، وجعلتُ سلطانك فيه كسلطاني، وائتمنتُك فيه.

أما يوسُفُ عليه السلام فقد رشَّح نفسه للمالية والاقتصاد، والظاهر أنه أراد أن يقوم بتطبيق ما يراه في تأويل رؤيا الملك مما تحتاج إليه البلاد في ذلك الأمر، وقد قام به أحسن قيام. وذلك ما يُعرِبُ عنه قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، بمعنىٰ: ولِّني أمْرَها من الإيراد والصَّرْف، ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ بوجوه التصرُّف فيها. وفيه دليلٌ علىٰ جواز طلب الولاية لمن يعرف في نفسه الكَفَاءة في العمل. ويجوز أن يقال: ليس هذا طلباً للولاية، لأن الـمَلِكَ ولَّاه من نفسه، ولكنه إظهارٌ لما يختصُّ به، وبيَّنه بعد أن رشَّحه الملك لوظائف الدولة.

ويدلُّ حُسْنُ تصرُّف يوسف في سِنِي الخِصْب والجَدْب، علىٰ مهارةٍ فائقة وتدبير مُتْقن في الإدارة والاقتصاد، فقد أشرف علىٰ الماليّة والتموين أربع عشرة سنة، لا علىٰ تموين مصر وحدَها، بل علىٰ تموين البلاد المجاوِرةِ التي أجدبت كذلك، وجاءت إلىٰ مصر تَسْتَجْدي منها القُوتَ سبع سنين.

ثم نبّـه سبحانه وتعالىٰ إلىٰ مكانة هذه النـتيجة الـمُشْرِقة من تلك المقدِّمات الـمُحْرِقة، ليتبيَّن للناس وجوهَ الحِكَم الخفيَّة والمصالح العليَّة في أعماله سبحانه وتعالىٰ، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي: جعلناه يتصرَّف في أرض مصر العظيمة الشأن كما يشاء، رغماً عن كونه ليس من أهل البلاد.

فتلك السلسلة من المقدِّمات الـمُحزِنة، كان لها هذه النتيجة اللامعة، فقد أرادته امرأة العزيز عشيقاً لها، وأراد زوجُها أن يكون يوسف قهْرماناً[1] لهما أو ولداً، وأراد الله أن يُمكِّن له ويجعله سيِّدَ البلاد لينشر الدعوة فيها، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وقد ذيَّل البيان بقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: بمقتضىٰ الحكمة الداعية لذلك، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: بل نَجْزيهم عليه الجزاءَ الأَوْفىٰ في الدنيا والأخرىٰ.

وبعد أن بيَّن الجزاءَ والرحمةَ في الدنيا، بيَّن الجزاء والرحمة في الأخرىٰ، ولكن بيَّنه بصورة عامَّة، علىٰ نهج ا لقرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾، فإنَّ ما ينالونه من الخير في الآخرة لا يُقاس بما ينالونه من الخير في الدنيا. وإنَّ هذا التمكين له في أرض مصر بالملك والسلطان، مكَّنه من نشر دعوته فيها وبثّ

(١) القهْرمان: هو المسيطر الحفيظ على مَنْ تحت يديه. «لسان العرب» (قهرم).

الإصلاح. وكم لله في خفايا الأمور من تدبير، وكم له من الـمِنَن في طيّـات الـمِحَن، وكم له سبحانه من لُطْف خفيّ وإنعام جليل! وبهذا ينتهي الفصل الرابع.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

وأما الفصل الخامس؛ فيبتدئ ببيان أنَّ يوسُف لـمّا تـمكَّن في مصر، وأصاب النَّاسَ ما أصابهم من القحط، وقَصَدوا مصر للامتيار والتموين، سداً للمجاعة بقليل ما ينالون من ذلك، كان إخوة يوسف مِن جملة مَن قصدوا مصر ليمتاروا، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ ممتارينَ لَـمَّا أصاب أرضَ كنعانَ وبلادَ الشام ما أصاب أرضَ مصرَ من الجَدْب والغلاء، ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي: علىٰ يوسُف في مجلس ولايته وإدارة تموينه، ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: عرفهم ولم يعرفوه، لطُول العهد وتَبَايُنِ ما بين حالَيْه، إذ لم يخطر ببالهم أنَّ هذا العظيمَ عزيزَ مصر هو أخوهم الذي فتكوا به. وكانوا فارقوه صغيراً وهم صغار، والصغير إذا كبر وهو غائب تَخفىٰ ملامحُه، ولا يكاد يعرفه مَنْ كان يعرفُه وهو صغير. أما يوسف عليه السلام فبنُور النبوَّة وما فيه من عقل واسع، لم تَضِعْ عليه ملامحُ إخوته، وإن كان قد فارقهم صغاراً، ومنذ عهد بعيد.

وبعد أن طال بهم المقام، وتنوَّع بينهم الكلام، استدرَجهم أن يأتوه بشقيقه وهم لا يشعرون، لأنه سألهم عن عددهم؟ وأشقاء أم أبناء أب وأمهات؟ وذكروا لهم أخاه الذي لم يأتوا به معهم، فطلبه.

وقد أجمل القرآنُ صورةَ ذلك البيان، علىٰ نهجه في الإيجاز، فقال: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، وقد أكمل الاستدراج بقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: وقد أكرمتُ نُزُلَكُم وضيافتكم أيَّ إكرام، يُرغِّبهم في أنهم ـ إن أتوا بأخيهم ـ زادَ عددهم وأَوْفىٰ لهم الكَيْل.

ثم أكّد الإيجاب بالسَّلب، وأنذرهم بالحرمان إن لم يأتوا به، مبالغةً في الحضّ علىٰ ذلك، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

ولما كانوا غير واثقين من المقدرة علىٰ إقناع أبيهم في ذلك بعد حادثة يوسف؛ ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ ولا نألو جهداً في إقناعه أن يُرسِلَه معنا. ولما كان جوابُهم يدلُّ علىٰ عزَّة هذا المطلب وصعوبة مناله، أكَّدوا له تصميمَهم بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ولكن يوسف عليه السلام أتبع الاستدراج القولي والطلب الأكيد وأشفعه بالتدبير الفعلي، تحقيقاً لهذا الأمر، ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾، وهي التي اشتروا بها الطعام؛ لأنهم كانوا يتبادلون بالبضائع مع أهل الريف، بدل النقد. فأمر فتيانه أن يُعيدوا لهم بضاعتَهم ويضعونها في رحالهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ أي: لعلهم يُدرِكون حقَّ ردِّها والتكرُّم عليهم بها.

ثم علَّـل ذلك بالغاية، فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: لعلَّ ذلك يُـغْريهم بالرجوع، ويُقوِّي طَمَعَهم في زيادة الميرة. ويجوز أن يكون ما قاله للفتيان مقصوراً علىٰ جَعْل البضاعة في رحالهم، وأما بقية الكلام فهو بيانُ القرآن لِـمَا أضْمَره يوسف، وذلك من أساليب اللغة في الحكاية عن الأمر والمقاصد، ومن نهج القرآن. والله أعلم.

وفي إعادة البضاعة إليهم توسعةٌ عليهم وعلىٰ أبيهم وعيالهم. وذلك من واجباته، وإن كان له فيها مآرب أخرىٰ.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

ثم حكىٰ سبحانه بأسلوب إيجاز القرآن ما كان بينهم وبين أبيهم بعد رجوعهم إليه، وقال: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ ﴾ قبل أن يفتحوا أمتعتهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ إلا أن يَصْحَبنا أخونا «بنيامين»، ﴿ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا ﴾ إلىٰ مصر، ﴿نَكۡتَلۡ﴾ ما نحتاج إليه من الميرة، ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ من أن يصيبه مكروه.

فأجابهم بجوابٍ أوَّلُهُ خَوف، وآخِرُهُ مَيْل، وفَّق بينهما، و﴿ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ ﴾ وقد قلتُم فيه أيضاً: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [يوسف: ١٢]، فلا أثق بكم ولا بحفظكم، ولكنِّي أُفوِّض الأمر إلىٰ الله في حفظه ورعايته، ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ، فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يَجْمَعَ عليَّ مُصيبتَين. فهذا ـ كما ترىٰ ـ مَيْلٌ منه عليه السلام إلىٰ الإذْن والإرسال، لِـمَا رأىٰ فيه من المصلحة المُلِحَّة.

ثم ذكر قضية العثور علىٰ البضاعة في الرِّحال، وأنها كانت مُؤيِّدةً لرأي الإرسال، فقال: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ بعد ذلك الحوار، ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ فانتهزوا هذا الأمر للمبالغة في الإقناع، و﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أي: ماذا نريد أكثر من هذا الإحسان الذي أحسَنَه بنا هذا العزيز؟

ثم أردفوا الإنكار بما يوضِّحه من بلوغ اللطف بهم غايته، فقالوا: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ فوق ما منَّ علينا من المنن العظيمة، والمبالغة في الكرامة والرفد. وإيثارُ صيغة البناء للمفعول للإيذان بكمال الإحسان الناشئ عن كمال الإخفاء، بحيث لم يشعروا به. وقولُه: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ معطوف علىٰ محذوف، علىٰ سنة بلاغة إيجاز القرآن، ومعنىٰ: «نَمير» نَجْلِبُ لهم المِيرَة، وهي الطعام، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ من المكاره حسبما وعدنا، ﴿وَنَزْدَادُ﴾ بواسطته ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾، وهي حصَّته الزائدة علىٰ حِصَصِنا، لأن ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أتينا به من قبل ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ غيرُ كافٍ لنا، بخلاف ما إذا زِيدَ عليه حصّة أخرىٰ.

وبعد أن تكامل لديه الميل إلىٰ الإرسال، أعاد الاستيثاق منهم، و﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن تُغْلَبوا علىٰ أمركم. والجملة مأخوذة من إحاطة العدو، فتُوُسِّعَ بها في الاستعمال.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي: عَهْدَهم من الله حسبما أراده يعقوب منهم، يعني: عهداً مؤكَّداً بذكر الله وقَسَمِهِ؛ ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾، وهذه الجملة لتشديد الميثاق والحثِّ علىٰ مراعاته.

وبعد أن تمَّ الاتفاق أخذ يوصيهم بما يأتي: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ﴾ البلد ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ مجتمعين ﴿وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾، قال المفسرون: خاف عليهم العَيْنَ لأنهم أبناء رجل واحد وموصوفون بالكمال.

أقول: وربما خاف عليهم حَسَدَ الناس لهم والإيقاع فيهم؛ إذ رأوا في المرة السابقة توجُّهَ العزيز إليهم وعنايتَه بهم، وتوفير الميرة لهم في تلك الأيام العصيبة، والشعب يَضِنُّ بميرته لا سيما أيام القحط، فقد خاف عليهم العين، ولكن من الرقابة لا من الإصابة، ومن الشَّغب عليهم لا من العَجَب منهم. والظاهر أنهم كانوا يبيعونَ أفراداً لا جماعات كإخوة يوسف، والله أعلم. أو خاف العيون والجواسيس أن يصفوا للملك دخولهم هذا بصورة تخشاه السياسة؛ لأن دخولهم مجتمعين وهم عُصبة، ويتَّصلونَ بالعزيز اتصالاً وثيقاً وهم من مملكة خارجة عن حدود مصر، فهذا أمر تَـحسِبُ له السياسة حسابها. والغالب أن يكون خاف عليهم شرَّ المصريين؛ لأنهم لا يرضيهم امتيار الناس لأرزاقهم في مثل هذه السنين المُجْدبة السوداء، لا سيما إذا كانوا قافلة كبيرة، ومثل ذلك أمرٌ طبيعيٌّ وقت الغلاء، فحذَّرهم يعقوب عليه السلام من أن تَجْلب حالُهم سوءَ نظر المصريين وحَنَقَهم، وأمرهم أن يدخلوا متفرقين ليخفىٰ شأنهم.

ثم بيَّن لهم أنَّ ذلك ما هو إلا إرشادٌ وتوجيهٌ وأخذٌ بالأسباب والاحتياط، ولا عِلمَ له بالمقادير، فقال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: إني لم أُوصِكم به لأدفع عنكم الضُّـرَّ يقيناً، ولكنه مُعَـاطاة الأسباب في الحذر والوقاية، وهكذا يجب أن يكون شأن طالب الحاجة؛ يتعاطى الأسبابَ الطبيعيةَ لذلك المطلوب، ثم يُفوِّض الأمر إلىٰ الله ويتوكَّل عليه. وهذا هو الموافق لِـمَا جاء عنه ﷺ من قوله لصاحب البعير: «اعْقِلْ وتوكَّل»[1].

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فلا مانع ممَّا قدَّره وقضاه، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ

---

(١) رواه ابن حبان (٧٣١) عن عمرو بن أمية بلفظ: «اعقلها وتوكل»، والحاكم (٣: ٧٢٢)، بلفظ: «قيِّدها وتوكل»، وقال الذهبي: سنده جيد.

﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ فهو يُوصيهم بالتوكُّل بعد الأخذ بالأسباب ومُعَاطاة ما يجب فيها. وذلك هو التوكل الصحيح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد قرَّر سبحانه هذه الحقيقة وأثبتها بعد أن حكاها عن يعقوب عليه السلام، فقال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي: من أبواب متفرِّقة ﴿مَّا كَانَ﴾ ذلك ﴿يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ وهي الحيطة والأخذ بالأسباب.

ثم أثنىٰ عليه في ذلك، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾، وهذا يدلُّ علىٰ أن مثل توصية يعقوب الاحتياطية مقبولة عند الله، إذ الاحتراس مشروع، كما فعل رسول الله ﷺ عند الهجرة، ومن ذلك أنَّ الأخذ بالأسباب واجب، وإرادةُ الله من وراء ذلك تفعل ما تشاء، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٦٨﴾ نظامَ الله تعالىٰ في هذا الكون وسُنَنَه في خلقه، فلا يفهمون معنىٰ التوكُّل علىٰ الله، ويظنونه مجرَّد اتكال. فألمع سبحانه إلىٰ أنَّ تَعاطِيَ الأسباب علىٰ وَجْهِ الإتقان، ثم التوكُّل علىٰ الله بعد ذلك، هو الواجب المحتَّم علىٰ بني الإنسان[1].

---

(١) الأمور كلها أسباب ومُسبَّبات، ولا يمكن أن تُتَعاطىٰ الأسبابُ ولا تَنتُجَ المسبَّباتُ إلّا في الظاهر لا في الحقيقة؛ لأنه إذا تعاطيتَ الأسباب بزعمك أنها أسباب لكذا، وهي في الحقيقة ليست بالأسباب، لا تنتج النتيجة. وإن تعاطيتَ الأسباب بزعمك أنها كلُّ الأسباب، وهي ليست كذلك، لا تنتج النتيجة.

ومغزىٰ الآية: أن الأخذ بالأسباب الوقائية واجب، وإن كان ذلك الاحتياط لم يجز شيئاً في بعض الأمور، وذلك كأن يكون للخطر سبب آخر لم يخطر علىٰ بال المتقي، فينتج الخطر، ولكن يكون المتوقي معذوراً في هذه الحال، إذ قد اتقىٰ علىٰ قدر علمه ووُسْعِه، ولذلك مدحه علىٰ ما فعل. هذا ما أراه. والله أعلم. (المؤلف). =

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

ثم حكىٰ ما كان من أمرهم بعد دخولهم مصر علىٰ يوسف عليه السلام، فقال: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ قيل: أفرَدَ كلَّ بني أم منهم إلىٰ حجرة، فبقي أخوه منفرداً، فضمَّه إليه. والقرآن طوىٰ صورة ذلك، علىٰ نهجه في الإيجاز، كما أجمل ما دار بينهم بقوله: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾، ويظهر من صورة الكلام وما تضمَّنه من تلطيف وتأنيس أنهما تَشَاكيا من إخوتهما، وأنَّ

= قلت: ولا يخفى أن ترتُّب المسبَّبات على الأسلوب ترتُّب بحسب السنة الإلهية في الخلق، وهو المُعبَّر عنه عند العلماء بالترتُّب العادي، أي: بحسب ما جرت به العادة، فعَدَمُ الإمكان المذكور في كلام المؤلف هنا: عادي لا عقلي، ولذلك جازت المعجزات والكرامات.

يوسف قال لأخيه بعد أن عرَّفه بنفسه ما معناه: أنَّ تلك المآسي قد انتهت، وبدَّل اللهُ الضيق باليُسْر، والشدَّة بالفرج والسَّعة، فلا تبتئس بما جرىٰ.

وتدابرا علىٰ إبقائه عنده، وكان من ذلك ما ذكره سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ وهو ما جاؤوا لطلبه من الميرة، ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾، والظاهر من لفظ ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾ أنه إناء ثمين يُشرَبُ به في مجلس الملك. وما كان ليوسُف عليه السلام أن يفعل مثل هذا إلا بوحي أو إلهام، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ...﴾ [يوسف: ٧٦].

ويجوز أنْ قد تمَّ ذلك بالاتفاق مع بنيامين، حيث أخذ هو السقاية بصُورة خفيَّة من مكانها ووضعها في رَحْله، وبهذا الاتفاق نَسَبَ الجَعْل إلىٰ يوسف، والله أعلم. ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ وقال الـجُبَّائيُّ: إنما قال ذلك بعضُ مَنْ فقد الصَّاع من قوم يوسف من غير أمره، ولم يعلم ما أمر به يوسف من جَعْل الصاع في رحالهم[1]. وقال أبو مسلم: بل إنَّ يوسف أمر المنادي بأن ينادي به، ولم يُرِدْ به سرقة الصاع، وإنما عنىٰ به: إنكم سرقتم يوسف، أي: أخفيتموه عن أبيه وألقيتموه في الجُب، فيكون من باب الإيهام والتعريض. وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.

ويؤيِّد هذا الرأي أنه أتىٰ بالجملة الاسمية وباسم الفاعل الدال علىٰ الوصف، بدل الجملة الفعلية الدالة علىٰ الحدوث، ليتمَّ التعريض بفعلتهم في يوسُف؛ لأنَّ السرقة

---

(١) قال الجبائي ذلك ـ وهو من أئمة المعتزلة ـ فراراً من أن يكون يوسف عليه السلام هو قائل ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ أو الآمر به، لما فيه من نسبة النبي إلى الكذب، وهو غير جائز، لكنْ حَمْلُ ذلك على التورية أَوْلى، وحينئذ لا يمتنع أن يكون هو عليه السلام مَنْ أمر بذلك، كما سيأتي في قول أبي مسلم.

لغةً: التَّمويه والتَّخفية، يقال: سَرَقَ منه الشيء؛ إذا أخذه خُفْية أو بحيلة. وأخْذُ يوسُفَ من يعقوب عليهم السلام ـ وإن كان جهاراً في أول الأمر ـ فقد اقترن أخيراً بالتمويه والتخفية، وأُضْمِرَ في النفس من أول الأمر، فأُطلِقَ عليه لفظُ السرقة تعريضاً.

ثم ذكر ما كان من الإخوة لما سمعوا هذا النداء، بقوله: ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم ﴾ وهذه الجملة الحالية بيانٌ لاندهاشهم مما سمعوه، أي: قالوا وهم مُشْمَئِزُّونَ من إسناد السرقة إليهم: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾، والصُّواع لغة: هو الـجام الذي يشرب فيه، وهو اسم. والسقاية: وصف، كالكوب والمشربة. وهو غير الصَّاع بمعنىٰ المكيال.

ثم بيَّن الـجُعْل الذي جُعِلَ لمن يأتي به، تمكيناً للغرض، وحَمْلاً للأمر علىٰ الالتقاط دون السرقة المتقصِّدة، فقال: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ من عند نفسه مُظْهِراً إيَّاه قبل التفتيش ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ يكون جُعْلاً له، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ أي: كفيل. وهذه الجملة توثيق من المؤذِّن بإنجاز الجعل.

ثم ذكر ما كان من كلامهم تجاه ذلك النداء بقوله: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾ من حُسْن سيرتنا وجَوْدة معاملتنا معكم واستطلاعكم أحوالَنا ومراقبتكم أعمالَنا ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾، وأتىٰ بنفي الشأن لأنه أبلغ من نفي الفعل، إذ هو نفيٌ للفعل بالدليل. والمعنىٰ: إننا لم نسرق؛ لأن ذلك ليس من شأننا. وقد استشهدوا علىٰ ذلك بعلمهم لأحوالهم العامة، وهو أكبر حُجَّة في صدق دعواهم. فالآية تدلُّ بنظمها علىٰ أن ذلك متحقِّق لديهم.

ولـما ادَّعوا براءتهم من تلك التهمة، ﴿ قَالُواْ﴾ لـهم: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾ قال ابن عباس: كانوا يستعبدون كل سارق بسرقته[1]، يعني: الكنعانيين، وهم علىٰ شرع يعقوب وإبراهيم عليهما السلام. وقيل: بل كانت شريعتهم أن يُسترقَّ السارقُ مُدَّةً تُقدَّرُ علىٰ قدر سرقته. فالمعنىٰ: إنَّ جزاء من وُجد الصواع في رَحْله أن يُؤخذَ عبداً. وقولهم: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تقريرٌ لذلك الحكم، مؤكّدٌ بقولهم: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾ بالسرقة. وقيل: إنَّ هذه الفاصلة حكاية لكلام يوسف بعد أن سمع منهم ذلك الحكم، فكأنهم اتَّفقوا عليه جميعاً.

ومن تتمة الكيد ما ذكره سبحانه عنه بقوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ نفياً للتهمة وتمكيناً للتدبير، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، وتأنيثُ الضمير باعتبار «السقاية»، وحيث ذكَّره أراد «الصُّواع»، قالوا: فأقبلوا علىٰ أخيهم، وقالوا له: فضحتنا. فقال: إنما وضعه في رَحْلي الذي وضع بضاعتكم في رحالكم، إنَّ بضاعتكم وُضِعَت في رحالكم وما دَرَيتُم إلا بعد أن عثرتُم عليها. وفي هذا الكلام تورية وابتعاد عن الكذب. والفعل يطلق علىٰ الأمر به والاتفاق عليه.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ تبرير موقف يوسف عليه السلام في هذه الأعمال بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: هكذا ألهمناه الكَيْدَ وأمرناه به، وما فعله من نفسه، ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾، لأنَّ حكم السارق في قوانين مصر الضرب والضمان، لا الاسترقاق والاستخدام، فالتزم حكمَهم هذا الذي جرىٰ علىٰ لسانهم، مبالغةً في نفي السرقة عن أنفسهم، وعَمِلَ به، ودخل في جملة الكيد، لأنه لولا هذا السبب والتدبير الخفي لَـمَا تهيَّأ له أخذه. وذلك مصداق قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني: أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره؛ لأنَّ ذلك كلَّه كان إلهاماً

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٨ : ٤٨٨).

من الله ليوسُف وإخوته حتىٰ جَرَىٰ الأمر علىٰ وَفْق المراد. والمعنىٰ: أنه ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله وإرادته إذ أوحىٰ له بذلك.

ثم نوَّه بشأن يوسف عليه السلام ضمن هذا التَّمنُّن العام، دفعاً لاعتراض المعترض علىٰ بعض هذه الأعمال، فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ في العلم والحكمة والتدبير ووحي الإلهام ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾، فأوقَفَتْ هذه الجملةُ الـمُعترِضَ علىٰ بعض تصرُّفات يوسُف عليه السلام عند حدِّه، وأفهَمَتْهُ أنَّ اعتراضَه إنما هو من نقص معلوماته، ولا سيما في خفايا الأمور. كما جاء مثل ذلك في حكاية أمر موسىٰ عليه السلام مع من آتاه الله من لَدُنْه علماً، حيث خَرَق السفينة وقَتَل الغلام، وقال لموسىٰ حين اعترض عليه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]. والله أعلم.

ولـمّا رأوا السقاية تُستَخرَجُ من رَحْل أخيهم ﴿قَالُوٓا۟﴾ بتأثُّر وانفعال مُؤْلم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، يعنون: يوسُف عليه السلام. قال سفيان ابن عيينة[1] ومجاهد: إنهم يعتقدون أنه في صغره سَرَق عناقاً أو دجاجة، وأعطاها إلىٰ سائل، فهم يُعرِّضون بها، ولم يعلموا أنَّ ذلك الإعطاء كان بإذنٍ من أبيه. ويجوز أن تكون سرقةَ صبيٍّ تافهة لا يُدرِكُ للسرقة معنىٰ، يسرقها من أهله ليعبثَ بها، أو من بعض إخوته أو أقرانه ليلعب بها، أو يأخذها خِلسةً ليساعد بها فقيراً، أو يظن ذلك أجراً. ويكثر مثل هذا في الصِّغَر وحداثة السن بدافع بساطة المنطق، ولا تُعدُّ هذه تَبِعةً ولا معياراً له في الكبر، ولكنهم بَدَرَت منهم بدافع الثأر من جُرْم أخيه المبني علىٰ ظاهر الأمر.

---

(١) هو الهلالي أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون (١٠٧-١٩٨هـ)، محدّث الحرم المكي، من الموالي، كان حافظاً ثقة واسع العلم كبير القدر. «الأعلام» للزركلي (٣: ١٠٥).

ولذلك عرَّض يوسفُ بردِّها وتوهيتها، كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: أسرَّ يوسُف هذه الوَصْمة التي وَصَمُوه بها، ولم يُجادلهم عنها ويكشف لهم عن حقيقة أمرها، لأنه لا يريد أن يكشف لهم أمْرَه الآن، إذ لم يَحِنِ الأجلُ بعدُ، واكتفىٰ بأن ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، والمراد من إثبات الشر لمكانهم إثباته لأنفسهم، علىٰ طريقة المجاز المرسل، أي: أنتم من شرِّ الأماكن ومن شرِّ الناس.

وهذا الرد من أعلىٰ الكلام بلاغةً وألطفِها توريةً وتلويحاً، فظاهره احتقار وتهجين لهم، حيث كان منهم سُرّاق، وباطِنُهُ ردٌّ عليهم وتقريعٌ لهم، إذ يتهمون يوسف بالسرقة المزعومة، ولم ينظروا ما كان من أفعالهم الأليمة ومكائدهم الجسيمة. وكذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾؛ فإنَّ ظاهرَه تَنَصُّلٌ من تسليمه لهم في دَعْواهم هذه المجرَّدة عن الدليل، واتهامهم للغير بلا إثبات ولا تفكير، فلا يُريد أن يُسلِّم لهم بذلك ويُصدِّقهم به، وقوفاً عند النزاهة من التُّـهَم، وباطِنَه: دَفْعُ ما اتَّهموه به من السرقة، وإنكارٌ عليهم مُسْتَنِدٌ بعلم الله.

وبعد هذا التعريض والإيلام، مالوا إلىٰ الاستعطاف والاسترحام، و﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥ ﴾ رقيقاً، فإن أباه ثكلان علىٰ أخيه الهالك، مُـتَسَلٍّ به عنه، ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾؛ فأحسِنْ علينا بهذا الاستبدال.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُۥ﴾، ولم يقل: «مَنْ سَرَق»؛ تَحرُّزاً من الكذب. والمراد: أنَّ الله سبحانه قد أذِنَ في أخذِ مَن وجدنا الصُّواع في رحاله، فكيف نأخذ غيره ﴿ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾، وفي هذا الجواب تيئيسٌ لهم من هذا الرجاء والاستعطاف.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِىۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ أي: انعزلوا مُتَناجين لحلِّ هذه المشكلة العويصة وتدبيرها، وهذه العبارة من أبلغ عبارات الإعجاز والإيجاز في الغرض الذي قُصِدَ بها. والمعنىٰ: فلما يئس إخوة يوسُف من العزيز أن يجيبهم إلىٰ ما استعطفوه إليه من تخلية أخيهم، انفردوا وانعزلوا عن الناس متذاكرين متناجين.

ثم فصَّل صورة المشاورة بقوله: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ مُذكِّراً إياهم ومُستفزاً شعورهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لتأتُنَّه به إلا أن يُحاط بكم. ثم زادهم استفزازاً وإغراء بقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾، و﴿مَا﴾ مصدرية، ومحلُّ المصدر: العطفُ علىٰ مفعول ﴿تَعْلَمُوٓاْ﴾، والمعنىٰ: وتعلمون من قبل هذا ما فعلتُم بيوسف، ولم تحفظوا عَهْدَ أبيكم فيه، وكنتم قد قلتم كذلك فيه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١]، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، فكيف يقنع منا بما نقوله عن هذه الحادثة؟

وبعد هذا الاستفزاز المضاعف، بيَّن لهم ما عَزَمَ عليه بنتيجة هذا الشعور وقال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن أُفارق أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بما يكون عُذْراً مقبولاً، أي: بأن يقضي ما هو قاض، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ فلا يكون حكمُه إلا بالحقِّ.

ثم طلب منهم أن يتركوه وحده في مصر يعالج القضية، ويذهبوا إلىٰ أبيهم بالميرة، ويقصُّوا عليه القصة. ولقَّنهم صورة البيان، فقال: ﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ من ظاهر الحال واستخراج الصُّواع من الوعاء.

ثم بالغ في الاحتراس وتحرِّي الصدق، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾، فما ندري؛ أحقيقة الحال كما شاهدنا، أم في القضية أمر مستور، لا نعرف كُنْهَه؟

ثم زاد توثيقاً بقوله: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ يعني: مصر وأهلها؛ لأن الخبر قد شاع وذاع وملأ الأسماع، ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ لأن الأمر علىٰ ما ذكرناه قد شاع وذاع، ثم بالغ في التوثيق بقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾، والصدق هنا: مطابقة القول للاعتقاد، لا الواقع.

﴿ قَالَ ﴾ يعقوب عليه السلام: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، قال المفسِّرون: ليس المراد من التَّسْويل هنا: الكذب والاحتيال، كما في واقعة يوسُف عليه السلام، ولكنه عنىٰ به هنا إخراجهم له إلىٰ مصر طلباً للمنفعة، فكان ما كان. أو عنىٰ به: بل خَيَّـلَتْ لكم أنفُسُكم أنه سَرَق وما سَرَق، إذ إنَّ الحقيقة ليست كما عرفتم، ولاختلاف معنىٰ التسويل في الموقفين عقَّبه في حادثة يوسف بقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وعقَّبه هنا بقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾، يعني: يوسُف وأخاه وكبيرَهم الذي تخلَّف. وهذا التعبير مُشْبَع بالأمل والحدس الدقيق؛ إذ لاح له وأحسَّ أنَّ يوسُفَ بَطَلُ هذه القصة والتدبير.

ثم ختم الكلام بما يُقرِّر الصبر والرجاء، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بحالي وحالهم، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ فيما يبتلي ويثيب.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

ثم قصَّ سبحانه وتعالىٰ ما كان من شأن يعقوب بعد ذلك، فقال: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ كراهةً لما صادفه منهم. وبما أن الأسىٰ يبعث الأسىٰ، أثارت هذه الحادثة في قلبه حادثة يوسف أيضاً، فازدوج الحزن عليه، عاد عليه حزن يوسف جَذَعاً، ﴿وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾، وهذه الجملة تُنبئ عن شدَّة حُزنه وتواصُلِه، ولذلك أردفها بقوله: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾، وهذا بيانُ حال من أحواله، لا أنه حالٌ كان بعد هذا الحادث، والله أعلم.

ثم مدحه سبحانه وأظهَـرَ رضاه عنه بقوله: ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ يكتم الحزن ويُخفيه.

ثم ذكر ما كان من أولاده تـجاه ما شاهدوه من حاله، فقال: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف، ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: مُضْنىٰ بالياً، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ وهذا الإنكار مطـويّ علىٰ الشفقة عليه، وعلىٰ اليأس من يوسُف.

فردَّه عليـهم، و﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾: يريد صدق رُؤْيا يوسف وتأويلها، وانضمَّ إلىٰ ذلك ما انتبه إليه من طلب مَلِك مصرَ لأخيهم بقوله: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف ٥٩] ومن حبسه له. إذ أدرك أنَّ في الأمر شيئاً من قضية يوسف.

لذلك أمرهم بقوله: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾، وهو الراحة والفرج بعد الشـدة، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ لجهلهم بأحوال الله وصفاته. والذي يظهر أنَّ يوسفَ إنما كتم خبره عنهم وعن أبيه، بوحي من الله أو إلهام. والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

ولما أمرهم أبوهم بالتَّحسُّس عن يوسُفَ وأخيه عادوا إلىٰ مصر، وقصَّ علينا القرآن ما كان بينهم وبين العزيز في هذه المرَّة، وكيف صَدَقت فِراسة أبيهم في ذلك، فقال: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ أي: علىٰ العزيز ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ أي: رديئة لا تُقبَل، يزجيها ويدفعها من تُعرَض عليه. فهم يعتذرون عن رداءتها ويهزُّون منه مَبْعَثَ الرحمة والرأفة، أي: إننا محتاجون إلىٰ العطف والإحسان،

﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ ولا تنظر إلىٰ رداءة بضاعتنا، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾، فهيَّج ذلك فيه منتهىٰ الشفقة والعطف، وبدأ بافتتاح التعارف علىٰ ألطف وجهٍ وألينِه، وهذا هو مبدأ الفصل السادس.

وقيل: إن يعقوب عليه السلام كتب للعزيز كتاباً، فلما قرأه بكىٰ، ثم أقبل عليهم و﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾، قال ابن عباس: يريد: عندما كنتم صبياناً.

أقول: وهذا يجري مجرىٰ العذر لهم، أي: إنما أقدمتُم علىٰ ذلك حال كونكم صبياناً لا دراية لكم كاملة، فافتتح التعارف معهم بلطيف العتاب، كما هو شأنُ الأنبياء. وإنما لم يذكر أباه يعقوب في صورة العتاب، وخصَّ العتاب له ولأخيه، مع عظم مصيبة يعقوب بيوسف وشدَّة غمِّه لفراقه، تعظيماً له ورَفْعاً من قَدْره، وعلماً منه بأن ذلك كان بلاء له ليزداد به عُلواً في الدرجة، ورفْعةً في المنزلة عند الله.

وهذه الآية هي مصداق قوله تعالىٰ: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، والظاهر أنه اعتبر التنبؤ من أول اتصالهم بيوسف، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

ثم حكىٰ ما قالوه عند سماعهم لهذا العتاب المُنمِّ عن قائله فقال: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؟! وهذه الجملة الاستفهامية المؤكَّدة بعدَّة مؤكِّدات هي التي أفادت أنواعاً عديدة من الإحساسات، فهي من البلاغة بمكان، شرحت الموقف شرحاً دقيقاً، مُزِجَ فيه التقريرُ والدهشة مع استفهام الاستغراب والاستعظام؛ إذ ما كانوا يظنون أنه يصبح عزيز مصر بهذه العظمة البالغة، وهذا الشأن الرفيع، لذلك ﴿قَالَ﴾ لهم مبالغاً في تعريف نفسه وتفخيم شأن أخيه وشكره الله علىٰ نِعَمِهِ فيهما: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بالاجتماع بعد الفُرقة، والعِزَّة بعد الذِّلة.

ثم علّل ذلك بهذا التعليل العام فقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾، وإنما وضع الـمُظهَر موضع الـمُضْمَرِ تنبيهاً علىٰ أنَّ المنعوتين بالتقوىٰ والصبر موصوفون بالإحسان.

ولما كان كلامه ينطوي علىٰ التعريض بهم والتأنيب لهم، أجابوه بما يتضمَّن التسليم والاعتذار و﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: اختارك وفضَّلك علينا، وذلك بما ذكرت من النعوت الجليلة، ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ فيما فعلنا معك، وهذا اعترافٌ منهم بأنَّ الله نصيرُ المظلومين، يُؤاثِرُهم بفَضْله علىٰ الظالمين، وتأنيبٌ من نفوسهم لنفوسهم، حتىٰ إنك لتلمس منه خَجَلَهم لمساً.

ولذلك تلطَّف بهم، وردَّ عليهم بما يقتضيه مقام النبوة من العفو والسماح، و﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: لا توبيخ ولا عتاب. والجملة خبرية أُريدَ بها إنشاءُ العفوِ والسَّماح، وهذا شأنُ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام إذا ظفروا بمَنْ عاداهم وتمكَّنوا منه، كما فعل ﷺ بأهل مكة بعد الفتح، فقد عَفَا عنهم، وقال: «اذهبوا، أنتم الطلقاء»[1]، مع أنهم كانوا قد سلكوا في إيذائه ومقاومته أنواع المسالك. وهكذا تكون النفوس العظيمة والأرواح الطيبة، إذا ظفرت بمَنْ عاداها أو آذاها.

وإن يوسف عليه السلام لم يكتف بالعفو عن إخوته، بل أضاف إليه الدعاء لهم بالمغفرة، فقال: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾، وهذا غايةُ ما يكون من عُلوِّ النفس وطيب الروح وكمالها.

وعندما انتهىٰ دَوْرُ الابتلاء، أراد الله سبحانه لهم اللقاء، فأمرهم بما أمره الله به،

(١) رواه البيهقي (٩: ١١٨)، عن أبي هريرة.

وقال: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٣﴾.

ثم أخذ سبحانه يقصُّ ما كان من أمر يعقوب مع مَنْ حضره من أهله وما كان من حسِّياته، فقال: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾[1] أي: لما خرجت القافلة وانفصلت عن مصر مُتوجِّهةً نحو الشام ومعها حامل القميص، ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ﴾ لمن عنده من أهله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤﴾، قال الحسن وقتادة: لولا أن تقولوا: إنه شيخ قد هَرِم وخرف[2]. فالمعنىٰ: لولا أن تُهرِّموني وتُخرِّفوني. وهذه معجزة منه، ولطف من الله به.

وكـم لله مِـن لُطـفٍ خفـيّ يدقُّ خفاهُ عن فَهْم الـذكيّ[3]

ولكنهم فنَّدوه و﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ۝٩٥﴾ أي: لفي ذهابك عن الصَّواب الذي فيك من القديم في حُبِّ يوسُف والاعتقاد بعودته! يقولون ذلك له إشفاقاً عليه.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾[4] بالقميص، ﴿أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ أي: وَجْه يعقوب، أو ألقاه يعقوب علىٰ وجه نفسه، ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ وشتّان بين القميصين، وحينئذٍ ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٩٦﴾، يريد تصديق رؤيا يوسف، وأنها حقٌّ لا بدَّ من تأويلها علىٰ الشكل الذي رأىٰ.

---

(١) العير: القافلة تحمل الميرة، سواء كانت جمالاً وبغالاً، أو حميراً، أو خليطاً منها.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦: ٢٥٥).

(٣) البيت نسب للإمام علي كرم الله وجهه وهو في ديوانه (١: ١٨٣).

(٤) إذا توسَّطت «أنْ» بين «لـمّا» والفعل دلَّت علىٰ أنَّ الفعل فيه تراخٍ. (المؤلف).

ولما رأوا ذلك وتحسَّسوا بمغْزاه ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾، وحَرْفُ التنفيس(١) للإشعار بالدوام علىٰ الاستغفار لهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

ثم جاء الفصل السابع من القصَّة، ويبتدئ بوصول يعقوب وآله إلىٰ مصر، وقد حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ تكريماً وشوقاً. وأكثر المفسرين علىٰ أنَّ التي كانت مع أبيه هي خالته وليست أمه؛ لأنها قد ماتت، والتجوُّز بمثل هذا من خصائص اللغة، ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ لأنهم كانوا قبل هذا يخافون ملوك مصر ولا يأمنونهم. وهذا من التحدُّث بالنعمة. ويجوز أن يتَّحِدَ مرمىٰ هذه الآية مع مرمىٰ يعقوب عليه السلام حين أوصىٰ أولاده أن يدخلوا من أبواب متفرِّقة، والله أعلم.

وعلىٰ كلٍّ فهي مؤيِّدة لِـمَا ذكرتُ في معنىٰ تلك الآية.

ثم بيَّن تعالىٰ كيف حيَّوْا يوسفَ تحيَّة الملوك بالانحناء، وكان ذلك مصداقاً للرؤيا، فقال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تكريماً لهما، ﴿وَخَرُّواْ﴾ أي: الأبوان والأولاد ﴿لَهُۥ

---

(١) يعني: «سوف».

سُجَّدًا﴾ بالانحناء أداءً لتحية الملوك، ﴿وَقَالَ﴾ يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ﴾، حيث تَأَوَّلَتْ بسجود الإخوة والأبوين، يُذكِّر أباه بهذه النتيجة اللامعة، ويُضَمِّنُ ذلك شكرَ الله عليها.

ثم تابع التحدُّث بالنعمة بقوله: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾[1] أي: البادية، ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: أفسد ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ أي: يدبِّر ما يُريده بما يَدِقُّ أمره عن فهم البشر. يريد: ما جرىٰ له في حياته من المقدِّمات الـمُحرِقة لتكون هذه النتيجةُ الـمُشرِقة، ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح والتدابير، ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ الذي يفعل الأشياء علىٰ ما تقتضيه الحكمة البالغة والمصلحة العامَّة النافعة التي يَقْصُرُ عنها فَهْمُ البشر، ولله في خلقه شؤون.

ثم أثنىٰ علىٰ الله تعالىٰ بما أنعم عليه من هذه النِّعَم الجليلة، وتضرَّع إليه تعالىٰ أن يُديمَها له، وأن يتولاه في الدنيا والأخرىٰ، فقال: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾، والـمُلْك: عبارة عن الاتِّساع في المقدرة لمن له السياسة والتدابير، فيشمل وظيفة الوزير. وتأويلُ الأحاديث أعمُّ من تعبير الرؤيا، من كلِّ ما يُوحي به إليه أو يُلهِمُه إياه.

ثم ذكر من صفات القدرة والحكمة ما يتناسب مع ذلك الامتنان، فقال: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مُبدِعَها وخالقها، ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ أي: أنت الذي تتولاني، فوفِّقني لطاعتك والانقياد لك حتىٰ الموت.

---

(١) وهذا يدلُّ علىٰ أنهم كانوا من أهل البادية، لا من أهل الحضر. (المؤلف).

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

ثم ختم القصة بالتنبيه إلىٰ مكانة ما سبق من العلم والهداية، مُعلّقاً بها يُعلَّقُ به علىٰ أمثالها من القصص في أنها من عند الله؛ لأنها تتناول أموراً بعيدةً عن النظر، خفيَّةً علىٰ البشر، وتاريخاً صحيحاً مجهولاً لأرباب الخبر، يرمي بذلك إلىٰ أنَّ القرآن من عند الله؛ لاشتماله علىٰ دقائق الأنباء وخفايا الأمور، فقال مخاطباً النبي ﷺ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ وهذا مِصداقُ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

ثم تهكَّم بالمعارضين لنبوَّته والمنكرين لها وللقرآن، وأنه من عند الله، تهكَّم عليهم بنفي مشاهدته ﷺ لمؤامرة الإخوة في يوسُف حين أجمعوا أن يجعلوه في غَيابة الجُبّ، إلماعاً إلىٰ أنَّ هذا الخبر لا يمكنه أن يعرفه علىٰ هذا الوجه الصحيح، لولا إيحاء الله به إليه، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾، يعني: إخوةَ يوسف حين دبَّروا له المكيدة، والمعنىٰ: أنّىٰ لك ذلك لو لم يُوحِهِ الله إليك؟

ثم أتىٰ بما فيه تسليةٌ له ﷺ عن إعراض المشركين وعدم إيمانهم مع هذه البراهين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ رُغماً عن هذه العِبَر والبراهين؛ لأنهم أفسدوا طبائعَهم، ففقدت الاستعدادَ للنظر والاستدلال، فَضْلاً عن السَّداد في الرأي وصحة العقيدة.

ثم ذكَّرهم بملاحظة أخرىٰ علىٰ صحَّة دعواه للنبوَّة، يُبرهن بها القرآن كثيراً في هذا الباب، فقال: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: علىٰ هذا القرآن وتبليغك لهم إياه ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾، فيتَّهموك بأنك تُريد من وراء دَعوىٰ النبوَّة غَرَضاً ذاتياً ومصلحةً شخصية، كلا، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾؛ يذكِّرهم به ويهديهم إلىٰ ما تكمل به فطرتُهم، ويتمّ به نظام اجتماعهم، ويعود عليهم بخير الدنيا والآخرة.

ثم نعىٰ عليهم غفلتَهم عن كَثْرة الآيات الكونية الدالة علىٰ صدق ما يدعو إليه من وحدانية الله، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تدلُّ بوضوح علىٰ وحدانية الله سبحانه، ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: لا ينتبهون لها، بل يمرُّون عليها مرور البهائم والأنعام في مسارحها.

ثم أردف الكلام بهذا النَّعْي والتشنيع العام، يردُّ به علىٰ دَعوىٰ كثير من المشركين بأنه يؤمن بالله خالق السماوات والأرضين، فقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ باتِّخاذِ الوسطاء والشركاء، وبمراعاة غير الله معه في بعض الأمور كالرياء.

وهذا يشمل بعمومه مَنْ لا يُخلِصُ العمل لله، ومَنْ يتَّخذ الأنبياء والصُّلحاء وُسَطاءَ له عند الله. والله أعلم.

وبعد أن ندَّد بهم علىٰ إعراضهم عمَّا جاءهم من الحق، توعَّدهم علىٰ ذلك فقال: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: عذابٌ من الله يَغْشَاهم فيُفنيهم عن آخِرهم، ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ فيَلقَوْنَ حسابهم في الآخرة، ويُجزَوْن الجزاء الأليم. وهذا الوصف للساعة نقضٌ لإنكارهم لـها واستبعادهم صحّتها.

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

وبعد تأنيبهم عن الإعراض عمّا جاءهم به من الحق، وتَوَعُّدِهم على ذلك؛ أمره أن يُوضِّح لهم الطريقة التي يدعوهم إليها؛ إذ قد تهيّأت نفوسهم، وعلى نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد، فقال: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾ وهي الدعوة إلى التوحيد والإيمان بإخلاص، كما فسّرها بقوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ أي: على بيانٍ وحُجَّةٍ واضحة ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَ﴾ قل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: أُنزِّهه عن الشُّركاء.

ثم ردَّ عليهم إنكارَهم أن يقوم رجلٌ منهم فيدَّعي أنه مُرسَلٌ إليهم من الله، مُبيِّناً أنه تعالى لم يرسل رسلاً إلى البشر إلا من البشر، فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾، وهذا القيد للتمكين والتقرير.

ثم لفت نظرهم إلى سُنَّة الله في المكذِّبين، تهديداً لهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المكذِّبين بالرسل والآيات، فيحذروا تكذيبك.

ثم أردف الترهيب بالترغيب، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾، وهذه للمبالغة في الحث.

ثم تابع الكلام عن إرسال الرسل، وبيَّن سبحانه سُنَّته الكونيَّة في نصرهم بعد بُطءٍ وابتلاء، زيادةً في تسليته ﷺ وتثبيته، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾، ويجوز أن تكون هذه الجملة غايةً لمحذوف دلَّ عليه السياق، علىٰ نهج القرآن في مثله، أي: لا يغرنَّهم تماديهم فيما هم فيه من الدَّعة والرخاء، فإنَّ مَنْ قبلهم قد أُمْهِلُوا حتىٰ أَيِسَ الرسل من النصر عليهم في الدنيا، أو غايةً لمضمون قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، أي: أُمهِلوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠]، ويكون ما بينهما اعتراض.

وليست هذه الجملة إلا تصويراً مجرداً لبطء النصر وتأخيره إلىٰ أجله الذي تتكامل فيه الأسباب، حسب حكمة الله في سُننه الكونية، إذ الرسل لا تيأس من رَوْح الله. أو المعنىٰ: حتىٰ أيس الرسل من إيمانهم لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان.

وقولُه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ تأكيدٌ لمضمون الجملة السابقة؛ إذ هي في معناها وعلىٰ وتيرتها، وتمثيلٌ للدرجة القُصوىٰ من اليأس من إيمان قومهم بهم. أو المعنىٰ: ظنَّ الأمم أنَّ الرسل كذَبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله إيَّاهم. ورُوِيَ هذا المعنىٰ عن كثير من مفسِّري السلف، فيكون الضمير في «ظنُّوا» عائداً إلىٰ ما هو مفهوم من السياق وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). واختار هذا الرأي أبو مسلم.

وروي عن عائشة رضي الله عنها: أن المعنىٰ: خاف الأنبياء من أن يكذِّبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم. وقد استحسن هذا الرأيَ الفخرُ الرازي[1].

أقول: ويجوز أن يكون هذا الكلام تمثيلاً وتصويراً للهواجس النفسيَّة في استبطاء

---

(١) ينظر «تفسير الرازي» (١٣: ١٧٣).

النصر لتراخيه. والمراد به: تصوير المبالغة في التراخي، لا حقيقة معناه، والله أعلم. أي: حتىٰ إذا كان الأمر كذلك ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ أي: النبيُّ والمؤمنون، وإنما لم يُعيِّنهم اكتفاءً بذكر المجرمين، حيث قال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

ثم ختم السورة بما يحثُّ علىٰ إدراك ما سبق فيها من العِبَر، والاتِّعاظ بها، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ إذ قد تبيَّن منه أنَّ لله تعالىٰ نِعَماً عظيمة تحت طيَّات مصاعب جسيمة، ونتائج مُشرِقة من مقدِّمات مُحرِقة، وأنَّ عباد الله المُخْلَصين لا تُغْريهم المُغْريات، ولا تعصف بهم عواصفُ النفوس والشهوات، بل يقفون عند حدود الله وبراهينه وقوفَ تعظيمٍ وإجلال، ويتحمَّلون أعظم المشقَّات في سبيل رضا الكبير المتعال، وهذه الصفات هي من العِبَر والآيات التي أشار إليها في أول السورة.

والذي أراه من خواتم هذه السورة: إنذار الرسول بأن خاتمتك تكون كخاتمة أمر يعقوب، وتكون نهاية العسر يسراً، والله أعلم.

ثم نبَّه إلىٰ ما في ذلك من الدلالة علىٰ أنَّ هذا القرآن مُنزَّل من عند الله، ونوَّه بشأنه؛ حَمْلاً علىٰ التمسُّك به، وعرَّض بالمكذبين به من المشركين والجاحدين، فقال: ﴿مَا كَانَ﴾ هذا القرآن الذي فيه تلك القصص والعِبَر ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماوية، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجه البشر في إصلاح نفسه، وتنظيم أحواله، في دنياه وآخرته، مما لا يهتدي إليه عقله أبداً، أو يهتدي إلىٰ بعضها بعد جهد جهيد، فكان أعظمَ خير للناس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾، لأنَّ الإيمانَ الصحيح يُدرِّب صاحبَه علىٰ استقلال الفكر، والنظر الصحيح، والتمييز بين الخطأ والصواب، والحقِّ والباطل، والعظيم والتافه. لذلك كان المؤمنون حقاً هم الذين يهتدون بهذا القرآن.

سُورَةُ الرَّعْدِ

وقد اختلفوا في أنها مكية أو مدنية، كلَّها أو بعضَها

وهي ثلاث وأربعون آية.

والغرض منها كما في التي قبلها:

إثبات نزول القرآن، وقد ذكر فيها شبهتَيْن لهم عليه وأبطلهما.

وكان يتخلل إثباتَ نزول القرآن الاستطرادُ إلىٰ التوحيد وإلىٰ الوعد والوعيد.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾.

﴿الٓمٓرۚ﴾ مرَّ الكلام علىٰ الحروف التي تُبتدأُ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر إلىٰ ما يأتي بعدها اهتماماً به. ومنه هنا قوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، والإشارة بـ﴿تِلۡكَ﴾ إنما هي إلىٰ ما يُتلىٰ من آيات هذه السورة، علىٰ وجه التفخيم والتعظيم؛ لأي: تلك الآيات هي آيات هذا الكتاب العظيم الفخيم، ﴿وَٱلَّذِيٓ﴾ قد ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هو ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾ بذلك الحق المبين. وهذا من أشدِّ أساليب التقريع والتأنيب.

ثم ذكر أهمَّ ما جاء في هذا الكتاب، وهو الدعوة إلىٰ التوحيد، ببيان اختصاص الله تعالىٰ بأفعال الألوهية والربوبية وصفاتها فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾، والعَمَد: السواري والدعائم، مُفرَدُه: عمود، وقد قيل في هذا الوصف قولان؛ أحدهما:

إن معناه: خَلَقَ السماواتِ بغير عمد، وأنتم ترونها كذلك. وهذا المعنىٰ مرويٌّ عن ابن عباس والحسن وقتادة[١] والجُبَّائي وأبي مسلم. والثاني: أن يكون ﴿تَرَوْنَهَا﴾ من نعت العمد، فيكون المعنىٰ: بغير عمد مرئيَّة. وروي هذا عن ابن عباس أيضاً ومجاهد[٢].

أقول: والمراد من السماوات طبقاتُ النجوم، أو النجوم نفسُها[٣]، مِنْ ذِكْرِ الكل وإرادة الجزء، أو المحل وإرادة الحالّ. والمراد من العَمَد غير المرئية: الجاذبية العامَّة التي بها تتماسك النجوم في هذا الفضاء. والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وكلمة: ﴿ثُمَّ﴾ لإفادة عَظَمة المعطوف، أي: لإفادة أنَّ ما بعدها عمل مهم عظيم، أو لتراخيه وتعاليه في الرُّتْبة عما قبله، أو هي لمجرَّد عطف الخبر من دون ملاحظة الترتيب. وكلا هذين المعنيين هما من خصائص اللغة وأساليب القرآن. وهذا الوصف وأمثالُه في ذات الله تعالىٰ وصفٌ مجازيٌّ يُعبِّر به القرآن عن تحقُّق الوجود والثبوت لله تعالىٰ في الأذهان بصورة تتناسب مع تصوُّرات الإنسان.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦: ٣٢٥).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٠٨٩، ١٢٠٩٠).

(٣) السماوات أعظم من هذه النجوم، فالمجموعة الشمسيَّة واحدة من ملايين المجموعات تحتويها المجرَّة التي نحن جزء منها، وهذه المجرَّة واحدة من ملايين المجرات الأخرى. فالسماوات هي هذا الكون العلوي من فوقنا لا نعرف منه إلا القليل، وما نعرفه من الكواكب والنجوم التي تصل إلينا أشعتها بعد ملايين السنين ـ كما يقول الفلكيون ـ هي تحت السماء الدنيا، لأن الله جعلها زينة للسماء الدنيا كما في سورة فصلت: ١٢، والصافات: ٦ و٧. فتفسير السماوات بالكواكب السيَّارة المرتبطة بمجموعتنا الشمسية ـ كما ذهب إليه المفسِّر، ومن قبله: القاسمي في «محاسن التأويل»، وعبد القادر المغربي في «تفسيره جزء تبارك» ـ خطأ، والصحيح أن النجوم وطبقاتِها كلّها من السماء الدنيا، وفوقها سائر السماوات. وقد تقدَّم مراراً التنبيه على خطأ المؤلف في تأويل السماء بالنجوم أوطبقات النجوم.

ويجوز أن تكون هذه العبارة مستعارة من صفة المخاطبين في مثل هذا الشأن، دالة علىٰ معنىٰ التدبير والسلطان، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة في مجازات القرآن)؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ يُخاطِبُ الناس في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم، تقريباً للأذهان. وهذا المعنىٰ لم يتحقَّق إلا بعد إيجاده سبحانه لهذا الكون، إذ كان قبل ذلك عَرْشُه علىٰ الماء، وهو: السَّديم الذي تكوَّنت منه السماء. والله أعلم.

أو يقال: العرش في اللغة: البناء، أو المبني، كما حقَّقنا ذلك في مثل هذه الآية في أول سورة هود[1]. والمراد: إشرافه تعالىٰ علىٰ هذا الكون الذي بناه، وتدبيره لشؤونه، وسيطرته عليه، يكنىٰ بذلك عن سَيْره دائباً في نظامه المتقن من دون خلل ولا تعطيل، ولذلك عطف عليه أو علىٰ رفع السماوات قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يكون فيه نهاية هذا الكون. والمراد من التسخير: ما وضعه لهما من النظام الذي منه تعاقُبُ الليلِ والنهار واختلافُهما طولاً وقِصراً.

ثم أجمل المعنىٰ المراد من الاستواء والتسخير بقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، ويجوز أن يُراد بالآيات هنا: الكونية، وهو الأنسب بالسياق، أو القولية، أو كلتاهما، وهو أجمع للمعنىٰ. والمراد من تفصيل الكونية: نتائج نظام هذا الكون ومواليده، ومن تفصيل القولية: توضيحها لتدركوها إدراكاً صحيحاً، وتعلموا من كلِّ ذلك قدرة الله سبحانه علىٰ إعادتكم بعد الموت، كما قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

وبعد أن ذكر الآيات والشواهد العلوية، أردفها بالشواهد السفلية، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بأن جَعَل أكثرها سهلةً قابلةً للاستفادة منها بالزراعة والسكن وغير

(١) وتقدم التعليق عليه هناك عند تفسير الآية ٧ من سورة هود: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

ذلك، ولم يجعلها كلَّها جبالاً قاسيةً صعبةَ المنال والسلوك، أو رمالاً رخْوةً تغوصُ فيها الأجسام كما تغوص في الماء[١]، ﴿وَ﴾ لكن ﴿جَعَلَ فِيهَا﴾ جبالاً ﴿رَوَاسِيَ﴾ أي: ثوابت؛ لتتوازن سائر نواحيها فينتظم دورانها، ﴿وَ﴾ جعل فيها ﴿أَنْهَـٰرًا﴾ تتفجَّر من تلك الجبال، ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قال الماوردي: ذكراً وأنثىٰ[٢].

أقول: وهذا ينطبق علىٰ النظرية الحديثة في علم النبات، وقد تجوَّزَ بالثمرات عن أشجارها. ويجوز أن يُراد أصنافُ الثمار، واكتفىٰ بالاثنين أقل التعدد، وقيل: إنما مدَّ سبحانه الأرض بإيجاد الجبال عليها، فيكون قوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ من عطف السبب علىٰ المسبَّب. والله أعلم. والمعنىٰ: أعان الأرض ونظم حركتها بجعل هذه الجبال فيها.

ثم ذكر من الآيات ما له تعلُّق بصلاح النبات، فقال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يُعاقِبُ بينهما كي لا يكون ظلٌّ دائم، ولا شمس مستمرة، وبهذا التعاقب يتمُّ نموُّ النبات، ويبدو صلاحُه، وتتمُّ حياة الحيوان والإنسان.

ثم حثَّ علىٰ إدراك ما في ذلك التنظيم والإتقان من الدلائل الواضحة علىٰ اختصاصه بالربوبية والألوهية، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ ولم يُفسِدوا قَرائحَهم بالجمود والتقليد الأعمىٰ.

ثم استأنف طائفة أخرىٰ من الآيات السفلية، فقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ﴾ تختلف طبائع أتربتها، ﴿وَ﴾ فيها ﴿جَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ﴾ أي: أنواع مُنوَّعة منها، وإنما أفرد الزرع لأنه في الأصل مصدر يستعمل للجمع والمفرد، أو لأنه ذُكِرَ مع الجمع فيدل علىٰ الجمع، وذلك من خصائص اللغة، ﴿وَ﴾ كذلك فيها ﴿نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي: متقاربُ الصفاتِ ومتباعدُها، والكل من هذه الفصائل

(١) ومن معاني المدِّ في الأرض أيضاً: مدُّها بالخيرات والمعادن والموادِّ الخِصْب.

(٢) «النكت والعيون» للماوردي (٣: ٩٣).

متجاور و﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَ﴾ مع توافر أسباب التَّشابه في الفصائل المتقاربة، ﴿نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ أي: في شكل الثمر وجودتها. وهكذا تكون بذرة الحنظل بجوار حبة البطيخ، فتمتص الأولىٰ من مواد تلك الأرض ما يتحوَّل إلىٰ الـمُرِّ الزعاف، وتمتص الثانية ما يكون حُلْوَ المذاق، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٦)﴾.

وبعد أن نبَّه إلىٰ قدرة الله العظيمة في هذه الأشياء المألوفة، أنكر علىٰ منكري البعث استبعادَهم الإعادة علىٰ هذه القدرة البالغة، فقال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ﴾ ـ مع هذه القدرة ـ ﴿قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فنُعاد ونُبعث؟! وهذه الصيغة تدلُّ علىٰ منتهىٰ التعجُّب، كما أنَّ صيغة قولهم هذا تدلُّ علىٰ منتهىٰ الإنكار والاستبعاد؛ إذ تقديم الظرف لتقوية الإنكار، وتكرير الهمزة في قولهم: ﴿أَءِنَّا﴾ لتأكيد الإنكار.

ثم أردف ذلك بالتقريع المقرون بالتهديد، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ ولم يتفكَّروا في آثار قدرته وعظمته البالغة في مظاهرها الواضحة، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ أغلالُ التقليد الأعمىٰ والضلال البعيد، أو بمعنىٰ: مغلولون يوم القيامة بأغلال العذاب، أو المعنيان معاً، جمعاً بين الحقيقة والمجاز. وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

ثم نصَّ علىٰ الوعيد بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٥)﴾، تَعْساً لهم وسُحقاً، وضلالاً وغَيّاً. ألم يفكِّر هؤلاء الضالُّون أن المنيَّ عندما يحصل في الرحم

يستحيل علقةً ثم مضغة ثم لحماً وعظاماً وعَصَباً وغير ذلك حتىٰ يكون إنساناً، وإذا مات ودُفن استحال تراباً، وأصلُ المني من غذاء، والغذاءُ من تراب، إذا كان نباتاً أو غير نبات، فإذا كان قد تعلَّق الإنشاءُ بالاستحالة الأولىٰ، فلِمَ لا يتعلَّق بالاستحالة الثانية، وقد سمَّىٰ الله الإعادة خلقاً جديداً. ذلك هو الجهل العميق والضلال البعيد، لا سيما وأنَّ الإعادة إنما تكون من عَجْمِ الذنب الذي هو بمثابة نواة الحياة، أو هو هي، والله أعلم. فيُعاد منه الجسم مثلما تنبت الحبة في حميل السيل، كما جاء في الحديث[1]، إلا أن عجب الذنب يوم القيامة بعد أن تصير الأرض كتلة ترابية، وتتبخّر منها البحار بقربها من الشمس، ويُنْزِلُ اللهُ عليها مطراً خاصاً يبتلُّ منه عجم الذنب، وينمو داخل الأرض مثل الكمأة، فإذا تكامل تَشَقَّقُ الأرض عنهم سراعاً. والله أعلم.

ثم أردف هذا السياق بسياق آخر متعلِّق به يشتمل علىٰ الإنكار عليهم في طلبهم أن يعجِّل لهم ما أنذرهم به من العذاب، استهزاءً واستخفافاً، وفي طلبهم للآيات الدالة علىٰ نبوته، والرد عليهم في ذلك، وتنبيههم إلىٰ ما جرىٰ علىٰ المُنْذَرين قبلهم من أمثالهم، فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالعقوبة التي أُنذِروا بها ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: دون الحسنة. والمعنىٰ: يستعجلونك بالعذاب إنكاراً واستهزاءً، ولو فطنوا لطلبوا الإمهال عِوَضاً عن الاستعجال، يُعرِّض بسَفَهِهِم وغباوتهم، أو: ولو فطنوا لعجَّلوا بالإيمان طلباً للسعادة والإحسان. وعليه، فيكون قولُه: ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ تتميماً للكلام، علىٰ سُنة القرآن في مَزْج التَّنديد بالإرشاد. ومُحصَّلُهُ: لَيْتَهُم ـ عِوَضَ تعجُّلهم بالسيئة ـ يتعجَّلون بالحسنة، وهي الإيمان بما جئتَ به لعلهم يَسْعَدُونَ ولا يَشْقَوْنَ، لو

---

(١) رواه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (٢٩٩) ـ (١٨٢) ضمن حديث طويل بلفظ: «فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل». و«حميل السيل»: هو ما يجيء به السيل من طين أو غُثاء وغيره. «النهاية في غريب الحديث» (١: ٤٤٢).

كانوا يعقلون. وكيف يستعجلون بالسيئة إنكاراً واستهزاء ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾[١]، أي: قد مَضَتْ وجَرَت عقوبةُ أمثالهم من المكذِّبين، وكان عليهم أن يعتبروا بها، لو كانوا يعقلون.

ثم بيَّن سبب الإمهال منه تعالىٰ، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ فيُمهِلُهم لعلَّهم يذَّكَّرون فيثوبون إلىٰ ربهم تائبين، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ إذا جاء أمْرُهُ بعد ذلك. أعاذنا الله. وفي عموم هذه الآية من الخوف والرجاء ما يُطمع العاصي ويُخيف الراجي.

وقد روىٰ مسلم عن النبي ﷺ: «لو يَعْلَمُ المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طمع بجَنَّتِهِ أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد»[٢].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

ثم ذكر مطالبتهم بالآيات كالناقة والعَصَا، وردَّ عليهم ببيان ما في هذا الكون من آياتٍ عظام، كلها تدل علىٰ اختصاصه سبحانه بالألوهية والربوبية لو كانوا

---

(١) أي: العقوبات المنكِّلات الفاضحات التي جعلتْهم مثالاً يرتدع به غيرهم. والـمَثُلات: جمع الـمَثُلة، على وزن: الفَعُلة، مصدر بمعنى اسم المفعول للمبالغة، فِعلُه: مُثِلَ، أي: عُوقِبَ وجُوْزِيَ، عُبِّرَ به عن اسم الذات لتوكيد المبالغة.

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٥)، عن أبي هريرة.

يفقهون، ويُرسِلُ رُسُلَه للبشر يُعرِّفون، فقال: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ ﴾، ولم يعتبروا بما مرَّ من الآيات العظام، فردَّ عليهم أولاً ببيان حدود الرسالة، فقال: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ ﴾ كغيرك من الرسل، وليس إليك طَلَبُ إنزال الآيات لو كانوا يعلمون.

ثم ذيَّل هذا البيان بهذا التذييل العام، فقال: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧﴾ أي: ولكلِّ قوم نبيٌّ يُرسَلُ إليهم يهديهم إلىٰ طريق الرَّشاد، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥] وتلك سُنَّة الله في تاريخ البشر، فلا غَرابة إذا أرسلك الله هادياً لهم.

ثم ردَّ عليهم ثانياً بأن مصنوعاتِ الله تعالىٰ كلَّها آياتٌ لو كانوا يعلمون، وخصَّ بالبيان أقربَها إليهم وأفعلَها في إيجادهم، وهي ما أودعه الله في جهاز الرَّحِم من عجائب، وسَبَك ذلك علىٰ بيان علم الله الواسع، فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ ﴾ أي: ما يكون منها في حالة غَيْض وما يكون منها في حالة فَيْض. والمعنىٰ: أن الله يعلم ما أودع في الرَّحِم مما يُفضي إلىٰ كل ذلك العمل، وينتج هذه النتائج المتباعدة.

والتعبير بالعلم عن الصنع؛ لإفادة عَظَمة هذه الآية الكونية العجيبة الدالة علىٰ قُدرته البالغة، وهي عجائب التكوين في جهاز الرَّحِم، التي لا يعلم بعضَها إلا الماهرون من أرباب الفن. ومنها ما يتعلق بغَيْض الأرحام بالعقم، أو الإقلال في الولادة، أو ازديادها بالإكثار. وكلُّ ذلك مُنْبَعِثٌ عما أودع فيه من استعداد بديع ونظام دقيق.

﴿وَ﴾ ليس ذلك خاصاً بالرَّحِم ونتائجه فقط، بل ﴿كُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ﴾ تعالىٰ يجري ﴿بِمِقۡدَارٍ ٨﴾ ونظامٍ عجيبٍ دقيقٍ. ألا ترىٰ ذرَّات الأكسجين والهيدروجين

في الماء كيف أنَّ الأوَّلَ أضعافُ وزن الثاني، والثاني أكبرُ حجماً علىٰ نِسَبٍ لو اختلَّتْ وزناً أو حجماً لفسد الماء. وترىٰ مثل القمح والقطن وغيرهما مركّبين من عناصر متَّحدة في الأكثر مختلفة الكمية في تركيب كل واحد منهما، وهذا الاختلاف هو الذي صيَّر مادة القطن صالحةً للبس، ومادة القمح صالحة للأكل. وهكذا سائرُ الأشياء، حتىٰ إن الحيوان والنبات يرجعان إلىٰ عناصر واحدة تختلف في مقاديرها. أمَا في كل ذلك آيةٌ لهم لو كانوا يعقلون!

ثم دلَّل علىٰ سَعَة علمه هذا المؤدِّي إلىٰ دقَّة تكوينه في الموجودات بصفته الذاتية في العلم، فقال: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أي: يعلم ما خَفيَ وما ظهر، لا فرق في علمه بالأمرين علىٰ السواء، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، مما كان ومما سيكون، ليس لعلمه بداية ولا له نهاية، ولا غفلة ولا نسيان، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩﴾ علىٰ كلِّ شيء، فلا يتخلَّف عن إرادته مراد.

ثم تابع البيان بما يُفصِّل سَعَة علمه بالغيب والشهادة، ويتضمَّن الإلماع إلىٰ علمه تعالىٰ بأنهم إنما طلبوا إنزالَ الآيات تعنُّتاً، إذْ لا يَخْفىٰ عليه سبحانه خافية، والسرُّ والجهرُ عنده سِيَّانِ، فقال: ﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ أي: إنه سبحانه يعلم السِّرَّ كما يعلم الجهر، ويعلم ما أخفاه التستُّر وظلمةُ الليل، كما يعلم ما أبداه التظاهر وضياءُ النهار، والكلُّ عنده سواء، فلا يَخْفىٰ عليه ما يُضْمِرُه المُضمِرون، وما يَقْصِدُه هؤلاء المكذِّبون من العناد والإعنات.

ثم واصل المعنىٰ بذكر آيةٍ أخرىٰ؛ خفيَّةٍ في ذاتها، ظاهرةٍ بآثارها، مطويَّةٍ علىٰ الحكمة والمِنَّة المُفْضِيَتَيْن إلىٰ اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة، فقال: ﴿لَهُۥ﴾ أي: لكلِّ ممَّن أسرَّ القول أو جَهَر به، ومِنَ الـمُسْتَخْفي والسَّارب، أو للإنسان المفهوم من السياق

﴿مُعَقِّبَٰتٞ[١] مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ قال البخاري: ملائكةٌ حَفَظةٌ تَعْقُبُ الأولىٰ منها الأُخرىٰ[٢]. وعن عليّ[٣] وابن عباس: ملائكة يحفظونه من المهالك[٤].

أقول: وقد يُعبِّر القرآن والحديث بالملائكة أحياناً عن القوىٰ الخفيَّة الصَّالحة النافعة[٥]، فيجوز أن يُراد هنا: القوىٰ الطبيعية في الإنسان التي تولِّد المناعة في الجسم، وتحفظه من كثير من الأمراض والأعراض، ويكون معنىٰ التعقيب: الـمُلازَمة له وعدم الانفكاك عنه، أو التَّجدُّد في هذه القوىٰ[٦].

والتعبير بصيغة العاقل: إمَّا للتجوُّز في شمول لفظ الملَك لهذه القوىٰ، أو بصفته، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ في صفة الكواكب: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، والله أعلم. ومن مثل ذلك ما يقوله علماء الطبيعة من أنَّ جوَّ الأرض يمنع النيازك من الفتك بنا،

---

(١) المعقبات: جمعُ مُعَقِّبةٍ، وإنما وصفت الملائكة الـمُوكَّلون بحفظ ابن آدم بذلك؛ لأنهم يعقب بعضهم بعضاً في حفظ ابن آدم وكلاءته في الليل والنهار، دون أن يقع بينهم فترة انقطاع.

(٢) «صحيح البخاري» (٦: ٧٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦: ٣٧٨).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢١٩٦).

(٥) لا يعبِّر القرآن عن الملائكة بالقوىٰ الخفية الصالحة، بل عالم الملائكة أمر حق يجب الاعتقاد بوجودهم، والإيمان بصفاتهم، وجميع النصوص القرآنية والأحاديث النبوية تدلُّ دلالة قاطعة علىٰ حقيقة وجودهم، بمعنىٰ أنهم ذواتٌ موجودة، متصفة بصفات حميدة، وأعمال رشيدة، وأقوال سديدة. وليسوا عقولاً مجردة، ولا من معاني النفوس البشرية السعيدة الـمُسْعِدة، وإنما هم عالم حقيقي الوجود. ومجمل الإيمان بالملائكة: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالىٰ خلق عالماً أسماه بالملائكة، وهم: أرواح قائمة في أجسام لطيفة نورانيَّة، قادرة علىٰ التمثُّل بأمثلة مختلفة، بإذن الله تعالىٰ، لا يوصفون بأنوثة ولا ذكورة.

(٦) تقدم بطلان هذا التأويل للملائكة (١: ٤٥٦).

لأنها تَـتَبخَّر ـ من احتكاكها بالهواء ـ كلُّها أو معظمُها إلىٰ دخان أو تراب دقيـق قبل أن تصل الأرض، ومثل هذا الحفظ والحيطة كثير في سُنـن الكون من مخلوقات الله[١].

ويقول ابن الأنباري: إن ﴿مِنْ﴾ بمعنىٰ الباء، أي: بأمر الله[٢]. وهذا كله علىٰ تقدير تعلُّق ﴿مِنْ﴾ بـ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾. ويجوز أن تتعلق بمحذوف يكون صفة للمُعقِّبات.

وقيل: بل الآية وَصْفٌ للمُسْتخفي بالليل والسَّارب بالنهار، يصفه بأنه قد يتَّخذ له حَرَساً يحرُسه ويمنع عنه ويخفيه. فهي تُؤْذِنُ أنّ ذلك الحرس لا يخفيه عن علم الله، ولا يقيه مما قدَّره الله عليه وقضاه، وهو وغيره في ذلك سواء.

ثم تابع السياق المتضمِّنَ لعنادهم، مع توفُّر الدلائل ووضوح البيان في استحقاقه سبحانه للألوهية والربوبية وحده؛ لاختصاص صفاتها وأفعالها به تعالىٰ؛ أتبعه ببيان سبب ذلك التَّعامي فيهم، وذكره بطريقة قاعدة عامة في استلزام الأسباب للمسبَّبات، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٣] أي: إنَّ الله سبحانه لا يغيِّر نعمةً أنعمها علىٰ قوم حتىٰ يُغيِّروا ما بأنفسهم من الأحوال التي

---

(١) وكلُّ ذلك يتم عن طريق الملائكة الذين وكلَّ الله لـهم تدبير أمور الكون، كمـا قال سبحانه: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]. فالملائكة الكرام يتلقون أوامر الله سبحانه وينفذون أحكامه، فهو سبحانه له التدبير المطلق، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

(٢) «معاني القرآن» (٢: ٦٠).

(٣) خلق الله الإنسان مطبوعاً علىٰ الاستعداد للعقيدة الصحيحة والأعمال الصالحة، وينبعث عن ذلك كل الخير للإنسان في دنياه وأخراه. ثم أرسل له الرسل بالشرائع المنزلة لتربية ذلك الاستعداد وتنميته، ولا يتغيَّر ذلك في الإنسان إلا إذا أفسد هذه الطبيعة بمفاسد التربية وسوء القدوة. وحينئذ يناله الشر في الدنيا والأخرىٰ، ولا يفارقه إلا إذا عاد فأصلح طبيعته، ورجع بها إلىٰ حالتها الأولىٰ. وهذا الأمر جارٍ في الفرد والأمم علىٰ السواء. (المؤلف).

أدّت إليها، ولا يُبدِّلُ نِقْمةً أنزلها بقوم حتىٰ يُبدِّلوا ما بأنفُسهم من الأسباب التي أفضت إليها. وبعبارة أخرىٰ: إنَّ الله سبحانه خَلَق الإنسان للسعادة في الدنيا والأخرىٰ، وطبعه علىٰ أسبابها، وأرسل له تعاليمَ تُعينُه علىٰ ذلك، فإذا أفسد طبيعته وحاد عن التعاليم تغيَّرت سعادتُه بشقاء، وإذا نَدِمَ وعاد أدرك المراد.

وقد أكَّد هذا بقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾، لأنَّ سنة الله في نظام الأسباب والمسبَّبات لا تتخلَّف، فالذين يتلبَّسون بأسباب السوء ينالهم لا محَالة، بمقتضىٰ سنة الله، ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾ أي: ليس لهم من دون الله مَنْ يتولّىٰ أمرَهم ويمنعُهم من أن تجري سُنة الله فيهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ۝١٣ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ۝١٤﴾.

ثم تابع البيان عن الآيات الدالة علىٰ اختصاصه بالألوهية، وأدمج فيه الإيماء إلىٰ التَّهديد والترجية، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾، لأن الناس منه بين اثنين: خائفٍ منه، وطامعٍ فيه. أي: خوفاً من الصاعقة، وطمعاً في الغيث، كما يرسل عليكم الآيات تهديداً وترجيةً لأن تَؤُوبُوا لرُشْدكم، ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢﴾ لخيركم وصلاح عيشكم وإنعام الله عليكم. وفيها دليلُ القدرة والمنَّة، إذ هي من عُظْمىٰ الآيات الكونية؛ يعلمها المتخصِّصون في هذا الفن، وكيف تثور الأعاصير من البحار بواسطة ناموس الحرارة، وتنتشر الأبخرة في الأجواء، ويطرأ عليها من التطوُّر والتفاعل ما يجعلها ماء ثجَّاجاً بقدرة الله العظيمة في سُننه المطَّردة في ذلك.

وقد ينشأ السَّحابُ الثِّقالُ علىٰ صورة كُتل عظيمة، بعضُها مشحون بالكهرباء الموجِبِ، وبعضُها بالسالِبِ، فتَتَجاذب ويَحدُثُ الرعد والبرق من ذلك[١]، ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ والرعد: هو الصَّوتُ الذي يحدث من اصطدام كتل أجرام السحاب، واتصال بعضها من بعض، والله أعلم. والمراد من التسبيح هنا: لازِمُه[٢]، وهو الإيذان بتنزيه خالقه سبحانه عن الشريك والمثال، أي: يدلُّ بعظمة تكوُّنه وعجيب نظامه دلالةً واضحة علىٰ استحقاقه تعالىٰ وحده لأن يُعبَدَ ويُحمَد، وأن يُنزَّه عن الشريك والمثال في هذه الأعمال.

﴿وَ﴾ كذلك تُسبِّح ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي: من هيبته وجلاله، تنزهه وتخافه. وفيه تنبيه إلىٰ أنها تعلم من خشية الله ما لا نعلمه. ﴿وَ﴾ هكذا ﴿يُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ وهي قَصْفَةُ رعدٍ هائل، تَنْقَضُّ معها بَنْقَةُ نارٍ أو شرارة لا تمرُّ بشيء إلا أتت عليه، ثم أشار إلىٰ ما شاءه من نظام طبيعة الكهرباء، وطُرق إصابتها وعدم إصابتها، وقال: ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يستحقُّ ذلك، أو ممن لا يتحفَّظ منها ويَعرِض بنفسه لها، فهي من آثار قدرة الله العلية.

---

(١) وقد ثبت في العلم الحديث عن نظريَّة السَّحاب: أنه حينما يسخن الهواء القريب من سُطوح البحار وغيرها بتأثير الحرارة في الجو، ويبرد لوصوله إلىٰ منطقة باردة، أو لامتزاجه بتيَّار من الهواء البارد، فإذا بَـرَدَ تكاثف منه بخار الماء، وتكوَّن السحاب وسار مدفوعاً بقوة الهواء، ويتراوح بُعْدُه عن الأرض بين ميل وعشرة أميال، حتىٰ إن سكان الجبال الشامخة يحاذونه أو يكون دونهم أحياناً. (المؤلف).

(٢) بل المراد به حقيقتُه، فالرعدُ يسبِّح بحمد ربِّه عن معرفةٍ به، وعلىٰ وَجْهِ الحق والحقيقة؛ إذ لا يمتنع أن يخلق الله له إدراكاً يناسبه، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وكل هذه الآيات الكونية يرونها ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى﴾ آيات ﴿ٱللَّهِ﴾ القوليَّة ويُعرضون عنها، ويتَّخذون له شريكاً ونداً. فتوعَّدهم بقوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ أي: شديد الحَوْل والأخذ، والكَيْد والنكال. قال البخاري: المِحال: العقوبة[1]. وقالوا: المحال: مأخوذ من قولهم: مَحَلَ فلان بفلان، إذا كايده وعرَّضه للهلاك.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ قال الحسن: من دَعَاه دَعَا الحقَّ[2]، المستجيب. أو أنه الذي يحقُّ أن يُعبَدَ ويُدْعىٰ إلىٰ عبادته دون غيره، كما يُفهَمُ كل ذلك من الموصول الآتي المقابل.

أقول: ويجوز أن يُؤَوَّل بمعنىٰ أنَّ ما يدعوهم الله إليه هو الحقُّ المؤدِّي إلىٰ السعادتين، وما يدعوهم إليه غيره هو الباطل المؤدي إلىٰ الشقائين. وقد أقام مقام الشق الثاني هذا التمثيل، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأوثان وغيرها ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾، ثم مَثَّل فَشَل دعائهم لهم ورجائهم منهم بالعطشان الذي يريد أن يأخذ الماء بكفه ليُبَلِّغَهُ فاه، ولكنه لا يقبض كفَّه ويُقعِّرُه ليقف فيه الماء، بل يبسطه وينشره، فلا يكون فيه شيء منه ليُبلِّغه فاه، ويروي به صَدَاه، فقال: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾، وقيل: هذا تـمثيل يضربه العربيُّ لمن يسعىٰ فيما لا يدركه، كما يمثل بقوله: هو كالقابض علىٰ الماء. ثم ذيَّل ذلك بقوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ للأصنام وعبادتهم لها ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ بعيد.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ

---

(١) «صحيح البخاري» (٦: ٧٨).

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٩: ٢٥).

يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾.

ثم أردف الكلام ببيان أنَّ اختصاصه سبحانه بالألوهية أمر واضح، يُدركه أو ينقاد له مَنْ في السماوات والأرض طَوْعاً، إن سَلِمَت فِطَرُهم من التحريف والإفساد، وكُرْهاً إن أفسدوها وحرَّفوها، فأصبحوا لا يشعرون بانقيادهم له طبعاً، فلا ينقادون له طوعاً، فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي: ينقاد ويخضع لأنظمته وسننه تعالىٰ في هذا الكون[1]، ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ حيث ينقادون ويخضعون للسنن الكونيَّة في أنفسهم وخارجها بما يدلُّ علىٰ غاية الانقياد، حيث بيَّن أنَّ ذلك لم يكن مُقْتصراً علىٰ ذواتهم، بل يشمل صفاتِهم وأعراضَهم، وخصَّ بالذكر منها ما له ظهور واضح، فقال: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾ أي: ينقاد له سُبحانه بمقتضىٰ نظامه وسُننه في هذا الكون حتىٰ ظلالهم أيضاً، حيث يطولُ بالغدوِّ والآصال، ويَقْصُر فيما بين ذلك بالتدريج طرداً وعكساً، صعوداً وهبوطاً، بنظام لا يتبدَّل ولا يختلُّ، وذلك ناتج عن وَضْع دقيق مُتْقن في النظام الشمسي البديع.

وخصَّ الغُدُوَّ والآصال بالذكر؛ إما لأن الظِّلَّ يكون فيهما علىٰ أطوله، وإما لأنهما طرفا النهار، فأراده بهما؛ إذ قد يُذْكَرُ طرفا الشيء ويُراد بهما جميعه، لأنه منحصر

---

(١) المراد بالسجود في هذه الآية: أن جميع من في السماوات والأرض تسجد لله تعالىٰ خالقها، ولكن سجود كل نوع علىٰ حسب هيئته، وصورة خلقه. فكل يسجد علىٰ حَسَبِهِ سجوداً حقيقياً.

بينهما، أي: في جميع الأزمان. وإما لأن الظلَّ في هذين الوقتين نتيجة لحالة انحطاط الشمس دون قيامها، وذلك أنسب بمعنىٰ السجود، والله أعلم.

ثم أردف هذا البيان الإلزامي بأسلوبٍ آخَرَ أشدَّ إلزاماً وأنكىٰ تقريعاً، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومُدبِّرهما ومُصَرِّفهما علىٰ ما فيهما من البدائع والعجائب، فسيَبهَتون ويُحْجِمون عن الجواب فراراً من الإلزام، وحينئذ ﴿قُلِ﴾ أنت لهم: هو ﴿ٱللَّهُ﴾، ثمَّ بكِّتهم وأنِّبهم و﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ كالأنبياء والصديقين، فضلاً عن أن يملكوا ذلك لغيرهم. ومن كان كذلك كيف يستحق أن يُؤَلَّه ويُعبد؟!

ثم أمره أن يضرب لهم هذا المثل علىٰ طريقة التشبيه والمُضْمَر، تكميلاً للإفحام، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾، ثم أتبع هذا التقريع بما هو أفظع منه تسخيفاً، وأشدُّ توبيخاً، وأوضح إلزاماً، فقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أم رأوا شركاءهم يخلقون كما يخلق الله، ولم يكن فَـرْقٌ بين الخلقين، فاشتبه الأمر عليهم في استحقاق الألوهية؟! وهذا منتهىٰ التهجين والسخرية والتجهيل.

وبعد هذا النـقد الواضح والإلزام الفاضح، قـرَّر حقيقة الربوبية الصحيحة واختصاصها بالله، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ فهو الواحد في الألوهية، ولا يستحقها أحد سواه.

ثم وصل الكلامَ بضَرْب مَـثَلٍ للحق والباطل، وانعدام الثاني وبقاء الأول، وسبك النَّظْم علىٰ القدرة والمنَّة واختصاصهما به سبحانه، فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي: أخَذَ كلُّ وادٍ بقَدْر ما يَسع، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ وهو ما يعلو وجه الماء عند طغيانه مما يشبه وَضَرَ الغليان ورغوةَ اللبن، ﴿وَ﴾ كذلك يكون

﴿مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ أي: مِثلُ زبد الماء هذا، وهو الخبث الذي يعلو المعادن عند الانصهار، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾؛ فالحقُّ مثل الماء الصافي وخالص المعادن، والباطل مثل الزبد لهما، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يُجْفيه السيل أو الانصهار ويُفرِّقه حتىٰ ينعدم، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ من ماء السَّيل وخالص المعادن ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ طويلاً ينتفع به الناس، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ لإبطال الشُّبه وإيضاح المُشْتبهات، وبيان الأشباه والمقايسات. والـمَثَلُ يرفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفيَّة، ويُبرزها بصورة المحسوسات الجليَّة.

قال قتادة: هذه ثلاثة أمثال ضربها الله تعالىٰ في مثل واحد؛ شَبَّهَ نزول القرآن بالماء الذي ينزل من السماء، وشبَّه القلوب بالأودية، فمن استقصىٰ في تدبُّره وتفكُّره في معانيه، أخذ حظاً عظيماً منه، كالوادي الكبير الذي يأخذ الماء الكثير، ومَنْ كان دون ذلك فهو أقل حظاً. فهذا مَثَل.

ثم شبَّه الخطرات ووساوس الشيطان بالزَّبَد يعلو علىٰ الماء، وذلك من خُبْث التربة لا من ذات الماء. كذلك ما يقع في النفس من الشكوك، فإنه من خُبثها الطارئ عليها بإفسادها وانحرافها عن سنن الطبيعة، لا من ذاتها ولا من ذات الحق. يقول: فكما يذهب الزبد هباءً وتبقىٰ صَفْوة الماء، كذلك تذهبُ مَـخَايلُ الشكِّ ويبقىٰ الحقُّ، فهذا مَثَلٌ ثان.

والمثل الثالث: قوله: ﴿مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ...﴾، فالكفر مثل هذا الخبث، والإيمان مثل المعادن الخالصة والماء الصافي.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ
اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ
الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ
وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى
الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ
فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم ذكر مصير الفريقين؛ ترغيباً للمؤمنين ووعداً لهم، وترهيباً للكافرين ووعيداً لهم، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾، وهذا أبلغ تصوير لهَوْل ما ينالهم من العذاب، ثم أردفه بالتصريح والتسجيل، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾.

ثم أيّد هذا البيان وقرّره بحُرمة أن يستوي حُسْنُ حال المؤمن وسُوءُ حال الكافر في المصير، فقال: ﴿أَفَمَن﴾ كان بصيراً ﴿يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ لا يُبْصر ذلك ولا يعلمه. ففي الكلام احتباك، حيث ذكر في كل شقٍّ صفةً وأراد ضدَّها في الشق الثاني، والاحتباك من أساليب إيجاز القرآن، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

ثم ختم الآية بما يحضّ على الانتباه، فقال: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾[1].

---

(١) الألباب: جمع لُبّ، وهو قلبُ الشيء وحقيقتُه وجوهرُه. أي: ما يتذكَّر تذكُّراً مؤدِّياً إلى العِظة =

ثم ذكر أفعالَ الذين استجابوا لربِّهم وصفاتِهم التي استحقُّوا بها تلك الحُسْنىٰ، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ أي: ما ألزمهم به عقلاً وسمعاً، ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ من الإيمان بالله وغيره، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ أي: ما أمر الله به أن يُتّبعَ من هذه التعاليم المنزَّلة ويُستدام. وقال الجُبَّائي وأبو مسلم: هو ما يلزم من صلة المؤمنين، بأن يتولَّوهم وينصروهم ويذبُّوا عنهم، ويدخل فيه صلة الرحم وغير ذلك. فهم الذين يفعلون كل ذلك، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ يوم القيامة.

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ علىٰ ما تكرهه النفس ويخالفه الهوىٰ ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، لا لغرضٍ يَـبْغونه، ولا لسُمْعة ورياء، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أتوا بها مُقامةً علىٰ وجهها الأكمل، وذلك بالإخلاص فيها لله والصِّدق في التوجُّه إليه، والشعور الصادق بما اشتملت عليه من ذكر وآيات، ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ وفي هذا القيد اسْتِدرارٌ وتنبيهٌ إلىٰ أنَّ هذا المال من فضل الله، وإنما يُحافَظُ عليه بالإنفاق منه شكراً لله، مرَّةً ﴿سِرًّا﴾ كي لا يكون مجال للمنِّ والأذىٰ، ﴿وَ﴾ مرَّةً ﴿عَلَانِيَةً﴾ إذا كان في ذلك مصلحة، كحثٍّ أمثالهم علىٰ الاقتداء بهم، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يُجازُون الإساءةَ بالإحسان، أو يُتْبِعُون السيئة بالحسنة. قال قتادة: معناه: يدفعون إساءة مَنْ أساء إليهم بالإحسان والعفو[1]. وقال ابن عباس: يدفعون بالعمل الصالح السيِّئَ من العمل[2]، كما روي

= الكاملة إلا أصحابُ العقول الواعية المدركة الخالصة التي لا تشوبها الشوائب، الذين ينتفعون بآيات الله الكونيَّة والتنزيليَّـة، ويعتبرون بالتاريخ وقصص القرآن، ويَعرضون كلَّ أمر على ما أودع الله في عقولهم من أصول ثابتة تُعرَفُ بها حقائقُ الأشياء، فيميِّزون بها بين الحق والباطل، والخير والشر.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥: ٢٨٦).

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤: ٣١٣).

عن النبي ﷺ أنه قال لمعاذ بن جبل: «إذا عملتَ سيئة فاعمل بجَنْبها حسنة تمحُها»[١].

أقول: وذلك لأنَّ السيئة تُؤثِّر في النفس أثراً سيئاً، والحسنة الموجَّهة عليها تَقلَعُ ذلك، وتؤثِّر في النفس أثراً حسناً. والله أعلم.

ثم سجَّل لهم بهذا الوعد الكريم فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ[٢] لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾[٣]، وقد فصَّلها بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي: مَنْ آمن منهم مِثلَ ما آمنوا، وعمل مِثلَ ما عملوا أو قارب.

ثم ذكر ما يدل علىٰ عظمة سعادتهم، فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ قائلين لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ علىٰ التكاليف وغيرها، ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ هذه العُقْبىٰ التي نِلتُم سَعادتكم فيها. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين. ويجوز أن تكون هذه الفاصلة تنويهاً من الله تعالىٰ، لا من كلام الملائكة.

ثم ذكر مصير المشركين المتَّصفين بأضداد تلك الصفات، لأنهم لم يستجيبوا لربهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ وهو ما ألزمهم به عقلاً[٤] وسمعاً، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي: ما أمر الله به أن يُتَّبع من هذه التعاليم المنزَّلة، ومنها: صلة الأقارب والرَّحِم وغير ذلك. فهم يقاتلون ذوي رَحِمِهم عناداً للحق

---

(١) رواه هنَّاد في «الزهد» (١٠٧٢).

(٢) أي: الموصوفون بالأوصاف الثماني في الآيات ٢٠-٢٢.

(٣) أصل معنى العُقبى: هو العاقبة الحسنة. والمراد هنا: العاقبة المحمودة التي تعقب دار الدنيا، وهي الجنة.

(٤) في الإلزام العقلي نظر؛ إذ هو متماشٍ مع أصل المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين، وترتُّب الثواب والعقاب عليهما، والصواب ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الإلزام سمعي (شرعي)، والعقل وسيلة للإدراك والفهم.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فسجَّل عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ أي: سُوء أحوال الدار الآخرة. أعاذنا الله.

ثم أجاب عن حُسْن حال هؤلاء الكافرين في الدنيا علىٰ كفرهم وعنادهم، وردَّ استدلالهم به علىٰ رضا الله عنهم، وأومأ إلىٰ أنَّ ذلك يجري بنسبةِ تعاطي الأسباب الكونية ومقدارها كمّاً وكيفاً، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يتعاطىٰ أسباب بسط الرزق علىٰ وجهه الصحيح، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لـمن يُهمل ذلك، ولا تعلُّق للأمرَيْن بحالتي الصَّلاح والطلاح، ولكن بالتمسُّك بالأسباب علىٰ الوجه الصحيح وعدمه، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

ولكنه سبحانه زيَّف حُسْنَ حالهم المُقْتصر علىٰ الدنيا وحدها وبخَّس قيمته، حينما لم يَسْعوا لِنَيْل سعادة الآخرة معه، فقال: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ونعيمها الفاني ﴿فِي﴾ جَنْبِ نعيمِ ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الباقي ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ يُتمتَّع به زمناً قصيراً، ثم يفنىٰ، بخلاف نعيمِ الآخرة فإنه خالدٌ لا يَفْنىٰ. لذلك لم يكن للعيش الرغيد في الدنيا قيمة مهما كان أمره، إذا لم يصحبه السَّعي لنَيْل سعادة الآخرة معه، فكلُّ نعيم دون الجنَّة حقير، وكلُّ بلاء دونَ النار عافية وهناء.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ الإنكار عليهم في طلبهم للآيات، وغَفْلتهم عمَّا في هذا الكون من

آيات، ليُلْمِعَ إلىٰ منشأ ذلك فيهم، علىٰ نهج القرآن في العودة إلىٰ ما يريد إشباع الكلام فيه، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ولم ينظروا إلىٰ ما في هذا الكون من آيات، وإلىٰ ما في هذا القرآن من حُجج وبيِّنات، وذلك لإفسادِهم عقولَهم وتحطيمِهم مواهبَهم، فلم يُدركوا سبيلَ الرَّشاد.

وقد أقام مقام هذا التعليل ما يبيِّن وجه عنادهم بهذا البيان العام الذي يشملهم ويشمل أمثالهم، فقال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، فلا يُؤْمن ولو أجيب إلىٰ ما يقترح من الآيات.

وليس المراد: أن الله سبحانه يُلقي عليهم الضلال قَصْداً[1] أو يَخْلقهم ضالِّين، كلا، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]، وإنما المراد أنهم يَضِلُّون بإفساد فِطَرِهم وتحريفِهم طبائعَهم بمفاسد التربية وسوء القدوة، فيُعرضون عن أسباب الهدىٰ ويتمسَّكون بأسباب الضلال، وكذلك مشيئته سبحانه لم تَجْرِ جُزافاً واعتباطاً، وإنما تجري بالحق والعدالة، وفي سُنن مُطَّردة لا تتبدَّل، فلم يشأ سبحانه إلا إضلالَ مَنْ حرَّف فطرته، وهَدْيَ مَنْ حافظ عليها، كما قال: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ وأقبل إلىٰ الحق والصواب، وذلك بمعونة محافظته علىٰ سلامة فطرته ونقاوة مواهبه، فيتأمل ما في هذا الكون من الآيات الباهرة، ويتدبَّر فيما أنزل الله من الدلائل الواضحة، ويتمسَّك بالهدىٰ بعد إذ جاءه.

ثم ذكر بعض صفات هؤلاء المهتدين المُنْبَعثة عن هداهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، والعدولُ إلىٰ صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان

---

(١) ينبغي أن يقول: «جبراً»، فكلُّ ما يقع في هذا الوجود لا يخرج عن إرادة الله تعالى، فضلال الكافر مرادٌ لله تعالى، لكن باختيار العبد، فلا جَبْرَ فيه.

وتجدّده كلّما تجدَّدت الذكريات. ثم ذيَّل بهذه الحقيقة النيِّرة للإشعار بأنهم أصابوا الهدف وأدركوا السداد، فقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ ولا تطمئن بغير ذكر الله.

وقد وصف المؤمن هنا بأنه يطمئن قلبه بذكر الله، ووصفه في موضع آخر بأنه إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَ قلبه[1]، والمراد بالأول: أنه يذكر ثوابه وإنعامه وآلاءه التي لا تُحصىٰ، فيركن إليه لُبُّهُ. والمراد بالثاني: أنه يذكر عقابه وانتقامه، فيخافه ويوجل منه قلبُه.

ثم بشَّرهم ووعدهم بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾، وطُوبىٰ من الطيِّب، كبُشْرىٰ وزُلْفىٰ. والجملة لإفادة المبالغة في نَيْل الطيِّبات عند مرجعهم إلىٰ الآخرة. فهو وَعْدٌ كريم بعظَم النعيم.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم عقَّب علىٰ إنكارهم وعنادهم، ببيان أنَّ إرساله لهم لم يكن غريباً في تأريخ البشر، فإنَّ الله تعالىٰ قد أرسل إلىٰ مَنْ قبلهم من الأمم رُسلاً مبشِّرين ومُنْذرين فقال: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أُرسِلَ إليها رُسُلٌ لهدايتها، فأرسلناك إلىٰ هذه الأمة ﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ لـهدايتهم وإرشادهم وتبشيرهم

(١) وذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

وإنذارهم فأعرضوا، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي رحمهم بهذا الإرسال، ووسعتهم رحمته، وشملهم بخيراته وإنعامه، ومن رحمته: إمهالهم لعلهم أن يثوبوا إلىٰ رُشْدهم.

ثم أمره أن يُبيِّن لهم خطَّته المتضمِّنَةَ أن يستمرَّ علىٰ دعوتهم إلىٰ التوحيد، وعلىٰ التوكل والاستعانة به تعالىٰ، فقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: مَرْجعي ومآبي، فيحكم بيني وبينكم.

ثم نوَّه بشأن هذا الوحي الذي أرسل إليهم، وتفوُّقِهِ عما أُرسِلَ إلىٰ الأمم قبلهم، وأنه من العظمة والكمال بالمكان الرفيع، بحيث إن ما جاء فيه من إرشاد، لو كان يمكن للجماد أن يفهم والأموات أن تسمعه؛ لتأثَّروا عظيماً بهذه البيانات، وهؤلاء لا يدركون، ذَكَرَ ذلك تجهيلاً وإهانة لهم، فقال: ﴿وَلَوْ﴾ فُرِضَ ﴿أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: زُعْزِعت عن مقرِّها بتلاوته عليها، لتأثُّرها بوضوح حُجَجِهِ، ونُصوع براهينه، وسَداد تعاليمه، وقوة توجيهاته، ورَهْبة وعيده، ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: تَصَدَّعت بتلاوته عليها كذلك، ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ففهموا ما جاء به لوضوحه في بيانه؛ لكان هذا القرآن.

وهذا تمثيلٌ لعظمة شأن القرآن، وقوة تأثيره، ووضوح بيانه، وجلاء وَعْظِهِ وإرشاده، ولكنهم مع كلِّ ذلك لا يتأثَّرون به ولا يؤمنون، فإن لم يَرَوا عظمة هذه الآيات ولم يؤمنوا بها، فبأيِّ آية بعدها يؤمنون؟!

ثم ألمع إلىٰ أن هذا التصلُّب في الضلال ليس عن عَجْز في القدرة الإلهية لإصلاحهم قَسْراً، ولكنه جارٍ علىٰ الحكمة الرَّبانية في كَوْن الإنسان مُختاراً في تصرُّفاته، فقال: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، ومن أمره تعالىٰ: هذه السنة في البشر، وهي أن يخلقه مختاراً في تصرُّفاته، وأن مَن انطبع علىٰ الضلال بتأثير بيئته وإفساده لطبيعته لا يميل إلىٰ الهدىٰ والرشاد، ولو دُعي إليه بمثل هذا القرآن.

ثم أنكر علىٰ المؤمنين بما يتضمَّن تنزيلهم منزلة الغافل عن هذا الأمر في طبيعة الإنسان، وتيئيسهم من إيمان هؤلاء المشركين، لرسوخ الكفر فيهم، وتقريع المشركين عن إعراضهم عمَّـا جاءهم من الهدىٰ في هذا القرآن المبين الواضح البرهان، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ وذلك بأنْ يخلقهم مطبوعين علىٰ تقوىٰ الله، لا يستطيعون غيرها، كالـملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ولكن مشيئة الله لا تُخالِفُ الحكمة والمصلحة العامة، وكان من مُقْتضىٰ حكمته في طبائع الإنسان أن يكون رائدَه عقلُه ومستعداً للتأثر بكل ما يَرِدُ علىٰ نفسه باختياره، فيغلب عليه ما رسخ فيها بمؤثِّرات المحيط والمخالطة والتعليم وغير ذلك. وإنمـا جعله هكذا ليكون ذا علم واسع، ودرايةٍ فسيحة، وإيجاد عظيم؛ ليعمر الأرض ويستفيد من مواهبها وخيراتها، والله أعلم.

وفي كلمة ﴿يَاْيْـَٔسِ﴾ تضمينٌ لمعنىٰ: يعلم، علىٰ طريقة إيجاز القرآن، (كما جاء في المادة التاسعة من المقدمة الثانية). وَوَجْه تضمين اليأس معنىٰ العلم: هو أنَّ العلم اليقيني بالشيء تَيْئيس من ضدِّه.

والتقدير: أفلم ييأس الذين آمنوا من هداية هؤلاء المشركين لإفسادهم لطبائعهم، ويعلموا أنْ لو يشاء الله لهدىٰ الناس جميعاً؛ بأن يَقْسُرَهم علىٰ ذلك كالملائكة. فطُويت هذه الزوائد، لأن هذا التضمين يدلُّ عليها دلالة واضحة، وذلك علىٰ طريقة إيجاز القرآن في تراكيبه وأساليبه، والحاصل: أفلم يعلم الذين آمنوا أن الله سبحانه خلق الإنسان مختاراً في تصرفاته، وأنه إن أفسد طبيعتـه بمفاسد التربية وسوء القدوة؛ لا يمكنه أن يعود إلىٰ الصلاح.

ثم بيَّن حال هؤلاء المشركين ومآلهم وما هم مستهدفون له من البلاء؛ تسليةً له ﷺ ووعداً بنصـره عليهم وتعقيباً للنـقدِ بالوعيد، فقال: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أي: داهيةٌ ونازلةٌ من البلايا، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: بمجاوريهم فيفزعون منها، ويتطاير إليهم شَرَرُها. وهذا وعيدٌ لهم بعذاب الدنيا، قَرَنه بعذابِ الآخرة الذي عبَّر عنه بوعد الله علىٰ أحد المعنيين. وقيل: إن كلمة ﴿تَحُلُّ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ؛ لأنه كان لا يزال يبعث السرايا علىٰ أهل مكة فتُغير حوالَيْهم وتَغْنَم غنائمهم، فهم لا يزالون كذلك ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ في فتح مكة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

ثم تابع تسليته ﷺ ووعيده للمشركين فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: تركتُهم ملاوةً[1] وحيناً من الزمن، في دَعة من العيش، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أخْذَ عزيزٍ مُقْتدر. وقد هوَّل ذلك الأخذ بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾؟ فهذا الاستفهام للتهويل والتَّحسيس.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تقريعهم وتجهيلهم وتسفيه أحلامهم في اتِّخاذ شُركاءَ لله لا يستطيعون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وهو الله سبحانه وتعالىٰ الذي لا تَخفىٰ عليه منكم خافية، يُحصيها لكم ويُجازيكم عليها، أفهو كالأصنام التي لا تعلم من نفسها شيئاً، ولا تملك لها نفعاً ولا ضراً؟ وقد أقام مقام هذا المحذوف

(١) الملاوة ـ بتثليث حركة الميم ـ: مدَّة العيش. «لسان العرب» (ملا).

قولَه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، وذلك علىٰ طريقة القرآن في الحذف والتعويض بكلمة عن كلمة، وجملة عن جملة، كما تقتضيه البلاغة العالية، تنويعاً في أساليب الإيجاز، (كما جاء في المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

ثم سَخَّفهم بقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: بيِّنوا ما فيهم من الصفات التي تستحقُّ العبادة، أو سمُّوهم بالأسماء التي هي صفاتهم الحقيقية، كالبشر والحجر والخشب والصنم، ثم انظروا: هل تدلُّ تلك الصفات علىٰ جواز عبادتهم واتِّخاذهم آلهة؟ ثم بالغ في تسخيفهم بما يتضمَّن الإنكارَ عليهم والسخريةَ بهم، فقال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أم تُعلِمون الله بوجود شُركاءَ له مُسْتحقِّين للعبادة وهو لا يعلمهم؟ وهذا غاية التسخيف ومنتهىٰ التجهيل، وأبلغ النفي والإنكار؛ لأن ما لا يعلمه الله لا وجودَ له البتة إلا بالأوهام.

ثم عمد إلىٰ صورة أخرىٰ من التأنيب، فقال: ﴿أَم﴾ تتكلَّمون ﴿بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ هُزْءاً دون رويَّة وتعقُّل، وتهرفون؟ ثم عَدَلَ عن ذلك التبكيت المنوّع إلىٰ بيان حقيقة الحال فيهم فقال: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ وتمويهُهم، فتخيَّلوا أباطيل، ثم خَالُوها حقاً. أو المعنىٰ: أنهم زُيِّنَ لهم كَيْدُهم للإسلام، ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ برسوخ الكفر فيه بصُنعِهِ ومزاولته له ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾، وذلك لأنَّ سنة الله تعالىٰ في طبيعة الإنسان قَضَتْ أن من تشبَّع منهم بالكفر والضلال زُيِّن ذلك في نظره، وأصبح كارهاً للحق كلَّ الكُره، مائلاً إلىٰ الباطل كلَّ الميل، لا تفيده موعظة، ولا تُرجِعُه عن غيِّه نصيحة، ولا يُحب أن يسمع ما يخالف باطلَه ويُوهيه[1].

---

(١) أو المعنى ـ وهو الأدق ـ: ومن يُثبت اللهُ ضلالَه بحُكمه العادل نتيجةَ اختيار إرداته الحرّة في الحياة الدنيا فما له من هادٍ يُثبت له الهداية.

فليس المراد من الإضلال: أنَّ الله سبحانه يخصُّه به قَصْداً، أو يخلقه كذلك، كلا، قد ألـهمه فجوره وتقواه، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وإنما المراد: أنهم يَضِلُّون بمعاطاة أسباب الضلال، كما يقال: لقد أعمىٰ الله عَيْنَه، وما العَمَىٰ إلا مرضٌ يَنْشأ من تقصيرِ صاحبه في العناية بقواعد الصحة للعين وأسبابها.

ثم بيَّن سبحانه ما أعدَّه لهؤلاء الكَفَرة من العذاب في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ يقيهم من عذابه الواقعِ بهم في الدارَيْن.

ثم بيَّن مصير المتَّقين؛ ليقابل بينه وبين مصير هؤلاء، وَعْداً وتبشيراً للمؤمنين، وزيادةَ وعظ وتنبيه للمشركين، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتها أنها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ و﴿أُكُلُهَا﴾ أي: ثمرها ﴿دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع، ﴿وَظِلُّهَا﴾ كذلك. ثم أجمل المصيرين وجَمَع بينهما زيادةً في التحسيس، فقال: ﴿تِلْكَ﴾ الجنة هي ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: مُنتهىٰ أمرهم ومصيرهم، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

وبعد أن ذكر شأن المشركين في أمر هذا القرآن المبين، ذكر شأن أهل الكتاب في أمره، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الذين أسلموا منهم لسلامة طُوِيَّتهم

وخُلُوها من الحسد والمنافسة، ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وكانوا ينتظرونه، إذ هو الكتاب الذي وُعدوا به في التوراة والإنجيل، ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني: كَفَرتَهُم الذين تحزَّبوا ضدَّ رسول الله ﷺ ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾[1] وهو الذي لا يوافق بعض أحكامهم، أو ما حرَّفوه في كتابهم. ﴿قُلْ﴾ إلزاماً لهم ورداً لإنكارهم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ بما كان موجوداً في كتابكم قبل التحريف، وهو: ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ شيئاً، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ۝٣٦﴾ أي: مرجعي للحساب والجزاء. هذه عقيدتي التي أُمرت بها، ولا أحيد عنها، لأنها الحقُّ الواضح والدِّين الصالح.

ثم تابع الرد علىٰ إنكارهم بعضَه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: تشريعاً جديداً وكياناً فريداً، فلا غرابة أن خالف شريعة التوراة في بعض الأحكام؛ لأن الشريعة الجديدة تخالف الشريعة القديمة المنسوخة في بعض أحكامها بحكم التدرُّج في الرقي، والصعود من درجة إلىٰ أرقىٰ منها في الكمال، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، فالشريعة الجديدة دستورٌ مُسْتَقل قائمٌ بذاته، وإن كانا من طبيعة واحدة، فلا غَرابة إذ تبدَّل فيه حكم من الأحكام أو أدب من الآداب التي كانت قبله. فلماذا ينكرون، وعلام يعترضون؟ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

---

(١) ومن جملة ما أنكروه: أمر تحويل القبلة عن بيت المقدس، وتحليل الأطعمة التي حرَّمها الله عليهم أو حرَّموها من تلقاء أنفسهم، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣ – ٩٧]، فختم بها الردّ عليهم والتأنيب. وكذلك أنكروا نظام توسيع الزواج للنبيِّ ﷺ، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ...﴾ [الرعد: ٣٨]. فألمع سبحانه أنَّ لكل أمدٍ وزمانٍ شريعةً ينزلها الله علىٰ نبيٍّ من الأنبياء ينسخ بها ما قبلها من الشرائع. (المؤلف).

ويجوز أن يكون في الآية إلماعٌ إلىٰ وجوب أن يكون الحكم للعرب لا يتعدّاهم إلىٰ غيرهم من المسلمين، فالدين الإسلامي عامٌّ للبشر أجمعين، وطبيعة الحكم ولغته عربية ليكون البشر أُمّة واحدة، وإن اختلفوا في الأجناس، والله أعلم. والعربي بنظر الشرع: مَنْ يتّصف بأمرين: التدين بالإسلام، والتكلم بالعربية. وكلٌّ من يدين بهذا الدِّين ويتكلم العربية فهو عربيّ، كما جاء في الأثر[1]. والعربُ هم الحاكمون به، والحاملون لنبراسه، والناشرون لدعوته.

ولا يجوز لدولة المسلمين أن تكون طبيعتها غير الطبيعة العربية، ولا يجوز لهذه الدولة أن تكون لغتها غير عربية، وكان الأمر كذلك بعد تفرُّق العباسِيِّين إلىٰ دُوَيْلات إلىٰ حدود الثمانمئة الهجرية، إذ من المعلوم أنَّ كلَّ أمة ينزل كتابُ الشريعة بلغتهم يجب عليهم أن يكونوا هم الدعاةَ إليه والناشرين تعاليمَه في الأمم والبلاد، وكذلك اللغة العربية لأنها وسيلة الدِّين، وحكم الوسائل كالمقاصد. فالدينُ الإسلاميُّ لا يعيش بصورته الصحيحة تحت راية أعجمية، وإنما يعيش ويربُو ويُفهَمُ بمعناه الواضح في محيط عربيّ، وتحت راية عربية، ولقد ضاع وضَؤُلَ حين ضيَّعه أهله.

ثم أردف الردَّ بهذا التهديد الشديد، وبناه علىٰ الغرض البعيد، ليكون لوناً من ألوان شدَّة البيان بوجوب التمسُّك بكل ما جاء في هذا القرآن، وإن خالف التوراة في بعض أحكامه، وضمَّنه وعيداً رهيباً لمن أنكر بعضَه علىٰ ما فيه من حُجج دامغة وبرهان، فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ في هذا القرآن ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾، ومن المعلوم أنَّ شرط (إن) لا يقتضي الوقوع، فهو لا يدل علىٰ

(١) وهو: «يا أيها الناس، إن الربَّ ربٌّ واحد، وإن الأب أب واحد، وإن الدين دين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم فإنما هي اللسان، فمن تكلَّم العربيَّة فهو عربي». عزاه في «كنز العمال» (٣٣٩٣٦) إلى ابن عساكر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن مرسلاً.

أن اتِّباع أهوائهم متوقَّع منه ﷺ. كلا، وإنما هو فرضٌ لبيان مضمونه، أو خطابٌ للأمة في شخص النبي ﷺ حسب عُرْف التخاطب مع الرؤساء والزعماء، فقد يقال للزعيم: إن فعلت هذا كانت عاقبته كذا. والمراد: إن فعله قومك أو أمتك.

وفي توجيه الخطاب له ﷺ أمر آخر، وهو التنبيه إلىٰ أن هذا الذنب عظيم يُجازىٰ عليه هذا الجزاء الشديد، حتىٰ لو فُرِضَ وُقوعُه منك. فهو أسلوب من أساليب البيان المصُوغة للمبالغة في تفظيع الخَطْب وتهويل الشأن.

ويجوز أن تكون الآية لوناً من ألوان إلزامه الصبرَ علىٰ ما يلقاه من المشركين.

أما قوله: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ فهو معنىٰ مُنتَـزَع من حال المخاطَبين، حيث يستنجد المغلوب بمن ينصره ويقيه من الغالب أو المتسلِّط. والمعنىٰ: لا أحد ينصره من عذاب الله ويقيه منه. فهو كنايةٌ عن تحقُّق الوعيد وإنجازه. وانتزاع المعنىٰ من حال المخاطبين أسلوب من أساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

ثم ردَّ علىٰ مَنْ ينكر بعضَه، ومنه إنكارهم عليه تعدُّدَ الزوجات، وأنه مسلك المترفين لا مَسْلك النبيين، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾؛ إذ لا تعارض بين الزواج والنبوة، فلا ينبغي أن يستنكروا منك ذلك. وتاريخ الأنبياء في ذلك ظاهر معروف، كما في إبراهيم وإسحق ويعقوب.

ثم تمَّم الرد علىٰ من ينكر بعض أحكام القرآن من أهل الكتاب لعدم موافقته لما عندهم، وبيَّن أنَّ الرسول لا يأتي بذلك من عند نفسه، بل بأمر الله تعالىٰ ووحيه، وأنه سبحانه يُبدِّل بعض أحكام الشرائع التي ينسخها، فيأتي بخير منها أو مثلها، بحسب تغيُّر بعض المصالح بتغيُّر الأزمان ورُقيِّ نوع الإنسان، ولا يخرج ذلك عمَّا في علمه الثابت من الحِكَم والمصالح العامة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾.

وقد ضمَّن الكلام رداً لكثير من شُبَهِهم؛ حيث أراد بلفظ «الآية» ثلاثة أنواع منها: الآية القرآنية التي تأتي بحكم شرعي، والآية الكونية التي تكون معجزة لنبيّ، والآية الكونية التعذيبيَّة التي كان الرسول يتوعَّدهم بها، ويستهزئون بطلب تعجيلها. أي: لم يكن في مَقْدرة الرسول أن يأتيكم من عنده بآيةٍ قرآنية تطلبون تبديلها أو آية كونية تطلبون تعجيلها، وإنما يكون ذلك بإرادة الله وصنعه، وفي الوقت الذي يُقدِّره لها، إذ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ أي: لكل تأجيل وقت، ولكلِّ مدَّةٍ من المدد ووقتٍ من الأوقات أحكامُ شريعةٍ معيَّنة تُكتَبُ علىٰ العباد، نظراً لِـمَا تقتضيه الحكمة بحسب تغيُّر أحوالهم، وبنتيجة تقدُّم النوع الإنساني في النُّشوء والارتقاء، لأنَّ الإنسان يحبُو في مدارج الرقيّ النوعيِّ في سَعَة العلم ومجَال التفكير وقوَّة الإدراك، فتعلُو الشريعة معه في أساليب الإفهام وتبديل بعض الأحكام دون الأسس الثابتة في الشرائع كلِّها، ولذلك ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من أحكام الشريعة السابقة، لِـمَا تَقْتضيه الحكمة الحاضرة، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بدَلَه ما يوافق مُستوىٰ الإنسان الحديث، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: أمُّ الشرائع، وهو علمُهُ الأزليُّ بالحِكَم والمصالح والأحوال في مختلف الأزمان[1].

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

(١) والمعنىٰ الأصح: يمحو اللهُ ما يشاء مَحْوَهُ، ويُثبِتُ ما يشاء إثباتَه في صُحُفِ الملائكة، وعنده أمُّ الكتاب، وهو: اللوح المحفوظ الذي لا يتعرَّض للمَحْوِ والتغير؛ لأنه قد كُتب فيه ما هو كائن بحسب علم الله تعالىٰ.

ثم أردف السياق المتضمِّن لعنادهم، بما فيه وَعْدٌ بخذلانهم وأخذهم بالعذاب حالاً أو مآلاً، وإيماءٌ إلىٰ أنَّ ذلك لا يخصُّه ﷺ، وإنما عليه البلاغ وعلىٰ الله الحساب، وإلىٰ أنَّ الله سبحانه لا يُـخْلِفُ وَعْـدَه بعذابهم الدنيويِّ وإن تأخَّر. يردُّ بذلك علىٰ استـهزائهم في استعجال العـذاب، فـقال: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من إنزال العذاب بهم، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقد أدّيته، ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ فسَنُجازيهم بما يستحقون، وقد يُبطِئُ هذا الجزاء. وإنما قال: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ لأنَّ المعجَّل من عذابهم في الدنيا هو بعضُ ما يستحقُّون وما يعدُهم الله به من العذاب. وفي هذا تقريرٌ لِـمَا يتعجَّلون به استهزاءً مِن وعيدِ الرسول لهم بالعذاب، وبيانٌ لطبيعة وعيد المعارضين للأنبياء، فقد يتعجَّل وقد يتأخَّر، حيث عذَّب سبحانه بني إسرائيل من بعد موسىٰ عليه السلام بأنواع من الأسْر والقهر والتنكيل.

ثم ذكَّرهم بمـا يكون لهم كالبيِّنة علىٰ قُرب ما يُوعَـدُون به، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[1] أي: أوَلم يَرَ أهلُ مكة وغيرُهم من المعارضين أنا نفتح لـمحمد ما حَوْلـها من القُرىٰ واحدةً بعد أخرىٰ، فتَـتَّسع رقعته ﷺ وتضيق رقعتهم، أفلا يُدركون أنا سنفتح له أرضهم كما فتحنا غيرها[2]؟ ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا

---

(١) يقول العلماء: إن تكرر الليل والنهار المتولِّد من دوران الأرض علىٰ نفسها أحقاباً لا تحصىٰ أنقَصَ نصف وزنها بما يتطاير منها في الفضاء طوال هذه الأزمان المديدة، والله أعلم. إلا أن القرآن ينهج في المعاني منهج عُرف التخاطب، لا منهج المعاني العلمية، فما ذكرناه من المعنىٰ العرفي هو المقصود من الآية. (المؤلف).

(٢) هذا التفسير يستقيم على القول بأن السورة مدنيَّة، والراجح أن السورة مكية، ومثلها ما جاء في سورة الأنبياء المكيَّـة: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: ٤٤]. والصحيح في معنى الآية: أن الله سبحانه يُديلُ الدولَ بين الناس، فيأخذ من هذه الدولة لتلك =

مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾[١] أي: لا يُعَـقِّبُ أحدٌ حكمه بالرد والنقض، بمعنىٰ: لا رادَّ لحكمه وقضائـه، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ يُوفِّي كلَّ عامل عمله من دون إمهال؛ لأنَّ سنَّته مَضَت أن تكون النـتائج آثاراً للأعمـال، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. وأما سُرعة الحساب يوم الحساب، فذلك بإدراك الناس كلِّهم دفعة واحدة لأعمالهم، بحيث يُدرِكُ كلُّ واحد منهم ما عمل من خير أو شر، فيعلم ما له وما عليه، وما يستحقُّ علىٰ كلِّ عمل من نعيم أو عقاب. والله أعلم[٢].

ثم نبَّههم إلىٰ سرعة ما كان من مصير أمثالهم من المكذِّبين في الأمم الغابرة، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في تكذيب الرسل ومعارضتهم بكلِّ ما في وسعهم من مكر وتدبير، فأبطل الله مَكْرَهم وأيَّد رسله، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: لا تدبير خفياً لسواه. وقال أبو مسلم: معناه: أنه يملك الجزاء علىٰ المكر ولا يشاركه فيه غيره. وقال الـجُبّائي: يريد بالمكر: ما يفعل الله تعالىٰ بهم من المكروه.

= الدولة، فتصغر الدول الكبيرة، وتضيق الدول الواسعة، وتضعف الدول القوية: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

(١) الحكم هنا ـ كما في سياق الآية ـ الحكم الكوني، أي: يتصرَّف في الكون كما يشاء. والله سبحانه له الحاكميَّة الكونيَّة والحاكميَّة الشرعيَّة ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فالحاكميَّة الكونيَّة تتَّصل بالخلق، والحاكميَّة الشرعية تتصل بالأمر، أي: الحكم الشرعي التكليفي.

(٢) ينبغي أن يُفسَّر «الحساب» بمعنى أزيد من إدراك الإنسان لعمله وما له وما عليه، فالأب إذا أوقَفَ ابنه على أعماله وعرضها له لا يُقال عنه: إنه حاسبه، وإنما يُقال ذلك فيما إذا أُتبع هذا العَرْض بالمعاتبة أو التوبيخ أو التأنيب أو العقوبة. وعليه، فسرعة الحساب تكون بإدراك الناس كلِّهم دفعة واحدة لأعمالهم، مع بيان ما يترتب لكل واحد منهم على عمله من مثوبة أو عقوبة، مع تفصيل ما سُتر عليه منها، وما غُفر له، وما شفع له فيه شافع، ونحو ذلك، والله أعلم.

ثم ختم الآية بما يدل علىٰ التهديد والتقرير لذلك المكر، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فيعدُّ لها الجزاء، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ أي: لمن العاقبة الحميدة من الفريقين في الدارين.

ثم ختم السورة المشحونة بمعانداتهم وإنكارهم لنبوته ﷺ، ولما جاء به من النور المبين، بهذه الحجة الدامغة، والشهادة المُثْبتة لهذا الحقِّ اليقين، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ بما أظهر من الآيات وأبان من الدلالات علىٰ نبوَّتي، وردَّ عليكم من الشبه والخزعبلات، فاللهُ سبحانه يشهدُ بنبوَّتي ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: المؤمنون من أهل الكتاب، فإنهم يشهدون علىٰ صدق نبوَّتي، وأن ما جئتُ به هو الحق المبين. وكان مشركو العرب يعتمدون علىٰ أهل الكتاب لأقوالهم في ذلك.

❊ ❊ ❊

سورة إبراهيم

مكية، وهي اثنتان وخمسون آية

والغرض منها كالتي قبلها:

- إثبات نزول القرآن.

- وأنه هداية للناس، دعاهم إلىٰ التوحيد والإيمان وصالح الأعمال.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾.

﴿الٓر﴾ أوضحنا الكلام علىٰ الحروف التي تُبْتَدَأُ بها بعضُ السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارته إلىٰ ما يأتي بعدها اهتماماً به، ومنه هنا قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدعائك إيَّاهم إلىٰ ما تضمَّنه من البيان لسُبُل الرشاد، وتُنقِذَهم بذلك ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ والضلال ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1]

---

(١) نزل القرآن والناس في جَهَالة جهلاء، إرادتهم مسلوبة، وعقولهم عن التفكير محجوبة، والفوضىٰ ضاربةٌ أطنابَها في كلِّ مكان، والرذائل فاشية، والظلم حاكم منتشر، والشرك قد أفسد القلوب، وأكل كلَّ بقية من الإيمان، فوقع الناس في أسر الذل والعبودية وحطة الجهل والشقاء، وتهدَّمت دعائم الحياة الاجتماعية، وارتدَّ الإنسان إلىٰ أسفل سافلين. فمنَّ الله سبحانه علىٰ بني الإنسان وأنقذهم من ذلك الفناء بإنزال هذا القرآن علىٰ محمد ﷺ، ليخرج الناس من هذه الظلمات الحالكة إلىٰ النور الوضّاء المبين، بإذن ربِّ العالمين وأرحم الراحمين، جلَّت قدرته وعَظُم نواله، =

والهُدىٰ، واستعارة «الظلمات» للضلال و«النور» للهدىٰ من خصائص اللغة ومعروف في تعابير القرآن.

وكذلك قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ مُستعار من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب، أي: بتيسير الله وتسهيله، وذلك بما مَنَحَهم من الطبيعة الصالحة ما لم يفسدوها، ومن إرسال الرسل وإنزال الكتب، وبما يمنحهم من التوفيق للسداد.

وقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بَدَلٌ من ﴿ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أفاد به أنه هو الطريق الـمُوصِلُ إلىٰ الله العزيز الكريم، مُفيض الخير العميم في هذا الكون العظيم.

وفي وَصْفَي العزَّة والحمد: ترهيبٌ وترغيب، أضاف إليهما التحذير والتهديد بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾ فهو وعيدٌ مُرْهِبٌ لمن كفر بهذا الكتاب من سائر البشر، ولم يخرج به من الظلمات إلىٰ النور، ولم يَـخُصَّ اللهَ بالربوبية، وجعل له شريكاً في ملكه، أو وسيطاً يتوسط به.

ثم وصف هؤلاء الكافرين بما يُومئُ إلىٰ الباعث لهم علىٰ ذلك الكفر، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: يـختارونها عليها ويفرطون بالآخرة في سبيل الدنيا، أمثال العظماء من مشركي قريش، أعرضوا عن الإيمـان بهذا القرآن واتّباع محمد ﷺ ضناً وتمسُّكاً بمراكزهم أن تزول، وبسيادتهم علىٰ أتباعهم أن تُمحىٰ، فأخذوا يعارضون الدعوة ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم يَرَوْنَها تصدُّهم عن مآربهم في دنياهم، وتُديلُ دولَتهم، فأخذوا يعارضونها بكلِّ قواهم، ﴿وَيَبْغُونَهَا

= ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]. (المؤلف).

عِوَجًا﴾ أي: يلتمسون لها المثالب ليُزَهِّدوا الناسَ عنها، أو: يبغون سبيلاً معوجة. فسجَّل عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾.

ثم أكمل البيان بالكلام عن سبب إنزال القرآن عليه ﷺ باللغة العربية مع أنه لسائر الأمم، وردَّ علىٰ من يقول: لِـمَ لَـمْ ينزل بلغة التوراة، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ ويفهموا عنه، ثم هم يحملون ذلك النبراس، وينشرون النور والهدىٰ في الناس، ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾[1] وهو الذي آثر أسباب الضلال فتشبَّع بها، ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي آثر أسباب الهدىٰ فتشبَّع بها، وذلك لأنَّ سنة الله في أخلاق الإنسان وطباعِهِ قَضَتْ بأنه إذا تشبَّع بشيء لا يميل إلىٰ سواه، وينتحل لعقيدته أو عادته التي رَسَخت فيه البراهين والحجج، كما يلتمس لِـمَا يخالفها التضليل والتفنيد. وإيثارُ أسبابِ الضلال إنما يكون بإفساده لطبيعته، وليس من أصل خلقته. وإسناد الإضلال إلىٰ الله باعتبار ذلك، كما يقال: لقد أعماه الله، وما العَمَىٰ إلا مرضٌ طارئ علىٰ الطبيعة من معاكسة الأسباب التي جَعَلها الله لحفظ العين والبصر، أو من قِلَّة العناية بتطبيقها تطبيقاً صحيحاً. وكذلك مشيئته سبحانه لم تَجْرِ جزافاً واعتباطاً، كلا، وإنما تجري بالحقِّ والعدل، وفي سُنن مطَّردة لا تتبدَّل، فلم يشأ سبحانه إلا إضلالَ من حَرَّف فطرته، وهَدْيَ من حافظ عليها، وبذلك جرت سنته في تكوين الإنسان.

---

(١) ليس المراد: أنه سبحانه يُلقِي عليه الضلالَ قصْداً أو يخلقه ضالاً، كلا، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]، وإنما المراد: أنه يضل بإفساده لفطرته بالبيئة والتقليد والخلطاء الضالِّين، فيعرض عن أسباب الهدىٰ ويتمسَّك بالضلال، حتىٰ يرسخ فيه وتعمىٰ عليه بصيرتُه، فلا يرىٰ الحقَّ ولا يميل إليه. (المؤلف).

وتقدَّم التعليق على قول المؤلف: «ليس المراد: أنه سبحانه يلقي عليه الضلال قصداً»، بأنه ينبغي أن يقال: ليس المراد: أنه يلقي عليه الضلال جبراً. ص١١٣.

ثم عَـقَّبَ علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ للإشـارة إلىٰ أن معاكسة هذا المعاند الضّال لم تكن غلبةً للقدرة الإلهية، بل تماشياً مع ما ذكر من سنة الله الكونية في كيفيَّة انطباعات الإنسان الاختيارية، تلك السنّة العامة التي اقتضتها الحكمة الربَّانية في الطبيعة البشرية.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

ثم أيَّد البيان بالواقع، فقصَّ علينا كيف أرسل رسلاً إلىٰ الأمم فبيَّنوا لهم، فاهتدىٰ من كان قد احتفظ بسلامة فطرته ونور بصيرته وهو القليل، وضلَّ من كان قد أفسد طبيعته فرسخ فيه الكفرُ والضلال. وخصَّ من بينهم بالذكر موسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ وهي معجزاتـه التي أظهرها لبني إسـرائيل، وأوحىٰ إليه: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي: بـهدايتك إيَّاهم بالكتاب الذي أُنزل إليك، ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ قيل: المراد بها: وقائع الله في الأمم الماضية ليحذروا ذلك. وقيل: بل المراد بها: نِعَم الله في سائر أيامه. وقال أبو مسلم: المراد: سُنَّته وأفعاله في عباده من إنعام وانتقام، وكنَّىٰ بالأيام عنها لأنها ظرف لها. أقول: وهذا جَمْعٌ بين القولين؛ لأنَّ الكلام يتَّسع لهما، ولا يبعد أن يُراد بها أحوال الآخرة، والله أعلم.

ثم علَّل ذلك بالغاية منها، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التذكير ﴿لَآيَٰتٍ﴾ وعِبَراً ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ أي: لكلِّ مؤمن حقاً، لأنَّ الصبر علىٰ البلاء والشكر علىٰ النَّعمـاء من خصائص المؤمنين، والمؤمنُ يكون محافظاً علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته، فيدرك الحق ويتَّبعه، ويُبصِر الباطل فيَجْتنبه، كما هو مستعدٌّ للنظر والتدقيق في آثار الله.

ثم قصَّ ما جـرَىٰ له مع قومه عندما دعاهم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يذلونكم أقبحَ الذُّلِّ، ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ تقليلاً لعددكم، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي: يُبقون البنات أحياء مع الذل والصَّغار، ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ أي: محنةٌ واختبارٌ لكم، ليتبيَّن حالكم لأنفسكم كيف أنكم ذللتم هذا الذلَّ الفظيعَ بترككم ما لو كنتم تمسَّكتم به من شريعة الله لكنتم من القوَّة وصلاح الحال علىٰ جانب عظيم، يدفع عنكم قهرَ هؤلاء المتجبِّرين.

ويجوز أن تكون الإشارة إلىٰ الإنجاء، ويكون المراد بالبلاء: الاختبار بالنعمة، لأنَّ الله سبحانه يختبر بها كما يختبر بالنقمة. والمعنىٰ: وفي ذلك الإنجاء امتحانٌ لكم يَظهَرُ به شكرُ الشاكرين، وكفرُ الكافرين. كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ وهذا الفعل مُرادِفٌ لـ«آذن»، بمعنىٰ: أعلم، وهما في الاشتقاق مثل: توعَّد وأوعد، وهو أبلغ من «أذن»، لِـمَا في «تفعَّل» من معنىٰ المبالغة. أي: قد بالغ في إعلامكم: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ ما أنعمت به عليكم من الإنجاء والإيحاء وغيرهما من النِّعَم، ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نِعَماً إلىٰ نعمكم، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾، ومن كمال فضل الله: التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد.

ثم إنَّ موسىٰ بيَّن بعد ذلك ما يعلمه من حقيقة الأمر، وهو أن مضارَّ الكفر ومنافعَ الشكر تعود علىٰ صاحبها. أما الله سبحانه فهو مُتعال عن أن ينتفع بالشكر أو يتضرر بالكفر، كما حكىٰ عنه ذلك سبحانه بقوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ لا يُضِرُّ بعظمته وعُلوِّ شأنه كفرُكم شيئاً، ولا كفرُ أهل الأرض جميعاً.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

ثم وعظهم موسىٰ عليه السلام وذكَّرهم بأحوال الأمم المتمرِّدة علىٰ أنبيائها، كما أمره الله، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فأشار بهذه الجملة إلىٰ عددهم العظيم وكثرتهم البالغة الحدِّ، وإلىٰ أن ما بين هؤلاء الأمم وبين زمن موسىٰ عليه السلام قرون كثيرة وأمم عديدة لا يضبطها التاريخ، لذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: كَذَبَ النَّسابون[1]. يعني بهم: الذين يسردون نسب الأقوام إلىٰ نوح وآدم، لأنَّ تَقَادم العهد البعيد طَمَس معالم هذا النسب المديد.

ثم فصَّل ما كان من أمر أولئك الأمم مع أنبيائها، فقال: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾.

وقد اختلف المفسرون في معنىٰ هذه الجملة علىٰ أقوال، أَوْلاها: إن الواو في ﴿فَرَدُّوٓاْ﴾ يعود إلىٰ الـمُرسَل إليهم، والضميران في ﴿أَيۡدِيَهُمۡ﴾ و﴿أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ يعودان إلىٰ الرسل، أي: أخذ الـمُرسَلُ إليهم أَيْدِيَ الرسل فوضعوها علىٰ أفواههم ليسكتوهم، وليس هذا علىٰ الحقيقة، بل علىٰ الكناية، ولا يلزم في الكناية تحقُّق المعنىٰ اللغوي، فهو مجرد تمثيل لمعارضتهم الشديدة وصَدِّهم عن تبليغ رسالاتهم. وفيه رمز إلىٰ قوَّة المعارضة؛ لأن في هذا التمثيل تصويراً لتعطيل أيدي الرسل وألسنتهم عن القول والعمل.

وبعد أن أجمل هذا المعنىٰ بهذه الجملة البليغة، فصَّله بما يأتي، فقال: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٩﴾، فهذا كلام يُؤْذِنُ بالمعارَضة الشديدة، والعناد اللدود، قولاً وفعلاً.

ثم حكىٰ ما أجابتهم به رسلهم بقوله: ﴿قَالَتۡ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمۡ﴾ ناقضةً عليهم قولهم، ورَادَّةً عليهم شكَّهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾[2] مع كثرة الأدلة من هذا الكون

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦: ٥٣٠).

(٢) وجود الله تعالىٰ من البداهات التي يُدركها الإنسان بفطرته، ويهتدي إليها بطبيعته، وليس من =

الظاهرة الدلالة علىٰ وجوده واختصاصه بالألوهية، وأشاروا إلىٰ هذا المعنىٰ بقولهم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالِقِها علىٰ هذا النظام البديع والإحكام الدقيق. فكلُّ شيء فيها يدل عليه دلالة واضحة، ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، وعلىٰ صفاته دلالة ظاهرة جلية، كالشمس في رابعة النهار، والاستدلال بالأثر علىٰ المؤثِّر من أقوىٰ الأدلة الـمُثبِتَة، وهو سبحانه ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: إنما هو سبحانه ـ بهذا الوحي الذي أرسل به إليكم ـ يدعوكم إلىٰ ما فيه مصلحتكم وكمالُ فِطَرِكم من تهذيب أرواحكم، وغفران آثامكم، وصلاحكم للدار الآخرة التي أشار إليها بقوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: معيَّن ومقدَّر لقبضكم إليه ونقلكم من الدنيا إلىٰ الأخرىٰ، لتنالوا جَزاءَكم علىٰ الإحسان إحساناً، وعلىٰ السوء سُوءاً.

هذا ما قاله لـهم رسلُهم ودَعَـوْهم به إلىٰ الله، ولكنهم عارضوا وأعرضوا و﴿قَالُوٓاْ﴾ منكرين رسالتـهم ورادِّين عليهم دعوتَهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا فَضْل لكم يُؤهِّلكم لِـمَا تَدَّعُونه من النبوَّة والرسالة، وإنما ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من غير شيء يوجب ذلك، ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ وحُجَّةٍ واضحةٍ علىٰ فَضْلكم واستحقاقكم لهذه المزيَّـة، وصحَّة ادِّعائكم لما تَدَّعون، كأنهم لم يعتبروا ما جاؤوا به من البيِّنات، واقترحوا عليهم آيةً أخرىٰ تعنُّتاً ولجاجاً.

= المسائل المعقَّدة ولا من حقائق التفكير العويصة، ولولا البيئات الفاسدة التي تمسخ الفطرة، وتُولِّد فيها من العلل ما تجعلها تَعافُ العذْب الفرات، وتستسيغ الملح الأجاج، ما كان في الناس منكر ولا ملحد. وإنما جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس عن الألوهية، فإنهم ـ وإن عرفوا الله بطبيعتهم ـ إلا أنهم أخطؤوا في الإشراك به والفهم عنه، وضلوا ضلالاً بعيداً. (المؤلف).

واستنادهم في ذلك علىٰ قولهم: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يُنْبئ عن مُنتهىٰ الـحُمْق والجهالة، لأنَّ الله سبحانه لم يكن ليبعث رسلاً إلىٰ البشر إلا من البشر، وبلسان قومهم ليبيِّنوا لهم. وقد مضت سُنَّة الله في ذلك حتىٰ كان متعارفاً في تاريخ الرسل، إذ لا يُمكن لكلِّ بشر أن يفهم عن الـمَلَكِ الذي هو الوحي، وإنما ذلك خاصَّة في الأنبياء أودعها الله فيهم بمقتضىٰ كمالهم في حدود البشريَّة وبلوغهم مُنتهاها في أصل تكوينهم. وهو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١]، لأن الأنبياء مُزوَّدون بالقدرة علىٰ الاتِّصال بالوحي، وعلىٰ استلهام المعلومات عن الله سبحانه بحُكم تناهيهم في الكمال. وليست هذه القدرة الـمُوهَبة عند غيرهم من البشر، إذ ليس في أحدٍ كمالُ الأنبياء، ولا مُزوَّد بهذا الاستعداد، مهما بلغ من الألمعية والنبوغ.

ثم ذكر ما أجابتهم به الرسلُ مما تضمَّن ذلك، فقال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾ ناقضةً لقولهم علىٰ طريقة مُجاراة الخصم: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ـ كما تقولون ـ ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ﴾ بالنبوة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، فيخصُّهم بها ويُميِّزهم بخصائص تؤهِّلهم لها، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته وتيسيره. يريدون: إنا لا نقدر من تلقاء أنفسنا أن نأتي بالمعجزات والخوارق، ونجيب اقتراحكم هذا، فذلك مما لا يقدر عليه البشر. وإنما يكون إذا خوَّلَنا اللهُ به. وهذا النوع من النفي يقال له: نفيُ الشأن، وهو أبلغ صُور النفي وأدلُّه علىٰ بُعْد الإمكان، ثم قالوا في إتمام البيان: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثم أكَّدوا التوكُّل بهذه العبارة الدالة علىٰ استبعاد عدم توكُّلهم مع وجود المقتضي

وانعدام المانع، فقالوا: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ برسالته ووحيه(١)، فهو الذي ينصرنا عليكم، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ فالعاقبة للصابرين والمتقين.

ثم ذكر ما أجابوا به الرسل من السَّفاهة بعد أن ألزموهم بالحُجَّة، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي: الـمُغَالون في الكفر منهم ﴿ لِرُسُلِهِمْ ﴾ بعد ذلك الإلـزام: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى (٢) مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ عند تناهي كفر الكفرة وبلوغهم من العُتوِّ إلىٰ غايةٍ لا مَطْمَع بعدها في إيمـانهم، وقال: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ أي: أرضَهم وديارَهم. ثم ذكر سنته العامة في ذلك، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر علىٰ الأعداء إنمـا هو ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى (٣) وَخَافَ وَعِيدِ (٤) ﴿١٤﴾﴾ لا للضالين الـمُضِلِّين.

---

(١) الصواب أن يُقال: وقد هدانا سُبُلَنا لتحقيق النجاة من التعرُّض للهلاك بأيدي الكافرين. وليس وارداً في عبارة الرسل: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ أن يكون المراد: سُبُلَ الدين، فسبيل الله الدينيّ لجميع الرسل سبيلٌ واحدة لا تعدُّد فيها، لكنها هنا سُبُل النجاة من القتل بأيدي أعدائهم الكافرين، وهي السُّبل المختلفة التي هداهم الله إلىٰ سلوكها للخلاص من تهديد أعدائهم لهم بالقتل، وكل ما جاء في القرآن من مادة (سبيل) فالمراد: شرائع الدين وأحكامه. وأما إذا جاء مجموعاً فقد جاء للدلالة علىٰ سُبل الأرض، أو سُبل الرزق، أو سُبل السلامة والنَّجاة في الدنيا.

(٢) أي: لتعودُنَّ عن دينكم الجديد الذي آمنتم به، ولتدخُلُنَّ في ديننا.

(٣) أي: خاف قيامي عليه ومراقبتي له، ومقامه بين يدي يوم القيامة. ويستعمل «المقام» كناية عن الذات الحاضرة في مكان القيام على سبيل التعظيم. والمراد: الذات المقدَّسة. وينظر تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦].

(٤) أي: وعيدي وتهديدي لمن يخالف أمري.

ثم أردف الوعد بإنجازه، فقال: ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ ﴾ أي: طلبت الرسلُ الفتحَ والنصرَ من الله تعالىٰ، فأعطاهم ذلك، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥﴾ من معارضيهم ومعانديهم.

وبعد بيان مصير هذا المُعاند الجبَّار في الدنيا، بيَّن مصيره في الآخرة، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ[١] وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ[٢] ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ[٣]﴾ بعذاب أليم، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ فيغصُّ به ويطول عذابُه، ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ لتوفُّر أسبابه ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾ فيستريح. وذلك علىٰ حسب السنة الكونية في الدار الآخرة. وهذه الجملة من أبلغ التعابير لتصوير العذاب الشديد الدائم. ثم قال في تكميل البيان: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾[٤]، ومُلخَّص البيان: أنه يستقبل كلَّ وقت عذاباً أشدَّ وأشقَّ مما كان قبله. أعاذنا الله.

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠﴾.

ثم تابع السياق بضرب هذا المثل لخيبة الكافرين في أعمالهم التي يعتقدونها سبباً لنجاتهم في الآخرة، فقال: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ

---

(١) أي: سوف يكون مصير هذا الكافر يوم القيامة جهنم، وهي غيبٌ بالنسبة له.
(٢) هذا بيان لنوع الماء المتقدِّم. والصديد: هو ما يسيل من جلود أهل النارمن قيح مخلوط بدم.
(٣) يتكلف شُرْبَه جرعةً بعد جرعة، لشدَّة حاجته إلى ما يُطفئ عطشه.
(٤) أي: سوف يأتيه بعد هذا العذاب في مستقبلِ بقاءِهِ في جهنم عذابٌ آخرُ شديدٌ مؤلم.

﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، فلم تترك منه ذرةً، حيث إنهم ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ولا يحصلون ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ وعملوا من تلك الأعمال ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[1] لحبوطها، لأنها بُنيت علىٰ غير أساس من معرفة الله تعالىٰ والإيمان به علىٰ الوجه الصحيح. ولم تكن موافقةً لِـمَا أراده الله وارتضاه من الأعمال التي يُتوجَّه بها إليه ويُتعبَّد له فيها، والتي تُؤَهِّل الأرواح للسعادة الأخرويَّة[2]، فلم يكن لها أثر من ثواب أو تخفيف عذاب، كدأب الرماد المذكور؛ لأنهم ـ بعملهم هذا ـ كمن يطلب أمراً بوسائل غير مؤدية لنيله، وطرق غير موصلة إليه، لأنها ليست من الله، ولكن من مخترعات المضِلين. وهذه الآية شبيهة بما جاء في سورة النور بقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ [النور: ٣٩] الآيات. وهذا المثل أبلغُ تصويرٍ لِـمَا ينالهم من الحسرة والخسارة وعدم الانـتفاع، و﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

وتقريراً لِـمَا ذكر من الوعيد، حقَّق أمر البعث، وأتىٰ بصيغة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لتصوير الأمر المُتحقِّق بصورة الظاهر المرئي، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: للغرض الصحيح والأمر الحقِّ المُسْتَتْبِع للغايات الجليلة والمقاصد النبيلة، يشير إلىٰ أنَّ خلقهما لم يكن عَـبَثاً، ولا شيئاً سُدىٰ، ولكن لأمرٍ له ما بعده من الحشر والحساب والجنة والنار.

وبعد التنبيه إلىٰ قدرته العظيمة وأعماله الحكيمة، هدَّدهم علىٰ الشِّرك والمعارَضة بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ بل هو

---

(١) الإيمان الصحيح في الأعمال كالقلب السليم في الجسم، إذا صَلَحَ صَلَح الجسد كلُّه، وإذا فَسَد فسد الجسدُ كله. فأعمال هؤلاء كمَنْ يطلب أمراً ويسعىٰ إليه من غير طريقه. (المؤلف).

(٢) تقييد ذلك بالأرواح يُوهِم معنى فاسداً، وهو كون النعيم والعذاب يوم القيامة للروح دون الجسد، وهو قول الفلاسفة، فكان الأَوْلى بالمؤلف رحمه الله اجتنابه.

هيِّن عليه، ولا تقف رحمته دون حكمته. وأتىٰ بصيغة الخطاب ولم يقل: (يُذهِبْهم)؛ زيادةً في الترهيب. ويجوز أن يكون الخطاب علىٰ عمومه، لأنَّ قدرته علىٰ ذلك لا تختص بهم، فيكون البيان عاماً علىٰ وجهه، والتهديد خاصاً.

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ثم ذكر المحاورة التي تقوم بين رؤسائهم ومرؤوسيهم يوم الحشر والحساب، تنبيهاً لمصيرهم الأليم، وتوقيفاً لهم علىٰ ذلك ليزدجروا، فقال: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي: يبرزون من قبورهم يوم القيامة للحساب، وعبَّر بالماضي لتحقُّق الوقوع، ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ ﴾ أي: يقول الأتباع للرؤساء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، ومُلَخَّص المعنىٰ: إنا اتَّبعناكم للنجاة من هذا اليوم، فعاد علينا الأمر وبالاً، يتحرَّشون بهم، فيجيبهم الرؤساء بما حكاه سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾، ولكنْ ضَلَلْنا فأضلَلْناكم. وهذا جواب باللازم، علىٰ نهج القرآن في مثله، وهو يُؤْذن بأن الإغناء والإنجاء لا يكون إلا للمهتدين بهداية الله، ولا يتأتَّىٰ ذلك إلا لمن لم يفسدوا طبيعتهم بالانطباع علىٰ الضلال والتقليد الأعمىٰ، فيهديهم نورُ العقل إلىٰ اتِّباع الحق وتجنُّب الباطل.

ومُحصَّل هذا الجواب: أنْ قد سُدَّ علينا جميعاً طريق الخلاص، ولات حين مناص، ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾﴾ أي: لا مَهْرَب لنا من عذاب الله. وفي هذا الجواب من اليأس وانقطاع الأمل والحسرة والندامة ما يعجز عن وصفه القلم، أعاذنا الله. الحمد لله الذي هدانا لِـمَا هدانا إليه من الحقِّ، وما كنا لنهتديَ لو لا أن هدانا الله.

ثم حكىٰ ما يكون حينئذ من تَنَصُّل الشيطان من أسباب غَوايته لهم وإلقاء التَّبِعَةِ عليهم في تلك الغَواية، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ ﴾ فأنجزه بالبعث والجزاء، ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ ﴾ بالباطل ﴿فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ ﴾، وفي هذا دلالة علىٰ أنَّ الإنسان هو الذي يُفسِدُ علىٰ نفسه أمرَه، ويُدنِّس روحَه ويُدسِّيها باختياره، وإنما الشيطان يوسوس له من دون أن يكون له عليه تسلُّط وإجبار، كما قال: ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ حيث استجبتم لي باختياركم، نتيجةَ إفسادكم لطبيعتكم، فالآن ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ ﴾ أي: بمغيثكم مما ينالكم، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ﴾ مُغيثيَّ مما ينالني.

﴿ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ ﴾ أي: إني أتبرّأ مما كنتم تعتقدون في الدنيا من أني شريك لله. أو: من إشراككم إيَّاي بالله، فتكون (ما) مصدرية. وهذا المعنىٰ مفاد قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ [فاطر: ١٤]. أو المعنىٰ: إني كفرت مِنْ قَبْلُ بالله الذي أشركتموني به، فتكون (ما) موصولة، واختيارها علىٰ (مَنْ) لإيثار معنىٰ الوصفيَّة، علىٰ حد قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣]. ويكون المراد: إني كفرت من قبلكم بالله حين خالفت أمره، وقد أشركتموني بمثل ذلك واتبعتموني، فلا خلاص لنا جميعاً من عذاب الله؛ ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾، ويجوز أن تكون هذه الفاصلة جملةً مستأنفةً من كلام الله تعالىٰ.

ثم أردف سبحانه وعيدَ الكافرين وبيانَ حالتهم السيِّئة، بوعد المؤمنين وحكاية حالتهم الحَسَنة، علىٰ نهج القرآن في مثل هذه المقابلة، لزيادة التنفير من الكفر والترغيب في الإيمان، فقال: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: بتيسيره ورحمته، ثم ذكر ما يدلُّ علىٰ كرامتهم وسعادتهم، ويُؤْذِن بالنجاة من الهَوْل الشديد الذي كان ينالهم لو لم تَنَلْهم هدايةُ الله الأبدية، فقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾، ففي هذه التحية إشعارٌ بذلك الفوز المبين، والنجاة من ذلك الهول العظيم، جَعَلنا الله من عباده الصالحين الفائزين.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم أردف هذا بضرب مَثَل للإيمان والكفر ونتائجهما، تقريراً للسياق، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ في الأرض ضاربٌ بعروقه فيها، ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: في الفضاء يشمخ للاستفادة من الجوِّ ويرتفع كلَّما بَعُدَت الأصول في الأرض، إذ قد رُوعي فيها القوانين الصحيحة في الغرس والتشجير والسقي والتدبير، وبذلك ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا ﴾ أي: ثَمَرَها ﴿ كُلَّ حِينٍۭ ﴾ وَقَّتَهُ الله لإثمارها ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ أي: بتيسير خالقها.

وهذا مَثَلُ المؤمن والإيمان، فإنه إذا كان صحيحاً راسخاً يزكِّي الغريزة ويُنمِّي استعدادها للخير، فلا يزال ينتج عنها آثار طيبة في النفس وفي الأعمال تؤدِّي إلىٰ سعادة

الدنيا وسعادة الأخرىٰ، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لأنَّ في ذلك زيادةَ إفهام وتذكير؛ إذ المثل يُصوِّر المعاني المعقولة بصُورة المحسوسات، فيُدْنيها من الحسِّ ويُقرِّبها للفهم، فيلمسها السامع لمساً. والمراد من الكلمة الطيبة: الإيمان الصحيح وما يتبعه، أو كل ما جاء في هذا القرآن من بيان، والله أعلم. فالدين الإسلامي بإيمانه وعباداته وقرآنه كلُّه من الكَلِم الطيِّب.

ثم ضَرَبَ مَثَلَ الكفر والكافر، فقال: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: استُؤصِلَت وأُخِذَت، لأنَّ عروقها قريبة غير قوية. أو المعنىٰ: خُلخِلَت عن مكانها بقلقلة ساقها من فوق الأرض، فهي مُختلَّة متخلخلة ذابلة لا تزهو ولا تثمر؛ إذ ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾، فتكون هذه الشجرة خبيثةَ الوضع، عديمةَ النفع، فاقدةَ الثبات، علىٰ عكس الأولىٰ. وهكذا تكون كلمة الكفر غير مستقرَّة في النفس؛ لأنها تتكوَّن بالتقليد والتلقين، لا بالتفكير الصحيح والبرهان القاطع، فهي كريشة في مهبِّ الريح ربما تذهب بها. وذلك لأنها منافية للحق، مغايرةٌ للواقع، لا يستسيغها العقل السليم ولا الوجدان، وكلُّ دين وملّة ـ عدا الدِّين الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه ـ من هذا القبيل، أعاذنا الله. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وإنما صدَّر الـمَثَل بـ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ لتنزيله هذا الأمرَ المتحقِّقَ منزلةَ الظاهر المرئيّ المشاهَد المحسوس.

ثم أردف المثل بصريح المعنىٰ، علىٰ نهج القرآن في تعقيب المجاز بالحقيقة، توضيحاً وتقريراً، فقال: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ وهو كلمة الإيمان، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فلا يَزِلُّون إذا فُتنوا في دينهم، لتمكُّنهم منه بالحجَّة والبرهان، ورسوخه

فيهم بالفهم والإتقان، ﴿وَ﴾ يُثبِّتهم ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾[1] فلا يَتَلَعْثَمون إذا سُئلوا في القبر ولا في موقف الحساب؛ إذ لا تدهشهم أحوال القيامة، لتمكُّن الإيمان منهم واليقين، فَهُمْ من فَزَع يومئذٍ آمنون.

ويجوز أن يُراد من التثبيت في الآخرة: ما ينالونه من السعادة. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

أما حال صاحب كلمة الكفر الخبيثة، فقد عُوِّضَ عنه بهذه الحقيقة العامة، علىٰ نهج القرآن في التعويض، فقال: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين ظلموا أنفسَهم بإفسادهم لها فضلّوا وكفروا حتىٰ تمكّن الكفرُ منهم، إذ قد مضت سُنّة الله في طبيعة الإنسان أنَّ مَنْ شبَّ علىٰ شيءٍ شابَ عليه، وصَدَّ عما يخالفه، وقاومه بكلِّ قواه، واستهدف للنتائج الوخيمة في عُقْباه.

ثم ذكر الوجه في خلق الإنسان علىٰ تلك الطبيعة، فقال: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ في السنن الكونية العامة، ولكن مشيئته لا تجري اعتباطاً، وإنما تجري بحسب الحِكَم والمصالح العامة، وفي سُنَنٍ مُطَّردة لا ظُلْمَ فيها ولا حَيْف، مقرونة بالحيطة والتوجيه.

ومُحصَّل المَثَلَين: أن كلمة التوحيد غَرْسٌ كريم، تمتدُّ أصولُه في القلب، وتظهر

(١) يجوز أن يراد بالكلمة الطيبة: ما في هذا القرآن من تعاليم عالية، وتوجيه صحيح في أمور الدنيا والآخرة. ويكون قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ تنويهاً بشأن هذا التوجيه، وإلماعاً لِـمَا ينجم عنه من تمكين وفلاح، ولِـمَا ينال المُعْرضين من خَيْبة وخسران، ويكون المراد بالنعمة: الشريعة التي من جملتها التوحيد والتنزيه، وبتبديلها: تحريفها، أو الإعراض عنها إلىٰ غيرها، مما وضعوه لأنفسهم من الشرك والضلال. (المؤلف).

آثارُه في الجوانح والجوارح، ظلالاً وارفةً، وثمراتٍ شهيّةً، من الأعمال الطيبة والأخلاق السامية، في الأفراد والجماعات. أما كلمة الشرك فغَرْس مُجتَثٌّ مَشْلول، في أرض خبيثة سَبْخة، لا وَرَق ولا ثَمر ولا أغصان سوىٰ خباثةِ النفس وظلام الوجدان.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

وبعد هذا البيان العام عن نتيجة الكفر، تعرَّض لمشركي قريش كالمستشهد بهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾، وهم كفار قريش، نزل عليهم القرآن فلم يؤمنوا به، ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ المتّبعين لهم ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ والهلاك ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ هذه النار.

ثم نصَّ علىٰ كفرهم مُهَجِّناً لهم ومُؤَنِّباً، فقال: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أي: أمثالاً وشركاء، ﴿ لِّيُضِلُّوا۟ ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ تعالىٰ، وهو التوحيد. واللام للعاقبة وليست للغاية، إذ هم يحسبون أنهم يتقرَّبون بذلك إلىٰ الله، ويُرشدون الناس إليه. وكلُّ ضال يعتقد ضلاله هدىٰ، ويحسب أنه يُحْسِنُ صنعاً. اللهمَّ إني أعوذ بك من أن أُشرِكَ بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك لِـمَا لا أعلم. ثم توعَّدهم بقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ ﴾ في نعيم هذه الحياة الفانية ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ ﴾ في الحياة الباقية ﴿ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

وبعد هذا الإنذار ذكر ما يقابله، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، وأمر المؤمنين أن يجدُّوا السير في طريقهم المستقيم، إرشاداً وتحذيراً، فقال: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: يأتون بها مقامةً علىٰ أكمل وجوهها، وذلك بأن يعقلوا ما جاء

فيها من مناجاة الله في القراءة والتكبير والتسبيح والتحميد؛ إذ ليس للمرء من صلاته إلا ما عَقَل منها، كما جاء في الحديث(١).

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، وهذا الوصف لبيان موضع النعمة عليهم والتنبيه لها، استدراراً لهم لينفقوا ﴿سِرًّا﴾ طلباً للإخفاء، كي لا يمسُّوا بعاطفة المُنْفَق عليه وشعورِه، ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ رغبةً في اقتداء الناس بهم في الإنفاق، ولكلٍّ مواضع تقتضيه. فهو يحثُّهم أن يفعلوا ذلك ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾ أي: لا ينفع فيه فداءُ مُفْتَدٍ ولا صداقةُ صديق مقرَّب، إلا عَمَلُ المرء نفسه.

فالآية حثٌّ علىٰ العمل الصالح قبل مجيء يوم الحساب الذي لا تنفع فيه الفِدْيةُ ولا شفاعةُ الشافعين(٢). وإنما هو مقرونٌ بعمل الإنسان بما أرسله إليه سبحانه من

---

(١) قال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١: ١١٦) حديث: «إن العبد ليصلِّي صلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها» أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث عمار بن ياسر بنحوه.

(٢) إلا من أذن الله له، كما قال سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولا تعارض بين هذه الآيات التي تُثبت الشفاعة وبين الآيات التي يُستَدَلُّ بها على نفي الشفاعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قال ابن جُزّي في «التسهيل» (١: ٨٩): «حيثُ ما كان الكلام في سياق أهوال القيامة، والتخويف منها، نُفيت الشفاعةُ على الإطلاق مبالغةً في التهويل، وحيثُ ما كان سياق الكلام في تعظيم الله نُفيت الشفاعةُ إلا بإذنه».

وقال ابنُ جُـزّي في «التسهيل» أيضاً (١: ٤٧) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]: «ليس نفي الشفاعة مطلقاً، فإن مذهب أهل الحق ثبوتُ الشفاعة لسيِّدنا محمد، وشفاعة الملائكة، والأنبياء، والمؤمنين، وإنما المراد أنه لا يشفع أحد إلا بعد أن يأذن الله له، =

التعاليم، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وإنما استُعمِلَ «البيع» بَدَل الفداء، لأنه أدلُّ علىٰ معنىٰ المعاوضة في الحضِّ علىٰ الإنفاق.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم أردف السِّياق المتضمِّنَ للردِّ علىٰ المشركين والحضِّ للمؤمنين علىٰ التمسك بالدين، أردفه بما يؤيده من اختصاصه سبحانه بأفعال الألوهية، والتذكير بمننه العظيمة، وكيف قابلها الإنسانُ بالنّكر والكفر والغفلة والجهالة، ويومئ إلىٰ أن أبواب الرِّزق مفتوحةٌ للكسب منها والإنفاق، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ علىٰ ما فيهما من عَظَمة وتدبير وتدقيق وإحكام، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تعيشون به وتنفقون، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ وتيسيره حيث خلق طبيعة عَوْم الأجسام علىٰ الماء، وخلق

= لقوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]، ولقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]. وانظر ما ورد أن رسول الله ﷺ يستأذن في الشفاعة، فيقال له: «اشفعْ تُشفَّع».

فكلُّ ما ورد في القرآن من نفيٍ للشفاعة مطلقاً يُحمَلُ على هذا؛ لأنَّ المطلق يُحمَلُ على المقيَّد، فليس في هذه الآيات المطلقة دليلٌ للمعتزلة على نفي الشفاعة». انتهى.

السماء بهذه الخاصَّة، ولولا ذلك لتعذَّر الوصول إلىٰ كثير من بقاع الأرض للتجارة والأسفار، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢﴾ التي عليها مدار كثير من النِّعَم والفوائد وريِّ الأشجار.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِ﴾ في سَيْرِهما وإنارتهما، وبهما مناط كثير من شؤون الإنسان وحياته وحياة الحيوان والنبات الذي يعود بالخيرات، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ بتنظيم هذا النظام الشمسي العظيم؛ لتعملوا في النهار أعمالكم التي عليها مدارُ شؤونكم، وتسكنوا في الليل فيتعوَّض الجسم ما فَقَده من القوَّة والطاقة أثناء عمل النهار.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾ وعبَّر عن الاحتياج بالسؤال، أي: ما كان حقيقاً بأن يُسأل لاحتياجكم إليه، وهذا يَعُمُّ النِّعَمَ كلَّها، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ لكثرتها وعظمتها. ثم سجَّل علىٰ نوع الإنسان كُفْرَه بهذه النِّعَم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ إذ يشرك بهذا الإله العظيم أنداداً لا يملكون لأنفسهم ضَرّاً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. وإنما نسب لجنس الإنسان ما هو لصنفٍ منه لوجهين: الأول: الإشارة إلىٰ كَثْرة هذا الصنف، وأنه لا يتناهىٰ مع بعضه عن المنكر إذا فعله. والثاني: لأنَّ الجنس يتحقق في بعض أفراده حسب خصائص اللغة.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلۡحَمۡدُ

﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

ولما كان كفار قريش يزعمون أنهم علىٰ دين إبراهيم عليه السلام، ردَّ زَعْمَهم، وذكر شيئاً من تاريخ إبراهيم وتشـدُّده في الإنكار علىٰ عبادة الأصنام، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ يعني مكة ﴿ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: بعِّدني وإيَّاهم عن ذلك. وهذا الدعاء استنكار واستقباح لعابديها، وينطوي علىٰ دعاء الناس للتوحيد. ويُلْمع إلىٰ عارضٍ خطير في تاريخ الأديان، وهو أنَّ الأمم بنتيجة إفراطها في تحريف دينها تنحدر إلىٰ عبادة الأصنام. ولذلك أردفه بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ضلُّوا باتِّباعها وعبادتهم لها، بزَعْم أنها تُقرِّبهم إلىٰ الله زُلْفىٰ. وفي إسناد الإضلال إليها تجوُّزٌ معروفٌ مِثلُه في خصائص اللغة، ويسمَّىٰ في عُرْف البلاغة: الإسناد إلىٰ السبب.

وبعد هذا البيان المنطوي علىٰ الدعوة إلىٰ التوحيد قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾، وفيه تنصيصٌ وإيماءٌ إلىٰ أن كفار قريش ليسوا من إبراهيم في شيء كما يدَّعون. وفيه إلماع إلىٰ استجابته لله سبحانه في نشر الدعوة. ولذلك طلب غفران تقصيره فيما ليس في وسعه وإمكانه، فقال: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾، يدعوه بصفتَي غفرانِهِ ورحمتِـهِ أنْ لا يُؤَاخذه بما لا تقصير فيه عن إمكان، وبأن يُمهِلَهم لعلَّهم عن غيِّهم يرجعون، فيغفر لهم عصيانَهم. ومثل هذا قول نبيِّنا ﷺ عندما اشتدَّ قومه في معارضته: «ربِّ اغـفر لقومي فإنهم لا يعلمون»(١)، يريد: أن يُمهِلَهم ولا يعجِّـل

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢)، عن ابن مسعود.

عليهم بعذاب الاستئصال، رجاءَ أن يَثُوبوا لِرُشْدهم فيؤمنون، واستعمل ﷺ الغفران بمعنىٰ التوفيق للإيمان، كما استعمله إبراهيم عليه السلام في أبيه في قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ [الشعراء: ٨٦].

ثم تابع الدعاء المتضمِّن للدعوة إلىٰ التوحيد، بالدعاء لذرِّيته التي أسكنها في هذا البلد القَفْر لهذه الغاية، وبالتضرُّع إلىٰ الله سبحانه في شأنهم والعطف عليهم، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ تنفيذاً لأمرك. ومعنىٰ المحرَّم: أنه حُرِّمَ التعرُّض له والتهاون به. وسمَّاه «بيتاً» مع أنه لم يكن فيه حينئذٍ بناء، باعتبار علمه بما سيكون من بناء البيت هناك بأمر الله تعالىٰ. لأنَّ الأنبياء تشعر شعوراً وجدانياً بما سيكون من أمرها وأمر شريعتها بصورة مُجمَلة. أو أن الله سبحانه أمره فعلاً ببناء هذا البيت في هذا المكان بعد أن تجتمع الناس علىٰ إسماعيل عليه السلام، وجعل إسكانه فيه مع أمِّه مقدِّمةً لذلك، فيكون إطلاق «البيت» علىٰ هذا المكان باعتبار ما سيؤول إليه. وهذا هو الظاهر القريب من قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وفيه إشعارٌ وتنصيصٌ بأنَّ هذا هو المقصود بالذات من إسكانهم ذلك الوادي الأقْفر الذي ليس فيه ولا حوالَيْه مَنْ يقيم الصلاة.

ثم تابع الكلام بقوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ليقيموا معهم الصلاة ويعبدوا الله وحده، ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لأنَّ واديهم غير ذي زرع؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ تلك النِّعَم، أو لعلهم يتمكَّنون من إقامة الذكر والشكر لله تعالىٰ. وتفيد الآية أنَّ الله سبحانه أمر إبراهيم أن يُسْكِنَ ابنَه إسماعيلَ وأُمَّهُ في هذا المكان ليكون مَثابةً للناس وأمناً، ومقاماً يُعبَدُ فيه سبحانه وتعالىٰ. ولما كان هذا المكان مُقْفراً دعا إبراهيمُ عليه السلام ربَّه عز وجل أن يرزق ذُرِّيته هؤلاء الذين أسكنهم في

هذا الوادي الـمُقْفِر؛ أن يرزقهم ومَنْ يأوي إليهم من ثمراته الرغيدة ورزقه الواسع لعلَّهم يتمكَّنون من إقامة ذكره وشكره، لأنه سبحانه بنعمته تتمُّ الصالحات.

ولما كان الغرض من ذلك إقامة شعائر الله في هذا المكان، دَعَا اللهَ سبحانه أن يَجعَلَ أفئدةً من الناس تهوي إليهم ليُرشدوهم أن يعبدوا الله، ولم يكن المراد من جَعْل الأفئدة تهوي إليهم أن يعطفوا عليهم بأُعطياتهم كما يتصوَّر البعض ويقول، فإن هذا مما لا يحتمله الكلام، ولا يتناسب مع إبراهيم عليه السلام.

ثم تضرَّع إبراهيم عليه السلام لله تعالىٰ، وأدمج في ذلك بيانَ إخلاصه في العبادة، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾. ثم اعترف ببعض نِعَم الله الخاصَّة عليه وشكرها، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾، وفي قوله: ﴿عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ تتميم، أفاد المبالغة في تقدير النعمة واستعظام المنة. وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ إشعارٌ بأنَّ ذلك كان إجابةَ دعاءٍ منه تعالىٰ. وفيه زيادةُ إقرار بالنعمة.

ثم طلب من الله سبحانه أن يُعينَه علىٰ دوام عبادته له، وأن يُديمَ إجابة دعائه منه، وأن يشملَه وآلَه والمؤمنين بغفرانه ورحمته يوم الدين، فقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَ﴾ اجعل ﴿مِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ كذلك، ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾، وهذه الجملة الأخيرة علىٰ وتيرة قولهم: «قامت الحرب»، والمراد بها المبالغة في التهويل من يوم الحساب، وقد يأتي القيام بمعنىٰ الشروع والابتداء.

هذا، وقد تقدَّم عذرُ استغفاره لأبيه في سورة التوبة عند قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ
فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾
وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ
دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾
وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ
وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ
مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾
وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ
ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ
وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

وبعد أن ردَّ علىٰ المشركين، ونَقَض عليهم ادِّعاءَهم أنَّهم أتباع إبراهيم عليه السلام، وذلك ببيان ما كان عليه من إنكار الشِّرك والدعوة إلىٰ التوحيد؛ توعَّدهم بهذا الوعيد الشديد، وسَبَك ذلك علىٰ تسليته ﷺ، فقال: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾، فلا تقرُّ في أماكنها من هَـوْل ما ترىٰ، ﴿مُهْطِعِينَ ﴾ أي: مُديمي النـظر، فهي حال مؤكّدة لـما قبلها، ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ أي: رافعيها مُشْرئبِّـين لما سينزل بهم، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ بل تبقىٰ عيونُهم شاخصة، وهذا تـمكينٌ للوصف السابق، ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي: مُتفرِّقة مشتَّتة تترقَّب ما يفعل بها. وجميع هذه الصفات تُمثِّل شدَّة هَلَع نفوسهم من ذلك الموقف الرهيب. كان الله لنا بالعَوْن، وأعاذنا من ذلك الهَوْل.

وبعد أن توعَّدهم بعذاب الآخرة، توعَّدهم بعذاب الاستئصال في الدنيا، فقال: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾، فيقال لهم تنديماً وتوبيخاً: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾، يريد تكذيبهم بما توعَّدهم به من هذا العذاب الساحق الماحي، أي: كذبتُم به ﴿وَ﴾ الحال قد ﴿سَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصي ممن كان قبلكم من كفار الأمم الخالية المَمْحوقة كعاد وثمود، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ من العذاب المعجَّل في الدنيا، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ لتعتبروا، فلم تتَّعظوا بكلِّ ذلك.

ويجوز أن يكون المراد بهذا العذاب: عذابَ الآخرة أيضاً، ويكون المراد من قوله: ﴿أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾: اعتقادَهم ببقاء الدنيا وخلودها، وإنكار الآخرة. فتكون الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨].

ويجوز أن يكون قد تجوّز بالقسم عن مُجرَّد الاعتقاد بذلك مبالغةً فيه. ومُحصَّل الآية: إلزامهم بالدليل الواقعي بما جرىٰ علىٰ مَنْ سكنوا في مساكنهم، والدليل النظري بتقرير البراهين وضرب الأمثال، فلم يُفِدْهُم كلُّ ذلك طولَ عمرهم، فما فائدة التأخير؟!

ثم لفت الكلام إلىٰ النبي ﷺ، ونبَّهه علىٰ عنايته به وحفظه منهم، تسليةً له فقال: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ ﴾[1] أي: مَكَرَ كفارُ قريش بك مَكْرَهم الحنيق، حيث أرادوا أن يُثْبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك[2]، كما مكر كفَّار الأمم الماضية بأنبيائهم،

(١) أي: دبَّر كفارُ مكة المكايد في الخفاء، وائتمروا للإيذاء والضرر.

(٢) انظر الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

وتوعَّدهم بقوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾[1] فهي كلمةٌ تهديد رهيب، أي: لا يُهمِلُه لهم سبحانه وسيجازيهم عليه، أو عنده ما يمكرهم به ويعصمك منهم، فهم ضعفاء في جَنْب الله، ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ٤٦﴾[2] وهذا الوصف ليس علىٰ الحقيقة، وإنما هو تمثيلٌ لتهويل المكر، مثل: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. وقيل: «إنْ» نافية[3]. والمعنىٰ: لم يكن مكرُهم ليُـزيل الجبال، فيكون للتهوين والتضعيف، ويكون قد استعار الجبال لحجج القرآن القوية ودلائل النبوة الثابتة. أي: فلا يقدرون علىٰ ردِّ ذلك وإخماد هذا النور مهما حاولوا وشاغبوا، لأنه أثبت من الجبال.

ثم قرَّر الوعد والوعيد وفصَّله بقوله: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ٤٧﴾، والانتقام: من النقمة، وهي السطوة والعقوبة. وقد يُستعمل في عُرْف التخاطب بمعنىٰ التشفِّي، وهو بهذا المعنىٰ محال علىٰ الله. ولكن المعنىٰ: أنه ذو سَطْوة وعقوبة، فلا يُغالَب ولا يُماكَر، ويأخذ لأوليائه من أعدائه في الدنيا، ويُجازيهم بالعذاب الأليم في الأخرىٰ.

---

(١) أي: ثابت مُسجَّل. وعِلْمُ الله بمكرهم يعني أنَّه سبحانه قادر على إبطاله؛ لأنه غير خفيّ، فلن يصلوا منه إلى ما أمَّلوا، ولن يتحقَّق منه شيء.

(٢) تزول: تنقلع عن أماكنها وتتصدّع. و«أل» في ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾: لتعريف ماهيَّة الجنس أو عهديَّة ذهنيَّة، بحسب المعنَيَيْن المذكورَيْن بعد.

(٣) على القراءة الأولى: «إنْ» مخفَّفة للتوكيد، و«لَـتَزُولُ» بفتح لام «لَـتزولُ» ورفع الفعل. والمعنى: قد كان مكرهم شديداً يهدّ الجبال ويزلزلها، وهو تعبير مجازيّ فيه مبالغة لبيان شدَّته، وإيغالٌ في ذمِّه وفاعليه.

وعلى القراءة الثانية وهي قراءة الجمهور: «إنْ» حرف نفي، أي: محالٌ أن تزولَ لكيدهم الجبالُ، فكيف بأصول التوحيد والشرائع وهي أشدُّ رسوخاً؟ وعلى هذا الوجه قرأ ابن مسعود: «وما كان».

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾[١] غيرَ السماوات، ﴿وَبَرَزُواْ﴾ من قبورهم، ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ أي: مقيَّدين مع بعضهم بالقيود والأغلال، ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: عليهم قُمُصٌ من مادة سريعة الاشتعال، ليكون عذابهم شديداً مستمراً، ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ أعاذنا الله. وفي هذه الجملة زيادةٌ في الإشعار بالهَوْل لذلك العذاب، وخصّ الوجوه بهذا لأنها موضعُ المواهب التي فرَّطوا بها ولم يستعملوها لمعرفة الحق والصواب، وهي: العقل والسمع والبصر وغيرها.

ثم بيَّن تعالىٰ أن هذا العذاب إنما هو غاية لما ارتكبوا من الشرك والإجرام. ولكنه ذكر ذلك بصورة قاعدة عامة لأعمال الخير والشر، علىٰ نهج القرآن في أساليبه، فقال: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر. وهذا التعليل يُشعر بأن أمر الجزاء مرتَّب علىٰ الكسب وتدسية النفس أو تزكيتها ترتيباً كونياً طبيعياً، كما يترتَّب المسبَّب علىٰ السبب، والمعلول علىٰ العلة. والله أعلم. ثم قرَّر الحكم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ أي: مَضَتْ سُنَّته تعالىٰ بأن تكون النتائج آثاراً للأعمال بلا إبطاء.

أما سرعة الحساب يوم القيامة فهو إدراك الناس كلِّهم دفعةً واحدة لأعمالهم، فيدرك كل واحد ما عمل من خير أو شر، ويعلم ما له وما عليه، وما يستحق علىٰ كل عمل من نعيم أو عقاب[٢].

---

(١) الظاهر أنَّ هذا الكلام إجمالٌ لِـمَا جاء عن حوادث القيامة مفصَّلاً في ثنايا هذا القرآن. ولكن أما يجوز أن يُفهَمَ بأنَّ خراب القيامة يعقبه تعمير جديد، بمواد ليس فيها خصائص مواد الدنيا من زوال وفناء، هذا من غيب الله، ولا يعلم الغيب إلا الله، فإنْ أخطأت فأستغفر الله. (المؤلف).

(٢) انظر ما تقدم تعليقاً عند تفسير الآية ٤١ من سورة الرعد.

ثم ختم السورة وما احتوت عليه بهذا البيان العظيم الشأن المتضمِّن للتنبيه إلىٰ مكانة ما سَبَق من الهداية والعرفان، والتحذير من عاقبة الزيغ عنه والانحراف، فقال: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾، جلَّ مَنْ هذا كلامه، وهذه حِكَمُهُ وأحكامُه.

* * *

سُورَةُ الحِجْرِ

مكية، وآياتها تسع وتسعون

والغرض منها كالتي قبلها:

- إثبات تنزيل القرآن.

- وأخذهم بالترهيب والتحذير مما حَصَل للمكذِّبين قبلهم.

ثم خُتِمَت بما يناسب هذا الغرض.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿الٓر﴾ مرَّ الكلام علىٰ هذه الحروف في أول سورة البقرة، وأصح الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارته إلىٰ ما يأتي بعدها اهتماماً به، ومنه هنا قوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾﴾، فالإشارة بـ﴿تِلۡكَ﴾ إنما هي إلىٰ ما يُتلىٰ من آيات هذه السورة. قال أبو مسلم: المبين: الواضح. وقيل: هو الـمُبَيِّن لِـمَا يُصلحُ شأن الإنسان في الحياتين.

ثم أردف هذا التنويه لشأنه ببيان مصير الكفار الـمُعرِضين عنه، فقال: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ مؤمنين بهذا القرآن. قال الرازي ما معناه: إنَّ من خصائص اللغة إذا أُريدَ المبالغة في التكثير يُقْرَن الكلام بلفظ يدل علىٰ التقليل. وعليه، فيكون الكلام للمبالغة في التنبيه إلىٰ ما سيؤول أمرهم إليه من الحسرة والندامة.

ثم قرن التنبيه بالتهديد، فقال: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾﴾، وهذا تهديد رهيب يهتزّ له الشعور، أعاذنا الله.

ولـما كان هذا التوعد مقروناً بالتسويف، أردفه ببيان سنته في ذلك التأجيل والإرجاء، فقال: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾﴾ أي: أجل مكتوب

معيَّن للإهلاك، ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥ ﴾ أي: فنستأصلهم إذا حانَ ذلك الوقت المعيَّن المكتوب. فلا يَغُرَّنَّ هؤلاء الكفارَ إمهالُ الله إيَّاهم، فإنما ينزل بهم العذاب إذا حان حينُه.

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾.

ثم ذكر شيئاً من معارضتهم واستهزائهم، فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ ﴾ أي: يا مَنْ يزعم أنه نُزِّلَ عليه الذكر إنّ ادِّعاءَك بنزول الوحي عليك ادعاءٌ مجنون.

ثم تحدَّوه بقولهم: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ ﴾ ليشهدوا علىٰ صدق قولك أو يعضدوك في الدعوة، أو المعنىٰ: لِيُنْزِلُوا بنا ما تتوعَّدنا به. وهذا المعنىٰ أكثر ملاءَمةً للسياق. وكلمة ﴿ لَّوْمَا ﴾ تفيد التحضيض، وكل ذلك علىٰ التهكُّم والعناد.

فأجابهم سبحانه بهذا الجواب الممزوج بالتوعُّد، فقال: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ قال الحسن ومجاهد[1] والـجُبّائي: أي: بعذاب الاستئصال إن لم يؤمنوا، ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ ﴾ أي: مُمْهَلين عن عذاب الاستئصال.

ثم قابل تهكُّمَهم هذا وما يَنْبعث عنه من التحرُّش به والسَّعي في تحطيم أمره بما يتضمَّن الوعدَ بنصره عليهم، ويُنوِّه بشأنه بأنه لم يكن كما سبقه من الكتب التي عُبث بها؛ لأنه سبحانه أراده كتاباً عالمياً خالداً إلىٰ يوم القيامة، فتكفَّل بحفظه من التحريف

(١) ذكره الطبري في «تفسيره» (١٧ : ٦٨).

والتبديل، باق علىٰ أصله إلىٰ يوم القيامة، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآن، فإنه يذكّر الناس بما يجب عليهم أن يعملوه ويعتقدوه، لِيَقُوا أنفسهم من النار وينالوا رحمةَ العزيز الغفار، وليحوزوا الراحة في الدنيا والسعادة في الأخرىٰ. أي: نحن نزَّلنا هذا القرآن علىٰ محمد ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[1]، وحِفظُه إنما يكون بصَوْنه عن التلاعب به، وبنُصرة من يقوم بتنفيذ الدعوة إليه. والسرُّ في هذا الحفظ: أنَّ القرآن نزل للتأبيد لا للتوقيت، كما هو شأنُ بقية الكتب السماوية، فلا يَعقُبُه كتاب آخر يعوِّض عنه، كما جرىٰ لبقية الكتب بعد تحريفها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

ثم أتىٰ بما ينهجه القرآن إثر بيان معارضة المشركين، من تثبيته ﷺ ضدَّهم، ووعده بالنصر عليهم، مُلْمعاً إلىٰ أنه ليس بِدْعاً من الرسل، فقد أرسل سبحانه رسلاً كثيرين في الأمم الغابرة، وقرن ذلك ببيان حال أمثاله من الرسل مع أممهم ليدعَمَ البرهان بالواقع، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ رسلاً ﴿فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي:

---

(١) ومن ذلك مَنَعَتُه اللفظية في عُلوِّ تأليفه، فلو أنَّ أحداً حاول أن يُدخِلَ عليه شيئاً من كلام الناس البلغاء أو النبيين، لاضْطَرَبَ نظامه، ونادىٰ الكلام الداخل بأنه داخل، وظهر كالخرزة التافهة بين الجواهر، ولنفاه القرآن بنفسه عن نفسه، كما ينفي الكير خبثَ الحديد. هذا من جهة لفظه، فكيف أمر المعنىٰ وما حواه من علوم وتوجيه وتثقيف إنساني عظيم ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢]، ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]. (المؤلف).

في الأمم الماضية، ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ كما استهزأ قومك وتهكّموا بك.

ثم بيّن سُنَّة الله العامة في هذه الناحية من طبيعة الإنسان، إيذاناً بأنه ليس عجزاً في القدرة ولا قَسْراً للإرادة، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: كما أدخلنا التكذيب في قلوب أولئك الكافرين ـ بحَسَبِ سنّتنا في تكوين طبيعة الإنسان العامة، وهي أنَّ مَنْ تشبَّع منهم بالكفر والضلال، يُكذِّبُ الرسل ويتهكَّم بهم ـ نُدخِلُ التكذيب أيضاً و﴿نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ﴾ هؤلاء ﴿ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ من كفار مكة، بهذه السُّنّة العامة في طبيعة البشر، حتىٰ إنهم ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بـهذا القرآن ويكذبونه. وذلك حسب سنة الله في انطباعات الإنسان إذا وصل إلىٰ سمعه قولٌ مخالفٌ لِـمَا هو دين له قد انطبع عليه، فإنه يفاجئه بالتكذيب ولا يتدبره ولا يراه جديراً بالعناية والتفكير، ﴿وَ﴾ بهذا ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾، وهؤلاء مِثلُهم.

ويجوز أن تكون هذه الجملة للتهديد. والمعنىٰ: وقد مضت سنة الأولين في تعذيب الله المكذِّبين لأنبيائهم بعذاب الاستئصال، ونصيبُ هؤلاء مِثلُ نصيب مَنْ مضىٰ من أمثالهم. وقد جرىٰ ذلك في وقعة بدر، حيث استأصلت الرؤساءَ منهم والخطرين.

ثم أجابهم عن قولهم: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ بجواب آخر بيّن فيه تصلُّبهم في الباطل وانطباعهم علىٰ العِناد، فلا يؤمنون مهما رأوا من الآيات البيِّنات، فقال: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي: يصعدون ويرَوْنَ ما فيها من العجائب عِـياناً؛ ﴿ لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾ أي: سُدَّت عن الإحساس، ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ أي: يُخيَّل إلينا ذلك، وليس بحقيقة. والمعنىٰ: أنهم إن ظهر لهم الحقُّ أعرضوا عنه عَمْداً، وموَّهوه وأوّلوه مُغَالين في العِناد والشك في الحقِّ

الواضح. وهكذا يكون كل من تشبَّع بالضلال وانطبع عليه، فإنه تتيه نفسُه في مَتَاهَات الشكوك، وتَحَارُ في مَحَارات الشُّبَه، ويُحَالُ بينها وبين أنوار الحق الواضحة، وتلتمس التأويلات لطمْس الحقِّ وإخفائه.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ
شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا
فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ
﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ
لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ
وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وبعد أن بيَّن عِنادَهم وإصرارَهم علىٰ الشِّرك، تمجَّد سبحانه باختصاصه بأفعال الألوهية، وألمع إلىٰ إثبات قدرته علىٰ ما يقترحون من الآيات، ببيان الواقع من قدرته في خَلْق الأرض وما فيها وخَلْق السماوات، وأومأ إلىٰ إبطال وتكذيب ما يضلِّلُ به الكَهَنَةُ هؤلاء المشركين من أنهم يعلمون أمور السماء بواسطة الجنِّ، ولم يذكروا شيئاً عن رسالة محمد والوحي إليه بهذا القرآن؛ أومأ إلىٰ إبطال ذلك بما يتضمن: أنَّ الجنَّ لا تعلم من أمر السماء شيئاً صحيحاً، فأدرج ذلك في دليل قدرته الدالِّ علىٰ استحقاقه واختصاصه بالألوهية، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي: مخلوقاتٍ وأجراماً عظيمـة، ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا﴾ أي: بالشُّـهُب ﴿مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾. قال الـجُبَّائي وأبو مسلم: أي: مرجوم مرمي بالشهب.

ثم استثنىٰ من ذلك الحفظ محاولةً فاشلةً لهم، فقال: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ

﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: واضح. والتعبير بالاستراق يُؤْذِن بأنه لم يفهم من ذلك ما يعلم به شيئاً.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما النبي ﷺ جالساً في نفر من أصحابه إذ رُمي بنجم فاستنار، فقال: ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا حَدَث مثل هذا؟ قالوا: كنا نقول: يولَدُ عظيم أو يموت عظيم. قال عليه الصلاة والسلام: فإنها لا تُرمىٰ لموت أحد ولا لحياته، لكن ربنا تعالىٰ إذا قضىٰ الأمر في السماء سبَّحت حَمَلة العرش، ثم سبَّح أهل السماء، وسبَّح أهل كلِّ سماء حتىٰ ينتهي التسبيح إلىٰ هذه السماء، ويستخبر أهلُ السماء أهلَ العرش: ماذا قال ربكم؟ فيُخبِرونهم، ولا يزال ذلك الخبر من سماء إلىٰ سماء إلىٰ أن ينتهي الخبر إلىٰ هذه السماء، ويتخطَّف الجن فيُرمَوْنَ»[1].

أقول: وذلك من عذاب الدنيا لِـمَرَدَة الجنِّ وكفارهم. ولا منافاة بين هذا وبين أنها من الأمور الطبيعية وتحدث بأسباب طبيعية، لأنَّ الله تعالىٰ له في كل أمر طبيعي حِكَمٌ بالغة منوَّعة لا تَـتَناهىٰ، وربَّما وفَّق سبحانه بين ظهور بعض تلك الظواهر الطبيعية والحوادث العرضية توفيق أقدار لأقدار، فيكون رَجْمُ الشياطين بهذه الشهب من بعض حِكَم هذه الظاهرة الطبيعية، وليس هو كل ذلك، ولا هو الغرض الوحيد منها. ومن خصائص القرآن والسنة إذا جاء الكلام فيهما عن الأمور الطبيعية أو الحقائق العلمية: لا يجري البحث إلا من ناحية خاصَّة تتعلق بالإنسان في ثقافته الدينية وأحواله الروحية، ولا يبحث عن حقيقتها وذاتياتها.

وفي تكوُّن هذه الشهب نظريتان:

الأولىٰ: أنها قطع تنفصل من النجوم مطلقاً، أو من المحطمة منها، ولا تزال تائهة

---

(١) رواه مسلم (٢٢٢٩)، عن ابن عباس، عن رجل من الأنصار.

في الفضاء، حتىٰ إذا مرَّت بهواء الأرض، وكانت من المواد المشتعلة التهبت، وقد تبقىٰ منها بقية تسقط علىٰ الأرض بعد أن تنطفئ فتُسمَّىٰ نيزكاً. وفي دُورِ الآثار كثيرٌ منها.

والثانية: أنها قطع تنفصل من حلقات تدور حول الشمس مكوَّنة من قطعٍ صغيرة الحجم، وهذه الحلقات مختلفة الميل علىٰ دائرة البروج، فإذا قربت منها الأرض جَذَبت بعضَ تلك القطع، فتسقط عليها. فإذا كانت من المواد المشتعلة تلتهب إذا مرَّت بكرة الهواء.

وبعد أن ذكر دلائل قدرته في السماء، ذكر دلائل قدرته وحكمته في الأرض، فقال: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ أي: وسَّعناها لتقوم بحاجيات الإنسان، ومهَّدناها ليتمكَّن من الاستفادة منها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ لتحفظها من المَيَلان والمَيَدان أثناء الدوران حَوْل نفسها وحول الشمس، والله أعلم. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ أي: مقدَّر معلوم في نِسَبِ أجزائه وتراكيب موادِّه بحسب الحِكَم البالغة في طبيعته، فإذا اختلَّت تلك الموازنة فسد الشيء أو استحال إلىٰ شيء آخر. ويعلم هذا العِلمَ المتخصِّصون بعلوم الطبيعة والنبات.

ثم تابع البيان ومَزَجه بالامتنان، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ من زروع وفواكه. وقوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ معطوف علىٰ ﴿مَعَٰيِشَ ﴾ أو علىٰ ضمير ﴿لَكُمْ ﴾، والمعنىٰ علىٰ الأول: جعلنا لكم فيها معايش وخَوَلاً[1] وأنعاماً، الله يرزقها وإياكم. والمعنىٰ علىٰ الثاني: أعشناكم منها أنتم ومَنْ لستم له برازقين من عيالكم وخدمكم ومن دوابِّكم وأنعامكم. فالآية تحسيسٌ لعظيم صُنع الله ومنَّته فينا وفيما نملك من حيوان وإنسان. والوصف في قوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ للزيادة في التحسيس والتمنُّن بالنِّعَم.

---

(١) هم: حَشَمُ الرجل وأتباعه، ويقع على العبد والأمة. «لسان العرب» (خول).

ثم أردف الخاصَّ بالعام الكلي علىٰ وجه التعليل، فقال: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة، ويستدعيه الإتقان والإحكام. وقد استعار «الخزائن» للقدرة البالغة علىٰ إيجاد الأشياء، أو للنظام والأسباب الطبيعية الـمُوجِدَة لها مباشرة. وعبَّر بالإنزال لأنه يأتي بمعنىٰ الإيجاد والإعطاء.

ثم ذكر من دلائل قدرته العظيمة وخصائص الألوهية، نعمةَ نظام تكوُّن المطر العجيب، واقترانه بالحكمة البالغة والقدر المعلوم، فقال: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ وذلك من بدائع الكون، حيث تهبُّ الرياح الجافَّة مارَّة بالبحار، فتتلقَّح ببخار الماء، وترتفع إلىٰ طبقات الجو الباردة، فتنقلب ماء، ومتىٰ انقلب نزل سحاباً، ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ وهو من نِعَم الله العظيمة العميمة؛ إذ لولاه لَـمَا عاش مخلوق، ثم زاد في التحسيس بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾، ولكنه من خزائن الله، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. وقد تحقَّق في العلم الطبيعي أنَّ الهواء القريب من سطوح البحار وغيرها عندما يسخن بتأثير الحرارة يرتفع في الجوِّ ويبرد لوصوله إلىٰ منطقة باردة، أو لامتزاجه بتيار الهواء البارد، فإذا بَرد تكاثف فيه بخار الماء وتكوَّن السحاب، وسار مدفوعاً بقوة الهواء. ويتراوح بُعْدُه عن الأرض بين ميل وعشرة أميال، حتىٰ إن سكان الجبال الشاهقة يحاذونه، وقد يكون دونهم أحياناً.

وقيل في معنىٰ ﴿لَوَٰقِحَ﴾: أنه يتناول تلقيح الرياح للنبات والأشجار، وذلك بنقل مادة التلقيح من الذكر إلىٰ الأنثىٰ. فيكون لفظ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ علىٰ المعنىٰ الأولىٰ بمعنىٰ: حَوَامل، من الفعل اللازم، لأنَّ لاقح بمعنىٰ: حامل، من قولهم: لَقِحَت الناقة؛ إذا حملت. وعلىٰ الثاني: من قولهم: لقحت النخل؛ أي: أُبِّرَت بلقاح النخل، ولا يَبعُد أن يُراد بها المعنيان، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم تابع دلائل المنّة والقدرة علىٰ إيجاد النِّعم بإيجادنا من العَدَم، وألمع بالإحياء الأول إلىٰ القدرة علىٰ الثاني، فقال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾، فيفنىٰ كلُّ شيء، ويبقىٰ وَجْهُ ربِّك ذي الجلال والإكرام.

ثم تابع السياق بقدرته علىٰ الإحصاء فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: مَنْ كان ومن سيكون، فأحصينا العَدَد، ولم يغب عنا منكم أحد، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ العظيم القدرة الواسع العلم ﴿هُوَ﴾ الذي ﴿يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾، فإحصاؤهم وحَشْرُهم من مُتعلّق علمه وحكمته وقدرته.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم أردف السياق المتعلّق بأنواع من قدرة الله البالغة، ببيان قدرته تعالىٰ في بداعة خَلْقِ الإنسان، وكونه مُستعداً للخير بسلامة فطرته، وللشرِّ بإفساده لطبيعته، فيغوي ويضل. أردفه به تلميحاً إلىٰ أنَّ هؤلاء المشركين قد وقعوا في هذا الفساد والغَواية، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾، والصلصال: الطين اليابس الذي يُسمع له عند النَّقْر صَلْصَلَة، أي: صوت طنين. ويجوز أن يكون الصَّلصال بمعنىٰ: الخالص المُصَفَّىٰ، مِنْ: صَلَّ الشراب؛ إذا صفَّاه، والله أعلم. والحمأ: الطين الذي يَسْوَدُّ من طول مُجاورة الماء. والمسنون: المصبوب[1]، كأنه أُفرغ حتىٰ صار صُورة، كما يُصَبُّ الذهب والفضة ويُصوَّر. فهذه الصفات الثلاث صفات الطين الذي خُلق منه أصل الإنسان، وفيها إشارة إلىٰ الأدوار التي مرَّ فيها جسمه من هذا الطين حتىٰ تكامل. والله أعلم.

---

(١) ومن معانيه: المصقول المُمَلَّس.

ثم قارن بين خِلقة الإنسان وخِلقة الجان، تكميلاً للبيان، فقال: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل خَلْق الإنسان ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ أي: النار الملتهبة. وفي الكلام إشعارٌ ببرودة مادة الإنسان وحرارة مادة الجانِّ، وأن وجودها قبل وجوده.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾.

ثم ذكر بعد هذا البيان قصَّةَ آدم والشيطان، الدالة علىٰ استعداد الإنسان للغَواية، إيذاناً بأن هؤلاء المشركين قد غَوَوْا وضَلُّوا بغَواية الشيطان، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ سُجودَ تحيَّةٍ وإكرام. وإضافةُ الروح إلىٰ الله سبحانه من نوع إضافة الـمُلْك، مثل: كتابي ومصباحي وأثاثي. وكما يقول صاحب معمل الفخّار مثلاً: بُنِيَ هذا الدار بفخّاري، يتمجَّد بذلك. والغرض من هذه الإضافة: التكريم لهذا النوع من مخلوقات الله، أو لأنه أكثر المخلوقات وجوداً، وهو الروح الذي خصَّ به النوع الإنساني بعد الجنِّ والـمَلَك.

أما التسوية فقد قال حجة الإسلام الغزالي: التسوية: فِعلُ المحلِّ القابل للروح، وهو الطين في حقِّ آدم، والنطفة في حق أولاده، بالتصفية وتعديل المزاج. فإنه كما لا تقبل النار يابساً محضاً كالتراب والحجر، ولا رطباً محضاً كالماء والعسل، وإنما تتعلق

بمركب خاص، كأن يتردَّد الطين الكثيف في أطوار الخليقة حتىٰ يصير نباتاً فييبس، فتتشبَّث به النار. كذلك الروح لا تـتشبَّث بالطين، إلا بعد أن يُنْشئه الله خلقاً من بعد خلق في أطوارٍ متعاقبة، حتىٰ يصير صالحاً لذلك. وهذا في حقِّ آدم. أما في حق أولاده: فحتىٰ يصير نباتاً، فيأكله الآدمي، فيصير دماً، فتَنْتَزِعُ منه القوةُ المركبةُ في كلِّ حيوان صَفْوَهُ الأقربَ إلىٰ الاعتدال، فيصير نطفة، فيقبلها الرحم، ويمتزج بها منيُّ المرأة، فتزداد اعتدالاً، ثم ينضجها الرحم بحرارته، فتزداد تناسباً، حتىٰ تنتهي في الصفاء واعتدال نسبة الأجزاء إلىٰ الغاية، فتستعد لقبول الروح، كالفتيلة التي تستعدّ عند شرب الدهن لقبول النّار. فإذا استعدت النطفة لذلك بعد أن استكملت أطوارها في الرحم وانتهت إلىٰ الغاية، نفخَ فيها الروح. ومثال ذلك: فيض نور الشمس علىٰ كلِّ قابل للاستنارة. انتهىٰ بتصرُّف.

وأقول: إن الإمام الغزالي لم يوضِّح الفرق في كلامه هذا بين الروح والحياة. ومَنْ تأمَّل في قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٢]، ولاحظ مخلوقاته تعالىٰ ملاحظةً دقيقةً، رأىٰ أنَّ الحياة غير الروح؛ رأىٰ أن الحياة أمر عام في سائر مخلوقات الله، فالحياةُ في الحيوان هي حالة ناتجة من الدورة الدموية فيه، ومُحرِّكها القلب، فما دام يتحرَّك فالجسم حيّ، ومتىٰ تعطَّل سكنت الدورة الدموية وماتَ الجسم. والحياةُ في النبات ناجمة من الدورة المائية، تمتصُّها العروق من الأرض وتبعثها للجِذْع، فيبعثها للغصون، فللأوراق والثمر، وكلُّ جزء لا يصله شيء من ذلك الماء يموت، وإذا تعطَّلت العروق ماتت الشجرة، والله أعلم.

أما الروح فإنه غير ذلك الأمر، ومظهره في عالم الظهور والشهود النوع الإنساني، فإنه اختصَّ بهذه الروح عن سائر مخلوقات الله الـمُشاهَدة وامتاز بها، فكان له من الإدراك ما لا ينتهي عند حدّ. وعلىٰ هذا الإدراك مدارُ التكليف الذي اختُصَّ به الإنسان

من بين عالم الشهود، وجمع بواسطته بين الحياتين الأولىٰ والثانية. إذ الروح هي المختصَّة بالبقاء، وتنتقل من الحياة الدنيا إلىٰ الحياة الأخرىٰ في سَعَادة أو شقاء، والجسم تَبَعٌ لها لأنه غلافها وإطارها في الحياتين، لا فيما بينهما من حياة البرزخ، لأنها تكون فيه مجرَّدة عن الجسم، بخلافها في الحياة الأخرىٰ، فإنها تتَّصل بجسم صالح للخلود. والله أعلم. ولعله أن يكون لطيفاً، والله أعلم. وينشأ هذا الجسم من نواة الحياة الباقية في جسم الإنسان بعد الموت، ويُعبِّر عنها الحديث بعجب الذَّنَب[1]. والله أعلم.

وتوضيح الفرق بين الحياة والروح: أنه سبحانه قال عن الحياة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٢]، فكلُّ مخلوق من مخلوقات الله تعالىٰ حائز علىٰ الحياة بهذه التسوية؛ لأن الحياة عرض ناتج منها، ومتىٰ اخْتَلَّت منه هذه التسوية خللاً كبيراً زالت منه الحياة، وبطل أثرها من نموّ أو حركة، وما يتبعها من الأعراض والأحوال.

انظر إلىٰ هذه النباتات علىٰ اختلاف أنواعها، تراها إذا عبثت بها عبثاً كبيراً، بقطعها أو تمزيقها أو تكسيرها، فَقَدت الحياة وذبلت وماتت. وهذه الفواكه والخَضِرُ مثلاً ما دامت متَّصلة بشجرتها علىٰ تسويتها فهي حيَّة نامية، فإذا قطعتَها من شجرتها كانت كالعضو المقطوع من الجسم، تبطل حياته المستمدّة من ذلك الجسم، فإذا مرَّ عليها زمن قليل، طَرَأ عليها الفساد والانحلال، وهكذا الحَبُّ والنَّوىٰ، يبقىٰ مُحتفظاً بحياته الكامنة فيه، ما دام باقياً علىٰ التسوية التي خلقه الله عليها، فيصلح للنَّبت متىٰ استوفىٰ الشروط الطبيعية لذلك، من التراب والماء والزمن الموافق، فإذا فقد تلك التَّسوية لعارض يعرض له من عبث الإنسان به أو الحيوان، كالكسر أو من السُّوس مثلاً، فقد الحياة وقوة النَّبْت.

وكذلك الحال في المعادن، فما دامت باقية التسوية في مناجمها داخل الأرض،

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥)، عن أبي هريرة.

تكون محتفظة بحياتها تنمو وتتزايد وتتكامل، فإذا قُطع جزء منها للاستعمال فقد ذلك الجزء الحياة والنماء.

أما الحيوان فالأمر فيه أظهر؛ يُحافظ علىٰ حياته التي بها حركته ونماؤه، وسعيه وركوده، ويقظته ورقوده، فإذا طرأ علىٰ جسمه خلل كبير بنتيجة مرض أو شبهه حتىٰ أوقف قلبه، فقد الحياة، وطرأ عليه الانحلال والفساد. فالحياة تكون في المخلوقات بأسْرها نتيجة تَسْويتها من جانب الله تعالىٰ في أصل خلقتها، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٢].

أما الروح فهو مخلوق عظيم من مخلوقاته تعالىٰ، لا يعلم كُنْهَهُ إلا الذي خلقه، ولذلك أضافه لنفسه تنويهاً بشأنه وتكريماً فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، فميَّزه بهذه الإضافة التكريمية من دون سائر المخلوقات. وهذه الإضافة علىٰ حدِّ قول القائل: أعطيناه من نفائسنا وتُحفنا. والتعبير بالنفخ عن خَلق الروح ـ والله أعلم ـ للإشعار بأنَّ الروح جسمٌ لطيفٌ خفيفٌ، وأنه مُستَقِلٌّ عن البدن لا يُمْتزج فيه، وأن البدن كالظرف والغلاف.

وروي عن الإمام مالك وغيره: أنَّ صورة الروح كصورة الجسد[١]، إلا أنها لطيفة. وعن جعفر الصادق: أنَّ الروح تبقىٰ علىٰ مثل قالبها في الدنيا، وعلىٰ صورة بدنها، لو رأيتها لقلت: فلان.

وعن الإمام مالك قال: بلغني أن الروح بعد الموت في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت[٢]. ومعنىٰ «في برزخ»: أنها محجوبة عنا، بحيث لا نراها للطافتها. والله أعلم.

---

(١) لم أجده إلا في «تفسير المنار» (٤: ٢٦٩).

(٢) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٤: ٤٩٧).

والروح لا يتَّصل إلا بالإنس والجن والـمَلَك، والله أعلم، كما قال تعالىٰ في خلقة آدم: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾، فالتسوية هي الحياة، والروح أمر آخر امتاز به الإنسان عن سائر الحيوانات المُشاهَدة، بإدراك لا ينتهي عند حدّ وعقل لا تُكِلُّه مُعْضلة، كما قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧]، أي: عن طريقة سائر الحيوان، ثم قال منوِّهاً وممتناً: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٨]، أي: طبعك بطبيعة لا تميل عن الهدىٰ إن لم تُفْسدها.

وتدلُّ صورة التعبير في قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩، صٓ: ٧٢] علىٰ أن جسم الإنسان إذا فَقَد تسويتَه التي بها الحياة لا يصلح أن يكون موضعاً لهذه الروح، والروح جسم لطيف لا عَرَضٌ كالحياة، وتبقىٰ بعد موت البدن في الفضاء في سعادة أو شقاء؛ تبعاً للاعتقاد والأعمال في الدنيا، حتىٰ إذا عاد البدن في الآخرة بعد النفخة الثانية اتَّصلت به الروح، ولا تخطئ جسدها، كما جاء في آيات: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. هذا ما أراه في الفرق بين الروح والحياة، والله أعلم بالصواب، فإن أصبتُ فالحمد لله، وإن أخطأتُ فأستغفر الله. ولا يعلم حقيقة الروح وكُنهها إلا الله.

وجاء في «تفسير الرازي» ما محصَّله: ومن الناس من يقول: الروح جسم لطيف لا يقبل التحلُّل والتمزُّق، فإذا تكوَّن البدن وتمَّ استعداده ـ أي: وهو المراد من قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ ـ نفذت فيه الروح نفاذ ماء الورد ـ أي: وهو المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ ـ ثم إنَّ البدن ما دام سليماً قابلاً لنفاذ الروح فيه يبقىٰ حياً، ومتىٰ فَقَد السلامة يعرض له الموت[1]. وإني أقول: إن الإنسان ما دام حياً تتَّصل به الروح، فإذا مات فارقَتْهُ، والله أعلم.

---

(١) «تفسير الرازي» (٢١: ٣٩٨).

ثم قال بعد ما نقل هذا الرأي: وهذا مذهب قويٌّ شريف يجب التأمل فيه، فإنه شديد المطابقة لِـمَا وَرَد في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت.

ثم قال بعد كلام طويل: وإن قوله تعالىٰ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] كلام صريح بأن النفس غير البدن، كما أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ تصريحٌ بالفرق بين البشريَّة والروح. انتهىٰ بتصرُّف.

والنفس هي الرُّوح من حيث اتصالُها بالبدن.

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان عن قصة آدم والشيطان: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ[1] ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾، وهذا النفيُ للشأن، أي: لا ينبغي لي. وهو منتهىٰ الكفر والعناد. ويجوز أن يكون هذا مفاد تأويله للأمر، زاعمـاً أنه لا يتناوله، وإنما يتناول غير فصيلته. فلعنه سبحانه و﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من جماعة الملائكة، أو من الجنَّة بعد وسوسته لآدم. وقال أبو مسلم: أي: من السماء، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي: مطرود، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ أي: الإبعاد والطرد ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾.

فلمـا سمع هذا الحكم الميئِّس من الآخرة، طلب التمتُّع في الدنيا و﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ أي: فأمهِلني وأخِّرْني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: يُحشرون للجزاء. وهذا استمهال يستلزم أن يبقىٰ حياً لا يموت أبداً؛ إذ هو طَلَبُ اتصال حياته الأولىٰ بالحياة الثانية التي هي بعد البعث للناس، فلم يُجبه الله إلىٰ ذلك، وإنما أجابه بما اقْتَضَتْهُ الحكمة

(١) والمعنىٰ: أيُّ عذر لك حملك علىٰ أن لا تكون ساجداً مع الساجدين من ملائكة الملأ الأعلىٰ، وقد تسلَّلت في صفوف الملائكة مترقياً، حتىٰ اعتبرتَ نفسك واحداً منهم.

البالغة، و﴿ قَالَ ﴾ له: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ وهو آخر أيام التكليف، أي: النفخة الأولىٰ التي يموت بها جميع الخلائق. وهذا هو المرويُّ عن ابن عباس(١). وقال الحسن والـجُبّائي وأبو مسلم: الوقتُ المعلوم: يوم القيامة(٢).

أقول: وذلك عند النفخة الأولىٰ أيضاً التي يَتَداعىٰ بها بناء هذا العالم ـ والله أعلم ـ ويتجرَّد آخر إنسان من هواجس الشيطان بعد انقضاء الدنيا.

وقيل: عند النفخة الثانية التي يقوم بها الناس من قبورهم، فأنظره الله في رفع العذاب عنه، وفي بقائه حياً إلىٰ ذلك اليوم، طبقاً للحكمة، وليس تحقيقاً لرغبته.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم بيَّن تعالىٰ مَدَىٰ تأثير إبليس علىٰ الإنسان العابث بسلامة فطرته، والمفسد لنور بصيرته، فقال حاكياً عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: لأُزَيِّـنَنَّ(٣) لهم المعاصي في الدنيا ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾، ونَسَبَ الإغواء إلىٰ الله باعتبار سُنَّته العامة في خلق الجنِّ والإنس، وهي أن من يُفسِدُ منهم طبيعته ويرسخ في التمرُّد والضلال يغوي ويفقد الاستعداد للطاعة والامتثال. كما يقال: لقد أعماه الله،

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٣٢٣٨).

(٢) ذكره الزركشي في «البحر المحيط» (٧: ٣٩٠)، عن الحسن البصري.

(٣) أي: لأُحَسِّنَنَّ لهم متاعاتهم من الحياة الدنيا تزييناً أُدلِّيهم به إلىٰ معصيتك ومخالفة أمرك، حتىٰ دَرَكة الكفر.

وما العمىٰ إلا مرضٌ طارئٌ من التقصير في قوانين حفظ الصحة للعين[١]. ونقول: أيبس الله هذه الشجرة، إذا يبست من أكل الجرذ لها مثلاً، وذلك لأنه سبحانه جعلها مستعدة لليبس من تلك الأسباب. وعلىٰ هذا يُنسَبُ الإضلال والإغواء إلىٰ الله. والسبب المباشر إنما هو من الضالِّ والغاوي نفسه.

وقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ تمثيلٌ وتصويرٌ لقوَّة إبليس وشدَّة تأثيرها، وتحذير عنها. ولكنها لا تؤثر بمن حافظ علىٰ نور بصيرته واستعداده الفطري لقبول الحق والإعراض عن الباطل. كما قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾[٢] وهم الذين حافظوا علىٰ سلامة فطرتهم المخلَصة، ولم يُفسِدوها بالتحريف والتخريب، فبقيت ناصعةً كما خلقها الله، تَقْبَلُ الحقَّ وتُعرِضُ عن الباطل، تعمل الخير وتتجنَّب الشر.

وفي قصة يوسف عليه السلام دليل واضح علىٰ ذلك، حيث لم تُـغْرِهِ المغريات لسلامة طبيعته من الفساد. فالإنسان مستعدٌّ للتحفُّظ من المُغْريات بنصُوع فطرته[٣]، وللوقوع فيها بإفساده لطبيعته وإتلافه لنور بصيرته. وقد مرَّ الكلام علىٰ مقاولة إبليس في سورة النساء وغيرها، فارجع إليه. وكذلك في لاحقة المقدِّمة الثانية.

وخلاصة ذلك: أنَّ هذه المحاورة مع إبليس قد تكرَّرت في القرآن المجيد بعبارات

(١) وقد يقع بقدر الله تعالىٰ علىٰ بعض الناس، دون تقصير في قوانين حفظ الصحة للعين. والأقرب في معنىٰ ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾: بسبب ما حكمت عليَّ به من الغَواية.

(٢) قرئ بفتح اللام، أي: الذين تستخلصهم وتَصْطفيهم فتعصمهم من الغَواية. وقرئ: (المخلِصين) بكسر اللام، أي: الذين يُخلِصون لك الإيمان والعمل، فأنت تحميهم من الغَواية بسبب إخلاصهم لك.

(٣) وبتوفيق الله له، وصدق التجائه إليه، كما قال سبحانه علىٰ لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ...﴾ [يوسف: ٣٣]، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ...﴾ [يوسف: ٣٤].

منـوَّعة، والمراد منها: أقوال الله التكوينية[1] التي يقول بمثـلها سبحانه عن تكوين المخلوقات وما خلقها الله عليه من الخصائص والمميزات. كما في قوله تعالىٰ عن خلق الأرض والسماوات: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلت: ١١]، فقد قالوا: ليس هناك أمرٌ بالقول علىٰ الحقيقة ولا جواب لذلك القول، ولكن الكلام علىٰ التَّمثيل[2]، يُبيِّن به سهولة ذلك عليه، وأنَّ خلقهما كان من غير تكليفٍ ولا مَشقَّة، وأنهما يقومان بما خصَّهما به من أعمال وآثار. وكذلك معنىٰ هذه المحاورة: أنَّ الشيطانَ أصبح بفساده هكذا مُغْوياً للبشر مُضِلاً لهم، وعليهم أن يحذروه بالمحافظة علىٰ سلامة فِطَرهم؛ إذ لا سلطان له علىٰ المخلصين. والله أعلم.

وقد نوَّه سبحانه وتعالىٰ بشأن هذا الإخلاص ومحافظة الفطرة و﴿ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ أي: إن هذا الإخلاص طريقُ مَنْ سـار فيه وصل ونجـا. ويجوز أن تكون هذه الجملة تمهيداً لما بعدها، أي: هذا طريق حق عليَّ أن أُحقِّقَه، وهو: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ الذين غَـوَوْا بإخلادهم إلىٰ الضلال، فأفسدوا طبيعتهم، وطمسوا نورَ بصيرتهم، وجمدوا علىٰ التقليد، وفقدوا استعداد النظر والتفكير. والتعبيرُ بالاتِّباع والغَواية للإيذان بأنَّ ذلك إنما كان بصنعهم.

والآية تُؤْذن بأن للشيطان قوة تضليليَّة تسويليَّة، تحُلُّ بالنفس المستعدَّة لها، كما ينجذب الميكروب إلىٰ الموضع الذي يجد فيه غذاؤه في الجسم الذي لا يحافظه صاحبه حسب السنـن الكونية الصحية، فيفرخ ويتكاثر حتىٰ يخرج ذلك الشيء عن أصله

(١) بل الصحيح أنها أقوال حقيقية جرت بين الله تعالى وإبليس، والظاهر أن ذلك كان بواسطة مَلَكٍ كجبريل عليه السلام.

(٢) بل الكلام هنا علىٰ الحقيقة أيضاً.

بالتحلُّل والتفسُّخ. فكذلك هذه القوة التسويلية المُغْوية، تعمل في النفوس المستعدة للغَواية مثل هذا العمل من التحلُّل والتفسخ. والله أعلم.

ثم ذكر مصير هؤلاء الغاوين المتَّبعين للشيطان، فقال: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾، فذكر الباب وأراد المحلَّ المختص به الذي يُدخَل منه إليه. أي: لكلٍّ من أقسامها قسمٌ وصنف منهم. ويظهر ذلك بحسب نوع ما اقترفوه من الذنوب فوق الشرك. والله أعلم.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

ثم قرن مصيرهم بمصير المتَّقين؛ تكميلاً للترهيب بالترغيب، وزيادةً في الاستفزاز والتنبيه، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾، ويُقالُ لهم عند دخولها: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ زيادةً في تكريمهم وتأنيسهم. وقرأ الحسن: (أُدْخِلوها) بصيغة الماضي المجهول.

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ أي: ما كان بينهم من حقد في دار الدنيا. وروي عن الحارث الأعور: أنه كان جالساً عند علي رضي الله عنه إذ دخل زكريا بن طلحة، فقال له عليٌّ: «مرحباً بك يا ابن أخي، والله إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالىٰ في حقِّهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾. فقال الحارث: كلا، بل الله أعدل من أن يجعلك وطلحة في مكان واحد، قال رضي الله عنه: فلمن هذه الآية، لا أُمَّ لك، يا أعور»[1].

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٨٢٧) بنحوه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩: ٢٠٩): رواه =

وكذلك لا يكون لديهم تحاسُد علىٰ درجات الجنة ومراتب القُرب والنعيم، لعلمه أنه دونه في الأسباب، وأنه أخذ حقَّه وافراً، ولا حقَّ له في مثل مرتبة صاحبه. ويكونون ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب، إذ ليس فيها ما يُوجبه من الكدّ، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ فهم فيها خالدون، ومن تمام النعمة هذا الخلود. اللهم اجعلني منهم يا أرحم الراحمين.

ثم أردف ما تقدَّم من البيان عن مصير الكافرين والمؤمنين بما يزيد في الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار، فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ بالمؤمنين، ﴿وَأَنَّ عَذَابِى﴾ للعصاة ﴿هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو يعلم المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنَّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد»[1]. وفي رواية: «العاصي» بدل «الكافر».

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

= الطبراني في «الأوسط»، والحارث ضعَّفه الجمهور، وقد وُثِّق، وبقية رجاله ثقات. وهذه الرواية ذكرها الرازي في «تفسيره» (١٩: ١٥٠).

(١) رواه مسلم (٢٧٥٥)، عن أبي هريرة.

ثم أيَّد هذا البيان بالواقع، فاستشهد عليه بقصة إبراهيم مع قومه، حيث غمر الله المحسنين منهم بإحسانه العميم، وأخذ المسيئين بالعذاب الأليم، وقد مزج مع ذلك تفصيل ما سبق في أول السورة من قوله: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨]، وجعله تمثيلاً له، فتنبَّـهْ إليه، حيث قال: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي: خائفون، وذلك لـمّا امتنعوا من أكل ما قرَّبه إليهم من العجل الحنيذ كما في سورة هود[1]، إذ من عادتهم أنَّ الضيف إذا قُـدِّم إليه الطعام فلم يأكل ظنُّوه جاءهم بمكروه، أو يريد الإيقاعَ بهم، كما هي العادة عند البدويين.

فلما قال لهم ذلك: ﴿ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ ﴾، وزادوا في إيناسه وطمأنته بقولهم: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ أي: يكون ذا شأن عظيم في العلم، إذا بلغ الرُّشْد. فعَلِم أنهم ملائكة، وفهم من فحوىٰ ما تستلزمه البشارة أنه باقٍ هو وأهله في عافية.

ولما سمع بهذه البشارة التي ملأت قلبه سروراً، ووافقت غرضه ومأموله، طَغَتْ عليه موجةٌ من الحرص الطبيعي علىٰ تحقُّق إنجازها وتحقيقها، فاستفهم عمَّـا يكون من أمر المانع الطبيعي، وهو الكِبَـر، وأخرج الاستفهام عن ذلك بصورة الاستبعاد والاستعظام، ليسمع من المبشِّر ما يكفُّ عنه تلك الخاطرة، ويخفِّف عنه ذلك الهاجس، علىٰ حدِّ قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، و﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ أي: بأيِّ أعجوبة تُبشِّروني؟! يستعظم عادةً أن يولَدَ له ولدٌ وهو بهذه السن.

وقد دفعه إلىٰ هذا الكلام شدَّة الحرص علىٰ أمر محبوب، ظهرت تباشير الطمع فيه، ليسمع ما يسـرُّه من تذليل عوائـقه الطبيعية التي يحسُّ بها، فأجابوه عن ذلك،

---

(١) في الآية ٦٩ منها.

و﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الذي لا بدَّ واقع، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾، ومادة القنوط تُؤْذن بأنه إنما استبعد ذلك، نظراً للسنَّة الطبيعية المعتادة. ولذلك لم يقولوا له: «فلا تكن من الممترين».

ويؤيِّد هذا ما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ عن كمال المعرفة بالله سبحانه وعَظَمة قُدرته البالغة. ويُؤْذِنُ هذا القول بأنه إنما قال ذلك بدافع الحِرص، لا بدافع اليأس والإنكار.

وبعد أن اطمأنَّ منهم عَلِمَ أنهم ملائكة مُرسَلون لأمر آخر فوق البشارة التي جاءت عَرَضاً ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أي: فما شأنكم الذي أُرسِلتُم به ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾؟ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ يعنون: قوم لوط، وعبَّروا بالوصف المُؤْذن بالعلَّة دون التصريح بهم، اكتفاء بما يأتي بعد، علىٰ طريقة إيجاز القرآن، وهو قوله: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: من الماضين في الهلاك.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ثم وصل بقصة إبراهيم قصَّةَ لوط، لأنها فرع منها وتتمَّة للبحث، وقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ﴾ لهم لوط: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: رَهِبَهم، وقال لهم: إنكم قومٌ يُخْشىٰ بأسُكم، ﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: قالوا له: لا بأس عليك هنا، وإنما جئنا أن نُنزِلَ بقومك ما كانوا يشكون فيه من نزول العذاب بهم.

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الذي لا مجال فيه للشك ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾، وهذا التأكيد فيه تمهيدٌ لِـمَا بعده أيضاً، وهو قولهم: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ أي: بطائفة منه. والمعنىٰ: سِرْ بأهلك بعدما يمضي أكثرُ الليل، ويبقىٰ قطعة منه، ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ أي: كُن وراء أهلك؛ لتكون عيناً عليهم وأمناً لنفوسهم، ولئلّا يتخلَّف أحدٌ منهم أو يتراخىٰ، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لئلّا يرىٰ العذاب فيَفْزَع ولا يحتمل قلبه ذلك. وهذا مرويٌّ عن الحسن وأبي مسلم، أو هو كنايةٌ عن مُواصلة السير السريع، وتهويلٌ للعذاب الواقع، أي: أسرِعوا ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ قال السُّدّي: أي: اذهبوا إلىٰ الموضع الذي أمركم الله بالذهاب إليه، وهو الشام.

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ ضمَّن ﴿قَضَيْنَآ ﴾ معنىٰ: أوحينا، أي: أوحَيْنا إليه أنْ قضينا ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ المفسَّر بقوله: ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: أوحينا إليه أنه لا يُصبح الصباح إلا وقد استأصلهم العذاب. قال أبو السعود: وإيثار اسم الإشارة في قوله: ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ علىٰ الضمير للدلالة علىٰ اتِّصافهم بصفاتهم القبيحة التي هي سبب هذا القضاء، والضمير لا يؤديه، أي: دابر هؤلاء المجرمين. وإيراد صيغة المفعول في قوله: ﴿ مَقْطُوعٌ ﴾ بدل صيغة المضارع؛ لكونها أبلغَ في الدلالة علىٰ الوقوع.

وفي لفظ القضاء، والتعبير عن العذاب بالأمر، والإشارة إليه بـ«ذلك»، وتأخيره عن الجارّ والمجرور، وإبهامه أولاً ثم تفسيره ثانياً: من الدلالة علىٰ هَوْل ذلك العذاب وفظاعته ما لا يخفىٰ[1].

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٥: ٨٤-٨٥).

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

ثم عاد وذكر ناحيةً أخرىٰ من القصَّة، وهي ما كان من قومه مع هؤلاء الضيوف، فقال: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: أهل مدينة سدوم، منزل قوم لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ بأضيافه عليه الصلاة والسلام طمعاً فيهم. والاستبشار: ما يظهر علىٰ البَشَرة من أثر الفرح.

ولـمّا رآهم لوط ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾، والضيف ـ حيث كان مصدراً في الأصل ـ أُطلِقَ علىٰ الواحد والمتعدِّد والمذكَّر والمؤنَّث، وإطلاقُه علىٰ الملائكة إنما هو بحسب اعتقاده عليه الصلاة والسلام قبل أن ينكشف له أمرهم، لكونهم في زيٍّ الضيف، ولا يَبعُدُ إطلاقُه عليهم لغة، والتأكيد لإظهار اعتنائه بشأنهم، ومراعاة حقوقهم وحمايتهم من السُّوء، وقد مهَّد به لقوله: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾﴾ عندهم بأن تتعرَّضوا لهم بسوء، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مباشرتكم لِـمَا يسوؤُني، ﴿وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ أي: لا تُذِلُّوني بالتعرُّض لمن أجَرْتُهم وأضَفْتُهم.

هذا ما قاله لهم وأنَّبهم به، ولكنهم لم يرتدعوا وأجابوه بكلِّ وقاحة و﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: عن التدخُّل في شؤون العالمين؛ يريدون بذلك أنفسهم، ويعنون التعرُّض لهم عن هذا الفعل، ومحاولة كفِّهم عن الناس.

فلما رأىٰ إصرارهم، وأن المعالجة بالتأنيب والتقريع والتعذُّر لا تُجْدي نفعاً بهؤلاء الأدنياء، أظهر لهم شدَّة امتعاضه من عملهم هذا وتجاوزهم عليه في ضيوفه، و﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾، وهذا كلام صادر عن أشدِّ الألم والامتعاض بأمرٍ يراه في منتهىٰ الفظاعة والشناعة، يُظهِرُ به لهؤلاء الأدنياء أنَّ طلبكم هذا أشدُّ فظاعة عليَّ

من هذا الأمر الشنيع، فيكون إنكاراً عليهم بأشنع وجوه الإنكار، ولا يُراد بمثل هذا الأسلوب المعنىٰ الحقيقي للتركيب. وذلك معروف في أساليب الخطاب، يقوله المتذمِّر لإظهار امتعاضه الشديد مما هو في درجته في الشناعة عنده أو أشد.

ويؤيِّد هذا المعنىٰ جوابُهم عنه وتنزيههم له الذي حكاه سبحانه في سورة هود بقوله: ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ [هود: ٧٩] أي: إننا نُنزِّهك عن ذلك، ونرفع من قدرك عما يشينك.

وقيل: بل إنَّ الكلام علىٰ الإرشاد، والمراد من البنات: نساء قومه، لأنَّ النبيَّ في قومه كالوالد. أي: كفُّوا عن فعلكم هذا واكتفوا بالنساء عن الذكران، فهو الموافق للفطرة، والمؤدِّي للغاية التي خُلِقْنَ لها، وهي بقاء انسل، بخلاف فعلكم هذا. وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس والحسن وقَتادة وغيرهم[1].

وقد نعىٰ عليهم سبحانه عدم اكتراثهم، بقوله: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾، والعَمَهُ: أقبح العمىٰ.

ثم حكىٰ صورة نزول العذاب بهم، فقال: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ أي: عند شروق الشمس، ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾، وقد مرَّ تفسير هذا في سورة هود[2]، فارجع إليه.

ويجوز أن يُراد بالصيحة: صياحهم من الفزع لِـمَا أصابهم من جرَّاء الرَّجْم بهذه الحجارة[3]، كما يقال: أخذه البكاء. والله أعلم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ١١٨).

(٢) في الآية ٨٢ منها.

(٣) هذا قولٌ ضعيف مردود، وإنما المراد: أخذت أرواحَهم من الحياة الدنيا صَيْحةٌ صوتيَّة عُظمىٰ بعد شروق الشمس.

ثم حضَّ علىٰ الاعتبار بهذه العبرة، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: المتفكِّرين المعتبرين.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: هذه القرىٰ التي جعلنا عاليَها سافلَها ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي: في طريق ثابت لم تندرس أيام التنزيل، وهي طريق قريش إلىٰ الشام، وهذه القرىٰ هي قرىٰ مدينة سدوم.

وفي كلمة ﴿مُّقِيمٍ﴾ مجاز عقليّ، لأنها في الحقيقة صفة لأطلال تلك القرىٰ، بمعنىٰ أنها باقية إلىٰ الآن، ولكنْ وُصِفَ بها السبيل، أي: الطريق، كما يقال: نهر جار، فيوصف بصفة الماء فيه، وليلة ساهرة، فتوصف الليلة بصفة المحبين لها، والمراد من قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾: أن أطلالها ظاهرة علىٰ هذا الطريق.

وعلىٰ القول بأنها دخلت في بحيرة لوط يكون الكلام باعتبار ما كان. ويجوز أن يراد البحيرة نفسها، وذلك من خصائص اللغة من ذكر المحلِّ وإرادة الحالِّ؛ مجاز مرسل. والله أعلم.

ثم ختم القصة بما يحضُّ علىٰ الاعتبار بها، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ الذين حافظوا علىٰ سلامة فِطَرهم ونور بصائرهم، فكانوا ينظرون الحقَّ بعين الحقِّ، ويبصرون الباطلَ ببصيرة صدقٍ، بخلاف المشركين الذين فقدوا سلامة فِطَرِهم ونور بصائرهم بالتمـادي في الباطل ورسوخهم علىٰ التقليد الأعمىٰ. فالمؤمنون هم الذين يعلمون أنَّ ما حاق بأولئك المعاندين من العذاب إنما كان لسوء صنيعهم، وأما غيرهم فيحملون ذلك علىٰ الاتِّفاق والمصادفات، والأوضاع الفلكية والعوامل الطبيعية، ولم يعلموا أنها موافقة أقدار لأقدار[1] من الله العزيز القهَّار، لتكون آية بيِّنة للنظر والاعتبار.

---

(١) بل بعضها موافقة أقدار لأقدار، وبعضها خوارقُ عادات غير جارية على مقتضى السنن الكونية، كما تقدَّم بيانُه في التعليق في مواضع. ينظر على سبيل المثال ص٢٣٢.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

ثم أردف قصة إبراهيم ولوط بقصَّة شعيب مع قومه لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾، والانتقام: من النقمة، وهي السطوة والعقوبة، ويستعمل في عُرْف التخاطب بمعنىٰ التشفِّي، وهو بهذا المعنىٰ مُحَال علىٰ الله، فليس بمراد. والأَيكة: الشجر المتكاثف. قال قتادة: وهم قوم شُعيب عليه السلام، وكانوا يسكنون الغيضة، وقد أرسله الله إليهم وإلىٰ أهل مدين فعَصَوا رسولهم، فهلك أصحاب الأيكة بالظلة التي احترقوا بنارها، وهلك أهل مدين بالصيحة، ﴿وَإِنَّهُمَا ﴾ أي: الأيكة ومَدْيَن ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ أي: لبطريق واضح، وهذا مِثْل قوله: ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، فما قيل هناك يُقال هاهنا.

وفي تثنية الضمير في ﴿ إِنَّهُمَا﴾ اكتفاءٌ وإشارة؛ حيث اكتفىٰ بتثنيته عن التصريح بأهل مدين أيضاً، وأشار إلىٰ أنه أُرسِلَ لهما معاً. وذُكِرَ في تثنية هذا الضمير وجه آخر، وهو أنه يعود إلىٰ مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الأيكة، وإنما كرَّر البيان فيه عن قوم لوط أثناء قصَّة شعيب زيادةً في التنبيه والتبصير، ولاشتراكهما في الوضوح والظهور ببقاء أطلالهما علىٰ الطريق الواضح والأثر الثابت.

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

ثم ذكر قصة ثمود لنفس الغرض، فقال: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ وهم ثمود، كانوا يسكنون الحِجْر، وهو وادٍ بين المدينة والشام. قال الـجُبّائي: بعث الله

إليهم رسلاً منهم صالح عليه السلام[١]، وقيل: لم يبعث إليهم إلا صالح، ولكنَّه أتىٰ بصيغة الجمع لإرادة الجنس، والجنس يصدق بواحد من أفراده، وقيل: إنما ذكر الجمع لأن من كذَّب رسولاً فقد كذّب جميع الرسل، لاتِّحاد الرسالات كلِّها في الطبيعة والأصول، فأراد بالجمع المبالغة في التأنيب.

ثم فصَّل البيان بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ التنزيليةَ، أو الكونيَّةَ كالناقة[٢]، أو كِلَيْهما، ﴿فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ وبها مكذِّبين.

ثم ذكر شيئاً من تفوُّقهم بالقوة والمدنيَّة علىٰ أهل مكة، تعظيماً للترهيب، فقال: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ من أن يصيبَها بلاء لمناعتها وحصانتها، فلم تُغْن عنهم شيئاً. أو بمعنىٰ: غافلين عن عذاب الله، ظانِّين أنَّ إنشاء هذه البيوت أو ما عندهم من العلم والصناعة يقيهم من كلِّ شيء.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: نـزل بهم العذاب صباحاً، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

ويجوز أن يكون معنىٰ ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾: يستخرجون منها الصخر لبناء البيوت.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ

---

(١) فالمراد بلفظ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: أنهم كذبوا عدداً من المرسلين، بعثهم الله إليهم، وأنَّ آخرهم صالح عليه السلام.

(٢) وهي آية إعجازية خارقة للسنة الكونية، كانت لإثبات صدق صالح في رسالته.

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

ثم أشار سبحانه إلىٰ أن أسباب إهلاك الأمم إنما هو مخالفتهم للحق، وسبك ذلك علىٰ إثبات الحشر، بمقتضىٰ خلق هذا الكون العظيم، الذي لا يجوِّز العقلُ أن يكون خلقه سُدىٰ، وعاد بالكلام إلىٰ محوره السابق عن المشركين الذين هدَّدهم بهذه القصص، مُلْمِعاً إلىٰ إثبات الحشر والحساب، وتوعدهم به تعقيباً للسياق بدليل القدرة، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات، ومنهم البشر، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: للغرض[1] الصحيح والأمر الحق، فلم يخلق الله البشر علىٰ وَجْهِ الأرض سُدىٰ، ولم يكن أمرهم هملاً، ولم يُرسل الرسل بما أرسله إليهم عَبَثاً، ولم يَعِدْهم بما وعدهم به من الثواب والعقاب باطلاً، كلا، ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ لا ريب فيها، فيُوَفَّون أجورهم يوم القيامة، ﴿فَاصْفَحِ﴾ الآن عنهم ﴿الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ الذي لا يضرُّ بنشر الدعوة وتعميم الإرشاد، وتحمل أذيَّتهم وعِنادهم حتىٰ يأتيَ أمر الله، ويديل الحق منهم ما يديل.

ثم علَّل ما تضمَّنه الكلام من أن خلق الإنسان علىٰ هذه الأرض وتكليفه بما كلَّفه به إنما هو بالحق والغرض الصحيح، وأن إعراض بعضه لم يكن عن عجز في القدرة،

---

(١) في التعبير بـ«الغرض» في حق الله تعالى نظر، فأفعالُ الله سبحانه لا تُعلَّل بالأغراض، وإنما يُبحَث فيها عن الحِكم، فلو قال: «للحكمة البالغة» لكان أحسن وأسلم.

وإنما هو بمقتضىٰ الحكمة والتدبير الصحيح، فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ أي: يعلم مَنْ خلق وما يصلح له وما يضمن له الكمالَ وصلاحَ الحال، فيضع الشرائع التي تكفل ذلك.

ثم نوَّه بشأن ما أنزله عليه ﷺ من الدين القيِّم الممتاز عن سائر الشرائع المنزلة، وجعل الكلام تتمياً لما قبله وتمهيداً لما بعده، وتمجيداً للقرآن، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ يجوز أن يُراد بها بعض مواضيع القرآن، والقرآن كله كما قال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾[1] [الزمر: ٢٣]. وعلىٰ هذا تكون كلمة ﴿سَبْعًا﴾ للتكثير لا للتحديد[2]. بمعنىٰ: أن الأخبار والبيانات والبراهين والقصص والمواعظ يكثر تكرارها فيه بأساليب منوَّعة، للإشارة إلىٰ وجوهٍ وعِبَرٍ مختلفة، ولا سيما أسس الدين الثلاثة: التوحيد، والرسالة، واليوم الآخر، فإنها تكرر بكثرة لأهميتها؛ إذ من نهج القرآن تلوينُ الكلام عن الغرض الواحد المهم بأساليب منوَّعة، زيادة في تقريره وتحليله وتفصيله، ويكون عطف القرآن عليها في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ من عطف الكلِّ علىٰ

(١) المثاني: جمع «مَثناة»، وهي الطيَّة الواحدة التي تُثنىٰ، وُصف القرآن بأنه مثاني؛ لأنه كتابٌ متشابه في الحسن والكمال، ولأنه تظهر في السطوح المقروءة من مثانيه جملٌ وكلمات، وتوجد مطوياتٌ داخل المثاني تُستخرج بالتأمل الدقيق، وبالاستنباط العميق، ضمن ضوابط الفكر وقواعد الاستعمال اللغوي وأماراته، إما عن طريق الحقيقة، أو عن طريق المجاز.

(٢) بل المراد بالسبع المثاني: سورة الفاتحة، إذ هي جامعة لكليات كبرىٰ هي بمثابة عنوانات عامات للدين الذي اصْطفاه الله عز وجل لعباده. وقد صحّ عن الرسول ﷺ أن الفاتحة هي السبع المثاني وهي القرآن العظيم. فلا عدول عن هذا الذي صحَّ عن الرسول ﷺ. روىٰ البخاري (٤٤٧٤) من حديث أبي سعيد بن المعلىٰ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أُوتيته».

الجزء إن أُريدَ بالمثاني المكرَّر منه فقط، أو من عطف أحد الوصفين علىٰ الآخر إن أُريدَ بها القرآن كلُّه، والله أعلم.

وبعد أن ذكَّره بهذه النعمة التي لا يماثلها شيء، زهَّده في زخارف الدنيا التي أفاضها علىٰ المعاندين له والمعارضين لـما نزل عليه، لتكون الدنيا من حظِّهم والآخرة من حظِّه، وهو أمرٌ يوافق ما في نفسه ﷺ، ولكنه جاء النهي لمجرَّد المبالغة في التهييج، فقال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من الكفار، ويجوز أن يتعلق بـ﴿مَتَّعْنَا﴾، أي: لا تمدنَّ عينيك إلىٰ ما متَّعنا به بعض هؤلاء الكفَّار من أصناف النِّعَم والأنعام والأموال والأولاد، فإنها مُسْتَحقَرة بالإضافة إلىٰ ما أُوتيتَه من نعمة القرآن، كأنه قيل: إنك أُوتيتَ هذا القرآن العظيم الذي كلُّ شيء غيره لا شيء، فلا تَشْغَل سرَّك وخاطرك بالالتفات إلىٰ زخارف الدنيا الحقيرة التي متَّعنا بعضهم بها. وهذا ليس علىٰ ظاهره؛ لأنه ﷺ لا تمتدّ عينه إلىٰ ذلك، ولكنه إما لشدَّة البيان عن زهادة زخارف هذه الحياة، وإما نهيٌ للأمة في شخص النبيِّ ﷺ، وذلك علىٰ نهج القرآن في أساليبه، (كما جاء في الفقرة (أ) من المادة السادسة عشرة من المقدمة الثانية).

ويجوز أن يكون ما كان عليه المسلمون من الفقر والعوز نتيجةَ مقاطعة المشركين لـهم، وهجرتهم عن ديارهم وأملاكهم. وما كان عليه الكفار من التموُّل والغنىٰ، والحروبُ تحتاج إلىٰ الأموال؛ كلُّ ذلك كان يحزُّ في نفسه ﷺ، فوَعظه مع أتباعه سبحانه وتعالىٰ وهوَّن عليه.

وبعد أن نهاه عن الالتفات إلىٰ أموالهم، نهاه عن الاهتمام بأمرهم وحزنه عليهم إن لم يؤمنوا، وأمره أن يهتمَّ بأمر المؤمنين، فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إن لم يؤمنوا، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: تواضَعْ لهم، وارفق بهم، وأَلِنْ جانبَكَ معهم.

﴿وَقُلْ﴾ للمشركين المعاندين: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ لكم بعذاب شديد، مثَّل له سبحانه بقوله: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ [1] ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾[2] أي: إني نذير لكم بمثل ما نزل علىٰ المقتسمين من العذاب.

وقد اختلفوا في المقتسمين، فقيل: هم اليهود، فرَّقوا القرآن وجعلوه أعضاء كأعضاء الجَزُور التي يقتسمونها بالميسر أقساماً، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، آمنوا بما وافق دينهم وكفروا بما خالف دينهم، وأكثروا فيه المشاغبات، مثل تحويل القبلة عن بيت المقدس، وحِلِّ بعض اللحوم المحرَّمة عليهم، وغير ذلك. والمراد من العذاب الذي نَزَل بهم: ما جَرَىٰ علىٰ بني قريظة والنضير من التقتيل والتشريد.

فإن قيل: هذه السورة مكية، وحادثة بني قريظة والنضير إنما كانت في المدينة؟ قلنا: إنه جعل المتوقَّع الثابت في علم الله كالواقع. ومثل ذلك من خصائص القرآن، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقيل: بل المراد من القرآن ما يُقرَأُ من سائر الكتب الإلهية، وتُؤْخذ منه التعاليم والأحكام. والمراد من الاقتسام: الإيمان ببعض تعاليمها والكفر بالبعض الآخر، أو العمل ببعضها وترك بعض. ومن ذلك: جَعْلُ اليهودِ التوراةَ قراطيس يُبْدون بعضها ويُخفون كثيراً. والمراد من العذاب: ما جرىٰ عليهم من التقتيل والتشريد علىٰ يد بُخْتَنَصَّر وسنحاريب وغيرهما.

وقيل: بل المراد من المقتسمين: هم الذين اقتسموا طُرق مكة يصدُّون الناس عن

---

(١) يجوز أن يتعلَّق قوله: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا﴾ بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾، ويجوز أن يتعلَّق بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾، ويجوز أن يتعلَّق بقوله: ﴿أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) عضين: جمع «عِضَة»، وهي القطعة، جُمِعَ جمعَ المذكر السالم علىٰ خلاف القياس.

رسول الله ﷺ وعن الإيمان به، وكانوا ستة عشر رجلاً، بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم لمن أتىٰ مكة، يقولون لهم: لا تغترُّوا بهذا الخارج منا والمدَّعي النبوة، وقد جعلوا القرآن عضين، أي: جزَّؤوه أجزاء، ووصفوا كلَّ جزء بصفة. فقالوا عن بعضه: سحر، وقالوا عن بعضه: أساطير الأولين، وقالوا عن بعضه: مُفْترىٰ. فأنزل الله بهم عذاباً، فماتوا شرَّ ميتة. وقيل: قُتِلُوا ببدر شرَّ قتلة.

وقال بعض المفسرين: إن قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ متعلِّق بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أي: آتيناك وأنزلنا عليك كما أنزلنا علىٰ أهل الكتاب هؤلاء الذين جعلوا توراتَهم قراطيسَ يُبْدونها ويخفون كثيراً، أو قسموا القرآن إلىٰ أقسام، فما وافق كتابهم قبلوه، وما خالفه لم يقبلوه.

فهدَّدهم سبحانه بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ في موقف الحساب يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ في الحياة الدنيا.

ثم أمر النبي ﷺ أن يدأب بالقيام علىٰ العمل فيما كُلِّف به وأُسنِد إليه، ولا يلتفت إلىٰ اتِّفاقهم مع المشركين ومضادَّتهم ومعارضتهم، ولا يهتمَّ لهم، فقال: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ به من الدعوة إلىٰ هذا القرآن، أي: اجهر بالدعوة إلىٰ دين الله، واهدم بمِعوَل الحقِّ الذي أُوحي به إليك ما بَنَوْهُ وبَنَاه آباؤهم من الباطل، غير خائف ولا وَجِل، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ إذا آذوك بالكلام.

ثم وعده بإهلاكهم، فقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: دفعنا عنك شرَّ استهزائهم ومعارضتهم. قال ابن عباس وسعيد بن جبير: وكانوا خمسة نفر من أشراف قريش: العاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، وأبو زَمْعَة الأسود ابن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس، فأهلكهم الله [1].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ١٥٤- ١٥٥).

وبعد أن أمره بالإعراض عنهم ذكر أهجن صفتهم، وهي الشرك، وتوعَّدهم عليه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: ما سينالهم من عذاب الآخرة فوق عذاب الدنيا.

ثم سلّاه وأرشده إلىٰ ما يجب أن يعالج به نفسه تجاه معارضتهم وشدَّة مواقفهم التي كانت تحزُّ في نفسه وتُحزنه حزناً أليماً، من جرَّاء ما يوجِّهون إليه من تُهم وتحدِّيات، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ من تكذيبك والاستهزاء بك والشرك بالله.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ونزِّهه عمَّا يقولون وتذكَّر نعمته عليك، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: من المصلِّين له، فأمره بالصلاة إذا ضاق صَدْرُه من معارضتهم بعد تذكُّر نعمة الله عليه بالنبوة، فإنَّ الصلاة تقوِّي العزم وتُجدِّد النشاط في نشر الدعوة، وتُربِّي الثبات في ذلك، لما فيها من مناجاة الله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وكان رسول الله ﷺ إذا حَزبه أمرٌ فَزَعَ إلىٰ الصلاة. ويقول لبلال: (أرِحْنا)»[1].

ثم أمره تعالىٰ أن يكرِّر هذا العلاج النفسي كلَّما ضاق صدره منهم، حتىٰ يتمَّ له النصر عليهم، فقال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ أي: حتىٰ تجد النصر عياناً، وتشاهد دخول الناس في هذا الدين أفواجاً. وقال ابن عباس[2] والحسن ومجاهد[3]: أن المراد: حتىٰ يأتيك الموت، إذ به تنكشف الأمور عياناً. والله أعلم.

---

(١) لم أجده عن ابن عباس، ورواه أحمد (٢٣٢٩٩)، وأبو ادود (١٣١٩)، عن حذيفة بلفظ: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلىٰ».

ورواه أحمد (٢٣٠٨٨)، وأبو داود (٤٩٨٥)، عن رجل من الصحابة.

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٩: ١٦٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ١٦٠).

سُورَةُ النَّحْلِ

مكية، غير ثلاث آيات في آخرها

وهي مئة وثمان وعشرون آية

والغرض منها:

- إنذار المشركين بالعذاب.
- وإبطال شركهم.
- ورد شبههم على القرآن والنبوة والبعث، وهي أمور متشابكة متلازمة.

وذُكِرَتْ بعد سورة الحجر؛ لأنَّ في آخر الحجر وعيداً للمستهزئين، وفي أول النحل: أتى الأمر وحان الحين.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ
بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ
فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا
تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ
إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ
وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا
جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ وهذا ردٌّ علىٰ استعجال الكفار للعذاب، استهزاءً به وتكذيباً له، ويشمل إنكارهم للقيامة والحساب. ويجوز أن يتناول الكلام استبطاء المؤمنين لعذاب الكفار، فيكون تثبيتاً لهم أيضاً. وقد جاء علىٰ طريقة التعبير عن المتوقَّع بلفظ الواقع، تحقيقاً له وتقريراً.

ولما كان استعجالهم للعذاب إنما هو من نتائج إشراكهم، أو هو هو، أردفه بالتنزيه، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١﴾﴾.

ثم ضمَّ التنزيه الذي يُدرَكُ بالعقل السليم والوجدان النزيه، ضمَّ إليه إنزال الرسل بالتوحيد، تَبْصرةً وذكرىٰ، فقال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ أي: بالشريعة

التي هي كالروح للبشر، لأن بها صلاحَ الروح وكمالَها وحفظَها من التردِّي والارتداد إلىٰ أسفل سافلين. فاللهُ سبحانه يوحي بهذه الشريعة ويُنزِلُها ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ ويختارهم للرسالة، لاختصاصهم بصفات تُؤهِّلهم لذلك. فيرسلهم للناس ويُوحي إليهم ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ الناسَ ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ ولا تشركوا بي شيئاً.

ثم ذكر ما يؤيِّد اختصاص الألوهية به، ويُحقِّق صحَّة وعده ووعيده بما له من القدرة البالغة، والنِّعم الزاهرة، والمِنَنِ العظيمة التي يكفرها الإنسان، ويُبَرهِنُ بعظمة الكون علىٰ ما يَعقُبُه من الكون الثاني المعبَّر عنه باليوم الآخر، فجعل الأول دليلاً علىٰ الثاني فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: للغرض الصحيح[1] والأمر الحقِّ، فلم يكن أمرهما هملاً ولم يخلقهما عبثاً، بل لمقاصد نبيلة وغايات جليلة، ففيه إشارة إجمالية إلىٰ أنَّ تكوين العالم وإبداع خِلْقةِ بني آدم شيءٌ له ما بعده في اليوم الآخر، يوم الدين والحساب والجزاء. فلم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ولم يشاركه أحد في خلقهما أبداً، ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ الله ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣﴾ ولم يَقْدُروا الله حقَّ قَدْره، فينكروا عليه القدرة علىٰ الحشر والحساب.

ثم أشفع السياق الداعي إلىٰ التوحيد والرامي إلىٰ الإنذار بالحشر والحياة الثانية التي ينكرونها؛ أشفعه بما يؤيِّدهما من دلائل القدرة والمنَّة وأفعال الألوهية. وابتدأ ذلك بما يتضمَّن التأنيب والتقريع لهذا الإنسان الذي لا يعرف نفسه، ولا يقدر نعمة الله عليه وقدرته البالغة، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤﴾، وهذه الآية ذات وجهين:

الأول: أن الله سبحانه منَّ علىٰ هذا الإنسان بهذه المنَّة العظمىٰ، وهي القدرة علىٰ

---

(١) الأحسن أن يقال: «للحكمة الصحيحة» كما سلف التعليقُ عليه (١: ١٠٢).

البيان والتفكير، فأساء التصرُّف بها، حتىٰ عارض تعاليمَ الله وخاصَمَ رسله إليه. ومن هذا الوجه يكون فيها إسنادُ ما للبعض إلىٰ الكلِّ، وذلك من خصائص اللغة.

والثاني: بيان قدرة الله تعالىٰ في تكوين هذا الإنسان، كيف يخلقه من ماءٍ مَهين، فلا يزال يتطوَّر حتىٰ يصبح من القدرة علىٰ البيان بهذه المَثابة العظيمة. وجعل ذلك دليلاً واضحاً علىٰ قدرته سبحانه علىٰ الحشْر والحساب. ومُحَصَّلُه: أنَّ هذه القدرة البالغة التي جعلت من الماء المهين بشراً ناطقاً خصيماً، كيف تعجز عن إعادته بعد الموت بشراً سوياً، وكان يكفيه ما فيه أن يكون له دليلاً علىٰ قدرة الله واختصاصه بالألوهية لو كانوا يعلمون.

ثم تابع دليل القدرة بدليل المنَّة؛ تحقيقاً لاختصاصه بالألوهية، وتبكيتاً للمشركين علىٰ مقابلة النِّعَم بالكفران، فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: ما تستدفئون به من الأكسية والأردية وغيرها من المعمولات الصوفية، ﴿وَ﴾ لكم فيها ﴿مَنَـٰفِعُ﴾ أخرىٰ من درِّها ونتاجها وغير ذلك، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ أي: من لحومها.

وإنما غيَّر النّظم للإيماء إلىٰ عظمة المنَّة، حيث إنها لا تبقىٰ عند الأكل منها، كما في الأمر السابق واللاحق الـمُبيَّن بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: زينة في أعين الناس ومباهاة ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: حين تردُّونها من مَراعيها إلىٰ مَرَاحِها عند بيوتكم بالعشي، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ أي: حين تُخرجونها بالغَدَاة من حظائرها إلىٰ مسارحها، ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾، وهذه العبارة من أبلغ التصوير للبُعد العظيم الشاقِّ الوصول، أي: تحمل أثقالكم إلىٰ المسافات البعيدة جداً، ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ يُمهلُ المعارضين، ويُسبغُ عليكم هذه النِّعَمَ الجليلة، ويُيسِّر لكم الأمور الشاقَّة.

﴿وَ﴾ كذلك خلق لكم ﴿الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أي: وتتزيَّنون بها ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾، وفي هذا تنبيهٌ إلىٰ ما في الكون من عَظَائم المخلوقات التي لا يعرف عنها الإنسان إلا قليلاً، وإذا عثر علىٰ شيءٍ منها يسمّي ذلك اكتشافاً جليلاً، فتبارك الله أحسن الخالقين، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وألمعت الآية إلىٰ كلِّ ما حَدَث ويحدث للإنسان من اكتشاف الآلات والوسائل للمسافات البعيدة وحَمْل الأثقال.

وبعد أن ألمع سبحانه أنه يُنزِلُ الروح من أمره لتوجيه الإنسان إلىٰ سبيل الرشاد، وامتنَّ بما سهَّل له من وسائل النقل المادية في الأسفار والتقلُّبات، عَقَّب ذلك بأن من رحمته تعبيدَ السُّبُل ولا سيما الروحيَّة، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: عليه سبحانه تقويم الطريق المادي والمعنوي وتمهيده، وقد فعل ذلك في سبيل هداية الإنسان بأمرين: بسنة الطبيعة، وبوحي الشريعة. فقد خَلَق الإنسان مُلْهَماً بالتمييز بين الفجور والتقوىٰ، ومُستعداً لمعرفة الحقِّ بعقله إن التفت إلىٰ آثار الله في هذا الكون، فللّه الحجَّة البالغة علىٰ الناس إذا انحرفوا وحادوا عن الطريق القويم الذي مهَّده لهم، ولا حُجَّة لهم عليه.

ثم قابل السبيل القَصْدَ الذي مهَّده سبحانه وتعالىٰ بالسبيل الجائر الذي يسلكه المجرمون الـمُحرِّفون لطباعهم، فقال: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾، فأشار بهذا النَّظم من العبارة في تقسيم السبيل وتصنيفه إلىٰ أنَّ هذا الجائر محرَّف عن الطريق القاصد بصنع الإنسان الذي أفسد طبيعته بمفاسد التربية وسُوء السلوك، وألمع إلىٰ أنَّ ذلك منه لم يكن قَسْراً لإرادة الله، ولا عن عجز في قدرته تعالىٰ، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾؛ إذ كان قديراً أن يخلق الإنسان مقسوراً علىٰ عمل الخير كالملائكة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمرون، ولكنَّ حكمة الله شاءت أن يكون الإنسان مُسلَّطاً علىٰ

إرادته مختاراً في أعماله، ليتزوّد بمواهبَ كلُّها خير، ما لم يُفسِدْها بتحريف مجْراها وبسُوء تصرُّفاته فيها. فإنْ حافظ علىٰ سلامة فطرته، وقصد السبيلَ المستقيم، فذلك بفضل الله ورحمته. وإن حَرف طبيعته، واتّبع الطريق الجائر، فهو الذي ظَلَم نفسه وأرْداها حين انحرف بها من الطريق المستقيم إلىٰ الجائر السقيم.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ
﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى
ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى
ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ
هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا
تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

وبعد هذا البيان عاد إلىٰ سَرْدِ دلائل القدرة والمنَّة المستلزمة للتوحيد وللقدرة علىٰ الحشر والإعادة، علىٰ نهج القرآن في العودة، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَ﴾ لكم ﴿مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: تَرْعَوْنَ فيه أنعامَكم. وكذلك ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ ويستدلون بها علىٰ وجود الصانع، وحكمته، واختصاصه بالألوهية، وقدرته علىٰ الحشر والحساب.

ثم تابع السياق منتقلاً إلىٰ بدائع السماوات، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ إذ لولاها لَـمَا كان حياة في حيوان ولا نبات. ثم غيَّر النظم، فقال: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ لأنَّ الليل والنهار والشمس والقمر هي من عوالمنا ونظامنا الشمسي، فهي قريبةٌ منا بالنسبة إلىٰ النجوم الثوابت، ولها تأثير عظيم في حياتنا وحياة معاشنا، بخلاف النجوم الثوابت فهي عوالم أخرىٰ ونُظُمٌ أخرىٰ عظيمةُ الشأن، بعيدة المدىٰ، ليس لها بنا اتِّصال ولا أثر؛ إذ بينما يصلنا ضوء الشمس بثماني دقائق لا يصلنا ضوء أقرب نجم من أقرب طبقة من النجوم الثوابت إلا في أربع سنوات ونصف، فما ظنُّك بالأبعد منها إلىٰ ما يقدر.

وقد جُدِّدت في هذا العصر المراصد الفلكية، واستُحدثت الآلات لتحقيق الأبعاد وتحليل النور، فعُـلِمَ الشيء الكثير من سرعة الكواكب وأبعادها، ومعرفة مساحتها وكثافتها والمواد المؤلَّفة منها، إلىٰ نحو ذلك مما كان مجهولاً من قبل، فثبت لعلماء الفلك أنَّ النجوم تعدُّ بملايين ملايين الملايين، لكنهم لم يتمكنوا إلىٰ الآن إلا من معرفة أبعاد بضع مئات منها؛ لأنَّ سائرها أبعَـدُ من أن تُدرك أبعادُه. تلك مسافات لا يحصيها التقدير، جلَّتْ عظمةُ الله العلي القدير، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ وهم الذين حافظوا علىٰ سلامة عقولهم ونور قلوبهم، إذ هم المستعدُّون للنظر والتدقيق في آثار الله واستشعار عظمته وجلاله.

ثم تابع السياق بقوله: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ أي: وسخَّر لكم ما خلق في الأرض من أنواع الحيوانات والنباتات والمعادن وألوان النِّعَم، وأراد باختلاف الألوان: اختلاف الأصناف؛ لأنَّ اختلاف الأصناف غالباً يكون باختلاف الألوان. ثم ختم هذا بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾ أنَّ اختلافَها في الهيئات والطباع ليس إلا بصُنْع صانع عليم حكيم.

وقد وصف القوم في هذه الفاصلة بالتذكُّر؛ لأنَّ دلالة تلك الأصناف علىٰ قدرة الله معلومةٌ بالفطرة واضحةٌ للعِيان لولا الغفلة والذهول، ووصفهم فيما قبلها بالتعقُّل لأن المُدْرَكات العلويَّة تحتاج إلىٰ عقل واسع وفكر دقيق، وجمع فيها الآيات لكثرتها في العالم العلوي بالنسبة إلىٰ العالم السفلي، ووصفهم في آية الإنبات الأولىٰ بالتفكُّر؛ لأنَّ مندرجاتها تتعلَّق بحياتنا المادية ومشاهداتنا البصريَّة، ويكفي لفهمها مجرَّدُ التفكير والنظر الصحيح، لأنَّ التفكير هو طريق العلم بالمشاهدات.

وبعد أن عدَّد النِّعَم المتعلِّقة بالبر من العالم السفلي، ذكر النِّعَمَ المتعلِّقة بالبحر منه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فوصفه بالطراوة إشعاراً بلطافته، ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤ والمرجان، ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ مقبلةً مُدْبرةً، حيث خلق الله في الماء قوة العَوْم عليه لتنتفعوا بذلك، ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تعالىٰ بركوبها للتجارة والأسفار، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: وليُعِدَّكم لشكره بمعرفة حقوق نِعَمِهِ الجليلة والقيام بأدائها بالطاعة والتوحيد.

ثم جمع بين منافع الأرض والسماء ومِنَنِهما، فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: جعل فيها ثوابت لِتَتَوازَنَ سائرُ نواحيها وينتظم دورانُها فلا تميد، ﴿وَ﴾ جعل فيها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ تتفجَّر من الجبال، ﴿وَ﴾ جعل فيها ﴿سُبُلًا﴾ بأنْ خَلَق الأرض من مادة ينطبع عليها الأثر ويثبت ولا يتعفىٰ، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ بذلك إلىٰ مقاصدكم، ﴿وَ﴾ جعل فيها ﴿عَلَٰمَٰتٍ﴾، ولم يجعلها صَلْدةً متساويةَ الشكل مُتَّحِدَتَه كالماء مثلاً، فكان فيها معالم وفوارق تستدلُّ بها السابلة.

ثم جمع إلىٰ الاهتداء بعلامات الأرض ومعالمها، الاهتداءَ بعلامات السماء ومعالمها،

للمناسبة وللتذكير بإتمام النعمة، تكميلاً للبحث، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وبعد أن ذكر أنواعاً مما خلق وأبدع في الأرض والسماء، واحتجَّ بها علىٰ اختصاصه بالألوهية، أشفع الكلام بالتجهيل والتسخيف للمشركين، فقال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾ كلَّ هذه الأشياء ﴿ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ ذباباً، في استحقاق الألوهية ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ ذلك؟ فكيف تُشركون به مَنْ لا يخلق شيئاً وهم يُخلَقون؟ وهذا إلزام لهم بالحجَّة إثر تفصيل ما فصَّل من الأدلة علىٰ اختصاصه سبحانه بالألوهية.

ثم ختم البيان من ناحية المنن بهذا الإجمال، فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾، ولما كان ذلك يتضمَّن دوام الإنعام مع التفريط بالشكر والإفراط في الكفر قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾، ومن مقتضىٰ ذلك أن يصبر علىٰ المعاندين والمعارضين لعلَّهم يثُوبونَ إلىٰ رُشْدهم، فهو لا يقطع رحمته عن المقصِّرين ولا عن المشركين، حتىٰ لا يبقىٰ في القوس مَنْزع للآمال.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

ثم أضاف سبحانه إلىٰ عظم مخلوقاته، سَعَة معلوماته، وسَبَكَ الكلامَ علىٰ التهديد لهؤلاء المشركين المصرِّين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: مُطَّلع علىٰ سرِّهم ونَجْواهم.

ثم قابل بين عِظَمِ صفاته ومَهَانة صفات معبوديهم؛ تبصرةً لهم وإلزاماً، وقد

وصفهم تارةً باعتبارهم ممثَّلين بالأصنام، وتارةً بالنظر للأصنام أنفسها، على نهج القرآن في ذلك، وابتدأ بالمعبودين من أموات البشر، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠﴾ والإله يَخْلُق ولا يُخْلَق، وهؤلاء ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ والإله الحق حيٌّ لا يموت، ﴿وَ﴾ هؤلاء ﴿مَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝٢١﴾ والإله الحقُّ يعلم السِّرَّ وأخفىٰ، ويعلم متىٰ يكون البعث والحساب. وإنما قيَّد الشعور بالبعث للرمز إليه، وإلىٰ مصيرهم فيه.

والضمير في ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ يجوز أن يكون لمن يمثِّلونهم بالأصنام مِن الصُّلحاء، والمعنىٰ: وما يشعر أولئك المعبودون أيَّان يبعثون، أو للعابدين لها، أي: وما يشعر أولئك المعبودون أيان يُبْعَثُ عَبَدَتُهم. وقال ابن عباس: «إنَّ الله يبعث الأصنام ومعها شياطينُها للحساب»[1]، أي: رؤساء الضلال. والله أعلم. وعلىٰ كلٍّ، ففيه تهكُّم بالعابدين لها وتوعُّد لهم بيوم البعث والحساب.

ثم صرَّح بالمدعى الناتج بعد إقامة الحُجج عليه، وأنكر علىٰ المشركين، فقال: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

ثم بيَّن سبب إصرار المشركين علىٰ باطلهم بعد وضوح الحق، وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ۝٢٢﴾، فذكر أنَّ الذي جعلهم يتصلَّبون في باطلهم مع وضوح الحق عدمُ إيمانهم بالآخرة، واستكبارُهم علىٰ الداعي للخير، لأنَّ الأول يؤدي إلىٰ قصر النظر علىٰ العاجل، والثاني يقتضي الإعراض عن الدلائل. وأتىٰ بالفاء للإيذان بأنَّ إصرارهم علىٰ الإنكار وقع نتيجةً لتحقيق البراهين وتوضيح الدلائل. لذلك هدَّدهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾.

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٠: ١٩٦).

ثم كنّىٰ علىٰ الجزاء بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ عن الحق، وعلىٰ الدعاة إليه، وعن الآيات الدالة عليه. وإنما يحبُّ المتمسِّكين به، والويل لمن لا يُحبّه الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وبعد أن ذكر ضلالهم بأنفسهم، ذكر تضليلهم لأتباعهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أي: إذا سألهم أتباعُهم عما جاء به محمد ﷺ؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: خرافات الأولين وأباطليهم. والتعبير بـ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ ليس من تعبير القائلين، بل من تعبير القرآن، للإيذان بأنه منزَّل حقاً وللمبالغة في التأنيب، ويجوز أن يكون للمقابلة بينه وبين نظيره الآتي في المؤمنين. حكىٰ بهما نظر الصِّنفَين في هذا القرآن.

وقد اكتفىٰ عن جواب هذه الشبهة بما ذكره في سورة الفرقان، بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]. وأما هنا فقد بيَّن عاقبتهم علىٰ الضلال والإضلال، فقال: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَ﴾ يحملوا كذلك ﴿مِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، والتقييد بقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ للإشعار بأنَّ

مكرهم لا يروج عند ذوي الألباب، وإنما يتبعهم الجهلاء والأغبياء، وللتنبيه إلىٰ أن جهل هؤلاء المتَّبِعين لا يكون عذراً لهم، إذ كان عليهم ـ بما لهم من مواهب ـ أن يبحثوا ويُفرِّقوا بين المحق الحقيق بالاتباع وبين المبطل الضليل الضَّلول.

ثم أنَّبهم ونَعَىٰ عليهم وبالغ في تهجين أمرهم بقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: ما يعملون من الوزر، أو ما يحملون من الأوزار.

ثم توعَّدهم بما جَرىٰ علىٰ أمثالهم في الأمم الماضية، فقال: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائهم، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾، وهي الأساطين التي تعمد البناء وتدعمه، أو الأسس التي يُبنىٰ عليها. وقد ضمَّن ﴿أَتَى﴾ معنىٰ: قلع، أي: فتَضَعْضَعَت أركانُه، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وهذا القيد للتمكين، مثل قولهم: لطمه علىٰ وجهه؛ واللطم لا يكون إلا علىٰ الوجه. وصفعه علىٰ قفاه؛ والصفع لا يكون إلا علىٰ القفا.

والآية تمثيل، شبّه فيه حالَ أولئك الماكرين الذين يدبرون أنواعاً من المكر للإيقاع برسل الله، وإبطالَه تعالىٰ لتلك الحيل والمكايد، وجَعْلَه إيَّاها أسباباً لهلاكهم، بحال قوم بَنَوْا بنياناً وعمدوه بالأساطين، فأتىٰ ذلك البناء من قِبَلِ أساطينه، بأن ضُعْضِعَت، فسقط عليهم السقف فهلكوا. والمعنىٰ: فقلع الله مكرهم من أصله، وعاد ضرر المكر عليهم. فيكون مجرَّد تمثيل لاستئصالهم، أردفه بالتحقيق، جرياً علىٰ قواعد البلاغة العالية في البيان وأساليب القرآن، فقال: ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: وهم لا يحسبون ذلك ولا يتوقعونه، ويجوز أن يُرادَ به عذاب بالزلزلة، والله أعلم.

وهذا جزاؤهم في الدنيا. أما جزاؤهم في الآخرة فقد ذكره بقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ علىٰ رؤوس الأشهاد، ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ

﴿تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: تخاصمون الأنبياء والمؤمنين في شأنهم؟ والمراد من هذا الاستفهام: التبكيت علىٰ ما كانوا يعتقدونه من أنها تشفع لهم عند الله. ولما كان جوابهم الخذلان والسكوت، أقام مقامه قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من أهل الموقف، وهم الأنبياء والمؤمنون الذين أُوتوا علماً بدلائل التوحيد، وكانوا يدعونهم في الدنيا إلىٰ التوحيد، فيجادلونهم وينكرون عليهم، أي: يقولون توبيخاً لهم وإظهاراً للشماتة بهم، يقولون: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ﴾ أي: الفضيحة والذُّلَّ والهوان ﴿ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ .

ثم ذكر حالهم عند الوفاة للإشعار بأنَّ هذا الخِزيَ والسُّوءَ يختص بمن استمرَّ كُفْرُه إلىٰ حين الموت دون من آمن منهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وأيُّ ظلمٍ أكبر من تسبيبهم لها هذا العذاب المهين، ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ وإلقاء الشيء: إظهاره بحيث يُدرَكُ جلياً، أي: فسالموا كلَّ المسالمة أو استسلموا كل الاستسلام وأخبَتُوا كلَّ الإخبات حين عاينوا الموت قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ أردناهم ليُقرِّبونا إلىٰ الله زلفىٰ. ويجوز أن يكون هذا تفسيراً للسَّلَم. علىٰ أن يُراد من السلم: القول الدال علىٰ الاستسلام. فتجيبهم الملائكة بقولهم: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ عن الخير وعن الدعاة إليه، وعن التوحيد وما يُفْضي إليه من السعادة والهناء.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم أردف نظر المشركين في القرآن ومصيرهم من جرَّاء ذلك، بنظر المؤمنين فيه

ومصيرهم، علىٰ طريقة القرآن في المقابلة، فقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ هذا اليوم وهم المؤمنون: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ من حسنة الدنيا بمراحل. فألمع إلىٰ أن هذا الـمُنزَل يوجِّه الإنسان إلىٰ ما يُسعِدُه في الدنيا وإلىٰ ما يُسعِدُه في الأخرىٰ، وإلىٰ أن السعادة الثانية لا تقايس بالأولىٰ؛ إذ كلُّ نعيم دون الجنة حقير. فقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟...﴾ تفصيل للخير وبيان له، ويجوز أن يكون مستأنفَ بيانٍ من الله تعالىٰ لمصيرهم، وتفصيلاً منه تعالىٰ لما قاله المؤمنون، وتقريراً له.

ثم نوَّه بشأن هذه الكرامة في الآخرة وزادها تفصيلاً بقوله: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾، ثم زاد في التحسيس بهذه الكرامة وأكملها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ﴾ لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾، فقابل في كلٍّ حالة من حالات أولئك المشركين ومصيرهم حالةً من حالات المؤمنين ومصيرهم، اللهمَّ اجعلني من المتقين يا أرحم الراحمين.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تفصيل مصير المشركين وتقريره، وسَبَكه علىٰ التهديد والتحذير، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: ملائكة الموت، فينالهم ما ينال

الظالمين لأنفسهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: بعذاب الاستئصال في الدنيا. ثم استشهد علىٰ ذلك بما جرىٰ علىٰ أمثالهم من الأمم فقال: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأصابهم ما أصابهم، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ بما جرُّوا إليها من الوبال، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾ من عذاب الاستئصال الذي كان يتوعَّدهم به أنبياؤهم فيستهزئون.

وقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ ...﴾ عطفٌ علىٰ قوله: ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وما بينهما اعتراضٌ قُصِدَ به تعجيلُ البيان في أن فِعلَهم ذلك كان ظلماً لأنفسهم، لأنهم جرُّوا به إليها الوبال.

ثم ذكر لـهم شبهة أخرىٰ ونقضها، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ يريدون أن ما حرَّموه علىٰ أنفسهم كالبَحيرةِ والسائبة وأمثال ذلك لو لم يكن مرضياً لله لَـمَا مكّننا منه، فردَّ سبحانه بأنهم إنما اتَّبعوا في ذلك ضلالَ مَنْ قبلهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ولم يمتثلوا أمر رسلهم وقالوا مثل قولهم: ما شاء الله يقع، وما لم يشأ يمتنع وقوعه، وكل ما وقع هو بإرادة الله. فهم يحتجُّون علىٰ أنَّ ما هم عليه هو الحق؛ لأنه لو لم يكن كذلك لما مكَّنهم الله منه، إذ يمتنع وقوع ما لا يريده الله. بمعنىٰ: أن الإنسان مجبور في أعماله، نازلٌ عند إرادة الله؛ جهلاً منهم لمعنىٰ الإرادة والمشيئة، ولِـمَا طبع عليه الإنسان من تسلُّطه علىٰ إرادته واختياره في تصرُّفاته.

وعلىٰ مثل هذه الشبهة يجري بعض الجهال اليوم من عصاة المسلمين، يعتذرون بها عن عصيانهم وارتكابهم الآثام.

ومثل هذه الآية قوله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ...﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فردَّ الله سبحانه عليهم بما يُؤْذن بأنه تعالىٰ قد خلق الإنسان يتصرَّف في أمره مختاراً مستعداً للهداية بطبيعته، وللضلال بإفساده لها، وقد أرسل الرسل لإرشاده وتوضيح الحق من الباطل، فبلّغوا ما أمرهم الله به، ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾؟ وملخَّص الرد: أن نظريتهم هذه ضالة، وقد بيَّنت الرسلُ لهم الحقَّ فلم يقبلوه واتَّبعوا أسلافَهم الضالِّين، فهل علىٰ الرسول إلا البلاغ المبين.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم فصَّل ما أجمل، وذكر أهم ما في ذلك البلاغ مما يتناسب مع السياق، وهو الدعوة إلىٰ التوحيد، فقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ وهو كلُّ ما يُعبَدُ من دون الله، وكلُّ مَـنْ يدعو إلىٰ الضلال، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ وهو الذي يحافظ علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته، فأجاب الحقَّ حين دعاه، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ وهو الذي أفسد فطرته وأعمىٰ بصيرته بمتابعة الضالِّين والتقليد الأعمىٰ والرسوخ في الغيِّ والانطباع عليه، فكذَّب الحقَّ وعاداه، ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ يتوعَّدهم بمثل ذلك ويُنذِرُهم به.

ثم يأَّسه من هدايتهم لإفسادهم، فقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى

مَن يُضِلُّ﴾، وإسناد الإضلال إليه تعالىٰ باعتبار سُنته العامة في أخلاق الإنسان، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية)؛ إذ قد جرَت سنته تعالىٰ في الراسخين في الضلال أن يفقدوا الاستعداد للهداية، وقد حقَّت عليهم كلمة العذاب، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ يدفعونه عنهم. وهذه الجملة كناية عن العذاب الذي لا نَجَاة لهم منه.

ثم حكىٰ سبحانه عن المشركين نوعاً آخر من كفرهم، وهو إنكارهم البعث، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ ينكرون البعثَ ويُقسِمون علىٰ ذلك الأَيمانَ الغليظة، فردَّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: يبعث الله من يموت، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ وَجْهَ صحَّةِ ذلك وتحقُّقَ وقوعِه، لجهلهم بشؤون الله عزَّ وجلَّ، من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الألوهية، وبما في هذا الكون من سُنن خفيَّة، ولعدم وقوفهم علىٰ سرِّ التكوين، وإدراكهم الغاية القُصْوىٰ منه بيقين، ولغفلتهم أنَّ البعث مما تقتضيه الحكمة التي تمشي عليها أعماله وسُننه سبحانه.

وقد أردف تحقيق البعث بوجه من حُسْن التعليل، يتضمَّن الزَّجْرَ لهم والتبكيتَ علىٰ أحسن الوجوه وأجملها، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أمر الأديان والحشر والحساب، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ فيما يزعمون وينكرون. ففي هذا العلم نوعٌ بديع من حُسْـن التعليل، وإشارةٌ إلىٰ أنَّ من حكمة البعث والحساب التمييزَ بين المُحق والمُبْطل، بالثواب والعقاب.

ثم أشفع تحقيق البعث ببيان أنَّ إيجاد الله سبحانه للأشياء مجرَّد إرادة عليّة لا معالجة فيها ولا نَصَب[1]، فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) الإرادة غير الإيجاد، فالإيجاد فعلٌ من أفعاله تعالى لا معالجة فيه ولا نصب كما قال المؤلف، وهو واقع بقدرته سبحانه أو بتكوينه؛ تبعاً لإرادته، كما هو ظاهر من الآية المذكورة.

وهذا هو المسمَّىٰ بالأمر التكويني. والكلام تمثيلٌ لسهولة تَأَتِّي المقدورات بأنه لا يزيد علىٰ تعلُّق مشيئته تعالىٰ بها، وتصويرٌ لسرعة حدوثها بعد تدرُّجها في سُنن التكوين. وفي الآية إيماء إلىٰ أنَّ الله سبحانه هو الذي يملك سرَّ التكوين، ولا يعلم ذلك السِّرَّ إلا الله، فلا مَطْمَع فيه للبشر.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

ولما كان كفر الكافرين مصدراً لإيذاء المؤمنين الذين أدىٰ إلىٰ هجرتهم وترك أوطانهم، أردف السياق بهذا الوعد الكريم لهم، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ ﴾ فراراً بدينهم، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ ولا ذنب لهم إلا أن يقولوا: ربنا الله، ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ قال ابن عباس: «أي: بلدة حسنة عوضاً عن أوطانهم، وهي المدينة»[1]. وقيل: بل حالة حسنة، وهي: النصر والفتح والعزَّة وعُلوُّ الشأن. هذا في الدنيا، ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ ﴾ الذي سينالونه ﴿أَكْبَرُ﴾ مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: لو كان هؤلاء الكفار يعلمون، أي: لو كانوا من أهل العلم والمعرفة والتعقل. وقيل: المعنىٰ: لو كان المهاجرون يعلمون ما سينالهم من الجزاء ويرونه عياناً، لَـمَا تألَّموا لِـمَا أصابهم من المهاجرة وشدائدها.

ثم ذكر صفتهم التي استحقّوا بها ذلك، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ علىٰ الشدائد، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ مُفوِّضين إليه الأمر كلَّه.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ٢٠٦).

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم ردَّ عليهم شبهة أخرىٰ، وهي إنكارهم أن يكون أحد البشر رسولاً من الله، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ وتاريخ البشر حافل في ذلك، ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: علماء أهل الكتاب، ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ليعلموكم تاريخ الأنبياء في البشر.

ثم ذكر الـمُرسَل به فقال: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: أرسلناهم بالمعجزات الباهرات، ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المحتوية علىٰ التعاليم والشرائع التي يُبلِّغها الرسول عن الله تعالىٰ إلىٰ العباد، ﴿وَ﴾ علىٰ هذه السُّنّة ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الذي يذكِّر الناس بما يجب عليهم ليَقُوا أنفسَهم من النار وينالوا رحمةَ العزيز الغفار، وليحوزوا الراحةَ في الدنيا والسعادة في الأخرىٰ. وقد ألمع إلىٰ ذلك بقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ في عاقبةِ أمرهم.

وبعد أن أجاب عن شبهتهم، هدَّدهم بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ﴾ المكراتِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الذين يتحزَّبون لهلاك الأنبياء، ويأتـمرون عليهم. كما فعل هؤلاء المشركون بالنبي ﷺ، حيث ائتمروا عليه في دار الندوة أن يقيِّدوه أو يقتلوه أو يخرجوه. أفأمن هؤلاء ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: يأتيهم في حال غفلتهم ومأمنهم، ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ الله ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ بين البلاد في مسايرهم ومتاجرتهم. ولما كان التقلُّب يوهم بالفرار قرنه بقوله: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: بممتنعين عنا، أو فائـتين لنا. وهذا تصوير لعجزهم تجاه قدرة الله البالغة وطلبه الرهيب.

ثم قابل قوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بقولِه: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ أي: علىٰ صورة تدريجية يشعرون معها أنَّ نتيجة أمرهم الدمار، فيملأ الرعبُ قلوبَهم علىٰ استمرار. والمراد من هذه الأقسام: بيان الإحاطة بهم من كل جهة وصَوْب. ولما كان قوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ يتضمَّن التهديد المؤجَّل، علَّل ذلك بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ يؤجِّل عنكم العقوبة لعلَّكم ترجعون عن غيِّكم وتهتدون.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم أردف الكلام بما يدل علىٰ معنيين: الأول: قدرةُ الله العظيمةُ التي يخضع لها كلُّ شيء، والمراد: تأييد التهديد بالإلماع إلىٰ القدرة علىٰ إنجازه. والثاني: أن الله سبحانه يسجد له ويقرُّ بألوهيته، أو يؤذن بذلك، كلُّ شيءٍ من جماد ونبات وحيوان وجنّ وإنس ومَـلَك. والمراد: تبكيت المشركين وتقريعهم علىٰ كفرهم بالتوحيد الذي أقـرَّ وآذن به كلُّ شيءٍ. وقد سبك ذلك علىٰ ما في نظام هذا الكون من حكمة وتدبير، ومن انقياد المكوِّنات جميعها بذواتها وأعراضها لقدرة الله العلي القدير، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أي: يمتدّ عَقِبَ انتصاف النهار، وينبسط عمّا كان قبل ذلك، وكذلك ينقبض وينبسط ظلّ الأشجار ونحوها من ذوات التمايل ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: منقادة مُسْتَسلِمة له تعالىٰ في ذلك النظام.

ومن لطف العبارة ولطافة المسلك والإشارة: ما في ذلك التمايل من هيئة السجود والالتصاق بالأرض، وهو أمرٌ يدلُّ علىٰ حكمته وإتقان صُنعه في تنظيم العالم الشمسي وغيره.

ولما أسند لها السجود ـ وهو من خصائص العقلاء ـ استعمل لها ضمائر العقلاء، وذلك من خصائص اللغة.

وإفراد اليمين وجَمْعُ الشمائل من قواعد البلاغة، مثل الظلمات والنور، فيحمل المفرد على الجمع. وذلك من خصائص اللغة وعُرف التخاطب. ومثله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨، السجدة: ٩، الملك: ٢٣].

وبعد أن بيّن أنَّ الأشجار وشبهها من أنواع الجمادات كلها منقادة لله تعالىٰ ذاتاً وعرضاً، بالنظام الطبيعي الذي خلقها الله عليه. أردف ذلك ببيان أنَّ كل ما علىٰ الأرض من الحيوان والإنس والجن والـمَلَك منقادٌ لله تعالىٰ كذلك. وعبَّر عن ذلك بالسجود في معنَـيَـيْهِ الحقيقي والمجازي[1]، فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ولإرادة الوصفيَّة غلَّب غير العقلاء بحكم الكثرة، وأتىٰ بكلمة ﴿مَا﴾، ثم عطف الملائكة عليها عطف الخاص علىٰ العام، للاهتمـام بالخاص. ثم خصَّ الملائكة بنوعٍ من البيان، له زيادة تأثير في السياق والتقريع، فقال: ﴿وَهُمْ﴾ علىٰ تميُّزهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩﴾ عن عبادته تعالىٰ، بل ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾، وفي هذا زيادة تقريع للمشركين، وتأنيب لهم. وفي قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ إشعارٌ بالقهر والسلطان، كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١].

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٥١ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٥٥﴾.

---

(١) وقد يكون كله وارداً على المعنى الحقيقي، لكنْ سجود كل شيء بحسبه وعلى ما يلائمه. وهذا أقرب، والمعنى فيه أبلغ.

ولما نتج مما تقدم أنه سبحانه وتعالىٰ مستحقٌّ وحده للألوهية، صرَّح بذلك في صورة حكم ونتيجة لما تقدم من بيانات، فقال: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ فذكر أقل التعدّد. ثم أردف السَّلب بالإيجاب وصيغة الحصر، فقال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ وهو الله، وعوضاً عن التصريح به قال: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ ليكون حضاً علىٰ التوحيد، وترهيباً من الشرك وما ينبعث عنه. والالتفات من الغيبة إلىٰ التكلم لتربية المهابة، ولذلك أيضاً قدَّم المفعول. وتتناول الآية الردَّ علىٰ الثنوية القائلين بإله الخير وإله الشر [١].

ثم ذكر من دليل القدرة ما يؤيِّد التوحيد والرهبة، فقال: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خلقاً وملكاً، ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي: واجباً مُحتَّماً مخصوصاً به، فلا يُدان إلا لله، ويُدْأَبُ له فيه، ويُدَاوَمُ عليه. إذ الوَصَبُ: الوجوب والتعب الناشئ عن الدأب ودوام العمل. وقد يستعمل للدوام مطلقاً، من ذكر الخاص وإرادة العام. فالمراد: أنَّ له العبادة والطاعة دائماً ودائباً، فلا يُدْأَبُ في الدين إلا لله، ولا يُكَدُّ ويُتْعَبُ في العبادة إلا له تعالىٰ، فله الدين مجهوداً به إليه، وواجباً علىٰ الناس أجمعين. وبعد هذا البيان أنَّبهم بهذا الإنكار، فقال: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾[٢].

ثم ذكَّرهم بدليل التوحيد الفطري، وهو ما طبع الله النفوس عليه ما لم يفسد أصحابها تلك الطبيعة، وصدَّر الكلام بالتذكير بالنعم، وزيادةً في التـأنيب، فقال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ لا يُشاركه في ذلك أحد، فكيف تشركون بعبادته غيرَه؟ ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: ترفعون أصواتكم بالدعاء والاستغاثة؛

(١) وهم مجوسُ الفُرس ومن اتبع دينهم من قبائل العرب، الذين يثبتون إلهين اثنين: إلهاً للخير، وهو النور، وإلهاً للشرّ، وهو الظلمة.

(٢) والمعنى: أفبعد هذا البيان الجليّ تتَّقون عقابَ إله الشرِّ الذي جعلتموه إلهاً كذباً دون أن يكون لكم دليل يُثبتُ إلهيّته، ويُثبتُ صحَّة دعواكم!!

إذ تشعر حينئذٍ طباعكم ونفوسكم بأنه تعالىٰ لا يدفع الضرّ سواه. ويشترك في هذا الشعور عند الضُّرِّ المؤمن والمشرك؛ لأنَّ الفطرة حينئذ تغلب التقليد والتطبُّع، فتعود إلىٰ حالتها الأولىٰ، وتتوجَّه النفس إلىٰ الله وحده، رغم أنف صاحبها، لِـمَا فُطِرَتْ عليها من الشعور بوجود الله ووحدانيته وسُلطانه، وأنه هو وحده الملجأ والصَّمَد والنصير، تلك الفطرة التي عبَّر عنها سبحانه بقوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ عاد التطبُّع والفساد إلىٰ النفوس المفسودة، فرجعت إلىٰ الشرك. وهذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: يعود المشرك إلىٰ إشراكه. والآية موجَّهة إلىٰ عموم الناس نظراً للطبيعة الناصعة التي فُطِروا عليها، ولكن المشرك أفسد طبيعته بصنعه وتقليده لأرباب الضلال. فيعود المشركون إلىٰ إشراكهم بعد أن كشف الضرَّ عنهم، ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من النِّعم، ولا سيما نعمة هذا الكشف عنهم. وهذه الجملة مطويَّة علىٰ أفظع النقد والتقريع. ثم هدَّدهم بقوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ قليلاً، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ عاقبةَ ذلك.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى
ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا
يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم
مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم شرح بعضَ أقوالهم في الشرك ونقضها عليهم، وبيَّن فسادها وسخافتهم فيها، فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقةَ أمره وسخافةَ تأليهه، ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الـحَرْث والأنعام بقولهم: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]. ويجوز أن يعود الواو في ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إلىٰ لفظة ﴿مَا﴾، إذ المراد بها: المعبودون، فيكون المعنىٰ: أنهم يجعلون لآلهتهم نصيباً مما رزقناهم، وآلهتُهم لا عِلمَ لهم بذلك. أو المعنىٰ: أنهم ليسوا من ذوي العقول. ولا يبعد أن تكون الجملة تشنيعاً عليهم، بكلٍّ من الوجهين.

وفي قوله: ﴿مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ زيادةُ تأنيب لهم وتشنيع؛ فالرزق من الله، والعبادة لغير الله.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾، والالتفات إلىٰ الخطاب للمبالغة في الترهيب. وكذلك صيغة الافتراء، فيها زيادةُ مبالغة في التهديد والتقريع.

ثم شرح لهم سخافة أخرىٰ، ونقَضها عليهم، فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ من البنين. وهذا قول خزاعة وكنانة، فهم الذين يقولون: الملائكة بنات الله، تعالىٰ الله عن ذلك عُلواً كبيراً. وفي قوله: ﴿مَّا يَشْتَهُونَ﴾ زيادةٌ في التشنيع، شَرَحَ وجهَهُ ببيانِ حالهم في البنات، فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ من الكآبة، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ مملوءٌ غيظاً من المرأة التي جاءت بالأنثىٰ.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: يستخفي كي لا يراه أحد ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ علىٰ عُرْفهم، ثم يحتار في أمره: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: علىٰ ذُلٍّ وهوان ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ ويَئِدُه، والتذكير باعتبار لفظ ﴿مَا﴾. وكانوا يفعلون ذلك بالبنات مَخافةَ الفقر،

فيطمع غير الأكفاء بهنّ، أو مخافةَ الأسْر في حروبهم الجَهْلاء، فأنّبهم بقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ حيث ينظرون البنات بهذه النظرة السخيفة، ويفعلون بهم هذه الفعلة الرهيبة، وحيث يجعلون ما هذا شأنُه في نظرهم لله المتعالي عن الصاحبة والولد. وهذا نقضٌ لشركهم علىٰ أشنع وجوه النقض والتأنيب. وخلاصته: كيف تسخفون وتنسبون إلىٰ الله ما لا ترضونه لأنفسكم؟ والغرض: إبطالُ أمر شركهم وتقبيحُه وتسخيفه بأنواع من الوجوه.

ثم عقَّب علىٰ ذلك بقوله: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ أي: الحال السيِّئ، وهو هذه الأمور الذميمة، والتخيُّلات الفاسدة، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والنزاهة عن صفات المخلوقين، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ فلا يُعاجلهم بالعذاب، لعزَّته وحكمته التي منها ما ذكره بقوله: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ بالكفر والمعاصي فوراً ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: علىٰ الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ تدبُّ عليها من البشر، ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ المُسمَّىٰ، لانتهاء أعمارهم، أو لحلول عذابهم، ﴿ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وقوله: ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ تكميلٌ للمعنىٰ ومبالغةٌ في ضَبْط الأجل المسمَّىٰ. والآية تدلُّ علىٰ أنَّ الله سبحانه لا يُعذِّب الظالمين في الدنيا إلا قليلاً منهم أو ضئيلاً بالنسبة إلىٰ ما ينالهم في الآخرة. وعَوْدُ ضمير ﴿عَلَيْهَا﴾ إلىٰ الأرض عَوْدٌ إلىٰ ما يُدرِكه الذِّهنُ، وإن لم يتقدَّم له إيماء. وذلك من خصائص اللغة ونهج القرآن.

ثم عاد للموضوع في البنات مُشَنِّعاً عليهم ومُسَخِّفاً لهم فيه، فقال: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ لأنفسهم، وهذا تكريرٌ لما سبق، كرَّره لقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾، وهذا التركيب علىٰ حدِّ قولهم: وجهه يصفُ الجمال، وعينه تصفُ السحر.

والمراد به المبالغة في الوصف. والمعنىٰ: يجعلون له تعالىٰ ما يجعلون، ويزعمون ـ مع وضوح كذبهم الشنيع وكفرهم الفظيع ـ ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ عند الله، لأنهم يحسبون أنهم يُحسِنون صُنعاً. وقد حكىٰ عنهم ذلك أيضاً في سورة فصِّلت بقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فُصِّلت: ٥٠].

فردَّ عليهم سبحانه بالسوأىٰ، عكس مأمولهم، مُسجِّلاً بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: مُقدَّمون فرطاً وتقديمة أمام أهل النار.

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

ثم سلّاه ببيان أنَّ الذي يجري لك مع قريش جرىٰ للأنبياء قبلك مع أقوامهم، فقال: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ القبيحةَ من الشرك وما يتبعه وينجم عنه من الدنايا والرذائل ومقاومة الحقِّ، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ أي: فهو وليُّهم يوم القيامة لا ناصر لهم سواه. والمراد: نفيُ الناصر لهم بطريقة المبالغة. وكلمة ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ لحكاية الحال الآتية. ويجوز أن يراد باليوم: يوم زيَّن لهم أعمالهم في الدنيا، فيكون حكاية للحال الماضية. وأتىٰ بالقسم زيادةً في التسلية، وتقريراً للوعيد.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا القرآن العظيم قد جاء لإصلاح ذلك العبث في دين الله وشريعته علىٰ جاري سنته تعالىٰ في ذلك، حيث إنه سبحانه يبعث في كل زمان رسولاً، حتىٰ إذا عبثت الأيدي بما جاء به في كتابه، قفىٰ عليه برسولٍ آخر، وأنزل عليه كتاباً آخر يصلح به ما أفسده الناس من الكتاب الأول، فقال: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾، لأنَّ الإيمان الصحيح يحمل علىٰ الأخذ بما جاء عن الله، ويحفظ لهم سلامة الفطرة ونور البصيرة، فيرون الحقَّ حقاً، ويبصرون الباطل باطلاً.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ مثل ما تقدَّم من دلائل التوحيد، وعجائب الخلق، وبدائع الحكمة، وعظائم النِّعَم، وأدمجها ببعضها، مُعلِّقاً عليها بما يناسبها ويماشي السياق، ومن نقد المعرضين الغافلين، وبيان منَّته تعالىٰ علىٰ الخلق أجمعين، ودلالـتها علىٰ اختصاص الـمُبدِع سبحانه بكونه إله العالمين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: أنبت فيها الكلأ بعد يبسها، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ هذا التذكيرَ ونظائرَه سماعَ تفكُّر وتدبُّر وإذْعان، ويُدرِكون أنَّ الذي يحيي الأرض يحيي الموتىٰ.

ثم تابع السياق، وذكر عجائب قدرته في أحوال الحيوانات والامتنان بها علينا، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾، بيَّن بعضها بقوله: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾، والمراد من الفَرْث: العلف المنهضم في الكرش. والسائغ: هو الذي يسهل مرورُه في الحلْق، ويلذُّ طعمه. فالآية تلفت الأنظار إلىٰ صنع الحكيم القدير في تركيب كرش الأنعام وتنويع الغدد التي تُحيلُ خلاصة الفَرْث والدم

إلىٰ هذا السائل البديع والسائغ اللذيذ، وهل يتعذَّر أو يصعب علىٰ هذا الصانع القدير إعادة الإنسان بعد الموت؟!

وقوله: ﴿لِلشَّٰرِبِينَ﴾ زيادة تحسيس بالنعمة، بعد التحسيس بالعبرة. وتذكير الضمير العائد إلىٰ الأنعام لمراعاة جانب اللفظ. لأنه اسمُ جمع، فلفظه مذكَّر، وقد أنَّثه في سورة المؤمنون فقال: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١] مراعاةً لجانب المعنىٰ، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وبمقتضىٰ خصائص اللغة، ودقائق المعاني التي لا يدركها إلا العالِـمون، ويكتفي بظاهرها المتوسِّطون. ويجوز أن يكون المراد من قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ مجرَّدَ التعجيب، أي: نُخرجه من جسمٍ يحوي هذين الشيئين. ولم يكن المراد أنه يُحيلُهما إلىٰ هذا السائل. والله أعلم. بل يكون المراد أنه سبحانه جَعَل جسمها يفرز هذا وهذا، ويجمع بين المتباينات، يُلمِعُ بذلك إلىٰ قدرة الله البالغة.

ثم ذكر عجائب النبات والامتنان به علينا، فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾. قال ابن عباس: السَّكَرُ: ما حُرِّمَ من ثمرها[(١)]. والرزق الحسن: ما أُحِلَّ من ثمرها. وقال قتادة: نزلت الآية قبل التحريم[(٢)]. وقال أبو مسلم: لا حاجة إلىٰ هذا القول؛ لأنه تعالىٰ خاطب بها المشركين، وعدَّد إنعامَه عليهم بهذه الثمرات، والخمر من أشربتهم، فكانت نعمة عليهم.

أقول: وعلىٰ كلٍّ، فقد أشار إلىٰ أن السَّكَرَ منه ليس أمراً حَسَناً، وذلك بمقتضىٰ تقابل الوصفين. وضمير ﴿مِنۡهُ﴾ يعود إلىٰ المذكور. وقيل: المراد بالسَّكَر: ما يشرب من العصير من أنواع الأشربة.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢: ٣٥٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ٢٤٤).

ثم ختم ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ حثاً على التنبيه والتبصُّر بها في عجائب تلك المخلوقات من عِبَرٍ وبصائر، وفي أطعمتها من نِعَم وذخائر.

ثم ذكر من آياته عجائب الهداية والإلهام في الحيوان، وما في نتيجة ذلك من النِّعَم على بني الإنسان، فقال: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ أي: خلقها مُلهمَة، وجعَلها مستعدَّة بغرائزها لما فسَّره بقوله: ﴿ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾، حيث يكثر ما تحتاجينه من الماء والمرعىٰ والمأوىٰ، وذلك إذا كنت حُرة طليقة، ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ أي: يبنون لك من العرائش، أو في العرائش، وذلك إذا كان لك أرباب، ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ أي: اسلكي الطُرُقَ والنُّظُم التي أودعها الله في غرائزك لهذا العمل، وذلَّلها لك.

ثم بيَّن نتائج ذلك الصنع فقال: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وأسود، وذلك حسب اختلاف سنّ النحل، والفصل الذي تعمل فيه، والمرعىٰ الذي ترعىٰ منه، و ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾، إذ هو مُغَذٍّ جداً، وملَيِّن ومُشَهٍّ ومُقَوٍّ للجسم، وسَهْلُ الهضم. ولهذه الخصائص كان نافعاً أثناء كثير من الأمراض، ولا سيما التي تنهك القوىٰ. وقد ثبت في الطب الحديث أنَّ العسل يحوي مقداراً كبيراً من الكلوكوز الذي أصبح سلاحاً للطبيب في كثير من الحالات المرضية في مختلف الأمراض إذا لم يشخص المرض.

ثم ختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾، ففصَّلها بالتفكير، لأن مُنْدَرِجات هذه الآية تتعلَّق بالمشاهدَات، والتفكير هو طريق العلم فيها.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ

مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ
أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

ثم ذكر من آياته عجائب بعض أطوار الإنسان، إثباتاً لقدرة الله في التطويرات، والبعثُ واحدٌ منها، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾، وهذان الطوران لسائر أفراد الإنسان، والوفاة أمره عجيب، ولكن لا ندرك ذلك لأنه مألوف، والوفاة ليست أقلَّ عجباً من الحياة. ثم ذكر طوراً يكون لبعضهم واكتفىٰ به عن سلسلة التطويرات بين الخلق والوفـاة، فقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ واللام للصيرورة، أي: ليصير إلىٰ مثل حالته الأولىٰ: حالة الطفولة؛ في عدم الفهم والدراية. فهذه تطويرات متباينة ومتعاقبة لا تضيق القدرة عليها عن القدرة علىٰ البعث والنشور؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ فلا يعجز عن تطوير الإنسان في الحياتين حسبما يقتضيه علمُه وحكمته البالغة.

وبعد أن ذكر اختصاصه تعالىٰ بالألوهية لاختصاصه بعَجَائب المخلوقات وعظائم النِّعَم، ذكر قُبحَ ما يعتقده المشركون من إشراك مخلوقات الله تعالىٰ معه وهم لا يرضون أن يشركوا عبيدهم معهم، وكلهم من صنع الله وخلق الله، ورِزقُهم جميعاً من رزق الله، فقال: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾[1]، وجعل منكم أغنياء

---

(١) إن الله سبحانه لم يجعل نظام رزق الإنسان كنظام رزق الحيوان، فردياً في السَّعي والحصول عليه، بل جعل نظام رزق الإنسان اجتماعياً لا يتم إلا بتعاون الأفراد. أما اختصاص كلٍّ واحد بمهنة من تلك الحاجيات فمبنيّ علىٰ الميل والعزم ونوع التثقيف وغير ذلك. وهذا النظام =

وفقراء، وموالي ومماليك، ليتمَّ نظام هذا العالم، ويُسخِّر بعضكم بعضاً في قضاء الأشغال وتسيير الأمور، وذلك من حكمته وتدبيره في شؤون الإنسان وأحواله الاجتماعية، ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: لا يرضىٰ الأسياد أن يشركوا عبيدَهم بمالهم ومنزلتهم، فيكونون علىٰ حد سواء. فإذا أبيتُم أن تُشركوا مماليككم في حالكم فتصبحوا معهم متساوين في المنزلة، فكيف تجعلون عبيد الله ومخلوقيه شركاء له في ذلك؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ ويُشرِكون به مَنْ لا يملك لهم رزقاً وهم يُرزَقون؟! وأنتم تعلمون لا رازق إلا الله، إذ هو وحده خالق تلك النِّعَم، وواضع سنن الكون.

فهذا بيانٌ لقبيح ما يعتقده المشركون، وتقريع لهم، ونقض لشِرْكهم بأشنع وجوه النقض من طريق المنطق والوجدان، وقواعد العُرْف والاجتماع. وهو إثباتهم لله سبحانه ما يكرهون مثله لأنفسهم ولا يقبلونه. وقد بدأ الآية ببيان تفاوت الأرزاق المبنيّ علىٰ الحِكَمِ والمصالح.

ثم تابع دليل قدرته ومنَّته المُسْتلزم لحكمته ولألوهيته، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: خلقكم بحكمته ذكوراً وإناثاً ليتمَّ التناسل، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ ولولا ذلك لم يبـق النوع الإنساني، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، وهذه حِكَمٌ ونِعَمٌ لله تعالىٰ. فهل لشركائكم يدٌ في ذلك؟ ثم التفت من الخطاب إلىٰ الغيبة لتعجيب السامعين من أمرهم، حيث إنَّهم لا يدركون الحقَّ ولا

= يجعل التفاضل في الرزق أمراً طبيعياً، إذ يكون فيهم التاجر والزارع والصانع والعامل علىٰ اختلاف في المراتب والمهن والقدر فيها. ومنهم الغني والفقير، والمأمور والأمير، والجليل والحقير، نتيجةً لسعي الإنسان ومقدار نشاطه. فإسناد التفضيل إلىٰ الله سبحانه باعتبار هذا النظام. والله أعلم. (المؤلف).

يعتبرون بالحِكَم، ولا يُراعون النِّعَم، فقال: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو الإشراك بالله ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ولا يقومون بواجب شكرها من توحيد الله وتمجيده؟!

ثم أشفع التأنيب بمثله، ونَـقَضَ عليهم شركَهم بما يتضمَّن البَوْنَ البعيد بين قدرة الله وجلاله وعظيم منَّته وبالغ حكمته، وبيَّن عجز شركائهم ومهانتهم، وخصَّ بالذِّكر أهمَّ الأشياء لهم، وهو الرزق، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يرزقونهم من السماوات مطراً ولا من الأرض نباتاً، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ شيئاً مهمـا كان. ويجوز أن لا تكون الواو للاستئناف، ولكن لعطف ﴿يَعْبُدُونَ﴾ علىٰ ﴿يَكْفُرُونَ﴾، تفسيراً له وتفصيلاً. و﴿رِزْقًا﴾ إنْ جعلتَه مصدراً فـ﴿شَيْـًٔا﴾ منصوب به؛ بَدَلُ عامٍّ من خاصٍّ، وإلا فبَدَلٌ منه. ومَرْمَىٰ الآية: أنهم يعبدون الصنم ويكفرون بمن يفيض عليهم النِّعَم.

وبعد أن عنَّفهم بهذا التعنيف، وأشعرهم بجهالتهم الشنعاء، جمع بين التأنيب والدعوة إلىٰ الرَّشاد، وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ والأشباه، أي: لا تجعلوا له مثيلاً تشركونه به، ولا تشبهوا بشأنه تعالىٰ شأناً من الشؤون، ولا تجعلوه كعظمـائكم في الحاجة إلىٰ من يُقرِّبكم إليهم زُلفىٰ، فاتَّبِعوا ولا تبتدعوا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ فاتَّبِعوا ما يأمركم به وانتهوا عما ينهاكم عنه، وتمسَّكوا بالخطة التي يرسمها لكم، ولا تَهْوُوا إلىٰ الحضيض بمخالفتها.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

وبعد أن سخَّف رأيهم في دَعوىٰ الشرك، ونبَّههم إلىٰ اختصاص أفعال الإلهيَّة وصفاته به تعالىٰ، ضرب لهم هذين المثلين لنفسه وللأصنام؛ إبطالاً لدعوىٰ المشارَكة بينه وبينها، وزيادةَ تسخيفٍ لهم في ذلك، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ من الأحرار الكرام ذوي المنزلة العالية في قومهم، ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ تفضُّلاً وإحساناً ﴿سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾؟ وقد جمع الضمير للإيذان بأنَّ المراد: منْ اتَّصف بالأوصاف المذكورة من الصنفين المذكورين، لا فَرْدان معيَّنان منهما، أي: هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بما ذكر من الصفات، مع أنَّ الفريقين سِيَّانِ في البشريَّة والمخلوقية والعبودية لله سبحانه، وإن ما ينفقه الأحرار إنما هو من عطاء الله لهم، فحيث لم يَستَوِ الفريقان ولم تُسَوُّوا أنتم بينهما مع أن الأمر مهين، فما ظنكم بربِّ العالمين؟ تشركون به عبيدَه وما لا ذليلَ أذلُّ منه، وهو الأصنام، و﴿ٱلْحَمْدُ﴾ كلُّه ﴿لِلَّهِ﴾ لا يستحقّه سواه؛ لـما له من عظيم النِّعم وجليل الأعمال.

ثم أنبهم علىٰ جهالتـهم فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِثْـلَ هذه البداهة الواضحة، فيشركون به سبحانه مَنْ لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون.

ثم ضرب مثلاً آخر يدلُّ علىٰ ما دلَّ عليه الـمَثَلُ السابق علىٰ وجه أوضح وأظهر، فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ وهو مَنْ وُلِـدَ أخرس، فهو لا يَفْهَمُ ولا يُفهِم، وفوق ذلك ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الأشياء المتعلِّقة بنفسه وبغيره؛ لقلَّة فهمه وإفهامه وسوء إدراكه، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: ثقيلٌ وعالةٌ علىٰ مَنْ يلي أمره؛ لأنه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، وهذا بيان لعدم قدرته علىٰ إقامة مصالح

مولاه، ولو كانت تافهة لا ينجح فيها أبداً، فمثل هذا ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: هل يستوي هذا الأبكمُ الكَلُّ العاجز ومَنْ هو فصيحٌ يُرشد الناس إلىٰ الحق والطريق القويم، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٦﴾ يسلكه في شؤونه، لا يتوجَّه إلىٰ مَطْلَب إلا ويبلغه بأقرب سعي وأدنىٰ تفكير.

وإنما قابل تلك الصفات بهذين الوصفين، لأنَّهما كمالُ ما يقابلها، إذ الأمرُ بالعدل هو مِنْ أعلى أنواع النطق والكلام، والسَّيْرُ علىٰ الصِّراط المستقيم هو من أرفع أصناف المقدرة والسلوك والاهتمام.

والمثل يبيِّن أنَّ هؤلاء المشركين في شركهم كمَنْ يُسوِّي بين عبد مملوك عاجز وحُرٍّ مالك قادر، وهو أمرٌ مُخالف للمنطق والمعقول. وكمن يُسوِّي بين رجل أخرس عاجز حقير، وآخر فصيح نبيه مرشد نبيل.

فالمثل الأول: لبيان المفارقة بين قُدرة الله العظيمة وعَجْز الشركاء. والمثل الثاني: لبيان المفارقة بين علم الله الواسع ورشاد هدايته، وبين جهل الشركاء وضلال توجيههم.

وقيل: إنَّ المثلين يتناولان المؤمنَ والكافرَ أيضاً، لبيان الفرق بين الحرية والعبودية المعنويتين؛ إذ في الثانية: قيودُ الجهل والوثنيّة والشهوات، وفي الأولىٰ: انطلاق العقل في التوحيد والمعرفة والأخلاق الفاضلة وإشراقها.

ثم أردف ذلك ببيان شيء من علم الله الواسع، تقريراً لاختصاص الألوهية به تعالىٰ دون سواه، وفرَّع عن ذلك أمر البعث علماً به وسهولة عليه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبةً، بحيث لا سبيل لهم إليها، لا مشاهدة ولا استدلالاً، لأنها لا تقبل القياس والاستنباط، إذ لا مثيل لها في عالم الشهود. ومن ذلك غَيْبُ قيام الساعة والحشر والحساب الذي هو أعظم ما وقع

فيه المماراة والإنكار. وقد بيّن سهولة إيجادها عليه تعالىٰ، فقال: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ في سرعته وسهولته ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ أي: كرجع الطرف، ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وهذا تـمثيل لمنتهىٰ السهولة والسرعة. وقد علّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

ثم أيّد البيانَ عن قدرته البالغة بالواقع المعروف، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أدواتٍ تعلمون بها، أي: وسائل للعلم والإدراك وسَعَةِ المعرفة، فتطوّرتُم حسبما أودع الله فيكم من الاستعداد تطوُّراً عجيباً بالمدارك السامية إلىٰ حدٍّ يُدهِشُ العقول أحياناً ويُحيِّر الألباب، وذلك من أظهر الأدلة علىٰ قُدرة الله القادر الحكيم، وعلىٰ أن الإنسان له أطوار يتطوَّر إليها، وبَعثُه وحياتُه بعد موته واحدٌ منها.

وإنما أفرد السمع لأنه مصدر في الأصل، تستوي فيه الأحوال كلُّها من إفرادٍ وتثنية وجَمْع، أو لأنه ذكر مع الجمع فيدلُّ علىٰ الجمع، وذلك من خصائص اللغة، كما

قال تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨].

ثم علَّل ذلك الجعل بهذه الغاية، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ هذه النِّعَم وتصرفونها فيما خُلِقَت له، وذلك بتوحيده تعالىٰ والقيام بأوامره ونواهيه، ولكن الإنسان كفور.

وفي الآية تقريعٌ ضمني للذي لم يستفد من تلك المواهب، ولم يُدرِك بها الحقائق.

ثم تابع البيان عن قدرته بإثارة الشعور إلىٰ ما أودعه الله في هذا الهواء اللطيف من قابلية حَمْل الأجسام الكثيفة. وذكر من ذلك الطير وتقلُّباته في جوِّ السماء، فإنه أمر يُدرِكُه كلُّ أحد، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بما أودع في الهواء من قابلية حَمْل الأجسام إذا كانت علىٰ وضع خاصٍّ، كما خلق الله الطير؛ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ إذ هم الذين لم يُفسِدوا فِطَرَهم ولم يَطْمِسوا نور بصائرهم، فينتبهون لآيات الله وعظائم قدرته ودقة تدبيره، وأنه خلق لكل شيء ما يحتاجه من الأسباب، ومن ذلك أمر الحشر والحساب، وما أمركم به ونهاكم عنه في شريعتكم من الأسباب.

ثم ذكر من نعمته وقدرته وحكمته نوعاً آخر، فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ حيث خلق لكم مواد الإنشاء، وجَعَل لكم من استعدادكم ما تتمكَّنون به من الإبداع في البناء. وهذا فيما يخصُّ أهل الحضر. ثم ذكر ما يخصُّ أهل البوادي وما يخصُّ أغنياء المسافرين، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ أُخَرَ من أديمها ومن أشعارها، وهي الأخْبية والقباب والخيام، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وفي تَرحالكم وأسفاركم، ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ الدائمة أو أثناء التَّرحال والأسفار، ﴿وَ﴾ جعل لكم كذلك ﴿مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا﴾ وهي أمتعة البيت.

وفي قوله: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ تزهيد بذلك الأثاث مهما كان قيِّماً، لأنه من متاع هذه الحياة الفانية، علىٰ طريقة القرآن في سبك المعنىٰ علىٰ المعنىٰ.

ثم ذكر ما يخصُّ فقراء المسافرين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ كالأشجار والآكام تـتَّقون به حرَّ الـهاجرة، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ كالكهوف والغِيران تتَّقون بها البرد والعوادي.

وبعد أن ذكر أمر المسكن، ذكر أمر الملبس، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾، وهو كلُّ ما يُلبَس، أي: جعل لكم ثياباً من القطن والكتّان والصوف وغيرها، ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، واكتفىٰ به عن ذكر البرد، وذلك علىٰ طريقة إيجاز القرآن بالاكتفاء بذكر أحد الضدَّين عن ذكر الآخر. ثم عطف عليها ألبسة الحرب فقال: ﴿وَسَرَٰبِيلَ﴾ من الدروع والجواشن[1] ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أي: البأس الذي يصلُ من بعضكم إلىٰ بعض في الحروب من الطعن والضرب.

ثم ختم هذه المنن بالتمنُّن وباستفزاز الشعور لوجوب شكرها بالانقياد إليه تعالىٰ وحده دون سواه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإنعام البالغ ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: رجاء أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النِّعَم الظاهرة والباطنة، فتعرفوا حقَّ منعمها، فتؤمنوا به وحده، وتَذَرُوا ما كنتم به تشركون، وتنقادوا لأوامره سبحانه ونواهيه.

ثم صرف الخطاب عنه إلىٰ رسول الله ﷺ، تسليةً له، فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ولم يقبلوا منكم ما تُلقي إليهم من البيِّنات والعِبَر والعظات، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ وقد بلَّغتَ وأدَّيتَ واجبَك، فلا بأس عليك.

---

(١) الجَوْشَن: هو اسم الحديد الذي يلبس من السلاح. «لسان العرب» (جشن).

ثم وبَّخهم وقرَّعهم علىٰ معرفتهم لهذه النِّعم، وكفرهم بمُنعِمِها، رغماً عن هذه التَّحسيسات، فقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ عليهم، ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ حيث يشركون بمُنعِمِها ولا يرعونَ حقَّها، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: الجاحدون.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾
وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ
أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟
إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟
يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ
هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

ثمَّ نبَّههم وأوقفَهم علىٰ ما سيكون من أمرهم في الآخرة، تهديداً لهم وإنذاراً وتبصيراً، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيُّهم يَشْهَد لهم وعليهم بالإيمان والكفر، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في الاعتذار؛ إذ لا عُذْر لهم. والإتيان بـ«ثم» للإشارة إلىٰ زيادة ما يحيق بهم من شدَّة الهمِّ والحَزَن عند المنع عن الاعتذار، فلا هم يُعذَرون ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: لا تُقبَلُ منهم العُتْبىٰ، وهي بمعنىٰ طلب العفو. فالآية بجملتها تصويرٌ لموقف الحساب، وشدَّة الحال عليهم، وانسداد الطُّرق بهم، فلا نجاةَ ولا خلاصَ.

ثم ذكر حالهم السيئَ في مصيرهم للعذاب، فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: لا يُمهَلون. وقد تجوَّز بالرؤية عن التلبّس به.

ثم ذكر ما يكون بينهم وبين شركائهم، فقال: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ ﴾[١] أي: الشُّركاء المزعومون ﴿ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ أي: أجابوهم بالتكذيب في أنهم شركاء الله، أو أنهم ما عبدوهم وإنما عبدوا أهواءهم، كقوله تعالىٰ: ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم: ٨٢]، وهذا البيان في شأن مَنْ يَعبُد الأنبياء والملائكة والصالحين. والمراد من إلقاء القول: إظهار معناه للنفس بتأثير ووضوح، حتىٰ تدركه متمِّيزاً عن غيره. والمراد به هنا: شدَّة المبالغة في المدافعة والتنصُّل. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ﴾[٢] أي: الاستسلام لحكمه تعالىٰ، بمعنىٰ: أظهروه جلياً بارزاً للعيان، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم[٣] مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ من أنَّ آلهتهم تَشْفَع لهم عند الله.

وبعد أن ذكر وعيد الذين كفروا، أتبعه بوعيد من ضمَّ إلىٰ كفره صدَّ الغير عن سبيل الله، مثل بعض هؤلاء الشركاء، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾؛ عذاباً بكفرهم، وعذاباً بصدِّهم الناس عن سبيل الله.

---

(١) يجوز أن يراد بالشركاء هنا: الرؤساءُ الذين دعوا هؤلاء الأتباع لهذا الشِّرك وأوقعوهم فيه، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، وذلك لأنهم اشترعوا بشرعهم وائتمروا بأمرهم. وعليه فيكون معنىٰ ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾: أنَّ الأتباع يقولون للرؤساء: كَذَبتُم علينا في أمر الشرك وأوقعتمونا. (المؤلف).

(٢) قدَّموه طائعين بعد أن كانوا في الدنيا مُتكبِّرين مُعاندين. و﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾: وقتَ إذ كذَّبتهم معبوداتهم.

(٣) أي: زال وغاب وضاع وبَطَل عن المشركين.

ثم أعاد الوعيد بالبعث والحساب، بناءً على شهادة الرسل، ونصَّ على توعُّد كفار قريش بمثل ذلك؛ مبالغةً في تنبيههم، فقال: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: نبياً من قومهم يشهدُ على أعمالهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾، ثم أتبع ذلك ببيان أنه سبحانه قد قطع حُجَّة الناس إذ أنزل عليهم هدايتهم مع هذا الرسول، فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ للعالمين، ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ المنقادين بتعاليمه وبياناته. أما حرمان الكفرة من مغانم آثاره، فمن تفريطهم به نتيجةَ إفسادهم لطبيعتهم، برداءة التربية وسوء القدوة.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

ثم ذكر مُجمَلَ ما جاء في هذا الكتاب وطبيعة ما فيه من الأوامر والنواهي، والأسس

الاجتماعية العظيمة في إصلاح شؤون البشر، وتنويهاً بشأن المنزَّل، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ [١] بِٱلۡعَدۡلِ [٢] وَٱلۡإِحۡسَٰنِ [٣] وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ [٤]﴾ ما يسدُّ عوزَهم، ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ [٥] وَٱلۡمُنكَرِ [٦] وَٱلۡبَغۡيِ [٧]﴾، وهذه هي مُجْمَلُ هذا الدِّين والعُمُد والكليات التي بُني عليها مُفصَّل أوامر هذا القرآن ونواهيه. فالله سبحانه ﴿ يَعِظُكُمۡ ﴾[٨] بذلك ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ وتُراعون وُجوهَ الحِكَم والمصالح في أعمالكم، وتتمسَّكون بما يأمركم الله به، وتَنْزجرون عمَّا ينهاكم عنه. والإحسان: كلُّ ما يُحقِّق شيئاً من المُثُل العُليا. وعكسه الإساءة.

ثم خصَّ من بعد تلك الأسس العامة: الوفاءَ بالعهد، تنويهاً بشأنه، وتمهيداً به لما بعده، فقال: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا ﴾، والكفيل يُراعي حال المكفول، فهو هنا بمعنىٰ:

---

(١) أي: يُوجب ويفرض. والتعبير بفعل المضارع للدلالة على التَّجدُّد والاستمرار.

(٢) العدل: هو الاعتدال والتوسُّط في كلِّ شيء من غير إفراط ولا تفريط، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، والمراد به: العدلُ بين العبد وربِّه سبحانه بتوحيده وعدم الإشراك به، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والعدلُ بين العبد ونفسه بمنعها ممَّا فيه هلاكها وفسادها، والعدلُ مع الخلق بإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه.

(٣) الإحسان مع الله سبحانه بأداء فرائضه وعبادته كأنك تراه، ومع الخلق بأن تُحسِنَ إلى مَن أساء إليك، وبإتقان العمل وإكماله.

(٤) أي: صلة الرحم، وهم القرابة الأدنون والأبعدون منك.

(٥) أي: الذنوب المُفرِطة بالقُبح. والمراد بها: الكبائر المتعلقة بالفروج.

(٦) أي: ما أنكره الشرع وقبَّحه ونهى عنه نهيَ تحريم. وهو ما تكرهه العقول السليمة أيضاً.

(٧) أي: العدوان على حقوق الناس بالقوة والقهر.

(٨) ينصحكم الله سبحانه نصحاً مقروناً بما يثير الرَّغبة والرَّهبة.

جَعَلتُموه شاهداً ورقيباً. ففي الجملة زيادةٌ في التحذير، قرّره بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾.

ثم أتبع الكلام بهذا التمثيل لبيان بَشَاعة نَقْض الأَيمان وعدم الوفاء بالعهد، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ في إبرامه حتىٰ عاد ﴿أَنكَٰثٗا﴾ أي: طاقات، والمفرد: نكث. والمراد: تشبيهُ الناقض لعهد الله أو عهد الناس بمن هذا شأنُها.

ثم أردف التمثيل ببيان الحقيقة المرادة منه، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾، قال الواحدي: الدَّخَلُ والدَّغَلُ: الغش والخيانة[1]. وقال الزجّاج: كلُّ ما دخله عَيْب. قيل: هو مَدْخول، وفيه دَخَل[2]. وقال غيره: الدخل: ما أُدخل في الشيء. وعلىٰ كلٍّ، فملخَّص المعنىٰ: لا تجعلوا أَيمانَكم مُخاتلةً وخداعاً ومُوَاربةً بينكم، وتنقضوها لمآربكم ظلماً وغدراً.

ثم بيَّن صورةً من صُوَر البواعث علىٰ ذلك بقوله: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍ﴾ أي: أكثر وأقوىٰ. ومُحصَّل الكلام: النهيُ عن أن يَغْدِرَ القويُّ من الأمم بمعاهدته تجاه الضعيف منها. وقيل: إنهم كانوا في الجاهلية يحالفون، فإذا جاءهم مَنْ هو أكثرُ عدداً وأعزُّ نفراً، نقضوا حلف أولئك وحالفوه عليهم، فنهاهم الله عن ذلك.

فالآية تنهىٰ المسلمين عن مثل ما تـتَّخذه الدول الأوربية حُجَّةً لنقض العهود والمواثيق، وهو ما يعبِّرون عنه بمصلحة الدولة. وتنصُّ الآية علىٰ أنَّ هذه المصلحة لا تُبَرِّر نَقْضَ العهود، وتُشَنِّع علىٰ من يفعل ذلك بهذا التشبيه المُزْري الوجيع.

---

(١) «التفسير الوسيط» (٣: ٨٠).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٣: ٢١٧).

ثم حضَّ علىٰ التمسُّك بما ذكر من الأحكام والعهود، ملمعاً إلىٰ العهد مع الله في التشريع، فقال: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي: يختبر بما ذكر من العهود والأوامر والنواهي ما بقي في نفوسكم من نور الفطرة وسلامة الوجدان والإنسانية، لتقوم الحجَّةُ لكم أو عليكم، ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾، وفيه التجوُّز بالبيان عن الجزاء لأنه نتيجتُه، وبالاختلاف عن المخالفة للأحكام لأنه يؤدِّي إليها. والمعنىٰ: أنه تعالىٰ يُجازيكم علىٰ مُخالفاتكم، بعد أن يبيِّن لكم ما فعلتموه من ذلك.

ولبيان أنَّ هذا الاختلاف إنما هو باختيار الإنسان وصنيعه حسب سُنَّة الله في فطرته، حيث خلقه يتصرَّف في شؤونه بنفسه، ويختار الوجهة التي يريدها بإرادته، ولإفادة أنَّ هذا الاختلاف ليس قَسْراً لإرادته تعالىٰ ولا عن عجز في قدرته، قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ في السَّيْر علىٰ الهدىٰ والقَسْر علىٰ الإصلاح، بمقتضىٰ الغريزة والفطرة، وليس لكم في أعمالكم رأيٌ ولا اختيارٌ، وإذن لَـمَا كنتم هذا النوعَ المسمَّىٰ بالبشر الذي شاءت حكمة الله أن يخلقه مُخْتاراً في تصرُّفه بشؤونه، ليكون خليفةً في الأرض، يتصرَّف في مرافقها ومواهبها بثقافة عقله.

فلهذه الغاية لم يَشَأ سبحانه أن يكون الإنسان مَقْسوراً في أعماله، ﴿وَلَٰكِن﴾ شاء أن يكون مُخْتاراً فيها، وقد جهَّزه بهدايتين: هداية طبيعية، وأخرىٰ شرعية، فهو يسير بحسب عقليته المكتسبة بمؤثِّرات التربية، فإن كانت حسنة سار في الطرق الصَّالحة، وإن كانت سيئة سار في الطرق الفاسدة، وذلك معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾[1]

(١) ليس معنىٰ الإضلال أنَّ الله سبحانه يخصُّه به قصداً أو يخلقه كذلك، كلا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وإنما المراد ضلال العبد بمعاطاة الأسباب المؤدية إليه، كما يقال: لقد أعماه الله، وما العمىٰ إلا مرض طارئ ينشأ من تقصير الإنسان في قوانين الصحة لحفظ العين والبصر، فالمراد: =

وهو الذي أفسد غريزته بمفاسد التربية والتقليد، وتشبَّع بأسباب الضلال، فعَمِيَ عن الهُدىٰ، ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي حافظ علىٰ سلامة فطرته ونُور بصيرته فاسْتَنار الحق ولبَّاه.

فمؤدَّىٰ البيان: إنكم مستعدُّون للميل إلىٰ الضلال والهُدىٰ، بحسب تكييفكم لمواهبكم، والتصرُّف بما أودع فيكم من الاختيار، ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ في تصرُّفاتكم، لأنكم فعلتموها باختياركم.

وتحرير الآية: أن الله سبحانه شاء أن يخلق البشر مُسَخَّراً لإرادة نفسه حسبما تنظمها له عقليته، أو تدفعه لها عاطفته، وهو قادر أن يحفظ موازنته في إرادة الخير، إذا لم يخلد إلىٰ الشر والفساد، ويتشبَّع بالضلال بسُوء التربية والتقليد الأعمىٰ. فإن جَنَح لذلك كان وبالاً علىٰ نفسه ظالماً لها، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]. وإن جَنَح للخير والصَّلاح كان عضواً صالحاً في المجتمع، نافعاً لنفسه وقومه والناس أجمعين. ولتقرير هذا المعنىٰ وبيان أنه سبحانه لم يُـخْلقه ضالاً بطبيعته، ولكنه ضلَّ بسُوء تربيته، عقَّب بقوله: ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾.

= أنه يضل بسوء تصرُّفه وإفساده لطبيعته، بمفاسد التربية والتقليد. وكذلك مشيئته سبحانه لا تجري جزافاً واعتباطاً، كلا، وإنما هي أزليَّة جارية بالحقِّ والعدل في سنن مُطَّردة لا تتبدَّل، فقد سبقت مشيئته تعالىٰ أنْ ألهم كلَّ نفس هداها، وميَّز لها فجورها وتَقْواها، فكان لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٢]. ويجوز أن يكون فاعل ﴿يَشَآءُ﴾ عائداً إلىٰ «من»، ويكون المعنىٰ: يضل من يشاء الضلال، ويهدي من يشاء الهداية، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: ٢٩]. والله أعلم. (المؤلف).

وتقدم التعليق في المقدمة (١: ٥٦٩) على القول بأن فاعل «يشاء» عائد إلى «مَن»، أي من يشاء الضلال، ومن يشاء الهداية.

ثم كرر النهيَ عن الاستهتار والمُخاتَلة في نقض العهود، مبيِّناً ما ينتج عنه من الأضرار في الدنيا والعقاب في الأُخرىٰ، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: مكراً وخديعة، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾[1] وتـهوي في مهاوي الـرَّدَىٰ، ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ في الدنيا بتضييع الثقة بكم، وقلة الاعتماد عليكم، وما يتفرَّع عليهما من الأضرار الاجتماعية العظيمة، وذلك ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي منه الوفاء بالعهود، والصدق والصَّراحة في المعاقدات والمعاملات.

وبعد أن لـمَّح إلىٰ ما ينالهم من الأضرار الدنيوية بنتيجة الـمُخاتَلة والـمُوارَبة في المعاقدات والمعاهدات، توعَّدهم عليها في الآخرة، فقال: ﴿وَ﴾ فوق ذلك ﴿لَكُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾ بما فرَّطتم في أمر الله والوفاء بالعهد.

ثم ذكر هذا الحكم العامَّ بعد ذلك الحكم الخاصِّ، فقال: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ وهو متاع هذه الحياة الدنيا مفضِّلين له علىٰ ما عند الله، ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والمعرفة والتمييز. والمراد بالعهد: نوعاه: العهد ما بين العبد وأخيه، والعهد ما بينه وبين الله فيما يأمره به وينهاه.

ثم علَّل تلك الخيرية وبيَّن وجهها بقوله: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ علىٰ مشاقِّ التكاليف التي منها التمسُّك بالعهود؛ لنجزينَّهم ﴿أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾.

---

(١) يُحذِّر سبحانه من معاهدات للاحتيال علىٰ حقوق الضعفاء، هذا هو المبدأ الإسلامي، فقايسوه أيها الناس بما يقوم به الذين يُسمُّون أنفسهم المتمدِّنين في العصر الحاضر، يحرِّفون معاهدات كانت سبباً لنكبة العالم، فليعتبر بذلك أولو الأبصار، ويدركوا أن الثقافة في الدين الإسلامي، لا في غيره من المبادئ والقوانين. (المؤلف).

ثم بيَّن ثمرة التمسُّك بهذه التكاليف حَمْلاً لهم عليها، فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ وفي هذا الوصف إشارة إلىٰ أنَّ تلك التعاليم إنما هي صلاح للبشر، فمن عمل منهم بها ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الإيمان هو مصدر الأعمال الصالحات علىٰ وجهها الصحيح ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، وأفرد الضمير باعتبار لفظ ﴿مَنْ﴾، وجَمَعَه باعتبار المعنىٰ في قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

وقد اختلفوا في هذه الحياة الطيبة أين تكون؟

فقال بعضهم: في الدنيا، وفسَّرها بأنَّ المؤمن يعلم أن خيرات الدنيا خسيسة، فلا يتهالك علىٰ إحرازها، بل يعتدل في تحصيلها، ولا يغتمّ لفقدانها كثيراً، وبذلك تكون حياتُه كلَّ راحة واطمئنان، وقد أنزل الله القرآن شريعة عالمية، ولغته لغة عالمية، يتعلَّمها كلُّ أحد مع لغته ليكون البشر عائلة واحدة تفهم القرآن وتعمل به، لا خلاف بينهم إلا في مشكلات يسيرة يحلها لهم السلطان بأحكام القرآن. فما أعظم هذه السعادة! ويا حَسْرةً علىٰ العباد!

وقال السُّدِّيّ: إن هذه الحياة الطيبة تحصل في القبر وعالم البرزخ قبل الآخرة.

وقال الحسن وسعيد بن جبير: إن هذه الحياة الطيبة لا تحصل إلا في الآخرة.

والذي أراه في مَفَاد الآية: أن التعاليم الإلهية ـ إذا عُمل بها علىٰ الوجه الصحيح ـ عادت بسعادة الدنيا وسعادة الأخرىٰ، بحكم انطباقها علىٰ السنن الكونية.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ

قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

ولما بيّن أنَّ الكتاب المنزل هو تِبْيانٌ لكلِّ شيء في الصالحات، يصلح به أمر هذا الإنسان من كلِّ الجهات، وانتهىٰ البيان إلىٰ أنَّ مدار الجزاء المذكور هو صلاحُ العمل وحُسنُه، رتَّب عليه بالفاء الإرشادَ إلىٰ ما به يحسن العمل ويخلص من شوائب الفساد، ويكون علىٰ أكمل وجوهه، وهو قراءة هذا القرآن بالتدبُّر ليعلم به وجه ذلك، والاستعاذة بالله من الشيطان إذا قرأه دفعاً لخطراته وسُوء وساوسه فيه، وفي وجوب التمسُّك بتعاليمه المارَّة الذِّكْر وفوائدها العظيمة الشأن، فتكون لك بتطبيق هذه التعاليم شخصيةٌ صالحةٌ كاملة، تصلح للسعادة في الحياتين الدنيا والأخرىٰ، فقال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ أي: استعصِمْ بالله منه ليقيك شرَّ وساوسه في تعاليمه وتوجيهاته وآدابه وواجباته. وقد علَّل الأمر بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ ﴾ أي: بسبب وسوسته ﴿مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾، ومُلَخَّصُ الكلام: أنَّ خطرات السُّوء تَبعُدُ عن المؤمن الخالص الإيمان، وتكثر عند غيره، مثل جراثيم المرض، تقلُّ عند من يحافظ نفسه ولا تضره، وتكثر عند غيره ويشتد ضَرَرُها عليه.

ثم عاد إلىٰ ردِّ شبههم علىٰ القرآن، وذكر شيئاً من تأثير وسوسة الشيطان علىٰ أولئك المشركين، فقال: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ بأن بُدِّل حكمٌ شرعيٌّ كان في شريعة سابقة كالتوراة، بحكم شرعيٍّ آخر مكانه في هذا القرآن، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ حسب مُقْتضيات المصالح[1]، بحسب اختلاف الأجيال والأزمان

(١) وهذا التعليل لنسخ الأحكام ما بين شريعة وأخرى، وهو اختلاف مصالح العباد، واردٌ في =

وارتقاء نوع الإنسان، ﴿قَالُوٓاْ﴾ لك يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ عن الله، حيث أتيتَ بحكم مخالف لحكمه في كتابه السابق، كلا، ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ حِكْمَةَ تبديل الشرائع ونَسْخ بعض أحكامها الخاصَّة بوقت أو أمة أو حالة مما بطلت الحاجة إليه، أو تهيَّأ الوقت لتبديله.

ثم أمره أن يردَّ عليهم بقوله: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: إنَّ هذا القرآن الذي فيه تبديلُ بعض الشرائع السابقة نزَّله جبريل من الله سبحانه بالحقِّ الموافق للحكمة والمصالح العامة، ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما فيه من الـحُجَج والآيات، فيزدادوا تصديقاً ويقيناً، ﴿وَ﴾ ليكون ﴿هُدًى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾ المنقادين لأوامره ونواهيه.

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾.

ثم أخذ يُحلِّل بعض مُعانداتِهم وتُـهَمِهم لهذا القرآن وإنكارهم أنه من الله، وينقضها عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾[1] أي: إنَّ

= أحكام الشريعة الواحدة أيضاً، فكان ينبغي تفسير تبديل الآيات بنسخ الأحكام على وجه عام، أي: سواء بين شريعة وأخرى أو في الشريعة نفسها.

(١) لم يكونوا في هذا القول جادِّين ولا مطمئنين، ولكنهم يريدون أن يدرؤوا عن أنفسهم بالصدق أو الكذب، بالجِدِّ أو اللعب، وكفىٰ في تجهيلهم والتشنيع عليهم قوله سبحانه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ إذ فيه من السخرية بهم ما لا يزيد عليه. وقد زادوا بسفههم هذا الحقَّ الذي اتَّهموا قوةً إلىٰ قوته وثبوتاً علىٰ ثبوته. ولـمَ لـمْ =

محمداً يتعلَّم هذه التعاليمَ التي يبثُّها ويُسمِّيها قرآناً من فلان، ولم يُسمِّ القرآن ذلك الـمُعلِّم المزعوم، بل اكتفىٰ بما لَـمَحَ في الجواب عن هذه المقالة الشنعاء: أنه أعجمي وليس بعربي. وهذا الأمر مما يزيد في بُعد هذه المقالة عن الصِّحَّة ويبالغ في التشنيع، فقال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيٌّ﴾، والإلحاد: الإمالة عن الاستقامة، أي: لسان الرجل الذي يكذبون عليه وينسبون إليه التعليم غير عربي، ﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ ذو بيانٍ وفصاحة، بعيدٌ كلَّ البعد عن متناول أفصح الفصحاء، فكيف بالأعاجم؟ وفاقد الشيء كيف يعطيه! وهذا الرد من أشنع الردود عليهم وأفضحها[1].

= يأخذوا من هذا الأعجمي ما أخذه منه محمد ﷺ، فيداووه من جنس دائه ويستريحوا من عنائه؟! وما مَنَعَ ذلك الأعجمي أن يبدي صفحته فيتولّىٰ بنفسه تلك القيادة العالمية أو ينال شرف تلك الأستاذية؟! والإلحاد: الطعن. وضمَّنه معنىٰ: يضيفون، فعدّاه تعديته علىٰ نهج القرآن في ذلك. وتقدير الكلام: ولسان الذي يضيفون إليه هذا الطعن والتعليم أعجمي لا يحسن العربية، فكيف يُعلِّمه هذا القرآن الذي عجز العرب الفصحاء عن الإتيان بآيات من مثله؟ فهل هذا إلا مهزلة وهُراء؟! (المؤلف).

(١) قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ لا يخلو هذا البشر من أن يكون وثنياً أو يهودياً أو نصرانياً. فالوثنيُّ لا يمكن أن يُعلِّمَه التوحيد والرد علىٰ المشركين، واليهوديُّ لا يمكن أن يُعلِّمَه أخبار المسيح وأمِّه والإقرار لهما بالفضل والنزاهة. والنصراني لا يمكن أن يُعلِّمَه أن ينكر لاهوت المسيح ولا التثليث ولا الصَّلب، فهذه دعوىٰ ظاهرة السُّخْف والبطلان. ثم إنَّ التعلُّم لا يأتي في جلسة أو جلسات قليلة، ولا سيما مثل علوم القرآن العديدة، بل لا بدَّ من اختلاف المتعلِّم علىٰ المعلم أزماناً طويلة، ومثل ذلك لا يتمُّ في الخفاء، فلو كان لاشتهر بين العرب. ومثل علوم القرآن يقتضي مُعلماً متضلِّعاً في العلوم، ولم يكن في مكة شخصٌ مشهور بذلك معلوم بفضله بين الناس، ولو كان لاضطر النبيُّ إلىٰ تقديم هذا الشخص علىٰ أصحابه ولأظهر له احتراماً زائداً، ولفاه المعلم بذلك لبعض الناس، وكل ذلك لم يكن. فما أحمق هذه الدعوىٰ! وما أسخفها لدىٰ العاقل والجاهل والعدو والصديق! (المؤلف).

وفي هذا وشبهه إلماع إلىٰ وجوب كَوْن اللغة العربية لغةً رسميةً في الدول الإسلامية الأعجمية، وقد كان الأمر كذلك إلىٰ حدود الثمانمئة الهجرية؛ لأنَّ هذا الدين لا ينتعش ولا يُفْهَم علىٰ الوجه الأكمل إلا بالعربية.

وبعد أن أماط شبهتهم وردَّ طعنهم، ذكر منشأه فيهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾ للحقِّ والصواب؛ لا قولاً ولا فعلاً، فهم فاشلون حتىٰ في تصوير أكاذيبهم، لا يعرفون كيف يكذبون ليروج كذبهم، لما قد انطبعوا عليه من الكفر وسَخَافة الفكر، وذلك حسب سُنَّة الله في خلق الإنسان إذا رَسَخت فيه بعض المَلَكات وانطبع عليها، لا يفارقها ولا يتحوَّل عنها إلىٰ غيرها، ويلتمس المعاذير الواهية والتقوُّلات السخيفة، لِيَصِمَ بها ما يخالفها من الحقِّ المبين. فتوعَّدهم علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: بما كانوا يكفرون.

ثم ردَّ مرة أخرىٰ علىٰ قولهم: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾، وقَلَبَ الأمر عليهم، وردَّ الوصف إليهم ببيان أنهم هم الـمُفْترون، بعد أن ردَّه بتحقيق أنه مُنزَّل من عند الله. وإنما وسَّط بينهما قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ...﴾ لشدَّة اتِّصاله بالردِّ الأول، وليكون زيادةَ تشنيع علىٰ افترائهم هذا، وليُلمِعَ إلىٰ دفعه في هذا الحكم الذي سجَّله علىٰ الكاذبين برد الوصف عليهم، فقال: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ لأنهم لا يخافون عقاباً يردعُهم عنه، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: إنَّما المُفْتري مَنْ يكذِّب بآيات الله، ويقول: إنها افتراء، وإنَّ الرسول مُعلَّم من البشر.

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ

هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

ثم أردف هذا السياق المبيِّن لحال الكافرين ومصيرهم، ببيان حال المرتدّين منهم الذين كفروا بعد إيمانهم، وجَعَله بحسب السياق امتداداً لردِّ قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾، قرَّر فيه بحسب الصيغة قاعدةً عامة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ وقبل أن يذكر حُكمَهُم ومصيرَهُم استثنىٰ الـمُكْرَهين، تعجيلاً بالتَّطمين، علىٰ نَـهج القرآن في مثـل ذلك، فقال: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، وقد كان قريش يُكرِهون بالتعذيب بعضَ ضعفاء المؤمنين من مواليهم علىٰ أن يتكلَّموا بالردة والكفر بما جاء به محمد ﷺ، وممن اتَّفق له ذلك عمار بن ياسر، فقيل: يا رسول الله، إن عماراً قد كفر، فقال: «كلا، إنَّ عماراً مُلئ إيماناً من قَرْنه إلىٰ قَدَمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»، فأتىٰ عمارٌ رسولَ الله ﷺ يبكي، فجَعَل رسول الله ﷺ يمسح عينيه، ويقول: «ما لك؟ إن عادوا لك فَعُدْ لهم»(١).

وبعد أن استثنىٰ الـمُكْرَهين، عادَ لتقرير حكم الـمُرتدِّين قَصْداً، وبيَّن المراد بهم بطريقة الاستدراك، فقال: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ أي: اعتقده باختياره وطاب به نفساً ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾﴾؛ إذ لا أعظم من جُرْمِهم. والجمع في الضميرين لمراعاة جانب المعنىٰ لـ﴿مَن﴾، وقد جاء عنه ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دينَه فاقتلوه»(٢).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ٣٠٤)، عن ابن عباس.

(٢) رواه البخاري (٦٩٢٢)، عن ابن عباس.

ثم علَّل الحكم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: إنهم لا يشكُّون في صدق محمد ﷺ، وإنما فعلوا ما فعلوا طلباً للدنيا عن الآخرة، وباعوا آخرتهم بدنياهم، حفظاً لمراكزهم ومنافعهم.

ثم علَّل الأمر بوجه آخر فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾، لأنَّ من سُنة الله في طبائع البشر وأخلاقهم: أنَّ من ترسخ فيه مَلَكَة من المَلَكات بمزاولته لها لا يميل لضدِّها أبداً، ويلتمس الوصمات لِـمَا يخالفها. فمَنْ رَسَخَ فيه الكفر لا يهتدي للإيمان ولا يراه حقاً. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

ثم ذكر حُكْمَهُ فيهم ناعياً عليهم، فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي: كاملو الخسارة.

وبعد إكمال البيان عن الـمُرتدِّين قصداً واستيفاء الحكم عليهم، عاد إلىٰ تأكيد العفو عمَّن أُكرِهَ وتقريره زيادةً في التطمين، وبيَّن لهم طريقة التزكية والنجاة، وعطفه بـ﴿ثُمَّ﴾ لـهذا الغرض، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ في دينـهم بالإكراه علىٰ الردة، ﴿ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد تلك الفتنة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾، وأعاد قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ لبيان عدم إخلال تلك الفتنة بالحكم، وللمبالغة في تقريره.

ثم ذكر زمن ذلك الغفران لهم، فقال: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ لا يهمُّها شأنُ غيرها، ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ في جزائهم، بل يأخذونه حقاً وعدلاً.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

وبعد أن ذكر المغفرة والرحمة لهم في ذلك اليوم الحَرِج، توعَّد الذين فتنوهم من أهل مكة، وضَرَب لهم هذا المثل فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾، وفي الكلام استعارةٌ بديعةٌ مزدوجةٌ من صفات المطعوم والملبوس، وهذا كان حالَ مكة في قريش منذ ظهور الإسلام إلىٰ فتح مكة.

ثم بيَّن مُجمَلَ ما كانوا يصنعون، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾، وفي هذا القيد زيادةٌ في التقريع، لأن فيه إيماءً إلىٰ أنهم يعرفونه بأصله ونسبه وأخلاقه وصدقه فيهم، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، ثم بيَّن ما أصابهم من جرَّاء ذلك التكذيب، فقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: وهم متلبِّسون بالظلم. والمراد من العذاب: ما أصابهم من الجَدْب الشديد واضطراب الحال، أو وقعة بدر. وعلىٰ الثاني: يكون في الآية تنزيلُ المتوقَّع المعلوم لله منزلةَ الواقع، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، لأنَّ السورة مكيَّة، ووقعة بدر مدنيَّة.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ

ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟
ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

وبعد أن بيَّن ما أصاب هذه القرية من الـمَجَاعةِ بسبب ظلم أهلها بالشرك وملابساته، حذَّر الناس من أعمالهم الشركيَّة التي منها تحريم ما لم يُحرِّم الله من الأنعام. وخصَّ هذا بالذكر لمناسبته مع المجاعة، وللإيذان بجهالة الشرك وسَفَهِ أحواله، وقدَّم ما حرَّم سبحانه ليُعلَمَ أنَّ ما عداه حلال فيتناولوه شاكرين، وابتدأ بذكر التحليل العامِّ ليكون أساساً للكلام، وسَبَكه علىٰ التمنُّن، وقَرَنه بطلب الشكر عليه، فقال: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾، ولا تَتَّبعوا خطواتِ الشيطان في تحريم ما لم يُحرِّم الله من البحيرة والسائبة وغير ذلك.

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ مما ذبح علىٰ النُّصُب للأصنام. فهذه هي المحرَّمات عليكم في سائر الأحوال إلا في حالة الاضطرار، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ أي: غيرَ متناول لها قَصْداً بلا اضطرار، فهذه حالٌ مؤكِّدة لمعنىٰ الاضطرار، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الشيء بسَلْب ضدِّه، ﴿وَلَا عَادٍ ﴾ أي: لم يَتَجاوز في الأكل حدَّ الضرورة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ لا يُؤَاخِذُه بذلك.

ثم تابع الخطاب للناس بما فيهم المشركون، وردَّ عليهم مخالفتهم لـما ذكر من التحليل والتحريم في الذبائح، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾، وهذا التركيب علىٰ حدِّ قولهم: وجهُه يصف الجمـالَ، وعينُه تصف السِّحْرَ، وسَيْرُه يصفُ الكلال. والمراد به المبالغة في وصف كلامهم بالكذب في قولهم: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ

وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ أي: كما تقولون: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وأمثال ذلك؛ ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ أي: إن الذين يفترون على الله الكذبَ في أمر التشريع، فيُحلِّون ويُحرِّمون من أنفسهم، لا يُفلِحون في الدنيا ولا في الأخرىٰ؛ لأنَّ الأحكام الشرعيَّة يجب أن تُسايرَ الطبيعة البشرية الفردية والاجتماعية، المادية والروحية، وتكفل لها السعادة في الحياتين بصورةٍ صحيحة واقعية، ولا يمكن أن يعلم ذلك بحدود مضبوطة إلا الله سبحانه الذي يعلم مَنْ خلق وما يحتاج إليه، فهو وحده القادر أن يُشرِّع للإنسان ما يلائم روحَه وجسمَه ملاءمةً صحيحة متقنة يكون له بها السعادة والفلاح. أما ما يخالف تشريع الله، ويعتقد الإنسان أنه من مصلحته؛ فذلك خديعة من النفس يُزيِّفها العقل الصحيح والوجدان النزيه.

ثم أجمل عدم الفلاح بقوله: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: منفعةٌ أو لذةٌ وقتية في الدنيا، ﴿وَ﴾ لكن ﴿لَهُمْ﴾ بها في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾، وكذلك في أكثر أيام الدنيا لو كانوا يشعرون.

ولما حَصَر المحرَّمات العامة فيما ذكر، قال في إتمام البحث: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟[١] حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: في سورة الأنعام، إيذاناً بأنها ليست من المحرَّمات الذاتية، وغير مُحرَّمة علىٰ غيرهم، وإنما حُرِّمت عليهم خاصَّة جزاءً لهم علىٰ ظلمهم، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بذلك التحريم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾، حيث فعلوا ما استوجبوا عليه ذلك العقاب.

---

(١) يقال: هاد فلان، أي: رجع. والذين هادوا: هم اليهود، لأنهم رجعوا إلى الله بالتوبة من عبادة العجل.

ثم عقَّب هذا السياق في الكلام عن المشركين والتوعُّد لهم، ببيان قبول التوبة ممن تاب بعد جهالة؛ ليروا البابَ مفتوحاً لهم، ومن نهج القرآن إذا تكلم عن سفه الجاهلية وأبطل حكماً من أحكامها عقَّب ذلك بالعفو عمَّن أسلم منهم تطميناً لنفوسهم، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: جهلاً أو سَفاهة، ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد تلك التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾، وهذه الإعادة لبيان عدم إخلال ذلك العمل بالحكم، وللمبالغة في تقريره.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

ثم تابع الكلام عن المشركين وردَّ عليهم ما يدَّعونه من أن إبراهيم كان علىٰ مِلَّتهم، مُبيِّناً أن مِلَّة إبراهيم هي هذا الدينُ الحنيفُ نفسُه الذي تدعوهم إليه، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ بانفراده؛ لحيازته من الفضائل البشرية ما لا تكاد توجد إلا متفرِّقة في أمة، وكان ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ مطيعاً له قائماً بأمره، ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن كلِّ دين باطل، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾، فكيف تزعم قريش أنهم منه؟ وكان ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي: لِنِعَمِهِ تعالىٰ عليه. وفي هذا تقويةٌ للردِّ علىٰ دعواهم، إذ فيه تعريضٌ وإيماءٌ إلىٰ أنه عليه الصلاة والسلام علىٰ خلاف ما هم عليه من الكفران بأنعُم الله تعالىٰ. وقد ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ للنبوَّة ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ بما أوحاه إليه، وهذا الصِّراط يصل سالكُه إلىٰ سَعادة الدارَيْن.

ثم التفت من الغيبة إلىٰ التكلُّم، إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه، فقال: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾، وهي مصداق قوله تعالىٰ حكاية عنه: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤]، فكان ذا شأن رفيع في الأجيال اللاحقة، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ أصحاب الدرجات العُلىٰ، مصداقاً وإجابةً لما حكاه عنه بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٣].

وبعد التمهيد بهذا البيان عن إبراهيم عليه السلام، وجَّه الخطاب إلىٰ النبيِّ ﷺ، فقال: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ وفيه دلالة علىٰ التقارب بين المِلَّتين: ملَّة إبراهيم، وملَّة محمد صلوات الله عليهما. وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ مبالغة في الردِّ على قريش في دَعْواهم أنهم على مِلَّته.

وقال أبو مسلم: إن الآية ردٌّ علىٰ اليهود والنصارىٰ في ادِّعائهم أن إبراهيم كان منهم، قد أردفها بالردِّ علىٰ اليهود ما يدَّعونه من أنَّ تعظيم أمر السبت هو من شريعة إبراهيم، وعلىٰ مَنْ يدّعي اتباعَه أن يعمل به(١)، فردَّ عليهم بأنه كان خاصاً فيهم جزاءً لهم، وليس من مِلَّة إبراهيم، فقال: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ وليس هو من دين إبراهيم. وقد قالوا في ذلك: إن موسىٰ عليه السلام أمر اليهود أن يجعلوا في الأسبوع يوماً واحداً للعبادة، وأن يكون ذلك يوم الجمعة، فأبوا عليه، وقالوا: نريد السبت، إلا شِرْذِمة منهم رضوا بالجمعة، فأذِنَ الله تعالىٰ لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد فيه.

---

(١) أي: ينبغي على مَن يدّعي أنه من أتباع إبراهيم عليه السلام أن يعمل في يوم السبت، لأن تحريمَ العمل فيه لم يكن من شريعته، وإنما هو خاصّ باليهود.

وروي عن أبي هريرة عن النبيﷺ أنه قال: «إنَّ الله كتب يوم الجمعة علىٰ مَنْ كان قبلنا، فاختلفوا فيه، وهدانا الله له»(١).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ مِنْ أَمْرِ الأديان والشرائع واختلافهم فيها. ويجوز أن يكون فيه تجوُّز بالاختلاف عن المخالفة.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

وبعد ما تقدَّم من البيانات عن المشركين والكافرين، وإثبات أنَّ الدين الصحيح هو ما كان عليه إبراهيم حنيفاً مسلماً، وهو نفسُ هذا الدين الذي جاء به محمدٌ ﷺ في الطبيعة والقواعد الأساسية، أمَرَهُ أن يَدْعُوَ إلىٰ هذا الحقّ بألين وأوضح برهان، فقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾، والذين يُدْعَون بالحكمة: هم أهل البصيرة والنفوس الطيبة، والذين يُدْعَون بالموعظة الحسنة: هم عوامُّ الناس، والذين يُجادَلون بالتي هي أحسن: هم أهل الجَدَل والشغب.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ أي: اسلُكْ في الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة، فإنه تعالىٰ أعلَمُ بحال مَنْ لا يَرْعوي عن الضلال لإفساده وتحريفه لطبيعته بالكلية، وبحال مَنْ يصير أمره إلىٰ الاهتداء لمحافظته علىٰ سَلامة فطرته ونور بصيرته ولو في الجملة. يشير بذلك

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٤٨٦)، ومسلم (٨٥٥).

إلىٰ أصناف الناس في نشأتهم، لا في طبيعتهم، ويُلمِعُ إلىٰ أن ما شرعه له في صورة الدعوة هو الذي تقتضيه الحكمة في هداية المستعدِّين للهداية، وتفاهة غير المفسدين لذلك الاستعداد، الضالِّين عن طرق الـهُدىٰ والرَّشاد.

وفي الآية دليل علىٰ أنَّ الدين الإسلامي قام بالدعوة لا بالسيف، كما يزعم الـمُبطِلون أعداءُ هذا الدين. ويؤيِّد ذلك أنه ﷺ جاءته النبوة وهو وحيد فريد ليس بذي سلطان، وخَذَله في أول الأمر حتىٰ أقرباؤه، فلا زال يُقيمُ الأدلة ويُظهِرُ محاسن هذا الدين ويُوضِّح معائب ما هم عليه حتىٰ وَضَح الحق لمن أراد الله هدايتَه.

وقد أنبأنا التاريخ أنَّ هذا الدين قَبِلَتْهُ العقول السليمة، واستَحسَنَتْهُ الطِّباع الكريمة، وشاع في الناس قبل مشروعية الجهاد الذي شَرَعه الله لإزالة الأشواك عن طريق الدعوة، ولمقاومة المعتدين علىٰ أهل الدين، أو علىٰ مَنْ يريد نشره، أو علىٰ مَنْ يريد الدخول فيه.

وقد سُئل أحد الأعراب: لِـمَ آمنت بمحمد علىٰ عجل؟ قال: لأنه لا يقول عن شيء: افعله، والعقل يقول: لا تفعله، ولا يقول عن شيء: لا تفعله، والعقل يقول: افعله.

أقول: فلذلك دَخَلت الناس في دين الله أفواجاً بعد وضوحه لهم.

وبعد أن أمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالدعوة إلىٰ الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحُسْنىٰ، أتبع ذلك الأمر بحكم دفع المعتدين علىٰ هذا الدين وأهله، والمانعين لنشر الدعوة إليه، ولكن لا يزيدون في الدفاع علىٰ قدر الحاجة، فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ ولا تزيدوا علىٰ ذلك. وسمَّىٰ الاعتداءَ عليهم عقوبةً للازدواج والمشاكلة، أو لسبب اعتقاد المشركين أن قتالَهم عقابٌ للمسلمين علىٰ تبديل دينهم. والمقصود من الآية: إيجاب مراعاة العدل مع مَنْ يناصب العداء، فما أعظم هذا الدين!

ثم أكمل هذا التأديب العالي بما هو أعلىٰ منه مقاماً، وهو الصبر عليهم فيما لا يضرُّ بنشر الدعوة، فقال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ ولم تُعاقِبوا علىٰ الاعتداء عليكم ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾، والمتبادر أنَّ هذا التلقين إنما جاء بسبب ما كان من مواقف الكفَّار التي قد لا تُطاق، وما كان يعتلج في نفوس الأقوياء من المسلمين من الرَّغْبة في الوقوف منها مواقف المقابلة. ومن المعلوم أنَّ الترغيب بالصبر إنما هو فيما لا يضرُّ بنشر الدعوة.

ثم خصَّ الرسولَ ﷺ بالأمر بالصبر علىٰ صعوبة الدعوة، لأنه أَوْلىٰ الناس به، لزيادة علمه بالله تعالىٰ، ووثوقه بنصره له، لأنه مُعرَّضٌ لما يتنابه من الشدائد في سبيل الدعوة، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بذكرك لوعده لك بالنصر ورفع الذكر وعظيم الأجر، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ليأسك من إيمانهم، ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: في ضيقِ صَدْرٍ من مكرهم.

ثم علَّل الأمر والنهي بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، والمراد من هذه المعيَّة: الولاية الدائمة والعناية الخاصة.

❊ ❊ ❊

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

أو سورة بني إسرائيل

مكية، وهي مئة وإحدىٰ عشرة آية

وكانت حادثة الإسراء في السنة الثانية عشرة من البعثة، وقبيل الهجرة.

والغرض من هذه السورة:

- إثبات حادثة الإسراء

- وفَضْل المسجد الذي أُسري به إليه، وحال أهله بني إسرائيل، وما جرىٰ علىٰ هذا المسجد من جَرَّاء سلوكهم.

- والموازنة بين كتابي المسجدين: القرآن والتوراة، وما خصّ به القرآن من مزايا وقوة براهين ومواعظ ووصايا.

- وبيان حكمة الإسراء في اختبار الناس به.

ثم عاد إلىٰ بيان مزايا القرآن وإثبات نزوله وخَتَم به السورة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى
بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ
هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ
كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ
وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ
فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم
بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ
فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ
حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ ببركات الدين والدنيا؛ لأنه مهبط الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ بهذا الإسراء والمعراج ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ العظمىٰ في الأرض والسماء التي منها ذهابه في برهة من الليل إلىٰ بيت المقدس، وهو في مسيرة شهر عن مكة المكرمة.

ثم أومأ ـ والله أعلم ـ إلىٰ دفع ما ربما يسبق بعض الأذهان الضيّقة من أنّ هذا

الإسراء المقرون بالمعراج فيه مناسبة لداعية الحضور والمثول، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ ﴾[1] أي: لا حاجة له بالمثول، فمؤدّىٰ هذه الفاصلة أنَّ هذا الإسراء والمعراج

---

(١) المعراج بالروح والجسد معاً أم بالروح فقط؟ اختلف العلماء في ذلك، فالجمهور علىٰ أنه كان بالروح والجسد معاً، وقليل من العلماء من قال: إنه بالروح فقط، ولكنهم لا يعنون أنه رؤيا رآها في النوم، إذ الرؤيا خواطر للحس الباطن، وذلك من وظائف الجسم. أما الروح فإدراكها حقيقي واقعي قوي، ولا سيما بعد انفكاكها من الجسم، كما أشار إلىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]. والروح قد تنفكُّ من الجسم أثناء الحياة، كما أشار إلىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا...﴾ [الزمر: ٤٢]. وعلىٰ هذا الضوء يمكننا أن ندرك مقصد القائلين أنَّ المعراج بالروح فقط، بالبيان الآتي، والله أعلم.

أقول: يجوز أن يكون ذلك بانفكاك الروح عن الجسد وبقائه في محلِّه حياً، لأن الحياة أمر في البدن، وهي غير الروح ـ والله أعلم ـ فالروح كائن مستقل عن البدن مُغلَّف به، ويُؤْنس لهذا الرأي: أنَّ الروح المجرَّدة ـ والله أعلم ـ ينعدم لديها القُرب والبُعد والزمان والمكان. وكذلك يُؤْنس له: أن طبيعة المعراج تُعرَفُ مما جاء فيه: وكلُّه روحيّ، لأن الأنبياء الذين صَلَّىٰ بهم ثم لاقاهم في السماء في أمكانهم أرواح لا أجسام فيها، لأنهم في البرزخ، وحياة البرزخ مجرَّدة من الأجسام، ولا تتَّصل الأرواح بالأجسام إلا عند الحشر. وحياة الأجسام كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]. ولكون الأنبياء ـ والله أعلم ـ كانوا أرواحاً مجرَّدة صعدوا إلىٰ أماكنهم بعد أن صلىٰ بهم قبل أن يصل هو إلىٰ تلك الأماكن، لأن سيره بطيء، سَيْر مختبر مُسْتطلع، فالصعودان من جنس واحد، والله أعلم. وكذلك حال من اتَّصل بهم من الأطفال الذين حول إبراهيم عليه السلام والسعداء الذين رآهم في السعادة، والأشقياء الذين رآهم في الشقاء؛ كلهم أروح مجرَّدة في حياة البرزخ التي تنعدم فيها الأجسام، وكله حال واقعيّ ليس برؤيا.

وأما من يقول: إن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ [الإسراء: ٦٠] المراد منها المعراج، يكون إطلاق الرؤيا فيه مَجَازاً، لعلاقة المشابهة بينهما من بعض الوجوه. ولو كان المعراج رؤيا رآها ﷺ وادَّعىٰ بها، لما أنكرها عليه منكر من المشركين، ولا أحدث الأمر تلك الضجة. =

= نعم، هناك مَنْ يرىٰ أن المعراج كان مرتين؛ مرة كان نائماً في الحرم أو عند أم هانئ فانتبه وحكاه، ومرة قبل الهجرة في اليقظة وهو المسمَّىٰ بالمعراج. فعلىٰ هذا الرأي، يجوز أن تكون الأولىٰ رؤيا، كالتي قبل فتح مكة بأكثر من سنة، ثم تحقَّقت رؤيا المعراج بالمعراج، كما تحقَّقت رؤيا الفتح بالفتح. وقد جاء بعض أحاديث المعراج يومئ إلىٰ الأولىٰ، وأكثر الأحاديث تومئ إلىٰ الثانية، والله أعلم.

وممن قال: إن المعراج بالروح فقط؛ عائشة رضي الله عنها، فيجوز أن يكون قولها رأياً علماً مستنبطاً مما تعلمه عنه بقربها منه من طبيعة روحه ﷺ وقابليتها لمثل ذلك. ويجوز أن يكون قولها حديثاً موقوفاً عليها، سألته عن المعراج، فأدركت من كلامه أنه بالروح، ولكونه دون التصريح المؤهّل للرواية، أوقفته عليها ولم تروه مرفوعاً، كما هو شأن الصحابة في الأحاديث الموقوفة عليهم. فإنهم كانوا يهابون الرواية ويقلِّلونها. ولمثل ذلك جاء في أصول الحديث: أن الموقوف علىٰ الصحابي إذا لم يكن من المواضيع الاجتهاديَّـة ـ بمعنىٰ: ليس للاجتهاد فيه مجال ـ فهو في عداد المرفوع إلىٰ رسول الله ﷺ.

هذا، وإن القول بأنَّ المعراج كان بالروح والجسد معاً أقرب للأفهام، وأولىٰ بالإيمان. والقول بأنه بالروح فقط أدرأ لشبه المنكرين ومُشَاغبتهم.

وقد وصف ﷺ المعراج بقوله: «هو الذي يمدّ إليه ميتكم عَينَـيْهِ إذا حضر». فهذا معراج أرواح الصالحين. والله أعلم.

هذا ما رأيته، فإن كان صواباً وحقاً فالحمد لله رب العالمين، وإن كان خطأ وباطلاً فأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا يعلم سِرَّه إلا هو.

وكان المعراج في العام الذي تُوفي أبو طالب وخديجة، وكانا له درعين حصينين، تُسَـرِّي عنه خديجةُ عند الشدائد، ويدافع عنه أبو طالب بحكم العصبية، فاشتدَّت عليه قريش، فجاء المعراج في هذه الظروف مُبدِّداً سحائب هذا الجو الخانـق، ومضيئاً له مستقبله الـمشرق، والله أعلم. (المؤلف).

قلت: والقول بأن المعراج كان بالروح والجسد هو الأوفق بسياق الأحاديث الصحيحة الواردة فيه، ولذلك صار إليه الجمهور، والجواب عن شبه المنكرين متيسِّر على القول به أيضاً، فلا حاجة للمصير إلى أنه بالروح فقط.

إنما هو لإراءته الآيات العظيمة، لا للمثول؛ إذ لا حاجة لله سبحانه في ذلك، ولا يجوز عليه، بل هو محال في حقِّه تعالىٰ. فما هذا الإسراء والمعراج إلا سَفْرَةٌ قصيرةٌ عَجْلىٰ في هذا الكون العظيم، ليرىٰ بعض عجائبه وبديع آياته.

وعن مسروق قال: «سألتُ عائشة رضي الله عنها: هل رأىٰ محمد ربَّه؟ فقالت: سبحان الله، لقد قفَّ شعري لما قلت، وهل يُرَىٰ ربُّك؟!»(١). وتتمة الجواب في سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾.

قال أبو السعود: وفي هذا التعليل إيماءٌ إلىٰ أنَّ إسراءه ﷺ إنما هو لإراءته الآيات(٢).

أقول: فالغرض من هذا الإسراء والمعراج: أن يحيط الرسول ﷺ علماً إجمالياً بالوجود والموجودات الكونية في أكبر صُورة ممكنة. وقد عُدِمت فيه حُجُبُ الزمان والمكان، كما يكون الحال في الأرواح المجرَّدة من الملائكة وغيرهم، والله أعلم.

وقد جمع له الأنبياء عليهم السلام، فصلَّىٰ بهم في بيت المقدس، ثم استقبلوه في السماوات العُلَىٰ، كما تضمَّنته طرق حديث الإسراء والمعراج. وفي هذا الإسراء دليل القدرة وتقرير النبوَّة.

وإنما افتتح سورة بني إسرائيل بذكر الإسراء؛ لاشتماله علىٰ ذكر المسجد الأقصىٰ الذي هو مركز دعوة موسىٰ عليه السلام. ثم ذكر قصَّتهم ليحيطه علماً بتاريخ المكان، ويزيده عرفاناً بطبائع الأمم، ويحذِّر الأمة المحمديَّة من الوقوع فيما وقعت به بنو إسرائيل، فقال: ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ كما آتيناك القرآن

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

(٢) ينظر: «إرشاد العقل السليم» (٥: ١٥٥) بنحوه.

وجعلناه هُدىٰ للناس كافَّـة، ثم فسَّر أساس تلك الـهداية لبني إسرائيل بقوله: ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾ يا ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ فعَنْوَنَهم بهذا العنوان لتحسيسهم بنعمةِ الإنجاء من الغرق من بين أولئك الذين أغرقهم بشركهم، وللتحذير من مثل ذلك الحادث ولإغرائهم بالإيمان والتوحيد، لأنه هو الذي نجَّىٰ آباءهم مع نوح عليه السلام. ولذلك علَّل الحمْل بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ أي: حملناه وأصحابه لأنه كان شاكراً لله.

قال ابن عباس: كان في السفينة سبعون من المؤمنين عدا أهله[1]. أقول: ولهذا يُسمَّىٰ نوح: آدم الثاني.

ويجوز أن يعود ضمير ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ إلىٰ موسىٰ، وتكون الجملة لتنديد بني إسرائيل بأنَّ خطتهم غير خطَّته، لأنهم كافرون غير شاكرين، وبهَدْيه ليسوا بمهتدين.

ثم ذكر عدم اهتداء بني إسرائيل بكتابهم هذا، وما جازاهم به من تسليط الجبابرة عليهم، فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ ﴾ متضمِّناً معنىٰ: أوحينا ﴿ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وهو التوراة ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ بالظلم والعدوان والإعراض عن الله، ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا ﴾ أي: فإذا جاء وقتُ أُولىٰ المرَّتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ ﴾، وهذا التخصيص للتحسيس بالمجازاة، وكان أولئك العباد ﴿أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي: ذوي قـوَّة وبطش في الحرب، ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ أي: توغَّـلوا في بلادكم واستولوا عليكم، وسَبَوْا نساءكم وأولادكم، ﴿وَكَانَ ﴾ ذلك ﴿وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾ لا مَناصَ منه.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: رَدَدنا لكم الدولة والغَلَبة علىٰ هؤلاء الذين

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٨٦٥)، وفيه «ثمانون» بدل «سبعون».

فعلوا بكم ما فعلوا، حين تبتُم ورجعتُم عمَّا كنتم عليه من الفساد، كما يُشعِرُ بذلك السياق. ومثل هذا الطيِّ من خصائص القرآن في أنواع الإيجاز.

ثم تابع البيان فقال: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ مما كنتُم قبل، أو من أعدائكم، أي: أكثر عدداً في الرجال التي تنفر للحرب وأقوىٰ جُنداً.

ثم رغَّبهم ورهَّبهم بقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ أعمالكم ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، حيث تدوم عليكم هذه النعمة بهذا الإحسان، وينالكم من الله الرحمة والحنان، ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: وإن أسأتم أعمالكم فقد أسأتم لأنفسكم أيضاً، إذ تُفقِدونها السعادةَ الأبدية، والكرامةَ السرمديَّة، والعزَّ والسلطان، ولكنهم أساؤوا فسلَّط الله عليهم، كما توعَّدهم بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي: جاء وقتُ المرَّة الآخِرة، بعودتكم إلىٰ سُوء الأعمال، بعثنا عليكم عباداً كذلك ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ بتسليطهم عليكم وتوغُّلهم في بلادكم، ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ويعوثوا به فساداً، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾[1] أي: وليدمِّروا كلَّ ما غلبوا عليه من بلادكم تدميراً. والمعنىٰ: يُدمِّرونكم تدْميراً ما لبثوا مُسلَّطين عليكم.

---

(١) جاء في كتاب «العصور القديمة» للدكتور جايمس هنري براستد، عضو أكاديمية العلوم في برلين، ما يلي: بعد مضيِّ قرن علىٰ نجاة اليهود من يد سنحاريب الملك الآشوري، استولىٰ الكلدانيون علىٰ الآشوريين وخرَّبوا نينوىٰ عاصمة مُلكهم، ففرح اليهود العبرانيون، وظنوا أن في ذلك خلاصاً لهم من ظلم الأجانب، ولكنهم لم يلبثوا أن شاهدوا نبوخذ نصَّر ملك الكلدانيين يغزو أورشليم ويخرِّبها، ويجلي أهلها إلىٰ بابل. فلم يزالوا في الأسر والهوان حتىٰ استولىٰ كورش ملك الفرس علىٰ بابل، فأعاد اليهود إلىٰ أورشليم.
وقد جاء بعض التوضيح لهذا في قوله تعالىٰ: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [المائدة: ٧١] الآيات. (المؤلف).

ثم منّاهم سبحانه بإعادة رحمته عليهم مرةً ثالثةً إنْ حافظوا عليها، وإلا أعاد عليهم الكرَّة، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ إنْ تبتُم ورجعتُم إلىٰ طاعته، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ بعدَها إلىٰ فسادكم ﴿عُدْنَا﴾ عليكم بمثل هذا التَّسليط والعذاب في الدنيا. ثم توعَّدهم في الآخرة بالدخول تحت هذا الحكم العام، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ أي: سجناً ومَحْبساً أبدياً.

والآيات تدلُّ علىٰ أنَّ الله سبحانه يُؤَاخذ الأمم والشعوب في الدنيا قبل الآخرة بما يقع منها من ظلم وفساد ومَعَاصٍ يظهر أثرها فيها بالاستمرار عليها، ولكنهم يقولون: إنها أمور عادية تعتري الإنسان، ولم يعلموا أنها توفيقُ أقدار لأقدار جزاءً للمظالم والأضرار.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ...﴾ خطاباً لليهود المعاصرين للنبيِّ ﷺ، أو عاماً شاملاً لهم.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

وبعد أن ذكر هذه القصَّة عن بني إسرائيل وما فيها من التَّسليط عليهم لعدم

اهتدائهم بها أرسل إليهم، دَعَا الناس إلىٰ هذا القرآن بما فيهم بنو إسرائيل في عصر الدعوة، مُحذِّراً بالسياق السابق من أن يفعلوا به ما فعل بنو إسرائيل بالتوراة، فينالهم ما نالهم، وضمَّن البيان عَظَمَةَ شأنِ هذا القرآن، زيادةَ تشويق للأخذ به والعمل بتعاليمه، فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[1] أي: للطريقة التي هي أقوم الطرائق لصلاح الدنيا والأخرىٰ، لأن الذي يدرس القرآن دراسةً صحيحة، ويعمل بها عملاً صحيحاً، يكون شخصية لا تكون في غيره، لذلك قال تعالىٰ: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ علىٰ وجهها الصحيح، ولم يعملوا لها علىٰ الوجه الصحيح؛ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيَّأنا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

ولما ذكر سبحانه وعيدَ الكافرين، عقَّبه باستعجالهم له استهزاءً، وبيَّن طبيعة الإنسان المخلوق من عَجَل بأنه لا يقنعه ويردعه الوعيد المؤجَّل، ويُريده مُعجَّلاً كالخير، حيث إنه يقول لمن يدعوه إلىٰ الخير: لو كان عملُنا وعقيدتُنا غيرَ مرضيَّة عند الله لم يجعل حالنا في الدنيا خيراً من حالك، ولكن نرجو أن يكون حالُنا في الآخرة مِثْلَ حالنا في الدنيا، ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ [مريم: ٧٥]، ولذلك أنكر عليهم سبحانه، فقال: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾[2].

---

(١) فيما يظهر من طبيعة التوراة وطبيعة القرآن، أنَّ الأول يخاطب العاطفة ويُرغِّب ويُرهِّب بالماديات، والثاني: يخاطب العقل بالحقائق الراهنة والبراهين القاطعة. وفي ذلك دليل علىٰ تقدُّم النوع الإنساني، وتنزيل القرآن عليه في أول وصوله لهذه المرتبة في مبدأ كماله. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) حاصل المعنىٰ: أنَّ الإنسان يريد أن يكون جزاء الشر عاجلاً في الدنيا، وحيث لم يجده ينكره، والله سبحانه بحكمته وجلاله جَعَل جزاء الشر في الأخرىٰ، ولم يَحرِمِ الشريرَ من خير الدنيا، فهو بذلك يتوهَّم أن لا شيء عليه، وأنه مرضيٌّ عند الله. =

وقد حُذِفَت واو ﴿وَيَدْعُ﴾ في النُّطق لالتقاء الساكنين، وحُذِفَت إملاءً تبعاً لذلك، علىٰ نهج إملاء القرآن في مثله. وعُدِّي الدعاء بالباء؛ لأنه من قولهم: دَعَا به؛ إذا استحضره. أو لتضمينه معنىٰ الاستعجال.

فألمع سبحانه إلىٰ أن أعماله كلَّها بتقديمها وتأخيرها مبنيّـةٌ علىٰ سُنَن لا تتبدَّل، وحِكَم لا تُدْرَك. ومثَّل لذلك بما بين الليل والنهار من تعاقب ومفارقات اقْتَضَتْها حِكَمٌ، بعضُها ظاهرة، وبعضُها خفيَّـة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ يريدُ سبحانه وتعالىٰ ما في حكمة النظام الشمسي ودوران الأرض اليومي من تكوُّن الليل المُظْلم والنهار الـمُبْصر. أي: فكذلك أعمالُه كلُّها علىٰ قواعدَ وأصولٍ وحِكَم ظاهرة وخفية، ومن ذلك صبرُه علىٰ المجرمين، وتأجيلُ جزائهم إلىٰ حين، وجَعْلُ الإنسان مختاراً في تصرُّفاته؛ كلُّها مبنيَّة علىٰ حِكَم.

ثم ذكر شيئاً من ظاهر تلك الحكمة في الليل والنهار، فقال: ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في النهار المُبْصر، أي: لتطلبوا فيه أسباب معاشكم، ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ في الليل الـمُظلِم الذي من نتائجه ظهورُ القمر، وذلك لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية المنوطة بالأشهر القمرية.

ثم ختم الآية أو البحث بما فيه إعذار وإقامة حُجَّة، وهو تفصيله تعالىٰ لكلِّ ما يحتاجه الإنسان من البيان، فيما يعود عليه بالسعادتين ليحيط علماً بذلك، فقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ أي: بينَّاه في هذا القرآن بصورةٍ واضحة، كي لا يكون للناس علىٰ الله حُجَّة، إذا حفظ لهم وعليهم أعمالهم، وجازاهم عليها.

= ويجوز أن يكون الكلام تسليةً لبعض المؤمنين الذين يرغبون أن يُعجِّل الله العقوبة للكافرين.
وعلىٰ كلٍّ، فالآية هي علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ [الرعد: ٦]. (المؤلف).

كما ذكر ذلك بقوله: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ أي: طوَّقناه بعمله من خير أو شر، أي: فلا يستعجل هذا المستهزئ، فقد حُفظت عليه أعماله. وإنما قيل له: طائر، علىٰ عادة العرب في قولهم: جرىٰ طائره بكذا، أي: بما يناله من ذلك. يعنون ما يتفاءلون به أو يتشاءمون بتيامُن الطير أو تَياسُره. ومحصَّل المعنىٰ: أن عمل الإنسان يحيط به كالطَّوْق فلا يفارقه، فعمل الخير كالعِقْد الزائن، وعَمَلُ الشرِّ كالغلِّ الشائن.

ثم عَطَفَ عليه عَطْفَ تفسيرٍ وتفصيل بقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ وهو ما كتبه الحَفَظة من الأعمال، ﴿ يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ أي: مفتوحاً أو مُفصَّلاً، أحصاه الله عليهم ونَسُوه، فيُقَالُ له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ أي: يكفيك اليومَ محاسبةُ نفسِك لك، وعَتَبُها عليك، ولَوْمُها إيَّاك.

ثم أتىٰ بهذا الـهزِّ والإيقاظ، فقال: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ أي: مَن اهتدىٰ بهذا القرآن الهادي لأقْوَمِ الطُّرُق فإنما يهتدي لنفسه، وينال هو المنفعةَ بتلك الهداية، ﴿وَمَن ضَلَّ ﴾ عن ذلك ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾، لأنَّ وبال ضلاله عليه، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ بل كلُّ نفس تحمل وِزْرَها ولا تحمل وِزْرَ غيرها. وذلك لأن عقاب الذنب ـ والله أعلم ـ طبيعي[1] مبنيٌّ علىٰ سُنَّة كونية في تكيُّف الروح كيفيَّـة تؤهِّلها للشقاء، فكمـا أنَّ الجوع لا يزعج إلا نفس الجائع، والمرض لا يُؤْلم إلا نفس المريض، فكذلك الذنب لا يؤثِّر إلا عن نفس صاحبه، والله أعلم.

وإنما عبَّر عن النفس الأولىٰ بالوازرة؛ للإشارة إلىٰ أنها مشغولة بأمرها وَوِزْرِها، ثم أعذر بعد أن أنذر، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ أي: لم نُعذِّبهم إلا بعد أن بعثنا لـهم الرسل فلم يؤمنوا، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]،

(١) بل هو شرعي، لا مدخل فيه للطبيعة وسننها، وقياسُه بالجوع والمرض فيه تكلُّف ظاهر.

فالمراد: تسجيل استحقاقهم للعذاب؛ لأنهم لم يؤمنوا بما جاءتهم به الرسل. فالآية لإبداء حجة الله عليهم سبحانه في تعذيبهم، وأنهم ليس لهم عُذْرٌ أو حُجَّةٌ يتمسَّكون به، إذ قد أعذَرَ من أنذَرَ، ولم تَخْلُ أمةٌ من نذير.

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾.

ثم تابع المعنىٰ ببيان أنَّ مبدأ المعارَضَة ومصدرَها إنما يكون في الرؤساء والـمُترَفين من القوم، فقال: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾[1] أي: أمرنا القرية علىٰ لسان الرسول فلم تُطع وعارَضت بمُعَارضة رؤسائها، فاستحقَّت الإهلاك، كما هو شأن قوم نوح وعاد وثمود.

وفي الآية إشارةٌ إلىٰ أن الرؤساء والـمُترَفين هم أساس الفتنة؛ لأنَّ لهم القدرة في

(١) هذا قانون اجتماعي لا يتغيَّر، وهو أن الخاصة في مقدمة الأمة، فيكونون عُرْضةً قبل العامة للتلوث بالإصابات في الأمراض الاجتماعية وفساد الأخلاق والتهاون بالواجبات الإلهية، ثم تتبعهم العامة في ذلك تدريجياً؛ إذ العامة تتبع الخاصة دائماً في عقائدها وعاداتها ومداركها وتقتدي بها، وذلك قانون اجتماعي وسنة كونية. والرجوع إلى التاريخ يرينا أن الأمم البائدة لم يأتها الداءُ الذي أبادها إلى من قِبَلِ أهل خاصَّتِها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٧] والترف مفسدة عظيمة تؤدي إلى انحلال الأخلاق وتحطيم الإنسانية وانحطاط النفوس. (المؤلف).

القبول والإعراض، والأمة تَبَعٌ لهم. ولذلك قال عليه السلام في كتابه إلىٰ هِرَقل: «فإن تولَّيْتَ فإنَّ عليك إثم كلِّ القبط»(١)، وفي كتاب آخر من كتبه: «فإن عليك إثم الأريسيِّين»(٢)، أي: التَّبعة والفلاحين. وذلك لأنهم يَأتمرون بأمره ويتَّبعون أثرَه.

وإسناد هذا الأمر إلىٰ الله تعالىٰ باعتبار سُنَّته العامة في أخلاق الإنسان إذا أفسد فطرته بمفاسد التربية، فهو علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٨٨]، وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥].

ويجوز أن يكون هذا الأمرُ أمرَ تكوين، يريد به تكوينه فيهم كذلك حسب السنن الكونية. وعلىٰ كلٍّ، فهو يشير به إلىٰ سُنة من سنن الله في أخلاق الإنسان وطبائعه، وهي أن المترفين والرؤساء هم الذين يعارضون الرُّسُلَ والهُدَاةَ خوفاً علىٰ مناصبهم ومراكزهم، ويُحرِّضون أتباعهم علىٰ ذلك، والله أعلم.

ويقول علماء الاجتماع: إنَّ المترفين في كلِّ عصر يحافظون علىٰ الوضع الحاضر، ويقاومون بكلِّ قواهم الثورة والتجديد.

وعلىٰ كلٍّ، فالترف مَفْسَدَة للفرد والمجتمع يؤدِّي بالأمة إلىٰ الدمار، فهو مَفْسَدَة للأخلاق، ومِقْراض للأمم، يفضي بها إلىٰ الفناء.

ثم استشهد بتاريخ الأمم الماضية في إهلاك المكذِّبين، تهديداً لهؤلاء المعارضين، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ لمعارضتهم أنبياءَهم، ثم زاد في التهديد والتوعُّد بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ يُحصيها لهم ويُعاقبهم عليها عقاباً أليماً.

---

(١) ذكره ابن القيم في «زاد المعاد» (٣: ٦٩١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٤)، ومسلم (١٧٧٣)، عن أبي سفيان.

ثم أجاب سبحانه عمَّـا يخطر ببال بعض قاصري الأفهام، من أن مثل هؤلاء المذنبين إذن كيف ينالون سعادة الحياة الدنيا؟! وإذا كانوا ممقوتين عند الله سبحانه فكيف يرزقهم ويُرفِّه عليهم؟! فبيَّن سبحانه السنة الكونية في ذلك، فقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَـاجِلَةَ﴾ وحدها، وقَصَرَ همَّه عليها، وهي سعادة الحياة الدنيا، ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ وهو الذي يسعىٰ لها سَعْيها، حسب سُنن الله الطبيعيَّـة في الحصول عليها. وهذا الشرط يُفهَمُ من مُقَابِلِهِ فيما يأتي، علىٰ سُنَّة القرآن في الاحتباك، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية)؛ إذ قد جَرَت إرادةُ الله سبحانه ومشيئته بأن تكون النتيجة بنسبة السعي ودرجة إتقانه، فهو ينال منها بمقدار ذلك. ولكنه يُحرَمُ من سعادة الحياة الأخرىٰ إذا لم يَسْعَ لها سعيها، فيناله شقاؤها الرهيب، كما قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ أي: مطروداً من رحمة الله.

ثم ذكر ما يُقابلُه، فقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالإيمان الصحيح بتوحيد الله وتنزيهه أساس في الأعمال الصالحة لا تتم إلا به متىٰ كان خالصاً من كل نوع من أنواع الشرك، حتىٰ من الرياء، فشرط لـها شرطين: الإيمـان والسعي، فإذا حصلا للطالبين ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ عند الله تعالىٰ. وهذا كنايةٌ عن أنه تعالىٰ يُجازيهم عليه الجزاءَ الأوفىٰ، فينالون ثمرة أعمالهم موفورة.

وتحرير الأمر: أن الله سبحانه خلق الإنسان وقذف به إلىٰ هذه الأرض، وركَّب فيه من المواهب والقوىٰ ما يسيطر به علىٰ قوىٰ الطبيعة واستثمـارها، ويهتدي به إلىٰ الكمالات الروحانية واستحصالها، وهداه بعقله وحده إلىٰ الأولىٰ، وبه وبالوحي والرسل إلىٰ الثانية. فهو إن طلب الدين والدنيا معاً حصَّلهما، ووَجَد من قواه ومما يتعلَّمه من الوحي ما يساعده علىٰ ذلك. وإن لم يُرِدْ إلا الدنيا وحدها، بلغ مُناه منها إن اتَّبع السنن

الكوينة فيها، وسار بمقتضاها وموجباتها؛ فمِنَحُ الله معروضةٌ لكلٍّ من طلبها، إذا تمسَّك بالأسباب الطبيعية، لا فَـرْقَ في ذلك بين سائر الفِرَق والأصناف، مؤمنين وكافرين، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: عن كل مَنْ يطلبه بأسبابه وطرقه الصحيحة.

ثم استشهد علىٰ ذلك بما هو واقع جليّ، فقال: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ في الجاه والمال والسَّعة والكمال، وذلك حسب قوة التمسُّك بالأسباب وضعفه، وصحّة ذلك وخطئه، ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾ فهي أحقُّ بالطلب وأعظم نَيْلاً للأرب، ولا تُنال إلا بالأسباب والأعمال التي قرَّرتها الشرائع الصحيحة والكتب المنزلة. وبتفاوتها قوةً وضعفاً تتفاوت تلك الدرجات العُلىٰ.

وحاصل المعنىٰ: كما تجد تفاوتَ درجاتِ الدنيا بتفاوتِ مُعَاطاة أسبابها ومُقْتضياتها وحُظوظها من السَّداد والإتقان، فكذلك تَتَفَاوت درجاتُ الآخرة بتفاوت درجاتِ الإيمان والعمل والإحسان، بما جاء في ثنايا هذا القرآن.

وهذه الآية تُمَثِّل العدل الإلهيَّ الدقيق في جميع طبقات عباده، لا فرق بين مسلم وكافر، فمن عمل صالحة للدنيا، وكان مصيباً فيها علىٰ الوجه الذي وضعه سبحانه في سنن الكون، وجد ثمرتها. ومن عمل صالحة للأخرىٰ، وكان مصيباً علىٰ الوجه الذي بيَّنه سبحانه في نظامها وأحكامها، انتهىٰ إليها وتمتَّع بثوابها. لذلك ترىٰ من الناس مَنْ يكفر بالله وهو متمتِّع بخيرات الدنيا، مَغْمور في نعيمها، ومنهم من هو مؤمن بالله إيماناً قوياً ولا يكاد يجد قوتَ يومه. كلُّ ذلك أثرٌ من آثار العدل الإلهي، ومن تنظيم أوضاع الدارَيْن تنظيماً ثابتاً عادلاً، علىٰ سُنن كونية لا تتغيَّر، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]، فإنَّ الأول ـ وإن

كفر في عقيدته ـ فقد أحسن في إدارة أعمـاله الدنيوية وتوجيهها إلىٰ الصواب وإتقان أسلوبها علىٰ حسب السنن الكونية، فأثابه الله تعالىٰ في الدنيا علىٰ قدر اجتهاده. وأما الثاني فإنه وإن آمن بالله حتىٰ وصل إلىٰ مرتبة الصدِّيقين، إلا أنه أهمل إتقان عمله في أمور الدنيا وتوجيهه نحو السنن الكونية، فلا يَجْني من وراء ذلك إلا العدم والفاقة.

فهذا العدل الإلهيُّ سارٍ بين الأمم في مجموعها، كما هو سارٍ بين الأشخاص علىٰ انفرادها؛ فإنَّ الأمة الكافرة ـ إنْ جدَّت واجتهدت ونَهَجَت نهجَ النظام والاعتدال في أمورها الدنيوية ـ وَصَلت من الرفعة والسُّؤدد إلىٰ أعلىٰ مقام، ولا يمنعها الله بسبب كفرها أن تسود علىٰ أمة مؤمنة إذا كانت لا تساويها في النظام والعمل بالسنن الكونية، كما قال تعالىٰ للمؤمنين: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟
إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ
وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل
رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ
كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا
﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ
ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا
تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ
خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى

حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

وبعد أن ذكر أنَّ الآخرة أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً، وأنهىٰ به السياق المتضمِّن للتبشير والإنذار والنعي علىٰ المشركين، بيَّن أهم الأسباب المؤدية إلىٰ نَيْل سعادة الآخرة، وأجملها في عدَّة أصول سُمِّيت بالوصايا العشر، وابتدأها بهذا التحذير لأنه أساسُها، فقال: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ بتسليط الخرافات علىٰ وهمك، وصَيْرورتك أسيراً لها. ومَنْ أحقُّ بالذم ممَّن دنَّس بصيرته بالضلال، فأصبح لا يُبصر الحقَّ والهدىٰ والكمال! وأيُّ خذلانٍ يؤدِّي إلىٰ الشقاء الدائم والحياة المريرة لمن يعتمد علىٰ الأوهام والخيالات والوسائط من الأحياء والأموات.

ثم استأنف الكلام وقَرَن بالدعوة إلىٰ التوحيد ما أراد أن يرفع من شأنه، وهو الإحسان بالوالدين، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: حكمَ حكماً قاطعاً وأمر أَمْراً مُبْرَماً ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

ثم أخذ يُفصِّل صُورةَ الإحسان إليهما، فقال: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾، و﴿ إِمَّا﴾ هذه مركبة من (إن) الشرطية و(ما) الزائدة للتأكيد، ولذلك دخل الفعلَ نونُ التوكيد، وجواب الشرط قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا

﴿ نَنْهَرْهُمَا ﴾ أي: لا تقل لهما: أفٍّ، إن ضجَّراك، ولا تَنهَرْهما إن أدّباك. والمراد: تجريدُ الإحسان إليهما من كلِّ تنغيص وإن قَلَّ، وتخليصُه من كلِّ ما من شأنه أن يُشعِرَ بالتذمُّر من حياتهما عند الكِبَر.

ثم أردف النهي بالأمر بضدِّه تقريراً له، علىٰ سُنة القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾، وصفة الكرم تستعملها العرب للجَوْدة في كلِّ شيء.

ثم أردف الإحسانَ بالقول بالإحسانِ بالفعل، فقال: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾، وفي هذا التركيب استعارةٌ بديعة، رَمَز فيها إلىٰ ما يفعله الطائر في فراخه الضعيفة عندما يُظلِّلها بجناحه شفقةً عليها وحفظاً لها.

ثم أردف الأمرَ بالإحسان إليهما بالأمر بالدعاء لهما، وضمَّن صيغة الدعاء ما يُذكِّر الولد بما قاساه الوالدان في تربيته من الأتعاب، استفزازاً لشعوره، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾، فقد أمر سبحانه الولد بالإحسان إلىٰ والدَيْه، ولا سيما عندما يَصِلان إلىٰ درجةٍ من العَجْز والضعف، بحيث يُصبحُ أحدهما ثقيلاً علىٰ نفسه وغيره، وأمر الولد بأن يَتبَعَ معهما خمسة أمور: أن لا يتأفَّف مما يَثْقُلُ عليه منهما، وأن لا يُنغِّصهما بكلام يثقلُ عليهما، وأن يخاطبهما بلطف واحترام، وأن يعطف عليهما عطْفَ الطائر علىٰ فراخه، وأن يدعو الله أن يرحمهما مقابلَ تربيتهما له وإحسانهما عليه.

وقد جاء في الحديث: «كلُّ الذنوب يُؤخِّر الله منها ما شاء إلىٰ يوم القيامة، إلا عقوق الوالدين، فإن الله يُعجِّله في الحياة قبل المات»[1].

ثم أردف هذه الوصية بما يحمل علىٰ إنجازها بأكمل الصُّور، فأتىٰ بمعنىٰ عامٍّ يشملُها وغيرَها، علىٰ نَهْج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾،

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤: ١٧٢) وقال: صحيح الإسناد. وتعقَّبه الذهبي فضعَّفه.

فكان هذا تحذيراً من أن يُضمِرَ لهما كراهةً واستثقالاً، لأن الأمر مظنَّة ذلك، ثمَّ رشح التحذير بقوله: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ أي: في نيَّاتكم وأعمالكم، ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: يغفر للمُنيبين إليه والتائبين ما يصدر عنهم من الهفوات. والتوَّابون: هم الراجعون إلىٰ الله من دون شرك ورياء.

ثم ذكر الأمر الثالث من هذه الوصايا التي هي من الأسباب المؤدية إلىٰ نَـيْل السعادة، وهو الأمر بالإحسان لذوي القربىٰ والمساكين وابن السبيل، واستَتبَعَ ذلك بالنهي عن التبذير، ليشملَ هذا وغيره من الصَّـرف، فقال: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من حُسْن المعاشرة وصِلَةِ الرَّحِم والبرِّ بهم. وفي قوله: ﴿حَقَّهُۥ﴾ إيذانٌ بوجوب ذلك، وتقريرٌ له، وهو مرعيٌّ في قوله: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ أي: الفقير الـمُعْدَم، ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المنقطع في السفر، بحيث يتعذَّر عليه الوصول إلىٰ أهله. ويتناول اللفظ بعمومه المتشرِّدين في الطرقات، وفي وصفهم بأبناء السبيل زيادةُ استـفزازٍ وإشعارٌ بوجوب العطف عليهم والرحمة لهم.

ثم أتبع ذلك بقاعدة النهي عن التبذير مطلقاً ليشمل هذا الإيتاء وغيره، وليتمكَّن من الصَّرف في هذا وغيرِه من وجوه البر، فقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾، وهذا المصدر للتأكيد والتقرير للحكم. والتبذير: الصَّرْفُ لا علىٰ وجه معقول ومقبول. ثم علَّل هذا النهي بما ينفِّر منه، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، وفي هذا إشارة إلىٰ أنَّ التبذير ناشئٌ عن غَواية وضلال.

ثم تـمَّم التعليل وزاده تنفيراً بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: مبالغاً في كفران نعمته، وكذلك أخوه المبذِّر، حيث صرف ما أعطاه سبحانه ورزقه إيَّاه، في غير محلِّه أو زائداً عن حاجته، ولم يدَّخره ليوم بُؤسه، أو يدفعه إلىٰ مسكين أو فقير. وعَدَّىٰ ﴿ كَفُورًا ﴾ باللام لتضمُّنه معنىٰ المعارضة.

ثم علَّمنا سبحانه وتعالىٰ كيف نصرف المساكين وغيرهم ممن أمرنا بالإحسان إليهم، إذا لم يكن في أيدينا ما نُحسن به عليهم، ونرجو أن نحصل عليه بعد حين، فقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: إنْ أردتَ أن تصرف عنك مُبْتغي الخير حتىٰ يتيسَّر في يديك ما تعطيهم في مواسم اليُسْر، كالحصاد والقطاف وغير ذلك مثلاً، ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: فيه يُسْرٌ ولين. فعلَّمنا سبحانه أن نصرفهم بالحُسْنىٰ، أي: أن نصرفهم علىٰ اليُسْر ورحمة الله. ولا يخفىٰ ما في قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ من الترجية والتأميل من الله سبحانه لهذا الـمُعْسِر المسؤول، ومن استفزاز الشعور نحو الإعطاء.

ثم نهانا عن البخل بعد أن نهانا عن التبذير لأنهما رذيلتان، وعلَّمنا الاعتدال في الصَّرْف مُطلقاً ـ حتىٰ في وجوه البرِّ والإحسان ـ بهذا التمثيل البديع، فقال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾، فهما تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذِّر؛ زَجْراً لهما عن هذا التطرُّف، وحَمْلاً علىٰ ما بين الأمرين من الاقتصاد وحُسْن التصرف الذي هو الفضيلة.

ثم أتىٰ بما هو كالتعليل للنهي عن كلِّ البسط، فبيَّن ما ينبعث عنه من الأضرار الفادحة والآلام النفسية، وقال: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: متحسِّراً في نفسك ومُلاماً علىٰ ما فعلتَ بها وجَنيتَ عليها.

ثم تابع السياق بالحثِّ علىٰ الإنفاق، اعتماداً علىٰ الله، وضمَّنه تعليلاً للمفاضلة في الرزق وتهويناً علىٰ الـمُقِلّ، فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ممَّن تـمسَّك بأسباب البسط، ﴿وَيَقْدِرُ﴾[1] لمن يشاء ممَّن أهمل الأسباب أو قـصَّر فيها، أي: يُوسِّعه

(١) إن الله سبحانه لم يجعل نظام رزق الإنسان كنظام رزق الحيوان فردياً في السعي والحصول عليه، =

ويُضيِّقه بمقتضىٰ النظام الموضوع بحَسَب الحكمة علىٰ السَّعي ونوعه وقوته وضعفه ودرجة إتقانه. وكلمة ﴿يَقْدِرُ﴾ تتضمَّن التقليل مع التَّنسيق والتنظيم.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا (٣٠)﴾، فيعلم من مصالحهم ما يخفىٰ عليهم، ومن ذلك أنْ قَرَن الرزق بهذا النظام المتفاوت ليُسخِّر بعضُهم بعضاً في الأعمال، وأمَرَ الغنيَّ أن يعطف علىٰ الفقير، ويخفِّف أثقاله ومضايقاته بالزكوات والصدقات والمداينات.

وقد جعل هذا التعليل تكميلاً للسابق وتمهيداً للاحق، أي: للأمر الرابع من هذه الوصايا، وهو قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: مَخافة الفقر وشدة الحاجة.

أقول: ولا يبعد أن تشمل الآية بعمومها ودلالتها ما يفعله بعض الناس مِنْ مَنْعِ الحَبَلِ أو إفساده احتراساً عن كثرة العيال، ولا أقلّ من أن نقصره علىٰ الإلقاء.

وقد علَّل النهي بقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[1]، فعلَّل النهي بإبطال مُوجب

= بل جعل نظام رزق الإنسان اجتماعياً لا يتم إلا بتعاون الأفراد. أما اختصاص كل واحد بمهنة من تلك الحاجيات فمبنيٌّ على الميل والعزم ونوع التثقيف وغير ذلك من خصائصه المكتسبة، وهذا النظام يجعل التفاضل في الرزق أمراً طبيعياً؛ إذ يكون فيهم التاجر والزارع والعامل والصانع على اختلاف في المراتب، ومنهم الغني والفقير والمأمور والأمير والجليل والحقير، نتيجةً لميل الإنسان وسَعْيه ومقدار نشاطه وعزمه. فإسناد التفضيل إلى الله سبحانه باعتبار هذا النظام لا بالقَسْر، والقَصْد، لأن الله سبحانه خلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته مسلَّطاً على إرادته، يتصرَّف في شؤونه كيف يشاء. هذا ما أراه، والله أعلم. (المؤلف).

قلت: لكن قوله: «لا بالقسر والقصد» فيه نظر، أما القَسْر فنفيُه مُسلَّم، وأما القَصْد فلا، إذ ما من شيء في الوجود إلا وهو واقع بإرادة الله تعالى، وكونه مبنياً على أسباب وسنن لا ينافي ذلك.

(١) إنما قال هنا: ﴿نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، وقال في سورة الأنعام: ﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ لمطابقة كُلٍّ منهما لسياقه، فقد أراد هنا الفقر المتوقع في المستقبل، حيث قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ =

المنهيِّ عنه، ودفع ذلك الهاجس. وقوله: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ فيه توضيح للأمر واستشهاد بالحاضر، أي: كما زرقناكم نرزقهم.

ثم علَّله من وجه آخر، وهو بيان عظم إثمه وضرره، فقال: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ وأيُّ خِطْءٍ أعظمُ وأفظعُ من قتل الإنسان وَلَدَه وفِلذةَ كبده! فَضْلاً عما فيه من تقليل النَّسْل الـمُضِرِّ بمصالح الأمم وقوتها.

ثم ذكر الأمر الخامس من هذه الوصايا، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾، وعلَّل النهيَ بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ أي: لِـمَا له من النتائج الوخيمة والعواقب الأليمة في الزاني والمزنيِّ بها والولد والعيال والأقارب والعشيرة، من حطة وسَفَال وفظائع ومصائب طوال؛ إذ ينشأ عنه من التعاسة الصحية والأخلاقية والاجتماعية ومصير هذا الولد الذي لا ذنب له سوىٰ ما جَنَتْه عليه الشهوة البهيمية الأثيمة ما يعجز القلم عن بيانه. وقد أجمل ذلك كلَّه بهذه الجملة القصيرة، علىٰ أسلوب إيجاز القرآن، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾. والفاحشةُ: هي الفعلة المتناهية في القُبح المادي والمعنوي.

ولا يخفىٰ ما في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ من التخييل البديع؛ حيث خيَّله بالشيء المُخيف وبالشرس المفترس، تنفيراً منه وتَبْعيداً عنه، لما فيه من الأضرار التي لا حدَّ لها ولا نهاية. وذلك فوق ما في النهي عن القرب من النهي عن دواعيه؛ من ذرائعه ووسائله، كالنظرة والمزاح والغَزَل والكلام غير المباح.

= فأومأ إلىٰ أنَّ هؤلاء الأولاد ربما يكونون حينئذ كاسبين لكم، أما في سورة الأنعام فقد أراد الفقر الواقع والأولاد صغار، حيث قال: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ فقدَّم في كلٍّ من السياقين ضمان رزق الكاسب بالذات وغيره بالتبع، إيماء إلىٰ أن الله سبحانه قد جعل كسب العباد سبباً لحصول الرزق. (المؤلف).

ثم ذكر الأمر السادس من هذه الوصايا المُفْضية إلىٰ تنظيم أحوال الاجتماع، وإلىٰ السعادة فيها، فقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾، وفي هذا القيد مبالغة في النهي استثنىٰ منه قوله: ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: بارتكاب ما يُبيحُ الدم، كالبغي والعدوان، وبما ثَبَتَ عنه ﷺ: «لا يحِلُّ دمُ امرئ مسلم إلا بإحدىٰ ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنىٰ بعد إحصان، وقتل نفس بغير نفس»[1]. ولا فرق في أن يقتل نفسه أو نفس غيره.

ثم بيّن إحدىٰ صُور القتل بالحق، فقال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾، وفي هذا القيد إيماءٌ لعلَّة السلطان المقرّر بقوله: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ علىٰ هذا القاتل، أي: أذِنَ الله بقتله قَطْعاً لدابر العدوان. ثم حدَّد هذا السلطان وقَصَره علىٰ القاتل دون أفراد عشيرته أو قبيلته، كما كانوا يفعلون في الجاهلية، فقال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾، وهذا السلطان إنما هو بطلب إجراء القتل من الحاكم، لا بمباشرته القتل بنفسه، لأنه ﷺ هو الذي كان يُـجْرِي المحاكمة في القصاص ويقرِّر الحكم، ثم يدفع القاتل إلىٰ وليِّ المقتول ليقتله أو يعفو عنه إن شاء.

ثم علَّل النَّهيَ بما يتضمَّن الصبر والأناة، وحضَّ أولي الأمر علىٰ مُناصَرة هذا الولي، ليكفَّ عن الإسراف المتأتِّي عادةً من مباشرة القتل بنفسه أو بأحد أفراد عشيرته، علىٰ دَيْدَنهم في الجاهلية، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾، ولفظة ﴿كَانَ ﴾ هذه لتقرير

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٠٢)، والشافعي في «مسنده» (٧٩٦). وصحَّحه ابن الـمُلقِّن في «البدر المنير» (٨: ٣٤٤)، عن عثمان بن عفان.

وأصل الحديث متفق عليه؛ رواه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) عن ابن مسعود بلفظ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدىٰ ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

الحكم وتأييده. والمعنىٰ: فقد تقرَّر علىٰ أُولي الأمر مُناصَرَتُه علىٰ حقِّه بالعدل والتعقل، فلا يرتكب الفوضىٰ والإخلال بالنظام.

ثم ذكر الأمر السابع، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالطريقة التي هي أحسَنُ الطرق في تنميته واستثماره، وفي الصَّرف علىٰ ما تحتاجه مصلحته في تربيته تربية فاضلة، إلىٰ غير ذلك من الصُّور الحُسْنىٰ التي تدخل تحت قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ إذ هي عبارةٌ واسعةُ المدلول، علىٰ طريقة بلاغة القرآن، تشمل كل مصلحة رائدها الإخلاص، وباعثها فائدة اليتيم بغايتها وثمرتها الشريفة، وتختلف صور ذلك باختلاف العصور والظروف والبيئات.

وقد جعلت الآية غاية لحجز أموال اليتامىٰ يُنتَهَىٰ إليها، وهي قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ جَمْع شِدَّة، مثل: «أَنْعُم» جمع نعمة، أي: حتىٰ يبلغ مبلغ الرجال، ويتمكَّن أن يتصرَّف بأمواله تصرُّفاً حسناً ينمِّيها ويستثمرها ويحفظها من عَبَث العابثين وخديعة الخادعين. وقد جاء في الحديث: «لا يُتْم بعد بلوغ»[1].

ثم ذكر الأمر الثامن، وهو الوفاء بالعهد، فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ وهو يشمل العهدَ ما بين العبد وربِّه، وما بينه وبين غيره. وأحكامُ الله كلُّها عهود. ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ عنه، وهذا يدل علىٰ عظيم الاهتمام بالعهد، وأنَّ الله سبحانه شاهِدٌ ومُحاسِبٌ عليه أشدَّ الحساب. ولا شكَّ أن المحافظة علىٰ العهود من أكبر المصالح الاجتماعية، والعبث بها من أضرِّ المفاسد العمرانية، وعليها مدار الثقة بين الدول والأفراد.

ثم ذكر الأمر التاسع، وهو صدق المعاملة في البيع والشراء، وإتقان الأعمال في

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٧٣) من حديث علي كرم الله وجهه، بلفظ: «لا يُتْم بعد احتلام».

الحِرَفِ والصناعات، فقال: ﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ ﴾ فخصَّ الكيل بالذكر لأنه أساس المبايعات. ثم عطف عليه ملاك المعاملات كلها والصناعات بأسرها، فقال: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ وهو العدل السويّ في كلِّ أمر، والإتقان السَّديد في كلِّ شيء، فالصانع يتقن صناعته، والموظف معاملته، والزارع يركز زراعته، والحاكم حكمه، والعالم علمه، والطبيب طبه، والقائد تعبئته، والجندي مقاتلته، والمسلم عقيدته، والعابد عبادته، والـمُفكِّر فكرته، فيزنها بالقسطاس المستقيم لتكون رصينةَ الصُّنع دقيقةَ التنظيم، صحيحةَ التنسيق، مستوفيةَ الكمال، بديعةَ الجمال والجلال. وفي ذلك صلاحُ المجتمع ورُقِيُّـهُ مادياً ومعنـوياً. وهو معنىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾ أي: مآلاً وعاقبةً؛ إذ يجعل العيش في الدنيا رغيداً، والخلود في الآخرة سعيداً.

ومثل هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. ويجوز أن يُراد بالميزان في هذه الآية الأخيرة: تطبيق تعاليم الكتاب الدينية والدنيوية، علىٰ أعمال الإنسان وأقواله تطبيقاً سديداً، والله أعلم.

ثم ذكر الأمر العاشر، فنهانا عن الزيغ والضلال، والظنون والخيال، فقال: ﴿ وَلَا تَقۡفُ ﴾ أي: لا تَـتْبع ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ ﴾ تقليداً أعمىٰ، أو رَجْماً بالغيب، أو وهماً بالخيال، ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ أي: يُسأل صاحبه عن أفعاله. فالله سبحانه ينهانا أن نسيء التصرُّف بهذه المواهب فنفسدها حتىٰ تنبعث وراء الظنون والأوهام، ثم نمشي علىٰ ضلالها، ونسير في ظلامها؛ في العقيدة والديانات والأعمال والمعاملات. وإذا تدبَّرنا فيما يحدث في هذه الحياة مما يضرُّ الإنسان والإنسانية وجدناه كلَّه يرجع لذلك.

وهذه الآية جمعت طرق التحسُّس والاستدلال كلها: السمعيات، والمحسوسات، والعقليات.

ثم نهانا عن الزهو والتكبر والاختيال، فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: مختالاً زاهياً، وهو حال ينبعث عن الإخلال بغريزة حبِّ الكمال، وفسادها بالتربية السيئة والتوجيه الرديء، فيتولَّد منها الشعور بالترفُّع والعَظَمة واحتقار الغير، وهو أمر مُضِرٌّ بالاجتماع ضرراً فادحاً.

ثم علَّل النهي بهذا التعليل الساخر، فقال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ يتندَّر عليه. ومفاده: إنك لن تترك في الأرض خرقاً بخَطْوِك، ولن تبلغ الجبال طولاً بزهوك، ومهما بلغت من العَظَمة والسلطان فلستَ بشيءٍ في جانب هذه المخلوقات الكونية، وكلها ذالة متواضعة دائبة فيما خلقها الله عليه، لا تُفسِدُ طبيعتها، ولا تغيِّر نظامها، فما بالك أيها الإنسان لست كذلك!

ثم ختم هذه الوصايا بقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ وهو المنهيَّات مما سبق وأضداد الأوامر منه؛ كانت ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ فلا يرضاها لنا، ويعاقب عليها عقاباً وبيلاً.

وهذه الآيات هي الوصايا العشر التي هي جُلُّ ما في بقية الكتب السماوية. وقد أجملها القرآن بهذه الآيات، فجاءت قطرةً من بحره الزاخر، وقد جاءت تارةً بصورة النهي، وتارةً بصُورة الأمر بالمقابل. والأول: لما كان مناطُ الخير فيه تَرْكَ المحرمات، والثاني: لما كان مناطُ الخير فيه فِعْلَ ما يقابل المحرم. وقد أراد الله سبحانه لهذا الإنسان أن يَسْمُوَ بإنسانيته إلىٰ أعلىٰ عليِّين، ولكنه ارتدَّ وانحطَّ إلىٰ أسفل سافلين.

وهذه الوصايا العظيمةُ الشأن الجليلةُ الأثر تصلح وحدها أن تكون نظاماً اجتماعياً من أفضل الأنظمة وأكمل القوانين. لذلك نوَّه سبحانه وتعالىٰ عنها بقوله:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾؛ إذ بها تكون الأخلاق كاملة، والأحوال فاضلة، والتآلف مُتوافراً، والكمال الإنساني زاهراً. ومن وراء ذلك كلُّ السعادة والرفاه ورَغَد العيش والصَّفاء، وفي الآخرة فلاح عظيم.

وقد لفت الخطاب في هذه الآية المنوِّهة بهذه الوصايا إلىٰ النبيِّ ﷺ، ثم عاد إلىٰ الخطاب العام، وختم السياق بما بدأه به، وهو النهيُ عن الإشراك بالله؛ تأكيداً له وتقريراً، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ تعبده أو تصمد إليه أو تتوسَّط به أو تتوكَّل عليه أو تتبع تشريعه وتعليمه وتضليله وتوهيمه، ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ تفقد السعادة الأبدية، وتبقىٰ في شقاء سرمديّ لا يزول ولا يحول، أعاذنا الله، والشرك بضع وسبعون باباً، ومنه الرياء، إنَّ الله لا يقبل عملاً فيه مثقال ذرة من رياء. اللهم إني أعوذ بك من أن أُشرِكَ بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

ثم عاد بالكلام إلىٰ محوره السابق عن المشركين، علىٰ نهج القرآن في العودة ودمج المباحث، ووَصَلَ النَّهيَ عن الإشراك بالتهكُّم بالمشركين في عقيدة من عقائد بعضهم،

وضمَّنه الإبطال، فقال: ﴿ أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾. ثم أتبع التهكُّم بالإنكار والتأنيب والتفظيع، فقال: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ تهتزُّ منه السماوات والأرض وتخرُّ الجبال هداً.

ثم علَّق علىٰ مجموع السياق السابق بما يدلُّ علىٰ عَظَمة شأنه، ويستفز الشعور لما فيه من التبصير والإرشاد والتثقيف والسَّداد، وضمَّنه التقريع للمشركين علىٰ جهلهم والتأنيب علىٰ عنادهم وإعراضهم عنه، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ ﴾ أي: نوَّعنا الدلائلَ والعِبَرَ والمواعظ والإرشاد وضربنا الأمثال ﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ الأمر ويعرفوا الحال ﴿وَ﴾ لكنه ﴿مَا ﴾ كان ﴿يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ عن الحق وبُعداً عن الصواب.

وبعد هذا التقريع والتأنيب، عاد إلىٰ الإبطال التهكُّمي للشرك، فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ أي: إن كان هؤلاء آلهة فما بقاؤهم بين ظهرانيكم، لِـمَ لا يذهبون إلىٰ ذي العرش العظيم، ما داموا شركاء له، فيكونون معه؟!

ثم قرن الإبطال التهكُّمي بالتنزيه عنه، وقرَّر التوحيد بالتنزيه والبرهان، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾(١) أي: تدلُّ هذه المخلوقات العظيمة البديعة الصنع المحكمة الإتـقان علىٰ انفراده سبحانه بالألوهية، وتسبح له وتُنزِّهُه عن الشريك والمثال، وكذلك المؤمنون والملائكة الـمُقرَّبون وسائر المخلوقات في الأرض والسماوات، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أي: بما أودع فيه من كمال النظام وبداعة الصنع والإحكام؛ إذ هو يدلُّ دلالةً واضحةً علىٰ اختصاص

---

(١) هذه الآية تدلُّ علىٰ أنَّ الأشياء كلَّها تعرف ربَّها، وأنه مُتَّصف بالكمال الـمُطْلق، ومُنزَّه عن النقائص والعيوب، ولذلك فهي تُنزِّهُه عما لا يليق به، وتصفُه بالمحامد والكمالات اللائقة به.

خالقه بالألوهية، ويُنزِّهُه عن الشبيه والنظير بدلالة طبيعته، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[١] أيها المشركون، لإخلالكم بالنظر الصحيح، ولعمىٰ البصيرة منكم والمدارك. ومع كلِّ ذلك، لا يُعَجِّل لكم العقوبة، ويُمهلكم لعلَّكم ترجعون عن غيِّكم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ يُمْهل ويَغْفر لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدىٰ.

وقد بيَّن السبب في عدم اهتدائهم بهذا القرآن علىٰ وضوحه، فقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ لا يحبُّون أن يسمعوه لكرههم له وخوفهم منه أن يسحرهم، أعاذنا الله. وهذا الجَعْل إنَّما هو بسُنَّة الله العامة في أخلاق البشر وطباعهم، وهي أنَّ مَنْ رَسَخَت فيه مَلَكَة من دين أو عادة أو عقيدة إذا وَصَل إليه شيء مما يخالفها لا يتدبَّره ولا يراه جديراً بالنظر والتفكير. لذلك كان هؤلاء المشركون لا يتبصَّرون القرآن ولا يتدبرونه.

ومن مباحث اللفظ: أنَّ اسم المفعول هنا استُعمِلَ بَدَلَ صيغة اسم الفاعل، مبالغةً في مدلوله، علىٰ طريقة المجاز العقلي.

---

(١) هذه الآية تخبر عن تسبيح الأشياء وحمدها علىٰ وجه الحقيقة، عن معرفةٍ به سبحانه، وعن نطق صادر عنها، وتُثبت أن ذلك حق وحقيقة، وتنفي تأويلها بغير ذلك، أو أن ذلك من باب المجاز، أو من باب دلالة الحال دون المقال. فيقول سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: ولكن لا تفقهون تسبيحها وحمدها، لأنها ليست من جنسكم، فقد تسمعون صوتها، ولكن لا تفهمون معنىٰ ذلك، كأصوات الطيور ونحوها. وربما لا تسمعون ولا تفقهون كتسبيح النبات والجماد ونحوها. فلو لم يكن تسبيح الأشياء حقيقياً واعتقاداً وقولاً لَـمَا احتاج الأمر إلىٰ هذا الاستدراك، فإنه لو كان تسبيحها وتحميدها من باب دلالة المخلوق علىٰ الخالق، لما قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. ويُنظَرُ ما كتبه شيخنا العلامة المفسِّر عبد الله سراج الدين في أنَّ العوالم كلَّها بأصنافها تعرف خالقها فتسبحه وتحمده وتسجد له حقيقة علىٰ كيفية مناسبة لخلقها في كتابه «هدي القرآن إلىٰ معرفة العوالم والتفكر في الأكوان» ص ٣٢٨-٣٥٣.

ثم تابع المعنىٰ بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾، والأكنّة: الأغطية، والوقر: الصمم. استُعيرا للإعراض وعدم الإصغاء الناتج عن تشبُّعهم بالكفر والعناد.

ثم زاد في البيان توضيحاً وتفضيحاً بقوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أي: مُوَحِّداً إياه في الألوهية، ومقرِّراً ما هو الحق له سبحانه، ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ كأنهم حُمُر مُسْتَنفِرة، فرَّت من قسورة. وهذا تصويرٌ بديعٌ للإعراض والعناد، والجهالة العمياء.

ولما كان بعض المنافقين منهم يحضرون مجلسه ﷺ، بيَّن تعالىٰ أنَّ حضورهم هذا ليس للفهم والدراية، وإنما هو للتضليل والزراية، فقال: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾ أي: بما يستمعون بسببه، ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي: نحن أعلم بغرضهم من هذا الاستماع، ﴿وَ﴾ نحن أعلم بهم ﴿ إِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾ أي: متناجون بما بيَّنه سبحانه بقوله: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: معطىٰ قوَّةَ السِّحْر، يخدع بها الناس.

ثم عجَّبه من غوايتهم وجهالتهم، فقال: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ ﴾ حيث مثَّلوك بما يدلُّ علىٰ سَخافتهم، أو تعمُّدهم السيِّئ مما هو ظاهر البطلان، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ أي: لتشويه أمرك مهما حاولوا واختلقوا وتقوَّلوا، لأنَّ تلك السَّخافات التي يَصِمُونك بها لا تنطلي حتىٰ علىٰ الأغبياء.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ

ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

وبعد أن ذكر شُبَهَهم السخيفة في الإلهيات وأبطلها عليهم، وفي النبوات كذلك، ذكر ما كان منها في البعث والمعاد، فقال: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ وهو ما بُولغ في تفتيته ودقِّه. وقال الفرَّاء: هو التراب، أي: بعد أن نكون كذلك، ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾؟ يستبعدون ذلك وينكرونه.

فأجابهم بجوابٍ صِيغَ نَظْمُه على الاستهانة بالأمر والاستخفاف به مهما كان حاله، فقال: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ عن قبول الحياة، فإنَّ قدرة الله تعالىٰ لا تعجز عن تَسْويتكم وإحيائكم.

فالآية تَرُدُّ عليهم إنكارَهم إعادةَ العظام الرفات، بما معناه: أنْ لا فَرْقَ بين أن تكونوا رفاتاً أو حجارة أو حديداً أو أيَّ شيء يَكْبُرُ في صدوركم، إذ ليس من هذا ولا هذا يخلق، فلا يعيقُ الإعادةَ أن تبلىٰ عظامكم أو تقوىٰ على البقاء، إذ لا دخل لذلك في الإعادة، وإنما هي من نواة الحياة الأولىٰ، الكائنة في عجب الذنب كما جاء في الحديث[1]، وهو مِن مادة لا تتفتَّت ولا تفنىٰ أين ما كانت وتكون علىٰ وجه الأرض، بعد أن تكون كتلة ترابية بالاصطدام، ثم يُنزِلُ الله عليها مطراً، فتربو تحت التراب، حتىٰ تتم خلقتهم، ثم تَشَقَّقُ الأرض عنهم سراعاً، كما جاء في القرآن والحديث. والله أعلم.

---

(١) سلف تخريجه ص٤٢٨.

وقد أخرج الجواب مخرج أمر التعجيز، لأنه أبلغ في الإلزام، ثم حكىٰ سبحانه استهزاءهم بهذا الجواب، وقال: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ بعد أن نكون كذلك؟ ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ مما تعلمون، حيث خلق آدم وحوَّاء من تراب، وهو مادة ليس بينها وبين شكلكم هذا شَبَهٌ ولا مقاربة. وهذا جوابٌ مُسْكِت، وبرهان قويّ متين لو كانوا يعقلون.

ثم قال في إتمام البيان عنهم: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ أي: يُحرِّكونها تحريكَ المتعجِّب المستهزئ، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾؟ يقولون هذا القول زيادةً في الاستهزاء، ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ ﴾ ذلك ﴿قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾.

ثم أعلمهم بأنَّ ذلك سيكون عندما تشاهدونه واقعاً بكم، فتَبْهتون وتَنْدمون، وتَسْتقصرون مدَّة الحياة الدنيا التي غرَّتكم بهذا الغرور، فقال: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أي: بما يدلكم من واقع بعثكم بعد الموت، علىٰ حَمْده سبحانه ومَجْده وعظيم صُنعه وقدرته، ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ أي: وإنكم حينئذ لتستقصرون مدَّة لبثكم في الدنيا التي بعتموها بمديدِ الآخرة. ويجوز أن يُراد اللبث بين الموت والحياة الثانية: تلك المدة المسمَّاة بحياة البرزخ. تُرَىٰ ـ والله أعلم ـ قصيرةً كما تُؤْذِنُ بقِصَرها قصَّةُ المارِّ علىٰ القرية[1]، وقصَّة أصحاب الكهف والرقيم. والله أعلم.

ثم أمر المؤمنين أن يجاملوهم بالكلام، لأنه أدعىٰ إلىٰ تخفيض عنادهم، فقال: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى ﴾ وهذا العنوان للمؤمنين تشريفٌ لهم وتعزيز، أي: قل للمؤمنين: ﴿ يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[2] ولا يُخاشِنُوا في المجادَلة، ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي:

---

(١) يعني: الواردة في الآية ٢٥٩ من سورة البقرة.

(٢) الكلام الحسن مصدرٌ عظيم للنجاح. والمجتمع الذي يسود فيه يكون راقياً هادئاً مريحاً، لأن =

يُهيِّج فيهم المراء والشر، والمخاشنةُ معهم تُفضي إلىٰ العناد وازدياد الفساد، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: بارز العداوة. ومحصَّل الآية: الأمر للمؤمنين بأن يكون كلامهم مع المشركين حول الإيمان والدعوة إليه باللطف واللين والصُّورة الحُسْنىٰ، لأنَّ ذلك أجْلَبُ لقلوبهم وأمْيَلُ لطِباعهم، إذ لا يكون معها مجالٌ للأنَـفَة والنَّخْوة والجاهلية. ويجوز أن يكون قاعدة عامة، وتشمل ما قبلها علىٰ أسلوب القرآن في مثل ذلك، بأن يلينوا في كل قول.

ثم لقَّنهم الصُّورة الحُسْنىٰ التي يجب أن يقولوها لهم، وهي: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ أي: بالتـوبة والإقلاع عن الشـرك، ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾[1] أي: بالإصرار علىٰ الكفر والبقاء عليه. فقد قال أكثر الـمُفسِّرين: إنَّ هذه الآية بيانٌ للتي

= كثيراً من المشاكل تنشأ من رديء السلوك ودنيء الكلام. لذلك جعله القرآن من جملة ما دعا إليه من الفضائل الاجتمـاعية والمعالي الأخلاقية، وجاء في سورة البقرة: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣]. ويسمَّىٰ هذا في اللغة: اللباقة، وهي أن تغلب خصمك وتقنعه دون أن تُغضبه وتؤذيه.

ويجوز أن يراد بكلمة ﴿عِبَادِى﴾ العموم، ويكون الكلام للتوجيه بعد النقد والتأنيب، ولدعوتهم عموماً إلىٰ الدين ـ بما فيهم المشركون ـ بعد أن تهيَّأت نفوسُهم بما تقدم من النقد والبيان. (المؤلف).

(١) مشيئتـه تعالىٰ لا تجري جزافاً واعتباطاً، فهو لا يثيب العاصي ولا يعذب الطائع، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. ولكن مشيئتـه أزلية جارية بالحق والعدل، ضمن سنن مطَّردة لا تتبدَّل، فقد سبقت مشيئته سبحانه بأن ألهم كلَّ نفس هُداها، وميَّز لها فجورها وتقواها، فكان ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢]. والله أعلم. (المؤلف).

هي أحسن، وما بينهما اعتراض. والمعنىٰ: قولوا لهم هذه الكلمة، أو ما يُشَاكِلُها، ولا تُصرِّحوا لهم بأنهم من أهل النار، فإنَّ ذلك يُهيِّجهم علىٰ الشرِّ، مع أنَّ العاقبة مما لا يعلمه إلا الله سبحانه، فعسىٰ أن يهديهم إلىٰ الإيمان.

وفي الآية وجهٌ آخر: وهو أنَّ المراد من العباد: الكفار، أو عموم الناس بما فيهم الكفار، ويكون هذا العنوان للتلطيف والتأليف، وعموم الناس أَوْلىٰ بالسياق.

وكلمة: ﴿أَحْسَنُ﴾ ليست من باب التفضيل، وإنما هي للمبالغة في الحُسْن، أي: ادعُهم إلىٰ الكلمة الحُسْنىٰ، وهي التوحيد، وأعلِمْهم أنَّ الحامل لهم علىٰ الشِّرك إنما هو الشيطان، وقل لهم: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ...﴾. ومُحصَّل المعنىٰ: ربُّكم أعلم بكم ويُجازيكم بحَسَب أعمالكم، وقد أفصح عن هذا المعنىٰ بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ لإفادة أنَّ تلك المجازاة بحسب ما شاءه الله سبحانه، وهو رحمة المؤمن المطيع، وتعذيب الكافر المسيء، ولا مُبدِّل لكلماته، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ويجوزُ أن تكون الآية تهويناً للمؤمنين عن شرك المشركين. ومُحصَّل المعنىٰ: أن الله سبحانه يعلم من انطبع علىٰ الشِّرك فلا يؤمن، ومن بقي فيه شيء من نور الفطرة فيميل للإيمان، ولذلك سَلَّىٰ النبيَّ ﷺ عن حُزنه لعدم إيمانهم بتذكيره بحدود الرسالة، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ أي: موكولاً إليك أمورهم، تَقْسُرهم علىٰ الإيمان، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً، فاشتغل بالدعوة، ولا عليك إن لم يؤمنوا، وأمُر أصحابك بمداراتهم وملاينتهم.

ثم ردَّ عليهم اعتقادهم بأنه لو كان مَلِكاً مثل داود عليه السلام، فقال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فيختار منهم لنبوَّته من يشاء ممَّن يصلح له، و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ثم ألمع سبحانه إلىٰ عِظَم هذا القرآن وتشريعه وفَضْل مَنْ جاء به، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالفضائل النفسانيَّة والكتب السماويَّة، لا بالملك والزخارف، وقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ يناجي به ربه، وبهذا كُـرِّم داود، لا بما آتيناه من نِعَم الدنيا وخيراتها. يردُّ سبحانه وتعالىٰ بهذا الإلماع علىٰ من أنكر من المشركين علىٰ النبيِّ ﷺ كونه لم يكن مثل داود عليه السلام في الملك وكثرة المال.

ويجوز أن يكون تفاضل النبيين بنزول الكتب عليهم وعدمه، فالذي نزل عليه كتاب يكون أفضل من الذي لم ينزل عليه كتاب. وكذلك يكون بتفاضل الكتب المنزلة، فمن كان كتابه أفضل يكون أفضل، وتفاضل الكتب يكون بكثرة ما فيها من الأحكام والتوجيهات وقلّتها، وبكونها موقّتة، وبمدَّة بقائها، أو دائمة إلىٰ الأبد.

وفي قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ إيماءٌ إلىٰ أنَّ بعض الكتب خالية من الأحكام، وإنما هي أذكار ومناجاة لمجرَّد القراءة والتسبيح. وعليه، فيكون القرآن العظيم أفضل الكتب السماوية، ومحمد ﷺ أفضل الأنبياء، والله أعلم؛ وذلك لكون شريعته دائمة إلىٰ انتهاء هذا العالم، فيها كل ما يحتاجه من أحكام بصورة قواعد كلية عامة.

ثم أمره أن يتحدَّاهم في آلهتهم، هل تكشف عنهم ضراً أو تُحوِّل عنهم فقراً؟ فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنهم آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾.

ثم زاد في الإلزام والإبطال ببيان أنَّ هؤلاء الذين يعدُّونهم آلهه ـ كالمسيح وغيره ـ يفتقرون إلىٰ الله ويلتجئـون إليه، ويتقرَّبون، يرجون رحمته، ويخافون عذابَه، فكيف يكونون شركاء له تعالىٰ؟! بيَّن ذلك فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من دون الله إنما هم

أناسٌ ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ إليه تعالىٰ بالطاعة والعبادة ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

ثم وصل الكلام بهذه الفاصلة الرهيبة فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، أعاذنا الله.

وذكروا في الآية وجهاً آخر، وهو أن لفظ ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ يعود إلىٰ النبيِّين. وبيَّن عنهم هذا البيان تحذيراً من عبادتهم مع الله والإعراض عنهم حثاً للاقتداء بهم.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

ثم أردف تَبْكيتَ المشركين وإلزامَهم بتهديدهم، وتوعّدهم بما يتضمَّن تحقيق ما يستهزئون به من الوعيد، فقال: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ استحقَّت عذابَ الاستئصال ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: مُعَذِّبوها في الدنيا قبل عذاب الأخرىٰ. وهذا تقرير لما يستعجلون به من العذاب، أي: إلا نحن مُسْتَأْصلوها عن آخرها، ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ببليّـة دون الاستـئصال، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ أي: هو من سُنن الله الكونيَّة في خَلْقه، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

ثم أجاب عن تحدِّيهم في طلب الآيات المعجزة وعدم إجابته لهم ما طلبوا، فقال: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ التي طلبوها ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ ولم يؤمنوا بعد أن جاءتهم، فشأن أولاء كشأن أولئك، وحينئذ يستحقون عذاب الاستئصال

بمقتضىٰ سنة الله. واستشهد علىٰ ذلك بتاريخ ثمود فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: بيِّنةً ذات بصائر وأبصار، لا تقبل الشك والإنكار، ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ وقد ضمَّن كلمة ﴿ظَلَمُوا۟﴾ معنىٰ: كفروا، فعدَّاها بالباء لتفيد المعنيين معاً، علىٰ نهج القرآن في ذلك. أي: كفروا بها وظلموا أنفسهم فاستأصلناهم بالعذاب، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ المقترحة ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ لمن أُرسِلَت إليهم، وإنذاراً بنزول العذاب المُستأصِل لهم إن لم يؤمنوا.

ثم استشهد علىٰ قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ بما يُلمِعُ إلىٰ ما جرىٰ علىٰ كفار قريش في وقعة بدر، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ حين أراه مَصارع القوم ببدر في الرؤيا التي رآها قبيل الوقعة(١)، علىٰ أنه يجوز أن يكون بوحيٍ من الله أوحىٰ به إليه.

ثم ذكر أمرين من الأمور التي كانت فتنةً للمشركين، وباعثاً للطعن في نبوَّته، يماثل بهما ما فتنهم به في رفض طلبهم للآيات.

الأمر الأول: حديث المعراج الذي تضمَّنه ما جاء في أول السورة من الإسراء، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ وهي المعراج المُتمِّم للإسراء، ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: امتحاناً واختباراً لتعلم الثابت من المتزلزل، وإنما كان أمر المعراج فتنة لأنه كان مَثَارَ جدل ومناقشات بين الناس، فكفر به المنافقون والمشركون، وارتابَ ضعفاء الإيمان، وازداد به المؤمنون إيماناً، وإنما سماه رؤيا: إما لأنه وقع ليلاً، أو لغرابته لأنه ليس من نوع المشاهَدَات المألوفة، أو لأنه كان بالروح المجرَّدة عن الجسد، وليس المعنىٰ أنه كان حلماً فذلك باطلٌ، لأنه ﷺ لو ادَّعىٰ أنه حلم لَـمَا أنكر عليه المشركون، ولَـمَا استوجب إثارة ذلك الجدل.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «... كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس...».

وممَّن قال بأن المعراج كان بالروح المجرَّدة: عائشة رضي الله عنها[١]. ولا بدَّ أن يكون ذلك عن توقيف منه ﷺ، لأنها كثيراً ما كانت تسأله عن مشكلات فيُفسِّرها لها. ويجوز أن يكون عن مجرَّد فهم منها واستنباط[٢].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ٣٥٠) عن عائشة قالت: ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن الله أسرىٰ بروحه.

(٢) اختلف العلماء في أنَّ المعراج كان بالجسم أو بالروح، والأكثر علىٰ أنه بالجسم، ولا يعنون بالروح الرؤيا، لأنه ﷺ رآه أولاً في الرؤيا، ثم رآه في اليقظة، وإنما يعنون بالروح ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا... ﴾ [الزمر: ٤٢]. والروح هي العنصر المهم في الإنسان. والقائلون بالجسم هم الأكثرون بالنسبة إلىٰ القائلين بالروح، ولكن السيدة عائشة رضي الله عنها هي من القائلين بالروح، وهي ما هي في العلم والإدراك، ولا بدَّ أنها قد سألت رسول الله ﷺ عن هذا الأمر المهم، وأنه ﷺ صلَّىٰ بالأنبياء في بيت المقدس، وهم في أرواحهم، وإني رأيت في إحدىٰ روايات المعراج قوله ﷺ: «إني رأيت كما يرىٰ المحتضر» [لم أقف عليها]. والمُحْتَضر تنفكُّ روحه عن جسمه، وأن المناطق التي قطعها في أقل من ليلة مناطق بعيدة جداً يصعب علىٰ الجسم القيام بذلك، ثم إنه ﷺ يقول: إنه أوتي بالبراق فركبها [رواه مسلم (١٦٢) عن أنس]، والظاهر أنها من مادة البرق، وسَيْرها سريع جداً لا يتحمَّله الجسم حسب العادة، وبين المناطق التي قطعها فضاء يخلو بعضه من الهواء، وقطعه بالجسم متعذِّر، وقد قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

وأما الروح فتتحمَّل كل هذه الأشياء، وهي عنصر مهم في الإنسان، وليس ببعيد أن نقول: هو الإنسان، إذ ينوّر ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]؛ إذ هذا يدل علىٰ أنَّ الجسم وسيلة لزيادة الإحساس لا غير، والله أعلم.

وإني رغم ذلك كلِّه لا أنكر علىٰ من يقول: إنه بالجسم، لأنَّ الله سبحانه قادرٌ علىٰ كلِّ شيء، ولكني أرجِّح ما قالته عائشة رضي الله عنها، فإن أصبت فالحمد لله، وإن أخطأت فأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. =

وقال الزمخشري: إن المراد من الرؤيا هنا: رؤيا اليقظة والبصيرة، يعني: مفادها مفاد قوله تعالىٰ: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، وليس رؤيا النوم(١).

وقال بعضهم: المراد بها: الرؤيا التي جاءت في سورة الفتح، حيث ظنوا أنهم يدخلون المسجد الحرام في تلك السنة، فتلتها وقعة الحديبية، ومنعتهم قريش من الدخول إلىٰ السنة الثانية، فافتُتِنَ بذلك المنافقون.

ثم ذكر الأمر الثاني، فقال: ﴿وَ﴾ كذلك جعلنا ﴿ٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ فتنةً للناس، وهي شجرة الزقوم التي ذكر القرآن أنها تنبت في أصل الجحيم، فكانت مَثَار تكذيبٍ للمشركين، وقالوا: كيف تنبت الأشجار في النار؟ وأن القرآن الذي يقول مثل هذا لا يصحُّ أن يكون من عند الله، ولم يعلموا أنَّ سُنن الله في طبيعة الحياة الأخرىٰ غير سُننه في طبيعة الحياة الدنيا. ومعنىٰ الملعونة: أنَّ آكلها ملعون، ففي الوصف مجاز عقليٌّ.

ثم ختم السياق ببيان أنَّ كل ما ذُكِـرَ من التنبيه والإيقاظ لم يزد المشركين إلا إعراضاً، فقال: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بإيقافهم علىٰ ما سيكون من أمرهم وبيان مصيرهم إنْ أصرُّوا علىٰ الكفر والإشراك، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ وتمادياً في الضلال.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ

= وقد جاء في تاريخ الإسراء روايتان: سبع عشرة من ربيع الأول، وسبع وعشرون من ربيع الثاني، ويجوز أن يكون أحدهما للرؤيا، والثاني لليقظة. (المؤلف).

وما بين معقوفتين زيادة مني للتخريج.

(١) ينظر «الكشاف» (٢: ٦٧٤-٦٧٦).

ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

ولما كان طغيان هؤلاء المشركين بهذه الآيات من وساوس الشيطان، ألمع إلىٰ أن هذا ليس ناشئاً عن عجز في قدرة الله عليهم، وإنما هو ناشئ من خلقهم مختارين في تصرُّفاتهم، وذكر قصَّته مع آدم، ووضح عداوته للإنسان، وذكّرنا بها؛ ليحملنا علىٰ التحرُّز منها، علىٰ نهج القرآن بذكر هذه القصَّة في مثل هذا الموقف، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ تحيةً وتكريماً، ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أبىٰ واستكبر و﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾، وفيه إيماء لعلَّة التمنُّع، وهي الاستكبار والترفُّع.

وقد طوىٰ بقية القصة اعتماداً علىٰ بيانها في غير هذه السورة، ولعدم الغرض بها هنا، علىٰ سُنَّة القرآن في ذلك، (كما جاء في المادة الثانية عشرة من المقدمة الثانية). وقد ذكر منها ما يساوق الموضوع، وهو ما يدلُّ علىٰ استعداد الإنسان للشر، فإذا ماشىٰ ذلك الاستعداد وانهمك فيه، عادَ عليه بالوبال، كما أوضح ذلك بما حكاه بقوله: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ أي: بأمرك لي بالسجود له ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ منهم. ونَظْمُ الآية يُؤْذِن بأنَّ المهتدين قليل بالنسبة إلىٰ الضَّالِّين من الناس.

وقوله: ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ﴾ مأخوذ من قول العرب: حنك الدابة؛ إذا جعل في رأسها وحنكها المِقْوَد. فالمراد هنا: أنه يملك زمامهم ويتسلَّط عليهم، كما يملك الفارسُ فرسه بلجامها، إلا الذين يعبدون الله حقاً ويتدرَّعون بصحيح الإيمان، فليس للشيطان عليهم سلطان.

وقد أجاب له سبحانه هذا الطلب، طبقاً للحكمة البالغة و﴿ قَالَ ٱذْهَبْ ﴾ أي: امض لشأنك الذي اخترته، ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾.

ثم صوَّر قوة استيلائه عليهم بقوله: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾ أن تَسْتَفِزَّهُ ممن قد أفسدوا طبيعتهم بمفاسد التربية وسوء القدوة، استفزِزْهُم ﴿بِصَوْتِكَ ﴾ أي: بدعائك لهم إلىٰ الفساد، ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ والجَلَبَة: الصياح، أي: صِحْ عليهم صيحةَ آخِذٍ لهم بأعوانه من راكب وراجل، فالكلام علىٰ التمثيل، فقد صوَّره بصورة القائد الهاجم بجيشه مُشَاةً وركباناً، تمثيلاً وتصويراً لقوة استيلائه وتأثيره علىٰ أوليائه. والمراد: بيان قوة استيلاء استعداد الشرِّ علىٰ الكفار وضعفاء الإيمان، والذين لا يعبدون الله حقاً.

وقد جاء في «دلائل الإعجاز»[١]: أنَّ بعض المفسرين توهَّموا في الألفاظ الموضوعة علىٰ المجاز والتمثيل أنها علىٰ ظواهرها، فأفسدوا المعنىٰ، وأبطلوا الغرض ولم يُوفَّقوا لما هو المقصود وما به المراد[٢]. وهذا الكلام بأسلوب من أساليب العرب العالية، صُورَتُه أَمْرٌ، وحقيقتُه بيانٌ؛ يحذِّر به الإنسان من خروجه بحكم اختياره من هدايته الطبيعية وهدايته التشريعيَّة، يخرج من ذلك بالتقليد الأعمىٰ وسُوء التربية، مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ [التين: ٤ – ٥].

ثم قال في إتمام البيان: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ بحَمْلهم علىٰ كسبها وجَمْعها من الحرام، ﴿وَ﴾ شاركهم في ﴿الأَوْلَٰدِ﴾ بحَمْلِهم علىٰ تربيتهم وتنشئتهم علىٰ الكفر والضلال، والانحراف عن فطرة الله وطريقه المستقيم، ﴿وَعِدْهُمْ ﴾ ومنِّهم بوساوسك.

---

(١) للجرجاني.

(٢) «دلائل الإعجاز» ص٣٠٥.

ثم بيَّن ضلال تلك المواعيد، ونعىٰ عليهم بها، فقال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤﴾ بمواعيده الخادعة وتسويلاته البارعة، حتىٰ إنه يُموِّه الباطل بالحق، والخطأ بالصواب.

ثم بيَّن القليل الذين استثناهم من الاحتناك، فقال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ أي: المؤمنين الـمُخْلِصين في العبادة لي ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾[1]

---

(١) روىٰ مسلم (٢٨١٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبيُّ ﷺ من عندي ليلاً، فغرْت عليه، فجاء فرأىٰ ما أصنع فقال: «مالك يا عائشة؟ أغرت؟». قلت: وما لي لا يغار مثلي علىٰ مثلك، فقال: «أقد جاءك شيطانك». قلت: يا رسول الله! أو معي شيطان؟ قال: «نعم». قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «نعم». قلت: ومعك يا رسول الله؟! قال: «نعم. ولكن ربي أعانني عليه حتىٰ أسلم».

وروىٰ مسلم (٢٨١٤) عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وَكَّل الله به قرينه من الجن». قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير».

أقول: وفي هذا إيماءٌ إلىٰ أن في كل إنسان نزعة من الشر، فإن ذلَّلها وتسلَّط عليها استسلمت له، وهانت عليه، فسلم منها.

قال أفلاطون: في الإنسان طبائع أربع: العقل، والهوىٰ، والشهوة، والعفة. فالعقل يعاتب الهوىٰ، والهوىٰ يقاتل العقل، والعفة تعاتب الشهوة، والشهوة تقاتل العفة. والإنسان مسلَّط علىٰ مشيئته.

أقول: فمن عمل خيراً جُوزي به، ومن عمل شراً جُوزي عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقصَّة يوسف عليه السلام مع المرأة التي هو في بيتها تمثِّل ذلك وتبين أن المؤمن الحقَّ لا يغلبه الشيطان. (المؤلف).

قلت: وكلامُه يُشعر بتفسير أن الشيطانَ الـمُوكَّل بالعبد نزعةٌ مِن الشر في نفس الإنسان، وهو خلاف المعنى المراد من الحديث، كما يظهر من سياقه.

يحفظهم من وَسْوَسة الشيطان بحسب سنته العامة، وهي أن الذي يتشبَّع بالهدىٰ لا يميل إلىٰ الضلال، ولا يقدر علىٰ غوايته المضلون[١].

ويجوز أن يكون في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ إلماعٌ لما احتاط لنا فيه مِن جَعْل طبيعتنا لا تتأثَّر بوساوس الشيطان ما لم نفسدها.

قال ابن عباس فيما جاء من مثل هذه الآيات في خطاب إبليس: إنه تهديد للشيطان بصورة الأمر[٢]. وقال ابن كثير: إنَّ هذا الخطاب للتكوين[٣]، فهو عبارة عن بيان الواقع في صفة طبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان.

---

(١) يقول علماء النفس ما محصَّله: إن الذات البشرية تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: الذات السفلىٰ، والذات العليا، والضمير. فالذات السفلىٰ هي التي تتكوَّن من التربية السيئة التي تجمّل الغرائز في حالتها الهمجية، وكلُّ همِّها أن تصل إلىٰ أهدافها، وإن أساءت التصرُّف، وعبثت بالقيود الاجتماعية والقوانين النظامية من شرعيَّة ووضعية، ولا تريد أن تخضع للعقل والضمير.

والذات العليا هي التي تتكوَّن من التربية الحسنة والنشأة السامية والثقافة والتهذيب الصحيحَيْن، ويكون همُّها التمثُّل بالمثل العليا والتفوُّق في ذلك بمعونة العقل والضمير.

فالذات السفلىٰ إذا غلبت تهوي بالإنسان إلىٰ أسفل سافلين. ولذلك حذَّر منها القرآن، وعبَّر عنها بهذه القوة الشِّرِّيرة التي يُمثِّلها الشيطان، أو هو عبارة عنها. والله أعلم. والذات العُليا إذا غلبت تسمُو بالإنسان إلىٰ أعلىٰ عليِّين، وهو الكمال المنشود لبني الإنسان في عالم الغيب وعالم الشهود، والله أعلم بحقيقة الحال. (المؤلف).

قلت: وكون الشيطان يُمثِّل القوة الشريرة في الذات البشرية، أو هو عبارة عنها؛ غير صحيح، بل الشيطان مخلوق من النار أُوتي قوة يستطيع بها أن يوسوس لبني آدم من حيث لا يشعرون، وهو يُغذِّي هذه القوة الشريرة في الذات البشرية ويُنمِّيها، لا أنه عبارة عنها.

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٨: ٤١٦).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥: ٩٤)، ولفظه: «هذا أمرٌ قَدَريّ».

أقول: فإنَّ الآيات تُمَثِّل إحاطة استعداد الشرِّ بالإنسان من كلِّ نواحيه إذا أفسد طبيعته بمفاسد التربية، وتُؤْذن بوجوب شدَّة الاحتراس من ذلك، بما أعطاه الله من العقل والاستعداد للخير، وتُومئُ إلىٰ أنَّ استعدادَهُ للخير إيجابيّ، واستعدادَهُ للشرِّ سلبيّ ناشئٌ من تحريف طبيعته وإفساد غريزته؛ إذ كلها خير ورشاد في أصل خِلْقتها، كما وضَّحنا ذلك في لاحقة المقدمة الثانية، حيث إن الله سبحانه هدىٰ الإنسان بهدايتين: هداية طبيعية، وهداية شرعية. فهاتان الهدايتان كفيلتان بدفع وساوس الشيطان عنه ما لم يفسد طبيعته، وتمسَّك بتعاليم هذا القرآن، فإن فسدت طبيعته بمفاسد التربية والتقليد الأعمىٰ تسلَّط عليه الشيطان.

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

ثم عاد بالكلام عن المشركين، ناعياً عليهم شركهم، ومذكِّراً لهم بنعمه عليهم، بالغريزة الدينية التي تظهر فيهم عند الشدائد، ومدلِّلاً علىٰ أنه مختصٌّ بالربوبية لاختصاص أفعالـها فيه سبحانه، فلا ربَّ لـهم سواه، فقال: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ أي: يُجريه ويسوقه علىٰ الماء بما أودع فيه من قوَّة حَمْل الأجسام الطافية عليه؛ إذا كانت علىٰ وضع خاص مُنْطبق علىٰ قانون العَوْم. وقد مَزَج دليل القدرة بدليل المنَّة، فقال: ﴿ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ بالتجارة وغيرها من المواصلات، وذلك من فضل الله وحكمته ومنته عليكم، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾ حيث هيَّأ لكم ما تحتاجون إليه، وذلَّل لكم ما تعسَّر من أسبابه.

وبمناسبة الكلام علىٰ الفلك والبحر واستدلاله بقدرة الله فيها علىٰ اختصاصه بالألوهية، أشفع ذلك بدليل التوحيد الفطري، وذكّر المشركين بما أودع في فطرتهم من توحيد الله عزَّ وجل، وما يظهر من ذلك في شعورهم عند الشدائد رغم أنفهم، فيندفعون إلىٰ طلب النجاة منه تعالىٰ وحده بسائق الطبيعة، كما تَنْبعث نفوسهم لطلب الغذاء عند الحاجة إليه، إذ يشعرون أنْ لا ملجأ إلا إليه سبحانه، ثم يعودون إلىٰ شركهم بعد زوال الشدة، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ بتهيُّجه ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: تضل عنكم شركاؤكم، ولا تدعون حينئذ إلا الله، ولا ينجيكم غيره، ولا تدعون إلا إيَّاه، ولا تشعر حينئذ فطرتكم بغير ذلك، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ الله تعالىٰ ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عنه وعُدْتُم إلىٰ شرككم، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ للنِّعَم.

وبعد أن ذكَّرهم بأنهم مطبوعون علىٰ توحيد الله وتنزيهه طبعاً، ولكنهم قد أفسدوا طبيعتهم بمخالطة المضلِّين، وتقليد آبائهم الضالين، سَاوَقَ الكلام بالتوعُّد لهم، فقال: ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الله الذي نجَّاكم ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحاً تَحْصبكم بالحصباء حتىٰ تُهلِكَكم، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ يَصْرف عنكم ذلك؛ إذ لا رادَّ لأمر الله.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: يعيدكم إلىٰ البحر ثانيةً بسَوْق التقادير، ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ يقصف بكم الفُلْك، ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ أي: ثائراً علينا يتبعنا ويعقبنا بما فعلنا ليثأر لكم. وهذا الوصف مأخوذ من عادات المخاطَبين، حين يُنْجد بعضهم بعضاً ممن ينال منهم، ويتبع الـمُنجِد المعتدي لِيَثأرَ منه أو يستخلص منه ما اغتَصَب، علىٰ سُنَّة القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة في مجازات القرآن). والمعنىٰ:

لا تجدون مُنجِداً ولا ناصراً. وهذا المعنىٰ بعينه هو معنىٰ: ﴿لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ في الآية السابقة، لأنه بمعنىٰ: لا تجدون مَنْ ينصركم ويحفظكم من بأس الله. والوكيل: يحافظ علىٰ الـمُوكَّل به.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلٗا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذٗا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

وبعد أن نَعَىٰ علىٰ المشركين شِرْكَهُم، وأثبت التوحيدَ لله سبحانه واختصاصَه بالربوبيَّة، أثبتَ الحشْرَ الذي ينكرونه أيضاً، ودلَّل عليه بتمييز الإنسان عن سائر الحيوان، بما كرَّمه به من المواهب العظيمة، والروح الكريمة الواسعة الإدراك، والجسم المعتدل وقواه المتَّسعة لجليل الأعمال، وبما أكرمه به من النِّعَم الكبيرة والـمِنَن الجزيلة العظيمة الآثار؛ إذ كل ذلك يدلُّ دلالة واضحة علىٰ أنَّ مصير الإنسان ليس إلىٰ الفناء كمصير الحيوان، ولكن إلىٰ خلود يكون فيه شقياً أو سعيداً، حسب صحَّة اعتقاده وسَدَاد أعماله أو سوء ذلك، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ فقد خلقهم في أحسن تقويم، وأسدىٰ إليهم من المواهب الجليلة ما لم يُسْدِهِ إلىٰ غيرهم من المخلوقات، ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بما تنوَّع من وسائل النقل، ولا سيما ما كان علىٰ الحاملات العصريَّة

المصنوعة بمعونة تلك المواهب التي أودعها الله فيهم، والاستعداد الذي طبعهم عليه، ليكونوا خُلفاء في الأرض يعمرونها ويستنبطون كُنوزها وخيراتها، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ في ذلك ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ فهل يُعقَلُ بعد هذا أن يكون مصيرهم مصير سائر الحيوانات في العدم المطلق والفناء؟

كلا، وإنما لهم حياة أخرىٰ يشقون فيها أو يسعدون، نتيجةً لأعمالهم التي تُكَيِّفُ أرواحهم بكيفية صالحة للسعادة أو الشقاء[1]، كما بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أي: بمن ائتمُّوا به من نبيٍّ أو مقدَّم في الدين، ونحاسبهم علىٰ ما فعلوا، ﴿فَمَنْ﴾ فعل خيراً كما أُمِرَ و﴿أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: كتابَ عمله، وأخذُه باليمين كنايةٌ عن أنه حاوٍ لأعمال الخير ومُسْتوجب للسعادة والهناء[2]، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ مُبْتهجين مُغْتبطين، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ أي: لا ينقصون من عملهم ومن أجورهم عليه أدنىٰ شيء. والفتيل: الخيط الذي في شَقِّ النواة، يُضرب به المثل لأقل القليل وللشيء التافه.

﴿وَمَن كَانَ فِى﴾ أمر ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الحياة أو المواهب والنِّعَم ﴿أَعْمَىٰ﴾ لم يُبْصِر شأنها ولم ينتبه لما يُراد منها، فيسيءُ التصرُّف بها، ولا يفعل ما يرضي الله، وهو الذي لم يتمسك بتعاليم هذا القرآن، ولم يكون له شخصية بمقتضاه؛ ﴿فَهُوَ فِى﴾ أمر ﴿ٱلْءَاخِرَةِ

---

(١) القول بأن الأعمال تُكيِّف الأرواح للحياة الأخروية، محاولةٌ من المؤلف رحمه الله لإجراء أحوال الآخرة على قوانين وسنن من جنس قوانين الدنيا وسننها، وفيه اقتحام للمغيبات من غير دليل، وقد تقدم التعليق عليه (١: ٢٢١).

(٢) بل أخذُه باليمين حقيقة لا كناية، يعني: يتلقاه بيده اليمنى، والـمُراد: أن الله عز وجل يُقدِرُه على تلقِّيه باليمين ليكون علامةً على نجاته وفوزه، بخلاف من لا يُقدِرُه الله على ذلك فيتلقاه بشماله أو من وراء ظهره، ولا حاجة للمصير إلى الكناية ما دام الحملُ على الحقيقة ممكناً سائغاً.

﴿أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ أي: يكون أشدَّ غفلةً وعَدَمَ انـتباه للأمور التي تُوصله إلىٰ سعادة الآخرة.

قال ابن عباس: أي: من لم ينتبه لهذه النِّعَم التي أنعم الله بها عليه، لم ينتبه للأمور التي توصله إلىٰ سعادة الآخرة، ويكون فيها أعمىٰ كما كان في أمر نعمه أعمىٰ[1]. وفي رواية أخرىٰ عنه: من كان في الدنيا أعمىٰ عمَّـا يرىٰ من قدرة الله في خَلْق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات وعجائبها، فهو في أمر الآخرة أعمىٰ وأضلُّ سبيلاً. أي: في معرفة ذلك علىٰ الوجه الصحيح.

وملخَّص ذلك: أن من كان في الدنيا أعمىٰ لم يُبْصِر الحقَّ ولم يدرك الهدىٰ، فهو في الآخرة لا يرىٰ السعادة بعينيه أبداً، لأنه لم يكون له شخصية تؤَهِّلُه لذلك. والله أعلم. وبين الوصفين نوعٌ من الـمُشاكَلة، ويكنىٰ بعدم رؤية الشيء عن عدم الحصول عليه. يقال: لا ترىٰ كذا بعينك، أي: لا تحصل عليه. وعلىٰ كلٍّ، فمحصَّل الآية: أنَّ العَمَىٰ عن الشريعة وتعاليمها يؤدِّي في الآخرة إلىٰ الشقاء الأليم، لا يرىٰ السعادة بعينه فيها، وقد أفصح الله له عن السبب للتأنيب والتنديم.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: وَمَنْ كان في هذه الدنيا أعمىٰ عن طريق الحق والهدىٰ، لأنه أفسد مواهِبَه بمفاسد التربية وسوء العشرة وجمود التقليد، فلم يُدرك بها ما يُرضي الله؛ فهو في الآخرة أعمىٰ وأضلُّ عن السعادة وطريقها، والله أعلم.

وقال الرازي في معنىٰ الآية: إن الأرواح الجاهلة في الدنيا المفارقة لأبدانها علىٰ جهالتها تبقىٰ علىٰ تلك الجهالة في الآخرة. وأن تلك الجهالة تصير هناك سبباً لأعظم الآلام الروحانية التي عبَّر عنها بالعمىٰ[2].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٣٧٢٠، ١٣٧٢١)

(٢) «تفسير الرازي» (٢٢: ١١١).

وعلىٰ كلٍّ، فالمراد من الآية: التعليل للصنف المطوي فيها، وهو مَنْ أوتي كتابَه بشماله، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (مكرراً) من المادة الثامنة من المقدمة الثانية). ومهما يكن من معنىٰ الآية، فلا يَغِبْ عن بالك أنَّ عمىٰ الآخرة غير عَمَىٰ الدنيا، إذ ليس بين ما في الآخرة وما في الدنيا مشابهة إلا بالاسم، كما جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وجاء مثل هذه الآية في سورة طه[1].

ثم أردف الكلام بذكر شيء من عَمَىٰ هؤلاء المشركين في الدنيا وحرصهم فيه، فقال: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾، وذلك لأنه لو سكت عن بعض شأنهم المخالف لِـمَا أوحىٰ الله به إليه، يكون كالمفتري غيره، ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: لو سَكَتَّ عن بعض شأنهم لرضوا عنك ولكنتَ لهم ولياً.

أقول: وهذا لون من ألوان شدَّة البيان في القرآن، يُـوَجَّه إلىٰ النبي ﷺ لمجرَّد التثبيت والإرشاد. ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ...﴾ [القصص: ٨٦ – ٨٧]. وهذا الافتراء غايةٌ لهم مقصورة علىٰ محاولتهم لها ورغبتهم فيها، فأعرضَ عنهم ﷺ بوجهه.

وقال في «مجمع البيان»: إنها نزلت في وفد ثقيف، قالوا: نبايعك علىٰ أن تُعطينا ثلاثاً: أن لا نَنحَني أو نُجبي ـ يعنون بعض أفعال الصلاة ـ ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وتمتعنا باللات سنة[2]. فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود، فأما كسر الأصنام بأيديكم فذاك لكم، وأما الطاعة للات فإني غير ممتِّعكم بها». فقام

(١) في الآية ١٢٤ منها.

(٢) ذكره في «تفسير مقاتل بن سليمان» (٢: ٥٤٣، ٥٤٤)، ورواه أحمد في «مسنده» مختصراً (١٧٩١٣).

رسول الله ﷺ وتوضَّأ دفعاً لغضبه، فقال عمر بن الخطاب: ما بالكم آذيتُم رسول الله ﷺ، إنه لا يَدَعُ الأصنام في أرض العرب. فما زالوا به حتىٰ أنزل الله الآيات.

ومعنىٰ: ﴿ لِنَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾: إنك إذا اتَّبعت أهواءَهُم أو هَمَمْتَ، كنتَ كالمفتري لغير ما أوحي إليك، ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ أي: ولولا أن ثبتّناك بخصائص النبوة وطبيعتها العليّة، لقد كِدْتَ تركنُ إليهم شيئاً قليلاً، بحسب خصائص الطبيعة البشريَّة في المجاراة والتأليف، فتُعطيهم بعض ما يسألونك بالسكوت عنهم، ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ أي: ضِعْفَ عذاب الحياة وضِعْفَ عذاب الممات، ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ يدفع عنك.

هذا ما يقوله سبحانه وتعالىٰ لنبيِّ الرحمة المؤيَّد بالكرامة والعِصْمة، فاعتبروا يا أولي الألباب، فإنه قولٌ فَصْل، وما هو بالهزل، واخشَوْا يوماً ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [لقمان: ٣٣]، اللهمَّ احفظنا من كلِّ ما لا يرضيك.

وقال ابن عباس: إنَّ رسول الله ﷺ معصومٌ، ولكن هذا تخويف لأمته، لئلا يركن أحدٌ من المؤمنين إلىٰ أحد من المشركين في شيءٍ من أحكام الله وشرائعه[1].

أقول: وذلك من خصائص اللغة في عُرف التخاطب مع الرؤساء والزعماء، فقد يُقال للرئيس: إذا فعلت هذا كانت عاقبته كذا، والمراد: إذا فعله قومُك.

والذي أراه ـ والله أعلم ـ: أنَّ الآيات تُلهِمُ عَرْضَ بعض المعتدلين اقتراحاتٍ بسيطة، ومَيْل النبي ﷺ إلىٰ الجنوح إلىٰ شيءٍ من التساهل حرصاً علىٰ هدايتهم، ولكن الأمر لم يتعدَّ الخاطر إلىٰ الفعل، وقد عصمه الله من ذلك، لأن فيما طلبوه شيئاً من

(١) ذكره ابن الجوزي في «تفسيره» (٥: ٦٩).

الشذوذ عما أوحىٰ الله إليه من أسس الدعوة. وقوله: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ يدلُّ دلالة صريحة علىٰ أنَّ ما خَطَر بباله قد كان شيئاً غير مُهم، وكان عن اجتهادٍ فيه خِلافُ الأَوْلىٰ، اشتدَّ فيه الحرص الطبيعي علىٰ المصالح الخيرية، ثم غلب التأديبُ الإلهيُّ ذلك الحرصَ. ولا يَبْعُدُ أن يكون هذا الركون كالركون إلىٰ صناديد قريش عندما عاتبه سبحانه بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]، وكقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨]. والأصحُّ أن يقال: إن (لولا) حرف امتناع لوجود. وعليه، فقد امتنع الركون لوجود التثبيت بحكم النبوَّة والكمال. والله أعلم.

ثم ذكر صفحة أخرىٰ من أحوال المشركين، وإصرارهم علىٰ الكفر، وحرصهم عليه، ومقاومتهم الشديدة للرسول ﷺ وما جاء به، فقال: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي: ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ التي أنت فيها، وهي مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا﴾ أي: إذا فعلوا ذلك ﴿لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ أي: لا يبقون بعدك في هذه الأرض ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ أي: زمناً قصيراً، ثم يُهلكهم الله بعذاب الاستئصال، ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ حيث عارضهم أقوامُهم وكذَّبوهم وأخرجوهم، فاستَأْصَلْناهم بعذاب. ومن ذلك ما جاء في آخر السورة من أمر موسىٰ وقومه مع فرعون وملئه، ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا﴾ في الأمور الكونية ﴿تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾، بل هي جارية ومطَّردة في سائر الأزمان.

وقد جرت هذه السّنّة في المعارضين من كفار قريش الذين أخرجوه من مكة، فاستأصلهم ببدر بعد هجرته بسنة. ويجوز أن تكون الهجرة ليست من الاستفزاز؛ لأنَّ الله سبحانه أمره بالهجرة إلىٰ المدينة لنشر الدين هناك، ويجوز أنهم تفكروا في ذلك، ثم أعرضوا خوفاً من نشر الدين. والله أعلم.

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

ثم أمره بإقامة الصَّلاة إزاحةً لما يعتريه من الهمِّ من جَرَّاء أعمالهم ومعانداتهم، لأنَّ مناجاةَ الله تثبِّت القلبَ وتُسلِّي الحزن، فقال تعالىٰ: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وكان ﷺ إذا غمَّه أمرٌ فزع إلىٰ الصلاة، ويقول لبلال: «أرحنا»[1]. وإقامة الصلاة: الإتيان بها علىٰ أكمل الوجوه، وأهمُّ ذلك حضورُ القلب والشعور بما فيها من معاني القراءة والأذكار والقيام لله تعالىٰ والركوع والسجود وما فيه من تذلُّل وخضوع؛ لأنَّ ذلك هو الروح لها، كما قال ﷺ: «ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها»[2]، وإنما يحصل المصلّي علىٰ هذه الصورة من الصلاة بالتدريب والمران.

ثم أدمج سبحانه وتعالىٰ في الأمر بإقامة الصلاة بيانَ أوقاتها، فقال: ﴿ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ أي: لزوالها، فأقام الوقت مقام العلَّة علىٰ طريقة المجاز المرسل، وقوله: ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ أي: ظلمته، وقد أجمل بهذه الجملة أربع صلوات: الظهر والعصر والمغرب والعشاء. وقد فصَّل هذا الإجمالَ حديثُ جبريل في مواقيت الصَّلاة[3] حيث بيَّنها له

---

(١) رواه أحمد (٢٣٠٨٨)، وأبو داود (٤٩٨٥)، عن رجل من الصحابة.

(٢) قال الحافظ العراقي في «تخريجه علىٰ الإحياء» (٤٤٤): لم أجده مرفوعاً. ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٧: ٦١)، عن سفيان الثوري من قوله.

(٣) رواه الترمذي (١٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

بالفعل. وكذلك بيّن له وقت الصبح الذي ذكره سبحانه بقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: صلاة الصبح، وعبَّر عنها بهذا العنوان تنويهاً وتعظيماً لشأن المناجاة لله بالقرآن، وقراءته في الصلاة في ذلك الوقت الذي قد خُلِّيَ القلبُ فيه من أكثر الشواغل، فيكون شاهداً غير غائب، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ يشهدُه القلب ويحضره أو تشهده الملائكة. وقد أظهر كلمة «الفجر» مع أنَّ المقام يقتضي الإضمار، وذلك لمزيد الاهتمام بها، ولتكون العبارة مستقلّةً تجري مجرىٰ المثل والكلمة الفُضْلىٰ.

ثم حضَّه علىٰ صلاة الليل، لأنها أشدُّ تأثيراً في ذلك، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: زيادةً خاصَّة بك، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ أي: منزلاً كريماً. وقيل: المراد به مقام الشفاعة. والله أعلم.

ثم لقَّنه هذا الدعاء يطلب به إنجاز الوعد بالتوفيق للنصر، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ في كلِّ ما يُلابسني من أمر، أو في أعباء النبوة والرسالة. والشيء الصدق: هو المُسْتوفي للكمال، أي: أدخلني إدخالاً مكرماً، وأخرجني إخراجاً مُشرفاً. أو: اجعل وُرودي وصُدوري في أموري موفقاً ميموناً، ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ أي: قوةً معزَّزة ونصراً مؤيداً.

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ وهو الوحي والإسلام، ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[1] وهو الشرك والكفران ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾، وفي الآية وَجْهٌ آخر: وهو أنها بيانٌ من الله

---

(١) يعصي المجتمع في أول الأمر داعي الخير الذي يقوم به الأنبياء والمصلحون، وعلىٰ رأسه المترفون وأصحابُ المراكز، للمحافظة علىٰ مراكزهم، ويظلُّ يقاوم ما وَسِعَته المقاومة، حتىٰ تخورَ قواه وتنهارَ مقاومته تدريجياً، فيندفعُ عنه ذلك إلىٰ التيار الجديد اندفاعاً حماسياً شديداً، كأنه يكفِّر عن سابق خطيئته في تلك المقاومة. (المؤلف).

سبحانه وتبشيرٌ بغَلَبة الحق للباطل، إذا رُوعيت أسبابه، كما هو عليه ﷺ. فهو يُبشِّرُه بذلك بعبارة دعاء، علىٰ نهج القرآن.

ثم نوَّه بشأن ما احتوىٰ عليه هذا القرآن هدايةً وإرشاداً، وندَّد بهؤلاء المشركين الذين لم يزدادوا به إلا بُعداً وعناداً، فقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ للنفوس ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، في تزكية نفوسهم، وتوسعة مداركهم، وإصلاح شؤونهم، ونَيْل السعادة في دنياهم وآخرتهم، ﴿وَ﴾ لكنه ﴿لَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ لتكذيبهم وكفرهم به وإعراضهم عنه، فقد أنعم الله عليهم بهذه النعمة فأعرضوا عنها.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

ثم بيَّن خَلْـقَ الإنسان في الإعراض عن الله وكفران نِعَمِهِ، رغم احتياجه إليها وتنعُّمه بها، وصَاغَ الكلام علىٰ سنة القرآن في تعقيب الأمر بما يشمله وغيرَه، مُؤْذِناً بأنَّ إنزال القرآن نعمةٌ عُظمىٰ علىٰ الإنسان، وضمَّن ذلك وعيد هؤلاء الظالمين، ومنشأ إعراضهم عن الحق، فقال: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ وهذا كنايةٌ عن الاستكبار والازدراء للنعمة وكفرانها، ومنها نعمة القرآن، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾، وهذا وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممَّن هو علىٰ هذه الصفة. ومثل ذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن، لأنَّ الجنس يتحقَّق في بعض الأفراد، وتضمَّنت الجملةُ الوعيدَ للظالمين، علىٰ نهج القرآن في تعقيب التنديد بالوعيد.

ثم وضح مَنْشأ الإعراض بالإلماع إلىٰ أنه نوع التربية وشكلها وتكييفها للنفوس، فقال: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: علىٰ طريقته التي تُشاكِلُ حاله التي طوَّر نفسه

عليها من الصلاح أو الفساد، وطابعه الذي طَبَعَ نفسه عليه بالتربية الصحيحة أو الفاسدة، ثم علَّل ذلك وَوَعَد وأوعد بما تضمَّنه قوله: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾، فأشار إلىٰ أنَّ الأمر في الصَّلاح والفساد عائدٌ إلىٰ الهدىٰ والضلال اللذَيْن هما أثران للنفس إذا زُكِّيَتْ وإذا دُسِّيَتْ، والله سبحانه يعلم المهتدي من الضال ودرجة كلٍّ منهما. وإنما صاغه بهذه الصيغة ليدلَّ ـ مع التعليل ـ علىٰ الوعد والوعيد، علىٰ نهج القرآن في سَبْكِ المعاني بعضها مع بعض.

ومُحصَّل الكلام: أن كُلاً من أفراد الإنسان يعمل علىٰ ما طوَّر به نفسَه وشكَّلها، من التزكية أو التَّدْسية، حتىٰ صار الـهُدىٰ أو الضلال خَلْقاً من خَلْقِهِ، وشكلاً من أشكاله. واللهُ سبحانه وتعالىٰ يعلم مَنْ يُزكِّي نفسه ومن يُدسِّيها، فالإنسانُ مُيَسَّر للخير خِلْقَةً، إلا إذا أفسد غريزته الدينية ودنَّسها، فينحدر إلىٰ الشر.

ولما كان أثر ذلك يعود إلىٰ الروح التي هي مَنَاط ذلك التشكيل والتكييف، فيرفعها إلىٰ أعلىٰ علِّيين، أو يخفضها إلىٰ أسفل سافلين، لأنها إما أن تتكيَّف بالصلاح كيفيَّة تؤهِّلها للسعادة في الأخرىٰ، أو تتكيَّف بالفساد كيفيَّةً تؤهِّلها للشقاء فيها، فلمَّا كان الشقاء والسعادة يجريان علىٰ الروح، كان الإنسان في الحقيقة هو الروح، لذلك كمَّل البحث عن الإنسان بالكلام عن ذات الروح، لمح إلىٰ كل ذلك بقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ...﴾[1] أي: المستعدَّة لهذين الحالين.

---

(١) يأتي في القرآن كلمة (الروح) وكلمة (النفس)، والمراد بهما ـ والله أعلم ـ واحد بالذات، وإن اختلفتا بالاعتبار، إذ المراد بالروح ذاتُها المجرَّدة وحقيقتُها الراهنة. والمراد بالنفس: الروحُ من حيث تعلُّقها بالبدن، وأنها موضع للاستعدادين: الخير والشر، وتتكيَّف بما يُعرِّضها له صاحبُها منهما، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨]، =

وهناك وجه آخر للربط، وهو أنه بعد أن ألـمع إلىٰ الحشر من طريقة طبيعة الإنسان وكرامته، عاد فأكَّده من طريقة روحه، وألمع إلىٰ أنه مخلوق عظيم، ذو جسم وروح، فكيف تنكرون عليه البقاء، وما يتبع ذلك من حشر وسعادة أو شقاء؟! فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾(١) لا يُؤهِّلكم لمعرفة مثل حقيقة الروح؛ لأنَّ طريق علمكم العقل، وهو لا يُدرك من المعقولات إلا ما له مثيلٌ مما يعرفه من المخلوقات.

= ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، ﴿لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦]، ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [النمل: ٤٤]، ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ [سبأ: ٥٠].

وإنها يكثر التعبير بلفظ النفس في القرآن، ولم تأت عبارة الروح فيه إلا قليلاً، لأن القرآن إرشاد للنفس يحضُّها علىٰ التكيُّف بكيفيَّات الخير والصَّلاح، ويُحذِّرها من كيفيَّات الشرِّ والفساد. ولم يتكلَّم القرآن عن ذات الروح المجرَّدة إلا قليلاً، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ...﴾.

وقد تأتي كلمة النـفس بمعنىٰ: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١]، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]. ولم يُرَدْ بها الروحُ في هذه الآيات.

ووجه الربط في الآية: أنه لما كان السياق يتضمَّن أمرَ الآخرة وشؤونها، ومرجع ذلك من الإنسان ما فيه من الروح، تعرَّض لذكره إجمالاً تتميماً للبحث وتثبيتاً له.

وقد تكلمتُ في أول سورة الحج عن مستقرِّ الروح، وعن بعض أحوالها بعد الموت وقبل القيامة، فارجع إليه. (المؤلف).

(١) حَلَّل الفيلسوف الإنجليزي العلم الإنساني في كتابه «الأصول الأولية»، فأحاله إلىٰ درجة العجز المطلق أمام إدراك كُنه أصغر ذرة من ذرات الوجود، وقـرَّر أنه لا يكسبنا في الإلمام بالموجودات المعروفة لنا إلا إدراك علاقتها ببعضها وصفاتها الخارجية عن كيانها وكنهها.

أقول: وهكذا القرآن إذا كلَّمنا عن شيء لا يعرِّفنا حقيقته، ولكن أحواله المتعلِّقة بنا وصفاته الخارجية، وكذلك حديث رسول الله ﷺ. (المؤلف).

والروح التي خصَّ الله بها أصنافاً ثلاثة: الإنس والجن والـمَلَك، وجَعَلها مدار التكليف ومناط السعادة والشقاء، لا مثيل لها بين المخلوقات التي تعرفونها.

والروح غير الحياة، إذ الحياة أثرٌ يظهر في الأجسام كلِّها متىٰ كانت علىٰ التَّسوية التامَّـة التي سوَّاها الله عليها. وذلك يكون لكلِّ مخلوق من مخلوقاته تعالىٰ، حيواناً أو نباتاً، بخلاف الروح، فإنها مخصوصة بالأنواع الثلاثة: المَلَك والإنس والجن. ولا تظهر في جسم الإنسان إلا إذا كان حياً. والله أعلم. ولا عبرة بإطلاقها علىٰ الحياة في عُـرْف التخاطب، لأنه مبنيٌّ علىٰ التساهل في التعبير، وبادئ النظر والتفكير. وقد مرَّ الكلام عن ذلك في سورة الحجر عند قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩].

وجاء في «تفسير الرازي» ما محصَّله: ومن الناس من يقول: الروح جسم لطيف لا يقبل التحلُّل والتمزُّق. فإذا تكوَّن البدن وتمَّ استعداده ـ يعني: ما هو المراد من قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ ـ نفذت فيه الروح نفاذ ماء الورد في الورد ـ يعني: ما هو المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ ـ ثم إن البدن ما دام سليماً قابلاً لنفاذ الروح فيه، يبقىٰ حياً، ومتىٰ فقد السلامة يعرض لها الموت.

هذا ما نقله الرازي[١]، ولكني أقول كما قلت في سورة الحجر: إنَّ هذا البدن ما دام علىٰ تسويته فهو حيّ، وإذا فَقَدَ تلك التَّسوية إلىٰ حدٍّ ما يفقد الحياة، وإذا فَقَدَ الحياة لا تظهر فيه الروح، كما لا يظهر الضوء الكهربائيُّ في زجاجته إذا عطبت. والله أعلم.

ثم قال الرازي بعدما نقل هذا الرأي: وهذا مذهب قويٌّ شريف، يجب التأمل فيه، فإنه شديد المطابقة لما وَرَدَ في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت.

ثم قال بعد كلام طويل: وإن قوله تعالىٰ: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: ٩٣]:

---

(١) في «تفسيره» (٢١: ٣٩٨).

كلام صريح بأن النفس غير البدن، وكذلك قوله تعالىٰ في ذكر مراتب الخلقة: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢]. انتهىٰ"(١).

ولما أراد أن يذكر نفخ الروح قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وهذا صريحٌ بأنَّ الروح جنسٌ مُغاير لما سَبَقَ من المراتب الجسمانية، كما أن قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢] تصريح بالفرق بين البشريَّة والروح.

وقال الفيلسوف رينان الفرنسي: كان اليونان يعتقدون أنَّ في الإنسان عنصرين مستقلَّين: الروح والجسد.

ومن مباحث اللفظ: أنه إنما أظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾، ولم يقل: «قل هو من أمر ربي»، إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه، كما تقتضيه البلاغة العالية، ولتكون الجملة مستقِلَّة بذاتها.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾.

ثم حسَّسَنا سبحانه وتعالىٰ بمنَّته علينا في إنزال هذا القرآن الذي علَّمنا فيه ما لم نكن نعلم، وهدانا به لرشدنا ولمصيرنا وأسباب سعادتنا في الدارَيْن، ولكن لم يَقدُرْهُ البشر حقَّ قَدْره، وأعرض أكثرهم عنه، وندَّد بهم مخاطباً بذلك النبيَّ ﷺ الذي أنزل عليه، ومُمْتناً بالنعمة العُظْمىٰ التي أنعمها علينا بإنزاله، وذكر ذلك بأسلوب من أساليبه

(١) «تفسير الرازي» (٢١: ٤٠٣).

البديعة في البيان، فقال: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ أي: لا تجد مَنْ يتوكَّل لك علينا باسترداده، ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ وهذا استثناء منقطع، أي: ولكن يَحُول دون ذلك رحمةُ الله وفَضْلُه عليك، ﴿ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ والخطابُ للرسول ويشمل المؤمنين علىٰ نهج القرآن في مثله.

ومحصَّل الآية: بيان عِظَم منَّـة الله علينا في إنزال هذا القرآن، ولو فقدناه ـ كما فقدت أهل الكتاب ـ لخسرنا خسراناً مبيناً.

ثم نوَّه بمقدار شأن هذا الموحىٰ به إليه وعَظَمة قَدْره، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أي: بكتاب من جنس القرآن، ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ أي: ولو تَظَاهَروا علىٰ الإتيان، وتَعاونوا عليه.

ثم عاد فنعىٰ علىٰ البشر بأنه نوَّع لهم البيان عن شؤونهم في الحياتَيْن بهذا القرآن، ليذّكّروا ويفعلوا ما يُصلحهم، فلم يؤمن به إلا القليل، فقال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ أي: كرَّرنا لهم فيه البيانات والإيضاحات والحجج الباهرات بوجوهٍ مختلفة وصور منوَّعة، زيادةً في الهداية والإرشاد، فلم يُؤَثِّر كلُّ ذلك علىٰ أكثر الناس، وأبَوْا إلا الكفر وجُحود الحق الذي ظهر للعيان كالشمس في وَضَح النهار.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا

﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل
لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا
رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾
وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ
وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم
بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ
يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ
فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

ولـمَّا عجزوا عن الـمُحاجَّة عَمَدوا إلىٰ طريق اللَّجاج والعِناد، مما يدلُّ علىٰ قلَّة فهمٍ ودراية في حدود النبوَّة، جاهلين أنها لا تتجاوز القدرة البشريَّة، كما حكىٰ عنهم ذلك بقوله: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ أي: عيناً جاريةً في أرض مكة لا يَنْـضَبُ ماؤها، ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ ﴾ في هذه الأرض ﴿جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾.

ثم غيَّروا الأسلوب إلىٰ نوع آخر من العناد، مصحوباً بالاستهزاء والاستخفاف، كما حكىٰ ذلك عنهم بقوله: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ يعنون ما هدَّدهم به تعالىٰ في سورة سبأ بقوله: ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [سبأ: ٩]. ثم زادوا علىٰ ذلك بقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ أي: مقابلين لنا، حتىٰ نشاهد ذلك بأعيننا. ويجوز أن يكون ﴿قَبِيلًا ﴾ بمعنىٰ: جماعات، فيكون حالاً من «الملائكة».

ثم تابعوا العناد بنوعَيْه، فقالوا: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: من ذهب مُرَصَّع بأنواع الجواهر، ويجوز أن يريدوا مثل هيكل سليمان عليه السلام، والله أعلم، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أمامنا علىٰ معارجها.

ولما كان هذا الأمر حالاً غير منضبط وقابلاً للتمويه بزعمهم، أضافوا إليه للتوثيق قولهم: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ أي: إننا لن نُصدِّق برُقيِّك هذا إلىٰ السماء إذا ادَّعيتَه حتىٰ ينزلَ علينا رأساً من دون أن يتلقَّىٰ مِن قِبَلِك كتابٌ نقرؤه، وفيه تصديقُ أنك نبيٌّ مُرسل. وهذه الزيادة يُلهِمُها قولهم: ﴿تُنَزِّلَ﴾، عِوَضاً عن قولهم: تأتينا بكتاب. والله أعلم.

وهذه الاقتراحات الـهَوْجاء تحتمل أمرين: إما اعتقادهم أنَّ الرسول يجب أن يكون علىٰ هذه المقدرة وبهذه الصفة؛ جهلاً منهم بتاريخ الرسل وحدود الرسالة. وإما أن يكون تعنُّتاً منهم وتندُّراً، وهو الأظهر.

فأمره سبحانه أن يُـجيبَهم بالجواب الـمسْبوك علىٰ التعجُّب من اقتراحاتهم، والتَّسخيف لهم، والسخرية من مطالبيهم، والتحديد لمدىٰ النبوَّة، والتنزيه لله تعالىٰ عن أن يتحكَّم عليه بشيء، أو يشاركه أحد في شيء، فقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أي: أنزِّهه عن أن يَتَدخَّلَ أحد في شؤونه باقتراحات، و﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ كسائر الناس لا قُدْرةَ لي علىٰ شيء مما اقتـرحتموه، وهل كنتُ إلا ﴿رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ كسائر الرسل، لا يأتون قومهم إلا بما يؤتيهم الله، مما يُلائمُ حال قومهم ويُصلِحُه، ولم يكن أمرُ الآيات إليهم، وليس لهم أن يتحكَّموا علىٰ الله، حتىٰ تتخيَّروها عليَّ.

أقول: إنَّ هؤلاء جَهَلة حُمَقاءُ لا يُفرِّقون بين حدود النبوة وعظمة الألوهية.

ثم خصَّ بالنقض أكبر شبهة لديـهم من شُبههم، لأنها مِلاكُ هذه الاقتراحات

وجماعُها، فقال: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ أي: ما منعهم من الإيمان إلا إنكارهم أن يكون الرسول بشراً. فأمره أن يُجيبَهم بهذا الجواب، فقال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ ومفاد هذا الجواب: أن الرسول يجب أن يكون من جنس المُرْسَل إليهم، ليفهموا عنه، وذلك أمر بديهي لا شبهة فيه. وهذا أقوىٰ دليل وأوضَحُه في إثبات المدَّعىٰ، ونَقْضِ شبهتهم هذه.

ثم أشفع الإلزام ببيان أنه قد أدَّىٰ الرسالة لهم، وأبلغهم ما أوحىٰ به إليه، وما علىٰ الرسول إلا البلاغ، فقال: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ علىٰ أني رسول الله وأدَّيتُ ما عليَّ من واجب الرسالة أكمَلَ أداء، وأنكم كذبتُم وأبيتُم وعاندتُم، والله سبحانه عليم بشأنكم؛ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ لا تَـخْفىٰ عليه من أمرهم خافية.

ثم تابع الكلام بهذا البيان العامِّ المسبوك علىٰ التَّنديد والوعيد، والمتضمِّن وَجْهَ تصلُّبهم في عنادهم، رغماً عن المبالغة في إرشادهم، فقال: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ باستعمال عَقْلِـهِ بمقتضىٰ الفطرة وإرشاد الدين لسلوك سَبيـل الهدىٰ ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ للفوز بالسعادتين، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ وذلك بإفساد الإنسان لطبيعته وتحريفه لغريزته، فيُعرض عما جاءَه من الحق، ويعارض المرسلين، ويتَّبع غير سبيل المؤمنين؛ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: لا ينصرهم أحدٌ من عذاب الله، ولا يمنعهم منه نصير، وبيَّن صورته بقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يُسْحبون عليها ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ مُبْـلِسين مُسْتَسلِمين، جزاءَ ما كانوا في الدنيا لا يُبصِرون الحقَّ ولا ينطقون به ولا يستمعون له. أو المعنىٰ: أنهم لا يُبصرون ما تَقَرُّ به أعينُهم، ولا ينطقون ما يُقْبَلُ منهم، ولا يسمعون ما يلذّ مسامعهم. وعلىٰ كلٍّ، فالكلام يُؤْذِنُ بأنهم يحشرون علىٰ أسوء

الأحوال، ثم ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ خالدين فيها ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ وسَكَنَ لهيبُها ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾، أعاذنا الله.

وقد بيَّن تعالىٰ أنَّ ذلك العذاب إنما هو بما كسبت أيديهم وسبَّبوه لأنفسهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟﴾ مُنكِرين للبعث أشدَّ الإنكار: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ باليةً مسحوقةً ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾، فأنكروا البعثَ وكلَّ ما جاء فيه عن الله، وركبوا غَوايتهم، فأصابهم ما أصابهم من عذاب الله. وكيف يستعظمون البعث علىٰ قدرة الله البالغة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ ويبعثَهم خلقاً جديداً؟! ﴿وَ﴾ قد ﴿جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ لذلك ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ وجحوداً، مع وضوح هذه الأدلَّة والبراهين. ويجوز أن يُراد بالأجل: الموت الذي لا يرتابون فيه، فتكون الجملة مُتمِّمة للدليل، لأنَّ الموت أعجبُ من البعث لو تأمَّلناه.

ولما كان منشأ هذه المعارضة المُفْضية إلىٰ إنكار ما جاء به إنما هو الحرصُ علىٰ مراكزهم المالية والاجتماعية، ألمع إلىٰ أنَّ هذا هو السبب في العِناد، لا الشك في نبوتك. ولكنه ألمع إليه وإلىٰ التأنيب عليه ضمن البيان عن طبيعة الإنسان في شدَّة الحرص والإمساك، علىٰ نهج القرآن في سَبْك المعاني وإدماجها، فقال: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾، وذلك لأنَّ مبنىٰ أمره علىٰ الحاجة.

وفي معنىٰ هذا البيان تلميحٌ للفرق بين كرم الله سبحانه وبخل الإنسان، وتلويحٌ لمن يتعجب من ثرائهم مع كفرهم هذا، فهو سبحانه لا يُمسك رزقه عن هؤلاء المعارضين، وما كان عطاء ربك محظوراً، فهو يرزقهم ويُعطيهم، ويُفيض عليهم النِّعَم، مع إعراضهم وكفرهم بالله، ولا يقابل ذلك بالمنع والإمساك.

وقيل: إن الآية تعليق علىٰ طلبهم أن يفجِّر لهم في أرض مكة ينابيع تعود عليهم بالثراء العظيم، إلخ. ومفادها: أن البشر لا يُصلح طبيعتَه إلا الإيمانُ بالله والتمسُّك بما جاءه من عند الله من هُدىٰ ورشاد. ومهما اتَّسعت ثروتهم مع الكفر والعناد فليسوا بمُصلِحين بها شيئاً بين العباد.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

ثم ذكر قصة موسىٰ مع فرعون، تأييداً لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ ...﴾ [الإسراء: ٥٩] وامتداداً له، وتسليةً للنبي ﷺ عن تخلُّف هؤلاء المشركين من قومه عن الإيمان، مُلمعاً إلىٰ أنه سبحانه لو أجاب طلبهم لهذه الآيات الكونية والمعجزات لما آمنوا أيضاً، كما أنَّ آل فرعون لم يؤمنوا مع توفُّر الآيات والبصائر، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ واضحاتِ الدلالة علىٰ نبوَّته وصحَّة ما جاء به[1] فلم يؤمنوا.

ثم استشهد علىٰ ذلك بهذه الجملة الاعتراضية، فقال: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ثم تابع الكلام فقال: ﴿ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ ﴾ مُنكِراً لتلك البيِّنات: ﴿ إِنِّى لَأَظُنُّكَ

(١) وهي: العصا، واليد، والطُّوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، وآية الرِّجز، وهو عذاب أنزله الله بفرعون ومَلَئِهِ كأمراضٍ وأوجاع لا عهد لهم بها، وآية السنين الـمُجدِبات والنقص في الثمرات.

يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ أي: مخدوعاً بدعواك الرسالة عن الله. وقيل: بل المعنىٰ: إنك مُعطىٰ عِلمَ السحر تخدع به الناس.

لذلك ﴿ قَالَ ﴾ له موسىٰ رداً وتبكيتاً: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الآياتِ ﴿ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ أي: براهين للناس يُبصرون بها الحقَّ، وليست بسحر، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ أي: هالكاً أشدَّ الهلاك إذا أعرضتَ عنها وكذَّبتَ بها.

ثم بيَّن تعالىٰ ما كان من أمر فرعون واستئصاله هو وقومه بالعذاب، فقال: ﴿ فَأَرَادَ ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم ﴾ أي: موسىٰ ومَنْ معه من بني إسرائيل ويُزعجهم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مصرَ بالقتل أو النفي، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ [1] لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ التي أراد أن يستفزَّكم منها، وهذا جزاؤكم في الدنيا، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ أي: حشرناكم وجئنا بكم وبهم جميعاً، لنحكم بينكم بالحق. وهذا تهديدٌ لقوم فرعون، وإنذارٌ لقوم موسىٰ خُتِمَ به السياق.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾.

---

(١) من بعد هلاك فرعون.

ثم عاد بالكلام إلىٰ محوره السابق في المشركين، منوِّهاً بشأن هذا القرآن للتنبيه إلىٰ ما جاء في هذه السورة من عظيم الإرشاد، والهداية إلىٰ طريق السَّداد، وللتصديق بما اشتملت عليه من الوعد والوعيد وتحقيق إنجازه، فقال: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: إنَّ كلَّ ما نَزَل به إنما هو حقٌّ واقعٌ، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾﴾ فلا عليك أن لا يؤمنوا.

ثم أجاب عن شبهتهم وشبهة أهل الكتاب في نزوله متفرِّقاً، إذ كانوا يقولون إنَّ محمداً يُفكِّر في فَصْلٍ فَصْل، ويقرؤه علىٰ الناس، ولو كان كتاباً من عند الله لنزل دفعةً واحدةً، كما أنزل كتاب موسىٰ، فقال: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾ أي: أنزلناه متفرِّقاً، أو فصَّلناه سوراً وآيات؛ ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ أي: علىٰ مهل وتُؤَدة، فإنَّ ذلك أعون علىٰ الفهم، ﴿وَ﴾ هكذا ﴿نَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾﴾ أي: مفرَّقاً علىٰ حسب الحوادث؛ ليكون أوقعَ في النفوس، ولتهضمه العقول بالتدريج، كما تقتضي الحكمة والمصلحة. وتنزيلُه غيرَ متسلسل أدلُّ علىٰ أنه من عند الله. وقد جاء شبيه هذه الآية في سورة الفرقان[1] فانظر إليها.

ثم ختم البحث مبيِّناً عدم الاكتراث بهم إن لم يؤمنوا، فقد آمن به أهل العلم والنظر الصحيح، وجعل ذلك رداً علىٰ عِنادهم، وقولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ﴾ [الإسراء ٩٠] وتهديداً لهم، فقال: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ فإنَّ إيمانكم به لا يزيده كمالاً، وامتناعَكم عنه لا يورثه نقصاناً.

ثم ساق كالتعليل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ وقرؤوا الكتب السالفةَ، وعَرَفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة ﴿إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ ويسمعون وعده ووعيده،

---

(١) يعني الآية ٣٢ منها.

﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾، وهذا أجلُّ تصوير للتصديق به وبمشتملاته من البعث وغيره. وفيه صَفْعٌ للمشركين علىٰ إنكارهم له، ولما جاء به من الحشر والتوحيد والنبوَّة، واستهانةٌ بأمرهم، واستحقارٌ لهم؛ إذ قد أعلنت هذه الآية أنَّ جُحودهم وموقفهم هذا لا قيمةَ له ولا اعتبار، طالما أهل العلم يقفون منه هذا الموقف التَّصديقيَّ الخاشع، وهم الوفد الذي جاء من نصارىٰ العرب الذين يسكنون مشارف الشام وشمال الجزيرة، أو من نصارىٰ مكة والمدينة المعتدلين.

ثم تابع البيان عن حال الذين أوتوا العلم من قبله مُبيِّناً صورة أخرىٰ منها، فقال: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ كما يزيدهم علماً ويقيناً.

ثم ختم السورة بالدعوة إلىٰ التوحيد، وسبك الكلام علىٰ الردِّ لبعض أقوالهم فيها، فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي: ادعوه الله أو ادعوه الرحمن، ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والصفات العُليا، وكلها دالَّة علىٰ مَعَان في ذات الله تعالىٰ إذا تدبَّرتموها. وقد قيل: إنَّ في الآية إيماءً وردّاً علىٰ قول المشركين ـ لما سمعوا من رسول الله ﷺ يقول: «يا الله، يا رحمن»(١) ـ: إنه ينهانا عن أن نعبد إلـهين، وهو يدعو إلهاً آخر. وعلىٰ قول اليهود: إنك لتُقِلُّ ذِكرَ الرحمن وقد أكثره الله في التوراة.

وبعد أن أمرهم أن يدعوه: الله أو الرحمن، علَّمهم كيفيَّـة الدعاء، فقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ أي: أمراً وسطاً قَصْداً. وذكر الصلاة لأنها كلَّها دعاءٌ وثناء، ولا يَبعُدُ أن يُحمَلَ الكلام علىٰ المعنيـين.

ثم ختم الدعوة إلىٰ التوحيد ذاكراً أصوله بقوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ٥٨٠)، عن ابن عباس: «يا رحمن، يا رحيم» بدل «يا الله، يا رحمن». وذكره ابن حجر في «فتح الباري» (١٣: ٣٦٠) وعزاه لابن مردويه، وضعَّف إسناده.

وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾، وقد جمعت هذه الآية الردود علىٰ سائر أنواع الشرك.

وقد روي عنه ﷺ: «إنَّ هذه الآية هي آية العز»[1]، وما أجلَّ هذا العزَّ وأعلاه.

سبحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حَوْل ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

انتهىٰ الجزء الخامس[2] من تفسير القرآن المُسمَّىٰ: «أَوْلىٰ ما قيل في آياتِ التنزيل» لرشيد الخطيب الموصلي بانتهاء سورة الإسراء، ويبتدئ الجزء السادس بابتداء سورة الكهف.

* * *

(١) رواه أحمد (١٥٦٢٥)، والطبراني (٢٠: ١٩٢)، عن معاذ بن أنس. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧: ١٧٧): رواه أحمد من طريقين؛ في إحداهما رشدين بن سعد وهو ضعيف، وفي الأخرىٰ ابن لهيعة وهو أصلح منه، وكذلك الطبراني.

(٢) حسب تقسيم المؤلف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ للطبعة الأولىٰ من الكتاب.

فهرس محتويات المجلد الرابع

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الأنفال	٥-٥٦
تفسير سورة التوبة	٥٧-١٤٥
تفسير سورة يونس	١٤٧-٢٠٦
تفسير سورة هود	٢٠٧-٢٦٩
تفسير سورة يوسف	٢٧١-٣٤٤
تفسير سورة الرعد	٣٤٥-٣٨١
تفسير سورة إبراهيم	٣٨٣-٤١٣
تفسير سورة الحجر	٤١٥-٤٥٠
تفسير سورةالنحل	٤٥١-٥١١
تفسير سورة الإسراء	٥١٣-٥٨١

❊ ❊ ❊

تفسير القرآن العظيم

المسمى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

تأليف العلامة الشيخ

رشيد الخطيب الموصلي

١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلد الخامس

تفسير سورة الكهف إلى نهاية سورة الروم

اعتنى به وقدم له

مجد أحمد مكي

أروقة

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ISBN : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢٠١٤/١/٢١٩)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

سُورَةُ الكَهْف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام علىٰ محمدٍ وآله أجمعين.

وبعد:

فهذا هو الجزء السادس[1] من تفسير القرآن المسمَّىٰ «أَوْلىٰ ما قيل في آيات التنزيل». ويبتدئ بسورة الكهف، وهي مكيَّة، وآيها: مئة وعشرُ آيات.

أما ترتيبها: فقد افتتح السورة ببيان الغرض من تنزيل القرآن، وهو: إنذار الكافرين وتبشير المؤمنين.

ثم ذكر قصَّة أصحاب الكهف الذين آثروا دينهم علىٰ دنيا قومهم، فأنجاهم الله منهم، ثم علَّق عليها بما يناسب السياق.

ثم ذكر قصَّة موسىٰ والخَضِر، ومغزاها: أنه سبحانه يخصُّ مَنْ يشاء بما يشاء من العلم والعرفان.

ثم ذكر قصَّة ذي القرنين وما خصَّه بهم من القُدرة والدراية والإيمان، ثم علَّق عليها بما يُناسبها، وختم به السورة.

---

(١) حسب تقسيم المؤلف رحمه الله تعالى في الطبعة الأولى للكتاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ رتَّب الحمد علىٰ إنزاله؛ للتنبيه علىٰ أنه من أعظم النِّعم؛ لما فيه من الهداية إلىٰ ما به يتمُّ الكمال البشري، وتنمو مواهب الإنسان علىٰ أحسن صورة ينتظم بها حاله في الحياة الدنيا، فينال راحتَها وسعادتَها، وتكمل روحه فتنال نعيم الآخرة ومنازلَها العالية التي لا تُنال إلا بصلاح الأرواح وكمالها.

وقد جعل هذا الكتاب العظيم كفيلاً بجميع تلك النواحي السامية، ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ أي: لم يكن فيه أيّ شيء من الخلل والتقصير(١)، وإنما جاء ﴿ قَيِّمًا ﴾ بالمصالح الدينية والدنيوية، مُعتدلاً فيها، غير مُفْرِط ولا مُفَرِّط، وقد أنزله ﴿لِّيُنذِرَ﴾ به ﴿بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾، وهو عذاب الآخرة، ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

---

(١) العِوَج: فَقْدُ الاستقامة، وهو بكسر العين في المعاني، وبفتحها في الأشخاص؛ كالعَصَا والحائط ونحوهما.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي بُيِّنَتْ في تضاعيف هذا الكتاب، يبشِّرهم ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾، وهو نعيم الجنة، ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ من غير انتهاء.

﴿وَيُنذِرَ﴾ الكفرة ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ﴾ أي: إنهم يقولون ذلك عن جهل مُفرِط تلقَّوه عن آبائهم الذين قلَّدوهم في هذا القول الفظيع.

وقد بالغ في تهجينه وتهويله تعالىٰ بقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: ما أكبر هذه الكلمة وما أفظعها. ثم نصَّ علىٰ تكذيبهم بقوله: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾، وقد ترك المُنْذَرَ به في هذه الجملة استغناءً بتقديم ذِكرِه في الجملة الأولىٰ، وهو البأس الشديد، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم التفت إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، يُهوِّن عليه عدم إيمـانهم بهذا القرآن العظيم، ويُسلِّيه عن تكذيبهم له، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: مُتلِفُها ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي: وراءهم؛ أسفاً عليهم ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، فقوله: ﴿أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ بيانٌ لعلة الإتلاف وسببه. أي: لعلك مُهلِكٌ نَفْسَكَ تأسُّفاً عليهم، إن لم يؤمنوا بهذا القرآن؟! لأنَّ نفوس المصلحين ـ ولا سيما الأنبياء ـ يؤلمهم كلَّ الألم انصرافُ الناس عن دعوتهم، علىٰ ما فيها من خير واضح، وصلاح باهر، وثمرات ملموسة، ونور لامع، وعاقبة حُسْنىٰ ليس لها مثيل.

فاشتملت الآيتان علىٰ شدَّة تفظيع مقالهم، وبيان حرصه ﷺ علىٰ إيمانهم بهذا القرآن، فإنه كان يعجب من كفر قومه وكفر أهل الكتاب به وبما نزل عليه مع وضوح بيانه وظهور برهانه، ويضيق صَدْرُه لذلك، ويبلغ منه الحزن كلَّ مبلغ، فهوَّن عليه سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية.

وقد بيّن له في غير هذا الموضع أنَّ ذلك الضلال إنما ينشأ من طباع البشر إذا فسدت بمفاسد التربية وسوء التقليد، وألمع إلىٰ إعراضهم خوفاً علىٰ مراكزهم المالية والاجتماعية.

ثم هدَّدهم بيوم الحساب، بأسلوب أدمج فيه تنبيهَهم إلىٰ أنَّ ما أعطاهم من نِعَمِهِ التي بثَّها لهم في هذه الأرض وزيَّنها بها، لم يجعلها هدفاً أصلياً، ومقصداً ذاتياً للبشر، وإنما هو ابتلاءٌ لهم واختبار، فقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ هي وسائل وليست بغايات، فيها عِبَرٌ ومُغْريات؛ ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ أي: في استعمال تلك الزينة، وتناول هاتيك المُسْتَلَذَّات وصَرْفها فيما خُلقت لأجله، وعلىٰ الوجه المعتدل الذي أراده الله سبحانه، لا يتغلَّب فيها الهوىٰ والشهوات، ومَنْ تُغْريه ومَنْ لا تُغْريه الـمُغْريات، فإنه سبحانه يختبر بالنِّعَم وبالنِّقَم، وبالشدَّة والرخاء.

ثم أشار إلىٰ الغاية التي تنتهي إليها تلك الزينة، وهو يوم القيامة المغيِّر لمعالمها، وما يتبعه من الحساب والثواب، والنعيم والعقاب، حثاً علىٰ التمسُّك بالأعمال الصالحة المارَّة الذكر، المُسْتَتْبِعة لتلك البشارة، فقال: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ ﴾ يوم القيامة ﴿مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾، وهذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ تلك الزينة أمور وقتية لا تصلح أن تكون غايةً وهدفاً ذاتياً، وإنما هي وسائل لغايات. والصعيد: وجه الأرض. والجُرُزُ: الأرض التي قُطِع نباتُها وحُصِد. والمعنىٰ: أن تلك الزينة ترجع إلىٰ خرابٍ بَلْقَعٍ، ضمن خراب العالم كلِّه بصدمة القيامة، فَلْتَنْظُر نفسٌ ما تُقدِّم لذلك اليوم وما بعده.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ

لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ
هُدٗى ﴿١٣﴾ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ
مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا
يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ
وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم
مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾﴾.

وقد مهَّد بهذا الذكر لقصَّة أصحاب الكهف الفاهمين لهذا الأمر فهماً صحيحاً، وجَعَلها مثالاً للذين آثروا دينهم علىٰ دنياهم، وهربوا به من قومهم، ليحافظوا عليه؛ حَذَراً من ذلك اليوم العصيب.

وقد ألمع بها إلىٰ المقابلة بين عملهم هذا وبين هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا الحديث العظيم، وأومأ إلىٰ أنَّ الله سبحانه حافظٌ للمؤمنين من شرِّ المعارضين، وليس ذلك خاصّاً في أهل الكهف، ولكنْ مِن سُنَّته سبحانه ولايةُ المؤمنين ونصرُهم أبداً، ودلَّل بها أيضاً علىٰ الحشر والإعادة، بما كان من حالهم المشابه للحياة بعد الموت، وذلك بعد نومهم الطويل، فقال: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾[1]

(١) هم فتية من الرومان، متقاربو السن، كانوا في عهد اضطهاد المسيحية الذي دام ثلاثة قرون بعد الميلاد، وكانوا في عهد طاغية من طغاة الرومان، قيل: هو دقليانوس، وقيل: هو ثراجان الذي كان حكمه من ١١٣-١١٦ ميلادية، وكان قد أصدر مرسوماً: بأنَّ كلَّ من يخرج عن ديانة الإمبراطورية البيزنطية إلىٰ المسيحية فحكمه الإعدام، وكان هؤلاء الفتية ممن اعتنقوا المسيحية، فهربوا والتجئوا إلىٰ كهف قريب من المدينة، فألقىٰ الله عليهم هذا السبات، ولما أفاقوا بعثوا أحدهم إلىٰ المدينة متخفياً ليأتيهم بطعام، فلما جاء المدينة رأىٰ أحوالها قد تغيَّرت، وتبيَّن له أنَّ أهلها قد اعتنقوا الدين المسيحي، فأطلعهم علىٰ الأمر وعاد إلىٰ الكهف، فلم يلبثوا أن أماتهم الله، فتنازع أهل المدينة في أمرهم: أهي مثل تلك، أم ميتة طبيعية؟ =

أي: أحَسِبتَ أنَّ قصة أصحاب الكهف كانت عَجَباً من آياتنا وسُنَنِنا، كلا، بل هي من أيسر تلك السنن.

و﴿ أَمْ﴾ ابتدائية، تأتي في القرآن لابتداء الجملة والاستفهام. ويجوز أن تكون عاطفة، والجملة معطوفة علىٰ محذوف، علىٰ سُنَّة إيجاز القرآن، والتقدير: أحسبتَ أنَّ القيامة وما يتبعها من الحشر والحساب عَجَبٌ، أم حسبتَ أنَّ قصَّة أصحاب الكهف والرَّقيم من العَجَب؟! والغرض من هذا العطف: الاستدلال بالمعلوم علىٰ الغيب المجهول.

وفي الآية أيضاً تعليق علىٰ السِّياق المتضمِّن لمعارضة المعارضين، يُقارن بينهما، ويُهوِّن بها عليه ويُسلِّيه، أي: لا يضرُّك كفرُهم، والله حافظُك منهم، كما حفظ أصحاب الكهف من قومهم الكَفَرة. ومثل هذا الحَبْك والإيماء في المعاني، وازدحامها في التركيب الواحد؛ من إيجاز القرآن وبلاغته في دلالة الإشارة ودلالة الاقتضاء.

أما الرقيم فقد قال البلخي والـجُبّائي: هو لوحٌ علىٰ باب الكهف رُقم عليه مختصر قصَّتهم.

ثم أجمل القصَّةَ تمهيداً لتفصيلها، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ

= وقد اكتشفت حديثاً دائرة الآثار كهفين كلاهما مظنة أن يكونه:

أحدهما: قريب من خرابة مدينة أفسوس الرومانية، جنوب شرقي أزمير، بابه إلىٰ الشمال الشرقي ـ وأظن أنَّ آية الشمس تنطبق علىٰ مثل هذا ـ وعلىٰ ظهر هذا الكهف آثار مسجد قد بُني علىٰ آثار صومعة بيزنطية، وعثروا في داخل الكهف علىٰ ثمانية مدافن ترجع بتأريخها إلىٰ العصر البيزنطي، كما عُثر علىٰ الفجوة التي جاء ذِكرُها في القرآن.

والثاني: كهف الرجيب جنوب شرقي عمَّان ـ وقد كانت مدينة يونانية قديمة ـ بابه إلىٰ الجنوب، وعلىٰ ظهره آثار صومعة بيزنطية قد حُوِّلت إلىٰ مسجد للمسلمين، ثم اندثر، ولم يبق منه إلا الأثر. وعثروا في داخل الكهف علىٰ ثمانية مدافن طِرَازها بيزنطي. (المؤلف).

﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ هرباً بدينهم من قومهم الكفار، ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ فهم واثقون بربِّهم في إنجائهم، مفضِّلون دينَهم علىٰ دنياهم.

وقد قرن سبحانه الدعاء بالإجابة، وقال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: أنمناهم إنامةً لا تُنبِّهُهُم فيها الأصواتُ، وتركناهم كذلك ﴿فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ أي: ذوات عدد، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت، ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ المُقِرّ بالبعث أو المُنكِرِ له ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾، وهذا إثباتٌ واقعيٌّ علىٰ منكري البعث، وتعريضٌ بهم، ملفوفٌ بتندُّرٍ واستهزاء. وقد صاغ هذا الاحتجاج بصيغة الحكم بين متخاصِمَين كلٌّ منهما يحاول إثبات وجهة نظره، وضمَّنه النتيجة المثبتة: أنَّ من يقدر أن يُنيمَ هؤلاء هذه المدة الطويلة ثم يبعثهم، يَقْدِرُ علىٰ إحياء الأموات؛ لأنَّ بين الحالتين مشابهةً قوية.

وقد تقدَّم البحث عن معنىٰ عِلْمِ الله هذا في سورة البقرة عند قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فارجع إليه، إلا أنه أُخرج هنا مخرج التهكُّم والتبكيت للمنكرين.

وقد قالوا في وجه التعبير عن تنويمهم هذا بالضرب علىٰ الآذان: إنَّ السمع آخر ما يُفقَدُ من إدراك مَنْ أخذه النوم أو الموت.

وبعد أن تكلَّم عن أمرهم إجمالاً، عاد إلىٰ التفصيل، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك من تجزئة القصص، والتفصيل بعد الإجمال، فقال: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ﴾ لنشر الدعوة إلىٰ التوحيد، ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ أي: قولاً خارجاً عن حدِّ العقل، مُفْرِطاً في الظلم والجهل.

ثم أنكروا علىٰ قومهم هذا الشِّركَ، ودحضوا دَعْواهم هذه ومنعوها بطلب الدليل عليها؛ نقضاً لها وتبكيتاً لهم، كما حكىٰ ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ ﴾ أي: بحُجَّة دالَّةٍ علىٰ مُدَّعاهم أنها آلهة. وهذا ردٌّ وإنكارٌ بصورةِ تحضيضٍ علىٰ الإثبات وتعجيزٌ لهم.

ثم سجَّلوا ناعين عليهم بقولهم: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾﴾.

ثم حاور بعضهم بعضاً بقولهم: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾﴾ أي: ما ترتفقون به وتنتفعون من وسائل المعيشة.

وتُلهِمُ هذه الآية أو تدلُّ دلالةً إجمالية علىٰ أنَّهم آمنوا إيماناً كاملاً، ثم قاموا بنشر هذه الدعوة وعارضهم قومُهم، وكانوا يناقشونهم علىٰ شركهم فلم يهتدوا، وحاولوا فتنتهم في دينهم بكلِّ جهدهم، فثبتوا علىٰ هداية ربهم، واعتزلوا قومهم فراراً بدينهم إلىٰ هذا الكهف، واثقين برحمة ربِّهم ورعايته لهم، تاركين أوطانَهم وأموالَهم وأهليهم، رغبةً بدينهم وتقديماً له علىٰ حياتهم، نزولاً عند حدِّ مثل قوله تعالىٰ: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ عنايتَه بهم ورعايتَه لهم، وما كانت عليه وضعيَّة الكهف

الصحيَّة الموافِقة لحفظ أجسامهم من أن يَعْترِيَها أذىٰ، حسب قوانين الطبيعة وسُنن الكون، وأنَّ الشمس تُشْرق عليه قليلاً عند الطلوع وعند الغروب، وذلك من موافقة الأقدار للأقدار، من إبداع الحكيم العليم القهّار، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، لأنَّ باب الكهف كان مقابلاً للناحية الشمالية فيما يظهر والله أعلم، وفيه شيء من الزَّوَرِ يتَّفق مع الوضعيَّة المذكورة.

ومعنىٰ ﴿تَّزَٰوَرُ﴾: تميل، ومعنىٰ ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾: تُحاذيهم أو تَعدِلُ عنهم. والمراد ـ والله أعلم ـ: أنَّ الشمس كانت تُشرق علىٰ باب الكهف قليلاً في الصباح والمساء، أما في سائر الأوقات فتكون علىٰ ظهر الكهف.

ومن المفسِّرين من يقول: إن باب الكهف كان جنوبياً ويُؤوِّل الآية بمقتضاه، والله أعلم.

وعلىٰ كلٍّ ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في متَّسع ينالهم فيه الهواء النقي، ويكون ضوء الشمس قريباً منهم ولا يمسُّهم، و﴿ذَٰلِكَ﴾ الاتّفاقُ والتَّدبيرُ ونومُهم العجيبُ هو ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الكونيَّة التي لا نعلم منها إلا القليل. وفي هذا البيان إيماءٌ وإلماعٌ إلىٰ أنَّ ما نعدُّه من غرائب الأحوال لا يتجاوز أيضاً قوانين الأسباب والنواميس الطبيعية المزدحمة في هذا الكون العظيم.

ثم أثنىٰ عليهم وشهد لهم، وقبَّح أمرَ قومهم معهم، وبيَّن وجهَ عِنادِهم بكلامٍ عامٍّ يشملهم وغيرَهم ممَّن يماثلهم، ليتناول المؤمنين مع كفار قريش أيضاً، علىٰ سُنَّة القرآن في بيان الحقائق العامَّة، فقال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ لسلوك سبيل الهدىٰ وتجنُّب طريق الرَّدىٰ، بمحافظته علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته؛ ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ للفوز

بالسعادتَيْن، والتجنُّب عن التعاسَتَيْن الدنيويَّةِ والأخرويَّةِ، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ وذلك بإفساد الإنسان لطبيعته، وعبثه ببصيرته، إما بالتقليد الأعمىٰ للآباء أو الخلطاء الضَّالِّين، وإما بكسبه لعلوم ضالَّة مُضلِّلة؛ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾؛ إذ لا يُمكِنُ إرشادُه بعد أن أفسد طبيعتَه بمفاسد التربية وسوء القدوة وجمود التقليد. فقد مَضَت سُنَّة الله في أخلاق البشر وطباعهم أنَّ من تشبَّع بعادةٍ أو خُلُق أو دين لا يسمع ما يخالفه من دين أو خلق، ولا يراه جديراً بالتدبر والتمحيص؛ إذ لا يعتقده إلا سخافةً وضلالاً.

ويجوز أن تكون الآية مجرَّد تعليق علىٰ ما تضمَّنه السياق من هداية أصحاب الكهف وضلال قومهم؛ تُبيِّن أن هدىٰ الله هو الهدىٰ، وما سواه ضلال، فمن تمسَّك بما جاء عن الله فقد هُدي إلىٰ صراط مستقيم، ومن أعرض عن تعاليمه وتمسَّك بغيرها فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً.

ثم تابع البيانَ عن وصف حالهم وهم نيام، تفصيلاً لما سبق من الضرب علىٰ آذانهم وتصويراً له، فقال: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ[١] وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في رَقْدتهم ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ للمحافظة علىٰ أجسامهم، وذلك بما أَوْدَعَ الله سبحانه من طبيعة هذه النومة من استعداد أجسامهم لهذه الخاصَّة، وبمعونة جوٍّ موضعهم الخاص. والله أعلم. وفيه إشارة إلىٰ أنَّ طبعَ نومِهم هذا فيه خصائصُ النوم المعتاد وملابساته، لأنهم لم يفقدوا الحياة.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ وهو مدخل الكهف. ويظهر من السياق أنه كان نائماً كنومهم.

---

(١) وفي ذلك إبعادٌ لأهل السوء عنهم، فإنَّ اليَقِظَ مَهيبٌ محروس، بخلاف النائم. أضِفْ إلىٰ ذلك ما ألقاه سبحانه عليهم من الهيبة والرعب منهم، لزيادة المحافظة عليهم من أرباب السوء وبُغاة العبث والفساد. (المؤلف).

ثم صوَّر وضعيَّتَهم المُريعة المُرْعبة، وهم على تلك الحال، فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾، وهذا من عموم الخطاب، يشملُ كلَّ مخاطب حسب عُرْف اللغة، وهذه العبارة من أدلِّ التعبير لتصوير حالهم الرهيب.

وفي تقلُّبهم دليلٌ على أنَّ القلب ينبض بالدورة الدمويَّة، فالحياة موجودة فيهم، وفي الرَّوْعة منهم حراسةٌ لهم، وحالُ كلبِهم كحالهم، وفي بَسْطِ ذراعَيْهِ بالوصيد زيادةٌ في الحراسة، والله أعلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

وبعد أن ذكر حالة نومهم العجيبة، ذكر حالة يقظتهم بعدها، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: كما أنمناهم تلك النومة العجيبة، بعثناهم من تلك الرَّقْدة التي أشبهت الموتَ، فهي الحياة بعد الموت، فكان من أمرهم ما ذكره بقوله: ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ ويزدادوا يقيناً في كمال قدرة الله على البعث والنشور، ويكونوا آيةً لغيرهم في ذلك. فاللام للعاقبة أو للتعليل.

ثم فصَّل صورة التساؤل بقوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟﴾ أي: قال بعضهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ يقولون ذلك لشعورهم بقِصَر المدَّة، وهذا يدلُّ

علىٰ أن حياة البرزخ هكذا، والله أعلم. ﴿قَالُواْ﴾ أي: قال البعض الآخر ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، فالقول الأول كان بمقتضىٰ الشعور، والثاني بمقتضىٰ القرائن والآثار. ويظهر من فحوىٰ هذه الجملة أنهم تناقشوا في الأمر بحسب أوضاعهم وأحوالهم الدالة علىٰ طول مدَّة النوم، فظهر لهم من تلك الأوضاع أنها لم تكن قصيرة.

وتُؤْذِنُ الآية بأنَّ الأرواح المجرَّدة عن الأبدان كأرواح الموتىٰ، لم تتقيَّد بالزمان والمكان ولم تشعر بهما، فتكون عندها الآماد في عداد ساعات، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وذلك لأن الزمان والمكان من خصائص المادة، ولما كانت نومتهم كالموت، كانت أرواحهم كأرواح الموتىٰ، والله أعلم.

ثم ذكر ما كان من أمرهم بعد ذلك بقوله حِكايةً عنهم: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: بدراهمكم هذه ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أيّ أهل المدينة أحلُّ طعاماً ـ إذ كان فيهم المجوس ـ فَلْيَلْتَمِسْ طعاماً زكياً، ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: وَلْيَتحذَّر، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾.

ثم علّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾[1] إنْ عُدتُم إلىٰ ملَّة الكفر، يقولون ذلك متأثِّرين بحالتهم التي ناموا عليها، ولم يعلموا أن القوم قد تبدَّلوا بطول المدة وتعاقب الأجيال.

ثم ذكر أنهم عثروا عليهم رُغْم ذلك التلطُّف والتخفِّي، وأدَّىٰ العثور إلىٰ إيمان العاثرين وتصديقهم بأمر البعث، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أنمناهم وبعثناهم ليزدادوا إيماناً، ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أظهَرْنا الناسَ علىٰ أمرهم؛ ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ أي:

---

(١) تُلمِحُ هذه القصةُ إلىٰ أنَّ الإنسان مطبوع علىٰ الإيمان ما لم يفسد طبيعتَه بمفاسد التربية، فإذا نَمَا هذا الإيمان فيه فتكامل، ضحَّىٰ في سبيله بكلِّ شيءٍ، حتىٰ بالتخلِّي عن أهله وماله والفرار به إلىٰ المغاير والكهوف، حِرْصاً عليه. (المؤلف).

العاثرون علىٰ ما كان من أمرهم من العجائب في نومهم الطويل ويقظتهم بعد ذلك: ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿حَقٌّ﴾ لما بين الحالتين من تقارب؛ فحالةُ هؤلاء تُقرِّبُ للعقول حالةَ البعث، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾.

ثم ذكر ـ والله أعلم ـ ما كان من أمر القوم فيهم بعد موتهم الطبيعي عقب ذلك البعث، فقال: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ فقال بعضهم: ماتوا في هذه المرة موتاً طبيعياً، وقال آخرون: بل عادوا إلىٰ مثل نومهم الأول، ﴿فَقَالُواْ﴾ بنتيجة هذا النزاع: ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ ولا تدفنوهم دفناً، إذ ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أماتوا موتاً طبيعياً، أم عادوا إلىٰ نومهم الأول؟

ثم بيَّن ما كان بعد ذلك بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ بنتيجة النزاع، وهم المتنفِّذون وأصحابُ الرأي الغالب؛ قالوا ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾(١) أي: موضعاً للعبادة، كما كانوا يتّخذون معابد علىٰ قبور صُلَحائهم.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) يجوز أن يكون النزاع بين وجهتين: وجهة مَنْ يقول: إنهم لم يموتوا الآن أيضاً موتة طبيعية، ولكنهم ماتوا ثانياً كموتتهم الأولىٰ، فيقضي أن نبني عليهم بنياناً يحفظ أجسادهم، ولا تضيق أنفاسهم. ووجهة مَنْ يقول: إنما ماتوا هذه المرة موتة طبيعية، فيجب أن يُدفَنوا علىٰ العادة، ولكن يُبنَىٰ فوق الكهف مسجد، أي: مَعبَدٌ باسمهم. وتغلَّب هذا الفريق علىٰ الفريق الأول، ففعلوا كما أرادوا، والله أعلم. (المؤلف).

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ تَـنَازُعَ الخائضين في قصَّتهم علىٰ عهد الرسول ﷺ من أهل الكـتاب، وجدالـهم في عددهم، مُـلْمِعاً إلىٰ أن الجدال لا يجوز أن يعتمد علىٰ الرَّجْم بالغيب، ولكن يجب أن يستند علىٰ الدليل المعقول أو المنقول، لا كما يفعل أهل الكتاب عند مناقشة المواضيع، فقال: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ يقولون ذلك ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ لا عن دليل، وليسوا علىٰ يقين وعلم من مصدر موثوق.

ثم غيَّر النظم في قوله:﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، فأخرجه بالواو الابتدائية من سياق الرَّجْم بالغيب؛ لكونه ـ والله أعلم ـ أقرَبَ للحقيقة مما سبق، وللإيماء إلىٰ كثرة تعدُّد الأقوال.

ثم صرفه عن إمكان تحقيق ذلك بالضبط بقوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وبعد أن أومأ إلىٰ استهجان الرَّجْم بالغيب والسَّيْر بمقتضىٰ الظنون، نهاه أن يجادل فيما هو غير ظاهر، لأنه رَجْمٌ بالغيب، ونهاه أن يعتمد علىٰ ما يقوله أهل الكتاب في مثل ذلك، لأنَّ دأبهم الرجم بالغيب. ثم أكمل له التأديب، علىٰ نهج القرآن في استيعاب البحث إذا بدأه، فنهاه أن يقول لشيء: إني فاعل ذلك غداً؛ لأنه رَجْم بالغيب، فقد نهاه عن المجادلة في غير الظاهر بقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا﴾ أي: يظهر معه الحقُّ واضحاً في جانبك، فلا يمكن إنكاره.

ثم نهاه أن يعتمد علىٰ أقوال أهل الكتاب في هذا وأمثاله، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: لا تعتمد علىٰ معلومات أهل الكتاب في ذلك؛ لأنها معلومات مأخوذة من مصادرَ غيرِ موثوقة، وبطريقةٍ غيرِ صحيحة، رَجْماً بالغيب كما هو دأبهم.

ولما أمرهم بالتثبُّت في الأفكار والأقوال، استطرد إلىٰ إرشاده بهذا الإرشاد، علىٰ سُنَّة القرآن في الاستطراد والجمع بين المتناظرات وتتميم الموضوعات واستيعابها، وبيان الأحكام عندما تعرض أسبابها، وتكميلاً للبحث وإن كان خارجاً عن الموضوع، ثم يعود إلىٰ الموضوع، وقد أجرىٰ الكلام علىٰ هذا النمط، فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، فبعد أن أرشده بأن لا يُماريَ ويُجادلَ إلا بما هو ظاهر عنده، كي يكون متأكداً فيما يجادل فيه، أرشده كذلك أن لا يقول لشيءٍ: إني فاعلٌ ذلك غداً؛ لأنه رَجْم بالغيب، ولا يأمن من حدوث العوائق، وأمره أن يقرنه بمشيئة الله، تنصُّلاً من الجزم بما هو غير معلوم لديه.

وقد جاءت هذه الحلقة من الإرشاد في سلسلة ما سبقها من حلقات الإرشاد في النهي عن الـرَّجْم بالغيب ومنتظمةً في سلكها، ولو كان سبب النزول ـ كما قيل ـ أنَّ النبي ﷺ سأله مشركو مكة بإيعاز من أهل الكتاب عن أمر أصحاب الكهف، وعن أمر ذي القرنين، وعن أمر الروح، فوعدهم أن يجيبَهم غداً، فأبطأ الوحي عنه بضعة عشـر يوماً، حتىٰ ضاق بذلك؛ لأنَّ المعتبر في فهم القرآن: المعاني وتسلسلها، لا في أسباب النزول علىٰ الصحيح؛ لأنها لا تُخصِّص العامَّ، ولا تقطع السياق، ولكنها سببٌ لنزول الحُكْم لا غير، فيُستعانُ به في آيات الأحكام. فسبب النزول إنما يفيد في استنباط الأحكام، ويُراعىٰ فيه، ولا يُقْصَرُ الحكمُ عليه.

وأما قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ففيه وجهان:

الأول: أنه متعلِّق بما قبله، والمعنىٰ: إذا نسيت أن تقول: إن شاء الله، فاذكره إذا تذكَّرت.

والثاني: أنه لا تعلُّق له بما قبله، وإنما هو كلام مستأنَفٌ سِيقَ لإرشادٍ آخر، وهو أن يُكرِّر ذِكرَ الله إذا نسي شيئاً، حتىٰ يتذكَّر المنسيَّ، ولا يرجم بالغيب.

وأما قوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾[1] فالظاهر ـ والله أعلم ـ أنه امتدادٌ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ ...﴾ ومعطوفٌ عليه، وما بينهما اعتراضٌ أو شبيه بالاعتراض، أرشد به الرسول أن لا يرجم بالغيب، وينتظر منه تعالىٰ أن يفتح عليه.

فمحصَّل الكلام: إرشادٌ للرسول أن لا يُماريَ في الأشياء التافهة، ولا يهتمَّ لها، وأن يطلبَ من الله سبحانه أن يُرشِدَه إلىٰ ما فيه الهدىٰ والسَّداد؛ من أمر الدنيا والآخرة.

وفيه إيذانٌ بأنه يجب أن يتطلَّب العلم النافع في الأمور المهمة، لا العلم في الأمور التي لا طائل تحتها، ولا ثمرة تُجْنىٰ من ورائها، كعدد أصحاب الكهف وما شابه ذلك.

وفيه إرشادٌ إلىٰ أنه إذا سمع شيئاً من أهل الكتاب فلا يعتمد عليه حتىٰ يبيِّنه الله له، وليقل لهم: عسىٰ أن يهديني ربِّي لأقربَ من هذا رشداً. هذا ما أراه في الآيات، والله أعلم.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) يجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ تعليقاً علىٰ ما قبله، يُرشد به سبحانه نبيَّه ﷺ أن لا يعتمد فيما لا يعلم من قول أو فعل إلا علىٰ الوحي، وعبَّر عن عدم العلم بالنسيان توسُّعاً. فإذا هو لم يعلم يتوجَّه إلىٰ الله سبحانه مستهدياً، ويقول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾. فجاء هذا علىٰ نهج القرآن من تعقيب الأمر بما يشمله وغيرَه. هذا رأيٌ آخر أراه، والله أعلم. (المؤلف).

ثم تابع الكلامَ ببيان نزاع ثانٍ في أمر أهل الكهف وقرنه بالردّ، فقال: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾، وذلك أنهم لبثوا ثلاثمئة سنة شمسيّة، والله تعالىٰ ذكر السنة القمرية. والتفاوتُ بينهما: في كلِّ مئة سنة ثلاث سنين تقريباً.

وقال قتادة: هذا ما يقوله أهل الكتاب. وفي مصحف عبد الله بن مسعود: (وقالوا لبثوا في كهفهم...) [1] ففيه تصريحٌ بأنه من قول أهل الكتاب. ويؤيِّد أنه من قول أهل الكتاب، تعقيبُه تعالىٰ بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾، لأن ظاهره ردّ.

وقيل: بل المراد من قوله: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ...﴾ إخبارٌ من الله تعالىٰ بمدَّة لبثهم، بيَّنها علىٰ وجه التحقيق ليردَّ علىٰ أهل الكتاب الذين اختلفوا في تلك المدّة زيادةً ونقصاً، ثم قرَّر البيان ومكَّنه بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾، أي: وأنتم لا تعلمون، وإنما تقولون فيه رجماً بالغيب.

وفي الأمر بهذا القول إرشادٌ منه سبحانه وتعالىٰ لرسوله ﷺ أن يقطع الـمُجادَلَةَ معهم إذا لم يُصدِّقوا بهذا العدد ويذكرون غيره[2]، ويقول لهم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: ما أبصَره وأسمَعه! وفي الصيغة وعيدٌ للكافرين، وترغيبٌ بطاعته، وترهيبٌ عن معصيته.

ثم تابع الترغيب والترهيب ضمن بيان شأن آخر من شؤونه تعالىٰ، فقال: ﴿مَا لَهُم﴾ أي: لأهل السماوات والأرض ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالىٰ ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يتولّىٰ أمورهم، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ وهذا نفيٌ للشريك وللمُداخَلة في شؤونه تعالىٰ علىٰ أبلغ وجوه النفي.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٧٦٥).

(٢) هكذا في الأصل المطبوع.

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾.

ثم ذيَّل السياق بالتّنويه بشأن هذا القرآن، وأمَرَه بدعوتهم إليه؛ لأنه هو الحقيق بالعلم لا هذه الـمعلومات التافهة، فقال: ﴿ وَٱتْلُ ﴾ عليهم ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ لأنه هو العلم الجليل والقول السديد، وكلُّه حقٌّ ورشاد، ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ تعالىٰ لأنها الحقُّ والواقع، ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: مُلْتَجأً تلتجئ إليه في الـمُلِمّات، وفي كشف الشبهات.

ثم أمره بالصبر والاندماج مع فقراء المؤمنين وعوامِّهم، والإعراض عن خواصِّ الكافرين وأثريائهم، الميئوس من إيمانهم، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾(١)، وقد ضمَّـن ﴿وَٱصْبِرْ ﴾ معنىٰ: احبِسْ، فعـدَّاها

---

(١) في هذه الآية ردٌّ لطلب رؤساء قريش من النبي ﷺ أن يجعل لهم وقتاً خاصاً يجتمعون به فيه دون العامة، أنفةً منهم. وهي تُلمِحُ إلىٰ السنة الاجتماعية، وهي أن الله سبحانه إذا أراد أن يتدارك أمة برحمته فيعيد حياتها الاجتماعية الصحيحة، فلا يكون ذلك إلا بواسطة العامة؛ لأنهم ـ لبُعدهم عن مناشئ الإصابات من الأمراض الاجتماعية ـ يكونون أبطأ تأثراً بأنواع الفساد، وأقلَّ أمراضاً =

تعديتَها، أي: دُمْ معهم علىٰ هذه الحالة، ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ بإفساده لنفسه وانطباعه عن الضلال ورسوخه فيه، فأعرَضَ عن الهدىٰ، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: سرفاً وإفراطاً.

فقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ...﴾ نهيٌ عن التصِّدي إلىٰ أغنياء الكافرين الميئوس من إيمانهم، وذَكَرَ الإرادةَ والإطاعة مبالغةً في التأنيب والإرشاد؛ لأن ذلك غير مخالف لطبيعته. والآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥ – ٦]، ومِثْلُ هذا الخطاب مع الرسول لَـوْنٌ من ألوان شدَّة البيان في القرآن. وقد جاء هنا للتزهيد في الدنيا، وللحثِّ علىٰ طاعة الله؛ مع أنه لا يخالف ما فيه نفسه. ويجوز أن يكون خطاباً للأمة في شخص النبيِّ ﷺ، علىٰ قاعدة ما يُسْنَدُ للرئيس من فعل الأمة، فيقال له: لا تفعل كذا، أي: لا تفعله أمتك أو حزبك.

ثم هدَّدهم بصورة تخيير ملفوف بتهديد بعد أن ألزمهم بالحق، فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ﴾ ما جاء ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾، وكلُّ ما جاء عن غيره فباطلٌ وضلال، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾ به، ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أي: جاء الحقُّ وزهق الباطل، وتبيَّن الرُّشْد من الغيّ، فلم يَبْقَ إلا ما تختارون من ذلك لأنفسكم.

وهذا تصريحٌ بأنَّ إيمان العبد وكفرَه اختياريٌّ يعود إلىٰ ما يختاره من نفسه لنفسه، ويندفع إليه برغبته وعقله وميول مَلَكاته المكتسبة بالتربية، فإن اختار الخير وعمل به فله النعيم الـمقيم، وإن اختار الكفر وعمل به فقد أخبر سبحانه عن مصيره بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي: هيَّأنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، والسُّرادِق: الخيمة البيضاء،

= اجتماعية من الخاصَّة. لذلك يبقىٰ فيهم بقية من نور الفطرة تصلح للرجوع بهم إلىٰ الحياة الاجتماعية الصحيحة والقوانين الإلهيَّة الحقَّة، ولذلك أمره بالصبر والثبات مع العامَّة، والإعراض عن مطالب الخاصَّة المعرضين. (المؤلف).

استعارها للهيب النار، فقد جاء عنه ﷺ: «أُوقِدَ علىٰ النار ألفُ سنة حتىٰ احمرَّت، ثم أُوقد عليها ألفُ سنة حتىٰ اسودّت، ثم أُوقِدَ عليها ألفُ سنة حتىٰ ابيضَّت، فهي بيضاءُ ملتهبة»[1]. فهذه النار الجحيم هي مصير الكافرين، ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ من شدَّة العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ أي: كالحديد، أو مُطلَق المعدن الـمُذاب، أو عكر الزيت المغلي، ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾، ثم نعىٰ عليهم بهذا النعي، فقال: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ هذا الماءُ الحميم، ﴿وَسَآءَتْ﴾ هذه النارُ الجحيم ﴿مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: مأوىٰ ومُستقراً، وقد حصلوا عليها بكفرهم وضلالهم.

والمِرفَقَ والـمُرْتَفق: ما يُعاش فيه ويُؤْوَىٰ إليه. والارتفاق: الاتّكاء والارتياح، حيث يضع مِرفَقَه علىٰ الأرض ويُسْنِدُ رأسه إليه ويَضْطجع؛ يطلب بذلك الارتياح. ففي الكلمة شيء من التهكُّم، وفيه مطابقةٌ ومشاكلة مع قوله الآتي في حقِّ المؤمنين: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

وقيل في سبب نزول قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ ...﴾: إنَّ أكابر قريش اجتمعوا وقالوا لرسول الله ﷺ: إنْ أردتَ أن نؤمن بك فاطردْ هؤلاء الفقراء من عندك، فإذا حضرنا لم يحضروا، وتُعيِّن لهم وقتاً يجتمعون فيه عندك. فأمره سبحانه أن يُعْرِضَ عنهم هذا الإعراض، وأن يَرُدَّهم بما ذكر من مجيء الحقِّ، ومن تخييرهم فيه علىٰ سبيل التهديد.

وبعد أن توعَّدهم وذكر مصيرَهم وأنَّبَهم، زاد في تأليمهم وتحسيسهم بذكر مصير المؤمنين ونعيمهم، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٩١) وقال: حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح، ولا أعلم أحداً رفعه غير يحيى بن أبي بكير عن شريك. وقال عن الموقوف: حسن غريب، بلفظ: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودَّت فهي سوداء مظلمة».

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وقبل أن يذكر الخبر عجَّل بهذه الجملة المعترضة للتقرير والتبشير، فقال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾، ثم أخبر بالمصير فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾[١]، وهي في الجنة كالأوسمة في الدنيا ـ والله أعلم ـ تُمنَحُ تقديراً لأعمال حامليها، ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، والسندس: ما رقَّ من الديباج، والإستبرق: ما صَفَق منه. وقيل: السندس: الديباج المنسوج بالذهب. ويكونون ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة، وهي: السرير الممتاز. ثم هنَّأهم بقوله: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾، اللهمَّ اجْعَلنا منهم يا أرحم الراحمين.

وهذه الجمل مقابلة لنظيرها السابق في حقِّ الكافرين، ولا تنس ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ كلَّ ما في الجنة لا يُشابه ما في الدنيا إلا بالاسم[٢].

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ

---

(١) أما يجوز أن يكون هذا للمؤمنات؛ لأنَّ من خصائص اللغة أن يُذكَرَ صنفان، ويُحكَم لهما بما هو لأحدهما. والله أعلم. ولا تنسَ أنَّ أمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا، فلا حاجة لهذا. ولكن جاء في الأثر عن رسول الله ﷺ أنه قال لسُراقةَ بن مالك: «كيف بك إذا لبستَ تاج كسرىٰ وسواريه» [انظر: «الإصابة» (٣: ٤١ ٢)]. فهذا يدلُّ علىٰ أنّ لبس السُّوارَيْن كان من شارات الملوك يتَّخذ لأهل الجنة. (المؤلف).

(٢) سبق تخريجه (٢: ٥٧٦).

مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

ثم أردف هذا البيان عن مصير المؤمن والكافر بضرب المثل لهما، وجَعَله توضيحاً للابتلاء بزينة الأرض؛ لأنَّ الأمثال تزيد إيضاحاً في المعاني والأغراض، فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا﴾ أي: أحطناهما ﴿بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ لتكونا جامعتَين للأقوات والفواكه، وثنّىٰ الجنتَيْن للدلالة علىٰ التكثير.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾، ضَمَّنَ ﴿تَظْلِم﴾ معنىٰ: تنقص، أي: أعطت ثمرها كاملاً علىٰ أحسن ما يُرام، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ تُسقيان به وتزهوان.

وبعد أن استقصىٰ محاسن الجنة الكاملة المحاسن لهذا الرجل، ذكر نوعاً آخر من الإنعام عليه مُضافاً إلىٰ ذلك، فقال: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قال ابن عباس: يُطلَق الثمرُ علىٰ جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغيره(١). وقال مجاهد: هو الذهب والفضة خاصَّةً(٢).

---

(١) ذكره الزركشي في «البحر المحيط» (٦: ١١٩).

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٥: ٢٧٥).

وإنما استقصىٰ الوصف في الإنعام علىٰ هذا الرجل ليتبيَّن عِظَمُ كفرانه به وعِظَمُ مصيبته بفقدانه علىٰ ما يأتي، إذ هو المقصودُ من ضرب المثل.

ثم تابع البيان عنه بقوله: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يُراجِعُه في الكلام: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ۝٣٤﴾ أي: أولاداً وعشيرةً وحشماً وأعواناً؛ يتبجَّح عليه بذلك.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ بصاحبه، والإضافة للإشارة إلىٰ أنه لا جنَّة له غيرها، إذ لا حظَّ له في جنَّة الآخرة التي وُعد المتقون، وإنما عُجِّلت له طيِّباتُه في هذه الحياة، فدخل جنتَه هذه ﴿وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بكفره وعُجبه وبطره، و﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي: تفنىٰ ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنةُ ﴿أَبَدٗا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن﴾ صحَّ ذلك و﴿رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ بالبعث ـ كما تزعم ـ ﴿لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ۝٣٦﴾ أي: لأجدنَّ عند ربي خيراً من جنتي هذه مرجعاً وعاقبة؛ لاعتقاده أنَّ ما يحصل به النعيم في هذه الحياة هو عَيْنُ ما يحصل به النعيم في تلك الحياة؛ لأنهما متشابهتان في زعمه، ولاعتقاده أنَّ الله سبحانه إنما أَوْلاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتيّ، وكرامته عليه، وهو معه أينما يلقاه. ولم يَدْرِ هذا المغرور ما هنالك من الفروق العظيمة في أسباب النعيم في الحياتين؛ إذ لكلٍّ منهما أسبابٌ خاصَّة.

ثم حكىٰ سبحانه ما قاله له صاحبُه، جواباً عن ذلك، فقال: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ۝٣٧﴾ فذكَّره بخِلْقته النوعيَّة ـ وهي: خِلْقة آدم ـ وبخِلْقته الشخصيَّة، وما فيهما من القدرة والإعجاب، لينبِّهه إلىٰ أنَّ البعث الذي أنكره ليس بأعجب من ذلك. فالكلام نقض لإنكاره البعثَ، أردفه بهذا الإقرار، فقال: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٣٨﴾.

وبعد النقض والإقرار قرَّعه وأنَّبه مُرشداً له بقوله: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾، و﴿ لَوْلَآ ﴾ هذه للتَّحضيض، أي: هلَّا قلتَ ذلك اعترافاً بعجزك، وبأنَّ ما يتيسَّر لك إنما هو بمعونته تعالىٰ وإحسانه.

ثم أجاب عن تبجُّحه بنعيمه الدنيوي بقوله: ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أي: علىٰ جنَّتك ﴿ حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ كالصواعق. وسُمِّيَ ذلك حسباناً لأنه حسابٌ له علىٰ أعماله واعتقاداته، ومُجازاةٌ له، أي: يُرسِلُه علىٰ جنَّتك ﴿ فَتُصْبِحَ ﴾ به ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾ أي: أرضاً ملساء، ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ أي: إخراجاً ووِرداً.

وبعد أن حكىٰ سبحانه محاورة هذَيْنِ الرجلَيْن، حكىٰ ما كان من مصير جنَّة هذا الغني الكافر، فقال: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ والثمر: المال، كما مرَّ، أي: بما يملك من جنَّة وغيرها. والكلمة: ﴿ وَأُحِيطَ ﴾ مستعارةٌ من إحاطة الجيش بالعدوِّ، أراد بها الـهلاكَ والتَّـلَفَ، أي: أذهب الله كلَّ ما يملك هذا الذي كان يتبجَّح بغناه.

ثم مثَّل صورةَ خُسْرانه المبين، وتحسُّره العظيم، فقال: ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾، فهذه الجملة تُمثِّل إتلافَ ماله في النفقات علىٰ هذه البستان، وتَلَفَها بعد ذلك، وتألُّـمه الشديد عليها وعلىٰ ما أنفقه فيها حتىٰ أصبح صِفرَ اليدين لا يملك شيئاً.

ثم قرن بمضرب هذا المثل ـ وهو بيان حال المشرك في الآخرة وخُسرانه لأعماله ـ مصيرَه هناك، وشرح حالته النفسية وندمه إذ ذاك، فقال: ﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾ حيث علم أنَّ هذا من جزاء ذلك.

ثم وصف سبحانه حالةَ يأسه وخذلانه، فقال: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن

دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾، وهذه الجملةُ مبالغةٌ في التيئيس والتنديم، مأخوذة من عادات العرب في نُصْرة بعضهم لبعض، واستنجاد بعضهم ببعض.

ثم علَّل ذلك النفيَ بقوله: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ لا يملكها غيرُه، ولا يملك أحدٌ منه خطاباً، ولا يجري فيها سوىٰ الحقِّ والعدالة، لا تَناصُرَ ولا استنجاد. ثم ذيَّل الكلام بما فيه تبشيرٌ للمؤمنين، فقال: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ أي: عاقبةً ومآلاً.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

ثم أردف هذا الـمَثَلَ المبيِّنَ لحالة المؤمن الفقير والكافر الغني في الآخرة والمآل، أردفه بمَثَل آخر يُزهِّد في الدنيا ونعيمها مهما كان، فقال: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نَبَتَ وتكاثَفَ من كثرة المطر، والتفَّ بعضُه ببعض، وهذا تصويرٌ للخِصْب الكثير، ولكنه ما لبث أن اصفرَّ وزال رونقُه ويبس ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾، فمثَّل زهادةَ الدنيا وقِصَرَها بما بَيْنَ أَخْذِ الأرضِ زُخرُفَها وزينتَها وبَيْنَ يُبْسِها حتىٰ تُصبح هشيماً.

ثم استظهر من هذا التقليب عِظَم قدرة الله، وأشعر بالتخويف منها والإنذار، وأنه سبحانه لا يُعجِزُه عظائم الأعمال والآثار، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾، فما الحشر في جانب قدرته هذه إلا من أهون الأشياء وأبسطها.

ثم أجمل ما تضمَّنه السياق من التزهيد بنعيم الدنيا الفاني والترغيب بنعيم الآخرة الباقي، فقال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهي سريعة الزوال والانقضاء، ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ وهي الأعمال التي تبقىٰ ذُخراً للحياة الأخرىٰ الباقية ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ يُؤَمَّل منه تعالىٰ، جزاءً عليها.

ثم بعد أن ذكر الحياة الدنيا ذكر اليوم الآخر وما يكون فيه من وبال علىٰ أولئك الكافرين، إنذاراً لهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ فتكون هباءً مُنبثّاً، بنتيجة الصَّدمة الهائلة بين الكواكب، أو بغير ذلك، والله أعلم، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ لما اعتراها من غريب الأوضاع، بتأثير اصطِدامها بالكواكب، أو زلزلتها حتىٰ لم يبق عليها أثر ولا بناء، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي: جمعناهم إلىٰ الموقف من كلِّ صَوْب، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ في صعيد واحد، وقيل لهم تبكيتاً وتنديماً: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي: جئتمونا بحياةٍ مثل حياتكم الأولىٰ، وقد كنتم تُنكِرون ذلك، ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ تُبعثون فيه، فهذا ما كنتم تُنكِرون.

ثم قال في إتمام البيان: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: صحائفُ الأعمال، ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: خائفين مما فيه من جرائمهم وذنوبهم المَحْصيَّة عليهم، ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾، وهذا تهويلٌ وارتعابٌ مقرونٌ بتعجُّب وانعكاس آمال ﴿وَ﴾ ذلك إذ ﴿وَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ لم يُنْسَ منه شيءٌ، فأخذوا جزاءهم بالعدل والإنصاف، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[1].

---

(١) يجوز أن يكون ذلك بتكيُّف الروح كيفيَّة خاصة، نتيجةَ أعمالها، والله أعلم. (المؤلف).
وقد تقدم التعليق على كلام المؤلف في تكيّف الروح (٤: ٥٦٠).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

ثم ذكَّـرَ بقصَّة آدم وإبليس للتنبيه إلىٰ أنه هو سبب شقاء أولئك المشركين، وللتحذير منه، مُلمِعاً في ذلك إلىٰ الحكمة التي اقتضت أن يكون الإنسان مختاراً في تصرُّفاته؛ ليكون له علم واسع، وإيجاد نافع، لا قسراً للإرادة، ولا عجزاً في القدرة، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً، فقال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾[1]، وهذا تعليل لامتناعه وتعبيرٌ عنه؛ لأن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم. ولهذه المخالفة سُمِّي شيطاناً، مِنْ: شَطَنَ، بمعنىٰ: خالف وعصىٰ. والجنُّ من العوالم الخفيَّـة الـمُجْتنَّة، وهي أنواع يختلف بعضُها عن بعض في الشكل والمادة[2]. والله أعلم.

(١) هذه الآية تنصُّ علىٰ أن إبليس كان من الجنِّ، ويمكن حَمْلُ مثل قوله تعالىٰ: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٣٠] علىٰ هذا النص بأحد وجهين: إما أن يجعل الاستثناء منقطعاً، أو يكون الجن جنساً عاماً. وإما أن يحمل الكلام علىٰ طريقة الاكتفاء التي هي من أساليب القرآن، ويكون المعنىٰ: أنه سبحانه أمر الملائكة والجن بالسجود، فسجدوا إلا إبليس، وقد اكتفىٰ بذكر إبليس عن ذكر الجن، والله أعلم. وقد مرَّ الكلام عن إبليس في سورة البقرة والإسراء وغيرهما، وفي لاحقة المقدمة الثانية، فارجع إليه. (المؤلف).

(٢) بل الجن نوع واحد كالإنس، واختلافهم في الشكل اختلاف أفراد لا اختلاف أنواع، أما المادة فلا اختلاف بينهم فيها، لأنهم مخلوقون من نار، كما أن الإنس مخلوقون من طين.

ثم فرَّع علىٰ ذلك هذا الإنكار، فقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾، ثم أنَّبهم ولَحَاهُم ونَعَىٰ عليهم بقوله: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ من الله تعالىٰ إبليسُ وذريتُه. ويجوز أن يُرادَ بهم: أشرار الجن، ويجوز كذلك أن يُرادَ بالذريَّة: أتباعُه وحِزبُه من الإنس، وبعبارة أخرىٰ: رؤساء كل ديانة ضالَّة، الذين يَسْعون في إغواء البشر وتضليلهم. وسمَّاهم ذُرية علىٰ طريقة المجاز؛ لأنه هو الذي جَعَلهم وذَرَأهم علىٰ هذه الصفة الشائنة، بوسوسته وإغوائه. والآية تتضمَّن منتهىٰ التقبيح والتهجين لهؤلاء المشركين الضَّالِّين.

ثم نقض عليهم شِرْكَهم بهذا النقض التهكُّمي في شركائهم، فقال: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ أي: ما أحضرتُ إبليسَ وذريتَه، ويجوز أن يعود الضمير للأشخاص المعبودين ممَّن يرمزون إليهم بالأصنام، وإن كانوا صُلحاء، فكلُّهم لم يشهدوا ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهذا تندُّر تهكُّمي بديع بالمعارضين. ثم ترقىٰ إلىٰ ما هو أشد إلزاماً، فقال: ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾، وأومأ إلىٰ أنهم مخلوقون لله مثلهم، فكيف يستحقون أن يُعبَدوا؟

ثم نقل الكلام إلىٰ المعبودين الـمُضَلِّلين، علىٰ نهج القرآن في التنقُّل، وعمد إلىٰ ما هو أنكىٰ وأشدُّ تبكيتاً، فقال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ أي: عَوْناً أستعينُ بهم، يريد: الذين أضلّوا الناس بعبادتهم إيَّاهم، وأَغوَوْهُم بأن يُشْركوهم بالله، ويتوسَّطوا بهم إليه. وهذا منتهىٰ التسخيف والتجهيل لمن يتَّخذهم أولياء من دون الله، أو يتقرَّب بهم إلىٰ الله.

ثم ذكر مصيرهم معهم يوم القيامة زيادةً في التنبيه والإنذار، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شفعاؤكم عند الله، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ أي: مَهلِكاً يشتركون فيه.

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ والتعبير بالظنّ ينطوي علىٰ شيءٍ من الازدراء والتندُّر بهم، حيث كانوا يزعمون أنْ لا عذاب ولا نار، وأنَّ الجنة هي لهم دار القرار.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

ثم نوَّه بشأن ما قدَّمه من المواعظ والعِبَر والبيِّنات، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ وبيان ما يحتاجونه ويتفهَّمون به الحقائق، أي: نوَّعنا لهم البيان والإرشاد وكرَّرناه بألوان وصور منوَّعة من الكلام المُفْهِم والبراهين الواضحة؛ ليتحقَّقوا الأمر ويتيقَّنوه، فلم يُجْدِهم نفعاً. ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ أي: عناداً ومُشاغبةً في الحق والصواب.

ثم هدَّد هؤلاء المشركين الحائدين عن هذه الهداية بقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ ﴾ أي: الذين حُكيت أباطيلُهم من المشركين ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ في هذا القرآن، ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ عمّا فرط منهم وعن مجادلتهم الحقَّ بالباطل، ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وهو استئصالهم بالعذاب في الدنيا، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي:عذاب الآخرة

﴿قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ جمع قبيل، أي:أنواعاً، أو من المقابلة بمعنىٰ: عِياناً أو فجأة. وفي أسلوب الآية نوع من البديع، فقد نُـزِّلت العاقبةُ منزلةَ الباعث، كما تقول: ما دفعك إلىٰ ركوب البحر إلا أن تغرق. والغرض: إنذاره بذلك، كما أنَّ الغرض هنا: الإنذار لهؤلاء بهذه العاقبة التي جَرَتْ علىٰ الأوَّلين الذين عارضوا الرُّسل من الأمم الغابرة.

ثم ساوق السياق بحكمة الإرسال، وجعله كالتعليل لمضمون ما قبله، فقال: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي: مُبشِّرين للمؤمنين بالثواب، ومُنذِرين للكفَرة والعُصاة بالعقاب.

ثم ذكر ما يكون تجاه ذلك من الكَفَرة المرتدِّين، فقال: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

وقد نَعَىٰ عليهم بقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ ﴾ عاقبةَ ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ من الكفر والمعاصي. والمراد من النسيان: الجهلُ بالعاقبة الأليمة وعَدَمُ الاكتراث بها. فالكلام مطويّ علىٰ التهديد والتأنيب، أي: جَهِلَ ما سَيـؤُول إليه أمره، لأنه لم يُصدِّق بمـا جاء في هذا القرآن عن اليوم الآخر وما فيه من أهوال الحساب والعذاب.

ثم علَّل مصدر ذلك فيهم بقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾، وذلك الجعل ليس تعمُّداً وإجباراً، والله سبحانه مُنزَّه عن ذلك، وإنما هو بسُنَّة الله العامَّة في أخلاق الإنسان، وهي أنَّ من انطبع منهم علىٰ شيءٍ لا يحيد عنه أبداً، فهم لا يحيدون عن باطلهم الذي تربَّوا عليه، لأن انطباعهم علىٰ التقليد أفقدهم التَّروِّيَ واستعدادَ البحث عن الحقائق بالنظر والاستدلال، ﴿وَ﴾ لذلك ﴿إِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه أناتَه فيهم لعلَّهم يؤمنون، وأنَّ تأخير عذاب المُصرِّين منهم إنما هو من رحمته وإلىٰ أجل لا رَيْب فيه، فقال: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾، ومن كانت هذه صفاته الحسنىٰ فهو يتأنّىٰ بالعُصاة، و﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ فوراً ﴿بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾، ولكنه لا يُعجِّل لهم ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾ أي: مَنْجىٰ وملجأ، فإذا جاء الأجل المضروب لاستئصالهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

واستشهد علىٰ ذلك بتاريخ أمثالهم من الأمم الغابرة، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: قرىٰ عاد وثمود وأضرابهم، ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي: ولكنْ لم نُعجِّل عليهم، بل تأنَّيْنا بهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ أي: موعداً أنجزناه فيه.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا
﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ
لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ
فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ
ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ
عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا
﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ
حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ
أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى
بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا

زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

ثم لما جاء في هذا السياق أمورٌ بعيدة عن النظر، وتحار فيها الفِكَر، مثل حال أهل الكهف، وتحقيق الحشر، وجَعْل الإنسان مُخْتاراً في تصرُّفاته حتىٰ تمكَّن الشيطان من إغوائه بوسوسته وصَبْره عليهم، ومثل إغداق الرزق علىٰ الكافرين والمجرمين وتأجيل عذابهم، وإحصاء الأعمال بكلِّ دقَّة وتحديد، وأمثال هذا؛ ذكر قصة موسىٰ والخضر عليهما السلام، وكيف خَفِيَت علىٰ موسىٰ حِكَمُ أعمالِ الخَضِر وهما بشران، فذكر ذلك للإيذان بأنَّ حِكَـمَ الله سبحانه أبعَدُ خفاءً علىٰ الإنسان، وأحقُّ أن لا تُـدرِكَها كلُّ الأذهان، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ أي: ولو أمضي أزماناً طويلة، وهذا العطف لتمكين التصميم. والبحر يُطلق علىٰ جزءٍ معيَّن من البحر العظيم باعتبار مكان خاصٍّ منه، أو حال خاصٍّ فيه، فيقال: بحر كذا، لبلدة تقع عليه، أو أُمة تسكن هناك، أو أمر من الأمور فيه، إلىٰ أمثال ذلك، ويثنّىٰ ويُجْمع بهذا الاعتبار.

ويظهر من فحوىٰ الآيات الآتية: أن الفتىٰ لم يعلم عن غرض موسىٰ من هذا السفر سوىٰ المكان، ثم بيَّن له أنَّ علامة المكان الذي يقصده هو ما سيكون فيه من أمر الحوت، أو مجرَّد فَقْده له، ولا يلزم أن يكون الحوت عندهم من مبدأ السفر، بل يجوز أن يكون ذلك قُبَيْلَ الوصول إلىٰ المكان بأمر من الله؛ ليكون علامةً لهما.

وقد وَرَدَ في الخبر: أنَّ موسىٰ طلب من فتاه أن يخبره عن الحوت إذا نُفخ فيه الروح[1]، وهي العلامة التي ضَرَبها الله في الملاقاة، وأن الفتىٰ نسيَ ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ أي: جعل سبيله في البحر كالشقِّ الطويل.

وفي: ﴿نَسِيَا﴾ إسنادُ فعل الواحد إلىٰ الاثنين المشتركَيْن بفعلٍ سابقٍ متعلِّق بهذا الفعل، وهو ﴿بَلَغَا﴾، ومثل ذلك من خصائص اللغة؛ لأن الذي نسيَ أمرَ الحوت إنما هو الفتىٰ وحده، فلم يُذَكِّرْ موسىٰ عنه كما سيأتي، فتَجوَّز في إسناد النسيان إليهما، بحسب خصائص اللغة وبلاغة الكلام. ويجوز أن يكون إسناد النسيان إلىٰ موسىٰ عليه السلام، لأنه فاته أمرٌ كان ينتظره باهتمام. ويجوز أن يكون الإسناد إليهما معاً حقيقياً، بمعنىٰ: نسيَ موسىٰ أن يطلبه، ويوشعُ أن يَذكُرَ أمره.

وعلىٰ كلٍّ، تكون فاء ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾ لاستئناف البيان لا للترتيب. وقالوا في معنىٰ ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾: إنه حَيِيَ وانقلب من المِكْتل إلىٰ الأرض، ولا زال يتقلَّب حتىٰ دخل البحر، فتسرَّب فيه[2].

---

(١) الذي ورد في «الصحيحين»؛ البخاري (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث أُبي بن كعب مرفوعاً: «... فحيثما فقدتُ الحوت، فهو ثَمَّ ـ أي: الخضر ـ فأخذ حوتاً، فجعله في مِكْتل، ثم انطلق...».

(٢) وهو ما جاء في الحديث الصحيح المتَّفق عليه المتقدِّم، وفيه قوله ﷺ: «فانطلق معه فتاه يوشع =

وكان موسىٰ نائماً، فكره فتاه أن يوقظه، فلما استيقظ نسيَ أن يخبره، حتىٰ إذا جاوزا وطلب موسىٰ منه الغداء وكان في المكتل تذكَّر، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: المكان المضروب ﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ أي: تعباً وإعياءً.

فتذكَّر الفتىٰ أمر الحوت لما رأىٰ المكتل الذي فيه الغداء، إذ كان الحوت فيه، و﴿قَالَ﴾ لموسىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ أي: نسيتُ أن أذكر أمر حياته. ولا شك أنَّ هذا النسيان شبيهٌ بنسيان فتىٰ يوسف أن يذكره عند ربِّه. وفي كِلَيْهما حكمةٌ بالغة، وهي إلىٰ أن رأىٰ الملك الرؤيا، وحضر المكانَ صاحبُ موسىٰ. والله أعلم.

وقد اعتذر عن نسيانه أمر الحوت بقوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ ونسبةُ الإنساء إلىٰ الشيطان من عُرف التخاطب، فيُنسَبُ إليه كلُّ شرٍّ وشبهه، دون العوامل الطبيعية والسُّنن الكونية المؤدية إليه.

وقوله: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ يحتمل أن يكون مفعولاً لـ﴿نَسِيتُ﴾، علىٰ أنه بدل اشتمال من ﴿ٱلْحُوتَ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ اعتراضٌ بينهما. ويحتمل أن يكون بدل اشتمال من ضمير ﴿أَنسَىٰنِيهُ﴾. ويحتمل الأمرين معاً علىٰ طريقة التنازع، ولذلك أخَّره.

= ابن نون، حتى إذا أتيا الصخرة التي عند مجمع البحرين، وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المِكْتل حين أصابه بردُ الماء، فخرج منه، فسقط في البحر، فعلم يوشع بأمره، وأمسك الله جِرْية الماء عن الحوت، فصار عليه مثلُ الطاق، فصار الحوت سرباً، فلما استيقظ موسى نسي صاحبُه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما».

وبعد أن اعتذر عن تأخير البيان بالنسيان، شرح أمر الحوت، فقال: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾، وذلك أنه حَيِيَ وانقلب من الـمِكْتل إلىٰ الأرض، ولا زال يتقلَّب حتىٰ دخل البحر وتسرَّب فيه، كما قالوا.

ويجوز أن يكون معنىٰ قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أنهما نَسِيا تفقُّدَ أمره أو تركاه مَنْسياً. وعلىٰ هذا، فقوله: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ إنما يعني: فَـقَدتُه في ذلك المكان، أي: تركتُه نسياناً، ويكون قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾: بياناً من الله تعالىٰ، لا من الفتىٰ؛ لأنه لا يعلم عن الحوت إلا أنه فقده ونسيه في ذلك المكان. والله أعلم. وهذا أقربُ للعُرْف والمألوف.

فلمّا سمع موسىٰ عليه السلام كلام الفتىٰ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: ذلك المكان هو الذي نَتَطلَّبه؛ لأنَّ هذه الفقدة هي العلامة المضروبة له من الله سبحانه وتعالىٰ، ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ أي: رَجَعا في طريقهما يَتَتَبَّعان الأثر تَـتَبُّعاً، كي لا يضلَّا الطريق إلىٰ الصخرة، حتىٰ أتياها فوَجَدا عندها الخَضِر، كما قال تعالىٰ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هي ـ والله أعلم ـ الوحي والنبوة، أو الإلهام الإيحائي، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ هو معجزة له أو كرامة يعلم به بعض مغيَّبات الأمور وخفاياها بطريقة إلهامية، والله أعلم.

وهذا التعبير يُشعِرُ بامتياز علمه وغرابته عن علوم الأنبياء، وقد جاء في الحديث في قصة موسىٰ والخضر: «حتىٰ أتيا الصخرة، فرأىٰ رجلاً مُسَجّىٰ عليه بثوب، فسلَّم عليه موسىٰ، فقال الخضر: أنّىٰ بأرضك السلام؟ قال: أنا موسىٰ، قال: موسىٰ بني إسرائيل! قال: نعم، قال: إنَّك علىٰ علم من علم الله عَلَّمَكَه الله لا أعلمُه، وأنا علىٰ علم من علم الله علَّمنيه لا تعلَمُه»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٣٨٠) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا[١] ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ مما يُنْكَرُ ظاهِرُه، ولم تعلم شيئاً عن باطنه.

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا[٢] ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى[٣] عَن شَىْءٍ ﴾ أنكرته مني ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ أي: حتىٰ أبتـدئك ببيانه؛ سبباً وتأويلاً. وفيه إيذانٌ بأنَّ كلَّ ما صدر عنه من نحو ذلك فله حكمة وغاية حميدة خفيَّة.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ ﴾ موسىٰ: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾ أي: عظيماً، مِن: أَمِرَ الأمرُ؛ إذا عَظُمَ.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ ﴾ قال ابن عباس: لم يَنْسَ، ولكنها من معاريض الكلام[٤]. أقول: وفي التعاريض مندوحة عن الكذب. ويجوز أن يكون عبَّر به عن البادرة التي سبقت الخاطر، وقد أهاجها هذا الأمر الغريب، فسبقت خاطره عمَّا تَعاهَدا عليه من أن لا يسأله عن شيء حتىٰ يُحْدِثَ له منه ذِكراً.

---

(١) عُلِّمت، أي: عُلِّمتَه. فالمفعول الثاني محذوف. و﴿رُشْدًا﴾ أي: صواباً أهدى به إلى الخير. وفي قراءة: بضمِّ الراء والشين، والمعنى: هل تسمح لي أن أصحبَك. وفي هذا حسنُ التأدُّب والتلطُّف في طلب العلم.

(٢) تأمرني به، والأمر: التكليف بالشيء.

(٣) وفي قراءة: بفتح اللام وتشديد النون، أي: لا تُفاتِحني بالاستعلام عن سبب، فضلاً عن المناقشة والاعتراض.

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٥: ١٩٠).

ولذلك أردفه بقوله: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: لا تُحمِّلني ما لا أطيق، وهو أن أسكت عن مثل هذا الذي يبعث ظاهِرُه على الإنكار. أو المعنى: لا تُعسِّر عليَّ متابعتَك بهذا التَّحريج، ويَسِّرْها عليَّ بالإغضاء عن سَبْق ما يبدر من الاعتراض والإنكار.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ﴾ له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ لم يظهر عليها ما يُوجبُ القتل. وهذا معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾. ثم بالغ في الإنكار، فقال: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ أي: أنكرُ من الأول؛ لأنَّ الأول انتهى بسلامة الأنفس، بخلاف هذا.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾، وزِيدَ في هذه المرَّة كلمةُ ﴿لَّكَ﴾ للمبالغة في العتاب.

﴿قَالَ﴾ موسى معتذراً أيضاً: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ لأنك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ أي: قد بلغت النهاية في قَبول عذري، ولا عليك بعد ذلك أن لا تُصاحبني إنْ سألتُك عن شيء.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا[١] فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾، وقد استُعيرت الإرادةُ للقُرب والمُشارَفة، أي: قارَبَ أن يسقط فهَدَمَه وجدَّد بناءَه.

وإنما كرَّر كلمة ﴿أَهْلَ﴾، ولم يقل: (حتى إذا أتيا قرية استطعما أهلها) أو (استطعماهم) للتنصيص عليهم؛ ليتجسَّم شخصهم في الأذهان، ويقْوى استحضارهم

---

(١) أي: يُنزِلوهُما عندهم ضيوفاً، ولو بدون طعام، وهذا منتهى البخل.

فيها ويتمكَّن بتكرار عنوانهم؛ لأنهم موضع النقد ومحطُّ الإنكار، فيتجلَّىٰ للسامع ما تلبَّسوا به من القصور، ويستشعر أن اعتراض موسىٰ بادي الظهور، ثم يأتي التأويل، فيزيل ذلك الخفاء. وهكذا متىٰ توفَّرت العناية بالاسم في الكلام يُؤْتىٰ بالظاهر منه موضع الضمير، كما جاء في «دلائل الإعجاز»، لأن الكناية لا تبلغ مبلغَ التصريح(١). علىٰ حدٍّ وضع لفظ الجلالة موضع ضميره في كثيرٍ من آيات القرآن، وعلىٰ وتيرة قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فكرَّر كلمة ﴿ٱلْحَجَّ﴾ تربيةً للمهابة وتقريراً للحكم، وكرَّر هنا كلمة ﴿أَهْلَ﴾ تنميةً للمهانة وتمهيداً للنقد والإنكار.

وقد قال في «دلائل الإعجاز»: ما من كلام فيه أمر زائد إلا ويكون ذلك الزائد هو المقصود بالذات(٢).

وهناك معنىٰ ثالث مُقْتَضٍ للتكرار، وهو: أنَّ إرجاع الضمير عليهم بقوله: (استطعماهم) دون التكرار لا يمنع من احتمال أن يكونوا من الظاعنين النازلين فيها مؤقَّتاً، ومثل هؤلاء لا يتوفّر لديهم الطعام، فلما أعاده مُظْهَراً دَفَعَ هذا الاحتمال؛ لأنَّ مثل هذا التَّجوُّز لا يتأتَّىٰ مع التكرار، كما هو معروف في أساليب اللغة وقواعد البلاغة، وحينئذ يتقرَّر أنهم أهلُ القرية الساكنون فيها، ومثلهم يتوفَّر لديهم الطعام عادةً، فيتحقَّق تقصيرهم في الإباء عن التضييف.

وجملة: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ صفة سببيَّة للقرية، والجمل المقرونة بالفاء معطوفة علىٰ جملة الشرط، وجواب ﴿إِذَآ﴾ قولُه: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾؛ لأن

---

(١) «دلائل الإعجاز» ص١٦٨.

(٢) المصدر السابق ص٢٨٠.

الإخبار به وما تضمَّنه من التحضيض هو المقصود، والإتيان وما عُطف عليه سببٌ له، وإنَّما حثَّه على أخْذِ الأجر ليدفع به الضرورة عنهما، ولكنه لم يقبل، و﴿ قَالَ ﴾ له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ[1] بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ حسبما اتفقنا عليه في قولك: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾.

ومن مباحث اللفظ: أنه أضاف المصدر إلى الظرف اتِّساعاً في قوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي﴾، وذلك من خصائص اللغة.

ثم شرع يُحلِّل له سرَّ تلك الأشياء التي أنكر ظاهرَها، ويُبيِّن حكمها، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ أي: سأبيِّن لك الغايةَ من تلك الأفعال والحكمةَ فيها.

فذكر الأمر الأول وقال: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ ﴾ التي خرقتُها ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ ﴾ فقراء ضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة، وهم ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ ﴾ لكسب معاشهم، ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ حفظاً لها، ﴿وَ﴾ ذلك لأنه ﴿كَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ صالحةٍ ﴿غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾، أما إذا كانت معيبةً فلا يُطمع فيها ولا يُرغب بها. فقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم ﴾ هو من مُتمِّمات علَّة التعييب، وإنما أخَّره لِيُفْرِدَهُ بالبيان اعتناءً بشأنه، وإيذاناً بأنه هو الجزء المهم في الباعث على التعييب. وأما كلمة (وراء) فيحتمل أن تكون بمعناها الحقيقي، ويحتمل أن تكون مستعارةً للقوة والتعقيب، ومن القواعد الشرعية: يُدفَعُ الضرر العامُّ بالضرر الخاصِّ.

ثم ذكر الأمر الثاني فقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ وكان كافراً شديدَ المراس، ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا ﴾ أي: يشتدّ أذاه عليهما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾

---

(١) وقت فراق، والفراق: الانفصال وترك الصحبة، مصدر مضاف إلى فاعله في المعنى.

بمعاشرته لهما معاشرة الطغاة الكفار، أي: يشتد أذاه عليهما بخُلُقِه الذي هو الطغيان والكفر، ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ أي: عطفاً ورحمة بأبويه. وصيغة التفضيل ليست علىٰ بابها، ولكنها للمبالغة في الوصف. والغلام: ما طرَّ شاربُه وغلم.

وفي هذا البيان إرشادٌ وإشارةٌ إلىٰ أنَّ الكفر لا يكون بالوراثة ولا بالغريزة، وإنما يكون بمفاسد التربية ومخالطة الكفار من الأهل والأجانب، فإنَّ أبَوَيْ هذا الغلام مؤمنان، وهو طاغٍ كافر، انطبع فيه ذلك بمُصَاحَبة الكفّار الطغاة، فهو مرتد؛ لأنَّ أبويه مؤمنان، والمرتدُّ يُقتَل.

ثم ذكر الأمر الثالث فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، وذلك يكون بتجديد بنائه ليستقيم حتىٰ يَكبُرا، أما كيف بناه؛ بنفسه أم بوسائط؟ فالله أعلم.

ومن دواعي البلاغة في مُراعاة الأدب: إسنادُ الإرادتَيْن الأولىٰ والثانية إليه، وإسنادُ الثالثة إلىٰ الله تعالىٰ، مع أنَّ الكلَّ بأمر الله، كما قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾، والظاهر أنه بإيحاءٍ نفسيّ ـ والله أعلم ـ وهو الـمُسمَّىٰ بالوحي الوجداني الذي يكون عند الأنبياء والصِّدِّيقين[1]، وهو معنىٰ قوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورىٰ: ٥١].

---

(١) الوحي للأنبياء دون الصِّدِّيقين وما يكون للصدِّيقين هو إلهام وفراسة، ولا يقال له: وحي. ثم إن تعريف المؤلف للوحي بأنه إيحاءٌ نفسيٌّ أو وجدانيٌّ تَبِعَ فيه الشيخ محمد عبده الذي عرَّف الوحي بأنه: «عِرْفان يَـجِدُه الشخص من نفسه»، في حين استقر تعريفه عند العلماء على أنه «إعلام الله تعالى أحدَ خلقه...»، فهو يجعل المعرفة ذاتيَّة، في حين يرى العلماء أن المعرفة خارجة عن ذات النبي ﷺ.

ثم أجمل الكلام بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾[١] من هذه الأمور.

ومَغْزىٰ القصَّة: أن كثيراً مما لا يُرضَىٰ ظاهِرُه أو تُدرَكُ حقيقتُه؛ ينطوي علىٰ ألطافٍ خفيَّة، وحِكَمٍ إلهيَّة، وأسباب كونيَّة، بعيدةٍ عن فُهُومنا ومداركنا. ومن ذلك ما كان باعثاً علىٰ ذكر هذه القصة تحسيساً ومعذرة، مما جاء قبلها في سياق هذه السُّورة من دقائق الأحكام وعجائب الأحوال المُحَاطَة بخفايا الحِكَم والمصالح والأسباب، مثل: نوم أهل الكهف، وخَلْق إبليس، والصبر علىٰ عناد المشركين، وإغداق الرزق عليهم، وأمثال ذلك؛ لأن فيها من الحِكَم وأسرار الخليقة ما لا تُدركه الأفهام.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ

---

(١) مضمون خَرْق السفينة: أنَّ المال المعصوم يجوز أن يُحفَظَ لصاحبه بإتلاف بعضه، إذا كان في ذلك حفظٌ له أو لباقيه؛ لأنَّ الضرر الأكبر يُدفَعُ بالضرر الأصغر.

ومضمون قصة الغلام: جواز قتل الصائل حفظاً للمُصَال عليه المظلوم، ويجوز أن يصير مرتداً عن دين أبويه، والمرتد يُقتَل.

ومضمون إقامة الجدار: فِعلُ المعروف بلا أجرة مع الحاجة، ولا سيما مع ذُرِّيَّـةِ قومٍ صالحين. وذلك من المثل العليا.

وكانت هذه الأهداف في هذه الحوادث معروفة عند الخَضِر، غير معروفة عند موسىٰ. فلما عرَّفه بها سلَّم له بذلك. وكذلك حِكَم الله الخفيَّة وسنن أعماله العلية لا يُدركها كلُّ أحد، أو لا تُدرَك مطلقاً، ولذلك قيل: لو اطَّلعتم علىٰ الغيب لاخترتُم الواقع. (المؤلف).

قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ
وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي
خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ
ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا
ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾﴾.

ثم ذكر قصَّةَ ذي القرنين، قَرْناً لها بقصَّة أصحاب الكهف وقصَّة موسىٰ، وجَعَل ذلك تسليةً له ﷺ في أنَّ الله سبحانه يُمكِّن لعباده الصَّالحين المتمسِّكين بسُنن الكون وأسبابه ما لا يُمكِّن لغيرهم، فقال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ والمراد بذي القرنين: غورش مَلِكُ الفُرْس، ولقب «ذو القرنين» كان يطلق علىٰ الملك ذي المملكتين، ويقال له في العصر الحاضر: إمبراطور. وأتىٰ بالعاطف للإيذان باتِّصاله بما قبله.

وإيرادُ البيان بصورةِ السؤال والجواب من أساليب القرآن، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية). وإن صحَّ ما جاء في سبب نزول السورة من أنَّ المشركين ـ بإيعاز من أهل الكتاب ـ سألوا النبيَّ ﷺ اختباراً له وامتحاناً لنبوَّته عن: أمر أصحاب الكهف، وأمر ذي القرنين(١)، يكون السؤال حينئذٍ حقيقياً(٢).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ٥٩٢-٥٩٣) عن ابن عباس: «بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة... سلوه عن ثلاث نأمركم بهنَّ، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل، فَرُوا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوَّاف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ ....».

(٢) وهو الصوابُ الذي لا ينبغي العدولُ عنه، فقوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ صريحٌ في وقوع سؤال، وحَمْلُه على إيراد البيان بصورة سؤال وجواب تكلُّف.

ثم مهّد للجواب بقوله: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾؛ إيذاناً بالاهتمام بالتفصيل الآتي، حيث يقول: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا له مُكْنَةً فيها واسعة الأطراف، وأقدَرْناه عليها، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ يُوصِلُه إليه؛ من علم أو قدرة أو آلة، ولا سيما عُدَد الحرب ووسائل النقل، ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ يُوصِلُه إلىٰ بلوغ الأماكن القاصية.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: منطقة الغروب الدائم، والله أعلم، ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وهي بَياضٌ مَشُوب بسَوادٍ، أو سوادٌ مَشُوبٌ بحمرة. والمراد بها هنا ـ والله أعلم ـ: الضوء الشفقي الذي يحدث في منطقة الغروب الدائم، وهو يشبه الضوء الذي يعقب غروب الشمس أو يسبق طلوعها، ويبقىٰ هذا الضوء كذلك في هذه المنطقة طيلة الأيام التي تغيب فيها الشمس، وتكون تحت الأفق غير بعيدة عنه، وهو سوادٌ خفيف مشوبٌ ببياض، وقد يُشابُ بحُمرة أحياناً حسب بُعْد الشمس عن الأفق.

فالسنن الكونيّة التي لا تُحصيها البحار العديدة مداداً، والتي نَقَلت عرشَ بلقيس بطَرْفة عين، وجعلت عيسىٰ من دون أب[1]، نقلت ذا القرنين إلىٰ منطقة الظهور الدائم، الذي قال الله في حقِّه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَ﴾ لما بلغ تلك المنطقة ﴿وَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ هَمَجاً، فأمره سبحانه وتعالىٰ بهديهم وإرشادهم، وأن يستعمل القوّة مع المعارضين المقاومين. وقد حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾، و﴿إِمَّآ﴾ هنا للتنويع، وكلُّ

(١) بل نَقْلُ عَرْش بلقيس بطَرْفة عين، وخَلْقُ عيسى من دون أب: خرقٌ للسنن الكونيّة، ويدخل الأول في باب الكرامة، والثاني في باب المعجزة.

نوع يُصْرَف لـمستحقِّيه كما بيَّنه فيما يلي ذو القرنين للقوم، علىٰ نهج القرآن بمثل هذا الاكتفاء.

وهذا القول يجوز أن يكون بالوحي أو بالإلهام، وهو عِرفانٌ مع إيقانٍ دون إدراكٍ لوجهِ ذلك وحقيقةِ شأنه، وهو نوع من الوحي. وتحرير ذلك: إدراكه لأمر الله له أن يدعوَهم إلىٰ الرَّشاد بالحُسْنىٰ، فإن لم تَنْجَح مع بعضهم وقاوم، قَمَعَ بالقوَّة شرَّ المعارضين المقاومين في نشر الدعوة والإصلاح.

ويجوز أن يكون ترخيصاً له في أيِّ الأمرين رأىٰ أنه صالحٌ لقمع المعارضين وآتٍ بهم إلىٰ الرشاد. وإنما بدأ بقوله: ﴿ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ ﴾؛ لأنَّ أكثرهم معارضون لا تفيد معهم إلا القوة لتمكُّن الهمجيَّة منهم.

ولما أمره سبحانه وتعالىٰ بذلك أعلنه ذو القرنين للقوم و﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ نفسَه ولم يقبل الدعوةَ وعارضها وضلَّل غيره عنها، ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي: في الدنيا، ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة، ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ فظيعاً، ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ في الآخرة، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ أي: وسنستعمل معه اللُّطفَ وسَهْلَ المعاملة والإحسان. واستعارة القول للفعل من خصائص اللغة ومن أساليب القرآن.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: أن تلك التعاليم الإلهيَّة التي سيُعلِّمهم إيَّاها ويأمرهم بها مَبْنية علىٰ اليُسْر، أو هي سائغة في النفوس ترتاح لها ولا تتكلَّف منها، كما هو شأن سائر الشرائع الإلهية، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والله أعلم، أي: لم نأمره إلا بشريعة تَـسَعُها قدرته ولا يضيق بها ذرعاً. والله أعلم.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: منطقة الطلوع الدائم، والذي يظهر أنه تجوَّل في تلك المنطقة نفسها، وانتقل من بلاد إلىٰ أخرىٰ، فصادف الظهور الدائم للشمس؛ لأنَّ المنطقة ودرجة العرض التي يكون فيها غروب دائم يكون فيها شروق دائم بالتناوب في السنة الواحدة. وقد عبَّر عنه بقوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ﴾ أي: لم تكن الشمس مستورةً بالأفق كما كانت مستورة في منطقة الغروب الدائم، ولكنها كانت هنا علىٰ العكس ظاهرةً دائماً لا تَسْتَتِرُ عنهم.

ويريد بلفظ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مجرَّد الاستمرار والدوام، والله أعلم.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتعظيم والتفخيم، علىٰ نهج القرآن في الفصل بهذه اللفظة، بمعنىٰ: أَمْرُ ذي القرنين كذلك، أي: كما وصفنا.

ويجوز أن تكون صفة للقوم، أشار بها إلىٰ أنهم كانوا هَـمَجاً مثل أولئك الذين وَجَدهم قَبْلُ في منطقة الغروب الدائم، وأنه أُمِرَ أن يُعامِلَهم مثلهم، علىٰ نهج القرآن في الاكتفاء.

ثم نوَّه بشأنه، فقال: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ يُنوِّه بشأن ما لديه من الأسباب المادية والمعنوية والعُدَد والعَدَد، ويمتنُّ عليه بما أعطاه من ذلك وما قدَّره عليه؛ مما تابع بيانه بقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ أي: بين الجبلين، وهي ثغرة في سلسلةٍ من الجبال وقع السَّدُّ بينهما، فتوسّع في المعنىٰ وسمَّىٰ هذين الطرفين للجبلين سدَّين، مِن ذِكرِ الشيء وإرادة مجاوِرِه، وذلك من خصائص اللغة، ويُسمَّىٰ بالمجاز المرسل، فلما بلغ هذين الموضعين ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: أمام تَيْنِكَ السلسلتَيْن المنفصلتَيْن بهذه الثغرة ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ لقلَّة فطنتهم وبساطتهم.

وكان من وراء السِّلسلتَـيْن قومٌ مثـلهم، ولكنهم طغاةٌ يعتـدون عليهم، كما يُفهَمُ ذلك مما حكاه سبحانه عنهم بقوله: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا اللقب يُطلق في العربية علىٰ الأقوام البالغة الحدَّ في الكثرة والفوضىٰ، وعلىٰ غَوْغَاء الناس وهَمَجهم، وعلىٰ السّفلة المتسرِّعين إلىٰ الشر، لا علىٰ جيل أو صِنفٍ معيَّن من البشر[1]، والله أعلم، فكلُّ قوم بلغوا منتهىٰ الأمر في الفوضىٰ والفساد، أو كلُّ زمرة أو أُمة أو كثرة مائجة سائرة بنفسها أو علىٰ غير هُدًىٰ من أمرها، ولا سيما إذا كانوا بغير رئيس أو نظام؛ يُقالُ لهم: يأجوج ومأجوج. بل يقال كذلك لكلِّ زمرة هذا شأنها، فيقال للعامة إذا أحدثت ضوضاء وفوضىٰ وهمجية: يأجوج ومأجوج[2]. وقد

---

(١) بل هم صنف معيَّن من الناس، فقد ثبت في الأحاديث المتواترة: أنهم سيخرجون من السَّدِّ، وأنَّ خروجَهم يكون بعد خروج الدجَّال، وقتل عيسى إيَّاه.

(٢) يأجوج ومأجوج قبيلتان من ذرية آدم تسميان بهذا الاسم، وهم كغيرهم من بنى آدم يأكلون ويشـربون ويتـناكحون ويتـناسلون ويموتون، وخروجهم في آخر الزمان ثابت بالأحاديث الصحيحة المتواترة.

ومما ثبت في أمر يأجوج ومأجوج ما رواه البخاري (٣٣٤٨) ومسلم (٢٢٢): أن الله يطلب من آدم أن يبعث بعث النار، وفيه: «فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً، ومنكم رجل».

وروى البخاري (٣٣٤٦) ومسلم (٢٨٨٠) أيضاً: «ويل للعرب من شر قد اقترب، فُـتِحَ اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذا».

وروى مسلم (٢٩٣٧) حديثَ خروجهم في آخر الزمان، وأن عيسى يدعو عليهم، فيرسل الله عليهم النغف، وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم. ثم يرسل الطير لتأكل جثثهم.

وجاءت أحاديثُ موقوفةٌ عن أشكالهم وإفسادهم عند الخروج، لا يعتمد على كثير منها.

والخلاصة: أنهم من بني آدم، وكانوا موجودين أيام ذي القرنين، ويخرجون على البلاد المجاورة لهم في ناحية المشرق فيعيثون فيها فساداً، وسيخرجون آخر الزمان، وهذا القدرُ كافٍ في معرفتهم، وما وراء ذلك لا داعي إليه، ولا يضرُّ الجهل به. =

حقَّقتُ ذلك في سورة الأنبياء[١]، فانظر إليه.

وبعد أن تشكَّوا من أولئك المعتدين الذين يأتون من ثَغْرة الجبل، قالوا: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ يظهر ـ والله أعلم ـ أنهم طلبوا منه أن يكونوا تحت حمايته، أو يلتحقوا بمملكته ورعيَّته ويدفعوا له الضريبة. ويجوز أن يُراد بالخرج: الجعل، وعبَّر عنه به مبالغةً فيه.

وعلىٰ كلٍّ، فإنه امتنع وأبىٰ، ويمكن أن يكون ذلك لبُعدهم عن مركز حُكْمِه، ووعدهم أن يساعدهم في دفع هذا العدو عنهم، و﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ من كثرة المال واليَسَار وسَعَة الملك ﴿خَيْرٌ﴾ من ضريبتكم وجَعْلكم، ولكني أساعدكم لوجه الله، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ من موادَّ وفَعَلةٍ وصنَّاع ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾، والردمُ لغةً: هو المتراكم من أنقاض الحائط المنهدم. والثوب المردوم: هو الذي فيه رقاع فوق رقاع. فأراد به هنا: الحاجز الحصين المنيع المكوَّن من قطع الحديد مُكدَّسة، كما قال: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾[٢] وهي القِطَعُ منه، فنضدها علىٰ بعضها بالفَعَلة والصُّنَّاع في تلك الثغرة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي: جانبَي الجبلَيْن ﴿قَالَ انفُخُوا﴾، وهذا تصويرٌ لجهد العمال واستعمال الآلات في مجموع هذا العمل وصهر قطع الحديد.

= أما محاولةُ تأويل ذلك بأن لفظ «يأجوج ومأجوج» المقصود به كلُّ قوم لا نظام لهم بحيث يعيشون حياة الهمجية والفوضى، فهذا تأويل غير سائغ، بل هو في الحقيقة تحريفٌ للكَلِم عن مواضعه، وليس من التأويل في شيء.

ومَنْ أنكر خروج يأجوج ومأجوج، وأنكر الأحاديث الواردة في شأنهم؛ فإنه يُعرَّفُ بخطأ مسلكه هذا وخطورته، ويُبيَّن له الحق والصواب.

(١) في الآية ٩٦ منها.

(٢) يلوح من فحوىٰ الكلام ـ والله أعلم ـ أنَّ لهم علماً ولو بسيطاً باستخراج معدن الحديد وتكتيله، والإنسان مُستعدّ بطبعه لاستنباط مواهب الأرض ولو ببساطة. (المؤلف).

وهذا التصوير مُجمَلٌ علىٰ طريقة إيجاز القرآن في البيان، فلا يستلزم أنَّ ذلك كان جملة واحدة، فيحتمل أنه كان تدريجياً، كلما يفرغ من قطعة أو عدَّة قطع تُصهَرُ ويُفْرَغُ عليها القطر. ويُحتمل أنَّ القطع نضدت كلها أولاً، ثم صُهرت جملةً وأُفرغ عليها القِطْرُ، علىٰ ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ أي: نحاساً مُذاباً. ولكن غالب الظَّنِّ أنه تصويرٌ لمجموع العمل، علىٰ طريقة إيجاز القرآن وأساليبه وتساهله في التعابير. والله أعلم. ويظهر أنَّ معدن الحديد عندهم، ويستفيدون منه علىٰ قَدْرِ عِلمِهم، وليس هذا بمحال، فقد يكون في البسطاء صُنَّاع.

ثم نوَّه بحصانته ومناعته بقوله: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ ويتسلَّقوا عليه ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾، والنقب يحتاج إلىٰ مضاعفة القوة والجهد، فزاد التاء للدلالة علىٰ ذلك.

وهذا السَّدُّ ـ والله أعلم ـ قد اندثر بطول العهد، وأصبح قطعة من الجبل، ولو اهتُدِيَ إليه وكُشِفَ عنه كما يكشف عن الآثار لظهر[1].

ويمكن أن نفهم من كلمة «الرَّدْم» أنَّ ذا القرنين ألقىٰ عليه التراب بعد أن فرغ من صُنعه، كما كانوا يصنعون بالأسوار القديمة، كسُور نينوىٰ، فإنه مقام من أحجار منظمة ضخمة، منضّدة بعضها فوق بعض، لا تقلُّ الواحدة عن المتر المكعب، وبعد أن تمَّ السُّور سُجِّي بالتراب، ويحتاج استخراج هذه الأحجار الآن إلىٰ عمل وكشف عنه،

(١) هذا ليس بلازم، فكم من الآثار الموجودة لم يكشف عنها بعد، وما زال الناس يكشفون عن آثار جديدة كل مدة، بعضها مطمور تحت التراب، وبعضها في جبال ساحقة أو وديان بعيدة أو أوغال موحشة، فعدم الوقوف على الشيء لا يعني عدمَ وجوده، كما يقول العلماء: عدم الوجدان ليس دليلاً على عدم الوجود.

وذلك التراب لا يخلُّ بمناعة السَّدِّ، وعَدَم استطاعتهم لظهوره؛ لأنهم كانوا يأتون من هذا الثغر الذي انسدَّ فتواصلت الجبال، فلو أمكنهم الظهور عليه لأمكنهم الظهور علىٰ الجبال نفسها، ولكنهم لا يتمكنون ـ والله أعلم ـ أو يشقُّ عليهم ذلك إلىٰ حدِّ الامتناع، أو إلىٰ حدِّ القلَّة التي لا تزعج، وقد تمدَّنَ هؤلاء القوم بطول الزمن وأصبحوا مسالمين[1]، والله أعلم.

ولما رأىٰ ذو القرنَيْن أنه قد توفَّق إلىٰ عمل هذا الرَّدم ضدَّ هؤلاء الهمج، وأنقذ

---

(١) سدُّ ذي القرنين لا يزال موجوداً إلى الآن، ولن يزال كذلك حتى يأتي وعدُ الله بخروج يأجوج ومأجوج منه بعد أن يجعله الله دكاءَ بعد خروج الدجّال ونزول عيسى عليه السلام.
وقد أخبر الرسول ﷺ أنه فُتِحَ منه مثل حَلْقة على قدر تحليق اجتماع السبابة والإبهام، فقال: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها. رواه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).
وأما مكان وجوده فليس معروفاً الآن، وإنما يذكر بعض الناس أنه وراء الصين، ويذكر بعضهم أنه في جورجيا في جبال القوقاز قرب أذربيجان وأرمينية، وقيل: إنه في أواخر شمال الأرض، وقيل: غير ذلك، وقد حاول بعض الناس قديماً وحديثاً البحث عن مكان هذا السَّدِّ بطرق ذكرها علماء التفسير في تفاسيرهم، ولكن لا يصح الاعتماد على مثل تلك الأخبار في ذلك.
ونحن لا يعنينا أن نعرف مكان السدّ، بل الواجب علينا الإيمان بوجوده، وأنه على الأرض، وأن هؤلاء القوم يعيشون وراءه، ولحكمةٍ يعلمها الله عز وجل أخفى ذلك المكان عن أعين العباد، فإذا جاء وعد الله اندكّ السد، وخرج أولئك القوم.
ولا يمكن الجزم بتحديد مكان السد الذي بناه ذو القرنين لعدم ورود هذه التفصيلات في المصادر اليقينية. وكلام العلماء في تحديد شخصية ذي القرنين ومكان السد من باب الظن والاحتمال والترجيح، وليس من باب الجزم واليقين.
وينظر ما علقتُه مُطوّلاً في شرحي لكتاب «العقيدة الإسلامية» للعلامة محمد المكي بن عزوز رحمه الله تعالى ص٣١٣-٣١٩.

منهم أولئك الضعفاء، شَكَرَ الله تعالىٰ وتنصَّل من قوَّته إلىٰ قوَّة الله، و﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ عليَّ وعليكم أيها القوم، حيثُ أقدَرَنا علىٰ هذا العمل العظيم. ثم انتهز الفرصة الـمناسبة للتذكير بالقيامة وما يتبعها من الحساب، وأنه إذا جاء الوعد بيوم القيامة، جَعَل الله هذا الردم وسائر جهات الأرض والجبال دكّاء، فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بيوم القيامة ﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي: جَعَل هذا الرَّدْم علىٰ قوَّته ومع جباله ﴿دَكَّآءَ﴾ أي: أرضاً مستوية[1]، كمـا قال تعالىٰ في سورة الحاقة: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بيوم القيامة ﴿حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ أي: واقعاً لا محَالة.

وهنا تمَّت قصَّة ذي القرنين[2].

---

(١) بل الوعد هنا: هو الوقت الذي قدَّر الله فيه خروج يأجوج ومأجوج، فإذا جاء هذا الوقت اندكَّ هذا السَّدُّ، والأرضُ ـ بما فيها الجبال المحيطة به ـ ما زالت على حالها لم تندك، كما يُفهَمُ من الأحاديث الواردة في ذلك.

(٢) ويرىٰ أبو الكلام آزاد الهندي وزير هندستان [المتوفى سنة ١٣٧٧هـ]: أنَّ ذا القرنين هو غُورش مَلِكُ الفرس المتوفىٰ سنة ٥٢٩ قبل الميلاد، وكانت بلاد إيران منقسمة إلىٰ قسمين: جنوبي يُسمَّىٰ فارس، وشمالي يُسمَّىٰ مادا، ثم ظهرت شخصية غورش في ظروف غريبة، لفتت أنظار ذلك العالم، فقبله أمراء فارس ملكاً عليهم، ثم أمراء مادا، ولقب بذي القرنين، رمزاً للجمع بين المملكتين، ثم استولىٰ علىٰ جميع الممالك الآسيوية من البحر الأسود غرباً إلىٰ صحراء بلخ شرقاً، وكان وصوله إليهمـا من مملكته بمثابة وصوله إلىٰ نهاية الغرب ونهاية الشرق، واستولىٰ في ذلك علىٰ بلاد بابل وآشور، وأطلق اليهود من أسرهم، فسمَّوه الـمُرسَلَ من عند ربِّ إسرائيل صفي الله المنقذ ذا القرنين.

ثم يحقِّق أبو الكلام أن المراد بما بين السدَّين: مضيق داريال في جبال قفقاس المتسلسلة والموصلة بين البحر الأسود وبحر الخزر، ويوجد الآن جدار حديدي يسدّ هذا المضيق الذي هو عبارة عن جدارٍ بين جبلين شاهقين أقيم بينهما هذا السد الحديدي، وقفل الطريق الذي كان مفتوحاً بينهما، وقد كتبت عليه باللغة الأرمينية ما معناه: مضيق غورش، ويُسمِّيه أهل القوقاز بالباب الحديدي.=

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

ولما انتهت بالتذكير بيوم القيامة، واصل سبحانه وتعالىٰ البحث عنه، وجعل ذلك تمهيداً لوعيد المشركين ووعد المؤمنين، تبشيراً وإنذاراً. فعاد إلىٰ أصل السياق في هذه السورة ليختمها بما بدأها به من أمر البعث والحساب، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وأجرىٰ الكلام علىٰ عموم البشر، فقال: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ وهذا بيانٌ لحالة عموم الناس عندما يقومون من قبورهم[١] ويُدعَوْن للحساب بما فيهم المشركون المنكرون.

= وقد تكلَّم أبو الكلام في المجلد الأول من مجلة ثقافة الهند في العدد الأول والثاني والثالث من سنة ١٩٥٠ م بما يقارب المئة صحيفة عن هذا البحث، يثبت به مُدَّعاه هذا ويحققه، تحت عنوان: شخصية ذي القرنين.

أقول: وعلىٰ هذا فلا بدَّ أن تكون منطقة ما بين السدّين غير منطقة المشرق والمغرب. (المؤلف).

(١) المراد بـ«يومئذ»: يوم فتح السدّ وخروج يأجوج ومأجوج وقرب الساعة. ومعنى الآية ـ مستفاداً من تفسيري «المعين» ـ: «وجعلنا بعضَ الناس من يأجوج ومأجوج وغيرهما عند انفتاح السدّ وقرب القيامة، يختلط ببعض في أحداث متكررة متجددة، كحركة أمواج البحر التي يختلط فيها الماء بعضه ببعض، ونُفخ في القرن النفخة الثانية للبعث....».

وعبَّر هنا بالـمَوَجان والجَمْع، وفي سورة الزُّمر بالقيام من القبور(١)، والأمر واحد مُنوَّع الأحوال والتعابير، علىٰ نهج القرآن، وأخَّر الجمع؛ لأنه يتضمَّن الحساب، أو لأن القرآن لا يتقيد بترتيب الوقائع، فيُقدِّم ويُؤخِّر لمناسبة السياق. هذا ما يظهر لي، ولا يعلم هذا الغيب إلا الله.

ثم تابع المعنىٰ بقوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾، وهذا المصدر المؤكّد جيء به لزيادة التهويل.

ثم وَصَف الكافرين بأهمِّ الصفات التي استوْجَبت ذلك، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي ﴾ يعني: عن هذا القرآن وما جاء به، ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ له ﴿ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾؛ لأنه هادمٌ لما هم منطبعون عليه من الكفر والضلال. ومن أخلاق البشر أن من انطبع منهم علىٰ شيء لا يسمع ما يخالفه ولا يراه أهلاً للتفكُّر به والتدبُّر له.

ثم أنَّبهم وتوعَّدهم وعيدَ المتسلِّط لمن لم يكترث بالسلطان وإجراءاته، فقال: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ ﴾، وهم آمنون من نَيْل الجزاء. كلا، ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ والنُّزل: ما يُعجَّل للضيف الكريم. ففيه تهكُّمٌ وإيماءٌ إلىٰ أنَّ وراءها من العذاب ما تستخفُّ دونه وتستهان. أعاذنا الله.

ثم لوَّن الخطاب وبناه علىٰ قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، وعلىٰ إنكارهم كلهم أو بعضهم للحشر والحساب، فقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبعث والحساب، ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ لذلك؛ ولأنَّ العمل الصالح

(١) في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

إنما ينفع بحُسْن أثره في النفس، ونفوس هؤلاء قد أوغَلَ فيها الفساد من جرَّاء الشِّرك، فلا يُؤثِّر عليها لو فُرض وجودُه.

وبعبارة أخرىٰ: إنَّ الأعمال الصالحة إذا لم تقترن بعقيدة صحيحة ونيَّة صالحة؛ لم يكن لها أثر فعَّال في النفوس؛ لأنَّ القلب إذا فَسَدَ فَسَدَت الأعمال، ولا سيما إذا فَسَدَ بالشرك والإلحاد، ولأنهم في عملهم كمَنْ يقصد أمراً ويسعىٰ إليه بغير الطريق الموصل إليه.

أو لأنَّ الله سبحانه لا يقبل عملاً فيه مثقال ذرَّة من شرك أو رياء؛ لذلك قال تعالىٰ: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ يكني بذلك عن حطَّة شأنهم ونَيْل العذاب منهم(١).

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا الشقاء إنما جاءهم بسُوء صنيعهم وإعراضهم عمَّا جاءهم من الحق، فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾، وقال في أول سورة الزُّمَر: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٢-٣].

ثم قابل حالهم بحال المؤمنين، علىٰ سُنَّة القرآن في الجَمْع بين الوعد والوعيد ليزداد كلٌّ منهما بالآخر ترغيباً وترهيباً، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ أي: لا يطلبون عنها تحوُّلاً، لما لهم فيها من رَغَد العيش وكمال النعيم.

(١) والمعنى: لم يبقَ في صحائفهم إلا السَّيِّئات، فلا نقيم لهم يوم القيامة ميزاناً نَزِنُ به حسناتِهم، إذ يأتون يوم القيامة ليس لهم حسنات تُوزن في كفَّة الحسنات.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ
مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا
صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

ولما كانت هذه السُّورة محتويةً علىٰ بعض عظائم الله وعجائب قدرته التي كانت القصص لأجلها، ختمها بهذه الآية؛ تبياناً لسَعَة عظائمه وعجائب كونياته، فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا[1] لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ أي: سُننه الكونية وعَجَائبه وبديع صُنعِه، أو كلمات عِلمِه في ذلك، أي: لو جُعِلَ البحرُ مداداً للبيان عن هذه الكلمات التكوينيَّة، ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ يُصوِّر بهذا التمثيل كَثْرَةَ عجائب الله سبحانه في هذا الكون، وسُننه العظيمة فيه[2].

---

(١) أي: حِبراً، وسمِّي المداد مداداً؛ لإمداده الكاتب. وأصله من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء.

(٢) كلماتُ الله تعالى تدلُّ على علمه المُحيط بكلِّ شيء. ومعنى الآية ـ كما قال ابنُ كثير في «تفسيره» (٥: ٢٠٤) ـ: «يقول تعالى: قل يا محمَّد: لو كانَ ماءُ البحر مِداداً للقلم الذي يُكتَبُ به كلماتُ الله وحكمُه وآياتُه الدالة عليه، لنَفِدَ البحرُ قبل أن يَفرُغ من كتابة ذلك، ولو جئنا بمثله، أي: بمثل البحر آخرَ ثم آخرَ وهلمَّ جرّا، بحور تمدُّه ويُكتَب بها، لَـمَا نَفِدَت كلماتُ الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقال الربيع بن أنس: إن مثلَ عِلم العباد كلهم في عِلم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾، يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله، والشجرُ كلُّه أقلام؛ لانكسرت الأقلام، وفنيَ ماء البحر، وبقيت كلماتُ الله قائمةً لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يَقدُر قَـدْرَه، ولا يُثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني نفسه، إنّ ربنا كما يقول وفوق ما نقول».

ثم توسَّع المقياس، فقال: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ١٠٩﴾ أي: بل لو ضاعفنا المِدادَ بأمثال هذا البحر لَـنَفِدَ المِدادُ كلُّه ولم تَنـفَدْ كلمات الله، كما قال تعالىٰ في سورة لقمان: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧].

فالآيةُ تمثيلٌ لكثرة عظائم الله العجيبة في هذا الكون وسُننه الغريبة التي يعجز البشر عن إدراكها وإحصائها، فمـا جاء في هذه السورة من نَـوْمة أصحاب الكهف، وشأن صاحب موسىٰ، وأمر ذي القرنين، فإنما هو قطرة من ذلك البحر الزاخر.

وبعد هذا البيان عن عَظَمة الله البالغة، أمر رسوله ﷺ أن يدعو إلىٰ التوحيد في عبادة الله، لاختصاصه سبحانه بأفعال الألوهية، وأن يدعو كذلك إلىٰ صالح الأعمال؛ لأنها هي الـمُوصِلة إلىٰ نعيم ذي الجلال، وقَرَنَ البيان عن اختصاصه بالمعبودية عقلاً بالبيان عنه نقلاً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. وابتدأ الكلام بتحديد النبوَّة، فألمع إلىٰ أنها لا تَتَجاوز حدود البشريَّة، ولكنها تكون في الكُمَّل من البشر، فيكون بينهم بحكم الكمال وبين طبيعة الـمَلَك ـ والله أعلم ـ مجاورة واتِّصال[1]، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وإنما أمتاز عنكم بهذه الرسالة التي أُرسلت بها إليكم، ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فيها ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أحسنَ لقاءٍ، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ يرتضيه سبحانه وتعالىٰ، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ لأنَّ الله سبحانه لا يقبل عملاً فيه مثقال ذرَّة من

---

(١) يُحاول المؤلف رحمه الله أن يُجري النبوة على قانون أو سنة كونية، وذلك بأن يكون ارتقاء الواحد من البشر إلى درجة الكمال سبباً في اتصاله بالملائكة ونَيْله رتبة النبوة. وليس كذلك، فكم حاول أفراد من الناس تحصيل ذلك بمثل هذه الطريقة فما أفلحوا، لأنه غاب عنهم أنَّ النبوَّةَ مَحْضُ اصطفاء واجتباء من الله تعالى، و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

شرك أو رياء، فهذا الإخلاص في التوحيد والتنزيه والعمل الصَّالح الصَّحيح هو الذي يُوصل إلىٰ الخلاص والسلامة الأبديَّة والسعادة السرمديَّة، بفضل الله العظيم وإحسانه الكريم.

اللهمَّ إني أُشهِدُك وأُشهِدُ حَمَلةَ عرشِك وملائكتَك وجميعَ خلقك بأنَّك أنتَ اللهُ لا إله إلا أنت وَحْدَكَ لا شريك لك، وأنَّ محمداً عبدك ورسولك، وأعوذ بك من أن أُشركَ بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك ممَّا لا أعلم.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ مَرْيَمَ

مكيَّة، وهي ثمانٌ وتسعون آية

جاء فيها ذكر شيءٍ من قصص الرسل، وما أكرمهم الله به من الكرامات، للعظة والتذكير بقدرة الله العليَّة، تتميماً لـما ذكر من العجائب في سورة الكهف، وتقريراً لما وَرَد في ختامها من أنَّ كلماتِ الله وعجائِبَه في هذا الكون لا نفاد لها.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً
خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ
وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ
ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ
ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ
خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ
ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً
وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ
وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ
وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ وأصحُّ الأقوال في هذه الحروف التي تُبتَدأُ بها بعض السور: أنها لتنبيه الفكر إلىٰ ما يأتي بعدها للعناية به. وبنسبة المبالغة في هذا التنبيه تكون الزيادة في عدد الحروف ـ والله أعلم ـ فتزداد كلَّما زادت أهميةُ الموضوع والعناية به. ومنه هنا قوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾، وهو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الذي يُتلىٰ عليك.

ثم فصَّل ذلك فـقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾، وقد قالوا في سبب الخفاء: إنه ضَعْف الهرم. وقيل: بل راعىٰ في ذلك حُسْنَ الأدب، فمُدح عليه.

ثم حكىٰ سبحانه ذلك النداء الخفيَّ بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ يكنّي عن نهاية الضعف والكِبَر. وكذلك قوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ فشبَّه الشيب في البياض والإنارة بشواظ النار، وانتشاره في الشعر باشتعال النار. وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ توسُّلٌ بما سَلَف له من الاستجابات، مضافاً إلىٰ ما ذكر من صفات الاستعطاف، أي: إنك عوَّدتَني أن تستجيب دعائي كلَّما دعوتُك فأنا طامعٌ في قبول هذه الدعوة واستجابتها كما عوَّدتَني.

وبعد هذا الاستعطاف والتوسُّل شَرَعَ في الدعاء، مُقَدِّماً عليه ما دَعَاه إلىٰ ذلك الطلب، فقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ يعني: أولياءَه الموجودين من بني عمِّـه، أي: خفتُ فِعلَهم. ويظهر أنه لم يكن يعتمد عليهم في إقامة الخلافة علىٰ بني إسرائيل، فطلب من الله سبحانه ولياً صالحاً غير هؤلاء الموجودين، يَرِثُ عنه الخلافة في آل يعقوب. ثم أضاف إلىٰ ذلك الخوف قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي: لا تَلِدُ من شبابها، فلم يكن لي وليٌّ من صُلبي، ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ وأنت واسع القدرة، ﴿وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي: الـمُلكَ والنبوة، ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ أي: مَرْضياً قولاً وفعلاً. فـ«فعيل» هنا بمعنىٰ: مفعول، مثل: جريح بمعنىٰ: مجروح.

وقد اختلفوا في الوليِّ، فالأكثرون علىٰ أنه طلب به الولد، والبعض علىٰ أنه طلب به ولياً من بني عمِّه غير هؤلاء الموجودين. وهذا أكثر ملائمةً للسياق. وقال آخرون: بل طلب به مَنْ يقوم مقامَه من آل يعقوب غير هؤلاء الموجودين، ولداً منه كان أو من غيره.

وقد قَرَنَ سبحانه الدعاءَ بالإجابة، فقال: ﴿ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ ﴾ أي: شريكاً في هذا الاسم، بمعنىٰ أنه لم يُسَمَّ أحدٌ قبله بهذا الاسم، وهذا مزيد شرف وتفخيم. وقيل: بل المعنىٰ: أنه لم نجعل له شبيهاً في الفضل والكمال، يبالغ في وصفه بذلك. وقال ابن عباس: لم نجعل له شبيهاً في الولادة بين شيخ وعجوز[١]، فهي معجزة له.

ولـما سمع بهذه البشارة، عَـرَضت له وَهْلة الهواجس البشريَّـة التي تعرض للإنسان عند شدّة الحرص علىٰ أمر ظهرت فيه تباشير الطمع فيه، وهي تُصوِّر العوائق والموانع التي تكون حائلاً دونه في العادة، و﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ ﴾ أي: جساوةً وقحولاً. وقيل: بل جاء هذا السؤال علىٰ وجه التعظيم لقدرته تعالىٰ، وعلىٰ وجه التعجُّب والسرور. وقد ذكروا وجهاً ثالثاً، وهو: أن قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ ليس نصاً في كَوْن ذلك الغلام ولداً له، بل يجوز أن يكون من أحد أقربائه كما طلب، فيحتمل أنَّ زكريا عليه السلام أراد الاستفسار عن ذلك بطريقة أدبية من الله سبحانه وتعالىٰ، فذكر أسباب تعذُّر حصول الولد في العادة، حتىٰ إن تلك البشارة ـ إن كانت بالولد ـ فالله سبحانه وتعالىٰ يزيل الإبهام ويجعل الكلام صريحاً.

فلما ذكر ذلك صرَّح سبحانه بكون ذلك الولد له و﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ﴾[٢] أي: قال الله سبحانه أو الـمَلَك: الأمر كذلك علىٰ ما أخبرتك. ثم علَّل ذلك تعليلاً إقناعياً بقوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾، كيف لا ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ ﴾؟!

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٦: ٦٥).

(٢) لفظ ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ في مثل هذا الكلام يأتي في عُرف اللغة لمجرّد تثبيت الخبر دون نظرٍ للتشبيه. (المؤلف).

وفي الكلام نسبة ما للأصل إلىٰ الفرع؛ لأن المرادَ ابتداءُ خلق البشر من غير سَبْق أسباب عادية، وهذه النسبة من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في المادة الأولىٰ من المقدمة السادسة).

ولـما هدأت هواجسُه طلب منه تعالىٰ أن يجعل له علامة علىٰ ابتداء حصول الولد، و﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾ أي: علامةً علىٰ حصوله، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠﴾ أي: من دون مرض وعلّة في اللسان عادية، وقيل: بل بحَصْرٍ مؤقَّت يعتريه ويزول.

ثم ذكر سبحانه وقوع تلك العلامة، وقال: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ أي: أشار ولم يتكلم: ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ أي: طرفي النهار. ولعلَّه كان مأموراً أن يُسبِّح شكراً لله، ويأمر قومه بذلك.

ثم طوىٰ الكلام عن الحَمْل والولادة والنشأة، علىٰ نهج القرآن في الإيجاز وإتباع المعالم البارزة المطلوبة في القصة، فسارع إلىٰ الإنباء بإنجاز الوعد، وأنه كان ولداً نبيلاً، فقال: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ أي: خُذِ التوراة بجِدّ وعزم، بمعنىٰ: اعمل به علىٰ هذه الصفة.

ثم نوَّه سبحانـه بشأنه، ومزج ذلك بالتمنُّـن عليه، فقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ أي: الحكمةَ وفَهْمَ التوراة، وقيل: النبوة. ويجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون المرادُ بالحكم: الاستعدادَ لإدراك حقائق الأمور والحكمَ عليها حكماً صحيحاً في حالة الصَّبوة، أو من مبدأ تمييزه للأمور ظهر استعداده لحكم أمته، كما أراده أبوه. والله أعلم.

ثم تابع البيان عنه بقوله: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: وآتيناه حناناً من لَدُنَّا. والحنان: العطفُ والرحمة. ويحتمل أن يكون المراد: جعلنا في قلبه رحمةً وعطفاً علىٰ أمته، أو يكون

المراد: رحمةً من الله عليه وحناناً. وقال ابن عباس: وآتيناه رحمةً من عندنا[١]، ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي: وطهارةً وعُلوَّ أخلاق، ﴿وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ وهما صفتا الملوك. والمراد: وَصْفُه بالتواضع ولين الجانب. ولا يَبعُدُ أن يكون في نفي هذَيْن الوصفَيْن تعريضٌ لبعض الموالي الذين قال عنهم زكريا عليه السلام: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾، ولذلك لم يعتمد عليهم في إقامة الخلافة علىٰ بني إسرائيل. أي: أنه ليس كأولئك الموالي الذين شكا زكريا منهم، وخاف من نَصْبهم خلفاء.

ثم خصَّه سبحانه وتعالىٰ بهذه الكرامة، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ فأعطاه سبحانه الأمان في أدوار الحياة الثلاثة: الحياة الدنيا، والبرزخ، والحياة الأخرىٰ. وجَعَل الأمان من مبدأ كلِّ دَوْر من هذه الأدوار، وذلك كناية عن زكاة نفسه وصلاح أمره في كلٍّ منها.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن
دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ
إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ
لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ
وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ
مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ
نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ
بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا
فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨: ١٥٦).

ثم عطف قصَّة مريم علىٰ قصة زكريا لتقاربهما في الزمن، ولـما بينهما من التعلُّق، وللإشارة إلىٰ أنَّ ولادة عيسىٰ أيضاً لا تزيد عن أنها معجزة ربانية مثل ولادة يحيىٰ من امرأة عجوز عاقر ورجل هَرِم كبير، فليس أمرُ مريم بأعجَبَ من أمر زكريا، وكلاهما معجزة من الله لهما، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن ﴿ مَرْيَمَ ﴾ أي: اتلُ علىٰ الناس قصَّتها وبلِّغهم إياها، ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ أي: اعتـزلتهم وابتعدت عنهم إلىٰ مكان في شـرقيِّ المسجد، أو في شـرقيِّ الدار، أو مكاناً مشرقاً بالشمس. والله أعلم.

﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: جعلت بينها وبينهم حاجزاً، أو تَوارت عنهم بالابتعاد لا عن قَصْد. والله أعلم. ويجوز أن يكون كلُّ ذلك بوحي أو إلهام بأن تتجلّىٰ عن الناس، استعداداً لما ذكره بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ قال ابن عباس وغيره: هو جبريل عليه السلام[1]، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ كاملَ البُنْية، لا ينقص شيئاً من هيئة البشر لتتلقّىٰ كلامه؛ إذ لو بدا لها علىٰ الصُّورة المَلَكية لَفَزِعَتْ منه ولم تستطع مكالمته.

فلمـا لم تَشُكَّ في أنه بَشَر، عَـرَض لها ـ بحسب الطبيعة البشرية ـ ما يعرض للخَفِرات الشريفات من النساء، وهو تسرُّب الخوف إليهنَّ من الرجل، ولا سيما في الخَلَوات، و﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ﴾ أي: أعتَصِمُ وأستجير ﴿ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾، لأنها تعلم أنَّ التقيَّ ذو نُهية وعفاف، وقد ظهر لها منه أمارات التقوىٰ.

فلما رأىٰ ما بها من اضطراب ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ يريد عليه السلام: إني لستُ ممن يُتوقَّع منهم ما توهَّمتِ، فإني لستُ ببشر، ولكني مَلَكٌ رسولٌ من عند الله.

---

(١) ذكره ابن عادل في «تفسير اللباب» (١٢: ٣٧٥).

وقوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ فيه نسبةُ الشيء إلىٰ السبب، ويجوز أن يكون نقلاً وحكايةً لقول الله، ويُؤيِّده القراءة بالياء: (لِيَهَبَ لكِ)[1].

فلمّا سمعت منه هبة الولد لها استعظمت ذلك بمقتضىٰ الطبيعة والإلفة والعادة، و﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾، وأرادت بالأول: النكاح، وبالثاني: الإغلاظ عمّا سمعت من هبة الولد واستبشعت منه، فَطَمْأنها وهدَّأها، ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ أي: الأمر كذلك، ثم علل الأمر تعليلاً إقناعياً بقوله: ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، ثم علَّله تعليلاً غائياً فقال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: علىٰ كمال قدرتنا ومعجزة له، ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ عليهم يهتدون بهديه، ويسترشدون بإرشاده، ﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ أي: تعلَّق به قضاء الله في الأزل.

فاعتقدت بذلك اعتقاداً جازماً تأثَّرت به نفسيَّتها؛ لأن الاعتقاد الجازم يؤثر في

---

(١) إنَّ الواهب لمريمَ هو الله عزّ وجل، وقرأ أبو عمرو وورش: (لِيَهَبَ لك) وبهذه القراءة يتَّضح المراد، وتحمل عليه القراءة الأخرى: (لأهبَ لك) وهي قراءة سائر القراء. وقد ذكر قراءة أبي عمرو الطبريُّ في «تفسيره» (١٨: ١٦٤)، وقال البغدادي في «السبعة في القراءات» ص٤٠٨: وقرأ أبو عمرو ونافع في رواية ورش والحلواني عن قالون (لأهب لك) بغير همز.
وفي معنى إسناد الهبة إلى جبريل أقوال:
الأول: أي: أكون سببًا في هبة الغلام بالنفخ في الروح.
الثاني: أنّ قول جبريل: (لأهب لك) حكاية منه لقول الله تعالى، فيصير المعنى: إني أنا رسول ربك، فقد أرسلني وقال لي: أرسلتُكَ لأَهَبَ غلامًا، أي: أنه أرسلني إليك بهذه الهبة.
الثالث: أضاف الهبة إليه لأنه هو الذي أعلمها بها. أي: لأنه قد يُنسَبُ الفعل إلى الآمر به وإلى مَن يتولى القيام به.
وأرجح هذه الأقوال هو القول الأول، لأنه موافق للقراءة الثانية.

النفس، فجرىٰ فيها تَفاعُلُ التلقيح، فحملت حَمْلاً طبيعياً[1]. وارجع إلىٰ الآية ٤٧ من آل عمران: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

ثم ذكر ما كان من حَمْلها به وولادتها له، فقال: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾﴾ أي: ابتعدت بعد حَمْلها به إلىٰ مكان بعيد، خشيةً وفَـرَقاً من سوء التكلُّم من الأباعد والغُرباء. ولا يَبْعُـدُ أن يكون ذلك الابتعاد عن علم من الأقرباء الذين يعلمون أمرها جيداً. والله أعلم.

ولم تزل كذلك حتىٰ حضرتها الولادة، ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أي: ألجأتها صعوبة الولادة أن تمسك بجذع نخلة هناك، استعانةً بها علىٰ مقاومة المخاض، وهو ألم الولادة، وليس عندها مَنْ تستعين به، إذ لا تريد من يحضر منها ذلك، وفيها من الهواجس المقلقة التي حكاها عنها سبحانه بقوله: ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾﴾، وهذا النعت للمبالغة في الوصف كقولـهم: «ليل أليل»، وهذه موجةٌ من الهواجس البشريَّة مرَّت عليها منشؤها الخوف علىٰ سمعتها من التقوُّلات. ولم يكفَّ هذه الموجة عنها ما تعلمه من عناية الله بها؛ إذ لا بدَّ للطبيعة البشريَّة أن تدفعها إلىٰ الهواجس، وتثير فيها القلق؛ لعلمها أن التقوُّلات لا بدَّ واقعة، رغماً من حصانتها ونزاهتها؛ إذ لا يخفىٰ عليها أنَّ الناس لا يعلمون عن حقيقة الواقع من أمرها، ولا يصدِّقون به إن بيَّنته لهم.

---

(١) حَمْلُ مريم عليها السلام لم يكن بالأسباب الطبيعيّة، فلم يكن بجماع فقد أحصن الله فرجها فلم يَمْسَسها بَشر، ولا بتهيّؤات أو إيحاءات كما يدَّعيه المؤلف غفر الله له، وإنما حملت بنفخ الـمَلَكِ جبريل روحَ الله تعالى، أي: الروحَ التي هي من خَلْق الله تعالى، فحملت بقدرة الله، وكان ذلك دليلًا على طلاقة قدرة الله تعالى حيث خلق شخصًا من أم دون أب، كما خلق آدم من دون أب ولا أم.

وقد هدَّأ سبحانه رَوْعَها بما حكاه بقوله: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ قالوا: إنَّ المنادي جبريل عليه السلام بأمرٍ من الله، وكان في مكانٍ أسفلَ منها، فناداها تطميناً لها وتهويناً عليها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ أي: سيداً عظيماً نبيلاً رفيعَ الشأن جليلاً، وهو عيسىٰ عليه السلام. ويطلق السَّريُّ أيضاً علىٰ جدول الماء كما جاء في «المصباح المنير»[1]، وعليه فيجوز أن يكون المعنىٰ: قد جعل ربُّك قريباً منك جدول ماء، ويحتمل أن تكون عالمةً به، ولكنه أراد بهذا الكلام التطمين لا التبيين، وهذا هو الأنسب بقوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ وهو ما قُطع قبل يبسه، ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: طيبي نفساً وأعرضي عمّا أهمَّكِ وأحزنك، فإنَّ الله قد نزَّه ساحتك، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ﴾ معتذرةً عن ابتعادكِ واعتزالكِ للناس: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾، ويجوز أن يكون هذا إيعازاً لها بالنَّذْر والعُذر معاً.

وهذا القول بالإيماء والإشارة، وكان الصائم في بني إسرائيل إذا أراد أن يجتهد صامَ عن الكلام كما يصومُ عن الطعام. ويجوز أن يُراد مُجرَّد الصمت والصوم عن الكلام، ويُحتمل أنها أُمرت بذلك كراهةَ مجادلة السفهاء.

ويجوز أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ بياناً لحالها أثناء الحَمْل كلِّه، ذكرهُ بعد أن تهيَّأ مكانُه بذكر جَزَعها الشديد، كما تقتضيه البلاغة العالية، وعلىٰ نهج القرآن في أنه لا يُراعي الترتيب الطبيعيَّ في القصص، ولكن يراعي السياق والمناسبات البلاغية.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي

(١) مادة: (سري).

ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من أمرها بعد انقضاء دَوْر العزلة، فقال: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾، فلمّا رأوها كذلك وذكرت قصَّتها ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ أي: فَعَلتِ أمراً منكراً عظيماً يَفْري الجلد، أي: جلد الوجه. أو من الافتراء.

ثم زادوا في تقريعها بقولهم: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾.

وعن المغيرة بن شعبة قال: لـمّا قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرؤون: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾، وموسىٰ قبل عيسىٰ بكذا وكذا. فلمّا قَدِمتُ علىٰ رسول الله ﷺ سألتُه عن ذلك؟ فقال: «إنهم كانوا يُسمُّون بأنبيائهم والصَّالحين فيهم»(١).

وتوضيح ذلك: أنها كانت من أعقاب هارون، وبنو إسرائيل تنتسب لأنبيائها وصُلحائها، اعتزازاً بهم وتشرُّفاً، علىٰ حدِّ قول العرب: يا أخا بني فلان، أو: يا أخا العرب، أو: يا أخا قريش، أو: يَعرُب، بمعنىٰ: يا قريشي.

ويجوز أن يكون القرآن عبَّر بهذه العبارة للعرب عمّا كانوا يعبِّرون عنه في مِثله بلغتهم، علىٰ نهجه في ذلك.

ويجوز أن يكون المراد: أخوة التشبيه، فإنَّه يقال: فلان أخو فلان؛ إذا كان مُشابهاً له في صفةٍ من الصفات أو حالٍ من الأحوال. والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم (٢١٣٥).

وقال ابن عباس: ليس المراد به هارون أخا موسىٰ، وإنما هو أخ لها من أبيها مُسمًّىٰ بهذا الاسم، وكان معروفاً بالصلاح وحُسْن الطريقة[١].

وعلىٰ كلٍّ، فالكلام للمبالغة في الإيلام بالضرب علىٰ وَتَر الكرامة، ليكون أشدَّ وقعاً وأعظم نقداً.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلىٰ عيسىٰ أنِ اسألوه عن هذا السِّرِّ، ويظهر أنَّ ذلك كان منها بوحيٍ أو إلهام، ولكنهم ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾؟! وفي هذا الجواب اكتفاءٌ عن تفصيل مفهوم الإشارة ومدلولها، فقد عُلِمَ منه أنَّ المراد بها: اسألوه ليُجيبكم.

ويجوز أن تكون نطقت بالسؤال، وعبَّر عنه القرآن بالإشارة[٢]، وهذا علىٰ نهج القرآن في الإيجاز والإيضاح بمدة.

فنطق عيسىٰ و﴿قَالَ﴾ مُجيباً لهم: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الإنجيل، وعبَّر بالماضي عن الآتي لتحقُّق الوقوع، أو عمّا سيكون، وكذلك قوله: ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ علىٰ الناس بتعليمي وإرشادي لهم ونفعي إيَّاهم ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾، وإنما خصَّهما بالوصاية إفادةً لعظمتهما، وطلباً لشدة الاهتمام بهما، كيف لا والأُولىٰ هي الصلة بين العبد وربه، والثانية هي

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «تفسيره» (٥: ٢٢٧).

(٢) هذا بعيد، فالإشارة يُعبَّر عنها بالكلام لأنها نيابة عنه، أما الكلام فلا يُعبَّر عنه بالإشارة، أعني: أن المتكلم إذا قال قولاً، وأُريد نَقْلُ الكلام عنه؛ لا يُقال: إنه أشار إلى كذا، ألا ترى أنك تحكي فِعلَ مَنْ يُسلِّم عليك برفع يده من بعيد فتقول: «قال لي: السلام عليكم»، بينما لا تحكي عمن سلَّم عليك بالقول: إنه أشار إليك أو رفع يده بالسلام، والله أعلم.

الصلة بين العبد وأخيه، وهي أمر حيويٌّ اجتماعي، لا يُستغنىٰ عنه في النظام البشري، الذي طَبَع الله سبحانه الحياة الاجتماعية عليه، وهو التفاوت في الأرزاق بالتفاوت في مُعاطاة أسبابها، فإنه يستلزم معاونة المُكْثِر للمُقِل. ويجوز أن يراد بالزكاة: زكاة النفس وصلاحها(١).

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ ومُنزِّهاً لها، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي﴾ في مقام الملوك وصفتهم ﴿جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)﴾، وقد أكرمني بهذه الكرامة، ﴿وَ﴾ هي ﴿السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ أي: أعطاني سبحانه وتعالىٰ السلام والأمان في أدوار الحياة الثلاثة: الحياة الدنيا، وحياة البرزخ، والحياة الأخرىٰ. وذلك كنايةٌ عن زكاة نفسه وصلاح أمره ورِفعةِ شأنه في كلٍّ منها.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦)﴾.

ثم ختم القصة بما فيه زيادةُ تقرير في أنَّ ما ذكره من أمر عيسىٰ هو الحق المبين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: هذه حقيقتُه وهذه قصَّتُه الحقَّة. وأما قوله: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤)﴾ فهو مَصْدَر مؤكِّد لـما قبله، أو مفعول مطلق لقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، أو مصدر نائب عن الفعل، أي: نقول. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ اعتراض قرَّر به مضمون ما قبله.

ثم ردَّ ما يمترون به في عيسىٰ، فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾، إذ لا يحتاج للولد إلا ما كان سريع الفناء، ليقوم الولد مقام الأب، ويبقىٰ النوع موجوداً. ألا

---

(١) وهذا بعيد أيضاً، لأن قَرْنَ الزكاة بالصلاة يدل على إرادة الزكاة المالية التي هي عبادة كالصلاة.

ترىٰ أنَّ الكواكب والشمس والقمر والأرض والجبال وأمثالها لا تحتاج للولد، فكيف بالباقي بلا زوال؟ ولا فَرْقَ في الكفر والافتئات بين أن يقولوا بالولادة الحقيقية، أو الولادة المعنويَّة والانبثاق وتدرُّع اللاهوت بالناسوت، فكلُّه كفر، تعالىٰ الله عمّا يقول الظالمون عُلواً كبيراً. ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، لا يُعجِّل بالعقوبة لهؤلاء الظالمين، ولكن يُؤخِّرهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصار.

ثم ردَّ عليهم استغرابَهم واشتباهَهم من خلقه إيَّاه بدون أب، فقال: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ فلا يُعْجزه شيء، وهناك صُور منوَّعة كثيرة لسنن التَّخليق والإيجاد لا تعلمون منها إلا قليلاً، إذ لا يعلم سرَّ التكوين والإيجاد إلا الله(١).

ثم بعد هذا الاستطراد أكمل الحكاية عنه، حيث ذكر العقيدة الحقَّـة، وهي التوحيد، ودعا إليها، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ لا إله غيره، و﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ يصل سالكه إلىٰ ساحة النَّجاة والسعادة. وقال أبو مسلم: وهذا الكلام معطوف علىٰ قول عيسىٰ عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، وما بينهما اعتراض.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

---

(١) وهناك خَلْقٌ من غير سُنّة أيضاً، ومنه خَلْقُ عيسى عليه السلام، وتشبيه خَلْقِهِ بخلق آدم عليهما السلام ـ كما ورد في الآية ٥٩ من سورة آل عمران ـ يدل عليه، وكذا تعقيبُ القصة هنا بهذه الآية ـ التي تُعلِّل ما يُستَغربُ من خَلْق عيسى بإرجاع الأمر إلى إرداة الله وتكوينه ـ يدل عليه أيضاً.

ثم ندَّد باليهود والنصارىٰ الذين اختلفوا في أمر عيسىٰ وتوعَّدهم، فقال: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي: من بين الذين دَعَاهم عيسىٰ إلىٰ الإيمان بالله وتنزيهه، وقال لهم: إني عبد الله ورسوله إليكم، وإنَّ الله ربِّي وربكم فاعبدوه. اختلف اليهود والنصارىٰ فيه بالتفريط والإفراط، وافترقت فيه فِرَقُ النصارىٰ علىٰ مذاهب، كلها كفر وضلال، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ الهول[1] في الحساب والجزاء.

ثم بيَّن تعالىٰ أنهم حينئذ يبصرون الحقيقة فيندمون، ولاتَ ساعة مَنْدَم، فقال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ حيث أغفلوا الاستماع الصحيح والنظر الحق السليم، فلم يُدركوا الحقائق علىٰ وجهها الصحيح، وقد جاء في آخر سورة النساء: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، أي: كلُّ كتابيّ عندما يحضره الموت ويغيب عن الدنيا، يتحقَّق بأنَّ عيسىٰ عبد الله ورسوله، وليس بولد لله. وهكذا يعلم البشر كله بعد موته: أنَّ القرآن حقٌّ واقع، فيندم غاية الندم، وكذلك المسلم المجرم، ولاتَ ساعة مندم! أعاذنا الله.

ثم زاد في تنبيههم وإيقافهم علىٰ ما سيكون من ندمهم العظيم في ذلك اليوم الرهيب، فقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، ثم بيَّن منشأ تلك الحسْرة فقال: ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: ماتوا ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وانكشف لهم الحقُّ بعد موتهم وانقادوا إليه مُذْعنين، وحينئذ يَتَحسَّرون علىٰ ما فَرَط منهم من الكفر والضلال.

ثم توعَّدهم ضمن ما هو كالتَّتْميم لما قبله، والبيان لاختصاصه سبحانه بصفة

(١) يُريد: عظيمِ الهول، بكسر الميم في «عظيم» من غير تنوين، لكنْ آثرتُ إكمال الآية برسمها في المصحف الشريف.

الألوهيَّة من الأزليَّة والأبديَّة، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾، فنجزي كلَّ عامل بعمله.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

ولـما كان من سُنَّـة القرآن تسليتُه ﷺ والمؤمنين إثْـرَ الكلام علىٰ المعارضين والمخاصمين، سواء كانوا من أهل الكتاب أو المشركين، عاد إلىٰ القصص، وذكر قصَّة إبراهيم ومجادلته مع أبيه وقومه ومخاصمتهم له، إيذاناً بأن هذه هي سُنَّـةُ الكون في الأنبياء مع أقوامهم والعاقبة للمتَّقين، وحضاً له علىٰ الاقتداء بهَدْيهم، وقَـرْناً لقصة إبراهيم بسابقتيها في بيان إكرام المتَّقين بالكرامات الضافية، وتأنيباً للمشركين الذين يزعمون أنهم علىٰ ملَّـة إبراهيم، ذكر ذلك فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في القرآن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: اتلُ علىٰ الناس قصَّته وبلِّغها إيَّاهم لتكون تطميناً للمؤمنين، وتذكيراً للمشركين الذين يدَّعون الانتماء إليه.

وقد فصَّل القصة بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ في جلْب نفع أو دَفْع ضُرّ، ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي

﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بواسطة الوحي ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي: ما لم تعلَمْه، ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ أي: مستقيماً مُوصِلاً إلىٰ أسنىٰ المطالب، مُنْجياً من الضلال والرَّدىٰ والمعاطب.

ثم ثبَّطه عمَّا كان عليه من عبادة الأوثان، إذ صوَّرها بصورة يستنكرها كلُّ عاقل، وبيَّن أنها مع تجرُّدها عن النفع مُسْتجلبة للضرر، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ بطاعتك إيَّاه في عبادة الأوثان؛ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ أي: قريناً له في النار تليه ويليك، أو خَدِيناً له في اللَّعْن والطرد والإقصاء.

أما أبوه فقد قابل إشفاقَه عليه ولطفَه به في هذا الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد، و﴿قَالَ﴾ له: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن مقالك فيها أو الرغبة عنها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، قال أبو مسلم: وأصل الرجم إنما يكون بالحجارة، إلا أنه قد يُقالُ بمعنىٰ الطرد والإبعاد اتِّساعاً، كما هنا. ولذلك قال: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ أي: هَجْراً طويلاً بعيداً فلا تقربني.

﴿قَالَ﴾ له إبراهيم مُودِّعاً ومتاركاً بعد معالجة طويلة وأمل ضئيل: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ ولكنْ ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ من الحفاوة، أي: بليغاً في البِرِّ والإلطاف. وكان هذا منه عليه السلام قبل أن يقطع رجاءه من إيمانه.

ثم قال لهم بعد أن عزم علىٰ فراق قومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ أي: خائباً ضائع السَّعي، يُعَرِّض بشقائهم بدعاء الأصنام. وهذا يقينٌ أُخرِجَ مَخْرَجَ الترجِّي؛ إذ لا يجوز القطع علىٰ الله.

ثم ذكر ما كان له من سعادةٍ بَعْدَ اعتزالهم، فقال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن

﴿دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجَرة إلىٰ الشام، رغبةً في نشر دينه، ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾، وإنما خصَّهما بالذكر؛ لأن زوجته سارة كانت عقيماً لا يُؤمَلُ منها الولادة، فسرَّه ذلك كثيراً، ولأنه كان منهما أنبياء كثيرون، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿وَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ ما وهبنا من النبوة والأولاد والكرامة وعُلُوِّ المنزلة، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ﴾ أي: لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ أي: ثناءً حسناً في الناس. والشيء الصدق: هو المستوفي للكمال.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

ثم تابع الكلام علىٰ التذكير بقصص الأنبياء لنفس الغرض السابق، وذكر قصَّة موسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ أي: اتْلُ عليهم في القرآن نبأ موسىٰ، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ أي: رسولاً رفيع القدر، فهو مفسَّر بقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ مناجياً لنا. وهذه منزلةٌ عُليا، ومقامٌ رفيع. وهذه المناجاة لا تزيد عن أنها عِرفانٌ مع إيقان دون إدراك للكيفيَّة وحقيقة الشأن، كما هو حال جبريل عند تلقِّيه الوحي من الرحيم الرحمن. والله أعلم. وكم من أمور وأشياء ندركها أو نراها ولا نعلم عن كيفيَّة تكوينها وحقيقة ذاتها شيئاً أبداً.

ثم ذكر معاضدته بأخيه، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ يعاضده ويؤازره. وهذه إجابةٌ لدعوته التي ذكرها سبحانه بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٩ - ٣٢]، وكان أسنَّ من موسىٰ.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾.

ثم ذكر إسماعيل عليه السلام، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ﴾ أي: اتلُ عليهم في القرآن نبأ إسماعيل، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ وناهيك أنه وَعَدَ أباه بالصبر علىٰ الذبح بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] ووفَّىٰ بذلك، ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾ أي: رسولاً رفيع القدر. وفي هذا دلالة علىٰ أنَّ الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة جديدة، فإنَّ أولاد إبراهيم عليهم السلام كانوا علىٰ شريعته ويدعون إليها، وهكذا كان إسماعيل عليه السلام.

﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ وتمجيدُه بذلك يدلُّ علىٰ عَظَمة شأن الصَّلاة والزكاة. ويجوز أن يراد بالزكاة: زكاة النفس وطهارتها[1]. والمراد من الأمر بهما: الأمر بأدائهما والتمسُّك بهما علىٰ أكمل الوجوه.

وقد ختم التمجيد بقوله: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ لاتِّصافه بالنعوت الجليلة، وهذه درجةٌ عُليا ووَصْفٌ عظيم. وإنما أفرده بالذكر دون بني إبراهيم؛ لأنه استقلَّ بنشر دينه في العرب لا كإخوته، فإنهم نشروه في قومهم، فذكره علىٰ حِـدَةٍ إيذاناً بذلك وتحسيساً لأولاده العرب. والله أعلم.

ثم ذكر إدريس، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَ﴾ أي: اتلُ عليهم في القرآن نبأ إدريس، وهو سِبطُ شيث، وجدُّ أبي نوح عليهم السلام، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا﴾ أي: ملازماً للصدق في جميع أحواله، وكان ﴿نَّبِيّٗا ٥٦﴾ رفيعَ القدر، ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ الله أعلم بها[2]، ولا يبعد أن يُراد بها الرفيق الأعلىٰ مقرُّ أرواح الأنبياء. وقيل: بل المراد

(١) هذا بعيد، لأن قَرْنَ الزكاة بالصلاة يدلُّ على أن المراد العبادة المالية المعروفة، كما تقدَّم في التعليق قريباً.

(٢) هذا قول بعض المفسرين، وقال أكثرهم: إلى السماء، والله أعلم.

شرف النبوة والزُّلفىٰ عند الله عز وجل. وقيل: بل المراد عُلُـوُّ الرتبة بالذكر الجميل في الدنيا، كما قال تعالىٰ لنبينا ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]. ولا يُعارض هذا أنَّ هذه الأمور جَرَت لسائر الأنبياء؛ لأن الثناء والتمجيد لا يستلزم الاختصاص.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾.

وبعد أن أثنىٰ علىٰ كلِّ واحد ممن تقدَّم ذِكرُه من الأنبياء بما أثنىٰ عليه من الثناء، جمعهم في التَّنويه عنهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾، ثم خصَّ منهم مَنْ كان مع نوح بقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، فهذا الوصف للتحسيس بالنعمة والإشعار بما جرىٰ علىٰ قومه المشركين من الغرق العميم.

ثم خصَّ وَلَدَ إبراهيم وإسرائيل للتنبيه علىٰ أنهم كما فُضِّلوا بأعمالهم، فلهم مزيد الفضل بآبائهم، فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: من ذريَّة إسرائيل، وهم موسىٰ وهارون وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ، وفيه دليل علىٰ أن أولاد البنات من الذرية، وإسرائيل هو: يعقوب عليه السلام.

ثم بيَّن تعالىٰ أنهم ممن هداهم الله واجتباهم، للتنبيه علىٰ أنهم إنما اختُصُّوا بهذه المنزلة لهداية الله لهم واختيارهم للرسالة، فقال: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾، فهذا وَصْفٌ لجميع من تقدَّم، أي: إنهم من جملة مَنْ هديناهم إلىٰ الحق بمحافظتهم علىٰ جِبِلَّتِهم من التحريف والانحراف محافظةً كاملة، واجتبيناهم للنبوة والكرامة.

وبعد أن استوفىٰ البيان عن عُلوِّ شأنهم وسُموِّ رتبتهم، بيَّن إخباتَهم إلىٰ الله وخوفَهم منه، فقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ لكمال عِلمِهم بعَظَمة الله وسلطانه.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾﴾.

وبعد أن ذكر هؤلاء الأنبياء، وذكر لهم من صفات المدح ما استحقُّوا بها أن يقول عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ ...﴾، ترغيباً في التأسِّي بطريقتهم واقتفاء آثارهم؛ ذكر ما كان من أمر أتباعهم بعدهم من الانحراف، وتوعَّدهم عليه؛ تعريضاً وتحذيراً للمشركين الذين عقَّب عليهم بقصص الأنبياء في هذا السياق، فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾[1] أي: شراً، إذ كلُّ شرٍّ في العُرْف العربي: غيّ، وكلُّ خيرٍ رشاد. ويجوز أن يكون المراد: جزاءَ غيِّهم، كقوله تعالىٰ: ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٨]. والخَلْف ـ بسكون اللام ـ: عَـقِبُ الشر، وبفتح اللام: عَقِبُ الخير.

ثم استثنىٰ من ذلك قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾، فسجَّل لهم بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾﴾ أي: لا يُنْقَصُون من جزاء أعمالهم نقيراً.

---

(١) قال أرسطو طاليس: إذا نازعتك نفسُك إلىٰ الشهوات واللذات، فإنها قد نزعت بك إلىٰ شر منزلة وأدناها وأخسِّها وأسقطها، وأرادت غير السنة الطبيعية، فغالِبْها أشدَّ المغالبة، وامتنع منها أشدَّ الامتناع، وليكن مرجعها منك إلىٰ الحق، فإنك متىٰ تترك الحق فلست تتركه إلا إلىٰ باطل، ومهما تترك الصواب فإنما تتركه إلىٰ الخطأ والضلال. (المؤلف).

ثم فصَّل أمْرَ هذه الجنَّة، وسبكه علىٰ التَّنويه بشأنها، وأبدل الأقسام من الأصل العام، فقال: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: وعدها إيَّاهم وهي غائبةٌ عنهم، أو بسبب إيمانهم بالغيب ـ وهو اليوم الآخر ـ والعمل له، أو لأن العلم بالآخرة وأحوالها هو من علم الغيب، لا يعلم عنه الإنسان شيئاً من نفسه لو لم يعلمه الله به. ثم أكد إنجازه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١﴾ لا مَحَالة. وضمير الشأن للتقرير.

ثم تابع التنويه، فذكر بعض خصائص تلك الجنة، فقال: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا﴾ أي: فضول الكلام. وهذه كنايةٌ عن عدم صُدور اللغو عن أهلها. وقوله: ﴿إِلَّا سَلَٰمٗا﴾ استثناء منقطع، أي: لكنْ يسمعون تسليمَ الملائكة عليهم تهنئةً وتأنيساً، وتسليمَ بعضهم علىٰ بعض كذلك، ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢﴾ يريد: تَواصُلَ الرزق ودوامَه.

وذِكرُ البُكْرة والعَشيّ وإيرادُه علىٰ عادة المتنعِّمين في الدنيا؛ استعارةٌ من حال المخاطبين، علىٰ طريقة القرآن في مثل هذا البيان، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة). ويجوز أن يراد سائر الأوقات؛ لأنها محصورة بينهما.

ثم ختم الكلام بما فيه زيادة تَحْسيس وترغيب بهذا الوعد الكريم، وهذه العاقبة الحُسْنىٰ، فقال: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾، فأشار إلىٰ أنَّ التقوىٰ هي التي تُوجبُ إيراثَ تلك الجنَّة العظيمة الشأن، وجماع التقوىٰ: كل ما جاء في ثنايا هذا القرآن.

وأما قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ﴾ فهو من تتمَّة السياق؛ لأنه بيانٌ عن منازل أهل الجنة، ذكره عن لسانهم، علىٰ نهج القرآن في الانتقال من حكاية أمر إلىٰ حكاية أمر آخر متعلِّق به. فقد قال أبو مسلم: إنه من قول أهل الجنة، حكاه سبحانه عنهم تكميلاً

للوصف وتتميماً للبيان. والمعنىٰ: ويقولون: إننا لا نتنزَّل منزلةً من الجنة إلا بأمر ربك حَسْبَما يعلمُه سبحانه فينا من الاستحقاق، فإن ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، وهذه الجملة كنايةٌ عن سَعَة علم الله وسلطانه، وتلميحٌ إلىٰ ما يَصْحَبُ ذلك من دقَّة عَدْلِهِ في جزائه وإكرامه للمحسنين، وتنزيل كل واحد منزلتَه لعلمه بما يستحقُّه ويقتضيه، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ فهو يُحصي الأعمال كلَّها صغيرها وكبيرها لا يُغادِرُ منها شيئاً، ويجزي كلَّ عامل بعمله علىٰ الشـرِّ جزاءً وفاقاً، وعلىٰ الخير الجزاء الأوفىٰ. وتقديرُ القول في القرآن كثيرٌ ومن أساليبه. والله أعلم.

ثم أشفع استحالة النسيان عليه تعالىٰ، بما يتضمَّن عظمته وجلاله والدعوة لعبادته وانتظار كرامته، فقال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فكيف يُتصوَّر أن يحوم حول ساحته غفلة أو نسيان؟! وحين عَرَفْتَهُ غيرَ ناسٍ لأعمال العاملين، ولا غافل عنها، ولا مُهمِلٍ لها، ويُنزِلُ كلاً منهم منزلةً يستحقها ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾؛ لتنالَ جزاءك الأوفىٰ. ثم مكَّن ما تضمنَّه الكلام من عَظَمة الله تعالىٰ، واختصاصه بأفعال الألوهية واستحقاق العبادة بقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ أي: شبيهاً ومثيلاً؟ أو: هل تعلم مَنْ يُسمَّىٰ بربِّ السماوات والأرض سواه؟ أو مَنْ يتصرَّف بهما سواه؟ والمراد من إنكار العلم: إنكارُ المعلوم ونفيُه علىٰ أبلغ الوجوه. فالجملةُ تقريرٌ لـما أفادته الفاء من استلزام ربوبيته العامة لوجوب عبادته، واختصاصه بذلك الاستحقاق.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

ولـما كان هذا السياق يتضمَّن الردَّ علىٰ الشرك، أردفه بالردِّ علىٰ منكري البعث، اتِّباعاً لنهج القرآن في قَرْنِ إثبات التوحيد بإثبات الحشر، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ يُنكِرُ ذلك ويُوَهِّيه، وفيه نسبةُ ما للبعض إلىٰ الجنس، وهو من خصائص اللغة ومن أساليب القرآن.

فردَّ عليه بأوضح بيانٍ وأجلىٰ برهان، فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ يريد خِلْقَةَ آدم. ففي الكلام نسبةُ ما للأصل إلىٰ الفرع، ووجه الاستدلال: أن الإنسان خُلق أولاً من غير شيء، فلأَنْ يُخلَقَ ثانياً من نواة حياته ويُعادَ إلىٰ ما كان عليه؛ أقربُ وأهونُ من خَلْقِهِ ابتداء، ولله الـمَثَلُ الأعلىٰ.

ثم أشفع الاستدلال بالتقرير المصدَّر بالقسم، وضمَّنه الإيماء إلىٰ ما سينالهم من جرَّاء ذلك الإنكار، فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ الذين أغوَوْهُم علىٰ إنكار الحشر، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾، ويُقالُ لهم: هذا ما كنتُم به تكذِّبون. وهذا تصويرٌ لذلـهم وخنوعهم، أكمله بقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ أي: لنأخذنَّ بعنف من كل أمةٍ شايعت ديناً من الأديان مَنْ كان أعصىٰ وأعتىٰ، فنطرحهم فيها. ثم أتىٰ بما هو كالتعليل لمضمون الجملة، فقال: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ هُم أحقُّ من غيرهم بالصِّليِّ بالنار.

ويجوز أن تتَّحد هاتان الجملتان في الـماصدَقَ وتختلفا في الوصف والمفهوم، فتكون الثانية للمبالغة في التهديد. ويجوز أن يُراد بالثانية: الرؤساءُ الـمُضِلُّون من بين أولئك الذين هم أشدُّ علىٰ الرحمن عتياً، فيكون المراد: أنه تعالىٰ يزيدهم شقاء.

وبعد ما ذكر الذين هم أَولىٰ بها صِلياً، ذكر حُكمَ مَنْ عَـدَاهم مـمَّن يتـفاوت

استحقاقهم، فقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾[(١)]، هذا رأيُ بعض المفسِّرين في الآية حيث يجعلون الخطاب عاماً، والورود بمعنىٰ الدخول. وهو قول ابن عباس[(٢)] وجابر[(٣)].

أقول: وذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالىٰ يقول في حكمه الأساسي العام: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ويقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]، فمن الذي لا يعمل مثقال ذرة شراً؟ ولكن هذا الورود تتفاوت درجاتُه بتفاوت مقدار عمل ذلك الشر الذي تتكيَّف به الروح كيفيَّة سيئة، وبنسبة تلك الكيفيَّة قوةً وضعفاً. والله أعلم.

وبعبارة أخرىٰ: إنَّ للجنَّة مستوى خاصاً من الكمال، مَنْ فَقَدَه لم يكن لها أهلاً، فمَنْ بقي في نفسه أثارةٌ من شرٍّ أدركه الموت وهو لم يتطهَّر منه، انتظرته جهنَّم لتكمل له ما نقصه، وتُعوِّض ما فاته، وتُزيل عنه ما تدرَّن به من أوْضَار، حتىٰ إذا هُذِّب ونُقِّي أُذِنَ له في دخول الجنة. والله أعلم. هذا رأيٌ أراه، والعلم عند الله[(٤)].

---

(١) قال النووي في «شرح مسلم» (١٦: ٥٨): إنّ المراد في الآية: المرور علىٰ الصراط. وقد قيل في حكمة المرور علىٰ الصراط: أنه ليَظهر للمؤمن فَضْلُ الله عليه بالنجاة من النار، وتصير الجنة بعد ذلك أسرَّ لقلوبهم، وليتحسَّر الكافرون من فوز المؤمنين بعد اشتراكهم في الورود. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨: ٢٣٠).

(٣) رواه أحمد (١٤٥٢٠) عن جابر مرفوعاً، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧: ١٥٠): رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٤) تكيُّف الروح بعمل الخير أو الشر، واستعدادها ـ تبعاً لذلك ـ لدخول الجنة أو النار: مسألة كرَّرها المؤلف رحمه الله في مواضع من هذا التفسير، وتقدم التعليق عليها بما يتضمن عدم تسليمها، ولو كانت الحالُ على هذا فكيف تنالُ الشفاعة بعضَ مستحقي العذاب، فيدخلون =

وقال ابن مسعود والحسن وقتادة: إنَّ الورود هو الوصول إليها والإشراف عليها. واختار هذا أبو مسلم[1]. واستدل القائلون بهذا الرأي بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣]، واستأنسوا بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨]، فكأنما هناك يكون الحساب، ثم يُلقىٰ الكافرون في النار، ويُنجِّي الله المؤمنين.

وقال بعض المفسِّرين: المراد بالخطاب: مَنْ تقدَّم ذِكرُه من الكفار المنكرين للحشر من أفراد الإنسان والمعبَّر عنهم بلفظ العموم، فكنَّىٰ أولاً عنهم كناية الغيبة، ثم خاطبهم خطاب المشافهة. وليس الخطاب عاماً لسائر المؤمنين والكافرين، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

أما قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾؛ فيكون علىٰ الرأي الأول بمعناه الحقيقي الظاهر، وعلىٰ الرأي الثاني والثالث بمعنىٰ أنَّ التَّنجية لا تستلزم الدخول، إذ يقال: نَجَّاه الله من البلاء، بمعنىٰ: حفظه منه وعافاه.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

ولـما كان المشركون ـ عند سماع الآيات الواضحات في دَحْضِ باطلهم وبيان

= الجنة، وأرواحهم غير متكيفة للجنة على رأي المؤلف؟! إلى غير ذلك من إشكالات كثيرة في هذا الرأي.

(١) ذكره الزمخشري في «تفسيره» (٣: ٣٦).

ضلالهم - يعمدون إلىٰ التَّبجُّح والافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا، مستدلِّين بذلك علىٰ أنَّ طريقتهم أرضىٰ عند الله، ولذلك أعطاهم خيراً مما أعطىٰ أولئك، ذكر لهم هذا التَّبجُّح وقَرَنه بالردِّ، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ في دَحْض باطلهم ودعوتهم إلىٰ الإيمان ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ أي: نادياً ومُجتمعاً، يتبجَّحون بما لهم من الحظوظ في الدنيا ومراكزها، ويستدلُّون بذلك علىٰ أنهم هم المقبولون عند الله، ولذلك أنعم عليهم بما أنعم.

فردَّ عليهم هذا الرأي السخيف بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ والأثاث: المتاع، والرئيا: المنظر والـهيئة. ووجه الرد: أنه لو كان الأمر كما يقولون لما أهلكنا أولئك الأقوام الذين هم أكثرُ منهم أموالاً وأحسَنُ هيئةً، كعاد وثمود وآل فرعون ومَنْ لفَّ لفَّهم، أهلكناهم مع عِظَمِ حظوظهم في الدنيا.

ثم أمر نبيَّه أن يُبيِّن لهم أنَّ الأمر علىٰ عكس ما يتصوَّرون، فقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ بحُسْن الحال وكـثرة الـمال. وهذا علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]. وإخراج الفعل بصيغة الأمر للإيذان بأنَّ ذلك مما ينبغي أن يُفعل، بموجب الحكمة البالغة، كما قال ﷺ: «أولئك قومٌ عُجِّلَتْ لهم طيِّباتُهم في حياتهم الدنيا»(١).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ به؛ ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا، ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ والحساب في الآخرة، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئـذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾، وقد

(١) جزء من حديث طويل متفق عليه، رواه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩)، عن ابن عباس.

عارض بهذه الجملة قولهم: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾، وسبكها على التهديد والوعيد.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ ذلك يزيد المؤمنين هدايةً، فقال: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ إذ يُدرِكون أنَّ هذه الحظوظ لو كانت خيراً لَـمَا أعطاها الله الكافرين.

ثم بيَّن أنَّ الله تعالىٰ قد أعدَّ للمؤمنين في الآخرة ما يَضْؤُلُ حظُّ الدنيا في جانبه جداً، فقال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي: الأعمال الصالحة التي تكون ذُخْراً في الآخرة هي ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ أي: مرجعاً ومآلاً، لا مظاهر هذه الحياة الفانية، فكلُّ نعيم دون الجنة حقير، وكلُّ بلاء دون النار عافية.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

وبعد أن ذكر شبهتهم في البعث، وقَرَنها بالرد والوعيد، وذكر شبهتهم في أنَّ امتيازهم بحظوظ الدنيا دليل علىٰ رضاء الله عنهم، ونقضها عليهم وتوعَّدهم؛ ذكر لهم شنيعة أخرىٰ مكوَّنة من الأمرين معاً وشنَّع عليهم فيها، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ﴾ في الآخرة ﴿مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ أي: كما أوتيتُ حظوظاً في الدنيا سأُوتىٰ حظوظاً في الآخرة. ويجوز أن يقول ذلك استهزاءً وطعناً بالبعث والحساب.

فردَّ عليه سبحانه، وقابل الاستهزاء بالاستهزاء، فقال: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ فعلم ذلك، ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ بذلك؟ لأنه لا يُتوصَّلُ إلىٰ مثل هذا العلم إلا بأحد هذين الطريقتين.

ثم أشفع الردَّ بالردع والوعيد، فقال: ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾، وهذا وعيد رهيب، أعاذنا الله. أي: نطيل له العذاب ونضاعفه، جزاءَ مقالته هذه، ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ بموته ﴿مَا يَقُولُ﴾ أي: نسلب عنه ما يقول، وهو ما أُوتيه في الدنيا من المال والولد. أي: نَنْزع عنه ما آتيناه ونورث ماله لغيره، ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ لا يَصْحبه مالٌ ولا وَلَدٌ كان له في الدنيا. وفيه مقابلةٌ لمقاله مطويّةٌ علىٰ التوعُّد والتهديد. وقيل: إنها نزلت في العاص بن وائل.

وعلىٰ وتيرة مضمون هذا السياق ـ وهو الحصول علىٰ عكس المأمول ـ بيَّن أنه سينقلب عليهم ما يعتقدونه في شركائهم من أنهم سيقرِّبونهم إلىٰ الله زُلفىٰ، وساوق به السياق، فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ لزعمهم أنهم يشفعون لهم في الآخرة.

﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: ستجحد هذه الآلهةُ يوم القيامة عبادتَهم لها، وتقول لهم: إنما عبدتُم أهواءكم، فيكون ذلك أعظم لحسرتهم. أو المعنىٰ: أنَّ هؤلاء المشركين ينكرون يوم القيامة عبادةَ الأصنام. فتكون الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ إذ يكونون سبباً لشقائهم الأليم، أو يكون هؤلاء المشركون حانقين علىٰ هذه الآلهة التي كانوا يعبدونها.

ثم بيَّن أن أسباب كل ذلك هو إغواء الشياطين لهم؛ لأنهم يجدون فيهم مأوىٰ

خِصْباً وملعباً رَحْباً، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ أي: تُغْريهم علىٰ المعاصي بالتَّسويل، وذلك حسب سُنة الله العامة في أخلاق البشر وطباعهم، وهي أنَّ مَنْ يرسخ منهم علىٰ الضلال يميل كلَّ الميل إلىٰ وساوس الشياطين وتسويلهم، كالجراثيم لا تتكاثر ولا تفتك إلا في النواحي الفاسدة من الجسم.

ثم نزَّل ضيقَ صدره ﷺ من كفرهم وسُوء أعمالهم منزلةَ مَنْ يطلب الاستعجال في إهلاكهم، وسَبَك ذلك علىٰ التهديد لهم، فقال: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾، وهذا أيضاً وعيدٌ رهيب، أعاذنا الله. أي: إن لإهلاكهم أجلاً معيناً بمقتضىٰ الحكمة لا ريب فيه، لا يتقدَّم ولا يتأخر.

وقيل: بل الكلام علىٰ الكناية عن توعُّدهم بشدَّة تعذيبهم عندما يلاقون ربَّهم، مأخوذ من حال المخاطَبين إذا اشتدَّ حنق أحدهم علىٰ عدو، وكان بانتظار وصوله إليه مخفوراً، فهو يعدُّ الساعات لوصوله حتىٰ يبطش به أشدَّ البطش والتنكيل. والله أعلم. والاقتباس من حال المخاطَبين هو من أساليب القرآن ـ (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة) ـ تقريباً للأذهان.

ثم ذكر مصير المؤمنين والكافرين في ذلك اليوم، زيادةً في التنبيه، فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: وافدين عليه. وهذا واردٌ علىٰ عادة المخاطَبين من وفادة الوفود الـمُكْرَمين علىٰ الملوك، ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ كما تُساقُ البهائم إلىٰ ورود الماء. وقال أبو مسلم: الورد: النصيب، أي: هم نصيب جهنم من الفريقين، والمؤمنون نصيب الجنة.

ثم قطع رجاءهم الذي كانوا يرجونـه من الشـفعاء والوسطاء، فقال: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: لا شفاعة لـهم من أحد هنـاك، ولا ينجو ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ أي: بإيمانه وعمله الصالح، فهو الناجي حَسْبَما وعد الله سبحانه. وهذا الاستثناء منقطع أو محمول على المعنى، على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]، أي: لا ينجو إلا مَنْ رحم.

﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

ثم شنَّع على الذين يُثبتون الوَلَدَ وأنكر عليهم أشدَّ الإنكار، فقال: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾، فردَّ عليهم ملتفتاً إلى الخطاب لتوجيه شدَّة السخط والغضب إليهم، فقال: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ أي: منكراً عظيماً، ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾، وهذا أعظم وَصْف في التهويل والتفظيع.

ثم فسَّر ذلك الإدَّ الفظيعَ الذي تنهار منه السماوات بقوله: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾.

ثم ردَّ عليهم بأبلغ النفي، فقال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾(١)، لأنَّ التوالد لبقاء النوع، حتى إنَّ المخلوقات الخالدة كالأرض والجبال والقمر والكواكب وأشباهها لا تَتَوالد؛ لعدم حاجتها للتوالد، فكيف ينبغي للرحمن أن يتَّخذ ولداً، وهو الواحد الباقي بلا زوال؟! كلا، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ فهو مملوكٌ له، يخضع إليه بالعبودية والانقياد، مهما عَظُم شأنه وامتاز

(١) كلمة: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى﴾ إذا جاءت في القرآن دلَّتْ على غاية الامتناع. (المؤلف).

بالمميِّزات السَّنيَّة. فنسبتُه إلىٰ الله نسبةُ المملوك لمالكه، والمخلوق لخالقه، لا يتجاوز ذلك، فأنىٰ له[١] أن يكون ولداً بالمعنىٰ الحقيقي أو الانبثاق؟!

ثم مكَّن هذا المعنىٰ، فقال: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ أي: كلُّهم تحت أمره وتدبيره وقهره، لا يَفْلِتُ منهم أحدٌ ولا يغيب.

ثم ذكر انقيادهم وضعفهم تجاه عَظَمة الله، فقال: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ أي: منفرداً من الأتباع والأنصار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

وبعد أن فصَّل قبائح الكَفَرة ومصيرَهُم، قابله بمُجْمَل من مصير المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ قال أبو مسلم: أي: يَهَبُ لهم ما يُحِبُّون، وقال الجمهور: إنه تعالىٰ سيجعل لهم في القلوب مودَّة.

وقد جاء عن النبيِّ ﷺ: «إذا أحبَّ الله عبداً يقول لجبريل: أحببتُ فلاناً فأَحِبَّه. ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ الله قد أحبَّ فلاناً فأَحِبُّوه، فيُحبُّه أهل السماء. ثم تُوضَعُ له المحبة في الأرض»[٢]. اللهم اجعلني منهم يا أرحم الراحمين.

ثم ختم السورة بما يفيد عِظَم شأنها؛ لـما فيها من إثبات التوحيد والنبوَّة والحشر والنشر والرد علىٰ فِرَقِ المضلِّين المبطلين، فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ بأن أنزلناه

(١) أي: للمملوك والمخلوق.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧)، عن أبي هريرة.

بلغتك ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧﴾ جمع: ألدّ، أي: أشداء ألداء في الخصومة والكفر لجاجاً وعناداً.

ثم توعّدهم بالتنبيه إلىٰ ما جَرَىٰ علىٰ أمثالهم من الأمم الغابرة من إهلاكهم، وضمَّن الكلام تهويناً عليه ﷺ مما يناله من شرِّهم، وتسليةً له، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ كانوا علىٰ وتيرتهم كعادٍ وثمود وغيرهم. ثم هوَّل ذلك الإهلاك وأوْغَل فيه، بقوله: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨﴾ أي: صوتاً خفياً ولو ضئيلاً. يقول ذلك مبالغةً في إفنائهم عن آخرهم، واستئصالهم بالعذاب، بحيث لا يُرىٰ منهم أحد، ولا يُسمَعُ لهم صوت. أعاذنا الله من غضب الله، اللهمَّ أرشدنا بهُداك يا أرحمَ الراحمين.

* * *

سُورَةُ طه

مكية، وهي مئة وخمس وثلاثون آية

وفي هذه السورة تسليةُ النبي ﷺ، وحَمْلُه علىٰ التأسِّي بما جرىٰ علىٰ موسىٰ مع فرعون.

ثم ذكر له أمر آدم مع الشيطان؛ لبيان استعداد الإنسان للغواية، حتىٰ يُعارض الحق ويعاديه، أو يغفل عنه فلا يأتيه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

﴿طه ﴿١﴾﴾ وقد مرَّ الكلام علىٰ الحروف التي تُبتَدأُ بها بعضُ السور، في أول سورة البقرة، وكان من أصحِّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارته إلىٰ مندرجات السورة، اهتماماً بها.

وبعد الافتتاح بهذين الحرفين للحثِّ علىٰ الانتباه، خاطب النبيَّ ﷺ، فقال: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾ أي: لتتألم كثيراً وتتأثَّر بفَرْط تأسُّفك علىٰ كفر قريش وإعراضهم عن الإيمان به.

ففيه تسليةٌ له ﷺ عن ذلك، وتهوينٌ عليه في ظرفٍ من ظروف اشتداد حزنه وغمِّه من جرَّاء ذلك. وفي صورة التعبير أيضاً إيماءٌ إلىٰ أن تكاليف هذا القرآن كلها سعادة وخير للبشر في الدنيا والأخرىٰ.

ومحصَّل الكلام: إنَّ واجبك محصور بتبليغه، إذ ما أنزلناه ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ يُذكِّرهم أمر العاقبة، ويهديهم للحُسْنىٰ، ويُرشدهم لما تقتضيه سعادة البشر في الدارين. فكلُّه مقاصد نبيلة، وحِكَمٌ جليلة، ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ

ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾[١] رفع سَمْكَها، وأتقن خلقها، وأحكم صُنعها، ودبَّر أمرها، أحكم إتقان، وأتقن تدبير. فكيف لا يكون ما يُنزلُه علىٰ البشر من الهداية بهذه المثابة وأعلىٰ؟! لأنَّ ذلك من صنع الله، وهذا كلام الله، فلا شك أنه أعظم من الكون وأجلىٰ.

ثم تابع الوصف بما يدلُّ علىٰ الاستيلاء والتدبير، مبالغةً في التنويه بشأن هذا الـمُنزَل من عنده، وحَمْلاً علىٰ التمسُّك به، وتمنُّناً بأنَّ ذلك من رحمته بالناس، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾[٢]، وفي هذا كنايةٌ عن الاستيلاء والتدبير لهذا الكون،

---

(١) قد جعل سبحانه ارتفاع الأجرام السماوية وابتعادها عن بعضها بصورة لا يتصوَّرها العقل، وهذا هو السبب في رؤية النجوم ساكنة ثابتة بالنسبة لبعضها رغماً عن سرعة حركتها الهائلة. (المؤلف).

(٢) مذهب السلف: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسَه، وسمَّىٰ بها ذاتَه في كتابه وتنزيله، أو علىٰ لسان رسوله من غير زيادة عليها، ولا نقصان منها، ولا تجاوز لها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، ولا سمات المُحْدَثين، ولا تفسير لها، ولا تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أمَرُّوها كما جاءت، وردُّوا علمها إلىٰ قائلها، وفوَّضوا معناها إلىٰ المتكلِّم بها، وهو الله سبحانه وتعالىٰ. ومن ذلك: ما جاء عنه تعالىٰ من المجيء، والنزول، واليد، والوجه، والاستواء علىٰ العرش، إلىٰ أمثال ذلك. فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثبات الصفات وإجراؤها علىٰ ظاهرها، ونفي الكيفية عنها؛ لأنَّ الكلام في الصفات فَرْعٌ عن الكلام في الذات، وإثبات الذات إثباتُ وجودٍ لا إثباتُ كيفية، فكذلك إثبات الصفات، إذ ليس كمثله شيء.

أما مذهب الخلف في ذلك: فالحَمْل علىٰ المعاني المجازية والمفاهيم الكنائية.

جاء في الصحيفة ٨٢٨ من المجلد السابع عشر من مجلة «المنار» في فتوىٰ الشوكاني عن معاني الصفات ومعنىٰ الاستواء علىٰ العرش: أن بعض أهل التأويل قالوا: إن الآية كناية عن الملك والسلطان. فعلق علىٰ ذلك صاحب «المنار» بقوله: هذا قول لا ينافي إمرار اللفظ علىٰ ظاهره، والتَّسليم باستواء يليق بالله سبحانه، ويفوِّض إليه عِلمُ كنهه، كما ذهب إليه السلف؛ لأن الكناية لا تنافي الحقيقة، كما ينافيها المجاز عند الجمهور المانعين من جمعه معها.

فذِكرُ الاستواء علىٰ العرش في القرآن في سياق خلق السماوات والأرض يفيد معنىٰ القيام =

والسيطرة عليه، علىٰ عادة المخاطَبين ونظامهم في أحوال سلطانهم؛ لأنه سبحانه يخاطب الناس في تعريف ذاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم.

وقال ابن الجوزي[1]: إنَّ مثل هذه العبارة إنما يُعبِّر بها القرآنُ تقريراً لوجوده تعالىٰ، وتصويراً له ولسلطانه في الأذهان، بمثالٍ يتناسب مع تصوُّرات الإنسان، إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وإنما جعل «الرحمنَ» عنواناً في هذا الاستيلاء للإيماء إلىٰ كثرة رحمته فيه، ومنها إنزال هذا القرآن.

ثم قرَّر ذلك السلطان بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ أي: ما في جوف الأرض. ذكره تأكيداً لاستيعاب الأرض وما فيها. والله أعلم. وقد شملت هذه الآية كلَّ ما في هذا الكون، علىٰ عَظَمته وكثرة موجوداته، وذلك من معجزات إيجاز القرآن وإتقانه للبيان.

= بأمر الملك وتدبيره، وقد صرَّح به في سورة يونس فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]. وهذا المعنىٰ هو الذي يتبادر إلىٰ فهم كلِّ عربي قحّ، ومن كلمة: فلان علىٰ عرش الروم أو الفرس مثلاً، فهو لا يفكر عند سماع الكلمة في كيفية الكرسي الخاص بملك تلك البلاد، ولا في كيفية جلوس الملك عليه، وإنما يفكِّر في المراد من هذا التعبير، ولو أنَّ خادماً من خدَّام القصر جَلَس علىٰ العرش عند تنظيفه وترتيبه لا يقال: إنه استوىٰ علىٰ العرش.

فإذا قلنا: إنه ينبغي لنا في تدبُّر آيات الاستواء علىٰ العرش أن نفكِّر في لازم الاستواء، وهو الانفراد بالملك والسلطان والتدبير، لم نكن بذلك متأوِّلين للآيات، ولا خارجين عن مذهب السلف في إمرارها كما جاءت، من غير أن نجيز لأنفسنا البحث عن كيفية ذلك الاستواء من حيث معناه الحقيقي. (المؤلف).

(١) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) علّامة عصره في التاريخ والحديث كثير التصانيف؛ منها: «روح الأرواح»، و«المدهش»، و«الأذكياء وأخبارهم». «الأعلام» (٣: ٣١٦-٣١٧).

ثم أتبع البيان عن سلطان وعَظَمةِ استيلائه بما يُتمِّمه، وهو دقَّة علمه، وضمَّن الكلام تسليتَه وتأييدَه ﷺ، فقال: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ أي: إنه سبحانه يعلم حالك ومقالك تجاه المعارضين، وسينصرك عليهم، ولا تخفىٰ عليه من أمرك خافيةٌ جهرتَ بها أو لم تجهر وأخفيتَها في ضميرك. وفيه إرشاد إلىٰ كيفيَّة دعائه ومناجاته تعالىٰ، فالآية تُرشدنا إلىٰ التزام الإخفاء في ذلك، إلا إذا دعت مصلحة للجهر والإبداء.

وقال الرازي: لـما شـرح سبحانه ملكه بقوله: ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾، والـمُلكُ لا ينتظم إلا بالقدرة والعلم، عقَّب الكلام بقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ...﴾ لبيان قدرته البالغة، وبقوله: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ...﴾ لبيان علمه الدقيق، ثم ذكر ما هو كالنتيجة لتلك الـمقدِّمات، وهو اختصاصه سبحانه بالألوهية، وقرنه بإجمال صفاته الفُضْلىٰ العَلِيَّة، فقال: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ أي: الصفاتُ العُليا التي هي المصدر لكلِّ ما في هذا الكون من آثار. فتنزيل القرآن ممَّن هذه صفاته، يدلُّ علىٰ مكانة هذا المنزَّل؛ لأنه إرشادُ مَنْ هذا تدبيرُه وعلمُه وصنيعُه.

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾.

ثم قفَّىٰ علىٰ ما تضمَّنه السِّياق بقصَّة موسىٰ؛ تقريراً لأمر التوحيد الذي انتهىٰ إليه مساق الحديث؛ لأنها تبيِّن أنَّ التوحيد أول دعوة الأنبياء، وتشجيعاً له ﷺ علىٰ تحمُّل

الشدائد في سبيل الدعوة إلىٰ الله؛ لأنها تتضمَّن أنَّ الأنبياء هم في عناية الله وكرامته، فقال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، وقد عبَّر بالإيناس عن الإبصار؛ لأنه أنس برؤيتها كما يدلُّ عليه قوله: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ أي: مَنْ يهدينا إلىٰ الطريق. و(أو) لمنع الـخُلُوّ دون منع الجَمْع، أي: لا يخلو ذهابي إليها من أحد الأمرَيْن، وقد يحصلان معاً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنهم ضلُّوا الطريق، وكانوا شاتين مقرورين، فقال: إن لم أجد عليها مَنْ يهدي إلىٰ الطريق[1]. فلا أقلَّ من أن آتيكم منها بنار توقدون.

ولم يَدْرِ أنَّ عليها هدىٰ غيرَ الذي يريد من هُدىٰ الطريق، وهو هُدىٰ الوحي واختياره للرسالة، المفهوم من قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١﴾، فهذا هو نداء الوحي، وقد تيقَّنه موسىٰ عليه السلام، وإن لم يعلم كُنهَه وكيفيّته ـ والله أعلم ـ؛ إذ الوحي عِرفانٌ مع إيقان دون إدراك لحقيقة الشأن. وهكذا يتلقَّاه جبريل أيضاً من الرحيم الرحمن، والله أعلم.

وكلامه سبحانه مجهول الكيفيَّة[2] كسائر صفات الله العليَّة، إذ ليس كمثله شيء. والتصديق بالشيء لا يتوقَّف علىٰ معرفة كُنهه وكيفيته، فإن أكثر ما نُصدِّق به تصديقَ يقين لا نعرف حقيقتَه ولا كُنهَه ولا كيفيَّة تكوينه وإيجاده. فالكهرباء نستخدمه ولا نعلم حقيقته، والنوم يجري فينا ولا نعلم كيفيته، وأمثاله كثيرة. فعملية التذكُّر والإدراك نفسها ليس أحد يعرف كيف تتمُّ له، وكيف يخطر الشيء بباله بعد أن لم يكن، فهو لا يعلم هذه الحقيقة الثابتة.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٨٧٤).

(٢) الصواب: أن كلامه سبحانه وتعالى ـ وكذا ذاتُه وسائر صفاته ـ لا تُكيَّف، أي: لا كيفية لها، لا أنها مجهولة الكيفية، وهذا معنى قول السلف: بلا كيف، وقولهم: بلا تكييف.

ومن المعلوم أنَّ الأنبياء من أكمل البشر، مُزوَّدون بالقدرة علىٰ استلهام المعلومات بطريقةٍ فوق نطاق الحواس المعتاد، يجري فيهم ذلك ولا يعلمون كيفيته، فيعرفون الوحي والإلهام، عرفاناً مع إيقان دون إدراك لحقيقة الشأن، إلا إذا كان بواسطة الـمَلَك، فذلك معلوم لديهم، كما كان يجري بين محمد ﷺ وجبريل عليه السلام، فيسمع مثل صَلْصَلَة الجرس، فينفصم عنه ويعي ما يقول[1].

وهكذا تيقَّن موسىٰ عليه السلام أنَّ هذا النداء والطلب من الله تعالىٰ، ولكنه إشعار علىٰ وجه لا يعرفه. ومفهومه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ تواضعاً وأدباً واحتراماً للوادي المقدَّس بعقد إرسالك، حيث تُختار رسولاً، كما يُفهَمُ من التعليل بقوله: ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ أي: للرسالة ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣﴾ إليك، وهو: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤﴾، وقد أفادت هذه الآية: أنَّ الصلاة إنما هي لتذكُّر الله وإشعار النفس بهذا الشعور؛ لتنمو في طاعة الله، ولذلك خُصَّت بالذكر بعد الأمر بالعبادة التي تشملها وغيرَها.

وبعد أن ذكر الأصل الأول من الدين ـ وهو التوحيد ـ والأصلَ الثاني ـ وهو العبادة ـ ذكر الأصل الثالث ـ وهو: الحشر والحساب ـ وسبكه علىٰ التعليل لما قبله فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾، وهذه الجملة تُنبئُ عن شدَّة خفاء أمر الساعة؛ لأنها لا تكون إلا بَغْتة. وقيل: ﴿أُخۡفِيهَا﴾، بمعنىٰ: أُظهِرُها، مِنْ: أخفىٰ الشيءَ؛ إذا أزال خفاءه؛ لأنَّ كلمتي: أسرَّ الشيء وأخفاه، تأتيان للضد أيضاً، أي: تأتي كلٌّ منهما بمعنىٰ: أخفىٰ، وبمعنىٰ: أزال الخفاء.

---

(١) يشير إلي الحديث المتفق عليه؛ رواه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣)، عن عائشة: أن الحارث ابن هشام سأل النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، ثم يفصم عني وقد وعيته، وأحياناً ملك في مثل صورة الرجل فأعي ما يقول».

ثم ذكر عاقبة أمر الساعة بصورة التعليل الغائي لقيام الساعة، فقال: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

ثم ختم الكلام بعبارة تدلُّ بطريقة التعريض علىٰ التوعُّد لمن يكفر بها، فقال: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي: فتهلك. والآيةُ خطابٌ للأمة في شخص النبي ﷺ من باب خطاب العين مراداً به الغير. مثل قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، أو هو من باب شدَّة البيان والمبالغة في تقريره؛ للحَمْل علىٰ الإيمان باليوم الآخر والعمل له، علىٰ نهج القرآن في أساليبه.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم انتقل من بيان الإيحاء إليه بأصول الدين إلىٰ بيان إكرامه بالمعجزة، فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾، وهذا الاستفهام تمهيدٌ لما بعده، يتضمَّن تنبيهاً وإيقاظاً لما سَيُريه فيها من العجائب المُخالفة لطبيعتها التي هي عليها، والتي يعلمها منها عليه السلام، ممَّا عدَّده لها حيث ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾، وكأنه عليه السلام فهم أنَّ المقصود من السؤال استقصاءُ أهمِّ مآربه بها، حتىٰ إذا بَدَت منها خواص عجيبة غير الحقيقة التي يعلمها منها، عَلِمَ أنها آيات باهرة أحدثها الله تعالىٰ فيها، فبيَّن أنها من العِصِيِّ المعتادة، ومنافعه بها منافع العِصِيِّ لا غير.

وبعد هذه المقدِّمة والتمهيد ﴿قَالَ﴾ تعالىٰ: ﴿أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ لترىٰ من شأنها ما لم يخطر ببالك، ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي: بعد أن تأخذها، أو من أول ما تضع يدك عليها. والله أعلم.

وبعد انتهاء هذه المعجزة أظهر له المعجزة الثانية المتمِّمة لها، فقال: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أي: جَنْبك تحت العضد، ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ بها، فتكون لك ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ دالةً علىٰ نبوتك، و﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ أي: الدالة علىٰ عظيم القدرة.

وبعد إعطائه الآيات أرسله، فقال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي: بهذه الآيات الكبرىٰ، وادْعُهُ إلىٰ عبادتي، وأنذِرْهُ عاقبةَ أمره، ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: جاوز الحدَّ في العُتوِّ والتجبُّر.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾.

أما موسىٰ عليه السلام فقد استعان علىٰ ذلك بربِّه لـما علم عِظَـمَ المهمَّة التي أُنيطت به، وطلب منه سبحانه أن يُهيِّئه لها و﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾، وشرحُ الصَّدر كنايةٌ عن الأناة والحِلم والثبات تجاه ما سيلقاه من الأمور المزعجة.

ثم طلب منه أن يُسهِّل عليه هذا الأمر الذي هو أجلُّ الأمور وأعظمُها، وأصعبُ الخطوب وأصلبها، فقال: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦﴾، وذلك بتوفيق الأسباب ورفع الموانع.

ثم طلب منه تعالىٰ أن يجعله بليغاً في كلامه، قوياً في حُجَّته وبرهانه، مؤثِّراً في إقناعه، فقال: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾ وهذه الخاصَّة أحوَجُ ما يحتاج إليه القائم بأمر الانقلاب الإصلاحي، سيَّما الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولذلك قال ﷺ: «أُوتيتُ جوامعَ الكَلِم»[1]، وقال: «أنا أفصَحُ مَنْ نطق بالضاد»[2]، وكان ﷺ من الفصاحة والبلاغة ووضوح البيان وقوَّة البرهان في المقام الأعلىٰ.

ثم طلب موسىٰ عليه السلام مؤازرتَه ومناصرتَه بأخيه، فقال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١﴾ أي: قَوِّ به ظهري وأعنِّي به، ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ أي: اجعله شريكي في أمر الرسالة، وكان أكبر منه سناً.

ثم أقام مقام العِلَّة لتلك المطالب المؤدِّية إلىٰ نجاح المهمة، بيانَ الغاية من الرسالة، فقال: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤﴾، ولا يختصّ هذا الفعل وهذه الغاية بموسىٰ وأخيه، بل يعمُّ أهلَ الدعوة كلَّهم، فكأنه أراد تأييد الدعوة بهذه الوزارة، ونجاحها بكثرة الأتباع، واشتراكهم بالذكر والتَّسبيح.

ثم علَّل الطلب بعلَّة أخرىٰ مُقْتضية له، فقال: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥﴾ أي: عالماً بأحوالنا، وبأنَّ ما دعوتُك به وطلبتُه منك مما يُصلحنا ويُعيننا، وبأنَّ هارون علىٰ ما به من الخصائص صالحٌ لمؤازرتي وشادٌّ لعَضُدي. ويجوز أن تكون هذه الفقرة استشهادًا منه علىٰ الإخلاص في التسبيح والذكر والقيام بالدعوة.

---

(١) رواه مسلم (٥٢٣)، عن أبي هريرة بلفظ: «أُعطيت جوامع الكلم».

(٢) ذكره علي القاري في «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» (٤١)، وقال: «معناه صحيح ولا أصل له كما قال ابن كثير [في «تفسيره» (١: ١٤٣)] وابن الجزري».

وقد قرن سبحانه وتعالىٰ الطلبَ بالإجابة و﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ أي: أُعطيتَ مطالبَك هذه.

وبمناسبة إعطائه هذه المطالب إثر إكرامه بالرسالة ليتسنّىٰ له القيام بها، ذكّره بالنِّعَم التي قد أنعم بها عليه من قبل، للإشعار بأنه في رعايته؛ ولأنَّ التذكير بالنِّعَم يُثيرُ الشكر في النفوس الطيبة، ويُثيرُ الشعور بالقيام بالواجب، ولا سيما فيما كانت النِّعَم لأجله، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ كأنه تعالىٰ يقول: ولقد راعيتُ كذلك مصلحتك من أول أمرك ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ أي: ألهمناها ما ألهمناها ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ أي: في البحر. والإلهام: وجدانٌ تستيقنه النفسُ وتنساق إلىٰ ما يطلب، من غير شعور منها من أين أتىٰ وكيف أتىٰ. والقذف: يستعمل بمعنىٰ الوضع، وبمعنىٰ الإلقاء، وقد استُعملا معاً هنا، والمراد: ضَعِيه في الصندوق وألقيه في اليَمّ، ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ وقد أخرج تنفيذ الإرادة مخرج الأمر، للإلماع بأنَّ ذلك واقع لا محَالة، أي: وقد أردنا من البحر أن يُلقيَه بالساحل، ثم حسَّس بالعبرة ضمن بيان المصير، فقال: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾.

ثم بيَّن سبحانه أنه ـ رغماً عن تلك العداوة ـ جعله محبوباً عند فرعون، فقال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ أي: ليتعطَّف عليك، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لِتُرَبَّىٰ بالحُنُوِّ والشَّفَقَة لمراقبتي لك. والمعنىٰ: جعلتُك بحيث يحبُّك مَنْ يراك، حتىٰ أحبَّك فرعون وأحبتك امرأته فتبنَّتك وربَّتك في حجرها، وكان أمرك يجري علىٰ ما أريد.

وهذه الجملة واردة علىٰ عُرف المُخاطَبين فإنَّ من يصنع لإنسان شيئاً وهو حاضر، يصنعه كما يحبُّ ويرضىٰ. وأخْذُ المعنىٰ من عُرف المخاطَبين أسلوب من أساليب القرآن، (كما جاء بيانه في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

وقيل: بل المراد حراسته، وأيُّ حراسة أعظم من أن يُلقىٰ في البحر خوفاً من فرعون ومَلَئِهِ أن يقتلوه، فيُخرِجُه الله ويُربِّيه في حجر فرعون رغم أنفه؟!

ثم فصَّل تعالىٰ شيئاً من صُنعه علىٰ عينه بقوله: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾، وذلك لأنه كان لا يقبل ثديَ المراضع.

وقد روي: أنه فشا الخبر بمصر أنَّ آل فرعون أخذوا غلاماً في النيل لا يرتضع امرأة، واضطروا إلىٰ تتبُّع النساء، فخرجت أختُه مريم لتعرف خبره، فجاءتهم متنكِّرة، فقالت ما قالت، وقبلوا، فجاءت بأمها، فقبل ثديـها. وهذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، وهذه أجلُّ منَّة من مِنَنِ الله، وأعظمُ عبرةٍ لأولي الألباب.

ثم ذكر دَوْراً آخر من تنشئته وعنايته به في تاريخ حياته قبل النبوَّة، فقال: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ من القبط خطأً، فاغتَمَمتَ خوفاً من الله ومن قصاص فرعون ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾، وهذا مأخوذ من قولهم: فتنتُ الذهبَ؛ إذا خلَّصه مما يشوبُه. أي: ابتليناك ابتلاءً فيما يشقُّ عليك لتُدرَّب وتُمرَّن علىٰ ما ينتظرك في مستقبل حياتك، وهو القيام بأعمال النبوَّة المرشَّح لها، وتحمُّلك لتلك المشاقّ العظيمة.

وعن ابن عباس ما معناه: أن الآية بمعنىٰ: خلَّصناك من محنة بعد محنة[١]، حيثُ إنك وُلِدتَ في عامٍ كان فرعون يقتل فيه وِلْدانَ بني إسرائيل، فنجَّاك الله من ذلك، وألقتك أمك في البحر، وأنقذك الله منه إلىٰ ما فيه مصلحتك، وهمَّ فرعون بقتلك حين قتلتَ القبطيّ، فنجَّاك الله منه بالمهاجرة إلىٰ مدين، ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ علىٰ أحسن حال، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي: علىٰ مدَّة قدَّرتُها لاستوائك واختيارك

(١) ذكره الزمخشري في «تفسيره» (٣: ٦٥).

للنبوَّة والرسالة، ﴿وَ﴾ قد ﴿اصطَنَعتُكَ لِنَفسِي ﴿٤١﴾﴾ أي: هيّأتُ لك هذه التربية لتكون رسولاً لي، فقُمْ و﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِئَايَٰتِي ﴾ أي: بمعجزاتي التي أعطيتكها، ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾﴾ أي: لا تفترا في التذكير بي. وقد عبَّر بهذه عن الدعوة إلىٰ الله؛ لأنَّ أهمَّ عناصر الشريعة ذِكرُ الله وتوحيدُه وتنزيهُه.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

وبعد أن أمرهما سبحانه بهذا الأمر العام، عيَّن وِجْهَتَهما التي يجب أن يتَّجهاها، فقال: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ أي: تجاوز الحدَّ في العُتوِّ والتجبُّر والإعراض عن الله والإفساد في الأرض.

ثم بيَّن لهم طريقة الدعوة التي يُوجِّهانها إليه؛ إرشاداً لهما إلىٰ الصُّورة التي هي أقرَبُ للنجاح مع الجبابرة العُتاة، وقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ضَعَا صورة دعوتكما له بشكل هيِّن ليِّن، وبطريقة تؤدِّي إلىٰ عِلمِهِ بذات الله أو خشيته من الله؛ لأنَّ الانقياد إلىٰ الله تعالىٰ لا يكون إلا من أحد هذين الطريقين: الأول:

العلم بذاته تعالىٰ علماً صحيحاً؛ لأنَّ مَنْ علم بشيء علماً حقيقياً صحيحاً لا بدَّ وأن يتمسَّك بمقتضاه. والثاني: العلم بأهوال يوم القيامة والحساب والعقاب، فإنه يحمل علىٰ الخشية والانقياد.

أما هما فقد سألا ربَّهما المعونةَ عليه، ولكنهما جَعَلا صورةَ السؤال بيانَ ما يحذران منه، و﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ ﴾ أي: يعجِّل بالعقوبة، ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥)﴾ علىٰ بني إسرائيل، فأعِنَّا عليه، ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ ﴾ أي: معيَّة حِفظٍ ونصر ومعونة، ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦)﴾ وهذا إيغالٌ في التثبيت لهما والوعد بحفظهما.

ثم لقَّنهما صورة هذه الدعوة بفرعَيْها: التذكير والخشية، وقال: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: لا تمنعهم من الخروج معنا، ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أي: إذا خرجوا. ثم أمرهما أن يفتتحا دعوىٰ الرسالة، بقولهما له: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ تدلُّ علىٰ صدق دعوانا الرسالة وتهدي إلىٰ الحق والسَّداد، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ (٤٧)﴾ أي: بتصديق آيات الله الداعية إلىٰ الصلاح العام، والعمل بموجبات الرسالة التي تُفضي بالإنسان إلىٰ سبيل الرشاد، وتجري به إلىٰ ساحل السلامة والنجاة.

وبعد أن ذكر القسم الأول من الدعوة ـ وهو التذكير ـ ذكر القسم الثاني ـ وهو الذي يؤدِّي إلىٰ الخشية ـ، وخصَّ هذا بذكر الإيحاء؛ للزيادة في الإخبات والتوقيف علىٰ جليَّـة الأمر، فقال: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨)﴾ أي: علىٰ مَنْ كذَّب بما جئنا به وأعرَضَ عنه.

فدخل فرعون معهما في المناظرة، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩)﴾ الذي أرسلكما. وخطابُ الاثنين وتخصيصُ النداء بالممتاز منهما: هو من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

فأجاب موسىٰ عليه السلام بما حكىٰ الله سبحانه عنه بقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ ويسَّر كلاً لـما خُلق له. والخلقُ لغةً: التـقديرُ والترتيبُ الدالُّ علىٰ النظام والإتقان. والمعنىٰ: هو الذي أعطىٰ كلَّ شيء ما يحتاجه من التقدير والترتيب والنظام والإتقان، ثم أودع فيه إدراكاً وقوَّةً تهديه لخيره وصلاحه.

ومفصَّل المعنىٰ: أنه هو الخالق الذي نوَّع هيئة المخلوقات وصوَّرها، وشكَّل أعضاءها وأوضاعها وطباعها، حَسْبَما تقتضيه الحكمة والمصلحة في ذلك، ثم هداها لخيرها، ولطريقة الانتفاع والارتفاق بما أعطاها ووهبها، فعَرَفَتْ كيف تتوصَّل إلىٰ بقاء نوعها وكمالها، إما اختيارياً كالإنسان، أو شبيهاً بالاختيار كالحيوانات، أو انطباعاً كما في الجمادات والنباتات. وقد زاد الإنسانَ هدايةً ثانية دون سائر المخلوقات، وهي الهداية بإنزال الشرائع مضافةً إلىٰ الهداية الطبيعية.

وهذا الجواب في غاية البلاغة والإلزام، لدلالة هذا الأثر الملموس علىٰ المؤثِّر القادر الحكيم المختصِّ بأفعال الألوهية وصفاتها، والاستدلال بالأثر علىٰ المؤثِّر هو من أقوىٰ أنواع الاستدلال. وفي هذا الجواب أيضاً إيماءٌ إلىٰ أنّ مواهب الله تعالىٰ في البشر مِن عقلٍ وإدراكٍ وتفكير مطبوعةٌ علىٰ أن تهدي صاحبَها للحق والصواب ما لم يُفسِدْها صاحبُها.

فلما سمع فرعون هذا البرهان النيِّر، خاف أن يفتضح أمرُه أمام قومه ومَلَئِهِ، فصَرَف الكلام عن طريقته إلىٰ نوع آخر من المقال، فسأل عن الأمم الماضية والقرون الخالية: ماذا جرىٰ عليهم من الحوادث المفصَّلة بعد موتهم؟ وماذا كان من أمرهم؟ كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾(١).

---

(١) بعد أن سمع فرعون من موسىٰ عليه السلام أن الإنسان عَقِبَ الموت صائرٌ إما إلىٰ سعادة =

فأجاب عليه السلام بأن العلم بأحوالها مفصَّلةً مما لا ملابسةَ له بمنصب الرسالة، وإنما عِلمُها عند الله عزَّ وجلَّ، كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أي: إنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وإنما أنا عبد لا أعلم منها إلا ما علَّمنيه من الأمور المتعلِّقة بما أُرسِلتُ به. ثم أكمل الجواب بقوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾، وقد صاغ الجواب علىٰ إرجاع الكلام إلىٰ مِحوَرِه الذي أخرجه عنه فرعون ـ وهو بيان شؤونه تعالىٰ ـ واسترسل في ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: صالحة للعيش عليها، حيث لم يجعلها صُلبة ولا مائعة؛ لأنَّ كليهما لا يصلحان للزرع ولا للسكنىٰ، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: هيَّأ لكم طُرق المواصلات لينتظم العيش، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مباركاً.

ثم عدل في شرح هذه المنَّة من الغَيْبة إلىٰ التكلُّم، زيادةً في التحسيس بفَضْل الله، وقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾، ثم زاد التحسيس تمنُّناً بقوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ أي: من هذه الـمُخرَجات المباركات المنوَّعات.

ثم ختم البحث بما يزيد في التنبيه، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ أي: لأرباب العقول، فإنهم هم الذي يُدرِكون بها عَظَمةَ الخالق وحكمتَه وإنعامَه واستحقاقَه وحده لأن يُعبَد.

ثم ساق الكلام إلىٰ البعث، تكملةً للبحث عن أصول الدين، وقاسه علىٰ إخراج

= وإما إلىٰ شقاء، وأن السعادة والسلامة لمن آمن بالله واتَّبع هداه، وأنَّ الشقاء لمن تولَّىٰ وكذَّب برسالة الله؛ قال لموسىٰ: إذن فما بال القرون الأولىٰ الذين لم يؤمنوا بإلهك ولم يتَّبعوا مثل طريقتك؟ قال: مصيرهم إلىٰ الشقاء، لا يُهمِلُ الله منهم أحداً، ولا ينسىٰ لأحدهم عملاً، لا يضلُّ ربي ولا ينسىٰ. (المؤلف).

النبات من الأرض بعد اليبس، علىٰ نهج القرآن في ذلك كلَّما ذكر الإنبات، فقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: من الأرض خلقناكم، يشير إلىٰ أصل البشر، وهو آدم، وأثر الأصل لا يفارق الفرع. ويجوز أن يُراد به النطفة المتولِّدة من الأغذية المتولِّدة من الأرض، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالإماتة وانحلال أجزاء الجسم، ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ بالإنبات مِن بذرة عَجْب الذَّنَب التي لا تَبْلىٰ، كما لمح لذلك ما جاء عنه ﷺ: «كلُّ ابن آدم يأكله الترابُ إلا عَجْبَ الذنب»، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه تنسلون»[1]. والمراد به - والله أعلم - ما يُعبَّر عنه بنواة الحياة، ولا يعلم هذا الغيب إلا الله، لأنّ أسرار الخليقة لا يعلمها إلا الله، والتعبير بحبة الخردل تعبير عُرفيّ، لأنه - والله أعلم - أدقُّ من أن يُدرِكَه المنظار.

وفي الآية إيماءٌ إلىٰ الاستدلال بالأطوار المعلومة عن القدرة علىٰ الأطوار المجهولة بعد الموت؛ لأنها كلَّها موضع إعجاب ومظهر قدرة عظيمة لا يُعجزها شيء.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ جاء معترضاً في المحاورة علىٰ صورة بيان من الله تعالىٰ وتمنُّن.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

ثم تابع الكلام بحكاية ما جرىٰ بينهما بعد المناظرة، وافتتح ذلك بتبكيته وتأنيبه،

---

(١) سلف تخريجه (٤: ٤٢٨).

فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾ أي: أرينا فرعون ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ أي: معجزاتِنا الدالةَ علىٰ نبوة موسىٰ ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ عُتواً واستكباراً، و﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ وهذا شأنُ شياطين الإنس المعارضين للمُصلِحين، يختلقون عليهم ما يروج بين الناس، ويضربون علىٰ الوتر الحسَّاس. فقد هيَّج فرعونُ الشعبَ علىٰ موسىٰ بقوله: ﴿لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم تحدَّاه واستخفَّ به بقوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ أي: مكاناً مستوياً بارزاً يظهر ما فيه لكلِّ مَنْ فيه، ويقصد بذلك أن يخدع الشعب بأنه واثق بتفوُّق ما عنده علىٰ ما عند موسىٰ، تثبيتاً لعزمه.

فأجابهم موسىٰ عليه السلام بما فيه مقابلةٌ لهم في الثقة والإدلال بالنفس ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ فالظاهر أنه يَعِدُهم في مكان معيَّن معروف يجتمعون فيه يومَ عيد لهم. وإنما خصَّه ـ عليه السلام ـ بالتعيين؛ لإظهار كمال قوَّته وكونه علىٰ ثقة من أمره وعدم مبالاته بهم، وليكون ظهورُ الحقِّ وزهوقُ الباطل في يوم مشهود.

ثم ذكر ما كان من جَمْع فرعون لأمره وتهيُّئه لهذا اليوم، فقال: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ أي: مكرَه وتدبيرَه الخفيّ، يعني: السَّحَرة الكائدين. فاستعمل المصدر بدل الوصف مبالغةً في المعنىٰ، أي: جمع السحرة، ﴿ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ للموعد.

وعندما اجتمعوا شَـرَع موسىٰ عليه السلام بالإرشاد والتَّحذير قبل مباشرة العمل، وذلك بمقتضىٰ حكم النبوَّة والرسالة، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تَدْعوا آياتِه التي ستظهر علىٰ يَدَيَّ:

سحراً، ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: يستأصلكم بعذاب، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ علىٰ الله.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

وعَظَهم موسىٰ عليه السلام قبل الدخول في المخاصمة، وهذا دأب الأنبياء والمصلحين، وقد أثَّرت فيهم هذه الموعظةُ وتفرَّق رأيهم، ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ يعني: أهل الحلِّ والعقد، وفيهم السحرة.

ثم حكىٰ سبحانه رأي الحزب الغالب من بين المتنازعين، وهم الأكثر، فقال: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ الدينية والسياسية.

والقرآنُ يُغيِّر نَسَقَ الكلام أو الإعرابَ لزيادة الاهتمام بالمفهوم، فقد غيَّر الإعرابَ هنا وجعل اسمَ «إنَّ» ضميرَ شأن؛ لتدلَّ الجملةُ علىٰ زيادة التحريض؛ لأن الجملة صارت أكثرَ تأكيداً بزيادة ضمير الشأن، والمقام يقتضي ذلك، والبلاغة العالية تجعل لكلِّ مقام مقالاً. فإنَّ الحزب الغالب ـ وهم أهلُ الحلِّ والعقد ومَنْ لفَّ لفَّهم ـ يقولون هذا القول المليء بالتحذير والتحريض للحزب المعارض الذي لان بوعظ موسىٰ عليه السلام، وليُميلوهم إليهم، ويعملوا جميعاً في كيد موسىٰ، كما حكىٰ ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ واحداً متفقاً في الرأي من دون تفريق.

ثم قرن هذا الأمر بما فيه إغراء وتعليل، فقال: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ أي: مَنْ تفوَّق أو غلب منا أو منه.

فاتفقوا و﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾، وهذا التخيير خديعة أظهروا فيه التجلُّد، لذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسىٰ عليه السلام استهانةً بهم: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أنتم، فألقَوْا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ﴾ أي: بتمويههم ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾، وهذا يدلُّ علىٰ أن السحر إيهامٌ وتخييلٌ كاذب. قيل: إنهم استعانوا علىٰ هذا التمويه بالزئبق وحرارة الشمس.

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ إذ خشي أن يتأثَّر الناظرون بهذا المنظر الخلَّاب، ويظنُّوه من جنس معجزة موسىٰ. يُفهم ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ والغالب، والاحتباك: هو من أنواع إيجازات القرآن، وذلك بأن يُجمِلَ في الجملة الأولىٰ أو يُضمِرَ فيها، اعتماداً علىٰ ما يفصِّله أو يذكرُه في الثانية. وهذا الخوف غير خوفه في أوَّل مرة يرىٰ عصاه تهتزُّ كأنها جانٌّ، كما جاء في سورة النمل

والقصص[١]، فإنَّ ذلك كان رهبةً منه، كما رجع نبينا ﷺ إلىٰ خديجة رضي الله عنها يَرجُفُ فؤادُه في أول مرةٍ رأىٰ فيها الوحي[٢].

وبعد أن شجَّعه تجاه عملهم أمره بالإلقاء، فقال: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني: عصاه، ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ مِنْ: لَقِفَهُ؛ إذا التقمه وابتلعه بسرعة. والتعبير بـ﴿مَا صَنَعُوٓا۟﴾ للإيذان بالتمويه والتزوير، والتلميح إلىٰ الاحتقار.

ثم صرَّح بذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾[٣] أي: إن صنيعهم هذا إنما هو تمويهٌ وسحرٌ وحيلةٌ ومكر، ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾، بل يظهر مكرُه ويفتضح سحره.

فلما ألقىٰ موسىٰ عليه السلام، تبيَّن لدىٰ السَّحَرة أنَّ عمله هذا معجزة باهرة، وليس من جنس السحر والشعوذة والتمويه؛ لأنهم أعرفُ الناس بذلك.

وقد كانوا قد تأثَّروا بالوعظ فآمنوا لموسىٰ عليه السلام، كما حكىٰ ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ لله تعالىٰ، و﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾.

فاستنكر ذلك منهم فرعون، وادَّعىٰ أنها مواطأة مع موسىٰ وممالأة له، و﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ﴾ أنا ﴿لَكُمْ﴾ أي: قبل أن تأخذوا رأيي وإذني. وهذا الاحتجاج يدلُّ

---

(١) يعني: الآية ١٠ من سورة النمل، والآية ٣١ من سورة القصص.

(٢) يشير إلى الحديث المتفق عليه، رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) عن عائشة قالت: «كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة...، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني، فزملوه...».

(٣) قرئ أيضاً بنصب «كيد» على أنه مفعول، و«إنما» أداة حَصْر، أي: إنما صنعوا خديعةَ ساحر. (المؤلف).

ذكر قراءة النصب الطبريُّ في «تفسيره» (١٨ : ٣٣٧)، ولم ينسبها لأحد.

دلالةً صريحة علىٰ الاعتراف بالخذلان والفشل، وأنَّ باطلَه قد ظهر كما ظهر الحقُّ مع موسىٰ عليه السلام، ولكنه عمد إلىٰ العِناد والصَّلَف، مُحتجّاً بأنه كان عليهم أن يتنظروا إذنَه بإعلان غَلَبة موسىٰ ووجوب اتِّباعه بناءً علىٰ ما اتفقوا عليه، ولكنهم لـما استعجلوا بإيمانهم قبل صدور إذنه تحجَّج وغضب وأعرض، كما هو شأن الجبابرة العُتاة عند التعدِّي علىٰ حدود سلطانهم وجبروتهم، فاتَّخذ ذلك ذريعة للانحراف عمَّا لزمه من الحق وتنفيذ المقاولة المعقودة بينهم في وجوب اتِّباع الغالب، وتحجَّج وتعلَّل بأنَّ الأمر كان ممالأة ومواطأة، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ في فنِّـكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، فتواطأتم علىٰ ما فعلتم.

ثم أقبل عليهم بالوعيد، وقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: اليد اليمنىٰ والرِّجْل اليسرىٰ، فتوعَّدهم بأفظع صور التعذيب. وقال أبو السعود: تعيين تلك الحال، للإيذان بتحقيق الأمر وإيقاعه لا مَحالة، وذلك بتعيـين كيفيته المعهودة في باب السياسة، لا لأنها أفظعُ من غيرها(١).

ثم قال في إتمام الوعيد: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ تشهيراً وتعذيباً. وآثر كلمة ﴿فِى﴾ للدلالة علىٰ إبقائهم عليها زماناً مديداً، تشبيهاً لاستقرارهم عليها باستقرار المظروف في الظرف.

ثم زاد في التوعُّد بقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ أي: أنا أم موسىٰ. ويعني بعذاب موسىٰ: عذاب الله الذي توعَّدهم به موسىٰ. ومعنىٰ «أبقىٰ»: أثبت وأدوم.

ولما كان الإيمان قد تمكَّن في قلوبهم ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحة علىٰ صِدْق موسىٰ عليه السلام، وقوله: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٦: ٢٩).

معطوفاً علىٰ ﴿مَا﴾، أي: وعلىٰ الذي فطرنا وخلقنا، وهو الله سبحانه وتعالىٰ، أو أن يكون قسماً لتقرير الإيثار، أي: والذي فطرنا لن نُؤْثرك علىٰ ما جاءنا من البيِّنات.

﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: فاصنع بنا ما شئت، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ أي: إنّ ما تصنعه معنا من الشقاء لا يتجاوز هذه الحياة الدنيا. وبلاءُ الدنيا مهما كان نوعه من الشدَّة يعدُّ عافيةً في جَنْب شقاء الآخرة وبلائها. ولا يُنْبئ هذا الكلام بأنَّ إيمانهم هذا كان نتيجةَ مجلسٍ واحد إثرَ حادثة المغالَبة وتفوُّق موسىٰ، بل يحتمل أنهم اجتمعوا بعدها بموسىٰ مراراً، وتلقَّوا كثيراً من الوحي والتعاليم حتىٰ استقرَّ إيمانهم علىٰ هذه الصفة الثابتة، وذلك علىٰ نهج القرآن في إجمال البيان. والله أعلم.

ثم قالوا في إتمام البيان: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ أي: في معارضة المعجزة. ويدلُّ قولهم: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ علىٰ أحد أمور ثلاثة: إما أنهم علموا إجمالاً قبل المغالبة أن عمليَّة موسىٰ هي معجزة لا شَعْوذة، ولكن فرعون أكرههم علىٰ المعارضة، وإما أن تكون هذه فكرة فرقةٍ منهم، وإما أن يكون معنىٰ ﴿أَكْرَهْتَنَا﴾: أوقعْتنا فيما علمنا بعدُ بخطئه وكرهه.

ثم علَّلوا انحيازهم إلىٰ جانب موسىٰ بقولهم: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ ثواباً، أو: خير ثواباً، وأبقىٰ عقاباً.

ثم فصَّلوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّٰلِحَٰتِ فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَٰتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ أي: تطهَّر من دَنَسِ الكفر والمعاصي، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصَّالحة. والآية الأخيرة يجوز أن تكون من كلام الله.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم ذكر الفصل الثاني من قصَّة موسىٰ وفرعون، وهو خروج موسىٰ بقومه من مصر بأمر الله وغرق فرعون وقومه، ذكر ذلك مُجْمَلاً، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي: سِرْ بهم ليلاً، ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾، وهي المعجزة التي فصِّلت في غير هذه السورة، ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ أي: غرقاً، أي: سِرْ بهم آمناً من أن يلحقك ويُدركك فرعون، وآمناً من غرق البحر.

فسار بهم موسىٰ، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ حتىٰ دخلوا عليهم البحر، ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ أي: من البحر وأمواجه ﴿مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾، وذلك بعد أن خرج منه موسىٰ وقومه. وهذا التعبير لتهويل الأمر وبيان عظمته، والمعنىٰ: غشيهم الذي عرفتموه وسمعتم به، ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ أي: سَلَكَ بهم مسلكاً أدىٰ بهم إلىٰ الخيبة والخسران في الدنيا والأخرىٰ معاً.

ثم التفت إلىٰ بني إسرائيل يُعدِّد عليهم نِعَمه وألطافه، فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ بإغراقه ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾، وهذا تمنُّن عليهم بالنبوَّة والرسالة. وفيه التجوُّز بإسناد ما للنبيِّ من المواعَدَة إلىٰ أُمَّتِه الـمُرسَل إليهم، لاستفادتهم من هذه المنَّـة، ومثل ذلك من خصائص اللغة. وإذا اعتبرنا اشتراك السبعين رجلاً معه في هذه المواعدة يكون الكلام من إسناد ما للبعض إلىٰ الكلّ.

ثم تابع تعداد النِّعَم، فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ في التِّيه ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠)﴾. قال أبو السعود: أي: الترنجين والسماني، ينزل عليهم المنُّ مثل الثلج من الفجر إلىٰ الطلوع، يتمكَّن كلُّ واحد أن يصيب منه صاعاً، ويَبعَثُ ريحُ الجنوب عليهم السماني، فيَصْطاد الرجل منهم ما يكفيه: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ بالإخلال بشكري واتِّباع أمري، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)﴾ أي: تردَّىٰ وهلك.

ثم أردف هذا السياق ـ المتضمِّن للدعوة إلىٰ الإيمان وتَرْك العصيان ـ بالعفو عما سلف، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ أي: من الشرك والمعاصي، ﴿وَآمَنَ﴾ بما يجب الإيمان به، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: بحكم الشرع والعقل، ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢)﴾ أي: ثم استكمل هداه؛ لأنَّ الهدىٰ يكمل تدريجاً بالعمل الصالح، أو: ثم استقام علىٰ هذا الهدىٰ، كقوله تعالىٰ: ﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [الشورىٰ: ١٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠، الأحقاف: ١٣].

ويجوز أن يكون المعنىٰ: ثم اهتدىٰ إلىٰ طريق الإخلاص في العمل والكمال فيه، كي لا يكون عملُه جسماً بلا روح.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ
رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ
قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ
أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ
بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ

إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا
فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ
يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى
﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾
قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ
وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾
إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

ثم ذكر الفصل الثالث من القصَّة، وهو ما كان من فتنة بني إسرائيل بعبادة العجل بعد أن سبقهم موسىٰ إلىٰ المناجاة، واستخلف عليهم أخاه هارون ليتَّبعه بهم، فأضلَّهم السامري، ورَجَع موسىٰ إليهم غضبان يلوم أخاه ويؤنِّبه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾؟ قال ابن إسحاق[1]: كانت المُواعدةُ أن يوافي الميعاد هو وقومه، أو وجوه قومه. فالاستفهام للإنكار.

﴿قَالَ﴾ موسىٰ: ﴿هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ عني بمسارعتي إلىٰ الامتثال بأمرك.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾[2] أي: اختبرناهم لك، وهي سنة الله في

(١) هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني (...-١٥١هـ) من حفاظ الحديث وكان قدرياً، له: «كتاب الخلفاء» و«السيرة النبوية». انظر: «الأعلام» للزركلي (٦: ٢٨).

(٢) يقال: فتن الذهب: إذا عمل به ما ينكشف له منه أنه مغشوش. ويقال للحجر التي يكشف بها ذلك: فتانة. ويقال: فتنه فتنةً، أي: خَبرَه، أي: عَلِمَ أمرَه عن تجربة وواقع. وإسناد الفتنة =

أتباع الأنبياء ليتبيَّن للمجموع المؤمن والصادق الإيمان من المدَّعي الكاذب، ومَنْ هو في شكٍّ من الأمر، أو ذو ريبة فيه ومَيْل إلىٰ سواه.

ثم ذكر السبب المباشر لهذه الفتنة، فقال: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ حيث كان هو المدبِّر للفتنة والمخادع فيها.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ بعد انتهاء مدة الميعاد ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾، فأنَّبهم و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ بأن يعطيكم التوراةَ فيها نورٌ وهدىٰ، ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ ينكر عليهم أمرَهم ويوبِّخهم توبيخاً تهكُّمياً، بمعنىٰ: أنَّ الأمم إنما تقسو قلوبُها وتفسد شريعتُها إذا طال عليها الأمد، كما قال تعالىٰ: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، لا إذا كانت الشريعةُ جديدةً والعهدُ قريباً. فالجملة إنكار مبنيٌّ علىٰ فقدان الأسباب المجوِّزة لاحتمال وقوع مثل ذلك، مسبوك علىٰ التهكُّم، وذلك أبلغُ في الإنكار. وقيل: بل يريد مدَّة مفارقته لهم، أي: لم تطل، فكيف أشركتم في هذه المدة القصيرة؟!

ثم ذكر وجهاً آخر من التأنيب مطوياً علىٰ التجهيل الهازئ والوعيد معاً، فقال: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾﴾ أي: وَعْدَكم إيَّاي بالثبات علىٰ ما أمرتكم به. وقيل: المراد: ولم تسيروا علىٰ أثري في الميقات. وهذا أبلغ

= إلىٰ الله سبحانه باعتبار سنة الله العامة في جِبِلَّة الإنسان، وتسليطه علىٰ إرادته، فإذا غيَّر مجرىٰ طبيعته بسوء تصرفه، وفساد تربيته، ساءت أعماله وضلَّت فعاله. فيُسنَدُ مثل هذا الفعل إلىٰ الله سبحانه؛ لأنه خلق الإنسان وأطلق له الحرية في تصرُّفه، وسلَّطه علىٰ إرادته، ويسند إلىٰ الإنسان نفسه؛ لأنه الفاعل المباشر، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية)، فأُسنِدَ الفتون إلىٰ الله سبحانه بهذا الاعتبار. (المؤلف).

تعبير في التأنيب، حيث نزَّل تعرُّضهم لغضب الله منزلةَ الإرادة منهم لحلول الغضب، مبالغةً لهم في التقريع.

وقد اعتذروا بما لا يُجْديهم، و﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ أي: أصبحنا لا نملك أمرنا في ذلك، بمعنىٰ: أننا لم نكن نتمكَّن من البقاء علىٰ ما وعدناك به، بعد أن أدهشنا السامريُّ ببياناته واقتنعنا بإلقاءاته وأقاويله. وهذا هو مفاد مضمون قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ﴾ أي: حُـمِّلنا[1] أثقالاً من حُليِّ القبط، وهو الحليُّ الذي انتزعوه من الغرقىٰ الذين ألقاهم البحر علىٰ الساحل. أو: كُـلِّفنا بجمع الحُليِّ الثـقيل من قومنا. وصيغة الفعل وبناؤها للمجهول تدلُّ علىٰ أنهم أُمروا بذلك، أي: أمرنا السامريُّ فجمعناها وحملناها، ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ في النار، ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾ ما كان معه.

وعُطفت هذه الجملة بالفاء لتدلَّ علىٰ أنه ألقىٰ بعد إلقائهم، واعتقدوا أنه ألقىٰ حُلياً مثلهم أيضاً، إلا أنهم لم يتيقّنوا ذلك الملقىٰ؛ لأن إلقاءه لم يكن صريحاً، فربما كان ما ألقاه شيئاً آخر. هذا رأيهم حسبما يقوله المفسِّرون.

والأقرب أن يكون قوله: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾ من كلام الله تعالىٰ، حكىٰ به وبما بعده صنيعَه بالحلي، أي: وكذلك ألقىٰ السامريُّ الحليَّ في المصنع، ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ

---

(١) ألا يجوز أن يكون بناء ﴿حُمِّلْنَآ﴾ للمجهول؛ للإيماء إلىٰ أنَّ السامري كلَّفهم بذلك الحلي؟ وألا يجوز أن يكون المراد بإلقاء السامري إلقاء القول المضلل الذي أجمله سبحانه بقوله: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾؟ أي: شوَّقهم بقوة لعبادة العجل وصنعه لهم. والله أعلم.

وإنما غيَّر الأسلوب من الحكاية إلىٰ الإخبار في قوله: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ زيادةَ اهتمام بالمدلول والموضوع، علىٰ ما تقتضيه البلاغة العالية وأساليب القرآن. (المؤلف).

﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ من هذا الحليّ المذاب ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: يصوِّت. فيجوز أن يكون صنع قالبه بشكل جَعْل الجسد مُجَوَّفاً فكان كالصَّافرة، يدخل فيه الهواء فيجعل فيه صوتاً شبيهاً بصوت العجل.

وعندي أن الآية من مجاز تشبيه الأجسام بالأجسام، كقولك لِـمَا نُحِتَ علىٰ صورة الفرس: إنه فرس صهَّال، تقول ذلك للمبالغة في إتـقان صنعها، ولا يُراد به حقيقة المعنىٰ. وقوله: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ ترشيح خياليّ له، لبيان أنَّ الصورة كانت مُتقنة الصُّنع، لا يشك الناظر إليها أنها ذات خوار، كما إذا رأيت صورة فرس مسرعة، فتقول: هذه فرس تنهب الأرض نهباً بسرعتها، وهذا الترشيح شبيهٌ بقوله تعالىٰ في سورة تبَّت: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ٥]، فإنه أراد بذكر هذا الحبل المبالغةَ بشدة تأثير مشاغباتها ودعاياتها. هذا رأيي، والله أعلم.

وبعد أن أخرج لهم هذه الصورة أخذ يُضلِّلهم هو وأشياعه بالأقاويل والإلقاءات، كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ أن يتَّخذه، وذلك أنهم كانوا يعبدون مع المصريين العجل (أبيس)، علىٰ شكل هذا العجل الذي أخرجه لهم السامري. ومَنْ تشبَّع في نوع من الضلال وانطبع عليه، إذا أقلع عنه بتأثير مرشد أو توجيه مصلح، ثم عرض ما يُنَبِّهه له ويشوِّقه إليه مرة أخرىٰ، عاد بسهولة إلىٰ سيرته الأولىٰ، وهكذا كان أمر المتَّبعين للسامريّ من بني إسرائيل في العودة إلىٰ عبادة العجل الذي أُشربوه في قلوبهم، كما ذكر ذلك سبحانه في سورة البقرة[١]. والواو في (قالوا) يعود إلىٰ السامريّ ومَنْ تبعه، والمعنىٰ: قال السامريُّ وأصحابه الذين اشتركوا معه في هذا الصنيع لبقية القوم.

---

(١) يعني: في الآية ٩٣ منها.

ويجوز أن يكون قولُه: ﴿فَنَسِيَ﴾ غيرَ داخل في الحكاية عنهم، وإنما هو من كلام الله تعالىٰ في حقِّ السامريِّ. والمعنىٰ: نسيَ السَّامريُّ كلَّ ما قيل له من مبادئ الإيمان وتعاليمه التي منها اختصاص الإلهية بالله، وأن مِثلَ العجل لا يكون إلهاً ولا يُتقرَّب به إلىٰ الله. وأراد بالنسيان: عدم التمسُّك بها، وأنه ضَرَبَ بها عُرْضَ الحائط. والله أعلم.

وإنما غيَّر الأسلوب من الحكاية إلىٰ الإخبار في قوله: ﴿فَأَخْرَجَ﴾ أو من قوله: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٧﴾ زيادةَ اهتمام بمدلول الكلام، بمقتضىٰ البلاغة العالية وأساليب القرآن، فيكون بصيغته إخباراً من الله سبحانه، وبسياقِه تتمَّةً لجوابهم، علىٰ نهج القرآن في مثله. والله أعلم.

ثم قبَّح نظرَهم وسَفَّه رأيهم وعقَّب علىٰ قولهم بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝٨٩﴾ فكيف يكون إلهاً مثل هذا الجماد؟! ألم يكن عندهم عقول تُدرك؟!

أما سببُ رجوعهم إلىٰ عبادة العِجْل بهذه السرعة، وعلىٰ هذه الصُّورة، بعد دخولهم في الدين مع موسىٰ، فهو أنهم قد تشبَّعوا بعبادة العِجْل ـ مع المصريين الذين كانوا وثنيين، وهم بينهم ـ أزماناً طويلة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]، لذلك اعتقدوا ـ كما كانوا يعتقدون ـ أنه صورة عِجْل مُقدَّس يُقرِّبهم إلىٰ الله زُلفىٰ، أو يحلُّ به الإله حلولاً. تعالىٰ الله عمَّا يقول الظالمون علواً كبيراً. وهم يتَّبعون في ذلك السخفِ والضلالِ عقيدةَ المصريين، كما حكىٰ عنهم سبحانه وتعالىٰ في سورة الأعراف بقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، قالوا ذلك عندما رأوا أناساً يعبدون الأصنام. وربما اعتقدوا أنَّ عبادة الأصنام لا تضرُّ بالتوحيد، بل تُقرِّب إلىٰ الله زلفىٰ كما كان يعتقد

المشركون من قريش، وكما تقول النصارىٰ: إن القول بالولد لله لا يعارض التوحيد. خابوا وخسروا.

ثم شرع في بيان ما كان من أمر هارون عليه السلام تجاه حادثة السامري هذه، فقال: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل عودة موسىٰ عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾[1] أي: اختُبرتم به، بمعنىٰ: أنَّ هذا اختبار من الله سبحانه ليُظهِرَ كمينَ استعدادكم وما انطَوَتْ عليه سرائركم.

ثم أرشدهم إلىٰ الثبات علىٰ الإيمان، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾، ولكنهم لم تنفعهم المواعظ، وأصرُّوا علىٰ عبادة العِجْل؛ لأنهم قد أَلِفُوهُ وأُشبِعوه سابقاً مع المصريين، و﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ وهذه الغاية للانتهاء، أي: إلىٰ أن يأتينا موسىٰ بالشريعة الجديدة. ويجوز أن تكون للتعليل والتَّسويف. وقد دسُّوا تحت هذا القول: أنَّ موسىٰ لا يرجع بشيءٍ مبين، تعويلاً علىٰ مقالة السامري. فاعتزلهم هارون مع مَنْ معه من بني إسرائيل من المؤمنين.

فلمَّا رجع موسىٰ من الميقات، ورأىٰ بني إسرائيل علىٰ هذه الحالة؛ ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ أي: فما حَمَلك أن لا تَتَّبعني، فضمَّن (منع) معنىٰ: حَمَل، وعدَّاها تعديتها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، وفي المادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة).

---

(١) يقال: فتن الذهب؛ إذا عمل به ما يكشف أنه مغشوش. ويقال للحجر الذي يفعل الصائغ به ذلك: فتانة. ويقال: فتنته فتنةً، أي: خبره خبرة، بمعنىٰ: علم أمره عن تجربة وواقع حال. (المؤلف).

قال ابن عباس: أي: هلَّا اتَّبعتَني بمَنْ أقام علىٰ إيمانه[١].

وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه غضباً عليه، ﴿قَالَ﴾ هارون لموسىٰ: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ يستعطفه ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ إذ لست مُقصِّراً في الأمر، ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ إنْ تركتُهم واتَّبعتُك بالمؤمنين أو قاتلتُ بعضهم ببعض ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ يريد قولَه: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، يعني: إني رأيت الإصلاح في حفظ الدَّهْماء والمداراة لهم إلىٰ أن ترجع إليهم؛ لتكون أنت المتدارك للأمر.

هذا ما كان من موسىٰ مع هارون عليهما السلام، أما ما كان من أمر موسىٰ مع السامريّ فقد حكاه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ أي: ما حَملك علىٰ ما فعلت؟ يقول ذلك استنكاراً عليه وتوبيخاً له، ﴿قَالَ﴾ له السَّامريُّ: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾ قال أبو السعود: وقرئ: (من أثر فرس الرسول) أي: من تربة موطئ فرس المَلَكَ الذي أُرسِلَ إليك ليذهب بك إلىٰ الطور، فنبذتُها في الحُليِّ المذابة، فكان ما كان، وهكذا زيَّنت لي نفسي[٢]. هذا ما ذهب إليه أكثر المفسِّرين.

وقال أبو مسلم: ليس في القرآن تصريحٌ بهذا الذي ذكره المفسِّرون.

فهاهنا وجهٌ آخر، وهو أن يكون المراد بالرسول: موسىٰ عليه السلام، وبأثره: سُنَّته ورَسْمه الذي أمر به. فقد يقال: فلان يَقْفو أثر فلان ويقبض أثره؛ إذا كان يمتثل رَسْمَه وخطَّته.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨: ٣٦٠).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٦: ٣٩)، ونسب صاحب «البحر المحيط» (٧: ٣٧٦) القراءة لعبد الله.

والتقدير: أنَّ موسىٰ عليه السلام لـمّا أقبل علىٰ السامريّ باللوم والسؤال عن الأمر الذي دَعَاه إلىٰ إضلال القوم في عبادة العجل، قال له السامريُّ: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾[١] أي: عرفتُ أنَّ الذي أنتم عليه ليس بحق، وقد كنت قَبَضْتُ قبضةً من أثر الرسول، أي: شيئاً من سُنَّتك ودينك فنبذتُه وطرحتُه، وهكذا زيَّنت لي نفسي[٢]. وقد أورد الكلام بلفظ الإخبار عن غائب، كما يقول الرجل لرئيسه وهو مُواجهٌ له: ما يقول الأمير في كذا؟

وأما دعاؤه موسىٰ عليه السلام رسولاً مع جَحْده وكفره، فعلىٰ مثل مذهب مَنْ حكىٰ الله تعالىٰ عنه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

أقول: أي: إنه من باب زراية الخصم تهكُّماً.

قال الرازي بعد أن نقل كلام أبي مسلم هذا: واعلم أنَّ هذا الذي ذكره أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة المفسِّرين، ولكنَّه أقربُ إلىٰ التحقيق لوجوه[٣]. فذكر عدَّة وجوه لصحَّة ما ذكره أبو مسلم، وتزييف ما يذكره المفسِّرون في هذا البحث.

---

(١) ألا يجوز أن يريد بقوله: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾: إني رأيت أنَّ عبادة العجل يُتقرَّب بها إلىٰ الله، لا ينافي التوحيد، فلم نترك عبادته. أفلا يجوز أن يريد هذا المعنىٰ أو مثله؟! (المؤلف).

(٢) اسم الإشارة في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾ يجوز أن يعود إلىٰ مصدر الفعل المذكور بعده، ومحل (كذلك) النصب علىٰ أنه مصدر تشبيهي، أي: نعت لمصدر محذوف، والتقدير: سوَّلت لي نفسي هذا التَّسويل، فقُدِّم علىٰ الفعل لإفادة القصر، والكاف مُقْحَمةٌ لإفادة تأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة. وحاصل الجواب: أن ما فعله إنما صَدَر عنه بمحض اتِّباع هوىٰ النفس الأمارة بالسوء، وإغوائها لا بشيء آخر من البرهان العقلي. (المؤلف).

(٣) «تفسير الرازي» (٢٢: ٩٥-٩٦).

وبعد أن أجابَ السَّامريّ بما أجاب به، أعلمه موسىٰ عليه السلام بما له من العذاب في الدنيا والآخرة، و﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أقول: هل أُصيبَ السامريُّ بمرض يُشبِهُ ما يسمُّونه النقرس، يتألَّم صاحبه ألماً شديداً إذا لمس جسمه؟ الله أعلم بذلك.

وقال بعض المفسِّرين: إن موسىٰ عليه السلام أمر الناس أن يقاطعوه ولا يخالطوه تضييقاً عليه حتىٰ هام في البراري، وعبَّر عن هذا المعنىٰ بهذه العبارة.

وعلىٰ كلٍّ، فهذا عذابه في الدنيا، أما عذابه في الآخرة فقد ذكره بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ وهو يوم الجزاء، يوم يُجازىٰ كلُّ عامل بعمله.

ثم حسَّسه بغباوته وغباوة المفتتنين به، فقال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾، وهذا دحضٌ فعليٌّ لمدَّعاهم ولـحُجَّتهم، علىٰ حدِّ صنيع إبراهيم عليه السلام بالأصنام. أي: فلو كان إلهاً لخلَّص نفسه، فما أذلَّ هذا الإله. والمراد بالتحريق: الإتلاف بتفريقه أجزاء دقيقة وسَحْقه. قال الفيروزآبادي: حرَّقه: بَـرَدَه أو حكَّ بعضه ببعض[1]. ويقال للمِبرَد: المحرق.

وإنما نسفه في اليم ـ وهو من الذهب ـ كي لا يتبرَّك به عابدوه إذا بقي منه أثر. والله أعلم.

وبعد أن أبطلَ الباطل أحقَّ الحق، ولوَّن الخطاب بتوجيهه إلىٰ العموم، فقال: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

وبهذا تمَّ حديث موسىٰ عليه السلام المسوق لتقرير أمر التوحيد، وانتهت القصة.

---

(١) «القاموس المحيط» (حرق).

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ
عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى
ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ
بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى
نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ
ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ
إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا
﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا
فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ
بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

وقد أردفها سبحانه بما يردف به القصص من بيان الحكمة منها، وهي التثبيت والتَّبصرة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ في هذا القرآن ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾[1] أي: من أخبار الأمم الماضية؛ تثبيتاً وتَبْصرةً لك وللمؤمنين.

---

(١) والقصة تلمح ـ كبقية قصص الأنبياء ـ أنَّ أكثر الأمم إذا أتاها رسولها، قلَّما تنفكُّ عن وثنيتها، وإذا أخذت الدين الجديد فلا تأخذه خالصاً كما هو، بل لا بد أن تمزجه بشيء من وثنيتها، اللهم إلا أفراداً قلائل منها. ولذلك كانت أكثر الأمم تستعصي علىٰ الأنبياء، أو ترتدُّ بعد حين إلىٰ الوثنية. ولم يَسْلَم من هذه الظاهرة في الجملة إلا أتباع محمد ﷺ، لذلك قال: «أنا أكثر الأنبياء أتباعاً يوم القيامة». والله أعلم. والسبب هو علوُّ تعاليم القرآن، وتقدُّم الإنسان بالعلوم والمعارف، فالصحابة رضي الله عنهم نزعوا ثوبهم القديم تماماً ولبسوا ثوبهم الجديد خالصاً سليماً، حتىٰ أصبحوا غيرَهم بالأمس من كلِّ الوجوه. (المؤلف).
والحديث رواه مسلم (١٩٦)، عن أنس بن مالك.

ثم نوّه بشأن هذا القرآن المحتوي علىٰ هذه الأنباء، فقال: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ حقيقاً بالتفكُّر والاعتبار، يُؤدِّي إلىٰ سعادة الدارين، و﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي: حِمْلاً ثقيلاً من العقوبة. وقد راعىٰ في إفراد الضمير لفظ: ﴿مَّنْ﴾، وراعىٰ المعنىٰ ـ وهو الجمع ـ في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي: في حَمْل هذا الوِزْر والشقاء الـمديد، ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ أي: ذلك العذاب الأليم. والخلاصة: أنهم بإعراضهم عنه يضلُّون سبيلَ النجاة والسعادة، ويَسْلكون سبيلَ شقاء لا نهاية له ولا خلاص.

ثم بسط الكلام عن ذلك اليوم وما فيه من أهوال، فقال: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ أي: مُسْوَدِّي الوجوه؛ لأنّ الزرقة تطلق علىٰ السواد(١).

ثم بيَّن حالتهم النَّفسيَّة ونَدَمهم، فقال: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يَتَلاومون سراً قائلين: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾، يُعبِّرون بذلك عن قِصَر مدَّة الدنيا، ويُنَدِّم بعضُهم بعضاً بصورة سريّة.

فزادهم الله تعالىٰ تنديماً، بترجيح قول مَنْ هو أشدُّ أسفاً وندماً، فقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيما بينهم سراً، مُظْهرين للندم والتحسُّر، ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: أعدَلُهم رأياً: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾؛ يُظهِرُ شدَّة الأسف بالمبالغة في تقليل مدّة الدنيا بالنسبة إلىٰ ما بعدها من الخلود في الشقاء والعقوبات.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ ما يكون في ذلك اليوم من أهوال طبيعيَّة، ذكره بطريقة السؤال والجواب من طرق أساليب القرآن، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى

---

(١) أو يحمل على ظاهره، والمراد: يتميَّز المجرمون يوم القيامة باللون الأزرق، من أثر الضربات التي تقع عليهم من ملائكة العذاب.

نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾﴾، وإنما أتىٰ بالعاطف في ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ للإيذان باتصاله بما قبله. والصفصف: المستوي من الأرض، والأمْت: الارتفاعات في الأرض. ويكون ذلك النَّسف بنتيجة الاصْطدام العظيم بين الكواكب، ومنها هذه الأرض، عندما ينحلُّ نظام هذا الكون ويَفسُدُ أمره لاضمحلاله بتقادُم الدهور عليه[1]، وهو المعبَّر عنه بيوم القيامة.

و ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا يعوج عن أحد ولا يعدل عنه، بل يحشرهم جميعاً، أو لا يعوجون عنه ولا يعرضون. وعلىٰ كلٍّ، فالمعنىٰ: أنهم لا يَتمكَّنون يومئـذٍ من الإعراض عن ذلك الداعي، كما أعرضوا اليوم عن هذا الداعي، وهو الرسول ﷺ.

ثم قال في إتمام البيان: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴿١٠٨﴾﴾ وهذا تصويرٌ لعظمة الله وذلِّ العباد. اللهمَّ كُن لنا في ذلك اليوم العصيب ولا تكن علينا. والهمس: ما يُسمَعُ من وطء أخفاف الإبل، استعاره استعارةً لوطء أقدام الناس عند سعيهم للحساب.

ثم ندَّد بهؤلاء المشركين الذين يعتمدون علىٰ شفاعة أوليائهم، فقال: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ في أن يشفع له. ويجوز أن يكون الاستـثناء منقطعاً أو محمولاً علىٰ المعنىٰ. علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن

---

(١) هذا غير مُسلَّم، فحلول يوم القيامة ـ بفساد نظام الكون واضمحلاله ـ إنما يكون بغتة، كما ذكر الله تعالى في غير ما آية من كتابه، وهذا يدلُّ على أن ذلك يكون بلا تقدُّم إشارات وعلامات على هذا الفساد والانقلاب في نظام الكون، فلا يكون بتقادُم الدهور عليه؛ إذ لو كان كذلك لظهرت بعضُ علامات التقادم وتوقع الناس هذا الفساد والاضمحلال، لا سيما في عصرٍ تقدَّم فيه العلم ورصد فيه الفضاء.

رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] أي: لا ينجو إلا مَنْ رحم. وهكذا هنا يكون المعنىٰ: أنه لا ينجو إلا مَنْ أذِنَ له الرحمن بالانصراف عن موقف الحساب إلىٰ الجنة، ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ١٠٩﴾ أي: وكان مرضيَّ الأقوال والعقيدة، بمعنىٰ: أنه لا يَنْجو إلا هذا الصنف من الناس، ويكون الكلام رداً علىٰ القائلين بالشفاعة المعتمدين عليها.

ومُحصَّل المعنىٰ: لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة الأعمال الصالحة والأخلاق العالية والعقائد السامية التي جاء بها هذا القرآن. فالإنسان الصالح هو شفيعُ نفسه عند خالقه، فهو يرجو بذاته رحمةَ ربِّه وغفرانه. والله أعلم(١).

قال الرازي: قال صاحب «الكشاف»: لفظ ﴿مَنْ﴾ هنا يصلح أن يكون مرفوعاً علىٰ البدل من ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ بتقدير مضاف، أي: لا تنفع الشفاعةُ إلا شفاعةُ مَنْ أذِنَ له الرحمن، ويصلح أن يكون منصوباً علىٰ المفعولية. وأقول: الاحتمال الثاني أولىٰ، وكلام «الكشاف» في هذا مبنيٌّ علىٰ كون الاستثناء متَّصلاً(٢).

ثم علَّل سبحانه وتعالىٰ هذا النفي بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ(٣) وَلَا

---

(١) الراجح في معنى الآية إثبات الشفاعة بشرطين: الشرط الأول: من أذن له الرحمن أن يشفع، والشرط الثاني: أن يرضىٰ الله سبحانه قول الشافع، وما تضمنته شفاعته للمشفوع.
وجَعْلُ المؤلف الاستثناء منقطعاً أو محمولاً على المعنى قد يُسلَّم لو كانت الآية مجرَّدة عن البيان، أما وقد جاءت السنة النبوية ببيانها، وذلك بما ثبت من أحاديث كثيرة دالة على شفاعة النبي ﷺ عدة شفاعات، منها ما رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك... حديث الشفاعة. فحينئذ لا يبقى محل لهذا التجويز الذي أورده المؤلف، ويجب المصير إلى المعنى الموافق للسنة.

(٢) «تفسير الرازي» (٢٢: ١٠١) وفيه: بتقدير حذف المضاف إليه، بدل «بتقدير المضاف»، و«الكشاف» (٣: ٨٩) وفيه: بتقدير حذف المضاف.

(٣) أي: يعلمُ الله سبحانه كلَّ ما قدّم عبادُه في حياة امتحانهم من اعتقادات ونيات وأعمال ظاهرة =

﴿يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ ووجه التعليل: أنَّ الشفيع يكشف للمشفوع منه أحوال المشفوع له ليرقَّ عليه ويعطف، والله تعالىٰ غنيٌّ عن ذلك، مُطَّلع علىٰ كلِّ شيء، فلم يبق من معنىٰ الشفاعة ـ علىٰ القول بها ـ إلا الدعاء من الله سبحانه وتعالىٰ والتوسُّل إليه أن يعفوَ ويَصْفح(١)، ولا يقبل ذلك ويأذن بالشفاعة إلا لمن رضيَ له قولاً وعقيدة، وكان له بعض هفوات ولمم(٢).

ثم قال في إتمام البيان عن ذلك اليوم: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أي: ذلَّت وخضعت ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾، قال ابن عباس: أي: خسر من أشرك بالله(٣).

ثم ذكر حالة المؤمنين في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ أي: لحقوقه وحسناته بأن لا يُجازيهم عليها، ﴿وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ لها

= وباطنة، ويعلمُ سبحانه كلَّ ما يأتي في مستقبل أمرهم يوم الدين، فهو الذي يكون خلفهم، لأنهم يجهلونه.

(١) وأيُّ شيء أفضلُ من دعاء الله تعالى والتوسُّل إليه؟ فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، رواه أصحاب السُّنن، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٣٥]، وشفاعةُ النبي ﷺ لا تكون إلا بالدعاء والتضرُّع إلى الله تعالى والتوسُّل إليه.

(٢) قال الإمام أبو منصور الأزهري في «الزاهر» ص ٢١٦: «أصل الشفع: الزيادة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]. أي: يزيدُ عملاً إلى عمل، قال النبي ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» رواه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٧)، وهي للموحِّدين الذين ارتكبوا الكبائر يشفع لهم النبيُّ ﷺ أن يُغفَرَ لهم ذنوبُهم، ويزدادوا كرامةً على ما استوجبوا بتوحيدهم خالقهم عزَّ وجلّ». انتهى.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٥: ٢٩٦).

وتنقيصاً من جزائها، وما يستحقُّه عليها، بل يُجازى بالجزاء الأوفىٰ. يُنوِّه بشأن جزاء المؤمنين في الآخرة، ويُعظِّم أمره بعبارة مُجْملة مقابلة لخيبة الظالمين.

ثم عطف علىٰ قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ ...﴾ قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾(١) ليفهمه العرب قاطبةً، ويقفوا علىٰ ما فيه(٢)، ويقوموا بالتبشير به ونشر

---

(١) يقول المتخصِّصون في اللغات: ليست لغةٌ تسامي العربية في أداء الأفكار العالية، والإفصاح عن أدق المعاني. فبالجمل الصغيرة منها تؤدىٰ الموضوعات المهمة، وتكون قوية التأثير علىٰ النفوس.
أقول: وهذا ما تحتاجه معاني القرآن الكريم، فلا لغة تقوم بأداء العلم الإلهي وتتَّسع لدقائقه والتأثير به علىٰ القلوب بقوة تامة، سوىٰ اللغة العربية، لذلك أنزل فيها القرآن. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) أنزل سبحانه للبشر كلِّهم قرآناً عربياً؛ لأنه لا يمكن بيان معانيه لسَعَتها ودقَّتها إلا بهذه اللغة، التي شهد الآن علماء اللغات علىٰ اختلاف لغاتهم وأجناسهم بأن اللغة العربية ـ في القدرة علىٰ تحديد المعاني والإفصاح عنها، والتعبير عن دقائقها وإشاراتها ـ تمتاز علىٰ سائر لغات العالم حتىٰ اللاتينية التي أجمعت الأمم علىٰ أنها أميز سائر اللغات. وفوق ذلك يجب أن تكون العربيةُ ـ لغةُ القرآنِ المنزَّل علىٰ البشر كلِّه ـ لغةً عالمية لبني الإنسان مع لغاتهم الخاصَّة، حتىٰ يتفاهموا بها جميعاً، ويفهموا قرآنهم، ويكونوا أمةً واحدة، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، لغة واحدة، ودين واحد، ورب واحد، ومجتمع لكل البشر، سعيد لا غائلة فيه ولا خصام، إلا في مشاكل بسيطة تُحَلُّ بشريعة الإسلام.
وقد جاء في القرآن آيات عديدة تدل علىٰ ذلك، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقد أوجب سبحانه أن تكون الحكومة الإسلامية حكومة عربية بصبغتها ونظامها ولغتها وأحكامها، فقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد: ٣٧].
وقد فهم هذا الأمر جميع المسلمين الأُوَل، فلم تـقم دولة إسـلامية من العرب والعجم إلا =

دعوته ولغته، كما وقع في الصَّدر الأول. وهذا النشر فرضُ كفايةٍ علىٰ العرب في كل عصر، ويأثمون بتركه.

ثم أكمل البيان بقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي: لوَّنا العبارات ونوَّعنا المواعظ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ذلك الوعيد، وهذا أدنىٰ المراتب، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣)﴾ بنتيجةِ فَهْم هذا القرآن علىٰ وجه أوسع، وهذا أعلىٰ المراتب، ويكون متفاوتاً في الأشخاص. وللإيماء إلىٰ هذا التفاوت قال: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣)﴾، ولم يقل: (أو يتذكَّرون).

ويجوز أن يكون المعنىٰ: أنَّ القرآن المنزَّل بلغة العرب يُحدِثُ لهم ذِكراً وشرفاً لقيامهم بنشره بين الأمم. والله أعلم.

وإذا أرجعنا الضمير علىٰ جميع المسلمين يكون المعنىٰ: إنَّ المتمسِّك بتعاليم هذا القرآن والمثقَّف بثقافته علىٰ الوجه الصحيح، يكون شخصاً ممتازاً؛ لأنَّ معنىٰ الإنسانية إنما يتم بتعاليم هذا القرآن. والله أعلم.

= كذلك، كالبويهية والسلجوقية والأتابكية وحكومات المماليك في مصر من بحريَّة وحربية، كذلك التتار الذين أقاموا دُوَلَهم في آسيا، وعشرة سلاطين من بني عثمان، ثم أبدلوا العربية بالتركية، فكان هذا منهم إجراماً كبيراً وافتئاتاً علىٰ الدين والقرآن عظيماً. ثم تجرَّأت سائر الدول الإسلامية من الأعاجم المتغلبة علىٰ إبدال اللغة العربية بلغتها، فضاع فيهم الإسلام والقرآن، وأصبح شكلاً هزيلاً؛ لأنَّ القرآن لا يفهم فهماً صحيحاً إلا بلغته العربية وأساليبها. وقد قال ﷺ: «ليست العربية في أحدكم من أم ولا أب، إنما هي اللسان». ولذلك كان أول المؤلفين في العلوم العربية الأعاجم، كسيبويه وأضرابه خدمةً لأممهم. ووضعت المدارس في الدول الإسلامية لتدريس العلوم العربية إلىٰ يومنا هذا لهذا الغرض النبيل، وكل دولة إسلامية لم تكن العربيةُ لغتَها الرسمية لم تكن دولة إسلامية بالمعنىٰ الصحيح، ولم تفهم من تعاليم القرآن ومفاهيمه إلا فهماً هزيلاً. (المؤلف).

والحديث سبق تخريجه (٢: ١٩٥).

ثم ختم هذا الكلام بتنزيه ذات الله تعالىٰ مُنزِّلِ هذا القرآن العظيم الحاوي لسائر الأمور التي تصلح عليها العباد، من الأحكام والآداب، والأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، فقال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: علا شأنه وَتَنزَّه عن مماثلة المخلوقين.

ثم علَّم رسوله كيف يتعلَّم هذا الوحيَ المنزَّل، وكيف يُعلِّمُه، فقال: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ قال مجاهد[١] وقتادة[٢] وأبو مسلم: أي: لا تُمْلِهِ علىٰ أصحابك ولا تقرأه عليهم حتىٰ يتبيَّن لك معانيه[٣].

ثم أكمل له هذا الأدب، فأمره أن يدعو بهذا الدعاء، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ أي: سَلِ اللهَ عزَّ وجل زيادةَ العلم، فإنه الموصِلُ إلىٰ السعادة. وفي الكلام إلماعٌ بأنَّ في هذا القرآن علوماً راقية، وآداباً عالية، وأهدافاً جليلةً ساميةً، لا معنىٰ للإنسانيَّة والكمال الإنساني سوىٰ هذه الأهداف التي يستهدفها القرآن في أحكامه وتعاليمه ومواعظه وإرشاداته. وكذلك تفيد الآية الحثَّ علىٰ طلب العلم والاستزادة منه، وأن ذلك يكون بهذا القرآن وما فيه من تعاليم وبيان.

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ١١٦ فَقُلۡنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٤١٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨: ٣٨٢).

(٣) أما يجوز أن يكون المعنىٰ: لا تقرأ مع جبريل حتىٰ ينتهي من إلقائه عليك، ثم اقرأ ما أُلقي إليك؟ والله أعلم. (المؤلف).

عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

ثم نبَّه إلىٰ حكمة هذا الأدب وسرِّ هذا الدعاء، بما وقع لآدم، حيث نسيَ عَهْدَ الله إليه بعدما بالغ في تحذيره وتنبيهه، فدلَّ ذلك علىٰ ضعف القوة البشريَّة، والاحتياج إلىٰ الاستعانة بالله في التوفيق، لتحصيل زيادة العلم والتجنُّب عن السَّهْو والزلل والنسيان، وكذلك نبَّه إلىٰ أنَّ ما جاء في هذا السياق من إعراض المعرضين عن الهدىٰ إنما هو من تأثرهم بوساوس الشيطان؛ ذلك العدوُّ الـمُضِلُّ المبين، الذي بيَّن الله عداوتَه في قصَّته مع آدم، مُلْمِعاً إلىٰ أنَّ الإعراض عن الهُدىٰ حالة من حالات الإنسان، تتكوَّن بتأثير وساوس الشيطان، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ وقد فسَّروا العَزْمَ(١) بأحد معنيين: الأول: الثبات، والثاني: التعمُّد، أي: لم نجده تعمَّد ذلك، وعلىٰ الأول يكون لفظ (نسي) للمبالغة في عدم الثبات.

ثم فصَّـل ذلك بقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ

---

(١) العَزْم: الإرادة القوية التي لا تستجيب لأشد الـمُغريات، ولا تَضعُفُ أمام المصائب الكبرى التي تحتاج إلى صبر عظيم.

﴿فَتَشْقَىٰٓ ١١٧﴾ وقد خصَّ الواحدَ بالشقاء بعد خطاب الاثنين لأصالته في الأمر والشأن، ومثل ذلك من خصائص اللغة.

ثم علَّل ذلك الشقاء وعظَّمه بتَعداد محاسن الجنَّة التي يفقدها بالإخراج، فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ١١٩﴾، والظمأ: العطش، والضحىٰ: الحرّ، مأخوذ من إصابة حرِّ الشمس في شدَّة الضحىٰ. ومُحصَّل المعنىٰ: إن في هذه الجنة ما يستحق أن يُحرَصَ عليه من سعادةٍ عُظمىٰ ونعيم جليل.

فأزلَّه الشيطان عن ذلك بوساوسه، كما حكاه سبحانه بقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ١٢٠﴾ ولا زال بآدم وحوَّاء حتىٰ أنساهما نهيَ الله لهما عن الأكل من هذه الشجرة، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ قال ابن عباس: عَرِيَا من النور الذي كان الله تعالىٰ قد ألبسهما، فبَدَتْ بشرتُهما حتىٰ بَدَتْ فروجهما[1].

وقال في «المنار» في تفسير سورة آل عمران[2]: والأقرب عندي في معنىٰ ظهور سَوْءاتهما لهما: أنَّ شهوة التناسل دبَّت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة، فنبَّهتهما إلىٰ ما كان خفياً عنهما من أمرهما، فخجلا من ظهورها، وشَعَرا بالحاجة إلىٰ سترها[3].

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ أي: يلصقان ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بهذا الأكل ﴿فَغَوَىٰ ١٢١﴾ أي: ضلَّ عن الهدف الأسمىٰ، لكنه تاب فتاب الله عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: قرَّبه إليه ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ أي: وهداه بتعاليم

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٢: ١١٠).

(٢) بل في تفسير سورة الأعراف (٨: ٣١١).

(٣) هذا تأويل متكلّف، واللفظ لا يحتمل حَمْلَه على هذا المعنى.

الوحي والنبوَّة بعد أن تاب عليه. وإنما جعله عاصياً مع أنه كان ناسياً، تغليظاً عليه، لعدم عنايته بالاحتياط. ولا يَبْعُدُ أن يراد بالنسيان: عدم التمسُّك بالنهي. أمَّا إبليس فلأنه أصرَّ علىٰ العصيان لعنه الله وأخزاه، وجَعَل النار منقلبَه ومثواه.

ثم حكىٰ سبحانه ما أصدره من الحكم عليهما جزاءَ ذلك، وهو إخراجهما من الجنة، مبالغاً في تنبيه الإنسان إلىٰ شدَّة عداوة الشيطان، تحذيراً منه، حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾ أي: من الجنة إلىٰ الأرض ﴿جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ يحذِّر بني الإنسان من إبليس ووسوسته؛ لأنه عدوٌّ لآدم وذريته، فيكون الجمع بهذا الاعتبار. ويجوز أن يكون الخطاب لآدم وحواء مُراداً بهما النوع الإنساني؛ لأنهما أصله. ويكون المراد من العداوة: تَنَازع البقاء بين أفراد النوع الإنساني بدوام وساوس الشيطان في هذه الحياة الجديدة التي هبط إليها.

ولـما كان خروجهما من الجنة بسبب انحرافهما عن التعاليم، وكانت هذه الطبيعة المحروفة تؤدّي إلىٰ الخروج عن الصراط المستقيم، ذكر سبحانه وتعالىٰ حاجة إرسال الرسل إليهم، وأنه سبحانه مُرسِلُهم، وسيكون المتَّبع لهم سعيداً والمُعْرض عنهم شقياً طريداً، فقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ أي: كتابٌ ورسولٌ، والخطاب هنا لآدم وذرِّيته، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: معيشةً ضيِّقةً؛ لأنَّ الضَّنك معناه: الضِّيق. وقد أقيم المصدرُ مقامَ الوصف للمبالغة.

أقول: وذلك لأنّ في إقامة شرائع الله والتمسُّك بهُداه علىٰ الوجه الصحيح إصلاحاً للنفوس، وتنظيماً للأحوال، ووقوفاً عند الحدود، وتسليماً بالحقوق، وسلوكاً للصراط المستقيم المنطبق علىٰ السنن الكونية والفطرة الإنسانية، وفي ذلك كلُّ الخير

والصلاح لبني الإنسان في شؤونهم الاجتماعية وتسييرها في راحة واطمئنان، وفي الأحوال الروحيَّة وما يتبعها في الحياة الأخرىٰ من نعيم ورضوان.

ثم تابع الكلام عن المُعْرِض فقال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾، كما جاء في سورة الإسراء في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، أي: كما كانوا في الدنيا لا يبصرون الحق ولا ينطقون به ولا يستمعون له، جزاءً وفاقاً. ولا يبعد أن يكون الجسم الثاني[١] للكافر أعمىٰ حقيقةً جزاءَ عمله في الدنيا.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ أي: في العَمَىٰ والعذاب، بمعنىٰ: تدوم فيه ولا ترىٰ السعادة بعينك أبداً، حيث يُرمَزُ بعدم رؤية الشيء عن عدم الحصول عليه، فيقال: لا ترىٰ كذا بعينك، أي: لا تحصل عليه. وقوله: ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ إقرارٌ منه بأنه لم يُخلَقْ مطبوعاً علىٰ العَمَىٰ والضلال، بل علىٰ النظر والهدىٰ، ولكنه ضلَّ بنفسه حين أعرض عمَّا جاءهُ عن الله من التعاليم والتوجيه الصحيح الذي يدفع الإنسان إلىٰ ما هو مستعدٌّ له من كمال الإنسانية وما يترتَّب عليه من السعادتين الدنيويَّة والأخرويَّة، وإنما خصَّ البصر بالذكر لأنه مبدأ الإدراك، فالآية لإفادة أنه كان سالم البصيرة مُستعداً لمعرفة الحق والإيمان بالله والتمسُّك بتعاليمه، في أصل خلقته؛ لقوله ﷺ: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة»[٢] الحديث، ولكنه عميَ قلبُه وساء إدراكُه بسُوء تربيته، فترتَّب علىٰ ذلك أثرُه في الآخرة. وحاصل المعنىٰ:

---

(١) أي: الذي يكون له بعد البعث.

(٢) رواه البخاري (١٣٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أنه أفسد فطرته فنتج له هذا الشقاء. ويجوز أن يكون عمى الآخرة بمعنىٰ عدم حَظْوته بسعادتها؛ لأن الذي لا يحظىٰ بالشيء لا يُبصِره، فهو تعبيرٌ باللازم ومشاكلة في الكلام(١). والله أعلم. وعلىٰ كُلٍّ، فمحصِّل الآية: أنَّ العمىٰ عن الشريعة وتعاليمها يؤدِّي في الآخرة إلىٰ الشقاء الأليم. وقد أفصح الله عن هذا السبب للتأنيب والتنديم.

وقد جاء في بعض بحوث «المنار»: إنَّ نسيان الآيات يكون بإهمالها وعدم العمل بموجبها، فإنَّ العمل هو الذي يجعل العلم راسخاً في النفس مستقراً عندها. ويُؤْثَـرُ عن أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه أنه قال: يهتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل. وذلك أن العلم إنما يحضر في النفس مُـجْمَلاً غير سالم من إبهام وغموض، فإذا برز للوجود بالعمل صار تفصيلياً جلياً، ثم ينقلب النظري منه ـ بالتكرار والمواظبة ـ بديهياً ضرورياً، وبذلك يثبت فلا يُنسىٰ. وأما النسيان فإنه حليف الكفر، وإنه ليصل إلىٰ حدٍّ يُساوي فيه مَنْ لم تسبق له معرفة بالشيء قط؛ لأنَّ المنسيَّ لا أثر له في النفس ولا في الظاهر.

ولا فرق بين مَنْ بَلَغَتْهُ دعوة الهداية فسلَّم بها وقبلها، ثم ترك العمل بها حتىٰ نسيها، وبين مَنْ لم تبلغه البتة، ومَنْ بَلَغَتْهُ علىٰ وجه غير مُقنع فلم يؤمن، إلا أنَّ الحجة علىٰ الأول أظهر، والثاني معذور عند الجمهور، وكذلك الثالث إذا استمرَّ علىٰ النظر من غير تقصير(٢). هكذا قيل(٣) فعلىٰ هذا تكون منزلة الناسي هي التي تلي منزلة الجاحد

---

(١) يُضعِّف هذا التجويز مقابلة العمى بالبصر في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾.

(٢) تفسير «المنار» (١: ٢٨٢-٢٨٣).

(٣) لا أرىٰ أنَّ الصنف الثاني والثالث معذوران؛ لأنا نرىٰ أنَّ الإنسان قد وَصَل بعقله وعلمه إلىٰ درجة رفيعة من المعرفة والإدراك، بمجرَّد الفحص والتفتيش في أمور كونية واسعة المدىٰ =

المعاند، وهو خليقٌ بأن يُحشر يوم القيامة أعمىٰ عن طريق النجاة والسعادة، حتىٰ إذا لقيَ ربَّه ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾.

أقول: وإن صحَّ ما قاله الجمهور في الصنف الثاني أنه معذور، فلا أرىٰ صحَّته إلا في عصر الرسول؛ لأن الدعوة قد انتشرت بعده، فلا عُذرَ لأحد.

وإنَّ في هذا لَـحُجةً علىٰ قرَّاء القرآن وسامعيه الذين ليس لهم منه إلا التَّغنّي بألفاظه والتلذُّذ بنغماته، وهذا أشرُّ أنواع النسيان. وقد ضرب له أبو حامد الغزالي مثلاً بعبيد أقطعهم سيدهم بستاناً، وكلَّفهم إصلاحه وعمارته، وكتب لهم كتاباً يبيِّن لهم فيه

= بعيدة المنال، فإذا كان هذا استعداده العلمي الذي أعطاه الله إياه، فلِمَ لم يفتش عن أمر أراده الله منه لخيره وصالحه، وطبعه الله عليه في خِلْقته وتكوينه، وأرسل له فيه رسلاً محصورين في الكرة الأرضية الصغيرة المحدودة المدىٰ، وأرسل معه كتباً منشورة، وكلَّف الإنسان بالفحص عنهم والأخذ منهم، وجَعَل له في ذلك غاية عظيمة الشأن جليلة العُقْبىٰ، فأيُّ عذر له إن لم تبلغه الدعوة ولم يفتش عنها، أو بلغته ولم يدرسها درساً وافياً صحيحاً، بهذا العقل والاستعداد الذي وَهَبه الله له ومَنَحه إياه، وقَدِرَ به أن يستنبط الكائنات من مكامنها، والعظائم من خفاياها وحصونها، لا أرىٰ ذلك أبداً. وواجب علىٰ كل إنسان أن يفتش علىٰ الدين الصحيح من بين الأديان. (المؤلف).

قلت: هذا الذي اختاره المؤلف من عدم إعذار مَنْ لم تبلغه الدعوة، لأنه مُلزَم بالانقياد إلى الحق بعقله؛ هو قولُ المعتزلة في التحسينِ والتقبيح العقليين، وإلزامِ العباد بحكم العقل في ذلك، وليس بصواب، لأن العقول متفاوتة في الإدراك، وما لم يأتها رسولٌ يُحفِّزها على التأمل والتفكر فإن الكثير منها لا يُدرك هذه الأحكام، ولذلك جعل الله الحجة على العباد في إرسال الرسل، لا في أحكام عقولهم دون رسالة، كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

كيف يسيرون في هذا الإصلاح، وكيف يكون شأنهم فيه، ووعدهم علىٰ الإحسان بمكافأة وأجر عظيمين، فوق ما يستفيدونه من ثمرات البستان وغلاته، وتوعَّدهم علىٰ الإساءة في العمل بالعقوبة الشديدة فوق ما يفوتهم من خيرات البستان، وما يذوقون من مرارة سُوء المعاملة فيما بينهم. فكان حظُّهم من الكتاب تعظيمَ رقِّه وورقه والتغنِّي بلفظه وتكرار تلاوته بدون مبالاة بالأمر والنهي، ولا اعتبار بالوعد والوعيد فيه، بل عاثوا في أرض البستان مفسدين، فأهلكوا الحرث والنسل بغياً وجهلاً، فهل يكون حظُّ هؤلاء من الكتاب غير أنه حجَّةٌ عليهم، وقاطع لألسنة العذر منهم. انتهىٰ.

ثم حسَّس بشدَّة هذا الجزاء وقرَّره، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالإعراض ﴿وَلَمْ يُؤْمِن بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي: نجزيه تلك المعيشة الضَّنك في الدنيا، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

ثم نبَّههم إلىٰ ما كان من إهلاك أمثالهم في القرون الماضية تخويفاً وإنذاراً، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ وهم علىٰ الدوام ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ في

طريقهم إلىٰ الشام للتجارة. وقد ضمَّن ﴿يَهْدِ﴾ معنىٰ: يبيِّن، علىٰ أسلوب القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، وفي المادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة)، أي: ألم يُبيِّن لهم مصيرَهم ويُنبِّههم إليه إهلاكُنا لأمثالهم من القرون السالفة، وهم علىٰ الدوام يمشون في مساكنهم وديارهم في طريقهم إلىٰ الشام للتجارة، ويشاهدون تلك الآثار أو أماكنها بأعينهم، وهي ديار عاد وثمود وقرىٰ لوط.

ثم وبَّخهم وأنَّبهم علىٰ عدم اعتبارهم بهذا، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ أي: لأصحاب العقول الصحيحة الناهية عن التعامي والتغافل، بخلاف هؤلاء. ومن مباحث اللفظ: أن كلمة ﴿كَمْ﴾ فاعلُ ﴿يَهْدِ﴾؛ لأنها للتكثير، بمعنىٰ: كثرة ما أهلكنا، ويُسمَّىٰ استفهاماً خبرياً.

ثم بيَّن سببَ تأخيرِ العذاب عنهم مع عنادهم في الكفر وإصرارهم فيه، فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب إلىٰ يوم القيامة ﴿لَكَانَ﴾ العذاب ﴿لِزَامًا﴾ لهم واقعاً عليهم في الحال. وقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ معطوف علىٰ ﴿كَلِمَةٌ﴾، وإنما فَصَله عن المعطوف عليه للمسارَعة إلىٰ بيان جواب (لولا)، وللإشعار باستقلال كلٍّ منهما بنفي تعجيل العذاب. والمعنىٰ: لولا كلمةٌ سبقت من ربك وأجلٌ مُسمًّىٰ للعذاب ـ وهو يوم القيامة وما يتبعه ـ لكان عذابهم لزاماً في الحال.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مِنْ تكذيبك والشِّرك بالله، ﴿وَ﴾ استعانةً علىٰ الصبر ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ أي: رجاء أن تَنال من الله ما تَرضىٰ به نفسك.

وقد جاء في «الرازي» ما مُلَخَّصُه: وقد اختلفوا في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ علىٰ أقوال:

الأول - وهو قول أبي مسلم -: لا يبعد حَمْلُه علىٰ التنزيه والإجلال، والمعنىٰ: اشتَغِلْ بتنزيه الله تعالىٰ في هذه الأوقات. وهذا القول أقرب إلىٰ الظاهر وإلىٰ ما تقدَّم عليه في السياق، وذلك لأنه تعالىٰ صبَّره أولاً علىٰ ما يقولون من تكذيبه، ومن إظهار الشرك والكفر وتأخير العذاب عنهم، والذي يليق بذلك أن يأمره بتنزيهه تعالىٰ عن قولهم في كلِّ الأوقات، حتىٰ يكون علىٰ الدوام مُظْهراً له وداعياً إليه، فلذلك ذكر ما يجمع كل أوقات الفراغ من آناء الليل وأطراف النهار.

الثاني - وهو قول ابن عباس -: أنَّ الآية تدلُّ علىٰ الصَّلوات الخمس[1]، فقبل طلوع الشمس: هو صلاة الفجر، وقبل غروبها: هو الظهر والعصر؛ لأنهما جميعاً قبل الغروب، ومن آناء الليل: المغرب والعشاء. وقوله: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ كالتوكيد للصلاتين الواقعتَين في طَرَفي النهار، وهما صلاة الفجر وصلاة المغرب، كما اختصَّت بالتوكيد في قوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] علىٰ بعض الأقوال فيها.

الثالث: أنَّ الآية تدلُّ علىٰ الصَّلوات الخمس وعلىٰ النوافل. أما دلالتها علىٰ الصلوات الخمس، فلأن الزمان إما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها، فالليل والنهار داخلان في هاتين العبارتين، فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيها. وقوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ هو للنوافل، ولذلك غيَّر الأسلوب[2]. وعلىٰ هذا، فالمراد بالآية تثبيته ﷺ في مثل هذا الموقف بإقامة الصلاة، علىٰ نهج القرآن في ذلك؛ لأنها تُعينُ علىٰ الصبر والثبات، فيعقِّب به علىٰ المواقف الحرجة.

وبعد أن تكلَّم عن تأخير عذابهم، وأمره أن يستعين علىٰ الصبر عليهم بالتسبيح،

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٦: ١٩٣).

(٢) «تفسير الرازي» (٢٢: ١١٣).

تكلَّم عن ترفيههم في هذه الحياة مع إصرارهم علىٰ الكفر، وضمَّن ذلك تهوين أمر الدنيا، وأخرج الكلام بصورةٍ من صُور شدَّة البيان الذي يخاطب به القرآنُ النبيَّ ﷺ ويريد أمته، أو هي عبارة للتهوين والتزهيد، لا يُراد بها حقيقةُ معناها، وإنما يُراد بها مجرَّد الاستهانة بالشيء، فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ استحساناً ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافاً من الكَفَرة. ويجوز أن يتعلَّق لفظ: ﴿مِّنْهُمْ﴾ بـ﴿مَتَّعْنَا﴾، ويكون ﴿أَزْوَٰجًا﴾ حالاً من ضمير ﴿بِهِۦٓ﴾، أي: ما متَّعنا به من أصناف المتع بعضَهم.

ومحصَّله: ما متَّعنا به بعضَهم من أصناف المتع ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنُظهِرَ بذلك ما انطَوَوا عليه من خبث النفوس واقتصارها علىٰ ما في هذه الحياة، وهذا أمرٌ يوافق مَسْلكه ﷺ، فهو للمبالغة في التأديب.

ويجوز أن يكون ما كان عليه المسلمون من الفقر والعوز نتيجةَ مقاطعة المشركين لهم، أو هجرتهم عن ديارهم وأملاكهم، وما كان عليه الكفار من التموُّل والغنىٰ، يحزُّ من[1] نفسه ﷺ، لا سيما والحروب تحتاج إلىٰ الأموال، فوعظه سبحانه وتعالىٰ وهوَّن عليه بقوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ من الـهدىٰ والنـبوَّة، أو ما يدَّخره لك في الآخرة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾، ومفاد البيان: أن زهرة هذه الحياة وزخارفها ليست بشيءٍ عند الله؛ لأنها متاع قليل، وأنَّ المؤمن إذا حُرِمَها فلأنه سينال في الآخرة الجزاء الأوفىٰ.

ثم طلب منه ما يؤدِّي إلىٰ مثل ذلك الجزاء، وهو الصَّلاة، وأن يأمر أهله أيضاً بها، ويحافظ عليها، فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: ثابِرْ عليها غيرَ مشتغل عنها بأمر المعاش كثيراً حتىٰ يشغلك عنها، فإنا ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلِّفك أن ترزق نفسَك ولا أهلَك، بل ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإيَّاهم بعد السَّعي فيه، ولكنْ نكلِّفكم بالصلاة

(١) كذا، والصواب: في.

والمحافظة عليها بحيث لا يشغلكم عنها شاغل، ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ الحميدةُ ﴿لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ لا لزهرة الحياة الدنيا، فالمتَّقون هم الذين يَحُوزون تلك العاقبة السعيدة، وينالون الجزاء الأوفىٰ.

وقيل أيضاً في قوله: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗا﴾: أن المعنىٰ: إنّا لـمّا أمرناك بالصَّلاة فليس ذلك لأنا ننتفع من صلاتك كما ينتفع الأسياد من العبيد، ويبغونهم لذلك. فعبَّر عن هذا المعنىٰ بقوله: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗا﴾.

قال أبو مسلم: المعنىٰ أنه تعالىٰ إنما يريد منه العبادة لصالحهم، ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادةُ الخراجَ من العبيد. وهو كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨].

أقول: فيكون هذا المعنىٰ مأخوذاً من حال المُخَاطَبين، ويكثر وقوع ذلك في القرآن وتعابيره، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة في مجازات القرآن).

ثم إنه سبحانه وتعالىٰ ذكر بعض ما يقولون مما أمره بالصبر عليه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، فردَّ عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣﴾ أي: أوَلم يأتهم هذا القرآن الموافق لما في كتبهم، مع أنَّ الرسول لم يشتغل بالدراسة ولا بالتعلّم. وقيل: بل المراد بـ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾: ما فيها من البشارة بمحمد ونبوَّته وبعثته. وقال ابن جرير والقفال: المراد: أوَلم تأتهم في هذا القرآن بيِّـنةُ ما في الصُّحف الأولىٰ من أنباء الأمم الذين أهلكناهم لما سألوا الآيات وكفروا بها، كيف عاجلناهم بالعقوبة(١).

---

(١) ينظر «تفسير الطبري» (١٨: ٤٠٧).

ثم بيَّن تعالىٰ أنه أزاح عنهم ـ بإرسال هذا الرسول وإنزال هذا الكتاب ـ كلَّ عذر وتَعِلَّة، فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أي: من قبل بَعْثِ محمد ونزول القرآن، ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ لو أرسلت إلينا لاتَّبعنا آياتك وتداركنا الأمر قبل أن يمسَّنا العذاب، أما الآن وقد أُرسِلَ إليهم برسول وكتاب فلم يَبْقَ لهم حُجَّة ولا تعلَّة، فتوعَّدهم علىٰ لسان رسوله وأنذرهم، فقال: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ أي: كلٌّ منا ومنكم مُنتظر عاقبةَ أمره، فانتظروا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: ستعلمون أيٌّ منا ومنكم المهتدي إلىٰ الطريق السَّويِّ الـمُوصِل إلىٰ ساحة النجاة وموطن السعادة. اللهمَّ اجعلنا ممن سبقت لهم منك الحُسْنىٰ والزيادة يا أرحم الراحمين.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ الأَنبِيَاء

مكيَّة، وهي مئة واثنتا عشرة آية

وقد جاء في أول هذه السورة بيانُ قُرب ما أُمروا بتربُّصه من العذاب في آخر السورة السابقة.

ثم قرَّر إثبات النبوات، وذكر اختصاص الله سبحانه بأفعال الألوهية.

ثم ذكر قصص أولئك الأنبياء الذين بيَّنوا لأقوامهم بطلان الشرك وحقيَّة التوحيد والنهج المستقيم، وبشَّروهم وأنذروهم بمصير المؤمنين والكافرين.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن
رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ
هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ
فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ
شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ
يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ
ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ
ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ
أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ نعىٰ عليهم غفلتهم عن يوم الحساب الذي قَـرُب موعده، وأضاف إلىٰ ذلك إعراضهم عن كلِّ كتاب يُنزلُه الله فيهم للدعوة إلىٰ النجاة من ذلك اليوم، فقال: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ أي: كتاب مُـحْدَث التنزيل من الله، يدعوهم فيه إلىٰ سعادة الداريْن ﴿ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ

﴿يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ بمعنىٰ: لم يُعيروا اهتماماً لسماعه ودرايته، بل كانت ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ عن النظر فيه والتفكير في مشتملاته وتعاليمه وما يدعوهم به إليها من سعادة الدنيا والآخرة.

والآية تدل علىٰ أنَّ الشرائع تحدث الواحدة بعد الأخرىٰ، وأنه يجب علىٰ كافَّة الناس في عصر تنزيل الشريعة وإحداثها أن يتَّبعوها؛ لأنها تنسخ ما قبلها، ولا سيما شريعة القرآن، كما جاء ذلك في سورة آل عمران، عند قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ...﴾ [آل عمران: ٨١].

ثم بيَّن كيف يتمالأ الظالمون المضلُّون سراً فيما بينهم، ويدبِّرون أمر التمويه والتضليل الذي يبثُّونه في الناس، تدجيلاً عليهم وتسويلاً، فقال: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قائلين لمن يُضلِّلونهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ﴾ المدَّعي أنه رسول من الله أرسله بهذه الشريعة المُحْدَثة ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، فكيف تقبلون منه هذه الدعوىٰ؟ ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾ أي: مع كونكم تعلمون أن هذا الذي جاء به ـ وهو القرآن ـ سحر مبين، تأتون وتستمعون إليه؟ يُضلِّلونهم ويعبثون بعقولهم بهذين الأمرَيْن؛ الأول: أنه بشرٌ مثلكم، فكيف يكون رسولاً لهم من الله؟ الثاني: أن هذا الذي يُسمِّيه القرآنَ ويدَّعي أنه من الله ما هو إلا كلامُ ساحر قويّ التأثير والتمويه، وكانوا يتخيَّلون أنَّ النبيَّ لا بدَّ أن يكون ذا صفات يفترق بها عن طبائع البشر، أو يكون من الملائكة، وكلُّ مَنْ يأتي بالمعجزات من البشر فهو ساحر.

وإنما جاء بقوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، فأتىٰ بواو الجماعة، ثم أبدل منه ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لأنه أبلغ في التَّنصيص علىٰ الذمّ، وتقرير المعنىٰ الذي بصدده، وهو بيان قوة مكرهم، وأنه ظلم فظيع.

وبعد أن حكىٰ ما أوحىٰ إلىٰ رسوله من أحوالهم وأقوالهم؛ تبييناً لأمرهم وتكشيفاً لسرِّهم، حكىٰ ما قاله عليه السلام في الاستعانة عليهم بالله، فقال: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الذي يُقالُ في السماء والذي يُقالُ في الأرض، جهراً كان أو سراً، فلا يخفىٰ عليه سرُّ الـمتناجين ومكرُ المفسدين، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾ فيُجازيهم عليه جزاءً وفاقاً.

ثم انتقل من حكاية قولهم السابق في التضليل والتنفير، إلىٰ حكاية أقوالٍ أُخَرَ مضطربة في مسالك البطلان، فقال: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أي: إن هذا القرآن تخاليط أحلام يراها في المنام. ثم أضربوا عن ذلك، فقالوا: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ من تلقاء نفسه، ثم قالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي: ذو خيال واسع وإحساس عميق، يؤثِّر علىٰ مشاعر الناس بقوة كلامه.

ويجوز أن تكون هذه التقوُّلات والأباطيلُ كلُّها داخلةً في نَجْواهم ومسارَّتهم، وقد تحدَّوه عناداً بقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: وإن كان نبياً ـ كما يدَّعي ـ فليأتنا بالخوارق والمعجزات التي جاء بها الأنبياء قبله، مثل: اليد، والعصا، وإبراء الأكْمَه، وإحياء الموتىٰ.

فردَّ عليهم سبحانه، وكذَّبهم فيما تُنبئُ عنه خاتمةُ مقالهم من الوعد الضمني بالإيمان إذا جاءهم بآية كما أرادوا، واستشهد علىٰ ذلك بأمثالهم من الأمم الذين طلبوا الآيات، فلما أتتهم لم يؤمنوا فأهلكهم الله، فقال: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ لو جئتَهم بآية كما اقترحوا، وهم أعتىٰ وأنكىٰ؟

وفي قوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ إيذانٌ بجَريان سنّة الله تعالىٰ في استئصال الـمُقْترحين إذا أُعْطُوا ما اقترَحوا فلم يؤمنوا. والمعنىٰ: أهلكناها إذ أعطيناها سُؤْلَـها فلم تُؤْمن.

ثم أجاب عن قولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؟ وضمّنه الردَّ عما دسُّوه تحت قولهم: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ من التعريض بأنه ليس مِثلَهم؛ إذ ليست لديه معجزات كأولئك، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ولم نُرسِلْ ملائكة، فما كنتَ بِدْعاً من الرسل. يردُّ بهذا علىٰ مَنْ ينكر رسالة الرسل؛ لأنهم بشر مثلهم.

ثم لفت الخطاب فوجَّهه إلىٰ المنكرين، وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ وهم أهل الكتاب الواقفون علىٰ تاريخ الرسل السالفة ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ أيها الجَهَلة. وهذا تبكيتٌ لهم وتجهيلٌ في أمر إرسال الرسل وتاريخهم. وكان مشركو العرب يعتمدون علىٰ أهل الكتاب ويثقون بأقوالهم وآرائهم. ويجوز أن يكون الخطاب عاماً للمشركين وغيرهم؛ إذ الغَرَضُ منه تقريرُ الموضوع.

ثم مكّن الردَّ بسَلْب ضدِّه، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ أي: ماكثين طويلاً. فلِمَ يقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، ولم يبقَ من الرسل أحد. وهاتان الصفتان المنفيتان هما صفتا الملائكة، يريد: أنَّ الرسلَ لا يكونون من الملائكة، بل من البشر، وطبيعتهم طبيعة البشر. فالآية نفيٌ لما اعتقدوه من أنَّ الرسالة ليست من خواصِّ البشر، وإنما هي من خواصِّ الملائكة، وردٌّ عليهم في ذلك. والجسدُ يُطلَقُ علىٰ جسم الإنسان والجن والملائكة.

ثم توعّدهم وعطف علىٰ ما فُهِمَ من إرساله للرسل ووَحْيه إليهم قولَه: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ الذي وعدناهم به من إهلاك أعدائهم، ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ ممَّن آمنوا، ﴿وَأَهْلَكْنَا﴾ أولئك المعارضين ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾، وفي هذا تعريضٌ وتَوَعُّدٌ لهؤلاء المشركين المعارضين لرسول الله ﷺ.

ثم أعقب التهديد بالإرشاد، علىٰ نهج القرآن، وبيَّن تعالىٰ عِظَمَ مِنَّتِهِ بإنزال هذا القرآن المبين، وسَبَكَه علىٰ تجهيلهم وتقريعهم إذ يُعرِضون عنه ويطلبون آيةً كونيةً، فقال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: إرشادُكم لتكونوا سُعَداء فيها، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ أنه خيرٌ مما تقترحون من الآيات؛ لأنها تختص بالعاطفة والشعور، وهذا يخاطب العقل بالحجَّة والبرهان، ويُبيِّن المصيرَ أكمَلَ بيان؟!

ثم اعتمد التهديد، وتوعَّدهم بعذاب في الدنيا مثل عذاب الماضين من أمثالهم، فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ بمعارضتها للرسل ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾، وهذه الآية تفصيلٌ واستشهادٌ لقوله: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾. وفي كلمة ﴿قَصَمْنَا﴾ إشارةٌ إلىٰ تجبُّر أولئك القوم وعِنادِهم؛ لأنَّ القَصْمَ أفظعُ الكسر للمُتجبِّر.

ثم ذكر للعبرة ما كان من ندمهم وجزعهم الشديد عند ذلك، فقال: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ﴾ أي: أدركوا عذابنا الشديد ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا﴾ أي: من القرية أو العقوبة ﴿يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾، فيُقالُ لهم استهزاء وتندُّراً: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي: إلىٰ ما كنتم فيه من النعيم والترف، ﴿وَ﴾ إلىٰ ﴿مَسَٰكِنِكُمْ﴾ التي كنتم تتنعَّمون بها وتترفون ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ الأعطيات، علىٰ عادتكم في التفاخر والترائي في ذلك.

فلما يئسوا من الخلاص وأيقنوا بنزول العذاب ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ﴾ أي: يا هَلَاكَنا. وفي العربية يُنادَىٰ الشيءُ للتشكّي منه، ويُسمَّىٰ النُدبة. وأقرُّوا علىٰ أنفسهم باستحقاقهم هذا العذاب، وأنهم هم الذين سبَّبوه لها، وقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي: لأنفسنا مُستوجبين للعذاب، ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: فما زالوا يُردِّدون تلك الكلمة

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾، فاستعار لتلفهم وهلاكهم صفةَ الزرع المحصود، والنارَ الخامدة التي أصبحت رماداً، مبالغةً في صورة التلف.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

وبعد أن بيّن إهلاك القرية بسبب تكذيبهم، أتبعَه بما يدلُّ علىٰ استحقاقهم ذلك؛ لأنهم كذَّبوا الدلائل الواضحة والأمور الظاهرة في حقيَّة ما يدعون إليه، ذكر ذلك ضمن بيان دليل وجود اليوم الآخر، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾[1]، ولكنْ لمقاصدَ نبيلة، وغاياتٍ جليلة، منها: خَلْقُ الإنسان وحياته في الدارين. وفيه إشارة إجمالية إلىٰ أن تكوين العالم وإبداع بني آدم مُؤسَّسٌ علىٰ قواعد الحكمة البالغة المُسْتَتبِعةِ للغايات الجليلة، ومن ذلك ترتيبُ هذا العذاب علىٰ كفر أولئك الكافرين ترتيباً طبيعياً، والله أعلم.

ثم أردَفَ نفيَ اللعب بما يقرِّره ويلائمه، وهو ردُّ جهالتهم وكفرهم في نسبة

(١) سُئل أفلاطون عن الحكمة في إيجاد الله لهذه الكائنات؟ فقال: لإظهار كماله الإلهي. والكاملُ من كل وجه مُنزَّهٌ عن الأغراض والشهوات، وأعمالُه كلها حِكَمٌ ومصالح. (المؤلف).

الصاحبة إلىٰ الله تعالىٰ، علىٰ ما ذكره بعض مُفسِّري السلف في معنىٰ ﴿لَٰعِبِينَ﴾، ولكن ذكر ذلك بمفهوم عام يشمله وغيرَه، علىٰ نهج القرآن وأساليبه في البيان، فقال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: مما يليق بشأننا ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾ لا مما يليق بشأن البشر من الصاحبة والولد، لكنْ يستحيلُ إرادتُنا للَّهْوِ مطلقاً؛ لمنافاته للعظمة وللحكمة البالغة، ﴿بَلْ﴾ شأننا الجِدُّ وعظمة الأعمال وحكمتها، ومن ذلك أننا ﴿نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي: يُتلِفُ دماغه، ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: كما فعلنا بالكَفَرة من أهل القرىٰ وما كانوا يمكرون.

ثم توعَّد هؤلاء المتقوِّلين مُخاطباً إيَّاهم بقوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾ أي: مما لا يجوز علىٰ الله سبحانه ولا يليق بشأنه وجلاله.

وبعد هذا الرد ذكر استحقاقه تعالىٰ لأن يُعبَدَ، وضمَّنه إبطالَ نسبته إلىٰ الصاحبة والولد، فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ وهم الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ١٩﴾ أي: لا يَعْيَوْنَ منها ولا يَكِلُّون، بل ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ٢٠﴾، فهذه تفسير لما قبلها وتأكيد لها.

وإنما عبَّر عنهم بقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ تنزيلاً لكرامتهم منزلةَ المقرَّبين عند الملوك، علىٰ نهج القرآن في أخذ بعض المعاني من حال المخاطبين، وتعبيره عن شؤونه سبحانه بشؤون الملوك والسلاطين، تقريباً للأذهان، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

فنسبة جميع مَنْ في السماوات والأرض إليه تعالىٰ - بما فيهم الملائكة المقرّبون - إنما هي نسبة المخلوق إلىٰ الخالق، والمملوك إلىٰ المالك، ليس إلا. ينفي بذلك أن يُنسَبَ إليه شيءٌ نسبةَ المولود إلىٰ الوالد، ويُنكِرُ علىٰ قائليه أشدَّ الإنكار.

ثم تابع السياق في الإنكار علىٰ الشرك وتفنيده، فقال: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ كحَجَر أو بشر ﴿هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: يُحيُونَ الموتىٰ ويَنشُرونهم. والمعنىٰ: هل اتَّخذوا لهم آلهةً لها هذه المقدرة حتىٰ يكون وجه للاشتباه بمشاركتهم لله في شؤونه؟! وفي هذا تجهيلٌ لهم وتهكُّمٌ بهم وإيماءٌ إلىٰ أنَّ الإله يجب أن يكون له هذه الصفة. وفي قوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ زيادةٌ في تأييد الحجَّة والإنكار؛ لما فيه من معنىٰ التنقيص والتحقير، وخصَّ النشر بالذِّكر من بين عَجْزِهم عن عموم الأفعال؛ إيذاناً بالتهويل به والتوعُّد لعَبَدَتِهم من يومه وعذابه.

ثم أقام البرهان علىٰ إبطال تعدُّد الآلهة واستحالته بالدليل النقلي بعد أن أقامه بالدليل العقلي، فقال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ أي: لو كان في السماوات والأرض آلهةٌ غيرُ الله لفسد نظامُهما، لِـمَا يكون بين الآلهة من الاختلاف والتمانع؛ لأنَّ لكلٍّ واحد منهم إرادةٌ مستقلَّة حسبما تقتضيه حالة الإله الصحيح، وإلا لَـمَا كان إلهاً، بل كان صاحبُ تلك الإرادة منهم وحده هو الإله، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ المستقلِّ بتدبير الملك ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: من أن يكون من دونه آلهة، وهو المستقلُّ بالإرادة والسلطان، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لأنهم مملوكون له تعالىٰ مُسْتَعْبَدون، وعن قهره وسلطانه لا يَتَخلَّفون ولا ينفكّون. وفي هذه العبارة ما لا يُقدَرُ من بيان عَظَمَة سلطانه، إثْرَ بيان أنْ ليس له شريك في الإلهيَّة.

وبعد أن أفحَمَهم في إبطال تعدُّد الآلهة بالبرهان العقلي المسمّىٰ ببرهان التمانع، أفحَمَهم كذلك بالبرهان النقلي، فقال: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾، وهذا معطوف علىٰ محذوف، علىٰ أسلوب إيجاز القرآن، والتقدير: أَقَنِعُوا بهذا البرهان العقلي ونزَّهوا الله ربَّ العرش عن الشريك والمثال، أم لم يقنعوا واتَّخذوا من دونه آلـهة؟ فإن فعلوا فرُدَّ

عليهم و﴿قُلْ﴾ في إفحامهم بطريقة النقل أيضاً: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ النقليَّ، من الكتب السماويَّة. وأمره أن يستند لهذا المنع بقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ وهو هذا القرآن المنزَّل لعظة من معي، ﴿وَ﴾ هذا ﴿ذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ من الكتب السماويَّة المنزَّلة لعظة الأمم السابقة، فانظروا فيها: هل تجدون إلا الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك؟

ثم أضرب عن إلزامهم إلىٰ بيان جهلهم، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إنَّ إعراضهم عن الحق ليس إلا لجَهَالتهم فيه وغباوتهم.

ثم صرَّح بما تضمَّنه سَنَدُ المنع مِن كَوْن التوحيد مما نطقت به الكتب السماوية قاطبة، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، وهذه كالنتيجة للبراهين السابقة.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم حكىٰ سبحانه وتعالىٰ جنايةَ فريق آخر من المشركين يَنسُبون له سبحانه ولداً، وبعضُهم يجعلون الملائكةَ له بناتٍ، وإنما جيء بها لإظهار بطلانها، وتنزُّهه تعالىٰ عن ذلك، إثر بيان تنزُّهه عن الشركاء علىٰ الإطلاق، فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: مقرَّبون عنده. وفي هذا الوصف تنبيهٌ علىٰ مَنْشأ غَلَط القوم، حيث عبدوهم لكرامتهم، وجهلوا أن الكرامة لا تؤهِّل لذلك، وإنما الموجب للعبادة صفات الألوهية، وهي مختصَّة بذاته تعالىٰ لا تتجاوزه ولا تتعدَّاه.

ثم ذكر لهم صفة أخرىٰ مُنْبئةً عن كمال طاعتهم لله سبحانه وخشيتهم منه، فقال:

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: لا يقولون حتىٰ يقول، كما هو دَيْدَنُ العبيد المؤدَّبين. وهذا المعنىٰ مستعارٌ من حالة المخاطبين، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة). والمراد: أنهم لا يتكلَّمون إلا بما يأمرهم به ربهم، فكلُّ أقوالهم طاعة، ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم أتىٰ بما هو تعليلٌ لما قبله، وتمهيدٌ لما بعده، وإيماءٌ إلىٰ أنهم عبيدٌ مُراقَبون، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، فإنهم ـ لعلمهم بإحاطته تعالىٰ بما قدَّموا من الأقوال والأعمال ـ لا يزالون يراقبون أحوالهم، فلا يُقْدِمُون علىٰ قول أو عمل بغير أمره تعالىٰ.

ثم ذكر جملةً تُبعِدُهم عن أن يكون لهم دَخْلٌ في شؤونه تعالىٰ، رُغمَ قربهم وكرامتهم، غير التضرُّع والاسترحام، وضمَّن الكلام تقريراً لمعبوديتهم وربوبية الله؛ يردُّ به علىٰ مَنْ يشركونهم بالله، فقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، وذلك لأن الشفيع يكشف للمشفوع منه أحوالَ المشفوع له ليرقَّ عليه ويعطف، والله تعالىٰ غنيٌّ عن ذلك مُطَّلع علىٰ كلِّ شيء، فلم يبقَ مِن معنىٰ الشفاعة إلا الدعاء منه تعالىٰ أن يعفوَ ويصفح، ولا يدعون إلا لمن رضيَ الله له قولاً وعقيدة؛ لأنهم يعلمون أنَّ العفو والصفح لا يكون إلا لهفوات هذا الصنف من الناس(١)، ﴿وَهُم﴾ مع ذلك القرب ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وهذا تقريرٌ لعبوديتهم وعظمة الله.

---

(١) ويجوز أن يكون المعنى: إلا لمن رضي اللهُ أن يُشفَعَ له، أي: أن يكون مشفوعاً له، فتتسع الدائرة ويصير من الممكن أن تشمل الشفاعةُ كلَّ مؤمن وإن كان من أصحاب الكبائر، وهو مما لا يُنكر في سعة رحمة الله تعالى، ويُؤيده قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، لكن ينبغي للمسلم أن يُوطِّن نفسَه على العمل الصالح فإن لحقته شفاعة في شيء قصَّر فيه فخير، وإن لم تلحقه كان له من عمله ما ينجيه من العذاب بإذن الله.

ثم أتىٰ بما فيه زيادةُ تقرير لطاعتهم مسبوكاً علىٰ مادة البحث، وهي إبطال الشرك والتوعُّد عليه، فقال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾، ثم ذيَّل الكلام بهذا القانون العام، تقريراً للبيان، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وإنَّ الشرك بسائر أشكاله لظلمٌ عظيم. ومعنىٰ الآية: أنهم لا يتفوَّهون بمثل هذا أبداً.

وهذه العبارة من فرضيات القرآن وأساليبه، وهي نوع من أنواع شدَّة البيان، إيذاناً بعِظَم هذا الذنب وعِظَم عقوبته، وإن فُرِضَ صُدُورُه من أقرب الخلق إلىٰ الله. وفيه ردٌّ علىٰ الذين يشركونهم مع الله سبحانه، أو يجعلونهم أولاداً لله، أو وسطاءَ يتقوَّلون بأنهم يَدَّعون ذلك.

ويجوز أن يكون فيه أيضاً تعريض بإبليس. وعبَّر بهذا التعبير عن مخالفته وامتناعه عن السجود لآدم، مبالغةً في عِظَم المخالفة، وإيذاناً بأنَّ عدم الإذعان للعبوديَّـة لا يقلُّ شأناً عن ادِّعاء الألوهية.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ثم شرع في سَرْد دلائل الإبداع والقدرة الدالة علىٰ انفراده سبحانه باستحقاق الألوهية، وصدَّر البيان بـ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ الدالِّ علىٰ تنـزيل الأمر المتحقِّق منزلةَ الظاهر المرئي، مبالغةً في تحققه، وسَبَكَ الكلام علىٰ تجهيل هؤلاء المشركين وتأنيبهم حيث قصَّروا في تدبُّر الآيات الكونية وعَظَمة قدرة مُبدِعها الحكيم الخبير، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ أي: كانتا شيئاً واحداً ففَصَلناهما. وهذا

قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير وابن عباس(١)، وهو مطابق للنظرية الحديثة القائلة بأنَّ الأجرام السماوية كلَّها كانت جُرماً سدياً واحداً فتفصَّل بالدوران والحركة علىٰ تمادي الدهور(٢).

والمعنىٰ: ألم يعلموا أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ يعمل مِثلَ هذه الأعمال العظيمة، ولا يقدر علىٰ ذلك غيره، فكيف يشركون معه في الألوهية؟ وقد نَزَّل الأمرَ المتحقِّق منزلةَ الظاهر المرئيّ، وصدَّره بـ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ﴾، علىٰ نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية).

ثم أضاف إلىٰ هذه الحقيقة الكونية حقيقةً كونية أخرىٰ مثلها في الدلالة علىٰ عِظَم القدرة، منتقلاً إلىٰ دلائل القدرة والمنَّة والحكمة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ علىٰ ما بين الماء وبينها من المُباينات في الظاهر، أي: خلقنا من الماء كلَّ حيوان، كما قال تعالىٰ في سورة النور: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥]، فالمراد من الحياة: الحياة العُرْفية، وهي حياة الحيوان، وقد جاء في العلم الحديث: أن الحيوان المَنَوِيَّ يحتوي علىٰ تسعين في المئة من الماء، وعشرة في المئة من الزلال النقي.

ويجوز أن تكون الآية للتنويه بشأن الماء الحقيقي، وأن كل شيء يحتاج إليه،

---

(١) روى هذه الآثار الطبري في «تفسيره» (١٨: ٤٣١)، إلا أثر سعيد بن جبير؛ فقد ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥: ٦٢٦) وعزاه إلى أبي الشيخ.

(٢) هذه المسألة ما زالت «نظرية» كما ذكر المؤلف، ولم تثبت بَعْدُ لترقى إلى «الحقيقة العلمية»، لذلك ينبغي إيرادها في تفسير الآية احتمالاً لا جزماً، لِـمَا قد يطرأ من بيان غلطها، وعلى هذا فينبغي إيراد الوجه الآخر في تفسيرها، وهو: أن السماء كانت رتقاء لا تمطر، وأن الأرض كانت رتقاء لا تُنبت، ففتق الله سبحانه السماء بالمطر والأرض بالنبات، ولذلك أتبعه الله عز وجل بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، والله أعلم.

فتكون لبيان القدرة وللتمنُّن ببذل الماء. ويكون المراد من الحياة: الحياة العامة التي تشمل النبات، وعلىٰ هذا الوجه يكون في معنىٰ «الجَعْل» شيءٌ من التجوُّز، حيث أراد به دوام الحياة، لا إيجادها، كالتجوُّز في قوله تعالىٰ: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، إذ أريد به المبالغة في اتِّصافه بذلك. ففي كلا الفعلين تجوُّز واتِّساع. أما العلم الحديث فقد أثبت أنَّ الحياة تتولَّد من الماء(١). والله أعلم.

ثم ختم الكلام بالحثِّ علىٰ الإيمان بالله وحده الفاعل لهذه الأفعال العظيمة، فقال: ﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠﴾ بالله وأنه هو الإله دون سواه؟ وفي الصيغة تبكيتٌ لـهم وتوبيخ.

ثم تابع تعداد تلك الآيات العظيمة الدالة علىٰ اختصاصه بأفعال الألوهية، فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ جمع راسية، مِن: رسا الشيءُ؛ إذا ثَبَت ورَسَخ، أي: جبالاً ثوابت، جَعَلناها في الأرض وقايةَ ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ وتضطرب، ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا﴾ أي: مسالكَ وضحةً واسعةً ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣١﴾ إلىٰ مصالحهم أثناء تنقُّلاتهم فيها، ولو كانت كلُّها جبالاً وَعِرةً أو رمالاً رَخْوة؛ لتعسَّر سلوكُها والانتفاع منها، كحالة الصَّحارىٰ الرملية.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ من السقوط مع عِظَم أجرامها، وذلك بعَمَدٍ غير مرئيَّـة، وهي الجاذبية العامة ـ والله أعلم ـ التي بها تماسُكُ الأجرام بعضها ببعض، والتعادل الدقيق، كما قال ﷺ: «بالعدل قامت السماوات والأرض»(٢)، ﴿وَهُمۡ عَنۡ

(١) التعبير بالتولُّد مما ينبغي اجتنابه، لِـمَا فيه من إيهام القول برأي الفلاسفة والمعتزلة ـ على اختلاف بينهما في ذلك أيضاًـ والصواب أن يُقال: إن الماء سبب للحياة، يعني: أنه سبب عادي لا عقلي.

(٢) ذكره أبو السعود في «تفسيره» (٨: ١٧٧)، وقال المناوي في «الفتح السماوي» (٣: ١٠٢٠): لم أقف عليه.

﴿ءَايَٰتِهَا﴾ أي: عن آيات السماء العظيمة الكثيرة الدالَّة علىٰ اختصاصه تعالىٰ بأفعال الألوهية ﴿مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾ لا يتدبَّرون ما في ذلك من قدرة وحكمة وعلم وتدبير؛ يُؤنِّبهم ويُوبِّخهم علىٰ موقفهم هذا.

ثم غيَّر الأسلوب من التكلُّم إلىٰ الغيبة مبالغةً في التعظيم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر وغيرهما من الأجرام السماوية ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾. وأتىٰ بلفظة ﴿كُلٌّ﴾ لتشمل سائر التوابع للشمس ولا سيما الأرض التي تضمَّنتها كلمة ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ لأنها من حركتها اليومية علىٰ محورها تجاه الشمس.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾.

وبعد هذا البيان عن وضوح الآيات الدالَّة علىٰ الوحدانية توعَّدهم بما سينالهم بعد الموت، جزاءً لشركهم. وصاغَ الكلام بصورة فيها زيادةُ تحسيس بالموت، وألمع إلىٰ ما كانوا ينتظرونه من موته ﷺ لتنفضَّ عنه أصحابه، لزعمهم أن أمره شيء مؤقَّت ناتج من ذاته، وينتهي بانتهائه، وضمَّن الكلام وعيداً لهم فيما بعد الموت، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ في الدنيا، ولا لك، ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾، والآية تتضمَّن بصيغتها مزيدَ كرامته ﷺ، وفي طيَّاتها إرهاصٌ لحادثة موته ﷺ وتمهيدٌ لها، حتىٰ إذا جاءت تتلقَّاه النفوس بصبر مكين، بعد أن تتكرَّر علىٰ الألسن هذه الآية حيناً من الزمن، وذلك من حكمة الحكيم العليم، وعُلوِّ شأن هذا القرآن العظيم، الذي ينتهز الفرص والمناسبات في تنويع المواعظ والإرشاد، ويَسْبك الكلام علىٰ معانٍ ذات أفنان، وعلىٰ مقاصدَ مُنوَّعة الأغصان.

ثم مكّن ذلك بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، ثم ذَكَرَ تعلُّق ما بعد الموت بما قبله من ترتيب الجزاء، فقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي: اختباراً وتمحيصاً لِما تصيرون إليه، كما يختبر الذهب بالفتانة، وهي الحجر المخصوص لذلك، ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فنجازيكم حَسْبَما يظهر منكم فيما تعملون.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ
ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ
ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ
يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾
وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾
قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا
يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا
نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ
وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ الكلام عن المعارضين وذكر لهم قبيحةً أخرىٰ مسايرةً للبحث، فقال: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ قائلين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بسُوء، يغتارون علىٰ آلهتهم المهينة، ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ خابوا وخسروا، ما أحمقهم وما أجهلهم!

ثم توعَّدهم علىٰ ذلك مُمهِّداً بما فيه زيادةٌ في التهديد، وإلماعٌ إلىٰ أنَّ إصرارهم علىٰ الكفر والمعارضة ناشئٌ عن إنكارهم لما يتوعَّدهم به وتراخيه، فقال: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾، والعرب تستعمل مثل هذا التركيب للمبالغة، فتقول مثلاً لمن تصفه بكثرة النوم: خُلِقَ من نوم؛ للمبالغة في اتِّصافه بذلك.

وبعد هذا التمهيد للتهديد، توعَّدهم بوعيد مستقبل، واستمهلهم مُتندِّراً عليهم، وقال مُهدِّداً: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾، فجاء الوعيد في غاية القوة والترهيب بمادته وصورته. والمراد بالآيات: ما يتوعَّدهم بها الرسول من أنواع العذاب. والمعنىٰ: لا تستعجلوا العذاب، فسيأتيكم بحينه وترونه بأعينكم، وينزل بكم وأنتم تُبصِرون.

ثم ذكر استهزاءهم بهذا الوعيد، فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾؟ فأجابهم ببيان مصيرهم في الآخرة المضاف إلىٰ عذابهم في الدنيا؛ مبالغةً في تحقيق الوعيد، وتتميماً له، فقال: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا﴾ يقدرون ﴿يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾، فحينئذ يَرَوْنَ العذاب، أي: ولا يُعانون علىٰ كفِّ ذلك عنهم. وهذا المعنىٰ مأخوذ من حال الـمُخاطَبين في النَّجْدة والتناصر، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة في أنواع إيجازات القرآن).

ثم أضرب عن الجواب إلىٰ جواب آخر يتضمَّن تقريراً لوقوع العذاب وصورته المدهشة، فقال: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ أي: تلك العِدَةُ ﴿ بَغْتَةً ﴾ دون علامات ومقدِّمات ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: فتحيِّرهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: ولا يُمهَلون.

ثم استشهد علىٰ ذلك بمصير أمثالهم من الأمم السابقة، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾ أي: نزل وأحاط ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ من العذاب. وفي هذا تسليةٌ له ﷺ، وعِدَةٌ ضمنية بأنه سيصيبهم ما أصاب أولئك المستهزئين قبلهم بالرسل عليهم الصلاة والسلام.

ثم أمر الرسول ﷺ أن يُهدِّد هؤلاء المستهزئين ويُبصِّرهم بمنَّته وقدرته، فقال: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: مَنْ يمنعكم ويحفظكم من بأسه إذا نزل بكم ليلاً أو نهاراً. ويجوز أن يكون المعنىٰ إنكاراً عليهم غفلتَهم عما يحيطهم به الرحمن من حفظه وألطافه، فيكون قوله: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: من جانب الرحمن. وفي التعرُّض لعنوان «الرحمن» إيذانٌ بأنه ليس هناك إلا رحمته العامة، فهي مصدر إمهالٍ لكم. لذلك أضرب إلىٰ قوله: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فلا يَقدُرون فضلَه، ولا يخشون بأسَه.

ثم أضاف إلىٰ تجهيلهم الضمنيّ تجهيلاً آخر؛ في طيَّاته زيادةُ وعيد وسخرية، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ أي: آلهة تحفظهم منَّا وتُخلِّصهم من عذابنا، كلا، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾، وهذه جملة مستعارة من حال الـمُخاطَبين أيضاً، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة). أي: لا يُؤمِّلون أن يجدوا منا صُحبة، كما يؤمِّل المغلوب من الغالب بعد تمام الغلبة. وهذا المعنىٰ للمبالغة في الوعيد، وبيان استمرار العذاب في الآخرة.

ثم أضرَبَ عن ذلك إلىٰ بيان السبب الحقيقي الذي سوَّغ لهم هذا الاستهزاء، مُبيِّناً أن مصدر ذلك فيهم إنما هو ما أنعم الله به عليهم من الجاه والمال، وفضَّلهم به علىٰ

غيرهم، فاغترُّوا وتجبَّروا. وفيه زيادةُ تقريع وتأنيب بأنَّ إساءتهم نشأت من إحسانه بـهم، فقال: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ في هذه الحياة الدنيا ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾، وهم علىٰ ذلك، فحسبوا أنْ لا يزالوا كذلك، واعتقدوا أن هذا المتاع الحَسَن بسبب ما هم عليه من الدِّين والأعمال. خابوا وخسروا، بل هو من رحمة الله.

وفي الكلام تقريرٌ لمضمون ما قبله، ومُحصَّله: أنَّ ما هم فيه من القوَّة والـمَنَعة ليس من إله آخر يمنعهم من إهلاكنا لهم، وإنما نحن أمهلناهم ومتَّعناهم في هذه الحياة؛ لِيَسْتَوفوا نصيبَهم منها إلىٰ حين، فلا يحسبوا بذلك أنهم هم المقرَّبون عند الله، وأنهم هم الذين سيفوزون علىٰ المؤمنين ويغلِبون.

وقد أنَّبهم علىٰ هذه الجهالة الجَهْلاء، وبصَّرهم بهذا الحُسبان الخاطئ، وألمع إلىٰ أن العاقبة للمؤمنين في الغَلَبة والسلطان، وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ بتسليط المسلمين عليها، فتَتَّسع رقعتُهم، وتضيق رقعة المشركين. وفي هذا تصويرٌ لما يُجريه الله تعالىٰ علىٰ أيدي المسلمين من تسليطهم علىٰ مَنْ حولهم، واستيلائهم علىٰ بلادهم، وتحسيسٌ بأنَّ العاقبة للمسلمين وليست لهم. وقرَّر ذلك بهذا الاستفهام التهكُّمي، فقال: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾؟ يُنكِرُ عليهم ما يحسَبُونه من أنهم لا يزالون أحسن من المسلمين حالاً ومآلاً، وجاهاً وسلطاناً، ويستدلُّون بذلك علىٰ صحَّة خطَّتهم وحقيَّة ديانتهم التي هم عليها، وعلىٰ رضاءِ الله سبحانه وتعالىٰ بها، وأنهم سيغلبون محمداً وأتباعه.

ثم أمره أن يكرِّر لهم الإنذار مُجْمَلاً، بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ أي: إني أنذركم من عذاب الله بما أوحىٰ الله إليَّ، إن أصررتم علىٰ الإعراض.

ثم ختم السياق بما يُلمعُ إلىٰ أنَّ هذا الإنذار والتحسيس لا يُرجعهم عن غيِّهم، وإنما هو لقطع معذرتهم، حتىٰ لا يقولوا: ما جاءنا من نـذير، ونَـعَىٰ عليهم بأنه لا

يُجْديهم نفعاً ولا إيقاظاً، لتمكُّن الكفر منهم وانطباعهم عليه، فقال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ۝٤٥﴾، فنزَّلهم منزلة الصُّم؛ لعدم استفادتهم من سماعهم ما يُنْذَرون به.

ثم توعَّدهم وشرح حالتهم النفسيَّةَ عند نزول العذاب، وانتباههم حينئذ لِغَلَطِهم وسَفَهِهم، وندَّمهم علىٰ ذلك، فقال: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أي: وقعة يسيرة ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ الذي يُنْذَرون به ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ﴾ أي: يا هَلاكَنا، ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٤٦﴾ لأنفسنا. وهذا بيانٌ لسُرعة تأثُّرهم من العذاب وندمهم عند نزوله، إثْرَ بيان عدم تأثُّرهم من الوعيد به.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾.

ثم أردف هذا ببيان دقَّة الحساب يوم العرض؛ زيادةً في التهديد، وجمعاً بين العذابين، فقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1].

قال الأستاذ الإمام[2] في الكلام علىٰ الميزان: ومن عجيب ما قاله البعض أنه ميزانٌ بلسان وكفتيْن، كأطباق السماوات والأرض، ولا يعلم ماهيته إلا الله، فليت شعري ماذا بقيت من ماهيَّته بعد بيان لسانه وكفتيه، حتىٰ يفوَّض العِلمُ فيه إلىٰ الله بعد ذلك البيان؟ ومثل هذا الكلام جرأة علىٰ غيب الله بغير نصٍّ صريح متواتر عن المعصوم ﷺ، ولم يَرِد

(١) أي: لأجل يوم القيامة، وإنما جمع «الموازين» إما لتعدُّدها، فهناك ميزان لأعمال القلوب، وميزان لأعمال القوالب والجوارح، وميزان لأقوال اللسان، وميزان للأخلاق، وميزان لأحوال القلوب، وميزان لأحوال النفوس، وميزان وميزان...، وقيل: جمعها لاعتبار تعدُّد الأعمال والأقوال الموزونة بها. وقيل: جمعَ الموازين مع أنها ميزان واحد لتعظيم شأن الميزان.

(٢) هو الشيخ محمد عبده.

في الكتاب إلا كلمة «الميزان»[١]. فعليك ـ أيها المؤمن المطمئن ـ أن تُوقن بأنَّ الله سبحانه يَزنُ الأعمال ويُميِّز لكلِّ عمل مقداره، ولا تَسَلْ كيف يزن، ولا كيف يقدر، فهو أعلم بغيبه، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وإنَّ البشر اليوم قد اخترع من الموازين ما هو أتقن وأضبط من ذات الكفتين واللسان، ذلك الميزان الخشن غير المتقن، فكيف بالحكيم الخبير أن يستعمل ذلك الميزان الذي اخترعه البشر قبل أن يبلغ به العلم ما بلغ[٢]. علىٰ أنَّ الموزون هنا معانٍ ومعقولات[٣]، فما هو وجه احتياجها لكفّة بوسع الأرض والسماوات، وإنما ذلك قول من لا يعرف الإيمان بالغيب. انتهىٰ بتصرُّف.

---

(١) بل العجيب إنكار كون الميزان بلسان وكفتين، وقد ثبتت هذه الكيفية في غير ما حديث صحيح، واشترط نص متواتر في ذلك مما يُتَعجَّبُ منه أيضاً، فما دام ثبت «الوزن» و«الميزان» بالقرآن الكريم، فلا محذور في إثبات بعض تفصيلاته بحديث الآحاد الصحيح، ألا ترى أن نعيم الجنة وشجرها وثمرها مما ثبت بالنصوص القطعية في القرآن والسنة، ثم نأتي بعد ذلك نُثبتُ ـ بحديث الآحاد الصحيح ـ شجرةً يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، [رواه البخاري (٣٢٥٢) ومسلم (٢٨٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] كما نثبت ـ بحديث الآحاد الصحيح بعض صفات ثمر الجنة وطعمه. وكذا يُقال في سائر الغيبيات.

(٢) كون الميزان يوم القيامة بلسان وكفتين لا يعني أنه هو نفسه ميزان البشر الخشن القديم غير المتقن، بل هو ميزان لا كموازين الدنيا، جعله الله بلسان وكفتين لأنها الصورة التي تُعبِّر عن آلة الوزن في الغالب، حتى في هذا العصر الذي صُنعت فيه الموازين الالكترونية، ما زالت صورة الكفتين هي رمز مُعبِّر عن الميزان والعدل.

(٣) اختلف علماء السلف في الموزون: أهو الأعمال والأقوال، أم كتب الأعمال والأقوال؟ ولكلٍّ وجهة ودليل.

فذهب كثير من العلماء إلى أن الأقوال والأعمال توزن في الميزان.

وذهب طائفة من العلماء إلى أن الذي يوزن يوم القيامة هو كتب الأعمال والأقوال، واستدلوا على ذلك بحديث البطاقة الذي رواه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

والآية ترغيب وترهيب ببيان دقة الحساب وضبط الأعمال، ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ بل ينال كلُّ ذي حقٍّ حقّه، إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر، ﴿وَإِن كَانَ﴾ العملُ ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: في غاية القلَّة والحقَارة ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾، وقد أَنَّثَ ضمير «المثقال» لإضافته إلىٰ الحبة[١].

وربـــما أكسَـــبَ ثـــانٍ أوّلا تأنيثاً إن كان لحذفٍ مُـوهَلا[٢]

يعني: في المضاف والمضاف إليه. أي: أحضرنا ذلك العمل المقدَّر بوزن حبة الخردل في الصغر ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾؛ إذ لا مزيد علىٰ دقَّة علمه وعدله تعالىٰ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ولما كان من سُنَّة القرآن تسليتُه ﷺ إثرَ بيان عناد المنكرين ومكابرة الجاحدين، ببيان ما جَرَىٰ لأمثاله من المرسلين مع أممهم الذين لم يعتبروا بهذه البراهين الواضحة القاطعة الدالة علىٰ وحدانية الله وقدرته علىٰ البعث والنشور، وعلىٰ إنجاز ما يتوعَّد به الكافرين؛ ذكر قصص الأنبياء بعد هذا السياق، وقدَّم ذِكرَ موسىٰ عليه السلام؛ لمشاركته له ﷺ في الأمور الآتية المساوقة للبحث، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾[٣]، واختلف المفسرون في المراد بـ«الفرقان» هنا علىٰ أقوال:

---

(١) ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

(٢) هو لابن مالك محمد بن عبد الله الطائي صاحب الألفية المشهورة في النحو (ت ٦٧٢هـ)، وهو في «ألفيته» (البيت رقم ٣٩٤).

(٣) استعرض القرآن في هذا القَصص تاريخ الأنبياء في البشر، وألمع إلىٰ أنّ الدين السماوي واحد =

فقيل: هي التوراة تفرق بين الحق والباطل. وهذا مرويٌّ عن مجاهد وقتادة[١]. وعلىٰ هذا المعنىٰ، تكون الأوصاف الثلاثة للتوارة.

= في أصوله، وإن اختلفت بعض مظاهره في فروعه، وبيَّن أنه ضياء وذِكرٌ للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب، وهم من الساعة مشفقون.

ثم ذكر أن القرآن الذي هو أحد هذه الكتب، يمتاز عليها، إذ فيه ما ليس فيها من أصناف الهدىٰ والرشاد، ولذلك وصفه بأنه: مبارك. وإنما جعله سبحانه كذلك؛ ليكون شريعةً باقية إلىٰ يوم القيامة. ثم أنكر علىٰ الكافرين كفرهم به، وهم يَدَّعون أنهم يؤمنون بالتوراة، ولم يدركوا أن التكذيب بالقرآن تكذيب بالتوراة؛ لأنهما من جنس واحد، ومن مصدر واحد، فالإيمان بأحدهما إيمان بالآخر، والتكذيب لأحدهما تكذيب للآخر، وهذا حكم كل مثلين متشابهين.

ثم ألمع إلىٰ أن تاريخ الأنبياء قديم في البشر، من أول وجوده، وذكر منهم قليلاً من المتقدِّمين، وعدداً من المتأخرين، وقد عانوا في نشر الدعوة صنوفاً من المعارضة والأذىٰ، فصبروا حتىٰ أتاهم نصر الله، وأخذ المعارضين أخْذَ عزيز مقتدر، ونجَّىٰ الله المؤمنين وأدخلهم في الصالحين.

وذكر في قصة داود وسليمان مثلاً مما يمنحه سبحانه للأنبياء من الكرامات التي تساعدهم في نشر الدعوة، ومن الفهوم التي تُعينهم علىٰ استنباط الأحكام، وقد يتفاوتون في ذلك، فكان أنبياء بني إسرائيل في هذا الأمر كعلماء المسلمين المجتهدين في استنباط الأحكام وما يتدرَّبون عليه من الأفهام.

ثم عاد إلىٰ مواقف الأنبياء الصعبة وذكر أن الشدة قد تبلغ عندهم أقصاها، كما كان في تاريخ أيوب عليه السلام، ولكن العاقبة مكفولة لهم، والنصر والتأييد مضمون كل الضمان، بشرط الثبات والصبر المتين، ولذلك حثَّهم عليه، ورهَّب عن الضعف فيه، بما جرىٰ علىٰ يونس عليه السلام، فتداركه سبحانه بألطافه الخفيفة.

ثم أكمل نماذج كرامات الأنبياء بقصة زكريا وعُقمه واستجابة دعائه في كشف ذلك عنه، وإكرامه بيحيىٰ عليهما السلام من أبوين قد بلغا من الكبر عتياً، وبقصة مريم وابنها عليهما السلام بمثل عجيبة زكريا وابنه، وما لاقته من الشدائد والصعوبات حتىٰ تمنَّت الموت والفقدان، ولكن كان لأمرها هذا عاقبة حُسنىٰ، وكرامة عظمىٰ، وعُلو شأن. (المؤلف).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢: ٧١)، (١٨: ٤٥٣).

وقيل: إنه النصر الذي أُوتي موسىٰ عليه السلام، أي: علىٰ فرعون وملئه، حيث أغرقهم الله، فيكون الكلام نظير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] يعني: يوم بدر، حين فرق فيه بين الحق والباطل. وهذا مرويٌّ عن ابن عباس(١). وعلىٰ هذا، يكون الوصف بالضياء والذكر للتوراة دون الفرقان.

ثم بيّن صفة المتقين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يخشون عذابه، وهو غير مُشاهَدٍ لهم. ففيه تعريضٌ بالكفَرة حيث لا يتأثرون بالإنذار ما لم يشاهدوا العذاب، ثم قال في إتمام الوصف: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: فهم علىٰ ضدِّ ما اتَّصف به المستعجلون للعذاب.

وبعد أن ذكر ما يعلمونه من إعطاء التوراة لموسىٰ وهارون، ذكر إنزال هذا القرآن المماثل له، رداً لإنكارهم عليه، فقال: ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ أي: فيه زيادةٌ عظيمةٌ علىٰ التوراة، ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ تذكيراً لكم بالنبأ العظيم الذي أنتم عنه مُعرِضون، وهو أمر الآخرة، وعلىٰ وتيرة كتاب موسىٰ وهارون، ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟ وأيُّ وجه لإنكاره وهو علىٰ وتيرة أمثاله؟

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣: ٥٦١).

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ
إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا
بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ
﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ
عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ
شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟
حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا
فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ
ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ
ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ
مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

ثم أضاف إلىٰ الاستدلال بمُماثلتِهِ لكتاب موسىٰ، الاستدلالَ بمماثلته لصُحُف إبراهيم قبله في هذا الرُّشد، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: أرشدناه من قبل موسىٰ إلىٰ هذا النبأ العظيم، ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ أي: بأنه أهلٌ لِـما آتيناه من الرُّشد، وصالح للنبوة. وهذه الجملة علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومرمىٰ الآية: أنه تعالىٰ آتىٰ إبراهيم الرُّشْد إلىٰ الحق، قبل موسىٰ وهارون، فكيف يُشرك بالله مَنْ يدَّعي اتِّباعه، ويُعرِضُ عن متابعة هذا القرآن المماثل لشريعة إبراهيم عليه السلام؟

ولزيادة تأنيب المشركين علىٰ ذلك، وتحقيق أنَّ ديانة إبراهيم عليه السلام إنما كانت توحيد الله خالصاً، وأنَّ رسالته إنما كانت لدعوة الناس إلىٰ هذا التوحيد، فصَّل ما كان من أمره مع قومه بعد إعطائه الرُّشْد والنباهة، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

فلما سمعوا مقالته ﴿قَالُوٓا۟﴾ استبعاداً وتعجُّباً واستغراباً: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالجِدِّ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ فتقول ما تقول علىٰ وجه المداعبة والممازحة؟ كأنهم ـ لاستبعادِهم إنكارَ عبادة الأصنام عليهم واستغرابِهم من ذلك ـ ظنُّوه يمازحهم، أو نزَّلوه منزلة الممازح. وفي إيراد الشقِّ الأخير بالجملة الاسمية الدالة علىٰ الثبات إيذانٌ برجحانه عندهم.

فأجاب عليه السلام بالإضراب عما بَنَوا عليه مقالتهم من اعتقاد كونها أرباباً لهم، وقرَّر التوحيد، و﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: خلقهنَّ، فهو وحده الإله لا شريك له في الألوهية كما لا شريك له في هذا الخلق. وقيل: هذا إضراب عن كونه لاعباً إلىٰ إقامة البرهان علىٰ ما ادَّعاه، بطريقة الاستدلال بالأثر علىٰ المؤثِّر، وأيَّده بقوله: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: العالمين به علىٰ سبيل الحقيقة، فإن الشاهد علىٰ الشيء متأكِّد من تحقُّقه.

ثم صمَّم في نفسه أن يُدبِّر لهم هذه المكيدة؛ ليُفحِمَهم بها، ويبيِّن لهم بالفعل أنها ليست بآلـهة لعجزها عن الدفاع عن نفسها، كما حكىٰ ذلك عنه سبحانه بقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ قال ذلك سرّاً في نفسه بطريقة التصميم، ونفَّذ القول والعَزْم بالفعل، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ

﴿يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: كسَّرها قِطَعاً قِطَعاً، وترك كبيرها؛ ليجعله موضوع المناقشة في الإلزام، ويبني عليه التبكيت الآتي.

ثم حكىٰ سبحانه ما كان من أمر قومه تجاه هذا الحادث، فقال: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾؟ يقولون ذلك علىٰ طريقة الإنكار والتَّشنيع والتهديد. لذلك أردفوه بقولهم: ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾. وبعد أن حكىٰ قول السائلين حكىٰ قول المجيبين، فقال: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يعيبُهم، فلعلَّه فعل ذلك بهم، وهذا الفتىٰ ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ أي: يُطلَقُ عليه هذا الاسم، ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي: بمرأىٰ منهم ومَسْمَع، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ محاكمَتَه، فأرادوا محاكمَتَه علناً أمام الرأي العام ليتهيَّج عليه.

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وحاصل كلامه: كيف يجرأ علىٰ الآلهة إلا كبيرها؟ قال في «مجمع البيان»: يشير إلىٰ الذي لم يكسره، سالكاً مسْلك تعريض يؤديه إلىٰ مقصده، وهو إلزامهم بالحجَّة علىٰ ألطف وجه وأحسنه، ليحملهم علىٰ التأمُّل في شأن آلـهتهم. وفي التعاريض مندوحةٌ عن الكذب. وقد ضمَّن الكلام أشنع التـهكُّم عليهم والاستهزاء بهم، فهو ليس بخبر حقيقيّ حتىٰ يحتمل الكذب، وإنما هو إلزام وتهكُّم أُخرج مُخْرَجَ الخبر، والإلزام تارةً يأتي بصورة السؤال، وتارةً بصورة الأمر، وتارةً بصورة الخبر. ووجه الإلزام: أنَّ هذه الأصنام إن كانت آلهة كما تزعمون، فإنما فعل ذلك بهم كبيرهم؛ لأنَّ غير الإله كيف يقدر أن يجرأ علىٰ هذا العمل؟ ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: ألا تسألون منهم وهم الآلهة؟ يقول هذا ليضيف إلىٰ الإلزام إلزاماً آخر في تحقيق سخافتهم بعبادتهم ما لا يقدر علىٰ الدفاع عن نفسه، ولا علىٰ شيء، ولا يدري، ولا ينطق؛ ليـريَهم مبلغَ حمقهم وجهلهم، وأنهم يعبدون ما هو دونهم بمراحل.

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ ﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أو قالوا في أنفسهم: ﴿ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ لا إبراهيم، حيث تعبدون ما لا يقدر علىٰ الدفع عن نفسه. وهذه وَهْلةُ الصَّدْمة بالإلزام الفاضح، تَلْمَعُ لمعة ثم تذوب، كما قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ ﴾ أي: انقلبوا إلىٰ الـمُجَادَلة بعدما استقاموا بالمراجعة. فشبَّه عَوْدَهُم إلىٰ الباطل بعد اعترافهم بالحق بصَيْرورة أسفل الشيء أعلاه، أو المعنىٰ: أنَّ عودتهم إلىٰ الـمُجادَلة فَضَحَتْهم أكثر من ذي قبل، حيث اضطروا أن يقرُّوا بعَجْز هذه الآلهة وجمودها وأنها لا تنطق، فقالوا: ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

وهنالك بكَّتهم هذا التبكيت المفحم ﴿ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾، وهذا إفحامٌ واضح، في طيَّاته تبكيتٌ لاذع فاضح. وحاصله: أتعبدون مَنْ هذا شأنه وهذا هوانه أيها الحمقىٰ؟ وهكذا شأن سائر المعارضين للحقِّ إذا صَدَمهم البرهان القاطع فأبصروه بعقولهم، أذْعَنوا للحق قليلاً، ولكنهم لم يلبثوا حتىٰ يعودوا لباطلهم وانطباعاتهم الأولىٰ، كما هو شأن المنطبع علىٰ الضلال.

ولما أُفحِموا بالحُجَّة، لزموا طريق السَّفاهة الغاشمة والـمُناصَبة والتعسُّف في الـمُعانَدة، كما هو شأن الـمُبْطِل المتجبِّر، و﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾، وهذا الشرط للزيادة في الإغراء والتحميس، وقد فعلوا فنجَّاه الله تعالىٰ، كما حكىٰ ذلك بقوله: ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ حيثُ هاجر من العراق ـ أرض بابل إذ ذاك ـ إلىٰ الشام، وقيل: إلىٰ أرض المقدس، وقيل: إنه نزل بفلسطين، ونزل لوط بالـمُؤْتفكة، وبينهما مسيرة يوم وليلة. ولوط: هو ابن أخي إبراهيم عليهما السلام.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ ما أنعم به علىٰ إبراهيم، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي: عطيَّة. قال ابن عباس وقتادة: ﴿نَافِلَةً﴾[1] راجع إلىٰ يعقوب، فإنه زاده من غير دعاء، حيث طلب ولداً فأعطاه ولداً وولَدَ ولد، ﴿وَكُلًّا﴾ يعني الأربعة ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتَدَىٰ بهم في أمور الدين، و﴿يَهْدُونَ﴾ إلىٰ الحق والصراط المستقيم ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: بأمرنا لهم بذلك وإرسالنا إياهم، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ وهذا استشهاد آخر لوحي محمد ﷺ، وأنه مثلُ أمثاله من الأنبياء، فلمَ أنتم له منكرون؟

قال أبو مسلم: ثم عطف علىٰ قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]، قولَه: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: نبوةً ورشاداً، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، وهي قرية «سدوم»، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾، وفي ذِكرِ هذه التَّنجية إياهُ بالوعد الكريم له ﷺ أن ينصره كما نصر أمثاله من الأنبياء.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

ثم عطف علىٰ لوط نوحاً لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء المذكورين، أو: من قبل نداء لوط، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ وهو الطوفان الذي حلَّ بقومه، وقيل:

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨: ٤٥٧).

أذية قومه له، ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾، وقد ضمَّن (نصَرْناه) معنىٰ: نجَّيناه، وعدَّاه تعديته، علىٰ نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، وفي المادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة في مجازات القرآن).

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

ثم عطف علىٰ نوحٍ داودَ وسليمانَ لنفس الغرض السابق، وذكر لهما ما خصَّهما به تعالىٰ من العلم والحكمة، فقال: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ ﴾ أي: في الزرع أو الكرم، ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾ أي: انتشرت فيه ورَعَتْهُ ليلاً. وقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ يفيد مزيدَ الاعتناء بهذا الحكم، وإنما جمع الضمير لعودته عليهما وعلىٰ المتحاكمين إليهما؛ لأن الإضافة هنا للاختصاص، وهو يشمل مَنْ قام به الفعل ومَنْ وقع عليه. ويجوز أن يعود عليهما فقط، إذ قد يطلق ضمير الجمع علىٰ الاثنين، وهو من خصائص اللغة، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]، وإن كان المراد بهما صنفين.

وقد مهَّد بهذه الجملة لقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ أي: الحكومةَ والفُتيا ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾، قال الـجُبَّائي: أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ سليمان بما نَسَخَ به حكم داود عليهما السلام، أي: وحيَ الإلهام. والله أعلم. وقال غيره: إنما هو الاجتهاد فيه. قال ابن مسعود وشريح

ومقاتل: إنَّ راعياً نزل ذات ليلة بجنب كَرْم، فدخلت الأغنام الكرم وهو لا يشعر، فأكلت القضبان وأفسدت الكرم، فذهَبَ صاحب الكرم في الغد إلىٰ داود عليه السلام، فقَضىٰ له بالغنم؛ لأنه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت، فقدَّر ضرر الكرم بقيمة الغنم كلِّها، فخرجوا ومرُّوا بسليمان، فقال لهم: كيف قضىٰ بينكما؟ فأخبراه، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فأُخْبِرَ داودُ عليه السلام بذلك، فدَعا سليمان، وقال: ما هو الأرفق الذي تعنيه؟ فقال: تُسلَّم الغنم إلىٰ صاحب الكرم، حتىٰ يرتفق بمنافعها، ويعمل الراعي صاحبُ الغنم في إصلاح الكرم، حتىٰ يصير كما كان، ثم تُردُّ الغنم إلىٰ صاحبها، فقال عليه السلام: إنما القضاء ما قَضَيْتَ، وحَكَمَ بذلك[١].

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[٢] فلِدَفْعِ ما عَسَىٰ يُوهمه تخصيصُ سليمان عليه السلام بالتفهيم من كون حكم داود عليه السلام حكماً غير شرعي. وهذا الدفع يدل علىٰ أن خطأ المجتهد لا يقدح في كونه مجتهداً، وعلىٰ أنه قد يكون أحدُ المجتهدَيْن أهدىٰ للصواب في الحكم، ويُدرك وجهاً لا يدركه الآخر، وكلاهما مصيب يجوز للمقلد العمل به.

وبعد أن ذكر ما آتاهما من الرُّشْد، ذكر ما خصَّ به كلاً منهما من النِّعَم والكرامة، وبدأ بداود فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾، ثم تمجَّد سبحانه وتعالىٰ بذلك، فقال: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: من شأننا أن نفعل أمثال هذا، فليس ذلك عجيباً منَّا، وإن كان عجيباً عندكم.

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٢: ١٦٤).

(٢) قيل: إن داود عليه السلام حكم بالغنم لصاحب الحَرْث، وبالحَرْث لصاحب الغنم، وكان سليمان بن داود حاضراً، فرأىٰ أن ينتفع صاحب الحَرْث بما تنتجه الغنم فترةً يُصلحُ فيها صاحبُ الغنم الحَرْثَ ثم يترادّا. (المؤلف).

وقد اختلفوا في بيان هذا التسبيح:

فقال مقاتل: إذا ذكر داود عليه السلام ربَّه، ذكرت الجبال والطير ربَّها معه.

وقال الكلبي: إذا سبَّح داود أجابته الجبال.

وقال سليمان بن حيَّان: كان داود عليه السلام إذا وجد فترةً أَمَرَ الله تعالىٰ الجبال فسبَّحت، فيزداد نشاطاً واشتياقاً[١].

أقول: والأنبياء مُزوّدون بمواهب بحكم كمالهم.

وقيل: عندما كان داود عليه السلام يستغرق في التَّسبيح، يشعر بأن الجبال والطير يُـشَارِكْنَه في ذلك. والله أعلم. فالكلام إلماعٌ لهذه الظاهرة في الشعور[٢].

وقال البلخي: يجوز أن يكون هذا إشارةً إلىٰ ما أعطاه الله من حُسْن الصَّوت بقراءة الزبور، فإذا قرأه بين الجبال ردَّت عليه مِثلَه من الصَّدىٰ، فسُمّي ذلك تسبيحاً[٣].

وقال الـجُبَّائي: معناه: وفَّقنا الجبالَ له، فحيثُ سار صادف جبالاً يتَّخذ منها مقاعد مكينة للقتال، فالمراد: توفيقه في القتال وتهيئة الأسباب له، وعبَّر عن هذا بالتسبيح لما فيه من الآية العظيمة، وهي استجابةُ الأشياء للمتَّقين بتسخير الله إيَّاها لهم، لا سيما في حروبهم الدينية أثناء دعوتهم؛ لأنها لنشر الدين. وكذلك تسخير الطير له ليستخدمها في المرسلات وغيرها، فهو تسبيحٌ بهذا المعنىٰ[٤].

---

(١) هذه الآثار ذكرها الرازي في «تفسيره» (٢٢: ١٦٣).

(٢) ليس في هذا خصوصيَّة لداود ومنَّة وفضل عليه، لو كان مجرَّد شعور كما ادعاه المؤلف غفر الله له، بل المراد أنها تسبِّح الله بنُطق منها علىٰ الحقيقة.

(٣) هذا قولٌ فيه نظر؛ لأنَّ صدىٰ الأصوات عند الجبال لا يختصُّ بداود، ولا يكون في ذلك مِنَّةٌ وفضل علىٰ داود عليه السلام، بل هو تسبيحها النُّطقي معه عليه السلام.

(٤) الجبال والطير تُسبِّح بنُطق منها علىٰ الحقيقة، وليس هو من باب الاستجابة له، وخضوعها =

وقيل: سخَّر له الجبال في كلِّ ما يتطلَّبه منها من استخراج معدن أو اتِّخاذ محلات لمقاعد القتال، أو استنباط عَيْن، أو غير ذلك مما يحتاجه لحربه وسلمه.

ومثل هذه المعاني أكثر ملاءمةً لمعنىٰ التَّسخير، وأوفر مناسبةً لما يأتي بعدها من التمنُّن عليه بأمور ماديَّة مساعدة لسلطانه. والله أعلم.

واقتران (سَخَّرَ) بـ﴿مَعَ﴾ دون اللام يدلُّ علىٰ تضمينها معنىٰ الملاءمة والتوفيق. هذه هي أحسن الأقوال في هذه الآية، وكلها آراء مجرَّدة. والله أعلم بالصواب.

ويجوز أن تختصَّ صفة التسبيح بالجبال فقط دون الطير، ويشتركان في التَّسخير، ويكون معنىٰ تسخير الطير: مساعدتها له في كلِّ ما يطلب منها، ولا سيما في استكشاف أمر العدو وإرسال الرسائل، كما جاء عن الهدهد في قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام. والله أعلم.

والأَوْلىٰ أن نُحيلَ الأمر إلىٰ علم الله سبحانه(١) ولا نخوض فيه، ونعتقد بالجملة أنه كرامة أكرم الله بها نبيَّه وخصَّه بها.

ثم قال في إتمام ما خصَّه به من النِّعم والكرامة: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ قيل: إنه أوَّل مَنْ أُلهم بها وبسَرْدِها حِلَقاً حِلَقاً. وقيل: إنما أُلهم

= لاسمه. يدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ ـ فيما أكرم به نبيَّه داود ـ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨ - ١٩]، فكانت الجبال تُسبِّح مع داود، وتردِّد التَّسبيح معه في العشيِّ والإشراق، فلو كان ذلك من باب التَّسخير ودلالة الحال ونحو ذلك؛ لما اختصَّت بذلك في هذين الوقتين.

(١) بل الأَوْلى أن نُثبِتَ التسبيح على حقيقته، ثم نُحيل الكيفية في ذلك إلى علم الله تعالى، لأن الحقيقة غير ممتنعة، والكيفية غيبٌ لا تدركه عقولنا إلا بخبر، فنقف عند حدود النص ولا نتجاوزها.

بإدخال إصلاحات كبيرة عليها في الخفة والتحصين، ثم شاعت في المحاربين. ومثل هذه تكون من المنافع العامة التي يُلهم سبحانه بها بعضَ أفراد البشر ليستفيد منها الجميع بعد كشفها ونشرها بين الناس ليعملوا بها، فوجب عليهم شكر الله. لذلك حثَّهم سبحانه وتعالىٰ عليه، فقال: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾؟

ويحتمل أن يكون قد علَّمها لصُنَّاع مملكته، فعملوا بها.

ويجوز أن يكون المراد بالآية: ما كان علىٰ عهد مملكته من صنعة ماهرة في الدروع مُلْهَمَة لصُنَّاع ماهرين؛ إذ هي نعمة عليه ﷺ، ومنَّة من منن الله. ويُنسَبُ ما حَدَث في مملكة صاحب السلطان إليه. والله أعلم.

ثم ذكر ما خصَّ به سليمان من النِّعَم والكرامة، فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي الشام أو أرض المقدس. قال الكلبي: كانت تسير من إصْطَخْرَ إلىٰ الشام بصورة سريعة، يركب عليها سليمان وأصحابه. وقال قتادة: وَرَّثَ الله تعالىٰ سليمان من داود ملكَه ونبوَّتَه، وزاد عليه أمرَيْن: الريح والشياطين(١). أما الريح فقد سخَّرها تجري بأمره طائعةً منقادةً إن أرادها عاصفة كانت عاصفة، وإن أرادها ليِّنة كانت لينة. أقول: ويجوز أن يكون ذلك في تسيير السفن الشراعيَّة الحربية وغير الحربية. والله أعلم.

وجاء في سورة صٓ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [صٓ: ٣٦]. وقال الرازي: ويمكن الجمع بينهما من وجهين: الأول: أنها كانت في وقت عاصفة، وفي وقت رخاء. الثاني: أنها كانت رخيَّةً في نفسها قوية في عَمَلِها(٢).

---

(١) ذكر هذه الأقوال الرازي في «تفسيره» (٢٢: ١٦٩).

(٢) انظر التعليق السابق.

أقول: ويجوز أن يكون المراد من قوله: ﴿رُخَآءً﴾: أنها مطيعة له وموافقة لمراده، فلا تعارض أيضاً.

ثم تـمجَّد سبحانه وتعالىٰ بمـا هو كالتعليل لذلك، فقال: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: لعلمنا الأزليّ بالأشياء وأسبابها دبَّرنا هذا التدبير لرسلنا، علىٰ سنن لا تعلمونها[١]، ليكون ذلك معجزةً لهم، تؤيِّد نبوَّتهم وتدير أمورهم.

ثم ذكر الأمر الثاني الذي زاده لسليمان علىٰ الملك والنبوة من النِّعم والكرامة، فـقال: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قال في «مجمع البيان»: كانت الجنُّ تعمل لسليمـان عليه السلام في تحصيل الرُّخام والمها[٢] الأبيض الصافي من معادنه، فبنىٰ المدينة وجَعَلها اثني عشر رَبْضاً، كلُّ رَبْض لسِبْط من الأسباط. ولما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد، وقسَّم الجنّ فِرَقاً لتحضير المواد: فرقة يستخرجون الذهب واليواقيت من معادنها، وفرقة يقلعون الجواهر والأحجار من أماكنها، وفرقة يأتون بالدُّرِّ من البحار. ثم أحضر الصُّنَّـاع وأمرهم بنَحْت تلك الأحجار ومعالجة تلك الجواهر واللآلئ، وبنىٰ سليمـان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعُمُدَهُ بأساطين المها الصافي، وفصَّص سقوفه وحيطانه باللآلئ

---

(١) لا دليل على ذلك، بل معجزات الأنبياء إنمـا تأتي على غير السُّنن، فهي أمورٌ خارقةٌ للعادة، أي: للسُّنن والنواميس والقوانين، ولو كانت معجزة النبي جارية على سنة غير معلومة لكان وصوله بنفسه إليها واطلاعه هو عليها وإجراؤه هو لها على يده مما لا ينكره العقل ولا يحكم باستحالته، فلا تُفيدُ المعجزةُ حينئذ اليقينَ بأنه نبي مُرسَل من عند الله سبحانه. وعليه، يجب أن تكون المعجزة مما لا يمكن للبشر أن يصلوا إليه ـ ولو تجويزاً عقلياً ـ وذلك بكونها خارقة للسنن الكونية، سواء كانت معلومة أم لا.

(٢) المها: من الـحَجَر. «لسان العرب» (موه).

واليواقيت والجواهر، وبسط أرضه بألواح الفيرزوج، فلم يكن في الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد.

ولم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزا بخت نصّر بني إسرائيل، فخرّب المدينة وهدمها ونقض المسجد، وأخذ ما في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدُّرِّ واليواقيت والجواهر، فحملها إلىٰ دار مملكته في أرض العراق.

ثم قال تعالىٰ في بيان إتمام النعمة علىٰ سليمان في أمر الجنّ: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: من أن يَزيغُوا عن أمره، أو يفسدوا عليه بمقتضىٰ جِبِلَّتهم، أو يهربوا منه، فهم لا يتمكّنون من كلِّ ذلك.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

ثم عطف علىٰ داود وسليمان أيوبَ لنفس الغرض السابق، وهو تسليتُه ﷺ في أمر قريش، وتثبيته علىٰ مقاومتهم له. فذكر صَبْرَ أيوب علىٰ امتحانه بالبلاء في نفسه وأهله في سبيل نشر الدعوة، وما أنعَمَ الله به عليه من كشف الضُّرِّ عنه في نفسه وأهله نتيجةَ صبره حتىٰ تمَّ له الأمر، فقال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بعد أن وَصَل به البلاء في نفسه وأهله إلىٰ حدٍّ لا يطاق، وقال: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾[1] أي: وَصَل إلىٰ

(١) الذي أظنه ـ والله أعلم ـ أنَّ ذلك كان في سبيل نشر الدعوة. (المؤلف).

حدٌّ لا أُطيقه، ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي: أعطيناه ضعف ما كان له، أو أعطيناه ضعفي المعتاد من الأهل والأولاد بعد ذلك الضيق العضال ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾، حيث يكون ذلك داعيةً لهم علىٰ الصبر والاحتساب. وفيه تثبيتٌ وتسليةٌ للنبي ﷺ.

وروىٰ الليث قال: أرسل مجاهد إلىٰ عكرمة وسأله عن الآية، فقال: قيل له: إنَّ أهلك لك في الآخرة، فإن شئتَ عجّلناهم لك في الدنيا، وإن شئتَ كانوا لك في الآخرة وآتيناك مِثلَهم في الدنيا، فقال: يكونون لي في الآخرة وأوتىٰ مثلهم في الدنيا[1].

وقد علّقتُ علىٰ قصة أيوب عليه السلام في سورة (صٓ) فارجع إليه. وكان أيوب عليه السلام من ولد عيص بن إسحاق علىٰ ما قيل.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ ثلاثة من الأنبياء الصابرين بصورة مُجْملة من دون تنبيهٍ علىٰ شيءٍ من صبرهم، اعتماداً علىٰ السياق، حيث ذكرهم في سياق أيوب وذي النون وأحاطهم بهما، ومثل ذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن، فقال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾، وإنما جمعهم مع تفرُّقهم في الزمن ـ فإدريس أبو جدِّ نوح، وإسماعيل ابن إبراهيم، وذو الكفل بعد سليمان ـ لتقاربهم في شدَّة الصبر. والله أعلم.

أردفهم بقصة ذي النون، وفصَّلها بذكر ابتلائه وما أنعم به عليه من تنجيته من بلائه، فقال: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ لقومه؛ لأنه دعاهم إلىٰ الإيمان مدَّة طويلة فلم يؤمنوا، فأنكر الله سبحانه عليه ذهابه من دون أن يُؤْمَرَ بأشدِّ صور الإنكار،

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٢: ١٦٣).

وقال: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ والكلام علىٰ طريقة القرآن عندما يُريد الشدَّة في الزجر يأتي بشدَّة البيان. وحاصل المعنىٰ: أن لن نُضَيِّق عليه، أو: أن لن نقضيَ عليه ما قضينا.

وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ معطوف علىٰ محذوف، كما هو أسلوب القرآن. والتقدير: فابتليناه تدريباً له علىٰ الصبر والثبات فنادىٰ في الظلمات. وقد قيل: إنها ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت؛ نادىٰ فيه ربَّه مُسْترحِماً ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾، وإنما أفرده في الذكر لصعوبة أمره، والله أعلم. وفي هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، ووعدٌ له وللمؤمنين بالنصر والتأييد.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

ثم ذكر زكريا عليه السلام، وما أنعم به عليه من الكرامة والنَّجْدة، وما آتاه من الرُّشد، فقال: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ يدعو الله سبحانه أن يجعل له مَنْ يقوم بإدارة بني إسرائيل من بعده، ثم أشفع دعاءه بقوله: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: فإن لم ترزقني مَنْ يرثني فلا أبالي لأنك خير وارث، فالكلام علىٰ وجه الثناء علىٰ ربه والتوسُّل إليه، فيرزقه ولداً لهذه الغاية، وإلا فإنه سبحانه خير وارث، يُدبِّر الأمر حسب إرادته وحكمته.

وقد قَرَنَ الله سبحانه دعاءه بالإجابة، فقال: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ

﴿يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾، وهذا من عطف السبب على المسبَّب، وكان ذلك بإزالة أسباب العقم وإعادة قوة الولادة[١].

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فيجوز أن يكون بياناً وثناءً على زكريا ويحيى وأمه. ويجوز أن يعود لجميع مَنْ تقدَّم من الأنبياء، فيكون تعليلاً لما فصَّل سبحانه من فنون إحسانه عليهم وكرامته لهم، والله أعلم.

ثم ذكر كرامته على مريم وعيسى عليهما السلام؛ لما بينها وبين قصة زكريا من التناسب في الكرامة وخَرْق العادة، وابتدأ قصتها بوصف يُنزِّهها به ويُفرِدُها بكرامة عدم المساس من الزوج، فقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[٢] أي: من هذا النوع الذي عندنا المسمَّى بالروح. وهذه الإضافة على معنى الـمُلك، كما

---

(١) القول بحصول التوالد بالقوة غير صواب، بل الولد إنما يكون بخلق الله تعالى له، والزوجان وصلاحهما للإنجاب سبب عادي أجرى الله تعالى سنته في الكون بأن يخلق الولد عنده، وفي حال زكريا عليه السلام خرق الله السنة الكونية، فخلق الولد ـ وهو يحيى عليه السلام ـ من غير اكتمال السبب، أعني: وجود الزوجين لكن من غير صلاحية الإنجاب في جانب المرأة.

(٢) يُعبِّر القرآن عن خلق الروح بالنفخ، وذلك للإشعار بأنَّ الروح جسم لطيف خفيف، وأنه مستقل عن البدن، لا ممتزج به، وأن البدن كالظرف له والغلاف. والله أعلم. فالتعبير بالنفخ عن خلق الروح من أساليب القرآن وخصائصه في أيِّ سياق كان، وبأيِّ موضوع اتصل. ولذلك جاء في قصة مريم، كما جاء في قصة آدم؛ إذ كلاهما بيان لخلق الروح في فرد من أفراد الإنسان. ومُحصَّل المعنى في الآية: أن الله سبحانه خلق الروح في ولد مريم كما خلقه في سائر بني آدم، وإن كان حمل مريم على سنَّة غير معتادة في اللقاح والحمل. وقوله: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ تقرير لهذا المعنى، أي: أنها حيية حصينة، ولكن لقاحها على غير المألوف من لقاح بني الإنسان. والمعنى: أننا خلقنا الروح في ولدها كما خلقناه في ولد غيرها سواء بسواء. (المؤلف).

يقول القائل: أعطيناه من مالنا، وسقيناه من شرابنا. وعلىٰ حدِّ قول القائل: منحناه من نفائسنا وتُحفِنا. وكما يقول صاحب معمل فخار مثلاً: بُني هذا الدار بفخارنا، يتمجَّد بذلك. والله أعلم.

والغاية من هذا البيان: الإشارة إلىٰ أنَّ عيسىٰ عليه السلام لا يمتاز عن النوع الإنساني المنفوخ فيه من هذا الروح، كي لا يظنّ أنه جارٍ علىٰ خلاف تلك النواميس الطبيعيَّة[١]، غاية ما هناك أنه امتاز في خلقه من دون أب، بناموس طبيعيّ غير معروف لنا[٢]، مغاير للقانون العام؛ ليكون معجزةً وكرامةً له ولأمه عليهما الصلاة والسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾، ويؤيِّد ما قلت مجيءُ مثلِ هذه الآية في حقِّ آدم عليه السلام، فقد قال تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]. وإنما خصَّ آدم بهذا التعبير أيضاً لأنه أوَّلُ مظهر من مظاهر تلك القدرة الإلهية، إذ هو أول فرد من أفراد هذا النوع الممتاز المختصّ بالروح في عالم الشهود، فإنَّ سائر أنواع الحيوان ليس فيها إلا الحياة المجرَّدة كبقية المخلوقات من عالم الشهود، كما بيَّنتُ ذلك في سورة الحجر.

وقد أشار سبحانه بقوله في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] إلىٰ مساواتهما في الخروج عن القانون العامّ في خِلقة البشر، بل آدم أكثر خروجاً من عيسىٰ عليهما السلام، حيث خلقه من تراب دون أم وأب، ثم قال له: كن، فيكون.

---

(١) كان خلق عيسى عليه السلام على غير الطريقة المعتادة في غيره بل مع وجه خارق للعادة، فحُقّ له أن يخصَّص بما يميِّزه عن غيره.

(٢) تقدم التعليق على هذا المعنى في مواضع، ومنها ما تقدم عند الآية ٩٠ من هذه السورة.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

ثم ختم قصص الأنبياء ببيان اتِّحاد سائر شرائعهم في جوهرها وأُسسها، وإن اختلفت في بعض مظاهرها وفروعها، نظراً لتدرُّج رُقيِّ النوع الإنساني في مدارج العلوم والمعارف، ولكن أتباعهم عبَثوا بها بعد أن تَـقادَم عليهم العقد، فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾.

وهذا التعبير تصريحٌ وتنصيصٌ علىٰ أنَّ الأنبياء كلَّهم مشتركون في أصول الدين، وهي التوحيد والتَّنزيه، وإن اختلفوا في صالح الأعمال؛ لِتَباعُدِ الأزمان وتَدَرُّج الإنسان في العلم والمعرفة، كما يدرج الطالب للعلم درجات كثيرة ينتهي بها إلىٰ الكمال. والله أعلم. أي: إنَّ مِلَّتَـكم التي يجب أن تكونوا عليها ملَّة واحدة بأُسسها، وهي التوحيد الخالص والإيمان باليوم الآخر علىٰ حقيقته، كما جاءت به الرسل، وعبادة الله سبحانه علىٰ الصورة التي ارتضاها كما نزل بها هذا الذكر الـمُحْدَث. وكذلك الأعمال الصالحة فيمـا بين البشر وبين الله، وما بين البشر أنفسهم، تلك الأعمال التي فيها كمال الروح وغذاؤها وصلاح الحال في الدارين.

وعلىٰ هذه الأسس جاءت سائر الرسالات المنزلة، إلا أن الذي يفسد طبيعته من البشر يعبث بالشرائع بعد أن يتقادم عليها العهد، فيخرج بها من التوحيد إلىٰ الوثنية، ومن الصلاح إلىٰ الفساد. وإذا أنزل سبحانه شريعة جديدة ينسخ بها تلك الشريعة المحرَّفة، ويراعي فيها ما تدرَّج إليه الإنسان في مدارج العلم والمعرفة، بحسب سُنَّة الله في نسخ الشرائع وتبديلها، لم يتَّبع هذا الصنفُ الفاسدُ الشريعةَ الجديدةَ، ويبقىٰ مُصرّاً علىٰ شريعته التي حَرَّفها. وبذلك أصبح لهذا الصنف الفاسد أديان منوَّعة، أدَّت إلىٰ تناحر وعداء، خلافاً لما أراده[1] سبحانه من الوفاق، وإلىٰ ذلك أشار سبحانه بقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ فتوعَّدهم بقوله: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾ أي: المصلحون والمفسدون.

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤﴾ أي: يُحصيه لهم، ولا يهمل شيئاً من حقِّهم ولو كان مثقال ذرَّة، ويُجازيهم عليه الجزاءَ الأوفىٰ.

ثم ذكر مصير المفسدين، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، وضمَّن الكلامَ إثباتَ البعث والحساب بأسلوب وبرهان بديع، مؤدَّاه توعُّدهم بعذاب الآخرة بعد عذاب الاستئصال في الدنيا، الذي جرىٰ علىٰ مَنْ مَضىٰ من الأمم الفاسدة أمثالهم، فقال: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥﴾، ومحصَّل معنىٰ هذه الآية: أنَّ استئصال الأمم الفاسدة المعارضة للأنبياء ـ كعاد وثمود وقوم نوح وقوم فرعون وأَضْرابِهم ـ دليلٌ علىٰ ثبوت الحشر والحساب ومُجازاة المجرمين. ووَجْه الاستدلال: أنه لو لم يكن حَشْرٌ وحسابٌ لجميع الناس، يكون جزاءُ هؤلاء وحدهم في الدنيا دون

(١) يعني: لما طلبه الله عز وجل وأمر به، وإلا فمراد الله لا يتخلف.

غيرهم من المجرمين جزاءً غير عادل، لا يقبله العقل، ولا يُجوِّزه الوجدان. وعبَّر عن هذا المعنىٰ بقوله: ﴿ وَحَرَٰمٌ... ﴾، وهي عبارة بديعة في إثبات الحشر. وهذا الأسلوب في البرهان علىٰ إثبات البعث والحساب يُبطِل قولَ من يُنكره، ويقرِّر ما تقدَّم من أنه لا كُفران لسعي أحد.

وبعد أن أثبت الحشر والحساب فصَّل أحداثه، فقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ والحدب: النشر من الأرض، و﴿ يَنسِلُونَ ﴾ بمعنىٰ: يأتون ويسرعون. ويطلق لقب «يأجوج ومأجوج» علىٰ غوغاء الناس وهَمَجهم، وعلىٰ الكثير المرتبك منهم، وعلىٰ السفلة المتسرِّعين إلىٰ الشر. وأراد به هنا المعنىٰ الثاني من بين المعاني الثلاثة[١]؛ يُهوِّل به عن كثرة الخارجين من قبورهم يوم الحشر، المائجين ببعضهم فزعاً وارتباكاً. والله أعلم.

وكان مجاهد يقرأ: (من كل جَدَث)[٢]، وهو: القبر، فالآية بمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، ويُؤيِّد ما ذكرتُ من إطلاق «يأجوج ومأجوج» علىٰ الكثرة المختلطة من الناس الخارجة من قبورها يومئذ: ما أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، وقد جاء فيه: «إن تسعمئة وتسعة وتسعين من كل ألف يكونون من أهل النار»، فقالوا: يا رسول الله، وأينا ذلك الواحد؟ قال: «أبشروا، فإنَّ منكم واحداً، ومن يأجوج ومأجوج ألفاً». ثم قال: «والذي نفسي بيده، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، فكبَّرنا، فقال: «أرجو أن تكونوا ثُلُث

---

(١) تقدَّم نَقْدُ هذا التفسير ليأجوج ومأجوج في تفسير الآية ٩٤ من سورة الكهف، لما فيه من مخالفة لما ثبت في السنة الصحيحة من أنهم صنف من الناس.

(٢) نسب ابن جني القراءة في «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢: ٦٦) لابن مسعود رضي الله عنه.

أهل الجنة»، فكبَّرنا، فقال: «أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، فكبَّرنا، فقال: «ما أنتم في الناس إلا كالشعرة البيضاء في جلد ثور أسود»(١).

أقول: فالذي يظهر من سياق الحديث أنَّ المراد من يأجوج ومأجوج عموم الناس الذين يُحشرون يوم القيامة، كما يظهر من سياق هذه الآية أيضاً. والله أعلم.

ويزيده تأييداً تعقيبُه بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الحساب ودخول الجنة أو النار، فإنه تعقيبٌ للنشور بالحساب ونتائجه(٢).

ثم صوَّر حالة المشركين عند ذلك، وقال: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من هَوْل ما يَرونَ ويُبصِرون ويخافون، والضمير للقصة أو مُبهَمٌ يفسِّره ما بعده. و(إذا) هذه هي الفجائية، تُصَوِّر ما يفاجئهم من الهَوْل، فيقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾، إذ لم يكونوا في الدنيا يعتقدون بضلال عبادتهم، أو يعتقدون بصحَّة الحشر والحساب، أي: لم نكن نعلم أنه حقٌّ واقع، ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ لأنفسنا بتكذيبنا لذلك.

فخُوطبوا بهذا الخطاب، زيادةً في الإرعاب، وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وهو ما يُرمىٰ به إليها ويُحْصَب، مأخوذٌ من

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٨)، ورواه مسلم (٢٢٢) أيضاً، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) ليس في الحديث الذي استدلَّ به المؤلفُ ما يُفيدُ أن معنى: ﴿فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾: هو خروجُهم من القبور، بل يُفيدُ كثرة أهل النار منهم في الآخرة، وليس في الآية ما يدلُّ على ما ذهبَ إليه المؤلفُ أيضاً. واقترابُ الوعد الحق: دنوُّ يوم القيامة، وبدوُّ علاماتها وأهوالها. وهذه الآيات يُفسِّرها ما تقدم في الآيات ٩٤-١٠٠ من سورة الكهف، وما ثبت في الأحاديث الصحيحة التي تُفيدُ خروجهم بعد فتح السَّدِّ قُرْبَ يوم القيامة.

قولهم: حَصَبه؛ إذا رماه بالحصباء. ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ والمراد بهم: فرعونُ وشبهه، أو المضلِّلون المحرِّفون للشرائع.

ثم أفحمهم بهذا الإفحام الفاضح والإلزام الواضح، المبنيّ علىٰ البيان السابق، فقال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، ثم سجَّل بهذا الحكم، فقال: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: العَبَدَةُ ومَنْ أضلُّوهم، إذ هم المراد من قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، علىٰ طريقة التوسُّع في استعارة صفة المسبَّب للسبب، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، فقد سمَّاهم أرباباً لأنهم يتَّبعونهم في التَّحريم والتَّحليل. أو المراد مُدَّعو الألوهيَّة كفرعون وشبهه، أو كلاهما معاً.

ثم تابع المعنىٰ في تصوير شقائهم، فقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: أنين وتنفُّس شديد من شدَّة الحر، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدَّة الهول. اللهمَّ احفظنا يا أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ
حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ
وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ
كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾
وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ
فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا
يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ
آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ

مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾
قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

ولما فرغ من بيان مصير المشركين الرهيب، أخذ يتكلم عن مصير المؤمنين، كما هو دأب القرآن في المقابلة، وصدَّره بتسجيل الأمان لهم من ذلك الهوْل، وجَعَل صيغة الكلام عامة، أخرج بها ما يعبد الكفرة من دون الله من أموات بعض الأنبياء والصلحاء والملائكة المقرَّبين، وأدخلهم في هذه الزمرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ بإيمانهم المؤدِّي إلىٰ السعادة في الأخرىٰ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا﴾ أي: عن جهنَّم ﴿مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: ما يحسُّ منها من صوت أو حركة أو اضطراب أو غير ذلك. والجملة مبالغة في الإبعاد، أضاف إليها المبالغة في الإنعام عليهم في الجنة، فقال: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم أضاف إلىٰ ذلك بيانَ نجاتهم من فزع ذلك اليوم، فقال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾، وهو هَوْلُ ذلك اليوم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧].

ثم أردف ذلك ببيان كرامتهم والاحتفاء بهم، فقال: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مُهنِّئين لهم قائلين: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ به وتُبشَّرون. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ويشمل هذا الصنف كلَّ من كان علىٰ طريقة محمد ﷺ وأصحابه، وكلَّ من كان علىٰ طريقة نبيٍّ من الأنبياء[1] عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

(١) ما لم يُكذِّب بنبي آخر، لا سيما النبي الذي بعده، حيث يجب عليه أن يؤمن به وينقاد ويخضع لشريعته وحكمه.

وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩]. اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم عاد لذكر هَـوْل ذلك اليوم الذي تقوم فيه القيامة، وتُـفتَحُ فيه يأجوج ومأجوج، وبيَّن صفة أخرىٰ من صفاته الهائلة، فقال: ﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ ﴾ وهو نوعٌ من الطيِّ، صورته: أن يُدرَجَ الكتابُ المتَّخذُ صحيفةً واحدة مستطيلة، دَرْجاً يجعله شبيهاً بالأسطوانة. وهذا النوع من الكتب وهذا الطيُّ لها معروفان قديماً، فطيُّ السجل: مصدر نوعيّ. والمراد هنا: المبالغة في بيان تداخل الأجرام السماوية والتفافها ببعضها بنتيجة الاصطدام والارتباك لفساد نظامها. هذا ما أفهمه من الكلام، والله أعلم بما سيكون. ولكن الكلام بجملته يدلُّ علىٰ خراب هذا العالم خراباً كلياً، فيعود رتقاً وكتلةً واحدة كما كان في مبدأ خلقه قبل فتقه وتفصيله الذي ذكره بقوله: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ ﴾[1] [الأنبياء: ٣٠]، وعَوْدُها رتقاً وكـتلة متجمِّعة هو المراد بقوله: ﴿ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ ﴾. والله أعلم.

وفيه أيضاً تدليلٌ إقناعي في القدرة علىٰ الإعادة، ووَجْهُ هذا التدليل: أنَّ الذي قدر علىٰ إيجادكم أولاً يقدر علىٰ إعادتكم، لأنهما علىٰ حدٍّ سواء. وقوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾ توكيد للإعادة والحشر. وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤ ﴾ توكيد للوعد والحساب، أو مبالغة للتأكيد الأول.

ثم تابع الكلام عن أحوال المؤمنين في الآخرة، فقال: ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ﴾ ما كتبناه في ﴿ ٱلذِّكۡرِ ﴾ وهو التوراة ﴿ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ أي: الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ

(١) انظر ما تقدَّم تعليقاً على تفسير المؤلف لهذه الآية (١: ١٥٤).

﴿ٱلصَّـٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة والسُّدِّيّ وأبي العالية(١). قال تعالىٰ في سورة الزمر: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]. وهذا المعنىٰ هو الموافق للسياق والملائم له.

وقيل: بل المراد: أرض الدنيا، ويعني بالصلاح: صلاح الدين بالمعنىٰ الصحيح؛ إذ هو الكفيل بحُسْن صلاح الدنيا من تسييرها ونشر العدل فيها، واستثمار ما حَبَاها الله به من القوىٰ والمواهب المادية. وقد كانت الآية وعداً لسلف المسلمين الصالح بظهوره علىٰ أكثر الأمم لحصوله علىٰ صلاح الدين حقاً. وتتضمَّن بمفهوم المخالفة وعيداً لهم إن فقدوا ذلك الصلاح، إذ يكون الغير الذي يُحرِزُ صلاح الدنيا أحقَّ بالوراثة. وقد أنجز الله لهم وعليهم ذلك الوعد والوعيد، فقد امتدَّ سلطانهم إلىٰ أكثر المعمور، حتىٰ دبَّ فيهم الفساد فانخذلوا، وما زالوا مُنحدرين إلىٰ أن تسلَّط عليهم أرذلُ الناس أجمعين.

ثم ختم الكلام بما فيه حثٌّ وإنذار، فقال: ﴿إِنَّ فِى هَـٰذَا﴾ أي: فيما ذكر من الأخبار والمواعظ والوعد والوعيد ﴿لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ۝١٠٦﴾؛ لأنَّ العبادة الصحيحة فَرْعُ الإيمان الصحيح، وهو ينوِّر العقل ويجْلي البصيرة.

ثم نوَّه بشأن هذا البلاغ، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ بهذا الذكر الحكيم الذي يُبيِّن للناس ما يؤدِّي بهم إلىٰ السعادة، وما يُؤدِّي بهم إلىٰ الشقاء في الدنيا والأخرىٰ ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾؛ لأنه سببٌ لسعادتهم في الحياتين، إذا علموه عملوا به. وذلك لأنه ﷺ أُرسل بهذا البلاغ المبين والذكر الحكيم في فترة من الزمن، غَشِيَها سحابة كثيفة

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨: ٥٤٩-٥٥٠)، (٢١: ٣٤٢) عدا قول عكرمة.

من الشرك والجهل والرذيلة والظلم والانحطاط، وقد عمَّ الضلال والفوضىٰ الروحيَّة كلَّ ناحية من نواحي الحياة في هذا العالم، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، وسرىٰ بجميع ضروبه من عقليّ وخلقيّ وروحيّ في سائر أصناف الناس، فأسدلت الظلمات أستارها علىٰ المعمورة، فعميت البصائر وضلَّت الأعمال، وأصاب الكُتُبَ السماويةَ ما أصابها من التحريف والتبديل، وحجبت كلمات الله عن العقول البشرية.

فمن رحمة الله بعباده: أن لا يَدَعَهم يتخبَّطون في دَيْجور الضلال، ويتيهون في بيداء الرذيلة والسّفال، بل يُجدِّد لهم وَحْيَه، ويعيد لكلماته صفاءها وجمالها، فأرسل محمداً ﷺ، وأنزل عليه الذكر المبين، حتىٰ قام بأعظم إصلاح، فقال تعالىٰ ممتناً علىٰ المؤمنين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. هذا هو الدين الفطري المبين، فتَعساً وسُحقاً للضالِّين والمكذِّبين.

وبعد أن ذكر الحجج المنوّعة الدالَّة علىٰ أنْ لا إلهَ سِواه، وبيَّن أنه أرسل رسولَهُ بهذا الدين رَحمةً للعالمين، أمرهُ أن يُبلِّغ رسالتَهُ بالتوحيد، تقريراً لهذه العقيدة الناجية، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾، فكان هذا إعذاراً وإنذاراً قـرَّره بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتكم كما أعلم، ولم أطوِهِ عن أحدٍ منكم. يشير إلىٰ تسويتهم بنفسه في إعلامهم بما أوحي إليه به، وما يعلم من أمر التوحيد والحشر والحساب، ثم قال: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي: ولكن لا أعلم متىٰ يكون ذلك اليوم.

ثم علَّل هذا الوعيد باطِّلاعه سبحانه وتعالىٰ علىٰ نيَّاتهم وأقوالهم وأعمالهم لسَعَة علمه ودقته، وألـمع إلىٰ اختصاص الله سبحانه بعلم الوقت الذي يُنْجزه فيه، فقال:

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ أي: ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام، وما تكتمونه من الإحَن والأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه عاجلاً أو آجلاً، ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ﴾ أي: تأخير جزائكم ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ وامتحانٌ يظهر به غاية الظهور ما في نفوسكم من الكفر والطغيان، ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ أي: وتمتُّعٌ لكم في هذه الحياة إلىٰ أجل مقدَّر اقتَضَتْهُ مشيئتُه المبنيَّـة علىٰ الحِكَم البالغة، ليكونَ ذلك حُجَّةً عليكم واستيفاءً لحظوظكم من الدنيا.

ثم حكىٰ سبحانه ما دَعَا به ﷺ بعد إعراضهم بقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: اقضِ بيننا وبين مُشركي مكة بالعدل، ثم خاطبهم بقوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ به ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ من وَصَمَاتكم لهذا الدِّين، والسعي في معارضته ومقاومة المؤمنين. وفي صفة «الرحمن» إيماءٌ إلىٰ رحمته بهم في تمديد أجل وعيدهم، حتىٰ يستوفوا حظوظَهم من الدنيا. والله أعلم.

* * *

خاتـمة

في ترتيب الأنبياء المذكورة أسماؤهـم في القرآن

حسب أزمانهم في التقدم والتأخر

أولـهم: آدم ثم إدريس ونوح على الولاء، وبعد فترة من الأزمان جاء هود وصالح.

وبعد فترة من الأحقاب جاء إبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف.

وبعد فترة جاء شعيب وموسىٰ وهارون، ثم داود وسليمان وأيوب وذو الكفل ويونس وإلياس واليسع، ثم زكريا ويحيىٰ وعيسىٰ ومحمد، صلوات الله عليهم أجمعين.

هؤلاء الأنبياء والرسل الذين جاء ذكرُهم في القرآن، ولكن هناك أنبياء آخرون لم يذكـرهم القرآن، كمـا قال تعالىٰ: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

* * *

سُورَةُ الحَجِّ

بعضها مكّي وبعضها مدني

وهي ثمان وسبعون آية

وهي من السور التي بيَّنت أصول الإسلام وقواعده الكليَّـة.

وابتدأت بذكر أهوال القيامة، وذُكِرَ فيها الإذن بقتال مَنْ يؤذي المسلمين من المشركين وغيرهم.

وبهذه المناسبة ذُكِرَت بعد سورة الأنبياء التي خُتمت بتهديد المشركين بالفزع الأكبر في يوم القيامة وبتسليط المؤمنين عليهم في الدنيا، بوعيدهم المنتظر.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١﴾ حثَّ سبحانه وتعالىٰ علىٰ التقوىٰ، ثم ذكر ما هو كالتعليل لذلك، فنبَّه لهَوْل الساعة مُحذِّراً مما يتبعه من الحساب والجزاء الأخروي. وزلزلة الساعة: هي حادثة خراب العالم الكوني عند انتهاء عمره الطبيعي[1] ـ والله أعلم ـ واختلال الجاذبية العامة فيه، واصطدام الأجرام السماوية ببعضها، بما فيها الأرض، وهو حادث عظيم مدهش يحدث فجأة.

وقد بيَّن القرآن في كثير من آياته الرائعة صفحات من حوادث هذه الزلزلة المروِّعة، وعبَّر عنها بالطامَّة والصَّاخَّة والقارعة والقيامة وغير ذلك من عبارات التهويل. ومن ذلك هذه المقدمة المجملة التي فصَّلها بقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ

(١) قيام الساعة من الأمور الغيبية، والقول بأنها تقوم عند انتهاء عمر العالم الطبيعي يحتاج إلى دليل، بل ظواهر الأدلة ـ كتلك الدالة على أن الساعة تأتي بغتة ـ على خلاف ذلك، أعني: أنها تقوم بأمر الله من غير سبب طبيعي لذلك.

عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾﴾.

وبعد أن أمر الناس بتقوىٰ الله حذراً من ذلك الحادث الجَلَل وما يتبعه، وخوَّفهم به وأنذرهم منه؛ بيَّن أن منهم مَنْ لا يؤمن به، ويجادل في ذات الله وما جاء عن الله بغير علم ولا هُدىٰ، ويتَّبع في ذلك شياطين الإنس المضللين، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في توحيد الله وفيما بيَّنه للناس في الكتاب من أمر الحشر والحساب، يجادلُ ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾﴾ أي: خبيثٍ مُغْوٍ قويّ الإغواء والتَّضليل.

﴿كُتِبَ﴾ أي: قُضِيَ ﴿عَلَيۡهِ﴾ حتماً ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: من اتَّخذه ولياً وتبعه في شأنه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ أي: بالحَمْل علىٰ ما يُؤدِّي إلىٰ ذلك. والآية تصوير لقوَّة إغوائه وتضليله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

وبعد أن أنكر علىٰ هذا الضال المشرك المنكر للبعث سَفاهةً وضلالاً، ذكر ما يدلُّ علىٰ تحقيق وقوعه والقدرة عليه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ وقدرةِ الله عليه، فانظروا إلىٰ مبدأ خلقكم وتطوُّراتكم ليزول رَيْبُكم، ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم

﴿مِّن تُرَابٍ﴾ وفيه وجهان: الأول: أنه من نسبة ما للأصل إلىٰ الفرع، والمراد به: خلقة آدم، إذ موادُّ الأصل وعناصرُه تبقىٰ في الفرع. والثاني: أن المنيّ يتولد من الأغذية بما فيها النبات. وهو متولِّد من الأرض ومكوَّن من موادها.

ثم ذكر الأطوار التالية، فقال: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهو المنيُّ، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي قطعةُ دم جامدةٌ يتطور إليها الـمنيُّ في الرحم، ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وهي اللحمة الصغيرة التي تتحوَّل إليها العلقة، ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ويعني بغير الـمُخلَّقة: المضغة قبل أن تتصوَّر، أو التي تفسد فلا تكون جنيناً. وقيل: المخلَّقة: هي الجزء الذي يكون جنيناً. وغير المخلَّقة: هي الغشاء الذي يحيط بهذا الجزء ليحميَه ويمدَّه بالغذاء من الرحم.

وقوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: قدرتَنا البالغة وضؤولةَ البعث في جانبها. جاء هذا في أثناء البحث علىٰ نهج القرآن في تعجيل ما يقتضي التعجيل، بمقتضىٰ البلاغة العالية. والمعنىٰ: فإن كنتم في رَيْب من صحَّة البعث فإنا نذكركم بأنا خلقناكم ...؛ لنبيِّن لكم صحَّة البعث، ونبرهن عليه بالتنبيه إلىٰ قدرة الله العظيمة، والتذكير بأنَّ تكوُّن الإنسان وحياته الأولىٰ مع حياته الثانية سلسلة أطوار متواصلة، لو تدبَّرتم الأولىٰ لأيقنتم بالثانية المتمِّمة لـها، استـدلالاً بالأطوار المعلومة علىٰ الأطوار المجهولة؛ لأنها كلَّها موضع إعجاب ومظهر قدرة لا يعجزها شيء مهما كان عظيماً، وإلىٰ هذه العظمة أشار سبحانه في آخر سورة لقمان بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، يتمجَّد بذلك ويُظهِرُ قدرته البالغة التي لا تعجزها الإعادة.

ثم تابع الكلام عن الحياة الأولى، فقال: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ويسقط ما يشاء بحسب سُنن الله الكونيَّـة مخالفةً وانطباقاً. وهذا بيان لتطوُّرات المضغة المخلَّقة إلىٰ حين تبلغ حدَّ الولادة، ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ وهذا الإفراد باعتبار كـلِّ واحد منهم، أو بإرادة الجنس الصَّادق علىٰ الواحد والمتعدِّد، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا

أَشُدَّكُمْ ﴾ جمع «شِدَّة»، مثل: أنعُم ونعمة. وهذا طَوْرٌ آخر من أطوار الإنسان، أخرجه مَخْرَج التعليل لسابقه، وعَطَفَه علىٰ أطوار مقدَّرة مدرجة تنتهي به. والمراد: لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل والتمييز.

ثم ذكر طَوْراً آخر من أطواره البارزة، فقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ وهو علىٰ قوَّته وكماله قبل أن يعتريَه دَوْرُ الضَعف والهرم المذكور بقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ المنتهي بهذه العاقبة المبيِّنة بقوله: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ فيرجع كما كان في عهد طفولته؛ ضعيفَ البنية سخيفَ العقل قليلَ الفهم. ويكون هذا في بعض الهرِمين، وذلك لأن الحواس الباطنة التي في الدماغ تضعف كما تضعف الحواس الظاهرة، أما العقل فمحلُّه الروح، وهي لا تهرم، فإن كان مثقفاً بقي صاحبه فاهماً، وإلا خرف.

قال زياد أمير العراقين للحسن البصري: لولا سنّك لوظَّفتك، قال: إن كنت تريد العمل فكما تقول، وإن كنت تريد العقل فأنا اليوم أحسن من ذي قبل.

أقول: ويؤيِّد هذا قوله تعالىٰ عن روح الميت: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقوله تعالىٰ عن عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، يعني: عند الاحتضار[1] فيتيقَّن اليهودي أنَّ عيسىٰ رسولٌ من الله، ويتيقَّن المسيحي أنه رسولٌ من الله وليس ولداً له. والله أعلم.

ثم أعود إلىٰ السياق فأقول: وقد أقام الغاية مقام التعليل، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

وهذه أطوار للإنسان معروفة لديه، نبَّه الله تعالىٰ إليها حتىٰ انتهت إلىٰ حلقة

---

(١) وهو أحد القولين في تفسير هذه الآية، وانظر التفصيل هناك (٣: ١٥٦).

الموت وما بعد الموت من البرزخ ثم البعث والنشور، فانقطع إمكان علم البشر ببقية سلسلة التطورات في ذلك؛ لأنها من عالم الغيب والخفاء، وجارية علىٰ نواميس طبيعية غير النواميس المعروفة في عالمنا، فبيَّنها تعالىٰ بأقرب النظائر والأشباه من أحوال عالمنا، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: ميتة يابسة، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾[١]، فهذا تلميحٌ إلىٰ أنَّ البعث بعد الموت نظير إحياء الأرض بعد يبسها، والذي يقدر على هذا يقدر علىٰ ذاك، وهو العظيم القدير. فكما أنَّ لزمن الربيع طبيعة إنعاش النبات وإحيائه[٢]، فلزمن الحشر أيضاً طبيعة إحياء الأجسام وإعادتها من عَجْب الذنب[٣]. والله أعلم.

وبعد أن أتمَّ سبحانه هذه المقدِّمات الدالة علىٰ أعماله العظيمة وقدرته البالغة، ذكر النتيجة المطلوبة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُثبتٌ ومُبَرهِنٌ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ الإلهُ ﴿ٱلْحَقُّ﴾، وأنَّ ما يدعون من دونه الباطل، لاختصاصه تعالىٰ بهذه الأفعال العظيمة والآثار الجليلة، ﴿وَ﴾ مُثبتٌ كذلك ﴿أَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، لأنّ من يقدر علىٰ هذه الأعمال المذكورة المنوّعة ـ التي منها إحياء الأرض بعد يبسها وقحولها ـ يقدر علىٰ ذلك ﴿وَ﴾ مُثبتٌ ﴿أَنَّهُۥ﴾ تعالىٰ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَ﴾ إذا ثبت ذلك ثبت ﴿أَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾.

---

(١) وقد جاء في كتاب «محاسن الطبيعة»: أن أنواع النبات علىٰ الأرض تبلغ خمسمئة ألف نوع، منها ما هو للدواء، وما هو للقوت، وما هو للفاكهة، وما هو للبهائم، وغير ذلك. (المؤلف).

(٢) نسبةُ إحياء النبات وإنعاشه إلى طبيعةٍ لزمن الربيع قولٌ غير سائغ، ومعناه فاسد، فالطبيعة والزمن لا فعل لهما ولا تأثير، وإنما هما ظرفٌ لفعل الله وتأثيره، ربطه سبحانه به بعلاقة سببية عادية، أي: جارية وفق قانون وسنة كونية، لكن يبقى التأثير منسوباً إلى الله سبحانه وحده.

(٣) وهو العصعص الموجود في نهاية العمود الفقْري.

ويجوز أن تكون الباء في قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ للسببية، والمعنىٰ: وكان ذلك بسبب أن الله.

وقد بيّنت هذه الآيات أن بقية سلسلة التطوُّرات للإنسان بعد الموت من البعث والنشور، يمكن أن تُدرك وتُستنار مُجْملاً بتطور حالة الأرض بعد يبسها وقحولها، كيف تنزل عليها الأمطار، ويجيء دَوْرُ حياتها الثانية بعد اليبس والقحول، وهي شبيهة بالحياة بعد الموت، فالذي يقدر علىٰ هذه يقدر علىٰ تلك؛ إذ ليست هذه بأقلَّ عظمةً منها لو تدبَّرها المتدبِّرون، ولكنها أُلِفَت فلم يُلْتَفَت إلىٰ ما فيها من قدرة بالغة وظاهرة عجيبة، ليست الإعادة بأعجب منها. هذا ما ظهر لي في تفسير هذه الآيات. والله أعلم.

الكلام عن الروح

وعن اتصالها بالبدن وعن مستقرِّها بعد مفارقتها له

أرىٰ أولاً: أنَّ الروح إنما هي للإنسان دون سائر الحيوان، وأما الحياة فهي عامَّة في سائر المخلوقات من حيوان ونبات ما دامت علىٰ تسويتها التي خلقها الله عليها، فإذا فقدت تَسْويتها بمَرَض أو عطب فَقَدت حياتها وعَرَض لها الموت، فالحياة عَرَضٌ كالموت. أما الروح فجسم لطيف كالمَلَك. والله أعلم. وإطلاق الروح علىٰ الحياة في عُرف التخاطب لا يُعارض العلم والواقع؛ لأنَّ عُرْفَ التخاطب مبنيّ علىٰ التساهل والاتِّساع في التعابير.

ومدار الحياة في الأجسام: الدورة الدموية، ومحرِّكها القلب، فمتىٰ كان القلب سليماً كانت الحياة، ومتىٰ عطب أو عطب عضو من أعضاء الدورة ووقفت الدورة انعدمت الحياة.

وأرىٰ ثانياً: أن جسم الإنسان إذا كان حياً ـ وذلك بكمال تَسْوية جهاز الدورة الذي خلقه الله عليها ـ اتَّصلت به الروح، وإذا فقد الحياة باختلال تسويته انفصلت عنه الروح وفارقته، حيث أصبح لا يصلح محلاً لها، كمصباح الكهرباء إذا انقطعت أسلاكه لا تظهر فيه الكهرباء؛ إذ لا يصلح أن يكون مظهراً لها. فإذا أراد الله سبحانه أن يصل به الروح مرة ثانية بعد البعث، أنشأه وأعاده سوياً، وبصفةٍ قابلة للخلود في هذه المرة. ويحتمل أن يكون ذلك بتكوُّنه وتنميته داخل الأرض من بذرة عَجْب الذنب، أي: نواة الحياة، أو بطريقة أخرىٰ يعلمها الله سبحانه كما خلق آدم، إذ لا يعلم أسرار الخليقة إلا هو. هذا ما أراه، والله أعلم.

وقال العلماء: إنَّ تعلُّق الروح بالبدن يكون علىٰ خمسة أنواع متغايرة:

الأول: في بطن الأم.

الثاني: بعد الولادة.

الثالث: في حال النوم، إذ لها تعلُّق بالجسد من وجه، ومفارقة له من وجه.

الرابع: في البرزخ، فإنها وإن كانت قد فارقت الجسد بالموت، لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لم يبق لها إليه التفات.

الخامس: تعلُّقها به يوم البعث، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤]. وهو أجلُّ أنواع التعلُّقات، ولا نسبة لما قبله إليه، إذ لا يقبل البدن معه نوماً ولا حاجة له به كما في الدنيا. أقول: ولا يقبل فساداً، وذلك لأن الله سبحانه يُعيده علىٰ طبيعة يصلح معها للخلود، لا كما كان في الدنيا محتاجاً لأشياء، ومستعداً للانحراف والأمراض، وقابلاً للفساد والفناء.

أما أنا فأقول: إنَّ الجنين في الرحم يكون فيه حياة خاصّة دون تنفُّس، أما الحياة

التامَّة فتكون بعد خروجه من الرحم، ومتىٰ خرج اتَّصلت به الروح، ولذلك قال سبحانه في آية ١٤ من سورة المؤمنين بعد ذكر الأطوار في الرحم: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، يشير إلىٰ اتصال الروح فيه. والله أعلم.

وقالوا: إنَّ الجسم في الحياة الدنيا ظاهر والروح خفيَّـة، وفي حياة البرزخ خفيٌّ والروح ظاهرة، وفي الحياة الأخرىٰ ظاهران معاً.

ويروىٰ عن عبد الله بن عمر: أنه دخل علىٰ أسمـاء بنت أبي بكر يُعزِّيها عندما صَلَبَ الحجَّاجُ ابنَها عبد الله بن الزبير، فقال لها: عليكِ بتقوىٰ الله والصبر، فإن هذه الجثث ليست بشيء، والأرواح عند الله.

وقال الإمام مالك عن مستقر الروح بعد الموت: بلغني أن الروح مُرسَلة في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت(١). وهو قول سلمان الفارسي رضي الله عنه(٢). والبرزخ: هو الحاجز بين الشيئين. فكأنه أراد: في عالم بين الدنيا والآخرة. وهو قولٌ قويٌّ، فإنها فارقت الدنيا ولم تلج الآخرة.

وإني أذكر عن بعض علماء العصر من الفرنجة المشتغلين بعلم الروح، يقول ما معناه: إنَّ الأرواح في الفضاء، ولكنها مفصولةٌ عنا بحاجز لا نعلم كُنهَه.

ويُروىٰ أيضاً عن الإمام مالك وغيره ما معناه: إنَّ صُورة الروح كصورة الجسد، إلا أنها لطيفة(٣).

---

(١) سبق تخريجه (٤: ٤٢٩).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٢١: ٤٦٠) بلفظ: «... أما المؤمنون فإن أرواحهم في الجنة وهي تذهب حيث شاءت...».

(٣) سبق تخريجه (٤: ٤٢٩).

ويُروىٰ عن جعفر الصادق: أنَّ الروح تبقىٰ علىٰ مثل قالبها في الدنيا، وإذا قدم عليهم قادم عرفوه. وقال مرة: علىٰ صور أبدانهم، لو رأيته لقلت: فلان.

ويروىٰ عن سعيد بن جبير: إنَّ الأموات تأتيهم أخبار الأحياء، فإن أصاب قريبَه خيرٌ سُرَّ به، وإن أصابه شرٌّ حزن له[١].

أقول: وربما يعلمون ذلك بأنفسهم؛ لأن الله سبحانه يقول في حقهم: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، فالروح إذا فارقت البدن لم يكن عندها بعيدٌ من الأماكن، ولا يمنعها من الوصول كثيفٌ من الحواجز. والله أعلم.

ويروىٰ عن وهب بن مُنَبِّه: أنه إذا مات الميِّت تلقَّته الأرواح يسألونه عن أخبار أهل الدنيا، كما يسأل الغائب عن أهله إذا كان في سفر[٢].

وجاء في بعض الكتب الحديثة عن استحضار أرواح الأموات: أنها تقول عندما يسألونها عن عالمها: إننا لا نستطيع أن نُعبِّر عن عالمنا بعبارات أرضيَّة، لأنها لا تفي به[٣].

وغاية ما نقول: إنَّ هذا العالم بنعيمه وشقائه تابعٌ لما يعمله الإنسان علىٰ الأرض من الأعمال المؤدية إلىٰ ذلك.

وقال البقاعي: جاء في الأحاديث: «إن روح المؤمن في طيور تسرح في الجنة»[٤]،

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٤٤٧).

(٢) ذكره السيوطي في «شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور» (١: ٢٣١).

(٣) دعوى استحضار الأرواح دعوى باطلة، وما هي إلا استحضار للقرين من الجنّ.

(٤) رواه مسلم (١٨٨٧) عن مسروق قال: سألنا عبد الله ـ يعني: ابن مسعود ـ عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، =

وجاء أيضاً: «إن الميت المؤمن يعرض عليه مقعده من الجنة»[(١)]، ولا منافاة بينهما، لأن دخول الجنة التام إنما يكون بعد اقتران الأرواح بالأبدان المعادة في الحياة الأخيرة الكاملة. ودخولُ الروح المجرَّدة عن البدن أمرٌ دون ذلك.

وقال ابن حزم وطائفة من العلماء: مستقرُّ الروح بين الموت والبعث: حيث كانت قبل خَلْق أجسادها.

أقول: وهذا رأيٌ لبعض الفلاسفة: يدَّعون أنَّ الأرواح موجودة قبل أجسامها. وهو رأي مجرَّد عما يَثْبُتُ به مِثلُه من سنة أو كتاب. والله أعلم.

وأُكمِلُ هذا البحث بقصَّة ثابت بن قيس:

استشهد ثابت بن قيس في معركة الرِّدّة، وكانت عليه درع ممتازة، فمرَّ به أحد المجاهدين فأخذها، فبينما رجل من المجاهدين نائم، أتاه ثابت في منامه وقال له: أُوصيك وصيَّـة، فإيَّاك أن تـقول: هذا حُلُم فتضيِّعه. إني لما قُتِلتُ أمس مرّ بي رجل من المسلمين فأخذ درعي، ومنزله في أقصىٰ الناس، وعند خبائه فرس، وقد وضع رحلاً علىٰ الدرع غطّاها به، فأْتِ خالد بن الوليد قائد الجيش، فقل له: أن يبعث إلىٰ درعي فيأخذها، وإذا قدمتَ إلىٰ المدينة علىٰ خليفة رسول الله ﷺ ـ يعني أبا بكر ـ فقل له: إن عليَّ من الدين كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق وفلان. فأتىٰ الرجل خالداً

= قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ...».

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٢٤٠)، ومسلم (٢٨٦٦)، عن ابن عمر بلفظ: «قال النبي ﷺ: إذا مات الرجل عُرِضَ عليه مقعدُه بالغداة والعشي؛ إن كان من أهل الجنة فالجنة، وإن كان من أهل النار فالنار، قال: ثم يقال: هذا مقعدك الذي تبعث إليه يوم القيامة». ولكن هذا ليس خاصاً بالمؤمنين فقط.

فأخبره، فبعث إلىٰ الدرع فأتىٰ بها. وحدَّث أبا بكر رضي الله عنه، فأجاز وصيته. قال: ولا نعلم أحداً أُجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس رضي الله عنه[١]. ذكر هذا ابن عبد البر في «الاستيعاب»[٢].

أقول: لم يعتبر أبو بكر رضي الله عنه قولَ ثابت إنجازَ عتق بعد الموت، وإنما اعتبر أنه خبر صحيح عن عتقه لعبديه قبل الموت، ولـمَّا صحَّ خبره في أمر الدرع صحَّ خبره في أمر العتق والدَّين.

ويؤيِّد هذا الحُلُمَ قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، صدق الله العظيم، والحياة عامة في الأرواح، ولكن الشهداء يمتازون عنهم بالرزق والعيش الرغيد.

ثم تابع[٣] الكلام إلىٰ أن قال: وإنها أجسام حاملة لأعراضها من التعارف والتناكر، إلىٰ أن قال: فلا تزال الأرواح هناك وَفْقاً لقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ...﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩][٤]، ولا تـزال هكذا حتىٰ يعيدها الله إلىٰ الأجساد.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٠٣٦)، وسكت عنه هو والذهبي.

(٢) (١: ٢٠٢).

(٣) أي الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ في كتاب «سر الروح» الذي اختصر فيه كتاب «الروح» لابن القيم. وكلاهما مطبوع.

(٤) جاء في كتاب «هذا ديننا» لمحمد الغزالي المصري: ما أشبه عقاب القبر بما يحدث للمجرمين في دنيانا هذه: يُقبَض علىٰ أحدهم، ثم يقتاد إلىٰ قسم الشرطة، فيجرىٰ معه تحقيق ابتدائي، ثم يوضع في سجن احتياطيّ ريثما تجري محاكمته، وذلك يوم الحشر والحساب. وما أشبه ثواب القبر بما يقع لمن تقرَّرت له جائزة سَنية، فإنه يُطلب برفق ويستقبل بحفاوة، ويجلس في بهو كريم تكتنفه البشاشة والإيناس، حتىٰ ينال مكافأته المرتقبَة بعد الحشر والحساب. (المؤلف).

أقول: ويوافق بعضَ هذا قولُه سبحانه وتعالىٰ في آل فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]. وجاء في الأثر عن أم هانئ الأنصارية: أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! أنتزاور إذا متنا ويرىٰ بعضنا بعضاً؟ قال ﷺ: «يكون النَّسَمُ طائراً يَعلَقُ بأشجار الجنة، حتىٰ إذا كان يومُ القيامة دخلت كلُّ نفس في جسدها»(١). ويريد بالنَّسَم: الأرواح الصالحة.

والحاصل: أن الروح جسم لطيف كالملَك، يتَّصل بالجسد في اليقظة، وينفصل في النوم، قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]. أما الحياة فعَرَضٌ كالموت، تعرض عندما تكمل تسوية الجنين ويخرج من الرَّحِم، والموت عَرَضٌ يحدث إذا عطبت التَّسويةُ بمرض ونحوه.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالىٰ ما أيَّد به البعثَ، وقُدرةَ الله عليه، واختصاصَ الله سبحانه بالألوهيَّـة، لاختصاصه بصفاتها وأفعالها؛ عادَ إلىٰ ذكر حال المعارضين الذين

(١) رواه أحمد (٢٧٣٨٧)، والطبراني (٢٤: ٤٣٨) عن أم هانئ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣: ٧٤): رواه أحمد والطبراني في «الكبير»، وفيه ابن لهيعة وفيه كلام.

لا ينتبهون لهذه البراهين، ويُعارضون أحكام القرآن المبين، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾[1] أي: يجادل في توحيد الله وفيما يُبيِّنه للناس في الكتاب من الحشر والحساب، غيرَ مُتَّبع في مجادلته طريقاً من طُرق المجادلات الصحيحة المعقولة أو المنقولة، ولكنه الجهل والعناد.

وقال أبو مسلم: إنَّ الآية السابقة في أول السورة الشبيهة بهذه الآية إنما هي في حقِّ الأتباع، أما هذه ففي حقِّ المتبوعين، أي: إنَّ هذا الـمُضلِّل لا يرجع فيما يقوله ويَدَّعيه في ذات الله وإنكار قدرته علىٰ البعث إلىٰ درايةٍ وتعقُّل، ولا إلىٰ استدلال صحيح، ولا إلىٰ كتابٍ سماويّ ووحيٍ مُظْهر للحق، فمجادلتُه لا تستند علىٰ حُجَّة نظرية معقولة، ولا بُرهان سمعيّ منقول، ولكنها الضلال والسفاهة، حالَ كونه ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: متكبّراً متجبّراً داعياً إلىٰ الضلال. وقد جعل تجبُّره مُسْتَنداً للإضلال، كما تُشعِرُ به صيغةُ التعليل، بمعنىٰ: ليس له سَنَدٌ في دَعْواه إلا التجبُّر والعناد. فحَكَم الله تعالىٰ عليه بهذا الحكم وسجَّل عليه به وتوعَّده فيه، فقال: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: عذاب يَخْتزي منه، وهو عذاب الاستئصال الذي يكون تاريخاً سيئاً لهم، وعبرةً لمن بعدهم، ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ فمأواه جهنَّم وبئس المصير.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا العمل منه إنمـا هو من تحريفه لطبيعته، وإفساده لسلامة

---

(١) في وصف الكتاب بالمنير ـ أي: الواضح ـ إلماع إلىٰ أنه لا يجوز الاستدلال والتمسُّك بالآيات التي فيها خفاء، والتي هي محلُّ تأويل، فإنّ التمسُّك بمثل هذه الآيات قد أضل كثيراً من الناس، وتعلَّق صاحبُ كل مذهب أو بدعة في الاستدلال علىٰ رأيه بأحد الوجوه، فتعدَّدت المذاهب والفِرَق، وكل واحد يدَّعي أن الكتاب ناصره، وأنه مع الحق لم يفارقه، والكتاب العظيم منهم بريء. (المؤلف).

فطرته، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾؛ إذ لم يخلقهم ضالِّين، ولكنهم هم الظالمون لأنفسهم حين يخرجونها عن الهداية الطبيعية إلىٰ الضلال، وذلك بمفاسد التربية والنشأة وسُوء القدوة والصحبة، ويُحرِّفونها بذلك عمَّا خلقها الله عليه ممَّا يحفظ لها السعادة إلىٰ ما يؤدِّي بها إلىٰ البلاء والشقاء.

ويدخل في هذا الوصف الـمتأثِّرون بأعداء الدين، الذين يعترضون علىٰ تعدُّد الزوجات والطلاق والتفريق بين الذكر والأنثىٰ في الميراث، وعلىٰ الحدود والربا، وأمثال ذلك مما أنزله الذي يعلم السرَّ في السمـاوات والأرض لخير عباده، بمقتضىٰ حكمته البالغة وعلمه الدقيق، خابوا وخسروا.

وبعد أن ذكر حال المشركين المجاهرين بالشِّرك المجادلين فيه، عقَّبه بذِكرِ حال صنف آخر دخل في إيمان مُضْطرب، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ والحرف: طرف الجبل، يكون القائم عليه مضطرباً غيرَ مستقر. فاستُعيرت حالـتُه القلقة لهذا الـمُضْطرب في إيمانه وأداء عبادته.

وقد فصَّل حالته الـمُضْطربة، بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ وثبت علىٰ إيمانه وعبادته؛ لاعتقاده أنَّ هذا الخير من جرَّاء ذلك، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار وابتلاء، بمثل مرض أو قلَّة مال أو معارضة عدو، ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: رجع إلىٰ شركه وكفره؛ لاعتقاده أنه لم ينفعه شيئاً إيمانُه وعبادتُه، ولو كانت حقاً لـمَا ناله هذا البلاء. وذلك لأنَّ إيمانه لم يكن عن علم ويقين، ولجهله بأنَّ ما جرىٰ عليه إنما هو من تقصيره في الأسباب، وليس للإيمان وعدمه مَدْخل في ذلك. فنعىٰ عليه سبحانه بقوله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾.

ثم شرح حاله بعد انقلابه عن الإيمان إلىٰ الشِّرك، مُجهِّلاً له ومُشنِّعاً عليه، فقال:

﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾، ولا تعارض بين هاتين الجملتين؛ إذ الأولىٰ لنفي الضرر الذاتي، بمعنىٰ: أنها لا تقدر أن تضرَّ وتنفع، أي: لا تقدر علىٰ شيء أصلاً، فكيف تكون آلهة. والثانية: لإثبات الضرر العارض المسبَّب عن عبادتها، واعتقاد أنها تضرُّ وتنفع؛ لأن ذلك يُفسِدُ العقول ويُشبعها بالأوهام، ويأسر النفوس فيقيِّدها بسلاسل من الخرافات، ويؤدِّي إلىٰ اضطراب كبير في الحياة، مضافاً إلىٰ غضب الله وعقابه. فقد أزاح بالجملة الثانية ما عسىٰ أن يُتوهَّمَ من الجملة الأولىٰ من أنَّ هذا الأمر لا ضرر فيه، وبيَّن ذلك بنوع بليغ من أساليب اللغة.

ويجوز أن يُراد بقوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾: ما يعتقده فيه من أنه سيشفع له عند الله، ولكن الله سبحانه سَيُعذِّبه عليه عذاباً نُكراً.

واللام لتأكيد مضمون الجملة.

ثم حمل عليهم وشنّع بمهانة هذا المدعوّ، وذمَّه وبالغ في تـهجين أمره بقوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ أي: لبئس الوليّ والناصر، وبئس الصاحب والمعاشر، هذا المدعوُّ العاطلُ المهين. يؤنِّب بذلك هذا الداعي ويُجهِّله وينعي عليه ويُلحيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ
وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ
وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

ثم قابل صفةَ هذا المشرك وصفةَ معبوده بصفة المؤمنين وصفة معبودهم وما

ينتفعون منه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ من الحق والعدل والإكرام، فقابل سبحانه بين عظمة الله وإكرامه للمؤمنين بدخول الجنة وما فيها من نعيم مقيم، وبين عدم نفع ما يدعو هذا المشرك من دون الله.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ اعتقادَ قسم آخر من المشركين في أنَّ محمداً ﷺ سيُخْذَل، وهم يتوقَّعون ذلك غيظاً وحنقاً. فردَّ عليهم سبحانه بما يغيظهم، وصوَّر ذلك بصورة هازئة بهم، غائظة لهم، لحبوط أملهم بعد تحقُّق نصرة رسول الله ﷺ، فقال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، والضمير في ﴿يَنصُرَهُ﴾ للنبيِّ ﷺ، وخصَّه بالذكر لأنه الرئيس، ونَصْرُ المؤمنين تَبَعٌ له. وقوله: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ جاء زيادةَ مبالغة في تصوير حَنَقهم علىٰ رسول الله ﷺ، واعتقادهم بطلان ما جاء به. وقد عقَّب به شَرْحَ حالة المؤمنين، ووعدهم بالجنة، لأنها من آثار نَصْرِهِ تعالىٰ لهم في الآخرة، وألمع بقوله: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ إلىٰ ما نال المشركين من عذاب الخِزْي والخِذلان يوم بدر، لأنه من آثار نَصْر الله لرسوله في الدنيا. أي: مَنْ كان يظنّ ذلك فهذا أثر النصر في الدنيا والآخرة فليُعارِضه، أو فَلْيَمُتْ غَيْظاً.

وقد عبَّر عن هذا التَّحدِّي وعن هذه الإغاظة بقوله: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾ أي: ما يغيظُه من نصر الله لنبيِّه، أي: فَلْيَتوصَّل إلىٰ السماء، وَلْيَقطع المسافة البعيدة، وَلْيُعارض نَصْرَ الله إن قدر، وَلْيَشفِ غليلَه. فالكلام علىٰ الإغاظة لهذا الظانِّ والسخرية والتيئيس له من أمله، والتحقيق لما سيكون من إكمال نصرة النبي ﷺ والمؤمنين. والمعنىٰ مبنيّ علىٰ العُرْف العام، وهو أنَّ الأمر الذي يأتي مِن قِبلَ الله يأتي من السماء، أي: فليقاوم السماء إن قدر. وقيل: المراد: فلْيَمدُدْ بحبل يخنق به نفسه ويقطعه.

وعلىٰ كلٍّ، فالآية تمثيل أدبيٌّ بليغ مأخوذ من عُرْف المخاطبين، سيق إغاظةً وتهكماً بمن كان يعتقد أنَّ رسول الله ﷺ ضالٌّ في دعوته وأعماله فاشلة، فبينما كان ينتظر خذلانه وفشله، إذ يرىٰ قد نصر الله نبيه، وأعلىٰ دينه، حتىٰ انتشر انتشاراً عظيماً علىٰ مرأىٰ منه ومَسْمَع، فخَنَقَه الغيظ. وهؤلاء الظانُّون هم الذين سَبَق ذِكرُهم في إنكار البعث والمجادلة فيه.

ثم علَّق علىٰ السياق بما يتضمَّن التَّنويهَ بشأنه والنَّعيَ علىٰ هؤلاء الظانِّين المكذِّبين بالقرآن، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: كما صَدَق هذا القرآنُ في بيان وَعْدِهِ لرسوله بالنصر والظفر وظهور الدين، فهو صادقٌ بيِّنٌ في كل ما يقوله ويُقرِّره من أمر هذه الحياة وتلك الحياة، وأسباب السعادة والشقاء فيها، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾، وإرادتُه سبحانه لا تَجْري جُزافاً واعتباطاً، وإنما تجري في أمور عامَّة وقواعد كلِّية[1] مقرونة بالحِكَم البالغة. وقد مضت إرادتُه وسُنَّته تعالىٰ في أنَّ من حافظ علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته ـ حيث نشأ نشأة غير متأثِّرة بسُوء التربية وجمود التقليد ـ يُوجِّه عقله بمقتضىٰ الفطرة وإرشاد الدين لسلوك سبيل الهُدىٰ واليقين.

ففي الآية تعريضٌ بهؤلاء الضَّالِّين الذين أفسدوا نورَ بصيرتهم بالتقليد الأعمىٰ للآباء والأجداد.

ثم مخض السياق بهذا البيان المتضمِّن لوعد المهتدين ووعيد الضَّالِّين المعارضين لهذا الدين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما أنزلنا من الآيات البيِّنات، ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟

---

(١) لم يُوضِح المؤلف رحمه الله تعالى مقصده من هذه العبارة، وهي موهمة. وعلى كُلٍّ، فكلُّ ما يقع في هذا الوجود من صغير الأمور وكبيرها، ودقيقها وجليلها، وعامِّها وخاصِّها، وكليِّها وجزئيها؛ إنما هو واقع بإرادة الله تعالى.

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بحكمه وإظهار المُحِقِّ من المُبْطل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ لا يخفىٰ عليه من أمرهم خافية، فيجازي كلَّ واحد بما يستحق.

وإنما أُعيدت ﴿إِنَّ﴾ لمزيد التأكيد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم أشفع السياق بما يتضمَّن التأنيبَ لهؤلاء الضَّالِّين علىٰ انفرادهم بهذا الضلال دون سائر مخلوقات الله ـ علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ...﴾ [الأحزاب: ٧٢] ـ فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾[1] سجودَ انقيادٍ[2] لما أراده الله

(١) جميع العوالم تسجد لله تعالىٰ خالقها، ولكن سجود كلِّ نوع حَسْب هيئته، وصورة خلقته، فليس سجود الأشياء لله علىٰ سبعة أعضاء كسجود الناس، لأنَّ الهيئة والصورة الخلقية مختلفة، فكلٌّ يسجد علىٰ حسبه سجوداً حقيقياً.

(٢) سجود هذه الأشياء الواردة ليس من باب المجاز بالاستعارة، باعتبار انقيادها لأمر الله التكويني، =

منها وأودعه فيها من سنن طبيعيّة ومواهب فطريّة ومطالب مرعيّة، لا تنحرف عنها ولا تتخلّف، ﴿وَ﴾ يسجد له ﴿كَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ سجودَ طاعةٍ وعبادة لسلوكهم سبيل الهُدىٰ بمقتضىٰ الفطرة التي حافظوا علىٰ سلامتها وبإرشاد المؤمنين إلىٰ ذلك، ﴿وَكَثِيرٌ﴾ من الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾[1] حيث أعرض عن هذا الرَّشاد، بإفساده لطبيعته وطَمْسِهِ لبصيرته بنشأته الضالة، فانحرف عن سنن فطرته، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بهذا الإفساد لنفسه، وهذا الإعراض عن هَدْيه ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾؛ إذ لا أحد يقدر علىٰ إصلاحه بعد هذا الانحراف، حيث مَضَت سنة الله تعالىٰ في أخلاق البشر إذا تشبَّع بأمر وانطبع عليه لا يمكن أن يميل إلىٰ ضدِّه، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾ من السنن الطبيعيَّة، حسبما تقتضي الحكمة من ذلك في مخلوقاته، مع حفظ التوازن والاحتياط، ولا يظلم ربُّك أحداً. فإنَّ مشيئته سبحانه كإرادته[2]، لا تجري جُزافاً واعتباطاً، وإنما تجري في قواعد كليَّة، وسُنن طبيعيَّة، كلها خير ورشاد. فمن تمسَّك بها سايره الهناء، ومن انحرف عنها هوىٰ إلىٰ الشقاء.

وبعد أن بيَّن أن الناس قسمان: قسمٌ يعبد الله ويطيعه، وقسمٌ حقَّ عليه العذاب، فصَّل جزاءَ كلٍّ منهما، فقال: ﴿هَٰذَانِ﴾ الصنفان المؤمنون والكافرون من الناس، ﴿خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ أي: في ذات الله تعالىٰ وصفاته واختصاصه بالألوهية،

= بدليل قوله تعالىٰ في الآية نفسها: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: المؤمنون الساجدون لله تعالىٰ اختياراً. ولو كان المراد خضوعهم لأمر الله التكويني لَـمَا قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، بل لقال حينئذ: (وجميع الناس)، لأنهم كلهم خاضعون لقدر الله وقضائه وأمره التكويني.

(١) قوله تعالىٰ: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ صريحٌ في أن المراد تَـرْكُهم السجود الاختياري، فهم لم يسجدوا لله تعالىٰ في الدنيا.

(٢) الجمهور على عدم التفريق بين إرادة الله ومشيئته.

وكذلك أنزل الله عليهم من دينه، ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ ﴾ أي: فُصِّلت ﴿لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾؛ يكنّي بهذا عن غشيان النار لهم وانغمارهم فيها، وأنها لا تفارقهم، وكذلك ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾، وهو الماء في منتهىٰ الحرارة، ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ ﴾ أي: يُحرَقُ به ويُذابُ ﴿ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ من الأمعاء والأحشاء، ﴿وَ﴾ كذا ﴿الجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ جمع مَقْمعة، وهذه آلة القمع، يُضربون بها.

ثم صوَّر دوامَ ذلك الحال واستمراره فيهم، فقال: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ ﴾ من غمومها هذه ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، وهذا التّصوير مأخوذ من حال الـمُخاطَبين في الدنيا، فإنَّ مَنْ يمسُّه العذاب يُحاول بكلِّ قُواه أن يهرب منه، ولكنْ لا نجاة من عذاب الآخرة، ﴿وَ﴾ يقال لهم زيادةً في التعذيب والإيلام: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾، أعاذنا الله. اللهمَّ إني أعوذ بك من أن أُشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم.

وبعد أن ذكر عذاب الكافرين ذكر نعيم المؤمنين، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾[1] وهي كالأوسمة التي تُعطىٰ للتقدير،

---

(١) أيجوز أن يعود هذا إلىٰ النساء فقط؟ لأن من خصائص اللغة وأساليب القرآن: إدماج النساء في تعابير الرجال والكلام عنهم إذا لم يكن الموضوع من خصائص الرجال، وكذلك من خصائص اللغة: إسناد الشيء إلىٰ أمرَيْن يصح في أحدهما دون الآخر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧] فالمن ينزل والسلوىٰ طير يأتي، وأوقع الإنزال عليهما. وقال تعالىٰ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩] وأراد بهما العذب والمالح، ثم قال: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وهو لا يخرج إلا من المالح. والله أعلم. وعلىٰ كلٍّ، فالذي لا يصح في الدنيا يصح في الآخرة، لأن السنن في عالم الآخرة مباينة للسنن في عالم الدنيا. والله أعلم. =

وتتفاوت درجتُها بتفاوت الأعمال، مع العلم أنَّ السنن الكونية والأنظمة الاجتماعية هناك لا تُشابه السنن الكونية والنظم الاجتماعية في الدنيا، ولا مُشابَهة بين ما في الدنيا وما في الآخرة إلا بالاسم، فلا غَرَابة في الأساور. والله أعلم. وقولُه: ﴿وَلُؤۡلُؤٗاۚ﴾ عطفٌ علىٰ محلٍّ ما قبلها.

وبعد أن ذكر نعيمهم وزينتهم في الحُلي، ذكر ذلك في اللباس، فقال: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾.

ثم ذكر ما هو في مقام التعليل والسبب لهذا النعيم، فقال: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: إلىٰ الاعتقادات الصحيحة وما ينجم عنها من ذِكرِ الله بما يليق به وتوحيدٍ له وثناءٍ حسن عليه، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ الأمر ﴿ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ وهو دين الإسلام، ذلك الصِّراط الذي يَصِلُ سالكه إلىٰ سعادة الدارين. وإنما هُدوا إلىٰ ذلك بمحافظتهم علىٰ نُور البصيرة، وعلىٰ الهداية الطبيعية العامَّة في خِلْقة الإنسان، وعدم إفسادهم لها بمفاسد التربية وسوء القدوة. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ

= ولكن جاء في الأثر: أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبستَ تاج كسرى وسِوَاريه»؛ ما يدلُّ على أن لبس السوارين كان من شارات الملوك. (المؤلف).

قلت: هذا الذي صار إليه المؤلف رحمه الله في آخر كلامه هو الصواب، أعني: لبس المؤمنين ـ رجالاً ونساء ـ الذهب يوم القيامة تنعُّماً وتزيُّناً، وانظر في قصة سراقة: «الإصابة» لابن حجر (٣: ٤١). أما ما ذكره أولاً من إرجاع ذلك إلى صنف النساء فقط فضعيف، لأن المعروف في اللغة تغليب الرجال على النساء لا العكس.

وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ
ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ
مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾
ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن
يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ
لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ
ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ
فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا
لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ
ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى
ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ
فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ
سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ
مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ الكلام عن المشركين، وذكر فَظاعةَ صنيعهم في شأن البيت الحرام، حيث جعله سبحانه لـمنافع الناس وموضعَ نُسُكٍ خاصّ لهم ليُعْبَدَ الله فيه وحده، ويُتَصدَّق فيه بالذبائح علىٰ الفقراء، فغيَّر المشركون تلك العبادات وحرَّفوها ودنَّسوها بشركهم، وصدُّوا المؤمنين عنها يوم الحديبية، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والمراد: استمرار الصَّدِّ من دون تقييد بحال واستقبال، ولذلك صَحَّ عطفُه علىٰ الماضي، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقولُه: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: ويَصُدُّون المؤمنين عن المسجد الحرام ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً﴾ بينهم ﴿ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ﴾ أي: المقيمُ فيه ﴿وَٱلْبَادِ﴾ أي: الظاهرُ عنه، أو الآتي إليه من البادية. وإنما خصَّ البادية بالذكر لأنها الطريق إليه من كل فجّ، وللإشارة إلىٰ صعوبة المسير. وفي هذا الوصف للمسجد زيادةُ تشنيع علىٰ المشركين الصَّادِّين عنه، لاعتدائهم علىٰ حقوق الناس أجمعين.

ولمفهوم هذه الآية، كان بعض العلماء يرىٰ النهيَ عن بيع دُور مكة وإجارتها، وأن تُغْلَقَ في المواسم عن أحد.

وتُؤْذِنُ الآية أيضاً بأنه لا يجوز لأحدٍ من أهل مكة أو غيرهم أن يَسْتأثر ببعض مآثر هذا البيت، وإنما كلُّ مآثره مشاعٌ بين المسلمين.

وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف، علىٰ نهج القرآن في مثله، والتقدير: لهم عذاب أليم لفعلهم هذا وشركهم بالله وتحريفهم لواجبات هذا التمسُّك. وإنما حُذِفَ اعتماداً علىٰ قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ أي: ومن يُرِدْ فيه عدولاً عما قرَّره الله فيه من الأحكام والشرائع ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾. وقد ضمَّن ﴿يُرِدْ﴾ معنىٰ: (يأمر)، فعدَّاه تعديتَه. وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ متعلِّق بـ(إلحاد) أو حال منه. وخرج به ما إذا كان لحرج أو إكراه.

ثم أخذ يُبيِّن تلك الأحكام والشرائع التي شرعها فيه، مبتدئاً بالكلام علىٰ بنائه، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: بيَّنا له مكانه وهيَّأناه له بالتحديد المضبوط، وهذا يدلُّ علىٰ أنه لم يكن مُبيَّناً قَبْلُ، وفسَّر ذلك بالغرض منه والعناية به، فقال: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم ذكر ما يدلُّ علىٰ شدّة الاهتمام بهذا الواجب، وأنه عُلم في كلِّ مستطيع، فقال:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ أي: نَادِ فيهم بالدعوة إلىٰ حجِّ هذا البيت يأتوك بسائر وسائط المجيء؛ يأتوك مُشَاةً راجلين، ﴿وَ﴾ يأتوك ﴿عَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ أي: بعير مهزول لِبُعْد السفر. وقوله: ﴿يَأۡتِينَ﴾ صفة لـ﴿ضَامِرٖ﴾، محمولة علىٰ المعنىٰ في التأنيث أو لإفادته العموم بلفظ ﴿كُلِّ﴾، أي: تأتي هذه الضوامر ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ أي: من كلِّ ناحية سحيقة وطريق بعيد، ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ فبيَّن أنَّ الغاية من هذا البيت أمور مادية دنيويَّة، وأمور دينيَّة روحيَّة.

ومن جملة الأمور الماديَّة: التعارف بين بعيدي الديار من المسلمين، وتقوية الروابط الاجتماعية والسياسية بينهم، وعلىٰ المصلحين أن ينتهزوا هذه الفرصة لبثِّ الإصلاح. ولعلَّ هذا هو السرُّ في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فإنَّ في التعبير بالأفئدة إلماعاً إلىٰ ذلك، لأنها هي محل الفهم في لسان العرب. والله أعلم.

أما الأمور المعنوية الروحية فكثيرة أيضاً، خُصّ منها بالبيان: ذِكرُ الله علىٰ ما رزقهم من بهيمة الأنعام؛ لكثرة ما يُنسك هناك من الذبائح.

ثم بيَّن حكمها، وقال: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾، وقد أبطل بهذه الآية ما كانت تفعله العرب من التَّحرُّج من الأكل منها، ومنهم من كان يعتبرها محرَّمة لله، ويمنع الناس من الأكل منها. فأباحت الأمرين، وحَضَّت علىٰ إطعام الفقراء والمُعْوزين.

وبعد ذلك ذكر بعض أحكام الحج وواجباته، فقال: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ أي: لِيُزيلوا وَعْثاءَ السفر وشَعْثَ الإحرام بعد إتمام الحج، ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾

التي نذروها لأهل الحرم إن كانت. وقيل: بل المراد بها: ما يجب عليهم من الفدي، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ أي: القديم، فإنه أوَّلُ بيت وُضعَ للناس، أو الكريم؛ من العتاقة، بمعنىٰ: الجُودة والكرامة.

ثم فصَّل البحث وخلَّله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبالغةً في الحثِّ علىٰ ما تـقدَّم، أي: الأمر ذلك.

ثم قرَّر هذا الحثَّ بالحضِّ علىٰ تعظيم حُرماته، فقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾، والمراد بهذه الـحُرُمات: ما جعلها الله محترمة من الشعائر في مواطن الحج. وتعظيمها إنما يكون علىٰ الوجه الذي شَرَعه لنا، كالطواف بالبيت، والسَّعي بين الصَّفا والمروة، والوقوف بعرفة، ورَمْي الجمار، لا نزيد علىٰ الوجه المشروع ولا ننقص، وإن جهلنا سَبَب تشريع بعض تلك الأعمال وحكمتها، إذ من العبادات ما لا دَخْلَ للعقل فيها لبُعد مَرماها، بل قد تكون لمجرَّد الامتثال والطاعة لله تعالىٰ، والتَّنسُّك له بها، وتَغْذية الإيمان بالطاعة الصادقة، في كلِّ ما يأمر به الله سبحانه، سواء عُلمت حكمتُه وفائدتُه أو لم تعلم؛ ومن هذا النوع: بعض أعمال الحج ومناسكه. وقد تكون فيه حِكَمٌ عميقة، إذ ربما كان لرمي الجمار مدخل في قَمْع الوساوس الناجمة عن عدم إدراكنا لتلك الحِكَم والأسباب، إظهاراً للسخط علىٰ تلك الخواطر والتبري منها، والله أعلم. فإنَّ له سبحانه مقاصد سنيَّـة، ومرامي عليَّـة، في كلِّ أمر يأمر به أو ينهىٰ عنه، لم ندركه بعقولنا، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ولما كانت الجاهلية تذبح القرابين لأوثانها في هذا المكان، أزاح ما عَسَاه يغشىٰ الأفهام من التَّحرُّج من ذلك، ولما كانت تحرِّم الأكل من النُّسُك أو تتحرَّج منه، أبطل ذلك كلَّه ببيان حِلِّ الذبائح في كلِّ مكان ما اجتنبت الأوثان، وجَعَل الأكل منها مطلقاً

إلا ما حرَّمه القرآن، فقال: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا المضارع لمجرَّد الاستمرار، من دون تـقيُّد بحال أو استقبال. والمراد: إلا ما يُتلىٰ عليكم باستمرار في آية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣].

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ والذبحَ لها، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ وهو الشِّرك بالله وادِّعاء أن الأوثان تقرّبكم إلىٰ الله زُلفىٰ، وكونوا ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ أي: مائلين عن كلِّ دين زائغ، مُخلِصين الدين لله ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

ثم صوَّر المشرك في سُوء المصير، والابتعاد عن الهدف الجليل الخطير، بهذه الصُّورة الرهيبة، تنفيراً من الشِّرك، فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ أي: بعيدٍ عن الهدف والمكان المراد. يُمثِّل الإيمان في عُلوِّه بالسماء، ويُمثِّل الشِّرك والضلال البعيد بهذا السقوط والهلاك الرديء. والمعنىٰ: أنَّ مصيره السقوط الشنيع، والجزاء الفظيع، والبُعد عن الهدف الرفيع.

ومُحصَّل الكلام: تشبيهٌ لحال المشرك بحال مَنْ يسقط من السماء، فلا يملك لنفسه أمراً، فإما أن يندقَّ ويتفسَّخ ويكون نصيبَ الطير، وإما أن ترمي به الريح في مكان بعيد عن غرضه الذي يرمي إليه، فَضْلاً عمَّا في ذلك من المهاوي والمهالك، أي: إنّ الذي يستبدل التوحيد بالشرك يسقط مِثلَ هذا السقوط، ويبعد كلَّ البعد عن الحق وعن السعادة في الدارَيْن وأسبابها الصحيحة.

ثم فصَّل الكلام وخلَّله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ تقريراً لما قبله، أي: الأمر ذلك لا ريب فيه.

ثم أعاد تعظيم الشعائر؛ مبالغةً في الحثِّ عليها، وبياناً لبعض حِكَمِها العامة،

ومقابلةً للإشراك، فقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: معالم دينه تلك المعالم والأعمال التي وضعها لطاعته، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: إنَّ هذه العبادة هي من تقوىٰ القلوب وطاعة الله؛ إذ القلوب تَتغذَّىٰ وتَصْطلح بالإيمان، والإيمان يُغذَّى بمثل هذه الشعائر، فتتَّقي القلوب ما لا يرضىٰ به الله.

وقد مرَّ الكلام عن معنىٰ الشعائر في سورة البقرة عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وخلاصته: أنها عبادة أعلىٰ من مستوىٰ العقل، فيكون الامتثال لها من أكبر مظاهر الطاعة والانقياد لله تعالىٰ.

ولما كانت البُدْن التي تُساق هَدْياً للكعبة هي من جملة هذه الشعائر، أفردها بالذِّكْر، وبيَّن حُكمَ الله فيها، فقال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ أي: لكم فيها منافع درِّها وظَهرِها، لا مانع من ذلك حتىٰ تصلَ إلىٰ البيت العتيق وتُنحَرَ فيه. وذلك عندما يحين الأجل المسمَّىٰ وهو يوم النحر، لأنها هدايا.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنَّ مشروعية القرابين موجودة في سائر الشرائع الإلهية، وفيها ذِكرُ الله سبحانه وتعالىٰ وشكره، حيث أحلَّ لهم ذَبْحَ هذه البهائم، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: مُتعبَّداً وقُرباناً يتقرَّبون به إلىٰ الله، ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: وأحلَّ ذَبْحَها لهم، والذبح أمرٌ عظيم لو لم يأذن به الله، فاذكروا اسم الله عليه، للإشعار بأنكم تذبحونه بإذنه، ولا تذكروا معه غيره كفراً وضلالاً، ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي: أخلِصوا الذكر بحيث لا يشوبُه إشراك، واتَّبعوا ما يأمركم به وينهاكم عنه. ثم وعدهم علىٰ ذلك بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: المطيعين المتواضعين لله، لمعرفتهم الصحيحة به تعالىٰ.

ثم ذكر أربع صفات من أثر هذا الإخبـات، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ ثقةً بأجر الله وبما عند الله ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾، وفي التنبيه والتحسيس بأنَّ ما في أيديهم من المال إنمـا هو من رزق الله، استدرارٌ لهم وحَثٌّ علىٰ الإنفاق.

ثم تابع الكلام عن المنسك، وخصَّ البُدْنَ بالذِّكر، وبيَّن كيفية نَحْرها وتفريقها، فقال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي: جعلنا فيها عبادةً لله وإشعاراً بطاعته، و﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: منافع دينيَّـة ودنيويَّـة، ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ أي: اذكروا الله عند نحرها قياماً مُقيَّدة، وقد صُفَّت أيديها وأرجلها. وقيل: تُعقَـلُ إحدىٰ يديها فتقوم على ثلاث، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: خَفَـقَت علىٰ الأرض بعد سقوطها، وفي هذا الوصف تحريكٌ لعواطفنا، وإشارةٌ إلىٰ عِظَم هذا الأمر الذي أحلَّه الله لنا، فلنـقدر ذلك ونشكره تعالىٰ عليه، ونُطْعم القانع والـمُعْتر، كما قال: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾[1] قال مجاهد: القانع: جارك الذي ينـتظر ما دَخَل بيتك، بمعنىٰ: ينظرك من وراء قناع، والمعتر: هو الذي يعترُّ ببابك ويُريك نفسه ولا يسألك شيئاً.

ثم نبَّهنا إلىٰ موضع النعمة علينا في هذا الأمر، وحثَّنا علىٰ الشكر عليها، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: ذلَّلناها وسلَّطناكم عليها، وحَلَّلناها

---

(١) قال الشافعي في كتاب «اختلاف الحديث» في باب لحوم الضحايا: القانع: السائل، والمعتر: الزائر والمارُّ بلا قوت. يعني: الزائرين لكم والطوَّافين عليكم. وهذا مضاف إلىٰ ما مرَّ من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]. وقيل: القانع: الذي يقنع بما يعطىٰ، والمعتر: هو الذي يتعرَّض أو يسأل. وقيل: القانع: القاعد في بيته، والمعتر: الذي يسأل. وقيل: القانع: المتعفِّف، والمعتر: السائل. (المؤلف).

لكم، تتصرَّفون بها هذا التصرُّف العظيم، وتتحكَّمون عليها هذا التحكُّم الأليم، لعلكم تُقدِّرون ذلك لله، ولا سيما بالتصدُّق منها على الفقراء.

ثم قرَّر ذلك ببيان أنَّ منافعها تعود إليكم، لا إلى الله سبحانه، لأنه غنيٌّ عن العالمين، فقال: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ بإطاعته في ذلك، وتعظيم أمره.

ثم كرَّر التذكير ولوَّن التعليل؛ مبالغةً في التنبيه والحثّ، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ أي: لتعرفوا من قدرته على ما لا يقدر عليه غيره من الأعمال أنه هو الكبير المتعال، فتكبِّروه على ما بيَّن لكم وأرشدكم لمناسك حَجِّه ومعالم دينه الذي فيه سعادتُكم، وتقوموا بهذا الواجب حقَّ القيام.

ثم ختم الآية بما يحمل على التمسُّك بها، والعمل بما جاء فيها، على سُنَّة القرآن في أساليبه وتعابيره العامة، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

وبعد أن ذكر أحكام الحج ـ ومكةُ بيد المشركين ـ ذكر حكم القتال، لأنَّ مكة دار المؤمنين، أخرجهم المشركون منها، ولأنهم صَدُّوهم عن الحجِّ عام الحديبية. وقد ضمَّن الكلام الحثّ على القتال في سبيل استعادة مكة من الكفار، كما ضمَّنه الوعد بالنصر،

فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾(١) غائلةَ المشركين. وصيغة الـمُفاعَلة إما للمبالغة، أو للدلالة علىٰ تكرار الدفع، كما في المهارسة والمعارضة والمراقبة.

ثم علَّل هذا الوعد الضمني بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ يعني: هؤلاء المشركين، والوَيْل كل الوَيْل لمن لا يحبُّه الله.

ثم جعل مفتتح البحث ترخيص المؤمنين لقتال المشركين، مع بيان الموجب، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾(٢) أي: أن يُـقاتِلوا لأنهم ظُلِموا. فأقام العلّة مقام المعلول، علىٰ نهج القرآن(٣).

---

(١) وهناك وجه آخر للربط: وهو أنه عاد بالسياق إلىٰ محوره السابق، وهو الكلام عن المؤمن والكافر والمتخاصمين في ربهما، فبيَّن أنه سبحانه كفيلٌ بنصر المؤمنين، وجَعَل هذا البيان مقدمة لإنزال حكم الجهاد، ووجوب قتال خصومهم المقاومين لهم، وقَرَنه بعِلَّة هذا الوجوب، وحفَّزهم بها عليه. (المؤلف).

(٢) بعد أن أقام المسلمون في المدينة صابرين علىٰ ظلم المشركين منتظرين لأمر الله لهم بالدفاع، وكلما همَّت نفوسهم في الردِّ علىٰ الظلم والعدوان، ردَّهم رسول الله ﷺ بقوله: «لم أومر بذلك، لم أومر بقتال»، حتىٰ نزلت هذه الآية. (المؤلف).

والحديث ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٣: ٢٣٤) بلفظ: «اصبروا فإني لم أومر بقتال حتى هاجر»، قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢: ٣٨٧- ٣٨٨): غريب جداً، وعزاه الواحدي في «الوسيط» (٣: ٢٧٣) للمفسرين.

(٣) هذا هو أول الإذن بالجهاد. ويحمل الكلامُ الأسبابَ الداعية إلىٰ ذلك، حيث يبيِّن أن الباعث لهذا الإذن هو ما وقع علىٰ المسلمين من ظلم وطغيان، وما أُكرهوا عليه من هجرة للأوطان، لا لشيء إلا لأنهم يقولون: ربنا الله. ثم بيَّن أن سنَّة الطبيعة تقضي بقمع الباطل بالقوة، إبقاءً لعوامل الإصلاح، ويومئ إلىٰ أنَّ مثل هذا يجري في كلِّ دِين، ولولاه لَفَسدت الأرض وتلاحم شرُّ الظالمين. =

ثم صرَّح بالوعد لهم بالنصر، فقال: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾، وجعل الصيغة تأكيداً لما مرَّ من العِدَة الكريمة بالمدافعة عنهم. وفي نظم الآية الشيءُ الكثير من العطف علىٰ المسلمين، وتطمينهم بتحقيق النصر وبالغلبة وحُسن العاقبة. وهذه هي أول آية نزلت في القتال.

ثم ذكر بعض ما جرىٰ عليهم من الأمور التي اقتضت أن يُؤْذَنَ لهم بالدفاع عن أنفسهم منها، وأن يُعطَفَ عليهم ذلك العطف الرقيق الشفيق، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ وهذا البيان أكبر مُسوِّغ للقتال وحافز إليه، نَجْدةً لهم ودفاعاً عن الدين. وهذا الاستثناء من أبلغ الكلام، فقد استثنىٰ من الحكم ما يُؤيده ويُقرِّره، ومن الوصف الـمُحسِّس الـمفزِّز ما يزيده تهييجاً في الشعور، علىٰ الطريقة البلاغية المسَّماة في فن البلاغة: تعقيب المدح بما يشبه الذم، أو العكس.

ثم بيَّن سبحانه حكمة الجهاد بأنه لحفظ الأمن والنظام، ودفع الظالم الشرير الذي يحول دون نشر الدين الصحيح وإقامته، فقال: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ ﴾ للرهبان، ﴿ وَبِيَعٌ ﴾ للنصارىٰ، ﴿وَصَلَوَٰتٌ ﴾ وهي كنائس اليهود، قيل: هي معرَّبة عن «صلوتا» بالعبرية، ﴿ وَمَسَٰجِدُ ﴾ للمسلمين عندما كان ﴿ يُذۡكَرُ فِيهَا ﴾

= وقد عقب بهذا بيان مناسك الحج، للحثِّ علىٰ استنقاذ مكة من أيدي المشركين. وكان هذا بعد الهجرة إلىٰ المدينة وبداية شوكة المسلمين.

وترد الآية علىٰ مَنْ يقول: إنَّ الإسلام نُشِرَ بالسيف، فإن الإذن اقترن بأسباب دفاعيَّة لا غير. ولكن علينا أن ندعو إلىٰ الإسلام ببيان محاسنه وحقيقته، فإن مُنعنا من ذلك وَجَبَ علينا الجهاد. والله أعلم. لأن القرآن نزل ناسخاً لكلِّ الشرائع، وأن يكون ديناً للبشر كله، فهو عالميٌّ، ولغته العربية يجب أن تكون عالمية، يتعلّمها كلُّ ذي لغـةٍ مع لغته، ليعرف مفاهيم هذا القرآن وما يطلبه من البشر، ويدرك مزاياه العظيمة الإنسانية. (المؤلف).

أي: في هذه الأماكن الدينية ﴿ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾، وذلك أيام أنبيائهم وأوائل أديانهم قبل التحريف. فالمراد: أنه يحفظ كل صنف من هذه المعابد في العصر الذي كان فيه علىٰ حقّ، فيدفع الله غوائل المعارضين منهم بقوة المؤمنين.

فالآية تقرِّر أنَّ الدفاع عن الدين جارٍ في جميع الأديان، والآية تبيِّن أنَّ الدين الجديد لا يقوم إذا لم يُدافَعْ عنه شرُّ المعتدين، وإن لم يُفعَل ذلك لم يبقَ في الأرض ذكرٌ لله تعالىٰ علىٰ الوجه الصحيح.

وفي هذه الآيات إيماءٌ إلىٰ أنَّ قتال المسلمين إنما هو دفاع عن النفس وعن الدين، لأنه لا يستغني عن دفاع وصَوْن، لا سيما عند نشره في الناس.

ثم وعد سبحانه بنصر هؤلاء القائمين بالمدافعة عنه، فقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه صفةَ هؤلاء المؤمنين المدافعين الذين وعدهم الله بالنصر، مشيراً إلىٰ ما استحقُّوا به ذلك، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالـمُلكِ والسلطان ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ أي: كانوا علىٰ أتمِّ ما يُرادُ منهم في ذلك المقام، من تقوىٰ الله والقيام بواجباته، وإقامة العدل والإرشاد، ودعوة الناس إلىٰ الرَّشاد.

فالآية تُبيِّـن أن الغاية من نصرهم ليس توسُّعاً في الـمُلك كما تفعل الدول المستعمرة، ولا وَضْعَ اليد علىٰ موارد الثروات وكنوز الأرض، ولا عُلُواً واستكباراً في الأرض ليكون من البشـر جنسٌ أعلىٰ من جنس، ولكنْ لنشـر المكارم والفضائـل، ومساعدة الناس وتدريبهم علىٰ صفات الإنسانيّـة والكمال الإنساني، والسَّيْر بهم إلىٰ ما فيه سعادة الدارين.

قال جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»: لم تكن القوة هي العامل في انتشار الإسلام وفتح الممالك، ولكن العامل اتِّصاف العرب الغالبين بضروب من العدل، لم يكن للناس عهدٌ بمثله، وما كان عليه الإسلام من سهولة لم تعرفها الأديان الأخرى(١).

ثم ختم البيان بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ أي: بيده نتائج الأمور وعواقبها، لأنَّ سنته الكونية لا تتبدَّل. وهذا تأكيدٌ للوعد بالنصر، ووعدٌ بالثواب العظيم.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

---

(١) فلو كان البشر كما أراده الله منه، وأمره به، متنقلاً من ديانة منسوخة إلىٰ ديانة ناسخة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ [آل عمران: ٨١]، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ الديانة العالمية التي نزل بها القرآن، وقال لرسولها ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] إلىٰ كثير من الآيات، وكان حزباً واحداً هو حزب الله كما سمَّاه القرآن، ويتكلم إلىٰ جانب لغته بلغة القرآن، كما أراد الله، يعلم بها قرآنه ويتفاهم بها مع سائر الأمم، لا نزاع ولا خصام ولا جدال، إخواناً علىٰ الأرض متحابين، يعمرونها ويستفيدون من خيراتها وكنوزها، متشاركين؛ لعاشوا سُعداء سعادةً أبديَّة علىٰ وَجه الأرض، وكانوا في الآخرة مُتنعِّمين في جنَّات النعيم، ولكن كانوا كما قال عنهم تعالىٰ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]. (المؤلف).

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾.

ثم أردف الوعد بما يزيد في تأكيده، وهو الاستشهاد بما وقع للأنبياء من نصرهم علىٰ المعارضين، وسبكه علىٰ تسليته، فقال: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ علىٰ وضوح آياته، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: صبرتُ عليهم مدَّة، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعذاب أخْذَ عزيز مُقْتَدر، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: نكيري عليهم وإهلاكي لهم، أما كان واقعاً علىٰ أفظع الصور وأدهشها؟

ثم فصَّل بعض ذلك بقوله: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ مستحقةٌ للإهلاك، ﴿فَهِيَ﴾ الآن ﴿ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، وهذا تصوير للإهلاك والإتلاف، أي: ساقطة حيطانها علىٰ سقوفها، بأن سقطت السقوف أولاً، ثم بعد حين سقطت فوقها الحيطان. وهذا علىٰ تضمين ﴿ خَاوِيَةٌ ﴾ معنىٰ: ساقطة.

وقال أبو مسلم: المراد: أنَّ تلك القرية خَلَت منهم مع سلامة بنائها وقيام عروشها، أي: سقوفها كما هي.

أقول: وعلىٰ كلٍّ، فهي وضعيَّة تُنبئ بالخراب الطويل لانقطاع دابرهم واستئصالهم.

ثم تابع الوصف، فقال: ﴿وَ﴾ كَمْ من ﴿بِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ في هذه القرية، ﴿وَ﴾ كم من ﴿قَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ فيها وهو معطَّل كذلك لبوار أولئك السكان المتجبِّرين؟

ثم زاد في تأنيبهم علىٰ غفلتهم، فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ

﴿يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَا﴾، ثم بالغ في تعنيفهم بقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ يُنكِرُ عليهم أشدَّ الإنكار عدَمَ اعتبارهم بما يمرُّون عليه من مَصَارع الطغاة وأماكنهم الخالية الخاوية، واستهزاءَهم برسول الله ﷺ حين يَعِدُهم بالعذاب.

وقد أفصح عن ذلك بقوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾، فليصيبنّهم بعد حين.

ثم بيّن أنَّ التأخير إنما هو لطول صبره تعالىٰ، فإنَّ المدة الطويلة بنظركم عنده قصيرة، فقال: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٤٧﴾، قال في «مجمع البيان»: قال الزجّاج: والمعنىٰ: إن يوماً عند ربك وألفَ سنة واحدٌ في قدرته تعالىٰ، فلا فرق في القدرة بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب وبين تأخُّره، إلا أنه سبحانه تفضَّل بالإمهال(١)؛ إذ لا يفوته شيء، فالله سبحانه وتعالىٰ يصبرُ عليهم، لعلَّهم إلىٰ رُشْدهم يرجعون.

أقول: فالآيةُ تمثيلٌ لسَعَة حِلمِه وطول صبره وقِصَرِ المدة الطويلة عنده لِعِظَم شأنه.

ثم استشهد علىٰ إنجاز وعيده بعد طول الصبر بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾ مستحقّةٌ لتعجيل العذاب، فاغترَّت بذلك التأخير، ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهَا﴾ بعذاب الدنيا، ﴿وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ٤٨﴾ في الآخرة، فلهم هناك عذابٌ عظيم.

ثم أمره سبحانه أن يُديمَ لهم الإنذار غيرَ مُلتفت إلىٰ استهزائهم، فقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٤٩﴾، فخصَّ الإنذار بالذكر ملاءمةً للسياق.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣: ٤٣٣).

ثم جعل التفريع شاملاً له وللتبشير، علىٰ طريقة إيجاز القرآن، فشرح مصير المؤمنين ومصير الكافرين، وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٥٠ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: معارضين ومعاندين، ليقاومونا ويُعَاجِزونا بزعمهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥١﴾ لا ينفكُّون عنها أبداً.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٤ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ۝٥٩ ۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٦٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾.

ثم تابع السياق ببيان ما يعترض كلَّ دعوة لرسول أو مُصلح من معارضة الأشرار ومقاومة الفجَّار، ليزداد ﷺ علماً بطبائع البشر وسنن الاجتماع، ويتسلَّىٰ بذلك عن

معارضة المعارضين وعناد المعاندين، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: هيَّأ له في نفسه خطَّة لنشر الدعوة، أو حكم من أحكامها، راجياً أن ينجح فيها ويقبلها سائر الناس، ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ بالوسوسة للمعارضين، أن يبذلوا الجهد للحصول علىٰ ألوان من الخطط والدسائس الشيطانيَّة، يعارضون بها خُطَطَ الدعوة ويقاطعونها، ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: يُزيله من طريق نشر الدعوة، ويذهب به ويُبطِلُه، فتسير الدعوة في طريقها إلىٰ النجاح، حتىٰ تتكلَّل بالفوز والقبول، وهو معنىٰ قوله: ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: سُننه، كما قال تعالىٰ في سورة الأنبياء: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقيل: المراد من الآية: أنَّ مُتمرِّدة الإنس بوسوسة مَرَدَة الجن لهم، يتأوَّلون ما يُمكن تأويلُه من مُطْلَق ومُجْمَل ومُتَشَابه وعامٍّ ومشترك، إلىٰ أمثال ذلك في آيات الكتاب المنزل، فيحملون ذلك علىٰ غير محمله، مما يتموَّه ظاهره في خاطف النظر وبادئ الرأي علىٰ الجُهَّال، ويصرفونه إلىٰ ما يريدون من الشُّبه والشكوك، أو الألاعيب، إلا أنَّ كتاب الله المبين بمثانيه ومتابعاته، ومكرَّر الحُجج، ومُنوَّع البراهين، لا يَدَعُ شبهةً لمشتبه، ولا تمويهاً لمموِّه مِنْ مَرَدَةِ الإنس والجن، بل يفسِّر بعضه بعضاً، ويُحكم المعنىٰ المراد.

ثمَّ أزاح ما يَردُ علىٰ الوهم والخاطر من الاعتراض علىٰ تمكين الشيطان من ذلك، وعدم قَمْعِهِ من أول الأمر، ومَنعِهِ من التدخُّل، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾.

ثم بيَّن شيئاً من تلك الحكمة، فقال: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: اختباراً وإظهاراً لحالهم، لإثبات الحُجَّة عليهم إذا عمَّهم العقاب. والذين في قلوبهم مرض: هم المنافقون، والقاسية قلوبهم: هم المشركون. وهذان الصنفان من أشدِّ المعارضين، وألدِّ المعاندين. وقد أفاد ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾ أي: ذوو عَداوة شديدة وخصام عميق.

هذه بعض حِكَم تلك الخطة فيما يخصُّ الكافرين، وأما بعض حِكَمِها فيما يخصُّ المؤمنين، فقد ذكره بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: إنهم لا تخدعهم أباطيل المعارضين وشُبههم، وإنما تكشف لهم النقاب عن وَجْه هذا الحق، ويزدادوا إيماناً ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخضع وتنقاد، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ يصلُ سالكه إلىٰ سعادة الدارَيْن. وإنما هداهم إلىٰ ذلك بمحافظتهم علىٰ الهداية الطبيعيَّة العامة في خِلْقة الإنسان، وعدم إفسادهم لها بمفاسد التربية وسوء القدوة.

ومثلُ هذه الآية قوله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله تعالىٰ في سورة الفرقان: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، ومعنىٰ هذا الجَعْل: أنَّ سنَّة الله تعالىٰ مَضَت بأنَّ الشرير العاتي الذي لا ينقاد للحق كِبْراً وعناداً، يكون عدواً للدعاة من الأنبياء والـمُصلحين، خوفاً علىٰ زعامتهم أن تدول[١]، ومراكزهم أن تزول، بتبديل الخطط والأوضاع، ولكن العاقبة للمتقين.

ثم أنَّب المكذِّبين المعارضين وتوعَّدهم بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك من القرآن، ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ لا مثيل له في هَوْله وشدَّته، شبَّهه بالعقيم الذي لا يلد، فلا يكون له ثانٍ ولا نظير.

ثم بيَّن ما بعد الساعة وما فيه من نعيم مقيم وعذاب أليم، ترغيباً وترهيباً،

---

(١) يقال: دال الثوبُ يَدُولُ، أي: بلي. «لسان العرب» (دول).

وفصَّل مصير أصناف الناس فيه، فقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، وفي هذه المقدِّمة زيادةٌ في الترغيب والترهيب المفصَّل بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾، وتصديرُ خبر الموصول الثاني بالفاء؛ للإيذان بأن تعذيبهم بسبب أعمالهم: الكفر والتكذيب، كما أنَّ تجريد خبر الموصول الأول عنها للإيذان بأن إثابة المؤمنين المضاعفة هي بطريق التفضل من الله تعالى.

ثم خصَّ بالذكر من بين المؤمنين هذا الصنف بزيادة النعيم، ترغيباً لهم، وتتميماً للكلام عن مقاومة المعارضين والتثبُّت تجاههم، وتحمُّل المشاق في سبيل ذلك، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وهو ما لا ينقطع أبداً من نعيم الجنة، أو هو مما استأثر الله بعلمه من جليل النِّعَم في الآخرة، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾، وإنما سوّىٰ في الوعد بين مَنْ قُتل ومَنْ مات حَتْفَ أنفه لاستوائهما في العمل والقصد، وفي التعرُّض لخطر القتل والموت في هذا السبيل.

ثم قرَّر النعيم الممتاز وبيَّنه مُجْمَلاً بقوله: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾؛ إذْ يَرَوْنَ فيه «ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر»[1].

ثم علَّق علىٰ سائر مندرجات الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾، فلا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا يحصيها، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن

(١) يشير إلى أصل الحديث الذي رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ. «قال الله عزَّ وجلَّ: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]».

يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ومن حلمه: لا يعاجل بهذه العقوبة، ولكن يُؤخِّرها إلىٰ أجل مُسمًّىٰ، لعلَّ أن يعود المسيء لرُشْده.

ثم فصَّل الكلام وخلَّله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ مبالغةً في التنبيه له، أي: الأمر ذلك، لا شك فيه. ثم أضاف إلىٰ هذا الوعد الكريم في الآخرة للمهاجرين في الله وَعْدَهُم بالنصر في الدنيا، وذكر ذلك بصُورة حُكم عام، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾، وفيه إيذانٌ بأنَّ ما يأتيه المؤمنون إنما هو دفاع عن النفس وأنهم منصورون، لأنَّ المشركين تجاوزوا عليهم بالبغي والعدوان دفاعاً عن الباطل. وإنما سُمِّي التَّحرُّش من الكفار بالمؤمنين عقاباً أيضاً، للازدواج والـمُشاكَلة، أو لاعتقاد المشركين أنَّ عملهم عقابٌ للمسلمين، لخروجهم علىٰ الدين بزعمهم. والآيةُ تبشيرٌ عام بالنصر لكلِّ مَنْ كان كذلك.

أما فَصْلُ الكلام بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٦٠﴾ فهو للمبالغة في نَدْب الـمُعاقِب إلىٰ العفو بعد المقدرة، اقتداءً بصفته تعالىٰ، فهو متضمِّن أو مشير لمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، وقوله: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورىٰ: ٤٣]. كما أنه سبحانه أوْمأ بذكر العفو والمغفرة علىٰ أنه قادرٌ علىٰ العقوبة؛ لأنه لا يُوصَف بالعفو إلا القادر علىٰ ضدِّه. وفي هذا ما يدلُّ علىٰ ما في قواعد الدين الإسلامي من الإنسانيَّـة، وأنها لا تتمُّ إلا به وبتعاليمه.

ثم ذكر من صفاته الربَّانية ما يُبرهن علىٰ انفراده بالألوهيَّـة، ولفَّ ذلك مع دليل قدرته، تأييداً لما تضمَّنته منها صفة العفو، وتقريراً لما تضمَّنه السياق من الوعد والوعيد، والنصر والتأييد، إيمـاءً للقدرة علىٰ إنجازه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ

﴿فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ يشير إلىٰ التدبير الدقيق في نظام حركة الأرض السنوية حول الشمس، واليومية علىٰ نفسها، مع الميل علىٰ محورها، حتىٰ تولّد من ذلك تعاقبُ الليل والنهار واختلافُهما طولاً وقصراً، تحقيقاً لما يقتضي ذلك من الحِكَم والمصالح الكونية في الحيوان والنبات. أي: فمن يقدر علىٰ هذا فهو الإله الحقّ، وأحكامه كلُّها متقنة وبالحق، ويقدر علىٰ إنجاز النصر الذي وَعَدَ به المؤمنين علىٰ الكافرين. ومَنْ يُراعي هذه المصالح فيما تعلمون وتشاهدون، يُراعيها في تعاليمه وتشريعاته وقوانينه وتوجيهاته، لا يَدَعُ صالحاً إلا راعاه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾ وكلُّ تعاليمه مُتْقَنة، ولا يغادر شيئاً إلا أحصاه، ويُجازي عليه بقدرته هذه جزاءً وفاقاً إذا كان شراً، وجزاءً أوفىٰ إذا كان خيراً، ويعفو عن كثير.

ثم بيّن أنَّ موجبَ ما سبق من الجزاء للمشركين، إنما هو شركهم بالله علىٰ وضوح أدلة التوحيد وبطلان الشرك، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾، فلا مثيل له في كبريائه، وعُلوِّ شأنه، وصحَّة أحكامه، حتىٰ يكون له شريك.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾.

ثم تابع الآيات في دلائل القدرة والربوبيَّة لما تقدَّم من الغرض، وقرَّر بدليل الواقع عَظَمتَه وعُلوَّ شأنه، واختصاصَه بالربوبيَّة وبالألوهيَّة، علىٰ نهج القرآن في مثل

ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، فعطف المضارع على الماضي للدلالة على الحَدَث دون تقييد بحال أو استقبال، ثم أشار إلى الدقَّة في هذا العمل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ واللطف: الدقَّة في العمل. يشير إلى الدقَّة في نظام الإنبات، وإلى سَعَة العلم في وضع ذلك النظام، فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

ثم أتبع دليل القدرة بدليل العزَّة والتَّمَجُّد، مشيراً إلى أنَّ ما أراده سبحانه من الإنسان من عمل الخير لا غَرَض له فيه، وإنما هو أمرٌ يعود بالنفع على فاعله، فقال: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ أي: المحمود بذاته، ولا حاجة له إلى شيء أبداً، ولا إلى حامدين وعابدين.

ثم تابع السياق في دليل المِنَّة والقدرة والربوبيَّة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الرياح والسحاب والبحار والأنهار والنبات والحيوان وغيرها، أي: جعَلها مُذلَّلة لكم مُهيَّأة لمنافعكم، ﴿وَ﴾ سخَّر ﴿ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾، حيث خلَقَ في الماء قابلية حَمْل الأجسام إذا كانت على وَضْعٍ خاص حسب نظرية العَوْم، ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يشير إلى ما بين هذه الأجرام الفلكية من الجاذبية العامَّة والتماسك، ففيها من القدرة العظيمة والحكمة الباهرة والمنَّة الكبرى، ما يدلُّ على عَظَمةِ الله وجليل نعمته وانفراده بأفعال الألوهية وصفاتها. وقولُه: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ استثناءٌ يشير به إلى أمر القيامة وخراب هذا العالم بإذن الله، وذلك عند اضمحلال تلك القوة في هذه الأجرام[1]، كما يَخْلَق الثوب ويتمزَّق. والله أعلم.

---

(١) كون القيامة تأتي بسبب طبيعي، وهو اضمحلال القوى في الأجرام الفلكية، مما لا دليل عليه، وقد تقدَّم نَقْدُه في مواضع تعليقاً.

ثم ختم هذه المنن والتوجيهات بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾، حيث أنعم عليهم بهذه النِّعَم، وأوضح لهم مناهج الخير والسعادة، وأوقفهم علىٰ الحقائق الثابتة في عالم الغيب والشهادة، مُدلِّلاً علىٰ ذلك بالدلائل العقليَّة والوجدانية، وبالآيات الكونية منها والتنزيليَّة، وهو العليُّ الكبير، ويمهل الكافر إلى حين.

وبعد أن ذكر هذه الأمور الدالة علىٰ القدرة البالغة، ذكر البعث والنشور، إيذاناً بأنه ليس بشيءٍ في جانب هذه القدرة العليَّـة، وأيَّد ذلك بالإحياء الأول، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ أي: أوجدكم من العدم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ فالذي يقدر علىٰ الإحياء الأول والإماتةِ ـ علىٰ عظمتهما ـ لِـمَ لا يقدر علىٰ الإحياء الثاني؟ وهو ليس بأعجب من الإحياء الأول(١)، ولكنه لما كان مألوفاً لم تشعر بعجبه وعظمته، وأيُّ عجب أعجب من أن يتطور الجنين في الرحم تطوُّراته العجيبة من قَطْرة ماء مهين، ثم يخرج طفلاً ضعيفاً بليداً، ولا يزال ينمو ويتطوَّر بجسمه وعقله، حتىٰ يبلغ أَشُدَّه، وقد يكون عظيماً في أعماله، سمياً في أفكاره، وربما كان مكتشفاً معجزاً، أو ملكاً جباراً، أو قائداً قهَّاراً، أو مصلحاً عظيماً، وأصله من ماء مهين.

لا شك أنَّ هذا الأمر العظيم لو تدبَّرناه لم نره أقل شأناً من حشـر الأجسام وإعادتها في النشأة الأخرىٰ من عَجْب الذنب الذي هو نواة للحياة، وبمثابة البذرة للنبات، ولكنه الكفر والعناد، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝٦٦﴾ عنود. وهذا حكمٌ علىٰ الجنس ببعض أفراده، ومثل ذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن، لأنَّ الجنس يتحقَّق ببعض أفراده.

---

(١) بل هو أهون عليه، وله المثل الأعلىٰ، لأنَّ الأول من العَدَم، والثاني من بذرة عَجْب الذنب، التي لا يؤثر عليها شيء أبداً أين كانت، حتىٰ تكون الأرض كتلة ترابية، فيأتيها سائل من السماء، تنبت به وتربو في باطن الأرض، حتىٰ تشقَّق عنهم سراعاً فيخرجون. والله أعلم. (المؤلف).

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

ثم عاد إلىٰ أصل البحث، وهو مجادلتهم في الحقائق بغير علم، وأجاب عن شبهة لهم، وهي أنَّ بعض مناسك الشريعة الإسلامية مخالف للشرائع السابقة، فقال: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ فلا يكون منسكاً لـمن بعدهم، ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ بأنك خالفتَ مَنْ قبلك، أي: لا تلتفت إلىٰ نزاعهم؛ لأنَّ الله سبحانه قد جَعَل لكلِّ أمة صُوَراً من العبادات والمناسك، تختلف بعض الاختلاف عن الأمة الأخرىٰ، بحكم تَدَرُّج النوع الإنساني في المدارك والمعرفة والعلوم.

والمراد: أنَّ عليهم اتِّباعَك فيه وتَرْكَ مخالفتك، لأنَّ الشريعة الجديدة تَتبدَّل بعض فروعها بسبب تدرُّج الرقيّ المكتَسَب للنوع البشريّ في العلوم والمعارف، وبعُلُوِّ عقلِه وإدراكِه، وقد تجدَّدت الشرائع وترقَّت إلىٰ شرعك هذا، واستقرَّت عليه عندما وصل الإنسان أوَّل كمال إدراكه، وذلك من نِعَم الله علىٰ الناس.

وتدلُّ الآية علىٰ أنَّ الله سبحانه يرفعُ من الشريعة اللاحقة بعضَ أحكام الشريعة السابقة وصُور عبادتها، ويُضيفُ إليها ما ليس في الأُولىٰ، حسب مُقْتضيات الأحوال،

بعد مرور الآماد والأزمان، وتطوُّرات نوع الإنسان بالرقيّ العقلي المكتَسَب بمرور الزمان، وذلك فيما عدا الأُسس الثابتة، كالتوحيد وأمر البعث وما يتبعه، والإيمان بالوحي والنبوة، فإنها لا تتبدَّل.

وهذه الآية شبيهة بآية المائدة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وبعد أن بيَّن أنَّ لكلِّ أمة مَنْسكاً هم ناسكوه ينتهي حكمُه بتجدُّد شريعة أخرىٰ، أمره بالدوام علىٰ الدعوة إلىٰ شريعته الجديدة المستقيمة، فقال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ في ذلك ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: من محاولة الأباطيل. فأمره بترك المجادَلة معهم إن لم يُسلموا للحق بعد بيانه، وأن يُفوِّض أمرهم إلىٰ الله، فهو يتولىٰ ذلك.

وفي الكلام تهديدٌ لهم وتوعُّدٌ قرَّره بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين، فيحكم فيما تختلفون فيه من أمر الدين، ويُجازي كلاً بعمله.

ثم قرَّر منطوقَ قوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ومفهومَ ما تضمَّنه السياق من تبدُّل الشرائع بحسب المقتضيات بقوله: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، فيشرع الشرائع ويُحصي الأعمال بعلمه هذا الأزلي الأبدي، لا يتبدَّل ولا يعتريه غفلة ولا نسيان، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً، وأحكامُه كلُّها حقٌّ واقع محفوظ.

ثم أكَّد ثبوت علمه هذا بقوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ﴾، قال أبو مسلم: معنىٰ الكتاب: الحفظ والضبط، أي: إنه مضبوط محفوظ(١).

---

(١) لكن ثبت في السنة في أحاديث كثيرة ذِكرُ اللوح المحفوظ، وأنه كُتب فيه ما هو كائن على ما سبق في علم الله تعالى، فالمصير إليه أَوْلى من قول أبي مسلم.

ثم بالغ في التقرير بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ملاحظته وحفظه وضَبْطه مع عِظَم سَعَته ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾، لا كُلفة فيه عليه. وفي الآية تأييدٌ للوعيد السابق أيضاً.

ثم شرح حالهم بعد هذه البيانات في ذات الله، مُبَكِّتاً إيَّاهم علىٰ الإصرار، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وهذا القيد لزيادة البيان في البطلان، وللإيماء إلىٰ أنَّ الحقَّ لا يثبت إلا بالبرهان والعلم والإيقان. وهذا التبكيت تعليق علىٰ مضمون ما تقدَّم من اعتراضهم علىٰ تبديل بعض مناسك الشريعة، وتكميلٌ للجواب السابق، ومؤدَّاه: أنهم كيف يعترضون علىٰ تبديل مناسك اقتضته الحكمة الإلهيَّـة، وهم قد بدَّلوا الأساس الذي تُبْنىٰ عليه سائر الشرائع السماوية، وهو توحيد الله واختصاصه بالعبادة دون سواه، وأخذوا يعبدون أهواءهم وما تُوحيه إليه أوهامهم في الكفر والضلال. فهدَّد علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾، يكنِّي بهذا عن استدامة عذابهم وخلودهم فيه.

ثم تابع الكلام عن بيان حالهم السيء في تنكُّرهم لهذا الدين المبين، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: الإنكار عليها والتنكُّر لها والتَّغيُّظ منها، لِفَرْط كفرهم، ولما تبيّنه من سَخَافة عقولهم وبطلان دينهم ومهانة آلهتهم. وللإيماء إلىٰ هذا التعليل وَضَع ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ موضع الضمير.

ثم صوَّر درجة غيظهم بقوله: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يكادون أن يبطشوا بهم من شدَّة غيظهم منهم. والآية شبيهة بآية سورة (والقلم): ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١-٥٢].

وبعد أن حكىٰ شدَّة تمرُّدهم، أمر رسوله أن يقابلهم بالوعيد، بأسلوب بليغ بديع

ينطبق على مقتضى حالهم، فقال: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ أي: مما سمعتموه عن حالكم، هي: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

وبعد أن ذكر بُطلان ما يعبدون من دون الله وتوعَّدهم على ذلك، ضَرَبَ لهم هذا المثل تسخيفاً لعقولهم، وتبييناً لما هم عليه من الضلال الفاضح، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ وهذا الأمر بالاستماع للمبالغة في التنبيه والإشعار بأهمية ما يأتي بعده، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهذا من خطاب العام مُراداً به الخاص، وهم المشركون، فهم الذين يشركون بالله شركاء، ولداً أو وسيطاً، ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ وهذا الوصل للمبالغة في بيان ضعفهم وعدم قدرتهم.

ثم أوغل في ذلك، فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ كأنه سبحانه قال: أتركُ أمرَ الخلق والإيجاد جانباً، وأتكلَّم عنهم في أتفه الأمور، وهو أنَّ الذباب إنْ يسلبهم شيئاً لا يقدرون على استنقاذ ذلك منه مع ضعفه.

ثم بالغ في تهوين أمرهم وحِطَّة شأنهم، فقال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ أي: معبودهم والذباب.

ثم أنَّبهم بقوله: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، حيث جعلوا هذه الأصنام أو هذه المعبودات على ضعفها وخساستها شريكةً له تعالى. فما أسخف عقولهم! وأشدَّ بلادتهم! حيث لم يدركوا عظَمة الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ فأنّى لهذا المهين أن يكون شريكاً لربِّ العالمين؟!

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ (٧٥)
يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ (٧٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ (٧٧)
وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ
إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ
شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ
وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨) ﴾.

وبعد أن ذكر ما يتعلَّق بالإلهيات، ذكر ما يتعلَّق بالنبوات، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وأكمل به البحث بالردِّ الضمني علىٰ مَنْ يتَّخذ الملائكة والنبيِّين أرباباً، فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي ﴾ أي: يختار ﴿مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا ﴾ يتوسَّطون بينه وبين الأنبياء بالوحي لا غير، وهؤلاء الأنبياء هم الذين ذكرهم بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ويَصْطفي من الناس أيضاً رُسلاً يدعون سائرهم إلىٰ الحق اليقين، ويُبلِّغون لهم ما أنزل إليهم من وحي الله المبين. فإنَّ الله سبحانه يختار من البشر مَنْ يحتمل عبء الرسالة ويتحمَّل الاتصال بالمَلَك، وهو الإنسان الكامل الرفيع، المستوعب لحدود الإنسانيَّة، فيَصْطفيه لإمكان اتِّصاله بالمَلَك[1]، بحكم الكمال والتقارب من الملأ الأعلىٰ، فيرسله ويوحي إليه بالعقيدة والتعاليم، ثم يتركه يجاهد في سبيلها بالوسائل البشريَّة، حتىٰ يَتَغَلْغَلَ الدين من تلقاء نفسه في نفوسهم، ولا مُؤثِّر له سوىٰ جمال ذلك الدين وسطوع نوره الباهر المبين. يختار سبحانه وتعالىٰ من البشر مَنْ يكون بحكم الكمال رجلاً لا كباقي

(١) بل الله يصطفي من عباده من يشاء، وإذا اصطفاه أقدَرَه على الاتصال بالملك، وقد تقدم بيانُ هذا المعنى تعليقاً بأوسع من هذا (١: ١٦١).

الرجال، عظيماً في ذاته، صادقاً مخلصاً، لا مَطْمَع له في المطامع البشريَّة التي يسعىٰ إليها الناس في هذه الدار، ويواجه البشر بيدٍ خالية من أغراض البشر، حتىٰ يُعرَفَ أنه مُجرَّد من الغايات الدنيوية.

فالله سبحانه وتعالىٰ يختار من الملائكة رُسلاً للذين يختارهم من الناس رُسلاً علىٰ هذه الصفة، ليبلِّغوا للناس ما يريد الله تبليغه لهم من الوحي والهداية والإرشاد. أما هؤلاء الجهَّال من البشر: فإما أن يعارضوهم ويقاوموهم، وإما أن يعبدوهم من دون الله، أو يجعلونهم وسطاء لهم عند الله، وهو نوعٌ من الشرك لا يرتضيه السميع البصير. فأنذرهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ فلا تخفىٰ عليه من أَمْرِهم خافية، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ فيجازي عليها جزاءً وفاقاً في الشر، ومضاعفاً في الخير.

وغاية أمر الرسل: أنهم من الـمُصْطفَيْنَ الأخيار، فكيف يكون عيسىٰ إلهاً أو ابن إله؟! وكذا عُزير، وكيف يُعتَقَدُ أن الأنبياء لهم دخل في شؤون الله أو يتوسَّطون للناس عند الله، وليس للأنبياء ولا للملائكة شيء من التأثير، وهم يخشون الله ويرجون رحمته، ولا يدعون الناس إلىٰ عبادتهم، بل يكذبونهم يوم القيامة غاية التكذيب؟!

ويجوز أن يكون قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ متعلِّقاً بهؤلاء الرسل الـمُصْطَفَين الأخيار؛ لبيان أنه سبحانه يعلم أخبارهم، فهم يؤدُّون الرسالة علىٰ وجهها، ولا يقولون للناس: كونوا عباداً لنا من دون الله. يقيم بذلك الحجَّة علىٰ هؤلاء المشركين والكافرين الذين يتَّخذون الملائكة والنبيين أرباباً.

وبعد هذا البيان والتأنيب للمشركين والكافرين، التفت إلىٰ المؤمنين وحثَّهم علىٰ عمل الخير المؤدِّي إلىٰ الفلاح، والـمُبْعد عن مصير أولئك الضالين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ في سائر ما تعبَّدكم به وما أمركم بأدائه، بأن لا تألوا جهداً في تلك الأعمال التي منها الجهاد في سبيل الله.

ثم حثَّهم علىٰ ذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: اختاركم لنشر دعوته ولعبادته والاشتغال بطاعته.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذه الشرائع التي كلَّفهم بها، لم يكن فيها ما يشقُّ علىٰ البشر، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: جعل التكاليف الإسلامية داخل حدود الطاقة البشرية، فهي في يُسْر وسهولة.

ثم رغَّبهم فيها بقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾، فهذا إغراءٌ لهم، لأنَّ العرب يحبُّون أباهم إبراهيم عليه السلام، أو بيان لموضع الكرامة منهم حملاً علىٰ التمسُّك بها، لأنه يثير النخوة والتحمُّس. وفيه ردٌّ وتعريضٌ لهؤلاء المشركين الذين يدَّعون أنهم متمسكون بملَّة إبراهيم عليه السلام.

ثم بالغ في الإغراء بقوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ يشير إلىٰ ما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]. وقيل: إنَّ الضمير يعود لله سبحانه وتعالىٰ، أي: إنه هو سمَّاكم المسلمين في سائر الكتب الماضية وفي هذا القرآن.

وقولُه: ﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾، وفي هذا التعليل إيذانٌ بأنَّ الله سبحانه اختار العرب ليحملوا نبراس هذا الدين للخلق أجمعين، وجَعَل الرسول شهيداً عليهم في ذلك؛ لأنَّ المبلِّغ يشهد علىٰ مَنْ بلَّغه، بأنه قَبِلَ ذلك أو لم يقبل، وقام بواجبه أو لم يقم، وجعلهم شهداء

علىٰ الناس كذلك في نشر هذا الدين بين العالمين، وشهادتهم علىٰ مَنْ قَبِلَه ومَنْ لم يَقْبَلْه، كما جاء الإيذانُ به في أمثال هذه الآية، وكما بينَّاه في لاحقة المقدمة الثانية في التعليق علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

لذلك ختم الكلام بقوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ في نشر هذا الدِّين، ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

اللهمَّ رَحمَتَكَ أرجو فلا تكلني إلىٰ نفسي طَرْفةَ عين، وأصلِحْ لي شأني كلَّه، لا إله إلا أنت.

* * *

سُورَةُ المُؤْمِنُون

مكيَّة، وهي مئة وثماني عشرة آية

ولما ذكر في السورة الماضية الإذن بالقتال، افتتح هذه السورة بالشروط التي يتوقَّف عليها نَصْرُهم وفلاحُهم.

وقد اقتضىٰ هذا ذِكرَ أخبار بعض الرسل السابقين الذين نصرهم علىٰ أعدائهم، ونالوا النجاح والفلاح.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ من أرباب كلِّ دين سماوي قبل نسخه والتلاعب فيه، أي: فازوا بالمرام، فنالوا السيادة في الدنيا والسعادة في الأخرىٰ. والكلامُ وَعْدٌ بفلاحهم، وَعَدَهم به سبحانه علىٰ سبيل التحقيق والتأكيد.

ثم ذكر صفاتهم التي استحقوا بها ذلك، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾[1] أي: خائفون متذلِّلون، لأنهم يُشْعِرُون أنفسَهم بمَنْ يعبدون، فيما

(١) عندما يقوم الإنسان للصلاة ويتوجَّه إلىٰ الله بالعبادة تتنازعه خواطر دنيوية، يشرد بها فكره ويشيع. والخاشع في صلاته: هو الذي لا يحضره ـ إذا دخل في الصلاة ـ إلا التوجُّه إلىٰ الله، واستحضار عظمته، والشعور بمناجاته في أقوال الصلاة وأفعالها. وهذه الحالة تحتاج إلىٰ كثير من الدربة والمران وقوة العزم والإرادة، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

ويقول علماء النفس: إن العقل الإنساني يصبح أداةً مدهشة الكفاءة، إذا ركّز تركيزاً قوياً متقناً. والفرق بين العبقري وغيره من الناس: هذا التركيز وإتقانه لا غير. وكيفية اكتساب هذه الحالة =

يقولون وفيما يفعلون، ويُحْضِرون قلوبهم في ذلك. وهذا هو معنىٰ إقامة الصلاة التي لم يذكرها القرآن إلا مقرونة بها، فهي صفتها الكاملة. وقد جاء في الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١)، وذلك يستلزم حضور القلب، وأن يعقل المصلِّي ما يقرأ وما يقول من دعاءٍ وثناءٍ، وما يفعل من حركات ركوع وسجود وقيام وقعود. وقد جاء أيضاً في الحديث: «ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها»(٢)، وذلك لأنه إن لم يعقل ما يقوله ويفعله، وكان غير حاضر القلب؛ فصلاته بلا روح، ومثلُه لا ينهىٰ عن الفحشاء والمنكر، ولا يقوي العزم في المهمات.

ثم تابع الوصف، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ واللغو: كلُّ قول أو فعل لا فائدة فيه يُعْتدُّ بها. وذلك لأن الإنسان لم يُخْـلَق عبثاً، ولا للعبث. ففي اللغو تغييرٌ لخَـلْق الله، وتحويرٌ له عمَّا أراده منه وارتضاه. وقيل: هو كلُّ قبيح محظور أو باطل مهجور.

ثم تابع الوصف، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ وهنَّ النســاء اللاتي أسـرَهُنَّ

= يتطلَّب مراناً وصبراً عليه؛ لأن الانتقال من شرود الذهن إلىٰ التعوُّد علىٰ حَصْره في الموضوع حَصْراً مُحكماً هو ثمرة الجهد المستمر، فإذا استطعت أن تردَّ عقلك عن الشرود مرةً بعد أخرىٰ، وواظبت علىٰ ذلك، حَصَلت عليه بعد المران الطويل. فتصبح تلك الحالة عادةً لك متىٰ قمت إلىٰ الصلاة. ومتىٰ حصل الإنسان علىٰ مَلَكة التركيز هذه أدخلها في سائر شؤونه، وكل شأن اقترن تدبيره بتركيز العقل نجح غالباً بإذن الله، فينال صاحبُ هذه المَلَكة فلاحَ الدنيا، وفلاحَ الأخرىٰ. والله ولي التوفيق. (المؤلف).

(١) سبق تخريجه (٣: ٢٥٧).

(٢) سبق تخريجه (٤: ٤٠٣).

المسلمون في الحروب الصحيحة التي هي لإعلاء كلمة الله، ولم تُؤْسَر معهنَّ أزواجهنَّ، ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: هؤلاء الذين يتصرَّفون بهذه الفتيات بشرائطه الشرعية ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ لما في ذلك الـمِلكِ من المصلحة العامة، والحفظ لهذه الفتيات، ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: وراء الزوجات الأربع والمملوكات، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ المتجاوزون لحدود الله.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: إنَّ الـمُخاطَبين بهذا الحكم: الرجال، فلا يحلُّ للمرأة أن تكون مُتسرّية بما ملكت يمينُها من العبيد.

ومن مباحث اللفظ: أنَّ المحافظة تتضمَّن نفي الكشف والإظهار، لذلك عدَّاها بـ«علىٰ»، والاستثناء مفرَّغ[1].

ثم تابع الوصف، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾ أي: محافظون علىٰ ما يُؤْتَمنون أو يُعاهَدون عليه، سواء كانت تلك الأمانات والعهود بينهم وبينه سبحانه، أو بينهم وبين الناس، وفي أمر مهمّ أو تافه، لأن احترامها ومراعاتها من أهمِّ دعائم المجتمع ومصادر الخير فيه، ولا فرق فيما كان من جانب الخالق أو الخلق.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ فالمحافظةُ فضيلةٌ برأسها، والخشوع الذي تقدَّم ذِكرُه فضيلةٌ أخرىٰ، وفَصَل بينهما كي لا يلتبسا بالوحدة.

وقد ختم الكلام بما بدأه به من الوعد الكريم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾، وهذا هو الفلاح الذي لا يشبهه فلاح، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته.

(١) الاستثناء المفرَّغ لا يكون إلا في الجملة المنفية، إذا جاء بعد أداة الاستثناء شبهُ جملة أو جملةٌ اسمية أو فعلية يكون الاستثناء مفرغاً. (المؤلف).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

ثم شرع في تنبيه الإنسان علىٰ عجائب خِلْقَتِه، وقُدرة الله العظيمة فيه، ومنَّته تعالىٰ عليه، ليُحرِّك شعوره نحوَ دواعي هذا الفلاح ومقتضياته، وليوصل هذه الحلقات الآتية من سلسلة تطوُّراته بحلقات الموت وما يتبعه، تبصرةً له وتنبيهاً إلىٰ أنَّ البعث حلقة من تلك السلسلة، فيوقظه من غفلته، بما يوضِّحه له من حُجَّته، فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ يجوز أن يُراد بذلك: أصلُ الجنس، وهو: آدم، فيكون الكلام من باب إسناد ما للأصل إلىٰ الفرع، وهو جارٍ في اللغة العربية وأساليب القرآن، ولأن عناصر الأصل لا تفارق الفرع، والسُّلالة: ما يُسَلُّ من الشيء أو يُقطَعُ منه لمرونته. ويجوز أن يُراد بذلك: ما يتكوَّن منه الجسم، وهو: الخلية. ويجوز أن يُراد بالإنسان: أفراد الإنسان، وبالسُّلالة: ما تتكوَّن منه إفرازات المني، لأنَّه مسلولٌ من الطعام، وأكثرُ الطعام مَسْلولٌ من التراب والطين، بطريقة الإنبات ونماء النبات.

والمعنىٰ علىٰ الأول: إنا جعلنا مادة الإنسان في خلقة آدم طيناً، ثم جعلنا مادتَه في نَسْلِـهِ نُطفةً تلقىٰ في الرحم... إلخ. وعلىٰ الثاني: إنا جعلنا مادة الإنسان في أفراد نوعه من خلاصة الطين المتحوِّلة إلىٰ غذاء الآباء ونُطَفِهم من طريق المطعومات.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾ وهو: الرَّحِم، أي: ثمَّ جعلنا من الخُلاصة من الطعام نطفةً من المنيّ تُلقىٰ في الرَّحِم، تحوي ملايين من الحُيَيّات، يكون التلقيح بواحد منها، ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أي: دماً جامداً، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أي: جعلناها قطعةَ لحم، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ

﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ وذلك لأنه ـ والله أعلم ـ طالما كان في بطن أمه، فهو في دَوْر تدرُّج الحياة فيه، ومتىٰ تمَّ هذا الدور خَرَج من بطن أمه حائزاً علىٰ تمام التَّسوية إن لم تكن هناك علةٌ عارضةٌ مانعة، ومتىٰ ما تـمَّت تسويتُه اتصلت به الروح، فكان خلقاً آخر، وقد تمجَّد سبحانه علىٰ ذلك وتمنَّن وقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

ثم تابع الكلامَ عن التطوُّر، فوَصَل ما هو معلوم بما هو مجهول؛ ليستدلَّ به عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾، فعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ مُجمَلَ هاتين الحلقتين من أحوال الإنسان علىٰ تلك الحلقات من أطواره، للإيذان بأنهما طَوْران متراخيان من تلك الأطوار، وقال ﷺ: «والله إنكم لتموتُنّ كما تنامون، ولتُبعَثُنَّ كما تستيقظون، ولتُجزَوُنَّ بالإحسان إحساناً وبالسُّوء سوءاً»[١].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم أيَّدَ الكلام عن البعث بقدرته الباهرة في مخلوقاته العظيمة، إيذاناً بأن البعث ليس أعظم منها، فالذي يقدر علىٰ هذا يقدر علىٰ ذاك، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ والطريقة: النسيجة المستطيلة، ومنها طريقة بيت الشعر، يتمُّ البيت من كل ثلاث منها فما فوق[٢]، وما كان من سبع فهو عظيم. ويظهر ـ والله أعلم ـ أن المراد

---

(١) سبق تخريجه (٣: ٣٢٠).

(٢) الطرائق: جمع الطريقة. سماها الله عز وجل هنا طرائق؛ لأن بعضها يحيط ببعض، والعرب تسمي كل شيء فوق شيء آخر: طريقة، فالأرض التي يسكنها الناس تحيط بها السماء الدنيا، والسماء =

بها طبقات النجوم المتفاوتة في البُعد؛ إذ الأجرام السماوية طبقاتٌ وطوائفُ يبعد بعضها عن بعض بُعداً شاسعاً، ولكلٍّ طائفة منها نظام عام، وأقرب تلك الطوائف إلينا ما يُسمَّىٰ بالنظام الشمسي.

ويجوز أن يُراد بها: هذه المجرَّات السماويَّـة التي اكتشف منها العلم الحديث عدداً غير قليل[1]، وإن كلَّ واحدة منها مستقلّة عن الأخرىٰ، وتحتوي علىٰ عوالم من النجوم لا يُحصيها إلا الله، أما عدد «السبع» فيأتي به القرآن للتكثير لا للتحديد[2]. وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

وقد تقدَّم البحث عن هذه المجرَّات والنظام الفلكي في سورة البقرة عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ [البقرة: ١٦٤]، فارجع إليه لترىٰ عَجَائب مخلوقات الله العظيمة في هذه السماوات.

= الثانية تحيط بالسماء الدنيا، وهكذا إلىٰ السماء السابعة المحيطة بالسماء السادسة، فالسماء الأولىٰ تمثلها مجرّات لا يعلم عددها إلا الله، وبعدها مجرّات لا يعلم عددها إلا الله، ذات نظام حركي تمثل السماء الثانية، وهكذا إلىٰ غاية السماء السابعة، وفي كل مجرة من النجوم العظمىٰ ما لا يعلم عَدَدَه إلا الله، يقدِّر بعضها علماء الكونيات بالملايين، ويقدِّرون بعضها بالمليارات، والله أعلم. (المؤلف).

(١) السماوات: سبع طباق متطابقة، بعضها فوق بعض، ولا يجوز تأويل سبع سماوات إلىٰ معنىٰ آخر، فإنَّ القرآن أُنزل بلسان عربي مبين، وكيف يسوغ تأويل السماوات السبع إلىٰ معنىٰ آخر وقد جاء في أحاديث المعراج الثابتة: أن النبيَّ ﷺ لما عرج به إلىٰ السماوات استفتح له جبريل أبواب السماوات سماءً بعد سماء، وصعد فيها سماء فوق سماء.

(٢) هذا الكلام فيه نظر؛ لأنَّ السماوات سبعٌ بالنصِّ القرآني القاطع الذي لا احتمال فيه ولا إجمال. أما الكواكب والمجرَّات فهي أكثر من ذلك، والقرآن أخبر أنَّ هذه الكواكب زينة للسماء الدنيا، ومن المعلوم لغةً وعرفاً وعقلاً أنَّ زينة السقف غير السقف، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

وبعد أن أبان عن قدرته، وكشف النقاب عن عَجَائب مصنوعاته التي ليس البعث في جانبها إلا أمراً يسيراً، وطَوْراً طبيعياً مأثوراً، وسنةً كونيةً كسائر السنن؛ هدَّد هؤلاء المنكرين له، وتوعَّدهم بأنه تعالىٰ لا يغفل عن عباده، وإنما يُحصي لهم كلَّ عمل، فيجازيهم عليه خيراً أو شراً، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ كلا، بل استوىٰ علىٰ العرش يُدبِّر الأمر. وفيه وجه آخر، وهو الإيماء إلىٰ التَّنويه بدقَّة صُنعه تعالىٰ، والتَّمجُّد بإتقانه وإحكامه في مخلوقاته هذه، وسُننه الكونيَّة في حفظها. وحاصل المعنىٰ: أنَّ المخلوقات الكونية بسائر أطوارها وأدوارها مصحوبة بعلم الله، وطبق إرادته العليَّة.

ثم نبَّهنا إلىٰ مواقع آثاره العظيمة، وذكَّرنا بنِعَمِهِ الجليلة فينا، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾، وفي قوله: ﴿بِقَدَرٍ﴾ إيماءٌ وإشارةٌ إلىٰ دقَّة علمِه وحكمته في صُنعه تعالىٰ. ومن ذلك: أنه أنزل الماء من السماء علىٰ القدر اللازم، وبنظامٍ قائم، ولم يجعله هاطلاً مُتواصلاً، ولا قليلاً نادراً. فكان بهذا النظام بحيث لا ينقص عن المصلحة العامة، ولا يزيد إلى حد الضَّرر بحسب النظام لا بحسب السنين، أي: أنزلناه بقَدَر ما تقتضيه المصلحة وتَسْتَدعيه الحكمة، ﴿فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سلكناه ينابيع في الأرض، كانت كالخزانات، يخرج منها بقدر الحاجة بصورة عيون وأنهار.

ثم فزَّز شعورنا بمنَّةِ الله علينا في ذلك، وقدرته علىٰ إهلاكنا بسَلْبها لو أراد، تنبيهاً لوجوبِ شكره، وترهيباً من كفره، فقال: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾، ما أرهَبَ هذا التهديد! وما أعظم منَّة الله فيه! أي: كنا قادرين أن نجعَلَ النظام يُبخِّره أو يُضيعه في باطن الأرض، ولكن لم نجعل ذلك؛ رحمةً منا وفضلاً، أفلا تشكرون هذه النِّعَم الجليلة؟!.

ثم تابع الكلام عن هذه المنة في إنزال الماء، فقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ

﴿وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩﴾ أي: لكم في تلك الجنات فواكهُ كثيرة وأقوات. ويجوز أن يكون الضميران[1] للنخيل والأعناب، أي: لكم في ثمراتها أنواع من الفواكه، كالعِنَب وعصيره، والرُّطب ونبيذه، وأما ما يُؤكل منها فالتمر والزبيب. لأن الفواكه: ما يُتنعَّم بها، والمأكولات: ما يُشبَعُ بها وتـتَّخذ لذلك.

﴿وَ﴾ كذلك أنشأنا لكم به ﴿شَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ وهو جبل موسىٰ عليه السلام، ويقال له: منبت الزيتون. وإنما خصَّ شجرةَ الزيتون بالذِّكر لـما فيها من العبرة الظاهرة؛ لأنها تحوِّل هذا الماء إلىٰ دهن يُدهن به ويُؤتَـدَم به، كما ذكر ذلك بقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠﴾، وسُمِّي صِبْغاً لأنه يُدْهَن به الخبز ويُصْبغ إذا غُمس فيه، وكذلك غير الخبز من المأكولات. وإنما خصَّ شجر هذا المكان بالذكر لأنه أحسن أنواعه، أو لأنه أبركُها لبركة هذا الجبل.

ومِثلُ هذه في النعمة والعبرة: ما تُعطينا الأنعام من دَرّ يخرج من بين فَرْث ودم، أي: يخرج من جسم يحوي هذين الأمرين، لذلك عطفها عليها، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾ علىٰ قُدرة الله البالغة ونعمته العظيمة، فصَّلها بقوله: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ لبناً خالصاً سائـغاً للشاربـين، ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا﴾ فوق ذلك ﴿مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١﴾ فتنتفعون بلحومها كما تنتفعون بما يحصل منها، وكذلك تنتفعون بالحَمْل عليها، كما قال: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾، وإنما قَرَنَ الحَمْلَ عليها بالحَمْل علىٰ الفُلك لتكميل البيان، ولإفادة أنَّ بعض الأنعام لحَمْل الأثقال في الصحاري مثل الفلك في البحار والأنهار، لا تقلُّ عنها شأناً.

---

(١) يعني: الذي في قوله: ﴿فِيهَا﴾ والذي في قوله: ﴿مِنۡهَا﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم أردف هذا بذكر أحوال الأنبياء مع أقوامهم الذين لم يعتبروا بهذه المظاهر الدالَّة علىٰ وحدانية الله وقدرته علىٰ البعث والنشور؛ تحذيراً للمخاطبين من أن يُهملوا النظر في هذه العِبَر، ويكفروا في هذه النِّعَم، ويُشركوا مع الله إلهاً غيره مع وضوح بطلانه، فيحيق بهم مِثْلُ ما حاق بأولئك المكذِّبين.

وابتدأ بقصَّة نوح عليه السلام لتقدُّمها في الزمن، ولتتَّصل بقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، لما في ذلك من لطف المسلك في فُلكِ نوح، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ لاقتصار أفعال الألوهية وصفاتها عليه، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ غضبَه وجزاءَه إنْ أشركتُم به وكفرتم؟!

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾ أي: الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ معارضين له ومشاغبين عليه في أتباعهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يريد أن يجعل هذه الدعوةَ واسطةً للسيادة عليكم، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يُرسِلَ رسولاً ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ رسلاً، لا واحداً مِثلَنا يُريد منا أن نترك عبادة آلهتنا، ونُغيِّر مسلك آبائنا، ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: الأمر بعبادة الله وحده وتَـرْكِ عبادة ما سواه من الوسطاء والشفعاء ﴿فِىٓ

﴿ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾، ويجوز أن يكون المراد: ما سمعنا أنَّ بشراً كان رسولاً من الله. يقولون هذا القول متجاهلينَ تاريخ الرسل، وأنهم لا يكونون إلا من البشر.

ثم أضافوا إلىٰ هذه سخافـةً أخرىٰ، إذ حملوا هذه الدعوىٰ منه علىٰ الجنون، فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ وإلا كيف يَـدَّعي أنه رسول من الله ويدعونا إلىٰ ذلك؟ ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ لعله يفيق من جنونه هذا أو يموت وينتهي أمره.

فلما رآهم عليه السلام قد أصرُّوا علىٰ الكفر والعناد، والمعارضة والخصام، أجيالاً ودهوراً، ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحِفظِنا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ متىٰ أوحينا إليك بالصُّنع، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ قيل: هي كنايةٌ عن شدَّة الغضب، مثـل: حمي الوطيس، وقيل: كناية عن قوَّة انبعاث الماء، لأنَّ التنُّور يُطلَـقُ علىٰ كوّة عين الماء. ولا يشترط في الكناية صحَّةُ إرادة المعنىٰ الحقيقي، كما لا يمتنع، وعليه فيجوز أن تكون الطبيعة أثارت ينابيع أرسلت ذلك الماء، اتِّفاق أقدار لأقدار(١)، والله أعلم.

وعلىٰ كلٍّ، يكون المعنىٰ: فإذا اشتدَّ طغيان الماء، ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: أدخِلْ في هذه الفُلك ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي: من كلِّ صنف، ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾(٢) ذكراً وأنثىٰ، كي لا =

---

(١) لم يكن الطُّوفان في عهد نوح عليه السلام حَدَثـاً طبيعياً موافقاً للسنن الكونية، حتى يكون الأمرُ اتفاقَ أقدار لأقدار، نعم... أمر الله الأرض أن تـتفجر عيوناً، لكنْ على خلاف المعهود في الطبيعة، وكيف يكون ذلك جارياً على مقتضى الطبيعة وقد بلغ الأمر أن تجري السفينة في موج كالجبال، كما ذكر الله تعالى في الآية ٤٢ من سورة هود.

(٢) الذي يظهر لي: أن الحيوانات لـما غمرها الماء طافت مذعورة تطلب النجاة، فلم تجد غير السفينة، فازدحمت عليها، فأُمِرَ نوح أن يحمل من كلٍّ زوجين اثنين، لأنَّ ذلك هو الممكن، ولبقاء النسل، ولشدَّة اندهاشها وذعرها لم يعتدِ القويُّ فيها علىٰ الضعيف، أو لمعجزة من الله =

ينقطع النسل، ﴿وَ﴾ واسلك ﴿أَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ وهو ابنه الذي جاء الكلام عنه في سورة هود. وقد نهاه أن يسترحم لهم بعد أن حكم عليهم بالعذاب، فقال: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ رأفةً ورحمةً بهم، ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: مَقْضِيٌّ عليهم بالإغراق.

ولم يذكر مَنْ سَلَكهم فيها من المؤمنين، اكتفاءً بقوله: ﴿وَمَن مَّعَكَ﴾ في الآية الآتية، أو أومأ إليهم بقوله: ﴿فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾.

ثم أمره أن يُثني علىٰ الله بهذا الثناء، ويدعو بهذا الدعاء، إذا استقرَّ في السفينة، فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: أنزلنا في موضع يَسْتَتْبِع خيراً كثيراً. والأمر بهذا الدعاء بشارةٌ لهم بمفاده.

ثم ختم الكلام بالتَّحسيس بما جاء في السياق، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: بمحق الكافرين، وإننا لمختبِرون بهذه الآيات والعِبَر عبادَنا؛ ليتميَّز المعتبر من غيره، أو لموقِعون علىٰ المجرمين البلاء. وهذه الجملة تشبه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥]. وإنَّ سائر الأديان حتىٰ الخرافية تروي قصة الطوفان بصورة من نمط دياناتها لبقائها في الأذهان.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ

= لنبيه ﷺ. هذا ما أراه والله أعلم. وقيل: أُمِرَ أن يحمل من الحيوانات المنتفع بها، ويجوز ـ والله أعلم ـ أن الحشرات الأرضية بقيت كامنة. (المؤلف).

أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم تابع الكلام عن قصص الأنبياء مع أقوامهم الذين لم يؤمنوا بهم، فذكر ذلك بصورة عامَّة مجملة، فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: أهلَ قرون آخرين، وهم قوم عاد وثمود، ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ لاقتصار أفعال الألوهية وصفاتها عليه، فإنكم لا تشكُّون أنه وحده خالق هذا الكون، فهو وحده الذي يستحقُّ أن يُعْبَد ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ غضبه إن أشركتُم به؟

ثم بيَّن تعالىٰ ما قابلوا به هذه الدعوة، فقال: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ أي: الأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَ﴾ كنا قد ﴿أَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: أفضنا عليهم النِّعم فقابلوها بالكفر، وقالوا لأتباعهم والدَّهْماء فيهم مُضلِّلين لهم: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾، وهذا الوصف تمكين للمماثلة التي بَنَوا عليها قولَهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ مخدوعون.

ثم زادوا في إغوائهم باستبعادهم الحشرَ الذي جاء به في دعوته هذه، فقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ من قبوركم أحياءً تُحشَرون للحساب، ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ و﴿هَيْهَاتَ﴾ معناه: بَعُدَ، واللام للتقوية،

وهذا التكرار لتأكيد البُعْد الذي قرّروه بقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموتُ مَنْ يموت ويُولَد مَنْ يُولَد، كما يقول الدَّهْري[1]: أرضٌ تَبْلَع، وأرحامٌ تدفع. أي: إنَّ الأمر لا يتجاوز الحياة في هذه الدنيا، يبتدئ بالولادة وينتهي بالموت؛ من المهد إلى اللحد، ولا شيء وراء ذلك، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هذا القائلُ بهذا القول، ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ في ادِّعاء الرسالة والقول بالبعث، ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨﴾ أي: لا نُصَدِّقه فيما يدَّعي ويقول.

فلما يئس هذا الرسولُ من إيمانهم ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ﴾ تعالىٰ إجابةً لدعائه: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ۝٤٠﴾، وذلك عند مُعاينتهم للعذاب الذي سيَحيق بهم.

ثم ذكر ما كان من ذلك، وقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل من الله تعالىٰ، أو بالوعد الصدق، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي: كغثاءِ السيل، وهو ما يحمله مما بَلِيَ واسْوَدَّ من الأوراق والعيدان. ثم نعىٰ عليهم ولَـحَاهُم بقوله: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٤١﴾ أي: لأنفسهم بما هيَّؤوا لها من هذا البلاء، وعرَّضوها لما لا يتناهىٰ من الشقاء.

ثم تابع الكلام المُجْمَل عن الأنبياء مع أقوامهم، فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ۝٤٢﴾ فجَمَعَ «القرونَ» هاهنا للإيذان بأنَّ هذه الفترة كانت أضعافَ الفترة الأولىٰ لعاد وثمود التي عبَّر عنها بـ«القرن».

وقد أجمل البحث عن هذه القرون، وأومأ إلىٰ أنه قد جَرَىٰ عليهم ما جَرىٰ علىٰ

---

(١) نسبة إلى الدهر بفتح الدال وضمها. يقال: رجل دَهْري: مُلْحِد لا يؤمن بالآخرة «لسان العرب» (دهر).

سابقيهم بقوله: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ بمعنىٰ: أنَّ عذاب الاستئصال لكلِّ أمة استحَقَّتـه كان له موعد معيَّن، لا يتقدَّمه ولا يتأخَّر عنه. وفي هذا الحكم العام وعيدٌ للمشركين، وتعريضٌ بهم، وردٌّ لاستبطائهم العذاب واستهزائهم به. وقد تكرَّرت هذه الجملة في القرآن، وكلُّها بهذا المعنىٰ.

ثم تابع الكلام عن الرسل والأقوام، فقال: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ أي: مُتَـتَابعة، ويظهر من صورة هذا التعبير أنَّ الرُّسُلَ قبل هذه الطبقة كانت تأتي متقطِّعة مُتباعِدَة، بين كل واحد وآخر أزمان مُتطاولة، بخلاف هذه الطبقة، فإنها جاءت متتابعة. وتبتدئ هذه الطبقة بإبراهيم عليه السلام، وبينه وبين صالح أحقاب لا يستوعبها التأريخ، وهي ما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وقد أجمل البحث أيضاً عن استئصال المكذِّبين من أمم هذه الطبقة بالعذاب، فقال: ﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ بالإهلاك والاستئصال، كقوم لوط وقوم شعيب عليهما السلام، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدَّث بها الناس، ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وهذا دعاءٌ عليهم وتقبيحٌ لهم.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم ساوق البحث عن الرسـل والأقوام بعد هذه الطبقة، فقال: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي: برهان ظاهر مبيـن، أرسلنـا بها ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ أي: أشرافِ قومه، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: متكبِّرين متمرِّدين.

ثم فسَّر ذلك الاستكبار بقوله: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: مُسْتَعبَدون لنا أذلّاءُ منقادون؟! ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

ثم ذكر مُجْمَلَ أمر بني إسرائيل بعد إنجائهم من فرعون وقومه الـمُهْلَكين، فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هُدىً لبني إسرائيل ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فلم يهتدوا.

ثم اختزَل الكلام بعد ذلك عن أمر عيسىٰ في بني إسرائيل، فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ لهم، مثل كلامه في المهد، وولادتها له من دون مسيس. فلم يؤمنوا بهذه الآية، وصمَّموا الفَتْكَ بهما، فأنجيناهما ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ﴿٥٠﴾﴾، ويظهر من قوله هذا أنها كانت مأمناً لهما من بني إسرائيل، فاستقرّا بها، وكانت موفورة الخير بطعامها وشرابها. وذلك أنَّ مريم فرَّت إليها بابنها مع ابن عمِّها يوسف النجار، وبقيت بها اثنتي عشرة سنة، ثم رجعت إلىٰ قومها بعد أن مات مَلِكُهم. هكذا قيل. والله أعلم.

وقد اختلفوا في هذا المكان؛ فقال قتادة وأبو العالية: هو إيلياء، أرض بيت المقدس. وقال أبو هريرة: إنها الرملة. وقال الكلبي وابن زيد: هي بمصر. وقال الأكثرون: إنها دمشق. وقال مقاتل والضحَّاك: هي غوطة دمشق[١]. وقيل: غير ذلك. والمعين: الماء الظاهر الجاري، اكتفىٰ بذكره عن ذكر الرزق السهل الواسع.

وأقول: أما يجوز أن يُراد بها محلُّ ولادتها، حيثُ كانت فيه في مأمن حفيظ، وكان فيه معين، فكانت تأكل من النخلة، وتشرب من الماء؟ والله أعلم.

---

(١) هذه الآثار ذكرها الرازي في «تفسيره» (٢٣: ٢٨٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ
هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا
لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾
نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ
أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَاۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٖ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٞ مِّن
دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ
ٱلْيَوْمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾
مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ
لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلْ
أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٞۖ
وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ
عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا
عَلَيْهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

ثم خاطب الرسل مُجْمَلاً، ووصف طبيعة ما أرسلهم به إلىٰ الناس، تنويهاً بشأنه، وحَمْلاً علىٰ التمسُّك به، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾﴾ فأجازيكم عليه. وهذا من خطاب الخاصِّ مُراداً به العموم، وهم أمم الرسل. وفي الآية إشارةٌ إلىٰ أنَّ كلَّ ما حرَّمه الله في شرائع الرسل فهو من الخبائث،

وما أحلَّه لهم فهو من الطيِّبات، وكلُّ عمل أمرهم به فهو صالح، وما نهاهم عنه فهو خبيث. وعلىٰ هذا الأساس تتمشَّىٰ أصول الشرائع.

وقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ملَّتكم ملَّة واحدة بأسسها الأصلية، وهي التوحيد والاتِّحاد والوئام، يشير إلىٰ ما قلتُه غيرَ مرة في أمثال هذه الآية من أنَّ الأديان السماوية الصحيحة واحدة بأُسسها، وهي الدعوة إلىٰ الاتحاد والتوحيد، والإيمان بالبعث، والأعمال التي تُغَذِّي الإيمان وتكمل الروح وتُصلح النفوس، كالصوم والصلاة والحج والزكاة، لتكون طيبةً فيما بينها وبين الله، وبينها وبين الناس، وإن اختلفت بعض صُور تلك الأعمال برقيِّ الإنسان علىٰ مرور الزمان.

وبعد أن انتدبهم لهذه الشرائع؛ حثَّهم عليها وحَذَّرهم من التفريط بها، بقوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: فيما آمرُكم به وأنهاكم عنه، ولا تعبدوا أحداً غيري؛ إذ لا ربَّ لكم سواي.

وهذا الأمر مُوجَّه إلىٰ الأمم بخطاب رُسلها؛ لأنهم هم المأمورون بالتبليغ، وهو جارٍ علىٰ طريقة التخاطب المألوفة في الجماعات، حيث تخاطب الرؤساء بما يجب أن تفعله الاتباع، فيقال للرئيس: إذا فعلتَ كذا كانت عاقبته كذا وكذا. والمراد: إذا فعلت أمتك وأتباعك. أو عليك أن تفعل كذا، والمراد: علىٰ أتباعك أن يفعلوه. فالمراد توجيه الطلب إلىٰ الأنبياء والأمم معاً[1].

---

(١) فلو كان البشر كما أراده الله وأمره به متنقِّلاً من ديانة منسوخة إلىٰ ديانة ناسخة ـ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ [آل عمران: ٨١] الآيات، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ الديانة العالمية التي نزل بها القرآن، وقال لرسولها ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ =

ثم حكىٰ ما كان من أمر الأمم بعدهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم وشرائعهم، فقال: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ أي: الأتباع المفهومون من السياق ﴿أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: قِطَعاً وفِرَقاً، أو كتباً؛ كلُّ حزب نظم له كتاباً حَسْبَما أوحت إليه فكرة رؤسائه وتدجيلهم واقتضته مصالحهم، مُدَّعياً أنه الكتاب المنزل والشريعة الإلهية. أما كيفية تكوين هذه الكتب والديانات بالتفصيل، فمما يحتاج إلىٰ بحث طويل.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ كلاً منهم مُغْتبط بما اتَّخذه ديناً لنفسه، مُعْجَبٌ به، يرىٰ أنه الحق الرابح، وغيره بطلان خاسر، فقال: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وذلك مبنيٌّ علىٰ سُنَّة من سُنن الله في أخلاق البشر، وهي أنه متىٰ انطبع الإنسان علىٰ أمر أو عقيدة لا يرىٰ غيره جديراً بالنظر والاعتبار.

ولما ذكر سبحانه تفرُّق هؤلاء في دينهم، أتْبعَه بالوعيد، فقال: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾؛ يأمر النبيَّ ﷺ أن يصبر علىٰ هؤلاء المشركين والكفار، ويَتَحمَّل منهم حتىٰ يَرَوْا العذاب في الدنيا، أو الموت والحساب في الآخرة.

ولما كان بعض هؤلاء القوم في نِعَم عظيمة في الدنيا، ويظنُّون أن تلك النِّعَم إنما هي من رضا الله عنهم، ردَّ عليهم بقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ كلَّا ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أنَّ هذا زيادةٌ في إقامة الحجَّة عليهم يوم

= [الفرقان: ١] إلىٰ كثير من هذه الآيات ـ وكان حزباً واحداً هو حزب الله كما سمَّاه القرآن، ويتكلَّم إلىٰ جانب لغته بلغة القرآن كما أراد الله، يعلم بها قرآنه، ويتفاهم بها مع سائر الأمم، لا نزاع ولا خصام ولا جدال، إخواناً علىٰ الأرض متحابين يعمرونها ويستفيدون من خيراتها وكنوزها متشاركين؛ لعاشوا سعداء سعادة أبديَّة علىٰ وجه الأرض متنعِّمين في جنات النعيم، ولكن كانوا كما قال عنهم تعالىٰ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]. (المؤلف).

القيامة. وفي الآية تسفيهٌ لـما يظنُّه بعض الأغنياء من أنَّ ما هم فيه من نعمة دليلٌ علىٰ عناية الله بهم ورضاه عنهم.

ثم ذكر الأمة التي يُسارع لها في الخيرات، ويدَّخر لها أسْنَىٰ الكرامات، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: من خوف عذاب ربِّهم حَذِرون، فيُديمون الطاعة له سبحانه، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾، وهذا تعريضٌ لأولئك المشركين، وتقريرٌ لما قبله من الإيمان بآيات الله.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ فيخشون أنْ لا يكونوا قد قاموا بالواجب، أو أنهم لم يفعلوه لوجه الله خالصاً، فيجهدون كلَّ الجهد في أن يؤدُّوا كلَّ ذلك حقَّ الأداء، ويُعطوا ما عليهم، في أكمل صورة من الوفاء، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: يفعلون ما به السَّبْق والجهد لأجلها، فيُسارَعُ لهم بها لمسارعتهم إلىٰ ما يؤدِّي إليها، أو المعنىٰ: أنهم ينالونها قبل الآخرة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم حثَّ علىٰ اتِّباع طريقةِ هؤلاء السابقين، ببيان سهولة التكاليف المؤدية إلىٰ هذه الخيرات، وكَـوْنها غير خارجة عن حدِّ الوسع والطاقة، فقال: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وأضاف إلىٰ ذلك أنَّ الأعمال مُحْصيَّة[1]، فقال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ أي: إحصاءٌ للأعمال[2] ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ ولا يُهمل شيئاً، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ بنقص ولا زيادة، أي:

(١) الصواب لغةً أن يُقال: مُحصاة.

(٢) الأَوْلى أن يُقال: «كتابٌ فيه إحصاء الأعمال»، والفرق بين العبارتين: أن الأولى لا تتضمن =

لا ينقص شيء من جزائهم، بل يستوفونه كاملاً موفوراً في الحسنات، وجزاءً وفاقاً في السيِّئات.

ثم عاد إلىٰ المشركين، وأضرب عمَّا تضمَّنه السياق من حثِّهم لاتِّباع طريقة المؤمنين إلىٰ بيان حالهم المغاير لذلك؛ للإيذان بأنَّ هذه المواعظ لم تُجْدِهم نفعاً، فقال: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ أي: إنَّ هؤلاء المعارضين في غفلة عمَّا ذكرنا من الطريق التي سينال المؤمنون بها الخيرات، وعمَّا لدينا من كتاب ينطق بالحق عن الحسنات والسيِّئات، لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، فهم عن كلِّ ذلك غافلون مُعرِضون، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ وهي معارضتهم لهذا الدِّين، ومقاومتهم لسَيْر الدعوة، وإصرارهم علىٰ الكفر، وهم مستمرون علىٰ ذلك. أو المراد من الأعمال: ما اتَّخذوه ديناً لهم من دون ذلك الدين الصحيح.

وقال أبو مسلم: إنَّ الآية ليست من صفة الكفار، وإنما هي من صفة المؤمنين الـمُشفِقين؛ تصفهم بالحَيْرة والتفكُّر في أنَّ أعمالهم مقبولة أم غير مقبولة، وهو المراد من قوله: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾. وأما قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ فالمراد بها: النوافل ووجوهُ البر سوىٰ ما ذكر لهم.

ويبتدئ العَوْدُ بالكلام عن الكفار عنده بقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ ﴾، فقال صاحب «الكشاف»: ﴿ حَتَّىٰ ﴾ هذه هي التي يبتدأ بها الكلام[1]. وهؤلاء هم الذين

= إثبات كتاب حقيقي تُسجَّل فيه الأعمال وتُكتَب، وإنما المراد بالكتاب: الإحصاء، فيكون المعنى مجازياً أما الثانية ففيها إثبات هذا الكتاب على وجه الحقيقة، وأن الإحصاء هو أثر من آثاره. وهذا المعنى هو الموافق للأحاديث النبوية الصحيحة.

(١) «الكشاف» (٣: ١٩٣).

أمدَّهم الله سبحانه بما ذكر من المال والبنين، فأصرُّوا علىٰ الكفر، فلما أخذهم العذاب ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: يصيحون جزعاً واستغاثةً، فيأَّسهم من الخلاص، وقال: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: لا أحد يقدر أن ينصركم وينجيكم منا. وهذا المعنىٰ مأخوذ من حال المخاطبين، علىٰ نهج القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة في مجازات القرآن). ومفاد هذه الجملة: التيئيس من النَّجاة والخلاص بعد هذا الأخذ بالعذاب.

ثم علَّل ذلك وسبكه علىٰ التنديم والتقريع، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: ترجعون إلىٰ الوراء، بمعنىٰ: تُعرِضون عنها إعراضاً شديداً، ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾[1] أي: متجبِّرين ومتعالين علىٰ الناس بهذا البلد، أي: بكونكم أهلَ هذا البلد، يعني: مكة، ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: تفحشون علىٰ هذا الدين، وهذا الرسول، وهذا القرآن، أثناء سَمَركم في الليل.

---

(١) يجوز أن يكون الضمير عائداً إلىٰ البيت الحرام أو إلىٰ مكة، أي: متعالين بهذا البلد، فإنهم يفتخرون ويتعالون علىٰ الناس بأنهم من أهل مكة وقُوَّام البيت الحرام. وشهرتهم بهذا الأمر تحقِّق مرجع الضمير؛ لأن عَوْد الضمير علىٰ ما يدركه الذهن ـ وإن لم يتقدَّم له معنىٰ ـ هو من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية)، كقوله تعالىٰ: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، أي: علىٰ ظهر الأرض، ولم يتقدم للأرض ذِكرٌ في السياق، ولكن يدركها الذهن من هذا الضمير بسهولة، يعين عليها نظم الكلام.

ويجوز أن يعود الضمير للقرآن المفهوم من كلمة الآيات، علىٰ أن تكون كلمة ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ متضمِّنة لمعنىٰ: مكذِّبين أو مستهزئين، أي: مكذِّبين مستهزئين بالقرآن، وبذلك يَقْضُون سَمَرَهُم ليلاً. والتضمين من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية)، والترف يؤدي إلىٰ فساد الأخلاق وتحطيم الإنسانية. (المؤلف).

ويجوز أن يعود الضمير على القرآن، ويُضمَّن ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ معنى: مُكذِّبين، أي: تَقْضون سَمَركم ليلاً بتكذيب هذا القرآن والاستهزاء به.

ثم لفت الكلام إلى التوبيخ والإنكار لعددٍ من مظانِّ التُّهَم مضطربة في مسالك البطلان، على نهج القرآن في مثله. وعَدَلَ عن الخطاب إلى الغيبة مبالغةً في ذلك، كأنه أبعدهم عن ساحةِ الخطاب لقلَّة فهمهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ الذي ينطق به هذا القرآن؛ ليعلموا أنه الحقُّ من ربهم، ﴿أَمْ جَاءَهُم﴾ فيه وبه ﴿مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)﴾ حتى استَبْدَعوه واستَبْعَدوه؟ كلّا، ما قيل لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، وما كنتَ بدعاً من الرسل. فالآية تنكر عليهم كتمانهم لما يعلمون من تاريخ الرسل في القرون الماضية، ولما هو أمر معروف لا يجهله أحد. فالمعنى: أن مجيء الكتب من جهته تعالى إلى الرسل عليهم السلام سُنَّة قديمة له تعالى، معروفة لدى الناس، لا يتسنَّى إنكارها، وأنَّ مجيء القرآن إنما هو من تلك السنة، فلِمَ ينكرونه؟

ثم عطف على هذا قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ بالأمانة والصِّدق والكمال منذ الصغر ﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩)﴾؟ و﴿أَمْ﴾ في مثل هذا السياق للانتقال من توبيخ بوجهٍ إلى توبيخ وإلزام بوجهٍ آخر، أي: ألم يعرفوه عليه السلام بالأمانة والصِّدق وحُسْن الأخلاق وغير ذلك من الكمالات اللائقة بالأنبياء، فلِمَ يُنكِرون نبوَّته؟

ثم أردفه بتوبيخ وإلزام آخر، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ مع أنه أرجَحُ الناس عقلاً، وأثقبهم ذهناً، وأتقنهم رأياً، وأوفرهم رزانةً ووقاراً، فكيف يقولون: إنه مجنون؟

ثم أضرب عن الإنكار عليهم إلى بيان الحق في القضية، فقال: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: ليس الأمر كما يتقوَّلون في حقِّ القرآن والرسول ﷺ، بل جاءهم بالحق

الثابت، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ لما في نفوسهم من الزَّيْغ والزَّيْف والانحراف، فكرهوا الحقَّ الأبلج، ومالوا للباطل الأفلج.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ الحقَّ لا يميل مع الهوىٰ، وأنَّ اتِّباع الهوىٰ يؤدِّي إلىٰ الفساد الكبير، فقال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، لأنها كلَّها قائمةٌ بالحق والعدل والإتقان والسَّداد في البنيان وسُنن الأكوان. ولو كانت تأتي الأنظمة الكونية والشرائع التأديبية كما يهوىٰ الهاوون، لأدَّىٰ الأمر إلىٰ خراب العالم، وفساد المجتمع، وانحلال الأخلاق، وحطَّة الأرواح وشقائها.

وبعد هذا الإبطال أضرَبَ إلىٰ الحق، فقال: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ وإعلامهم بالحق الواقع ليتبصَّروا الطريق الواضح، ولكنهم أهملوا هذا النبأ العظيم، ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تكميل مظانِّ التُّهَم والموانع المضطربة في البطلان، فقال: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي: ضريبةً علىٰ الرؤوس، فيتَّهمونك بأنك تطلب بهذه الدعوىٰ والدعوة نَيْلَ ثروة أو رياسة، كلّا. وإنما تطلب الأجرَ من ربِّك ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾، وهو رزقُه لك في الدنيا، وثوابُه في الآخرة. وعبَّر عن هذا بالخراج للمشاكلة، ثم أفصح عنه بقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ والخرج: ما يأخذه الملوك علىٰ الرؤوس، والخراج: ما يأخذونه علىٰ ما تنبت الأرض من المحاصيل. والمعنىٰ: لست طالباً للملك عليهم فيتَّهموك. والأصل في الخراج: هو نفس ما تُخرجه الأرض من الغلال، ثم استعمل فيما يؤخذ علىٰ الغلة من الضرائب، من ذِكر الكل وإرادةِ الجزء.

وبعد أن استقصىٰ سائر الوجوه التي تسوِّغ الإنكار والاتِّـهام، وسائر الموانع التي يمكن أن تَـرِدَ علىٰ الأفـكار والأوهام، وتستدعي الإعراض عن هذا الـمرام،

وأنكرها عليهم أمراً أمراً، عدا كراهتهم للحقِّ وقلّة فِطنتِهم؛ أتبعه ببيان ما جاء به الرسول من صالحهم الأعظم الذي أعرضوا عنه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ يصل سالكُه إلىٰ سعادة الدارين، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: عادلون عن هذا الصِّراط ويبغونها عوجاً.

ثم ربط بين هذه الآية وبين قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ [المؤمنون: ٦٤] علىٰ نهج القرآن في الاعتراض، وأشار سبحانه إلىٰ أنَّ التمرُّد والعِناد قد تمكّن منهم، وقد بلغوا منه حداً لو كشف معه العذاب عنهم - بأن يصيبهم فيستكينوا فيجأروا منه ويطلبوا العفو - لعادوا إلىٰ التّمادي في الكفر والعِناد، فقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: لعادوا وتمادَوْا في ضلالهم عن الهدىٰ.

فالآيةُ امتدادٌ لقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ [المؤمنون: ٦٤] وعُذرٌ لذلك، وبيانٌ لطبيعة الإنسان إذا تمكّن منه الضلال، من أن لا يتركه إلا في حال الشدَّة من جرّائه، ثم يعود متىٰ زالت الشدّة. والعَمَهُ: شدَّة العمىٰ. قال الـجُبّائي وأبو مسلم: والآيةُ مثلُ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقد استشهد سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك بما جـرىٰ لهم قبل عذاب الاستئصال تحذيراً وإنذاراً فلم يرتدعوا، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ وهو: القحط والجدب ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾، بل أقاموا علىٰ عُتوِّهم واستكبارهم وكفرهم وضلالهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ كان فيه استئصالُهم، ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ متحيِّرون يائسون ساكنون علىٰ حُزن عميق.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا

تَعۡقِلُونَ ۝٨٠ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٨١ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝٨٢ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨٣﴾.

ثم أردف هذا البيان بتنبيههم إلىٰ الهُدىٰ وإيقافهم علىٰ ما في أنفسهم من عِبَر ودلائل، ونِعَم وعظائم لله تعالىٰ، قد أغفلوا أمرها ولم يهتدوا باختصاصها به تعالىٰ إلىٰ اختصاصه بالألوهيَّـة، وجَعَل ذلك امتداداً للسياق واسترسالاً فيه، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾ فتستعملونها فيما خُلِقَت له، وتُدركون بها الحق، وتُعرضون عن الباطل واللَّجاج فيه. والقلَّة لا أثر لها في النفوس. وإنما التفت إلىٰ الخطاب ليكون الكلام دالاً علىٰ العموم.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: جعلكم متناسلين وبثَّكم فيها إلىٰ حين، ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٧٩﴾، فتُجزَوْنَ علىٰ أعمالكم.

ثم ذكر دليل قدرته علىٰ الحشر ووَبَّخهم علىٰ الإنكار، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ وليس الحشر والإعادة بأعجَبَ من الحياة الأولىٰ والإماتة. فالقدرة التي تجعل من الماء الـمَهين جنيناً لا يزال يتطوَّر في الرحم حتىٰ يخرج طفلاً ضعيفاً بليداً، ثم لا يزال يتطوَّر حتىٰ يبلغ الكمال، وقد يبلغ العظمة والجلال، ثم يفقد هذه الحياة، ويصير جسماً هامداً لا إدراك ولا حراك بعد تلك الدراية الواسعة وعظم الفعال؛ فالقدرة التي تفعل به ذلك، هل يُعجِزُها إعادتُه من عَجْب الذَّنَب ونواة الحياة، كما يُعادُ النبات من البذرة وينمو في الأرض كالكمأة، لو كانوا يعقلون؟

ثم تابع دليل القدرة بقوله: ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾، يشير إلىٰ عَظَمة القدرة في نظام تعاقب الليل والنهار، والنقص والزيادة فيهما. ويكون ذلك من مجموع حركة الأرض السنوية واليومية، ومَيْلها علىٰ محورها.

ثم أَنَّبهم علىٰ غَـفْلتهم عن مثل ذلك، وعن عدم استدلالهم به علىٰ قُدرة الله البالغـة ونظامه السَّـديد، وإدراكهم أنَّ الحشـر في جانبها ليس بشيء، فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وتتفكرون؟

﴿ بَلْ ﴾ جمدوا علىٰ العَمَىٰ والتقليد الأعمىٰ، و﴿قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾، حيثُ ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ مُنكِرين للبعث: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ينكرون ذلك ويَسنُدون الإنكار بقولهم: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ﴾ أي: إنَّ هذا الوعد كما وقع لنا من محمد وقع لآبائنا من غيره ومن أمثاله، ولم نجد لذلك أثراً مع طول العهد. يستـدلّون بعدم وقوعه علىٰ عدم صحَّته، تَـغَابياً منهم مفروضاً بأنَّ المراد وقوعُه في الدنيا، فهم كمَن يتطلَّب طبيعة الربيع في قوة الإنبات[1] واخضرار الأرض بأنواع النبات لطبيعة الصيف أو الشتاء، ولم يفكروا في أنَّ الله سبحانه قد جعَل لكلِّ زمن طبيعة لا تَتَعدّاه، فكما خصَّ طبيعة زمن الربيع بقوة إعادة الأرض الهامدة إلىٰ الإنبات، خصَّ زمن الحشر بطبيعة إعادة أجسام البشر إلىٰ الحياة من حبَّة عَجْب الذنب ونَوَاة الحياة.

ثم أشفعوا الإنكار والجحود بقولهم: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ جمع «أسطورة»، وهي: الخرافة. أي: إنَّ هذه المقالة من خرافات الأوَّلين، تقال لنا كما قيلت لآبائنا، ويُكذَبُ بها علينا كما كان يُكذَبُ بها عليهم.

---

(١) هذه عبارة غير سائغة، لِـمَا فيها من نسبة الإنبات والاخضرار إلى قوة في الربيع، والربيع ما هو إلا ظرفٌ للإنبات والاخضرار، وهما فِعلُ الله تعالى، وقد أجرى سبحانه العادة (السنة الكونية) بأن يخلق هذا الاخضرار والإنبات في هذا الظرف، فاقترانهمـا سببٌ عادي، ليس له من قـوة التأثير شيء.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

فعقَّب سبحانه علىٰ هذا الإنكار بالاستدلال علىٰ قدرته البالغة بما يعرفونه ولا ينكرونه، وليس الحشر بأعظم منه، فقال: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ ملكاً وإيجاداً ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأنهم لا ينكرون ذلك مهما بلغ العناد وفساد العقل والبلادة، لذلك أمره أن يوبِّخهم علىٰ قِلَّة التذكُّر، فقال: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أنَّ مَنْ خلق الأرض ومَنْ فيها ابتداءً قادرٌ علىٰ إعادتهم ثانياً؟

ثم ذكر أمراً آخر من جنس هذا الإلزام، فقال: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ فإنها أعظمُ من الأرض ومَنْ فيها؟ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أي: ملكاً وإيجاداً، وذلك لِبَداهة الأمر وعدم إمكان الإنكار فيه. ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ عقابَه فلا تُشركوا به بعضَ مخلوقاته، ولا تنكروا قدرتَه علىٰ البعث الذي هو أهوَنُ مقدوراته؟!

ثم تابع الكلام بهذا النوع من الإلزام، فقال: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ والملكوت: المبالغة في الـمُلك، وقوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ وَصْفٌ يدلُّ علىٰ التميُّز والتفوُّق في العَظَمة والقدرة، مستعارٌ من حالة الـمُخاطَبين، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدِّمة السادسة)، وهي أنَّ القويَّ العظيم يَقْدِرُ أن يُجيرَ مَن استجار به إذا كان المستجار منه ضعيفاً له، ولا يقدر أن يُجير ممّن هو أقوىٰ منه وأعظم. والله سبحانه يُجير ولا يُجار عليه، ولله المثل الأعلىٰ، وله

القوّةُ والعَظَمةُ جمعاء، وهو القويُّ العزيز. وقد استفزَّ شعورهم للتفكير والدراية، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والمعرفة؟

ثم ذكر أنهم سَيُقِرُّون به إذ لا يمكنهم إنكاره، فقال: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: لله تلك الصفة والعظمة، إذ لا يُمكِنُهم خلافُ هذا الجواب.

وقرأ أبو عمرو ويعقوب بغير لام فيه وفيما قبله[1]. أما اللام فللإشارة إلىٰ الملكية.

وبعد اعترافهم بما فيه إلزام لهم أنّبهم بقوله: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: فكيف تُخْدَعون وتُصرَفون عن الرُّشْد، مع ظهور الأمر وتوفُّر الأدلة؟ فكيف يُخيَّلُ إليكم الحق باطلاً والباطل حقاً، رغم وضوح الحق وعُلُوِّه علىٰ الباطل؟

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

وبعد هذا الإلزام القطعي قرَّر حقيقة شأنهم في هذا الأمر، وردَّ عليهم ما يُسحَرون به ويُخدَعون، من تلقينهم الشرك والإنكار للحشر، فقال: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ الذي لا

---

(١) انظر: «الحجة في القراءات السبع» لابن خالويه ص٢٥٨، و«النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (٢: ٣٢٩).

مَحِيدَ عنه ولا خفاءَ فيه من تحقيق أمر التوحيد والوعد بالبعث، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ فيما يقولون من الشِّرك وإنكار البعث؛ لأنه غير مطابق للواقع.

ثم بَرهَنَ علىٰ بطلان الشرك بعد أن بَرهَنَ عن قُدرته علىٰ البعث، فقال تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾، وإنما تَتَوالد المخلوقات السريعة العطَب ليخلف الوَلَدُ الأبَ، واللهُ سبحانه هو الخلَّاق الباقي بلا زوال، ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ آخر، ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ واسْتَبدَّ به، وامتاز مُلكُه عن مُلكِ الآخرين، ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالتنازع، واختصَّ العالي بالألوهية دون من سواه؛ لأنَّ العاجز الضعيف لا يكون إلهاً، ويسمَّىٰ هذا: برهان التمانع.

وقد بالغ في التنزيه عن ذلك بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ من أن يكون له نـدٌّ أو ولد، بل هو الواحد الأحد، ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ[1] فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

ثم توعَّدهم بنزول العذاب بهم، وتحقيقاً لذلك أمر النبي ﷺ أن يَدْعُوَ اللهَ بإنجائه من بينهم، فقال: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ من عذاب الاستئصال، ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: احفظني من شرِّ ذلك العذاب إنْ أريْتَنيه. أو: إن أنزلتَه بهم الآن فأخرِجْني من بينهم. ويجوز أن يكون الكلام بفَحْواه إلماعاً إلىٰ أناتِه سبحانه وتعالىٰ بهم لعلَّهم إلىٰ رُشدهم يرجعون، وإيماءً إلىٰ طلب السماح له بالهجرة والخروج من بينهم؛ ترويحاً عليه، وترويجاً للدعوة في غيرهم الآن، وقد كان ذلك، والله أعلم.

---

(١) الله عالم الغيب مما غاب عن ذوي الإدراك من خلقه، وعالم الشهادة من الأكوان الظاهرة التي تُدرَك بالحواسّ، فلا يغيب عن علمه شيء.

ثم بيَّن صفته سبحانه في الأناة، مشيراً إلىٰ أنه تعالىٰ إنما يُمهِلُهم لعلهم يُنيبون إلىٰ ربِّهم، فقال: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ﴾ علىٰ عَجَل ﴿مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾، ولكننا نصبر عليهم لعلّهم يهتدون.

ثم أرشد نبيَّه ﷺ إلىٰ الصبر والأناة، فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ به اللهَ ويتقوّلون عليه، فسنُجازيهم إن أصرُّوا علىٰ ذلك جزاءً وفاقاً. وهذا تثبيتٌ له ﷺ وتوعُّد لهم.

ثم أرشده إلىٰ ما يكون به ذلك الثبات، ويُستَعان به عليه، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ أي: إني أعتصم بك وأستجير من وساوسهم المُغْرية علىٰ خلاف ما أمرتَ به من المحاسن التي منها الصبر والأناة.

وأصل الهمز: النَّخْس، ومنه: مهماز الرائض. شبَّه حثَّهم الناس علىٰ المعاصي بهمز الرائض الدوابَّ علىٰ الإسراع أو الوثب.

ثم أمره بأن يعوذ به من حضورهم عنده بعدما أمره بالعَوْذ به من هَـمَزاتهم؛ للمبالغة في التحذير من ملابستهم وهمزاتهم، فقال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ أي: يقربوني. فأعاد الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به. وهذه الاستعاذة للتأييد والتقوية علىٰ الدفع بالتي هي أحسن.

ثم ذكر نَدَم أولئك المشركين الـمُمْهَلِينَ إذا أصرُّوا علىٰ شركهم وشاهدوا الحقَّ عند الموت، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾، وفيه خطاب الجَمْع بعد الواحد، (كما جاء في المادة الحادية عشرة من المقدمة الخامسة في أنواع الخطاب في القرآن). والمراد بضمير ﴿ٱرْجِعُونِ﴾: الملائكة الموكَّلون بقبض الأرواح. والمراد من الإرجاع: التأخير، ويؤيِّده ما جاء في مثله من قوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

فهذا الكافر إذا احتُضِرَ يقول لملائكة الموت: أخِّروني ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ بمعنىٰ: أتلافىٰ ما فرَّطتُ فيه. فزجَره سبحانه بقوله: ﴿كَلَّآ﴾، فهذا جوابٌ له في المنع مما طلب، قرَّره بقوله: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي: لا تُسمَعُ منه ولا يُجابُ إليها، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ وعبَّر هنا بصيغة الجَمْع باعتبار المعنىٰ؛ لأنَّ الكلام عن صنف المشركين. والمراد: أنَّ بين هؤلاء المشركين وبين الرجعة حائلاً لا يزول إلىٰ أن يأتي يوم الرَّجْعة العام، وهو يوم البعث من القبور. ففي بيان هذه الغاية مبالغةٌ في المنع من هذا الطلب، وإلماعٌ إلىٰ أنها رَجْعةٌ لهم فيها أشد البلاء. ومن هذه الآية أُطلِقَ عالم البرزخ علىٰ ما بين الحياتين.

والآية تُشعِرُ بأنَّ الحقائق تنكشف عند الموت، فيعرف المُبْطِلُ أنه كان مُبطِلاً. وعلىٰ هذا جاء قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[1] [النساء: ١٥٩] أي: يعتقد ويعلم حينما يحضره الموت أنَّ عيسىٰ عليه السلام إنما هو نبيٌّ ورسولٌ من الله لبني إسرائيل، لا أكثر، كبقية الرسل.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ

(١) علىٰ قول في تفسيرها.

هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

ثم أكمل السياق ببيان المصير العام بعد البعث، فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ والمراد: النفخة الثانية، وهذا تصويرٌ للهول العظيم، وانشغال كلٍّ واحد بنفسه، فلا استِنجاد ولا تعاطف بين الأقارب كما في الدنيا. فالمرادُ من قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ نفيُ حكم النسب وثمرته وطبيعته إذْ ذاك، وبيان أنْ لا حكم إلا للأعمال.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن كان لأعماله زنةٌ وقيمة، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: لم يكن له من الأعمال والعقائد ما له وزنٌ قيِّم، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ إذ أسلموها إلىٰ الشقاء الدائم الأليم، كما بيَّن ذلك بقوله: ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ والكلح: قِصَرُ الشفتَين عن الأسنان، كما هو حالها إذا شوي الرأس بالنار.

وقد مرَّ الكلام علىٰ الوزن والميزان في سورة الأعراف، عند قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨]، وفي سورة الأنبياء، عند قوله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فارجع إليه[١].

---

(١) وتقدم التعليق عليها، وأضيف هنا على ما علقته هناك:

قال الطبريُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨] بعد أن صرَّح بأن المقصود بالميزان: «هو الميزانُ المعروفُ الذي يوزن =

وبعد أن شَرَحَ عذابَهم، ذكر ما كان سبباً له، وحكاه بصورة تقريع لهم وإعذار، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

فأجابوا بجواب ملؤه الندم والحسرة و﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: أسبابُها من الإعراض عن الحق، ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

ثم عادوا إلىٰ مثل طلبهم سابقاً، إلحاقاً بالطلب الأول، وقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: من هذه الدار إلىٰ دار الدنيا، ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلىٰ شِركِنا ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ نستحقُّ كلَّ ما يُفعَلُ بنا.

فزجرهم سبحانه وتعالىٰ عن هذا المقال و﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾، فما أوضَحَ وأعظَمَ هذا التنبيه والإيقاف علىٰ المصير للمشركين والضالِّين، لو كانوا يعلمون!

= به»، قال: «فإن أنكر ذلك جاهلٌ بتوجيه معنى خبر الله عن الميزان وخبر رسوله ﷺ عنه وِجْهَته، وقال: أوَبالله حاجة إلى وَزْن الأشياء، وهو العالـمُ بمقدار كلِّ شيء قبل خَلْقه إياه وبعده وفي كل حال؟ أو قال: وكيف تُوزَن الأعمال، والأعمالُ ليست بأجسام تُوصَفُ بالثِّقَل والخِفّة، وإنما تُوزَن الأشياء ليُعرَفَ ثِقَلُها من خفّتها، وكثرتها من قلتها، وذلك لا يجوز إلا على الأشياء التي توصف بالثقل والخفة، والكثرة والقلة؟

قيل له في قوله: «وما وَجْه وزن الله الأعمالَ، وهو العالم بمقاديرها قبل كونها»: «وزنُ ذلك نظيرُ إثباته إياه في أمِّ الكتاب واستنساخه ذلك في الكتب، من غير حاجة به إليه، ومن غير خوف من نسيانه، وهو العالم بكلِّ ذلك في كلِّ حال ووقت قبل كونه وبعد وجوده، بل ليكون ذلك حجةً على خلقه، كما قال جلَّ ثناؤه في تنزيله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٨-٢٩]، فكذلك وزنُه تعالى أعمالَ خَلْقِه بالميزان، حُجّة عليهم ولهم، إما بالتقصير في طاعته أو التضييع، وإما بالتكميل والتتميم».

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ أي: انصرفتُم ـ مع الحنق عليهم والـهُزْءِ بهم ـ عن التعقُّل بالأمر والتبصُّر فيه، أو إنَّ احتـقاركم لهم جعلكم تَصُدُّون عن الدين، لاعتناق هؤلاء له، ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ كما كان حال عُظماء المشركين مع ضعفاء المؤمنين وفقرائهم.

ثم سجَّل لهؤلاء المؤمنين بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

ثم صوَّر شقاءَ المجرمين وخلودَهم، وأنَّ مدَّة حياتهم في الدنيا لم تكن شيئاً يُذكَرُ بالنسبة لذلك الخلود في الشقاء، وجعل الكلام تقريعاً وتبكيتاً علىٰ إنكارهم الحشر، فسألهم للمبالغة في التنديم و﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾؟

﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ يقولون ذلك استقصاراً لمدَّة لُبثهم فيها بالنسبة إلىٰ طول البرزخ.

ولتردُّدهم في تعيين إحدىٰ هاتَيْن المدَّتين قالوا: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: الذين يتمكَّنون من العدِّ لـخُلوِّ بالهم وراحتهم في النعيم. أما نحن فقد فقدنا العقل لِـما دَهَمنا من العذاب الأليم.

وفي قولهم: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ إيذانٌ بشدَّة ارتباكهم وانشغال بالهم، وبراحة المؤمنين وخُلوِّ بالهم.

ويجوز أن يكون الكلام مجرَّد تمثيل وتصوير لحالهم(١).

---

(١) بل الكلام على الحقيقة، كما هو صريحُ لفظه، ولا داعي لحمله على مجرَّد التمثيل، كما تقدَّم من المؤلف في أمثاله أيضاً، وتقدَّم تعقُّبه في ذلك.

وعلىٰ كلٍّ، فالآية لونٌ بَليغٌ من التقريع، مُؤَدّاه أنَّ حياتكم الدنيا بالنسبة لما أعقبها من الخلود في الشقاء هي في غاية القِصَر، فكيف أدَّت بكم سخافةُ عقولكم أن تبيعوا هذا القليل التافه بالعظيم الدائم، وتكونوا في هذا الشقاء الخالد؟! وفي طيّات هذا التقريع تنبيهٌ وإيقاظٌ للمعتبرين، فالإنسان بطبيعته يغبط مَنْ أحرز السعادة وينافسه عليها، ويجْتنب سبيلَ مَنْ وقع في الشقاء.

ثم صدقهم في تقليلهم هذا، وبنىٰ عليه المبالغة في التنديم، و﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾ أي: لو كنتم من أهل العلم والبصيرة في الدنيا، لعلمتُم يومئذٍ ما علمتُموه اليوم واتقيتموه وعَمِلتُم له.

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ لا غاية لكم، ﴿وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾؟ فردَّ علىٰ هذا الحسبان بقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أن تكون أعماله عبثاً، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾.

ثم توعَّد المشركين علىٰ الشِّرك، فقال: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وهذا القيد للإيغال والتمكين في المعنىٰ، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٢٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، والغرض منه: المبالغة في النفي، والزيادة في النقد والتوبيخ، أي: فمَنْ فعل هذا الفعل الفظيع وارتكب هذه المقالة الشنعاء ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ﴾، وفي صورة هذا التعبير زيادةُ تهويل لهذا الحساب، قـرَّرهُ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧﴾ لما سينالهم من الشقاء العظيم الدائم.

ثم أمر رسوله بطلب الغفران والرحمة، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ

﴿ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾؛ إيذاناً بأنها من أهم الأمور، واستعاذةً مما سجّل لهؤلاء الكافرين من عدم الفلاح والثبور، وتبشيراً له ﷺ بأنه وأمتَه قد سَلِموا من هذا القصور.

اللهمَّ رحمتَكَ أرجو، فلا تكلني إلىٰ نفسي طَرْفةَ عين، وأصلِحْ لي شأني كلَّه، لا إله إلا أنت.

* * *

سُورَةُ النُّورِ

مدنية، وهي أربع وستون آية

وقد جاء في هذه السورة من الأحكام ما يتعلَّق بحفظ الفروج، وما يُلابس ذلك وما فيه وقاية له، فذكر حكم الزنىٰ، والقذف، والنظر، وغيرها من الأحكام والأنظمة التي تقي من الوقوع في هذه المهاوي، وتُوفِّر للنساء الحشمة والكرامة. ومن ذلك نظام الدخول علىٰ البيوت.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا
كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ
عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ
أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ
ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ
أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٨
وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٩ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ
تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ وفي هذا المبدأ رَوْعةُ التنبيه والتحسيس إلىٰ أهمية ما سيُفرَضُ فيها من الأحكام، ومن ذلك حكمُ الزانية والزاني.

والمراد من الزانية: المرأة المطاوعة للزنىٰ، الممكِّنة منه، كما تُنبئ عنه الصيغة، لا المزنيُّ بها كُـرْهاً. وقدَّمها علىٰ الزاني لأنها الأصل في الفعل، فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ أي: رحمةٌ ورقَّـة ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي: في إقـام حدوده وتنفيذ أحكامه ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وفيه حثٌّ علىٰ تنفيذ الحدود

وإقامتها، لأن في الوقاية من هذه الجريمة رفعةً عن التسفُّل والاختلاط في الأنساب، ومنعاً لوقوع هذا العار، وطهارةً للمجتمع من الأدناس والأرجاس. وقد أكمل الحكم وشدَّده بقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ أي: لتحضره ولتشاهده زيادةً في التنكيل. فإنَّ التفضيح قد ينكِّل أكثر مما ينكِّل التعذيب. والمراد بها: جَمْعٌ يحصل به التشهير والزَّجْر.

هذا حكمُ القرآن في الزانية والزاني، ولكن النبيَّ ﷺ أمر برجم الـمُحصَن منهما، فقد أمر برجم ماعز الأسلمي والغامدية لاعترافهما بالزنىٰ وهما مُحْصَنان، ولكنه أرجأ المرأة حتىٰ وضعت وأرضعت وفطمت ولدها. وقد جاء هذا في سائر كتب الصحاح[1]. لذلك كان يفهم الصحابة رضي الله عنهم من هذه الآية أنَّ المراد بها غير الـمُحصَنين، كما جاء ذلك عن عمر رضي الله عنه.

وجاء في «المنار» في سورة النساء عند تحقيق قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] ما ملخَّصه: جاء في «الصحيحين» عن أبي إسحاق الشيباني قال: سألت ابن أبي أوفىٰ: هل رَجَم رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قلت: قبل سورة النور أم بعدها؟ قال: لا أدري[2]. وظاهر هذا السؤال والجواب: أنَّ السائل يريد أن يعلم هل كان الجلدُ ناسخاً للرجم الذي ربما

---

(١) يشير إلي الحديث الذي رواه مسلم (١٦٩٥) عن بريدة قال: «جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهِّرْني...، ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد فقالت: يا رسول الله طهِّرْني، فقال: ويحكِ ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه، فقالت: أراك تريد أن ترددني كما رددت ماعز ابن مالك، قال: وما ذاك؟ قالت: إنها حبلى من الزنى، فقال: آنت؟ قالت: نعم، فقال لها: حتى تضعي ما في بطنك... ».

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٦٨١٣) ومسلم (١٧٠٢).

كان عملاً بحكم التوراة، أم كان الرجمُ مخصِّصاً لعموم الجلد، بجعله خاصاً بغير الـمُحصَنين والـمُحصَنات بالزواج(١). فقد كان في ذلك خلاف بين العلماء.

ومن جملة ما يستدلُّ به الـمُنكِرون للرجم في الزنىٰ قولُه تعالىٰ في سورة النساء في حقّ الإماء: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، إذ لو كان علىٰ الحرَّة المُحْصَنة رَجْمٌ لزم أن يكون الواجب علىٰ الأمة نصف الرجم، وهو لا يُنصَّف، لأنه يجب أن ينتهي بالموت؛ والموت لا يُنصَّف.

ويمكن أن يجاب بأن مُحصَّل هذا يدلُّ علىٰ أنْ ليس علىٰ الإماء رَجْم، بل عليهم نصف الجلد فقط في الإحصان وغير الإحصان، رحمةً بهم من عند الله(٢).

وروىٰ البخاري عن الشعبيِّ أنَّ علياً رضي الله عنه حين رَجَم المرأة، ضربها يوم الخميس، ورَجَمها يوم الجمعة، وقال: جَلَدتُها بكتاب الله، ورجمتُها بسُنَّة رسول الله ﷺ(٣). وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ علياً رضي الله عنه لا يقول بأنَّ الرجم نزل في كتاب الله، ولا أنه يدلُّ عليه، كما يقول بذلك عمر وابن عباس، ولكنْ يجعلُه من حكم رسول الله.

وقد ثبت في «الصحيحين»: أنه ﷺ حكم برَجْم اليهودي واليهودية عندما تحاكم إليه اليهود في أمرهما إذ أتيا الفاحشة(٤). والحديث صريحٌ في أنه ﷺ حكم في ذلك بنصِّ التوراة. قال العلماء: ويجب اتِّباعه فيما حكم به مهما كان سبب الحكم؛ لأنه لا يحكم إلا بالحق.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٢).

(٢) وقوله في الآية الكريمة: ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يُشعِرُ بأن حَدَّ الأمة الزانية هو الجلد فقط، لأن معنى العذاب فيه أظهر، أما الرجم فمعنى القتل فيه أظهر.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» (٦٨١٢)، وأحمد في «مسنده» (٧١٦).

(٤) متفق عليه، رواه البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩)، عن ابن عمر.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الرجمُ في كتاب الله، لا يغوصُ عليه إلَّا غـوَّاص، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ ﴾ [المائدة: ١٥][(١)]. يريد: أنَّ هذا مما بيَّنه لهم وحكم به، فصار مشروعاً لنا.

أقول: وهذا يطابق كذلك ما يقوله الأصوليون: إنَّ ما ثَبَت من شرع مَنْ قبلنا يكون شرعاً لنا ما لم ينسخه ناسخ من شريعتنا، وهذا إذا كان الرجم بعد نزول آية النور لا قبله، أو نقول: إن فعل الرسول ﷺ هذا يُبيِّن أنَّ المراد بالآية غير الـمُحصَنين، لأنَّ الرسول يُبيِّن عامَّ القرآن وخاصِّه، خفيِّه ومُجمَلِه[(٢)]. ولا شك أنَّ الزنىٰ كما قال فيه سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، والمحيط الملوَّث به مُحيطٌ دنيء سافل، فليس غالباً علىٰ المحيطات الإسلامية تحصينُها من هذا الداء الوبيل برجم أفراد قلائل.

وبعد أن ذكر حكم الزِّنىٰ، ذكر حكم الزاني والزانية، فقال: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾، وفي هذا الحكم مبالغة في الزجر والتأديب والتنفير من الزنىٰ. ومَنْ أعدلُ من الله حكماً وقولاً وفعلاً؟

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤: ٤٠٠) بلفظ: «من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب، قوله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ ﴾ [المائدة: ١٥]، فكان مما أخفوا». وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه، لثبوت الرجم في السنة الصحيحة في غير حديث، ولعدم ورود نص يُبيِّن أنه قبل سورة النور، ولإجماع العلماء عليه في حَدِّ الزاني المحصن.

ثم ذكر حكمَ مَنْ يتَّهم الـمُحصَنات بالزنىٰ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون عليهنَّ بما رموهنَّ به، ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ أي: مدَّةَ حياتهم وإن تابوا وأصلحوا. وفي هذا تتمةٌ للجزاء، ومبالغةٌ في الزجر، بتسجيل صفة الكذب عليهم مدَّة حياتهم. ثم سجَّل عليهم صفة الفسق بصورة القَصْر تغليظاً عليهم، فقال: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾، ثم استثنىٰ من ذلك التسجيل قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ أنفسَهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾، وهذا تعليلٌ لما يفيده الاستثناء.

وبعضهم جعل هذا الاستثناء إخراجاً من الأمرين معاً: الفسق، والنهي عن قبول الشهادة. فجعله ينتهي بالتوبة أيضاً، فتُقبل شهادته بعدها.

ولا فرق بين أن يكون القاذف والمقذوف من الرجال أو من النساء، كما بيَّنت ذلك السنة. وإنما ذكر المقذوفين بصيغة المؤنَّث نظراً للغالب، ولفظاعة القذف في النساء، وما يَنْجُمُ عنه من أنواع البلاء.

ثم ذكر حكم الـمُتَّهِمين لأزواجهم، بعد بيان حكم الـمُتَّهِمين لغيرهنَّ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ فجُعِلوا من جملة الشهداء؛ إيذاناً من أول الأمر بعدم إلغاء قولهم بالمرة، ونَظمِهِ في سلك الشهادة في الجملة، وبذلك ازداد حُسنُ إضافة الشهادة إليهم في قوله تعالىٰ: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾﴾ أي: فيما رَمَاها به من الزنىٰ.

فإنْ لاعَنَ الزوجُ حُبِسَت عليه الزوجةُ حتىٰ تعترف فتُرجَم، أو تُلاعِنَ فيُدْرَأَ عنها العذابُ. وقد أجمل ذلك بقوله: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ

﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨﴾ أي: فيما رماها به من الزنىٰ، ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾، وبعد هذا تحرم عليه حُرمة مؤبَّدة، ويُلحَقُ الولد بها، وينقطع نَسَبُه من الـمُلاعِن.

ثم بيَّن ما في حكم هذا اللعان من اللطف والسَّتر والرحمة والحكمة، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان. فحذف الجواب للتهويل، وللإشارة إلىٰ لطف هذا الحكم الجليل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٣ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٤ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝١٥ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٨﴾.

ثم ذكر قصَّة الإفك علىٰ عائشة الصِّدِّيقة رضي الله عنها، وخلاصة الحادث: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَصْحَب بعض زوجاته في الغزوات، وقد خرج لغزوة بني الـمُصطَلَق بعائشة رضي الله عنها، وذات ليلة ذهبت لبعض حاجتها، وكان لها عِقْدٌ انسلَّ من عنقها ولم تشعر به حتىٰ عادت إلىٰ الرَّحْل، فرجعت تبحث عنه، فلما عادت إلىٰ هَوْدجها، وَجَدت القوم قد رحلوا؛ يحسبونها في الهودج، وكانت صغيرة، فجلست تنظر أن يفطن قائد هودجها إلىٰ خُلُوِّه منها فيعود إليها، ولكنه لم يفطن، فبقيت في محلها وغلبها النوم، فلم تـفق إلا علىٰ حَوْقلة صفوان ـ أي: قوله: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ـ فأفاقت

والشمس طالعة. وكان صفوان بن المعطِّل قد أُرسِلَ لأمر، فصادف أن عاد ووجد امرأة نائمة، فأدرك أنها ضالة، ولـما قـرُبَ منها علم أنها عائشة فتَحَوْقَل، فانتبهت، فأناخ راحلته فركبت، وانطلق بها حتىٰ لحق بالجيش[1].

ولم يكن لهذا الحادث أثر في بادئ الأمر، ولم يخطر بشيءٍ علىٰ بال أحد، ولا علىٰ بال الرسول ﷺ. فوجد المنافقون الذين ينتهزون الفُرَصَ للنَّيْل من الإسلام ومن الرسول عليه السلام مجالاً للكلام، فتقوَّلوا.

ورغماً عن أن عقلَ عائشة النابه، وأخلاقَها العالية، وصِغَرَها النزيه، وأنها زوجة الرسول، والوحي إليه مستمر النزول يخبره بكلِّ شيءٍ يمسه وينالُه؛ لا تَدَعُ ريبة لمرتاب. وأنَّ الافتـراء في هذا الأمر بهذا الوضع المكشوف ظاهرُ البطلان. يظهر بطلانه بأبسط النـظر الصحيح، ورُغـمـاً عن ذلك كلِّه أجرىٰ النبي ﷺ تحقيقاً دقيقاً بعد أن لجَّ فيه المنافقون، أثبت به إثباتاً حاسماً أن هذه الفِرْيَةَ بعيدة عن الحقيقة بُعْدَ الأرض عن السماء، ولم يفعل ذلك ﷺ إلا للمبالغة في تكذيبهم.

وعلىٰ إثر ذلك نَزَل الوحي ببراءتها، وإجراء الحد علىٰ المتقوِّلين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ أي: بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء والبهتان هم ﴿عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡ﴾، وفي هذا القيد نقدٌ للمؤمنين بما وقع من هؤلاء، وهم عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رأس المنافقين ـ وجعله من المؤمنين لأنه يُظْهِرُ الإيمانَ ـ وزيد بن رفاعة، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحَمْنة بنت جحش.

ثم بيَّن تعالىٰ ما فيه من عِظَةٍ، فقال: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾، وذلك لأن هذا الحادث عَلَّم المؤمنين دروساً اجتماعيـّة عظيمة يجب أن تعرف.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠)، عن عائشة.

ومنها: أن هذه التهم قد تُوجَّه إلىٰ نساء العظماء من الرجال، بقَصْدِ الحطِّ من منزلتهم وكرامتهم، لا سيما من تصدَّىٰ منهم للتجديد والإصلاح الاجتماعي، القاضي علىٰ سيطرة المتجبِّرين، فتَنتَصِبُ شياطين الإنس للمشاغبات عليهم باستغلال هذه التهمة، وتنفير الناس منهم، وينطلي الحال علىٰ العوام فيفيضون فيه، وذلك إثم عظيم وبهتان فظيع. فهذا الحادث عرَّف المؤمنين ونبَّههم عن مثل هذه المسالك الخسيسة، وهذه المقاصد الخبيثة من المشاغبين، وفواتها علىٰ المؤمنين.

ثم توعَّد الباهتين المختلقين لـهذا الإفك بقوله: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ أي: بقدر ما خاضَ به وعقيدته فيه، ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ أي: تولَّىٰ أساسَ بَعْثِهِ واختلاقه ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾.

ثم ذكر ما كان يلزم المؤمنين من الإتيان به تجاه هذا الحادث، فقال: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ فكذَّبوه وكفُّوا قائلَه ومَنَعوه وزجروه، ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢﴾ أي: ظاهر مكشوف؛ إذ لا يمكن أن يصحَّ في العقل أن تَقْترف زوجةُ النبي ﷺ مِثلَ هذا الإثم، وهي في هذا المركز الرفيع، والمرتبة السامية، من الكرامة عند الله وعند الناس، فضْلاً عمَّا لها من العقل الرصين، والحشمة الممتازة، وعُلوِّ الجناب، فوق ما أنها تعلم أنَّ النبيَّ ﷺ متَّصل بالوحي، يخبره بكلِّ شيء، كما لا يصحُّ في العقل أن يتجرأ مسلم علىٰ التعرُّض لزوجة النبيِّ ﷺ وفيه ذرة من إيمان. ولا يمكن أن يصح في العقل أن من يرتكب هذا العمل يأتي به علىٰ هذه الصورة المكشوفة الظاهرة، ولا سيما فيمن دونها وقع السنا وخفق الجنان، سبحانك هذا بهتان عظيم.

ثم بيَّن الحكم العام في مثل هذا الحادث، على نهج القرآن في تقرير الحوادث وبَدْئـها بالآداب التي تلزم فيها وفي علاجها، ثم قَـرْنِها بالأحكام وذِكرِه في طيَّات

التهديد على الإفك في عائشة رضي الله عنها؛ ليزيد الكلامَ تقريعاً، والحادثةَ تكذيباً، فقال: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ فبيَّن تعالىٰ أن الدعوىٰ في مثل هذه التُّهم لا تُسمع إلا بأربعة شهداء، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ وقيل: هو من جملة المقول، تقريراً للتكذيب والرد، وتلقيناً للحكم في مثله. وعلىٰ كلٍّ، فالآية بيانُ حكم عام بحسب الصيغة، وتقريعٌ وتكذيبٌ بحسب السياق، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ بمعنىٰ: في حكم الله.

ثم هدَّد العموم بذنب هؤلاء المتقوِّلين، لأنهم لم يفعلوا كما بيَّن لهم تعالىٰ، ولكنه قَرَنَه بالعفو واللطف، حيث صدر منهم قبل البيان، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾، وهذا تعبيرٌ رهيب، وأسلوبٌ شديد، وصواعقُ داوية، يَرُدُّ به الفِرْيَةَ العظيمةَ عن عائشة رضي الله عنها، ووسامٌ لها ثقيل، فهنيئاً لأمِّ المؤمنين بهذا السوار الجميل. ونسب الإفاضة علىٰ العموم لجريانها بينهم، وللمبالغة في فظاعة هذا الجريان.

ثم فصَّل تلك الإفاضة بقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: يرويه بعضكم لبعض، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

ثم أعاد عليهم ما كان يجبُ أن يقولوه تجاه هذا الحادث، تقريراً لهذا الأدب وتأكيداً له، فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ من الأفَّاكين المشاغبين ﴿قُلْتُم﴾ تكذيباً لهم وتهويلاً لما ارتكبوه: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، وهذا نفيٌ بليغٌ مَسْبوك علىٰ الاستفظاع والاستعظام، أمرهم أن يشفعوه بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ تبرُّؤاً منه وتنصُّلاً واستبعاداً.

ثم أردف هذا بالزَّجْر الشديد، فقال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.

ثم ختم الكلام بما يزيد في الاهتمـام بما تقدَّم من الأحكام، فقال: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾، يضع الأحكام حسب علمه وحكمته في المصالح العامة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

وبعد أن أنَّب المؤمنين بما فيه لطف وسَماح، توعَّد المنافقين الأفَّاكين المشاغبين بهذا الوعيد العام الرهيب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهذا نصٌّ ثالث جليل بأنَّ الأمر كان مشاغبةً فظيعةً وبهتاناً وقذفةً صارخةً ألقاها علىٰ هؤلاء الكاذبين. أي: يحبُّون أن تنتشر الخَصْلةُ المفرطة بالقبح، وهي الفِرْية والرمي بالزنىٰ، ويَسعَوْنَ في مثل هذا البهتان الفظيع والإفساد العظيم، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أما في الدنيا فهو الحدُّ وغيرُه من البلايا الدنيوية، وأما في الآخرة فهو عذاب النار، وما يتبعه مما لا يعلمه إلا الله.

ثم زَجَرَ المتطاول بالنقد علىٰ الوقائع والمقدرات وعلىٰ أحكام الله فيها؛ لجهله عمّا تتضمَّنه من الحِكَم والمصالح الخفيَّة، ولغفلته عن أسبابها وبواعثها الاجتماعية، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾، ومن ذلك علمه تعالىٰ بأنَّ منشأ هذا البهتان من المنافقين: الحنق علىٰ رسول الله ﷺ، والإفساد لأمره.

أقول: وانحدر معهم أفراد في بادئ الرأي بدافع الغيرة العادية التي تثور بمجرد السماع، ومن دون تفكير سديد.

ثم كرَّر المنَّة بترك المعاجلة بالعقاب علىٰ شدة عِظَمِ الجريرة، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ وهذا نصٌّ خامس شديد علىٰ التكذيب والتنزيه بشأن عائشة رضي الله عنها. أي: لمسَّكم فيما أفَضْتُم فيه عذاب عظيم. وقد حذف هذا الجواب اكتفاءً بذكره سابقاً، علىٰ أسلوب القرآن في الإيجاز والاكتفاء.

ثم عقَّب ما تقدَّم بهذا التأنيب والإرشاد العام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، ثم امتنَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم بمثل هذه البيانات والإرشادات وإنزال الشرائع ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب متىٰ شاء، بالتعاليم العالية والآداب الراقية. ومشيئتُه تعالىٰ تكون موافقةً للحكمة وللمصلحة العامة، فمتىٰ اشتدَّت حاجة الأمم لذلك فعل، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ لا تَخفىٰ عليه منكم خافية، ويعلم متىٰ تشتدّ الحاجة إلىٰ تجديد الشريعة والإرسال.

ولما كان أحدُ العصبة المتفوِّهين بالإفك ـ وهو مِسْطَحٌ ـ قرابةً لأبي بكر رضي الله عنه، وكان فقيراً ينفق عليه، فحَلف أن يقطع عنه برَّه وإحسانَه حَنَقاً عليه، أرشده سبحانه إلىٰ ما فيه كمالٌ للنفس وسُمُوٌّ في الأخلاق والمروءة، وجَعَل ذلك أدباً عاماً

للمؤمنين، علىٰ نهج القرآن في صور الإرشاد والبيان، فأدَّبهم بهذا الأدب العالي، وهو أن لا يُعْرضوا عمَّن يُسبِّب لهم الضرر من أقربائهم الفقراء، ويقطعوا عنهم صِلاتِهم حنقاً وانتقاماً، وعليهم أن يتحمَّلوا منهم؛ لأنَّ هذا الإنفاق عليهم إنما هو لوجه الله تعالىٰ، فلا يتركوه لأذىٰ يصدر منهم نحوهم، فقال: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ من الألْـيَة، وهي الحَلِف، أي: ولا يَحلِفْ ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ﴾ من المال ﴿مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إذا صدر منهم ما يُؤلِم أو يُؤذي، ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ ما فرط منهم، ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ بالإغماض عنهم.

ثم أردف الأمرَ والنهيَ بالترغيب، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: إنَّ عَفْوَكم عنه يُقابَلُ بعفو الله عنكم، فتحمَّلوا منهم لتنالوا هذا الجزاء الثمين. ثم زاد في الترغيب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي: فاقتدوا بتلك الصفات الحُسْنىٰ.

وجاء في أسباب النزول: أن مِسْطَحَ بنَ أُثاثـةَ هو ابنُ خالة أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وكان من الفقراء المهاجرين، وأبو بكر ينفق عليه، فلما اشترك بتقوُّلات الإفك عن عائشة رضي الله عنها، حَلَفَ أبو بكر أن لا ينفق عليه، فنزلت مع آيات البراءة هذه الآية، فعاد إلىٰ الإنفاق وكفَّر عن يمينه[1].

ثم أردف هذا السِّياق ببيان عِظَم جريرة القذف للمُحصَنات، وضمَّنه الوعيد لأولئك المتقوِّلين علىٰ عائشة رضي الله عنها بأعظم الجزاء، ولـمن علىٰ شاكلتهم ممَّن يرمون البريئات والأبرياء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ يوم الحساب والجزاء.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي: جزاءهم الذي يُدانـون به ويستحقونه بالحق، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ وهذا نصٌّ سادس يتضمَّن براءة عائشة رضي الله عنها.

ثم ختم السياق بهذا البيان العام في حكم الكفاءة، وفيه صَفْعٌ لأولئك المتقوِّلين وتشنيع، وفيه تقديسٌ وإجلالٌ لعائشة رضي الله عنها، وتنزيهٌ لها ووسامُ شرفٍ عظيم، فقال: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾، بمعنىٰ: أنَّ هذا الطيِّب يؤدِّي إلىٰ رضاء الله ودخول الجنة والنعيم المقيم، وإنما حكم بالبراءة للصنف كلِّه إيذاناً بأن عائشة تزيد عليهنَّ بخُلقها العظيم، ومركزها الرفيع، وعقلها الرزين، فمن المحال أن تقترف ذلك، فضلاً عن أنها في سنٍّ لا تشتد صاحبته في الرغبة إلىٰ الرجل، فكل الدلائل العقليَّة تدل دلالة قطعيَّة علىٰ كذب هذه القضية. وكلُّ مَنْ هُنَّ في خُلُق عائشة كذلك.

وقد أشار بهذا البيان إلىٰ امتناع وقوع هذا الأمر الذي تآمروا باختلاقه وتزويره علىٰ عائشة رضي الله عنها. وفيه دقَّة إشارة أيضاً إلىٰ أنَّ الله سبحانه لا يبتلي الطيِّب بالخبيث، وأنَّ الطيِّبين والطيِّبات ذوو نُهيَةٍ عن الفحشاء، ومبرَّؤون من مثل ذلك. وفيه تعريضٌ بالمشركين المُخْتَلِقين للإفك، وردٌّ للوصف عليهم، أي: أما الخبث فهو في نسائكم؛ لأنَّ الخبيثات للخبيثين، يعني المشركين بما فيهم من السفلة والمنحطِّين، والزانيات والزانين. وتفيد الآية تحريم نكاح المتضادَّيْن في ذلك. والله أعلم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ

يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

وبعد أن ذكر أحكام الزنىٰ ورَمْيَ العفائف وزَجَرَ عنهما، أردف ذلك بالزَّجْر عمّا يؤدي إليهما، وهو الفوضىٰ في الاختلاط بين الجنسين ودخول البيوت بلا استئذان، ووضع نظاماً للتزوار ومخالطة الرجال بالنساء ودخولهم عليهنَّ في أوقات الخلوات، وفرض آداباً عالية في ذلك، حافظةً من الوقوع في الرذائل والتقوُّلات، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ أي: حتىٰ تحسُّوا بأُنس أصحابها بكم، وقبولهم لكم. وذلك إنما يكون بالاستئذان وأخذ الإذن، فإن أذنوا تدخلوا ﴿وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ عند الدخول، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في حفظ الأخلاق والشرف، و﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ما تؤدِّي إليه المخالفة من الوقوع في الوبال السابق، من الملاعنة أو إجراء الحد.

ثم تابع البيان فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ ﴾ أي: في هذه البيوت ﴿ أَحَدًا ﴾ يأذن

لكم ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا﴾ لأنهم ليسوا مُتأهِّبين لِقَبولكم أو هناك موانع تمنع من القبول، ﴿فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ في التزاور وحفظ الأخلاق.

ثم حملهم علىٰ التَّمسُّك بهذا النظام وتطبيقه بدقة، فقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾، فلا تخالفوا أوامرَه ونواهيَه.

ثم استثنىٰ من الاستئذان المحلات العامة، كالمحلات التجارية والصناعية ودُور السَّمَر وغيرها، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا﴾ بلا استئذان ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ أي: حقٌّ تـتمتَّعون به أو أمتعة للبيع والشراء، كالحمامات والمحلات التجارية والمجتمعات العامَّة وشبهها.

ثم حملهم علىٰ إخلاص النيَّـة وعُلوِّ الأخلاق ودقَّة التطبيق في هذه المداخلات، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه الآداب الواجبة في هذه المداخلات، وفي المخالطة الضروريَّـة بين الجنسين في بعض الأحيان، كأثناء السير في الطرقات، وفي حال المبايعات مثلاً، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ وحِفظُ الفرج مُسبَّبٌ عن غضِّ الأبصار، فهو من عطف المسبَّب علىٰ السبب، أي: فَلْيغضُّوا من أبصارهم ليحفظوا فروجهم. ولهذا جَعَلَ في موضع التعليل قولَه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: غضُّ الأبصار ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾؛ إذ النظرة سهمُ إبليس، يَنْبعث عنها كلُّ شرٍّ خبيث.

ثم حملهم علىٰ التمسُّـك والإخلاص في هذه الآداب، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾، ففيه تهديدٌ وتحذيرٌ لمن يبعث النظرات خلسة أو ما شابه ذلك.

ثم أمر النساء بمـا أمر به الرجال، فقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، ثم زاد في أمر النساء علىٰ ما أمر به الرجال بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ

﴿زِينَتَهُنَّ﴾ لمن لا يحلُّ له النظرُ إليهن ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، وقد اختلفوا في المراد بالزينة، فقال بعضهم: إنها تشمل الأمرَيْن: محاسن الخِلقة، وما يُتزيّن به من لباس وحُلي. وأنكر بعضهم وقوع اسم الزينة علىٰ الخِلقة، وخصَّه بالثاني، ومن القائلين بشمول الزينة لمحاسن الخِلْقة: القفَّال، فقال في معنىٰ الآية: إلا ما تُظهِرُ المرأة في العادة الجارية، وهو الوجه والكفّان. فأُمِرْنَ بستر ما لا تؤدي الضرورة إلىٰ كَشْفه، ورُخِّص لـهُنَّ في كَشْف ما اعتيد كشفه وأدَّت الضرورة إلىٰ إظهاره، وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح أن يُرىٰ منها إلا هذا وهذا» وأشار إلىٰ وجهه وكفَّيه[1].

وقال في «مجمع البيان»: في الآية أقاويل للسلف، فقد قال ابن عباس: إن الزينة الظاهرة: الكحل والخاتم، والخدان والخضاب في الكف[2]. وقال الضحَّاك[3] وعطاء[4]: إنهما الوجه والكفان. وقال الحسن: إنها الوجه والبنان[5]. وقال قتادة: إنها الكحل والسوار والخاتم[6]. وقال ابن مسعود: إنَّ الظاهرة: الثياب، والباطنة: الخلخالان والقرطان والسواران[7].

---

(١) رواه أبو داود (٤١٠٤) عن عائشة، وقال: هذا مرسل، خالد بن دريك لم يدرك عائشة، ورواه البيهقي (٢: ٢٢٦) وقال عقب قول أبو داود: مع هذا المرسل قول مَنْ مضى من الصحابة رضي الله تعالى عنهم فى بيان ما أباح الله من الزينة الظاهرة، فصار القول بذلك قوياً.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩: ١٥٧).

(٣) المصدر السابق (١٩: ١٥٨).

(٤) المصدر السابق (١٩: ١٥٧).

(٥) المصدر السابق (١٩: ١٥٨) بلفظ: «الوجه والثياب».

(٦) المصدر السابق (١٩: ١٥٧).

(٧) المصدر السابق (١٩: ١٥٥).

ثم أرشدَهُنَّ إلىٰ كيفيَّـة إخفاء بعض مواضع الزينة، فقال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ والخُمُر: المقانع، جمع خمار، وهو غطاء رأس المرأة المنسدل علىٰ جبينها لتغطية الوجه. والجيوب: جمع جيب، وهو طَوْق القميص. فقد أُمِرنَ بإلقاء المقانع علىٰ جيوبهنَّ، تغطيةً لنحورهنَّ؛ إذ قد قيل: إنهن كُنَّ يُلقينَ مقانعهن علىٰ ظهورهن، فتبدو نحورهن. وقيل: إنهنَّ أُمِرنَ بذلك لِيَسْتُرْنَ شعورَهنّ وقُرُطَهنّ وأعناقَهنّ.

قال في «مجمع البيان»: قال ابن عباس: تُغطِّي شعرها وترائبها وسـوالفها[١]. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت خيراً من نساء الأنصار، لما نزلت هذه الآية قامت كلُّ واحدة منهنَّ إلىٰ مِـرْطها[٢]، فصَدعت[٣] منه صدعةً فاختمرت، فأصبحن علىٰ رؤوسهن الغربان[٤].

ثم بيَّـن سبحانه وتعالىٰ مَـنْ يحلُّ الإبداء له ومن لا يحل، فقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ التي لا يجوز كشفها ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ وقد قال المفسِّرون: المراد: جميع النساء، والإضافة لبيان الجنس، أي: لجنسهنَّ، أو هي للانتساق، حيث إن هذا الضمير قد انتسق في الآية كلِّها، فجيء به هنا ولم يقطع؛ لتكون الكلمـات كلُّها مضافة للضمير، ولا غاية منه. والمراد من ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾: جميع النساء، أي: جميع هذا الجنس. وقال بعض المفسِّرين: المراد بهن: النساء المسلمات.

---

(١) لم أجده.

(٢) المِرْط: واحد المروط، وهي: أَكْسِيَة من صوف أو خزٍّ كان يُؤتَزَرُ بها. «الصحاح» (مرط).

(٣) يقال: صدعت الرِّداء صدعاً إذا شققته. «النهاية في غريب الحديث» (٣: ١٦).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٤٠٥).

أقول: ويجوز أن تكون الإضافة لبيان النوع، والمراد بـ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾: نساء خاصتهنَّ من الأقارب، وإنما خصَّهُنَّ بالذكر جَرْياً علىٰ الغالب؛ لأنهنَّ أكثر اتصالاً بهن، أو تكون إلماعاً إلىٰ تحديد اتِّصالات النساء وتضييقها بين نساء العوائل. والله أعلم. ويجوز أن يُراد بهنَّ: الحرائر؛ بقرينةِ ما يأتي. وعلىٰ كلٍّ، فالضمير ليس نصاً في الاحتراز.

ثم تابع البيان فقال: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾، وظاهر اللفظ يعمّ الإماء والعبيد، وقد رُوِيَ عنه ﷺ أنه أتىٰ فاطمة بعبد وَهَبَه لها وعليها ثوبٌ إذا أقنعت به رأسها لم يَبلُغ رجلَيْها، وإذا غطَّت رجلَيْها لم يبلغ رأسها، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك»(١).

وقيل: بل المراد الإماء فقط، وعبد المرأة كالأجنبيّ منها، وهو الأقرب لروح الشريعة وآدابها.

وعليه، فيكون قد ذكر الإماء بعد الحرائر، ويكون المراد بيان أنهنَّ كجنس النساء في هذا الحكم، لا يَنقُصْنَ عنهن في هذا الأمر، وإن نَقَصْنَ عنهن في بعض الأحكام.

وعلىٰ هذا، فيكون المراد من ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾: الحرائر، والله أعلم.

ثم قال: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي: الذي لم يبق ـ أو لم يكن ـ لهم حاجة بالنساء، وهم الشيوخ الفانون، والبُلْهُ الذين يتَّبعون الناس لفضل طعامهم، ولا يعرفون شيئاً من أمر النساء.

وذكر المدائني(٢): أن معاوية دخل ذات يوم علىٰ امرأته فاختة، ومعه خصيّ،

---

(١) رواه أبو داود (٤١٠٦)، وجوَّد إسنادَه ابنُ الملقن في «البدر المنير» (٧: ٥١٠).

(٢) هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله المدائني (١٣٥-٢٢٥هـ) راويةٌ مؤرِّخ كثير التصانيف، له: «المردفات من قريش» و«التعازي». انظر: «الأعلام» للزركلي (٤: ٣٢٣).

وكانت مكشوفة الرأس، وكانت ذاتَ عقل وحَزْم، فغطَّت رأسها، فقال لها معاوية: إنه خصيّ. فقالت: يا أمير المؤمنين، أترىٰ الـمُثْلَةَ به أحلَّت له ما حرَّم الله عليه؟ فاسترجع معاوية، وعلم أنَّ الحقَّ ما قالته، فلم يُدخِلْ بعد ذلك علىٰ حَرَمِهِ خادماً، وإن كان كبيراً فانياً[1].

وقد روىٰ هشام بن عروة عن زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها: أنَّ النبي ﷺ دخل عليها وعندها مُخنَّث ـ وهو المطبوع علىٰ خلق النساء ـ فأقبل علىٰ أخي أم سلمة فقال: يا عبد الله، إنْ فَتَحَ الله لكم غداً الطائف، دَلَلتُكَ علىٰ بنت غَيْلان، فإنها تُقبِلُ بأربع وتُدبِرُ بثمان. فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يَدْخُلَنَّ عليكم هذا»[2].

وكان ﷺ قد أباح دخوله عليهن ظناً أنه من غير أُولي الإرْبة، فلما رآه يعرف أحوال النساء وأوصافهنَّ، أمر بمنعه من الدخول. أما قوله: «تُقبِلُ بأربع وتُدبِرُ بثمان»، فيريد به: أنَّ لـها عُكَناً أربعاً في بطنها، وهي الثنيات والطيَّات في البطن تنتهي رؤوسهن في الظهر بأربع من كل جانب، فتكون ثماني إذا أدبرت، وتعدُّ هذه العكن والثنيات في البطن من الجمـال الباطن فيها. وفي «القاموس»: خنث الرجل: إذا كان علىٰ صورة الرجال وأحوال النساء[3].

ثم تابع البيان بقوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لعدم بلوغهم حدَّ الشهوة. والطفل: جنسٌ وُضِعَ موضع الجمع.

ثم عطف علىٰ النهي عن إبداء الزينة لغير مَنْ ذكر قولَه: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ

---

(١) لم أجده.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٢٤)، ومسلم (٢١٨٠).

(٣) ينظر: «القاموس المحيط» (خنث).

﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، وذلك بأن تشدَّ في نَـقْل خطاها، فيظهر صوت الحُلي مثلاً. وتدلُّ الآية بمفهومها علىٰ النهي عن كلِّ دواعي إلفات النظر إلىٰ المستور الخفيِّ؛ من الزينة والبهرجة، وما ينمُّ عن المحاسن، وما يهيج النظر إليهنَّ. فيشمل حتىٰ التَّصنُّع في الخطوات والتعطُّر لمن تريد المشي في الطرقات.

ثم ختم السياق بهذا الأمر العام الحامل علىٰ التمسُّك بالأوامر الإلهيّة، والإقلاع عما كانوا عليه قبلها في الجاهلية، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: بسعادة الدنيا والأخرىٰ. وفي الآية تغليب الذكور علىٰ الإناث، والمراد: المؤمنون والمؤمنات، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة السادسة من المقدمة الثانية).

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

وبعد أن زَجَر سبحانه عن السِّفاح ودواعيه، أمر بالنكاح ورغَّب فيه، فقال: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ أيُّـها الأحرار. والأيامىٰ: جمع أيِّم، وهي المرأة التي لا زَوْج لها، سواء كانت بكراً أو ثيِّـباً. وإنكاح النساء التي لا أزواج لها يستلزم إنكاح الرجال التي لا زوجات لهم، فيدلّ عليه الكلام بالدلالة الالتزاميَّـة. وإنما خَصَّهُنَّ بالذِّكْر لأنهُنَّ مَظْهَـرُ الشـرِّ والفتنة من بين النوعين، ولأنهنَّ ضعفاء يَـحتَجْنَ إلىٰ مَنْ يقوم عليهن.

وقيل: بل «الأيم» يُطلق لغةً علىٰ الذكر والأنثى ممَّن لا زوج له، بكراً كان أو ثيِّباً. فيدلُّ الكلامُ علىٰ الصنفين معاً بدلالة المنطوق، ويشمل غير المتزوِّجين علىٰ الإطلاق.

وعلىٰ كلٍّ، فمعنىٰ الآية: زوِّجوا ـ أيها المؤمنون ـ مَنْ لا زوجَ له من أحرار رجالكم ونسائكم، ﴿وَ﴾ زوِّجوا ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ للنكاح ﴿مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾.

ثم نهاهم عن أن يكون الفقر سبباً للصدِّ عن الإنكاح، فقال: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: إذا سَعَوْا في تحصيل الرزق بتعاطي الأسباب، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لا نَفَاد لخزانته، ﴿عَلِيمٞ ٣٢﴾ يضع الأحكام في مواضعها بحسب علمه وحكمته. ومن ذلك حُكمُه بتزويج مَنْ لا زوج له من الرجال والنساء، لأنَّ في ذلك حفظاً للأخلاق وجرياً علىٰ الطبيعة.

وقد عُلِمَ مما يأتي ـ علىٰ طريقة الاكتفاء والإيجاز في القرآن ـ أنَّ المراد بالفقراء هنا: مَنْ يملكون نفقات النكاح من المهور وغيرها، ولكنهم لفقرهم يتخوَّفون من إعاشة المرأة والأولاد.

أما مَنْ لا يملك نفقات النكاح، فقد أمره سبحانه وتعالىٰ بالصبر وضَبْط النفس حتىٰ يملك تلك النفقات، وقد وَعَده سبحانه بها إن صبر، فقال: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: أسباب النكاح، وهي: المهر والسُّكنىٰ والنفقة، بحسب العُرف والعادة، فعلىٰ هؤلاء أن يحفظوا أنفسَهم من الوقوع في الفاحشة ﴿حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

ثم أمر سبحانه بما يُسهِّل سبيل النكاح الحر المُطْلق في العبيد والإماء تتميماً للموضوع، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ أي: قدرةً علىٰ الاكتساب. والمكاتبة: أن يُكاتِبَ السيِّدُ عبدَه هذا علىٰ مبلغٍ يتَّفقان أن يُسدِّده العبد أقساطاً إلىٰ أجل مُعيَّن، فإذا سدَّده كان حراً.

وعن ابن جريج قال: قلت لعطاء: واجبٌ عَلَـيَّ إن عَـلِمتُ لعبدي مالاً أن أُكاتِبَه؟ قال: ما أراه إلا واجباً(١).

وقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ خطابٌ للأمة؛ يأمرهم به أن يُعطوا هذا المكاتَب من زَكَوات أموالهم، مُعَاونةً له علىٰ ما يكسبه بنفسه ليفكَّ رقبته.

وهذا واحد من أحكام ومُوجبات عديدة جاءت في الدين الإسلامي لفـكِّ الرقاب والمساعدة عليه، فضلاً عمـا فيه من أنواع الترغيب والوعود بالأجر الجزيل للمعتقين لهذه الرقاب؛ إذ في روح الشريعة الإسلامية وقواعدها غايةُ السَّعة ونهايةُ اليُسر فيمـا يُرغِّب في العتق وما يُوجبه، وما يُسهِّل علىٰ المملوك فكَّ رقبته وتحرُّره، بخلاف ما كان عند الـمِلَل الأخرىٰ من أحكام الرقيق ومعاملته القاسية السيئة الشنيعة، وليس عندهم عتق ولا مُكاتبة ولا معاملة إنسانية. فلْيَخْجَل أعداءُ هذا الدين الذين ينكرون عليه إبقاءَ الاسترقاق الذي قابل به قوانين المحاربين إذ ذاك في أخذهم الأسرىٰ من المسلمين، حفظاً للتوازن في هذا الأمر الخطير، ولولا ذلك لما اتخذ الإسلام الأرقاء. وقد رغَّب الإسلام كثيراً في عتق الرقاب بسبب وبغير سبب، كما هو معلوم في علم الفقه والدين، ثم رغَّب وسهَّل بكل الوسائل تحرير هذا الأسير.

وبعد أن بيَّن ما يلزم من تزويج العبيد والإماء، أتبَعَ بمَنْعِ ما كان يتعاطاه بعض السفلة في الجاهلية من إكراه الإماء علىٰ الفجور والتجارة بأعراضهنَّ، فقال: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ أقول: وهذا القيد لزيادة التـشنيع في بيان الواقع، فلا مفهومَ مخالفة له، ولكنه أُخرِجَ مَخرَجَ الشرط مبالغةً في التفظيع، واستفزازاً للشعور، وإثارةً للنخوة. وكذلك قوله: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فالكلام مَنَعَ من ذلك

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» معلقاً مجزوماً به، في باب المكاتب. ورواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٥٥٧٦).

مطلقاً، وإنما خصَّ هذه الصورة عند التحدُّث علىٰ المنع المطلق، لأن البشاعة فيها أفظع، ومثل ذلك من البلاغة العالية.

وفي الخطاب نسبةُ ما للبعض إلىٰ الجميع، هزّاً لهم، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن. ومثله في القرآن كثير، يُلمع به إلىٰ تكافل الأمة وتساندها، وأنه يجب أن يَرْدَعَ عقلاؤُها ذوي الرذالة والسفاهة منها، فإن لم يفعلوا كانوا مشتركين بالإثم، فهو يُسنِدُ إليهم الفِعلَ وإن كان القائمون به بعضَ سَفَلَتهم وأرذالهم، لأن في إسناد الفعل للعموم زيادةَ استفزاز للشعور العام ضدَّ هذه الرذيلة من هذه الفئة السافلة.

وكلُّ أمة لا يَردَعُها دينٌ ولا يزجرُها خُلقٌ تتخذ للفحش بغايا، وكان مِثلُ هذا عند سفلة العرب في جاهليتها، إلا أنهم ترفَّعوا أن يتَّخذوا لهذا الغرض السافل الحرائر من العربيات، فاتَّخذوا له الإماء، ولذلك إذا وصفوا المرأة بالحصانة يقولون: إنها حرّة، فجاءت هذه الآية مُشنِّعةً علىٰ هذه العادة، ومُطهِّرةً منها بهذا الحكم العامِّ المستمرِّ المدىٰ، وحافظةً للأمة الإسلامية من الزنىٰ ومهيئاته، لأنه كان فاحشةً ومَقْتاً وساءَ سبيلاً.

وقال بعض المفسِّرين: بل الآية تعقيبٌ وإردافٌ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ [النور: ٣٢]، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر بالشيء بالنهي عن ضده، فهي نهيٌ للأسياد عن معارضتهم في تزوُّج إمائهم خشيةَ أن يفقدوا منافعهنَّ وكثيراً من خدماتهن، لانشغالهنَّ بعد التزوُّج بأمر الأزواج، ومثل هذا المنع من الزواج للإماء يؤدِّي بهنَّ إلىٰ ارتكاب الفحش بسائق الطبع، فيكون الإكراه نتيجةً للمنع من الزواج، لا فعلاً مباشراً.

ويُلمع إلىٰ هذا المعنىٰ ما روي من تفسير ابن عباس رضي الله عنهما التحصُّنَ بالتعفُّفِ والتزوُّج.

وعلىٰ هذا المعنىٰ، يجوز أن يكون الإلماع بالمغفرة والرحمة إلىٰ ما حطَّ سبحانه عنها في تنصيف الحدِّ، بقوله تعالىٰ: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، وقد قال بعض الفقهاء: لا حدَّ علىٰ الأمة غير المتزوجة، بل عليها التعزير.

ويحتمل علىٰ المعنىٰ الثاني أيضاً ـ احتمالاً مرجوحاً ـ أن يكون قولُه: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ مقابلاً لقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾، أي: وإن لم يُرِدْنَ التحصُّن ـ أي: الزواج ـ ولم يَرْغَبْنَ به فلا بأس من إكراههنَّ عليه حذراً من وقوعهنَّ في شَرَكِ البِغاء. فتكون الآية حثاً للأسياد علىٰ تزويج الإماء، إنْ أرَدْنَ أو لم يُرِدْنَ، منعاً لتطرُّق الفساد إليهن، وإنَّ الله سبحانه يغفر لمن يُكرِهُهُنَّ علىٰ الزواج هذا الإكراه، لما فيه من المصلحة والإحسان. والله أعلم.

وأما علىٰ المعنىٰ الأول، فقد قيل في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾: إن جواب الشرط محذوف، علىٰ نهج القرآن في مثله، والمذكور تعليل له، والتقدير: ومَنْ يُكرِهْهُنَّ فعليه وبالُ إكراههن، لا يتعدىٰ إليها، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ لهنَّ. والله أعلم.

وجاء في «البخاري» عند تفسير هذه الآية: قال الطبري: أي: لـمن تاب بعد الإكراه[١]. وقال الحسن: غفورٌ لهنَّ لا لـمُكْرِهِهِنَّ[٢].

أقول: ويجوز ـ علىٰ الاحتمال المرجوح ـ أن يكون المراد برحمتهنّ: تنصيفُ الحد

---

(١) هكذا في الأصل المطبوع، ومن المعلوم أن البخاري لا ينقل عن الطبري؛ إذ توفي البخاري سنة ٢٥٦، وتوفي الطبري بعده سنة ٣١٠. ولم أقف عليه أيضاً في «تفسير الطبري».

(٢) لم أجده، وروى أبي داود (٢٣١٢) عن سلمان التيمي ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال: قال سعيد بن أبي الحسن: غفور لهنَّ الـمُكرَهاتِ.

عليهن، أو أن تكون هذه الآية قد جاءت علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأحكام التي يقمع بها رذيلة من الرذائل، بما يُؤْذِنُ بالعفو عمّا سَلَف من ذلك، ممّن آمن وامتثل أمر الله وتابَ وأصلح، فإنَّ الله توَّاب رحيم. والله أعلم.

ثم ختم هذا السياق المندمج فيه هذه الأحكام بالتنويه بشأنها، حَمْلاً علىٰ التمسُّك بها، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ممَّن آمنوا بوحي الله ومن لم يؤمنوا ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾، يُنوِّه بشأن هذا القرآن العظيم وما احتوىٰ عليه من أنواع الهدىٰ والبصائر، وقصص الأوائل.

وذكر بعض المفسرين في قوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أن المعنىٰ: أن حادثة إفك عائشة رضي الله عنها، هي من أمثال حادثة الافتراء في إفك مريم ويوسف عليهما السلام في العصور الغابرة.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

ثم قرَّر الحمل علىٰ التمسُّك بما سبق من الأحكام، مُلمِعاً إلىٰ أنَّ الذي شرعها وأتقنها هو مُتقِنُ هذا الكون العظيم، فهي علىٰ أحسن تشريع، وأكمل نظام، ألمع إلىٰ ذلك ضمن التوجيه والتحسيس إلىٰ ما في هذا الكون من ظهور جلال الله تعالىٰ

وعَظَمته في بديع صُنعه، فشبَّه الكون بمصباح مُسْتَوْفٍ لأوفر صفات المصباح الكامل، وشبَّه ظهور الله به سبحانه وتعالىٰ بالمشكاة التي يُضيئها ذلك المصباح في شدَّة الوضوح والجلاء وجوداً وتوحيداً، وعظمةً وإجلالاً، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١) أي: إن هذه السماوات وما فيها من عجائب، وهذه الأرض وما فيها من بدائع، مظهرٌ لنور وجوده وعظمة جلاله. فقد نقل أبو بكر بن العربي للسلف عدَّة معان في نور الله هذا منها: أنه سبحانه جليٌّ ظاهر بآثاره في السماوات والأرض، ومنها: أن الله سبحانه مُنوِّر السماوات والأرض، أي: جعل فيها من نور البدائع ما يدلُّ علىٰ عظمة الصانع واختصاصه بالألوهية.

وقال أبو مسلم: نـوّر الله سبحانه الأدلة الكونية الظاهرة في بداعة السماوات والأرض وما فيها من الكائنات الدالة علىٰ وجوده ووحدانيته وعظمته وعجيب صنعه سبحانه، تلك الأدلة التي هي في الظهور والوضوح مثل النور. انتهىٰ.

أقول: فكما أنَّ الشمس يتجلّىٰ خفاؤها ووجودها ليلاً بنور القمر المُنْبعث منها إليه، حيث يدلُّ عليها دلالة قاطعة، فكذلك وجودُه سبحانه وتعالىٰ وعظمتُه ووحدانيتُه تُدرَك جلياً بآثاره في السماوات والأرض، فهي التي تلقي عليه الضياء، فلا يَخفىٰ ذلك علىٰ العقول السليمة، لأن الناظر في هذا الكون وعجائبه يعرف بداهةً أنها محكومة بقوانيـن مضبوطة. وقد شَـرَحَتِ الكثيرَ منها علومُ الطبيعة والفلك، تلك القوانين والأنظمة التي تدلُّ دلالةً واضحة علىٰ الصانع الحكيم، والمدبِّر العليم، وهو الله العلي العظيم.

---

(١) الذي أراه في وجه الربط: أن من نهج القرآن أن يردف الأحكام بدلائل قدرة الله، وهنا عقَّبها بدليل القدرة ضمن دليل الوجود الظاهر الباهر، فالآية لإثبات العقيدة بذاتها والتمسك بالأحكام، نظراً لما قبلها، علىٰ نهج القرآن في ذلك. (المؤلف).

ويقول فلاسفة العصر من الأجانب: اسم الله مكتوب في صفحات كتاب الطبيعة كلِّها. يعنون: أنها تدل عليه دلالة واضحة.

وقد ضرب اللهُ الـمَثَلَ لـهذا الجلاء والظهور بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: مَثَلُ نور وجوده ووضوحه تعالىٰ في هذا الكون، وظهور صفاته في بدائعه، ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وقد اختلفوا في المشكاة، والأظهر: أن المشكاة كوَّة غير نافذة، أي: شبيهة بالمَخْدع الصغير، أو الحُجرة الصغيرة، وفيها هذا المصباح العظيم الـمُسْتوفي لسائر صفات الجُودة والكمـال. فأراد سبحانه أن يصفَ ويُشبِّـهَ دلالةَ هذا الكون وبدائعه عليه تعالىٰ وعلىٰ صفاته في الوضوح والجلاء، بإنارة حُجْرة صغيرة بأعظم مصباح مُسْتوفٍ لصفات الكمال في أسباب الإضاءة وقوة الإنارة والإيضاح والإظهار، وهو هذا المصباح الموصوف بقوله: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ ودراريُّ الكواكب: عِظامُها اللامعة. ويُطلِقُ عليها علماء الفلك: القدر الأول، فيقولون مثلاً: الشعرىٰ اليمانية من القدر الأول، والشامية من القدر الثاني، وهلمَّ جراً.

ثم استقصىٰ صفات الكمال في إضاءة هذا المصباح، فقال: ﴿يُوقَدُ﴾ أي: يُسْرَجُ هذا المصباح ﴿مِن﴾ زيتِ ﴿شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: مَنْبتُها بين الشرق والغرب، أي: لا هي في الشمس دائماً، ولا في الظل دائمـاً، ولكنها في مَوْضع بين ذلك يُعطيها أكمل حياة للنباتات، فلا يصيبها حَرٌّ ولا بردٌ مُضِرَّان بها، فتكون في الجودة علىٰ أكملها، لذلك تُنـتجُ أعلىٰ أنواع الزيت وأجودها، بحيث ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، ومصباح الزيت لم ينقطع إلا قبل مئة سنة تقريباً، أي: يكاد يضيء هذا الزيتُ بنفسه في كلِّ حال، حتىٰ إذا لم تَـمْسَسْهُ نار، بمعنىٰ: أنه في الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضيء بنفسه من غير مساس نار أصلاً، فكيف إذا أُسرِجَ ومسَّه نار؟ يبالغ في صفائه وتلألؤه من قبل وقوده.

فوَصَفَ الزيتَ بهذه الصفات الممتازة من شجرته إلىٰ نتيجته، بعد أن وَصَفَ المصباح بما وصفه كذلك؛ ليتخيَّل الذهن ما ينبعث عنه من قوة الأنوار الثاقبة إذا أُسرج، وينتقل من ذلك إلىٰ الحقيقة الراهنة المقصودة بالذات من هذا الـمثل، وهي أن تلك الدلائل الواضحة الجليَّـة الدالة علىٰ وجود الخالق ووحدانيته، كما تدل علىٰ اختصاص الألوهية بالله تعالىٰ تدلُّ علىٰ صفاته العلية. فالكلامُ علىٰ أبلغ صورة في وضوح الاستدلال بهذا الكون العظيم عليه تعالىٰ، وعلىٰ عَظَمَته وجلاله واستحقاقه وحده لأن يُعبد، ولإثارة الشعور بسُلطانه القاهر؛ للحَذَر من مخالفة أوامره ونواهيه ووعظه وإرشاده.

ثم صرَّح فيما حصل من التمثيل من جلاء أمر الله سبحانه، علىٰ طريقة الفَذْلكة والإجمال، فقال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: شأنُه نورٌ علىٰ نور، أي: جلاء علىٰ جلاء، ووضوح علىٰ وضوح.

ثم بيَّن تعالىٰ أن هذا النور ـ مع وضوحه الناصع ـ لم يهتدِ إليه إلا مَنْ لم يُفسِد فطرتَه بمفاسد التربية وسوء القدوة، فقال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي حافظ علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته، فأجاب الحقَّ حين دعاه.

ثم ختم الكلام بما فيه تنويهٌ بشأنه، فقال: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ يُظهِرُ لـهم بها الحق، ويُنير الطريق، ويُنبِّـه الأفكار، ويُجلِّي الحقائق؛ لعلَّهم يتذكَّرون، لأن الأمثال أبلغ في البيان من صريح الكلام، بإبرازها للمعقول بصورة المحسوس، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ ومن ذلك أن جعل هدايته العامة للناس علىٰ وجوده ووحدانيته وتنزيهه في فنون مختلفة وطرائق شتّىٰ من البيان.

ويُؤْذن هذا الـمَثَل بأنَّ معرفة وجود الله سبحانه أمرٌ بديهي، وليس من مسائل العلوم المعقَّدة والحقائق العويصة، ولولا البيئات الفاسدة التي تَـمْسَخ الفطرة ما

كان في الناس مُنكِر ولا مُلحِد ولا مشرك، وإنما جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس في الألوهية، وتذكيرهم بها، وصدِّهم عن الإشراك به تعالىٰ، وأن يقولوا علىٰ الله ما لا يعلمون، وذلك بتنبيههم إلىٰ مثل هذه الدلائل الواضحة الجليَّة.

فآية النور هذه جاءت لتوضيح قوَّة دلالة الكون وجلائها في إثبات وجود الله سبحانه وتوحيده وصفاته العلية؛ لذلك كان الإيمان بالله سبحانه إيماناً سائغاً لكلِّ نفس لم تُفسِدْ فطرتَها بمفاسد التربية والتقليد الأعمىٰ، عكس إيمان الكَفَرة والمشركين الذي سيأتي بيانه في المقابلة الآتية، من أنها ظلماتٌ بعضها فوق بعض.

وبعد أن لمح بقوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ إلىٰ أنه سبحانه مع هذا الوضوح والجلاء لم يهتدِ له علىٰ الوجه الصحيح الكثيرُ ممَّن أفسدوا طبائعهم، وطمسوا نور بصائرهم، نوَّه سبحانه بأهل هدايته الذين اهتَدَوْا لنوره هذا، وهم الذين حافظوا علىٰ سلامة فطرهم، فعرفوا الله حقَّ معرفته، واهتموا بعبادته علىٰ الوجه الصحيح، فقال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ بالعبادة فيها والتعظيم ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ سبحانه، وهي المساجدُ التي ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَ﴾ عن ﴿إِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ لأنهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾ حيث تَـفقَهُ يومئذ ما لم تكن تَـفقَه، ﴿وَ﴾ تتقلب فيه ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ إذ ترىٰ يومئذ ما لم تكن تحلم به ولا خطر لها ببال. وهذا تمثيل لانكشاف الأمر، ولعِظَم الهول، وشدَّة الهلع من الكافرين في ذلك اليوم العصيب، أعاذنا الله.

وبعد أن ذكر الباعث الترهيبي علىٰ هذه الطاعة، ذكر الباعث الترغيبي بصورة وَعْدٍ منه تعالىٰ، فقال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ليجزيَ أولئك المهتدين لنوره ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي: بأحسن أعمالهم، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ بسعادةٍ لم تخطر ببالهم، مُؤيِّداً ذلك

بشأنه في سَعَة العطاء، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ لأنَّ الأمر كلَّه بيده، وليس فوقه أحدٌ يحاسبه، فذكر الرزق وتفاوته تنظيراً لحال الآخرة، أو المعنىٰ: أنه يرزق ويُعطي مَنْ يشاء بغير تضييق ولا تَقْتير. وعلىٰ كلٍّ، فهو تذييل مقرِّر للزيادة والكرامة التي يعطيها سبحانه للمهتدين في الآخرة فوق استحقاقهم بما لا يقدر، فقد وضحها بقضيَّة بَسْطِ الرزق وقاسها عليها.

ويجوز أن يكون الكلام من ذكر العام وإرادة الخاص، فإن الرزق يشملها، أو مِنْ ذِكْرِ الخاصّ وإرادة العام، وهو العطاء، أو مِنْ تعقيب الأمر بما يشمله وغيرَه، علىٰ نهج القرآن. ويحتمل أن يُلمَعَ بالزيادة لوعدٍ كريم بالخير والحُسْنىٰ، يعطيهم إيَّاه في الدنيا، فوقَ جزاء الأخرىٰ.

ومن مباحث اللفظ في الآية: أن قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلِّق بفعل محذوف يدلُّ عليه قوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، فإنَّ الهداية تُفْضي إلىٰ العبادة، أي: يعبد هؤلاء المهتدون في بيوت... إلخ.

ويجوز أن يكون متعلقاً بـ﴿يُسَبِّحُ﴾، وإنما قُدِّم للاهتمام به، وليبالغ في تأكيدها بضمير ﴿فِيهَا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه حالَ المؤمن، وما لديه من جلاء العقيدة، وما لأعماله من ثمرات عظيمة، بيَّن حالَ الكافر وما له من خَيْبة وعكس في آماله، وما عنده من حَيْرة

وارتباك في عقيدته وأقواله وأفعاله، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، زيادةً في التحسيس والتنبيه للفريقين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ جزاءً وفاقاً، وقد قابل بهذا ما ذكره للمؤمنين بقوله: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾. وقد عبَّر بهذه العبارة عن الانخداع وانعكاس خيبة الأمل في الجزاء، مبالغةً فيه وتهويلاً له، وهو نوعٌ من بديع الكلام وبليغه. ثم قرَّره بقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ يوفِّي كلَّ عامل نتيجةَ عمله متَّصلة به. وهذا من سُنَّته تعالىٰ في خلقه، فكلُّ حَسَنة تنكت في القلب نكتةً بيضاء حالاً، وكلُّ سيئة تنكت نكتةً سوداء، والأُولىٰ تُصلح الروح، والثانية تُفسِدها، وعلىٰ هذا يكون الجزاءُ في الآخرة، فإنَّ أثر الأعمال يظهر للمرء مُتَّصلاً بالموت، وكذلك تكون سرعة الحساب يوم القيامة بإدراك كلِّ واحد عمله من خير أو شر في لحظة واحدة، وما يستحقُّ من نعيم أو عقاب(١)، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ [الكهف: ٤٩]. وبما أن الروح تتكيَّف كيفيةً خاصَّة بالأعمال من خير أو شر، فيجوز أن تكون تلك الكيفيَّة تُغني عن النقاش في الحساب(٢). ويجوز أن يكون هذا أيضاً هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤](٣). والله أعلم.

---

(١) ليس الحساب هو الإدراك، بل هو الإدراك مع المناقشة والمعاتبة والسؤال والجواب، ففيه طرفان ولا بُدَّ: مُحاسِبٌ ومُحاسَب.

(٢) وهذا ليس بصحيح، لما فيه من خروج عن لغة العرب، لأن العرب لا تفهم من «الحساب» هذا المعنى بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز.

(٣) وهذا أيضاً ليس بصحيح، لأنه تأويل شديد التكلُّف، وفيه مخالفة لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: ٢١].

والقيعة: جمع قاع، كجيرة وجار، وهي الفلاة. أما السراب فهو شيء يتكوَّن من طبقات البخار المتصاعد بتأثير حرارة الشمس، منعكساً عليها مناظر ما حولها من وهاد أو تلال أو وديان أو غابات أو مروج أو أعشاب أو رياض، إلىٰ ما هنالك من مثل هذه الأشياء، فيخيل للنظر أنها أنهار أو بحيرات مشطوءة بالحدائق، مجزورة بالغابات.

وهذا الـمَثَلُ فيه تشبيهُ ما لا يقع عليه الحسُّ بما يقع عليه الحس، لإخراج المعقول بصورة المحسوس وإبرازه للعقول، فهو من أوضح وأبلغ الأمثال لأعمال الكفار المخدوعين بأعمالهم، حيث يظنون أنهم يُحسِنون صنعاً يتقرَّبون به إلىٰ الله، فإذا كان يوم الحساب ـ وبالأحرىٰ فإذا ماتوا ـ أدركوا أنهم مخدوعون، وأن أعمالهم هذه ستجرُّ عليهم الوبال العظيم والعذاب الأليم عكس المأمول، وأن الله سبحانه سيُوفِّيهم حسابهم عليها، وسيُدخلهم نار جهنم خالدين فيها. فكان حالهم في انعكاس خيالهم وخيبة آمالهم، كحال من يرىٰ السراب فيظنه ماء وهو شديد العطش، فيقصده فلم يجد شيئاً. فالكافر يشارك حال هذا في الفشل بعد الأمل، ولكنه لا يقف عند هذا الحد، بل يجاوزه إلىٰ أبعد، حيث يجد هناك من ردِّ الفعل وعكس الأمل في أعماله وعقائده هذه وأنواع العذاب عليها أمراً عظيماً، وهَوْلاً جسيماً. ومثل هذه الآية: الآية ١٨ من سورة إبراهيم ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ...﴾.

وبعد أن ضرب الله هذا المثل لأعمالهم من هذه الناحية، وهي انتهاؤها إلىٰ هذه النهاية الخائبة المخيبة، ضرب لهم مثلاً آخر من ناحية عقيدتهم وظلامها المضاعف، وسقامها الشديد في النفوس، إذ لم يكن فيها قليلٌ من التبصُّر والتَّعقُّل، وقابل بذلك ما تضمَّنه الـمَثَلُ السابق في عقيدة المؤمن بذات الله وتوحيده وتنـزيهه من الجلاء

والاستقرار، وأنه ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ...﴾؛ قابله فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ أي: عميق ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ ويجوز أن يكون الموج الثاني من الضباب المتكاثف الذي يكون عادةً في البحار الشمالية، أو المراد: تراكب الأمواج بعضها فوق بعض. والله أعلم.

ثم أجمل الوصف بقوله: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، وقابل به قولَه عن عقيدة المؤمن: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، ثم أكمل الوصف مُجرياً للكلام علىٰ الواقع في البحر بعد إجرائه علىٰ البحر نفسه، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك الانتقال، فقال: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ فهذا تمثيل لشدَّة تلك الظلمة والحيرة. والضمائر للواقع في البحر ـ وإن لم يَجْرِ ذِكرُه ـ لدلالة المعنىٰ عليه وفهمه من السياق، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

ثم ذيَّل هذا السياق بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ باتِّباع تعاليمه وشريعته ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾، أي: مَنْ لم يتمسَّك بما جاءه عن الله لهدايته لم يبصر الطريق، ولذلك لم يتوصَّل إلا إلىٰ فَشَل وعذاب أليم. وذلك مَثَلُ هؤلاء الكفار الذين اتَّبعوا خططاً خيَّلتها لهم عقولُهم أو عقولُ رؤسائهم فظنُّوها رشاداً، فكان ذلك عليهم وبالاً. فقرَّر بهذا التذييل ما أفاده التمثيل من كَوْن أعمال الكَفَرة كما فصَّل وأبان.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ
وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ
تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ
بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ

مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه بعض الآيات التي جعلها الله نوراً للعقلاء العارفين بالله وصفاته، مُعَرِّضاً بغَفْلة هؤلاء المشركين عنها ومخالفتهم لسائر الكائنات في ذلك، ومُلْمِعاً إلىٰ نوره الذي استنارت به الكائنات، فقامت بها أُنيط بها من واجبات، فقد ذكرها تنويراً لآية النور وتتميماً لـها وتكميلاً، وغلَّب العقلاء علىٰ غيـرهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي: والحيواناتُ الطائرةُ من بين أنواع الحيوانات الزاحفة والماشية، وتسبيحُها هو ما يُرىٰ عليها من الإبداع والإتقان في صفة الطيران، وفي أسبابه ومُهيَّـآته من خِلقتها وطبيعتها وهدايتها له، لأن ذلك يدلُّ علىٰ قُدرة المُبْدع وحِكمتِهِ واختِصاصِهِ بصفة الألوهية، وهو معنىٰ التسبيح والتنزيه[١].

---

(١) أخبر سبحانه في هذه الآية عن تسبيح مَنْ في السماوات من الملائكة عليهم السلام والأرواح، وعن تسبيح مَـنْ في الأرض من الملائكة والأناسيّ والجان، وجميع أنواع الحيوان والنباتات والجمادات. ثم أخبر سبحانه عن تسبيح الطير، فقال: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾، فهو معطوف علىٰ ﴿مَن﴾، والمعنىٰ: أن الطير تُسبِّح ربَّها في حال طيرانها، وهي صافَّاتٌ أجنحتَها. وإنما خصَّها بالذكر مع أنها داخلة في عموم مَنْ في الأرض، لأنها غير مستمرة في القرار علىٰ وجه الأرض، كما هو في سائر الحيوانات، ليدفع وَهْمَ مَنْ يتوهم أن التسبيح قاصرٌ علىٰ المستقرين علىٰ وجه الأرض من المخلوقات، ولينبِّه إلىٰ التفكر في قدرة الله تعالىٰ الذي يمسكها في جوِّ السماء.

وتسبيح مَنْ في السماوات والأرض لله: هو تسبيح حقيقي، لا ما يُرى عليها من الإبداع والإتقان ـ كما قال المؤلف ـ وهذا التسبيح الحقيقي يكون على وجه ملائم لكل مخلوق، وكون الإنسان لا يُدركه لا ينفيه.

وخصَّ الطير بالذكر بعد التعميم لأنَّها أظهرُ للعيان في هذا البيان، إذ هي أجرام كثيفة تَطْفُو علىٰ الهواء بما أودع الله فيه من قوة حَمْل الأجسام، إذا كانت علىٰ وَضْعية خاصَّة تلائم ما طبع الله الطير عليه، كما طبع الله كذلك.

وهذا المعنىٰ للتسبيح يَصْدق علىٰ سائر مخلوقات الله: العقلاء وغيرهم، والكافرين والمؤمنين. فالكافر الذي يُشرِكُ بالله، يُنزِّهه عن ذلك بطريقة الدلالة ما فيه من تمام الخِلْـقَة وكمال الطبيعة وبديع النظام؛ لأنها تدلُّ بوضوح علىٰ أنَّ الذي أوجَدَها بهذا الكمال هو الذي يستحقُّ الألوهية دون سواه. وكذلك خضوعُه لسنن الطبيعة: فيه استسلام لله سبحانه وانقياد لسُنَـنه، كقيامه بما ألزمه الله به من أكل وشرب وتنفُّس وأمثال ذلك مما ينقاد به إلىٰ الله قَسْراً بمقتضىٰ الطبيعة، فإنه لا يقدر أن يستغني عنها ولا ينفك منها.

وتصدق كلمة «التسبيح» علىٰ معناها الحقيقي في حقِّ الملائكة ومُؤمني العقلاء من المخلوقين، جمعاً بين المعنيين الحقيقيِّ والمجازيِّ، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، لهذا قال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾ اللهُ سبحانه وتعالىٰ ﴿صَلَاتَهُۥ﴾ وهذا في حقِّ المؤمنين من العقلاء، ﴿وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[1] وهذا في حقِّ غير العقلاء. فقد قالوا: الصلاة بمعناها العام للإنسان، والتَّسبيح لغيره من المخلوقات.

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ جملة استئنافية، جاءت جواباً عن سؤال مقدَّر، وهو أن الله تعالىٰ لما أخبر عن تسبيح الأشياء كلِّها فكأن سائلاً سأل: هل لتلك الأصناف التي تسبِّح ربها حتىٰ الطيور والحيوانات والنباتات والجمادات، هل لها معرفة حقيقية بربها؟ وهل لها علمٌ بصيغة تسبيحه سبحانه؟ فجاء الجواب: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي: كلٌّ قد علم حقيقة تسبيحه لله تعالىٰ، وكيفيَّـة صلاته كما علَّمه الله ذلك، وألهمه إياه، وكلٌّ يصلي ويسبح علىٰ وجه متناسب معه، وعلىٰ حسب ما علَّمه الله تعالىٰ، وعلىٰ كيفية تليق بذلك الشيء.

أقول: ولا يَبعُدُ أن يُلهِمَها الله ذِكرَه، كما ألهمها دقائق من خصائص الإدراكات والهدايات، لا يكاد العقلاء يهتدون إليها. ويجوز أن يراد بالتسبيح: نفس هذه المواهب الطبيعية(١). والله أعلم.

وأفادت الآية أنَّ هؤلاء الكفَرة أحطُّ من الحيوانات والجمادات، لإخلالهم بهذا التنزيه في حقِّه تعالىٰ، بإفسادهم لعقولهم ومواهبهم، وأفاد قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ...﴾ أن الله سبحانه لا يغفل عن شيء ولا يُهمِل شيئاً. وعِلمُه سبحانه بالشيء يدلُّ علىٰ ثبوت ذلك الشيء، فالكلام بيانٌ لآثار نور الله سبحانه في مخلوقاته، في أرضه وسماواته، حيث أعطىٰ كلَّ شيء خَلْقَه ثم هدىٰ.

وقد جعل أبو السعود فاعل ﴿عَلِمَ﴾ ضميراً يعود إلىٰ ﴿كُلٌّ﴾، أي: إنهم يعلمون ما يجب عليهم من الصلاة والتسبيح. قال: والجملة بيانٌ لكمال عراقة كلٍّ واحد مما ذكر في التنزيه ورسوخه فيه، وذلك بتمثيل حاله بحال مَنْ يعلم ما يصدر عنه من الأفاعيل، فيفعلها عن قَصْد ونيَّة(٢).

---

(١) هذا التجويز بعيد؛ إذ لو كان تسبيحُ المخلوقات لله تعالى هو نفسَ مواهبها الطبيعية، لكان المُسبِّحُ حقيقةً هو مَن يرى هذه المواهب ويستفيدُ منها، لا مَنْ هو صاحبُها المتصفُ بها من هذه المخلوقات، وإذا كان الأمرُ كذلك فكيف يُقال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، وهل هذه المخلوقات تعلمُ ما هي عليه من مواهب طبيعية؟!
والصحيح ما تقدَّم بيانُه في التعليقات السابقة من أنَّ تسبيحَ هذه المخلوقات لله هو تسبيحٌ حقيقيٌ، وكلُّ مخلوق له إدراكٌ يناسبُه يعلمُ به ما يجبُ عليه من صلاة وتسبيح لله، فيُؤدِّيها، ولا يفقه الإنسانُ ذلك، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٠].

(٢) «تفسير أبي السعود» (٦: ١٨٣).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ۝٤١﴾ يكون علىٰ الأول تقريراً وتعليلاً، وعلىٰ الثاني تذييلاً. ويجوز أن يكون الواو عائداً إلىٰ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، والجملة وعيداً لهم علىٰ مخالفتهم في الاستجابة لله، كسائر المخلوقات.

ثم ختم السياق بما يدلُّ علىٰ قدرة الله وسلطانه القاهر؛ لإثارة الشعور بالحذر منه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٤٢﴾، وأعاد لفظ الجلالة دون ضميره لتربية العَظَمة والمهابة، وللمبالغة في الترهيب.

ثم تابع الكلام في الآيات التي جعلها الله نوراً للعقلاء العارفين بالله وصفاته، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ أي: يسوقُه، وذلك عندما تبتدئ الأعاصير في البحار، ويبدو منها قِطَعٌ من البخار، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ حيث تَـتَجمَّعُ تلك الأبخرة وتـتَّحدُ بواسطة نَـوْعي التكهرب الموجب والسالب في ذرَّاتها، ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ أي: متراكماً متكاثفاً علىٰ بعضه، ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: ترىٰ المطر يتناثر من أثنائـه، وإنما ذكر «الخِلَال» لأن السحاب لا ينقلب كلُّه ماء، بل يبقىٰ منه بقية تَـتَبخَّر وتذهب. وقد تحقَّق في العلم الطبيعي أنه حينما يسخن الهواء القريب من سطوح البحار وغيرها بتأثير الحرارة، يرتفع في الجو ويبرد لوصوله إلىٰ منطقة باردة، أو لامتزاجه بتيار الهواء البارد، فإذا برد تكاثف منه بخار الماء وتكوّن السحاب، وسار مدفوعاً بقوّة الهواء، فيتـراوح بُعدُه عن الأرض بين ميل وعشرة أميال، حتىٰ إنَّ سكان الجبال الشاهقة يُحاذونه أو يكون دونهم.

وقال الرازي: إذا تَصاعدت الأبخرةُ من البحار، فإن كان في الهواء من الحرارة ما يُحلِّلُ ذلك البخار، فحينئذ ينحلُّ وينقلب هواءً، فإن لم يكن في الهواء مثل تلك الحرارة، فإن بلغت تلك الأبخرة المتصاعِدة إلىٰ الطبقة الباردة من الهواء، فإما أن يكون البرد قوياً

أو لا، فإن لم يكن قوياً تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد، واجتمع وتقاطر مطراً، وإن كان البرد قوياً فلا يخلو: إما أن يصل البرد إلىٰ الأجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبَّاتٍ كباراً، أو بعد صَيْرورتها كذلك. فإن كان علىٰ الوجه الأول نزل ثلجاً، وإن كان علىٰ الوجه الثاني نزل بَـرَداً[1]. كمـا قال تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ...﴾ فأراد بالسماء: الجو، بطريقة المجاز الـمُرسَل، وأراد بالجبال: القِطَعَ العظام من الغيوم التي هي كالجبال في الجو. وضمير ﴿فِيهَا﴾ يعود إلىٰ السماء. و﴿مِنَ﴾ الأولىٰ: ابتدائية، والثانية: بَدَلُ اشتمال منها، أو بَدَلُ بعض من كل. والثالثة: يجوز أن تكون بيانية، والمفعول محذوف. والتقدير: ويُنزِّلُ بَـرَداً من السماء من جبال فيها كائنة من برد، إلخ. ويجوز أن تكون تبعيضية، ومدخولها قائمٌ مقام المفعول به، والتقدير: ويُنزل من السمـاء من جبال فيها بَـرَداً، إلخ. أو يكون مدخولها مبتدأ مؤخراً، و﴿مِنۢ﴾ زائدة، ومفعول ﴿يُنَزِّلُ﴾ محذوف، وضمير ﴿فِيهَا﴾ يعود إلىٰ الجبال. والتقدير: ويُنَزِّلُ بَرَداً من السماء من جبال فيها بَرَد.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ وإنمـا تجري مشيئـتُه سبحانه وتعالىٰ بحسب الحِكَم والمصالح والعدل في الأحكام، توفيقَ أقدارٍ لأقدارٍ بمقتضىٰ ما أجراه من سنة ونظام.

ثم ذكر آيةً أخرىٰ من عظيم قدرته متَّصلةً بهذه الآية، وهي ما يتولَّد من هذه الغيوم من بروق كهربائية تكون أشدَّ تأثيراً من البَرَد، فقال: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ أي: ضوءُ بَرْقِ السحاب المذكور ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾.

ثم أردفها بآية أخرىٰ من نور الله وعِظَم قدرته، فقال: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾

(١) «تفسير الرازي» (٢٤: ٤٠٤).

أي: يُصرِّفهما في تعاقبهما وتناوبهما طولاً وقِصَراً، وذلك ناتجٌ عن حركة الأرض اليومية وحركتها السنوية ومَيْلها علىٰ محورها، بتقدير العزيز العليم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ كلِّه ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ وهم الذين حافظوا علىٰ سلامة فِطَرِهم ونور بصائرهم، فأدركوا عَظَمَةَ هذا الخالق العظيم والمدبِّر الحكيم، وأنه هو المستحقُّ وحده أن يُعبَد ويُحمَد، ولا إله سواه، وأنَّ هذه المدبِّر الحكيم لا يأمر إلا بما فيه النفع والمصلحة، ولا ينهىٰ إلا عما فيه الضرر والمفسدة، فيجب اتِّباع أوامره واجتناب نواهيه.

ثم ذكر آيةً أخرىٰ من عظمته وجليل قدرته وآثار نوره الدالة عليه وعلىٰ انفراده بالألوهية، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[1] أي: خَلَقَ سائر الحيوان علىٰ اختلاف أنواعه من النطفة، ونوَّعه أشكالاً متفاوتة ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾، وكلُّ ذلك مبنيٌّ علىٰ الحِكَم والمصالح التي لا تُدركونها. وخصَّ المشي بالذكر ـ مع أنَّ الفوارق في أشكال الحيوانات وخلقتها كثيرة وعجيبة ـ لأنه لما كان لا بدَّ من الاكتفاء ببعضها في البيان فالمشي أشهر، وإن كان غيرُه أبدَعَ وأعجب.

وقد أشار سبحانه إلىٰ أن ذلك مُنْبعثٌ عن الحِكَم والمصالح بقوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، لأن مشيئته إنما تجري بما فيه الخير والصلاح. وفي هذه الجملة إشارةٌ أيضاً إلىٰ أنه سبحانه قد يخلق أشياء من غير هذا الأصل، وعلىٰ غير هذه الطريقة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

ثم ختم السياق بالتَّنويه بشأن ما جاء فيه وما اشتمل عليه، فقال مكرّراً هذه

---

(١) إن الحيوان المنوي يحتوي علىٰ تسعين في المئة من الماء، وعشرة في المئة من الزلال النقي، وإعادة ضمير العاقل في ﴿مَّن﴾ و﴿مِنْهُم﴾ تغليب له. (المؤلف).

الجملة التي هي جوهرة العِقد في هذا السياق: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾ للحقائق بأنواع الدلائل والبصائر، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى﴾ بهذه الآيات ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ممن لم يُفسِدوا طبائعهم ويطمسوا نور فِطَرِهم وبصائرهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾، وذلك بمحافظتهم علىٰ ما أودع اللهُ في فِطَرِهم من الاستعداد للنظر والاستدلال، والتبصرة في الحقائق والأحوال، فيهتدون بهذه الآيات إلىٰ هذا الصِّراط الذي يَصِلُ سالكُه إلىٰ سعادة الدارين.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

ثم أردف هذا السياق ببيان أحوال بعض مَنْ لم يشأ الله هدايتهم، لإفسادهم لطبيعتهم بالكفر والضلال، وهم صنفان: صنف ظاهر، وصنف يتختَّل ويُظهِرُ الإيمان نفاقاً. وقد خصَّ الثاني بالبيان فقال: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ لأنهم آمنوا علىٰ غير هُدىٰ وبصيرة، فلم يتمكَّن منهم إيمانُهم، فانقلبوا منكوسين، فذكر سبحانه حُكمَه فيهم فقال: ﴿وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ لأن الإيمان الذي لا يكون علىٰ بصيرة وإذعان؛ لا تأثير له علىٰ الوجدان، ولا يثبت في الجَنان.

ثم بيَّن شنيعةً أخرىٰ لهم أو لفريق منهم، وهم منافقو اليهود، فقال: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: إذا دُعُوا للمحاكمة أمام رسول الله ﷺ؛ فإنْ شعروا أنَّ الحكم سيكون لهم أجابوا، وإن أدركوا أنَّ الحكم سيكون عليهم أعرضوا عن التحكيم، وطلبوا أن يَتحاكموا إلىٰ رؤسائهم. وكان ذلك في مبدأ الهجرة. والله أعلم.

ثم ذكر أنَّ سببَ ذلك نفاقُهم، وقَرَنَه بشُبَهِهم الظاهرة البطلان، وجَعلَ الكلام على طريقة السَّبْر والتقسيم من طرق الجدل التي ينهجها القرآن، لينحصر السبب في نفاقهم ومرض قلوبهم، فيُسجّل به عليهم، فقال: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؟ يكني به عن النفاق والكفر، ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ في دَعْواه النبوة، وهو الصادق الأمين فيما بينهم؟ ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ﴾ أي: يظلم اللهُ ﴿عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ في هذه الحكُومة؟

ووجه التقسيم: أن امتناعهم: إما لخلل فيهم، أو في الحاكم. والثاني: إما أن يكون مُحقَّقاً عندهم أو متوقَّعاً. ولما كان كلاهما باطلاً تعيَّن الأول، وهو النفاق.

وفي ذِكرِ الله تعالىٰ إشارةٌ إلىٰ أن حُكمَه ﷺ من حكم الله بمقتضىٰ تعاليمه له، لا حَيْف فيه ولا عدوان.

وقد ردَّ وَصْف الظلم عليهم، وحقَّقه فيهم، وحَصَره بهم، فقال: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ والظلم هنا يشمل معنييه: خلل العقيدة، والحَيْف في الأحكام. وأتىٰ بضمير الفَصْل لنفي ذلك عن غيرهم، سيما عن هذا الحاكم النَّزيه ﷺ.

ثم أردف بيان حالـهم هذا ببيان حال المؤمنين حقاً، وخطَّـتَهم في مثل ذلك الموقف، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، ليردَّ بذلك دعواهم الإيمان مقروناً بالبرهان، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ بالحصول على السعادة في الدارين، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ بسَعادة الدنيا والأخرىٰ.

ثم ذكر حالةً أخرىٰ من حالات أولئك المنافـقين، أو حالة فريق آخر منهم، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي: بالغوا بالقَسَم، ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾، وحيث كانت مقالتُهم هذه كاذبةً أمر رسوله ﷺ بردِّها، فقال: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ علىٰ طاعتكم إنها ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، يشير إلىٰ أنها نفاق، وحالهم معروف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ فلا تخفىٰ عليه أسراركم.

ثم أمره أن يُكرِّر لهم التبليغ ويأمرَهم بالطاعة الصادقة، لئلا يكون علىٰ الله حُجَّةٌ ولا عُذرٌ بعد ذلك التكرار، فقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: فإن تتولَّوا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: ما أُمِرَ به من التبليغ وقد فعل، ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: ما أُمِرتُم به من الطاعة فلم تطيعوا، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ إلىٰ الصِّراط المستقيم، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ وقد أبلغكم ما أُرسِلَ به فأبيتم، فوبالُكم عليكم وأنتم الظالمون.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه ما سجَّل به للمؤمنين من الوعد بالنصر والتمكُّن في الأرض ونشر هذا الدين المبين، ترغيباً لهؤلاء المنافقين بالإيمان، وترهيباً وتحذيراً لهم من إصرارهم علىٰ النفاق والعصيان، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من مؤمني الأمم الماضية، كما جاء في غير هذه الآية، من مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٤].

ثم تابع الوعد بقوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ وفي هذه الجملة تعريضٌ بالمشركين، وثناءٌ علىٰ المؤمنين، وبيانٌ لمقتضىٰ الاستخلاف والتمكين.

ثم توعَّد هؤلاء المُصِرِّين علىٰ الكفر، فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: أصَرَّ علىٰ الكفر ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الوعدِ والبيانِ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)﴾ أي: الخارجونَ علىٰ نور الفطرة إلىٰ الطبع المفسود. وقيل: المراد من الكفر: كفران هذه النعمة التي هي الاستخلاف والتمكّن في الأرض، وذلك يكون بالظلم والعدوان، والفساد والطغيان، والخروج علىٰ السلطان. وأولُ مَنْ فعل ذلك قَتَلَةُ عثمان رضي الله عنه، ثم تتابعت الأحداث، ولم يستقر بعد ذلك للمسلمين حال محمودة. وإذا كانت فلا بدَّ أن تكون مُنغَّصةً بنوع قَلَق واضطراب.

وبعد أن وَعَدَ المؤمنين بما وعدهم به، أمرهم بالدوام علىٰ واجباته، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في كلِّ ما يأتيكم به ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)﴾.

وبعد أن بيَّن مصيرَ المؤمنين، بيَّنَ مصيرَ الكافرين وما لهم من الوعيد، فقال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مُعجزيـن لله عن إدراكهم وأخذِهم بالعذاب وإهلاكِهم في الدنيا، ﴿وَ﴾ في الآخرة ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ

لَكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا
ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾
وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ
غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ
بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًاۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ
مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةًۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وبعد أن أكمل السياق الذي أتىٰ به معترضاً، عادَ إلىٰ متابعة الأحكام، علىٰ نهج القرآن في العودة، فتمّم نظام البيوت، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والخطاب للرجال والنساء علىٰ التغليب، وذلك بمقتضىٰ خصائص اللغة، ونهج القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة السادسة من المقدمة الثانية)، أي: يا أيها المؤمنون من الرجال والنساء ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من العبيد والإماء، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ في ثلاثة أوقات؛ استثناها من عموم الأوقات التي أباح فيها سابقاً للعبيد والأطفال الدخول علىٰ النساء، تلك الإباحة المستفادة من مضمونِ إباحة إبداء زينتهنّ لهم، وهذه الأوقات الثلاثة هي أوقات الخلوات: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وهو وقت القيلولة، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ وهو وقت النوم والخلوات،

فهذه ﴿ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾، إذ يختلُّ فيها التستُّر عادةً، وقد يخلو الرجل فيها بأهله، فلا يحلُّ لأحد الدخول عليه ولو كان طفلاً أو مملوكاً.

وبعد هذه الأوقات الثلاثة ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي: المماليك والصبيان ﴿جُنَاحٌۢ﴾ أي: إثمٌ في الدخول بغير استئذان ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي: بعد هذه الأوقات الثلاثة. وقولُه: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بيانٌ للعذر المرخِّص في تَرْكِ الاستئذان في غير هذه الأوقات، وهو المخالطة الضرورية مع الأطفال والعبيد.

ثم نوَّه بشأن هذا النظام حَـمْلاً علىٰ التمسُّـك به، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ الدالة علىٰ الأحكام، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم مَعَاشاً ومعاداً.

ثم تابع البيان في إتمام النظام، فذكر الحدَّ الأول في الأطفال لوجوب الاستئذان في جميع الأوقات، فقال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ ﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم، ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ﴾ بلغوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ في الأوقات كلِّها. ثم كرَّر التنويه والحث مبالغةً في التمسُّك بهذا النظام، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ فيما يشرعه لكم ويأمركم به، فلا يشرع لكم إلا ما فيه الحكمة والمصلحة.

ثم استثنىٰ من قوله السابق: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] القواعِدَ من النساء، فقال: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أي: العجائزُ اللاتي لا يَصْلُحْنَ للنكاح، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: ليس عليهنَّ إثمٌ أن يَضَعْنَ الجلباب والخمار، علىٰ أن يكُنَّ بثياب معتادة غير متزيِّنات بزينة، إلا أنَّ هذه رخصةٌ لهن، ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي: إنَّ

عدم السُّفور أَوْلىٰ بهنَّ أيضاً. ثم ختم الكلام بما يحمل علىٰ الإخلاص وحُسْن النية في إجراء هذه الأحكام، فقال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ فلا تـخفىٰ عليه نيَّاتكم ولا مخالفاتكم.

ثم تابع الكلام عن أحكام البيوت وأكملها، فذَكَرَ حكم الأكل منها والاستطعام، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أن يأكلوا من البيوت التي يُسْتَخلفون عليها ليحافظوها. فقد روىٰ الزهري عن سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله في هذه الآية: أنَّ المسلمين كانوا إذا غَزَوْا وأخلفوا زَمْناهم، أي: العاجزين منهم، يُسلِّمون إليهم مفاتيحَ أبوابهم، ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتحرَّجون من ذلك خشيةَ أن لا تكون هذه الرخصةُ منهم عامة، أو عن طيب قلب، لأنهم مُضْطرون إليها بحكم تسليم المفتاح، وقالوا: لا ندخلها وهم غائبون. فنزلت هذه الآية رخصةً لهم[١]. وهذا قول عائشة رضي الله عنها[٢].

فعلىٰ هذا، يكون معنىٰ الآية: نفيُ الحرج عن الزَّمْنىٰ في أكلهم من بيت مَنْ يدفع إليهم المفتاح، إذا خَرَج إلىٰ الغزو.

ويلوح لي ـ والله أعلم ـ أنه يحتمل أن تكون الآيةُ ـ بمعونة السِّياق ودلالةِ الاقتضاء ـ رخصةً للعميان والزَّمْنىٰ والمرضىٰ الذين لا مال لهم ولا مُعيل أن يستطعموا أهل البيوت.

وعلىٰ كلٍّ، فقد سوَّىٰ في الرخصة بين هذا الأكل وبين الأكل من بيوت الأقارب، كما سوَّىٰ بين الأكل من بيوت الأقارب وبين الأكل من بيوت أنفسهم؛ إيذاناً بالإباحة

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٢٤: ٤٢٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٨٧٥).

في كلِّ ذلك، وأنها كالأكل من بيوت أنفسهم، من دون فرق، سواءً بسواء، وإيماءً إلىٰ أن الأطعمة أمرُها علىٰ السَّعة والسماح، فقال: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ فالمراد الإباحة فيها من دون إذن، لأن الأطعمة أمرُها علىٰ السَّعة. والله أعلم.

وقال أبو مسلم: المراد من هؤلاء الأقارب: إذا لم يكونوا مؤمنين، وذلك لأنه تعالىٰ نهىٰ عن مخالطتهم بقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ثم إنه سبحانه أباح في هذه الآية ما يتبادر دخوله فيما حظره هناك. قال: ويدلُّ عليه أنه سبحانه أمر سابقاً في هذه السورة بالتَّسليم علىٰ أهل البيوت، إذ قال: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، وفي بيوت هؤلاء لم يأمر بذلك، بل أمر أن يُسلِّموا علىٰ أنفسهم، كما سيأتي.

وقال الفرَّاء: إنَّ المراد: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾: بيوت الزوجات، لأنَّ بيت المرأة كبيت الزوج[1].

وقال ابن قتيبة[2]: أراد بيوت الأولاد، لأن الولد كَسْبُ أبيه[3]، كما قال عليه السلام: «إنَّ أطيبَ ما يأكل الرجلُ من كسبه، وإنَّ وَلَـدَه من كسبه»[4]. والدليل علىٰ

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤: ٤٢٩).

(٢) هو أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّيْنَوَري (٢١٣-٢٧٦هـ) من أئمة الأدب ومن المصنِّفين المُكْثِرين، له: «أدب الكاتب»، و«المعارف»، و«عيون الأخبار». انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣: ٢٩٦-٣٠٢)، و«الأعلام» للزركلي (٤: ١٣٧).

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤: ٤٢٩).

(٤) رواه أحمد (٢٤٠٣٢)، وأبو داود (٣٥٢٨)، عن عائشة.

هذا: أنه سبحانه وتعالىٰ عدَّد الأقارب ولم يذكر الأولاد، مع أنهم أقرب الأقارب.

وقال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ هو وكيلُ الرجل وقَيِّمُه في ضَيْعَته وماشيته، له أن يأكلَ من ثمر ضَيْعته، ويشربَ من لبن ماشيته دون إذنه، ولا يحمل ولا يدَّخر[١].

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: أو بيتِ صديقكم دون إذنه. قال الرازي: يحكىٰ عن الحسن رضي الله عنه: أنه دخل داره، فإذا حلقة من أصدقائه، وقد أخرجوا سلالاً من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة، وهم مكبُّون عليها يأكلون، فتهلَّلت أسارير وجهه وضحك، وقال: هكذا وَجَدناهم. يريد: كبراء الصحابة رضي الله عنهم[٢].

ثم بيَّن تعالىٰ رخصةً أخرىٰ، وهي أنْ لا فَرْقَ بين أن يأكلوا مجتمعين أو متفرِّقين، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

ثم ذكر حكماً آخر من أحكام هذه البيوت، فقال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، وقد ذكر سابقاً مِثلَ هذا الحكم، وجعله للاستئناس، وقيَّد به النهي عن دخول بيوت الأجانب، وهذا الحكم في بيوت الأقارب المذكورة في السياق. ولذلك قال: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

قال الحسن: أي فَلْيُسلِّم بعضكم علىٰ بعض[٣]. فيكون من باب إجراء الوحدة بالجنس مجرىٰ الوحدة بالشخص، كقوله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩: ٢٢١).

(٢) «تفسير الرازي» (٢٤: ٤٢٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩: ٢٢٦).

وقال جابر وقتادة والزهري والضحّاك: معناه: فسلِّموا علىٰ عيالكم[1].

وقال أبو مسلم: يُسلِّم علىٰ نفسه إذا دخل بيت قريبه غير المؤمن. وقد ذكرنا رأيه في المراد من الأقارب في الآية السابقة.

ثم نبّه إلىٰ مكانة هذا التسليم، فقال: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ شرعها لكم ﴿مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾، لأنَّ فيها تآلفاً وتأنساً.

ثم ختم السياق بالتنبيه إلىٰ مكانة هذه الأحكام الاجتماعية؛ حثاً علىٰ التمسُّك بها، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ ما فيها من المصالح والحِكَم وسعادة الدارين.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

وبعد أن بيّن سبحانه وتعالىٰ حكم البيوت وكيفيّة المعاشرة مع الأقرباء والمسلمين عموماً، بيّن سبحانه وتعالىٰ حكم البيوت التي تُفصَّلُ فيها الأمورُ السياسية بطريقة المشاورة، ذاكراً شيئاً من جنس ذلك مع النبيِّ ﷺ ليكون تشريعاً عاماً مستمرّ

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٦: ٦٦).

المدىٰ، وهو أنَّ المجالس السياسية يكون جَمْعُها وفضُّها تحت إمرة الرئيس، ولا يجوز لأحد أفرادها أن ينسحب أو يترك المجلس من دون إذن الرئيس، ذكر ذلك علىٰ نهج القرآن في إكمال الموضوع، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الكاملون في الإيمان هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ من صميم قلوبهم، ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ وهو الذي يقتضي التعاون أو التشاور ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾، ثم بالغ في التنويه بشأن هؤلاء المستأذنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ثم بيَّن موقفه تجاهَ هذا الاستئذان، فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ ففوَّض أمْرَ الإذن له ﷺ حسبما تقتضيه الحال إيجاباً أو سلباً، ثم نبَّه إلىٰ أنَّ هذا الاستئذان ـ وإن رُخِّص فيه ـ لا يخلو من غَضَاضة، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم بيَّن أدباً آخر من آدابهم مع النبيِّ ﷺ، وجَعَل مضمونَه كالتعليل لمضمون ما قبله، أو كالمتمِّم له، وهو احترام الرئيس وإطاعته وإجابة طلبه، فقال: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ قال المُبرِّد والقفَّال: لا تجعلوا أمره إيَّاكم ودعاءه لكم لشأنٍ من الشؤون، كما يكون ذلك من بعضكم لبعض؛ إذْ كان أمرُه فرضاً واجباً لازماً. قال أبو مسلم: لأنَّ في القعود عن أمره قعوداً عن أمر الله تعالىٰ.

ثم توعَّد المنافقين المخالفين في ذلك وفي أمر الاستئذان، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أي: يلوذ بمَنْ يُؤْذَن له، فينطلق معه كأنه تابعُه. وقيل: بل معناه: إنهم يخرجون من غير استئذان مُسْتترين بشيء.

ثم توعَّدهم بهذا التوعُّد العام، فقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلاءٌ وبليةٌ في الدنيا نتيجةَ هذه المخالفة، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

في الآخرة، وذلك لأن مخالفة أوامر الله ونواهيه واتِّبـاع الأهواء يصرف عن الخير، ويُزيِّن الشر، ويُشيعُ البلبلةَ والاضطراب والفوضىٰ في المجتمع، فيفقد الوحدة والألفة والانسجام، وتنشأ فيه الفتن العامة والفساد. وهذا الخطابُ مُوَجَّهٌ إلىٰ المنافقين وضعاف الإيمان وحديثي العهد به.

ثم ختم السورة بما يحمل علىٰ التمسُّك بما جاء فيها، وذلك بالترهيب والترغيب المطويِّ في بيان قدرته سبحانه ومُلكيَّته لهذا العالم، وأنَّ كلَّ ما في السماوات والأرض تحت تصرُّفه وسلطانه فَلْـيَحذَروه، وأنه سبحانه يعلم كلَّ ما يصدر من الناس، وسيرجعون إليه فيُجازيهم علىٰ الإحسان إحساناً، وعلىٰ السوء سُوءاً، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾﴾ لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذرَّة في الأرض ولا في السماء.

وعَدَل عن الخطاب إلىٰ الغيبة في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ للمبالغة في الترهيب، وهو معطوفٌ علىٰ مضمون ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: يعلم الآن ما أنتم عليه، ويعلمه يوم يرجعون إليه. ويجوز أن يكون الأول عاماً، والثاني خاصاً بالمنافقين. ولفظ ﴿قَدْ﴾ للتحقيق والتأكيد.

* * *

سُورَةُ الفُرْقَانِ

مكيَّة، وهي سبع وسبعون آية

جاء الكلام في هذه السورة عن القرآن، وانقسم الكلام فيه إلىٰ قسمين:

أولهما: في دفع ما أوردوه عليه من شُبه، وتوعُّدهم بما وقع قبله من النُّذر الأولىٰ.

والثاني: في أنهم لم يتأثروا بذلك لجهلهم ولتكبُّرهم.

❋ ❋ ❋

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا
﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا
وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ
وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا
فَهِىَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ
إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تكاثر خيره، أو تعالىٰ الله ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾، فالكلام تمجيدٌ لله سبحانه علىٰ منَّة إنزال القرآن.

ثم ذكر صفاتِ قدرته وصفاتِ تنزيهه؛ إرشاداً للتوحيد وتأنيباً علىٰ الشرك، فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وهذا الوصف لبيان اختصاصه بالألوهية، ولإثارة الشعور بالحذر منه تعالىٰ، لأنه الملك الجبار، ذو السلطان المُطْلَق، والقاهر فوق عباده، انفرد بالألوهية والربوبية والتدبير، ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا﴾ تعالىٰ عن ذلك عُلواً كبيراً، ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى﴾ ذلك ﴿ٱلۡمُلۡكِ﴾ والإيجاد له، خاب المشركون وخسروا.

ثم أتىٰ بما هو كالدليل علىٰ نفي الولد والشريك، ضمن بيان الخلق والإتقان منه تعالىٰ، فقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا ﴿٢﴾﴾ أي: هيَّأه لما أراد له من الخصائص

وأراد به من الفِعَال، كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك والنظر والتدبُّر في الأمور ومزاولة الأعمال المختلفة، وكتهيئة النحل لصنعة العسل مثلاً، وهكذا أحوال سائر الأنواع من المخلوقات وطبائعها وما خُلقت له وما هُديت إليه، فذرات الأكسوجين والهدروجين في الماء بينهما نسبةٌ مضبوطة في الثِّقل والحجم، فالأول أثقل من الثاني، والثاني أكبر حجماً، علىٰ نِسَبٍ لو اختلَّت وزناً أو حجماً لفسد الماء. ومثل القمح والقطن مركبان من عناصر فوق العشرة، متَّحدة في الأكثر، مختلفة نِسَبِها في تركيب كلٍّ واحد منها. وهذا الاختلاف جَعَل مادة القطن صالحة للُّبس، ومادة القمح صالحة للأكل. وهكذا قدَّر سبحانه وتعالىٰ مُركّبات سائر الأشياء ومقدَّراتها ومواهبها وخصائصها؛ لتصلح لِـمَا خُلقت له وأريد منها، فكلٌّ ميسَّرٌ لِـمَا خُلق له. جلَّت حكمة الحكيم الخبير.

ووجه الاستدلال بالآية علىٰ نفي الولد والشريك: أنَّ نسبةَ الأشياء كلها إلىٰ الله تعالىٰ نسبةُ المخلوق إلىٰ الخالق، والمخلوق لا يكون ولداً ولا شريكاً.

وقد نسقت هذه الآية بين عظمة الله وقدرته ونفي الولد والشريك عنه، علىٰ نهج القرآن في الجمع بين المواضيع المتعددة وتنسيقها في سلك واحد. ويجوز أن يكون في الآية إيمـاءٌ إلىٰ شدَّة حاجة الإنسان لإنزال هذا القرآن؛ لأنه إذا كان كلُّ شيء مقدَّراً تقديراً دقيقاً، ومنه ما يخصُّ شأن الإنسان في دنياه وأُخراه، فلا يُمكنه أن يدركه علىٰ وجهه الصحيح، إلا بتعاليم الله وتوجيهاته، وقد تكفَّلت بذلك تعاليمُ القرآن.

وبعد هذا البيان عن عَظَمة الله تعالىٰ وقدرته البالغة الدالة علىٰ نفي الشـريك وعلىٰ استحقاقه وحده للألوهية، شنَّـع علىٰ المشركين جهلَهم وحُـمْقَهم في ادِّعاء أن بعض المخلوقين شركاء له تعالىٰ، فقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾ أي: ليس فيهم من صفات الإلهية شيء، فكيف يكونون آلهة يُعبَدون؟!

وبعد أن بيَّن سخافـتَهم في هذا الشرك، بيَّن سخافـتَهم في أمر القرآن، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: كذبٌ واختلاقٌ ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: اختلَقَه محمدٌ ﷺ من نفسه، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾، فأنحىٰ عليهم تأنيباً بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ أي: بهذه الدعوىٰ الأفوك، والضلال البعيد، والافتراء السخيف، إذ قد تحدّاهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، ولو كان من عند محمد ﷺ لأمكنَهم أن يأتوا بمثله وهم الفُصَحاء البلغاء.

ثم حكىٰ زَعْمَ فريقٍ آخر منهم، فقال: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ ليحفظه من أفواه مَنْ يُمليها عليه من ذلك الـمُكتتَب. وإنما ذكروا هذا القيد وألحقوه بالزعم؛ لكونه أمياً لا يقرأ الكتابة التي كُتبت له، فهي تُقرأ عليه.

فردَّ عليهم سبحانه ببيان الحقِّ فيه، فقال: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ووجه الرد: أنَّ ما في هذا القرآن من أسرار الكون، وأحوال الغيب، ودقائق التربية والتوجيه، يُثبِتُ أنه مُنزَّل من الله سبحانه؛ إذ لا يتأتّىٰ ذلك إلا ممن يكون عالماً بأسرار السماوات والأرض وسنن الأكوان، فما لكم كيف تحكمون؟

والآية تُؤذِنُ بصلة القرآن بالحقائق العلمية، لذلك لا يناقض في تلميحاته لتلك الحقائق أيَّ نظرية علمية صحيحة، أو سِرٍّ تَعثُر عليه البحوث. وذلك من جملة الأدلة الكثيرة التي تدلُّ علىٰ أن القرآن العظيم من عند الله سبحانه.

ثم علَّل تأخير عقوبتهم علىٰ أعمالهم الفظيعة وأقوالهم الشنيعة، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾، لذلك لا يُعجِّل بعقوبتهم علىٰ ما يقولون ويتقوَّلون، بل يُمهِلُهم لعلَّهم يرجعون.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ۝٩﴾.

ثم ذكر أباطيلَهم وشُبَهَهم السخيفةَ في حقِّ الرسول الـمُنزَّل عليه هذا القرآن، فقال: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ مِثلَنا، ﴿وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ مِثلَ عوامِّنا والسوقة منا. قال الثعالبي[1]: أي: ليس بمَلَكٍ ولا مَلِكٍ؛ لأنَّ الملائكة لا يأكلون ويشربون[2]، والملوك لا يتسوَّقون، فعجبوا منه ﷺ وأنكروا عليه أن يكونَ مِثلَهم في الحال، ويمتازَ من بينهم في علوِّ المنزلة والجلال.

أقول: وذلك لأنهم كانوا يتخيَّلون أنَّ الرسول لا بدَّ أن يكون ذا صفات يفترق بها عن طبائع البشر، ويستطيع أن يفعل ما لا يفعله الناس من خوارق العادات.

قال البيضاوي: يريدون: إن صحَّ دعواه فما باله لم يخالف حالُه حالَنا. وذلك لعَمَهِهم وقصور نظرهم علىٰ المحسوسات، فإن تمييز الرسل عمَّن عداهم ليس بأمور جسمانية، وإنما هو بأمور نفسانية، كما أشار إليه تعالىٰ بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الكهف: ١١٠][3].

ثم تنزَّلوا عن اقتراحهم من أن يكون مَلَكاً مستغنياً عن الأكل والشرب، إلىٰ

---

(١) هو أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد الثعالبي الجزائري (٧٨٦-٨٧٥هـ)، مفسِّر من أعيان الجزائر، له: «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» و«الأنوار». انظر: «الأعلام» للزركلي (٣: ٣٣١).

(٢) أي: ولا يشربون.

(٣) «تفسير البيضاوي» (٤: ١١٨).

اقتراح أن يكون معه مَلَكٌ يُصدِّقه، ويكون رِدْءاً له في الإنذار والبيان، عندما يتلو القرآن، وقد حكىٰ ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾.

ثم تنزَّلوا من اقتراح أن يكون مَلَكاً محتجباً عن الناس، إلىٰ اقتراح أن يُلقىٰ إليه من السماء كَنْز يستظهر به ولا يحتاج إلىٰ طلب المعاش في التجارة والأسواق، فيكون ذلك دليلاً علىٰ صدقه، وقد حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾.

ثم تنزَّلوا عن ذلك إلىٰ اقتراح ما هو أيسَرُ منه، فقالوا: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ أي: إن لم يُلْقَ إليه كَنـزٌ فلا أقلَّ من أن يكون له بستان، كما للمُثْرين وأرباب اليُسْر ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، وقرئ: (نأكل) بنون الحكاية[1]، وفيه مزيدُ مُكابرةٍ وفَرْطُ تحكُّمٍ وتندُّرٍ.

ثم عقَّبوا هذه الاقتراحات بالتصريح بما تضمَّنته من الإنكار، وهو ما حكاه سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾ أي: رجلاً قد غُـلِبَ علىٰ عقله. ووضع المُظْهَر مَوضِعَ المُضْمَر؛ تسجيلاً عليهم بالظلم وتجاوُز الحدِّ.

فـعَجَّبه تعالىٰ من سَخافة عقولـهم، وبَلادة نَـظَرهم، وعَجْزهم عن الـتَّمويه المعقول والخداع الرائج في حقِّه ﷺ، من شبهة ناهضة، أو وصمة غير داحضة، ولكنها اعتراضاتٌ واهية، واقتراحات فاهية، فقال: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾ إلىٰ تمويه ينطلي علىٰ العقل وينخدع به في القدح بنبوَّتك. وكلُّ ما قالوه أضحوكةٌ للعاقل ومَهْزلةٌ للمازح.

---

(١) وهي قراءة حمزة والكسائي كما في «التيسير في القراءات السبع» ص١٦٣.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل
لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن
مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ
ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ
ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ
ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ
أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا
بُورٗا ﴿١٨﴾ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم
مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴿١٩﴾ ﴾.

ثم ردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ بأن يجعل لك بَدَلَ الجنة ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾ ﴾ ولكن أخرَّ لك ذلك إلىٰ الآخرة، لأنه خيرٌ وأبقىٰ، ولأن الأنبياء لا تـميل طبائعُهم الكاملة إلىٰ زخارف الحياة الدنيا الفانية، بل يحتقرونها ويَصْدِفون عنها.

ثم علَّل هذا السخفَ منهم بصورة إضراب إلىٰ بيان منشئه فيهم، فقال: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ﴾ فقَصر نظرهم علىٰ الدنيا وحطامها، والماديات وغرورها. ثم سجَّل عليهم بهذا التسجيل العام فقال: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾ أي: هيَّأنا وحَضَّرْنا لهذا الصنف من الناس ناراً يَسْتعرون بها.

ثم أوغَـلَ في وصف تلك النار الهائلة؛ للإيقاف علىٰ أمرها تحذيراً منها، فقال: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ فنزَّلها منزلةَ الطالب الحانق، والأسد اللاحق، وهذا الوصف للمبالغة بالتهويل المنصوص عليه في قوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾ ﴾، فشبَّه صوت

غليانها من بعيد بصوت المُغْتاظ الحانق وزفيره، والأسد الهاجم وزئيره، كأنها مُغْتاظةٌ منهم حانقةٌ عليهم طالبةٌ لهم.

ثم ذكر حالتَهم فيها، فقال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ مُعَدّاً لهم فيها، وهذا الوصف يفيد الزيادة في الشدَّة، وكذلك قوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: قُرنت أعناقُهم إلىٰ أيديهم بالأغلال، أو قُرِنَ بعضُهم مع بعض، ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ أعاذنا الله، أي: تمنَّوا الهلاك ونادوه نداءً. وهذا تصويرٌ للشدَّة المتناهية والعذاب الأليم.

فيُقالُ لهم: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾، يُقالُ لهم ذلك تندُّراً عليهم وتيئيساً لهم من الخلاص، أي: لا تنفعكم الشكوىٰ. أو المعنىٰ: إن عذابكم اليوم أنواع كثيرة، كل نوع منها ثبور.

وبعد أن وصف الشقاء المُعَدَّ للمُكذِّبين، أتبَعَه بوصف الهناء المُعَدِّ للمؤمنين، علىٰ طريقة القرآن في المقابلة بين مصير الصنفين، وسَبَكه علىٰ التقريع لأولئك المكذِّبين والتهكُّم بهم، زيادةً في التنبيه والتحسيس، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم ـ أيها الرسول ـ: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الشقاءُ ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ﴾ بها ﴿ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ يصيرون في الآخرة إليها، ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ من أنواع السعادة والنعيم حالَ كونهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾ إلىٰ أبد الآبدين، فلا تُنغِّصُهم مخافةُ قَطْع ولا تحويل.

ثم بالغ في تحقيق هذا الوعد والمصير وتسجيله لهم، فقال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ أي: موفًىٰ به لا محَالة. وهذا الوصف مأخوذ من حال المخاطبين، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة)، فإنَّ الذي يُعطي عهداً مُسجَّلاً في أمر يكون مسؤولاً عن إنجازه.

ثم تابع الكلام عن المشركين، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ

﴿ٱللَّهِ فَيَقُولُ﴾ للمعبودين من الأنبياء والصِّدِّيقين والرجال الصالحين، إلزاماً للعابدين: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بأن دَعَوْتُموهم إلىٰ عبادتكم ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ لإخلالهم بفِطَرِهم، حتىٰ فقدوا الاستعداد للنظر الصحيح، واتِّباع المرشد الناصح، والتمييز بين الحق والباطل، وبين الهدىٰ والضلال؟

وهذا الاستفهام للتقريع الصافع، والتبكيت اللاذع، للعَبَدَة الضالِّين، حيث ردَّ المعبودون بما فيه المبالغة في التبرُّؤ والتنزيه، إذ ﴿قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، فكيف ندعو غيرَنا لذلك، وأنىٰ للمؤمن أن يدعو إلىٰ الشرك!

ثم يذكرون منشأ ضلالهم مسبوكاً علىٰ تقريعهم وتأنيبهم، حيث بدَّلوا نعمة الله كفراً وقُبْحَ فعال، وقد حكىٰ عنهم سبحانه بقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بحُسْن الحال وأنواع النِّعَم، فاستغرقوا في الشهوات وأفسدوا طباعَهم ﴿حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ﴾ أي: غفلوا عن ذِكرِكَ في آثارك وأعمالك ونِعَمِكَ وأفضالك، ﴿وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ أي: هالكين بفعلهم هذا.

ثم التفت إلىٰ المشركين مفاجئاً لهم بالاحتجاج والإلزام، وبما فيه تنديم وإيلام، مفاجأةً حسنةً رائعةً، فقال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ عنهم أنهم آلهة، ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ للعذاب عنكم، ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ يُعينكم عليه.

ثم ختم المُحاجَّة مسجِّلاً بالوعيد العام، فقال: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بالشِّرك ـ أيها البشر ـ ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ وَقَالَ

ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ
عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٢٢﴾
وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ
مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ
ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴿٢٦﴾ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ
يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ
ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾.

ثم نقض عليهم شُبْهةً من شُبَهِهم السابقة الماضية، وهي قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ...﴾ [الفرقان: ٧]، وخصَّها بالنقض لأنها أساسٌ لبقية الشُّبَه، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ أي: من البشر، ولم تكن الرسالة مما يُخَصُّ بالملائكة والملوك كما يزعمون، وذلك معلومٌ عند الناس؛ لأن تاريخ النبوّات غيرُ مجهول فيما بينهم.

ويجوز أن يكون تأخير الجواب عن هذه الشبهة لأنها أَوْهىٰ تقوُّلاتهم الواهية، فأخَّرها إلىٰ آخر الكلام.

ثم ثبَّته ﷺ علىٰ تحمُّل هذا الأذىٰ منهم، ببيان هذه السُّنَّة الاجتماعية العامَّة، فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ﴾ أيها الناس ﴿لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ أي: ابتلاءً واختباراً، أو المعنىٰ: جَرَتْ حكمتُنا في سُنَنِنا أن تبتلىٰ المرسلون بأممهم، وقد قرَّر التثبيت بهذا الاستفهام التقريري، فقال: ﴿أَتَصۡبِرُونَ﴾ علىٰ ذلك الابتلاء؟ يحملهم بهذا الاستفهام علىٰ الصبر والثبات.

ثم ذيَّل الكلام بقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾﴾ أي: في وَضْع الأمور

وتنظيمها، ولكنّ الحِكَمَ المقتضية لذلك قد تخفىٰ علىٰ الناس. ويجوز أن يكون هذا التذييلُ وعداً للمؤمنين ووعيداً للكافرين.

ثم ذكر لمنكري نبوَّة محمد ﷺ عناداً آخر، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فعَنْوَنَهم بهذا العنوان، لأنه مصدر العناد في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ليخبرونا بصدق محمد، أو هَلّا أُرسِلَ إلينا ملائكة، ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ عياناً فيأمرنا بتصديقه واتِّباعه، أو يأمرنا بأوامره، فسجَّل عليهم بقوله: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حتىٰ اجترؤوا علىٰ التفوُّه بمثل هذه العظائم، ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ أي: تجاوزوا الحدَّ في التعنُّت والطغيان تجاوزاً عظيماً، بالغاً أقصىٰ غاياته.

ثم توعَّدهم بردِّ التندُّر عليهم، وأنهم سَيَرون الملائكة تنزل إليهم، ولكن لا لِـمَا طلبوه، بل لإنزال العذاب بهم، وحينئذٍ يَتمنَّون لو لم يكونوا يرونهم، فقال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يَرَوْنهم علىٰ ما يسوؤهم، و﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ بنزول الملائكة، بل وبالٌ عليهم وبلاءٌ، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حينئذ ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: عَـوْذاً مُعاذاً. يقول الكَفَرة حينئذ هذه الكلمة استعاذةً واستجارة بالله أن يمنعهم من الملائكة، ويعيذَهم منهم. وهذه الجملة مستعارة مما كانوا يقولونه عند لقاء عدو أو هجوم مكروه، وهي تُمثِّل هَوْلَ ما نَزَل بهم وجَزَعَهم الشديد منه، ولا تُجديهم نفعاً هذه الاستعاذةُ والاستغاثة، ولكنها مظهرٌ للجزع والهلوع.

وفي هذا الرد نوعٌ مما يُسمِّيه البُلَغاءُ: القول بالموجب، وهو أن يجاري المتكلِّمُ السائلَ، ويعكس الأمر عليه. ومحصَّل الرد: أنهم سيَرَونَ الملائكة ولكنْ بصورة تجلب لهم الويلَ والثبورَ، لا كما يريدون ويشتهون. ففي صورة التعبير إيماءٌ إلىٰ أن الذي كانوا يتطلَّبونه من نزول الملائكة عليهم، يتمنَّون اليوم أن لا يروه.

والتعبير بقوله: ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ بصورة نفي الجنس؛ للمبالغة في نفي البُشرىٰ. وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ معطوفٌ علىٰ مدلول قوله: ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾، لأن كِلَيْهما يدلان علىٰ عظمة الهول والمكروه الشديد.

ثم ذكر سبحانه مصير أعمالهم التي كانوا يعتقدونها براً ونفعاً، ويظنونها تقرِّبهم إلىٰ الله زُلفىٰ، فقال: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: لم يكن لهم منه أيُّ فائدة، لأنهم عملوه لغير الله، أو لأنهم أشركوا معه غيرَه. وتحليل ذلك: أنَّ العمل الصالح إنما ينفع بحُسْن أثره في النفس، ونفوس هؤلاء قد أوغَلَ فيها الفسادُ، وفقدت الاستعدادَ لذلك الأثر، فلم تنتفع به. وبعبارة أخرىٰ: إنَّ الأعمال ـ إذا صَدَرت ممن ليس له عقيدة صحيحة ـ لا تكيِّف النفس بكيفيَّة مؤهلة لسعادة الآخرة ونعيمها. وبعبارة أخرىٰ: لأنهم في أعمالهم كمن يطلب مقصداً ويسعىٰ إليه بطريق لا يُوصِلُ إليه.

وإسنادُ الفعل إلىٰ الله سبحانه لأنه بمقتضىٰ السنن الكونية، والله سبحانه هو واضع تلك السنن والأسباب، والآيةُ شبيهةٌ بآية النور، وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ...﴾ [النور: ٣٩].

وبعد أن بيَّن حال الكفار في هذه الخسارة والخيبة، وَصَفَ حالَ أهل الجنة؛ مبالغةً في تحسيس الكفار بخَسارتهم الفادحة، وتنبيهاً إلىٰ أنَّ الحظَّ كلَّ الحظ في طاعة الله تعالىٰ، فقال: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: موضع قيلولة، وهي استراحة نصف النهار إذا اشتدَّ الحر، استعارها لإحدىٰ حالات الجنَّة الرغيدة(١). وصيغةُ التفضيل تهكُّمٌ بأهل النار، أو هي علىٰ غير بابها لمجرَّد المبالغة.

---

(١) الراجح في معنى ﴿مَقِيلًا﴾: مكان نوم وراحة في مدة البرزخ بين الموت والبعث، حيث تبقى نفوس أصحاب الجنة يوم يرون الملائكة في حالةٍ تشبه حالة النائم في قيلولته.

ثم تابع الكلام عن حال الكافرين، فذكر يوم القيامة وشأنهم فيه، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ والباء للمصاحبة، أي: تتفرَّق أجرامُ السماء وتتمزَّقُ، فتكون كالبناء المنهدم المتداعي من شاهق، حيث يتخلَّل أوصالَه غبارٌ من مسحوقه يشبه الغمام، وذلك من تأثير اصطدام الكواكب ببعضها وتفسُّخها، أو أنها ترجع إلىٰ أصلها، وهو السَّديم ـ والله أعلم ـ ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ أقول: هل للتشقُّق دَخْلٌ في هذا التنزيل، أو هو حال مستقل بذاته لأمر يريده الله منهم؟ والله أعلم بذلك، و﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ وأما ملوك الأرض فهم حينئذ أذلاء، ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

وإيراده تعالىٰ بصفة «الرحمن» ـ والله أعلم ـ للإيذان بأنه مع اتِّصافه بغاية الرحمة لا يهوِّن الخطبَ وعُسْرَه علىٰ الكفرة والمشركين، كما أنّ رحمته لا تحول دون العطب والتلف لمن يتردَّىٰ من شاهق إلىٰ مكان سحيق، بحكم السنة الطبيعية، فكما أن التردِّي سببٌ طبيعي للتلف والهلاك، فكذلك الكفر والأفعال السيئة سَبَبٌ كَوْنِيٌّ[1] للشقاء في دار البقاء، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، فلن تحول رحمتُه دون تنفيذ سنَّته وإجرائها علىٰ صورتها للطبيعة الكونية ـ والله أعلم ـ لأنها قد كُوِّنت ونظِّمت كذلك.

ثم ذكر نَدَمَهم الأليم في ذلك اليوم الرهيب، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ ندماً وتحسُّراً ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ يريد: مَنْ أضلَّه في الدنيا، كما قال: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ وهو

---

(١) بل هو سبب شرعي لذلك، يعني: أن الله تعالى رتَّب هذا الشقاء على الكفر والأفعال السيئة في تشريعه الذي أنزله على عباده، وليس هذا الترتيب من النظام الذي وضعه الله للعالم في الدنيا المسمى بالسُّنن الكونية.

القرآن ﴿بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾، فبيَّن سبحانه منشأ ذلك فيهم فقال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾ يواليه ويوسوس إليه حتىٰ يُبعِدَه عن الحق والنجاة، ويُفْضي به إلىٰ الباطل والهلاك، ثم يتركه ويمضي، ويقول: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٦].

وفي الآية تصريحٌ بأنَّ الضلال ليس في طبيعة الإنسان، ولا مخلوقاً فيها، وإنما يأتيها من سُوء التربية، ورداءة العشير، وفداحة التقليد.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾.

ولما أكثروا من الاعتراضات الباطلة ووجوه التعنُّت، ضاقَ صدرُ الرسول ﷺ وشكاهم إلىٰ الله تعالىٰ، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾﴾ يعني: هَجَروا القرآن وكذَّبوني.

فبيَّن له سبحانه سُنَّة الله في أخلاق البشر المحرِّفين لِفطَرِهم، ليزيده علماً بسنن الاجتماع، ويحمله علىٰ التثبيت تجاه معارضتهم، أسوةً بمَنْ قبله من الأنبياء، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: كما جعلنا هؤلاء أعداءً لك، جَعَلنا لكلِّ نبيٍّ عدواً من المجرمين كذلك. ومعنىٰ هذا الجَعْل: أنَّ سنَّة الله تعالىٰ في طبائع البشر مَضَت بأنَّ الشرير العاتي عن الحق لا ينقادُ له كِبْراً وعِناداً، ويكون عدواً للدعاة إليه من الأنبياء والهداة، خوفاً علىٰ زعامته وشرفه الزيِّف ومركزه، ولكن الله سبحانه

يقذف بالحق علىٰ الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ أي: هادياً وحافظاً لـهدايته ولمن يقوم بها. وهذا وعدٌ كريم له ﷺ بالهداية إلىٰ طرق النجاح والفلاح، والنصر علىٰ الأعداء والمعارضين.

ثم ذكر اعتراضاً آخر لبعض هؤلاء الكفار، وأجاب عنه، لأنه توضيح للهداية والنصر المبين، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾(١) كما أُنزِلَت بقيةُ الكتب السماوية، يريدون بذلك: أنه ليس مُنزَّلاً من عند الله؛ لأن الله يُنزل كتبَه جملةً واحدة غير منجَّمة. فأجاب عن هذا بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: نزَّلنا كذلك عليك متفرِّقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ حيث تنزلُ الآيةُ عند حادثةٍ تحدث، فتكون تثبيتاً لك وتشريعاً، وأكثر تأثيراً علىٰ النفوس، كما هو معلوم من أصول الإرشاد الصحيحة، وأحوال النـفس، وفنون التربية، ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ أي: قرأناه عليك شيئاً بعد شيء، بتُؤَدةٍ وتمهُّل في أكثر من عشرين سنة لهذا الغرض.

وتحرير ذلك: أنَّ الشريعة الإسلامية كثيرةُ الأحكام والتثقيف، لا تُقاس ببقية الشرائع، أنزلها الله عالميَّـةً للبشر، مستمرةً إلىٰ نهاية الدهر، ذات قواعد كلية واسعة مرنة، أودع سبحانه فيها كلَّ ما يحتاجه البشر إلىٰ نهاية العالم، وجعلها خاتمة الشرائع، فاقتضت

---

(١) هذا الاستفهام للإنكار، ومؤدَّاه: لو كان من عند الله لَنَزَلَ جملةً واحدةً كتوراة موسىٰ، ولكنه من عنده يقوله مدرجاً، أو كلما احتاج إلىٰ موضوع منه يسحر به الناس. فأجابهم سبحانه عن سبب ذلك التدرُّج بما يشتمل علىٰ أمرين: الأول: تثبيت الفؤاد، ومراده: دوام الاتصال بوحي الله، فيكون في إحساس مستمرٍّ بصلته بربه سبحانه. والثاني: الترتيل والتريُّث، وذلك لأغراض؛ منها: أن يسهل علىٰ النفوس تبديلُ تشريعاتهم وعادتهم بأحكام الله وتشريعاته في هذا التدرُّج والتمهُّل، وذلك موافق لطبيعة النفس والأصول التربوية والسنن الاجتماعية، ومنها: سهولة حفظه في الصدور، فوق كتابته في السطور؛ لأنَّ حِفظَ المنجَّم أسهَلُ علىٰ النفس وأرفق بها، وباستدراجها لذلك. (المؤلف).

حكمةُ الله سبحانه مراعاةَ التدرُّج في نزولها، إذ من الصعب علىٰ النفوس أن تتلقَّىٰ تلك الأحكام والتثقيفات الكثيرة، وتتخلَّىٰ عن سائر تقاليده جملة واحدة، وقد يكون في ذلك ردُّ فعل لا تُحمَدُ عُقْباه.

ثم ختم السياق المتسلسلَ باعتراضاتهم المقرونة بالردِّ عليها، وذيَّله بقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: اعتراضٍ وشَغَب يضربون عليه المَثَل ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ نردُّ به اعتراضَهم ونُوضِّح إشكالهم. يُنكِرُ بهذا علىٰ شُبَهِهم التافهة الباطلة، ويُزيِّفها عليهم، ويفنِّد آراءهم في ذلك.

ثم جعل خاتمةَ الختام لهذا السياق بيانَ مصير هؤلاء الكافرين، توعُّداً لهم وتبصيراً، وقد ذكره بأسلوب قابَلَ به مصيرَ أصحاب الجنة السابق، وطابق به تضليلَهم لسبيله ﷺ، باعتراضاتهم وتمويهاتهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ فينتكسون في الآخرة كما انتكسوا في الدنيا، وقد وضعَ للنعي عليهم التسجيلَ الآتي موضعَ التعليل، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾، وصيغة التفضيل ليست علىٰ بابها، ولكنَّها للمبالغة في الوصف.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

ثم أردف هذا السياق، وذكر جماعة من الأنبياء عليهم السلام، وما نزل بمن كذَّب بهم من أممهم من البلاء، ردعاً لهؤلاء المكذِّبين، وتَبْصرةً لهم، وتسليةً له ﷺ،

وتأكيداً للوعد بنصره عليهم، وتفصيلاً لما أجمله بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ يُعاونُه في نشر الدعوة ويؤازره، ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم قوم فرعون، فذهبا فكذبوهما ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾ بالإغراق ﴿تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾. وقوله: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾ معطوفٌ علىٰ محذوف، بحسب نهج القرآن في مثل ذلك، وقد اقتصر علىٰ حاشيتَي القصة، اكتفاءً بما هو المقصود منها.

وقدَّم قصة موسىٰ وقومِه؛ لأنها أقربُ في التاريخ، ثم عطف عليها قصة نوح؛ لأنها أبعَدُ في التاريخ، ومشابهةٌ لها في الإغراق، فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: عبرةً عظيمة، يعتبر بها كلُّ مَنْ سمعها.

وإنما جمع ﴿ٱلرُّسُلَ﴾: إما ليشمل نوحاً ومَنْ قبله من الرسل، وإما لأن تكذيبه تكذيبٌ للجميع، لاتفاقهم علىٰ التوحيد والتنزيه لله تعالىٰ. فهؤلاء بإشراكهم كذَّبوا جميعَ الرسل، فتوعَّدهم بهذا الوعيد العام، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾، والشركُ أكبرُ الظُّلم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ثم عَطَفَ علىٰ قصة نوح بعضَ مَنْ كانوا بين تاريخ نوح وموسىٰ من الأنبياء عليهم السلام، فقال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ وهم قوم شعيب، والرَّسّ: اسمُ بئر لهم. وقيل: قوم حنظلة بن صفوان.

ثم أردفهم بهذا التعميم، فقال: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ أي: بين عادٍ وثمود وبين أصحاب الرَّسّ ـ قوم شعيب ـ قرونٌ كثيرة لا يعلمها إلا الله.

وفيه دلالةٌ علىٰ أنَّ تاريخ البشر حافلٌ بالأنبياء، وهو طويل جداً، لا يُعَدُّ بالسنين، بل بالقرون، وكله مشحون بمعارضة الأقوام، وتكذيبهم لهم، وإعراضهم عمَّا جاؤوهم

التبصير والإنذار، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي: بيَّنا لهم الأمر بألوان من البيان، وأثبتنا لهم القضيَّة بكلِّ برهان، ولكنَّ هذا كلَّه لم يُقنِعْهم، ولم يَهْدِهُم للرشاد.

وقد بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: من آيات الله هذه ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من فَرْط عِنادِهم: ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ يعنون: الرسول والمؤمنين ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ مزوِّرون.

ثم ذكر سبحانه وتعالى مصدر ذلك فيهم، ببيان سنَّته في أخلاق البشر وطباعهم، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: جَرَت سنَّته تعالى في الراسخين في الجهالة أن يفقدوا الاستعداد للنظر الصحيح في البحث، ويَعدِموا الفهمَ والدراية، فلا يهتدون إلى الحق سبيلاً.

ثم ثبَّته سبحانه وتعالى تجاه عِنادِهم وعُتوِّهم، وقال: ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ على أذاهم، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ بنصرك وإظهار دينك على الدين كلِّه ﴿حَقٌّ ﴾ لا بدَّ من إنجازه، ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ أي: لا يحملنَّك على الخِفَّة والعَجَلة إلى الحزن وشدة الغضب عليهم، ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ بما تتلو عليهم من الآيات. أي: لا يَحْمِلنَّك كفرُهم وتكذيبُهم وإيذاؤهُم لك على ذلك، أو: لا يَحْمِلنَّك استخفافُهم بك على الفتور في الدعوة، وتغيير موقفك معهم.

❋ ❋ ❋

إلى الحياة الأخرى، فبيعها بها خسرانٌ مبين، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ في الدنيا، يستقلُّون تلك الحياة بالنسبة لِـمَا رأوه بعدها من أزمان طوال، إظهاراً للندم، فقد أدركوا أنَّ الحياة الدنيا إنما هي المرحلة الأولى من سَفْرةٍ طويلةِ المَدَى، عديدةِ المراحل والتقلُّبات، فنَعَى عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ويُعبَثُ بعقولهم ويُصرَفون عن هذا الأمر العظيم بالأوهام والخرافات. أو المعنى: أنهم لـمّا رأوا شدَّة العذاب في الآخرة نَسُوا ما لبثوه فيما قبلَ البعثِ من حياة البرزخ الطويل؛ لأنه ـ مع طوله ـ قصيرٌ بالنسبة إلى ما بعده من الحياة الثانية. والله أعلم.

ثم ذكر ما يقوله لهم الملائكة والمؤمنون في تحقيق الأمر، وتقريعهم على الجهل الذي أفضى بهم إلى الكفر، فوقعوا في الوبال، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾، وصورة هذه العبارة تُلمع أيضاً إلى طول البرزخ، أي: لقد لبثتم مُدَداً لا يعلمها إلا الله حتى جاء البعث، ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي كنتم به تكذِّبون. وقد أقام مقامَ هذه الجملة قولَه: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ فتنكرون البعث، ولا تُقرُّون به ولا تُصدِّقون، فصار مصيرُكم إلى النار.

وقد أيأسهم من النجاة، فسجَّل سبحانه عليهم بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: لا يُدْعَونَ اليوم إلى ما يقتضي إعتابَهم، وهو التوبة والطاعة، كما كانوا يُدْعَونَ إلى ذلك في الدنيا.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم ختم السورة ببيان أنه سبحانه وتعالى أزال الأعذار، وأتى بما فوق الكفاية من

ثم ذكر الذين يسمعون الهدى فيتبعونه، فقال: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فإنَّ هذا الإيمان قد زاد في مَلَكة استعدادهم للنظر الصحيح في آثار الله واختصاصه بأفعال الألوهيَّة، ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ للحقِّ منقادون إليه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم تابع الكلام عن دليل القدرة مُبيِّناً أطوار النشأة؛ ليشير إلى أنَّ الحياة الأخرى أطوارٌ مُكمِّلة لها، يردُّ بذلك على إنكار المشركين للبعث، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ وهذا على حدِّ قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، أي: ابتدأكم ضعفاء، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وهو دَوْرُ الشباب والكهولة، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ وذلك بحسب مُقْتضى علم الله وحِكمتِه ومشيئته، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ يعمل بما يَقْتضيه عِلمُه ولا يُعجِزُه شيء. وإنما أتى بصفة العلم للإيذان بأنَّ مشيئته تعالى لا تجري جزافاً، ولكن بحسب الحِكَم والمصالح العامة.

وفي الآية إلماعٌ للنبيِّ ﷺ أيضاً إلى أنَّ الذي جعل من بعد الضعف قوة، سيقوِّي ضعفكم السياسي، والله أعلم.

ثم تابع السياق على طريقة إيجاز القرآن وطيِّه، ورَمَزَ إلى أن الموتَ وما بعد الموت والبعثَ وما بعد البعث؛ حلقاتٌ من سلسلة تلك الأطوار أيضاً، إذ وصل هذا البيان بالكلام عن القيامة، وجَعَل أساسَ البحث الإشارةَ إلى أن الحياة الدنيا قليلة جداً بالنسبة

هذا المطر ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: من قبل إثارة السحاب ﴿لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: ليائسين واجمين متحيِّرين، ولكن إذا أثارت الرياحُ السحابَ جاءَ الأملُ والأمانيُّ العِذاب.

ثم حسَّس بِعظَم نِعَم الله هذه، وأدمج في ذلك إثباتَ القدرة على البعث بقياس النظير، فقال: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بالنبات ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ باليبس، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ العظيمَ الذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ أي: لقادرٌ على إحيائهم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾﴾. فطبيعة زمن القيامة في صلاحيَّة إحيائه للأموات، كطبيعة زمن الربيع في صلاحية إحيائه للنبات[1].

وبعد أن كان البيان عاماً، خَصَّه بالمشركين وأجراه عليهم عائداً إلى المقصد الأصليّ، مُلمِعاً إلى أنَّ هؤلاء المشركين لم يتأثَّروا بالنُّذُر؛ لِـمَا بلغوه من الجهل العميق، فقال: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا﴾ غيرَ مثيرة للسحاب فيبس منها الزرعُ، ﴿فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا﴾ غيرَ صالح للإنتاج، ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ ناسبين ذلك إلى غضب آلهتهم عليهم، فيندفعون لاسترضائهم. هذا ما قاله بعض المفسِّرين. أو: يَعُدُّونه طبيعياً ولا يعلمون أنه توفيقُ أقدار لأقدار.

وبعد أن ندَّد بالمشركين ونَعَى عليهم إصرارَهُم على الشِّرك رغمَ وضوح الآيات البيِّنات، وعدم تأثُّرهم بالنُّذر والحوادث واتِّعاظهم بها؛ فرَّع على ذلك تيئيس النبي ﷺ من هدايتهم، فشبَّههم بالموتى والصُّمِّ والعُمْي، وقال: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾، وقيَّدَ إسماعَ الصُّمِّ بهذا القيد؛ ليكون أشدَّ استحالةً وأبلَغَ في التيئيس الذي بالغ فيها بقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾.

---

(١) انظر ما تقدَّم تعليقاً عند تفسير الآية ٨٣ من سورة المؤمنون.

بتجارة البحر، وكذلك بالزراعة بواسطة الأمطار، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ نِعَمَ الله عليكم في هذه الغايات الجليلة.

ثم سلّاه ﷺ بما هو مسبوك على الوعيد، عن عدم اهتداء المشركين من قومه رغماً عن ظهور هذه الآيات البيِّنات، وعن شدَّة معارضتهم له، وذلك بما جَرَى على أمثالهم من الأمم الغابرة عندما عارضوا أنبياءهم، وأدمج فيه الوعدَ الكريم بالنصر للمؤمنين، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ كما جئتَ قومَكَ، فمنهم مَنْ آمن ومنهم مَنْ كفر، ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ﴾ بالتدمير والإهلاك، ونصرنا عليهم الأنبياء وأتباعهم، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ والانتقامُ: من النقمة، وهو السطوة والعقوبة، ويستعمله عُرْفُ التخاطب بمعنى التَّشفِّي، وهي بهذا المعنى مُحالٌ على الله.

ثم بعد هذا الاستطراد، عاد إلى ذكر الآيات ودلائل القدرة بعد هذا الوعد والوعيد، وجَعَله تفصيلاً لِـمَا سَبَق من أحوال الرياح وتكوينها للمطر، فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ ﴾ بخاراً يكون ﴿سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَ﴾ تارةً ﴿يَجْعَلُهُۥ كِسَفًا ﴾ أي: قِطَعاً ومُزناً.

ثم ذكر ما ينتج من هذا السحاب بنوعيه، فقال: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ أي: المطرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾، وقد ثبت علمياً أنه حينما يسخن الهواء القريب من سطوح البحار وغيرها بتأثير الحرارة، يرتفع في الجو ويبرد لوصوله إلى منطقة باردة، أو لامتزاجه بتيار من الهواء البارد، ويسير مدفوعاً بقوة الهواء، فإذا برد تكاثف منه بخار الماء، وتقاطر المطر من خلاله، ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ بحسب عِلمِه وحِكمتِه وسُنَنِه ونظامِه ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ بمجيء الخِصْب والرخاء، ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم ﴾

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟
مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا
مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا
فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾
فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ
ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا
مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ثم عاد إلى ذكر الآيات الدالَّة على اختصاصه بأفعال الألوهيَّة وعلى دلائل قدرته وتحقيق نعمته ومَنِّه، على نهج القرآن في العودة، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ بالمطر؛ لأنها تثير الأبخرة فتنعقد غيوماً، يشير إلى هذا النظام الكوني الدال على القدرة والحكمة البالغة. وقولُه: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ إما معطوفٌ على معنى ما سبقه، كأنه قيل: ليبشِّركم به وليذيقكم من رحمته، وإما معطوفٌ على محذوف، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرات (ب) و(ج) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية)، كأنه قيل: ليكون كذا وكذا، وليذيقكم من رحمته، ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ وذلك حيث جعَل في الماء خاصَّة حَمْل الأثقال إذا كانت على وضع خاص.

وفي عطفها على ما قبلها لطفُ إشارة إلى أن ماء الأنهار من ماء الأمطار ومُكوَّن منه. وفيه وجهٌ آخر من لطف المَسْلَك مع ما قبله، وهو أنَّ الفُلكَ تجري بواسطة الرياح، إذا كانت شراعيَّة، كما كان الحال في الأزمان الغابرة، فيكون المعنى: إنَّ من آياته أن يُرسِلَ الرياح إثارةً للأمطار، وإجراءً للفُلكِ في البحار؛ ليذيقَكُم من رحمته ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

ثم توعَّد هؤلاء المشركين مستشهداً بما جرى على أمثالهم من الأمم الغابرة، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ كعاد وثمود، ثم بيّن منشأ ذلك ومُوجِبَه فيهم بقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ مِثلَكم فاستحقّوا تلك العاقبة. وهذه الآية كالاستشهاد أيضاً على تقرير الحقيقة السابقة في ظهورِ الفساد بما كسبت أيدي الناس وعاقبةِ ذلك فيهم.

وبعد هذا البيان والتوعُّد، التفت لإرشاد المؤمنين ـ في خطاب النبي ﷺ ـ بالتمسُّك بهذه التعاليم الكافلة بالإصلاح، ومُحذِّراً من يوم الحساب، على نهج القرآن في تعقيب النقد والتنديد بالإرشاد والدعوة إلى الرشاد، فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ الذي يكفل لك صلاح الدارَيْن ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو يومُ البعث والحساب، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: يتفرَّقون، فمنهم إلى الجنة ومنهم إلى النار، كما فصَّل ذلك بقوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: وَبالُ كفرِه، وهو النار المؤبَّدة، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: يُهيِّئون لأنفسهم منازلَ في الجنة والنعيم المقيم.

ثم بيّن تعالى أنه يضاعف لهم الثواب، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾ ففيه إشارةٌ إلى عِظَمِ ما سيجزيهم به، وأنه لا يقاس بما عملوه. وهذا هو معنى قوله ﷺ: «لن يدخلَ أحدٌ الجنةَ بعمله»[1] الحديث؛ لأن ذلك الثواب العظيم يكثر أضعافاً مضاعفة عن قيمة العمل، فهو من فَضْل الله وإحسانه.

ثم ألمع إلى أنه سيجازي الكافرين بضدِّ ذلك، ويحرمُهم من هذا النعيم، فقال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾، والويلُ لمن لا يحبُّه الله.

---

(١) سلف تخريجه (٢: ١٦٣).

ثم عاد إلى السياق، وهو الإنكار على المشركين وتقرير التوحيد والبعث، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾؟ أما عندكم شيء من العقل والدراية؟! ما لكم كيف تحكمون؟! ثم استنتج من هذا البرهان تنزُّهَه عن الأنداد والشركاء، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم بيَّن تعالى أنَّ هذا الإشراك هو أساسُ الفساد الذي يظهر في الدنيا، من الإعراض عن تعاليم الله التي يُنزِلُها على العباد لصلاحهم وسعادتهم، فقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ لأنَّ كل الأضرار التي تقع في العالم الإنساني ـ من كليَّة وجزئيَّة، شخصيَّة أو أُمميَّة أو عالمية ـ ليس لها علَّة سوى المَيْل عن قانون الفطرة، والانحراف عن سنن الله في خلقه، وعن أحكام شرائعه الملائمة لتلك السنن، والمُعينة للفطرة على حِفظِ سلامتها، والمزكية لها، وهذا الأمر يكون في أسباب الدنيا وأسباب الآخرة، فإذا انحرفوا عن تلك السنن يجازيهم سبحانه وتعالى بنتائج ذلك الانحراف؛ ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ إلى رُشْدِهم ويتمسَّكون بتعاليم الله بإصلاح الأرواح والأبدان، وتنظيم الأحوال لسائر شؤون الإنسان.

وفي قوله: ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ إشارةٌ إلى عِظَم جزاء الآخرة وعذابها المعدّ لهم على ذلك، وما عذابُ الدنيا في الآخرة إلا قليل وضئيل؛ إذ كلُّ عذاب دون النار عافية.

والآية تُـؤْذن بأن البشر لو سار كله على تعاليم الله هذه؛ لعاش أجمل عيش في أتمِّ وئام، فهي تنعى عليه تفريطه بهذا الأمر القيم والشأن الخطير، إذ لو كان البشر كما أراده الله ـ له دين واحد، ولغته لغة عالمية في جانب سائر اللغات، وحزب واحد وهو حزب الله ـ لعاش سعيداً في الدنيا وفي الآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠].

ثم استطرد إلى بيان وجوب إنفاق مَنْ يُبسَطُ له الرزقُ على مَنْ يُقدَرُ له، ليتمَّ التوازن ويكمل النظام، مبيِّناً أحقَّ الأصناف بالإنفاق عليهم، فقال: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ من الصِّلة والصدقة وسائر المبرّات، ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ما يستحقّانه من ذلك.

ثم نوّه بشأن هذا الإعطاء، فقال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ومثوبته، ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ الفائزون بسعادة الدنيا والأخرى، وبمثوبة الله فيهما.

وبعد أن أمر بالصدقة رغَّب بها، وأدمج في ذلك النهيَ عن الربا المضادّ للصدقة، مقابلاً بينهما، فقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي: ليزدادَ وينموَ منها، مستغِلِّين بذلك حاجةَ الفقراء بَدَلَ مساعدتهم، ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: فلا يزكُو عنده ولا يبارك فيه، ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ﴾ بها ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ وسدَّ حاجة الفقراء ومعاونتهم ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: الذين يُبارَكُ لهم في أموالهم وتَتَضاعَفُ أجورُهم وينالون ثمرةَ أموالهم أضعافاً مضاعفةً في الدنيا والأخرى. فألمعت الآية إلى أنَّ الربا مضادٌّ لمبدأ التسامح والتعاون الذي شُيِّدت عليه الشريعة الإسلامية، فهي تؤنِّب على الربا، وتنوِّه بالصدقات.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن
يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا
كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن
يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ
يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ من نعمةٍ وصِحّةٍ وسَعَة ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ حالةٌ ﴿سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ من رحمته ويُعرِضون عنه.

وفي صورة التعبير إيذانٌ بأن المصائب إنما تكون بفعل الإنسان نفسه، وذلك بمعاكسته لأنظمة هذا الكون وسُنَنِه الطبيعية، فما من مصيبة وسيئة إلا وهذا منشؤها، حتى الفقر والمرض، وحتى الضلال عن معرفة الحقِّ والصواب، فإنه يتأتّى من إفساد الطبيعة.

وهذه الآية إنكارٌ على الإنسان وتوجيهٌ له أن لا يحسب الخير لا شرَّ بعده، وأن لا يحسب الشرَّ ضربةَ لازبٍ، أي: لا خير بعده، كلا، فـ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

ثم استشهد على ذلك بقضية الرزق؛ كيف يتقلَّب، وكيف يكون بَسْطُه وتضييقُه بالنسبة لتعاطي الأسباب وإهمالها، والتمسُّك بالسنن الطبيعة وتـرْك ذلك، استشهد فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يتمسَّك بأسباب البَسْط والسَّعة، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ الرزق لـمن يشاء مـمَّن يُعرِضُ عن أسباب البَسْط أو لا يُتـقِنُ معاطاتها وعملها[1]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ إذ المؤمن مُسْتَعِدٌّ للنظر والتدقيق في آثار الله، ويعلم بأنَّ سنن الله تعالى لا تتبدَّل، ولا تجري فيها المحاباة، فمن أراد الدنيا وتعاطى الأسباب على وجه الصحة نالها، فكذلك من أراد الآخرة وسعى لها سَعْيَها على الوجه الصحيح نالها، ومَنْ لم يَسْعَ لهما على الوجه الصحيح لم يَنَلْ شيئاً.

---

(١) تقدَّم تعليقاً على الآية ٦٢ من سورة العنكبوت أن التمسُّك بالأسباب عملٌ مطلوبٌ من الإنسان، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى قد يبسط الرزق للعبد مع تمسُّك يسير بالأسباب، ويقدر الرزقَ على عبد مع تمسُّك شديد بها، لحكمةٍ يريدها الله تعالى، فليس الأمر مقروناً بالتمسُّك بالأسباب فقط.

سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ
سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ
يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِن رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا
عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾.

ثم قرن دلائل التوحيد السابقة بدليل الغريزة الدينية والتوحيد الفطري الذي فَطَر الله النفوس عليه، ونبَّه المشركين إلى ظهوره فيهم جلياً عند الشدائد، إذ تَتَجرَّد حينئذ النفوسُ من لوثة الفساد والأهواء الطارئة عليها، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾ على اختلافِ مِلَلِهم ونِحَلِهم ومذاهبهم ومآربهم ﴿ضُرٌّ﴾ وشدّةٌ ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: راجعين إليه ومعوِّلين عليه وحده، ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِنْهُ رَحْمَةً﴾ وخلَّصهم من تلك الشدَّة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ الذي عافاهم وأنقذهم ﴿يُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ أي: فاجأ المشركون من الناس العَوْدَةَ إلى شركهم.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النِّعَم التي منها إنجاؤهم. واللام للعاقبة والكلام على التشنيع، أو للأمر والكلام على التهديد، شبيه قوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)﴾.

ثم تندَّر عليهم مُفنِّداً إصرارَهم على شركهم بعد هذا الإلزام الفاضح، فقال: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي: كتاباً حُجةً لهم، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥)﴾ أي: ينطبق بشركهم هذا ويؤيِّده. وهذا هزؤٌ وتندُّرٌ بهم، وتهجينٌ لأمرهم.

ثم ألحق البحث في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ...﴾ بالتنبيه إلى هفوة كبيرة من هفوات الناس، تَعْرِضُ لهم عند الشدائد، وهي اليأس والقنوط المثبِّط للعزائم، والبطر والأشر عند السَّعة والرفاه، وسَبَكَ الكلامَ بالوعيد، على نهج القرآن، فقال: ﴿وَإِذَا

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ [1] مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ المُبدِّلين لفطرة الله والمُحرِّفين لها؛ بإفسادهم لطبيعتهم وطَمْسِهم لبصيرتهم.

ثم شنَّع عليهم بقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ تُشايعُ كلُّ فرقة مَنْ أضلها، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ ظناً منهم بأنهم على حقّ وغيرهم على الباطل.

وتحرير البيان: أن الذين كانوا يتَّبعون الأنبياء من الأمم الغابرة لم يمض على أعقابهم مدةٌ من الزمن إلا ويخرجون عن الدين الصحيح إلى التحريف والتبديل، تحت تأثير الرؤساء الذين يريد كلٌّ منهم أن يجعل له كياناً خاصاً يتميَّز به عن الآخر وحزبه، فيتَّخذ صبغةً خاصَّة للدين، ويدَّعي أنها هي الصحيحة التي يجب اتِّباعها، ولا تزال تلك الصبغة تشتد وتتنوَّع وتبتعد عن الأصل حتى يصبح الدينُ غيرَ ذلك الدين، ويفقد روحَه وأصلَه السماوي، ويدخل في حدود الأديان الوثنية والعقائد الشركية بتوالي الأزمان، وتمادي التغيير والحدثان.

وتشمل الآيةُ بعمومها ما دون ذلك من التحريف والتفريق أيضاً، فلينتبه المسلمون لهذا التشنيع، فإنه ينطبق عليهم اليوم، وهم فِرَقٌ وأحزاب، وشِيَعٌ مُتميِّزون متنافرون ومتباغضون، وليس الدين الإسلامي إلا توحيداً واتِّحاداً وقرآناً ولغة عربية.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ

---

(١) في الأصل: «ولا تكونن»، وهو خطأ، فقد انتقل ذهنُ المؤلف من هذه الآية إلى الآية ٨٧ من سورة القصص، ولذا جعل الخطاب هنا إلى الأمة في شخص النبي ﷺ، مع أن الخطاب إلى الأمة صراحة.

شأنه، وكبيرَ فائدته لهم في الدنيا والأخرى. وفي هذا إلماعٌ إلى عَظَمة هذا الدين، وأنه تنظيمٌ لمقتضيات الفطرة وحاجاتها من سائر النواحي.

ولما كان هذا الخطاب الخاصُّ في النبي ﷺ مراداً به العموم، أتى بالحال جمعاً فقال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، فأجرى الكلام على المؤمنين بعد أن أجراه على الرسول ﷺ، على نهج القرآن في مثله، فتكون حالاً ثانية بعد قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلين عن غيره مُقبِلين إليه.

وبعد أن غيَّر السياق إلى العموم، عطف على قولِه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ ...﴾ قولَه: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾، وخصَّها[1] بالذكر لأنها أهمُّ أركان هذا الدين وأعظم عناصره، إذ هي مناجاةٌ لله تعالى خمس مرات في اليوم والليلة، فتكون تَغْذيةً للإيمان وإصلاحاً للروح، على أكمل الوجوه، تدفع بها إلى الكمال المنشود لبني الإنسان. والمراد من إقامتها: الإتيان بها بصورة صحيحة، بأن يَعِيَ المُصَلِّي فيها ما يقول في القراءة والتكبير والتسبيح والتشهُّد، وما يفعل من الأعمال والأحوال، خاشعاً لله سبحانه وتعالى، شاعراً بمُناجاته، لا أن تكون حالةً ديناميكيةً وجسداً بلا روح، كما قيل:

تُصَلِّي بلا قلبٍ صلاةً بمِثلِها ... يصيرُ الفتى مُسْتَوجِباً للعقوبةِ

تُخاطِبُه: إيَّاك نعبدُ مُقبِلاً ... على غيره فيها لغيرِ ضرورةِ

ولو رَدَّ مَنْ ناجاكَ للغيرِ طَرْفَهُ ... تميَّزتَ مِن غَيْظٍ عليه وغيرةِ[2]

ثم عاد فأجرى الكلام على الرسول، على نهج القرآن في مثله، وتابع خطاب الأمة في شخصه ﷺ، وأردفَ الأمر بالنَّهي عن ضدِّه لتمكين المعنى وللعودة إلى السياق، فقال:

---

(١) أي خصَّ الصلاة ـ التي هي داخلةٌ في عموم الأمر بالتقوى ـ بالذكر.

(٢) ذكر هذه الأبيات العاملي في «الكشكول» (٢: ٤٠) ونسبها لإسماعيل المقري.

ثم هدَّدهم وصاغ العبارة على التيئيس من الإفلات، فقال: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٩﴾.

وبعد أن أبطل الشِّرك وأثبت التوحيد بالبراهين الواضحة، خاطب الأمة في شخص النبيِّ ﷺ، وقال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ أي: أقبِلْ عليه مائلاً عما سواه، فإنه يماشي ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾(١) ويُسايرُها إلى آخر الدهر؛ إذ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، فلا يُبدَّلُ هذا الدين الكامل الذي يماشي سنَّة الله ويلائمها في طبيعة الإنسان الماديَّة والروحيَّة، كما بُدِّلَت سائر الأديان قبله؛ لأنها كانت موقَّتة ومُحدَّدة، لملائمتها لدرجة رُقيِّ النوع الإنساني قبل كماله، فكانت تَتَبدَّل بتبدُّل الأزمان ورُقيِّ الإنسان إلى أن شبَّ وتكامل استعدادُه المكتسبُ من العلم والمعرفة، فأنزل إليه هذا الدين الكامل الذي نوَّه بشأنه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: لا عِوَجَ فيه ولا نقصان، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ قيمةَ هذا الدين الفطريّ المبين، وعظيمَ

---

(١) توضِّحُ هذه الآيةُ أن الإنسان مفطور على الاعتقاد بخالق الكون، وأنه واحدٌ لا شريك له، جامعٌ لصفات الكمال، وأنَّ هذه الفطرة لا تفارقه إلا إذا أفسدها بمفاسد التربية وسوء القدوة، كما قال عليه السلام: «كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه». ولكون هذا الاعتقاد فطرياً في الإنسان يظهر جلياً عند الشدائد، فلا يتوجَّه الإنسان فيها إلا إلى الله، ولا يلتجئ إلا إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]. وجاء في الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي كلُّهم حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم، وأمرَتهم أن يشركوا بي ...». (المؤلف).

وحديث «كل مولود» سبق تخريجه ص١٤٣.

وحديث «إني خلقت عبادي حنفاء» رواه مسلم (٢٨٦٥)، عن عياض بن حمار.

شركاء الله؛ كيف تكون حالهم أعلى شأناً من المماليك الذين ليس بينهم وبين مالكيهم فَرْقٌ إلا بالاعتبارات والمواضعات الاعتبارية؛ إذ إنهم من جنسهم في البشريَّة، فتجوِّزون أن يكون أولئك شركاء لله، ولا تجوِّزون أن يكون هؤلاء شركاء لكم في مراكزكم ومراتبكم؟! أي: إذا كان مِثْلُ هذا لا يجوز فيما بينكم ولا تُسوِّغونه، فكيف تجعلونه لله؟!

ومُلخَّص المثل: إذا لم يَـجُزْ في عُرْفِكم ومجالِ عقولكم أن يكون العبيدُ بمنزلة الأحرار في الهيبة والسلطان، وكلُّكم مخلوقون لله مربوبون له، فكيف يُسوِّغ لكم العقل أن يكون عبيدُ الله ومخلوقوه مِثلَه في الربوبية والألوهية شركاءَ لله وأنداداً، أفلا تعقلون؟!

ثم نبَّه إلى ما في هذا السياق من قوة الإثبات، والحَمْل على الاعتبار والانتباه، ولا سيما ما في هذا المثل من الإلزام، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فيعلمون أنه لا يجوز أن يُشرَكَ بالمالك الحقيقيِّ مملوكُه الحقيقي، وأما المشركون فلا عقل لهم ولا تفكير.

ثم بيَّن مصدر ضلال هؤلاء الجهَّال، فقال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فقالوا ما قالوا جزافاً من دون تفكُّر وتبصُّر وتدقيق، لأن منطق التـقليد والعاطفة والهوى يختلف جداً عن منطق العقل والوجدان؛ إذ الثاني يُولِّد النتيجة من المقدِّمات فتكون صحيحة، والأول بالعكس؛ لأن صاحب التقليد والهوى، يلتمس له براهينَ يَدعَمُ بها تقليده وهواه، ولو كانت وهمية، أو واهية سخيفة، ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ وإنما أسنَدَ الإضلالَ إلى الله سبحانه لأنَّ الضلال ناتج من معاكسة الضالِّ لسُنن الله الدينية أو إهمالها، وهو من أفسد طبيعته بسوء التربية أو التقليد الأعمى حتى فقد الاستعداد للهدى، وذلك لأنَّ الإنسان مِثْلُ جام التصوير، ينطبع فيه ما ينعكس عليه مما يصادفه أول الأمر، فإذا صادفه الضلال وتلقَّاه بالتربية والتقليد الأعمى لا يمحى منه أبداً، فكيف ينطبع فيه صورة الإيمان والتفكير السديد بعد ذلك؟

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا
رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ
وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا
تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞
مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ
فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

وبعد إثبات الوحدانيَّة والقدرة على البعث، بالبراهين العديدة في الأنفس والآفاق، وتبصيرهم بها، ضَرَبَ لهم مثلاً لبطلان الشرك وتسخيفه، فقال: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي: مُنتَزَعاً من أحوالها ونزعاتها، وهذا على سبيل التنزُّل مع الخصم. بمعنى: ضَرَب لكم مثلاً من أنفسكم، فقاس نفسَه عليها مع عظمته وكمال قدرته وعُلوِّ شأنه؛ ليتبيَّن لكم بطلانُ الشِّرك بطريقة الأَوْلى. وذلك أنه ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾ من العبيد والإماء ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ من الأموال وما يجري مجراها في المراكز والمراتب، ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ في التصرُّف، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: كما يخاف الأتباع من الرؤساء، أو تلاحظونهم في التصرُّف كما تلاحظون الأحرار المساهمين لكم في ذلك.

وفي قوله: ﴿فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ إيماءٌ إلى أنهم لا يملكون ما يملكونه إلا بالاسم، ففيه زيادة تحقيق للردِّ والبطلان، أي: إنكم لا ترضون أن يشارككم ـ بل لا يجوز أن يشارككم ـ فيما هو ليس لكم إلا بالاسم؛ مماليكُكم الذين لا تملكونهم إلا بالاسم أيضاً، إذ ليس لكم شأن في إيجادهم، بل هم أمثالكم في البشريَّة. بمعنى: كيف تكون حالُ المماليك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من الوجوه، وهم الذين تدعونهم

منها، وعَرَضَها عليها، من دون خلل ولا فساد، إلى انتهاء أجلها، ﴿ثُمَّ إِذَا﴾ قامت قيامتها باضمحلالها وانتهاء أمرهما، و﴿دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لتُحشَروا إليه ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾، وقد جَعلَ هذا نتيجةً لبراهين القدرة التي تضمَّنتها الآيات السابقة من معاني تلك المقدِّمات.

ثم أيَّد إنجاز هذا الإخراج وما تضمَّنه من الجزاء بدليل قدرته وسلطانه فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: خاضعون لِتَصَرُّفه، منقادونَ له، والحشر في ضمن ذلك.

وبعد أن أيَّده، ذكر الدليلَ المماثل له، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: إنَّ الإعادةَ متمِّمةٌ للبدء والإيجاد ومماثلةٌ له، فالذي بدأه يقدر على إعادته، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ لأنَّ الإعادةَ أهونُ من الإيجاد عُرْفاً، وهو مأخوذ من حالة الـمُخاطَبين، على نهج القرآن في مثله، أي: في أصول قُدَرِكم وقياساتها.

ثم أزال ما يُوهم التمثيل بالمخلوقين، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: في القدرة وسائر صفات الكمال ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعجِزُه شيء ولا يستعصي على قدرته شيء، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ الذي يُجري الأفعال على سَنَنِ الحكمة والمصلحة في سائر الشؤون والأحوال، وليس الحشر للأجسام بأعجَبَ من النشأة الأولى، إلا أنها ـ لـمّا كانت مألوفة ـ لم تشعر بعجبها، وأيُّ عجب أعجب من تكوُّن الولد من النطفة، وتدرُّجه في بطن أمه حتى يخرج طفلاً، ثم يتدرَّج حتى يكون من الكاملين، وربما كان من أعاظم الرجال وأكابر المفكرين أو المبتكرين، وأولُه ماء دافق! لا شك أنَّ العَجَب من هذا أكثرُ وأوفرُ من العَجَب لحشر الأجسام، لولا أنَّ الأول مألوف، والثاني غير مألوف.

ثم تابع السياق، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ وفيه لفٌّ واحتباك، على نهج إيجاز القرآن، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية). وإنما أتى بهذا اللون من النَّظم فجمع بين الليل والنهار وأحاطهما بالمنام والابتغاء، ولم يقرن كلَّ واحد بزمانه الطبيعي، تحرِّياً للصدق في الواقع؛ إذ قد يقع النوم في النهار والابتغاء في الليل. والمعنى: إنَّ في آيات حكمته ودقَّة تدبيره هذا الوضع البديع، تنامون بالليل لتستعيضوا ما فقدته القوى أثناء عمل النهار، ولولا ذلك لَـمَا عاش الإنسان، وتستيقظون في النهار لتبتغوا من فضله، ويتمَّ لكم أمر المعاش، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ سماعَ تعقُّل وتفكير.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي: خوفاً من القصف وطمعاً بالمطر. وقال أبو مسلم: خوفاً من أن يخلف فلا يمطر، وطمعاً في المطر، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: يستعملون عقولهم في كيفيَّة تكوُّن الأمطار؛ ليظهر لهم كمالُ قدرة الصانع التي لا تُعجزُها إعادتكم، والدالة على استحقاقه وحده لأن يُعبد؛ لاختصاصه بأفعال الألوهيَّة وصفاته، فما لهؤلاء المشركين يتطلَّبون الآيات:

وفي كلِّ شيءٍ لـه آيـةٌ تدلُّ على أنه واحدُ[1]

وعلى إعادتهم لقدير.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ وقدرته، أي: تَستَمِرّانِ على ما هما عليه من التوازن بالجاذبية، ومن أداء كلِّ واحدة منهما ومن جزئياتهما أمانتَها التي طلبها

---

(١) البيت لأبي العتاهية، وسبق عزوهُ إليه (٢: ٤٣).

﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي: ومن آيات قدرتِهِ وحِكمتِهِ الدالَّة على ألوهيَّته: أنْ خَلَقَ منكم ذكراً وأنثى ليتمَّ التوادّ والتناسل، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ ليُدركوا حكمة الحكيم الخبير في أنَّ إبقاء النوع الإنسانيّ إنما يتمُّ بهذا، ويُدركون أنَّ هذا الحكيم العليم هو الذي يستحق أن يُعبَد، وأنَّ مَنْ قدر على تنويع هذا الجنس الواحد إلى هذين الصنفين الذكر والأنثى من مادة واحدة وماء واحد في رَحِم واحد قادرٌ أن يُعيدَهُ بعد الموت إلى الحياة.

ولا شكَّ أنَّ الزواج من أهم وسائل الحياة التي يتوقَّف عليها بقاء النوع الإنساني، وهو المتمِّم للوظائف الحيويَّة، والأساس الذي ترتكز عليه العائلة والهيئة الاجتماعية والرابطة القومية التي تربط القلوب بالمحبة والاحترام، وبواسطته تتكوَّن الأُسَرُ ويحصل التعاون والتآلف والتعاضد والتناصر، إلى غير ذلك من عظائم الفوائد الاجتماعية. فهي آيةٌ كبرى، وحكمة جُلَّى، ودليلٌ واضح على حكمة الحكيم العليم، وقدرة القادر العظيم.

ثم تابع ذِكرَ الآيات الدالة على اختصاصه بأفعال الألوهيَّة واستحقاق الحمْد، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ قال في «مجمع البيان»: اختلاف الألسنة باختلاف أصواتها ونغماتها، حتى إنه لا يشتبه صوتان من شخصين هما أخوان، ولو كانا توأمين.

أقول: وكذلك الألوان، فلا تشتبه ملامحُ وجهين هما أخوان، بل توأمان. وهذا من كمال حكمته تعالى وبديع صُنْعه، ولولا هذا التمايز بالأصوات والملامح؛ لنشأ من الاشتباه فسادٌ كبير في نظام العالم الإنسانيّ وحالاته الاجتماعية. وأقلُّه: أن يشتبه الزوج على زوجه، وصاحب المال على العمال مثلاً، وناهيك في ذلك من اختلال الحالة الاجتماعية وانتشار الفوضى والفساد. والله أعلم. ولهذا ختمها بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: المدقِّقين المتبصِّرين.

وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم تابع ذِكرَ الآيات التي تدلُّ على استحقاقه وحده لأن يُعْبَد ويُحْمَد، وعلى أنَّ الإعادة والحشر يسير على تلك القدرة، فقال: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ رغماً عن التفاوت العظيم بين حقيقة التراب وحقيقة البشر وطبيعتهما.

ويجوز أن يُراد بالخلق من التراب: خلقة آدَمَ أولِ الجنس البشري وأصلِه، فيكون فيه مجازُ إثباتِ ما للأصل إلى الفرع؛ لأنَّ عناصر الأصل تنتقل إلى الفرع. ويجوز أن يراد الترابُ الذي ينمو به النبات والشجر، فيتغذّى منهما الإنسان، فتتولّد منه النطفة التي يتكوّن منها الولد، فيكون الكلام على هذا شاملاً للأصل والفرع معاً، على نهج القرآن في مثله. ووجه العبرة في كلٍّ منهما: تحويل المادة الترابية إلى جسم مُكوَّن من لحم وعظم ودم، ويكون بشراً سوياً، فليس ببدع أن ينحلَّ هذا الجسم إلى أصله التراب، وليس ببدع أن يتحوَّل مثلُ ذلك التراب مرَّة ثانية إلى هذا الجسم، ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]. والله أعلم.

ثم تابع البيان عن الآيات، فقال: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا

﴿تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ فاستغرق الكلامُ بقسمَيْهِ أوقاتَ الصلوات الخمس: الأول لأوقات الليل الثلاثة، والثاني لوقتي النهار، لأن العشيَّ آخر النهار.

ثم ذكر دليل قدرته واختصاصه بأفعال الألوهية التي يستحقُّ بها ذلك الحمد، إذ لا شريك له فيها، فقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالحيوان من موادِّه، والنباتِ من بذوره، ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ كالموادِّ من الحيوان، والبذور من النبات.

وإطلاق كلمة ﴿ٱلْمَيِّتَ﴾ على الموادِّ والبذور هو من عُرْف التخاطب، فلا يعارضه ما يقوله العلماء من أنَّ فيها حياة أيضاً؛ لأنَّ إطلاقهم الحياة على ما فيها من قوة التوليد والإنبات[(١)] اصطلاحٌ عِلْميٌّ لا عُرفي.

ثم عطف على الجملة ما يشابهها من دليل القدرة، فقال: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يُنْبتها بعد يبسها وقُحولها، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الإنبات بعد اليبس ﴿تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ من قبوركم بعد الموت. وكثيراً ما يقيس القرآن الإعادةَ بعد الموت على الإنبات بعد اليبس، للمشابهة بين الأمرين في الجنس. وطبيعة زمن القيامة في إحيائه للأموات كطبيعة زمن الربيع في إحيائه للنبات[(٢)].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ

---

(١) ليس في المواد والبذور قوة للتوليد والإنبات، بمعنى: قوة مؤثرة فاعلة لهذا التوليد والإنبات، بل الإنبات والتوليد فِعلُ الله تعالى، واقعٌ بإرادته وقدرته، أما المواد والبذور فأسباب أجرى الله تعالى سُنَّتَه بأن يخلق التوليد والإنبات عند اجتماعها وتوافقها.

(٢) انظر ما تقدَّم تعليقاً عند تفسير الآية ٨٣ من سورة المؤمنون ص٢٨٦.

أي: يسكتون متحيِّرين مُنْخَذلين، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ ﴾ لهم كما كانوا يزعمون، ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ حين تبيَّن لـهم حقيقة أمرهم، وأدركوا جَهْلَهم وغباوتَهم بعبادتهم لهم. وفي طيَّات هذا البيان تسخيفٌ وتنديم.

ثم ذكر أمراً آخر من أمور ذلك اليوم، وهو التباين العظيم بين حال المؤمنين وحال الكافرين في ذلك اليوم، فقال: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: المؤمنون والكافرون.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ ﴾ من رياض الجنة ﴿يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: يَنعمون ويُسَرُّون.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ والإحضار لا يكون إلا فيما يكرهُه الإنسان ويُجْبر عليه، كما يقال: أُحضِرَ فلانٌ مجلِسَ القضاء، أو للجزاء.

وبعد أن بيَّن حال المؤمنين والكافرين، بيَّن ما يُفْضي إلى الأول، ويُنجي من الثاني، وضمَّن ذلك إرشادَ المؤمنين إلى وسائل تثبيتهم في سلوكهم بقوله: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ وهذا مصدر نائب عن فِعلِه، أي: سبِّحوه ونـزِّهوه بالصلوات المفروضة في الأوقات التي تظهر فيها قدرتُه ظهوراً بارزاً، وتَتَجدَّد فيها نعمتُه، وهي: ﴿حِينَ تُمْسُونَ ﴾ ويتبدَّل النهار بالليل، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: يتبدَّل الليل بالنهار، وتذهبون لطلب الرزق.

ثم قـرَّر ذلك بمـا هو كالتعليل له، أو لإفادة أنَّ ذلك لفائدتكم فهو غنيٌّ عن ذلك، فقال: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لِـمَا له فيهما من الآثار العظيمة التي يستحقُّ عليها الحمد فاحمدوه. فذكر السببَ وأراد المسبَّب، وعجَّل به قبل إتمام الأوقات قرناً للطلب بالتعليـل، ثم عطف على قولِه: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ قولَه: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ

عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ بتكذيبهم للرسل ومعارضتهم لهم؛ أن نالتهم الحالة ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم قفّى الإنكارَ على تكذيبِهم ما يتضمَّن الحشر، وكفرِهم بلقاء الله؛ بالإثبات القطعي لـه، على نـهج القـرآن في مثلـه، فقـال: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ فجعل القدرةَ على البَدْءِ دليلَ القدرة على الإعادة، لأنها ليست بأعجبَ من الخلق الأول، ولكنه لما كان مألوفاً لم نشعر بعجبه وعظمة شأنه، وأيُّ عجب أعجب من أن يتطوَّر الجنين في الرحم تطوراتِه العجيبةَ من قطرة ماء مهين، ثم يخرج طفلاً ضعيفاً بليداً، ولا يزال يتطوَّر بجسمه وعقله حتى يستوي ويتكامل، وربما يكون عظيماً في أعماله سامياً في أفكاره، وقد يكون مكتشفاً باهراً أو ملكاً جباراً أو عالماً نحريراً، وأصله من ذلك الماء المهين! وفي عطف الإعادة على البَدْءِ بـ﴿ثُمَّ﴾ إلماعٌ إلى أنها متمِّمةٌ له ومنتظمٌ في سلكها لا يفترقان.

ثم ذكر بعض أحوال ذلك اليوم الذي يُرجَعُ فيه إلى الله، تلك الأحوال الموجبة للتبصُّر والانتباه والتحذُّر والاجتناب، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾

بقوله: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أولم يتفكَّروا في أنفسهم بأن الله سبحانه لم يخلق بدائع السماوات والأرض، وما فيها من عَجَائب المخلوقات التي منها هذا الإنسان المخلوق في أحسن تقويم، إلا لمقاصدَ نبيلةٍ وغاياتٍ جليلة، تتحقَّق في وقتٍ مقدَّرٍ ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة، يوم لقاء الله العظيم؟ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾ ونَيْل جزائهم ﴿لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ رغماً عن ظهور الأمر ووضوحه؛ لأنَّ مِثلَ هذا العالم العظيم لا يُجوِّزُ العقلُ أن يكون عبثاً، ولا أن ينتهي إلى فناء لا شيء بعده ولا غاية، ولا أن يكون مصير الإنسان كمصير الحيوان، ينعدم ولا يعود. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وبعد أن بيَّن عَدَمَ اتِّعاظهم بما في هذا الكون من الدلائل على صحَّة ما جاءهم به هذا الرسول، من توحيد الله وأمر الحشر والحساب، توعَّدهم بما جرى على المكذِّبين قبلهم، بطريقة الاستفهام الإنكاري، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعادٍ وثمود؟ ثم ذكر أنهم أدنى للهلاك من أولئك بحسب السنة الطبيعية؛ لأن أولئك ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأكثرَ علماً ودراية، ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ بأميَز أنواع الحراثة والزراعة والغَرْس، ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا﴾ هؤلاء ﴿عَمَرُوهَا﴾ بإشادةِ القصور الفخمة والأبنية الضخمة والبروج الشاهقة، ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات والآيات الواضحات، فكذَّبوهم وقاوموهم، حتى يئس الرسل منهم، فأهلكهم الله بذنوبهم بعذاب الاستئصال، وقد أقام مقامَ هذه الجملة قولَه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بهذا الإهلاك؛ أي: ليس من شأنه أن يُهلِكهم ظلماً وعدواناً، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ حيث عملوا ما أدَّى بها إلى شقائها وحرمانها السعادة التي كانت مستعدَّة لها لو لم يُفسِدوا فطرتها.

وقد عطف على هذه الجملة التي أقامها مقامَ تكذيبهم وإساءتهم قولَه: ﴿ثُمَّ كَانَ

ثم علَّل ما تضمَّنه الكلام من تأجيل خِذلانِ المشركين وتعذيبهم بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾، بمعنى: أنَّ ذلك التأخير لم يكن عن عجز في القدرة، ولكنْ رحمةً بهم لعلهم يثوبون إلى رُشْدهم.

ثم أكَّد هذا الوعد الكريم، وهو نَصْرُ المؤمنين على المشركين، فقال: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ شؤونَ الله سبحانه وحِكَمَهُ البالغةَ، فينكرون كلَّ ما لا يُرضيهم ظاهرُه، كتأجيل النصر للمؤمنين.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويبنون عليه الآمالَ الكاذبة، ولا يدرون ما وراء ذلك من خفايا وأسرار، وحِكَم وآثار، ولا يعقلون أنَّ كثيراً مما ظاهرُه مُشرِق يكون باطنُه محرقاً، وأن كثيراً مما صورتُه شرٌّ يكون معكسه خيراً.

ثم أردف نقصَ فهمهم هذا وبُعدَهم عن إدراك الحقائق، بما جرَّه عليهم من الغفلة عن أمر الآخرة، وما سبَّب لهم ذلك من شقاء؛ مبالغةً في التأنيب، فقال: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾، وفي ذِكرِ الغفلة إشارةٌ إلى أن الأمر ظاهر لمن وُفِّقَ أن يتفكَّر ويتدبَّر. وكرَّر الضمير لإفادة أنه الغفلة منهم؛ إذ أسباب التذكّر حاصلة لهم، ولكنهم يَغْتَرُّون بالدنيا ويجعلونها هدفاً، وما هي إلا بلاغ إلى الآخرة التي هي الهدف الصحيح والغرض الأسمى. والآية تنطبق على حال الأجانب اليوم.

ثم أنكر عليهم تلك الغفلة، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ وما خلق الله فيها من الإبداع والحكمة في الجهاز الهضمي والقلب والرئة والجملة العصبية وسائر الأعضاء وسائر ما اشتملت عليه، وفي الجهاز العقلي وخوادمه من الحواس وأدواتها، وفي العظام المنوَّعة بمقتضى الحكمة البالغة، أليس الذي خلقكم بهذه الخِلْقة السديدة البديعة بقادرٍ على أن يُحييَ الموتى، وهو المُسْتَحِقُّ وحده للألوهيَّة؟! والأقرب أن يتعلَّق التفكُّر ويرتبط

الميلادي تُحيطان بشبه جزيرة العرب، لذلك شَمِتَ كفار مكة بالروم، وفرحوا لهزيمتهم، لأنهم أهل كتاب كالمسلمين، وحاولوا أن يُلصِقوا بدينهم عارَ اندحارهم.

أما المسلمون فشقَّ عليهم أمر الروم، وهم أهل كتاب مثلهم، وأدى هذا الخلاف بين مُسلمي مكة ومُشركيها إلى تَنَادر الفريقين فيما بينهم، وإلى تهكُّم الكفار بالمسلمين، فنزل قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أقرب أرض الروم إلى فارس. وهذا القَيْدُ لدفع النقيصة عنهم.

ثم وعد بعودة الغلبة لهم، فقال: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ والمصدر مضاف إلى المفعول، أي: من بعد مغلوبيتهم هذه، ﴿سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾[1] والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع، أي: لا تمضي هذه المدة القصيرة حتى يعيدوا الكرَّة عليهم ويغلبوهم.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: حين غُلبوا وحين يَغلِبون، بمعنى: أنَّ ذلك بأمر الله وقضائه ومُقْتضى حِكمتِه وسُنَنِهِ الكونية، ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم يَغلِبُ الرومُ الفرسَ ويحلُّ ما وعد الله به سبحانه ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾، فقد جعل إعادة الكرَّة للروم على فارس، واسترجاع بيت المقدس منهم، موعداً لغلبـةِ المسلمين للمشركين أيضاً، وفـرَحِهم بنصر الله الذي سَيُوافيهم، وقد صادف ذلك يوم بدر. والله سبحانه ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يستحقُّ النصر ويأخذ له أُهْبَتَه.

---

(١) لما كان الناس يَـجْرون في حسابهم السنوي على طرق، منها القمري ومنها الشمسي، ومنهم من يكمل الكسور في الشمسي ومنهم من يلغيها، كان من مقتضى الحكمة في تحرِّي الصدق الذي هو من شأن القرآن في تعابيره: أن يعبِّر بلفظة «البضع» دون التحديد؛ ليكون أقطعَ لكل شبهة، وأبعدَ عن كل جدل ومكابرة. (المؤلف).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾
فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ
ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ
أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ
بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ
كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ
أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ قد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها، اهتماماً به، ومنه هنا: قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾، ولهذا الكلام تأريخ نذكره:

كان أهل مكة ـ المسلمون منهم والمشركون ـ يَتتبَّعون أخبار الحرب القائمة حينئذ بين الروم والفرس بتَلَهُّف وشَغَف؛ لأنَّ هاتين الدولتين هما أكبر ما تعرف أمم الأرض يومئذ، وكانت الدولة الرومانية تمثِّل الدين المسيحي، والدولة الفارسية تمثل الدين المجوسي، ومعهما الدُّوَيْلات المتَّصلة بهما والخاضعة لنفوذهما، وكانتا في أوائل القرن

سُورَةُ الرُّومِ

مكية إلا قوله: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ... ﴾ [١٧]،

وهي ستون آية

موضوعها: تسلية المؤمنين عما يصيبهم من أذى المشركين وتثبيتهم، وتأكيد وعده لهم بالنصر عليهم، حيث أَوْهى ما تَفَاءل به المشركون، وتوعَّدهم بما سيكون من ردِّ الفعل وعكس النصر الذي تفاءلوا به.

وقد جاء هذا بعد ما جاء فيما قبلها من التلميح إلى وَعْد المسلمين بالنصر على المشركين.

* * *

عند تحريم الله إيَّاه أن يُمسَّ بأذى، ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قتلاً وسبياً ونهباً وسلباً؛ إذ كانت العرب حوله في تَغاوُرٍ وتَناهُب، يُذكِّرهم منَّته عليهم بجَعْل بلدهم حَرَماً آمناً تحترمه الناس، وتحترمهم من ورائه، ويُبصِّرهم بموضع نعمة الله فيهم بهذا البيت ليُذْعنوا بالطاعة، ويَنْزجروا عن عبادة غيره.

ثم ينكر عليهم ويُؤنِّبهم بقوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أبعد ظهور الحق الذي لا ريب فيه يؤمنون بالباطل دون الحق، ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ عليهم ﴿يَكْفُرُونَ ٦٧﴾ ولا يَرعَوْنها، ويشركون بربِّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟! وتقديم الصلة في الموضِعَيْن لإظهار شدَّة الشناعة فيما فعلوا.

ثم زاد في تقريعهم بقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بزعمه أنَّ له شريكاً، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ﴾ وهو الرسول والقرآن المنزَّل عليه بالتوحيد. ثم بالغ في توعُّدهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ٦٨﴾، وهذا تقرير لثوائهم فيها بصورة ما هو معروف بداهة، أي: أليس هذا أمراً واقعاً معروفاً؟.

ثم ختم السورة ببيان حال المؤمنين ومصيرهم في مقابلة حال الكافرين ومصيرهم، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا ﴾ بصالح أعمالهم ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] أي: الـمُوصلة إلى نعيمنا العظيم الدائم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٦٩﴾[2] مَعيَّةَ نَصْرٍ ومعونة توفيق. اللهُمَّ اجعَلنا منهم يا أرحم الراحمين.

---

(١) المراد بالهداية إلى السُّبُل: سُبُل نجاتهم وسلامتهم من المشركين والمتجبِّرين، وتيسير طرق هجرة آمنة، معها تأمين رزقهم ومعاشهم. أما سبيل الدين فهو واحد، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

(٢) الذين أحسنوا التَّصرُّف واتَّخذوا الشروط السببيَّة الملائمة.

وبعد أن زهَّد في الدنيا نوَّه بشأن الآخرة؛ تقريعاً للمشركين وتجهيلاً لهم، فقال: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾، والحيوان: مصدر حَيَّ، كالدوران والغليان. والمعنى: حياة الدار الآخرة هي الحياة الصحيحة القيِّمة الشريفة الدائمة، لا هذه الحياة الدنيا الخسيسة المنغِّصة الزائلة، التي هي بمثابة لَـهْوِ الصبيان ولعبهم.

ثم ذكَّرهم بدليلِ التوحيد الفطري المسمَّى بالغريزة الدينية، بعد أن ذكّرهم بالدليل العقلي، والدليلُ الفطري: هو الذي تحسّ به النفوس بطبيعتها عند الشدائد، ذكَّرهم به، فقال: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ﴾ ولَقُوا شدَّة، ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لا يتوجَّهون لغيره، ولا يذكرون الأصنام، يندفعون إلى ذلك بدافع الفطرة؛ لأنهم مفطورون على التوحيد، ويخفى الشرك بهذه الشدَّة لأنه عارض، ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ سبحانه وتعالى من شدّتهم، وأوصَلَهم ﴿ إِلَى الْبَرِّ ﴾، وزالت عنهم تلك الغصَّة؛ ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: فاجؤوا العودة إلى الشِّرك الذي ألفوه بتحريف فِطَرِهم بالتربية والتقليد.

أما قوله: ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ أي: من النِّعَم ومنها الإنجاء، فيجوز أن يكون اللام للأمر والكلام على التهديد، أو لام «كي» والكلام لزيادة التشنيع والتوبيخ. ويجوز أن تكون الباء للتعدية أو السببية، وكذلك قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ قليلاً، فإما أن يكون اللام للأمر أيضاً والكلام على التهديد والتوعُّد، وإما أن يكون لام «كي» والكلام على التجهيل والتسخيف، إذ يستبدلون المتعة القليلة المؤقتة بالنعيم الدائم المقيم.

ثم هدَّدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: عاقبةَ ذلك وغائلتَه وخسرانَهم العظيم، حيث يرون العذاب الأليم.

ثم ذكّرهم بمِنَّة الله عليهم، تبصرةً وإرشاداً لِـمَا آتاهم وتحسيساً به، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بَلَدَهم ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ من النَّهب والسَّلب، لا تعبث به يدُ عابث، وقوفاً

وجاعل البسط والقَدْر بنسبة درجةِ التمسُّك بذلك النظام. والله أعلم. ومُحصَّل المعنى: إنَّ الله سبحانه شاء أن يبسطَ الرزق لمن يتمسَّك بالأسباب أينما كان[١].

ثم عاد إلى المشركين المعاندين يُلزِمُهم بالبراهين، على نهج القرآن في مُخاطبة المؤمنين والمشركين بأسلوب مَنْ يخاطب عبدَيْن: أحدهما رشيد، والآخر سفيه عنيد، فيلفت الخطاب إلى هذا تارة وإلى ذاك أخرى، ليكون في الكلام زيادة إرشاد وتشجيع للرشيد، وزيادة تقريع وزَجْر للسفيه العنيد، ذاكراً سبحانه باباً عظيماً من أبواب الرزق والسَّعة فيه، ومذكِّراً بالقدرة على الحشر والإعادة، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ معترفين بأنه المُوجِدُ للمُمْكنات بأسرها؛ أصولها وفروعها، وأنه مختصٌّ بأفعال الألوهية وصفاتها، ومع ذلك يُشرِكون به بعضَ مخلوقاته؛ ليقرِّبهم إليه زُلفى.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما عَصَمَك من مثل هذه الضلالة، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أصبحوا ﴿لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ لِـمَا حرَّفوه من مُحكَم طبيعتهم، وطمسوه من نور بصيرتهم، فيأتون بالمتناقضات في عقائدهم، يُقِرُّون باختصاصه تعالى بأفعال الألوهيَّة وصفاتها، ثم يُشْركون به مَنْ لا يَخْلُق شيئاً وهم يُخْلَقُون.

ثم زهَّد في أمر هذه الدنيا تهويناً على المؤمنين، ولا سيما المهاجرين منهم، فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ كاللعب واللهو الذي يجتمع عليه الصبيان، يبتهجون ساعة ثم يتفرَّقون وقد أجهدوا أنفسهم بما لا طائل تحته ولا محصول.

---

(١) التمسُّك بالأسباب عملٌ مطلوبٌ من الإنسان، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى قد يبسط الرزق للعبد مع تمسُّك يسير بالأسباب، ويقدر على عبد مع تمسُّك شديد بها، لحكمةٍ يريدها الله تعالى، فليس الأمر مقروناً بالتمسك بالأسباب فقط.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

ثم لفت الكلام نَحْوَ المشركين المعاندين، يُلزِمُهم بالبراهين التي لا يُمكِنُهم أن يُنكِروها، فقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ كلٌّ يجري لأجل مُسمّى؟ ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ولا ينكرون ذلك، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: فكيف يُصرَفون عن عبادة الله وحده، مع علمهم وتصديقهم باختصاصه بأفعال الألوهيَّة وصفاتها.

وبعد التنبيه لقدرة الله العظيمة الشأن ضِمْنَ هذا البيان، عادَ إلى المؤمنين المستضعَفِين يُشجِّعهم على الهجرة في أرض الله الواسعة، ويُرشِدُهم إلى أنَّ سَعَة الرزق وضيقَه بيد القادر، فلا يَخشَوا ضَنْكَ العيش إذا هاجروا، فقال: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ حيناً، ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ حيناً، ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ ويجوز أن تكون نسبة البسط والإقدار إليه تعالى؛ لأنه واضعُ نظام كَسْب الرزق بين أيدي العباد،

والإخلاص في عبادتي، إلى أرض تَتَمكَّنون فيها من إجراء ذلك. وقد أقام مقام هذا الكلام المقدَّر قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم شجَّعهم على ذلك بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فلا تُرهِبْكم الهجرةُ في سبيل الله، ولا يُرهِبكم تهديدُ المانعين لكم من عبادة الله، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ فتنالون الجزاءَ الأوفى.

ثم فصَّل بعض ذلك الجزاء بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي: لَنُنزِلَنَّهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، ثم بالغ في الإغراء بقوله: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ هذا الجزاء.

ثم بيَّن بعضَ صفات أولئك المؤمنين الذين استحقُّوا بها هذا الجزاء، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على أذيَّة المشركين وشدائد المُهاجَرة وغير ذلك من المِحَن، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: ولم يتوكَّلوا فيما يأتون ويَذَرُونَ إلا على الله.

ثم لما ألمع إلى الأمر بالهجرة وذكر صبرهم هذا وتوكّلهم، مرغِّباً به في سبيل تحمُّل الهجرة وتَرْك ممتلكاتهم وأسباب معاشهم، أيَّده وهوَّنه بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ كنَّى بهذا عن عدم الادِّخار والنقل، أي: كم من الدواب في هذه الأرض لا تَدَّخِرُ رزقها ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾، وهذا نوع من أنواع قياس النظير، والمعنى: أنه لا شكَّ في أنَّ رزقها ليس إلا بأسباب الله وتفتيشها عنه، بتشبُّثها بها، فكذلك يرزقكم إن هاجرتُم واتَّبعتُمُ الأسباب الطبيعية في تحصيل المعاش، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ لا تخفى عليه أحوالُكم، فيُسوِّيها لكم ويُصْلحها، فلا ترغبوا عن الهجرة وتخلدوا إلى الضَّيْم، مَخافةَ الفقر وسوء الحال. وقد كان المهاجرون يتشبَّثون بأسباب الرزق في المدينة فأغْدَقَه الله عليهم، حتى إنَّ بعضهم أثرى ثراء عظيماً في التجارة، كعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

ثم تابع الكلامَ عن عنادهم، فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: استبعاداً واستهزاءً، ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لكلِّ عذاب، أو المعنى: لولا أجلٌ مُسمّىً قد ضَرَبَه الله تعالى لعذابهم؛ ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ حين استعجالـهم له، ولكنْ لا يأتيـهم إلا بأجله المضروب، ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

ثم توعَّدهم فوق ذلك بعذاب الآخرة، وأورد الكلام بصورة التعجيب من شأنهم، والتشنيع بجهلهم ورَكَاكة رأيهم في استعجال عذاب الدنيا استهزاءً، وشدَّة غفلتهم عمَّا سيؤول إليه حالُهم في الآخرة، وقد سبك ذلك على تحسيسهم بمصيرهم، فقال: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: يستعجلونك بعذاب الدنيا استهزاء، ولم يعلموا أنَّ وراءهم في الآخرة عذاباً أليماً فوق عذاب الدنيا، فلينتظروا ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ وهذا تفصيلٌ للإحاطة، ﴿وَ﴾ لزيادة الإيلام والتنديم ﴿يَقُولُ﴾ الله لهم: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: جزاءَ عملِكم القبيح في الدنيا. ويجوز أن يكون هذا القول بواسطة الملائكة الموكَّلين بهم، والله أعلم، أو هو عبارة عما يقوله الناس في مثل هذا ويؤنِّبون، مستعارٌ من حال المُخاطَبين، على نهج القرآن في مثله.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم التفت إلى المؤمنين المستضعفين الذين قد قهرهم أولئك المعاندون محاولين فتنتَهم عن دينهم، فقال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ولم يقدروا أن يقيموا أمور الدِّين كما ينبغي في بلدهم ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ فهاجِرُوا من أرض يمنعكم أهلُها من الإيمان

سبحانه هو الذي يُنزِلُ الآيات كما يشاء، وليس النبي إلا نذيراً لهم لا يملك أن يقترح على الله شيئاً، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾.

ثم تمّم الردَّ بأنَّ هذا القرآن أعظمُ الآيات والمعجزات لو كانوا يفقهون، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ أي: لقوم همُّهم الإيمانُ لا العِناد.

فبيَّن تعالى أنَّ في إنزال هذا القرآن عليه دلالةً واضحة، ومعجزةً باهرة، وحُجَّةً بالغة، تنزاح معها العلل، فلا يُحتاجُ للوصول إلى العلم في صحَّة نبوته ﷺ إلى غير هذا القرآن من المعجزات، إذ مَنْ أمْعَنَ النظر فيه رآه دعوى حقٍّ برهانُها فيها، ومقالةَ صدقٍ شاهدُها منها، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ويُفهَمُ من فحوى هذا الجواب: أنَّ تنشئة الرسل تختلف باختلاف الأزمان والعصور، وتتناسب معها، وكذلك المعجزات التي تُؤيِّدهم، تختلف بهذا الاختلاف. وفي عصر النبيِّ ﷺ انقضى زمن المعجزات الحسيَّة، وأصبح العقل البشري يريد أن يدرك هذا الأمر بطريقة علمية، وبراهين قطعية، ليعلمه علم اليقين وحق اليقين، فأنزل الله هذا القرآن المبين بالحُجَج والبيِّنات، والبراهين الدامغات.

ثم أردف الردَّ بقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾، وشهادتُه تعالى: إنزالُه عليه هذا الكتابَ المعجِزَ، وهو كما قلنا: دعوى حُجَّتُها فيها، وبرهانُها منها، فطابعه الخاصُّ يوضِّح أنه من عند الله، وهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ويعلم ما يُصلح شأنكم، وما تحتاجون إليه من التعاليم، فأرسلها إليكم، فالذين آمنوا بها هم الفائزون، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهو ما يُعْبَدُ من دون الله ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٥٢﴾.

الكتاب في عصرك ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ أيضاً، كعبد الله بن سَلَام وأضرابه الذين لم يُعْمِ العِنادُ بصائرَهم، فعلموا أنه مُنَزَّل من ربِّك بالحق، حسبما وَعَدتْ به كُتُبُهم.

ويجوز أن يراد بهؤلاء: مشركو قريش، وبالإيمان به: إدراك أنه من عند الله، فبعضهم يعلم ذلك، ولكنه يجحد استكباراً وعِناداً، وخوفاً على مركزه الموهوم من الضياع إذا صار من الأتباع، ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع ظهورها وقيام الحجَّة عليها ﴿إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم قـرَّر المعنى بنفي احتمال أن يكون القرآن من كلام محمد ﷺ، وسَبَك النفي على دليله القطعي، إيذاناً بأنه لا مَجَال للجحود، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾، فظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم النبيلة، والتعاليم الجليلة، والإرشادات العالية، والتوجيهات السامية، على لسان أُمِّيٍّ لم يُعرف بالقراءة والكتابة، لا يحتمل الريبةَ في أنه من عند الله.

وقوله: ﴿بِيَمِينِكَ﴾ تتميمٌ وإيغالٌ أفاد نفيَ التجوُّز بالإسناد، والمبالغةَ في تقرير المنفي، أي: إنك لا تعرف القراءة ولا الكتابة أبداً، فكيف تُخرِجُ هذا الكتاب؟ ولو كنتَ تقرأ وتكتب ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: لكان لريبةِ المبطلين وَجْهٌ، ولو على بُعْد، أما وأنتَ لا تقرأ ولا تكتب، فلا وَجْهَ للريبة أبداً، ولو مع العناد والشُّبَه البعاد.

ثم أردف ذلك ببيان الحقيقة فيه، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: الذين يكابرون ويعاندون مع وضوح الحُجَج والبراهين، ظلماً وعدواناً.

ثم حكى لهم معانَدةً أخرى من تَعَنُّتهم وفتونهم، وردَّها عليهم، فقال: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: معجزاتٌ كاليد والعصا. فردَّ الله عليهم بأنَّ الله

وبعد أن أمره بالإرشاد والدعوة إلى الرَّشاد بالكتاب المبين، بيَّن له ما يجب أن يتَّبعه من الخطط في ذلك مع أهل الكتب السماوية، فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ لأنَّ منهم مَنْ يقرُّ بالتوحيد في الجملة، ولا سيما في عصر التنزيل، أو لأنَّ مداركهم فيه وفي متعلِّقاته ليست كمدارك المشركين من قريش.

ثم استثنى من عموم أهل الكتاب الذين يُضَاهون المشركين منهم، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي: بإثبات الولد لله، والقول بثالث ثلاثة، فإنهم قد ضاهَوُا المشركين في الشرك، فهم مِثلُهم في البلادة والعِناد؛ لإفسادهم لِفِطَرِهم، ومَحْقِهم لبصائرهم.

وعن أبي مسلم: إنَّ المراد: إلا الذين ظلموا بالعناد وكتمان صفة نبينا ﷺ. وقيل: إلا الذين عاملوكم بالقوَّة والقَهْر من أهل الكتاب، فقابلوهم بمثله.

ثم إنه تعالى بيَّن شيئاً من موضوع المجادلة ومدارها في تلك الطريقة الحُسْنى التي يجب أن يُتَّبع معهم، فقال: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾، ولا يخفى أن ما في أيديهم الآن من الكتب ليس هو المنزَّل من عند الله، وهم يقرُّون بأنها تأريخ لحياة عيسى عليه السلام، وحياة بعض الأنبياء لا غير، وأنها من مؤلَّفات البشر في ذلك الموضوع، والتوراة التي بأيدي اليهود الآن كُتِبَ بعد فَقْدِ التوراة المنزَّلة بعدَّة قرون، كَتَبَه عزرةُ الكاهن.

ثم بيَّن وَجْهَ هذا القول وأيَّده بأنه معروف في كتبهم؛ لأنهم وُعِدُوا فيها بهذا القرآن، وأنكر على مَنْ ينكر ذلك منهم ونـدَّد بـه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: كما أنزلنا كتباً على مَنْ تَقَدَّمك أنزلنا عليك هذا القرآن، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من أهل العصور القديمة، ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن غيباً؛ لأنه منوَّه بشأنه في كتبهم، ومأمورون أن يؤمنوا به إذا نزل، ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: من أهل

بآي القرآن والذِّكر الحكيم تُغـذِّي روحَه غذاءً صالحاً يحفظها من شوائب الأدران والأمراض النفسيَّـة، حيث إنَّ صِدقَ التـوجُّه إلى الله في الصَّلاة والخشوعَ لِعَـظَمته وإشعارَ القلب بمناجاته بما فيها من ذِكرٍ ودعاء وقرآن فيه كلُّ أنواع الثقافة للإنسان؛ إنَّ ذلك يُنمِّي الإيمان ويُنير البصيرة، فتكون أقوى نَـفَاذاً في الحق، وأشدَّ بُعداً عن الأهواء، فتنزِّه النفس عن أن تأتي بالفواحش والمنكرات، وذلك هو الإنسانية الكاملة، وغاية الآداب، ونهاية مكارم الأخلاق. وقد جاء في الحديث: «ليس للرجل من صلاته إلا ما عقل منها»[1]، وجاء أيضاً: «مَنْ لم تَنهَه صلاتُه عن الفحشاء، لم يَزْدَد من الله إلا بُعْداً»[2].

فهذه الصلاة المقامة هي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: وذِكرُه سبحانه وتعالى ـ على مثل هذه الصُّورة من إمعان النظر وحضور القلب ـ أكبرُ شيء تأثيراً وإصلاحاً في الأرواح. وقيل: بل المعنى: ولَذِكْرُ الله تعالى عند الفحشاء والمنكر أكبرُ في الزجر عنهما. وقيل: بل المعنى: ولَذِكْرُ الله إيَّاكم برحمته أكبرُ من ذِكرِكم إيَّاه بطاعته.

ثم بالغ في الحثِّ على الإحسان في العمل، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: هو مُطَّلع على الأعمال، ولا يرضيه منها إلا ما كان متقناً سديداً. وفي صورة التركيب ترغيبٌ وترهيب.

---

(١) سلف تخريجه (٤: ٤٠٣، ٥٦٥).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٩: ١٠٣) عن ابن مسعود موقوفاً بلفظ: «من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد من الله إلا بعداً»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢: ٥٣١): رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح.
ورواه الطبراني في «الكبير» (١١: ٥٤) عن ابن عباس مرفوعاً، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (١: ٣٩٨): إسناده لين.

يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

ثم التفت إلى النبي ﷺ، وأمره بالاستمرار في مهمته قولاً وفعلاً، فقال: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ إرشاداً للناس ودعوةً إلى الحق، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: ائتِ بها مقامةً كاملةً؛ تعي فيها ما تقول وتناجي به ربك، ويتَّبعك فيها أصحابُك؛ ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ إذا كانت بهذه المَثابة وعلى هذه الصورة؛ لأنَّ الصلاة المقامة تكون وسيلةً قويةً لاتِّصال النفس بخالقها، وخضوعها له، وكفِّها عن الذنوب والآثام، خشيةً منه ورغبةً في رضاه، فضلاً عما تُؤثِّره في النفس من الصلاح والكمال وعُلوِّ الأخلاق، فهي عنصر عظيم من عناصر التثقيف والتهذيب، ولذلك ليس لتركها عُذرٌ حتى الموت.

وهذا الخطاب يُراد به العموم، ومفاده: أنَّ التالي إذا تلا هذا القرآن ووعاه، وتشرَّب به قلبُه، وتعوَّد على ذلك، فممَّا لا شك فيه أنه بتَعوُّده يُقيمُ الصلاة كاملةً مُؤدَّاةً بروحها ومعناها، لا صورةً مجرَّدة عن الروح، وبحالة ميكانيكية ربما يذهل فيها عن نفسه، فضلاً عن صلاته وعن الله سبحانه، كما هو شأن أكثر الـمُصلِّين.

والصلاة إذا أُقيمت بحضور قلب وعلى صورة صحيحة، فلا شكَّ أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ لأنها تجعل ذلك المصلِّي رجلاً ربَّانياً تقياً إنسانياً؛ لأن مناجاة الله تعالى

ثم بالغ في التحسيس إلى موضع العبرة والإرشاد فيما تقدَّم، فقال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ ﴾ ـ يعني: هذا الـمَثَل ونظائره التي تُذكَر في القرآن ـ إنما ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ تقريباً لِـمَا بَعُدَ عن أفهامهم، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ (٤٣)﴾ الذين يتدبَّرون الأشياء على ما ينبغي، وأما الجاهلون فيقولون: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ﴾ [البقرة: ٢٦]. وفي هذا التذييل حثٌّ على تعقُّلها وفهمها.

ثم عقَّب هذا التنديد والتأنيب بالدعوة إلى الرشاد، على نهج القرآن، ولفت نظرهم إلى خَلْق السماوات والأرض الدالِّ على اختصاص الخالق بالألوهيَّـة، وأنه أمر لا يُسَلِّمُ العقلُ السليمُ بانتهائه إلى خرابٍ ليس بعده عَـمارٌ، أو ليس بعده غايةٌ وثمـار، فقـال: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: لـمقاصدَ نبيلةٍ وغايـاتٍ جليلـة، وعلى وجه الـحكمة والضبط الدقيق في التنظيم والإتقان، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ﴾ واضحةً ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)﴾ الذين يعلمون أنَّ خَلْقَ السماوات والأرض لم يكن عَبَثاً، ولا شيئاً سُدىً، ولكن لأمرٍ له ما بعده من الحشر والحساب.

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ

يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم ضرب مثلاً لهؤلاء المشركين وشركائهم في وهن أمرهم ووهيه، فقال: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ يعتقدون فيهم النفعَ والضُّرَّ والوساطة، وأنهم في أَسْرِهم وتحت قَهْرِهم، ﴿ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ فسدَّت عليها المنافذ من كل جانب، وحبست نفسها فيه؛ لأنَّ نَزْعة الشِّرك تأسر العقول بالخرافات، وتحبس النفوس بالأوهام، فتتحطَّم وتخور.

ثم ذيَّل المعنى من ناحية الوهي والوهن؛ لأنه أوضح وأجلى، فقال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: لو كانوا من أهل المعرفة والعلم السديد. وفي هذا التذييل مبالغةٌ في وهن أمرهم الشبيه ببيت العنكبوت ووَهْيه وانحطاطه.

ويجوز أن يكون المعنى: إن مثلهم بالإضافة إلى الـمُوحِّد؛ كمَثَل العنكبوت وبيتها بالإضافة إلى رجل بنى له أفخَمَ قصر من أقوى المواد البنائية، وهو المؤمن الصادق الإيمان. وقد مثَّلهم الله سبحانه بقوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وبقوله: ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾ [النور: ٣٩] الآيات.

ثم توعَّدهم سبحانه وتعالى ضمن ما هو كالجواب لِـمَا عساهم أن يقولوه، من أننا لا نعبد شيئاً على هذه الشاكلة، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ فيؤخِّر عقوبتَهم مع أمرهم هذا، لا عن عجز في القدرة، ولكن رجاءَ أن يثوبوا إلى رُشْدهم.

﴿مَسَٰكِنِهِمْ﴾ عندما تجتازونها ذهاباً إلى الشام وإياباً منها؛ تبيَّن لكم من تلك الآثار والأبنية الخاوية في الحِجْر كيف فعلنا بهم، ﴿وَ﴾ كان قد ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: مُتمكِّنين من النظر والاستبصار لو بقوا على سَلامة فِطَرِهم، أو مُتَبيِّنين أنَّ العذابَ لاحقٌ بهم، بإخبار الرسل لهم.

ثم ذكر الأفراد الذين كان هذا دأبهم أيضاً، فقال: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ من الآيات والمعجزات، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُعْرِضينَ عن الحق، فأخذهم العذاب ﴿وَمَا كَانُوا۟﴾ لنا ﴿سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾، وهذا مستعارٌ من حال الـمُخاطَبين، من قولهم: سبق طالِبَه؛ إذا فاته ولم يدركه. والاستعارةُ لأفعال الله سبحانه من حالة الـمُخاطَبين، هي من مناهج القرآن لتقريب المعنى من الأذهان، (كما جاء ذلك في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة في مجازات القرآن).

ثم فصَّل ذلك العذاب بعض التفصيل، وقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ كقوم لوط حيث أُمطِرَتْ عليهم حجارةٌ من سِجِّيل تحصبُهم حصْباً، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كمَدْيَن وثمود نزلت بهم صاعقةُ العذاب، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارون، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بما فعل بهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ بإصرارهم على الشِّرك والبغي والعدوان، نتيجةً لإفساد غريزتهم وتدسيتهم لها.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

ثم ذكر قصة شعيب مع قومه، فقال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ ومَدْيَن: أبو قبيلة سُمِّيت به، وقد أرسل الله إليها شعيباً، ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ أي: توقَّعوا ما سيقع فيه من فنون الأهوال، وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون بها غائلته، وترجون ثوابه، ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ وهذه حالٌ مؤكّدة؛ لأنَّ العثوَّ هو الفساد.

ثم ذكر ما كان من تكذيبهم له ونزول العذاب بهم، وقال: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ أي: الزلزلة الشديدة، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي: ميِّتين خامدين.

ثم ذكر قصَّة بقية الأمم والأفراد الذين أصابهم ما أصابهم بمعاندتهم لرسلهم ومعارضتهم لهم، فقال: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ[1] وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم ﴾ أمرُهم ﴿مِّن

(١) نُصِبَ الاسمانِ بإضمار: اذكُرْ، أو بفعلٍ دلَّ عليه السياق، مثل: أهلكنا. (المؤلف).

إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، فكيف تهلكونها وهو فيها؟! ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: الماضين الباقين في العذاب، أو في القرية مع الهالكين.

ثم حكى ما كان من أمر الرسل مع لوط، وخَوْفَه عليهم من قومه، قبل أن يعرفهم رسلاً من الملائكة، فقال: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾، وكلمة ﴿أَن﴾ صلةٌ لتأكيد ما بين فعل الشرط وجوابه من الاتّصال، وهو قوله: ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾، وإنما سيء بهم مَخافةَ أن يتعرَّض له قومه بسوء، ﴿وَ﴾ لذلك ﴿ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذَرْعُه، أي: طاقتُه. فلما رأوا منه ذلك هوّنوا عليه ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾، وقد بيَّنوا له ما يُوجب زوال خوفه، وهو أنهم ليسوا من البشر، وإنما هم ملائكة، مُنْزِلون بقومه العذاب، ومُنَجُّوه وأهله. فحكى ذلك سبحانه عنهم موجزاً، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: من الهالكين، ممن يصيبهم العذاب.

وفي هذا البيان إيماءٌ إلى أنهم ملائكة لا يقدر قومه عليهم، واكتفوا به عن التصريح، على نهج القرآن في مثله، بمقتضى البلاغة العالية. وقد جاء فِعلُ التنجية مُعَجَّلاً للاحتراس عن تسرُّب الخوف إلى قلبه من نزول العذاب بقريته، على نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم ذكر هذا العذاب النازل، فقال: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: عذاباً شديداً من السماء ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم ختم القصَّة بما فيه تحسيس بالعبرة، فقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ أي: من القرية ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ وهي حكايتها الشائعة بعد أن ابتلعها البحر، تركناها عِبرةً ظاهرةً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: لمن هم من أهل العقل والدراية. وفي هذا الوصف تعريضٌ بكفار قريش، وتحريضٌ للنفوس.

فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم ذكر قصة لوط مع قومه تتمَّةً لقصة إبراهيم، لأنها منها، فقال: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أي: الفعلة المتناهية في القُبح، ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ وهذا يدلُّ على أنهم أولُ مَنْ أحدث هذه الفعلة الشنيعة، ولذلك سُمِّيت بهم.

ثم فسَّر تلك الفاحشة بأسلوب الاستفهام التوبيخي، فقال: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ شهوةً من دون النساء، يبيِّن سفالتَهم في ذلك، وخروجَهم عن مُقْتضى الفطرة والطبيعة، وعمَّا اشتملت عليه الغريزة من الحكمة، وهي بقاء النوع بدوام النسل، ﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بالنهب والقتل، ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَ﴾ أي: الـمُستَقبَحَ من الأفعال والأقوال، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ له ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ متعنِّتين متجبِّرين: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾، يستخفُّون بوعيده لهم، ويهزؤون به.

فلما يئس منهم واشتدَّ أذاهم ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

فأنجز الله وَعْدَه فيهم، كما حكى ذلك بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي: يبشِّرونه بالولد ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ أي: قرية لوط، وهي سدوم، ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾، فجادلهم في شأن لوط و﴿قَالَ

ثم تابع سبحانه حكاية ما قاله إبراهيم، وعطف على قوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ...﴾ قولَه: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦)﴾ أي: إني مهاجرٌ إلى حيثُ أمرني ربي، إنه هو الغالب على أمرنا، فيمنعني من أعدائي، ولا يفعل فعلاً إلا وفيه حكمةٌ ومصلحة وسَدَاد، فلا يأمرني إلا بما فيه صلاحي. وذلك أنَّ إبراهيم عليه السلام لـمّا يئس من إيمان قومه واشتدَّ أذاهم له أُمِرَ بالهجرة، فهاجر هو وامرأته سارة، وكانت ابنةَ عمِّه، ومعهما لوطٌ ابنُ أخيه من سواد الكوفة إلى أرض الشام، ثم إلى فلسطين، فنزل بها، ونزل لوط سدوم.

ثم ذكر سبحانه ما أكرمه بها من الكرامة، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ أي: لإبراهيم ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بنَ إسحاق من عجوز عاقر، وهي سارة، فكان ولادتُها لإسحاق من أعجب الكرامة وأعزِّها، ولذلك لم يذكر إسماعيلَ وَلَدَ هاجَرَ إلا في عموم قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾، لأن هاجَرَ جارية شابة لا عجب فيها، ولكن العجب في سارة العجوز، وكان ذلك إجابة لدعائه، فأكثر منهم الأنبياء، ولم يكن منذ ذلك التاريخ نبيٌّ إلا من ذُرِّيته، ﴿وَ﴾ أنزل عليهم ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: جنسَ الكتاب المتناول للكتب المنزلة، ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ بذلك ﴿أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)﴾ الفائزين فيها بما لا عَينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنجاءِ ﴿لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤﴾ أي: مستعدون للإيمان، بمحافظتهم على سلامة فطرتهم؛ إذ هم الذين يدركون أنَّ ذلك من قدرة الله القادر.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ...﴾ مربوطٌ بقول إبراهيم لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾، وما بينهما استئنافٌ من كلام الله تعالى، جاء بصورة تعليق على ما قبله، على نهج القرآن في مثل ذلك، أو بصورة عَوْدٍ إلى المشركين كذلك عند مَنْ لا يراه من القصة.

ثم إن إبراهيم عليه السلام لم يمنعه ما فعلوا معه أو قصدوا أن يفعلوه، من أن يعود إلى الإنكار على عبادتهم وتكرير الدعوة لهم، ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: إنَّما عَبَدتم هذه الأوثان لا لدليل مُقْنع، ولكن لِتَتَواصَلوا وتَتَوادُّوا فيما بينكم، وتكونوا حزباً واحداً؛ يريد: ليكون ذلك وسيلةً للترابط فيما بينكم والاتحاد، والقيام بقواعد التقاليد الاجتماعية الشعبية والتعصُّب لها. أي: أطاع المرؤوسُ الرئيسَ في ذلك، لا لأنه قانعٌ بصحَّة هذه العبادة، بل للمحافظة على التَّوادِّ والتكاتف، بدافع التَّحزُّب والعصبيَّة في الحياة الدنيا، ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ينقلب بكم الحال، ويتبدَّل التوادُّ تباغضاً؛ حيث ﴿يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ أي: يتبرأ القادة من الأتباع، ويلعن الأتباع القادة، ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾.

ثم ذكر سبحانه أن الإيمان بهذه الدعوة كان مقتصراً على لوط عليه السلام، رغماً عن تتابعها وقوة حججها، فقال: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ﴾ أي: فأذعن له لوط بنتيجة هذا الإرشاد المديد، وبما رآه من معجزة إبراهيم، وما هو عليه من السَّداد، وهو ابن أخيه، وذلك قبل أن أتته الرسالة.

ثم أيأسهم من الإفلات والنجاة منه تعالى، فقال: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ ينجيكم من عذاب الله ولهيب السعير.

وبعد أن قرَّر التوحيد والإعادة وأثبتهما بالدليل القاطع، توعَّد من كَفَر بهما بهذا الوعيد ـ الشامل بعمومه لقوم إبراهيم وكفار قريش معاً ـ وجَعَل الكلام حَلْقةَ عَوْدٍ إلى أصل السياق، وهو قصَّة إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾ يوم القيامة، وقد استعار اليأس للحرمان تصويراً لتأبيده، أو هو مَجازٌ مُرسَلٌ بها سيؤول إليه أمرُهم.

ثم أشفعه بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾، وتكريرُ اسم الإشارة لتقرير التسجيل عليهم بذلك.

وإلى هنا ينتهي الاستطراد عند مَنْ يرى أنه جاء معترضاً في القصة بذِكرِ شأنه ﷺ وقريش، وهَدْم مذهبهم، والوعيد على سوء صنيعهم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم عاد ـ على نهج القرآن في نقل أجزاء الكلام ـ وذكر سبحانه ما كان من أمر قوم إبراهيم لـمّا أفحمهم بالبرهان السابق، إذ عمدوا إلى السفاهة والإيقاع به، دأب أمثالهم في ذلك، وقد أنجاه الله منهم، فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ

ثم حقَّق ذلك بهذا التعليل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم ذكر المصير بعد النشأة الآخرة من نعيم أو شقاء، وأنه يجري بسلطان الله، لا يعارضه سبحانه في إنجازه مُعارِض، ولا يمانع فيه ممانع، وجعل ذلك تأييداً للقدرة، ومثالاً منها، وبياناً لمصير المؤمنين والكافرين، فقال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: بيده تعالى التعذيبُ والشقاءُ، والرحمةُ والهناءُ. وليس المعنى: أنه سبحانه يُجري ذلك اعتباطاً وجزافاً، كَلَّا، فإنَّ مشيئته تعالى لا تجري إلا بالحق والعدالة، وفي سنن مطَّردة، فلا يشاء سبحانه إلا تعذيبَ مَنْ يستحقُّ التعذيب والشقاء، ورحمةَ مَنْ يستحقُّ الرحمة والهناء، إذ سبقت مشيئتُه الأزلية أن يعذِّب مَنْ أفسد فطرتَه ودسَّاها، وهو الكافر والعاصي، وأن يرحمَ من حافظ على سلامتها وزكَّاها، وهو المؤمن الطائع، وأن يكون للنفس ما كَسَبت وعليها ما اكتَسَبت، ولا يُجْزَون إلا بما كانوا يعملون، وجاءت بذلك الأنبياء والكتب المنزلة، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

فلم يكن مدلولُ هذه الآية ومفادُها إلا تأييدَ قدرته القاهرة، وسلطانه العظيم، في مقدرات يوم الدين. والله أعلم.

ثم وصل البيان بما يشفعه، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: تُرجَعون وتُردُّون بعد النشأة الآخرة، فيجازيكم بما كنتم تعملون.

ثم مكَّن المعنى بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: وما أنتم بمعجزين لله أو منفلتين منه وفائتين، ولو تواريتم في مهاوي الأرض ومخافيها، أو تحصَّنتم في مَنَاعة السماء وعواليها. فيكون الكلام تمثيلاً لبيان سلطان الله القاهر الغالب. ويجوز أن يُراد بالأرض: الدنيا، وبالسماء: الآخرة، أي: وما أنتم بمعجزين لله في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم أشفع الإثبات بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكِرَ من الإعادة ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩﴾، ولا شيء يَعْسُر عليه سبحانه وتعالى.

وبعد أن بنى الإرشادَ إلى معرفة الإعادة والتصديق بها على رؤية بَدْء الخلق، أمَرَهم أن يسيروا في الأرض ليستكملوا هذه الرؤية، ويَـرَوْا ما لم يَـرَوْه من عجائب المخلوقات، وأنواع الـمُبْدَعات، وعظائم الكون، وغرائب الآثار؛ لينتبهوا إلى عظيم قدرته، فيعلموا أنَّ الإعادةَ أهوَنُ من إيجاد عظائم تلك المخلوقات، وله الـمَثَلُ الأعلى، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ﴾ هذا ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ في أنواع المخلوقات في البر والبحر، وأنواع لا تُحصى، وصُوَرٍ لا تُستَقصى، خَلَقَ الجميعَ وأوجَدَه من العدم، على هذه الصورة البديعة، والأوضاع الرفيعة.

فالمراد من هذا السَّيْر في الأرض: رؤيةُ ما فيها من عَجَائب المخلوقات، وكيف بدأها سبحانه، أي: أخرَجَها من العدم إلى الوجود، بإتقانٍ وسَداد.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ معطوفٌ على جملة ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، داخلٌ معها في القول. والمعنى: ينشئ الله النشأة الآخرة للإنسان وحده بعد النشأة الأولى. وإنما عبَّر عن الإعادة ـ التي هي محلُّ النزاع ـ بالنشأة الآخرة، المُشْعِرة بكون البَدْءِ نشأةً أولى؛ للتنبيه على أنهما شأنٌ واحد من شؤون الله تعالى في الإيجاد حقيقةً ووصفاً، من حيث إن كلاً منهما إخراجٌ من العدم إلى الوجود، ولا فرق بينهما إلا بالأولية والآخرية.

ويجوز أن يكون المرادُ ببدء الخلق التنبيهَ إلى الزوجين الأوَّلين من كلِّ نوع، فإنهما مخلوقانِ من تراب، وعلى هذه الطريقة يعاد الإنسان كلُّه يوم القيامة دفعة واحدة من التراب، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤]، ولذلك يكونون أتراباً ليس فيهم صغير ولا كبير.

ثم عاد بالكلام إلى المشركين من قريش، على نهج القرآن في العودة، وتوعَّدهم بما نال المكذِّبين قبلهم من الأمم، فقال: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ فنالوا جزاءهم، وإنَّ مصيركم كمصيرهم، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ وقد أَعْذَرَ مَنْ أنذر.

وفي المُخاطَبِ بهذا الوعيد عند المفسِّرين قولان: أنهم قوم إبراهيم، والكلام متسلسل. والثاني: أنهم قوم محمد ﷺ، والكلام استطراد في ثنايا قصَّة إبراهيم عليه السلام، على نهج القرآن في مثل ذلك، لأنَّ الغَرَضَ منها تذكيرُ مُشركي قريش ووعيدُهم بما جَرَى على المكذِّبين قبلهم.

ثم تابع الاستطراد بمتابعة أصول الدعوة، فبعد أن ذكر التوحيد وبَرْهَنَ عليه، ذكر الأصل الثاني ـ وهو الحشر ـ وبرهن عليه، كما هي سُنَّة القرآن في تَرادُفِ هذه الأصول أحياناً، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾، وجَعَلَ هذا كالدليل لقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، وهو إخبار بالإعادة بعد الموت، معطوف على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ عطفَ النظير على النظير. ويجوز أن تكون كلمة ﴿ثُمَّ﴾ ليست للعطف، وإنما هي لتجديد خبر واستئنافه. وعلى كلٍّ؛ فهو إثباتٌ للإعادة بالقياس على البَدْء؛ لأنها ليست بأعظَمَ منه.

والكلام إنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله، وسُنوح سبيله؛ إذ ليست الإعادةُ بأعجَبَ من البَدْء، ولكنَّه لما كان مألوفاً لم نشعر بعجبه وعظمة شأنه، وأيُّ عجب أعجب من أن يتطوَّر الجنين في الرَّحِم تطوُّراته العجيبة من قطرة ماء مهين، ثم يخرج طفلاً ضعيفاً بليداً، ولا يزال يتطوَّر وينمو جسمه وعقله حتى يكون إنساناً كاملاً، وقد يكون عظيماً في أعماله، جليلاً في أفكاره، وربما يكون مكتشفاً باهراً، أو ملكاً جباراً، أو مسيطراً قهَّاراً، وأصله من ذلك الماء المهين.

ثم ذكر قصة إبراهيم مع قومه، فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والمعرفة. وهذا الشرط يُراد به الإلزامُ والتبكيت، والحَمْلُ على التمسُّك بما قبله.

وبعد أن دَعَاهم إلى الدِّين الصحيح، بيَّن بطلان دينهم الذي هم عليه، فقال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أي: تماثيلَ مصنوعة، ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي: تصنعونها بأيديكم وتَدْعونها آلهة. فأوجز المعنى بهذه العبارة التي قدَّم فيها العبادة على الخلق تقديماً للمهمِّ، على نهج القرآن.

ثم سَفَّه أمرَهم بأبلغ الوجوه وأقربها إلى العقول، وانتخب مادة البحث والتنبيه من أهم الأشياء عندهم، وأحوجهم إليه، وأخوفهم عليه، وهو الرزق، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أي: لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ فإنه هو الرزَّاق ذو القوة المتين، والذي يُبْتغى عنده الرزق هو الذي يستحقُّ أن يُقْصَد ويُعْبَد، فاتَّقوه ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ وحده، ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ نعماءَهُ؛ إذ ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، فيُحاسبكم على أعمالكم، ويُجازيكم عليها بالإحسان حُسناً وبالسوء سوءاً.

وفي هذه الآية تذكيرٌ بالنِّعَم، وتأنيبٌ على كفرانها.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

فنصرهم الله على من فتنهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يدعوهم إلى الله، ولم يؤمن منهم إلا قليل.

وفي الآية إرشادٌ له ﷺ أن لا يضيق صدرُه من قومه في مدَّته القليلة، وتنبيهٌ للكفار الذي يستبطئون ما يتوعَّدهم به من العذاب، مُبيِّناً أنَّ العذاب قد تأخَّر زمنَ نوح ألف سنة تقريباً، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، و«إنَّ الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلِته»[١].

ولعل اختيار هذه العبارة ـ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ـ دفعاً لاحتمال أن يكون معنى هذا العدد التكثير لا التحديد، ولما في ذِكرِ «الألف» من التخييل لطول المدة، لأن ذلك أبلغ في الغرض المتقدِّم.

وهذا العمر الطويل من معجزات نبوَّته، خصَّه الله به لحكمة رآها الحكيم الخبير، ولعلَّ منها: أن لا يبقى حُجَّة على الله سبحانه وتعالى إن استأصلهم بالغرق بعد أن دعاهم إلى الحق طول هذه المدة، فأعرضوا ولم يجيبوا، ولم يحمل في السفينة إلا عدداً أقلَّ من المئة، ولكن البشر لم يكن إلا في هذه البقعة القريبة من جبل الجوديّ، ففَنِيَ البشرُ كلُّه، ولهذا يقال لنوح: آدم الثاني، وقد خاطب البشر بعد قوم نوح بقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣]. والله أعلم.

ثم ذكر ما نال قومَ نوح من العذاب والغرق بإصرارهم على الكفر والمعارضة، وما أصاب نوحاً عليه السلام والمؤمنين من الغلبة والنصر بالتنجية لـما صبروا، وقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: عِبرةً يجب أن يتَّعظوا بها، وأن يخافَ المعارضون من مثلها.

---

(١) سلف تخريجه ص٥١١.

خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: لا يحملون عنهم خطيئتهم، ولا يُخفِّفون عنهم عذابهم، بل ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١]، وهل يشبع الجائع إذا أكل عنه غيره.

﴿وَ﴾ إنّ هؤلاء القائلين الـمُضلِّلين ﴿لَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ وهي أوزار ضلالهم، ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ وهي أوزار إضلالهم للناس، أي: إنهم ليحملون يوم القيامة أوزاراً مضاعفةً لضلالهم وإضلالهم، ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ من هذه الأكاذيب والأباطيل، والتمويه والإضلال.

وبالجملة؛ إن الآية تُلهِمُ أنَّ هؤلاء الضعفاءَ قد تَضَعْضَعوا أمام الأذى والاضطهاد، وعَمَدوا إلى مُسايرة الكفار. وإنَّ ضعفاء العقول منهم كان يستهويهم الكفارُ بمثل هذه الخديعة الهازلة الشنعاء. والظاهر أنَّ الكفار كانوا يقولون لهم ذلك حينما كان هؤلاء يذكرون لهم هَوْلَ يوم القيامة أثناء المُحاجَجات معهم.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ثم شرع في ذكر قصص الأنبياء وما جَرَى لـهم من المعارَضة، وما أصاب المعارضين الفاتنين من العذاب، بياناً وتمثيلاً لِـمَا أفاده في مفتتح السورة من أنَّ معارضة المُصلِحين سُنَّةٌ من سُنَن الاجتماع وطبيعة البشر، وتفصيلاً لقوله: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٣]، فذكر كيف فُتِنَ مؤمنو الأمم السابقة، فصبروا على الأذى،

ثم أجرى الكلام بما يخصُّ المنافقين؛ لأنَّ منهم مَنْ هو على هذه الشاكلة، فيشملهم ويشمل مَنْ قبله، على نهج القرآن، فقال: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فَتْحٌ وغنيمةٌ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ للمؤمنين: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾ أي: مُشايعين لكم في الدين، فأشرِكونا في المَغْنَم. فردَّ الله وأنكر عليهم بقوله: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ أي: بأعلَمَ منهم بما في صدورهم من الإخلاص والنفاق.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيماناً صحيحاً، ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ فيُجازي كلاً بحسبه. وللمبالغة في الوعيد أكَّد الفعل بمُؤكِّدَيْن: لام القَسَم، ونون التوكيد.

وبعد أن بيَّن سبحانه وتعالى فتنةَ الكفار لضعفاء الإيمان، وحَمْلَهم لبعضهم على الرِّدّة والكفر، بالأذية والوعيد، وبكَّت أولئك الضعفاء وأنَّبهم على عَدَم صبرهم وثباتهم؛ بيَّن محاولتهم لفتنة صنف آخر بالتضليل والاستمالة، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وعَنْوَنَهم بالكفر هنا، وبالناس فيما سبق مِن قوله: ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأن مَسَاقَ الكلام فيما سبق لبيان افتتان ضعفاء المؤمنين بغيرهم، وهذا لبيان فتنة الكافرين لغيرهم، فهم يقولون ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾، وصيغتا الأمر هنا بمعنى الشرط والجزاء، أي: إنِ اتبعتمونا حَمَلْنا خطاياكم التي يتوعَّدكم بها محمد.

وقيل: إنهم يقولون ذلك استهزاءً بمن يعتقد بالخطيئة والحشر والحساب، وإنما جاءت بهذه الصيغة للمبالغة في نفي وجود ذلك، فردَّ الله سبحانه وتعالى عليهم، مُبيِّناً للحقيقة، وهي: أنَّ هناك مَعَاداً يحمل فيه كلُّ ضالٍّ تَبِعةَ ضلاله. وهؤلاء المُضلِّلُون سيحملون خطايا ضلالهم وخطايا إضلالهم لغيره، دون أن يُخفِّفوا عنهم شيئاً، وسَيُسألون عمّا يقولون من إنكار الحشر والحساب، فقال: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

ولما بيَّن سبحانه وتعالى في مفتتح السورة أنَّ من سُنَّة الله في خَلْقِهِ أن يقاوم ويُعارِضَ كلَّ مَن يَتَصدَّى لنشر الإيمان ويباشر الإصلاح والدعوة لهما؛ أنكر على مَن لم يتحمَّل تلك المقاومة من ضعفاء الإيمان، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ فلم يصبر على ما يصيبه في دينه، ويختار الاحتراز عمّا يوقعُه في الأذى.

قال في «مجمع البيان»: أي: فإذا أُوذِيَ بسبب دين الله رَجَع عن الدين مخافةَ عذاب الناس.

أقول: ومثلُه مَنْ يتقاعد عن نشر الإصلاح أو معاضدته، مَخافةَ أقوال الناس أو أذيتهم.

وقال الزمخشري: جَعَل فتنةَ الناس صارفةً عن الإيمان، كما أنَّ عذاب الله صارفٌ عن الكفر[1]. وقيل: جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله. وبالجملة؛ يكون المفهوم: أنهم ضَعُفوا تجاه أذى الناس لهم على إيمانهم، وفتنتهم لهم في ذلك، وتردَّدوا في الأمر، وقالوا: إنْ آمنّا نتعرَّض للتأذي من جانب الناس، وإن تركنا الإيمان نتعرَّض لِـمَا توعَّدنا به محمد ﷺ، فاختاروا الاحتراز عن التأذِّي العاجل.

وقيل: بل كانوا إذا مسَّهم أذى من الكفار وافقوهم على الكفر.

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٣: ٤٤٣).

﴿وَمَن جَـٰهَدَ﴾ في سبيل الله لتكون كلمةُ الله هي العليا، وجاهد ما يلقاه في دينه بالصبر، وجاهد في طاعة الله سبحانه بالتَّحمُّل ﴿فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، لأنَّ منفعته له، ولا منفعةَ لله سبحانه من وراء ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾، وإنَّما كلَّف عباده رحمةً بهم، ومراعاةً لصالحهم في الدارَيْن، وتكميلاً لِفِطَرِهم، وتوجيهاً لإنسانيتهم نحو الكمال، حتى تصلح في عالم الآخرة وتسعد في نعيمها، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ أي: بأحسَنِ جزاءِ أعمالهم.

ثم بالغ في المجاهدة عن الدين والإيمان، ولو كان الـمُجاهَدُ الوالدَيْن اللذَيْن أوصى الله لهمـا بالطاعة والإحسان، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَ﴾ مع ذلك أوصيناه ﴿إِن جَـٰهَدَاكَ﴾ فضلاً عن أن يأمراك مجرَّدَ أمْرٍ ﴿لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾، وفي هذا القيد مجرَّد زيادة في التفظيع والإنكار.

ومُلَخَّص الكلام: عليك بالإحسان إليهما والتزام طاعتهما في كلِّ شيء، إلا إذا طَلَبا منك الشِّرك بالله، وإنْ جاهداك عليه فلا تطعهما، واثبت تجاه هذا الجهاد.

وإيراد العبارة على هذه الصورة إنمـا هو للمبالغـة في تصويـر فظاعة الشرك، والترهيب منه. وقد أردفه بالتهديد فقال: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ فذكر التَّنْبِيءَ وأراد الجزاء، مِن ذِكرِ الشيءِ وإرادةِ نتيجتِه، أي: فأجازيكم على أعمالكم.

ثم بيَّن جزاء المؤمنين؛ مكتفياً به عن جزاء الكافرين المعلوم من المقابلة بدلالة مفهوم المخالفة، على نهج القرآن، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ أي: في زُمْرة الراسخين في الصلاح، المعروف جزاؤهم.

أي: كيف تكون على خلاف سُنَّة البشر وطبيعة الاجتماع، تلك السنة المبيَّنة بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم لـمّا جاءتهم دعواهم، وذلك لأن الإنسان مخلوق يتصرَّف في نفسه حسبما يوحيه إليه عقله المحافظ على سلامته أو غير المحافظ عليها، ولا بدَّ لفاسدي العقول المنطبعين على شيء من العقائد الزائفة أن يجمدوا عليها، ولا يسمعوا ما يخالفها، بل يقاوموه بقوة وجنون، وهناك يَتبيَّن المُفسِدُ من المُصلح، والمؤمن من الكافر، والصادق من المنافق؛ لأنَّ المؤمن الصادق يتحمَّل كلَّ شدة في سبيل مَبدَئِهِ ودينه، وذلك التَّحمُّل هو الدليل القاطع على صدق إيمانه، والطريق الذي يوصله إلى الكمال الروحي والهدف الأسمى، كما قال تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: في قولهم: آمنّا، فتحمَّلوا المشاقَّ في سبيله، ولم ترجعهم عنه الشدائد، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ وقد مرَّ الكلام عن هذا العِلم في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣] فارجع إليه. ولتقرير هذا العلم أكَّده بمُؤكِّدَين: لام القَسَم، ونون التوكيد.

ثم التفت إلى المعارضين الفاتنين مُهدِّداً لهم ومتوعِّداً إياهم، فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتونا، فلا نقدِرُ على مُجازاتهم ومعاقبتهم بمساوئ أعمالهم، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ أي: قَبُحَ حكمُهم وحُسْبانُهم هذا. وهذا المعنى مأخوذ من حال الـمُخاطَبين، حيث إنَّ المطلوب يشتدُّ في الهرب من الطالب فيسبقه.

ثم عاد إلى المؤمنين يُرغِّبهم في الثبات، فقال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: يتوقع ملاقاة جزائه يوم القيامة، ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ وهو يوم الحشر والجزاء، ﴿لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ لا تخفى عليه خافية، فيُجازي المُحسِنَ بإحسانه، والمسيء بسيِّئاته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن
يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾
وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا
وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السُّور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفِكرِ وإثارة الشعور للاهتمام بما يأتي بعدها، ومنه هنا: قوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾، إذن فلا عِرفانَ لهم بطبائع الأمم وسنن الاجتماع.

وهذه الآية تتضمَّن عتاباً ممتزجاً بالتَّشجيع وحُسْن الوعد لضعفاء المسلمين الذين نَفَد صبرُهم من التضييق الذي يقع عليهم من متنفّذي قريش وجبابرتهم، كما تتضمَّن التلميح إلى السنة الطبيعية الاجتماعية، وهي معارضة الجبَّارين لكلِّ دعوة جديدة يفقدون بها مراكزهم؛ إذ كيف يمكن أن تقوم في الناس دعوة جديدة تُفْضي إلى تغيير وتطوير عظيمَيْن في الأحوال الاجتماعية، ولا يكون لها معارضون؟

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

مختلف في كونها مكيَّة أو مدنيَّة، كلِّها أو بعضِها.

وهي سبعون آية.

وموضوعها: فُتُون المُصلِحين بالأشرار المعارضين، وأنها سنة طبيعية اجتماعية في البشر.

وقد جاء في السورة السابقة أنهم يخافون إذا آمنوا أن يتخطَّفهم الناس من حولهم، فلذلك وأمثالِهِ يعارضون المؤمنين، فجاءت هذه السورة وفي أولها تهوينُ ما يلقاه المؤمنون من الشدائد في سبيل دينهم. وانقسمت في ذلك إلى قسمين:

أولهما: في بيان الحكمة في فتنة المؤمنين في دينهم.

وثانيهما: في بيان ما يسلكونه مع مَنْ يَفتِنُهم في دينهم من المضيِّ في دعوتهم وردِّ شُبَهِهم، ومن الهجرة عنهم إلى مَنْ لا يفتنُهم.

* * *

تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾، وهذا أيضاً ليس على حقيقته، ولكن للمبالغة والتهييج. ثم قرَّر وقطع أطماع المشركين منه بقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

ويجوز أن تكون الآيات الثلاث من خطاب الأمة بخطاب رئيسها، أو من خطاب العين مراداً به الغير، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الخامسة في أنواع الخطاب في القرآن). ويجوز أن يكونَ مِثلُ هذه الأسلوب من القرآن لمجرَّد بيان شدَّة هذا الكفر.

ثم علَّل النهيَ وقرَّره بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ فلا نافعَ ولا ضارَّ، ولا معطيَ ولا مانعَ إلا هو، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1] أي: إلا ذاتَه، فهو الباقي بلا زوال، وهذه هي صفةُ الإلهِ الحقِّ القادر على كلِّ شيء.

ثم رهَّب منه ورغَّب، فقال: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: القضاءُ النافذ، والسلطانُ القاهر، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ للحساب والجزاء.

---

(١) مذهب السلف: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسَه، وسمَّى بها ذاتَه في كتابه وتنزيله، أو على لسان رسوله، من غير زيادة عليها، ولا نقصان منها، ولا تجاوز لها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، ولا سمات الـمُحدَثين، ولا تفسير لها و تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أمرّوها كما جاءت، وردُّوا علمها إلى قائلها، وفوَّضوا معناها إلى المتكلِّم بها، وهو الله سبحانه. ومن ذلك ما جاء عنه تعالى من المجيء والنزول والضحك والقدم واليد والوجه والاستواء على العرش، إلى أمثال ذلك. فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفية عنها؛ لأن الكلام في الصفات فَرْعٌ عن الكلام في الذات، وإثباتُ الذات إثباتُ وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. أما مذهب الخلف فالحَمْل على المعاني المجازية والمفاهيم الكنائية. (المؤلف).

قلت: وهذا تصريح من المؤلف رحمه الله بأن مذهب السلف إمرارُ اللفظ على ظاهره مع تفويض معناه إلى الله تعالى، أما القول بإثبات المعنى على ظاهر اللفظ وحقيقته فليس هو مذهب السلف.

الجزاء، وفيه لغيرك سعادةٌ وشقاءٌ يبيِّن أسبابها هذا القرآن، ولولا ذلك ما نزل عليك. وقيل: المعنى: لناصِرُك عليهم ومُعيدُك إلى مكة التي أخرجوك منها. وإذا كانت هذه الآية مكيَّة فيكون هذا سابق وَعْد منه تعالى وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها، يُلمِّح له ويَعِدُه أنه سيُهاجر منها، ثم يُعيدُه تعالى إليها ظاهراً على مَنْ ناوأه وعاداه. ويجوز إرادةُ المعنيين معاً، ومُجمَلُه: لولا هذا المعاد لَـمَا نزل ولا فُرِضَ القرآن.

ثم أمره أن يردَّ على معارضتهم بقوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٨٥﴾ وما يستحقُّه الأول من النصر، والثاني من الإذلال. فهذا تقريرٌ للوعد السابق وتعليلٌ له، وقد ضمَّنه مُجمَلَ أسباب السعادة والشقاء، وعِلمَه بمن يفعلها.

ثم أدعَمَ ذلك الوعد بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي: سيردُّك إلى معادك، كما أُلقي إليك الكتاب، وما كنت ترجوه ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ولكن إلقاءه إنما كان رحمةً من ربك للبشر أجمعين، فهو لا يُهمل شأنك، ويُعطيك ما لم تكن ترجوه، أو فوق ما كنت ترجوه. ويجوز أن يكون مستأنفاً لبيان عِظَم هذه النعمة ووجوب الشكر، بتحمُّل الشدَّة في سبيلها، لذلك قال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾ يُهيِّجه بشدَّة المقاومة في سبيل نشر الدعوة.

ثم أردف هذا بالتشديد عليه في أمر الدعوة إلى التوحيد، والثبات فيها، مهما جابَهَ من الشدائد والعقبات، فقال: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن تبليغها والعمل بها ﴿بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ بكلِّ عزْم وقوة.

ثم بالغ في ذلك وقرَّره بأسلوب سلبيّ، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَا

= ويجوز أن يكون الكلام خطاباً للأمة في شخص النبيِّ ﷺ، على نهج القرآن في مثله، والله أعلم. (المؤلف).

وذلك بفضل الله الواسع العميم، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ جزاءً وفاقاً، ولا يظلمون فتيلاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ثم ختم السورة بما فيه تسليتُه ﷺ وتثبيتُه تجاه معارضة هؤلاء المشركين وثقل أذيّتهم، ووَعدٌ له بالنصر والغَلَبة في الدنيا، وبالمكافأة العظمى في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: تبليغه والعملَ به، فنالك من جرّاء ذلك ما نالك من هؤلاء المشركين، ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1] عظيم بعد الموت، تنالُ فيه مكافأةً عُظمى في دار

---

(١) بَيَّن الله سبحانه سبب إنزال هذا القرآن، وهو وجود الحياة الثانية، وفيها سعادةٌ وشقاءٌ مبنيان على الهدى والضلال، فجاء هذا القرآن مبيناً لهما، وأشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فيُدخِلُ الأولَ الجنة، والثاني النار، ولذلك بيَّن سبحانه منَّته العظيمة في إنزال هذا القرآن، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، وفي هذا التعبير تهييجٌ له على ما في نفسه من مقاومة المشركين ونشر الدعوة فيهم، ثم قال: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وفي هذا زيادةُ تهييج له على القيام بواجبه نحو المشركين ونشر الدعوة وتحمُّل الأذى منهم والثبات إلى أقصى حدّ، ثم أردفه بدعامة أخرى، فقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى آخر الآيات. فليس المرادُ بهذه التعابير ظاهرَها ومعناها اللفظي، وإنما المراد الحَمْل له على قيامه ﷺ بالدعوة في أقصى درجة الإمكان، بعبارات شديدة البيان. =

وقد بيَّنت الآية أنَّ ما عليه قارون من الثراء والجاه والسلطان ما أغنى عنه من بأس الله شيئاً إذ جاءه، فخَسَفَ الله به وبداره الأرض، وأصبح الذين تمنَّوا مكانه يقولون: لولا أنْ منَّ الله علينا لـخَسفَ بنا كما خَسَف بقارون، إنه لا يُفلحُ الكافرون.

وقد قصَّ الله تعالى علينا هذه القصة لنعلمَ أنَّ البغيَ مَرتَعُه وخيم، وأن للطغيان عاقبةَ الخسران، وزوالَ النعمة، وحلولَ النقمة، وغضبَ الرحمن، وزوالَ السلطان، وأنَّ الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته[1]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، أعاذنا الله.

ثم علَّق على ما مـرَّ من الترغيب لثواب الآخرة بوجهٍ آخر من وجوه أسبابها وطرقها المفضية إليها، ساوقَ به قصة قارون، فقال: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ بخلاف الدار الدنيا، إنما ﴿نَجۡعَلُهَا﴾ ونُعطيها ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗا﴾ كما أراد فرعون وقارون، ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ الذين يتَّقون عذابَ الله وسَخَطَه بتَجَنُّب ما لا يرضاه تعالى من الأفعال والأقوال.

ثم بيَّن تعالى نظام الجزاء في تلك الدار، وهو أن شـرَّها مُرتَّبٌ ترتيباً طبيعياً[2] على شرور الأعمال في هذه الدار جزاءً وفاقاً، وخيرها كذلك، إلا أنه يُضاعَفُ ويُضافُ إليه فَضْلُ الله الواسع العميم؛ بياناً للجزاء بعد النقاش، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ لا يقـدَّر بعمله، بل يُضاعَـفُ له أضعافاً مضاعفة،

---

(١) يشير إلى الحديث الشريف الوارد في هذا المعنى، وقد تقدم تخريجه ص٥١١.

(٢) بل ترتُّب ثواب الآخرة وعذابها على أعمال العباد في الدنيا ترتُّبٌ شرعي، يعني: أن مردَّه إلى ما قرَّره الله عز وجل في شريعته التي أنزلها على عباده، وليس له مردٌّ آخر من سنة كونية أو قانون طبيعي. وقد تقدم التعليق على مثله في غير موضع سابق ينظر على سبيل المثال ص٤٧٣.

ثم بيَّن الأداةَ والطريقةَ الـمُوصِلةَ إلى ذلك، فقال: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: هذه المثوبةُ ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ على مَشاقِّ الطاعات ومدافعة الشهوات وعوز الحياة.

ثم ذكر نزولَ العذاب بقارون، وما كان من انقلاب الأفكار والآراء في حَظِّه، فقال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ فذهب هو وخزائنه في طرفة عين، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ٨١﴾ أي: من الممتنعين منه تعالى بوَجْهٍ من الوجوه.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ زاهدين في ذلك، راجعين عن رأيهم، مُتبصِّرين بحقيقة الأمر، ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ[1] ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء، لا لكرامةٍ تقتضي البَسْط، ولا لهوانٍ يوجب القَبْض، ولكن بسُنن كونيَّة، وحكم عليَّة، وأسرار خفيَّة، ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم نكن مِثْلَ قارون ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خسف به، ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٢﴾ لِنِعَمِ الله، والمكذِّبون لرسل الله[2].

وهذه الكلمة[3] تستعمل عند التنبيه على الخطأ والندم عليه. والمعنى: أنهم قد تنبَّهوا إلى خطئهم في تمنِّيهم ذلك، ونَدِموا عليه.

---

(١) يقولون متوجِّعين متحسِّرين: اسمع ـ أيها المخاطب ـ تعجُّبي من نفسي، كيف كنت جاهلاً عن حقيقة أن الله يُوسِّع الرزق لمن يشاء من عباده، ويُضيِّق الرزق على من يشاء من عباده لحِكَم يعلمها، وليس بَسْطُ الرزق تكريماً، ولا تضييقُه إهانة.

(٢) أي: اسمع ـ أيها المخاطب ـ تعجُّبي من نفسي، كيف كنت جاهلاً عن حقيقة أنَّ الشأن العظيم من مقادير الله في كونه، وسننه في عباده: عدم ظفر الكافرين الذين يجحدون نعمة الله ولا يقومون بواجبها من الإيمان والشكر والطاعة، مع عناهم وجبروتهم.

(٣) يعني: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾، و(وَيْ): اسم فعل بمعنى: نعجب، أي: نحن. والكاف بمعنى اللام، أي: حرف جر معناه السببيَّة. والعرب تستعمل (وَيْ) للدلالة على التَّعجُّب أو الندم. وإذا حُمِلت على الندم يكون المعنى: يا أسفى ألم تعلم أن الله يبسط...، والأَوْلى حَمْلُها على المعنيين: التَّعجُّب والندم، كما تقدَّم تفسيرها.

ويجوز أن يُفهَمَ من نَظْم هذا الرد: أنَّ قارون تعلَّل بالقوة أيضاً كما تعلَّل بالعلم، على نهج القرآن في إيجاز الاحتباك والاكتفاء، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية)، فقد تبجَّح ولم ينتبه إلى أنَّ هذا العلم الذي أُوتيه هو من مواهب الله السنيَّة، وإذا أراد الله شيئاً هيَّأ أسبابه سلباً أو إيجاباً، بمقتضى حكمته العلية.

ثم ذيَّل التهديدَ بمبالغة الوعيد، فقال: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ بل يُصرَفون إلى العذاب، أو يَنزِلُ بهم من دون محاكمة وسؤال؛ لظهور حالهم عليهم. وهذا على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٣٩-٤١].

وقال أبو مسلم: إنَّ السؤال قد يكون للمحاسبة، وقد يكون للتبكيت والاستعتاب، وأليق الوجوه بهذه الآية وشبهها: الاستعتاب.

أقول: ومن النوع الأول قولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]. والظاهر من السياق: أنَّ المراد من هذا الوعيد عذابُ الاستئصال في الدنيا، لا عذاب الآخرة.

ثم تابع الكلام عن قارون ومصيره وانقسام قومه في أمره، وضمَّنه التزهيدَ في حطام هذه الدنيا بأسلوب بديع، فقال: ﴿فَخَرَجَ﴾ قارونُ يوماً ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ وموكبِهِ زاهياً مباهياً، فلما رأوه ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ من المؤمنين، جَرْياً على سَنَن الجِبِلَّة والخِلْقة البشريَّة، من الرغبة في السَّعَةِ واليَسَار: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ في هذه الحياة الدنيا، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بأحوال الدنيا والآخرة على الوجه الصحيح: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ مما تتمنَّونه في الدنيا، وهو ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

ثم ذكر ما كان من نصيحة قومه له بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ فرَحَ أشَرٍ وبَطَرٍ وكبرياء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ بهذا النوع من الفرح، والويلُ لمن لا يحبُّه الله، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ بصَرْفِهِ على ما سيكونُ وسيلةً إليها من وجوه البر، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾(١) والتمتُّع فيها بالوجوه المباحة، أو طلب الكسب والتوفير، إذ بنعمته تعالى تتمُّ الصالحات، ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله تعالى، وساهِمْ في وجوه البرِّ والإحسان ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعَمَ به عليك، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والبغي والطغيان؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ والوَيْلُ لمن لا يحبُّه الله.

وقد تضمَّنت النصيحة ما يُؤذِنُ بتخويفه من سَلْب ثروته إن لم يخشَ الله فيها، فأجاب قومَه بما يدل على تجبُّره وإعراضِهِ عن الله، حيث ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أي: هذا المال ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ بوجوهِ المكاسِب، فلا أخشى ضياعه، وأعلم كيف أستفيد.

وهذا الكلام ينطوي على الإلحاد وإنكار وجود الله، ولا يرى لوجود هذه النعمة سبباً سوى علمه وكفاءته. فردَّ عليه سبحانه وتعالى متوعِّداً له بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ ويجوز أن يكون ذِكرُ القوة لاستكمال البيان، على نهج القرآن في مثله، أي: ألم يعلم أنَّ الله سبحانه قد أهلك مَنْ هو أوفرُ منه حظاً بأسباب المناعة التي يزعمها. ويجوز أن يُرادَ قوةُ العلم.

= ثم إن القول بأن المراد بالمفاتح: الخزائنُ نفسُها، فيه إضعاف لمدلول الآية في سياقها، فكثير من الأغنياء من يثقل حمل خزائن أموالهم وصناديق كنوزهم على العصبة أولي القوة من الرجال.

(١) الدنيا والآخرة كلٌّ منهما متمِّم للآخر، وصلاحُهما بالدين وتوجيهاته، والدين والدنيا في نظر القرآن مترابطان ترابط الروح بالجسد، فإذا كان الدين يمدُّ الروح بالإيمان الصحيح والآداب الحسنة والسلوك المستقيم، فإن أمور الدنيا إن كانت على وجهها الصحيح تكون بلاغاً إلى الآخرة.

عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

ثم دفع سبحانه ما من شأنه أن يَرِدَ على الخاطر من أمر إحسانه وإنعامه سبحانه إلى هؤلاء الكافرين على كفرهم، دفعه بذكر قصة قارون وما أعطاه الله من الكنوز على بغيه، إيذاناً بأنَّ الله سبحانه يُمْلي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلِتْه[١]، وبأن إنكار نِعَم الله يُوجِبُ سَخَط الله، على نهج القرآن في تعقيب الجدل والمناقشة بالتهديد والوعيد، فقال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالكفر والتجبُّر والطغيان، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ[٢] مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ[٣] لَتَنُوٓأُ﴾ أي: لتَثقُل وتميلُ[٤] ﴿بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ والعُصْبة: ما فوق العشرة. وهذا تصويرٌ لكثرة خزائنه البالغة الحد، وكنايةٌ عن ذلك، والكناية يراد بها لازمُ معناها، وهو هنا كثرة الخزائن، ولا يجب فيها تحقُّق المعنى الأصلي، بل لا يتحقَّق إلا في قليل من الكنايات. ويجوز أن يُراد بالمفاتيح: الصناديق، بطريقة المجاز المرسل، وهو الأقرب[٥]. والله أعلم.

---

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) عن أبي موسى الأشعري.

(٢) الكنوز: جمع كنز، وهو ما يُجمَع من المال ويُخزَّن فلا يؤدَّى حقُّه.

(٣) المفاتيح: جمع مَفْتَح ـ بفتح الميم وسكون الفاء، بوزن: مَرْصَد ـ وهو ما يُفتح به القفل ويُغلق.

(٤) أي: لا يستطيعون حَمْلَ المفاتيح ولا ضَبْطَ ما تحفظه، فإذا حملوها مالت ظهورهم من ثِقَلِها عجزاً عن النهوض بها قائمين.

(٥) بل الأقرب هو ما دلَّ عليه ظاهر اللفظ من أن المراد بالمفاتح: مفاتيح الخزائن التي تُحفَظُ فيها الكنوز كان يثقل حملُها على العصبة من الرجال، وهذا هو المعنى الحقيقي لألفاظ الآية، وهو غير ممتنع عقلاً ولا عادة، لا سيما أن المفاتيح في الأعصار الماضية كانت أكبر حجماً من مفاتيح هذا العصر، وما دامت الحقيقة غير ممتنعة فلا ينبغي العدول إلى المجاز. =

أُخذ وظهر افتَضَحَ أمره وانكشف على رؤوس الأشهاد ما يحاول إخفاءه، ويحرص على كتمانه.

وتحرير هذه الـمُجادلة والمحاجَّة: أنه إذا كان يوم القيامة قلنا لهم: أين الذين زعمتُم أنهم شركاؤنا؟! وجئنا بشهدائنا الأنبياء الذين بلَّغوهم توحيدنا، ثم طلبنا منهم برهانهم على الشرك؛ مبالغةً في إلزامهم، وإيغالاً في تأنيبهم وإفحامهم، ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ على صحَّة ما كنتم تدينون به.

وقد أقام مقام قوله: (فانخذلوا)، قولَه: ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الإلهية لا يشاركه فيها أحد، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: غابَ عنهم غيبةَ الضالِّ الهارب ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ من أمر الشركاء، لأنه افتراءٌ يذوب أمام الحق ويغيب، ويخجل صاحبُه أن يُظهِرَه.

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ

هو عليه لتتمَّ لكم الحياة، ولتكمل لكم المنافع، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: وليُعِدَّكم لشكره تعالى واستبصاركم لعظيم أمره، ولكنكم أشركتُم وكفرتُم نعمة الله. والشكر: الثناءُ على الله والطاعةُ له والانقياد(١).

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

ثم أردف هذا السياق المتضمِّن للإنكار على شركهم، ولإفحامهم بما لله سبحانه من عظيم الأعمال وكبير النِّعم التي تستلزم اختصاصه بالألوهية، أردفَه بما يزيدهم تبصرةً وإرشاداً، وذلك بتوقيفهم على ما سيكون من شأنهم في أمر شركائهم يوم القيامة، فأعاد عليهم المجادلة السابقة بوجهٍ آخر فيه إلزامٌ وإفحامٌ ملموس، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾؟! وهذا القول لتبكيتهم وتأنيبهم بما اتَّضحَ لهم من تورُّطهم في الشرك، وسوء مغبَّته، وفداحة عاقبته، وللمبالغة في إقامة الحُجَّة عليهم، كي لا يقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أو يقولوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، يستشهد عليهم أنبياءهم كما بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم بالتبليغ، وبما كان منهم من المقاومة والإعراض.

وكلمة: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ تُؤْذِنُ بأن حالتهم إذ ذاك حالةُ مَنْ يمانع أن يُؤْخَذ منه شيء إذا

---

(١) إنما تمَّ تتابع الليل والنهار بحركة الأرض اليومية على نفسها، ولو كانت واقفةً لكان الوجه المقابل للشمس نهاراً دائماً، والآخر ليلاً دائماً، ولا تتم حياة الحيوان والنبات في كلٍّ منهما، ففي حركة الأرض هذه نعمة وحكمة عظيمتان على الإنسان، فجلَّت حكمة الله العليم الخبير. (المؤلف).

وبعد أن ردَّ شُبَهَهم، وأفحَمَهم وأوقَفَهم على ما سيكون من أمرهم من العذاب المهين، نتيجة شركهم وكفرهم بآيات الله، قرَّر حقيقةَ التوحيد بعبارة مسبوكة على الوعد والوعيد، على نهج القرآن في التعقيب بالإرشاد والبيان، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ بمعنى: أنه مُفيضُ النِّـعَم في الدنيا والأُخرى، تلك النِّـعَم التي يستحقُّ عليها الحمدَ الجزيل والثناءَ الجليل، ومنها: أنه جَعَل الإنسان مختاراً. وجَعَل هذا كالدليل على اختصاصه بالألوهيَّة فوق ما فيه من الوعد والترغيب، ثم قَـرَن ذلك بما يتضمَّن الوعد والترهيب، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم ذكر شيئاً من أعماله ونِعَمِـهِ الدنيوية الظاهرة التي يستحقُّ عليها الـحَمْدَ واختصاصَ الألوهية وانفرادَه بها؛ ذكره أولاً بأسلوب سلبي تهديدي تحسيسي بليغ، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بأنْ خلق الكون على نظام يستلزم ذلك، فلا تتمُّ لكم هذه الحياة ولا هذه المنافع، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ تتمُّ لكم به الحياة والمنافع، أشركاؤكم تفعل ذلك؟ ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ هذا البرهانَ سماعَ تدبُّرٍ واستبصار ؟!

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ بأنْ يجعل نظام الكون كذلك، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ وتسترجعون ما فقدتموه من القوى بنتيجة متاعب الأشغال والأعمال أثناء النهار لتبقى لكم الحياة؟ أشركـاؤكم تفعل ذلك؟ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ هذه النِّـعَمَ والـحِكَمَ الدالَّـةَ على اختصاصه بالألوهية وتتفكّرون بها.

ثم قـرَّر الموضوع نفسه بطريقة إيجابية، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فخلق نظام الكون على ما

على أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، أما إذا كانت موصولة فيكون المعنى: ويختار ما كان لهم الخير فيه.

ثم نزَّه سبحانه نفسَه عن التدخُّل في شؤونه، ضِمْنَ التنزيه عن الإشراك به، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

ويجوز أن يكون الكلام خطاباً عما تكنّه صدورُهم: لو خَلَقَنا الله غيرَ مختارين كالـملائكة لَـمَا نالنا هذا البلاء. والجواب: أنَّ الله أرادكم خلفاء الأرض تكونون ذا علم واسع وعمل عظيم، وذلك لا يكون إلا بالاختيار، ولكن جهَّزكم بهدايتين: هداية الطبيعة، وهداية الشريعة، فلم ينتفعوا بها.

ثم أشفع هذا الردَّ ببيان أنَّ ما يقولونه ناشئٌ عن حَنَق[1] صدورهم، فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

هذا ما يقوله المفسِّرون في معنى الآية. والذي أراه ما جاء في التعليق. والله أعلم بمراده.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

= موصولاً، والمعنى: أنه سبحانه اختار لهم ما فيه خير وصلاح، وهو أن يكونوا مختارين في تصرُّفاتهم وأعمالهم، ولكنهم أساؤوا التصرُّف فيما اختير لهم. وهذا ما أراه. والله أعلم. (المؤلف).

(١) الـحَنَقُ: الغيظ «لسان العرب» (حنق).

من الخذلان والندم، وتهيَّأت النفوس للاتِّعاظ، أتبَعَه بذكر مَنْ يتوب منهم في الدنيا، ترغيباً في التوبة، وزَجْراً عن الثبات على الكفر، فقال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾، والترجِّي من الكريم تحقيقٌ ووعدٌ كريم.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

ثم عاد إلى السياق السابق؛ سياقِ إيراد شُبَهِهم وردِّها عليهم، وكان من شُبَهِهم أنهم يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة وأبا مسعود الثقفي من الطائف. فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أن يخلقَه، ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ما يشاء أن يختارَه، بحسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾[1] بمعنى: لا يبعث الله الرسلَ باختيارهم. وهذا

---

(١) يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ...﴾ تعقيباً ـ على نهج القرآن بمثله ـ يؤذن بأن معارضة هؤلاء المشركين لمحمد ﷺ ودعوته وكفرَهم به لم تكن عن عجز في قدرة الله في نوع خلقتهم ولا تقصير في ذلك، فهي على حدِّ قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، بأن يخلقهم كالملائكة، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ولكن مشيئته تعالى اقتضت بموجب الحكمة البالغة أن يكون الإنسان مُطْلَق التصرُّف في أعماله، فإما أن يسيء وإما أن يحسن، وإما أن يكفر وإما أن يؤمن، ولا يخفى على الله سبحانه من أمرهم خافية، ويُجازيهم على ذلك جزاءً وفاقاً. ومثل هذا التعقيب هو من نهج القرآن في مثل هذا السياق، والقرآن يلوِّن البيان عن الغرض الواحد بعبارات مختلفة.

ثم بيَّن سبحانه أن أعماله هذه في الدنيا والأخرى للمحسنين والمسيئين، والكافرين والمؤمنين، جارية على ما يوجب له الحمد والثناء؛ لأنها جارية بالعدل والسداد والإتقان، ليس فيها حَيْف ولا تقصير ولا عدوان.

ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ من قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ مفعولاً لـ«يختار» على أن تكون =

قال أبو السعود ما مُلخَّصه: ومسارعة هؤلاء الرؤساء إلى الجواب مع كون السؤال للعَبَدة مُطْلقاً: إما لتفطُّنهم أنَّ السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم، وأنَّ الأتباع سيقولون: هؤلاء أضلُّونا. وإما لأن الأتباع قد اعتذروا، فردَّ هؤلاء عليهم، إلا أنَّ القرآن اكتفى بقول هؤلاء لدلالته على قول أولئك، إيجازاً من إيجازاته[1].

أقول: وذلك على نهج القرآن في الاكتفاء بما في الأول عما في الثاني، والعكس، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

﴿وَ﴾ بعد أن قال الرؤساء هذا القول ﴿قِيلَ﴾ للأتباع: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾، يُقالُ ذلك لهم إما تَهكُّماً بهم أو تَبكيتاً لهم، ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لفَرْط الحيرة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ لعدم قدرتهم على شيء، ولأنهم مُتورِّطون مثلهم، ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ قد غَشِيَهم، وتمنَّوا ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: ليتَهم كانوا مهتدين بهدى الله. أو المعنى: لو أنهم كانوا يهتدون ويعقلون، لفقهوا ما ذكَّرناهم به في الدنيا، وما أوقفناهم عليه من مصيرهم، ولَـمَا وقعوا فيما وقعوا فيه.

ثم ذكر لهم أمراً آخر مما سيجري لهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: خفيَ عليهم الجواب، أو: لم يجيبوا. وهذا تصويرٌ لشعورهم بالخذلان، وبأن القول قد حقَّ عليهم. وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ إيغالٌ في هذا المعنى[2]، أي: يلتزمون الصَّمت والبَكَم؛ لركوب الحق لهم. فالكلام تصويرٌ لارتباكهم ولشعورهم بما كانوا عليه من الضلال المبين.

وبعد أن ذكر حالَ المعذَّبين من الكفار، وما يجري عليهم من التوبيخ، وما يلحقهم

---

(١) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٧: ٢١).

(٢) الإيغال: أحد أقسام الإطناب، وهو خَتْمُ الكلام بما يفيد نكتةً يتمُّ المعنى بدونها.

ولما كان مفاد قولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾: أننا تركنا الدين كي لا تفوتنا الدنيا، ردَّ عليهم من هذا الوجه أيضاً، فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!

ثم نـوَّر القضية وقـرَّر المعنى بقولـه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ وهو نعيم الجنة العظيم الدائم، ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ والمتاع: الشيء المؤقت، أي: فيزول عن قريب ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾، والإحضار: إنما يكون للمجرمين لحسابهم وعقابهم.

ثم تـمَّم البيان عما سيجري لهم يوم القيامة من التبكيت المُخزي، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ في آيات الوعيد، وعنى بهم: الرؤساء أو الشياطين الأفَّاكين. وتخصيصُهم بهذا الحكم مع شموله للأتباع؛ لأصالتهم في الكفر وفي استحقاق العذاب، فهم يقولون عن أتباعهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ يعنُون أتباعهم الذين أضلُّوهم بدعائهم إلى الضلال ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾.

وخلاصة العذر: أنَّ غَوايةَ هؤلاء الأتباع إنما كانت بسبب أنهم لم يستعملوا مواهبهم في التمييز بين الحقِّ والباطل؛ لأنهم أفسدوها بالتربية السيِّئة والتقليد الأعمى، كما فعلنا نحن مثلهم، فذنبُهم على أنفسهم في غَوايتهم، كما أنَّ ذنبَنا على أنفسِنا في غَوايتِنا، ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم وممَّا اختاروه لأنفسهم من الكفر.

ثم قـرَّروا المعنى بقولهم: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾، وإنَّـما كانوا يعبدون أهواءهم. وتطلق العبادة على اتِّباع الآمر بالشيء والمزيِّن له.

بعض يوم[١]. أو: لم يبقَ فيها من يسكنها إلا قليلاً، وذلك من شؤم معاصيهم، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ إذ لم يخلفهم أحد يتصرَّف في ديارهم. وإذا لم يَبْقَ للشيء مالك معيَّن، قيل: إنه ميراث الله؛ لأنه الباقي بعد فناء خلقه.

ثم بيَّن سبحانه وتعالى ـ بعد تأنيب المعارضين ـ حِكْمَةَ إرسالِ الرسل، وضمَّنه الردَّ على ما من شأنه أن يَرِدَ على الخاطر، وهو: لِـمَ لـمْ يُهلِكِ الله الكفار قبل مبعث النبي إليهم مع أنهم مستغرقون في الكفر من قبل؟ فبيَّن تعالى أنَّ عذاب الأمم في الدنيا لا يكون إلا بعد حصول أمرين: الأول: إرسال الرسل إليهم، كي لا يكون لهم على الله حُجَّة بعد ذلك التبصير والإنذار. والثاني: أن يعارضوا أولئك الرسل ويكذِّبوهم ويصرُّوا على العِناد، فإذا فعلوا هذا بعد الإرسال استأصلهم الله بالعذاب. وقد أفصح سبحانه وتعالى عن ذلك، فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ أي: في عاصمتها ومقرِّ رياستها ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ بتكذيب الرسل والعُتُوِّ في الكفر، فحينئذ يُعذَّبون بعذاب الاستئصال، فتبيَّن أنَّ عذاب الاستئصال للأمم لا يكون إلا بعد أمرين: إرسال الرسل، وتكذيب قومهم لهم.

وإنَّما التفت من الغيبة إلى نون العظمة في قوله: ﴿آيَاتِنَا﴾ و﴿وَمَا كُنَّا﴾؛ لتربية المهابة وإدخال الرَّوْعة في الكلام.

= وجوانبها الصارمة؛ لأن نشاط الأمة يَتَجدَّد ويستديم ما دامت تحترم العمل، وتتحمَّل التعب، وتصدف عن المعاصي، وتعاف اللهو، ولو كان من طريق حلال، فالنعومة في العيش والميوعة في الأخلاق مفسدة للأفراد، ومقراض للأمم. فلذلك ابتعدت عنهما الشريعة، وحذَّر منهما القرآن. (المؤلف).

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٥: ٨).

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ ﴾ أي: إن اتَّبعناك وخالفنا الناسَ عادَوْنا ولا طاقة لنا بهم، فردَّ عليهم بما هم فيه من الحرمة والمركز العظيم بين الناس على كفرهم، وذلك بسُكْناهم لهذا البلد الحرام، فكيف لا يحفظهم إذا آمنوا؟! فقال: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ وهي: مكة التي تحترمُها العربُ على اختلاف مآربها ومسالكها في نظم حياتها. وللمبالغة في زيادة طبع النفوس على احترامها حرَّم حتى صيدها، فهم في هذا الحرم الآمن في أمن دائم لا يمسُّهم أحد بسوء، ومن جرَّاء ذلك الأمن فيه وحَجِّ الناس له ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ من المأكولات وأنواع المنتوجات، من كلِّ حَدَب وصَوْب ﴿رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾، فهذه الجبايةُ إليه صفةٌ أخرى دافعةٌ لما عسى أن يُتَوهَّمَ من تضرُّرهم بانقطاع الميرة عنهم إن اتَّبعوه وخالفوا الناس وعادَوْهُم.

والمعنى: إذا كان هذا حالهم وهُم عَبَدة أصنام، فكيف يخافون التَّخطُّف إذا ضمُّوا إلى حُرْمة البيت حُرْمةَ التوحيد والصَّلاح والدين الصحيح؟ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: جَهَلةٌ لا يفطنون لمثل ذلك.

وبعد أن بيَّن تعلُّلاتهم الباطلة، وردَّها عليهم بما يتضمَّن ما خصَّهم به من النِّعَم، هدَّدهم بما أنزله بالأمم الماضية الذين كانوا في نِعَم الدنيا، فلما كذَّبوا الرسل أزال عنهم تلك النِّعَم، فقال: ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ ﴾[1] قال ابنُ عباس: لم يسكنها إلا المسافر ومارُّ الطريق، يوماً أو

(١) البطر والترف والعكوف على الملذَّات ومطاوعة الأهواء: أمراضٌ تصيب الأمم في عصور الانحلال، وتُعرِّضُها للهَلَكة، فهي نُذر الفناء. وقد لوحظ من استقراء التاريخ: أنَّ الحضارات الكبرى لم يمحقها إلا الترف، وأنَّ الأمم العظيمة لم يُهلكها إلا البطر، وأنّ ترك الأمة ترتع في الشهوات رتوع السوائم لن يجرَّ في أعقابه إلا البوار والدمار. لذلك حرص أولو النُّهى أن يشيع في أممهم الأخلاق المتينة وعيش الخشونة، وأن يتعلّموا أخذ الحياة من نواحيها الجادة =

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾
وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ
كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ
مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ
إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ
وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ
الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ
﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا
يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

ثم عاد بالبحث إلى المشركين، وصدَّر الكلام بما فيه تسليةٌ له ﷺ عن أعمالهم وعدم إيمانهم، وتهوينٌ لحرصه على هدايتهم، فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ممَّن عبثوا بسلامة فِطَرهم وأفسدوا استعدادَهم للنظر الصحيح، وإن بَذَلْتَ غايةَ المجهود، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ وهم الذين حافظوا على سلامة فِطَرهم ونور بصيرتهم واستعدادهم الطبيعي للهداية، فأجابوا الحقَّ حين دعاهم، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: بمن بقيَ فيهم بقيةٌ من الاستعداد للهُدى والرشاد، أو بالمهتدين حقيقة ومَنْ يدَّعون الهداية والصلاح. يشير إلى أنَّ الذين لا يتمسَّكون بهذا الدين ويزعمون أنهم مهتدون؛ ليسوا بمهتدين.

ثم ذكر ما اعتذروا به عن عدم إيمانهم بعد إلزامهم وانقطاع حُجَّتهم، فقال:

فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: من قبل القرآن، أو من قبل محمد، ﴿هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾ لأنهم يجدون نعتَه والبشارةَ به في التوراة والإنجيل.

قيل: إنها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة حقَّة يتمسَّكون بها، فلما بعث الله تعالى محمداً ﷺ آمنوا به، ومنهم سلمان الفارسي، وعبد الله بن سَلَام، والنجاشي، وأمثالهم. وقيل: نزلت في أربعين رجلاً من أهل الإنجيل، وهم أصحاب السفينة، جاؤوا من الحبشة مع جعفر.

وعلى كلٍّ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكلُّ مَنْ كان بهذه الـمَثابة كان داخلاً في حكم الآية.

ثم حكى عنهم ما يدلُّ على تأكُّد إيمانهم وتحقُّقه، فقال: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: القرآن ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣﴾ لأنهم كانوا قد شاهدوا ذِكرَه والتنويهَ بشأنه في الكتب المتقدِّمة، وتحقَّقوا أنه سيأتي بالدين الصحيح، الذي تُختَمُ وتُنسَخُ به الأديان، ويكون عالمياً مع لغته العربية للناس أجمعين.

فسجَّل لهم سبحانه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ على أذى قومهم، ﴿وَ﴾ كانوا ﴿يَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾، فمدحهم بالإيمان والصبر على الأذى في سبيل الله، وبالطاعة البدنية والمالية.

ثم بيَّن من صفاتهم الحسنة شيئاً من صبرهم على الأذى في سبيل الله، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ﴾ أي: السَّفَهَ من الناس، والقبيحَ من القول والهزء. والمراد به: انتقاد قومهم لهم على إسلامهم، وشتمهم، والإيقاع بهم. فإذا سمعوا ذلك منهم ﴿أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾ أي: عن القائلين له، ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ سَلامَ مُتاركةٍ وتوديع، فإنا ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾ أي: لا نريدُ مجالسَتهم، ولا نرغبُ بشأنهم، ولا نقابلهم في المشاتَمة.

لأنفسهم بإطفاء نور العقل، ومَحْق الاستعداد لمعرفة الحق، الذي أودَعَه الله في الطبيعة البشرية، فهم بذلك لا يهتدون إلى الطريق السويِّ الـمُوصِل لسعادة الدارَيْن.

ثم ختم السياق المُلزم لهم وقرَّره بما فيه تأنيبٌ وكفٌّ عن المعاذير وقَطْعٌ لها، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: أتيناهم في القرآن ببيان بعد بيان ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾، ولكنهم لم يتذكَّروا ولم يتَّعظوا، فلم يَبْقَ لهم معذرة ولا حُجَّة ولا تعلُّل ولا استِعتاب.

ويحتمل أن يكون المراد: إنا أنزلنا القرآن مُنجَّماً مُفرَّقاً يتَّصل بعضُه ببعض؛ ليكونَ ذلك أقرَبَ إلى التذكير والتنبيه وأقوى، ويكونَ فيه جوابٌ عن قولهم: هلّا أُوتي محمدٌ كتابَه دفعة واحدة، كما أُوتي موسى كتابَه كذلك؟

كما يحتمل أن يكون المراد: وصَّلنا أخبارَ الأنبياء بعضَها ببعض، وأخبارَ الكفار في كيفية إهلاكهم، تكثيراً لمواضع الاتِّعاظ والانزجار.

أو المعنى: تكرار تلك القصص القرآنية بوجوهٍ مختلفة، وكلُّ وجه يتضمَّن دقائقَ تَجْلو عبرةً من العبر. أو معناه: وصَّلنا الدعاوي بالحُجَج، والنصائح بالعِبَر، لأنَّ ذلك أكثرُ تأثيراً على النفوس وتذكيراً بها. وعلى كلٍّ، فالجملة لقطع معاذيرهم وإقامة الحجَّة عليهم.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

ثم قابل حالَ المعارضين بحال مُؤْمني أهل الكتاب في عهد الرسول، ليكون ذلك كالاستثناء لهم من الحملة التي حَمَل بها على أهل الكتاب، على نهج القرآن في مثل ذلك،

فقالوا: إنا نجدُه في التوراة بنعته وصفته. فلما رجع الرَّهْط إليهم، وأخبرهم بقول اليهود، قالوا: إنَّ موسى كان ساحراً كما أن محمداً ساحر، وقد تظاهرا. فقال تعالى في حقِّهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾؟ وعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلقاً بـ﴿أُوتِيَ﴾.

ومنها: أن كفار قريش كانوا منكرين لجميع النبوَّات عدا إبراهيم، ثم إنَّهم لما طلبوا من الرسول ﷺ معجزاتِ موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ بل بما أُوتي جميعُ الأنبياء من قبل. أي: فعَلِمْنا أنه لا غـرَضَ من هذه الاقتراح إلا التعنُّت.

أقول: وعلى الوجه الأول يكون المراد بقوله: ﴿سِحْرَانِ﴾ أو (ساحران): موسى وهرون، أو ما جاءا به. وعلى الوجه الثاني والثالث: يكون المرادُ موسى ومحمداً، أو ما جاءا به، صلوات الله عليهم أجمعين.

ولما بيَّن سبحانه وتعالى عِنادَهم، أمَرَه أن يتحدَّاهم بما يأتي، فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ أي: من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩)﴾ في أنَّ التوراة والقرآن من صُنع موسى ومحمد صلوات الله عليهم، مشيراً إلى أنَّ ما فيهما من التعاليم العالية ينادي بأنهما ليسا من صنع البشر. ومِثْلُ هذا الكلام يأتي به مَنْ يُدْلِ بوضوح على حجَّته واستقامة محجَّته.

ثم محض النتيجة من هذه المجادلة، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ قال ابنُ عباس: يريد: فإن لم يؤمنوا بما جئتَ به من الحجج. وقال مقاتل: فإن لم يمكنهم أن يأتوا بكتابٍ أفضَلَ منهما ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني: أنهم أُفحِموا ولم يبقَ إلا اتِّباع الهوى.

ثم زيَّف طريقتَهم وأنَّبهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾، ثم ذيَّل ذلك بما هو كالتعليل له، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)﴾

قال صاحب «الكشاف»: ﴿لَوْلَآ﴾ الأُولى امتناعية، وجوابها محذوف، على نهج القرآن في مثله، والفاء في قوله: ﴿فَيَقُولُواْ﴾ للعطف. و﴿لَوْلَآ﴾ الثانية تحضيضية، والفاءُ في قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ فاءُ السببية[1]. والمعنى: هلّا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتبعَ آياتك، ونكونَ من المؤمنين.

ثم بيَّن تعالى أن ذلك الإرسال لم يُجْدِهم نفعاً، وأخذوا يتعلَّلون بشبهةٍ أخرى زَيْغاً وعناداً، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يعني: لـمّا جاءَ أهلَ مكةَ هذا الرسولُ بهذا القرآن المنزَّل عليه ﴿قَالُواْ﴾ تعنُّتاً واقتراحاً: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من الكتاب المنزَّل جملةً واحدة، ومن المعجزات كقَلْبِ العصا حيَّـةً، واليدِ البيضاء، وغيرِها من الآيات.

فردَّ الله تعالى عليهم وعلى مَنْ يُلقِّنهم ذلك من اليهود بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا﴾ وقرئ: (ساحِران تَظاهَرا)[2]، أي: تَعاوَنا بتصديق كلِّ واحد منهما الآخر، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وقد اختلفوا في ضمير: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ﴾ إلى مَنْ يعود؟ وذكروا وجوهاً:

منها: أن اليهود أمروا قريشاً أن يسألوا محمداً ﷺ أن يُؤْتى مثل ما أُوتي موسى عليه السلام، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ يعني: اليهود المقترحين، فقد قال بعضُهم في عهد موسى: إنه وأخاه ساحران. ففيه إسنادُ ما للبعض إلى الكل. وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلقٌ بـ﴿يَكْفُرُواْ﴾.

ومنها: أن مُشركي مكةَ بعثوا رهطاً إلى يهود المدينة ليسألهم عن محمد وشأنه؟

---

(١) «الكشاف» (٣: ٤١٨) وفيه: وإحدى الفاءين للعطف، والأخرى جواب لولا.

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. «السبعة في القراءات» ص٤٩٥.

صُنْعِك؟! وقد جعل الكلام على التهكُّم بالمعارضين لنبوَّته والمنكرين لها، وقـرَّر النفي بهذا الاستدراك، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ إليك بأخبار المتقدِّمين، في هذا القرآن الـمُبين، الـمُنزَّل من ربِّ العالمين.

ثم تابع المعنى بالتقرير لِـمَا سبق والزيادة عليه، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: وقتَ أنْ نادينا: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿وَلَٰكِن﴾ أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره من البيانات الجليلة ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾، فقد ذكر علَّة الإرسال، وهي شدَّة احتياجهم للإنذار، وعبَّر بنفي مجيء النذير إليهم، مريداً به المبالغة في تقادم العهد؛ إذ قد كانوا في آخر عهد مَنْ سبقه من الأنبياء، حيث يَضمَحِلُّ الأمر ولم يبق له تأثير.

فأفاد بـهذا التعبير شدَّة الحاجة إلى تجديد العهد لهم، وهذا ما أشرنا إليه في مُفتَـتَح السورة من أنه ابتدأها ممهِّداً بقصة موسى وفرعون المتضمِّنة لإنزال التوراة هُدًى وبصائر، وتقادُم العهد عليها، ليُفرِّعَ عليها الحاجةَ إلى هذا القرآن، وما احتوى عليه من البيان، وامتنانَه بإنزاله عالمياً على بني الإنسان.

وقد تابع الكلام في أسباب الإنزال، مُؤنِّباً هؤلاء الـمُعْرِضينَ عنه والمعارضين له، وضمَّنه وعيداً لهم، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بانحرافهم عن الطريق السويّ؛ لإخلالهم بطبائعهم وتدسيتهم لنفوسهم، فيصيبهم بهذا الانحراف جزاءُ الدنيا وجزاءُ الآخرة، ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا﴾ ما كنا نعلم الطريق السويَّ من الطريقَ الـمُعوجّ، ولم نعلم الهدى من الضلال، ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ يعني: إنما أرسلنا الرسولَ إزالةً لهذا العذر منهم، أي: لئلّا يكونَ للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرسل.

الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها، المؤدِّي إلى اختلال نظام العالم، وفساد أحوال الأمم، والـمُسْتَدعي للتشريع الجديد بتقرير الأصول الباقية على مرِّ الدهور، وإصلاح الفروع المتبدِّلة بتبدُّل العصور، كأنه قال: ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجةٍ إلى إيتائها ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ يتبصَّرون بها الحقائق، ويُميِّزون بين الحق والباطل، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ويتَّعظون.

ثم أردف القصة بما يُردِفُ به أمثالَها أحياناً، من الاستدلال بها على أنَّ هذا القرآن هو من عند الله تعالى؛ لأنه يتكلَّم على أمور بعيدة عن النظر، خفيَّة على البشر، ويُفصِحُ عن التاريخ الصحيح المجهول لأرباب الخبر، مخاطباً بذلك النبيَّ ﷺ، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ أي: جانب المكان الغربي من جبل المناجاة، ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾، وهو الإيحاءُ إليه وإرسالُه إلى فرعونَ ومَلَئِه، ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ لهذا الأمر. يريد: أنَّ إخباره عن ذلك هو من الإخبار عن المغيَّبات التي لا تُعرَفُ على الوجه الصحيح إلا بالوحي.

وقد استدرك على هذا النفي ببيان الحق الواقع، وهو إنزالُ هذا القرآن عليه عندما اشتدَّت الحاجة إليه، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾، فأومأ إلى أنَّ هذه الأجيال قد تَقادَمَ عليها العهدُ بالشريعة السابقة، فعبثت بها، وأصبحت في أشدِّ الحاجة إلى إنزال القرآن بالهداية والبيان.

ثم أكَّد المعنى وأكمَلَ الإيماءَ السابق بما يماثلُه ويرادفه، فكانت الجملة التي بينهما معترضة، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: تقرؤها عليهم.

وفي قوله: ﴿ثَاوِيًا﴾ تندُّر عليهم في امتنـاع ذلك، فكيف يقولون: القرآن من

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ثم أردف هذا السياقَ ببيان ما كان عليهم من التبصُّر بما جاء به موسى عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ وهم أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام.

والتعرُّض لبيان أن إيتاء التوراة بعد إهلاك هؤلاء الأقوام، إنما هو لإفادة أمرين:

الأول: التعريض بأنه كان عليهم أن يعتبروا بما أصاب تلك الأمم من جَرَّاء الإعراض عن وحي الله ومعارضة أنبيائه.

والثاني: الإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه، تمهيداً لِـمَا يعقبه من بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم، فإنَّ إهلاك القرون الأولى من مُوجبات اندراس معالم

إذ حقُّ الكبرياء لله وحده، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ لذلك تمرَّدوا وطَغَوْا، ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ قال الرازي: وهذا من الكلام الفخيم الذي نصَّ به على عِظَمِ شأنه وكبرياءِ سلطانه تعالى، فشبَّههم ـ احتقاراً لهم ـ بحصيات أخذهنَّ آخِذٌ في كفِّه فطَرَحَهُنَّ في البحر[1]. على كثرتهم العظيمة وقوتهم البالغة ثم نعى عليه بقوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم ذكر ما يدلُّ على مبالغتهم في الكفر والعِناد، فقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي: بفسادهم لطبيعتهم وتَدْسِيَتِهم لنفوسهم إلى حدّ بعيد ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: يدعون الناسَ إلى ما يؤدي إليها من الكفر والمعاصي، وذلك بما لهم من المركز الرئيسي. أو المعنى: جعلناهم في الآخرة أئمةً لقومهم يدعونهم ويَؤُمُّونهم إلى النار، لأنهم كانوا لهم أئمةً في الدنيا يدعونهم إلى الضلالة.

وقال أبو مُسلِم: معنى الإمامة: التقدُّم، فلما عجَّل الله تعالى لهم العذاب صاروا متقدِّمين لمن وراءهم من الكافرين.

ثم بيَّن تعالى أنهم ـ جزاءً لتعاليهم في القوة والإضلال ـ سينزل بهم يومَ القيامة عذابٌ لا مَخْلَصَ منه ولا نجاة، فقال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: كما كانوا يُنصَرون في الدنيا.

ثم أجمَلَ لهم العذابَيْن في المصيرَيْن، فقال: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: ممَّن قَبُحت وجوهُهم، وهي خاصَّةُ بعضِ أهلِ النار. وأما لعنة الدنيا فيجوز أن تكونَ الغرَقَ وسوءَ الذاكرة. والله أعلم.

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٤: ٦٠٠-٦٠١).

والعَظَمة قوة غيبيَّة سماويَّة، أُفيضت على العظماء من الملأ الأعلى؛ لأنهم أكرمُ الناس عنصراً، وأشرفهم جوهراً.

ولا يبعد أن يكون هذا الكلام يشتمل على أمرين: الأول: نفي علمه بإلهٍ غيره دون نفي وجوده، إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعدمه. والثاني: إثبات الألوهية لنفسه.

وليس المراد أنه كان يدَّعي كونه خالقاً للسماوات والأرض والبحار والجبال، ولذوات الناس وصفاتهم، فإنَّ العلم بامتناع ذلك من البديهيات. وإنما المراد أنْ لا تكليفَ على الناس بشيء إلا أن يُطيعوا مَلِكَهم، وينقادوا لأمره. هذا هو المتبادر، ما لم يكونوا من القائلين بالحلول.

ولما كان كلامه نفياً لعلمه بإلهٍ غيره دون وجوده؛ إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزمَ بعدمه، ولذلك قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾، فطلب منه أن يبنيَ له مَرْصَداً عالياً؛ ليطَّلع ـ بزعمه ـ من أوضاع الكواكب وشؤونها وصور نظامها على صحَّة ذلك أو كذبه، فربما ظنَّ أنه إن كان صحيحاً ما يقوله موسى، فلا بد أن يشاهد في السماء ما يُشبِهُ قَصْرَ الملوك وحرّاسَه وآثارَه.

والقرآن أورد صورةَ هذا الطلب بما زاده سَخافةً وشناعةً واستخفافاً. وهذا المعنى مبنيٌّ على أنَّ فرعون قاله مُجِدّاً به، ويجوز أن يكونَ كلامُ فرعون هذا من باب التَّمويه على قومه، أو من باب التهكُّم والتندُّر على موسى.

ثم ذكر ما ناله من الجزاء في الدنيا، مقدِّماً مُجمَلَ ما بيَّنه من سيرته التي أفضَتْ به لذلك، فقال: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مصرَ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾

ثم ذكر ما كان من أمر فرعون وقومه بعد إذ دعاهم موسى إلى الإيمان، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحاتِ الدلالةِ على صحَّة الرسالة، والمراد بها: العصا واليد، وهما - وإن كانتا اثنَتَين - فإن في كلٍّ منهما آياتٌ شتّى، أو من إطلاق الجمع على الاثنين، وهذا من خصائص اللغة. فلما جاء موسى بذلك ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ على الله.

ثم أنكروا عليه ما جاءهم به من الدعوة إلى الإيمان بالله وحده دون وُسَطاءَ ﴿وَ﴾ قالـوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾، وذلك لأنَّ المصريـين - كغيرهم من مُشركي الأمم الغابرة - يتَّخذون لهم أرباباً متفرِّقة، يتَّخذون لكلِّ حال من أحوال الطبيعة إلهاً، كإله الخِصْب وإله الجَدْب، ولكلِّ شأن من شؤون البشر إلهاً، كإله السِّلم وإله الحرب.

ولما كان كلامُهم هذا يتضمَّن أنّ ما كان عليه آباؤهم هو الدينُ الحق، ردَّ عليهم موسى بما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ في جنَّات النعيم. وفي هذا الردِّ تعريضٌ بضلالهم وعاقبتهم السيئة.

ثم توعَّدهم وبَصَّرهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: لأنفسهم، بإخراجها عن طريق الهدى إلى طريق الضلال.

ولما كان فرعون كلَّما ظهرت حُجَّة لموسى يَتَعلَّق في دفعها بشُبهة يُروِّجها على بعض قومه، ذكر هنا ما يَنْطلي عليهم، وقد حكاه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وكان قدماءُ المصريين - كغيرهم من مُشْركي الأمم الغابرة - يُؤلِّهون الملوكَ وكلَّ عظيم منهم؛ لأنهم يعتقدون أنَّ المُلكَ

أي: خارجين عن سلامة الفطرة وحظيرة الدين. فهذا ما يدعو إلى الإرسال إليهم بالهدى والرَّشاد؛ ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] إذا استأصلهم بالعذاب؛ لإصرارهم على البغي والفساد، والكفر والعناد.

أما موسى عليه السلام فقد طلب من الله سبحانه أن يَعضُدَه بأخيه؛ لأسباب حكاها سبحانه بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا ﴾ أي: ظهيراً ومعيناً، ﴿يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ بتلخيص الحق، وتقرير الحجَّة، وتزييف الشبهة، ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

فقرَنَ سبحانه وتعالى الإجابةَ بهذا الطلب، و﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أي: سنُقوِّيك به، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ﴾ أي: تَسلُّطاً وغلبةً عليهم، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي: بمعونة آياتنا، أي: تمتنعان منهم بها. فأمَّنه سبحانه وتعالى مما كان يحذر ويخاف، ثم قرَّر مضمون ما سبق بقوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾، فوعَدهم بهذا الوعد الكريم، والنصر المبين.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

السُّرعة والاضطراب ـ والجانُّ: نوعٌ من الحيَّات سريعُ الاهتزاز مريع ـ فارتاع منها و﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: أدبر منهزماً ولم يرجع. ويُشبِهُ هذا ما جرى لنبيِّنا ﷺ في مبدأ عهده بالنبوَّة عند أول مرَّة رأى الوحي، حيث رجع يَرجُفُ فؤادُه، وقد أخذته الرعدة، فقال: «زمِّلوني زمِّلوني»[١].

وهكذا أدركَ الخوفُ موسى عليه السلام عند أول عهده بهذه المعجزة، فنُودي نداءَ تثبيت: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: من المخاوف، وفي سورة النمل: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

ثم ثنَّى المعجزة بأخرى، فقال: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ وهو فتحة القميص تحت الطوق، أي: أدخِلْها فيه ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: من غير عَيْب كالبرص. وهذا القيد للاحتراس.

ثم أمره سبحانه وتعالى بالعَزْم على ما أراده منه، وحَثَّه على الجدِّ والثبات؛ بأن لا يَرهَبَ من تبليغ الرسالة، فقال: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، وقد استُعير معنى الجملة من وضعية الطائر المستوفز من الخوف، فإذا أمن استقرَّت جناحاه، وضمَّهما إليه. والمعنى: ائمَنْ ولا تَخَفْ ولا تَـرْهَب مما كُلِّفت به من دعوى النبوة وما يتبعها، كمجابهة فرعون ودعوته إلى الدين، على صَلَفه وتجبُّره، فإنك بحفظ الله ورعايته العليَّة.

ثم قرن الأمر بالثبات بما يقرِّره في نفسه، وقال: ﴿فَذَٰنِكَ﴾ أي: العصا واليد ﴿بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ يُؤْذِنانِهم بنُبوَّتك، ويَـرْدَعانهم عن التأثير بك.

ثم علَّل ما أفاده الكلامُ من إرساله إليهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣) ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الوحي، وقد تيقَّنه موسى عليه السلام وإن لم يَعلَم كُنهَه، لأنَّ التصديق بالشيء لا يتوقَّف على معرفة كيفيته، فإنَّ أكثر ما نُصدِّق به تصديقَ يقين لا نعرفُ كُنْهَه ولا كيفيَّة تكوينه وإيجاده. فهذه عملية النوم والتيقُّظ، وهذه عمليَّة التذكُّر، لا يُعْلَم كيف تتم، وهذه حبَّة البُرِّ مثلاً ونَبتُها واستواؤها على سوقها، وبذرة التين وتشجُّرها وإثمارها، فكلٌّ ذلك نُصدِّق به تصديقَ يقين، أو نشاهده مشاهدةَ عيان، دون أن يتوقَّف ذلك على معرفة كيفيَّة وكُنهِ حقيقته. وهذا المذياع نتيقَّن نَقْلَه للأخبار دون أن يتوقَّف عِلمُنا على كيفيَّة ذلك منه، فأكثر السامعين لا يعلمون الكيفيَّة.

فهذا النداء لا يزيد عن كونه عرفاناً من موسى مع إيقان، دون إدراك لحقيقة الشأن، وإن كان من ناحية الشجرة، ومن المعلوم أنَّ الأنبياء عليهم السلام مُزوَّدون بالقدرة على استلهام المعلومات بطريقةٍ فوق نطاق الحواسِّ المعتاد، يجري فيهم ذلك دون أن يعرفوا كيفيته، كما لا يعرف أحدٌ كيف تتمُّ له عملية التذكُّر والإدراك. وقد عدَّ سبحانه في آية طرق الإيحاء بقوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، ويجوز أن يكون بطريقة التجلِّي. والله أعلم.

وإنما وصف البقعة بكونها «مباركة»؛ لأنه حَصَلَ فيها ابتداءُ الرسالة، وتكليمُ الله تعالى إياه. وجاء في سورة النمل: ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]، وفي سورة طه: ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١١-١٢]، ولا منافاة بينها، فهو تعالى ذكرَ الكلَّ، إلا أنه حكى في كلِّ سورة بعضَ ما اشتمل عليه ذلك النداء، على نهج القرآن في القصص.

ثم أعطاه دليلاً على نبوته؛ هذه المعجزة، فقال: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ تنقلب ثعباناً، ثم ذكر ما كان من خوف موسى منها أول الأمر، فقال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ في

يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما كان من أمر موسى بعد انقضاء الأجل، وسَيْره نَحْوَ مِصرَ بإذنٍ من شُعَيب، وقال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ نَحْوَ مِصرَ، وأظلم عليهم الليلُ ذات ليلة في الصحراء، هبَّت ريح شديدة فرَّقت ماشيتهم، وضلُّوا الطريق، وأصابهم مطر وبرد شديد، وبينما هو كذلك إذ ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ﴾ جَبَلِ ﴿ٱلطُّورِ نَارًا﴾، فلما رآها استأنس وانسرَّ و﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ مكانكم، ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق، أي: أستخبر وأستعلم عن الطريق الذي ضَلَلْناه إن وجدتُ على هذه النار أحداً من الناس يعرفه، ﴿أَوْ﴾ آتيكم بقَبَسٍ، و﴿جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: تُوقِدُون لكم بها ناراً وتستدفئون.

والجذوة: القطعة الغليظة من الخشب المشتعل، ليس فيها لهيب، وتُسمَّى الجمرة أيضاً. و﴿أَوْ﴾ هذه لمنع الخُلُوّ، لا لمنع الجَمْع، أي: لا يخلو الأمرُ من أحد هذَيْن، أو منهما جميعاً.

هذا ما قَصَده من هذه النار، ولم يعلم أنَّ السعادةَ تنتظره هناك، وذلك ما حكاه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ والمراد بهذا النداء: نداء

رأتـه فيه من القوة والأمانـة. وقد حكى ذلك سبحانه بقولـه: ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾، ثم ذَكَرَتْ ما هو كالدليل على أنه حَرِيٌّ بالاستئجار، فقالت: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾، وذكرت ما شاهدَتْهُ منه من إقلال الحجر على البئر المتروك مع ضخامتها، وأنه صوَّب رأسه حين بلَّغته رسالتَه، وأمَرَها بالمشي خلفَه، وغير ذلك.

فرغب شعيبٌ[١] بمصاهرته، لِـمَا رأى فيه من النُّبل وكمال الخلق وعُلوِّ النفس وتقوى الله حقَّ تقاته، و﴿ قَالَ ﴾ له: ﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ﴾ أي: تكونَ أجيراً لي في رَعْي غنمي ﴿ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ﴾ أي: ثمانية أعوام، ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ أي: فإن جعَلتَها عشراً فهو فَضْلٌ منك، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ باشتراط العَشْر، ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ في حُسْنِ المعاملة والصُّحبة والوفاء بالعهد.

﴿ قَالَ ﴾ له موسى: ﴿ذَٰلِكَ ﴾ الذي عاهَدْتني فيه هو ﴿ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ﴾ لا نَخرُجُ عنه، ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ﴾ أي: إنَّ الخيارَ بيدي في قَضاء أيّ الأجلَيْن أردتُ، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ أي: شاهدٌ وحفيظ.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ

(١) لو قال: الرجل الصالح، لكان أَوْلى، فقد رجَّح المؤلف رحمه الله سابقاً أنه ليس بشعيب عليه السلام.

السَّقْيَ بنفسه. ويُؤْذِن هذا بأنْ ليس له وَلَدٌ ذكر.

﴿فَسَقَىٰ﴾ موسى ﴿لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ يستريح فيه، ﴿فَقَالَ﴾ مناجياً ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ يطلب الخير من الله تعالى، قلَّ أو كثر؛ لأنه طريدٌ معدم. وقيل: بل المعنى: إن هذا الخير الذي أنزلته إليَّ ـ وهو الدين والنبوة ـ أخرَجَني من بُحبوحة نعيم فرعون.

وعلى كلٍّ، فالكلامُ دعاءٌ يستعطف به اللهَ سبحانه وتعالى أن يُعينَه ويرزقَه من فضله، بعد أن نزع يدَه من نعيم آل فرعون الذي كان فيه عندما كان بينهم، وأصبح وحيداً شريداً.

وقد أجاب الله دعاءه، إذ هيَّأ له هذه المصاهرة التي حكاه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي: مُتحفِّزةً شديدةَ الحياء، و﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ فكانت هذه الدعوةُ لإعطائه أجْرَ السَّقي فاتحةَ كلام وقَصَصٍ وتعارُف أدّى إلى طلب الـمُصاهرة، وكان ما أراده الله من إجابة دعائه، فأغناه من فقره، وآمنه من خوفه، وشَمِلَه بلطفه، فما أجمل عناية الله وأحلى!

والذي يظهر من السياق: أنه عليه السلام إنما أجاب المستدعيةَ لا ليأخذ الأجر، ولكن ليتعارَفَ بأبيها، ويستظهرَ برأيه في أمره، ويَسْتَنْجد به. وقد حكى ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم عَرَضَت إحدى البنتَيْن على أبيها أن يستأجرَه لرعي الغنم والقيام بأمرها؛ لِـمَا

= موسى مع فرعون؛ لأنَّ ذكر ما جرى لقوم شعيب حينئذ أشد تهديداً لفرعون وقومه؛ لقرب العهد. فيكون أشد في إثارة الرعب وأبلغ في التهديد.
هذا ما أراه، والله أعلم بحقيقة الحال. (المؤلف).

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لُحُوقَ الطلبِ به، واستعان بالله و﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ وهي قريةُ شعيب عليه السلام، وبينها وبين مصر مسيرةُ ثمانية أيام، وفي الظاهر أنها لم تكن تحت سلطان فرعون، فقصدها و﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيَهم، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ غنمهما، أي: تمنعانها من الماء.

﴿قَالَ﴾ موسى لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما لا تسقيان؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى﴾ عند المزاحمة ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ مواشِيَهم. ثم بيَّنتا سَبَبَ توليتهما الماشية مع أنها من وظائف الرجال، فقالتا: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾[1] لا يقدر أن يتولَّى

---

(١) أكثر المفسرين على أن هذا الشيخ هو نبيُّ الله شعيب عليه السلام. ولكني أميل إلى رأي مَنْ يقول: إنه غيره. ويجوز أن يكون اسمه شعيباً، وذلك لأمور:

١ـ أن بين شعيب وموسى عليهما السلام حسبما يظهر من التاريخ: حقبة من الزمن، ويلمح لمثل ذلك قوله تعالى لقوم شعيب: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، وبين لوط وموسى عليهما السلام زمن طويل.

٢ـ أن قوم شعيب أُخِذُوا بعذاب الاستئصال، وبقي منهم بقية من المؤمنين، وليس من المعتاد أن تتكاثر هذه البقية بمدة يستوعبها عُمُرُ شعيب.

٣ـ الظاهر أن موسى عليه السلام، لو لم يكن أهل مدين حين هاجر إليهم أكثرهم مؤمنين لم يقصدها بالهجرة ويعتمد عليها في الأمان. وهذا كذلك يستلزم أن يمرَّ على استئصال قوم شعيب في مَديَنَ حقبةٌ من الزمن بعد شعيب.

٤ـ لو كان شعيب وما جرى على قومه في زمن موسى عليهما السلام؛ لجاء ذِكرُه في قصة=

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: فقتله، ولم يكن قَصْدُه ذلك. فلما رأى الأمر قد فـرط ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾، فندم واستغفر و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ لزَلّات المؤمنين وهفواتهم، إذا تابوا وأنابوا.

ولـمـا حَظِيَ بالعـفو مـن الله ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: لمن تُفضي مظاهرتُه إلى الإجرام. وبهذا يؤكِّد التوبة ويقرِّرها.

ولكنه لم يأمن بطش فرعون، ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ من فرعون ومَلَئِه، وقد حَدَث له أمر آخر ذكره سبحانه بقوله: ﴿فَإِذَا﴾ الإسرائيليُّ ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أيضاً، أي: يطلب نُصْرَتَه مرةً ثانية على رجل آخر من القبط، بصياح وصراخ، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: إنك ـ أيها الإسرائيلي ـ بيِّنُ الغواية ضالٌّ، ولكنه همَّ بنجدته أيضاً، ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ وهو القبطي، ظنَّ الإسرائيليُّ من غضب موسى عليه وقوله له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾؛ ظنَّ أنه قَصَدَه بالبطش، و﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾، فبعد أن كان قاتِلُ القبْطيِّ مجهولاً، تبيَّن أنَّ قاتِلَهُ موسى. وقال بعض المفسِّرين: إنَّ قائل هذا القول هو القبطيُّ نفسُه؛ لأن الأمر قد ظهر.

ثم ذكر ما كان من ائتمار آل فرعون بقَتْله، وحَذَرِه منهم، وهِجرتِه وابتعادِه عنهم، فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ وهو مؤمنُ آل فرعون[1] ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ أي: يُسرعُ إلى موسى، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ من آل فرعون ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

---

(١) هكذا يُلقَّبُ هذا الرجل، وهذا يُؤذِنُ ظاهرُه بأنه من القبط ممن كان قد اعتنق دين موسى الذي يدين به، ولا يبعد ذلك، وقد ذكر القرآن أن امرأة فرعون كانت تدين بهذا الدين، ولا يبعد ذلك، وقد عاداه فرعونُ ومَلَؤُه حين بلغ أشدَّه. (المؤلف).

ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي
ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾
فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ
إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ
يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ
مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن
يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ
وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾
فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا
جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا
يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى
ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ
عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم تابع الكلام في تكميل القصة، فقال: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: صادفَ أنْ كان الوقتُ قيلولةً، أو وقتَ تجمُّع في محلٍّ خاص لعيد لهم أو ما شابه ذلك، مما أفضى إلى خُلوِّ الطريق. وقيل: لـمّا شبَّ موسى مخالفاً لمبادئ آل فرعون أمر بإبعاده عن البلد، فلم يدخل إلا خلسةً وقتَ الخلوات، ودخل ذات مرة، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ بني إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ الأقباط، ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي: ضربه بجُمْعه، وكان شديدَ القوة،

خَبَرَه، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي: أخذت تتعرَّف أمْرَه اخْتلاساً عن بُعْد، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ أنها تقصُّه وتتعرَّف حالَه، أو أنها أختُه.

ثم ذكر سبحانه ما كان من تدبيره الخفيِّ في ذلك، فقال: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ أي: مَنَعْناه عن أن يرتضعَ من المرضعات، وكان ذلك ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْلِ قصِّها أثرَه، واطِّلاعِها على أمره، ﴿فَقَالَتْ﴾ لـمَّا علمت ذلك: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ بالرضاعة والتربية، ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ ففعلوا، ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بسائر أنواعه، ومنه ردّه إليها، ومنه الحشر والحساب، وجزاء الـمُحسِن والـمُسيء، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثرَ الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ حقيقةَ وعدِ الله عزَّ وجل.

ثم تابع القصة، فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: تكامَلَ خَلْقُه وخُلُقُه، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: حكماً صحيحاً على الأشياء، وعلماً بها على الوجه الصحيح. وهذه هي الحكمة التي مَنْ أُوتِيَها فقد أُوتي خيراً كثيراً، وهي من المؤهِّلات للنبوَّة. أو المراد: النبوَّة نفسها، على أن تكونَ غيرَ الرسالة التي جاءته بالوادي المقدَّس.

ثم علَّق على ذلك بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي: الذين يحافظون على سلامة فِطَرِهم؛ لأنها مصدر الإحسان. قال الزجَّاج: جعل الله تعالى إيتاءَ العلم والحكمة مجازاةً على الإحسان؛ لأنهما يؤدِّيان إلى الجنة[1].

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ١٣٦).

عاقبة أمْرِه ﴿لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وفي الكلام تهكُّم عليهم وتندُّر بأعلى صور البلاغة، حيث علَّل الالتقاط بالعاقبة المُحْزنة لهم، تنزيلاً لها منزلةَ الغرض الحامل عليه، وبياناً للعبرة.

ثم بالغ في التندُّر عليهم بصورة تأنيب لهم، فقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨﴾، وعلى أمرهم مغلوبين، يقتلون من الحذر الألوفَ من الأطفال، ثم يُربُّون الطفلَ المَخْشيَّ منه في حُجورهم، ويُعلِّقون عليه الآمال. حتى إذا بلغ أشدَّه أنزل بهم ما كانوا يحذرون، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وهذا مظهرٌ عظيم من مظاهر قدرة الله العليَّة وتدبيره الخفيّ في المقادير.

ثم عاد وفصَّل ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ لِـمَا رأت فيه من عِظَم الملامح: هذا ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ فإنَّ فيه مخايلَ اليُمْن، ودلائل النَّجابة. يقولون ذلك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ ما هو مُدبَّر لهم من وراء ذلك في طيَّات الغيب وخفايا التقدير.

أما ما كان من أمر أمِّه بعد أن ألقَتْهُ في اليمّ، فقد حكاه سبحانه بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ أي: خالياً من كلِّ شيء إلا من ذِكرِ موسى، بمعنى: صار فارغاً له وحده. وقيل: فارغاً من العقل لِـمَا دَهَمها من الخوف عليه والحيْرة في الأمر، حتى ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ بالانفعالات النفسيَّة ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصبر والثبات؛ ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ أي: المصدِّقين بوعد الله لها أنه رادُّه إليها. وأقام الإيمانَ بذلك مقامَ الوقوع والتحقُّق. أي: ربطنا على قلبها ليتحقَّق لديها ما وَعَدْناها به.

ثم تابع الحكاية بقوله: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أي: اتَّبعي أثرَه حتى تعلمي

ثم ذكر سبحانه انتصارَه لهؤلاء المستضعفين، فقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: أرض مصر بإنْجائهم من بأس فرعون وقومه، ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي: قادةً ورؤساءَ ودعاةً إلى الخير، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ للذين استضعفوهم؛ بأن نُهلِكَهم ونقيمَهم مقامهم.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: نجعلَ لهم السلطان والرياسة في أرض مصر، ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ أي: نُري فرعونَ وملأه ما كانوا يحذرونه من بني إسرائيل ويقتلون أبناءهم من أجله، وهو ذهابُ ملكهم وانتقالُه إليهم؛ ليعلموا أنَّ كلَّ ما فعلوه من الحذر لم يُجْدِهم نفعاً، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

وبعد أن قدَّم هذه المقدمة الإجماليَّة شَرَعَ في تفصيل القصة، فقال: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بالإلهام[1] ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ما لم تخافي عليه الطَّلَبَ، ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ القتلَ الذي أَمَرَ به فرعونُ في أبناء بني إسرائيل، ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: في البحر، وهو النيل، بعد أن تضعيه في التابوت ـ وهو الصندوق ـ كما جاء هذا البيان في غير هذه السورة[2]. والقرآن يكتفي عن تفاصيل القصَّة في سورة بما جاء عنها في سورة أخرى.

ثم طمأنها عن هذا الإلقاء، فقال: ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ عليه الغرَقَ ولا الضيعة، ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ من فراقه، ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ سالماً عن قريب، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ بعد حين. فأرضعته مدة، ولما خافت عليه الطلبَ وضعته في التابوت، وألقَتْهُ في اليمّ.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ أي: أخذوه أَخْذَ اعتناءٍ به وصيانةٍ له، ﴿لِيَكُونَ ﴾ في

---

(١) الإلهام: عرفان مع إيقان دون إدراك لكيفيته. (المؤلف).

(٢) ينظر: الآيات (٣٨-٤٠) من سورة طه.

هنا: قوله: ﴿ تِلْكَ ﴾ أي: الآيات التي ستُتلى عليك في هذه السورة: هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ أي: الذي يُبيِّن كلَّ ما يحتاجه البشر لنَيْل سعادة الدارَيْن، وأنهم في أمسِّ الحاجة إليه، بعد أن تَقَادَم العهد على التوراة التي جاء بها موسى عليه السلام، وعَبَثَ بها العابثون، كما سيأتي بيانه.

ثم ذكر قصة موسى وفرعون؛ ليجعلها تمهيداً لهذا البيان، فقال: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾ لا كما يذكره أهل الكتاب ويقصُّونه، وإنما نتلو ذلك ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾ فإنهم هم الذين ينظرون نظراً صحيحاً في آيات الله، لأنهم حافظوا على سَلامة فِطَرِهم، واستعدادِهم للنظر الحق.

وبعد هذا المدخل، ذكر القصة بصورة إجمالية؛ لتكون كالمقدِّمة للصورة التفصيلية الآتية، زيادةً في البيان، فقال: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: تَجبَّر وطغى في أرض مصر، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أي: فِرَقاً متمايزةً، فكان ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ وهم بنو إسرائيل، ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ أي: يُقتِّل الأبناء ويَسْتَبْقي البنات؛ تضعيفاً لهم. ثم علَّل صدورَ هذا الفعل منه وارتكابَه بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾[1].

---

(١) تأزَّمت العلاقة بين المصريين وبني إسرائيل، فلم يأمنوهم، واستشار فرعونُ ملأه، فأجمعوا على أن عزلة بني إسرائيل هي مصدر الخطر، وتكاثر رجالهم يهدِّد الدولة، فاستقرَّ رأيُهم أن يقتلوا ذكور مواليدهم، ويتزوَّجوا بإناثهم مدة، وبذلك يتمّ الاندماج ويزول الخطر. وكان موسى من مواليد هذه الفترة، فألهم الله سبحانه أمَّه أن تضعه في صندوق وتلقيه في البحر، لعل أحداً يلتقطه، فوصل الصندوق إلى قصر فرعون، فرأت امرأته ما في المولود من ملامح النجابة، وقالت لفرعون: ألا يحتمل أن يكون من غير الإسرائيليين؟ فاستجاب لها فرعون، وتربى المولود في رعاية القصر. ولما شبَّ موسى أدرك أنه من بني إسرائيل، وعادى القصر، ولما اشتد القصر بالمعاداة له، فرَّ إلى مدين، وبعد عشر سنوات عاد وأدركته الرسالة في الطريق عند طور سيناء. (المؤلف).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ
بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ
طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى
ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ
مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ
وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ
فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي
وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ
فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾
وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ
ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ
لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ قد مرَّ الكلام على هذه الأحرف التي تبتدئ بها بعض السور في سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها، اهتماماً به، ومنه

سورة القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على محمد وآله أجمعين، وبعد،

فهذا هو الجزء السابع[(١)] من تفسير القرآن المسمَّى: «أَوْلى ما قيل في آيات التنزيل»، ويبتدئ بسورة القصص، المكيَّة إلا قليلاً منها[(٢)].

وهي ثمان وثمانون آية

وقد جاء فيها ـ كسابقتها ـ التنويه بشأن القرآن.

وقد فصَّل في أوَّلها ما أُجمل في السورة السابقة من قصة موسى.

وجاء آخرها في الاحتجاج بها على أنَّ القرآن من عند الله، وفي دفع ما عندهم من شُبَهٍ عليه.

* * *

(١) حسب تقسيم المؤلف رحمه الله في الطبعة الأولى لهذا الكتاب.

(٢) الآيات (٥١-٥٥) مدنية. وينظر: «تفسير الخازن» (٣: ٣٥٦).

أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي: جعلها محترمة، ونهىٰ أن تُنتَهكَ حُرمتُها، حتىٰ باختلاء خَلاها[1]، وعَضْدِ شجرها، وتَنْفير صَيْدِها، وإرادةِ الإلحاد فيها بوجهٍ من الوجوه، وهي مكة المكرمة.

ثم جاء بما هو كالتَّعليل لذلك الأمر، فقال: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ خلقاً وتصرُّفاً وملكاً، فهو يتصرَّف فيه بما يشاء، ولكن مشيئته تعالىٰ لا تجْري إلا بحَسَب الحكمة البالغة والمصلحة العامة والرأفة والرحمة.

ثم عطف علىٰ الأمر بالعبادة قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ لِتتَكشَّفَ لي حقائقُه الرائعةُ المخزونة في تضاعيفه شيئاً فشيئاً. أو المعنىٰ: أتلوه علىٰ الناس بطريقة تكرار الدعوة وتكرار الإرشاد، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ وقد حرصتُ علىٰ عُهدة الإنذار، وقمتُ بالواجب.

ثم هَدَّدهم وتَوَعَّدهم بما سينالهم من أنواع عذاب الدنيا والآخرة التي ذُكرت لهم في تضاعيف هذه السورة، فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[2] ﴿٩٣﴾﴾ فيُجازي كلاً بعمله: الخير بالخير جزاءً أوفىٰ، والشر بالشر جزاءً وفاقاً.

انتهىٰ الجزء السادس[3] من تفسير القرآن المسمَّىٰ: «أَوْلىٰ ما قيل في آيات التنزيل» لرشيد الخطيب الموصلي، بانتهاء سورة النمل، ويبتدأ الجزء السابع بابتداء سورة القصص.

---

(١) لا يُختلىٰ خلاها، أي: لا يُقطَعُ حشيشُها قبل يبسه.

(٢) وقُرِئت بالياء: (يعملون)، وفيها بشارة للمؤمنين وتهديد للكافرين، لأنه سيُجازىٰ كلٌّ بعمله.

(٣) حسب تقسيم المؤلف رحمه الله تعالى في الطبعة الأولى.

وقد جعل سبحانه البيان عن تلك القدرة، دليلاً علىٰ قدرته علىٰ الحشر، ومناراً لشدَّة الحذر منه تعالىٰ، وأردفه بالتَّصريح بذلك، فقال: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ۝٨٨﴾، فجاءت هذه الجملة علىٰ نهج القرآن، تكميلاً لِـمَا قبلها وتمهيداً لِـمَا بعدها من الوعد والوعيد، وهو قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ[1] وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾، ثم بيَّن تعالى أنّ ذلك إنما كان بسُنَّةٍ كونية، ونتيجةً طبيعيةً للأعمال[2]، ليس فيها تحكُّمٌ ولا ظلم ولا استبداد، فقال: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٠﴾؟! وهذه الجملة علىٰ الالتفات للتحسيس[3]، أو هي علىٰ إضمار القول.

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝٩٢ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾.

ثم أردف ما تَضَمَّنه السياق من الدعوة بالقول، أردفه بالدعوة بالفعل، مُنوِّهاً بشأن البلدة التي هي منشأ هذه الدعوة، وعلىٰ نهج القرآن في تعقيب التَّنديد والوعيد بالإرشاد والدعوة إلىٰ الرَّشاد، وعلىٰ نهجه في خَتْم السور بما يبدؤها به، فقال: ﴿إِنَّمَآ

(١) أي: أُلقِيَت وطُرِحَت. والفعل وزنه: فُعِلَ، وأصله: «كُبِبَ»، سُكِّنت الباءُ الأولىٰ وأُدغِمَت في الثانية.

(٢) ترتيبُ الثواب والعقاب على الأعمال إنما هو ترتّبٌ شرعي، لا طبيعي، كما سلف التنبيه إليه مراراً، وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتّان المتقدم أول الكتاب (١ : ٤٣١).

(٣) هذه الجملة للتبكيت والتوبيخ والتعنيف.

وقد بيَّن شدَّة انقيادهم له، فقال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: منقادين صاغرين.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ دلائل القدرة والمنَّة والتَّصرُّف في مَلكوت الأرض والسماوات، وذكر منشأ الليل والنهار علىٰ الأرض، وهو دورانها اليومي علىٰ نفسها، وجعله دليلاً آخر من دلائل قدرته التي لا يُعجزها ما ذكر من البعث والنشور، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي: ساكنةً غير متحرّكة في رأي العين، ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ في سرعة الحركة اليوميَّة للأرض علىٰ نفسها والسنوية في فلكها، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ومن ذلك: إتقانُ النظام الشمسي الذي منه سَيْرُ حركة الأرض.

ولم يكن المرادُ بهذه الآية ما هو المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ...﴾ [الكهف: ٤٧]، أي: يوم القيامة، إذ قد تمجَّد سبحانه فيها بقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، والتَّمجُّد لا يتناسب مع الخراب. فالجملة مستأنفة منفصلة عن بيان أوضاع القيامة الذي جاء في السياق معترضاً بين دليلي القدرة والإبداع، فهي سَرْدٌ وتَتْميم لِـمَا جاء في السياق من دليل القدرة والإبداع، وهو قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ويؤيِّد هذا الرأي: ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ واقفةً مكانه(١)، لا تسير ولا تتحرك في مرأىٰ العين، وهي تمرُّ مرَّ السحاب، أي: تسير سَيْراً حثيثاً مِثلَ سَيْر السَّحاب.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩: ٥٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩: ٢٩٣٣).

المستقيم، فهم الذين يفكِّرون في نظام هذا الكون، ويُدركون أنَّ مَنْ فَعَل هذا لا يعجز عن إعادة البشر بعد الموت، لا سيما وأنَّ النوم في الليل يُضَاهي الموت، والانتباه في النهار يضاهي الحياة الثانية بعد الموت، فقد جاء عنه ﷺ: «والله لتموتُنَّ كما تنامون، ولتُبعَثُنّ كما تستيقظون، ولتُجزَوُنّ بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً»[1]. وفي البيان إشارة إلىٰ أنَّ اليوم الآخر يعقب الدنيا كما يعقب الليلُ النهارَ، ولكلٍّ خصائصه.

ومن مباحث اللفظ: أن في الآية صَنْعَةَ الاحتباك، فقد حُذِفَ من صدر الجملة كلمةُ ﴿مُظْلِمًا﴾، اعتماداً علىٰ ما يقابلها في عجزها، وحُذِفَت كلمةُ ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٦٦] من عجز الجملة اعتماداً علىٰ مقابلها في صدرها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

ثم تابع السياق في البيان عن القدرة البالغة، مسبوكةً علىٰ بعض أوضاع القيامة وأحوال البعث، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، والآية يجوز أن تكون تمثيلاً منتزعاً من صوت البوق الذي يُفْزِع أفراد الجيش للتَّجمُّع عند سماعه[2]، ويجوز أن يكون النفخ حقيقة[3]، ويكون معنىٰ الفَزَع: شدَّة الخوف والدهشة من الحساب.

---

(١) سبق تخريجه (٣: ٣٢٠).

(٢) من الـمُقرَّر عند أهل العلم: أن الكلام يُحمَلُ على الحقيقة ما دامت ممكنةً، ولا يُصار إلى المجاز دون قرينة تدلُّ عليه، وهذه القرينة ينبغي أن تكون ناشئة من السياق لا أجنبية عنه، وإلا اختلَّ كلامُ الناس، ولم يفهم أحد عن أحد؛ إذ وجوه المجاز كثيرة، والحملُ عليها دون قرينة على الوجه المذكور مُفسِدٌ لمراد المتكلم.

وعليه، فالقول بالتمثيل هنا غير سائغ ولا مقبول.

(٣) وهو الحق الذي لا محيد عنه. والمراد: النفخة الأولىٰ من إسرافيل عليه السلام.

المنطوية علىٰ دلائل الصحَّة وشواهد الصِّدق التي لم يُحيطوا بها علماً، مع وجوب ما كان عليهم من أن يتأمَّلوا ويَتَدبَّروا فيها. وقيل: إنَّ جملة: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ﴾ ليست حالية، وإنما هي معطوفة علىٰ ﴿أَكَذَّبْتُم﴾، أي: أجَمَعْتُم بين التكذيب وعدم التدبُّر(١).

ثم قابل ذلك بما يزيد في التوبيخ والتقريع، فقال: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ حين تركتموها ولم تتفكَّروا بها؟

ويجوز أن يكون هذا الشقّ مصروفاً إلىٰ مَنْ لا يعلم عنها شيئاً، أو إلىٰ العمل، والأول إلىٰ العقيدة.

ثم ذكر سبحانه ما كان من حُكمه فيهم، فقال: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي: حَلَّ بهم العذابُ الذي هو مدلولُ القول الناطق بحُلوله ونزوله، أو وقَعَ الحقُّ عليهم، وكان ذلك ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾ وكذَّبوا، ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ بمعذرةٍ ولا استِعتاب، إذ ليس لهم عُذرٌ يعتذرون به، أو شبهةٌ يتمسَّكون بها. وقد تكرَّرت جملة: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾، والأولىٰ علّة لعذاب الدنيا، والثانية لعذاب الآخرة.

ثم إنه سبحانه بعد أن خوَّفهم بأحوال القيامة، ذكر مِن دلائل قدرته ما يصلح أن يكون دليلاً علىٰ التوحيد وعلىٰ الحشر، مبالغةً في الإرشاد إلىٰ الإيمان بهما، والاعتقاد بقُدرة الله علىٰ البعث وعلىٰ إنجاز وعيده، وخصَّ بالذِّكر ما فيه لُطفُ دلالةٍ علىٰ الحشر لما بينهما من شَبَهٍ في الجملة، وهو السكون في الليل والبعث في النهار، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ مظلماً؛ ﴿لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ ويستعيدوا ما فَقَدوه من القوىٰ بالسَّعي أثناء النهار، ﴿وَ﴾ جعلنا ﴿ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ ليبتَغُوا فيه من فَضْل الله، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فإنهم هم الذين لم يفقدوا استعدادهم الطبيعيّ للنظر الصحيح والفكر

(١) «تفسير أبي السعود» (٦: ٣٠٢).

ثم أردف عذابَ الدنيا بعذاب الآخرة، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ[1] يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ كما تُوزَّع الجيوش أو تُساق المواشي، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلىٰ موقف الحساب ﴿قَالَ﴾ الله عزَّ وجل: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ الناطقةِ بلقاء يومكم هذا ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾؟ قال أبو السعود: وهذه الجملة الحالية مفيدةٌ لزيادة شناعة هذا التكذيب، وغاية قُبْحه، ومُؤكِّدةٌ للإنكار والتوبيخ. أي: أَكَذَّبْتُم بها باديَ الرأي، غيرَ ناظرين فيها نَظَراً يؤدِّي إلىٰ العلم بكُنهها، وأنها حقيقةٌ وحَريَّة بالتَّصديق حَتْماً.

وهذا نصٌّ في أنَّ المراد بالآيات في الموضعَيْن: هي الآيات القرآنيَّة، لأنها هي

= عشـرَ آيات ...»، وذكر منها الدابة، وروى أيضاً (١٥٨) من حديث أبي هريرة: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ...» وذكر الدابة، وروى أيضاً (٢٩٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «إن أول الآيات خروجاً: طلوع الشمس من مغربـها، وخروج الدابة على الناس ضحى. وأيها كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها».

فهذه الأحاديثُ تُعيِّنُ حملَ الدابة على معناها الظاهر ـ وهو القول بأنها دابة حقيقيةٌ ـ ولا إشكال فيه، إذ ناقة صالح أعجب منها، وقد جاء النص الصريح بإثباتها، فلِمَ يُطلَبُ لهذه الناقة معنى غير الظاهر، ويُتكلَّفُ تأويلها بتعسُّف؟!

وقد أبعد المؤلفُ في تأويل المراد بالدابة بأنها أمم كثيرة من الأتباع تدبُّ في الأرض فساداً، كالتتر والمغول وأشباههم، أو ما سيقع بالقنابل الذريَّة وشبهها من الأسلحة الفتّاكة.

وليسَ في وَصْفِ الدابة حديث مرفوع نعلمُه؛ وإن وردت في ذلك آثار عن السلف، وكلُّها تخالف ما ذهبَ إليه المؤلف؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إنّ الدابة فيها من كل لون، ما بين قرنيها فرسخ للراكب». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي مثل الحربة الضخمة، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «إنها دابة لها ريش وزَغَب وحافر، وما لها ذَنَب، ولها لحية». كما في «تفسير ابن كثير» (٦: ٢١٤).

(١) أي: الفوج المحشور.

ثم توعَّد الـمُعرضين وأنذرهم، فقال: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ ببلوغ الفساد أقصاه، ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وقد جاء فيما يرويه أبو هريرة ما ملخَّصه: أنها دابةٌ عجيبةٌ رهيبةٌ تضع علامةً على المؤمن والكافر(١).

وجاء عن بعض الـمُغالين في عليٍّ رضي الله عنه ما يُلمِعُ إلى أنها رجلٌ جبَّار أو قهّار. والله أعلم.

وعلى كُلٍّ، فقوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ هو في موضع التعليل، بمعنى: أنها تُؤْذِنُ ببلوغ الفساد أقصاه، ولذلك سلَّطها الله، فهو على حدِّ قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤ – ٥]. والله أعلم.

وعليه، أما يجوز أن تكون مُسلَّطاً دجّالاً من أهل الأرض مع أمم كثيرة من الأتباع تَدُبُّ في الأرض إفساداً، كالتتر والمغول وأشباههم، أو ما سيقع بالقنابل الذريَّة وشبهها من الأسلحة الفتَّاكة، إذ يجوز أن تشتبك بعض الدول بحرب ذريَّة أياماً، ثم تحتجز، وقد فني من البشر شيء كثير غضباً من الله، والله على كل شيء قدير. هذا رأيي بمقتضى احتمال اللفظ بحسب اللغة(٢)، وإن أخطأتُ فأستغفر الله.

---

(١) رواه أحمد (٧٩٣٧)، والترمذي (٣١٨٧) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤٠٦٦) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «تخرج الدابة ومعها عصا موسى عليه السلام، وخاتم سليمان عليه السلام، فتخطم الكافر ـ قال عفّان (أحد رواة هذا الحديث): أنف الكافر ـ بالخاتم، وتجلو وجه المؤمن بالعصا، حتى إن أهل الخوان ليجتمعون على خوانهم، فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر».

(٢) هذا الرأي من البُعدِ بمكان، واحتمال اللفظ لهذا المعنى لغةً غيرُ مُسلَّم، ولو سُلِّمَ فهو احتمال بعيد مرجوح، لا سيّما أن الآية الكريمة قد لحقها البيانُ من السنة النبوية، كما في حديث أبي هريرة الـمذكور، وروى مسلم (٢٩٠١) من حديث حذيفة: «لا تقومُ الساعةُ حتى تروا =

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ العادل، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ فإمهالُهم عن علم وعزَّة، لا عن قَسْر للإرادة، وعَجْز في القدرة، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

ثم بيَّن سَبَبَ إعراض المُعرضين، وهوَّن عليه أمْرَهم، وقَطَعَ طَمَعَه فيهم وفي أمثالهم، فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾، وهذا القَيْدُ للمبالغة في الابتعاد؛ لأنَّ الإسماع في هذه الحالة أبعَدُ عن الإدراك.

ثم تابع المعنىٰ وأوغَلَ فيه، فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾، فشَبَّههم بالموتىٰ والصُّمِّ والعُمْي؛ لأنهم لا ينتفعون بمواهبهم هذه، فكأنهم فاقِدُوها.

ثم بيَّـن مَنْ يسمع منه الـهدىٰ، فقال: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، لأن الإيمان يُنوِّر القلب، فهم الـمُسْتعدُّون لكلِّ ما يُلقىٰ إليهم من الهدىٰ والرشاد، ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ مطيعون لله منقادون.

تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، فيكون المعنىٰ: عسىٰ أن يكون قد قَرُبَ أن يظهر لكم بعض الذي تستعجلون به ويتتابع، ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

ثم ختم الكلام ببيان السبب لتأخير العذاب الأدنىٰ عنهم، رغماً عن عنادهم وكفرهم هذا، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ومن فضله: تأخير العذاب في الدنيا وتأجيله عن الـمُسْتَحقِّين؛ لعلَّهم يرجعون، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ فضْلَ الله عليهم ونِعَمَه، ولا يقدرون له ذلك.

ثم تابع التعليق علىٰ قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾؟ بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ من معارضةِ الرسول والتَّعريض بالشريعة والاستهزاء بالوعد، سراً أو جهراً.

ثم بيَّن أنَّ ما تَـوَعَّدهم به الرسول واقعٌ لا مَحالة، ولكن ما في عِلم الله من الـمُقدَّرات لا تظهر إلا في وقتها الـمُقدَّر لها، فقال: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ واضح، فلا تتخلَّف أبداً، ولكنها تتأخَّر إلىٰ حينها.

وبعد أن أكمل تلك القصص عن مُعارضي الأنبياء، خصَّ بالذِّكر بني إسرائيل، وأجرىٰ الكلام عنهم بصورة تعليق خاص مُجمَل، للاهتمام بذلك، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ مما حرَّفوه وبدَّلوه أو حذفوه من كتابهم، فلا يُصلِحُ شأنَهم إلا هذا القرآن الذي يردُّهم إلىٰ الحقِّ والصواب، فكيف يُعرِضون عنه ويُعارِضونه لو كانوا يعقلون؟

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ به ورشادٌ، يهديهم إلىٰ سواءِ السبيل وساحةِ النجاة.

ولما كان هذا الكلام ناشئاً عن عِنادٍ ومشاغبة؛ إذ لم يُقَلْ لهم: إنَّ البعث يكون في الدنيا حتىٰ يستندوا إلىٰ رَدِّه بأنهم لم يجدوا أحداً من آبائهم بُعِثَ وعاد، ولما كان كلامهم هذا ظاهرَ البطلان، ومجرَّدَ مشاغبة وعناد، لم يُجب عنه، بل أردفه بالتهديد، وتوعَّدهم بما جَرىٰ علىٰ المكذِّبين مثلهم من الأمم الماضية، مُلمعاً إلىٰ الجواب، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴿٦٩﴾﴾، فلو لم يكن حَشْرٌ وحساب لَما عذَّبناهم عذابَ استئصال في الدنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].

ثم هوَّن أمْـرَهم له ﷺ، فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لإصـرارهم علىٰ الكفر والتكذيب، ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴿٧٠﴾﴾ فإنَّ الله تعالىٰ عاصِمُك من الناس.

وتتميماً للبحث عن البعث أقول: إنما يكون البعث لكافَّة الناس في وقتٍ واحد، تتهيَّأ فيه أسبابه الطبيعية[١] بعد انقضاء عالم الدنيا وفناء الإنسان من الوجود الدنيوي، فيبعث الله الأرواح بأجسام صالحة للبقاء. والله أعلم.

وبعد أن توعَّدهم بما جَرَىٰ علىٰ أمثالهم من المكذِّبـين، حكىٰ إنكارَهم لذلك واستهزاءَهم به، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴿٧١﴾﴾؟! يستبعدون ما توعَّدهم به من عذاب الدنيا، مستهزئين به.

فأمـره تعالىٰ أن يـجيبَهم بهذا الجواب: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴿٧٢﴾﴾ به، فضمَّن ﴿رَدِفَ﴾: معنىٰ: ظهر؛ لتدل علىٰ المعنيين معاً: الظهور والمرادفة، أي: التتابع، ولذلك عدَّاها باللام، وعبَّر بالفعل عن مقاربته، علىٰ حد قوله

(١) البعث حَدَثٌ غير عادي، وليس له أسباب طبيعية، بل هو إنهاءٌ لهذا العالم وأسبابِهِ الطبيعية وسُنَنِهِ الكونية. وقد تقدَّم الكلامُ عليه سابقاً.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا
نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ
هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا
يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ
يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾.

ثم حكىٰ صورةَ قولهم في إنكار الحشر، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾، وقد أضافوا إلىٰ مُسْتند الإنكار ما يؤيِّده بزعمهم فقالوا: ﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا ﴾ الوَعْدَ ﴿ نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ ﴾ أي: قد امتلأت أسماعُنا من قضيَّة البعث نحن وآباؤنا، ولم نَرَ أثراً من ذلك، ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ وأكاذيبهم.

وإنما يقولون ذلك لجهلهم أنَّ الحشر لا يكون إلا في زمنه الـمُعَدِّ له، كما أنَّ حياة الأرض بالنبات لا تكون إلا في زمنها الـمُعَدِّ لها، إذ كما أنَّ فصل الربيع مُختَصٌّ بالاستعداد لإنعاش الأرض حتىٰ تُخْرِجَ ما فيها من البذر حياً نامياً، كذلك زمن الحشر مُسْتَعِدّ لإنعاش عَجْب الذنب ونواة الحياة، وهو بذرة خالدة في الأرض من جسم الميت من الإنسان، لا تفنىٰ أينما كانت في بر أو بحر، وإن افترَسَتْهُ السباع أو أُحرِقَ الجسم بالنار أو غرق في البحار، لا تتأثَّر بشيء، حتىٰ إذا كان يوم القيامة وتبخَّرت البحار، وكانت الأرض كالعهن المنفوش، أُمطِرَت بنوع من الماء، فاهتزَّ عَجْب الذنب فيها كما تربو الكمأة، وتنبت البذرة أيام الربيع، وتخرج خُضْرَتُها بعد اليبس، لاشتراك الزمنين في استعداد كلٍّ منهما لأحد هذين الإنباتين والإيجادين والصنيعين. والله أعلم.

المشركين له، فقال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾. وعبَّر بالشعور دون العلم؛ لإفادة أنَّ ذلك الإنكار من المشركين، لم يكن ناشئاً عن فقدان أسباب العلم، ولكن عن إفسادهم لِفِطَرِهم.

لذلك أضرب عنه إلىٰ قوله: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ [١] عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي: لا يشعرون بالآخرة، وقد طُبعوا علىٰ العلم بها، وتتابع عليهم إثباتُ اليوم الآخر بالحُجَج البالغة والبراهين الدامغة في الكتب السماويَّة المُرسَلة إلىٰ البشر، ولفَقْد استعدادهم لم يتأثَّروا بذلك. وقد أجرىٰ الكلام علىٰ المشركين بعد أن كان عاماً، علىٰ نهج القرآن في مثله.

ثم أضرب عن نفي شعورهم بها إلىٰ بيان شكِّهم فيها، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ [٢] مِّنْهَا﴾ أي: رغماً من توفُّر تلك الوسائل والبراهين.

ثم أضرب إلىٰ ما فوق ذلك، فقال: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ [٣] ﴿٦٦﴾﴾ بحيث لا يكادون يفقهون دلائلها ومُثْبِتاتها؛ لإخلالهم بطبائعهم وإفسادهم لبصائرهم. فقد بكَّتهم في الآية تبكيتاتٍ ينتقل فيها من واحد إلىٰ آخَرَ أشدَّ تفضيحاً وتشنيعاً وإنكاراً[٤].

---

(١) أي: تتابع وتلاحق، وأصله: «تدارك»؛ أبدلت التاء دالاً، وأُدغمت في الدال، واجتُلبت همزة الوصل.

(٢) أي: تردُّد وتحيُّر.

(٣) والأصل: «عَمِيُـون»، حذفت الضمة للتخفيف، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، وقُلبت الكسرة ضمة لتجانس الواو. و«عميون» جمع: عَمِي، وهو الذي اختلت بصيرته، فلا يتدبر الدلائل، ولا يعتبر بما حوله من الحقائق، كالبهائم التي لا تعقل.

(٤) حيث وُصِفوا أولاً بفَقْد الشعور حين البعث، ثم بعدم الإيمـان بيوم القيامة، ثم بالتخبُّط في الشك والمِراء، ثم بتعطيل البصائر والعقول.

كافَّة الأنام مِثلَ هذه النِّعَم الجِسام؟! ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أيشركون به مَنْ لا يخلق شيئاً وهم يُخْلَقون؟!

وبعد أن سَرَدَ هذه المظاهر الجليَّة لقُدرة الله العليَّة، ذَكَرَ الإعادة بصورة تذكير بشيءٍ معلوم، كأنما أصبح العلم بها بديهياً بعد ذِكرِ تلك القدرة العظيمة لله تعالىٰ في التكوين والإيجاد، إذ تبيَّن أنها سهلة في جانبها، وعَطَفَها علىٰ البدء عطفَ النظير علىٰ النظير؛ زيادةً في التَّقرير، ونَظَمَها نَظْمَ السياق في سَرْد الأدلة علىٰ اختصاصه بالألوهيَّة، فقال: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: أنَّ الإعادة مُتمِّمةٌ للبَـدْء والإيجاد، منسجمةٌ معها. ويجوز أن يُراد ببَدْءِ الخلق: أصلُ التكوين للكائنات، بما فيها النبات، وبالإعادة: ما يُعيدُه سبحانه كلَّ سنة من النبات من كلِّ زوج بهيج، بعد اليبس والقحول.

وتـتميماً للمعنىٰ أردَفَه بقوله: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: بأسباب سماويَّـة أو أرضيَّـة؟ ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يُشاركه في ذلك؟ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ في دعوىٰ المشاركة. وهذا إفحامٌ سديد، ليس فوقه مزيد.

وبعد أن حَقَّـق تـفرُّده تعالىٰ بالألوهيَّـة، ببـيان اختصاصِه بالقدرة العظيمة والإنعامات الجليلة، عقَّب بذكر ما هو من مُتمِّماته، وهو اختصاصه تعالىٰ بعلم الغيب الذي هو من خصائص الألوهيَّـة أيضاً، تكميلاً لما قبله، وتمهيداً لما بعده من أمر البعث، فقال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وفي صورة الكلام تعريضٌ بسَلْب علم الغيب الذي هو من صفات الألوهيَّـة عن شركائـهم الذين يرمزون لهم بالأصنام.

ثم أردف بسَلْبِ عِلم مَنْ في السمـاوات والأرض عن ألصَقِ شيءٍ بهم، وأهمِّه لنفوسهم، وأعلقِهِ بالبحث، وهو وقت البعث، أردف به تحسيساً به ورَدّاً علىٰ إنكار

الدنيا قد ذهب، وما لم يُجبْ فيه قد بقي ثوابه، قال: يا ربِّ، ليتك لم تُجِبْ لي دعوةً قط في الدنيا.

وأما قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ فالمراد: توارثُهم سُكْناها، والتَّصرُّف بها جيلاً بعد جيل. ويجوز أن يُراد بالخلافة: الـمُلكُ والتَّسلُّط، علىٰ أنْ يكون الكلام من ذِكرِ العام وإرادة الخاص.

ثم أردف ذلك بالإنكار علىٰ المشركين والتعنيف لهم، فقال: ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يشاركه في هذه الأفعال فيستحق أن يُعبَد؟!

ثم أضرب عن هذا التقريع إلىٰ تقريع آخر، فيه بيانُ حقيقة أمرهم وتأنيبهم عليه، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾، والقلَّة لا تأثيرَ لـها علىٰ النفوس. قال الرازي: المراد: نفيُ التَّذكُّر؛ لأنَّ القلَّة تستعمل للنفي، ولا سيما هذا التركيب(١).

ثم تابع السياق ببيان قدرته ومنَّته في فطرته للإنسان علىٰ العلم والهداية، وللكشف عن مجاهيل الأمور، فقال: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: في ظلمات الليالي فيها؛ فتكون الإضافة للمُلابَسة، أو في مُشْتبهات الطرق. يشير سبحانه وتعالىٰ إلىٰ ما أودَعَ في الإنسان من الاستعداد لاستنباط الحقائق ومعرفة ما غاب عنه وما خفي. ومن ذلك: معرفتُه لمجاهيل الطرق في البر والبحر.

ثم ذكر نِعمَتَه تعالىٰ وقدرتَه في تكوين نظام السحاب ونشأته من البحر بواسطة الرياح، فقال: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾.

ثم أردف ذلك بتقريع المشركين علىٰ شركهم، فقال: ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يُفيض علىٰ

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٤: ٥٦٥).

ثم تابع المعنىٰ في عظائم أعماله سبحانه وتعالىٰ وجلائل نِعَمِه، فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ قال الرازي: فإن قيل: كم من مُضْطر يدعو فلا يُجاب؟ قلت: جاء في الأصول: أنَّ المفرد المعرَّف لا يفيد العمومَ، وإنما يفيد الماهية فقط، والحكم المُثبِتُ للماهيَّة يكفي في صدقِهِ ثُبوتُه في بعض أفراد الماهية، وأيضاً فإن الله تعالىٰ وَعَدَ بالاستجابة، ولم يذكر أنه يستجيب في الحال، علىٰ أنَّ للاستجابة شروطاً[١].

أقول: ومن شروط الدعاء: أن يكون المطلوب جارياً علىٰ السنن الكونية؛ إذ لن تجد لسنة الله تبديلاً، فلا يُقبَلُ دعاءُ مَنْ يطلب الرزق وهو قاعد لم يتشبَّث في طلبه بمقتضىٰ السنن الإلهيَّة، أو يطلب الشفاء بدون أن يتمسَّك بقوانين الصحَّة الطبيعية ومراعاة السنن الكونيَّة، أو يريد التغلُّب والتفوُّق في الحروب، دون أن يَمهَرَ بالفنون الحربيَّة وصناعة عُدَدِها. علىٰ أنه إذا تمسَّك بتلك السنن، فقد يكون من الحِكَم الإلهية والمصالح العامة الخفية: أن لا يجري ذلك المطلوب، وحينئذ يكون من لطف الله سبحانه أن يعوِّض لهذا الداعي ما هو أصلَحُ له في الدنيا أو في الأخرىٰ، والله أعلم. وقد جاء البحث عن الدعاء في آخر سورة البقرة، فارجع إليه.

وجاء في الحديث: «ما من مسلم دعا الله تعالىٰ إلا وأجابه، فإما أن يُعجِّلها، وإما أن يُؤَخِّرها، وإما أن يَدَّخِرَها له في الآخرة»[٢]، فإذا رأىٰ يوم القيامة أنَّ ما أُجيب فيه في

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٤: ٥٦٥).

(٢) رواه أحمد (١١١٣٣)، وأبو يعلى الموصلي (١٠١٩)، والطبراني في «الأوسط» (٤٣٦٨)، عن أبي سعيد الخدري. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠: ٢٢٤): رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والبزار والطبراني في «الأوسط»، ورجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح غير علي بن علي الرفاعي، وهو ثقة.

يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: عن الحقِّ إلىٰ الباطل، وعن الـجَلَاء إلىٰ العَماء، أو: يَعْدِلون بالله شُركاء.

ثم تابع المعنىٰ في التنبيه إلىٰ عظائم مخلوقاته وجلائل نِعَمِـهِ، فقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ أي: قابلةً للاستقرار عليها، صالحةً للعيش فيها، ولم يجعلها كلّها بحاراً أو جبالاً صعبةَ المنال، وصخوراً غير قابلة للانتفاع والانتقال، ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾ تتفجَّر منها لتـتميم مُقْتضيات العيش الرغيد،﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالاً راسيةً تمنعها من أن تَـميدَ بكم، وتتكوَّن فيها المعادن، وتكون مصدراً للينابيع، وفيها من المصالح والفوائد لبني الإنسان ما لا يُحصىٰ.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ ما اختصَّت به تلك المياه من الخصائص الدالة علىٰ كمال الحكمة، فقال: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًا﴾؛ يريد ـ والله أعلم ـ عَدَمَ امتزاج المياه العذبة بالمياه المالحة إذا اجتمعتا واختلطتا، لِـمَا عليه كلٌّ منهمـا من الخواص والمواد المختلطة به، كما ذكرنا ذلك في سورة الفرقان عند قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ [الفرقان: ٥٣].

ثم ختم هذه الآية بما استلزمته من اختصاص الله سبحانه بالألوهيَّـة، معبِّراً بعبارة الإنكار عليهم في شركهم، والتبكيت لهم عليه، فقال: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الذي هذه أفعالُه وهذه صفاتُه؟! وللمبالغة في التقريع يكرِّر هذا الإنكار والتعنيف، كلما عدَّد من دلائل قدرته ومنَّته التي يستحق بها الألوهية وحده.

ثم أضرب عن التقريع إلىٰ تقرير جهلهم، فقال: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: ليسوا من أهل العلم والدراية، لذلك تَخْفىٰ عليهم هذه البديهيات، ويَعْمَون عن هذه الملاحظات.

علىٰ طريقة نهج القرآن في تعقيب النقد والتأنيب بالإرشاد والدعوة إلىٰ الرَّشاد، وبيان اختصاص الله سبحانه بالألوهية؛ لاختصاصه بالمنَّة والقدرة وأفعال الربوبيَّـة، فقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

ثم أردف السياق ـ الذي ذكر فيه عِنادَ هؤلاء الـجَهَلة وتصلُّبَهم في شركهم ـ بما يُبيِّن فضيحةَ أمرهم وشدَّة جهلهم في الألوهية واختصاص الله بها، لاختصاصه بصفاتها، فقال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟ أي: الله الذي ذُكرت شؤونُه العظيمة وأعمالُه الحكيمة خيرٌ أم ما يُشرِكونه به من الأصنام أو مَنْ يَتَمثَّلونهم بها ممَّن لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون؟

ثم عطف عليه عظائمَ مخلوقاته وجلائلَ نِعَمِهِ؛ ممَّا يستدعي انفرادَه بالألوهيَّـة واستحقاقَه وحده لأن يُعْبد، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: ذاتَ حُسْن ورَوْنق. وعَدَل عن الغَيْبة إلىٰ التكلُّم في قوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ زيادةً في التحسيس بالمنَّة.

ثم زاد في التحسيس والتَّمنُّن، وسَبَكَ ذلك علىٰ التقريع والتهكُّم بأبلغ وجه وأشدِّه إلزاماً، فقال: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ لولا فَضْلُ الله عليكم ومِنَّتُه.

ثم صرَّح بالإلزام مطوياً علىٰ التجهيل والتوبيخ، فقال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يشاركه في ذلك الصنع والإنبات، حتىٰ يستحق أن يشاركه في الألوهية؟! ينكر عليهم شِركَهم وعمايتَهم عن كلِّ هذه الأدلة الدالة علىٰ اختصاصه تعالىٰ بالإلـٰهيَّـة، لاختصاصه بأفعالها وصفاتها.

ثم أضرب إلىٰ بيان سُوء أمرهم في ذلك، وحِطَّة شأنهم، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ أي: يتنزَّهون عن أفعالنا. وفي هذا الجواب من السَّفاهة والخِسَّة وفساد الذَّوْق والطبع ما لا مزيد عليه، ويكشف عن تسفُّل نفوسهم وحطَّة أخلاقهم إلىٰ حدٍّ بعيد.

وقد استأصلهم الله بالعذاب، وبيَّن ذلك علىٰ نهج القرآن، فقدَّم تَنْجية لوط وأهله، تعجيلاً للمَسرَّة، فقال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧﴾ أي: قدَّرنا أن تكون من الماضين في العذاب، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ بحجارة من سِجِّيل، ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾ أي: قَبُحَ وتعس.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦٤ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ۝٦٦﴾.

وبعد أن قصَّ عليه القَصَصَ عن هؤلاء الـمُصطَفَيْنَ الأخيارِ مع أقوامهم، وانتصارهم علىٰ المخالفين لهم، أمَرَه بتحميده تعالىٰ والسلام علىٰ أولئك الـمُصطَفَيْنَ من عباده، إيماءً لما سيكون من نُصْرته علىٰ مَنْ خالفه من قومه، كما نَصَرَ أولئك الأنبياء،

ذكرناه من قصَّتهم ﴿لَآيَةً﴾ أي: لعبرةً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢﴾، أما الجاهلون فلا يعتبرون، ولكن يمرُّون بها مرورَ الأنعام في مسارحها.

ثم ذكر إنجاء الذين آمنوا من قوم صالح، فقال: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾ وقوعَ مثل هذا العذاب بهم فتجنَّبوا أسبابه.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾.

ثم ذكر من الطبقة الوسطىٰ قصَّة لوط مع قومه؛ لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: الفِعلةَ الشديدةَ القُبح، ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾؟! أي: يعلم بعضكم بفعل بعض. وهذا القيد للزيادة في التَّشنيع.

ثم صرَّح بصورة الفاحشة، وسَبَك العبارة علىٰ التوبيخ بالتجاوز علىٰ الآداب وعلىٰ مقتضىٰ الحكمة في سُنَّة الفطرة، وبفساد الذوق في هذا الأمر الـمَشين، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يُبيِّن سفالتَهم وخروجَهم عن مقتضىٰ الفطرة، وما اشتملت عليه الغريزة من الحكمة، وهي بقاء النوع، لذلك أسنَدَ الجهل إليهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾، والجهل هنا يَتحمَّل المعنيين معاً: السَّفَه وعدم العلم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، أي: لا تعقلون ضَرَرَ ما تفعلون من الجناية علىٰ النَّسْل والصحة والآداب.

فلمَّا ركبتهم الحُجَّة عَمَدوا إلىٰ السَّفاهة، شأنَ أمثالهم، وقد حكىٰ ذلك عنهم سبحانه بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ

مشاهدتهم، ومُلخَّص المعنىٰ: أننا نقتلُه وأهلَه في ظلام الليل بحيث لا تبصرهم أعينُنا، ثم نسرق اليمين، ونحلف لوليِّه أننا لم نشاهد هذا الحادث بأعيننا. فيُموِّهون بعدم المشاهَدة لهذا الحادث بأعينهم عن عدم الاشتراك فيه والتبرُّؤ منه تمويهاً ومَيْناً(١).

وهذا ما دبَّروه من المكيدة والمكر به، كما دبَّر كفار قريش أن يأخذوا من كلِّ قبيلة رجلاً قوياً عزيزَ الجانب، فيقتلوا بهم رسولَ الله ﷺ حتىٰ يتفرَّق دمه في سائر القبائل، فلا تتمكَّن عشيرتُه من إشاعة الفتنة والأخذ بالثأر، وعلىٰ إثر ذلك أمره الله بالهجرة ودبَّرها له كما دبَّرها لمحمد ﷺ، وهكذا يتشابه مكرُ المفسدين، والله غالبٌ علىٰ أمره، فإنَّ الله أمر صالحاً بالخروج من بينهم، ثم استأصلهم بالعذاب، وقد بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا ﴾ أي: دبَّروا أمراً بالفَـتْك به، ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا ﴾ بالفَـتْك بهم. وفي الكلام مُشاكَلة، إذْ أطلق المكرَ علىٰ إهلاكهم، جزاءً لمكرهم، أي: دبَّرنا أمراً بإهلاكهم، ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠﴾، وهذه الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ في سورة الأنفال: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]. ولا يجوز إطلاقُ المكر علىٰ الله إلا بطريق المشاكلة هذه.

ثم حسَّس بشدَّة وطأة ذلك العذاب، فقال: ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ ﴾ أي: خالية أو ساقطة، مِنْ: خوىٰ البطن؛ إذا خلا، أو: خوىٰ النجم؛ إذا سقط وهوىٰ، وذلك بسبب ظُلْمهم وكُفْرهم بالله وبوحيه وبرسله.

ثم أثار الشعور إلىٰ ما في ذلك من عبرة، مُعَـرِّضاً بكفّار قريش الذين يمرُّون عليها في الحِجْر أثناء سفرهم إلىٰ الشام ولم يعتبروا، فقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي: فيما

---

(١) الـمَيْن: الكذب. «لسان العرب» (مين).

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إنما أتاكم الشؤم والبلاء من عند الله بكفركم؛ لأنَّ كفرَكم بالله سبحانه هو الذي ساقكم إلىٰ التفرُّق، وإلىٰ معارضة سُنن الله في كونه، فتتابعت عليكم الشدائد.

ثم أضرَبَ عن ذلك البيان وما يَدَّعونه من البُهتان، إلىٰ بيانِ الموجب والباعث لذلك الشأن، فقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: تُختَبرون بما يجري عليكم ليظهرَ كفرُكم. أو المعنىٰ: يفتنكم غيرُكم بهذه الفكرة، ويحملكم علىٰ هذا الوهم والظنّ من شياطين الإنس والجن.

ثم تابع البيان عمَّا عَمَدوا إليه من السَّفاهة عندما ركبتهم الحُجَّة، وذكر ما كان من ائتِمار ناس من أشرافهم علىٰ قَتْلِهِ ومَكرِهم به، فقال: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ والرهط: من الثلاثة إلىٰ التسعة من الرجال، ويُضاف إليه العَـدَدُ إضافةَ الصفة إلىٰ الموصوف، أي: أشخاص تسعة، ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ والقرآن يعقِّب الفِعلَ بنفي ضدِّه مبالغةً فيه. ويجوز أن يكون المعنىٰ: أنَّ شأنهم الإفساد الخالص المجرَّد عن شَوْب الصلاح.

ثم ذكر صورةَ مؤامرتهم بقوله: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: ليُقْسِمْ كلٌّ منا يميناً ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: لَنَقْتُلَنَّ صالحاً وأهله في ظلام الليل الحالك، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ المُطالِبِ بدمه، ونحلف له أننا ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ يقال: شَهِدَ المجلسَ؛ بمعنىٰ: حضره، وشَهِدَ الشيءَ: عاينه. وقد موَّهوا بالثاني عن الأول، أي: لم نشاهد بأعيننا هلاكَ أهل ذلك الولي، وهم صالح وأهله، أي: لم نَرَ مَصرَعَهم بأعيننا.

ولفظ: ﴿مَهْلِكَ﴾ يحتمل الزمان والمكان والمصدر والمعنىٰ الحاصل بالمصدر، وهو: ما رأينا مَقْتَلَهم بأعيننا، أي: فكيف نكون قد تولَّينا إهلاكهم؟ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ في هذا الحلف؛ لأنَّ القتل سيقع في ظلام الليل، ولم تبصر أعيننا

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ
(٤٥) قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)
وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟
بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٤٩)
وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ (٥٣)﴾.

ثم ذكر من الطبقة البُعْدىٰ صالحاً عليه السلام، وما جرىٰ له مع قومه، ذكره لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥)﴾.

فلما بلغ المعاندون من العُتوِّ والعناد إلىٰ أن قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]؛ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالعقوبة ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: لِـمَ تستعجلون بالسيِّئة بَدَلَ أن تستعجلوا بالحسنة. والمراد: أنَّ الله تعالىٰ مكَّنكم من التَّوصُّل إلىٰ رحمته وثوابه بإرساله الشريعة إليكم، فلماذا تَعدِلون عنه إلىٰ استعجال عذابه، بـدَلَ أن تؤمنوا به وتـنالوا ثوابه، ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦)﴾ يحضُّهم علىٰ ذلك.

فلما أظهر لهم الـمَحجَّة، وركبتهم الحُجَّة، عَمَدوا إلىٰ السَّفاهة ـ شأن أمثالهم ـ و﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: تشاءَمْنا بك وبمَنْ علىٰ دينك، حيث تتابعت علينا الشدائد، ولم نَزَلْ في اختلاف وافتراقٍ منذ جئتنا بهذه الدعوة، وتبعك فيها مَنْ تبعك،

ثم أضاف إلىٰ هذه المعجزة عجيبةً أخرىٰ، وهي بناء هذا الصَّـرح الغريب العجيب، الذي يُعجِزُ البشر في ذلك العصر، من صُنعه وإتقانه بهذه المثابة، و﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي﴾ هذا ﴿ٱلصَّرۡحَ﴾ أي: صَحْنَ القصر، أو ذكر الصَّرح ـ وهو القصر ـ وأراد صَحْنَه علىٰ طريقة المجاز المرسل، وقد جعلته له الجنُّ والصُّنَّاع بشكل بديع من قوارير، يتوهَّم الناظر إليه أنه لُـجَّة ماء، حتىٰ إنَّ بلقيس مع درايتها الملكيَّة خفيَ عليها أمرُه، فكشفت عن ساقَيْها لتخوضه، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ﴾ عليه السلام حين رأىٰ ما اعتراها من الدهشة والحيرة من ذلك الصَّرح، إذ ظنَّتْهُ لُـجَّة ماء؛ قال لها: ﴿إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي: صَرْحٌ مَصْقول من زجاج، وقد جعله هذا الصَّقلُ البليغ يشبه الماء.

فلما رأت أعمال سليمان العجيبة الخارقة للعادة، ومُلكَه العجيب الذي لا يشبهه مُلكُ أحد؛ لأنه ﷺ يملك الإنس والجن والطير وغيرَهم، والكلُّ تحت إمرته؛ ازداد إيمـانُها بنبوَّتـه و﴿قَـالَتۡ رَبِّ إِنِّي﴾ كنت قـد ﴿ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ بالكـفر ﴿وَ﴾ الآن ﴿أَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾، ولا بدَّ أنَّ هذا كان بعد أن سمعت من سليمان عليه السلام إرشاداتِ دعوته، وتفاصيلَ نبوَّته، حتىٰ دَخَلَ الإيمانُ قلبَها، وخالطت بشاشتُه نفسَها.

ويـجوز أن يكون هذا القول مربوطاً بقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومُتمِّماً له، وما بينهما اعتراض، والله أعلم.

= يعبدون الشمس، فنشأت مشدودةً إلى قومها بالعصبيَّة، والاعتزاز بهم والانتصار لهم، ولو كانوا على باطل أو خطأ ظاهر.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ﴾ لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ أي: يشبه هذا العرش، ولم يقل: أهذا عرشك؟ لئلّا يكون تلقيناً لها، فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير، من إبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه، حتىٰ يتبيَّن حالها، ولكنها أثبتت من النباهة ما يليق بمركزها، و﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ وهذا جوابٌ مبنيٌّ علىٰ الحكمة والدراية، يُنْبِئ عن رَجَاحة عقلها وكمالِه، إذ لم تقل: هو هو، مع علمها بحقيقة الحال، تلويحاً لِـمَا اعتراه من التَّنكير، ومراعاةً لحُسْن الأدب في محاورته عليه السلام.

ثم قالت: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ أي: علمنا بقدرة الله وتأييده لك في معجزاتك من قبل هذه الآية المعجزة، وهي الإتيان بالعرش علىٰ هذه الصورة، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: أسلَمْنا وانْقَدْنا لك قبل أن تأتينا بهذه المعجزة، حينها تحقَّقنا بنبوَّتك وصحَّة دعوتك فيها، كأنها تـقول: عَـلِمْنا من قبل هذا أنك نبيٌّ، لك المعجزات وخوارق العادات وعَجائب الأمور، فانقَدْنا لك وأسلمنا. أو: عَلِمْنا بأعاجيبك من قبل هذا وصدَّقنا.

وفي قولها: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ بَدَلَ قولها: «وقد عَلِمْنا من قبل»، تلويحٌ إلىٰ ما عندها من رجاحة عقل ودراية عالية، تفتخر بها، وتعارض ما دعاه إلىٰ اختبارها بهذا الأمر، وتنكر عليه ذلك من طرف خفيّ. وقد جعلت صورة الكلام تكميلاً لجوابها عمّا اختبرها به. وفي هذا من الدلالة علىٰ رَزَانة رأيها ورَصَانة فِكرِها ما لا يخفىٰ علىٰ النبيه. والتعبير بنون العظمة جارٍ علىٰ سنن تعبيرات الملوك.

وإنما فعل سليمان ذلك معها؛ لتكون معجزةً تحملها علىٰ الإيمان والتمكُّن فيه، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَصَدَّهَا﴾ أي: صدَّ سليمانُ بلقيسَ ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: عمَّـا كانت تعبد من دون الله، وهداها إلىٰ الإيمـان بالله بعد شركها ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾[1].

---

(١) والمعنى الراجح: صَرَفَها عن الاستجابة للدعوة إلى توحيد الله وعبادته: أنها كانت من قوم =

أجاب به العفريتَ. أقول: ويجوز أن تتيسّر له بعض السنن الكونية بمُقْتضىٰ ما أعطاه الله من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده، وقوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

وعلىٰ كلٍّ من الاحتمالات، فالآية تُؤْذن بأنَّ هذا الأمر أتىٰ من طريق العلم وتمَّ به، وإنما عبَّر عنه بهذا التعبير ليشير إلىٰ السبب، والله أعلم، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥]، وإنما عبَّر النظم الكريم عنه بهذا الوصف، ولم يُعبِّر باسمه للدلالة علىٰ شرف العلم وقدرته علىٰ العظائم، وأن هذه المعجزة منشؤها منه. والله أعلم. وإنما لم يأتِ به سليمان أولاً بل استفهم القوم بقوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾؟ ثم قال ما قال؛ لِـيُرِيَهم أنه يتهيَّـأ له ما لا يتهيَّـأ لعفاريت الجنّ. وإنما خصَّ الخطاب بالعفريت؛ لأنه هو الذي تصدَّىٰ لادِّعاء القدرة علىٰ الإتيان به من بينهم.

﴿فَلَمَّا﴾ تمَّت لسليمان عليه السلام هذه المعجزة و﴿رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: رأىٰ العرش حاضراً لديه، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ﴾ النعمةَ ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بها ولا أشكرها، ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنَّ ثمرة الشكر تعود عليه، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ لا يضرُّ الله سبحانه وتعالىٰ ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ عن شكر الشاكرين وذِكرِ الذاكرين. ومعنىٰ الكفر هنا: بَطَر النعمة، حيث يؤدي في أكثر الأحيان إلىٰ الإعراض عن الله سبحانه وتعالىٰ، وذلك في غير الأنبياء.

ثم أراد سليمان عليه السلام أن يختبر مَبْلَغها من الدراية والنباهة، و﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيِّروا هيئته، بوجهٍ من الوجوه، ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ إلىٰ معرفته ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾؟ وفي هذا التعبير ما في قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧]، من الدلالة علىٰ الرسوخ في الوصف؛ لأنَّ عدم الاهتداء إليه ـ وإنْ غُيِّرت هيئتُه ـ يحطُّ من شأنها ومن مركزها العالي، المُقْتضي للنَّباهة الفائقة.

الكونيَّـة، كما تُنقَلُ الأصوات الآن، وكما تُلمِحُ عنه هذه القصة؟ والله أعلم بذلك.

وقد اختلفوا في هذا القائل؛ فقيل: هو جبريل عليه السلام، وقيل: مَلَكٌ آخر. وعلىٰ كلٍّ، فالمراد من عِلم الكتاب: علمُ نواميس هذا الكون، مما يُعَدُّ الاطِّلاعُ علىٰ شيء منها اكتشافاً عظيماً. وقال الـجُبّائي: بل قائل هذا القول سليمان نفسه عليه السلام[1]،

---

(١) اختلف المفسرون اختلافاً كبيراً في الذي عنده علم الكتاب، من هو؟ فقال جمهورهم: إنه آصف ابن برخيا، وهو من بني إسرائيل، كان وزيراً لسليمان عليه السلام، وكان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب.

وقيل: هو سليمان نفسه، لـمّا قال له العفريت: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، كأنّ سليمان استبطأ ذلك، فقال له على جهة تحقيره: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

واستدل القائلون بهذا بقول سليمـان: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾، قال القرطبي في «تفسيره» (١٣: ٢٠٥): «وهو قول حَسَنٌ إن شاء الله تعالى».

وقيل: هو جبريل عليه السلام، وقيل: غير ذلك.

وأما العلم الذي آتاه الله، فجمهور المفسرين على أنه اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب. وقد كان ذلك من باب إكرام الله لأوليائه، كما ذكره القرطبي.

وليس في الكتاب والسنة ما يُبيِّنُ حقيقة هذا المُعلَّم ولا الطريقة التي أحضَـرَ بها عرشَ بلقيس، وعلى فرض أنه رجل من بني إسرائيل علم اسم الله الأعظم، فهذا كرامة له، وهي معجزة لنبيه سليمان عليه السلام، تدل على صدقه وأنه رسول الله.

وكونه أعلم من سليمان في هذا الباب لا يضر، فإن الله تعالى أوحى إلى موسى أنه يوجد من هو أعلم منه، ودلَّه على الخضر، وهو نبيٌّ في قول بعض العلماء، ووليٌّ في قول آخرين، وهي أعلمية مُقيَّدة بمسألة أو مسائل محصورة.

ويُنظَر ما كتبه شيخُنا العلامة عبد الكريم تتان في جوابٍ مُفصَّل عن هذه الدعوى، وقد أوردتها في مدخل هذا التفسير؛ لتكون منهجاً في التعامل مع المؤلف وأمثاله في إبعاد دلالة الآيات عن مخالفتها للقوانين الطبيعية بقدرة الله عزّ وجلّ وحكمته.

للهدهد، محمَّلاً كتاباً آخر مضمونه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقة لهم بمقاومتها، ولا قُدرة لـهم علىٰ مقابلتـها، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي: من سبأ ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: أسارىٰ مُهَانون. والمعنىٰ: ارجع إليهم فليأتوا مسلمين منقادين، وإلا فلنأتينَّهم بجُنودٍ لا طاقَةَ لهم بها.

فلما جاءهم الرسول بهذا التهديد انقادوا صاغرين، ولما انكشف لها صِدقُه في النبوَّة أسلمت لله ربِّ العالمين.

وبعد أن عَلِمَ سليمانُ عليه السلام بانقيادهم، وأنَّهم علىٰ الطريق، أراد أن يُظهِرَ لهم معجزةً بأمر الله في عرش بلقيس، وكانت قد خلَّفته في دارها، وأوثَقَتْهُ وحَرَسَتْهُ، فأراد عليه السلام أن يُدهشها برؤيتها له في داره إذا وصلت، و﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ منقادين؟

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: قبل أن تـقومَ من مجلسك للحكومة، وكان يجلس إلىٰ نصف النهار. ثم أكَّد له الأمر بقوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ وزاد علىٰ القوَّة الأمانة؛ لأنه ثمينٌ، فأفاد أنه لا يَخْتزل من مجوهراته شيئاً ولا يُبدِّل.

﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: كتاب هذا الكون، أي: الذي عنده علمٌ من سُنن الكائنات[1]: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي: بسُرعة خَطْف البصر، ولَـيْتَ شعري: هل يأتي يومٌ تُنقَـلُ فيه الأثقال علىٰ هذه السرعة بمقتضىٰ النواميس

---

(١) إطلاقُ «الكتاب» على «السنن الكونية» استعمالٌ غير معروف في كتاب الله تعالى، ولا قرينةَ تدل عليه من السياق، و«الكتاب» يُراد به أحد الكتب السماوية أو جنسُها، وهذا الثاني هو المراد هنا، أي: رجل عنده علم بالله عز وجل ومعرفة مكتسبة مما أنزل الله على عباده من كتب.

العظيمَيْن، وأنهم حاضرون لتنفيذ ما تأمر به، وَفْقَ الخطَّة التي ترسُمها لهم في هذا الأمر. وهذه صفة الجيش الـمُخلِص، والقُوَّاد والوزراء المُخْلِصين.

ولكنها أجابتهم عن تعريضهم بالقتال والدفاع، بما يتضمَّن الخوف من الفشل والمغلوبيَّـة وسُوء العاقبة، و﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً ﴾ أي: بلدةً عن قتال أو غَلَبة ﴿أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ أي: أهانوا كبراءَها وأشرافَها، وأذلُّوهم كي يستقيم لهم الأمر. ثم أكَّدت ذلك وقالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

ثم بيَّنت رأيها ورَسَمَت خطتَها في معالجة القضية بطريقة سليمة، بعد أن زيَّفت رأيَهم في تعجيل المقاومة الحربية، فقالت: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فاختارت جهةَ المجامَلة أولاً.

ويجوز أن يكون قد سبق إليها العِلمُ عن نُبوَّة سليمان ونشر دعوته، فأرادت أن تَختَبر أمْرَه: أهو مَلِكٌ أم رسول يحرص علىٰ نشر رسالته؟ وهذه الملكة من أعاظم الملوك أُولي الرأي السديد في السياسة والدراية والتدبير.

﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ وفدُ الهدية ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أنكر عليهم و﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: إنَّ الله تعالىٰ آتاني الدين الذي هو السعادة القُصْوىٰ، وآتاني من الدنيا ما لا مزيدَ عليه، فكيف يُستمال مثلي بالهدايا، بل أنتم تفرحون بما يُهدىٰ إليكم؟ والهدية كالعطيَّة تُضاف إلىٰ المُهدَىٰ له.

أما قوله: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾؛ فقيل: خطابٌ للرسول رئيس الوفد، وقيل: خطابٌ

---

(١) كان نظام الأمم: متىٰ رأت في نفسها أسبابَ القوَّة وعواملَ الاستيلاء، غَزَت مَنْ جاوَرَتْها من الأمم الضعيفة، واستولت عليها، ومَحَت عمرانها، وسَلَبت أموالها، واستذلَّت أهلها، ووَلَّت عليهم مَنْ يسومُهم الذُّلَّ والهوان. (المؤلف).

﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: اتركهم حتىٰ يتدابروا ويُلقوا إليك الجواب، وائتِ به. ويجوز أن يكون المراد: تَـنَحَّ عنهم إلىٰ مكان قريب تتوارىٰ فيه؛ ليكون ما يقولونه يُسمَعُ منك. أما فَهْمُ هذا الهدهد لكلام البشر فلممارسته للتكلّم مع سليمان عليه السلام بحكم المعجزة والكرامة، وبصورة هذا الفهم، والله أعلم.

ولذلك حكىٰ سبحانه وتعالىٰ ما نقله الهدهد ممّا دار بينها وبين أشراف قومها ووزراء دولتها في مجلس الشورىٰ، فقال: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾، ثم علّلت كرامته بقوله: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾، ثم ذكرت نصّه وقالت: ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: مُنقادِين مؤمنين. وهذا الكلام في غاية الوجازة مع كمال الدلالة علىٰ المقصود.

ثم طلبت منهم الرأيَ ونوّهت بشأنهم، ذاكرةً اعتمـادَها وتعويلَها عليهم، و﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ الذي حَزنـني وهمّني، وعبّرت عن الجواب بالفُتيا التي هي الجواب في المشاكل غالباً، تهويلاً للأمر. ويجوز أن يكون هذا من تعبير القرآن لا من تعبيرها، علىٰ سُنَّته في مُراعاةِ دقّة المعنىٰ، إن كان ملحوظاً للمحكيِّ عنه، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

ثم بيّنت اعتمادها عليهم في حلِّ المشكلات العارضة في إدارة الملك، وقالت: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: أشيروا عليَّ في هذا الأمر، فإني لا أقطع أمراً إلا بحضوركم ومَشُورتكم. والظاهر أنها أرادت ضمن الاستشارة أن تَعْجُمَ عُودَهم وتَسْبِرَ غَوْرَهم في الإخلاص لها، والثبات علىٰ المقاومة إذا دَعَت الحاجة.

لذلك أجابوها بما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ به، فبيّـنوا أنهم طَـوْعُ أمرها علىٰ قـوّتهم وبأسهم

ثم أضاف إلىٰ عَظَمـةِ خَلْقِـهِ سَعَـةَ معلوماتـه، فـقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾، والعدول إلىٰ الخطاب لتوسيع البيان عن سَعَة علمه تعالىٰ وشموله كل المخاطبين. وقد قُرِئ الفعلان بصيغة الغيبة أيضاً[1]. وقَرَن الإخفاء بالإعلان؛ للدلالة علىٰ أنَّهما عنده سيَّان، وقد وصف الله سبحانه ذاتَه بما يُوجبُ اختصاصَه باستحقاق السجود، رداً علىٰ مَنْ يسجد لغيره.

ثم استأنف ثناءً مشتملاً علىٰ عَظَمة عَرْش الرحمن، تهويناً لأمر عرش بلقيس، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحتَ الثَّرىٰ، فله الـمُلكُ والسلطان علىٰ جميع الأكوان، جلَّت عَظَمةُ الله. وفي هذه الفقرة لطفُ تذكير وتنبيهٌ لسليمان عليه السلام أمام هذه العَظَمة الإلهية التي يصغر في جانبها كلُّ عظيم.

ويجوز أن يكون كلام الهُدْهُد منتهياً عند قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وما بعده كلامٌ مستأنف من الله تعالىٰ، وهو الأقرب.

ثم حكىٰ سبحانه وتعالىٰ ما كان من أمر سليمـان عليه السلام تجاه هذا البيان بقوله: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ[2] ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ

---

(١) قال الألوسي في «روح المعاني» (١٩: ١٩٢): وقرأ الحرميان ـ يعني: ابن كثير الـمكي ونافعاً المدني ـ والجمهور: (مايخفون وما يعلنون) بياء الغيبة.

(٢) قال أبو السعود [في «تفسيره»: (٦: ٢٨٢)]: وكان مقتضىٰ الظاهر أن يقول: (أم كذبتَ)، وإيثار ما عليه النظم الكريم؛ للإيذان بأن كلامه هذا إن كان كذباً يستلزم انتظامه في سلك الموسومين بالكذب، الراسخين فيه، فإن مساق هذه الأقاويل الـمُلفَّقة علىٰ ترتيب أنيق، يستميل قلوبَ السامعين نحو قبولها، من غير أن يكون لها مصداق أصلاً، لا يكاد يصدر إلا عمَّن له قدم راسخٌ في الكذب. (المؤلف).

وحَضَر ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: اطَّلعتُ علىٰ ما لم تطَّلع عليه، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم فصَّل ذلك النبأ بقوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: يستدعيه الـمُلْكُ في ذلك العصر[1]، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ وهذا إجمالٌ لِعظَم مُلكها وميزة شأنه، أو لمحة دالة عليه. ويجوز أن يكون قد ذكر العرش وأراد الملك، ولا مانع في الكنايات من إرادة المعنىٰ الحقيقي أيضاً مع المعنىٰ المجازي المخصوص بالإرادة.

ويظهر من فحوىٰ القصة أنَّ سليمان عليه السلام كان يَسْتطلع أحوال الممالك المجاورة غير المؤمنة، بواسطة الطير وغيره، عند إرادته لغزوها ونشر دينه فيها. والله أعلم.

ثم بيَّن الهدهد ما كانت عليه هذه الملكةُ من الشِّرك، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ثم قرنه بما فيه تأنيبٌ لهم فقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم علَّل ذلك التزيين وفسَّره بقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ويجوز أن يكون قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ بدلاً من ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أو مفعولاً لـ﴿يَهْتَدُونَ﴾ علىٰ التوسُّع أو التضمين، وزيدت (لا) لتقرير النفي علىٰ حدِّ قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وصلة الموصول تتضمَّن التقريع والتأنيب. والخبء: ما خَفِيَ في غيره، وهو يشمل إشراق الكواكب ليلاً بعد خفائها نهاراً، وإشراق الشمس نهاراً بعد خفائها ليلاً، وظهور النبات بعد يبسه أو دفن بذوره في الأرض، إلىٰ أمثال ذلك.

---

(١) من العدد، والعتاد، والقوات، والجنود الأقوياء، وغير ذلك.

عليهما، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾، وضمَّن كلمة ﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾ معنىٰ: اهدِني، أو أدِّبني، أو قدِّرني، فجَمَع فيها معنىٰ الهداية والشكر والمنع من الإعراض عنه تعالىٰ، وفيها مُشاكلة مع قوله: ﴿يُوزَعُونَ﴾.

ثم استعرض ذلك الجند ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ وتعرَّف الأحوال، فلم يَرَ الهُدْهُد فيما بينها، ﴿فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؛ أَلِساترٍ سَتَرَهُ عنِّي، ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾؟

ثم ظهر له بعد التَّحرِّي أنه غائب، فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا[1] أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ ليعتبر بذلك أبناءُ جنسه، بل نوعُ الطير كلُّه، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: بحُجَّة تبيِّن عُذره.

وتدلُّ الآية علىٰ درجة تسليط الله له علىٰ هذه الحيوانات، كي يستخدمها في سائر أموره، وأنه مَلِك يتفقَّد رعيَّته، وأنه ليغضب لمخالفة النظام والتغيُّب بلا إذن، ولكنه ليس سلطاناً جائراً، فقد يكون للغائب عذره.

ويُلْهِم فحوىٰ الآية والسِّياق أنَّ هذا الحادث كان له عليه السلام مع هُدْهُد خاص يستخدمه للاستطلاع، ويجوز أن يكون قد أرسله لهذه المهمَّة واستَبْطأه، كما يجوز ـ والله أعلم ـ أنه كان له عَدَدٌ من هذا النوع الخاص يستخدمه للمراسلات واستطلاع أحوال الممالك، بغيةَ نشر الدعوة فيها، وكان واحداً منها غائباً من نفسه للمهمة. ويؤيِّد هذا لامُ العهد في كلمة ﴿ٱلْهُدْهُدَ﴾.

ثم قال تعالىٰ في إتمام البيان: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: زماناً غير طويل،

---

(١) اختلف في تعيين نوع هذا العذاب الشديد، وأقرب ما قيل فيه: هو أن يحبسه مع مَنْ لا يتلاءم معه من الطيور ولا يتوافق ولا يتفاهم معه.

﴿ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ يقول ذلك تشهيراً لِـنِعَم الله وكرامته، وتنويـهاً بها، ودعاءً للناس إلىٰ التَّصديق بنُبوَّته، ببيان هذه المعجزة الباهرة. وفيه تنبيهٌ إلىٰ أنَّ من الخطاب ما لا يكون بالأصوات، ولكن بالانطباع في النفوس والقلوب[1]. والله أعلم.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ شيئاً من ذلك الـمُلْك الجليل والمعجزة الباهرة، فقال: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ وهذا هو الملك الذي لم يُـعْطِه الله لأحدٍ من بعده. وتدلُّ الآية علىٰ أنهم كانوا علىٰ ترتيب وتنظيم، وعليهم قُـوَّاد يُوزِعونهم، ويَتولَّون تنظيمهم والقيام علىٰ شؤونهم. والله أعلم.

ثم تابع البيان فـقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[2] ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ ابتهاجاً بنعمة الله وعظيمِ فَضْله عليه، فطَلب من الله العـوْنَ علىٰ شُكر هذه النعمة، ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ فالنعمة عليه نعمةٌ

---

(١) بل كان سليمان عليه السلام يعلم منطق الطير، ويفهم عنها بطريق المخاطبة الصوتية بينه وبينها، لا بطريق الانطباع في النفس والقلب لأنه لا يُسمّىٰ «منطقاً»، وقد أُعطِيَ سليمانُ فَهْمَ مقاصدِ الطير والحيوانات أيضاً علىٰ اختلاف لغاتها وأقوالها، بدليل فهمه قول النملة ـ الآتي في الآية ١٨ من هذه السورة ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ...﴾.

(٢) سمع سليمان عليه السلام قولَ النملة، وفهم خطابَها لجمـاعتها، لأنها كانت قـيِّمة عليهم، فحذَّرتهم من أن تطأهم جنودُ سليمان بأقدامهم، واعتذرت عن الجنود فيما لو داسوها بأرجلهم بأنهم لا يشعرون بمرور النمل تحت أقدامهم، لأنَّ الجنود حين تسير تتوجّه بوجهها إلىٰ الأمام، لا إلىٰ الأسفل، فإذا داسوا النمل بأقدامهم فإنَّهم غيرُ ظالمين لعدم علمهم بوجود النمل تحتهم. وهذا يدلُّ علىٰ مدىٰ إدراك النمل وشعورها، وتحسُّسها وفهمها، وحُسْن رعايتها ونظامها، فإنها أمة من الأمم.

فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ
ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ
أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ
عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ
مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى
لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ
نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ
كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ
كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ
مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم ذكر قصَّة داود وسليمان وما أكرمَهما به من الوحي والكرامة؛ لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ وهو الشريعة والحكمة، فشكرا الله تعالىٰ علىٰ ذلك، ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ بما آتانا من هذا الوحي.

ثم ذكر ما أتحفهما به من الكرامة، وضمَّن الكلام شكرَهما لله تعالىٰ عليها، وأجمَلَ قصة داود، وفصَّل قصة سليمان، فقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ النبوَّةَ والعلم والملك والكرامة: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ(1) وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ

---

(١) النطق: كل ما يُعبَّر به عما في الضمير، مفرداً كان أو مركباً، ويشمل الأصوات، فكان نبيُّ الله سليمان عليه السلام يعلم منطق الطير، ويفهم عنها ـ كما يفهم بعضها من بعض ـ وما تقصده الطير في أصواتها، وفي سائر أحوالها، فيفهم تسبيحها، وما تخاطبه به عليه السلام، كما ذكر ذلك سبحانه في قصة الهدهد معه.

أي: أنفسهم قد استيقنتها، ولكنهم جحدوا بها عِناداً واستكباراً، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ من الإغراق في البحر علىٰ الوجه الـهائل الذي مرَّ بيانه في غير هذه السورة.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ
هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ
﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ
سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى
عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾
فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ
ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ
لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا
يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ
إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ
أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى
مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟
نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟
قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ

وقيل: بل الاستثناء منقطع، والمراد: بيان العفو عمَّن بدَّل حُسْناً بعد سُوء من غير المرسلين، ولا بأس أن يشملهم، وهو استدراك خوف من خوف وإن اختلفا في النوع، فالكلام محمولٌ علىٰ المعنىٰ، علىٰ نهج القرآن في مثله. أي: إنه سبحانه مرهوبُ الجانب، مَخْشيُّ العقاب، لا يَسْلم من عقابه إلا من بدَّل حُسْناً بعد سوءٍ، فإنه ينال رحمته ومغفرته. فتكون الآية بياناً وتبشيراً لمن يدعوهم موسىٰ للإيمان فيؤمنون.

ويجوز أن يكون بحسب ما قبله تعميماً يشمل ما قبله، وبحسب ما بعده تمهيداً، وبحسب نَظْمه قاعدةً عامة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ويجوز أن يُحمَلَ الكلام علىٰ المعنىٰ بما مفاده: إني لا يخافُ لديَّ الـمُرسَلون، ولكنْ لديَّ أنَّ مَنْ بدَّل حُسْناً بعد سوء فإني غفور رحيم. فذكر سُنَّته هذه في المغفرة بمناسبة تأديبه لموسىٰ وتأنيسه. وحَمْلُ الكلام علىٰ المعنىٰ من أساليب القرآن.

ثم أضاف إلىٰ هذه المعجزة غيرَها، فقال: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ كبَرَصٍ ونحوه، وهاتان الآيتان ﴿فِي﴾ جملةِ ﴿تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أعطيك إيَّاها، وهي: قَلْبُ العصا حية، واليد البيضاء، وفَلْق البحر، وتظليل الغمام، وانفجار الحَجَر بالماء، والمنّ، والسلوىٰ، ونَتْق الجبل، وابتلاء آل فرعون بالقُمَّل والضفادع والدم. والله أعلم. أي: فإني مُعطيك هاتين الآيتين في جُملةِ آيات تسع، فاذهب بهما ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من أمر فرعون وقومه بعد التبليغ، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ وهذا الوصف إما علىٰ حقيقته؛ لأنها تُبَصِّرُ الناسَ بحقيقة ما يدَّعيه صاحبها من النبوَّة والرسالة، أو هو من إطلاق وَصْف الفاعل علىٰ المفعول مبالغةً فيه، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: واضح الأثر، ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾

قيل: هذا محمولٌ علىٰ ما يصدر من الأنبياء من تَرْكِ الأفضل، أو من الصغائر.

ويحتمل أن يكون المقصودُ منه التعريضَ بما حدث من موسىٰ عليه السلام من قَتْل القِبْطي، وهو من التعريضات اللطيفة.

قال الحسن رحمه الله: كان ـ والله ـ موسىٰ ممَّن ظلم بقَـتْل القبطي، ثم بدَّل حسناً بعد سوء، فإنه عليه السلام قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: ١٦][(١)]. فالمراد حُسْن التوبة وسوء الذنب.

= ومحصَّل الكلام: إني لا يخاف لديَّ المرسلون، ولكنهم يثبتون تجاه الشدائد، ولا سيما ما يُصيبهم من ذلك أثناء الدعوة للعُتاة الظالمين، الذين سيغفر الله لهم إذا بدَّلوا حُسْناً بعد سُوء. يُبيِّن بهذا السَّبْك مهمَّة النبوَّة، وصفة الأنبياء، وما يَتَرتَّب علىٰ ذلك من الإصلاح والصَّلاح، والمغفرة والفلاح، ويُشجِّع عليه. والله أعلم.

ويجوز أن يكون الكلام إرداف شأن من شؤون الله بشأن آخر مُتمِّم له. وحاصل المعنىٰ: أنَّ المرسلين آمنون، ومن تَبِعَهم تغفر لهم ذنوبهم السابقة؛ لأنَّ الإيمان بالرسل والاتِّباع لهم يَمْحُوان ما تقدَّم من الذنوب، ومثل هذا من أساليب القرآن. والله أعلم.

ويجوز أن يكون الكلام وَعْداً لموسىٰ عليه السلام بالغَلَبة وبرضوان الله، ذكره بمناسبة خوفه. ومحصَّله: أنَّ هذا الخوف سيدفع عنك الخوف يوم الفزع الأكبر، فلا أخيفك ذلك اليوم، ولكن سأغفر لك وللذين اتبعوك وبدَّلوا حسناً بعد سوء، علىٰ نهج القرآن في دلالة السياق ومضامين الأساليب. والله أعلم. (المؤلف).

قلت: لكن هذا الذي سماه المؤلف «هفوات» لا يخرج عن كونه خِلافَ الأَوْلى، وبعضُ ما ذكر مما كان قبل النبوة، وتفصيل ذلك عند المؤلف نفسه في تفسير الآيات المذكورة في مواضعها.

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤: ٥٥٠).

وينبغي أن يُحمَل قوله: «ظلم» على الظلم الذي يقع من الأنبياء في عالي مقامهم، وليس هو ظلماً من غيرهم، لأن قَـتْلَ القبطي كان خطأ، ومثله لا يُسمى ظلماً في عرف الشرع، لكن لما كان موسى عليه السلام ذا مقام عالٍ عاتبَ نفسَه بهذا الفعل، مستحضراً مقامه عند ربه تبارك وتعالى، مستشعراً أن مثل هذا الفعل لا يليق بمثل هذا المقام، فسمّاه ظلماً لذلك.

بطريقٍ فوق نطاق الحواس المعتاد ونظامها، يجري فيهم ذلك ولا يعرفون كيفيَّته، كما لا يعرف أحدٌ كيف تتمُّ له عملية التذكُّر والإدراك، ولا عملية النوم الانتباه، والله أعلم. ولذلك قَرَنَ الكلام بالتنزيه، دفعاً لِـمَا يتوهم من التشبيه، فقال: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾.

ثم قال في بيان ذلك الوحي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ وهاتان الصفتان تمهيدٌ لـما أُريدَ إظهارُه علىٰ يده من المعجزات بقوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي: حيَّـة سريعة الحركة، ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يرجع، وهذا كما خاف نبيُّنا محمد ﷺ من المَلَك أوَّل مقابلته له في غار حراء؛ لأن أثر النبوَّة لم يتمكّن بعد، لأنَّ كلَّ شيء يأتي بالتدرُّج. والله أعلم. لذلك قال تعالىٰ: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾(١)

---

(١) يكون الكلام أكثر انسجاماً إذا كان شاملاً لِـمَا يصدر من الأنبياء عليهم السلام من بعض الهفوات، مثل ما تضمَّنه قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وكأكل آدم من الشجرة، وكقول نوح: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]، وكقتل موسىٰ القبطي إلىٰ أمثال ذلك. والله أعلم. فالأنبياء عليهم السلام يخافون اللهَ كثيراً من تلك الهفوات، ويقرنونها بالتوبة والندم، فيغفر الله لهم برحمته، فتكون الآية استثناءَ خوف من خوف، وإن اختلف النوع، لأنَّ المراد من قوله: ﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: تثبيتهم وتشجيعهم تجاه بَدْءِ مهمَّتهم العظيمة، وتعرُّضهم للمقاومين، والمراد من المستثنىٰ: خوفهم مما يصدر منهم من تقصير أو هفوات.

وإنَّما جاء التعبير بالظلم، ليكون الكلام قاعدةً عامةً مستمرةَ المدىٰ تشمل غير الأنبياء أيضاً، ممَّن بدَّل حُسناً بعد سُوء، وترمي إلىٰ تبشير من سيدعوهم موسىٰ للإيمان فيؤمنون، والله أعلم، وذلك علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر بما يشمله وغيره. =

لذلك قال لـهم: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: عن الطريق، من أصحاب هذه النار، ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم﴾ منها ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ أي: بشعلة نار ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧﴾ أي: تستدفئون.

والسين في قوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ للدلالة علىٰ نوع بُعد في المسافة. وهذه الجملة يسمِّيها المناطقة: مانعة الخلو، لا مانعة الجمع، فيجوز أن يحصل علىٰ الأمرَيْن معاً.

هذا ما أراده موسىٰ عليه السلام من هذا القصد، ولم يعلم أنَّ السعادة والنبوَّة تنتظره هناك.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ وهم الملائكة الذين حضروا احتفاءً باستِنباء موسىٰ عليه السلام، وهذا النداء للتبريك، والله أعلم بمراده. وسمَّاها «ناراً» بحسب اعتقاد موسىٰ بها في بادئ الأمر، أما هي فنور، والله أعلم.

ويجوز أن يُراد بـ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: موسىٰ عليه السلام، لأنه هو نائـلٌ خيرَها وبركتها. وهذه بشارةٌ له عليه السلام بأنه قد قُضي له أمرٌ عظيم تنتشر بركته في تلك الأقطار، وهو استِنباؤه له وإيحاؤه إليه.

فالمراد بهذا النداء: نداء الوحي، وقد تيقَّنه موسىٰ عليه السلام وإن لم يَعلَم كُنهَه، لأنَّ التصديق بالشيء لا يتوقف علىٰ معرفة كيفيَّته وكُنهه، فإنَّ أكثر ما نُصدِّق به تصديقَ يقين، لا نعرف حقيقته وكُنهه ولا كيفيَّة تكوينه وإيجاده، فكلُّ مَنْ يسمع المذياع يَتَيقَّن أخباره، ولا يعلم كُنْهَ المذياع وكيف ينقل ذلك، فليس تحقُّق الأخبار منه موقوفاً عليه. فهذا النداء لا يزيد عن كونه عرفاناً من موسىٰ مع إيقان، دون إدراك لحقيقة الشأن. وقد تكلَّمت في سورة الشعراء[١] أكثر من هذا بمثل هذه الآية، فارجع إليه.

ومن المعلوم أنَّ الأنبياء عليهم السلام مُزوَّدون بالقدرة علىٰ استلهام المعلومات

---

(١) في الآية ١٠.

وقد سجَّل عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ بما اعتقدوا أو صنعوا ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾، والقَصْرُ وصيغةُ التفضيل للمبالغة في هذا الحكم عليهم، ولإثبات أنَّ الآخرة وأسبابَها حقٌّ علىٰ الصورة التي جاء فيها هذا القرآن.

ثم سجَّل بأنه تنزيلٌ من الله تعالىٰ، مُنَزَّل بالحكمة والعلم الواسع والتوجيه الصحيح، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾، وأتىٰ بصيغة المجهول لأنه لم يُتَلَقَّ رأساً كموسىٰ، فهو أجدر أن لا ينكروا عليه. وقد جعل هذا البيان تأييداً لما قبله، وتمهيداً لما بعده، علىٰ نهج القرآن في مثله، فبنىٰ عليه صدقَ القَصَص الآتي، مُؤْذِناً بأنه ﷺ مُشابه لأولئك الأنبياء في الوحي وأصوله، من الدعوة إلىٰ التوحيد، والإيمان بالبعث والحساب، وبأنه تعالىٰ سيستأصل المعارضين له كما استأصل المعارضين لأولئك الأنبياء السابقين، ونصرهم عليهم، وأنه سيناله من الكرامة ما نالهم، فأشار إلىٰ كلِّ ذلك في القَصَص الآتي؛ تسليةً له ﷺ؛ وتثبيتاً.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾
يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ
يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا
فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ
أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وقد بدأ بالطبقة القُرْبىٰ، فقال: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: شاهَدْتُها، وعبَّر بـ﴿ءَانَسْتُ﴾ لسروره بها، وكانوا قد أضلوا الطريق، وهم في حاجة إلى النار،

حتىٰ لو كُشِفَ لها الغطاء ما ازدادت يقيناً، ولذلك أتىٰ بهذا القَصْر المؤكِّد لحَصْر الإيمان بالآخرة فيهم، لأنَّ الـمِلَلَ الأخرىٰ التي تدَّعي أنها تؤمن بالآخرة، إنما تؤمن بها علىٰ مقتضىٰ أهوائها، وما أوحاه إليها خيالُها، ووَضَعَه لها رؤساؤها في ذلك، ولم تؤمن بالآخرة وأسبابها علىٰ الصفة التي جاءت بها الكتب المنزلة علىٰ الأنبياء، لأنهم قد عبثوا بتلك الكتب أو ضيَّعوها.

انظر إلىٰ المصريين القدماء كيف يُصوِّرون الآخرة بصورةٍ أوحَتْها إليهم أخيلةُ رؤسائهم وكهنتهم، وثبَّتها لديهم هَوَسُهم، فبنوا الأهرام لحفظ أموالهم معهم، لأنهم يعتقدون أنها تكون لهم في الآخرة أيضاً، وحفظوا كذلك أجسادهم لمثل هذه الغاية. وقِسْ عليهم غيرهم في هذا الشأن، كالبراهمة من الهنود وأمثالهم.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ ضلال هؤلاء الضالين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ مطلقاً أو علىٰ الوجه الصحيح، ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ والعَمَه: شدَّةُ التَّحيُّر والضلال، وهذا التـزيينُ ليس قصداً وإيجاداً، وإنمـا هو بحسب السنن الكونيَّة[1]. والمعنىٰ: مَضَت سُنّتنا في أخلاق البشر وشؤونهم أن يستحسنوا ما يجرون عليه ويَتَعوَّدونه، ممَّا كان عليه آباؤهم، أو ممَّا استحدثوه بأنفسهم، ويفقدون الاستعداد للنظر الصحيح، ولا يسمعون قولاً مخالفاً له أو مبايناً لقواعده.

---

(١) سنةُ الله التكوينيَّة تجري على البَرّ والفاجر، والمؤمن والكافر. ومنها سنَّةُ الله في تزيين أعمال الكافر له، فالذين لا يؤمنون بالآخرة معاندين مكابرين يرون أعمالهم القبيحة حسنةً جالبةً لهم لذّات من متاع الحياة الدنيا، فانطمست ـ بسبب كفرهم العنادي ـ بصائرهم بمقتضى سنة الله.
وكونُ التزيين بحسب السنن الكونية لا ينافي كونَه بإرادة الله وإيجاده، فكلُّ ما يجري في هذا الكون ويقع إنما هو بإرادة الله تعالى، تنزَّه أن يقع في ملكه ما لا يريد سبحانه، ولكنه سبحانه وتعالى رتَّب أمور العالم على سنن وقوانين لتنتظم بها أحوال الناس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿طسٓ﴾ مرَّ الكلام علىٰ هذه الأحرف في سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفِكر إلىٰ أهمية ما يأتي بعدها. ومنه هنا قوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: آيات هذه السورة هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ يُبيِّـن ما يجب علىٰ الإنسان من قول وعمل واعتقاد، ليقيَ نفسَه من النار، وينالَ رحمة العزيز الغفَّار، ويَحُوزَ الراحة في الدنيا والسعادة في الآخرة، فهو ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ به، إذ يهديهم لِـمَا تستدعيه الحال في اتِّجاه الفطرة نحو الكمال، والسعادة في الدارين.

ثم ذكر شيئاً من هدايتهم المؤدِّية إلىٰ ذلك، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ اللتين يأمرهم بها هذا القرآن لإصلاح أرواحهم وأحوالهم، ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ والإيقانُ: الاعتقادُ الجازم الذي لا يقبل الشكَّ، لانبعاثه عن المنطق البرهانيّ أو الوجدانيّ أو كليهما، فيملك النفس وتظهر فيها آثاره، فتعمل بمُقْتَضاه، ولا تجد عنه منصرفاً.

والقرآن الكريم هو الذي يبعث في النفس عند تَدبُّره هذا الإيقانَ في أمر الآخرة،

سُورَةُ النَّمْلِ

مكيَّة، وهي ثلاث أو أربع وتسعون آية

وقد جاء فيها أيضاً:

التنويه بشأن القرآن، فهي تشبه ما قبلها في الغرض.

وقد جاء أوَّلها في بيان ما فيه من الهداية والبشارة للمؤمنين والترهيب للكافرين.

ثم انتقل منه إلىٰ التثبيت والترغيب والترهيب بذكر بعض قصص الأنبياء.

ثم انتقل إلىٰ التنويه بشأنهم، ثم إلىٰ الـموازنة بين عظمة الله وقدرته وجزيل إنعامه، وبيَّن مَهَانة آلـهتهم وعَجْزَها وضَعْفَها.

❋ ❋ ❋

الشعراء، علىٰ نهج القرآن في تكميل البيان، فقال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ لأنَّ الشعر هو الكلام الذي يُؤثِّر في النفوس ويخدعها، فتغوىٰ وتنخدع بالتضليل.

ثم استشهد علىٰ ضلال الشعراء وخداعهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾، فيجعلون الحقَّ باطلاً، والباطلَ حقاً، والصِّدقَ كذباً، والكذبَ صدقاً؛ لمآربَ يطلبونها، ومطالبَ يقصدونها، ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ فيُرغِّبون بالشيء ويرغبون عنه، ويُنفِّرون عن الشيء ويتلبَّسونه، بخلاف محمد ﷺ، فإنَّ مبادئَه لا تَتَناقض ولا تتبدَّل، ومآربَه لا تتغيَّر ولا تتحوَّل، وهو أولُ من يتمسَّك بها ويعمل، فكيف يكون من الشعراء؟!

وبعد أن وصف الشعراء بهذه الصفات الذميمة، بياناً للفرق بيهم وبين محمد ﷺ، استثنىٰ منهم الموصوفين بأمور أربعة، وأخرجهم من هذا الحكم، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ وذلك بجَعْل شعرهم في التوحيد والنبوَّة ودعوة الخلق إلىٰ الحق والصَّلاح، ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ وذلك بهَجْو مَنْ يَهْجُو المسلمين، ويُباديهم بالسُّوء، فإنَّ الله لا يحبُّ الجَهْرَ بالسُّوء من القول إلا مَنْ ظُلم.

ثم ختم السورة بهذا التَّهديد الرهيب لأولئك المشركين الذين يرمونه ﷺ بهذه الوصمات، تنفيراً للناس عنه، وتشويهاً لأمر الدعوة، فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ أي: سيَرَوْن الهولَ الشديد الذي سيصيرون إليه في مُنقَلَبِهم بعد الموت.

* * *

صلاة الليل، ﴿وَ﴾ يرىٰ ﴿تَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ (٢١٩)﴾ أي: صلاتَـك مع الـمُصلِّين. وقد ساق هذا مساق التعليل والسبب لـما تضمَّنتـه الجملة السابقة من كونه في حفظ الله وكفالته ورعايته، بمعنىٰ: أنَّ ذلك لهذا السبب.

ثم أيَّد الأمرين بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٢٢٠)﴾ فلا تخفىٰ عليه خافية، ويُجري الأمور بحسب العلم الصحيح، والحكمة البالغة. فكلُّ أعماله حِكَمٌ ومَصالح، ومنه: الصبر علىٰ المشركين.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ (٢٢٣) وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾.

ثم عاد إلىٰ الرد الـمُزيِّف لشُبهتهم المتقدِّمة في حقِّ القرآن من أنه من قبيل ما يُلقىٰ علىٰ الكُـهّان، فـقرنه بردِّ الوصف عليهم، علىٰ نـهج القرآن في العودة الـمرة بعد الأخرىٰ إلىٰ المعنىٰ الذي يريد تـقريرَه وتحريرَه، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢٢١)﴾ أي: أفرادُ الجن الذين يكذبون على الكهنة بأنهم يسترقون السمع من السماء؟! ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢)﴾ أي: كذّاب شرير، يعني: الكهنةَ المموِّهين علىٰ الناس، العابثين بعقولهم، فهم الذين ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ إلىٰ الشياطين، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ (٢٢٣)﴾ يفْـتَرون علىٰ الشياطين، فضلاً عن كذب الشياطين في ذاته عليهم، فيكون كذباً مزدوجاً مِن كذب الشيطان وكذب الكهَّان.

وبعد أن أبطل ما قالوه في القرآن العظيم، من أنه من قبيل ما يُلقي الشياطين علىٰ الكَهَنة من الأباطيل، أبطل ما قالوه من أنه من قبيل الشعر، وأنَّ رسول الله ﷺ من

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

وبعد أن ردَّ علىٰ المشركين مزاعِمَهم الباطلة، وألزمهم بالحُجج الدامغة، وأوضح لهم الـمَحَجَّة الواضحة، دَعا إلىٰ التوحيد مُخاطباً للنبيِّ ﷺ، فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾. وفي هذا التهديد إنذارٌ للمُخاطَبين، وخطابٌ للرئيس عن المرؤوسين، ولونٌ من ألوان شدَّة البيان، علىٰ نهج القرآن في مثله.

ثم أردف ذلك بالأمر بإنذار عشرته الأقربين، لأنهم يأتون بعد النفس في الحرص علىٰ نجاتهم، فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

ثم أمره بلين المعامَلة مع الذين يؤمنون، رِفْقاً بهم وتألُّفاً لهم، فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ وخَفْضُ الجناح كنايةٌ عن الشفقة واللين والتواضع لهم، مستعارٌ من حال الطائر، فإنه إذا أراد أن يحطَّ خَفَضَ جناحَه.

ثم أشفع الأمرَ بالإنذار بقوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ تفظيعاً لأمرهم، وتوعُّداً لهم، ولا تَرْهَبْ أحداً في إنذارك ونشر دعوتك، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ وفي هذَيْن الوصفَيْن إيذانٌ بأمرين: باستناده إلىٰ قوَّة الله وعزَّته، وبأن تعالىٰ إذا أمهل المشركين فليس ذلك لعجز في القدرة، فإنه هو العزيز، ولكنْ رحمةً منه بهم، فإنه هو الرحيم.

وفي مثل هذا الموقف يأمر القرآن بإقامة الصلاة مشيراً إلىٰ أنها تُـقوِّي العزم وتُؤيِّد الثبات، ولكنه أتىٰ به هنا بصورة تُوضِّح له أنه في عناية الله تعالىٰ ورعايته، لا يغفل عنه، وسَبَك ذلك علىٰ ما يُلمع إلىٰ رضاه سبحانه وتعالىٰ عن صورة إقامته للصلاة وخشوعه لله فيها، ولا سيما صلاة الليل، فقال: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ أي: في

وإنذارهم، ﴿ذِكْرَىٰ﴾ لهم وتبصرةً بما يُراد بهم، ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ لهم، إذ قد أَعذَرَ مَنْ أَنذر، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم بإخلالهم بنور بصيرتهم، وإعراضهم عما جاءهم من الحق. وفيه أيضاً احتراسٌ عن صفة سلوكه في قلوب المجرمين، بأنَّ ذلك لم يكن في أصل خلقهم فنكون ظالمين لهم، ولكنهم تشبَّعوه بتضليل المضلِّلين.

ثم عاد إلىٰ إتمام البيان بشأن هذا القرآن، يردُّ علىٰ مزاعمهم الباطلة فيه، فقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي: بهذا القرآن ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ أي: ليس محمدٌ ﷺ بكاهن كما يزعم بعض المشركين من أنَّ القرآن من قبيل ما يُلقي الشيطان علىٰ الكَهَنة؛ إذ يزعمون أنَّ الشياطين ـ والمراد بهم هنا: أشرار الجن ـ تلتقط الأخبار من السماء وتُلقيها إليهم فيتكهَّنون بها، والقرآن من هذا القبيل.

ففنَّد الله سبحانه تُرَّهاتهم هذه بقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ ذلك، وهذا نفيٌ للإمكان، وهو أبلغ من نفي الفعل، ثم أردفه بنـفي الاستطاعة فقال: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ ذلك.

ثم علَّل النفي بقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ لانتفاء المشارَكة بينهم وبين الملائكة في صفات الذات، فلا يُمكِنُهم أن يسمعوا منهم.

وعلىٰ كلٍّ، ففي الآية إبطالٌ لرأي المشركين من أساسه، وتصريحٌ بأنَّ الجنَّ لا تفهم شيئاً من استراق السمع، وأنها تحاول عَبَثاً وتطلب مُحَالاً، وأنَّ الخطفة التي تخطفها إنما هي هذه المحاولة الفاشلة، وتكذب علىٰ الكهَّان فيما تقول لهم وتدَّعيه من العلم عن السماء. والله أعلم.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾

إذا وَصَل إلىٰ سَمْعِهِ قولٌ مخالفٌ لِـمَا هو دين له أو عادة، لا يتدبَّره ولا يراه جديراً بالعناية والتفكير.

ومعنىٰ الآية: إن المجرمين الذين قد أخلُّوا بسلامة فِطَرِتهم، وطمسوا نور بصيرتهم، يَرَوْنَ الباطلَ حقاً والحقَّ باطلاً، فهم ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي: بهذا الحق الذي جاءهم من عند الله، ولا يزالون يعارضونه ويقاومونه ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ أي: عذاب الاستئصال.

ثم بيَّن كيفية مجيء ذلك العذاب وحالهم معه، فقال: ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾؟ أي: يـتَمنَّون إمهالَهم لتلافي ما فرَّطوا. وفي صورة التعبير تحسُّرٌ علىٰ ما فاتهم من الإيمان به وما يتفرَّع علىٰ ذلك.

فأنَّبهم وعنَّفهم علىٰ تكذيبهم بهذا الوعيد حتىٰ رأوه بأعينهم، فقال: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ استهزاءً واستبعاداً؟!

ثم أنَّبهم علىٰ هذا الاستبعاد والاستهزاء الناشئ من إمهال الله لهم، وطَوىٰ ذلك علىٰ الوعيد، فقال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ ﴾ وأمهلناهم ﴿سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ به من العذاب، هل كان أفادهم ذلك الإمهالُ شيئاً؟ كلا، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ في دفعه وتخفيفه ﴿مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ به من التأجيل إلىٰ أجل محدود.

وفي الآية وجه آخر، وهو أن تكون جواباً علىٰ طلب إمهالهم بعد أن رأوا العذاب. والمعنىٰ: أنه لا فائدة لهم من الإنظار والإمهال، طالما هو واقعٌ بهم بعد ذلك لا محالة.

ثم أردف السياق ببيان هذه الحقيقة العامَّة التي تـتناولهم وغيرَهم، وهي أنه تعالىٰ لم يُهلك قريةً إلا بعد أن ينذرها طويلاً حتىٰ ييأس النذير، لئلا يكون للناس علىٰ الله حُجَّـة، فقال: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ قد أرسلنـاهم لإرشادهم

عِلْمُ علماءِ بني إسرائيل بمجيئه علىٰ ما تقدَّمت البشارةُ به دالاً لهم علىٰ صحَّة نبوته، وصحَّة ما جاء به. لأنَّ هؤلاء العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذِكرِه في كتبهم، وكانت اليهود تُبشِّر به وتستفتح بانتظاره والاعتزاز به علىٰ العرب في الجاهلية، وكان ذلك سبب إسلام الأوس والخزرج من أهل المدينة، والآية تُلهِمُ بأنَّ مشركي العرب كانوا يثقون بأهل الكتاب ويقبلون أقوالَهم وآراءَهم، ولذلك قامت الحُجَّة بهم عليهم.

ثم عاد إلىٰ قوله: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾، وعلَّق عليه بقوله: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ بلغة أعجمية ﴿ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ يعني: أننا أنزلنا هذا القرآن علىٰ رجلٍ عربيٍّ بلسان عربيٍّ مبين، فسمعوه وعرفوا فَصاحتَه وعُلوَّ بياناته وسموَّ تعاليمه، وأنه معجزٌ لا يُعارَض بكلام مِثلِه، وانضمَّ إلىٰ ذلك بشارة كتب الله السالفة به، ورغماً عن كلِّ هذا لم يؤمنوا به وجحدوه وسمَّوه تارة: شعراً، وتارة: سحراً، فلو نـزَّلناه علىٰ بعض الأعجميين بلغة أعجمية لكان إنكارهم أشدّ وأعظم، لأنه ينضمُّ إلىٰ عدم فهمهم له بهذا الوضوح ومعرفتهم قيمتَه علىٰ الوجه الصحيح، أَنَفَتُهم الجاهلية وشدَّةُ عنادهم في المكابرة العصبية أن يتَّبعوا من ليس بعربي، وكتاباً غير عربي مبين. فالكلام إلزام لهم وإحكام للحُجَّة عليهم.

ويجوز أن يكون في الآية إلماعٌ إلىٰ ما يعترضون به علىٰ القرآن من أنَّ الكتب السماوية كلَّها بغير العربية، وجواب لهم عن ذلك. والله أعلم.

ثم علَّل سبحانه وتعالىٰ سبب إصرارهم علىٰ الإنكار، رغماً عن نزوله بلغتهم وعلىٰ رجل منهم، ببيان سُنَّته تعالىٰ في طبائع البشر وأخلاقهم إذا أفسدوها، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ لأنَّ سُنَّة الله تعالىٰ في انطباعات الإنسان

جبريل عليه السلام، فإنه أمينُ وحيه تعالىٰ، نزل به ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: علىٰ وعيك ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ للناس ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾، وهذا يُشعِرُ بأنَّ اللسان العربي أرحَبُ من سائر الألسن للقيام بهذه المهمّة العظمىٰ، ولذلك جعله لغة للقرآن؛ لأنه قادر علىٰ جلاء أسمىٰ وأسْنىٰ معانيه وأهدافه، ولا يقدر علىٰ ذلك غير هذا اللسان، وقد أراده سبحانه وتعالىٰ أن يكون اللغة العامة لجمعية الأمم الإسلامية، بل لجميع البشر، ليتكلَّم بها مع لغاته، لأنه سبحانه أنزل الدين الإسلامي ديناً عالمياً، وجعل لغته كذلك، لأنّ حكمَ الوسائل حكمُ المقاصد، وحَتْمٌ علىٰ الأمم تعلُّمُه وتعليمُه لتفهمَ قرآنها، وتعيَ دينها وعياً صحيحاً، فانكبَّت عليه عامة الأمم الإسلامية فهماً ووعياً حتىٰ كان لسان الجميع فعلاً حقبة من الدهر، حتىٰ اهتمَّ الأعاجم في التأليف لأممهم فيه كسيبويه وأضرابه، فلما أهملوه أهملوا الدين، إذ أصبحوا لم يدركوه حق اليقين.

ثم تابع البيان عن التّـنويه بشأن هذا القرآن، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ أي: إن طابعَه الروحيَّ من طابعها، وأمهات تعاليمه موجودة فيها، يبرهن بذلك علىٰ أنه مُنزَّل من عند الله، كما هي مُنزَّلة كذلك.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: إنَّ خبره في سائر الكتب السماوية القديمة، فقد بشَّرت به وبمحمد ﷺ الشرائعُ والأنبياء، حتىٰ إنَّ آخر تلك الكتب سُمِّي بالإنجيل، ومعناه بالعبرية: البشارة؛ لأنه جاء يُبشِّر بهذا القرآن وبمحمد ﷺ، وبقُرب مجيئهما.

وقد استشهد علىٰ ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ أي: علامةً جليةً ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ قال ابن عباس: يريد: عبد الله بن سلّام وأصحابه[1]. أي: أو لم يكن

= هذا ما أراه علىٰ ضوء القرآن وهداه، فإن أصبتُ فالحمد لله، وإن أخطأتُ فأستغفر الله، ولا يعلم الغيب إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. (المؤلف).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩: ٣٩٧).

إنما هي من إحكام تربيته تعالىٰ للعالـمين، وقد ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾(١)، وهو

---

(١) الروح الأمين: لقب جبريل عليه السلام بين الملائكة، كما يلقَّب شخص بالإنسان الكامل بين البشر، ويشيع فيه.

والروح أعلىٰ أنواع المخلوقات وأكثرها وجوداً بين الكائنات، لذلك يضيفها سبحانه إلىٰ نفسه، فقد جاء في الحديث: «أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تَـئِط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا مَلَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجداً لله» [رواه أحمد (٢١٥١٥)، والترمذي (٢٣١٢) وقال: حسن غريب].

وقليل جداً من أنواع هذا الجنس مغلَّف بالجسم الكثيف، وهو صنفان: الإنس والجان. والله أعلم. وهذا هو مفاد قوله تعالىٰ في حق آدم: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر: ٢٩]، وجاء مثله في حقِّ عيسىٰ عليه السلام.

وإنما أضاف سبحانه الروح إلىٰ نفسه وتمجَّد به، للإيذان بشأنه، وللإيماء بامتيازه عن المخلوقات بكثرة وجوده وخلوده وعلوِّ صفاته وميزاته، ولأنه هو الذي يعرفه حق المعرفة، وكأنما هو المقصود بالذات من بين المخلوقات، وما عداه متمِّم لما أنيط بهذا الجنس من مطالب، وأودع إليه من مواهب، ولذلك كان هو الخالد، وما عداه فانٍ أو متبدِّل. ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، سواء كان ذلك التبدُّل بالذات أو بالصفات.

وصنف الإنس والجن من هذا الجنس، ولتغلفه بالغلاف الجسماني فارق أصله في الدنيا ببعض الخصائص، فإن الأرواح المجرّدة المسماة بالملائكة علىٰ تعدُّد أصنافها ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، لأنهم مقسورون علىٰ ذلك ومطبوعون، ولا شأن لهم سواه.

أما صنف الإنسان والجن، فقد اقتضت الحكمة أن يكون مختاراً في تصرفاته تابعاً لإرادة نفسه فيها، وإنما كان كذلك ليمكنه أن يقوم بحاجات جسمه وتوفيرها عليه، ولأنه نيط بالإنسان تعمير الأرض والاستفادة من مواهبها وخيراتها، وقد ألهم الله طبيعته إدراك الفجور والتقوىٰ، وقُبْح الأولىٰ وحُسْن الثانية، ما لم تفسد تلك الطبيعة بالتربية الفاسدة والتضليل، وأرسل له الرسل لتعلمه ذلك أيضاً، ليجتنب الفجور ويلتزم التقوىٰ، فهداه سبحانه بالطبيعة والشريعة. وبذلك كانت الحجة البالغة لله عليه إن أضاع رشده أو أساء. =

ثم ختم القصة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ وعبرةً للمعتبرين، ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر مُشركي قريش ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ به ومُصدِّقين حتىٰ يعتبروا.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ سببَ الإمهال مع عنادهم هذا، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ فلم يكن إمهالُـهم وتأجيلُ العذاب عنهم إلىٰ موعده لعجز في القدرة، ولكنه رحمةٌ منه تعالىٰ بهم لعلَّهم يرشدون، وإنَّ يوماً عند ربك كألف سنةٍ مما تعدُّون.

وإنما كرَّر الجمل في أواخر هذه القصص للعناية بشأن مضمونها، كما تقتضيه البلاغة العالية، وعلىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ
﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ
﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ
سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ
إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾
وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ
﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

ثم أردف السياق بالتَّنويه بهذا القرآن العظيم المبيِّن لهذه القصص والبيانات، إيذاناً بصدقها، وتبجيلاً للمواعظ المستفادة منها، وتقديراً لشأن ما اندمج فيها من أنواع التبصير والإرشاد والدعوة إلىٰ الرشاد، فقال: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: هذا القرآن الحاوي لما ذكر من القصص والبيان ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾، وعنوان الربوبيَّـة للإيذان بأن محتوياته

ثم أردفوه بما هو أشدّ منه سَفَهاً، وقالوا: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ أي: قِطَعاً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧﴾؛ يقولون ذلك تهكُّماً واستبعاداً.

أما شعيب عليه السلام فقد استعان عليهم بربه بعد أن يئس من إيمـانهم، و﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨٨ ﴾، وقد قَـرَنَ سبحانه وتعالىٰ الاستعانة بالإجابة، وقال: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ وهي سحابة أظَلَّتهم فأحرقتهم عن آخرهم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٨٩﴾، وفي هذا التهويل إيقاظٌ للمنكرين الـمعارضين لمحمد ﷺ وما جاء به.

= الأولى، بل هي تأكيد لها، فبين الجملتين كمالُ اتصال، لذا لا يجوز أن تتوسط الواو بينهما، لأن العطف يقتضي التغاير، ولو وسِّطت الواو لكان لكلٍّ من الجملتين معنى يختلف عن معنى الأخرى.
وعلى العكس من هذا قال قوم شعيب: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، فكلمة ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ يجب أن تفسَّر بالمسحورين الذين مسَّهم الشيطان واختلط عليهم الأمر، وهذا يختلف عن كونهم بشراً، فقوم شعيب اتهموا نبيَّهم تهمتين: كونه مسحوراً أولاً، وكونه بشراً ثانياً، ولا شك أن كلاً من التهمتين تختلف عن أختها، ولذا وسِّطت واو العطف بينهما، لأن العطف يقتضي التغاير كما قلنا، وهذا هو الإعجاز البياني في الآية.
وبقي نوع آخر من الإعجاز: وهو إعجاز تاريخي، متفرِّع عن ذلك الإعجاز البياني، وهو أن فرية اتهام الأنبياء من أقوامهم بالسحر لم تكن معروفةً عند الأنبياء الأُوَل، وإنما كانت متأخرة، فلم تكن قضية السحر مشتهرة عند القبائل الأولى؛ عاد وثمود وكل الذين يجيبون أنبياءهم أنهم بشر يأكلون ويشربون، وأنهم اتبعهم الأرذلون، لأن السحر لم يكن معلوماً ولا معروفاً عندهم، وقد ظهر متأخراً، وقد حدثنا القرآن عن السحر عند المصريين القدماء، ونحن نعلم قرب المسافة بين مصر ومَديَن منزلِ شعيب عليه الصلاة والسلام، لذا كان السحر معروفاً عندهم.
وهكذا ندرك نَوْعَي الإعجاز في الآيتين ـ أعني: البياني والتاريخي ـ والله أعلم. انتهى من كتاب «إعجاز القرآن» ص٢٠٤-٢٠٦ لشيخنا العلامة المفسِّر فضل حسن عباس رحمه الله تعالى.

﴿مِّثْلُنَا﴾ أي: فكيف تكون رسولاً لله؟ يقولون ذلك إما لجهلهم تاريخ النبوَّات وأنَّ النَّبيَّ لا يكون إلا من البشر، وإما لعنادهم، فهم يتعلَّلون بها يُموِّهون به علىٰ الأتباع والدهماء(١) من الناس.

ثم أكَّدوا الإنكار بقولهم: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾، فصرَّحوا بما تضمَّنه كلامهم السابق في الإنكار(٢).

---

(١) الدهماء: العدد الكثير، ودهماء الناس: جماعتهم وكثرتهم. والدهماء: الداهية. «لسان العرب» (دهم).

(٢) تقدَّم قول ثمود لنبيِّهم صالح عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٥].

أما قوم شعيب عليه السلام فهذه مقالتهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وقد جاء ذِكرُ حرف العطف في الثانية: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ولم يُذكَر في الأولى. والسِّرُّ البياني في ذلك: أن كلمة ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ لها معنيان:

الأول: الذين أصيبوا بمسّ واختلط الأمر عليهم.

والثاني: مَنْ لهم معدة ورئة ويأكلون ويشربون، ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «توفي رسول الله ﷺ وهو بين سَحْري ونَحْري». رواه مسلم (٢٤٤٣).

فما قاله قوم صالح قُصِدَ به المعنى الأخير، وما قاله قوم شعيب قُصِدَ به المعنى الأول، أي: من المسحورين، وحجة ذلك: أن كلمة (مُسحّر) حينما تفسّر بصاحب المعدة والرئة الذي يأكل ويشرب فإنها مساوية للبشرية، أما إذا فسِّرت بالمسحور، فإنها لن تكون كذلك، بل كل منهما فيه معنىً غير الذي في الآخر.

وقد قال قوم صالح: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤] فلم توسّط الواو بين الجملتين لأن معناهما واحد، إذ معنى ﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ الذي قصده قوم صالح هو أنك ذو رئة تأكل وتشرب، ثم جاءت الجملة الثانية تؤكد هذا المعنى ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فإن كونه يأكل ويشرب، معناه أنه بشر، فالجملة الثانية إذن ليست أجنبية عن =

ثم دعاهم إلىٰ الإيمان وإصلاح النفس والأخلاق، وإلىٰ الإقلاع عن قبيحةٍ بارزة فيهم قد اختصُّوا بها، ناشئةٍ من شركهم وعدم إيمانهم بالله إيماناً صحيحاً، فقال: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ لحقوق الناس بالتطفيف.

ثم أردف هذا الحكم الخاصَّ بحكم عام يشمله وغيرَه، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ يريد به: العدل والموازنة في كل شيء.

ثم أردفه بحكم آخَرَ مماثلٍ له، فقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ بأن تحطُّوا من قَدْرها وكرامتها بغيةَ أن تُسقِطوها من الأنظار، فتكون رخيصة أو مبتذلة مرغوباً عنها. وهذا أمر ينشأ من خُبث النفوس، وهو يشمل المبيعات وغيرها، وتبعث عليه المآرب الدنيئة.

وقد عقَّب ما تقدَّم وذيَّله بقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ أي: بأعمالكم هذه. ويجوز أن يكون هذا نهياً لهم عن قبيحة أخرىٰ، وهي الإفساد بالنَّهب والسَّلب والقَتْل إلىٰ أمثال ذلك.

وبعد أن نهاهم عما هم مُتلبِّسون به من الدنايا والرذائل والإفساد، أمرهم بتقوىٰ الله المتفضِّل عليهم بالإيجاد؛ وصفاً للدواء بعد بيان الداء، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَ﴾ خَلَقَ ﴿ٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ أي: الأممَ المتقدِّمة عليكم، وإنَّما ذكرها معهم تحسيساً لهم بما جرى عليها لعدم إيمانها برسلها الذين أرسلهم إليها.

هذا ما جاء به شعيبٌ كأمثاله من الأنبياء عليهم السلام من الدعوة إلى الحقِّ وتزكية النفس من الأدناس، مما هو هدف الشرائع السماوية وأغراضها، ولكنهم عارضوه، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾ الذي غُلبوا علىٰ عقلهم بالسِّحر.

ثم علَّلوا ما تضمَّنه كلامُهم من الإنكار لدعوىٰ النبوة بقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ

ثم هجَّن أمرهم ونَعَىٰ عليهم بقوله: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ أي: قَبُحَ وتَعِسَ ذلك المطر.

ثم ختم القصة بالتَّحسيس، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما جرىٰ علىٰ قوم لوط ﴿لَءَايَةً﴾ وعبرةً للمعتبرين، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر هؤلاء المشركين من قومك ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾ بذلك ومصدِّقين حتىٰ يعتبروا.

ثم بيَّن سبب إمهالهم مع إصرارهم علىٰ هذا الكفر والعناد، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ فإنَّ إمهالَهم لم يكن ذلك عن عجز في القدرة، ولكنَّه رحمةٌ منه بهم لعلهم يرشدون.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

ثم ذكر قصَّة شعيب مع قومه أصحاب الأيكة؛ لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ وقد مرَّ تفسير هذه الآيات. والأيك: الشجر الكثير الـمُلتفّ، واحدتها: أيكة.

وكأنَّه عليه السلام أراد من فحوىٰ هذه الجملة الجوابيَّـة وتتمَّتِها الآتية إظهارَ الكراهة لهم ولمساكنهم وديارهم، والرغبة في الخروج من بينهم، والخلاص من جوارهم.

ولا يخلو الكلام من الإلماع بالنكير والتوعُّد بعذاب الله الذي سينزل بهم، لذلك توجَّه إلىٰ الله بقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: من شؤم عملهم وعذابه.

وقد قَـرَنَ سبحانه وتعالىٰ الإجابة بالطلب، وقال: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا﴾ منهم، فقد جُعِلَت ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ أي: الماضين في العذاب؛ لكونها كافرة، وهي امرأة لوط، علىٰ ما جاء في سورة هود[١].

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ من قومه، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ بحجارة من سِجِّيل[٢]، كما جاء في سورة هود والحجر[٣]. ويجوز أن تكون من بُـرْكان[٤]، والله أعلم.

---

(١) في الآية ٨١ منها.

(٢) فلم يكن مَطَراً معهوداً، وإنما هو من طين مُسْتحجر.

واستئصالُ قوم لوط كان بثلاثة أنواع من العذاب، يكفي كلُّ واحد لإهلاكهم واستئصالهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣] وهو صوتٌ شديد قاصف جاءهم عند شروق الشمس، ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤] أي: قلَب الله تعالىٰ بلادهم، وذلك برفعها إلى عنان السماء ثم قلبها، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] وهو النوع الثالث من أنواع العذاب الذي أنزله الله تعالىٰ بهم.

(٣) انظر الآية ٨٢ من سورة هود، والآية ٧٤ من سورة الحجر.

(٤) لا يصح أن يدَّعىٰ أن استئصالهم كان بحدوث بركانٍ أو زلزال، لأنَّ رفع قراهم ثم الهُويّ بها جاء صريحاً في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤-٥٥]، والهوي لا يكون إلا من ارتفاع وعلو، فدلَّ ذلك على أنَّ الأمرَ كلَّه كان على خلاف المعتاد، ومنه: إمطار الحجارة من سجيل.

ثم فصَّل كيفية التكذيب، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ الذي يهتمُّ لصالحهم، وقد أرسله الله إليهم، وهو ﴿لُوطٌ﴾، فدعاهم إلىٰ الإيمان، وقال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ اللهَ إذ تُشركون به؟ والله لا يغفر أن يُشرَكَ به، و﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾﴾ صادق، فإنكم لم تعرفوا مني خيانةً ولا كذباً؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ لا يبعث رسولاً إلا من هو مشتهرٌ في قومه بكمال الأخلاق وعوالي الصفات. أي: فأنا مَنْ تعرفونه في الصِّدق والأمانة، وقد أتيتكم بهذه الدعوة، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾﴾ فيما أُرسِلتُ به إليكم، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتـتَّهموني بطلب المنفعة الذاتية من وراء هذه الدعوة، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ فيجازيني عليها الجزاء الأوفىٰ.

ثم ذكر لهم فاحشتَهم الشنيعة المتأتية من إفساد طبيعتهم، مُنكِراً ذلك عليهم، فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ أي: أتفعلون ذلك من بين مَنْ عداكم من العالمين؟ وهذا الأسلوب أشدّ تقريعاً لهم، لدلالته علىٰ إفسادهم لطبيعتهم، حتىٰ خرجت عن سَنَن الفطرة في هذا الأمر الشاذ الشنيع. والمعنىٰ: أنكم تنفردون عن سائر الناس بهذه القبيحة، ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ يُبيِّن بذلك سفالـتَهم وخروجَهم عن مقتضىٰ الفطرة، وما اشتـملت عليه الغريزة من الحكمة، وهي بقاء النوع. لذلك أسنـدَ العَدْوَ إليهم في هذا الفعل، فقال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: متجاوزون حدودَ الطبيعة بهذا العمل، ومُفرطون في المعاصي والرذائل.

هذا ما قاله لهم ودَعَاهم به إلىٰ تزكية النفس من الأدناس، وإلىٰ الرُّشد والإيمان، ولكنهم قابلوه بالسَّفه، علىٰ طريقة الخاسئين المفضوحين في الانفحام والاندحاض، و﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ يُهدِّدونه بالإخراج من بينهم.

فردَّ عليهم و﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: الـمُبْغِضين الـمُنكِرين عليه،

طلبت آيةً كونيَّة فأعطاها ولم تؤمن وأنكرت الآية أيضاً؛ فمن سُنَّته أن يستأصلها بالعذاب. وهذا كان أمْرَهم في الناقة، فضاقوا بشِربِها ذرعاً.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ خوفاً من العذاب، أو عندما نَـزَل بهم، ولم ينفع الندم، إذ قد قُضي الأمر، ﴿ فَأَخَذَهُمُ ﴾ ذلك ﴿ٱلْعَذَابُ ﴾ واستأصلَهم.

وقد ختم القصَّة بهذا التَّحسيس، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أي: لعبرةً للمعتبرين، ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم ﴾ أي: أكثر هؤلاء المشركين ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ بذلك ومُصَدِّقين به حتىٰ يعتبروا.

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ سببَ إمهالهم علىٰ كفرهم وعنادهم، فقال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾ فليس إمهالُـهم عن عَجْزٍ في القدرة، ولكنه رحمةٌ منه بهم لعلَّهم يرشدون.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

ثم ذكر قصة لـوط مع قومه لنفس الغرض السـابق، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ وقد تقدَّم الكلام علىٰ جَمْع «المرسلين» في قصة نوح[١].

(١) في الآية ١٠٥.

بَطِرِينَ مُسرِفين؟ كلا، لا تُترَكون، بل ترجعون إلىٰ الله تعالىٰ، ويجازيكم جزاء وفاقاً.

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ إذ تُشركون به، ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾ فيما أدعوكم إليه وما أُرسِلتُ به إليكم، ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ من الرؤساء ﴿ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

هذا ما قاله لهم ودعاهم به إلىٰ الهُدىٰ والرَّشاد، ولكنهم أجابوه بجواب السفيه المغلوب بالحُجَّة، و﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ أي: الذين سُحروا حتىٰ غُلبوا علىٰ عقولهم(١).

وَرَدُّوا عليه بقولهم: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ فكيف تكون نبياً ورسولاً من الله؟ يقولون ذلك جاهلين أو متجاهلين الحقيقة التاريخية، وهي أنَّ الأنبياءَ كلَّهم من البشر.

ثم تحدَّوه بقولهم: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ﴾ كونيَّة تدلُّ علىٰ نبوَّتك ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾، ويظهر من الجواب أنهم طلبوا خَلْقَ ناقة علىٰ صورة معجزة بديعة غريبة، فأجاب سبحانه وتعالىٰ طلبَهم، و﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ ﴾ وآيتُها أنها خُلقت علىٰ غير المعتاد، كما طلبوا ذلك تعنُّتاً. فابتلاهم الله سبحانه وتعالىٰ بأمرين: أحدهما: ما ذكره بقوله: ﴿لَّهَا شِرۡبٞ ﴾ أي: نصيب من الماء يوماً، ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾﴾ فاقتنِعُوا بشِربِكم ولا تُزاحموها علىٰ شِربِها، لأنها تشرب النهر كلَّه في يومها. ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾﴾ لأنَّ من سُنَّة الله تعالىٰ في الأمم الكافرة بأنبيائها، إذا

---

(١) الأرجح أنَّ معنى ﴿ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ في هذه الآية: البشر الذين يأكلون ويشربون، وهذا ما رجَّحه الطبريُّ في «تفسيره» (١٩: ٣٨٥). ومن هذا القبيل: ما روي عن عائشة رضي الله عنها: «توفي رسول الله ﷺ وهو بين سَحْري ونحري» رواه مسلم (٢٤٤٣). و﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾: مَنْ لهم رئةٌ ومعدةٌ ويأكلون ويشربون. وينظر معنى ﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ في الآية ١٨٥ من هذه السورة، وسرُّ ذكر حرف العطف هناك ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا...﴾ [الشعراء: ١٨٦].

ثم ذكر قصَّة صالح مع قومه لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ وقد تقدَّم الكلام عن جَمْع «المرسلين» في قصَّة نوح(١).

ثم فصَّل التكذيب بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ اللهَ إذ تُشركون؟ ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ﴾ منه إليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وإني ﴿أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾ في رسالتي، فإنكم لم تعرفوا مني خيانةً ولا كذباً؛ إذ لا يبعث الله سبحانه وتعالىٰ رسولاً إلا من قومه، ومَنْ هو مشتهرٌ بكمال الأخلاق وعوالي الصفات، ساهرٌ علىٰ مصالحهم، حريصٌ علىٰ منافعهم.

وبعد أن ذكَّرهم بما يعرفونه فيه من الأمانة والصِّدق، قال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ واخشَوا عقابَه، ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾﴾ فيما أُرسِلْتُ به إليكم ودعوتكم إليه.

ثم زاد في إثبات صِدقِهِ بقوله: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتتَّهموني بالاستفادة الذاتيَّة والمنفعة الشخصيَّة من وراء هذه الدعوة، ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ يُجازيني عليها الجزاء الأوفىٰ.

ثمَّ نبَّههم إلىٰ مَوْضع نِعَم الله فيهم، وكيف يُقابلونها بالكفر والطغيان، وأدمَجَ ذلك في الإنكار عليهم في اقتصارهم علىٰ الانهماك في هذه الحياة، واعتقادهم أنْ لا حياة غيرها، وإنكارهم الحشر والحساب، واستهزائهم بما يتوعَّدهم به من العذاب، فقال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ أي: سريع الهضم لِـمَا فيه من اللطافة واللين، وهذا أعلىٰ صفة الجودة في المطعومات، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي: من نفس الجبال، أو من صخور الجبال ومعادنها الحجريَّة قطعاً لبناء البيوت وتجميلها، حالَ كونكم ﴿فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي:

---

(١) في الآية ١٠٥.

يتّعظوا و﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ فإنا لن نترك ما نحن عليه، ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ أي: إنَّ ما نحن عليه هو خُلق وسلوك آبائنا الأولين، عاشوا وماتوا عليه. ويجوز أن يكون المعنىٰ: إنَّ ما جئتنا به من التخويف بعذاب يوم عظيم: هو ما كان يقوله الأوَّلون، ولم يظهر منه أثر، ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ فهم يُنكِرون الحشر والحساب، ويزعمون أن الإنسان يبتدئ بالولادة وينتهي بالموت، ولا شيء وراء ذلك، فلا يعتقدون إلا بهذه الحياة الدنيا، ولا يهتمُّون إلا بها، ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ بما جاءهم به، ﴿ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡ ﴾ أجمعين.

ثم ختم القصة بالتَّحسيس لِـمَا فيه من عظـةٍ وتنبيه، ولكن كـفار قريش لا يُصدِّقون، فقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ ﴾ للمعتبرين، ﴿ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ بذلك ومُصدِّقين به فيعتبروا، وإنما هم مُصِرُّون علىٰ كفرهم، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾ فلم يكن إمهالُـهم مع إصرارهم علىٰ الكفر عن عجز في قدرة الله، ولكنْ رحمةً منه لعلَّهم يرجعون.

﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

به إليكم، ودَعَوْتكم إليه، ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتتَّهموني بالاستفادة الشخصيَّة من وراء هذه الدعوىٰ والدعوة، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ يُجازيني علىٰ ذلك الجزاء الأوفىٰ.

ثم أنكر عليهم عدَّة أمور ناشئة من شركهم وخُبثِ نفوسهم، فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: مرتفع من الأرض ﴿ءَايَةً﴾ أي: بناءً عظيماً ﴿تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ به وتلهون، أو تعبثون فيه بالمارة نهباً وسلباً، ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: قُصوراً مَشيدة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي: كأنكم تَـتَوقَّعون خلودكم في هذه الدنيا. والكلامُ تَـقْريعٌ لهم علىٰ حَصْر اهتمامهم بأمر دنياهم فقط، وإعراضهم عن أمر آخرتهم.

ثم أضاف إلىٰ بيان شدَّة حرصهم علىٰ الدنيا وحدها وإعراضهم عن أمر الآخرة، التجبُّرَ علىٰ الناس والبغيَ عليهم، فقال: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ معتدين ظالمين.

وبعد أن بيَّن سوء حالهم، دعاهم إلىٰ الرُّشد، فقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ فيما أدعوكم إليه، فإنَّ فيه صلاحَ حالكم في الدارين.

ثم ذكر الأمر بالتقوىٰ، وقرنه بالتنبيه إلىٰ مَوْضع نِعَم الله فيهم، استفزازاً لشعورهم وعظةً لهم، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ من أنواع النِّـعَم، حيثُ ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ﴾ وهي أجلُّ أموال البادية من الإبل والبقر والغـنم، ﴿وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ وهم قوةُ البوادي وعزُّهم، ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ وهذه أموال أهل القرىٰ منهم.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إنْ لم تؤمنوا وتقوموا بشكر هذه النِّعَم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾.

هذا ما وعظهم به ودعاهم إليه من تزكية النفس وإصلاح العمل، ولكنهم لم

أي: لَحُجَّةً واعظةً لمن أراد أن يَسْتبصر، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر قومك ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ بذلك ومصدِّقين به فيعتبروا.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ سبب إمهالهم علىٰ كفرهم هذا وتكذيبهم، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾، فلم يكن إمهالُهم عن عجز في القدرة، ولكنْ رحمةً منه بهم لعلهم يؤمنون.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

ثم ذكر قصَّة هود مع قومه لنفس الغرض السابق، فقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾، وقد تقدَّم الكلام عن جمع «المرسلين» في القصَّة السابقة[1]، فارجع إليه.

وبعد أن صدَّر القصَّة بتكذيب المرسلين، فصَّل ذلك التكذيب، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ الله إذ تُشرِكون؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ منه تعالىٰ أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وإني ﴿أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ بما أُرسِلتُ به ومشهورٌ بالأمانة والصِّدق بينكم، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾ فيما أُرسِلْتُ

(١) في الآية ١٠٥.

وقد جاراهم في الجواب و﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾؟ أي: من أين أعلم أكان إيمانهم ودخولهم في الدِّين عن إخلاص، أو عن طمع في جاه أو مال؟ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: لو كنتُم من أهل الدراية والشعور؛ لعلمتُم أنَّ الله هو الذي يتولَّىٰ السرائر.

ويتضمَّن الجواب إيذاناً وتعريضاً بأن الرذالة إنما تكون بقبيح الأعمال، لا بقلة الجاه والمال. ولذلك أردفه بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: الذين يدخلون في الدين ويُظهِرون الإيمان بما جئتُ به من أيِّ طبقة كانوا.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ للأعزّاء والأذلاء، لا فَرْقَ بينهم عندي، ولستُ مسؤولاً عن سرائرهم.

فلما ألزمهم حتىٰ في هذا العذر البارد، عَمَدوا إلىٰ السَّفاهة؛ دَأْبَ المغلوبين، و﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾، فركن إلىٰ الله سبحانه و﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي: فاحكم بيننا بالحق الذي مَضَت به سُنَّتك في التنازع بين الـمُرسَلين والـمُعارِضين ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾، هذا ما دَعَا به نوحٌ علىٰ قومه بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم فلم يُجيبوا، حتىٰ يَئِسَ منهم.

فاستجاب الله دعاءه، وأرسل عليهم الطُّوفان، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ أي: الـمملوء بالمؤمنين، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ من قومه الذين لم يؤمنوا. وقدَّم ذِكرَ التَّنْجية للمؤمنين علىٰ ذِكرِ الإغراق للكافرين؛ تعجيلاً بالتأمين والتأنيس للمؤمنين، علىٰ نهج القرآن في مثله.

وقد ختم سبحانه القصة بالتَّحسيس بعظاتـها، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾

سبحانه صُوَرَها بحَسَب ما تقتضيه الحكمة في كلِّ شريعة، باعتبار رُقيِّ البشر وتقدُّمهم النَّوعي على مرور العصور والأزمان، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

ثم فصَّل ذلك التكذيب بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ أي: أحدُهم الذي يحرص علىٰ مصلحتهم وما فيه خيرُهم، وهو ﴿نُوحٌ﴾ عليه السلام، قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ اللهَ إذ تُشرِكون؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ منه تعالىٰ أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً، وإني ﴿أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ بما أُرسلت به إليكم، ومشهور بالأمانة والصدق بينكم. ولا يبعث الله سبحانه رسولاً إلا وهو مشتهر في قومه بكمال الأخلاق وأعالي الصفات. ويجوز أن يكون المعنىٰ: إني رسول أمين في أداء الرسالة، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ فيما أُرسِلتُ به إليكم.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتتَّهموني بالاستفادة الشخصيّة من وراء هذه الدعوىٰ، وإنما الهدف أعظم، وهو نَيْل السعادة في الحياتين، والأجر الأكبر، وهو الأجر من الله سبحانه لا منكم، كما حكاه بقوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ فيما أُرسِلتُ به إليكم، ولا تطيعوا أمْرَ المسرفين.

وقد كرَّر هذه الجملة لاختلاف الـمُقتَضي وتعدُّده، فإنَّ الأولىٰ مفرَّعة علىٰ قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، والثانية مفرَّعة علىٰ قوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الـمُثْبِتِ لصحَّة الدعوىٰ أيضاً.

ولـما ألزمهم بالحُجَّة الدامغة، عَمَدوا إلىٰ المعاذير الفارغة الجوفاء، كما يفعله السُّفهاء، و﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾؟ والأرذلون: سِفْلة الناس، وقد أطلقوه علىٰ المساكين الذين ليس لهم عزٌّ ولا مال، فيتَّهمونهم بأنهم اتَّبعوه لنَيْل ذلك، أو يريدون: أنهم لا يليق بهم أن يكونوا في حزبِ هؤلاء أفرادُه.

حكىٰ ذلك عنهم بقوله: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾، ويجوز أن يكون هذا القولُ زفرةَ الإفاقة والعلم بأن الأوان قد فات، وأنْ لا فائدة في توزيع التَّبعات.

ثم ختم القصة بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: لَـحُجَّةً واعظةً لمن أراد أن يَستبصِرَ الآن قبل فوات الأوان، ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر هؤلاء المشركين ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ بذلك ومُصدِّقين به حتىٰ يعتبروا.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ سببَ إمهالهم علىٰ كفرهم هذا وتكذيبهم، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ فلم يكن إمهالُـهم عن عَجْز في القدرة، ولكنه رحمةٌ منه تعالىٰ بهم لعلهم يثوبون إلىٰ رُشْدِهم ويؤمنون.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

وبعد أن ذكر الطبقة القُربىٰ من عصر التنـزيل وابتدأها بموسىٰ، ذكر الطبقة البُعْدىٰ وابتدأها بنوح عليهم السلام؛ لنـفس الغرض السابق، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ والجمع إما لأنهم كذَّبوا مَنْ أُرسِلَ إليهم قبل نوح أيضاً، ممَّن لم يُقْصص علينا نَـبَؤُه، وإما لأنَّ تكذيب الرسول تكذيبٌ لجميع الرسل؛ لأن دين الله واحد في أُسـسه، وهي: توحيد الله، والإيمـان بالبعث والحساب، والتعبُّد بعبادات وضع الله

﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ اليوم من الله، ثم ذكر ما هو أحبُّ للمعبودين وأَوْلىٰ بهم، فقال: ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: أو علىٰ الأقل يُـخَلِّصون أنفسهم من العذاب؟ وهذا سؤال تقريع وتبكيت، لا جواب له سوىٰ السكوت.

ثم بيَّن ما نالـهم من الجزاء، وقال: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾﴾ الكَبْـكَبة: تكرير الكبّ، وهو الانحناء الشديد. و«غوى» يأتي لازماً ومتعدياً، أي: الذين غَوَوا وضلّوا والذين أغوَوْهُم وأضلُّوهم، أي: طُرح بعضُهم علىٰ بعض.

وقوله: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ ـ وهم الـمُغوَوْن والغاوون ـ من عطف العام علىٰ الخاص، أو من عطف الوصف علىٰ الوصف لموصوف واحد.

ثم ذكر مُخاصمة العابدين والمعبودين وهم في الجحيم، فقال: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ في العبادة والتوكّل والاعتماد، وهذا الخطاب ـ إن كان ممَّن يَعبُدُ أفراداً من البشر الـمُضلِّين ـ يكون علىٰ حقيقته، وكذلك إن كان مع الرؤساء. وإن كان ممن يَعبُدُ الأصنام ـ وقد أحضروها حينئذ في ذهنهم ـ يكون الخطاب صورة توبيخ لأنفسهم، وتَلاوُم مع بعضهم، قرَّروه بقولهم: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ يعنون: رؤساءهم وكبراءهم.

ولم يكن هذا من باب الاعتذار، وإنما هو من باب إظهار النَّدم والتَّحسُّر علىٰ تَرْكِ مواهبهم العقليَّة، أو إخلالهم بها في فهم الحق والصراط المستقيم، يدلُّ علىٰ هذا قولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ وهذا كلام ملؤه النَّدم والتَّحسُّر، إثر الشعور بالورطة العظيمة، و﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وللزيادة في الندم يَتمنَّون الرجوع لإصلاح ما فَرَط منهم تمنِّيَ يائسٍ بائسٍ، وقد

هذا حينما رأىٰ قومه يحكمون علىٰ الأشياء بغير ما هي عليه، فيُقدِّسون كلَّ ما له ميزة في هذا الكون، كالشمس والقمر والنجوم وعظماء الرجال ويُؤَلِّهونهم، فطلب منه سبحانه أن يَهَبَ له إدراكاً سليماً.

ثم تابع الدعاء بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: ذِكْراً حَسَناً في الأمم الآتية، ولا يكون للإنسان ذِكْرٌ حَسَنٌ إلا إذا كان مُحِقّاً في أعماله وأقواله، مُصيباً فيهما، وهذا هو الذي أراده. والله أعلم. والشيء الصِّدق: هو الكامل من كل وجه، يقال: رجلُ صِدْق، وفَرَسُ صِدْق، ويدُ صدق، وهكذا.

ثم قال: ﴿وَٱجْعَلْنِي﴾ أي: في الآخرة ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ الذين يَرِثُونَ الفردوس هم فيها خالدون، ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ وكان يريد: أن يُوفِّقه الله للهداية ثم يغفر له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ثم أكمل بما فيه إرشادٌ للعباد، فقال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي: من الإخلال والتحريف، وهو الذي يَنْبعث عنه كلُّ خير.

ثم تابع سبحانه البيانَ عن ذلك اليوم، تكميلاً للبحث والوصف، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: قُرِّبت بحيث يَرَوْنها من الموقف، فيتبجَّحون بأنها لهم، ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: الضَّالِّين عن طريق الحق، فيُوقِنون أنهم مُواقِعُوها ولا يجدون عنها مَصْرفاً، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ علىٰ طريق التوبيخ والتَّحسير والتنديم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وتزعمون أنهم شفعاؤكم في هذا الموقف الرهيب،

وتُقرَأُ هذه الأفعالُ بخطف ياء المتكلم، علىٰ سُنَّة القرآن في ذلك.

ثم تابع الثناء وتابع الحمد بقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ وإنما غيَّر النَّسق للدلالة علىٰ أنَّ المرض يكون بصنع الإنسان[1]، وذلك بمعاكسته لأنظمة الطبيعة وعدم عنايته بقوانين الصحة. أما الشفاء فإنه من الله سبحانه وتعالىٰ، بما أودع في الطبيعة من قوَّة الإصلاح لذلك الخَلَل والفساد، وبما ألهم به الإنسان من الوقاية، أو أقدره علىٰ معرفته وعمله في مساعدة الطبيعة بأنواع العلاج. والله أعلم.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾، هذا إبراهيم عليه السلام يطمع ولا يقطع، فليعتبر المتعلِّقون بالأوهام من العُصَاة والمقصِّرين.

ثم أردف الثناءَ بالدعاء، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ قالوا: والمراد من الحكم: الحِكمةُ والكمالُ الإنسانيّ الذي به يستحقُّ اللحوقَ بالصَّالحين، وينزل منازلهم.

أقول: ويجوز إبقاءُ الحكم في معناه الحقيقي، وهو صحَّة حكمه علىٰ الأشياء والأمور لإدراك حقائقها. فهو يدعو الله سبحانه أن يُوفِّقه للحكم علىٰ الأشياء بمعرفتها، وإدراك كُنهها وحقائقها علىٰ الوجه الصحيح، فيعرف حقَّها من باطلها، وخالصها من زائفها، وهذا هو معنىٰ الرُّشْد والحِكَم التي مَنْ أُوتيها فقد أُوتي خيراً كثيراً. وإنما طلب

(١) بل هو بقَدَر الله، يبتلي به عباده، وفي الحديث: «ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء»، أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٧٥١٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٩٥٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وغيَّر نَسَقَ الأفعال حيث أضافها إلى الله عز وجل ثم أضاف المرض إلى نفسه تأدُّباً.

وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

ثم ذكر قصَّة إبراهيم عليه السلام وما جرىٰ له مع أبيه وقومه؛ لنفس ما تقدَّم من الغرض من قصَّة موسىٰ، فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾؟ سألهم ليُريهم أنَّ ما يعبدونه لا يستحق أن يُعبَد، ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ فأطالوا جوابهم تَبجُّحاً وافتخاراً. ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾؟ ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ فاعترفوا بأنها لا تسمع ولا تنفع، ولكنه التقليد الأعمىٰ للآباء.

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ فهو الذي أخصُّه بالحبِّ والطاعة والاعتماد، لأنه هو الملجأ في الحاجات والملمّات، وهو الذي يفيضُ علينا النِّعَم والخيرات.

ويجوز أن يكون أراد: أنهم أعداءٌ لعابديهم، ولكنْ صوَّر الأمر في نفسه لأنه أنفعُ في النصيحة، وتكون هذه الجملة علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]. أو المعنىٰ: إني فكَّرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادةً للعدو، أو: إن عبدتُها كانت عدواً لي فاجتنبتُها.

وقوله: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع، أي: ولكنْ ربُّ العالمين يُكثرُ الإحسان إلىٰ عابديه ومُتَّبعي هدايته، وهو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إلىٰ كل ما يهمُّني ويُصلحني من أمور الدين والدنيا، ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ فكما تكفَّل بهذا تكفَّل بهدايتي سبحانه.

قرَّبنا فرعون وقومه حتىٰ دخلوا علىٰ إثرهم مَداخِلَهم، ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: أبقينا البحر علىٰ تلك الهيئة حتىٰ عَبَرَ آخرُ فردٍ من قوم موسىٰ إلىٰ البر، ودخل آخرُ فرد من قوم فرعون البحر، فانطبقَ عليهم البحر. وقد اختلف المفسِّرون في هذا: أهو النيل أم هو القلزم؟

ثم ختم سبحانه وتعالىٰ القصّة بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ أي: لعبرةً لمن يعتبر، ﴿وَ﴾ لكنْ ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثرُ هؤلاء المشركين ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ بذلك ومُصدِّقين به حتىٰ يعتبروا.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ سَبَبَ إمهالهم علىٰ كفرهم هذا وتكذيبهم، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ فلم يكن إمهالُهم عن عجز في القدرة، ولكنه رحمة منه بهم لعلهم يؤمنون، وإنَّ يوماً عند ربك كألفِ سنة مما تعدُّون.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا
فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ
وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ
﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ
﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ
لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى
لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ
﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾
وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ
ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟

مُقْتَدِر، وفشل مكرُ فرعون، كما حكىٰ سبحانه ذلك بقوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم ﴾ أي: فرعونَ وقومَه ﴿مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ يعني: المنازل الحسنة والمجالس البهيَّة. والعرب تصف بصفة الكرم كلَّ شيء نفيس.

ثم فصَّل الكلامَ وخلَّله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لتقرير المعنىٰ، أي: الأمرُ كذلك. ثم عطف علىٰ قوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ...﴾ قولَـه: ﴿وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: ملَّكناها للذين بقوا في مصر منهم.

ثم عاد وفصّل ما جرىٰ بعد سِراية موسىٰ بقومِه، مُبيِّناً صورةَ استئصال فرعونَ وقومِهِ بالغَرَق، وقال: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: اتبع فرعونُ وجنودُه موسىٰ وقومَه نهاراً بعد شروق الشمس، أو كان إدراكُهم لهم ذات يوم عند شروق الشمس.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: تَـقارَبا ورأىٰ كلُّ واحدٍ منهمـا الآخر، ﴿قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: سيُدرِكُـنا فرعونُ وقومُه ويهلكوننا.

﴿ قَالَ﴾ لهم موسىٰ: ﴿كَلَّآ﴾ لا يُدرِكونكم، ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ إلىٰ طريق النَّجاة منهم، ويُهيِّئُ لي الأسباب.

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ ﴾ أي: كلُّ فِـلْقةٍ منه ﴿ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾[1] أي: كالجبل المنيف، ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي:

(١) أيجوز أن يكون المعنىٰ: إنَّ الله سبحانه أمر موسىٰ أن يشير إلىٰ البحر بضربة عصا، وعلىٰ إثرها جرىٰ في تلك المنطقة ما يشبه الجزر يميناً وشمالاً فتكتّل الماء في الجانبين كالطودَيْن وسَفحَيْهما، وبعد خروج بني إسرائيل عاد الماء إلىٰ المنطقة بطريقة المد، فغمرها علىٰ فرعون وجيشه أجمعين. والله أعلم. ويقال: إن هذا الأمر كان في خليج السويس. (المؤلف).

قلت: لكن هذا القول يخرج المعجزة عن معناها، ويُبطل دلالتها، فلا يجوز بحال أن يكون تفسير الآية على هذا المعنى الذي توهَّمه المؤلف غفر الله له.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من هجرة موسىٰ عليه السلام ببني إسرائيل عن مصر، وعبورهم البحر، واتِّباع آل فرعون لهم وغرقهم، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ وذلك بعد بضع سنين أقام فيها بين أظهُرِهم يدعوهم إلىٰ الحق، ويُظهِرُ الآيات تِلْوَ الآيات، فلم يزدادوا إلا عُتواً وعناداً، حسبما فصَّل ذلك في سورة الأعراف بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ...﴾ [الأعراف: ١٣٠].

فأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ عليه السلام: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ فالإسراء: السَّيْر ليلاً، وقد علَّل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: يتَّبعكم فرعونُ وجنودُه مُصْبحين، فأسْرِ بمَنْ معك، أي: اجعل سفرك سراً أو ليلاً حتىٰ يكون لكم التقدُّم عليهم، بحيث لا يُدركونكم قبل الوصول إلىٰ البحر.

ثم عاد وذكر ما كان من أمر فرعون بعد الدَّعْوة، وقال: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ بعد أن خشيَ أمْرَ موسىٰ ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ للعساكر، أي: أرسَلَ يجمع الجنود للنَّيْل من موسىٰ وقومه، وإعادتهم إلىٰ الخضوع، وطَفِقَ يُغْري المصريين علىٰ بني إسرائيل بدعايته التي نشرها في تلك المدائن، كما حكاها عنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ والشِّرذمة: الطائفة القليلة، ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ بما فعلوا ويفعلون، ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ منهم ومن عاقبة أمرهم، أو المعنىٰ: إننا قومٌ شأنُنا الحَزْم والتيقُّظ والحذر.

هذا ما قاله وفعله فرعونُ وقومه، والله من ورائهم محيط، فأخَذَهم أخْذَ عزيز

وعلَّمهم أنَّ هذا خارج عن حدود السحر بما لا يقدر من العَظَمة والحقِّ الناصع والصِّدق الواضح، لا كما عندهم من التَّمويه والتَّزوير، لذلك ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ الذي أظهَرَ هذه المعجزة علىٰ أيديهما.

فلمَّا رأىٰ فرعون من السَّحرة ما رأىٰ ﴿قَالَ﴾ مُشْتداً عليهم: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ باتِّباعه؟! وهذا القول يُشْعِرُ بأنَّ الموقف قد اتَّضَحَ للملأ بتفوُّق موسىٰ تفوُّقاً يستلزم أن يكون هو المتَّبع قَسْراً، لذلك تَذَرَّع فرعون لباطله وعناده بالاحتجاج عليهم بأنهم بادروا إلىٰ الإيمان بموسىٰ قبل الإذن لهم. ثم أدعَمَ ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فتواطأتُم علىٰ إظهار تفوُّقه عليكم، ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما أصنع بكم، ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: اليد اليمنىٰ مع الرِّجْل اليسرىٰ أو العكس، وذلك لزيادة التَّشهير والتَّشويه، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

هذا ما تَـهَدَّدهم به فرعون، ولكنهم استَهْوَنوه بالنسبة إلىٰ ما تذوَّقوه من الإيمان وما أدركوه من عِظَم نعيم الآخرة، يُنْبئُ عن ذلك ما أجابوه به، إذ ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا ضَرَرَ في ذلك، ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ وربما كان فِعلُكَ هذا بنا أكثر تأثيراً في نَيْل غَرضنا هذا، وهو الغفران.

ويجوز أن يشمل ضمير ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾: فرعون أيضاً، فيكون فيه تهديدٌ له وتنبيهٌ وتوعُّدٌ بالله.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ ﴾ والأصل: أرجِئْ، قُلبت الهمزة ياء للتخفيف، ثم حُذفت لبناء الأمر، والمعنىٰ: أخِّرْهُ وأخاه، أي: امنَعْهما من الخروج، واجهَدْ أن يَتفوَّق عليهم السَّحَرة فلا يبقىٰ لهما شأن. وقيل: بل المعنىٰ: أجِّل أمرهما، ﴿وَٱبۡعَثۡ فِى ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٣٦)﴾ يجمعوا لك السَّحَرة، ﴿ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)﴾ بحيث يتفوَّقون علىٰ موسىٰ في هذا الفن.

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ (٣٨)﴾ وهو ضَحْوة يوم الزينة، ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ (٣٩)﴾؟ وهذا استفهام أُخرِجَ مَخرَجَ الاستبطاء، وفي طياته إغراء وحَمْلٌ علىٰ التجمُّع.

وقوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (٤٠)﴾ يجوز أن يكون علىٰ حقيقته، بناءً علىٰ معاهدة بينهما، أو ليس علىٰ حقيقته، ولكنه تزييفٌ لدين موسىٰ، أي: إنَّ السَّحَرة يكونون حينئذ أحقَّ منه بالاتِّباع، وفيه هُزْءٌ علىٰ موسىٰ عليه السلام، وتَفَكُّهٌ عليه وتَنَدُّر.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ ﴾ يشترطون لـهم عليه: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (٤١)﴾؟! ﴿ قَالَ نَعَمۡ﴾ لكم ذلك، ﴿ وَإِنَّكُمۡ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (٤٢)﴾ عندي.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ (٤٣) فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ ﴾ واثقين بعملهم، ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ (٤٤)﴾.

﴿ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلۡقَفُ ﴾ أي: تبتـلع بسرعة ﴿مَا يَأۡفِكُونَ (٤٥)﴾ ما يُموِّهون ويُزَوِّرون في تَخْييل حبالهم وعِصِيِّهم حيَّاتٍ تسعىٰ.

والسَّحَرةُ أخبَرُ من غيرهم في تمييز السِّحر من المعجزة، لأنهم يعرفون حقيقةَ السِّحر وزَيْفَه، ﴿ فَأُلۡقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦)﴾ ألقاهم ما بَهَرَهم من المعجزة العظمىٰ،

فلم يلتفت موسىٰ لذلك أيضاً، وأكمل بيانه وواصل كلامه بما حكاه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فإنكم تُشاهدون كلّ يوم شروق الشمس وغروبها، وهو أثر من آثار الله العظيمة[1].

فلما شاهد فرعونُ شدَّة حَزْم موسىٰ عليه السلام في بيان دعوته، وقوَّة عَزْمِهِ علىٰ أداء رسالته، عَمَد إلىٰ الصَّلف والسَّفاهة، كما هو شأن القوي إذا انقطعت حُجَجُه، و﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: ممَّن تعرف حالهم في سجوني.

ولم يقنع بتهديده أن يترك الدعوة حتىٰ أضاف إلىٰ ذلك أن يتَّخذه إلهاً؛ لأن بعض الملوك إذ ذاك يعتقدون حلول إله فيهم. فردَّ عليه موسىٰ و﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾؟ أي: أتبقىٰ علىٰ إنكارك وصَلَفِكَ أم تؤمن إذا جئتُك بمعجزة مبيِّنة لصدق دَعْواي في الرسالة؟

﴿قَالَ﴾ فرعون لموسىٰ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسىٰ ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾، فلما رأىٰ ذلك فرعون ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ أي: لرجال دولته وأعيان قومه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي: فائقٌ في علم السِّحر، ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾؟ ويُشعِرُ الكلامُ أنه عَقَد مجلساً مع رجال دولته، وكانت نتيجة المداولة هذا القرار:

---

(١) إنَّ معرفة الله سبحانه إنما هي معرفة وجود وصفات، تُعرَفُ من إيجاده للكون بحكمة وسَدَاد، لا معرفة حقيقة وكُنه وذات، إذ ليس كمثله شيء، فلا يُتَوصَّل لمعرفة ذاته بالقياس والاستنباط اللذَيْن هما طريق العلم للمُـدْرَكات، فذات الله سبحانه لا يصحّ أن تكون موضوعَ بحث وتعريف. (المؤلف).

أن أتربّىٰ فيكم؟ فهذا إنكارٌ لكون تربيته له منّة عليه، ويَسْتَتبعُ تقريعَه علىٰ استعباده لبني إسرائيل قوم موسىٰ، كما أنه يَتَضمَّن أيضاً معنىٰ: أنك اختزنت ثمرة استعبادهم، فما أنفقتَه عليَّ إنما هو من أموال قومي.

ومُحَصَّل الرد: أنك لو لم تَستَعبد بني إسرائيل وتَعمَدْ إلىٰ تذبيح أبنائهم، لَـمَا صرتُ إلىٰ تربيتك، ولكان ربَّاني أبواي، فإخراجك إيّاي من حِجْر أبويّ قهراً باستعبادك لبني إسرائيل وقتلك لأبنائهم، يُعدُّ نعمة علي؟

ولما ردَّ عليه بهذا الردِّ المُلْزِم، تشبَّث بالاعتراض علىٰ الدعوىٰ، وبدأ بالاستفسار عن حقيقة الـمُرسَل كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾؟.

ولما كان السؤال بـ﴿مَا﴾ طلباً لتعريف الحقيقة، وهذا محالٌ في حقِّ الله تعالىٰ، أجابه بأظهر آثاره، وهو هذا العالَـمُ المحسوس، و﴿قَالَ﴾ هو: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

فانتهز فرعون فرصة الجواب بغير بيان الحقيقة وتحرير الذات لهذا الإله، حيث عرَّفه بالآثار والوصف؛ لأنه لا يعرف حقيقة إلهه، وقد استغلَّ تلك المشاغَبة الكلامية، ليثيرَ عليه إنكار قومه ومَلَئِـهِ، و﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ منهم: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ بمَ يُجيب؟!

إلا أنَّ موسىٰ عليه السلام لم يلتفت إليه، وتـمَّم كلامه في بيان الآثار والصفات للإله سبحانه، وصرَّح بما تضمَّنه من النصِّ علىٰ ألوهيته لهم وربوبيَّته، و﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

لذلك ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾؛ أسأله عن حقيقة إلـهه فيجيب عن صفتـه، فأسأله عن شيء ويجيبني عن آخر. وسمَّـاه رسولاً استهزاء.

أظهرنا، فكيف تدَّعي النبوة؟! ومصدرُ هذا المقال الجهلُ بمُؤهِّلات النبوة، وإنكار أن تكون في شخص ينشأ بين أظهرهم كسائر البشر ـ وهو بمعنىٰ قول المنكرين: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ـ، وأضاف إلىٰ ذلك أنه قتل نفساً ظلماً وعدواناً، فكيف يكون رسولاً لله؟! وضمَّن الكلام تقريعاً لموسىٰ بأنه أساء إليه، فقابل نعمتَه بالكفران، وقد حكىٰ ذلك عنه سبحانه بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: بنعمتي، حيثُ عَمَدتَ إلىٰ قَتْل قبطي من قومي.

ولما كان كلامه منطوياً علىٰ التمنُّن عليه بالتربية، وعلىٰ معاتبته بأنه قابل الإحسان بالإساءة في هذه الدعوىٰ والدعوة المفسدة لـمُلكِهِ، مضافةً إلىٰ ما فعل قبلها من قَتْلِهِ القبطيَّ أحدَ أفراد قومه؛ أجاب عن الثاني أولاً بما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: قبل أن تأتيني الرسالة وهذا الهدىٰ من الله. أو المعنىٰ: فعلتُها وأنا من الذاهلين عن معرفة ما يؤول إليه الأمرُ من القتل، لأني وكَزْتُه علىٰ وجه التأديب. فبيَّن له أنه فعلها علىٰ وجهٍ لا يجوز معه أن يُؤاخَذ بها، فلا يعدّ كافراً للنعمة، وأنهم قد أساؤوا بتخويفه علىٰ ذلك. وهذا يُفهَمُ من فحوىٰ قوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾، وقد أحسن الله سبحانه بي ـ فوق أن أنقذني منكم ـ ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ أي: علماً وهدىٰ، ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾.

ثم أجاب عن الأول بردِّ التَّمنُّن، مُبيِّناً أنه ليس له عليه فَضْلٌ أبداً حتىٰ يصحَّ ما ادَّعاه من مقابلة إحسانه بالكفران، وإنما كان ذلك ناتجاً عن إساءته العُظمىٰ مع قومه، وهذا ردٌّ علىٰ أبلغ الوجوه. وقد طوىٰ الاستفهام الإنكاري التقريعي في كلامه الذي حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: أتعُدُّ استعبادَكَ لبني إسرائيل نعمةً عليّ، ولولا استعبادُك لبني إسرائيل لَـمَا آل الأمرُ إلىٰ

وضيقُ الصدر مُسبِّبٌ لحبس اللسان، لذلك طلب مُؤازرةَ أخيه، وقال: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أيضاً، ليكونَ معي ويُعاضدَني.

ثم أردف هذا العذر بعذر آخر، وقال: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ يريد به تَبِعةَ قتله للقبطي التي فرَّ من أجلها إلىٰ مَدين. أي: لهم عليَّ طلبٌ بجُرْم، ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ به قبل أداء الرسالة.

﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: لا تخف، ثم ضمَّ سبحانه إليه أخاه بعد أن أرسل إليه أيضاً، وقال: ﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ ويعني بضمير الجمع: موسىٰ وهارون وفرعون، أي: سامعون لِـمَا يجري بينكما وبينه، فأُظهِرُكُما عليه. قال البيضاوي: مَثَّل نفسَه تعالىٰ بمَنْ حَضَرَ مُجادَلة قوم ليستمع ما يجري بينهم ويرقبه، فيمدّ أولياءه منهم، والمراد: المبالغة في الوعد بالإعانة[١]. أقول: وذلك علىٰ نهج القرآن في استعارة المعاني لله سبحانه من أحوال الـمُخاطَبين، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة). واكتفىٰ بإشراك هارون بالذهاب عن بيان إرساله، علىٰ نهج القرآن في إيجازات الحذف البليغة والكثيرة المعجزة.

ثم لقَّنهم صورة الدعوة وقال: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ أي: أطلِقْهم من الاستعباد لنذهبَ بهم إلىٰ فلسطين. وأفرد «الرسول» لأنهما في حُكم رسول واحد.

ثم ذكر ما كان من جواب فرعون لهما، ناقداً موسىٰ، عاتباً عليه، زارياً به، وطوىٰ بينهما علىٰ طريقة إيجاز القرآن، ذكر ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي: ألم نعلم ماضيك، لا تـمتاز عن البشر، وقد تربَّيت بين

(١) «تفسير البيضاوي» (٤: ١٣٥).

أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

ثم توعَّدهم بما جرىٰ علىٰ أمثالهم من مُكذِّب الأنبياء في الأمم الغابرة، وسلّاه ﷺ بما جَرَىٰ علىٰ الأنبياء قبله من المِحَن، مُذكِّراً له بأنَّ ذلك من سُنن الاجتماع، وبدأ بقصة موسىٰ لأنها أقرب في التأريخ، فقال: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾، ثم ذكر الدعوة لهم بصورة العرض، فقال: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ وقد ضمَّن هذا العَرْضَ فحوىٰ الزَّجْر والغضب عليهم، وهذا النداء هو نداءُ الوحي، وقد تيقَّنه موسىٰ عليه السلام دون أن يعلم كُنهَه، لأنَّ التصديق بالشيء لا يتوقَّف علىٰ معرفة كيفيته، فإنَّ أكثر ما نُصَدِّق به تصديقَ يقين لا نعرف كُنهَه ولا كيفيَّـة تكوينه وإيجاده.

وماذا نعرف عن كيفية السنبل حين تتكوَّن من بين الأوراق، والثمار في الأشجار، والطعام في الدماء؟ وهل نعرف حقيقة الكهرباء؟ وكيف يتكوَّن فينا التفكير في الأشياء؟! هذا كلُّه في مخلوقاته سبحانه، فكيف يكون أمر ذاته وصفاته؟! وهذا الخفاء أكبر دليل علىٰ ألوهيته واستحقاقه للاختصاص بها، فهو خفيٌّ في ذاته، بديهيٌّ في آثاره ومخلوقاته، لا رب سواه.

وهذا النداء لموسىٰ لا يزيد عن كونه عرفاناً مع إيقان دون إدراك لحقيقة الشأن. ومن المعلوم أنَّ الأنبياء ـ بحكم كمالهم ـ مُزَوَّدون بالقدرة علىٰ استلهام المعلومات بطريقة فوق نطاق الحواسِّ المعتاد، يجري فيهم ذلك ولا يعرفون كيفيَّته، كما لا يعرف أحدٌ كيف تتمُّ له عملية التذكُّر والإدراك، ولا عملية النوم واليقظة بالتحقيق.

ثم حكىٰ ما كان بعد ذلك من أمر موسىٰ عليه السلام، بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ فالتكذيب مُسبِّبٌ لضيق الصدر،

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ
عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا
فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا
وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ
﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ
رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ
ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ
حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ
﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾
فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ
إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ
وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾
قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ

وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ * أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ * قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ * وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١-٨٥].

ثم أردف الكلام بما يدلُّ علىٰ قدرته واختصاصه بالألوهيَّة، إثباتاً للتوحيد، وتحقيقاً للوعيد، واستشهاداً للقدرة علىٰ إنجازه، وتقريعاً لهم وتجهيلاً علىٰ الاستهزاء والتكذيب، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ـ وقد ضمَّن ﴿يَرَوۡاْ﴾ معنىٰ: ينظروا، فعدَّاها تعديتَـها ـ أي: ألم ينـظروا إلىٰ الأرض ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧﴾ والعرب تستعمل صفة ﴿كَرِيمٍ﴾ لكلِّ شيءٍ نفيس، وإنما استعمل الرؤية بدل النظر لأنها أدلُّ علىٰ التحقّـق، فضمَّنها معنىٰ النظر، وعدَّاها بـ«إلىٰ»، علىٰ نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، وفي المادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة).

وقد قَرَن الاستشهاد بالتقرير، وأردفه بالنَّعي عليهم، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ علىٰ قُدرته واختصاصه بصفة الألوهيَّـة، ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨﴾ لأنهم لم يفكِّروا في مظهر تلك القدرة البالغة، فلم يعتبروا بها.

ثم بيَّن أنَّ صَبْرَه تعالىٰ عليهم وإمهالَه إيَّاهم، إنما هو من عزَّة الله ورحمته، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ فلم يكن إمهالُـهم عن عَجْز في القدرة، وإنما هو من رحمة الله العامَّة، لعلّهم يؤمنون، أو يؤمن بعضهم فيستصلحون.

خبراً عن (الأعناق)؟ قلنا: أصل الكلام: فظلُّوا لها خاضعين، فذُكرت الأعناقُ لبيان موضع الخضوع، زيادةً في التقرير، ثم تُرك الكلام علىٰ أصله[١]. يريد: أن في الكلام مجازاً مرسلاً من ذِكرِ الجزء وإرادة الكل، كما في عتق الرقاب، فصحَّ الخبر نظراً إلىٰ الأصل المراد. وقيل: لما وُصِفَ بالخضوع ـ وهو من صفات العقلاء ـ جُمِعَ جَمْعَ مُذَكَّرٍ سالماً، كقوله تعالىٰ: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. وقيل: أعناق الناس: رؤساؤهم ومُقدَّموهم، كما يقال: هم الرؤوس والصدور. وقيل: هم جماعات الناس، يقال: جاءنا عُنق من الناس، أي: فوج منهم.

ثم تابع البيان عن أحوال هؤلاء المُعْرِضين، وجَعَلَه في موضع التعليل لهذا التهديد، فقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾ أي: لا تأتيهم من الله شريعة مُجدَّدة إلا كانوا عنها مُعْرِضين، ولها مُعارضين، ويظلُّ المتمسِّكون بالشريعة المنسوخة جامدين عليها.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾، وقد تجوَّز بمجيء الأنباء عن وقوعها. قال أبو السعود: وقد عَدَل عما يقتضيه سائر ما سلف من الإعراض والتكذيب، إلىٰ ذكر الاستهزاء وحده؛ للإيذان بأنهما كانا مقارنين له، ولأنه يستلزمهما[٢].

أقول: والآيةُ تفيد أن الشرائع تَتَجدَّد وتحدث الواحدة بعد الأخرىٰ، وأنه يجب علىٰ كافَّة الناس في عَصْر تنزيل الشريعة وأحداثها، أن يتَّبعوا هذه الشريعة الجديدة، ويتركوا المنسوخة بمقتضىٰ حُكم الله تعالىٰ في آيات: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ

(١) «تفسير الرازي» (٢٤: ٤٩١).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٦: ٢٣٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۝٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

﴿طسٓمٓ ۝١﴾ مرَّ الكلام علىٰ هذه الأحرف في سورة البقرة، فارجع إليه. وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفِكرِ إلىٰ ما يأتي بعدها لأهميته، وقد زاد في التنبيه بقوله: ﴿تِلۡكَ﴾ أي: هذه السُّورة هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾.

ثم سلَّاه ﷺ وهوَّن عليه في إعراضهم عن هذه الآيات العظيمة الشأن، وعدم إيمانهم بها، فقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ بهذا الكتاب، و﴿لَعَلَّكَ﴾ هنا للإشفاق، أي: أَشفِقْ عليك من أن تقتلَ نَفْسَك حَسْرةً عليهم لأنهم لم يؤمنوا، أو مخافةَ أن لا يؤمنوا.

وقد احتوت الآية عتاباً مُحبَّباً للنبيِّ ﷺ علىٰ ما يبدو منه من حزن شديد، يكاد يقتلُه، بسبب إعراض الناس عن الإيمان وصدِّهم عنه، وهو نورٌ مبينٌ أرسله الله للعالمين.

ثم هدَّدهُم بقوله: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ﴾ أي: بليةً تُباغتُهم وتُذِلُّهم، ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ قال الرازي: فإن قيل: كيف صحَّ مجيءُ ﴿خَٰضِعِينَ﴾

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

مئتان وسبع وعشرون آية

وهي مكيَّة، إلا قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ إلىٰ آخرها

وقد ذكر في هذه السورة:

ـ التنويه بشأن القرآن.

ـ وتهديد المعارضين للرسول والمكذِّبين به، بما جرىٰ علىٰ أمثالهم ممَّن كذبوا رُسُلَهم وعارضوهم من الأمم السابقة، ذكر ذلك في قصص الأنبياء.

ثم عاد إلىٰ شأن القرآن وإثبات تنزيله، وعلَّق علىٰ ذلك حتىٰ خَتَمَ السورة.

* * *

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لولا دعاؤه إيَّاكم للدين والإسلام[١]. فيكون المعنىٰ: لولا أنَّ الله سبحانه أراد أن يدعوكم بهذا القرآن إلىٰ ما فيه صلاحُكم وسعادتُكم في الدارين، ويُوقفكم علىٰ أحوال الحياة الأخرىٰ؛ لتتأهَّبوا لها، لولا ذلك لَـمَا اهتمَّ لكم بهذا الأمر وأنزل هذا القرآن والذكر الحكيم. أي: إنما كان إرسال الرسول إليكم بهذا القرآن العظيم دُعاءً لكم إلىٰ الخير، ونوراً تهتدون به في الظلمات، لا للاستفادة منكم، فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين.

وقد هدَّد الـمُعرِضين عنه بقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾[٢]، أي: ولكنكم كذَّبتم وأعرضتم عن هذه الدعوة ولم تقبلوها وتعملوا بها، فسوف يكون عذابُكم وشقاؤكم ـ المفهوم من السياق ـ لزاماً لا مفكَّ منه ولا نجاة. أعاذنا الله ووفَّقنا لِـمَا فيه عَفوُه ورضاه.

وقد اشتملت صفاتُ عباد الرحمن هذه علىٰ ما يُسمَّىٰ بالضروريَّات، وهي: حفظ النفس، والعِرض، والمال، وحفظ العقل من التدنّي في الرِّجْس والإشراك والمعتقدات الفاسدة، وعلىٰ حال العبد مع الله وحاله مع الناس.

نسأل اللهَ أن يَجعَلَنا من عباد الرحمن في غُـرُفات الجنان، نلقىٰ من الملائكة تحيةً وسلاماً، بفَضْله وجزيل نَعْمائه.

* * *

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥٥٠٥).

(٢) يقال: لزم الأمر لزاماً؛ إذا وَجَب حكمُه. وحكم التكذيب: التعذيب. (المؤلف).

الناس إلىٰ هذا الخير الذي أنزله الله لهم ولصالحهم، ويَتَمنَّون أن تكون ذُرِّيَّتُهم مِثلَهم.

وفي هذا إيماء إلىٰ أنه يجب علىٰ المسلمين كافَّة نَشْرُ الدعوة إلىٰ الإسلام، وأن ينشروا معها اللغة العربية التي هي أداة هذا الدِّين ووسيلتُه، فكلاهما عالميٌّ مطلوب من جميع العالمين، وعلىٰ هذا الأساس كان السلف الصالح، فلم يُهمِل منهم نَشْرَ هذه الدعوة أحد، حتىٰ التجار في متاجرهم النائية. وبهذه الواسطة دخل الإسلام البلادَ القاصية، كالصين والهند وأقاصي الترك، وما إلىٰ ذلك من البلاد المترامية الأطراف.

ثم سجَّل لهؤلاء المؤمنين المتَّصفين بهذه الصفات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ وهي أعلىٰ موضع في الجنة ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ علىٰ مشاقِّ الطاعات، وما لَقُوا في نشر الدعوة من صعوبات وعقبات، ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥﴾ أي: تتلقَّاهم الملائكة فيها بالبِشْرِ والتحيَّة، تهنئةً لهم وتكريماً. اللهمَّ اجْعَلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم زاد في تبشيرهم ببيان خلودهم في هذا النعيم، ونوَّه بشأنه، فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا[1] ۝٧٦﴾ وقد قابل بهذا ما ذكره في أهل النار بقوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

ثم أمر رسوله ﷺ أن يُبيِّن لهم أنَّ الفائزين بهذه النَّعماء الجليلة إنما نالوها بإجابة هذه الدعوة، وأنَّ الله سبحانه يدعوكم لذلك، لا لصالح نفسه، فهو غنيٌّ عن العالمين، وإنما يدعوكم لصالحكم في وصولكم إلىٰ هذا النعيم المقيم، ولولا ذلك لَـمَا دعاكم هذه الدعوة إلىٰ الدين، فقال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾.

---

(١) حَسُنَت مكانَ استقرار لأهلها من أهل درجات مرتبة الإحسان يقرُّون فيه، ومقاماً لزوّارها من أهل درجات مرتبة المتقين في الجنة.

إذا رأوا الخائضين في الأمور التي يجب أن تُلغىٰ وتُـترَكَ من قولٍ أو فعلٍ لا يشاركونهم في ذلك، ولكنهم يقولون أو يفعلون ما يحفظ لهم الكرامةَ، ويليق بمقام النفس العالية وكرم الأخلاق. وقد بلغت صورةُ هذا التركيب غايةَ البلاغة والإعجاز.

ثم ذكر لهم هذه الصفةَ مُعَرِّضاً بالمشركين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣﴾، بل يدركون مفاهيمها الصحيحة المُفْضية بالإنسان إلىٰ كماله المستعد له، ذلك الكمال الذي يجعل صاحبَه سعيداً في الدنيا والأخرىٰ، ويتكوَّن به مجتمع إنسانيّ بمُثُـل عُليا وأخلاقٍ فُضْلىٰ، وإنما صاروا كذلك لأنهم إذا وُعظوا بالقرآن وما فيه من برهان، استمعوا وعلموا وعملوا، ولم يكونوا كهؤلاء الكفار الذين إذا وُعظوا به أعرضوا عنه وابتعدوا.

ويشمل هذا التعريض المسلمين الذي لا يتدبَّرون القرآن ولا يعملون بتوجيهه وإرشاده.

وتشمل الآيتـان صفاتِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصفاتِ كمـال الـمُؤتَـمِر بذلك. وما أبهىٰ هذا المجتمع المكوَّن من هذين الصنفين اللذَيْن إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مُبصِرون.

وبعد أن وصفهم بسماع هذه المواعظ، وصفهم بالاهتمام بها والقيام بنشرها، وتـمنِّيهم أن يكون لهم ذريَّـةٌ يعملون به، وينشـرونها في البشر؛ مبالغةً في تقديرهم لها وعنايتهم بأمرها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ أي: بتوفيـقهم للطاعة، ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ أي: واجعلهم يقتدون بنا ويسيرون سَيْرنا. وإنما أفرد ﴿إِمَامًا﴾ لأنه في الأصل مصدر، فيستوي فيه الإفراد والتعدُّد، أو المراد: كلُّ واحد منا، فهم يدعون الله سبحانه أن يُوفِّقهم في دعائهم

إصلاحاً أو قصاصاً أو دفاعاً، ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي: لا يفعلون هذه الأفعال التي يفعلها هؤلاء المشركون الذين سجَّل عليهم وعلىٰ أمثالهم بهذا الحكم، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ[١] يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨﴾ أي: جزاءً وبيلاً، فسّره بقوله: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[٢] وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩﴾ أي: ذليلاً حقيراً[٣].

ثم استثنىٰ من هذا الحكم قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾ يغفر لمن تاب وعمل صالحاً. والتوبة: تغييرُ المرءِ نفسَه وتحويلُها من السُّوأىٰ إلىٰ الحُسنىٰ، مقروناً بالندم وألم الضمير.

ثم زاد في تفخيم شأن التوبة المقرونة بالعمل الصالح، مبالغةً في الترغيب بها، فقال: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾ وهذا المصدر للتأكيد والإيغال. والمعنىٰ: فإنه يرجع بذلك إلىٰ الله رجوعاً صادقاً مرضيّاً، وينال ثواباً عظيماً حسناً عليّاً، فذكر الفعل وأراد المعنىٰ اللازم له، وهو الثواب.

وأفادت الآية أن التوبةَ المقبولةَ عند الله سبحانه هي المتبوعةُ بالعمل الصالح، وذلك لا يكون إلا بالإخلاص فيها. وأما التوبة اللفظية مع الإضمار أن يعود، فذلك استهزاء، والله مطَّلع علىٰ الضمائر.

ثم تابع الوصف لهؤلاء المؤمنين الصَّادقي الإيمان، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون محاضِرَ الباطل[٤]، ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۝٧٢﴾ أي:

---

(١) أي: هذه الكبائر الثلاث: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرَّم الله بغير حق، والزِّنى.

(٢) أي: يُعذَّب عذابين؛ عذاباً على كفره، وعذاباً على إضلاله لغيره.

(٣) لأنه قابَلَ تكريم الله له بالانتكاس، بعد ارتقائه إلى مرتبة عباد الرحمن.

(٤) ولا يخبرون بالباطل والكذب أيضاً.

لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

ثم قابل أحوال المشركين بصفات أفاضل المؤمنين وكِرامهم، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، مُلْمعاً إلىٰ الأدب الذي يجب أن يكون عليه المؤمن ويتشبَّع بخصائص الرحمة التي هي صفةُ إلهه، ويكون مقبولاً بها عند الله سبحانه مرضياً، فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بالسكينة والتواضع والوقار، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ أي: قولاً سالماً من الرفث والجهالة، أي: سَدَاداً من القول، ولا يقابلونهم بمثل قولهم. أو قالوا: سلاماً ومتاركةً لكم، أي: لا يجهلون علىٰ مَنْ جَهِلَ عليهم، ولكن يتركونهم غير آبهين بهم.

ثم ذكر معاملتَهم مع ربهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ أي: هلاكاً لازماً ملازمةَ الغريم لغريمه، ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ أي: ساء المستقرُّ والمقامُ فيها، يُهوِّل من أمرها[1].

ثم مَدَحهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ أي: كان وسطاً معتدلاً بين طرفي الإسراف والتقتير؛ لأنَّ كلاً منهما تطرُّفٌ واعوجاجٌ في الطبيعة، ورذيلةٌ من الرذائل، ولا يقوم معه الحال ولا يستقيم.

وبعد أنْ بيَّن تمسُّكَهم بالطاعات، بيَّن اجتنابهم للمعاصي، مُعَرِّضاً بالمشركين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾

---

(١) والمراد: ساءت مكانَ استقرار دائم للمشركين، وساءت مكانَ إقامة قليلة لعصاة المؤمنين.

عظيمةً هي أجرام هذه النجوم، وهذا هو المرويُّ عن الحسن(١) ومجاهد وقتادة(٢)، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ يعني: الشمس، ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ مُقْتَبساً ضوؤه منها. وخصَّ هذين بعد ذكر البروج الشاملة لهما؛ لأنهما من زمرة أرضنا، ويعود نفعُهما علينا أكثر من غيرهما من البروج.

ثم تابع دليل القدرة والرد عليهم بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلفُ أحدُهما الآخر، فترىٰ هذا الضياء المؤنس يخلفُه ذلك الظلام الدامس، والعكس. وفيه ذكرىٰ ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ أي: فيه عبرةٌ لمن أراد أن يعتبرَ بدقَّة صُنع هذا النظام الشمسي، ويعرفَ قُدرة الله سبحانه ونِعَمَه السابغة، فيشكرها له ويقصر الألوهيَّة عليه.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦: ٩٢).

(٢) رواهما الطبري في «تفسيره» (١٩: ٢٨٩).

﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[1] أي: يُدبِّر أمْرَ هذه السماوات والأرض وأمْرَ مَنْ فيهما ويُسيطر عليهما، هو ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ جلَّ جلاله، فكلُّ تدبيره وتشريعه مقرونٌ بهذه الصفة. وقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ جملةٌ عاليةُ البلاغة في الدلالة علىٰ الخبرة الواسعة في أعماله العظيمة، وتشريعاتِهِ المستقيمة، فاسأل عن آثاره عالِـمَ الطبيعة عن الطبيعة، وعالِـمَ الأفلاك عن الأفلاك.

ثم ذكر كفرانهم بهذا الإله العظيم الذي هذه صفتُه وهذه قدرتُه، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أنكروا ذلك، و﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ بالسجود له، ﴿وَزَادَهُمْ﴾ ذلك القول ﴿نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾.

فردَّ عليهم سبحانه ببيان اختصاصه بصفة الإلهيَّـة وأفعالها، أي: هذا هو الرحمنُ الذي تجهلونه أو تَتَجاهلونه، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي: أجراماً

---

(١) يلوح لي ـ والله أعلم ـ أن مثل هذه الجملة لا يُنظَـرُ فيها إلىٰ معناها الإفرادي، ونَـكِلُ علمه إلىٰ الله، ولا نحتاج حينئذ إلىٰ أن نؤول ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنىٰ: استولىٰ، ولكن ننظر إلىٰ فحواها ومعناها التركيبي، وهو سلطانه سبحانه علىٰ هذه الموجودات التي أوجدها بخَلْق الأرض والسماوات، وخَلْق ما فيهما، والله أعلم.

والمعاني التركيبية التي لا تُراعىٰ فيها المعاني الإفرادية موجودة في اللغة وفي القرآن، كقوله تعالىٰ: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، يعبر به عن شدَّة الخوف، ولا يُراد بها معناها الإفرادي، وقوله تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] مأخوذ من حال المخاطَبين، ولا يصحُّ إطلاق معناها الإفرادي علىٰ الله سبحانه، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥]، وليس في ذلك شيء من الالتباس؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته.

والقرآن يعبِّر عن ذات الله تعالىٰ وشؤونه بأحوال الملوك والسلاطين، تماشياً مع علمنا ومعرفة شؤوننا، وتقريباً لأفهامنا. هذا ما أراه، والله أعلم. (المؤلف).

تهوينٌ عليه ﷺ، ونقدٌ لهم، وقرَّره بتذكيرهم بنزاهة هذا التبشير والإنذار عن الغرض الشخصي، حيثُ لم يطلب به أجراً فيتَّهموه بإرادة المال والرياسة من وراء هذه الدعوة. وإنما يريد بها توجيهَ الناس إلىٰ الصِّراط المستقيم الذي يَصِلُ سالكُه إلىٰ سعادة الدارين، فقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ أي: ما أسألكم عليه من أجر فتتَّهموني بالمنفعة الشخصية، وما أريد إلا هدايةَ مَنْ يريد أن يتقرَّب إليه تعالىٰ، ويطلب الزُّلفىٰ عنده بالإيمان والطاعة، حَسْبَما أدعوكم إليهما.

ثم قوَّىٰ عَزْمَه علىٰ القيام بهذا التبشير والإنذار والدوام عليه، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ وفي هذا الوصف تلميحٌ وتعريضٌ إلىٰ ما ينتظرون من موته ﷺ تخلُّصاً منه، إذ يعتقدون أنَّ أمره محدود بوجوده، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

ثم هوَّن عليه معارضتَهم له وعَدَمَ إيمانهم، مُصدِّراً ذلك بأمره له بتنزيه الله من شركهم، فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: ونزِّهْهُ عن صفات النقصان، مُثْنياً عليه بأوصاف الكمال، معارضةً لأولئك المشركين، ثم أَعرِضْ عنهم، فالله سبحانه هو الذي يتولَّىٰ أمْرَهم، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ فيُجازيهم علىٰ أعمالهم جزاءً وفاقاً.

ثم أردف الأمر بالتوكُّل عليه، وأشفعه ببيان قدرته البالغة وسلطانه القاهر، تحقيقاً لقدرته علىٰ حفظه ونَصْره، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: ستة أدوار مرَّت عليها، والله أعلم. ولا يجوز أن يُرادَ بهذه الأيام: أيامنا المعروفة؛ لأنها متكوِّنة من النظام الشمسي، ولم يتم هذا إلا بعد تمام هذا التطوُّر المرادِ بيانُه هنا، وقد مرَّ الكلام مفصَّلاً عن هذه الآية في سورة الأعراف[1]، وعن قوله: ﴿ثُمَّ

(١) في الآية ٥٤ منها.

ورَحِمٍ واحد، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ حيث خلق من ماءٍ واحد بالنوع بشرين مختلفين بالأوصاف والطباع.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ
رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ
خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ
ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا
تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا
مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

وبعد أن ذَكر كثيراً من دلائل القدرة والمنَّة المقتضية لألوهيَّته وحده لاختصاصه بصفاته، بكَّتَ المشركين لعدم التفاتهم لتلك الدلائل، وإصرارهم علىٰ إشراكهم السافل بهذا الإله العظيم، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: ما لا قدرة له علىٰ شيءٍ، ولا منَّة له عليهم، فما أشدَّ سخافةَ عقولهم.

وقد زادوا في حماقتهم ما حكىٰ الله عنهم بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ والمراد بالكافر: الجنس، أي: إنهم يتظاهرون ويتعاونون علىٰ الكفر بربِّهم الذي له تلك القدرةُ العظيمة، والمنَّـةُ الكريمة، الدالَّتان علىٰ اختصاصه بالألوهية، ويُعَادُونَ تشريعَه الحكيم العظيم. فالمرادُ بالمظاهرة عليه: المظاهرةُ ضدَّ رسوله ودينه، علىٰ طريقة المجاز المرسل. ولا جهلَ أعظَمُ من جهلِ مَن استفرغ جهدَه في إيذاء شخصٍ استفرغ جهدَه في إصلاح مهماته دنيا وأخرىٰ، ولا يسأل علىٰ ذلك أجراً!

وقد سَـلَّاه سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾، وهذا

بِهِۦ﴾ أي: بهذا القرآن الذي صَرَّفناه بينهم ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾، ولهذا فُرِضَ الجهادُ علىٰ المسلمين لنشر مبادئ هذا الدين العالمي المبين. وهذا هزٌّ وتهييج له ﷺ وللمؤمنين في مقاومة هؤلاء المعارضين، وعبَّر عن ذلك بالطاعة، مبالغةً في الإغراء.

ثم عاد إلىٰ السياق، فتابع البيان عن دليل القدرة والمنة، لإثبات اختصاصه بالألوهية، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ﴾ ماءَ ﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ العَذْب والمالح؛ ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ شديد العذوبة، ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ شديد الملوحة، ﴿وَجَعَلَ﴾ بهذا التباين ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٥٣﴾، فهما لا يختلطان إذا اجتمعا في إناء واحد، ولكنْ يطفو العذبُ علىٰ المالح، وكلاهما ماء. يقال: مرج الشيء بالشيء؛ إذا خلطه به. ومثله: مَرَد الشيء بالماء. فجعل في المالح موادَّ لم تكن في العذب؛ لذلك كان الماءان لا يمتزجان إذا جُمعا، بل يطفو العَذْبُ علىٰ المالح، لخفَّة أجزائه، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾.

فالآية بيان لما في كلٍّ من الماءين من موادَّ متغايرة بحيث لا يختلطان إذا جُمِعا، وذلك دليلٌ علىٰ حكمته ومنَّته تعالىٰ، حيث جعل ماء الشرب بهذه المثابة، وماء البحر صالحاً لما فيه من حياة أنواع الحيوانات، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ثم أردف هذا بدليل آخر من دلائل القدرة والمنَّة؛ لِـمَا بينهما من لطف المسلك، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗا﴾ والنَّسَب: ما لا يحلُّ نكاحُه، وذلك لحكمة اقتضتها خواصُّ طبيعته، كما بين البحرَيْن المتنافرَيْن، ولمقتضيات أخلاقية. والله أعلم. والصِّهر: ما يحلُّ نكاحُه لحكمة اقتضتها طبيعته، كامتزاج ماءَيْن من البحر الواحد. والله أعلم. وقيل: المراد بالنَّسَب: الذكور؛ لأنَّ النسب يكون فيهم، والمراد بالصِّهر: الإناث؛ لأن الصِّهريَّة تكون فيهنّ، أي: جعل ذكراً وأنثىٰ من ماءٍ واحد

﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾، وأتىٰ بـ«ما» دون «مَنْ»، تغليباً للكثرة؛ لأنَّ المسقي به من الحيوان أكثر من الإنسان بكثير، وأتىٰ بوصف البلدة[1] مذكَّراً للإشعار بإرادة المكان.

ثم اعترض السياقَ بما يُحسِّسُ إلىٰ ما اشتمل عليه من أنواع العِبَر والمواعظ والإرشاد، وأوضح الاستشهاد، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾، والضمير للقرآن، من ذِكرِ الكل وإرادة الجزء، أي: لوَّنَّا المواعظَ والدلائل في هذا القرآن بألوان من صور البيان؛ ليتنبهوا ويدركوا ويتذكَّروا هذه الحقائق المسرودة فيه، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ لهذه النِّعَم والمنن العُظمىٰ، والدلائل الواضحة الكبرىٰ.

ثم أتىٰ بالآية الآتية عَوْداً لقوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وبياناً لِـمَا فيها من الإشارة لعموم رسالته ﷺ أتىٰ بها بعد أن تهيأ مكانها من السياق، ولا سيما بعد بيان صفة المطر العام المتضمِّن لإحياء الناس، فقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ يدعوهم لِـمَا يُحييهم كما أَحْيَتِ المطرُ البلادَ، ولكن الحكمة اقتضت أن تكون الرسل متعاقبة في البشر بين فترة وأخرىٰ، علىٰ طريقة التصاعد في الشرائع، وكلُّهم ـ لا سيما المتأخرون منهم ـ كانوا يَعِدُون بآخر شريعة كاملة، تكون عالمية، تأتي في أول تكامل النوع الإنساني بالعلوم والمعارف، فنَسخ بها الشرائع المتقدِّمة كلَّها، وقد ألمع سبحانه إلىٰ ذلك.

وبعبارة أخرىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾، ولكن اقتضىٰ توحيدُ البشر بشريعة واحدة عالمية هي ولغتها ليكون البشر عائلة واحدة، فأرسلناك رسولاً عالمياً إلىٰ سائر البشر لتكون للعالمين نذيراً، فلذلك عقَّبها سبحانه بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وقَابِلْهُم بالثبات والاجتهاد في نشر الدعوة وإظهار الحق، ﴿وَجَٰهِدْهُم

---

(١) يعني قوله: ﴿مَّيْتًا﴾.

ويجوز أن يُراد بقَبْضِهِ: فناءُ العالم باختلال هذا الكون، ومعنىٰ: ﴿قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾: قبضاً سهلاً، أي: إنَّ هذا الإفناء والقبض أمرٌ علىٰ الله يسير، وما ذلك علىٰ الله بعسير.

ثم تابع الكلام عن دليل المنَّة والقدرة في عين الموضوع، ومدَّ به السياق، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ قال أبو السعود: وفي تعقيب بيان أحوال الظل ببيان أحكام الليل الذي هو ظلّ الأرض من لطف المسْلَك ما لا مَزيدَ عليه، والمعنىٰ: هو الذي جَعَل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس(١). ﴿وَ﴾ جعل ﴿ٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا﴾ أي: هدوءاً أو سكوناً تستعيدون به ما ضَعُفَ من القوىٰ بنتيجة أعمال النهار، ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾﴾ أي: بعثاً من ذلك السُّبات كبعث الموتىٰ. وفيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ النوم واليقظة نموذج للموت والبعث.

ثم تابع البيان في المنّـة والقدرة، مُلمِعاً إلىٰ أنَّ حال الشريعة من حيثُ نفعُها وانتفاعُ الناس بها كحال المطر في إحيائها البلاد الصالحة للإنبات بمائها الطهور، فأشار إلىٰ أنَّ الذي أنزل هذا المطر رحمةً بكم أرسل لكم هذه الشريعة لصالحكم وإحيائكم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ أي: أرسلها مبشِّرةً بالمطر؛ لأنها هي التي تكوِّن الغيوم وتَقلِبُها ماءً. وعلىٰ هذا المعنىٰ قراءة: (نُشراً) بالنون(٢).

ثم ذكر نتيجة ذلك بقوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾﴾، وهذا الوصفُ للإشعار بتمام النعمة وعظمة شأن الماء، والالتفاتُ إلىٰ نون العظمة لإبراز كمال العناية بالإنزال، والمبالغة في التمنُّن به.

ثم ذكر عظمةَ نعمة الماء بقوله: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا

(١) «تفسير أبي السعود» (٦: ٢٢٣).

(٢) انظر: «المحتسب» (١: ٢٥٥).

ظِـلٌّ، ولا يقال: فيء، إلا لما زال عنه الشمس[1]. وقيل: المراد بالظل هنا: هو ضياء الفجر حتىٰ تطلع الشمس، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس والضحاك وسعيد بن جبير، وهو أطيب الأحوال والأوقات، لذلك جعله سبحانه من أحوال الجنة، فقال: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]. ويجوز أن يراد به ما ذكرتُه في التعليق من عَظَمة النظام الشمسي، ومنَّة الله فيه علىٰ بني الإنسان، وهو أمر طالما ذكره القرآن، إذ لولاه لما كان علىٰ وجه الأرض نبات ولا حيوان، فمفادُه مَثَلُ مفاد قوله تعالىٰ: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤، الرعد: ٣].

وقال في إتمام البيان والتحسيس بالمنَّة: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، وذلك بأن لا يخلق الشمس، أو بأن يجعل الأرض غير متحركة مثلاً، فتكون الشمس مشرقة علىٰ ما يقابلها منها دائماً، فلا يظهر عليه الظل، ومحجوبة عن الجهة الثانية دائماً، فلا يفارقها الظل، وكلاهما حالٌ لا يستقرُّ معه حياةٌ لحيوان ولا لنبات. والله أعلم.

وهذه الجملة علىٰ حَدِّ قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] وأمثاله في القرآن، وهي معترضة بين المعطوف عليه والمعطوف المتمِّم للكلام عن النظام الشمسيّ، وأحكام الظلّ فيه، وهو قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ أي: تدلُّ عليه وتُظهره بصورة جليَّة، لأن الضدَّ يُظهِرُه الضدُّ، والذي يُلاحِقُ الشيء يدلُّ عليه، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ أي: قليلاً قليلاً كلَّما ارتفعت الشمس، وذلك في ظل المرتفعات.

ويجوز أن يكون المراد من قَبْضِهِ: مَحْوُهُ بضياء النهار، يعني: ما يظهر من تَعاقُب الظل والشمس علىٰ كرة الأرض، وذلك بدورانها اليومي علىٰ نفسها ـ والله أعلم ـ فيكون علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ...﴾ [الفرقان: ٦٢]، ولكنه تعبير آخر يُصوِّر ناحية أخرىٰ من الموضوع، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

---

(١) «المفردات» ص٥٣٥.

الراغب: الظل: أعمُّ من الفيء، يقال: ظلُّ الليل، ويقال لكلِّ موضع لم تصله الشمس:

= أن خلق الشمس لتعالجه، وتُصلح من شأنه في أمر الحياة، إذ لولاها لَـمَا كان في الظلِّ أجسامٌ حية، وفي ذلك دليل علىٰ كمال حكمته تعالىٰ، وسابغ نعمته، واختصاصه بالربوبية والألوهية، وفي قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ زيادةُ تحسيس بالنعمة وإكبار للرحمة، وتحذير من كفرانها، وهي جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، عجَّل بها قبل إتمام الكلام لما يقتضيه المقام، بمقتضىٰ البلاغة العالية، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. والالتفات من الغيبة في المعطوف عليه إلىٰ التكلم في المعطوف لزيادة التّحسيس بمنَّة الله في هذا المد للظل، وعظيم آلائه فيه.

وضمير ﴿قَبَضْنَٰهُ﴾ يعود إلىٰ الظل، والمراد من قبضه: محوُه بشمس النهار. والله أعلم. ويجوز أن يعود الضمير إلىٰ هذا النظام الكوني، فإنه سبحانه يبدله بما يلائم الحياة الثانية يوم القيامة، فيكون هناك ظل ممدود، وحال في المحسنين محمود، وذلك أمر يسير، وليس علىٰ الله بعزيز. هذا رأيي في الآية. والله أعلم. وقد ضمَّن ﴿قَبَضْنَٰهُ﴾ معنىٰ: أرجعناه، ولذلك عداها بـ«إلىٰ»، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ومن حكمة الله سبحانه أن جعل الأرض كرويَّة، تدور دورة كاملة علىٰ نفسها كل أربع وعشرين ساعة، فيكون نصفها الذي يقابل الشمس مضيئاً، والثاني في ظل؛ لأنه محجوب عن الشمس. وشكل هذا الظل مخروطي، قاعدتُـه نصفُ وجه الأرض المظلم، وفي جانب هذه القاعدة الشرقي: الفجر، وفي جانبها الغربي: الشفق الأبيض، وبدوران الأرض تـتبدَّل حالُ البلاد علىٰ الأرض في الأربع والعشرين ساعة من حيث شـروق الشمس عليها وانحجابها عنها، فالتي تكون منها في الظل المخروطي تكون في ليل، والتي تقابل الشمس تكون في نهار، وهكذا دواليك.

ويجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون هذا الذي ذكرته هو معنىٰ مدّ الظل، وجَعْـل الشمس دليلاً عليه، وقَبْضه عن البلاد التي تشرق عليها الشمس، ثم انحجاب الشمس عنها بعد ساعات، فتكون الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. ولكنه تعبير آخر يُصوِّر ناحية أخرىٰ من الموضوع، علىٰ نهج القرآن في تنويع البيان، وتصريف وجوه المعاني والمقاصد. والله أعلم. (المؤلف).

به من المواهب، ولا تَجْني علىٰ نفسها ما يَجْنيه الكافر علىٰ نفسه. وتحرير ذلك: أن الحيوان لديه شعورٌ طبيعيّ بما ينفعه وما يضرُّه، لا يفرط به ولا يخطئ فيه ولا يضل؛ لأنه لا يفسده، بخلاف الإنسان، فإنه إذا فَسَدَ عقلُه بمفاسد التربية، لا يكاد يصيبُ في الأمور الروحية شيئاً، وإنما يرىٰ الضلال هُدىٰ، والهُدىٰ ضلالاً، ويُـرَدُّ إلىٰ أسفل سافلين.

والآيات من قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ إلىٰ آخرها احتَـوَتْ علىٰ التعجيب والتنديد، والتحقير والتهديد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا
وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا
﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى
كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞
وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

ثم أتبع الكلام عن شرِّ هؤلاء والتشنيع عليهم بالكلام عن منَّته تعالىٰ، وقُدرته الدالة علىٰ استحقاقه أن يُعبَدَ وحده ولا يُشرك به شيء؛ لاختصاصه بصفات الألوهيَّـة وأفعالها، مُستدلاً بسَدَاد تكوينه وإتقانه في أعماله علىٰ صلاح تشريعه وكماله، واقتران كلٍّ منهما ببالغ حكمته، مُشيراً بذلك إلىٰ تَحتُّم اتِّباع تعاليمه لِسَدادِها، ومُعَرِّضاً بجهالة هؤلاء الـمُعرِضين وعَمَىٰ بصائرهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾(١) قال

(١) الظل: أمر أصلي في هذا الكون، وضوء الشمس أمر عارض طارئ عليه، ومن حكمته سبحانه =

ثم ذكر لـهم قبيحةً أخرىٰ في إنكارهم نبوَّة محمد ﷺ، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ قائليـن: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾؟ ثم يقولون: ﴿إِن كَادَ﴾ أي: إنه كاد ﴿لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: ليصرفُنا عن عبادتنا لها ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾؛ يُظْهرون ارتياحهم وتبجُّحهم لثباتهم علىٰ آلهتهم ودينهم.

وفحوىٰ نظم الآية يُؤْذن بالتهكُّم بعقولهم وتضليل سبيلهم، وقد أضاف إليه التـوعُّد بقوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾، وهذا كالجواب لقولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾، ومقابلٌ له، وردٌّ عليه؛ باعتبار تضمُّن قولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا...﴾ أنهم أهدىٰ من محمد الذي أتىٰ بدينه الـمُضلِّ لآلهتهم. واسمُ التفضيل ليس علىٰ بابه، ولكنه للمبالغة في الوصف.

ثم أخذ يُشنِّع عليهم بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ بأن أطاعه وبَنَىٰ عليه دينه؛ لا يسمع حُجَّة ولا يبصر دليلاً. ثم خفَّف عنه حرصَه علىٰ إيمانهم، وألمع إلىٰ أنَّ مُتَّبع الهوىٰ لا يميل إلىٰ الحق، وقطعَ طَمَعَه في ذلك، فقال: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ أي: حفيظاً تمنعه من الشِّرك والتـقليد الأعمىٰ. وهذا تهوينٌ عليه من حرصه علىٰ إسلامهم، وتَيْئيسٌ له من هدايتهم، والكفيل مسؤول، فنفىٰ ذلك عنه، إنما أنت مبلِّغ.

ثم زاد في بيان سخافتهم علىٰ طريقة الترقِّي، فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ فتعتني بشأنهم، وتطمع في إيمانهم؟ ثم أردف الإنكار بتقرير حقيقة أمرهم، فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ فلا تطمع بإرشادهم وهدايتهم، وفَهْمِهم للآيات المنزلة.

وإنما كانوا أضلَّ من الأنعام سبيلاً؛ لأن الأنعام لا تُهمِلُ الاستفادة مما وهبها الله

به من الهُدىٰ والرَّشاد، كما بيَّن عنهم سبحانه بهذا البيان العام، فقال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ﴾ أي: وضَّحنا لهم الأمور وفصّلناها، فلم يهتدوا ولم يعتبروا ولم يطيعوا، فأجرىٰ عليهم ما قال: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ أي: أهلكناهم إهلاكاً، ودمَّرناهم تدميراً؛ لأنهم لم يؤمنوا بما أرسلنا لهم من التعاليم، وضربنا لهم من الأمثال، وكذَّبوا رسلهم، وكفروا بما جاؤوهم بهم من الحق.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

وبعد هذا البيان عن الأمم السالفة، ساق الكلام إلىٰ المكذِّبين من قريش وأجراه عليهم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟﴾ مراراً في متاجرهم إلىٰ الشام ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني: موضع «سدوم»؛ عُظْمىٰ قرىٰ لوط، أُمطرت عليها حجارةٌ من سجيل، فدمَّرتها بمَنْ فيها، ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾؟ بلىٰ.

ثم أضرب إلىٰ بيان السبب الذي أدىٰ لعدم الاعتبار، فقال: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ أي: يكذبون بالديانات والأنبياء والبعث والنشور، ولذلك لم يعتبروا بها، لأنهم ينكرون أنَّ ذلك التدمير كان عقوبةً لهم بسبب مُعارضتِهم أنبياءَهم، ويحملونه علىٰ مجرَّد الاتفاق في أسباب الطبيعة وأحوالها. واكتفىٰ عن التَّصريح بهذا الإنكار بذكر ما يستلزمه من إنكار الحشر والجزاء. ويجوز أن يكون الإضراب انتقالاً من التوبيخ بعدم التذكُّر إلىٰ التوبيخ بما هو أعظم، وهو عدم توقُّع النشور.

فهرس محتويات المجلد الخامس

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الكهف	٥-٦١
تفسير سورة مريم	٦٣-٩٦
تفسير سورة طه	٩٧-١٥١
تفسير سورة الأنبياء	١٥٣-٢٠٤
تفسير سورة الحج	٢٠٥-٢٥٧
تفسير سورة المؤمنون	٢٥٩-٢٩٦
تفسير سورة النور	٢٩٧-٣٤٩
تفسير سورة الفرقان	٣٥١-٣٨٥
تفسير سورة الشعراء	٣٨٧-٤٣٠
تفسير سورة النمل	٤٣١-٤٧٤
تفسير سورة القصص	٤٧٥-٥١٨
تفسير سورة العنكبوت	٥١٩-٥٥١
تفسير سورة الروم	٥٥٣-٥٨١

❊ ❊ ❊

تفسير القرآن العظيم

المسمّى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

تأليف العلامة الشيخ

رشيد الخطيب الموصلي

١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلد السادس

تفسير سورة لقمان إلى نهاية سورة الزخرف

اعتنى به وقدم له

مجد أحمد مكي

أروقة

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

سورة لقمان

مكية إلا آيتين(١)، وهي أربع وثلاثون آية

وملخَّص موضوعها: أنَّ العقل السليم يهدي إلى مثل ما يهدي إليه القرآن العظيم.

وقد جاء فيها أقسام ثلاثة:

الأول: التنويه بحكمة القرآن.

الثاني: في حكمة لقمان.

الثالث: في دعوة المشركين إلى الإيمان بما اتَّفقت عليه الحكمة المنزَّلة والحكمة المأثورة عن الحكماء.

وقيل لأعرابي: ما حملك على التعجيل بالإيمان بمحمد؟ فقال: يا قومِ، لم أر محمداً يقول في شيء: افعل، والعقل يقول: لا تفعل، ولم أر محمداً يقول في شيء: لا تفعل، والعقل يقول: افعل، فكيف لا أعجِّل بالإيمان بمحمد؟!

* * *

---

(١) وهما الآية ٢٧ والآية ٢٨.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارته إلى ما يأتي بعدها اهتماماً به. ومنه هنا: قوله: ﴿ تِلْكَ﴾ أي: هذه السورة أو آيات القرآن هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ أي: المشتمل على الحِكَم والمصالح للدنيا والأخرى، أُنزلَ ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ أي: الذين يميلون بطبيعتهم السالمة من التَّحريف إلى الإحسان، فيجدون بُغْيتَهم في تعاليم هذا القرآن.

ثم ذكر أميزَ صفاتهم التي هي أثر ذلك الإحسان، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

أي: يأتون بها مُقامةً بحضور القلب فيها، كما قال ﷺ: «الإحسان: أن تَعبُدَ اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]، وقال أيضاً: «إن أحدكم إذا قام يُصلِّي إنما يناجي ربَّه، فَلْيَنظُرْ كيف يناجيه»[2].

فالمحسِنون هم الذين يقيمون الصلاة على هذه الصفة، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ طيّبةً بها نفوسُهم، ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾[3] وهذا الحَصْر إنما هو بالإضافة إلى مَنْ يدَّعي أنه يؤمن بالآخرة من المِلَلِ الأخرى الذين صَوَّروا لأنفسهم آخرةً شكَّلتها لهم خيالات آبائهم الأوَّلين، كالمصريين القدماء وغيرهم. وقد جَهلوا الأسباب المؤدِّية إلى السعادة فيها لضياع كتبهم السماوية وعبثهم بها، فاختَلَق لهم رؤساؤهم عقائدَ وعباداتٍ وأعمالاً، أوحَتْ بها أوهامُهم الضالَّة، وجعلوها بزعمهم سبباً لنيْل تلك الآخرة، وهكذا ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

ثم سجَّل بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين كان هذا القرآن هُدىً لهم ورحمة؛ إذ هَداهُم إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالآخرة على الوجه الصحيح، وما ينبعث من ذلك من أخلاق عالية، كالصدق والأمانة والتآخي وغير ذلك من الفضائل، فجَنَوْا من هذه الهداية ثمراتٍ أصبحوا بها مُثلاً عُليا في سُموِّ النفوس وعُلوِّ الهِمَم والتعاون على

---

(١) سلف تخريجه (٣: ٢٥٧).

(٢) رواه ابن خزيمة (٤٧٤)، والحاكم (١: ٣٦١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه على هذه السياقة، ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة.

(٣) الإيقان: الاعتقاد الجازم الذي لا يقبل الشك، لانبعاثه عن المنطق البرهاني، أو الوجداني، أو كليهما، فيملك النفس وتظهر فيها آثاره وتعمل بمقتضاه، ولا تجد عنه منصرفاً. والقرآن الكريم عند تدبُّره يبعث في النفس هذا اليقين في أمر الآخرة، حتى لو كُشِفَ لها الغطاء ما ازدادت يقيناً. (المؤلف).

فعل الخيرات وعمل المبرَّات، أولئك هم الذين ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: الفائزون بكلِّ مطلوب من سَعادة الدنيا والأخرى.

ثم ذكر مَنْ يقابل هؤلاء، وهم غير المهتدين بهذا القرآن، والمعارضون له، السَّاعون بالدعاية ضدَّه، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قال أبو مسلم: لهو الحديث: السخرية بالقرآن. أقول: فالمراد إذن بالآية: ما ينفقونه في سبيل المشاغَبات والدعايات للصدِّ عن سبيل الله، وترويج الأباطيل والمغالطات، والعَبَث بالعقول؛ للتنفير عن القرآن. وقد يكون بعض ذلك بطريقة الهُزْء والسخرية به. والله أعلم.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيه زيادة في النقد والتضليل؛ إذ لو افتكر قليلاً وتنزَّه عن الغرض الباطل والتقليد الأعمى؛ لاهتدى إلى الحقِّ بأدنى تدبُّر في دلائل هذا القرآن المبين، وأيقَنَ بأنه كتابٌ منزَّل من رب العالمين.

وهذه الآية في الكلام عن المشركين شبيهةٌ بما جاء عن اليهود في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ ...﴾ [البقرة: ١٠٢] في ترويج المشاغبات ضد الدعوة إلى الدين المبين.

وقيل في معنى الآية أيضاً: إنَّ الله سبحانه ـ لما ذكر أن القرآن كتاب حكيم، يشتمل على الحِكَم والمصالح لسعادة الدارَيْن ـ بيَّن مِن حال الكفار أنهم يتركونه مُعْرِضينَ عن سبيل الهدى، مُقْبِلين على الباطل المُلهي عن الحق، فهم يستبدلون هذا بذاك.

وقيل: إنَّ النَّضْر بن الحارث كان يأتي الحيرة مُتَّجِراً، فيشتري كتباً فيها من خرافات الأقدمين وأسمارهم ولهواتهم، ويُحدِّث بها أهلَ مكة، ويقول لهم: إنَّ محمداً يُحدِّثكم أحاديثَ عاد وثمود، وأنا أحدثكم أحاديثَ فارس والروم، أليس محمد يتلو من أساطير الأوَّلين ما أتلو؟ فيستمع له المشركون.

فسجَّل عليهم سبحانه بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾، وإهانتُهم بالعذاب جزاءٌ لإهانتهم هذا القرآن العظيم.

ثم تابع الكلام في بيان حال هذا الصنف من الناس، فقال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ عن هذه الآيات الحكيمة مُبالغاً في الإعراض عنها والنفور ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾، وفي هذا الوصف لطفُ إشارة إلى أنّ مَنْ سمعها لا يُتصوَّر منه التولية والإعراض. ثم علَّل ذلك بهذا التمثيل، فقال: ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أي: صَمَماً، وهذا التمثيل لزيادة المبالغة في تصوير الإعراض. فتوعَّده سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾، واستعارةُ البشارة للإخبار بالعذاب من أبلغ الاستعارات التهكُّمية الساخرة. وقيل: بل الكلام على الحقيقة، لأنَّ التبشير هو الإخبار بما تتأثَّر منه بشرة الوجه، حزناً أو سروراً.

ثم قرن وعيد الكافرين بوعد المؤمنين، على طريقة القرآن في المقابلة بين مصير الصِّنفَيْن؛ تبشيراً للمؤمنين وزيادة تنبيهٍ للكافرين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ لا يغلبه شيءٌ عن إنجاز وَعْدِه أو تحقيق وعيده، ولا يفعل إلا ما تقتضيه الحِكمةُ والمصلحة، ولا يُنجِزُ وعدَه ووعيدَه إلا في الأجل المضروب له.

ثم ذكر ما يُؤيِّد عزَّته وحكمته، فقال: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ أي: بغير عَمَدٍ مرئية، وهي الجاذبية العامَّة. ونفي الصفة تتحقَّق في نفي الموصوف، وقد مرَّ تفسير هذه الآية في سورة الرعد[1]، ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي: وجعل في الأرض جبالاً شوامخ كأوتاد تصُونها عن الاضطراب بمن عليها، يُوازن بها الجانب

---

(١) في الآية الثانية منها.

المقابل، ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: أوجد في الأرض أنواعاً من الحيوانات، وسَخَّر الكثير منها للإنسان؛ لمنافعه العديدة.

ثم غيَّر الأسلوب من الغيبة إلى التكلُّم؛ لزيادة التحسيس بنعمته تعالى على البشر، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾ به ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ من أنواع النبات. والعرب تطلق هذا الوصف على الجودة في كلِّ شيء.

فذكر سبحانه وتعالى خمس آيات كونيَّة تدلُّ على قدرته وحكمته وبديع صُنعه وعظيم إتقانه، ثم عقَّبها بهذا الإلزام الواضح والإفحام الفاضح للمشركين، فقال: ﴿ هَٰذَا﴾ الذي ذُكِرَ هو ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ الذي تُدْعَوْنَ لعبادته وحده، ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الذين اتَّخذتموهم شُركاء له سبحانه وتعالى في العبادة، حتى استحقُّوا به أن يُعبَدوا!

ثم سجَّل عليهم الضلالَ مُعلِّلاً به إصرارَهم على الكفر، وعَماهم عن واضح الهدى، فقال: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ بما أفسدوا من فِطَرِهم، وطمسوا من بصائرهم، فأصبحوا لا يُميِّزون الحقَّ من الباطل، على وضوحه وجلاء أمره.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ

بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

ثم ذكر قصة لقمان، وكيف اهتدى بعقله إلى التوحيد وعبادة الله، وإلى الآداب الصحيحة، بمحافظته على سَلامة فطرته ونور بصيرته، مشيراً إلى أن تعاليم هذا الدين ـ لأنها منطبقةٌ على الواقع، ملائمةٌ لفطرة الإنسان ـ يذكرها كلُّ حكيم سالم الطويَّة بعقله بكل سهولة، ويقدرها حقَّ قدرها، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قيل: هي الدقَّة في النظر، والإتقان في العمل، والسَّداد في الفكر، وذلك من خصائص طبيعة الإنسان ما لم تُحَرَفْ بالتربية الفاسدة، وهي تكشف عن أمر الله سبحانه، وتبعث على التفتيش عن شريعته، إذ لم يَخْلُ زمانٌ منها.

ثم فسَّر مؤدَّى تلك الحكمة بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ والشكر: استعمال المواهب والنِّعم فيما خُلِقَت لأجله، وهو اعترافٌ بالحقيقة الإلهيَّة، وخضوعٌ لها، ووقوفٌ عند الحدود التي يرسمها الله.

ثم علَّق سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾، فأرشد سبحانه وتعالى عبادَه إلى أنَّ الشاكر إنما ينفع نفسَه بشكره، وهو سبحانه لا تنفعه أقوالُ العباد وأفعالها، ولا تضرُّه، وإنما دعاهم إلى شكره بإطاعة أوامره واجتناب نواهيه؛ ليسعدوا أنفسهم بذلك؛ إذ لا يأمرهم إلا بما ينفعهم، ولا ينهاهم إلا عمّا يضرُّهم في الدنيا وفي الأخرى. وهو غنيٌّ عن حَمْدهم وشكرهم؛ لأنه المحمود بذاته، تحمَدُهُ آثاره الدالّة عليه.

وأتى بصيغة المضارع في الشكر للدلالة على طلب الاستمرار في هذا الفعل، وتجديده على الدوام.

ثم بيَّن عزَّ وجل نصائحَ لقمان لابنه، مبتدئاً بأهمها، وهو التوحيد الذي أقـرَّ به العقل السليم والعلم الصحيح، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾، وأيُّ ظلم أعظم من غَمْط حقِّ الله، وقدره الجليل، ومن تسوية بعض عباده أو أحطِّ شيء من مخلوقاته به تعالى في عبادته، وجَعْلهم بمنزلته، أو قريباً من منزلته بالاستعانة بهم أو الطلب منهم؟!

ثم استطرد سبحانه وتعالى لبيان فظاعة الشِّرك، بما أوصى به الوَلَدَ من إطاعة والدَيْهِ في كلِّ شيء إلا بالشرك، فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ ولو كانا مُشْرِكَيْن. ثم بيَّن دواعي هذه التـوصية، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ أي: ضعفـاً على ضعف، وذلك لأنَّ المرأة أضعف من الرجل خِلْقة، وزادت بولدها ضعفاً على ضعفها الطبيعي، فقد تغذَّى من دمها حتى وَضَعتْهُ، فأخذت تُغَذِّيه بلبنها عامين، إلى أن فَطَمَتْهُ، كمـا قال تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي: فطامُه ﴿فِى عَامَيْنِ﴾، وقد قاسَت من شدائد حَمْلِهِ وصعوبة تربيته عُسْراً ونَصَباً.

وإنمـا خصّ بالبيـان أمر الأم هذا دون غيره من الأمور، ودون أحوال الأب الموجبة لهذه الوصيَّة، زيادةً في تحسيسه بهذا الأمر العسير.

ثم فسَّر تلك الوصيَّة بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾، فأمره أن يبرَّ بوالدَيْه معاً، لِـمَا لهما عليه من الفضل العظيم والتعب المرير، وجعلهما سبحانه في ذلك يتلوانه في استحقاق الشكر، على جلالة إحسانه وعِظَم نِعَمِهِ المستحقَّة لذلك.

ثم ذيَّل الكلام بمـا يحمل على التمسُّك بمـا سبق، والعمل به، فقـال: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ أي: فأُجازي كُلاً بعمله.

ثمَّ مهَّد بهذا البيان لِعَظَمةِ الظلم بالشِّرك، وفظاعته المقصودة من البحث، فقال:

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ ﴾ ولا يخفى ما في اختيار هذا اللفظ من بيان المبالغة في المقاومة، والمعنى: وإن اشتدّا في الإلحاح بك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهذا القَيْدُ لزيادةِ التفظيع والتجهيل، أي: إنْ قاوماك أشدَّ المقاومة لتتَّبعهما في هذا الجهل المبين والظلم العظيم ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك.

فاستثنى من تلك الوصيَّة للوالدين بالطاعة المُطلَقة التي قرنها بوصيَّته بشكره تعالى، حثاً على المحافظة عليها والتمسُّك بها؛ استثنى منها أمر الشرك إذا دَعَواه إليه، فنهاه عن إطاعتهما فيه، لأنه جهلٌ شنيع، وظلمٌ فظيع.

ثم أمره بالدوام على الإحسان إليهما فيما عدا ذلك، فقال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: بحسب ما يقتضيه العُرْفُ من الإحسان إليهما، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ في أمر الدين والإيمان، ولا تَتَّبع سبيلَهما وسبيلَ الذين لا يعلمون.

والمعنى: إذا بَذَل أبواك المشركان الـجُهْدَ لِيَحْمِلاك على أن تؤمنَ بشريكٍ لي؛ تقليداً لهما، فلا تُطِعْهما في ذلك، ولا يمنعك مخالفتُك إيَّاهما في الدين أن تُصاحِبَهما في الدنيا مُصاحَبةً حَسَنة، يستحسنها العُرف ويرضى بها الشرع، فلهما دينُهما ولك دينُك الحقُّ الذي ينبغي لك أن تَتَّبع فيه طريقَ الراجعين إلى الله تعالى بالطاعة وطلب الثواب.

ثم ذيَّل الكلام بما يحمل على التمسُّك بهذه الوصية، وضمَّنه التهديدَ للمشركين، فقال: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾، وعبَّر بالإنباء كناية عن المجازاة، على نهج القرآن في ذلك.

وهذه الوصية بالوالدين جاءت معترضةً أثناء حكاية موعظة لقمان لابنه، استطرد القرآن بها لبيان فظاعة الشِّرك والنَّهي عنه، فهي استئنافٌ من كلام الله تعالى، وتعليقٌ على ما قبلها، على نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم بعد انتهاء الاستئناف، تابع البيان في تكميل حكاية وصية لقمان لابنه مُبيِّناً له صفات الله الكبرى، من دقَّة العلم وسَعَة القدرة، فقال: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ ﴾ أي: فِعْلة الإنسان من خير أو شر. وعَوْدُ الضمير على ما يُفهَمُ من السياق معروفٌ في اللغة، ومن نهج القرآن، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). أي: إنَّ تلك الفِعلةَ ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ وهذا تمثيلٌ للتناهي في الصِّغَر، ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ وهذا تمثيلٌ للتناهي في الخفاء، ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا تمثيلٌ للتناهي في البُعد أو الشَّتَات، ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ ولا يضيع شيءٌ من ذلك، لك أو عليك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ أي: عالمٌ بخفايا الأمور مهما دَقَّت، محيطٌ علماً بالمتشعِّبات المشتَّتة كيفما كانت.

وبعد أن بيَّن له عَظَمَةَ الله تعالى ودقَّة محاسبته، أمره بالإنابة إليه والتَّوجُّه لعبادته والتَّمسُّك بما يرضاه من الأخلاق والآداب العالية التي يتمُّ بها أمرُ الاجتماع فيما بين البشر في هذه الحياة، فقال: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: تَوَجَّهْ إلى الله تعالى واعبُدْهُ حقَّ عبادته.

ولا شكَّ أنَّ الصلاة بوجهها الصحيح تُربِّي في النفس أجمَلَ الأخلاق التي يحتاجها البشر في نظام الاجتماع، وأكمَلَها من الصِّدق والأمانة والحياء ومراقبة النفس ومَنْعِها من كلِّ قبيح، خشيةً من الله، فلا يعتدي على الغير، ولا يتجاوز حقوقه. وفي ذلك أتمُّ نظام في الاجتماع.

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي: المُتَعارَفِ بين الناس السالمي الطباع، وهو الخير والفضائل، وأعلاها وأكملها: التعاليم التي جاءت في تضاعيف هذا القرآن، ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ بين هؤلاء الناس، وهو الشرُّ والرذائل، فإنَّ الطباع البشريَّة السليمة تنكرها، وقد جاء النهيُ عنها في تضاعيف القرآن.

ثم خصَّ الأمر بالصبر من بين الفضائل؛ للاهتمام بشأنه وبيان امتيازه، فقال: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾(١).

ثم نوّه بشأن هذه الأعمال، فقال: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ أي: مما ألزم اللهُ به الناسَ إلزاماً من الأمور الجليلة القيِّمة، ذات الشأن الخطير، والأثر البعيد، في حياة الإنسان في الدنيا، ومصيره في الأُخرى.

ثم تابع الوصيَّة بمكارم الأخلاق، فقال: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ والتصعير: الإعراض بالوجه تكبُّراً واستحقاراً. أي: لا تـتكبَّر على الناس وتـترفَّع عنهم، ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي: بطراً وخُيَـلاء؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ أي: يَتَباهى بين الناس بنفسه، ويُدِلُّ عليهم بما أعطاه الله من جاهٍ أو مال. والوَيْلُ كل الويل لمن لا يُحبُّه الله.

وبعد أن نهاه عن تلك المشية، بيَّن له أدبَ المشي، وضمَّ إليه أدبَ الصوت؛ تكميلاً

---

(١) أي: مما تتأكد ممارسته ويتحتَّم عمله، وقد قال ﷺ: «الصبر عَوْنٌ على الخطوب».
فالعاقل يصبر على الخطوب والحوادث، ويقابلها برباطة جأش وقوَّة عزم وسعي حثيث؛ لتلافيها ودفع أمرها والتغلب عليها. أما الجاهل ضعيف الإيمان إذا ما حدث له من حوادث الدهر التي لا يخلو منها زمان، فإنه يضطرب ويندهش ويضعف عن المقاومة ويَسْتسلم، فيؤثر فيه الحادث أثره البليغ. ولولا الصبر ما نجح عامل بعمله، حربياً كان أو مدنياً، دنيوياً كان أو أخروياً؛ لأن كلَّ عامل لا بدَّ وأن تعترضَه عَقَبات، وتقفَ في طريقه صعوبات، فإن لم يكن صبر كما ذكرنا، لا يصل ذلك العالم إلى غاية، ولا يكون لحل تلك الأزمة نهاية.
فالخير كل الخير للصابرين على الصعاب، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]. (المؤلف).
والحديث ذكره الماوردي في «أدب الدنيا والدين» ص٢٨٦. بلفظ: «الصبر ستر من الكُرُوب وعون على الخُطُوب».

للآداب، فقال: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ أي: توسَّط فيه، فإن في ذلك الحشمة مع النشاط، وفي الإسراع طَيْشٌ وخِفّة، وفي الهُوَيْنى الخمولُ والتكبُّر. والوسط هي الفضيلة بين رذيلتَي الطرفَيْن، إذ التطرُّف رذيلة ممقوتة.

ثم أمره أن يخفض صوته حينما لا يكون داعٍ لرفعه، فقال: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾، ثم علَّل ذلك بما في رفعه من البشاعة والقبح وشَبَهِ بالحمير، فقال: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾، وهذا تعليلٌ مُنفِّر، على أبلغ وجوه التنفير وأشدِّها تأثيراً على النفوس؛ لأنَّ الحمار مَثَلٌ في الذم القبيح، سيَّما نهيقه.

وأفادت قصةُ لقمان: أنَّ الغريزة البشرية ـ إذا رُبِّيت تربيةً صحيحة ـ تصل إلى الحكمة وإصابة الحق في كلِّ شيءٍ، لا سيما في الإلهيَّات، لأنها مطبوعة على ذلك، وتُسمَّى الغريزة الدينية، فليس الاعتراف بالخالق مما يتوقَّف على النبوَّات(١). وأفادت أنَّ هذه الأمور التي أوصى بها لقمانُ وَلَدَه معروفةٌ عند مَنْ سَلِمَت طباعُهم من الإفساد، ولو لم يعرفوها من الأديان، وهم يتواصَوْن بها لأنها مغروسة في الطبيعة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

---

(١) هذه مسألة فيها خلاف طويل، والمؤلف رحمه الله يميل إلى قوله المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين ـ كما مرَّ في مواضع من هذا التفسير ـ ومؤدّاه ترتيب الثواب على ما يُحسِّنه العقل، وترتيب العقاب على ما يُقبِّحُه، ولو من غير رسول، سواء في العقيدة أو العمل، أما أهل السنة فإن إلزام العباد عندهم ببعثة الرسل دون أحكام عقولهم. نعم، قال الماتريدية ـ من أهل السنة ـ بوجوب معرفة الله تعالى خاصة ـ دون غيرها من مسائل العقيدة أو من الأعمال ـ بالعقل ولو من غير بعثة رسول أو بلوغ دعوة.

ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم عاد إلى السياق بعد أن انتهت وصيَّة لقمان التي اعترض بها فيه، وهو بيان دلائل القدرة والمنَّة وتفنيد الإشراك بالله، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم وغيرها، تستفيدون من ضيائها ومن نورها وغير ذلك، ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من الرياح والسَّحاب والبحار والأنهار والنبات والحيوان وغيرها، ﴿وَأَسۡبَغَ﴾ أي: أوسَعَ ﴿عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ أي: منها ما تعرفونها لظهورها، ومنها ما لا تعرفونها لدقَّتها وخفائها.

﴿وَ﴾ رغماً عن ذلك كلِّه ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في وجوده وتوحيده وتنزيهه، وفيما بيَّنه للناس في الكتاب، بما فيه الحشر والحساب، يجادل في ذلك ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ مُستفادٍ من دليل، ﴿وَلَا هُدٗى﴾ من جهةِ رسول، ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾﴾ أنزله الله سبحانه، أي: غيرَ مُتَّبعٍ في مُجادلته طريقاً من طرق المجادلات الصحيحة؛ إذ لا يرجع ذلك إلى معقول ولا إلى منقول، ولكنه الضلال والسفاهة.

وأيُّ ضلال وسفاهة أضلُّ وأسفَهُ من رأيهم هذا الذي حكاه سبحانه عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾، فأنكر عليهم سبحانه بقوله: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ﴾ أي: يدعو أولئك الآباء ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾، فرأيُهم هذا يُبيِّن لك عقولاً مفسودةً لا تعرف للمنطق معنىً، ولا للنظر الصحيح وجهاً. وذلك أنهم يُدعَوْنَ إلى التفكير للتوصُّل إلى خالق هذا الكون، واتِّباع ما

أنزل الله في هذا القرآن من الدعوة إلى رَشَاد الإنسان، فيقولون: بل نتَّبع الطريقة التي وَجَدنا عليها آباءنا، فورثناها عنهم. فهم يريدون أن يفكروا بعقول آبائهم لا بعقولهم:

صُوَرُ العَمَى شتّى وأقبحُها إذا نَظَرَتْ بغيرِ عيونهنّ الهامُ(١)

ما أقبَحَ التقليد الأعمى، وما أشدَّهُ جهالة! يُدعَوْنَ إلى الهدى فيُعرضون، ويتَّبعون ما وجدوا عليه آباءهم الذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، فهم يتَّبعون وساوس الشيطان، وهو يدعوهم إلى الكفر والشرك، وأسوأ الأحوال المؤدية إلى عذاب السعير، وسُوء المصير.

وفي وصف الكتاب بالمنير ـ أي: الواضح ـ إلماعٌ إلى أنه لا يجوز الاستدلال والتمسُّك بالآيات التي فيها خَفَاء، والتي هي محلُّ تأويل، فإنَّ التمسُّك بمثل هذه الآيات قد أضلَّ كثيراً من الناس، وتعلّق صاحبُ كل مذهب في الاستدلال على رأيه بأحد الوجوه، فتعدَّدت المذاهب والفِرَق، كلُّ واحد يدَّعي أن الكتاب ناصِرُه، وأنه مع الحقِّ لا يفارقه ولا يحيد.

وبعد أن بيَّن حالة هؤلاء الضَّالِّين الجاهلين، وضلالهم المبين في تقليدهم الأعمى لآبائهم أتباع الشياطين، بيَّن الطريقَ المستقيم؛ طريقَ الهدايةِ والسَّداد، واتِّباع سبيل الرَّشاد، فقال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ومَنْ يُخْلِصْ دينَه لله ويقصد في أعماله التقرُّب إليه؛ ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فيها، يفعلها بموجب العلم ومقتضى الشرع، ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد تعلَّق بعروة وثيقة لا يخشى انفصامَها، يريد: أنه قد تمسَّك بما فيه نجاحُه وفلاحُه. والإحسان هو: كلُّ ما يُحقِّق شيئاً من المُثل العليا، وعكسه: الإساءة.

---

(١) البيت لأحمد شوقي، وهو في «الشوقيات» (١: ٢٣٢).

ثم ختم الكلام بما يتضمَّن الوعدَ والوعيد، فقال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ فيُجازي المُحسِنَ بإحسانه، والمُسيءَ بإساءته.

ثم سلَّاه عن كفرهم وعنادهم متوعِّداً إيَّاهم بقوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ﴾ ونعاقبهم عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾ لا يخفى عليه منهم خافية.

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ في الدنيا، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾، أعاذنا الله وأرشدنا إلى ما فيه رضاه.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم تابع الكلام عن جهلهم وضلالهم في هذا الشِّرك المناقض للعقل، وأثبت ذلك عليهم بما لا ينكرونه ولا يستطيعون إنكاره، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ولكنهم جهلاء مُعاندون، فلا يحملهم ذلك على الإقلاع عن الشرك.

ونتيجةُ هذا الدليل: أنَّ مَن انفرد بخَلْق السماوات والأرض، يجب أن ينفرد بالألوهية. وقد أقام مقامَ هذه النتيجة قولَه: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي: على هدايته لك إلى النظر الصحيح. أو المعنى: إذن هو وحده المستحقُّ للحمد على إيجاده وإبداعه وما ينتج عن ذلك من نِعَمٍ للإنسان، وإذن فهو وحده المستحقُّ للألوهية والعبادة والرجاء. ولذلك أضرب إلى قوله: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أنَّ مَن انفرد بأفعال الألوهية

يجب أن ينفرد بالمعبوديَّـة. ويجوز أن يُعَلَّق «الحمد» أيضاً على ظهور صِدقِـهِ وكذبِ مكذِّبيه.

ثم قَرَنَ الإلزام بالتقرير، فقال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، فلا يستحقُّ العبادةَ فيها سواه.

ثم بيَّن تعالى استغناءَه عن إقرارهم بذلك وعن عبادتهم له، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: عن عبادة مَنْ لا يعبدُه من خَلْقِه، ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ بذاته وبآثاره العظيمة الشأن.

ثم أجمل البيان عن عَظَمة تلك الآثار الدالة على حَمْده، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[1] أي: لو جُعِلَتْ أشجارُ الأرض كلُّها أقلاماً، وجُعِلَت البحار حِبراً، وأُضيف إليها سبعةُ أمثالها، ما نَفِدَ ما في هذا الكون من مصنوعات الله وسُننه الكونيَّة، فأيُّ عجب في جانب هذه السُّنن العظيمة الكثيرة؛ نَـتْقُ الجبل كأنه ظلة، وخَلْقُ عيسى من دون أب، ونَقْلُ ذي القرنين لمنطقة الظهور الدائم، ونَقْلُ عرش بلقيس بطرفة عَيْن، وغير ذلك من السنن

---

(١) فالمراد بالكلمات هنا: بدائع صُنْع الله من ذكر السبب ـ وهي كلمة: (كن) ـ وإرادة المسبَّب. وقد نُقِلَ هذا المعنى عن بعض السلف، فقد روي عن قتادة أنه قال: لنفد البحر قبل أن تنفد عجائب ربي. وهذا المعنى متَّسق جداً مع السياق، إذ بعد أن بيَّن أنه خالق السماوات والأرض، وله كلُّ ما فيها خلقاً وملكاً، بيَّن أن مبدعاته لا تقف عند ما تعرفون وتدركون، ولكنها لا حدَّ لها ولا نهاية.
قال الفيلسوف نيوتن: إنَّ الناس ـ مع كل ما بلغوه من المعرفة وتوصَّلوا إليه من الاكتشافات ـ ليسوا إلا أولاداً صغاراً يلتقطون الأصداف والأعشاب التي يقذف بها بحر الحقائق، ينبذها خِضَمُّ المجهولات من حين لآخر. (المؤلف).
وكلام قتادة: ذكره الطبري في «تفسيره» (٢٠: ١٥١-١٥٢).

الكونيَّة[١]، لو أريد إحصاؤه والكلام عنه وعن فوائده ونِعَمِه فيه؛ إذ ما ترفع الريحُ ورقةً في الجوِّ إلا كان ارتفاعها وانخفاضها بقانون مضبوط وسنة كونية، وما يُلقى جسمٌ في الماء إلا كان غَوْصُه وسَبْحُه بقانون كذلك، وما ينبثق من الأرض نبات إلا كان تطوُّره وثمره شكلاً ولوناً وطعماً بقوانين كذلك، وهكذا الأمر في جميع الأشياء، كبيرها وصغيرها، مُهِمِّها وضئيلها. فما أعظم شأنَ الله وأعماله! جلَّت قدرة الله العلي القدير.

فالمراد من الكلمات: كلماتُه التكوينيَّـة، أو المراد: كلماتُ عِلمِه في ذلك[٢]. وعدد السبعة يأتي في لغة العرب في مثل هذا للتكثير لا للتحديد.

ثم ختم السياق مع هؤلاء المنكرين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ أي: إنَّ إمهالَه لهم لم يكن عن عَجْز من القدرة، ولكن لحكمة اقتضت ذلك.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) تقدَّم التعليق على ما ذكره المؤلف هنا أمثلةً على السنن الكونية العجيبة، وبيان أنها من المعجزات الخارقة للقوانين والسنن الكونية، خلافاً لما يدّعيه المؤلف من أنها واقعة بسنة كونية غير معلومة لنا. وقد تقدَّم بيان ذلك في كل مثال من المذكورات هنا في موضعه من هذا التفسير، فارجع إليها هناك.

(٢) كلماتُ الله تدلُّ على عِلمِه الشامل الذي لا نهايةَ له لكلِّ معلوم مهما دقَّ أو صَغُر، فلا تختلطُ معلومةٌ بأخرى، ولا تشتبه كلمةٌ بأخرى شبيهة بها. وتقدَّم التعليقُ على معنى «كلمات الله» في تفسير الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

ثم تابع السياق ببيان كمال قدرته على البعث وسهولته عليه، وأدمج فيه توعُّدَهم، فقال: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ في السهولة عليه والانقياد له سبحانه، وسهولةُ البعث كسهولة الخلق عنده تعالى، يُصوِّر بذلك هَوْنَ البعث عليه، وأنَّ قدرته فوق ذلك.

ثم بيَّن أنه يُحصي لهم وعليهم جميعَ أعمالهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ أي: لا يخفى عليه من أمركم خافية، وسيأخذ كلٌّ جزاءه، ويعلم كيف يكون البعث، كما علم كيف يكون الخلق.

ثم تابع السياق في دليل القدرة واختصاصه بالألوهيَّة، مُستَشهِداً على قدرته على البعث وسهولته عليه بما يعرفونه له من أعماله العظيمة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ فيزداد وينقص كلٌّ منهما تبعاً لحركة الأرض السنويَّة في فلكها ومَيْلها على محورها، ذلك النظام البديع الدالُّ على علم الله العظيم وحكمته البالغة وإتقانه السديد، ﴿وَ﴾ بهذا النظام ﴿سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ينتهي به عُمُرُ هذا الكون وتقوم قيامتُه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ فيُجازيكم على خيره وشرِّه.

ثم مَـخَضَ النتيجة من هذه الأدلة، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ العملُ العظيم المختصّ به سبحانه وتعالى، ينادي ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ﴾ الإلهُ ﴿ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ من الآلهة هو ﴿ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ الفاضحُ لسَخافة عقولهم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾، ما أعظم هذا الإلزام! وما أكبر هذا الكلام!

ثم تابع دليلَ القدرة والإبداع الدالَّ على استحقاقه الإلهيَّة وحده، مُبكِّتاً لهؤلاء المشركين الضَّالِّين، ومُنبِّهاً إلى نظام عَوْم السُّفن العظيمة في البحر، وفوائدها العميمة،

فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ وهي خَلْقُ الاستعداد في الماء لَحَمْل الأجسام الثقيلة، إذا كانت على وضعيَّة خاصَّة، ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ وهو عَوْمُ هذا الفُلْكِ العظيم على الماء، ولولا ذلك لتعطَّل الإنسان من منافع هذه البحار الواسعة المدى، التي هي أكبرُ مساحةً من اليابسة، وعَجَزَ عن السَّير فيها والانتقال من بلد إلى بلد على حوافيها، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ فالذي يصبر على مَشَاقِّ الأسفار في البحار النائية، ويتحمَّل شدائدها، يشاهد من عجائبها ما يدلُّه على عَظَمة الله، فإذا كان شكوراً محافظاً على سلامة فطرته علم من تلك العجائب استحقاقَ الله سبحانه أنْ يُعبَدَ وحده دون سواه.

ويجوز أن يراد بالصَّبَّار الشكور: المؤمن؛ لأنَّ الصبر على البلاء والشكر على النَّعماء من خصائصه، والمؤمن مُسْتَعدٌّ للنظر والتدقيق في آيات الله؛ لأن الإيمان يُنير القلب ويُجلي البصيرة، إذ يكون صاحبه محافظاً على سلامة فطرته ونور بصيرته.

ثم أشفع الدلائل العقلية والكونية على التوحيد، بدليل الفطرة عليه، وساوق به البحث، فقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ جمع ظُلَّة، وهي ما يُستَظَلُّ به من الحرِّ أكبَرُ من الخباء، أو السُّحُبُ المظللة، أي: إذا غشيهم هذا الموج العظيم، وأحاط بهم الخوف من كلِّ جانب؛ انصهرت نفوسهم، وتجرَّدت من الغش العارض، وعادوا بفطرتهم الصحيحة إلى معرفة الحق في الله، وأنه هو الصَّمَد، فأنابوا و﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ دون سواه من شركائهم؛ لِزَوال ما ينازع الفطرة من الهَوَى والتقليد، بما دهاهم من الخوف الشديد.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وزال عنهم الخطر واستَقرَّت نفوسهم من زلزالها؛ عاد العارض على نفوس المشركين لانطباعهم عليه، وغفل المؤمنون بعض الغفلة أيضاً،

كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: جارٍ في طريق القَصْدِ والاعتدال، وهو المؤمن الكامل، أو معتدلٌ في ذلك الإعراض، وهو المؤمن الغافل، ومنهم مُغَالٍ جاحد، وهو الكافر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: غدَّار بعهده، جاحد لنِعَم الله.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

وبعد أن ذكر هذه الأدلةَ المتعاقبةَ بأساليبها المتنوِّعة التي تُلمَسُ منها قدرة الله البالغة لَـمْساً، والتي ثبت بها أساسا الدين، وهما: استحقاقُ الله وحده لأن يُعبَد، وقدرتُه على إعادة الموتى وحَشْرِها للحساب، مَخَضَ النتيجة فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبينه وقايةً من عذابه، وذلك بأن تَتَمسَّكوا بما يأمركم به، وتجتنبوا عمّا ينهاكم عنه، فلا يفقدكم حيث أمركم، ولا يراكم حيث نهاكم، ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يُغْني فيه أحدٌ عن أحد، بل كلُّ امرئ تـهمُّه نفسُه ومَـجْزيٌّ بعمله، ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ لا خُلْفَ فيه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ قيل: هو الشيطان، وقيل: هو كلُّ شيء يغرُّك في معصية الله.

وبعد أن ذكر هذه الآيةَ الواعظةَ الزاجرةَ إثْرَ سَرْدِ تلك الأدلة الملزمة، خَتَم السورة بما هو مزيجٌ من الوعظ والاستدلال على القدرة والتَّمَجُّد بعظيم الأعمال، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فتجوَّز بالعلم وتوسَّع به عن إيقاعها، وعن قُدرة الله في ذلك.

أي: إنَّ الله هو الذي يقيم الساعة في أجلها المعيَّن الذي استأثر الله بعلمه، فلا يعلمه أحدٌ سواه.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ بمقتضى سُنن الله الكونية الدالة على عظيم قدرته.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ فيعلمُ أيَّ حيمن من الملايين في النطفة لقَّح البويضة، ويعلم سائر صفاته، ذكر أو أنثى، وملامح الوجه، ولون العينين، والشعر والطول، إلى غير ذلك من المشخصات، وهو علّام الغيوب، وكذلك يعلم ما سيفعل من أعمال السعادة أو الشقاء، وأعمال الجنة أو النار.

وقد تجوَّز بالعلم أيضاً عن عِظَم الأنظمة ودقائق الأوضاع في الرَّحِم، وبدائع الانفعالات في عمليّاته تلك التي لم يتهيّأ للعلم الحديث على جلالة قَدْره حلُّ كثير من أسرارها الغامضة وخفاياها.

ثم ساوق الكلام عن علم الله، مدمجاً بيان عجز الإنسان في العلم عن ألصق الأشياء به، وأقربها إليه، وأهمها لديه، ولا يعلم ذلك إلا الله سبحانه، فقال: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾، وقد استأثر بعلم ذلك كلِّه واختصَّ به تعالى، فلا يعلمه أحدٌ سواه، وعِلْمُ ما كان وما يكون ما انفكَّ عنه سبحانه من الأزل إلى الأبد، فهو عالمٌ بذلك كلِّه علماً واحداً، فما أجهَلَ المشرك ومَنْ والاه!

* * *

سُورَةُ السَّجْدَةِ

مكيَّة، وهي ثلاثون آية

وقد جاء في هذه السورة:

- إثباتُ تنزيل القرآن.

- والحثُّ للمؤمنين أن يصبروا على أذى المشركين، وسيُجازيهم على ذلك بما جازى به الأئمة الصابرين من بني إسرائيل.

- ثم بيَّن عاقبة مَنْ آمن ومَنْ كذَّب بالدين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ
هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا
شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ
سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ
خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ
وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها، اهتماماً به. ومنه هنا: قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا ريب أنه مُنـزَّلٌ ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾.

يُقـرُّون بذلك ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾؟ فساقَ هـذا العطفَ على المقدَّر مَساقَ الإنكار عليهم، والتعجيب منهم؛ لظهور بطلانه، واستحالة كونه مفترىً. ثم أضرب عنه إلى بيان حقيقة ما أنكـروه فقال: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، ثم ذكر الغاية من تنزيله فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: لم يأتهم نذيرٌ منذ زمن طويل[1].

---

(١) أو المعنى ـ وهو الراجح ـ: لتنذر قوماً الشيءَ الذي سبق أن أتاهم من تعاليم الدين، وهو ما جاء به إليهم إسماعيل بن إبراهيم، واستمرَّ مُتوارَثاً فيهم، حتى غيَّروا وبدَّلوا.

وعبَّر بالنفي المطلق؛ لأنـهم كانوا في آخر عَهْدِ مَنْ سبقه من الأنبياء، حيث يَضْمَحِلُّ الأمر، ولم يبقَ له تأثير. فأفاد بـهذا التعبير شدَّة الحاجة إلى تجديد العهد لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾.

ولما كان أهمُّ ما في هذا الكتاب الـمُنزَّل الدعوةَ إلى معرفة الله تعالى واختصاصه بالألوهيَّة، نَـبَّه إلى اختصاصه بأفعالها وصفاتها، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: خَلَقَ السماوات والأرض في ستَّة أدوار[1]، ثم أخذ يُدبِّر أمْرَها. فعبَّر بالملزوم عن اللازم؛ لأنَّ الاستواء على العرش يستلزم تدبير أمر المملكة، فأصبح كنايةً عنه، والله سبحانه يخاطب الناس في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم، تقريباً للأفهام. وقد مرَّ تفسير هذه الآية في سورة الأعراف[2] وغيرها.

ولما كان قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يتضمَّن السلطان المطلق، عقَّبه بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ إذا جاوزتُـم رِضَـاه، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾ الأمـرَ فـتَـتَّقوه؟!

---

(١) تفسير الأيام بالأدوار لا نوافق عليه المؤلف رحمه الله تعالى، ولا حاجة لتأويل الأيام بالأدوار بحال من الأحوال. ويُحمَلُ المُطلَق في هذه الأيام على المُقيَّد الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وفي قوله عزّ وجل: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، فأحال العدد في الآيتين إلى مدّة تقدَّر في زماننا بألف سنة، فيطَّرد ذلك في جميع التقادير الزمنيَّة التي يذكرها سبحانه على نسبة التقدير من أيام هذا الزمان في كل المناسبات، كما قال سبحانه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] أي: ممَّا تعدُّون. والله تعالى أعلم.

(٢) في الآية ٥٤ منها.

ثم ذكر شأناً من شؤون الله سبحانه يدلُّ على سُلطانه العظيم، لتربية المهابة والخشية منه تعالى، فقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مدَّة عُمُر الدنيا حتى قيام الساعة، ويُحصي عليكم ما تعملون، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ذلك الأمرُ ويرجع إليه دون سواه، إذ ينقطع التصرُّف الظاهريُّ للبشر، وذلك ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾[1]، والألفُ في عُرْفِ تَخاطُبِ العرب للمدّة الطويلة، لا لمفهومه المحدود، والمراد به: يوم القيامة أو يوم الحساب؛ ليحكم فيه بأمره، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحاكمُ العادل ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لا يخفى عليه من أمر الناس خافية، وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعجزه شيءٌ من الأعمال، ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾ في جميع أعماله والمتفضِّل فيها بالإحسان.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ بمقتضى الحكمة والمصلحة، ﴿وَ﴾ من ذلك أن ﴿بَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ حيثُ خلق أصلَه ـ وهو آدم ـ من سُلالة من طين، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾، وهذا الوصف لزيادة التحسيس بعَظَمةِ قدرةِ الله، حيث خَلَقَ من هذا الماء المهين مخلوقاً هو في أحسن تقويم. والسلالة: الصفوة التي تَنسَلُّ من غيرها، ويُسمَّى ماء الرجل: سلالة؛ لانسلاله من الغُدَدِ المُفرِزة له، والأغذية المكوِّنة له.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي: جعَله بَشَراً سوياً مُسْتعداً لقَبول الرُّوح، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي: التي هي من أشرف مخلوقاته سبحانه وأكثرها وجوداً. وإضافتُها إلى نفسه إضافةُ ملك واختصاص على وجه التشريف، للإيذان بأنها من أخصِّ مخلوقاته وأميَز

---

(١) مفهوم الزمان لا وجود له في غير عالمنا من العوالم الأخرى، فالمدد الطويلة تعدُّ قصيرة فيها، والله أعلم. فيجوز أن يُرادَ به يوم الحساب. (المؤلف).

بل المراد به: الأمور التي تكون في مدة الحياة الدنيا، أما يوم الآخرة فقد جاء في الآية ٤ من سورة المعارج: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

موجوداته، كما يقال: أعطاه من لآلئه، أو من مجوهراته، ولإفادة أنها خَلْقٌ عجيب وصُنع عظيم؛ إذ كلُّ شيء عظَّمه الله تعالى أضافهُ إلى نفسه، فقال: بيت الله، وناقة الله، وروح الله، وللإيماء إلى أنَّ الإنسان فيه ناحية مَلَكيَّة؛ إذ إنَّ الـمَلَكَ مخلوقٌ من مجرَّد هذه الروح. والله أعلم.

والتعبير بالنفخ عن خَلْق الروح ـ والله أعلم ـ للإشعار بأنه جسمٌ خفيفٌ لطيف، وأنه مستقلٌّ عن البدن لا ممتزج به، وأنَّ البدن له كالظرف والغلاف، وعلى شكله ورسومه.

ثم أتبع الامتنان بنفخ هذه الروح فيه بذكر أعظم مواهبه له، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ فخصَّ هذه المواهب بالامتنان؛ لأنها أهمُّ المواهب الإلهية في الإنسان بعد الروح، ولأنها في ذوات الأرواح كالإنسان وسائل للعقل الذي مركزه الروح. والله أعلم.

وغيَّر الأسلوب إلى الخطاب لزيادة التحسيس بعِظَم الـمنَّة، أو ليُوجِّه الكلام إلى المشركين فقط، ثم أنَّبهم على كفرهم بهذه النعم، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ والقلَّة ليس لها سلطان على القلوب، فهي في حكم النفي. والتعبير بها دون النفي المطلق لِتحرِّي الصِّدق الدقيق، على نهج القرآن في ذلك.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ثم ذكر من كفرهم إنكارَهم للحشر، وقَرَنَه بالردِّ عليهم، فقال: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: إذا انحلَّت أجزاؤنا واختَلَطت بأجزاء الأرض وذرَّاتها وضاعت فيها ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي: نُجمَعُ ونُعاد، ونحيا ونُبعث. ينكرون ذلك ويُكذِّبونه ويستبعدونه، ولم يعتبروا بكثرة الأدلة المثبتة له، ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

فأجابهم ببيان الحق الواقع، رداً على زعمهم الباطل، فقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ وفيه تنبيه إلى أن الوفاة ليست بأقلَّ عَجَباً من البعث لو تشعرون. ووجه الردِّ: أنَّ الرجوع طَوْرٌ من أطوار الإنسان كالوفاة، ولازمٌ من لوازمه، فما وجه إنكاره واستبعاده؟ والتعبير بقوله: ﴿ يَتَوَفَّىٰكُم ﴾ مُؤْذِنٌ بأنَّ الروح لا تنعدم، ولكن تُسْتَرجَعُ مُسْتوفاةً لا ينقص منها شيء.

ثم ذكر ما يكون من أمرهم بعد رجوعهم إلى الله تعالى، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ﴾ هؤلاء ﴿ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ حياءً من إنكارهم في الدنيا لهذا الموقف، وخوفاً منه، لِـمَا اقترفوا من القبائح في الدنيا، قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا ﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ ونتلافى ما فات، ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ الآن بما كنَّا نكفر به من قبل[1].

ثم بيَّن تعالى أنَّ عصيانَهم له وكفرَهم به ومعارضَتَهم لرسله، لم تكن قَسْراً للإرادة الربّانية، ولا عن عجز في القدرة الإلهيّة. ولو أراد أن يخلقهم مقسورين على الطاعة لفعل، فقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾، وذلك أن يخلق البشر مُسيَّراً للهداية

(١) وجواب (لو): لرأيتَ أمراً فظيعاً. أي: لا يستطيع مخلوقٌ تقديرَ ما فيه، لأنه أفظع ممَّا رأى وسمع أو خطر له.

مَقْسُوراً عليها، كالملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ولكن الحكمة الإلهيَّة شاءت في خلق الإنسان أن يكون ذا علم واسع، ودراية وافرة، وعقل، يتصرَّف في الأمور، ويعمر الأرض، ويستفيد من خيراتها، ولا يكون ذلك إلا بعلم واسع، ولا يحصل إلا بالاختيار، كما يُؤْذِنُ بكلِّ ذلك آيةُ البقرة[١] مع الملائكة في هذا الشأن لمن يتدبَّرون. والله أعلم.

وهذا النوع من الخلقة لا يكون صاحبه إلا مختاراً في تصرُّفاته، فيكون طوْعَ إرادته، ويندفع إلى الخير أو الشر باختياره، ويُنمِّي استعداده لأحدهما بصنعه حسب نشأته وتربيته. وقد هداه الله للخير بهدايتين: بطبيعته الميَّالة إلى الخير ما لم يفسدها بمفاسد التربية والتقليد الأعمى، وبالرسل الذين يُرسلهم لهدايته. فمنه مَنْ يتَّبع الهدى، ومنه مَنْ يُعرض عنه ويُعارضه، فيستحقُّ الأول النعيم، ويستحقُّ الثاني الجحيم والعذاب الأليم، استحقاقاً طبيعياً[٢]، وقد عبَّر عن هذا بقوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: من الذين ظلموا أنفسهم بتردية استعدادها للخير، وتنمية استعدادها للشر، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧، النحل: ٣٣].

وبعد أن استطرد بهذا الاستدراك، وبيَّن طبيعة الإنسان، إيذاناً بأنَّ هؤلاء المجرمين إنما أوقعوا أنفسَهم في هذا البلاء بصنعهم وانحرافهم، عاد إلى السياق وردَّ عليهم وبال أمرهم، ونَعَى عليهم، وبالغ في إيلامهم بقوله: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ هذا العذابَ الأليمَ الذي

---

(١) يعني الآية ٣٠ منها وما بعدها.

(٢) ترتُّبُ الثواب والعقاب على عمل الإنسان ترتُّبٌ شرعي لا طبيعي، يعني: أنه محكوم بالنص الوارد فيه، ليس له سبب غير أن الله تعالى حكم به في شريعته التي أنزلها على عباده، لا أن له سنة كونية أو قانوناً طبيعياً، فتنبه.

هيّأتموه لأنفسكم ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ فلم تؤمنوا به ولم تأخذوا حِذرَكم منه وتعملوا له، ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: إنا تركناكم اليوم في العذاب الدائم تَرْكَ الشيء المَنْسيّ. وعبَّر بهذا للمشاكلة، وللإيذان بإبقائهم في العذاب، وحرمانهم من النعيم المقيم.

وقد تابع هذا المعنى مُوَضِّحاً لهم بأن هذا العذاب من نتائج أعمالهم، ومُترتِّب عليها ترتيباً طبيعياً، فقال: ﴿وَذُوقُوا۟(١) عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾، فجَعل هذا خلاصةَ الرد، وأضاف إلى العذاب وَصْفَ الخلد.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم استأنف الكلام لبيان المؤمنين وأحوالهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ﴾ لم يُفسدوا فِطَرَهم ويطمسوا نُورَ بصائرهم، فهم ﴿إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ أي: بالآيات ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا(٢) وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: نزَّهوه عن كلِّ ما لا يليق به، وحَمَدوه على جزيل

---

(١) أي: تحسَّسوا وتحمَّلوا أهوال العذاب بكل ما أنتم عليه. والذوق يكون باللسان وجميع الحواس، وفي تكراره معنى التوكيد.

(٢) أي: سقطوا سجَّداً ملاصقين وجوههم للأرض. وأصل الخرور: السقوط على الأرض بدون =

نعمـائه، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ عمَّـا يستكبر عنه المشركون.

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ [(١)] ﴾ وهذا أكبرُ وَصْفٍ لهم بتَهجُّدهم الطويل، ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا ﴾ من عذابه ﴿وَطَمَعًا ﴾ في رحمتـه ونعيمه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ في وجوه البرِّ والإحسان. فيقابلون الرزقَ بالشكر والامتنان.

ثم سَجَّل لهم هذا الوعدَ الكريم والجزاءَ العظيم بقوله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: لا يعلم أحدٌ عِظَمَ ما خُبِّئ لهم مما تـقرُّ أعينُهم به. وهذا أبلَغُ عبارة في تفخيم ذلك الجزاء. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سَمِعَت، ولا خطر على قلب بشر»[(٢)] ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

ثم قـرَّر البحث عن الـمصيرَيْن، وأعـاده بأسلوب آخر مسبـوك على التعليل والمفارقة، فقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾ أي: خارجاً عن طريق الإيمان، بالكفر والعصيان، وأردف الإنكار بالنفي فقال: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾.

ثم فصَّل نتيجة التباين، فقال: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ لأنها هي الـمأوى والـمُسْتَقَـرُّ الحقيقي، والدنيا منـزلٌ مُستودَعٌ ومُرتَـحَلٌ

= نظام ولا ترتيب سابق، كما في قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ ﴾ [النحل: ٢٦]، وتستعمله العرب في السجود على الأرض لإعلان الخضوع التامّ، كمـا في قوله تعالى: ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧]، وفي قوله تعالى: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ [مريم: ٥٨].

(١) تتجافى: أي تترك وتبتعد وترتفع. والجنوب: جمع جنب، وهو طرف الإنسان. والمراد: جسم الإنسان كله. والمضاجع: جمع مَضْجَع بوزن: مصنع، وهو مكان النوم.

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤)، عن أبي هريرة.

عنه. وقد أعدَّها الله لهم ﴿ نُزُلًا ﴾ أي: ثواباً مُعَجَّلاً ـ وهو في الأصل ما يعدُّ مستعجلاً للضيف النازل من الطعام والشراب، شبَّه به دخول الجنَّات المعدَّة للمؤمنين ـ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾، اللهمَّ اجْعَلنا منهم يا أرحم الراحمين.

وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ ثواب الآخرة مُرَتَّبٌ على أعمال الدنيا الصَّالحة ترتيباً طبيعياً[١]. وكذلك العذاب، كما قال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ ﴾ أي: خرجوا عن الإيمان إلى الشِّرك والعصيان ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، ثم صوَّر خلودهم وشدَّتهم فيها بقوله: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾، وفي هذا القول تأنيبٌ لهم وتَنْديم.

ثم بيَّن تعالى أنه يذيقُ المشركين شيئاً من عذاب الدنيا، ليحملهم على الرجوع إلى الهُدى، فقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ[٢] لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: يرجعُ مَنْ بقي منهم ويعتبر، أو يرجعُ مَنْ وراءهم. لأنَّ الكلامَ عن الصنف كلامٌ عن مجموعه؛ سابِقِه ولاحِقِه.

ثم أجمل السياق بما هو كالتعليل المبرِّر لإذاقتهم العذاب، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإعراض بعد التذكير واستفظاعه. وقد أردف الإنكار بتقرير الحكم والوعيد، فقال: ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: آخِذُوهُم بالعذاب. وقد يُستعمل الانتقام في عُرف التَّخاطُب بمعنى التَّشفِّي بالعقوبة، وهو بهذا المعنى مُحَالٌ على الله سبحانه، فالمراد به مجرَّد التعذيب.

---

(١) تقدم التعليق على مثل هذه العبارة قبل صفحتين.

(٢) أي: وأقسم لنُذيقَنَّ هؤلاء الفاسقين المكذِّبين بعضَ العذاب الأقرب الأصغر من مصائب الدنيا ومحنها وأسقامها قبل العذاب الأكبر يوم القيامة، حيث يُعذَّبون في نار جهنَّم.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ثم أردف هذا السياق بما يُسلِّيه ﷺ ويُثبِّته تجاه هؤلاء المشركين المجرمين وإعراضهم ومعارضتهم، وأدمج فيه إلزامَهم بما لا ينكرونه، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ كما آتيناك، ولقي بذلك أذىً ممَّن أُرسِلَ إليهم، ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ والضمير: إما أن يعود إلى الكتاب، إذ المراد به جنسُ الكتاب السماوي، على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النمل: ٦]، وإما أن يعود إلى ما لقي موسى من الأذى، نتيجةَ تبليغ الكتاب، بمعنى: أن ذلك سنةٌ من سنن الاجتماع لا بدَّ أن يلقاها الرسول المبلِّغ عن الله. فقوله: ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي: من مثل لقائه. قال الحسن: فلا تكن في شكٍّ من لقائك ما لقيَ من الأذى.

وعلى الأول، يكون مُحصَّل المعنى: فلا تكن في مِرْية من لقاء القرآن، أي: من تلقِّيه عن الله، كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، يريد: إنا آتينا موسى مِثلَ ما آتيناك من الكتاب، فلقيتَ من الوحي مِثلَ ما لقي موسى، فلا تكن في شكٍّ من أنَّك لقيتَ واستقبلتَ كتاباً مِثلَه، ونظيره: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩]،

ويكون هذا خطاباً للأمة وللمعارضين في شخص النَّبيِّ ﷺ، على نـهج القرآن في مثله(١).

ثم قال في إتمام البيان: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتابَ الذي آتيناه موسى ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَ﴾ بذلك ﴿جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ بما في تضاعيف ذلك الكتاب من الحِكَم والأحكام ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إيَّاهم بذلك، أو بتوفيقنا لهم على ذلك ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ على مقاساة الشدائد في نصرة الدين، ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ والمعنى: لَـنَجْعَلَنَّ كذلك الكتابَ الذي آتيناكَهُ هُدىً لأمتك، ولَـنَجْعَلَنَّ منهم أئمةً يَـهْدُونَ مثل تلك الهداية(٢).

ووجه الإلزام في الآية: أنا أرسلنا لهم موسى كما أرسلناك، وأنزلنا عليهم التوراة كما أنزلنا عليك القرآن، فما وجه إنكارهم عليك؟ وما كنتَ بدعاً من الرسل!

ثم توعَّـد الـمعارضين بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الأنبياء ومعارضيهم من أممهم، وبين المشركين المعارضين لك؛ يقضي بينهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ من أمر الأديان واختلافهم فيها، ويُجازيهم على ذلك جزاءً وفاقاً.

---

(١) أو الخطاب للمُنكِرين رسالةَ محمد ﷺ بدلالة السِّياق قبل هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ...﴾ [الكهف: ٥٧]، والمعنى: أؤكِّد لك ـ أيها المُنكِرُ رسالةَ محمدٍ والمكذِّبُ بالقرآن ـ أننا آتينا موسى كتابَ التوراة من قبل بعثة محمدٍ وإنزال القرآن عليه، وجعلنا موسى والتوراة هدىً لبني إسرائيل، فلا تكنْ في شكٍّ من لقاء موسى يوم القيامة، وتعلم حينئذ يقيناً أنا أرسلناه وأنزلنا التوراة هدىً لبني إسرائيل، كما أرسلنا محمداً وأنزلنا عليه القرآن هدىً للعالمين.

(٢) أو المعنى ـ على أن الخطاب لمنكري رسالة محمد ونزول القرآن عليه ـ: فإذا آمنتُم بمُحمَّد ﷺ وبالقرآن المُنزَّل عليه، وصبرتُم وأيقنتُم، جعلنا منكم أئمَّةً هداةً دعاةً إلى الخير، يأتمُّ الناسُ بهم.

ثم قرن التهديد بالتقريع، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ[١] يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾، وقد ضمَّن ﴿يَهْدِ﴾ معنى: يكشف ويُجلِّي، فعدَّاها باللام، على نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدِّمة الثانية، وفي النوع الثاني عشر من المقدِّمة السادسة في أنواع مجازات القرآن). أي: أو لم يُجلِ لهم الأمرَ كثرةُ ما أهلكنا قبلهم من القرون لـمّا كذَّبوا الرسل، فجعلناهم أحاديث، ومزَّقناهم كلَّ مُمزَّق، وهم يَمرُّون بديارهم ويَرونها بأعينهم أثناء أسفارهم، كديار صالح عليه السلام بين مكة والشام، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ[٢] لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ هذه الآياتِ سماعَ تدبُّرٍ واتِّعاظ؟!

ثم قَرَنَ التهديدَ بدليل القدرة والمنَّة تحقيقاً لإنجازه، وسبكه على الامتنان فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أي: المحصودة، وأراد بها: مُطلَقَ اليابسة التي لا نبات فيها، مِنْ ذِكْرِ الخاصِّ وإرادةِ العامِّ للمبالغة في الوصف، أي: نسوقُه إلى الأرض القاحلة ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ذلك، فيُدركون به قدرتَنا على إعادة الموتى؟! لأنَّ الفِعلَين متشابهان، فقد جاء في الحديث ما معناه: «إنَّ الله سبحانه يُرسِلُ يوم القيامة ما يُشبهُ المطر، فيَنبُتُ به عجبُ الذنب كما تنبت الـحِبَّةُ في حَميل السَّيْل»[٣]، وعجب الذنب: جزء دقيق لا يُدرَكُ في مُؤخَّر صُلْب الإنسان، لا يفنى أبداً، وهو نواة الحياة، والله أعلم.

---

(١) أي: الأمم الخالية المُقترنين في زمن واحد.

(٢) أي: في مواطن المُهلَكين السابقين، وبقاء بعض آثارهم فيها، لدلالاتٍ يُستَدَلُّ بها على سُنّة الله في إهلاك الكافرين المكذِّبين.

(٣) رواه الحاكم (٤: ٥٤١) من حديث طويل بلفظ: «كنا عند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فذكر عنده الدجال... فيرسل الله ماء من تحت العرش كمني الرجال فتنبت لُحمانُهم وجُثمانهم من ذلك الماء كما ينبت الأرض من الثرى... »، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

ثم أردف هذا بإصرارهم على الإنكار واستهزائهم بالوعيد، وقرنه بالرد والتهديد الشديد، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي: النصرُ علينا أو الفَصْلُ بيننا، أو إعادتُنا بعد الموت لينتقم منا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أنَّ الله ينصركم علينا أو يفصل بيننا وبينكم بحكمه؟

فأجابهم بما فيه ردٌّ وتقرير ضمن التيئيس من النجاة حينذاك، فقال: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ إذا أرادوا أن يؤمنوا حينئذ جزعاً من العذاب، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: يُمْهَلون كما يُمْهَلون في الدنيا.

وبعد أن بيَّن لهم المسائل، وأتقن لهم الدلائل، فلم ينتفعوا بكلٍّ ذلك، قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تُبالِ بتكذيبهم، ولا تُناظِرْهم بعد ذلك، بل قاتِلْهم ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ إهلاكَهم ونُصْرَتَك عليهم، ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ هلاكَكَ وغلبتَهم عليك، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

* * *

سُورَةُ الأَحزَابِ

مدنية، وهي ثلاث وسبعون آية

جاء في هذه السورة ذِكرُ أحكام تتعلق بالنبيِّ ﷺ، نزلت زمن غزوة الأحزاب، ولذلك قُرنت بقصتها.

وأهم تلك الأحكام: إبطال التَّبنِّي، وكان عادةً مستحكمةً، فأمره أن يقوم بإبطالها بصورة فعلية، وإن صَعُبَ عليه ذلك؛ لِـمَا سيقارنها من المشاغبات، ولهذا ابتدأت السورة بأمره بتقوى الله، وأن لا يهتم بالأراجيف، ويخشى الكافرين والمنافقين وتقوُّلاتهم، فهي هَباء وهُراء.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا (١) وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا (٢) وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا (٣) مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ (٤) ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا (٥) ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا (٦)﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، ثم علّل هذا الأمر والنهي بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا (١)﴾[(١)]، أي: فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة، ولا ينهاك إلا عمّا فيه مفسدة، ولا يحكم بشيء إلا لأنّ الحكمة البالغة تقتضيه.

(١) يتبع القرآن هذا الأسلوب، والسامع إما أن يكون متمسّكاً به مثل النبي ﷺ، وإما أن يكون جاهلاً به، وإما أن يكون معارضاً له. فالصنف الأول: يتنوَّر قلبه بموافقة سلوكه لما يرضى الله. والثاني: يتعلم منه ويتبعه. والثالث: يزدجر، وربما تنفعه الموعظة. والحاصل أن مثل هذا إنما هو أسلوب من أساليب القرآن، يسمعه من يوافق ما في نفسه ـ وهو الرسول ـ فيأنس لذلك، ويسمعه من يخالفه فيرتدع، ويسمعه المقصر فيه فيكمله ويحرص عليه. (المؤلف).

ومثل هذه الآية تأتي في القرآن لوناً من ألوان شدّة البيان، لا يراد بها حقيقةُ معناها؛ إذ يستحيل عليه ﷺ أن لا يتقي الله، أو أن يطيع الكافرين والمنافقين. ويجوز ـ وهو الأظهر ـ أن يكون الكلام مجرَّد تشجيع وتهييج له ﷺ على تنفيذ الإبطال لأحكام هؤلاء الكفار وتشريعاتهم التي سيأمره بإبطالها في هذه السورة، وهي التبنِّي والظِّهار، فتكون براعة استهلال لذلك، ولهذا أردفها بقوله: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾، ثم بالغ بالحَمْل على التمسُّك به على الوجه المطلوب، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ ﴾، ولفظة ﴿ كَانَ ﴾ هذه لتحقُّق الوقوع، جيء بها للمبالغة في التحذير.

ولما كان مقتضى هذا الأمر ـ وهو إبطال التبنِّي ـ مظنَّةَ هياجِ الكافرين والمنافقين عليه، ثبَّته تعالى بقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣ ﴾ أي: حافظاً وموكولاً إليه كل الأمور، فلا تَـهَبْ أحداً في نشر دعوتك، وإنجاز كلمتك، وتحرير قضيتك. ويجوز أن يكون الكلام تعليقاً في عتابه على تَباطُئِـهِ في التزوُّج بزينب لإبطال التبنِّي، خوفاً من إثارة فتنة، وتقوُّلات من المشركين والمنافقين، وضمَّن سبحانه بأن الله يضع الأحكام عن علم دقيق وحكمة بالغة.

ثم ردَّ على المشركين ومَهَّد له بقوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ قال أبو مسلم: أي: ليس لأحد قلبان يؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر، وإنما هو قلب واحد، فإما أن يؤمن، وإما أن يكفر. والمعنى: أنه لا يمكن الجمع بين اتِّباعَيْن متضادَّيْن: اتِّباع الوحي والقرآن، واتباع أهل الكفر والطغيان. فكنَّى عن ذلك بذِكرِ القلبين؛ لأن الاتِّباع يصدر عن الاعتقاد، والاعتقاد مصدرُه القلب في عُرف العرب، فكما لا يجتمع قلبان في جوف واحد، لا يجتمع اعتقادان متضادَّان في قلب واحد.

وقد مهَّد بهذه الجملة للحكم الآتي، وهو إبطال تشريعين ابتدَعَهما هؤلاء الكافرون

الذين نهاه عن إطاعتهم، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ كان الرجل في الجاهلية يقول لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، فكانت تكون عندهم أماً له، تجري عليها أحكام الأم من ميراث وتحريم، فأنكر عليهم سبحانه وتعالى هذا الحكم الجاهلي، وشنَّع عليهم به. وقيل: بل تكون الزوجة عندهم بذلك معلَّقةً، لا زوجة ولا مطلّقة، فتُقاسي أشدَّ التعاسة. وقد جعله الإسلام في حكم الطلاق.

وكذلك كان أحدهم يتبنّى له ابناً لغيره، فيجري عليه أحكام الابن الصحيح، من ميراث وتحريم وتحليل، وتنقطع صلته بأبيه الحقيقي، فيكون عنه في حكم الأجنبيّ. ومن سيِّئاته: مشاركة المتبنَّى للوَرَثة الحقيقيين في الميراث، وعِشرَتُه لبنات المتبنِّي وزوجته بصفته ابناً لها وأخاً لهنّ. هذا هو حكمهم الجاهلي في هذين الأمرين.

وقد أبطل الله سبحانه هذين الحكمين في هذه الآية، وسخَّف وجهة نظرهم فيهما، وإني ألمح من نَظْم الآية ـ والله أعلم ـ شعاعَ تنظير يزيد قوةً في إبطال هذين الأمرين، أي: كما لم يجعل الله لرجل قلبين في جوفه، لم يجعل زوجَ الإنسان أماً له، ولا ابنَ غيره ابناً له. أي: لم يجمع الله بين زوجية وأمومة في امرأة، ولا بين أن يكون الشخص دَعِيّاً وابناً حقيقياً، كما لم يجعل قلبين في جوف واحد، ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ فحكمه هو السَّداد، وهديُه هو الرَّشاد، فاتركوا أحكامكم واتَّبعوا أحكامَه.

﴿ ٱدْعُوهُمْ ﴾ أي: مَنْ تَـتَبنَّونـهم، ادعُوهُم ﴿لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي: انسبوهم إليهم وخصُّوهم بهم، فذلكم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلا تنسبوهم لأنفسكم، ولا تُجروا عليهم أحكام الأبناء الحقيقيين. وكلمة ﴿أَقْسَطُ﴾ لم يُقْصَد بها التفضيل، وإنما قُصِدَ بها المبالغة في الوَصْف، حثاً على التمسُّك بالحكم الذي أكمله بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾

لأنهم مجهولو النسب ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ فادعُوهُم بذلك، وأجْرُوا عليهم حكمَه، والأول والثاني في العبيد.

ثم قال في إتمام التشريع: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: إثم ﴿فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ فنسبتموه إلى المتبنّي ظانّين أنه ابنه حقاً، أو بطريقة السهو والنسيان وسَبْق اللسان، ﴿وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ﴾ به ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ في ذلك النَّسَب والانتساب، فهو الذي يؤاخذكم به. وفي هذا التغليظ تُدرك حرمة الانتساب لغير الأب والعشيرة أيضاً.

ثم ختم الحكم بما يختم به أكثر الأحكام المبدَّلة لأحكام الجاهلية، وهو العفو عما سلف، فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ أي: يغفر ما صَدَرَ منكم قبل هذا، رحمةً بكم. وكذلك ما كان بعده عن سهو أو خطأ غير متعمّد.

ثم أقرَّ أمْرَ النَّسَبِ الدينيّ بين أفراد المؤمنين، وأُخُوَّتَهم الدينيةَ تحت أبوّة النبيِّ ﷺ وأمومة أزواجه، دفعاً لِـمَا عساه يَرِدُ على الأفكار من كراهية ذلك بعد بيان هذا الحكم والتغليظ فيه. فذكر أنَّ النَّسَبَ الديني ثابتٌ مقرَّر، ولكنه نسبٌ أدبيٌّ فقط، لا تجري عليه أحكام النَّسب الحقيقي من ميـراث وتحريم وتحليل، إلا في حرمة نكاح زوجات النبيِّ ﷺ؛ لثبوت ذلك بأمر خاصّ سيأتي في هذه السورة، فقال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: هو أحرصُ على مصلحتهم الدنيويَّـة والأخرويَّـة من أنفسهم، يـحرص عليها حرصَ الأب على مصالح ابنه، فهو كالأب لهم، ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ والمسلمون كلُّهم سواء في أبوَّته وأمومتهنّ لهم. وهذا ترشيحٌ وتقويةٌ لأمر هذا النسب الأدبي، وهو نَسَبٌ مشروعٌ بحكم إلهيّ، يدلُّ على أخوة المؤمنين واتِّصال بعضهم ببعض، وأنَّ للدين رابطة كرابطة النَّسب في التكاتف والتعاضد، وسهر الأفراد وحرصهم على مصلحة المجموع.

وقد كان لهذا النسب الديني أثرٌ كبيرٌ ومظهر عجيب وفائدة جُلَّى، وحبَّذا لو عاد المسلمون وتمسَّكوا بهذا النسب ـ الذي لا تنقطع صلتُه، ولا تنفصم عُراه ـ وتوادُّوا وتحابُّوا وطرحوا من قلوبهم الحقد والبغضاء والحسد، وطهَّروا سرائرهم، وأخَذَ كلٌّ منهم بيد أخيه، وأحلُّوا محلَّ ذلك كلِّه الحبَّ الخالص من قلب مملوء بالإيمان، لو فعلوا هذا لعزُّوا بعد الذل، واجتمع شَمْلُهم بعد أن تفرَّق، وهابهم الغير، ودانت لهم الرقابُ، كما كان ذلك وافراً في الصَّدر الأول.

ثم بيَّن تعالى ـ على سبيل الاحتراس[1] وتحرير الحق ـ أنَّ هذا النَّسَبَ لا يتجاوز إلى أحكام النسب الحقيقي، فقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: فتجري عليهم الأحكام من الميراث والتحريم والتحليل حسبما ذكر في كتاب الله. أما قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ فهو إما بيانٌ لـ«أُولي الأرحام» أو صلةٌ لـ«أُولي»، نسخ بها حكماً كان مؤقّتاً بصلة التآخي الذي وضعه ﷺ بين أفراد من المهاجرين والأنصار في مبدأ الهجرة. وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ استثناء منقطع[2]، قال السُّدِّيّ: عَنَى بذلك وصيَّةَ الرجل لإخوانه في الدين أو مواليه[3].

ثم ختم هذه الأحكام بما يحثُّ على العمل بها، فقال: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾ أي: ثابتاً في القرآن أو مقرَّراً عند الله.

---

(١) الاحتراس: هو أن يؤتى ـ في كلام يوهم خلاف المقصود ـ بما يدفع ذلك الوهم، سواء وقع الاحتراس في وسط الكلام أو في آخره.

(٢) أي: (إلّا) جاءت بمعنى: (لكن)، أي: وأولو الأرحام بعضهم أَوْلى ببعض، لكنْ لا بأس أن تفعلوا إلى أوليائكم الذين ليسوا بأولي الأرحام منكم معروفاً.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٤: ٣٧٦).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

ثم عقَّب هذه الأحكام المقرَّرةَ بما يزيد في الحمْل على التمسُّك بها، على نهج القرآن في ذلك، وصاغ الكلام من مادة تتناسب مع مطلع السورة وترتبط به، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ بتبليغ الرسالة، والدعاء إلى الدين القيِّم، وإجراء أحكامه، لا يخشون في ذلك أحداً إلا الله.

ثم ذكر أبرز الأنبياء بطريقة عَطْفِ الخاصِّ على العام، للاهتمام بشأن الخاص، فقال: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، ثم أعاد أَخْذَ الميثاق ليصفه بالغلظة تهويلاً فيه، وليُعَلِّق عليه ما بعده، فقال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾، وذلك ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي: الأنبياءَ عن تبليغهم، والمؤمنين عن تصديقهم، وقد يكون السؤال أمام الكافرين تقريعاً لهم، ولذلك أردفه بقوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ

لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ
ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٦﴾ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ
رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧﴾ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ
لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ
إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ
أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٩﴾ يَحۡسَبُونَ
ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ
أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢٠﴾﴾.

ثم ذكّرهُم سبحانه وتعالى بنعمته عليهم وحفظه لهم في واقعة الأحزاب، حيث خذّل عنهم المشركين المُتحزِّبين عليهم لاستئصالهم والقضاء عليهم، وكان ذلك الإنجاء نتيجةً لأثر هذا التمسُّك بالمواثيق والدين المبين، المربِّي للنفوس على الصبر وحُسْن اليقين، والمعين على التكاتف والتآزر والقوة والثبات، وأدمج في الكلام التأديبَ لعموم المؤمنين، والتشنيع على المنافقين، والثناء على المخلصين.

وقد ابتدأ بتصوير حَرَاجة الموقف، ليتبيَّن قَدْرُ هذه النعمة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ خبطتهم خبطاً واضطرَّتهم على الرحيل، ﴿وَ﴾ أرسلْنا عليهم كذلك ﴿جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ أوقعت بينهم الخُلْفَ، وحملتهم على التخاذل والتفرّق، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ من الأعمال والأقوال الصَّادرة من شدَّة الخوف.

﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾[1] وهذا تصويرٌ لتجمُّعهم عليهم

(١) عندما تجمّعت قوى الشر وحاصرت المدينة، اتّصل يهود بني النضير ـ الذين هاجروا المدينة مع =

وإحاطتهم بهم، وقد صوَّر شدَّة رُعبهم منهم بقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ وهذه حالةٌ تعرضُ للبصر من شدَّة الخوف؛ إذ يصيبُ أعصابَ العيون ارتخاءٌ أو شيء من هذا القبيل، فيختلُّ النظر. وقال في إتمام هذا التصوير: ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ وهذا كناية عن أقصى مراتب الرُّعب وشدّة الكَرْب، قرنه بقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ من أنَّ وَعْدَ الله بالنصر لم يكن حقّاً، أو تكون الآية على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] فارجع إليها.

ولا شكَّ أنَّ هذه الحالات الثلاث إنما كانت من ضعاف الإيمـان والمنافقين، وهي تُصوِّر شدَّة الموقف وحراجته أكبر تصوير. وفي إسنادها إلى هذا المجموع تجوُّزٌ يُعرَفُ مثلُه في خصائص اللغة وفي أساليب القرآن، للإيماء إلى وحدة الأمة وتكافلها، ومسؤولية بعضها عن بعض. ويجوز أن تكون الحالة الثالثة على المعنى الأول خاصَّةً بالمنافقين.

والآياتُ تُصوِّر شدَّة هذه الغزوة وخطرها على المسلمين، وأنه كان من شأنها أن تعصفَ بالإسلام لولا تأييد الله وثبات رسوله، لا سيما وأنها جاءت بعد وقعة أُحُد التي كانت الدائرة فيها على المسلمين، وذلك يجعل موقف الدسِّ والتـثبيط من المنافقين أشدَّ خطراً، وأبعَدَ نكاية وأذى.

= المهاجرين ـ بيهود بني قريظة الذين لم يزالوا في المدينة، ودبّروا مؤامرة من أعنف المؤامرات؛ ليضرب بنو قريظة المسلمين من الخلف، وليوقعوهم بين شِقَّي الرَّحى، واستجاب يهود المدينة لهذا الغدر الذي أوقع المسلمين ـ عندما علموا به ـ في حالة من الذعر والقلق، تُصوِّرُها الآياتُ أدقَّ تصوير، ولكن الله سبحانه نجَّى المسلمين من هذا الطغيان، وردَّ الذين كفروا على أعقابهم مخذولين. وأمر سبحانه بإنجاز الجزاء الأليم في بني قريظة، فقُتِلَ مقاتلهم، وسُبِيَ ذراريهم ونساؤهم. (المؤلف).

ثم أجمَلَ الكلام بقوله: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ أي: امتُحِنوا امتحاناً قوياً، تميَّز به المؤمن من المنافق، وقويُّ الإيمان من ضعيفه، حيثُ ثبت القويُّ كالجبل الراسي، وتزلزل الثاني بعض التزلزل.

وأما المنافقون فقد شَرَح الله سبحانه حالتَهم بقوله: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ وقد اختلفوا في هذا الوصف؛ فقيل: المراد به الشك، فيكون من عطف الصفة على الموصوف[1]. وقيل: بل المراد ضَعْفُ الإيمان. وضعفاء الإيمان صنف آخر غير المنافقين، والأول أنسب بقولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ لأنَّ مثل هذا القول لا يصدر إلا من المنافقين. وقد قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: إنَّ المنافقين قالوا في محاصرة الأحزاب للمدينة: يَعِدُنا محمد أن نفتح مدائن كسرى وقيصر، ونحن لا نأمن أن نذهب إلى الخلاء، هذا والله الغرور[2].

ثم حكى ما كانت تقوله وتفعله فِـرَقٌ أخرى منهم، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾ يُخَذِّلونهم؛ ليهربوا من عسكر رسول الله ﷺ، ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ﴾ آخرُ ﴿ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ ﴾ في الرجوع إلى المدينة، ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: ليست بحريزة وحصينة، فلا نأمن على أهلينا. فكذَّبهم الله سبحانه وشنَّع عليهم بقوله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾.

ثم فَضَحَهم سبحانه وتعالى ببيان حالتهم الفاجرة، ومعذرتهم الكاذبة، وجرأتهم

---

(١) الصفة هي: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ معطوفة على: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾، فالفريقان جماعة واحدة متصفة بالنفاق ومرض القلب في آن واحد، وليسا جماعتين اثنتين.

(٢) هذا الذي نسبه إلى ابن عباس هو من قول قتادة، كما في «تفسير الطبري» (٢٠: ٢٢٣)، وكذلك حكاه السُّدِّيُّ فيما رواه ابن أبي حاتم. ينظر «تفسيره» (٢: ٣٨٠).

في الحروب الجائرة أيام جاهليتهم، وخذلانهم في الحروب العادلة في سبيل الحق أيام الإسلام، فقال: ﴿وَلَوْ﴾ كانت في الحقيقة عورةً على أخطر الوجوه حتى ﴿دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ﴾ سائر ﴿أَقْطَارِهَا﴾ أي: من جميع جوانبها ونواحيها، ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ الْفِتْنَةَ﴾ أي: دُعوا أيامَ جاهليتهم للنَّجْدة في الباطل، حسب قواعدهم في الجاهلية، ﴿لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ﴾ أي: بالبيوت ﴿إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ ريثما يأخذون أسلحتَهم وأُهبَتَهم للنجدة، ولم يهتموا بأمر البيوت. يفضحهم في كذب معذرتهم ونفاقهم.

وخلاصة البيان: أنهم كانوا يخجلون من مثل هذا العذر ولو كان صحيحاً، فما كانوا ليعتذروا به في جاهليتهم إذا دُعوا للنجدة على تلك الأمور الباطلة، ولا يخجلون منه اليوم في الإسلام لنجدة الحق وتأييده، مع أنَّ هذا العذر كذبٌ وبهتان.

ثم زاد على هذا النقد اللاذع والتكشيف الفاضح بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ حيث عاهدوا رسول الله ﷺ، أو يوم أحد حين فشلوا: أن لا يعودوا لمثل ذلك، ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ ولكنهم نَقَضوا العَهْد، وأخلفوا الوَعْد، واعتذروا بالمخازي والأباطيل.

ثم أنَّبهم بخطأ المنطق في الجبن والهزيمة، فقال: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ بالحياة ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾، وهذا بمعنى:

قـل للجبـانِ إذا تـأخَّر سَرْجُـهُ   هل أنتَ من شَرَكِ المنيَّـة نـاجِ[1]

ثم تابع المعنى بقوله: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾، وقولُه: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ تكميلٌ للكلام لبيان سلطان الله العام، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ يدفع عنهم ما أراد الله بهم من سوء. وقد تضمَّنت الآية ـ مع التوبيخ

(١) البيت لجرير، كما في «ديوانه» ص٧٤.

لهم ـ الإرشادَ بصورة عامة للاتِّكال والاعتماد على الله، تقويةً للعزيمة، وتنميةً للقوة المعنويَّة أوقات الخطر.

ثم توعَّد الـمُخَذِّلين الذين يَنْشُرونَ الخوفَ في الجيش، ويُؤَثِّرون على الضعفاء، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: المثبِّطيـن للناس عن نُـصْرة رسول الله ﷺ، والـمُخَذِّلين لهم، ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ من المنافقين: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ هؤلاء القائلين كانوا خارجين عن المعسكر مُتوجِّهين نحو المدينة عائدين إليها، ويَدْعُونَ إخوانهم أن يلحقوا بهم.

ثم ذكر لهم أمراً آخر فقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ قال السُّدِّيّ: أي: يخرجون للحرب قَدْرَ ما يُوهِمُون أنهم مع الجيش وأنهم مؤمنون، ولا يخفى على الله منهم خافية.

ثم ذكر لهم أمراً ثالثاً، فقال: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاءَ عليكم في المشاركة بالنفقة على الجهاد في سبيل الله.

ثم صوَّر جُبنَهم المفرط؛ تهجيناً لأمرهم فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: كنظر المغشيِّ عليه من معالجة سكرات الموت، جُبْناً وخَوراً ولِـوَاذاً بك، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ وحِيزَت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وقالوا: وفِّروا قِسْمَتَـنا، فإنا قد شهدنا معكم وقاتلنا، وبمكاننا غَلَبتُم عدوَّكم، وبنا نُصِرتُم عليهم. والسَّلق: البسط بقهر باليد أو باللسان. يفعلون ذلك ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: بخلاء بالغنيمة، يُشَاحُّون المؤمنين عند القِسمةِ بألسنةٍ حداد. فالآية تُصَوِّر شدَّة جبنهم وهَلَعهم عند القتال، وشدَّة سفاهتهم عند الأمن وشحِّهم بالمال.

ثم ذكر علّـة ذلك فيهم وعاقبته عليهم، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بإخلاصٍ ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ حتى خروجهم للجهاد معكم، وذلك بظهور هذا النفاق فيهم، فلم يكن للأعمال أثرٌ في نفوسهم، إذ لم يقصدوا بها سوى التمويه على المؤمنين، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباطُ لأعمالهم ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ إذ ليس فيه إجحاف، بل هو الحق الموافق للعدل والإنصاف.

ثم تابع المعنى في تصوير شدّة هَلَعِهم وجُبْنهم، فقال: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي: لشدَّة خوفهم لا يصدِّقون أنَّ الأحزاب قد انهزموا، بل يظنون أن ابتعادهم مكيدةٌ منهم، وسيعيدون الكرَّة على المؤمنين، ففرُّوا خوفاً منهم إلى داخل المدينة، ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ أي: وإن فُـرِضَ أن يعودوا كرةً ثانيـة ﴿يَوَدُّوا﴾ حينئذ ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أي: يتمنَّى هؤلاء المنافقون حينذاك لو أنهم خارجون إلى البادية بعيدون عن المدينة ومركز القتال، ويسألون من بُعدٍ عن أخباركم كلَّ قادم من المدينة، يستطلعون ما جرى عليكم من الأحزاب. وهذا تصويرٌ بليغ لوصفهم بمنتهى اللؤم والجبن والهلع. وقد أكمل هذا الوصف بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم﴾ وكان قتالٌ ﴿مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ رياءً وخوفاً.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا
﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ
إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ
وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ
إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ
وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ

ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

ثم أردف هذا بالإرشاد العام، حاثاً على الصِّدق في الجهاد والصبر عليه، على نهج القرآن في ذلك، وهو تعقيبُ النقد بالإرشاد والدعوة إلى الرَّشاد، وصفاً للدواء بعد تشخيص الداء، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: قدوةٌ صالحةٌ في الجهاد وغيره، تفعلون فِعلَه، وتسيرون سَيْرَه. ثم أبدَلَ من عموم قولِه: ﴿لَكُمْ﴾ قولَه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ للإشارة إلى أنَّ المؤمنين الذين يقرنون بهذا الرجاء ذِكرَ الله على الدوام، هم الذين يتأسَّون برسول الله ﷺ، ويُخلصون النيَّة في الجهاد، بخلاف هؤلاء المنافقين.

ففي الآية تقريعٌ لهم وتعريض، وفيها حثٌّ على التأسِّي به ﷺ في الصبر والثبات عند الشدائد وملاقاة المكاره.

ثم قابل حال المنافقين وضعافَ الإيمان في وقعة الأحزاب، بحال المؤمنين الخُلَّص، على نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ يعنون بذلك قولَه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ما رأوا من بأس الأحزاب وكَثْرتهم ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله تعالى وبمواعيده، ﴿وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ لأوامره ومقاديره.

وهذا تصويرٌ لمنتهى الإيمان بالله والوثوق به، ولا شكَّ أنَّ الإيمان الصحيح تظهر آثاره في الأقوال والأفعال ظهوراً طبيعياً، لأنَّ العقيدة هي التي تُسيِّر الإنسان في كلِّ شيء فيتمسَّك ويتصرَّف حسبما يرسمُه له الاعتقادُ في الأمور.

ثم إنَّ من أجَلِّ الأوسمة التقديريَّة للصنف الآتي من المؤمنين ـ إنْ صحَّ هذا التعبير ـ هذا الوسامَ الجليلَ من العَلِيِّ الكبير، للتأنيس لهم والتقدير، حيث يقول: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ من عَهْدِهم ﴿تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، بل ثبتوا عليه راغبين في وسامٍ ـ والله ـ تَقشَعِرُّ لجلاله الجلود، وتخشع لحامليه القلوب. يهنئهم بالفوز بالسعادتين، ورضوان من الله أكبر، وهكذا النفوس العظيمة تستهينُ بصعاب الأمور في طاعة الله، فتنال الجزاء الجليل من فضل الله وعظيم إحسانه. وهل يمرُّ تالٍ أو سامعٌ بهذه الآية ولا يقشعرُّ جلدُه إكباراً وإعظاماً لأولئك المؤمنين، رضوان الله عليهم أجمعين؟!

ثم بيَّن سبحانه وتعالى حُكمَه في الفريقين، فقال: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ وذلك إذا بقوا على نفاقهم، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى.

وليس المعنى: أنَّ مشيئتَه في التعذيب أو التوبة عليهم تجري جزافاً واعتباطاً، كلا، وإنما تجري مشيئتُه سبحانه بالحقِّ والعدل، وفي سُنَن مُطَّردة وقانون ثابت، فلا يشاء سبحانه إلا تعذيبَ مَنْ يستحقُّ العذاب، ورحمةَ مَنْ يستحقُّ الرحمة والرضوان، إذ قد سبقت مشيئتُه الأزليَّة أن يُعذِّب من أفسد فطرته ودسَّاها وهو الكافر والعاصي، وأن يرحم من حافظ على سلامتها وزكَّاها وهو المؤمن الطائع، وأن يكون لكلِّ نفس ﴿مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، و﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف ١٤٧، سبأ: ٣٣]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وجاءت بذلك الأنبياءُ والكتبُ المنزلة، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ثم بيَّن تعالى ما كان من فشل الأحزاب وخذلانهم، مُنبِّهاً إلى النعمة العظمى من النِّعم الكثيرة التي نالوها بتمسُّكهم بميثاق النبيين وهذا الدين المبين، ذلك المعنى الذي ابتدأ به السياق، وختمه بمُحَصِّلِه، فقال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ وإنما آبُوا بالفشل حين أرسل عليهم الريح فخبطتهم خَبْطاً، إِثْرَ ما أرسل عليهم جنودَ التفرقة والتثبيط، فأفسدت ذاتَ بينهم، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي: إنَّ الأحزاب الذين تحزَّبوا لاستئصال النبيِّ ﷺ وأتباعه انخَذَلوا وتفرَّقوا وعادوا إلى أوطانهم، من دون أن يصيبوا المؤمنين بأذى ولا قتال، ولم يقاتلهم المؤمنون ويصرفوا عليهم جهداً، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: غالباً على أمره، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ثم بيَّن سبحانه وتعالى ما فعل باليهود من بني قُريظة الذين نقضوا العَهْدَ الذي كان بينهم وبين النبي ﷺ، واتَّفقوا مع الأحزاب على مقاتلته، واشتركوا في محاصرة المدينة، فقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي: ناصروا المشركين ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: من اليهود. واتفق المفسِّرون على أنهم بنو قريظة، أنزلهم ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من حصونهم المنيعة، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ بحيثُ أسلموا أنفسَهم للقتل، وأهلَهم وأولادَهم للأسر بعد حصار لم يَطُل، ونقضوا العَهْدَ الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ في أحرج المواقف، فأمره الله بقتلهم، كما حكى ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾.

وأما قوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ فقد ذُكِرَ تكميلاً للكلام، على صورة الوعد بما سينالون من فَتْح الممالك كفارس والروم، وتعجيلاً بالتبشير في نَيْل ذلك من البلاد النائية التي لم تطأها العرب. وهذا من إخبارات القرآن بالغيب، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ لا يُعْجِزُه فِعلُ شيء أبداً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾ ﴾.

وبعد أن أتمَّ الكلام عن وقعة الأحزاب التي استطرد بها لبيان نِعَم الله تعالى على المؤمنين، ونَصْره المبين لهم على الكافرين، نتيجةَ التواثق بينهم والتآزر على هذا النَّسب الجديد، وهو نَسَب الدين، عاد إلى ما بدأ به السورة في أمر الزوجات والأدعياء.

فبعد أن ذكر أمْرَ الظِّهار الناجم عن النِّزاع بين الزوجين وأنّبَ عليه، ذكر نظام تأديب الزوجات ومعاشرتهنَّ وبعض أحكامهن، وبدأ البحث بالكلام عن زوجات النبيِّ ﷺ.

ثم انتقل إلى قصة زينب التي كانت لإبطال التبنِّي الجاهلي الذي هو أحد أغراض هذه السورة، وذكر أمْرَ التوسعة على الأنبياء في بعض الأحكام المدنية لِـمَا تَقْتضيه المصلحة والحكمة في بعض الظروف والحالات الاجتماعية أثناء نشرهم الدعوة.

ثم ذكر شيئاً من أحكام النكاح والطلاق ونظام الزوجات، وبيَّن ما خصَّ اللهُ نبيَّه ﷺ من التوسعة في هذا النظام، حسبما اقتضته الحكمةُ والمصلحةُ الاجتماعيَّـة في سَيْره وخطَّته التبليغية؛ لأنَّ زواجه ﷺ لم يكن لمجرَّد مَيْل، ولكن لمصالحَ اجتماعية أو سياسية.

ثم أكمل نظام الزوجات بأحكام البيوت والحجاب وما يتبع ذلك، ثم أنهى السورة بتهديد المشركين، وبيَّن حالة الإنسان الـمُعْرِض عمَّا أراده الله منه، مخالفاً في ذلك لسائر المخلوقات، وقَرَنَ ذلك بالتأنيب، وبما يحمل على التمسُّك بهذا الدين.

ومُجمَلُ الربط: أنه لـمّا كان الظهار والطلاق يتأتَّى غالباً من نتيجة أخلاق النساء ومعاملاتهنَّ مع أزواجهنَّ، تصدَّى السياق لتأديبهنَّ، وابتدأ في تأديب زوجات النبي ﷺ وتثقيفهن، وافتتح البحث بآية التخيير، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: السَّعَـةِ والتنعُّم فيها وبزخارفها، ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: أُعطيكُنَّ المتعةَ وأُطلقكنَّ طلاقاً من غير ضرار، فتطلُبْنَ الدنيا عند غيري.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وذِكْرُ الله عز وجل للإيذان بكرامته ومنزلته ﷺ عنده تعالى، ثم عطف عليه عطف المسبَّب على السبب قوله: ﴿وَ﴾ تُرِدْنَ بذلك ﴿ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: نعيمَها الذي لا وزن معه للدنيا وما فيها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ لا يُقدَرُ قَدْرُه.

قال المفسِّرون في سبب نزول هذه الآية: إنَّ أزواج النبي ﷺ سألنَه شيئاً من عَرَض الدنيا، وطلَبْنَ منه زيادةً في النفقة، وآذينَه لغيرة بعضهنّ على بعض، فآلى رسول الله ﷺ منهنَّ شهراً[١]. فنزلت آية التخيير هذه.

وقيل في تحرير هذا السبب وتفصيله: لـمّا تبدَّلت حال المسلمين، وعادت فتوحاتهم عليهم بالغُنْم الكثير، حَسِبَتْ أزواج النبي ﷺ أنهُنَّ كسائر المسلمين، ومن حَقِهنَّ أنْ يَسْتَفدنَ من هذا الرخاء، فتَقَدَّمن جميعاً إلى النبيِّ ﷺ يَلتَمِسْنَ حَظَّهُنَّ من هذا الخير، فأغضب ذلك النبيَّ ﷺ وهَجَرَهُنَّ شهراً، فنزلت آية التخيير هذه، تُخيِّرهن بين رضائهنَّ معه بما تطمئنُّ به نفسُه ولا يتعارض مع مهمته وخلقه، وبين انصرافهنَّ عنه، فاختَرْنَ البقاءَ معه والانصرافَ عن مباهج الحياة الدنيا. والسَّراحُ الجميل: الطلاق من غير خصومة ولا مُشاجَرة بين الزوجين.

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يُـخيِّر أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إني ذاكرٌ لك أمراً، فلا عليك أن لا تَعْجَلي حتى تستأمري أبوَيْك»، قالت: وقد علم أنَّ أبوي لا يأمراني بفراقه. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ ...﴾. فقلت: في هذا أستأمر أبوي؟! فإني أريدُ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة. ثم فعل أزواجُ رسول الله ﷺ مِثْلَ ما فعلت»[٢].

ولما خَيَّرَهُنَّ النبيُّ ﷺ اختَرْنَ الله ورسوله، أدَّبهُنَّ سبحانه بهذا الوعيد الأدبي الرفيع، فقال: ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠: ٢٥١-٢٥٢).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٤٧٨٥)، ومسلم (١٤٧٥)، عن عائشة.

ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾﴾ لا يمنعُه منه كونكنَّ نساءَ النبي. والمراد بالفاحشة: كـلُّ ما يخالف تعاليم الله التي جاءت في تضاعيف هذا القرآن. يعرِّض بموقفهنَّ هذا من رسول الله ﷺ، ويُهدِّد عليه. وفي هذا إشارة إلى أنَّ أحكام الله تعالى لا مُحاباة فيها ولا إغفال.

وهذا النوع من التأديب إنما هو للإيذان بمكانتهنَّ العظيمة في المجتمع، وبأنه يجب أن يكُنَّ مَثَلاً أعلى للنساء، وقد قابل ذلك بقوله: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: تُدِم الطاعة لهما، ﴿وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ مرةً عن عملها الشخصي، ومرةً لصَيْرورتها قدوةً لغيرها من النساء، ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾ أي: هيَّأنا لها ذلك في الجنة، زيادةً على أجرها المضاعف. وقد قابل بهذا ما طلبنَه من التوسيع عليهنَّ في رزق الدنيا، وعوَّض به عنه. وتذكيرُ الفِعل باعتبار لفظ ﴿مَن﴾، وتأنيثُه باعتبار معناها.

ثم أدَّبهُنَّ في كيفية مكالمتهنَّ للأجانب من الرجال، فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في الفضل والشرف وعُلوِّ المنزلة والقدوة لغيركنَّ من النساء. ولفظ (أَحَدٍ) في النَّفي يستوي فيه المذكَّر والمؤنَّثُ، أي: فإنكنَّ قدوةٌ لهنَّ يَقتدينَ بكنّ، فتأدَّبنَ بما يأتي من عُلوِّ الأدب، وهو ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ غائلةَ المخاطب ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أثناء المكالمة معه، ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾﴾ أي: مُتعارَفاً خالياً من الخشونة والجَفْوة، ومن الضعف واللين المُطمِع. فأوجبت الآية عليهنَّ في مكالمة غير المحارم أن تكون صورةُ المكالمة بلهجة الحشمة والوقار، ليس فيها لينٌ مُطْمِعٌ ولا شراسة مُؤْذية، ويُندَبُ أن يكون هذا خُلُقَ كلِّ مؤمنة[1].

---

(١) بل يجب هذا في حقِّ كلِّ مؤمنة، لأنه إذا وَجَبَ في حق أزواج النبي ﷺ ـ وهن أمهاتُ المؤمنين اللاتي لا يحلُّ نكاحهن بعد رسول الله ﷺ ـ فوجوبه في حق سائر المؤمنات من باب أَوْلى. وليس هذا مما ورد فيه ما يدلُّ على الخصوصية بأزواجه ﷺ، فلزم القول بالعموم فيه.

ثم بيَّن لـهُنَّ ما يجبُ عليهنَّ من قلَّة المخالطة والابتعاد عن التبرُّج، فقال: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين الرجال. وقال مقاتل: كانت المرأة في الجاهليَّة تلقي الخمار على رأسها، ولا تشدُّه لتواري قلائدها وقرطيها، فيبدو ذلك منها[١]. وقال قتادة: التبرُّج: التبختُر والتكبُّر في المشي[٢]. وقيل: التبرُّج: إظهار المحاسن مطلقاً. والمعنى: لا تخرجن على عادة النساء في الجاهلية، ولا تُظهِرْنَ زينتكُنَّ كما كُنَّ يُظهِرْن، ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

ثم بيَّن الغاية من هذا التأديب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ والمراد من الـرِّجْس: ما يُدنِّس الشرف. واللقب بأهل البيت: لبيان موضع الشرف، إثارةً للنخوة والمحافظة على الوقار. والمراد به: النبيُّ ﷺ وأزواجه فقط[٣]، لأنَّ الآيات فيهنَّ، ويؤيِّده قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ وقد قيل: المراد بها: أحاديث النبي ﷺ.

هذا هو الظاهر من أهل البيت، لأن السياق نصٌّ فيهنَّ. وأما ما جاء عن عمر بن أم سلمة أنه قال: لما نزلت هذه الآية في بيت أمِّ سلمة، دَعَا فاطمةَ وحَسَناً وحُسَيناً فجلَّلهم بكساء، ثم قال: «اللهمَّ هؤلاء أهل بيتي فأذْهِبْ عنهم الرِّجْسَ وطهِّرهم تطهيراً»[٤].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٨٥٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠: ٢٥٩).

(٣) يعني: المراد به في هذه الآية: هؤلاء فـقط، أما المراد بوجه عامّ فهو: النبيُّ ﷺ وأزواجُـه وذريته، لا سيما علي وفاطمة والحسن والحسين، رضي الله عنهم. وللفقهاء تفصيل في ذلك ليس هذا محل بَسْطه.

(٤) رواه الترمذي (٣٢٠٥) وقال: حديث غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة.

أقول: فالظاهر أنه ألحقهم بأهل البيت، ودَعَا اللـهَ سبحانه أن يجعلهم منهم. وقوله لأم سلمة: «أنتِ على خير»[1]، يريد به: أنتِ من أهل البيت، والله أعلم.

ثم ختم الآية بما يبعث على التمسُّك بما سَبَك، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ واللطف: دقَّة العلم في الأشياء، فهي تشير إلى أنَّ هذه الأحكام مبنية على دقَّة علم الله.

فإن قيل: لم قال: ﴿عَنكُمُ﴾ و﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾، ولم يقل: (عنكنَّ) و(يطهركنَّ)؟

قلنا: فيه تغليب المذكَّر على المؤنَّث، وذلك من خصائص اللغة، لأنَّ صاحب البيت هو رسول الله ﷺ، وإذهاب الرِّجْس عن نسائه إذهابٌ له عنه. فأراد بأهل البيت: النبيَّ ﷺ وأزواجَه الطاهرات. فالتأديبُ للزوجات، والغايةُ لهنَّ ولصاحب بيتهنَّ.

ويؤيِّد اختصاصَ كلمة ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ بالنبيِّ ﷺ وأزواجه مخاطبةُ امرأة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٣].

ثم أردف الكلام بما تُؤدِّي إليه الفضائل على وجه العموم من رضا الله تعالى والأجر العظيم، مبالغةً في الترغيب بما تقدَّم من الآداب، على أسلوب القرآن في تعقيب الأمر الخاصِّ بالأمر العام ليشمله وغيره، مُؤدِّباً عمومَ النساء لما مرَّ من اقتضاء السياق ذلك، تعقيباً للإرشاد ببيان الجزاء، على نهج القرآن. وإنَّما صرَّح بذكر النساء ولم يكتف بذكر الرجال حسب منهجه، اهتماماً بهذه الأوصاف، ولتكون علَّةً للحكم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾ أي: المداومين على الطاعة، ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ﴾ أي:

---

(١) رواه الطحاوي في «مشكل الآثار» (٧٦٨).

المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم، ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

وبعد أن أدَّب نساءَ النبي ﷺ بما أدَّبهنَّ به، وأشار إلى كرامة هذا البيت بكرامة رسول الله ﷺ، وطلب منهنَّ أن يكُنَّ مُطْهِراتٍ لِـمَا يُتلى في بيوتهنَّ من آيات الله والحكمة، ثم أدَّب عموم النساء بذكرِ أوصافهنَّ العالية التي تُرضي الله سبحانه، وتوثِّق علاقات الزوجية طبعاً؛ لأنها تقوى بالأخلاق.

بعد ذلك كلِّه عاد إلى الموضوع الذي بدأ به السورة، وهو إبطال التَّبنِّي، فشَرع في قصة زينب، مُبيِّناً أنها إنما كانت لهذا الغرض؛ لأنَّ الفعلَ التشريعيَّ الذي تجد فيه الأمة غَضَاضةً حسب تقاليدها الموروثة، يجب أن يُباشِرَه المصلحُ الأعظم بنفسه، ويجرأ هو عليه قبلاً، ليقتدوا به ولا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً منه. وأراد سبحانه أن تكون هذه المرأة زينبَ بنتَ عمة رسول الله ﷺ؛ لذلك مهَّد له سبحانه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ

﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ إذ قد ذكر المفسِّرون أنها نزلت في زينب رضي الله عنها، وكانت بنتَ أُميمةَ بنتِ عبد المطلب عمَّةِ رسول الله ﷺ، فخطبها رسول الله ﷺ لمولاه زيد بن حارثة، فأبت وأنكرت ذلك، وقالت: أنا ابنة عمَّتك، وكذلك قال أخوها عبد الله. أي: فكيف تزوِّجني من مولى؟ فنزلت الآية فَرَضِيا وأطاعا[١].

ويدلُّ السياق على أنَّ هذه الخطبة كانت بأمر الله، وأنه قضاء مُقدَّر لإبطال التَّبنِّي، كما يدلُّ على ذلك ما انتهت به القصة من التعليل الآتي، وأن الرسول ﷺ كان يخشى غائلة المنافقين، ويُحاذر أن يفترصوا هذا الأمر للمُشاغَبات ضدَّه وضدَّ دعوته، وربما يَصِمُونَـهُ بما هو منزَّه عنه، فكان يَتَراخى في هذا الأمر خشيةً منه[٢]، حتى نزل بعتابه قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالتَّحرير وحُسْن التربية ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

قال الأستاذ الإمام[٣] وأبو مسلم ـ واللفظ للأستاذ من تفسيره لبعض آيات: أرغم النبي ﷺ زينبَ بنت عمَّته من أشراف قريش أن تتزوَّج بزيد مولاه؛ لأنه ﷺ يجد

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠: ٢٧١-٢٧٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) لم يثبت تراخيه ﷺ في هذا الأمر، فقد كان زيد يأتيه يشكو إليه زينب، ويخبره بعزمه على طلاقها، فيقول له ﷺ ـ وهو يعلم أنه سيطلقها آخر الأمر، وأنها ستكون زوجته ـ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، لا يقوله ﷺ تراخياً في أمر الله، بل قياماً بواجب النصيحة، وعملاً بظاهر الحال، أما قوله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فمعناه: تُخفي في نفسك الآن الأمرَ الذي سيُبديه الله في المستقبل من وقوع الطلاق وتزوُّجك بزينب. وهذا الإخفاء لا إشكال فيه، إذ لم يؤمر ﷺ بإظهاره، وأما قوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ فإخبار عما كان يدور في نفس النبي ﷺ من خشيه على دعوته؛ لِـمَا أن المنافقين سيستغلون هذا الأمر ويتخذونه مثاراً للشبهة، مع عزمه ﷺ على تنفيذ الأمر دون أيِّ تراخ. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ فهو خطاب للأمة في شخص النبي ﷺ كما سيأتي.

(٣) يعني: الشيخ محمد عبده.

في نفسه أنَّ هذا الزواج مقدِّمة لتقرير شَرْع وتنفيذ حكم إلهي. وبعد أن صارت زينب إلى زيد، لم يسكن إباؤها الأول، ولم يَسْلس قيادها، بل شَمَخت بأنفها، وذهبت تؤذي زوجها، وتفخر عليه بنَسَبها وكَرَم أصلها. إنْ كان الزواج قد حَدَث قبل نزول إبطال التبنِّي يكون قد اشتدَّ كرهها له بعد هذا الإبطال، إذ بعد أن كان يُدعى: زيد بن محمد، أصبح يُدعى: زيد بن حارثة، ويعتبر مولًى من موالي المسلمين الذين ليس لهم نَسَبٌ عالٍ يَتَباهَوْنَ به حسب النزعة العربية.

وعلى كلٍّ، فكانت أو أصبحت عشرتُه معها عشرة رجل مع امرأة كارهةٍ له مترفِّعة عنه. فاشتكى منها إلى رسول الله ﷺ المرَّة بعد المرَّة، واستأذن منه أن يطلِّقها ليتخلَّص من إبائها، فيقول له: أمسِكْ عليك زَوْجَك واتَّقِ الله، رغماً عما قام في نفسه بإلهام الله أن يتزوَّجها إذا طلَّقها؛ ليبطل بنفسه هذه العادة الجاهلية الراسخة، ويَصْرفه الحياء وخشية مشاغبات المنافقين إلى التَّرَيُّث في تنفيذ حكم الله[١]، فيُخْفي في نفسه ما هو مقرَّر لهدم تلك العادة المتأصِّلة في نفوس العرب[٢]، وهي أنَّ الأدعياء بمنزلة الأبناء في التحريم.

وكان يخشى ﷺ من المنافقين أن يشاغبوا ويقولوا: تزوَّج بامرأة ابنه، وهو نفسه ينهى عن نكاح حلائل الأبناء، وتفعل هذه المشاغبة فعلها، ولو إلى حين. ولهذا يَتَراخى ويقول: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، حتى عاتبه الله على هذا الخوف، فقال: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ من أن يقولوا: تزوَّج امرأة ابنه، ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ وتُسرع في تنفيذ مطالبه[٣].

---

(١) بل كان يقول ذلك ﷺ إجراءً للأحكام على ظواهر الأحوال، كما كان يفعل ﷺ بوصفه قاضياً أو مفتياً أو مُرشِداً ناصحاً، لا من باب الحياء والخشية! حاشاه.

(٢) بل كان يُخفي في نفسه ﷺ أمراً غيبياً أطلعه الله عليه، وهو أن الطلاق سيقع وأنه سيتزوج زينب بعد زيد مولاه، وهذا أمر غيبي أطلع عليه نبيه، ولم يأمره بتبليغه، فلا عِتابَ عليه فيه.

(٣) قوله: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ جاء على أسلوب خطاب الأمة في شخص النبي ﷺ ليكون الأمر=

فلما نزلت هذه الآية سمح ﷺ لزيد بطلاقها بعد أن مَضَّه العيش معها ولم يبق له وَطَرٌ بها. ثم تزوَّجها رسول الله ﷺ بتزويج الله إيَّاها له، ولم يكن مثل هذا التكريم في غير زينب من زوجاته صلوات الله عليهن، فكانت تفاخرهنَّ بقول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وقضاء الوطر: الفراغ من الشيء على التمام. والمراد به هنا: أنه لم يبق له فيها رغبة، وأعقَبَ ذلك إعراضُه عنها، ثم طلاقُه إياها وانقضاءُ عدَّتها. فمعنى الآية: أنَّ زيداً لم يبق في قلبه مَيْلٌ إليها ولا وحشةٌ من فراقها؛ لكثرة ما كان يسمع منها من كلمات التَّرفُّع عليه ومعاملتها له بمقتضى ذلك، فكان عيشُه معها عيشةَ الكاره.

وفي الآية دَفْعٌ وصَفْعٌ لما يَرِدُ على بعض الأوهام، أو ما يتقوَّله الـمُغْرضون من أنَّ ذلك كان بطريق الإكراه لزيد، ولعلَّ فحوى الآيات يدلُّ أيضاً على أنَّ هذا الأمر لم يصعب على النبيِّ ﷺ وحده، بل صعب على زينب أيضاً، من المشاغبة بأنها زوجة ابنه، فاحتوت الآيات على عبارات قوية في سبيل الحضِّ على الرضا بما أمر الله، وتنفيذ هذا الإلهام الرباني للنبي ﷺ في إبطال هذه العادة الجاهلية إبطالاً فعلياً، وهدمها هدماً قوياً.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ تصريحٌ في أنَّ الباعث على ذلك إنما هو إبطال التَّبنِّي.

= أشد تأثيراً في نفوسهم، وأورده هنا بمناسبة السياق، يعني: لما ذكر الله تعالى أن الخشية دخلت إلى قلب النبي ﷺ في هذا الأمر مع عدم تأثيرها على استجابته لأمر الله وتنفيذه لحكمه، ناسَبَ أن يُنبِّهنا إلى ما يدخل إلى نفوسنا أيضاً من مثل هذه الخشية التي قد تؤثر في استجابتنا لأمر الله وتنفيذنا لحكمه، فأدخل في سياق القصة هذا التحذير، وأجراه على خطاب النبي ﷺ ليكون أوقع في نفوس الأمة.

وقد حمل المؤلف رحمه الله عدة آيات في هذا التفسير على أسلوب خطاب الأمة في شخص النبي ﷺ، فيُستَغرَبُ منه كيف تركه هنا!

والمعنى: إنَّما فعلنا ذلك تَوسِعةً على المؤمنين كي لا يتأثَّموا أن يتزوَّجوا أزواج أدعيائهم الذين يَتَبنَّونَهُم إذا قضى الأدعياءُ منهُنَّ وَطَراً، ولم يبق لهم رغبة فيهنّ وفارَقُوهن. والغرض من هذا: أن لا يجري المتبنَّى في تحريم امرأته إذا طلَّقها على المتبنِّي، مجرى الابن من النَّسَب أو الرضاع في تحريم امرأته إذا طلَّقها على الأب.

ثم أردَفَ هذا ببيان أمر التوسعة على الأنبياء في بعض الأحكام المدنية، لِـمَا تقتضيه المصلحة والحكمة في بعض الحالات الاجتماعية أثناء سيره في خطته التبليغية، على نهج القرآن في تعقيب الحكم بما يشمله وغيره، فقال: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: فيما قَسَمَ له وخصَّه به من التوسعة في بعض الأحكام الاجتماعية، ومن ذلك: تعدّد الزوجات إلى غير حدٍّ معيَّن، لأسباب تقتضيها. وقد دفع بهذا ما يُشَاغبون به من قولهم: ما باله يُكثِرُ الزواج؟ وقد أبان سبحانه بأنَّ اختصاصه ﷺ من بين الأمة ببعض الأحكام، أو التوسعة فيها، لِـمَا تقتضيه المصالح والحِكَم إنما هو من سُنَّة الله في الأنبياء قبله، فقال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ أي: كما هي سُنَّة الله في الأنبياء الماضين، فقد وسَّع عليهم في بعض الأحكام الاجتماعية مراعاةً لذلك، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ أي: مُقدَّراً ومنطبقاً على ما تقتضيه المصالح والحِكَم، لا محاباة ولا مراعاة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثم بيَّن جرأة أولئك الذين خَلَوْا من قبل، في تنفيذ عسير الأحكام، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[1] في تبليغها وتنفيذها،

---

(١) وتعقيب الآيات بهذه الآية مما يدلُّ على ما ذكرته سابقاً من أنّ الخطابَ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ خطابٌ للأمة في شخص النبي ﷺ، فقد وصف الله عز وجل هنا حَمَلةَ رسالاته ـ وهم أنبياؤه ورسله، وفي مقدمتهم محمد ﷺ ـ بأنهم لا يخشون في سبيل تبليغ الدعوة أحداً إلا الله. وعليه فمعنى قوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: تخشى مشاغبتهم على الدعوة مع عدم =

فبهداهُمُ اقْتَدِه، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ فلا تَـخْشَ سواه، ولا تلتفت إلى غيره من القائلين، ولا تَخَف مشاغبةَ المشاغبين. وفي وصف الأنبياء بهذا الوصف تعريضٌ به ﷺ، وتشجيعٌ له على المضيّ في هذا الأمر، وأن لا يخشى مُشاغَبةَ المشركين.

ثم ألمع إلى تقرير الحكم السابق في إبطال التبنّي بما هو كالتعليل له، فقال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ(١) وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ فلا يضعُ أحكامَه إلا بحسب علمه وحكمته، ومن مقتضيات ذلك: أن

= التراخي في تبليغها، فهي خشية فطرية محمودة؛ لِـما سيتبعها من التدبير والاستعداد لمواجهة هذه المشاغبة. وتبقى خشية الله وحده هي الخشية المستقرة في قلب النبي ﷺ.

(١) جاءت الشرائع السماوية من لدن آدم إلى نزول القرآن متّحدةً في العقيدة وأصول الدين، متدرجةً رقياً في صور الأعمال والعبادة وفي التهذيب والثقافة نحو الرفعة والكمال، كما يتدرَّج الصبي في العلم والعمل، حتى إذا بلغ أشدَّه واستوى ألقي إليه العلم العالي ومقاليد الأعمال ذات الشأن والشمول، وطُلِبَ إليه القيامُ بها والسعيُ في إنجازها، وكذلك كان النوع الإنساني في الشرائع الإلهية، من مبدئه البدائي إلى أول تكامله وبلوغ رشده في العلوم والمعارف يحبو نحو الكمال وتحبو معه الشريعة كذلك، وتُنسَخُ شريعة بأخرى أعلى منها في التهذيب والثقافة، حتى وصل إلى أول كماله، أنزل الله عليه الشريعة الكاملة التي كان يَعِدُه بها في الشرائع السابقة، وهو هذا القرآن العظيم على نبيِّه الكريم محمد ﷺ، وختم بها الأنبياء والشرائع، وأصبحت هذه الشريعة الغرَّاء شريعة الناس أجمعين إلى يوم الدين، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وكان من واجبه أن يتعلم مع لغته: اللغة العربية؛ ليكون دينُ البشر واحداً، ولغته واحدة، وثقافته واحدة، ويعيش بهذه الوحدة سعيداً في دنياه وأخراه، ولكن شياطين الإنس والجن اجتالتهم إلى ما لا يحمد عقباه، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وقد جاء عنه ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا مَوْضعَ لَبِنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجَّبون ويقولون: لولا موضع اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين». (المؤلف).
والحديث متفق عليه، رواه البخاري (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٧)، عن جابر.

يتزوَّج نبيُّه ﷺ بالزوجة التي قضى منها وَطَراً دعيُّه، ويُبطِلَ أحكام التَّبنِّي الجاهلي، تكميلاً لشريعته هذه.

أما وَجْهُ جَعْلِه ﷺ خاتمَ النبيين، فلأنَّ الله سبحانه أرسل الشرائع السماوية متدرِّجة بحسب رُقيِّ النوع البشري في العلوم والثقافة، على طريقة النسخ والتبديل، فكان كلَّما ترقَّى عقلُه المكتسب في العلم والمعرفة بتَمادي الزمن، يُبدل الله له تفهيم معاني الإنسانيَّة بصورة أدقّ وأرقى، وكانت كل شريعة من هذه الشرائع تَعِدُ بأن الله سبحانه سيُرسل في آخر هذه الشرائع للبشر شريعة كاملة عالية المفاهيم، شاملة لكلِّ الضروريات والكماليَّات، تكون خاتمةً لهذه الشرائع، وتبقى مستقرَّةً إلى نهاية الدنيا، وآخر ما بشّر بها الإنجيل، ومعناه في السريانية: البشارة، سُمِّي به لهذه الغاية. فقد جاء يُبشِّر بقُرب مجيء هذه الشريعة، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

ثم جاءت هذه الشريعة العظيمة الغرَّاء على لسان محمد ﷺ، فكانت خاتمة الشرائع السماوية، وكان ﷺ خاتماً للنبيين.

والحاصل: أنَّ الشرائع تدرَّجت في الرُّقيِّ بتدرُّج النوع الإنساني في العلم والمعرفة، فابتدأت بآدم وهي صغيرة، وانتهت بمحمد ﷺ وهي على أكمل صورة.

وقيل في وجه ذلك أيضاً: إنَّ النبيِّين صلوات الله وسلامه عليهم كانوا مِثْلَ المصابيح يُضيء كلٌّ منهم حُجرةً لا يضيء سواها، فلما جاء ﷺ بهذه الشريعة الكاملة، لم يبق هناك حاجة إلى هذه المصابيح؛ لأنَّ شريعته ﷺ مِثْلُ الشمس تُضيء الأرضَ كلَّها.

وقد جعلها عالميةً وبعث بها ليجمع هذه الأمم، ويجعلها أمة واحدة متكافئة

متساندة مرتبطة برابطة الإخاء واللغة الواحدة، ولو تمسَّك البشر كلُّهم بها لَـمَا كان اليومَ بينهم مِثلُ هذا التطاحن والشقاء، لدخولهم في السِّلم كافَّة بشريعة ولغة عالميتين، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وغير ذلك من الآيات، ولا تُفهَمُ هذه الشريعة ولا تتمُّ إلا باللغة العربية، وحكمُ الوسائل حكمُ المقاصد، فكانت اللغة العربية عالمية أيضاً، تصحب سائر لغات العالم.

وقد حفظ الله شريعتَه هذه من كلِّ تحريف جَرَى على ما سبقها من الشرائع، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

هذه هي صفة الشريعة التي جاء بها ﷺ، فإرسال شريعة أخرى على غرار هذه الشريعة نفسها ـ وهي كافلة بحاجات البشر ـ محضُ تكرار وعَبَث، يتنزَّه الله تعالى عنه. لذلك كان ﷺ خاتم النبيين، جاء بآخر هدايةٍ للناس، لا تَخْلَقُ جِدَّتُها، ولا يَضْؤُلُ نورها، مهما طال الزمن وتبَدَّلت الأحوال وتغيَّرت الأطوار؛ لأنها تُساير الطبيعة البشريَّة، وتكفل لها حاجاتها الروحية والبدنية على الوجه الصحيح. وقد صِيغَتْ نصوصُها بحيث لا يؤثِّر عليها مرور الزمن، وفيها من المرونة ما يمكن تطبيقه على كلِّ حالة تحدث، ولذلك كانت غيرَ قابلة للتغيير والتبديل.

وقد جاءت كاملةً من كلِّ الوجوه، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، فهي صحيحة الاعتقاد، شاملةٌ لأمور الدُّوَل والأفراد والجماعات، تنظم الأحوال الشخصيَّة والمعاملات،

وشؤون الحكم والإرادة والسياسة وغير ذلك، وقد صِيغَت بدرجة من السُّمُوِّ لا يُتَصوَّر فوقه سُمُوّ، أرادت للإنسان أن يبقى على إنسانيَّته، ولا ينحط إلى دَرَكة الحيوانيَّة، وأن يحافظ على الفضائل، ولا يَتَسفَّل إلى الرذائل والأوحال.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

ثم عقَّب البحث بالموعظة في مراقبة الله، على نهج القرآن في تعقيب آيات الأحكام بالمواعظ الحاملة على التَّمسُّك بها والاهتمام لها، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ وقد ذكر طرفي النهار مُنكَّرَيْن ليدُلَّا على عموم الأوقات، فيكون المعنى: سَبِّحوه على الدوام. وذكرُ الله سبحانه إنما يكون بالخوف من عقابه، والطمع في ثوابه، والعمل بمقتضى ذلك. والصلاةُ أعظمُ مهذِّب للنفوس، حاملةٌ على التمسُّك بالأحكام.

ثم ألمع إلى أنَّ تعاليمه كلَّها لهذا الغَرَض، وإلى الحثِّ على التمسُّك بها، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: هو الذي يرحمكم ويرأفُ بكم فيُرسل إليكم تعاليمَه وشرعَه وهديَه بواسطة الوحي من ملائكته ليُخرجكم بذلك من الظلمات إلى النور، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ يُرسل إليهم بواسطة ملائكته من التعاليم ما يُزكِّيهم ويَقيهم من الرَّدَى والعذاب الأليم. قالوا: وإنما

ذكر الرحمة هنا بلفظ «الصلاة» ليلائم قوله: ﴿ وَسَبِّحُوهُ﴾؛ لأنَّ التسبيح والصَّلاة من فصيلةٍ واحدة.

وبعد أن ذكر رحمتَه للمؤمنين ورأفتَه بهم في الدنيا، ألمع إلى رحمته لهم في الآخرة، فقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ وسلامُ الله سبحانه: كنايةٌ عن سلامهم من أهوال الحساب وشقاء العذاب، أو المعنى: أنَّ تحيتهم فيما بينهم في الآخرة أن يُسلِّم بعضُهم على بعض، كنايةً عن التهنئة بالنجاة من الأهوال والوصول إلى النعيم المقيم، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ مما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم أتمَّ الموعظة بما يزيد في الحَمْل على التمسُّك بأحكام الله وشريعته الغرَّاء هذه، وعلى عدم الالتفات إلى تقوُّلات المشركين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على مَنْ بُعِثَت إليهم، ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ لهم، ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ وتيسيره، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ يهدي إلى مناهج الحق وسُبُل الرشاد. فاستَقِمْ في دعوتك، ولا تهتمَّ بالمتقوِّلين.

أما قولُه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فمعطوفٌ على مُقدَّر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام، على نهج القرآن في مثله. والتقدير: فادْعُ إلى هذا النور المبين، وبشِّر المؤمنين ﴿ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾، ويجوز أن يكون الواو للاستئناف، وكذلك ما بعدها.

ثم أتى بما فيه مبالغةٌ في تشجيعه ضدَّ أولئك المشاغبين، مُكرِّراً ما افتتح به السورة، فقال: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: لا يحملك ملاحظةُ شأنهم وخوفُ انتقادهم على التريُّث في تنفيذ الأوامر والأحكام، ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ ولا تُبالِ به، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه تعالى يكفيكم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ يقوم بالأمر والتدبير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾.

وبمناسبة تعلُّق السياق بالطلاق والنكاح، ذكرَ شيئاً من أحكامهما تكميلاً للبحث، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ أي: تَسْتوفون عَـدَدَها من الزوجات، ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهُنَّ من المال ما يَـتمتَّعنَ به إلى حين، ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾ وهو الطـلاق من غيـر خصومة ولا مُشـاجَرة بين الزوجين.

ولا يخلو تعقيبُ السياق بهذا الحكم من لطف الإشارة وحُسْن المناسبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠ ۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ٥١ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾.

ثم شرع في بيان ما خصَّ الله نبيَّه ﷺ من التوسعة عليه إلى غير حدٍّ معيَّن في تعدُّد الزوجات حسبها تقتضيه الحكمة والمصلحة من المصاهرات، أو ضَمٍّ من أحوَجَتْهنَّ

الهجرة أو الحروب إلى عصمته من السيِّدات الشريفات، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي: مهورهن، ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ من أسرى الحرب، فإنَّ ذلك مما تقتضيه المصلحة، ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ﴾ وإنما أفرد العمَّ والخالَ وجَمَعَ العمَّات والخالات جَرْياً على العُرف اللغوي عند العرب، فإنها تقول: هم أبناء خالٍ وخالات، تريد: أنَّ كلَّ واحد منهم ابنُ خالٍ أو خالةٍ للآخر. وهكذا تقول: هم أبناء عَمٍّ وعمات؛ لأنَّ من خصائص اللغة أن يذكر المفرد صُحْبَةَ الجمع، فيُرادُ به الجمع أيضاً، مثل: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، ومثل: ﴿ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ و﴿ٱلنُّورِ ﴾، ومثل: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ [النحل: ٤٨] إلى أمثال ذلك. قال القاضي أبو بكر بن العربي: إنَّ العرب تجري في مثل هذا على إفراد العمِّ والخال، وجَمْع العمَّة والخالة(١).

وقد قَيَّد حِلَّهنَّ بقوله: ﴿ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾، لأنها إذا هاجرت ولم يكُن لها مَنْ يُعيلها، فمن المصلحة أن ينكحها، وتبقى في كنفه ﷺ. فهذا القيد للإيذان بأنَّ زواجه ﷺ إنما هو للمصالح الداعية، لا مَيْلاً مع الهوى، وحاشاه من ذلك. ويُؤيِّده أنَّ مفادَه لم يقع، وإنما هو مُجَرَّدُ بيانٍ، وسَنُّ نظامٍ، وإشارة إلى أنَّ زواجه ﷺ لم يكن إلا للمصالح ووجوه الحِكَم.

ثم ذكر صنفاً آخر له وجهٌ آخر من هذا القبيل، فقال: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ عندما يرى ذلك من المصلحة، وقد جعلها الله ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، هذا كذلك مجرَّد نظام لم يقع أيضاً على الأصح.

---

(١) قال ابن العربي في «أحكام القرآن» (٣: ٥٩٣): إن العم والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز، وليس كذلك في العمة والخالة.

والله أعلم. وإنما أراد ببيانه سبحانه الإيماءَ إلى أنَّ زواجه ﷺ لم يكن إلا لمصالح اجتماعيَّة، في حياته التبليغيَّة، لا مَيْلاً مع الداعية الطبيعية. ومن ذلك: ارتباطه بالقبائل والشخصيات، إذ الدعوة تحتاج لمثل ذلك. ولما كان فيه شَرَفٌ عظيم للزوجة، كُنَّ يَرغَبْنَ فيه رغبةً شديدة، فأباح سبحانه له ﷺ في هذه الآية الاستجابةَ لمن شاء منهنَّ إذا اقترنت بها مصلحة من المصالح الاجتماعية.

وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ تعليقٌ على ما قبله وتمهيد لِـمَا بعده، على نهج القرآن في مثل ذلك. والمعنى: إنا لم نُهمِلْ ولم نَنسَخْ ما قرَّرناه على الناس من نظام معاملة الأزواج وما مَلَكت أيمانهم، ومن نظام الحِلِّ والحرمة في ذلك. ولكن نريد أن نُفرِدَك بنظام خاص توسعةً عليك، ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ يُعارض المصلحة العامَّةَ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ فيُوسِّع النظام أحياناً إذا اقتَضَت الحكمةُ التوسيعَ فيه عليه، رحمةً منه تعالى مقرونةً بالعفو والغفران.

ومن ذلك: نظام الإيواء في زوجاته، فسيُفرِدُه بنظام غير النظام الذي فَرَضَه على أمته. والوجه فيه: أنه ﷺ لم يتزوَّج هذا العدد من الزوجات عن مَيْل بشريّ ورغبة طبيعية، كما تُؤْذن به الإشاراتُ المتقدِّمة، وكما يُؤْذِنُ به نظامُ الإيواء الآتي نفسه. ويُؤيِّدُه اكتفاؤُه بواحدة في شبابه، وهي وحدها أمُّ أولاده، وإنما كان زواجُه ﷺ بهنَّ لحكم ومصالحَ اجتماعية أو إدارية أو سياسية تتعلَّق بنشر الدعوة أو بالمجتمع الحاضر أو بالعائلة التي يتزوَّج منها، أو بشخص الزوجة التي يضمُّها إلى عصمته وكفالته، من الأمور التي يحتاج بيانها إلى شرح طويل وتحليل دقيق.

لذلك سنَّ سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ قانوناً خاصاً في أمر إيواء الزوجات مُوسَّعاً

عن قانون الناس، كي لا يضيق عليه في تنظيم الإيواء الذي لم يكن هو الأصل من هذا الزوج، كما عند الناس، فقال: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: تُؤخِّر مَنْ تشاء وتترك مبيتَها، وتَضُمُّ إليك مَنْ تشاء منهُنَّ، فلا حَرَج عليك في ذلك، وكذلك يمكنك أن تَضُمَّ إليك مَنْ كنت تركتَها إذا ابتغيتَ ذلك. فإذا كانت هذه الرخصة بحكمٍ من الله لا تبتئس الـمُرْجَأةُ منهُنَّ رضاءً بحكم الله ونزولاً عند إرادة الله، لأنَّ النفوس تستسلم وترتاح في تطبيق الأنظمة عليها ـ ولا سيما الإلهية منها ـ وإن كانت شديدة ما لا ترتاح لمثله إذا كان بطريقة الاستبداد، وإن كان ضرورياً لازماً. وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي: أقربُ لأن يَرْتَحْنَ به، ﴿وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ ولو فُرِضَ أنه فعل ذلك من نفسه ﷺ، ابتأست الـمُرْجَأةُ منهنَّ، إذ تَعُدُّ ذلك إهانةً لها.

فلما بيَّن لـهُنَّ سبحانه وتعالى هذا الحكمَ تَوَطَّنت نفوسُهنَّ للإرجاء؛ إذ تَوَضَّحْنَ به أنَّ زواج رسول الله ﷺ بهنَّ لم يكن لمجرَّد المَيْل إليهن، وإنَّما هو لحِكَم أخرى.

وقد نظَّمَ سبحانه وتعالى الميلَ الطبيعيَّ من رسول الله ﷺ إليهن بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فإنَّ فيه ما يدعو إلى محاسبة النفس بصورة دقيقة، ومَنْ أمْلَكُ لإربه من رسول الله ﷺ؟ لذلك كان يَقسِمُ بين زوجاته قسمةً عادلة مع وجود هذه الرخصة له بهذا النظام.

ثم ختم البحث بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ للإشارة إلى أنَّ هذه الأحكام موضوعةٌ بحسب العِلْم والحِلْم، وإلى أنه سبحانه لا يُعجِّل بالعقوبة، فهو حقيقٌ بأن يُتَّقى، ولا يغترّ المجرم بالتأجيل والإمهال.

ولما استَتَبَّ الأمر لرسول الله ﷺ، ولم يبقَ له من المصالح الاجتماعية والسياسية

ما يتعلَّق بالمصاهرات، منعَه الله منها بقوله: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾ بأن تطلِّق واحدةً وتنكح مكانها أخرى. وقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ ذُكِرَ للمبالغة في المنع، لا لبيان الواقع. ثم استثنى من ذلك بطريقة الاستثناء المنقطع قولَه: ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ فترك له حكم التسرِّي فقط؛ لأنَّ الفتوحات متواصلة، وإنْ عَلِمَ الله أنه لا يحدثُ من المصالح ما يستدعي ضمَّ بعض السرايا إليه، فالنظام يجب أن يبقى نافذاً ما دام الـمُقتضي موجوداً، ولم يُؤْثر عنه أنه تَسرَّى شيئاً بعد نزول الآية.

ثم كرَّر الكلام فيما يحمل على محاسبة النفس لدى تطبيق هذه الأحكام، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾، كرَّره اهتماماً بما اشتمل عليه هذا السياق من البيان.

وقد تزوَّج رسولُ الله ﷺ إحدى عشرةَ زوجةً؛ أوَّلُـهُنَّ خديجة رضي الله عنها ـ ولم يتزوَّج عليها حتى ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، وأولاده كلُّهم منها، إلا إبراهيم فإنه من جاريته مارية القبطية ـ ثم سَوْدة بنت زمعة، ثم عائشة بنت أبي بكر، ثم حفصة بنت عمر، ثم زينب بنت خُزيمة ـ وتوفِّيت بعد ضمِّها إليه بشهرَيْن ـ ثم أم سلمة هند بنت أبي أمية، ثم زينب بنت جحش ـ التي زوَّجه الله بها والتي جاءت قصَّتها في هذه السورة ـ ثم جُويرية بنت الحارث، ثم أم حبيبة رَمْلة بنت أبي سفيان، ثم صفيَّة بنت حُيي سيِّد بني النَّضير، ثم ميمونة بنت الحارث.

وقد قُبِضَ ﷺ عن تسع منهنَّ، لأنَّ خديجة وزينب بنت خزيمة تُوفِّيتا قبله كما ذكرنا.

وأولهنَّ لُحُوقاً به: زينب بنت جحش، ماتَتْ سنة عشرين للهجرة، أي: بعدما يزيد عن تسع سنين من وفاته ﷺ، وآخرهنَّ موتاً: أم سلمة بنت أبي أمية، توفيت سنة اثنتين وستين للهجرة، أي: بعدما يزيد على اثنتين وخمسين من وفاته ﷺ.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

وبعد أن أكمل سبحانه نظام الزواج والإيواء في شأنه ﷺ، ذكر نظاماً آخر لدخول بيوت زوجاته، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ أي: غيرَ منتظرين نُضْجَه وتمامَ طبخه، أو حينَه ووقتَه، فلا تدخلوا أو تنظروا على عادتكم، ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ ولا تلبثوا، لا لأمر ما ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ﴾ أي: من إخراجكم ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾.

فنهاهم سبحانه وتعالى عن دخول دار النبيِّ ﷺ بغير إذن، وإذا دعاهم إلى الطعام فعليهم أن يأتوا وقت الأكل، بعد نضوج الطعام، ولا يأتوا من قبلُ ينتظرون إدراك

الطعام، فيطول مقامهم في منزله، فإنَّ ذلك كان يُؤْذي رسول الله ﷺ، ويستحيي أن يأمرهم بالخروج، والله لا يستحي من الحق.

وفي هذه الفقرة تأديبٌ عالٍ، وهو أن لا يُسْتَحَى من الحق أن يُقال. ويدلُّ فحوى الآية على أنَّ المسلمين كانوا يدخلون إلى بيوت النبيِّ ﷺ بإذن وبلا إذن، كما كان شأنُهم فيما بينهم، جَرْياً على مألوفهم، وأنَّ ذلك كان يُؤْذي النَّبيَّ ﷺ ويتمنَّى تغييرَ هذه العادة، وينتظر تشريع الله فيها؛ لأنَّ النبيَّ يشعر شعوراً إجمالياً بما سيأتي من تشريع.

ثم تـمَّم هذا الحكمَ بأمر حجاب زوجات النبيِّ ﷺ، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: أكثرُ تطهيراً وإبعاداً عن الخواطر والهواجس.

ثم بيَّن فظاعةَ إيذاء النبي ﷺ، وضمَّ إليه نكاحَ زوجاته من بعده، مُعبِّراً بنفي الشأن، للمبالغة في تقرير هذين الحكمين، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ وهذا تصريحٌ بالتحريم بأبلغ طرق المنع وأشدِّه. وقرن الإيذاء بالمنع من نكاح أزواجه، إيذاناً بأنهما في الحكم والوصف سيَّان، وجَعَلَه من عطف الـمُسبَّب على السبب.

ثم ختم السياق بما يحمل على الإخلاص في تطبيق ما جاء فيه وفي غيره، فقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ فيُجازيكم بما صَدَرَ عنكم مما هو بادٍ أو خافٍ.

وبعد أن أمر سبحانه وتعالى بالحجاب لزوجات النَّبيِّ ﷺ، بيَّن مَنْ يحلُّ لهنَّ أن يُقابِلْنَهم من دون حجاب، استثناءً من الحكم السابق، فقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾، وإنما لم يذكر العمَّ والخالَ لأنَّ كلمة (الآباء) تشملهما عُرفاً، إذ هما بمنزلتهم.

وقوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ المراد به: جميع النساء، وليس الضمير للتخصيص، وإنما أتى به للانتساق، إذ قد انتَسَقَ هذا الضمير في الأصناف السابقة كلِّها، فأتى به في هذا الصنف أيضاً، على أسلوب اللغة في مراعاة النسق، لا للقيد، فكأنه قال: ولا جنسهنَّ، والمراد: جميع النساء، فلا جُناح في مقابلتهنَّ لـهُنَّ كيفما كُنَّ. على أنه يجوز أن يكون الضمير للتقييد، ويكون حينئذ المرادُ من نسائهنَّ: الحرائر، أو: نساء الأقارب؛ لأن الاتصال غالباً أو عادةً يكون بهن، أو للإلماع بأن من اللائق أن تقتصر الزيارات عليهن، ولا تتوسَّع. وقد مرَّ تحقيقُ ذلك في سورة النور[1]، وتحقيقُ قوله: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ فقد قيل: المراد به: العبيد والإماء. وقيل: بل الإماء خاصَّة، فيكون قد ذكر الإماءَ بعد أن ذكر الحرائرَ بقوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾.

ثم ختم البيان بما يحمل على التَّمسُّك به بإخلاص، فقال: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ أي: في كلِّ ما تأتينَ وتَـذَرْنَ، لا سيما فيما أُمِرْتُنَّ به ونُهيتُنَّ عنه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ لا تخفى عليه من أمركم خافية. وفي هذه الفاصلة حثٌّ على الامتثال، فإنَّ مَنْ يشعر بأنَّ الله تعالى مُشْرِفٌ على أعماله يخافه ويتقيه.

ثم قَرَنَ هذه الأحكامَ الأخيرةَ التي خصَّ بها نبيَّه ﷺ، بما له من الحرمة والتقدير والحشمة والتوقير، لِـمَا قام به من الأعمال، قرنها بالآية الآتية التي جعلها في موضع التعليل لها والإجلال لهذا الرسول الكريم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ فقد أخرج البخاري عن أبي العالية[2]:

---

(١) في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

(٢) رفيع بن مهران الرِّياحيُّ البصري (ت ٩٣هـ) إمام مقرئ حافظ مفسِّر أحد الأعلام، أدرك =

أنَّ صلاة الله على نبيِّه هي بمثابة ثنائه عليه(١).

أقول: فالآيةُ ثناءٌ من الله تعالى على نبيِّه ﷺ، يُثْني عليه بهذه العبارة لِـمَا قام به من الأعمال الجليلة، وأمر المؤمنين أن يُثنُوا عليه كذلك، وقد علَّمهم سبحانه بهذه الآية عبارةً خاصَّة للثناء عليه، وهي الصلاة عليه ﷺ المفسَّرة منه عندما سُئل: «كيف نُصلِّي عليك؟» بقوله: «قولوا: اللهمَّ صَلِّ على محمد وآله»(٢). وقال ﷺ: «أتاني آتٍ من عند ربِّي عزَّ وجلَّ، فقال: مَنْ صلَّى عليك من أمتك صلاةً كتبَ الله له بها عشرَ حسنات، ومحا عنه عشرَ سيئات، ورفعَ له عشرَ درجات، وردَّ عليه مِثلَها»(٣).

وقد جعل سبحانه وتعالى من جملة تقدير المؤمنين له، احترامَهم له باحترام زوجاته، وذلك بحُرمة التَّزوُّج بهنَّ والنظر إليهنَّ، لأنَّ ذلك يُؤْذيه. وهذا هو وَجْهُ الربط بين الآية والسياق، فقد أقامها مقامَ العِلَّة لهذا الحكم، أي: احترِموه في نسائه ووقِّروه ولا تُؤْذوه؛ لأنَّ الله سبحانه يثني عليه، وملائكتُه تُوقِّره، فأَثنُوا عليه ووقِّروه.

وقد توعَّد الذين يُؤْذونه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ وقد جعل سبحانه وتعالى إيذاءَ الرسول كإيذائه، مبالغةً في تفظيع ذلك، وزيادةً في الحَمْل على تجنُّبه. وتعمُّ الآيةُ الإيذاءَ بما تقدَّم، والإيذاءَ بمعارضة الدعوة، وسائرَ أنواع الإيذاء.

ثم ختم الكلام بهذا الحكم العام الذي يشمل ما قبله وغيرَه، وهو حكم إيذاء جميع

= زمان النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه «سير أعلام النبلاء» (٤: ٢٠٧-٢١٣).

(١) ذكره البخاري معلقاً مجزوماً به، قبل الحديث (٤٧٩٧).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٧)، عن أبي حميد الساعدي.

(٣) رواه أحمد (١٦٣٥٣)، والطبراني (٤٧٢٠)، عن أبي طلحة الأنصاري.

المؤمنين، وجعله أيضاً تمهيداً لِـمَا بعده، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾ أي: بغير جنايةٍ يستحقون عليها الأذية شرعاً، ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

وبعد هذا البيان والتمهيد، ذكر هذا الحكم في الحجاب العام الذي يدفع تسرُّب الأذى، ويحول دونَه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ والجلباب: ثوبٌ أوسَعُ من الخمار، ودون الرداء، تلويه المرأة على رأسِها، وتُبقي منه ما تُرسِلُه على صدرها إذا خَرَجت من بيتها.

وعن السُّدي: تغطِّي إحدى عينيها وجَبهَتَها والشقّ الآخر إلا العين[1].

وقيل: الجلباب: الملحفة وكلُّ ما يُـتَستَّر به، يغطِّين به وجوهَهن وأبدانَـهن إذا بَـرَزْنَ لداعيةٍ من الدواعي.

والذي يظهر من التعليل الآتي: أنَّ الإدناء يجب أن يكون بحيث يُخفي معظم محاسن الوجه وملامحه؛ لأنَّ ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أي: ذلك أقلُّ ظهوراً لملامحهنَّ، وهي محاسن الوجه، وإذا خفيت محاسنُهن ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ بالنظرات. والمعنى: أنَّ السلامة من الأذى تكون في إدناء الجلباب بصورةٍ تؤدي إلى أَضْألِ المعرفةِ بمحاسن الوجه، وأقلِّ التمييز فيها، فيَسلَمْنَ من الأذى حينئذ.

وهذا هو الحجاب الذي كان عليه المسلمون، قبل أن يسعى المفسدون في هتكه وتمزيقه؛ لأنَّ سَتْرَ الوجه يُخفي المحاسن، وتَسلَمُ صاحبتُه من الأذى، وتكون في حشمة ووقار، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما دون ذلك من إخفاء المحاسن، ﴿رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ بعبادِهِ في كلِّ الأمور. ومن رحمته: أن يُراعيَ من مصالحهم ما قلَّ أو كَثُر، وما عَظُمَ وما صَغُر.

---

(١) ذكره الزمخشري في «تفسيره» (٣: ٥٧٠).

هذا هو الحجاب الذي حَسَّن السفهاءُ اليوم تمزيقَه ورَفْعَه، وتجريدَ المرأة من وقارها وحشمتها، وجَعْلَها من الكاسيات العاريات، أهلِ النار والشَّنار[1]، مُدَّعين أنَّ الحجاب هو مَنَاعةُ النفوس لا مناعةُ القناع، كأنَّ الشريعة لم تأمر بها مع الحجاب.

قال أحد علماء العصر: يقولون: إنَّ الحجاب هو مناعةُ النفوس لا مناعةُ العقل. وأقول: إنَّ النفس بطبعها ميَّالة إلى الشرِّ إذا أُرخِيَ لها العنان، وإن تقويمها لا يكون إلا بإبعادها عن طريق الغَواية والمفاسد، حتى تنشأ في جوٍّ بعيد عن الاختلاط الذي يجعلها مُعرَّضةً في كلِّ لحظة أن تحيدَ عن طريقها السويّ، وقد دلَّت التجارب على أنه لا يمكن البُرْءُ من الإدمان إلا بالحرمان، كما أنه لا يمكن صيانة الأخلاق إلا بمنع الاختلاط.

أقول: وإنَّ حكمَ الوسائل حكمُ المقاصد، فإذا كان النظرُ إلى المرأة حراماً، فكلُّ وسيلة تؤدِّي إليها وتُسهِّله فهي حرام.

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ
لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟
وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾
يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ
وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا
وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾.

---

(١) الشنار: العار والعيب. «لسان العرب» (شنر).

ولما كان من جملة أعمال المنافقين الـمُؤذية للرسول والمؤمنين، إيذاءُ نساء المؤمنين بالنظرات والتَّقوُّلات، وكذلك بالمشاغَبات في قضيَّة زينب، أردفَ الكلامَ عن الحجاب العام والحكم السابق فيمن يُؤْذي الله ورسوله والمؤمنين والمؤمنات بهذا التهديد العام، فقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ باختلاق الأكاذيب والتَّهكُّم والتقوُّلات ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنُحَرِّضَنَّك عليهم، ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ حتى نأمرَك بإخراجهم حالَ كونهم ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي: وُجدوا وعُثِر عليهم، ﴿أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾، والأحكام الثلاثة في سياق: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، ويشمل هذا التهديدُ يهودَ المدينة من بني قريظة الذين أمر الله بقَتْل الـمُقاتِلة منهم وسَبْي الذراري؛ لخيانتهم العظمى في غزوة الأحزاب[1].

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ أي: إنَّ المشاغباتِ ضدَّ الأنبياء وضدَّ الحق أمرٌ لا تخلو منه دعوة إلى الحق، وقد سَنَّ الله سبحانه في جميع شرائعه قَمْعَ أولئك المعارضين وبَتْرَهُم أو إقصاءَهم. قال الزجّاج في معنى الآية: أي: سنَّ الله في الذين ينافقون الأنبياء ويُرْجفون بهم أن يُقتَّلوا حيثما ثُقِفُوا[2].

ولما ذكر حالتَهم في الدنيا بيَّن حالتَهم في الآخرة، وابتدأها بتحقيق القيامة التي ينكرونها، ثم ذكر ما يكون لهم فيها بعدها من الشقاء، على نهج القرآن في تعقيب الوعيد بدليل القدرة أو إثبات الحشر أو ما شابه ذلك من الشقاء، وفي تعقيب الأحكام بما يحمل على التمسُّك بها من شؤون اليوم الآخر فقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: عن

---

(١) روى قصة بني قريظه هذه البخاريُّ (٣٠٤٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٢٣٧).

وقت قيامها. وذلك أنَّ المشركين كانوا يسألونه عنها استعجالاً بها على طريق الاستهزاء، ويسألـه اليهود امتحاناً؛ لأنَّ الله سبحانه قد عمَّى وقتَها في التوراة، وفي سائر الكتب السماوية، فأمره تعالى أن يُعْلِمَهم أنَّ وقت قيام الساعة لا يعلمُه إلا الله، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يُطْلِعُ عليها مَلَكاً مقرَّباً، ولا نبياً مُرسَلاً.

ثم خصَّه ﷺ بالخطاب عنها بهذه العبارة الدالَّة على تحقيقها والتعريض بالمنكرين، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ فبيَّن له أنها ـ مع كونها غيرَ معلومة للخلق ـ مَرْجوَّةُ المجيءِ عن قريب، وإنما وَصَفها بالقُرْب لأنَّ ما مضى من عُمُرِ الكون أضعافُ أضعافِ ما بقي منه، وإن كان مديداً أيضاً. والله أعلم.

ثم ذكر ما يكون من أمرهم فيها بعدها وعيداً لهم بمصيرهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ أي: ناراً شديدة الاتِّقاد، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولَّاهم ويحفظهم منها، ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ يُخلِّصهم من شرِّها.

ثم فصَّل ذلك بقوله: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾﴾ فلا نُبتلى بهذا العذاب. وهذا كلامٌ ملؤه النَّدَمُ والحَسْرة، أعاذنا الله.

ثم يطلبون التَّشفِّي ممَّن أضلَّهم وورَّطهم بهذه الورطة، كما حكى عنهم ذلك بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ لأنهم ضلُّوا وأضلُّوا، ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: شديداً عظيماً.

وفي مقابلة ما تقدَّم من إيذاء المنافقين للنبيِّ ﷺ، التفَتَ لتأديب المؤمنين ـ بما فيهم ضِعافُ الإيمان ـ بالأدب الآتي، مُعقِّباً على ما جاء في السياق، ولا سيما قصَّة زينب التي فيها مجال للدسِّ والمشاغبات والتـقوُّل، على نهج القرآن في المقارنة والتعقيب، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ ويجوز

أن يكون الخطاب عاماً للمؤمنين؛ بما فيهم المنافقون الطاعنون عليه ﷺ بما سَبَق من تعدُّدِ الزوجات وأمرِ زينب وغيره، فيكون الكلام تعقيباً على ما تقدَّم، وحكماً عاماً في نفسه، على نهج القرآن في مثله. ومن ذلك ما قال ابن مسعود رضي الله عنه: لـمّا قسم النبيُّ ﷺ حنين، قال رجل من الأنصار: ما أراد بها وَجْـهَ الله، فأتيتُ النبيَّ ﷺ فأخبرتُه، فتغيَّر وجهُه. ثم قال: «رحمةُ الله على موسى، لقد أُوذِيَ بأكثرَ من هذا فصبر»[1].

وقد قالوا في حديث إيذاء موسى أقوالاً: منها: أن قارون دبَّر مع امرأة أنْ تقول في مَجْمع من بني إسرائيل: إنَّ موسى زنى بها. فلما جمع قارونُ القومَ لذلك ارتعبت المرأة من تُهمة موسى، وقالت: إنَّ قارون ائتَمَر معها على هذه التهمة، ففشل قارون، وردَّ الله كيدَه في نحره، وعادَ وبالُه عليه[2].

وقال الرازي: إنَّ إيذاء بني إسرائيل لموسى كثير، وقد ذكر منه القرآنُ قولَهم له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]، وقولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وقولهم: ﴿أُوذِينَا

---

(١) رواه البخاري (٦١٠٠)، عن ابن مسعود.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» (٣٤٠٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حيياً ستِّيراً لا يُرى من جلده شيء استحياءً منه، فآذاه مَنْ آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يَسْتَتِر هذا التَّستُّر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أُدْرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسَنَ ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه، فلبسه، وطفِق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لَنَدْباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾».

مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، إلى أمثال ذلك[١].

ومعنى: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾: أخرَجه عن عُهدة ما طلبوا بإعطائه البعض إيَّاهم، وإظهار امتناعِ البعض، وعدم جواز البعض، وتفنيد البعض. فقد جعل الرازيُّ هذه الآية مرادفةً لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة: ١٠٨][٢]، وقد أمر الله المؤمنين بأن لا يُؤْذوا رسول الله ﷺ بمثل ذلك، وقد ذكر ذلك بمناسبة إرجاف المنافقين في المدينة، وما يَنْبعث عنه من تَبَلْبل الأفكار.

وفي الآية من لُطفِ الإشارة نوعٌ من الرَّدْع للَّذين لا يتدبَّرون القرآن، ويقولون في قصة زينب: إنَّ النبي ﷺ نظر إليها من دون قَصْد فوقعت في قلبه. ولو كانوا قد تمعَّنوا أساليب السورة ومَطْلعها لتبيَّنوا أنَّ زواجه بها إنما كان أمراً مُدبَّراً بوحيِ الله لإبطال التَّبنِّي، ولم يكن ذلك عن مَيْل وهوى، إذ نفسيَّة الأنبياء أجلُّ من ذلك، فلا يقول ذلك

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٥: ١٨٦).

(٢) قال في «المنار» في تفسير سورة البقرة عند تعنُّت بني إسرائيل (١: ٢٧٣-٢٧٤)، ما ملخَّصه: مع كثرة آيات الله القائمة على نبوَّة موسى وصدْق وعده لبني إسرائيل بالتمكُّن من الأرض الموعودة والخروج من الظلم والذل الذي كانوا فيه، لم تستيقنه أنفسهم، بل كانوا على رَيْب من ذلك، وكانوا يظنون أنَّ موسى عليه السلام خدعهم بإخراجهم من مصر، وجاء بهم في البريَّة ليُهلِكَهم. فلذلك دأبوا على إعناته والإكثار من الطلب حتى ييأس منهم، فيرتدَّ بهم إلى مصر والبلاد التي كانوا فيها، حيث ألفوا الذُّلَّ والهوان.

أقول: وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ تصديقَ ذلك الوعد وتحقيقَه. وهذا يلائم قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [الصف: ٥]. (المؤلف).

القولَ إلا مَنْ سَفِهَ نَفسَه، ولم يَقدُرْ مقام النبوة قَدْرَه. ولو جاز أن يكون قد حدث مثلُ هذا التقوُّل في زمانه ﷺ، فلا بدَّ أن مصدره المنافقون والذين في قلوبهم مرض من المشاغبين والمرجفين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾.

ثم أرشد سبحانه المؤمنين إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ أي: قاصداً إلى الحق.

ثم وعدهم على ذلك بحالَيْن: صلاح الأعمال في الدنيا، وغفران الذنوب في الأخرى، وهما مترتِّبان على الأمرَيْن في الآية ترتيباً طبيعياً، فقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

ثم ختم هذه الآية بما يحمل على التَّمسُّك بما جاء فيها، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ حيث ينال خيرَي الدنيا والأخرى، بطاعة الله في تعاليمه؛ لأنَّ هدف الشريعة أن ينال الإنسان بواسطتها سعادته في الحياتين: الحياة الدنيا، والحياة الأخرى، ويَتجنَّب الشقاءين: شقاءَ الدنيا، وشقاءَ الأُخرى.

ثم ذكر على طريقة التعليل لمضمون ما سبق من أمر ضلال الإنسان في مصادمة الحق ومعاكسة الخير: أنَّ الإنسان جزء من أجزاء هذا الكون، مَنُوطٌ به أمور وأعمال وواجبات، كما أُنيطت بسائر أجزاء الكون أمور وأعمال ونتائج، وقد قام سائر الكون بواجبه ما عدا الإنسان، فإنه فرَّط بما أريد منه أو قصَّر.

وختم هذه السورة العظيمة بما يحمل على التمسُّك بها بقوة، فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ وهي تكاليف الله لمخلوقاته كلها، وما أراده منها[١] من المطالب العملية، والغايات السنيَّة، عرضها ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾، وإنما أتى بهذه الصيغة من التعبير؛ لأنه لما أراد بالأمانة: تكاليف الله لمخلوقاته، وما أناطه بها من الأعمال والنتائج والأحوال، كان منها ما هو اختياريٌّ، كتكليف الإنسان بما أمره به من شرائع وتعاليم، وما هو طبيعيٌّ قَسْريٌّ، كطبع بقية المخلوقات على ما أراده منها من أعمال وخدمات ونتائج، رجَّح جانب الإنسان؛ لأنه هو المطلوب الأصلي في هذا البيان، وعبَّر مجازاً بصيغة العرض عن الإرادة منها والإناطة بها، ونزَّل غير العاقل منزلة العاقل في الاختيار حتى ينسجم معه في صورة المعنى المراد، ويتهيَّأ التعبير عن قيامها بما خُلقت له وطُبعت عليه من الأهداف والأعمال واستمرارها فيها ودأبها عليها. فعبَّر بالعَرْض حتى يتهيَّأ التعبير بالإباء عن تضييعها[٢]، حيث قال: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي: أن يُهْمِلنها ويُضيِّعنها، من قولهم: حَمَل الأمانة؛ إذا خانها. كما جاء في «القاموس المحيط»[٣].

---

(١) يعني: ما طلبه منها وأمرها به، والتعبير بالإرداة في مثل هذا تسامُح.

(٢) الصواب: أن عَرْض الأمانة على السماوات والأرض والجبال كان عَرْضاً حقيقياً، حيث خلق الله لها إدراكاً، وعرض عليها الأمانة، فقامت بها كما ينبغي لها، وأدتها حق أدائها، لِمَا أنها مجبولة على الطاعة والانقياد لأمر الله من غير اختيار كما بيَّنه المؤلف.

وقد تظاهرت الأدلة على إدراك سائر المخلوقات لأمر الله تعالى، مما إذا ضُمَّ بعضه إلى بعض تبيَّن منه بُعدُ القول بالمجاز في مثلها، ولزوم حَمْلها على الحقيقة، وهي غير ممتنعة عقلاً، لكن لم تجرِ بها العادة، وما دامت كذلك فالقول بالحقيقة هو المتعين. ومن ذلك: تسبيح ما في السماوات والأرض لله تعالى الوارد في الآية ٤٤ من سورة الإسراء، وتسبيح الجبال مع داود الوارد في الآية ٧٩ من سورة الأنبياء، وخطاب الله تعالى للسماء والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، الوارد في الآية ١١ من سورة فُصِّلت، إلى غير ذلك.

(٣) ولفظه ص٩٨٧: «وقوله تعالى: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ... وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يخنها».

أما قوله: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ فهو كلامٌ قُصِدَ به تهويلُ أمرها، وعَظَمةُ شأنها.

ومحصَّل المعنى: أنَّ الله سبحانه أمر السماوات والأرض والجبال والشجر والنبات وغيرها من المخلوقات أن تقوم بنظامها الخاص وتؤدِّي الأمر المطلوب الذي أراده سبحانه منها، فقامت على ما أراد، ولم تُضيِّع منه شيئاً، فهي دائبةٌ على عملها وواجبها بكلِّ دقَّة حتى يأتي يومُ خرابها وفنائها، وهو يوم القيامة. أما الإنسان فقد أمره الله بأن يقومَ بواجبات أرادها منه؛ ليتمَّ بها كماله، وتصطلح بها أحواله، ويكون من المخلصين المهديين، وينال بها السعادتين، ويَتَجنَّب الشقاءين، فضيَّعها كلَّها أو بعضها، وارتدَّ إلى أسفل سافلين. فنعى عليه ذلك بقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1] أي: ظلوماً لنفسه، جهولاً في عمله هذا.

وهذا الحكم عليه بحسب مجموعه وغالب أفراده، لا جميعه، وإطلاق الحكم على

---

(١) إنما انفرد الإنسان عن سائر المخلوقات بخيانة الأمانة مع أنه أشرف المخلوقات وأكرمها وأقومها؛ لمكان الاختيار فيه، حيث جعله الله مختاراً في تصرُّفاته؛ ليتمكَّن من سَعَة العلم وكثرة الإيجاد في هذه الأرض التي جعله الله خليفةً فيها، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا أن يكون مختاراً في تصرُّفاته، كما لا تكون المطر إلا بالغيم، ولا الحياة إلا بالهواء مثلاً. وهذه هي الحكمة في جعله مختاراً في تصرُّفاته. ولو جعله مقسوراً على الطاعة كالـمَلَك؛ لما أمكنه ذلك.

وقد احتاط سبحانه لهذا الإنسان فهداه بهدايتين من دون سائر المخلوقات: هداية طبيعية، وهداية شرعية، أرسله له بواسطة الرسل، فإنْ حافظ على الهدايتين مثلاً كما كان عليه يوسف عليه السلام، كان إنساناً كاملاً. وإن انحدر إلى السوء ضلَّ ضلالاً بعيداً، ويصل أحياناً إلى أسفل سافلين، كما جاء في سورة ﴿وَٱلتِّينِ﴾، لم يبق للإنسان حجةٌ بعد الرسل، وإرسال الشرائع والتعليمات، ولذلك كان قليل منه للسعادة كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦]، ولهذا سبحانه عقَّب هذه الآية بمبدأ سورة سبأ، فتأمَّل. (المؤلف).

المجموع باعتبار تعلُّقه ببعض الأفراد أو أكثرها هو من خصائص اللغة وأساليب القرآن، وسائغٌ فيهما(١).

وكان من عَدْل الله سبحانه ومنَّته على عباده: أنْ غَفَر للمؤمنين والمؤمنات تضييعَ بعض هذه الأمانة بطريقة الهفوات، وعذَّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، لخيانتهم جميعها، وإضاعتهم لمعظمها، كما قال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢)(٧٣)﴾ للهفوات، يَغفِرُ ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

---

(١) لا يصحُّ تفسيرُ المؤلف لحمل الإنسان الأمانة بخيانتها، إذ هي تشريفٌ وتكريمٌ للإنسان الذي منحَه اللهُ الإرادة الحرّة وقدرات الإدراك والفهم، وبما سخّر له من قوى في ذاتِ نفسه وفي الكون من حوله؛ ليتمَّ امتحانُه في الحياة الدنيا.
ومعنى حَمْل الإنسان للأمانة: أنه يحمل الاستعداد الفِطريَّ الكامل لحمل الأمانة بما منحَه الله تعالى من خصائص التفكير والعقل، ومعرفة صفات الأشياء، والإرادة الحرّة، ممّا يستطيعُ التصرُّف فيه بِفعل الخير أو بِفعل الشر. فإذا استعمل الإنسانُ ما استودعه الله من إرادة وطاقات فيما فيه ظلمٌ وعدوان، فهو خائنٌ فيما استأمنه الله عليه.
قال العلامةُ ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٢٢: ١٢٩) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾: معناها استئناف بياني؛ لأن السامع خبر أن الإنسان تحمّل الأمانة يترقب معرفةَ ما كان من حُسْن قيام الإنسان بما حمله وتحمّله، وليست الجملة تعليلية؛ لأن تحمُّل الأمانة لم يكن باختيار الإنسان، فكيف يُعلَّل بأنّ حَمْلَه الأمانة من أجل ظلمه وجهله.
فمعنى ﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾: أنه قصّر في الوفاء بحَقِّ ما تحمَّله تقصيراً: بعضُه عن عَمْد، وهو المُعبَّر عنه بوَصْف «ظلوم»، وبعضُه عن تفريط في الأخذ بأسباب الوفاء، وهو المُعبَّر عنه بكونه «جهولاً». اهـ. وينظر جواب الشيخ تتان في المقدمة.

(٢) اللامُ في قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ...﴾ هي لامُ العاقبة، قال ابنُ عاشور في «التحرير والتنوير» (٢٢: ١٣١): «متعلّق بقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، لأن المنافقين والمشركين والمؤمنين من =

اللهمَّ اغفر لنا وارحمنا، وعافنا واعفُ عنا، يا أرحم الراحمين.

* * *

= أصناف الإنسان، وهذه اللامُ للتعليل المجازي المُسمَّاة: لام العاقبة...، والشاهد الشائع فيها هو قولُه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]...، والمعنى: فعذَّب الله المنافقين والمشركين على عدم الوفاء بالأمانة التي تحمَّلوها في أصل الفِطرة وبحسب الشريعة، وتاب على المؤمنين فغفر لهم من ذنوبهم، لأنهم وفوا بالأمانة التي تحمَّلوها». اهـ.

وقال المراغي في تفسير هذه الآية (٢٢: ٤٦-٤٧): «إنا لم نخلق السماواتِ والأرضَ ـ على عِظَم أجرامِها وقوة أَسْرها ـ مُستعدَّةً لحمْل التكاليف بتلقِّي الأوامر والنواهي، والتبصُّر في شؤون الدين والدنيا، ولكن خلقنا الإنسانَ ـ على ضعف مَتْنه وصِغَرِ جرمه ـ مُستعداً لتلقِّيها والقيام بأعبائها، وهو ـ مع ذلك ـ قد غلبت عليه الانفعالات النفسيَّة الداعية إلى الغضب، فكان ظلوماً لغيره، ورُكِّبَ فيه حبُّ الشهوات والميل إلى عدم التدبُّر في عواقب الأمور، ومن ثَمَّ كلَّفناه بتلك التكاليف؛ لتكسر سَوْرة تلك القوى، وتُخفِّف من سلطانها عليه، وتكبتَ من جماحها، حتى لا توقعَه في مواقع الردى.

ثم بيَّن عاقبةَ تلك التكاليف فقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ...﴾ أي: وكان عاقبةُ حَمْل الإنسان لهذه الأمانة أن يُعذِّبَ مَن خانها وأبى الطاعة والانقياد لها، من المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، ويقبلَ توبةَ المؤمنين والمؤمنات إذا رجعوا إليه وأنابوا، لتلافيهم ما فرط منهم من الجهل وعدم التبصُّر في العواقب، وتداركهم ذلك بالتوبة.

ثم علَّل قبولَه لتوبتهم بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾». اهـ.

فاللامُ لامُ العاقبة، وليست لامَ التعليل. وينظر كلامي في تفسير هذه الآية في كتابي «البيان في أركان الإيمان»، وفي تفسيري «المعين»، وفيما علَّقتُه بتفصيل طويل على «فتاوى محمد أبو زهرة».

سُورَةُ سَبَإٍ

مكيَّة، إلا آية: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ...﴾ [٦]

وهي أربع وخمسون آية

وملخَّص موضوعها:

إثباتُ الساعة التي سألوا عنها في السورة السابقة سؤالَ استهزاء بالبعث والنشور، وردَّ عليهم بأنه لا وَجْهَ لاستبعادهم، ولله سبحانه من القدرة البالغة ما سخَّر به لداودَ الغرائبَ من الأمور، وإهلاكُه لأهل سبأ عندما أعرضوا عن الله وأهملوا تعاليمه.

ثمَّ هدَّدهم بالهلاك كما فعل بأمثالهم، وختم السورة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ
(١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ
ٱلْغَفُورُ (٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ
عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى
كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٣) لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ (٤) وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥)
وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْحَمِيدِ (٦)﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: أنّه المستحقُّ للحمد على أفعاله الحُسْنى ونعَمِه العُظْمى في الدارَيْن. وفيه إيماءٌ إلى أنه سبحانه وتعالى سيُنعِمُ بإنعامات جُلّ في الآخرة أضعافَ أضعافِ ما في الدنيا.

ثم ذكر ما هو كالتعليل لما تضمَّنه استحقاقُه للحمد، من جليل الأعمال وسدادها، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (١)﴾ أي. أنه نظم أمْرَ السماوات والأرض، وأمْرَ نِعَمِه على الناس فيهما بالحكمة والخبرة، فكانت طِبقَ المراد، ووَفْقَ الحقِّ والسَّداد، ولذلك استحقَّ عليها الحمدَ الجزيل.

ثم أضاف إلى حِكمتِه وخِبْرتِه العظيمتَيْن عِلمَه الواسع، تكميلاً للتعليل وإحصاءً للأعمال، فقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، وقد شملت هذه الجملة على قِصَرها جميعَ ما في الكون، وما يحدث فيه، وما يذهب منه، ولم يَفلِت عنها من ذلك شيء. جلَّ من هذا كلامُه! وذلك عِلمُه ونظامُه!

وبعدَ أن أومأ باستِحقاقِه للألوهيَّة وحدَه، بيَّن سببَ إمهاله لـهؤلاء المشركين المعارضين، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ أي: ولولا ذلك لعجَّل للمنكرين العذاب.

ثم ذكر إنكارَهم البعثَ بعد أن قدّم هذه المقدِّمة الدالَّة بمضمونها على قدرته وخبرته في تحقيق الحياة الثانية مع عِظَم شأنـها، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾، يقولون ذلك إنكاراً للحشر والحساب، ونفياً للإمكان بعد أن يكونُوا رفاتاً وتراباً. وقيل: استبطاءً لإتيانها، بطريق الهزء والسخرية.

فأمر سبحانه نبيَّه ﷺ أن يَرُدَّ عليهم بما يَتَضمَّنُ التأكيد على أبلغ الوجوه، فقال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ثم أتى من صفاته تعالى بما فيه دلالةٌ على حِفظِ أعمالهم، إيذاناً بالجزاء، وتقريراً لإثبات الساعة، فقال: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾ وهو علمُه[1] الأزليّ الأبديّ السرمدي، لا ينقطعُ ولا يتجدَّد، ولا يغيبُ عنه شيءٌ مما كان أو يكون.

---

(١) هذا محتمل، لكنْ ثبت في السنة النبوية أنّ الله تعالى خلق اللوح، وأثبت فيه الآجال والأعمال والأرزاق والأقوات وسائر المقادير، وحَمْلُ لفظة «كتاب» الواردة في الآية الكريمة على اللوح المحفوظ أليقُ وأنسبُ من حَملِها على العِلم.

وقوله: ﴿لَا يَعْزُبُ...﴾ معناه: لا يَغيبُ ولا يَبعُدُ عنه كلُّ شيءٍ من الأزل إلى الأبد حتى أقلِّه وأدقِّه، وإن كان في أخفى وأبعَدِ مكان. وقالوا: إنما قدَّم ذِكرَ السماء في هذه السورة وأخَّرها في نظيرتها من سورة يونس(١)؛ لأنَّ الآية هنا في سياق ثنائه تعالى على نفسه، ووصفه بإحاطة علمه، فناسب تقديم السماء لأنها أعظم، أما السياق في يونس فكان فيه الكلام عن أهل الأرض، فناسب تقديمها. وقد كـرَّر كلمة ﴿لَا﴾؛ مبالغةً في النفي. والجملة مطويَّة على تحقيق أنه يعلم متى الساعة، وعلى التهديد في إحصاء كلِّ شيءٍ عليهم لينالوا جَزاءَه.

ثم صرَّح بالغاية من هذا الإحصاء للصِّنفَين معاً، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بما ألمع له بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾، وفي قطع هذا البيان واستئنافِ ما يدلُّ على أنَّ لهم سعادة الدنيا والأخرى، بلاغةٌ عاليةٌ في زيادة التنويه.

ثم بيَّـن جزاء المعارضين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا﴾ بالقَـدْح فيها وصدِّ الناس عن التَّصديق بها، ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ لنا في القدرة على إعادتهم ومغالبين بزعمهم، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ والرِّجز: أسوأ العذاب.

ثم بيَّن سبحانه وتعالى أنَّ سَعْيَهم في هذا القَدْح والصَّدِّ فاشل، إذ يقاومه العقل والعلم الصحيح، فقال: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أنَّ ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ الجديرَ بالاتِّباع، ﴿وَ﴾ هو الذي ﴿يَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ﴾ الله ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾، والتَّعرُّض لهذين الوصفين تعريضٌ بالترهيب والترغيب، وتمجيدٌ للصراط وتسديد.

---

(١) يقصد قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

ثم ذكر شبهةً من شُبَههم في استبعاد البعث أو استنكاره، مَصُوغةً بشكل خادع مُضَلِّل للجُهَّال، بُغيَةَ الصَّدِّ عن الآيات، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾(١) أي: يُنبِّئكم أنكم تُخلَقون من جديد، بعد أن تَفْنى أجسامكم بالموت وتُـمزَّقون كلَّ مُـمَزَّق. وفي جملة الشرط زيادةُ مبالغةٍ في التَّعجيب والإنكار والاستبعاد.

ثم التمسوا لهذا الإنباء الغريب بزَعْمهم وجهاً، فقالوا: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾؟! فردَّ الله سبحانه عليهم بما فيه بيانٌ لجليَّة أمرهم، وتقريرٌ للحقيقة بطريقة

---

(١) لقد ألمع ما جاء عن رسول الله ﷺ من الأخبار عن كيفيَّة الحشر، بأنَّ الذي يُعادُ منه الجسم يوم القيامة إنما هو عَجْب الذنب وحده، وهو ذرَّة دقيقة محلُّها أسفل الصُّلب من الإنسان، وهذه الذرة تبقى بعد فناء الجسم، ومنها يتكوَّن الجسم الجديد الصالح للخلود، بمعونة ما يشبه مطراً يُمطَرُ يوم القيامة. فيكون موسم الحشر من الطبيعة في إحياء الأجسام، كموسم الربيع منها في إحياء النبات. ويمكننا أن نعبِّر عن هذه الذرة بنواة الحياة. والله تعالى أعلم.

فقد جاء عنه ﷺ: «كل ابن آدم يأكلهُ التراب إلا عَجْب الذنب، منه خُلِق، ومنه يُرَكَّب» قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خَرْدل، منه تنسِلون»، وتصويره بحبَّة الخردل إنما هو تعبير عرفيٌّ يُقرِّبه للعقول، ولعله مما لا يُدرَكُ بالنظر ولا بالمجهر أبداً. والله أعلم. وقد جاء في ذلك روايات عديدة في أخبار صحيحة. (المؤلف).

والحديث سبق تخريجه (٤: ٤٢٨).

الإضراب وطَـوْي البيان على التـهديد، فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ عن الحقِّ والصَّواب. وقَـرَنَ بين السبب والمسبَّب، وذلك من إعجاز القرآن.

ثم أوضَحَ الردَّ مستشهداً بدلائل قدرته التي هي نُصْبَ أعينهم، وسبكه على إنكار استبعادهم لذلك، وهم يَرَوْنَ من كمال قدرته ما يَرَوْن، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أفلم يَرَوا ما يحيط بهم من آثار قدرته العظيمة في السماوات والأرض؟ ألا ينتبهون إلى أنَّ فاعل ذلك لا يُعْجِزُه شيء، فكيف ينكرون عليه إعادةَ أجسامهم بعد التَّمزُّق؟!

ثم أتى بهذه الجملة المساوقة للقُدرة، والـمُهَدِّدة لهم بعذاب الاستئصال، فقال: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قطعاً وصواعق، كما فعلنا بمَنْ قبلهم من أمثالهم في الأمم الماضية الذين عارضوا أنبياءهم بما جاؤوهم به.

ثم علَّق على الرد بهذا التأنيب والتعريض بهم، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: بما يحيط بهم من آثار القدرة في السماء والأرض ﴿لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ أي: لكلِّ مَنْ يرجع إلى الله ويترك التعصُّب الأعمى والنظرَ القصير، لا لمثل هؤلاء الـجُهَّال الذين قد أفسدوا طبيعتَهم، وطَمَسُوا نورَ بصيرتهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ

ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

ثم ذكر من قدرته البالغة ما يتفضَّل به على المُنيبين إليه من العزَّة والكرامة، وخصَّ منهم داود عليه السلام، وبيَّن ما آتاه الله من فضله وعجائب أمره، مسبوكاً على مثل ما سبق من بيان قدرته التي لا يعجزها شيء، وما الحشر في جانبها إلا يسير، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾، وقلنا: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي: ارجعي إلى مُراده، بمعنى: ساعديه ولايميه[1] فيما يطلب منك ويريد. يريد بذلك: تسخيرها له في كلِّ ما يتطلَّبه منها، من استخراج معدن أو تعبيد طريق أو اتِّخاذ محلات مُلائمة لمقاعد القتال، واستنباط عين أو غير ذلك مما يحتاجه منها لسِلمِه وحَرْبه. وقوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ مفعول معه لفاعل ﴿أَوِّبِى﴾ أي: شاركي الجبال بالرجوع لمصالحه. أو معطوف على مضمون ما قبله، أي: وسخَّرنا له الطير كذلك لمساعدته بكلِّ ما يتطلّبه منها، ولا سيما في استكشاف أمر العدو، وإرسال الرسائل، كما جاء عن الهدهد في قصة بلقيس مع سليمان.

ورُوِيَ عن الحسن وقتادة: أن معنى ﴿أَوِّبِى﴾: رَجِّعِي معه التسبيحَ[2]. وقد أوسعتُ البحثَ عن مثل هذه الآية في سورة الأنبياء[3].

ثم بيَّن له كرامة أخرى، فقال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ إما بطريق خارق للعادة، أو بإلهام لاكتشاف طريقة مُسهِّلة للعمل السريع المتقن في مصنوعاته.

---

(١) لايميه: من الملائمة، بمعنى المسايرة والموافقة والمطاوعة. ينظر: «القاموس» (ليم).

(٢) رواهما الطبري في «تفسيره» (٢٠: ٣٥٨).

(٣) في الآية ٧٩ منها. وتقدَّم في التعليق عليها تعقُّبُ المؤلف في تفسيره لتسبيح الجبال والطير مع داود بالتسخير ونحوه، وبيانُ أن الصواب: هو حَمْلُ هذا التسبيح على ظاهره، وذلك خصوصية لداود عليه السلام، ومعجزة خارقة للسُّنن الكونية.

ثم فسَّر ذلك بنتيجته مسبوكة على عِظَمِ منَّته، فقال: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾ أي: دروعاً واسعات لا كالدروع المعروفة إذ ذاك، ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: اقتَصِدْ في زَرْدها ونَسْجها لتكونَ خفيفةَ الحَمْل لا يَتَكلَّف حاملها.

ويظهر من فحوى الآية: أنَّ داود عليه السلام أدخل إصلاحات كبيرة في عمل الدروع أتت من إلانة الحديد له، وأنَّ الدروع قبل ذلك كانت ثقيلة؛ لأنها تُصنَعُ من صَفائح، فلا تتَّخذ سابغةً تشمل البدن كلَّه وتَقِيه، إذ لا يمكن حَمْلها، بخلافها بعد إلانة الحديد وجَعْلها من زَرَد وحِلَق دقيقة، فقد صنعت الآن سابغة منيعة تحيط بالبدن كلِّه، ومع ذلك فهي سهلة الحمل، لا يتكلَّف منها لابسها، وكَثُر وجودها في الجيش، وربما لبسها الجند عن آخره، فامتاز على جيش العدوِّ وتفوَّق.

ولا يلزم من فحوى الآية: أنه كان اكتشف ذلك بنفسه أو كان يصنع ذلك بنفسه، بل يدلُّ على أنَّ هذا العمل كان موفوراً في مملكته ومُخْتصاً بها عمالُه، على نهج اللغة والعُرْف في مثل ذلك، أي: اكتشفَ هذا الأمرَ وتيسَّر له العمل، والله أعلم. وهو الأظهر من السياق، فإنه لما كان الخطاب له مراداً به العموم، أتى بصيغة الجمع عندما قرن ذلك بقوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾، وهذا العطف للإشارة إلى أنَّ العمل الصالح هو المطلب الأصلي، وما عداه من مثل هذا التيسير سببٌ له ومُعينٌ عليه.

ثم حثَّ على طلب الإتقان للعمل الصالح والإخلاص فيه، فقال: ﴿ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

وبعد أن ذكر سبحانه ما أعطى لداود عليه السلام من الفضل والكرامة وعَجَائب الأمور، ذكر سليمان عليه السلام وما آتاه من ذلك، فقال: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ ﴾ أي:

سخَّرنا لسليمان الريح، ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: جَرْيُها بالغَداة مسيرةَ شهر وبالعشيِّ كذلك. وقد فصَّلنا ذلك في سورة الأنبياء(١).

ويجوز أن يكون ذِكرُ الشهر للتكثير لا للتحديد(٢)، وأما يجوز أن يكون هذا مقدار قوة هذه الريح وقيامها، يستخدم منها ما يحتاجه؟ والله أعلم بمراده، وهو على كلِّ شيء قدير، وسُنَنُه في كونه لا تُحصى، ولا نعلم منها إلا القليل.

ثم تابع البيانَ عن كرامة الله لسليمان، فقال: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: النحاس المذاب. قال المفسِّرون: أساله من معدنه معجزةً له، فنبع نبوع الماء.

أقول: ولا مانع من إرادة التَّجوُّز بهذا التعبير مبالغةً في تسهيله، ويكون المراد مِثلَ ما ذكرته في إلانة الحديد، وفي كل ذلك كرامةٌ وفضلٌ عظيم. والله أعلم(٣).

ثم ذكر معجزةً وكرامةً أخرى، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾

---

(١) في الآية ٨٢ منها.

(٢) هذا بعيد، وفيه إضعافٌ لمعنى المعجزة التي خصَّ بها الله تبارك وتعالى سليمان عليه السلام، وجَعْلُ الأمر قريباً من الوجه المعتاد بين البشر من استغلال الرياح واستثمارها، كما في السنن مثلاً، وسياقُ الآيات ينافي ذلك، بل الأمر معجزة خارقة للعادة.

(٣) إن كان كلُّ معجزة يذكرها القرآن الكريم لنبي من الأنبياء يجوز فيها التجوُّزُ في التعبير، وحَمْلُها على معنى مُساوِقٍ للسنن الكونية، فماذا بقي للأنبياء من خصوصية عن سائر البشر؟ وكيف تثبت نبواتهم على وجه قطعي، وهم لم يأتوا إلا بما يوافق السنن الكونية؟ فمسألة تفوُّقهم في استغلال السنن الكونية واستثمارها لا تقوم دليلاً على صدقهم في نبوتهم، لأن ذلك في مقدور البشر عقلاً، فينبغي أن يأتوا بشيء لا يقدر عليه البشر يكون خارقاً للسنن الكونية غيرَ جارٍ على نظامها حتى يثبت في العقل على وجه القطع أن ذلك الذي أتوا به هو فِعلُ الله تعالى الدالُّ على تصديقهم.

أي: بتيسيره وتسخيره أو بأمره، ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: عمّا أمرناهم به من طاعة سليمان، ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

ثم فصَّل عَمَلَ الجنِّ لسليمان، فقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ يريد: الأبنيةَ العظيمةَ والزخارفَ العجيبةَ في بناء المسجد. مِنْ ذِكرِ الشيء باسم جزئه بطريقةِ المجاز المُرسَل، ويجوز أن يُراد بالتماثيل: بعض القصور العظيمة. وقد مرَّ الكلام على ذلك أيضاً في سورة الأنبياء[1]، ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ أي: صِحَافٍ كالحياض، يُطْعِم بها الجيش، ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ كما ترسُو السفن، أي: عظيمات ثابتات على الأثافي[2]، يصنع بها ذلك الطعام. والتعبير بـ﴿رَّاسِيَاتٍ﴾ للمبالغة في العِظَم.

ثم قرن ذلك بقوله: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ لله، وأراد بهذا الطلب ما أراده في قصة داود بقوله: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [سبأ: ١١]، أي: أكثِروا يا آل داود من عمل الخير والصلاح أنتم وأتباعكم شكراً لله تعالى، على ما أَوْلاكُم من نِعَمٍ وكرامة. فحذف المفعول به للعلم به، وذكر المفعول لأجله.

ثم ذيَّل الأمر بما فيه نَعْيٌ على بني الإنسان، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

وبعد أن بيَّـن عَظَمةَ سليمان وتسخيرَ الـرِّيح والـرُّوح له، بيَّن أنه مع ذلك لم يخرج عن حدود أضعف خَلْق الله في مَجْرى أحوال الطبيعة، مُدمجاً في ذلك عدَّة أمور، فقال: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ ودابَّـة الأرض هذه: حشرة صغيرة تأكل الخشب أكلاً بطيئاً وتنخره بطول الزمن، وتُسمَّى: الأَرَضة. والمراد بالمنسأة: العصا التي يتوكأ عليها وينسأ بها. وإنما عقَّب عظمةَ

(١) في الآية ٨٢ منها.

(٢) مفردها الأثفية، وهو الحجر الذي توضع عليه القِدْر.

سليمان بهذا البيان كي لا يتسرَّب إلى ضعاف الأذهان أنَّ سليمان عليه السلام فوق حدود البشرية، سوى أنَّ جسم الأنبياء لا يبلى.

قيل: إنَّ سليمان عليه السلام كان يعتكف في مسجد بيت المقدس السنة والسنتين، والشهر والشهرين، وأقل وأكثر، يُدخِلُ فيه طعامه وشرابه، ويتعبَّد فيه، ولا يجرُؤُ أحدٌ على التقرُّب منه، فمات وهو مُتَّكئ على عَصَاه. وقد اعتادوا أن يجدوا منه عبادات طويلة قياماً وقعوداً. والله أعلم. فكلَّما رآه الجن كذلك ظنُّوه يَـتَعبَّد، وهم دائبون في أعمالهم الشاقَّة لتكملةِ بناء المسجد، حتى كمل، ولم يعرفوا بموته حتى أكلت هذه الحشرة عَصَاه التي كان مُتَّـكئاً عليها، فسقط على الأرض، ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ من جرَّاء أعمالهم الشاقَّة، أي: فلمَّا خرَّ علمت الجنُّ بموته، وتبيَّن لها من أكْلِ الأرضةِ منسأتَه أنه ميِّت من زمن طويل. ولو علمت بهذا من قبل، لقطعت عملها الشاقَّ في تهيئة البناء وتحضير موادِّه، ولتمرَّدت على ذلك. وكانت تظنُّ أنها تعلم الغيب، فتبيَّن لها أنها واهمة مخدوعة، وأنَّ ما تعلمه غيرُ الغيب، وإنما هو سَعَة إدراك طبيعي فيها، وكثرة معلومات في بعض الموجودات البعيدة والـخفيَّة؛ ناشئة من سرعتها في التنقُّل، ودخولها خفايا المداخل وصعابها وصلابها، لا كالإنسان.

وقيل: بل المعنى: تبيَّن أمرُها للإنس، وانكشف لهم أنَّ الجن لا تعلم الغيب كما تدَّعي، وإنما جاء هذا الوَهْمُ من كَوْن الجن تعلم بطبيعتها ما لا تعلمه الإنس، وذلك لأنها أجسام لطيفة سريعة الحركة يمكنها الاطلاع على الأمور البعيدة، والتدخُّل إلى الأمور الخفيَّة، وليس ذلك بغيب، ولا من طرق علم الغيب، وإنما هي أمور طبيعية لها.

وعلى كلّ، ففي الكلام نوعُ استطراد أو استتباع. فقد خَرَج من بيان حال سليمان

عليه السلام إلى بيان وَهْم الجن في ذلك، أو وَهْم الناس فيها بذلك، وعلى هذا يكون قوله: ﴿أَن لَّوْ كَانُواْ﴾ بَدَلَ تفصيل من لفظ ﴿ٱلْجِنُّ﴾.

وقيل: إنَّ في صورة موت سليمان هذه أغراضاً جليلة؛

منها: إتمام بناء بيت المقدس على الصورة التي أراد.

ومنها: معرفة أن الإنسان ـ مهما بلغ من الكرامة ـ لا يخرج عن حدود البشريَّة.

ومنها: أن يعلم الجنُّ أنهم لا يعلمون الغيب، وأنهم مخدوعون واهمون، وما يعلمونه ليس بغيب وإن غاب عن الإنس لاختلاف الطبيعتين. أو أن يعلم الإنسُ أن الجنَّ لا تعلم الغيب، وأنهم في ادِّعاء ذلك كاذبون.

ومنها: أن يُعْلَمَ أنَّ مَنْ حضر أجلُه فلا يتأخَّر، ولو كان جليل القدر مَنُوطاً به أعمال كبيرة لم تتمَّ بعد، إلا أنَّ الله سبحانه يُنظِّم الأسباب لإتمامها ويُهيِّئُها.

ومنها: أنَّ الأنبياء لا تبلى أجسامُهم. والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ
وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ
جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ
نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا
ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ
فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ
عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا
لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه حالَ المُنيبين إليه، وما أكرمهم به من النِّعَم والكرامة، وكيف شكروا تلك النِّعم، قابل ذلك بحال الكافرين لنِعَمِه، وكيف سَلَبها منهم، وبحال المُعْرِضين عنها والمُبدِّلين لـها، كيف بَـدَّل نِعَمَهم نقماً، على نـهج القرن في المقابلة، وحكى ذلك في أهل سبأ، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ عظيمةٌ دالَّـةٌ على حُسْن عاقبة المؤمن الشكور، وسُوءِ عاقبة الكفور.

ثم فصَّل سبحانه تلك الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: إنَّ ديارهم كانت مغمورةً بالنِّعم على وتيرةٍ واحدة، فكانت البساتين والمزارع عن يمينهم وشمالهم، متَّصلاً بعضُها ببعض.

ثم نبَّههم إلى عَظَمة نِعَم الله ومنَّته عليهم ووجوب شكرها، فقال: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾[1] هذه النِّعمةَ العظمى والمنَّة الكبرى التي وضَّحها بقوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ لِـهَفَوات مَنْ يشكره.

هكذا كان حالهم عندما كانوا شاكرين لِنِعَم الله مؤمنين به، ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ عن الشكر وتمسَّكوا بالكفر ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ أي: السَّيْلَ الجارف الذي لا يُطاق، من قولهم: عَرَمَ الرجل: إذا شَرِسَ، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، كقولهم: حق اليقين، ومسجد الجامع، وجماعة الحاضرين، وأمثال ذلك.

وقد قالوا في تفصيل الأمر: إنَّ الماء كان يأتي أرض سبأ من أودية اليمن، وكان هناك جبلان يجتمع ماء المطر والسيول بينهما، فسدُّوا ما بين الجبلين، واتَّخذوا خزَّاناً عظيماً، نظَّموا أخْذَ الماء منه بقدر الحاجة، بواسطة سدّادات فنية. فلما طال عليهم الأمد، وتَبدَّلت

(١) الشكر لله: هو الثناء على الله والطاعة والانقياد. ويتبع ذلك كثرة الصدقات والأعمال الصالحات. (المؤلف).

الأجيال جهلاً بعد علم، وخمولاً بعد نشاط، نتيجة تبدُّلهم كفراً بعد إيمان، وإعراضاً وفساداً بعد شكر وصلاح، اخْتَلَّ اليمن وكَثُرَ فساده، واشتدَّت المنازعات والمخاصمات فيه، فقامت فيهم حكومات عاطلة جاهلة، فانصرفت الحكومات المتعاقبة عن تعهُّده والاستمرار في إصلاحه وتقويته، فضَعُفَ ولم يَقْوَ على إمساك السيل الشديد، فكانت العاقبة كما قصَّه سبحانه بقوله: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ ذات اليمين وذات الشمال العامرتَيْن بالأقوات والفواكه الطيبة، ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ خاليتَيْن من ذلك، إلا من منبوتات الأحراش الطبيعية كما قال: ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ ممَّا يكثر أمثاله في الديار الخالية من العمران، القليلة السكان، المهملة من عمل الإنسان. والأكل الخمط: الثمر الرديء بشع الطعم، والأثل: الطرفاء، والسِّدْر: النبق. ولجودته في الجملة وصَفه بالقلة.

وقد بيَّن سبحانه وتعالى أنَّ ذلك إنما كان تعذيباً لهم في الدنيا، بما كسبت أيديهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ للنِّعم، فنسلبها منه جزاءَ كفره بها. وذلك لأنَّ مخالفةَ سُنَنِ الله الطبيعيَّة المادية تُؤدِّي إلى عذاب الدنيا ورداءة العيش، ومخالفةَ سُننه الروحيَّة تؤدِّي إلى عذاب الأخرى تأدية طبيعية بحسب سنة الله فيها، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ثم عاد وتابع الكلام عن بيان ما كان قد أنعَمَ به عليهم من العمران، وما فعلوا به من الكفران، وما حاق بهم من الخسران، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي: الشام ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ والمعنى: أنه قد كان من قصَّتهم: أنا جعلنا بينهم وبين قرى الشام التي باركنا فيها بالماء والشجر قُرىً متواصلة. وكان متجرهم من أرض اليمن إلى الشام، وكانوا يبيتون في قرية، ويقيلون في أخرى، حتى يعودُوا من سفرهم.

ومعنى ﴿ظَٰهِرَةً﴾: أنَّ الثانية كأنها تُرى من الأولى لقُربها منها، وذلك دليل

العمران وكثْرة السكان في تلك البلدان. وهي من أكبر نِعَم الله الدنيويَّة على بني الإنسان. وقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ تفسيرٌ لمعنى ظهورها، أو تقريرٌ له. أي: جَعَلناها متواصلةً عمرانياً، بنتيجة ما ذكر من كثرة السكان وعمارة يد الإنسان.

ثم امتنَّ سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ وفي هذه الآية إجمالٌ لما سَبَق، ونتيجةٌ له، وتمنُّنٌ عليهم. قالوا: وتدلُّ الآية دلالةً إجمالية على أنَّ هذه البقعة من الجزيرة العربية كانت في ماضيات أيامها كثيرةَ الخِصْب عظيمةَ المياه وفيرةَ المحاصيل، فتناولتها النوازلُ الطبيعية بكثير من الجفاف، حتى استحال على الحضارة السالفة أن تبقى معالمها، وعلى العمران أن يبقى لمعانُه، لأن ذلك لا يكون إلا مع الخِصْب وكثرة المياه المنظمة، لذلك تبدَّلت الأرض غير الأرض، وانحلَّت الحضارة، وانهار العمران، وهاجر السكان. وهذا جزاءٌ من الله سبحانه نتيجةَ تبدُّل الطاعة والإيمان بالضلال والعصيان. وهذا يدل على أن الكوارث الطبيعيَّة عقابٌ من الله سبحانه للفرد والمجموع، توفيقَ أقدار لأقدار، ويجوز أن تكون في المتّقين تعظيماً للأجر والثواب، والله أعلم.

وقد أثبت الباحثون من الأجانب أن سَيْل العرم قد تكرَّر حدوثه في هذه الديار، وهو أحد العوامل المهمَّة في خرابها، ولا يَبعُدُ تكرُّره، بل هو المنتظر بعد أن خرب السَّدُّ وتَدَاعى.

وبعد أن حكى سبحانه ما كانوا مغمورين به من النِّعَم، حكى ما تلبَّسوا به من الكفران الذي كان سبباً لزوالها بقوله: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، وفي هذا البيان تَـجوُّز بالقول عن الفعل، وهو من خصائص اللغة وأساليب القرآن، أي: فعلوا ما يستوجب زوال تلك النعمة المذكورة، ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ إذ حَرَموها السعادة بإفسادهم لِفِطَرهم، وما تَبِعَه من فساد أعمالهم وسُوء تصرُّفاتهم، نتيجةَ إعراضهم عن

تعاليم الله وكفرانهم لشريعته وتوجيهاته، فكان ما حكاه سبحانه بقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ بما جرى عليهم ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾؛ إذ قد تعرَّضت البلاد للخراب، وهجرة أهلها عنها، من جرَّاء هجمات السيول عليها، وفقدان المياه التي تحتاجها المزارع، وما يتبع ذلك من سوء حال.

ثم حسَّس بما في ذلك من عبرة، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما جرى على هؤلاء ﴿لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ١٩﴾ أي: صبَّارٍ على مَشاقِّ الطاعات والإعراض على الهوى والشهوات، شكورٍ لِنِعَم الله عليه. والصبر مع الشكر من صفات المؤمن الصادق، والمؤمن مُستعدٌّ للنظر والتفكير في آيات الله وعظاته.

ثم بيَّن سبحانه وتعالى مَثَار هذا الشر والضلال فيهم، وأقامه مقام العلَّة لما جَرى عليه، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ﴾ أي: حقَّق ﴿عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢٠﴾[1] وهذا الاستثناء يدلُّ على أنَّ الله سبحانه يأخذ الأمم بالعذاب إذا كان أكثرهم مجرمين، ولكنَّ الله يأجر هؤلاء المؤمنين بعد الموت أجراً عظيماً كما جاء في الحديث[2].

---

(١) إن الله سبحانه يأخذ الأمم بالعذاب إذا كان أكثرهم مجرمين، ولا يمنع ذلك وجود بعض المؤمنين فيهم، بحكم قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، إلا أن الله سبحانه يعوِّض للمؤمنين يوم القيامة. (المؤلف).

(٢) لعله يريد حديث عائشة رضي الله عنه المتفق عليه، أخرجه البخاري (٢١١٨) ومسلم (٢٨٨٤)، ولفظُه عند البخاري: «يغزو جيشٌ الكعبة، فإذا كانوا ببَيْداء من الأرض يخسف بأوّلهم وآخرهم» قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يُخسَفُ بأوّلهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم ومَن ليس منهم؟ قال: «يُخسَفُ بأوّلهم وآخرهم، ثم يُبعَثون على نيّاتهم».

ولفظُه عند مسلم: «إنّ ناساً من أمتي يؤمّون بالبيت برَجُل من قريش، قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبَيْداء خُسِف بهم»، فقلنا: يا رسول الله، إن الطريق قد يجمع الناس؟ قال: «نعم، =

وظنُّ إبليس: هو قوله تعالى حكاية عنه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، وأمثالها من الآيات، أي: حُسْبانُه هذا قد حقَّقه فيهم. وسمَّاه ظناً لأنه لا يتحقَّق إلا إذا أعانه الإنسان على نفسه، بتحريفه لطبيعته وإفقادها الاستعداد الفطريَّ للهدى والرشاد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ لو حافظوا على سلامة فطرتهم؛ لما فيها من المناعة من تأثير الشيطان ووساوسه عليها. فإنما هو فتنة لهم واختبار، يتبيَّن به من حافظ على سلامة فطرته ممَّن حرَّفها وأفسَدَها وسَلَب استعدادها للخير.

وهذا هو مآلُ قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهو المحافظ على سلامة خِلقته واستعداده للإيمان بها ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ وهو المُحرِّف لطبيعته المُدَسِّي لنفسه، أفسَدَها حتى أفقَدَها الاستعدادَ الفطريَّ للإيمان والعمل الصالح، ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ فلن تجدَ لسُنَّة الله تبديلاً، ولن تَجِدَ في خَلْق الرحمن من عِوَج ولا تفاوت، ولا نقيصةٍ ولا اختلال، ولكنَّ الفساد أمرٌ طارئ على الإنسان بصنعه وتقصيره، وهو مدخل الشيطان.

وفي الفاصلة إيذانٌ بالوعد والوعيد، وبأنَّ الله سبحانه يُحصي أعمال الإنسان من خير أو شر ويجازيه. والآية تُلمِعُ بمضمونها إلى أنَّ الله سبحانه قد حفظ الإنسان بمَناعة خاصَّة من الشيطان ووساوسه، وهي الاستعداد والميل بفطرته للإيمان والخير والصلاح، ما لم يعبث الإنسان نفسه بمناعته هذه، فإذا عَبَثَ بها وأفسَدَها تسلَّط عليه الشيطان، ووجد طريقاً للعبث به والوسوسة له. والمناعة العامة التي تشمل الروح والبدن معاً وتحافظ على صحتهما: هي التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. والله أعلم.

= فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل، يهلكون مَهلِكاً واحداً، ويصدرون مصادرَ شتّى، يبعثُهم الله على نيّاتهم».

فالله سبحانه وتعالى قد خلق في الإنسان غرائز طبيعية سالمة من الزيغ والزلل والعاهات والآفات، فإذا عبث الإنسان بها وأفسدها تحوّلت عللاً روحية أو بدنية أو اجتماعية، وليست العِلَلُ من الموجودات الأصلية، لأنَّ أفعال الله تعالى كلَّها خيرٌ وصلاح، ليس فيها عِوَجٌ ولا فساد، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، فليست العللُ والمضارُّ إلا أموراً ناتجة من الانحراف عن قوانين الفطرة التي فَطَر الله الناس عليها، والميل عن سُنن الله في مخلوقاته، ويجري ذلك في الجماعات كما يجري في الأفراد، ويؤيِّد هذا قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، أي: ما أصابك من حسنة فإنما هي لاتِّباعك سُنَنَ الله، وما أصابك من سيئة فلمَيْلك عن تلك السُّنن وخروجك عليها. وقد جاء عنه ﷺ أنه قال: «لَبَّيْك وسعدَيْك، والخيرُ كلُّه في يديك، والشرُّ ليس إليك»[1]. فالآية ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ...﴾ التعبير باللازم عن الملزوم، وذلك من خصائص القرآن. والله أعلم.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

---

(١) رواه مسلم (٧٧١)، عن علي بن أبي طالب.

وبعد أن استطرد ببيان حال الشاكرين وحال الكافرين من تاريخ مَنْ مضى من الفريقين، عاد إلى تفنيد شرك مشركي قريش بالأدلة الواضحة والحُجج الفاضحة، بطريقة المحاورة معهم، وأدمَجَ في البحث تهديدَهُم بمصيرهم في الآخرة، وما سيكون لهم هناك. وقد بدأه بهذا التبكيتِ الـمُبيِّنِ عجزَ آلهتِهم بعدما سبق من بيان قدرةِ الله البالغة، فقال[١]: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ أنهم آلهة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٢] فيما يهمُّكم من جَلْب نفع أو دَفْع ضر.

ثم أجاب عنهم للإشعار بأن الجواب متعيِّـن ولا يقبل المكابرة، فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ من خير وشرّ، ونفع وضرّ، لا ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وإنما ذلك كلُّه لله. وتـمَّم الجواب بما فيه تسخيف لهم وتهكُّم بهم، فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: ليس لآلهتكم نصيب في خلق السماوات والأرض، وليس لله منهم مُعينٌ في ذلك.

---

(١) ويجوز أن نعتبر العودة من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾، أو نجعلها حلقة فَصْل بين العودة والتعليق، والله أعلم. (المؤلف).

(٢) تأمَّل كيف أخذت هذه الآية على المشركين مجامعَ الطُّرق التي دخلوا منها إلى الشرك، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وحينئذ لا بدَّ أن يكون المعبود مالكاً للأسباب التي ينفع بها عابدَه، أو شريكاً لمالكها، أو معاوناً له، أو ظهيراً أو وزيراً. فإن انتفت هذه الأمور من كلِّ وجه انتفت أسباب الشرك، وانقطعت موارده، ولم يبق إلا الشفاعة، فنفاها عنهم أيضاً، وأخبر أنه لا يشفع عنده إلا من أذن له، وليسوا هناك. فسدَّ الباب على المشركين أبلغ سدّ وأحكمه، ونقض عليهم شركهم من سائر الوجوه، وهكذا تكون حُجَجُه سبحانه في كتابه الكريم، محكمةً واضحة مُلزِمة، مع قلَّة مقدماتها، والمبالغة في الإيجاز. فتجمع بين صفتي السمع والعقل، فتكون سمعية عقلية معاً. (المؤلف).

ثم تابع التفنيد بالردِّ على رأيهم الدارج فيما بينهم، وهو قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، و«نتَّخذهم شفعاءَ لنا عند الله»، فبيَّن حدود الشفاعة وهيئتَها، وصفة الشفيع والمشفوع له؛ ليتبيَّن لهم سَخافة وبطلان ما يعتقدون من أنَّ شركاءهم من أرباب الشفاعة، وأنَّ المشركين ممَّن يُشفَعُ لهم، فقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الرحمنُ وقال صواباً، أي: إلا لمن أذن الله أن يَشْفَعَ، ولمن أذن الله أن يُشْفَعَ له من المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً مع المحافظة على الإيمان بالله وحده والعمل بمقتضاه في كثير من أحوالهم. والكَفَرة بمَعزِلٍ عن ذلك، فهم محرومون منها.

وتـمَّم الكلام ببيان كيفيَّة صدور الإذن، توضيحاً لكونه مَقْصوراً على المؤمنين، وتسخيفاً لاعتقادهم أنهم من المشفوع لهم، وأنَّ آلهتهم من الشفعاء، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ وهذا التعبير يُفهِمُ أن ثمَّ انتظاراً طويلاً للإذن، وخَوْفاً رهيباً من أن يُقبَلَ أو لا يُقبَل، ولمن يُقبَل ولمن لا يُقبَل، فإذا كُشِفَ الفزع بصدور الإذن أقبل هؤلاء المذنبون من المؤمنين على اختلاف جرائمهم يستعلمون عن الإذن الصادر؛ لمن يشمل ولمن لا يشمل، و﴿قَالُواْ﴾ للشفعاء: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ فأجابهم الشفعاء و﴿قَالُواْ﴾: قال ربُّنا القولَ ﴿ٱلْحَقَّ﴾، وهو الإذن في الشفاعة للمُستحقِّين، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ فلا مردَّ لقوله سبحانه وتعالى.

وفي هذا البيان تهجينٌ لهم في اعتقادهم أنهم ممَّن يُشفَعُ لهم، وأنَّ شركاءهم من أرباب الشفاعة، ولَطْمٌ لهم على الوجوه.

ثم عقَّب تفنيدَ شركهم ببيان اختصاصه سبحانه وتعالى بأفعال الألوهيَّة وصفاتها، وذكر أهمَّ شيء عندهم، وهو الرزق، وأدمَجَ في ذلك مِنَّته عليهم وعلى الناس، فقال:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ ولما كان الجواب لا يقبل المكابرة أجابَ عنهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، فكيف تُشرِكون بعبادته غيرَه؟!

ثم أردَفَ السياقَ بأسلوب الإبهام التَّهكُّمي من أساليب القرآن، فقال: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ وهذا الإبهام الصُّوري التَّهكُّمي ـ بعد أن بيَّن مَنْ هو على الهدى ومَنْ هو على الضلال ـ أبلَغُ من التصريح.

ثم أردَفَه بما هو مُتمِّمٌ له من أنهما لا يسأل أحدُهما عن الآخر، وكلٌّ بما كَسَبَ رهين، فقال: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، والتعبير بـ﴿ما أَجْرَمْنَا﴾ عن إيمان المؤمنين مَبْنيٌّ على اعتقاد المشركين أنَّ محمداً وأتباعَه مجرمون بخروجهم عن دين الآباء، وإحداثهم ديناً جديداً.

ثم أردَفَ هذا بيانَ الواقع وما يوجب النظر والتفكير، وسبكه على الوعيد، فقال: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم الحساب، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يبيِّن الحقَّ المغلقَ عليكم، ويحكم بموجبه، ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ أي: الحَكَم العَدْل، بمقتضى علمه الواسع وعَدْله السديد.

ثم عقَّب بيانَ اختصاصه تعالى بأفعال الألوهيَّة بهذا التبكيت؛ زيادةً في الإفحام، فقال: ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أي: أروني ماذا عمل الذين جعلتموهم شركاء لله، مما تقدَّم من الأعمال العظيمة في التخليق والترزيق؟ وعبَّر عن نفي الأعمال بما يُؤْذن بنفي الوجود للعمَّال، مبالغةً في ذلك. ويجوز أن يكون المعنى: أرونيها لأنظر بأيِّ صفة ألحقتُموها بالله الذي هذه صفاته؟ يُسَخِّفهم في ذلك ويُشَنِّع عليهم.

ثم رَدَعَهم عن دعوى المشاركة بعدما أبطل المقايسة، فقال: ﴿كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾، وهو وحده الخالق الرزَّاق كما تعرفون، فهو الإلهُ لا ربَّ سواه، وليس

عملكم عن عَجْزٍ في القدرة، ولكنه مبنيٌّ على ما تقتضيه الحكمة من جعلكم مختارين في التصرُّف.

ثم قَرَنَ النتيجة ـ وهي التوحيد ـ ببيان إرساله ﷺ بذلك، وما يتفرَّع عنه من الوعد والوعيد، ليجمع بين دليل العقل والنقل؛ تتميماً للبحث، ونصَّ على تعميم رسالته؛ تقريراً للإلزام، وإثباتاً لها على الوجه العامِّ، فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ[1] بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ فيحملهم جهْلُهم وعنادُهم على الغيِّ والضلال والخسران المبين.

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ مستهزئين بالحشر والحساب: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾؟ فأمره أن يجيبَهم بهذا الجواب المسبوك على التهديد، وقال: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾، وصيغة الجواب تُشعِرُ بالوعيد الرهيب، وفي ذكر الاستقدام ردٌّ على الاستعجال.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

---

(١) قدَّم ﴿ كَآفَّةً ﴾ لتدخل على المقصودِ حَصْرُه، ولو قال: (إلا للناس كافة)، أوهَمَ نفي الإرسال لغير الناس، كالجن، وهو غير صحيح، فقدمت دفعاً لهذا الالتباس، فأراد سبحانه أن يكون الدين الإسلامي ديناً عالمياً، ولأنه يتوقف على اللغة العربية، كانت هي أيضاً عالمية. ثم انظر هذه الفائدة العظمى للبشر، وهي الاتحاد في الدين وتعلّم لغته، يفهمون بها دينهم، ويؤدونه بها، ويتفاهمون فيما بينهم، فأي فائدة ورابطة أعظم من هذا للبشر أجمعين، ولكن أكثرهم لا يعقلون، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]. (المؤلف).

ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

ثم أردَفَ هذا السياقَ المتضمِّنَ لإنكارهم التوحيد والرسالة والحشر، ببيان إنكارهم ـ كلِّهم أو بعضِهم ـ لسائر الكتب المنزّلة في ذلك، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب المُنزّلة التي تقدَّمته ـ كالتوراة والإنجيل ـ وما جاء بها من أمر التوحيد والرسالة والبعث.

وقد عَلّق سبحانه وتعالى على قولهم هذا بما يُوقفهم على مصيرهم نتيجةَ كفرهم وتقليدهم، وسَبَكه على التهديد، فقال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ المنكرون للبعث ﴿ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ للحساب ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾ أي: يتحاورون فيما بينهم ويتخاصمون ويراجعون القول، ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ ﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ في الدنيا واستَتْبعوهم في الغيِّ والضلال وهم الرؤساء: ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ أي: لولا إضلالكم وصدُّكم لنا عن الإيمان، ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ باتِّباع الرسول.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ وهم الرؤساء ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ ﴾ وهم الأتباع: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ﴾؟ ينكرون عليهم ذلك، ويردُّون عليهم

الوصف قائلين: ﴿بَلۡ كُنتُم﴾ أنتم ﴿مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ مِثلَ إجرامنا، يريدون أنهم قد أفسدوا طبائعهم ففقدت الاستعداد للهدى الذي كانت مطبوعة عليه، فتأثَّرت بالإضلال، ولو كانوا محافظين على سلامتها لم تتأثَّر بذلك، يقولون هذا بعد أن كُشِفَ عن الغطاء، وأبصروا ضلالهم في الدنيا من أين جاء على حدٍّ سواء.

فأجابهم الأتباع عن هذا بما حكاه سبحانه عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: مكركم الدائم بنا ليلاً ونهاراً، وفتلكم لنا بالذِّروة والغارب[1]، ﴿إِذۡ﴾ تُغْرونَنا و﴿تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾، فهذا هو الذي أفسد طبائعنا عن رؤية الحق والتأثُّر بالهدى، فضللنا بإضلالكم لنا.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما كان من أمر الفريقين، فقال: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من الفريقين، بما أفسدوا من طبائعهم واقترفوه من المعاصي والآثام، ثم نعى عليهم بقوله: ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: إنَّ ذلك أثر لازم من آثار كسبهم، بحسب سنن الكون، مهما كانت صورة الكسب، ولم يُخلَقوا على الضلال خَلْقاً، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]، وكل مولود يولد على الفطرة السليمة.

ثم بيّن تعالى أنَّ معارضة الـمُترَفين والرؤساء للرسل والـمُصْلحين سُنَّة من سُنَن الاجتماع، وذلك لأنَّ الإصلاح والإرشاد يهدم عليهم كيانهم ومقامهم ومراكزهم، ويحطُّ من جبروتـهم وطغيانهم، فيَسْعَون لمعارضته، ويُضلِّلون الناس عن طريقه،

---

(١) الذروة: أعلى السنام وأعلى كل شيء. والغارب: مقدَّم السنام. وأصل فَتْل الذروة والغارب هو أن يجيء الرجل بالخطام إلى البعير الصعب، وقد ستره منه لئلا يمتنع عليه، فيأخذ في فتل أعالي سنامه حتى يأنس به، فإذا تمكن منه وضع له خطام. والخطام: ما يوضع في أنف البعير ليقاد به. يقال للرجل: لا يزال يخدع صاحبه حتى يظفر به.

ويصرفونهم عن الميْل إليه، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وفيه تسليةٌ له ﷺ بأنَّ أهل قريته هؤلاء قد جَرَوْا على منهاج الأوَّلين في ذلك، بحسب قواعد الاجتماع وسنة الطبيعة المحرَّفة بفساد التربية وسوء التقليد.

ويقول علماء الاجتماع: إنَّ المُترَفين في كلِّ عصر يحافظون على الوضع الحاضر، ويقاومون بكلِّ قواهم الإصلاحَ والتجديدَ حرصاً على مراكزهم.

ثم تابع السياق بعد الاعتراض، وذكر لهم رأيهم الركيك الواهي الذي يتعلَّلون به ويستدلُّون في أنهم على الحق، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ أي: نحن أوفرُ حظاً في هذه الحياة منكم، وما ذلك إلا لكرامتنا على الله، إذ لو لم نكن مرضيِّين عنده لَـمَا أعطانا هذا العطاء، فلنا الآخرة كما لنا الدينا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ فيها.

فردَّ الله عليهم ناقضاً لهم هذا الرأيَ وهذا القياس، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يسعى في طلبه بحسب السنن الطبيعيَّة، ﴿وَيَقْدِرُ﴾[1] على مَنْ لا يسعى في ذلك، ولا يقاس على البَسْط والقَدْر للرزق أمرُ الثواب والعقاب والرضا والغضب

---

(١) إنَّ الله سبحانه لم يجعل نظام رزق الإنسان كنظام رزق الحيوان فردياً في السعي والحصول عليه، بل جعل نظام رزق الإنسان اجتماعياً لا يتمُّ إلا بتعاون الأفراد. فأما اختصاص كل واحد بمهنة من تلك الحاجيات، فمبنيٌّ على الميْل والعَزْم ونوع التثقيف وغير ذلك من الظروف. وهذا النظام يجعل التفاضل في الرزق أمراً طبيعياً، إذ يكون فيهم التاجر والزارع والعامل والصانع على اختلافهم في المراتب والهمم والميول، ومنهم الغني والفقير، والمأمور والأمير، والجليل والحقير، نتيجةً لميل الإنسان وسعيه ومقدار نشاطه وعزمه. فإسناد البسْط والقَدْر إلى الله تعالى باعتبار هذا النظام، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠]، فقد جعل الحَرْث وإرادته بالسعي إليه، سبباً للإيتاء. والله أعلم. وقد أمر الغني أن يعاون الفقير بفضل ماله، موازنة لهذا الحال، وتتميماً وتسديداً لهذا النظام. (المؤلف).

من الله تعالى، وإنما هما أمران لازمان لأسباب طبيعية، فمَن تعاطى أسباب الغنى ناله ولو كان أشدَّ الناس كفراً، ومن تقاعد عنها افتقر ولو كان أعظم الناس إيماناً[١]. وكذلك الأمر في الأولاد، إذ لا مُحاباة في سُنن الله تعالى، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٦﴾ فيزعمون أنَّ أسباب بَسْط الرزق هو الكرامة على الله، وأسباب التضييق والتقتير هو الهوان عليه تعالى، نتيجةً للرضا أو الغضب منه تعالى، وهو زعمٌ فاسد.

ثم قرَّر هذا الردَّ وصرَّح به، فقال: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾، ثم بيَّن الأسباب المقرِّبة عنده تعالى بطريقة الاستثناء المنقطع، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أي: تُضاعَفُ لهم حسناتُهم أضعافاً كثيرة ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من الصالحات، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ أي: وهم في غرفات الجنَّات آمنون من المكاره.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يمشون في السعاية بها والمشاغَبة عليها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ لنا بزَعْمِهم ومُغالبين ومُعارضين، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ٣٨﴾ من جرَّاء إجرامهم هذا، ولو كانوا من أرباب الأموال الطائلة، والمراكز العالية.

---

(١) لا شك أن معاطاة الأسباب لتحصيل الرزق أمر ينبغي للعبد مراعاتُه وعدمُ إغفاله، مع توكُّله على الله تعالى؛ إذ لا منافاة بينهما، لكن بَسْط الرزق وقَدْره ليس متوقفاً على معاطاة الأسباب فحسب ـ كما يدل عليه كلام المؤلف ـ بل الأمر أوسع من ذلك، فكم من متعاطٍ للأسباب ساعٍ في تحصيل الرزق أشدَّ السعي وهو مُضيَّقٌ عليه في رزقه، وكم من مُقصِّر في ذلك وهو مُوسَّعٌ عليه في رزقه، لحكمة يريدها الله تعالى فيهما، فالصواب: إطلاق المشيئة المذكورة في الآية الكريمة، مع عدم إغفال ارتباطها بالحكمة.
ثم إن الإيمان سبب من أسباب تحصيل الرزق، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢]، فقول المؤلف: «ومن تقاعد عنها افتقر ولو كان أعظم الناس إيماناً» فيه نظر. نعم، قد يفتقر المؤمن لحكمة يريدها الله كما سبق بيانه، لكنْ لا ينبغي القول بعدم تأثير الإيمان مطلقاً على سعة الرزق.

ثم أعاد البيانَ عن قاعدة بَسْطِ الرزقِ وقَدْرِهِ تكميلاً لشأنه، فبَنى عليه حَثَّ المؤمنين على الإنفاق ورَغَّب فيه؛ ليسدَّ مَنْ بُسِطَ له الرزق حاجةَ مَنْ قُدِرَ عليه، ووَعْدَ الـمُنْفِق بالإخلاف عليه، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

وقال البيضاوي في الفرق بين الآيتين: إنَّ الأولى في شخصين اثنين؛ واحدٌ قد بُسط له الرزق، والآخر قد قُدِرَ عليه، أما الثانية ففي شخص واحد؛ بُسِطَ له حيناً، وقُدِرَ عليه حيناً[(١)].

أقول: وكلُّ ذلك بحسب الأسباب والسنن الكونية، فـ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩][(٢)].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم ذكر ما يكون من أمر هؤلاء المشركين يوم الحساب وفشلهم والسقوط في أيديهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: الـمُكَذِّبين بك والمكذِّبين بمن تَقَدَّمك من الأنبياء، ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين كان يعبدهم بعضُ المشركين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟

---

(١) ينظر «تفسير البيضاوي» (٤: ٢٤٩).

(٢) أي: بسبب منك، فكَسْبُ العبد هو السبب في وقوعه في المصائب والبلايا والسيئات، وهي واقعة بخلق الله وإيجاده، كما أن الحسنة واقعة بخلق الله وإيجاده، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾؟ وهذا الاستفهام لتقريع المشـركين وتبكيتهم، على حَدِّ قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ ...﴾ [المائدة: ١١٦]؟

فأجاب كما أجابت الملائكة، إذ ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: لا والي غيرك، يقرِّرون بهذه الموالاة براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم. ومضمون الكلام: أنت معبودُنا ومعبودُ كلِّ الخلق، لا معبود سواك.

وبعد أن تنصَّلوا من ذلك، ذكروا حقيقة أمر هؤلاء المشركين، زيادةً في الرد والإلزام، وقالـوا: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ أي: الشياطيـن، بمعنى: أطاعوهم في وسوستهم لهم بعبادة غير الله.

أما قوله: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ فهو من أساليب القرآن في تحرِّي الصدق الدقيق. ومعنى إيمانهم بهم: اعتقادُهم أنَّ ما يُوجِّهونهم إليه من العبادة للغير مع عبادة الله هو الحقُّ الحقيقُ بالقبول. ويجوز أن يُراد من ذلك: استكثار أشرار الجنِّ من أشرار الإنس، كما جاء في سورة الأنعام[1]، فارجع إليه. والله أعلم.

ثم وجَّه القول للمشركين والملائكة وقال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾، وإنمـا وَجَّه هذا للجميع ـ بما فيهم الملائكة الذين أجابوا بالتَّنزُّه والتبرؤ عما نَسَبَ إليه الكَفَرة ـ إظهاراً لعجزهم، وتَنْصيصاً على ما يُوجب خيبة رجاء الكَفَرة العابدين لهم.

ثم خصَّ الكَفَرة بقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وهم العَبَدة المشركون: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾، وأما المعبودون الذين لا يرضون بعبادة هؤلاء الجَهَلة لهم، فلا إثم عليهم ولا جزاء.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ ...﴾ [الأنعام: ١٢٨].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ثم تابع الكلام، فشَرَحَ حالهم في الدنيا التي استوجبت هذا البلاء في الأخرى، فقال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ بحقيَّة التوحيد وبطلان الشرك، ﴿قَالُوا۟﴾ عن الرسول الذي جاء بذلك: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يُحرِّكون بذلك في قومهم عِرْقَ العصبية، ويُهيِّجون نزعةَ التقليد للآباء. ثم بالغوا في الإغراء والإنكار، ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ الذي جاء به ﴿ إِلَّآ إِفْكٌ ﴾ أي: كلامٌ غيرُ حق، وفي إسناده إلى الله افتراء، فهو ﴿مُّفْتَرًى ﴾ ومكذوبٌ على الله.

ثم ذكر لهم في ذلك ما هو أكثرُ صدوداً منهم عن الحق، وأبعدُ في الضلال والإنكار، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ أي. قويّ التأثير في الباطل. فبيَّن سبحانه وتعالى أنَّ أقوالهم هذه ومعارضتهم لما جاء به الرسول، لم تُبن على

منطق، وإنما هي الـخَطَل[١] والسفاهة، وسَبَك ذلك على التَّهكُّم بهم في شركهم، فقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ تُنبِّئهم أو تُصرِّح لهم بصحَّة الإشراك. فالآية نظير قوله تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٢١].

ثم قرَّر المعنى وتـمَّمه بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾؛ يَهْزأ بهم ويتمرَّد عليهم. وقد عبَّر بهذا النفي عن قِدَمِ عَهْدهم بالنذير وحاجتهم الشديدة إلى إرسال الرسول.

وخلاصة المعنى لقوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم ...﴾: أنهم يُكذِّبونكم من غير حُجَّة لهم، أي: أنَّهم لا يرجعون في تكذيبك إلا إلى الجهل والعناد، واتِّباع الهوى والفساد. فالكلام تبكيتٌ مسبوك على التهكُّم والتسخيف[٢].

---

(١) الخطل: المنطق الفاسق. «لسان العرب» (خطل).

(٢) في تفسير الآيات ٤٢-٤٤ وجهٌ آخرُ قويّ، وهو الذي رجّحتُه في تفسيري «المعين» بدلالة السِّياق، وهو أنّ هذه المقولات الخمس من مقولات الكافرين، وقلتُ هناك في تفسير هذه الآيات ص٤٣٣: «وإذا تُتلى على الكفار طائفةٌ من آيات القرآن حالةَ كونها واضحات، قال المشركون خمسَ مقولاتٍ كاذبات:

المقولة الكاذبة الأُولى: ما محمدٌ إلا رجلٌ يريد أن يَصرِفكم ويُحوِّلكم عمّا كان يعبد آباؤكم.

المقولة الكاذبة الثانية: وقالوا: ما هذا القرآنُ الذي يتلوه محمَّدٌ إلا كلامٌ كَذِبٌ في نفسه، مُختَلَقٌ ومُصْطَنَعٌ عن عَمْد، من حيثُ نسبتُه إلى الله.

المقولة الكاذبة الثالثة: وقال الكفار عن الحقِّ الإعجازي في القرآن لـمّا جاءهم من عند الله: ما هذا التأثير الذي يكون من القرآن في النفوس عند تلاوته، إلا بسبب كونه نوعاً من أنواع السِّحر الظاهر، لا بسبب كونه كلاماً معجزاً مُنزَّلاً من لَدُنْ ربِّ العالمين.

المقولة الكاذبة الرابعة: وزعموا أنّنا لم نأتهم بكُتبٍ ربّانيّة يدرسونها، ويُؤمنوا بها جاء من حقٍّ فيها. =

وهذه الآية تُـرشد إلى أنَّ المعارضة والمناظرة يجب أن تسير على طريق منطقيّ صحيح، وأن تستند إلى برهان علميّ أو نقل مقبول، لا أن تكون جزافاً بمقتضى الميل والهوى.

ثم هدَّدهم بما جرى على أمثالهم في الأمم الماضية، وزاد في التهديد والترهيب بأنَّ أولئك كانوا أقوى منهم وأعلى كعباً في هذه الحياة، فلم يمنعهم ذلك من عذاب الله، فقال: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم الماضية ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾، وفي هذه الآية زيادةٌ في التهديد لهؤلاء، أي: ما بَلَغَ هؤلاء عُشرَ ما آتينا أولئك من القوَّة والجاه والمال في هذه الحياة، ومع ذلك ما قَدروا على النَّجاة من بطشنا.

ويجوز أن يكون الكلام زيادةً في التبكيت لهم، أي: ما بلغ أولئك الماضون عُشرَ ما آتينا هؤلاء من البيِّنات والهدى، لأنَّ هذا القرآن لا يُدانيه كتابٌ سماويٌّ سابق؛ لأن القرآن من العلوم العالية، فلم يُنزِله سبحانه حتى بلغ النوعُ البشري أولَ كماله في المعرفة والعلوم.

ولـما عارضوا ما جاءهم من الـحق في كُتبهم ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ﴾ أنكرتُ عليهم وأهلكتهم. وقد أقام مقام هذه الجملة قولَه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾؟ أي: فكيف كان بطشي بهم؟ وهذا الاستفهام للتهويل والتفظيع. والجملة تهديدٌ لهؤلاء بمثل ما جرى على أولئك. والمراد: أننا أهلكنا أولئك حين كذَّبوا رسلنا، فَلْيتتظر هؤلاء ما ينزل بهم من الهلاك والاستئصال؛ لأنهم أحقُّ منهم بذلك.

= المقولة الكاذبة الخامسة: وقالوا: إنَّ الله ما أرسَلَ إليهم قبل محمد ﷺ رسولاً مُبَلِّغاً ومُعلِّماً وهادياً ومُبَشِّراً مَنْ آمن وأطاع بجنّات النعيم، ومُنذِراً مَن كفرَ وعصى بعذاب النار يوم الدين. إنهم يقولون هذا القول مع افتِخارهم بجدِّهم إسماعيل بن إبراهيم، وإيمانهم بأنهما رسولان، وهم يُعلِنون أنهم وارثو مناسك الحجِّ عنهما»؟!

ثم أردف الإنذارَ بالإرشاد والتبصير على نهج القرآن، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: بطريقة واحدة، وهي: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: تقوموا مخلصين النيَّة؛ اثنين اثنين، أو واحداً واحداً، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٤٦﴾ والمراد: أن يقوم بالتفكير كلُّ واحد بنفسه، أو متناظراً مع آخر، لأنَّ الحقَّ إنما يتبيَّن بهذه الصورة، لا أن يعتمد على التقليد الأعمى للآباء والأجداد، أو يندفع مع التيار العام الجارف المهوش، إذ ليس في ذلك إلا الضلال والتَّضليل، أما إذا فعلتم ما أقول وناقشتم القضيَّة بعقولكم مخلصين، تَبيَّن لكم أنَّ محمداً رسولٌ صادقٌ، ونذيرٌ لكم بين يَدَي عذابٍ شديد.

والمراد من القيام: الشُّروع بالأمر، وفي التعبير بـ«صاحبكم» تمكينٌ للردِّ، لأنهم يعلمون ماضيَه حقَّ المعرفة، وأنه صادقٌ أمينٌ، وبعيدٌ عن الخرف والجنون. ويجوز أن تكون صلة ﴿تَتَفَكَّرُواْ﴾ محذوفة، أي: في أمر محمد، وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ كلامٌ مستأنفٌ لتقرير مضمون تلك الصِّلة.

وبعد أن ذكر لهم كيفيَّة التَّبصُّر بأمره حتى يظهر لهم الحق فيه، أمره أن يُذكِّرهم بأنه بعيدٌ عن تهمة طلب الرياسة بهذه الدعوة، والاستفادة الدنيوية من ورائها، فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، وفي صورة التعبير ردٌّ هازئ، على نهج القرآن في مثله. ومحصَّله: أنه لا يطلب على دعوته أجراً حتى يتَّهموه بأن غرَضه منها عرَضُ الحياة الدنيا، وإنما يطلب الأجر من الله، كما قال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٤٧﴾ فهو يعلمُ صدقي وخُلوصَ نيَّتي، وعِنادَكم في باطلكم تجاه الحق.

ثم صرَّح بنتيجة ما سبق ـ وهو أن ما جاء به الرسول إنما هو وحيٌ من الله حق، وسينتصر على الباطل ـ يردُّ بذلك على هؤلاء المنكرين المعارضين، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي

﴿يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: يلقيه على ما يجتبيه من عباده لرسالته. أو المعنى: إنه يرمي به الباطل ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وهو ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝٤٨﴾، فأفعاله كلُّها مَبْنيَّةٌ على الحِكَم والمصالح بحسب علمه الواسع في الأشياء، حاضرِها وغائبِها.

ثم قرَّر هذا المعنى ببيان أنَّ ما جاء به هذا الرسول هو الحق الذي لم يَبْقَ معه للباطل بقاء ولا مجال، فقال: ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾ أي: جاء الحق، ولم يبق للباطل معه إبداء ولا إعادة، ولا إقبال ولا إدبار، أي: لم يَبْقَ له عمل ولا تأثير، ولا فعلٌ ولا ردّ، لكن بَطَلَ فِعلُه وتعطَّل. وهذا تمثيلٌ لضعف الباطل تجاه الحق، كالرجل الضعيف بمحضر الرجل القويِّ المَهيب، لا يتحرَّك ولا يتكلَّم. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ استفهامية للإنكار عليهم بنفس المعنى المذكور، أي: ماذا يصنع الباطل تجاه الحق؟

ثم أمَرَه أن يُبيِّـن لهم الفرق بين عاقبة الضالِّ والمهتدي، مُلمِعاً إلى أنَّ الله سبحانه قد هَدَى الناسَ بالوحي، فمَنْ ضَلَّ بالإعراض عنه فقد ظلم نفسه، وقد جعل الحديث عنه نفسه ﷺ مراداً به العموم، وأدمج في ذلك شُكرَ الله سبحانه على هدايته له ومنَّته عليه فيها، فقال: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِي﴾ ويرجع وبالُ ضلالي عليها، ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ فله عظيمُ الشكر وجليلُ المنَّة على ما أوحى به من الهداية. يُنوِّه بشأن ما هَدَاه الله إليه بهذا القرآن، ويبيِّن أن مَنْ ضلَّ عنه خسر خسراناً مبيناً.

ثم قَرَنَ البيان بما يتضمَّن الوعيد لهؤلاء الضالِّين، فقال: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ۝٥٠﴾ يسمع كلامي وكلامكم، ويرى فعلي وفعلكم، ويُجازي كلاً بعمله، وإن لم يُجازِ عاجلاً يجازِ آجلاً.

ثم خَتَمَ المناقشةَ بالوعيد، على نهج القرآن، كما بيّن ذلك بقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ ﴾ أي: ولو تراهم حين يأتيهم العذاب فلا هَرَب منه ولا تحصُّن ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾، وهذا تمثيلٌ لأخْذِهم بشدَّة، لأنَّ البطش من قُرْب أشدُّ منه من بُعْد.

ثم ذكر نَـدَمَهم حينئذ ورجوعَهم إلى رُشْدهم، ولكن لم يُـجْدِهم نفعاً إذ ذاك، فقال: ﴿ وَقَالُوٓا۟ ﴾ لـما رأوا العذاب: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾[1]، فأنكر ذلك عليهم وجَهَّلَهم بقولـه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ ﴾ أي: التنـاولُ ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾، فشبَّـه إقـرارهم بالإيمان بعد فوات الوقت ودُنوِّ العذاب بمَنْ يتناولُ الشيء من مكان بعيد؛ في الاستحالة وعدم الإمكان. يريد: أنّ إيمـانهم هذا ليس بإيمانٍ، ولا يُـجْديهم نفعاً، كيف ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ[2] مِن قَبْلُ ﴾[3] وتمكَّن منهم الكفر والطغيان؟ ﴿وَ﴾ كانوا في ذلك الإنكار ﴿يَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ أي: يرجمون بالظنِّ البعيد والشُّبه الواهية في مُعارَضةِ النبيِّ ﷺ وما جاء به، حتى تَـمَكَّن منهم الضلال والعناد. وهذا تمثيلٌ لِشِدَّة سَخافةِ رأيهم في قولهم: لا بَعْثَ ولا جنَّة ولا نار.

ثم بيّن ما كان من أمرهم في الدنيا، جزاءَ تلك المعارضة، فقال: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من غَلَبتهم لرسول الله ﷺ ومَحْق ما جاء به، وذلك باستئصال أكثرهم، وغلبة المسلمين عليهم، وظهور الحق على الباطل، ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ أي:

---

(١) أي: آمنّا بالحق الذي جاءنا به الرسولُ وبلَّغنا إيّاه.

(٢) أي: كفروا بالقرآن وبمُحمَّد ﷺ وأنباء يوم الدين.

(٣) أي: من قبل أن يُعاينوا العذابَ وأهوالَ يوم القيامة.

بأشباههم من كَفَرة الأمم الغابرة ومُعارِضي الرسل الماضية[١]، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾ أي: من صحَّة ما جاء به النبيُّ ﷺ من البعث والنشور[٢]. وفيه وجهٌ آخر، وهو التبكيت والتنديم على إنكارهم ما كان يتوعَّدهم به من نزول هذا العذاب الذي نـزَل بهم واستأصَلَهم.

* * *

(١) ذهبَ المُفسِّر إلى أن ما وقع للكفار من عذاب إنما هو في الدنيا، والأرجح: أن الحديث عن عذاب الآخرة بعد بَعْث الكفار من قبورهم، كما يدلُّ عليه سياق الآيات. والمعنى ـ كما في تفسيري «المعين» ص٤٣٤ ـ: «وأُقيمَ حائلٌ حاجزٌ في الآخرة بين الكفّار وبين ما يشتهون من الإيمان المقبول، والتوبة المُنجية، والرجوع إلى الدنيا، كما فعل اللهُ بنظرائهم ومَنْ كانوا على مثل حالهم من الكفار، فلم تُقبَل منهم التوبةُ والإيمانُ في وقتِ اليأس، وأُدخِلوا في دار العذاب كما أُدخِلَ أشباهُهم من قبلهم».

(٢) والمعنى أيضاً: إنهم كانوا جميعاً في شكٍّ من البعث ونزول العذاب بهم، مُوجِبٍ للقَلَق والاضطراب، يُوقِعُ في تُهمتِهم بأنهم عالمون بالحقِّ وجاحدون به عناداً؛ ودوافعُهم إلى الشكِّ نابعةٌ من أهوائهم وشهواتهم، ورغبات نفوسهم من متاعات الحياة الدنيا.

سُورَةُ فَاطِرٍ

وتسمّى سورة الملائكة أيضاً، وهي خمس وأربعون آية

جاء فيها إثبات اختصاصه بالحمد، فيدور الكلام فيها على ما يستحق به الحمد من الأعمال الجليلة، وما يُلابس ذلك.

وكان قد ختم السابقة بقطع رجاء المكذِّبين، وافتتح هذه بما يتضمَّن رحمة المؤمنين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: خالقِهما ومُبْدِعِهما. وبعد أن ألمع بهذا الوجه من استحقاق الحمد إلى اختصاصه بأفعال الألوهيَّة وصفاتها، أومأ إلى وجهٍ آخر من استحقاقه للحمد، وهو الوحيُ والرسالة، فقال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ ﴾ يُسْرِعون بها في مهامِّهم وتبليغ رسائلهم إلى الأنبياء والمرسلين. وليست هذه الأجنحة كأجنحة الطير، لأنَّ عالم الملائكة لا يشبه شيئاً من عالم المادة، وغاية ما يمكننا أن نفهمه عنها أنها أعضاء أو هيئات فيهم، لسرعة الانتقال، متناسبة مع خِلْقتهم وأجسامهم، أو هي كناية عن طبيعتهم في سرعة الانتقال ليس إلا[(١)].

---

(١) في هذا القول عدولٌ عن الحقيقة إلى المجاز من غير قرينة دالة عليه، والحقيقة غير ممتنعة على الوجه المشروح أولاً، وهو عدم مشابهتها لأجنحة الطيور، فيتعين القول بها، ثم قد ثبتت رؤية النبي ﷺ لجبريل على صورته الحقيقية مرتين، وله ست مئة جناح، وهذا التعدُّد فيها يمنع القول بأنها كناية.

ويتفاوت ذلك فيهم بتفاوت أصنافهم ومراتبهم، وما أُنيط بهم من المهام والتكاليف، وقد عبَّر عن هذا التفاوت بقوله: ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾، ينزلون بها ويَعرُجون، ويُسْرعون بها ويقطعون المسافات البعيدة بأوقاتٍ قصيرة لتنفيذ مهامِّهم وأداء أماناتهم التي أُنيطَتْ بهم؛ يردُّ بذلك على مَنْ ينكر الوحيَ من المشركين، لبُعد المسافة بين السماوات والأرضين.

ثم أردف ذلك بهذا البيان العام المُتضمِّن للتمنُّن والتمجُّد، فقال: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾(١) مما يحتاجه المخلوق من مواهب وأعضاء بمقتضى العلم والحكمة، تكميلاً للأرواح والأبدان. فيزيد في كلِّ جنس عن غيره ما يحتاجه، وفي كلِّ صنف ما يُميِّزه عن سائر نوعه بحسب الحكمة البالغة. فمن تلك الزيادة: اختصاصُ المَلَك بقوَّة السرعة دون البشر، وتفاوت صنف عن صنف في ذلك. ومنها: خصائص رسل الملائكة التي يمتازون بها عن بني جنسهم، وخصائص رسل البشر الروحيَّة التي يمتازون بها على بني الإنسان بنتيجة الكمال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١﴾.

وبعد أن بيَّن كمالَ القدرة بيَّن نفوذ سُننه ونَفَاذ أمره؛ تنويهاً بشأن قدرته، وتمنُّناً بفَضْلٍ آخرَ من مصادر حَمْده، وهو التأييد لِـمَا يفتح الله للناس من رحمة، ولا سيما ما كانت

---

(١) هذه الزيادة تكون في الأجناس والأنواع والأصناف والأفراد، في الماديات والمعنويات، مثل قوة الأسد، وجمال الطاووس، وجناح الطير، ومخلب البازي، وكمال الأنبياء، وعبقرية النبهاء، وذكاء الأذكياء، وحُجَّة البلغاء، وسلامة التفكير، وجودة التعبير، وقوة ذلك في بعض الأفراد إلى درجة العجب العجاب، ولو أردنا التفصيل لاحتجنا إلى مجلد كبير.

والناسُ ألفٌ منهم كـواحِـدٍ وواحدٌ كالألفِ إنْ أمرٌ عَنَى (المؤلف).

والبيت نسبه أبو البقاء العكبري في «شرح ديوان المتنبي» (١/ ٣٨٠) لابن دريد، ولم أقف عليه في ديوانه.

على يد الأنبياء، والتخذيل لمن يعارضها، فقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ بمقتضى سُننه العامة ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: لا أحد يقدر على ردِّها ومنعها، ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: فلا أحد يقدر على إطلاقه أو إيجاده إلا بإذنه وسننه الكونية، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعارَض في إرادته، ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ الذي يفعل الأشياء بمقتضى حكمته.

فالآية تردُّ على مثل مَنْ ينكر أن تكون النبوة في محمد ﷺ دون عظماء قريش، وعلى مَنْ ينكر من اليهود وغيرهم أن تكون النبوة في العرب دون اليهود، فهي على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وبعد هذا البيان ذكر من مصادر الحمد نِعَمَ الله تعالى على الإنسان، وسَبَكَه على اختصاصه سبحانه بصفات الألوهية وأفعالها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ ولما كان الجواب لا يقدرون على إنكاره، قـرَّر لازمَه ـ على نـهج القرآن في مثـل ذلك ـ فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ وتُصرَفون عن هذا الحقِّ الباهر البيان إلى الباطل الظاهر البطلان، فيتَّخذ لكم آلهة تعبدون.

ثم سلَّاه ﷺ عن عِنادهم هذا، وبيَّن أنه سنة كونية اجتماعية لا تَتبدَّل، جَرَت في السابقين، وتجري في اللاحقين، وسَبَكَ الكلام على توعُّدهم، فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤﴾ فيُجازي المكذِّبين بما يستحقُّون من الجزاء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾.

وبعد أن قـرَّر التوحيد، أتبعه بتقرير الأصل الثاني، وهو الحشر ـ على نهج القرآن في ذلك ـ مُبيِّناً أنه حقٌّ واقع، فلا ينبغي أن تَغُرَّهم عنه أسباب دنياهم، أو الشيطان الذي هو عدوُّهم اللدود الغرور، فينصرفوا إلى أسباب الدنيا دون أسباب الآخرة، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ وهو الشيطان يغرُّكم بوساوسه وأمانيه، ألا ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ ولا تسمعوا وساوسه، فإنه ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾، وهذا المعنى النادر الذي أفاده لام العاقبة والمآل هو منتهى البلاغة في مقام التحذير والتنذُّر بعكس الآمال، ويسمَّى في علم البديع بحُسْن التعليل. والجملةُ تقريرٌ لعداوته، وبيانٌ لغرضه من دعوة حزبه إلى ما يدعوهم إليه.

ثم بالغ في التحذير ببيان المصيرَيْن، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾.

ثم علَّل الحالَيْن بما بين الصِّنفَيْن من فرق في الأعمال التي استوجبت ذلك، فقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ بإفساده لفطرته ومَـحْو نور بصيرته حتى رسخ على الضلال، ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ وتمادى فيه، وعارض الحقَّ وعاداه، كمن هَداه الله للرشاد بمحافظته على سَلامة فطرته ونور بصيرته، فأجاب الحقَّ حين دعاه؟! كلّا.

ثم علَّل الأمرين من الهُدى والضلال بسُنَّة الله العامة في طبيعة البشر وأخلاقه، وجعل الكلام في مقام المعادل للاستفهام، وهو كمن حافظ على سلامة طبيعته، على نهج القرآن في مثله، وقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾[1] وهم الذين ينشؤون على إفسادهم

---

(١) لا يتبادر إلى ذهنك أنَّ الله سبحانه يخصُّ من يشاء بالإضلال قصداً، أو يخلقه ضالاً، كلا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. وإنما المراد: ضلال العبد نفسه بمعاطاة الأسباب المؤدية إليه. =

لفطرهم، وتحريفهم لطبائعهم، فيُعرضون عن أسباب الهدى، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وهم الذين يحافظون على سلامة فطرهم ونور بصائرهم، وعلى استعدادهم الطبيعي للهداية: إذ قد مَضَتْ سُنَّته تعالى في طبيعة الإنسان، إذا تَـمادَى في شيء وانطبع عليه، أن لا يميل إلى ضدِّه، ولا يراه جديراً بالنظر والتفكير فيه، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ إن لم يؤمنوا؛ إذ لا تغيير لسنَّة الله في خلقه، وهي أنَّ من تشبَّع بالضلال لا يميل إلى الهدى والرَّشاد، ولكنهم سينالون جزاءهم فيما يعملون؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

وتُلهم الآية: أنها نَزَلت في وقت اشتدَّ فيه الحزن والغمُّ في نفس النبيّ ﷺ بسبب موقف الجحود الذي يقفه قومه من دعوته؛ لأن نفوس المصلحين ـ ولا سيما الأنبياء ـ

= كما يقال: لقد أعماه الله، وما العمى إلا مرض طارئ ينشأ من تقصير الإنسان في قوانين الصحة لحفظ العين والبصر. فالمراد: أنه يَضِلُّ بإفساده لطبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة، وكذلك مشيئته سبحانه لا تجري جزافاً واعتباطاً، وإنما هي أزليَّـة جارية بالحقِّ والعَدْلِ في سنن مُطَّردةٍ لا تَتَبدَّل. فقد سبقت مشيئتُه تعالى أنْ ألهم كلَّ نفس هُداها، وعرَّفها بواسطة الرسل فُجورَها وتَقْواها، فكان ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]. فمثل هذه الأحكام تكون ذات وجهين في النسبة: تنسب إلى الله سبحانه؛ لأنه واضع تلك السنن الطبيعية، وتنسب إلى الإنسان؛ لأنه هو الفاعل المباشر لها، كما تقول: أيبس الساقي الأشجار، حيث عطشها. وتقول: أيبس الله الأشجار؛ لأنه وضع هذه السنة فيها، وهي أن تيبس إذا عطشت. (المؤلف).

قلت: لكن قوله في أول كلامه: «لا يتبادر إلى ذهنك أن الله سبحانه يخص من يشاء بالإضلال قصداً» الصواب فيه أن يقال: «بالإضلال جبراً»، لأن ما ذكر بعده ينفي إجبار الله تعالى عَبْدَه على الضلال، لكنه لا يخرج عن إرادة الله تعالى، فكل ما يجري في الوجود واقع بإرادته سبحانه.

يُؤلمهم كلَّ الألم انصرافُ الناس عن دعوتهم الحقّة، على ما فيها من خير واضح، وصلاح باهر، ونور لامع، وعاقبة حُسْنى ليس لها مثيل.

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ
كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ
يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن
تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ
وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ
سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ
وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ
ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟
دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ
خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾.

ولما كانت حَسَراتُه عليهم لضلالهم تَتضمَّن إنكارَهم للحشر، أثبته سبحانه بقياس النظير، مسبوكاً على ما يستحق عليه الحمد والثناء الجزيل من مصادر حمده، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي: أخرجنا خُضْرَتَها بعد يبسها، و﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ فهو إحياء بعد إماتة، كإحياء الأرض بعد موتها، فهذا نظير ذاك؛ إذ طبيعة الربيع في إحياء النبات بعد اليبس[1]، كطبيعة زمن البعث في إحياء الأجسام من عَجْب الذنب، كما جاء في الحديث[2]. والله أعلم.

(١) انظر ما تقدم تعليقاً عند تفسير الآية ٨٣ من سورة المؤمنون.

(٢) سبق تخريجه (٤: ٤٢٨).

والواو في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ ﴾؛ إما للابتداء، أو للعطف على مضمون قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ﴾ [فاطر: ٣]، لأنَّ مضمونه: الله هو الذي يخلق ويرزق ويُنزِّلُ الغيث، أو للعطف على محذوف، على نهج القرآن. والتقدير: الله الذي فعل كذا وكذا، والله الذي أرسل الرياح.

ثم أشار إلى ما كان يمنع الكفار من الإيمان، وهو توهُّمهم أنهم إنْ آمنوا أضاعوا عِزَّتهم ومركزهم، حيث يصبحون تابعين بعد أن كانوا مَتْبوعين، فردَّ عليهم وَهْمَهُم هذا ببيان أنَّ من يطلب العزة يجدها عند الله، وأنَّ حزب الكفَّار مغلوب بالنتيجة مهما دبَّر من المكر والخديعة، فقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، وقد ضمَّن الآية أيضاً رداً لمثل ما حكاه عنهم سبحانه بقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ﴾ [مريم: ٨١]، فبيَّن أنَّ من يطلب العزَّة فليطلبها عنده تعالى، ولْيتعزَّ بطاعته، والعمل بتعاليمه المُفْضِيةِ إلى العزَّة والسعادة.

ثم ألمع إلى ما يُطلَبُ به العزّةُ عنده تعالى، وهو الإيمان والعمل الصالح، وجَعَله كالتعليل لِـمَا قبله، فقال: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾[١] أي: القول الصحيح الذي منه

---

(١) هذه الآية حَوَتْ روح الشريعة وزبدتَها؛ لأن المراد من الكلم الطيب: مِثْلُ كَلِم الإيمان بالله وتوحيده وتنزيهه ومناجاته، ومثل الأذكار في الصلاة والدعاء، ولا سيما ما جاء في ذلك من القرآن والحديث. ومثل كَلِم الوعظ والإرشاد، والدعوة إلى الرشاد، وإصلاح ذات البين.

ثم قرن الكلم الطيب بالعمل الصالح، وهو يشمل العملَ بكلِّ ما جاء في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله من صلاة وزكاة وصوم وحج ودعوة إليهما.

وقوله: ﴿ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ فيه رأيان:

الأول: أنَّ الله سبحانه يجعل هذا العمل عنده في مقام رفيع، كنايةً عن القَبول الحسن له، والرِّضاء عنه. =

التوحيد وتعاليم القرآن، ثم ذكر العمل به فقال: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: يجعله الله رفيعاً عالياً سبحانه وتعالى؛ إذ كلُّ ما اتَّصف بالقَـبول وبالطيب والصلاح يُوصَف بالرفعة والصُّعود، أو المعنى: إنَّ العمل الصالح المُنْبَعِث عن العقيدة الصحيحة والإدراك السَّديد، يرفع شأن ذلك الكلم الطيب في العقيدة ويُعليها، وبذلك تنال العزّةَ الصحيحة والسعادةَ الأبديَّـة.

ثم بيَّن شأنَ الكَـلِم الخبيث والعمل السَّيِّئ ببيان عاقبتهمـا، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ بأقوالهم وأفعالهم المكراتِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وذلٌّ وهَوَان.

وبعد هذا البيان مَحَّض النتيجة ـ وهي غَلَطُ هؤلاء المشركين في حسبانهم أنهم هم الأعزّاء الغالبون ـ وقرَّر فَشَلَهم فيما يُدبِّرون ويمكرون، فقال: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ أي: هو الذي يفشل ويبطل ويسُوء، لا عمل المؤمنين. واستبدل الضمير باسم الإشارة؛ لاستبعادهم واستحقارهم واستقذارهم، وأتى بالضمير لزيادة التقرير.

ثم تابع دليل القدرة مع العلم، وألمع إلى سهولة البعث، وعطف الكلام على قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ [فاطر: ٩]؛ لتقرير اختصاصه بأفعال الألوهيَّة ومتابعة ذلك البيان، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وفيه وجهان: **الأول**: أنه من نسبة ما للأصل إلى الفرع، والمراد به: خِلْقة آدم، إذ موادّ الأصل تبقى في الفرع. **والثاني**: أنَّ المنيَّ يتولّد من الأغذية بما فيها النبات، وهو مُـتَولِّد من الأرض ومُكوَّن منها. والمعنيان يتلائمان مع قوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهو المنيُّ، لأنه تطوَّر لذلك التراب على الوجهين، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذكراناً وإناثاً، والنطفة واحدة، والرَّحِمُ واحد.

= والثاني: أن العمل الصالح المُنبعث عن هذا الإيمان، يرفع شأن الإيمان، ويجعله ثقيلاً في الميزان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. (المؤلف).

وقد أردف هذا بدليل سَعَة علمه الظاهرة في عظمة الإبداع في نظام تكوين الجنين، فقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾، فتجوَّز بالعلم وكنَّى به عن عِظَم إيجاد دقائق الأوضاع وبدائع الأحوال وسَدَاد النظام في عمليات الأرحام، التي لم يتهيَّأ للعلم الحديث ـ على جلالة قَدْره ـ معرفةُ كثير من أسرارها الغامضة.

ثم تابع المعنى ببيان علمه الواسع، فقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ وعلى سُنَنٍ مُقرَّرة وأسباب مقتضية، ثم بالغ في التنويه بعِظَم قدرته، وهَوَّن تلك المقدورات العظيمة في جانبها فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾، وفي الكلام عن الخِلْقة إثباتٌ لما تقدَّم من أنَّ وعد الله حقٌّ، وليس الحشرُ للأجسام بأعجَبَ من النشأة الأولى، إلا أنها لـمّا كانت مألوفة لم نشعر بعجبها، وأيُّ عجب أعجب من تكوُّن الولد من النطفة، وتدرُّجه في بطن أمه، ذلك التدرُّج العجيب حتى يخرج طفلاً، ثم لا يزال يتدرَّج حتى يتكامل، وقد يكون من أعاظم الرجال، أو أبدع المفكرين والمبتكرين، وأوله من ماءٍ مهين. أليس العَجَبُ من هذا أكثرَ من العَجَب من حَشْر الأجسام وإنباتها من عَجْب الذَّنَب، يربو في الأرض فيُخرج أعضاءَه، ويحقِّق أوضاعَه، كما ينبت البذر ويربو أيام الربيع، وكما تربو الكمأة تحت تراب الأرض، ثم تَتَشقَّق عنها؟! وقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]. فقد خلق سبحانه أولَ نوع من الحيوان والنبات من تراب، فلِمَ لا يقدر أن يعيد البشرَ كلَّه من تراب؟! وإن شئتَ فسمِّ عَجَب الذنب: خليَّة، والله أعلم، غاية ما هناك: أنه أمر غير مألوف، وكم في خفايا الطبيعة ونواميس الكون من أمور لم نعرفها ولم نألفها.

ثم تابع دليل العلم والقدرة والمنَّة والحكمة في البَحْرَين وخصائصهما ومنافعهما، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ العَذْبُ والمالح ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ

أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، والظاهر أنَّ هذا الاستخراج إنما يكون من البحر المالح خاصَّة، فيكون فيه تَجَوُّزٌ يُعْهَد مثله في خصائص اللغة وأساليب القرآن، وهو أن يُذكَرَ أمران ثم يُنْسَبَ لهما ما هو خاصٌّ بأحدهما، على أنه يجوز أن يشترك العَذْبُ بهذه الخاصَّة أيضاً. فقد قالوا: إنَّ اللالئ ـ أو أَميزَ أنواعها ـ إنما تكون عند اختلاط العَذْب بالمالح.

ثم تابع السياق بقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ أي: في كلٍّ منهما ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي: تشقُّ الماءَ طافيةً عليه، بما أودع الله في الماء من قوَّة حَمْل الأثقال، إذا كانت على وَضْع خاصٍّ. وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يجوز أن يتعلَّق بـ﴿مَوَاخِرَ﴾ أو بما قبله من الأفعال كلِّها، أي: فَعَلَ ذلك لتبتغوا من فضله، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ هذه النِّعَمَ ولا تكفرونها.

ثم تابع الكلام عن دليل القُدرة والمنَّة والاختصاص بالربوبيَّة في عَظَمة النظام الشمسي، فقال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ بالتعاقب وبالطول والقِصَر في كلٍّ منهما، بما أودع سبحانه وتعالى من حكمة وسَدَاد ودقَّة وإتقان في النظام الشمسي، ﴿وَ﴾ بهذا النظام ﴿سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ينتهي به عُمُرُ الدنيا وتقوم قيامتها، والشمس تجري على مِحوَرِها، وتجري في فَلَكِها، بجريان النظام الشمسي كلِّه. ولهذا النظام أثرٌ كبيرٌ في حياة الإنسان والحيوان والنبات وسائر الأشياء، ففيه أكبر دليل على اختصاص الربوبيَّة بالخالق سبحانه.

ثم احتجَّ بما ثبت له تعالى من اختصاصه بأعمال الربوبيَّة، على استحقاقه وحدانيةَ الألوهية، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذه آثاره هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، فهو الذي يستحقُّ وحده أن يُعبَدَ وأن يكون إلهاً، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ في إيجاد هذه الموجودات، فكيف يكونون آلهة؟ فأراد بالمِلكِ هنا: القدرة

على الإيجاد؛ لأنَّ المُوجِدَ للشيء هو المالك الحقيقي له. والقطمير: لفافة النواة، يُضرَبُ به المثل في القلة والحقارة.

ثم فصَّل شأنهم في حِطَّتهم ومَهانتهم، وأنهم موضعُ الخيبة بَدَلَ الأمل والرجاء، فقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ إيَّاهم.

ثم أخذ بطريقة التنزُّل مع الخصم في الإلزام والإفحام، فقال: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ أي: ولو فُرِضَ أنهم سمعوا ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لأنهم لا يقدرون على شيء، ولتبرُّئهم مما تدعونهم به إن كانوا من الصُّلَحاء، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يُنكِرون عليكم عبادتكم لهم، ويتبرؤون منكم كالملائكة والأنبياء.

ثم ختم هذه الحجج والبيانات بما يزيدها اطمئناناً في النفوس، بعبارة ملؤها السلاسة والبلاغة والإيجاز والتقرير، فقال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾، جلَّ مَنْ هذا كلامه!

ويجوز أن يكون قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ في حقِّ الأصنام وشبهها من الجمادات، وقوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ في حقِّ مَنْ يعبدون من الملائكة والصُّلَحاء الذين يمثِّلونهم بالأصنام.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ
حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ
﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم أردف السياق بالتنبيه والتهديد والتبصير والإرشاد، على نهج القرآن، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ﴾ في كلِّ شيء مما منَّ الله به عليكم فيما سبق بيانه، ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عنكم وعن عبادتكم، ﴿الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ في كلِّ ما يفعله معكم من السمِنَنِ العظيمة والآثار الجليلة، حتى إنه لا يقطعها عنكم مع كفركم الشنيع، على أنه ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ في جانب قدرة الله، فكيف تكفرون ولا تخشون عظمتَه وعُلاه؟!

ثم تابع التهديد بصورة أخرى، مسبوكةٍ على العدل في الجزاء، مؤيسةٍ لهم من الشفاعة والفداء، اللذَيْن يعتمد عليهما كلُّ وثنيٍّ مشرك، فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفسٌ إثمَ أخرى، بمعنى: أنَّ كل نفس بما كسبت رهينة، لا تقدر نفسٌ أخرى أن تحمل وِزْرَها وتخفِّف عنها أبداً، كما لا يمكن أن يجوع أحدٌ عن أحد، أو يتوجَّع عنه، أو يشبع عنه، وإنما عبَّر عن النفس الأولى بالوازِرة؛ للإشارة إلى أنها مشغولة بأمرها ووِزْرِها، لأنها لا تخلو من ذلك مهما عَلَت في التقوى والصلاح.

ثم تـمَّم المعنى وقرَّره بقوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفسٌ أثقلَتْها الأوزار؛ إنْ تَدْعُ أحداً ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ ليحملَه عنها، أي: إلى حَمْل بعض أوزارها، تخفيفاً لها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ عنها، ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعوُّ لذلك ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ منها. وفي هذا البيان تيئيس من تعاون القرابة هناك، كما في الدنيا.

ثم بيَّن تعالى أنَّ هذه المواعظَ لا يتأثَّر بها الكافرون؛ لأنَّ الإنسان إذا وصل إلى سَمْعِـهِ قولٌ مخالف لِـمَا هو دينٌ له أو عادةٌ قد انطبع عليها لا يتدبَّره ولا يراه جديراً

بالنظر والتفكير، وإنما يتأثر بهذه المواعظ المؤمنون؛ لأنَّ عقيدة الإيمان تُنمِّي فيهم سلامةَ الفطرة، واستعدادَ النظر، والتدقيقَ في آثار الله تعالى، والإذعانَ لمواعظه وإرشاده وأوامره ونواهيه. وقد عبَّر بالفعل عن تأثيره، فقال ملتفتاً إلى الرسول: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: إنما يُؤثِّر إنذارُك بالذين يَخْشَوْن ربَّهم بما غاب عنهم من أحوال الآخرة، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أتوا بها مُقامةً على أحسن وجوهها، فتُربِّي فيهم خشيةَ ربِّهم ومراقبته، فهم الذين يخشون الله سبحانه خشيةً صادقة.

ثم بيَّن أنَّ ثمرة الاتِّعاظ بهذه الآيات يعود على المتَّعظين أنفسِهم، فقال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ بما يأمره الله به لإصلاح شأنه، ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ إذ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ فيُجازي كلاً منهما بما يستحقه من الجزاء.

ثم ضَرب الـمَثَل للفرق بين الصنفين الـمُنتذِرين وغير الـمُنتذِرين، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ أي: فكذلك لا يستوي العالم المهتدي المؤمن والجاهل الضالُّ الكافر، فذكر هذه الصفات لهذه الصفات على طريقة التشبيه، وكلمة ﴿لَا﴾ لتأكيد النفي، وتكريرها على الشقَّين لمزيد التأكيد. والحرور: السَّموم[1].

ثم أجمل الوصف وقدّره بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾، فمثَّل المؤمنين بالأحياء، والكافرين بالأموات.

ثم ختم هذا ببيان سنَّة الله في أخلاق الإنسان بياناً ضمنياً، وهي أنَّ مَنْ حافظ على سلامة فطرته يسمع الهدى بطبيعته، ومَن عَبَث بها وتَمادَى في الضلال، لا يسمع أيَّ قول

(١) قال ابن منظور في «لسان العرب» (حرر): الحرور: الريح الحارة، وهي بالليل كالسَّمُوم بالنهار.

مخالف لعقيدته، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ وهم الذين حافظوا على سَلامة فِطَرهم ونور بصائرهم واستعدادهم للهداية، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ وهم الذين أفسدوا طبائعهم بالتمادي على الضلال، وانطباعهم على التقليد والجهالة العمياء.

وقد شبَّههم بالأموات المقبورين، ثم سلَّاه ﷺ عن عِنادهم وبُعْدِهم عن الهدى، فقال: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾، فما عليك إلا البلاغ، سمعوا أو لم يسمعوا.

ثم أوضح هذا الحكم بما هو كمسلك العِلَّة له، فقال: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾، ثم ذيَّل ما تضمَّنه الكلام، وقرنه بالقانون العام، فقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ من البشر ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[1] أي: كان فيها نذير؛ لئلا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرسل، فإنْ آمنوا فلأنفسهم، وإن لم يؤمنوا فعليها.

---

(١) وتحرير ما تُلمح إليه الآيات: أن الله سبحانه مَضَت سُنَّته في تاريخ البشر أن يبعثَ لهم في كلِّ فترة من الزمن رسولاً يختاره من أميز أقوام ذلك العصر استعداداً لقبول الرسالة، فيَصْطفي منهم واحداً ممتازاً في خِلقته وأخلاقه، وله تاريخ مجيد بين قومه، فيرسله إليهم، ويُنزلُ عليه صُحُفاً أو كتاباً بلغتهم؛ ليعرفوا صدقه ويفهموا عنه ما جاء به من شريعة الله.
وبعد أن يأخذوا عنه ذلك الدين ويتَّبعوه فيه، ينشره بواسطتهم مدَّة حياته، ثم ينشره أتباعه بعد مماته جيلاً بعد جيل، حتى تنزل شريعة أخرى تنسخه.
هذه هي الخطة المرعية في تاريخ الرسالة، إلا أن نصيب أكثر تلك الأقوام من الإيمان برسلهم كان ضئيلاً، فلم يؤمن منهم إلا النَّزر اليسير، ولم يلبث نَسْلُ هذا القليل أن يخرج إيمانه بشيءٍ من الوثنية المحلية أيضاً، ثم لا تزال تزداد هذه الظاهرة فيهم مع الزمن حتى يرجعوا إلى وثنيتهم الشنعاء، ولم يَسْلم من ذلك إلا أتباع محمد ﷺ. ولذا قال: «أنا أكثر الأنبياء أتباعاً يوم القيامة». والله أعلم.
ويؤيِّد مضمون هذا ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ... ﴾ [فاطر: ٣٢]. (المؤلف).
والحديث المذكور متفق عليه، رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢)، عن أبي هريرة بلفظ: «ما من الأنبياء من نبيٍّ إلا قد أعطي من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحى الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعاً يوم القيامة».

ثم تابع الكلام في تسليته وتهديد المشركين، فقال: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من مُشْركي الأمم الغابرة ـ كعاد وثمود ـ بعد أن ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي: بالمعجزات الشاهدة على نبوّتهم، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصحف إبراهيم، ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ كالتوراة. ويجوز أن يُراد بها مفهومٌ واحدٌ مختلفٌ بالوصف. والمعنى: فلمّا جاءتهم رُسُلُهم بذلك لم يؤمن منهم إلا قليل، فأنجيتُ الذين آمنوا ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾، وقد حسَّس بهَوْل ذلك الأخذ وقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾؟ أي: كيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة؟!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

وقد أردف السياق بدليل القدرة والمنّة، عَوْداً إلى الأصل في اختصاصه بالألوهيّة، وتحقيقاً للوعد والوعيد، وتقريراً للتوحيد، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾، والالتفاتُ من الغيبة إلى التكلّم لإظهار التّمنّن، أو لإظهار كمال العناية بالفعل. واختلافُ الألوان يشمل اختلافَ الأجناس والأصناف.

وبعد أن ذكر التنوُّع في النبات ذكره في الجماد، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ أي: طرائقُ وخططٌ ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ باختلاف موادِّها الكيميائية، فترى فيها القطعة البيضاء والحمراء مثلاً، على اختلاف أنواع البياض والحمرة، ﴿وَ﴾ منها ﴿غَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ أي: أراضٍ أو جبالٌ سوداء، فتكون من عطف الخاصّ على العام، ومنها الأراضي الحَرّة ـ بفتح الحاء ـ وهي أراضٍ ذات حجارة صلبة سوداء، مخرشة، تُتَخذ منها أحجار الطواحين القديمة. قال الفرّاء: يقال: أسود غربيب أو أسود حالك.

وبعد أن ذكر ذلك في الجماد ذكره في الحيوان، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾، وإنما اقتصر في العبرة على ذِكرِ الألوان لأنها أظهر من بقية المميزات.

ثم حثَّ على إدراك ما في مخلوقاته تعالى من العِبَرِ الدالة على اختصاصه سبحانه بأفعال الألوهية، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[١] الذين يعرفون أسرارَ مثل هذه السُّنن الكونيَّة المُلْمَع إليها في السياق، من علوم الطبيعة والنبات وطبقات الأرض وأجناس البشر والحيوان وغير ذلك، وهم الذين يُروِّضون أفكارهم في إدراك الأشياء حتى تصبحَ ناضجةً تَصْلُح لفَهْم كلِّ ما تتناوله فهماً صحيحاً، على أن يكونوا من المؤمنين، فإنَّ تعاليم الإسلام تقضي على صاحبها أن ينظر في خلق الله وآثاره نظراً سديداً، فيدرك قدرةَ الله وعظمتَه ووجودَه ووحدانيتَه إدراكاً صحيحاً واضحاً، كما صوَّرته آية النور[٢]؛ إذ الإيمان يجب أن يكون عن علم ودراية من طريقة آثاره سبحانه، لا عن تلقينٍ وتقليد؛ لأنَّ التقليد يُؤدِّي إلى جمود العقل في تلك الناحية التي يقلّد فيها، وهو مرض عُضال، فكما أنَّ العين إذا اختلَّت لا ترى الأشياء كما هي، كذلك العقل إذا جَمَد في ناحية ما.

---

(١) نشر الدكتور دينرت الألماني بحثاً حلَّل فيه الآراء الفلسفية لأكابر العلماء الذين أناروا العقول في أربعة القرون الأخيرة، وتوخَّى أن يدقِّق في تعرُّف عقائدهم، فتبيَّن له من دراسة مئتين وتسعين فيلسوفاً: أن عشرين منهم غير مبالين بالوجهة الدينية أو ملاحدة، وثماني وعشرين منهم متحيِّرون لم يصلوا إلى عقيدة ما، ومئتين واثنين وأربعين منهم أعلنوا على رؤوس الأشهاد إيمانَهم بالله. وعليه؛ يكون كل اثنين وتسعين في المئة من كبار الفلاسفة يؤمنون بالله.
وقال الفيلسوف الإنجليزي فرنس بيكون: إنَّ قليلاً من الفلسفة تقرِّب الإنسان من الإلحاد، أما التعمُّق في الفلسفة فيردّه إلى الدين. (المؤلف).

(٢) يعني: الآيتين ٤٣ و٤٤ منها.

فالإحاطةُ بالعلم في أحدثِ ما وَصَل إليه، واتِّخاذُه وسيلةً للنظر في آيات الله: هو سبيل الهُدى إلى الإيمان الصحيح، لمن لم يَجْمُدْ عقلُه على التقليد.

والعلماء الغربيُّون ـ على إلحاد الكثير منهم ـ قد قال غيرُ واحد من مكتشفيهم: إنَّ كل كشف جديد يزيد آيات الخالق المبدع قوَّةً وجلاء، ويعرض لك أسباباً عملية تَحمِلُ على الاقتناع بوجود الله.

ثم علَّل ما تَضَمَّنه السياق من صَبْره على هؤلاء المعارضين وأناتِهِ بهم، على شدَّة معارضتهم وإصرارهم على كفرهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ فإمهالهم ليس عن عجز في القدرة، ولكنه ﴿غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، فيُمْهلهم رجاءَ أن يتوبوا فيغفر لهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

ولما بيَّن خشية العلماء من الله سبحانه، بيَّن عاقبة العالِمِينَ بكتاب الله، العاملين به، لأنهم هم المستحقُّون لهذا الحكم أكثرَ من غيرهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ حقَّ تلاوته بالتدبُّر والتمعُّن، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على وجهها الصحيح بحضور القلب،

﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ وفي هذه الصِّلة تنبيهٌ لمنَّة الله عليهم في هذا الرزق، يبعث على الإنفاق؛ لأنه من الله وإلى الله، يُخلِفُهُ ويثيبُ الله عليه ثواباً جزيلاً، فهم ينفقون منه ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: بوجه عام، ﴿يَرْجُونَ﴾ بذلك ﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: تجارةً عظيمةَ الربح في ثواب الله، كما فسّر ذلك بقوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ وقد حذف خبر «إنّ»، وأقام مقامه التعليل، على نهج القرآن. ثم قرّر ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾، والتقدير: فإنهم سينالون أجورهم أكثر مما يرجون ويُؤمِّلون، لأنه غفورٌ شكورٌ للطائعين المُنيبين إليه. ويجوز أن يكون قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ ...﴾ قائماً مقامَ الخبر، وما بعده تعليلٌ له.

ثم نوَّه بشأن هذا الكتاب المتلو، فقرّر أنه الحقُّ، أُوحيَ به إلى محمد ﷺ فتحاً ورحمةً عليه وعلى الناس، فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لِـمَا تقدَّمه من الكتب السماويَّة، وهي شاهدةٌ عليه، فالذي يتلوه ويتمسَّك به يتمسَّك بالحقِّ الموصِل للفوز والفلاح.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ فهو أعلَمُ حيث يجعل رسالته، وقد شَرَعَ شرائعَه في هذه الكتب المنزلة بحسب خبرته الواسعة وعلمه المحيط، بما تقتضيه مصالحهم الروحيَّة والبدنيَّة والاجتماعيَّة، مما يُوصِلُهم لسعادة الدارَيْن، والهناء في الحالين، ولا سيما هذا القرآن.

وفي الآية إشارة إلى اتِّحاد الشرائع في أُسُسها الأصليَّـة وفروعها الذاتيَّـة، لا الفرعيَّة.

وبعد أن بيَّن أن القرآن على وتيرة الكتب السماوية السالفة، وأنه مُصَدِّق لها، وألمع إلى أنَّ تعاليمَها موضوعةٌ حسب علم الله وخبرته بصالح عباده، ذكر سبحانه وتعالى أنه لا زال ينقل جنس هذه الكتب في البشر، فيصطفي للكتاب أمةً يُنزله عليها؛ لتكون هي

الواسطة في نشره بين الناس، وكانوا في قبول تلك الكتب والتمسُّك بها أصنافاً متفاوتة في درجات القَبول والامتناع. ذكر ذلك على طريقة التفصيل بعد الإجمال، ولذلك أتى بـ﴿ ثُمَّ ﴾، على نهج القرآن في مثله، لا ليبيِّن أنه خبر جديد، فقال: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ والمرادُ به: الجنسُ الذي يشمل جميع الكتب السماوية، ومعنى الميراث: الانتقال من قوم إلى قوم، أي: نقلنا هذه الشرائع من أمة إلى أمة، ومن نبيٍّ إلى نبيٍّ، من ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ لهذا الغرض.

فكانت تلك الأممُ أو أفرادُها ـ في التمسُّك بهذه الكتب الإلهية، وبهذا القرآن من بينها ـ ثلاثةَ أصناف: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ إذ ظَلَمَها بإفساد طبيعتها، ومَحْق استعدادها في النظر الصحيح، فأعرَضت عن كتاب الله وعَدَلت عن الحقِّ إلى الباطل، فنالت أسوأ الجزاء، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو الذي حرَّف طبيعتَه بعض التحريف، ففَقَدَ شيئاً من نور بصيرته وبقي شيءٌ، فكان من نتيجة ذلك أنْ خَلَطَ عملاً صالحاً وآخرَ سيِّئاً، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وتيسيره، وهو الذي كان قد حافظ على سلامة طبيعته ونور بصيرته، فأجاب الحقَّ حين دعاه.

ويجوز أن تكون كلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي، وأن يُراد بـ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾: القرآن، تعبيراً عن الشيء بجنسه، وأن يُراد بـ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا ﴾: الأمة المحمدية، وأن يُراد بالظالم: المضيِّع للواجبات والمنتهك للحُرمات، وبالمقتصد: المقتصر على القيام بالواجبات وترك المُحرَّمات، وبالسابق: مَنْ أضاف إلى ذلك ما يُقرِّب إلى الله من الحسنات، و﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ عليه من الله.

ثم ذكر من تلك الخيرات ما يخصُّ الآخرة، لأنها الأهمُّ، فقال: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ ويظهر ـ والله أعلم ـ أن هذا في مكان وسام التقدير والتلطيف، لأنَّ الأَسْوِرَةَ كانت من شارات الملوك، فقد جاء أنَّ

رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست تاج كسرى وسواريه؟»[١]، أو هو من باب أن يُذكَرَ أمران ويُسنَدَ لهما ما هو لأحدهما؛ لأنَّ واو الجماعة هذا يشمل الذكور ويشمل الإناث، بطريق التغليب[٢]. والله أعلم.

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا شيء مما في الآخرة يشبه ما في الدنيا إلا بالاسم[٣]. فقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ وهو لباس عظيمٌ يُشعِرُ بالكرامة والنعيم. والله أعلم.

ثم حكى عنهم من القول ما يدلُّ على منتهى سرورهم وفرحهم بما نَجَوا منه يوم الحساب، وما جاوزهم من العذاب الذي أصاب غيرهم، وبما وصلوا إليه من الكرامة والنعيم، فقال: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وهو ما أهمَّهم من خوفِ سُوء العاقبة، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي: غفورٌ لِـهَفَوات المؤمنين، شكورٌ لهم بالجزاء الأوفى. أو المعنى: إنه مُسْتَحقٌّ للشكر العظيم بما يُنعِمُ من النِّعَم العظيمة.

وهذا القول منهم يُنْبِئ بأنَّ الله تعالى أعطاهم فوق ما كانوا يُؤمِّلون، وقد أوضحوا ذلك بعض الإيضاح بقولهم: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي: دار الإقامة التي لا انتقال فيها أبداً، وذلك ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وجليل إنعامه، ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب وإعياء، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ أي: سآمة وكلال، وإنما هي دارُ راحة ونعيم وسرور مستمر المدى. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

---

(١) رواه البيهقي (١٣٠٣٣).

(٢) تقدم تعليقاً بيانُ ضعف هذا القول الأخير عند تفسير الآية ٦٢ من سورة العنكبوت، وتفسير ٣٦ من سورة سبأ.

(٣) سبق تخريجه (٢: ٤٩).

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

ثم قابل مصير المؤمنين بمصير الكافرين، على أسلوب القرآن في ذلك، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾، ثم استطرد بها هو كالتعليل فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

ثم تابع البيان، فقال: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ[1] فِيهَا ﴾ يقولون: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾، فيُجابون من قِبَلِ الله تعالى بقوله: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ أي: أولم نُعطِكُم من العُمر مقدارَ ما يُمكِنُ أن يتفكّر ويعتبر فيه المعتبر بما جاء به النذير[2]، ولكنكم لم تتفكّروا ولم تؤمنوا، ﴿ فَذُوقُوا ﴾ جَزَاء كفركم ﴿ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

ثم أيّد استحقاقَهم لذلك بعلمه في أحوالهم، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ فلا يخفى عليه شيء مما استوجبتُم به هذا العذاب.

---

(١) أي: يصرخون مُستغيثين، ويصيحون صياحاً شديداً.

(٢) المراد به هنا: الرسول الذي حذّرهم من عقاب الله سبحانه.

وبعد أن قطع الحُجَّة عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾، ساوق المعنى وكمَّله بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ[1] فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فكان على اللاحقين أن يستفيدوا من علم السابقين، فتكون مبادئ الشرائع وتعاليمُ الرسل مشهورةً بينكم راكزةً فيكم، وكان على اللاحقين أن يعتبروا بالسابقين ممَّن استُؤصِلُوا بالعذاب، ولكنكم لم تفعلوا، ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ إذ لله الـحُجَّة البالغة عليكم، فقد طبع فِطَـرَكم على الـرَّشاد والسَّداد، فأفسدتموها بسُوء تصرُّفاتكم فيها، وأرسل لكم الرسل بالهدى ودين الحق، فأعرضتُم عنهم لفساد طبائعكم، وجمودكم على التقليد، وانطباعكم على العَمَى والضلال.

ثم بيَّن وبال الكفر فقال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ والله غنيٌّ عن العالـمين، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ في الدنيا والآخرة، وما لهم فيها من نصير. والـمَقْت: أشدُّ البغض.

ثم بكَّتهم على كفرهم هذا بتجهيلهم وتسخيفهم، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ أي: أخَلَقُوا شيئاً من مخلوقات الأرض؟ أم لهم شَرِكة مع الله سبحانه في خلق السماوات حتى يستحقُّوا بذلك شَرِكَته في الألوهية؟

ثم بدَّل أسلوبَ الخطاب لهؤلاء المشركين بأُسلوب التَّحدُّث عنهم، لتجهيلهم ولإرشاد العموم بأنَّ العلم بالشيء لا يحصل إلا بالاستدلال الصحيح أو النقل الصحيح، وقد أبطل الأول على طريقة التبكيت، ثم أبطل الثاني كذلك، وعطفه على مضمون ما

---

(١) جمع خليفة، وهو مَن يَخْلُفُ سابقَه في مكان أو عمل أو ملك، أي: خلفاءَ لمن قبلكم من الأمم ومخلوفون ممّن سيأتي بعدكم، تتعاقبون أجيالاً، جيلاً فجيلاً في عمارة الأرض، كما تقدم في الآية ١٦٥ من سورة الأنعام.

قبله، إذ التقدير: أعِندَهُم دليل عقلي؟ كلا، ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطق بأنا اتّخذنا هؤلاء شركاء ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾؟ أي: على حُجَّة ظاهرة من ذلك الكتاب في هذا الاعتقاد. فإذا انتفى الدليل العقلي والدليل النقلي فمن أين لهم ذلك، وكيف استنبطوه؟

وبعد هذا التبكيت الفاضح، قرَّر الحقيقة في أمرهم، فقال: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ يريد: تغرير الأسلاف للأخلاف، وإضلال الرؤساء للأتباع، بأنَّ هؤلاء شفعاء لهم عند الله.

ويجوز أن يعود الضمير من ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ إلى الشُّركاء، ومن قوله: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ إلى المشركين. ولا خلاف بين المعنيين، إذ كلاهما على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥]، ومفهومُها تأنيبٌ مطويٌّ على السخرية والتجهيل، أي: هل أُنزل عليكم أو على شركائكم كتابٌ فأنتم به على بيِّنة من أمركم؟ إذ لا حَقَّ في الدين إلا من هذا السبيل، ولا حَقَّ بالشفاعة إلا بتفويض الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ
كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ
فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ
إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾
أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ
ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

وبعد أن بيَّن حِطَّة شأن هذه الأصنام والشركاء، وسَخَّف عابديها وأبطله، ذَكَر

عظمةَ الله سبحانه وتعالى التي يستحقُّ بها أن يختصَّ بالألوهية، وطوى الكلام على التهديد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: إنَّ الله سبحانه يمنع كلاً منهما من أن تَجْنَحَ أو تخرج من مكانها، ولئن جَنَحَتا بإذنه تعالى؛ مَن الذي يَقدِرُ على منعها من ذلك وحفظها منه غيرُه؟ يَتمجَّد سبحانه ويَتوعَّد بقُدرته البالغة على السَّلب والإيجاب والمنع والإعطاء، واللهُ على كلِّ شيء قدير.

وهذا الإمساك بسُنَّة كونيَّة من سُنَن الله، وهي التعادل في قوَّة التجاذب بين الأجرام، وقوة التسيُّب عن بعضها الناتج من حركتها، فأخذت تدور بتوازن حول بعضها في أفلاك لا تخرج عنها، وقد جاء في الأثر: «بالعدل قامت السماوات والأرض»(١).

ثم ختم الآية ببيان سبب أناته سبحانه بهؤلاء المشركين مع عملهم هذا الإجرام، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ ومن ذلك تأخير عقوبة هؤلاء المشركين رجاء أن يثُوبوا إلى رُشْدهم.

وبعد أن بيَّن ما يدور عليه إنكارهم للتوحيد ودعواهم إلى الشِّرك من السخافة والجهل والضلال، بيَّن ما كان من مُكابرتهم وسَفَههم وصَلَفهم في تكذيب الرسول، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ يعني: كفار مكة، ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: أيماناً مغلَّظة: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: رسولٌ من الله، ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ التي جاءتها الرسل. يقولون ذلك قبل مجيء الرسول تعريضاً بالأمم الماضية التي عارضت رسلها، وتَشوُّقاً لإرسال الله رسولاً إليهم. وقد كان هذا من علمائهم وعرفائهم، مثل أميَّة بن أبي الصَّلت وأشباهه، لأنهم كانوا يَتشوَّفون لمجيء رسولٍ إليهم ويَتشوَّقون.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ من الله ـ وهو هذا الرسول ـ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ نفروه

---

(١) سبق تخريجه (٥: ١٦٧).

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾، فقد غطَّى الحسدُ وحبُّ الدنيا عند هذا الصنف من قريش معالمَ الحق مع وضوحه في أمر الرسول ﷺ، هذا أميَّة بن أبي الصَّلت يقرُّ برسول الله ﷺ، ويقصده ليُؤمنَ به، ثم يعود فيقول: لا أؤمنُ برسول ليس من ثقيف، ومثله أبو عامر الراهب، وهذا أبو جهل يقول: والله ما كَذَب محمدٌ قط، ولكن إذا كانت السّدانة والحِجَابة في بني هاشم، ثم النبوَّة أيضاً، فما بقي لنا؟ وهذا أبو طالب يرى المعجزات، ويقول: إني لأعلمُ أنك على الحق، ولولا أن تُعَيِّرَني عَجَائزُ قريش لأقررتُ بها عينك. فنعوذ بالله من ظلمة حَسَد، وغباوة كِبْر، وحَماقة هوى، تُغطِّي نور العقل، فيُعرض صاحبُها عن الحق الصُّراح.

وقد تَوَعَّدهم سبحانه وتعالى ببيان هذه الحقيقة الراهنة في سنن الاجتماع، فقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾، واستشهد على ذلك بالواقع فقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ممن كذّبوا الرسل، وهي الاستئصال بالعذاب، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ بغيرها، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ عن سَيْرها، وإنما هي ثابتة لا تتغيَّر[1].

ومن مباحث اللفظ: قوله: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾ قالوا: هو من إضافة الجنس إلى نوعه، مثل: شجر النخل، ومعدن النحاس. والأَوْلى أن تكون من إضافة الموصوف إلى الصفة، مثل: مسجد الجامع، إذ جاءت بصيغة الموصوف والصفة في الجملة الثانية.

---

(١) والمراد بسُنّة الله هنا: نَصْرُه لأنبيائه على مَن كذَّبهم وعاداهم، كما يدلُّ على ذلك صَدْرُ الآية: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، قال العلامة محمد المكّيّ بن عزّوز: «ومن الخطأ الفاحش تفسيرُ قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ بأنه القانون الطبيعيُّ في حوادث الكون».
وقد ردَّ الشيخ محمد المكّي بن عزّوز على خطأ الاستدلال بهذه الآية على نفي خَرْق العادة بدعوى مخالفتها لسُنَن الله، متعقِّباً الشيخ محمد رشيد رضا، ونُشِرَ ردُّه في مجلة «المنار» في المجلد ١١ سنة ١٣٢٦=١٩٠٩، وقد أوردتُه في تعليقاتي على رسالة «العقيدة الإسلامية» ص١٥٥-١٥٨.

ثم نبَّههم إلى ما صار إليه المكذِّبون من الأمم الماضية، مستشهداً بمعالمهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ممَّن كذَّبوا الرسل ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، ومع ذلك انخذلوا واستكانوا بالعذاب المهين، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، ولكن أعماله وتأجيلها أو تعجيلها إنما تجري بحَسَب علمه وحكمته، وليس تأجيلُها عن عَجْز في قدرته، كلا، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه وتعالى رحمته بالناس في تأجيل العذاب، فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ مُؤاخَذةَ استعجال ﴿بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي: على ظهر الأرض ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ تَدُبُّ عليها، لاستحقاقها ذلك. وهذا من ذكر العام مُراداً به الخاص، وهو الإنسان، لأنه هو الصَّالح لقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ رحمةً بهم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ينقطع به رجاءُ صلاح المفسدين، فيؤاخذهم إذ ذاك. ويشمل الأجلُ الموتَ وما بعده، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ نالوا جَزاءَهم على أعمالهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ لا يُغَادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، وكذلك كلُّ قوانينه وسُننه فيهم مَبْنيَّة على علمه وخبرته.

والآية تُلمع إلى أنَّ الله تعالى لا يُؤاخِذُ الظالمين في الدنيا إلا ما قلّ، وإنَّما يُؤخِّرُهُم إلى ما بعد الموت. إذ بالموت، يتحقَّق انقطاع الرجاء من صلاحهم، ولم يبق لهم معذرةٌ ولا عتابٌ، والله أعلم.

* * *

سُورَةُ يسٓ

مكية، وهي ثلاث وثمانون آية

جاء في هذه السورة إثباتُ الرسالة وبيانُ الحاجة إليها، ومن ذلك:

إنذار العرب الذين تَقادَمَ العهد بينهم وبين النُّذُر الأولى، فحادوا عن الحق إلى الضلال لجهلهم وغفلتهم، فحقَّ عليهم عقابُ الله.

ويدور السياق في هذه السورة على ذِكرِ ما جرى على مَنْ قبلهم من المتمرِّدين على الأنبياء في الأمم الماضية، وما يدلُّ على قدرة الله العليَّة ونِعَمِهِ العظمى.

وكانت قد خُتِمَت السورة السابقة بإنذارهم بالعذاب، فجاءت هذه السورة لإثبات قدرته على ذلك وتقرير الوعيد.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ۝١٢﴾.

﴿يسٓ ۝١﴾ قد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفِكرِ وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها اهتماماً به، ومنه هنا: قوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾، و﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤﴾ يَصِلُ سالكُه إلى سعادة الدارَيْن، وهو صراطُ هذا القرآن العظيم.

﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ والتَّعرُّض لوَصْفَي العزَّة والرحمة حثٌّ على التمسُّك بهذا المنزَّل ترهيباً وترغيباً، وتمنُّنٌ به. أي: ومن رحمته أنْ أنزَلَ عليكم هذا الكتاب، وعلَّمكم ما لم تكونوا تعلمون، وهداكم به الصِّراط المستقيم.

وقرئ بالنصب: ﴿تَنزِيلَ﴾[1] على أنه مصدرٌ نائب عن فِعلِه، بمعنى: أنزله العزيز

---

(١) وهي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم. «السبعة في القراءات» ص٥٣٩.

الرحيم عليك ﴿ لِتُنذِرَ ﴾ به ﴿ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾، يعبِّر بهذا النفي عن تَقادُم العهد مبالغةً فيه؛ إذ كانوا في آخر عهد مَنْ سبقه من الأنبياء، حيث يَضْمَحِلُّ الأمر، ولم يبقَ له تأثير، فلا ينافي هذا قولَه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[1] [فاطر: ٢٤].

وهذه الجملة لبيان شدَّة حاجتهم إلى تنزيل الكتاب وإرسال الرسول، ولذلك قرَّرها بقوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ عمَّا فيه صالحُ أمرهم.

ثم بيَّن تعالى ما كان من أمر هؤلاء القوم بعد أن جاءهم هذا الرسول بما جاءهم به من هذا الكتاب المنـزَّل من العزيز الحكيم، فقال: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ أي: إنهم عاندوا ما جئتَ به وعارضوه ولم يؤمنوا به، فحقَّ عليهم قولُ ربنا: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩، السجدة: ١٣]. ويجوز أن يُراد بالقول: قولُه تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١٠]، والجملتان متلازمتان، إذ التدسية سببٌ للدخول. وملخَّص معناه: أنَّ الإنسان إذا أفسد طبيعتَه حادَ عن إدراك الحق والصواب، والله أعلم. وعلى الأول: تكون الفاءُ لعطف السبب على المسبَّب، وعلى الثاني: تكون لعطف المُسبَّب على السبب.

ثم ذكر سبحانه وتعالى تصويرَ قوَّة هذا الإعراض والمعارضة منهم، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾، والكلام على التمثيل، أي: مَثَلُ هؤلاء المشركين في إعراضهم عمَّا ندعوهم إليه، كمَثَل رجل قامِح برأسه من

---

(١) أو المعنى ـ وهو الأرجح ـ: أنزلنا عليك القرآن؛ لتُنذِرَ قوماً ـ بعد تبليغهم ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ـ الإنذارَ الذي أُنذِرَه آباؤهم من قبلك، فهم غافلون مشغولون في أمور دنياهم، واتباع أهوائهم وشهواتهم، عن الاستجابة لدعوة الرسول. كما تقدم التعليق عليه في الآية ٣ من سورة السجدة: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾.

جرّاء غلٍّ في عُنقه يَضْطرُّه لرفع ذقنه، فهو لا يُبصِرُ موطنَ قدميه؛ لأنَّ المُقْمَح هو الذي يلجأ لرفع رأسه إلى فوق. والمعنى: أنَّ سُنَّة الله تعالى جَرَت في أخلاق البشر وطباعهم: إذا رَسَخ فيهم الضلال، لا يُمكِنُهم أن يَتَخلَّوا عنه أبداً، ولا يسمعون قولاً مخالفاً له، أو مُعَارضاً إيَّاه، ولا يَرَوْنه جديراً بالنظر والتفكير، ويظلُّون في غيِّهم وضلالهم مُتَصلِّبين. ففي الآيةِ إسنادُ الفعل إلى الله من دون تلميح إلى السبب، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية).

ثم بالغ في التمثيل لتقرير هذا المعنى، وذكرَه على صُورة تمثيليَّة أُخرى في الإعراض وعدم الإبصار، أشدَّ من الأُولى، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾، فشَبَّههم في إعراضِهم عن الإيمان وقَبولِ الحق وفَقْدِ الاستعداد للنظر والتدقيق، بمَنْ أحاط به سدّان منيعان حَجَبا عنه سائرَ الأطراف، فهو لا يُبْصِر شيئاً، فهم لا يُبْصِرون الحقَّ حقاً فيعرفونه، ولا الباطل باطلاً فينكرونه، أي: إنهم قد فَقَدوا الاستعداد للبحث في الحقائق بالنظر والاستدلال، لِـمَا انطبعوا عليه من الضلال، فهم لا ينظرون في هذه الآيات المنزلة الدالَّة على الحق والمُبَرْهِنة عليه، ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ فهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾، فبيَّن شأنهم بطريق التصريح، إثْرَ بيانه بطريق التمثيل، على سُنَّة البلاغة العالية في تقرير الحقائق.

ومن مباحث النَّحْو: أنّ ﴿سَوَآءٌ﴾: خَبَرٌ مقدَّم، وجملةُ ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾: مسبوكةٌ بمصدر مبتدأٌ مؤخَّر. وجملةُ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: مستأنفة لبيان وجه التَّسوية، شبيهةٌ ببيان وَجْه الشَّبَه في المُشبَّه.

ثم عقَّب ذلك ببيان مَنْ يتأثر بالإنذار ممَّن حافظوا على سلامة فِطَرهم ونور بصيرتهم، فقال: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾، وتجوَّز بالفعل

عن مُسبِّبه، أي: إنما ينتفع بإنذارك مَنْ حافظ على سلامة فطرته، فاتَّبع الحقَّ حين دعاه، وخشيَ الرحمن فيما غاب عنه من أمر الآخرة، فعمل لها بمقتضى تعاليم هذا القرآن، ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾.

ثم ذكر تعالى ذلك الغيبَ وشأنه العظيم الذي ينطوي على ما يقتضي الإنذار والتبشير، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من الأعمال، حسنةً كانت أو سيئةً، ﴿وَ﴾ نكتبُ كذلك ﴿آثَارَهُمْ﴾ التي صارت سُنَّة بعدهم يُقتدى فيها بهم، حسنةً كانت أم سيِّئة، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ۝١٢﴾ أي: في كتابٍ محفوظ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، وهو علمُ الله الواسع الدقيق.

اللهمَّ اجعَل أثري هذا خالصاً لوجهك الكريم، وقد قَصَدْتُ فيه طريقةَ محمد ﷺ وأصحابه، فإنْ أحسنتُ فالحمدُ لله، وإنْ أسأتُ فأستغفر الله، ولا حَوْل ولا قوَّة إلا بالله.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝١٧ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩﴾.

ثم توعَّد هؤلاء المعارضين الذين ضرب لهم الأمثال السابقة، بما جرى على أمثالهم أهلِ أنطاكية، وذكر قصَّتهم فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ أنطاكية ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۝١٣﴾ وهم رُسُل عيسى عليه السلام[1].

---

(١) الظاهر أن المراد بالمُرسَلين: هم رسل الله تعالى، لا وفود عيسى ورُسُلِه، لأن القرآن الكريم يطلق الرُّسُلَ على المُرسَلين من الله تعالى، وتكملةُ الآيات توضِّح هذا المعنى.

وقد فصَّل ذلك بقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: أمرنا بإرسالهما ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾، فأنكروا عليهم و﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، وهذه الشبهة تجري على لسان المشركين، مع أنَّ تاريخ الأديان ظاهرٌ في أنَّ الرسل لا يكونون إلا من البشر.

وقولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ يجوز أن يكون مُتمِّماً للشبهة ومُفرَّعاً عليها. ويجوز أن يكون شبهةً مستقلة، بمعنى: أن الله لم يُنزِل شيئاً البتة من الشرائع.

ثم قرَّروا ذلك بقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

ثم إنَّ المرسلين لم يَسْأموا ولم يتركوا معالجتهم، بل زادوا في دعوتهم و﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾، فاستشهدوا بعلم الله على صِدقِ دَعْواهم. وهذا التعبير يجري مَجْرى القَسَم، بل هو أعلى صور القَسَم.

ثم خرجوا على العُهدة بقولهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ وقد أدَّيناه.

فلمَّا أُخذ هؤلاء المعارضون بالحُجَّة شَرَعوا بالسَّفاهة على عادة أمثالهم، و﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تَشاءَمْنا بكم، ومن ذلك أنْ حُبِسَ عنا المطر، و﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ عن دعوتكم الشائمة هذه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

فردَّ عليهم الرسل و﴿قَالُواْ﴾ لهم: بل ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: شُؤْمُكم منكم، لا من قِبَلِنا ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ بضلالكم وشقاء مصيركم، ودُعيتُم إلى اسْتبداله بالهُدى والسعادة في الدارَيْن، أإنْ ذكَّرناكم بمثل هذا تطيَّرتُم بنا، وقلتُم هذا القول، وتَوَعَّدتمونا هذا التوعُّد؟! ما أنتم مُستبصرون، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ في تحريف طباعكم وإفساد عقولكم وضلال أعمالكم.

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟
مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾
ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ
ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا
عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ
خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ولما كانت الأمة التي أفسدت طبيعتَها برسوخ الضلال فيها، لا تفقد أفراداً بقي فيهم من نور الفطرة وجلاء البصيرة ما يؤهِّلهم للنظر الصحيح، والقول السديد، وقَبول الرَّشاد، والسعي في مصالح العباد؛ قصَّ القرآن هنا أمْرَ واحدٍ منهم بين أصحاب القرية المُسرفين في الضلال، فقال: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ ويقال لهذا: مؤمن ياسين، كما يُقالُ للذي جاء عنه في سورة المؤمن: إنه أخبر موسى بالمؤامرة عليه، يقال له: مؤمن آل فرعون.

وقد جاء هذا الرجلُ حبيبُ النجارُ بدافع الفطرة السليمة إلى هؤلاء المعارضين المتوعِّدين المرسلين. وفي قوله: ﴿أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ وقوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ زيادةُ مبالغةٍ في تصوير قوة معرفته للحق، وإيمانه به، وحِرصِه على دفع قومه إليه، جاء مُسْرعاً يريد نُصْحَهم وإنقاذَهم من ورطتهم، و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾، وقد برهن لهم على صحَّة دعوى هؤلاء المرسلين وإخلاصهم، فقال: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾، فلاحظ في دَعْواهم أمرَيْن استدلَّ بهما على صحَّتها: الأول: أنها طريقة واضحة الهداية، والثاني: أنهم لا يُسألون عليها أجراً، فإذن ليس لهم من ورائها

مآربُ دنيويةٌ يستغلونها. وهذان الأمران هما من أبسط الأدلَّة وأوضحها على صِدْق الدعوى والإخلاص فيها.

ثم بيَّن ما تَـمَلَّكَ قلبَه من وضوح الأمر لديه، وتحقُّق صدق هؤلاء المرسلين عنده، وهو أنّ ما يدعون إليه من عبادة الخالق وحده أمرٌ ظاهرُ الصحة وواجبٌ في العقول، وأنَّ الله سبحانه سيُحاسِبُ المُعارِضين ويُجازي المتَّبعين، فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، ففي هذا الوصف إشارةٌ للدليل المقتضي للعبادة؛ إذ لا أحدَ أحقُّ أن يُعبَدَ من الخالق، وفي صورة التركيب استبعادٌ لعدمها، وإنكارٌ على المعارضة مع وضوح هذا الـحق، وجلاءِ صدقـه، ووجودِ الـخوف من الصُّدود عنه الذي أشار إليه بقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: فيُجازيكم على الإعراض جزاءً وفاقاً.

وقد تلطَّف في الإرشاد، بإيراده في مَعرِضِ المُناصَحة لنفسه وإمحاض النُّصْح لهم، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه. والمراد: تقريعهم على تَرْك عبادة خالقهم، وعبادة غيره.

ثم أردفه بفساد نظرية الشرك، فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾، وقد أورد هذه الصفة لله مَورِدَ التعليل للإنكار.

ثم زاد في التنصُّل والتفظيع، فقال: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ لا يفعله إلا فاقدُ البصيرة والشعور. وفي هذا تجهيلٌ لهم وتشنيعٌ بليغ، أردفه بالتصريح بإيمانه، تصريحاً بالمدّعى بعد إثباته، ومَخْضاً للنتيجة، ومباشرةً للعمل بعد إقامة الحُجَّة، فقال مُخاطباً للرسل: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾، ولكنَّ قومَه أنكروا عليه ذلك، ووطئوه بأرجلهم حتى مات. روي ذلك عن ابن مسعود[1].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨: ١٢٦) بلفظ: «وطئوه بأرجلهم حتى خرج قضبيه من دبره».

فبيَّن الله سبحانه مصيرَه بقوله: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم ختم القصة بموضع العبرة، وكيف أهلَكَ قومَه من بعده، وأنَّ إهلاكهم لم يكلِّفه مؤونة عمل، ولم يَحتَجْ في استئصال الأقوام إلى جيش وأساطيل. والمراد بهذا البيان: المبالغة في التهديد. وقد ذكر ذلك بطريقة التمثيل، وأخذ المعنى من حال المُخاطَبين وشؤونهم في مثله، فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾، أي: وما كنا محتاجين لمثل ذلك، ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾[1] والقصَّة تهديد لقريش بضعفهم تجاه قوة الله.

ثم عقَّب على ذلك بالتأسُّف على العباد، حيث لا يهتدون بالهداة، فقال: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2]، وهذا كلامٌ عظيم

---

(١) وهذه الصيحة: هي صَيْحة مَلَك أمره الله تعالى بها، فكان فيها هلاكهم. وهي صيحة حقيقية ليست على التمثيل، ولها نظائر، كالصيحة التي أُهلكت بها ثمود وأصحاب مدين. وهي جندٌ من جند الله تعالى كالريح والماء والنار وغيرها، وقد سخَّر الله تعالى ذلك لإهلاك الأمم الكافرة.

(٢) هذا الكلام يدل بوضوح على أنَّ الله سبحانه أراد الإيمان للكافرين، مع علمه سبحانه أنهم لا يؤمنون. ولا معارضة في ذلك؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته ليكون خليفةً في الأرض يتصرَّف في مواهبها كيف يشاء، وقد ألهمه بطبيعته فُجورَه وتَقْواه، وجعل تزكية نفسه وتدْسيتها باختياره ومَجْراه، فليس عمله في الكفر والشر قسْراً لإرادة الله، بل موافقة لما أراده له من مطلق الاختيار، وبذلك يجري عليه الثواب والعقاب، كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].
وإرادة الله سبحانه نوعان: إرادة تكوينية، وإرادة طلبية من الإنسان المختار في تصرُّفاته، والأولى: لا يَتخلَّفُ المرادُ بها أبداً، والثانية: مجرَّد تكليف يُثيب مَنْ أطاعها، ويُعاقِب من عَصَاها. والله أعلم. (المؤلف). =

ورهيب من الله سبحانه، مُستعار من أحوال المُخاطَبين في إظهار التأسُّف، يُمثِّل كمالَ رأفةِ الله بعباده في إرسال الرسل بالوحي لهدايتهم، وشدَّة ضلال الضَّالِّين وإعراضهم عن تلك الهداية القيِّمة. أي: إنَّ حالتهم مما يُوجِبُ الأسف والحَسْرة عليهم. والاستعارة من حال المُخاطَبين كثيرة في القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ
لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا
عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ
وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾
وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ
كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا
يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ
حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

= قلت: قوله: «إن الله تعالى أراد الإيمان للكافرين»، الصوابُ فيه أن يقال: طلب الإيمان من الكافرين، ومنحهم الإرادة الحرة، فاختاروا الكفر ولم يؤمنوا، فأراد وقوعه منهم من غير أن يكون راضياً به. وفي هذا احتراز عن القول بإرادة الله تعالى شيئاً مع تخلُّفه في الواقع.

أما ما ذكره المؤلف بعد ذلك من تقسيم الإرداة إلى تكوينية وطلبية، فأمرٌ مخالفٌ للاصطلاح، ولا حاجةَ إليه مع التفريق بين الإرادة والرضا، فالإرادة صفةٌ لله عز وجل لا يخرج عنها شيء في هذا الكون، لأنه هو المتصرف فيه سبحانه، وإلا وقع في ملكه ما لا يريد، وهذا محال، أما الرضا فتابعٌ لطلب الله وأمره، فما أمر الله به عباده رضيه لهم.

ثم أردف ذلك بالتبصرة المسبوكة على التَّهديد، عائداً بالكلام إلى قريش بعد أن ضرَبَ لهم المثل، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾، وقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ يدلُّ على المعنى من قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، والغـرَضُ منه: تحسيسُهم بهذه الحالة المحسوسة، تنبيهاً لهم على مَوْضع عِنادهم أو غباوتهم، وفيه من التجوُّز في المعنى ما هو مألوف في اللغة وأساليب القرآن، وهو تنزيلهم بأنهم منهم.

ثم بيَّن رجوعَهم إلى المحشر والحساب، إثرَ بيان عدم رجوعهم إلى الدنيا، فقال: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ للحساب، فينالون الجزاءَ الشديد. وفيه تهديدٌ لهؤلاء المعارضين ووعيد.

ثم ذكر الدليل على الحشر، مسبوكاً بالتَّمنُّن على المنَّة، والتأنيب على كفرانها، فقال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾ على البعث والنشـور ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾، لأنَّ حياتها واخضِرارَها بعد يبسها وقحولها شبيهٌ بحياة الموتى لمن تَدَبَّـر وتأمَّـل، وطبيعة الربيع في إحياء النبات بعد اليبس(١)، كطبيعة زمن البعث في إحياء الأجسام من عَجْب الذنب، كما جاء في الحديث(٢). والله أعلم.

ثم تـمَّم البيان للدليل بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، فجمع النخيل والأعناب للدلالة على الأنواع المختلفة منهما. وإنما ذكر النخيل دون التمور؛ لاختصاص شجرها بمزيد النفع.

وبعد أن ذكر الجنَّات، ذكر المياه لتوقُّفها عليها، فقال: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي: في

---

(١) تكررت مثلُ هذه العبارة عند المؤلف في مواضع، وقد تقدَّم نقدُها تعليقاً عند تفسير الآية ٨٣ من سورة المؤمنون، فانظره هناك.

(٢) سبق تخريجه (٤: ٤٢٨).

الأرض ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤﴾ ليعيش مَنْ عليها ولتُسقى تلك الجنَّات بها. وأفرد ضمير الثمر في قوله: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ كي يعود إلى جميع ما ذكر.

ثم أكمل البيان بهذا التَّحسيس البارع، والتأنيب اللاذع، فقال: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فهو تجهيلٌ بديع، وهزؤٌ بليغ، أردفه بالمبالغة في التقريع، فقال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥﴾ هذه النِّعَمَ الجليلة بعبادة مُبدِعها وحده دون سواه؟!

ثم خلَّل هذا السياق المتضمِّن لشركهم، بتنزيهه تعالى عن ذلك، مُدْمجاً فيه مُقْتَضيات هذا التنزيه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذا العطف للمقارنة، بمعنى: أنَّ في النبات ازدواجاً كما في الإنسان والحيوان، وقد أثبت ذلك العِلمُ الحديث، وكذلك قوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾ فقد ظهر في مثل الكهرباء وغيرها الازدواجُ على هذه الوتيرة أيضاً. والله أعلم. وقيل: المراد بالأزواج: الأصناف.

وعلى كلٍّ، ففي الصلة دليلٌ وبرهانٌ على التنزيه والاختصاص بالألوهية، واستعظامٌ لكمال قدرة الله العلية. والمعنى: يُنزِّهُ هذا الخالقُ عن عدم قدرته على الحشر والإعادة، وهو القادر على كلِّ شيء.

ثم تابع الكلام في دليل القدرة، فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧﴾ أي: داخلون في الظلام، وقد ضمَّن ﴿نَسْلَخُ﴾ معنى: نَنْزع ونَسْتَلّ، فأجراه مجراه في التعدية. وفي صيغة التعبير دلالةٌ على أصالة الظلام وطروء الضياء؛ لأنه يكون بإشراق الشمس، وهو عَرَضٌ زائلٌ بغروبها عن ذلك الموضع من الأرض.

ثم تابع البيان، فقال: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ وهو تعطُّلها ووقوفُها عن العمل بخراب نظام العالم، كما تستقرُّ حركة دواليب الآلة لخرابها بطارئ يطرأ عليها،

أو باضمحلالها من طول الزمن وكثرة العمل واستمراره، ويُسمَّى ذلك يوم القيامة، وهو يوم مَهُول. والمراد بهذا الجريان: جريانُها ضمنَ النظام الشمسي كلِّه. فقد قال الفلكيون: إنها تسير معه ما يزيد على مليون ميل في اليوم، متَّجهةً نحو كَوْكبة الشلياق التي فيها النَّسْر الواقع. ويجوز أن يراد بالجريان لمستقرِّها: جريانُها على مِحْوَرِها، أو الأمران معاً. ويجوز أن يراد به: مجرَّد أداء واجبها[1]، أي: أنها تعمل عملها دائبةً عليه إلى يوم خراب هذا العالم المشهود. وفي كلِّ هذه المعاني قدرةٌ بالغة، ومِنَّة عُظمى.

ثم تمجَّد بما في هذا النظام من دقَّة وتدبير وإحكام، فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ أي: الغالِبِ بقدرته على كلِّ مقدور، المُحيطِ عِلمُه بكلِّ معلوم.

ثم تابع البيان، فقال: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ في سَيْره حول الأرض، وبذلك تختلف صُوَرُه وأشكاله المضيئة لنا، فهو في كلِّ ليلة على شكل معيَّن في مقدار الضياء الذي يبدو لنا من وجهه، مختلف عن سابقه ولاحقه قليلاً، كما هو مُشاهَدٌ بالعين، فتراه وقد ظهر هلالاً، ولا يزال يتزايد ضياؤه[2] حتى يصير بدراً، ثم لا يزال يتناقص ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ آخرَ الشهر ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ بتقدير الله العزيز العليم. والعرجون القديم: هو العضد من شمراخ النخل يَعوَجُّ ليبسِه وتقادمه، شُبِّه به القمر بعد إتمام دورته.

---

(١) هذا قولٌ في غاية البُعْد، وتجويز في غير محلِّه، فلفظة «تجري» لا تدلُّ على هذا المعنى ـ وهو أداء العمل الواجب ـ بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز، على أنه لو كان هذا المعنى محتملاً بطريق المجاز لكان حَمْلُ الآية عليه بعيداً أيضاً، لِـمَا قد ثبت من جريان الشمس فعلاً، كما ذكره المؤلف من قبل.

(٢) الصواب أن يقول: يتزايد نوره، لأنه من انعكاس ضياء الشمس على سطحه، وليس له ضياء ذاتي.

ثم بيّن دقّة الإتقان والإحكام في النظام الشمسي، فقال: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ فيصطدما، ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ على الأرض، ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾[1] فلا يَصْطدم واحدٌ بآخر، ولا يخلُّ بنظامه فيسبقه، حتى قال بعض الفلكيين: لو طار في فضاء جوِّ الأرض كلّه عشرُ نحلات فقط، لكان تَصادُمُ اثنتَيْن منها أقرَبَ من احتمال تصادُم نجمين من هذه النجوم التي لا يحصيها العَدُّ في فضاء السماء؛ لسعة ذلك الفضاء وامتداده، وبُعدِ كلٍّ منها عن الأخرى فيه، فتعالى الله العلي القدير.

أقول: وقد استقرَّ كلُّ كوكب منها في مَوْضعه ومَدَاره، وحُفظت النسبة بينه وبين غيره بسُنن كونيَّة أوجَدَها القادر الحكيم، ولولا هذه السُّنن وهذا النظام لتفلَّتت هذه الكواكب السابحة، وصَدَم بعضُها بعضاً، وفنيَ العلم. جلَّت قدرة الله، وعَظُمَت حكمتُه البالغة، ولا إله غيره، ولا ربَّ سواه. وهذه الآية تقريرٌ لإتقان النظام، ونفيٌ لاختلاله، واستدلالٌ على ذلك النفي باستمرار هذه الصورة الناجمة منه على حالها مع مرور الدهور والأحقاب التي لا تُحصىٰ، ولا يكون التصادُمُ إلا يوم القيامة. والله أعلم.

ومن مباحث اللفظ: أنه لـمّا نزَّلها منزلة الآدميين، وأعطاها صفة العقلاء؛ عبَّر عنها بالواو والنون، فقال: ﴿يَسْبَحُونَ﴾، مثل: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

---

(١) علَّق الإمام الغزالي على قول الفلكيين: إنَّ خسوف القمر ناتج عن انمحاء ضوئه لتوسط الأرض بينه وبين الشمس، وكسوف الشمس ناتج من وقوف جرم القمر بين الناظر وبين الشمس، عند اجتماعهما في العقدتين في سطح واحد. فقال الإمام الغزالي ما محصَّله: مَنْ ظنَّ أن المناظرة في إبطال مثل هذا الرأي هي من الدين فقد جنى على الدين؛ لأن هذه الأمور يقوم عليها براهين هندسية حسابية لا يبقى معها ريبة لمرتاب. فإذا قيل له: هذا كلام يخالف الشرع، لم يَسْترب في علمه؛ لأنه عنده أمر محقّق مضبوط، ولكن يستريب في الشرع.

أقول: والإثم على هذا الجامد الجاني. (المؤلف) .

ثم تابع سبحانه الكلامَ في دليل القدرة والمنَّة، فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: على قُدرتنا على بَعْثِهم وإعادتهم ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾.

قال في «مجمع البيان»: الذريَّة: تُطلَقُ على الآباء والأبناء، من قولهم: «ذرأ الله الخلق»، أما إطلاقها على الآباء فلأنَّ الأولاد خُلقوا من الآباء. وإطلاق الذريَّة هاهنا على الآباء مرويٌّ عن الضحّاكِ وقتادةَ وجماعةٍ من المفسِّرين، وهذا جارٍ على قول النُّحاة: إن المصدر يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول.

والفُلكُ المشحون: سفينةُ نوح التي كانت مملوءةً من الناس المؤمنين، ومن بعض الحيوان؛ من كلٍّ زوجين اثنين، فسَلِموا من الغرق، وانتشر منهم كلّ البشر، فسُمِّي نوح: آدم الثاني.

فالآية تشيرُ إلى طغيان الماء بتلك الكثرة البالغة، حتى استوعب البقاع وساكنيها، ولم يَسْلم إلا مَنْ في السفينة بإذن الله، وذلك آيةٌ على أنَّ البعث لا يُعجِزُ قدرة الله تعالى. ويجوز أن يكون فيها إلماعٌ إلى التهديد بأنه سبحانه أنجى المؤمنين، واستأصل أمثالهم المعارضين، كما سيصرِّح.

وأقول: ألا يجوز أن تكون الآية من غيب القرآن عن العصر الحاضر على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤]، فتكون الآية مشيرةً إلى المراكب البخارية التي تهيّأ اكتشافها لذُرِّيتهم من بعدهم في القرون الأخيرة، تلك المراكب التي حولتها ألوف الأطنان، فانتفعوا بها انتفاعاً عظيماً، لا سيما في هذه الأزمان، وذلك بما أودع الله في البخار والكهرباء من قوَّة تُحرِّك الأثقال العظيمة، وبما أودع في الماء من قوَّة حَمْل تلك الأجرام الثقال إذا كانت على وضعية مخصوصة. ووَصَفَه بالامتلاء تمكيناً لهذا المعنى؛ لأنَّ ظهوره فيه أجلى. والله أعلم بمراده.

وقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ قولٌ واسعُ المدلول، يتناول كلَّ ما يحدث من أنواع السُّفن والمركبات والطائرات وغيرها من وسائل النقل والركوب، فإنه سبحانه يعلم بعلمه الأزلي الأبديّ ما كان وما يكون.

ثم تـمّم الكلام عن بيان هذه النِّعَم وكفرانها، بتهديدهم بما يناسب السياق؛ بأخذهم بما أخذ به أمثالهم من الأمم الماضية، فقال: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ كما أغرقنا أشباههم من قوم نوح، ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: فلا مُغيثَ لهم، وهذا على اعتبار أنه وَصْفٌ على وزن: فعيل، بمعنى: فاعل، كسَخِيّ وعَدِيّ، مشتقٌّ من قولهم: صَرَخ القوم، بمعنى: أغاثهم وأجابَ صريـخَهم واستـنجادَهم. ويجوز أن يكون مصدراً، يعني: الصراخ والصياح، فيكون المعنى: أنهم لا يتمكّنون من الصريخ والصياح لتعجيل الغرق عليهم، ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ منه.

ثم استدرك على ذلك بقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ولكن نؤجِّل جزاءهم ونُمتِّعهم في هذه الحياة إلى أجلٍ مُسمّىً رحمةً منا، فإذا جاء ذلك الأجل أخذناهم بَغْتَةً فإذا هم مُبْلِسون.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ

لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

وبعد أن ذكر نعمتَه عليهم، وقدرتَه على أخْذِهم بالعذاب، وتأنِّيه فيهم، ذكر عِنادَهم وإعراضَهم عن دعوة الداعي لهم إلى سبيل الرَّشاد، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وشقائهما، وذلك باتِّباع هذه التعاليم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾، أعرضوا عن الداعي وأنكروا عليه. وقد حذف هذا الجواب على نهج القرآن في مثله، ودلَّ عليه بقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم تابع البيانَ عن عنادهم وإعراضهم وجهالتهم في سُنن الله، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ تهكُّماً بهم أو جهالة: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ(١) إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾، ولم يعلموا ـ لبُعدهم في

---

(١) يقولون هذا من جهلهم بنظم الاجتماع التي شاءتها الحكمة الإلهية في الإنسان وأحوال عيشه وحاجته، وهي أن يتَّخذ بعضهم بعضاً سخرياً، يعملون في مجاري الأمور والحاجات، ولكنه سبحانه لم يُجْبِر فقيراً على فقره، وإنما يكون ذلك لنوع نشاطه ومَيْله، وقوة تفكيره وضعفه، فيكون من نتيجة ذلك: الغنى والفقر، والسعادة والشقاء. وعلى هذا النظام، أمر سبحانه الغنيَّ أن يسدَّ حاجة الفقير ولا يستغلها، فوضع في تشريعه الأنظمة الاقتصادية من زكوات وصَدَقات وهبات ومساعدات وحثَّ عليها. وجاء في الحديث: «إن الله سبحانه يأمر المَلَكَ أن يكتب رزقَ المولود وأجله، وشقياً أو سعيداً». وذلك بناءً على علم الله الأزلي في نوع نشاط هذا المولود وسلوكه في كَسْبه وعمله من الأمور التي تنتج من درجة معرفته المكتسبة بالتربية والاقتباس، فهو مُخَيَّر في طلب رزقه لا مَقْسور، وكذلك في سعادته وشقائه؛ لأنها مبنية على سلوكه وتصرُّفاته. والله أعلم. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. (المؤلف). =

الضلال وحطَّة النظر ـ أنَّ من الحكمة في سُنن الاجتماع ونظامه تَفاوُتَ الناس بالغنى والفقر؛ لتتمَّ الأعمال بينهم، ويُسَخِّرَ بعضُهم بعضاً. وذلك يُوجِبُ عَطْفَ الغنيِّ على الفقير، وإنفاقَهُ عليه، وسدَّ عَوَزِه. ولذلك أمر سبحانه بوجوب الإنفاق سدّاً لحاجة الفقير، وتتميماً لهذا النظام، فلم يكن الإنفاقُ فَضْلاً وإحساناً، ولكن فَرْضاً وتحتيماً، ليتمَّ النظام الذي وضعَه وقَسَمَه سبحانه.

ثم ذكر لهم تهكُّماً ثانياً من تهكُّماتهم، متعلِّقاً بما سَبَق في السياق من توفير الأدلة لقدرته سبحانه على البعث والجزاء، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾؟ يعنونَ وَعْدَ البعث، ويَتَهكَّمون به.

فآذنهم سبحانه وتعالى عن مقدّمته، وهي الساعة بقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: يَتَخاصمون في مَتَاجرهم ومعاملاتهم، ولم يكن يخطر لهم قيام الساعة ببال ـ وهذا على حدِّ قوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا

= قلت: الحديث المذكور متفق عليه، رواه البخاري (٣٣٣٣)، ومسلم (٢٦٤٦)، عن أنس بلفظ: «إن الله عزَّ وجلَّ قد وكَّل بالرحم ملكاً فيقول: أي ربِّ نطفة، أي ربِّ علقة، أي ربِّ مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقاً قال الملك: أي ربِّ ذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه».

أما ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى من حَصْر تقدير الرزق بما علمه الله تعالى من نشاط الإنسان وقوة تفكيره؛ ففيه نظر، لأن تقدير الرزق من الله تبارك وتعالى لا يتقيد بهذا المعنى، فكم من نشيط قوي العزيمة في طلب الرزق حسن التدبير، وقد ضيِّق عليه في رزقه، والعكس بالعكس، والصواب: أن تقدير الرزق من الله تبارك وتعالى إنما يجري تبعاً لإرادته المطلقة، والكلُّ ملكه، وله سبحانه أن يفعل في ملكه ما يشاء، ولكنه سبحانه حكيم في أفعاله، فهذا التقدير هو الوجه الذي تترتب عليه الحكمة، ولو كُشِفَ الحجاب لما اختار العبد لنفسه من الرزق إلا ما قدَّره الله له، لما يرى في ذلك من خفايا المصالح وخبايا الحِكَم.

يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٧] ـ ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾، لأن الذي في السُّوق لا يقدر أن يصل إلى أهله. أعاذنا الله، بل يموت كلٌّ في محله. والتوصية: أمر يُهيَّأ عادةً قبيل الموت، فذلك محلُّها. أي: لم يتهيَّأ لهم ما كان يتهيَّأ لغيرهم من الأموات، يُعبِّر بهذا عن عِظَم الأمر، وعَجَلَتِهِ، ودَهْشَتِهِ للنفوس، وذهابه بالعقول. وهذا كنايةٌ عن أخذ الساعة إيَّاهم على حين غَفْلة ودون مُقدِّمات منها.

ثم تابع الكلام عما يكون بعدها من البعث والحساب، وشقاء الكافرين وهناء المؤمنين، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ أي: من القبور ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ أي: يخرجون ويُسرِعون للحساب. وهذا هو يومُ الحشر، وهذه هي النفخة الثانية التي تُؤْذِنُ بالحشر، وهي ـ كما جاء في الحديث[1] ـ تكون بعد زمن من النفخة الأولى التي هي للإيذان بالقيامة وخراب العالم. وهنا يَرَوْنَ ما كانوا يستهزئون به وينكرونه، فتظهر عليهم شدَّة الفزع، كما حكى سبحانه بقوله: ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾، وهو استفهامٌ مُشْبَعٌ بالخوف والندم وتوقّع المكروه مما كانوا ينكرون. ثم يقولون نَدَامةً وحَسْرة، أو يُقالُ لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

ثم صوَّر سهولةَ ذلك البعث عليه تعالى بقوله: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[2].

ثم بيَّن ما يكون من العدل الدقيق في ذلك الحساب بعد البعث، وقال: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾، وفيه إيذانٌ بأنَّ الجزاءَ

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٥٣) عن ابن عباس: «فإذا بلغ الوقت الذي يريد الله أمر إسرافيل... فيأمر الله تعالى إسرافيل بعد النفخة الأولى بأربعين...»، وإسناده ضعيف.

(٢) أي: ما كانت دعوتُهم إلى الخروج من القبور إلا نفخةً واحدةً في «القَرْن»، فإذا هم جميعٌ لدى ربِّهم مُحضَرون، تسوقُهم الملائكة حتى يحضروا مواقفَ حسابهم بين يدي ربِّهم، وفَصْلَ القضاء بينهم.

مُـرَتَّبٌ على العمل ترتيباً طبيعياً[١]، ترتُّبَ المُسبَّب على السبب، وأنَّ العمل مُـؤَدٍّ إلى الجزاء، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر. والله أعلم.

ثم قابل حالَ الكافرين بحال المؤمنين في ذلك اليوم، زيادةَ تنبيه للكافرين، وحثاً لهم على الإيمـان، ووعـداً كريمـاً للمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: مُتنعِّمون مشغولون بأسباب النعيم، ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ والظلال للأشجار ونحوها. والأرائك: السُّرُرُ المفروشة. ولا تنسَ ما يقوله ابنُ عباس من أن «ما في الجنة لا يشبه ما في الدنيا إلا بالاسم»[٢].

ثم ذكر ما يتمتَّـعون به فقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: ما يريدون ويطلبون، من أسباب البهجة ومُوجِبات السرور.

ثم أبدل من كلمة ﴿مَّا﴾ ـ بَدَلَ الخاصِّ الممتاز من أفراد العام ـ قولَه: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾، إذْ هذا أعظَمُ ما يتطلَّبونه، وهو رضوان الله الأكبر. و﴿قَوْلًا﴾: مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعل هو صفة لـ﴿سَلَٰمٌ﴾، أي: سلامٌ يقوله ربٌّ رحيم، وما أعظَمَ هذه الكرامة في هذا المقام الرفيع!

قال ابن عباس: إنَّ الملائكة يدخلون عليهم بالتحية من ربِّ العالمين[٣]. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟

---

(١) بل ترتيباً شرعياً، أي: لا يترتب ثوابٌ على طاعة، كما لا يترتب عقابٌ على معصية، إلا بترتيب الله تعالى لذلك في شريعته، وليس لذلك مَرَدٌّ من سنة كونية أو قانون طبيعي. وقد تقدَّم التعليق على مثله من قبل.

(٢) سبق تخريجه (٢: ٥٧٦).

(٣) ذكره الزمخشري في «تفسيره» (٤: ٢٥).

ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

ثم عاد إلى بيان حال المشركين الموجبة للحَسْرة والندامة، فقال: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: يُقالُ لهم: انفَصِلوا مَعْشَرَ العُصاة واعتزلوا.

ثم أنّبهم وندّمهم، فقال: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾﴾ أي: ألم أُوصِكُم أن لا تطيعوا الشيطان فيما يُوسوس به إليكم؟ فإنه عدوُّكم الأكبر، أي: ألم أبصِّركُم بهذا الموقف؟ وسمَّى ذلك عبادة؛ لأنه السبب في عبادة غير الله والعمل بغير شرعه، فهو من ذِكرِ المسبَّب وإرادة السبب.

ثم تـمَّم العهد بقوله: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ﴾، ثم نوَّه بشأن هذا العهد، فقال: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾﴾ أي: يَصِلُ سالكه إلى الفوز العظيم.

ثم وبَّخهم على إهمالهم لهذا العهد، واتِّباعهم وساوس الشيطان، وهم يشاهدون مَصَارعَ ضحاياه، فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ﴾ أي: من البشر ﴿جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ أي: خَلْقاً عظيماً ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾؟ أي: أتـرون آثـار العقوبـات في ديـار عـادٍ وثمودَ وغيرهم، ولم تكونوا تعقلون أنها من أسباب هذا الشيطان ووساوسه؟

وبعد هذا التقريع صرَّح بالجزاء، وذكره بعبارة خاطبهم فيها بما يزيد في تأليمهم وتـنديمهم، فـقال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ بها إذا اتَّبعتُـمُ الشيطان فتُكذِّبون، ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

---

(١) أي: ادخلوها اليوم، واحترقوا بنارها، وقاسوا حرَّها، بسبب ما كنتُم في رحلة الحياة الدنيا تكفرون، حتى انتهت أعمارُكم فيها وأنتم توالون كفرَكم بالحق من ربكم.

ثم بيّن ما يكون من حالهم، فقال: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي: أنهم لا يُؤْذَنُ لهم فيعتذرون، أو أنهم حينئذ لا يتكلّمون لِـمَا يُصيبهم من الدهشة والاستسلام، والاعتراف بالضلال، واستحقاق هذا العذاب، ﴿وَ﴾ لكنْ ﴿تُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ وذلك بظهور آثار المعاصي عليها، أو إنطاق الله إيَّاها.

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

ثم عاد إلى قريش، وهدَّدهم سبحانه بعذاب الدنيا أيضاً، فقال: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ أي: لجعلناها مَمْسوحةً. يمتنُّ عليهم بنعمته العظيمة بالبصر. ثم ذكر ما ينتج عن ذلك من التعاسة زيادةً في التحسيس، وقال: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ أي: لو طَمَسْناها فقصدوا الطريق وابتدروه، وازدحموا دونه ولم يُبصِروه، كيف يكون حالهم التعيس لو كانوا كلُّهم مطموسين؟ وقد أقام مقام قوله: (فلم يبصروه) قولَه: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾؛ لإفادة التنديد فوق إفادة المعنى الأصلي، على نهج القرآن في مثل ذلك، بمقتضى البلاغة العالية. والغرض من هذا الكلام: بيانُ نِعَمِهِ البالغة عليهم في البصر، وقدرةِ الله القاهر التي لم ينتبهوا لها ولم يخشوها.

ثم قَرَنَ الكلام بما يُماثله، تقريراً له، فقال: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾[1] بأن سَلَبْنا منهم المقدرةَ على الحركة، ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا

(١) أي: ثبتوا على الموضع الذي هم فيه مُشوَّهين قباحاً، خاسرين مكانتَهم الاجتماعية، مع ظنِّهم أنهم أعزّة أقوياء متمكِّنون في القوة.

﴿يَرۡجِعُونَ ٦٧﴾ أي: فما استطاعوا ذهاباً ولا إياباً. يتوعَّدهم بذلك على كُفرِهم وشِركِهم بالله تجاه هذه النِّعَم الجليلة.

ثم نبَّههم إلى قُدرته على ذلك ببيان نظيره في أطوار خَلْقِـهِ المعروفة لهم، فقال: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ٦٨﴾ ويُدركون من ذلك أننا قادرون على التَّغيير والسَّلْب والمَسْخ والتطوير والطمْس؟! وفي طيَّات هذه الجملة إلفاتُ نظرهم إلى ما هُدِّدوا عليه من إنكار البعث، فهو كالدليل على إمكانه. وذلك لأنَّ التطوير في تنكيس الخَلْق تغييرٌ كبيرٌ وتطويرٌ عظيم. وهكذا تكون الوفاةُ والحياةُ الثانية، حلقتان من تطوُّرات الإنسان المتسلسلة.

ثم عقَّب على هذا السياق المُثبِتِ للتوحيد والحشر، بما يزيده تقريراً، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ أي: إن ما جاءكم به هذا الرسول من هذه البيانات ليس بتمويه من تمويهات الشعر، وخيال من أخيلته، كما تتَّهمونه به وتَتَوهَّمون، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ من الله لكم بين يَـدَيْ عذاب شديد، ﴿وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩﴾ يُبيِّن لكم مصيرَكم في الـحياة الأخرى، ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ باقياً على فِطرتِـهِ الصحيحـة، ولم يُمِتْـها بالتدسية والإفساد، فيأخذ حِذرَه، ويتأهَّب لذلك، ويُقدِّم لآخرته، ﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠﴾ وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، ذلك القول الذي يحقُّ على مَنْ أفسدوا فِطَرَهُم، وطَمَسُوا نورَ بصيرتهم، ودسَّوا أنفسَهم، فانحازوا للضلال، واتَّبعوا خطوات الشيطان، وهو عدوُّهم المبين.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٧٣ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ٧٥ فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٦﴾.

ثم عقَّب هذا البيان بدليل قُدرته ومنَّته، تحقيقاً للقدرة على إنجاز وَعْدِه ووعيده، وتحسيساً بِنِعَم الله عليهم، وقد كفروها بشركهم، وعَوْداً إلى السياق السابق في إبطال الشرك وإثبات التوحيد، وضمَّن الكلام ما يزيد في التحسيس، وصدَّره بصيغة الظهور، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ يتصرَّفون فيها بما يشاؤون، ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي: مركوبهم، ﴿وَمِنْهَا﴾ يذبحون و﴿يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من أوبارها وأشعارها، ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من ألبانها، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾؟! أي: أيرون كلَّ ذلك الخير فلا يشكرون نِعَمَ الله عليهم، ويخصُّونه بالعبادة والتنزيه؟!

وفي قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ مبالغةٌ في التقريع بكُفران نِعَم الله وإحسانه وأعماله إليهم، أي: ممَّا ليس لهم في إيجاده يدٌ ولا صنيع، وإنما هو من فَضْل الله وإيجاده وإنعامه وإحسانه.

ثم أردف الإنكار على عدم شكرهم لهذه النِّعَم، بتسخيفهم وتبليدهم وتأنيبهم على كفرهم وعقيدتهم هذه، فقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: إنهم اتَّخذوا الشركاءَ وسطاءَ رجاءَ أن يشفعوا لهم عند الله. فعبَّر عن الشفاعة بالنصر استهزاءً بهم وتندُّراً عليهم، تمَّمه بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: وهم في عدم استطاعة النصر لهم كالجند المغلوب المُلْقي للسلاح، والمُحْضَر أسيراً عند الغالب له.

وفي هذا الوصف معنى لطيفٌ في بيان عَجْزِهم عن النصر والمساعدة، أي: كما أنَّ الجند الذي هذه حالُه وهذه صفتُه يكون فاقداً للنصر والنجدة، فكذلك هؤلاء الشُّركاء المعبودون للنَّجْدة، فهم جُندُهم المتَّصف بهذه الصفة، من العَجْز والـمَهَانة والعَطالة والخِذلان.

ثم سلَّاه ﷺ عن عِنادهم هذا، وتوعَّدهم على شركهم بقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: في الله بالإلحاد والشرك، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أي: فنُجازيهم عليه جَزاءً وفاقاً.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

ثم أردف السياق المتضمِّن لإنكار البعث، بالكلام عن قُدرته على إنجازه، مسبوكاً على لونٍ بديع من التقريع والتدليل، مأخوذٍ من حال جدالهم في ذلك، وصدَّره بصيغة الظهور، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾؟! أي: ألم يَرَ أنا أنشأناه من ماءٍ مَهين، فإذا هو على هذه الصُّورة البديعة والمقدرة العظيمة في التفكير والبيان في الحقِّ والبطلان؟ فكيف عَمِيَ هذا الـمُبْطِلُ الأثيم، وأنكر قدرتَنا على بَعْثِهِ وإعادة حياته الأولى؟ أما يدري أنَّ الذي أنشأه هذه النشأة البديعة قادرٌ على إعادته؟!

وفي تركيب الآية بلاغةٌ عالية في سَبْكها على الإثبات والتأنيب معاً، على نهج القرآن في مثل ذلك؛ إذ أنَّبه على صَرْف هذه الموهبة العظيمة والنعمة الجليلة، في الخصام ضدَّ الحق وضدَّ المُنعِم بها، فهو يُخاصِمُ الخالقَ بهذا اللسان الذي مَنَحه إيَّاه.

ثم فصَّل صورة الخصام بقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ وعجيبَ أمْرِه، و﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾؟! أي: باليةٌ فانيةٌ إلى حدِّ النهاية. يُنكِرُ ذلك أشدَّ الإنكار.

فأمر رسوله أن يُبكِّتَهم بقوله: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من تراب. والإعادةُ أهونُ من الإنشاء[١]، وله المَثَلُ الأعلى، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ يعلم كيف يتكوَّن وينشأ ويُصان عَجْبُ الذنب، وتُعاد منه الأجسام، وأنتم لا تعلمون. يشير إلى أنَّ في الكون نواميسَ لأنواع من التخليق لا تعلمون منها إلا صورةَ خلقتكم من بطون أمهاتكم، فتظنُّون أنَّ التخليق لا يكون إلا كذلك. ولو أبعدتُمُ النظرَ في عجيب قدرة الله في أنواع مخلوقاته واختلاف إيجادها، لظهر لكم الدليل على إمكانِ ما تنكرون، وهَوْنِ ما تستعظمون، فقُدرةُ الله لا تُحدَّد بما تعرفون، وصُورة الخلق لا تقتصر على ما تعلمون.

وهو ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾، فتطوُّر هذا الشجر وتحوُّله ـ من تلك الخضرة اليانعة والطبيعة الممتنعة على النار، إلى هذا اليبس والطبيعة القابلة للاشتعال ـ دليلٌ من أدلة قُدرة الله العظيمة على التحوير والتغيير، وما البعثُ والحشرُ في جانب هذه القدرة إلا أمرٌ يسير.

وبعد أن ذكر دليل التطوير والتحوير، ذكر القدرة العظمى فيما لا ينكرونه، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ـ على عظمتها ـ ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ ويعيدَهم فيه؟ وبَيْنَ هَوْنِ خِلقتِهم هذه في الإعادة وعَظَمةِ خَلْقِ السَّماوات والأرض بَوْنٌ بعيد؛ لذلك أجابهم بقوله: ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ يعلم كيف يَضَعُ لكلِّ خلقٍ ناموساً يلائمه ويقتضيه[٢].

---

(١) أي: في عُرْفِكم، فهو من التعبير بحال المُخاطَبين، ولذلك أتبعه المؤلف رحمه الله بقوله: «وله المثل الأعلى».

(٢) وقد يخلق الله سبحانه وتعالى من غير ناموس، كخلق آدم وعيسى وخلق دابة صالح من الصخر وغير ذلك، فقدرته سبحانه غير مقيدة بهذه النواميس.

ثم بيَّن سبحانه وتعالى هَوْنَ الخلق عليه مهما كان عظيماً، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾(١) فهي مجُرَّد إرادة تكوينية منه تعالى، والله أعلم. وهذا تمثيلٌ لسهولة ذلك عليه. ويُقالُ لهذا الأمر: الأمر التكويني، وهو عبارةٌ عن تعلُّق القدرة الإلهيَّة بما هو أثر لها، وإن كان وجودُ هذا الأمر بأسباب ظاهرة أو خفيَّة، فإن تلك الأسباب أيضاً كان إيجاد نظامها وقانونها بهذه الطريقة، وكذلك لا فَرْقَ بين أن يكون وجودُه عاجلاً أو آجلاً. ويُقالُ لأثر هذا الأمر: الكلمة التكوينية، كما قال تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، يعني والله أعلم ـ: هذه الكلمات التكوينيَّة التي لا تُحصى.

ثم ختم السياق والسُّورة بتنزيهه عمَّا يصفونه به من العَجْز عن البعث، مُدْمجاً فيه تهديدَهم وتحقيقَ ما ينكرون، فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: ملكه وإيجادُه، فهو القادرُ الذي لا يُعْجِزُه شيء، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ لا محالة، فيُجازي كلَّ قائل بما قال، وكلَّ فاعل بما فعل وما نال. فسبحانه لا إله إلا هو الكبير المتعال، جلَّ جلاله.

* * *

---

(١) معناه: أنه سبحانه إذا أراد شيئاً بإرادته الأزليَّة أن يكون في وقته المعيَّن بالإرادة، تحقَّق ذلك الشيء في وقته لا محالة، وذلك بمجرَّد إرادته الأزلية تعالى من دون عمل ولا نَصَب. وتعلقُ الإرادة الأزليَّة بذلك الشيء على هذا الوجه يسمَّى: القضاء، ووجودُه في حينه طبق تلك الإرادة يسمَّى: القدر. وقد يطلق القضاء على مجرَّد علمه سبحانه بوجود ذلك، والقدر على نفس الوجود طبق ذلك العلم. هذا ما أراه في معنى الآية. والله أعلم. (المؤلف).

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مكية، وهي اثنتان وثمانون ومئة آية

جاء في هذه السورة إبطال الشرك، وقد كانوا يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله، فبيَّن أنها من أعبَدِ العابدين لله، ويتَّخذون من شياطين الجن قُرَناء، يزعمون أنهم يطَّلعون على أسرار الله فيخبرونهم بها، ولم يخبروهم برسالة محمد، فردَّ عليهم ذلك وكذَّبهم.

ثم قرَّر البعث والحساب، وبيَّن غبطة المؤمنين ومصير الكافرين، وقصَّ جزاء المعارضين وتَنْجية المرسلين.

وفصَّل قصة إبراهيم وما جرى له مع وَلَدِهِ إسماعيل، ونوَّه بشأنهما.

ثم ختم السورة بتهديد المشركين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا
مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ
وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾
قال أبو مُسلِم: هي الجماعات من المؤمنين يقومون مُصْطفّين في الصلاة، والذين يرفعون أصواتهم عند قراءة القرآن؛ لأنَّ الزَّجْرة: الصَّيْحة، وكذلك القرآن يشتمل على زواجر ونواهٍ، وجماعة المصلِّين يتلونَ آيات الله.

أقول: وعليه، يكون قد ذكر تلاوة القرآن تارةً بلفظ الزَّجْر، نظراً لِـمَا فيه من زواجر، وتارةً بصيغة التلاوة العامة، نظراً لِـمَا فيه من عموم التذكير. والله أعلم.

وقال بعضُ مُفسِّري السَّلَف: هي الملائكة تَصْطفُّ كصفوف المؤمنين في الصلاة، وتَـزْجر الأجرامَ العلوية والسفلية بالتدبير، وتَـزْجر الخلقَ عن المعاصي، وتتلو كتب الله التي تنزل بها بأمر الله إلى الموحى إليه.

ووجه القَسَم بها على كِلا التفسيرين: ما فيها من اتِّفاق هؤلاء المقرَّبين على التوحيد والطاعة لله وحده، يُقسِم بهم على إثبات الألوهيَّة لله وحده، كما عَلِمَه هؤلاء المقرَّبون. وآخر السورة يلمع إلى أن هذا الوصف للملائكة، ولا مانع أن يجمع بينهما بحسب أساليب القرآن. والله أعلم.

ثم ذكر من صفات الربوبية ما جعله كالدليل على دعوى التوحيد هذه التي أقسَمَ اللهُ عليها، فقال: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ ﴾ يُومئ إلى تنقُّل الشمس كلَّ يوم من مَشْرق إلى آخر، ذلك التنقُّل الناتج عن النظام البديع في حركة الأرض السنوية واليومية. فهذه دَعْوى دليلُها منها، لأنها دلَّت على استحقاق الله واختصاصه بالألوهيَّة لمثل هذا الصنيع.

ثم تابع البيان عن بداعة السماوات، فقال: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾ قرأ حفصٌ بتنوين (زينة) وجرّ (الكواكب)[1]، وذلك على أنها بَدَلٌ منها. والمرادُ بها: الاسمُ لا المصدر، والاسمُ النكرة المُنوَّن أعمُّ الألفاظ وأكثرها استيعاباً.

وقوله: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ ﴾ معطوفٌ على ﴿زَيَّنَّا﴾؛ لأنه نائبٌ عن فِعلِه، وهو: (حفظناها)، أو منصوبٌ بفعل مُقدَّر معطوف على ﴿زَيَّنَّا﴾، أي: وحفظناها حفظاً من كلِّ شيطان مارد، بمعنى: خارج عن الطاعة، وهم أشرار الجن وسفهاؤهم.

وفيه إلماعٌ إلى إبطال وتكذيب ما يُضلِّل به الكَهَنةُ هؤلاء المشركين، من أنهم يعلمون أمور السماء بواسطة الجنّ، ولم يعلموا شيئاً عن رسالة محمد والوحي إليه بهذا القرآن. فالقرآن العظيم يَسُوقُ معنى هذه الآية إلماعاً للردِّ على المشركين الذين يعتمدون على كَهَنتهم في مَهَامِّ الأمور، ويقبلون قولهم في ذلك؛ لاعتقادهم أنهم يعلمون الغيب بواسطة الجنِّ الذين يتعرَّفون لهم الوقائع من العالم العلوي بزعمهم، فالمشركون ينكرون دعوى محمد ﷺ للنبوَّة، بحُجَّة أنَّ الجنَّ لم تخبر الكَهَنةَ بذلك.

ومؤدَّى الرد: نَقْضُ هذا الاعتقاد وتسفيهُه، ببيان أنَّ الجن لا تعرف شيئاً، ولا تُصدَّق فيما تدَّعيه من علم الغيب، وأن السماء محفوظة من محاولتهم، كما قال: ﴿ لَّا

(١) هي قراءة حفص عن عاصم، وكذا قرأ حمزة. «السبعة في القراءات» ص٥٤٦.

يَسَّمَّعُونَ ﴾ أي: لا يتمكَّنون أن يتسمَّعوا ﴿ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وهم الملائكة، أي: إنهم يحاولون ذلك ولا يقدرون على شيء، ونفيُ التسمُّع أبلغ من نفي السماع ويستلزمه؛ لأنهم إذا لم يتمكّنوا أن يستمعوا لم يكونوا ليسمعوا شيئاً قط، ﴿وَ﴾ ذلك لأنهم ﴿يُقْذَفُونَ﴾ بالشُّهب ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾﴾ من جوانب السماوات، ﴿ دُحُورًا ﴾ لهم وطَرْداً، ﴿وَلَهُمْ﴾ من ذلك ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾ أي: شديدٌ دائم.

ثم بيَّن صورة محاولتهم، فقال: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ أي: مضيءٌ مُحْرِقٌ قاتل. والمرادُ بالخَطْفة: اختلاسُ كلام الملائكة مُسارقةً، كما يُعرِبُ عنه تعريف ﴿ٱلْخَطْفَةَ ﴾، أو اختلاس الصُّعود، والخطفة: محاولتُه، وهو الأصح؛ لأنهم لا يتوصَّلون إلى السماع، ولكنهم يحاولون فقط، كما يُؤْذِن به قوله: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ ﴾.

وقد مرَّ الكلام مفصَّلاً في سورة الحِجر[1] عن هذه الشُّهب المتساقطة، ومن أين تكون، وعن رَجْمِها للشياطين، فارجع إليه.

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٧-١٨].

وبعد أن أقام الحجَّة على قدرة الله البالغة، ببيان مخلوقاته العظيمة في السماوات والأرض وما بينهما، مَخَضَ لهم النتيجةَ على أبلغ الوجوه في إثبات القدرة على حشرهم وإعادتهم، وأخرج الكلام على طريقة الاستفتاء منهم، ليكون أحرَجَ لهم وأبلَغَ في الإلزام والتقريع، لأنه يرمز إلى أن ذلك معلوم لهم بالضرورة، فقال: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ والاستفتاء: طَلَبُ الجواب الحقِّ الواضح، ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ في إعادتهم ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أي: مما ذكر من السماوات والأرض وما بينهما. وأتى بـ﴿مَّنْ﴾ دون (ما) تغليباً للعقلاء، وهم الملائكة، وهي أنسَبُ في معادلتها للضمير: ﴿هُم﴾.

وحاصل الكلام: أنَّ الله سبحانه خَلَقَ هذا العالم العلوي بما فيه من عَظَمة وتنظيم دقيق وإحكام سديد. وذلك أعظم بكثير من خَلْقِهم ثانياً وإعادتهم. ونظيرُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١].

ثم علَّل حاصلَ المعنى بقوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ ﴾ أي: لَزِجٍ لاصِق. قال الرازي: أي: إنَّ هذه المادة قابلة للحياة، ولو لم تكن كذلك لَـمَا صارت حيَّة في المرة الأولى(١). أو المعنى: إنا لـمّا قدرنا على خَلْق الحياة في ذواتهم أولاً من هذه المادة، وَجَبَ أن نبقى قادرين على خَلْق الحياة فيهم ثانياً من عَجْب الذَّنَب.

أقول: ويجوز أن يكون المراد المبالغة في القدرة، لِـمَا بين المادتين من المباينة والتفاوت. وعلى كلٍّ، فهو تعليلٌ يساير السهولة والاستضعاف لهم المفهوم من تركيب الكلام في الجملة السابقة.

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٦: ٣٢٢).

ثم أضرَبَ عن بيان إنكارهم إلى بيان ما هو أشدُّ منه فظاعةً، وهو سخريتُهم من ذلك، فقال: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ أي: إنَّك تَعْجَبُ من إنكارهم لهذا الأمر الواضح، وهم لا يكتفون بالشك والإنكار، بل يسخرون من ذلك.

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ أي: إذا نُبِّهوا وأُرشِدوا بالبراهين إلى سهولة البعث على الله لا يسترشدون.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً ﴾ تدلُّ بنفسها أو ببراهينها الواضحة على صحَّة البعث؛ ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي: يبالغون في السخرية، أو يُحرِّض بعضُهم بعضاً على الاستهزاء. وقد حكى ذلك بقوله: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ أي: أمرٌ مُضَلِّلٌ للعقول تضليلاً شديداً، ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾؟ وإنما قدَّم التراب؛ لأنه منقلبٌ من الأجزاء الضعيفة البادية، أو لأن البقية الباقية من العظام هي التي تتأخر في البقاء. وتقديم الظرف[1] لتقوية الإنكار، وتكرير الهمزة للمبالغة والتشديد في ذلك، وفي قوله: ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ زيادةٌ في الاستبعاد، وإيماءٌ إلى أنهم لم يُبعَثوا مع طول الأمد.

ولـمّا حكى عنهم هذه الشُّبَهَ بعدما تقدَّم من البرهان اليقيني في إمكان الحشر، أمره أن يَرُدَّ عليهم بقوله: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ أي: نعم تُبعَثون، وأنتم صاغرون، بمعنى: رَغْمَ أنوفكم.

ثم ذكر أنه أمرٌ في غاية السهولة عند الله تعالى، وقال: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ ﴾ أي: قصةُ البعث ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ لهم ولآبائهم يَزْجُرهم الله بها. وفي هذا اللفظ ردعٌ للمُعارضين،

---

(١) يعني قوله: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾، قدَّمه على قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾.

والمراد به: كلمة التكون، أي: فإنما هي قول: كُن، أو هي إرادةُ الله[١]، ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أحياءُ ﴿يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ ما يجري هناك.

فإذا كان ذلك بُهتوا ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا﴾ أي: يا هَلاكَنا، ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: اليوم الذي يُدان فيه الناس. وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ يجوز أن يكون من كلام بعضهم لبعض بُهْتاً وخوفاً وندامةً، أو يكون مما يُقالُ لهم. والفَصْل: القضاء والحساب، والتفريق بين المُحسِن والمُسيء.

ثم بيَّن ما يكون من أمرهم هناك، وهو صدور الحكم عليهم موجَّهاً إلى الموكَّلين بالتنفيذ، فقال: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسَهم بهذا الإنكار، ﴿وَ﴾ احشروا معهم ﴿أَزْوَٰجَهُمْ﴾ قال ابنُ عباس: أي: أشباههم ونظائرهم من أصناف العصاة[٢]. وقيل: قُرَناؤهم من الشياطين من الإنس أو الجن الذين زيَّنوا الظلمَ لهم وأغوَوْهُم.

ويجوز أن يُراد بالأزواج: المعنى الحقيقي؛ ممَّن كُنَّ على شاكلتهم، فتكون الآيةُ مقابلةً لقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠].

ثم أكمل البيان بقوله: ﴿وَ﴾ احشروا كذلك ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من المُضلِّلين لهم في ذلك، والداعين لهم أن يعبدوهم. أو: احشروا حتى الأصنام، زيادةً في توبيخ العابدين وتخجيلهم. ويُؤنس لهذا المعنى ـ وهو حَشرُ الأصنام ـ قولُه تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، فقد قيل: المراد من الناس: عبَّاد الأوثان، والمراد بالحجارة: الأصنام التي هي أحجار منحوتة يعبدونها.

---

(١) أو هي نفخة إسرافيل عليه السلام في الصُّور، وهذا أقربُ للفظة ﴿زَجْرَةٌ﴾، لأن معناها لغةً: صيحة.

(٢) انظر «تفسير الطبري» (٢١: ٢٧).

وقوله: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ فيه تهكُّم بهم تجاه عدم اهتدائهم في الدنيا إلى الصراط المستقيم، على طريقة رد الوصف ومقابلته، أي: عرِّفوهم عن طريقها ووجِّهوهم إليه، ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ أي: واحبِسوهم ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم يُقالُ لهم تهكُّماً وتقريعاً للعابدين والمعبودين: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾؟!

ثم أضرَبَ إلى بيان عَجْزِهم واستِسلامِهم، فقال: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ
تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا
لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ
بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا
لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا
تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم
مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ
لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ
بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

ثم ذكر ما يكون بين الأتباع والمتبوعين من التخاصم، فقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: أقبل الأتباع والرؤساء يتخاصمون بينهم على ورطتهم هذه.

﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: الأتباع للرؤساء: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾، وهذه الجملةُ مستعارةٌ للنفع وإظهار الإخلاص؛ لأن العرب تستعمل اليمين والتيمُّن لذلك، أي: تقولون هذا هو الأمر الحسن النافع، والمقبول عند الله. أو المعنى: تأتوننا مأْتى الطَّيْر

السائح الذي يأتي بالخير واليُمن، فنتَّبعكم. أو المعنى: إنكم تأتوننا من أقوى الوجوه وأمتنها فنتَّبعكم[١].

﴿قَالُوا﴾ أي: الرؤساء للأتباع: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لم يكن ضلالكم إلا من تحريفكم لِفطَرِكم وإفسادِكم لطبيعتكم مثلنا، حتى فقدت الاستعداد للإيمان، فكان إضلالنا عاملاً فيكم. ولو كانت طباعكم قد ظلَّت سليمةً باقيةً على استعدادها للإيمان وعمل الخير، لم نتمكَّن من إضلالكم أبداً.

وقد صَّرح بهذا المعنى، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: لو كانت نفوسُكم باقيةً على سلامتها واستعدادها الفطري لَـمَا كان لنا عليكم تأثير، ولكنكم لم تتركوها على صلاحها ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ بإفسادكم لنفوسكم وتمكين الطغيان منها. فكنا نحن وأنتم في الجرم على حَدٍّ سواء، بإفسادنا لفِطَرِنا، وضلالنا على الهدى بعد إذ جاءنا.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾: لأملأنَّ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين[٢]، و﴿إِنَّا﴾ جميعاً ﴿لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ العذاب الأليم، لِـمَا كان من إفسادنا جميعاً لطبائعنا، وبذلك سَهُل إضلالُنا لكم كما ضَلَلْنا، ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: لم يكن منا أكثر من الغَواية، ولو لم تكونوا أفسدتُم استعدادكم للإيمان، لم تعمل فيكم تلك الغَواية[٣].

---

(١) أو المعنى: قال الأتباع للرؤساء: إنكم كنتُم تأتوننا في الحياة الدنيا صادِّين إيّانا عن الإيمان الذي من شأنه أن يجعلَنا من أصحاب اليمين.

(٢) يعني: المذكور في الآية ١٣ من سورة السجدة.

(٣) أي: دَعَوْناكم إلى الغيِّ دعوةً غيرَ مُلجِئة، بالتزيين والتحسين والإطماع بالباطل؛ لتَنضَمُّوا إلينا، إنا كُنّا ضالِّين مِن قبلكم، وكلٌّ منا يَتَحمَّلُ من الجرم على مقدار ما اكتَسَبَ منه في الحياة الدنيا.

ثم ذكر سبحانه حُكمَه فيهم، بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾، ثم قـرَّر ذلك مُبيِّناً الحكمَ العام، بقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم ذكر في التعليل أعظَمَ إجراماتهم التي جرَّتهم إلى هذا الوبال، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ يَعنُون رسولَ الله ﷺ، أي: إنَّ الذي يَـراه ويسمعه مما يُسمِّيه وحياً، إنمـا هو أخيلـة وهواجس. خابوا وخسروا.

فأجابهم سبحانه بقوله: ﴿بَلْ﴾ هو رسول من الله، ﴿جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾. وهذا ردٌّ من الله سبحانه وتعالى عليهم، وتكذيبٌ لهم، ببيان أنَّ ما جاء به من التوحيد هو الحقُّ الذي قام به البرهان، وأجمع عليه كافَّة الرسل عليهم الصَّلاةُ والسلام.

ثم سجَّل الحكمَ عليهم بعد البيِّنة، فقال: ﴿إِنَّكُمْ﴾ بما فعلتُم من الإشراك وتكذيب الرسول، والاستكبار في ذلك، ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

ثم أعْذَرَ فقال: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: إنَّ ذلك أثر لازم من آثار أعمالكم. فما ظلمهم الله ولكنْ كانوا أنفسهم يظلمون، بإفسادهم إيَّاها حتى فقدت الاستعداد للإيمان.

ثم قابل مصيرَ الكافرين هذا بمصير المؤمنين، على نهج القرآن في المقابلة، مبالغةً في تنبيه الكافرين وترغيب المؤمنين، وساق الكلام على طريقة الاستثناء المنقطع، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: الذين لم يُحرِّفوا طبائعَهم ولم يُدَسُّوا نفوسَهم، فعملوا الخير وأرضَوُا الله، فهؤلاء لا يذوقون العذاب، بل ينالون الثوابَ الذي بيَّنه سبحانه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ في نعوت الكمال وممتازات الخصائص، وهو: ﴿فَوَٰكِهُ﴾

يتفكَّهون به، وليس بقوت يقتاتون به، ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ عند الله قد نالوا رضوانه ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾(١). ويجوز في ﴿لَذَّةٍ﴾ أن تكون مصدراً جُعِلَ وَصْفاً للمبالغة، أو صفةً مؤنَّثة لـ«لَذٍّ»، بمعنى: اللذيذ.

ثم قال في إتمام الوصف: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لا فيها غائلةٌ كما في حالات خمور الدنيا ولا نزيف، من قولهم: نزف الشارب؛ إذا ذهب عقله. وقد وصف الخمرة بأكمل الأوصاف في اللَّذَّة ونفى عنها النقائص.

ثم تابع البيان عن ذلك النعيم، فقال: ﴿وَعِندَهُمْ﴾ زوجاتٌ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ بمعنى: حَيِّيات لا يَنْظُرْنَ إلى غير أزواجهنَّ ﴿عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ جمع: عَيْناء، وهي الواسعة العين، ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ والبيضُ المكنونُ ـ أي: المخزون قليلاً ـ يكون فيه بعض السُّمرة، والبياض المخلوط بقليل من السمرة: هو أحسن ألوان الأبدان.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا

---

(١) أي: مساكنُهم في جنّات النعيم، مُتكئين على سُرُرٍ يُقابِلُ بعضُهم بعضاً، للتحدُّث السارِّ والأُنس والتنعُّم باللقاء، يدور عليهم في مجالسهم ولدانٌ مُخلَّدون بكؤوسٍ من خَمْرٍ تجري به بعضُ أنهار الجنة، ظاهرةٍ تراها العيون. الكؤوسُ وما فيها من الخمر بيضاءُ شفّافة، حَسَنَةُ المنظر، طيِّبةُ الطعم، لذيذةٌ للشاربين.

فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأٓكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

ثم ذكر شيئاً من المحادثات والمؤانسات التي تجري بينهم على هذا الشراب، بقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ أي: جليس في الدنيا، ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: بالبعث، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: لمبعوثون ومَـجْزيُّون على أعمالنا ومُحاسَبون عليها. يُنكِرُ عليَّ ذلك الاعتقاد، ويُوبِّخني على تصديقي بالبعث.

ثم ﴿قَالَ﴾ هذا القائل لرفقائه: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ معي إلى أهل النار؛ لنرى ما حلَّ به؟ ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: في وسطه وغَمْرته. وفي إفراده بالاطِّلاع اكتفاءٌ يُعرَفُ مِثلُه في خصائص اللغة وأساليب القرآن، وتمهيدٌ للإفراد بقوله: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: لَـتُهلِكُني بإغوائـك، ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ عليّ بعصمتي وهدايتي، ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ معك في هذا العذاب الأليم.

ثم قرَّعه على اعتقاده الباطل الذي أحلَّه هذا المحلّ، وندَّمه عليه بقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ألم يكن وراء الموتة الأولى شيء كما كنت تَزعُم؟! ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ كما كُنتَ تقول؟! ينكر عليه ذلك ويُؤنِّبه. وبهذا ينتهي كلامه لقرينه.

ثم علّق سبحانـه وتعالى على نعيـم الـمؤمنين هـذا بقولـه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾، ثم بالغ في الحضّ عليه بقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ لا للحظوظ الدنيويَّة المَشُوبة بالمنغِّصات والآلام، والسريعة الزوال والانصرام.

ثم قفّى عليه بقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ والنُّزُل: ما يُهيّأ مُعجَّلاً للضيف النازل من الكرامة. يشير إلى أنَّ هذا مبدأ النعيم، وقليلٌ مما سيتتابع عليه من فضل الله العظيم.

ثم شرع في وصف تلك الشجرة، مقدِّماً فتنةَ الكافرين بها، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: محنةً وعذاباً لهم في الآخرة، وقيل: ابتلاءً واختباراً لهم في الدنيا؛ لأن المشركين لـمّا سمعوا أنها شجرة تنبت في أصل الجحيم، أخذوا يهزؤون كيف تَنْبُتُ في النار الشجرُ؟! وذلك لقِلَّة عِلمِهم بمدى سنن الطبيعة وتنوُّعها، فضلاً عن أن نواميس طبيعة الحياة الأخرى تخالفها جداً، وتفوقها سَعَةً واستعداداً.

وعلى هذا القول، يكون الجَعْلُ ليس بمعناه الحقيقي المنوط بالقصد، (كما جاء في المادة الثامنة عشرة من المقدمة الثانية)، بل هو لبيان الواقع، بمعنى: أنها كانت مصدرَ فتنةٍ لهم لسوء ظنِّهم بالله، وعدم تقديرهم قدرتَه وقَدْرَه، فأنكروا على قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ أي: مَنْبتُها في قَعْر جهنم، و﴿طَلْعُهَا﴾ أي: حملُها وثمرُها الذي يطلع منها: ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾، وهذا التعبير من عُرف اللغة، وهو تمثيل للبشاعة والقبح والهول على طريقة التَّخييل، لأنَّ قُبْحَ صُوَرِ الشياطين وهَوْلِـها أمرٌ مُتَخيَّل في النفوس، وإن لم تُر. وعلى هذه الطريقة البلاغية قولُ امرئ القيس:

ومسنونةٍ زُرقٍ كأنيابِ أغوالِ[1]

وهذه من خصائص اللغة وعرف العرب.

---

(١) وصَدْرُه:

أيقتُلُني والـمَشـرَفيُّ مُضاجِعي

ينظر: «ديوان امرئ القيس»، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٢٣٨.

ثم شرح كيفيَّة تعذيبهم بها زيادةً في التحسيس، وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ يشربونه عليها؛ زيادةً في التعذيب. والشَّوْب: اسمٌ عامٌّ في كلِّ ما خُلِطَ بغيره، والشراب: يختلط بالطعام طبعاً. والحميم: الماء الحار المتناهي في الحرارة.

وقد ختم الكلام ببيان مرجعهم الرهيب الأليم، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾، وقد بيَّن ما أدَّى بهم إلى هذا العذاب، وهو تقليدُهم الأعمى لآبائهم، وإهمالُهم مواهبَهم العقلية في تبيُّن الهدى والرَّشاد، فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: يمشون سراعاً من دون تفكير.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم بيَّن له ﷺ أنَّ مثل هذا التقليد الأعمى ليس خاصاً بقومك، وإنما هو عامٌّ في كلِّ مَنْ أفسدوا طبائعَهم من الأمم قبلهم، بيَّن ذلك تسليةً له ﷺ، ووعداً بغلَبة الحقِّ للباطل، فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: أنبياءَ يُنذِرونهم كما أرسلناك في هؤلاء، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ من الهوْل والفظاعة والعذاب المهين، لـمَّا لم يلتفتوا إلى الإنذار، ولم يَسلَم منهم أحدٌ من تلك العاقبة ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ الذين حافظوا على سلامة فِطَرِهم ولم يُدَسُّوا نفوسَهم، فاهتمُّوا للإنذار وأخلصوا دينهم لله، فنجَوا من عذابه، ونالوا جزيل ثوابه.

ثم فصَّل عاقبة أولئك المُنْذَرين الذين أعرضوا عن النُّذر لفساد نفوسهم من جرَّاء تحريفهم لطبائعهم، وطَمْسهم لبصائرهم، وكذَّبوا المُنذِرين، فنالوا العذاب المهين، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ أي: حين يئس من إيمان قومه بعد ما دعاهم إليه أحقاباً ودهوراً، وضاق بهم ذَرْعاً، فأجبناه لِـمَا دعانا، ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ نحن لمنْ يدعونا، أي: فأجبناه أحسنَ إجابة.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ أي: من أذى قومه، أو من الغرق الذي أصاب قومه، أو من كِلَيْهما، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: بعد أنْ أغرقنا مَنْ سواهم لكفرهم، ولذلك يُقالُ لنوح: آدم الثاني.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ قال ابنُ عباس ومجاهد: أي: تركنا له ذِكراً جميلاً في الأمم التـالية[1]، أو في أمة محمد ﷺ. وقد فسَّر مُجمَـلَ ذلك بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾، والسلام مضمونه: التقدير والتكريم، أي: تركنا عليه ما يقدِّر ويكرَّم به في العالمين إلى يوم القيامة، وهو دعوة قومه ألف سنة.

ثم قرَّر ذلك النوال بهذا التقرير العام، فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: جَزَيْناه بالتكرمة السنيَّة من إجابة دعائه أحسن إجابة، وإبقاء ذُرِّيَّته، وتبقية ذِكرِه الجميل، وتسليم العالمين عليه، وتكريمهم له، إلى آخر الدهر؛ لكونه من زمرة المعروفين بالإحسان الراسخين فيه.

ثم علَّل إحسانَه هذا وبيَّن مصدرَه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾، ثم عطف على قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ قولَه: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: كفَّارَ قومه أجمعين.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١: ٦٠).

وفي كلمة ﴿ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ تجوُّز، حيثُ أراد بها ـ والله أعلم ـ ذريَّته وذريَّة مَنْ حُمِلَ معه، كما في سورة الإسراء[1]، فتجوَّز هنا عنها بذريته.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

ثم ذكر في تفصيل عاقبة المُنْذَرين قصَّةَ إبراهيم ﷺ مع قومه، ووَصَلَ هذه القصةَ بالتي قبلها، فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾، وبينهما أحقابٌ عديدة، وأزمانٌ مديدة. أي: إنَّ ممن شايَعَ نوحاً في أصول الدين لَإبراهيمُ. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الشرائع واحدة في أُصولها، وإن اختلفت بعضَ الاختلاف بفروعها؛ لاختلاف الأزمان، وتدرُّج رُقيِّ الإنسان.

قال مجاهد: إنه على منهاجه وسُنَّتِهِ في التوحيد، والعدل، واتِّباع الحق، والصبر على المكاره[2].

ثم فصَّل ذلك بقوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ أي: حين صَدَقَ اللهَ وآمَنَ به بقلبٍ خالصٍ نزيهٍ من الشِّرك، بريءٍ من المعاصي، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾؟ أي: أتريدون آلهةً دون الله إفكاً وكذباً؟ ﴿فَمَا

(١) في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١: ٦١).

ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ حين جعلتم هذه الأصنام تُقرِّبكم إليه زُلفى، وهو يعلم السِّرَّ وأخفى؟!

ثم عالج الفكرة بطريقة البحث والاستدلال، كما أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ[١] ﴿٨٩﴾﴾ أي: سقيمٌ في العقيدة، والظاهر أنَّ ذلك كان في صِغَرِه[٢]. والله أعلم.

قال أبو مسلم: نظر في النجوم نظرَ تفكُّر، فاستدلَّ بها ـ كما قصَّه الله تعالى في سورة الأنعام[٣] ـ على أنها غير آلهة. وأشار بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ إلى أنه في حالة عِلّةِ النظر وسَقامة الفِكر، وليس على يقين من الأمر، ولا شفاء من العلم، وقد يُسمَّى الشك سقماً، كما يُسمَّى العِلمُ شفاء، فقد قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وإنما زال هذا السقم عند زوال الشك وكمال المعرفة. انتهى.

أقول: فمعنى ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾: إني غير مرتاح من دين قومي[٤]. فمفادُ الآية شبيهٌ بمفاد قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، أي: مُتحيِّراً في أمرك، أيَّ دين تَتَّبع، فهداك بهذا الدين[٥]. والظاهر أنَّ هذا كان في أول نشأة إبراهيم عليه السلام. والله أعلم.

---

(١) أي: فنَظَر إبراهيمُ نظرةً في النجوم؛ ليُوهِمَ مَنْ حولَه من قومه أنه على طريقتهم في النظر إلى حركاتِ النجوم؛ لئلّا يُنكِروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكيدَ أصنامهم في يوم عيدهم، فيُحطِّمَها إلا كبيرَها؛ ليُلزِمَهم الحُجَّة أنها لا تستحقُّ العبادة.

(٢) الأصح أنه كان في كِبَره بعد إيتائه النبوة من الله تبارك وتعالى، لكنْ كان ذلك على سبيل التسليم لما يقوله الخصم جدلاً لإبطاله بالحجة والبرهان، لا عن اعتقاد منه عليه الصلاة والسلام بذلك.

(٣) في الآيات (٧٤-٨٣).

(٤) بل المعنى: إني مريض، ومرضي يمنعُني من أنْ أخرُجَ معكم في يوم عيدكم. أو: سقيمُ القلب؛ لحزنه على كفرهم بالله، لكنّه أوهمَهم أنه مريض البَدَن حتى ينصرفوا عنه.

(٥) قوله: «أيّ دين تتبع» فيه خفاء وإلباس، فإن فُهم بأنه كان متحيِّراً في اتباع أحد الأديان الموجودة في=

ثم أعقب هذه النظرة والانتباهة بمجادلة قومه: ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ولم يَقبَلوا منه هُداه، فضمُّوا إلى خِذلانِهم بالنظر خِذلانَهم بالواقع، كما حكاه سبحانه، فقال: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾[1] أي: مَالَ إليها في خِفْيَة يومَ عيد لهم وهم لاهون، وكان عندها طعام يضعونه أمامها في ذلك العيد لتبارك عليه، ﴿فَقَالَ﴾ استهجاناً لعابديها: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾؟ ثم بالغ في التهجين والنقد والسخرية، فقال: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾؟!

وبعد هذا الاستهزاء الإلزامي أوقَعَ بهم، كما قال تعالى: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ مَحقاً لأدوات الشرك. والرَّوْغة: هجوم الثعلب. وفي قوله: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ إيغالٌ وإشباع للضرب، للإشارة إلى أنه جعلها جُذاذاً.

﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ ﴾ أي: قومُه ﴿ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ أي: يُسْرِعون لـمّا بلغهم الخبر. وهذا الفِعلُ مستعارٌ من زفيف الحمام، وهو حالةٌ بين المشي والعَدْو.

ولما عنَّفوه على هذا العمل ﴿ قَالَ ﴾ لهم مُلزِماً ومُعنِّفاً: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ بأيديكم، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[2]؟ أي: خلقكم مستعِدِّين للعمل بأيديكم،

= عصره لاحتمال أن يكون أحدها صواباً في نظره؛ فهذا فاسد، لأن النبي ﷺ كان يجزم ببطلان هذه الأديان جميعاً قبل نبوّته، وإن فُهِمَ بأنه كان يعرف بطلانها لكنه كان متحيراً في الصواب من ورائها، وهو الدين المُغيَّب عنه في واقعة قبل نبوته ﷺ؛ فهذا هو الصواب.

(١) أصل معنى الرَّوْغ والرَّوَغان: مَيْلُ الشخص إلى جانب ليَخدَعَ مَن يراقبُه. والمراد: مال في خُفيةٍ وخِفّةِ حركةٍ إلى أصنامهم.

(٢) يمتدُّ معنى الآية إلى أمر هذه المخترعات العصريَّة، إذ ليس للمخترع سوى اكتشاف ما خلق الله في هذا الكون والاستفادة منه، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ [الرحمن: ٢٤]، فهي تُقلِّلُ من شأن الإنسان مهما بلغ من الرقيِّ والعمران، في جانب أمر الله وقدرته البالغة العلية الشأن. (المؤلف).

ولولا أنْ خلق لكم هذا الاستِعدادَ وموادَّ المصنوعات، لَـمَا قدرتم على عمل شيء، ولا على عمل هذه الأصنام، فكيف تشركونها به تعالى، وهي من مَصْنوعات مخلوقِيهِ؟! فالكلام تهجينٌ شنيع، وإلزامٌ فاضح.

فلما ألزمهم بالحُجَّة عَمَدوا إلى السَّفاهة والقوَّة، شأنَ مَنْ تنقطعُ حُجَّتُه، وتنكشف غباوتُه، و﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ أوْقِدوا فيه ناراً حامية، ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ أي: قرِّروا ذلك. فالمراد من القول: هذا القرار الناتج عن محاكمته. والله أعلم. قال الزجَّاج: الجحيم: النار بعضها فوق بعض[1]. وقيل: هي النار العظيمة.

ثم ذكر سبحانه انتصارَه له بقوله: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: لـمَّا قهرهم بالحُجَّة أرادوا إتلافَه كي لا تظهر حُجَّته للناس، فكانت النتيجة ظهورَ معجزة كبرى، وهي عَدَمُ إحراق تلك النار العظيمة له ونجاتُه منها، حيث كانت برداً وسلاماً عليه.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من هجرته بعد ذلك، وما كان من أمره، حاكياً عنه بقوله: ﴿وَقَالَ

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣١٠).

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ إلى ما فيه صلاحي وصلاح ديني، أي: مهاجرٌ إلى حيثُ أمرني ربي، لأتجرَّد لعبادته.

وقد طلب المعونة منه تعالى بالذرِّية الصالحة، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾، وقد قرن سبحانه وتعالى دعاءَه بالإجابة، وقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ وقد مهَّد بهذا الوصف لِـمَا كان من أمر هذا الغلام مع أبيه، وإطاعته له في السماح بنفسه لأمر الله، كما حكى ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ قال مجاهد: أي: لـمّا شبَّ حتى بلغ أن يسعى معه في أعماله، ويُعينَه على أموره[1]، ﴿قَالَ﴾ له: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؟ وأراد من وراء هذا السؤال أن يُثَبِّته إنْ جزع، ويوطِّن نفسه عليه إن هلع.

فكان من حِلْم هذا الغلام وانقياده لله أنْ ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ به ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وهذا منتهى التسليم والانقياد لله سبحانه. فلله درُّه من غلام حليم! وإنَّ الأنبياء لتُبتلى بما أيسَرُه يجزعُ له كلُّ جَلِدٍ هَصُور، ولا يقوم على مثله صَبْرُ صبور، وليس ذلك بشيء في جانب مقام النبوَّة الذي قال عنه تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال عنه لموسى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

ثم قال تعالى في إتمام البيان عن هذا الحادث الجَلَل: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي: استَسْلما وانقادا لأمر الله، ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ قال ابنُ عباس: وضعَ جبينَه على الأرض لئلّا يرى وجهَه فتلحقَه رقَّة الآباء[2]. ويروى: أنَّ ذلك كان بإشارته، وهذا أعظم حلماً وانقياداً. وقيل: كان ذلك عند الصخرة بمنى، وقيل: في الموضع المُشرف على مسجده. وقيل: في المنحر الذي يُنحَرُ فيه اليوم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١: ٧٣).

(٢) المصدر السابق (٢١: ٧٧-٧٨) بلفظ: «أكبَّه على جبهته».

ولا صراحة في الكلام أنه بدأ بالذبح أو باشره، ويجوز أن يكون نزول الوحي بين تلِّه للجبين وأخذ السِّكّين. والله أعلم.

وقد أقام مقامَ الجواب قولَه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ أي: فعلتَ تأويلَها المقصود، وهو العَزْم والإتيان بالمقدِّمات ابتلاءً وتدريباً على المِحَنِ والشدائد، لأنَّ المرشَّح لعظائم الأمور يجبُ أن يُدرَّب على التحمُّل والصبر.

ورؤيا الأنبياء وحيٌ، وهي نوعان: صريحةٌ ومُؤوَّلةٌ، وكانت رؤيا إبراهيم هذه من النوع الثاني، فظنَّها من النوع الأول. قال أبو مسلم: رؤيا الأنبياء ـ مع أن جميعها صحيحة ـ ضَرْبان: أحدهما: أن يأتي الشيء كما رأوه، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ ...﴾ [الفتح: ٢٧]، والثاني: أن يحتاج إلى تأويل، وذلك كرؤيا يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. وكانت رؤيا إبراهيم عليه السلام من هذا القبيل، لكنه لم يأمن أن يكون ما رآه مما يَلزَمُه العمل به على الحقيقة، ولا يَسَعُه غيرُ ذلك. فلمَّا أسلما أعلَمَه الله سبحانه أنه صدَّق الرؤيا بما فعله، أي: أتى بتأويلها، وهو العَزْم والإتيان بالمقدِّمات للابتلاء بها، إذ كان ذلك تأويل الرؤيا. والله تعالى أعلم.

وقد نوَّه سبحانه بشأن هذا الإفراج، وطَوَاه على ما سيُكْرِمُهما به في مقابلة هذا الامتثال من عظيم الإحسان، فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

ثم بالغ سبحانه وتعالى بالتنويـه بشأن ذلك العمل، والانقياد لله تعالى، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: إنَّ هذا الأمر هو الابتلاء والاختبار الشديد، الذي يتبيَّن فيه الانقياد والإخلاص لله سبحانه. وهذا تقديرٌ وتمجيدٌ من الله سبحانه لإبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام. والله تعالى أعلم.

ثم فداه من الذِّبْح بالذِّبْح فقال: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧ ﴾، والظاهر أن المراد: إنه عظيمُ القَدْر؛ إما بذاته، أو لأنه كان فداءً لهذا الأمر العظيم، وهو الأقرب، لأنَّ الشيء يكون عظيماً إذا قُرِنَ بأمر عظيم.

ويُروى: أنَّ إبراهيم عليه السلام ـ لـمّا نُودِيَ أنْ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ ـ نظر فإذا بجبريل عليه السلام يقود كبشاً أقرَنَ أملَحَ، وهو يقول: الله أكبر، الله أكبر. فقال إبراهيم: الله أكبر، الله أكبر. وقال الذبيح: ولله الحمد(١). ومن ثَمَّ صار التكبير في يوم النحر سنةً ماضيةً في الأولين والآخرين.

والفِداء: جَعْلُ الشيء مكانَ الشيء(٢).

ثم قال في إتمام التنويه: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨ ﴾ أي: تركنا له ذِكراً في الأمم اللاحقة. ثم أكرَمَـه بـهذه الكرامة العظيمة الشأن، فقال: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ ﴾، وهذه كرامةٌ من الله سبحانه له عليه الصلاة والسلام، وإذا كرَّم الله أحداً فعلى البشر أن يكرموه.

ثم بيَّن وَجْهَ ذلك بهذا البيان العام، وعلَّله بهذا التعليل العام، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١١ ﴾ أي: الراسخين في الإيمان، على وجه الإيقان والاطمئنان. ومحصَّل الكلام: أنَّ سُنَّة الله تعالى مَضَتْ في أن يكون للمُحْسِن حُسْنُ الأحدوثة في الدنيا، والكرامةُ العُظْمى في الأُخرى.

ثم تابع الكلام ببيان إتمام نِعَمِ الله عليه وعلى ذُرِّيَّته، فقال: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ

---

(١) ذكره الزمخشري في «تفسيره» (٤: ٥٧).

(٢) ولا يبعد أن يكون معنى ﴿فَدَيناه﴾: أمرناه أن يذبحَ فديةً، فتلك تصديق الرؤيا، وهو تأويلها. ووَصْفُ هذا المذبوح بالعظيم؛ لكونه فديةً عن هذا الأمر العظيم. والله أعلم. (المؤلف).

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ بجَعْلِ الأنبياءِ من ذُرِّيَّتهما وغير ذلك من إفضال الله عليهما.

وللتنبيه على أنَّ النَّسَبَ لا أثَرَ له في الهداية والضلال، استدرك على هذا فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ أي: ظاهرُ الظلم، والمراد به: الكفر.

وفي الآية دلالةٌ على أنَّ المُحسِنَ من أعقابهما قليل، والظالمون من أعقابهما كثير. وفيها دلالةٌ على أنَّ الكفرَ في الأعقاب لا يعود على الأصول بنقيصة. وفي تبشيره بإسحاق بعد هذه الحادثة دليلٌ على أنَّ الذبيح إسماعيل عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

ثم لمح إلى عاقبة الـمُنْذَرين في قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ الذي كان ينالهم من فرعون وقومه، ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ عليهم، ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: البليغَ في البيان، وهو التوراة.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ وقد تكرَّر تفسير هذه الآية، فارجع إليه.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾.

ثم ذكر عاقبة الـمُنْذَرين في قصَّة إليـاس مع قومه، فقال: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) ﴾ قال ابنُ عباس ومحمدُ بنُ إسحاق وغيرهما: إنَّ إلياسَ هو من أنبياء بني إسرائيل من ولد هارون بن عمران، وهو ابنُ عمِّ اليَسَع(١).

قال في «مجمع البيان»: وكان يوشع لما فتح الشام بوَّأها بني إسرائيل، وقسمها بينهم، فأحلَّ سبطاً منهم فيما سُمِّي فيما بعد: بعلبك. وعلى مرور الأزمان وطول الأمد خرجوا عن دينهم إلى الوثنيَّة وعبدوا الصَّنَم «بَعْلاً»، فلما أُرسِلَ إليهم إلياسُ دعاهم إلى الإيمان، كما حكى عنه سبحانه بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤)﴾ عذابَ الله؟ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي: أتعبدونه وتطلبون الخير منه، ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥)﴾ أي: وتتركون عبادةَ أحسن الخالقين؟ فأشار بهذا الوصف إلى المقتضي لعبادته. واسمُ التفضيل ليس على بابه، ولكنه للمبالغة في الوصف، ومثلُه كثيرٌ في القرآن.

ثم ذكر الذات العليَّة، فقال: ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) ﴾ .

ثم ذكر ما كان من تكذيبهم إيَّاه ووعيدِ الله لهم، فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧)﴾ أي: للعذاب. والإحضارُ لا يُستَعمل إلا للمجرمين.

ولما كان الكلام عن قومه مطلقاً، لأنَّ الدعوة وُجِّهت لهم، ومنهم مَنْ آمنَ وهم

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٧: ٥٢).

قليلٌ، ومنهم مَنْ كَفَر، فبعد أن بيَّن مصيرَ الكافرين منهم، بيَّن مصير المؤمنين منهم، مستثنياً من الواو[١] قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي: الذين خَلُصَتْ نفوسُهم بالمحافظة على سَلامة فِطَرهم، حيث لم يُفسِدوا استعدادَهم إلى الإيمان بالتقليد الأعمى، فقبلوا الدعوة من إلياس حين دعاهم، وآمنوا إيماناً صحيحاً. ويجوز أن يكون الاستثناءُ منقطعاً، جيءَ به لبيان سُنَّة الله العامَّة في خَلْقِه، وهي نجاة المُخْلَصين أياً كانوا، أي: لا ينجو إلا عبادُ الله الـمُخلَصين.

ثم ذكر سبحانه ما كان من تكريمه وتقديره له، فقال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾، ثم علَّل ذلك بهذا البيان العام والقاعدة العامة، فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾، وقد تكرَّر تفسير هذه الآية.

و﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ لغةٌ في «إلياس»، ويقال: إنها لغة أهل اليمن وأهل الجنوب، وقيل: ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ جمع «إلياس»، والمراد به: هو وأتباعُه الذين استثناهم بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾. ولا يَبعُدُ أن يكون ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ بمعنى: آل ياسين. والله أعلم.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

ثم أجمَلَ عاقبة الـمُنْذَرين في قوم لوط، فقال: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: إلا عجوزاً منهم، وهي زوجتُه، بقيت في الهالكين الذين قال عنهم: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾، وهم الذين لم يؤمنوا واستمرُّوا على كفرهم وعنادهم.

---

(١) أي: التي في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، وهي الفاعل.

وقد بالغ في تحسيسِ أهل مكة وإنذارِهم بمثل ذلك، ونقل الكلام إليهم، وأجراه عليهم، بمقتضى نهج القرآن، فقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ﴾ أي: وإنكم لتمرُّون عليهم أثناء سفركم إلى الشام وقتَ الصباح ووقتَ المساء. قال أبو السعود: ولعلّها بقُرب منزل يمرُّ بها المرتحلُ منه صباحاً، والقاصدُ له مساءً[1]. وهي قرى «سدوم» وما جاورها.

ثم وبَّخهم وأنَّبهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ وتعتبرون؟! أي: أما فيكم عقولٌ تعتبر بالأمور؟!

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

ثم ختم القصص بقصة يونس عليه السلام، تثبيتاً لرسول الله ﷺ، وتَصْبيراً له على أذى قومه، وتبصيراً، فقال: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ﴾ أي: هَرَب. وأصله: الهرب من السِّيد. ولما كان هَرَبُه بغير إذن ربِّه حَسُنَ إطلاقُه عليه.

وقد هَرَب خوفاً من أن ينزل العذاب بقومه وهو مقيمٌ فيهم، فأفضى به هربُه ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ أي: إلى السفينة المملوءة بالناس، ثم عَرَضَ لها من أنواء البحر ما اضطرَّ الرُّكَّاب إلى أن يقترعوا بينهم على قسمَيْن: قسم يُلقى في البحر، وقسم يَسْلم، ﴿فَسَاهَمَ﴾ يونسُ عليه السلام مع المساهمين ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ أي: من المحجوجين بالقُرْعة، بمعنى: خرجت القُرْعةُ على إلقائه في البحر، فأُلقي فيه، ﴿فَالْتَقَمَهُ

---

(١) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٧: ٢٠٥).

﴿ٱلْحُوتُ﴾، وقد أشار سبحانه إلى سبب هذا الابتلاء ومقتضيه بقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: آتٍ بما يُلامُ عليه. يقال: ألامَ الرجلُ، أي: أتى بما يُلامُ عليه.

ثم ذكر سبحانه ما خفَّف عنه هذه البَلْوى، فقال: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ أي: المـنزِّهينَ لله عمّا لا يليق به ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، وفيه دلالةٌ على أنَّ التوحيدَ والتنزيهَ سَبَبٌ للنجاة في الدنيا والأخرى.

ثم ذكر صورة النَّجاة، فقال: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: الصحراءِ الخالية؛ بأنْ حمَلْنا الحوتَ أن تَلفِظَه هناك، ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ من التقام الحوت، ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾(١) تظلِّله من حرارة الشمس والطوارئ الجويَّة، حتى يتكامل بُرْؤُه. والواو لا تدل على التعقيب. واليقطين: كلُّ شجر ينبسط على وجه الأرض ولا ساق له.

ثم ذكر رسالتَه فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾، والواو لا تدلُّ على ترتيب، ونهج القرآن قد لا يُراعي ترتيبَ أجزاء القصص، فلا دلالة فيه على أنَّ الإرسال كان بعد هذا الحادث، بل السياقُ يدلُّ على عكسه. والله أعلم. قال قتادة: إن الله أرسله إلى أهل نينوى من أرض الموصل(٢). وقال ابن عباس: كانت رسالته هذه بعدما نَـبَذه الحوت(٣).

---

(١) لا يلزم من صورة التعبير لزوماً باتاً: أنَّ إنبات الشجرة كان بعد أن نُبذ بالعراء، بل يسوغ حسب خصائص اللغة وعُرْف التخاطب في مثل هذا التعبير أن تكون الشجرةُ نابتةً قبل، فألقته الحوتُ عندها، فمدَّت عليه فروعَها في مدَّة وجيزة وظلَّلته؛ لأن بعض الأشجار من غير ذوات الساق تفرع بسرعة وتنمو بمدّة وجيزة، فيكون الكلام من باب المجاز المرسل، من ذكر السبب وإرادة المسبَّب، فقد ذكر الإنبات وأراد تمديد الأغصان، والله أعلم. والتجوُّز في مثل هذا من خصائص اللغة. ويجوز أن يكون الإنبات حالياً معجزة له. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١: ١١٧).

(٣) المصدر السابق (٢١: ١١٦).

أقول: فعلى هذا يجوز أن يكون أُرسِلَ إلى قوم بعد قوم. ويجوز أن يكون أُرسِلَ إلى أهل نينوى إرسالاً ثانياً بعد الهرب وقَذْف الحوت له. والله أعلم.

وقد اختلفوا في معنى ﴿أَوْ﴾، وأحسن الأقوال فيها: أنهم كانوا عدداً لو نظر إليهم الناظرُ لقال: إنهم مئةُ ألف أو يزيدون، أي: لقدَّرهم بهذا المقدار، وهو مقياس وسطيٌّ معدَّل ليس بمُحدَّد، يتناسب مع العرف العام، ومأخوذ من حال المُخاطَبين وتقديراتهم، على نهج القرآن في مثله. قال الزجّاج: إنَّ العباد قد خُوطبوا على لغتهم وعُرْفهم[١]. والمعنى: ما تقدرونه أنتم بمئة ألف أو يزيدون.

والذي أراه: أنَّ عُرْفَ التخاطب في تَعداد الأمم قد جرى بأن تعدَّ بالألوف، ويُهمَلَ الكسرُ الزائد إذا كان دون الألف، ومن دأب القرآن تحرِّي الصدق الدقيق في بياناته، لذلك جرى أولاً بمقتضى عُرف التخاطب، فقال: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾، ثم ألحق العبارة بتحرِّي الحق حسب أصوله في التعبير فقال: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ أي: لـمّا آمنوا أزال اللهُ الخوفَ عنهم، ومتَّعهم بالحياة الطيِّبة إلى الوقت الذي جَعَله الله أجلاً لكلٍّ واحد منهم. بمعنى: أننا متَّعنا كلَّ واحد منهم بنعيم هذه الحياة إلى أجل موته. وقيل: آمنوا عند مُعايَنة العذاب الذي وُعدوا به.

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٧١).

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

وبعد أن قصَّ أحوالَ الـمُكذِّبين للرسل، وما كان من استئصالهم بالعذاب، عاد للسياق على نهج القرآن، وعقَّبه بالردِّ على المشركين وتقريعهم على وجه السخريّة بهم، وقال: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾، والتعبير بالاستفتاء: مبالغةٌ في السخرية. أي: بعد ما تقدَّم من البيان وتمحيص البرهان في اختصاص الألوهية بالله استفتهم: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾؟! أي: أَفيليقُ هذا الاعتقاد بنا بعد بياننا لهم ما تقدَّم في إثبات اختصاصنا بالألوهيَّة، بكلِّ تلك البراهين، وتنكيلنا بالمكذِّبين؟! وفي الكلام بلاغةٌ في الاستهزاء بهم، مبنيَّة على حالتهم في استهانة أمر البنات وهَوَانهنّ، فلا يَرضَونَهُنَّ لأنفسهم ويَرضَونَ ذلك لله، ويقولون: الملائكة بنات الله! تعالى الله عمّا يقول الظالمون عُلواً كبيراً.

وهذا الاستفهام إنكارٌ وتبكيتٌ مفرَّع على ما سبق من بيان شأن الله سبحانه وتعالى، ولا سيما مع أنبيائه وقومهم. وهو تبكيتٌ على أبلغ الوجوه في التفنيد والتسخيف، أكمله بقوله: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾، والملائكة لا تُوصَف بالأنوثة والذكورة. وفي صيغة العبارة استهزاءٌ بهم وتهجينٌ لهم أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾ [الزخرف: ١٩]، وفي قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١].

والآية تَندُّرٌ عليهم لنسبةِ الولد له تعالى، واعتقادِهم أنَّ الملائكة بنات الله، كما صرَّح به في عموم قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

ثم ردَّ عليهم ناقضاً لسخافتهم هذه، بما بناه على حالة الـمُخاطَبين ونَظَرِهم بعين الحطَّة في أمر البنات، فقال: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾؟

ثم أردف الإنكار باستفهامَيْن مُتَتاليَيْن للتوبيخ والتجهيل، فقال: ﴿مَا لَكُرْ﴾ تعتقدون هذه العقائد السَّمجة؟ و﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ هذه الأحكام السخيفة؟ وفي تعاقب هذه الاستفهامات مبالغةٌ في الإنكار والتسخيف والتبصير، أكَّده بقوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ ؟!

ثم أضرب إلى ناحية ثانية في الرد التَّسْخيفي التَّهكُّمي، فقال: ﴿أَمْ لَكُرْ﴾ في ذلك ﴿سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ أي: حُجَّةٌ قاطعةٌ من برهان عقليّ أو كتاب سماويّ يُثبت لكم صحَّة ما تعتقدون؟ ﴿ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ وفي هذا الطلب إشارةٌ إلى أنَّ الاعتقادات في شأن الله لا يجوز أن تكون إلا من طريق الوحي، لا بمُجرَّد التخمين والخيال وهواجس النفس وخواطرها.

ثم أجمَلَ هذا البحث بقوله: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ يعني: الملائكة، واعتقاد هؤلاء المشركين بهم أنهم بنات الله، و«الجِنَّة» تطلق على سائر المخلوقات اللطيفة الخفيَّة المُجْتَنَّة التي لا تُدرَكُ بالبصر. ومن أشرف تلك الأنواع: أنواع الملائكة، وإنما ذكرهم باسم جنسهم ـ وهو الجِنَّة ـ حطّاً منهم، ليزيد في تسخيف من يبلغون بهم هذه المرتبة.

ثم ردَّ عليهم بهذا الوعيد، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ ﴾ أي: عَلِمَ هؤلاء الملائكةُ ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي: هؤلاء الكَفَرةَ ﴿لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ للعذاب؛ لِكَذِبهم هذا وافترائهم في حقِّ الله. والمراد: المبالغة في التكذيب، ببيان أنَّ الذين يدَّعي هؤلاء المشركون لهم تلك النسبة، ويعلمون أنهم أعلَمُ منهم بحقيقة الحال، يُكذِّبونهم في ذلك الادِّعاء، ويحكمون بأنهم مُعَذَّبون لأجله حكماً مؤكَّداً.

ويجوز أن يكون ضمير ﴿إِنَّهُمْ﴾ للملائكة، أي: يعلمون أنهم مُحضَرون. ويكون المرادُ من هذا الوصف هنا: المبالغةَ في خوفهم من الله سبحانه، وفي علمهم بأنهم مربوبون لله عزَّ وجل، وليس بأرباب.

وقيل: بل الكلام بيانٌ لقبيحة أخرى، والمراد من الجِنَّة: الشياطين. والمراد من النَّسَب: المناسبة، فهو تقبيحٌ لمن يشركون به تعالى الشياطين في استحقاق العبادة، والشياطينُ نفسُهم يعلمون أنهم مُحضَرون للحساب، ومسؤولون عمَّا يُجرِمون، يعلمون أنَّ الله سبحانه يُحضِرُهم النارَ ويُعذِّبهم بها. فيكون فيها ردٌّ للزنادقة أيضاً الذين يعتقدون بأنَّ للعالَـم إلهين: إله الخير، وإله الشر.

وكلا المعنيين محتمل، والله أعلم بمراده.

ثم عقَّب على هذه العقائد الزائفة في حقِّه تعالى، بصيغة تنزيه المطلق، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

أما قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ فهو استثناء منقطع، قيل: من الـمُحْضَرين، وقيل: من الواصفين له تعالى بما ذكر، أي: إنهم لم يُحضَروا، أو: إنهم لم يَصِفوه بما وَصَفَه هؤلاء. والوصفُ بالإخلاص والصَّلاح هو غايةُ المدح والتمجيد. والمراد من ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: هم الذين حافظوا على سلامة فِطَرِهم ونور بصائرهم واستعدادهم لمعرفة الحق وقول الصدق، لذلك علَّل براءتهم مما ذكر ببيان عجز هؤلاء عن إغوائهم وإضلالهم، وذكر ذلك ببيان هذه الحقيقة العامة، فقال: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾ من هؤلاء الشياطين المضلِّلين، ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ تعالى ﴿بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ أحداً تُفسِدونه بالإغواء ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ وهو الذي أفسَدَ طبيعتَه ودسَّى نفسه، فكان موضعاً خِصْباً لِقَبول الإغواء، وهو الذي يَصْلَى الجحيم استحقاقاً وعدلاً.

ثم تـمَّم الردَّ بحكاية حالِ الملائكة وقولِهم الـمُؤْذِن بتَنَصُّلهم من المعبوديَّـة، وإقرارهم بالعبوديَّـة، وانقيادهم له تعالى في منتهى الخوف والإخلاص، فقال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ أي: في الانتهاء إلى أمر الله والانقياد لطاعته تعالى، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ في منـازل الـخدمة وأداء الطاعـة لله، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: الـمُنزِّهون لله عمَّا لا يليق به.

فهذا تبيينٌ لجليَّة أمر الملائكة في موقف العبوديَّة، يردُّ به على العابدين، ويجوز أن يكون هذا وما قبله من قوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، من كلام الملائكة، يتَّصل بذكرهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾، كأنه قيل: ولقد عَلِمَتِ الجِنَّة وشهدوا أنَّ المشركين مُفْتَرون عليهم في ادِّعاء مناسبتهم لله، ونزَّهوه عن ذلك، واستَثنَوا عبادَ الله الـمُخْلَصين، مُنزِّهين لهم عن مثل هذه العقيدة والافتراء.

ثم قالوا للكفَرة: لا أنتم ولا آلهتكم تقدرون أن تَفتِنوا على الله أحداً من خَلْقِهِ وتُضِلُّوه، إلا مَنْ كان من أهل النار، أي: ممن أفسدوا طباعَهم بمفاسد التربية وسوء القدوة.

ثم قالوا: وكيف نكون مُناسِبين لربِّ العزَّة، وما نحن له إلا عَبَدةٌ أذلاءُ منقادون مخلصون. فهم لا يَعْصُونَ الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرون، ولكلِّ صنفٍ منهم مقامٌ معلوم، لا ينفكُّون عنه أبداً، يعبدون الله فيه ويسبِّحون لا يَفْتُرون.

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

وبعدما ذكر من تعذيب الكَفَرة فيما قالوا، وتنزيه الله عن ذلك، وتبرئة الـمُخْلَصين من مثل هذا البهتان المُبين، والإفك العظيم، نَقَـلَ الكلامَ، وذكر ما كان يقوله هؤلاء

الكَفَرةُ من قريش قبل مجيء الرسول، من أنه إذا جاءهم نذير ليكوننَّ أهدى من إحدى الأمم، فلما جاءهم لم يزدادوا به إلا كفوراً، ذكر ذلك مبالغةً في تبكيتهم وتقريعهم، فقال: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: كتاباً من كتب الأوَّلين، كالتوراة والإنجيل، ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: إنَّ أهل مكة كانوا يقولون: لو أنَّ عندنا كتاباً سماوياً ـ كما للأوَّلين الذين أنزل الله الكتبَ على أنبيائهم ـ لآمنَّا به وأخلَصْنا العبادة لله.

وقيل: بل المعنى: لو أنَّ عندنا علماً ممَّن تقدَّمونا ماذا فُعِلَ بهم لآمنا. فجعلوا العُذرَ في امتناعهم من الإيمان أنهم لا يعرفون أخبار مَنْ تقدَّمهم وما فُعِلَ بهم، فلذلك كفروا به وأنكروه.

فلما جاءهم ذِكرٌ من الله، وكتابٌ سماويّ مُهيمنٌ على سائر الكتب، ومُبيِّنٌ مصيرَهُم ومصيرَ مَنْ تَقَدَّمهم؛ كذَّبوه ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾. ثم توعَّدهم على ذلك وقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ أي: عاقبةَ ذلك الإعراض والتكذيب.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

ثم ذكر شيئاً من هذا الوعيد، ببيان سُنَّة الله العامَّة في نُصْرة الأنبياء على مُعارضيهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ على الأعداء المعارضين لهم الواقفين في سبيل دعوتهم، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ وإضافةُ الجند إلى الله للتكريم وتحقُّق النصر المبين.

وفي بيان هذه السنَّة تَقوِيةٌ للنَّبيِّ ﷺ وتثبيتٌ له، لذلك أردَفَه بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾ أي: فأعرِض ـ أيها الرسول ـ عن هؤلاء الكفَّار إلى حين مجيء أمْرِنا باستئصالهم، ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ حينئذ بما سيَجري عليهم من عذاب الله، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ ما يحلُّ بهم، ولاتَ ساعةَ نجاة. وهذا تهديدٌ وتوعُّدٌ شديد، زاد فيه بقوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ استخفافاً واستهزاءً، ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ وهذه أبلَغُ عبارة بهَوْل ما سيَنزِلُ بهم ويحلُّ بحالهم وبدارهم.

أما قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ فقيل: إنه تأكيدٌ للأوَّل، زيادةً في التهويل والتهديد. وقيل: إنَّ الأول لعذاب الدنيا، والثاني لعذاب الآخرة.

ثم ختم السورة بما يناسبُ مضمونها، وهو تنزيهُ الله تعالى، وتقديرُ الأنبياء، والثناءُ على الله بما هو أهلُه، فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ ويتَقوَّلون عليه سبحانه وتعالى.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ تقديراً لهم على ما قاموا به من واجب التبليغ والثبات تجاه هذه المزعجات.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ الذي أنعَمَ على عباده بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وبيان الصراط المستقيم الذي يصل سالكُه إلى سعادة الدنيا والأخرى، فهو المستحقُّ للحَمْد في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.

* * *

سُورَةُ ص

مكيَّة، وهي ثمانٌ وثمانونَ آية

وتشبه السورة السابقة في الإنـذار والتبشير.

وقد أُمر النَّبيُّ ﷺ بالصبر على المعارضين.

وقُصَّ عليه قَصَصُ مَنْ صَبَرَ على الـمُعارَضة من الأنبياء والمرسلين، وما أكرمهم به من أنواع الكرامة.

ثم ذكر مُخاصَمةَ أهل النار من المشركين.

ثم ذكر قصَّةَ آدم مع إبليس للتذكير بمنشأ بلاءِ الكافرين.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠﴾.

﴿صٓ﴾ وقد مرَّ الكلام على الحروف التي تَبْتدئ بها بعض السُّور في أوّل سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لإثارة الشعور إلى الاهتمام بما يأتي بعدها، وهو هنا إبطال الشرك والدعوة إلى التوحيد، وقد قَرَنَه بالقسم، فقال: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ أي: ذي البيان الذي يُذكِّر بالحق ويهدي إلى الرُّشْد وإلى الصِّراط المستقيم الذي يصل سالكُه إلى النجاة في الدارين. وجواب القَسَم محذوف على نهج القرآن في أنواع الإيجاز، (كما جاء في الفقرة (أ) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). وتقديرُه - كما يفهم مما بعده ـ: ليس الأمر كما يتقوَّلون، وإنَّ الحشر والحساب أمرٌ واقع ومُتَحقِّق.

ثم عطف على هذا المقدَّر قولَه: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ﴾ أي: استكبارٍ عن الحق ﴿وَشِقَاقٖ ٢﴾ أي: تَنازُعٍ في الباطل لِيُدْحِضُوا به الحق.

وقد توعَّدهم بمـا جَرَى على أمثالهم في الأمم الغابـرة حين عارضوا رُسُلَهم وشاقُّوهم، فقال: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ فذكر القَرْنَ ـ وهو الزمن المخصوص ـ وأراد أهلَه، بطريقة المجاز المُرسَل لعلاقة الزمنية، أي: كم أهلكنا قبلهم من الأمم، ﴿فَنَادَوا﴾ مستغيثين نادمين عندما نزل البلاء، ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾ أي: استغاثوا وأنابوا حين لم تنفع الإنابة، إذ قُضِيَ الأمر ونَفَذ القضاء، ولا مَرَدَّ لأمر الله.

ثم حكى صورةَ استكبارهم وشقاقهم، فقال: ﴿وَعَجِبُوٓا۟﴾ أي: كفارُ قريش ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾! وفي قوله: ﴿مِّنْهُمْ ﴾ زيادةٌ في التعجيب من شأنهم والتبكيت لهم، إذ يعرفون ماضيَه الناصعَ ونشأته الطيِّبة. وقد أفصَحَ عن نتيجة عَجَبهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾، وقد وضع الظاهر موضع المُضْمَر، ولم يقل: (وقالوا)؛ للتصريح بالصفة التي جَرَّتهم إلى هذا القول.

ثم حكى عنهم ـ على أسلوب التعليل لما قبله ـ ما يَفضَحُ جَهالتَهم وغَباوتَهم، فقال: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾؟! أي: بليغٌ في العجب. يقولون ذلك لأنهم يعتقدون كما يعتقد غيرهم من مشركي الأمم الغابرة، أنَّ لكلِّ حال من أحوال الطبيعة إلهاً، كإله الخِصْب وإله الجَدْب، ولكلِّ شأن من شؤون الإنسان إلهاً، كإله السِّلم وإله الحرب، ولكلِّ أمة آلهةً من هؤلاء غير الأخرى، تعتزُّ بها وتنافس، فهم يستنكرون وينفرون من الدعوة إلى التوحيد، ويتعجَّبون منها، كيف يكون إلهُ الجَدْب وإلهُ الخِصْب واحداً؟! وإلهُ السِّلم وإلهُ الحرب واحداً مثلاً؟! يقولون ذلك بدافع التقليد الأعمى للآباء والأجداد، إذ قد فقدوا به الاستعداد الطبيعيَّ للنظر في الحقِّ ومعرفة الكذب من الصدق، حتى البديهيَّات؛ لأنَّ من طبيعة الإنسان إذا أَلِفَ شيئاً وانطبع عليه: لا يرضى أن يسمع ما يخالفه ويُوهيه.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿انطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ ينشرون في الأتباع: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ يثبِّتونهم بذلك على دينهم، أي: اذهبوا لشأنكم ودَعُوه، أو قومُوا بنشر الدعاية لآلهتكم، واثبتوا على عبادتها، ولا تلتفتوا إلى هذه الدعاية وإلى ما يقوله لكم هذا الرجل ويدعوكم إليه، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ أي: إنه أمرٌ يُريدُه لإحرازِ الرياسة والسلطان، بمعنى: أنه أمرٌ مُدبَّر لِنَيْل السيطرة عليكم.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يدعو إليه من التوحيد وخَلْق الآلهة والوسطاء ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: في الملة التي أدركنا عليها آباءنا، أو في الملة النصرانية التي هي آخرُ المِلَل، ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ الذي يدعو إليه ويدَّعيه ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ أي: كذبٌ اختلقه من نفسه، يريد به ما يريد.

ثم أيَّدوا إنكارَهم هذا بإنكار اختصاص الله إيَّاه بالنبوَّة وإنزال كتاب عليه دونهم، فقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: أأُنزل عليه هذا القرآن من بيننا ونحن رؤساء الناس وأشرافهم. ومرادهم: إنكار كونه ذِكْراً مُنزَّلاً من عند الله عزَّ وجل؛ لأن نفيَ الموصوف يستلزم نفيَ الوصف. لذلك قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ أي: إنهم غير مُصَدِّقين بأن هذا القرآن ذِكرٌ مُنزَّل من عند الله، بل هو من صُنعِهِ وتأليفه.

ثم هدَّدهم مُساوِقاً نفسَ الأسلوب، فقال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ فإذا ذاقُوا العذابَ المُنتَظَر تبيَّن لهم حقيقةُ الحال. والمعنى: إنهم لم يُصَدِّقوا حتى يمسَّهم العذابُ المستقبل ويرَوْه بأعينهم، وذلك لأنَّ الحال ينكشف للإنسان بعد موته، ويدرك الحقائق إدراكاً جلياً. وكلمة ﴿لَمَّا﴾ إنما هي لاستمرار النفي إلى الحال، وانتظار الوقوع في المستقبل.

ثم ردَّ عليهم قولهم: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾، بقوله: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾ أي: هل ذلك في أيديهم وتصرُّفهم؟! وتقرير الردّ: أنَّ الله سبحانه يختصُّ بنبوَّته ورسالته مَنْ يشاء من عباده، وليس لعباده تحكُّم في ذلك. ومُحصَّل العبارة: أبيَدِهم مَواهبُ النبوَّة والرسالة فيضعونها حيث شاؤوا، أم بيد الله العزيز الوهَّاب الذي يَهبُ ما يشاء لِـمَنْ يشاء، وهو أعلَمُ حيث يجعل رسالته؟ إذْ مقاييس العَظَمة عند الله غير مقاييسهم الزائفة. فهو من نوع الإنكار البياني المسبوك على الهزء والسخرية بهم.

وكذلك قوله: ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ يتصرَّفون بما يجري فيها من الشؤون، ويرسلون الرسل كما يشاءون؟ يهزأ بهم ويردُّ عليهم سبحانه، فهذا تمكينٌ لما سبق.

وقوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ جوابُ شرطٍ محذوفٍ لدلالة السياق عليه. أي: إن كان لهم ما ذكر فلْيَصعَدوا في أسباب الصعود التي يَتَوصَّلون بها إلى العرش المجيد حتى يستووا عليه ويُدبِّروا أمر العالم، ويُنزلوا الوحيَ إلى مَنْ يختارون ويَسْتَصْوبون. وهذا المعنى مأخوذ من العُرف العام في ذات الله تعالى؛ لأنه سبحانه يخاطب الناس في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعُظمائهم، وبحسب عُرْف التخاطب من أنه سبحانه في السماء. وهذا الأمر بالارتقاء تحدٍّ هازئ، وتهكُّم بديع.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

وبعد أن سَرَدَ فيهم هذه التنددات المتردِّدة في البطلان، بيَّن حالهم بحقيقة الشأن، أردَفَه بحطَّة شأنهم والإيذان بما سيكون من قهرهم وخذلانهم عمَّا قريب، فقال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾، وكلمة ﴿مَّا﴾ مزيدةٌ للتقليل والتهوين، مثل: أكلتُ شيئاً ما، و﴿مِّنَ﴾ للبيان. والمعنى: لا تهتمّ ولا تَغْتمَّ من أمرهم، ولا تَـخْشَ عنادَهم ومعارضتَهم، فما هم إلا جُندٌ ضعيفٌ مآله الهزيمة والخذلان، من جملة الأحزاب الكثيرة التي عارضت الأنبياء قبلك وتحزَّبت عليهم، وقُضِيَ عليها بالفشل وعذاب الاستئصال، فأين هم من التدابير الإلهيَّة والتصرُّف في الأمور الربانية؟

ثم أجمَلَ أمْرَ أولئك الأحزاب وعقابَهم ليتوعَّد هؤلاء بمثله، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ أي: ذو الـمُلكِ الثابت. وأصله من ثبات البيت والمطنب بأوتاده، فاستُعير لثبات المُلكِ ورسوخ السلطنة واستقامة الأمر، كما قال الأسود ابن يعفر(١):

ولقد غَنَوا فيها بـأنعَمِ عيشـةٍ في ظلِّ مُلكٍ ثـابتِ الأوتـادِ

ويجوز أن يراد بـها: الأهرام والمسلَّات؛ لأنها أعمال تدلُّ على العَظَمة ورسوخ السلطان والجَبَروت حتى في البنيان.

ثم تابع السَّرْدَ بقولـه: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أي: الغيْضـة، وهي الأرض ذات الأشجار المشتبكة. هؤلاء هم قوم شُعيب عليه السلام.

نصَّ عليهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هم ﴿ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ المخذولون الذين منهم هذا الجند المنهزم المغلوب.

---

(١) هو أبو نهشل وأبو الجراح الأسود بن يعفر (ت ٢٢ق هـ) شاعر جاهلي من سادات تميم «الأعلام» للزركلي (١: ٣٣٠)، والبيت ذكره الأصفهاني في «الأغاني» (١٣: ٢٢).

ثم سجَّل ما جرى عليهم بالحق من عذاب الاستئصال، فقال: ﴿إِن كُلٌّ﴾ منهم ﴿إِلَّا﴾ وقد ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ﴾ عليهم ﴿عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾. وفي كلمة ﴿عِقَابِ﴾ خَطْفُ ياء المتكلم على طريقة القرآن في ذلك نطقاً وإملاء.

وبعد أن أجمَلَ حُكمَهُ المُنفَّذ في هؤلاء الأحزاب، عاد فتوعَّد هذا الجند الجديد منهم بما سيناله من العذاب، كما نال أولئك، فقال: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الـمُعاندون، أي: مُشرِكو مكة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: عذاباً يَفجَؤُهُم لا يفيقونَ منه أبداً، بل يُصْعَقُون ويموتون كلُّهم منه مَيْتةً واحدة. وقيل: بل هي نفخة الصُّور الأولى.

ثم ذكر موقفَهم في هذا التوعُّد، فقال: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: قال كفارُ قريش سخريةً واستهزاءً: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ والقِطُّ: القطعةُ من كلِّ شيء، مِن: قطَّه؛ إذا قطعَه. والمراد به هنا: القِسطُ والحصَّة من العذاب. أي: عَجِّل لنا قِسطَنا من هذا العذاب الذي تَتوعَّدنا به ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾، يقولون ذلك سخريةً واستهزاءً.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ

بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم أردفَ السياقَ بقصص الأنبياء على نهج القرآن، مُثبِّتاً لنبيِّه، وواعداً له بالتأييد، كما أيّد سائر الأنبياء، ومُسلّياً له على الـهُزْء، فقال: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾[1] أي: ذا القوة على تنفيذ الأمور بالصبر، ومع ذلك فقد عُوتِبَ بما يأتي على

(١) للأنبياء صلوات الله عليهم أهداف ومقاصد، وعليهم واجبات وأعمال مطلوبة منهم. أما الواجبات فهي: تقوى الله وطاعته وعبادته حقَّ العبادة. وأما الأهداف فهي: نشر الدين والوسائل التي تسهِّل النشر وتعينُ عليه، من تكوين شوكةٍ وقوةٍ تحفظ الأمر، وتدفع مقاومة المعارضين، وتحافظ الأتباع، وتدير أمورهم، وتحلُّ مشاكلهم، وتقضي بينهم، إلى أمثال ذلك. ولكلٍّ من هذه الأهداف والواجبات حدود لا يجوز أن يدخل بعضُها في الآخر، ولا أن يطغى صنف على الآخر، ويأخذ من أوقاته.

وعلى هذا، لما وسع داود عليه السلام عبادته واعتزل الناس، وقصَّر في حجزهم عنه، وترك النظر في مشاكلهم، حتى اضطر الخصمان أن يتسوَّروا عليه المحراب، قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، والظن بمعنى العلم، أي: أدرك داود عليه السلام: أن عملَه غيرُ سديد، وهذه الخصومة بهذه الصورة ابتلاءٌ له من الله سبحانه واختبار.

وسليمان عليه السلام لما عُرضت عليه بالعشيِّ الصافنات الجياد، ورأى أنَّ اشتغاله بالقوة والشوكة إلى هذا الحد، أخذ من واجباته وعبادته لله حقَّ العبادة، أدرك بأن طبيعة ملكه الاعتيادية أبعدته عن الله، وجَعَلته في عبادة الله دون الكمال، وتجاوزت الأهداف حدودها وطغت على الواجبات. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ٣٤]، فقد قال المفسر الشهير أبو مسلم: إن الجسد هو جسد سليمـان، وهو منصوب على الحال من ضمير (ألقيناه) المحذوف.

أقول: وعند ذلك قال سليمان ما حكاه الله عنه بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥]. فقد طلب من الله سبحانه أن يُبدِّل ملكه الاعتياديّ =

انصرافه عن الدرجة القصوى في التحمُّل، وذلك باحتجابه عن الناس، فاذكره ليكون ذلك عبرةً لك، فتعلم أن الأنبياء تُعاتَبُ على الصغائر والهفوات، ويطلب منها الدقّة في الأمور وشدَّة الثبات. وقد عجَّل سبحانه وتعالى بهذا الوصف لداود عليه السلام وبالوصف الآتي، فقال: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧﴾ أي: رجَّاع عن كلِّ ما يكرهه الله.

والظاهر من تقديم هذين الوصفَيْن على القصة أمران: **الأول**: التعجيل بالرِّضا قبل العتاب، على نهج القرآن في عتاب الأنبياء عليهم السلام. **والثاني**: تقديم نقطة الهدف من القصة، وهي: أنَّ داود عليه السلام عند الهفوة رجَّاع إلى الله بقوَّة وسرعة، وأوَّاب إليه.

ثم ابتدأ بالقصة مقدِّماً ما أكرَمَه الله تعالى به من الكرامة، فقال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨﴾ أي: آخر النهار وأوله. ويجوز أن يكون ذِكرُ الطرفَيْن لتعميم الوقت، كما هي الحال في خصائص اللغة وأساليب القرآن.

= الذي ألجأه أن يتجاوز بالأهداف حدودها حتى دخلت بحدود الواجبات، فطلب من الله سبحانه أن يُبدله بهذا الملك ملكاً تغلب روحانيته على ماديته؛ ليوازن بين الأهداف والواجبات، فأجاب الله دعوته، وعاد إلى كرسيه جسداً وروحاً. والله أعلم. والعرب تقول: فلانٌ جَسَدٌ بلا روح، يريدون بذلك ضَعْفَ شخصيته الروحيَّة المعنوية.

أما أيوب عليه السلام فقد تحمَّل في سبيل نَشْر الدعوة ما أخرَجَه من ماله ودياره وصحته وعياله، وهو ثابت متحمِّل في جانب الله حتى تـمَّت له القضية، ورجع إليه مالُه وصحتُه وعياله.

وأما يونس عليه السلام فقد ضَعُفَ تجاه المقاومة، فابتلاه الله ثم أناب، فعفا عنه وتاب عليه أحسن متاب.

فأراد سبحانه بقوله لرسوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ...﴾ أن يعتبر هذه الأمور ويشتد في الثبات. هذا رأيي، والله أعلم. (المؤلف).

وقد قيل في معنى الآية: إنَّ داود عليه السلام كان إذا استغرق في التسبيح شَعَر بتسبيح الجبال معه والطير.

وقال في «مجمع البيان»: يحتمل أن يكون الله سبحانه خَلَقَ في الجبال قابليَّة التسبيح معجزةً له، ويمكن أن يكون داود عليه السلام بنى فيها بنايات للتسبيح.

أقول: وعلى هذا، تكون نسبة التسبيح إليها على طريقة المجاز المُرسَل من نسبة الفعل للمكان، ويجوز أن تكون هذه البنايات يتعبَّد فيها الناس، فيكون في الكلام إيماءٌ إلى توفيقه لكثرة أتباعه ونشره للدين. والله أعلم.

وقال المفسِّر الجلال: يُسبِّحْنَ بتسبيحه[١]، أي: بطريق المعجزة له. وعليه، فناهيك بما كان يجدُه داود عليه السلام في هذه الكرامة من الشعور العميق نحو ربِّه سبحانه وهو يَسمَعُ الجبالَ تُسبِّح بتسبيحه، وتُمجِّد بتمجيده.

وقال البلخي: يجوز أن يكون المراد الإشارة إلى ما أعطاه الله من حُسْن الصوت بقراءة الزبور، فإذا قرأه بين الجبال ردَّدت عليه مِثلَه من الصَّدى، فسمَّى ذلك تسبيحاً. وقد سبق زيادةُ بيان لهذه الآية في سورة الأنبياء[٢]، فارجع إليه. ومُحصَّله: أنه سبحانه ذلَّل له ما يحتاجه، وسخَّر له بعض الكونيَّات على خلاف المألوف والمعتاد من أمر الجبال.

ثم تابع الكلام عما أكرَمَ الله به داود عليه السلام من الكرامة، وبيَّن عَظَمة مُلكِهِ

---

(١) «تفسير الجلالين» ص٦٠٠.

(٢) في الآية ٧٩ منها. وتقدَّم هناك تعليقاً تضعيف هذه التجويزات التي يسوقها المؤلف في تفسير الآية، حيثُ إنها تخرج بالمعجزة عن فحواها، كما أن السياق يضعفها، والصواب: إجراء الآية على ظاهرها، وذلك بأن يُقال: إن تسبيح الجبال والطير كان حقيقة، على خلاف السنة الجارية والعادة الظاهرة، وهذا هو وجه الإعجاز الذي أكرم الله به داود عليه السلام.

وما أنعَمَ الله عليه في ذلك، فقال: ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أي: وسخَّرنا له الطير، فهي حاضرة لديه تأتمر بأمره كما كان ذلك لسليمان عليه السلام.

ثم صرَّح بمضمون ما تقدَّم من إطاعة الجبال والطير له بقوله: ﴿ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ أي: مطيعٌ له ورجَّاعٌ إلى ما يريده منه، أما الجبال فبالملائمة والتهييج للتسبيح، وأما الطير فبالطاعة والائتمار. قال الجبَّائي: لا يمتنع أن يكون الله تعالى خلق في الطيور ما تفهم به أمْرَ داود عليه السلام(١).

أقول: أو خصَّ داود عليه السلام بالفَهْم عن الطير وفَهْم الطير عنه؛ معجزةً له. والله أعلم. ومما يُؤْنس لهذا قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ١٦].

ثم قال في إتمام البيان عن كرامته تعالى له: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ أي: بالهيْبة والنصر والسلطان، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: حُسْنَ الإدارة، والعِلمَ بالقضاء والفَهْمَ له، وحُسْنَ المواعظ والخطابة والبيان.

ثم عقَّب هذا ببيان أنه عاتبه على استعجاله مرةً في حكم من الأحكام، إذ كان عليه أن يَتَروَّى، وعلى انصرافه عن الدرجة القصوى في تحمُّل الصعاب، وذلك باحتجابه عن الناس حتى تسوَّروا عليه المِحرابَ لحلِّ مشاكلهم. والغَرَضُ من هذا البيان: الإيذان بأنَّ الأنبياء تُعاتَبُ على الصغائر والهفوات، وتُطالَبُ بالدقّة في الأمور وشدَّة الثبات. وهذا هو موضع العبرة والإرشاد للرسول عليه السلام في هذه الذكرى التي افتتح بالإشارة إليها، ثم عقَّب بالبيان عنها، فقال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ ﴾ أي: المتخاصِمِينَ؛ إذ هو يطلق على الواحد والجمع، والمراد به هنا: الجمع، ولذلك قال:

---

(١) وكذا لا مانع عقلاً أن يفعل الله تعالى ذلك في الجبال أيضاً.

﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾﴾ بصيغة الجمع دون التثنية؛ لأنَّ لكلِّ خَصْم أتباعاً، والمراد من المحراب: الدار التي كان يسكنها داود عليه السلام، ويؤدِّي فيها حُكمَه وعبادتَه لله تعالى، ولغلبة الأمر الثاني عليها سُمِّيت المحراب. ومعنى (تسوَّروه): تسلَّقوا سُورَه، ونـزَلوا عليه وهو فيه.

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾ لدخولهم على هذه الصُّورة الـمُؤذِنةِ بالاغتيال، لا سيما إذا كانت مع الملوك. وربما اعتذروا بما أقنَـعَ قلبَ النَّبيِّ الرؤوف، من مثل أنَّ الحرس منعهم من الوصول إليه، وهو مؤدَّى قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ فإنّا لم نأتِ لسوء، ولكنا ﴿خَصۡمَانِ﴾ أي: قسمان متخاصمان، من تسمية مصاحب الخصْم خَصْماً، إذ العُرْفُ يُطلِقُ الخصمَ على المخاصم ومُعاضِدِه. وقيل: هما اثنان فقط، وإطلاق صيغة الجمع عليهما من باب إطلاق صيغ الجَمْع على الاثنين فما فوق، وذلك من خصائص اللغة، إذ قد نطقت به العرب. وعليه، يكون المراد من البعض: الواحد في قولهم: ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾.

ثم طلبوا الفَصْلَ بالحق بينهم، وقالوا: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾، وأرادوا بهذا الطلب إظهار الحرص على ظهور الحق، لا الارتياب. وفيه دلالة على أنَّ الحاكم العادل يَتحمَّل مِثلَ هذا من المتخاصمين، لا سيما إذا كان ممن معه الحق.

وقد أردفوا طلب الحكم بإجراء التنفيذ له، فقالوا: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: إلى وَسَط طريق الحق، بزَجْرِ المعتدي عمَّا سلكه من طريق الجور، وإرشاده إلى منهاج العدل.

وبعد هذه المقدِّمة بَسَط المدَّعي دَعْواه على خَصْمه، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: اجعَلها تحت كفالتي، ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ظَهَر عليَّ بقوة العارضة في البيان، وغلبني على أمري في مهارة الإقناع.

فحكم داود عليه السلام بما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ويُفهَمُ من فَحْوى هذا التذييل أنه طلبها منه لتكون خليطاً مع غنمه وتحت كفالته، ثم بغى عليه في نتاجها ومحصولها، وهذا البغيُ يُفهَمُ من الجواب، على نهج القرآن في الاكتفاء عن تفصيل السؤال بتفصيل الجواب. وقد استثنى من التسجيل بهذا التذييل قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: فهم لا يَبغُونَ على خُلطائهم وشُركائهم. وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ يُؤْذِنُ بأنَّ أهل الخير في الدنيا قليلٌ بالنسبة إلى أهل الشر، وهو كذلك، فهم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود. ولم يُصرِّح القرآن في أن داود عليه السلام سأل المدَّعى عليه عن مدافعته أو إقراره.

وقد ذهب المفسِّرون في ذلك مذهبَيْن:

الأول: أن داود لما سمع صورة دَعْوى هذا المدَّعي مع حضور المدَّعى عليه معه طالبين للفَصْل، غلبَتْه العاطفة والشفقة عليه، ووقع في قلبه صِدقُه، وأن المدَّعى عليه لا يعارضه فيما قال، فحكم عليه بالظلم من دون أن يسأله إذا كان له معذرة أو دفاع، فعُوتِبَ على ذلك. وهذا رأيٌ ضعيف.

والثاني: أن المدَّعى عليه اعترف، ولكنَّ القرآن طوى ذِكرَ اعترافه اكتفاءً ببيان الحكم، على أسلوب إيجازات القرآن، فلا كلام فيه.

وعلى الأول، يكون قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ بمعنى: اختبرناه بإصدار هذا الحكم قبل سماع مَعْذرة المحكوم عليه. أي: ظنَّ أنَّ العاطفة والشفقة فتنَتْهُ وغَلَبَتْه على عقله، أو غَلَبَه حُسْنُ ظنِّه بالناس، كما وقع لنبيِّنا ﷺ في أمر اليهودي الذي ألقى في بيته أحدُ المنافقين سرقةً سرقها، واتَّهمه بها، فكاد النبي أن يحكم على اليهودي، فنزل قوله تعالى من سورة النساء: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٧]

إلى قوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾(١) [النساء: ١١٣].

وعلى الثاني، يكون بمعنى: اختبرناه في كيفيَّة رعايته للناس واحتجابه عنهم، حيث اضطرَّت هذَيْن الخصمَيْن أن يدخلا عليه بصورة غير معتادة من تضييق الحَرَس، أو اختبرناه في حالته النفسيَّة، إذ يجوز أنهم لما دخلوا عليه بهذه الصورة غَضِبَ وهمَّ بالانتقام منهم، إذ ظنَّ أنهم أتَوْه للاغتيال، ثم أنكر على نفسه موقفها هذا، ومَالَ إلى الصَّفح والتجاوز عنهم طَـلَباً لمرضاة الله، ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾﴾ والمراد من الركوع: السجود، وتسميةُ السجودِ ركوعاً من خصائص اللغة. أي: خرَّ ساجداً وأناب إلى الله، أي: رَجَع إلى الله بالتوبة وطلب العفو.

وهذا هو موضع العبرة في سياق القصَّة، إذ يظهر منه أنَّ الأنبياء عليهم السلام يُعاتَبون على الصغائر والهفوات عِتاباً شديداً. والمرادُ به: تأديبُ النبيِّ ﷺ، وحَمْله على التثبُّت وتحمُّل الصُّعوبات في سبيل نشر الدعوة من مُشركي قريش وغيرهم، وأن لا يعتزلهم، بل يتابع فيهم الدعوة، ويُوالي لهم النُّصْحَ والإرشاد. ولا يمنع هذا التثبيت أنه موافقٌ لما في نفسه، وما هو منطبعٌ عليه، فإنه سبحانه يوجِّه إليه مِثلَ هذا على الدوام.

وقد قَرَنَ سبحانه إنابةَ داود بالإجابة والقبول، وقال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾، ولدفع ما يسبق إلى أذهان من لا يدركون مقامات الأنبياء عليهم السلام، فلا يفهمون المعاني في حقِّهم، أردَفَ هذا ببيان كرامته عنده تعالى ومنزلته، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ والزُّلفى: القُرْبى. والمراد بحُسن المآب: الصورة المُثْلى من ثواب الآخرة عند رجوعه إليه تعالى.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩: ١٨٦).

أقول: ومن هذه الزُّلْفى عند الله تعالى: أن يسجِّل له بهذه المنزلة عنده، ويُبشِّره بها قبل الـمُعاتَبة على رأي مَنْ يرى معاتبةً له قولَه تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ ولا تحتجبْ عنهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إذ يحتمل أن تكون هذه الآية عتاباً، أو إرشاداً عاماً في شخص داود عليه السلام، على حدِّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

وقد قال أبو مسلم في معناها: إنا جعلناك خَلَفَ مَنْ مضى من الأنبياء في الدعاء إلى توحيد الله وعَدْله وبيان شرائعه، فاحكُمْ بين الناس بالحقِّ ولا تتَّبع الهوى في حُكمِك، فيَعدِل بك عن سبيل الحق.

أقول: ويجوز أن تكون عبارةً وعتاباً عن تقليل زمن الإرشاد وملاقاة الناس، وتكثير مدَّة العبادة، حتى احتاج الخصمان أن يتسوَّرا عليه المحراب. والله تعالى أعلم.

ثم ذيَّل الكلام بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾[1]، وقال الجُبّائي في تأويل القصَّة: إن أوريا بن حيان خطب امرأة، وكان

---

(١) الذي يظهر لي في وجه الربط بين أمره له ﷺ بالصبر على ما يقولون وبالذكر لقصة داود عليه السلام: أن من عناصر هذه القصة الإلماع إلى عتابه من احتجابه عن الناس، حتى يضطر بعضهم في ملاقاته إلى أن يتسوَّروا عليه المحراب، ولا شك أنَّ في الاحتجاب انصرافاً عن الدرجة القصوى في مواجهة الشدائد وتحمُّل الصعاب بالنسبة إلى ذلك المقام الجليل، فألمع إلى نقده، وأومأ إلى الرسول عليه السلام أن يثبت ويتجرأ في ملاقاة المعارضين والمعاندين، ولا يضعف في دعوتهم، ولْيتحمّل في ذلك منتهى الصِّعاب، كي لا يعاتب مثل هذا العتاب. والله أعلم.

وعليه، فيكون هذا الإلماع إلى نقده: هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص: ٢٤]، والله أعلم. =

أهلُها أرادوا أن يزوِّجوها منه، فخطبها داودُ عليه السلام فقدَّموه على أوريا، وزوَّجوها منه، فعُوتب على ذلك. وقيل: لم يخطب ولم يتزوَّج، وإنما كان ذلك لخاطر خَطَر له دون علم بالخطبة فعُوتِبَ عليه؛ لأن الصغيرة كبيرةٌ في مقام النبوة المَصُون من الصغائر والهفوات، كما عُوتب نبيُّنا ﷺ أشدَّ العتاب في إعراضه عن ابن أم مكتوم بقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١-٢].

ومن يقول بهذا التأويل يقول: إنَّ الداخل عليه ملائكة، وإن هذه الدعوى منهم تنبيهٌ له بصورة تمثيل. وقد يُكنى بالنَّعجة عن المرأة في اللغة. وهذا التنبيه هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص: ٢٤]. أي: فظنَّ أن هذه الحكومة تنبيهٌ له على فَعْلته أو خاطره.

وقد احتجَّ هؤلاء القائلون بهذا التأويل بوجوه:

منها: أن داود أرفع منزلة من أن يَتَسوَّر عليه المحرابَ آحادُ الرعيَّة.

ومنها: قولهم له: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾، لأنَّ آحاد الرعية لا يَتَجاسرون معه على مثل ذلك.

وأقول: إنَّ هذه الوجوه ليست قطعية الدلالة؛ لإمكان تأويلها وتطبيقها على أحوال الرعية كما ذكرنا لك فيما سبق، على أن لفظ: ﴿تُشْطِطْ﴾ يجوز أن يكون من تعابير القرآن عن طلبهم منه العَدْلَ في الحكومة، لا في نصِّ عبارتهم، على نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في أول المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

= والتعبير باتباع الهوى والضلال عن سبيل الله: مبالغةٌ في العتاب عن الاحتجاب؛ لأنَّ حلَّ مشاكل الناس من سبيل الله. هذا رأيٌ أراه بناءً على عصمة الأنبياء، والله أعلم.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ...﴾ مجرَّد تتمة للحكم بالحق وبيان له على الوجه الصحيح، ولا دخل له في العتاب، ولا فيه تلميح إلى وقوع ذلك منه، والله أعلم. (المؤلف).

وإذا فُرِضَ أن هذين الخصمين من أهل البوادي ـ وهو الأغلب - فلا غرابة في خشونة قولهم وفعلهم؛ لأنَّ مثل ذلك جارٍ في عادة أهل البوادي من رعاة الأغنام، فلا غَرابة في قولهم هذا، ولا في تسوُّرهم المحراب. كيف وقد نادى وَفْدُ البادية رسولَ الله ﷺ من وراء الحجرات، وأنَّبهم الله على ذلك، فهذا من فصيلة ذاك، والله أعلم.

وينتصر للرأي الأول أبو مسلم فيقول: لا يمتنع أن يكون الداخلان على داود عليه السلام كانا خَصْمَين من البشر. وأن يكون ذِكرُ النِّعاج محمولاً على الحقيقة دون الكناية، وإنما فَزِعَ منهم لدخولهم من غير إذن، وعلى غير مَجْرى العادة. والملوك تَفْزَع من مثل ذلك، وإنما عُوتِبَ على حكمه بالظلم على المدَّعى عليه قبل أن يسأله.

وقد رُويت هاهنا من الإسرائيليَّات رواياتٌ لا تليقُ بشأن الأنبياء، منها: أن داود عليه السلام أرسَلَ أوريا إلى الحرب بُغْيَةَ أن يُقْتَل ليأخذ زوجته، فقال عليٌّ رضي الله عنه: مَنْ حدَّث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاص جلدته مئة وستين جلدة[١]. يعني: جَلْداً مضاعفاً؛ لأنَّ فيه رمياً لنبيٍّ من الأنبياء، فيكون الحدّ مُضاعَفاً عليه[٢].

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٦: ٣٩٢).

(٢) محصَّل ما قيل في هذه الآيات وجهان:

الأول: أنه كان قد قسم أوقاته قسمين: قسماً لله وحده لا يرى فيه شؤون الناس، فيُمنَعُوا من ملاقاته، فعُوتب على ذلك.

وعلى هذا الوجه، يحتمل أن الذي تسوَّر عليه المحراب خصمان منهم كان بينهما هذه المشكلة يطلبان فَصْلَها، فأدرك أنه مُقصِّرٌ في الاحتجاب.

ويحتمل أنَّ الذي تسوَّر عليه المحراب مَلَكان، صوَّرا له هذه الدعوى لِيُنبِّهاه على تَقْصيره في الاحتجاب.

والوجه الثاني: أنه خطب امرأةً كان أوريا قد خطبها، وداود لم يعلم بذلك، فأعطاها أهلها له ترجيحاً على أوريا. =

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

وبعد انتهاء هذه القصة التي سيقت لتثبيت النَّبيِّ ﷺ ضدَّ مشركي قريش، عاد إلى أصل البحث ـ وهو الكلام عن التوحيد والحشر والنبوَّة، وتقريع أولئك المنكرين لها ـ على نهج القرآن في العودة، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ بل لغاياتٍ جليلة ومقاصِدَ نبيلة، لا لفناء مَحْضٍ لا شيء بعده كما يزعم المُبطِلون.

وكيف ينتهي هذا الكون العظيم بعَدَمٍ صِرْفٍ لا عاقبة له ولا غاية، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فإنَّ جُحودَهم لأمر البعث والجزاء مفادُه نفيُ الحكمة عن خلق السماوات والأرض وما بينهما، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ إذ ينسبون لله تعالى ـ من غير رويَّة ـ ما لا يليقُ بذاته العليَّة من العبث في الأعمال.

ثم انتقل من تقرير البعث والحساب والجزاء بما ذكر من الإلزام والإفحام، إلى تقريره وتحقيقه بإلزام آخر من نوعه، فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بما يقتضيه عَدَمُ البعث والجزاء، لاستواء الفريقين في التَّمتُّع في الحياة الدنيا، وربما كان الكَفَرة المفسدون أوفَرَ حظاً فيها من المؤمنين. وإذا كان هذا الجَعْل محالاً عقلاً تعيَّن البعث والجزاء، وهو وجه الإلزام.

ثم انتقل إلى ما هو أظهر منه استحالةً، وهو التَّسْوية بين أتقياء المؤمنين وعُصاتهم

= وعلى هذا الوجه، يتعيَّن أنَّ الخصمين مَلَكان نبَّهاه على ذلك، فاستغفر ربَّه وخرَّ راكعاً وأناب. ويجوز اجتماع الوجهين معاً، والله أعلم، إلا أن الوجه الأول أَوْلى بأن يكون ذكرى لنبينا ﷺ في تحمُّل أذى قومه، ودوام الدعوة لهم، ومتابعة النُّصح والإرشاد. (المؤلف).

أو أشقياء الكَفَـرة الـمُتمرِّدين، وجَعَله كالتأكيد لـما قبله، فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾، واللازم باطل، فالملزوم مثله. ويجوز أن يُراد بهذين الفريقين عَيْنُ الأولين باعتبار وصفَيْن آخرَيْن هما أظهَرُ في إنكار التسوية وأقوى.

ثم أردَفَ الأسلوب الإنكاري بالأسلوب التقريري، على نهج القرآن في ذلك، مُبيِّناً أنَّ محتويات هذا القرآن ـ بما فيه الحشر والحساب ـ حقٌّ ثابت، ونوَّه بشأنه وعظيم إحسانه، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ لاشتماله على كلِّ ما به سعادة البشر في الدارين، وقد أرسلنا به إليهم ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾، فإنَّ هذه السعادة نتيجة هذا التدبُّر. فأراد سبحانه وتعالى من إنزاله أن يتدبَّروه ليفهموا تعاليمه على وجهها الصحيح، ويعتمدوا على ما جاء فيه من عقائد وأعمال، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ به ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ أي: وليتَّعظ به ذوو العقول السليمة التي لم يُفسِدْها أصحابها، فإنهم هم المستعدُّون للنظر الصحيح والاعتبار بما جاء في هذا الكتاب المبين والقول المستبين بأدنى التفات.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ
ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ
فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾
قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى
بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا
عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

وبعد أن ذكَّرهُ سبحانه قصة داود، وعتابه له على الصغيرة، وإنابته إليه تعالى حين ظنَّ أنه ابتُلي بذلك واختُبر، وثباته في جَنْب الله، ذكَّره كذلك بأمر سليمان عليه السلام واختباره بإنعام الله عليه، وثباته على ما يُرضي الله، وإنابته إلى الله إذا صَدَر عنه من الضعف في المقاومة في أمر الله ما يوجبُ العَتْب والمحاسبة، إيذاناً بشدَّة ثبات الأنبياء في

جانب الله، وحرصهم على رضاء الله، وزهادتهم عن كلِّ شيء، وتحمُّلهم لكل شدَّة في سبيل ذلك. وفي هذا التذكير أيضاً إرشادٌ له ﷺ وتثبيتٌ، كما كان في قصة داود عليه السلام.

وقد علَّق قصةَ سليمان بقصة داود لما بينهما من الاتِّصال، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ﴾، ثم أثنى عليه بقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ أي: رجَّاع إلى الله، حريصٌ على رضاء الله، زاهدٌ عن كلِّ شيء في جَنْب الله.

ثم ذكر صورةً من ذلك، فقال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ﴾ وهو من الظُّهر إلى آخر النهار ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾[1] وهاتان الصفتان هما أمْيَزُ صفات الخيل، فكَرِهَ أن يَشْغَله هذا عن الله، ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: بالأفق أو بالظلام. وقد ضمَّن ﴿أَحْبَبْتُ﴾ معنى: أَنَبْتُ واستَعَضْتُ، فعدَّاها بـ«عن» للمبالغة في ذلك الحبِّ الذي أبعَدَه عن ذِكرِ الله المطلوب من أمثاله[2].

---

(١) الصافنات: جمع صافن، وهو من الخيل ما يقفُ على ثلاثة أرجل، ويرفع الرابعة، وطرفُ حافرِها على الأرض، وهذا لا يكون إلا في الأصيل من الخيل. يقال: صَفَنَ الفَرَس، بوزن: جَلَس.
والجياد: جمع جواد، يُطلَق على الذكر والأنثى، ومعناه: الأصيل سريع الجري، وهذا وَصْفٌ مُوضِّح لِـمَا قبله.

(٢) كان رباطُ الخيل للحروب مندوباً في شريعته كما في شريعتنا، لأن رباط الخيل للحروب شأنٌ قديم اتخذته أقدَمُ الأمم وحافظت بسائرها عليها في جميع الأزمان، والاستعراضُ شأنُ الرؤساء والقُوّاد، يستعرضون الجندَ وخيولَهم ودرجةَ صلاحها وأدوات الحرب كذلك؛ ليقفوا على ما عندهم من القوة، وربما خبر القائدُ بعضَ الخيل أو الأدوات بنفسه؛ ليرى الجيِّدَ من الرديء، والصالحَ من غير الصالح، وهكذا فعل سليمان عليه السلام عندما استعرض الخيل، وأخذ يمسح بيده على سُوقِها وأعناقها، ويتمثلها؛ ليعرفَ الجيِّد من الرديء، ولكنّه أنكَرَ على نفسه انشِغالَه بأمر المُلكِ عما يليقُ به من درجة ذِكرِ الله، على حَدِّ قولهم: حسناتُ الأبرار سيِّئاتُ المقرَّبين. (المؤلف).

وفي ضمير ﴿تَوَارَتۡ﴾ قولان: الأول: أنه عائد إلى الشمس المفهومة من فَحْوى الكلام وقرينة العقل. ومثل ذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). والثاني: أنه عائد للخيل المذكورة بصفاتها، وهو الأَوْلى بالسياق.

وعلى الأول، يكون المعنى: إني اشتغلتُ بحظِّي من الدنيا عن ذكر الله، حتى غربت الشمس؛ يستنكر ذلك من نفسه، منتبهاً إلى أنَّ هذا فتنة من الله له واختبار.

وعلى الثاني، يكون المعنى: إنَّ هذه الخيل شغلت فكري، يريد: أن هذا النوع من المُلكِ قد ألهاني عن ذكر الله. وعلى هذا المعنى يكون قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ معطوفاً بـ﴿حَتَّىٰ﴾ على قوله: ﴿إِذۡ عُرِضَ﴾، وقول سليمان عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه.

ثم قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣﴾ قال في «مجمع البيان» راوياً عن ابن عباس والزهري وابن كَيْسان: أي: جَعَل يمسح أعرافَ خَيْله وعراقيبَها بيده حباً لها. وقيل: بل المسح هنا بمعنى القطع، أي: أنه ذبحها وقطعها وتصدَّق بلحومها إنابةً إلى الله. واعتمد الرأي الأول ابنُ حَزْم في الجزء الرابع من «المِلَل والنِّحَل» عند الكلام على داود عليه السلام، وقال: ليس في الآية أي إشارة إلى ما ذكروه من قَتْل الخيل وتعطيل الصلاة، وإنما ذلك من الخرافات[1].

وقيل أيضاً في معنى قوله: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أن كلمة «عن» تعليلية. والمراد: إني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أحبُّها للغزو عليها في سبيل الله. يُبيِّن إعراضَه عن زخارف الدنيا ما لم يكن فيها تعلُّق في جَنْب الله. وعلى المعنى السابق، يكون الكلام

---

(١) «الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل» (٤: ١٦).

خبراً أخرَجَه مخرج التأسُّف والإنكار على نفسه. وعلى هذا المعنى، يكون الكلام خبراً أخرَجَه مخرج الشكر لله على هذا الإفضال.

ثم بيّن سبحانه أنَّ هذا الأمر كان فتنةً لسليمان عليه السلام كفتنة داود عليه السلام، فقال: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾[١] قال ابنُ حَزْم: المراد: فِتنةُ الملك. وقال أبو مسلم: إنَّ الجسد المذكور هو جسد سليمان عليه السلام[٢]. وهو منصوب على الحال من ضمير ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ المحذوف. والتقدير: وألقيناه على كرسيِّه جسداً. وحذف الضمائر المنصوبة من خصائص اللغة، وسائغ في لغة العرب. واستشهد على حذف الضمير المنصوب بعدَّة آيات.

أقول: وعلى هذا يكون الكلام متسلسلاً يفيد أنَّ سليمان عليه السلام ألهاه هذا المُلكُ عما ينبغي أن يكون عليه من شأنه الروحي اللائق به، فأصبح كرسيُّه جسداً، كما تقول العرب: فلان جَسَدٌ بلا روح، والمطلوب من الأنبياء أن تكون روحيَّتهم في الدرجة العُليا، والإعراض عن زخارف الدنيا[٣].

---

(١) الأنبياء صلوات الله عليهم لهم حالتان: عبادة الله، ونشر الدعوة. ولكلٍّ منهما حدود. والظاهر من أمر داود عليه السلام: أنه أفرط في العبادة وقصَّر في أمر الرعية، وأما سليمان فكان عكس داود، أفرط في أمر الرعية وقصَّر في العبادة، ثم رجعا عمَّا كان منهما وأنابا إلى الله، فأثنى عليهما الثناء الجميل. هذا رأيي، فإن أصبت فالحمد لله، وإن أخطأت فأستغفر الله، ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله. (المؤلف).

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥: ٩٦)، عن ابن بحر.

(٣) الراجحُ في معنى الآية ٣٤ الواردة في فتنة سليمان عليه السلام ما ذكرتُه في تفسيري «المعين» ص٤٥٥: «ونُقسِمُ مؤكِّدين أننا اختبرنا سُليمان وابتليناه، وألقَيْنا على سرير مُلكِه شِقَّ وَلَدٍ له، حين أقسَمَ لَيطوفَنَّ على نسائه، وكلُّهُنَّ تأتي بفارس يجاهدُ في سبيل الله، ولم يقل: إنْ شاء الله، فطاف عليهنَّ جميعاً، فلم تحمل منهنَّ إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءت بشقِّ وَلَد».

فلما انتبه سليمانُ عليه السلام إلى حالته هذه فزع إلى الله وأناب، وطلب منه تعالى أن يُصلِحَ منه هذه الحالة، ويَهَبَ له ملكاً لا يُلهيه، وأن لا تغلبَه عوارضُ المُلكِ على حالته الروحيَّة، ونفسيَّته النبويَّة، ولا تَبعُدَ به عن الله، و﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ملكاً روحياً يلائم النبوَّة ولا يضعف شأنها[١]. والأنبياء لا يسألون إلا ما يُؤذَنُ لهم في مسألته أو ما يُلهَمون به وتشعرُ أرواحهم بضرورته، وربما أُذِنَ له في هذا الطلب أو أُلهم به ليكون معجزةً له على نبوَّته، أو لأنه أصلَحُ في نشر دعوته أو في شأن نبوته، فلا يَتَوهَّمَنَّ متوهِّم أنَّ فيه شيئاً من الأنانية والمنافسة وحُبِّ الأَثَـرَة. وهذا إذا لم نقل: إنَّ الذي طلبه مُلكٌ روحاني لا مَدْخَل فيه للأَثَرَة والافتخار.

وقد استجاب له سبحانه دعوتَه، وقال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: تجري في شأنه إلى أيِّ صَوْب قَصَد وأراد. ويجوز أن يكون هذا في تَسْيير السُّفن الشراعيَّة[٢]، فيكون قوله: ﴿رُخَآءً﴾ بمعنى: مطيعة له في موافقتها للصَّوْب الذي يُريده، وذلك معجزةٌ له، فلا يعارضه قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١]. ويجوز أن يراد بقوله: ﴿رُخَآءً﴾ معناه اللغوي، أي: ليِّنة، على أن تكون تارةً لينةً وتارة عاصفةً شديدةً حسب الحاجة والطلب.

ثم عطف على مفعول ﴿سَخَّرْنَا﴾ وهو ﴿ٱلرِّيحَ﴾ قولَه: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ

---

(١) رجع سليمانُ إلى ربِّه ليُحافِظَ على كمال مرتبة المُحسِنين المُقرَّبين، قال: ربِّ اغفِرْ لي ذنبي، وهَبْ لي مُلكاً عظيماً لا يكونُ لأحدٍ من البشر بعدي، ولا أُسلَبُه في حياتي؛ إنَّك أنت الكثيرُ العطاء.

(٢) تسيير السفن الشراعية جزء من هذا التسخير أو أثر من آثاره، والتسخير أعمُّ من ذلك، فلا يُقيَّد به، لا سيما أن تسيير السفن الشراعية بالرياح مما يعرفه البشر بحسب سنة الله تعالى الكونية في ذلك، فلا إعجاز فيه ولا خصوصية لسليمان عليه السلام.

﴿وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ يغوصون له في البحر يستخرجون اللآلئ يرصِّع بها الهيكل وغيره من أبنيته، ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَـٰفِظِينَ﴾(١) [الأنبياء: ٨٢]، كما جاء ذلك في سورة الأنبياء. وقد سبق تفصيلُ شرحه هناك.

ثم تمّم البيان عن عَظَمة ملكه بقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ أي: من تمرَّد منهم يحبسُه ويشدُّه مقروناً مع غيره بالأغلال، وقد فوَّضه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ لك ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ أي: امنُنْ على مَنْ شئتَ منهم، وأمسِكْ على مَنْ شئتَ منهم، فذلك لك لا تحاسب عليه. ومن المعلوم أنه ﷺ لا يُجري ذلك إلا بمقتضى الحق والعدل الدقيق.

ويجوز أن يكون هذا تمنُّناً بعظم النعمة، والمعنى: تصرَّف بما أعطيناك كما تشاء، تعطي منه مَنْ شئت، وتمنع مَنْ شئت. ولا يقعَنَّ في الخاطر أنَّ في هذا شيئاً من الاستبداد، وهو أمرٌ ممقوت، لأنَّ الأنبياء لا تفعل إلا ما فيه الحقُّ العادل والحكمة البالغة.

وبعد أن ذكر جزيلَ إكرامه له في الدنيا، ذكرَ جزيلَ إكرامه له في الأخرى، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ أي: لم يكن إفضالنا عليه مقصوراً على نعمة الدنيا هذه، بل له في الآخرة ثوابٌ جزيل، وإنعام عظيم، ومنزلةٌ لدينا عالية.

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيۡطَـٰنُ بِنُصۡبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةً مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثًا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ ۗ إِنَّا وَجَدۡنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

---

(١) في الأصل: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلۡجَوَابِ﴾ [سبأ: ١٣]، لكن المناسب لسياق كلام المؤلف هو ما أثبتناه، لا سيما أنه قال بعدها: «كما جاء ذلك في سورة الأنبياء».

وبعد أن ثبَّت النبيَّ ﷺ ونبَّهه بما قصَّه عليه من أمر داود وسليمان عليهما السلام، تابع الغَرَضَ وذكَّره بابتلاء أيوب عليه السلام في جانب نبوَّته، وصَبْره عليه، وما أنعَمَ الله به عليه بعد ذلك، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ وهو ابن عيص بن إسحاق، ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ يعني: بوسوسته له؛ لِيَصرِفَه عن متانة الصبر، إذ كان يجد لمقاومة هذه الوسوسة تعباً وعَناء، فشكا ذلك لله سبحانه كي يُعينَه ويُقوِّيه. والنَّصَب: البلاء والشر. وإنما يحدث في الإنسان من مزالق الشيطان. وقال مقاتل: كان ذلك بوسوسته له؛ أنْ قد طال مَرَضُك، ولا يرحمك ربُّك[1]. وقيل: بل كان يُذكِّره ما كان فيه من نِعَم الله تعالى من الأهل والولد والمال، وكيف زال ذلك كلُّه منه، وصار فيما هو فيه من البليَّة، يُذكِّره بما كان فيه، طمعاً أن يُزلَّه بذلك، ويجد طريقاً إلى تضجيره وتعجيزه، فوجده صابراً مسلماً. وقيل: بل بوسوسته إلى قومه حتى عارضوه وأخرجوه من دياره. فكان ذلك سبباً لمرضه وتشتيت أهله وماله. والله أعلم.

وقد قَرَنَ الله سبحانه دعوتَه بالإجابة، فقال: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي: ابحَثْ برجلك؛ لأن الركض: الدفع بالرجل، من قوله: ركَضَ الفرَس؛ إذا دفعه برجله. فلما بحث بعقب رجله نَبَعَتْ عينُ ماء، فقال تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾، وهذا خبر يُراد به الأمر، فقد قيل: أمره سبحانه أن يشربَ منها ويغتسل، ففعل، فزال ما به.

ثم ذكر ما أكرَمَه به بعد ذلك عندما استقرَّت له الأحوال، واستَتَبَّ له الأمر، وجمع ما بينه وبين أهله، مُلْمِعاً إلى أنه سبحانه يجعل العاقبة والغلبة للمحسنين، والصلاح في الدنيا والآخرة للمتقين، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ قال بعض المفسِّرين: معناه: أزَلْنا عنهم السَّقَمَ فعادوا أصحَّاء. وقال بعضهم: بل حَضَروا عنده بعد أن غابوا عنه، واجتمعوا بعد

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥: ١٠١)، عن ابن عيسى.

أن تفرَّقوا. وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾: إنه سبحانه وتعالى متَّعه بصحَّته وبماله وقوته، حتى كثُرَ نَسْلُه وصار أهلُه ضِعْفَ ما كانوا، أو أضعاف ذلك. وقال بعض أهل هذا العصر: هي هبتُهم له بهداية الله إيَّاهم[١]. والمراد بهم: ذوو عَصَبته وذوو رَحِمِه.

وعلى كلٍّ، فقد منَّ الله عليه بذلك كما قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ به ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾﴾[٢]، قال الرازي: يعني: سَلَّطنا عليه البلاء أولاً فصبر، ثم أزلنا عنه البلاء وأوصلناه إلى الآلاء والنَّعماء، تنبيهاً لأولي الألباب على أنَّ مَنْ صبر ظفر[٣].

أقول: وفي هذه الفاصلة تذكيرٌ بالغاية التي بدأها في السياق بقوله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص: ١٧] الآيات. وهذه الغاية هي تثبيته ﷺ تجاه المعارضين وشدائد الأحوال، وإعلامه بأن العاقبة تكون له لا محال.

أما الآية الآتية فيظهر منها أنه قد بَدَرت من زوجة أيوب عليه السلام بادرةُ ضَجَر

(١) هذا بعيد، واللفظ لا يدل عليه، بل لا يحتمله.

(٢) ليس في سياق قصة أيوب ما يمنع أن تكون متناسقةً مع قصة داود وسليمان عليهم السلام، في جهة جامعة، وهي: بيان ثبوت سائر الأنبياء على مقاومة المعارضين والصمود لهم، وتحمُّل أعظم المشاق في سبيل ذلك، وعتابهم على أقل تقصير نسبي في هذا السبيل. ويكون معنى ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾: أنه يُحاول أن يصرفَه بوسوسته عن متانة الصبر وشدَّة الثبات في مصاعب المواقف، فيجد تعباً مُضْنياً وعناءً قاسياً في مكافحته، فاستعان عليه بالله. وقد يضاف إلى هذا وسوسة الشيطان القويَّة الصُّلبة للمعارضين، فجعلهم يرفضونه ويخرجونه من دياره. وربما كان ذلك هو سبب مرضه وتشتيت أهله وعياله. ولا يمنع أن يكون استقرَّ في مكانٍ لا ماء فيه، فهيَّأ الله له إخراج الماء ليشرب ويغتسل، وجمعه بأهله بعد البعاد فكثروا بعد قلَّة، وعزُّوا بعد ذلة وشَتَات. فيكون مرمى القصص الثلاث: حَمْل النبي ﷺ على الاقتداء بهم والاهتداء. هذا ما أراه، والله أعلم. (المؤلف).

(٣) «تفسير الرازي» (٢٦: ٣٩٩).

تنافي صَبْرَ آل النبوَّة تجاه متاعب الدعوة ومزعجاتها، فحلف ليضربنَّها مئة جلدة تأديباً. فلما أجاب الله دعوته، وكشف عنه كُربته، كان من جملة ذلك أن خفَّف وطأة الحنث عليه، فقال: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ وهو ملءُ الكفِّ من الحشيش ونحوه، ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ في يمينك، أي: أن ذلك يدفع عنك الحنث، ويكفي لتأديب مثلها. وهذه رخصةٌ ورحمةٌ به وبها؛ لحُسْن خدمتها إياه. والرخصة الخاصَّة لا يُقاسُ عليها. وهي ليا بنت يعقوب عليه السلام.

ثم ختم القصَّة سبحانه وتعالى بالثناء عليه فقال: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾، ثم بالغ في الثناء فقال: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾، وكان أيوب عليه السلام من ولد عيص بن إسحاق.

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ثم ذكّره ﷺ بتاريخ بقية الأنبياء وأعمالهم وثباتهم، ورحمةِ الله بهم ونُصْرته لهم، تذكيراً مُجْملاً لنفس الغَرَض السابق، فقال: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ قال أبو مسلم: أي: أُولي العلم والعمل. أقول: وعليه، فقد تَجوَّزَ بـ«الأيدي» عن العمل، و«الأبصار» عن النظر الصحيح، وذلك من خصائص اللغة، ويسميِّه البيانيون: مجازاً مرسلاً.

ثم ذكر كرامتَهم مجملاً، فقال: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ﴾ أي: خَصَصْناهم بخَصْلة خالصة عظيمة الشأن، وهي: ﴿ذِكْرَى﴾ هذه ﴿ ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾، قال الجُبّائي وأبو مسلم:

المراد بالدار: الدنيا، أي: لهم فيها ذِكرٌ حَسَنٌ وشرفٌ عظيم. ويجوز أن يكون المعنى: إنا جعلنا فيهم استعداداً خاصاً لذكرى الدار الآخرة، فهي مَطْمَح أنظارهم في سائر شؤونهم، فلا يهمُّهم إلا رضا الله وما يُقرِّب إليه، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾[(١)] أي: اصطفَيناهم للنبوَّة وتحمُّل أعباء الرسالة.

ثم تابع السياق فقال: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ﴾ بنَ إبراهيم ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾، وكان قد أخلَفَ إلياسَ على بني إسرائيل، ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ وهو ابنُ عمٍّ يَسَع على ما يقال. وقد سجَّل لهم بقوله: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

ثم بيّن تعالى أنَّ هذا الذِّكْر إنما هو بيانُ شَرَفِهم في الدنيا، وأما في الآخرة فلهم أحسنُ الجزاء، فقال: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ لهم وشرفٌ في الدنيا، ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في الآخرة ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾[(٢)]، وهؤلاء من أجلِّ المتَّقين، فهم يرجعون في الآخرة إلى مرجع

---

(١) الذين يرشَّحون للنبوة يُصْطَفَوْنَ لها اصطفاء: قلوبٌ نقية تربطها بالملأ الأعلى أواصرُ الطُّهر والعفاف، وعقولٌ حصيفة ناضجة لا تنخدع عن حقائق الأشياء، ولا يصيبها ما يصيب كبار الفلاسفة من شرود وعَماء، وأجسامٌ مبرأة من العِلَل الخبيثة والأمراض المشوِّهة أو المنفِّرة، وصلةٌ بالناس قوامها البرُّ والإحسان، فلا يتصور في حقِّ نبيّ أنه أخلَّ بحقوق المروءة والتفضُّل، فضلاً أن يرتكب ما يخدش الشرف أو يقدح في العصمة والكمال. وهم رجال يَصْطَفيهم سبحانه وتعالى فينشؤون صُعُداً في مدارج الكمال، تحيطُ بهم العناية الربَّانية، وتقيهم أوضار الطبيعة البشرية، فتفتح قلوبهم لاستقبال ما يأتيهم به الملأ الأعلى عن حظيرة القدس، كما تفتح أجهزة الاستقبال المعدّة لالتقاط الأنباء، فتظل أفئدتهم موصولة بالملأ الأعلى، وبالله عزَّ وجل، فإذا بالحكمة تسيل من ألسنتهم، والنزاهة المطلقة تقترن بأحوالهم واتجاهاتهم، ولا يصدر عن أحدهم ما يخل بهذا الكمال (مقتبس من مطالعتي لكتب أرباب النظر). (المؤلف).

(٢) انتقل إلى وسيلة أخرى من الوسائل الحاملة لهم على الصبر، وهو ما أعدَّ من حُسْن المآب للمتقين، ومن شرِّه للطاغين، وفصَّل أحوالهما تفصيلاً. (المؤلف).

حَسَن عظيم، بيَّنه بقوله: ﴿ جَنَّـٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠ ﴾ ولا يَخْفى ما في هذا الوصف من الإشارة إلى حُسْن القَبول، وكمال العناية بالوصول. فهو تمكينٌ لسهولة الدخول، وإيذانٌ بحُسن الاستقبال والحلول.

ثم تابع المعنى عن شرح حالهم السعيد هناك، فقال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾، وفيه إشارةٌ إلى حُسْن مَعَادِ ما أُعِدَّ لهم من المجالس، ونظامِ ما نُظِّمَ لهم من المساكن والمسالك.

ثم ذكر ما هيِّئ لهم من اللذائذ، فقال: ﴿ يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ۝٥١ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ على أزواجهنَّ، أي: لا تميل إحداهنَّ إلى غير زوجها، وهُنَّ معهم ﴿ أَتۡرَابٌ ۝٥٢ ﴾ أي: متساوياتٌ معهم في سنِّ الكمال. وفي هذين الوصفَيْن زيادةُ بيانٍ في كمال التَّحابِّ بينهما والوئام.

ولتسجيل ذلك للمتَّقين وزيادة تحسيسهم بهذه الكرامة قال: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝٥٣ ﴾ أي: إنَّ هذا العطاء العظيم هو الذي تُوعَدون به في يوم الجزاء. فذكر الحساب وأراد الجزاء، من ذِكرِ السبب وإرادة المسبَّب، أو باعتبار اسمه العام. وفيه إشارة إلى أنَّ هذا اليوم الرهيب على غيركم يكون هناءً لكم وسعادة. اللهم اجعَلْنا من هذا الصِّنف يا أرحم الراحمين. وإنما ذكر اللام بَدَلَ (في)؛ ليدلَّ على الغاية.

ثم أكمَلَ هذا الوعدَ الكريم والحبور العظيم، ببيان أنه دائمٌ لا يتناهى، فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أي: ما ذكر من أنواع النِّعَم والكرامات ﴿ لَرِزۡقُنَا ﴾ لكم في الآخرة، و﴿ مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤ ﴾ أي: إنه دائمٌ خالد لا ينقطع أبداً. اللهمَّ اجعلنا ممَّن سبقت لهم منك الـحُسْنى يا أرحم الراحمين.

﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ۝٥٨ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ

﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

وبعد أن فصَّل البَحْثَ وخلَّله بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ للتحسيس به وللإشعار بانتهاء البيان عنهم وانتقاله، قابَلَ أحوالَ المتَّقينَ بأحوالِ الطاغين، زيادةً في تحسيس المؤمنين بسعادتهم، والكافرين بشقاوتهم؛ لظهور الشيء ووضوحه بضدِّه، فقال: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ أي: إنهم ليرجعون في الآخرة إلى مرجع سيِّئ رهيب، بيَّنه بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ أي: بئس الـمَهْدُ والمُفْتَرَشُ ما يَصْلَونه من جهنَّم، يُقبِّح حالهم في ذلك. وهذا مُستَعارٌ من فراش النائم.

وبعد أن ذكر مقرَّهم الجحيم، ذكر شرابهم الأليم، فقال: ﴿هَٰذَا﴾ يشير إلى ما هُيِّئ لهم من الشراب، وهو مبتدأ، وقوله: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ اعتراضٌ عُجِّل به لزيادة التأنيب والتأليم، وقوله: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ خبرٌ للمبتدأ، وهي مشروبات أهل النار، ﴿وَ﴾ لهم نوعٌ ﴿ءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: لهم أصنافٌ وألوانٌ أُخَرُ من شكل هذا التعذيب. أعاذنا الله. ويجوز أن يكون ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف، أي: هي أزواج وأصناف.

ثم ذكر ما يكون بين الأتباع والرؤساء من المُخاصَمة، وبين الأتباع أنفسهم من المكالمة، على نهج القرآن في مثل هذا الموقف، وافتتح ذلك بما تقوله لهم الخَزَنة عند ورود النار، إذ يقولون لهم: ﴿هَٰذَا﴾ مشيرين إلى فوج الأتباع ﴿فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ النار ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾، تقول ذلك الـخَزَنةُ تقبيحاً لشأن الأتباع وتأنيباً للرؤساء. وقيل: بل إنَّ قول: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ هو جواب الرؤساء للخَزَنة في حقِّ الأتباع، يقولون ذلك تَضَجُّراً من مقارنتهم، ونفوراً من مصاحبتهم.

وقال بعض المفسِّرين: الكلامُ كلُّه كلامُ الرؤساء بعضهم مع بعض في حقِّ الأتباع.

ثم علَّلوا نفي التَّرحاب بقولهم: ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ أي: داخلون النار بأعمالهم ومُصْطَلون بها.

ثم حكى ما يقوله الأتباع للرؤساء جواباً عن ذلك بقوله: ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أي: أنتم وحدكم المستحقُّون لهذا التأنيب، لأنكم ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: سبَّبتم لنا دخول الجحيم والاصطلاء بها، ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾ لنا ولكم في هذا الجحيم[1].

ثم تضرَّعوا إلى الله و﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ أي: عذاباً مُضاعَفاً؛ لأنه ضَلَّ وأضلَّ.

ثم ذكر عنهم لوناً آخرَ من ألوان إظهار الندم والتحسُّر، وهو توبيخُ أنفسهم والسخرية بها؛ لَـمَّا كانوا لجهلهم وضلالهم يَزْدرون بفقراء المسلمين ويسخرون بهم، وكيف حالت حالُهم وحالُ أولئك الفقراء. فحكى سبحانه ذلك عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض مستهزئين بأنفسهم، بأسلوب الاستفهام التوبيخي والتنديمي: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ

---

(١) يجوز أن يكون الكلام كلُّه من الخَزَنة على مَسمَع من الفوج، فتصدَّى الفوج لأهل النار، وردَّ إليهم الوصف، مريداً أنهم أحقُّ بهذا التقريع؛ لأنهم هم السبب في هذا الشقاء. ويجوز أن يكون ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ من كلام أهل النار نعياً على الفوج، فرد الفوج عليهم الوصف وخاصمهم.
وقوله: ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ يجوز أن يكون من كلام الله سبحانه نعياً على الجميع، والله أعلم. (المؤلف).

ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾[١]؟ يعنون المؤمنين أو فقراءهم.

و﴿أَمْ﴾ إمّا مُعادِلة لجملة: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ﴾، ويكون مُحصَّل الكلام: ما لنا لا نراهم؟ ألأنّهم في الجنة؟ آه.. كيف كنا نَسْخَر بهم ونعدُّهم من أهل النار؟! أم هم معنا في النار وقد زاغت عنهم أبصارنا فلم ترهمُ أعيُنُنا؟! يقولون هذا استهزاء بأنفسهم لتحقُّقهم أنّهم من أهل الجنة. وإما مُعادِلة لجملة: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ على معنى: أكانت سخريتُنا بهم في محلِّها أم زاغت أبصارُنا في معرفة أمرهم، فظننّاهم من أهل النار، وكانوا من الأبرار؟ وعلى كلٍّ، فالكلام تأنيبٌ لأنفسهم واستهزاءٌ بها ملؤه الألم والندامة.

ثم ختم سبحانه البيان بما يقرِّره، فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ أي: أمرٌ واقعٌ لا شك فيه. اللهمَّ أجِرْنا من النار.

ومن مباحث اللفظ أنه قُرئ: (اتَّخَذْناهُم) بوَصْل الهمزة على الخبر، وبفَتْحِها على الاستفهام[٢]. قال أبو عبيدة: وبالوصل يقرأ؛ لأن الاستفهام متقدِّم في قوله: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾، ولأن المشركين لا يشكُّون في اتِّخاذهم المؤمنين في الدنيا سِخْرياً؛ لأنه تعالى

---

(١) مضمون الكلام تندُّر مطويّ على الألم والندم، يقولونه بعد أن يَرَوا أنفسَهم في النار، والمؤمنين في الجنة، يقول بعض هؤلاء الطاغين لبعض تعريضاً وتنديماً وتقريعاً لأنفسهم: ما لنا لا نرى في النار من كنّا نعدُّهم من الأشرار، أهم معنا ولم ترهم أعيننا، أم ليسوا معنا؟ يتندَّر بعضهم على بعض في ذلك تندُّراً مطوياً على التأنيب والتقريع.
وقوله: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ تأنيبٌ آخر ضمن التأنيب الأول، قُصِدَ به المبالغة في التقريع لأنفسهم والتنديم، أي: كيف كنا نسخر بهم وبدينهم وما يؤمنون به ويعتقدون من أنهم من أهل الجنة ونحن من أهل النار؟! وكنا نعتقد سفاهةً أننا من أهل الجنة وهم من أهل النار، وهكذا يسخرون بأنفسهم ويستهزؤون بما بان لهم من سَفَاهتهم وجَهَالتهم سخريةً واستهزاءً ملؤها الحزن والأسف والندامة. (المؤلف).

(٢) «السبعة في القراءات» ص٥٥٦.

قد أخبرَ عنهم بذلك بقوله: ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ [المؤمنون: ١١٠]، فكيف يَحْسُنُ أن يستفهموا عن شيء عَلِمُوه؟ فأجابه الفرَّاء بأنَّ هذا من الاستفهام الذي معناه التعجُّب والتوبيخ(١). ومثل هذا الاستفهام جائزٌ عن الشيء المعلوم. انتهى.

وقوله: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ بَـدَلٌ من قوله: ﴿لَحَقٌّ﴾، أو خبر لمحذوف. وقُرِئ بالنصب على أنه بَدَلٌ من ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: من اسم ﴿ إِنَّ ﴾.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وبعد هذا البيان الترهيبي عن مصيـر الكفار المهيِّئ للنفوس إلى الاعتبار، أمرَ رسولَه أن يَدعُوَهم إلى ما يُنقِذُهم، وهو التوحيد، وَصْفاً للدواء بعد الداء، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) انظر «معاني القرآن» للنحاس (٦: ١٣٣)، و«معاني القرآن» للفراء (٢: ٤١١).

﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغْلَب على أمره، ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى. والجمع بين هاتين الصفتين لبيان أنَّ وَجْهَ تأخير العقاب عنهم، إنما هو رجاء أن يتوبوا فيُغفر لهم، وليس ذلك عن عَجْز في القدرة.

ثم بالغ في التحسيس إلى الاهتمام بما تقدَّم من البيان، فقال: ﴿قُلۡ هُوَ﴾ أي: ما أنبأتكم به من يوم الحساب، أو من كلِّ ما تقدَّم ﴿نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

ثم بالغ في تقريره بالاستدلال على أنَّ ما أتى به من ذلك إنَّما هو الوحيُ لا شيء من عنده، وأومأ إلى أنَّ إعراض الإنسان عن سبيل الرَّشاد إنما يكون من غَواية الشيطان، فصاغَ الاستدلال من هذا الموضوع للأمرَيْن معاً، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: في أمر آدم، ولكنه الوحيُ يُوحَى إليَّ فأُنذِرُكم به. فإنَّ إخباره عن تَقاوُلِ الملائكة وما جَرَى بينهم في حقِّ آدم كما وَرَد في الكتب المقدَّسة مع أُميَّته ﷺ لا يُتصوَّر أن يكون إلا بالوحي.

ولما جعل عِلمَه بالملأ الأعلى دليلاً واضحاً على صدقه في دعوى النبوة والإيحاء إليه، صرَّح بالنتيجة فقال: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم فصَّل اختِصامَ الملأ الأعلى، فقال: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ﴾ فكان قابلاً للاحتفاظ بالروح، حيث يتحوَّل الطين ويتطوَّر إلى جسم صالح لذلك. وقد مرَّ الكلام على هذا البحث بصورة مفصَّلة في سورة الحِجْر(١)، فارجع إليه لتقفَ على الفرق بين الروح والحياة، وأنَّ الروح لا تصاحب الجسم ويظهر أثرها فيه إلا إذا كان حياً محافظاً على هذه التسوية، لذلك قال: فإذا سوَّيتُه ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾

---

(١) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ...﴾ [الحجر: ٢٨].

والإضافة للملك، أي: من هذا الشيء الذي هو من أَمْيَز وأشرف موجوداتي ومخلوقاتي، وهو الـمُسمَّى بالرُّوح، والذي خصَّ به المَلَك والجن والإنسان، ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾ بذلك الاستكبار.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ استِكبارَ المشركين على النبيِّ ﷺ مُؤَدٍّ بنتيجته إلى ما حاق بإبليس، كما حكى ذلك سبحانه بقوله: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾[1]، وفي هذا القيد إشعارٌ بكرامته وميزته.

ثم فصَّل هذا الاستفهام الإنكاريَّ بقوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾ وفي صيغة التعبير تبكيتٌ تهكُّمي على نهج القرآن في مثله، أي: تكبَّرتَ من غير استحقاق، أم كنتَ ممَّن علا حقيقةً واستحق التفوُّق والتكبُّر؟

فأجاب مدَّعياً أن ما بعثه على التخلُّف عن السجود إنما هو فَضْلُه عليه في المادة؛ و﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾، ولم ينظر في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ إلى

---

(١) مذهب السلف: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسَه، وسمَّى بها ذاتَه، في كتابه وتنزيله، أو على لسان رسوله، من غير زيادة عليها ولا نقصان منها، ولا تجاوز لها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين ولا سِمَات المُحْدَثين، ولا تفسير لها ولا تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أَمَرُّوها كما جاءت، وردُّوا علمها إلى قائلها، وفوَّضوا معناها إلى المتكلِّم بها، وهو الله سبحانه، ومن ذلك ما جاء عنه تعالى من المجيء، والنزول، واليد، والوجه، والاستواء على العرش، إلى أمثال ذلك. فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفية عنها، لأنَّ الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، وإثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات، إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١].
أما مذهب الخلف فتأويل مثل ذلك بالمعاني المجازية والمفاهيم الكنائية والاستعمالات العرفية. (المؤلف).

أسباب الفضل الحقيقية التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، وهي سَعَةُ علم هذا المخلوق بأحوال الأرض مما يدور عليه أمْرُ خلافته فيها، كما ذكر في سورة البقرة.

فأصدَرَ سبحانه أمْرَه بحقِّه و﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنَّة، أو من زمرة الملائكة، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ أي: مَطرودٌ من كل خير وكرامة، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ أي: إبعادي لك عن الرحمة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾[1] أي: يوم الجزاء والعقوبة. وفي هذا الوصف إيذانٌ بأنَّ اللعنة ـ مع شدَّة فظاعتها ـ ليست كلَّ الجزاء لجنايته، وإنما هي منها، وسيَلْقى في الآخرة ويوم الدِّين من أنواع العذاب أفانينَ العقاب، كما جاء بيانُ بعض ذلك في غير هذه السورة.

ثم حكى سبحانه ما كان من أمر إبليس بعد هذا الحكم بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾ للجزاء، ويريد بهذا الطلب أن يستفيد من الحياة الدنيا عندما حُرِمَ من سعادة الحياة الأخرى.

فأجابه تعالى لما فيه حكمتُه من السُّنن الكونية لا لطلبه، فكان هذا توفيقَ أقدار

---

(١) لا يبعد أن تكون صيغة المكالمة مجرَّد حكاية من الله سبحانه عن ضلال إبليس وغَوايته عندما عَـرَضَت له هذه الهواجس التي دفعته إلى الامتناع عن أمر الله بالسجود، فضلَّ وغوى، وعن تأثر الإنسان بمثل هذه الغَواية اتباعاً لخطة إبليس، وذلك إذا أفسد طبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة، ولم يبق على إخلاصه وسلامة طبيعته التي طبعه الله عليها. والله أعلم بحقيقة الأمر. (المؤلف).

قلت: بل هذا بعيد، وقد تقدَّم مراراً خطأ المؤلف في دعواه أن المكالمة مجرَّد حكاية، بل هي حقيقة واقعة، تكرَّر ذِكرُها في القرآن الكريم عدة مرات، وأكَّدها الله سبحانه بعدة مؤكدات. وإخراجُها عن حقيقة المحاورة إلى المجاز المذكور عدولٌ عن الحقيقة إلى المجاز من غير سبب يقتضيه، ولا قرينة تدل عليه، فلا يكون صواباً.

لأقدار، ومن حِكَم الله العليَّة التي لا تصل إليها الأنظار، و﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ الذي قدَّره سبحانه وتعالى وعيَّنه لانتهاء الدنيا والتَّحوُّل إلى الأُخرى.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ وذلك بحسب سُنَّة الله العامة في أخلاق الجنِّ والإنس من أنَّ الراسخين منهم في الضلال والمنطبعين على التقليد الأعمى يفقدون الاستعداد لإجابة داعي الحقّ والرشاد، بخلاف مَنْ زكَّى نفسه وحافظ على سلامة فطرته ونور بصيرته واستعداده الفطري لقَبول الحقِّ والإعراض عن الباطل، لذلك قال: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ وهم الذين حافظوا على سلامة طبائعهم المُخْلصة بأصل خِلْقتها، ولم يفسدوها بالتحريف والتخريب، نتيجة مفاسد التربية والقدوة السيئة. وكلَّما كان إفساد الطبيعة بهذه المفسدات أكثر كان تدخُّل الشيطان فيها أشدَّ وأقوى، كالجراثيم الفتَّاكة بصحَّة الإنسان، تكثر وتَتَعاظم إذا وجدت طبيعةً فاسدةً قد خرَّبها وأعطبها صاحبُها بمعاكسة السنن الطبيعية الصحيَّة، فأصبحت لا تقاوم هذه الجراثيم والطوارئ.

فالآيةُ بيانٌ عام لطبيعة الإنسان واستعدادها للانحراف والفساد بوساوس المفسدين، وهذا هو الغَرَضُ من ذكر هذه القصَّة، أعني: بيان منشأ معارضة هؤلاء المشركين لرسول الله ﷺ، وقد مرَّ الكلام على معنى مقاولة إبليس في سورة النساء والإسراء[١]، فارجع إليه.

وقد تكلَّم الأستاذ الإمام[٢] في سورة البقرة عن الحكمة في خَلْق هذه القوة المعبَّر

---

(١) ينظر: الآيات ١١٨-١٢١ من سورة النساء، و الآيات ٦١-٦٥ من سورة الإسراء.

(٢) يعني: الشيخ محمد عبده.

عنها بإبليس(١)، فقال: إنها قوّة لزَّها الله بهذا العالم لزاً(٢)، تميل بالمستعدِّ للكمال أو بالكامل إلى النقص، فتعارض اتِّباع الحق وتَصُدُّ عن عمل الخير، وتنازع الإنسان في صَرْف قواه إلى الكمال الوجوديّ الذي خُلِقَ مُستعداً للوصول إليه، فقد لزَّها الله بالإنسان لتزكية هذا الكمال فيه، إذ لا يثبت على المحك والمقاومة إلا المؤمن الخالص. انتهى بتصرُّف(٣).

وقالوا: إنَّ الشيطان قوَّةٌ نزَّاعة إلى الشر(٤)، وهو من عالم الغيب لا تُدرك حقيقته. وقالوا: إنَّ لكلِّ إنسان شيطاناً، وهي قوة نزَّاعة إلى الشر يحدث منها في نفس الإنسان خواطر السوء فيقاومها العقل، حتى تكون الغَلَبة لأحدهما، فإذا كان العقل لم يفسده صاحبُه بمفاسد التربية وسوء القدوة، فالغلبة له، وإلا فالغلبة لها.

أقول: وتحرير البحث أنَّ الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الإنسان ذا علم واسع ليكون خليفة في الأرض يتصرَّف فيها إيجاداً وتعميراً، وهذا لا يكون إلا إذا كان مطلق التصرُّف في شؤونه، يجري وراءها بعقله المتكيِّف بحسب نوع التربية، فجعله الله مختاراً في تصرُّفاته، رائدُه إرادتُه، وهذه الطبيعة تكون مستعدّة للخير والشر معاً، فإذا رُبِّيت على الخير تَدَرَّجت في صنوف الكمال، وإن رُبِّيت على الشرِّ تدهورت في الحطة والسّفال. والله أعلم.

وقد احتاط سبحانه لهذا الإنسان وجهَّزه بهدايتين: هدايةِ الطبيعة، وهدايةِ الشريعة.

---

(١) القول بأن إبليس قوة؛ خطأ جسيم لا يُقرُّ عليه قائله، بل إبليس مخلوق جسماني حقيقي.
(٢) اللَّزّ: الشِّدَّة واللُّزوم، كما في «لسان العرب» (لزز).
(٣) تفسير «المنار» (١: ٢٢٤).
(٤) القوة النزاعة إلى الشر: هي استعداد فطري في الإنسان، كما أن الاستعداد الفطري المقابل له: هو قوة نزاعة إلى الخير، والأُولى يعمل الشيطان على تغذيتها وتنميتها لتغلب الثانية، لا أن الشيطان هو تلك القوة نفسها.

فهو يميلُ إلى الخير بطبيعته ما لم يُفسِدها بمفاسد التربية، وأرسل له الشريعة تضيء له الطريق.

وقد ذكر الله سبحانه حكمَه في إبليس ومتَّبعيه من الجنِّ والإنس، و﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ في الغواية والضلال ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من ذريَّة آدم ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

ومن مباحث اللفظ: أنَّ قوله: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ مبتدأ محذوفُ الخبر، تقديره: قَسَمي، وقوله: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ جملةٌ اعتراضيةٌ بين القَسَم والمُقْسَم عليه، وهو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾.

ثم ختم السورة بما بدأها به، وهو إثبات رسالة الرسول ﷺ، وما جاء به في هذا القرآن، فقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتظنُّوا أني أريد به الدنيا فتتَّهموني بأني أنتحلُ النبوَّة لذلك، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: من المتصنِّعين بالكلام من صنف الخطباء والشعراء والكتاب، فتتَّهموني أني أتقوَّل هذا القرآن. كيف ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله عزَّ وجل ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾: يُذكِّرهم به مصيرَهم، ويهديهم به لرُشْدهم، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ أي: ولتحققنّ ما أنبأ به من الوعد والوعيد بعد الموت ويوم يقوم الحساب.

* * *

سُورَةُ الزُّمَرِ

مكيَّة إلا آية: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ...﴾ [٥٣]

وهي خمس وسبعون آية

وموضوعها:

ـ إخلاص التوحيد والعبادة لله تعالى، والتعلُّق به رأساً دون واسطة.

ـ والنهيُ عن اتِّخاذ الوسائط للتقرُّب بهم إلى الله والدعاء منهم، كالأولياء ونَحْوهم.

ـ وإبطال أن يكون له وَلَد، لأنَّ الولد يُجانس والدَه، وإنْ كلُّ ما في السماوات والأرض إلا مخلوق لله تعالى وآتي الرحمنِ عَبْداً، وليست هذه صفة الولد وخصائصه، كما هو معروف.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ
ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا
نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ
سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى
ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ
أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ
ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ
لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ
ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا
خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ
بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ والتعرُّض لوَصْفَي العزَّة والحكمة، للإيذان بظهور أثرهما في هذا الكتاب المنزَّل، فأحكامه ومواعظه وبياناته كلُّها مبنيةٌ

على الحِكَم الباهرة، ووَعْدُه ووعيدُه واقعٌ لا محالة[١].

ثم بيَّن أهمَّ ما فيه، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾[٢] كما يأمرك هذا الكتاب، ولا تشرك به شيئاً صريحاً أو خفياً؛ لأنَّ الله سبحانه لا يقبل إلا ما خَلَصَ له، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ فهو وحده المستحقُّ أن يُعْبَد، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ قائلين: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾[٣] من أمر الأديان واختلاقهم لها، ويُجازيهم على شركهم هذا أشدَّ الجزاء.

ثم ذكر منشأ هذا الضلال فيهم، ببيان سنة الله العامة في انطباعات الإنسان وتكوّنها، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾ بمعنى: أنَّ من رَسَخت فيه مَلَكَةُ الكذب فأصبح يَهْرِفَ بما لا يَعْرِفُ، ومَلَكَةُ الكفر فكان يكتم الحقَّ ويُظهِرُ الباطلَ بالتقليد الأعمى لآبائه ومِلَّتِه، يفقد الاستعداد للهداية والنظر في أسبابها ووسائلها، ولا يميل إلى سماع ما يخالف عقيدته وما انطبع عليه.

والمراد من الكذب هنا: ما يشمل نسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى في عموم الجملة قبله، يُفهَمُ ذلك من الردِّ بقوله: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا

---

(١) لكنه سبحانه قد يعفو عن بعض وعيده كرماً منه وفضلاً، ويبقى بعضُ وعيده الآخر واقعاً لتحقُّق صدق خبره تعالى، فلا منافاة بين الإخبار بالوعيد والعفو عنه حينئذ.

(٢) الإخلاص: أن يأتي الإنسان بأعمال نقيَّة لا يشوبها شرك ولا رياء. وهو من الصفات الروحيَّة التي تسمو بالمرء إلى منزلة رفيعة من الخلق الإنساني. (المؤلف).

(٣) كانت العرب تطلق على كل ما تعتقد أن له سلطة في هذا الكون اسم «إله»، ولكن لا تُسمِّيه: الله؛ لأنه اسم للخالق وحده. وكل دعاء وتعظيم يُوجِّهونه إلى من يعتقدون فيه تلك السلطة: عبادة. (المؤلف).

يَشَآءُ﴾، ويجوز أن يكون هذا صنفاً آخر من الشرك، قَرَنَه بالصنف الأول. ووجه الرد: أنَّ الله سبحانه لو أراد أن يتَّخذ ولداً، لَـمَا خَرَج الأمر عن أن يكون اصطفاءَ عَبْدٍ لأنه من مخلوقاته، وحينئذ يكون المعنى: أنه ﴿لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [صَ: ٤٧]، وهذا هو معنى ما جاء عن بعض الأنبياء[١] من أنه ابن الله، أي: قد اختاره الله واصطفاه، أو يقول النبيّ: أبي الذي في السماء، فالبنوَّة لقبُ شرفٍ وتقرُّب لا غير، ولا يريدون غير هذا المعنى. وليس هذا المعنى معنى الولد والبنوَّة حقيقةً، ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ أن يكون له ولدٌ حقيقيٌّ، بل ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾.

وهذا تعليلٌ للتنزيه، وإلماعٌ إلى أنَّ ما يحتاج إلى الولد هو الذي يكون عُرْضةً للفناء العاجل؛ ليقوم وَلَدُه مقامَه، ويبقى النوع بالتناسل ـ كما رمز إلى ذلك بآية التناسل الآتية ـ أما الواحد القهَّار الأزليّ الأبديّ فلا حاجة له بالولد، بل لا حاجة بالولد للذي يبقى أزماناً طويلة من المخلوقات، كالملائكة والنجوم والجبال، وما إلى ذلك، فما ظنُّكم بربِّ العالمين الدائم بلا زوال؟ تعالى الله عمَّا يقول الظالمون عُلواً كبيراً[٢].

---

(١) على تسليم ثبوت ذلك عنهم جدلاً، وأنى يثبت؟!

(٢) كان بعض الأنبياء ـ ولا سيما أنبياء بني إسرائيل ـ يقولون: ربنا الذي في السمـاء، ويعنون: أنهم مُصْطَفَوْنَ من جانب الله، إلا أنَّ الرومان لما أرادوا الدخول في النصرانية وكانوا مشركين مُثلِّثين يقولون بالأب والابن والزوجة، فلما أرادوا الدخول في النصرانية اتَّخذ قسطنطين مجالس عدَّة، وكان يحضرها نصارى الشرق، فطوَّر الدين النصرانيَّ إلى ما يَقْرُبُ من دينه، وقال: بأن الإله الأب والابن وروح القدس، فجعل كلمة «روح القدس» عوضاً عن الزوجة، وكاد يقوم نزاعٌ بينه وبين نصارى الشرق، وأخيراً تغلَّب عليهم، وجعل الدين النصرانيَّ على هذا الوضع، ودخل الرومان فيه، وكان نصارى الشرق يعارضون في ذلك، فطردهم واستقرَّ الدينُ النصرانيُّ على هذا الوضع حتى اليوم. =

ثم ذكر من صفاته وأفعاله تعالى ما يدلُّ على أنه لا شبيهَ له ولا مثالَ حتى يكون ذلك ولداً له أو شريكاً، وأنه وحده مُسْتَحقٌّ للألوهيَّة، وإليه المرجعُ والمآب، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: فلم يخلقها عَبَثاً، بل خلقهما لأمر له ما بعده من الحشر والحساب، وخلقهما بالحكمة والوجه الذي يحقُّ أن يخلقا عليه، ومن ذلك أنه ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يغشي كلَّ واحد منهما الآخر، كأنه يلفُّه عليه لفَّ العِمَامة على الرأس، أو يُغيِّبه به كما يَغيبُ الملفوف باللفافة، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: جعلهما مُنقادَيْنَ لنظام دقيق محكم سديد.

ثم أشار إلى أجل انحِلالِ هذا النظام وفناء العالم المعبَّر عنه بيوم القيامة، فقال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ أي: يقوم بعمله في هذا التسخير ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، ثم يَنْحَلُّ هذا النظام ويُبدَّل هذا العالم.

وقد ختم السياق بقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾ للإشارة إلى أنَّ إمهالهم مع كفرهم هذا ليس عن عَجْز في القدرة، ولكنه من مقتضى صفاته سبحانه، فلا يعاجلهم بالعقوبة، رجاءَ أن يتوبُوا فيغفر لهم.

ثم تابع البيان عن كمال قدرته واختصاصه بأفعال الربوبيَّة، مشيراً إلى ما يحتاج إلى الولد من مخلوقاته وتنويعه إلى ذكر وأنثى في خِلقتِه ونظامه، للتنزيه له تعالى عن مثل ذلك، فقال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: جَعَل لها زوجاً من

= وإلى هذا أشار قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، يعني بهم: الرومان. (المؤلف).

جنسها، بمعنى: أنه خلق البشر ذكراً وأنثى من أصل الخلقة ليتمَّ التناسُل، فضميرُ ﴿مِنۡهَا﴾ يرجع إلى النفس باعتبار الجنس. وكلٌّ من الزوجين مُتمِّمٌ للآخر، فكأنهما وحدة واحدة، ومن مثل هذا يكون الولد.

ثم تابَعَ مِثْلَ هذا البيان في الإنعام، فقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ والإنزال هنا بمعنى: الإيجاد في أصل الخِلْقة، مثل قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ [الأعراف: ٢٦]. والمعنى: خَلَقْنا لكم ذكراً وأُنثى من كلٍّ من الإبل والبقر والضأن والمعز، من أول تكوين هذه الأصناف. وإنما خصَّ الأنعام بالذِّكر مع أنَّ هذا جارٍ في سائر الحيوان؛ لأنها تحت تصرُّفهم وأمام نَظَرهم أكثر من غيرها. ففي التمثيل بها كفايةٌ في أنَّ ذلك للتناسُل وبقاء النوع؛ لأنه عُرْضةٌ للفناء العاجل، الذي من مقتضياته التوالد والتناسل لبقاء النوع، بخلاف الخلّاق الباقي جلَّ جلاله.

وبعد أن ذكر أصل الخِلْقة في الإنسان والحيوان، ذكر أطوارَها المختلفة المتدرِّجة، رامزاً إلى ما فيها من دقَّة الصُّنع وسَداد الإتقان، تتميماً لبيان نظام التوالد، وإشارةً إلى قدرته العليَّة، واستحقاقه أن ينفرد بالألوهيَّة، ويُنزَّهَ عن الولد والشريك والمثال. وخصَّ الإنسان بالخطاب لأنه المقصود، وبيَّن عَظَمة قدرته في شيء من الأشياء التي لا تُحصى تمثيلاً لقدرته العليَّة، فقال: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ نطفةً ثم علقةً ثم مُضْغةً ثم عظاماً... إلخ، أي: طوراً بعد طورٍ ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾، فهذا هو التـوالد لا التمييـز والتكريم في بعض المخلوقات. وقد قيل: إن المراد: ظلمة الغشاء ـ أي: المشيمة ـ وظلمة الرَّحِم والبطن، أو: ظلمة الغشاء وظلمة السماء داخِلَه وظلمة الرَّحِم. إلا أن الظلمة قد تطلق على الشيء المجهول والسرِّ المستور، فلعلَّ المراد به أسرارٌ ثلاثةٌ خفيةٌ من أسرار تكوين الجنين. والله أعلم.

وبعد أن بيَّن ونبَّه إلى عظيم قدرته، واختصاصه بأفعال الألوهيَّة وصفاتها، وعدم احتياجه إلى التوالد، واستحالته في حقِّه تعالى، مَـخَّض النتيجة فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ وحدَه، وكلُّ ما عداه مملوكٌ له لا شريك له فيهم ولا ولد، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ عن الحقِّ وتُؤفكون ويُلْعَبُ بعقولكم بأنَّ له شريكاً وولداً؟! تعالى الله ربُّ العالمين.

وبعد أن زيَّف الباطل وأحقَّ الحقَّ حتى ظهر في البيان كالشمس في العيان، بيَّن تعالى أنَّ كُفرَهم لا يضرُّه وإنما يضرُّ أنفسَهم، وأن شكرَهم لا ينفعه وإنما ينفع أنفسَهم، فقال: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ لا يضرُّه كفركم شيئاً، ﴿وَ﴾ لكنَّه ﴿لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ فهو يُجازيهم عليه جزاءً وبيلاً، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ ويثيبكم عليه ثواباً جزيلاً. وقد جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحد منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً. ولو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أفجَرِ قلبِ رجلٍ واحد منكم، ما نقص ذلك من مُلكي شيئاً. إنما هي أعمالُكم أُحصيها لكم، ثم أُوفِّيكم إيَّاها، فمن وَجَدَ خيراً فَلْيَحْمَدِ الله، ومَنْ وَجَدَ غيرَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسَه»[1].

ثم بيَّن تعالى أنَّ كفر الكافر يقتصر عقابه عليه، لا يَسْري إلى أقاربه وحواشيه إذا كانوا مؤمنين، فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفسٌ ذنبَ أخرى، بمعنى: لا يُـؤاخَذُ بالذنب إلا مَنْ يرتكبُه ويفعلُه، وذلك لأنَّ عقاب الذنب طبيعي مبنيٌّ على سُنة كونية في تكييف الروح[2]، فكما أنَّ الجوع لا يزعج إلا نفس الجائع،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧)، وأحمد (٢١٤٢٠)، عن أبي ذر.

(٢) تقدَّم تعليقاً نقدُ هذا المعنى في عدَّة مواضع من هذا التفسير، وبيان أن العقاب مُرتَّبٌ على =

والمرض لا يُؤلِم إلا جسم المريض، فكذلك الذَّنب لا يُؤثِّر إلا على نفس صاحبه. والله أعلم.

وإنما عبَّر عن النفس بالوازرة للإشارة إلى أنَّ كلَّ نفس لا تَسْلَم من الوِزْر في الغالب، وهي تحمل وِزْرَها وحدها، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقد استعمل التَّنْبيءَ في محلِّ الجزاء ليدلَّ على إحصائه لأعمالهم وبيانها لهم ومجازاتهم بها. ثم علَّل دقَّة الإحصاء بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ ﴾ أي: هواجسِ النفس وخواطرِها، فلا يَخْفى عليه من أمركم خافية.

وبعد أنْ دلَّل على فساد القول بالشرك وإثبات التوحيد لله بالدليل العقلي، أضاف إليه الدليلَ الطبيعيَّ الدالَّ على أنَّ الإنسان مفطورٌ على التوحيد، ولذلك يرجع إلى الله وحده عند الشدائد، إذ تَتَجرَّد النفسُ حينئذ مما عَلِقَ بها من عَوارض الشِّرك، وتخلص لله وحده، وتشعر بطبعها أنَّ هذه الأصنامَ والمعبوداتِ لا تقدر على شيء، فلا يدعو عابدُها في النجاة غيرَ الله، فإذا زالت تلك الشدَّة وأنجاه الله منها وتبدَّلت الضرَّاء بالسرَّاء، عاد إلى نفسه ما كان عَلِقَ بها من عوارض الشِّرك، فرجع إلى شِركِه، ذكر ذلك فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ فوق دفع الضَّرَرِ عنه، أي: أعطاه ما يَختال به ويَتَباهى من مالٍ وولد، ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ﴾ الناسَ ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تعالى، وهو التوحيد، فيعود ضالاً مُضِلاً.

= عمل العبد ترتيباً شرعياً مرتبطاً بما أخبر الله تعالى به من ترتيب عقوبة على تَرْك فريضة أو ارتكاب مُحرَّم، ليس له قانون أو سنة كونية في تكييف الروح.

والقول بالترتيب لا يتم إلا على القول بالتحسين والتقبيح العقليين، ثم إنه يوقع في إشكالات من حيث ثبوت الشفاعة والعفو عن بعض المذنبين وغير ذلك، وقد التزم المؤلف في هذا التفسير هذه اللوازم، فوقع في إشكالات عديدة لقاعدة التزمها وهي غير ثابتة؛ إذ لم يقم عليها دليل.

فهدَّده سبحانه بقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ مدَّةَ هذه الحياة الفانية، وتنعَّم بما خوَّلناك من نعمة، ﴿إِنَّكَ﴾ بعد ذلك ﴿مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾ ذلك العذاب الخالد الذي لا يُعَدُّ نعيمُ الدنيا شيئاً في جانبه، أي: تـمتَّع بمـا خَوَّلناك من نعمةٍ على كفرك بها، وتنعَّم مُدَّة حياتك الدنيا التي هي لا شيء في جانب ما سينالك في الآخرة من عذاب النار الخالد المقيم.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي
الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾
قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ
عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ
الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ
أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ
تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ
وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ
ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾.

ثم أردف الكلام عن المشـركين وصفاتهم وأحوالهم ومصيرهم، بمـا يقابلها مـن الـمؤمنين، فـقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو

﴿رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾[1] وهذا من تـمام مَقُولِ القَول المأمور به.

و﴿أَمَّنۡ﴾ إما متصلةٌ حُذِفَ مُعادِلُها ـ على نهج القرآن في أنواع الإيجاز ـ اعتماداً على السياق، كأنه قيل له تهكُّماً به وتبكيتاً: أأنتَ أحسَنُ حالاً ومآلاً أم مَنْ هو قائمٌ بواجب الطاعات دائبٌ على العبادات، مُنيبٌ إلى الله على الدوام، لا عند مَسَاس الضرر فقط، كدأبك؟ وإما منقطعةٌ بمعنى: بل، وهي للإضراب والانتقال من التهديد إلى التبكيت.

و﴿مَّنۡ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف، على سنَّة القرآن في الحذف والإيجاز، والتقدير: كَمَنْ هو ليس كذلك، فحُذِفَ اكتفاءً بقوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ أي: الذين يعلمون حقائق الأحوال، فيعملون بموجبها مثل هؤلاء القانتين، والذين لا يعلمون ذلك، كدأبكم أيها المشركون؟! ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩﴾ وهذه الفاصلة للحَمْل على التذكُّر والعمل بحقائق ما سبق من البيان. وصيغة العبارة التي قبلها تُنَوِّه بشأن العلم وذويه، وما ينبعث عنه من العرفان.

ثم أمر سبحانه رسولَه بتذكير المؤمنين وحَمْلهم على التقوى والطاعة، إثْرَ تخصيص التَّذكُّر بأُولي الألباب، إيذاناً بأنهم هم المراد، فقال: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾

---

(١) هذا الصنف هو الذي صار له العِلمُ بمبادئ الدين ـ ولا سيما أمر الآخرة ـ بمثابة الأمور البديهية في المعقولات الأولى، فلا يندفع مع غيره أبداً، ولكن يرجع إليه رجوعاً ضرورياً؛ لأن العلم إذا كان بهذه المثابة يكون له أثر كبير على الأعمال والسلوك. وهؤلاء هم الذين جاء عنهم قوله تعالى: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقوله: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقرنهم بالملائكة في قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ...﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال عنهم: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

باتِّباع أوامره، واجتناب نواهيه، والإحسان في عبادته. ثم رَغَّب بها وأنَّبَ المغلوبين على أمرهم فيها، فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فمَنْ تعسَّر عليه الإحسانُ في وطنه لمعارضة مواطنيه له ومنعهم إيَّاه، فَلْيُهاجِرْ إلى حيثُ يتمكَّن من ذلك، وَلْيَصبِر على المشاقِّ لينالَ أجراً عظيماً، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾، وقد جَرَت سُنَّة القرآن أن ينبِّه إلى الصبر ويُرغِّب فيه أو يأمر به في كلِّ مقام يشقُّ على النفس احتمالُه. وقد ذكر ذلك في نيِّف وسبعين موضعاً منه.

ثم ذكر أهمَّ طرق التقوى، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾﴾ أي: من كلِّ ما ينافيه من الشِّرك الجليِّ والخفيِّ، لأنَّ الله لا يقبلُ من الأعمال إلا ما خَلَصَ له، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي: أولَ مَنْ أسلم. فأشار إلى عَظَمة الإسلام وحقيقته بمبادرته إليه.

ثم أمَرَه أن يذكرَ لهم ما يتَّقيه بالإسلام، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

ثم أمَرَ بالإخبار عن إنجاز إخلاصه في دينه، بعد الأمر بالإخبار عن كونه مأموراً بذلك؛ قطعاً لأطماعهم، وإعلاماً بانَّ الإخلاص شرط في العبادة والإيمان، فقال: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾﴾، ولذلك رتَّب عليه قوله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾، وهذا الأمر للتهديد، والصيغة تدلُّ على شدَّة الغضب عليهم. أعاذنا الله. ولذلك أردَفَها ناعياً عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: الكاملين في الخسران هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ باختيارهم الكفر لهما.

وقوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ تهويلٌ لِـمَا قبله وتمهيدٌ لِـمَا بعده، على نهج القرآن في مثله، حيث فصَّل أحوالَ ذلك الخسران بقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ

﴿ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٌۚ﴾ أعاذنا الله. قيل: إنما أطلق لفظ «الظُّـلَل» على ما تحتهم توسُّعاً ومَجازاً، بمعنى: أنَّ النار تحيطُ بجوانبهم. وقيل: لأنها ظُلَـلٌ لمن تحتهم.

ثم ختم الآية بما يدلُّ على مزيد التهويل والتحذير، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذابُ الفظيع ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ ليُحَذِّرهم سُوء العاقبة. وقد قـرَّره بقوله: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾ ولا تتعرَّضوا لهذا العذاب الأليم.

ثم قابل هذا بمصير المؤمنين، على نهج القرآن، جمعاً بين الترهيب والترغيب، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ وهي الأوثان. وإنما أنَّث الضمير لِـمَا فيها من معنى الجمع، وهذا اللفظ يُطلَقُ على المفرد والجمع، وقد أُطلِقَ هنا على الجمع، أي: إنـهم اجتنبوا عبادة الأوثان ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مُعْرِضين عمَّا سواه، فهؤلاء ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ بالثواب الجزيل.

وبعد أن أخبر بذلك أمر رسولَه أن يُبشِّرهم بها، زيادةً في التأنيس، وبياناً للعمل الذي أدَّى إليها، وقال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ قال الزجَّاج: يستمعون القرآنَ وغيرَه فيتَّبعون القرآن[1]. وقال السُّدِّيّ: يتَّبعون أحسَنَ ما يُؤمَرونَ به وأكمَلَه. وعلى كلٍّ، فهو وَصْفٌ لهم بتمحيص الأقوال والأخذ بالمُتقَن منها[2].

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٤٩).

(٢) معنى الآية ـ كما في تفسيري «المعين» ص٤٦٠ ـ: «فبَشِّـرْ ـ أيها الداعي إلى الله ـ عبادي بالسعادة الخالدة في جنّات النعيم، الذين يستمعون قولَ الله ورسوله وحَمَلةِ دعوته من أمته، ويستمعون زُخرُفَ أقوال المشركين، فيُوازِنون بين الأقوال، فيَنبُذون ما يظهر لهم أنه باطل، وهي الأصول التي يبني عليها الكافرون أبنيتَهم الفِكريّةَ والتنظيميّةَ لشؤون الحياة، ويتَّبعون ما يَـرَونَه هو الأحسن، فيلتزمون دينَ الله التزاماً كاملاً في أصوله التي هي الحقّ، وفي فروعه التي هي الأحسن».

وإنما وضع هذا الوَصْفَ موضع الضمير، فأورَدَ الكلام على هذه الصيغة، ولم يقل: فبشِّرهم؛ للإشارة إلى أن مصدر اجتنابهم الطاغوت إنما هو اتِّصافُهم بهذا الوصف المستلزم لتهذيب الفكر وتـزكية النفس، أي: إنهم لم يفسدوا فِطَـرَهم بمفاسد التربية والتقليد الأعمى، ولم يطمسوا نور بصائرهم، فكانت تميّز بين الحقِّ والباطل، وتُـؤْثِرُ الأفضل فالأفضل.

ثم نوَّه سبحانه بشأنهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ بمحافظتهم على سلامة فِطَرِهم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾ الذين قال عنهم سابقاً: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

ثم قارَنَ بين المصيرَيْن لأولئك المشركين ولهؤلاء المؤمنين، زيادةً في التحسيس، فقال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ وهي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ممَّن رَسَخَ فيه الكفرُ والتقليد والقدوة السيِّئة، والمقابلُ محذوفٌ على نهج القرآن، والتقدير: كمن وَجَبَتْ له الجنةُ بحُسْن عمله، نتيجةَ محافظته على سَلامة فطرته في انطباعها على الإيمان وصحَّة العرفان. ولهذا قال ابن الأنباري: الوَقْفُ على قوله: ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ والتقدير: كمَنْ وَجَبت له الجنة. ثم يبتدئ: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ۝١٩﴾ فهي جملةٌ مستقلَّة مسوقة لتقرير مضمون الجملة السابقة.

أقول: ومحصَّل المعنى: أفأنتَ تقدرُ أن تُغيِّر سُنَنَ الله العامة في طبيعة الإنسان، وهي أنَّ مَنْ رَسَخ فيه الضلالُ بالتربية والتقليد، لا يسمع ما يخالفه ولا يقبله، بل لا يراه جديراً بالنظر والتفكير.

قال أبو السعود: وقد شدَّد الإنكار بتنزيل مَن استحقَّ العذاب منزلةَ مَنْ دخل النار، وتصويرِ الاجتهاد في دعائه إلى الإيمان بصورة الإنقاذ من النار، كأنه قيل: أفمَنْ حقَّ

عليه كلمةُ العذاب بتمكُّن الكفر منه، أفأنتَ تتمكَّن من هدايته؟ ثم شدَّد النكير فقال: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾[1]؟

وقال الزجَّاج: إن الخبر قولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، واكتفى بالموصول عن الضمير العائد إلى المبتدأ، وأتى بالاستفهام مرتين توكيداً للتنبيه على المعنى[2].

أقول: وعلى هذا، فمُحصَّل المعنى: مَنْ حقَّ عليه كلمةُ العذاب لا تقدرُ على إنقاذه من النار.

ثم قابَلَ قولَه في حقِّ المشركين: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] بقوله عن المؤمنين: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾، وهم الذين ذُكروا بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [الزمر: ١٧] ووُصفوا بما عدَّد من الصفات الفاضلة، فأولئك ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ بعضها أعلى من بعض ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وهذه المقابلة هي التي سَوَّغت الاستدراك، بل أوجَبته في عُرف البلاغة العالية.

ثم سجَّل على هذا الوعد الكريم وقرَّره بقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ۝٢٠﴾.

ثم أيَّد إنجازَ هذا الوَعْدِ وقُدْرتَه عليه، مُسْتَشهداً بما له من المقدرة على التحويل والتطوير، وعادَ بالكلام إلى مِحوَرِه السابق في ذِكرِ أدلة القدرة واختصاصه بالألوهية، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وأشار بهذه الجملة إلى الدورة المائية المُؤْذِنةِ بأن الله تعالى قد نظم كثيراً من هذه المخلوقات على الإعادة، فلا غرابة في إعادة الموتى وبَعْثها، فإنَّ الماء المُنزَل من السماء كان قد تبخَّر من البحر، وبعد

---

(١) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٧: ٢٤٩).

(٢) انظر «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٤٩).

نزوله سلكه ينابيع في الأرض، ثم خرج أنهاراً، وعاد إلى البحر. فجعل هذه الجملة إيذاناً بالدليل على صحَّة البعث الذي تضمَّنه ما سبق من الوعد والوعيد وغيره، وأتى بها في سياق التطوير الذي تابعه بقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي: بالماء المُنزَل ﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: أصنافُه، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يتمّ جفافه ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد خُضْرَته ونَضْرته، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي: فُتاتاً متكسِّراً.

وهذه التطوُّرات انتهت بخفاء النبات، ثم يعيدُه سبحانه وتعالى في زمن إعادته بإنزال السحاب، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ يتذكَّرون بهذا التطوير ويُدرِكون به قدرة الله على تطوير الإنسان من الحياة إلى الموت، ثم إلى الإعادة والحشر، ويتذكَّرون أنَّ حال الحياة الدنيا في سرعة التقضِّي والانصرام كما يشاهدون من حال هذا الحطام كلَّ عام، فلا يغترُّون ببهجتها، ولا يفتنون بفتنتها. فقد ذكر في الآيات المتقدِّمة ما يُرغِّب في الآخرة، وفي هذه الآية ما يُزهِّد في الدنيا ويشير إلى صحَّة البعث الذي تضمَّنه السياق، ويُلمِحُ بأنه طَوْرٌ من أطوار الإنسان التي يَتَطوَّرها كما يتطوَّر هذا الزَّرْع. والله أعلم.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ
ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن
يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ
وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ
ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم ساق على وجـه التعليل لما سبق والتفريع عليـه من مصير المؤمنين ومصير الكافرين قولَه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ بمحافظته على سلامة فطرته ونور بصيرته، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يسير به في طريق الفلاح، كمَنْ هو ليس كذلك. وقد أقام مقام هذا الخبر المحذوف قولَه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: الذين أفسدوا فِطَرَهم ودسَّوا نفوسَهم، فمالوا إلى الباطل، وقَسَتْ قلوبُهم عن معرفة الله حقَّ معرفته، وقَبولِ ما أمر به، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم ذكر النور العظيم الذي أنزله للبشر، فانشرح له صَدْرُ مَنْ لم يُفسِد فطرتَه بمفاسد التربية والقدوة السيئة والتقليد الأعمى، فتدبَّره وعَلِمَ عِظَم شأنه وقيمة إرشاده إلى سَعادة الدارَيْن، فقبله وعمل بما فيه، وقسا له قلبُ مَنْ أفسد فطرتَه ودسَّى نفسه، فأعرض عنه وضلَّ ضلالاً بعيداً، فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وهو هذا القرآن الذي به سَعادة الدارَيْن.

نزَّله ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ أي: يُشبِهُ بعضُه بعضاً، حيث يدورُ حول غَـرَض واحد، وهو الهداية إلى الصِّراط المستقيم، الذي أشار إليه في فاتحته، ويُصدِّق بعضُه بعضاً، ويُثنَّى ويُكرَّر فيه البيانُ على الغرض الواحد بألوان من الأساليب والتراكيب والحُجج والبيِّنات؛ لأنَّ ذلك أدعى لتقريره في النفوس وتثبيته في العقول، فيَذكُرُ الأمر بالشيء ويُردِفُه بالنَّهي عن ضدِّه، والعكس، ويجمع بيان حال المؤمن والكافر ومصيرهما؛ لأنَّ الضدَّ يُظهِرُ شأنَه الضِّدُّ، ويُصرِّح بما فُهِمَ ضمناً من جملة أو جملٍ سابقة، ويحقِّق بعد التمهيد، ويُصرِّح بعد التنبيه، ويفصِّل بعد الإجمال، ويُجْمِلُ بعد التفصيل، ويُكرِّر قَصَصَ الأنبياء كلَّما اقتضى السياقُ ذِكرَ قطعة منها، ويكون بأسلوب مُؤتلف معه، ويُكرِّر دلائل القدرة والمنَّة من خلق السماوات والأرض وما بينهما، وما ينزل من السماء، وما يخرج من الأرض من النِّعم والفواصل، كلَّما اقتضت المناسبة ذلك، ولا سيما إذا كان السياق في

توحيد الله وانفراده باستحقاق الألوهيَّة، وأنه يذكر الأصول الثلاثة: التوحيد والحشر والرسالة كلما انساق إليها البحث، فيذكرها مُدمجَةً في طيَّات المباحث، ويُبرهِنُ عليها بالبراهين المثبتة، ويكرِّرها ويُثنّيها بأنواع من الأساليب، وألوان من البراهين والتراكيب، ترى ذلك كثيراً جداً في ثنايا القرآن، لا تخلو منه سورة فيما أظنُّ ولا موضوع ولا بيان، فبهذا كان كتاباً متشابهاً مثاني، ويذكر الجنة والنار وما فيهما، ومَنْ يستحق كلَّا منهما كلما اقتضى السياق ذلك، وهكذا تثنَّى البيانات المتشابهة وأسس الإيمان الخمسة، وتتوالى في أسلوب هذا القرآن الخطابي، ولهذا كان كتاباً متشابهاً مثاني[1].

ثم ذكر قوَّة تأثيره على النفوس السليمة، فقال: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾ أي: تتقبَّض تقبُّضاً شديداً من شدَّة الخوف ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ إذا سمعوا وعيده، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إذا سمعوا ما فيه من الوعد بالثواب والرحمة للمؤمنين، وتطمئنُّ نفوسُهم بذلك. وتعديةُ الفعل بـ«إلى» لتضمُّنه معنى الاطمئنان.

ثم ختم البيان عن شأن هذا القرآن، بالبيان عمَّن يحافظ على سلامة طبيعته واستعداده الفطري لقَبول الهداية والنظر الصحيح، ومَنْ يُفسِدُ عليه ذلك الاستعدادَ بمفاسد التربية وسوء التقليد، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكتاب ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي لم يحرِّف طبيعتَه ولم يَطمِسْ نورَ بصيرته بمفاسد التربية وسوء القدوة، فيرى ما فيه من شواهد الحق والحقيقة، ودلائل كونه من عند الله.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بحسب سُنَّته العامة في فطرة الإنسان إذا حرَّف طبيعتَه وأعمى بصيرتَه بمفاسد التربية وسُوء العشرة، ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ أي: لا تُمكِنُ

(١) والمثاني: جمع مثناة، أي: مَطويّات بين جُمَله، وبين أجزاء الجملة منه، هي محذوفاتٌ لفظاً تُدرَكُ عن طريق الدلالات اللفظيّة، واللوازم الفِكريّة، وذلك من الإعجاز الإيجازيِّ في القرآن.

هدايتُه أبداً. وهو هو السرُّ في جمود هؤلاء الكفار على كفرهم، وإعراضهم عن هذا القرآن المبين وهدايته، رغماً عن وضوحه وجلائه، إذ قد مَضَت سُنَّة الله العامَّة في طبيعة الإنسان إذا تشبَّع بالضلال فإنه يَـفقِدُ الاستعدادَ الطبيعيَّ للهداية، ولا يراها جديرةً بالنـظر والتفكير، وبمقتضى سُنَّة الله في خِلْقةِ الإنسان ينسب الإضلال والهداية إلى الله تعالى، في نهج القرآن.

ثم أجمل النتيجة بالفرق بين مصير المؤمن والكافر على طريقة المفارقة، وذلك لمزيد من الإيقاظ، فقال: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ لكفره وسُوءِ عمله، كمَنْ هو آمِنٌ منه لإيمانه وصالح عمله. وهذا المقابلُ محذوفٌ على طريقة إيجاز القرآن[١].

وإنما ذكر الوَجْهَ؛ لأنه أعزُّ أعضاء الإنسان، والاتِّقاءُ بالوجه ينمُّ عن الاستسلام وعدم المقاومة.

وعلَّق البخاري عن مجاهد: أن معنى: ﴿يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾: يُـجَرُّ على وجهه في النار[٢]. وعن عطاء: أنه يُلقَى في النار منكوساً، فأول عضو تمسّه النار وجهُه.

ثم عطف على قوله: ﴿يَتَّقِي﴾ قولَه: ﴿وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: ويُقالُ لهم ذلك من خَزَنةِ النار، زيادةً في تأنيبهم وتنديمهم وتحسيسهم بأنَّ سوء تصرُّفهم في طبائعهم هو الذي جَرَّ عليهم هذا الوبال، لأنهم محَقوا هدايتَهم الطبيعيَّة،

(١) أو المعنى ـ وهو ما رجَّحتُه في تفسيري «المعين» ص٤٦١ ـ: «أفمَنْ يتَّقي في الدنيا ـ بوجهه الذي يُوجِّهه للذي فَطَر السماواتِ والأرض حنيفاً مسلماً ـ شدّةَ العذاب يوم القيامة؛ بعيداً عن كلِّ شِـركٍ بربوبيّته وإلهيّته، كمَنْ كان من الظالمين من دَرَكة الكفر؟ وتقول خَزَنةُ جهنّم للظالمين عند إلقائهم في جهنّم: لامِسوا وأحسُّوا عذابَ ما كنتُم تكسبون في الدنيا مِن ظُلم هو من دَرَكَة الكفر، تستحقُّون عليه الخلود في النار».

(٢) ذكره البخاري معلقاً مجزوماً به، قبل الحديث (٤٨١٠).

وأصبحوا لا يُفرِّقون بين الحقِّ والباطل، والهُدى والضلال. وإنما عطف الماضي على المضارع؛ لأنه أُريدَ به مجرَّد الحَدَث دون الزمان، على أساليب اللغة. وقد وضع الظاهر موضع المُضْمَر للتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بالسبب الموجب.

ثم بيَّن ما أصاب أمثالَهم من العذاب في الأمم السابقة، تهديداً لهم بمثله، فقال: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الأمم السالفة، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم فصَّل أثره عليهم بقوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، ثم بيَّن أن هذا الخِزْيَ ـ على شدَّته وسُوء أثره ـ ليس بشيءٍ في جانب ما سيصيبهم من عذاب الآخرة، فقال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ تعاليم الله تعالى في شرائعه والعمل بها هو الكفيلُ بسعادة الدارين.

ثم ختم السياقَ بالتنبيه إلى عِظَم ما سَبَق فيه من البيان، وجلال شأنه، ووضوح تبيانه، وجَعَل ذلك حُجَّةً عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ أي: نوَّعنا لهم أساليبَ البيان ولوَّنَّا تصاريفَ الكلام؛ لتقليب وجوه العِبَر ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فيُدرِكون ما به سعادتُهم وما به شقاؤهم، ولا سيما أحوال الآخرة، فيتَّبعون ما يؤدِّي بهم إلى سعادتها دون شقائها.

ثم أضاف إلى ما ذكرَ من أسباب العِلم والدراية فيه كونَه باللغة العربية المتوفِّر فيها وضوحُ البيان واستقامتُه، فقال: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ أي: فصيحاً واضحاً لا خَلَلَ فيه ولا غموضَ بوجهٍ من الوجوه.

ثم ذكر الغاية من ذلك، فقال: ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: يحذرون ما يؤدِّي إلى الشقاء في الحياتين.

وفي الآية تنويهٌ بشأن اللغة العربية؛ لأنَّ فيها ـ من أسرار الكلام ودقائقه، وتفوُّقه

في أساليبه ومعانيه، والتمكُّن من التعبير عن أدقِّ الأغراض والمقاصد، والتوضيح لأبعد الأهداف والمآرب، مع السهولة والسلاسة ـ ما تمتاز به عن سائر اللغات، وتَصلُحُ أن تكون بياناً لتعاليم الله للبشر بهذه الآيات، وليس غيرها من اللغات بقادرٍ على أداء أغراض القرآن. وقد شهد لها بذلك أعاظمُ فحول البلغاء والعلماء من عَرَب وعَجَم، وهاك قول الأستاذ بورد الألماني حيث يقول: «إن اللغة العربية ـ بما حَوَتْ من كثرةٍ في المفردات، ووَفْرةٍ في صور التعبير، وبما في طبيعتها من قَبول للاشتقاق والتحوير ـ خليقةٌ أن تَتَبوَّأ مكاناً عظيماً بين لغات العالم. ولو قارنَّاها باللغة اللاتينية في قلَّة مرونتها، وباللغة الفارسية في فرط إسهابها، لوجدناها تمتاز عليهما، ولا سيما بما فيها من صور كلامية قصيرة تدلُّ على المعاني المجرَّدة. وهذه خاصَّة عظيمة النفع في إفادة الأغراض والمآرب وممارسة العلوم والفنون، فنحن نستطيع بهذه اللغة أن نُعبِّر عن أدقِّ الفروق بين المعاني». انتهى.

أقول: ولذلك اختارها سبحانه وتعالى أن تكون لغةَ القرآن، ونوَّه بها في هذا الشأن؛ لأنَّ القرآن أُنزِلَ للبشر أجمعين، وأن يكونَ شريعةً للعالمين إلى يوم الدين، فكانت لغته عالمية، كما هو للعالمين؛ لأنَّ حكم الوسائل حكم المقاصد.

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ
تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ
﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ
ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ
وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا
لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

ثم ضَرَبَ سبحانه مَثَلاً للكافر وعبادته الأصنام واعتقاده بتَعَدُّد الآلهة، مقارناً لهذه العقيدة بعقيدة المؤمن الـمُوحِّد، وما بينهما من حِطَّة الأولى وفسادها، ورِفْعةِ الثانية وصلاحها، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي: مختلفون سيِّئوا الأخلاق متنازعون لا يرضون بالحق والإنصاف، ويريد كلُّ واحد منهم أن يُفرِدَهُ بالخدمة، ثم يَكِلُ كلٌّ منهم أمْرَه المعاشي إلى الآخر، فهذا مَثَلُ الكافر الذي يعبد آلهة متعدِّدين، وقد بنى المثل على فرض أنَّ لهم من الأمر شيئاً.

ثم ضرب سبحانه مَثَلَ المؤمن الموحِّد، فقال: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: خالصاً له، فهو يخدم مالكه لا يَشُوبُ بخدمته خدمةَ غيره ولا يأمل سواه، ومن كان بهذه الصفة نالَ ثمرة خدمته، لا سيما إذا كان المخدوم حكيماً قادراً كريماً.

ومُلخَّص وجه الشبه: تَشَتُّتُ شَمْل الأول وضياعُه وحَيْرتُه، واجتماعُ شَمْل الثاني واتِّجاهُه جهةً مستقيمة بكل هدوء وارتياح، وحصولُه على النعيم والرفاه. وقد ألمع إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ وهذا الاستفهام لإنكار استوائهما واستبعاده، ونفيٌ له على أبلغ الوجوه، وإيذانٌ بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يمكن إنكارُه.

ثم أردَفَ الإنكار بالتقرير، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: هو المحمود في كل شيء، ولا سيما في البيان والتنبيه والإيقاظ، وهو المستحقُّ وحدَه لأن يُعْبَد لأنه هو المستحق وحدَه لأن يُحْمَد؛ لنِعَمِهِ العظيمة التي لا يُحصيها العَدّ، وآثارِه الواسعة التي لا تُحدُّ بحدّ.

ثم أضرب عن ذلك إلى بيان جَهْلِهم، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾، لأنَّ مفاسد التربية قد أبعَدَت عقولَهم عن النظر الصحيح، ونفوسَهم عن الميل إلى الحق الصريح.

وبعد أن ذكر هذا المَثَل لتهجين أمرهم وتسخيف عقولهم، هدَّدهم سبحانه بأن الجميع سيَرجعون إليه للحساب، فيقيم الحُجَّة عليهم، فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ بأن تحتجَّ عليهم بتبليغ الرسالة، ويعتذرون عن عدم القَبول بها لا طائل تحته، وتأباه العقول.

ثم بالغ في وعيدهم والنَّعي عليهم ضمنَ هذا الاحتجاج العام الذي علّق به على السياق، وجعله كالنتيجة للخصام والإلزام، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ بإسنادِ ما لا يليقُ به من الشريك وغيره، وله تعالى ما قد عَلِمتَ من الأعمال الجليلة، والآثار الجميلة، والقدرة البالغة، والحُجَّة الدامغة، فتَعامى عن كلِّ ذلك ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ في هذا القرآن.

ثم قَرَنَ الاحتجاج بأبلغ صُورِ الحكم، فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾؟ وهذا الاستفهام لبيانِ الوعيد بأبلغ الوجوه، كأنَّ ذلك معروف لديهم؛ لجلائه ووضوحه بما جاءهم عنه في هذا القرآن العظيم.

ثم قابل مصيرَ المكذِّبين بمصير المصدِّقين، فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾، وهم رسولُ الله ومَنْ تَبِعَه، أو: الرسلُ والمؤمنون بهم، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ لمثوى جهنَّم والآمِنون منها، ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطرَ على قلب بشر، و﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه أنه يكفِّر عنهم ما كان عليهم من سيِّئات، ويثيبُهم بما صار لهم من

حسنات، أو يمحو ما عليهم من سيِّئات ويُثْبِتُ ما لهم من حسنات، تتمةً لمنَّته العُظمى فيهم، فقال: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ قال مقاتل: أي: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم، ولا يجزيهم بالمساوي[١].

أقول: يحتمل أن يُجعَلَ مقياسُ الثواب أحسَنَ الأعمال. والله أعلم[٢].

ثم وَصَل السياقَ بما يقوِّي عزيمتَه ﷺ ضدَّ المكذِّبين المعارضين، ويَتوعَّدهم بنَصْره عليهم، وجعل الكلام تعليلاً لِـمَا قبله تمهيداً لِـمَا بعده على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؟ يعني: النَّبيَّ ﷺ، مع احتمال أن يكون عاماً. وقد صاغ العبارة بصيغةٍ تَتَضمَّن أنَّ الكفاية من التحقُّق والظهور بحيث لا يمكنُ إنكارُها ويعلمُها كلُّ أحد. وهذه الصيغة متناسقة في هذه السورة.

ثم أردف ذلك بمهزلة من سخافاتهم، ربطها بما قبلها للمناسبة، فقال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهم الأوثان الذين لا حَوْل لهم ولا طَوْل؛ إذ كانت قريشٌ تقول لرسول الله ﷺ: إنا نخاف عليك أن تُخبِّلك آلهتُنا بعَيْبك إيَّاها. فعجَّبه سبحانه من سخافتهم وأوهامهم المُضْحِكة، فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: بحسب سُنَّته العامة فيمن أفسد فطرته بمفاسد التربية وسوء التقليد ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾،

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٦: ٤٥٦).

(٢) معنى الآية ـ كما في تفسيري «المعين» ص٤٦٢ ـ: «يخصُّ الله المُحسِنين بجزاءٍ فوق ما يتصوّرون، ويُخرجُهم من ضمن الموضوعين للمُحاسَبة على أعمالهم؛ ليَستُرَ اللهُ عليهم أسوأ الذي عملوا في الدنيا من الأعمال، فما دونه من باب أَوْلى، وليَجزيَهم أجرَهم على كلِّ الصالحات من أعمالهم، بجزاءٍ يُساوي الجزاءَ المُقرَّر لأحسَنِ الذي كانوا يعملون من أعمالٍ صالحةٍ يَتقرَّبون بها إلى الله؛ لأنهم كانوا مُحسِنين في الدنيا».

لأنَّ الإنسان، إذا دَرِبَ على الضلال انطبع عليه ولعبت بعقله الخرافات، فإذا وصل إلى سَمْعه قولٌ مخالفٌ لِـمَا انطبع عليه مما هو دينٌ له أو عادةٌ لا يتدبّره ولا يراه جديراً بالنظر والتفكير، ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بحسب سُنَّته العامة فيمن حافظ على سلامة فطرته واستعداده الطبيعي للنظر الصحيح، فأجاب الحق حيث دعاه وانطبع عليه، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ أي: لا أحد يقدر أن يُضِلَّه ويَعبَثَ بعقله بالأوهام أبداً.

ثم ردَّ عليهم التهديد والتخويف، فقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾، فهو المرهوبُ الجانب أم أصنامهم؟! خابوا وخسروا، ولكنهم ضالُّون لا يهتدون. والنقمة: هي السطوة والعقوبة، وقد يستعمل الانتقام في عُرْف التخاطب بمعنى التَّشفِّي بالعقوبة، وهو بهذا المعنى مُحالٌ على الله. وقد صاغ الجملة بصيغة تتضمَّن أن ذلك من الظهور بحيث لا يمكنُ إنكاره.

وبعد أن سفَّه رأيهم في ذلك التخويف ببيان ضلالهم، والإلماع إلى جَهَالتهم وسخافتهم، ردَّ عليهم بما لا يُمكنُهم أن يكابروا فيه من قدرة الله البالغة، ومهانة شركائهم الظاهرة، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ولا ينكرون ذلك.

فأمَرَه أن يُبكِّتهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ ونَفْع ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؟

وبعد هذا الإلزام بإثبات قدرة الله العليَّة، ومَهانة شركائهم الدنيَّة، أمَرَه بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: لهم؛ رداً لسخافة تخويفهم لك: ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ في جميع أُموري من إصابة الخير ودفع الشر ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ إذ كلُّ ما سواه تحت ملكوته وسلطانه تعالى(١).

---

(١) معنى الآية ـ كما في تفسيري «المعين» ص٤٦٢ ـ: «ولئنْ سألتَ ـ يا رسول الله ـ هؤلاء المشركين: =

وبعد هذه الردود المنطقية الوجدانية، أمَرَه أن يُجيبَهم بما فيها استهانةٌ واستخفافٌ بهم وتوعُّد لـهم، فقـال: ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على مُكْنَتِكم ومَقْدرتكم، ﴿إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾ في نشر دعوتي، ماضٍ في سبيلي، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: مستمرٌّ دائـم. وهـذا جوابٌ مقابلٌ لتخويفهم له.

ثم عقَّب السياقَ بهذا التقرير العام المنطوي على وعد المهتدين ووعيد الضَّالِّين، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ به ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ هدايتُه وما يَنجُمُ عنها من نفع وثواب، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: على نفسه، بمعنى: أنَّ وبالَه لا يَتَخطَّاها، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ وفي هذا تحديدٌ للنبوَّة مطويٌّ على التَّسْلية والتهوين.

= مَنْ خَلَق السماواتِ والأرض؟ لَيَقولُنَّ: خَلَقَهُنَّ الله، فإنكم ـ أيها المشركون ـ تؤمنون بأنَّ الله هو الذي خلق السماواتِ والأرض، ولا تجعلون له شركاءَ في هذا القسم من أقسام ربوبيّته، لكنكم بالنسبة إلى أحوال الناس تجعلون لله شركاءَ في ربوبيّته، كقضايا الرزق، والذُّرِّيّة، والنصر على الأعداء.

قل لهم ـ يا رسول الله ـ: أفتفكَّرتُم تفكيراً سديداً بأناةٍ وتعمُّق، حتى أدركتُم إدراكاً علمياً يشبهُ الرؤية البصريّة: ما تعبدون من دون الله بعباداتٍ مُختلفات، وفي مُقدِّمتها الدعاء لتحقيق المطالب والرَّغَبات، فإن توصَّلتُم إلى أنَّ لهم ربوبيّةً ما في الكون، فأخبِروني ـ إنْ أرادني الله مُصاباً بشدّةٍ وبلاء ـ: هل تستطيعُ آلهتُكم أن تكشفَ عني ما أنزل بي من ضُـرٍّ؟! أو أرادني مَمْسوساً بنعمةٍ وخير وبركة: هل تستطيعُ آلهتكم أن تُمسِكَ رحمةَ الله فتمنعها عني؟!

قل لهم ـ يا رسول الله ـ: اللهُ كافٍ لي عن كلِّ ما سواه في جميع أموري، من إصابة الخير، ودَفْع الشـرّ، هو ثقتي، وعليه اعتمادي، عليه وحده يتوكَّـل المتوكِّلون، ويُفوِّضون أمورَهم إليه، ويعتمدون بقلوبهم عليه، مع قيامهم بالأسباب الكونيّة».

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ
عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ
(٤٢) أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل
لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ
وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ
عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ
لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ
سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا
خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) ﴾.

وبعد أن قـرَّر التوحيد قـرَّر الحشرَ بكلامٍ دليلُه منه، فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ ﴾ يتوفَّاها ﴿ فِى مَنَامِهَا ﴾ أي: في نومها. ومعنى «يتوفَّاها»: يستردُّها كاملةً لا يفقدُ منها شيء، وهو كنايةٌ عن فِراقِ الروح للجسم مؤقتاً أثناء النوم، وهي جسمٌ لطيف مستقلٌّ تنفكُّ عن الجسم الكثيف عند النوم، وتعود إليه بسرعة عند اليقظة. والله أعلم.

فقرَّر التقارُبَ بين حقيقة الموت وحقيقة النوم بقوله: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ إلى أجل معيَّـن عام، يبعث فيه جميع الأرواح، وهو يوم البعث، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ تتردَّد هكذا في البَدَن بين النوم واليقظة، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لها، يُمسِكُها فيه

إلى حلول الأجل العام؛ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ فيدركون التقارب بين الحقيقتَيْن، كما قال ﷺ: «إنكم لَتَمُوتُنَّ كما تنامون، ولتُبْعَثُنَّ كما تستيقظون، ولَتُجزَوُنَّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً»[١].

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: في بني آدم نفسٌ وروحٌ بينهما مِثْلُ شعاع الشمس، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النَّفَسُ والتحرُّك. فإذا نام قبض الله نفسَه ولم يقبض روحَه، وإذا مات قبض الله نفسَه وروحَه معاً[٢].

أقول: والظاهر أنه يعني بالنفس: حقيقةَ الروح، وبالروح: ما يُسمَّى بالحياة. وعلى هذا التعبير يجري المتكلِّمون في حقيقة النفس، وقد أطلق القرآن في عدَّة مواضع لفظة «النفس» على الروح المرادة في قوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ [الإسراء: ٨٥][٣].

---

(١) سبق تخريجه (٣: ٣٢٠).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥: ٢٦١).

(٣) تأتي في القرآن الكريم كلمة (الروح)، وكلمة (النفس)، والمراد بهما ـ والله أعلم ـ واحد بالذات، وإن اختلفتا بالاعتبار؛ إذ المراد بالروح: ذاتُها المجرَّدة وحقيقتُها الراهنة، والمراد بالنفس: الروح من حيث هي متعلقة بالبدن وموضع للاستعدادَيْن؛ الخيرِ والشرِّ، وتتكيَّف بما يعرضها به صاحبها منهما، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧-١٠]، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠]، ﴿لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ [طه: ٩٦]، ﴿ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [النمل: ٤٤، القصص: ١٦]، ﴿ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ [سبأ: ٥٠]، ﴿مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦].

وإنما يكثر التعبير بلفظ «النفس» في القرآن ولم تأت عبارة «الروح» فيه إلا مرة؛ لأن القرآن إرشاد للنفس يحضُّها على التكيُّف بكيفيَّات الخير والصلاح وردعها عن كيفيَّات الشرِّ والفساد. ولم يتكلم عن ذات الروح إلا قليلاً، مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥]. =

وبعد أن ذكر عظمةَ قدرته تعالى في أمر الروح وقَبْضها وإرسالها، تلك القدرة التي يستحقُّ بها أن يكون هو الإله، وأن يُعبَدَ وحده دون سواه، قال مُنكِراً عليهم، ومُقرِّعاً لهم: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾، وهذا معطوف على محذوف، على نهج إيجاز القرآن، يُعرَفُ تقديرُه من سياق الكلام، وهو: أَعَبُدوا هذا الإلهَ وحده الذي يفعل بالأنفس هذا الفِعلَ العظيم، أم اتَّخَذُوا من دونه شركاء شفعاء؟ ويجوز أن تكون ﴿أَمِ﴾ بمعنى: بل، والتقدير: إنهم لم يخصُّوا هذا الإله الذي يفعل هذا بالأنفس، ولم يُفرِدوه بالعبادة والألوهية، بل اتَّخذوا من دونه شفعاءَ يستعينون بهم ويعتمدون عليهم، أو يتوسَّطون لهم عند الله.

ثم بكَّتهم بقوله: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾؟! أي: أيتَّخذونهم لـهم شفعاءَ عند الله ويستعينون بهم، ولو كانوا لا يملكون شيئاً، بل لا يعقلون؟!

ثم قرَّر الحق في أمر الشفاعة، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: لا يملك أحدٌ الشفاعةَ لديه[1] فَضْلاً عن هؤلاء، فإنَّ له وحدَه مُلكُ الإنجاء والإسعاد والإشقاء، إذ

= وقد تأتي كلمة «النفس» بمعنى مجرَّد الذات، مثل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨، ٣٠]، ﴿مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [آل عمران: ٩٣]، ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١]، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤].

وقد تستعمل لفظ «الروح» بمعنى الحياة، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن النفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النفس والتحريك. وبهذا المعنى تُنسَبُ لما عدا الإنسان من الحيوانات، فيقال لها: ذوات الأرواح، أي: ذوات الحياة التي بها النفس والتحريك. وليس في الحيوانات السائرة أرواح بمعنى الأنفس التي بالإنسان، والله أعلم.

والتعبير بالروح عن الحياة يجري في عُرْف التخاطب بين الناس. (المؤلف).

(١) إلا من أذن له في ذلك، كما دلَّت عليه آيات أخرى، كقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ =

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾، فيُجازي كلاً بعمله، على وَجْه الحقِّ والعدل، بلا هوادة ولا محاباة.

ثم ذكر قوَّة انطباع نفوسهم على الشِّرك، فقال: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي: انقبضت وامتلأت غماً وغيظاً، حتى يتقبَّض من جرَّاء ذلك أديمُ الوجوه، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ أي: الشركاء والأصنام، ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: تمتلئ قلوبُهم سروراً وفرحاً، حتى تنبسطَ له بِشْرةُ وجوههم؛ لأنهم يعقدون عليهم آمالاً كبيرةً، واعتماداً راسخاً.

وفي تعقيب السياق السابق الذي بيَّن فيه الحقيقة عن الله تعالى وعظمته، ببيان هذه النزعة القبيحة فيهم والعقيدة السخيفة لهم، تشنيعٌ فظيعٌ عليهم، بشدَّة جَهَالتهم في اعتمادهم على هؤلاء الشُّركاء، وإعراضهم عن الله العليِّ القدير. خابوا وخسروا.

ثم أمر سبحانه نبيَّه ﷺ بأن يلتجئ إليه بالدعاء إذا ضَجِرَت نفسُه من عِنادهم وشدَّة معارضتهم، فقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ من أمر الأديان واختلاقهم لها.

ثمَّ توعَّدهم بحالهم السَّيِّئ العصيب في الآخرة، مُؤْذِناً ببالغ شدَّته، فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ من الأموال والذخائر ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، وهذا تصويرٌ لشدَّة هَوْل ما يُلاقون، وعِظَم قُنوطِهم من خَلاصِهم. والمعنى: لو فُرِضَ أنهم يملكون ما على الأرض جميعاً لسَمَحت نفوسُهم أن يبذلوه كلَّه في سبيل خلاصهم من ذلك العذاب الشديد، ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ظَهَر

= أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

لهم يومئذٍ من عذاب الله، ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: ما لم يكن في حُسْبانهم. وهذه الآية في التوعُّد للكافرين مقابلةٌ لقوله تعالى في الوعد للمؤمنين: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢] وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

ثم قال في إتمام البيان: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: ظهر لهم يومئذ أنهم كانوا في الدنيا على عَمل خاطئٍ سيِّئٍ قبيح، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ من الحساب والعذاب الذي كانوا يُتَـوَعَّدون به فيهزؤون ويسخرون.

ثم ردَّ على الذين تشمئزُّ قلوبُهم لِذِكرِ الله من مشركي قريش، ردَّ عليهم تناقضَهم في اشمئزازِهم منه، ثم اعتمادِهم عليه وحدَه عند الشدائد، وكذلك ما يقولُونَه من أنَّ ما حَصَلوا عليه من المال والخَوَلِ[1] إنما هو أمر اكتسبوه بمُجرَّد درايتهم، أو ما يعتقدونه من أنَّ إنعامَ الله عليهم دليلٌ على صحَّة دينهم في الإشراك بالله، مع أنهم يشعرون بالتوحيد بفطرتهم عند الشدائد، ولا يلجؤون إلا إلى الله سبحانه وتعالى، لانطباعهم عليه خَلْقاً وتكويناً. فقد ألمع إلى ذلك كلِّه ضمنَ هذا البيان العام الدالِّ على الغريزة الدينية، وهي شعور الإنسان بالتوحيد فطرةً، وقال: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي: توجَّه إلينا وحدنا لشعوره بطبعه وفطرته أنْ لا مُنجِيَ إلا الله، يشعر بذلك كلُّ أحد، حتى مثل هؤلاء الذين تشمئزُّ قلوبهم من ذكر الله، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي: أعطيناه ما يختالُ به ويَتَباهى من النِّـعَم الجليلة ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منِّي بوجوه كَسْبه.

وهل يُجْدي العِلمُ نفعاً في البواخر والزرع لو لم تكن في الماء مثلاً قوة العَوْم، وفي الأرض قوة الإنبات؟ وهل يزيد العِلمُ عن أن يكون اكتشافاً لتلك السُّنَن والأسباب؟

---

(١) الخَوَل: ما أعطى الله تعالى الإنسانَ من العبيد والخدم. «لسان العرب» (خول).

ولذلك تمجَّد سبحانه بقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

فأيُّ استقلال للعِلم عن سنن الله، فَضْلاً عن أنَّ الفضل لله في تعليم الإنسان ما لم يعلم، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. اللهم إني أعوذ بك من أن أُشرِكَ بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك ممَّا لا أعلم.

ويجوز أن يكون المعنى: إنما أُوتيتُه على عِلم منِّي بأنَّ الله يُعطيني ويُخوِّلني لرضاه عنِّي. أو: على عِلم من الله باستحقاقي ذلك، يدَّعي حقيَّة وصحَّة ما هو عليه من الشرك، ورضاء الله عنه في ذلك بدليل ما خوَّله من النِّـعَم والأفضال.

فردَّ عليه بقوله: ﴿بَلْ هِىَ﴾ أي: هذه النِّعَمُ الـمُخوَّلة ﴿فِتْنَةٌ﴾ لكم يظهر بها ما تمكَّن في نفوسكم من الشرك، لأنَّ الله سبحانه يبتلي ويختبر بالنِّعم، كما يختبر بالنِّقم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثرَ الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ذلك.

ثم ألزَمهم في كذب اعتقادهم هذا بما جَرَى على أمثالهم من عذاب الاستئصال، وقد كانوا أغنياءَ مِثلَهم، واعتقدوا مِثلَ اعتقادهم، واستدلوا كاستدلالهم، فقال: ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أي: هذه المقالةَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كفروا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾، قالوا: لو لم نكن على الحق لم يُخوِّلنا الله بهذه النِّـعم، وقد أخذهم الله بعذاب الاستـئصال ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ مما خوَّلهم الله به من نعيم الدنيا، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ واقترفوا من الكفر والإجرام، ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسَهم ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين من قريش، ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ كما أصاب أولـئك، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ لنا، أي: بفائتين من عذابنا ومُنفَلِتينَ منه.

ثم بيّن تعالى أنَّ الرزق لا مَدخَلَ للإيمان والكفر فيه، وإنما هو يجري على الأسباب الطبيعيَّة والسنن الكونيَّة[1]، فمن تمسَّك بها حصل عليه ولو كان كافراً. وصدَّر هذا البيان بصيغة الظهور، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2] وهو الذي يتمسَّك بأسبابه على وجهها الطبيعي الصحيح، ولو كان كافراً، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ على من يُهمِلُ ذلك، ولو كان مؤمناً. ولا دَخْلَ للإيمان والكفر في الأمر.

ثم ختم البحث بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ ومواعِظَ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ لأنَّ الإيمان يُنمِّي فيهم الاستعداد الفطريَّ للنظر الصحيح، والفِكر السديد.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ

---

(١) انظر تعقُّب هذا الإطلاق فيما تقدَّم تعليقاً عند تفسير الآية ٣٦ من سورة سبأ.

(٢) إن الله لم يجعل نظام رزق الإنسان كنظام رزق الحيوان، فردياً في السعي إليه والحصول عليه، بل جعل نظام رزق الإنسان اجتماعياً، لا يتمُّ إلا بتعاون الأفراد. أما اختصاص كل واحد بمهنة من تلك الحاجيات، فمبنيٌّ على الميل ودرجة العزم ونوع التثقيف وغير ذلك. وهذا النظام يجعل التفاضل في الرزق أمراً طبيعياً، إذ يكون فيه التاجر والزارع والعامل والصانع، على اختلاف في المراتب، ومنهم الغني والفقير، والأمير والمأمور، والجليل والحقير، نتيجةً لميل الإنسان وسعيه، ومقدار نشاطه. فإسناد التفضيل إلى الله سبحانه باعتبار هذا النظام، لا باعتبار الشخص الواحد وأحواله، والله أعلم. ويؤيد هذا الرأي قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠]. فقد جعل الحرث وإرادته سبباً للإيتاء ومهيأً لما يرومه الإنسان. والله أعلم. (المؤلف).

حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وبعد الرد والوعيد فتَحَ لهم باب التوبة، على نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد والدعوة إلى الهدى والرَّشاد، فقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إذ أفسدوا عليها أمْرَها بمفاسد التقليد الأعمى، عُودوا بها إلى التَّبصُّر، وآمِنوا بما جاء من عند الله، و﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لمن تاب وآمَنَ وأناب إليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾، وقد جاء عنه ﷺ: «لَلَّـهُ أفْرَحُ بتوبة عَبْده من العقيم الوالد، والضَّالِّ الواجد، والظمآن الوارد»[1].

ثم قَرَنَ الترغيب بالترهيب، على نهج القرآن، وبيَّن طريق التلافي والرجوع إلى الله، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: لا تُنقَذون منه ولا تَفلِتون، ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وهو هذا القرآن، فهو أحسن الكتب السماوية بياناً، أنزله الله للبشر، وقد نضج عقلُه المكتسب، فصَلَحَ لإدراك ما تضمَّنه هذا القرآن من المنطق العقلي والوجداني في الدليل والبرهان على مصير الإنسان وما يُصلِحُ أحوالَه في الدارَيْن معاً، فاتَّبعوه واعملوا بتعاليمه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

ثم ذكر وَجْهَ الإعذار في إنزال هذا الكتاب والدعوة إليه، ونَدَمَ المُعْرِضِ عنه يوم القيامة، ضِمنَ إيقافه عمَّا سيكون من أمره، فقال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ أي: أنزلنا إليكم هذا الكتابَ الموصوف بهذه الصفة، وأوقفناكم على جَلِيَّة الأمر لمعاذير ثلاثة:

---

(١) سبق تخريجه (٣: ٣١).

الأولى: أن تقولَ نفسٌ ﴿يَحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: وإنْ كنتُ لمن المستهزئين بذلك وغير المصدِّقين به. ومحلُّ ﴿وَإِن كُنتُ﴾: النصبُ على الحالية، أي: فرَّطتُ وأنا ساخرة بالمتمسِّكين به هازئة بهم؛ تُظهِرُ شدَّة الندم على فعلها هذا.

ثم ذكر المعذرة الثانية، فقال: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ بإنزال كتاب في ذلك ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم ذكر المعذرة الثالثة، فقال: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي: رَجْعةً إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: ممَّن يعملون بالحُسْنى بعد أن علمت ما علمت. فهو يتحسَّر على التفريط أولاً، ثم يتعلَّل ـ لو لم ينزل عليه هذا الكتاب ـ بفَقْدِ الهداية ثانياً، ثم يتمنَّى الرجعة ثالثاً.

ولما كانت هذه المعاذير الثلاث تندفع وتنقطع بما أُنزِلَ عليهم من هذا الكتاب الهادي إلى الرشاد والداعي إليه، كرَّر الكلام عنه بصيغة الردّ، فقال: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ عنها ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾[1].

ويجوز أن يكون هذا جواباً للمعذرة الثانية فقط، ولم يُجِبْ عن الأولى والثالثة؛ لأنَّ جوابها السكوتُ وعَدَمُ الجواب.

---

(١) في هذه الآية المعذرة الرابعة، وهي مطويَّةٌ دلَّ عليها الجواب، ومعنى الآية: والسببُ الرابع في إنزال الكتب وبعثة الرسول: زَجْرُ أن تقولَ يوم القيامة نفسٌ كَفَرَت في الحياة الدنيا، بادِّعاءٍ كاذب وَقِح: يا ربِّ لم تأتِني آياتٌ من عندك، ولو جاءتني لآمنتُ بها وكنتُ من المتَّقين. أعذارُك زائلة، وتعليلاتُك باطلة، بلى قد جاءتك آياتي، وبيَّنتُ لك سبيلَ الحقِّ من الباطل، ومكَّنتُك من اختيار الحقِّ على الباطل، ولكنْ تركتَ ذلك وضيَّعت، فكذَّبتَ بآياتي، وتكبَّرتَ عن الإيمان بها واتِّباعها، وكنتَ من الكافرين كفراً عنادياً استكباريّاً، مع وضوح الحقِّ لك بأدلته.

ثم أردفَه بمصيرهم توعُّداً لهم، فقال: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه، أو أسندوا إليه من الأحكام ما لم ينزل، أو قالوا: إن له شركاءَ، تراهم و﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ بما ينالهم من الشدَّة والشقاء. ولا يخفى ما في مقابلة الكذب على الله بسَوَاد الوجه من البديع، إذ قد جَرى العُرفُ بأن يُقالَ للذي ظهر كذبه: اسودَّ وجهُه.

ثم علَّل ذلك على معناه الحقيقي، بمـا دلَّ على أنه من تأثير نار جهنَّم، فقال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ عن قَبول الحقِّ والإيمان. فعبَّر بهذه الصيغة التي تتضمَّن التَّحقُّق والظهور وكَوْن الأمر معروفاً ومسلَّماً به.

ثم قابـل مصيرَهم بمصير الـمؤمنين، فقال: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ ربَّهم ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بما فازوا به ونَجَوا، وهو الإيمان بالله وحده والعمل بما جاءهم به هذا القرآن، فهم ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين. والتعبير بالمسِّ للمبالغة في نفيه حتى أقله.

﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

ثم أردفَ هذا الوعد والوعيد بدليل قدرته، تحقيقاً للإنجاز، وتقريراً لاختصاصه بالألوهيَّة، فقال: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ ﴾ والمقاليد: المفاتيح، مُفرَدُها: مِقلاد، بمعنى: مفتاح أو خزانة، من ذِكرِ الشيء وإرادة لازمه، وقد استُعملت هنا مجازاً عن الاستيلاء والتَّصرُّف، يريد أنه تعالى يَتصرَّف فيها كيف يشاء تَصرُّفَ صاحب الخزينة بخزينته، فهو سبحانه قادرٌ على إنجاز هذا الوعد والوعيد، والمستحقُّ وحده لأن يُعْبَد ويَتَّصف بالألوهية، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ هذه الدالةِ على ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ لِسَعادة الآخرة التي لا يُشابُهها سعادة.

ثم عقَّب هذا السياقَ بهذا الاستفهام التقريعي، فقال: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ ﴾ أي: أغيرَ هذا الإله الذي هذا شأنُه وهذه عظمتُه ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾، والتنصيص بهذا الاختصاص في المحلِّ الأرفع من بلاغة التقريع والتفنيد.

ثم أردَفَ هذا بتسجيل أنَّ التوحيدَ أساسٌ في سائر الشرائع، وعليه مَدارُ صحَّة الأعمال وقَبولها عند الله، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

(١) الإشراك: اعتقاد أنَّ لغير الله أثراً فوق ما وهبَه الله له من الأسباب، وأن لشيء من الأشياء سلطاناً على ما خَرَج عن قدرة المخلوقين الطبيعية، وهذه العقيدة تفسد النفوس، فتفسد أعمالها وتُحبطها؛ لأن الأعمال إذا دخلها شيءٌ من هذه العقيدة لا تكون لله وحده، ولا توصل للهدف المنشود؛ لأن الإيمان الصحيح هو اعتقاد أنَّ الله سبحانه هو مالك يوم الدين، وهو الفاعل المطلق، وهو المستعان. وعلى الإنسان أن يُحسِنَ العمل، ويستكمل الأسباب، ويستعين بالواحد الوهّاب. فهذه العقيدة الواقعية الصحيحة هي التي تجعل عمل الإنسان صحيحاً واقعياً ومقبولاً لدى الحكيم العليم، فالمشركون عندما يعملون عملاً صالحاً بزعمهم حسب عقيدتهم، أو يتقرَّبون به إلى الله، فهم كمَنْ يقصد هَدَفاً يسير إليه بطريق لا توصل إليه، فعملُه حابط، وهدفُه فاشل، لا محالة. (المؤلف).

وهذا من خطاب الأمة في شخص الرئيس بمقتضى عُرْفِ التخاطب، أو من خطاب العين مراداً به الغير، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الخامسة). فهو خطاب للأمم في أشخاص أنبيائها، تنبيهاً على فظاعة أمر الشرك، حتى لو فُرِضَ وقوعُه من أقرب الناس إلى الله، لنال هذا الجزاء نَيْلاً طبيعياً[١].

ثم أضـرَبَ عن ذلك مبالغـةً في التقريـر، وقـال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ له على إنعامه، فوَيْلٌ للكافرين الذين لم يقوموا بواجب شكره، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ فأشركوا به بعضَ مخلوقاته أو أحدَ مخلوقاته، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[٢]، وهذا تمثيلٌ لخراب هذا العالم العظيم بأمر الله في ذلك اليوم الرهيب، وهَوْنِ ذلك عليه، أي: فكيف يُسَوُّونَ به من لا يَخلُقون شيئاً وهم يُخلَقون؟ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

---

(١) تقدَّم في التعليق مراراً تعقُّب هذا المعنى، وإثبات أن نَيْلَ الجزاء في الآخرة على العمل في الدنيا نَيْلٌ شرعي لا طبيعي، يعني: أنه محكوم بخبر الشريعة لا بقانون الطبيعة.

(٢) قال الزمخشري: هذا تصويرٌ لقدرة الله وعَظَمته دون الذهاب إلى جهة حقيقية أو مجاز؛ لأن العرب تُحيل المعاني إلى الذوق والأفهام.

ومذهب السلف: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسَه، وسمَّى بها ذاتَه في كتابه وتنزيله، وعلى لسان رسوله، من غير زيادة عليها، ولا نقصان منها، ولا تجَاوز لها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، ولا سمات المُحْدَثين، ولا تفسير لها ولا تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أَمَرُّوها كما جاءت، وردُّوا علمَها إلى قائلها، وفوَّضوا أمرها إلى المتكلِّم بها، وهو الله سبحانه. ومن ذلك ما جاء عنه تعالى من المجيء والنزول والضحك واليد والقدم والوجه والاستواء على العرش إلى أمثال ذلك. فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثباتُ الصفات وإجراؤها على ظاهرها، ونفيُ الكيفيَّة عنها، لأنَّ الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام عن الذات، وإثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كُنه وكيفيَّة، فكذلك إثبات الصفات، إذ ليس كمثله شيء.

أما مذهب الخلف: فالحَمْل على المعاني المجازية والمفاهيم الكنائية. (المؤلف).

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

ثم فصَّل القيامة والبعث والحساب وما يجري فيها، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ والصُّورُ لغةً: البوق يُنفَخُ فيه للإعلان بشيء، وقد استعار الجملة للإيذان بالقيامة والفناء لعالم الدنيا(١). لذلك أردفَها بقوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وهذا الاستثناء إما على جاري نهج القرآن في تعقيب القطعيات أو التأبيدات باستثناء المشيئة، وإما هو استثناء حقيقي لمن لا يعلمُهم إلا الله تعالى، والله أعلم. وقيل:

(١) لا دليل على الاستعارة هنا، بل القاعدةُ في السمعيات عند العلماء: أن ما ثبت في النص وكان ممكناً عقلاً وَجَبَ إثباتُه والقولُ به على حقيقته، ما لم يصرفه صارفٌ ـ من دليل آخر أو قرينة معتبرة ـ إلى المجاز. والحقيقة هنا ممكنة ولا صارف إلى المجاز والاستعارة، فوجب القول به على الحقيقة. ولا يخفى أن إثبات الصور على الحقيقة يعني: إثبات أنه بوق يُنفَخُ فيه، ولا يلزم من ذلك أن يكون كأبواق الدنيا.

هذا الصَّعْق صَعْقُ فَـزَعٍ، فيَسلَمُ منه من هم ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، والله أعلم.

وهذه النفخة هي القيامة وخراب العالم، أما نفخة البعث فهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾، ويُفهَمُ من كلمة ﴿ثُمَّ﴾ ومما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن بين النفختَيْن مدةً يتكوَّن فيها الجسم ويُعاد، وأن عَجْبَ الذَّنَب من الإنسان لا يَبْلى[1]، ومنه يُعادُ الجسم، وهو في أسفل العصعص.

أقول: ويجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون حكمُه حكمَ الحبَّة للنبات، يربو منه الجسم ويتكوَّن، كما تربو الكمأة داخل الأرض. والله أعلم.

وقد جاء في الحديث: «أنهم يَنبُتون كما تَنبُتُ الحِبَّةُ في حميل السَّيْل»[2]، وفي رواية: «ثم يُنزِلُ اللهُ من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل»[3]. وأرى أنَّ هذا التشبيه لمجرَّد التكوين، لا لكيفيَّته، والله أعلم.

وعلى كلٍّ، فهو أمر استأثر الله بعلمه، لا يمكننا أن نعلم عنه علماً تفصيلياً، ولكن يمكننا أن نُدرك مُجْمَلاً أن طبيعة زمن الحشر في إعادة جسم الإنسان من عَجْب الذنب كطبيعة الربيع في إعادة الخُضْرة من البذور[4]. والله أعلم.

---

(١) سبق تخريجه (٤: ٤٢٨).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥)، عن أبي هريرة.

(٤) الطبيعة والزمن ليس لهما أيُّ تأثير، وإنما هما سببٌ أو ظرفٌ لوقوع الأثر بقدرة الله تعالى بحسب سنته الكونية، فقد أقام الله تعالى هذا الكون على قوانين ونُظُم، أجرى فيها أفعال سبحانه مقترنة بهذه القوانين والسنن؛ تنظيمًا لحياة الناس ومعيشتهم، لكنْ ليس لهذه الأسباب والسنن سوى هذا الاقتران.

ثم ذكر ما يكون بعد البعث، فقال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، ومعنى أشرقت بنور ربِّها: ظهر فيها الحق، وخفيَ الباطل، وسادَ العدل، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ للحساب، ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ ويجوز أن يكونَ لفظُ ﴿ٱلشُّهَدَآءِ﴾ معطوفاً على (النبيِّين)، من عطف الصفة على الصفة لموصوف واحد، ويجوز أن يُراد به غيرُهم، كالحَفَظة، والله أعلم، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين العباد ﴿بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بنقص ثوابٍ أو زيادة عقاب، ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ ولم يُغفَلْ منه شيءٌ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ فلا يفوتُه شيء من أفعالهم، فيُجازيهم بالحسن حسناً وبالسُّوء سوءاً، ولا يقبل عملاً صالحاً فيه ذرَّة من رياء، إلا أن يكون عملاً خالصاً لوجهه تعالى.

ثم فصَّل ذلك الجزاء بقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ جَمْعُ زُمْرة، أي: أفواجاً متفرِّقة بعضها في إثر بعض، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعاً وتنديماً: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم أو من أُمتكم، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ﴾ بنتيجة فساد التربية وسُوء القدوة اتَّبعنا إبليسَ اللعين و﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾[1] فقد قال تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، وقد كنَّا

---

(١) أي: ثَبَتَتْ علينا وتحقَّقتْ كلمةُ العذاب الربّاني السابقةُ بعذاب الكافرين في جهنّم خالدين فيها. دلَّ هذا القول على أنَّ كلَّ الذين يُحكَم عليهم بأنهم كانوا كافرين في الحياة الدنيا، وماتوا كافرين، قد تبلَّغوا رسالةَ رسولٍ منهم، من الأوَّلين والآخرين. ودلَّ أيضاً على أنَّ كلَّ رسول من رُسُل الله قد كان يتلو على أمتِه آيات مُنَزَّلات من عند الله. ودلَّ كذلك على أنَّ كلَّ رسول أنبأ أُمَّتَه بالآخرة ويوم الدين، وأطمَعَهم بجنّات النعيم إذا آمنوا واستجابوا لدعوة ربّهم، وحذَّرَهم وأنذرَهم عذابَ الله في جهنّم خالدين، إذا رفضوا أن يستجيبوا لدعوة ربِّهم التي بلَّغهم إيَّاها رسولُه.

ممَّن تبعَه، وكذَّبنا الرسل، وقلنا: ما نزَّل الله من شيء إنْ أنتم إلا تكذبون، فحقَّت علينا كلمةُ العذاب بإفسادنا لطبيعتنا وإعراضنا عن شريعتنا، ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾[1].

وبعد أن ذكر مصير الكافرين ذكر مصير المؤمنين، فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ متفاوتين حَسَب تفاوتِ مراتبهم في الفضل، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ من جميع المكاره والآلام؛ لأنكم طَهُرتُم من دَنَس المعاصي والآثام و﴿طِبْتُمْ﴾ نفوساً ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾، اللهمَّ اجْعَلنا منهم يا أرحم الراحمين.

وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف؛ على نهج القرآن، وللإيذان بأنَّ لهم حينئذ من فنون الكرامة ما تَعجزُ عن بيانه أساليبُ البيان.

ثم حكى ما يقولونه من الثناء، إظهاراً للسرور، وشُكراً للنِّعَم، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: الجنة، أو يريدون المكانَ الذي استقرُّوا فيه من الجنة. ثم فسَّروا هذا الميراث بقولهم: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: نحلُّ فيها حيث شئنا.

وبعد أن حكى سبحانه صفةَ ثواب المتقين، قال: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ يُهنِّئهم ويُثْني عليهم.

ثم ذكر شيئاً مما يكون هناك من عَظَمة الله، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ يجوز أن يكون الكلام على التحقيق مما لا يعلم كُنهَه إلا الله، ويجوز أن يكون

---

(١) أي: قال خَزَنةُ جهنّم للكافرين إهانةً لهم وإذلالاً: ادخلوا أبوابَ جهنّم خالدين فيها أبداً، فبِئْسَ مكانُ إقامة المتكبِّرين على ربِّهم المُتعالين عن قَبول الحقِّ، جهنَّمُ التي يستقرُّون فيها.

تمثيلاً لِعَظَمة الله التي لا تحدُّها العبارة إلا بطريقة التمثيل[١]، وقد أخذ ذلك من صفة الـمُخاطَبين لِيُقرِّبَ المعنى من أفهامهم، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدِّمة السادسة).

والقرآن العظيم مع شدَّة حِرصِه على التنزيه والتجريد، قد يستخدم التخييل والتجسيم[٢]؛ ليبدو المشهد محسوساً مثيراً للشعور، ولأنه يُخاطِبُ الناس في الكلام عن ذات الله سبحانه وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم. والله أعلم.

وقال في إتمام البيان: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بين الخلق، بما فيهم الملائكة، فأقيم كلٌّ في منزله الذي يستحقّه، ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾، لأنهم وَجَدوا من كرامته تعالى لهم: ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر.

اللهمَّ اجْعَلنا ممَّن سبقت لهم منك الحُسْنى يا أرحم الراحمين.

---

(١) بل الأول هو الصواب الذي لا ينبغي العدولُ عنه، والثاني لا وجه له، فقد أقام الله عز وجل الملائكة في مقامات مختلفة، كما قال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، أخبرنا الله تعالى عن بعضها، وطوى عنا بعضها الآخر، وليس لنا أمام ما أخبرنا عنه منها إلا التسليم على ظاهر اللفظ مع الإقرار بأنه لا علم لنا بتحقيق المعنى على وجهه لغيبيته.

(٢) لا يُقال: إن القرآن يستخدم التخييل والتجسيم في التعبير عن الله تعالى وصفاته، وإنما يُقال: إنه يستخدم أساليب العرب ومجازاتها واستعاراتها، ومَنْ فهم لغة العرب وتشبَّعت بها سليقتُه ظهر له المعنى في هذه الأساليب والاستعارات واضحاً جلياً، من غير أن يطرق ذهنَه معنى التجسيم، وإنما يَرِدُ هذا المعنى على من كان بعيداً عن لغة العرب وفصاحتها وأساليبها في التعبير، ولذا سمّى العلماء النصوصَ التي ورد فيها مثل هذه التعبيرات: نصوصاً موهمة للتشبيه والتجسيم، فهو مجرَّدُ توهُّم في الذهن يزول بالوقوف على أسلوبه من اللغة.

سورة غافر

مكيَّة، وهي خمس وثمانون آية

وموضوعها: الحثُّ على إخلاص العبادة لله، كما هو موضوعُ السورة السابقة.

والفرق بين السُّورتين: أنَّ الأولى أخذت المشركين بطريقة الاستدلال على فساد عقيدتهم في الشِّرك أكثر مما أخذتهم بطريقة الترغيب والترهيب، والثانية أخذتهم بطريقة الترغيب والترهيب أكثر مما أخذتهم بطريقة الاستدلال.

* * *

* في المطبوع سورة المؤمن وقد أثبتناها متابعة لما في المصحف، وكلاهما تسمى به السورة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السُّور في سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفِكرِ وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها اهتماماً به، ومنه هنا: قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾، والتعرُّض لصفة العلم للإيذان بظهور أثرها في أحكام هذا الكتاب، وبابتناء جميع ما فيه على أساس العلم الصحيح الدقيق، أما التعرُّض لوصف العزَّة فللإيذان بإنجاز ما فيه من وَعْدٍ ووعيدٍ على أوامره ونواهيه.

ثم تعرّض لصفات أخرى؛ لِـمَا فيها من الترغيب والترهيب والحث على التمسُّك بما فيه، فقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾، والتَّوب: مصدر، كالتوبة، وقيل: هو جَمْعُها، وقد وسَّط الواو بينهما لإفادة الجمع بين الوصفَيْن، فإنه يغفر الذنب لمن تاب(١)، فهو

---

(١) وقد يغفره لمن لم يتب أيضًا. أما الأول ـ وهو مغفرته لمن تاب ـ فواقعٌ جَزْماً بمقتضى وعد الله تبارك وتعالى، وأما الثاني ـ وهو مغفرته لمن لم يتب ـ فواقعٌ احتمالاً بمقتضى فضل الله وكرمه، =

لعطف السبب على المسبَّب. ثم أردف صفتَي السماح بصفة الحساب والعقاب، فقال: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لـمن أصرَّ على الكفر والعصيان. ثم قَـرَنَ صفةَ الحساب بما يُؤْذِنُ باللطف فيه، فقال: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي: الفَضْل العظيم على بني الإنسان، والإحسان العميم على سائر الحيوان.

وبعد أن ذكر اختصاصَه بصفات الأُلوهيَّة، صرَّح باختصاصه بالألوهيَّة فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ثم حذَّر المخالفين فقال: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ فيُجازي المُحسِنَ بإحسانه والمُسيءَ بإساءته، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ولما ذكر أنَّ القرآن مُسْتَنِدٌ على العلم الصحيح، وأنه أنزله هُدًى للناس ورحمة لهم؛ توعَّد الذين يجادلون فيه لغَرَض إبطاله وإخفاء أمره، فقال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالطعن فيها، لإدحاض الحق بالباطل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

ثم توعَّدهم على ذلك ووَعَدَ رسولَه ﷺ بنَصْره عليهم، كما نصر الرسلَ السابقين على أقوامهم المكذِّبين، فقال: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾ للتجارة والكسب، ومنعَّمين بحظوظ الدنيا وزخارفها، فإنهم مأخوذون عمَّا قليل، أَخْذَ مَنْ قبلَهم من الأمم، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الذين تحزَّبوا على الرسل وناصبوهم العداءَ بعد قوم نوح، مثل عاد وثمود وأضرابهم، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ﴾ من تلك الأمم العاتية ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ فيُصيبوا منه ما أرادوا من تعذيب أو قتل، ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾.

= تابعٌ لمشيئته بمقتضى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وعلى العبد أن يتعلق بالأول لأنه مجزوم به، فيُسارع إلى التوبة، ولا يركن إلى الثاني، فلعلَّه ممن لم تشمله تلك المشيئة.

ثم ذكر أخْذَه الشديد لهم، مُحسِّساً به، وقال: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ مُعاقباً لهم، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝﴾ الذي عاقبتُهم به، فإنَّ آثار دمارهم عبرةٌ للمعتبرين؟

وهذا الاستفهام للتهويل والترهيب، عَلَّله بالقاعدة العامة، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بما فيهم هؤلاء الكافرين بك وبما جئتَهم به، وتحزَّبوا عليك وهمُّوا بما لم ينالوا، فحقَّ عليهم ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝﴾ كما حقَّ على أولئك؛ لاتِّحادهم في الطريقة، واشتراكهم في الجريرة. و ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: هي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ...﴾ [الأعراف: ١٨، هود: ١١٩، السجدة: ١٣، صَ: ٨٥]. والأولى سببٌ للثانية، والثانية لازمةٌ للأولى.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾.

ثم قابل هذا البيان عن الكافرين بالبيان عن المؤمنين وكرامتهم، واستغفار الملائكة المقرَّبين لهم، وعِظَم منزلتهم؛ تسليةً له ﷺ، بإيذانه أنَّ أشراف الملائكة مثابرون على ولاية مَنْ معه من المؤمنين ونُصرتهم والدعاء لهم بما يُسعِدُهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ أي: المقرَّبون عند الله، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قائلين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ إيَّاها، ﴿وَ﴾ أدخِلْ معهم ﴿مَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾

الذي لا يمتنع عليه مقدور، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ الذي لا يفعل إلا ما تَقْتضيه الحكمةُ من الأمور.

ويجوز أن يكون الفَصْلُ بهذين الوصفَيْن عائداً إلى ما تضمَّنه السياق من وَعْد المؤمنين بالنصر على الكافرين، والإمهال للكافرين مدَّةً تقتضيها الحكمة البالغة، لعلَّهم يرجعون أو تكون الحجَّة عليهم بالغة.

ثم تابع الكلام عن حكاية دعاء المقرَّبين للمؤمنين بقوله: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: العقوبات في الأُخرى، أو ما يُؤدِّي إلى ذلك من المعاصي والذنوب في الدنيا، ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ الذي لا مَطْمَع وراءه لطامع؛ لأنَّ به دخول الجنان، والسلامة من النيران.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم قابل هذا الفوز للمؤمنين، بوصف بعض خِذلانِ الكافرين عائداً إليهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ والمَقْت: أشدُّ البغض. قال مجاهد وقتادة والسُّدِّيّ: إنهم ـ لما رأوا أعمالهم، ونظروا في كتابهم، وأُدخِلُوا النار من جرَّاء ذلك ـ مَقَتوا أنفسهم لسُوء صنيعهم فنُودوا: لَـمقْتُ الله إيَّاكم في الدنيا إذ تُدعَوْنَ إلى الإيمان فتكفرون، أكبرُ من مَقْتكم أنفسَكم اليوم بعد أن علمتُم تفريطكم وتسبيبكم لشقائكم[1].

ولما ندموا أشدَّ الندم على ما فرَّطوا تمنَّوا العودةَ إلى الدنيا، لِتَلافي ما فرَّطوا و﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾[2] ﴿فَٱعْتَرَفْنَا﴾ بعد تلك البلايا والـمِحَنِ ﴿بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾[3]؟ وهذا الاستفهام يُشْعِر باليأس والقنوط وشدَّة الاستبعاد. والإماتة الأولى: عَدَمُهم قبل وجودهم أو حالَ كونهم نُطَفاً، كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقد أجابهم سبحانه على هذا الطلب المُشْعِر بالتَّحيُّر والتَّضجُّر بما يُبيِّن سبب ردِّه، فقال: ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: بقاؤكم على ما أنتم عليه من العذاب، واستحالةُ ما ترجونه من

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١: ٣٥٨-٣٥٩).

(٢) أي: قال الكافرون: ربَّنا أَمَتَّنا مَوتَتَين: حين كنَّا في بطون أُمّهاتنا نُطَفاً قبل اتِّصال الرُّوح بنفوسنا، وحين انقضى أجلُنا في الحياة الدنيا، وأحيَيْتَنا مرَّتَين: في دار الدنيا، يومَ اتَّصَلَت الروح بنفوسنا بعد مئة وعشرين يوماً في رَحِم أمّهاتِنا، ويومَ بُعِثْنا من قبورنا.

(٣) أي: أَمِتْنا وأَحْيِنا حياةَ امتحانٍ أخرى، لنؤمنَ ونعملَ غيرَ الذي كنا نعمل، أمّا ما كان منّا في الحياة الأولى التي كنّا فيها مُمتَحَنين، فقد أقرَرْنا بذنوبنا التي ارتكبناها من إنكار البعث وما تَبِعَه من كبائر الإثم، وقد مرَّت علينا مدَّةٌ نحن فيها نُعذَّبُ في جهنَّم، فهل إلى خروجٍ من النار ورجوع إلى الدنيا من سبيل؛ لنُصلِحَ أعمالنا ونعمل بطاعتك؟

العودة، معلِّلٌ ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ كنتُم ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيده، ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ وتعتقدوا بالشرك، وتسارعوا فيه، ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ وقد حكم بأنَّ مَنْ يُشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار، وحكم بأنْ لا يغفرَ لمن يُشرك به، وأن يعاقبَه معاقبةً لا نهاية لها، لذلك لا سبيل لكم إلى الخروج أبداً.

ثم أردف الإنكار على الشِّرك والتهديد عليه بما يستدعي استحقاقَه وحدَه لأن يُعبَد، ولا يُشرَك معه شيء، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ الدالةَ على شؤونه العظيمة الموجبةِ لتفرّده بالألوهيَّة؛ لتستدلّوا بها على ذلك وتعملوا بمُقتضاها، فتوحِّدوه تعالى وتخصُّوه بالعبادة. ومن تلك الآيات: أنه يفيض عليكم نِعَمَه ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أي: مطراً يُنْبِتُ لكم به ما تأكلون منه أنتم وأنعامكم.

ثم ختم الكلام بما فيه تأنيبٌ لهم، ومُؤدَّاه أنَّ التذكير لا يفيد إلا مَنْ حافظ على سلامة فطرته ونور بصيرته، فقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ فإنَّ الإنابة إلى الله بعد الإيمان به تُغَذِّي الاستِعدادَ الطبيعيَّ المفطور عليه الإنسان للنظر الصحيح والبحث السَّديد في معرفة الله وإدراك شؤونه. ومَنْ أفْسَدَ طبيعته بمفاسد التربية وسُوء القدوة والتقليد الأعمى، فهو بعيدٌ عن التذكُّر والاتِّعاظ، لذلك فرَّع على هذا قوله للمؤمنين: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ والإخلاص: أن يأتيَ الإنسانُ بأعمال نقيَّةً لا يشوبُها شركٌ ولا رياء، وهو من الصفات الروحية التي تسمُو بالمرء إلى منزلة رفيعة من الخُلُق الإنساني، ولا يكون ذلك إلا بالتدريب.

ثم وصفَ ذاتَه تعالى ببعض صفاته المؤيِّدة لاستِحقاقِه ذلك، فقال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ قال أبو مسلم: أي: عالي الصِّفات ذو المُلك[1]، ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ

---

(١) تقدّم نقلُ المؤلف عن أبي مسلم تفسيرَه «العرش» بالملك، وتقدّم التعليقُ عليه وبيانُ أنّ العرش =

أَمْرِهِۦ﴾ وهو ما يُوحيه من الشرائع، وسُمِّيت روحاً لأنَّ بها الحياة الصحيحة، والروح: تُطْلَق في العُرف على الحياة، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فهو تعالى يُلقي هذه الروحَ من أمره وتعاليمه ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ويختارُه، فيجعله رسولاً إلى خلقه، ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ أي: يومَ الحساب، يومَ تلتقي الخلائق، أو الأرواح والأجسام، أو أهل السماوات والأرض.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ من أعيانهم وأحوالهم وأعمالهم، فلا تحتاج إلى إثبات، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٣٩-٤١].

ثم قرَّر سبحانه انفرادَه بمُلكِ ذلك اليوم الذي يَدينُ فيه الناس، فقال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ١٦﴾، وصيغةُ هذا الكلام ملؤها العَظَمة والجبروت والترهيب والترغيب.

أشفعَه بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشرّ، ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ وإنما ينالُ المجرم ما يستحق، والمحسن يُضاعَفُ له الإحسان.

ثم بيَّن تعالى استيعابَه في الحساب لجميعهم، ولسائر أعمالهم كنفس واحدة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٧﴾ لأنَّ أعمالهم بارزةٌ يعرفونها بأنفسهم. وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: لا يشغله تعالى شأنٌ عن شأن، فيُحاسِبُ الخلائقَ قاطبةً في أقرب زمان(١).

= مخلوق هو أعظم المخلوقات على الإطلاق، جعله الله تعالى مظهراً لعظيم قدرته وقهره وسلطانه، فيلزم من هذا معنى الملك، وليس هو الملك نفسه.

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٧: ٤٤٧).

أقول: ويكون ذلك ـ والله أعلم ـ بإدراكهم لأعمالهم وظهورها عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٤٨]، فيُدرِك كلُّ واحد جميعَ أعماله من خير أو شرّ، ويعلم ما له وما عليه، وما يستحقُّ على كلِّ عمل من نعيم أو عقاب.

وهذا معنى ما وَرَد عنه ﷺ: «إن الله تعالى يحاسب جميع الخلائق في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا»، وورد: «في قدر فواق ناقة»، وورد: «بمقدار لمح البصر»(١). ويؤيِّد هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٣٩-٤١](٢).

ثم وصف يوم القيامة بأنواع أخرى من الصفات الهائلة الرهيبة، فقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ أي: الدانية والقريبة، يعني: يوم القيامة والحساب، ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ وهذا تمثيلٌ للهَلَع الشديد حالَ كونهم ﴿كَٰظِمِينَ﴾ على الغمِّ العظيم مما يُصيبُهم، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يَعطِفُ عليهم ويُنجِدُهم، ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ أي: مُشفَّع تُقبَلُ شفاعتُه فيهم.

---

(١) سبق تخريجه في المقدمة (١: ٦٠٩).

(٢) إدراك العباد لأعمالهم في صحف الأعمال أو الكتب، وشهادة الأعضاء على صاحبها، وتمييز المجرمين من المؤمنين بسيماهم: كلُّ ذلك تمهيدٌ للحساب، وليس هو الحساب نفسه، فالحساب فيه معنى المساءلة والمناقشة، ولذلك ورد في السنة الصحيحة ما يُبيِّن أن ذلك يكون بمحاورة بين العبد وربه، سواء قلنا: إنها حوار مباشر بلا واسطة، أو قلنا: بواسطة الملائكة، كحديث البطاقة، وقد سلف وحديث «سترتها عليك في الدنيا...» وقد رواه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨). عن ابن عمر رضي الله عنهما، وحديث الثلاثة الذين هم أولُ مَنْ تُسعَّر بهم النار، إلى غير ذلك من أحاديث كثيرة، يدل مجموعها على إثبات الحساب بهذه الكيفية.

وهذا تيئيسٌ لهم من النجاة، وفي هذا القيْد تهكُّم عليهم في اتِّخاذهم الآلهة شفعاءَ لهم عند الله وتنديم، والمراد: نفيُ الشفيع مُطلقاً، ففيه نوعٌ من أنواع البديع، وهو نفيُ الشيء بإيجابه، وهو أن يُنفَى الشيءُ المقيَّدُ، ويُرادَ نفيُه مطلقاً، لا نفيه مقيَّداً، لأنَّ القيد إنما ذُكر لغَرَض التندُّر والتبكيت.

ثم علَّل أنْ لا وَجْهَ للشفاعة بقوله: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ ووَجْهُ التعليل: أنَّ الشفاعة مَبْنيةٌ على شَرْح الشفيع حالَ المشفوع له للمشفوعِ عندَه، وبيانِ استحقاقِهِ العفوَ عنه[1]، والله سبحانه وتعالى يعلمُ دقائق المعلومات وخفيّاتها ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾، فلا وَجْهَ للشفاعة عنده.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهم الشركاء ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾، وهذا تهكُّمٌ بهم وتسخيفٌ لهم، خَتَمَه بهذا التقرير المطويِّ على التهديد والتوعُّد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠﴾ لا تخفى عليه من أمرهم خافية.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٢﴾.

ثم لَفَتَ نظرَهم إلى ما آل إليه حالُ المكذِّبين قبلهم، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ

---

(١) وقد تكون الشفاعة لا على هذا الوجه، بل على قيام الشفيع بطلب العفو من الله تعالى للمشفوع له من غير استحقاق، بل بالتماس فضل الله وكرمه، ويقوم الشفيع بذلك دون المشفوع لكرامته ومنزلته عند ربه، فيقبل الله منه ويستجيب له، وهذا هو وجه إثبات الشفاعة للمؤمنين.
وكلام المؤلف يُفهَم منه نفيُ الشفاعة مطلقاً، وهو ما صرح به في مواضع أخرى، والصواب خلافه.

فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذِّبة لرسلهم، كعاد وثمود وأضرابهم، وللمبالغة في التهديد قال: ﴿كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذ عندهم من القوَّة والبأس ومن الفنون والأعمال ما ليس لِأُولاء، ولم يُجْدِهِم ذلك دفعاً عن أنفسهم، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أخذاً وبيلاً، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ يقيهم بأسه وعذابه.

ثم علَّل إصابتَهم بالعذاب بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُعلَّلٌ ومُسبَّبٌ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ﴾ بها ولم يجيبوا الرسل ويقبلوا تعاليمها، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أخْذَ عزيز مقتدر؛ ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم فصَّل عاقبةَ أولئك الماضين، بعد أن أجمَلها، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾ وهي معجزاته التي أرسله الله بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾، فكذَّبوه وكابروه ﴿فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم ذكر ما عَمَدوا إليه من السَّفاهة بعدَ أن ألزمَهم بالحُجَّة، وقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ المبين ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وهو ما ظَهر على يده من المعجزات الباهرة، ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: استَبقُوهُنَّ للخدمة. وهذا القتلُ

غيرُ القتل الأوَّل الذي كان قبل ولادة موسى، فقد كان خوفاً من أن يَنشأ منهم مَنْ يُزيلُ المُلكَ عن يده. أما هذا القتل فلإضعاف بني إسرائيل قومِ موسى بعد إرسالِه إلى فرعون، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وهم الفِتيان من قومه، فالمعنى: أعيدوا عليهم ما كنتُم تفعلونه بهم قبل موسى.

فهوَّن سبحانه أمرَهم، وقال: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي: إنَّ مكايدَهم ضدَّ الحق فاشلةٌ لا محالة.

وقد وضع الظاهر مَوْضع المُضْمَر ليكون الحكم عاماً في أمثالهم، وليدلَّ على العِلّة، على نهج القرآن في ذلك. وقد خذَّلهم الله عنهم بإرسال الدم عليهم والضفادع والجراد والطوفان، كما جاء ذلك في سورة الأعراف[1].

ثم حكى سبحانه تصميمَ فرعون على قتل موسى بقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾، والجملةُ الأخيرة لإظهار التجلُّد وعدم الاكتراث بدعائـه، ولكنها تنمُّ عن أنه يخاف ذلك، وتدلُّ على أنه كان في خاصَّة فرعون قومٌ يُشيرون عليه أن لا يقتلَ موسى، ويُخوِّفونه من أن ينتقمَ له ربُّه.

ثم علَّل طَلَبَ القتل بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: في أرض مصر بكثرة الهرج، وإثارة الفتنة واختلاف النظام.

فاستعاذ منهم موسى بربِّه، كما حكى عنه ذلك بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾، فذكرَ فرعونَ بوَصْفٍ يعمُّ أمثاله.

---

(١) الآية [١٣٣].

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ
ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا
يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ
ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ
وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ
﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ
هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ
﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ثم ذكر سبحانه ما كان من الجدل بين فرعونَ وأتباعِه، وبين رجلٍ مُؤمِنٍ من قومه انتصرَ للحق. وفيه دلالةٌ على أنَّ الأمة مهما بالغت في الضلال، لا تَفقِدُ أفراداً بقي فيهم بقيـةٌ من صحَّة الغريزة الدينية، ونور البصيرة، والاستعداد للنظر الصحيح والرأي السديد، بمحافظـتهم في الجملة على طبيعتهم وعدم تأثُّرهم كثيراً بمـا يحيط بهم من مفاسد التربية وسوء التقليد، فقال: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾، والظاهر أنه من الشخصيات البارزة، فقدرَ أن يقول لهم هذا القول.

ثم أخَذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط والتبرُّؤ من التحزُّب، فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي: لا يَتخطّاه وَبالُ كذبه، ﴿وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم

﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ به من العذاب إن لم يُصِبْكم كلُّه، لا سيّما إنْ تعرَّضتُم له بسُوء. فخوَّفهم بما هو أظهَرُ احتمالاً عندهم.

أما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨﴾ فقد قال فيه أبو السُّعود: إنه احتجاجٌ آخرُ ذو وجهَيْن:

أحدهما: أنه لو كان مُسْرفاً كذاباً لَـمَا هداه الله تعالى إلى البيِّنات، ولَـمَا أيَّده بتلك المُعجِزات.

وثانيهما: أنه إن كان كذلك خَذَلَه الله وأهلكَه، فلا حاجة لكم إلى قَتْله.

ولعلَّه أراهم المعنى الثاني وهو عاكف على المعنى الأول، لتليين شكيمتهم. وقد عرَّض فيه بفرعون بأنه مُسرِفٌ كذّاب، لا يهديه الله سبيلَ الصواب[1]. ويجوز أن يكون هذا من كلام الله، جاء معترضاً في كلام المؤمن.

ثم تابَعَ المؤمنُ كلامَه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: غالبين عالين على بني إسرائيل في أرض مصر، تَتَصرَّفون في شؤونهم ما تشاؤون، ولكن قوَّة الله فوق قوتكم، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ فلا تـتعرَّضوا لبأس الله بقَتْل موسى.

ثم حكى سبحانه تَصَلُّبَ فرعون برأيه ـ رداً على المؤمن ـ ومعارضتَه لكلامه، فقال: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أُشيرُ عليكم إلا بما أستَصْوِبُ مِن قَتْلِه حَسْماً للفتنة، ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾ في هذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ في السياسة والمصلحة العامة.

---

(١) تفسير «أبي السعود» (٧: ٢٧٤-٢٧٥).

ثم حكى سبحانه ما ردَّ به المؤمنُ عليه، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ إنْ تعرَّضتُم لموسى بسُوء، أخاف عليكم يوماً ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: مِثلَ وقائع الأمم الماضية، ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط وشُعيب، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ ولكنهم هم الذين يظلمون أنفسَهم بتعرُّضهم لأسباب الرَّدَى والهلاك. والظاهر أنَّ تاريخ الأنبياء كان معروفاً عندهم.

وبعد أن خوَّفهم بالعذاب الدنيويِّ خوَّفهم بالعذاب الأُخرويِّ، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: يومَ الاستعانة ودعوة التبرُّؤ والثبور، وهو يوم الجزاء ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ عن موقف الحساب إلى النار. ويجوز أن يكون الكلامُ استعارةً تمثيليَّة من حالة الإبل النافرة من شدَّة الخوف، تفرُّ مدبرة، مثَّل به شدَّة خوفهم في موقف الحساب، وقرَّره بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يَعصِمُكم من عذابه.

ثم أتى سبحانه بهذه الجملة الاعتراضية ـ التي يأتي بها القرآنُ في مثل هذا البيان؛ لإفادة وَجْه تَصلُّب الكافرين بكفرهم، رغماً عن المبالغة في الإرشاد ـ فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حَسَبَ سُننه في الإنسان إذا دسَّى نفسه بإفساده لطبيعته بمفاسد التربية وسُوء القدوة ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾(١)، لأنَّ سنَّة الله تعالى مَضَتْ في أخلاق البشر: أنه إذا انطبع على الضلال لا يميل إلى الهُدى. ويجوز أن تكون هذه الجملة من تتمَّة كلام المؤمن، أتى بها عِوَضاً عن لازمها، وهو جزاء الضَّالِّين وعذاب المكذِّبين، فهو يتوعَّدهم بالعذاب الأليم.

ثم بالغ في تخويفهم لتكرُّر مِثلِ ذلك منهم، بما كان من أسلافهم من مُعارضةِ

---

(١) أو المعنى ـ كما تقدَّم مراراً ـ: ومَنْ يحكم اللهُ عليه بالضلالة؛ بناءً ما سَلَفَ منه في الحياة الدنيا، فما له مِنْ حاكم يحكم له بالهداية، لِيُنجيَه من عذاب الله.

يوسُفَ عليه السلام وعَدَم الإيمان به، مما يَسْتَوجِبُ شدَّة غضب الله عليهم؛ لتكرُّر ذلك منهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ وكنتم تتمنَّون الخلاصَ منه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ مُظهِرينَ الشماتَةَ به، أي: خَلَصْنا منه، ولن يتصدَّى أحدٌ بعده لمثل هذه الدعوى، إذ لم ينجح يوسُف فيها. أما التعبير بالبعث فهو من تعابير القرآن على نهجه في مثل ذلك.

وهنا انقطع كلامُ المؤمن، على نـهج القرآن في الكلام عن الغير حيث يـخلِّله بالاستطراد، وابتدأ كلام الله، وقد نعى عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي: جَرَتْ سنَّته تعالى فيمن رَسَخَ فيهم الارتيابُ والإسرافُ فيه: أن لا يميلوا إلى الهدى، ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وهذا الخطاب مُوجَّه إلى مجموع الأمة بمـا فيها السابقون واللاحقون، كما هو دأب القرآن في ذلك، حيث ينظر الأمةَ كائناً حياً واحداً، يتأثَّر منهم اللاحق بالسابق، فيُخاطبُهم بخطاب واحد.

وقال في «مجمع البيان» في تفسير قوله: ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾: أي: أقمتُم على كفركم، وظننتُم أنَّ الله لا يُجدِّد لكم إيجاب الحجَّة. ومفاد ذلك: أنهم قالوا: لا يتصدَّى أحدٌ بعده لمثل هذه الدعوة والدعوى، إذ لم يجد نجاحاً.

أقول: أما يجوز أن يكونَ هذا القولُ منهم استبطاءً وتلافياً لِـمَا فرَّطوا من عدم الإيمان به، فكانوا يتمنَّون أن يأتيهم رسول آخر ليؤمنوا به، فلما جاءهم أخلفوا؟ على حدِّ ما يَقرُبُ من قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]. فيكون قولُ المؤمن لهم بذلك تقريعاً وتذكيراً. ولا يعارضُ هذا المعنى النفيُ بـ﴿لَن﴾ الدالةِ على استغراق المستقبل، إذ

يمكن أن يكون ذلك للمبالغة في الاستبطاء، ويؤنس لهذا المعنى قراءة: (ألن يبعث الله) بالاستفهام الدالِّ على الاستبطاء والرجاء. والله أعلمُ بمراده.

ويجوز أن يكون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ من كلام الله لا من كلام المؤمن، وأن يبتدئ الاستئنافُ من قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾. والله أعلم.

ثم بيَّن حالَ أولئك المسرفين المرتابين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾، وهذا النكير ينطوي على الإيذان بأنَّ الكلام عن الله لا يكون إلا بحُجَّة من الله على لسان رسوله. ثم استعظَمَ فِعلَهم هذا واستفظعه بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والمقت: شدَّةُ البُغض.

ثم بيَّن مصدر تلك المعارضة والمجادلة منهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ أي: جرَتْ سُنَّته تعالى في أخلاق البشر وطبائعهم: أنَّ مَن انطبعَ منهم على التكبُّر والتجبُّر، لا يميل إلى دعوة الداعي، ولا يسمع ما هو مخالفٌ لدينه أو عادته، ويبطشُ بمن يتصدَّى لدعوته إلى ذلك.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى

ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم حكى سبحانه عن فرعون ما يدلُّ على غروره وجهله، فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي: بناءً عالياً جداً ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ وفي إبهامها ثمَّ إيضاحها تفخيمٌ لشأنها، أي: لَعَلِّي أبلُغُ إلى أعظم الأسباب ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾، وقد قيل: إنما قال هذا تمويهاً على قومه وتضليلاً لهم. وقيل: بل استهزاءً بدعوة موسى واستخفافاً. وقيل: ظناً منه سخيفاً بأن ذلك طريقٌ لمعرفة صدق موسى أو كذبه في ادِّعاء وجود آلهةٍ لجهله بالله تعالى، وكيفية الاستنباء عنه.

ثم علَّل هذا الطلب بقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ فيما يدَّعيه.

وقد علَّق سبحانه على هذا السياق في أمر فرعون ومعارضته، بتأنيبه ووعيده بالخذلان والدمار، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي: في خسار وفشل وهلاك.

ثم عاد إلى إتمام الكلام عمّا قاله المؤمن، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ وفيه تعريضٌ بأنَّ ما يسلكه فرعونُ وقومُه هو سبيلُ الغيِّ والضلال.

ثم تمّم الدعوة بهذا البيان، فقال: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ﴾ مؤقَّت، ﴿وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ والخلود.

ثم بيَّن وفصَّل الـمُجازاة في الآخرة، فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ ﴾ في الآخرة ﴿ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ عَدْلاً من الله سبحانه. والمراد من المِثْل: ما يقابلُها في الاستحقاق. وبعبارة أخرى: ما ينتج عنها ويترتَّب عليها ترتيباً طبيعياً[1]، بحسب سنة الله في معاكسة الأنظمة الكونية والتعاليم الدينية، كما يصيب المعاكس للسنن الكونية والقوانين الصحية أو الاقتصادية في هذه الحياة.

﴿وَمَنْ﴾ اتَّبع تلك التعاليم و﴿عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ أي: بغير تقدير وموازنة بالعمل، بل أضعافاً مُضاعَفة، فَضْلاً من الله وإحساناً. وفي قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيذانٌ بأنَّ العملَ الصالحَ من غير المؤمن لا يؤهِّل لدخول الجنة، ولكن قد يخفِّف عنه بعضَ العذاب، لأنَّ الشرك ظلمٌ عظيم، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]، ودخول الجنة مشروط بالإيمان الصحيح والتوحيد والتنزيه.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً... ﴾ من كلام الله، جاءت استطراداً في كلام المؤمن، على نهج القرآن في مثل ذلك إذا عبَّر عن كلام الغير. والله أعلم.

ثم استفزَّهم ووبَّخهم كيف يقابلون نُصْحَه لهم بالإيمان المؤدِّي إلى دخول الجنان، بدعوتهم له إلى الكفر والخِذلانِ ودخول النيران، وصاغ الكلام على التَّعجُّب من شأنهم المعكوس، وأمْرِهم المخذول، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) بل ترتيب العقوبة على السيئة ترتيب شرعي، يعني: قرَّره الله تعالى في شريعته، وليس له مردٌّ آخر من نظام كوني أو سنة طبيعية، كما تقدَّم بيانُه مراراً.

ثم فسَّر هذا المُجْمَلَ وفصَّله بقوله: ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ﴾، وفي صورة الكلام إشعارٌ بأن الألوهية لا بدَّ لها من برهان مُوجِبٌ للعلم بها، والإيمانُ اليقينيُّ لا يكون إلا بحُجَّة قاطعة وعلم وثيق.

ثم قارَنَ ما بين دعوتهم الباطلة هذه وبين دعوته الحقَّة لهم، فقال: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ أي: القدير على التعذيب والغفران. وقد ساق الوَصْفَ برهاناً على اختِصاصِه بالألوهية لاختصاصه بصفاتها. والجمعُ بين هاتين الصفتين لبيان وَجْه تأجيل عقابهم الدنيويّ مع شدَّة استحقاقهم له.

ثم قارَنَ بين صفات الله تعالى وبين صفات الأوثان التي يدعونه لعبادتها، مُؤْذِناً بالردِّ عليهم، على طريقة البرهان بالمنطق الوجداني، فقال: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: ليس له واقعٌ في الدنيا ولا في الآخرة، وليس فيه فائدةٌ في الدنيا ولا في الآخرة، فذكرَ الدعوة وأراد ثمرتَها ونتيجتها، من ذِكرِ السبب وإرادة المسبَّب، أي: مما لا شكَّ فيه أنَّ أوثانكم التي تدعونني إلى عبادتها لا فائدة من دعوتها، لا في أمر الدنيا، ولا في أمر الآخرة، وإنما ذلك مُختصٌّ بالله، ﴿وَ﴾ لا جرَمَ ﴿أَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ في الضلال ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ بحسب سُنَّة الله في ذلك.

ولما بلغ في النصيحة لقومه منتهى الجهد فلم ينتصحوا، ضاق بهم ذَرْعاً وتحسَّر غايةَ التحسُّر، وتأسَّف أشدَّ التأسُّف، وتوعَّدهم بما سينكشف لهم من حقيقة الأمر يوم القيامة، أو يوم العذاب في الدنيا، وقال: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ عند مُعاينة العذاب، وقد ختمَ مقالَه بما يدلُّ على أنَّهم تَوعَّدوه بالأذى على مُحاجَّته هذه، فخوَّفهم بالله والتجأ إليه، فقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ فيُحِقُّ الحقَّ ويَقْطَعُ دابرَ الكافرين.

أقول: وهكذا يجب أن يكون المؤمن داعياً إلى الله، وإن لم تُجْدِ دَعْواه نفعاً، لأنها مطلوبة منه على كلِّ حال، ومسؤول عنها في كلِّ مقال.

قال مقاتل: لما قال لهم ذلك قَصَدوا قَتْلَه، فهَرب منهم فطلبوه، ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ ولم يقدروا عليه بشيء[١]، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ ونجا منهم.

وكان ما نالهم من سُوء العذاب في الدنيا: أنهم استُؤصِلوا بالغَرَق الشامل الفادح. أما ما نالهم في الآخرة بعد استئصالهم بالغرق؛ فهو ما ذكره تعالى بقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي: يُعرَضُ آل فرعون في قبورهم صباحَ مساء.

وعن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعدُه بالغَـدَاة والعشيّ، إنْ كان من أهل الجنَّـة فمن الجنة، وإن كان من أهل النار فمن النار، يُـقال: هذا مقعدُك حين يبعثُـك الله يومَ القيامة». رواه البخاري ومسلم في «الصحيحين»[٢].

وقال البيضاوي: رُوي عن ابن مسعود: أنَّ أرواحَهم في أجوافِ طيور سُودٍ تُعرَضُ على النار بكرةً وعشياً إلى يوم القيامة[٣].

أقول: ولا يعارض هذا أن العذاب يكون فيها بعد الحساب يوم القيامة، لأن ذلك يكون على أكمله وأشدِّه بعد أن تُزوَّجَ وتُقْرَنَ الأرواحُ بالأبدان في الحياة الأخرى. أما هذا فيكون في حياة البرزخ، وهي حياة دون ذلك، وإن كانت أكمَلَ من الحياة الدنيا. والله

---

(١) ذكره أبو حيان الأندلسي في «تفسيره» (٧: ٤٤٨).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٣) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٢: ٤٨).

أعلم. ولذلك قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾، وكما تستعمل كلمة ﴿ءَالَ﴾ في القرابة، تستعمل في المُوالين والتابعين.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

ثم ذكر محاورةً تقع بين الأتباع والرؤساء بعد دخولهم أشدَّ العذاب، فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ﴾ فيما بينهم وهم ﴿فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ عن الإيمان وأضلُّوهم، وهم الرؤساء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ جَمْعُ تابع، كخَدَم جَمْع خادم، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ أي: دافعون ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ بالدفع أو بالحمْل.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ فجَازى كلَّ مُسْتحقٍّ بما يستحق. ووَجْه الرد: أنَّ جزاء الله سبحانه يتناول كلَّ مَنْ خالف سُنَنَه وتعاليمَه، وإن كان بغَواية غيره له، إذ قد قصَّر في تبصُّره واستعمال عقله، ولأنه مُرتَّب ترتيباً طبيعياً[1]، والله أعلم، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

(١) بل ترتيباً شرعياً، كما تقدَّم بيانه قبل بضع صفحات.

وهذا الكلامُ عامٌّ يشمل آلَ فرعون وغيرَهم من أمثالهم، على نـهج القرآن في تعقيب الخاصِّ بما يشمله وغيرَه.

قال الرازي في التعليق على هذه الـمُحاوَرة: واعلم أنَّ أولئك الأتباع يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، وإنما مقصودُهم من هذا الكلام التَّحرُّش والإيلام، لأنهم هم الذين أوقعوهم في هذه الورطة، لذلك يقول الرؤساء: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي: لو قدرتُ على إزالة العذاب عنك لدفعتُه عن نفسي، ثم يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي: أوصَلَ إلى كلٍّ واحد ما يستحق. انتهى[1].

أقول: ولعلَّه أتى بعنوان ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ بَدَلَ: الأتباع، و﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ بَدَل: الرؤساء؛ ليُلائمَ هذا الغَرَض، وهو تحرُّش الضعيف بالقوي حينذاك. والله أعلم.

ثم ذكر تَشَبُّث أهل النار جميعاً بخزَنة جهنم، تعلُّلاً وتحيُّراً، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾، فاستعملت الشفاعة هنا بمعناها الحقيقي، وهو الدعاء.

فأجابهم الخَزَنةُ و﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وتُنبِّهكم على هذا الأمر وهذه العاقبة؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، ولكن كذَّبناهم، ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ أنتم إذن، أما نحن فيستحيلُ أن ندعوَ لمن هذا شأنهم. ثم أقنطوهم بقولهم: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ فبيَّنوا لهم أنَّ الشفاعة والدعاء لا يمكن أن تكون للكافرين برسلهم، إذ لا حُجَّة للناس على الله بعد إرسال الرسل.

ثم ختم هذا السياقَ بالغرض منه، وهو تسليتُه ﷺ والمؤمنين بالوَعْد لهم بالنصر والوقاية من الأعداء، كما نصر موسى ومؤمنَ آل فرعون على فرعون ومَلَئِه، ووقاهما من

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٧: ٥٢٢).

مكرهم، وأنه سيَجْزي كُفَّار قريش بما جَزَى أمثالَ فرعون وملئه من عذاب النار، فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ وهو يوم الحساب. قال أبو السعود: عبَّر عن يوم الحساب بهذا التعبير هنا للإشعار بكيفيَّة النصر فيه، وأنها تكون بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ، وعلى الكَفَرة بالتكذيب[1]. كما وَقَع لِـخزَنة أهل النار، ويكون ذلك ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾، وفي هذا إكمالٌ للبيان.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم أجمَلَ ما تضمّنه السياقُ السابق من الاستشهاد على نَصْر موسى وخَذْل أعدائه، أجمَلَه بما يدلُّ على أنه تعالى أعانه عليهم وكفاه شرَّهم حتى أنجزَ مهمتَه وبلَّغ دعوتَه ونشر دينَه، فتوارثه بنو إسرائيل، وجعل الكلام تمهيداً للعودة إلى الرسول ﷺ وتسليته وتثبيته، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾﴾، فبقي فيهم مِن بعده مدّة ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ أي: وكذلك سنفعلُ معك ومع أمَّتك بهذا القرآن، ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، يُجمِلُ بهذا البيان تحقيقَ نصره تعالى لموسى وأتباعه على المعارضين، ويَعِدُ محمداً ﷺ بمثل هذا النصر المبين ونَشْر دينه القويم.

(١) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٧: ٢٨).

ثم أمره أن يستعين على ذلك بالصبر المتين، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بنَصْرك على أعدائك ﴿حَقٌّ﴾ واقعٌ لا مَحَالة، كما نصر موسى وقومه على أعدائه، وإنه تعالى مُنْجِزٌ وَعْدَهُ لك، كما أنجزَ وَعْدَه لهم، وأحاطهم بالعناية حتى نشروا الدين.

ثم أمره تعالى أن يضيفَ على الاستعانةِ بالصبر الاستعانةَ بطاعة الله، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ والإبكار: أولُ النهار، والعَشِيّ: آخرُه، وإنما ذكر طَرَفي النهار لتعميم الوقت. والمراد من الذَّنْب: ما يفرط منه بترك الأَوْلى، أو ممَّا من شأنه أن يُعاتَبَ عليه من الخواطر في صعوبة المواقف[1]، فحَسَناتُ الأبرار سيِّئاتُ المقرَّبين.

ثم ذكر منشأ هذه الـمُعارَضة في هؤلاء المعارضين للأنبياء والمرسلين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أي: بغير حُجَّة من كتب الله. وهذا القيد لزيادة النكير، وللإيذان بأنَّ المُجادَلة في أمر الدين لا بدَّ من استنادها إلى كتابٍ من الله مبين، وهؤلاء الذين يجادلون بغير ذلك ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أي: ما يحملُهم على هذا الجدل الباطل إلا كِبْرٌ في صدروهم، مَنْشؤه الرياسة، وأنَّهم لو آمنوا بنُبوَّتك لزالت رياستُهم وأصبحوا تحت إمْرتك، ولكنهم سيصيرون فيما هم منه خائفون رَغْمَ أنوفهم، وهم صاغرون، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: استعصِمْ به من شرِّهم، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ لأقوالكم وأفعالكم.

وقد منع هذا الكِبرُ بعضَ كُبراء قريش عن اتِّباع الحقِّ مع عِلمِهم بصدق الرسول ﷺ؛ هذا أُمية بن أبي الصَّلت يُقرُّ برسول الله ﷺ ويقصده ليؤمن به، ثم يعود فيقول: لا

---

(١) هذا لم يثبت وقوعه منه ﷺ، فالأَوْلى الاقتصار على تفسيره بترك الأَوْلى.

أؤمن برسولٍ ليس من ثقيف. ومثله أبو عامر الراهب. وهذا أبو جهل يقول: والله ما كذب محمدٌ قط، ولكن إذا كانت السدانة والحجابة في بني هاشم، ثم النبوة، فما بقي لنا[١]؟ وهذا أبو طالب يرى المعجزات، ويقول: إني لأعلم أنك على الحق، ولولا أن تُعيِّرني عجائز قريش باتِّباعك لأقرَرْتُ بها عَيْنَك[٢]. فنعوذُ بالله من صَلافةِ كِبْرٍ وحَماقةِ هوىً تُغطِّي نورَ العقل، فَيُعْرِض صاحبُها عن الحقِّ والرُّشد والفلاح، ويَتَمادى في الضلال.

ثم ذكر مثالاً مما يُجادلون فيه بغير سلطان، وهو أمرُ البعث، وحقَّقه، فقال: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[٣] وهذا على منهاج قوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١]. والمعنى:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١: ٣٣٣)، عن السُّدِّيِّ مرسلاً.

(٢) رواه مسلم (٢٥)، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعمِّه: «قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة. قال: لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك، فأنزل الله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]».

(٣) كان الناس يظنون أنَّ أبعاد النجوم لا تزيد على بضعة آلاف من الأميال، وبعد اتِّساع العلوم وتوفُّر الآلات تبيَّن أن بُعْدَ بعضها القريب يمتد إلى ملايين الملايين من الأميال، وإذا قدَّرنا الأبعاد بالضياء، وجدنا ضوء الشمس يصل إلينا بثمان دقائق، وضوء أقرب نجم بأربع سنوات، ومنها ما يصل ضوؤه بعشرات أو مئات أو آلاف من السنين.

وكان الناس يظنون أنَّ عدد النجوم لا يتجاوز بضعة آلاف نجم، حتى عُلِمَ الآن أنَّ نجوم السماء لو عدّ العادّ في كل دقيقة ألفاً وخمسمئة نجم، لاحتاج في استيعابها إلى سبعمئة سنة، وأرضُنا ذَيلٌ ضئيلٌ لنجم صغير من ذلك العدد الهائل، وهو الشمس.

أفتعجز هذه القدرة البالغة عن إعادة الناس ثانية إلى الحياة؟ جلَّت قدرةُ العلي القدير، وما أجهل ذلك المنكِر الحقير. (المؤلف).

إنهم يُسلِّمون أنَّ خالق السماوات والأرض هو الله سبحانه وتعالى، ويعلمون بالضرورة أنَّ خَلْقَ السماوات والأرض أكبرُ من خلق الناس وإعادتهم، وكان من حقِّهم أن يقرُّوا بأن القادر على خلق السماوات والأرض يكون قادراً على إعادة الإنسان الذي خَلَقَه أولاً ويعيدُه ثانياً. فهذا برهانٌ جليٌّ في إثبات المطلوب، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ لقصورهم في النظر والتأمُّل، لفَرْطِ غفلتهم، واتِّباعهم لأهوائهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

ولما بيَّن تعالى أنَّ الجدلَ المَقْرونَ بالكِبْر والحقد والجهل كيف يكون، وأن الجدل المقرون بالحجّة والبرهان كيف يكون، نبَّه سبحانه على الفرق بين البيانين بالمثال، وضمَّن الكلامَ حُجَّةً أخرى على إثبات البعث، بطريقة المنطق الوجداني، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الغافل والمستبصر، والمُدلِّل والمُقلِّد، ونتائجهما. ثم عطف عليهما ما هو المراد منهما على طريقة التشبيه، تصريحاً بعد التمثيل، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾[١] فإذا كان هذان الصنفان لا يستويان، ونرى المُسيءَ قد يفوقُ حالُه حالَ الصالح في الدنيا، فكيف لا يكون لهما حالٌ أخرى يظهر فيها نتائجُ ما بينهما من التفاوت؟

وقد زاد كلمة ﴿لَا﴾ في (المسيء) لتأكيد النفي، ولطول الكلام بالصِّلة.

ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ بالالتفات إلى الخطاب، لبيان قلَّة مَنْ يتذكَّر من البشر مِثْلَ هذه الملاحظات الظاهرة، والاستدلالات الجليَّة، فيعلم أنَّ الفرق بين حال الفريقين في الدنيا من الصلاح والطلاح، لا بدَّ وأن يكون له نتائجُ نسبيةٌ في الأخرى، وإلا كان هذا العالمُ فوضى باطلاً خالياً من الغاية الجليلة والحكم النبيلة والعدل بين الناس، وحاشاه سبحانه أن يخلقه كذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وبعد أن قرَّر الدليل الدالَّ على وجود البعث، أردَفَه ببيان تحقيق وقوعه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾ لقصور أنظارهم على ظواهر ما يحسُّون.

ولما بيَّن أن القول بالقيامة حقٌّ وصدق، بيَّن الطريق الموصلة إلى السعادة فيه، وهي عبادة الله وحده، فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، قال ابن عباس: أي:

---

(١) معنى الآية ـ كما في تفسيري «المعين» ص٤٧٣ ـ: وما يستوي الجاهلُ الذي ساقه الجهلُ إلى الكفر، والعالم الذي هداه عِلمُه إلى الإيمان، وكذلك لا يستوي أفرادُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا أفرادُ جنس المُسيء، فكلٌّ من الفريقَين أفرادُهما مُتفاضِلو المُستَويات؛ فلا بُدَّ أن يظهرَ التفاوت بين الفريقَين فيما بعد الموت والبعث، ولا بدَّ أن يُعاقَبَ الكافرُ على كفره، وأن يُثابَ المؤمنُ على إيمانه. كما لا بدَّ أن يُثابَ كلُّ فَرْدٍ من أفراد مَن آمن وعمل صالحاً بحسب درجته، أما المُسيئون فيستحقُّون العقاب بحسب دَرَكةِ كلِّ واحد منهم من المعاصي والذنوب.

وحِّدوني واعبُدوني أُثِبْكُم[١]. ويُؤْنِسُ لهذا المعنى قولُه ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[٢].

قال في «مجمع البيان»: ولما عبَّر عن العبادة بالدعاء جَعَل الإثابةَ استجابةً؛ ليتجانس اللفظُ ويتناسق.

أقول: ويؤيِّد أنه أراد بالدعاء العبادةَ: وَصْلُه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ أي: صاغرين أذلَّاء.

ومَنْ يرى أنَّ المراد في الآية: الدعاء وإجابته، يقول: إنها مَرْجوَّة متى استكملت شرائطها، فإن لم تكن بإعطاء الداعي ما طلبه، فربما كانت بما يعلم الله أنه خيرٌ له في دنيا أو أُخرى.

ومن شروط الدعاء: أن يكون المطلوب جارياً على السُّنن الكونية؛ لأنَّ سُنَنَ الله لا تتبدَّل، فلا يقبل الله دعاءَ مَنْ يدعو بالرزق وهو قاعدٌ لم يتشبَّث بالأسباب تشبُّثاً صحيحاً، ومَنْ يدعو بالشفاء بدون أن يتمسَّك بقوانين الصحة الطبيعية وبمراعاة السنن الكونية. وهكذا يكون الأمر في سائر المطاليب، إلا أن الله سبحانه يجازيه في الآخرة جزاءً عظيماً. والله أعلم.

ولما طلب منهم أن يعبدوه وحده، أردفَه بما به يستحقُّ ذلك من أفعال القدرة والمنَّة والحكمة، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ مظلماً؛ ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ وتستيعضوا ما فَقَدتُموه من القُوى أثناء حركة النهار، ﴿وَ﴾ جعل ﴿ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لتبتغوا فَضْلاً من ربكم في السَّعْي لصالحكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بإيجادهم وبنِعَمِهِ

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «تفسيره» (٧: ٢٣٤).

(٢) رواه أحمد (١٨٣٥٢)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩) وقال: حسن صحيح، عن النعمان بن بشير.

عليهم وحكمته ونظامه فيهم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ لجهلهم بحقِّ المُنعِم، وإغفالهم مواضعَ النِّعم.

ومن مباحث اللفظ: أن في الآية صَنْعةَ الاكتفاء والاحتباك، فقد حذف كلمة (مظلماً)؛ لدلالة كلمة ﴿مُبْصِرًا﴾ عليه، وحذف كلمة (لتبتغوا فضلاً من ربكم) اعتماداً على كلمة ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ المُقابِلة لها؛ على نهج القرآن في المقابلة والاكتفاء، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

ثم مَحَّض النتيجة، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي: المختصُّ بهذه الأفعال هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: فكيف تُخْدَعون عن ذلك، وتُصْرَفون عن عبادته إلى عبادة غيره، مع وضوح الدلالة على وحدانيَّته في الألوهيَّة؟!

ثم بيَّن تعالى أنَّ سَبَبَ ذلك جحودُهم آيات الله كما كان في أمثالهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ لأنهم ينطبعون على مفاسد التربية والجهل والجمود وسُوء التقليد، فيفقدون الاستعداد للنظر والتفكير، فعبث بعقولهم الأفَّاكون.

ثم تابَعَ الكلامَ في أدلَّة التوحيد مسبوكةً على المِنَن، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ حيث جعل طبيعتها قابلةً لأن يستقرَّ عليها البشر، ويعيش بخيراتها، ولم يجعلها مادة صُلبة أو رخوة أو مائعة مثلاً، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: متماسكةً أجرامُها بلا عَمَد، حتى استقرَّ بذلك النظام حالُ الأرض وأمكن السَّكنُ فيها، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فذكر الصُّوَرَ وأراد الهيئة التركيبيَّة للإنسان بما فيه من الرُّوح والعقل والاستعداد، وقد أشبَعْنا الكلامَ عن مثل هذه الجملة في سورة الانفطار وفي سورة الذاريات[1]، فارجع إليهما.

---

(١) في الآية ٨ من سورة الانفطار، وفي الآية ٢١ من سورة الذاريات.

وقال البيضاوي: أي: زيَّنكم بصفوة أوصاف الكائنات، وخصَّكم بخلاصة خصائص المُبدعات، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بعمارتكم لهذه الأرض واستنتاجكم منها واستثماركم لها ولما عليها من المخلوقات[١].

ثم مخَّض النتيجة فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: تعالى وتكاثر خيرُه.

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ الباقي، وكلُّ ما عداه فانٍ زائل، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ قائلين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ فكلُّ حمْد مرجعُه إليه. وحذفُ القول في القرآن كثير، ويجوز أن تكون هذه الجملةُ استئنافيةً خبريَّة ختم بها السياق؛ لبيان أنَّ من كانت هذه أفعاله فهو يستحقُّ كلَّ الحمد، ويكون مقصوراً عليه لا يتعدَّاه.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ
أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ
وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ
وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ
تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟
أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

---

(١) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٥: ٢١٧).

ولما ذكر سبحانه أعمالَه العظيمة وصفاتِهِ الجليلة التي يستحقُّ بها أن يُعْبَدَ وحده، قال لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ فتبيَّن الرُّشْدُ من الغيِّ، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ بأنْ أنقادَ إليه وأُخلِصَ له ديني؛ لأنه هو المختصُّ بخصائص الألوهيَّة، والموصوف بتلك الصفات العليَّة.

ثم تابع دليلَ التوحيد مسبوكاً على القدرة في صفة خلق الإنسان، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وفيه وجهان: الأول: أنه من نسبة ما للأصل إلى الفرع، والمراد به: خِلقةُ آدم، إذ موادُّ الأصل تبقى في الفرع. والثاني: أنَّ المنيَّ يتولَّد من الأغذية بما فيها النبات، وهو متولِّد من الأرض ومكوَّن منها.

والمعنيان يتلائمان مع قوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهي المنيُّ المنعقد، إلا أنه بالنسبة إلى المعنى الأول: يكون بياناً للانتقال من طَوْر الأصل إلى طَوْر الفرع، لأن عناصر الأصل باقيةٌ في الفرع، وبالنسبة إلى المعنى الثاني: يكون بياناً لطَوْرٍ من أطوار الفرع، أكمَلَه بقوله: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي: قطعة دم.

وقد طوى بقية الأطوار حتى قال: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ والمراد به الجنس، ولذلك أفرَدَه، أو على تأويل: يخرج كلُّ واحدٍ منكم طفلاً، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ جمع شِدَّة، مثل: أَنْعُم جمع نِعْمة، والمراد بها التكامل في القوة والعقل، ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ فرتَّب عُمُرَ الإنسان على ثلاث مراتب طبيعية: الطفولة وهي المبدأ، والكمال وهي الوسط، والشيخوخة وهي التناقص والانتهاء.

ثم بيَّن تعالى أن من بعض أفراد الإنسان مَنْ لا يستوفيها، فينالُ الأولى فقط أو الثانية أيضاً، فقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾، ثم أجمَلَ المعنيين بقوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا

﴿مُسَمًّى﴾ لأنه يكون بالاستيفاء للأدوار كلِّها أو بعضِها، حسبما قدَّر الله له من العُمُر. ولإفادة هذا المعنى، فَصَلَ الجملة وقطعها بالعطف على محذوف، أي: وذلك لتستوفوا ما قُدِّر لكم من الأعمار، ولتبلغوا أجلاً مُسمّى عند الله. ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ معطوفاً على قوله: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾، وما بينهما اعتراض.

وبعد أن عدَّد الأطوار البشريَّة وألمع إلى أنَّ الموت منها، قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ يريد: ولعلكم تُدركون أنَّ الحياة الثانية طَوْرٌ من هاتيك الأطوار، لذلك أردَفَه بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يُحيي الأمواتَ ويُميتُ الأحياء، ثم صَوَّر سهولة ذلك عليه بقوله: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ فليست الإعادةُ أمراً عظيماً بالنسبة لقُدرته البالغة، بل هي والإماتة سِيَّانِ في قدرته تعالى، وسرُّ التكوين والإيجاد لا يعلمه إلا الله، وهيِّنٌ عليه سبحانه، لأنه لا يتعدَّى الإرادة الربَّانية. والإماتةُ ليست أقلَّ عجباً من الإحياء، والقدرةُ فيهما سواء.

وبعد إثبات هذه القدرة البالغة لله، عجَّب من خديعة أولئك المخدوعين، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ ويعارضونها بالباطل ليُدحِضوا به الحقَّ ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾؟! أي: كيف يُصرَفون عن الهدى إلى الضلال؟!

ثم بيَّن صُورةَ ضلالهم وقَرَنها بالتهديد، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي: كذَّبوا بما جاء به القرآن وسائر الكتب السماوية، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ عاقبةَ ذلك؛ ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ وهو الماء في أقصى درجة الحرارة، ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ والسَّجْرُ في اللغة: الإيقادُ في التَّنُّور، استُعير للإلقاء في الجحيم؛ لإفادة التهويل والتعظيم.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ تنديماً وتبكيتاً: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾﴾ بهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾،

لِـمَ لا يشفعون لكم ويخلِّصونكم؟ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ يكنُّون بذلك عن الخيبة والفشل في أمرهم.

ثم أضربوا إلى بيان الحقيقة، وما كانوا عليه من الضلال، وقالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ قال الجُبّائي: أي: عَلِمْنا أننا لم نكن نَدعُو شيئاً يستحقُّ العبادة، ولا ما ينتفع بعبادته. وقال أبو مسلم: هذا كما يُقالُ لكلِّ ما لا يُغْني شيئاً أو لا يفيد: هذا ليس بشيء. يعني: نفي الشيء لنفي فائدته أو ثمرته، أي: عَلِمْنا الآن أنَّ ما كنّا نعبدُهم وندعوهم آلهةً ليسوا بشيء. وقيل معناه: ضاعت عبادتُنا لهم، فلم نكن نصنع شيئاً إذ عَبَدْناهم، كما يقول المتحسِّر في فشل عمله: ما فعلتُ شيئاً.

وبعد أن بيَّن ما سينالهم من العذاب الأليم والندم العظيم، بيَّن منشأ ضلالهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ بمعنى: جَرَتْ سُنَّته تعالى في أخلاق البشر وطباعهم: أنَّ مَنْ تَشَبَّع ـ بنفسه أو بتقليد الآباء ـ في الكفر والضلال يَفقِدُ استعدادَه الطبيعيَّ للنظر الصحيح والتفكير السَّديد، فلا يهتدي إلى الصواب، فيناله السوءُ بإفساده لغريزته بمفاسد التربية والتقليد.

ثم ذكرَ أبرزَ الحالاتِ التي أدَّت بهم إلى ذلك الشقاء، فقال: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ عندما كنتم تُعارِضُون رُسُلَ الله وتتظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، وعندما تُصيبونَ أنبياءَ الله وأتباعَهم بالمكاره، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ في البطر والأشر إذا ظلمتُم واعتديتُم وعارضتُم الحقَّ في ذلك، وتهزؤون بالمؤمنين، ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ عن الحقِّ وسماعه.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ

بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا
وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا
فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا
عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ
وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

ثم أردَفَ هذا السياق بتثبيته ﷺ ضدَّ معارضة المشركين، ووَعَدَه بخِذلانهم وبالنصر عليهم، وأوعَدَهم بالعذابَيْن، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ لك بخذلانهم، وبنصرك عليهم ﴿حَقٌّ﴾ واقعٌ لا محالة، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب الأدنى في حياتك، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن يحلَّ بهم ذلك العذاب، ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ يوم القيامة، فنفعل بهم ما يستحقُّون من العقاب.

وهذه الآية للمبالغة في إنجاز وَعْدِه بتعذيبهم، ولكنه قد يكون في حضوره أو بعد وفاته، وقد يكون في الدنيا أو في الآخرة فقط، وإنما قال: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ لأنَّ الـمُعَجَّل من عذابهم في الدنيا هو بعض ما يستحقُّونه.

ثم شَنَّع عليهم بأنَّ أمْرَ هذا الرسول لم يكن شيئاً غريباً في تاريخ البشرية حتى يُنكِروا عليه هذا الإنكار، وبالَغ في تَسْليته وتثبيته تجاهَ اقتراحاتهم الآيات التي لا يريدون بها إلا الخداع والمطال، وضمَّن ذلك تقرير وَعْدِه له بالنصر عليهم وخذلانهم مِثْلَ خذلان أمثالهم في الأمم الغابرة المعروفة وغير المعروفة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن

قَبۡلِكَ ﴾ لا يُحصيهم العَدّ، ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ﴾ أمْرَهم في هذا القرآن، ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ ﴾ أمْرَهم فيه، وقد جَرَى عليهم من أقوامهم مِثْلُ ما جرى عليك فصبروا، وكان المعارضون يقترحون عليهم إظهارَ الآيات المعجزات، على سبيل العناد والتَّعنُّت، كما يطلب منك هؤلاء، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنَّ إتيانَ المعجزات ليس إلى الرسول، ولكنه إلى الله تعالى، يأتي بها إذا اقتضت الحكمةُ ذلك.

ثم توعَّدهم على هذا الاقتراح المبنيِّ على التَّعنُّت، وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ وهو عذاب الاستئصال في الدنيا، ﴿قُضِيَ﴾ بينهم ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ والعدل، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: الـمُتَمسِّكون بالباطل والضلال.

ثم أردَفَ الوعيدَ بدليل القدرة والمنَّة في الإنعام وغيرها؛ تحقيقاً للقدرة على إنجازه، وتأنيباً لهم على شركهم بالله سبحانه المختصّ بصفات الألوهية والأفضال، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ من أوبارها وأصوافها وأشعارها، ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمۡ﴾ أي: حاجةً صَمَّمْتُم على إنجازها، فتحملكم هذه الأنعامُ وتحمل أثقالكم من بلد إلى بلد.

ثم أجمَلَ هذا المعنى وكمَّله بقوله: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ في البرِّ والبحر، أي: جَعَل لكم وسائطَ تحملكم فيهما معاً، ولم يَحرِمْكم شيئاً من نِعَمِه، ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: دلائله الدالَّة على كمال قدرته، ووفور رحمته، واختصاصه بالألوهيَّة، ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾؟ وكلٌّ منها في الظهور بحيثُ لا يكاد يجترئ على إنكارها مَنْ له أدنى مُسْكةٍ من عقل وتفكير.

ثم لَفَتَ نظرَهم إلى ما جَرَى على المعارضين للأنبياء في الأمم الماضية، وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مع أنهم ﴿كَانُوٓاْ

﴿أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهي الأبنية والمصنوعات الباقية إلى اليوم، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ من ذلك ويعلمون ويعملون، وإنما ذكر تَفَوُّقَهم على أهل مكة بالقوَّة والمدنية، تَقْويةً للترهيب.

ومن مباحث اللفظ: أنّ ﴿مَآ﴾ الأُولى يجوز أن تكون نافية أو استفهامية، والثانية: يجوز أن تكون موصولة أو مصدرية.

ثم فصَّل بعض التفصيل ما كان من أمر تلك الأمم، وقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: لم يؤمنوا بما جاءتهم به الرسل، وأصرُّوا على ما عندهم من عقيدة ضالَّة. فعبَّر بالعِلم عن الاعتقاد، مجازاً أو تهكّماً. أو يكونُ المرادَ: عِلْمُهم بأمور الدنيا ومعرفتُهم بتدبيرها، فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات ـ وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد، وتطهير النفس عن الرذائل ـ لم يلتفتوا إليها، واستهزؤوا بها، واعتقدوا أنه لا عِلمَ أنفعُ وأجلَبُ للفوائد من عِلمِهم، كحال الأجانب اليوم. فيجوز أن يكون المراد بالفرح: الاعتزاز.

وضمير ﴿عِندَهُم﴾ يعود إلى المُرسَل إليهم، أو الضحك والاستهزاء، وضمير ﴿عِندَهُم﴾ يعود إلى الرُّسل. أي: فلما جاءتهم الرسل بالبيِّنات استهزؤوا بها وبما جاءتهم من من الوحي والتعاليم، فنزل بهم العذاب ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ من التَّوعُّد لهم بنزول العذاب، إذ كانوا يستهزؤون بما يتوعَّدونهم به من ذلك.

ثم ذكر إيمانهم عند نزول العذاب بهم، وبيَّن أنه لم يُقبَل منهم، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: شدَّة عذابنا، ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ يَعنُونَ الأصنامَ التي كانوا يُشرِكون اللهَ بها، وكلَّ معبود لهم، لأنَّ الإنسان يرجع إلى الله عند الشدائد، ويتبيَّن له الحقُّ عند الموت، إذ هو الباب الذي يُشرِفُ منه على الآخرة ومَعرِضِ الحقائق.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أي: إنَّ الله تعالى قد سَنَّ هذه السُّنَّة، وهي أن لا ينفع إيمانُ الكافرين عند نزول العذاب بهم، كما لا ينفعهم ذلك عند الموت، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ دنياهم وأُخْراهم، أو أُخْراهم وحدَها، وكفى بها خسارة كبرى، أعاذنا الله، وأيُّ خسارةٍ أعظم من تلك الخسارة!

* * *

انتهى الجزء السابع[1] من تفسير القرآن المسمّى «أَوْلى ما قيل في آيات التنزيل»، لرشيد الخطيب الموصلي، بانتهاء سورة المؤمن، ويبتدئ الجزء الثامن بابتداء سورة السَّجْدة الـمُسمَّاة بسورة فُصِّلت.

* * *

(١) حسب تقسيم المؤلف للطبعة العراقية التي صدرت في حياته رحمه الله تعالى.

سُورَةُ فُصِّلَتْ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فهذا هو الجزء الثامن[١] من تفسير القرآن المسمَّى: «أَوْلى ما قيل في آيات التنزيل».

ويبتدئ بسورة السجدة، وتُسمَّى أيضاً سورة فُصِّلت.

وهي مكية، وآيها أربع وخمسون.

وموضوعها: تنزيل القرآن وبيان الغرض منه، وهو التبشير بالثواب لمن عمل بتعاليمه، والإنذار بالعقاب لمن صدَّ عنها، والترغيب بالأول، والترهيب من الثاني.

وقد يؤخذ فيها بالدليل والبرهان.

وهي متناسبة مع ما قبلها فيما اشتملت عليه.

* * *

(١) حسب تقسيم المؤلف رحمه الله تعالى في الطبعة الأولى لهذا الكتاب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ وقد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها اهتماماً به، ومنه هنا قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ أي: هذا الكتاب. والتعرُّض لهذين الوصفَيْن لإفادةِ ما في هذا الكتاب من النعمةِ الكريمةِ والرحمةِ العظيمةِ من الله تعالى على بني الإنسان، وأنه من آثار رحمته عليهم؛ لِـمَا اشتمل عليه من البيان لسبل السعادة في الدنيا والأخرى، وهو ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي: فصيحاً واضحاً جلياً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ يُشيرُ إلى أنَّ عِلمَ الإنسان يُعينُه على فهم هذا القرآن إن لم يكن هناك عناد. ومعنى ﴿فُصِّلَتْ﴾: بُيِّنَتْ بياناً تاماً.

وفيه امتنانٌ بسهولة قراءته وفهمه على الأمة العربية التي انتدبها الله لاعتناق هذا الدين، ونَشْره بين العالمين. ويجوز أن يكون إنزاله بهذه اللغة نعمة على البشر كلِّه، إذ لا توضِّحه غيرها من اللغات، وبما أنَّ دين القرآن جعله الله ديناً عالمياً، أصبحت هذه

اللغة أيضاً لغة عالمية؛ لأن الوسائل تتبع المقاصد في الأحكام. وقد تقدَّم الكلام مفصَّلاً عن مثل هذه الآية في سورة يوسف وفي الزُّمَر(١)، فارجع إليه.

ثم وَصَفَه بصفتين أخريين، فقال: ﴿بَشِيرًا﴾ لمن عمل به، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن أعرض عنه، ﴿فَأَعْرَضَ﴾ عنه ﴿أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ أوامرَه ونواهيَه.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي: في أغطية متكاثفة ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صَمَم ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، وهذه كلها تمثيلاتٌ لِنُبوِّ قلوبهم عمَّا جاء به ﷺ من الحقِّ، وعن إدراكه وقَبوله وإصغاء أسماعهم له. والغرض: تَيْئيسُه من قَبولهم دينَه. ثمَّ بيَّنوا أنهم غيرُ مبالين به، ولا يألون جهداً في معارضته قائلين: ﴿فَاعْمَلْ﴾ على إبطال أمرنا، ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾ على إبطال أمرك، دائبون على معارضتك، فلا تَأْلُ جهداً في منازلتنا.

وقد أمره سبحانه أن يُكرِّر عليهم الإرشاد بما لقَّنه به من الكلام، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ لا امتياز بيني وبينكم، فلا أقدر أكثر ممَّا تقدرون، وإنما أمتازُ عنكم بأنه ﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الأعمال، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما أنتم عليه من سوء العقيدة وقُبْح الفعال. ثم هدَّدهم إذا هم أعرضوا عن ذلك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ أي: هلاك لهم وشقاء.

ثم ذكر صفةً من صفاتهم الظاهرة، وصفةً من صفاتهم الباطنة، فقال: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فلا شفقة لهم على خَلْق الله، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾ وأكّد الجملة بالضميرَيْن مبالغةً في الردِّ على اعتقادِ بعضهم أنهم يؤمنون بالآخرة. ووَجْهُه: أنهم لا يؤمنون بها على ما بيَّنَتْه الكتبُ المنزَّلة في حقيقتها، والأسباب المؤدِّية إلى سعادتها

(١) انظر الآية ٢ من سورة يوسف، والآية ٢٨ من سورة الزمر.

أو شقائها، وإنما يزعمون أنَّ لهم السعادة بعد الموت على ضلالهم الذي يزعمونه هُدى، أو أنَّ لهم السعادة في الآخرة على كلِّ حال. وقد تضمَّن كفرُهم بالآخرة تعليلاً لمنعهم الزكاة وعدم إيمانهم بها.

ثم قابل وَيْلهم وشقاءهم بنعيم المؤمنين وسعادتهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ أي: لا يمنُّ به عليهم، أو لا ينقطع عنهم أبداً. فهو مستمرٌّ دائم، أو المَعْنَيَيْن معاً.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢﴾.

ثم عاد فأنكر عليهم كفرَهم، ورتَّبه على أوصاف للربوبيَّة تزيد في شناعته، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ ممَّن لا يَخْلُقُون شيئاً وهم يُخْلَقون.

ثم بالغ في التحسيس على عَظَمةِ هذا الفعل منه تعالى، وتخصيصه إيَّاه بالربوبية، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يفعل هذا الفعل هو: ﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٩﴾ المستحقُّ أن يُعبَد، لا مَنْ تشركون به من أخسِّ مخلوقاته، فالشرك ظلم وجهل شنيع لذات الله وعظمته سبحانه.

ثم تابع الكلام عن أعماله العظيمة في خَلْق هذه الأرض، فقال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً راسيةً ﴿مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا﴾ بأن جعلها مستعدَّة لإنبات أنواع النبات، وتربية أنواع الحيوان، وتعدين أنواع المعادن، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ فخصَّ بعض الأرضين بصلاح بعض النبات وإنتاجه، وأخرى بأخرى، حتى كان هذا الاختصاص

سبباً للتجارة والتبادل بين الأقطاع المختلفة. وقد تمَّ ذلك كلُّه ﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ أي: في تـتمَّة أربعة أيام. فاليومان الأوَّلان لتكوين الأرض، واليومان الآخران لتكميلها وإصلاحها ووجوب الحياة عليها.

والمراد من هذه الأيام: أطوار في مُدَدٍ طويلة؛ لأن أعماله سبحانه بتدرُّج ونظام. والله أعلم. وأربعة الأيام؛ لبيان مجموع ما مرَّت فيه الأرض من الأطوار، وللإشارة إلى أنَّ ما بين التكوين والتكميل الإصلاحي مُدَدٌ متساوية، بمعنى: أنَّ مدة التكوين بقدْر مدَّةِ التكميل سواء بسواء.

وهذا ـ والله أعلم ـ هو معنى قوله: ﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾ أي: الذين يريدون العلم والاطلاع على ذلك العمل العظيم والنظام الجليل والقدرة البالغة(١).

وعلى كلٍّ، فالآية تُؤذِنُ بأن نضوج الأرض إلى أن صَلَحَت للنبات والحيوان، إنما كان في أطور مُتعدِّدة متساوية، ومُدَد في ذلك طويلة. والله أعلم.

وبعد أن تكلَّم عن خَلْق الأرض، تكلَّم عن خَلْق السماء، فقال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾(٢) وهذا مبدأ التكوين للكون كلِّه ولمجموعِهِ بما فيه الأرض، ولكن بدأ بها لأنها مسكنُنا وتهمُّنا.

---

(١) أو المعنى: حدَّد في الأرض مقادير أرزاق من يعيش على ظهرها مساوياً لحاجة السائلين الباحثين عن أقواتهم، الذين يتخذون الأسباب الكونية لتحقيق مطالبهم من خزائن الله في الأرض.

(٢) يقول علماء العصر من الفلكيين: نشأ العالم المادي من غاز كونيّ. وكان أول الأمر شديدَ التخلخل ساخناً إلى حدٍّ ما مالئاً للفضاء، منتشراً فيه بانتظام، ومؤلفاً من دقائق تكوَّنت منها أنواع المادة الثلاثة. ثم تجزَّأ الغاز الكوني إلى كتل تجمَّعت وتراصَّت ونشأ منها النجوم، ثم نشأت المجرّات من تحت تأثير التجاذب بينها، وتباعدت المجرَّات بعضها عن بعض في مديد الفضاء. ومن الغاز ما لم يتجمَّع، بل تفرَّق وانتشر في الفضاء غازاً مُخَلخَلًا بين المجرّات والنجوم. والله أعلم. (المؤلف).

وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لتفاوت ما بين الخلقَيْن في العَظَمة، أو لمجرَّد تجديد الخبر والالتفات إليه، أو لعطف الخبر على الخبر المهمَّيْن، فإنَّ ذلك من خصائص اللغة أيضاً. وعلى كلٍّ، فهي ليست للترتيب ولا للتراخي؛ لقوله تعالى في سورة النازعات: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، ولأن الله سبحانه وتعالى مُنزّه أن يشغله عملٌ عن عمل، بل تحقَّق الكون كلُّه بإرادة واحدة، فابتدأ كلُّ واحد بسَيْره ونظامه لم يتخلَّف، ولم يشغل واحد عن الآخر إلا بما يقتضيه النظام، وانفصال واحد عن آخر إذا كان من نظامه الانفصال، كالأرض من الشمس مثلاً، وكلُّه سائرٌ في التكوين في الزمن الواحد، وتمَّ كلُّه في ستة أيام.

والاستواء: الاستقامة في البدن اهتماماً وقَصْداً للعمل، فهو مُستعارٌ من حال المخاطبين، وإنه منزَّه عن ذلك، ولكنه تقريب للأفهام، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدِّمة السادسة في أنواع مجازات القرآن).

ويظهر ـ والله أعلم ـ أن المراد بالدخان: طَوْر السَّديم الذي يُقرِّره علماءُ الفلك والطبيعة في أنه مادة الكون، ويقولون: إنه أصل مادة السماوات والأرض. ويجوز عندما نعتبر أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ بياناً كاملاً عن مجموع الكون من مبدئه بما فيه الأرض؛ يجوز أن يكون من عطف العامِّ على الخاص، أو الكلِّ على الجزء، وذلك من خصائص اللغة. وإنما خصَّ الأرض بالذكر أولاً لشدَّة اتِّصالها بنا وتعلُّقنا بها؛ إذ اهتمامُنا في شأنها أكثر، واطِّلاعُنا على عجائبها ونِعَمِها أظهر.

وبعد أن خصَّها بالبيان لذلك، تكلَّم عن عموم الكون بما فيه السماوات والأرض، وحكى سهولة تكوينه عليه بقوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ وقد قالوا: ليس هناك أمر بالقول على الحقيقة، ولا جواب لذلك القول،

ولكن الكلام تمثيلٌ لسهولة ذلك عليه(١). فقد أخبر تعالى أنَّ ابتداعه للسماوات والأرض وإنشاءه لهما كان من غير تعذُّر ولا كُلفة ولا مشقَّة، بل بمنزلة ما يقال للمأمور: افعل، فيفعل من غير تلبُّث ولا توقُّف في مدَّة التطوُّر، وأنه سبحانه لا يَشْغله أمر عن أمر، فعبَّر عن هذا بالأمر والطاعة، على حدِّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] يعني: بمُجرَّد الإرادة، والله أعلم. ولا يعارض هذا أن يسير ذلك الشيء على مَهْل في طريق تكوُّنه، على سنن الطبيعة فيه؛ لأنَّ تلك السنن نفسَها هي من جملة ذلك التكوين والتكوُّن بالإرادة. والله أعلم.

وإنما قال: ﴿طَآئِعِينَ﴾ ولم يقل: (طائعتين)؛ لأنَّ المعنى: أتينا بما فينا. واستعمل لهما جمع العاقل لـمَّا خاطبهما بخطاب العقلاء، وذلك من خصائص اللغة، وهو في القرآن كثير، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وقال ابن عباس: أتت السماء بما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وأتت الأرض بما فيها من الأنهار والأشجار والثمار(٢).

ثم ذكر تعالى المدَّة التي تكامل فيها خلق السماوات بقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ

---

(١) بل يحمل ما جاء في الآية من قول وجواب على الحقيقة. والأصل إجراء اللفظ على ظاهره ما لم يصرفه عن الظاهر صارفٌ قويٌّ، ومنه: استحالة الظاهر. ومتى ورد اللفظ وَجَبَ حَمْلُه على الحقيقة في بابه: لغةً أو شرعاً أو عرفاً، ولا يحمل على المجاز إلا بدليل يمنع حَمْلَه على الحقيقة من معارِض قويٍّ أو عرف مشهور. وهنا لا شيء يمنع من حَمْلِها على الحقيقة. وكثرة النصوص المشابهة ـ من آيات وأحاديث شريفة تضمنت خطاب الجمادات ومحاورتها ـ ترشح الحقيقة وتبعد الحمل على المجاز. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان عن حَمْل هذه الآية على المجاز، المتقدم في أول الكتاب (١: ٣٠١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠: ٣٩١).

﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، فتكون هذه المدة مضافةً إلى المدَّة التي ذكرت للأرض، على طريقة الاكتفاء والتداخل، وهو من إيجازات القرآن، وذلك لأنَّ الأرض ذرَّة من هذا الكون، تكوَّنت بتكوُّنه، وانفتقت بانفتاقه، وعندما كانت سائرة في أدوار التكوُّن كان الكون كلُّه كذلك سائراً بسير واحد؛ لأنَّ الله سبحانه لا يشغله أمر عن أمر.

وغاية ما تفيد هذه الآيات: أنَّ الأرض تمَّ كمالُ تطوُّرها قبل كمال تطوُّر مجموع الكون العلوي، وقد تأخَّر عنها في دورَيْـن، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، فأفادت الآية أنَّ بعض الأجرام السماوية تمَّ تكاملُه بعد تمام تكامل الأرض. والله أعلم. وعلى هذا، يكون تمامُ تكوُّن الأرض في دَوْرَين، وكمالُه في أربعة على التداخل. أما الكون العلوي بعمومه ومجموعه فتمامُه في أربعة أدوار، وكمالُه في دورَيْن مضافَـيْن إليها، فيكون المجموع ستة على التداخل بين مُدَد هذه الأدوار وبين مُـدَدِ أدوار الأرض؛ لأنَّ سَيْر المجموع واحد، كما جاء في غير هذه السورة: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أي: في ستة أدوار، تطوَّر فيها هذا الكون بعمومه عُلْوِيِّه وسُفْلِيِّه. وعليه، فتكون هذه الآيات تفصيلاً لستة الأيام التي أُجمِلَت في تلك الآيات. والله أعلم.

أما عدد السبع في قوله: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ فهي للتكثير لا للتحديد، وكذلك عدد الأيام؛ إذ المراد به التـقريب لعقول أوساط البشر، والله أعلم[1]. وربمـا يُراد بها طبقات النجوم[2]، فهي عديدة؛ إذ النجوم ليست في مستوى واحد، وإنما هي طبقات متباينة في مستويات وارتفاعات مختلفة وأبعاد متفاوتة تفاوتاً عظيماً، حسب الاكتشافات الحديثة في علم الفلك، فإنها أثبتت ذلك وقرَّرته بالبراهين.

---

(١) بل عدد السماوات سبع، وعدد الأيام ست، وهو للتحديد لا للتكثير، كما تقدَّم بيانه مراراً.

(٢) هذا القول لا يصحُّ، وقد تقدم إبطاله في سورة البقرة (٢: ٥٤).

وقد جاء في سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ [المؤمنون: ١٧]، والطريقة: النسيجة المستطيلة يتكوَّن بيتُ الشَّعر من اثنتَيْن منهما فأكثر، شبَّهَ بها طبقات النجوم[١].

ثم قابل قولَه عن الأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ بقوله عن السماء: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ والوحي هنا: عبارة عن التكوين، كما جاء ذلك عن قتادة والسُّدِّيّ[٢]، أي: أوجَدَ في كلِّ سماء ما أراد من بدائع أوضاعها، ومُقْتضيات أحوالها وموجوداتها، مما فيه دلالة على عظيم قدرته وإتقان صُنعِه.

ثم خصَّ بالبيان السماءَ الدنيا منا، فقال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾، والوَصْف بالدنيا للإشارة إلى أن ما يقع عليه البصر إنما هو القريب منا، أما البعيد فقد عجز العلم عن إدراكه.

ثم ذكر شيئاً يكرِّره القرآن كلّما ذكر هذه النجوم، للإيذان بالردِّ على المشركين الذين يعتقدون في كَهَنتِهم أنهم يعلمون عن العالم العلوي بواسطة الجنّ، يَستَرِقُونَ الخبر من السماء، ويقولون: لو كانت دعوى محمد بالنبوَّة حقاً لعَلِمَها هؤلاء الكَهَنة من السماء، وقد ألمح إلى هذا فقال: ﴿وَحِفْظًا﴾ وهو مصدر مؤكِّد لفعل محذوف معطوف على ﴿زَيَّنَّا﴾، أي: وحفظناها من المُستَرِقةِ حفظاً. وقيل: بل هو مفعول له، وذلك الحَمْل على المعنى، أي: جعلنا المصابيح في هذه السماء للزينة وللحفظ من كلِّ شيطان مارد، فما تدَّعيه الكَهَنة من أنهم يعلمون غَيْبَ السماء غيرُ صحيح.

ثم ختم السياق بالتنبيه لمكان القدرة البالغة فيما تقدَّم من الأعمال العظيمة،

(١) بل المراد بها السماوات السبع، بعضهن فوق بعض.
(٢) ذكره الطبري في «تفسيره» (٢١: ٤٤١).

فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ فأين تقدير شركائكم؟ وكيف تكفرون بمن هذه قدرته، وهذه أعماله وتقاديره، وتُشركون به مَنْ لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون، أيها الجاهلون؟!

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وبعد أن بيَّن تعالى أعماله العظيمة التي تخصُّه بالألوهيَّة، أنذرهم على إعراضهم، فقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ أي: كفارُ مكة عن هذه الحُجج، وعن هذا البيان، ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ[1] ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: عالجوهم من سائر جوانبهم، وهو كناية عن أنهم صَرَفوا جُهْدَهم معهم بأنواع طُرق البيان والإرشاد: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فأنكروا عليهم رسالتهم و﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ إرسالَ الرسل ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ تدعونا إلى ذلك، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ على زَعْمِكم ﴿كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ مُنكِرون.

---

(١) في الكلام تساهل وتوسُّع هو من خصائص اللغة وأساليب القرآن: ينسب للاثنين ما هو لواحد منهما إذا جمع بينهما في البحث، فإنَّ الصاعقة كانت لعاد، وثمود أُهلِكت بريح صَرْصَرٍ عاتية، والله أعلم. (المؤلف).

فجهلوا أنَّ الله سبحانه يبعث الأنبياء من البشر؛ ليفهموا عنهم فَهْمَ البشر عن البشر، إذ ليس كلُّ بشر يقدر أن يفهمَ عن المَلَكِ أو يتَّصلَ به اتِّصالاً يؤدِّي إلى ذلك، وإنما هو خاصٌّ بالأنبياء الذين هم من أكمل البشر وأرقاهم، فهم أرواح ممتازة، ولهم مواهب واستعدادات خاصَّة. ويجوز أنهم يعلمون ذلك، ولكنهم يعاندون، لأنَّ تاريخ الأنبياء وأنهم من البشر لا يجهلُه أحد.

وبعد أن ذكر أمر عادٍ وثمود بالإجمال، بيَّنه بالتفصيل، وقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهذا القيد للزيادة في الإنكار، لا للاحتراز. أي: فعتَوْا وظلموا وأعرضوا عن الإرشاد والدعوة إلى الرَّشاد عُلواً واستكباراً، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ يعتزُّون بقوَّتهم وشوكتهم لـمّا هدَّدهم هود بالعذاب.

فردَّ الله سبحانه وتعالى بما فيه نوعُ سخرية عليهم وتسخيف، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، ثم عطف على قوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ قولَه: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾، ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة.

ثم ذكر ما جرى عليهم من العذاب من جرَّاء ذلك، وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ من الصَّرّ، وهو البرد الذي يَصُرّ، بمعنى: يجمع ويقبض. أي: أرسلنا عليهم ريحاً باردة تُهلك بشدَّة بَرْدِها، وكان ذلك ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ والنَّحْس: نقيض السَّعْد.

ثم بيَّن تعالى أنَّ هذا العذاب إنما هو عذابهم في الدنيا، وهو دون عذابهم في الأُخرى، فقال: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾، وقد قابل لهذا الخِزْي استكبارَهم على الدعوة إلى الرَّشاد، ثم أيأسهم من النجاة، فقال: ﴿وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ثم فصَّل قصة ثمود، فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بيَّـنّا لهم طريق الهُدى

بإرسال الرسل، ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الضلال على الهداية لفساد غرائزهم بمفاسد التربية وسوء التقليد، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ بأيديهم من ذلك الضلال. والـهُونُ: الهوان، بمعنى: الخزي، فهو بمعنى الخزي الذي جاء في الآية السابقة.

ثم ذكر تَنْجيةَ المؤمنين من ذلك العذاب المهين، فقال: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما جاءهم من الحق، ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ ذلك العذاب.

وبين قصَّةِ عادٍ وقصَّةِ ثمودَ صنعةُ الاكتفاء من إيجازات القرآن؛ لأنَّ إرسال الرسل والهداية كان لكِلَيْهما، فحذف لفظ ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ من الأول؛ لدلالة الثاني عليه.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وبعد بيان عقوباتـهم العاجلة، بيَّـن عقوباتهم الآجلة، فـقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: يُسَاقون ويُـؤْمَرون بالسَّير إليها. وعبَّر هنا بالنار عن موقف الحساب؛ تعبيراً بالنتيجة عن المقدِّمة، بقرينة قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ لأنَّ ذلك إنما يكون عند الحساب. أما صورة الشهادة، فإما أن يُنطِقَها الله تعالى، وإما أن يَظهَرَ عليها آثارُ ما اقترفوا بها(١).

---

(١) بل الأول هو المتعيِّن، لقوله تعالى بعده: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وإن قيل: إنَّ هذه الجلود غير تلك الجلود؟ فيجوز أن يَسْري إليها الحال من الرُّوح، على حدِّ قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]، وينوِّر هذا قولُه تعالى في حقِّ أهل النار: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، فإنها جلودٌ لم تكتسب الإثم؛ لأنها مجرّد غلاف للروح، ووسيلة لإذاقة العذاب. والله أعلم.

ثم حكى سبحانه وتعالى تعجُّبَهم من شهادتها وتوبيخَهم لها، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وأراد بالإنطاق: ما فيه من آثار الله العظيمة وقدرته البالغة، والله أعلم، تلك الآثار الشاهدة على وجود الله سبحانه وصفاته العلية واختصاصه بالألوهية والوحدانية(١).

فالآية ترمز ـ والله أعلم ـ إلى أنه سبحانه يدلُّ على ألوهيته ووحدانيته كلُّ شيء في هذا الكون بما أبدع فيه من عجائب(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ

(١) بل هو نطق صريح لكلِّ ما سبق أن عملوه بتلك الجلود في الحياة الدنيا، مسجّل في باطن تلك الخلايا.

(٢) قال العلامة الألوسي في «روح المعاني» (١٢: ٤٢-٤٣): الظاهر أن التكلم والشهادة بنطق حقيقة، وذلك بعد إعطاء الله الأعضاء حياةً وعلماً وقدرة، ويحتمل أن يكون حصوله في الدنيا بأن تكون الأعضاء قد خلق الله فيها الإدراك، فهي تدرك الأفعال كما يدركها الفاعل، فإن كان يوم القيامة ردَّ الله لـها ما كان، وجعلها مستحضرة لِـمَا عمله أولاً، وأنطقها نُطقاً يفهمه المشهود عليه.

قال: وهذا ما قالوا من تسبيح جميع الأشياء بلسان القال، وأن الله على كل شيء قدير، والعقل لا يحيل ذلك. وعلى هذا تكون الآية من مؤيدات القول بالتسبيح القالي للجمادات ونحوها.

وأيّاً ما كان، فالنطق على معناه الحقيقي كما هو الظاهر، وكذا الشهادة. ومن ذهب إلى المجاز في النطق ذهب إلى خلاف ظاهر الآيات والأحاديث، ولا داعي له.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[١] [الإسراء: ٤٤]، فتلك شهادة على اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة، وعلى كفر مَنْ لم يؤمن بالله هذا الإيمان، ولم يُطع شريعتَهُ وأنبياءَه، وعلى استحقاقه للعذاب. وهكذا تكون شهادةُ الجلود أو شبيهةً بها، نَفْهمها على هذا الضوء والانكشاف. والله أعلم.

ثم أضافوا إلى هذه الحُجَّة حُجَّة أخرى، فقالوا: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٢] ولم تكونوا شيئاً، ثم يُميتكم ثم يُحييكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾، فالذي قدر على خلقكم وإنشائكم أولاً، وعلى موتكم وإعادتكم ثانياً، لِـمَ لا يقدر على إشهاد جلودكم عليكم؟!

وعلى اعتبار أنَّ المراد من الشهادة ظهورُ الآثار عليها، يكون المراد من النطق: وضوح تلك الآثار.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من كلام الله تعالى، وتكون هذه الجملة مستأنفة، على نهج القرآن في مثلها، جاء بها للإيذان بأنه كان عليهم أن يدركوا أن إعادتهم أهوَنُ عليه من خِلْقتِهم الأولى، وله المَثَلُ الأعلى.

وبعد هذا البيان أنَّبهم ووَبَّخهم على إنكارهم البعث والحساب واجتراحهم السيِّئات؛ بهذا التوبيخ النادر الهازئ، فقال: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ لأنكم لا تُصدِّقون بأنكم تُبعَثون وتُحاسَبون، ولا يمرُّ ببالكم أنها تشهد عليكم.

وقد عبَّر عن هذا بقوله: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ يتندَّر عليهم، أو هو من التعبير بالعلم عن الجزاء، على حدِّ قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

---

(١) تقدم في التعليق على تفسير هذه الآية من سورة الإسراء تقريرُ كون التسبيح حقيقياً.

(٢) الذي أنطق كلَّ شيء هو الذي خلقكم أولَ مرّة في الدنيا من عناصرَ لا حياةَ فيها، ولا عِلمَ لها ولا نُطق، فجعلكم أحياء ذوي عِلم تنطقون.

﴿تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، تعبيراً بالسبب عن المسبَّب، أي: ظننتم أنْ لا بعث ولا حساب، ولا يُحصي الله عليكم ما تعملون، ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

وفي صورة التعبير بقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ تندُّر بديع، وتهكُّم بليغ، كأنَّ استِتارهم من ذلك كان ممكناً لهم، فلما أهملوه كان مصدر بلائهم. ويجوز أن يكون الكلامُ عبارةً عن عدم اكتراثهم بسلوكهم المُرْدي الذي يَظهَرُ أثرُه على الأعضاء في الدار الآخرة.

ومن مباحث اللفظ: أن كلمة: ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ مضمَّنـةٌ معنى: تُصدِّقـون، أو: تظنُّون، فُعدِّيت تعديتها، وأن كلمة ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بَدَلٌ من ﴿ذَٰلِكُم﴾، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾: خبرٌ لـ﴿ذَٰلِكُم﴾.

ثم التفت إلى الغيبة إبعاداً لـهم عن الخطاب، وقال: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، وفي التعبير بالصبر تأليمٌ وتهكُّم بديع، والمثوى: المستقر الدائم. أي: فإن يصبروا فهم فيها خالدون، ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ أي: يسألوا العُتْبى والعفو ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: المُجابين إليها. والآية على حدِّ قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه سرَّ ركونِ هؤلاء إلى ما سبَّب لهم هذا البلاء، مُلمِعاً إلى أن ذلك ليس من أصل خِلْقَتِهم، لأنها كلَّها طيِّبة، ولكن الإنسان ابن التربية والبيئة والمحيط، فقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾، فينسب لنفسه سبحانه ما هو جارٍ بحسب سُنَنِه الكونية، بمعنى: مَضَتْ سُنَّة الله تعالى في أخلاق البشر وطباعهم أن يميلَ الشخص إلى مثيله في الأخلاق والسلوك والأفكار، والأقوى منهم في ذلك يجلب الأضعف.

وعلى هذه السُّنَّة مالَ هؤلاء إلى مَنْ هو أقوى منهم في ذلك الضلال، ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمور الدنيا وأمتاعها وما هم عليه من الضلال، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمور الآخرة، بالأمانيّ الباطلة الخلّابة، كقولهم: «إن الله غفور رحيم»، أو بالتكذيب والإنكار. فأرَوْهُم أنْ لا بعثَ ولا حسابَ ولا شيءَ أبداً بعد الموت، وإنما هي هذه الحياة الدنيا، يَحْيَون ويموتون وما يهلكهم إلا الدهر. فتمكَّن منهم هذا الضلالُ ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي: استحقّوا بذلك عذابَ الله، ودخلوا فيه مع أمثالهم من الأمم الماضية من الجنِّ والإنس الذين ساروا سَيْرهم في معارضة الرسل أو إهمال ما جاؤوا به من عند الله، فسجَّل عليهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ خُسْراناً مبيناً، حيث خسروا السعادة واستبدلوها بالشقاء.

والمراد من القول: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١٠] وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ...﴾ [الأعراف: ١٨]، والأول سببٌ للثاني، والثاني لازمٌ للأول.

ثم حكى صورةً من ذلك التزيين، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الرؤساء للأتباع: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1] أي: غالبوه بالشعر

(١) وذلك لأنهم إذا سمعوه لا يملكون أنفسهم أن تتأثّر به، ويدخل في أعماقها، ويقرعها قَرْعَ الصواعق، لذلك يتواصَوْن أن لا يستمعوا إليه إذا قُرئ به أو ألقي على الناس. (المؤلف).

والتخليط والمشاغَبة لعلكم تَغلِبون. وهذا يدلُّ على أنَّ هؤلاء الرؤساء عالمون بمنزلة القرآن وقوة تأثيره، ولكنهم يفعلون ذلك بغياً وعدواناً.

وقد هدَّدهم سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ أي: لنَجْزينَّهم أسوأَ الجزاء عن أعمالهم التي هي أسوأ الأعمال.

ثم بيَّن ذلك الجزاء ضمن بيان هذا الحكم العامِّ المسبوك على التعليل، فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾، ثم بيَّن سبب هذا الحكم عليهم، فقال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٢٨﴾ حسداً وعناداً، وبغياً وفساداً.

ومن مباحث اللفظ: أن ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، و﴿جَزَآءُ﴾ خبر، و﴿ٱلنَّارُ﴾ عطفُ بيان للخبر.

ثم حكى سبحانه وتعالى ما يكون حينئذ بين هؤلاء القُرَناء من المُعاتَبة والمُلاوَمة، وطلب الأتباع التشفِّي من الرؤساء والفَـتْك بهم؛ إذ أوقعوهم في هذا البلاء، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا﴾ الصِّنفَيْن ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ﴾ شياطين ﴿ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٢٩﴾ قيل: طلبوا أن يُذِلّوهما بالوطء بالأرجل انتقاماً لِـمَا أوقعاهم فيه، وقيل: بل طلبوا أن يكونا أشدَّ منهم عذاباً، في الدَّرْك الأسفل من النار.

وترسم هذه العبارة وجوهاً مغتاظةً غاضبة عابسة حانقة على أولئك القُرناء الذين كانوا لهم في الدنيا من أعزِّ الرؤساء المحبوبين المقدَّسين، وذلك لأنهم قادوهم إلى هذا الشقاء. ويجوز أن يعود الجنُّ للجن، والإنسُ للإنس، والله أعلم، على طريقة إيجاز القرآن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

وبعد أن ذكر حال المشركين ومصيرَهم، ذكر حال المؤمنين ومصيرَهم، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على ما تُوجبُه الربوبية من عبادته، فهؤلاء ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يمدُّونهم فيما يعنُّ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدروهم، ويدفع عنهم الخوف والحزن، وذلك بطريق الإلهام. كما أنَّ الكفرة يُغويهم من قُيِّض لهم من قُرناء السُّوء، بتزيين القبائح والسِّيئات. وقيل: تتنزَّل عليهم عند الموت بالبشرى: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟[1] وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ

---

(١) معنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص٤٨٠: «إنَّ الذين أعلنوا بألسنتهم مُتحَدِّين الطُّغاة من أئمة الكفر: ربُّنا الله وحده لا شريك له في ربوبيَّته وإلهيَّته، ثمَّ استقاموا على سلوك صراط الله المستقيم، اعتقاداً وعملاً، ظاهراً وباطناً، نفسيّاً وجسديّاً، تتنزَّل عليهم الملائكة آناً فآناً، كلّما تعرَّضوا لِـمُقْلِقات مُزْعِجات بالمخاوف والمُحزنات، فتُلقي بها يُشبه حديثَ النفس في قلوبهم: أنْ لا تخافوا من مَكارهَ تَنزِلُ بكم، ولا تحزنوا على شيءٍ فاتكم من مَحابِّكم، لأنَّ الله ربَّكم قد اختار لكم ما هو خيرٌ لكم وأفضل؛ جزاءَ إيمانكم واستقامتكم، وتنزَّل عليهم عند الموت، قائلين لهم: لا تخافوا على ما تُقدِمون عليه من أمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلَّفتُم وراءكم من أمور الدنيا، فما أُعدَّ لكم عند ربِّكم خيرٌ لكم وأعظم».

﴿ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾، والأظهر أنَّ هذا التنـزُّل يشمل الأمرين معاً، كما يدلُّ عليه قولهم لهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: نحن أعوانكم في الدنيا على أموركم، نُلهِمُكم الحقَّ ونُرشدكم إلى ما فيه خيرُكم وصلاحُكم في الدارَيْن. ولعلَّ ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المستمرِّين على الطاعات من التوفيق للخير بمعونة الإيمان.

أما في الآخرة، فيتلقَّونهم بالكرامة والإكرام حين يقع بين الكَفَرة وقرنائهم ما ذكره من التعادي والخصام، ثم يُبشِّرونهم بقولهم: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من فنون الطيِّبات، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١﴾ أي: ما تَتمنَّون وتتطلَّبون، ويكون ذلك ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾، والتنزُّل: ما يُقدَّم مُعجَّلاً للضيف من الكرامة. ولا يخفى ما في صفة «الغفور الرحيم» من الإشارة إلى أنَّ الله تعالى يغفر لهذا القائل المستقيم كثيراً من الذنوب. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

وبعد أن بيَّن هذا المصير العظيم للمؤمنين المستقيمين على الإيمان، أردَفَه بالبيان عن صنفٍ آخرَ أعلى منهم، وهم الذين يُضيفون على هذا الإيمان والعمل الصالح: الدعوة إليه، وصاغ العبارة بصيغة تُؤْذن أنهم أعلى شأناً من سابقيهم، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾[1] اتِّخاذاً

(١) وهناك وجه آخر لتفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا ...﴾، وهو أنه سبحانه نوَّه بشأن الذين ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، مبيِّناً وجه استحقاقهم لتلك الكرامة والأمن من الفزع، وزادَ في وصفهم أنهم ـ فوق حُسْن إيمانهم ـ يدعون إلى الله، ويعملون الصالحات، ويعتـزُّون بالإسلام، وصاغ العبارة على وجه يتضمَّن أبدع التعليل لاستحقاق ذلك الجزاء، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. وعليه، فمن يكون أولى =

للإسلام ديناً ونِحْلةً، أو ابتهاجاً بأنه من المسلمين. اللهمَّ اقبَلْ مني هذا التفسير خالصاً لك، ودعايةً إلى طريقة محمد ﷺ وأصحابه.

ثم علَّل مضمون ما تقدَّم من حُسن مصير المؤمنين وسوء مصير الكافرين وقرَّره بما بين الحسنة والسيِّئة من تبايُن، فلا غَرْو إذا تباين الجزاءان: جزاء المُحسِن وجزاء المُسيء، إذ لا تستوي الحسنة والسيئة.

وقال أبو السُّعود: بعد أن بيَّن محاسن الأعمال بين العبد وربِّه، بيَّن محاسن الأعمال بين العباد؛ ترغيباً لرسول الله ﷺ في الصبر على أذية المشركين، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾، و﴿لَا﴾ الثانية مزيدةٌ لتأكيد النفي، أي: لا تستوي الخَصْلة الحسنة والخَصْلة السيِّئة في الآثار.

ثم فرَّع على ذلك ما يقتضيه من الإرشاد في سُلوك العباد، وبيَّن حُسْن عاقبة الحسنة إذا دُفِعَتْ بها السيِّئةُ، فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وهذا مَثَلٌ أعلى في السلوك والأخلاق، أي: ادفع السيِّئة حيث اعترضَتْكَ من بعض أعاديك بالتي هي أحسنُ ما

= منهم بتلك الكرامة؟! ثم أكمل هذا التعليل بالإلماع إلى الفرق بين موقف المؤمنين والمشركين، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾، لذلك تباين مصير المحسن والمسيء.

وقد جعل هذا تقريراً لما قبله وتمهيداً لما بعده، على نهج القرآن، فأرشد إلى أن الحُسْنى كما تصلح بين العبد وبين ربِّه، تصلح كذلك بين العباد، وأدمج في عموم ذلك إرشاده ﷺ إلى أن يدفع بحلمه جهلَهم، وبعفوه إساءتَهم، فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

ثم أفاد أن هذه الخَصْلة السَّنِيَّة لا يتمكَّن منها إلا من صَبَرَ وقاوم العواطف، لمحافظته على سلامة الفطرة، فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ذو نصيب وافر من كمال الصبر، ومن المحافظة على سلامة فطرته، وكمال طبيعته. والله أعلم. لأنَّ المحافظ عليها هو الذي يتمكَّن من تحمُّل الأذى ومقابلة الإساءة بالإحسان. (المؤلف).

يُمكِنُ دفعُها به من الحسنات، وذلك أن تُحسن إلى من أساء إليك[1]، فيستحيي منك لحُسْن فعلك وجميل صَنيعك، فينقلب قلبه لك، فيصبح صديقاً حميماً بعد أن كان عدواً لئيماً، كما سيأتي بيانه في الآية.

ويندمج في هذا الإرشاد العام إرشادُه ﷺ في كيفيَّة الدعوة إلى الله، بأن يدفع بحقِّه باطلَهم، وبحِلمِه جهلَهم، وبعفوه إساءتَهم، وربما يكون إرشاده ﷺ إلى ذلك هو الهدف الأسمى من الآية.

فهذه الجملة بحسب السياق هي كالنتيجة لِـمَا قبلها والتفريع عليه، وبحسب الصيغة تثقيفٌ عام وإرشاد جليل، أكمله وبيَّن ثمرته بقوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي: إنَّ هذا العمل يُصيِّر العدو صديقاً، ويحوِّل العداوة إلى صداقة، لأنَّ مقابلة الإساءة بالإحسان تنزع البغضاء من المعتدي، وتتركه مندهشاً، فيرتدّ صديقاً ودوداً.

ثم بيَّن تعالى أنَّ الطريق الموصلة لذلك إنما هي الصبر على الأذى، فقال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أي: ما يتوقَّى لهذه الخَصْلة ـ وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ـ إلا المدرَّبون على الصبر. يُبيِّن أنَّ أداة الحصول على هذه الخصلة العظيمة السنيَّة إنما هي الصبر والثبات، فالطريق الوحيد لهذه المُوفَّقيَّة في تحويل العدو صديقاً حميماً بهذه المعاملة الحسنة: هو الصبر على المرارة وتحمُّل الأذى، ولا سيَّما مرارة المقاومة للدعوة، حتى يَضْمَحِلَّ الباطل ويغلبَه الحق.

ثم زاد في هذا البيان، فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ أي: من هذا الصبر، بمعنى: ذو نصيب وافر منه، إذ لا يكفي للحصول على ذلك إلا كمال الصبر،

(١) «تفسير أبي السعود» (٨: ١٤).

أو: ذو حظ عظيم من الفضائل النفسانيَّـة عموماً. فليتنبَّه المتصدُّون للإصلاح إلى ما تطلبه منهم هذه الآيةُ من التضحية والصبر والثبات.

ولما كان هذا الصبر الجميل عُرْضَةً لنَزَعات الشيطان وإفساداته، أمره أن يحترس منها، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ والنَّزغ: شبهُ النَّخْس، يريد به وساوس الشيطان. أي: وإنْ صَرَفَتك وساوسُ الشيطان عما أرشدت إليه الآية من الدفع بالتي هي أحسن، حتى ضَعُفتَ عن الصبر على الأذى، ولا سيَّما في سبيل الدعوة إلى الحق، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾، ومفاد هذه الآية: تحذيرُه من ذلك، وحَمْلُه على التمسُّك بالصبر مهما كلَّفه الأمر. أي: إنْ صَرَفك عن هذه الخَصْلة السنيَّة صارفٌ شيطانيّ، فاستَعصِم بالله من شرِّه، وامْضِ لشأنك رُغْم أنفه، ولا تَضعُفْ تجاه الصوارف والعوارض.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

ولما كان السياق متضمِّناً للإنكار على الشرك، والدعوة إلى التوحيد، أردَفَه بما يُؤيِّد ذلك، عائداً بالكلام إلى ما بدأ به السورة من الآيات في خلق الأرض والسماوات، التي أنكر بها على كفر المشركين، وأكملها فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الدالة على شؤونه العظيمة واختصاصه بالألوهية: ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، ثم أتى بهذه الجملة يردُّ بها على مَنْ يسجد لـها، لِـمَا فيها من عظمة وجلال، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟

لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي: اسجُدوا للذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر، لأنّها أثرٌ من آثار عظمة خالقها، فهو المستحقُّ لأن يُسْجَد له، لا مخلوقاته وإنْ كانت عظيمة، لأنه هو خالقها، فاسجُدوا له وحده ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾، ولا تسجدوا لها، فذلك ظلم عظيم، وجهل فظيع، وإنْ قصدتُم التوسُّل بها إليه.

ثم ختم الكلام بما فيه تأنيبٌ لهؤلاء المشركين، وقال: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن هذه الدعوة، وأعرضوا عن التوحيد والتنزيه، ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ والمراد بهذه العندية هنا: عُلوُّ المنزلة، فقد نزَّلهم لكرامتهم منزلة المقرَّبين عند الملوك، مستعيراً ذلك من حال المُخاطَبين، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة)، لأنه سبحانه يتحدَّث عن ذاته في مثل هذا مع المُخاطَبين بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعُظمائهم، فهو يُشبِّه الملائكة المتميِّزين بالمقرَّبين عند الملوك والسلاطين؛ لبيان منزلتهم وكرامتهم. أي: فالمقرَّبون من الملائكة لا يتكبَّرون عن عبادته، بل ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ من مواصلة عبادته تعالى وتوحيده وتنزيهه.

ثم تابع السياق عن الآيات الدالة على اختصاصه بالألوهيَّة، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ وقد استعار الخشوع لليبس والقحول، أي: تراها يابسةً قاحلة، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾، وقد عبَّر بهذا عن صَدْعِها بالنبات بعد اليبس، أي: فإذا أنزلنا عليها الماء أنبتت ما فيها واخضرَّت وزَهَت.

ثم استدلَّ بذلك على البعث بعد الموت، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ يشير إلى أنَّ الأمرَيْن من نهج واحد، وليس إحياء الموتى بالبعث والنشور بأعجَبَ من ذلك، والكلُّ على الله يسير؛ ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

ومن نهج القرآن: كلَّما ذكر إحياء الأرض بالنبات بعد موتها باليبس، أن يستطرد إلى ذِكرِ البعث، بطريقة قياس النظير على النظير، فإنَّ كلًّا منهما إعادة لِـمَا كان عليه. وفيه إشارة وتنبيه إلى أنَّ طبيعة زمن البعث في إحياء الأموات، كطبيعة زمن الربيع في إحياء النبات[1]. والله أعلم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ ﴾.

ثم أردف البيان عن هذه الآيات الظاهرة الباهرة، ودلالتها على انفراده بالألوهية، بتهديد مَنْ يُلحِدُ بها، على نهج القرآن في إرداف النقد بالتهديد، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي: يميلون عن الإيمان بها، وينحرفون عما تدلُّ عليه من انفراده سبحانه بالألوهية دلالة جليَّة ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾. وفي صيغة التعبير تهديدٌ رهيب. ويجوز أن يشمل الإلحاد سائر المحامل الباطلة.

ثم ذكر جزاءهم، وقَرَنه بجزاء المؤمنين، بأسلوب الاستفهام التحسيسي، فقال: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؟!

---

(١) الطبيعة والزمان ليسا لهما تأثير في الحوادث، وإنما التأثير لله تعالى وحده، والزمان ظرفٌ لوقوع الحادث بأثر قدرة الله تعالى، والطبيعة أسباب أجرى الله تعالى العادة بأن يقرنها بفعله وتأثيره. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدم في أول الكتاب (١: ٤٣٩).

وبعد أن بيَّن المصيرَيْن، بالغ في التهديد للمشركين، فقال: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾، ويجوز أن يكون هذا بعد بيان المصيرين للترغيب والترهيب معاً.

ثم تابع التأنيب والتهديد بعبارة تشمل المُلحِدين وغيرَهم، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ وقد حذف الخبر الدالّ على التهديد للمبالغة في التهويل.

ثم وصف هذا الذكر بما يدلُّ على أنّ إنكاره والكفر به ظلمٌ وغَباوةٌ وعِناد، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١﴾ منيع، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ أي: لا يتطرَّق إليه الباطل من جهة من الجهات؛ لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾، وأشار بهذين الوصفَيْن إلى ما فيه من حكمة وسَداد ورحمة للعباد. وقد اكتفى بهذه الجملة المشتملة على هذه الأوصاف عن ذِكرِ الخبر للجملة السابقة كما قلنا، لأنها تدلّ على المبالغةِ في تأنيب الكافر المُعْرِض عنه، واستحقاقِـهِ لأشدِّ العذاب. وهو مدلولُ الخبر المقدَّر، أي: إنَّ الذين كفروا بهذا الكتاب العزيز المنزَّل من عند الله الحكيم الحميد، سيناهم أشدُّ العذاب.

ثم عاد إلى السَّنَنِ السابق، وهو تثبيتُه ﷺ تجاه أذى قومه له، كي لا يضيق قلبُه بمفترياتهم، فإنها منتظرةٌ من أمثالهم، فقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ أي: ما يقول هؤلاء الكفَّار فيك، إلا ما قد قال أمثالُهم في رسلهم من قبلك، أو: ما يقال لك في الأمر بالتثبيت تجاه مفتريات قومك والصبر على سفاهتهم، إلا كما قيل للأنبياء السابقين في الصبر على سفهاء أقوامهم. وقيل: بل الكلام إنكارٌ على إلحاد الكفَّار وكفرهم بالذكر لـمّا جاءهم، أي: إنَّ ما أُوحي به إليك هو ما أُوحي به إلى الرسل قبلك، فلِمَ ينكرون عليك؟ ومحصَّل المعنى: إن توحيد الله تعالى والإيمان بالبعث، أمرٌ جاء في سائر الشرائع، فكيف ينكرونه ويُلحِدون فيه؟

ثم بيَّن سبحانه وَجْهَ تأنِّيه في عقابهم مع عِظَم إجرامهم، فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي: فإمهالُه لـهم من خصائص صفاتـه تعالى لعلَّهم يرشدون، فإذا أصرُّوا أخذهم بالعقاب الأليم. وفي الآية ترغيبٌ في التوبة والإنابة إلى الله، وترهيبٌ من الإصرار والمعارضة لما جاء عن الله.

ثم عاد إلى ما بدأ به السورة من أنه ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾، ومع ذلك أعرض أكثرهم ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾، [فُصِّلت: ٥]، عاد بها خلاصتُه: أنه لو جاءهم هذا الكتاب بغير لغتهم لكان لهم كلام، ولو على وجه بعيد، وبها فيه ردٌّ على ما يعترضون به على القرآن من أن الكتب السماوية كلَّها بغير العربية، فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا ﴾[1] أي: بغير لغتهم ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: هَلَّا بُيِّنت بلساننا حتى نفهمَها، ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أي: أكتابٌ

(١) كان مشركو العرب ـ بحكم كرههم للقرآن ـ يخدشونه لا بالنقاش العلمي، ولكن بالمهاترات والمشاغبات الزائفة التي تنطلي على الجُهَّال، فكانوا يقولون: كيف نزل بلسان عربي، إن كان كتابَ هداية عامة للبشر؟ فردَّ الله سبحانه عليهم بما يتضمَّن أنَّ لغة الكتاب المنزَّل لا بد أن تكون واحدة، وعلى الأمم أن تتعلَّمها. ومن الطبيعي أن يكون في لغة الرسول، إذ لو كان في غير لغته لاتَّجه أن يقال: أرسول عربي وكتاب أعجمي؟ أما الآن، فلا اتِّجاه لنقد ولا إيراد. ومن الواضح أن القرآن ـ لما نزل ليكون ديناً عالمياً ـ كانت لغته العربية لغةً عالمية أيضاً، يجب أن يتعلَّمَها كلُّ البشر مع لغاتهم؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به واجبٌ أيضاً، فإنَّ أحكام المقاصد هي أحكام الوسائل. والقرآنُ لا يجوز ترجمته إلى اللغات لأنَّ ذلك محال، ولكن يجب على أرباب كلِّ لغة أن يتعلَّموا العربية معها حتى تكون لغة عالمية. (المؤلف).
قلت: ويمكن أيضاً ترجمة معاني القرآن، ويكون الكتاب المترجم بمثابة تفسير للقرآن الكريم كتب بلغة أخرى غيرِ العربية، وفي هذا نفعٌ للناس وهداية، فإذا اهتدوا وآمنوا به تعلَّموا العربية بعد ذلك.

أعجميٌّ ومُرْسَلٌ إليه عربي؟ يريدون كيف يُرسَلُ إلى العرب بكتاب أعجمي. ومضمون الآية: أنه تعالى أنزل الكتاب بلغتهم ليكون أبلغَ في الحجَّة وأقطعَ للمعذرة، فما وَجْهُ قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصّلت: ٥]؟!

ثم ألمع إلى سبب ذلك فيهم، وهو أنهم قد أفسدوا طبائعهم بمفاسد التربية وسوء التقليد، حتى تمكَّن الضلال منهم، ففقدوا الاستعداد للهدى والمنطق في الكلام، ألمع إلى ذلك في مقابلتهم مع المؤمنين، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ إلى الحق ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لما في الصدور، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ لأنَّ التقليد يُعمي البصيرة، ويُفْقِدُ الاستعداد الفطري في النظر والاستدلال، وقد مثَّل لذلك بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ إذ هو تمثيلٌ لعدم استفادتهم من هذا القرآن وآياته، وتصويرٌ لِـمَا على قلوبهم من أكنَّة، وفي آذانهم من وَقْر؛ لأنَّ مَنْ دُعيَ من بعيد لم يسمع، وإن سَمع في الجملة لم يفهم، وكذا حال هؤلاء الذين قد انطبعوا على الضلال بسُوء التقليد، فإنهم لا يسمعون شيئاً يُخالف عقيدتهم، ولا يَرَوْنَه جديراً بالنظر والتفكير، فليس عندهم استعدادٌ لفهم هذا القرآن.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

ثم عاد إلى تسليته ﷺ ببيان أنَّ الاختلاف والتكذيب في شأن الكتب السماوية سُنَّة في عموم الضَّالِّين، غير مختصَّة في الضالِّين من قومك، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

﴿ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فردَّه بعضهم وقبله آخرون، كما اختلف قومُك في هذا القرآن، فقبِلَه بعضُهم وردَّه آخرون، وهم الذين يقولون: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فُصِّلت: ٥].

ثم بعد هذه الجملة التي ذكرت للتمثيل، عاد إلى قريش وذكر وجْهَ إمهالهم مع عِظَم إجرامهم، فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عنهم إلى أجل مُسمًّى ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصالهم بالعذاب، كما فُعِلَ بمكذّبي الأمم السالفة، ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: كفّارَ قومك ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: القرآنِ ﴿مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾، فلا ينبغي أن تستوحش منهم، ويشتدَّ استياؤك، وما أنت عليهم بوكيل.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضَرَرُ إساءته، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ فقد هداهم إلى الحقِّ بالطبيعة والشريعة؛ خلقهم مستعدِّين للإيمان الصحيح والعمل الصالح، وسوَّى نفوسهم، وألهمها معرفةَ فجورِها وتَقْواها، وأرسل الرسل تُوضِّح ذلك لهم وتُجلِّيه، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، بتدسيتهم لها وإيقاعهم إيَّاها في مَهاوي الرَّدى.

ثم بيَّن تعالى أنَّ اليوم الذي يُنجِزُ فيه هذا الوعد والوعيد، هو يومٌ استأثر الله بالعلم به وبمجيئه، وقَرَنَه بدليل عِلمِه، فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، ثم أشفع ذلك ببيان عِلمِه الشامل، مُلْمِعاً إلى إحصائهم وما يعملون، فقال: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ من إنسان أو حيوان ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾، والأكمام: جمع «كِمّ» بالكسر، وهو وعاء الثمرة. و﴿مِن﴾ الأولى بيانية. وفي الآية إيماءٌ إلى أنه خلق الخلق وأحصاهم عَدَداً، وإيذانٌ بأنَّ مَنْ هذا عِلمُه ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

ثم ذكر خصائصَ ذلك اليوم الذي يُؤخَّرون إليه، وبعضَ ما يقع فيه ممّا يتعلّق بالبحث، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾؟ تقريعاً لهم وتهكّماً بهم، ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ أي: أعلَمْناك ما منّا من أحدٍ يشهد لهم بالشركة الآن، إذ تبرَّأنا منهم لـمّا أدركنا الحق وعاينّا الحال. فسجّل عليهم بما يتضمَّن تأنيبهم وتنديمهم، فقال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ أي: وعلموا أنْ ليس لهم مَهْرَب ولا نَجاة من عذاب الله، أعاذنا الله.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

ثم ألـمع إلى أن منشأ معارضة هؤلاء المعارضين: حِرصُهم على حُطام الدنيا، وخوفُهم على مراكزهم من الضياع، ألـمع إلى ذلك وسبكه على التهديد ضمن بيان طبيعة الإنسان في شدَّة حبِّه للدنيا وطلب السَّعة فيها جاهاً ومالاً، وخَوْفِه من تبديل اليُسْر عُسْراً، فقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: من طلب السَّعة في النِّعَم والرَّفاه وحُسن الحال، كما جاء في الحديث: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنَّى لهما ثالثاً»[1]، ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ وهو الضيق والضُّرُّ ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾، وهذا وصفٌ للجنس بوصف غالب أفراده، ومثل ذلك من خصائص اللغة، ويُسمِّيه البيانيون: المجاز المُرسَل، من ذكر العامِّ وإرادة الخاصّ.

ثم تابع البيان في وصف الجنس بوصف غالب أفراده، وضمَّنه الوعيد بعد النقد،

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨)، عن أنس بن مالك.

على نهج القرآن، فقال: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ بأنْ فرَّجْنا عنه، وبدَّلنا السيِّئة بالحسنة؛ ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ أي: أحرَزتُه بعملي ومَقْدرتي، أو هو حقٌّ أستحقُّه، لِـمَا لي من الفَضْل والعمل، أو هذا لي على الدوام فلا يزول، ويقول الكافر: لو لم أكن على الحق لـمَا أعطاني الله ما أعطاني.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَ﴾ على تقدير قيامها وفَرْضِه ﴿لَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ والكرامة. أي: لستُ على يقين من البعث، فإن كان الأمر على ذلك فسأنالُ الحُسنى أيضاً؛ لاعتقاده أنَّ ما أصابه من نِعَم الدنيا إنما هو لاستحقاقه لها بعمله أو من رضاء الله عنه، وأنَّ نعيم الآخرة تَبَعٌ لنعيم الدنيا، ولم يعلم هذا المخدوع أنَّ رزق الله في الدنيا لا يتمشَّى على رضاء الله وعَـدَمِه، كيف وقد قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠]. وقد يتمشَّى على عكس ذلك، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٣]، فهو تعجيلٌ لطيِّباتهم في الدنيا، وما لهم في الآخرة من خلاق. وقال ﷺ عن المتنعِّمين في الدنيا من هؤلاء المشركين: «أُولئك قوم عُجِّلَتْ لهم طيِّباتُهم في حياتهم الدنيا»(١).

ثم ردَّ سبحانه وتعالى على أُولئك الزائغين وتوعَّدهم بقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ أي: شديدِ الوقع أليم.

ثم أكمل الكلامَ عن سجيَّة الإنسان، وضمَّنه الوعيدَ للكافرين، فبيَّن أنه يُعرِض عن الله في السرَّاء، ويلتجئ إليه في الضرّاء، وضمَّن الكلام وعيداً، فقال: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ أي: أعرَضَ عن الشكر وتعاظم وتكبَّر، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ شبَّهه بما له عَرْضٌ؛ للإشعار بكثرته واستمراره، وهو أبلغ من الطويل؛ إذ الطول أطول الامتدادَيْن، فإذا كان عَرْضُه كذلك، فما ظنّك بطوله؟

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ۝٥٤﴾.

ثم عاد إلى سَنَنِ الكلام السابق عن أولئك القائلين: إنَّ قلوبهم في أكنَّة عن هذا القرآن، وفي آذانهم وَقْر وصَمَمٌ عنه، عاد إليهم فقرَّعهم على أبلغ وجوه التقريع، وبصَّرهم على أوضح وجوه التبصير، وختَم السورة بما بدأها به من أن هذا القرآن مُنزَّل من عند الله، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآنُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ أي: مَنْ أضلُّ منكم؟ فوضع الموصول موضع الضمير؛ شرحاً لحالهم وتعليلاً لمزيد ضلالهم، وصدَّر الكلام بقوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، على أسلوب القرآن في الإخبار عن الشيء المتحقِّق الوقوع، لأنَّ الرؤية أقوى سند الإخبار.

ثم ختم ما تقدَّم من البراهين القاطعة والبصائر اللامعة، في ردِّ الشرك وإثبات التوحيد والحشر، ختمها بالتنويه بشأنها والإيذان بأنه تعالى سيَجري في التنزيل والإيحاء على هذه الطريقة، حتى يتمّ الإقناع لأكثر هؤلاء المشركين، فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(١) أي: سنُريهم في هذا القرآن من

---

(١) القرآن العظيم يُلوِّن الخطاب، وينوِّع الدلائل، ويُرادف البراهين، على اختصاصه سبحانه بالألوهية، وقدرته على الحشر والحساب، وعلى تحقّق ذلك ووقوعه، ويأخذ هذه البراهين =

هذه الدلائل الكونيَّـة مرّةً بعد أُخرى، إلى أن تزول الشبهاتُ عن قلوب أكثرِهم، ويحصل لهم الجَزْم والقطع بوجود الإله القادر الحكيم، المنزَّه عن الشبيه والنظير.

ثم استشهد على تحقيق ذلك والقدرة على إنجازه بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾؟ أي: أفلا يُمكِنُه وهو العليمُ بكلِّ شيء أن يُظهِرَهم على كثيرٍ من الآيات البيِّنات، ويُنبِّههم عليها بأنواع من البيانات؟

ولا يخلو الاستفهام من الوعد والوعيد، يَتوعَّد الذين سيجمدون على إنكارهم وكفرهم ولم يسترشدوا بما يُنبَّهون إليه المرَّة بعد المرَّة من تلك الآيات في الأنفس والآفاق، الدالَّة على استحقاقه وحده لأن يُعْبَد، والمُبَرْهِنة على إثبات الحشر والحساب، وقد قرَّر هذا فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: إنهم ـ رغماً عن تلك الآيات البيِّنات ـ في شكٍّ عظيم من البعث والجزاء، ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾ فيعلم كيف يُحييهم بعد الموت، ولا تَخفى عليه منهم خافية، ولا يفوته منهم أحد، وسيُجازيهم جزاءً وفاقاً.

وأتى بكلمة ﴿أَلَآ﴾ في الجملتَيْن لزيادة التقرير والوعيد.

* * *

= من الآفاق، كخَلْق السماوات والأرض وما فيهنَّ من عِبَر وعَجَائب، ومن نفس الإنسان، مثل: خلقه من رحم واحد ذكراً وأنثى، وتطوُّره في الرَّحم، إلى أمثال ذلك. ومعنى الآية: أن الله سبحانه سيَجري في هذا التَّنزيل على هذه الوتيرة العلمية، ويستديم فيها، حتى يتبيَّن ويتَّضح لمن ألقى السمع وهو شهيد: أنَّ ما يقوله سبحانه من اختصاصه بالألوهية، وقدرته على الحشر والحساب، وتحقق ذلك منه، هو الحق المبين. (المؤلف).

سُورَةُ الشُّورَىٰ

مكيَّة، وهي ثلاث وخمسون آية

ومُلخَّص موضوعها:

- بيان اتِّفاق الشرائع المنزَّلة من عند الله في أُصول الدين التي منها عقيدة التوحيد والبعث والحساب.

- وتقرير الدعوة لذلك بالترغيب والترهيب، وشيء من البرهان والدليل.

فهي متناسبة مع ما قبلها فيما اشتملت عليه، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾.

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ قد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة. وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها؛ اهتماماً به، ومنه هنا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثلَ هذه السورة، أو: مِثلَ هذا الوحي ﴿يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ فبيَّن تعالى أنَّ مضمون هذه السورة ـ أو هذا الوحي ـ موافقٌ لِـمَا في الكتب المنزَّلة على الرسل المتقدِّمين، ومُتَّحِدٌ معها في أصول الدين، من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد للحق. وفي التعرُّض لصفة الحكمة تنبيهٌ لحكم ما جاء فيها أو في القرآن من الأحكام، وفي التعرُّض لصفة العزَّة حَمْلٌ على التمسُّك بتلك الأحكام والإرشادات.

ثم أيد مضمون هاتين الصفتَيْن بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إيجاداً

وملكاً؛ إيجاداً بمقتضى الحكمة، وملكاً بمقتضى العزَّة، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾ في ذاته وفي أعماله.

ثم صوَّر تلك العَظَمة والجلال بهذا التمثيل الذي يدلُّ على شدة الغضب، ولكن رحمته تصحب إمهالَه، فقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: من ناحيتهنَّ الفوقية، أو من فوق بعضهن؛ فَرَقاً من عظمة الله وعُلوِّ ذاته وجبروته، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ينزِّهونه تعالى عما لا يليق به، بذِكرِ نِعَمِه العظيمة وصفاته العلية، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عن تقصيرهم في ذلك، وقد جاء في سورة المؤمن: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]، فيجوز أن يكون المراد بـ«مَنْ في الأرض» هنا: المؤمنين منهم، من ذِكرِ العام وإرادة الخاص، أو من باب حَمْل المطلق على المقيَّد. ويجوز أن يكون الكلام هنا على عمومه، إيذاناً بكمال عنايةِ الملائكة بالمؤمنين، وبشدَّة حرصهم على إيمان مَنْ لم يؤمن من البشر، ويدعون له أن يُوفَّق للإيمان.

ثم قَرَنَ ذلك بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لهفوات المؤمنين، ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ بعباده، فيُرْجِئُ عقابَ المشركين، رجاءَ أن يؤمنوا.

ثم قابل غفران هفوات المؤمنين بمحاسبة المشركين المصرِّين على الكفر، ومجازاتهم على شركهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: آلهةً عبدوها من دون الله، واعتقدوها تتولى أمْرَهم، ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ ورقيبٌ على أحوالهم، يُحصيها لهم ثم يُجازيهم عليها، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾ فلا يضيقنَّ صدرُك من شركهم، إذ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ وإنما أنت نذير لهم بين يدي عذابٍ شديد.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾[1] أي: مكّة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾،

(١) «وجوب تعلُّم اللغة العربية على المسلمين غير العرب»، يروى هذا القول عن بعض علماء =

فخصَّهم بالذكر لأنهم سيكونون الدعاةَ في الدعوة العامة لهذا الدِّين الذي أراده تعالى أن يكون ديناً عالمياً للأمم أجمعين. وجعل عليهم أن يتكلَّموا بلغة هذا الدين، الذي أُريد به توحيدُ البشر وتقاربُ شؤونه، ودخولُه في السِّلم كافَّة.

ثم ذكر ما يُنذِرُ به، فقال: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي: يوم تُجمَعُ الخلائق للحساب، فإنه يومٌ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وليس هناك إلا فريقان من أولئك المجموعِين: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ

= السلف، ومنهم الشافعي رضي الله عنه، وعليه جرى العمل في الصدر الأول، فلم يدخل الإسلام بلداً إلا وانتشرت فيه اللغة العربية لتفهم القرآن. ولولا فتنة الزنادقة والشعوبية التي سَعَت في هدم سلطان العرب وتمزيق كيانهم؛ لكان المسلمون كلُّهم اليوم يتكلمون بلسان واحد، هي اللغة العربية، وكان لهم بذلك رابطة قوية ووحدة عربية.

والقرآن نفسه يدلّ على هذا الوجوب دلالةً التزامية بما جاء فيه من الأمر بتدبُّره وتذكّره والاعتبار به إلى أمثال ذلك، فإن مثل هذا لا يتمّ إلا لمن يعرف اللغة العربية معرفةً جيدة. ولذلك كان أكثر مؤلِّفي العلوم العربية في الصدَّر الأول من الأعاجم أو الموالي، حيث اهتمُّوا بها اهتماماً كبيراً.

والترجمة للقرآن لا تُعَدُّ قرآناً وليست من كلام الله تعالى، بل لا تجوز أبداً، ولا بأس في التفسير للقرآن بأيِّ لغة كان. وإذا رجعنا إلى قواعد الدين الأصولية، فقاعدة: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، وقاعدة «إن حكم المقاصد نفس حكم الوسائل»، إذا رجعنا إلى هاتين القاعدتين، ظهر لنا أن اللغة العربية واجبة على البشر؛ لأن الدين الإسلامي أراده الله ديناً عالمياً، لمثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٤١]، وعلى مقتضى القاعدتين السابقتين، تكون اللغة العربية عالمية أيضاً، كالدين الإسلامي وقرآنه، يُسأل عنهما كلُّ فرد من أفراد البشر: لِمَ لمْ يتعلم اللغة العربية مع لغته، ويدخل في هذا الدين؟

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧] يدلُّ بصراحة على أنَّ طبيعة الدين الإسلامي عربية صِرْفة، والدليلُ الواقعيّ على ذلك: أنَّ المؤلفين بالعربية في أنواع العلوم من المسلمين، هم من سائر الأقوام. (المؤلف).

وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾، وقد قال ﷺ: «فوالذي نفسي بيده، ما بعد الموت من مُسْتَعتب، ولا بعد الدنيا من دار، إما الجنة أو النار»(١).

ثم علّق سبحانه على قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ الـمُؤْذِنِ بشدَّة معارضة أُولئك المشركين، علّق بما يُلمع إلى أنَّ معارضتهم ليست عن عَجْز في القدرة الإلهية لتقويمهم، ولكنَّها جارية بمقتضى السنة العامة في طبيعة البشر الـمَهْديّـةِ للنَّجدَين، والميسَّرة للاختيارين، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بأن يخلق البشر مؤمنين طائعين بالفطرة، كالملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ولكن حكمته تعالى اقتَضَت أن يكون الإنسان ذا علم واسع يتزايد، وذلك لا يمكن إلا بأن يكون مختاراً في أعماله، مزوَّداً بمواهبَ كلُّها خير، ما لم تَفسُد بمفاسد التربية وسوء العشرة والتصرُّف.

وقد عبَّر عن ذلك بلازمه، فقال: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾، فلمَّح بهذه العبارة إلى طبيعة الإنسان الاختياريَّـة التي شاء بحسب حكمته أن يخلقه عليها، وإلى النظام الذي قرَّره سبحانه في شأنه، وهو السعادةُ لمن يختار طريقَ السعادة، والشقاءُ لمن يُعرِضُ عنها.

وليس المعنى أنه سبحانه وتعالى يُجري ذلك جُزافاً واعتباطاً، كلا، فإنَّ مشيئته سبحانه لا تَجْري إلا بالحق والعدل الدقيق، وفي سُنن مُطَّردة لا تَتَبدَّل، فلا يشاء سبحانه إلا رحمةَ من يستحقُّ الرحمة(٢) والهناء، وتعذيبَ مَنْ يستحقُّ التعذيبَ والشقاء؛ إذ قد

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٩٧)، عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» ص١١٠٥: فيه انقطاع.

(٢) وهذا الاستحقاق بحسب وعد الله عز وجل تفضُّلاً منه، أما في نفس الأمر فلا حقَّ لأحد على الله تعالى. =

سبقت مشيئتُه الأزلية أن يرحم مَنْ حافظ على سلامة فطرته وزكَّاها، وهو المؤمن الطائع، وأن يعذِّب من أفسدها ودسَّاها، وهو الكافر والعاصي، وأن يكون للنفس ما كَسَبت وعليها ما اكتسبت، ولا يُجْزَون إلا بما كانوا يعملون، وجاءت بذلك الأنبياء والكتب المنزَّلة، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

فلا يُدخِلُ سبحانه وتعالى في رحمته وجنّته ـ والله أعلم ـ إلا مَنْ حافظوا ـ ولو في الجملة ـ على سَلامة فطرتهم، وصَرَفوا استعدادهم لصحيح الإيمان وصالح الأعمال. ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بمَحْق نور الفطرة، وصَرْف استعدادهم في الكفر والعصيان: ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾، فلا تنصرُهم أولياؤهم عندما يأخذهم بذلك أخْذَ العزيز القدير. فهذه هي سُنَّة الله العامَّة في خِلْقة الإنسان، وهذه نتائجها.

ثم إنه ـ بعد أن توعَّدهم سابقاً على اتِّخاذهم من دونه أولياء ـ أعاد الجملة وقَرَنها بالإبطال، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ ينفعون ويضرُّون، كلا. والكلام معطوف على محذوف، حسب نهج إيجاز القرآن، والتقدير: أَقَنِعُوا بهذا البيان أم لم يَقنَعوا وأصرُّوا على اتِّخاذ أولياء من دونه؟! يُنكِرُ عليهم ذلك، ثم يُبرهِنُ على أنه تعالى هو المستحقُّ وحده للألوهية لاختصاصه بصفاتها، ويقول: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾[1]، فالجملةُ الأولى[2] من هذه الجمل الثلاث مضمونُ دعوى،

= ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ   كلا وليس لديهِ سعيٌ ضائعُ
إن عذِّبوا فبعَدْلِهِ أو نُعِّموا   فبفَضْلِه، وهو الكريمُ الواسعُ

(١) أي: اللهُ وحدَه هو الوليُّ بالحقِّ، المُتكفِّل بأمور الخلائق كلِّها، وهوالذي يجبُ أن يُتولَّى وحده دون سواه، وهو يُحيي الموتى يوم البعث، وهو على كلِّ شيء ـ يشاء إيجادَه أو إعدامَه أو إجراءَ أيِّ تصرُّف فيه ـ عظيمُ القدرة.

(٢) أي: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾.

والتاليتان[١] دليلٌ عليها[٢]، والثالثةُ[٣] دليلٌ على الثانية[٤].

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

وبعد أن قرَّر الألوهية والولاية لله وحده، وقرَّر الحشر والحساب، توعَّد المشركين والمكذِّبين، ووَعد المؤمنين بالفَصْل في الحكم بينهم وبينهم، فقال: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ ﴾ فضَلَّ فيه الجائر عن الحق بإفساد استعداده الطبيعي للنظر والبحث الصحيح ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يثيبُ المُحِقَّ لمحافظته على سلامة استعداده لصحَّة النظر، ويُعاقِبُ المُبطِلَ لإفساده لنور بصيرته بمفاسد التربية وسوء التقليد، حتى ضلَّ عن سواء السبيل.

ثم أمر رسوله أن يردَّ على هؤلاء المشركين الذين اتَّخذوا من دونه أولياء، ويتحدَّاهم عن آلهتهم العاجزة المهينة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي: الذي له هذه الصفات، وهو على كل شيء قدير: هو ﴿ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في دفع كَيْدِكم، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ في كلِّ المهمّات، لا أتَّخذُ معه ولياً.

ثم ذكر بعض صفاته تعالى، تأييداً لوثوق هذا التوكُّل، وتكميلاً للرد عليهم، ببيان اختصاصه تعالى بأفعال الألوهيَّة، وجَعَل ذلك تمهيداً لِـمَا يتضمَّن نفيَ الولد عنه سبحانه بعد أن ذكر ما يتضمَّن نفيَ الشريك، وبيَّن أن ما في شأنه أن يَتَناسل، جَعَلَ الله

---

(١) أي: ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٢) أي: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾.

(٣) أي: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٤) أي: ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

من جنسِه صنفَيْن: ذكراً وأُنثى، فقال: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما على هذا النظام البديع، بمقتضى الحِكَم البالغة، وقد ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من البشر ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: جَعَلكم صنفَيْن ذكوراً وإناثاً، ﴿وَ﴾ جعل ﴿مِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: من جنسها ﴿أَزْوَٰجًا﴾ كذلك ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يُكثر المخلوقات الحيوانية على الإطلاق، ويُبقي نَسْلَها بهذا النظام الزوجي وهذا التدبير الإلهي، فهل شأن الله سبحانه كشأنكم حتى يكون له ولد؟!

ثم عقَّب سبحانه وتعالى على ذلك بما فيه إشارةٌ إلى تنزيهه تعالى عن الولد؛ لأنَّ التوالد مُختصٌّ فيما يحتاج إلى بقاء النسل والتكثير، ويكون الزوجان من جنس واحد، فنزَّه الله تعالى ذاته عن الولد، وعن النِدِّ والشبيه والمثال، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] لأنه خالقُ كلِّ شيء، ولا يجوز أن يكون الخالقُ مِثْلَ المخلوق، فكيف يكون له ولد أو شريك أو شبيه[2]؟ ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ فأتى بهذين الوصفين؛ لإفادة

---

(١) قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: هذا الكاف كالدليل على النفي، إذ هو بمثابة قولك: مِثْلُ فلانٍ لا يكذب. حيث إنك تنفي عنه الكذب لما فيه من الصفات المضادة للكذب، فكانت دعوى مع البرهان، ولا يوهم هذا إثبات المثلية لله، بحُجة أن الكلام يؤول إلى مثل قولك: ليس مثل مثله شيء؛ لأن مثل هذا أسلوب من أساليب التعبير يُقْصَد منه تقرير النفي بدليله، على نهج القرآن في سَبْك الدعوى على البرهان وإدماجه فيها، فكأنك قلت: إن حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التي تقبل المماثلة والتعدد.

وقيل: إن كلمة «مثل» تأتي بمعنى الذات، والمعنى: ليس كذاته شيء، ومفاد الآية ـ فوق نفي الصاحبة والولد ـ أن الله سبحانه ليس موضع بحث، وليست ذاتُه وكُنْهُها في متناول إدراك وعرفان؛ لأن الغائب لا تُدرَكُ حقيقته إلا بمماثِلِه، والله سبحانه ليس كمثله شيء. (المؤلف).

(٢) مفاد الآية: أن ذات الله سبحانه وكُنْهَها ليس موضع بحث، ولا هي في متناول إدراك؛ لأن طريقة معرفة الغائبات من طريق مشابهاتها، فيتوصَّل من المعلوم إلى المجهول، ولما كان سبحانه =

التهديد والتعليل معاً، فمَرْمى التهديد: أنه لا يَـخْفى عليه من أمركم خافية، ومرمى التعليل: الإلماع إلى أن كلَّ أعماله مبنيَّة على العلم الواسع والحكمة البالغة، وهذا المعنى مأخوذ من حال المُخاطَبين، فإنَّ السمع والبصر مبدأ العلم والحكمة[(١)]، وأخذُ المعاني من أحوال المخاطبين هو من أساليب القرآن العظيم لتقريب المعنى إلى الأفهام.

ثم تابع دليل قدرته وإفضاله، فقال: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمقاليد: جمع مقلاد، وهو الخزانة، أو مفتاحها. أي: بيده مفاتيح خزائنها التي أنعم بها عليكم، وكلُّها تحت تدبيره وتقديره، ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ممن يتَّبع السنة الكوينة والنظام الطبيعي، الذي نظّمه تعالى في الحصول على هذا الرزق، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ الرزقَ على مَنْ يشاء ممن لم يتبع ذلك النظام وتلك السنن[(٢)].

= ليس كمثله شيء، لا يمكن للعقول أن تدرك كُنْهَه، ولكن تدركه بآثاره العظيمة ومخلوقاته الجليلة، وأقوى الأدلة: دِلالةُ الأثرِ على المؤثِّر، فندرك صفاته كلَّها من آثاره، ندرك قدرته العظيمة، وحكمته الجليلة، وعلمه الواسع، وبقية صفاته من آثارها التي نجدها في المخلوقات. وقد جاء عن ابن عباس وغيره ما يروى عن رسول الله ﷺ من قوله: «تفكَّروا في خلق الله، ولا تفكَّروا في الله فتهلكوا»، أي: لأنه منزَّه عما يخطر في الأفهام والأوهام. (المؤلف).

والحديث رواه أبو الشيخ في «العظمة» (١: ٢١٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، والطبراني في «الأوسط» (٦٣١٩)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقد روي بألفاظ متعددة من طرق مختلفة، بأسانيد كلها ضعيفة، ولكن تعددها واجتماعها يكسبها قوة، والمعنى صحيح كما قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٣٤٢).

(١) السمع والبصر صفتان ثابتتان لله تعالى، وهما غير صفة العلم، كما هو مقرَّر في كتب العقائد، وسمعُه سبحانه ليس كسمع خلقه، وبصرُه تعالى ليس كبصر خلقه، وسمعُه وبصرُه بلا أدوات ولا آلات سبحانه وتعالى.

(٢) تقدَّم أنّ الرزق يقسمُه الله بمقتضى مشيئته التي لا تُفارِقُ حكمتَه، وربما وسَّع سبحانه بالرزق على مَن لم يأخذ بالسُّنن والأسباب، وضيَّق على مَن أخذ بالأسباب واتَّبع السُّنن الكونيَّة؛ لحكمة.=

ثم بيّن تعالى أن ذلك النظام مبنيٌّ على العلم والحكمة، فقال: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ إذ لو لم يكن هذا ـ بأن أفاض الرزق على كل أحد ـ لبَغَوْا في الأرض، ولم يتسخر بعض لبعض، وفسد نظام المجتمع، وجَعَل مفاتيح الرزق لكل من تمسَّك بالنظام الصحيح.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

ثم نعى على هؤلاء المشركين الذين اتَّخذوا من دونه أولياء، وسفَّه معارضتَهم لهذا الدين المُشابه في أصوله لسائر الأديان الصحيحة السابقة، فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ فذكر الأديان كلَّها بصورة إجمالية، البارز من أولها، وهو دين نوح عليه السلام، والبارز من آخرها، وهو دين محمد ﷺ، والبارز من وسطها القريب من محمد ﷺ، وهو دين إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

= والمؤمنُ مأمورٌ بصدق التوكُّل على الله، واتِّخاذ الأسباب التي أمر الله باتخاذها، والتسليم له والرضا فيما يختاره له.

وتفيد الآية: أنَّ الأديان السماوية كلَّها متَّحدةٌ في الأُسُس، وهي: التوحيد والبعث وما به تزكية النفوس، وإن اختلفت في بعض صور التزكية في هذه الأديان؛ لاختلاف الأزمان وأطوار الإنسان المتدرِّج في الوعي والعِرفان.

ثم ذكر ما وصَّى به هؤلاء الأنبياء، فقال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[1]، وهذه الوصية لهم إنما هي وصيّة لأتباعهم من بعدهم، يُوصيهم أن يحافظوا على معالم دينهم. بمعنى: أنَّ الله تعالى طَلَب من الجميع إقامة الدين على وجهه الذي شَرَعَه، من دون تحريف.

وبعد أن ذكر موافقة هذا الدين لسائر الأديان الصحيحة المُنَزَّلة من عنده تعالى، ذكر معارضة المشركين له، مبالغةً في وصف عنادهم وجهالتهم وإفسادهم لطبيعتهم، قال: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[2] مع أنه دينٌ نصَّت عليه سائر الأديان، وموافق للعلم الصحيح في كل زمان.

ثم ألمع إلى أن منشأ ذلك فيهم إنما هو إفسادُهم لنفوسهم بمفاسد التربية وسوء التقليد، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ وهم الذين حافظوا على سلامة فِطَرِهم، ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ ويُقبِلُ عليه تعالى، وهُم الذين حافظوا على استعدادهم

---

(١) أو المعنى: نُوصيكم ـ أيها الناس ـ في رسالة محمد الخاتمة للرسالات، بإقامة الدين مستقيماً، والمداومة والثبات عليه، بتوحيد الله والإيمان به وبكتبه ورسله واليوم الآخر، وطاعة الله في أوامره ونواهيه، ولا تختلفوا في الدين الذي أمرتكم به إلى طوائف وفرق، واجتمعوا مُتَّحدين على التمسُّك بأصول الدين الكبرى، في العقائد، والأخلاق، والمعاملات.

(٢) أي: عَظُمَ على المشركين وَثَقُل عليهم ما تدعوهم إليه ـ يا رسول الله ـ من التوحيد ورفض الأوثان؛ لكراهيتهم ترك ما ألفوه، من دين آبائهم وأجدادهم، وترك منافعهم الدنيوية، والتنازل عن أهوائهم وشهواتهم.

الطبيعي في صحّـة النـظر وسلامة التـفكير، أو هم الذين قد بقي فيهم شيء من نور الفطرة، فانتبهوا وعادوا بعد الشرك إلى الدين المستقيم. وقد مرَّ الكلام آنفاً عن مثل هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الشورى ٨]، فارجع إليه.

ويجوز أن يُرادَ بالذين يجتبيهم: الأنبياء عليهم السلام، ويختصَّ وَصْفُ المهتدين وحده بالأتباع.

وبعد أن ذكر أنه أمَرَ الأممَ على لسان أنبيائهم أن يأخذوا الدين على وجهه الذي شَرَعَه لهم من دون تحريف، ذكر أن بعضهم تفرَّقوا واختلفوا فيه بعد أن جاءهم العِلمُ به على لسان رسولهم، لذلك صاغَ العبارة بصيغة الاستغراب، فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ﴾ ذلك ﴿ٱلْعِلْمُ﴾ بواسطة الرسل المُرسَلة والكتب المنزَّلة، فاختلفوا وتفرَّقوا ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: تكبُّراً وحسداً وحرصاً على رياستهم أن تذهب، ومراكزهم المُغتَصَبة والمُحتكَرة أن تُسْلَب. وقد كان يتصدَّى الرؤساء لتغيير بعض معالم الدين حسب أهوائهم وأغراضهم، ويجعلون لهم مذهباً في الدين خاصاً، ويكون لهم فِرَقٌ خاصة بهم، يتكتَّلون حولهم، ويكونون أتباعاً ومرؤوسين.

ثم ذكر وَجْهَ أناتِهِ بهم مع عَمَلِهم هذا، فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَةُ بتأخير العقوبة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ يُمهِلُهم فيه رجاءَ أن يتوبوا؛ ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً، ولكنه يصبر عليهم حتى لا يبقى لهم عذر ولا مَعْـتَبة، فيأخذهم بعد الموت أخذاً وبيلاً.

ثم بيَّن حال المتأخِّرين الذين ورثوا كتابهم من أولئك المُحرِّفين، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد أولئك الأقوام المحرّفين ﴿لَفِى شَكٍّ

﴿مِّنۡهُ﴾ أي: من هذا القرآن ﴿مُرِيبٖ ۝١٤﴾[1]، وذلك أنهم لـمّا ورثوا كتابهم على هذا التحريف المشين، وَجَدوا الفرق بعيداً بين هذا القرآن وبين ما هم عليه من دين، لا سيَّما وقد حذفوا من كتابهم وجوبَ اتباعهم لمحمد خاتمِ النبيين.

وقد حثَّه على الدعوة لهذا الدين الصحيح، فقال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾ الناسَ كافَّة إلى إقامة هذا الدين القويم المُساير لفطرة الله التي فطر الناس عليها. أو: فلذلك الدين القويم الذي شَرَعه الله لكم كما شرع لمن قبلكم، ادعُ الناسَ كافة للعمل به، ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ أي: ولا تلاينهم، وردَّ عليهم تفريقَهم، ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ بصورته المنزَّلة لا بالصورة التي عبث بها البشر وحرَّف وبدَّل؛ لأن ذلك ليس بكتاب الله.

وقد كان واجب العمل به قبل أن يُنسَخَ بهذا القرآن، ولذلك قال: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ﴾ قال القَفَّال: أي: إنَّ ربي أمرني أن لا أُفرِّق بين نفسي وأنفسكم، فلا آمُرُكم بما لا أعمله، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، ولا أُفرِّقُ بين العظيم وغيره منكم، ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ فإنْ أصررتُم على الشِّرك فلا ضرر علينا منكم، إذ ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا﴾ لا يتخطَّانا جزاؤها، ﴿وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ لا تُجاوزكم آثارها، ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾ أي: لا مُحاجَّة ولا خصومة، لأنَّ الحقَّ قد ظهر، ولم يبقَ للمُحاجَّة حاجة، ولا للمخالفة مجال سوى المكابرة، ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾ يوم القيامة، ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٥﴾ فيظهر هناك حالُنا وحالُكم، ويُجازينا على أعمالنا، ويُجازيكم على أعمالكم، الخير بالخير، والشر بالشر.

---

(١) أي: إنَّ اليهود والنصارى الذين أُورِثوا التوراة والإنجيل من بعد أنبيائهم، لَـمُنغَمِسون في شكٍّ من أمر محمد ﷺ وكتابه المُنزل من عند الله، وشكُّهم هذا يُوقِعُ في الرَّيْب والتُّهمة بأنهم عالمون بالحقِّ وجاحدون به عناداً، ودوافعهم إلى الشكِّ نابعةٌ من أهوائهم وشهواتهم، ورغبات نفوسهم من متاعات الحياة الدنيا.

وبعد أن قال: لم يبق حاجة للمُحاجَّة بيننا وبينكم لظهور الحق، ذكر حُكمَ الذي يحاجُّون عِناداً ولَجاجاً من بعد ظهور الحق، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في دينه، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: من بعدما ظهر واستجاب له الناسُ، وتبيَّن أنه حقٌّ وصدقٌ، فهؤلاء معاندون و﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ أي: باطلةٌ مردودة ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ لعِنادِهم ومكابرتهم بعد ظهور الحق، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

ومفاد هذه الآية: أن الله سبحانه يجدِّد الشرائع المرة بعد المرة، ويُرسِلُ الرسل الواحد تِلْوَ الآخر؛ لحاجةٍ وحكمةٍ تقتضي ذلك، منها: تحريف الأمم للشريعة السابقة، ومنها: اقتضاء تبديل بعض الأحكام الفرعيَّة للشريعة السابقة، بحكم تبدُّل الزمن وارتقاء الفكر الإنساني المكتسَب، إلى غير ذلك من الأسباب. فإذا تحقَّق أنَّ هذه الشريعة الجديدة هي شريعةٌ من الله، وَجَبَ أن يتَّبعوها ويتركوا الأولى بحكم النسخ، والذين يُنازعون في الشريعة الجديدة بعدما تبيَّن أنها حق، فحُجَّتهم باطلة عند ربِّهم، وعليهم غَضَبٌ من الله، ولهم عذاب شديد على عِنادهم هذا وتعنُّتهم ضدَّ الحق.

ويُماشي هذه الآيةَ قولُه تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ - ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ...﴾ [آل عمران: ٨١]. والله أعلم

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ

وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

وبعد هذه المقدِّمة، نوَّه بشأن هذه الشريعة الجديدة وكتابها المنزَّل بها، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أنزله مشتملاً على ما هو الحق. وقوله: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، من عطف الصفة على الموصوف، بمعنى: أنه أعدَلُ نظام للبشر، تُوزَنُ به أعمالهم، حتى تكون صحيحة ناجحة في الدنيا والأخرى؛ لأنه توجيهٌ للبشر في أمرهما معاً على أكمل الوجوه.

فعن ابن عباس وقتادة ومجاهد: أنه كناية عن العدل[1]، أو بمعنى: أن القرآن ميزان تُوزَنُ به الأعمال والأقوال، فما كان منها منطبقاً عليه فهو الحق، وما سواه باطل.

ثم أردف هذا البيان بما يحمل على التمسُّك به، والتهديد للمخالفين، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾[2] يهدِّد بصيغة هذا التعبير ويُنذِر.

---

(١) روى قول قتادة ومجاهد الطبري في «تفسيره» (٢١: ٥٢٠)، وذكر قول ابن عباس القرطبي في «تفسيره» (١٦: ١٥).

(٢) والمعنى: أيُّ شيء يُعلِمُك ـ أيها المُتلقِّي ـ متى تقومُ الساعة التي يكون فيها إنهاءُ ظروف الحياة الدنيا؟ فقد أخفى الله العِلمَ بقيام الساعة على كلِّ عباده في السماوات والأرض، ولكنْ ضَعْ في توقُّعِكَ احتمالَ أنّ وقتَ قيام الساعة قريبٌ، بالنسبة إلى ما سبق من عُمُرِ الحياة الدنيا.

ثم أنّبَ المنكرين المستهزئين، فقال: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ استخفافاً بالوعيد وسخريةً به، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: من الساعة وتوابعها، فيحذرون مما يؤدي إلى غضب الله، ويحرصون على رضاه لنيْل السعادة فيها، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الواقعُ لا محالة.

ثم نعى على المنكرين، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾[١].

ثم أردف الكلام عن هذا الإنزال الذي هو من أكبر لطف الله على عباده، ببيان تمادي ألطافه المادية والمعنوية بعباده، وأنها معروضة لاختيارهم ومشيئتهم، فمَن اختارها وسعى لها سَعْيَها نجح وتجدَّى، ومَن أعرض عنها فشل وتردَّى، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ لا ينتهي لطفُه. ثم خصَّ من بينه الرزق؛ تنبيهاً إلى أنه لا يحرمه هذا الكافر أيضاً، فقال: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ ممن تمسَّكوا بألطاف الله تعالى في ذلك، وهي الأسباب المؤدِّية إليه حسب سُنَن الله في كونه، فكلُّ من تعاطى أسباب الرزق الطبيعية رزقه الله ولو كان كافراً؛ لأنه تعالى لا يحرم الكافر من الرزق. وقد ألمع إلى أن تأجيل عقابه ليس عن عَجْز في القدرة، ولكنه اللطف والإمهال، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ فيُجازيه يومَ الحساب على كفره بالجزاء المعدّ لذلك، حسب سُنّتِهِ تعالى.

ثم فصَّل ما أجمَلَه من ذلك بقوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ فبيَّن تعالى أن جزاء الآخرة مُرتَّب ترتيباً طبيعياً على أعمال الإنسان الاختيارية[٢]،

---

(١) أي: تنبَّهوا وتأكَّدوا أنَّ الذين يُجادِلون بزُخرُفِ أقوالهم في نبأ قيام الساعة ويشكُّون فيها، لَفي ضياعٍ في قَعْرٍ بعيد عن مَوْقع الحق، فهم فيه مُعرَّضون لعذاب شديد وشقاءٍ مديد.

(٢) ترتيب الجزاء يوم القيامة على عمل الإنسان في الدنيا ترتيب شرعي، أي: تابعٌ للخبر الوارد =

كما يترتَّب المحصول على الحرث جودةً ورداءةً، وقلةً وكثرةً، ومن فَضْلِه سبحانه أن خصَّ المحصول الجيِّد الأخروي بمضاعفته من منَّته العظمى وعطائه الجزيل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى ٢٣]، وكما قال تعالى في سورة البقرة تمثيلاً لذلك: ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، فمَنْ حَـرَثَ للآخرة على مقتضى النظام الذي وضعه الله لذلك وأنـزل فيه تعاليمه على لسان رسله، نال خيراً كثيراً من محصوله الجيِّد، ومن أخلَّ بذلك النظام أو لم يتمسَّك به، كان نتيجته الفشل والخسران.

ثم ذكر مِثْلَ ذلك في أمر الدنيا، فقال: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ كذلك فإنَّ المحصولات الدنيويَّة أيضاً مرتبة بحسب سنة الله تعالى على الأعمال المنتجة لها ترتيباً طبيعياً[١]، مثل ترتيب المحصول على الحرث جودةً ورداءةً، ولكن من دون تضعيف، بل على قَدْر الإتقان في الحرث تكون جودةُ المحصول وكثرته، وبنسبة الإهمال تكون رداءته وقلّته، ولا فَرْقَ في ذلك بين المؤمن والكافر، إذ لا تعلُّق لنظام بنظام، ولا تَعَارُضَ بينهما. فمن تمسَّك بأسباب الدنيا والأخرى نالهما معاً، ومن انفردَ في التمسُّك بأحداهما لم يَنَل الأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾؛ لأنه لم يَسْعَ لها سَعْيَها.

وقد اكتفى ببيان هذا الحكم في أمر الدنيا عن بيانه في أمر الآخرة، على نهج القرآن في الاكتفاء. وقد فُصِّل هذا البحث في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ

= عن الله عز وجل في شرائعه، وليس ترتيباً ناتجاً عن سنة كونية أو قانون طبيعي، كما تقدَّم بيانه في مواضع. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدم في أول الكتاب (١: ٤٣١).

(١) بل ترتيباً شرعياً كما تقدَّم آنفاً.

ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا...﴾ [آل عمران: ١٤٥]، فارجع إليه. وكذلك فُصِّل هذا البحث في (لاحقة المقدِّمة الثانية).

ثم علّق على قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا...﴾ [الشورى: ١٣]، علّق بقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾، وهو معطوف على مُضْمَر، بحسب نهج القرآن في مثله. والمعنى: أَقبِلُوا ما شَرَع الله لهم من الدين أم لهم آلهةٌ ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ ولم يؤدِّ إلا إلى الفشل والخسران المبين؟ وهذا الاستفهام للاستخفاف بهم وتضليل طريقتهم والتأنيب لهم.

وبعد أن أنّبهم توعّدهم بقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ وهي تأخير الجزاء إلى يوم الحساب، ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا.

ثم نصَّ على ما سيكون من عذابهم في الآخرة، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

ثم قارن بين حالة المشركين وحالة المؤمنين حينئذ، فقال: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ أي: خائفين يوم الحساب من جزاء ما عملوا، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ لا مَحالةَ ولا مَناص، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ثم نوّه بشأن ذلك النّوال فقال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ الذي لا يُقدَرُ قَدْرُه. اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم زاد في التحسيس به، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾[1] هو ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ به ﴿عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ويدعو له سائرَ الناس، على اختلاف الطبقات والأجناس.

---

(١) النعيم في الجنة والفضل الكبير.

وبعد هذا البيان المفصَّل الذي ختمه بهذه البشارة العظمى، أمر سبحانه رسولَه أن يقول للمُعرِضين عنه: إني لم أسألكم عن هذا التبليغ أجراً حتى ترتابوا في الأمر، وتظنُّوا أنَّ لي بهذه الدعوة غرضاً شخصياً من ورائها، وأدمجَ في هذا القول الاستدراجَ والتأليفَ لهم، تقليلاً من إبائهم، وتهويناً من شرِّهم، وتليِيناً لعريكتهم[١]، فقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجراً إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم، وتَصِلوا الرَّحِمَ التي بيني وبينكم، وتحفظوها لي.

وعن ابن عباس[٢] وقتادة[٣] ومجاهد[٤] وغيرهم: أنَّ المراد: أنكم قومي وأحقُّ مَنْ أجابني وأطاعني، فإذ قد أبيتُم ذلك، فاحفظوا حقَّ القُربى، ولا تؤذوني ولا تُهيِّجوا عليَّ.

وقال القَسْطلّاني[٥] بعد بحث طويل: ومحمل الآية على أن تُوادُّوا النبيَّ ﷺ من أجل القرابة التي بينه وبينكم، فهو عامٌّ لقريش[٦]. وأما جَعْلُها في محبة عليٍّ ووَلَدِه، فهي من مماحكات الشيعة، وإن هذه الآية مكيَّة، وزواج علي بفاطمة إنما كان في المدينة.

---

(١) العريكة: الطبيعة، يقال: فلان ليِّن العريكة؛ إذا كان سَلِساً مطاوعاً منقاداً.. «لسان العرب» (عرك).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠: ٤٩٥).

(٣) المصدر السابق (٢٠: ٥٠١).

(٤) المصدر السابق (٢٠: ٤٩٧).

(٥) هو: شهاب الدين أبو العباس، أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني القتيبي المصري، (٨٥١-٩٢٣هـ)، من علماء الحديث، له: «المواهب اللدنية في المنح المحمدية»، و«الكنز»، و«إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري». «الأعلام» للزركلي (١: ٢٣٢).

(٦) «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» (٧: ٣٣١)، وفيه: فهو خاص بقريش، بدل (فهو عام بقريش).

وإني أرى رأياً آخر، وهو أن الاستثناء منقطع، وحاصل المعنى: إلا أني لقرابتي منكم أودُّ أن لا يفوتكم هذا الخير. والله أعلم.

وعن الحسن والجُبّائي وأبي مسلم: أنَّ كلمة ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هنا من التقرُّب، لا من القرابة. والمعنى: لا أسألكم عن تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجراً إلا التودُّدَ والتحاب فيما يقرِّب إلى الله من العمل الصالح.

وبعد أن أمره تعالى أن يقول لهم ذلك، قال: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ حيث يضاعفها سبحانه بتفضُّله إلى أضعاف بغير حساب من خزائنه التي لا تتناهى أبداً، ثم علّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ لمن تاب وأطاع. والمراد من الشكر: الزيادة في التفضُّل والإثابة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

وبعد هذا البيان عاد إلى محور السورة، وهو أنَّ هذا الكتاب وحيٌ من الله، وأنه تعالى شَرَع للناس فيه ما وصَّى به الأنبياء من قبل، وأنكر على المكذِّبين، مقرِّعاً إياهم بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وهذا معطوف على محذوف، بحسب نهج القرآن في مثله، والتقدير: أيُصدِّقون بما ذكر عن هذا الكتاب من أنه وحيٌ من الله، أم يُصِرُّون على الإنكار عليك ويقولون: افترى على الله كذباً في ادِّعاء أنَّ ما جاء به وحيٌ من الله؟

ثم علَّق على إنكارهم وإصرارهم بما فيه تسليةٌ له وتسخيفٌ وتسفيهٌ لهم، وقال: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال مجاهد: أي: يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى

لا يشقَّ عليك قولهم: إنه مُفْترٍ كذَّاب[١]. يعني: على حدِّ قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

ثم وعده بالنصر عليهم، فقال: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ فينتصر لها، حتى تودِّي غَرَضَها، ولا يخفى عليه أمرُك وأمرُ المعارضين؛ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾، فقوله: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ ليس معطوفاً على جواب الشرط، وإنما هو فعلٌ مستأنف مرفوع، وقد أسقطت الواو منه في بعض نسخ المصاحف وكتب «يَمْحُ» تبعاً لإسقاطها في اللفظ؛ لالتقاء الساكنين، مثل: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء: ١١]، ومثل: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨].

وذكر الرازي للآية وجهاً آخر، وهو: أن المراد من قوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: إن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم مثلهم، حتى تفتريَ عليه الكذب كما يفترون، فإنه لا يجترئ على الله إلا مَنْ كان في مثل هذه الحالة. قال: والمقصود من هذا الكلام المبالغةُ في تقرير الاستبعاد عن الافتراء على الله. ومثاله: أن يَنسُبَ رجلٌ بعضَ الأمناء إلى الخيانة، فيقول الأمين: لعلَّ الله خذلني، وهو لا يريد إثبات الخذلان، وإنما يريد استبعاد صدور الخيانة عنه[٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾[٣] أي: ومن سُنَّته تعالى إبطالُ الباطل وتقريرُ الحق، فلو كان محمَّدٌ مُبْطِلاً كذاباً لفضحه الله، ولكشف عن باطله، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤: ١٤٥).

(٢) «تفسير الرازي» (٢٧: ٥٩٦).

(٣) أي: يُحِقُّ الحقَّ ويجعلُه ثابتاً في واقع الحياة، بكلماته التكوينيَّة التي يُنفِّذ بها ما قدَّره وقضاه، وبكلماته البيانيَّة التي يهتدي بها أهلُ العقل والرُّشد، وقد فعل الله ذلك، فمَحا باطِلَهم، وأعلى كلمةَ الإسلام.

وبعد أنْ سَلسَلَ الكلام عن أحوال المشركين وختمه بنسبتهم الافتراء إلى النبيِّ ﷺ، ذكر أنَّ بابَ التوبةِ مفتوحٌ لكلِّ قاصد، حتى لهؤلاء؛ استمالةً لهم واستدراجاً لهم، لعلهم يرجعون عن غيِّهم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾، وقد ضمَّن التوبة والعفو معنى الصفح، وعدَّاهما بـ(عن)، وقد قال ﷺ: «للهُ أفرَحُ بتوبة عَبْدِه من العقيم الوالد، والضالِّ الواجد، والظمآن الوارد»[١]. والضال الواجد: هو الذي يُضيع شيئاً غالياً ولا يجده إلا بعد حين.

وقد اختلفوا في لفظ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أفاعل أو مفعول به؛ على تقدير حذف اللام، أي: يستجيب الله لهم؟ كما حذف في قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣]، ويُسمَّى هذا عند النَّحْويين الحذف والإيصال.

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

وبعد أن ذكر في السياق أنَّ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠]، عاد فتعرَّض لحرْث الدنيا، وذكر صفحةً منه، وهو أنه لم يجعله كرزق الحيوان متساوياً، بل جعله متفاوتاً صعباً؛ لأنه ضخم رفيع الشأن، يحكم بتكريمهم ورفعهم عن درجة الحيوان، وقال: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ وجعل نظامه من دون كدٍّ وتعب، ولم يَقْرنه بالسَّعي والكَسْب، وجعلهم كلَّهم أغنياء؛ ﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وأفسدوها، إذْ لم يكن حينئذ لهم عمل يشغلهم،

(١) رواه ابن عساكر في التوبة (٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فينصرفون إلى اللهو والعبث والبغي والفساد، ولا يساعد بعضهم بعضاً ويخدمه، فلم يجعل الله الرزق هكذا، ﴿وَلَٰكِن﴾ جعل له نظاماً اجتماعياً حكيماً، فوق أسبابه الطبيعية، فهو ﴿يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ حسب الحكمة والعلم الدقيق، وبَنَاهُ على التعاون واتِّخاذ بعضهم لبعض سُخْرياً؛ ليشتغل كلُّ فرد بما يُحسِنُه ويميل إليه، ويقوم بحاجةٍ من حاجات المجتمع التي يسدُّها المجموع، ويكون كلُّهم خَدَماً له.

ولما كانت هذه الحاجات متفاوتة في المحاصيل والمراكز، كان فيهم الغني والفقير، والمأمور والأمير، والضعيف والقدير، حسب مواهبهم وهِمَمِهم وقِلَّة عِلمِهم وكثرته، وغير ذلك.

وأمر الله سبحانه أمراً جازماً أن يعطف الغني على الفقير، ويقوم بسَدِّ عَوَزِه وحاجته، وأبانَ للغني أنَّ رزق الفقير جعله في ماله، بحكم هذا النظام، وأوجَبَ عليه الزكوات والصدقات، ونَدَبَه إليها؛ ليكمل نقص حاجة الفقير في نفسه وعياله، فقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ [الرعد: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال ﷺ: «أيُّكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله»؟ قالوا: يا رسول الله، ما منّا أحدٌ إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «مالُه ما قدَّم، ومالُ

وارثه ما أخّر»(١)، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة والأحاديث، كلُّها تحض على الإنفاق؛ لتكميل نظام الرزق الذي وَضَعه الله بحكمته، وأمر بالإنفاق ونَـدَب إليه تتميماً للحكمة في تكوين نظامه، ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾ فيجعل أنظمة شؤونهم حسبما تقتضيه الحكمة والمصالح العامَّة، لا كما يشتهون.

ولما كان من جملة أنظمة الرزق إنزال المطر بقدر ما يشاء، بمقتضى السنن الكونية والحِكَم الإلهية، وقد يُمسِكه للتخويف والانتقام من أرباب الزكوات والصدقات إذا لم يفعلوا، كما جاء في الحديث: «ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القَطْرَ من السماء»(٢)، فلهذا كلِّه تعرَّض لإمساكه وإنزاله، مشيراً إلى أنَّ ذلك يكون أيضاً بحسب الحكمة البالغة، كنظام الرزق. وجعل صورة الكلام على التَّمنُّن والإنعام والفَضْل والإكرام، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ حيث تقتضي الحكمة العامة والسنة الكونية أو العقاب والتخويف ذلك التأخيرَ والتقطيع، ﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾ بعد الإمساك حتى تعمَّ السَّهْل والجبل والنبات والحيوان، ﴿وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨﴾ الذي يتولّى عباده باللطف والإحسان، ويستحق الحمْدَ والامتنان، وبعض ما يرونه في ظاهره إجحافاً، لو اطَّلعوا على الغيب لرأوا ذلك ألطافاً.

واعلم أنَّ أعمال الله سبحانه وألطافه ليست مقصورةً على مصالح البشر وحدهم، ولكنها تعمُّ مصالح الكون كلِّه، بما فيه البشر أفراداً وجماعات، وقد تتضارب مصلحةُ أمة أو بلدة أو شخص مع المصلحة العامَّة أو السنن الكونية، والله سبحانه هو العليم الحكيم. على أنه قد يكون بعض تلك الشدائد المُجْحِفة تأديباً من الله سبحانه لشخص أو أُمة أو بلدة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء: ٥٩]، والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٤٢)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠١٩)، عن ابن عمر رضي الله عنه.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) ﴾.

ثم أيَّد البحث بدليل القدرة، على نهج القرآن، وعاد بالكلام إلى الردِّ على أُولئك المشركين ببيان اختصاصه تعالى بأفعال الألوهية، وأدمج فيه البعث، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدالَّةِ على استحقاقه وحده للألوهية: ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على ما هُما عليه من الإبداع والإتقان، فإنهما بذاتهما وصفاتهما تدلَّان على شؤونه العظيمة البالغة، ﴿وَ﴾ كذلك خَلْقُ ﴿مَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ تدبُّ عليهما، أو على الأرض فقط من أنواع الأحياء، إذ ما يكون في أحد الشيئين المحكي عنهما يجوز أن يُسْنَد إليهما.

ثم مَحَّضَ النتيجةَ بإثبات قُدرته على البعث، وبالردِّ على مُنكِريه، فقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ بالبعث والنشور ﴿ إِذَا يَشَآءُ ﴾ أي: وقتَ أن يشاء ذلك ﴿قَدِيرٌ (٢٩)﴾ لأنَّ مَن يقدر على خَلْق السماوات والأرض وما فيهما من الأحياء، لا يعجز عن إعادة الناس بعد الموت.

وضمير ﴿جَمْعِهِمْ﴾ يعود إلى هؤلاء المنكرين للبعث والنشور، الذين انتظمهم السياق، والله أعلم، وفي صورة التعبير لونٌ من التَّهديد لـهم والوعيد. وقوله: ﴿ إِذَا يَشَآءُ ﴾ يُؤذِنُ بأنَّ وقت ذلك الجَمْع مما استأثر الله بعلمه، فلا يعلم وقت الساعة والبعث إلا هو.

ولما كان السِّياقُ مُتضمِّناً لِـنِعَمِ الله تعالى على بني الإنسان، وقد يصيبه الشرُّ

والانتقام، أردفه ببيان أنَّ النِّقَمَ إنما تأتي من الإنسان نفسه، إيذاناً بأنَّ الله تعالى لا يفعل إلا الخير، ولكن الإنسان يُفسِدُه بعبثه به، فينقلب عليه شراً، فقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾(١) فهذه الآية تمهيدٌ وتتمةٌ للبحث السابق بفَحْواها، وتمهيدٌ للبحث اللاحق، على نهج القرآن، وبيانٌ لسُنَّةٍ من سُنن الله تعالى بمَبْناها.

وتقرير هذه السنة: أنَّ المصائب التي تقع في العالم الإنساني ـ سواء كانت تتعلق بالشخص أو بالأمة ـ لا تجد لها علَّة سوى الـمَيْل عن قانون الفطرة والانحراف عن سُنن الله المسنونة في هذا الكون. وقد تكون تلك المخالفة جزئية قليلةَ الأثر، فلا يترتَّب عليها شرٌّ يذكر، وذلك مما يحدث بكثرة، ويندفع أثره بلطف الله.

ومحصَّل الكلام: الخير كلُّه بموافقة سنن الله، والشرُّ بمخالفة سنن الله، وأحكام الشريعة تنطبق على سنن الله، فكلُّها خير.

ثم بيَّن سبحانه سلطانه القاهر على عباده، فقال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٣١﴾(٢)، ويجوز أن يكون هذا تهديداً ووعيداً للمشركين فقط الذين انتظمهم السياق.

---

(١) أي: وما أصابكم ـ أيُّها الناس ـ من مصيبةٍ مكروهة عامَّة، تشمل أمَّةً من الأمم أو قوماً من الأقوام، فبسبب ما كَسَبَت أيديكم من الذنوب والمعاصي؛ جزاءً، أو تربيةً، أو تذكيراً بالجزاء الأكبر، ويَمْحو من سِجِّل المُؤاخَذةِ كثيراً من الذنوب.

(٢) أي: وما أنتم ـ أيُّها الناس ـ بقادرين على الإفلاتِ في الأرض هرباً من عذاب ربكم، ولا تُعجزون الله حيثما كنتم، إذا قَضَت حِكمتُه بأن يُنزِلَ بكم عذابَه، عقوبةً لكم على كُفرِكم وجرائمِكم، وما يوجد لكم من دون الله وليٌّ يتولَّى حمايتكم من عذاب ربكم، ولا يستطيع نصيرٌ أن يَنصُـرَكم فيمنعَ نزول عذاب الله فيكم.

ثم تابع الكلام عن دلائل التوحيد والقدرة والامتنان، وأدمَجَ فيه الاستشهاد لِـمَا سبق عن الأرض من البيان، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: من آيات ربوبيَّته وقدرته وعظيم صُنعه: هذه السفن تَطْفُو على وَجْه الماء، وهي كالجبال الشامخة. يشير إلى سُنَّته تعالى في طبيعة الماء، كيف يحمل الأجرام الكبيرة الثقيلة إذا كانت على وَضْع خاص.

ثم خصَّ بالبيان السفن الشراعيَّـة؛ لأنها المعروفة في العالم القديم، فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي: على ظهر البحر، وهنا سارع بالتحسيس إلى ما في نظام العَوْم ونظام الريح من آياتٍ كونيَّة دالَّةٍ على اختصاص مُنشِئِها بأفعال الألوهية، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على التفكير في آيات الله ﴿شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ لِنِعَمِهِ وآلائه[1]. والصبرُ والشكرُ صفتا المؤمن، إذ هو المستعدُّ للنظر والتفكير في آيات الله.

ثم تابع البيان عن السفن، فقال: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أي: يُهلِكْهنَّ ويُتلِفْهنَّ بإرسال الريح العاصفة المُغْرِقة، وذلك ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من تقصيرهم في إتقان العمل، أو انتقاماً لِـمَا اقترفوا من الذنوب، ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ من المُخالفات التي لم يكن لها أثرٌ شديد.

ثم عطف على المعنى قولَه: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ لأنَّ المعنى: لينالوا جزاءهم وليعلمَ الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيد ولا مَهْرب عن عذابنا.

---

(١) أي: لا يصلُ إلى إدراك دقائق صُنع الله وتدابيره إلا كلُّ كثير الصبر في البحث العلمي، يعمل مُجْتَهداً بدأب لبلوغ معرفة النظام السَّبَبيِّ الذي نَتَجَت عنه ظواهر الطَّـفْو، وإجراء السُّفُن، ولا ينتفع من إدراكِ عظيم صفات الله ورحمته بعباده إلا كلُّ كثير الشكر لربِّه.

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

ولما كانت مجادلة هؤلاء المشركين في آيات الله إنما هي بدافع الحِرص على مراكزهم ورياستهم؛ خشيةَ أن تُفقَدَ بظهور هذا الدين الجديد، زَهَّدَ في ذلك ورغَّب فيما عند الله، فقال: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يتمتَّع به صاحبه قليلاً ثم يزول، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾؛ إذ هو لا يزول ولا يفنى، وهو ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

ثمَّ تابع وَصْفَ المؤمنين بالصفات التي استحقّوا بها ما عند الله، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]، والتأكيد بالضمير[2] لعـزَّة منال هذه الصفة، فهم لـحُسْن أخلاقهم لا يندفعون مع غضبهم، بل يعفونَ ويَصْفحون مع القدرة على الانتقام.

---

(١) أي: الذين يبتعدون عن كبائر ما نهى الله عنه، ممَّا تعظُمُ عقوبتُه، كالشِّرك والقَتْل والرِّبا والسرقة وشُرْب الخمر وشبه ذلك، ويجتنبون كلَّ ما عَظُمَ قُبحُه من الكبائر المُتعلِّقة بشهوات الفُروج، ومنها: الزِّنى وعمل قوم لوط، وإذا أساء إليهم مُسيءٌ واستثار غضبَهم مُؤْذٍ فأغضَبَهم، فإنهم يسترون إساءتَه وإيذاءَه، ويتجاوزون عن مؤاخذته.

(٢) في قوله: ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

والغضب من الرذائل الخلقية التي لها أسوأ الأثر في الفرد والمجتمع، فهو يُفقِدُ الرُّشْدَ والصواب، ويجعل صاحبَه وحشاً ضارياً لا يدري ما يفعل وما يقول، والانفعال الذي يثيره الغضب ضارٌّ بصحَّة الإنسان ومصلحته، والحِلمُ يُصْلِحُ الأمرين معاً.

ثم تابع الوصف فقال: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ حين دَعَاهم إليه بواسطة رسوله وكتابه، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ التي أمرهم بها، وخصَّها بالذكر لأنها أهمُّ ما في الكتاب؛ لأنها الصلة بين العبد وربه، والمقرِّبة إليه.

ثم مدحهم بهذه الخصلة فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[(١)]، وهي المفاوضة والمجادَلة في الكلام عن أمرٍ من الأمور ليظهرَ فيه الحق والصواب. أي: لا يُـقدِمون على الأمر حتى يدرسوه درساً وافياً، بالشورى بينهم. وذلك مَظْهرٌ من مظاهر الكمال، وقد شهد لهم بذلك الأجانب أيضاً، والفضل ما تشهد به الأغيار، فقد قال أحد المستشـرقين أرمينيوس فامباري: كان الإسلامُ ـ وما برح ـ الدينَ الفائقَ سائرَ أديانِ العالم شورى وديمقراطيةً، الدين الذي هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشِرْعة السَّواء، فإن كان العالم قد شَهِدَ حقاً منذ أول عهد العمران البشري إلى اليوم حكومةً دستوريةً، فهي لَعَمْري حكومة الخلفاء الراشدين. انتهى.

ولا يخفى أن المجالس النيابية والانتخاب الصحيح الحر، هو صورةٌ من صُورِ الشورى، سواء كان للرئيس أو للنواب.

---

(١) قَرَنَ سبحانه وتعالى نظام الشورى بالصلاة؛ للدلالة على أنَّ التشاور بين ولاة الأمر هو من أُسس الإسلام؛ لأن الاستبداد ليس من شأن المؤمنين، وقد أمر سبحانه بها النبي ﷺ فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] مع أنه ﷺ ممتاز بكمـاله العقلي والروحي واتصاله بالوحي الإلهي، فلا شكَّ أنها على غيره أوجبُ. أما طريق الشورى فقد فوَّضها القرآن إلى أهل الزمان، ويجوز أن تكون بواسطة المجالس النيابية الآن. (المؤلف).

ثم تابع الوصف فقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ في سبيل الخير. وأتى بجملة الصِّلة تَبْصرةً للنفوس؛ لأن ما يُنفَقُ إنما هو من الله وإلى الله، لتزداد سخاءً.

ثم تابع الوصف فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: يتكاتفون ضدّ العدو، يأبون الضَّيْم ويتناصرون عليه. وهذا وَصْفٌ لهم بالاتحاد والشجاعة، فالدين الإسلامي دينُ توحيدٍ واتِّحاد، ولا ينافي هذا وَصْفُهم سابقاً بالغفران، فإنَّ كلًّا منهما فضيلةٌ في موضعه، إذ الغفران إنما يكون مع القوة، وفيما يكون فيه العفو رفعةً وفضيلةً ومصلحةً اجتماعية، أما التناصر فيكون عند الضعف، وفيما لا يجوز فيه التسامح والتهاون. وإنما أتى بالضمير ﴿هُمْ﴾ في هذا الوصف أيضاً؛ لعزَّة مناله وعِظَم شأنه، كما في الغفران عند الغضب.

ثم نظّم سبحانه هذا التكاتف كي لا يكون فيه شيءٌ من الظلم والتجاوز عن قدر الحق، فقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ من دون زيادةٍ وتجاوز، إلا أنَّ العفو في موضع العفو أرضى عند الله، ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن المسيء مع قُدرته عليه إذا كان ذلك الظلم لا يَتعدَّى شخصَه، ولا يضرُّ العفو بالحالات الاجتماعية العامة، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بذلك العفو ولم يفسد، بأن لا يكون سبباً لتمادي المسيء في إساءته؛ ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

ثم بالغ في الترغيب فقال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾، وفي هذا التذييل والتعليل وَجْهٌ آخر، وهو عدم الترغيب في العفو عن المسيء الذي يستحقُّ الجزاء، ولا يصلح أمره إلا ذلك، لشدَّة ظلمه وانطباعه عليه. فلينظر العالم الغربي المدَّعي للتمدّن في هذا التثقيف والتأديب العالي، وهذا النظام العالمي السامي، فما أضلَّ المُعْرض عنه والمعارض له، وأبعَدَه عن النور! ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

ولما كان هذا الترغيب في العفو ربما يتسرَّب منه إلى بعض الأذهان أنّ المجازاة

نقيصة أو جريرة، دفع ذلك بقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ﴾ لنفسه ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: بعد أن ظُلم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ أي: لا عَتْبَ عليهم ولا عقاب، و﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالعقاب الأليم ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ بأن يبدؤوهم بالإضرار أو يعتدوا عليهم في الانتقام ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[1]؛ فأولئك عليهم السبيل و﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ بما كانوا يظلمون.

ثم عاد فرَغَّب الكُمَّل من الناس بالعفو في هذه الصورة أيضاً، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى، ﴿وَغَفَرَ﴾ لمن ظَلَمه مع القدرة عليه، إذا كان ذلك الظلم لا يتعدَّى شخصه، ولا يضرُّ العفو عنه بالحالات الاجتماعية العامة، فهو من أكمل الخصال، ومن مظهر الكمال، و﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: إنَّ كَظْمَ الغيظ من صفات الكمال، ومن أعظم أخلاق الرجال.

ويُحكى أن رجلاً سبَّ رجلاً في مجلس الحسن، وكان المسبوب يكظم ويعرق، فيمسح العرق، ثم قام وتلا هذه الآية، فقال الحسن: عقلها ـ والله ـ وفهمها، لـمَّا ضيَّعها الجاهلون[2].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن

(١) أي: ما السبيلُ الموصوف بالحقِّ والعَدْل المُوصِل إلى إقامة الجزاء العقابيِّ على مُستحقِّه، إلّا السبيلُ المُسلَّط بسلطان الحق والعَدْل على الذين يَبْدؤون بالظلم، ويعتدون بغاةً في الأرض بغير الحق، ويعملون فيها المعاصي.

(٢) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٢٣٠)، والرازي في «تفسيره» (٢٧: ٦٠٧).

يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

وبعد أن أتمَّ الكلام عن المؤمنين وصفاتهم العالية التي استحقُّوا بها ما عند الله تعالى من النعيم المقيم، وأدمج في ذلك إرشادَهم إلى الشُّورى في معاملاتـهم، وإلى التكاتف ضدَّ الاعتداء عليهم، عاد بالكلام عن المشركين الذين يُعرِضون عن هذا الدين، فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حسب سُنَّته العامة في الإنسان، إذا دسّى نفسه بإفساده لغريزته وتشبُّعه بالشِّرك والضلال، فله عذابٌ أليمٌ بَدَلَ ذلك النعيم المقيم. وقد أقام مقام هذا الوعيد قولَه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يُصلح شأنه أو يُنجيه من العذاب. والمراد من هذه الجملة: تَيْئيسُه من النجاة.

ثم ذكر نَدَمَهم وسوء حالهم، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ يتمنَّون العودة إلى الدنيا لتـلافي ما فرط منهم. وهذا التمنِّي لمجرَّد إظهار الندم، لعلمهم بامتناعه.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النـار الـمفهومة من فَـحْوى السياق، ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ذالِّين صاغرين مخذولين، ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ كالمحكوم عليه بالقصاص، ينظر إلى السيف عند إرادة التنفيذ، ﴿وَقَالَ﴾ حينئذ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ إظهـاراً لربحهم وفوزهم، وتبجُّحاً به، وتعريضاً بخسارة الكافرين: ﴿إِنَّ

ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ خسراناً عظيماً هم ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ بتعرُّضهم مع أهليهم للشقاء الدائم والعذاب الشديد.

أما قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾﴾ فيجوز أن يكون من تمام كلام المؤمنين، أو تصديقاً من الله تعالى لهم، تابعَه بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم ﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حسبما كانو يجدون مِثلَ ذلك التناصر في الدنيا.

ثم أنحى عليهم باللائمة، فقال: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ حسب سُنَّته العامة في غرائز الإنسان إذا أفسدها بتحريفه لطبيعته وانطباعه على الغَواية بسُوء التقليد، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ إلى الهُدى والرَّشاد، وذلك بمقتضى سُنَّة الله العامة في أخلاق البشر، وهي أنَّ من تَشَبَّع منهم بشيء لا يميل إلى ضدِّه[1].

وبعد هذا الوعيد والتأنيب، فتح لهم باب التوبة، واستدرجهم إليه بالإنذار، فقال: ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لا تتمكَّنون يومئذٍ من إنكار ما اقترفتُموه، كيف وهو مُحصى عليكم ومكتوب!

ثم لفت الخطاب ووجَّهه إلى الرسول، مُسلِّياً له عن إعراضهم وعدم استجابتهم، فقال: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ ﴾ أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه، ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ ﴾ أي: رقيباً ومحاسباً، ﴿ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ وقد قُمْتَ بواجبك حقَّ القيام، فلم يبق عليك شيء.

---

(١) أو المعنى ـ وهو الأَوْلى بسياق الآيات في عذاب الكافرين ـ: وما كان لهؤلاء الكافرين حين محاسبتهم والحكم عليهم بالخلود في عذاب النار من نُصَراء من دون الله يُنقِذونهم من عذاب الله الأبديِّ، ومَنْ يحكم اللهُ عليه بالضلال والعذاب الأبديِّ، فما له من طريق يُوصِلُه إلى الخلاص والنجاة من عذاب الله.

ثم بيَّن تعالى أن سبب إعراضهم عن الحق إنما هو غرورُهم بما أنعم الله به عليهم، وتحريفُهم لطبيعتهم، فأصبحوا لا يُدركون الحقَّ من الباطل، والخطأ من الصواب، وطوى الكلام على الوعيد للمشركين، فقال: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ وبطر واغترَّ وأفسد وكفر، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وإن تُصِبْ أحدَهم سيِّئةٌ بانحرافه عن سُنن الله في كونه استاء وأنكر، فهو لا يشكر نِعَمَ الله، ولا يصبر على ما قدَّمت يداه، فسجَّل عليه بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ وهذا وَصْفٌ للإنسان بصفة الصنف الغالب منه، وهو الجاهل المغرور، والمُعْرِض الكفور. والتعبير عن الإنسان بصيغة المفرد نظراً للفظه، وبصيغة الجمع نظراً لمعناه.

ثم أيَّد البحث بما يدل على قوَّته سبحانه ومنَّته، على نهج القرآن في ذلك، وعاد بالكلام إلى محوره السابق في دلائل العزَّة والقدرة، وقَرَنَ ذلك بما يُلمع إلى أنَّ أموره سبحانه إنما تجري بحسب الحِكَم وبسنن كونية، فقال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتصرَّف فيه كما يشاء، ولكن مشيئته تجري بحسب الحِكَم والمصالح العامة، وبسُنَن ثابتة مستقرة.

وأيَّد ذلك بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ فقط، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ فقط، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ أي: يَقرِنُ بين الصِّنفَيْن لمن يشاء، فيَـهَبُ له ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَ﴾ قد ﴿يَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ لا يلد أبداً، وكل ذلك يجري على سُنن كونية ونواميسَ طبيعية ثابتة، أجرَتْها قدرة الله العظيمة بمقتضى الحكمة البالغة في نظام الرَّحِم وأحواله[1]، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ يضع السنن بعلمه وقدرته.

---

(١) ارجع إلى التعليق على قوله تعالى في آخر سورة القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧]. (المؤلف).

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

ثم خَتَم السورة بما بدأها به، على نهج القرآن في ذلك، وقرَّر رسالته ﷺ، وردَّ عليهم إنكارهم لها واعتراضهم على اختصاصه بها دونهم، وذلك ضمن بيان طرق الرسالة فيمن يختارهم الله لها، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ ويُشعِرَه أو يُعلِمَه بشيء مما يرضى به، ﴿إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾.

والأول: بالرؤيا الصَّادقة أو الإلقاء في الرُّوع[١] والإلهام للأنبياء عليهم السلام، كقوله ﷺ لسُراقة: «لتلبسنَّ تاج كسرى وسواريه»[٢]، فلما جاء حُليّ كسرى إلى عمر أرسل إلى سُراقة وألبسه إيَّاهما، وقولِهِ ﷺ: «ما أنزل الله من الفتن؟»[٣] يرمز إلى فتنة عثمان رضي الله عنه وواقعة الجمل، وكان عمر رضي الله عنه يخشاها أن تكون في خلافته، ويتساءل عنها دائماً، ولكنها وقعت بعد مقتل عثمان. وكتبشير الصحابة العشرة بالجنة[٤]،

---

(١) الروع: بِضم الراءِ القلب والعقل. «الصحاح» (روع).

(٢) سبق تخريجه ص١٥٤.

(٣) رواه البخاري (١١٥)، عن أم سلمة رضي الله عنها بلفظ: «ماذا أنزل الليلة من الفتن».

(٤) إشارة إلى قوله ﷺ: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير بن العوّام في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة» وقال سعيد بن زيد: «ولو شئت لسمَّيتُ العاشر. قالوا: مَن هو؟ فسكت، فقالوا: مَن هو؟ فقال: هو سعيد بن زيد». رواه ابو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٤٨)، وابن ماجه (١٣٣).

وكتبشيره ﷺ بفَتْح ممالك كسرى حين لمعت حَجَرةٌ بضربة ضارب أثناء حفر الخندق[١]، وأمثال ذلك.

وهذا الإيحاء الوجداني لا يكون إلا في الأنبياء والصِّدِّيقين، كأمّ موسى ومريم بنت عمران أم عيسى. والله أعلم.

والثاني: يتيقَّنُه الكليم ولا يعرف كيفيَّته، مثل تكليم الله لموسى عليه السلام، حتى طمع أن يراه، فهو عِرفانُ إيقانٍ دون إدراك لحقيقة الشأن[٢].

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ إلى البشر ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ﴾ تعالى ﴿مَا يَشَآءُ﴾، وهذا في تكليف البشر بالكتب الـمُنزَّلة، وإرشادهم بواسطة الرسل الـمُرسَلة من الملائكة، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ لا يمكن لأحدٍ أن يعلم عنه على الصورة التي يعلم بها بعضُنا من بعض، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهو ﴿حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ يُرسل تعاليمه الحكيمة بوسائط حكيمة.

---

(١) إشارة إلى ما رواه رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «لما أمر النبي ﷺ بحفر الخندق، عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر، فقام رسول الله ﷺ، وأخذ المعول... »، وفيه: «فإني حين ضربت الضربة الأولى رفعت لي مدائن كسرى... » رواه النسائي (٣١٧٦).

(٢) تيقَّن موسى عليه السلام ذلك التكليم، دون أن يُدرك كيف كان. وكثير من الأشياء المتيقّنة لا يُدرَك كُنهُها وحقيقتُها. فالعلم نفسه والإدراك نشعر بتعلقهما بالأمور شعوراً يقيناً، ولا نعرف كيف ذلك. وكذلك الخوف والخجل نشعر بهما، حتى من غيرنا، ولا ندرك سوى آثارهما، فلا يعظم عليك تيقّن موسى لكلام الله دون إدراكه كيفية ذلك، ودون سماع حرف أو صوت؛ لأنَّ كلام الله ليس كذلك، ولا تحاول إدراك ذلك بخيال؛ لأن عمل الخيال إنما هو في المحسوسات دون المُدركات، ومع ذلك إنه فاشل في أكثر التقديرات، وأين أنت من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. (المؤلف).

فالآيةُ تُـؤذِنُ بأنَّ لله سبحانه سُننـاً خاصَّة في الاتصال بمن يختارهم من البشر لرسالته، ويُوحي إليهم بما يرتضيه من شريعته. وهي: اتِّخاذ الملائكة رُسُلاً بينه وبينهم، وهو الأكثر.

أو يُفهِمُ الله سبحانه مَنْ يُريد إفهامه بدون واسطة، على صورة مشابهة لإفهام الله تعالى للملائكة وفهمهم عنه تعالى، فيتيقَّن الكليمُ ذلك دون إدراك لكيفيَّته، فهو عِرفانٌ مع إيقان دون إدراك لحقيقة الشأن، ويجوز أن يكون من فصيلة الإيحاء، ولكن بصورة أكمل، والله أعلم.

أو أن يُلقيَ الله سبحانه في رُوع مَنْ يريد من البشر أن يُعلِمَه بشيء ويُوحيَ به إليه عن طريقة الإلهام، والله أعلم.

ثم ربط هذا البيان العام ببيان وَحْيه تعالى لمحمد ﷺ على هذه الطريقة المقرَّرة، وذلك للردِّ على إنكارِهم رسالتَه واستبعادِهم لِـمَا يدَّعيه من أمر الوحي وإنزال الكتاب عليه، وعقد ذلك على التنويه بشأن هذا الوحي وهذا القرآن، وختم به السورة كما بدأها به، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: على إحدى الطرق التي أوحينا بها إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وهو هذا القرآن، إذْ به حياةُ البشر الماديَّـة والروحيَّـة، الدنيويَّـة والأُخرويَّة.

ثم نوَّه بشأن هذه المنَّـة عليه وعلى البشر عموماً، فقال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم الذين حافظوا على سلامةِ فِطَرهم ونُور بصائرهم، فرأوه حقاً، وتَيقَّنُوه صدقاً، لأنَّ من أفسد طبيعتَه بالضلال ولم يبق في بصيرته شيءٌ من نور الفطرة، لا يُمكِنُه أن يُبصِرَ الحقَّ ولا يهتدي إليه. هكذا شاء سبحانه.

ثم نوّه بشأن هذا الوحي وهدايته، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ بذلك النور الموحى به إليك ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ يصل سالكه لسعادة الدارين، ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقاً ومُلكاً، وقد جعل في صراطه هذا السعادة لِـمَنْ سلكه، والشقاء لمن ضلَّ عنه، ينالُه ذلك في الحياة الدنيا وبعد النشور.

ثم رغَّب المُتمسِّك وتـوَعَّد الـمُتَنكِّب، فقال: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ فيُجازي المحسنَ على إحسانه، والمسيءَ على إساءته. اللهُمَّ اجعلنا ممَّن سَبَقَت لهم منك الحُسْنى يا أرحمَ الراحمين.

* * *

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

مكية، وهي تسع وثمانون آية

ومُلخَّص موضوعها:

تقبيحُ الشِّرك وإبطاله، والوعيد عليه.

وقد جاء في السورة السابقة اتِّفاقُ الرسل على التوحيد، ولكن بعض أتباعهم بعد مرور الأزمان أدخل عقيدةَ الشِّرك في شرائعهم، فجاء في هذه السورة تنـزيهُ الله تعالى عن ذلك، وتبرئةُ شرائع الله من هذه العقيدة، وجرى الكلام بطريقة الترغيب والترهيب.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣
وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن
كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

﴿حمٓ ۝١﴾ قد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها، ومنه هنا: قوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ يُقسِمُ به، ثم يُحدِّث عنه بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾[1] بلاغتَه وعلومَه وعُلوَّ شأنه وعِظَمَ توجيهاته،

---

(١) أثبت علماء اللغات أنَّ اللغة العربية أسمى جميع اللغات، إذ لا يُضاهيها لغة، حتى اللاتينية، في التعبير عن أدقِّ المعاني وقدرتها على الإفصاح عن أبعد المفاهيم وأسماها، ولذلك نزل بها القرآن العظيم، فلا يُفهَمُ المراد منه على الوجه الصحيح إلا باللغة العربية، كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقد اهتمَّ المسلمون بنشر هذه اللغة بين المسلمين اهتماماً كبيراً، وكثر علماء العربية من الأعاجم لنشرها في أممهم؛ لأنها وسيلةٌ لفهم القرآن، وحكم الوسائل حكم المقاصد، وكانت الحكومات الإسلامية على الإطلاق كالبويهيَّة والسلجوقيَّة والأتابكيَّة، حتى التتار والحكومة العثمانية في أولها حتى انتهى الأمر إلى عهد السلطان العاشر سليمان القانوني، فهو الذي أقدم على تبديل اللغة العربية في حكومته باللغة التركية، وتبعه سائر حكومات الأعاجم الإسلامية في تبديل =

فتيقَّنوا أنه مُنزَّل من عند الله، لا من وضع البشر. وفي الإقسام به على ذلك الجَعْل مبالغةٌ في التنويه بشأنه وشأن العربية.

وإنما خصَّ العرب بهذه الكرامة وإنزال هذا الكتاب المبين بلغتهم؛ لأنهم في مقدِّمة مَنْ يعلم أسرارَ الكلام ودقائقَه وتفوُّقه في أساليبه ومعانيه، فهم الذي يُمكِنُهم أن يُميِّزوا فَضْلَ هذا القرآن وإعجازه ودقائقه وأسراره وعلومه وآثاره، وما يُرشد إليه من مطالب الروح وكمال العقل وتزكية النفس، وتثقيف الوجدان والحسّ، وإصلاح الاجتماع العام الذي يعود بصلاح الحال وسعادة المآل، فيعرفون بذلك أنه من الله تعالى، لا من وضع البشر، ما لم يكن هناك مكابرةٌ وعناد. فيكوِّنون نواةَ الدعوة إلى هذا الدين، ومنبتَها الطيِّب، ومعدنَها الثمين. أما الغير فهم تَبَعٌ لهم، يَقْتفون آثارهم، ويسترشدون بفهومهم وآرائهم.

وفي هذا الجَعْل تمنُّن على العرب في إعطائهم هذه النعمة، وانتدابهم لهذه المهمَّة، وتشريفهم بالقيام لنشر الدعوة في الناس.

وفيه تشريعٌ بأن تكون هذه اللغة العربية لغة عامَّة، يتفاهم بها البشر هذا الهدى

= اللغة العربية بلغاتهم، وابتعدت بذلك عن القرآن، فلم تفهمه أُممُهم إلا بشكل بسيط وهزيل، لا يُدركون مراميه وأهدافه وإرشاده وآدابه، فضلاً عن دقائقه وإشاراته.

وقد أنزل سبحانه هذا القرآن ليكون ديناً عالمياً ناسخاً لجميع الأديان، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١]، وقد جعل لغته عالمية أيضاً؛ لأنه لا يفهم إلا بها، وليكون العالم وحدةً واحدةً في الدين واللغة، يتعلمها مع لغته، وما أعظم هذا الأمر وفائدته للبشر لو كان. (المؤلف).

الفيَّاض، ويدخلون في السِّلم كافَّة، فلا تعتدي أُمة على أُمة، ولا فردٌ على فردٍ، ويعيشون بوفاق ووئام، وهناء مستديم عام، طبق الفطرة البشرية والحاجات الإنسانية. هذا ما أراه في مدلول الآية. والله أعلم.

ولذلك بالغ في الثناء على هذا القرآن بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[1]، و﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾: مصدره، والمراد بالكتاب: الجنس، فيعني بـ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ـ والله أعلم ـ عِلْمَه تعالى، الذي هو مصدر الكتب السماويَّة، والمراد بهذا التعبير: أنَّ هذا الكتاب في بيان علم الله وهدايته، يُعدُّ في الدرجة العُليا من درجات الكتب السماويَّة المنزلة؛ لأنه مشتملٌ على حِكَم عظيمة وتعاليم عالية لم يشتمل عليها غيرُه من تلك الكتب، ففيه ما يكفي البشر إلى يوم القيامة من تشريع دينيٍّ ومدنيٍّ وسياسيٍّ، وحِكَم ومواعظ وآدابٍ عالية، وأنباء غيبيَّة عن الماضي والمستقبل، ويُبيِّن كل ذلك بتراكيبَ بديعة، وأساليبَ عجيبة، وبلاغةٍ حاكمة على العقول والألباب، وفصاحةٍ مُسْتَعْذَبة في الأذواق والأسماع، ولا كذلك بقية الكتب السماويَّة. والله أعلم.

ثم ذكر الباعث على إنزاله، مُلْمِعاً إلى أنه تذكيرٌ للناس بما يجب عليه لِنَيْل سعادتهم في الدارين، وتوجيهٌ لِـمَا به تكون تلك السعادة، وسَبَكَ الكلام على التقريع للمُسرِفين في الضلال، فقال: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ ﴾ أي: أنُهمِلُ تذكيركم بما يجب عليكم وأنتم قومٌ مسرفون في الضلال؟ كلّا. وفيه إشعارٌ بأنَّ الله سبحانه يُجدِّد الرسالة للبشر، ويُكرِّر التذكير لهم كلّما اضمَحلَّت الشريعة

(١) المراد: إنّ القرآن مُثبَتٌ عند الله عزّ وجلّ في اللوح المحفوظ، في مكانٍ عليٍّ ذي منزلةٍ رفيعة؛ لأنَّ دلالاتِه تتعلّق بكُبْريات الحقائق المبيِّنات لصفات الله، ومطلوباته من عباده، وهو أيضاً حكيمٌ مشتملٌ على حِكمةٍ بالغة في معانيه ومبانيه، وأغراضه ومراميه، مُحكَم لا يتطرَّق إليه الفساد والبطلان، ولا الاختلاف، ولا التناقض.

السابقة، وعَظُمَ الإسراف في الناس، لعَبَثِهم بها وإخلالهم وإتلافهم لها، فيُعيدُ إليهم هدايتَهم بالشريعة الجديدة؛ كي لا يكون للناس على الله حُجَّة بعد ذلك. والله أعلم.

فبيَّن تعالى أنَّ مثل هذا الإنزال على البشر لـهدايتهم وتكميل فِطَرِهم هو من سُنَّة الله تعالى، فقال: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾.

ثم بيَّن إعراض الضالِّين منهم عن أولئك المرسلين، فقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾.

ثم بيَّن تعالى ما نال تلك الأقوام من جرَّاء معارضتهم واستهزائهم، وبنى الكلام على تهديد مشركي قريش، وقال: ﴿فَأَهْلَكْنَآ﴾ أقواماً كانوا ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: أهلكنا أقواماً هم أشدُّ بطشاً من هؤلاء المُسرِفين من قريش، فما كانت قوتهم مانعةً لهم من بطش الله بهم لـمّا عارضوا الرسل وعاندوهم. فوصف أولئك بالشِّدَّة للمبالغة في وعيد هؤلاء وتهديدهم.

ثم أحال تفصيل هذا البيان على ما سَبَق من ذلك في هذا القرآن، فقال: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ أي: سَلَفَ في القرآن ذِكرُ الأمم السابقة وما حلَّ بهم من جرَّاء معارضتهم لأنبيائهم ومعاندتهم لهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾.

ثم ساق دليلَ القدرة والتوحيد؛ تحقيقاً للدعوة، وتقريراً للقدرة على إنجاز الوعيد، وصدَّره بما لا ينكرونه، أو لا يمكن إنكاره، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ أي: لا ينكرون أنَّ الله سبحانه هو الذي خَلَقَهُنَّ. والتَّعرُّض لهذين الوصفين إنما هو من كلام الله تعالى لا من كلامهم، على نهج القرآن في الحكاية عن الغير، حيث يُراعي في التعبير دقَّةَ المعنى أو كمالَه، وإن كان ذلك غيرَ ملحوظ لهم ولا في متناول عقولهم. وإنما تعرَّض لهما للإشارة إلى ما في خَلْقِهِنَّ من آثار هذا العلم الجليل، وللإيماء بالعزَّة إلى المبالغة في تهديدهم ووعيدهم على كفرهم وإعراضهم عن الحقِّ المبين، وهو اختصاصُه بالألوهيَّة، وفيه دليلٌ مُحرِجٌ لهم لو كانو يعقلون.

ثم بالغ في ذلك، وتابع التنبيه إلى نِعَم الله تعالى وعظائمه التي لم يهتدوا باختصاصها به إلى اختصاصه بالألوهيَّة، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ تستقرُّون عليها بكل هدوء وراحة، رغماً عن حركتها اليومية والسنوية السريعة، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تَسْلكونها، حيث جعلها قابلةً لانطباع الأثر عليها، فلم تكن من مادةٍ غير قابلة الانطباع، كالرمال والصخور والسوائل، ولا على وَضْع غير قابل للسلوك، كأنْ جعلها كلَّها كالجبال الوعرة التي لا يمكن سلوكها بسهولة، وذلك من فَضْل الله ورحمته وإتقان صُنعه، لترتاحوا فيها وتستفيدوا من خيراتها و﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ بسُبُلها إلى المواضع البعيدة عنكم، وتهتدون بالتفكير في ذلك إلى اختصاصه سبحانه بالألوهية والتمجيد.

ثم تابع التوجيه والتنبيه إلى النظر والتفكير، فقال: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ إذ لو لم يكن هذا النظامُ المُحْكَمُ الضبطِ في إنزال المطر بقَدَر؛ لكان غرقاً هائلاً،

وبلاءً فادحاً. فانظروا في حِكَم الله وعظيم قدرته ودقَّة أنظمته، هل منْ إلهٍ غيرُه يعمل مِثلَ ذلك، فيستحقُّ أن يُعبَد؟!

ثم جاء بحَلْقة وَصْل تكون تكميلاً لسابقها وتمهيداً للاحقها، وقال: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: أحيينا به أراضي فاخضَرَّت بعد يبسها، وأنبتت بعد قحولها، و﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ من قبوركم، وتُبعَثون بعد موتكم، وتُنشَرون بعد خفائكم. فسَوَّى بين الأمرين في الحياة بعد الموت، والظهور بعد الخفاء، على نهج القرآن في الاستطراد إلى ذكر البعث بطريقة قياس النظير، كلّما ذكر إحياء الأرض بالنبات بعد يبسها، يشير بذلك إلى أنَّ طبيعة زمن الربيع في إحياء النبات بعد اليبس، كطبيعة زمن البعث في إحياء الأجسام من عَجْب الذَّنَب[١]، كما جاء في الحديث[٢]. والله أعلم.

ثم تابع السياق إلى أعمـال عظيمة أُخرى، فقال: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ من الحيوان والنبات؛ ليتهادى بقاء النوع بالتلقيح، وذلَّلها لكم بالانتفاع منها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ وقد قَرَنَ بين الفُلك والأنعام لِتتْميم التحسيس بالنعمة، وللإشارة إلى التسوية بينهما براً وبحراً في هذه المهمة.

ثم أرشدهم إلى ما يجبُ عليهم من الذكر والشكر، وتَرْك الشِّرك والكفر، فقال: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، فإفراد الضمير وتذكيره نظراً للفظ ﴿مَا﴾، فإنه مفرد مذكر وإن كان معناه جمعاً، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن. أي: ظهور ما تركبون

---

(١) الطبيعة والزمان ليس لهما أيُّ تأثير، وإنما التأثير كلُّه لله سبحانه وتعالى، كما تقدَّم التنبيه إليه مراراً. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدم أول الكتاب (١ : ٤٣٩).

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»، رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

من ذلك، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ لا أن تشركوا بالله وتكفروا به وتُقابلوا النعمةَ بالكفران. وإقرانُ الشيء: القدرةُ عليه وضبطُه وإذلاله واستخدامه. يُذكِّر سبحانه الإنسان بالنعمة، حيث ذلَّل له كثيراً مما خلق؛ ليستفيد منه في أغراضه ومآربه.

وقوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ فيه تذكيرٌ بالمآل وتحذيرٌ منه، بعبارة متناسقة مع السياق، ومعنى متناسب مع البحث والموضوع. وفيه دقَّة إشارة إلى أنَّ الركوب إنما هو للتنقُّل، والنقلة العظمى هي الانقلاب إلى الله، فاستَعِدُّوا لها.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وبعد أن نَبَّههم إلى ما في هذا الكون من أعماله ونِعَمِه العظيمة، الدالة على اختصاصه بالألوهيَّة، أنَّبهم على شركهم، فقال: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ أي: لم يعتبروا بكلِّ ما ذكر من أدلة التوحيد الجليَّة الظاهرة، بل أشركوا وجعلوا له من عباده جزءاً.

وقد اختلفوا في الآية، فذكروا وجوهاً ثلاثة:

الأول: أن المراد منها إثبات الشركاء لله تعالى في عباده؛ لأن القول بالشركة يستلزم أنْ ليس كلُّ عباده له، بل بعضُها له وبعضُها لغيره، ولو بعضاً شائعاً، أو المعنى: جعلوا له شريكاً هو جزء من عباده.

والثاني: أنَّ المراد من الجزء: الولد مطلقاً، لأنَّ وَلَدَ الرجل جزءٌ منه. وقد قال ﷺ: «فاطمةُ بَضْعةٌ منِّي»(١). وإنما عبَّر بالجزء عن الولد؛ مُبالغةً في استحالته في حقِّ الواحد من جميع جهاته. فالمعنى: أنَّ ادِّعاء كونه ولداً له ادِّعاءٌ بأنه جزء منه، مع أنه عبدٌ من عباده. أو أنَّ الكلام يرمي إلى عقيدة التثليث، وأن الإله مُركَّب من الأب والابن وروح القدس. خابوا وخَسِروا.

والثالث: أنَّ المراد من الجزء: الولد الأنثى في لغة العرب. واستشهد أصحابُ هذا القول بقول الشاعر العربي:

إنْ أجزأتْ حُرَّةٌ يوماً فلا عَجَـبٌ ... قد تُجزِئُ الحُـرَّةُ المِذكارَ أحياناً(٢)

فتكون الآية مقدِّمةً إجماليةً وتمهيداً لِـمَا يأتي بعدها من مناقشة القائلين من المشركين بأن الملائكة بنات الله، وتبكيتهم والاستخفاف بعقولهم، بعد أن أنَّبهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ١٥﴾ أي: واضحُ الكفر ظاهرُه. وهذا وصفٌ للإنسان باعتبار الصنف المُخِلِّ بطبيعته منه، وصفاً للجنس بطبيعة بعضه، وهو من خصائص اللغة.

ثم ابتدأ بالمناقشة، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ١٦﴾ وفي هذه العبارة من التَّندُّر عليهم والاستهزاء بهم ما يعجز القلم عن تفصيله، وهذا على الوجه الثالث. أما على الوجه الثاني فتكون هذه الآية انتقالاً من بيان بطلان جَعْلهم لله ولداً، إلى بيان جَعْلهم ذلك الوَلَدَ من أدون الصنفَيْن عندهم الذي لا يرتضونه لأنفسهم، ويعدُّون الملائكة منه. فيكون مبالغةً في تسخيفهم والرد عليهم، كما قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٧١٤)، ومسلم (٢٤٤٩)، عن المِسوَر بن مخرمة رضي الله عنه.

(٢) أورده ابن قتيبة في غريب القرآن ص٣٩٦، والزجاج في معاني القرآن وإعرابه (٤: ٤٠٧).

﴿أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي: إذا بُشِّر أحدهم بأنه وُلِدَ له مولودٌ أنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ لما يعتريه من الخَجَل والكآبة.

والآية استهجانٌ لهذا الحال منهم، علَّق عليه استهجانَ نسبةِ ذلك الممقوت عندهم إلى الله، إلزاماً لهم بما لا ينكرونه، وتسخيفاً لعقولهم التي لا تُدرك التضاربَ والتضادّ، والهذر والسخافة، والنقص والفساد.

ثم بيَّن تعالى وَجْهَ هَذْرهم هذا بحكاية رأيهم ونظريتهم ومقالهم في ذلك، فقال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: قائلين: أمَّن يُربَّى في الزينة ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ أي: غيرُ قدير في الكلام والمجادلة، يعنون: صنف النساء. والخبر محذوف على نهج القرآن، أي: كمَنْ ينشأ ويُربَّى على القوّة والبدن وشدَّة المعارضة في الكلام، وهو صنف الرجال. لأنهم يُربُّون الرجال على قوة المكالمة وشدَّة المعارضة والجدال، كما يربُّونهم على الشجاعة. هذا هو وجه نظرهم القاصر الذي لا يُدرك أنَّ هذا المفضول هو الذي يأتي بهذا الفاضل، ولا يتمُّ الجنس وبقاؤه إلا بالصنفين، ولكلٍّ منهما مُميِّزات ومُرجِّحات فيما يخصُّه، فالبيانُ تسخيفٌ لعقولهم من وجهين: الشركِ والحماقةِ[1].

ومن وجه البلاغة في الآية ودقائقها: أن قوله: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ إيماءٌ إلى وجه الرد بأن المخلوق لا يكون ولداً للخالق؛ لأنَّ الولادة غير الخلق. والالتفات من الغيبة في الكلام عنهم إلى الخطاب في قوله: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾، إنما هو لتشديد التوبيخ

(١) فالآيةُ من تما م مقولة الجاحدين الناسبين لله البنات، وهي معطوفةٌ على محذوفٍ تقديرُه: ويقول في نفسه عن المولود من الإناث: أأبشَّـرُ بمَنْ لا يكسب لي رزقاً، ولا يُدافِعُ عني في قتال، ولا أفتخرُ به بين الناس، ومَنْ يُنشَّأُ في الزينة، وهو في المُخاصَمة غيرُ مُبينٍ بحُجَّة دامغة يقبلُها أهل الفكر والرشد والبيان؟!

واللَّطْم على الوجوه، خطاباً بأنهم ليس لهم شيء من العقل ولا من الحياء، حيث يتقوَّلون على الله بهذه التقوُّلات السخيفة الناشئة عن غَبَاوتهم الشديدة.

وتفيدُ الآية أنَّ العرب تُربِّي الناشئ من البنين على قوَّة الكلام، كما تُربِّيه على قوَّة البدن والبسالة والإقدام، وإن كانت لا تَحرِمُ البنات من بعض التدريب على جيِّد الكلام، ولذلك نَـبَغ فيهنَّ شاعرات مُجيدات، ومُتكلِّمات مثقَّفات بليغات، كما نجد ذلك في شعر الجاهلية ونثرها.

ثم أنَّبهم على هذه السَّخافة ـ وهي قولهم: الملائكة بنات الله ـ من وجه آخر، وهو تسميتهم بالبنات، أنَّبهم على ذلك بطريقة الهُزْء والسخرية، فقال: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾ أي: عَمَدوا إلى أكمل عباد الرحمن، فجعلوهم من هذا الصنف الذي يستنقصونه إلى هذا الحد.

ثم هزأ بهم وتندَّر عليهم مُبكِّـتاً، فقال: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾؟ أي: أحَضَرُوا عندما خلقهم الله وعرفوا أنهم إناث؟ يتـهكَّم بهم، ثم يُـهدِّدهم بقوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ ﴾ هذه في سِجِلِّ أعمالهم ﴿وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ عنها يوم القيامة، وهي قولهم: إن الملائكة بنات الله. وعبَّر بالشهادة عن القول للمُشاكَلة والمناسبة مع قوله: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾، وللمبالغة في الوعيد والتبكيت والتجهيل.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾
أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ
أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ
إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا
وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم ذكر نوعاً آخر من كفرهم وضلالهم في استدلالهم على صحَّة عبادتهم لآلهتهم، وردَّه عليهم مع التجهيل والتسخيف، فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ وهذا صريحُ قولِ الجبْريَّة الذي ضلَّ به كثير من الناس، وهو: أنَّ الإنسان مَجْبورٌ في أعماله، نازلٌ عند إرادة الله تعالى ومشيئته. جهلاً منهم بمعنى الإرادة والمشيئة(١)، وعلى مثل هذه

---

(١) إنَّ إرادة الله سبحانه تنقسم ـ والله أعلم ـ إلى قسمين: إرادة تكوينيَّة، وإرادة تكليفيَّة طلبية، والأولى: لا تتخلّف أبداً، فلا يكون إلا ما أراده الله سبحانه. والثانية: إرادة تكليفيَّة، وهي لا تكون إلا في الإنس والجان. وعلى الإرادتين، فإنَّ الله سبحانه أراد أن يكون الإنسان ذا علم واسعٍ يتصرَّف به في مواهب الأرض وخزائنها وخفاياها، لحكمة من حكم الله اقتضت ذلك، وهذا لا يتمُّ له إلا أن يكون مختاراً في تصرُّفاته، فخلقه كذلك، وهداه بطبعه وبشرائعه إلى طريق الصواب، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ - ٣٩].

فلما كان الإنسان مختاراً في تصرُّفاته، ورائدُه إرادته فيما هو في مقدوره، فإن الله سبحانه ـ لما كلَّفه بهذا الهدى وأراده منه ـ عَلِمَ أنَّ أكثره لا يمتثل، وقليل منه من يمتثل، وهذا القليل كالشعرة في الثور الأسود، كما جاء في الحديث، ومعنى هذا: أنَّ أهل الجنة من الإنسان واحد من كل ألف، وهو الذي يعمل بما أراده الله في شريعته التي كلَّف بها كلَّ البشر؛ لأنَّ هذه الشريعة وحدها وسيلة السعادة الحقيقية في الدارين، وهي وحدها الوسيلة إلى دخول الجنة.

فتبيَّن من هذا البيان: أنَّ الإرادة التكليفية غير الإرادة التكوينية، والثانية هي التي لا تتخلَّف ولا يكون سواها، بخلاف الأولى؛ لأنها مجرَّد تكليف وليست بتكوين، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]. هذا ما أراه. والله أعلم. (المؤلف). =

الشبهة يجري بعض الجهّال اليوم من عُصاة المسلمين، يعتذرون بها عن ارتكابهم للآثام، وتضييعهم للأحكام.

فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يستندون إليه. ولا يخلو هذا الردُّ من التهكُّم بهم فوق تجهيلهم وتفنيدهم.

ثم مكَّن المعنى بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠﴾ أي: يتمحَّلون تَمَحُّلاً[(١)] باطلاً بهذه العقيدة.

وتوضيح الكلام في هذا الرد: أنَّ الله سبحانه لم يشأ أن يخلق البشر إلا أن يكون مُسخَّراً لإرادة نفسه، حَسْبَما يُنظِّمها له عقلُه، أو تدفعه لها عاطفتُه، وهو قادر أن يحفظ موازنته في إرادة الخير والصواب، إذا لم يُخْلِد إلى الشر والفساد، ويتشبَّع بالضلال والعناد، فإنْ جَنَح لذلك كان وبالاً على نفسه. فهكذا شاء الله أن يخلق الإنسان، لا كما يزعمون أنه مجبور على الأمور جَبْراً. والله أعلم[(٢)].

= والحديث الذي أشار إليه: رواه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١) عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع النبي ﷺ في قُبَّة، فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة...»، وفيه: «وما أنتم في أهل الشِّرْك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر».

(١) التمحُّل: الاحتيال، والمماحلة: المماكرة والمكايدة. «الصحاح» (محل).

(٢) إنما سيقت آية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ [البقرة: ٣٠]؛ لبيان الحكمة من جَعْل الإنسان مختاراً في تصرُّفاته لا مقْسوراً كالملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]. وحاصلها: أنه جعله كذلك ليكون ذا علم وإرادة وإيجاد واسعة المدى يتدرَّج في هذه الحياة إلى نهاية الدنيا، وهذا لا يمكن أن يكون عليه الإنسان إلا إذا كان مختاراً في تصرُّفاته، لا مَقْسوراً فيها كالملائكة، وحالته الواقعية الحاضرة تدلُّ على هذا، إذا قارنّا ما بين حاله اليوم في هذه الأمور الثلاثة، وحاله في أول أمره البدائي زمن الدور الحجري من الفرق العظيم والعلم الجليل الذي حصل عليه بالتدريج والاختيار. وبهذا الاختيار في التصرُّف كان =

= الذي يفسد طبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة يصير مُفسداً في الأرض كما قالت الملائكة. والذي يحافظ على طبيعته بحُسن تربيته يكون إنساناً بالمعنى الذي أراده الله منه علماً وإرادةً وإيجاداً وخُلقاً كريماً كخُلُق الملائكة. ويؤيِّد هذا قصَّة يوسف عليه السلام التي قال عنها سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١].

وتؤيِّد هذه الآيةَ في جَعْله مختاراً آياتٌ كثيرةٌ، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، فهذه العبارة بهذا التفصيل تدلُّ على أنه مفوَّض في التصرُّف في أمره ومختار فيه، يدلُّ على هذا دلالة صريحة واضحة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ – ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]، وكثير من الآيات.

ولموضع هذا الاختيار في الإنسان الذي خلقه الله عليه ليكون واسع العلم والإرادة والإيجاد، قرن مع هدايته الطبيعية هدايةً تعليمية من الله سبحانه، أرسلها إليه مع رسله المتواصلة، والتي انتهت بنزول القرآن في العلوم العالية.

فمخلوقات الله سبحانه كلُّها من حيوان ونبات مهديةٌ هدايةً واحدة طبيعية إلا الإنسان؛ لمكان عقله وجَعْلِه خليفةً في الأرض ينتفع منها وتنتفع به، قرن مع هدايته الطبيعية هدايةً تشريعيَّة؛ كي لا يبقى له حُجَّة على الله بعد الرسل. وهذه الهداية التشريعية منطبقة على الهداية الطبيعية، كي تُحدِّد اختياره وتصرُّفه، وتَضْبط عقله وتُسلِّطه على شهوته وهواه، فيكونان معتدلَين، وذلك مُيسَّر بالتربية الصحيحة كي يكون إنساناً بالمعنى الصحيح، ولا يفسد في الأرض، إلا أن هذا الإنسان غلبت عليه الشهوةُ واستهواه الهوى فانحطَّ إلى أسفل سافلين، وقد بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤ – ٦] الآيات.

فالإنسان مختار في تصرُّفاته ومسؤول عنها، يجزيه الله سبحانه بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وليس للمجرم حُجَّة على الله إذا عذَّبه أو أشقاه؛ لأنه هو الذي فعل بنفسه ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]. وهذا هو معنى قوله تعالى حكايةً عن الملائكة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. (المؤلف). =

وبعد أن حكى لهم هذا الرأي المزيَّف، وأبطَلَه بنفي أن يكون لهم به عِلمٌ من طريق العقل، أضرَبَ عنه إلى إبطال أن يكون لـهم سَنَـد من جهة النقل، فقال: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أي: من قَبْل هذا القرآن، ينطق بصحَّة ما يدَّعونه ﴿ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾؟ والجملة معطوفة إما على محصَّل ما قبلها؛ لأنه بمعنى: أَبَنَوْا قولَهم هذا على علم صحيح أم آتيناهم كتاباً؟ وكِلا الأمرَيْن باطل. وإما على محذوف، والتقدير: أهذا الذي ذكروه شيءٌ تخرَّصوه وتكهَّنوه، أم آتيناهم كتاباً من قَبْل هذا القرآن يَنطِقُ بذلك، فهم به مُستَمسِكون؟ فإذا انتفى الثاني الـمستهزأ به عليهم ثبت الأول، وهو الخرص. وعلى كلٍّ، فهو تَبْكيتٌ لهم وتجهيلٌ على أبلغ الوجوه.

ويجوز أن يكون معنى الآية: وقالوا... إلخ، احتجاجاً منهم بأنّ ما هم عليه من العقيـدة والدين هو الحق؛ لأنه لو لم يكن كذلك لَـمَا مكَّـنهم الله منه؛ لأنَّ كـلَّ ما لا يُريدُه الله يمتنع وقوعه، وكلَّ ما هو واقع فهو بإرادته، وكلَّ ما هو بإرادته فهو حق. ويكون وجه الرد: أنَّ العقائـد والأحكام لا يجوز أن تكون إلا بعلمٍ صحيح عن الله سبحانه وتعالى بواسطة الوحي والكتب المنزلة، فهل عندكم من ذلك شيء عن عقيدتكم هذه ودينكم هذا؟ يُلزِمُهم ويُبكِّتهم ويُؤنِّبهم على قوله وتديُّنهم به.

وبعد هذا الردِّ ذكر حقيقةَ أمرهم في اعتقادهم هذا ومصدره فيهم، وقال: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ والأمة: الطريقة التي تُؤَمّ. وتقرير الكلام: أنْ لا حُجَّة لهم عقليَّة ولا نقليَّة من طرق العلم الصحيح فيما قالوا وما اعتقدوا، وإنَّما جَنَحوا في ذلك إلى تقليد آبائهم الجَهَلة، واتِّباع أثرهم فيه.

= قلت: تعبيره بـ«الإيجاد» فيما يكون من الإنسان غير صحيح، فالإنسان له قدرة الاكتساب لا قدرة الإيجاد، إلا أن يريد بالإيجاد: الصناعة وتحويل الأشياء من شكل إلى آخر، وتصييرها من حال إلى حال. وعلى كلٍّ، فاللفظ موهم ينبغي الابتعاد عنه.

ثم بيَّن تعالى أنَّ التقليد الأعمى للآباء والأجداد الجَهَلة هو أمرٌ فاشٍ في الأمم الجاهلة، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ بهم. وإنما يُبادِرُ المُترَفون بالمعارضة والمعاندة، محافظةً على سُلطانهم المزوَّر أن يزول بظهور الدين الجديد وسلطانه الحق. وهذا شأن المُترَفين في كلِّ عصر وزمان تجاه المُصلِحين.

وإنمـا قال في الأولى: ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، وفي الثانية: ﴿مُّقْتَدُونَ﴾؛ لأن الأولى في معرض الاحتجاج على صحَّة ما هم عليه، وأنه هدىً من الله، والثانية في معرض البيان من الله تعالى.

ثم حكى ما يكون بين المُنذِرين والمُنذَرين من الجدال عند تعلُّلهم بتقليد آبائهم بقوله على قراءة: ﴿قَٰلَ﴾ أي: كلُّ مُنذِر من أولئك المُنذِرين لأممهم: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾؟. أي: أتُصِرُّون على البقاء فيما وجدتم عليه آباءكم، ولو جئتكُم بدين هو أهدى من دينهم؟ وعلى قراءةِ: (قُلْ) يكون الكلام انتقالاً من إجرائه على الأنبياء إلى إجرائه على الرسول، ومثل ذلك من نهج القرآن، على حدّ قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٦]، على أحد القولين.

وصيغةُ التفضيل (أهدى) ليست على بابها، ولكن للمُجاراة معهم.

ولـمَّا لم يكن لهم حُجَّة تجاه هذا الإلزام، عَمَدوا إلى السَّفاهة، شأن أمثالهم في مثل هذا الموقف، و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾. وهذا الكلام في منتهى العِناد في الجمود على التقليد، والبُعْد عن النظر والتفكير.

ثم ذكر ما كان من نتيجة ذلك، حيث أنزل بهم العذاب، وقال: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾، وفيه تسليةٌ له ﷺ ووعدٌ بنصره على كفار قومه بعد حين.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

ولما ذكر سبحانه جمودَ كفار قريش على تقليد آبائهم الضَّالِّين، لـمَّحَ إلى أن الأَوْلى بهم ـ أو كان عليهم ـ أن يُقلِّدوا أباهم إبراهيم، وألمع إلى أنَّ دعواهم أنهم مُتَّبعون لملة إبراهيم عليه السلام غير صحيحة؛ لأنهم على الشِّرك وهو على التوحيد، وذكر ما كان من أمره، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾، و﴿بَرَآءٌ﴾: مصدرٌ نُعِتَ به مبالغةً.

ثم بيَّن بطريقة الاستثناء المنقطع ما يَعبُده، فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ أي: خلقني، وقد أشار بهذه الصلة إلى وجه العلَّة في حَصْره بالعبادة، أي: لأنه مختصٌّ بأفعال الألوهية، ولذلك أردَفَه بقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ أي: سيُديم لي الهداية إلى طريقه المستقيم بوحيه إليَّ، وبتوفيقي الصحيح، والاستدلال السديد.

ثم أضاف إلى ذلك أن إبراهيم عليه السلام قد نشر الدعوة إلى الله، حتى انتشرت في أعقابه من بعده، فكان على هؤلاء المدَّعين الانتسابُ إليه أن يَقتَفوا أثره، فقال: ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ أي: الدعوة إلى الله أو كلمةَ التوحيد ﴿ كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ أي: في ذُرِّيَّته من بعده، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

ويجوز أيضاً في فاعل (جَعَل) أن يعود إلى الله، ويكون المعنى: أنَّ الله سبحانه جَعَل من ذريَّة إبراهيم أنبياء كذلك، يهدون الناس إلى الله وإلى كلمة التوحيد؛ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إليه ﴿يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ بترك الشرك وإثبات التوحيد.

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم أضرَبَ إلى بيان أنهم لم ينتفعوا بدعوة إبراهيم المنتشرة في أعقابه، وظلُّوا جامدين على الكفر حتى جاءهم محمد ﷺ بما جاءهم به، فأعرضوا وأصرُّوا على كفرهم بأنعُم الله، فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ بالنعيم وطِيب العيش، ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾ وهو محمد ﷺ.

ومحصَّل الكلام: أنهم لم يجهلوا أنهم لم يكونوا على ملّة إبراهيم، وإنما هو الحرص على مراكزهم وثرواتهم أن يفقدوها، كما حكى عنهم بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ على يديه أعرضوا وكفروا به، و﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ﴾ يُؤثِّر على الناس بقوة إقناعه ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾، فضمُّوا إلى كفرهم السابق معاندةَ الحق بعد ظهوره، واستهانوا بأمر الرسول ﷺ، زاعمين أنَّ هذا القرآن، لو كان مُنزَّلاً من عند الله لنزل على عظيم من عظماء مكة والطائف.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ بالجاه والمال، كالوليد ابن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف، فإنَّ الرسالة مَنصِبٌ عظيم لا يليق إلا بعظيم. ولم يعلموا أنَّ الرسالة رتبة روحيّةٌ[1] تستدعي عِظَم النفس بالتحلّي

(١) الرسالةُ محضُ تفضُّل من الله تعالى على عبد من عباده واصطفاء له واختيار، فإذا اختار الله تعالى أحد عباده لهذه المهمة رقّاه في مراتب الروح إلى أسمى مراتبها، فالرتبة الروحية للنبي تابعة لاختياره نبياً من الله تبارك وتعالى، لا مُسبِّبة لنيله هذه المنزلة الكريمة.

بالفضائل الروحيَّة والكمالات القدسيَّة، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية الزائفة، وأنَّ الله سبحانه لا ينظر الرجل بماله وجاهه المزيَّف، وإنما ينظره بروحه وأخلاقه وأعماله.

وإنهم ليقولون ذلك مع أنهم يقرُّون بشرفه ﷺ ونسبه وطهارة بيته ومَرْباه ومنشئه، حتى كانوا يُسمُّونه بالأمين، ويرونه ممتازاً بخصائص شريفة، فكان ينبغي أن يكون في ذلك مَقنَعٌ لهم بأنه أَوْلى من أولئك الأكابر بالرسالة، وبكلِّ ما فيه الكرامة والزُّلفى، ولكنه الحسد والبغي والتقليد الأعمى.

وقد ردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾؟ يُنكِرُ عليهم ويُجهِّلهم ويَهْزَأ بهم بأبلغ الوجوه.

ثم يقرِّر الحق بقياس النظير فيقول: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حسبما اقتَضَتْه الحكمة البالغة في نظام الاجتماع، لا بحسب الرغبة والتَّمنِّي، فإذا كان كلُّ شيء مبنيّاً على الحكمة البالغة، فكيف يكون أمر اختيار الرسول وإعطاء الرسالة دون ذلك؟ والرسالة من أهم الأمور الدنيوية والأخروية.

ثم بيَّن وجهاً من الحكمة في التفاوت بالرزق، وهو استِتباب نظام الاجتماع وتسخير العيش وتقسيم الأعمال فيما بينهم، فقال: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ وهذا اسم مصدر من التسخير بالعمل. وهذه قاعدة اجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها، فهي سنَّة كونيَّة، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾.

والمعنى: إنَّ من حِكَم اختلاف الرزق بين العباد في الضيق والسَّعة، تسخيرَ بعض العباد لبعض في الحوائج، لتنتظمَ بذلك أحوال البشر الاجتماعية، وتسيرَ مصالحه وشؤونه، وتندارَ أموره.

وتحرير ذلك: أنَّ الله سبحانه لم يجعل نظام رزق الإنسان كنظام رزق الحيوان،

مُتَّحِداً في السَّعي والنتائج، يسعى كلُّ فرد من أفراد الحيوان لتحصيل رزقه مستقلاً بنفسه إن كان وحشياً، وعلى عمله بصاحبه إن كان أهلياً، بل جعل نظام رزق الإنسان لا يتمُّ إلا بسعي مجموعهم ليؤمِّنوا حاجاتِ جميعهم؛ لأنَّ الإنسان اجتماعيٌّ في حاجاته يتعاون في تحضيرها.

أما اختصاص كلٍّ فرد بمهنة من تلك المِهَن، فذلك أمرٌ يعود لهِمَّة الفرد ونشاطه وعقله المكتسب ورغبته ومَيْله وظروفه وصورة تربيته ونشأته.

والقيام بأمر الحاجات على مقتضى هذا النظام: هو معنى قوله تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] أي: ليقومَ بعضُهم في حاجات بعض، ويَسُدَّ المجموع ما يحتاجه الجميع. وهذا النظامُ يجرُّ إلى تفاوت في أمر الرزق عظيم، مبنيٌّ على الحكمة البالغة، ومراعاةِ المصالحة العامة. وبمقتضى الحكمة أيضاً يكون اختيار النبيّ والرسول، لا بحسب رَغَبات البشر ونظراتهم السقيمة.

ثم هوَّن أمر القلَّة في الرزق على المُقِلِّين، فقال: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: ثوابُه في الآخرة ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: خيرٌ من كَثْرة المتكثِّرين، إذ لا تُقاسُ زهادةُ هذه الدنيا وحطامُها بثَمانةِ نعيم الآخرة وخيراتها، إذ كل نعيم دون الجنة حقير، وكلُّ بلاء دون النار عافية. وقد أومأ سبحانه إلى إبطال ما يدَّعون من أن المال مقياسٌ لعظمة الرجال والتأهُّل للرسالة.

ثم بالغ في زَهادة هذا الحُطام، وألمع إلى نَقْضِ عقيدةِ مَنْ يعتقد أن الله سبحانه لا يعطيه إلا لمن يرضى عنه ويرتضيه، كما هو شأن نعيم الآخرة، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ في الكفر، لو كان هو مناط الغنى، رغبةً في الغنى، ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: مَصاعِدَ ومَدارجَ من فضة أيضاً

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: يصعدون إلى تلك السُّقُف. وخصَّ المدارج لوطاءتها، فيدخل غيرُها بطريقة الأَوْلى، بمقتضى البلاغة العالية والفحوى.

ثم قال في إتمام البيان: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾ من فضَّة ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾ من ذهب ومجوهرات، تُزخرَفُ به تلك البيوت، وذلك ليَسْتَوفوا حظوظهم في هذه الحياة.

ثم نصَّ على زهادة ذلك بالنسبة إلى نعيم الآخرة، فقال: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي لا يدومُ طويلاً، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ ونعيمُها الدائم الذي يَقصُرُ عنه البيان: هو ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾، وهو الذي يحقُّ أن يُحرَصَ على الحصول عليه، بمُعاطاة أسبابه.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه هذه القاعدة العامة في فساد النفوس واختلال الغرائز المفطورة على حُبِّ الخير، فبيَّن أنه إنما يكون ذلك بمفاسد التربية وبمخالطة قرين السوء، فقال: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يَعْمَ ويُعرِضْ ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي يُذكِّرُ به الناس بواسطة الرسل ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾، ومعنى هذا: أنَّ سُنَّة الله تعالى قد مَضت

في أخلاق البشر وطباعهم أن يميلَ الإنسان إلى مَنْ يماثله في ميوله المكتسَبة، فيقتبس من أخلاقه وأحواله، فإذا مال الإنسان عن ذِكرِ الرحمن وعن الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه؛ مالَ إلى عِشْرة أمثاله من البشر في هذا النظر، فزادوه فساداً على فساده، وضلالاً على ضلاله.

والعُشُوُّ: فسادٌ في البصر يَعرِضُ من الانحراف عن سنن الله الصحيَّة، فهو كغيره من الأمراض، يكون بصُنع الإنسان نفسِه، وقد استعاره لتحريف الإنسان لفطرته وإفساده لنور بصيرته بمفاسد البيئة والتربية، حتى مالَ إلى هذا الشيطان الذي تسلَّط عليه. والشيطان يُطلَقُ على الشِّرِّير الفاسد من الإنس والجن.

ويجوز أن يكون فِعلُ الشرط مُسبَّباً والجوابُ سبباً، على حدِّ قولك: ما ييبس من الأشجار يلحقه عطش في الصيف، ويكون معنى الآية: ومَنْ يعشُ عن ذِكرِ الرحمن فإنما يحمله على ذلك قرينُ السوء.

وإسناد التقييض إلى الله سبحانه باعتبار السُّنن العامَّة في طبيعة الإنسان، على نهج القرآن في مثله، من إسناد الخَتْم والإضلال إلى الله سبحانه؛ لأنه يكون من معاكسة سُننه الكونية.

ويجوز أن يبقى الشرط والجواب على حاله، بمعنى: أنَّ الانحراف القليل يُهيِّئ للشيطان أن يتَّصل به، فيزداد شرّاً بشرِّه.

ثم بيَّن الأثرَ الشديدَ لأولئك الشياطين على أولئك العاشين المفسدين لطبيعتهم ونور بصيرتهم، فقال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

---

(١) أي: وإنَّ القُرَناءَ من الشياطين لَيَمنَعون قرناءَهم عن سبيل الله المُوصِل إلى النجاة والفوز والخلود في جنّاتِ النعيم، ويظنُّ كفارُ بني آدم ظنّاً ضعيفاً أنهم مهتدون إلى ما يُحقِّق سعادتهم.

وإنما يشعرون بالخسارة والندم يوم القيامة، كما حكى ذلك بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ ﴾ لقرينه هذا: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ والمراد من المَشرِقَيْن: المشرق والمغرب على التغليب، وهو مَثَلٌ يُضرَبُ لبُعْدِ المسافة البالغ، أي: يا ليتني لم أرك ولم أسمع بك. فيقال للصنفين جميعاً زيادةً في تنديمهم وتأليمهم: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ أنفسَكم بإفسادكم لها وتَدْسيتها في الضلال حتى صِرتُم إلى ما صِرتُم إليه، لن ينفعكم من ذلك ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لن يحصل لكم الارتياح والتَّشفِّي من قرنائكم، ولو كانوا مُعذَّبين معكم، أي: لم يُخفِّف عنكم العذابَ هذا التلاومُ والسباب.

ولما وصفهم بالعُشُوِّ وبيَّن حالتَهم، أردف ذلك بقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ يُيئسُه من إيمانهم بمقتضى سُنَّته تعالى في خَلْقه، وهي أنَّ من انطبع منهم على الضلال، حتى أصبح له مَلَكةً وخُلقاً وديناً راسخاً، لا يميلُ إلى الهُدى إذن أبداً. وقد أضاف إلى وصفهم بالعَمى وَصْفَهم بالصَّمَم؛ مبالغةً في التيئيس.

ثم سَبَكَ تسليته ﷺ بتحقُّق نزول العذاب بهم قريباً، أو بعيداً، على نهج القرآن في تعقيب النقد بالوعيد، فقال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: مُعاقِبونَ لهم بعدَكَ لا محالة، ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ ﴾ بأن نُعذِّبهم بعذاب الاستئصال قبل وفاتك ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لا مَناصَ لهم من قهرنا.

والمعنى: إما أن نعاقبَهم في حياتك فتراهم بعينك، وإما أن نعاقبَهم بعد وفاتك أو نؤجِّلهم إلى الآخرة. والمرادُ بهذا البيان: المبالغةُ في تحقُّق وعيدهم في وقتٍ ما، وفي تسليته ﷺ تمكينُ ثباته.

وفي هذا الإبهام لوقت عقابهم زيادةٌ في راحته ﷺ؛ لأنَّ الانتظار مُتعِبٌ للنفوس، فألمع بهذا البيان إلى أنَّ تنفيذ العقاب أمر محُقَّق، أما وقته فقد استأثر الله بعلمه، وأتبع ذلك بأمره له بالدوام على الدعوة والاستمرار على العمل، وقال: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ يَصِلُ سالكه إلى النَّجاة والسعادة في الدارين، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أي: لَشَرَفٌ عظيم أو تذكيرٌ بما يجب عليكم، ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ عنه يوم القيامة، أي: تُسألون عن قيامكم بحقوقه وتبليغه.

وفي هذا بيانٌ لواجب العرب تجاه نشر هذه الشريعة بين الأمم، فهم المُكلَّفون بذلك من دون سائر الأجناس من البشر، وكلُّهم تَبَعٌ لهم في فهم هذه الشريعة والدخول في السِّلم كافَّة. والله أعلم.

وإنما خَصَّهم بكونه ذِكْراً لهم؛ لأنهم هم الذين يفهمونه جيداً. وجاء في «رسالة الشافعي» صحيفة (٤٨) رقم (١٦٧) ما مُحصَّله: إنَّ تعلُّم اللغة العربية واجبٌ على كل مسلم، كبقية الواجبات.

ثم عاد إلى تقريع هؤلاء المشركين العاشِين، وأفحَمَهم بلون من ألوان الإرشاد، على نحو أساليب القرآن، فقال: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1] ومفاد الآية: أنَّ الشرائع المُنَزَّلة كلَّها مُتَّفقة على التوحيد،

---

(١) أي: واسألْ مَنْ أرسلنا من قبلك من رُسُلِنا الذين أرسلتُهم: أجعلنا ممَّن خلقنا من عبادنا من ملائكةٍ أو أنبياء ـ مهما عَلَتْ منزلتُهم ـ آلهةً يُعبَدون؟! بل كلُّ الرسل كانوا يأمرون أقوامهم بعبادة الله وحده.

وهذا الأمرُ صيغتُه عامّةٌ موجَّهةٌ لكلِّ فَرْد من أفراد أمةِ دعوة الرسول ﷺ. والمقصود به: مَن كان لديه شكٌّ أو توهُّم، فإذا أراد أن يدفعَ شكَّه أو توهُّمه فليسأل النصوصَ الصحيحة الثابتة، أما الرسول ﷺ فلا يحتاج أن يسأل الرسل السابقين؛ لأنَّ ما يُوحى إليه من أعلى مراتب اليقين =

فما بالهم يُشركونَ بالله ما لم يُنزِّل به سُلطاناً؟ وهذا الخطاب للأمة في شخص النبيِّ ﷺ، على أسلوب القرآن في مثل ذلك، أو هو لمجرَّد إفادة التحقيق والتقرير.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

ثم جرى على ما ينهجه القرآن إثر سياق المشركين، من القصص على الرسل مع أممهم، لتسليته ﷺ بأنَّ ذلك سنَّة طبيعية في البشر الذين أفسدوا فِطَرَهم بمفاسد التربية، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ استهزاءً بها وسخريةً منها.

ثم إنه سبحانه والى إرسالَ الآيات إليهم، كما قال: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ فلم يؤمنوا ولم يُفِدْهم ظهور الحُجَّة شيئاً، فعالجهم سبحانه بالشدَّة، كما قال: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالقُمَّل والدم والضفادع والسِّنين وغيرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ عمَّا هم عليه من الكفر، فلم يرجعوا.

= الذي لا يعتريه شكٌّ أو توهُّم، ولكنْ خُوطِبَ الشاكُّ من أمةِ دعوته، من خلال خطابه ﷺ؛ إذ هو رأسُ هذه الأمة بعد بعثته إلى أن تقوم الساعة.

﴿ وَقَالُواْ ﴾ لـموسى لـمَّا رأوا العذاب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ قال الـجُبّائي: وهذا عنوانُ العلم عندهم؛ لشيوع السحر في علمائهم، أي: يا أيها العالم ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بمـا ضَمِنَ لك أن يكـشف عنا العذاب إذا اهتـدينا، فها ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾، وأظهروا الهداية لما رأوا العذاب، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ﴾ ذلك ﴿ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾، وذلك لأنَّ الذي ينطبع على الفساد لا يُقلع عنه إلا مُؤقّتاً عند الوقوع في الشدائد وهزِّها له، فإذا زالت عنه عادَ إلى ما كان عليه.

ثم بيَّـن سبحانه كيـف استـدرج فرعون قومه حتى نكـثوا، فقال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ يُنبِّههم إلى عَظَمته في مُلكِه، ويَستَنـقِصُ موسى بقوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي: أنا خيرٌ أم هذا الضعيف الحقير الذي لا مُلكَ لديه ولا مال، ولا يُحسِنُ الكلام عند مُحاجَّة الرجال، ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ ما يقوله ويُريد بيانه؟ يفتري بذلك ليُنقِّصَه من أعين الناس، ويريد: أنه لا يُحسِنُ المُحاجَّة، أو لا يكاد يُفصِحُ بكلامه، يُموِّه بذلك على الناس، كما مَوَّه بنقض نبوَّته بهذا الزعم الفاسد، حيث قال: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾[1] أي: لو كان صادقاً بدعوى النُّبوَّة؛ لَأُلقيَ عليه وسامها وشعارها. يُموِّه بعادتهم في تقليد الأوسمة من الذهب والجواهر على صُورة الأسورة وغيرها لمن يريدون تسويدَه أو تمليكَه أو تمييزَه عن الناس، يتخيَّل أنَّ للنبوةِ وساماً وشعاراً من الله، كما للمُلوكيَّة عندهم وللتمييز والتعظيم، وذلك لأنهم لم يعلموا عن العالَم الروحانيّ إلا ما يعلمونه عن العالَم الجسماني، فيقيسونه عليه.

---

(١) جاء في الأثر: أن رسول الله ﷺ قال لسـراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست تاج كسرى وسواريه؟» فهذا يدل على أن لُبْسَ السوارَيْن كان من شارات الملوك. (المؤلف).

والحديث سبق تخريجه ص١٥٤.

ولذلك قال في إتمام النقض المزعوم: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: مُتَتابعين يُظاهِرونه ويُناصِرونه، فحيثُ لم يكن معه هذان الأمران أو أحدهما فليس صادقاً في دعواه النبوَّة.

﴿فَٱسْتَخَفَّ﴾ فرعونُ ﴿قَوْمَهُۥ﴾ بمثل هذه التُّرَّهات والتمويهات، ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ في تضليله هذا، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: خارجين عن كمال الفطرة ونور البصيرة بإفسادهم لغرائزهم بمفاسد التربية وسوء التقليد. فأثَّر عليهم هذا التضليل وقبلوه.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ وقد ضمَّن هذا الفعل معنى: أغضبونا، فهو شامل للمعنيين معاً؛ الغضب والأسف، أي: فلما آسفونا عليهم وأغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ في اليمّ ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: عِظَةً لمن بعدهم وعبرةً يعتبرون بها، وقصَّةً تسير عند مَنْ بعدهم سَيْرَ الأمثال. وفي هذا وَعْدٌ له ﷺ ووعيدٌ لمعارِضيه ومُعانِديه من كفَّار قريش. والانتقام: من النقمة، وهي السطوة والعقوبة. وقد يُستعمَل في العرف العام بمعنى التَّشفِّي، وهو بهذا المعنى محالٌ على الله.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ

إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

ثم عاد إلى سَنَن الكلام السابق في تَعْداد قبائح قريش الذين جعلوا لله من عباده جُزءاً، وجَعَلوا الملائكة إناثاً، واعترضوا بعدم نزول هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، فذكر لـهم قبيحةً أخرى، فقال: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قال ابن عباس[١] ومقاتـل[٢]: وذلك لـما نـزَل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، قال المشركون: قد رضينا بأن تكون آلهتُنا حيثُ يكون عيسى.

ومعنى ﴿يَصِدُّونَ﴾: يضجُّون فَـرَحاً؛ لظنِّهم أنَّ رسول الله ﷺ صار مُلزَماً به. وقيل: لما ضرب الله للمسيح مثلاً بآدم، يردُّ به على النصارى في استحقاقه الألوهيَّة، استند على ذلك قومٌ من كُفَّار قريش، وقالوا: نحن أهدى وأصوَبُ من النَّصارى، لأنهم عبدوا آدمياً، ونحن نعبد الملائكة، فنزلت هذه الآية.

فيكون معنى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ على الأول: تفضيل عيسى على

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠: ٦٢٣).

(٢) نقله عنه الواحدي في «الوسيط في تفسير القرآن المجيد» (٤: ٧٩).

آلهتهم، وأنهم يرضون أن يكون مصيرُها مصيرَ عيسى، وعلى الثاني: تفضيل آلهتهم على عيسى، يقولون ذلك جَدَلاً وإلزاماً بزَعْمِهم، كما قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾.

ثم أضرَبَ على كونه جَدَلاً إلى كونه خصاماً، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ يُعانِدون في الباطل.

ثم رَدَّ عليهم بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: قدوةً يقتدونَ به قولاً وفعلاً. قال النسفي: لما جادَلَ ابنُ الزِّبعرى رسولَ الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ...﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقال: رَضينا أن تكون آلهتُنا حيث يكون عيسى، رأى أنَّ كلام الله يحتمل لفظُه وَجْهَ العموم، مع عِلمِه بأنَّ المراد به أصنامُهم لا غير، فوجد للحيلة مَسَاغاً، فصَرف اللفظ إلى الشمول والإحاطة لكلِّ معبود غير الله، على طريق اللِّجاج والجدَل والمُخاصَمة، وحُبِّ المغالبة والمكابَرة، وتوقَّح في ذلك، فتَوقَّر رسول الله ﷺ، حتى أجابَ عنه ربُّه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾(١).

وقال أبو السُّعود في وجه الردِّ بهذه الآية ما توضيحُه: إنها تنزيهٌ له عليه السلام عن أن يُنسَبَ إليه ما نُسِبَ إلى الأصنام، يرمز بها إلى ما صرَّح به في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ...﴾، وتنبيهٌ على بطلان رأي مَنْ رفعه عن رتبة العبودية، وتعريضٌ بفساد رأيِ مَنْ يعبدون الملائكة من قريش؛ إذ غاية الأمر أنهم من عباد الله المُنْعَم عليهم. وهذا على نهج القرآن في الجَمْع بين المعاني في التركيب الواحد.

(١) «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (٣: ٢٧٨- ٢٧٩)، وابن الزبعرى هو أبو سعد عبد الله بن الزِّبعرى بن قيس السهمي القرشي (....- ١٥هـ)، شاعر قريش في الجاهلية أسلم في فتح مكة. «الأعلام» (٤: ٨٧).

ومُلَخَّص ذلك: ليس عيسى إلا عبداً كسائر العبيد. وقُصارى ما في الأمر: أنه مِمَّن أنعَمْنا عليهم بالنبوَّة وخَصَصْناه ببعض الخواصِّ البديعة، بأن خلقناه بوجه بديع، كما خلقنا آدم بوجهٍ أبدَعَ منه[١]. وعلى كلٍّ، فهو مخلوقٌ، ولا يَتَجاوَزُ حدود البشريَّة والعبوديَّة، فأين هو من رتبة الربوبيَّة؟ وكيف يفتخر عَبَدة الملائكة بكونهم أهدى وأصوَبَ من عَبَدته، وكلُّهم في هذا الضلال وفساد التفكير؟

ثم حقَّق أنَّ عيسى عليه السلام ليس ببدع من قدرة الله، وأنه تعالى قادرٌ على أبدَعَ من ذلك، فقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: لو نشاء لخلقنا منكم ملائكةً يَخْلفونكم. وليس التخليق محصوراً بالطريق الذي تعرفونه، وإنما هناك عدَّةُ طرق وجملةُ صور للتخليق والتوليد.

أو المعنى: لجعلنا بَدَلَـكم ملائكةً في الأرض يخلفون. فتكون الآية على التهديد بأن يستأصلهم ويجعل في محلِّهم ملائكة.

وعلى كلٍّ، ففيها معنى القدرة البالغة في الإيجاد، فهو قادرٌ على كلِّ شيء، وما خِلقةُ عيسى في جَنْب قُدرته تعالى إلا أمراً هيِّناً.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: إنَّ عيسى وأمْرَه يُسْتَدلُّ به على صِحَّة الساعة والبعث وقدرة الله عليه[٢]، إذ منه يُعلَمُ أنَّ النواميس الطبيعيَّـة في الخِلْقة والإيجاد والتطوير والتبديل ليست محصورةً في النواميس المعلومة لديكم، ولكن سنن الله تعالى في ذلك لا

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٨: ٥٢).

(٢) أو المعنى ـ وهو الراجح ـ: وإنَّ نزولَ عيسى عليه السلام قبلَ يوم القيامة لَدليلٌ يدلُّ على قُرْبها، ويؤيِّده قراءة: (وإنه لَعَلَمٌ للساعة) ـ بفتح العين واللام ـ وما ثبتَ من الأحاديث الصحيحة المتواترة في نزوله عليه السلام في آخر الزمان.

يُحصيها ولا يعلمها إلا هو، ومنها تلك السُّنَّة التي بنى عليها خَلْق عيسى[1]، وسنن البعث والساعة.

وقيل: إنَّ الضمير للقرآن؛ لأنه هو الذي يبيِّن أمر الساعة.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: فلا تَشُكُّنَّ في أمر الساعة والبعث، حيث لا تعلمون تلك السُّنَن المنوَّعة في الإيجاد والتبديل، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ في هُداي وما أقولُه لكم وما أُنذِرُكم به من أمر البعث ومرادفاته، ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ يصل سالكه إلى ساحل النَّجاة وموطن السعادة وهدف الرشاد.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عن اتِّباعي في ذلك، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ أي: شديد الإضلال لكم بوساوسه وإلقاءاته.

ثمَّ فصَّل ما كان من أمر عيسى عليه السلام وقومه واختلافهم عليه؛ تسليةً لرسول الله ﷺ في أنَّ ذلك من سُنن الله في أخلاق الإنسان وطبائعه إذا اختلَّت بالمؤثِّرات الفاسدة، وضمَّن ذلك أنه كغيره من الأنبياء جاء بالأمر بتقوى الله وعبادته وحده، وألمع إلى أنَّ أتباعَه أدخلوا الشرك بدينه واتَّخذوه ابناً للإله، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أحكام التوراة، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾[2].

---

(١) خَلْقُ عيسى عليه السلام لم يكن بسُنَّة كونية أو طبيعية، وإنما كان معجزةً خارقةً للقوانين والنواميس، كما تقدّم التنبيه إليه.

(٢) معنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص٤٩٤: «وحين جاء عيسى عليه السلام نبيّاً ورسولاً داعياً إلى الله في مجتمع بني إسرائيل، ومصحوباً بالمعجزات الواضحات الشاهدات له بأنه نبيُّ الله ورسوله، قال لقومه: قد جئتكم بالحكمة في السلوك، وفي الأخلاق، وفي الآداب، وفي كُلِّيّات =

ثم بيّن لهم أهمَّ ما جاء به، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

أما قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ فيحتمل أن يكون من تتمّة كلام عيسى، أي: ما جئتكم به من التوحيد والشريعة هو الطريق الموصل للسعادة، ويحتمل أن يكون استئنافاً من كلام الله تعالى، أردفَهَ بقوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي: فاختلفت الفِرَقُ المُتحزِّبة من بين قوم عيسى عليه السلام، فمنهم من آمن بهذا الصِّراط المستقيم وسَلَكَه، ومنهم من ظَلَم وكفر، ومنهم مَن حرَّف وغيَّر، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

ثم فصَّل أمْرَ ذلك اليوم بنعيمه وعذابه، تكميلاً للتحذير من شقائه والترغيب بهنائه، وبياناً لصُورة مجيء الساعة، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ﴾ غافلون مشتغلون بأمورهم عنها ﴿لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ إلا وقد دَهَمهم أمرُها.

ثم ذكر ما يكون بعد ذلك من أمر الأحزاب والفِرَق بين الأديان، فقال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ ولا سيَّما الذين تَناصروا على مُعاداة الحق ونُصْرة الباطل ﴿يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يلومُ ويُؤنِّبُ كلٌّ منهم صاحبَه على ما سَلَك به من سلوكٍ أدّى به إلى العذاب المهين.

ثم استثنى من عموم الأخلَّاء قولَه: ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: الذين كانت خِلَّتهم في الدنيا لله، وما أمر به الله، فيقال لهم: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

= المعارف والمفهومات الدينية، ولأُبيِّـنَ لكم بعضَ الذي تختلفون فيه من قضايا كُلِّـيّة كبرى من قضايا الدين التي انحرفتُم فيها عن دين الله الحق، فاتَّقوا عقوباتِ الله على انحرافاتِكم ومخالفاتِكم، وأطيعوني فيما آمُرُكم به».

ثم ذكر صفتـهم التي استحقُّوا بها هذه الكرامة، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ أي: مُنقادِينَ إلى أوامر الله.

ثم تمَّم ما يقال لهم بقوله: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ أي: تُكرَمون وتُسَرُّون، وبالحُلَل الحِبَرِ تُزَيَّنون.

وقد فصَّل بعض ذلك الحبور بقوله: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ كذلك، وهما أواني الطعام وأواني الشرب، ثم أجمل الحبور بقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ من فنون الملذَّات، ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ في نعيم لا ينقطع. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

والالتـفات من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب في هذه الجمل؛ للتشريف والمبالغة في التحسيس الذي أكمَلَه بقوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ أي: في الدنيا من الأعمال الصَّالحة، فشبَّه جزاء العمل بالميراث للمبالغة في التقرير[1].

ثم زاد في البيان عنها بقوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ بأنواعها وأصنافها ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ أي: لا ينقص من ثمرات الأشجار شيءٌ. هذا ما تُلمِعُ إليه كلمة ﴿مِّنْهَا ﴾، والله أعلم.

---

(١) معنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص٤٩٤: «وتلك الجنَّةُ الرفيعةُ المُنزلة، الجليلةُ القَدْر التي منحكم الله إيَّاها؛ بسبب ما وفَّقكم الله في الدنيا من الخيرات والأعمال الصالحة، ترثون فيها المنازلَ التي كانت مُعدّةً للكافرين، لو أنهم كانوا قد آمنوا وأسلموا في رحلة امتِحانِهم في الحياة الدنيا. فدخولُ المؤمنين الجنة ونعيمُهم فيها خالدين؛ مَحْضُ فضلٍ من الله، وعطاءٌ يشبه عطاء الميراث الذي يناله الإنسان دون جهد منه، بسبب ما قام به المؤمنون من أعمال يبتغون بها رضوان الله وثوابه، مع أن هذه الأعمال لا تكافىء بعضَ نِعَم الله التي أنعَمَ بها عليهم».

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

ثم قابل مصير المؤمنين بمصير الكافرين، مُبالغةً في الترغيب والترهيب، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي: لا يُخفَّف عنهم، أي: لم يكن عندهم فتراتُ تهوين، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: ساكتون في يأسٍ وذلّةٍ وخُنوع.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ بذلك ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ لأنفسهم؛ إذ حرَموها السعادةَ التي كانت مُستَعِدَّةً لها لو لم يُفسِدوا عليها أمْرَها.

ثم ذكر سبحانه جَزَعَهم وهَلَعَهُم ويأسَهم من النجاة، فقال: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي: لِيَمْتَنَّ بالقضاء علينا لنستريح، وهكذا يَتمنَّون الموت استراحةً من العَناء، فيأَّسَهم من ذلك و﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ في العذاب، لا نَجاةَ لكم منه بموتٍ ولا بغيرِه. اللهمَّ جَنِّبنا هذا المصير يا أرحم الراحمين.

ثم وَبَّخهم سبحانه بما فيه تقريرٌ لجواب مالك، وبيانٌ للسبب الذي ساقهم لهذه التعاسة، فقال: ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ في دار الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ ﴾ أيُّها البشر ﴿لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾. وقال الجُبّائي: يجوز أن يكون هذا من كلام مالك أيضاً. وإنما قال: ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم ﴾ لأنه من جنس الرُّسُل وطبقتهم.

﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى

فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٌۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٌۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

وبعد أن أعلَمَهم بهذا المصير في الآخرة، نصَّ على بعض أعمالهم التي استوجبت ذلك، وسبكه على الإنذار إن لم يؤمنوا، فقال: ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرًا﴾ وهذا معطوفٌ على محذوف، على نهج القرآن، والتقدير: أتـحَذَّرَ واتَّعظَ كفَّارُ مكة بهذا الوعيد والإعلام عن المصير، واعتبَروا وتقرَّبوا من محمد ﷺ، أم لم يلتفتوا إلى ذلك وتآمروا وأحكموا أمراً في كَـيْد محمد والمكر به، ﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ كيدَنا بهم ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم﴾ حين يتناجَوْنَ في صورة الكيد به ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظونَ عليهم أعمالهم ﴿لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ما يقولون وما يفعلون. وهذا للإيماءِ إلى أنَّ هناك شهوداً تشهدُ عليهم وتُحصي أعمالهم، فوق ما أنه سبحانه يعلم عنهم ما ظهر وما بطن، ويُحصيه عليهم.

والآية الأولى: ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرًا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ بمعنى قوله تعالى: ﴿ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدًاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴾ [الطور: ٤٢].

ويقول الأستاذ الإمام[(١)]: إن ﴿ أَمۡ ﴾ هذه ليست للعطف، ولكنْ هي لمجرَّد ابتداء الكلام. والظاهر أنها للعطف على مُقدَّر في كلِّ موطن جاءت فيه من القرآن، على نهجه في ذلك.

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

ثم ردَّ ما يُصِرُّون عليه من الشِّرك ويدافعون عنه، ونَقَضَه بأبلغ الوجوه، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ وصفةُ (الرحمن) للإيذان بالصبر عليهم، وهذه الصِّيغة من أبلغ الصِّيَغ في نفي ذلك، وأنه ﷺ على يقين فيه؛ لأنه أعلمُ الناس بشؤون الله تعالى، وأَوْلاهُم بمُراعاة حقوقه، ومن واجب تعظيم الوالد تعظيمُ وَلَدِه[1].

ثم أردَفَ هذا الغَرَض بتنزيهه تعالى عنه، فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾[2] وإنما هو واحدٌ أحد، ليس له صاحبة ولا وَلَد، تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً.

ثم توعَّدهم على ذلك بقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ في أباطيلهم، ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دينهم، ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ فيه بما مرَّ ذِكرُه.

ثم بيَّن الحق عن الله تعالى، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[3]؛ إذ له تعالى فيهما من أفعال الألوهية ما يدلُّ على اختصاصه بالمعبوديَّة، ﴿وَ﴾ له فيهما من آثار العلم والحكمة ما يدلُّ على أنه ﴿هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾.

---

(١) هذه الآيةُ مرتبطةٌ بالآية ٥٧ من هذه السورة: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ...﴾، ومعناها: قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين الذين عبدوا الملائكة، وادَّعوا أنك قَصَدتَ بذِكر قصَّة عيسى أن يَعبُدَك المشركون كما عَبَدَتِ النصارى عيسى: إن كان هناك للرحمن وَلَدٌ يُعبَدُ ـ كما زعمتُم ـ فلا ينطبق ذلك عليَّ؛ لأنني أول العابدين من هذه الأمة، ومَنْ كان عابداً لا يمكن أن يكون معبوداً، ولا يطلب ذلك من غيره؛ لأنهم يرونه عابداً، فكيف يتقبَّلونه معبوداً.

(٢) أي: تنزَّه ربُّ السموات والأرض ربُّ العرش العظيم عمّا يدَّعيه المشركون والنصارى من نسبة الوَلَدِ إلى الله وعبادته!! كيف يكون له وَلَدٌ والسماواتُ والأرضُ والعرشُ وكلُّ ما سواه مخلوقةٌ له بأمر التكوين؟!

(٣) أي: هو الإلهُ الذي يُعبَدُ في السماء وفي الأرض، لا معبودَ بحقٍّ إلا هو.

فتعاظَمَ ﴿وَتَبَارَكَ﴾ أمْرُ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وتكاثَرَ خيرُه، ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي تُوعَدون بها، ولا محَالة من وقوعها، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ للحساب.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: لا يملك شركاؤهم أن يشفعوا لهم عند الله، يردُّ عليهم عقيدتَهم التي يعتقدونها في شركائهم، ويتوعَّدهم بما سينالهم في ذلك اليوم الذي يُرجَعون إليه فيه، وأنهم لا يَنجَوْنَ من هَوْله.

ثم ذكر بطريقة الاستثناء المنقطع مَنْ ينجو من هَوْل ذلك اليوم، فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فهذا استثناء منقطع أو مُستثنى من مضمون ما قبله، على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] أي: لا ينجو إلا مَنْ رَحِمَ الله. وهكذا مفاد الاستثناء هنا، أي: لا ينجو من ذلك الهوْل إلا الذين شَهِدوا بالحقِّ على الله، فوَحَّدوه وهم يعلمون ذلك علمَ يقين وإتقان، لما تكرَّر في هذا القرآن من حُجَّة وبرهان، ذكر منه هنا ما لا يُمكِنُهم إنكاره، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ولا يُمكِنُهم إنكار ذلك، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ويُخْدَعون فيُصْرَفون عن عبادته إلى عبادة غيره أو الإشراك به؟

ثم ختم السورة بما أكمل به البحث مِن وَعْدِ المؤمنين ووعيدِ المشركين، فقال: ﴿وَقِيلِهِۦ[1] يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾، فقُرِئَ بالجر عطفاً على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾[2]،

---

(١) القيل والقال والمقال: هي والقولُ شيءٌ واحد، والواو للقَسَم، أي: وحقِّ قولِ محمَّدٍ وشكواه أنَّ هؤلاء لا يؤمنون لأُذيقَهم ما يستحقّون.

(٢) وهي قراءة عاصم وحمزة، كما في «حجة القراءات» ص٦٥٥، ويمكنُ توجيه الجرِّ أيضاً بحرف الواو للقَسَم.

من قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: وعنده عِلمُ الساعة وعِلمُ قيله: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ بمعنى: أنه عالمٌ بشكواه[1].

وقُرِئَ بالنَّصب عطفاً على: ﴿سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم﴾[2]، بمعنى: أيحسَبون أنّا لا نسمعُ سرَّهم ونَجْواهم، ولا نسمع قيلَه.

وعلى كلٍّ، فمُحصَّل المعنى: قد علم الله ما يقولُه الرسول ويشكو به إلى الله من أمر هؤلاء المشركين. فهو وَعْدٌ له بالنَّصر، ووَعيدٌ لهم بالخِذلان، لذلك أمره بما يليق به من الثبات، وقال: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ ولا تتألّم منهم ولا تهتمَّ بذلك، ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞ﴾ وهذا سلامُ مُتارَكةٍ، بمعنى قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، فمعنى: ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞ﴾: اهجُرْهم وجانِبْهم ولا تكترث بعملهم، ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٨٩﴾ ما يحلُّ بهم من عذاب الدنيا وشقاء الآخرة. يُهدِّدهم ويتوعَّدهم بذلك.

* * *

(١) أي: هو سبحانه سامعُ قولِ الرسول محمَّد ﷺ في نفسه، شاكياً إلى ربِّه قومَه الذين كذَّبوه، متوجِّعاً قَلبُه من أجلهم، متلهِّفاً لإيمانهم ونجاتهم: يا ربِّ إنَّ هؤلاء المشركين المعاندين المصرِّين على باطلهم قومٌ ليسوا مُستعدِّين مستقبلاً أن يؤمنوا.

(٢) وهي قراءة العامّة إلا عاصماً وحمزة، كما في «حجة القراءات» ص٦٥٥، وتقدير النصب على المصدر، أي: قال قيلَهُ، مفعول مطلق لبيان النوع والتأكيد.

فهرس محتويات المجلد السادس

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة لقمان	٥-٢٦
تفسير سورة السجدة	٢٧-٤١
تفسير سورة الأحزاب	٤٣-٩٥
تفسير سورة سبأ	٩٧-١٣٢
تفسير سورة فاطر	١٣٣-١٦٠
تفسير سورة يس	١٦١-١٨٨
تفسير سورة الصافات	١٨٩-٢٢٣
تفسير سورة ص	٢٢٥-٢٦٤
تفسير سورة الزمر	٢٦٥-٣٠٧
تفسير سورة المؤمن	٣٠٩-٣٤٧
تفسير سورة فصلت	٣٤٩-٣٨١
تفسير سورة الشورى	٣٨٣-٤٢١
تفسير سورة الزخرف	٤٢٣-٤٦١

❊ ❊ ❊

تفسير القرآن العظيم

المسمّى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

تأليف العلامة الشيخ

رشيد الخطيب الموصلي

١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلد السابع

تفسير سورة الدخان إلى نهاية سورة المعارج

اعتنى به وقدم له

مجد أحمد مكي

أروقة

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ISBN : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

سُورَةُ الدُّخَانِ

مكيَّة، وهي تسعٌ وخمسون آية

وجاء فيها: أن ما أُنذِرَ به المشركون في آخر السورة السابقة قد صار قريباً، وأصبح وقوعه مترقَّباً، ولهذه ذُكرت بعدها.

واشتمل سياقها على التَّوعُّد لهم بمثل ما جرى على مُتمرِّدي الأمم قبلَهم في الدنيا، وبعذاب الجحيم في الأُخرى.

وقد ابتدأت بتقرير نزول القرآن.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ وقد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيهُ الفكر وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها، اهتماماً به. ومنه هنا قوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ يُقسِمُ به، ثم يُحدِّث عنه بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[(١)] هي ليلة القدر من رمضان. كما جاء مُصرَّحاً بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والمراد: أول ما نزل منه، لأنه نزل مُنَجَّماً في نيِّفٍ وعشرين سنة، ابتـدأ في هذه الليلة بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وانتهى في تاسع ذي الحجَّة للسنة العاشرة من الهجرة بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وكان ذلك يوم عرفة من حَجَّة الوداع، وأعقبَها العيد[(٢)].

---

(١) الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ للقرآن، وأضمَرَه من دون ذكر تفخيماً لشأنه، وشهادةً له بالنباهة المُغنية عن التصريح، كما عظَّمه بإسناد إنزاله إليه، وتبريك الليلة التي نزل فيها. (المؤلف).

(٢) بل نزل بعدها عدةُ آيات، لكنْ ليس فيها حكم جديد، فلا تعارض الإكمال المنصوص عليه في =

ثم ذكر المقتضي لإنزاله، فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ أي: إننا ـ إذ خلقنا الإنسان نوعاً ممتازاً بطبيعته، يفارق سائر الحيوان بفطرته وغايته في حياته الثانية، محتاجاً إلى التعليم والإرشاد بغريزته ـ قد كتبنا على أنفسنا أن نتعهَّده بالإنذار على ألسنة الرسل، فأنزلنا هذا القرآن لإنذار الناس بما سيُلاقون جَزاءً لأعمالهم، ولما تعقد عليه قلوبهم، ثواباً أو عقاباً، في حياةٍ أُخرى بعد هذه الحياة الدنيا.

ثم وصف هذه الليلة المباركة بقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾[1] أي:

= آية سورة المائدة، وآخر ما نزل من القرآن على الإطلاق: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، كما ثبت عن ابن عباس في «صحيح البخاري» (٤٥٤٤).

(١) يقول الأستاذ الإمام محمد عبده: أما ما يقوله أكثر الناس من أنَّ الليلة المباركة التي يُفرَقُ فيها كلُّ أمر حكيم: هي ليلة النصف من شعبان، وأنَّ الأمور التي تفرق فيها الأرزاق والأعمار، وكذلك ما يقولونه من مثل هذا في ليلة القدر، هو من الجرأة على الكلام في الغيب بغير حُجَّة قاطعة، وليس من الجائز أن نعتقد بشيء من ذلك، ما لم يرد به خبر متواتر عنه ﷺ، ولم يرد عنه مثل ذلك؛ لاضطراب الروايات وضعف أغلبها، وكذب الكثر منها، ومثلها لا يصحُّ الأخذ به في باب العقائد. ومثل ذلك يقال في بيت العزَّة، ونزول القرآن فيه جملة واحدةً في تلك الليلة، فإنه لا يجوز أن يدخل في عقائد الدين؛ لعدم تواتر خبره عن النبيِّ ﷺ، ولا يجوز لنا الأخذ بالظنِّ في عقيدة مثل هذه، وإلا كنا من الذين ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾. نعوذ بالله. وقد وقع المسلمون في هذه المصيبة، مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله، ويعدُّ من عقائد الدين، وبين ما لا يصحُّ اعتقاده، فاحذر أن تقع في مثله. (المؤلف).

قلت: هو كذلك في الجملة، لكن كثير مما ذكر من فروع العقائد، وهي مما يثبت بخبر الآحاد الصحيح، ولا يشترط فيها التواتر، كبيت العزة، ونزول القرآن فيه جملة واحدة ليلة القدر، فكما لا ينبغي الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله تعالى وما لا يصح، كذلك =

يُقضى في هذه الليلة كلُّ أمر منطبق على الحكمة والسَّداد مما لا يُمكِنُ أن يعرف البشر بنفسه من أحوال الآخرة وبعض أحوال الدنيا. يُنوِّه بشأن نزول هذا القرآن فيها، إذ به يُفرَقُ كلُّ أمر حكيم، أي: يُعْرَف ويُميَّز.

وعليه، فالآية تماثل من سورة القدر في وصف هذه الليلة قولَه تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].

وبعد أن ذكر هذا الشأن لهذه الليلة، إيماءً إلى نزول القرآن فيها، أو إلى اكتسابها هذا الشَّرَف به، أكمَلَ قولَه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ بقوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ مبالغةً في التفخيم، إذ هو حال من أحد ضميرَيْ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، للإيماء إلى أنَّ القرآن وإنزاله أمر حكيم، فرِّق فيه بين الحق والباطل، لذلك شرفت به هذه الليلة. ويجوز أن يكون حالاً من ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾.

ثم أكمل المقتضي للإنزال بقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾ أي: إننا نرسل للبشر رسلاً وننزِّل عليهم كتباً، كلَّما دعت الحاجةُ إلى ذلك، ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ بالخلق، ونعمةً منه عليهم؛ لتكملَ بذلك غرائزهم ومواهبهم المعدَّة للكمال، وتتمَّ مصالحهم على أحسن حال، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾ يعلم ما يحتاجونه، فيُنزل تعاليمه بمقتضى احتياجهم، وقد نزَّلهم مَنزِلةَ من طلب ما يُصلِحُه فسُمِعَ وأجيب. ويجوز أن يكون في الفاصلة ترغيب وترهيب، أي: يعلم أمْرَ من يمتثل أو يخالف ويسمع أقوالهم. وعلى كلٍّ، فهو وَصْفٌ لتحقيق ربوبيته تعالى.

ثم أكمل هذا الوصف بإعادة ذكر الربوبيَّة المتضمِّنة لمعنى التربية والإرشاد،

= لا ينبغي الخلط بين أصول العقائد التي يُشترط فيها التواتر، وفروعها التي يكتفى فيها بالخبر الصحيح.

ليكون في موضع التعليل لمضمون ما سبق، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾ أي: إن كنتم مُريدين لليقين. يحُقِّق بذلك ربوبيَّته ويُقرِّرها بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾[1].

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾.

ثمَّ أجرى الكلام على المعارضين وأضرَبَ عن هذا البيان والتحقيق إلى بيان شكِّهم في ذلك رغماً عن جلائه ووضوحه، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ مما ذكر من شؤونه تعالى واختصاصه بالألوهية، وهم ﴿يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ في فهمهم لهذا الأمر لعباً؛ لأنهم لا يعلمون عن الله حقَّ العلم، ولذلك يشركون به غيره. أو: هم يلعبون في أمر الأديان، فيثبتون لهم ديناً لا يرتكز على عقل ولا نقل ولا تفكير. والمراد: أنهم لاهونَ ساهُون.

ثم توعَّدهم على ذلك بقوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يحيط بهم، ويقال فيه: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾، وفي هذا التعبير تصويرٌ لزيادة شدَّة ذلك العذاب.

---

(١) أي: لا معبودَ بحقٍّ يستحقُّ أن يُعبَدَ إلا ربُّ السماوات والأرض وما بينهما، يُحيي سائر الأحياء ويُميتُهم، هو ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلين الذين سَلَفوا في تاريخ البشريَّة من آدم جدِّكم الأول، وأنتم وآباؤكم موضوعون في الحياة الدنيا موضعَ الامتحان، والمطلوب منكم جميعاً في رحلة امتحانكم أن تعبدوا ربَّكم بالإيمان والإسلام والطاعة والانقياد.

والمعنى ـ كما نقل عن ابن مسعود[١] ومقاتل[٢] ومجاهد، واختاره الفرَّاء[٣] والزجّاج[٤] ـ : ارتَقِبْ يا محمد يومَ شدّة ومجاعة يأتي عليهم. لأنَّ العرب تُسمِّي الشرَّ الغالب دخاناً، ونَسَبَه إلى السماء؛ لأنه أتى من قلّة المطر[٥].

وقالوا: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: إنا سنؤمن إنْ كشفتَ عنا العذاب.

فكذَّبهم الله في وعدهم هذا، مشيراً على أنَّ هذا الاتِّعاظ والتذكير وقتيٌّ، اعتراهم من الداهية، وهو غير ثابت فيهم، فقال: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: من أين لهم ذلك التذكير الحقيقي والإيمان الصحيح، ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكير وموجبات الاتِّعاظ أسماها، حيث جاءهم رسولٌ عظيمُ الشأن، وبيَّن لهم مناهجَ الحق.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ أي: تارةً قالوا: مُعلَّمٌ يُعلِّمه غلام أعجمي لبعض ثقيف، وتارةً قالوا: إنه مجنون، أي: له تابع من الجن يُعلِّمه، كما يعتقدون مثل

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٨٢٤)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٢) «تفسير الرازي» (٢٧:٦٥٦).

(٣) «معاني القرآن» للفراء (٣:٣٩).

(٤) «معاني القرآن» للزجاج (٤:٤٢٤).

(٥) لكن ثبت في «صحيح البخاري» (٤٧٧٤) و(٤٨٢١-٤٨٢٤)، و«صحيح مسلم (٢٧٩٨) عن ابن مسعود في هذه القصة: «فأخذتهم سَنَةٌ حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعِظام، ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان»، زاد في رواية: «من الجهد»، وفي أخرى: «من الجوع»، فهذا يدلُّ على أنّ الدخان هو دخان متخيَّل متوهَّم من شدّة الجهد، وليس هو كناية عن الشر.

ذلك في كهّانهم. أو أنَّ الذي يراه ويسمعه إنما هو صورة أخيلته وهواجسه. وربما كانوا يريدون بوَصْمِه بالجنون ـ على علمهم بكمال عقله ـ أن يَصُدُّوا عنه من لا يعرفه من القبائل الوافدة في موسم الحج. وعلى كلٍّ، فهل يتوقع ممَّن هذه صفتُهم وهذه حالُهم أن يؤمنوا إيماناً صحيحاً؟ كلا، وإنما هو تأثُّر وقتيٌّ من عروض الداهية، يزول بزوالها.

ثم أجاب دعاءهم بعد استبعاد إيمانهم، إجابةً لإقامة الحُجَّة عليهم، فقال: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾، ثم ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ ويظهر كَذِبكم في ادِّعائكم الإيمان.

والالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ لمزيد التوبيخ، أي: إنكم ستعودون إلى شرككم بعد كشف هذا العذاب عنكم، ونُجازيكم عليه جزاءً شديداً، وذلك ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ بكم ﴿ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ في الآخرة، أو يومَ بدرٍ فننتقم منكم، ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: من سُنَّة الله تعالى في مُعارضي الرسل إذا طلبوا شيئاً وعلّقوا إيمانهم عليه، فأعطاهم ولم يؤمنوا؛ أن يستأصلهم بعذاب، وقد خاب من استعلى.

والانتقام لغة: مُجَرَّد العقوبة، ويطلق في عرف التخاطب على العقوبة مع التشفِّي، وذلك محال على الله سبحانه، فلا يجوز أن يفسَّر الانتقام الوارد في القرآن عن الله سبحانه وتعالى بهذا المعنى، وإنما يفسَّر بمعناه اللغوي، وهو مجرَّد العقوبة.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى
وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ
بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن
جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا

قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

ثم بيَّن تعالى أنَّ معارضة الأمم لرسلها من سُنَّة الله في أخلاق مُخْتلِّي الطباع من البشر، الذين أفسدوا فِطَرَهم بسُوء التربية وجمود التقليد الأعمى، وأيَّد ذلك بتاريخ الأمم الماضية، تسليةً له ﷺ ووعيداً لهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي: اختبَرْنا ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ يدعوهم إلى الله، وطلبَ منهم ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي: أطلِقُوا لي بني إسرائيل من العذاب والأَسْر، وأرسِلوهم معي لِنَعبُدَ اللهَ وحده. ويجوز أن يكون المعنى: أَدُّوا إليَّ حقَّ الله من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله؛ يريد: قوم فرعون.

ثم أيَّد دعوتَه إياهم إلى الله بقوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

ثم عطف على قوله ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ ـ الذي هو من مُتمِّمات الدعوة إلى الله ـ قولَه: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بالاستهانة بوحيه وبرسوله.

ثم أيَّد الدعوة بقوله: ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾ أي: بحُجَّة واضحة على صدقي في دعوى الرسالة، لا سبيلَ إلى إنكارها. وقوله: ﴿ءَاتِيكُم﴾: يجوز أن يكون مضارعاً أو اسمَ فاعل.

ثم حكى سبحانه وتعالى عنه كيف تكفَّف شرَّهم بعد أن رأى منهم شدَّة الإعراض والوعيد، فقال: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ﴾ أي: التجأتُ إليه وتوكَّلتُ عليه من ﴿أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: مِن أن تُؤذوني قولاً أو فعلاً، ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ أي: وإنْ لم تُصدِّقوا برسالتي فاتركوني وشأني، واعتزلوا عنّي، ولا تَتعرَّضوا لي بشرّ.

ولكنهم أبَوْا إلا المعارضة والأذى، حتى يئس منهم، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾، فأجاب الله دعاءه وأمره أن يُنفِّذَ الخطة الآتية، وقال: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يتَّبعكم فرعونُ وجنودُه حين يعلمون بخروجكم من مصر، فأسْرِ ولا تزل سائراً حتى تأتي البحر، فاضرِبْه بعَصاك ينفتح منه طريقٌ يابس، وهو واسع، فادخله حتى تقطعَه، ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ مفتوحاً لا تضربه بعصاك. والرّهو: وَصْفٌ من قولهم: عيشٌ راهٍ وثوبٌ راهٍ، بمعنى: واسع. ويقال أيضاً: ثوبٌ رَهْو، بهذا المعنى. أي: اترُكْه على حاله ذا طريق واسع راهٍ يخدع فرعونَ وجندَه، فيدخلون فينبطق عليهم، ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ثم أتْبعهم تأنيبَ تنديم، ونَعَى عليهم، فقال: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي: محافلَ منظَّمة، ومنازلَ عامرةٍ مزخرفة، ومراكزَ عاليةٍ مُفَخَّمة، ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: مُنعَّمين.

ثم فصَل الكلام بهذا الفاصل، للمبالغة في التحسيس، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: كذلك كان أمرُ فرعون وقومه، أو كذلك أفعلُ بمَنْ عارَضَني وعصاني.

ثم عطف على قوله: ﴿تَرَكُوا۟ ..﴾ قولَه: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: وأورثنا تلك الجنَّاتِ والعيونَ والزروع والمحافل والمنازل العامرة والمراكز العالية في أرض مصر، أورثناها من بعد فرعونَ وقومِه لبني إسرائيل؛ لكفر أولئك وإيمان هؤلاء.

وقيل: المراد بالقوم الآخرين: غير بني إسرائيل، لأنَّ بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر بعد أن خرجوا منها، ويجوز أن قد بقي منهم بقية في مصر بعد خروج موسى ببعضهم، وهو الأصحّ. والله أعلم.

ثم أضاف إلى تأنيبهم: الحطَّ من شأنهم، وقال: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ وهذه الجملة مجازٌ عن عدم الاكتراث بهم وبهلاكهم.

ثم زاد الأمر تهويلاً بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لم يُمْهَلوا حين جاء وَعْدُ عذابهم. والمراد: تخويف مُشْركي قريش بأن لا يَغْتَرُّوا بهذا الإمهال الذي يُمهِلُهم الله به إلى حين مجيء وعيده، وحينئذ لم يُنظَروا.

ثم ذكر ما كان من أمر المؤمنين من بني إسرائيل، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ﴾ حيث استعبدهم، وقتل أبناءهم، واستحْيَى نساءهم، على الخَسْف والضَّيْم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: مُتَجبِّراً مُسْرِفاً في الظلم والاعتساف.

ثم نوَّه بشأن بني إسرائيل، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ لهذا الأمر من بين أهل ذلك الزمن ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منا بحالهم واستحقاقهم التفضيل والاختيار ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ قال قتادة والحسن ومجاهد: أي: على عالَـمي زمانهم[1].

أقول: أي: على أهل زمانهم ومعاصريهم، كما اختار العرب لإنزال القرآن. واختيار بني إسرائيل لهذا الأمر، إما لأنهم أمْيَز ذلك العالم الفاسد[2]، أو لأنَّ الله سبحانه أراد أن يَمُنَّ عليهم ويُنجِّيهم من ظلم فرعون. والذلُّ والضيمُ يُؤهِّل النفوس لطلب التخلُّص والسَّعي وراءه[3].

ثم بيَّـن تعالى ما اختـارهم لـه، فـقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ أي: اختبارٌ ظاهر لينظر كيف يعملون، ويتميَّز بها المُصلِحون والمُفسِدون.

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» قول قتادة ومجاهد ـ بمعناه ـ (٢٢: ٣٧).

(٢) لأنهم كانوا مؤمنين وسواهم أغلبهم وثنيون.

(٣) ولكن بني إسرائيل لـمَّا خالفوا واختلفوا ـ كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [الجاثية: ١٧] ـ غضب سبحانه عليهم، كما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وهذه الآية تُؤذن بأنَّ شريعتهم كانت مشدَّدة، كما يُؤذن به قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقيل: المراد بالآيات: النِّعَمُ والمِنَنُ العظيمة، اختبرهم بها فكفروها، مثل الخلاص من فرعون، وفَلْق البحر، وتظليل الغمام، والمنّ والسلوى.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

وبعد أن أتمَّ الاستشهاد على سُنَّة الله في معارضة الأمم لرسلهم، باستطراد تاريخ موسى وفرعون وقومهما، عاد إلى أصل البحث، وهو الكلام عن مُشْركي قريش، وحكى إنكارهم للبعث، فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾[1] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾[2]، ويَسْتندون في إنكار البعث بقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾، يقولون ذلك لِجاجاً وعِناداً، ولم يفكِّروا بما ساقه الله لهم من الأدلة العقليَّة على صحَّة البعث والنُّشور، وجهلوا أنَّ البعث والنشور لا يكون إلا عاماً للبشر كلِّهم في وقت واحد، بعد انتهاء أمد هذا العالم، حسب سُنَّة الله في ذلك، لأن في

---

(١) الأول عند العرب هو ما يحصلُ أولاً، وربما لا يكون له ثان، كما تقول: هذا أولُ ما كسبتُه اليوم، وقد لا تكسب شيئاً بعده. فمرادُهم مما هنا: هو مرادُهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

(٢) أي: مبعوثين أحياء من القبور، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢] أي: أحياه يوم القيامة. والعرب تقول: أنشره ونشره؛ بمعنى واحد.

طبيعة زمن الحشر خاصَّةَ إحياءِ الأموات، كما أن في طبيعة زمن الربيع خاصَّة إحياء النبات، ولا توجد هذا الخاصة في بقية الأزمان[١].

وقد تَوعَّدهم سبحانه وتعالى على هذا التَّعنُّت بما جرى على أمثالهم السابقين، وسَبَك الكلام على تفوُّق أولئك عليهم بالقوة والمدنية، زيادةً في الترهيب لهؤلاء، فقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والـمَنَعة ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾[٢] ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ والمراد بهم: عاد وثمود وأضرابهم، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بما ظلموا وأصرُّوا على مُعارَضة أنبيائهم، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ مِثلَهم، فلْيعلم هؤلاء أنَّ مصيرهم - إنْ أصرُّوا - مصيرُ أولئك.

ثم ذكر دليل قدرته تحقيقاً لهذا التهديد، وأدمَجَ فيه أنه تعالى لم يخلق تلك العظائم عبثاً، يومئ إلى أنَّ وراءها امتداداً، بعثاً وحساباً، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: ما خلقنا هذا الخلق العظيم سُدًى، ولكنه أمرٌ له ما بعده، ولم نخلق البشر بهذا الخلق العجيب لينتهيَ أمرُه بالموت والفناء كالحيوان، كما قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥].

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: للغرَض[٣] الصحيح والأمر الحق، ولمقاصدَ

---

(١) الطبيعة والزمان لا تأثير لهما، وإنما التأثير لله تعالى وحده، كما تقدم التنبيه إليه مراراً. إلا إذا حُمل كلام المؤلف على المجاز كما يقال: أنبت الربيعُ البقلَ. والمُنبت على الحقيقة هو الله. والأَولى تجنُّب الألفاظ الموهمة. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدم أول الكتاب (١: ٤٣٩).

(٢) تُبَّع: أحدُ ملوك اليمن، وكان معروفاً عند أهل مكة ما حصل لقومه، وكان رجلاً صالحاً، وهو الأكبر، واسمه أسعد، وهو أبو كرب، من بني حِمْيَر اليمانية. والاسم وزنه: فُعَّل، مبالغةٌ في اسم الفاعل المشتقّ من مصدر: تَبِعَ، سُمِّي به العظيمُ من ملوك اليمن لتوكيد المبالغة، وأصله «تُبَيَّع» أُدغِمَت الياء الأولى في الثانية.

(٣) الغرض باعثٌ على الفعل داعٍ له، فينافي كمال الإرادة، ولذا يمتنع تعليل أفعال الله بالأغراض، وإنما ترتبط بالحِكَم، لأن الحكمة تابعة للفعل مرتبة عليه.

نبيلة، وغاياتٍ جليلة، وهي البعث والنشور وما نعدكم به ونتوعَّدكم عليه في ذلك اليوم المأثور، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ فلا ينظرون هذا النظر، ويقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥]، كلا، ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وهو يوم القيامة والحساب، يوم الفَصْل فيه بين العباد. وفي كلمة ﴿الْفَصْلِ﴾ توعُّد لهم على إنكارهم، تمّمه بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ أي: لا يُغْني مُوالٍ عن مُوالٍ، ولا قريبٌ عن قريبٍ شيئاً، ولا يدفع عنه أمراً، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ فلا يُرجى لهم نجاة، ولا ينجو من عذاب الله ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ فآمن وعمل صالحاً يرضاه الله، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يَنصُرُ من أراد تعذيبه، ﴿الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ بعباده، يهديهم إلى طريق الفلاح والنجاة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم ذكر شيئاً من صُورة ذلك العذاب وهَوْله، فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ وقد بيَّنها سبحانه وتعالى في سُورة الصَّافَّات بقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤ – ٦٥]، وهي ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ذي الإثم الكبير، وهو الكفر وما يلحق به.

ثم ذكر شدَّة أثر ذلك الطعام وهَـوْله، فقال: ﴿ كَٱلْمُهْلِ ﴾ وهو عكر الزيت، وقيل: النحاس الـمُذاب، ﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ وهو الماء فوق درجة الغليان.

ويقال للزبانيـة: ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ ﴾ أي: فجُرُّوه بقـهر وعنـف ﴿ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾ أي: وَسَطِه وغَمْرته، ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾، وقولوا له: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ زيادةً في التأليم والتقريع، واستهزاءً بما كان يزعمه في نفسه من العزَّة والكرامة في دار الدنيا.

وللمبالغة في التأنيب والتنديم، ويقال لهم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: تشكُّون به وتكذِّبونه، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون.

ومن مباحث اللفظ: الوقف على ﴿ ٱلزَّقُّومِ ﴾، فهو يدلُّ أنهمـا جملتان؛ الأولى محذوفة الخبر على طريقة إيجاز القرآن، والتقدير: إنَّ شجرة الزقوم هَوْلٌ عظيم. والثانية: محذوفة المبتدأ، أي: وهي ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾،، ويدلُّ على أنَّ الأوقاف في القرآن توقيفية تُؤخَذُ عن الرسول ﷺ.

ثم قابل حالهم بحالِ المؤمنين، زيادةً في تحسيسهم وإيقاظهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ[(١)] ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ والسُّندُس: ما رقَّ من الحرير، والإستبرق: ما غَلُظ منه.

ثم ذكر وضعيَّتهم في مجالسهم، فقال: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾ ليزدادوا أُنساً وصفاءً.

---

(١) أي: إنَّ المتَّقينَ المُمتثلين أوامرَ الله والمُجْتَنبين نواهيَه في مكان إقامةٍ أمين، يأمنون فيه على أنفسهم من الآفات والمكاره، في جنّاتٍ كثيراتٍ يُنعَّمُون فيها، وعيونٍ من الماء جارية تحت الأشجار والقصور.

ثم فصَّل الكلام وخلَّله بما يُقرِّره ويُؤكِّده، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك(١). ثم تابع البيان عنهم، فقال: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ والحور: جمع حَوْراء، وهي شديدةُ سواد العين وبياضها. والعِين: جمع عَيناء، وهي الواسعة العين.

ثم تابع البيان، فقال: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ أي: يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه، لا يختصُّ شيءٌ منها بزمان ولا مكان ﴿ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ من كلِّ ما يَسُوؤهم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال الزَّجَّاج: معناه: سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا(٢). فهذا الاستثناء على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، فإنَّ المعنى: سوى ما قد سلف. وقال البيضاوي: الاستثناء للمبالغة في تعميم النفي(٣).

أقول: ويجوز أن تكون الآية إيماءً إلى ما ينال أهل النار من تعدُّد الموت عليهم من شدَّة العذاب، وتَعدُّد إحيائهم ليذوقوا العذاب(٤)، المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا

---

(١) أي: كما أكرَمْناهم بما وَصَفْنا من الجنات والعيون واللباس، كذلك أكرَمْناهم بأنْ زوَّجْناهم بحُورٍ يحار الطَّرْف من بياضِهنَّ وصفاء لونهنَّ وسَعَةِ أعيُنهنّ.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٤٢٨).

(٣) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٥: ١٠٤).

(٤) لم يثبت هذا! ومن العجب أن المؤلف يتابع الشيخ محمد عبده في رفض بعض الغيبيات لعدم ورودها في نص متواتر، مع ورودها في خبر آحاد صحيح، وهي من فروع العقائد، ثم يأتي لقضايا عقدية أخرى كهذه، فيُثبتها بلا دليل جلي عليها! وتبديل الجلود لا يدل على الإماتة والإحياء.

نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، لذلك قال تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم امتنَّ سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أُعطُوا ذلك كلَّه عطاءً وتفضُّلاً منه تعالى.

ثم نوَّه بشأنه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ الذي لا فوز وراءه؛ لأنه نجاةٌ من شقاءٍ ليس وراءه شقاء، ونَيْلٌ لسعادة ليس وراءها سعادة، فأيُّ فوز أعظم من ذلك! اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ثم ختم السورة ببيان مِنَّته على رسوله والمؤمنين، وحُجَّته على المشركين المتمرِّدين، بإنزال هذا القرآن المُرْشِد لهذا الخير العظيم، والمُوقي من شقاء الجحيم، وقد أنزله بلغتهم ليَسهُلَ لهم فهمه، ويكون حُجَّة عليهم، فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: أنزلناه بلغتك، وهي العربية؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ويفهمون عنه أحوال الآخرة، وما يُؤدِّي إلى نعيمها وشقائها، فيرتدعوا عمّا هم عليه من أسباب الشقاء في الدنيا والأُخرى.

فإن لم يفعلوا ذلك ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ ما يحلُّ بهم من عذاب الدنيا قبل عذاب الأُخرى. وحينئذ يخيب فـأْلُهم في ترقُّبهم أن تدور الدوائر عليك، ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ذلك فيك. فقد كان مُشرِكو قريش يعتقدون في بادئ الأمر أنَّ دعوته ستظلُّ في نطاقها الضيِّق، فإذا ما لقي حتفه، عاجلاً أو آجلاً، تلاشَتْ دعوتُه وتفرَّق أصحابُه وعادوا إلى دينهم، هذا ما كانوا يعتقدون، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

* * *

سورة الجاثية

مكية، وهي سبع وثلاثون آية، وقيل: ست وثلاثون

والغرض منها:

الدعوة إلى التوحيد، لاختصاصه سبحانه بأفعال الألوهية وصفاتها، وإلى الإيمان بالبعث والحساب، والرد على مَنْ ينكر ذلك ويشرك بالله، ومقارعته تارةً بالدليل، وتارةً بالترهيب والترهيب، على نهج القرآن في مثل ذلك.

فشأن هذه السورة شأن ما قبلها وما بعدها من السور التي ابتدأت بالأحرف اهتماماً بموضوعاتها هذه، ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣
وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ
يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾.

﴿حمٓ ۝١﴾ مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها اهتماماً به، ومنه هنا قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾، والتعرُّض لصفة العزَّة إيذانٌ بلزوم تنفيذ أوامر هذا الكتاب ونواهيه، بتحقُّق إنجاز الجزاء المقرَّر لهما فيه، أما التعرُّض لصفة الحكمة فللإيذان بظهور أثرها في الأحكام التي جاءت فيه، والإرشاد الذي منه قوله: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ أي: في وضعها وشكلها وعوالمها المختلفة من جماد ونبات وحيوان، ولكلٍّ منها نظام عجيب وسنن إلهيَّة مُطَّردة في تكوينها وتوالُدِ ما يتوالد من أحيائها، وغير ذلك من العجائب التي تُبهِرُ عقولَ المتخصِّصين من أرباب العلوم والفنون.

وإنما خصَّ المؤمنين بالذِّكر؛ لأنَّ المؤمن تجعله عقيدةُ الإيمـان مُستعداً للنظر والتدقيق في آثار الله وعِظَم شأنه.

والمعنى: إن في كلِّ ذلك دلالةً واضحة على استحقاقه تعالى أن يُعبَدَ وحده، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿فِي خَلْقِكُمْ﴾ العجيب ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾ في الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ وفي البدائع والحِكَم التي يخلقها عليها ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ والإيقان: الإيمان الراسخ بعلم يقين. أما غير الموقنين بالإيمان فـ﴿كَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[يوسف: ١٠٥].

﴿وَ﴾ كذلك في ﴿ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الناتج عن إبداع النظام الشمسي، ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أي: من مطر ناتج من نظام البحار ونظام البخار، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وأخرج منها أصناف الزروع والنبات والثمرات، بعد أن كانت يابسة قاحلة، ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ بنظامٍ عجيب له أثر عظيم في الحالات الجوية والحياتية، في كلِّ ذلك ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ لأنه هم الذين يفقهون عَظَمة تلك الأمور، أما غيرهم فلا ينظرون في مساتير الطبيعة وعَظَمتها، ولا يعلمون عنها إلا كما يعلم الحيوان الأعجم عمَّا حوله، فيمرُّون عليها مرورَ الأنعام في مَسَارحها، وذلك لإفسادهم لطبيعتهم. أما العقلاء فيرون في كل شيء له آية تدلُّ على أنه واحدٌ أحدٌ فردٌ صَمَد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣-٤].

ثم ختم السياق بالإنكار على المُعرضين المعاندين الذين لا يتدبَّرون هذه الآيات، وهذا الذكر الحكيم، فقال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا يقبل الشك ولا الإنكار ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾؟! يُجهِّلهم بالإعراض عنها، ثم يتوعَّدهم بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ عن

الإيمانِ بما سمعه، والإذعانِ لِـمَا تنطق به من الحق، مُزْدرياً لها مُعْجَباً بما عنده من الأباطيل، فيُعرِضُ عنها ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾، ثم كرَّر الوعيد بعبارة تتضمَّن المبالغة في التحسيس به، وقال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾، والبشارة: هي الإخبار بشيء تتأثَّر به بِشْرة الوجه سروراً أو حزناً، وقيل: بل هي خاصَّة بما يَسُرّ، واستعمالُها بما يُحزن استعارةٌ تهكّمية مُؤْلمة، جيءَ بها للمبالغة في التحسيس.

ثم ذكر لهذا الأفَّاك قبيحةً أخرى، فقال: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ﴾ يمكن أن يَتَشبَّث به المُعانِد، ويجد له مُحْملاً فاسداً يتوصَّل به إلى الطعن والغمز؛ ﴿ ٱتَّخَذَهَا ﴾ أي: تلك الآيات ﴿هُزُوًا ﴾، فسَجَّل عليه بقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ﴾ الصنف ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾ لإهانتهم آيات الله، و﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾(١)، وقد بالغ في تيئيسهم من النجاة مُتهكِّماً بهم بقوله: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ ﴾ من الأموال والأولاد ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذاب الله تعالى، ﴿وَلَا﴾ يغنيهم شيئاً كذلك ﴿مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾، بل هم خالدون في جهنم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ لن يجدوا من دونه مَوْئلاً.

ثم ختم السياق بقوله: ﴿هَٰذَا هُدًى ﴾ أي: هذا البيان أو هذا القرآن: هو في غاية كمال الهداية، يُفلح من تـمسَّك به، ﴿وَ﴾ لكن ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ لا يهتدون به، وقد أقام مقامَ عدم الهداية جزاءَه، فقال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ والرِّجْز: أشدُّ العذاب.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ثم أردف هذا الوعيد بدليل قدرته، تحقيقاً له، وتأيـيداً للقدرة على إنجازه،

---

(١) أي: من أمام هؤلاء المستهزئين بأيام الله جهنم تنتظرهم.

وعَوْداً للاستدلال على صفاته العليَّة بجلائل أعماله، وأدمَجَ فيه عظائمَ منَّته، تقريعاً لهم، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ حيث خلق فيه طبيعة حَمْل الأثقال، إذا كانت على وضع خاص؛ ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة وغيرها، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ نِعَمَ الله عليكم بطاعتكم وانقيادكم له.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والرياح والسحاب وغيرها، ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات والمحصولات ﴿جَمِيعًا﴾ مِنَّةً ﴿مِّنْهُ﴾ تعالى عليكم، حيثُ جعلها مداراً لمنافعكم؛ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ في بدائع صُنع الله، ويقفون على جلائل نِعَمِه، ويعلمون أنه وحده مستحقٌّ لأن يُعبَد.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وبعد هذا السياق الذي عدَّد فيه على المشركين قبائحَهم وهزَّأهم بالآيات، ذلك الهزؤ الذي يُؤلم المؤمنين، ويُحنِّقهم عليهم، أردفَه بما يُسلِّيهم ويُرشدهم أن يعاملوا المشركين بالعفو والصَّفح الذي يليق بإيمانهم وكمال أرواحهم وأخلاقهم، فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾(١) أي: يسامحوهم إذا نالوهم بأذى. وفي أمره تعالى لهم بذلك إشارةٌ إلى أن المؤمنين ـ على قلّتهم ـ هم أصحاب القدرة والشوكة، وإيذانٌ بأنَّ أهل الحق هم المُؤيَّدون بالعناية الإلهية.

---

(١) أي: لا يتوقعون مجيء أيام الله الجزائيّة ووقائعه بأعدائه، مثل المصائب التي أنزلها سبحانه بالأمم قبلهم، كما قال سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢]. والعربُ تُطلِقُ الأيام على الحوادث الجسام التي وقعت فيها، فيُقال: أيام العرب في الجاهلية، أي: حروب العرب في الجاهلية.

وفي قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى أنهم لا يمنعهم عن الشرِّ مانع؛ لأنهم لا يعتقدون بالحشر والحساب، وأنهم سينالون جزاءهم الهائل في ذلك اليوم، كما صرَّح به بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ والتنكير للتعميم، أي: ليجزي الأقوام بما كانوا يكسبون.

ثم ذكر جزاء ذلك اليوم، بعبارة عامة ومُجمَلة، فيها تسليةٌ للمؤمنين وتأنيسٌ، قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ ثوابُ عمله، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ عقابُ عملِه، ولا يَسْري جزاءُ عمل إلى غير عامله، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ فتُجزَون خيراً أو شراً بحسب هذا القانون.

ويجوز أن يتعلق ﴿لِيَجْزِيَ﴾ بـ﴿يَرْجُونَ﴾، ويكون المعنى: قل للذين آمنوا يغفروا للمشركين الذين لا يعتقدون بأيام الله التي يجازي فيها العباد، ثم قرَّر جزاء ذلك اليوم وبيَّنه بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ...﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وبعد هذا السياق، ذكر سبحانه بني إسرائيل، وكيف أنعَمَ عليهم بنِعَم كثيرة

دينية ودنيوية، وكيف بيَّن لهم الدين ببيانات ظاهرة وبراهين باهرة، فاختلفوا رغم ذلك بغياً بينهم، ذكر ذلك إعلاماً بأن أمر هؤلاء المشركين في هذا الدين كأمر أولئك، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ قال قتادة والحسن ومجاهد: أي: على عالمي زمانهم(١).

أقول: بمعنى: اخترناهم من بين أهل زمانهم لهذه الكرامة المبيَّنة بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: دلائلَ ظاهرةً في أمر الدين ومعجزاتٍ باهرةً، ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ فيه ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقيقته، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف مُوجباً لرسوخه، أو ما يُوجب الوفاق سبباً للخلاف، ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: عداوةً وحسداً، لا شكاً فيه. والمراد من هذا الحصر: الاستغراب والمبالغة في النقد على هذا الاختلاف، بمعنى: أنهم اختلفوا بعد أن علموا حقيقة الأمر وحقيَّته، وأنَّ الاختلاف فيه ضلال ولكنهم ـ رغماً عن ذلك ـ اختلفوا فيه وتفرقوا بغياً وحسداً، وطلباً للرئاسة. فقد كان الرؤساء يَتَصدَّون لتغيير بعض معالم الدين حسب أهوائهم وأغراضهم، فيجعلون لهم مذهباً في الدين خالصاً؛ ليكون لهم أتباع يختصُّون بهم ويتكتَّلون حولهم، وتكون لهؤلاء الرؤساء السيادة عليهم والرئاسة فيهم، فتوعَّدهم سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ في أمر الأديان لمصالح الدنيا وحُطامها الفاني.

ولما كان هذا البيان يتضمَّن اختلال شريعتهم بهذا التلاعب فيها، واحتياج البشر إلى شريعة جديدة تقوم مقامها، ذكر ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، وأتى بكلمة ﴿عَلَىٰ﴾ إيذاناً بعُلوِّها ووضوحها، أي: طريقة واضحة جلية، ﴿فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ ويقولون: كيف جاء بشريعة مغايرة

---

(١) سلف الإحالة عليه (٢: ٩١).

لشريعة موسى؟ ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ مما يريد بك إن اتَّبعتَهم، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لا يواليهم ولا يتَّبع أهواءهم إلا من كان ظالماً مثلهم، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ الذين أنت قدوتهم، فدُمْ على ما أنت عليه من تَوَلِّيه وحده والإعراض عمَّا سواه، ولا تَرْهَب غيره، فلن يَضُرَّك إلا بإذن الله.

وهذا النَّهيُ ليس على حقيقته؛ لأنه لا يُتصوَّر منه ﷺ أن يتَّبع أهواءهم، ولكنه لون من ألوان شدَّة البيان في أساليب القرآن، أو هو نهيٌ للأمة في شخص النبي ﷺ، كما يقال للرئيس: إن فعلتَ كذا كان كذا، والمراد: إن فَعَلَتْه أُمتُك أو قبيلتك أو جندك. ومثل ذلك من خصائص اللغة وجاري العرف. ويجوز أن يكون هذا الكلام لمجرَّد التنويه بأمر هذا القرآن، وأنه هو الشريعة الوحيدة، وما عداه أهواء للذين لا يعلمون.

ثم نوَّه بشأن السياق وقَدْره بقوله: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1].

ثم توعَّد الظالمين، وضمَّنه إثباتَ الحشر والحساب، وبَنَاه على المباينة بينهم وبين المتَّقين، فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: اكتسبوا الآثام والأعمال السيِّئة ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بمعنى: أيظنُّون أن يستووا في الممات، كما استووا في الحياة، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[2].

---

(١) أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك ـ يا رسول الله ـ معالمُ للناس في الحدود والأحكام، يشتمل على حُجَج وبراهين، تكشفُ الحقَّ وتُثبتُه، وتكشفُ الباطل وتزهقُه، وهُدىً من الضلالة، ورحمةٌ من الله لقوم لديهم الاستِعدادُ لأن يَستَبصِروا بما جاء في كتاب الله، ويُوقنوا بالحقِّ الذي جاء فيه.

(٢) يجوز أن تكون الآية إنكاراً لِـمَا يعتقدونه من أنهم يتقرَّبون بعملهم إلى الله، وأنهم يُحسِنون صنعاً، ومرضيون عند الله، مستدلِّين بما يمدهم به من مال وبنين، وقد رد ذلك بما يلزم من حسبانهم =

كيف ﴿وَ﴾ قد ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: للغَرَض[1] الصحيح والأمر الحق المُسْتَتْبِع للغايات الجليلة والمقاصد النبيلة، ولم يكن خَلْقُهما عبثاً ولا سُدىً، وإنما هو أمرٌ له ما بعده من الحشر والحساب؛ ليرى كلُّ عامل عَمَلَه، ﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب.

﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم شرح بعض سيِّئاتهم وضلالهم، فقال: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: اتَّخذ له معبوداً بحسب هواه، ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ أي: مع عِلمِه الفطري الوجداني بأنَّ ما يعبده لا يُغْني عنه من الله شيئاً، ولكنه لا زال يعالج غريزته ويفسد طبيعته، حتى مال إلى صحَّة عبادة ما يُعبَدُ من دون الله، واقتنع بذلك، ﴿وَخَتَمَ﴾ الله ﴿عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾، وذلك بحكم سُنَّة الله في طبيعة الإنسان وجِبِلَّته، فإنه إذا تشبَّع بأمر وانطبع عليه لا يميل إلى ضدِّه أبداً، ولا يُقلع عنه ولا يسمع ما يخالفه وإن كان حقاً واضحاً، ويلتمس له التأويلات والمُفنِّدات، ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾ أي: مَنْ يهديه

= هذا، من نسبة التهويش والتخليط إلى الله. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ومحصله: أن مثل هذا لا يصدر عمن خلق السماوات والأرض بالحق، والنظام العدل، وكل شيء عنده بمقدار، وكيف يجعل المسيء كالمحسن، مماته كمحياه، ساء ما يحكمون. (المؤلف).

(١) تقدَّم في التعليق على الآية ٣٩ من سورة الدخان ـ وفي مواضع أخرى كثيرة ـ بيانُ أن أفعال الله تعالى لا تُعلَّل بالأغراض، وإنما ترتبط بالحِكَم ينظر على سبيل المثال (٤: ٤٤٥).

بعد أن تعمل فيه سنة الله عَمَلَها هذا؟ أو المعنى: فهل من هدى غير هدى الله؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[١] ذلك؟

وفي إسناد الإضلال والختم إلى الله تعالى تجوُّز، يُراد به عملُ سُنن الله العامة في أخلاق الإنسان وطبائعه، على نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية).

ثم حكى لهم ضلالاً آخر في إنكار البعث، كان عقيدةَ الدهريِّين منهم، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت بعضنا ويحيا بعضنا، بمعنى: تُولَدُ الأبناءُ وتموتُ الأجداد، وهكذا دواليك: أرحام تدفع وأرض تبلع، لا نهاية لذلك، ولا حَشْـرَ ولا نَشْـرَ ولا حياةَ أُخرى، وإنما هي هذه الحياة الدنيا فقط، نحيا فيها مدَّة العمر، وينتهي الأمر بانتهائه، ولا شيء وراءه، ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[٢] أي: مرورُ الزمن وأعراضُه وحوادثه من الأمراض والقتل وغيرها.

---

(١) ومعنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص٥٠١: أُنظُرْ بتفكير وإمعانِ نَظَرٍ ـ يا صاحبَ الرأي والفِكر ـ لترى من اتَّخذَ معبودَه في الحياة الدنيا هواه، فهو يُوجِّه كلَّ حركاتِ حياته لِـمَا تميلُ إليه نفسُه، كتوجُّه العابد لمعبوده، وحَكَمَ اللهُ عليه بالضلال حكماً مبنيّاً على عِلم بحاله؛ إذِ اختار لنفسه الضلال على الهدى، وسدَّ على مَنافِذِ سَمْعِه وقلبه سدّاً مانعاً من دخول الهداية إليهما؛ نتيجةَ اختياره الحرّ؛ ضمن نظام الله التكوينيّ، وجعل على بَصَره غطاءً مانعاً من إدراك أثر رؤية آيات الله في كونه، نتيجة اختياره الحرِّ أيضاً، لا يوجد أحدٌ في الوجود كلِّه يحكم له بالهداية من بعد أن حَكَمَ الله عليه بأنه ضالٌّ بإرادته الحرّة، أفلا تضعون هذه الحقائقَ التي عرضناها عليكم في خزائن معارفكم، وتستدعونها إلى ذاكرتكم عند كلِّ مناسبةٍ تدعو إلى تذكُّرها، لإيقاظ الإيمان بها، والعمل بمقتضاها.

(٢) الإلحاد والإنكار للآخرة: جفافٌ مُؤلِم، وفراغٌ مفزِع، ومحاربة للطبيعة الإنسانية المفطورة على الشعور بالله والاتكال عليه والأمل فيه، وبدونه تكون في الإنسان هوّة ساحقة لا أمل فيها ولا رجاء. أعاذنا الله. (المؤلف).

فأنكر عليهم هذا الجهل والسَّفَه بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إنهم اعتمدوا في هذا الأمر العظيم على الظنِّ والتخمين، وهو غيبٌ لا يُدرَكُ إلا بالوحي وعلم اليقين.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتٍ في إثباته ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ في معارضتها وإنكارها ﴿إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾(١) وذلك لِفَرْط جهلهم في أن لله سُنناً لا تـتغيَّر، ومنها: أن البعث والإحياء لا يكون إلا في أجله المؤجَّل له، وذلك عندما يُبدِّل الله هذا الكون بكون آخر يلائم الحياة الثانية، فيُبعَثون كلُّهم دفعة واحدة، فإنَّ زمن البعث في إحياء الأموات، كزمن الربيع في إحياء النبات، وليس لغيره من الزمان هذا التأثير(٢).

لذلك أمر الله سبحانه نبيَّه ﷺ أن يجيبَهم بالدليل، مسبوكاً على ما ذكرنا، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ ويُبقيكم إلى أجل معين، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ جميعاً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، ذلك الأجل الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مَنْ قَدَرَ على البدء قَدَر على الإعادة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾؛ لقصورهم في النظر والفكر والاستنباط وصحَّة القياس.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ

---

(١) مفاد هذا: ما يقوله الملحدون من العامة: لم نر أحداً خرج من قبره يرقص في كفنه. (المؤلف).

(٢) بل لا تأثير للزمان مطلقاً، لا زمن الربيع في إحياء النبات، ولا زمن البعث في إحياء الأموات، وإنما هو ظرفٌ لوقوع الحوادث بإرادة الله تعالى. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدم أول الكتاب (١ : ٤٣٩).

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ثم أردف البيان بدليل قدرته وسلطانه، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يتصرَّف فيهما بأمره وقدرته بسنن مطَّردة، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ وينجز الوعد والوعيد ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ المنكرون، فيندمون ولاتَ ساعة مندم.

ثم صوَّر هَوْلَ ذلك اليوم، فقال: ﴿وَتَرَىٰ﴾ يومئذ ﴿ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ استِسلاماً وخشوعاً وانتظاراً للفَصْل في أمرها. ويجوز أن يكون هذا التعبير على حقيقة معناه، أو على المجاز، فيكون تمثيلاً مُنتـزَعاً من حالة المأسورين أو المُعتَقَلين الأذِلّاء. والله أعلم.

ثم ذكر المستند في ذلك الفصل، فقال: ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ المُنزَّل على رسولها ليُعرَض عليه عَـمَلُهم وتصرُّفاتهم[1]، أو المراد: صحائف أعمالها، وجاء هذا التعبير باعتبار العموم، وإن كان لكلِّ فرد صحيفة، فهو على حدِّ قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف: ٤٩]، ويقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي: فلا نغادرُ كبيرة ولا صغيرة إلا كنا نُحصيها عليكم أو لكم.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾، و﴿ذَٰلِكَ هُوَ

---

(١) هذا القول حكاه الماوردي في «النكت والعيون» (٥: ٢٦٨)، ونقله عن الجاحظ، وجعله آخر الأقوال؛ إشعاراً بضعفه، وجمهور المفسرين سلفاً وخلفاً على أن المراد: صحائف الأعمال.

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾(١) ﴿٣٠﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فيُدخِلُهم في عذابه، ويقول لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لكم: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والحساب والرحمة والعذاب ﴿حَقٌّ﴾ لا ريب فيه، ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ حقٌّ ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أنكرتُم و﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم صرّح بما حلَّ بهم نتيجةَ إنكارهم المبنيِّ على الظنّ والتخمين، في موضع العلم واليقين، فقال: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ وعاينوا وخامة عاقبتـها، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾ و﴿وَ﴾ زيادةً في الإيلام ﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ في العقاب ونترككم فيه تَركَ المنسي ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: كما تركتم عُدّته وأسبابه ولم تُبالوا فيه، فأنتم خالدون في العذاب، ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ يُيئِّسُهم من النَّجاة، ويُعلِّل الأمر بقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فحَسِبتُم أنْ لا حياة سواها.

ثم أسقطهم عن رتبة الخطاب، وتحدَّث عنهم بطريق الغيبة، إهانةً لهم، وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ولا يُطلَبُ منهم أن يعتبوا ربَّهم ويُرضوه؛ لفوات الأوان.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

---

(١) أي: فأما الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات التي تدلُّ على صحَّة إيمانهم، فيُدخِلُهم ربُّهم في رحمته التي من آثارها جنَّته العظيمة، ذلك الدخولُ في الجنَّة هو ـ وحده ـ الظفرُ المطلوب والربحُ الظاهرُ الجليُّ الواضح.

وختم السورة بقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ على ما أوقفكم على أمور الآخرة لتستعدُّوا لها، وعلى ما أَوْلاكُم من سائر النِّعم، ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ فهو مُربِّي الجميع والمستحقّ فيهما لأن يُعْبَدَ وحده.

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العَظَمة والجلال ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لظهور آثارهما فيهما، فهو العظيم الشأن الذي ليس كمثله شيء، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ الذي لا يُغْلَب على أمره، ويضعُ كلَّ شيء في مَوْضِعه حَسْبَمَا تقتضيه الحكمة البالغة والمصلحة العامة، لا إله إلا هو.

* * *

سُورَةُ الأَحْقَافِ

مكية، وهي خمس وثلاثون آية

يجادل فيها المشركين، ويردُّ عليهم إنكارهم لهذا القرآن.

ثم يبيِّن حال من أفسد فطرته ولم يؤمن، ومن حافظ على فطرته فآمن، ويتوعَّد الأوَّلين ويؤنِّبهم، ويبالغ في ذلك بذكر إيمان الجن، فما عذر المشركين؟

ثم يذكر دليل قدرته على إنجاز الحشر.

ويُسلِّيه ﷺ على موقفهم هذا ويُهوِّنه عليه.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ٧﴾.

﴿حمٓ ١﴾ قد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: إنها لتنبيه الفكر وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها اهتماماً به، ومنه هنا قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ هذا ﴿ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾ والتعرُّض لوصفي العزَّة والحكمة للإشارة إلى ظهور آثارهما فيه، فكلُّ ما جاء فيه مبنيٌّ على الحِكَم، ومعارضُه مغلوب.

ثم أيَّد البعث الذي هو من مباحثه وموضوعاته المهمة، وقرَّره بقوله: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي جاء في هذا الكتاب تفصيلاً له، أو للغرض الصحيح(١) والأمر الحق، وهو البعث والنشور، وفيه إشارة إجمالية إلى أنَّ الآخرة امتدادٌ للأولى، وإنْ تبدَّلت الأرض غير الأرض والسماوات، والله أعلم، وإلى أنَّ تكوين العالم

---

(١) أفعال الله تعالى لا تُعلَّل بالأغراض، وإنما ترتبط بالحِكَم، كما تقدَّم بيانه مراراً. ينظر على سبيل المثال (٤: ٤٤٥).

وإبداع بني آدم لم يكن عَبَثاً ولا شيئاً سُدىً، وإنما هو مُؤسَّس على قواعد الحكم البالغة المُسْتَتْبِعة للغايات الجليلة والمقاصد النبيلة التي ستُحقَّق بعد آماد، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ينتهي إليه أمرُهما الأول بخرابهما، وهو يوم القيامة الذي يقوم الناس فيه لربِّ العالمين، يَـرَوْنَ حسابهم وينالون جزاءهم، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ به في ذلك اليوم ﴿مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ ومكذِّبون.

فأنَّبهم على تكذيبهم وسَخَّفهم في شركهم، ونَقَضَه عليهم بطريقة هازئة، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أَخلَقوا شيئاً مما فيها ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وخَلقُ شيءٍ مما فيها؟!

وبعد أن بكَّتهم وأفحَمَهم عقلاً، بكَّتهم وأفحَمَهم نقلاً، فقال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ القرآن؛ مِن الكتب السماوية، ينطق بما تقولون وتفعلون، ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: بقيةٍ من علم يُؤْثر من كتب الأوَّلين.

ويجوز أن يعود هذا الكلام إلى مثل ما يقوله علماء المناظرة: إن كنت ناقلاً فالصحَّة، أو مدَّعياً فالدليل. فيريد بالكتاب: النقل الصحيح، وبالأثارة من العلم: النظر الصحيح؛ لأنَّ الإثبات لا يكون إلا بهما. أي: أثبِتوا ما تقولونه بأحد الطريقين ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ في دعواكم هذه. ومؤدَّى هذا الكلام: إثباتُ جهلهم وسَخافة عقولهم وشناعة ضلالهم.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وفي هذه الغاية بلاغة عالية، وذلك لأنَّ طول المدة في النداء ولا مُجيبَ؛ يستوجب الانتباه طبعاً، حتى من البُلْه والحمقى. ففيه زيادةٌ في التبكيت والتسخيف.

ثم ترقَّى إلى ما هو أبلغ، فقال: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ فلا يشعرون به، فَضْلاً عن عدم إجابته.

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل يتعدّاه إلى ما هو أمَـرُّ وأنكى، ﴿وَ﴾ ذلك أنه ﴿إِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ يوم القيامة للمناقشة والحساب ﴿كَانُوا۟﴾ أي: هؤلاء المعبودون ﴿لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء العابدين ﴿أَعْدَآءً﴾ ينقمون عليهم ذلك، ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ لهم ﴿كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾، ينكرون أنهم كانوا يعبدونهم؛ لعدم شعورهم وعلمهم به. وفي هذا الإنكار من البُهت والفشل وانقلاب الخيال وخيبة الآمال لأولئك العابدين ما لا يُقدَر. والمراد بـ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾: صالحو الأموات.

ثم تابع البيان عن ضلالهم فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ مؤثِّراً على نفوسهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ أي: بليغ قويُّ التأثير. فيصرفون ذلك إلى السحر، ولا يصرفونه إلى ما فيه من الحق اليقين والنور المبين والصراط المستقيم، فينسبونه إلى الرسول، ولا يدركون بذلك أنه من العلي العظيم. خابوا وخَسِروا.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

ثم أضرب إلى بيان ما هو أشنع مقالاً، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، و﴿أَمْ﴾ للعطف على محذوف، أو بمعنى: بل، أي: يقولون: إنَّ محمداً افترى هذا القرآن من عند نفسه، ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ لا يتركني الله أفتري عليه حتى يُعاجِلَني بالعقوبة، ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إذْ لا يَقدِرُ أحدٌ أن يُنقِذَني منه، ولا يترك سبحانه مَنْ يفتري عليه أن ينجح في عمله. وفي إسناد هذه المُلكية إليهم بلاغةٌ عاليةٌ في تسخيفهم وتأنيبهم.

ثم قرن ذلك بتهديدهم، مفوِّضاً أمرَهم إلى الله، فقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: بما تخوضون فيه من تكذيب هذا القرآن.

ثم تابع الكلام بما فيه استنجادٌ واستعانةٌ عليهم، وتوثيقٌ لصدقه، فقال: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ، ويشهد عليكم بالجحود والإنكار. ثم ختم الكلام ببيان سبب أناة الله فيهم، مع فعلِهم وقولهم هذا الموجب لغضب الله، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾ لمن تاب، فيُمهِلُهم لعلَّهم يتوبون ويرجعون.

ثم أمره أن يجيب بجوابٍ ثانٍ عن نسبة الافتراء إليه، فقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: لستُ أولَ مرسل، وليس أمري غريباً عنهم، فماذا تستنكرون؟ ﴿وَ﴾ إننا تحت سلطان القدرة العالية ﴿مَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ قال الحسن البصري: أي: في الدنيا(1)، لأننا في قبضته وتحت قهره وسلطانه، فكيف أفتري عليه؟ ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ منه تعالى، ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾ أنذر المعارضين بعذاب أليم، ووبال شديد.

ثم أمره أن يـجيبَهم بجواب ثالث مُبـكِّت، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهو عبد الله بن سلام، فقد شهد ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: على مثل هذا القرآن، وهو ما في التوراة من المعاني المصدِّقة لما جاء فيه. يريد بذلك مماثلةَ هذا القرآن للتوراة الصحيحة في احتوائه على التوحيد والوعد والوعيـد، ﴿فَـَٔامَنَ﴾ به هذا الشـاهد ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنـتم عن الإيمـان به، وكان مشركو العرب يَـثِقُون بالكتابيِّـين كلَّ الوثوق، لذلك يـحتجُّ القرآن عليهم بأقوال أهل الكتاب وشهاداتهم، ثم علّل إعراضهم عن الهدى بعد كلِّ هذه البراهين

---

(1) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ١٠٠).

الواضحة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي: مَضَتْ سنَّته تعالى في أخلاق الإنسان أنَّ من تشبَّع منهم بالضلال لا يميل إلى الهدى، ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ثم حكى سبحانه صورة أُخرى من ضلالهم، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ واللام للنسبة لا للتعدية، أي: قالوا فيهم: ﴿لَوْ كَانَ﴾ هذا الأمر ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي: لم نَدَعْهم يسبقوننا إليه. فأنبهم سبحانه بقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ لأنَّ كلَّ مَنْ لم يهتدِ إلى شيء يلتمس له الوَصَمات، وذلك لأنَّ المرءَ عدوٌّ لما جهل، ومُقاوِمٌ لما يكره، والسِّينُ للاستقبال والاستمرار.

وقد ردَّ الله عليهم بما خلاصتُه: كيف تنكرون على هذا القرآن مع أنه مصدِّق لكتاب موسى، وأنتم لا تشكُّون فيه ولا تنكرونه، فقال: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أُنزِلَ ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ له حالَ كونه ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ بلغتكم، واضحَ البيان لديكم؛ ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

ثم شرح صفة المُحسِنين وذلك الإحسان، وبيَّن البشرى المترتِّبة عليه، ضمن التزام نهج القرآن في بيان أمر المؤمنين عَقِبَ بيان أمر المشركين، لأن الضدَّ يُظهِرُ حُسنَه الضدُّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: جمعوا بين التوحيد والاستقامة

في أمور الدين ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾(١).

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۝١٦﴾.

ثم أردف السياق ببيان حالة الإنسان العامة، فذكر أنه ينقسم إلى صنفين أساسيَّين:

صنفٍ حافظ على سلامة غريزته بصحة تربيته وحسن قدوته، فيُوحِّد الله، ويؤمن بما جاء من عند الله من وحي وشريعة، ويؤمن بالبعث والحساب والجنة والنار، ويَبَرُّ والدَيْه إرضاءً لله.

وصنفٍ أفسد غريزته بمفاسد التربية وسوء القدوة، فينكر على ما جاء من الله ويكرهه، ويُنكِر البعث أشدَّ الإنكار، ويَعُقّ والدَيْه إذا حملاه عليه.

ذكر ذلك بصورة تُلمع إلى أنَّ في طبيعة الإنسان معرفةَ الحق والميل إليه، وأنَّ

---

(١) أي: إنَّ الذين قالوا بصِدْق: ربُّنا الله وحده، ثمَّ بعد إعلانهم الإيمان والإسلام بصِدقٍ استقاموا على توحيد الله وشريعة محمد ﷺ، فلا يتسلَّط عليهم خوفٌ من مُرْهبات قادماتٍ مُستقبَلات؛ لأنَّ الله جعل لهم الأمن منذ لحظة موتهم، ولا هم يحزنون على شيءٍ فاتهم من دنياهم؛ لأنهم يَرَوْنَ أنَّ ما أعدَّ الله لهم في آخرتهم أعظمُ وأجلُّ من كلِّ ما في الدنيا من متاع، أولئك الفُضَلاءُ ذوو المنزلة الرفيعة، أصحابُ الجنة الملازمون لها بفضل ربِّهم، حالةَ كونهم خالدين فيها، جزاءً بسبب ما كانوا يعملون من الصَّالحات.

العدول عنه إلى الباطل يَعرِضُ من فساد المُعاشَرين والتقليد الأعمى، لا في أصل الخِلقة والطبيعة.

وقد جعل سبحانه الوصيَّـةَ بالإحسان إلى الوالدَيْن الذي هو فرعٌ من مطلق الإحسان السابق في قوله: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]؛ جعله حلقةَ وَصْل للبحث، ومدخلاً له وتمهيداً، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾، ثم علَّل ذلك بما يحرِّك الشعور إليه من حالة الأم في الحَمْل والرضاع، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ يُلمع إلى ما في الحمْل والوضع من أدوار المشقَّة والآلام الجسميّة والنفسيَّة، فذلك يُؤذِنُ بعِظَم حقِّ الأم.

ثم بيَّن مدة الحمل والفِصال، تقريراً لطول تلك الآلام، فقال: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ[1] ثَلَٰثُونَ شَهْرًا[2]﴾ فهذه الجملة بحسب السياق لتحريك الشعور في حقوق الأم على الولد، وبحسب النظم بيانٌ لحكم مدة الحمل والرضاع، على نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم ذكر حالة من يحافظ على سلامة طبيعته، بحُسْن تربيته وصالح قدوته، حتى يبلغ سنَّ الرشد، ويتكامل حتى يبلغ الكمال، مُلمِعاً بسياق الكلام أن الهدى مغروسٌ في طبيعتـه، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ جمع: شِـدَّة، كأنعُم جمع نِعمة، وهي القوة في الجسم والعقل أي: حتى إذا استحكم عقله وكملت قوته ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ من عمره ـ وهي سن الكمال، والسن التي يعرف فيها قيمة والديه بوجود ذُرِّيته ـ ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ ضمَّنها معنى: اهدِني، أو: أَدِّبني، أو: قدِّرني، فجمع فيها معنى الهداية

---

(١) أصلُ الفِصال: الانفِصالُ الناتجُ عن الفطام، وأُريدَ به هنا: المدّةُ الكاملة للرَّضاع التي يعقبُها الفطام، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، والمراد: أنّ مدّة حَمْلِه ورضاعه ثلاثون شهراً.

(٢) ستة أشهر أقل مدة الحمل، والباقي أكثر مدة الرضاع.

والشكر والمنع من الإعراض عنه، على نهج القرآن في التضمين، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية)، أي: أَلهِمْني وأولِعْني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي: اجْعَل الصلاح راسخاً فيهم، وهذا الدعاء يُمثِّل سلامة غريزته من الإفساد، حتى سارت بالتربية الصحيحة نحو الكمال، فعلم قيمة الصلاح وثمرته العظيمة، لذلك لم يقنع بصلاح نفسه، بل طلبه أيضاً لذرِّيَّته، وتاب إلى الله تعالى عمَّا سلف له من الزلات والهفوات، بعد أن صَفَتْ نفسه هذا الصفاء، وكَمُلَت هذا الكمال، فقال: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: من المُنقادِين لك ولأوامرك ونواهيك.

وقد ذكر سبحانه حُكْمه في هذا الصنف، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: عن هفواتهم وزلَّاتهم التي لا يسلم منها مِثلُهم أيضاً، ونجعلُهم ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ به على ألسنة الرسل ومُنزَلات الكتب. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ومن مباحث اللفظ: أن كلمة﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾: مفعول مطلق لمضمونِ ما قبله؛ لأن التقبُّل والتجاوز هو إنجاز ذلك الوعد.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم ذكر حالة الصنف الثاني، وهو الذي يفسد غريزته بمفاسد التربية وسوء القدوة، فينكر على ما جاء من عند الله ويكرهه، وينكر البعث أشدَّ الإنكار، ويَعُـقّ والدَيْه في هدايتهما له إلى الخير، مُلمِعاً إلى أن ذلك لم يأتِهِ بأصل الخلقة، ولكن بإفساده لطبيعته، فقال: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾ من قبري وأُبعَثَ ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ ولم يخرج منهم من قبره أحد.

ولم يَفطَن هذا المغرور إلى أنَّ البعث لا يكون إلا في زمنه المُعَدِّ له، والذي فيه خاصَّة الإحياء للأموات، كما لا يكون إنبات النبات وتفريع الأشجار في فصل الشتاء، وإنما يكون في زمن الربيع الذي فيه خاصَّة الإنبات والتفريع(١)، والمُعَدّ لذلك، ولكن هذا المغرور يتغابى ويقول ذلك لوالديه عناداً، ﴿وَهُمَا﴾ أي: والداه ﴿ يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ ليرجع ابنُهما عن غَيِّه ويَرُدَّانه عن كفره، ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ وأباطيلُهم في الكتب القديمة، وكيف نحيا بعد أن نكون تراباً؟!

وفي هذا البيان إرشادٌ إلى أنَّ هذا الإفساد للغريزة إنما هو بصنع الإنسان وتأثُّره بالمؤثِّرات الخارجية، ولا ينتقل بالوراثة، إذ إن أبوَيْه مؤمنان لم يُفسِدا غريزتهما، وهو كافر أفسَدَ غريزته بمفاسد التربية وسوء العشير، فذكر سبحانه حُكمَه في هذا الفريق، فقال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ أي: قولُه تعالى لإبليس: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٥]، وأشار سبحانه إلى كثرة هذا الصنف بقوله: ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، ثم أنَّبهم ونعى عليهم بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) ينبغي أن يقول: الملائم للإنبات والتفريع، لأن سنة الله جرت بأن يكون زمن الربيع ظرفاً لهما، لا أن له خاصة مؤثرة؛ إذ التأثير لله تعالى وحده. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدم أول الكتاب (١ : ٤٣٩).

ثم بيَّن تعالى أن كلَّ فريق من الفريقين تختلف درجات أصنافه وأفراده باختلاف تربيته وأعماله، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الفريقين المؤمنين والكافرين ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ في النعيم والعذاب بدرجات أعمالهم في الصلاح والفساد ﴿مِّمَّا عَمِلُوا﴾، وقوله: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ عائد للمؤمنين، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ عائد للكافرين، ومثل هذا من نهج القرآن وإيجازه بناءً على الظهور(١).

ثم فصَّل أحوال أهل العقاب، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يُقالُ لهم تأنيباً وتنديماً: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ(٢) بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ على الأنبياء والرسل، وما يأتون به عن الله، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: تخرجون عن طاعة الله عزَّ وجل فيما يأمركم به وينهاكم عنه. والهُون: الهوان.

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا

---

(١) والظاهرُ عودةُ الضمير للفريقَين من المؤمنين والكافرين من الإنس والجنّ، أي: وليُعطى كُلًّا منهم جزاءَ أعمالهم، وافياً تامّاً، وهم جميعاً لا يُظلَمون بزيادة في سيِّئاتهم، ولا بنَقْصٍ من حسناتهم. وفي الآية دليل على أنَّ الجنَّ يُثابون ويُعاقَبون كالإنس.

(٢) أي: الهوان والذلّ. والهون: أصلُه مصدر، ومعناه: الهوان والذلّ. وأُريد هنا اسمُ الفاعل مبالغةً، أي: المُهينُ جداً حتى كأنه هو الذلُّ نفسُه، كما تقول: رجل عَدْل، أي: عادل جداً.

وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

ثم ذكَّر الله نبيَّه ﷺ بهود عليه السلام؛ تسليةً له ووعداً بنصره على المعارضين له من قومه، وتوعُّداً لهم بأنَّ حالهم سيكون كحال قوم عاد؛ لأن عملَهم كعملِهم، وتعنُّتَهم كتعنُّتِهم، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي: أحدَ أفرادهم الذي يحرص على مصلحتهم، وهو هود عليه السلام، ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ قال ابن عباس: هو وادٍ باليمن بين عُمان ومهرة. وقال ابن إسحاق: هي رمال بين عُمان إلى حضرموت. وقال قتادة: هي رمال مُشْرفة على البحر بالشحر من اليمن[1].

وقبل أن يفسِّر الإنذارَ بيَّن أنه قد تتابعت به الرسل، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾[2]، ثم فسَّر ذلك الإنذار بقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عبدتُّم غيرَه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾[3] لا يَنْجُو منه مَنْ وقع فيه.

ثم ذكر ما أجابه به قومه، فقال: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أي: لِتَصرِفَنا بالإفك والتمويه ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾؟! كلا، لا نترك عبادتها إلى عبادة ما تدعونا إليه، ولا نُصدِّق

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ١٢٣).

(٢) أي: والحال أنَّ هوداً قد مَضَت الرُّسل الذين بُعثوا من قبل هود، والذين سيُبعَثون بعده.

(٣) أي: قال هودٌ لقومه مثلَما قال الرُّسُلُ الذين جاؤوا من قبله ومن بعده: بأن لا تشركوا مع الله شيئاً في عبادتكم له، فإنْ لم تستجيبوا لي، وقد أقمتُ فيكم زمناً طويلاً أُبلِّغكم رسالات ربِّي، فإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، يكون فيه هلاكُكم هلاكاً جماعيّاً ساحقاً ماحقاً.

بما تخوّفنا به، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ به من عذاب الاستئصال ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾، يتجبَّرون ويستهزئون عليه.

فأجابهم هود عليه السلام عن تجبُّرهم هذا واستهتارهم، و﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: هو الذي يعلم متى يأتيكم العذاب، أما أنا فلا أعلم من ذلك شيئاً، ولا أقدِرُ عليكم بشيء، ﴿وَ﴾ إنّما ﴿أُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ إليكم، ومن جملته نزول العذاب بكم إن لم تنتهوا عن الشرك، ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ حيث تقترحون عليَّ ما ليس من وظائف الرسل، من الإتيان بالعذاب وتعيين وقته والتعجيل به.

ثم حكى نزول العذاب بهم في الوقت الذي عيّن له، وما كان من أمرهم عند نزوله، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ والعارض: السَّحاب يَعرِض في السماء، أي: فلمّا رأوُا العذاب على شكل سَحَاب يستقبل المزارع والوديان، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: ظنُّوه سَحَاباً يحمل لهم المطر والخير، فردَّ عليهم بقوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب، وهو ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ حيثُ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، ثم صوَّر ما جرى عليهم بهذا العذاب، وقال: ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾ أثراً بعد عَيْن ﴿لَا يُرَىٰٓ﴾ منهم ﴿إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ الخالية الخاوية.

ثم ذكر من التعليل ما فيه مبالغةٌ في التحسيس والتنبيه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ وفيه توعُّد للكفار من قريش بمثل ذلك، إنْ أصرُّوا على الشِّرك.

وقد بيَّن أن عاداً أفضَلُ منهم بالقوة والمال، للمبالغة في توعُّدهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾، و﴿إِن﴾ هذه هي النافية، والمعنى: أنَّ عاداً كان لهم من القوة والسَّعة ما لم يكن لكم، فلم يُغْنِ عنهم ذلك من الله شيئاً لـمّا حادوا عن أمر الله وعارضوا رسولهم.

ثم بيَّن منشأ ضلالهم، فقال: ﴿وَ﴾ قد ﴿جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ كما لكم، ليستعملوها فيما خُلقت له، ويعرفوا بكلٍّ منها ما نِيطَت به معرفتُه على وجه الحق، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ لأنهم أفسدوا غريزتها وحرّفوها عن استقامتها، كما فعلتُم أنتم بمواهبكم، فأصبحت ترى الحقائق بغير صُورها، فتعتقد الحقَّ باطلاً والباطلَ حقاً، فجاءهم بأس الله ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ويهزؤون بها، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل بهم وأحاط ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ من العذاب.

وإنما أفرَدَ «السمع» دون «الأبصار» و«الأفئدة»، لأنه مصدر، والمصادر لا تجمع، فروعي فيه الأصل، أو لأنه ذكر مع الجمع فيُراد به الجمع، وذلك من خصائص اللغة، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨].

ثم تابع تخويف قريش بما جرى على أمثالهم، وسبكه على التبكيت، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ وهم قوم هود وكانوا باليمن، وقوم صالح وكانوا بالحِجْر، وقوم لوط على طريقهم في الشام.

ثم عَطَفَ عليه عَطْفَ العِلّـةِ على المعلول قولَه: ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ لهم ﴿ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: نوَّعنا لهم العِبَرَ والعِظاتِ ليرجعوا عن غيِّهم، فلم يرجعوا.

ثم بكّـتهم وأنّبهم بقوله: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ من نزول العذاب ودَفَـعَه عنهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ أي: فهَلّا نصرهم أصنامُهم الذين اتخذوهم وسائطَ يتقرَّبون بهم إلى الله.

ثم أضرَبَ عن التقريع والتأنيب إلى التقرير والبيان، فقال: ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ ولم ينفعوهم بشيء، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ هو الواقع المنتظر. أما اعتقادهم بأنهم سيُقرِّبونهم إلى الله

زُلفى ويشفعون لهم عند الله؛ فذلك ﴿ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ أي: فذلك إفكٌ من المشركين وافتراءٌ عليهم، يأتفك به الرؤساء على الأتباع فيُصدِّقونهم ويتبعون.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم ذكر ـ على سبيل المبالغة والتقريع لهم ـ إيمانَ الجن واستجابتَهم للدعوة، إذ فيه زيادة تأنيبٍ لهم؛ لأنَّ الرسول من جنسهم ومن قومهم، وجاءهم بلسانهم، فكفروا وتولَّوا، والجنُّ من جنس آخر، وقد استجابوا للدعوة وآمنوا، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[(١)] قال ابن عباس: وكان ذلك ببطن نَخْلة عامداً إلى عكاظ، وهو يصلي الفجر، فاستمعوا القرآن ونظروا كيف يصلي[(٢)]. ورُوِيَ مثله عن سعيد بن جُبَير[(٣)]، ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ وفيه دلالة على تأثيره في أنفسهم، حتى اهتمُّوا بشأنه وأصْغَوا إليه، ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ لهم.

---

(١) وللربط وَجْهٌ ثان، وهو أنه لما قال فيما سبق: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأحقاف: ١٨]، ألمع هنا إلى أنَّ الجن مكلّفون بشريعة الإنس نفسها، وأنهم كالإنس منهم المؤمنون ومنهم الكافرون. أما كيفية فَهْمِهم الكتب المنزلة بلسان الإنس، يجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون عندهم استعداد طبيعي لفهم لغات الإنس، ويجوز أن يتعلموها منهم لمخالطتهم بهم، وسهولة ذلك عليهم طبعاً، أو لغير ذلك من الأسباب والأحوال. (المؤلف).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١: ١٦٣).

﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو التوراة والإنجيل، ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ من العقائد الصحيحة، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: مُوصِل إلى الهدف الأسمى، ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

ثم حَملوهم على الإجابة من طريق الترهيب، بعد أن حَملوهم عليها من طريق الترغيب، فقالوا: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وإنما هو تحت سلطان الله وقهره، ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ يُنجونه من عذابه، و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وفي بيان خبر الجن هذا دلالةٌ على أنه ﷺ مُرسَلٌ إلى الجن، كما هو مُرسَلٌ إلى الإنس، وفيه دلالةٌ على أنَّ الجنَّ تؤمن بالأنبياء وتتَّبع هديهم كالإنس، فمنهم من يهتدي، ومنهم مَنْ يَضِلّ، وينال كلٌّ منهم الجزاء العادل، وبما أنها مختلطةٌ خُفْيَةً بالإنس، وتنتقل بينهم بسرعة، فلا يَبعُدُ أنها تعلم سائر لغاتها، أو كل زمرة تعلم لغة مَنْ تختلط بها من الأمم، أو أنها مستعدَّة لذلك في أصل خلقتها. والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم أردف تقريع المشركين على شركهم بالله، بتقريعهم على إنكارهم للبعث، وأدمجَ في ذلك دليلَ قدرته على الإحياء والإعادة، بطريقة المنطق الوجدانيّ التي يتَّبعها

القرآن في مثل هذا الشأن، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: ولم يُصِبْه في هذا الأمر العظيم إعياء، وهذا التعبيرُ تمثيلٌ لكون إيجاده تعالى إنما هو أمرٌ بين الكاف والنون، ومَنْ هذه قدرتُه البالغة ألم يكن ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾؟

ثم ذكر الجواب بصورة نتيجة وتقرير، فقال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾ لا يُعجِزُه شيء.

ثم أنذرهم بمصيرهم المُفْزِع إن بقُوا على الشِّرك والضلال، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾، ويقال لهم تأنيباً وتَنْديماً: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ هو الذي كنتُم تنكرونه وتهزؤون به، أمَا هو ﴿بِالْحَقِّ﴾ الواقع؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)﴾ به وتستهزؤون.

ثم أمر سبحانه نبيَّهُ ﷺ أن يصبر لهم؛ لأن كلَّ آتٍ قريب، وقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[(١)] على أقوامهم المعارضين لهم، ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ بالعذاب.

ثم علَّل الأمر والنهي ببيان قِصَر أيام الدنيا بالنسبة إلى أيام الآخرة التي سينالون فيها الجزاء الدائم الأليم، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ به من الجزاء ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا[(٢)] ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ لِـمَا يشاهدون من شدَّة العذاب في الآخرة

---

(١) أي: فاصبِرْ ـ يا رسول الله ـ على أذى قومك المُكذِّبين لك، كما صَبَرَ أصحابُ القوَّة والصبر على الشدائد والأذى في القيام بأعباء الرسالة من قبلك الذين ارتَقَت قوَّةُ إرادتهم إلى مستوى العَزْم الذي يستطيعون به تنفيذَ ما يريدون، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وأنت ـ يا رسول الله ـ منهم.

(٢) أي: كأنهم يوم يَرَوْنَ ما يُوعَدون من العذاب في الآخرة، يشعرون أنهم لم يلبثوا بين الموت والبعث =

وطول مدَّته، ولا ننسى أنَّ الحياة الدنيا هي المرحلة الأولى القصيرة من السَّفْرة الطويلة البعيدة المدى.

ثم ختم الكلام بقوله: ﴿بَلَٰغٌۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: هذا الذي وُعِظتُم به بلاغٌ لكم، ولا يُهلَكُ إلا الخارجون عن الخطط التي بيَّنها الله فيه.

* * *

= إلا قَدْرَ ساعة من نهار، ناموا فيه نومَ القيلولة واستيقظوا، فهم لا يحسُّون بالزمن الذي مرَّ عليهم من لحظة موتهم حتى بعثهم إلا كما يحسُّ النائمُ في نهار لا يطولُ فيه نومه، وذلك لأنَّ الإحساسَ بمرور الزمن قد مُسِخَ من أجهزة الإدراك في نفوسهم بعد موتهم. والله أعلم.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ

وتُسمَّى أيضاً: سورة القتال

وهي مدنية، وقيل: مكية، وآيها تسع وثلاثون

وملخَّص موضوع السورة:

تحريض المؤمنين على قتال الكافرين، ووَعْدُهم بالنصر عليهم.

وهذا القتال هو عذاب الدنيا الذي توعَّدهم به في السورة السابقة، ولهذا جاءت بعدها.

وقد مهَّد للتحريض على قتالهم ببيان وجه استحقاقهم لذلك، وهو كفرُهم وضلالهم وصدُّهم عن سبيل الله، فقال:

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا
لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ
أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن
يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن
تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ
لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾﴾ لأنها غير جارية على السنن الصحيحة، فهم كمن يطلب غايةً وينهمك في أسباب ليست موصلة إليها، فلا شكَّ يَضِلُّ عملُه ضلالاً بعيداً. وتشمل الآية بعمومها صفةَ محاربة أُولئك الكفار للمؤمنين، أي: أنَّ أعمالهم في تلك المقاومة ضالّة وفاشلة؛ لأنها جاريةٌ على سنن الباطل، كما سيأتي تعليله.

ثم قابل أعمال الكافرين ونتيجتها بأعمال المؤمنين ونتائجها، بما فيهم مؤمنو أهل

الكتاب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ أي: أصلح حالهم في الدنيا والأخرى؛ لأن أعمالهم جاريةٌ على السنن الصحيحة، بنَهْجِهم على مقتضى التعاليم الإلهية والتوجيهات المنطبقة على السنن الكونيَّة، وكلُّ عمل كذلك يُوصل إلى الغاية.

ثم علَّل ضلالَ أعمال الكافرين وحبوطها، ورَشادَ أعمال المؤمنين ونجاحها؛ علَّل ذلك مُجمَلاً بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[1] أي: والباطل فاشل خاسر، والحق ناجح رابح؛ يريد: أنَّ الذين آمنوا اتَّبعوا تعاليم الله وتوجيهاته، فنَجَحوا وأفلحوا، والذين كفروا أعرضوا عن ذلك واخترعوا لهم تعاليم تُوصلهم إلى الله بزعمهم، فضَلُّوا ضلالاً بعيداً. والحق أمر واقع، والباطل وَهْمٌ خادع.

وختَم البيان بما فيه زيادة في التحسيس، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾﴾ أي: يوضح لهم شؤونهم وأحوالهم، صلاحاً وفساداً.

ثم ذكر ما يجب على المؤمنين تـجاه هؤلاءالكافرين الصَّادِّين عن سبيل الله، والمعارضين لهم، والغاصبين لحريتهم في إقامة إيمانهم هذا، وقال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ فذكر المصدر النائب عن فعله؛ لتأكيد الأمر، أي: فاضربوا رقابهم ضَرْباً

---

(١) الحق: كل ما كان مُحقَّق الثبوت، فيكون له نتائج واقعية، بحكم موافقة السنن الكونية وما ينتج عنها من نتائج صالحة ملازمة لها. والباطل: ما ليس كذلك، وقد يكون مجرَّد وَهْم وخيال، فصاحبُه لا يصل إلى غايته، إذ هو يَنشُدُ أمراً ويعمل عملاً لا يوصل إليه. وهكذا حال المؤمن والكافر، باتِّباع الحق والباطل، حيث اتبع المؤمن ما جاءه من الحق من عند الله، فنال مُبْتغاه، وما كان يتمنَّاه. واتَّبع الكافر هواه، فَضَلَّ عن سبيل الله، الموصلة إلى السعادة والرفاه، وكان أمره فرطاً. (المؤلف).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ بالضرب والقتل، وكَسَرتُم قوتهم المعنويَّـة، وذلُّوا لكم، ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي: فاستَعمِلوا حينئذ بدل القتل، كما قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. وهذه من القواعد العظيمة في تركيز الدعوة الجديدة، وتكوين القوة وتثبيت السطوة. ومن إحسانه تعالى: أن جعل لهذا الإثخان حداً معيَّناً ينتهي إليه، وهو حصول الإرهاب الضروري.

ثم أمره بالكفِّ، وقال: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ أي: أثقالَها وآلاتِها. والجملة كناية عن انتهائها.

وقيل: إنَّ الآية على التقديم والتأخير، وذلك من خصائص اللغة وأساليبها. والمعنى: يبقون في الأسر حتى تنتهي الحرب، وحينئذ: فإما أن تمنُّوا عليهم وتُطلِقوهم بلا عِوَض، وإما أن تَفْدوهم بعِوَض.

ثم فصَّل الكلام وخلَّله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ تقريراً له وتنويهاً بشأنه، أي: الأمر فيهم كما ذكر؛ لأنه موافق للحكمة والمصلحة، بحسب السنن الاجتماعية الطبيعية، وهي أن يدفع الله الناس بعضَهم ببعض، ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ غيرَ هذا النظام ﴿لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ أي: من المعارضين للأنبياء، بأن يجعلهم يهلكون من أنفسهم بذلك العمل دون قتال أو يرميهم بداهية، ولكنه تعالى لم يجعل من سُنَّته ذلك؛ لأنه غير موافق لنظام الاجتماع في أخلاق البشر، وإنما الموافق أن يدفع الناس بعضهم ببعض، كما قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٍ﴾ ويُذيقَ بعضكم بأسَ بعض، ففي ذلك حِكَمٌ لا تعلمونها، تُصلحُ النظم الاجتماعية والأخلاقية، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ثم بيَّن مصير الشهداء ترغيباً بالجهاد، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤﴾ وهذه عبارةٌ عن فَخَامة الجزاء وكنايةٌ عنه.

ثم عمَّم الموضوع، على نـهج القرآن في اتِّباع الأمر الخاصّ بالأمر العام الذي يشمله وغيرَه، فأجرى الكلام على مطلق المجاهدين الذين من جملتهم هؤلاء الشهداء، فقال: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ أي: إنَّ الجهاد الحق يؤدِّي إلى صلاح أمر الأمة وهدايتها إلى أرشد الطرق في الدنيا ﴿وَ﴾ في الآخرة ﴿يُدْخِلُهُمُ﴾ الله ﴿الْجَنَّةَ﴾ التي ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ بما ذكره عنها في هذا القرآن من الأوصاف والأحوال المشوِّقة لها والمُرغِّبة بها.

ثم وعدهم بالنصر على أعدائهم المشركين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ أي: إن تنصروا دينَه ورسولَه ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ في مواقف الحرب. وهذا الوعد الكريم بالنصر مشروط بشروط طالما ذكرها القرآن، بألوان من البيان، وهي اتِّخاذ العُدَد التي تُقابل عُدَدَ العدو وتفوقُها، والتفوُّق في الفنون الحربية، والصبر والثبات، وتقوى الله حقّ تقاته.

ثم تابع المعنى بالوعد، وأردَفَـه بخِذلان المشركين على أيدي المؤمنين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ﴾ أي: فسيجعلهم الله في تَعاسة وشقاء، إذ قد خَذَلهم، ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨﴾ لأنهم لم يقبلوا التعليمات الإلهيَّة والتوجيهات الربانية، ولكن أعرضوا عنها وقاوموها، وبذلك أفسدوا طبائعهم، فضلَّت أعمالهم، حيثُ لم يكن لها أثرٌ صالح في نفوسهم المفسودة التي قد أوغَلَ فيها الفساد، وذلك لأنَّ العقيدة الصحيحة بالنسبة إلى الأعمال، كالقلب بالنسبة إلى البدن؛ إذا صَلَح صَلَح البَدَنُ كلُّه، وإذا فَسَد فَسَد البدنُ كلُّه. وكذلك أضلَّ أعمالهم التي يكيدون بها المؤمنين، بمعنى: جعلها فاشلةً خاسرة.

وقد عطف: ﴿أَضَلَّ﴾ على المصدر النائب عن فعله ـ وهو (تَعْسًا) ـ والذي رَجَحَ على فعله ـ وهو كلمة: «تَعِسَ» ـ للدلالة على الدعاء، فإنه أبلغ من صيغة الإخبار.

ثم علّل خِذلانَهم هذا ومصيرَهم الحابط بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾، فلم يقبلوه ويتمسَّكوا به ويعملوا بموجبه ليُصلح نفوسهم، فلم يكن فيهم القوة المعنوية والثبات؛ لذلك خَذَلهم الله، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾[1] وأفشلها، وسيُغلَبون.

والآية تشير إلى أنَّ ما جاء في ثنايا هذا القرآن من العقائد الصحيحة، والتعاليم

---

(١) إن الله سبحانه جعل لصلاح الروح المؤدِّي إلى سعادة الآخرة طرقاً وأسباباً، ولصلاح الدنيا كذلك طرقاً وأسباباً. فمن سلك طريق الدنيا يبتغي به الآخرة ضلَّ وحبط عملُه، ولكنه قد يصل إلى دنيا عريضة، إذا أكمل الأسباب وأتقنها. ومن سلك طريق الآخرة وسعى لها سعيها نالها، ولكنه لا ينال الدنيا إذا لم يَسْعَ إليها. ومن أهمل الطريقين حُرِمَ من الأمرين. ومن سلكهما معاً وَصَل إلى السعادتين.

هكذا نظم سبحانه هذين الهدفين كما نظم سائر الأسباب والمسبَّبات، فلما كره الكافر ما أنزل الله في هذا القرآن المؤدِّي إلى السعادتين، ولم يؤمن به، ولم يعمل بمقتضاه؛ ضلَّ عمله وحبط، وإن كان من أعمال البر، يرضيك ظاهره، ويُعجبك مظهره، إذ إنه طلاء فقط؛ لأنه مجرَّد عن بقية الأسباب التي منها التوحيد والتنزيه، وهو العنصر المهم فيها، إذ هو الذي يجعل في النفس آداباً عاليةً لا تكون فيها إلا به، ويؤثر على كل قوة من قواها، فيوجِّهها توجيهاً صحيحاً لا يوجهها إليه غيره، ومنها الأعمال التي فرضها الله سبحانه لتغذية هذا الإيمان، كالصوم والصلاة والحج والزكاة، فإنها تربط ما بين العبد وبين خشية الله، وتربِّي فيه معنى الإنسانية الرابطة بين العباد، على أساس التعاطف والإحسان، حسب درجة تلك الفعال من التقويم والإخلاص.

فلما تجرَّد الكافر عن هذه العناصر، حبط عمله في الدارين وخاب، وإن أرضاك مظهرُه وأَغْراك؛ لأنه لا يزيد عن الطلاء، إلا إنْ كان من وجوه الإحسان، وهو يريده لله أو لمجرّد الإنسانية، لا للرياء والسمعة؛ خفَّف الله به عنه بعض شقاء الآخرة، إذ اقترن بحُسن النية وإخلاص الطويَّة، كما قال ﷺ في حقِّ أبي طالب المناصر له: «إنه في ضحضاح من نار»، يكني بذلك عن تخفيف العذاب عنه، جزاءً لمناصرته وحمايته لرسول الله ﷺ. (المؤلف).

والحديث سبق تخريجه (٣: ١٨٥، ٤: ٧١).

الموافقة لسنن الكون وطبائع البشر، إنما هي توجيهٌ للإنسان في مصالحه الدنيوية، كما هي توجيهٌ له في مصالحه الأخروية، وتؤدِّي إلى كماله في الثقافة والتهذيب، وتعقّله الصحيح في عزائمه وتصرُّفاته، وقوته في اندفاعه، فيفلح في الحياتين.

ثم لفت نظرهم إلى ما جَرَى على أمثالهم في الأمم الغابرة، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾ عارضوا الرسل ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كيف كانت نهاية أمرهم، فإنَّ آثار ديارهم تُنبئ عن أخبارهم، حيثُ ﴿دَمَّرَ﴾ ها ﴿اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، ثم توعَّد قريشاً بمثلها، فقال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾.

ثم عاد فعلَّل ما فُهِمَ في هذا الوعيد من نَصْر المؤمنين وخِذلانِ الكافر، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ينصرهم على أعدائهم، ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

وبعد أن قارن بين حالَيْهم في الدنيا، قارن بينهما في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا، ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ غافلينَ عن العواقب، وما قيمةُ متـاعهم هذا في الدنيا ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾؟ أي: محلُّ ثوائهم وإقامتهم في الأخرى. وكلُّ نعيم دون الجنة حقير، وكلُّ بلاء دون النار عافية.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ تأنيباً لهم، بمعنى: أنَّ سيرتهم كسيرة الأنعام، في أنَّ كلَّ ما عندهم هي شهواتهم المادية، فهم يعيشون ليأكلوا، لا يأكلون ليعيشوا.

ثم ضرب سبحانه لنبيِّه ﷺ مثلاً يتضمَّن وَعْدَه بالنصر عليهم، وتوعّدهم بالبطش بهم، إذ أخرجوه من بلده، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: كم من أهل بلدة ﴿هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن﴾ أهل ﴿قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بعذاب الاستئصال، ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ ولم تُغْنِ عنهم قوتُهم شيئاً.

وفي وصف أهل القرية بشدَّة القوة مبالغةٌ في توعُّد هؤلاء؛ لأنه أهلك مَنْ هو أقوى منهم. وفي قوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ تيئيسٌ من النجاة.

ثم أردَفَ الكلام المتضمِّن لوعد المؤمنين ووعيد الكافرين في الدنيا والأخرى ببيان الفرق بين الفريقين على وجه التعليل، فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ في صحَّة أمره وحقيقة عمله ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ بزخارف الخيال وكواذب الأوهام ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾، وقد أفرد الضميرَيْن الأوَّلين باعتبار لفظ ﴿مَن﴾، وجمع الأخيرين باعتبار معناها، على نهج القرآن في مثله، وهو من خصائص اللغة.

ولـمّا بيَّن الفرقَ بين الفريقين في الاهتداء والضلال، بيَّن الفرق في مصيرهما، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتُها ما ذكره بقوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير مُستَعِدٍّ لتغيّر اللون والرائحة، كمياه الدنيا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي: غير مُستَعِدٍّ للفساد، كألبان الدنيا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ليس فيها حَرافةُ طعم ولا غائلة سُكْر، ولا تضرُّ الأبدان، ولا تؤثِّر على العقول، كما في خمور الدنيا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لا كعسل الدنيا.

ففي هذه الجنة أنهار تجري بأطايب الحياة التي كان يتشهَّاها الإنسان في الدنيا ولم يجد منها إلا القدر اليسير، فَضْلاً عن أنها أجوَدُ منها نوعاً وأعلى شأناً بكثير، بل ليس بينهما مُشابَهة بوجه من الوجوه، وصفة من الصفات إلا بالاسم، والله أعلم، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ كذلك، وقد قال ابن عباس: ليس في الجنَّة شيء يشبه ما في الدنيا إلا بالاسم[1].

ثم أضاف إلى هذه الكرامةِ الماديَّةِ الكرامةَ المعنويَّة، فقال: ﴿وَ﴾ لهم ﴿مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لـها أثرها العظيم، وكرمها الجليل. أفمَنْ هو خالد في هذه الجنة ونائـلٌ هذه الكرامة ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ مكان تلك الأشربة الكريمة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾؟! وهذا الاستفهام إنكاريٌّ تقريعيٌّ، وفيه نعيٌ عليهم وتحسيس. وأفرد الضمير الأول باعتبار لفظ (مَنْ)، وجمع الباقي باعتبار المعنى. وقد حذف المعادل للفظ ﴿كَمَنْ﴾ اعتماداً على وصف الجنة، جرياً على نهج القرآن في مثل هذا الإيجاز.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

ولما ذكر حال الكافرين، ذكر حال المنافقين، للإشعار بأنهم منهم، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وهم المنافقون، وأفرد الضمير باعتبار لفظ ﴿مَن﴾، كما أنّ جَمْعَه فيما سيأتي باعتبار معناها. وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ، فيسمعون كلامه، ولا

(١) سبق تخريجه (٢: ٤٩، ٥٧٦).

يَعُونه ولا يُراعونَه حقَّ رعايته، كما بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من الصحابة رضي الله عنهم: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: ما الذي قاله الآن؟

وقد اختلف المفسِّرون في وَجْه هذا القول، فقيل: إنه استهزاء وإظهار بأنهم لم يهتمُّوا له ولم يشتغلوا بوَعْيه وفَهْمه، استخفافاً به. وقيل: بل يريدون أنه لم يقل شيئاً فيه فائدة. وقيل: هو رياء ونفاق، أي: لم يذهب عنَّا من كلِّ ما قاله إلا هذا، فماذا قال؟ أعيدوه علينا. وهذا هو الموافق للسؤال من ذوي العلم. والله أعلم.

وقيل: بل لأنهم لم يفهموا معنى ما يقول، إذ قد طُبِعَ على قلوبهم، حيث تشبَّعوا بالكفر، ففَقدت قلوبُهم نور البصيرة، كما بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بما رَسَخَ فيها من الضلال، وذلك بمقتضى سُنَّة الله العامة في أخلاق البشر، إذا انطبع الإنسان على شيء ورَسَخ فيه، لا يميل إلى ضدِّه. وهكذا كان أمر هؤلاء، فإنهم رَسَخوا على الضلال وسوء التقليد ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾. وإسناد الطبع على قلوبهم إلى الله سبحانه، إنما هو باعتبار هذه السُّنَّة الطبيعيَّة في خَلْق الإنسان، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدِّمة الثانية).

ثم قارن حالَهم بحال المؤمنين الذين حافظوا على سلامة فِطَرِهم، فقبلوا الهُدى حين دُعوا إليه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ إلى طريق الحق ﴿زَادَهُمْ﴾ الله ﴿هُدًى﴾ بتتابُع ما ينزل إليهم من التعاليم، ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ أي: أعطاهم من التعاليم ما يتَّقون به الشقاءين، وأعطاهم جزاء ما يتَّقون، وحفظهم مما يحذرون.

ثم توعَّد الكفار، وقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: علاماتُها، ومنها: بعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وقد قال: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين»،

وأشار بالوسطى والمُسبِّحة[1]. وذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى كان يَعِدُ في كل شريعة أنزلها أنْ سيبعثُ نبياً في آخر عمر الدنيا، وهو محمد ﷺ، ومعه شريعة عامة للبشر، لا ينـزل بعدها شريعة أبداً؛ إذ هي صالحةٌ لأحوال البشر حتى نهاية الدنيا، ولكن هؤلاء المشركين أعرضوا عنها عِناداً وبغياً، ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾، وحينئذٍ لا تنفعهم المعذرة، ولا تفيدهم الذِّكرى، كما قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ أي: إن لم يتذكَّروا الآن ويتَّعظوا بهذا القرآن، فمن أين تنفعهم الذكرى ويفيدهم الاتعاظ، إذا جاءتهم الساعة؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

وبعد أن بيَّن سبحانه وتعالى سعادةَ المؤمنين الموحِّدين وشقاوةَ الكافرين المشركين، أردفَه بقوله: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ يُذكِّره بهذه العقيدة؛ لأن عقيدة التوحيد هي العنصر المهمُّ في العقائد والأعمال المؤدِّية إلى السعادة والفلاح. أي: إذا علمتَ ذلك فاثبُتْ على ما أنت عليه من العلم بالتوحيد، لتنال السعادة، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ والمراد من ذنبه ﷺ: ما يصدر عنه من الهفوات في موقفه الحَرِج من المشركين، أو تَرْكُ الأَوْلى، فإنَّ حسنات الأبرار سيِّئات المقربين.

ولما أمره بالاستغفار للذنوب، بيَّن تعالى أنه لا يخفى عليه من أمرهم خافية، تحذيراً لهم مما يصدر عنهم وما يفعلون، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ أي: مُنصَرَفكم لأشغالكم في النهار، ومأواكم إلى مضاجعكم في الليل، فهو عالمٌ بجميع أحوالكم، لا يغيبُ عنه شيءٌ منكم فاحذروهُ.

اللهمَّ إنِّي أُشهِدُك وأُشهد حَمَلةَ عرشكَ وملائكتَكَ وجميعَ خلقكَ بأنك أنت الله لا إله إلا أنت، وأعوذ بك من أن أُشرِكَ بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك فيما لا أعلم.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١).

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾﴾.

قال الرازي: ولما بيّن الله سبحانه حالَ المنافق والكافر، وحالَ المهتدي المؤمن عند استماع الآيات العِلْميَّة، من التوحيد والحشر وغيرهما، بيَّن حالهم في الآيات العمليَّة[1]، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ أي: فيها ذِكرُ الجهاد، يُفهَمُ هذا مما بعد، على نهج القرآن في الحذفِ من الأول ما يُفهَمُ من الآخر، والحذفِ من الآخر ما يُفهَمُ من الأول، جَرْياً على الإيجاز.

والمراد: أنهم يَتمنَّون أن تنـزل سورة، أي: آية تأمرهم بالجهاد في سبيل الله؛ ليقوموا بذلك حقَّ القيام. أما المنافقون فعلى خلاف ذلك، يدلُّ على هذا قوله تعالى:

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٨: ٥٣).

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾ لا تقبل التأويل، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ وهم المنافقون، ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ جُبْناً وهَلَعاً.

فأنَّبهم بما هو ملفوف بالإرشاد، على نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد، ووعظهم بقوله: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠﴾ من ذلك ﴿طَاعَةٞ﴾ لله وللرسول، ﴿وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ يقولونه في هذا السبيل، كأن يقولوا: نستعينُ بالله، ونتوكَّل على الله.

ثمَّ نَعَى عليهم جَهْلَهم بمكان المنفعة، فقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: جَدَّ الجدُّ في الجهاد، ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جهادهم ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١﴾، لأنَّ نَصْرَ المؤمنين يعود عليهم بالنفع الماديّ الروحيّ، والخير والإصلاح.

ثـمَّ وبَّـخهم بقوله: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾ أي: إن أعرضتُم عن هداية القرآن، فهل بعد ذلك إلا الفساد في الأخلاق والمعاملات، والحطَّة في النفوس، ورديء السلوك، وهل بعدَ الحقِّ إلا الضلال؟

وقيل: بل المعنى: فهل عَسَـيتُم ـ يا معشر المنافقين ـ إن أعرضتُم عن كتاب الله والعمل بما فيه، أن تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، من النَّهْب والغَصْب والإفساد وتقطيع الأرحام فيما بينكم؟ ويكون ذلك توبيخاً لهم مسبوكاً على تأييسهم من معاطاة الفساد بعد اليوم، وإن بقوا على دينهم، إذ بمجيء حكم الرسول ﷺ قد تبَدَّل الحال في الإدارة والسلطان. أي: لا يتهيَّأ لكم هذا وإن لم تؤمنوا وتدخلوا في زمرة المسلمين، فلا تقدرون بعد اليوم أن تعودوا إلى ما كنتم عليه من النَّهْب والغَصْب والإفساد.

وكان خوفهم على مراكزهم ورياستهم هو الذي يمنعهم من الدخول في الدين، إذ يريدون أن يحتفظوا بما هم عليه من التجبُّر والطغيان، فيأَّسهم من ذلك، ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعَدَهم من رحمته، ﴿فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ

﴿أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ لانطباعهم على الضلال، حتى أصبح مَلَكَةً لهم وخُلُقاً، وذلك حسب سُنَّة الله في أخلاق البشر: أنَّ من رَسَخ فيه أمرٌ لا يميل إلى ضدِّه، ولا يسمع ما يخالفه، ولا يراه جديراً بالنظر والاعتبار.

ثم بيَّن أنَّ سبب هذا الصَّمَم والعَمَى أحدُ أمرين، وأفرغ الكلام في قالب التوبيخ، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[1]؟!

ثم أثبت الأمر الثاني، وذكر أنَّ الشيطان قَفَلَ عليها تلك الأقفال، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بهذا القرآن، وهم هؤلاء المنافقون ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زيَّن لهم خُطَطَهم هذه، وقد أعانوه على ذلك بإفسادهم لطبيعتهم بمفاسد التربية، حتى أصبحوا لا يَرَوْن ما يخالفها جديراً بالتدبُّر.

وقال أبو مسلم: أعطاهم سُؤْلَهم وأمنيَّتَهم، إذ دعاهم إلى ما يوافق مُرادَهم وهَواهم، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ أي: مدَّ لهم في الآمال والأمانيِّ فاتَّبعوه.

ثم ذكر شيئاً من هذا التسويل والارتداد، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾، وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد من أهل الكتاب، حَسَداً وبغياً: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: نفعل بعضَ ما تريدونه من المُعاوَنة على عداوة محمد، وتثبيط الناس عن الجهاد معه، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ أي: إخفاءهم لِمَا يقولون.

---

(١) أي: أفلا يتفكَّرون في القرآن وفي مواعظه وزواجره؛ ليتعرَّفوا من خلال التدبُّر على ما يدفعون به كلَّ شبهاتهم وأوهامهم في تسويغ قتال الكافرين؟ إذ يتردَّد في صدورهم أنَّ الدعوة إلى القتال ينجم عنه إفسادٌ في الأرض، وخرابٌ للعمران، وتقطيعٌ للأرحام، الذي يتجلّى في واقعِهم إذا كانوا أولياء الأمر، وكانت الدولة القائمة لهم، بل على قلوبهم ما يحجُبها عن تدبُّر القرآن، والتفكُّر في الآيات، بسبب كفرهم ونفاقهم، فهي مُغْلَقة لا يدخلُها الإيمان، ولا يخرج منها الكفر.

وقد توعَّدهم بقوله: ﴿فَكَيْفَ﴾ حالُـهم ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾، يُصوِّر كيفيَّة توفِّيهم الرهيب. وفي صورة الكلام شيء من الإهانة لهم والتشنيع.

ثم علَّـل هذا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الكفر والمعاصي، ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي: ما يرضاه من الإيمان والعمل الصالح، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ لتوغُّل الفساد فيها وسُوء الاعتقاد. وكلُّ فاسد حابطٌ فاشل. ويجوز أن يكون هذا البيانُ عن صورة تَـوَفِّيهم إيماءً لهم إلى ما حكى عنهم في سورة التوبة من تملُّصهم من الجهاد بالأعذار الكاذبة، ليقابلوا بين الأمرين، ويُوازنوا بين الخوفين: الخوفِ من الجهاد، والخوفِ من الملائكة.

ثم عطف على مضمون قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦] قولَه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ أي: أحقادَهم ونفاقَهم، بلى وقد نزَّل في شأنهم سورة التوبة الفاضحة لهم.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ﴾ أي: لعرَّفناك بهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ أي: بمُشخَّصاتهم وأعيانهم، ﴿وَ﴾ إنك ﴿لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: بأساليب أقوالهم ونَمَطِها ولهجتها، لأن فَحْوى الكلام ولهجتَه وصيغتَه ونبرتَه تدلُّ على ما يكنُّه الضميرُ، فتكون أشهَرَ من التصريح.

ثم توعَّدهم بهذا البيان العام، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ وما انطوت عليه سرائركم، فيُجازيكم عليها بالحُسْنى حسناً، وبالسوأى سوءاً.

وجعل هذا حَلْقةَ وَصْلٍ لنَقْل الكلام وإجرائه على المؤمنين، يحضُّهم به على جهاد المشركين والمنافقين، بعد أن ناقش الصنفين في أعمالهم الفظيعة، فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾

بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الجهاد والتكاليف، ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ في ذلك. والتعبير بالإخبار عن الأعمال من مجازات اللغة وخصائصها. وقد تقدَّم الكلام على معنى هذا العِلم في سورة البقرة[١]، عند قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فارجع إليه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

وبعد أن حثَّ على الجهاد، ذكر ضَعْفَ هؤلاء الكافرين، ووَهْنَ كيدهم، تتميماً للحثّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: خاصموه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ على يديْه ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾ أي: ستَبطُل مكائدُهم وتفشل. والتعبير عن نفي ضررهم للمؤمنين بنفي ضررهم لله، للإيذان بأن مضارَّتهم بمنزلة مضارَّته، تفظيعاً لشأنها.

ثم أردف ذلك بتثبيت المؤمنين، ضمن بيان قاعدة عامة، على نهج القرآن في

---

(١) الآية المذكورة من سورة آل عمران، والتي في سورة البقرة هي قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

مثله، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ إذا أمركم بالجهاد وغيره، ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ بعدم الطاعة، أو بما يقتضي عدم الطاعة، من مُمالأة هؤلاء الكافرين، خوفاً منهم.

ولما بنى هذا التثبيت على إرشاد المؤمنين بالثبات على الطاعة لله ولرسوله، وتسديد الأعمال، قَرنَه بذِكرِ مصير الكافرين؛ تهويناً لأمرهم، وإيماءً لخذلانهم، ضمن نفي الغفرانِ لهم، على نهج القرآن في ازدحام المعاني في صِيَغ التراكيب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم فرَّع على مضمون ما تقدّم من تهوين أمر الكافرين وتثبيت المؤمنين، فرَّع التصريح بذلك مسبوكاً على تعليله، وقال: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي: لا تَضعُفوا أو تَجبُنوا، ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ خَوراً وجُبناً، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ بما لديكم من الحق، ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معيَّة نَصْر وتأييد في الدنيا، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ في الأخرى، أي: يثيبكم فيها ثواباً كاملاً لا نقص فيه. وحيث كانت ثمرة جهادكم عائدة عليكم في الدنيا والأخرى، فكيف تَهِنون وتَضعُفون؟

ثم زاد في تثبيتهم بتزهيد أمر الدنيا، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثَبَات لها ولا اعتداد بها، كلعب الصبيان، يُجهِدون أنفسهم بما لا طائل تحته، وينصرفون دون الحصول لشيء.

ثم بيَّن أنهم يُوفَّون أُجورَهم إن آمنوا، فقال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ موفورة، ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ تجاه ذلك، فيَضُرّ بدنياكم.

وهذه المشاكلة والمقارنة في غاية الحُسْن، تُؤذِنُهم بأنَّ الإيمان والتقوى لا يُنقِصُ الأموال، ولا يُعرِّضها للاستغلال. وفي تعاليم القرآن عَوْنٌ على ثواب الدارين. فالمعنى:

يُؤتِكُم الله أُجورَ أعمالكم موفورةً في الدنيا ويوم القيامة، ولا يسألكم أموالكم على لسان رسوله مقابلةَ أداء الرسالة. وهذا على حدِّ قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

ثم تابع المعنى وعلَّله، مُبيِّناً طبيعةَ الإنسان في الحرص على المال، بقوله: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ﴾ أي: فيُجهِدكم بالطلب، بأن يَطلُبَ منكم حصَّةً كبيرة من أموالكم؛ ﴿تَبۡخَلُواْ﴾ بها، ﴿وَيُخۡرِجۡ﴾ بذلك ﴿أَضۡغَٰنَكُمۡ ٣٧﴾ أي: أحقادكم.

ثم أيَّد البيان بالواقع، وأدمَجَ فيه تفهيمَهم ضَرَرَ البخل عليهم، وتحريك النخوة والأريحية فيهم، فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ النَّزرَ اليسير من أموالكم، ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾ في ذلك وهم ضعفاء الإيمان، ﴿وَ﴾ الحالُ أنَّ ﴿مَن يَبۡخَلۡ﴾ في هذا الأمر ﴿فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ لأنَّ هذا النَّزر اليسير يُصرَفُ فيما يعود على الأمة بالنفع الكثير العميم، وله حصَّته من ذلك النفع العام، لأنَّ مَنْعَ الزكاة مثلاً يضرُّ بالمجتمع حكومةً وأفراداً ضرراً فادحاً، ويحمل كثيراً من المُعْدَمين على ارتكاب الجنايات واقتراف الجرائم، والسقوط في هُوَّة سحيقة من الانحطاط وفساد الأخلاق، وفَقْدِ القوى الفكرية والجسمانية التي هي ثروة إنسانية للأمة والمجتمع، فلا يعود نَفْعُ هذا الإنفاق إلى الله، ﴿وَٱللَّهُ﴾ هو ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن المال، ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ إليه، وقد شاءت حكمتُه أن يكون النظام الاجتماعي هكذا، وأمَرَ الغنيَّ أن يعطف على الفقير تكميلاً لهذا النظام. ولو شاء لَسَوَّى بينكم في الغِنى، ولكن ذلك مخلٌّ بالنظام الاجتماعي، وتسخير بعضكم لبعض.

ثم عطف على قوله: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [محمد: ٣٦] قولَه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ وتُعرِضوا عن الإيمان والتقوى ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ﴾ الله بكم ﴿قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ

أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ في الإعراض عن ذلك. وهذا مُوجَّه إلى الكفار ضمن خطاب العموم، وخلاصتُه: أنه تعالى بعد أن بيَّن الأمور وأقام عليها البراهين وأوضَحَها بالأمثلة، قال للعموم: إن أطعتُم فلكم أجورُكم وزيادة، وإن تتولَّوا: لم يبقَ لكم إلا هلاك؛ إذ ما من نبيّ أنذر قومه وأصرُّوا على تكذيبه، إلا وقد حقَّ عليهم القول باستئصالهم بالعذاب.

* * *

سُورَةُ الفَتْحِ

مدنية، وهي تسع وعشرون آية

جاء في هذه السورة:

التنويه بشأن صلح الحديبية؛ لأنَّ قريشاً سَعَت إليه بعد بيعة الرضوان، فظهر ضعفُها وخضوعُها بعد إبائها، وبدأ تخاذلُها بعد بيعة المسلمين على الموت. وكان هذا فتحاً مبيناً للمسلمين، وتمهيداً لفتح مكة، بعد أن ألمع بالوعد به في السورة السابقة ضمنَ الحضِّ على الجهاد.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤
لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ
الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ
وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ ﴾.

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾[1] والمراد به: صُلْح الحديبية، وهي قرية بجوار الشميسي الآن، قريباً من مكة.

قال الزهري: لم يكن فتحٌ أعظم من صُلح الحديبية، وذلك أنَّ المشركين اختلطوا بعد هذه الهدنة بالمسلمين، فسمعوا كلامَهم، فتمكَّن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين بعد هذا الصُّلح خلقٌ كثير[2].

---

(١) لم تكن الفتوح الإسلامية فتوحَ استعمار وجباية، وإنما هي فتوح تحرير وهداية. كانت فتوحاً في الأرض للحرية والعمران، وفتوحاً في العقيدة للتوحيد والإيمان، وفتوحاً في الشريعة للحق والعقل، وفتوحاً في السياسة للإحسان والعدل، وفتوحاً في العلم للإحياء والتجديد، وفتوحاً في الأخلاق للكمال والتجريد. فأيُّ فتوح أعظم من هذه الفتوح، التي تتجلى فيها الإنسانية بأجلى وضوح. (المؤلف).

(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ١٣٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤: ٢٢٢).

أقول: فقويت شوكةُ الإسلام، وفُتِحَت مكةُ بعد ذلك من دون قتال ولا مقاومة؛ لكثرة المسلمين وقوتهم، لأنهم كانوا في الحديبية ألفاً وبضع مئة مقاتل، وفي مدّة الصلح أصبحوا زهاء عشرة آلاف، نتيجة الاختلاط بمقتضى وثيقة الصلح، فلما وصل جيش المسلمين إلى مكة، استسلم أهلها من دون مقاومة، ولذلك يقول الـمُؤرِّخون من الأوربيين: إن صلح الحديبية كان فتحاً لمكة. فلا شك أنَّ هذا الصلح كان فتحاً مبياً.

وقد علَّل ما تضمَّنه هذا الفتح من الصبر والثبات تجاه المشركين بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(١) مما يُعاتَبُ عليه بالنسبة لعُلوِّ مقامه؛ لأنَّ حسناتِ الأبرار سيِّئاتُ المقرَّبين.

والذنب قسمان: ما يستوجب العتاب، وما يستوجب الإثم. والأول: هو المراد هنا، مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ...﴾ [التوبة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ...﴾ [عبس: ١ – ٢]، وأمثال ذلك، والله أعلم، لأن الذنب في اللغة: هو كلُّ عمل يَسْتَتْبع ضرراً أو فَوْتَ منفعة أو مصلحة، وليس خاصّاً بالمعصية.

ويجوز أن يكون الكلامُ كنايةً عن كمال الرِّضا، أي: ليرضى عنك كلَّ الرضا، ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ في الدنيا بإظهارك على عدوِّك وإعلاء أمرك، وفي الآخرة برفع مقامك.

---

(١) يجوز أن يمسَّ هذا ما كان من تلعثم المؤمنين في معاهدة الحديبية أول الأمر، وثورتهم الفكرية عليها، لِـمَا كان فيها من شروط ثقيلة، وصدّ لهم عن المسجد الحرام، حتى أنزل الله سكينته عليهم، وأدركوا أن في هذا الصلح نفعاً كبيراً، وفتحاً معنوياً عظيماً. فيجوز أن يشمل الغفران هؤلاء المؤمنين بحكم أن يُنسَبَ للرئيس ما يقع للمرؤوسين، والله أعلم. (المؤلف).

ويجوز أن يُراد بإتمام النعمة به إتمامُ الوحي، وإكمالُ الدين، أي: ليُتِمَّ لك الوحي ويُكمِلَ الدين ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾[1] بما أنزل عليك ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ فيه لك عزٌّ ومَنَعة وسلطان.

ثم بيَّن وَجْهَ هذا النصر في صُلح الحديبية وطريقة تدبيره الخفيّ، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: جعل في قلوبهم الطمأنينة والثبات بهذا الصُّلح، أو تجاه شروطه الثقيلة في الظاهر، فثبَّتهم الله لقَبولها؛ ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إذ تبيَّن لهم فيما بعد حُسْنُ نتائج ذلك الصُّلح، على ما فيه من شروط ثَقُل ظاهرُها عليهم، وكان باطنُها عَيْنَ الحكمة والصواب، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو ينصركم بأنواع من النصر لا تعلمونها، منها إلقاء السكينة والثبات، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ يفعل بمقتضى عِلمِه وحكمتِه، لا بمقتضى ما تخدعكم ظواهرُه، وكان من الحكمة أن يكون الصُّلح على هذه الشروط، وإن ثَقُلَت.

ثم بيَّن نتيجةَ ازدياد الإيمان بقوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾، وفيه ردٌّ على المنافقين المشاغبين والقائلين: إننا لم نَظفَر بدخول مكة كما وعدنا محمد، بمقتضى الرؤيا التي رآها في أننا سندخل مكة آمنين مُحلِّقين؛ يشاغبون في ذلك ويروِّجون مِثلَ

---

(١) يجوز أن يكون المعنى: سيكون طريق الدعوة سهلاً مُعبَّداً بعد الفتح، يدخل الناس بسهولة فيه، ويَسْتتبُّ الأمر، وتستقيم الأحوال. وقد كان صلح الحديبية نقطة تحوّل عظيم في سَيْر الدعوة، بواسطة هذه الهدنة واختلاط المشركين بالمسلمين، ومعرفتهم لحقيقة وحقيَّة هذا الدين، فكان يقول الناس بعضهم لبعض: أعَلى هذا النور المبين كنا نقاتل هذا الرجل؟! وأصبح المسلمون بعد ثلاث سنوات من هذا الصلح زهاء اثني عشر ألفاً، بعد أن كانوا لا يتجاوزون ألفاً وبضع مئين. (المؤلف).

هذه المُشاغَبات على ضعفاء المؤمنين. لذلك قال تعالى في إتمام البيان: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وهو أنَّ الله سيَخْذُلُ رسولَه والمؤمنين، وينصرهم عليهم. فردَّهم بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾، فهذا ردٌّ لهم ودعاءٌ عليهم ووعيد. وفي المثل: على الباغي تدور الدوائر. بمعنى: أن النتيجة تكون سيِّئة عليهم، ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾.

ثم قرَّر الوعد بالنصر وإنجاز ما تضمَّنه قولُه: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ من الوعيد، وألمع إلى ما كان في صلح الحديبية من تدبير خفيّ في صالح المسلمين، بقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ينصر بها مَنْ يشاء بتدبيره الخفي، ومن ذلك: ما أوقَعه في قلوب المشركين والمنافقين من الضعف والهوان تجاه المؤمنين، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾[1] فأفعاله كلُّها مَبْنيَّة على الحِكَم البالغة، وليس إمهالهم عن عَجْز في القدرة الإلهية، فهو العزيز القدير، ولكنْ لِحِكَم خفيَّة.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) ذُكِرَت هذه الجملةُ أولاً في مقام تقرير أنه سبحانه هو المُدبِّر لشؤون خلقه، فناسب أن يُذكَر بعدها: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ولـمّا كان الـمقامُ هنا لتهديد المشركين بأنّ في قبضته سبحانه جنودَ السماوات والأرض، كالملائكة والصواعق والطير الأبابيل، وجنود الأرض كالزلازل والغَرَق، ناسَبَ أن يُذكَرَ بعدها: ﴿عَزِيزًا﴾ أي: غالباً لا يغلبه أحد ﴿حَكِيمًا﴾ لا يُسوِّي بين المؤمن والكافر.

ثم ذكر ما أُنيط به ﷺ من الأمور، وما هو الغَرَضُ من الرسالة، وأومأ إلى استحقاق نصر المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على مَنْ أُرسِلتَ إليهم، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاع منهم، ﴿وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ لمن أعرض وعصى.

ثم علَّل الإرسال إليهم على هذا الوجه بقوله: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تُفخِّموه سبحانه وتُقدِّسوه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تُعظِّموه وتُبجِّلوه، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تُنزِّهوه عمَّا لا يليق به، تفعلون ذلك ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾، وفي هذا الكلام خطابُ الواحد، ثم إشراكُ غيره معه، لِمَا بينه وبينهم من ارتباط، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

والبكرة: أول النهار، والأصيل: آخره، فذكر طرفي النهار لتعميم الوقت، أي: في جميع الأوقات.

ثم نوَّه بشأن المؤمنين الذين وَفَّوْا بذلك وأعزُّوا دينَ الله، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ في الحديبية على الموت بيعةَ الرضوان ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ بمعنى: إنَّ المبايعة معك مبايعةٌ مع الله، ولذلك قال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1]، وهذا ترشيح لقوله

(١) مذهب السلف في مثل هذه الصفات والأسماء لله سبحانه التي وصف بها نفسه أو نسبها لذاته في كتابه وتنزيله، أو على لسان رسوله: الإيمان بها من غير زيادة عليها، ولا نقصان منها، ولا تجاوز لها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، ولا بسمات المُحْدَثين، ولا تفسير لها، ولا تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أمرُّوها كما جاءت، وردّوا عِلمَها إلى قائلها، وفوَّضوا معناها إلى المتكلم بها، وهو الله سبحانه. ومن ذلك ما جاء عنه تعالى من المجيء واليد والوجه والاستواء على العرش، إلى أمثال ذلك. فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها؛ لأن الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات، وإثبات الذات إثباتُ وجود لا إثبات كيفيَّة، فكذلك إثبات الصفات؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. =

تعالى: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، مُستَعارٌ من حال المُخاطَبين في المُبايَعات والمُعاهَدات؛ لأنَّ المُتبايِعَيْنِ والمُتعاهِدَيْن يتعاقدان بالأيدي. والمراد منه: رضاء الله عنهم، والتنفيذ لمبايعتهم، وإظهار العناية بهم والتشريف لهم، وحَمْلهم على التمسُّك بهذه البيعة التي عقدت على بيع أنفسهم بالجنة، فهي بيعةٌ مع الله، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

ثم بيَّن سبحانه حُكمَه في البيعة، وقال: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أي: نقض هذه البيعة ولم يَفِ بها، ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: فإنما يعود ضَرَرُ ذلك عليه، ومنه: فَقْدُ الأجر العظيم الذي بيَّنه بقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ[1] ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

ثم أتبَعَ السياق بالكلام عن المنافقين وضعاف الإيمان المتخلِّفين عن سفرة الحديبية، فقال: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ تخلُّفَنا هذا.

= أما مذهب الخلف: فالتأويل بالمعاني المجازية، والكنايات العرفية المنتزعة من أحوال المخاطَبين وعُرف مخاطباتهم، لأن الله سبحانه يخاطب الناس في الكلام عن ذاته وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم ورؤسائهم وعظمائهم من الصفات والأحوال. (المؤلف).

(١) ﴿عَلَيْهُ﴾ على لغة أهل الحجاز في ضمِّ هاء الغائب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وهي قراءة حفص.

والمُخَلَّف: هو المتروك في المكان، والأعراب: عرب البادية، والمراد بهم: الذين تخلَّفوا عن صُحبة النبيِّ ﷺ في وجهته وعمرته هذه التي انتَهَت بصلح الحديبية.

وذلك أنه لما أراد المسير إلى مكة عام الحديبية مُعتمراً، وكان في ذي القعدة سنةَ ستٍّ من الهجرة، استَنفَرَ مَنْ حولَ المدينة إلى الخروج معه، وهم غِفارٌ وأسلَمُ ومُزَيْنة وجُهينة وأشجَعُ والدِّئـل، حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو بصَدّ، وأحرم بالعمرة وساق معه الهديَ ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، فتثاقل عنه كثيرٌ من الأعراب، وإنما خلَّفهم الخِذلانُ وضعفُ العقيدةِ والإيمانِ والخوفُ من مقاتلة قريش.

فلما عاد النبي ﷺ موفَّقاً بعد هدنة الحديبية واعترافِ أهل مكة رسمياً بقوة المسلمين السياسية والحربية نِدّاً لقوتهم ودولتهم، جاء هؤلاء المتخلِّفون واعتذروا من النبيِّ ﷺ، وتعلَّلوا بالشغل، فكذَّبهم سبحانه بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: إنهم يعتذرون هذا الاعتذار بلسانهم، وأما قلوبهم فقد كانت معقودةً على أنك ستُغْلَب وتُقْهَر، أنت ومَنْ معك، ويتخلَّصون منكم، كما سيُصرِّح بذلك سبحانه ويَفضَحُهم بمطويات ضمائرهم ومكنونات أسرارهم.

وقد صدَّر الكلام بالتهديد والتيئيس المطويِّ على الإرشاد، فقال: ﴿قُلْ﴾ رداً لهم عند اعتذارهم إليك بأباطيلهم وطلبهم الاستغفار: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ ومؤدَّى هذا الكلام: مَنِ الذي يملك التدخُّل في شؤون الله ويَصرِفُه عن إرادته تعالى؟! يُسفِّههم في طلب الاستغفار من الرسول، والله مطَّلع على سرائرهم. أي: هل يدفع التَّخلُّف مَنِيَّتَـكم إن جاءت، أو الضَّرَرَ إن ألمَّ. أو المعنى: ماذا ينفعكم الاعتذار إن كان الله سبحانه يعلم ما في قلوبكم، وسيُجازيكم عليه؟!

وبعد أن أجابهم بهذا الجواب المبنيِّ على ظاهر اعتذارهم، أضربَ إلى بيان حقيقة حالهم، وما انطوت عليه ضمائرهم في هذا التَّخلُّف، وصدَّره بهذا البيان العام، فقال: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ فهو يعلم أن تعاقدكم على التَّخلُّف لم يكن لشُغلكم بأموالكم وحفظكم لها، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لأن العدوَّ سيستأصلهم ولم يبقَ مَنْ يعاتبكم على هذا التَّخلُّف، ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وهو أنَّ هذا التخلُّف توفيقٌ لكم من الله؛ لأنه يريد أن يحفظكم ويُهلِكَ هذه الشرذمة، ﴿وَكُنتُمْ﴾ بهذا الظنِّ والتخلُّف ﴿قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ أي: هالكين مُستوجبين لسخط الله وعذابه.

ثم علَّل ذلك ببيان مَنشَئه فيهم، وهو عدم إيمانهم الصحيح، وسَبَكه على الوعيد، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

ثم أيَّد إنجاز هذا الوعيد ببيان قدرته وسُنَّته تعالى في عباده، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] يتصرَّف فيهما بأمره، ومن ذلك أنه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يستحق غفران الزلَّات واللَّمَم؛ لغَلَبة حَسَناته كالمؤمنين، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن أحاطت به خطيئاتُه، كهؤلاء المنافقين المشركين، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ ومن ذلك: تأجيلُه لعقاب المشركين والمنافقين رجاءَ أن يَثُوبوا إلى رُشْدِهم ويتوبوا.

---

(١) يجوز أن تكون الآية ناظرةً كذلك إلى طلبهم الاستغفار لهم، وقاطعةً لأطماعهم.

وعلى كلٍّ، فمثل هذه الآية في القرآن تشير إلى ما قد وضعه سبحانه من القوانين التشريعية في الكتب السماوية لمن يستحقُّ المغفرة ومن يستحقُّ التعذيب، وتومئ إلى ما في تلك القوانين التي شاءها بمقتضى الحكمة من الرأفة والرحمة المندمجة مع المصالح العامة والسنن الطبيعية للروح والبدن، لأن المالك يُراعي صلاحَ مُلكِه على أكمل الوجوه، والله أعلم. (المؤلف).

ومِثلُ هذه الآية تأتي في القرآن تصويراً لسلطان الله العظيم في خلقه. بمعنى: أنَّ بيده تعالى الغفران والتعذيب، وليس المعنى أنه سبحانه يُجري ذلك اعتباطاً وجُزافاً، فإنَّ مشيئتَه سبحانه لا تجري إلا بالعَدْل والحق، ضمن سُنن مُطَّردة بيّنها سبحانه وتعالى للبشر في كتبه على لسان أنبيائه؛ حيث بيَّنت تلك الكتب أنَّ مشيئته سبقت بتعذيب مَنْ أفسد فطرته ودسَّاها وهو الكافر والعاصي، وبغفران الزلَّات والهفوات لمن حافظ على سلامة نفسه وزكّاها وهو المؤمن الطائع، وبأن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولا يُجزون إلا بما كانوا يعملون، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

ثم إنه تعالى أمر النبيَّ والمؤمنين أن يسيروا إلى خيبر بعد عودتهم من الحديبية، وأن لا يسير معهم أحدٌ من هؤلاء المتخلِّفين عنها، وذكر سبحانه ما سيدورُ بينهم وبين هؤلاء المتخلِّفين من الكلام حول ذلك، فقال: ﴿سَيَقُولُ﴾ هؤلاء ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ وهو أن لا يسير أحد منهم إلى خيبر، ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ إلى خيبر، ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: عندما أمرنا بالسَّير إلى خيبر بعد الانصراف من الحديبية، أمرنا سبحانه أن لا يسير معنا أحدٌ من المتخلِّفين عنها إلى خيبر، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ﴾ هو حسدٌ منكم أن لا نشارككم في الغنائم، فأنتم ﴿تَحْسُدُونَنَا﴾ عليها وتُبعِدوننا عنها.

فأضرب سبحانه عن حكاية قولهم هذا إلى بيان منشئه فيهم، وهو جهلهم بأنَّ المؤمنين لا يقولون على الله شَطَطاً، ولا يتقوَّلون عليه، فقال: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ وهذا شأنُ الأعراب، لأنهم لم يُدرَّبوا على دقَّة الفهم وامتثال الحكم.

وبعد هذا التأديب وعَدَهم بغزوة الروم في تبوك التي ذكر الله سبحانه قصَّتها في سورة التوبة الفاضحة للمنافقين، وكانت غزوةً فيها شدَّة، فوعَدَهم بها لتكون هي المُمَحِّصة لمن أصلح نفسَه منهم، ولمن لم يُصلح نفسَه، ثم أتبع النقد بالإرشاد والدعوة إلى الرشاد، على نهج القرآن، فقال: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ عنها وتتخلَّفوا ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الحديبية وتخلَّفتم ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾[1] لأنكم تكونون قد أضفتُم إلى ذلك التَّخلُّف هذا التَّخلُّف، فيكون إلزاماً بنفاقكم.

---

(١) معنى الآية كما في تفسيري «المعين»: ص ٥١٣: «قل ـ يا رسول الله ـ للذين تخلَّفوا من الأعراب عن القتال: ستُدعَون مُستَقبَلاً إلى قتال قوم أصحاب بأس شديد في القتال، تُقاتِلونهم أو يُسلِمون من غير قتال، فإنْ تُطيعوا أمرَ الدعوة إلى قتال القوم أُولي البأس الشديد، فتخرجوا للقتال مع المؤمنين الصالحين، يُؤتِكم الله أجراً حسناً مُعجَّلاً في الدنيا؛ ومُؤجَّلاً إلى يوم الدين، مشروطاً بصحة إيمانكم وابتغائكم رضوان الله والجنة، وإن تُدبِروا وتبتعدوا عن الاستجابة لدعوة الجهاد ـ كما تولَّيتم حين دُعيتُم للخروج مع الرسول في عُمرته عام الحديبية ـ يُعذِّبكم عذاباً أليماً في النار.

وهذه الآية تدلُّ على أن باب الجهاد مفتوح للمتخلِّفين عن الخروج مع النبي ﷺ إلى الحديبية، وأنه يُمكِنُهم أن يَتَلافوا ما سلف منهم من تقاعس وتثاقل. وأما القوم أُولو القوّة الشديدة الذين يُدعَون إلى قتالهم، فهم جميعُ أعداء الإسلام من ثقيف وهوزان، وأهل الرِّدّة، والروم وفارس، والتتر والمغول.

وفي الآية دليلٌ على صحَّة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لأنَّ أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتالِ فارس والروم.

ومُحصَّل الكلام: أن القتال طمعاً في الغنائم ليس طريقاً لقبول التوبة، وإنما طريق ذلك أنكم ستُدعَون إلى قتال قوم أُولي بأس شديد، فإن تُطيعوا تُقْبَلْ توبتكم، ويُؤْتِكم الله أجراً حسناً، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ولما كان السياق في تأنيب المتخلِّفين عن الجهاد وتوانيهم، استثنى من ذلك أصحابَ العاهات والأمراض، ورخَّص لهم التخلّف، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في التَّخلُّف عن الغزو لِما بهم من العذر، ولا يجوز لغيرهم.

ثم ذكر سبحانه حكمَه العامَّ الشامل للغزو، على نهج القرآن في ذكر الأحكام الخاصَّة ضمن أحكام عامة تشملها وغيرَها، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما يأمره به وينهاه، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ ويُعرِضْ عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ لا يخطر على بال، ولا يُصوَّر بحال.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

وبعد أن أتمَّ الكلام الذي استطرد به عن المُتخلِّفين، عاد وتابع التفصيل عن بيعة الحديبية والتنويه بشأنها، فقال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾ ألّا يفرُّوا حتى الموت، وكلُّهم ثابتُ الإيمـان قويُّ العزيمة ممتلئٌ حماسةً لنُصرة الله ورسوله، واضعٌ يدَه على قبضة سيفه، إيذاناً بذلك. وبهذا الرضا من الله عنهم سُمِّيت: بيعةَ الرضوان.

فلما مال رسول الله ﷺ إلى الصُّلح، كَرِهُوا ما كان من ثِـقَلِ شروط المشركين في صُلح الحديبية، حفيظةً منهم على الدِّين، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من تلك الحفيظة. وذلك أنهم كانوا حَوْل النبيِّ ﷺ يسمعون المفاوضات في عَقْد الصُّلح، ويضيقُ بعضهم بأمره صبراً؛ لتشدُّد سهيل بن عمرو مفوَّضِ قريش في مسائل يتساهل النبي ﷺ بقبولها. ولولا ثقة المسلمين المطلقة بنبيِّهم وقوة إيمانهم لَـمَا ارتضوا ما تمَّ الاتفاق عليه، ولقاتلوا ليدخلوا مكة أو لتكون الأخرى.

ومن جملة ما أثار حفيظتَهم ونَخْوتَهم مما شرطه سهيلٌ وقَبِلَه النبي ﷺ: أنَّ من أتى محمَّداً من قريش بغير إذن وليِّـه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردُّوه عليه، وقد نُفِّذ ذلك حالاً، إذْ ما كاد هذا العهد يوقَّع حتى أقبَلَ أبو جَنْدَل بنُ سهيل هذا على المسلمين يريد أن ينضمَّ إليهم ويسيرَ معهم، إذ كان قد أسلم، وكان أبوه يُعذِّبه ليفتنه، وهو يتحمَّل ويريد الهجرة فيمنعه، فلما رأى سهيلٌ ابنَه، ضرب وجهَه وأخذ بتَلْبيبه[١]، وجعل يجرُّه ليردَّه إلى قريش، وأبو جندل يصيح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أَأُرَدُّ إلى المشركين يَفتِنونني في ديني! فزادَ ذلك في قلق المسلمين، فقال النبيُّ ﷺ: «يا أبا جندل، اصبِر واحتَسِب، فإنَّ الله جاعلٌ لك ولـمن معك من المستضعفين مَخْرَجاً، إنا قد عَقَدنا بيننا وبين القوم صُلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عَهْدَ الله، وإنا لا نَغدِرُ بهم».

---

(١) التَّلْبيب من الإنسان: ما في موضع اللَّبَب من الثياب، ولبب الرجل: جعل ثيابه في عنقه وصدره في الخصومة. «لسان العرب» (لبب).

ثم قال للمسلمين مُطَمْئناً لهم عن اضطرابهم: «أنا عبد الله ورسوله، لن أُخالف أمرَه ولن يُضيِّعَني»(١).

وعاد أبو جندل إلى قريش نفاذاً لعهد النبيِّ ﷺ، وأقام النبي ﷺ مُضْطرباً مما رأى من شأن مَنْ حوله من المسلمين واضطرابهم، ثم صلى، ثم قام إلى هَدْيه فنَحَرَه، ثم جلس فحلق رأسَه إيذاناً بالعمرة، وقد امتلأت نفسُه بالسكينة والرضا.

فلما رأى الناس صنيعَه، ورأوا سكينتَه، تواثبوا ينحرون ويحلقون، وإنَّ منهم من حلق، ومنهم من قصَّر، فقال ﷺ: «يرحم الله المحلِّقين». فتنادَى الناس: والمقصِّرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلِّقين». فتنادى الناس في قلق: والمقصِّرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصِّرين». قال بعضهم: فلِمَ ظاهَرْتَ ـ يا رسول الله ـ الترحُّمَ للمحلِّقين دون المقصِّرين؟ فكان جوابه: «لأنهم لم يَشُكُّوا»(٢).

ثم تحمَّلوا وقَفَلوا راجعين، وإنهم لفي طريقهم بين مكة والمدينة؛ إذ نزل الوحي على النبي ﷺ بسورة الفتح هذه.

وروى الزهريُّ وغيرُه عن عروة بن الزبير قال: «أقبل النبيُّ ﷺ راجعاً، فقال رجل من أصحابه: ما هذا بفتح، لقد صُدِدْنا عن البيت، وصُدَّ هَدْيُنا، وردَّ رسولُ الله ﷺ رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه، فبلغ رسولَ الله ﷺ قولُ ذلك الرجل فقال: بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح، قد رضي المشركون أن يدفعوا بالراح عن بلادهم، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، ولقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظفركم الله عليهم، وردَّكم سالـمين مأجورين، فهو أعظم الفتوح، أنسيتُم يوم أُحُد، ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ

(١) رواه البخاري (٢٧٣١)، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٢) رواه أحمد (٣٣١١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره.

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾، [آل عمران: ١٥٣] وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتُم يوم الأحزاب. ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]، فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، هو أعظم الفتوح، والله يا نبيَّ الله، ما فكّرنا فيما فكَّرتَ فيه، ولأنت أعلم بالله وأمرِه منا»[١].

أقول: ومعنى قوله ﷺ: «قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألوكم القضية»: أنّهم رضوا أن يدفعوكم عن بلادهم باللِّين والسّلم والتفاوض دفعاً خفيفاً، ويَعُدُّوكم نّداً لهم يَعقِدون معكم مُعاهَدةَ سِلم، ناظرين إليكم قوةً مستقلة في هذه البلاد، نظيرَ قوتهم بعد أن كانوا يعدُّونكم شرذمة ثائرة، وينتظرون أن يَقْضُوا عليكم، أو أن تتفرَّقوا عن محمد ﷺ بعد قليل، أو بعد موته على الأكثر، فهذا فوزٌ سياسيٌّ عظيم. حتى قال المُؤرِّخون من الأجانب والمستشرقون: إنَّ محمداً قد فاز في صُلح الحديبيَّة على قُريش فوزاً سياسياً باهراً. وإذا لُوحِظَ أنَّ الأعراب المتخلِّفين كانوا يزعمون أنَّ النبيَّ والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه السفرة، وأنَّ المنافقين كانوا يظنُّون ذلك أيضاً، بَدَت لنا خطورةُ هذا الصلح وعظمتُه وبُعْدُ مَداه.

وقد أثبتت نتائجه أنه أعظم الفوائد الماديَّة والمعنويَّة والسياسيَّة والحربيَّة والدينية، فقد قويَ به المسلمون في عيون القبائل، وضَعُف به قوة المشركين والمنافقين، وصار العرب يَفِدون على النبي ﷺ من أنحاء قاصية، وتمكَّن المسلمون من خَضْد[٢] شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قُراهم المنتشرة على طريق الشام، واستطاع النبيُّ ﷺ أن

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤: ١٦٠ - ١٦١).

(٢) خَضَد الشجر: قطع شوكه. «الصحاح» (خضد).

يبعث سراياه إلى أنحاء قاصية، كنجد واليمن والبلقاء، فيليق بهذا الصُّلح أن يُسمَّى ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾، كيف وقد أدَّى إلى فتح مكة بعدئذٍ من دون مقاومة ولا نَصَب، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وصار أتباع محمد ﷺ في مدَّة هذا الصُّلح زهاء اثني عشر ألفاً، بعد أن كانوا في الحديبية ألفاً وبضع مئات.

وما قَصَصْناه عن نفسيَّة أكثر الصحابة رضي الله عنهم ورأيهم بادئ الأمر في صلح الحديبية، وكُرْهِهم له قبل أن يتبيَّن لهم عِظَمُ نفعِه: هو معنى قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ واحتملوا تلك الشروط الثقيلة على مَضَض، ولم تَهُنْ عليهم لولا أن رضيَه الرسول ﷺ، ولم تخالجهم ريبةٌ في اقتحام مكة لو أُمروا باقتحامها بعد تلك البيعة الصادقة، ولكنهم تبيَّنوا قيمة هذا الصُّلح بعد أن رأوا ثمرتَه ونتائجَه الحَسَنة آخرَ الأمر، ﴿وَ﴾ أدركوا أنَّ الله سبحانه قد ﴿أَثَـٰبَهُمْ﴾ به ﴿فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾، وفهموا أنَّ من الفتوح ما يكون بغير السيف، وما يشبه الهزيمة في بادئ النظر وظاهر الأمر، إذ ما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها هي الخاسرة بالشرط الذي حَسِبتَه غُنْماً لها وخِذلاناً لمحمد ﷺ، وهو: أنَّ من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم؛ فإنَّ المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد ﷺ في حَوْزته رعايةً لعهده، وعلى رأسهم الرجلان اللذان ردَّهما النبي ﷺ إلى قريش نَفَاذاً للعهد، وهما أبو جندل وأبو بَصير الذي جرى له مِثْلُ ما جرى لأبي جندل، قد شكَّلوا عصابة في طريق القوافل إلى الشام، وهي أمان في عهد الهدنة على الطرفين، فكانوا يأخذون تجارة قريش، ولم يستطع المشركون أن يشكوهم إلى النبيِّ ﷺ؛ لأنهم خارجون عن ولايته بحكم العهد، ولا استطاعوا أن يحجزوهم في مكة كما أرادوا، لقوة إيمانهم الذي يَعرِفُ منهم النبيُّ ﷺ.

وهنا تبيَّن صدقُ نظره ﷺ في قَبول شروط قريش التي ظهرت في بادئ النظر

ثقيلةً وخسارةً على المسلمين، وتبيَّنت قريش أنها هي الخاسرة، وأنَّ الرجل الصادق الإيمان، محاولةُ حَبْسِه شرٌّ من إطلاق سراحه، فهو لا بدَّ منتهزٌ فرصةَ الفرار، مقيمٌ على الذين حاولوا حَبْسَه حرباً عَواناً هم فيها الأخسرون.

فبعثت قريش إلى النبي ﷺ تسأله بأرحامها إلا آوى هؤلاء المسلمين، حتى يتركوا الطريق آمِناً، ونزلت عما أصرَّ عليه مُفوَّضُها سهيلُ بنُ عمرو مِنْ ردِّ المسلمين من قريش إلى مكة إذا هم ذهبوا إلى محمد بغير رأي أوليائهم أو مواليهم، وسقط بذلك الشرط الذي أحفَظَ المسلمين عامةً، حتى عمرَ بن الخطاب، فثار على أبي بكر يجادله في شدَّة هذا الشرط، وآوى محمدٌ ﷺ أصحابَه، وعادَ طريقُ الشام آمِناً على قريش، واستراح محمد ﷺ من قريش بهذا الصُّلح وهذه الهدنة، ففَرَغَ ليهود خيبر وللممالك الأجنبية، يُرسِلُ الرسل إلى عظمائها، بالدعوة إلى دينه، ولم يبق للدعوة الإسلامية بين العرب معارضة، فانتشرت بينهم بالسرعة، فوفدوا إلى النبي ﷺ أفواجاً أفواجاً؛ أضِفْ إلى ذلك أن عمرة القضاء وما كان فيها من أسباب الإقناع بصحَّة الدعوة المحمدية، دَعَتْ بعضَ عظماء قريش ـ مثل خالد بن الوليد وعَمْرو بن العاص ـ أن يدخلوا فيها مقتنعين بصحتها.

وهكذا تجلَّت سياسةُ النبيِّ ﷺ في قَبوله ذلك العهد الذي كَبُرَ وثَقُـلَ على أقرب المقرَّبين لديه، فقد نظر ﷺ بعين البصيرة إلى عُقْباه، ووَصَل به إلى القصد الذي توخَّاه، وأنزل الله في أمره السكينة على المؤمنين، وألزمهم كلمةَ التقوى.

ولكثرة فوائد هذا الصُّلح وحُسْن نتائجه وتمهيده لفتح مكة، سمَّـاه سبحانه ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ كما تقدَّم.

وقيل: بل المراد بالفتح القريب: فَتْحُ خيبر، فإنه وقع على إثر صلح الحديبية، وبقوله: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾: نفس مغانم خيبر. وعلى ما تقدَّم من أنَّ الفتح

القريب هو صلح الحديبية، يكون المراد من المغانم: فتح خيبر نفسه، كما سبق في قوله: ﴿إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ [الفتح: ١٥]، والله أعلم.

ثم أشار إلى ما في عهد الحديبية قبل الفتح من حكمة وألطاف خفية، فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ أي: فلم يكن ذلك التأخيرُ في الفتح عن عَجْز في القدرة، ولكنه عن حكمة بالغة.

ثم زاد في البيان عن تحقيق الوعد لهم بأن المغانِمَ والظفر بالأعداء ستتوالى، فقال: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ أي: غنائمَ خيبر، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ وهم بنو أسد وغطفان، حيث جاؤوا لنصرة أهل خيبر، فقذف الله في قلوبهم الرُّعْب، فنكصوا راجعين.

وقيل: بل المراد: كفَّ أيدي أهل مكة عنكم بالصُّلح؛ لتتفرَّغوا إلى دعوة الناس لهذا الدين، ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الحالةُ ﴿آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعرفون بها صدقَ الرسول ﷺ في وَعْدِه إيَّاهم عند رجوعه من الحديبية، بما ذكر من الغنائم، ووَعْدِه لهم بفَتْح مكة ودخول المسجد الحرام، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بهذه الآية ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ وهو الثقة بفَضْل الله تعالى، والتوكُّل عليه في كلِّ ما تأتون وما تَذَرون.

﴿وَ﴾ قد وعدكم كذلك مغانمَ قرية ﴿أُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ الآن لحكمةٍ أرادها الله، قال قتادة: هي مكة[1]، و﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ فلا تَفْلت منكم، بل ستفتحونها بعد هذه الهدنة المُمهَّدة، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ فتأجيلُه لفَتْحِها لا عن عَجْز في القدرة، ولكن لحكمةٍ اقتَضَت ذلك.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يوم الحديبية، ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾ منهزمين، ﴿ثُمَّ لَا

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٢٣٤).

﴿يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ وهي غَلَبةُ الأنبياء وظهورهم على مناوئيهم، قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، فهذه سُنَّة من سنن الله، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

ثم عاد وذكر سبحانه توفيقَه لهم بذلك الصُّلح، وكيف هيَّأ أسبابه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ بالرُّعْبِ فلم يرغبوا بقتالكم، ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ بالنُّهى والتُّقى، ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني: الحديبية، ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ببيعة الحديبية وغيرها.

ومن ذلك الظفر: ما رُوي أنَّ بعض فرسان قريش حاولوا أَخْذَ المسلمين على غِرَّة قبل التراضي على الهدنة، فدرى بذلك النبي ﷺ، وأرسَلَ مَنْ كَمَنَ في طريقهم وأَسَرَ بعضَهم، ثم منّ عليهم وأطلقهم.

فقد روى أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن أنس رضي الله عنه: أن ثمانين رجلاً من أهلِ مكة هبطوا على النبي ﷺ من جبال التنعيم عند صلاة الفجر ليُوقِعوا بهم، ويصيبوا منهم، فأخذهم رسول الله ﷺ، ثم أعتقَهم، وكان ذلك سَبَبَ الصُّلح[1].

---

(١) رواه أحمد (١٢٢٢٧)، ومسلم (١٨٠٨)، وأبو داود (٢٦٨٨)، والترمذي (٣٢٦٤).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: فأنتم في عناية الله وتدبيره الخفي.

ثم فصَّل سبحانه سَبَبَ مَنعِه له ﷺ من دخول مكة ذلك العام حرباً مع جُزْمِهم الفظيع، فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَ﴾ صدُّوا ﴿ٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا﴾ أي: وكان مكتوفاً، وذلك علامةُ الإهداء إلى الكعبة، ولكنهم لم يكترثوا، بل صدُّوه ومنعوه من ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ الذي يُنحَرُ فيه، وهو مكة.

ثم ذكر سَبَبَ كفِّ أيدي المؤمنين عنهم رُغْمَ عملهم هذا، فقال: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ يعني: المستضعفين الذين كانوا بمكة بين الكفار ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ بأعيانهم لاختلاطِهم بغيرهم أو خفاءِ أمرهم عنكم؛ لأنهم يكتمون إيمانَهم خشيةَ الأذى والفتنة، وعَجْزاً عن الهجرة، فيُخشى ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ بالقتل والإيقاع بهم ضمن الكفار، ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ﴾ أي: تأسُّف أو تعيير، إذ يُعيِّركم المشركون بقَتْل مَنْ هو على دينكم، وأنتم إنما وَطِئتُموهم ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ منكم. وجواب «لولا» محذوف، على نهج إيجاز القرآن؛ لدلالة الكلام عليه، والتقدير: لولا ذلك لَـمَا كفَّ أيدِيَكُم عنهم، أو: لأَذِنَ لكم بالفتح يوم الحديبية.

ثم ذكر سبباً آخر للمنع والكفّ، فقال: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يعني بهم: مَنْ أسلم من الكفار بعد هذا الصُّلح، وهم كثيرون. أي: فعل ذلك ليُسلِمَ ناسٌ كثير، إذ بهذه الهدنة اختلط كفار العرب بالمسلمين، واطَّلعوا على مزايا هذا الدين، فآمنَ منهم كثير، وازداد عدد المسلمين زيادةً عظيمة.

فبعد أن كان عدد جيش الحديبية ألفاً وأربعمئة، بلغ عَدَدُه عند فتح مكة بعد عامين أوثلاثة عشرةَ آلاف، وأصبح أهلُ مكة وغيرُهم مُسْتَعدِّين لقَبول الدِّين، حتى إنَّ جيش الفتح لم يلقَ مقاومةً أبداً.

ثم عاد بالكلام إلى تأكيد السبب الأول للكفِّ، فقال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: لو تميَّز هؤلاء المؤمنون عن كفَّار أهل مكة ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل مكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: بأمرنا إيَّاكم لمقاتلتهم، ونَصْرِنا إيَّاكم عليهم، وما كنا لنكفَّكم عنهم هذا الكفَّ.

ثم عاد إلى تفصيل الكفِّ وإتمامه رغماً عما اعتوَره من أسباب الهياج، فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾(١) وهي أن لا يُغلَبوا لأحد، ولا يُذعِنوا لأحد، ولا ينقادوا لأحد، انطباعاً منهم على ذلك. ومن هذا شرطوا في الصُّلح شروطاً ثقيلة مُنْبعثة عن تلك الحميَّة حتى أزعجت عُظَماءَ المسلمين وأثارت أَنَفتهم، لولا ما أُشبعوا به من الإيمان وصِدقِ وعدِ الله لهم، ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ﴾ بذلك ﴿سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾(٢) فقبلوا من المشركين تحكُّمَهم في شروط هذا الصُّلح؛ ليتمَّ ما أراد الله من فوائدَ جمَّة في عَقْد هذه الهدنة، رغماً عمَّا فيها من ثِقَلِ شروط المشركين.

وقد مدحهم الله على هذه التقوى، فقال: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾، ثم أشار إلى أنَّ في هذا التدبير دقائقَ الحكم، فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ فكلُّ ما يأمر به وكلُّ ما ينهى عنه وكلُّ ما يفعله سبحانه: مَبْنيٌّ على علمٍ وحِكَمٍ خفيَّة.

---

(١) حميّة الجاهلية: هي الناتجة عن طَيْش وغُرور بالعظمة الكاذبة، فتحمل صاحبَها على أنْ يتحكَّمَ في غيره، ويمنعَه مما يُريدُه لـمُجرَّد إغاظته، كما فعلوا في منع المسلمين من دخول المسجد الحرام عام الحديبية.

(٢) ألزمهم كلمة التقوى، أي: أمَرهم بها ووَفَّقهم لها، و«كلمة التقوى» هي: «لا إله إلا الله، محمدٌ رسولُ الله»، فهي التي تـقي صاحبها من الشِّرك والخلود في جهنّم، وهي رأسُ كلِّ تقوى.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

ثم ردَّ على المنافقين استهزاءَهم بهذا الصُّلح وبالانصراف عن دخول مكة، بعد أن أخبرهم الرسول ﷺ بأنه رأى في الرؤيا أنهم سيدخلون مكة آمنينَ مُحلِّقينَ رؤوسَهم ومُقصِّرين، فقال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما أراه لرسوله في الرؤيا من أنه سيدخل المسجد الحرام هو حقٌّ وصدق، وذلك أنَّ الله تعالى كان أرى نبيَّه ﷺ في المنام، وهو في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية: أنَّ المسلمين دخلوا المسجد الحرام، فأخبر أصحابَه، ففرحوا، وحَسِبوا أنهم داخلون مكةَ عامَهم هذا، فلمَّا انصرفوا ولم يدخلوا مكة، قال المنافقون مستهزئين: ما حلقنا، ولا قصَّرنا، ولا دخلنا المسجد الحرام. فردَّهم سبحانه بقوله للمؤمنين: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ يعني: في العام القابل ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من كَيْد الأعداء ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ عدُوّاً، أي: تؤدُّون سائر أركان العمرة وواجباتها بأمان.

ثم بيَّن سبب التأخير، فقال: ﴿فَعَلِمَ﴾ الله سبحانه من الصلاح في صُلح الحديبية ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾، وقيل: عَلِمَ في تأخير الفتح ودخول المسجد الحرام من الخير والصلاح ما لم تعلموا، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ وهو صُلحُ الحديبية الذي كان سبباً لفتح مكة بعد عامين أو ثلاثة من دون قتال.

وقد قال أبو بكر رضي الله عنه: ما كان فتحٌ في الإسلام أعظمَ من صُلح الحديبية[١]،

(١) «مغازي الواقدي» (٢: ٦١٠).

رغماً عن ثِـقَلِ شروط المشركين، ولكن الناس قَصُرَ رأيُهم عما كان بين محمد وربِّه. والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعَجَلة العباد، حتى تبلغَ الأمورُ ما أراد.

وقيل: بل المراد بهذا الفتح القريب: فَتْحُ خيبر الذي كان على إثر صُلح الحديبية، فقد قَوِيت شوكةُ المسلمين وماليَّتهم، وطار بهم صيتُهم في جزيرة العرب.

قال أبو العباس ثعلب[1] في قوله ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾: استثنى الله فيما يعلم، ليستثني الناسُ فيما لا يعلمون. يريد: أنَّ الله سبحانه أراد بقوله: ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أن يُعلِّمهم هذا الأدبَ في أقوالهم ومواعيدهم.

ثم أكَّد سبحانه البيان في صدق الرؤيا، ببيان أنَّ الله سبحانه ناصرٌ رسولَه، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ على أنَّ ما وَعَدَه كائنٌ لا محالة، أو على أنه رسول الله.

ويجوز في الضمير مِنْ ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أن يعودَ إلى الرسول ﷺ، والمعنى: أنه يُظهِرُ هذا الرسول ويُطلِعُه على كلِّ ما يحتاج إليه من أمور الدين؛ عقائدِه وآدابِه وسياستِه وأحكامِه. أو يعودَ إلى دين الحق الذي أرسله الله به، والمعنى: أنه تعالى يُعلي هذا الدينَ ويرفع شأنَه على جميع الأديان، بالنصر والبيان، والحُجَّة والبرهان، والبصيرة والعرفان. وهذا هو الأَوْلى بالسياق.

وعلى الأول، يكون الكلام علَّةً للنصر العزيز الذي جاء في أوَّل السورة؛ لأنَّ الرسول الذي يُرسِلُه بهذا الهدى لا بدَّ أن يُنصَر.

---

(١) أحمد بن يحيى بن سيّار الشيباني بالولاء (٢٠٠-٢٩١هـ) إمام الكوفيين في النحو واللغة، كان راوية للشعر، محدثاً ثقة حجة، له: «مجالس ثعلب»، و«معاني القرآن»، و«الفصيح». «الأعلام» للزركلي (١: ٢٦٧).

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾.

ثم ختم السورة بتسجيل الرسالة لرسول الله ﷺ والشهادة له بها، وبمدح المؤمنين الذين تأذَّوْا من شروط هذا الصُّلح ومفاوضاته، لأنَّ النبيَّ ﷺ عندما أملى على عليٍّ رضي الله عنه كتاب الصُّلح قال: «أكتب: هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله سهيلَ بنَ عمرو»[١]، فقال سهيل: أمسِكْ، لو شهدتُ أنك رسول الله لم أُقاتِلك، ولكن اكتُب اسمَك واسمَ أبيك. فقال رسول الله ﷺ: «اكتب: ما صالح عليه محمد ابن عبد الله» فثقل ذلك على المسلمين أيضاً. فشهد سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلك الرسول المُرسَل بالهُدى ودين الحق هو محمد رسول الله، أي: شهدتُ ـ يا سُهيل ـ وإن لم تشهد.

وقيل: ﴿مُّحَمَّدٌ﴾: مبتدأ، و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾: خبر، والجملةُ مبيِّنة للمشهود به.

ثم ذكر صفاتِ المؤمنين بما يُلائم السياق، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ وهو مبتدأ، خبرُه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾[٢] أي: إنهم يُظهِرون لمن خالف دينَهم الشِّدَّةَ

(١) رواه أحمد (٦٥٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن.

(٢) أي: أقوياءُ شجعان، أهلُ بأس وجهاد، مُسْتَعلون بقوَّتهم وبأسهم على الكفار الذين اختاروا لأنفسهم ـ بعد معرفة الحق ـ سبيلَ الكفر جُحوداً وعناداً، بعد اتِّخاذ مختلف الوسائل لتعريفهم بالحقِّ، وهدايتهم وإرشادهم، ثم إنهم بعد رفضهم للحقِّ صَدُّوا الناس عن الدين، وقاوموا الدعاة الهُداة إليه، وبسبب ذلك يقفُ المؤمنون أمامَ الكُفّار في معاركهم الحربيَّة أقوياءَ شجعان، يُقاتِلونهم بكلِّ بأس وتضحية وبَسالة، وهم رحماءُ مُتعاطِفون متوادُّون فيما بينهم، ومن ظواهر=

والصَّلابَة، ولمن وافقهم في الدِّين الرحمةَ والرأفةَ، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: يطلبون من الله سبحانه ثوابَه ورضاه، ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾(١) وهو نورُ الإيمان وبهجةُ مناجاة الله، يلوحُ في وَجْهِ المصلِّي الذي يقيمُ الصلاة ويؤدِّيها على الوجه المطلوب فيها، تَبْـرُق به أسرَّة وجهه، مُنبِئةً عن الرِّضا والارتياح، ويظهر فيه الوقار والفتاحة، رغم رقَّة الحال ورَثَاثة الهيئة، ولا تجد مِثلَ ذلك في غيره مع جماله وكمال حاله وفخامة هيئته؛ يظهر هذا بصورة جلية لمن تدبَّر وأنار الله بصيرتَه.

ثم قـرَّر ما تـقدَّم من البيان عنه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾(٢) ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ أي: إن ما ذُكِرَ عنهم في البيان السابق هو مَثَـلُهم في الكتابَيْن معاً، فقد جاء فيهما عنهم مِثلُ هذا البيان.

ثم استأنف لهم بياناً آخر من حيث التكاتف والاتحاد والتآزر، وضرب لهم هذا

= تَراحُمِهم: إرادةُ الخير لكلِّ المسلمين، والتعاون على البرِّ والتقوى، والبذْل والعطاء، والمحبة والإخاء.

(١) إن الصلاة المقامة القيمة، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فيظهر أثرها في باطن الإنسان وظاهرِه، ولا سيّما في ملامح وجهه. وهذا الأثر الظاهر هو السيماء. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) أي: ذلك الذي ذُكِرَ من نعوتهم الجليلة: هو وَصْفُهم العجيبُ الشأن الجاري مجرى الأمثال في كتاب الله التوراةِ المُنزَّل على موسى عليه السلام. فالراجحُ أنَّ الوَصْفَ المُتقدِّم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ هو المذكور في التوراة، ويتمُّ الوقف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾. وأما صفةُ أصحابِ محمَّدٍ ﷺ في الإنجيل، فـتبدأ من قوله سبحانه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾.

المَثَل، فقال: ﴿ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾[١] والشَّطْءُ: فَرْخ النَّبْت والشجر. والسُّوق: جمع ساق، وهي قصبة النَّبت، أي: إن هؤلاء المؤمنين في تلاحقهم وتزايدهم يوماً فيوماً، مثل زرع أخرَجَ فِراخَه، فتلاحقت واستوَتْ على سُوقها، حتى ساوَت الأصل وآزرَتْه، فتكامل بها وجاد، فأصبح ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بكثافته وقوَّته وغِلَظِ سيقانه، وحُسْن منظره وبداعته وجَوْدته.

فهذا مَثَلٌ ضربه الله عزَّ وجلَّ لأصحاب رسول الله ﷺ، حيث كانوا قِلَّة في بدء الإسلام، ثم كَـثُروا واستحكموا، وترقّى أمرهم يوماً فيوماً، بحيثُ أعجَبَ الناس، وكان غُرّةً في جبين التاريخ.

ثم علَّل ما تضمَّنه المَثَلُ بقوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ أي: إنما أكثرهم الله وقوّاهم ليكون غيظاً للكفار، بتوافرهم وتظاهرهم واتفاقهم عليهم، ونشأ عن ذلك نَشْـرُ دين الله وإظهاره الذي تعهَّد به سبحانه وتعالى.

ثم وَعَدَهم على ذلك بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾، و(مِن) في قوله: ﴿مِنۡهُم﴾ للبيان[٢]، لا للتبعيض.

---

(١) أشرقت روح القرآن على أصحاب رسول الله ﷺ، وهم من القلَّة بحيث لا يتجاوزون العشرات، وحولهم من الأعداء الألداء ألوف الألوف. ولكن هذه الروح العالية لم تزل تفعل بهم فِعْلَها، حتى جذبت تلك الشرذمة القليلة إليها العواطف والقلوب بسرعة مدهشة، ثم صارت بها صاحبة السلطان على أكثر المعمور، وذلك بعد أن أخذ الناسُ يدخلون في دين الله أفواجاً أفواجاً، وبلداناً بلداناً. (المؤلف).

(٢) أي: لبيان الجنس، أي: الذين آمنوا من جنس هؤلاء، فهي مِثْلُ «مِن» في قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

مدنية، وهي ثماني عشرة آية

وكلُّها آدابٌ عالية.

نزلت هذه السورة قُبيلَ أو بُعَيدَ صلح الحديبية الذي عَقَده ﷺ مع قريش، فتذمَّر بعض الصحابة وامتعض مما جاء فيه من الشروط، وأنكروا عليها، حتى اضطرب رسول الله ﷺ من ذلك. فكانت ـ أو فجاءت ـ هذه السورة تُعلِّمهم الأدبَ مع رسول الله ﷺ، ضمن بيان الآداب العامة التي احتوت عليها السورة، مُتَّصلةً بالسبب المباشر الذي نزلت فيه، وهو نداء الوفدِ له من وراء الحجرات[١].

وأخرج البخاري عن عبد الله بن الزبير قال: «قدم ركبٌ من تميم إلى النبيِّ ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد بن زرارة، فقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردتَ إلا خلافي، قال عمر: ما أردتُ خلافك، فتماريا حتى ارتفَعَت أصواتهما»[٢]، فنزل في ذلك:

(١) لكن المعروف أن الوفد هم وفد بني تميم، كما سيأتي قريباً، والمعروف أن قدومهم كان في السنة التاسعة للهجرة، وعلى هذا فتأريخ المؤلف رحمه الله لنزول السورة بقبيل أو بعيد صلح الحديبية فيه نظر.

(٢) رواه البخاري (٤٣٦٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ (١) ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾

قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا تُقدِّم بين يدي الرئيس وبين يدي الأب، أي: لا تعجل

(١) قال الراغب: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ﴾: لا تسبقوه بالحكم والقول، أي: بل افعلوا ما يرسمه لكم سبحانه ويبلغكم به رسوله، كما هو شأن عباده المكرمين، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وحكى ابن جرير أن العرب تقول: فلان يُقدِّم بين يدي رئيسه، بمعنى: يعجل بالأمر والنهي دونه.

ومآل المعنى على الوجوه كلِّها: النهي عن الإقدام على أمر من الأمور دون التقيد بكتاب الله وسنة رسوله. ويؤيد هذا ما نقل عن ابن عباس أن معنى الآية: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وعلى هذا، فالآية تقرر أصلاً عظيماً من أصول الإسلام، وهو أن الحكم لله وحده، وهو الذي يبلغهم الرسول إياه بالكتاب والسنة. (المؤلف).

بالأمر دونه والنهي. فالمعنى: لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله، ولا تَعجَلوا به، وكونوا تبعاً له، ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر، ولا تنكروا عليه رأْيه لأنه مقرونٌ بالوحي.

وعلى هذا، تكون الآية أدباً قائماً بذاته، ناظراً إلى ما جَرَى في الحديبية من امتعاض.

وقال ابنُ جنِّي[1]: المعنى: لا تفعلوا ما تُؤْثرونه، وتتركوا ما أمركم به الله ورسوله.

أقول: فهي قريبةٌ من بيان حال الـملائكة مع الله سبحانه، حيث يقول: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

وعلى هذا، فالآية الكريمة مقدِّمة لهذه الأحكام التي تضمَّنتها السورة، تُبيِّن وجوب الاهتمام بها والعمل بموجبها، وأن لا تُقدَّمَ عليها المواضعات والعادات التي تعارضها. وإنما ذكر الرسولَ ﷺ، مع أنَّ هذه الأحكام من الله تعالى؛ لأنه مُظهِرُ الوحي بهذه الأحكام والمُبلِّغ لها.

ثم شرع بعد هذه المقدمة بوجوب توقيره ﷺ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، ثم علَّل النهي بقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾، وقد تضمَّنت هذه الآية حكماً اجتماعياً عظيمَ النفع، وهو وجوب احترام رسول الله ﷺ وإجلاله وتعظيمه، ذلك لأنه الرئيس لهذه الأمة ومؤسِّس كيانها. ومنشأ الاحترام: الشعور بأنه يمتاز بالأمر امتيازاً لا يماثله فيه أحد من المرؤوسين، والجهرُ معه في الكلام يخالف ذلك؛ لأنه إنما يكون بين الأَكْفَاءِ الذين ليس لبعضهم على بعض مزيَّة واعتلاء.

---

(١) هو أبو الفتح، عثمان بن جني الموصلي (...-٣٩٢هـ)، من أئمة الأدب والنحو، له: «المبهج»، و«المحتسب» في شواذ القراءات، و«سر الصناعة». «الإعلام» للزركلي (٤: ٢٠٤).

وخصَّ المكالمة بالذكر من بين سائر وجوه التوقير، لأنها أوضح مَظْهَر لذلك الاحترام المطلوب، وتنمِّي لهم هذا الشعور في سائر أحوالهم معه ﷺ.

فنهى سبحانه أصحاب رسول الله ﷺ أن يرفعوا أصواتهم عليه إذا كلَّموه، كما يكلِّم بعضُهم بعضاً، وأوجَبَ عليهم أن يكون كلامُهم معه بصورة يتجلَّى فيها الشعور بالاحترام؛ لأنَّ ذلك يُربِّي مهابةَ الرئيس في قلب المرؤوسين. وهي من القواعد الإدارية التربوية الصحيحة. وعدم تربية هذه المهابة يؤدي إلى الفوضى في النظام، والفشل في الأعمال، كما علَّل ذلك سبحانه بقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لا تشعرون بذلك لدقَّة هذه النظرية الإدراية. والله أعلم. فمتى انفكَّ هذا الارتباط بين الأمة ورئيسها، تفسَّخ أمرُها، وجَنَحت إلى الانحلال وإلى الذُّلِّ والهوان تجاه الأمم الأخرى.

ولا يعارض هذا الأمر ما كان عليه ﷺ من التواضع ولين الجانب، إذ لا معارضة بين تواضع الرئيس واحترام المرؤوسين له.

وكان من أثر هذا الأدب الإلهي، ما ذكره ابنُ الزبير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، من أنه كان إذا حدَّث النبي ﷺ بحديث، حدَّثه كأخي السِّـرار، لم يُسمِعْه حتى يَسْتَفهِمَه[1].

وما ذكره عروة بن مسعود الذي أوفَدَه قريش إلى رسول الله ﷺ في الحديبية ليستطلع لهم أمْرَه، ويتكلَّمَ معه في أمر الصُّلح، فقد قال لهم بعد أن عاد إليهم: «يا قوم، إني وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسـرى والنجاشي، والله إنْ رأيت ملكاً قط يعظِّمه أصحابه ما يُعظِّم أصحابُ محمد محمداً»، وأخذ يُعدِّد صوراً من ذلك

(١) رواه البخاري (٧٣٠٢).

التعظيم والاحترام، حتى قال: «وإذا تكلموا عنده خَفَضوا أصواتهم، وما يحدُّون النظر إليه تعظيماً له»(١).

فقد أراد سبحانه لمحمد ﷺ أن يكون الرسولَ والرئيسَ السياسي والإداري والقائدَ المجاهد الفاتح، وأن يكون مَثَلَ الكمال في كل ذلك، كما هو مَثَلُ الكمال الأعلى في الأخلاق.

ثم أردَفَ سبحانه النهيَ عن رفع الصوت عند رسول الله ﷺ، بالترغيب في ضدِّه؛ تأكيداً له، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ(٢) عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾(٣) إذ مرَّنوها عليها فتمرَّنت وظهر نجاحهم فيها. فقد عبَّر بالامتحان عن غايته، وهو التمرين. ومفاد الآية: التقدير لهم على تمسُّكهم بما أمرهم الله به من غضِّ أصواتهم عند رسول الله ﷺ لِـمَا عندهم من تقوى الله والتمسُّك بأوامره. ولذلك سجَّل بقوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾، فهذه الكرامة في مقابلة تلك الطاعة والتقوى.

ثم ذكر ما كان السببَ المباشر لنـزول هذه الآية، وهي حادثة الوفد الذي كلَّم رسولَ الله ﷺ من وراء الحجرات. وآيات الأحكام والآداب يُراعى في نزولها المناسبات والحوادث المنطبقة عليها، لتكون أكثر تأثيراً في النفوس، باقتران الحكم التشريعي

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١)، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٢) أي: يخفضونها أدباً معه ﷺ.

(٣) الامتحان في الأصل: إذابة الذهب لِيَخلُصَ إبريزُه [وهو الحلي الصافي من الذهب] من الخبث وينقى منه. ويطلق الامتحان على الاختبار والتجربة، يقال: امتحن فلان فلاناً لأمر كذا فوجده قوياً عليه. وهذا يستلزم التمرُّن من جانب المُمتَحَن، والمعرفة من جانب المُمتَحِن. وقد تضمَّنت الآية السابقة التحذير من رفع الصوت، وتضمَّنت هذه الآية الترغيب في لين القول. (المؤلف).

بالواقع، فتُقرِّر الآية حكماً عاماً مستمرَّ المَدَى، بمناسبة حادثة خاصَّة، هي من ضمن ذلك الحكم ومُنزّلة عليه.

وهكذا كانت حادثةُ الوفد في أمر نزول هذه الآية، وذلك أنه وَفَدَ إلى النبيِّ ﷺ وفد من الأعراب أهل البوادي الخَشِني الطباع والآداب، فكانت صورة طلبهم لمقابلة النبيِّ ﷺ لا تتفق مع الآداب الاجتماعية الصحيحة الراقية، سيَّما مع النبي ﷺ، فإنهم جاؤوا إلى الحُجرات ـ وهي دار النبي ﷺ؛ إذ كان لكلِّ زوجة من زوجاته رضوان الله عليهنّ حجرةٌ خاصَّة بها ـ ونادَوْهُ من وراء الحجرات أن يخرج إليهم، كما هي عادة أهل البوادي فيما بينهم. فشنَّعت الآية عليهم أفظع تشنيع، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾، ومن خصائص الإنسان ومميِّزاته: العقل والدراية، فسَلْبُ هذه الصفةِ عن أكثرهم تشنيعٌ فظيع، وتهجينٌ شنيع.

ثم بيَّن ما كان يجب أن يتبعوه إرشاداً لهم وتعليماً، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لِـمَا في ذلك من رعاية حُسْن الأدب وتعظيم الرسول. وقد سبق بيانُ فائدة مثل ذلك اجتماعياً وإدارياً.

ومفاد الآية: أن يجلسوا في المحلِّ المُعَدِّ للانتظار، وهو المسجد إذ ذاك، حتى يحين وقت خروجه، وحينئذ يتقدَّمون إليه باسم مَنْ أوفدَهم من القبائل.

ولـمّا نقدهم بهذا النقد المرّ، وشنَّع عليهم بهذا التشنيع، استكانت نفوسُهم، وشعروا بخطئهم الفاحش، ففتح لهم باباً واسعاً للتوبة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ وفي هذا الأسلوب التربوي من الآداب الصحيحة والقواعد السامية ما يقف الفِكرُ خاشعاً عن تدبُّره؛ لأن الحَمْل على التوبة وإصلاح النفس بعد توليد هذا الشعور فيهم، له أثر فعَّال في تربية النفوس.

والآيات تُلهِمُ أنَّ المسلمين حينئذ كانوا أصنافاً مع النبيِّ ﷺ، فكان بعضُهم لا يحتشم في مجلِسِه ومخاطبته، وبعضهم يَتَسرَّع في إبداء الرأي والبَدْءِ بالعمل قبل أن يُؤْمَر، وبعضُهم يعرف قَدْرَه العظيم وشأنه الرفيع ﷺ، لِـمَا كان من قَدَمِ إيمانه به ورسوخِه، فيلزمُ الأدبَ والحشمة معه ﷺ، ويقف عند الحدود الواجبة عليه في حضرته ﷺ.

وواضح أنَّ هذا الحال جارٍ في البيئة البدوية، إذ لم تتعوَّد أن تتقيَّد بمثل هذه الآداب. وكان الكبير والرئيس يُخاطَبُ منها مخاطبة النِدِّ للندّ، وبدون استعمال ألفاظ توقيرية، فنزلت هذه الآيات تؤدِّب المسلمين عموماً بأحسن الآداب وأكمل الأخلاق، التي تعود عليهم بالنفع العميم والفائدة العُظمى، وتُعلِّمهم النظم الاجتماعية الكبيرة الأثر في المجتمع.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

وبعد أن ذكر هذه الآداب تجاه النبي ﷺ، ذكر أدباً آخر من آداب هذه السورة، يُصلح به هذا المجتمع، وهو ما يجب على الأفراد والجماعات تجاه المشاغبين والمفسدين لذات البَيْن، ومُروِّجي الإشاعات الكاذبة المسبِّبة للفوضى والذعر والخلاف، وعرَّض بالمنافقين الذين استغلُّوا ما استثقله المؤمنون من شروط المشركين في صلح الحديبية، وزادوا الأمر اضطراباً بالنقد والتهييج، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾، وقد ضمَّن ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ معنى: تحذروا، وعدَّاه تعديتَه.

فالآية لا تجيز لنا التسرُّع في هذا الموقف، ولا الغفلة فيه، بل سلكت مسلك الحكمة، فأمرتنا أن نَتَرَيَّث ونَتَبَيَّن الأمر بالتحقيق عنه، كي لا نصيبَ من جرَّائه قوماً بجهالة فنندم، ولا نُؤْخَذَ على غِرَّة فلا نسلم، فما أعظم ارتياح النفس لهذا التعليل.

ولزيادة الحَمْل على التمسُّك بهذا الأدب الاجتماعي العظيم، عَنْوَنَت المُخاطَبين بالإيمان؛ حَفْزاً لهم وإشعاراً بأنَّ من يدَّعي الإيمان يجب أن يتمسَّك بهذا الأدب. وعَنْوَنت هذا المُخبِر بالفاسق، تنديداً بما انطوى عليه من الأخلاق السيِّئة والقَصْد الخسيس، وتنفيراً منه ومن العمل بكلامه وأخذه بالاعتبار؛ لأنَّ الفسق هو الخروج عن الخطَّة التي رَسَمَها الله لعباده(١).

وإنما اختيرت كلمة ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ على كلمة (تريَّثوا)؛ لِـمَا فيها من الدلالة على وجوب اكتشاف حقيقة الأمر والبحث عنه، فهي متضمِّنة للمعنَـيَيْن معاً، أي: تثبَّتوا وتعرَّفوا حقيقة الأمر قبل أن تبنوا عليه عملاً، خشيةَ ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ

---

(١) الفسق: الخروج عن حجر الشرع. مأخوذ من قولهم: فسق الرطب؛ إذا خرج عن قشره. وخطر الإخبار لا ينحصر في ناحية الفسق وتعمّد الكذب، بل يجيء من نواح أخرى، فقد يكون الرجل عَدْلاً لكنه لا يعرف كيف يسمع الأخبار ولا كيف ينقلها، فلا يحسن السمع ولا يحسن الأداء، وقد يكون الرجل عدلاً ذا غفلة فتدسُّ إليه الأخبار من الكاذبين وينقلها على ظن الصدق. وأكثر الناس يقعون في تصديق الأخبار حيث لا يشعرون، فيضرون أو يتضررون.
ولبعض مَهَرة الكاذبين حِيَلٌ تخفى على أشد الناس تثبتاً من الأخبار، وكثيراً ما يقع عَدَمُ التثبيت من العظماء الذين يملكون النفع والضرر، يجيئهم من ناحية استبعاد أن تكذب بطانتهم عليهم، وهو مدخل عظيم للخطر، فالذين هم في أشد الحاجة إلى العمل بهذه الآية هم الذين بيدهم مقاليد الأمور.
وتؤذن الآية بأنه يجب على المؤمنين أن يتعلموا طرق الكشف عن الأخبار، ويُروِّضوا أنفسهم عليها. (المؤلف).

عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾، فكم دم أراقته وشايةُ السوء، وكم حريم استُبيح بنميمة نمّام، وكم صَفِيَّيْنِ تَقاطعا، وكم أليفَيْن تهاجَرا، وكم زوجَيْنِ تفارقا، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

وفي الكلام إلماعٌ إلى ما حدث في صُلح الحديبية من رواج بعض المشاغبات من المنافقين، ألمع به ضِمنَ تأديب المؤمنين في سماع الأخبار في هذه القاعدة العامة.

ثم عاد إلى تأكيد ما تضمَّنته مقدمةُ السورة من الحَمْل على التمسُّك بما سيذكر فيها من الأحكام، بعد أن بيَّن حكمَيْن منها؛ لأن ذلك العَوْدَ والالتفاتَ والتذكير أوقَعُ في النفس، وأعلى في البلاغة، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: رسولاً من عند الله يأتيكم منه بأحكام وتعاليم في إصلاح أحوالكم، وسعادة مآلكم، ولو كانت تخالف بعض رغباتكم، إذ ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الذي ترغبون به ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لهلكتُم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١].

ومحصَّل الكلام: إنَّ الذي جاءكم بهذه الأحكام والآداب لتُبدِّلوا بها أخلاقكم الواطئة الموروثة، وعاداتكم الخاطئة المألوفة، هو رسولُ الله، جاءكم بها من عند الله العليم الحكيم، الذي يعلم ما يَصلُحُ لكم ويُعينكم على إكمال المطلوب منكم، وإنَّ كثيراً مما تميلون إليه وورثتموه عن أسلافكم فيه ضررٌ كبير عليكم، وحطَّةٌ لنفوسكم، وأنتم لا تشعرون. فلو تُرِكْتُم على أهوائكم وميولكم هلكتُم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾[1] بالفطرة وبما يُرغِّبكم به على لسان رسوله، وبيَّنه لكم في هذا الكتاب

---

(١) أي: حبَّب وكرَّه بما طبعناكم عليه من معرفة الحق من الباطل، وألهمناكم به من التفريق بين الفجور والتقوى. والله أعلم. (المؤلف).

المبين، ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمۡ﴾ بمعونة محافظتكم على سَلامة فِطَرِكم، ونور بصيرتكم، واستعدادكم الطبيعي للنظر الصحيح، والفكر المستقيم، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ[١] ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾[٢] بذلك الاستعداد، وبما أبانَ لكم في ثنايا هذا الكتاب، من نتائجها السيِّئة وعواقبها الوخيمة في الدنيا والأُخرى.

ثم مجّد هؤلاء المحافظين على سلامة فِطَرِهم، وعلى التمسُّك بما جاءهم عن الله بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾، وهذه جملة معترضة عجَّل بها بين المعلَّل والتعليل الذي ضمَّنه امتِنانَه عليهم بما أودَعَ فيهم من هذه الغريزة الدينيَّة المحبِّبة للإيمان، والمكرِّهة للعصيان، وبما أرسل لهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب للإرشاد والبيان، فقال: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ أي: إن ذلك التحبيبَ والتكريهَ من فَضل الله على عباده بهذين الأمرين، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾ يضع الأمور والسنن الطبيعية حَسَبَ علمه الواسع، وحكمته البالغة، ويضع الأحكام كذلك، فالكلام تقريرٌ لِـمَا قبله، وتمهيدٌ لِـمَا بعده، على نهج القرآن في ذلك.

فمفاد هذه الآية: إلزامهم بتوطين العقول على قبول هذه الآداب والأحكام

---

(١) أي: بغَّض وقبَّح إليكم الكفرَ بالله عزّ وجلّ بالتكذيب للحقّ وتغطية نِعَم الله بالجحود، والخروج عن طاعته وأحكام الشرع ممّا يدخل في كبائر الإثم، والمعاصي التي لا تتجاوز حدود الصغائر. كما في تفسيري «المعين».

أو الفسوق هنا: الكذب كما قال ابن عباس، والعصيان: كلُّ ذنب، فهو من عطف العام على الخاصّ. والأول الذي اخترتُه في «المُعين» أَوْلى.

(٢) يجوز أن يكون (حبَّب) و(كرَّه) عِوَضاً عن (أوجَبَ) و(حرَّم)، على نهج القرآن في مثله. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ اعتراض مُعَجَّـل بين التعليل والـمُعلَّل، على نهج القرآن كذلك. (المؤلف).

الإلهية في هذه السورة، وإن كانت مخالفةً لأهواء بعض النفوس التي أفسدت طبيعتها بمفاسد التربية الواطئة الخاطئة؛ لأنَّ هذه الأهواء تعود بالضرر العظيم على المجتمع، فلو انحدر البشر أفراداً وجماعاتٍ مع ميولهم المختلَّة، وضُرب عنهم الذِّكرُ صَفْحاً؛ فسد نظام العالم، وانحلَّت عُرى الأخلاق، وساءت المعاملات، وأدى الأمر إلى اختلالٍ في الطباع وتَدَهوُر في الأرواح، كما ذكرت لنا الكتب السماوية عن انقراض كثير من الأمم، نتيجةَ اعتمادهم على مواضعاتهم الخاطئة، ومعتقداتهم السيِّئة، وانحدارهم مع ميولهم وأهوائهم، وإعراضهم عن أحكام الله التي جاءتهم بها الرسل من الله؛ لتُعينَهم على نَيْل الغاية التي خُلقوا لها، وهي الكمالُ في الأخلاق، والرُّقيُّ في الأرواح، للتقرُّب من الجنة والتباعد عن النار، تلك الغاية التي هي الهدف الأسمى والمقصد الأعلى من خلق الإنسان، والطريق الوحيد إلى السعادة في الدارين والاطمئنان.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

ثم أمر سبحانه وتعالى بحكم اجتماعيّ آخر عظيم، وهو وجوب التدخُّل في حلِّ النزاع القائم بين الجماعات والقبائل والأمم والدُّوَل، أردَفَ به ما سبق من وجوب تبيُّن نبأ الفاسق، إذ ربما ينشأ عن هذا النبأ نزاع وخصام، فقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ[١] مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ بطرق سِلمية لم يُعيِّن صُوَرَها القرآن، وكلُّ شيء لم يُعيِّن صورتَه يُحيله إلى العُرْف في كلِّ عصر. فيجوز أن يكون اليوم بصورة الإرشاد والنصائح في النشرات والجرائد، أو إرسال وفود للتسوية وحلِّ النزاع، أو مقاطعة

(١) الطائفة: الجماعة من الناس.

المعتدين في المعاملات، إلى أمثال ذلك من الصور التي يُحدِثُها الزمن في عالم الاجتماع والسياسة. والصُّلحُ لا يتحقق إلا في السعي بإزالة أسباب النزاع والخلاف سعياً صحيحاً منطقياً جارياً بمقتضى علم ودراية عالية بأصول الاجتماع في العصر.

فإن فشلت الطرق السلمية وَجَبَ أن يُعتَمَدَ على الطرق الحربية، فقال تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: حتى ترجعَ إلى حكم الله والحق العادل، ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أي: ومتى استَسلَمَت الجائرة، وارتَدَعَت عن الغيّ، ونزلت عند ما يُمليه عليها العَدْل؛ جاء دَوْرُ تسوية المشاكل، فأمرهم سبحانه أن يُسوُّوها بطريقة عادلة جداً، فيُراعَى حقُّ الضعيف، كما يُراعَى حقُّ القوي، ويُسوَّى الأمرُ الصغير كما يُسوَّى الأمرُ الكبير، حيث قال: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾، ثم قال: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ والإقساط: أدقُّ صُور العَدْل، وقد أكَّده وبالغ فيه ونَدَب إليه. ولَعَمري إن كان لكلمة «عصبة الأمم» أو «مجلس الأمن» أو «هيئة الأمم المتحدة» أو «الجامعة العربية» وأمثال ذلك معنًى صحيحٌ، فيجب أن تستمد قوانينها من هذه الآية العظيمة الشأن.

ولكن أين تلك النفوس السليمة التي تشعر بشعور صحيح حتى تفعل ذلك؟ هذا ما لا يُرجى في هذه العصور المُظلِمة التي قد فَسَدَت فيها النفوس، والتي يسودُ فيها مبدأ «الحق للقوة، وليس للضعيف حق في الحياة»، ذلك المبدأ الذي ينشأ عن الطبيعة البهيمية والهمجية ومنطق الغوغاء، ويخالف الطبيعة الإنسانية مخالفةً شنعاء، وهو من مواضعات الهَمَج وقواعدهم.

وهكذا يكون حال البشر إذا رُدَّ إلى أسفل سافلين، واعتمد على عقله المُحرَّف المسلوب، وترك شرائع رب العالمين، وما يُنزله على البشر بواسطة أنبيائه من التعاليم،

تلك الشرائع التي تُحتِّمُ على النوع الإنساني أن يحنوَ ويعطف القويُّ منه على الضعيف، ويُشفِقَ عليه منتهى العطف والشفقة. وقد قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في أول خطبة بعد الخلافة: «والضعيف عندي قويٌّ حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيفٌ حتى آخذ الحق منه»(١).

ومن مباحث دقة البلاغة في الآية: إسنادُ الاقتتال والمقاتلة لواو الجماعة؛ لأن ذلك يقوم بالأفراد، وكذلك الإصلاح؛ لأنَّ المكلَّف به إنما هو جميع الأفراد، ولا يسقط عن الجميع حتى يقوم أهلُ الحلِّ والعقد بإنجازه، فإذا لم يقوموا به وَجَبَ على جميع الأفراد أن يحملوهم عليه ليبرؤوا من عُهدة هذا الواجب.

واستعمل ضمير التثنية في قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، وقوله: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا﴾؛ لأن مُتعلَّق الصلح والبغي مجموعُ القبيلة، وإنما يكون ذلك على أيدي المفوَّضين منها أو الرؤساء.

ثم أردَفَ وجوبَ إصلاح ذات البَيْن في الجماعات، بوجوب إصلاح ذات البَيْن في الأفراد أيضاً، على أسلوب القرآن في تعقيب الحكم السابق بما يؤكِّده، ويقرِّر حكماً جديداً، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾، فهذه الآية بحسب السياق تعليلٌ وتأكيدٌ لسابقتها، وبحسب الصيغة بيانُ حكم جديد، على نهج القرآن في مثل ذلك. فأكّدت هذه الآية وعلَّلت وجوبَ إصلاح ذات البيْن في الجماعات، وحثَّت عليه باسم الأخوة، استفزازاً للشعور الذي يحمل الأخ أن يتألَّمَ لأخيه، وتضمَّنت حكماً جديداً، أفرَدَه بالتقرير لكثرة حدوثه، وهو وجوب إصلاح ذات البين في الأفراد. ولم تبيِّن هذه الآيةُ خطةً معيَّنةً للإصلاح كما فعلت الآية السابقة

(١) انظر: «تاريخ الطبري» (٣: ٢١٠).

ـ لأن الإصلاح بين الأفراد لا ينجرُّ إلى القتال، كما في الإصلاح بين الجماعات ـ وإنما أحالته هنا إلى العُرْف؛ ليكون بحسب مُقْتضيات الأحوال باختلاف العصور.

وفي قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تهديدٌ دقيقٌ يحمل على وجوب التدخُّل في هذا الإصلاح، وأن تكون التسوية بصورة عادلة جداً، فلا يُلتزَمُ جانب القوي ويُهْمَلُ جانب الضعيف، بل يُلتزَمُ العدل، ويُجتَنَبُ الجور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ (١٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ (١٣)﴾.

ثم أدَّبهم سبحانه بأدب آخر اجتماعيّ جليل، يؤدّي إلى حُسْن المعاشرة، وقطع دابر المنافرة، وإلى التآلف والتوادّ بين الأفراد والجماعات، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ والسخرية: الاستخفاف والاستهانة، وإذا حرِّمت بين الأقوام حرِّمت بين الأفراد.

وقد أشار التعليل إلى أن التمايز الحقيقي لا يكون بالمظاهر الخلَّابة، ولا بالمراكز المغصوبة، ولا بما أفاض الله على العبد من سَعَة الرزق. وإنما التمايز بتفاضُل الأرواح والأخلاق والأعمال، ولا سيَّما ما يعود منها بالنفع العام على الناس.

ثم أردف العامَّ وهو القوم مطلقاً، بخاصٍّ منه وهو النساء، اهتماماً به؛ لأنَّ هذه الحالة في النساء أكثر منها في الرجال، فقال: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾؛

لأنَّ مناط الخيريَّـة ليس ما يظهر للناس في الصُّور والأشكال والزيِّ والهندام، التي يدور عليها أمر السخرية غالباً، ولا سيَّما بين النساء، وإنما المقياس الصحيح للتفاضل ما ذكرناه مما أشارت إليه الآية. وقال الزمخشري: إنما أتى بصيغة الجمع دون الفرد استفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه.

وبعد أن نهاهم عن السخرية، نهاهم عن اللَّمْز كذلك، لأنه من فصيلتها، وصاغ العبارة بصورة إجراء الوحدة في النوع مجرى الوحدة في الشخص، إيذاناً بوجوب أن يكون المؤمنون كنفس واحدة، فقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾(١) واللَّمْز: الاستخفاف والاستهجان، ولا يقتصر على اللسان، بل يكون بالعين والإشارة أيضاً. والتعبير بالنفس يُؤذِنُ بأن المراد من الأقوام والنساء أفرادُهما، على نهج القرآن في توضيح أول الكلام بآخره، والعكس.

ثم نهاهم عن النَّبْز بالألقاب كذلك، فقال: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ وهو القَذْفُ باللقب المُشْعِر بالذم، يرتاب منه صاحبه ويستنكر ويستكين.

وقد ذكر سبحانه حُكمَه في المتعاطين لهذه الأمور بصيغة التأنيب والتهجين، فقال: ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ والاسم في اللغة: الذكر والوصف، يعني: أنّ مَن فعل ذلك يكون فاسقاً بعد أن كان مؤمناً. وبئس الحال في الإنسان أن يُوصَف بالفسق بعد أن كان موصوفاً بالإيمان. والفسوق: الخروج عن حدود الشريعة وأحكامها.

---

(١) أي: لا يَعِبْ الإنسانُ أخاه في وجهه بكلامٍ ولو خفيّ؛ لأنكم كالجسد الواحد، فمَنْ آذى نفسَ أخيه المسلم فكأنما آذى نفسَه، ومن يَلْمز غيرَه يُعرِّض نفسَه للانتقام منه باللَّمْز، فهو إذْ يلمزُ الناس يتسبَّب في أن يلمزوه، ورُبَّ لَـمْزٍ خفيٍّ أشدُّ من طعن صريح، لأن فيه معنى استغباء الملموز واستغفاله، فكأنه لا يتنبَّه إلى الطعن المُوجَّه ضدّه في رمز الكلام وحركات الوجه.

ثم حثَّ على التوبة بصيغة تتضمَّن التهديد للمُصرِّين والمتمادين في ذلك، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: لأنفسهم بتعريضها للعذاب والجزاء الشديد.

ثم أمر سبحانه وتعالى المؤمنين باجتناب أُمور أُخرى من قبائح الأخلاق والأحوال، هي أمراض اجتماعية فتّاكة بالمجتمعات فتكاً ذريعاً، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وقد تضمَّنت الآية تنويعَ الظن إلى أنواع ثلاثة: الأول: فيما هو خفيٌّ بهيم، وهو الكثير الذي يجبُ اجتنابُه حذراً من أن يصيب بجهالة أو بهتان. والثاني: ما هو مقطوع بإثمه، وهو البعض الذي يؤدِّي حتماً إلى الفساد وإلى الأضرار الفادحة والأحقاد. والثالث: ما هو مباح، وهو القليل الذي لا ينتج عنه ضرر، ويكون فيه حَزْمٌ وحذر.

ثم قَرَنَ الأمرَ باجتناب الظن، بالنهي عن التجسُّس المُنْبعث عنه غالباً، فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ والتجسُّس أنواع؛ منه السياسي، والاجتماعي، والتجاري، والشخصي، وغير ذلك. وكلُّ أنواعه منهيٌّ عنها، إلا إذا كان تجسُّساً على الأعداء في الحروب؛ لأن ذلك من مُتمِّمات الأمور الحربية المأمورين باتباعها، أو تجسُّس المراقبين الذين تفوِّضهم السلطة الإدارية لمراقبة ما يعود بالنفع على المجتمع، أو دفع الضرر عنه، فيُرجى أن يكون مِثلُ ذلك مُغتَفَراً. والله أعلم.

ثم قرن النهيَ عن التجسُّس بالنهي عن الغيبة، وهي أن تذكر أخاك بما يكره، فقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ سواء كان ذلك صراحة أو إشارة أو كناية. أي: لا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره أن يُذكَرَ به وإن كان فيه، فإن لم يكن فيه فذلك هو البهتان، وهو أقبَحُ من الغيبة وأشدُّ إثماً.

ثم شبَّه الغيبة تشبيهاً ضمنياً بأكل لحم الميت؛ مبالغةً في التنفير منها والتقبيح لأمرها، وصاغَ العبارة بصيغة الاستفهام التوبيخي التبشيعي، للتنبيه على مكان الغفلة عن قُبح هذه الخصلة وبشاعتها، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، ثم أردَفَ الإنكار بما لا نزاع فيه، وهو تقرير القبح، وقال: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

ومن أساليب القرآن أن يذكر هو الجوابَ بعد الاستفهام، إذا كان معلوماً ومسلَّماً به، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١]، وكذلك قوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فأفاد أن كراهة مِثلِ ذلك أمرٌ مُقرَّر لدى النفوس، فيجب أن تكون فظاعة الغيبة الشبيهة به أمراً مقطوعاً به أيضاً، على طريقة قياس النظير. فقد نبَّه النفوس إلى ما لا تُنكِرُ قُبحَه وبشاعَته، ثم قاس عليه ما لم تكن تَنتَبِهُ له، لأنها قد استَساغَتْه وألِفَتْه بتأثير العادة والتكرار.

والكناية بأكل اللحم عن الغيبة من خصائص اللغة ودارج الكلام.

ثم فتح باب التوبة للمتلبِّسين بهذه الخصال، دعوةً لهم إلى التوبة والإقلاع عنها، بعد أن أشفع النهي بالتحذير، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أوامره، واجتناب مناهيه، وتوبوا إليه؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ يعفو عمَّن تاب وأناب إليه، رحمةً منه وفضلاً.

ولما كانت الخصالُ المنهيُّ عنها من السخرية وما يتبعها مُنْبعثةً في النفس عن توهُّم الترفُّع على الغير، أردفها ببيان مبدأ المساواة بين البشر، وأنه لا أحدَ خيرٌ من أحد إلا بالتقوى. فجعل الآية بحسب السياق: مضمونها تعليلاً لمضمون ما سبقها، وبحسب الصيغة تقريراً لحكم جديد، على نهج القرآن في مثل ذلك، فذكر هذا الحكم العظيم من الأحكام الجليلة التي جاءت في هذه السورة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ والمراد: إما آدم وحوّاء، وإما صِنفا الذكر والأنثى. ويجوز أن

تكون في الآية إشارتان؛ الأولى: إلى المساواة في أصل الخلقة، والثانية: إلى أن الإنسان مخلوق من ماءٍ مَهينٍ بين ذكر وأُنثى، فلا يليق به أن يَتَفاضل ويتكبَّر، وإنما الكبرياء والعظمة لله.

ثم بيَّن تعالى أنَّ الحكمة والغَرَض[١] من تقسيم الناس إلى قبائل وطوائف إنما هو التعارف لا التفاضل، فقال: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ[٢] لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ لا لِتَناكَروا وتتفاخروا، وإنما ليَسهُلَ التعارفُ فيما بينكم؛ لأن كلَّ كثرة يجب لدى الذهن أن تقسم إلى أقسام، وتُصنَّف إلى أصناف، حتى يمكنَ تمييزُها والإلمامُ بها أو ببعض أصنافها أو أفرادها عند الحاجة. فالغَرَضُ من التشعيب هذا التعارُفُ والتعاون وصلة الأرحام، لا التفاخر وما يُفْضي إليه من تمايز وتنافر.

ثم بيَّن وَجْهَ التفاضل الحقيقي بين أفراد الإنسان، فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٣]؛ لأنَّ التقوى هي التي تَسْمو بالنفس الإنسانية نحو الكمال، وبتفاوتها

(١) أما الحكمة فنعم، وأما الغرض فلا، إذ لا غَرَضَ لله تعالى في أفعاله، كما تقدَّم بيانه مراراً.

(٢) ﴿شُعُوبًا﴾: جمع شَعْب ـ بفتح فسكون ـ، وهو الجمع العظيم من الناس المتنسبون إلى أصل واحد عُرِفوا به، ويَتَشعَّب منه قبائل، ومن القبائل عمائر، ومن العمائر بطون ...، ومثَّلوا للشعب بخزيمة وربيعة ومضر، ومن خزيمة: قبيلة كنانة، ومن ربيعة: قبيلة بكر، ومن مضر: قبيلة تميم، إلى غير ذلك.

(٣) خُلق الإنسان للكمال الروحي والخلقي، ولهذا جعله آخر المخلوقات. وقد فطره الله سبحانه مستعداً لذلك الكمال، ولكن هذا الاستعداد إنما يخرج من القوة إلى الفعل بالتربية الصحيحة والمران الطويل على سبيل هذا الكمال ومناهجه، والإدمان المستديم على ذلك. وبقدر ما يحصل عليه الإنسان منها، تكون قيمته الشخصية الحقيقية.

وأقصى ما وصل إليه الإنسان من هذا الكمال: مرتبة أولي العزم من الرسل، التي وصل إليها أولئك الرسل الكرام، ويليها مرتبة الصدِّيقين، ثم... وثم... =

تتفاوت الدرجات في صلاح النفوس والأرواح، ذلك الصَّلاح الذي هو مصدرُ كلِّ خير وسعادة في الحياة الدنيا والحياة الأخرى.

وقد جاء عن النبي ﷺ في تقرير مبدأ المساواة، قولُه في خطبة الوداع: «أيها الناس، إنَّ ربَّكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فَضْلَ لعربيّ على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمَرَ على أسود، ولا لأسوَدَ على أحمر، إلا بالتقوى. إنَّ أكرَمَكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلَّغت؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «فَلْيُبلِّغِ الشاهدُ الغائب»[1].

فالناس ـ في نظر الدين الإسلامي ـ سواسية كأسنان المشط[2]، على حدِّ تعبيره ﷺ. فلم يُبِحِ الإسلام أيَّ تفرقة سوى تفرقة الكفاءة الناشئة عن العمل الذي يقدِّمه الإنسان لربه ونفسه ووطنه والناس أجمعين.

ومن التقوى: الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله[3].

= وهذه التربية الصحيحة المطلوبة إنها تكون على الأسس التي وضعها سبحانه وتعالى في شريعته، وأنزلها في كتبه على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام، فإنه أنزلها لتنمية هذا الاستعداد في البشر، وإخراجه من القوة إلى الفعل، ليحصل على ما خلق له، وهو الكمال الإنساني، والخلق الروحاني. وهذا هو مؤدى التقوى؛ لأن هدفها القِيَمُ السامية والـمُثُل العليا، إذ الإنسان لن يكون إنساناً بدون ذلك، ولو أحرز القوة والسلطان، ولا عبرة بالأنساب والألوان. (المؤلف).

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٤٨٩) من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، ـ وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، ـ وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣: ١٠٠)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٩٥)، وابن عدي في «الكامل» (٣: ٢٨٤)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) التقوى يريد بها القرآن: مراعاة صلاح ما بين الله والناس، وما بين الناس بعضهم مع بعض. ولذلك تدور هذه الكلمة في آيات الأخلاق والاعتقاد والاجتماع، والمراد بها: أن يتقي الإنسان كلَّ ما فيه ضرر لنفسه أو لغيره من الناس. هذا هو مبدأ المساواة الذي ولد قبل أربعة عشر قرناً =

ثم ختم الآية بما يحثُّ على التزام التقوى، والتَّجرُّد من حسِّ التَّرفُّع على الغير واحتقاره، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ولما أنكر سبحانه على التفاخر بالأنساب والقبائل، وأبطل التفاضل إلا من طريق التقوى والإيمان، ندَّد بالأعراب أهل البوادي، الذين يَعظُمُ عندهم شعور المُفاضَلة بين شعوبهم وقبائلهم، ولم يتأثَّروا بأصول هذا الدين في الاتحاد والمساواة؛ ندَّد بهم وبإيمانهم، وعَرَّض بالمتخلِّفين منهم عن الحديبية، مُلمِعاً إلى أنَّ الإيمان ليس بالقول وحده، بل بما

= على مهد الإسلام في بلاد العرب التي كانت تعدّ أشدّ الأمم تباهياً بالأنساب وتسامياً بالآباء. وقد تخاصم أبو ذر الغفاري وعبد زنجيّ في حضرة النبي ﷺ، فاحتدّ أبو ذر على العبد، وقال له: يا ابن السوداء، فغضب النبي ﷺ وقال له: «طفّ الصاع، طفّ الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح». فوضع أبو ذر خدّه على الأرض، وقال للأسود: قم فطأ على خدي. تكفيراً لقوله هذا. ومعنى «طف الصاع»: خَفِّف الكيل، يريد: لا تترفع عليه بنسبك ومركزك. (المؤلف).

والحديث رواه أحمد (١٧٤٤٦) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، وقال مخرِّجوه: حديث حسن.

انعقد عليه القلبُ وصدَّقه العمل، فقال: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّا﴾ وقيل: نزلت في نفر من بني أسَد قدموا إلى المدينة في سنة جَـدْب، فأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان. يريدون الصَّدقة، ويمنُّـون عليه بأن أسلموا، فـردَّ الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ إذ ليس الإيمانُ كلمةً تجري على اللسان، وإنما هو روحٌ يملك على الإنسان قلبَه ونفسَه وإحساسَه، ويدفع به إلى التضحية واحتمال البلاء في سبيله.

فالإيمان هو التصديق المقارن لطمأنينة القلب، والتمسُّك بمقتضياته، ولم يحصل لكم ذلك، وإلا لَـمَا مَنَنـتُم بما فعلتُم، كما ينبئ عنه آخر السورة، ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ فالإيمانُ محلُّه القلب، والإسلامُ محلُّه اللسان، أي: دخلنا في زُمْرة المسلمين، فإنَّ الإسلام انقيادٌ ودخولٌ في السلم، وقد دخلتُم في الملَّة بالشهادة التي تحقن الدم، وتصونُ الأموال، وأسلمتم فقط، ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ بَعْدُ، وذلك لأنَّ الذي يؤمن بعقيدة ونظام ـ فرداً كان أو جماعة ـ مُضْطرٌّ بطبيعة عقيدته وإيمانه بها أن يسعى في تأييدها ونشرها، ويبذل جهده في ذلك. وإذا رأيتَه لا يسعى هذا السعي فهو كاذب في دعواه، ولـمَّا يدخل الإيمان في قلبه على الوجه الصحيح.

والنفي بـ(لـمَّا) الدالة على التوقُّع يُشعِرُ بأنَّ الإيمان يتدرَّج في القوة، وبأنهم سيؤمنون إيماناً كاملاً بالتدريج الطبيعي فيما بعد؛ لأن الإيمان نتيجة، والعرفان يبتدئ صغيراً وينمو حتى يتكامل.

ولقد دعاهم إلى الإيمان الحقيقي بقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالإخلاص والعمل الصالح ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾ أي: لا ينقصكم[1] ﴿مِّنۡ﴾ جزاء ﴿أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾، بل

---

(١) تقول العرب: لاتَهُ يليتُه، بوزن: باعه يبيعُه؛ إذا منعه شيئا ممّا يستحق. ولهذا الفعل صيغة أخرى =

يجازيكم على أعمالكم الصَّالحة أكمَلَ الجزاء، ويغفر لكم ما سَبَق من أعمالكم السيِّئة؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَا فَرَط من التائبين، ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ بالتفضُّل عليهم.

ويجوز أن يكون معنى الآية: أنه سبحانه لا يغمطهم من إسلامهم هذا شيئاً على بساطته وعدم نضوجه، والله أعلم.

ثم بيَّن لهم حقيقة الإيمان الصحيح الكامل في معرض الرد على ادِّعائهم الإيمان، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي: لم يَشُكُّوا، وذلك لا يكون إلا بالإيمان الصحيح الذي تخالط بشاشتُه القلوبَ، فتصبح نزَّاعةً إلى الخير نفَّارةً عن الشَّر؛ لأنَّ الإيمان الصحيح يكون له سُلطان على النفوس، وعلى تَصرُّف إرادتها، فإذا آمنوا ذلك الإيمان ظَهَر أثرُه في نفوسهم، فتمسَّكوا بمبادئه وعملوا الصَّالحات ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في سبيل نشر الدعوة إلى ما أنزل الله على عباده من التعاليم، ليتَّقوا شقاء الحياتين، وينالوا سعادتها، فهم يجاهدون في سبيل ذلك بأموالهم وأنفسهم، بنفس راضية مطمئنَّة، طلباً لمرضاة الله وإصلاحاً للأمم، و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ في ادِّعائهم الإيمان. وفي هذه الفقرة تعريضٌ بالمتخلِّفين من الأعراب عن السفر إلى الحديبية.

ومُحصَّل المعنى: أنه سبحانه وتعالى يقول: ليس الإيمان هو ما زعمتُم من قول لا يوافقه عَقْدُ القلب، ولا تُؤازِرُه الأعمال، وإنَّما الإيمان الذي يقبله سبحانه ويُباعِدُ بين أهليه وبين النار: هو تصديقٌ خالص لا أثر للريب فيه حتى تظهر ثمراته على الجوارح بالطاعة، وأداء ما فَرَضه الله سبحانه من التكاليف البدنية والمالية، والتضحية بالنفس

= تنطق بها بعض قبائل العرب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، يقال: آلت فلان الشيء يألِتُه، بوزن: ضربه يضرِبُه، أي: نقصَه، والمعنى: ما نقصناهم.

والمال في سبيل الله. وهو إعلاء كلمة الله، وتمكين الحق، ودفع البغي، وعمارة الأرض، وتطهيرها من الفساد والظلم. فالذين هذه خصالُهم وهذه أعمالُهم هم الصَّادقون في دعوى الإيمان، أما الذين لم يتدرَّجوا بإيمانهم إلى هذا الميزان، والذين تخالف أعمالُهم مبادئَ الإيمان ليسوا بمؤمنين حقاً؛ لأن الإيمان الصحيح يسيطر على الأعمال، ويَقْسرُها على مبادئ القرآن. والعُرْفُ يُنـزِّل من لا يتمسَّك بمقتضيات أمر من الأمور منزلةَ المرتاب فيه وإن ادَّعاه. والقرآن إذا ذكر المؤمنين وصفهم بسلامة العقيدة وكمال الخُلق وصلاح العمل، لأن ذلك هو ملاك الإيمان.

وقد أرشَدَتْنا الآية إلى أن ما يسمَّى في العُرْف إيماناً، وهو الإيمان الذي لا سلطان له على النفوس، ولا تأثير له في إصلاح العمل، لا يُعدُّ إيمـاناً، ولا يُعْبأ به، وهذا الضرب من الخِذلانِ يَعرِضُ لكثير من أرباب الأديان عند فساد الحال. وقال الأستاذ الإمام[١]: لا يمسُّ الإيمانُ قلبَ أحد إلا كان أولَ أعماله تقديمُ ماله وروحه في سبيل الإيمان[٢].

ثم أكد الإنكار على هؤلاء الأعراب في ادِّعائهم الإيمان جَهالةً منهم بحقيقة الإيمان، أو إخفاءً لنوايا ومآربَ يرمون إليها من وراء تلك الدعوى، فقال: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أي: بكيفيَّـة دينكم. والتعبير بهذه العبارة عن ادِّعائهم الإيمان، إنما هو للمبالغة في ردِّ دعواهم، والتـشنيع عليهم، إذ كيف يدّعون ذلك، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾؛ ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]. أي: فماذا تفيدكم تجاه علم الله الواسع هذه

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) «تفسير المنار» (١٠: ٤٠).

الدعوى الجوفاء، والله يعلم من الإنسان خَطَراتِ نفسِه وهواجسَ حسِّه، لا تخفى عليه منهم خافية؟

ثم تابع المعنى مُندِّداً بامتنانهم على النبيِّ ﷺ بإسلامهم، فقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ فقد قال وفدُ بني عبد الأسد للنبي ﷺ: «أتيناك قبل أن تُرسِلَ إلينا»[1]: يعدُّون إسلامهم منَّةً عليه، جهلاً منهم بحقيقة الإسلام وأنَّ لهم ما كسبوا وعليهم ما اكتسبوا، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. ولو كانوا يفقهون ذلك لتبيَّنوا أنَّ إسلامهم ليس منَّةً عليه، وإنما هو منَّةٌ منه عليهم، وفَضْلٌ منه كبير، إن كانوا مؤمنين حقاً. وقد أرشدهم إلى ذلك بقوله: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ بما أودع فيكم من العقول، وأرسل لكم الرسول، وذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ في ادِّعاء الإيمان.

ثم ختم السورة والسياق ببيان أنَّ أعمال البشر ونواياهم هي تحت مراقبة الله تعالى، لا يغيب منها شيء عنه، ويُجازيهم عليها؛ إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشرّ، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ فلا تخفى عليه أعمالكم ولا نواياكم، ويعلم المؤمن وغيرَ المؤمن، والمسلم وغيرَ المسلم، فلا تُفيدُ الدعاوى الفارغة والتمويهات الباطلة شيئاً.

* * *

(١) «السيرة النبوية وأخبار الخلفاء» لابن حبان (١: ٣٦٥)، وهي ضمن كتابه «الثقات» (٢: ٩٠).

سُورَةُ ق

مكية، وهي خمس وأربعون آية

جاء فيها إنكار المشركين للحشر وإثباته عليهم بالدليل، ثم إنذارهم بعذاب الدنيا والآخرة.

وقد تردَّد السياق في ذلك، حتى ختم السورة بأمره للنبي ﷺ بالصبر على تكذيبهم له، وأن يستعين بالصلاة؛ لأنها أحسنُ مُعينٍ على الصبر والثبات.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥﴾.

﴿قٓ﴾ مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور، في أوَّل البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفِكرِ وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها اهتماماً به. وقد عزَّز ذلك بالقَسَم مبالغةً في التقرير، فقال: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾ أي: الكريم[1] والسالم من النقد والتقصير.

وجوابُ القَسَم محذوف، على نهج إيجاز القرآن لدلالة ما بعده عليه، تقديره: إنك لرسول الله، وما جئتَ به حقّ، وإنَّ البعث حقٌّ واقع لا محالة. لكن القرآن ـ بحسب أسلوبه ـ أضرَبَ عن هذا الجواب إلى الإنكار على إنكارهم ذلك، وإلى إثباته بالدليل، فقال: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ[2] مِّنۡهُمۡ﴾ أي: من قومهم ومن أنفسهم، مع أنَّ ذلك أقرب إلى التلقِّي بالقبول، فالصيغة تُؤذِنُ بشدَّة الإنكار عليهم، والتهجين لهم والتجهيل.

---

(١) صاحب المجد والشرف، الرفيع المقام، العليّ المنزلة.

(٢) رسولٌ مُحذِّر يُخوِّفُهم من عذاب الله وعقابه المُعجَّل والمُؤجَّل بعد أن بلّغهم وأقام الحججَ عليهم ورغَّبهم، ولكنهم أصرُّوا على جُحودهم وعِنادهم

ثم حكى عَجَبَهم ممَّا أنذرهم به من البعث والحساب بقوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾(١) ﴿٢﴾ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ نرجع إلى سيرتنا الأُولى؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾(٢) ينكرون ذلك ويستبعدونه.

فردَّ سبحانه على استبعادهم هذا بما يناسبه ويُقرِّر ما يستبعدون، وهو أنَّ الله سبحانه حافظٌ لعَجْم الذَّنَب الذي يُعادون منه، أو لجميع أجزائهم بعد الموت، ومُحصٍ لسائر أعمالهم التي عملوها في الدنيا، ومُجازيهم عليها، فقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من لحومهم ودمائهم، وتُبليه من عظامهم، وما تُفْنيه من ذلك جزءاً بعد جزء، وذرَّة بعد ذرَّة، فسنردُّها كلَّها عليهم، أو سنردُّهم من عجب الذنب عندما نُحييهم في الحياة الثانية، ونُرجعهم إلى سيرتهم الأولى.

ويجوز أن يكون المعنى ـ والله أعلم ـ: قد عَلِمْنا ما تنقص الأرض منهم بالإفناء، وما تتركه بالإبقاء، وهو عَجْم الذنب الذي منه يعاد الإنسان في الحياة الأخرى، وهذه الخلية لا تفنى وإن حُرق الجسم بالنار، أو أكلَتْه السِّباع، أو ابتلعَتْه البحار، وهو أدقُّ من أن يُدرَك بالمنظار.

ثم بيَّن تعالى عِلمَه الواسع فيهم، فقال: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾ يحفظ لهم وعليهم كلَّ شيء عملوه في الدنيا(٣)، ولكنهم لا يصدِّقون.

---

(١) ﴿هَٰذَا﴾ الإنذار، ﴿شَىْءٌ﴾ أمرٌ وشأن، والعجيب: ما يُدهش ولا يُصدَّق. وهو على وزن: فَعيل، بمعنى اسم الفاعل مُعجِب، للمبالغة من مصدر: أعجب.

(٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ البعث المهدّدون به، ﴿رَجْعٌۢ﴾، يقال: رجع فلان الشيء، بوزن: ضرب، أي: أعاده وردّه. فالرجع: الإعادة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨] أي: إرجاعه، ﴿بَعِيدٌ﴾: في نهاية البُعدِ عن الإمكان والعادة، فهو مستحيل لا يصدَّق. وكثيراً ما يعبَّر عن الاستحالة بالبُعد.

(٣) هو اللوح المحفوظ، فيه جميع الأشياء المقدَّرة.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ﴾ منه ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ أي: في حَيْرة واضطراب[1] لعدم تصديقهم بقدرة الله على ذلك.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

ثم بصَّر ونبَّه إلى دليل قدرته البالغة التي لا يكون البعث في جانبها إلا أمراً يسيراً، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا[2] وَ﴾ جعلْناها مُحكَمةَ الصنع والإتقان، ﴿مَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ أي: ليس فيها وَهْيٌ ولا خَلَل، فعبَّر عن الخلل بالفُروج، لَـمَّا عبَّر عن خلق السماء بالبناء. والفُروج: هي الشقوق والصدوع في البناء. ويجوز أن يكون قد استعار لذلك صفة الثوب المتخرِّق.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: أوسَعْنا فيها، وجعلناها صالحةً للسُّكنى والمعاش، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً ثوابت؛ كي لا تَضْطرب في سَيْرها، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ أي: من كلِّ صنف من النبات ﴿بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ والبهجة: الحُسْن الذي له رَوْعة عند الرؤية.

ثم علَّل الأفعال المذكورة بما له تعلُّق بالموضوع، فقال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ أي: إنما فَعَلنا ذلك ليتبصَّر ويتذكَّر قدرةَ الله البالغة كلُّ عبد راجع في

---

(١) والمراد: أنهم شديدو الاضطراب، حتى كأن حالهم هو الذي اضطرب، فهو مثل: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي: راضٍ بها صاحبُها رضاً كثيراً، حتى كأنها هي الراضية.

(٢) أي: جمّلناها وحسّنّاها بالكواكب.

أعماله وأقواله إلى ربِّه، متفكِّراً في بدائع صُنعه، يُدرِكُ أن الحشر في جانبها يسير، وأما الكافر فله قلب لا يفقه، وعَيْنٌ لا تُبصِر، إذ قد أفسد فطرتَه بمفاسد التربية وسوء القدوة والتقليد.

ثم تابع الكلام في دلائل القدرة، وضمَّنه تفصيلَ كيفيَّة الإنبات من كل زوج بهيج، فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ أي: كثير المنافع ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ ذوات أثمار ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾ أي: وحَبَّ الزرع الذي من شأنه أن يُحصَدَ ويُدَّخَرَ للقوت. وتخصيص حَبِّه بالذِّكر لأنه المقصود بالذات. ويجوز أن تكون الإضافة على حدِّ قولهم: حقّ اليقين، ومسجد الجامع، أي: من إضافة الموصوف إلى الصفة، بمعنى: الحبِّ المحصود.

ثم عطف على «الجنَّات» قولَه: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ أي: مُتراكِبٌ منضَّد بعضُه فوق بعض؛ يُريد حُسْن التنضيد وكثرة ما فيها من الثمر. والباسقات: العاليات أو الحوامل.

قال أبو السُّعود: وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في «الجنَّات»، إنما هو لبيان فَضْلها على سائر الأشجار، وتوسيط «الحبِّ» بينهما؛ لتأكيد استقلالها وامتيازها على البقية[1].

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾؛ لينبِّه سبحانه إلى موضع نِعَمِه التي لا تُحصى.

ثم أكمل المعنى بقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ ليقيس عليه قياس النظير بقوله: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ أي: وكما أحيينا الأرض بالمطر حتى أنبتت من كل زوج بهيج، بعد أن كانت يابسة قاحلة، كذلك نُحيي الموتى ونبعثهم من قبورِهم، بعد أن يكونوا تراباً.

(١) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٨: ١٢٧).

وهذا هو محطُّ دليل الردِّ عليهم، وإثبات إمكان البعث والنشور، فالقرآن العظيمُ ينبِّه إلى المشابهة بين فَصْل الربيع وزمن البعث والنشور، فكما يختصُّ زمن الربيع بإنعاش الإنبات وإحياء النبات كذلك زمن النشور، زمنٌ خاصٌّ بإحياء الأجسام، وكما لا يستبعد على زمن الربيع ما يستبعد على زمن الشتاء من عجائب الإنبات، كذلك زمن البعث والنشور يغاير أزمان هذه الحياة الدنيا بما يلائم هذه الظاهرة ويساعدها. والله أعلم(١).

قال أبو السُّعود: وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن حياة الموتى بالخروج، تفخيمٌ لشأن الإنبات، وتهوينٌ لأمر البعث، وتحقيقٌ للمُماثَلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى، لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس(٢).

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

وتوعَّدهم بمـا جرى على أمثالـهم من الـمكذِّبين، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ(٣) وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ(٤) ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ(٥) وَقَوْمُ

---

(١) الزمان لا تأثير له، وإنما هو ظرف لوقوع التأثير بقدرة الله تعالى. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدم أول الكتاب (١: ٤٣٩).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٨: ١٢٧).

(٣) أي: أصحابُ البئر التي كانوا مقيمين حولها. وقيل: هم أصحاب الأخدود المذكورون في سورة البروج. وقد جعل المؤلف أصحاب الرسّ من قوم شعيب كما سيأتي، وهو بعيد.

(٤) هم قوم من العرب خالطوا الأعاجم. ولوط: هو ابن أخي إبراهيم، حاميٌّ، ولم يكن من القوم الذين دعاهم، فعبِّر عنهم بالإخوان، لأنه تزوَّج منهم وعاش معهم. انظر الآية ٢٦ من سورة العنكبوت.

(٥) أصل الأيـكة: الشجرة كثيرة الأغصان. والمراد هنا: بقعة كثيـرة الأشجار بين ساحل البحر =

تُبَّعٍ (١) ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ (٢) ﴿فَحَقَّ﴾ عليهم ﴿وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي: عذابي الذي أوعدتُهم به، وهو عذاب الاستئصال، أي: فأنجزتُه فيهم.

ومن مباحث اللفظ: حَذْفُ ياء المتكلِّم في «وعيدي»، والاستغناء بالكسرة عن كتابتها بالرسم، وذلك من أساليب القرآن وإملائه ورَسْمِه الخاص.

وأصحابُ الرَّسِّ وأصحابُ الأيكة: من قوم شعيب، والرَّسُ: اسمُ بئر لهم، والأيكة: هي الأشجار المشتبكة المتكاثفة.

ثم فرَّع على تكذيبهم الشامل لتكذيب الحشر، بما تضمَّن الإنكار على تكذيبهم، وإثبات قدرته على الحشر، وذلك بطريقة الاستفهام الإنكاري أو النافي، فقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أفعَجَزْنا عن الإبداء حتى نَعجِزَ عن الإعادة. ومفاد الكلام: أنَّ الإعادة كالإبداء، فمن يقدر عليه يقدر عليها.

= الأحمر ومَدْيَن، وكان نبيُّ الله شعيب أُرسِلَ لِـمَديَن ولأصحاب الأيكة، فكفروا فأهلكهم الله سبحانه، ولذا قال سبحانه في سورة الحِجْر: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [٧٩]. أي: مَن أُرسِل إليهما شعيب.

أما أهل مَدْيَن فعُـذِّبوا بالرجفة المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١]، وفي قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧].

وأما أصحاب الأيكة فعذِّبوا بعذاب يوم الظُّلَة المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، والظُّلَة: غمامة كبيرة لجأوا إليها من شدّة الحر، فأمطرت عليهم ناراً، فاحترقوا جميعاً.

(١) انظر الآية ٣٧ من سورة الدخان ص١٧.

(٢) نسب إلى كلِّ قوم تكذيب الرسل، لأن تكذيبهم واحداً يعني تكذيب الجميع، إذ دعوتُهم واحدة، لا خلاف بينهم فيها.

ثم أضرَبَ عن الإنكار عليهم إلى تقرير حالهم، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⟨١٥⟩﴾ أي: هم في شكّ وشبهة في الإعادة، غير مُدْرِكين أنَّ الإعادة كالبدء، والذي يقدر عليه يقدر عليها، وهو على كل شيء قدير.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ⟨١٦⟩ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ⟨١٧⟩ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ⟨١٨⟩ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ⟨١٩⟩ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ⟨٢٠⟩ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ⟨٢١⟩ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ⟨٢٢⟩﴾.

ثم أكَّد البعث والحساب وقرَّره بما يكون من مراقبة الله سبحانه لأعمال الإنسان في هذه الحياة، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: ما يخطر بباله ويلوح في هواجسه، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ⟨١٦⟩﴾ أي: نحن أعلَمُ بحاله ممَّن كان أقرَبَ إليه من عِرقِ عنقه. فتجوَّز بقرب الذات عن العلم به؛ لأنه من موجباته، وذلك من خصائص اللغة. ويصحُّ أن يراد بالقُرْب معناه الحقيقي، أعني: قرب الوجود، لأن الذي لا يتحيَّز ولا يتحدَّد تكون نِسَبُ الأمكنة وما فيها إليه واحدة، فهو تعالى قريبٌ بذاته[1] من كلِّ شيء إيجاداً ومَدَداً. والله أعلم. وقد يأتي البحث عن هذا في سورة الواقعة[2].

ووَجْهُ تأكيد دلالة هذه الآية على الحشر والحساب: أنه سبحانه لم يُحصِ هذا إلا

---

(١) تقدَّم التعليق على استعمال هذه اللفظة (٢: ٢٧٠).

(٢) تكلم المفسِّر عن ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، ونقل كلام محمد عبده في تفسير الآية ١٨٦ من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ...﴾ وقد تقدم أيضاً (١: ١٠٣).

ليحاسبنا عليه، وخصَّ الهواجس بالذكر؛ ليكون ما عَدَاها من الأعمال والأقوال داخلاً بالأَوْلى.

ثم ذكر سبحانه أنه مع عِلمِه الواسع به وبشؤونه، وكَّل به مَلَكَين يحفظان عليه عَمَلَه، إلزاماً للحُجَّة، فقال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ وهما مَلَكان يتلقَّيان عمله فيكتبانه كما يكتب المُمْلَى عليه.

ثم صوَّر وضعيَّتَهما منه تقريراً للمعنى، فقال: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: أحدهما قعيدٌ عن اليمين، والآخر قعيدٌ عن الشمال.

ثم بالغ في تقرير ذلك وتأكيده، فقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: رقيبٌ مُعَدٌّ للحِفظِ عليه، فإن كان القول خيراً كتبه صاحب اليمين، وإن كان شراً كتبه صاحب الشمال. وإنما خصَّ «القول» بالذِّكر ليدخل «الفعل» في الحكم بطريق الأَوْلى، فتكون دلالة الكلام عليه أقوى.

وبعد أن ذكر إحصاء الأعمال عليه في هذه الحياة، ذكر الموت ليتوصَّل به إلى ما بعده من الحشر والحساب والجزاء، فقال: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ أي: ما كنتَ تميل وتنفر منه. وسكرة الموت: شدَّته الذاهبة بالعقل. والمراد من الحق هنا: الحكمة والغاية الجليلة، وهي البعث والحساب اللتان ذكرهما بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: وأُذِنَ[١] بالقيامة والبعث، وذلك ما كنتم توعدون به.

---

(١) لم يصرح المؤلف بالمراد بالصُّور، وقد ورد ذكر الصُّور في عدَّة آيات، هي: (الأنعام ٧٣، والنحل ٨٧، الكهف ٩٩، وطه ١٠٢، والمؤمنون ١٠١، ويس ٥١، والزمر ٦٨)، وقد تأوَّل بعضهم الصُّور بأنه جمع صورة يُنفَخُ فيها روحُها فتجيء. ونقله الحافظ في «الفتح» (١١: ٣٦٧) عن أبي عبيدة في «المجاز» (١: ٤١٦). ثم قال: «وقال الأزهري: إنه خلاف ما عليه أهل السنة =

ثم ذكر دور الحساب، فقال: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ﴾ يحثُّها على السَّيْر لموقف الحساب، ﴿وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾﴾ يشهد عليها بما شاهده من حالها، وهما المتلقّيان اللذان سبق ذكرُهما ـ والله أعلم ـ ويقال له: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ المآلِ عندما كنتَ في الدنيا، أو في إنكار له، ﴿فَكَشَفۡنَا﴾ اليوم ﴿عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ بوقوفك عليه ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾﴾ أي: قويٌّ حادّ، يكنّى بذلك عن اطّلاعه على الأمر بجلاء، يقابل به غفلته عنه في الدنيا، ويندّمه عليها.

وقوله: ﴿فَكَشَفۡنَا﴾ معطوف على الجمل السابقة كلِّها؛ من مبدأ ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾. وكلمة ﴿هَٰذَا﴾[1] يشمل الجملَ كلَّها بما فيها الموت، وهو مبدأ هذا الطور من بعد الحياة الدنيا. والله أعلم.

وقد استعار الغطاء للحاجب له عن أحوال المعاد، وهو الغفلة عنها والانهماك في الماديات الدنيويّـة، وقَصْر النظر عليها. وتُـؤْذِنُ الآية أنَّ تعلّق الروح بهذا البدن كالحجاب لها، يمنعها من رؤية الأمور الغيبيّة، وبانفصالها عن البدن بالموت يزول ذلك

= والجماعة». وردَّه الطبري (١١: ٤٦٣) قائلاً: «الصواب من القول عندنا: ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ»، يعني: في أنه بوق على الحقيقة، وذكر الأحاديث في ذلك.

وقال ابن كثير (٣: ٢٧٦): «والصحيح أن المراد بالصُّور: القَرْن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام».

وقال القرطبي (٧: ٢٠): «والصُّور: قرن يُنفَخُ فيه، وليس جمع صورة كما زعم بعضهم، أي: ينفخ في صُوَر الموتى... والأمم مُجمِعة على أن الذي ينفخ في الصور إسرافيل عليه السلام.

قال أبو الهيثم ـ عقبة بن خيثمة النيسابوري شيخ الحنفية المتوفى سنة ٤٠٦ ـ: من أنكر أن يكون الصور قرناً فهو كمن ينكر العرش والميزان والصراط، وطلب لها تأويلات». انتهى.

(١) في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾.

الحجاب، وينكشف لها الغطاء، فتُبصِرُ ما كان عنها خفياً من تلك الأحوال في عالم الغيب، كما جاء عنه ﷺ: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»[١].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم ذكر ما يكون من أمر الشاهد وحِفظِه لأعماله، فقال: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: هذا كتابُ أعماله حاضرٌ لديّ، يدلُّ على ما كان يعمل في الدنيا.

وبعد أن انتهت المُحاجَّة، جاء الحكمُ من الله تعالى، فقال: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ﴾ متجاوزٍ للحقّ ﴿مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ شاكٍّ في الله وفي دينه[٢]، ذلك الكافر ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[٣].

---

(١) قال العراقي في «تخريج الإحياء» ص١٣٥٨: «لم أجده مرفوعا، وإنما يُعزى إلى علي بن أبي طالب». قلت: رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧: ٥٢) من قول سفيان الثوري.

(٢) الراجح في معنى ﴿مُّرِيبٍ﴾: أنه مُشكِّكٌ لغيره في الله وفي دينه بوساوسه، كي لا يتكرَّر معنى: ﴿كَفَّارٍ﴾ المتقدِّم، والتأسيسُ أَوْلى من التأكيد.

(٣) قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ...﴾ أي: اطرحا في جهنَّم كُلَّ مَن اتَّصفَ بصفة من هذه الصفات السِّتّ: الصفة الأولى: شديد الكفر منهمك في التكذيب وجحود النعم، الصفة الثانية: أنه مُعانِد لله فيما أمر به، يعرف الحق ويردّه بجرأة ووقاحة. الصفة الثالثة: أنـه دائم الصَّدِّ والمنع للخير أن يصل إلى نفسه أو غيره، فهو لا يُحسِنُ إلى عباد الله بماله أو حاله أو قاله أو جاهه، الصفة الرابعة: أنه ظالم متجاوز للحدِّ، الصفة الخامسة: أنه مُشكِّك لغيره في الله وفي دينه، بوساوسه، الصفة السادسة: الذي جَعَل مع الله إلهاً آخر يعبده من دون الله.

وبعد أن بيَّن أهم الأسباب التي بُـنيَ عليها الحكم، كرَّره بقوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ يخاطب الواحد وهو مالك، أو الجمع ـ وهم الخَزَنة ـ بلفظ الاثنَيْن. وذلك من أساليب العرب وخصائص القرآن، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الخامسة).

وقيل: بل الخطاب للمَلَـكَين الـمُوكَّلَين به في قوله: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، وإسناد الإلقاء إليها من ذِكرِ السبب وإرادة المسبَّب.

ثم ذكر سبحانه ما يكون من اعتذاره عند صُدور هذا الحكم عليه، بأنَّ الشيطان قد أغواه، ولكنه طَـوَى الاعتذار مكتفياً بالجواب عنه، على نهج القرآن في الاكتفاء، فقال: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ والمرويُّ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة: أن المراد به قرينٌ آخرُ غير الذي مرَّ[1]، فهما متفقان في الوصف مختلفان بالنوع، فالأول: هو الذي حفظ عليه أعماله، والثاني: هو الذي أغواه وأطغاه، كالرئيس والحَبْر والكاهن والداعي والمُبشِّر والمعاشر، فيقول معتذراً: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ باستكراه، ﴿وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ عن طريق الحق والصِّراط المستقيم، لفساد غريزته بمفاسد التربية وسوء التقليد، فكان مُستَعِدّاً بذلك للغَواية والطغيان.

فردَّ عليهم سبحانه وتعالى و﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾ اليوم ﴿لَدَىَّ﴾ بمعاذيركم، فلا عُذْرَ لكم، كيف ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾؟ وهو ما قدَّمه سبحانه وتعالى إلى الإنس والجنِّ من أنواع البيان عن هذا اليوم، على لسان رسله وفي كتبه المُنزَّلة. وقد أجمَلَ الكلام عن الخصام؛ اعتماداً على ما مرَّ بيانه مراراً في القرآن، على نهجه في مثل ذلك، وإنما أتى بصيغة الجمع في إرادة الصنفين؛ لأنَّ كلّاً منهما جمعٌ كبير.

---

(١) انظر «زاد المسير» لابن الجوزي (٤: ١٦٢).

ثم يأّسهم سبحانه وأسكَتَهم بقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أي: لا تبديل لحكمي وقضائي ولا لسُنَني ونظامي، وقد أكمل ذلك ببيان أنه جارٍ على مقتضى الحق والعدل، وليس فيه ظلم ولا جَوْر، فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾، يريد سبحانه أنه لم يخلقهم بهذه المثابة، وإنما خلقَهم مستعدّين للهدى والكمال، والوصول إلى السعادة بأسنى العقيدة وأشرف الخصال، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسَهم بإفسادهم لطبيعتها وتعريضها لهذا الشقاء.

ثم ذكر سبحانه ما يكون من هَوْل ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ[١] وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾[٢]، وهذا الكلامُ تـمثيلٌ للكثرة الهائلة التي تُلقى في جهنّم. والمراد منه: الإنذار والترهيب.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

وبعد أن ذكر سبحانه ما أعدَّه للعُصاة والكافرين، عقَّبه بذِكرِ ما أعدَّه للمؤمنين المتقين، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ وهذه الصفة للتشويق، أي: قُرِّبت وأُدنيَت بحيثُ يشاهدونها.

ثم ذكر دخولهم بها مقروناً بالكرامة، وأدمج في الكلام ملاك الأسباب التي أدَّت إلى ذلك النعيم، وجعل حَلْقةَ الوَصْل جملةً تتضمَّن التحسيس به والتنويه بشأنه،

---

(١) ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾: استفهام تقريري، أي: قرِّي بأنك امتلأتِ وحقَّقتُ لك ما وعدتُ به في قولي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزمر: ٨٥].

(٢) ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: استفهامٌ إنكاريٌّ مفيدٌ للنفي، أي: لا مزيد.

فقال: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: هذا هو النعيم الذي تُوعَدُون به، وإنما هو ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: لكلِّ رجَّاع إلى الله، حافظٍ لأوامر الله وحقوقه.

ثم تابع الوصف عنه بقوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: في الدنيا عندما كانت هذه الأمور غيباً له؛ لأنها لم تَظهَر له عياناً إلا في الآخرة، خَشِيَـها غياباً واتَّبع أوامرَ مولاه، ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ إلى الله(١).

فيُقالُ لهم عند دخول الجنة تحسيساً بالكرامة وتمنُّناً بها وتهنئةً بنيلها: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾.

ثم أكمل هذا الوعد الكريم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾؛ إيذاناً بأنَّ هذا النعيم وهذه الكرامة لا تنقطع أبداً. اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم تابع البيان عن الجنة بقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي: في هذه الجنة من فنون المطالب وأنواع المآرب، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ لهم، ممّا لا يخطر ببالهم حتى تـتناولَه مشيئـتُهم، من الكرامات التي «لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَـرَ على قلب بشر»(٢). اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

---

(١) ومعنى الآيتين ٣١و٣٢ ـ كما في تفسيري «المعين» ص٥١٩ ـ: «وقُـرِّبَت الجنَّةُ للمُتَّقين الذين اتَّقوا ربَّهم ـ بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ـ في أرض المحشر على مرأى منهم ومَقْربة، يَرونَ نضرتها وجمالها، ويشمُّون ريحها، يُقالُ لهم: هذا الذي وُعِدتُم به ـ أيها المتَّقون ـ في الدنيا على ألسنة الأنبياء، لكُلِّ من اتَّصَفَ بالصفات الأربعة التالية: الصفة الأولى: أنه رَجَّاع عن المعصية إلى الطاعة، الصفة الثانية: كثير الحفظ لإيمانه وعهده لربِّه، ولتوبته من النقص والتغير، ولجميع أوامر الله ونواهيه، الصفة الثالثة: مَنْ خاف الرحمنَ خوفاً مصحوباً بتعظيم وحب فأطاعه وإنْ لم يره، والصفة الرابعة: جاء يوم القيامة بقلب راجع إلى الله تعالى، مُخلص في طاعته».

(٢) سبق تخريجه (٢: ٥٥٤).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

ثم عاد بالكلام إلى كفار قريش يُحذِّرهم ويُنذرهم بما جَرَى على أمثالهم من الأمم الماضية، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ[١] هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: جَالُوا في الأرض كلَّ مجال، وعَمَروها أكثرَ ممَّا عَمَـرَها قريش. فوصف أولئك بالقوة والمَكِنة للمبالغة في وعيد هؤلاء وإرهابهم.

ثم استأنف كلاماً لزيادة التحسيس بتلك البطشة، فقال: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾[٢] أي: لهم مَخْلَصٌ من عذاب الله؟

ويجوز أن يكون قوله: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ مُتمِّماً لِـمَا قبله على إرادة القول، أي: فنقَّبوا في البلاد قائلين: هل من محيص؟ وتكون الجملةُ تخييلاً وتمثيلاً لأخذِهم بالأَخْذة الرابية والعذاب الشديد، وتصويراً لحالتهم ومحاولتهم اليائسة، بصورة مَنْ ينقِّب في البلاد ويفتِّش عن ملجأ ومَخْلَص مما حلَّ به، فلم يجد، والله أعلم. والأوَّل أَوْلى.

ثم ختم هذا السياق بما يحثُّ على التبصُّر بما جاء فيه، والتمسُّك بطريق السعادة، والتنكُّب عن طريق الشقاء، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ البيان ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ وعِظةً قوية ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ قال ابن عباس: أي: عقل[٣]، وقال قتادة: أي: قلب[٤] حيٌّ يفكر،

---

(١) ﴿مِّن قَرْنٍ﴾: «مِن» حرفٌ يدلُّ على أنّ بعده بيانٌ لهذا الكثير المفهوم من «كم».
و«القَرْن» هم الجماعة المقترنون في زمن واحد، ومتوسِّط زمانهم نَحْو مئة عام، ويُطلَقُ القَرْنُ أيضاً على أهل عصر فيهم نبيٌّ واحد أو مَلِك، مهما طال زمانه، كقوم نوح وعاد.
(٢) ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾: «هل» حرفُ استفهام إنكاري يُفيدُ النفي، أي: لا محيص ومفرّ.
(٣) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ١٧٠).
(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٣٧٣).

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ أي: استمع ووَعْيُه حاضر، بمعنى: أصغى بسمعه وحضر بذهنه. وفي صيغة التعبير تنبيهٌ شديدٌ وهزٌّ عنيف للتبصُّر، وأخْذُ الأُهبة لِـمَا جاء من البيان الرهيب، وقد جاء في الحديث: «إن الله سبحانه لا يقبل الدعاء من قلب غافل لاهٍ»[1].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

ثم ذكر قُدرته البالغة تحقيقاً للقدرة على إنجاز ما تضمَّنه السياق من الأعمال العظيمة في الوعد والوعيد، فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ إما أن يكون المراد بها ستة أدوار، تمَّ بها تطوُّر هذا العالم علويِّه وسُفليِّه، وإما أن يكون المراد بيان قدرة الله، بتقليل المدَّة لإنجاز هذا العمل العظيم. وليس المراد بها اليوم المعروف لنا؛ لأن هذا اليوم لم يتمَّ ويظهر إلا بعد تمام التكوين[2].

وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ تكميلٌ لبيان عَظَمة القدرة، وإيغالٌ فيه. واللُّغوب: التعب الذي يلحق الإنسان من كَثْرة العمل والجهد. والغَرَضُ من هذا الوصف: الاستدلالُ على قدرته البالغة التي ليس البعث إلا أمراً يسيراً عندها. ويجوز

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: حديث غريب.

(٢) انظر ما تقدم تعليقاً (١: ١٥٠).

أن يكون فيها أيضاً تكذيبٌ لقول اليهود: إنَّ الله خلق الخلق في ستة أيام واستراح في اليوم السابع.

ثم أمر النبيَّ ﷺ أن يصبر على أذاهم وإنكارهم للبعث، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: واستَعِنْ على الصبر بالصلاة ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[1] ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾[2]، وقوله: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾[3] أي: أعقاب الصَّلوات. قال ابن زيد[4] والجُبّائي: المراد به: النوافل بعد المفروضات.

ثم قرن الصبر عليهم بتهديدهم بما ينكرونه مُحقِّقاً لإنجازه، فقال: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾[5] وهذا الوصف لجلاء ذلك النداء ووضوحه، مُراداً به تحقيقُ الإنجاز للبعث الذي ينكرونه، وتقريرُ وقوعه.

ثم بيَّن ذلك اليوم ببيان آخر من تحقيق الوقوع والتهديد، فقال: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ الواقع لا مَحالة، أو للغَرَض الصحيح والأمر الحق. وهذه النفخةُ الثانية المُؤْذِنةُ بالنشر، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ من القبور.

وقد جاء التعبير عن هذه الصَّيْحة بعبارات مختلفة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣، طه: ١٠٢، النبأ: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]، أي: ضُرب الجرسُ[6] بحضور الوقت أو لاجتماع الناس، وذلك لضيق اللغة عن أن

---

(١) أي: نزِّه ربَّك تنزيهاً مُقترناً بحمده ومُصاحِباً له، قبل طلوع الشمس، وهو وقت صلاة الفجر، وما قبل غروب الشمس، وهو وقت صلاة العصر.

(٢) أي: ونزِّه ربَّك تنزيهاً مقترناً بحَمْدِه في وقتٍ ما من الليل.

(٣) ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ أدبار: جمع دُبُور ـ بضمَّتين ـ، وهو آخر الشيء.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٣٨١).

(٥) لم يتعرض المؤلف إلى المراد بالمنادي هنا، وهو إسرافيل عليه السلام، يوم ينادي بنَفْخِه في القرن.

(٦) لو قال: البوق؛ لكان أَوْلى، لأن «الصور» هو البوق، كما تقدَّم بيانه تعليقاً (٦: ٣٠٣).

تؤدِّي المعنى بكماله، أو لعدم إمكان تصوُّر معاني ذلك العالم ونواميسه وصفحاته تصوُّراً ذاتياً. فالتنويع بالتعبير عنه إنما هو للإلماع إليه من صفحاته المختلفة؛ لأنَّ تعدُّد الاعتبارات يقتضي تعدُّد العبارات، والله أعلم.

ثم قرَّر المعنى بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾[1] أي: للجزاء في الآخرة.

ثم فصَّل الخروج بعضَ التفصيل، وقرَّره بقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي: تَتَشقَّقُ الأرض عنهم فيخرجون مُسرِعين، و﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ذلك بَعْثٌ وجَمْعٌ هيِّنٌ علينا. يردُّ به على استعظامِهم للأمر، واستبعادِهم له، كما جاء في أول السورة.

ثم هدَّدهُم بقوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ في تكذيبك وإنكار البعث والنشور، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ تُجبِرُهم على الإيمان، فلا عليك إنْ لم يؤمنوا، وإنَّما عليك البلاغ.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾[2] فهذا ما يجبُ عليك، ولا عليك أمرُ مَن أعرضوا عن التذكير مُدبِرين.

---

(١) أي: إنا نحن بعظيم قدرتنا نخلقُ الحياة فيما ليست فيه في الدنيا، ونخلق الموت في الأحياء، ونفصل الأرواح عن الأجساد عند انقضاء الأجل، وإلى حُكمِنا وحدنا وفَصْلِ قضائنا وتنفيذ جزائنا، وإلى المكان الذي نقضي فيه مصيرَ جميع الخلائق في الآخرة بعد رحلة التخيير والتسخير في الدنيا.

(٢) أي: فذكِّر بالقرآن مَنْ تشعرُ بأنه يخاف وعيدَ الله المُعجَّل والمُؤجَّل أقلَّ خوف، فهو مطموع باستجابته لدعوة الحق يوماً ما، فينبغي تذكيرُه بما سبق أن تبلِّغه وتفهِّمه من بلاغات القرآن وبياناته، أما مَنْ تَيَقَّن أنه لا يخاف وعيد الله، فإنَّ التذكير لا ينفع فيه.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

مكية، وهي ستون آية

والغَرَضُ منها:

إنذار المشركين بعذاب الدنيا والآخرة، وأخْذِهم في ذلك مرَّةً بالدليل ومرَّةً بالترغيب والترهيب، كما أُخذوا بذلك في أمثالها من السور السابقة واللاحقة.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ يُقسِمُ سبحانه بهذه الأشياء. والقَسَمُ ضَرْبٌ من ضروب التأكيد والتوثيق، يُؤتى به لتقوية الخبر وتقريره في النفوس، أو للاستدلال به عليه.

وقد جاء في القرآن القَسَمُ بذات الله وصفاته، وبأظهر ما يقع عليه الحسُّ أو يُدرِكُه العقل من نماذج البدائع الدالة على عَظَمة المُبدع وبالغ حكمته، كالسماء والشمس والقمر والنجم والليـل والفجر والضحى والنهار والعصر والليالي العشر، إلى أمثال ذلك.

أما الأمور الـمُقسَم عليها فلا تكاد تخرج عن أصول الدين الأربعة: التوحيد والرسالة والبعث والحساب، وما يتَّصل بذلك. ويكون في المُقْسَم به ملاحظة دقيقة، تُثبِتُ صِدقَ المُقسَم عليه وصحَّةَ وقوعه والقدرةَ على إيقاعه، فأقسامُ القرآن أقسامٌ استدلالية.

وقد اختـلفوا في المراد بهذه الجمل، وأقرب الأقوال فيها: أنَّها الرياح تَـذْرُو

البخار، فينعقد سحاباً ثقيلاً تحمله وتجري به في أجواء الفضاء، وتوزِّعه على مختلف البقاع[1].

ويجوز أن يُراد بالأول الرياح، وبالبقية حالات السحاب، وبينهما تلازم، وكلُّها من مظاهر القدرة البالغة التي تُثبت وجودَ الله واختصاصَه بالألوهيَّة، ولا تَعجِزُ عن إعادة أجسام البشر بعد الموت، يُقسِمُ بها على صدق البعث والنشر والحساب والجزاء، فيقول: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ وهو البعث، ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ والمراد من «الدِّين» هنا: الحساب والجزاء، والله سبحانه مالك يوم الدين. أي: إنَّ الحساب والجزاء لواقع. فوَجْهُ المناسبة بين هذا القَسَم والمُقْسَم عليه: إثبات القدرة على ما غاب عنَّا بظهور قدرته تعالى فيما ندركه من مظاهر القدرة البالغة.

وهناك وجه آخر، وهو العودة في كلٍّ منهما إلى السيرة الأُولى، فالسحاب المتكوِّن من البحار بواسطة الرياح، يخرج بخاراً، وينقلب في الفضاء ماءً، فيتفرَّق في نواحي الأرض، ويتسرَّب داخلها إلى المنابع، فيخرج عيوناً وأنهاراً تجري إلى البحار، فيعود إليها كما كان منها. وهكذا حال الإنسان في البعث والنشور، يعود إلى ما كان عليه من الحياة الأولى، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

---

(١) وهذا ما رجَّحته في تفسيري «المعين» ص٥٢٠: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ أقسم الله تعالى بالرياح التي تُثير التراب وذرَّات الماء وبخاره، ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ فالرياح الحاملات للسُّحُب الثِّقال بالماء، ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ فالرياح الجاريات في الجوِّ جرياً ليِّناً رفيقاً، ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ فالرياح التي تقسِّم اللقاحات على الأشجار والثمرات، وتقسِّم نُويات اللقاح على بخار السماء في السُّحب لتكوِّن حباتِ ماءٍ تنزل أمطاراً، وتقسِّم السُّحب وتُوزِّعها على البلاد، لإنزال الأمطار بقضاء الله وأمره، على وَفْق حكمته.

أقسم الله تعالى بهذه الظواهر الكونية العظيمة، لِـمَا فيها من الدلالات على عجيب صَنْعته وقدرته وحكمته في كونه.

ثم أيّد القَسَمَ الأول بقَسَمٍ ثانٍ، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾، واختُلِفَ في ﴿ٱلْحُبُكِ﴾، وأقرب الأقوال فيها: ما يُروى عن الحسن من أنها النجوم المحتبكة[1]؛ لِـمَا فيها من عَظائم[2]. يُقْسِمُ بها على قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ في أمر الدين والحساب، ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾، فضمير ﴿عَنْهُ﴾ يعود إلى «الدِّين»، أي: إنكم لفي ضلال من أمر هذا الدين والجزاء، تُصْرَفون عن التصديق به بالإفك والتضليل.

ووجه المناسبة بين المُقسَم به و المُقسَم عليه: أنَّ الذي أحكَمَ وَضْعَ هذه الأجرام على كثرتها وازدحامها واحتباكها، فكانت مُنظَّمةً أتقَنَ تنظيمٍ في مقرِّها وممرِّها، لا ترى فيها خَلَلاً ولا ارتباكاً؛ هو الذي أحكَمَ أمر يوم الدين والحساب، ووضَعَ شرعَ هذا الدينِ الهادي إلى الرَّشاد، والمنظِّم للأحوال المادية والروحية، الدنيوية والأخروية، طبق السنن الكونيَّة، فهو دينٌ حقٌّ لا خلل فيه ولا بُطلان. أما ما تَـتَوهَّمونه ديناً من مواضعاتكم، فهو أمر مُختَلَق باطل يهدي إلى الغيِّ والضلال، تُؤْفكون فيه وتُضَلَّلون، ويُعبَثُ فيه بعقولكم ولا تُدِركون.

ولما كان ما اتَّخذوه من الدين وإنكارُهم للحشر والحساب أمراً مبنيّاً على الظنِّ والخرص، بكَّتهم عليه بقوله: ﴿قُتِلَ[3] ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ وهم الذين يمشون في أمر الدين والغيب حَسْبَما يُوحيه إليهم ظنُّهم وخَرْصُهم وتخمينُهم، فيظنون أنْ لا حشر ولا حساب، أو يقولون: لا حاجة إلى دين، فاللهُ أرحمُ الراحمين؛ أولئك ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ من الجهل والضلال ﴿سَاهُونَ ۝١١﴾ غافلون عمَّا يُراد بهم في الآخرة، لذلك

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٣٩٦).

(٢) فالمراد بـ«ذات الحبك»: السماء ذوات الطرق المُحكمة التي تسيرُ ضمن حدودها النجومُ والكواكبُ والمجرَّاتُ بإتقان عجيب مدهش.

(٣) أي: طُرِدَ وأُبعِدَ من رحمة الله إبعاداً أبديّاً.

﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ إنكاراً واستهزاءً: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾؟ أي: متى وقوع يوم الجزاء الذي تزعمون؟

فردَّ عليهم سبحانه بما فيها توعُّدٌ لهم، ملفوفٌ بتندُّر رهيب ووعيد مُفْزِع، فقال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: يُعذَّبون بأنواع العذاب. فأدرجَ في هذا الردِّ عليهم بيانَ مصيرهم الرهيب، وزاده رَوْعةً ورهبةً وإيلاماً بقوله: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: نتيجةَ اختباركم وما أبديتُموه من سُوء صنيعكم وكفركم بما جاءكم من عند الله، ويُقالُ لهم زيادةً في الإيلام والتنديم والتأنيب: ﴿هَـٰذَا﴾ هو العذاب ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ استبعاداً واستهزاء.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

ثم قابل أحوالَ المُنكِرين ومصيرَهم بأحوال المتَّقين ومصيرِهم، على نهج القرآن في ذلك، وبيَّن بعض أعمالهم التي أدَّت بهم إلى هذا النعيم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: قابلين لِـمَا أعطاهم من النعيم راضين به، بمعنى: أنَّ كلَّ ما أعطاهم حَسَنٌ مرضيّ، يُتلقَّى بحُسْن الرضا والقبول.

ثم بيَّن على وجه التعليل بعضَ أعمالهم التي استوجبت هذه الكرامة[1]، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: كانوا في الدنيا محسِنين في أعمالهم، آتين بها حَسْبَما يُرضي الله تعالى.

---

(١) إنما استوجبوا الكرامة بأعمالهم تبعاً لوعد الله عز وجل التابع لفضله وكرمه، أما من غير هذه الحيثية فلا يجب للعبد على الله تعالى شيء.

ثم فصَّل أهمَّ ذلك الإحسان، فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ والهجوع: النوم، و﴿مَا﴾ مزيدة للتقرير، على نهج القرآن في مثله، أو مصدرية، والمصدر فاعل لـ﴿قَلِيلًا﴾، أي: لا ينامون من الليل إلا قليلاً، يُحيُونَ ليلَهم بالذِّكْر والصلاة وهم خاشعون، ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ثم ذكر ما يُخرِجونه من أموالهم للزكوات والصدقات، فقال: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ أي: نصيبٌ وافر يُوجبونه على أنفسهم فوقَ ما عليهم من الزكوات، يدفعونه ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ أي: المُسْتَجدي ﴿وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ أي: المُعْدَم البائس، أو الذي ينقص واردُه عن مَصرِفه، أو الذي يُحرَم من الزَّكوات لِتَعفُّفه، فيَحسَبه الناس غنياً. والآية تدلُّ على أنَّ الدين الإسلامي يجعل من واجب الغنيِّ مساعدةَ الفقير في حِصَّةٍ من أمواله تَسُدُّ عَوَزَه، وقد جاء هذا في كثير من الآيات.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ثم أردف السياق المتضمِّن للبعث والحساب والوعد والوعيد، بدليلِ قدرته البالغة، كما هو نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: المحقِّقين، وهم الذين لا يمرُّون بها مرورَ الأنعام في مسارحها، بل يفكِّرون ويَتَبصَّرون، فيَرَوْنَ فيها من العَجائب ما يُبهِرُ العقول، ويعلمون أنَّ مَنْ قدر على هذا لا يعجز عن إعادة الإنسان بعد الموت.

ويجوز أن يُراد بالموقنين: المؤمنون؛ لأنَّ المؤمن مُستَعِدٌّ للنظر والتفكير في آيات الله وبدائع مصنوعاته، فالإيقان من خصائصه وصفاته.

ثم ترقَّى إلى ما هو أقربُ إلينا مما في الأرض، وأظهَرُ في الاستدلال، فقال:

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝﴾[١] ففي خَلْق الإنسان من دقَّة الصُّنع وإحكامه ما يُحيِّر العقول ويدلُّ بوضوح على الصانع الحكيم القدير، فقد ألبسه الله من خِلَعِ الكرامة كلِّها؛ من العقل والعلم والبيان، وقوة الاستنباط والتفكير، والشكل الجميل والصورة الحسنة، وحكمة التركيب والإبداع فيه، إلى غير ذلك من العجائب الدالة على عَظَمة الخالق البارئ المصوِّر، فـفيه من ذلك ما تنقضي الأعمـار دون الوقوف على بعضه القليل.

ألـمْ ترَ ما اشتمل عليه جسم الإنسان من الأعصاب والعظام والعروق والأوتار، وكيف ربطت يدُ القدرة بعضَها ببعض أقوى رباط وأشدَّه وأبعَدَه عن الانحلال، وكيف كَسَت العظام لحماً، وكيف قدَّرت هذه العظام بمقاديرَ مختلفةٍ وأشكالٍ متنوِّعة حَسْبَما اقتضته الحكمة الإلهية، فمنها الصغير والكبير، والطويل والقصير، والمنحني والمستدير، والرقيق والعريض، والمُصْمَت والمُجوَّف، إلى ما لا يُحصى من الأوصاف والتقادير، جلَّت حكمة العليم الخبير.

وإذا تأمَّلتَ الأحشاءَ وما فيها، صغيراً كان أو كبيراً، ظاهراً أو دقيقاً، وقيامَه

(١) قال سقراط: إن الله سبحانه أعطى كلَّ عضو من أعضاء الإنسان منفعة خاصَّة، وفائدة بيِّنة، ومتَّعه من الأجزاء والأجهزة بما يحسُّ ويشعر بواسطته، فمتَّعه بعينين ليرى بهما المحسوسات، وبأذنين ليسمع بهمـا الأصوات، وبلسان يدرك به المذوقات وينطق به بما يفهم عنه من المُضْمَرات.

ومن دلائل التدبير والحكمة: أن تُمنَحَ العين ـ وهي ضعيفة ـ بجفون تنفتح وتنطبق عند الحاجة، وأهداب تقيها فعل الرياح، وحواجب تمنع عنها تساقط عَرَقِ الرأس، وأن تُصنَعَ الأذن على صورة لا تَكِلُّ من سَماع الأصوات، ولا تعيى من الحس، وأن يكون الفم قريباً من العينين والمناخر، لتُدرك ما يدخل وتَتَحاشى ما يضرُّ ويؤذي، وأن المحلَّ الذي يحصل منه الإفراز القذر بعيدٌ عن مَرْمَى النظر، ومعكوس الوضع، كي لا يظهر لكلِّ ناظر إخراج القذر، فتبارك الله أحسن الخالقين. (المؤلف).

بعمله المنظَّم بدقَّة وإتقان، أو تأمَّلتَ الرأسَ وما فيه من أعضاء كذلك، ومن حواسّ وإدراك، وما في كلِّ حاسَّة من دقائق الصُّنع وتناسُب الوضع إبداعاً وإتقاناً، أو تأمَّلتَ الشرايـين والأوردة، كأنها جداول تحمل الغذاء إلى سائر الأعضاء، أو تأمَّلتَ الجلد والغشاء كيف ينبسطان على سطح الأعضاء ويحويانها كاللفائف، ويصير الجلد حافظاً لها، يحفظ جواهرها وأشكالها عما يطرأ عليها، وقد رُكِّبت جميع أعضاء الإنسان وأجزائها تركيباً متناسقاً؛ حركات دائمة ومجهودات متواصلة لا تهدأ طَرْفة عين.

وهناك قلبٌ ينبض، ومعدةٌ تشتغل، وعُصارات تُفْرَز، وسوائل تَتَحلَّل وتَتَركَّب وتَتَرشَّح وتَتَصَعَّد، وغُدَدٌ تختزن السوائل لحين الحاجة، ودمٌ دائم الجريان في أجزاء الجسد، وخلايا بسيطة تَتَلاشى وتتكوَّن، وكلُّ هذا لا يهدأ لحظةً، ولا يسكن آونةً من ليل أو نهار، مع ما فيه من أمور دقيقة وأحوال خفيَّة يعجز العلم عن إدراكها وكَشْفِ ما فيها من خفاء. وعلى هذه الشاكلة جهاز التنفس وما فيه من راحة وهناء.

إذا تأمَّلتَ كلَّ ذلك أدركتَ عَجْزَ القلم والبيان عن التصوير لعظمة الخالق الحكيم في هذا الجِرم الصغير، فكيف بعظيم الكونيَّات، مما احتوته الأرض والسماوات، وتيقَّنتَ أنَّ إعادة الأجسام ليست بأعجَبَ من عظمة ما في هذه العمليات من عجائب الإبداع. تبارك الله أحسنُ الخالقين، وهو على كلِّ شيء قدير.

ثم تابع دليل قدرته بقوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: أسبابُ رزقكم من الأمطار، وما تُوعَدون به من الجنة والنار، فاستدلَّ بالمعلوم على المجهول، إذ كلاهما من قدرة القادر الحكيم.

ثم صرَّح بذلك وقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾، وضمير ﴿إِنَّهُۥ﴾: إما أن يعود إلى ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾، وإما أن يعود إلى القرآن الذي جاءت

فيه هذه البحوث. وعَوْدُ الضمير إلى ما هو معلوم في الذهن، أو يُدرَكُ من السياق؛ هو من خصائص اللغة ونهج القرآن.

وعلى تقدير عودته إلى ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ يحتمل ثلاثة معان:

الأول: إنَّ ما توعدون به هو أمر واقع، كما تقرؤونه في القرآن وتنطقون به.

الثاني: إنَّ هذا الأمر الغائب حقٌّ لا شكَّ فيه، كما أنَّ نُطقَكم لا شكَّ فيه.

الثالث: إن الله سبحانه قادرٌ على إنجاز ما توعدون، كقدرته على أنْ جعلكم تنطقون.

وعلى تقدير عودةِ الضمير إلى القرآن، يكون فيه معنيان:

الأول: إنَّ هذا القرآن وما جاء به كله حقّ واقع طبقَ ما تنطقون به فيه وتقرؤونه.

والثاني: إنَّ هذا القرآن وحيٌ من الله، نَطَق به المَلَكُ كما تنطقون أنتم به وتقرؤونه. والله أعلم.

وقيل: إن قوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ مستأنفٌ خبرُه: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ﴾، وعليه فيقتصر عَوْدُ الضمير إلى ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

ثم أضاف إلى وعيد المكذِّبين في الآخرة وعيدَهم في الدنيا بما جرى على من قبلهم من مُعارضي الأنبياء، فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ[١] إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ أي: سلَّموا عليه فردَّ عليهم و﴿قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ عليكم، ولكنَّكم ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾، يقول لهم ذلك لـمّا أحسَّ بتميُّزهم عن البشر ببعض أوضاع وأخلاق، ولعلَّه عليه السلام قال ذلك في نفسه من غير أن يُشعِرَهم به[٢].

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: مال إليهم سرّاً وخلسة، ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ فلم يأكلوا، فأنكر عليها عَلَناً و﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فإما أن يكون سكتوا عن الجواب، أو قالوا: لا.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أضمَرَ خوفَه منهم لـمّا رآهم لم يأكلوا، وهذه العادة موجودة عند البدويِّين، يخشون الضيفَ إذا امتنع عن الأكل؛ لأنَّ ذلك إشعارٌ بإضمار الشر. وقيل: بل وقع في قلبه أنهم ملائكة جاؤوا للعذاب، وخشي أن يصيبَه منه شيء، فأمَّنوه و﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَ﴾ لزيادة التأمين بعدم الإصابة وبقائهم أحياء ﴿بَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ[٣] عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي: يكون ذا عِلم واسع عند بلوغه واستوائه.

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾[٤] عندما سمعت بهذه البشارة ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صَيْحة خفيفة معتادة للنساء عند التعجُّب والاستحياء، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: وضعت الكفَّين عليه خَجلاً أو استغراباً كما هي عادة النساء، ﴿وَقَالَتْ﴾: أنا ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ فكيف أَلِد؟

---

(١) الضيف في الأصل: مصدر، ولذلك يطلق على الواحد والكثير. (المؤلف).

(٢) هذا بعيد؛ لِـمَا فيه من العدول عن ظاهر اللفظ من غير دليل يقتضي ذلك.

(٣) هو إسحاق عليه السلام.

(٤) هي سارة رضي الله عنها.

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ يُجري ذلك على سُنَن طبيعيَّة[1]، وإنْ لم يهتَدِ إليها البشر، وكل ما يفعله مبنيٌّ على العلم والحكمة البالغة، ولديه سُنَنٌ لا تُحصى، ولو كانت الأشجار أقلاماً، والبحار مِداداً.

ولما علم إبراهيم عليه السلام علماً مُجمَلاً أنهم ملائكة أُرسِلوا لأمر تجاوزه شأنه؛ طلب توضيحه و﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: شأنكم الخطير الذي لأجله أُرسِلتُم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ يعنون: قوم لوط، ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ومعنى ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: مُرسَلة ومُطلَقة، وفيها معنى الكَثْرة من قولهم: سُوِّمت الماشية، أي: أُرسلت للرعي. أو بمعنى: مُعلَّمة، من السَّومة، وهي العلامة، على أن تكون كلُّ واحدة منها لصاحبها لا تـتجاوزه. ومعنى (المُسرِفين): المتجاوزون الحدود في أعمالهم الضالة الخاسرة.

وبعد أن حكى سبحانه ما جرى بين الملائكة وإبراهيم عليه السلام؛ حكى ما جرى على قوم لوط المجرمين، فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾، وضمير ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى قرى قوم لوط المفهومة من السياق، على نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية)، أي: أمرنا بالخروج مَنْ كان في تلك القرية من المؤمنين، كما جاء في سورة هود والحِجر من قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ...﴾ [هود: ٨١، الحجر: ٦٥].

ثم ذكر المُبرِّر لهذا الإيقاع بهم، وقال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾

---

(١) بل هي خارقة لسنن الطبيعة. وينظر ما تقدم ذكره في مقدمة التفسير من محاولة المؤلف غفر الله له صَرْفَ جميع الآيات الإعجازية الخارقة للنواميس الكونية عن مدلولها لتوافق السنن الطبيعية (١: ١٩٣).

وهم أهلُ بيت لوط عليه السلام[1]، أي: فأهلكنا تلك القرى ودمَّرناها، على سُنَّتنا في ذلك.

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً ﴾ أي: عِبرةً ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ممَّن لم يُفسِدوا فِطَرَهم بمفاسد التربية وسوء القدوة.

والإسلام قد يأتي مرادفاً للإيمـان كما هنا، وقد يأتي أعمَّ كما جاء في الحجرات ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾ [الحجرات: ١٤].

﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

ثم ذكر قصَّـة موسى وفرعون لنـفس الغَـرَض السابق، فقال: ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ ﴾ وهذا معطوف على كلمة ﴿ فِيهَآ ﴾ من قوله: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً ﴾، أي: وتركنا في قصَّة موسى آيةً أيضاً؛ ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ وهو ما جاء به من المعجزات الباهرة، ﴿ فَتَوَلَّىٰ ﴾ فرعونُ ﴿ بِرُكْنِهِۦ ﴾ أي: أعرَضَ عن الحق بجانبه معتمداً على قوته وسلطانه، ﴿وَقَالَ ﴾ في حق موسى: إنه ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾، كأنه نَـسَب ما ظهر على يديه عليه الصلاة والسلام من الخوارق العجيبة إلى الجنّ، وتردَّد في أنه حصل باختياره

---

(١) أي: فيه مسلمون مؤمنون، وهم لوط وابنتاه، الذين نَجَّيْناهُم، ومنهم مُسلِمون ظاهراً غير مؤمنين قلباً، بل منافقون، كامرأة لوط، فهي مسلمة غير مؤمنة، فلم تشملها النجاة، إنما النجاةُ والسَّلامةُ للمؤمنين الصادقين.

وسَعْيه أو بغيرهما، والأول هو الساحر، والثاني المجنون، أي: الذي تُلقي عليه الجنُّ بالمعلومات والغرائب، ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: آتٍ بما يُلامُ عليه.

ثم ذكر عاداً، فقال: ﴿وَفِى عَادٍ﴾ أي: وتركنا في عاد آيةً أيضاً؛ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾، وإنما وُصِفَت بالعُقم لأنها أهلكتهم وقطعت دابرَهم، فلم تترك وراءهم أحداً، كالعقيم الذي لم يترك وراءه ولداً، أو لأنها لم تتضمَّن خيراً من إنشاء مطر أو إلقاح شجر، وكانت ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: ما تترك من شيء جَرَت عليه ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ أي: كالشيء البالي السحيق.

ثم ذكر ثمود، فقال: ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ أي: وتركنا في ثمود آيةً أيضاً؛ ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ يتوعَّدهم بمجيء العذاب بعد ثلاثة أيام، كما جاء في سورة هود[1]، ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: فاستكبروا عن امتثاله وطغوا، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ بمعنى: أنهم يُبصِرونها تَفتِكُ بهم، ولم يقدروا على دفعها. أو المعنى: لم يكن ذلك على حين غفلة؛ لأنهم أُنذِروا بها.

ثم بيَّن عَجزَهم عن الهرب، وقال: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ وهو بمعنى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾: يهزأ بهم ويؤنبهم.

ثم ذكر قوم نوح، فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: أهلكناهم من قبل من ذكرنا من المُهْلَكين، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: متجاوزين الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي والطغيان، مبالغين في ذلك.

---

(١) في الآية ٦٥ منها.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١ ﴾.

وبعد أن بيّن سبحانه ما فعل بهؤلاء الطغاة مُبتدِئاً بالأقرب مُنتهياً بالأبعد، توعّداً للمشركين بمثل ما فعل بهؤلاء الطاغين، وتسليةً لرسول ربِّ العالمين، عقَّب ذلك بدليل قدرته؛ تحقيقاً لمقدرته على إنجاز وعيده، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ ﴾[1] والأيد: القوة، ومنها: التأييد. ومعنى (مُوسِعُونَ): قادرون على خَلْق ما هو أعظم، كما جاء عن ابن عباس[2]. أو المراد: المبالغة في سَعَتها. وقد جاء في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [البقرة: ١٦٤] بيانٌ مُسْهَبٌ عن سَعَة السماوات، فارجع إليه لتعلم هذه السَّعَة العظيمة ومعناها.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا ﴾ ولم نجعلها كلَّها جبالاً وَعِرة، بل مهَّدناها حتى صَلَحَت للسُّكنى والسَّيْر والعمل، ﴿ فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ ﴾[3] ذكراً وأُنثى حتى من النبات، وأولُ كلِّ زوجَيْن من التراب، ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩ ﴾ قدرةَ الله وحكمتَه، فتخشونه وتتيقّنون أنه قادرٌ على إعادتكم، وعلى إنجاز ما وعد به وأوعَدَ من أحوال الآخرة.

---

(١) جعل سبحانه ابتعاد الأجرام السماوية والمسافات بين بعضها أوسَعَ مما يتصوَّره العقل، وهذا هو السبب في رؤية النجوم ثابتةً على الرغم من أنها متحركة بسرعة هائلة. (المؤلف).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٧: ٥٢).

(٣) أي: ومن كلِّ شيءٍ في الكون خلَقْنا صِنفَيْن ونوعَيْن مُختلِفَين في الناس، والنباتات، والكهرباء، والمغناطيس، والذرّات.

وبعد أن تهيَّأت النفوس بهذا الوعظ والإرشاد، دعاهم على لسان رسوله إلى سبيل الرشاد، وقال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من عقابه، وذلك بالإيمان والتوحيد والأعمال الصالحات، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾﴾ والجملة على إرادة القول، على نهج القرآن في مثله، أي: قل: إذ كان الأمر كذلك فاهربوا إلى الله الذي هذه شؤونه. وفي صيغة التعبير إيذانٌ برحمة الله للتائبين المُنيبين وقبولهم وعفوه عنهم.

ثم بيَّن صورةَ هذا الفرار إليه ووسيلتَـه بقوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾﴾ أن لا تشركوا بالله. ولـما كان المعنيان متلازمَيْـن وحَّد الفاصلتَيْن بالإنذار؛ مبالغةً في التحذير والتبصير، فالفرار إلى الله يكون بالإيمان والعمل الصالح.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم عاد إلى السَّنَنِ السابق في تَسْليته ﷺ وتثبيته تجاه عِناد هؤلاء المشركين وإنكارهم وتقوُّلاتهم، فبيَّن أنَّ ذلك من طبائع مُختَلِّي الطباع بمفاسد التربية وسوء القدوة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما تقوَّلت قريش عنك بأنك ساحر أو مجنون، كذلك ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ﴾ في حقِّه: ﴿سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾، فينسبون ما يظهر على يديه من الخوارق إلى عَمَل الجنّ، ويتردَّدون في أنه حصل باختياره وسَعْيه فيكون ساحراً، أو بغير اختياره فيكون مجنوناً.

ثم بيَّن منشأ ذلك الاتفاق فيهم، وقرنه بما يُشعِرُ بالتهكُّم والإنكار، فقال: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾[١] أي: أَأَوْصَى به بعضُهم بعضاً حتى اتفقوا عليه.

ثم أضرَبَ عن التواصي إلى بيان منشئه الحقيقي فيهم، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ فاتِّفاقُهم على الطغيان ـ بخروجهم عن سلامة فِطَرِهم، وطَمْسِهم لنور بصائرهم بما اكتسبوه من مفاسد التربية وسوء التقليد ـ هو مصدرُ اتفاقهم في هذا القول لأنبيائهم، وإنكارهم عليهم.

ثم فرَّع على هذا البيان الإيذانَ له بتركهم، بعد أن قام بواجبه نَحْوَهم حتى النهاية فلم يقبلوا منه، وقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي: قد قمتَ بواجبك نَحْوَهم من التبليغ والإنذار، فلا لَوْمَ عليك بعد ذلك، فأعرِض عنهم، ﴿وَذَكِّرْ﴾ أي: استَمِرَّ على التذكير العام، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: المستعدّين للإيمان، وهم الذين لم يُفسِدوا طبائعَهم بما أفسدها به هؤلاء، أو المتلبِّسين بالإيمان، لأن المؤمن مُسْتَعدٌّ للنظر والتفكير في آيات الله.

ثم أردَفَ الأمر بما يتضمَّن تعليلَه، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[٢] لأنَّ العبادة وتعاليم الشريعة هي المنهج لسعادة حياتهم في الدارين، ففائدة هذه العبادة تعودُ إليهم؛ لأنها وسيلةٌ لتجميل ظواهرهم، وتهذيب طبائعهم، وإصلاح سرائرهم، وتكوين محاسن عاداتهم ومكارم أخلاقهم، ومساعدتهم على الكمال،

---

(١) الهمزة للاستفهام التعجُّبي، والمراد: تعجَّبوا ـ أيها الناس ـ من هؤلاء الذين كأنهم أوصى بعضهم بعضاً بتكذيب الأنبياء.

(٢) أي: وما خَلَقتُ الجنَّ والإنسَ في الحياة الدنيا مُمتَحنين مُختَبرين، إلا لآمُرَهم أن يُوحِّدوني، وأدعوهم إلى عبادتي وحدي دون سواي.

وتكيـيف أرواحهم بما يُؤهِّلها للسعادة في الحياة الأخرى وعظيم النَّوال، وناهيك بمجتمعات تكون في الدنيا من مثل هؤلاء الرجال. وذلك ما أراد الله أن يكون البشر عليه، وهداهم إليه بالطبيعة والشريعة، فما خلقهم الله إلا ليسيروا على هذا الطريق، وليسلكوا هذا السلوك، ومَنْ لم يفعل فقد خان الأمانة التي عَرَضها الله عليه، وجعلَه مُهيأً لها؛ إذ قد خلقهم مُستعدِّين لأن يكونوا مخلوقاً ممتازاً، وأشفع هذا الاستعداد الطبيعي بما ينمِّيه ويربِّيه، وهو قواعدُ هذا الدين وتعاليمُه.

وقد أشار سبحانه إلى أنَّ فائدة هذه العبادة تعود إليهم لا إليه، فقال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ فاستعار المعنى من حالة المُخاطَبين، على نهج القرآن في مثله، فبيَّن أنَّ شأنه تعالى مع عباده مُتعالٍ عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وتهيئة أرزاقهم، ولكنه سبحانه هو الذي يَتفضَّل على عبيده برزقهم، وبما يُصلِحهم ويعيشهم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ فَلْيشتغلوا مع السَّعي لتحصيل الأرزاق بما خُلِقوا له من توحيد الله وعبادته، وليتمسَّكوا بتعاليمه التي تعود عليهم بكمال نفوسهم وإصلاح شؤونهم في الدنيا والأخرى[1].

ثم توعَّد الضَّالِّين المُعرضين عن ذلك، بما ختم به السورة، وقال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ

---

(١) ومن مباحث اللفظ: أن الحصر في قوله ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: ليس هو حَصْراً مطلقاً، فلا يدل على أنه لم يخلق إلا للعبادة لا لشيء آخر، وإنما هو حَصْر إضافيّ بالنسبة إلى عدم انتفاع الله سبحانه كما ينتفع الأسياد من العبيد في الحصول على الرزق والمال، وإنما خلقه لينفع نفسه بعبادة الله المؤدية إلى النعيم الأبدي في جنَّات النعيم، ولذلك عقَّبه بقوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ...﴾، ولم يرد أن يقتصر على العبادة، وإنما يريد أن يتَّصف بها مع ما أريد منه من عمارة الدنيا وخلافته فيها. (المؤلف).

ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي: نصيباً من العذاب مِثلَ نصيب نظرائهم من الأمم التي ذكر حالهم فيما سبق، من استئصالهم بالعذاب.

والذَّنوب: الدَّلْوُ الممتلئ ماءً، استعاره للنصيب الوافر من ذلك العذاب(١).

وقوله: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾ تثبيتٌ للمؤمنين، ومبالغةٌ في التوعُّد الذي يُنكِره المشركون، ويهزؤون به. وقد بالغ في تهويله بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾(٢).

* * *

(١) وفيه إشارة إلى أن العذاب سيُصَبّ عليهم كما يُصَبُّ الماء.

(٢) أي: فهلاكٌ وعذابٌ شديدٌ للذين يموتون وهم كفّار، من يوم القيامة الذي يَعِدُهم الله بنزول العذاب الشديد الذي يكونون خالدين فيه.

سُورَةُ الطُّورِ

مكيَّة، وهي تسع وأربعون آية

والغَـرَض منها:

الإنذارُ بعذاب الدارين للمكذِّبين، وأخذُهم في ذلك تارةً بالدليل، وتارةً بالترغيب والترهيب، مثل أمثالها من السور.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ۝١٢ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾.

﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ وهو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى، ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣﴾ وهو التوراة المسطورة في الألواح التي أُنزلت عليه في هذا الجبل، ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤﴾(١) وهو الكعبة المكرّمة المعمورة بالطائفين والعاكفين والرُّكّع السجود، وفي جوارها الجبلُ الذي أُنزل فيه أولُ القرآن على محمد ﷺ، ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ وهو السماء وما فيها من أجرام عظيمة الشأن كمّاً وكيفاً، ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾ أي: المُترَع الممتلئ ماءً وعجائبَ وعظائم. أو المراد: تبخُّر البحار لقرب الأرض من الشمس نتيجة ارتباك الكواكب، ولذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾، يُقسِمُ سبحانه وتعالى بمتعلّقات الوحي ومظاهر القدرة كليهما على وقوع البعث والحساب والقدرة عليه.

---

(١) أو المراد: البيت المعمور في السماء السابعة بالملائكة الكرام الذين يطوفون به.

ووَجْهُ القَسَم بهما: أنهما دليلان على ذلك؛ إذ الوحي دليل نقليّ على وقوع البعث، ومظاهرُ القدرة دليلٌ عقلي على القدرة على ذلك؛ لأنَّ من قدر على هذه المظاهر العظيمة يقدر على البعث والنشور، إذ ليس ذلك في جانبها إلا أمراً يسيراً. ويجوز أن يكون «البيت المعمور» دليلاً فعلياً؛ لأنَّ الباعث لهم على عَمْره اعتقادُهم بالحشر والحساب.

ثم ذكر شيئاً من مبادئ ذلك اليوم وأهواله الرهيبة، مُعرِضاً بها عن جواب القَسَم، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ والمَوْر: تحرُّكٌ في تموُّج واضطراب، إذ تَضْطرب الأجرام السماويَّة ومعها الأرض، وتتصادم ببعضها لاختِلالِ التماسك وانهيارِ ذلك البناء العظيم بمرورِ الدهور عليه والاضمحلالِ الطبيعيِّ[1] المؤذن بانتهاء أمد الدنيا، وابتداء أمد الأخرى، وهو يومٌ مَهُول له ما بعده من عظائم الأمور والبعث والنشور والحساب والجزاء على الأعمال.

---

(١) اضطراب الأجرام السماوية واصطدامُ بعضها ببعض عند قيام الساعة لا يكونُ بسبب تقادُم الزمان وتوالي الدهور على هذا العالم، ولا هو نتيجةُ اضمحلال طبيعي لذلك؛ فإنه أمر غيبي، أخبر الله عن وقوعه، ولم يذكر سببه أنه مرور الدهور وتقادم الزمان، فمن أين يُعرَفُ هذا؟! على أنّ العالَمَ هو صُنعُ الله المُحكَم، وليس هو كصنع البشر الذي يضعف شيئاً فشيئاً مع توالي الأعوام حتى يصير خراباً في آخر الأمر، فالصواب إذن: أن هذا الاصطدام والاضطراب إنما يكون استجابةً لأمر الله تعالى بقيام الساعة، ويدلُّ على ذلك أيضاً حديثُ أبي ذر في «صحيح البخاري» (٣١٩٩): أنّ النبيَّ ﷺ قال له حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجدَ تحت العرش، فتستأذن فيُؤذَن لها، ويُوشِك أن تسجد، فلا يُقبَل منها، وتستأذن فلا يُؤذَن لها، يُقالُ لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها».

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ أي: يخوضون في الباطل، وهو إنكار البعث وتكذيب ما جاء به الرسل؛ يُهوِّل ما سيُصيبهم في ذلك اليوم جزاءَ تكذيبهم وإعراضهم.

وقد ذكر شيئاً منه بقوله: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ أي: يُدفَعون بعنف وشدة ﴿ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ ويقال لهم تأنيباً وتنديماً: ﴿ هَـٰذِهِ ﴾ هي ﴿ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

ولتأنيبهم على إنكارِهم الوحي الذي كان يُنذِرهم بهذا اليوم، وتسميتِهِ سحراً، يقال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ ﴾ الذي تشاهدونه بأعينكم ﴿أَمْ ﴾ هو الحقُّ الواقع، ولكنكم كنتُم ﴿أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ الحقَّ في الدنيا؛ لفساد غرائزكم بمفاسد التربية، وعمى بصائركم بسوء القدوة والتقليد؟

ثم يُنفَّذ الجزاءُ فيهم مقروناً بما يزيدهم إيلاماً من التأنيب والتهكُّم، فيقال لهم: ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ ﴾ على عذابها ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ ﴾ فهما ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ لا ينفعكم أحدُهما شيئاً. أي: ادخلوها وقاسوا شدائدها، فافعلوا ما شئتم من الصبر أو عدمه، إذ سواءٌ عليكم صَبَرتُم أو جَزِعتُم مالكم من محيص. وفي هذا تهكُّم بهم وتنديمٌ، وتصويرٌ لاضطرارهم على الدخول، وقَسْرهم عليه جَبْراً وقهراً.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾؛ يُبيِّن أنَّ أخذَهم بهذا العذاب أثرٌ لازم من آثار كَسْبهم وعملهم، بحسب سُنن الله في كونه.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن

شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

ثم أردف وعيد الكفار بوعد المؤمنين، على نـهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي: ناعمين مُتـلذِّذين بما أعطاهم ربُّـهم من أنواع النعيم، ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾، وللمبالغة في التكريم والتـنعيم يقال لهم: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾؛ يقابل بهذا ما يقال لأهل النار.

ثم تابع البيان عن ذلك النعيم بقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ[١] وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ والحوراء: هي جميلة سواد العين وبياضها، والعَيْناء: هي واسعة العينَيْن.

ثم استأنف الكلام لبيان كرامةٍ أُخرى لأهل الجنة، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾ قاصرٍ عن رتبة إيمان الآباء، ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ في درجتهم، كما جاء في الحديث: «إنَّ الله تعالى يرفع ذريَّة المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه لتقرَّ به عينُه»، ثم تلا هذه الآية[٢].

وقد دفع سبحانه ما عَسَاه أن يَرِدَ إلى الوَهْم من أنَّ ثواب عمل الأب يوزَّع على الذريَّـة ليكونوا معه في درجة واحدة متوسطة، دفع ذلك بقوله: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم[٣] مِّنْ

(١) أي: جالسين بتمكُّن على مَضجع ذي قوائم أربعة مرفوعة عن الأرض، موضوعة على صفٍّ وخطٍّ مستوٍ، يُشاهد المتَّكئون بعضهم بعضاً، ويتحادثون، وهم سُعداء بما يُنعَّمون به

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٧٤٤)، من قول ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) آلَت فلانٌ الشيء يألِته، بوزن: ضربه يضربه، أي: نقصه، والمعنى: ما نقصناهم. وانظر ما تقدم في الآية ١٤ من سورة الحجرات.

عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما نَقَصْنا درجة الآباء بهذا الإلحاق، وإنما دفعنا الأبناء إلى درجتهم الكاملة فضلاً منا ورحمة.

ثم ذيَّل السياق المتضمِّن لمصير الكافرين ومصير المؤمنين بقوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)﴾[1] ولا يظلم ربُّك أحداً، وهذا حكمٌ عامٌ يقرِّر أن الناس مجزيُّون بأعمالهم، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرّ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ثم تابع البيان عن نعيم المتَّقين، فقال: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢)﴾ والإمداد: التواصل، أي: زدناهم - على ما كان لهم من أسباب التنعُّم - ما يشتهونه وقتاً فوقتاً، من فنون النَّعْماء، وألوان الآلاء، وهم ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣)﴾ أي: يَتَعاطون فيما بينهم كؤوسَ الخمر المجرَّدة عما يشينها من حالات خمر الدنيا التي حُرِّمت من أجلها.

وعبَّر بالتنازع عن التعاطي؛ للإشارة إلى ما في تلك الخمر من لذَّة يتهافت إليها الشارب بشَغَف، أو إلى ما هنالك من لعب ومزاح، مصحوب بهذا الشراب والمراح، ولا تنسَ ما يقوله ابنُ عباس رضي الله عنهما: «ليس شيء مما في الآخرة يشبه ما في الدنيا إلا بالاسم»[2]، وذلك لضيق اللغة عن إفادة تلك المقاصد والمسمَّيات.

---

(١) أو المراد بالآية - وهو المناسب للسياق قبلها وبعدها -: كلُّ امرىءٍ اجتاز رحلةَ امتحانِهِ في الحياة الدنيا، وكان مؤمناً قد عمل فيها أعمالاً يُجازى عليها بالعقاب، فإنَّه يوم القيامة يُحبَسُ حتى يقضيَ اللهُ عزّ وجلّ بشأنه، عقاباً أو غفراناً، فإذا عُوقِبَ أو غَفَر اللهُ له بحكمته، أُفرِجَ عنه، وأُدخِلَ الجنة بفَضْل الله عزّ وجلّ، فلا تتَّكلوا - أيها الأبناء - على صلاح الآباء، واعلموا أنكم مرهونون بأعمالكم، لا يحمل ذنبكم أحد.

(٢) سبق تخريجه (٢: ٤٩، ٥٧٦).

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ في أصدافه؛ لصفاء ألوانهم، ونقاوة بياضها. فهذا القيدُ لكمال الوصف.

ثم ذكر ما يدور بينهم من الكلام فرحاً بما نالوا، فقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ[1] ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا، عندما كنّا ﴿فِي أَهْلِنَا﴾[2] كنّا ﴿مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: خائفين من عذاب الآخرة، مُعتَنين بطاعة الله، اتِّقاء ذلك، ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾[3].

وقد عَلَّلوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ أن يقينا ذلك، فاستجاب لنا دعاءَنا وأعطانا سُؤْلنا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ أي: المُحسِنُ العظيم، وهو ﴿الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ لمن تمسَّك بأسباب رحمته وخشي عذابه. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم أمر نبيَّه ﷺ أن يستمرَّ على التبليغ، غيرَ مُلتفِت إلى تَقَوُّلات المشركين وهذيانهم، ناقضاً عليهم ذلك، بقوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ بما أُرسِلتَ به غيرَ مكترثٍ بما يتقوَّلون، ﴿فَمَا

---

(١) أي: يسأل بعضهم بعضاً عما كانوا عليه في الدنيا وما صاروا إليه في الآخرة تساؤلَ تلذُّذٍ واعترافٍ بفَضل الله.

(٢) المراد: في حال وجودنا بين أهلنا في الدنيا واعتزازنا بهم كنّا نخاف الله، ولم نغترَّ بكثرة الأهل.

(٣) أي: أنعم الله علينا بالنعمة الكبيرة بالمغفرة، وحمانا وصَرَفَ عنا عذابَ النار النافذة في المسام نفوذَ الريح الحارة.

أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: بحَمْدِه وإنعامه، أو بما أنعَمَ عليك من النبوَّة ورَجَاحة العقل ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾، يردُّ عليهم تقوُّلهم هذا، ويَصفَعُهم به ويلطمُهم على وجوههم ويَسخَرُ بهم.

والفرق عندهم بين الكاهن والمجنون: أنَّ الأول: له تابعٌ من الجنّ عن اختيار منه، والثاني: له تابعٌ من الجنّ عن غير اختيار. ويجوز أن يكون مرادهم أنَّ الذي يراه ويسمعه إنما هو من أخيلته وهواجسه.

ثم ذكر لهم تَقَوُّلاً آخرَ على هذا الوجه، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: حَوادِثَ الدهر وصُروفَه[1]. ومرادُهم: أنه ذو خيال واسع وإحساس عميق، وأنَّ دعوته محصورة في وجوده، فإن مات تفرَّق عنه أتباعُه وعادوا إلى دينهم الأول.

وقال الرازي: إنَّ العرب كانت تحترز عن إيذاء الشُّعَراء وتـتَّقي أَلْسِنَتَهم، لذلك قال بعضهم: لا نعارضُه في الحال مَخافةَ أن يغلبنا بقوة شعره، وإنَّما سبيلُنا الصبر وانتظار موته[2].

وقيل: بل كان مشركو مكة يعتقدون في بادئ الأمر أنَّ دعوته ستظل في نطاقها الضيِّق، فإذا ما لقي حَتْفَه عاجلاً أو آجلاً، تلاشت دعوتُه وتفرَّق أصحابُه وعادوا إلى دينهم، فأمر الله نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي:

---

(١) أو المراد: الموت المشكوك في وقته لا في حصوله، لأنه مقطوع به، وإنما المجهول للإنسان هو وقته. وأصل الريب: الشك. والمراد به هنا: المشكوك فيه فإضافته لِـمَا بعده من إضافة الصفة للموصوف، نظير قوله: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]. والمنون: هو الموت، لأنه يقطع الحياة، تقول العرب: مننت الحبل؛ إذا قطعته. ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨].

(٢) «تفسير الرازي» (٢٨: ٢١٢).

انتَظِروا هلاكي وعاقبةَ أمري وأنتم خائبون، فإني منتظرٌ هلاككم وعاقبة أمركم وأنا من الموقنين، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ثم تابع التقليبَ لوجوه التـأنيب والتسخيف، فقال: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ التباينُ من القول، والتناقض في الوصف، إذ بين الكاهن والمجنون والشاعر تباينٌ عظيم لا يقول به عاقل؟ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: مجاوزون حدَّ العقل في التقوُّلات والتفوُّهات والبهتان، والتُّـرَّهات والمكابرة والعناد؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: اختـلَقه من تلقاء نفسه، وليس هو من عند الله؟ فليأتوا بسورة من مثله إن كانوا صادقين.

وبعد أن نَقَض عليهم كلَّ ذلك بطريقة التأنيب والتسخيف، قرَّر حقيقة الأمر فيهم، فقال: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: بل لعدم إيمـانهم ولكفرهم وعنادهم يرمونه بهذه الأباطيل التي لا يخفى بطلانُها على أحد، وأنها من الأضاحيك.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ رداً وإبطالاً لقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾، أي: إنهم يقولون ذلك بألسنتهم ولم تؤمن به قلوبهم، إذ يعلمون عِلمَ اليقين أنْ ليس أحدٌ يقدر على الإتيان بمثل هذا القرآن.

وبعد أن بيَّن حقيقة أمرهم إثر ادِّعائهم بالاختلاق والتقوُّل، نقض عليهم ذلك بطريقة التعجيز، وقال: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ فإنَّ فيهم الشعراءَ والبلغاءَ والكَهَنة والأذكياء، وإذ عَجَزوا فليعلموا أنهم في عَمَهِهم تائهون، وقد ضلوا عن سواء السبيل.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم بكَّتهم عدَّة تبكيتات يقلّب فيها وجوه التسخيف والتجهيل، ينتقل فيها من واحد إلى آخرَ أشدَّ تشنيعاً وتفضيحاً في البطلان، فقال: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي: من غير خالق حتى يجحدوا الإله، ويقطعوا بعدم الحساب؟ والمراد: أفلا يتفكَّرون فيمن خَلَقَهم؟ ألا يستدلّون بخلقتهم على الخالق الحكيم؟

ثم ترقَّى مُتهكِّماً بهم، فقال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ لأنفسهم؟ لذلك لا يَرَوْنَ حقاً أن يعبدوا الله سبحانه.

ثم ازدَرَى بهم بصورةٍ أنكى، فقال: ﴿أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ خالقها هو الذي يستحقُّ أن يُعبَد، ويَقدِر على إعادتهم وجزائهم.

ثم قرَّر حقيقة أمرهم في ذلك، فقال: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟ أي: إنهم يعلمون أنَّ لهم وللسماوات والأرض خالقاً قادراً حكيماً، ورغم ذلك لا يوقنون بوحدانية الله واختصاصه بالألوهيَّة، وأنه سيُحاسب الناسَ على اعتقادهم وأعمالهم.

ثم تابع التبكيت بطريقة التهكُّم والازدراء، فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ فيُعطُون النبوة لمن شاؤوا ويُمسِكونها عمَّن شاؤوا؟ يتهكَّم بهم عن مثل قول المشركين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقول أهل الكتاب: إنَّ النبوة مختصَّة بهم.

ثم أردَفَ الكلام بما يُلائمه، فقال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ على أُمور الكون، يُدبِّرونها حسب أهوائهم وميولهم وآرائهم؟

ثم أردف التبكيتات التهكُّمية المبنيَّة على إفحامهم من طريق العقل، بتبكيت تهكُّمي مبنيّ على إفحامهم من طريق النقل، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ فأخذوا دينهم هذا من الملأ الأعلى، وتيقَّنوا أنَّهم على حقّ، وأنَّ محمداً على باطل؟ وفي كلمة ﴿سُلَّمٌ﴾ زيادةٌ في التهكُّم والتبكيت.

ثم قَرَنَ هذا التبكيت بطلب الحجَّة المُثبِتة لذلك، وسَبَكَها على التشنيع والازدراء، فقال: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي: فليأتِ مُدَّعي الاستماع بحُجَّة على صدق دَعْواه. وهذا مَبْنيٌّ على المتعارف الدارج، وهو أنَّ العالم العلوي هو الذي تُفرَق فيه الأمور، والحقيقة أن مَفْرَق الأمور من عالم الغيب[١]. والله أعلم.

ثم سفَّه رأيهم وتندَّر عليهم وسخَّف عقولهم في قولهم: الملائكة بنات الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾؟ وفي صورة التعبير تهكُّمٌ وإيذانٌ إلى أنَّ مَنْ هذا رأيُه لا يعدُّ من جنس العقلاء، فَضْلاً عن المفكرين.

ثم سدَّ عليهم المسالك بقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: ضريبةً على دَعْواك إيَّاهم لهذا الدين المُبين وإرشادك لهم؟ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ إذ ربما تكون الغرامة عذراً لثقلها، أو يتَّهمونك بأنَّ لك من وراء هذه الدعوى والدعوة مأرباً دنيوياً.

ثم تابع التبكيت التهكُّمي، فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: أم لا حاجة لهم إلى هذا الدين، إذ عندهم عِلمُ الغيب فيكتبون منه ديناً مِثلَ دينك الذي هو من عند الله، أو مخالفاً لدينك في أنه لا حشر ولا حساب؟ إذ لا يعتمد على مثل ذلك إلا أن يأتي من عالم الغيب، وعلم الغيب هو الذي يخصُّ الله به رُسُله.

ثم ختم هذه التبكيتات المتتابعة الساخرة اللاذعة المتردِّدة في مجال البطلان، ختمها ببيان حقيقة أمرهم، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾ بك ﴿كَيْدًا﴾ ومعارضةً

(١) وكون ذلك في العالم العلوي لا يُعارض كونه من عالم الغيب، وقد ثبت بالأدلة الكثيرة أن الملائكة في السماوات، وأنها مُوكَّلةٌ بأمور العباد، بحسب ما يأتيهم من أمر الله تعالى، وكذا اللوح المحفوظ مقرُّه في العالم العلوي، وفيه أمور العباد أيضاً، وفي حديث المعراج الذي رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ سمع صريف الأقلام، إلى غير ذلك من أدلة يثبت بمجموعها أن فَرقَ الأمور يكون في العالم العلوي.

لِـمَا جئتَ به، خابوا وخسروا، ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: هم الذين يحيق بهم كَيْدُهم وما يعملون.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

وبعد هذه التبكيتات المُفْحِمة والإلزامات الهازئة الناقضة لِـمَا هم عليه من الشِّرك والضلال، قرَّر حقيقة التوحيد بعبارةٍ تتناسب مع السياق، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾، أيشركون به مَنْ لا يخلقون شيئاً وهم مخلوقون؟

وبعد إلزامهم بهذه الحُجَج الواضحة للعيان، المُورَدة بأجلى بيان، بعبارات ملْؤُها التهكُّم والتوبيخ والسخرية والتأفين، أنَّبهم وصَوَّر درجةَ عِنادِهم وإنكارهم للأمور المحسوسة الملموسة، ليرتسمَ حالهم في الأذهان، فقال: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي: إن يَـرَوْا قطعةً ساقطةً عليهم من السماء، يقولوا لِفَـرْط عِنادِهم: إنما هذا سحابٌ متراكم؛ إذ قد انطبعوا على العناد وإنكار البديهيات. وفيه تعريضٌ بقولهم: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء: ٩٢]، أي: هم في هذا الطغيان بحيث لو أسقطناه عليهم حَسْبَما قالوا لأنكروه وقالوا: هذا سحابٌ متراكمٌ بعضُه على بعض، ولم يُصدّقوا أنه كِسْفٌ ساقط للعذاب الذي طلبوه حتى يقع بهم، فأيُّ خير يُرجى منهم! وكيف يُؤمَّل إيمانُهم وهم جامدون على الضلال والعناد؟!

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: تُصيبُهم فيه الصعقة والهلاك. وقد اختلفوا فيها؛ فقال بعضهم: المراد بها قَتْلُهم يوم بدر، وقال آخرون: بل هي يوم القيامة وما بعده.

ثم أكمل وَصْفَ ذلك اليوم، وزاد في البيان عنه بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ وفي هذا تأييسٌ لهم من النجاة.

ثم عقَّب وعيدَهم بذلك اليوم بوعيدٍ آخرَ قبله، فقال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ وقد اختلفوا في هذا العذاب أيضاً؛ فمَنْ قال: إنَّ المراد بالعذاب الأول: قَتْلُهم يوم بدر، قال: إنَّ المراد بهذا: ما أصابهم من القحط مدَّة سبع سنوات. ومَنْ قال: إنَّ المراد بالعذاب الأول: يوم القيامة وما يتبعه من الحساب والعذاب، قال: إن المراد بهذا: عذابُ الفَتْك بهم يوم بدر.

ثم بيَّن تعالى أنهم جاهلون بما هو مخبوء لهم، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ وقد قالوا في مثل هذه الآية: إنها جَرْيٌ على أساليب العرب في تحرِّي الصدق، فيُعبِّرون عن الكلِّ بالأكثر.

ثم ختم السورة المبيِّنة لأحوال المشركين بما فيه أمرٌ له ﷺ بالصبر والأناة تجاه عنادهم وتَقَوُّلاتهم ومُعارَضاتهم، وطمأنينةٌ له بأنه في عناية الله ورعايته، فقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعود، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: في حِفظِنا وحمايتنا. وجَمْعُ «العين» لجمع الضمير، وللمبالغة بكثرة أسباب الحفظ.

ثم أمره أن يستعين على الثبات والصبر بكثرة الصلاة؛ لأنها علاج ناجع فيهما، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ من منامك[1]، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾[2] أي: وسطَ الليل وآخرَه، وقيل: المراد: الركعتان قبل الفجر.

---

(١) أي: نزِّه ربَّك عما لا يليق به تنزيهاً مُقترناً ومُتلبِّساً بحَمْده ومُصاحباً له، حين تقومُ من مجلسك، أو من منامك، أو حين تقوم إلى الصَّلاة.

(٢) إدبار النجوم: ذهابها. والمراد: حين ذهاب ضوئها بظهور ضوء الصبح.

سُورَةُ النَّجْمِ

مكيَّة، وهي اثنان وستون آية

ولما جاء في السورة السابقة ما زعموه من أنه كاهن أو مجنون، أي: له تابعٌ من الجنّ، ردَّ عليهم في هذه السورة بأنَّ ما جاء به إنما هو وحيٌ يُوحى.

ثم استرسل في إثبات صفة ذلك الوحي وتوثيقه، وأنَّ محمداً ﷺ واثقٌ من ذلك، وأنَّ هذا الوحي الذي جاء به إنما هو نذير من النُّذُر الأُولى.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ
﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾
أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾(١) يُـقسِمُ سبحانه وتعالى بالنجم المنير الذي لا يضلُّ السبيل إذا سار، وبه يهتدي السائِرُونَ في ظلمات البر والبحر، يُقسِمُ بذلك على أنَّ النَّبيَّ الكريم إنما هو على أهدى السُّبُل وأقصَدِها بتوجيه الله، وكيف يهدي النجمَ هذه الهداية ولا يهدي رسولَه كذلك؟

ومن المعلوم أنَّ العرب تضرب الأمثال بهداية النجم والاهتداء به، فيقولون: فلان أهدى من النجم، ولا يضلُّ حتى يضلَّ النجم، ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. فالمناسبة ظاهرة بين المُقسَم به ـ وهو النّجم عند انحداره في سَيْره بحسب النظر على محيط دائرته ـ وبين المُقسَم عليه، وهو كَوْنُ الرسول ﷺ منتهجاً أنهج الطرق وأقومها،

(١) أي: ما ضاع صاحبُكم محمدٌ ﷺ دون قَصْدٍ ولا تعمُّد عن طريقِ الهدى، وما تنكّب طريقَ الرُّشد عن قَصْد وتعمُّد، اتّباعاً لهوى نفسه، وهو مَنْ تعرفون ـ لطول صحبتكم له ـ اتّصافَه بغاية الهُدى والرَّشاد.

﴿وَ﴾ كونُه ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ كشأن الشاعر والكاهن، أي: ما يقول شيئاً من رأيه، ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما يَنطِقُ به ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ إليه من الله. والمعنى: إنه لا ينطق فيما يُبلِّغكموه عن هَوى نفسه، وإنما يَنطِقُ عن وحيٍ يُوحى إليه من ربِّه، كما جاء في الحديث: «إني لا آمرُكم إلا بما أمرني الله به، ولا أنهاكم إلا عمَّا نهاني الله عنه»[(١)].

ثم شَرَحَ صفةَ الوحي، فقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ أي: مَلَكٌ شديد قُواه، وهو جبريل عليه السلام، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: حَصَافةٍ في عقله ورأيه، والمراد ـ والله أعلم ـ قابليةُ تلقِّيه عن الله سبحانه وإلقائه إلى محمد ﷺ وإتقانه في ذلك.

ثم ذكر صورةً لأول ملاقاته له ﷺ، وقال: ﴿فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ[(٢)] الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾[(٣)] ويجوز أن تكون هذه النَّـزْلةُ هي الأولى، أو ما بعد فتور الوحي؛ لأن ما قبلها كان تمهيداً. والله أعلم.

واختلفوا في الفاء من قوله: ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾؛ فقيل: هي للسببيَّة؛ لأنَّ التَّدلِّيَ هو واسطة الدُّنُوّ، وفيه إشارةٌ إلى العلوّ الذي كان عليه، وقيل: بل هي للعطف، والدُّنُوُّ على معنى الإرادة، أي: أراد الدنوَّ فتدلَّى من العُلوِّ إلى الرسول ﷺ، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ أي: فكان منه على بُعْد ما تقدرونه أنتم بطول قوسين أو أقل. وقد جرت عادة العرب

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٧٣٧) عن الحسن بن علي رضي الله عنه، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١١٤١) عن المطلب بن حنطب، كلاهما بلفظ: «إلا بما أمركم الله به» و«إلا عما نهاكم الله عنه».

(٢) أصل معنى الأفق: الجهة. والمراد هنا: الجهة العليا المقابلة للناظر إلى جهة السماء. أما إطلاق علماء الهيئة الأفق على جانب السمـاء القريب في نظر الرائي من الأرض فهو اصطلاح خاص بهم.

(٣) دنا: أي قرب منه ﷺ، تدلّى: بالغ في القرب.

على تقدير المسافات القريبة بالقوس والرمح والسَّوْط. وقال الزجّاج في بيان هذا التردُّد: إنَّ العباد قد خُوطبوا على لغتهم، ومقدار فهمهم، وقيل لهم في هذا ما يُقالُ للذي يُحدَّد[1] بمسافة قصيرة. والمعنى: فكان منه على بُعْد ما تُقدِّرونه أنتم بطول قوسين أو أقل. وهو كقوله في سورة الصافات: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

أقول: يعني: أن يكون قد جرى أولاً على عُرف التخاطب، فقال: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾، ثم أردفه بتحرِّي الحق الدقيق، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾.

وبعد أن بيَّن صورةَ أول ملاقاة جبريل له عليه السلام، أجرى الكلام على الله سبحانه على نهج القرآن من الانتقال من إجراء إلى إجراء؛ لأنَّ فيه نتيجة لتدلِّي جبريل، وملاقاته للرسول، وبياناً للغرض منه، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ أي: الله سبحانه بواسطة هذا المَلَكِ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمدٍ ﷺ ﴿مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ إليه من مبدأ هذه الشريعة الغرَّاء.

وكلمة ﴿مَآ﴾ للتفخيم والتعظيم، وضميرُ ﴿أَوْحَىٰ﴾ لا يعود إلى مرجع الضمائر السابقة، وإنما يعود إلى الله سبحانه، وإن لم يتقدَّم له ذِكر؛ لأن عَوْدَ الضمير على ما يدركه الذهن من فحوى الكلام هو من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). وهذه الجملة تحقيقٌ لقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، وتقريرٌ له.

ثم بالغ في تحقيق ذلك، بقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ أي: ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير، وقيل: بل المعنى: لم يُنكِر فؤادُه ما رآه بَصَرُه، وذلك لأن العلويات يدركها القلب السليم بصورة إجمالية قبل رؤيتها، لا سيّما وهو مرشَّح للنبوة، ومختارٌ للرسالة، والمراد: لم يخالف ما كان يدركه فؤاده لما رآه بصره، أي: أنه إنما رأى ببصره ما

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٧١)، وفيه: (يجزر) بدل: (يحدد).

كان يحسُّ به فؤادُه من قبل من أحوال النبوة، ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ من أمر الوحي. وتشمل الجملة بحسب عموم كلمة ﴿مَا﴾: المعراج الذي سيتعرَّض لبيانه فيما يأتي، أي: أفتُجادِلونه فيما يراه من الوحي والمعراج، وهذا أمره. يُنكِرُ عليهم ذلك بعدما بيَّن لهم من أمره ﷺ مع جبريل ما بيَّن.

ثم خصَّ بالذكر صورةً ثانية من رؤية النبيِّ ﷺ لجبريل عليه السلام، وذلك لِخَطَر شأن ما قارن تلك الرؤية، وهو سفرة المعراج، وما انتهى إليه أمرُها من مواضع رفيعة المقام، فقال: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ أي: ولقد رأى محمد ﷺ جبريلَ عليه السلام مرّةً أُخرى من مرّات نـزوله، وكانت ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾ وذلك حين أُسري به ﷺ.

وإنما أضاف هذه النَّزلة إلى عنديَّة السِّدرة؛ لأنها أهمُّ ما في هذه الرحلة وأعلى، وإن كانت كلُّها عظيمة، ومثل ذلك من عُرف اللغة وأساليبها، فيُضاف ما هو من المبدأ إلى نقطة بارزة في الموضوع، وأمر بارز فيه، ويسمَّى الشيء بأمر بارز فيه، فيقال: نزلة الغار، ونزلة السدرة، مثلاً.

والسِّدرة: واحدة السِّدْر، وهو شجر معروف، ولا تنسَ ما يقوله ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الاسم»[1]. أقول: وذلك لِقِصَرِ اللغة عن بيان تلك المسمَّيات بياناً حقيقياً، وقِصَرِ الفكر عن إدراك حقيقتها، لأنها في عالم أرفع من عالمنا بكثير، فيقرب المعنى إلى الفهم بمثل هذا التعبير.

وإنما خصَّ بالذكر هذا المكانَ دون مكانِ أول الملاقاة؛ لرفعته وبُعْدِ مَنالِهِ ولتجلِّيه بالشرف والامتياز، وتنبيه الأفكار إلى سُمُوِّ ما انتهى إليه من رِفْعةِ المنزلة وعُلُوِّ المقام.

---

(١) سبق تخريجه (٢: ٤٩، ٥٧٦).

ولذلك أفخَمَ أمْرَ تلك السِّدرة، فقال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ يريد بهذا الإبهام الإشارةَ إلى قُصور الكلام عن بيان كرامة وعَظَمة وكَثْرة تلك المخلوقات التي تغشى هذه السِّدرة من الملائكة المقرَّبين.

ثم حقّق الأمر وقرَّره بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي: لم يَمِلْ عن القَصْد ولا جاوَزَه، وإنما أصابه إصابةً وأدركه حقيقة، يشير إلى أنَّ معراجه ﷺ كان حقاً واقعاً، وما أدركه فيه كان يقيناً صادقاً، ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ فيه ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾، وعن مسروق قال: «سألتُ عائشةَ رضي الله عنها: هل رأى محمد ربَّه؟ فقالت: سبحان الله، لقد قفَّ شعري لِـمَا قلت، قال: قلتُ: فأين قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٨ - ١٠]؟ قالت: إنما ذاك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجال، وأنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورتُه، فسدَّ أُفقَ السماء»[(١)]. هكذا رُوي عنها، وربما قد علمت ذلك عن رسول الله ﷺ، ولكنها أوقفته عليها ولم تَروِه عنه.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.

وبعد أن قرَّر الوحيَ والرسالةَ والمعراجَ المؤيّدَ لها والممهِّدَ لأعبائها، التفت إلى المشركين يردُّ عليهم شِركَهم وضلالهم وإعراضهم عمَّا جاءهم به هذا الرسول الكريم، ويقارن بين شأنه وشأنهم، وعظمة إلهه ومَهانةِ آلهتهم، ويُشنِّع عليهم أمرهم، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ أي: فأين هي من عَظَمة الله؟

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٢٣٥)، ومسلم (١٧٧)، عن عائشة رضي الله عنها.

أو: أفرأيتم من آياتها ما رآه محمد من آيات ربِّه؟ يتهكَّم بهم ويُسخِّف عقولهم، أو المرمى: أفتنكرون أمرَ الوحي وأمرَ المعراج، ولا تنكرون أمْرَ هذه الأصنام فتعبدونها من غير الله؟

ثم ألمع إلى مهزلةٍ أخرى، وهي قولهم: «الملائكة بنات الله»، فقال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ أي: تلك إذن قسمةٌ جائرة، حيث جعلتم لله تعالى ما تستنكفون منه. يتهكَّم بهم ويُسخِّفهم.

ويجوز أن يكون هذا إنكاراً لصُورة أخرى مُستقلّة من صُوَر شركهم، أردف به الإنكار للصورة الأولى، على نهج القرآن في مثله. أي: ثمَّ تشركون به الملائكة وتُسمُّونها بنات الله، فتجعلون لله البناتِ ولكم البنين، ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾.

وقال الـجُبّائي: بل كانوا يزعمون أنَّ اللاتَ والعُزَّى ومَناةَ بناتُ الله، فلذلك أردفَ الاستفهام التقريعي عن أمرها بالاستفهام التجهيلي عن وَصْفِها، حيث قال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾.

وعلى كلا التقديرين، فالمعنى: أخبِروني عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، وتزعمون أنها بنات الله، أو تعبدون معها الملائكة، وتزعمون أنها بنات الله؛ أفرأيتم آيات معبوداتكم هذه كما رأى محمَّد آيات ربِّه؟! يتهكَّم بهم ويُقرِّعهم، ويَرُدُّ عليهم بقوله: ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: تلك الأصنامُ وادِّعاؤكم أنها معبودات وأنها أناث ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ وتَقَوُّلاتٌ تقوَّلتُموها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: برهان تتعلَّقون به وتتمسَّكون.

وهذا القيدُ لزيادةِ البطلان، وللإيذان بأنَّ الحقَّ لا يثبتُ إلا بالحُجَّة والبرهان، وهؤلاء في أمرهم هذا ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾، والالتفات من

الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأنَّ كثرة قبائحهم اقتَـضَت الإعراضَ عنهم تحقيراً لهم، وحكايةَ جناياتهم لغيرهم.

ومُحصَّل الكلام: إنَّ دَعْواهم هذه لم يَقُم عليها دليل نقليٌّ ولا عقليٌّ، وإنما هو ظنونٌ وهواجسُ حَسْبَما تهوى أنفسُهم، فهم يتَّبعون ذلك الضلال ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ فلم يتَّبعوه. وفي هذا زيادةُ تقبيح لحالهم، ومبالغةٌ في الإنكار عليهم والتنديد بأمرهم.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

ثم أضرَبَ عن تأفينهم وتقريعهم بما ذكر إلى تأنيبهم بأنَّ هذه الأباطيل المُختلَقة لا تُجْديهم نفعاً؛ لأنَّ الإنسان ليس مُطلَقَ العنان، يعبد ما يشاء، ويُشرِّع ما يريد، وينال كلَّ ما يتمناه، وإنما هو مقيَّد بشرائع الله، فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: هل ينالُ المرءُ كلَّ ما يتخيَّله ويمنِّي نفسَه به، كلا، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي: إنما الآخرة والدنيا بيد الله، وقد جَعَل لهما سُنناً تؤدِّي لسعادتهما، فمن تمسَّك بها فاز، ومن تنكَّب عنها هَلَك. ومُجرَّد التمنِّيات أو الخرافات أمرٌ باطل وضلال مبين. فالفاء في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ...﴾ للتعليل؛ لأنَّ ما بعدها في موقع علَّة لِـمَا قبلها، وهو النفيُ الضمنيُّ له والإنكار، أي: ليس للمرء ما يتمنَّاه، ولكن الأمور بيد الله.

ثم أقنطَهم عمَّا علّقوا به أطماعَهم من أنَّ الملائكة تشفع لهم، وكذلك سائر آلهتهم التي هي رمز للملائكة، فقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ الشفاعةَ له ﴿وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ عنه، ويراه أهلاً

للعفو من أهل التوحيد والإيمان، الذين ارتكبوا شيئاً من هفوات الذنوب والعصيان. وأما مَنْ عَدَاهم من أهل الكفر والطغيان، فهم عن ذلك مُبْعَدون. قال ابن عباس: يريد: لا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه[1]، كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وكما في سورة غافر: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

وقد مرَّ الكلام على الشفاعة في سورة يونس عند قوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]، فارجع إليه.

ويجوز أن يكون الكلام محمولاً على المعنى، ويكون الاستثناء من مضمون ما قبله أو منقطعاً، أي: لا ينجو وينصرف عن الموقف إلا مَنْ رضي الله عنه وشاءَ أن يأذن له بالانصراف، وهو المؤمن الناجي، فيكون الكلام نفياً لِـمَا يزعمونه من الشفاعة على الإطلاق. والله أعلم.

ثم عاد فسَفَّه رأيهم وسَخَّفَ عقلَهُم، وأَنَّبَهُم على ما يَتَقَوَّلونَ به من وَصْف الملائكة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ أي: يصفونها بالأنوثة ويقولون: إنها بنات الله، ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾[2]، فأنَّبهم سبحانه على ذلك، وأرشَدَهم إلى الطريق الصحيح في الدين والاعتقادات، فبيَّن أنها لا يجوز أن تكون إلا بالبراهين الصحيحة وما جاء عن الله، ولا يجوز أن يعتمد فيها على الظن والوهم والخيال.

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ٢٠٠).

(٢) يقول بعض العرب: الملائكة بنات الله، ويطلق بعضهم اسم الأنثى على الأصنام، فيقولون: أنثى بني فلان، يعنون صَنَمَهم الذين يعبدونه.

وعليه، فيجوز أن يراد بالآية المعنى الثاني أيضاً، ويكون المراد: أنهم يعبدون الملائكة كما يعبدون الأصنام، يتقرَّبون بهم إلى الله ويستشفعون. (المؤلف).

وفي قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ إشعارٌ بأن تَقَوُّلهم هذا هو في الشَّناعة والفظاعة واسْتِتْبَاع العقوبة في الآخرة، بحيث لا يجترئ عليه إلا من لا يؤمن بها.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم أمره ﷺ أن يُعرِضَ عنهم، ويتحمَّل أذاهم؛ لأنهم قد انطبعوا على الضلال، وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾، فإنَّ من كان كذلك لا تزيده الدعوة إلا عناداً؛ لأن ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي بيَّناه عنهم، أو قَصْرَ إرادتهم على الدنيا، هو ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ انطبعوا عليه بسوء التقليد والجهالة والغباوة، فلا يسمعون لِـمَا يعارضه من الحق، بل يُعاندونه مُقاوِمين. وجمع الضمير في: ﴿مَبْلَغُهُم﴾ باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنَّ إفراده فيما سبق كان باعتبار لفظها.

ثم علَّل أمْرَه له بالإعراض عنهم، وسَبَكَه على الوعيد، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ أي: أعرِضْ عنهم لأنَّ الله سبحانه يعلم مَنْ يجيبُ الدعوة ممَّن حافظ على سَلامة غريزته واستِعدادِه الفطري لقَبول الحق، ومَن أفسد غريزته بمفاسد التربية وسوء القدوة فلم يُصْغ إلى الحق ولا يحبُّ أن يسمعه كهؤلاء، فلا يُرجى منهم إيمان، وسيُجازيهم جزاءً وفاقاً.

وفي الآية إيذانٌ بأنَّ الشفاعة لا تُـغْني عن التفريط بالحق شيئاً، وإنما الأمر في السعادة والشقاء منوطٌ بالضلالة والهدى، والإساءة والإحسان.

ثم أوضَحَ ذلك وتوعَّدهم ضمن هذا البيان العام الذي جعله كالغاية لعِلمِه بمَن ضلَّ ومَن اهتدى، وصدَّره بسلطان الله تعالى، تحقيقاً لإنجازه، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ خَلقاً وملكاً فهو عظيم السلطان، يُحصي ضلال الضَّالِّين وهداية المهتدين؛ ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾(١).

ثم ذكر بعضَ صفاتِ هؤلاء المُحسِنين التي وفَّقتْهم لذلك الثواب، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾(٢) ﴿إِلَّا﴾(٣) ﴿ٱللَّمَمَ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو صغار الذنوب. وقال الحسن والسُّدِّيّ: هو أن يُلمَّ بالذنب مرةً ثم يتوب ولا يعود. واختار هذا الرأي الزجَّاج أيضاً(٤).

ثم علَّل ذلك الاستثناء بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾.

ثم قرَّر ما تقدَّم من قولِه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ [النجم: ٣٠]، وقولِه: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ﴾، بما هو تمكينٌ له وتمهيدٌ لِـمَا بعده، فقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾(٥) ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ فإذا كان علمُه تعالى محيطاً بسائر أحوالكم قديمِها وحديثِها ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾(٦).

---

(١) أي: ليَجزيَ المُسيئين في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا من عصاة المؤمنين والكافرين حتى أخسِّ دركاتهم بمقدار إساءاتهم، ويجزيَ المُحسِنين أهل المرتبة العليا من مراتب المؤمنين، فمن دونهم من المتقين والأبرار على تفاضل درجاتهم بالمثوبة الحُسْنى، وهي: الجنَّة.

(٢) أي: يبتعدون عن حدود كبائر الذنوب، وما عَظُمَ قبحُه من الأفعال والأقوال. وينظر ما تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ [الشورى: ٣٧].

(٣) ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكنْ)، أي: لكنِ اللَّمَمُ يغفرُها الله، لأنه سبحانه واسع المغفرة.

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٧٤).

(٥) أجنَّة: جمع جنين، وهو الطفل ما دام في بطن أمه.

(٦) أي: لا تمدحوا أنفسكم بحُسْن الأعمال والبراءة من الآثام، ولا تصفوها بذلك، فأمرُ الحكم =

وفي قوله: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ رأيان: الأول: أن المراد به خلقة آدم، وفيه تجوُّزُ نسبةِ ما للأصل إلى الفرع، وهو من خصائص اللغة ونهج القرآن.

والثاني: أن المراد به جميع البشر، وذلك لتكوُّن المنيِّ من الأغذية المخلوقة من الأرض رأساً كالنبات، أو بالواسطة كالحيوان، واختاره البَلْخيّ.

وعلى كلٍّ، فالمراد استيعاب إحاطة عِلمِه سبحانه بهم حتى في أدوارهم الخفية.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

وبعد أن بيَّن حالَ المشركين المعاندين العابدين للَّات والعُـزَّى، والقائلين بأن الملائكة بنات الله، شَرَع في بيان حال أهل الكتاب، وأنَّبهم على كفرهم بمحمد ﷺ، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾، والتعبير بالمفرد عن الصِّنفِ من خصائص اللغة ونهج القرآن.

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: إنَّ هذه الآية نَـزَلت فيمن كفر بعد الإيمان. ومعنى «أكدى»: قطع[1]، أي: مال إلى الإيمان ثم أعرض، فيكون قوله: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا

= بطهارتكم من المعاصي وتزكيةُ أنفسِكم ليس لكم، إنما هو لله، هو أعلمُ بمَنْ برَّ وأطاع وأخلَصَ العمل، فمن زكَّاه فحكم له بذلك فهو الزكيُّ التقيُّ، لأنه سبحانه هو العليم بعباده، الحكيم في أحكامه.

(١) تقول العرب: فلان حَفَرَ في البئر فأكدى، أي: وجد كُدْيةً أوقفَتْه عن الحفر. والكُدْية ـ بضمّ فسكون ـ: حَجَرٌ كبيرٌ شديدُ الصلابة. والكلامُ كنايةٌ عن التوقُّف في العطاء.

﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ بياناً لصورة هذا التولِّي، وعَطْفَ تفسيرٍ عليه[١].

ومحصَّل الكلام: أفرأيتَ حالَ مَن تولَّى وله كتاب، وكان قد أعطى قليلاً من الزمان حقوقَ الله بمقتضى كتابه، أو أعطى بعضَ حقوق الله فيما يأمره وينهاه، فلما جاء محمد ﷺ بما جاء به أكدى وأعرَضَ عن الإيمان بذلك، مع أنه مكتوبٌ عندهم في التوراة والإنجيل الصحيحَيْن، زاعماً أن لا نبيَّ إلا من بني إسرائيل، وأنهم هم الناجون والمقبولون عند الله.

فأنَّبه سبحانه بما فيه تهكُّم به، فقال: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ أي: هل هو ممَّن يرى الوحيَ ينزلُ عليه، وقد أُوحِيَ إليه بخِلافِ ما في كتابه المصدِّق بنبوَّة محمد وما جاء به؟

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ[٢] ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ[٣] ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ[٤] ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ

(١) أي: بَخِلَ وشحَّ بعطاء من فكره ونفسه؛ لأن مضامين هذه الدعوة لم توافق هواه وشهواته ونزغاته وكِبْره، فاستَحجَرَ عطاؤه الفكريُّ والنفسي، كالأرض الغليظة، والصخرة الشديدة التي لا ترشح بماء.

(٢) أي: كمَّلَ وتَـمَّمَ ما أُمر به، فأدّاه أداءً وافياً على أتمِّ وجه لم يَنقُص منه شيئاً.

(٣) أي: لا تحمل نفسٌ آثمةٌ ولا غيرُ آثمة إثمَ نفسٍ أخرى، حتى تخلُّص هذه الثانية من إثمها، إنما تحمل الآثمةُ إثمَ ذنبها الذي فعلته بالمباشرة أو التَّسبُّب، فتُعاقب عليه.

(٤) قال الإمام الغزالي: إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والدُه دونَه، والظمآن يروى بشرب والدِه، فالعاصي ينجو بصلاح والده أو أحد أقاربه وذويه. فلا يَعْتَقِدْ أحدٌ أنه ناجٍ مما فعل من المعاصي اعتماداً على صلاح آبائه. وقد قال ﷺ: «يا فاطمة بنت محمد، اعملي، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً». (المؤلف).

والحديث سبق تخريجه (٣: ٤٢٩). =

ﱹﭐﲣﲤ ﱸ أي: أم لم يعرف من كتابه ما جاء في الشرائع السابقة في صُحف إبراهيم وموسى، من أنَّ الإنسان مَجْزيٌّ بعمله، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرّ. يريد: أنَّ الأديانَ كلَّها مناطُها هذا القانون، ولا دَخْلَ للجنسيَّات في الأمر ولا للشخصيَّات، وسيُجزى على إعراضه عمَّا جاء به محمد ﷺ من التعاليم أشدَّ الجزاء، في يوم لا يحمل فيه أحدٌ وِزْرَ آخر، ولا يُقبَلُ من أحد عِدْل، أي: بَدَلٌ وفداء، ولا تنفعه شفاعة، وليس في الأمر حباء.

وفي مدح إبراهيم عليه السلام بأنه وفَّى واجبَه حقَّ الوفاء، تعريضٌ بهؤلاء الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ويقولون: نحن على دين إبراهيم عليه السلام.

ثم تابع السياق بما في تلك الصُّحُف مما له تعلُّق بالموضوع، فقال: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ فينالُ كلَّ عامل جزاءَ ما يستحقُّه من ثواب عظيم أو عقاب أليم.

ثم أردَفَ البيانَ بذِكرِ مظاهر قدرته البالغة سبحانه في الجمع بين الضِّدَّين، إيذاناً بقدرة الله على الحشر بعد الموت، وعلى إنجاز وعده ووعيده، فقال: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي: خَلَق الإنسان مُستعداً لذلك، وهما حالتان مُتضادّتان مُنبَعِثتان عن الإدراك الذي خُصَّ به الإنسان، نتيجةَ خَلْقِهِ في أحسن تقويم، واختصاصِه بالروح الكريم.

وفي التنصيص على هاتين الصفتين واللتين تليهمـا لطفٌ في المَسْلك مع الوعد والوعيد، على نهج القرآن في دقائق الإشارات، أي: إنه سبحانه قد خلق الإنسان مُستعدّاً لإدراك الأمور وفهم الحقائق، وسينتهي بأعماله في الدنيا إلى ما يَسُرُّ أو يُحزِن في الأُخرى.

= ومعنى الآية: وأنْ ليس للإنسان من حقٍّ أعطاه الله له بفَضْله إلا ما كسبَه من أعمال صالحة، وهذا لا يمنع من أن يصلَه شيءٌ بفضل الله دون سَعْيٍ منه، كدعاء منْ يستجيب الله دعاءه له، أو شفاعة مَنْ يأذن الله له بالشفاعة.

ثم أضاف إلى هذا المظهر من مظاهر قدرته البالغة مَظْهراً آخر يُومئُ إلى البعث والنُّشور، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾، وهذا من أعظم مظاهر قدرة الله العليَّة، وفيه عطفٌ للدعوى على الدليل، أي: الذي جمع بقدرته البالغة بين استعداد الضحك والبكاء في الإنسان؛ جَمَعَ له بين الموت والإعادة.

ثم أضاف إلى دليل الضحك والبكاء في الجمع بين الضِّدَّين، دليلاً آخر في ذلك، إحاطةً للدعوى بدليلَيْن، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أي: وكذلك من مظاهر قدرته العظيمة أنْ خلقَ هذين الصِّنفَيْن المُتبايِنَيْن في كثير من المُشَخِّصات والمُميِّزات من المنيِّ، وهو شيءٌ واحد يتفاوت بتَفاوُت ما يَعرِضُ له من الأحوال في الرَّحِم، فيكون ذكراً أو أُنثى، فليس غريباً ولا عزيزاً في جانب هذه القدرة ما عطفه عليها بقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ للإنسان، أي: إحياءَه بعد موته كما وَعَد به. وقد نَسَق هذا في السياق بصورة نتيجةٍ للمقدِّمات السابقة في بيان قدرة الله البالغة.

ثم تابع النَّسَق في مظاهر تلك القدرة، مسبوكةً مع دليل المِنَّة، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ مَن شاء ومَوَّلَه[1]، وهذا هو المرويُّ عن ابن عباس، ﴿وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أي: أعطى الخدم والقِنَّ لمن شاء. والقِنّ: العبيد الموروثة. وهذا هو المرويُّ عن الحسن ومجاهد وقتادة. أو: أعطى الأشياء التي تُتَّخذ للاقتناء والزينة لنفاستها.

ثم نسق في السياق ما فيه تسفيهٌ لأولئك المعارضين المشركين وتجهيلٌ لهم، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ[2] ﴿٤٩﴾﴾ معبودِهم، وهي الشِّعْرى العبور؛ نجمٌ مضيء من القدر

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٥٤٩) عن مجاهد.

(٢) هذا النجم قدرته على إشعاع الضوء تساوي ستاً وعشرين مرة من قدرة إشعاع الشمس، =

الأول، عبر المجرَّة، كانوا يعبدونه في الجاهليَّة، وهو أحد كواكب الكلب الأكبر، وموقعه جنوب برج الجبار.

ومَرْمى الآية: أن هذه الشِّعْرى التي مَلَكَت عليهم مشاعرَهم حتى عبدوها، إنما هي من أوسط مخلوقاته تعالى، أفلم يكن من الأفَنِ والحمق أن يعبدوها، ولا يعبدون ربَّها الذي يخلقها ويخصُّونه بالعبادة.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم تابع السياق والنَّسَق ببيان ما أنزله بالمعارضين من الأمم الماضية من عذاب الاستئصال، تهديداً لهؤلاء المشركين بأنه سيَجري عليهم ما جَرَى على أولئك، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ وهم قوم هود عليه السلام، والوَصْفُ بـ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ لبيان تقدُّمهم وبُعدِهم، أو لأنَّ العرب تُطلِقُ «عاداً» على جميع العرب البائدة، فأشار بالوصف إلى قوم هود.

= وقدرته على إشعاع الحرارة مثل ذلك، فلو فُرض أن الشعرى اليمانية حلَّت محلَّ الشمس يوماً لفنيت الحياة فجأة من الأرض باشتعال كل شيء عليها من حيوان ونبات، وبغليان الأنهار والمحيطات. وضوء الشعرى اليمانية يصل إلينا بعد ثمان سنوات، بينما ضوء الشمس يصل إلينا بعد ثمان دقائق، فقدِّر الفرق بين البُعدَين. وفي السماء نجوم تزيد على قدرة الشعرى أكثر من عشرة آلاف مرة، منها نجم يسمَّى الميرة، وهو أكبر من شمسنا بما يزيد على ثلاثين مليون مرة ـ جلَّت قدرة العظيم القدير ـ ولبُعده الشاسع يُرى نجماً ضئيلاً. فكم في السماء من آيات تدل على عظمة الله الواحد القهار. (المؤلف).

﴿وَ﴾ أهلك ﴿ثَمُودَا۟﴾ وهم قومُ صالح عليه السلام، ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ أحداً من الفريقين، ﴿وَ﴾ أهلك ﴿قَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ عادٍ وثمود، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ من الفريقين.

ويحتمل أن يكون المراد من هذا الوصف: شدَّة بأس أولئك الهالكين جميعاً، مبالغةً في تهديد هؤلاء المشركين الذين هم دونهم في المقاومة والقدرة، على نهج القرآن في مثله. وقد اعترض به أثناء السياق.

ثم تابع السياق بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ وهي قرى قوم لوط ﴿أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ بها وقَلَبَها، ولذلك سُمِّيت: مؤتفكة، بمعنى: مُنقَلِبة. وكان ذلك بأنْ أمطَرَ عليها حجارةً من سِجّيل، ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ منها ﴿مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾، وهذا الإبهام للتهويل.

ثم أردَفَ هذا السياقَ بما فيه تقريرٌ للوعد بنَصْر الرسول وإهلاك المعارضين الذي تضمَّنه البيان، وبنى ذلك على فرض تَردُّده فيه، فقال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ[1] رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ أي: تتشكَّك وَتَتَرَدَّد.

والغَرَضُ من صيغة هذا التعبير الفرضي: زيادةُ المبالغة في التقرير والتأكيد، وهو أُسلوبٌ من أساليب اللغة، ونهجٌ من مناهج القرآن.

وسمَّى الأمور السابقة: آلاء؛ لِـمَا بها من نُصرة الأنبياء والمؤمنين والانتقام لهم.

ويجوز أن يكون الخطاب عاماً لسائر أفراد الإنسان وسائر النِّعَم، وليس خاصاً بالرسول، أي: بأيِّ نِعَمِ ربِّك ترتابُ أيها الإنسان؟! يُؤنِّب الجنسَ على ذلك بعَمَل بعضِه.

---

(١) الآلاء: الشؤون العجيبة والأمور الغريبة، كما في أصل معناها اللغوي واستعمال العرب لها، كما رجَّحه العلامة عبد الحميد الفراهي في كتابه «مفردات القرآن».

ثم ختم السورة بقوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ قيل: هو إشارةٌ إلى القرآن. والنُّذُرُ الأُولى: صُحُفُ إبراهيم وموسى، وهذا هو المرويُّ عن أبي مالك[1]. وقيل: هو إشارة إلى ما في هذا القرآن من إهلاك الأمم الأُولى، وهذا هو المرويُّ عن الجُبّائيّ.

ثم أردف هذا الإنذار بما يُومئ ويدلُّ على إنجازه مؤخَّراً إلى يوم القيامة، فقال: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ أي: قَرُبَت القريبة؛ يعني بها: القيامة. وهذا التركيب للمبالغة في القُرب. وقد زاد في تقريره بقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: ليس هناك نفسٌ تَقدِرُ على دفعها إذا وقعت، أو المعنى: ليس لها مَنْ يكشفها ويُجلِّيها إلا الله، كما قال تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ثم زاد في التهديد والإنذار، فقال: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: ما تقدَّم من الأخبار، وقيل: يعني القرآن ﴿تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ إنكاراً، ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً، ﴿وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾ تحزُّناً على ما فرَّطتُم في جَنْب الله، وعلى ما جرى على أمثالكم، وعلى ما يراد بكم، ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: لاهون، أو مُستكبرون، من قولهم: سَمَد البعير؛ إذا رفع رأسه، أي: رافعو رؤوسِكم.

ثم أمرهم سبحانه أن يعبدوه ويُخلِصوا له العبادة، فلا يُنجيهم غير ذلك، فقال: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾﴾، وهذا الأمر يحتمل أن يكون عاماً متابعةً للسياق، يحثُّ به المعارضين أن يَثُوبوا لرُشدِهم، ويؤمنوا بهذا الدين الذي يأمرهم بعبادة الله دون سواه، ويحتمل أن يكون خاصّاً بالمؤمنين على طريقة الالتفات من أساليب القرآن، أو نَقْلِ الكلام من إجرائه على صِنفٍ إلى إجرائه على آخر، على نهج القرآن في ذلك.

(١) هو الغفاري، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٥٤٦).

سُورَةُ القَمَر

مكية، وهي خمس وخمسون آية

جاء في آخر السورة السابقة أنَّ ساعتهم قد أزِفَت، فجاءت هذه السورة بتأكيد ذلك، وتابعت الإنذار بالعذاب، وتردَّد السياق في هذا الموضوع كما في السور السابقة، وختمها بمصير المتَّقين؛ ليجمع بين الترغيب والترهيب.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨﴾.

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ يقول علماء الجيولوجيا وعلماء الفلك: إنَّ عُمُرَ الشمس يُقدَّرُ بنحو خمسة ملايين مليون سنة[1]، وقد مضى من عُمُرها أكثره نسبةً لِـمَا طرأ عليها من الضعف[2].

أقول: فاقتراب الساعة إنما هو بالنسبة إلى ما مضى من عمر العالم الطويل، ولا يعلم ما بقي منه إلا الله سبحانه وتعالى، وقد أخبر باقترابه.

وإذا نظرنا إلى أنَّ الرسول ﷺ هو خاتم الأنبياء، ونبيُّ آخر الزمان، كان مجيئه ﷺ دليلاً أيضاً على الاقتراب النسبيِّ للساعة، لذلك جاء عنه ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين»[3]، وأشار بالسبَّابة والوسطى.

---

(١) هذه أقوال افتراضيَّة لا دليل عليها.

(٢) انظر ما تقدم تعليقاً (٢: ٢٣١).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١)، عن أنس رضي الله عنه.

أما انشـقاق القمر، فقد اختـلف فيه؛ قال بعض المفسِّرين ـ ومنهم الحسن[١] والبَلْخي ـ: المراد منه: انشقاقه يوم القيامة، فهو من أعراض الساعة وملاءماتها، والتعبير بالماضي على هذا للمبالغة في قُرب وقوعه، أو لتحقُّـق الوقوع، على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، ومثله من خصائص اللغة ومناهج القرآن.

وعلى هذا، فالآية ردّ للمشركين الذين طلبوا انشقاق القمر ليكون معجزةً على صدق محمد ﷺ، ووعيدٌ لهم بقُرب الساعة وانشقاق القمر بها، أي: سينشقُّ القمر يوم القيامة؛ يوم جزائكم، ويومئذ لا بشرى للمشركين. ثم علَّل عدم إجابة طَلَبِهم بأنه لو انشقَّ لحملوا ذلك على السِّحر، فقال: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً ...﴾.

وقال غيرهم: المراد: انشقاقه في الدنيا معجزةً لرسول الله ﷺ، وهو من علامات اقتراب الساعة؛ لأنَّ مجيء الرسول ﷺ هو من علامات اقتراب الساعة، كما ذكرنا آنفاً، فكلُّ ما كان معجزةً له يصحُّ فيه هذا الوصف. وقد رُوِيَ عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم: أنَّ المشركين سألوا رسول الله ﷺ آية بإشقاق القمر، فانشقَّ نصفَيْن[٢].

ومَن طعن في ذلك بحُجَّة أنه لو وقع لرآه العالم كلُّه ولأصبح حادثةً عالـميَّة؛ فليس قوله بشيء، إذ يجوز أن يكون هذا الحادث لم يبق طويلاً، وبما أنَّ الناس لم ينتظروا وقوعَ مِثلَه، ولا يتأمَّلون بما يحدث في السماء بصورة وقتيَّة، يجوز أن لم يطَّلع عليه كلُّ أهل مكة، بل بعضهم، فَضْلاً عن بقية العالم، ولا سيّما إذا كانت الفلقتان غير متباعدتين عن بعضهما كثيراً.

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥: ٤٠٩).

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال النبي ﷺ: «اشهدوا». رواه البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وهناك وجه آخر للردِّ، وهو أن القمر لا يُرى في آنٍ واحد من جميع أقسام الأرض؛ لأنه ينتقل حولها، فيظهر في منطقة ويخفى في غيرها من المناطق، فإذا خسف رُؤي في ناحية دون غيرها؛ لأنه ينجلي عند وصولها، ومدَّة هذا الانشقاق مدة الخسوف أو أقل، فحاله حاله.

وبعد أن توعَّدهم باقتراب الساعة وذكر هذه الآية، أنكر عليهم بقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾[1] يأتي به محمد، ﴿وَكَذَّبُوا﴾ بها كما كذبوا برسالته ﷺ وبما جاء به، ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي زيَّنها لهم الشيطان. ثم ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾[2] قال قتادة: الخير يستقر بأهل الخير، والشرُّ يستقر بأهل الشر[3]. والمراد: أنَّ كلَّ أمر ـ خير أو شر ـ مُسْتقرٌّ ثابتٌ حتى

---

(١) أي: وإن يَرَ الكفارُ آيةً عظيمةً من آيات الله تدلُّ على صِدقِ رسول الله ﷺ، يُعرِضوا عن الإيمان بها، ولا يُصدِّقوا بدلالتها، ويقولوا: هذه الآياتُ سحرٌ يأتي به محمدٌ بصفة متكرِّرة دائمة.
وفي ادِّعائهم أنه سحرٌ مُستمرٌّ استمراراً زمنياً تعارضٌ وتهافت؛ وذلك لأنَّ من شأن السِّحر أن لا يكون دائماً، ومن شأن الأمور الدائمة أن لا تكون سحراً، أما أن يكون الشيء الواحد سحراً ومُستَمِرّاً معاً، فهو جمعٌ بين أمرين متضادَّين لا يجتمعان.

(٢) الواو في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ معطوفة على محذوف تقديره: أعرَضُوا عن آية انشقاق القمر ودلالتها، وكذَّبوا النبيَّ ﷺ، في بلاغاته عن ربِّه عزّ وجلّ، فلم يؤمنوا بالقرآن، ورفضوا اتِّباع الرسول فيما جاءهم به، واتَّبعوا أهواءهم في القضايا الاعتقاديّة والفكريّة والنفسيّة والسلوكيّة، فهم في أمر مختلط غير متجانس ولا متوافق، وإنَّ تكذيبَهم واتِّباعَهم لأهوائهم لا يُغيِّرُ من أنظمة الكون وقوانينه المُستقرَّة الثابتة شيئاً، فإنهم لا يضرُّون إلا أنفسهم، ولا يستطيعون أن يمنعوا عن أنفسهم عقاب الله، ولا أن يمنعوا ظهور دين الله، ولا أن يظفروا بالانتصار أخيراً على رسول الله والذين آمنوا معه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٥٧٢).

يُجازى به صاحبُه. وقيل: بل المعنى: أنَّ لكلٍّ أمر حقيقة، فما كان منها في الدنيا فستظهر، وما كان منها في الآخرة فستعرف؛ لأنَّ الحقَّ والحقيقة ثابتان مُسْتقران. ومن جملة ذلك: أمرُ النبي ﷺ، فسيصير إلى غاية يتبيَّن عندها حقيقته وعِظم شأنه. ومن ذلك: أمر البعث، فسينكشف ويُعرَفُ عياناً يوم البعث، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ومُحصَّل الآيات: أنَّ موعد حسابهم وعذابهم قريبٌ، وهم مستمرُّون على إعراضهم وزَعْمِهم أنَّ ما يُنْذَرون به سِحرٌ ومكرٌ لا حقيقة له، يتَّبعون في ذلك أهواءَهُم، وسيُدرِكون أنَّ الأمر حقٌّ مُستقر ثابت عند مشاهدته بالعيان. ويجوز أن يكون محصَّل المعنى: إنهم كذَّبوا بالحشر والحساب، واتَّبعوا في ذلك أهواءهم، والحقائق ثابتة مستقرَّة لا تتغيَّر بالتكذيب والإنكار.

ثم أنحى عليهم باللائمة والوعيد، فقال: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم ﴾ في هذا القرآن ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ عن الحقائق الراهنة وعن القرون الماضية ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾ عظيم، وعظةٌ رهيبةٌ جليلة، لو كانوا يتَّعظون، فلا يطلبون أن يُؤتَوْا بآية كما أُوتي الأوَّلون، وفيه ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ لو كانوا يفكرون، ثم أنكر عليهم بقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾(١) لمثل هؤلاء.

ويجوز أن يكون المعنى: إنَّ في عدم ازدجارهم حكمةً بالغة، وهي أنَّ الذي يُفسِدُ طبيعتَه بمفاسد التربية وسوء القدوة لا تُفيدُه الزواجرُ والنُّذُر، ويجوز في ﴿مَا﴾ أن تكون استفهامية إنكارية، وأن تكون نافية.

ولـمَّا يأسه من إيمانهم، توعَّدهم بما فيه تسليةٌ له، وقال: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي:

(١) أي: فما تكفي وما تنفع هؤلاء الكفارَ هذه النُّذُرُ مهما كان إرهابُها وتخويفُها.

اتركهم وأبصِرْهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ[١] إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾ تُنكِره النفوس لهوله وعدم العهد بمثله، وهو يوم القيامة، وحينئذ تُبصِرُهم ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور. وخشوع الأبصار: ذلُّـها من شدَّة الهول والخوف. ويجوز في الفعل «تولَّ» أن يكون متضمِّناً معنى: أبصِرْهم عن بُعدٍ أو لا تُبصِرهم، يرمز به إلى شدَّة ما يُصيبهم.

وبعد أن صوَّر ذلَّهم صوَّر كثرتهم وازدحامهم[٢]، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾. ثم صوَّر انـقيادهم صاغرين، فقال: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ يقال: أهطع البعير؛ إذا مدَّ رقبتَه للسَّيْر. أي: مُسْرعي الإجابة مُنقادينَ على خلاف ما كانوا عليه في الدنيا من النفور والإعراض عن الداعي إلى الحق. والمعنى: إنهم لا يُمكِنُهم يومئذ أن يُعرِضوا كما أعرَضوا في الدنيا.

ومن مباحث اللفظ: أن خطف الياء من ﴿ ٱلدَّاعِ﴾ على سُنَّـة القرآن في خطف بعض الياءات مُراعاةً للتخفيف، وكذلك حُذِفَت الواو من ﴿يَدْعُ﴾ في النطق، لالتقاء الساكنين، وحُذِفت في الإملاء تبعاً لذلك، على نهج إملاء القرآن في مثله.

ثم أكمل البيان عن هَوْل ذلك اليوم بقوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾[٣]، وفيه تلويحٌ إلى أنَّ المؤمنين لا يرونه كذلك، والله أعلم.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ

---

(١) المراد بالداعي: إسرافيل عليه السلام، أي: واذكر يومَ ينفخُ إسرافيلُ في «القَرْن» عند النفخة الثانية إلى شيء مُنكَر فظيع لم يَرَوْا مثله، فينكرونه استعظاماً له.

(٢) وتتابعهم وتصادم بعضهم ببعض.

(٣) صعب شديد الهول.

قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

ثم أردَفَ السياقَ بقصص بعض الأنبياء مع معارضيهم، إنذاراً لهؤلاء المشركين بمثل ذلك، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ نوحاً، وقد كرَّر فِعلَ التكذيب للإيذان بأنه صَدَر من كلِّ جيل منهم، فكلُّهم كذَّبوه ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ ﴾، أما قوله: ﴿وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ فهي جملةٌ مستأنفة تبيِّن أنهم قد زَجَروه عن التبليغ بأنواع من المعارضة والأذى، وقالوا عنه: إنه مجنون، أو معطوفة على جملة ﴿وَقَالُوا۟﴾. وقيل: بل هي من جملة ما قالوه، أي: هو مجنون قد ازدَجَرَته الجنُّ وتخبَّطته.

وقد أيِسَ من إيمانهم ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ ﴾ على أمري ﴿فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ لي منهم، ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ كثيرِ الانصباب، ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أي: وفجَّرنا عيون الأرض، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: ماءُ السماء وماءُ الأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ أي: على أمرٍ قدَّره الله في هذا الطوفان لهلاكهم.

﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ أي: نوحاً عليه السلام ﴿عَلَىٰ﴾ سفينة ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ ﴾ أي: أخشابٍ عريضة ﴿وَ﴾ ذاتِ ﴿دُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾[1] أي: مسامير تُشَدُّ بها الألواح.

وهذا الوصف للإيمـاء إلى أنها ضعيفة بالنسبة إلى قوة الماء، ولكنها اقترنت بحفظ الله. يشير بذلك إلى لطف الله بالأنبياء ورعايته لـهم، ولذلك قال: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾[2] أي: بمَرْأى منا، يريد: بحفظنا وحراستنا.

---

(١) ﴿دُسُـرٍ﴾ مفردها: (دِسَار) بكسر أوله، ككِتاب وكُتُب، وهو ما تُمسَك به الألواح بعضها ببعض، كالمسمار.

(٢) مذهب السلف: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسه، وسمَّى بها ذاته في كتابه =

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤﴾ أي: فعلنا به وبهم ما فعلنا ـ من إنجائه وإغراقهم ـ ثواباً لمن كان كُفِرَ به وجُحِدَ أمرُه، وهو نوح عليه السلام، وعقاباً لهم.

ويحتمل أن يكون في الآية احتباك بحذف كلمتَي: «لهم» و«ثواباً»، والتقدير: جزاءً لهم وثواباً لمن كان كُفِر، على نهج القرآن في مثله.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿جَزَآءً ...﴾، علَّة لقوله: ﴿تَجْرِي ...﴾، لا لـمجموع ما تقدَّمه.

ثم حثَّ على الاعتبار بهذه القصة، فقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَهَآ ءَايَةً﴾[1] أي: تركنا هذه الفِعلةَ بهم عِبرةً لا تُنسى، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٥﴾؟ أي: من مُتذكِّر لها مُعْتَبِر بها؟ يُعرِّض بقريش.

= وتنزيله أو على لسان رسوله، من غير زيادة عليها ولا نقصان منها، ولا تجاوز لها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين ولا سمات المُحْدَثين، ولا تفسير لها ولا تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أمرُّوها كما جاءت وردّوا عِلمَها إلى قائلها، وفوَّضوا معناها إلى المتكلِّم بها، وهو الله سبحانه وتعالى. ومن ذلك ما جاء عنه تعالى من المجيء واليد والوجه والنزول والاستواء على العرش إلى أمثال ذلك. فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفيّة عنها؛ لأنّ الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام عن الذات، وإثبات الذات إثباتُ وجود لا إثبات كيفيَّة، فكذلك إثبات الصفات إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

أما مذهب الخَلَف في ذلك: فالحَمْل على المعاني المجازيّة والمفاهيم الكنائيّة، بحسب جاري اللغة وعُرف التخاطب، وهي هنا بمعنى الحفظ والرعاية. (المؤلف).

(١) جميعُ مِلَلِ البشر ونِحَلِه يشيرون في دياناتهم إلى حادثة الطوفان هذه، وكلُّ ملّة تُلبِسُه ثوباً من خرافاتِ دينها، حتى جاء القرآن فبيَّنها على واقعها وضوحاً وصدقاً. (المؤلف).

ثم بالغ في التحسيس بذلك العذاب، زيادةً في التحذير، وقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾؟ أي: فكيف كان هَوْلُ عذابي وصِدقُ نُذُري. وقد خُطِفَت منها الياء، على نهج القرآن.

والنُّذر: جمع إنذار، وصيغة الكلام تفيد التعظيم والتهويل، أي: كانا على كيفيَّة لا يحيط بها الوصف والبيان.

ولما كانت مندرجات هذه السورة كلها عظمةً وإرهاباً، كرَّر فيها هذه الآية.

ثم حثَّ على تدبُّر القرآن الذي من جملته ما تقدَّم من البيان، وذكر أنه مُيسَّر للفهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: للفـهْم والتذكُّر، وذلك بحُسن بيانه وظهور برهانه في الحِكَم السَّنيَّة والمقاصد السميّة والأحكام العليَّة، ولا يحتاج إلا إلى قليل من الالتفات والتدبُّر مع سلامة الطويّة، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ به مُتَّعِظٍ بحِكَمِه وأحكامه، ومواعظه وإرشاداته، ووعيده وترغيبه وتهديده؟!

وما أشدَّ قَرْعَ هذه الجملة وما فيها من حثٍّ وإيقاظ للنفوس والعقول، وقد تكرَّرت أيضاً في هذه السورة[1] إغراءً على التمسُّك بما جاء في هذا القرآن، والاهتداء بهديه، والاتِّعاظ بمواعظه، والعمل بتعاليمه، وإدراك الغاية منها، لأنَّ مَن أعرَض عنه فقد خسر خسراناً مبيناً، وضلَّ ضلالاً بعيداً.

---

(١) وردت هذه الجملة القَسَميَّة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أربع مرات: في آخر قصة إهلاك قوم نوح، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وقوم لوط، حثّاً على تدبُّر القرآن وتذكُّره، وتنبيهاً على أن هؤلاء الأقوام لو تَلَقَّوْا ما أُنزل إليهم من ربِّهم عن طريق رسلهم، وتدبَّروه، ووضعوه في ذاكرتهم، والتزموا أوامر الله لهم، ما عرَّضوا أنفسهم للهلاك الشامل المُعجَّل في الدنيا، وللعذاب الخالد المُؤجَّل إلى يوم الدين.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ثم ذكر مصير عاد، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ أخاهم هوداً ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾؟! أي: فكيف كان هَوْلُ عذابي الذي أرسلتُه عليهم وصِدقُ نُذُري التي أنذرتُهم بها؟!

ثم ذكر مُجمَلَ العذاب، فقال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ أي: شديدةَ الهبوب. وقيل: بل المعنى: شديدة البرودة، وكان ذلك ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾[1] شُؤْمُه، حتى أهلكهم.

ثم ذكر لهذه الريح صفتَيْن بارزتَيْن، على طريقة اللمحة الدالَّة، من أنواع إيجاز القرآن، فقال: ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ ﴾ أي: تقتلعُهم من أماكنهم لشدَّتها، وتُهلكُهم وتجعلُهم ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ[2] مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ بمعنى: أنهم يكونون مِثلَ أصول نخل منقلعة عن أماكنها قد يبست وتقلَّصت، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ ﴾ هَوْلُ ﴿ عَذَابِي وَ ﴾ صِدْقُ ﴿ نُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾؟!

ثم أعاد الجملة الدالة على وضوح هذا البيان، للمبالغة في التبصرة والتبيان، فقال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ يتذكَّر بما جاء به ويتَّعظ.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا

---

(١) المراد باليوم هنا: جنس اليوم، فيشمل الأيام المتعدِّدة، لأنها كانت ثمانية أيام، كما قال تعالى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة: ٦] أي: قاطعات لدابرهم.

(٢) أعجاز النخل: هي أصولُه التي ليس عليها جريد، شُبِّهوا بها لأنهم كانوا طوال الأجسام.

ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾ ﴾.

ثم ذكر مصير ثمود، فقال: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: بما أنذرهم به صالحٌ ووعظهم، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ منكرين عليه: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾، وهذا الكلام مُشْعِر بالوحدة والاستضعاف، بمعنى: أنه واحدٌ لا تَبَعَ له. وهذا من جهلهم بمُؤهِّلات النُّبوَّة، فهم ينظرونها نَظَرَ الرياسة، ويسيرون فيها سَيْرَ قواعدهم في الرؤساء، فأنِفُوا من اتِّباعه وهو وحيدٌ فريد، وقالوا: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾، يُقرِّرون الإعراضَ وعَدَمَ الإذعان. السُّعُر: الجنون. وقيل: بل المراد: الردُّ على ما كان يُنذِرُهم به من عذاب السعير إنْ لم يؤمنوا، فهم يقولون: إن اتَّبعناك كنَّا إذن كما تقول، لا إنْ أعرَضْنا عنك. يردُّون الوصف رأساً على عَقِب.

ثم أسندوا الإنكار بقولهم: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ أي: أأُنزِلَ عليه الوحيُ والكتابُ من بيننا؛ يُنكِرون اختصاصَه بالوحي دونهم.

ثم صرَّحوا بالتكذيب، فقالوا: ﴿بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾﴾ الأشَرُ: البَطَر والتكبُّر، أي: إنما كان كذبه للتكبُّر والتَّرفُّع وطلب الرياسة، يريد أن يتفوَّق علينا ويترأَّس بدعوى النبوَّة المكذوبة.

وقد هدَّدهم سبحانه على ذلك وردَّ عليهم الوصف بقوله: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا﴾ أي: وقتَ نزول العذاب بهم ﴿مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ الذي حَمَله أشَرُه وبطَرُه على الترفُّع، أهُمْ أم صالح؟

ثم استأنف الكلام لبيان مُقدِّمات المَوعَد والوعيد، فقال: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ أي: مُخرِجوها لهم، على الصفة والصُّورة التي سألوا، وجاعِلوها ﴿فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾ وامتحاناً،

وإقامةً للحُجَّة عليهم، لإنـزال العذاب بهم إن لم يؤمنـوا بهذه الآية التي سألوها، ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ أي: انـتَظِرْ ما يفعلون وما يُفعَلُ بهم، ﴿وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧﴾ على أذِيَّـتهم حتى يأتيَهم أمرُ ربك.

ثم ذكر سبحانه ما امتحنهم به في أمر الناقة، فقال: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ﴾ يا صالح ﴿أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: قِسمٌ لها وقسمٌ لهم، فضمير ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ فيه تغليبُ العقلاء، على حسب أصول اللغة وعُرف التخاطب. والمعنى: لها يوم ولهم يوم، كما جاء مُفصَّلاً في سورة الشـعراء: ﴿لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، ﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ٢٨﴾ يحضره صاحبه في نَوْبته، ولا يحضره الثاني معه، فلا يحضرون الماء يومَ شِرب الناقة، ولا تحضر هي يومَ شِـربِهم، وقد قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

ولكنهم ضاقوا بها ذَرْعاً، ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾ قُدارَ بنَ سالف أُحَيمِر ثمود، وقد سمّاه زهير[١] في معلّقته: أحيمر عاد[٢]، لأنَّ العرب تطلق كلمة «عاد» على جميع العرب البائدة توسُّعاً. والنداء يُشعر بالاستغاثة، أي: استغاثوا به منها، ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾[٣] أي: فأقدَمَ على هذا الأمر العظيم، ﴿فَعَقَرَ ٢٩﴾ الناقة، فأخذهم العذاب الشديد الذي هوَّله سبحانه بقوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٠﴾؟!

---

(١) هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني (....-١٣ق هـ) حكيم الشعراء في الجاهلية صاحب المعلقة المشهورة. «الأعلام» للزركلي (٣: ٥٢).

(٢) يعني قولَه:

فتُنتِجْ لكم غلمانَ أشـأمَ كلُّهـم   كأحمرِ عادٍ ثـم تُرضِـعْ فـتَفطُم

(٣) أعطاه غيره السيف مثلاً، فتعاطاه غير مكترث بالنتيجة. وله معانٍ أخرى، والمراد: تناول سلاحَهُ بخِفَّة، وأقبل يمشي على رؤوس أصابع رِجلَيْه، مادّاً يدَيْه بسلاحه إلى الأعلى.

ثمَّ بيَّنه بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ وهو الذي يَـتَّخذ الحظيرة لغنمه، ويُمهِّد لها المكان بالحشيش اليابس، يفرشه لها، فيندقّ تحت أرجلها، ويكون تبناً مسحوقاً، فشبَّههم به.

ثم ختم القصة بما يحمل على الاتِّعاظ، فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ يتذكَّر به ويتَّعظ؟

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم ذكر قوم لوط وما جرى عليهم، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾ التي جاء بها لوط عليه السلام، فذكر سبحانه ما جَرَى عليهم من الهلاك، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾(١) أي: ريحاً ترميهم بالحجارة وتحصبهم ـ أو بركاناً يحصبهم بحجارته، والله أعلم ـ حتى أهلكَتْهم، ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ وهو آخر الليل، ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وفَضْلاً عليهم.

ثم بيَّن السنَّة العامة في ذلك الإنجاء والحفظ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ نعمتَنا بالإيمان والطاعة وصَرَفَها فيما هي له.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوطٌ ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أي: أَخْذَتَنا الشديدةَ لهم بالعذاب، ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾ أي: جادلوا وكذَّبوا ولم يُصدِّقوا.

---

(١) أصل معنى الحاصب: هو الذي يرمي غيرَه بالحصباء، وهي الحجارة الصغيرة. والمراد بها هنا: الريح التي رَمَتْهم بالحجارة.

ثم ذكر ما كان من عادتهم السيِّئة ورغبتهم بها مع ملائكة العذاب الذين جاؤوا لوطاً قبل الفَتْك بهم، ذكر ذلك تشنيعاً عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾[1] أي: طلبوا منه ذلك، ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ قال ابنُ عباس: حُجِبُوا عن الإدراك، فدخلوا ولم يَرَوْا شيئاً[2]. وقال غيره: مُسِخَتْ أعينُهم حتى بقي الوجه سَفْحةً ملساء، عذاباً لهم.

ويجوز أن يكون المراد بطَمْس الأعين: طمسُها بالعذاب الذي نَـزَل بهم بعد ذلك، وخصَّها بالذكر لأنها أبرز سبب لهذا البلاء المصيب، والله أعلم. ولذلك هوَّل ونَعَى عليهم وبالغ في إيلامهم سبحانه بقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧﴾.

ثم ذكر ما كان من أمرهم في عذاب الاستئصال، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم[3] بُكْرَةً[4] عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨﴾ أي: يدوم فيهم حتى يُسلِمَهم إلى النار، وهو العذاب الذي استأصلهم. ويجوز أن يكون المراد به: العذاب الذي عمَّ القوم واستأصلهم واستقرَّ بهم بعد هذا العذاب الخاصِّ الذي طَمَسَ أعيُنَ المُراوِدين.

ثم أنَّبهم وآلمهم بقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٩﴾.

ثم أعاد الكرَّة في الحَمْل على الاتِّعاظ بما بيَّنه هذا القرآن، فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٤٠﴾ يتذكَّر به ويتَّعظ؟!

---

(١) ﴿رَٰوَدُوهُ﴾: طلبوا منه مراراً، والمراد: فاوَضُوه في البُعْدِ عن ضيوفه؛ لكي يفعلوا بهم الفاحشة. و﴿ضَيْفِهِۦ﴾: الملائكة الذين نزلوا عليه كالضيوف، مصدر يُعبَّر به عن اسم الفاعل ثم اسم الذات لتوكيد المبالغة، فيستوي فيه المفرد والجمع.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٥٩٧).

(٣) أي: أتاهم وقت الصباح، وهو من أول الفجر إلى ما بعد طلوع الشمس بقليل.

(٤) المراد هنا: أول الصباح.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم ذكر آل فرعون وتكذيبَهم وما جرى عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾، وصُدِّرت قصَّتُهم بالتوكيد بلام القَسَم، لإظهار كمال الاهتمام بشأنها؛ لغاية عِظَم ما فيها من الآيات، وما لاقوه من العذاب الذي أجمَلَ بيانَه بقوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ لا يُغالَبُ ولا يُعجِزُه شيء. فهذه العبارة تُبيِّن هَوْل ما أصابهم من العذاب.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

وبعد أن أتمَّ هذه القصص، التفت إلى كفار قريش يُهدِّدهم بمثل ما أصاب أولئك، وصاغ العبارة على السخرية بهم والتسخيف، فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا معشرَ العرب ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ قوَّةً وشدَّةً وعُدَّةً وعدَداً ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾[1]؟! أي: أم جاءكم في الكتب السماويَّة السابقة براءةٌ من العذاب[2]؟ يُؤَنِّبهم بعبارة هازئة.

---

(١) الزُّبُر: جمع زبور، والزبور: هو الكتاب المزبور، أي: المكتوب، والمراد: الكتب المُنزلة على الأنبياء، وهي التي من شأنها أن تُكتَبَ لتُحفَظ.

(٢) أي: سيصيبكم ما أصاب الأمم الخالية، فسنَّة الله في عباده واحدة، فلا فَضْلَ لفريق منهم على فريق آخر بعنصر، أو لون، أو لغة، أو أرض.

ثم أضرَبَ إلى مَسْلك آخر من التبكيت الهازئ والوعيد، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾، وأفرد ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ نظراً للفظ ﴿جَمِيعٌ﴾، فإنَّ لفظه مفرد وإن كان معناه جمعاً. أي: نحن يدٌ واحدةٌ على مَنْ سوانا، ننتصر على مَنْ عادانا. وهذا القول مُنتَزَعٌ من عاداتهم، حيث يُدِلُّون بقوَّتهم واجتماعهم وتكاتفهم.

فردَّ عليهم وتوعَّدهم بقوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: يُولُّون الأدبار. وهذا إيغالٌ في وَصْف هزيمتهم، وزيادةٌ في التشنيع عليهم.

ثم أضرَبَ عن بيان عذابهم في الدنيا إلى بيان عذابهم في الآخرة، فقال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي: ليس ما ذكر من عذابهم في الدنيا هو جميع عقوبتهم، بل لهم عذابٌ أليمٌ في الآخرة، وموعدهم فيه قيام الساعة، ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ أي: هي في أقصى مراتب الفظاعة والشدَّة والمرارة. والداهية: هي الأمر الفظيع الذي لا يُهتدى إلى الخلاص منه. وإظهار لفظ «الساعة» في موضع الإضمار لتربية التهويل.

ومعنى الآية: أنَّ ما يُصيبُهم من عذاب الدنيا ـ مع فظاعته ـ ليس بشيءٍ في جانب عذاب الآخرة الذي أجمَلَه بقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ أي: في هلاك ونيران مُسْتَعِرة. وقيل: بل المعنى: في ضلال عن الحق في الدنيا، ونيران في الآخرة، استحقُّوها بهذا الضلال، وذلك ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾[1].

ثم ذكر سببَ تأخُّر العذاب، وأمْرَ الساعة ومُلابساتِها من البعث والحساب

---

(١) المراد: تحسَّسوا بجميع جوارحكم إصابةَ جهنم لكم، وإيلامها الشديد الذي لا مثيل له. و«سَقَر»: اسمٌ عَلَمٌ لجهنَّم، من مصدر: سَقَرَته النار؛ إذا لوَّحَتْه وغيَّرت لونَه، وقد عُبِّر بها عن اسم الذات لتوكيد المبالغة.

والثواب والعقاب، فقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ مُقدَّر اقتَضَتْه الحكمة البالغة، وكذلك أمر الساعة والعذاب، لم نخلقه إلا بقَدَر معلوم، وفي وقت معيَّن.

ثم بيَّن يُسْرَ ذلك عليه دفعاً للاستعباد، وزيادةً في التهديد، فقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ أي: إلا كلمةٌ واحدة أو فعلةٌ واحدة، وهو الإيـجاد بلا مُعالجة؛ لأنه مجرَّد إرادة كلَمْح البصر. وهو النظر بالعجلة. وقال ابن عباس: أي: وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطَرْف البصر[1].

ثم توعَّدهم بما جرى على أمثالهم، فقال: ﴿إِنَّآ أَهْلَكْنَآ﴾ في الدنيا ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: أشباهَكم في الكفر، الذين كانوا يُشايعون مذهبكم من الأُمم، وأنتم تعلمون ذلك بآثار ديارهم، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾ يتَّعظ بذلك ويعتبر؟!

ثم أضاف على وعيدهم بعذاب الدنيا وعيدَهم بعذاب الآخرة، فقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: محفوظٌ عليهم في كتب الحَفَظة وسِجِلّاتهم، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ[2]﴾ من أعمالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾[3] عليهم، أحصاه الله ونسوه، وسيُجازيهم عليه جزاءً وفاقاً.

ثم قابل حال المشـركين بحال المؤمنين، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لعذابِ الله؛ الذين جَعَلوا بينهم وبينه وقايةً وحاجزاً، بتمسُّكهم بما أمرهم الله به من التعاليم المشروعة، فهم في الآخرة ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ وهي لغة في (نَهْر) بالتسكين،

(١) «تفسير البغوي» (٤: ٢٢٤).

(٢) أي: ما دقَّ وعظم، كما قال تعالى عن كتاب الأعمال: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

(٣) أي: مسطور، تقول العرب: سَطَرْتُ الكتاب واستَطَرْتُه؛ بمعنى واحد.

مثل: صَخَر وصَخْر، وأراد به الجنس، فهو بمعنى: تجري من تحتهم الأنهار، ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ والشيء الصِّدق: هو المتَّصف بسائر الصفات المحمودة، أي: الكامل من كل الوجوه. فالمعنى: أنهم من تلك الجنَّـات في مقعدٍ مَـرْضيٍّ ممتاز جليل، ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾[1] أي: مُقرَّبون عند مَنْ تعالى أمرُه في المُلكِ والاقتدار. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

* * *

---

(١) المراد: عنديَّة مكانة وشرف. والمليك: صيغة مبالغة من المُلك بضم الميم، فالمراد: عند مَلِكٍ عظيم مُلكُه.

سورة الرحمن

مكيَّة، وهي ثمان وسبعون آية

جاء في هذه السورة:

الدعوة إلى الله بطريق الترغيب والامتنان، بتعداد نِعَمِه على عباده.

وفيها شيء من الأخذ بالترهيب أيضاً.

وأخذ السياق يتـردَّد في ذلك إلى نهاية السورة.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ
وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧
أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ
وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ
١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢﴾ لما كان موضوع السورة تَعْداد النِّعَم الأخرويَّة والدنيويَّـة، صدَّرها بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، بمعنى: أنها من رحمته، وقدَّم ما هو أصل النِّـعَم وأجلُّها، وهي إنعامه بإنزال هذا القرآن العظيم، بما احتوى عليه من تعاليم تُفْضي إلى إسعاد البشر في الدارين.

ثم ذكر المتعلِّم وكيفية التعليم ومُسَوِّغه، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾[1] أي: من رحمته للإنسان أنه خلقه مُستعداً للتصوُّر والتصوير، يُدرِك الأشياء ويُبيِّنها للغير، وهذه خاصَّة له من بين سائر الحيوانات، ومرجعها ما اختصَّ به

(١) المُجمَلُ لهذه الجمل: أنَّ الله سبحانه خلق الإنسان مستعداً للبيان؛ ليكشف الحق والخير والجمال، ويدل عليها، وليستكشف الباطل والشر والقبح، فيتنكبها ويحذر عنها، وليكتب في ذلك الكُتّاب، ويقرأ القرّاء، ويسأل السائلون، ويجيب المجيبون. وكل ذلك من رحمته سبحانه للإنسان ونِعَمِه عليه وتكريمه له، وتركيبه في صورة عالية ممتازة، ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]. (المؤلف).

دونها من وجود الروح والعقل فيه، والعقل في الروح لا في الجسم، أما الإدراك ففي الدماغ، ويشترك فيه الحيوان والإنسان، إلا أنه في الحيوان بسيط على قَدْر ضروريّاته المحدودة، أما الإنسان ففيه تفكير وإدراك واسع، ويستمدُّ ذلك من العقل. والله أعلم.

وقدَّم المقصد وهو النعمة والرحمة بتعليم القرآن، وأخَّر الوسيلة وهي الرحمة بتعليم البيان، بمقتضى البلاغة العالية، وذلك نتيجة لطبيعته الممتازة.

والمراد من ﴿ٱلْبَيَانَ﴾: الإدراك الواسع، والنظر البعيد في الأمور، واستنباط النتائج من المقدِّمات، والتعبير عن ذلك بعبارات مفهمة.

والمعنى: أن الله تعالى خلق الإنسان مُستعداً للنظر والإدراك، وقوَّة الملاحظة، يغوصُ على دقائق الأمور، ويعبِّر عما يتكوَّن منها في نفسه بمنطقِه وكلامه، وبذلك قدر أن يفهم هذا القرآن العظيم الشأن.

ومُلخَّص الآية: أنَّ الله سبحانه يمتنُّ على بني الإنسان إذ خلقهم مُستعدِّين للفهم والإدراك، ثم أنزل عليهم هذا القرآن الذي هو من أعظم النِّعَم شأناً، إذ به يعلم أحوال المعاد، وما يحتاج إليه في الحياة من أنظمة الكمال، التي هي مدار السعادة الدنيويَّة والأخرويَّة.

وجملة القول: إنَّ من رحمته سبحانه أنْ خلق الإنسان مُستعدّاً للعلم والعِرفان، والتكلّم والبيان، وأنزل عليه الشرائع وهذا القرآن.

ثم تابع الكلام عن مظاهر قدرته ورحمته ومنَّته، مشيراً إلى أنّ مَن كان هذا تخليقه، فكيف يكون تشريعه؟ فقال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾[1] أي: يجريان بحساب

---

(١) قُطْرُ الشمس يساوي نحو أربعمئة من قدر قُطْر القمر، وبُعْد الشمس عن الأرض يساوي كذلك أربعمئة مرة قدر بُعد القمر، ولذلك يُرى قرصا الشمس والقمر من الأرض باتِّساع =

ونظام دقيق مُتقَن مضبوط، به تمّت على الأرض الحياةُ للحيوان والنبات.

﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ ﴾[١] أي: يخضعان كذلك لله تعالى في نظامهما، لا يحيدان عنه أبداً، ويدلّان بذلك على قدرته وحكمته ووحدانيته.

وقد ذكر «النجم» من العوالم العلويّة و«الشجر» من العوالم السفليّة. وقيل: بل المراد بالنجم: النَّبْت الذي لا ساق له، وبالشجر: النَّبْت الذي له ساق. وعلى هذا، يكون كلاهما من العوالم السفليّة، وما قبلهما من العوالم العلويّة.

ثم ذكر مظهراً آخر أعظمَ من تلك المظاهر، فقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ ﴾ فعطف السبب على المُسبَّب، أي: رفع هذه النجوم بلا عَمَدٍ مرئية، بل بعَدْلٍ بينها وتوازن مضبوط، لا يختلُّ ولا يختلف، وبذلك تَتَجاذبُ باتّزان، كما قال عليه الصلاة والسلام: «بالعدل قامت السماوات والأرض»[٢]، وقد خلق سبحانه كلَّ شيء وقدَّره تقديراً. فمعنى: ﴿وَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾: جَعَل الوزنَ والعدلَ والإتقانَ في كلِّ شيء، وهو منشأ الانتظام والجمال والكمال، وهذه الثلاثة[٣] تكون في الأشياء نتيجةً للعدل والاتّزان، فهما اللذان يُنتِجان الجمال والكمال في كلِّ شيء مُتْقَن موزون.

= واحد تقريباً. وإنّ هذا البعد الهائل للشمس عن الأرض ملائم للحياة على الأرض، ولو نقص أو زاد لتبخَّر ماؤها واحترق ما عليها، أو تجمَّد ماؤها وكل شيء عليها. وذلك تقدير العزيز العليم، ففي كل شيء له آية، تدلّ على أنه واحد، وأنه وحده المستحق للألوهية والعبادة، ولا ربَّ سواه. (المؤلف).

(١) كلُّ مخلوق في هذا الوجود لا بدَّ أن يسجد لله، ويتَّجه نحو خالقه، وينقاد لِـمَا أراده الله سبحانه منه، وليس ذلك خاصّاً بالنجم والشجر، وإنما اكتفى بذكر البعض هنا ـ النجم والشجر ـ ليَدُلَّ به على الكُلّ.

(٢) ذكره الراغب الأصفهاني في «الذريعة في مكارم الشريعة» ص١٣٢.

(٣) أي: الانتظام والجمال والكمال.

ثم علَّل ذلك بما فيه تعليمٌ لنا وإرشاد، فقال: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ أي: يُرشِدكم بذلك أن تحذُوا هذا الحذو في فهم الأشياء وصنعها، بأن يكون كلٌّ منهما على وجه العدل والإتقان.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ أي: أعطوا كلَّ شيء من أعمالكم وأقوالكم وأفكاركم حقَّه وتقديرَه من التوازن والانتساق؛ لينتظمَ أمرُه ويتمَّ على أحسن الوجوه وأتقن الأوضاع.

هذا وإنَّ الأمة لا يتمُّ استقلالها وكمالها وحفظها لكيانها إلا عندما يصبح عَمَلُ أعظم عامل منها وأصغرِ عامل، وعِلمُ كلِّ عالم، منتظماً مضبوطاً، ومتقناً سديداً. وهذا النظام والتناسق والعدل في الأعمال والأقوال، هو مصدر كل عظمة وجمال وجلال.

وتشمل الآية بعمومها: إتقان الوزن والكيل في الموزونات والمكيلات، وصنع المصنوعات، وسائر التَّصرُّفات، إذْ لا عدل ولا كمال لا من الفرد، ولا من الأمة إلا بذلك. والقسطُ: أدقُّ الوزن وأضبطُ التقدير.

ثم تابع دليل القدرة والرحمة والمنَّة، فقال: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ فقابل الرفع بالوضع، وأراد ما يقتضيه من التذليل، أي: ذلَّلها للاستفادة من محصولاتها وكنوزها وخيراتها وسكناها، وفصَّل بعضَ ذلك بقوله: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ والتنكير للتكثير والتنويع، أي: ضروبٌ كثيرة منها، ﴿وَ﴾ فيها ﴿النَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾﴾ جمع (كُمّ) وهو وعاء الطَّلْع، ﴿وَ﴾ فيها ﴿الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ والعَصْف: ورق النبات اليابس، والمراد من هذا الحبّ: ما يُتَغذّى به كالحنطة والشعير وأضرابهما، ﴿وَ﴾ فيها ﴿الرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ يريد: المشمومات، وكل ذلك من نِعَم الله السَّنية على بني الإنسان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ [1] رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؟! والخطاب للثقلين: الإنس والجن، وإن لم يتقدَّم ذِكرُ الجن، اكتفاءً بما يأتي عنهم في الآية التي تذكرهم، ومثل ذلك من أساليب القرآن، ولأنَّ عَوْد الضمير على ما يدركه الذِّهنُ وإن لم يتقدَّم في الكلام هو من أساليب القرآن أيضاً وخصائص اللغة، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

وإنما خصَّ الإنسان بالذكر في أول السورة، لأنه المُخاطَبُ ابتداء، وأكثر النِّعَم تَبَعٌ له، ولأن الرسل منه للإنس والجن.

وإنما نصَّ على الأكمام والعصف للإيذان بالعناية والإتقان، ومضاعفة المنَّة على الإنسان.

وإنما جعل مواهب الأرض للإنس والجنّ، مع أنَّ الظاهر أنَّ أكثرها أو كلَّها للإنس؛ جَرْياً على أسلوب اللغة وخصائص القرآن إذا تكلَّم عن أمرين نَسَبَ لهما ما لأحدهما.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم تابع الكلام على القدرة، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ

(١) أي: أوصاف الله تعالى العظيمة وأفعاله العجيبة الحكيمة، كما رجحه العلّامة الفراهي أخذاً من استعمال العرب في أشعارهم لهذه الكلمة.

﴿كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤﴾[1] أي: خلق أبا الإنسان ـ وهو آدم ـ من طين يابس نظيف، ففيه نسبةٌ ما للأصل إلى الفرع، إذ موادُّ الأصل لا تنعدم في الفرع، وقد خلق سبحانه آدم عليه السلام من تراب كان طيناً، ثم حماً مسنوناً. والطين مادة يابسة تنحلُّ بالماء، ويطلق عليها اسم التراب أيضاً، فخُلِقَ منها، ثم لا زال يتطوَّر حتى صار بشراً سويّاً قابلاً للروح.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾ أي: خلق أبا الجنّ من لهيب صافٍ، ولا زال يَتطوَّر حتى فارق أصْلَه.

وهكذا خُلِقَ كلٌّ منكما ـ أيها الثقلان ـ حسب ما اقتضته الحكمة في ذاتَيْكُما، وكيف تنكرون قدرته على إعادتكم وقد خلق كلًّا منكما من مادة تغايره كلَّ المغايرة، وتباينه كلَّ البيان؟ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾ ممَّا أفاض عليكم في تضاعيف خلقكما من سَوابغ النِّعَم وكمال القدرة؟

والتكرار لهذه الآية في هذه السورة إنما هو لتقرير القدرة والنِّعَم، وتأكيد التذكير بها، لذلك يعيدُها عند بيان كلِّ نوع من أنواعها إيجاباً أو سلباً. والتكرار لتأكيد مع اختلاف ما يُـقرِّر به: معروفٌ عند العرب في أساليبهم، وفي أشعارهم، كما في قصيدة رثاء المهلهل لأخيه كُليب، وقصيدة ليلى الأخيليَّـة ترثي توبة، وقد عقد ابن رشيق القيرواني في «العمدة» باباً للتكرار في أشعار العرب لأغراض منوَّعة، وذكر كثيراً منها في مختلف الأغراض وأنواع التقرير.

ثم تابع سبحانه التذكير بالقدرة والرحمة والمنَّة، فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾

---

(١) أي: خلق الله أبا الإنسان، وهو آدم من طينٍ يابس له صَلْصَلة، إذا نقرته صوَّت من يُبْسه، وهذا الصَّلْصال يُشبهُ الفخار إذا يبس، إلا أنه ليس فخاراً، لأنَّ الفخار مطبوخ بالنار، بخلاف الصَّلصال فهو طينٌ يابس غير مطبوخ بالنار.

أي: مَشرِق الشتاء والصيف ومَغرِبَيْهما[١]، فذكرهما وأراد المشارق والمغارب اليوميَّة؛ لأنها محصورة بينهما في الانقلابين: الصيفيّ والشتويّ، وأشار بهذا إلى نظام السماوات والأرض، بما فيه من النظام الشمسي وتنقُّلاته الحكيمة في الشروق والغروب، العائدة على الإنس والجن بكلِّ خير في حياتهما ومنافعهما، لذلك أنَّبهم بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾؟!

ثم تابع التذكير بالمنَّة والقدرة، فقال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ يقال: مَرَجَ الأشياء ومَرَدَها، بمعنى: خَلَط أجزاءَها، واللام في ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ للجنس، أراد بهما: جِنسَي البحر والنهر على التغليب؛ لأنه يُريد: الماء العَذْب والمالح. وإنما ذكر ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ دون «الماءين» لإفادة التنصيص على النوعيَّة، وليتهيَّأ الكلام عنهما بما يأتي من مُتعلِّقاتهما ومُلابساتهما.

ومُحصَّل الكلام: أنَّ في الماء المالح من الأملاح والموادّ ما ليس في الماء العذْب وإن كانا متشابهين في الصُّورة، ولذلك لا يمتزجان إذا صُبَّ أحدهما على الآخر وخُلِطَ به، بل يطفو العَذْبُ على المالح. وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر ولا يختلط به. والبرزخ لغةً: الحاجز، وقد استعاره للممانعة في الامتزاج بين هذين الماءين[٢].

---

(١) أو ـ وهو الأرجح ـ: هو سبحانه ربُّ مشرق الشمس والقمر وما فيهما من الظهور والبيان، ومغرب الشمس والقمر وما فيهما من العتمة والظلام.

(٢) المعنى الصحيح للبرزخ بين البحرَيْن: أرسلَ الله سبحانه ماء البحرين الملحَيْن المختلفَيْن في خصائصهما في حالَيْ ذهاب وإياب، واختلاط واضطراب، بينهما حاجز يمنع كلًّا منهما أن يطغى ويتجاوز حدَّه، وهذا الحاجزُ هو ماءٌ ثالث يختلف في خصائصه عن كلٍّ من البحرَيْن المتمايزَيْن من حيث الملوحة والحرارة والأحياء المائيّة، وهو يتحرَّك بين البحرين المتجاورَيْن، =

وفي اختلاف تراكيب الماءين مع تساوي شكلهما، من القدرة العظيمة والنِّعَم الجليلة على معاش الثقلين ومصالحهما، ما نوَّه عنه بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾[١]؟! إذ لو كان الماء كلُّه من نوع ماء البحر ما عاش إنسان ولا حيوان بَرِّيٌّ ولا نبات، ولو كان العكس فُقِدَت كنوز البحار وحيواناتها، إذ لا يصلح لها إلا ماء البحر، والله أعلم.

ثم ذكر قدرةً ومنّةً أُخرى فيهما، فقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا[٢] ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ قالوا: إنما يخرج اللؤلؤ من الموضع الذي يلتقي فيه ماء النهر بماء البحر، فيكون العذب كاللقاح للمالح، ولذلك قال: ﴿مِنْهُمَا﴾. ويجوز أن تكون خوافق اللآلئ تتربَّى في هذا الموضع بكثرة؛ لأن الماء الممتزج من العذب والمالح أصلح لها، وهذا معروف عند الغوَّاصين، فيقصدون هذه المواضع.

وإن لم تصح هذه النظريَّة، يكون في الكلام تجوُّز؛ حيثُ أسند إلى الاثنين ما هو لواحد منهما، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن. ولِـمَا في هذا الأمر من كمال النِّعَم على الثقلين؛ لأنَّ ما هو لأحد المقترنَيْن يجوز أن يُنسَبَ إليهما عرفاً، فلذلك قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾؟!

ثم ذكر منّةً وقدرةً ثالثة، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾، الجواري:

= ويخلط بعضهما ببعض ببطء شديد، ويقلب المياه العابرة من بحر إلى بحر، لتكسب المياه المنتقلة من بحر إلى آخر صفات البحر الذي ستدخل إليه، وتفقد صفات البحر الذي جاءت منه.

(١) أي: فبأيِّ فِعالِ ربكما العجيبة ونعمِهِ ـ أيُّها الإنس والجنُّ ـ تُكذِّبان وأنتم ترون هذه القُدرةَ الفائقة والنعمةَ الكبرى في شأن هذَيْن البحرَيْن؛ إذ يلتقيان ولا يَبْغِيان؟!

(٢) أي: يخرج من البحرَيْن الملحَيْن المتقدِّم ذكرُهما.

السفن، والأعلام: الجبال الشاهقة، يصفُ السفن بالعظمة البالغة، ويشبِّهها بالجبال الشاهقة؛ مبالغةً في إظهار القدرة، أي: له تعالى تسيير هذه السفن العظيمة وتعويمها على وَجْه الماء في هذه البحار. يريد: ما أودع سبحانه في الماء من استعداده لحمْل الأجرام العظيمة إذا كانت على وضعيَّة خاصَّة حتى تعوم عليه، وذلك من نِعَم الله الجليلة على بني الإنسان، إذ لولاها لتَعَطَّل أكثر الأرض من السُّكنى والاستفادة، لصعوبة الوصول إليها، ففيه نعمةٌ عظمى من نِعَم الله السَّنيَّة، كما في الهواء من قوَّة حَمْل الأثقال، وكما في البخار من سرعة تسييرها، لذلك نوَّه عنها بقوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾؟

وفي الآية إيماءٌ إلى أنَّ ما يصنعه الإنسان هو من الله سبحانه؛ لأنه هو الذي علَّمه ما لم يعلم، وهيَّأ له ما يستعين به عليه، إذ هو لا يستطيع أن يعمل شيئاً إلا بسلطانٍ من الله، وسُنَّةٍ من سُنَنِهِ الكونية.

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ
لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن
تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ
لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ
فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ
﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

ثم بيَّن تعالى أنَّ نِعَـمَه لا تنقطع، فإنَّ العالم المشهود يَـفْنى، والله سبحانه باقٍ يفيض النِّـعَمَ على عالم الغيب، فقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ[١] ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ[٢] ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[٣] لا تنقطع نَعْمـاؤه، ولا تغيض آلاؤه، كيف وإنَّ الحياة الثانية التي يُنشئها بعد هذا الفناء وما فيها من النعيم المقيم للصلحاء، هي من أجلِّ النَّعْماء وأعظم الآلاء، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾[٤]؟!

---

(١) ضمير: ﴿عَلَيْهَا﴾ يعود على الأرض ـ وهو الأظهر ـ أم يعود إلى الكائنات جميعها؟ والفناء يشمل الأجسام والأرواح أم يختص بالأجسام؟ الله أعلم بذلك، لأن الأرواح بعد مفارقتها الأجسام لا تستقر على الأرض، فلا تكون مِن ﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾، ولا تـتناولها الآية على تقدير عَـوْد الضمير إلى الأرض، وعلى تقدير عَوْده إلى الكائنات جميعها، فلا يبعد أن يكون فناء الأرواح حالة تعرض لها ثم تزول، فينشئ الله النشأة الآخرة. فالأمر من غيب الله، لأن الكلام مجمل لا يعلم تأويله وتفصيله إلا الله. (المؤلف).

(٢) أي: يبقى وَجْهُ ربِّك الـمُتَّصف بكمال العَظَمة والكبرياء والرِّفعة والمَجْد، والـمُتَّصف بكمال الفضل والإنعام، المُكرِم لأنبيائه وأوليائه وجميع خَلْقه بلُطفِه وإحسانه إليهم مع جلاله وعظمته.

(٣) مذهب السلف: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسه وسمَّى بها ذاته في كتابه وتنزيله، أو على لسان رسوله من غير زيادة عليها ولا نقصان منها، ولا تجاوز لها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين ولا سمات المُحْدَثين، ولا تفسير لها ولا تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أمرُّوها كما جاءت، وردُّوا عِلمَها إلى قائلها، وفوَّضوا معناها إلى المتكلِّم بها، وهو الله سبحانه وتعالى. ومن ذلك ما جاء عنه تعالى من المجيء والنـزول، واليد والوجه، والاستواء على العرش، إلى أمثال ذلك. فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفية عنها؛ لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، وإثباتُ الذات إثباتُ وجود لا إثبات كيفيَّة، فكذلك إثبات الصفات، إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].
أما مذهب الخلف في ذلك: فالحَمْل على المعاني المجازية والمفاهيم الكنائية. (المؤلف).

(٤) نقلتُ آخرة السورة أقوالَ العلماء في تناسُب هذه الآية بما قبلها في السياق من كلِّ مرة ذُكِرَت =

ثم بيَّن تعالى عمومَ نِعَمِه في هذه الحياة، فقال: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يفتقر إليه كلُّ مَن فيهما ويلجأ إليه، ويطلب منه العون والإحسان، وهو يفيض عليهم النِّعم بعد النِّعم، ويسدّ بنظامه وسُنن أكوانه سائرَ الحاجات.

ثم صوَّر استمرار تلك الإفاضة بقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ من الشؤون، حَسْبَما اقتَضَتْه مشيئتُه المبنيَّة على الحِكَم البالغة والمصالح السامية، فيتنعّم يومياً بشؤونه الثقلان، ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾؟!

ويجوز أن يكون قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ ملحوظاً به تجدُّدُ شؤون المخلوقات وتنوُّعها وكفايتها اليوميَّة، والله أعلم.

ويجوز أن يكون تـمثيلاً مستعاراً من حال المُخاطَبين، مفادُه: عِظَمُ شؤونه تعالى وسَعَتُها، ولا سيّما في أنواع كائناته ومخلوقاته وتدابيره التي لا تتناهى. ومثلُه في التمثيل والاستعارة من أحوال المخاطبين قولُه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ أي: ستتجرَّد لحسابكم وجزائكم عند انتهاء شؤون الثقلَيْن المشار إليها بقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾؛ إذ الكلام بمعنى التَّـفَرُّغ أو تحويل القَصْد، وهو محالٌ على الله، فهو مجازٌ عن مبالغته في حساب الثقلين حساباً دقيقاً، وتمثيلٌ مأخوذٌ من حال المُخاطَبين، لأنَّ مَن تفرَّغ لشيء أتى به كاملاً، على وجه الدقَّة والضبط والإتقان، أو من قول الرجل لمن يتهدَّده: سأفرغ لك، والمراد: التوفُّر على الإيقاع به، والمبالغة في الوعيد.

= فيه، فارجع إليه. ولا تأبى خصائص اللغة التنويه بالنِّعَم المخلوطة بالنقم، فمن الجائز أن يذكر أمران، ثم يعقبان بما هو لأحدهما. ويجوز أن تكون مُكرَّرة على جميع أنعُمه في هذا الكون، لا خاصَّة بما جاء قبلها، ولا خاصَّة بما جاء في هذه السورة. وذلك لأنَّ التذكير ببعض النوع يُقصَد به التذكير بكلِّه؛ لأنَّ الذكرى تبعث الذكرى. (المؤلف).

واستعارة الوصف الذي يُسنَدُ لله سبحانه من حال المُخاطَبين؛ هي من أساليب القرآن ومجازاته، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة). وعلّق البخاري على هذه الآية فقال: «وهذا معروف في كلام العرب، يقال: لأتفرَّغنَّ لك، وما به شغل، كأنه يقول: لآخُذنَّك على غِرَّة»[١]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: وهذا وعيدٌ من الله لعباده، وليس بالله شغل[٢]. ولكنه معروف في كلام العرب، يقال: لأتفرَّغنَّ لك، وما به من شغل.

وفي هذا الوعيد إيقافٌ لهما على ما يكون من أمرهما ليأخذا حِذرَهما، وذلك من أعظم الإحسان.

ويجوز أن يكون قد أقام مقام التعليل لهذا الوعيد الشديد، مضمونَ قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ بأقوالكما وأعمالكما؟ أي: إنَّ سبب هذا الوعيد تكذيبُهم بنِعَم الله.

ثم أردف هذا الوعيد الشديد بما يُقرِّر إنجازه من سلطانه القاهر عليهم، فقال: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ﴾، يُعجِّزهم في ذلك ويُحسِّسهم بأنهم في قبضته وتحت سلطانه، فأنّى لهم معارضتُه؟ وقدَّم الجنَّ لأنهم أقدَرُ من الإنس على الأفاعيل والهرب بطبيعتهم لا بصنيعهم.

ثم أردف صيغة التعجيز بصيغة التقرير المُخصَّص، فقال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾﴾[٣] أي: لا قُدْرةَ ولا حَوْلَ لكم إلا بسلطان من الله وسنَّةٍ من سُنَنه الكونيَّة.

---

(١) «صحيح البخاري» قبل حديث (٤٨٧٨).

(٢) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٢٧).

(٣) قوله: ﴿إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ أي: إلا بقوة من الله وسنَّة كونيّة، فقد أودع سبحانه في الإنس استعداداً =

ثم أنَّبهم على غَفْلتهم عن ضَعْفهم وسلطان الله عليهم وقَهْره له مع صبره على معارضتهم، وقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾؟! ويجوز أن يكون التأنيبُ على نعمةِ نفوذِهم بالسلطان[١].

ثم فصَّل ذلك الضعف بعض التفصيل، فقال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾[٢] وهذا في حَقِّ مُظهِر العصيان عليه تعالى.

قال الرازي: فإن قلت: كيف ثنَّى الضمير في هذه الفقرة وجَمَعَه في الفقرة السابقة؟ نقول: إن فيه لطيفة، وهي أن الفقرة السابقة لبيان عجزهم وعَظَمة سلطانه تعالى،

= لاستخدام السنن الكونيّة في البعد والارتقاء، وأودع في الجنّ قوة طبيعيَّة تأتي بذلك. أما قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ فيجوز أن يُراد به في الإنس ما جَرَى على مُعارضي الرسل من عذاب الاستئصال والصواعق ومطر السوء، وفي الجن الشهب تصيب من يحاول التسمُّع إلى الملأ الأعلى. ويجوز أن يكون الكلام من خطاب الاثنين بما هو لأحدهما، وذلك من خصائص اللغة، ويكون المراد: ما يصيب الجنّ من الشهب والنيازك. والله أعلم. (المؤلف).

قلت: تفسير السلطان بالسنّة الكونيّة غير مُسلَّم، وأيُّ سنة كونيّة أو قانون طبيعي يُمكِّن الإنسان من أن يَنفُذَ من أقطار السماوات! وبُعدُ بعض نجوم السماء الدنيا فحَسْب: ملايين السنين الضوئية! لكنْ لـمّا كان المؤلف رحمه الله يُفسِّر السماوات السبع بالكواكب السيّارة ـ على ما تقدّم منه في تفسيره هذا ـ أورَدَ هذا المعنى هنا، وتفسيرُ السماوات بالكواكب السّيّارة خطأ ـ كما تقدّم التنبيه إليه ـ فما بُني عليه خطأ أيضاً.

(١) تقدَّم خطأُ تفسيره للنفوذ بسلطان: بأنه السُّنّة الكونيّة. ومعنى الآية: يا معشرَ الجنِّ والإنس إن استطعتُم أن تخرجوا من جوانب السّماوات والأرض وأطرافها، فتفلتوا من حساب ربِّكم، فاخرجوا، لا تقدرون على الخروج إلا بقوةٍ وقهر وغَلَبة، وأنّى لكم ذلك؛ لأنكم حيثما توجَّهتم كنتم في ملكي وسلطاني.

(٢) أي: يُرسَلُ عليكما لَـهَبٌ من نار لا دخان فيه، ونحاسٌ مُذابٌ يُصَبُّ على رؤوسكم، فلا تمتنعان من الله، ولا يكون لكم ناصرٌ منه.

فقال: ﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا ﴾ أي: باجتماعكم وقوّتكم ﴿فَٱنفُذُوا ﴾، بخلافه في هذه الفقرة، فإنه للطائفتين[(١)].

وبعد أن بيَّن لهم ضعفهم أمام سلطان الله عليهم وقَهْره لهم وصبره عليهم، أنَّبهم على إعراضهم عن طاعته والإقرار بوحدانيَّته، تأنيباً ضمنياً، فقال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾؟!

ثـم تـابع التَّـهديد بقـوله: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أي: حـمراء ﴿ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾[(٢)] وهو الأديم الأحمر، أو المعنى: كانت حمراء، وكانت مُذابةً كالدهان الذي يدهن به، وإنما يكون ذلك يوم القيامة.

وجواب ﴿إِذَا ﴾ محذوف، على نهج إيجاز القرآن، وتقديره: يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به المقال. أي: فكيف يكون حالكما في ذلك اليوم أيُّها الثَّقلان؟

ثم أنَّبَهُم على معارضتهم لنعمة الله عليهم بهذا الإعلام والإعلان، وتوعّدهم على مقابلة النِّعَم بالكفران، فقال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾؟!

ثم ذكر من هَـوْل ذلك اليوم وشدَّتـه قولَه: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ سؤالَ استعلامٍ لثبوته وإحصائه عليهم، أو لظهوره فيهم ظهور الأثر على الـمؤثِّر. والله أعلم. فيُجازَوْن به جزاءً وفاقـاً. ولا يُعارض هذا قوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحِجْر: ٩٢]؛ لأنَّ ذلك السؤال بمعنى الجزاء.

وقد أنَّبهم على المعارضة تجاه إنعام الله عليهم بهذا الإعلام، وعلى مقابلة مطلق النِّعم بالكفران، فقال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ ﴾؟!

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٩: ٣٦٢).

(٢) أي: فإذا تصدَّعت السماء يوم القيامة، وتغيَّر لونها من زرقتها المعهودة إلى حُمْرة ورديَّة، وتغيَّرت بنيتُها إلى مادة سائلة كالدُّهن الذائب، وذلك حين يَصلُها حَرُّ جهنَّم، رأيتَ ما يُذهل ويُفزع.

ثم بيَّن الوجه في كونهم لا يُسـألون سؤالَ استعلام ومحاكمة، بقوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ وما يظهر عليهم من أثر الإجرام، ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ والنَّواصي: جمع ناصية، وهي مُقدَّم الرأس. وهذا تمثيلٌ لشدَّة الأخذ، أردَفَه بآية التأنيب عن معارضتهم لإنعام الله عليهم بهذا الإعلام، وعلى كفرانهم لمطلق الإنعام، فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾؟!

وعندما يُحضَرُ بهؤلاء الذين أخذ بنواصيهم وأقدامهم إلى جهنَّم يُقالُ لهم توبيخاً وتنديماً: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى﴾ كان ﴿يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾، يشير إليها وهم فيها، وقد ذكر المُظهَرَ بدل المُضمَرِ للإشارة إلى السبب ـ وهو الإجرام ـ وللإتيان بالعنوان العام.

ثم بيَّن صورةً من عذابهم فيها بقوله: ﴿يَطُوفُونَ﴾ ويجولون ﴿بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ماءٍ بالغ من الحرارة أقصاها، يُصَبُّ عليهم، أو يُسقَون منه. وقيل: بل إذا استغاثوا من النار أُغيثوا بهذا الحميم. وعلى كلٍّ، فالمعنى: أنهم يتنقَّلون من الجحيم إلى الحميم، ومن الحميم إلى الجحيم. أعاذنا الله.

ثم كرَّر آية التأنيب عن المعارضة لإنعام الله عليهم بهذا الإعلام، وعلى كفرانهم لمطلق الإنعام، وقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ بأقوالكما وأفعالكما؟

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

ثم قابل حال الكافرين بحال المؤمنين، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ أي: لـمن خاف مقامَه بين يدي ربِّـه للحساب[١]، فترك المعاصي والشهوات. وقد قال الجُبّائيّ: واحدة له، وواحدة لأزواجه وخَدَمه.

وقد نوَّه بشأنهما بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾؟

ثم تابع الكلام عن هاتين الجنَّتين، فوصفهما بما فيهما من نِعَم وكرامة، فقال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ أي: أنواع من الأشجار والثمـار، و﴿أَفْنَانٍ﴾: جمع فَـنَن، بمعنى الغُصْن، أي: ذواتا أغصان مُـتَشعِّبة من فروع الشجر، وتخصيصها بالذكر لأنها هي التي تُورِقُ وتُثمِرُ وتمدُّ الظلال. وقال ابن عباس: إنما المراد: ألوان من النعيم.

ثم تابع التّنويهَ ضمن التأنيب بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾؟ للتنبُّه على أنَّ كلًّا من الموصوف والصفة هو النِّعَمُ العظيمة والآلاء الفخيمة.

ثم تابع الوصفَ للجنَّتين والتنويه بهما، فقال: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ[٢] ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ[٣] ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾؟

ثم حكى حالتهم السعيدة في هذه الجنان، فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: من ديباج غليظ. وفي ذكر «البطائن» بلاغةٌ عاليةٌ؛ لأنَّ البطائن إذا كانت كذلك فكيف بالظهائر؟ وإنهم لمتكئون على هذه الفُرُش، ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ منهم، أي: ثمرُها قريبُ التناول لهم، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾؟

---

(١) وخاف أيضاً عظمةَ الله عزّ وجلّ، وقيامَ ربِّه عليه ومراقبته له في الدنيا.

(٢) أي: في هاتين الجنَّتين عَيْنان تجريان بالماء الزُّلال؛ إحداهما: التَّسنيم، والأخرى: السَّلْسَبيل.

(٣) أي: في هاتين الجنَّتين من كلِّ فاكهةٍ صنفان ونوعان.

ثم تابع الكلام على حالتهم فيهما، فقال: ﴿فِيهِنَّ﴾ زوجاتٌ لهم ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ على أزواجهنَّ، أي: لم يَنظُرْنَ إلى غيرهم. وإنما جمع ضمير ﴿فِيهِنَّ﴾ للإيذان بكثرة مساكن الزوجات فيهما وتفرُّقها.

ثم تابع وَصْفَ هؤلاء الزوجات بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ أي: لم يَمَسَّ الإنسيَّاتِ أحدٌ من الإنس، ولا الجنيَّات أحدٌ من الجن. أو: لم يَمَسَّ مَنْ هنَّ للإنس أحدٌ من الإنس، ولا مَنْ هنَّ للجنِّ أحدٌ من الجن. يريد بهنَّ الحور العين مخلوقات الجنة، عدا زوجاتهم في الدنيا. ويجوز أن يُرادَ بهنَّ: نفس زوجات الدنيا الصالحات، ويكون المراد من قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾: إنه لم يُصِبْهنَّ أحدٌ بعد نشأتهنَّ الثانية، أوالإشارة إلى أنَّ المرأة هناك ليست معروضة لتبدُّل الأزواج، كما قد يقع مثل ذلك في دار الدنيا. والله أعلم.

وعن أمِّ سَلَمة رضي الله عنها زوجِ النبيِّ ﷺ قالت: قلت: يا رسول الله، أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: «نساء الدنيا أفضل من الحور العين، كفضل الظهارة على البطانة» قلت: يا رسول الله! وبِمَ ذلك؟ قال: «بصلاتهنَّ وصيامهنّ وعبادتهنَّ الله عز وجل، ألبَسَ الله عزَّ وجلَّ وجوهَهنَّ النور، وأجسادَهنّ الحرير، بيض الألوان، خُضْر الثياب، صُفْر الحُلي، مجامرهنَّ الدُّرّ، وأمشاطهنَّ الذهب، يَقُلن: ألا نحن الخالدات فلا نموت أبداً، ألا نحن الناعمات فلا نبأس أبداً، ألا ونحن المقيمات فلا نَظْعَنُ أبداً، ألا ونحن الراضيات فلا نَسْخَطُ أبداً، طُوبى لمن كنَّا له وكان لنا» قلت: يا رسول الله، المرأة منا تتزوَّج الزوجين والثلاثة والأربعة في الدنيا، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها، مَنْ يكون زوجها منهم؟ قال: «يا أم سلمة، إنها تُخيَّر فتختار أحسنَهم خُلقاً،

فتقول: أي رب، إنْ كان هذا أحسنهم معي خلقاً في دار الدنيا فزَوِّجْنيه، يا أمَّ سلمة، ذهب حُسنُ الخلق بخير الدنيا والآخرة»[١].

ثم أردف سبحانه وتعالى هذا الإحسان بالتمنُّـن، وقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾؟

ثم تابع وَصْفَ هؤلاء الحور، فقال: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ أي: في الجمال والكمال، أو هُنَّ على صَفاء الياقوت في بياض المُرجان، وهذا هو المرويُّ عن الحسن وقتادة. وفي رواية عن الحسن: إنَّ المرجان هو لؤلؤٌ شديدُ البياض، أو هو أشدُّ اللؤلؤ بياضاً[٢]. أي: هُنَّ في جمالهنَّ كاللؤلؤ البرّاق، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾؟

ثم أتبع البيان عن هذه الكرامات بما هو كالتعليل لها، فقال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ[٣] ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾ من هذه الآلاء العظيمة؟

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٣: ٣٦٧)، و«الأوسط» (٣١٤١). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٣٩٦): رواه الطبراني، وفيه سليمان بن أبي كريمة، ضعّفه أبو حاتم وابن عدي.

(٢) ويطلق المرجان أيضاً على عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكف، يصنع منها قلائد وفصوص، فيكون المراد به: حمرة خدودهنّ، وبالياقوت صفاء بشرتهن، والله أعلم. (المؤلف).

(٣) أي: ما جزاء مَنْ أحسن في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح إلا أن يُحسَنَ إليه في الآخرة؟

وبعد أن أتمَّ البيان عن وَصْفِ هاتين الجنتين، وحكى حالةَ أهلهما، بيَّن أن لهم من دونهما جنتَين أخرَيين، كالحدائق للأُولَيَيْن ـ والله أعلم ـ فقال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ[1] ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾؟

ثم ذكر أوصافهما، وقَرَنَ كلَّ وَصْفٍ بآية التأنيب والتنويه، فقال: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾[2] أي: سَوْداوان من خُضْرتهما، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ أي: فوّارتان بالماء، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ[3] ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾، و﴿خَيْرَٰتٌ﴾ مخفَّفة مِنْ: خيِّرات، بتشديد الياء، أي: نساء خيِّرات الأخلاق حِسان الوجوه، روته أُم سلمة عن النبيِّ ﷺ[4]. وقيل: إنهنَّ نساء الدنيا. وعليه، فيكون ذِكرُ الحور بعده بياناً لصنف آخر، والجملة مستأنفة.

وعلى المعنى الأول يكون قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ بدلاً من ﴿خَيْرَٰتٌ﴾. وهذا الوصف للإشارة إلى عظمتهنّ، وضَرْبُ الخيام لهنَّ وإدلاءُ السَّتر عليهنَّ بمعنى: أنهنَّ مَصُونات مُخدَّرات، وجاء في الحديث: «أن الخيمة درَّة مجوَّفة»[5].

---

(١) أي: من دون الجنَّتين الأوليَيْن في رتبتهما وفَضْلِهما جنَّتان أُخريان لأصحاب اليمين المذكورين في الآية ٨ من سورة الواقعة.

(٢) ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ لفظ مأخوذ من (الدُّهْمة) بوزن الغُرفة، وهي السواد. والمراد: أنهما لشدة خضرتهما يُـرَيانِ من بعيد كأنهما مسودَّتان. تقول العرب: حصان أدهم، أي: أسود، وتقول: إدْهامّ مُدْهام ـ بوزن: مختار ـ أي: اشتدّ سواده.

(٣) أي: في هاتين الجنَّتين زوجات خيِّراتُ الأخلاق، حِسَانُ الوجوه.

(٤) إشارة إلى الحديث السابق.

(٥) متفق عليه، رواه البخاري (٣٢٤٣)، ومسلم (٢٨٣٨)، عن أبي موسي الأشعري رضي الله عنه.

ثم أردف ذلك بالتَّمَنُّن، فقال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ ﴾؟.

ثم تابع الوَصْفَ لهؤلاء الحُور، فقال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ[١] ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾؟.

ثم ذكر حالةَ ووَضْعِيَّةَ أهل هاتَيْن الجنَّتين فيهما، فقال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ والرفرف: وسائد أو نمارق، جَمْعُ رفرفة، أو نوع من البُسُط، أو ما تدلَّى عن الأسِرَّة من أعالي الثياب، فذكره وأراد الفُرُش نفسها. قال الجُبّائيّ: أي: على فُـرُش مرتفعة ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ[٢] حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ وهي عتـاق الزرابي وجيادها، والطنافس المخملة الموشاة. وهو اسم جنس، واحدته: عبقرية.

قال أبو عبيدة: كل شيء من البُسُط الجيِّدة: عبقري، وكل ما بُولغ في وَصْفِه بالجودة نُسِبَ إلى عبقر. و«عبقر»: بلد كان يوشَّى به البُسُط وغيرها.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس شيء ممّا في الجنة يشبه ما في الدنيا إلا بالاسم فقط[٣]. أقول: وذلك لضيق اللغة عن أداء البيان لتلك المُسمَّيات وهاتيك الأحوال، وقِصَرِ الفِكرِ عن تَصَوُّرها إذ لم يكن لها في الدنيا مثال.

ثم أردف سبحانه ذلك البيان بآية التأنيب، وقال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾[٤]

---

(١) أي: لم يَطَأْ هؤلاء الحور إنسٌ قبل أزواجهنَّ من أهل الجنّة ولا جانّ.

(٢) «عبقري» الياء فيه كالياء في «كُرْسي»، أي: أصلية وليست للنَّسَب، ومعناه: كلُّ شيء يُتعجَّب من جودته، وهو لفظ يُطلَقُ على الواحد والأكثر، مثل: (الفلك) و(الطفل)، والمراد به هنا: البسط المزخرفة بألوان مصبوغة.

(٣) سبق تخريجه (٢: ٤٩، ٥٧٦).

(٤) مِن كُلِّ ما سبق بيان للفرق بين نعيم مَن خاف مقام ربه ومَن كان في منزلة أقل منهم. وذلك =

من تلك النِّعَمِ العِظام، والآلاء الفخام؟ اللهمَّ اجعلنا ممَّن سبقت لهم منك الحسنى.

وقد عدَّد كثيراً من أوصاف هاتَيْن الجنَّتين واللتين قبلهما لزيادةِ التشويق، وأردَفَ كلَّ صفة بآية التأنيب؛ للتنبيه على أنَّ تكذيبَ كلِّ واحدة منهما يوجب الإنكار والتوبيخ، ويجوز أن يكون إردافها بها لإرادة التَّمنُّن.

ثمَّ خَتَم هذه السورة المحتوية على هذه الأنواع العظيمة من الكرامات، بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ أي: تعاظم شأنُ ربِّك وخيرُه، ﴿ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾[١]، فإنَّ إحسانَه لا يحيط به الوصف، ولا يستوعبه التصوُّر.

وقد تكرَّرت آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، بعضها للتأنيب على إنكار نِعَمٍ ذُكرت قبلها صريحاً أو ضمناً، وبعضها للتهديد بنِقَم ذُكِرَت قبلها صريحاً أو ضمناً؛ لأنَّ صاحبها قابَلَ نِعَمَ الله عليه بالكفران، فيكون المراد من نِعَمِ الله فيها: نِعَمَه العامَّة على بني الإنسان، وبعضها للحثِّ على العمل لنَيْل كرامة ذكرت قبلها صريحاً أو ضمناً، فيكون المراد من نِعَمِ الله فيها: نِعَمَه العامَّة أيضاً، وبعضها للتمنُّن على نِعَمٍ ذُكرت قبلها[٢].

= أن الله سبحانه جعل الغالب في بساتين الأوَّلين الأشجار ذات الفواكه، والغالب للآخرين: النبات الأخضر والرياحين، وقال في الأوَّلين: ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ [الرحمن: ٥٢]، وفي الآخرين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]. وكذا فرّق في الماء، لأن العين الجارية أغزرُ ماء من الفوّارة، وكذا ما وصف به الحور العين في الفريق الأول دون الثاني، ومع ذلك فالكُلّ منعَّمون، يشعر الأعلى بتفوُّقه ولا يشعر به الأقل؛ لأن الله سبحانه رفع من صدورهم الحسد والغل.

(١) أي: تعاظم وتنامى وتزايد فوق كلِّ تصوُّرٍ تتصوَّره المخلوقات كلُّها، اسمُ ربِّك، المتَّصف بكمال الشرف والعظمة والرِّفعة والمَجْد، والمتَّصف بكمال الإكرام في عطاياه وهباته، ومنحِهِ وجوده وإحسانه.

(٢) اضطرَّ المؤلف ـ كغيره من المفسِّرين ـ إلى حَمْل هذه الآية على هذه الوجوه، لأنه يُفسِّر (الآلاء) =

وقال بعض المفسِّرين: كلُّها للتأنيب على إنكار نِعَم ذُكرت قبلها، أو على تفريط بشكرها، كما يُنْبِئ عن ذلك صريحُ معناها، وأوَّلوا ما لا يلائم ظاهرُه ذلك.

وقال شيخ الإسلام عزُّ الدين بن عبد السلام(١) في كتابه «الإشارة إلى الإيجاز» في أنواع المجاز، وهو من مجازات القرآن، قال: وأما قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فيجوز أن تكون مكرَّرة على جميع أنعُمِه في هذا الكون، لا خاصَّة بما قبلها، بل لا تعلُّق لها به في بعض الفقرات. ويجوز أن يُراد بالأُولى ما تقدَّمها من النِّعَم، وبالثانية ما تقدَّمها، وبالثالثة ما تقدَّم على الأولى والثانية، وبالرابعة ما تقدَّم على الأولى والثانية والثالثة، وهكذا إلى آخر السورة.

ثم قال: فإن قيل: كيف يكون قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ نعمة؟ وقوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ نعمة؟ وكذلك قوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؟ وقوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾؟ وقوله: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾؟

قلنا: هذه كلُّها نِعَمٌ جسام؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى هدَّد العباد بها استصلاحاً لهم؛ ليخرجوا من حيِّز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان، إلى حيِّز الطاعة والإيمان، والانقياد والإذعان. فإنّ مَن حذَّرَ من طرق الرَّدى، وبيَّن ما فيها من الأذى، وحثَّ

= بالنِّعَم، ولما كان بعضها في سياق التأنيب والإنكار احتاج إلى مثل هذه التأويلات، لكن الراجح في معنى (آلاء): الفعال العجيبة والشؤون الغريبة. فعلى هذا تتَّسقُ هذه الآية مع سياقها في كل موضع تكررت فيه في هذه السورة.

(١) هو سلطان العلماء عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي (٥٧٧-٦٦٠هـ) فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد له: «التفسير الكبير»، و«الفوائد»، و«الفتاوي». «الأعلام» للزركلي (٤: ٢١).

على طرق السلامة الموصلة إلى التوبة ومنها إلى الكرامة، كان مُنْعِماً غاية الإنعام، مُحسِناً غاية الإحسان.

وأما قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فتذكير بالموت والفناء، للترغيب في الإقبال على العمل لدار البقاء، وفي الإعراض عن دار الفناء. وذلك من أكبر نِعَم الله، تبارك شأن ذي الجلال والإكرام.

أقول: قد جاء في هذه السورة مِنَنٌ وعظائمُ تَتَجلَّى في كلٍّ منها آلاءُ الله وقدرته ووحدانيَّته، ذُكرت على طريقة التنبيه والاستدلال، فمن البلاغة العالية أن يُسأل السامعُ بعد كلٍّ منها هذا السؤال.

ويجوز أن تكون الآية عِوَضاً عن مثل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، على نهج القرآن في مثل ذلك، حيث يُعوِّض عن جملةٍ بأخرى مكانها؛ لأنها تتضمَّن الأولى وزيادة. والله أعلم.

* * *

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

مكيَّة، وهي ست وتسعون آية

جاء فيها تفصيلُ جزاء المؤمنين والكافرين في يوم القيامة، فهي من باب الدعوة بالترغيب والترهيب، وأَخَذَ السياق يتردَّد في ذلك، وفي دلائل قدرته على ذلك.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾.

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ يعني: حادثةَ القيامة، وجوابُ الشرط محذوف، على نهج إيجاز القرآن، والتقدير: يكون من الهول ما لا يفي به القول.

ثم قرَّر الوقوع بقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ والكاذبة: مصدر[1]، مثل: العاقبة والعافية. أي: لا شكَّ ولا ريبَ في وقوعها. ويجوز أن تكون الجملة من جواب ﴿إِذَا﴾ بمعنى: إذا حَدَث ذلك الأمر فلا مجالَ حينئذ للتكذيب به وإنكاره.

ثم أجمَلَ حوادثَها بقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ أي: تخفض وترفع، وهو بيان لِـمَا ينتج عنها من اصطدام الأجرام السماويَّة ومعها الأرض، إذ ترتبك وتضطرب مع بعضها خفضاً ورفعاً، والله أعلم[2]، وهو هَوْل عظيم.

ثم شرع في تصوير بعض حالات تلك الحادثة في الأرض التي نحن عليها، فقال: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ أي: هُزَّت هزّاً عنيفاً، بحيث يتفتَّت ما عليها،

---

(١) أي: الكذب، مثل: خائنة، بمعنى: خيانة. والمراد: انقطعت ألسن الكذب التي كانت تتبجّح بإنكارها في الدنيا.

(٢) أو المراد: تخفض أقواماً إلى الدركات المُنحطّات في النار، وترفع أقواماً إلى الدرجات الصاعدات في الجنّة.

وينخفض المرتفع، ويرتفع المنخفض، ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ أي: فُتَّت حتى صارت مِثلَ السَّويق المبسوس بالماء غير المتماسك. وقد بيَّنه بقوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ أي: غباراً منتشراً لشدَّة تفتُّت ذرّاتها وتفرُّقها، وتتبخَّر البحار لقرب الشمس منها، وتكون الأرض كتلة ترابيّة، وذلك هَوْلٌ لا يتصوَّره العقل، أعاذنا الله منه، وأغدَقَ علينا عفوَه وغفرانه.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾.

وبعد أن بيَّن حادثة القيامة، بيَّن ما يحدث بعدها من أمر الحساب والجزاء، فقال: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾، والخطاب للأمة الحاضرة والأمم السابقة بطريقة التغليب، أي: وكنتم ـ أيها الناس ـ أصنافاً ثلاثة: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ[1] مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ[2] وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ[3] ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ[4] ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى

---

(١) المراد بالمَيْمَنة: جهة اليمين. وأصحابها: هم الذين يُعطَوْنَ كتبهم بأيمانهم، كما في الآية ١٩ من سورة الحاقّة.

(٢) ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: (ما) اسم استفهام يُقصَدُ به في مثل هذا المقام تهويلُ أمر الشيء المُتحدَّث عنه، إما في حُسْن الحال كما هنا، أو قُبْحه كما سيأتي بعد.

(٣) المَشْأَمَة: هي جهة الشمال، لأن من شانها أن يُتَشاءَمَ بها، وأصحابها: هم الذين يأخذون كتباهم بشمالهم، كما في الآية ٢٥ من سورة الحاقّة.

(٤) المراد: السابقون هم السابقون، وهذا تركيب تقوله العرب عند إرادة لَفْت النظر إلى التهويل =

جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾[١]، فأشار إلى أحوال كلِّ صنف قبل تفصيلها بما يدلُّ على التعجيب من أمرها والتعظيم له والتهويل منه.

وإنما أخَّر الصنف الثالث في الذكر مع كونه أسبق الأقسام في الفضل؛ ليكون أسبق بالتفصيل الذي جَعَل مدخلَه بيانَ مقدار هؤلاء السابقين من الأوَّلين والآخرين، فقال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ والثُّـلَّة: القِطعة والكِسرة من كلِّ شيء.

وقد اختلفوا في هذا البيان؛ فقيل: يعني بالأوَّلين: الأمم الماضية، من لَدُن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وبالآخِرين: أمةَ محمد ﷺ. وإنما كان ثلَّةٌ من الأمم الماضية وقليلٌ من أمَّة محمد ﷺ؛ لكثرة الأمم الماضية بالنسبة إلى أمة محمد ﷺ. وقيل: بل المراد: الأوَّلون من أُمة محمد، والآخِرون منهم.

ثم ذكر محاسن أحوالهم وكمال نعيمهم، فقال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: منسوجة بقضبان الذهب، مشبكة بالدُّرِّ والجواهر، كما تُوضَنُ حِلَقُ الدرع، فيدخل بعضها في بعض، وتراهم ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ لإكمال الأنس فيما بينهم، و﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ لخدمتهم ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾، فوصفهم بالخلود للإشارة إلى دوام ذلك الطواف عليهم. والولدان: الغلمان، يطوفون عليهم ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾[٢] يريد: أواني الخمرة البريئة، ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ يريد: الخمرة نفسها، بطريقة المجاز المُرسَل،

= في شأن شيء تعظيماً أو تحقيراً. فالمراد: السابقون هم هؤلاء المشهورةُ أحوالُهم المعروفةُ فضائلُهم.

(١) أي: والسابقون إلى الخيرات في الدنيا هم السابقون إلى الدرجات في الآخرة، أولئك رفيعو المنازل هم المقرَّبون من الله في جواره، وفي ظلِّ عرشه ودار كرامته في جنَّات النعيم.

(٢) أكواب: جمع كوب، وهو إناء لا عروة له ولا خرطوم. وما له عروة وخرطوم، يُسمَّى إبريقاً.

حيث ذكر الكأس وأراد الخمرة، مِن ذِكرِ المحلِّ وإرادةِ الحالّ. وقوله: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ يريد بها: أنها خمرٌ لا تُصنَع صنعاً، وإنَّما تنبع نبعاً(١).

ثم ذكر صفتها الممتازة عن خمر الدنيا، فقال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا(٢) وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ يقال: أنزَفَ الرجل؛ إذا سَكِرَ وذهبَ عقلُه(٣). أي: ليس لها تأثيرُ الخمر على العقول، ولا أضرارها التي اقتَضَت تحريمَها.

ثم تابع البيان عن كمال النعيم بقوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٍ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَ﴾ يطوف عليهم كذلك ﴿حُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾﴾، والحور: جمع حَوْراء، وهي جميلة سواد العين وبياضها، والعِين: جمع عَيْناء، وهي واسعة العينين، واللؤلؤ المكنون: هو الذي في أصدافه. وهذا القيد لكمال الوصف، لأن اللؤلؤ في الأصداف يكون صافياً نقيَّ اللون.

ثمَّ علَّل ذلك النعيم بقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثمَّ تابع البيان ببيان حالة أخرى منه، فقال: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾(٤) أي: لا يعارض بعضهم بعضاً ولا ينافسه، ولا يُشاريه ولا يُماريه، بل كلُّهم إخوان على سُرُر متقابلين، يَتَوادُّون ويَتَحابُّون، ولا تسمع بينهم ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾﴾(٥)

---

(١) تقدَّم في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾ [الصافات: ٤٥] أي: نهر ظاهر للعيون.

(٢) ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا﴾: أي: لا يصيبُهم صداعٌ ناشئ عن شربها كخمر الدنيا.

(٣) أصل النزف: نزحُ الشيء وإذهابُه بالتدريج. يقال: نزف فلان الماء من البئر؛ إذا نزحه كلَّه منه شيئاً فشيئاً، فالمراد: لا يُخرِجون ما في بطونهم بالقيء بسبب شُرْبها، كما تفعل خمر الدنيا.

(٤) أي: لا يسمعون في الجنة من القول ما هو لغو، وهو ما لا فائدة فيه، ولا يسمعون القول المُوقع في الإثم.

(٥) ﴿قِيلٗا﴾: هو القول، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢]، =

أي: إلا عباراتِ السِّلم والسَّلام. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم فصَّل محاسن القسم الثاني وكمال نعيمهم، فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾؟ يفخِّم أمرهم، ثم يُفصِّله بقوله: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾[1] أي: في حدائقَ من نَبْقٍ مخضود الشوك. وهذا الوصف للمبالغة في جَوْدة النوع وامتيازه، وأنه لا يشبه ما تعرفون من السِّدر في الدنيا، و﴿فِى﴾ الظرفية مجازٌ مُرسَلٌ من ذكر الحالِّ وإرادة المحلّ، أي: في جنَّة فيها سِدْر.

وكذلك قوله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾[2] قال ابنُ عباس وغيره: هو شجر الموز، ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: دائم لا يزول. ويجوز أن يكون من كثرة الأشجار، والله أعلم، ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾ أي: أنهار متفجِّرة في كلِّ مكان، ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ أي: دائمة لا تنقطع ولا يُمنَعُ منها أحدٌ من أهل الجنة.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ أي: وثيرة عالية. وقال الـجُبّائيّ: هو كنايةٌ عن النساء

= و﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾: بيان لـ﴿قِيلًا﴾، أي: يسمعون تحيةً مكرَّرةً بتكرُّر قائليها، بيّنها بقوله: ﴿سَلَٰمًا﴾ أي: سلاماً من الله تارة كما في الآية ٥٨ من سورة يس، ومن الملائكة تارة كما في الآيتين ٢٣و٢٤ من سورة الرعد، والآية ٧٣ من سورة الزمر.

(١) ﴿مَّخْضُودٍ﴾ تقول العرب: خَضَد فلانٌ الشجرَ، بوزن: ضرب؛ إذا قطع شوكه ولم يبق فيه إلا الثمر.

(٢) ﴿مَّنضُودٍ﴾: متراكب بعضه فوق بعض، ليس في ساقه مكان خالٍ من الثمر.

المرتفعات القَدْر، في عقولهنَّ وحُسْنهنّ وكمالهنّ الكائنات في تلك الفرش، فقد ذكر المحلَّ وأراد الحالّ، لذلك عقّبه بقوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ٣٥﴾[1]. وعلى التفسير الأول يكون في الكلام إضمارٌ عن الزوجات، بدلالة الفُرُش، أي: ذوات فرش. وعَوْد الضمير على ما تـقدَّم معنى، أو ما يُفهَمُ من السياق؛ هو من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

ويحتمل أن يُراد بهنَّ: الزوجات في الدنيا، أو النساء مطلقاً، أو الحور العين، أو الجميع. أما الحور العين فمعنى إنشائهنّ: ابتداء خَلْـقِهنَّ من دون توالُد. وأما نساء الدنيا فالمراد بإنشائهنّ: ما جاء في الحديث: «ينشأن في الآخرة على أبدع الصور وأجملها، كلُّهن أبكار متساويات في السنّ»[2]، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ٣٨﴾[3]، والعُرُب: جمع عَروب، وهي اللَّعوبة مع الزوج، المُتحبِّبة له. والأتراب: جمع تِرْب، والمراد: المتشابهات في السنِّ والهيئة، يقال: هذا تِربي، أي: من سنّي.

ثم بيّن مقدار أصحاب اليمين من الأوَّلين والآخرين، فقال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ٤٠﴾. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين. وقد تقدَّم الكلام على هذا.

وقال الحسن: سابقو الأمم الماضية أكثر من سابقي هذه الأمة، وتابعو الأمم الماضية مثل تابعي هذه الأمة[4]. يعني: أنَّ أصحاب اليمين منهم مِثلُ أصحاب اليمين

---

(١) أي: أوجدناهنَّ من جديد.

(٢) إشارة إلى حديث أم سلمة السابق، ص٢٤٧.

(٣) ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ متعلق بالفعل: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ في الآية ٣٥، أي: أنشأنا الزوجات لأصحاب اليمين.

(٤) ذكره النسفي في «تفسيره» (٣: ٤٢٣).

منـا. وهذا على تـقدير أنَّ المراد من الأوَّلين: سابقو الأمم الماضية، لا سابقو الأمة المحمدية. وهو أحد الرأيين، كما تقدَّم بيانه.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم فصَّل شأنَ القِسم الثالث وسوءَ أحوالهم ـ أعاذنا الله ـ فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾؟ يُهوِّل أمرَهُم ويُفَظِّعه إجمالاً، ثمُ يفصِّله بقوله: ﴿فِى سَمُومٍ﴾ وهي الريح الشديدة الحرارة، ﴿وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾ وهو الماء في أقصى درجات الغليان، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ وقد قال ابن عباس وغيره: إنه دخانٌ أسودُ شديد السواد[1]، ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾[2] والعرب إذا أرادت نفيَ صفةِ الحمد عن شيء أو بيانَ سُوئه، نَفَت عنه الكرم.

ثم علَّـل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: منهمكين في الشهوات، مُعرِضين عن الله، ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ وهو الشِّـرك، وهذا هو المرويُّ عن الحسن والضحّاك وابن زيد؛ لأنَّ الشرك حِنْثٌ بالعهد الذي أخذه سبحانه على بني آدم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٧٧٩)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، بلفظ: «﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ قال: من دخان أسود».

(٢) المراد من الكريم هنا: حَسَن المنظر.

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فهذا العهد هو توحيدُ الله سبحانه، ذلك التوحيد الذي فطرهم عليه، وأرسل به الرسل إليهم، فوق ما تُؤكّده وتُجلّيه لهم جميعُ الآثار والمظاهر التي تحيط بهم من مخلوقات الله سبحانه، لو كانوا يعلمون.

وفي لفظة: ﴿كَانُوا﴾ إثارةٌ للشعور بالمستقبل الأخروي، كأنه أمرٌ حاضر، وكأنّ الدنيا أمرٌ ماضٍ بعيد، يذكره الذاكرون. وفي هذا تأثيرٌ عميق في النفوس.

ثم تمّم التعليل بقوله: ﴿وَكَانُوا﴾ ينكرون البعث و﴿يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾؟ وفي تكرير الهمزة تأكيدُ النكير، والواو للعطف على ضمير ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، وحَسُنَ ذلك من دون تأكيد بالضمير للفَصْل بالهمزة الاستفهامية.

وبعد أن حكى إنكارهم هذا، أمَرَ النّبيَّ ﷺ أن يردَّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ من الأمم الذين من جملتهم أنتم وآباؤكم ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بعد البعث ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ[1] يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ وقّتَ به انتهاءَ عُمُر الدنيا، وابتداءَ عُمُر الآخرة الذي لا نهاية له.

وقد تـمّم الردّ ببيان ما سيكون من فظاعة حالهم بعد البعث، تَوَعُّداً لهم، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ بالبعث لمبعوثون و﴿لَءَاكِلُونَ﴾ بعد البعث ودخول جهنّم ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ[2] ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾ من شدّة الجوع، ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ

---

(١) الميقات: هو الوقت المحدّد لعمل، وإضافتُه لـ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ من إضافة العام لِـمَا يُخصّصه ويوضّحه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

(٢) الزقُّوم: اسمٌ لشجرة صغيرة مُنتِنة الرائحة مرّة الطعم، تنبت بأرض تهامة من بلاد العرب. =

ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾ وهو الماء في أقصى درجات الحرارة، ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ منه ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ قال ابنُ عباس وعكرمة[١] وقتادة[٢]: هي الإبل التي أصابها الهُيام، وهو شدَّة العطش، فلا تزال تشرب حتى تموت.

ثم بالغ في وعيدهم مُبيِّناً أن هذا قليل من كثير، وقد بيَّنه بأسلوب تهكُّمي، فقال: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ والنُّـزُل: ما يُـعَدُّ للضيف النازل ويُعجَّل به تكرمةً له قبل تهيُّؤ الطعام ونُضْجه. والمعنى: أن هذا ليس كلَّ عذابهم، بل هو أول ما يلقونه، فإذا كان هذا نُزلهم فما ظنُّك بما لهم بعدُ من غَمْرة العذاب؟ أعاذنا الله. اللهم اشهد بأننا مسلمون مؤمنون مُوحِّدون منزِّهون يا أرحم الراحمين.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

وبعد أنْ توعَّدهم على إنكارهم للبعث بما يَنْجُم عنه لهم من العذاب الأليم، ردّ

= وتقدّم وَصْفُها في سورة الصافات: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ [٦٢-٦٥].

(١) هذان الأثران رواهما الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٣٤٣).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣١٣٩).

عليهم ببيان قدرته تعالى التي لا يكون البعث في جانبها شيئاً، وذكر عدَّة أمور تشبه البعث في التكوُّن، وبدأها بالحلقة الأولى، فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ وهو أمرٌ لا تنكرونه، ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وتُدرِكون أنَّ من قدر على الإنشاء قدر على الإعادة.

وتوضيح الاستدلال: أنَّ الحشر للأجسام ليس بأعجَبَ من النشأة الأولى، إلا أنها ـ لـمّا كانت مألوفة محسوسة ـ لم نشعر بعجبها وعظمتها؛ لأنَّ التعجُّب والإنكار إنما يكون لشيء لم يُشاهَد مثلُه، ولم تُعرَف أسبابه ومؤثِّراته، وكيف تكون النشأة الأولى أقلَّ شأناً من الثانية، وهي تتكوَّن من نطفة ماء لا تزال تتطوَّر في الرَّحِم حتى تكون ولداً، ولا يزال هذا الولد يتطوَّر حتى يكون إنساناً كاملاً، وربما كان عظيماً بعلمه وتفكيره واستنباطه واكتشافه، أو مَلَكاً جبَّاراً في قهره وسلطانه، وهو من تلك النطفة المهينة.

وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم(١) مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: ما تَقذِفونه في الأرحام من النُّطَف، فيتطوَّر حتى يكون خَلْقاً سويّاً؟ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ بشراً ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟ أنت يا أرحم الراحمين. خلق سبحانه من خلية الحيمن التي لا تُرى بالمجهر لدقَّتها، خَلَق منها الرأسَ وما وَعَى، والبطنَ وما حوى، والجسمَ بما فيه ممَّا ظهر وما اختفى، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، أفلا تُذْركون أنَّ من قَدَر على هذا قَدَر على البعث والإعادة، لأنها تطوُّر يشبه هذا التطوُّر والتكوُّن؟

وبعد أن أشار إلى أطوار الإنسان قبل الولادة، أشار إلى أطواره بعد الولادة، وأن تلك الأطوار تنتهي بالموت، لينشأ بعده طَوْر آخر، وهو حياة البرزخ، ثم طَوْر

---

(١) أي: أتفكَّرتُم تفكيراً سديداً بأناةٍ وعُمْق، حتى أدركتُم إدراكاً علمياً يُشبِهُ الرؤية البَصَريّة، والمراد: أخبروني.

آخر وهو البعث، ويكون المجموع سلسلة واحدة، فقال: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾[1] أي: جعلناكم تموتون في أجل مُقدَّر لكُلٍّ منكم، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)﴾ أي: لسنا بمغلوبين على هذا الأمر، بمعنى: ليس أحد يقدر أن يَفلِتَ منا ويتخلَّص من الموت، وقد أمتناكم ﴿عَلَىٰ أَن﴾ نُحييكم تارةً أخرى، و﴿نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: نُعيدكم مثل ما كنتم أو شبيهاً بذلك، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١)﴾ أي: على صورة وطريقة لا تعلمون كيفيتَها ولا كُنهَها؛ لأنَّ مِن أحوالها ـ والله أعلم ـ أنها تكون صالحةً للخلود. وإنَّ لله سبحانه طُرقاً للإيجاد لا تُحصى، ولا يقدر الإنسان أن يحيط بها علماً. والله أعلم.

ثم ذكَرَ نشأةَ الإنسان الأولى، ونبَّه إلى ما فيها من شَبَهٍ بالأخرى، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ في آدم وكيف أنشأه من تراب دون ولادة، ﴿فَلَوْلَا[2] تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾ أنَّ البعث ليس بأعجَبَ من ذلك، بل هو شبيهٌ به، فالنشأة الثانية قسيمةٌ للأولى، وكلاهما من جنس واحد. والله أعلم.

ثم ذكر الزرع مُنبِّهاً إلى ما فيه من شَبَه للبعث أيضاً، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾؟ والحرث: قَلْبُ الأرض وإلقاءُ البذر فيها، والزرع: إنباتُه.

فقد أشار سبحانه وتعالى إلى ما في الزرع من تطوُّر عجيب ليس تطوُّر البعث بأعجَبَ منه ولا أكثر غرابة، وبينهما مشابهة من عدَّة وجوه، منها: أنَّ الحبَّ بأنواعه

---

(١) أي: نحن جَعَلْنا موتَ كلِّ واحدٍ منكم مُقدَّراً بالزمان، والمكان، والأسباب.

(٢) هذا اللفظ هنا وفي الآيات ٧٠ و٨٣ و٨٦ الآتية بمعنى: (هلّا) التي تُفيدُ طَلَبَ حصول ما بعده.

ينبت في الأرض إذا جاءته عوامل الإنبات، ويكمُنُ إذا فَقَدَ واحداً منها. ومن تلك العوامل: الوقت الملائم للإنبات، فإنَّ الذي لا يَنْبت إلا في الصيف مهما تعهَّدتَه بالسُّقيا في غير فَصْله لا ينبت، وهكذا حال ما لا يَنبُت إلا في الشتاء، أو في وقت آخر مُعيَّن، إذ تجد بعض النباتات والأوراد الربيعيَّة تَنْبتُ في سَنَة، وتَكْمُن في أُخرى، حيث لم يصلها مطرٌ في وقتها المخصوص، رغماً عن أنَّ الربيع عامرٌ بغيرها من النباتات، فإذا جاء وقتها الملائم في سنةٍ من السنين وتَوفَّرت لها أسباب الإنبات، أي: أمطرت السماء في ذلك، نبتت ونشأت.

وهكذا حال الأجسام والبعث، لا تنشأ إلا يوم القيامة؛ لأنه وقتها الذي جَعَله الله ملائماً لها، يتعهَّدها الله فيه بعوامل النشأة والتكوين، فقد جاء في الحديث ما معناه[1]: أن الله سبحانه يُرسِلُ عليها حينئذٍ ما يشبه المطر من سائل خصِّيص لذلك، فينبت عَجْم الذَّنَب كما تنبت الحبَّـة في حَميل السيل. وهذا التشبيه لمجرَّد الإثبات لا الكيفية، والله أعلم.

وعَجْمُ الذَّنَب[2]: هو جِرمٌ دقيق لا يُدرَك، محلُّه مؤخَّر عظم العُصْعُص، وحميل السَّيْل: هو الذي يجرفه الماء عند انسيابه، فيحقن في حوافيه وأطرافه، وعلى شواطئه، فيَخضَرّ، وعلى هذه الوتيرة يربو جسم الإنسان من عَجْم الذَّنَب تحت التراب وينمُو

(١) روى البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) في «صحيحه» عن أبي هريرة مرفوعاً: «... ثم ينزل من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، وليس في الإنسان شيء إلا بلى إلا عظم واحدٌ وهو عجْب الذنب، منه يركب الخلق يوم القيامة».

(٢) عَجْب الذنب: بفتح العين المهملة وإسكان الجيم وآخره باء موحَّدة، ويقال له: عَجْم الذَّنَب ـ بالميم أيضاً ـ وهو العظم اللطيف الذي في أسفل الصُّلب وأعلى ما بين الأليتين، وهو رأس العصعص.

حتى يتكامل، كما تنمو الكمأة داخل الأرض، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، فإذا تكاملت نشأة الأجسام زُوِّجت بها الأرواح، وبُعثت بالنفخة الثانية، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. وهذا ما ظهر لي، والله أعلم بهذا الشأن العظيم.

ثم تابع الكلام عن طَوْر من أطوار الزرع، وسَبَكه على التوعُّد لهم بالجزاء الدنيوي، فقال: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ بمعنى: أيبسناه قبل إدراكه، وجعلناه هشيماً لاينتفع به[1]، ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ وتقولون: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ وأصل التَّفكُّه: تناوُلُ صنوف الفاكهة، ولكنَّه يُستعار للتمطُّق بالكلام[2]، ثم أضرب

---

(١) أي: في التنقل بالحديث من موضوع إلى آخر. وهو هنا للتهكُّم بهم، لأن المراد: تنقلهم من تعجُّب إلى تندُّم، إلى تحسُّر، ... واستعماله هنا من قبيل: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

(٢) وأما الحكمة في إثباتِ لامِ التوكيد هنا في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ وحذفِها من قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، فقد أجاب شيخُ الإسلام بالمغرب ـ كما لقَّبَه الحافظ ابن حجر ـ الإمام ابن عرفة الورغمي، حين سأله أحدُ الطلبة هذا السؤال في الديار المصرية عندَ مرورِه بها لأداءِ مناسك الحج، فأجاب قائلاً: إن إنباتَ الزرع فيه للخلق تسبُّبٌ وكسب، وإنزالُ الماء من السماء لا تسبُّبَ لهم فيه بوجه، بل هو من فعلِ الله تعالى فقط. والعادة متقرِّرة بأنَّ إفسادَ الإنسان شيئاً عمِلَه هو ونقلَه من حالة إلى حالة أخرى أهونُ عليه وأيسرُ من إفسادِه شيئاً عمِلَه غيرُه مستقلاً أو شاركه غيرُه في عمله، فلذلك أكّدَ جَعْلَ الزرعِ حُطاماً باللام، ولم يُؤكِّد بها جَعْلَ الماءِ أجاجاً؛ تأكيداً لكمالِ قدرة الله تعالى، وأنه لا يُعجِزُه شيء. اهـ.

نقل هذا الجواب الأخ الشيخ نزار حمّادي التونسي، وأضافَ أنَّ فائدةَ لام التوكيد رفعُ ما يُمكِنُ أنْ يتوهَّمه الإنسان من أنَّ سائرَ أفعاله الكسبيّة؛ من حرثِ الأرضِ، وتهيئتِها للإنبات، واستخدامِه لذلكَ جميعَ الوسائلِ المتاحة، سواء القديمة أو العصرية المتطورة، ووسائل الري كذلك، =

إلى الحرمان، أي: لم يبق عندنا شيء، وقد استعير هنا للكلام حول تَلَف هذا الزرع والتألم والتأسُّف على فَقْدِ منفعته وحرمانهم منها.

ومعنى: (مُغْرَمُونَ) مُلزَمون بالخسران والهلاك، من قوله: غَرِمَ التاجر؛ إذا خسر وأفلس.

ثم ذكر المطر مُلمِعاً إلى ما فيه من تطوُّر عجيب ليس البعث بأعجَبَ منه، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾؟ والـمُزْن: السحاب، واحدتُه: مُزْنة، وهي السحابة. يشير سبحانه وتعالى إلى ما في تكَوُّن السَّحاب من تَطوُّرات عجيبة، ومن ذلك أنه ينشأ من بخار البحار غالباً، ثم يَتَطوَّر فيتكوَّن ماء عَذْباً.

وقد تَوعَّدهم على كفرِهم لهذه النعمة، وشركِهم بالله سبحانه بعذاب الدنيا، مُبيِّناً قدرته على التطوير والتبديل، فقال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ أي: مِلحاً زعاقاً لا

= قد تـمنعُ الباري تعالى من جعل جميع جهودِه هباءً منثوراً بجعلِ الحرثِ حُطاماً، وأنَّ تَـرتُّبَ الأسبابِ والـمسبَّباتِ قد يَحولُ دونَ ذلك أيضاً، فحَسُنَ التـنبيه بلام التوكيد على فساد ذلك التوهّم، وأنَّ ما يُظنُّ من الأسبابِ العادية مانعاً لنفوذِ قدرةِ الله تعالى على جَعْلِ الحرث حطاماً ما هي إلا من أفعال الله تعالى؛ إذ العادة فعله، وترتيب الأسباب على المسبَّبات أمرُه التكويني، وكما رتَّبَ سبحانه بحكمته إنباتَ الحرثِ مع توفُّرِ الشروطِ العادية من الماء وغيرِه؛ فهو قادر على ترتيبِ تحطُّمِه مع توفُّرِ نفس تلك الشروط، بَلْه على تعطيلِ تلك الأسباب بإمساكِ السماء عن الإمطار، وجعل السماء غَوراً؛ فتـنعدمُ الشروط العادية للإنباتِ واكتمـال الحرث فيصيرُ حطاماً.

أما نـزولُ الماء العذب الفرات من الـمُزْن؛ فالإنسانُ يَعلم يقيناً أنه لا تَسبُّبَ له ولا كسب في ذلك، فنزولُه على تلك الحالة أو غيرِها هو من محضِ إرادة الله تعالى ظاهراً وباطناً، فلا حاجةَ لتأكيدِ الاقتدار على إمكانِ جعلِه أُجاجاً. والله تعالى أعلم.

يمكن شُربُه، ولا تَنبُت به النباتات، يجعله كذلك بتغيير نظام تكوينه، فتتبدَّل عذوبته ملوحة، ولكنه سبحانه لم يفعل ذلك رحمةً منه وفَضْلاً، فجَعَل نظام تكوينه عَذْباً فراتاً.

ثم أنَّبهم على كفرهم لهذه النِّعَم، وشركهم بالله، بصيغة الحضِّ على الشكر، وقال: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾ هذه النِّعَمَ بتوحيد الله ولا تكفرونها بشِركِه.

ثم ذكر الشجر الأخضر، وكيف يتطوَّر من هذه الطبيعة غير القابلة للاشتعال إلى اليبس وقابلية الاشتعال، إذْ فيه التطوُّر العجيب، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١﴾ أي: تُشعِلون وتوقدون، ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢﴾؟ أنشأناها بتطوير عجيب، وأيبسناها بتطوير عجيب، حتى صارت قابلةً للاشتعال بعد أن لم تكن كذلك، أفمن الغريب والصَّعْب على هذه القدرة أن تُعيدَ الإنسان إلى سيرته الأولى بعد المات، وهو طَوْرٌ من أطوار الحياة؟ وقيل: بل المراد: صنفٌ أو صِنفان من الشجر كانوا يُورونَ ناراً بحكِّ بعضها ببعض.

ثم عقَّب البيان بما فيه تَـوَعُّد وتَـمنُّن، فقال: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا﴾ أي: هذه النار ﴿تَذْكِرَةً﴾ للمُتذكِّرين، يَتَـذكَّرون بها نار جهنَّم، ﴿وَ﴾ جعلناها ﴿مَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣﴾ أي: المسافرين في القَواء[1]، وهو القَفْر الخالي من كلِّ الحوائج. وإنما خصَّهم بالذكر مع أنها متاعٌ للمسافر والمقيم؛ لأنَّ المُقْوين أحوَجُ إليها من غيرهم، وأكثر نفعاً لهم وانتفاعاً بها.

ثم ختم السياق في تأنيب المنكرين بطريقة التعريض بهم، مخاطباً النبي ﷺ بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ أي: نزِّه ربَّك العظيم عما يقولون، وأعرِض عن

(١) وهي أيضاً متاعٌ لغير المسافرين؛ لأنَّ ذِكْرَ العنايةِ بالمسافرين ذوي الحاجاتِ الطارئة، يدلُّ على العناية بذوي الحاجات المتكرِّرة دَواماً من باب أولى، وهذا من روائع الإيجاز في البيان القرآني.

المشركين. وفيه تسليةٌ له ﷺ وتثبيتٌ على القيام بواجبه، على نهج القرآن في مثل هذا المقام، فهو يأمره بالصلاة عندما يشتدُّ به أمر المعارَضة من جانب المشركين؛ لأنَّ الصلاة والتسبيح علاجٌ نفسيٌّ لذلك، ولهذا كان ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ فَزِعَ إلى الصلاة، ويقول لبلال: «أرِحْنا يا بلال»[1]، أي: أقم الصلاة لنستريح فيها.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

ثم أردف هذا السياقَ بالقَسَم على حقيقة هذه القرآن، وأنه من عند الله، تـقريراً لِـمَا سبق فيه من أمر البعث وتوضيحه بالبيان، فأقسم بمظهر عظيمٍ من مظاهر القدرة في الكون، وهو النظام النجمي، وما في أبعاد النجوم من هَوْل وإعجاب، على نهج القرآن في القَسَم ببدائع الكون وعجائبه، مُلْمِعاً إلى قدرته البالغة، فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ[2] ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ[3] ﴿٧٦﴾﴾ وأيُّ إبداعٍ أعظم من نظام عالَم النُّجوم التي لا تُحصى. يسيرُ كلُّ نجم في فلكه لا يخرج عنه قِيدَ شبر، ولا يَصْطدم بآخر ملايين الأزمان، فكيف يكون شأن القرآن الذي أنزله هذا الخالق العظيم الحكيم ليَسعَدَ به البشر في دنياه وأخراه؟!

---

(١) سبق تخريجه (٤: ٤٥٠، ٥٦٥).

(٢) أي: أُقسمُ بمواضع النجوم وبُعدِها السحيقِ في السماء، ومواقعِ سقوطها ضمنَ حركتِها المنتظمة في مداراتها؛ التي لم تصل مداركَ المخاطَبين العلميةَ إلى معرفةِ عظمَتِها، وسيأتي في القرون اللاحقةِ مَنْ يكتشفُ عظمةَ مواقعِها، وإنَّ القَسَمَ بمواقعِ سقوطِ النجوم، ومواضع بُعدها السحيق في السماء، لَقَسَمٌ عظيمٌ جداً، لو تعلمون عظمتَه لانتفعتم به.

(٣) مواقع النجوم ثابتة بسنة كونيَّة، وهي التعادل بين الجذب والاندفاع الحاصل من حركتها، فثبت بذلك التعادل الاستقرار في أفلاكها، ولم تخرج عنها بتقدير العزيز العليم. (المؤلف).

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[1] قال أبو مسلم: معنى ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾: لا أحتاج أن أُقسِم. وهذا التعبير آكدُ من القَسَم. انتهى.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ اعتراضٌ قُصِدَ به المبالغة في تعظيم مضمون الجملة القَسَمية.

وقوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراضٌ في الاعتراض قُصِدَ به الزيادة في هذا التعظيم، أي: إنه ليس من الممكن أن تطَّلعا عليه اطِّلاعاً تاماً تفصيلياً لِعِظَم محتوياته.

وهذه الآية لم يُـدْرَك سرُّها إلا بعد اختراع المناظير الضخمة التي أظهرت من عجائب الكون ما كان خافياً لم تتصوَّره العقول، وقد جاء البحث عن هذا في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ [البقرة: ١٦٤]، فارجع إليه.

ووَجْه المناسبة بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه: هي أنَّ هذا القرآن عظيم النبأ جليل البيان، كما أنَّ هذه النجوم عظيمة الصنع جليلة الشان، فكلاهما لا يقدر عليه إلا الله، ومظهرٌ عظيمٌ من مظاهر صنع الله، والقرآن أعظم من الكون بكثير، لأنه كلام الله، والكون صنع الله. والله أعلم.

وقد عبَّر عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ وهو بمعنى قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ - ٢٢]، وهو شيءٌ أخبر الله سبحانه بأنه أودَعَه كتابه، ولم يُعرِّفنا حقيقته، فنؤمن به إيماناً بالغيب. ويجوز أن يكون المراد بالكتاب:

---

(١) يجوز ـ والله أعلم ـ أن يراد بالقرآن: المقروء منه والمكتوب، وبالكتاب: ما سُطِّر فيه من الصحائف، كما جاء مثل هذا في سورة المطففين، والغرض من هذا الكلام التنويه بشأن القرآن. وقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ يكون بحسب السياق تكميلاً للتنويه، وبحسب الصيغة حكم بتحريم المسِّ على غير الطاهر، على نهج القرآن في مثل ذلك. (المؤلف).

علمُ الله سبحانه. والمعنى: أنَّ ما جاء في هذا القرآن من علم وبيان هو من غيب الله سبحانه أظهره لنا. والله أعلم.

وقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ المراد به: لا يمسُّه إلا الملائكة. وهذا هو المرويُّ عن أنس(١) وابن عباس(٢) رضي الله عنهما، وهو قول سعيد بن جبير وأبي العالية وقتادة وابن زيد(٣).

وقال بعض المفسِّرين: ليس هذا الكلام على الحقيقة، وإنما هو تمثيلٌ لِعَظَمة هذا القرآن، وعُلوِّ منزلته، وتنويهٌ بشأنه. والغرض منه: بيان أنه من الله تعالى، ومن علمه القديم المكنون، وأنه هو الحقُّ والصِّدق الذي يجب أن يُتَّبع ويُعتَمَدَ عليه فيما يُحْذَر منه وما يُحثُّ عليه، لأنه هو الحقُّ المبين والصِّراط المستقيم، وهو النظام العظيم الذي يسير بالإنسانية إلى كمالها الدنيوي والأخروي، وسعادتها فيه.

ومما يحتمله المعنى ـ والله أعلم ـ: أنَّ المراد من الكتاب: نفس تراكيب القرآن وجُمَلِه، ويشير بالوصف إلى ما فيها من ازدحام المعاني، كالبحر الزاخر واكتنانه للجواهر، فاسم المفعول بمعنى اسم الفاعل، على المجاز العقلي.

والمراد بـ«المُطهَّرين»: المؤمنون العاملون منهم الذين لا يُدنِّسون نفوسَهم بما تتدنّس به النفوس، فهم الذين يُدرِكون مُجمَلَ ذلك المكنون، أو يشعرون به شعوراً عميقاً، ويعملون به بكلِّ جِدّ وإخلاص، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. هذا رأيي، والله أعلم.

---

(١) رواه سعيد بن منصور كما في «الدر المنثور» (٨: ٢٦)، ومن طريقه رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٩: ٢١٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ١٥٠).

(٣) المصدر السابق (٢٣: ١٥٠-١٥١).

ويجوز أن يُراد بكلمة ﴿مَّكْنُونٍ﴾: معناها المجازي، فتكون قرينةً لاستعارة مَكْنية، حيث شبَّه القرآن بما يُحرَزُ في الأكنَّة من الجواهر، والله أعلم. ثم بالغ في تعظيمه فحرَّم مسَّه على غير المطهَّرين.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ
ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن
كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ
وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن
كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ
﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

وبعد هذا البيان عن القرآن قرَّعهم على تكذيبهم به وتوَّعدهم عليه، وقال: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾[١] الذي ذكرت نعوته الجليلة ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: مُتهاوِنون كمَن يُدهن في الأمر، أي: يلين جانبه ولا يَتَصلَّب فيه تهاوناً به، أو تدهنون الضلالَ لأنفسكم والإضلالَ لأتباعكم حتى تنخدعوا وتخدعوا، ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ منه أي: حظَّكم من القرآن ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ به. وهذا المعنى هو المرويُّ عن الحسن[٢].

---

(١) المراد من الحديث: القرآن، والإدهان: التسهيل في إدخال الشيء الصعب بواسطة الدهن. وقد استعاره لتحيُّلهم على عقولهم وخداعهم لها في قبول تكذيب هذا القرآن، ثم بيَّن السبب في ذلك بقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تجعلون التكذيب علاجاً لبقائكم ـ بزعمكم ـ على مراكزكم وما يلابسها من سَعَة رزقكم، ورفاه معيشتكم. هذا ما ظهر لي. والله أعلم.
ولما كان من تكذيب القرآن التكذيبُ بالبعث، أنكر عليهم ذلك، وسبك الكلام على التهديد، ثم أفحمهم بالدليل الإلزامي، فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ...﴾ الآيات. (المؤلف).

(٢) كما في «تفسير الطبري» (٢٣: ١٥٦).

ويجوز أن يكون المعنى: وتجعلون سَبَبَ رزقكم وبقائكم على مراكزكم تكذيبَكم لهذا القرآن.

والرزق: كلُّ ما ينتفع به. وتوضيح ذلك: أنهم يعلمون أنَّ محمداً ﷺ على حقّ، ولكنهم يزعمون [أنهم] إن اتَّبعوه فقدوا مراكزَهم التي هي سببُ عزِّهم وثرائهم، فباعوا نعيم الآخرة بحطام الدنيا.

وقال بعض المفسِّرين: بل المراد بـ«هذا الحديث»: إنكارهم للبعث بقولهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧ – ٤٨]، وذلك لأنَّ الكلام متسلسل، فقد ردَّ عليهم وتوعَّدهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ...﴾ [الواقعة: ٤٩]، ثم ذكر دليل القدرة عليه بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ...﴾ [الواقعة: ٥٧]، وبقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ...﴾ [الواقعة: ٥٨]، وبقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ...﴾ [الواقعة: ٦٣]، ثم أقسَمَ على أنَّ ذلك كلَّه إخبارٌ من الله، وبعد ذلك قال: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الذي تتحدَّثون به من التكذيب بالبعث ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ فيه لأصحابكم، تعلمون خِلافَه وتقولونه لهم خداعاً، أم أنتم به جازمون، وعلى الإصرار به عازمون، وتجعلون شكرَ رزقكم أنكم تُكذِّبون، أي: تَضعونَ التكذيب مَوْضعَ الشكر، أو تجعلونه سبباً للبقاء على المراكز.

ثمَّ بالغ سبحانه في تأنيبهم وتوبيخهم على التكذيب بالبعث، الذي تَضمَّنه أيضاً تكذيبُهم بالقرآن، وقال[1]: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾[2] أي: فلولا تُكذِّبون

(١) هذا كلام عن الإنسان عند الموت وما بعده من أحوال البرزخ، وكان الكلام في أول السورة عن الإنسان في الآخرة. (المؤلف).

(٢) (لولا) هذه أصل معناها طلبُ حصولِ ما بعدَها، ولكنه أريد بها هنا التعجيزُ والتبكيت، =

بالبعث عند الوفاة، حينما تبلغ الروح الحلقوم، ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ الحقَّ وتشاهدونه، وتعلمون ما لم تكونوا تعلمونه قبل.

ثم قرَّر مُشاهَدةَ المُحْتَضَر للحقِّ واطِّلاعَه على ما كان ينكره قبل ذلك، فقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾[1] علماً به وبما يشاهد، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ما هو فيه؛ لأنكم لا تعرفون من حاله إلا ما تشاهدون من آثاره الظاهرة.

= والفعل المطلوب هنا المُبكَّت به هو ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ الآتي. و﴿إِذَا﴾ ظرفُ زمان بمعنى «حين» منصوب بـ«ترجعونها» الآتي، لكنه فصلَ بينها وبينَه بهذه الجُمَلِ لتصويرِ بَشاعة حال الموت لِـمَن يشاهده من أقارب المحتَضَر.

و﴿بَلَغَتِ﴾ أي: الروح المفهومة من سياق الكلام. و﴿الْحُلْقُومَ﴾: مجرى الطعام والشراب أول تناوله.

(١) المراد: ورسلنا المكلّفونَ بقبضِ روحِه أقرب إليه منكم.كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، و﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧] وهذا أسلوبٌ معهودٌ عند العرب، يقولون: بنى الأميرُ المدينةَ ويريدون بناها عُمّاله. ونسبة الفعل إلى الله تعالى تارةً وإلى رُسُلِه من الملائكةِ تارة أخرى كثير في القرآن، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] و[الأنعام: ٦١] و[الأعراف: ٣٧] و[السجدة: ١١].

ومنه أيضاً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] مع ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ۚ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

قال الأستاذ الإمام[١] في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦]: يصحُّ أن يكون من قرب الوجود، فإنَّ الذي لا يتحيَّز ولا يتحدَّد تكون نِسَبُ الأمكنة وما فيها إليه واحدة، فهو تعالى قريب بذاته[٢] من كلِّ شيء، إذ منه كلُّ شيء إيجاداً ومَدَداً، وإليه المصير[٣].

قال في «المنار»: وهذا الذي قاله الأستاذ هو من الحقائق العالية، وعليه السادة الصوفية، فقد قال أحد العلماء في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾: إنه القرب بالعِلم، وكان أحد كبار الصوفية حاضراً، فقال: لو كان هذا هو المراد: لقال تعالى في تتمة الآية: ولكن لا تعلمون، ولكنه لم ينفِ العِلمَ عنهم، وإنما قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾، وليس من شأن العِلم أن يُبصَرَ فينفي هنا إبصاره، وإنما ذلك شأن الذات[٤]. انتهى بالمعنى، وهو مذكور بنصِّه في كتاب «اليواقيت والجواهر» للشعراني[٥].

ثم انتقل إلى وجهٍ آخرَ لنقض تكذيبهم بالبعث، أكثَرَ من الأول إلزاماً، فقال: ﴿فَلَوْلَا[٦] إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: غير محكومين ومقهورين لله سبحانه وتحت أمره وسلطانه، بل كنتم مالكين لأمركم، ولا رَجْعةَ لكم إلى الله، لكنتم ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾[٧]

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تقدم التعليق على هذه اللفظة في تفسير الآية المذكورة من سورة البقرة (٢: ٢٧٠).

(٣) تفسير «المنار» (٢: ١٣٥).

(٤) المصدر السابق (٢: ١٣٥).

(٥) هو أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني الشافعي (٨٩٨-٩٧٣هـ) من علماء الصوفية، له: «أدب القضاة»، و«تنبيه المغترين». «الأعلام» للزركلي (٤: ١٨٠-١٨١).

(٦) (لولا) تأكيدٌ لـ(لولا) المتقدِّمة في الآية ٨٣: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾.

(٧) يُقال: رجعَ فلانٌ الشيءَ وأرجعَه بمعنى واحد.

أي: الرُّوح إلى البدن، ولا تدعونها تُفارِقُه بالموت ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ في أنكم غير مَدينين لله ولا رَجْعة لكم عليه.

ومُحصَّل الكلام: إن كان الأمر لكم فلِمَ تَرْضَون بقَبْض أرواحكم؟ وهذا إلزامٌ ملموسٌ ودليلٌ مُفحِمٌ بأنَّ الله سبحانه قاهرٌ لكم، مالكٌ لناصيتكم، إليه مرجعكم، فيُحاسِبكم على ما تقولون.

ويقول بعض المفسِّرين: إنَّ كلمة ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ هي العامل في ﴿إِذَا﴾ من قوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾، وهي المُحضَّض عليه بـ«لولا» الأولى، و«لولا» الثانية مكرَّرة للتأكيد، وهي وما في حيِّزها دليلُ جواب الشرط، والمعنى: إن كنتم غيرَ مربوبين ـ كما يُنبئ عنه عدم تصديقكم بإعادتنا لكم ـ فهلَّا ترجعون النفس إلى مَقرِّها عند بلوغها الحلقوم، وتمنعون الموت إن كنتم صادقين في اعتقادكم هذا!

ولـمَّا ألزمهم بهذا الإلزام الـمُتَضمِّن لبيان حال المُحْتَضَر عند الوفاة، بيَّن حاله بعد الممـات، عائداً في ذلك إلى تصنيف حال الأقسام الثلاثة الذين ذكرهم في أول السورة، وقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ[1] ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي: فرحمةٌ وراحةٌ وفَرَح، وحدائقُ ورياضٌ ذاتُ رياحين وجنَّة نعيم.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ وهذا الجواب: إما أن يكون إخباراً بتسليم بعضهم على بعض، بتقدير القول، على نهج القرآن في مثله، أي: فيقال له: سلامٌ لك من إخوانك أصحاب اليمين. أو تبشيرٌ بأنه سالمٌ لا شيء عليه؛ لأنه من أصحاب اليمين.

ويجوز أن يكون الخطاب والإخبار للنَّبيِّ ﷺ لا للمُحْتَضَر، أي: إنَّ أصحاب

(١) هم السابقون من الأصنافِ الثلاثةِ المذكورين في الآية ١٠ من هذه السورة.

اليمين - لِـمَا يرونه من الكرامة والنعيم بنتيجة ما جئتَهم به - يُرسِلونَ لك السلام رضاءً وتقديراً.

ثم ذكر الصنف الثالث، فقال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾ وهم أصحاب الشمال، ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾[1] يشربه على الزقّوم، كما مرَّ بيانه، ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ أي: إدخالُ النار وبئس المصير، وذلك بما قدَّمت يداه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وهذا الصنف هو من أصحاب الشمال، ومقابلٌ لِـمَا قبله من أصحاب اليمين، وإنما عَدَل عن التعبير بذلك إلى هذا العنوان؛ للإيذان بالعلة الموجبة، وللرمز إلى حالة الفريق الأول، وهي الإيمان والتصديق، فذكر في أحد الجانبين المسبَّب وفي الآخر السبب، ودَلَّ بالمذكور في كلٍّ منهما على المتروك في الآخر، على نهج القرآن في مثل ذلك الاكتفاء، (كما جاء في الفقرة (مكرَّر أ) من المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

ثمَّ ختم السورة بما يحثُّ على الانتباه لِـمَا جاء فيها والاهتمام به، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذُكِرَ في هذه السورة الكريمة ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾[2].

---

(١) النُّـزُل: ما يُعَدُّ للضيف النازل، ويُعجَّل به تكرمةً له قبل تهيُّؤ الطعام ونُضْجه كما تقدَّمَ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦].

(٢) ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ ما يُدرِكُه الإنسان ويتذوقُّه بحواسِّه أو وجدانه. أما «علم اليقين» فما يَعلَمُه الإنسان بالسماعِ من الخبر الصادق، أو بالبحثِ الدقيق، أو بالقياس الصحيح. و«عين اليقين»: ما يُشاهدُه الإنسانُ عياناً. وأعلى مراتب العلم هو «حق اليقين».

والمكلفون فيما أخبروا به من أمور الآخرة على هذه الدرجات: أولها: علمُهم بذلك تلقِّياً عن رُسُلِ الله سبحانه وكتبِه، وهذه الدرجة حُرم منها الغافلون حتى فاجأهم الموت. وثانيها: إذا رأوا ما وُعدوا به من الثواب والعقاب من بعيد. وثالثها: إذا باشروا ذلك فعلاً فدخلَ =

ولما كان قد ذكر فيها ما يُوجِبُ تنزيـهَه تعالى عنه، كالشِّرك والتكذيب، قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ تَنْزيهاً له عمَّا لا يليق بشأنه الجليل من عقائد هؤلاء الضَّالِّين، وتَوَصُّلاً إلى ما أعدَّه للمُحسِنين من النعيم المُقيم والفضل العظيم.

وقد ضمَّن (سَبِّحْ) معنى: استَعِنْ، وعدَّاه بالياء، لأنَّ ما جاء في السياق من حال المشركين أمرٌ يشتدُّ على الرسول ﷺ.

ويجوز أن يكون المراد: الأمر له بالصلاة؛ لأنه يصفُها له علاجاً في مواقف الشدَّة والتمكين. والله أعلم.

قال البقاعي في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ – ٨٥]، قال: أي: إن المُحْتَضَر أقربُ إلى عالم غير هذا العالم، وهو عالمُ الأرواح والملائكة، ولكنه غير محسوس لنا.

ثم نوَّر هذه القضية بحالةِ جبريل عليه السلام، ينزل على النبي ﷺ، ويَتمثَّل له رجلاً يكلِّمه ـ تارةً بكلام الرجال، وتارةً مثل صَلْصَلةِ الجرس ـ ويُدارِسُه القرآن، والصحابة حاضرون لا يسمعون كلامه، ولا يرون شخصه على الأكثر.

ثم قال في موضع آخر: إنَّ الله سبحانه جعل الدُّور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. وجعل لكلِّ دار أحكاماً تختصُّ بها ـ أي: نواميس طبيعية تختصُّ بها ـ وركَّب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان، والأرواحُ تَبَعٌ لها. وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تَبَعٌ لها. فكما تَبِعت الأرواحُ الأبدانَ في أحكام دار الدنيا، فتألَّمت بألمها، والتذَّت براحتها، وكانت الأبدان هي التي

= أهلُ الجنة الجنةَ، والنارِ النارَ، وأحسُّوا بما فيهما. من كتاب: «تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم» للشيخ عبد الجليل عيسى رحمه الله.

تباشر أسباب النعيم والعذاب، تَبِعَت الأبدانُ الأرواحَ في القبور في نعيمها وعذابها، والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم. فالأبدان في الدنيا ظاهرة، والأرواح خفيَّة، والأرواحُ هناك ظاهرة في عالمها، والأبدان خفيَّة قد استحالت.

أما الدار الآخرة فقد جعل الله الأحكام فيها على الأرواح والأبدان معاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ [التكوير: ٧] أي: بالأبدان، ولذلك كانت حياةُ الدار الآخرة أكمَلَ أنواع الحياة الثلاثة.

* * *

سورة الحديد

قيل: مكيَّة، وقيل: مدنيَّة

وهي تسع وعشرون آية

جاء في هذه السورة:

الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله، والإنفاق في سبيله.

ثم الفرق بين مصير المؤمنين والمنافقين، وما يكون بينهما من المحاورة يوم الدين.

ثم هوَّن أمر الحياة الدنيا وزهَّد فيها.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أتى بلفظة ﴿مَا﴾ دون لفظة (مَنْ) تغليباً للكثرة؛ لأنَّ غير العاقل من المخلوقات أكثر من العاقل، وقد ضمَّن ﴿سَبَّحَ﴾ معنى: خَضَع وانقاد، ولذلك عدَّاه تعديتَه.

وقال مقاتل: يعني: كلُّ شيء من ذوي الروح وغيره فيهما يُسبِّح لله سبحانه ويُنزِّهه عن الشريك والشبيه، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وتحقيق ذلك: أنَّ مؤمني العقلاء ـ وهم الملائكة وبعض الإنس والجن ـ يسبِّحون الله سبحانه قولاً وفعلاً واعتقاداً، وسائر الحيوان والنبات والجماد وكفار الإنس والجن تسبيحُها: ما أودَعَ الله سبحانه في خِلقتِها من حكمة وإبداع وإتقان وانقياد طبيعي، إذ كلُّ ذلك يدلُّ دلالةً واضحةً على خضوع سائر المخلوقات لله طبعاً، وعلى عَظَمة الخالق واختصاصه بالألوهية، وهذا هو معنى التسبيح، لا معنى له سواه[1]. وقد أشار سبحانه إلى ذلك

---

(١) تقدَّم في أكثر من موضع أن السماوات والأرض والحشرات والحيوانات والجمادات تُسبِّح الله =

بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾، لأن ما فيهما من الحكمة يدلّ على التنزيه، وهو التسبيح.

ثم تابع الكلام عن شؤونه العظيمة وأوصافه الجليلة المُؤْذنة باختصاصه بأفعال الألوهية وصفات الربوبية، فقال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إيجاداً وإتقاناً، وتدبيراً وسلطاناً. ومن أظهر مظاهر ذلك أنه سبحانه ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ②﴾ لا يُعْجِزه ولا يُعارِضه شيء.

ثم ذكر أخصَّ صفاتِهِ تعالى، وأدقَّها لدى الفهم والإدراك، فقال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ أي: الأزليُّ ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ أي: الأبديُّ، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ أي: الذي يظهر للعقل جليّاً بظهور آثاره الجليلة في سُنن الكون ومُبْدَعاته وعجيب محتوياته، فهو ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، ولكن تشخيص ذاته ليس موضع بحث، إذ لا يصل إليه عرفان، ولا تشخصه الأذهان، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ أي: الذي لا يُدرَك بالحس، ولا يبدو للعيان، ولا يتناوله الخيال مهما بالغ في الجولان، إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فهو مُحتَجِب عن الحسِّ، ظاهرٌ للعقل ظهوراً بديهياً، بآثاره الجليلة، وأعماله العظيمة النَّبيلة، فهو الخفيُّ بذاته والجليُّ بآثاره، ذلك الجلاء الواضح المكشوف، الذي عبَّرت عنه آية النّور أفصَحَ تعبير، وصوَّرته أبدعَ تصوير.

وملخَّص ذلك: أنه ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ بلا ابتداء، ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ بلا انتهاء، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بالأدلة الكونيَّة والوجدان، ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ الخفيُّ عن إدراك الحواسِّ ومشاهدة العيان، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ③﴾.

= تعالى بلسان الحال ولسان المقال، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. أما الكافر فإنه يسبِّح الله بلسان الحال لا بلسان المقال، لأنه يصف الله بكل نقص، وربما أنكره، لكن حاله وخلقته وتصرُّفاته هي تسبيح لله عز وجل.

ثم أردف البيان عن إحاطة علمه بالبيان عن عظم قدرته وجلال سلطانه، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ والمراد بها: الأدوار التي مرَّت على تكوُّن الأجرام العلوية وتكوُّن الأرض[١]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: أظهرَ سلطانه ونفوذَ سُنَنِه على هذا الكون بعد إيجاده.

ويحتمل أن تكون كلمة ﴿ثُمَّ﴾ لمجرَّد الاستئناف، أو لتفاضل شَرَفِ مضمون ما بعدها عمّا قبلها، لا للتراخي في الزمن، على أنَّ التَّراخي في الزمن يمكن أن يكون له وجهٌ مناسب، والله أعلم، لأنَّ تدبير المُلك يكون بعد إيجاده. وقد مرَّ الكلام على مثل هذه الآية في سورة الأعراف ويونس والرعد[٢] وغيرها بصورة مفصَّلة، فارجع إليه.

ثمَّ أجمل سلطانَه على ذلك الكون، ببيان إحاطة علمه فيه واطلاعه على مخافيه، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾[٣] فقد استوعبت هذه الجملةُ جميعَ الموجودات على الإطلاق.

---

(١) انظر ما تقدَّم تعليقاً (١: ١٥٠).

(٢) انظر الآية ٥٤ من سورة الأعراف، والآية ٣ من سورة يونس، والآية ٢ من سورة الرعد.

(٣) أي: يعلمُ ما يدخلُ في الأرض من المياه والأحياء الكبرى والصغرى حتى «البكتريات»، وما هو أصغر منها، ويشمل الأشعةَ والحرارة حتى أصغر جزء منها، ويشمل القوى المختلفة، ومنها الجاذبية حتى أقلِّ مقدار منها، وما يخرجُ من الأرض من الشجر والنبات والعيون والمعادن والأموات إذا بُعِثوا، ويعلم سبحانه ما ينزل من السماء من المطر والثلج والبرَد والشُّهب وأشعة الشمس والأنوار وأنواع البركات والملائكة، ويعلم كل ما يعرج في السماء صاعداً من الأرض، أو من إحدى السماوات إلى ما فوقها، حتى آخر بُعدٍ من أبعاد السماوات، من الملائكة والأرواح والدعاء وأعمال العباد، وهو سبحانه معكم بعلمِه وقدرتِه أينما كنتم، والله بما تعملون بصير، فيجازيكم على حسب أعمالكم.

ثم زاد في بيان دقَّة عِلمِه سبحانه بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ معيَّةً تليق بذاته العليَّـة وعلمه القديم، وهذا تـمثيلٌ لإحاطة ودقَّة علمه تعالى بهم وبشؤونهم وتصويرٌ له، قرَّره بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ لا يغادر كبيرةً ولا صغيرةً إلا أحصاها، ويُجازيكم عليه بالإحسان حُسْناً، وبالإساءة سوءاً.

ثم حقَّق إنجاز ما تضمَّنه الكلام من الوعد والوعيد بقوله: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾ فيُجازيكم عليها الجزاء العادل، وليس لكم من دونه وليٌّ ولا نصير.

ثم أيَّد ادِّعاء مُلكيَّته للسماوات والأرض إيجاداً وتدبيراً وقهراً وسلطاناً بالبرهان الواقع، فقال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾[1]، وذلك بالنظام الذي أودَعَه في حركة الأرض السنويَّـة واليوميَّـة، ومَيْلها على مركزها، وفيه تنبيهٌ إلى آثار نِعَمِ الله وآثار قدرته وحكمه البالغة، ودلالتها على وجوده ووحدانيَّته.

ثم أعاد ما يتضمَّن التهديد بعد إثبات قدرته، مبالغةً في تحقيق دقة إنجازه، فقال: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾ أي: بمكنوناتـها. وفيه بيانٌ لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه بعد أن بيَّن إحاطتَه بأعمالهم التي يُظهرونها بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ

---

(١) أي: يُدخِل ظلمةَ الليل في ضوءِ النهار، بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابعُ ذهابُ الليل عندَ تتابُعِ حالات الشروق، فيظهر ضوء النهار، ويُدخِل ضوء النهار في ظلمة الليل بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب النهار عند تتابع حالات الغروب.

بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

وبعد هذا البيان عن إحاطة علمه تعالى بما يُضمِرون وما يُظهِرون، أرشدهم إلى الخطَّة التي يجب أن يتَّبعوها، لينالوا ثوابَه ويتَّقوا عقابه، فقال: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾[1] أي: يخلفُ بعضُكم بعضاً بعد موته. وهذا الوصفُ لإثارةِ الزهد في هذا المال، والحثِّ على الإنفاق منه ليدَّخره له عند الله، فيبقى هذا القسم له لا لغيره من الوارثين. وفي هذا الوصف إشارةٌ جليَّة إلى حقِّ الفقراءِ في أموال الأغنياء، وقد كان سبحانه قادراً أن يُسوِّيَ بين الناس في وَفْرة رزقه، ولكنَّ الحكمة اقتَضَت التفاوت بينهم ليُسخِّر بعضهم بعضاً في الأعمال، وأوجَبَ على الأغنياء سدَّ عَوَزِ الفقراء.

---

(١) جاء عن عديِّ بن حاتم أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «إنْ طالت بك حياة لَتَرينَّ الظعينةَ ترتحل من الحيرة حتى تطوفَ بالكعبة لا تخاف أحداً، ولئن طالت بك حياة لَتَرينَّ الرجل يُخرج ملءَ كفِّه من ذهب أو فضة يطلب مَنْ يسأله منه فلا يجد أحداً يقبله منه».

أقول: يُؤذن هذا بأنَّ طبيعة الدين الإسلامي نشر الأمن في مجتمعاته إذا أُقيمت الحدود وساد العدل في الأحكام. وكذلك من طبيعته محوُ الفقر من مجتمعاته إذا أُديت الزَّكوات والصَّدقات على وجهها الصحيح، وقد كان ذلك في صدر الإسلام.

روي عن معاذ أنه بعث بثُلُث الصدقة إلى عمر رضي الله عنه، فأنكر عليه ذلك، وقال: «لم أبعثك جابياً». فقال معاذ: «ما بعثت إليك بشيء وأنا أجد أحداً يأخذه مني». ويروى مثل هذا عن عمر بن عبد العزيز مع عمَّاله زمن خلافته. فهذا هو الدين الإسلامي بطبيعته وأصوله، فأي دين أو مبدأ أحسن من هذا؟! (المؤلف).

وحديث عدي بن حاتم أخرجه البخاري (٣٥٩٥).

وفي هذه الصِّلة أيضاً تنبيهٌ على سَخَافة البخل، وذلك لأنَّ ما في أيدينا سيصير لغيرنا بعد الموت، كما صار إلينا ممَّن قبلنا. ففيه حضٌّ على الإنفاق، وتهوينٌ له على النفس، وحثٌّ على استيفاء الحظ من هذا المال بالإنفاق منه قبل أن يصير لغيرنا.

ومُؤدَّى الآية: أنَّ الله سبحانه قَسَمَ بينكم أرزاقكم بصورة متفاوتة، اقتَضَتْها الحكمة البالغة في سَدِّ الحاجات اللازمة في تطبيق نظام الاجتماع وتسخير بعضهم لبعض للحصول على ضروريات الحياة ومقتضياتها، ولأنَّ هذا النظام الاجتماعي يؤدِّي إلى انقسام الجموع إلى صنفين: غني وفقير، جَبَرَه سبحانه وتعالى بوجوب الصَّدقات، وأمر مَن أعطاه هذا المال واستَخلَفَه عليه أن يُنفِقَ منه على مَن لم يكن حظُّه مِثلَه.

ثم ذيَّل الأمر بالترغيب، وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

ثم أردَفَ الأمر بالإيمان بالتوبيخ على التفريط به، مع تَوَفُّر الدواعي إليه والأسباب المعينة عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي أوجدكم وربَّاكم، يدعوكم إلى ذلك بالحُجَج والآيات البيِّنات التي أنزلها عليه ليُخرِجَكم بها من الظلمات إلى النور، رأفةً بكم ورحمةً وفَضْلاً، ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ على الإيمان به من قبل.

وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فقد فطركم على الاستعداد للإيمـان، ومكَّنكم بفطرتكم من النظر الصحيح والاستنباط، لتُدرِكوا اختصاصَه تعالى بالألوهيَّة، وتَتَحقَّقوا ذلك من آثاره الجليلة وأعماله العظيمة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ أي: مُسْتَعِدِّين للإيمان بالمحافظة على سَلامة فِطَرِكم ونور بصائركم. ويجوز أن تكون الفاصلة لمجرَّد الحثِّ على الإيمان.

ومُحصَّل الآية: أنَّ الله سبحانه قد فَطَرَكم على الإيمان به طبيعةً، ثم أرسل لكم رسولاً يدعوكم إلى هذا الإيمان بالحُجَّة والبرهان، فأيُّ عذر لكم إذا أفسدتُم طبائعكم بمفاسد التربية وسُوء القدوة، حتى فقدتُم استعدادَكم للإيمان وأعرضتُم عمَّا يدعوكم إليه الرسول بالآيات البيِّنات والحجج الظاهرات.

ثمَّ امتنَّ سبحانه وتعالى علينا بإرسال هذا الرسول، ونوَّه بشأن هذه الدعوة، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم﴾ بها ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾[1] حيثُ لم يكتفِ بما أودَعَ في غرائزكم من الاستعداد للإيمان، ولا بما أقام لكم من الدلائل الكونيَّة، حتى أرسل لكم رُسلاً يدعونكم إلى هذا الإيمان بالحُجَّة والبرهان، فقد هداكم إلى الإيمـان بثلاثة أسباب من أنواع الهداية: الطبيعة، والعقل، وإرسال الشرائع.

ثم أردف الأمر بالإنفاق بالتوبيخ على الجهل في مآل المال ومنفعة الإنفاق، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ[2] وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولا يبقى لأحدٍ مِلكٌ في الدنيا بعد انتهاء أمرها، يشير إلى أنهم سيموتون ويُورَثون، ويموت الوارث ويُورَث، وهكذا دوالَيْك، حتى ينتهيَ أمر هذا العالم، ولم يَبْقَ له وارث إلا الله. فهَلَّا تُقدِّمون من هذه الأموال شيئاً لأنفسكم تُنفِقونه في سبيل الله، ولا تتركونها بعدكم وبالاً عليكم.

ولما كان الأمر بالإتفاق هاهنا مُوجَّهاً في الدرجة الأولى إلى القائمين بالدعوة في صدر الإسلام لينفقوا في سبيلها، بيَّن قيمة السَّبْق في هذا الإنفاق، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى

---

(١) «رؤوف» أي: يرفعُ عنكم كل بلاء ومشقة. «رحيم» دائمُ الرحمة لكم؛ أي: يجمع بينَ رفعِ البلاءِ والإحسان إلى عباده.

(٢) المعنى: أيُّ غرض لكم في عدم الإنفاق في الخير. والمراد: أطلب منكم أن تنفقوا.

مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟﴾ لأن بين الصِّنفَيْن ما بين المؤسِّس المعبِّد للطريق، وبين الذي يسير فيه بعد ذلك، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي الرفعة وعُلوُّ المكانة في الدنيا، والمثوبةُ في الآخرة، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ فلا يخفى عليه من أمركم خافية، ويجازيكم بحسبه جزاءً وفاقاً.

ويبدو من خلال الآيات: أنَّ النبيَّ ﷺ قد عزَمَ بعد فَتْح مكة على توطيد السبيل لنشر الدين في سائر بقاع الأرض، فوسَّع دعوتَه إلى الجهاد والإنفاق في سبيل الله، ولكنَّ بعض المسلمين لم يستجيبوا لهذا الإنفاق استجابةً سَمْحة، مُحتجِّين بالزَّهيد الذي كان يُنفِقُه المسلمون قبل الفَـتْح، حيثُ لم يكن عندهم مال، راغبين أن لا يزيد إنفاقُهم عما كان يُنفِقُه أولئك.

فبيَّنت الآيات الفرقَ العظيم بين ما قبل الفتح وبعده، مُنوِّهةً بفضل السابقين، حافزةً لـهِمَم اللاحقين، مُندِّدة بهؤلاء المتوانين عن الزيادة في الإنفاق بصورة هادئة من صور التوبيخ والتنديد.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

ثمَّ أردف التوبيخَ على تَرْك الإنفاق بالنَّدْب إليه بأبلغ الوجوه، فقال: ﴿مَّن ذَا

﴿ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾[1] وأيُّ لطف من عظيمٍ يُداني هذا اللطفَ من الله سبحانه وتعالى بعباده، حيث يُرشِدُ الذين أنعَمَ عليهم بفَضْلٍ من المال إلى مواساة إخوانهم، وإلى صَرْف شيء منها في المصالح العامة، ولا سيّما الجهاد، فيُبرِزُ هذا الهُدى والإرشاد بأبلغ الصُّور، ويُسمِّي نفسه مُقترِضاً؛ ليُشعِرَ قلب الغني بمعنى الحاجة التي قد تُصيبُه يوماً ما، ثم يَعِدُه بمضاعفات ذلك العطاء؟!

وأيُّ هزٍّ هذا للقلوب والعقول، وكيف يَجمُدُ قلبُ هذا العبد الذي غَمَرَه بنِعَمِه وفَضْلِه على كثير من خلقه، فتنقبض يده، ولا يستحيي من ربِّه، ولا يثق بوعده، ولا يحذر بطشه، والله يقبض ويبسط، فلو شاء أن يُغني فقيراً أو يُفْقِرَ غنياً لفعل، إذْ هو واضع تلك السّنن والهادي إليها.

وليس حضُّه تعالى للأغنياء على مواساةِ الفقراء، والإنفاق في المصالح العامة من حاجة به تعالى، أو عَجْزٍ منه سبحانه عن توسيع الرزق للجميع، بل هي هداية الإنسان

---

(١) معنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص ٥٣٨: «مَنْ ذا الذي يُنفق مالَه في سبيل الله صادقاً مُحتسباً بالصَّدقة، طيِّبةً بها نفسه، من غير منٍّ ولا أذى، فيعطيه ربُّه أجرَه على إنفاقه مُضاعفاً، وله فوق المضاعفة أجرٌ نفيسٌ رفيعٌ في الجنة؟ فَمَنْ يتعامل مع الله عزَّ وجلّ بالبَذْل في سبيله وابْتغاء مرضاته، كَمَنْ يعقد عقْداً ربوياً مُتحقِّق الفائدة البالغة أضعافاً مضاعفةً كثيرةً بالنسبة إلى رأس المال المبْذول.

وفي الترغيب بهذا التعامل مع الله سبحانه الذي يُشبه عقدَ الربا: استخدام أسلوب التربية بالتحويل لما يحبُّه الناس من فوائد ربويَّة لا يبذلون جهداً في الحصول عليها، بل هم يدَّخرون أموالهم بعقد الربا ضامنين السَّلامة، لتربوَ بنفسِها دون كدٍّ ولا تعب في أموال الناس، وتوجيهه لجهة الله عزَّ وجلّ المالك لكلِّ شيء، الذي لا تفنى خزائنه. وفيه أيضاً استخدام أسلوب التربية بالتصعيد عن الفوائد الهابطة التي تُؤْخذ من الناس، إلى الفوائد السَّامية التي يمنحها الله بفضله في العاجلة والآجلة».

إلى سُنن الله في تصنيف الناس إلى أغنياء وفقراء بمقتضى الحكمة البالغة؛ ليتَّخذ بعضهم بعضاً سُخْرياً في سَيْر الأمور الاجتماعية، وإلى وجوب عطف الغنيِّ على الفقير، والأخذ بمساعدته، ليتمَّ نظام هذا العالم الاقتصادي، ويسير النظام الاجتماعي سَيْـرَه الطبيعي الصحيح، ذلك النظام الذي أعدَّه الله بحكمته، وأرشدهم إليه بسنَّته، وحضّهم عليه برحمته.

انظر إلى القلوب العامرة بالإيمان كيف هزَّها هذا الطلب، فاندفعت إليه اندفاعاً بكُلِّـيّتها وخالص نيّتها، فقد روى الطبري عن ابن مسعود قال: «لما نزلت هذه الآية ـ أو شبيهتـها من سـورة البقرة ـ قال أبو الدَّحْداح: يارسول الله، وإن الله يريد منّـا القَرْض؟ قال النبيُّ ﷺ: «نعم يا أبا الدحداح». قال: ناوِلني يدك، فناوله يده. قال: فإني قد أقرضتُ ربِّي حائطي؛ حائطاً فيه ستمئة نخلة، ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط وأُمُّ الدحداح فيه في عيالـها، فناداها: يا أُم الدحداح. قالت: لبَّيك. قال: اخرُجي من الحائط، فإني قد أقرضتُه لربِّي»[١]. زاد غيره فقال النبي ﷺ: «كم من عِذْقٍ ردّاح لأبي الدَّحْداح»[٢].

وبعد أن بيَّن سبحانه أنه يُضاعِفُ للمُنفِق في سبيل الله أضعافاً مضاعفة، ذكر اليوم الذي تكون فيه تلك المضاعفة ضمن فوز المؤمنين، فقال: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾[٣] قال مقاتل: يكون لهم دليلاً إلى الجنة.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤: ٤٣٠).

(٢) رواه أحمد (١٢٤٨٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال مخرِّجوه: إسناد صحيح. وفي «صحيح مسلم» (٩٦٥) من حديث جابر بن سمرة: «كم من عذق معلق ـ أو: مدلى ـ في الجنة لأبي الدحداح».

(٣) أي: اذكر ـ أيها المخاطب ـ يومَ ترى المؤمنين والمؤمنات على الصِّراط، حالةَ كونهم يسعى =

وقد اختُلِفَ في هذا النور؛ فعن ابن مسعود: أنه ضياء حقيقي[1]، وقيل: بل المراد به: نور المعارف الحقَّة التي أدَّت بهم إلى العقيدة الصحيحة والأعمال الصالحة.

ويقال لهم: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

وقال بعض المفسِّرين: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم...﴾ جملةٌ مستأنفة مُركَّبة من خَبَر مُقدَّم ومبتدأ مُؤخَّر. والمعنى: وبأيمانهم كتبٌ تتضمَّن هذه العبارة: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ...﴾.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ جملةً مستأنفةً أيضاً، نوَّه بها سبحانه عن شأن ذلك الفوز.

وبعد أن بيَّن مصيرَ المؤمنين في ذلك اليوم، بيَّن مصيرَ المنافقين فيه، على طريقة القرآن في المقابلة، فقال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾، النفاق: الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من بابٍ آخر، فالمنافقون هم في الظاهر مع المؤمنين، ويدخلون من بابهم، ولكنَّهم في الباطن ليسوا معهم، وخارجون من باب آخر.

وهذا القولُ تَنْديمٌ لهم على ما فرَّطوا في أمرهم في الدنيا، يشيرون لهم بأنَّ هذا إنما حصلنا عليه بسبب ما فعلنا في الدنيا من الإيمان الصحيح والأعمال الصَّالحة، وقد فرَّطتم فيها. فهو تعليقُ الجواب بالمستحيل، وتَيْئيسٌ لهم من ذلك.

= نورُهم الخاصُّ بكلِّ واحد منهم أمامَهم؛ لكشفِ طرقاتهم، بحسبِ مقْدار إيمان كلٍّ منهم، وما قدَّم من عمل صالح. ووسيلة بثِّ هذا النور وتوجيهه بأيمانهم.

(١) انظر «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠: ٣٣٣٦).

ويجوز أن يكون تهكُّماً ضدّياً بهم، وتنبيهاً إلى ما وراءهم من الظلمة الكثيفة، وهو ما بيَّنه سبحانه بقوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين الفريقين ﴿بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ للمؤمنين ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾[1] للمنافقين.

وفي قوله: ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ إلماعٌ إلى أنَّ ساحة العذاب ليست متَّصلة به، بل بعيدة عنه، بينهما منطقة عازلة. والله أعلم.

ولا ننسى أنَّ تلك النواميس الطبيعية هناك غير ما نعرفه من النواميس، وقد اكتشفنا اليوم في الدنيا من النواميس ما يقرِّب البعيد، فلا يُعارض هذا ما يستلزم القرب من قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا في الصَّلَوات والغَـزَوات، أي: ألم نكن منكم؟ يريدونَ بذلك موافقتَهم لهم في الظاهر ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ كنتم في الظاهر معنا، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: ظهر نفاقكم بنتيجة امتحانكم واختباركم، فأهلكـتُم أنفسَكُم بهذا النفاق، ومَنيَّتموها بتلاشي دعوة الإسلام، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾[2] أي: تَرقَّبتُم أن تدور الدوائر على محمد ﷺ وأصحابه، فتستريحوا منهم، ﴿وَ﴾ ذلك لأنكم ﴿ارْتَبْتُمْ﴾

(١) يحتمل ـ والله أعلم ـ أن تكون هذه الآية عبارة عن دخول أهل الجنَّة الجنَّة، وأهل النار النار، وتُلمع إلى ما يكون بينهم من عزلة تامَّة، إلا من ناحية خاصَّة، وهي ناحية معرفة بعضهم بأحوال بعض، ومكالمتهم المحدودة التي كنَّى عنها بالباب. وضمير ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ يعود إليه أو إلى السُّور. فقد عقد المشابهة بين هذه العزلة إلا من وجهٍ خاص، وبين السور الذي له باب، على طريقة الاستعارة التمثيلية. هذا ما أراه في الآية. والله أعلم بمراده. (المؤلف).

قلت: الصواب إثبات السور والباب حقيقة، مع العجز عن تصوُّر كيفية هذا السور وهذا الباب، لأنهما من عالم الغيب. وما ذكره من حَمْل ذلك على الكناية بعيد.

(٢) كان مشـركو قريش يعتقدون في بادئ الأمر أنَّ دعوته ﷺ ستظلُّ في نطاقها الضيِّـق، فإذا ما لقيَ حَتْـفَه ـ عاجـلاً أو آجـلاً ـ تلاشت دعوته، وتفـرَّق أصحابه، وعادوا إلى دينهم. (المؤلف).

في دينه وشككتُم بنبوَّته، فلم يكن إيمانكم صحيحاً، ﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾ تلك ﴿ٱلْأَمَانِيُّ﴾ التي كنتم تُمنُّون أنفسَكُم بها؛ من زوال الإسلام وانعكاس أمر المسلمين، وظللتُم على هذه الحال ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: حتى نَزَل بكم الموت وأنتم على ذلك، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾[1] أي: غرَّكم الشيطان، فأعرضتُم عن الصِّراط المستقيم الذي يَصِلُ سالكُه إلى هذه السعادة، وسلكتُم سبيل الجحيم.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ لا سبيل إلى النَّجاة وحالُكم حالُ الكفار ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾[2] لا تبرحونها أبداً ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾[3] أي: هي أَوْلى بكم، أو هي التي تتولَّى أمركم، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ هذه النار.

فقولُه: ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾: كنايةٌ عن التيئيس من النجاة، ولا يُراد بها معناها الحقيقي؛ لأنَّ الفدية لا تُؤْخَذُ من أحد أبداً، ولكنه معنى مأخوذ من حال المُخاطَبين في الدنيا. ومن الكناية أيضاً ـ أو الاستعارة ـ قولُه: ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ

---

(١) أي: خدعكم الشيطان بتزييناتِه ووساوسِه عن طريقِ الأفكارِ تشكيكاً في دين الله، أو إبطالاً، أو جحوداً به، وعن طريق العواطفِ استثارةً لها، حتى وقعتم في المعاصي والآثام، وصارت بتكرارِها مقبولةً مستحسنةً في الأفكار، فاستدرجكم إلى الشكِّ في أحكام الله والكفر بها.

(٢) ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي: مكانكم الذي تأوون إليه.

(٣) ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾: أصل المولى هو الناصر، والمعين، فذكرَه هنا على سبيل التهكُّم حيث لم يجعل لهم ناصراً إلا النار. كما تقول للظالم إذا وقع في ورطة واستغاث بك: إغاثتك عندي رميك في النار.

﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

ثم أردَفَ هذا البيان بما يحثُّ المؤمنين بجملتهم ـ وفيهم ضعاف الإيمان ـ بأن يُديموا التمسُّك بما يُوصلهم إلى تلك السعادة، ممَّا جاءهم من عند الله ويحافظوا عليه، وإنْ طالَ بهم الأمدُ؛ لأنه مما تأنس به العقول، وتخشع له القلوب، ولا يَخْلَقُ على طول الزمن، وأن لا يكونوا كأهل الكتاب الذين قَسَت قلوبهم بطول الأمد عمَّا جاءهم من الحق.

وبنى الكلام على أساس أنَّ البشر قد ارتقى عن ذي قَبْل بثقافته وسَعَة مداركه، وأصبح أهلاً للتفكير الصحيح الوثيق في ذات الله وما يأتي من عند الله، والاستدامة على ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي: ألم يَحِنِ الوقتُ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ألم يحن الوقت للمؤمنين ـ بتكامل استعداد النوع الإنساني بسَعَة معرفته، وبعد أن تشبَّعوا بتعاليم هذا القرآن ـ أن تخشع قلوبهم لذِكرِ الله وما نَزل عليهم من الحق، فيتقبَّلوه أحسنَ قَبول، ويعملوا به على أكمل الوجوه.

ثم عطف على هذا قوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ[1] فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: خارجون عن حدود دينهم، رافضون أو تاركون لِـمَا في كتابهم من تعاليم.

وقد نبَّهتنا الآية إلى ظاهرةٍ من ظواهر الأنفس لنتَّقيَها، وهي أنَّ طول الأمد على الحوادث يُخلِقُ جِدَّتها، ويُذْهِب رُواءَها، ويُضْعِف التدبُّر فيها والمحافظة على أسرارها والحماس لها؛ لأنَّ الشيء إذا أُلِفَ هانَ أمرُه على النفوس، فلم تَرَ عظمتَه ولا ما فيه من

(١) ﴿ٱلْأَمَدُ﴾ أي: الزمن بينهم وبين أنبيائهم.

فوائد ومصالح، لذلك يَقْوى الاستمساك بالدين في أول ظهوره، ويَضْعُف بعد طول الأمد، فيحتاج إلى من يقوم بالتنبيه إلى ما فيه من ذلك الروح العظيم، لتعود النفوس إلى التحسُّس به وبعظمته.

والآية تُؤذن بأنَّ حال المؤمنين بهذا القرآن العظيم يجب أن لا يكون كحال أهل الكتاب؛ لأنَّ هذا القرآن يُهيِّئ النفوس لإمعان النظر والتفكير، ويُوجِّهها على الدوام لذِكرِ الله والتَّمسُّك بما جاء عن الله، ولا تَخلَقُ جدَّته لطولِ الأمد، بل هو إلى يوم القيامة.

وقيل: بل المراد بالآية: التنديد بصنف من المؤمنين ضُعفاء الإيمان، لم يندمجوا كلَّ الاندماج في الإسلام وواجباته، ولا سيَّما الإنفاق في سبيل الله، كما مرَّ بيانه، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ الله استبطأ قلوب المؤمنين فأعتَبَهم على رأس ثلاث عشرة سنة من مبدأ نزول القرآن(١).

ويجوز أن تكون الآية استنهاضاً للقلوب أن تُمعِنَ النَّظرَ والتَّدبُّر في هذا القرآن، وتحافظَ على العمل بما فيه، والتَّمسُّك به بصورة صادقة. والمعنى: ألم يجِئ الوقت الذي تخشع فيه القلوب ضارِعةً إلى الله سبحانه عند سماع هذا القرآن الذي نَزَل بالحق من عند الله، وفيه الذكرُ والعِظَة، فتنقاد الجوارح لأوامره ونواهيه، وتعكف على العمل بما فيه، وتَتَدبَّر أسرارَه وتحافظ عليه، ولا تزيد ولا تبتدع كما فعلت الأمم من قبل لـمَّا طال عليهم الأمد، فحَدَثت فيهم الفِرَقُ والأحزاب، وانتهى الأمر بكثيرٍ منهم إلى الخروج عن رُوح الدين ومعالمه وهُداه.

وإنَّما جاءت الآية بهذه الصيغة؛ ليكونَ النداء مُستمراً للمؤمنين في كلِّ وقت وحين.

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٨: ٥٨) لابن أبي حاتم في «تفسيره».

ثم أردَفَ هذا السياق الذي اندمج فيه التوحيد والبعث والأعمال الصَّالحة بما يُؤيِّدها ويحثّ عليها، وقد بدأ بالبعث فأيَّده بما يماثله، وقال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ أي: فكذلك يُحيي الله الموتى ويُريكم آياته.

ثم حثَّ على التفكُّر فيما انتظمه السياق من التبصير والإرشاد، فقال: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾ ما فيها وتعملون بمقتضاها، فتفوزوا بسعادة الدارين.

وقال بعض المفسِّرين: بل الآية تمثيلٌ لأثر الذكر في القلوب وحياتها به، فهي مُتَّصلة بما قبلها، وذلك أنه شبَّه إحياءَ القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث، واستعار الجملةَ الدالة على المعنى المشبَّه به للمعنى المشبَّه، وعبَّر بها عنه؛ للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة.

ثم عاد وحثَّ على الأعمال الصالحة ـ التي منها الإنفاق في سبيل الله، كما جاء في السياق ـ وبيَّن الجزاء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١٨﴾[1].

وقوله: ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ﴾: معطوفٌ على ما في ﴿ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾ من معنى الفعل؛ لأنَّ التقدير: إنَّ الذين تَصَدَّقوا وأقرضوا الله. والعطف على المعنى من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة العاشرة من المقدِّمة الثانية)، وكذلك عَطْفُ الفعل على المشتق.

وهذه الآيات مُتمِّمةٌ للآيات السابقة في الحثِّ على الإنفاق في سبيل توسيع نَشْر الدعوة.

---

(١) أي: إنَّ المُتصدِّقينَ والمُتصدِّقات، الذين يبذلون أموالهم ابْتغاء مرضاة الله في وجوه البرِّ والإحسان، وقدَّموا مالهم في سبيل الله، خالياً من رياءٍ وحُبِّ شهرةٍ، يُضاعَف لهم ثوابُ ذلك، ولهم عند الله فوق المضاعفة أجرٌ نفيس رفيع في أوصافه.

ثم حثَّ على الإيمان بالله ورُسله الذي انتظمه السياق، ورغَّب به، وبيَّن فَضْلَه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، يجوز أن يكون من الشهادة بمعنيَيْها: على الغير، أو في سبيل الله. ويجوز أن يكون من الشهود بمعنى: الحضور، ولكن على المعنى المجازي، وهو القُرب والكرامة، والله أعلم.

وقال أبو مسلم: الصِّدِّيق: نعتٌ لمن كَثُر منه الصِّدق وجَمَعَ صِدقاً إلى صدق في الإيمان بالله تعالى ورسوله، فصاروا بذلك شهداء على غيرهم، فأولئك ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم نحو الجنة. ويجوز أن يكون لهم نور خاصٌّ بهم تكرمةً وتمييزاً لهم.

ثم قابل بحالهم حالَ الذين كفروا، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾[1] لا ينفكُّون عنها أبداً.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا

---

(١) أي: والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة والجزائيَّة العقابيَّة، أولئك البُعداء المنحطُّون إلى جهة الدَّرْكِ الأسفلِ من النار، الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، هم فيها دائمو البقاء، لا يفارقونها أبداً، كما أنَّهم صمَّموا في دنياهم على أن يظلُّوا أبداً جاحدين لله، كافرين بصفاته، منكرين لرسالاته.

تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)﴾.

ثم أردف السياق بما يزيد في الحَمْل على التمسُّك به من أمر التزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، فقال: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾[١]، واللعبُ واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر كلُّها أمور مُحتَقَراتٌ عند العقل السليم، والعاقل يجعل هَدَفَه الأسمى المغفرةَ والرضوان، والنجاةَ من النيران، تلك التي نَدَبَ الله إليها ورغَّب فيها بقوله الآتي: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ...﴾.

ثم ضَرَبَ مثلاً لسرعة انقضائها وقلَّة جَدْواها، ولبهجتها عند إقبالها، وعبوسها عند إدبارها؛ بالنبات يخضرُّ فيعجب، ثم يجفّ ويصفرُّ فيزهد في النظر، فقال: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ﴾ أي: الحُرّاث[٢] ﴿نَبَاتُهُ﴾ الحاصل به، فيُرغَبُ فيه كثيراً، ويُنتَعش له، ويُزدَهَى به، وبينما هو كذلك تنتهي أيامه ويقف ازدهاره، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يجفُّ بعد خُضْرته ونَضَارته، ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ بعدما كان أخضرَ نَضِراً مُونَّقاً، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ أي: هشيماً مَسْحُوقاً. وهذا تمثيلٌ للدنيا في سُرعة تقضِّيها وتَبَدُّل حالها وقلَّة جَدْواها.

---

(١) معنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص ٥٤٠: «اعلموا ـ أيُّها الناس ـ إنَّ مُغْريات الحياة الدنيا لـمَنْ صَرَفها في غير طاعة الله منحصرة في مجالات خمسة كبرى: الأولى: أنها لعبٌ غير جادٍّ لا حاصلَ له سوى التعب، والثاني: لهوٌ شاغل عما يعني ويَهُم، ينقضي عن قريب، والثالث: مظهر جميل تتزيَّنون به، والرابع: تسابقٌ بينكم على حيازة ما به تفتخرون على غيركم، لترضوا ما في نفوسكم من واقع الكِبْر وحبِّ الاستعلاء، والخامس: مُبَاهاةٌ بكثرة الأموال والأولاد، ويلحق بهم الأنصار والأعوان والأجناد، وما يتعلق بزينة الحياة الدنيا مادياً كان أو معنوياً.

(٢) لأنهم يسترون الحَبَّ في الأرض كما يسترُ الكافرُ بالله نورَ الإيمان.

ثم أشار إلى فَخامة شأنِ الآخرة وعِظَم ما فيها من اللّذَّات والآلام ودوامها، ترغيباً في الحصول على نعيمها المقيم، باكتساب أسبابه المارَّة الذِّكر، وتحذيراً من الوقوع في عذابها الأليم، بتَجنُّب ما يُفْضي إليه، فقال: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾(١) كبير، فتَجنَّبوا الأوَّلَ، واسْعَوا للثاني، وسارِعوا إلى المغفرة من ربكم.

ثمَّ ختم الكلام عن الدنيا ببيان حقيقتها؛ مبالغةً في التزهيد فيها، فقال: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾(٢) فما مضى منها على صاحبها حُلُم، وما بقي منها أمانيُّ وخيالات. والمتاع: الشيء المؤقت، مأخوذ من متاع السفر، وأضافه إلى «الغرور» لبيان تغريره وخداعه، فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، مثل: حقّ اليقين.

وإنما تكون متاعَ الغرور لمن اطمأنَّ بها وسكن إليها، وجعلها هي الهدف الأسمى والغَرَض الأسنى، أما مَن جعلها ذريعةً إلى الآخرة فنِعْمَ السفينة ونِعْمَ الصِّراط.

وعن سعيد بن جبير: الدنيا متاعُ الغُرور إنْ ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إنْ دَعَتْك إلى طلب رضوان الله فنِعْمَ المتاع ونِعْمَ الوسيلة(٣).

ثم أردف التزهيد في الدنيا بالترغيب في الآخرة، فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن

---

(١) أي: وللناس في الآخرة ثلاثة أنواع من الجزاء: الأول: عذابٌ شديدٌ خالدٌ للكافرين، والثاني: مغفرةٌ عظيمة من الله للمتقين، والثالث: رضوانٌ من الله لأوليائِه وأهلِ طاعتِه من الأبرار والمحسنين.

(٢) أي: وما الحياة الدنيا بما فيها من لعبٍ ولهوٍ وزينة وتفاخُرٍ وتكاثُرٍ في الأموال والأولاد، إلا متاع ينتفع به انتفاعاً مؤقّتاً إلى حين، ثم يأتي عليه الفناء والزوال، وهي في حقيقتها غير جديرة بأن يُغترَّ بها، فإذا اغترَّ بها الجاهل وآثرَها على الدارِ الآخرة، وعصى الله بسببها؛ كانت بالنسبة إليه متاع غُرور، لا متاع بلاغ يتبلَّغ به إلى يوم الخلود يوم الجزاء الأكبر.

(٣) أورده الرازي في «تفسيره» (٢٩: ٤٦٤).

رَبِّكُمْ﴾ أي: لا تكن منافستكم ومسابقتكم في أُمور الدنيا ومَتاع الغرور، ولتكن في أُمور الآخرة والنعيم المقيم، ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[١] وهذا تمثيلٌ لمنتهى السَّعة؛ إذ المراد من العَرْض: السَّعة. وقد اكتفى ببيان سَعَتها عن بيان عظمتها، أي: نافِسوا وسابِقوا إلى هذه الجنة الواسعة في حجمها، والواسعة في عَظَمتـها وشأنها، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فتمسَّكوا بهذا السبب المؤدِّي إليها، وتَنافَسوا وتَسابَقوا في الحصول على أكبر حظّ منه.

ثم ختم البيان بالتنويه بشأن هذا الجزاء، فقال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ ممَّن يستحقُّونه بما كسبوا تفضُّلاً منه سبحانه وإحساناً، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ فهو يتفضَّل بما لا تحديد وراءه، ولا مَدَى لمنتهاه.

ثم أردَفَ السِّياق الداعي إلى الجنة ـ وهي محفوفة بالمكاره والدفاع عن الدين ـ بما فيه تهوينٌ لمصائب الدنيا وتبخيسٌ لنعيمها وفوائدها، زيادةً في التزهيد بها، وتطميناً للنفس في نوائبها، فقال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ[٢] فِي الْأَرْضِ[٣] وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾[٤] أي:

---

(١) السماوات والأرض في هذا الفضاء كسفينة في بحر محيط، ولا يعلم سَعَة الفضاء وما يحويه إلا الله، جلَّت عظمة الله العلي القدير. (المؤلف).

قلت: الصواب أن السماوات محيطة بالفضاء، فلا يُقال: إنها كسفينة في بحر محيط. وإنما ذكر المؤلف هذا لأنه يُفسِّر السماوات ببعض الكواكب السيّارة والأجرام العلوية العظيمة، وقد تقدّم الرد عليه في ذلك.

(٢) هنا محذوف بعد قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ يُقدَّر: أو وما أنزل من نعمة في الأرض ولا في أنفسكم. وهذا يسمَّى احتباكاً، دلَّ على هذا المحذوف قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

(٣) كالقحط، وآفات الزرع، وغلاء الأسعار..

(٤) كالأمراض، والفقر، وفَقْدِ الأهل.

من مصيبة عامَّة أو خاصَّة ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾[١] أي: إلا هي مكتوبة ومُثبَتة في علم الله، بمعنى: أنها معلومة عندنا ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾[٢] أي: من قبل أن تُخلَق وتظهر للوجود؛ لأنَّه سبحانه يعلم كلَّ شيء بعلمه الأزليِّ الأبديّ، الذي لا يغيب ولا يتغيَّر.

ثم هوَّن أمر ذلك الإحصاء، فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: حِفظَ هذه الأمور في عِلم الله مع كثرتها ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾، وقد جاء عنه ﷺ: «واعلم أنَّ ما أصابك لم

(١) أي: اللوح المحفوظ.

(٢) تُلهم الآية أن المنافقين كانوا يُهيِّجون المؤمنين ويُحزِّنونهم فيما يصيبهم من المهاجرة وأثناء المقاومة والغزوات من نقص في الأموال والأنفس والثمرات. فجاءت الآية معالجةً لهم مُبيِّنةً أن هذه الحياة مليئة بالمصائب والمهمات، مطبوعة على ذلك في حربها وسلمها. والله سبحانه قد أحاط علمُه الأزلي بما سيجري من ذلك، وأنه واقعٌ لا محالة، فعلى الإنسان أن يطبع نفسه على تحمُّلها، فلا يحزن من مصائبها حزناً يُخرجه عن الاتِّزان، ولا يفرح بمؤاتاتها ومَسَرَّاتها فَرَحَ بطرٍ وطغيان، إذ كلُّ حال منها يؤول إلى زوال، وينقلب إلى ضدِّه بتطرُّف أو اعتدال. فعلى المؤمن أن يكون قريرَ النفس، ثابتَ القلب في عُسره ويُسْره، فـ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].
ومعنى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾: من قبل أن يجريها الله سبحانه على الإنسان، بمخالفته لسنن الله الكونية، فإن المصائب في الفرد والمجموع لا تكون إلا بمخالفة نظام الله في كونه. ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]. والله أعلم.
والمصيبة في أصل اللغة: ما يصيب الإنسان من خير أو شر. ثم خصَّها العُرْفُ بالشر، فالمعنى: كلُّ ما يصيب الإنسان من خير أو شر، هو ثابتٌ في علم الله الأزلي القديم، ولا ينافي ذلك كون الأسباب الموجبة هي أعمال الإنسان نفسه وتصرُّفاته، فإنَّ ذلك مما يعلمه الله عنا من الأزل.
وإنما نبَّهنا الله سبحانه بذلك لكي نَتَعوَّد على أن نجعل للمصيبة صبراً، وللخير شكراً، ولا نهلك أسىً في الأولى، ولا نبطر أشراً في الثانية، ونفتخر على الناس ونختال، بل نحافظ على الاعتدال.
ومن لم يفرح كثيراً لموجود، ولم يحزن شديداً لمفقود، يهون عليه أمر الدنيا وما يعرض فيها من المصائب والحَدَثان، ويكون ثابتاً وقوراً عند تقلبات الأزمان. (المؤلف).

يكن ليُخطِئَك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبَك، وإنَّ لك في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وإنَّ النصر مع الصبر، والفَرَجَ مع الكرب، وإنّ مع العُسْر يُسْراً»[١]، وكان ﷺ يقول: «اللهمَّ إني أسألك اللطف بما جَرَت به المقادير»[٢].

ثمَّ ذكر سبحانه أنَّ الغَرَضَ من هذا البيان إنما هو التزهيدُ في أمر الدنيا، والاستهانةُ بحوادثها وعوارضها من خير أو شر، حتى يكون المؤمنُ ثابتَ النفس مرتكزَ الخلق في يُسْر الدهر وعُسْره، فقال: ﴿لِّكَيْلَا[٣] تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: لكيْ لا تحزنوا على ما فاتكم من نِعَم الدنيا، ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي: بما أعطاكم الله تعالى منها، بمعنى: لا يحسبون الخير لا شرَّ بعده، ولا يحسبون الشرَّ ضَرْبة لازب، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

قال المبرِّد: ليس المراد نفي الأسى والفرح على الإطلاق، بل المعنى: لا تحزنوا حزناً يخرجكم عن الاعتدال؛ لفوات ما فاتكم أو سُلِبَ منكم، ولا تفرحوا فرحاً شديداً يُطْغيكم، ودليل ذلك تعقيبُه بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[٤]، فدلَّ بهذا على أنه ذمَّ الفرحَ الذي يَخْتال فيه صاحبُه ويبطر، وأما الفرح بنعمة الله والشكر عليها فغير مذموم.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١١: ١٢٣)، عن ابن عباس رضي الله عنه. ورواه بنحوه أحمد في «مسنده» (٢٦٦٩) وقال مخرِّجوه: إسناده قوي، والترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ﴿لِّكَيْلَا﴾ تركيبٌ من ثلاثِ كلمات: لام التعليل، و(كي) التي بمعنى (أنْ) بفتح فسكون. وهي التي تجعل الفعلَ بعدَها مصدراً، و(لا) النافية. والمعنى: لعدم أساكم. أي: حُزنكم على ما فاتكم وفرحكم..

(٤) المختال: المتكبِّر بما أُوتي، والفخور: المتطاولُ المتبجِّحُ بالباطل. ومَن لا يُحبُّه الله: يَمقتُه ويَسخَطُ عليه. وهو سبحانه كذلك لا يُحبُّ كلَّ ساخطٍ يائس، بل يُحبُّ الصبورَ الشكور.

وما ذكره المبرِّد هو معنى ما روى عكرمة عن ابن عباس في معنى الآية من أنه قال: ليس أحدٌ إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا للمصيبة صَبْراً، وللخير شكراً.

فهذه الفاصلة تقرِّر نوع الفَرَح الذي طُلبَ منا أن نبتعد عنه، وصاحب هذا النوع من الفرح يستاء على ما فاته بنسبة فرحه هذا، وكلا الأمرَيْن قبيحٌ ذميم.

والغرض من الآية: تهوينُ أمر المصائب والـمَسرَّات، لا عدم التَّحفُّظ وإهمال الأسباب، لأننا لا نعلم شيئاً مما في ذلك الكتاب، ولأننا مأمورون بالسَّعي وراءَ المصالح، وبالتَّحفُّظ ممَّا يُؤدِّي إلى المضارِّ والمَهالك، كيف وإنَّ المصائب والمضارَّ التي تقع في العالم الإنسانيّ ـ سواء كانت تـتعلق بالشخص أو بالأمة أو بالمجتمع ـ ليس لها علة سوى المَيْل عن قانون الفطرة والانحرافِ عن سنن الله في هذا الكون عَمْداً أو سهواً، فهي من فعل أيدينا، ومن آثار ضلالنا وانحرافنا عما تتطلَّبه تلك السنن، وإن كان وقوعها معلوماً لله تعالى من الأزل، فعلمُه تعالى بذلك لا يُبرِّر لنا العمل، ولا يدفع العَـتْب والمسؤولية عمَّا كان منا من خَطَل وزَلَل.

والقرآن العظيم ـ الذي أنزله الذي يعلم السرَّ في السمـاوات والأرض ـ كلُّه منطبق على هذه السنن الكونيَّـة التي لا تُحصيها البحار مِداداً والأشجار أقلاماً، فهو وحده الكفيل بأن يقيَـنا من الاصطدام بها، ويحملَنا على الاستفادة منها، أنزله سبحانه رحمةً للعالمين.

ثم خصَّ هذا المختالَ الفخورَ بأخصِّ صفاته التي لها دَخْلٌ في الموضوع، وهو الـمُنْبعث عمَّا هو فيه من رِفْعة وميْزةٍ بين الناس، حيث يرى أنه لم يحصل على ذلك إلا بالمال، فيتمسَّك به ويدعو أمثاله إلى أن يعملوا مِثلَه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾[1]، وهذه خصائص غير المؤمن الصادق.

---

(١) إذا بذل غنيٌّ من الأغنياء الطيِّبين شيئاً من ماله في غاية سامية وغرض شريف، حاول كثير =

ثم بيَّن تعالى أنَّ الأمر بالإنفاق إنما هو لمقتضيات النظام الطبيعي في المجتمع، على حسب ما وضعه سبحانه بحكمته، لا عجزاً في القدرة، ولا طلباً للحاجة، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ ويَبخَلْ ويُعرِضْ عن الإنفاق، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ أي: المحمود بذاته، لا حاجة له إلى طاعة أحد، ولا إلى شكر أحد، ولكنه أمر بالإنفاق لحفظ النظام الذي وضعه بمُقْتضى الحكمة، ومراعاةً للمصالح العامّة؛ ذلك النظام الحكيم الذي يؤدِّي أن يكون في المجتمع غنيٌّ وفقير، وأمرَ الغنيَّ أن يَسُدَّ عَوَزَ الفقير؛ ليتَّخِذَ بعضهم بعضاً سخرياً، وتتمَّ مصالح الجميع.

وتُلهِمُ هذه الآيات صورةَ استشهادِ بعض المجاهدين، أو حادثٍ أليم أصاب بعض المسلمين، وكان سبباً لتقصير البعض عن سَعَة الجهاد بالمال والنفس، فعالجته هذه الآيات معالجةً نفسية، مُبيِّنةً زهادةَ أمر الدنيا وفخامةَ أمر الآخرة، ونوَّهت بالمتصدِّقين والشهداء، ونَدَّدت بالمُحرِّضين على البخل والبخلاء.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ

= من الأغنياء أبناء صنفه أن يوسوسوا له بطريق خبيثة، ليحيدوا به عن ذلك الهدف، وربما تآمروا لإحباط مَسْعاه وتحطيم مُبْتغاه، كي لا يطلب منهم ما تصدَّى له من المعروف والسماح. (المؤلف).

ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

وبعد أن طلب سبحانه وتعالى في الآيات السابقة الإيمانَ بالله وبرسله، بيّن الغرَض من إرسال الرسل وإنزال الكتب، للحَمْل على ذلك والتمسُّك به، فقال: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحُجَج والمعجزات، ندعو بهم الخلق إلى ما فيه صلاحُهم في الدنيا والأخرى، ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ليبيّن لهم الحقّ، ويُميِّز صوابَ العمل، ﴿وَ﴾ أنزلنا ﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: العَدْلَ والإتقانَ في أحكام هذا الكتاب، وفي كل شيء؛ ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾[1] وهو أدقُّ أنواع العدل والإتقان في تطبيق الأحكام بمعونة الكتاب، وفي سائر الأعمال، بما أودَعَ الله فيهم من عقل واستعداد فطريّ، وبما وَجَّههم به إلى الصَّواب في هذا الكتاب.

---

(١) هذه الآية بيانٌ للغرض من إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومحصَّله: أنَّ الله سبحانه قد جَعَل كلَّ أمر في هذا الكون متقناً موزوناً بأعدل الوزن وأدق الضبط في أكمل نظام، إذ كل شيء عنده بمقدار، وما ينزله إلا بقدر معلوم. وقد أرسل الرسل وأنزل الكتب بالتعاليم التي فيها مقاييس ذلك العدل، وموازين ذلك الضبط والنظام، ليقوم الناس بالقسط في سائر مُلابساتهم وأحوالهم، ويأخذوا كل شيء بحسب ما هو عليه في الواقع ونفس الأمر وعلى وجهه الصحيح، سواء كان متعلقاً بالمعرفة أو الأخلاق أو الاجتماع، فتكون عقائدهم في الأمور صحيحة، وتصرُّفاتهم في الأعمال صالحة ناجحة، فينتظم حالهم ويحسن مآلهم، وفي ذلك كل الخير والسعادة لبني الإنسان. وعلى هذا تكون سُنَّة الله سبحانه في تشريعاته، كسنته في بناء سماواته، موضوعة على نِسَبٍ صحيحة، ودقةٍ في الإتقان، وإحكامٍ في المقرَّرات والأحكام، وتعاطي الأمور بحسب ما يقتضيه النظام. (المؤلف).

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ لأنَّ سائر أدوات الحرب منه، فيُدافعُ به عن معارضة نَشْر ذلك العدل، ويُحمَلُ به الناس أفراداً أو أُمماً على اتِّباع الحق والإنصاف والسَّداد في أحوالهم وأعمالهم، إنْ حادُوا عن ذلك، فهو في يد الإمام العادل كمِشْرَطِ الجرَّاح الماهر، ومن المقرَّر الثابت: أن الحق لا يقوم إلا أن يُسنِده القوة والسلطان، ﴿وَ﴾ عدا ذلك فيه ﴿مَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذْ هو مادة الحدادة، ومنه عُدَدُ النجارة والزراعة وغيرهما من الأعمال الضروريَّة.

ومعنى إنزاله: إنشاؤه وإحداثه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، ونظيرُ هذه الآية قولُه تعالى في سورة الشورى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧].

ويجوز أن تكون كلمة «الميزان» مِن عطْفِ الوصفِ على الموصوف، فالميزان: الكتاب. ويَـقرُبُ من هذه الآية قولُه تعالى في سورة الرحمن: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧]، وقد مرَّ بيانه.

ومُحصَّل الآية: أنَّ الله سبحانه أرسل الرسل بالكتب المنزَّلة لإقامة الحقِّ والعدل في الأحكام والأعمال، وتنظيم العدالة الاجتماعية في العالم على أساس ما جاء في تلك الكتب من البيانات والتعاليم، وأنزل الحديدَ وبأسَه تأييداً لذلك؛ بقمع المعارضين، وتسهيل نشر الدعوة للدِّين، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ بهذا الحديد. والجملة معطوفة على مضمون ما قبلها؛ لأنَّ البأس عماد الحرب والمقاومة، أي: لدفع المعارضين، وليعلم الله مَنْ ينصُره ورسلَه بسبب إيمانهم بالغيب، وهو ما غاب عنهم من الحشر والحساب وما يتبع ذلك، أو بنشر الإيمان بهذا الغيب.

وقد مرَّ الكلام على معنى ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ في سورة البقرة عند قوله: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فارجع إليه.

وفي هذه الآية حثٌّ على نَصْر الرسل باستعمالِ الحديدِ وبأسِه؛ لأنَّ الحقَّ لا يمشي إلا بالتأييد.

ثمَّ ختم الكلام بما يُؤذِنُ أنّ تكليفهم بالجهاد في سبيل نشر الدعوة ليس لحاجة له تعالى وعَجْزٍ منه سبحانه، ولكن للجَرْي على نظامٍ اقتَضَتْه الحكمة، قد وضعَه سبحانه في تسيير شأن الخلق ودفع طغيان بعضهم ببعض، وهو اختيارهم في تصرُّفاتهم وهَدْيُهم للنَّجْدَين، فلم تكن معارضتُهم للحقِّ غلبةً ولا قهراً للإرادة، ولكن سَيْراً بمقتضى الاختيار، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه كيف عارض أكثرُ أقوام هؤلاء الرسل الكتابَ المنزَّل عليهم؛ لأنهم قد حرَّفوا طبيعتهم المستعدَّة لقَبول الحق، وأفسدوها بمفاسد التربية وسوء القدوة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: سَلْسَلنا في ذُرِّيتهما النُّبوَّة والشرائع، وقد كان من أمر قومهم معهم ما بيَّنه سبحانه بقوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من المُرسَل إليهم ـ المدلول عليهم بذكر الإرسال والمُرسَلين ـ ﴿مُّهْتَدٍ﴾ إلى الحق، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: خارجون عن الطريق المستقيم. فذكر نبياً عظيماً من الأوَّلين، ونبياً عظيماً من الآخرين، وأشار إلى ما بعدهما من الأنبياء والمرسلين بقوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾، وإنما جمع الضمير في ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾؛ ليشمل المُرسَلَ إليهم أيضاً، أو ليشمل ما بينهما من الرسل.

ومعنى (قفَّى على أثره): أتبَعَه به بعد أن مضى، فقد أتبَعَ نوحاً بمَن جاء من الأنبياء في القرون الأولى، وأتبَعَ إبراهيم عليهما السلام بمَن جاء منهم في القرون الأخرى؛ بمعنى: أرسل بعضهم إثر بعض، حتى جاء زمن عيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وقد بيَّن شريعتَه وكيف تحرَّفت، فكان ذلك داعياً إلى إرسال محمد

ﷺ، تجديداً لشريعة الله، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ من قبلُ ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾[1]، وهذا بيانٌ لجلِّ ما في شريعتهم المُضافة إلى شريعة موسى، أي: طلبنا منهم في الإنجيل أن يكونوا على هذه الصفات، ولكنهم ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي: أدخَلوا عليها بِدَعاً ابتغاءَ المصالح الدنيويَّة والسمعة والرياء، فحرَّفوا تلك الشريعة أو الرهبانية التي ﴿مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[2] ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ ولم يُـحرِّفوا؛ آتيناهم ﴿أَجْرَهُمْ﴾ الذي يَسْـتَحِقُّونه[3] على تمسُّكهم بشريعتهم على وجهها خالصةً لله.

وقد بيَّن أن هؤلاء أقليَّـة في الأمة، حيث قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: خارجون عن حدود شريعتهم بالتحريف. ينعى عليهم بذلك.

ويجوز أن يكون ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ بمعنى: أحدثوها ولم تُـكتب عليهم، ولكنهم اختـرعوها من أنفسهم ابتغاءَ مَـرْضاةِ الله، ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، وكان منهم

---

(١) أي: وَجَعَلنا في قلوبهم رِقَّةً وعطفاً، يرحمون بها حتى مَنْ يَكرهون ويُبغضون من الناس، وابْتدعوا رهبانيةً جاؤوا بها من قِبَلِ أنفسهم، وحمَّلوا أنفسَهم المشاقَّ في العبادة الزائدة، وتركِ النكاح، واستعمالِ الخشن في المطعم والمشرب والملبس مع التقلُّل من ذلك. و(الرهبانية) منسوبة إلى «الرَّهْبان» بفتحِ الراءِ وسكونِ الهاء؛ وهو العبدُ شديدُ الخوفِ من الله كـ(الخَشيان) شديد الخشية، والرهبانية: هي المبالغة في العبادةِ والانقطاعِ عن الناس، والمعيشة الخشنة، والبعد عن النساء. وتقدَّمَ الفرقُ بين الرأفة والرحمة.

(٢) أي: ما فرضناها نحن عليهم، لكنهم ابتدعوها طلبَ رضوان الله، فلم يَرْعَوا تلك الرهبانيَّة حقَّ رِعايتِها، ولم يُحافظوا عليها حقَّ المحافظة، بل ضيَّعوها في جملتِهم، وضمُّوا إليها التثليثَ والاتِّحاد، وكفروا بدين عيسى، ودخلوا في دين ملوكهم.

(٣) والاستحقاق إنما هو بحسب وعد الله تعالى لهم بمقتضى فضله، وإلا فلا حقَّ للعبد على ربِّه تبارك وتعالى.

مؤمنون حقاً، نالوا أجرَهُم مَوْفوراً، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، خارجونَ عن شريعتهم بالتأويل والتحريف(١).

ثم ختم السورة بما بدأها من الدعوة إلى الدين، وأردف الكلام بما يتضمَّن أنه أرسل محمداً ﷺ إثرَ عَبَثِ أهل الكتاب بشريعتهم، واشتـدادِ الحاجةِ إلى إرساله، وإعادةِ نور الشريعة وإشراقها، وفيه حثٌّ للأمة المحمديَّة أن لا تضيِّع كما ضيَّع أُولئك، وترغيبٌ بزيادة الأجر، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ وتمسَّكوا بشريعته على الوجه الصحيح الذي بيَّنه الله لكم، وداوِموا على ذلك، ولا تكونوا كأهل الكتاب الذين ابتَدَعوا في شريعتهم، وضيَّعوا ما فيها من حِكَم وأحكام، فإن اتَّـقيتُم ذلك ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾(٢) أي: نصيبَـيْن منها. والمراد: مضاعفةُ الأجر لهم مطلقاً، بالنسبة إلى مُؤمني أهل الكتاب، أي: فيُضاعِف لكم الأجر، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يسعى بين أيديكم وبأيمانكم، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ هفواتِكم، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى.

ويجوز أن يُراد بـ«النور»: اهتداؤهم بالقرآن وما يَنْبعث عنه من نَيْل السعادتَيْن في الدنيا والأخرى.

---

(١) والمراد: أقام فريقٌ من الرهبانِ على دين عيسى ابن مريم عليه السلام حتى أدركوا محمداً ﷺ، فآمنوا به، فآتينا الذين ثبتوا على الدين الصحيح، وعملوا بمقتضى إيمانهم؛ أجرَهم الكبير، ولكنهم كانوا قلّة، وكثيرٌ منهم خارجون عن طاعة الله، مُكذِّبون بمحمد ﷺ، لم يلتزموا بمقتضيات إيمانهم، فلهم جزاؤهم بالعدل.

(٢) أي: يُؤْتكم ـ أيها المؤمنون ـ نَصيبَيْن من رحمته: نصيباً على الإيمان به ﷺ، ونصيباً على الإيمان بالرسُل السابقين، كما أعطى الله مؤمني أهل الكتاب نصيبَيْن من الأجر: أحدهما: للإيمان بالرسول محمد ﷺ، والآخرُ: للإيمان بالرسول السابق الذي نُسخت شريعته بالشريعة المحمديَّة.

ثم علَّل هذا الوعدَ الكريم بوجهٍ من حُسْن التعليل، ناظراً إلى عقيدة أهل الكتاب بأنَّ كَرَمَ الله خاصٌّ بهم، وردَّ عليهم ذلك، فقال: ﴿لِئَلَّا[1] يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2]، وكلمة (لَا) مزيدةٌ للمبالغة في نفي متعلَّق العلم الآتي، على حدِّ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وذلك من أساليب القرآن والبلاغة العالية.

ويؤيِّد الزيادةَ قراءات: (ليعلم)، و(لكي يعلم)، و(لأنْ يعلم أهل الكتاب)[3]، ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾. أي: فعلنا بكم ذلك ليعلمَ أهل الكتاب أنهم لا

---

(١) ﴿لِئَلَّا﴾ لفظٌ مركّبٌ من ثلاثِ كلمات: لام التعليل، و(أن) الناصبة بعدها. و(لا) النافية. والعرب تجيء بـ (لا) هذه في مثل هذا المقام لتأكيد نفي سابق، أو للتمهيد لنفي لاحقٍ مع تأكيدِه في المعنى كما هنا. والمراد: أخبرَكُم الصادق في جميع أخبارِه ـ وهو الله سبحانه ـ بما سبقَ ليَعلَمَ أهلُ الكتاب نفيَ قدرتِهم على تصريفِ فضل الله نفياً مؤكّداً، فلا يطمعوا في حجز فضلِه عن نبيِّه محمد ﷺ.

(٢) الكلام محمول على المعنى، وهو من أساليب القرآن، أي: لئلا يعلم أهل الكتاب أنَّ فضل الله لا يتجاوزهم؛ لأنهم أبناء الله وأحبّاؤه كما يزعمون، ولكنه أردف وأبدل جملة: (أن فضل الله لا يتجاوزهم) بجملة: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ لاشتمالها على ما ليس في الأولى من دقائق البلاغة ونوادر الإشارة.

والإرداف من خصائص اللغة وأساليب القرآن، وهو أن يريد المتكلم معنًى فلا يعبِّر عنه باللفظ الموضوع له، بل بما هو رديفه ومتضمِّن له وزيادة، وقد ذكر هذا النوع من البديع: قدامة وابن أبي الأصبع المصري في «بديع القرآن». (المؤلف).

(٣) (لِيَعلَمَ) هي قراءة ابن مسعود وابن عباس وعكرمة والجحدري وعبد الله بن سلمة، و(لكي يَعلَمَ) هي قراءة ابن عباس في رواية أخرى عنه، و(لأنْ يَعلَمَ) هي قراءة حطان بن عبد الله. انظر: «الدر المصون» للسمين الحلبي (١٠: ٢٥٩-٢٦٠).

ينالون شيئاً ممّا ذكر من فضله تعالى على المؤمنين بالكِفلَيْن والنور والمغفرة، ولا يتمكّنون من نَـيْله، لأنهم لم يأتوا بشرطه الذي هو الإيمـان برسوله على الوجه المذكور، ﴿وَ﴾ ليعلموا ﴿أَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ممّن يستحقُّه من أيِّ أُمة كان؛ يُؤْتيه إيَّاه على وجه الفضل منه والإحسان، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ الذي لا تنتهي خزائنه، ولا يُدرك مَداه[1].

ويجوز أن يكون في الآية وجهٌ آخر، من حُسن التعليل لمضمون ما تقدَّمه، وهو نَسْخُ شريعة موسى بشريعةِ محمدٍ عليهما الصلاة والسلام، وما يتعلَّق في ذلك من مزاعم أهل الكتاب. ومفاده: الردُّ لإنكارهم أن تكون النبوّات في غيرهم من الأمم، وزَعْمِهم أنَّ موسى آخرُ الأنبياء لا تُنسخ شريعته. فنفى الله سبحانه هذه المزاعم، وبيَّن أنَّ الفَضْل بيده تعالى، يؤتيه من يشاء، لا يخصُّ به أُمة دون أُمة، ولا يقدرون على تخصيص فَضْل الله بهم، ولا يملكون حَصْر الرسالة فيهم، وهم في تلك المزاعم تائهون مُبْطلون.

وعلى هذا، فتكون الآية على حدِّ ما جاء في الآية ٨١ من سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ في أحد وجوه معناها، والله أعلم. وملائمة للآية ٥٣ من سورة النساء: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية، والله أعلم.

* * *

(١) والمراد: جعلنا الأجْرَيْن لِـمَنْ آمنَ بمحمد ﷺ؛ ليعلم أهل الكتاب ـ الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وحَسَدوا المؤمنين ـ أنه لا أجرَ ولا نصيبَ لهم من فَضْل الله، وأنَّ الفَضْل كلَّه بيد الله وحده، يُؤْتيه من يشاء من عباده، والله ذو الفَضْل العظيم، يزيدهم من فضله عطاءً فوق مجازاتهم على إيمانهم، ومضاعفة أجورهم على مقادير أعمالهم في جنات النعيم.

سُورَةُ المُجَادلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلامُ على محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فهذا هو الجزء التاسع[١]، وهو آخر جزءٍ من تفسير القرآن المسمَّى: «أَوْلى ما قيل في آيات التنزيل» لرشيد الخطيب الموصلي.

ويبتدئ بسورة المجادلة.

وهي مدنيّة، وآيها: اثنتان وعشرون آية.

جاء فيها بيان حكم الظِّهار، وكان من أشدِّ طلاق الجاهلية، وأوْعَدَ مَنْ يُخالف حكمَ الله فيه شرَّ وعيد.

وانْجَرَّ الكلام إلى المنافقين ومُناجاتهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وأمرَ المؤمنين أن يقطعوا مَوَدَّتهم، ولو كانوا أقرباءهم، لا سيّما المشركين.

* * *

---

(١) حسب تقسيم المؤلف في الطبعة الأولى من الكتاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: تتضرَّع إليه تعالى، ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي: تَراجُعَكما الكلام في ذلك، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: «كنت أسمع كلام خَوْلة، فيختفي عليَّ بعضُه مع قربي منها، وسمع الله سبحانه من فوق سماواته، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]»(١).

وهذه هي خَوْلة بنت ثعلبة، ظاهَرَ عنه زوجُها أوْسُ بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، ثم نَدِمَ، فقال لها: ما أظنُّك إلا حَرُمْتِ عليَّ، فشقَّ عليها ذلك، واستَفْتَتْ

(١) رواه أحمد (٢٤١٩٥) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

رسول الله ﷺ، فقال: «حَرُمتِ عليه»، فقالت: يا رسول الله، ما ذكر طلاقاً، فقال: «حَرُمت عليه»[١]. وفي رواية: «ما أراك إلا قد حَرُمتِ عليه»[٢]، يقول ذلك في المِرار كلِّها. إذ جَعَلت تراجعُ رسولَ الله ﷺ في ذلك، وهو يجيبها بهذا الجواب، فشَكَتْ إلى الله سبحانه بقولها: اللهمَّ إنَّك تعلم حالي فارحمني، فإنَّ لي صبيةً صغاراً، إن ضَمَمْتُهم إليه ضاعوا، وإن ضَمَمْتُهُم إليَّ جاعوا.

فأنزل الله حكمَ الظِّهار بعد أن أنكره عليهم، ووضع له حداً، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾، والظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمي. وكان الرجل في الجاهلية إذا ظاهر زوجتَه يحرم عليه قُرْبُها، وتصبح مُعلَّقة، لا زوجةً ولا مُطلَّقة. وقد كان الأزواج في الجاهلية يعمدون إلى هذا إذا ما أرادوا أن يُضَارُّوا زوجاتهم أو يبتزُّوا أموالهنَّ، أو في حالةِ غيْظٍ منهنَّ لأمرٍ ما. وقال الأكثر: كان هذا طلاقاً باتاً في الجاهلية، لا رَجْعةَ فيه، إذا غضب أحدُهم على زوجته استعمله لجاجاً[٣].

فأنكر عليهم سبحانه بقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ يُوبِّخهم ويُؤنِّبهم ويُبالغ في تـقرير ذلك بقوله: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي[٤] وَلَدْنَهُمْ﴾ ولا يُشبِهُهُنَّ في الحُرمة إلا مَنْ ألحقها الشرع بهنَّ من المُرضِعات وأزواج النبي ﷺ، فدخلن بذلك في حكم الأمهات، وأما الزوجات فأبعد شيء عن الأمومة؛ لأنَّ حال الرجل مع زوجته يَبعُدُ كلَّ البعد عن حاله مع أمه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٤٥١).

(٢) المصدر السابق (٢٢: ٤٤٨).

(٣) لجَّ في الأمر: تمادى عليه. «لسان العرب» (لجج).

(٤) «إن» حرف نفي بمعنى (ما). و«اللائي»: جمع نسوة مؤنث بمعنى (اللاتي).

ثم زاد في مبالغة الإنكار، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: المظاهرين لزوجاتهم ﴿لَيَقُولُونَ﴾ بقولهم هذا ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾[1] أي: قولاً منحرفاً عن الحق.

ثم ختم البيان بما يختم القرآن به الأحكام الواردة لقمع مفسدة من المفاسد، وهو العفو عما سلف، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾، وقد قدَّمه على بيان الحكم قَرْناً له بالتوبيخ لهم، وتعجيلاً بالتأنيس بعد ذلك الإنكار الشديد.

ثم بيَّن لهم حكم الظهار إذا صَدَر منهم، وبناه على أمرين:

الأول: أنه لا يؤدِّي إلى التحريم الباتّ، كما كانوا يعتقدون، لأنَّ ذلك زور وبهتان كما ذكر في التمهيد.

والثاني: وَضْعُ عقاب صارم عليه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾، وقد اختلف المفسِّرون في المراد من هذا العَوْد؛ فقال أهل الظاهر: المراد به العَوْدُ إلى الظهار بعد هذا المنع، وقال أكثر المفسِّرين: المراد به الندامةُ والرجوع إلى طلب مراجعة الزوجة؛ لأنَّ العَوْدَ للقول: مخالفتُه، يقال: قال فلان قولاً، ثم عاد له أو عاد فيه، أي: خالفه ونقضه، وهو قريبٌ من قولهم: عاد في هبته؛ إذا رَجَع عنها. وعلى هذا فيعودون لِـمَا قالوا بالتدارك. واللام بمعنى: «في».

ويجوز أن يكون في ﴿يَعُودُونَ﴾ تضمينٌ لمعنى: يهدمون، فعدّاها باللام التي بمعنى «على» بحسب نهج القرآن في التضمين، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية).

وقال أبو حنيفة: إنَّ الظهار من عَوائد الجاهلية، والمراد: العودة إليه في الإسلام.

---

(١) «منكراً من القول» أي: قولاً يُنكِرُه العقلُ السليم والطبعُ المستقيم والشرع القويم؛ لأن علاقة الزوجية تُبيحُ أموراً تتنافى مع علاقة الأمومة، «وزوراً» أي: كذباً وباطلاً.

وقال الأخفش[١]: في الكلام تقديم وتأخير، وتقدير الآية: والذين يظاهرون من نسائهم فتحريرُ رقبة لِـمَا قالوا، ثم يعودون إلى نسائهم[٢]. والتقديم والتأخير هو من بعض أساليب القرآن وخصائص اللغة.

ثم ذكر سبحانه الحكم بقوله: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ وقد بيّن أن هذا الحكم رَدْعٌ لهم، فقال: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: تُزْجَرون به عن ارتكاب هذا المنكر. ثم ذيَّل الكلام بما يزيد في الرَّدْع، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣﴾ فيُجازيكم عليه جزاءً وِفاقاً.

ثم تمَّم الحكم بقوله: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ الرقبة لعدم وجودها أو لعدم القدرة عليها ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ لا فاصل بينهما ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾ هذا الصيامَ لمرضٍ أو شِبْهِه، ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾ لكلِّ مسكين نصْفُ صاع من بُرٍّ أو صاعٌ من غيره. ويجب تقديمه على المسيس ـ بمقتضى السياق ـ كما في الرقبة، وبحسب أُسلوب القرآن في الاكتفاء.

ثم علَّل بيان هذا الحكم من وجه آخر، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ البيان والتعليم في حكم الظهار، إنَّما قرَّره سبحانه وتعالى ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾، وقد أقام هذه الجملةَ مَقامَ ما تُؤدِّي إليه، على نهج القرآن في إقامة الشيء مقامَ رديفه وما يتعلَّق به، والمراد: لتعملوا به ولا تستمرُّوا على أحكام الجاهلية من جَعْلِ الظِّهار أمراً قاطعاً للنكاح بتاتاً لا رجعة

---

(١) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء البلخي ثم البصري المعروف بالأخفش الأوسط، (....- ٢١٥هـ)، نحوي عالم باللغة والأدب، له: «تفسير معاني القرآن»، و«شرح أبيات المعاني»، و«الاشتقاق». «الأعلام» (٣: ١٠١-١٠٢).

(٢) انظر «معاني القرآن» للأخفش (٢: ٥٣٧).

فيه. ووَجْهُ إقامة الإيمان بالله ورسوله مقام العمل بهذا الحكم: هو أنَّ هذا الإيمان يُؤدِّي إلى العمل بالأحكام التي يُنزلها الله على رسوله للناس، وإلى الإعراض عن مواضعات البشر فيها، وأحكامهم المغلوطة.

ثم ختم الكلام بما يحمل على التمسُّك بحكم الله هذا، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي لا يجوز تَعدِّيها، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين لا يعملون بها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

وهذا وعيدٌ عامٌّ للكافرين الذين لم يعملوا بحدود الله[1]، قـرَّره بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يُعارِضونَ حدودَ الله في الظِّهار وغيره، ويتَّخذون لهم حدوداً من تلقاء أنفسهم، فيخالفون أمْرَ الله وأمْرَ رسوله المبلِّغ لهم في ذلك ويُعادونه ويُقاومونه ﴿كُبِتُوا۟﴾ أي: أُذِلُّوا وأُخزوا ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من مُشركي الأمم الماضية المعارضين لرسلهم والمعادين لهم[2]، ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحاتٍ لا تَقبل المُعارَضة والجدل، ولا تضيق عن الفهم والعمل[3]، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بها ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾ في الدنيا، يذهب بعزِّهم وكِبْرهم، وعذابٌ في الآخرة ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ إذ قد ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ عليهم ﴿وَنَسُوهُ﴾ لتهاونهم به، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ لا يغيبُ عنه أمرٌ من الأمور، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

---

(١) المراد بهم ـ كما في السياق ـ: الذين استمرُّوا يقفون موقف العداء ضدَّ دين الله وضدَّ رسوله، في السِّرِّ من المنافقين.

(٢) المراد بهم: مَنْ كان قبلهم من أهل النفاق في أعقاب غزوة بني المصطلق.

(٣) أي: وقد أنزلنا بشأن الذين أُخزوا من قبلهم آياتٍ واضحات في سورة (المنافقون) التي نزلت قبل سورة (المُجادلة)، والتي فضحتهم، وأبانت أنهم كاذبون، ولا يفقهون، ولا يعلمون، ولكنهم لم يتَّعظوا بما حصل لإخوانهم، ولا بالآيات البيِّنات الواضحات المُنَزَّلات بشأنهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)﴾.

ثم استشهد على ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، فكلمةُ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتعبير عن الأمر المتحقِّق بعبارة الظاهر المرئي إيذاناً بتأكيد تحقيقه، أي: ألم تعلم علماً يقيناً لا يقلُّ عن علم المُشاهَدة، أنَّ الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض.

ثم ذكر صورةً من عِلمِه تعالى تتعلَّق بأدق الكيفيَّات، ساوَقَ بها عِلمَه الذي جاء في مبدأ السورة عامة، وعن المنافقين المُحادِّين لله ورسوله، وجعلها تمهيداً لِـمَا بعدها، فقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ معيَّةً تليق بذاته الكريم، منزّهةً عن التجسيم، مصحوبةً بعلمه العظيم، وكرسيِّه الكريم، يعلم ما يجري بينهم ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ ولو في أخفى مكان، فهو يحصي عليهم ذلك، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تفضيحاً لهم، وإظهاراً لِـمَا

يوجب عذابهم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾. وقد ذكر سبحانه هذه الصور النادرة؛ ليدخل فيها ما عداها بطريقة الأَوْلى.

وقد بيَّنوا للتصريح بذِكرِ الفرد دون الزوج في عدد المتشاورين وجهَيْن:

الأول: أنه إشارة إلى كمال الرحمة، وذلك لأنَّ الثلاثة إذا اجتمعوا، فإذا أخذ اثنان في التناجي والمشاورة بقي الواحد ضائعاً كئيباً، فلطَّفه سبحانه وقوَّاه، وكذلك الخمسة.

والثاني: لبيان أنَّ أرباب المشورة أياً كانت، لا بد أن يكون عددهم فرداً؛ ليكون الفرد كالوسيط والحاكم بين الأزواج المتناظرة، والله رقيبٌ عليهم، إذ التناجي يشمل المشورة.

والذي أراه أن إضافة الواحد إلى العدد يُناسبُه أن يكون العدد فرداً حتى يكون به زوجاً، والله أعلم، فالكلام موافقٌ للواقع والعادة وعرف التخاطب، ويجوز أن نجمع بين جميع الآراء.

والغَرَضُ من هذه الآية: تصويرُ دقَّة علم الله سبحانه واطلاعه على شؤون الخلق، تحذيراً وتخويفاً. وقد جعلها سبحانه تمهيداً للنهي عن النَّجْوى، وتعريضاً بحادثة وقعت وتكرَّرت من المنافقين واليهود، فإنهم كانوا يتناجَوْن فيما بينهم ويتغامزون إذا رأوا المؤمنين، فنهاهم رسول الله ﷺ، ثم عادوا لمثل فِعلِهم، فأنَّبهم سبحانه وتوعَّدهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾، ويطلق «الإثم» على كلِّ ما فيه ضررٌ أو فواتُ منفعة، أي: يتناجَوْن بما فيه ضررٌ وكَيْدٌ وعدوانٌ للمؤمنين ومعصيةٌ للرسول، لأنه نهاهم فلم ينتهوا.

ثم ذكر لهم قبيحة أخرى، فقال: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يَلْوُونَ ألسنتَهم بها دسيسةً منهم أو معارضةً لتحيّتك، فيقولون: السام عليك، بتدليس اللام

وإخفائه، توريةً بالسموم، أو يقولون: أنعِمْ صباحاً، وهو غير ما وُضِعَ للمسلمين من تحية، ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: فيما بينهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: هلَّا يُعذِّبنا الله بهذا لو كان نبياً، بمعنى: لو كان محمدٌ رسولاً كما يدَّعي، فلِمَ لم يُعذِّبْنا الله بالاستخفاف به. فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿حَسْبُهُمْ﴾ عذاباً ﴿جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ أي: يكفيهم عذاباً إصلاؤهم في جهنَّم، فهي بئس المصير والقرار.

ثم أدّب المؤمنين بما فيهم ضُعَفاءُ الإيمان، ونهاهُم عن مثل ذلك، وأمرهم أن يفعلوا ضدَّه، على نـهج القرآن في المقارنة بين النهي عن الشيء والأمر بضدِّه، تأكيداً للأمر وتعريضاً بالـمنافقين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾، وقد جاء البحث عن النَّجوى بالبرِّ والتَّقوى في سورة النساء عند قوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ [النساء: ١١٤]، فارجع إليه.

وقد أكمَلَ هذا البحثَ ما جاءَ عنه ﷺ في أدب النَّجْوى، وهو قوله عليه السلام: «إذا كنتم ثلاثةً فلا يتناجى اثنان دون الآخر، حتى يختلطوا بالناس، فإنَّ ذلك يُحزنه»[١]. وفي حكم التناجي: التحدُّث بلغة أجنبيّة، فالحكمُ هو الحكم، والإثمُ هو الإثم.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ الباعثَ لـهؤلاء المنافقين إلى هذه النَّجْوى وغرَضهم منها إنَّما هو إحزان المؤمنين، وأدمَجَ فيه تثبيتَهم تجاه ذلك والتهوين عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أي: إنما كانوا يتناجون هكذا بدافع من الشيطان، يدفعهم إليه، ﴿لِيَحْزُنَ[٢] ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من نَجْواهم؛ إذ يقع في قلوبهم أنهم يَتَناجَوْن بما بلغهم

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) ﴿لِيَحْزُنَ﴾ حَزَنه، يحزُنه، بوزن: قتله يقتله، أي: أدخل عليه الحزن.

عن أقربائهم الذين خرجوا إلى الغزوات من سُوءٍ، وربما كانوا يعقدون الحلقات الخفيَّة في وَضْع خُطط الكيد والفساد، فهوَّن سبحانه أمْرَهم، ووَهَّى كَيْدَهم بقوله: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، والاستثناء منقطع، وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

ثم ثبَّتهم بقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: فلا يبالوا بنَجْواهم ولا يهتمُّوا به، فهم في رعاية الله وعنايته.

وبمناسبة كَوْن هذه النَّجوى تقع في مجلس رسول الله ﷺ، وربما كان المنافقون يُخِلُّون قَصْداً بآداب المجالسة، أكملَ سبحانه تأديبَ المؤمنين بآدابِ المُجالَسة، مُعَرّضاً بالمنافقين أيضاً، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مجالسَكم في الجنة، ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ أي: انهضوا للتوسعة على المُقْبلين، ﴿فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ قال قتادة: كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله ﷺ، فإذا رأوا مَنْ جاءَهم مُقبِلاً، ضنُّوا بمجلسهم عند رسول الله ﷺ، فمدحَهم سبحانه على حِرصِهم في العلم والتعلّم، وأمرهم أن يفسح بعضُهم لبعض، وأن يُوسِّع بعضهم لبعض، ووعدهم على ذلك برفع درجاتهم في الجنة، كلٌّ بنسبته(١).

وقيل: بل المراد من رفع درجات أهل العلم: بيانٌ لكيفيَّة قُربهم من رسول الله ﷺ، فقد أمره سبحانه أن يُقرِّب العلماء من فوق المؤمنين الذين ليسوا بعلماء؛ لأنَّ في تقريب العلماء نفعاً عظيماً للأمة بأسرها، إذ تكثرُ استفادتهم ويُتقِنون معلوماتِه بقُربهم منه ﷺ، وينشرون ما يتعلّمونه بين الناس على وجهه الصحيح.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٥: ٤٤).

ثم ختم هذا الأدب بما يحمل على التمسُّك به، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ثم أدَّبهم بأدبٍ آخر وقتيٍّ في مجلس رسول الله ﷺ، اقتضَتْه ظروفٌ مُوقَّتةٌ قاضيةٌ بتكثير الصَّدقات، أو بتخفيف المناجاة مع رسول الله ﷺ، وربما كان للمنافقين لجاج متقصَّد في السؤال، فأدَّبَ المؤمنينَ عموماً بهذا الأدب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ أي: فتصدَّقوا قبل أن تُناجوه. قال قَتادة: وكانت الصدقة مُفوَّضةً إليهم غير مُقدَّرة.

وفي هذا الأمر تعظيمُ الرسول ﷺ، وانتفاع الفقراء، والزَّجْر عن الإفراط في السؤال، والتمييز بين المؤمن والمنافق، ومُحبِّ الآخرة ومُحبِّ الدنيا، في أنَّ الأول يمتثل، والثاني لا يمتثل ويُراوغ. وهذا اختيارٌ وتدبيرٌ وقتيٌّ اقتضَتْه الظروف. وقال بعض المفسِّرين: إن القضيَّة تُلهِمُ أن المسلمين كانوا يراجعون النبيَّ ﷺ في غير المجالس العامّة، لحلِّ مشاكلهم الخاصَّة، ومنهم مَنْ كان يطلب خَلْوةً أو مجلساً خاصاً لذلك كما يقتضيه مفهومُ ﴿نَٰجَيْتُمُ﴾ و﴿نَجْوَىٰكُمْ﴾، وإن ذلك قد كَثُر، فاقتضَت الحكمة أن يُفْرَضَ على الأغنياء منهم رَسْمٌ يُحصَّل ليُصْرَفَ في أُمور المسلمين العامة.

واختلف في أنَّ هذا الأمر للندب مطلقاً، أو للوجوب ونسخ بقوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ...﴾، لأنَّ قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ يُشعر بالندب، ويُشْعر بأنَّ المنافقين قد استغلُّوه وافترَصوه، وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ يُشعر بالوجوب.

وقد قال مقاتل: بقي هذا التكليف عشرة أيام[1]، ثم رُفعَ بقوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟﴾ أي: لم تُناجوا خشية الصدقة، ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأنْ رَخَّص لكم أن لا تُقدِّموا بين يدي نجواكم صدقات. وفيه إشعارٌ بأن إشفاقهم من تقديم الصدقة ذنبٌ تجاوزَ الله عنه، وأمَرهم أن يقوموا بما يقوِّي إيمانهم، وقال: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدُّوها مُقامةً كاملة، وذلك بإشعار القلب بخشية الله فيها ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ ثم حثَّ على التمسُّك بذلك، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٣﴾.

والخطاب في قوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ للمجموع باعتبار البعض، وذلك من خصائص اللغة، ويجوز أن يكون من هذا البعض: الفقراء وضعاف الإيمان والمنافقون، والله أعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٥ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٦ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١٧ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ۝١٨ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝١٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾.

ثم عادَ بالكلام إلى سَنَنِهِ السابق في المنافقين بجملتهم الذين أنَّبهم على نَجْواهم المُحْزِنِ للمؤمنين، فذكر لهم قبيحةً أُخرى هي أنكى من الأولى، وهي اتِّخاذهم اليهودَ أولياءَ يناصحونهم، وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ويجتمعون معهم على مَسَاءتهم، فعَجَّب سبحانه منهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ أي: وَالَوْا ﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨: ٨٤).

وهم اليهود. ثم نصَّ على نفاقهم فقال: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: ولا من اليهود، وإنما هم منافقون مُذَبْذَبون، لا يُخْلِصون لكم ولا يُخْلِصون لهم، ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ[1] وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: يحلفون كذباً أنهم منكم لِيُرضوكم، وهم يعلمون نفاقهم في ذلك.

وهذا القيد لزيادة التشنيع عليهم، فإن الحَلِفَ على ما يُعلَمُ أنه كذب في غاية القبح. وفيه دلالةٌ على أنَّ الكذب يعمُّ ما يعلم المُخْبر عدمَ مطابقته للواقع وما لا يعلمه، والأول من أشنع الكذب وأخزاه، وهي اليمين الغموس تَغْمس صاحبها في النار، أعاذنا الله.

ثم توعَّدهم بما سَجَّل عليهم بقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وقد علَّل ذلك ونعى عليهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: إنما اكتسبوا هذا بسُوء أعمالهم وكفرهم وعنادهم.

ومن ذلك أنهم ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: سُتْرةً وتُرساً يدفعون بها التهمة عن أنفسهم إذا ظهرت منهم الريبة، ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم في مأمنٍ تحت هذا السَّتر من النفاق والأيمان الكاذبة، يقنعونكم بها أنهم منكم، ﴿فَلَهُمْ﴾ بذلك ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾، وهذا وعيدٌ ثانٍ بوصفٍ آخر لعذابهم.

ثم بالغ في توعُّدهم، فقال: ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، وفي هذا زيادةٌ لوعيدهم وتهكُّمٌ بهم على ما يعتزُّون به، وقَرَنه بالتسجيل عليهم بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) أي: يحلفون الأيمانَ الكاذبة على موالاتكم، للإغراء بتصديقهم، فيجعلون الأيمان أغطيةً على الكذب لسَتْر كونه كذباً، ولخداعِ المؤمنين بأنه صدق.

ثم ذكر ذلك اليوم الذي يُصيبهم فيه هذا العذاب، وهو اليوم الآخر، وحكى كيف يظنُّون أنَّ نفاقَهم يروج أيضاً فيحاولونه حينئذ، فقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ مع كافَّة الناس، ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا أنهم مسلمون، وأنهم يعملون ما يعملُه المسلمون، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ﴾ بتلك المحاولة ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ كما كانوا عليه في الدنيا، يُروِّجون نفاقَهم بأيْمانهم، ويدفعون عن أموالهم وأرواحهم، أو يحسبون أنَّ ما كانوا عليه من الإيمان المزيَّف يفيدهم شيئاً، فأنَّبَهُم وخَيَّبهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ أو الخائبون؛ من قولهم: كذب ظنُّه؛ إذا خاب أمَلُه. وإنما أكَّد الجملة بهذه المؤكِّدات المتعدِّدة المُقْتضية لحصْر الكذب فيهم، تهويلاً له، وإيذاناً بأن كلَّ كذب بالنسبة إليه ليس بشيء.

ثم بيَّن مصدر فعلهم هذا، فقال: ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ أي: استولى وتسلَّط ﴿عَلَيْهِمُ الشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ وعذابَه، ﴿أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَٰنِ﴾[1]، ثم أنَّبهم وسجَّل عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَٰنِ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ في الدنيا بفشلهم وخَيْبتهم وذلِّهم وهوانهم، وفي الآخرة باستبدالهم النعيمَ المقيمَ بالعذاب الدائم الأليم.

ثم توعَّدهم بما جرى على أمثالهم من المُحَادِّين في الأمم الماضية من الخذلان أمام المؤمنين ونَصْرهم عليهم، ذكر ذلك بهذا البيان العام، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: إنَّ الذين يعارضون حدود الله ويخالفون أوامرَه ويقاومون رسولَه هم من المغلوبين لا مَحَالة، حسب سنن الله تعالى في كونه؛ إذ قد

(١) أي: أولئك البُعداء عن رحمة الله، المنحطُّون في الدَّركات حزبُ الشيطان، لأنه هو قائدهم ومُوَجِّههم، وواضع براجمهم، تلاقوا على مبادئ وعقائد وأهواء وأعمال جرَّهم الشيطان إلى سلوكها.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾(١) و﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ لا يكون إلا ما يُقدِّر وما يريد بحسب سُننه، ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم حذَّر المؤمنين من موالاة هؤلاء المُحادِّين، ونَدَبَهم لمقاطعتهم بهذا العزم الأكيد في هذا النظام الشديد المُؤذِن بأنه يجب تحمُّل الصعوبات والمضار الشديدة في سبيل نَشْر الدعوة، وصاغ العبارة بصورة الخبر الواضح مبالغةً في تقريره، فقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: لا تجدُهم وادِّين أعدءَ الله ولو كانوا أقرب أقربائهم. والمعنى: لا تجتمع موالاتهم الكفارَ في الدين مع الإيمان، إذا كانت مولاةً تجرُّ إلى الضرر في الدين.

وقد جاءَت هذه الآية علاجاً لنفوس بعض المهاجرين الأوَّلين، وما اعترتهم من أزمات إزاء ذوي أرحامهم وبني قومهم من الكفار الذين انقلبت الصِّلات بينهم من المدَى، وتمهيداً لأخوّة جديدة تقوم على أساس مبادئ الدين الإسلامي.

---

(١) أي: قضى الله قَضاءً ثابتاً في اللوح المحفوظ، لأغلبنَّ أنا ورُسلي، والمؤمنون الصَّادقون المتّبعون لرسلي، وهذه الغلبة تكون بظهور الحقِّ ظهوراً فكرياً بالحُجَّة والبرهان، أو بالتجربة العمليَّة، ومُمارسات الحياة التي تكشف أنَّ ما جاء من عند الله تعالى، وبلَّغه رسلُ الله عليهم السلام حقٌّ وصدقٌ، وفيه نفع وسعادةٌ للناس، وإما أنْ تكون الغَلَبَةُ بظهور الحقِّ على الباطل ظهوراً فكرياً وعسكرياً معاً، فيكون لحَمَلَة رسالة الله في الأرض الظهور والفتح المبين، والسلطان والتمكين.

ثم أجرى الكلام على السَّنَنِ السابق، وقابل مصيرَ المُحَادِّين وذلَّهم وخِذلانَهم، بمصير المؤمنين وعزِّهم ونُصرتهم عليهم، وفَوْزهم بسيادة الدنيا وسَعَادة الأخرى، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين لا يوادُّون مَنْ حادَّ الله ورسوله ولو كانوا أقربَ الناس إليهم وأمسَّ رَحِماً بهم: هم الذين ﴿كَتَبَ﴾ الله وأثبت ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾[1] ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ﴾ وهو إنارة قلوبهم بنور القرآن، فبذلك قَوِيَ عزمُهم، ونُصِروا على أعدائهم المُحادِّين.

وقيل: بل الضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ يعود إلى الإيمان، أي: بروح من الإيمان. والإيمان روحٌ للقلوب وحياةٌ لها.

وبعد أن بيَّن جَزاءَهم في الدنيا، ذكر جزاءَهم في الأخرى، فقال: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾.

ثم ذكر أعلى الجزاء الأُخروي الذي سينالونه، وهو رضوانُ الله الأكبر، فقال: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ لما قاموا به من صالح الأعمال على الوَجْه الذي أراده سبحانه، ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ بما أعطاهم جزاءً لأعمالِهم ممّا «لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر». اللهمَّ اجعَلْنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم قابل نتيجةَ حزبيَّتهم بنتيجةِ حزبيَّةِ المنافقين، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ أي: الفائزون بسيادة الدنيا وسَعادة الآخرة.

* * *

---

(١) أي: دخل الإيمان في عُمق قلوبهم، حتى احتلَّ أعمق مراكز عواطفهم، فكتب الله كلمات الإيمان في قلوبهم بقضاء مُنْجز، فهي مؤمنةٌ مُوقنة مُخلصة.

سُورَةُ الحَشْر

مدنيّة، وهي أربع وعشرون آية

نزلت هذه السورة في غزوة بني النَّضير من يهود المدينة، وكانوا قد نقضوا عَهْدَهم مع النبي ﷺ، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة فأبَوا، فحاصرهم المسلمون حتى رضوا أن يخرجوا من المدينة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم
بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ
لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ
فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ
وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أما تسبيح العقلاء فباللسان والجنان، وأما تسبيح الحيوان والنبات والجماد فبدلالتها على عَظَمة الخالق، بما فيها من حكمة وإبداع يدلان على اختصاص المُبْدع سبحانه بالألوهيَّة[1]، وذلك هو معنى التسبيح[2]،

(١) الصحيح في اللغة أن يقال: الإلهية. لأنه مصدر صناعي.

(٢) بل الحيوان والنبات والجماد يُسبِّح لله تعالى عن معرفة به، وعن نُطق صادر عنها، وذلك حقٌّ وحقيقة، وليس من باب المجاز، أو دلالة الحال دون مقال، كما سبق في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكما تقدَّم في قوله تعالى فيما أكرم به نبيَّ الله داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]. ثم إن العموم المفهوم من قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعمُّ جميع الكائنات؛ من حيوانات ونبات وجماد، فكلُّها تسبِّح لله تعالى حقيقةً على وجه مناسب لها.

وقد أشـار إلى ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾، لأنَّ أثر القدرة والحكمة في مخلوقاته هو الذي دلَّ على توحيده وتنزيهه. وكذلك مهَّد بهذين الوصفَيْن لما يأتي من إخراج الكفار من ديارهم.

وقد ذكر المفسِّرون أن السورة نزلت في بني النَّضير، وهم طائفة من اليهود كانت محلَّتُهم على مَقرُبة من قباء، وفرسخَيْن من المدينة، كان النبيُّ ﷺ صالحهم عندما دخل المدينة أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، فلما غزا بدراً وظهر على المشركين، قال بنو النَّضير: والله إنه النبيُّ الأمِّيُّ الذي نجد نَعْـتَه في التوراة، لا تُـرَدُّ له راية. فلما غزا أُحُداً وهُزم المسلمون، ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، ونقضوا العهد، وخرج رئيسهم كعب بن الأشرف في أربعين راكباً منهم إلى مكة، فأتوا قريشاً فحالفوهم على أن تكون كلمتُهم واحدةً على محمد ﷺ، وعقدوا الميثاق بين أستار الكعبة.

ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة، فنزل جبريل عليه السلام، فأخبر النبيَّ ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان، وأمره بقَتْل كعب بن الأشرف، فقتله محمدُ بنُ مَسْلَمة غيلة[1].

ثم توالت منهم الخيانات حتى طفح الكَيْل من دسائسهم ومكائدهم وإضرارهم بكيان المسلمين، وخشي النبيُّ ﷺ أن يكونوا خطراً عليه، فأرسل إليهم إنذاراً بالجلاء على أن يأخذوا أموالهم، ويقيموا وُكَلاء على بساتينهم ومزارعهم حتى تنتهي، ولكن المنافقين أرسلوا إليهم يُحرِّضونهم على الرفض، ويَعِدُونهم بالنصر والمعاونة، فتشجَّعوا

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «مَن لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله ﷺ؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا، فأتاه...»، رواه البخاري (٢٥١٠)، ومسلم (١٨٠١)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وعَصَوْا، فلما كان من الغد صبَّحهم بالكتائب، فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وأيسوا من نصر المنافقين، فسألوا رسول الله ﷺ الصُّلح، فأبى عليهم إلا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به، فقبلوا، فصالحهم على الجلاء، وعلى أنَّ لهم ما أقلَّت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فخرجوا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام، إلا أهل بيتَيْن منهم: آل أبي الحقيق، وآل حُيَيِّ بنِ أخطب، فإنهم لحقوا بخيبر، ولحقت طائفة بالحيرة(١).

وفي رواية: فصالحهم النبيُّ ﷺ على أن يخرجوا منها، ولكلِّ ثلاثةٍ منهم بعير، يحملون عليه ما شاؤوا من مال وطعام وشراب ليس لهم غيره، واحتمل اليهود وعلى رأسهم حُيَيُّ بنُ أخطب، فنزل خيبر منهم مَنْ نزل، وسار آخرون إلى أذرعات بالشام، وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من غِلالٍ وسلاح وغيره.

ثم كان ممَّا خلَّفت اليهود من الأرض التي يملكونها خير ما غنم المسلمون، وذلك قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو النضير ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي: لأولِ ما وَصَلَهم حَشْرُك، ولم يقاوموا، أو لأوَّل حشر أخرج. والحشر: إخراج جَمْعٍ من مكان إلى مكان. ويجوز أن يُراد من أول الحشر: الحشر الذي وقع على اليهود زمن الرسول ﷺ، وآخر الحشر: إجلاء عمر رضي الله عنه يهود خيبر، ولم يبقَ يهوديّ في جزيرة العرب. فقد كان إجلاءُ بني قينقاع وبني النَّضير هو أولَ إجلاء أجلاه المسلمون لبعض من خافوا من شرِّهم من أعدائهم الذين بين ظهرانيهم، ثم أَجْلَوا إخوانهم من اليهود من خيبر وغيرها زمن عمر رضي الله عنه.

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٤٩٨-٤٩٩). وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٣: ٤٣٧- ٤٣٨): هو في «تفسير الثعلبي» هكذا من غير سند.

قال ابن إسحاق: كان إجلاءُ بني النَّضير مرجعَ النبي ﷺ من أُحُد، وفتحُ قريظة مرجعَه من الأحزاب، وبينهما سنتان، وقد كان إجلاءُ بني قينقاع مَرْجِعَ النبيِّ ﷺ من بدر، وجاء من أخبارهم في سورة آل عمران والمائدة أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ...﴾ بيانٌ لبعض آثار عزَّته وحكمته، إثرَ وَصْفه تعالى بالعزَّة القاهرة والحكمة البالغة في الآية السابقة، وضمير ﴿ هُوَ﴾ راجع إليه تعالى بذلك العنوان.

ثم أكمل ذلك البيان بقوله: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ لشدَّة بأسهم ومَنَـاعة حصونهم، ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ هم أيضاً ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من بأس الله، وذلك لكمال وثوقهم بحَصَانة حُصونهم واعتقادهم أنهم في عزَّة ومَنَعة، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمرُه وقَـدَرُه ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقد أخْرَبَها المؤمنون من الخارج قبل الاستيلاء عليهم ومُصالحتهم على الجلاء، وذلك بحسب مُقْتضيات الحرب وفنونه، ودواعي الاستيلاء وشؤونه، وبعد أن صالحهم النبيُّ ﷺ على الجلاء، أخذوا هم أيضاً يُخْرِبون بيوتهم بأيديهم من الداخل، كي لا يبقى بعدهم فيها للمؤمنين ما يستحسن من المرافق والمشتملات.

وقال بعض المفسِّرين: ليس المعنى على الحقيقة، وإنما هو على المجاز، فقد أخربوا بيوتهم، أي: أوقعوا أنفسهم بالكارثة العظمى عندما نقضوا الموادَعة مع النبي ﷺ، وأخربوها بأيدي المؤمنين عندما تعرَّضوا لمقاتلتهم(١).

وقـد حسَّـس سبحانـه إلى ما في ذلك من عبـرة، وقـال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ بما جرى عليهم من الأمور التي منها الجلاء.

---

(١) وهذا بعيد من حيث مخالفته لدلالة السياق، وهو مخالفٌ أيضاً لأخبار السيرة النبوية في هذه القصة، فالقول الأول هو المعتمد.

﴿وَ﴾ لكن ﴿لَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ﴾ هذا ﴿ٱلْجَلَآءَ﴾ عن أوطانهم بذلك الوَجْه الفظيع ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقَتْل والسَّبْي كما فعل ببني قريظة بعدهم، فأمر بقتلهم لخيانتهم العظمى، فقتلهم رسول الله ﷺ. هذا عذابهم في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾ خالدين فيها أبداً.

ثم علَّل هذا الجزاء بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ من المشاقَّة، بمعنى: المُخالفة والمُعاكَسة، إذ كانوا قد تَعاهَدوا مع النبيِّ ﷺ على أن لا يكونوا له ولا عليه، فلما انهزم المسلمون يوم أُحُد نكثوا أَيْمانهم، وذهب قائدهم كعب بن الأشرف إلى مكة، وحالَفَ قريشاً على حرب رسول الله ﷺ، فقاتلهم الرسول وانتصر عليهم، وأجْلاهم إلى سورية كما تقدّم بيانه، ثم ذيَّل الكلام بقوله: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾، وهذا حكمٌ ووعيدٌ معاً.

ولما أمر ﷺ بحربهم والسَّيْر إليهم، تَحصَّنوا منه بالحصن، وحوله الأشجار الباسقة، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل وتحريقها، بمقتضى الأمور الحربيّة وشؤونها، ولكي لا يبقوا في شدَّة تعلّقهم بأموالهم يتحمَّسون للقتال، فجزعوا من ذلك فنادوا: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفحشاء، فما بالك تقطع النخل وتحرقها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ بمقتضى الفن الحربي، وهي النخلة الكريمة، ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ كما هي من غير أن تتعرَّضوا لها بشيء، إذ لا حاجة بقطعها، ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يُرخِّص لهم بذلك ليتمَّ استيلاؤهم عليهم بمقتضى القواعد الحربيّة، ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾[1] الذين خرجوا عن نور الفطرة وجلاء البصيرة وهدى الدِّين.

---

(١) ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: معطوفة على محذوف تقديره: وليسرَّ المؤمنين ويُعزَّهم ويُخزيَ الفاسقين ويذلَّهم.

وبعد أن ذكر ما حَلَّ بهم من الجلاء وبيبيوتهم من الخراب، ذكر ما حلَّ بأموالهم؛ مُمْتناً بذلك الفيء على المؤمنين، فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ[1] عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ وهي الغنائم الحربيّة التي غَنِمتُموها منهم بما فيها ممتلكاتُهم وأراضيهم، ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾[2] والوجيف: سرعة السَّيْر[3]، والرِّكاب: ما يُركَبُ من الإبل[4]، أي: فما أجريتُم عليه خَيْلاً ولا ركاباً، بمعنى: أنكم حَصَلتم عليه من دون مشقّة أو كُلفة، وذلك لأنَّ الله سبحانه فتح لنبيِّه ﷺ في أول ما قاتلهم، فانخذلوا ولم يقاتلوا. حتى قال بعض المفسِّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾: أوَّل ما وَصَلَهم حَشْرُك، أي: مقاتلتك، بمعنى: إنك لم تجهد في فَتْحِهم الجهدَ الذي كان يُنتظر في فتح مثل حصونهم الحصينة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ من أعدائهم تسليطاً خاصاً، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٦﴾.

قال ابن عباس: كان النبيُّ ﷺ حاصرهم حتى بلغ منهم كلَّ مبلغ، فأعطَوه ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقن دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم[5].

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ

---

(١) ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ...﴾ «ما» بمعنى الذي مبتدأ. وأصل معنى (أفاء): ردَّ وأرجع. والمراد هنا: أعطى وملَّك. ومنه (الفيء). وهو في الشرع: ما أخذ من أموال الكفار بدون قتال، بخلاف الغنيمة؛ فإنها ما أخذت بحرب وقتال. وتقدم حكم الغنيمة في الآية ٤١ من سورة الأنفال.

(٢) ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ...﴾ هذه الجملة خبر المبتدأ السابق، و(ما) هنا نافية.

(٣) من قولهم: «وجف الفرس، أو البعير إذا أسرع». وأوجفه صاحبه: أي جعله يسرع.

(٤) أصل الركاب اسم جمع لكلِّ ما يُركب، ولكنه غلب عند العرب على الإبل. ولا مفرد له من لفظه. وإنما يقال للفرد منه: (راحلة).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٥٠٥).

فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

وبعد أن امتنَّ سبحانه عليهم بالفَيْء غنيمةً باردة، ذكَرَ حكم الفيء، فقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ والفيء هو: الغنائم الحربيّة التي يكسبونها بلا حرب من الأعداء، ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقد جعَل الفيءَ كلَّه لهذه الأصناف، ولم يجعل منه شيئاً للمقاتلة؛ لأنهم لم يصرفوا فيه جُهداً، كما في الغنائم. وزاد في التعليل بقوله: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾(١)، والدُّولة: المال المتداول والغنى المُفْرط، أي: لئلا يكون المال محصوراً في الأغنياء.

وهذا خطابٌ للمؤمنين دون الرسول، ولذلك أردفَه بهذا الحكم العام المتناول للفيء أيضاً، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ من الأحكام التي منها حكمُ هذا الفيء ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة الرسول؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ فيُعاقبُ مَنْ يخالف أمْرَه ونهيَه عقاباً شديداً. وهذه الآية حكمٌ عامٌّ يتناول بعمومه حكم الفيء. وقال الزهري: كانت غنائم بني النَّضير للنبيِّ ﷺ خالصةً، إذ لم يفتحوها عنوة، بل فتحوها على صلح، فقسمها النبيُّ ﷺ بين المهاجرين، ولم يُعْطِ الأنصارَ منها شيئاً إلا رجلين كانت بهما حاجة(٢).

---

(١) وفيه إلماع لاستقباح الرأسمالية في الإسلام والاستقطاب المالي. (المؤلف).

(٢) وهما سهل بن حُنيف وأبو دجانة. وانظر «سيرة ابن هشام» (٢: ١٩٢)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٣: ١٤٨).

أقول: وذلك لإعادة التوازن الاقتصادي؛ لأن المهاجرين جاؤوا وقد سَلَب المشركون منهم أملاكهم وأموالهم، ولم يفعل مثل هذا في غنائم بدر، بل قسمها بالسَّويَّة؛ لأنها أُخذت حرباً، فقُسِّمت على سائر أفراد الجند المهاجرين والأنصار، وقَصْرُ هذا الفيء على المهاجرين الفقراء دون الأغنياء: هو معنى قوله: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾، واغتبط المهاجريون بما أصابوا من أرض اليهود، واغتبط الأنصار باستغناء المهاجرين عن معونتهم، وتنفَّس الكلُّ الصُّعَداء.

وقد قيل في سبب نزول هذه الآية: إنَّ الصحابة طلبوا من رسول الله ﷺ أن يقسم الفَيْءَ بينهم كما قسم الغنيمة، فذكر سبحانه الفرق بين الأمرين، وهو أنَّ الغنيمة قد أتعبتُم أنفسَكم في تحصيلها، وأوجَفْتُم عليها الخيل والركاب، بخلاف الفيء، فإنكم ما تحمَّلتم في تحصيله تعباً، فكان الأمر فيه مُفوَّضاً إلى الرسول، يضعه حيث يشاء من هؤلاء الأصناف الذين ذكرهم الله سبحانه، مُشيراً إلى وجه استحقاقهم ذلك بقوله: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ حيث اضطَرَّهم كفار مكة وأخرجوهم منها، أي: أحرجوهم إلى الخروج، فخرجوا ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أي: طالبين منه تعالى رزقاً في الدنيا ومَرْضاةً في الآخرة.

فوصفوا أولاً بما يستفزّ الشعور نَحْوَهم، ويدلُّ على استحقاقهم للفيء دون غيرهم، ووُصفوا ثانياً بما يُؤْذن بسلامة بصيرتهم، وأكمَلَه بما يوجب تفخيم شأنهم، فقال: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بهذا الخروج، أي: ناوين ذلك، فسجَّل لهم بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾، وهذا تمكينٌ لوصفهم الذي استحقّوا به الفيء دون سواهم.

وبعد أن ذكر المُسْتَحقِّين من المهاجرين، ذكر المُسْتَحقِّين من الأنصار، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ[1] مِن قَبْلِهِمْ ﴾ والتبوُّء: الحلول والإقامة في المكان، وفي

---

(١) مفعول لفعل محذوف مقدَّر يُناسبه، معطوف على ﴿تَبَوَّءُو﴾. نحو: والتزموا الإيمان ورَضوه.

جَعْل الإيمان مُتبوّأً مجازٌ بديع، من البلاغة العالية. أي: وللفقراء من سكان المدينة الذين آمنوا من قبل هجرة المهاجرين نَحْوَهم، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ رغبةً بإيمانهم، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: لا يجدون في نفسهم حسداً وحزازةً وغيظاً مما أُعطِيَ المهاجرون دونهم من الفيء وغيره، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: بل يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم فقرٌ وحاجة.

وقد مدحهم على ذلك ووعدهم بقوله: ﴿وَمَن يُوقَ[1] شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾[2] حتى يخالفها فيما يَغْلب عليها من حُبِّ المال حباً جماً ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ أي: الفائزون بسيادة الدنيا وسعادة الآخرة. والإيثارُ له أكبرُ الأثر في توثيق المحبة بين أفراد المجتمع، يجعلهم متعاطفين، يَذُودُ بعضهم عن بعض، ومن أهمِّ مكتشفات علم النفس الحديث: أنَّ سعادة الإنسان إنما تكون بهذا الإيثار، وتضحية النفس في سبيل الغير.

وهذه الآية تدلُّ على عمق التربية التي غرسها الإسلام في نفوس أتباعه، فالإيثار من جملة الفضائل الإنسانية التي انطوى عليها القرآن، ودَعا الناسَ إليها، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «ما شبع رسولُ الله ﷺ ثلاثةَ أيام متوالية حتى فارق الدنيا، ولو شئنا لشبعنا، ولكن كنا نؤثر على أنفسنا»[3].

وبعد أن ذكر المُسْتَحقِّين من المهاجرين والأنصار، ذكر المُسْتَحقِّين من التابعين

---

(١) ﴿يُوقَ﴾: يَقيه الله بسببِ تقواه.

(٢) ﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الشحّ صفةٌ للنفسِ تَحمِلُها على شدَّة الحرص على المال. وأما البخل فهو الامتناع عن الإنفاق، فهو أثرٌ من آثار الشح.

(٣) ذكره العراقي في «تخريج الإحياء» ص١١٦٣، وابن حجر في «فتح الباري» (١١: ٢٨٠)، وعزاه إلى البيهقي في «شعب الإيمان»، والذي وقفتُ عليه في «الشعب» (١٣٩٦): «لو شئنا أن نشبعَ شَبِعْنا، ولكن محمداً ﷺ كان يؤثر على نفسه». وأصل الحديث في «صحيح مسلم» (٢٩٧٠) بلفظ: «ما شبع آلُ محمد ﷺ من خبزِ بُـرٍّ فوق ثلاث».

الأخيار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾[1] أي: وللفقراء من هؤلاء. وقد مَدَحهم بمحبتهم لمن تقدَّمهم من المؤمنين، ومراعاتهم لحقوق الأخوّة في الدين، والسَّبْق بالإيمان.

ويجوز أن يُراد بـ«الذين جاؤوا»: الذين هاجروا بعد أن قَوِيَ الإسلام، وجاؤوا من أنفسهم دون أن يُحرِجهم المشركون على الخروج. وقد قال الرازي: هذه الآية تعمُّ المؤمنين إلى يوم القيامة، وتُنْبئ بأن مَنْ يذكر منهم سَلَفَه الصالح بسوء، يكون خارجاً عن جملة أقسام المؤمنين التي استوعبتها هذه الآيات[2].

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١٢ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٣ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾.

وبعد أن بيَّن شأن المهاجرين والأنصار، والتابعين الأخيار، أخذ يُبيِّـن شأن

(١) تقدَّم الفرق بين الرأفة والرحمة في الآية ٩ من سورة الحديد.

(٢) ينظر «تفسير الرازي» (٢٩: ٥٠٩).

المنافقين الذي دسُّوا إلى بني النَّضير أنْ لا تخرجوا من حصونكم، وإن قاتلكم محمدٌ فنحن معكم ولا نَخْذلكم، ولئن أُخرِجتُم لَنخرُجَنَّ معكم، فذكر ذلك سبحانه وتعالى مُوهياً لأمرهم ومُكذِّباً لهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو النَّضير: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي: في مقاتلتكم وخذلانكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾، فكذَّبهم سبحانه بأشدِّ صورة من التكذيب، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ في مواعيدهم هذه المؤكَّدة بالأَيْمان الفاجرة.

ثم فصَّل ذلك التكذيب بقوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ يُكذِّبهم في الأمرين معاً بصورة مؤكّدة، ثم يزيد على ذلك بهذا البيان المبنيِّ على الفرض، فيقول: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ لائذينَ بالفِرار، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ بعد ذلك أبداً، بل يُهلِكُهم الله جميعاً.

ثم علَّل هذا الخذلان بما يفيده قوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً[1] فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ يُصوِّر شدَّة خوفهم وهَلَعهم منهم، ويُعلِّله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: لا يعلمون عَظَمةَ الله حتى يَخْشَوه حقَّ خشيته، وينصروه ولا ينصروا عليه.

ثم فصَّل حالهم في شدَّة خوفهم وتفرُّق كلمتهم بقوله: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: اليهود والمنافقون، ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ دون أن يَظهَروا لكم ويُبارزوكم، لفَرْط رهبتهم منكم.

---

(١) ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ المراد من ﴿رَهْبَةً﴾ هنا: مرهوبيَّة، أي: خوفاً ناتجاً عن إرهابكم لهم. والمراد: أنَّ خوفهم منكم أشد منخوفهم من الله. وهذا منتهى الجهل والجبن.

ثم بَيَّن مصدر ذلك فيهم وسببه بقوله: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: بعضُهم عدوٌّ لبعض في الباطن، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ لا إلفة بينها. وقد علَّل هذا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ قد فقدوا استِعدادَهم لمعرفة الأمور على وجهها الصحيح بإفسادهم لطبائعهم، وطَمْس نور بصائرهم.

ثم ضرب مثلاً لِخذلانِهم ـ المبنيِّ على فَرْض نُصرتهم لهم ـ بخذلان المشركين في بدر، الذين ذاقوا وبال أمرهم بأيدي المؤمنين، قبل سنة تقريباً من هذه الحادثة، رغماً عن نصرة كثير من القبائل لهم، فقال: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾، وقيل: بل المراد بهم بنو قينقاع، نقضوا العهد مَرْجِعَ رسول الله ﷺ من بدر، فأمرهم أن يخرجوا. فهذا المَثَلُ يعقد المشابهة بينهم وبين بني النَّضير في الإخراج.

ثم ضَرَبَ مثلاً آخر لوعد المنافقين لليهود بنَصْرهم وإخلافه بقوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾[1]، وهذا كذلك يُمثِّل حالةَ اليهود أيضاً في اغترارهم بمقالة المنافقين أولاً، وخيبتهم آخراً.

﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ أي: فكان عاقبةُ الشيطان ومَنْ كفر من الإنسان، وقال مقاتل: أي: فكان عاقبةُ المنافقين واليهود مِثلَ عاقبة الشيطان

---

(١) الخوف من الله خوفان: محمود ومذموم. فالمحمود: هو المقرون بالطاعة، مثل: خوف الأتقياء والأبرار. والمذموم: هو المقرون بالمعصية، مثل: خوف إبليس هذا، وخوف المخالفين لأوامر الله وهم يعلمون. فالأول: خوف يكفُّ عن المآثم ويحفظ منها. والثاني: خوف ممَّا ينتظر من العقاب لوقوعهم فيها. وبين الخوفين بَوْن بعيد. (المؤلف).

والإنسان الكافر، حيث صار إلى النار(١)، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾، وهكذا انتهى من بيان شأن المنافقين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾.

ثم ختم السياق بوعظ عموم المؤمنين بعمل الصالحات واجتناب الموبقات، والاعتبار بهؤلاء؛ ليسلموا من الشقاء، وينالوا السعادة والهناء، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فيما يأمركم به من الواجبات فأدُّوها على الوجه المطلوب، ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ من الأعمال التي تُنالُ بها السعادة والفلاح، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فيما ينهاكم عنه، ولا تعملوا من الأعمال ما تنالون به الوبال والشقاء ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ فيُجازيكم عليه.

ثم عرَّض بمن تَقدَّم البيانُ عنهم، وجعله وَجْهاً للربط، فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ يوم القيامة، بما يـرَوْنه من الأهوال، أو المعنى: أنَّ نسيانهم لله المؤدِّي إلى الهلاك، هو نسيانٌ لحقوق أنفسهم عليهم، يؤنِّبهم على ذلك. وقد أقام مقامَ التعليل قولَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾ أي: الخارجون عن حدود الله في أوامره ونواهيه.

ثم بيَّن مصيرَ الفريقين بأسلوب متناسق مع السياق ومُسَاوِق له، فقال: ﴿لَا

---

(١) انظر: «الوسيط» للواحدي (٤: ٢٧٧)، و«مفاتيح الغيب» للرازي (٢٩: ٥١١).

يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1] أي: بالسعادة والهناء.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم أردف هذا البيان بالتصوير والتمثيل لِعَظَمة القرآن المبيِّن لهذا الشأن، حَمْلاً للنفوس على التمسُّك به، وتأنيباً وتسخيفاً لأولئك المنافقين والكافرين الذين لم يؤمنوا به على شدَّة تأثيره في النفوس، ووضوح براهينه في العقول، وقوة رهبته على الشعور. وذكر ذلك على طريقة المبالغة وبصورة التمثيل، فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ لما فيه من هذه العِبَرِ والزواجر، ومعرفة عَظَمة الله واليوم الآخر. وفيه تعجيبٌ لحال أُولئك المنافقين والكافرين المُعْرِضين عنه مع ما فيه من قوَّة التأثير ووضوح الحُجَج[2].

---

(١) معنى الآية كما في تفسيري «المعين»: لا يستوي في القيمة والمنزلة والعاقبة أصحابُ النَّار الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها الدائم، وأصحابُ الجنَّة الملازمون لها، المخالطون لألوان نعيمها المقيم؛ أصحابُ الجنَّة هم الظافرون بمرادهم من الخير والنعيم.

(٢) ولـما في القرآن أيضاً من قوةِ تأثيرٍ جعلها الله فيه؛ لأنَّ القرآن كلام الله عزَّ وجل، وهو نورٌ من نور الله، ونورُ الله إذا توجَّه لشيءٍ ما في الوجود سواءٌ كان حيّاً أو جماداً، خشع وتفجّرت منه الخشية، ولكن ليس كلُّ تالٍ للقرآن يُصاحبُ تلاوتَه نورُ القرآن الربّاني، ذلك لأنَّ نورَ القرآن =

ثم قرن البيان بما فيه مبالغةٌ في الحثِّ والإغراء، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ في مستقبلهم ومصيرهم، وما يُراد بهم، وعظمة ما نزل إليهم، وفداحة إعراضهم وتولِّيهم عنه، ولكنهم لكفرهم لا يعقلون.

ثم أتبع ذلك ببيان عَظَمة الله؛ لإثارة الشعور بالحذر منه تعالى، ومن مخالفة أحكامه وإهمال إرشادِهِ ومعارضة رُسُلِه، ذاكراً صفاتِه تعالى في الألوهية واختصاصها به، فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ما غاب وما حضر، وما خفي وما ظهر، ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ والأُولى من صفات الذات، والثانية من صفات الأفعال.

ثم كرَّر هذه الجملة؛ لإظهار الاعتناء بأمر التوحيد، فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ثم ذكر الصفاتِ الدالَّةَ على ذلك، فقال: ﴿ٱلْمَلِكُ[(١)] ٱلْقُدُّوسُ﴾[(٢)] وهي صيغةُ مبالغةٍ في التقديس والتنزيه، وكذلك قوله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ فإنه مصدر أُريد به الوَصْفُ مبالغةً، أي: السالم من كلِّ نقص، أو بمعنى: إنه مُفيضُ السلام على الأنام، وهو ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي: واهب الأمن بين هذه العوالم، مِنْ: آمَنَهُ؛ بمعنى: أمَّنه، ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي: المسيطر على كلِّ شيء، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يَغْلبه شيء، ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾[(٣)] وهما صفتا مبالغةٍ في العَظَمة والكبرياء.

= يتفجَّر على مقْدار إيمان التالي لآياتِـهِ، ومقدار قوَّة اتِّصاله بخالقه. وحين يقرأ القرآن إنسانٌ كافر بالله واليوم الآخر، لا يتفجَّر من نور القرآن لديْه شيء، ويكون عديم الأثر.

(١) الملك: المُتصرِّفُ بالأمر والنَّهي في جميع خلقه، المالك لهم، فهم تحت ملكه وقهره وإرادته.

(٢) القدوس: الطاهر عن كلِّ عَيْب، المُنزَّه عمَّا لا يليق بجلاله، وعظمة سلطانه، وكمال أسمائه الحُسْنى، وصفاته العليا، وكمال أفعاله وتصرفاته، والمنزَّه عن أن يدركه حسٌّ، أو يحيط به عقل.

(٣) الجبار: العظيم الشـأن في القدرة والسلطان، إذا أراد شيئاً فعله بالجَبْر، ضدَّ أية قوةٍ لـها إرادةٌ =

وبعد أن ذكر صفاته العُليا التي لا يُشاركه فيها شيء، نَزَّهَه عن الإشراك، مُؤَنِّباً المشركين، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٢٣﴾ به مَنْ لا يخلق شيئاً وهم يُخلَقون.

ثم تابع الوصف فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾، ومعنى الخالق: المُقدِّرُ للأشياء على مقتضى الحكمة البالغة، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢]، والبارئ: المُوجِدُ لها، والمُصوِّر: المُوجِدُ لصُوَرِها وكيفياتها. وخصَّها بالذِّكر مع أنها داخلة في الإيجاد، تنويهاً بشأنها.

ثم أجمل السياق بقوله: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: الصفات الدالة على الأعمال العظيمة والآثار الجليلة المُخصِّصة للألوهيَّة به تعالى، وهو معنى قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ إذ كلُّها تدلُّ دلالةً واضحة على تنزيهه سبحانه، وانفراده في إيجاده لذلك الشيء، واستحقاقه وحده أن يكون الإله المعبود؛ لأنَّ ما في صُنعها من حكمةٍ وإبداعٍ وإتقانٍ وسَدادٍ يدلُّ على أُلوهيَّة الخالق واختصاصه بها[1]، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٤﴾ فإذا أمهل المشركين به واصطَبَر عليهم، فإنَّما يُمهِلُهم بعزَّته وحكمته، ولا يعلم مَدارِكَ حكمته البالغة إلا هو. وقد ضمَّن ﴿يُسَبِّحُ﴾ معنى: ينقاد، وعدَّاه تعديته.

* * *

= معارضة من خلقه، كثير الإصلاح للأشياء مع القهر، المتكبِّر: المتعظِّم الذي له جميع صفاتِ العلوِّ والعظمة، المُثْبت لنفسه أنه أكبر من كل كبير إثباتاً مُؤَكّداً.

(١) هذا تسبيح بلسان الحال، ولها تسبيح آخر، وهو تسبيح حقيقي على وجه يناسبها، والآية تعمُّ النوعين من التسبيح. وانظر ما تقدَّم من التعليق على الآية الأولى من هذه السورة.

سُورَةُ المُمْتَحنَة

بكسـر الحاء وفَـتْحها، فمن كسر أضاف الفعل إلى السورة، ومن فتح أضاف السورة إلى المرأة التي نزلت فيها، والفَتْحُ أشهر.

والسورة مدنية، وهي ثلاث عشرة آية.

وموضوعها:

بيان صلح الحديبية على حقيقته، وكونه لا يزيد على أنه هُدْنة حربيَّـة، ولم يَقْضِ على ما بين الفريقين من عداء، وإنما كان اتفاقاً على وَضْع الحرب بينهم مُدَّة معيَّنة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، لـمّا علم أنَّ رسول الله ﷺ يغزو أهل مكة، كتب إليهم: إنَّ رسول الله ﷺ يريدكم، وأرسل كتابه مع سارة مولاة بني المطلب، فنزل جبريل عليه السلام، وأعلم رسول الله ﷺ، فبعث علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخٍ[1]، فإنَّ بها ظعينة معها كتابُ حاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها وخلُّوها، فإن أبت فاضربوا عُنُقَها»، فأدرَكوها ثَمَّةَ، فجَحَدت، فسَلَّ عليٌّ رضي الله عنه السيف، فأخرَجَه من عقاصها، فاستحضر رسول الله ﷺ حاطباً، وقال: «ما حملك عليه»؟ فقال: «يا رسول الله، ما كفرتُ منذ أسلمت، ولا غَشَشْتُك منذ نصحتُك، ولكن كنت امرأً

(١) موضع بين الحرمين، ويقال له روضة خاخ بقرب حمراء الأسد من المدينة. «معجم البلدان» (٢: ٣٣٥).

مُلصقاً في قريش، وليس لي فيهم من يحمي أهلي، فأردتُ أن آخُذَ عندهم يداً، وقد علمت أنَّ كتابي لا يغني عنهم شيئاً[١]. فصدَّقه رسول الله ﷺ، وقبل عذره[٢]. فنزلت هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: تُوصِلون إليهم المودة. ويجوز أن تكون الجملة على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [النحل: ٨٦]. وإلقاءُ القول: تمكينُه في النفس. وعلى هذا تكون الباءُ زائدةً للتأكيد. ويجوز أن يكون المعنى: تُلقون إليهم أخبار النبيِّ ﷺ بسبب المودَّة التي بينكم وبينهم، ﴿وَ﴾ الحالُ ﴿قَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ و﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ من مكة، وعبَّر عن الإخراج بصيغة المضارع دون الماضي؛ لإحضار صورة هذا العمل الفظيع في الذهن، زيادةً في استفزاز الشعور.

ثم علَّل ذلك الإخراجَ بما في طيَّاته زيادةُ تشنيع عليهم، فقال: ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الذي خلقهم وخلقكم، أي: لم يكن السببُ إلا هذا الأمرَ الحقَّ والعملَ البارَّ.

ثم قرن النَّهيَ عن هذا الاتِّخاذ بما فيه زيادةُ إغراءٍ وحضٍّ على تجنُّب هذا الفعل، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾؛ لأنَّ الله سبحانه لا يقبل عملاً يشترك فيه مع غيره وإن قلّ. فهذا شرطٌ محذوفُ الجواب؛ لدلالة ما قبله عليه. ومُلخَّصُه: لا تتولَّوا أعدائي إن كنتُم أوليائي.

ثم استأنف الكلام على نهج العتاب والتوبيخ والتحذير، فقال: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾، ثم بالغ في التحذير والتأنيب، فقال: ﴿وَمَن

---

(١) لا تخلو النفس ـ وإن كانت عالية ـ من جوانب ضعف تطغى عليها أحياناً، وتهوي بها إلى ما لا ترضاه. (المؤلف).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

﴿يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾ أي: فقد أخطأ طريقَ الحقِّ والصِّراطَ المستقيم، لِـمَا في ذلك من خطر على كيان المسلمين.

فالآياتُ تنهى عن اتِّخاذ هؤلاء الأعداء أولياء، ومُبادلتهم المودَّة ولو كانوا ذَوي أرحام وقُربى، لِـمَا في ذلك من الخطر والضرر العظيمَيْن على كيان المسلمين.

ثم أوقَفَهم على عِظَمِ عداوتهم لهم ليستفزَّ شعورهم، فقال: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءً﴾ أي: إن يظفروا بكم تجدوا منهم غاية العدوان، ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ من القَتْل والشتم، ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢﴾ أي: يتمنَّون ارتدادَكم إلى الكفر والضلال.

ومُلخَّص الكلام: أنَّ أعداء الله لا يُخْلِصون المودَّة لأولياء الله؛ لِـمَا بينهم من المباينة البعيدة، فلا يفيدكم التقرُّب منهم.

ثم أضاف إلى ذلك وَجْهاً آخر في النقد والتزييف، وهو أنَّ أهليكم الذين تُوالونهم أو تأخذونَ لهم يَداً عند المشركين، وتَـتَقرَّبون إليهم حمايةً لهم، لا ينفعوكم شيئاً يوم القيامة، فقال: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ﴾ أي: قراباتكم، ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ الذين تُوالونهم أو تُوالونَ المشركين لأجلهم.

وقد أقامَ مقامَ التعليل لهذا النفي قولَه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: يُفرِّق الله يومئذ بينكم لاختلاف مصير المؤمنين والكافرين، أو بما يعتريكم من الهَوْل المُوجِبِ لفرار كلٍّ منكم عن الآخر، كما نطق به قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٥]، وعلى المعنى الثاني تكون الآيةُ من ذِكرِ العام الذي يشمل ما قبله وغيرَه، على نهج القرآن في مثل ذلك. وعلى كلٍّ يكون المعنى: فما لكم ترفضون حقَّ الله تعالى لمراعاة مَنْ هذا شأنُه معكم يوم القيامة، ولا تراعون هَوْلَ ذلك اليوم، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣﴾ لا يخفى عليه من أمركم خافية.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

ثم بيّن ما كان يجب أن يُتّبَعَ من التأسّي بإبراهيم عليه السلام وأصحابه الذين تبرَّؤوا من مُوالاة أقربائهم الكفار رعايةً لحقِّ الله، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بعبادتكم، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ أي: هذا دأبنا معكم، لا نتركه ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

ثم استثنى من تلك الأسوة الحسنة التي حملهم على التأسّي بها استغفارَ إبراهيم لأبيه الكافر؛ لبيان أنَّ ذلك لا ينبغي، فقال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فليس في طاقتي إلا الاستغفار، ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ يقول ذلك إظهاراً للعَجْز، وتفويضاً للأمر إلى الله، ولم يكن ذلك منه ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أنه سيؤمن ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ بموته على الكفر ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وبعد هذا الاستثناء عاد إلى سَنَنِ الكلام، فأكمل حكاية قول إبراهيم وأصحابه لقومهم في التبرُّؤ منهم رعايةً لحقِّ الله، وبيّن أنهم بعد أن جاهروهم بالعداوة والمعارضة التجؤوا إلى الله، فقال: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لفظ «الفتنة» هاهنا يجوز أن يكون بمعنى الفاتن والمفتون، ومعناه على

الأول: لا تَفتِنْهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً بظهورهم علينا، حيث يظنُّون أنهم على الحق، ولذلك ظهروا علينا. وعلى الثاني: لا تفتنّا بهم فنَضعُفَ في اتِّباع نبيِّنا أو نتولَّى عنه، فراراً من شـدَّة ظلمهم لنا وقهرهم وإيذائهم، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ ما فَـرَط منا من الذنوب، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾ أي: الذي لا يذلُّ مَن التجأ إليه، ولا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة. وتكرير النداءُ للمبالغة في التضرُّع.

ثم كرَّر الحَمْل على التأسِّي بهم، وضمَّنه ما فيه مبالغةً في الحثِّ عليه، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، ثم ضاعف الحثَّ فأبدَلَ مِن كلمة ﴿لَكُمْ﴾ قولَه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾[1] إيذاناً بأنه لا ينبغي للمؤمن أن يترك التأسِّي بهم في ذلك.

ثم ختم البيان بما يدلُّ على عَوْدة نفع ذلك إليهم، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾ أي: لا حاجة له إلى طاعةِ أحد، ولكنها تنفع الطائع.

ثم بيَّن الحكمة من نهيه لهم عن مُوالاة أقاربهم المشركين، بأنَّ إعراضكم عنهم مَدْعاةٌ لِـمَيْلهم إليكم ودخولهم في دينكم، وجَعَل ذلك وعداً لهم يُطيِّب قلوبهم في تلك المقاطعة ويُبرِّرها، فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ بأن يوافقوكم في الدين.

وقد أنجَزَ سبحانه وتعالى هذا الوعد الكريم حين أتاح لهم الفتح، فأسلم هؤلاء المشركون، وتمَّ بينهم من التحابِّ والتصافي ما تمّ، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على كلِّ شيء، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ فيغفر لمن أسلم من المشركين ماضيَ ذنوبهم ويرحمهم، ويعفو عمَّا فرط منكم في موالاتهم قبل النهي.

---

(١) أي: لمن يُؤمِّل مترقِّباً ثواب الله، ويطمع بالسَّعادة الخالدة يوم الدين، ويخاف من العقاب فيه، ومَنْ يتولَّ مُدبراً عن الإيمان، ويُوالِ الكفار.

وهذه الآية تُلهِمُ ما كان يختلج في نفوس المهاجرين من تمنّيهم أن ينتهي العداءُ القائم بين المسلمين ومُشركي مكة أقربائهم، بهدايتهم إلى الإسلام.

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

وبعد أن نهاهم عن موالاة الكفار رخَّص في صِلَةِ الذين لم يقاتلوهم منهم، فقال: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ[1] وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ[2] ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ فهذا كالاستثناء من ذلك الحكم. والآيةُ تُؤْذِنُ بأنَّ المقاطعة والعداوة إنما هي للمقابلة والدفاع، كما تُؤْذِنُ بجواز مُوالاة غير المسلمين في الحالات الاعتياديّة، إذا لم يُضْمِروا لنا السُّوء، وقد راعى المسلمون هذه القاعدة فلم يتدنَّس تاريخُهم بمثل الذبائح التي حَدَثَت في أُوربا على المسلمين باسم الدِّين.

وتُلهِمُ هذه الآيةُ أنه كان في مكة أيضاً طبقةٌ من المشركين لم يشتدّوا في عداوة النبيِّ ﷺ والمسلمين، ولم يشتركوا مع غيرهم في التآمر والأذى، ولم يظاهروا عليهم، وتُبيح للمسلمين أن يَبرُّوا ويُقسِطوا إلى ذوي النيَّات الحسنة والمواقف السليمة من غير المسلمين.

ثم أردَفَ هذا البيانَ ببيان وَصْف الذين ينهاهم عن صِلَتِهم؛ تقريراً له، وتأكيداً

---

(١) ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي: عن برِّهم، والبرّ هو التوسُّع في فعل كل خير، وإدخال السرور على الغير.

(٢) تعاملوهم بالعدل، أو: تعطوهم قسطاً من أموالكم على سبيل البرِّ بهم، فيكون من عطف الخاص على العام. ومَن رجَّح هذا المعنى للقسط قال: القسط بمعنى العدل ليس مراداً هنا؛ لأنه واجبٌ للصديق والعدوّ.

للنهي السابق، على نهج القرآن في أساليبه، فقال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ أي: عاونوا العُتاة على ذلك وناصروهم، فهو ينهاكم عن مثل هؤلاء ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي: تتَّخذوهم أولياء، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ فهذه الآية تُشدِّد الحظْر على الولاءِ لذوي النيَّات السيِّئة والمواقف العدوانيّة نحو الإسلام والمسلمين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

وبعد أن بيَّن حكمَ الكافر المُحارِب وحكمَ الكافر المسالِم، ذكر حكمَ مَنْ يأتي مُظْهِراً للإيمان، وخصَّ الامتحان في هذا الإظهار بالنساء؛ لأنهنَّ مظنَّة التدليس في ذلك لمآربَ يُضمِرْنَها، ولذلك اقتصر على ذِكرِهنَّ دون الرجال من صنفهنَّ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى يتحقَّق أنهنَّ لم يَخرُجْنَ إلا لله ورسوله، لا لأمرٍ من أُمور الدنيا، ومأرب من مآربها(١).

---

(١) أي: هذا الامتحان لتعلموا صدقَ إيمانهنّ، بغلبةِ الظنِّ التي تُرجّح أنهنَّ مؤمنات، والله أعلم بحقيقة إيمـانهنّ؛ لأنَّ حقيقةَ الإيمان كامنةٌ في القلوبِ لا يَعلمها إلا الله، والدلائل التي تدلُّ =

ثم أتى بهذه الجملة المعترضة كتعليلٍ بمضمونها لهذا الامتحان، فقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ فقد يكون إظهارُ الإيمان لمأرب دنيوي. ثم أتمَّ الحكم بقوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ إذ ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

ثم بيَّن ما يجبُ دفعُه لأزواجهم الكفار من المال، فقال: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ أي: آتوا أزواجَهنَّ ﴿مَّآ أَنفَقُواْ﴾ عليهنَّ من المهور.

ثم بيَّن صحَّة نكاحِهن بشرطه، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فإنَّ إسلامَهنَّ حالَ بينهنَّ وبين أزواجهنَّ الكفار، فيجوز أن تنكحوهنَّ ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورَهنَّ. فشَرَطَ إيتاءَ المهر في نكاحهنّ؛ إيذاناً بأن ما أعطي أزواجُهنَّ عوضاً عنهنَّ لا يقوم مقام المهر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: صالحَ رسولُ الله ﷺ بالحديبية مشركي مكة على أنَّ منْ أتاه من أهل مكة ردَّه عليهم، ومَنْ أتى أهلَ مكة من أصحاب رسول الله ﷺ فهو لهم ولم يردّوه عليه، وكتبوا بذلك كتاباً وختموا عليه، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلميَّة مسلمةً بعد الفراغ من الكتاب، والنَّبيُّ ﷺ بالحديبية، فأقبل زوجُها، فقال: يا محمد، رُدَّ عليَّ امرأتي، فإنك شرطتَ لنا أن تردَّ علينا من أتاك منا، فنزلت هذه الآية، فأعطى رسول الله ﷺ زوجَها مهرَها ولم يردَّها عليه، فتزوَّجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1]. فكان رسول الله ﷺ يردُّ مَنْ جاءَه من الرجال، ويحبس مَنْ جاءَه من النساء إذا امتُحِنَّ، ويُعطي أزواجَهنّ مهورَهنَّ عملاً بالآية.

= على الإيمان بالنسبة إلى الناس لا تَعْدو أن تكون ظواهر مُرجِّحة، وقد يكون المكنون في القلوب على خلاف ذلك، ومع هذا فقد جعلَ الله نتائجَ هذا الإيمان التي لا تصل إلى مرتبة اليقين، وإنما تصلُ إلى مرتبة الظن الراجح، نوعاً من العلم؛ الذي يصحُّ الاعتماد عليه والاستفادة منه.

(١) «تفسير القرطبي» (١٨: ٦١).

وقال الجُبّائي في توضيح ذلك: لم يدخل في شرط صلح الحديبية إلا ردُّ الرجال دون النساء، ولم يَجْرِ للنساء ذِكر، وإنَّ أُم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط جاءَت مسلمةً مهاجرةً من مكة، فجاء أخواها إلى المدينة، فسألا رسول الله ﷺ ردَّها عليهما، فقال: إنَّ الشرط بيننا في الرجال لا في النساء، فلم يردّها عليهما(١).

ثم قال الجبائي: وإنما لم يَجْرِ هذا الشرط في النساء؛ لأنّ المرأة إذا أسلمت لم تحلّ لزوجها الكافر، فكيف تُرَدُّ عليه، وقد وقعت الفُرقة بينهما؟! ووجه الشبهة في صيغة وثيقة الصُّلح جاءَ من صيغة التذكير، فظنَّ المشركون أنه يشمل الإناث على طريقة التغليب، بحسب العُرف، إذا عُبِّر عن مجموع المذكر والمؤنث يُكتفى بلفظ المذكر، ويُراد به المذكر والمؤنث. ولكن النبيَّ ﷺ لم يقصد إلا الذكور، فنزلت هذه الآية حاسمةً للأمر، ومُفسِّرة لمنطوق الوثيقة.

وفرار النساءِ هذا يدلُّ على أنهنَّ يلقَيْنَ الأذى ويتعرَّضْنَ للفتنة في الدِّين، كما يدلُّ على قوة إيمانهنَّ وعِظَم شجاعتِهنَّ وانتهازهنَّ فرصةَ الهدنة.

ثم أمر سبحانه وتعالى المسلمين أن يُطلِّقوا نساءَهم من المشركات؛ تَتْميماً لهذا الحكم، فقال: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ أي: بعقود أنكحتهنّ؛ لأن العقد عصمةٌ ومنع، فالمراد: نهيُ المؤمنين عن المُقام على نكاح المشركات.

قال الحسن: كان في صدر الإسلام تكون المسلمة تحت الكافر، والكافرة تحت المسلم، فنَسَخَتْه هذه الآية. وقال الزهري: لما نزلت هذه الآية طلّق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأتين كانتا بمكة مشركتَين، وطلّق غيرُه كذلك(٢).

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨: ٦١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٣٣٢).

أقول: وذلك لأنَّ بعض زوجات المسلمين المهاجرين تمسَّكن بكُفْرهنَّ، ولما هاجَرَ أزواجُهنَّ رَفَضْنَ اللحوقَ بهم، وفَضَّلنَ البقاء مع أهلهنَّ الكفار في مكة، وبعضهنَّ لحقنَ بهم وهُنَّ كافرات، ثم عُدْنَ إلى أهلهنَّ بعد الطلاق.

ثم ذكر حالَ الرجالِ المهاجرين ضمن هذا الحكم العامِّ، على سُنَّة القرآن في مثله، فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ أي: من مهور نسائكم الكافرات اللاتي تركتُموهنَّ عند الكفار أو لحقنَ بهم، ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ من مهور زوجاتهم اللاتي هاجَرْنَ إليكم مؤمنات. فبيَّنت الآية أنَّ الذي يهاجر مؤمناً ويترك زوجتَه الكافرة عند أهلها الكفار يأخذ مهرَها، والتي تهاجر مؤمنةً وتترك زوجَها الكافر، فله الحقُّ أن يأخذ مهرَها. وقد أكّد الحكم بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ يشرع ما تقتضيه الحكمةُ البالغة والعَدْلُ الدقيق.

وقد جَعَلَ الحكم على الكفّار بأداءِ مهر الزوجة الكافرة الباقية عندهم وزوجُها قد آمن وهاجر، جَعَله أساساً للحكم الآتي، فقد قال الزهري: لما نزلت هذه الآية آمن المؤمنون بحكم الله، وأدَّوا ما أُمِروا به من نفقات المشركين على نسائهم المهاجرات، وأبى المشركون أن يقرُّوا بحكم الله من أداءِ نفقات المسلمين على زوجاتهم الكافرات الباقيات عند أهلهنَّ، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ وهُنَّ زوجاتُ مَنْ هاجروا إليكم وتركوا زوجاتِهم الكافرات عند أهليهنَّ الكفار، ولم يَرْضَوا أن يؤتوا مهورَهن ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي: فغزَوْتُم وأصبتُم من الكفار عُقْبى، وهي الغنيمة، ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ عليهنَّ من المهور من رأس الغنيمة.

ثم حثَّهم على العدل في ذلك، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ ولا تتجاوزوا حدودَه.

وبعد أن بيَّن صورةَ قَبول المؤمنات المهاجرات، بيَّن صورةَ مبايعتهن، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ[١] يَفۡتَرِينَهُۥ[٢] بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾[٣] والمراد به: أن تَبهَتَ المرأةُ المرأةَ بشيءٍ من الفحش أو غيره تفتريه عليها، وقد بالغ في شناعة الافتراء، فوصفه بالوضوح والبيان، وقال: ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾، أو المراد: من أنفسهنّ، وعلى كلٍّ فهو بمعنى الافتراء الصريح. ويجوز أن يكون الأول كناية عن مثل السرقة، والثاني عن مثل الزنى، أي: لا يبهت بعضُهنَّ بعضاً بذلك، ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ أي: فيما تأمرهُنَّ به من معروف، فإن جئْنَك كذلك، ﴿فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ عمّا سلف؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ إذا وَفَّيْنَ بما بايَعْنَ عليه.

وقد رُوِيَ عن هند بنت عُتبة: لـمّا سمعت من رسول الله ﷺ عند مبايعة النساء قوله: «ولا تزنين» قالت: «أو تزني الحرَّة؟!» وفي رواية: «ما زنت منهنَّ امرأة قط»، ولما سمعت قوله: «ولا تأتين ببهتان تفترينه». قالت: «إنَّ البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرُّشد ومكارم الأخلاق»، ولما قال: «ولا تعصينني في معروف» قالت: «والله ما جلسنا مجلسَنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيَك في شيء، فتبسَّم ﷺ من قولها»[٤].

---

(١) «بهتان»: أصلُ البهتانِ هو الشيءُ الذي يَبهَت العقول. أي: يُحيِّرها. والمراد به هنا الولد الذي تدَّعيه المرأة أنه من زوجها، وهو في الحقيقة ليس منه.

(٢) ﴿يَفۡتَرِينَهُۥ﴾ المراد: يَكذِبْن في نسبته لأزواجهنَّ.

(٣) ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾: كناية عن أنه ولدهنّ من أزواجهنّ؛ لأنَّ الولدَ يُحمَلُ في البطن التي هي بين اليدَين، ويولَد بينَ الرِّجلين.

(٤) «الكشاف» للزمخشري (٤: ٥٢٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩: ٥٢٣- ٥٢٤)، وقال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣: ٤٦٢): غريب بهذا اللفظ.

وهذه الآية تردُّ على أعداء الإسلام المُتقوِّلين عليه بأنه لم يحفل بالنساء، وبأنه عَدَّهُنَّ من المتاع، وتلطمُهم على وجوههم. نعم، إنَّ الإسلام قد أعطاهُنَّ الحقوق اللائقة بمقامهنَّ في المجتمع، والمتناسبة مع طبيعتهنَّ حقيقةً وحقاً، ولم يُعطِهنَّ ما فيه شَيْنٌ عليهنَّ وعلى عوائِلهن، كالتبرُّج والهتك اللذَيْن الآن هُنَّ عليه.

ثم ختم السورة بما بدأها به، تقريراً للنهي وتمكيناً له، بزيادة وصفٍ للكفار يُبيِّن به حالهم، ويبكتهم عليه، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: من نعيمها، إذْ لا حظَّ لهم فيه، فعبَّر عن ذلك باليأس، مبالغةً في تحقيق المعنى. ثم نظَّر ذلك بقوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ أي: كما يئس أموات الكفار من نعيم الآخرة، حين وقفوا بعد الموت على حقيقة الحال، وعلموا أنْ لا نصيبَ لهم من النعيم، وأن نصيبَهم إنما هو من العذاب الأليم.

وقيل: بل المراد من يأسهم من الآخرة: إنكارُهم للبعث ويأسُهم منه. فالمعنى: كما يئس الكفار من بَعْث أصحاب القبور، فيكون تبكيتاً للكفار إثر تبكيتِ المشركين على تكذيبهم بالآخرة، وذلك من الاستطراد البديع، وتكون لفظة ﴿مِنْ﴾ على المعنى الأول بيانية، وعلى المعنى الثاني للتعدية، ومُتعلِّقةً بـ﴿يَئِسَ﴾. وكلا المعنيين منسجمٌ ومتلائم.

وقد جَعَلَ الكفارَ صنفاً مستقلاً عن المشركين؛ إذ أراد بهم ـ والله أعلم ـ ما يشمل المُلحِدين الذين ينكرون وجود الله سبحانه فوق إنكارهم للبعث.

* * *

سُورَةُ الصَّفِّ

مدنيَّة، وقيل: مكيَّة

وهي أربع عشرة آية

وموضوعها:

الحثُّ على الجهاد مع رسول الله ﷺ؛ لأنه أُرسل بالهدى ودينِ الحق.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ وقد مرَّ الكلام على مثل هذه الآية في سورة الحديد وسورة الحشر، فارجع إليه. وفيها إثارةٌ للشعور بعَظَمة الله والحذر من مخالفته، وجعله مقدِّمةً لِـمَا بعدها، وقد ابتدأه بحَثِّ المؤمنين على الجهاد، وصدَّر الحثَّ بالعتاب والتأنيب على التهاون فيه، مُبالغةً في الحمل عليه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ ينكر على بعض المؤمنين أن لا يقترنَ قولُهم بالعمل المصدِّق له.

وقد ذكر المفسِّرون لمصداق هذه الآية صُوراً واقعيّة؛ منها ما قاله محمد بن كعب: إنَّ الله سبحانه لـمّا أخبر رسوله ﷺ بثوابِ شُهداء بدر، قال بعض الصحابة: لئن لقينا بَعْدُ قتالاً لنُفرِغَنَّ فيه وُسْعَنا، ثمَ فرُّوا يوم أُحُد(١)، فعيَّرهم الله تعالى بذلك تأديباً لهم، وبالغ في قُبْح ما فعلوه بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ والمقت: أشدُّ البغض. وصاحب هذا الرأي يجعل السورةَ مدنيةً.

وبعد أن بيَّن سبحانه ما هو الممقوت عنده، بيّن ما هو المرضيُّ عنده تعالى؛ حثاً

---

(١) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٩: ٣٠٢)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٨: ١٠٤).

عليه وتعريضاً بالفارّين، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ وليس المراد ما يَتبادَرُ من ظاهر التعبير، وهو أن يكون الجند مُتراصِّين في صفِّ القتال؛ لأنَّ ذلك مخالفٌ لقواعد التعبئة الصحيحة على ما أظن، والله أعلم، ولا سيّما الآن، وإنما هو من باب المجاز للتعريض بالفارّين، وليشمل بمفهومه التكاتفَ والتعاونَ ضدّ المعتدين، بأن يقوم سائر أصناف الأمة بالواجب الحربيّ، ويساهم كلُّ واحد بحسب اختصاصه، فيشترك في أداءِ هذا الواجب الجنديُّ والمتموِّلُ والعامل والطبيب والكاتب والخطيب، كلٌّ بحَسَب حرفته وقابليّته واختصاصه، يصرفها في تقوية الحرب وتغذيتها، مادياً أو معنوياً، فتكون الأمة في مجموعها ذلك صفاً واحداً، كالجسد الواحد، وكالبنيان المتراصّ مع بعضه، والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

ولما أنَّب الذين قصَّروا في وقعة أُحُد، ومنهم الذين خالفوا أمْرَ رسول الله ﷺ لهم بأن لا يتركوا مكانهم من الثغر، وإن رأوا النصر والغَلَبة للمؤمنين، ولَحِقَ من مخالفتِهم وتَرْكِهم الثغرَ ضررٌ عظيم، حيث تبدَّل نصرُ المؤمنين بالخذلان؛ أردفَ ذلك بقصَّتين، فحوى الأولى: التحذير من أن يكونوا كقوم موسى عليه السلام، في إيذائهم له بعدم الامتثال، وفحوى الثانية: الإغراء بأنَّ محمداً رسول الله كما يعلمون، وقد بشَّر به عيسى عليه السلام، فيجب أن يُنصَرَ ويُطاع، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ

﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾ بالمخالفة والعصيان فيما آمركم به، ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾.

وقد بيّن سبحانه وتعالى سرَّ تلك المخالفة والعصيان في أنفسهم بقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ أي: أنَّ سبب صَرْف الله لهم عن الحق هو زَيْغُهم عنه، ومَيْلُهم إلى الضلال، بإفسادهم لطبيعتهم بمفاسد التربية وسوء القدوة، وتحريفهم بذلك لغريزتهم وما خُلِقَت عليه من الاستعداد للخير والتزكية والإيمان.

ثم بيَّن تعالى أنَّ مِثْلَ ذلك أمر طبيعي في أخلاق الإنسان المحرَّفة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾ أي: مَضَتْ سنَّته تعالى في الراسخين في الفسوق والخروج عن هداية الفطرة ونور البصيرة ـ بإفسادِهم لطبائعهم وتَدسِيَتهم لأنفسهم ورسوخِهم في تمرُّدهم ـ أن يفقدوا الاستعداد للإيمان والعمل الصالح، فلا يهتدون إليه سبيلاً[1].

ثم ذكر القصة الثانية، وهي قصَّة قوم عيسى المُستَلزِمة لصحَّة رسالة محمد ﷺ، حيث بشَّر به، ولكنهم ضربوا بتلك البشارة عرضَ الحائط، وأنكروا رسالة محمد ﷺ، فقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ والاسم: الوصف، وهو إما بمعنى: كثير الحمد لله، أو بمعنى: أنه يُحمَدُ كثيراً لعِظَمِ فعاله.

قال الرازي: أي: اذكروا بأنّي رسول الله إليكم، أُرسِلتُ بالوصف الذي وُصِفتُ به في التوراة، ومُصدِّقاً بالتوراة وبكتب الله وأنبيائه جميعاً، ممَّن تقدَّم وتأخَّر، ومُبشِّراً

---

(١) أو معنى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ لا يحكم لهم بالهداية، وقد اختاروا لأنفسِها لـمَيْلٍ عن الحق، إلى المتاهات والضلالات. وهم قوم خارجون عن طاعتِه وهدايتِه، وهذا الحكم عليهم هو مقتضى الحقِّ والعدل.

برسول يُصدِّق بالتوراة على مثل تصديقي، ووَصْفُه أحمد. وهذه الصيغة تحتمل أن تكون لمبالغةِ اسم الفاعل أو المفعول[١].

أقول: وعلى الأول يكون معناها: أنه يحمد الله كثيراً، وعلى الثاني يكون معناها: أنه محمود بين الناس كثيراً.

ثم قال: ولنذكر الآن بعض ما جاء به عيسى عليه السلام في الإنجيل بمَقْدَم محمد ﷺ، وذلك في عدَّة مواضع منه، فقد ذكر في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يُوحَنّا هكذا: «وأنا أطلب لكم إلى أبي حتى يمنحكم ويعطيكم الفارقليط، حتى يكون معكم إلى الأبد». والفارقليط: هو روح الحق المبين. أقول: والفارقليط بالعبرية معناه: أحمد؛ لأنه مُعرَّب عن: بيريكلتوس، ومعناه: الذي له حَمدٌ كثير.

وذكر في الإصحاح الخامس عشر: «وأما الفارقليط روح الله يُرسِلُه أبي باسمي، أي: بصفتي، ويعلِّمكم ويمنحكم جميعَ الأشياء، وهو يذكركم ما قلت لكم». ثم ذكر بعد هذا بقليل: «وإني خبَّرتكم بهذا قبل أن يكون، حتى إذا كان ذلك تؤمنون».

وذكر في الإصحاح السادس عشر هكذا: «ولكن أقول لكم الآن حتماً يقيناً: انطلاقي عنكم خيرٌ لكم، فإن لم أنطلق عنكم إلى أبي لم يأتِكم الفارقليط، وإن انطلقتُ أرسَلَه[٢] إليكم، فإذا جاء هو يفيد أهل العالم، ويُدِينهم ويَمْنحُهُم ويُوقِفُهم على الخطيئة والبرِّ والدِّين». وذكر بعد هذا بقليل هكذا: «فإنَّ لي كلاماً كثيراً أُريد أن أقوله لكم، ولكن لا تقدرون على قبوله والاحتفاظ له، ولكن إذا جاءَ روحُ الحق إليكم يُلهمكم

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٩: ٥٢٨).

(٢) في «تفسير الرازي»: «أرسلته».

ويؤيِّدكم بجميع الحق؛ لأنه ليس يتكلّم بدعةً من تلقاء نفسه». هذا ما في الإنجيل. انتهى كلام الرازي[١].

ومعنى الإنجيل في السُّريانية: البشارة، وإنما سُمِّي بذلك لأنَّ أعظم ما فيه البشارة بمحمد ﷺ خاتم النبيين، والمرسول بأكمل شريعة خُتمت بها الشرائعُ أجمعون، أُرسِلَ إلى الناس عامَّة بعد أن تكامل النوع الإنساني في تدرُّجه في مدارج الكمال، وسَعَة الإدراك، وسُمُوِّ العرفان، بما حَصَل عليه من العلوم والمعارف، وكان ذا بصيرة تامَّـة، وتأهُّل للجامعة العامة، وهي الدخول في السِّلم كافَّة، وفرض عليه توحيد لغة الدين الذي أُريد به توحيد البشر بالنظام والدين والتفاهم باللغة العربية للمسلمين.

ولذلك اهتمَّ المسلمون ـ لا سيما الأعاجم ـ باللغة العربية، واستَنْبطوا منها علوماً عديدة، كما فعل سيبويه والفيروزآبادي والجرجاني، وكانت الدول الأعجمية الإسلامية تجعل اللغة الرسمية في الدولة عربية، وكان بعضُ ملوكها كالبويهيين والسلجوقيين والأتابكيين شعراءَ من الطبقة العليا، يتباهون ويفتخرون، والمدارس العربية والدينية منتشرة في بلادهم، يهتمُّون بها أكبر اهتمام، كما تُؤْذِنُ بذلك تواريخُ تلك العصور.

وبقي هذا الأمر إلى ما بعد الثمانمئة الهجرية، فبدَّل السلطان العاشر من العثمانيين اللغة الرسمية العربية في الدولة بلغة تركية، ثم تَبِعَتْه بقيَّة الدول الأعجمية الإسلامية بتبديل اللغة العربية بلغاتهم، فقضى على فهم الإسلام وأدائه بالوجه الصحيح؛ لأنَّ طبيعته عربية، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]، وبقي فيهم الإسلام جسماً بلا روح؛ لفَقْدِه الوسيلة التي بها يُفهم. فجاء الدين الإسلامي واللغة العربية عالميـين للناس أجمعين.

---

(١) في «تفسيره» (٢٩: ٥٢٨-٥٢٩).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ لهذا الأمر محمدٌ ﷺ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحات، وهو ما في هذا القرآن العظيم من بيان وبرهان وتثقيف كامل للإنسان، كفروا به و﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٦﴾ لِـمَا رأو من شدَّة تأثيره على نفوس المستمعين.

فوبَّخهم سبحانه وتعالى على ذلك وتَوعَّدهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ[1] وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: مَنْ أظلَمُ ممَّن افترى على الله الكذبَ، فوصفَ كتابه بالسِّحر، وهو يدعوه إلى الإسلام الموحِّد للبشر، ويُوصله لسعادة الدارَيْن، فقد جاء التبشير بمحمد ﷺ في التوراة والإنجيل الصحيحَيْن المنزَّلين من عند الله، وبالأمر بالإيمان به إذا جاء، كما ذكرَت آية ١٥٧ من سورة الأعراف.

ثم ذكر منشأ ذلك فيهم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾ أي: مَضت سُنَّته تعالى في الراسخين في ظلمهم وكفرهم، أن يفقدوا الاستعداد للهداية إلى الإيمان، ومعرفة الحق بالبرهان.

ثم بيَّن سخافتَهم وجهالتَهم في محاولة الدعاية ضدَّ هذا النُّور الإلهيّ والقرآن العظيم، بأكاذيبهم عليه، وتمويهاتهم في أمره، فقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ[2] نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾،

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ معرَّفاً بالألف واللام، وفي سائر المواضع: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١ و٩٣ و١٤٤، الأعراف: ٣٧، يونس: ١٧، العنكبوت: ٦٨] منكَّراً؛ لأن المراد بآية الصف: كذب خاص، وهو جعلهم البيِّنات سحراً.
والمراد في بقية المواضع: أيُّ كذب كان، ولذلك نكَّره وعطف عليه: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ [يونس: ١٧]، ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [العنكبوت: ٦٨]. «كشف المعاني» لابن جماعة، ص ٣٧٨.

(٢) ﴿لِيُطْفِـُٔواْ﴾ اللام بمعنى (أنْ) بفتحٍ فسكون؛ التي تَجعَلُ ما بعدَها في قوّةِ مصدر. أي: يريدون إطفاء نور الله.

وصورة التعبير في منتهى السُّخرية والتسخيف لهم، حيث تضمَّنت تشبيهَهم بمَنْ يحاول بنفخِهِ إطفاءَ نورٍ مُنْبثٍّ في الآفاق، أو مَنْ يحاولُ إطفاء نور الشمس بفيه، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

ثم بيَّن كيفيّة هذا الإتمام، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾، وقد عَنْـوَنهم بعنوان الكفر والشِّرك؛ للإشارة إلى أنهم جمعوا بينهما.

وقد اختلفوا في مرجع الضمير من كلمة ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾؛ فقيل: إنه راجع إلى الرسول ﷺ، والمعنى: أنه سبحانه يُظهِرُ هذا الرسولَ ويُطلِعُه على كلِّ ما يحتاج إليه البشر، من أمور الدين؛ عقائدِه وآدابِه وسياستِه وأحكامِه. وكتبُ سائر الأديان ليست كذلك.

وقيل: بل الضمير لـ«دين الحقِّ» الذي أرسله الله به، ومعناه: أنه تعالى يُعْلي هذا الدين ويرفع شأنه على جميع الأديان بالـحُجَّة والبرهان، والهداية والعرفان، والعلم والعمران.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وبعد أن ذكر الرسولَ ﷺ والنورَ الذي أنزله إليه رحمةً للعالمين، ومحاولةَ المشركين لإطفائه، عقَّب ذلك بالدعوة إلى قَبول هذا النُّور ونُصْرة الرسول، بأبلغ عبارة مُؤثِّرةٍ على النفوس، حافزةٍ لها، وأضاف إلى هذا الغَرَض غَرَضاً آخر، وهو السَّداد في أمر

الجهاد، بعد أن ندَّد سبحانه في أول السورة على التقصير فيه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾، فعبَّر سبحانه عن أعمال البرِّ الآتية بالتجارة التي هي أعظم وسيلة للربح، واستفزَّ الشعور نحوها، ثم فصَّلها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، وهذه الآيةُ على حدِّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ...﴾ [التوبة: ١١١].

وبعد أن نَدَبهم إلى هذه الأعمال، واستفزَّ شعورهم نحوها، بالغ في الحثِّ عليها بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والعرفان والنظر الصحيح.

ثم صرَّح بذلك الربح بقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ومنها السالفة في التقصير في الجهاد، ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾(١) ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ خالدةٍ لا نهاية لها. ثم نوَّه بشأن هذا الربح، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

وهذه السعادةُ العُظمى هي ربحُ هذه التجارة في الآخرة، أما ربحُها في الدنيا فهي السيادة العُليا التي ذكرها بقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، فجعَل لهذه التجارة ربحَيْن: السيادة في الدنيا، والسعادة في الأخرى. وقرن ذلك بالتبشير؛ تحقيقاً للوعد، وتقريراً له، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: بعظيم ما يسرُّهم ويُسعِدُهم سعادةً لا حدّ لها.

ثم نَدَب المؤمنين لنُصْرة هذا الدين دون تهاونٍ ولا تقصير، كما نصر الحواريُّون عيسى عليه السلام، وبيَّن سبحانه ما كان من أمر عيسى مع بني إسرائيل، وأنهم افترقوا فرقتين: فرقة آمنت به، وفرقة كفرت بما جاء به، واشتبكت الفرقتان بالمخاصَمة

---

(١) «مساكن طيبة» أي: مساكن طاهرة زكيَّة، تسكن فيها نفوسكم، وتسكنون فيها إلى أزواجكم من الحور العين الطيِّبات الطاهرات الزاكيات.

والمقاتَلة، فكانت العاقبةُ للمؤمنين على الكافرين، وجعل هذا البيان حثاً للمؤمنين إلى نُصْرة الله ورسوله، وتأييداً لعزمهم، وتسليةً للنبي ﷺ، ووعداً بأن العاقبة تكون لهم على المعارضين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ على غِرار ما كان الحواريُّون أنصارَ الله لعيسى عليه السلام، حين ندبهم لنُصْرته، ﴿كَمَا﴾ حكى ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ(١) قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ والحواريُّون: أصفياء عيسى عليه السلام(٢)، وأولُ مَنْ آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً. وحواريُّ الرجل: صفيُّه؛ من الحَوَر، وهو البياض الخالص، فاستُعمِلَ للصحبة الخالصة.

ثم أجمل سبحانه وتعالى القصة بقوله: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وأطاعوا عيسى عليه السلام بما أمرهم به من نُصرة الدين، ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ منهم وقاتلوا المؤمنين، ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ بالحُجَّة وبالمقاومة الناجحة، ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ عليهم غالبينَ لهم. ومُؤَدَّى هذا البيان: الوعدُ للمؤمنين بنصرهم على المشركين، وتأييدهم عليهم.

* * *

(١) أي: مَنْ الذين ينْصُرونني، ساعين إلى بلوغ مرضاة الله، بالجهاد الدعويِّ في سبيله، مُبلِّغين دينَه مهما تلقَّوا من أذىً واضْطِهاد؟

(٢) جمع حواريّ بتشديد الياء. وتقدَّم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

سُورَةُ الجُمُعَةِ

مدنيَّة، وهي إحدى عشرة آية

جاء فيها:

- الحثُّ على العمل بالعلم.

- وتوبيخ مَنْ لم يعمل بعِلمِه من اليهود والمنافقين.

- والرد عليهم فيما يدَّعونه من أنَّ النبوَّة مقصورةٌ على بني إسرائيل، يقولون ذلك رُغماً عن أنَّ التوراة بيَّنت لهم عن مجيء هذا الرسول ﷺ، وأنه يجبُ عليهم اتِّباعُه.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ أتى بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، وأتى بـ﴿مَا﴾ دون (مَنْ) تغليباً لغير العاقل، لأنه أكثر. وقد مرَّ الكلام على هذا التسبيح في سورة الحديد وسورة الحشر، فارجع إليه.

والقدُّوس: المُنزَّه عن كلِّ نقص وعَـيْب. وفي مضمون هذه الآية إثارةٌ للشعور بعظمة الله والحذر من مخالفته، جَعَلها مُقدِّمةً لمضمون ما بعدها، وحَمْلاً عليه، وهو التَّصديق بهذا الرسول وما جاء به، والتمسُّك بمندرجات كتابه، لأنه مُنزَّلٌ من حكيم عليم.

وقد سبك ذلك على التنويه بشأن نعمته على العرب بإرسال رسولٍ منهم إليهم؛ ليفهموا عنه ما يهديهم إليه، ممّا به خيرُ الدنيا والآخرة، وضمَّنه الردَّ على بني إسرائيل في دَعْواهم أنَّ النبوَّة مقصورةٌ عليهم، وأنهم أولياءُ الله وأحبَّاؤه، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ والأميُّون: العرب؛ لأنها كانت بأكثريَّتها أُمَّةً أُمّيّة، لا تكتب

ولا تقرأ. والأمّيّة لا تنافي التهذيب والتثقيف، كما يدلُّ على ذلك تاريخ الأمة العربية ومناحي شعرها، في الحكمة والتدبير والدراية والسياسة وغير ذلك، وقيل: إنما سُمُّوا أُميِّين لنسبتهم إلى مكة أمِّ القرى.

ثم بيَّن تعالى ما جاءَهم به هذا الرسول من الكمال، فقال: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: آياتِ الله التي جاءَهم بها ليُخرِجَهم من الظلمات إلى النور، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من خبائث العقائد والأعمال؛ لأنَّ هذا القرآن العظيم يُزكِّي الأرواحَ والأبدان، ويُهذِّبها قولاً وفعلاً، فتكون مصدراً للأعمال الصحيحة الشريفة، والأخلاق العالية الفاضلة، والمقاصد السامية النبيلة.

ثم أضاف سبحانه لهذه الآيات صفتَيْن أُخرَيَين، بطريقة عطف السبب على المسبَّب، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ بها ﴿ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1]؛ لينصّ بأنها مُنـزَّلةٌ من الله، ومحتويةٌ على حِكَمٍ بالغة.

وعَطْفُ (الحكمةِ) على (الكتاب) من عطفِ الشيء على ما يحتوي عليه[2].

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى أنَّ هذا الإرسال إليهم، إنما هو على إثر شدَّة افتقارهم إليه، فقال: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾. و﴿إِنْ﴾ هذه هي المخفَّفة، واسمُها ضمير الشان، واللامُ تدلُّ على ذلك. والمراد من هذا البيان: الامتنان على العرب بهذه المنقبة، واستدراجهم للدخول في زمرته ﷺ في أول بعثته.

(١) أي: يُعلِّمهم معاني القرآن وحقائقه، وأحكام السنَّة المُطهَّرة المبيِّنة والشَّارحة للكتاب، كما يُرشِدُهم إلى وَضْع الأشياء في مواضعها، اعتقاداً، أو فكراً، أو معرفةً، أو عملاً.

(٢) بل الحكمة أعمُّ من الكتاب، فهي تشمله وغيرَه، وأهم ما يدخل في هذا الغير: السنة النبوية الشريفة، فقد بثَّ فيها النبي ﷺ كثيراً من تعاليمه.

ولا يلزم من تخصيص الشيء بالذكر نَفْيُ ما عداه، لا سيما إذا كان في ذلك غَرَضٌ، وهو هنا المبالغة في التَّمنُّن عليهم، والتقريع للمُعارضين منهم، فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله تعالى ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وأمثال ذلك من الآيات.

وإنما خصَّ العرب؛ لأنه تعالى انتدبهم ليحملوا نبراس هذا الدين، ويطوفوا به في العالمين، يرشدونهم إليه ويحملونهم عليه. على أنَّ بعض المفسِّرين ـ وعلى رأسهم ابن عباس رضي الله عنهما ـ قالوا في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾[1]:

---

(١) قضى سبحانه أن تتدرَّج شرائع البشر بتدرُّج النوع الإنساني في العلم والمعرفة، فكانت الشريعة الأولى بسيطة، وتدرَّجت في الرقي، وذلك فيما عدا الأسس العامة الثابتة في كل الشرائع، وهي الإيمان بوجود الله سبحانه، وأنه منفرد بالألوهية، منزَّه عن الشريك والمثال، والإيمان بملائكة الله وبرسله من البشر، وأنه سبحانه يرسل شرائعه إلى هؤلاء الرسل بواسطة الوحي من الملائكة على الأكثر، والإيمان بالصحف والكتب التي تنزل على الأنبياء لينشروها بين الناس، والإيمان باليوم الآخر، وبالنشور فيه والحساب، ثم دخول البشر الجنة أو النار، بمقتضى اتِّباعهم لهذه الشرائع، أو إعراضهم عنها، ودرجتهم فيهما بحسب درجتهم في ذلك، وأنَّ الله سبحانه لا يغفر أن يُشْرَكَ به، ويغفر ما دون ذلك من هفوات المؤمنين.

وكان سبحانه يعدُ في كل شريعة أنه سيُرسل ـ عندما يتكامل النوع الإنساني في العلم والمعرفة أول تكامله ـ شريعةً عالمية واحدة، تقوم مقام كل تلك الشرائع، وتكون ناسخة لها وخاتمة للشرائع، لا ينزل بعدها أخرى؛ لأنها تسدُّ حاجةَ البشر إلى يوم القيامة، وجاء الإنجيل يُبشِّر بقُرب مجيء هذه الشريعة، ومعنى الإنجيل في السريانية: البشارة، ثم أنزل الله سبحانه تلك الشريعة المنتظرة على محمد ﷺ بهذا القرآن العظيم، فكانت شريعةً عالـميةً لجميع البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم، وإنما أنزلها باللغة العربية؛ لأن قرآنها وما احتوى عليه من معانٍ =

هم الأعاجم من سائر الأمم غير العرب، والذين سيتبعون العرب في هذا الدين[١]، وجعلهم ﴿مِنْهُمْ﴾ للإشارة إلى أنَّ الجميع يصيرونَ أُمَّةً واحدة بالإسلام، يقال لها: المسلمون، فكلهم عرب بطابع الدين، وإن اختلفت أجناسهم. وقد نهض الأعاجم نهضةً صادقة بالاهتمام باللغة العربية تأليفاً وتصنيفاً ونشراً، كسيبويه والجرجاني والفيروزآبادي والرازي وأبي السعود العمادي وأمثالهم كثيرون.

وقال مقاتل: إنما يعني بالآخرين: التابعين من هذه الأمة إلى يوم الدين[٢]، بما فيهم العرب وغيرهم من سائر الأمم.

وعلى كلٍّ؛ فهو معطوف على ضمير ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾، والمراد من العرب: ما انطبعوا بالطابع العربي، وهو اللغة والدين، كما قال ﷺ: «ليست العربية بأحدكم من أُم ولا أب، إنما هي اللسان»[٣].

= ومفاهيم لا يمكن لكلِّ لغة أن تقوم ببيانه سوى اللغة العربية، فكانت هذه اللغة لغةً عالمية أيضاً كالقرآن، يُسألُ كل بشر إذا لم يتعلمها إلى جانب لغته، كما يُسأل عن القرآن والإسلام، ولذلك اهتم الصدر الأول بنشر اللغة اهتماماً كبيراً، وأكبَّ الناس على العربية يتدارسونها ويؤلفون فيها وفي بلاغتها وأنواع فنونها. وما أعظم فائدة البشر واتحاده بهذا الدين وهذه اللغة، فإنَّ وحدةَ الدين واللغة رابطة عظمى بين البشر في التفاهم والاتّحاد وقلَّة النزاع والخصام، إلا في أمور بسيطة يرجع في حلِّها إلى هذا القرآن.

ولكن البشر ـ يا للأسف ـ لم يقبل كلَّه هذا الصلاح، وابتعد عن سعادة الأخرى كما ابتعد عن الراحة في الدنيا، اللذَيْن أرادهما الله، ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله.(المؤلف).

(١) ينظر «تفسير الرازي» (٣٠: ٥٣٨).

(٢) «تفسير مقاتل» (٤: ٣٢٥).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢١: ٤٠٧)، عن عبد الرحمن بن أبي سلمة، مرسلاً.

ولـمّا كان هذا الأمر الذي بيّنه مَبْنياً على الحكمة والعزّة، ختمه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾، يشير إلى وَجْه تمكين رجلٍ أُمّيٍّ من ذلك الأمر العظيم، واصطفائه من بين سائر البشر، واصطفاء قومه لهذا الشأن العظيم من بين سائر الأُمم، بمعنى أنَّ ذلك كان بحسب الحكمة الجليلة وقُدرة الله البالغة.

ثم نوّه بشأن هذا الاصطفاء، فقال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ وفيه إيماءٌ وتسفيهٌ لِـمَا يزعمه اليهود من أنَّ النبوَّة لا تكون في غيرهم، فهم لذلك لم يؤمنوا بهذا الرسول، يقولون هذا مع أنَّ التوراة تأمرهم بالإيمان به.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

وقد شنَّع عليه تَرْكَهم العملَ بالتوراة في كثير من أوامره ونواهيه، فهم لا يقرنون العِلمَ بالعمل، وضرب لهم في ذلك مثلاً بالحمار يحمل أسفاراً، في أنَّ كلًّا منهما لا يستفيد ممَّا يحمل، مع أنه من أعظم ما يُستفاد منه ويُعتمد عليه، والغرض من ذلك: التهجين لليهود، والتنفير للمؤمنين من أن يكونوا مثلهم، فيتركوا العمل بكتابهم هذا، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: عُلِّموها وكُلِّفوا العمل بها، فلم يعملوا بما فيها، ومِنْ ذلك أنها تنطق بنُبوَّة محمد ﷺ، وتحملهم على الإيمان به وهم منكرون، فمَثَلُهم في ذلك ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أي: كتباً من العلم لا يستفيد منها.

وهذا المَثَلُ من أعلى الأمثال بلاغةً في الانطباق على هذا المقصود؛ لأن التوراة لم تؤثّر على نفسيَّتهم فتُزكِّيها، فهم وهذا الحمار في ذلك سواء.

ثم أنَّبهم ونعى عليهم بقوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

ثم بيَّن السرَّ في عدم اهتدائهم بالتوراة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾ أي: مَضَتْ سُنَّته تعالى في أخلاق البشر وطباعهم أنَّ من تَشَبَّع منهم بالظلم والضلال، يفقد الاستعداد للهداية والرَّشاد[1].

ولـمّا كانوا مع ذلك يَتبجَّحون بأنهم أبناءُ الله وأحبّاؤه، ويدَّعون أن الدار الآخرة لـهم خالصةً، ويقولون: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١١]، أمره سبحانه أن يُخاطبهم بما يُفحِمُهم ويُظهِرُ كذبهم لأنفسهم، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟[2] إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾ وهذه حُجَّةٌ عليهم في أنفسهم، لا حُجَّة إلزاميَّة أمام الناس. ووَجْهُها: أنَّ العقيدة الراسخة في أمر من الأمور، تدفع النفوس إليه راغبةً به، فإذا كانوا يعتقدون حقيقةً أنهم أولياءُ لله، وأنَّ نعيم الآخرة مكفولٌ لهم، فلِمَ لا تَتُوقُ إليه نفوسُهم ويتمنَّون الموت، وعلى الأقل لا يَجْزَعون منه؛ لأنه هو الطريق الوحيد للوصول إلى ذلك؟! ولكن الحقيقة أنَّ هذه أقوال يقولونها بأفواههم، وقلوبهم تعلمُ خلافَها، لِـمَا انطووا عليه من الكفر والنفاق، وإنكارهم نُبوَّة محمد ﷺ وما جاءَ به، وهم يعلمون أنه الحقُّ مُنزَّلٌ من ربِّهم، وإنما كفروا عِناداً وبَغْياً أن يُنزِّل الله رسالتَه على مَنْ يشاءُ من عباده.

---

(١) أو المعنى أيضاً: والله لا يحكم بالهداية للقوم الذين ظلموا أنفسَهم بتكذيبِ آيات الله وأنبيائه، وعرَّضوا أنفسَهم للعذاب الأليم في نار الجحيم.

(٢) أي: صاروا يهوداً.

وقد أردفَ هذا الإلزام بالتقرير، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا[1] بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يقرِّر سبحانه وتعالى بمضمون هذه الجملة ما تُكِنُّه نفوسُهم، وهو خوفُهم عاقبةَ أعمالهم، ونكرانُهم رسالةَ محمد ﷺ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم، وأنهم يخافون الموتَ خوفاً مُضاعَفاً، حَذَراً من عذاب الله. وقد توعَّدهم على ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾.

ثم أكَّد الوعيد بما يناسب السياق، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ ويُجازيكم عليه جزاءً وفاقاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾.

ولـمّا كان الرسول عليه السلام جاء ليتلوَ على أتباعه آياتِ الله ويُزكّيهم ويعلّمهم

---

(١) وفي سورة البقرة: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا﴾ [٩٥] لأنه لما كانت دعواهم أن الدار الآخرة لهم خاصة؛ أكّدَ نفيَ ذلك بـ(لن)؛ لأنها أبلغ في النفي من (لا)؛ لظهورها في الاستغراق. وفي سورة الجمعة، ادَّعوا ولاية الله، ولا يلزم من الولاية لله اختصاصهم بثواب الله وجنّته، فأتى بـ(لا) النافية للولاية، وكلاهما مؤكّد بالتأبيد، لكن في البقرة أبلغ.
وجواب آخر: أن آية البقرة وردت بعدما تقدَّم منهم من الكفر والعصيان وقتل الأنبياء، فناسب حرف المبالغة في النفي لتمنّيهم الموت، لما يعلمون ما لهم بعدَه من العذاب؛ لأنَّ (لن) أبلغ في النفي عند كثير من أئمة العربية، وآية (الجمعة) لم يتقدَّمها ذلك، فجاءت بـ(لا) الدالة على مطلق النفي من غير مبالغة. «كشف المعاني» لابن جماعة، ص ٤٩.

الكتاب والحكمة، وكان السبتُ عند اليهود من جملة ما يفتخرون به، ويَتَبجَّحون فيه بأنَّ الله خصَّهم به، لأنهم أولياء الله من دون الناس، وكانوا يعبدون فيه ويُقيمونه كما أمرهم الله؛ شَرَعَ سبحانه وتعالى الجمعةَ للمسلمين، ووضع لها هذا النظام الذي أمرهم فيه بمحافظتها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ[١] وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾[٢]، ثم أردف الحكم بما يحمل على التمسُّك به، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ[٣] خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾.

وهذه الآية تمنع من البيع والشراء ومزاولة الأعمال بسائر أنواعها وقتَ الصلاة فقط، ولم يجعل سبحانه المنع في كلِّ النهار كما في السبت عند اليهود، وقد صرَّح بذلك في قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٤] لإقامة مصالحكم ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[٥]، وهكذا جَمَعَ الله للمؤمنين بين الدين والدنيا، وأمرهم أن يأخذوا لدنياهم كما يأخذون لأُخْراهم.

ثم أشار سبحانه إلى ما يتضمَّن الوَجْهَ في قَصْر المنع من مزاولة الأعمال على وقت الصلاة، أشار إلى ذلك ببيان أنَّ الإنسان لا يقتصر ذِكرُه لله تعالى في أوقات الصَّلوات فقط، بل يجب أن يتذكَّره كلَّ وقت، بكلِّ ما يُبصِّره ويُحسِّسه بجلاله سبحانه من أعماله العظيمة ونِعَمِه الجليلة في هذا الكون، مُدركاً أنه تعالى مفيضُ ذلك الخير والجود، وهو الملجأ والمعاذ والمعبود، فقال: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾.

---

(١) أي: امْضُوا بهمّة ونشاط إلى سماع الخُطبة وأداء الصلاة؛ لأنهما يذكر فيهما اسم الله.

(٢) المراد بالبيع: المعاملات مطلقاً من بيع وإجارة وغير ذلك ممَّا يشغل عن ذكر الله.

(٣) أي: ما ذُكِرَ من السعي وتَرْكِ ما يَشغلُ من أمور الدنيا. وفيه تفخيمٌ وتعظيمٌ باللام المؤكّدة للبُعدِ وميم الجمع.

(٤) أي: تفرَّقوا للتصرُّف في حاجاتكم. والأمر للإباحة.

(٥) أي: اطلبوا بعضَ فضل الله ممَّا كان ممنوعاً بعدَ الأذان وقبل الصلاة.

وآية الجمعة هذه قانونٌ عظيمٌ يتضمَّن الحثَّ على العمل، ويمقت الخمول والكسل، وقد حدَّدت المنعَ والتحريمَ في وقتٍ قصير فقط، وهو وقتُ صلاة الجمعة، ولم تجعله كل النهار، حفظاً للمصالح العامة، فهي قانونٌ عظيم، يُحتِّم على المؤمن أن يعمل في كلِّ أوقاته دائباً مستمراً، إلا هذا الوقت القصير الذي خصَّه الله فيما بينه وبين العبد؛ ليعبدَه ويقفَ فيه بين يديه، في هذا اليوم العظيم.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «إن الله تعالى كتب يوم الجمعة على مَنْ كان قبلنا فاختلفوا فيه، وهدانا الله إليه، وذلك أن الله سبحانه فرض عليهم يوماً يتفرَّغون فيه للعبادة، ووَكَلَ إليهم اختياره، فاختار اليهود يوم السبت، واختار النصارى يوم الأحد، وضلّوا عن يوم الجمعة، فادَّخره الله لنا»[١].

وللحثِّ على شدَّة الاهتمام بوقت صلاةِ الجمعة، وبَّخ سبحانه وتعالى المؤمنين في جملتهم، وأدّبهم تأديباً عاماً على تضييع أفرادٍ منهم ضِعافِ الإيمان لهذا الوقت القصير الفضيل، في حادثة خصوصية حدثت في أول الإسلام؛ ليكون الحكم عاماً مستمرَّ المدى، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾ أي: على المنبر تخطب، وذلك أنه عليه السلام كان يخطب للجمعة فمرَّت قافلة تجارية، وكان من عادتهم يتلقَّونها بالطبل والمزمار، فخرج بعضُ الناس إليها من المسجد[٢]، فأنكر الله سبحانه ذلك عليهم، وأمر نبيَّه ﷺ أن يُبيِّن لهم أنَّ هذا التأخير

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع اليهود غداً، والنصارى بعد غد»، رواه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥).

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ أقبلت عير تحمل طعاماً، =

القليل لأجل الصلاة لا يُفوِّت عليهم الرزق، ويحفظ لـهم ما عند الله، فقال: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾[1].

* * *

= فالتفتوا إليها، حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً...»، رواه البخاري (٩٣٦)، ومسلم (٨٦٣)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(١) ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: الرازق هو خالق الأرزاق، وهو سبحانَه خيرُ مَنْ يُعطي ويَرزق؛ لأنَّ كلَّ رزقٍ من سواه، فهو من رزقِ الله، أجراه الله على يدَيه، وهوالرزاق الحقيقي الذي لا رازق سواه.

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

مدنيّة، وهي إحدى عشرة آية

وموضوعها:

فضيحةُ تفوُّهِ المنافقين بإخراج المؤمنين من المدينة، أثناء رجوعهم من غزوة بني المصطلق، ومؤامراتهم الخبيثة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ وكُسِرَت ﴿إِنَّ﴾ في الجمل الثلاث؛ لأن ما قبلها في موضع القَسَم، وهي واقعة في الجواب. ونَظْمُ الآية من أعلى درجات البلاغة، ولا سِيَّما توقيع قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ بين الشهادتَيْن المتقابلتَيْن.

والمراد من الكذب هنا: عَدَمُ مطابقة القول للاعتقاد، وهو أحدُ معنيَي الكذب، لأنه إما عدم مطابقة الكلام للواقع، وإما عدم مطابقة الكلام للاعتقاد، وهذا من النوع الثاني؛ لأنَّ المنافقين لا يعتقدون في نبوَّته، وإنما دخلوا في الدين رياءً. وقد قرَّره بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: سترةً يستترون بها من الكفر، كما يُفصِحُ عنه قوله: ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرضوا عنه[1].

---

(١) أي: أعرَضوا بأنفسِهم عن طاعة الله ورسوله، ومنعوا الناسَ عن الإيمان بمحمد ﷺ، والجهاد معه.

ثم شنَّع عليهم وعنَّفهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ من هذا النفاق والصُّدود عن سبيل الله.

ثم ذكر مصدر ذلك النفاق فيهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ قال مقاتل: أي: ذلك الكذبُ فيهم لأنهم آمنوا في الظاهر ثم كفروا في السِّرّ[1]، ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حسب سُنَّة الله تعالى في طبيعة الإنسان إذا رسخ اعتـقادُه في شيء لا يميل إلى ضدِّه، فلمَّـا رسخ الكفر فيهم وانطبعوا عليه أعرضوا عن الإيمان بتاتاً، لأنهم فقدوا الاستعداد لذلك.

وقال أبو مسلم: لـمّا أَلِفوا الكفر والعناد، ولم يُصْغوا إلى الحق، ولا فكَّروا في المعاد، خلَّاهم الله واختيارهم، فصار ذلك طبعاً على قلوبهم، وهو إِلْفهم لـمَا اعتادوه من الكفر، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ حقيقةَ الإيمان، ولا يعرفون حقِّيَّته أصلاً.

وما قال أبو مسلم هو مُؤدَّى ما ذكرناه من حُكم سُنَّة الله في طبيعة الإنسان، وهو الطبع على القلوب إذا رَسَخَ فيها ما يفسدها.

ثم تابع الوصف لنفاقهم ببيان أنَّ ظاهرَهم لامِع وباطنَهم متجهِّم، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾[2] قال ابن عباس: كان عبد الله بن أُبيٍّ جسيماً فصيحاً ذَلِقَ اللسان[3]، فإذا قال سمع النبيُّ ﷺ قوله. ويجوز أن يكون الكلام نهياً بصورة الخبر.

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠: ٥٤٦).

(٢) أي: إذا رأيتَ ـ يا رسول الله ـ المنافقين تُعجِبُكَ مناظرهم الحَسَنة، وإن يقولوا تَسْمَع لأقوالهم المنمّقة، فهم يتصنَّعون الظواهر التي تخدع الأنظار، ويُحسنون القول فصاحةً وبياناً وانتقاءً للمعاني.

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠: ٥٤٧).

ثم تابع الكلام ببيان خلوِّهم من النفع والخير، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾، فشبَّههم في مجلس رسول الله ﷺ بخشب مُسَنَّدة إلى حائط، في كونهم أشباحاً خالية من العلم والخير، وقيل: بل (خُشُب) جمع (خشباء)، وهي الخشبة التي فَسَدَ جوفُها، فشُبِّهوا في نفاقهم وفساد بواطنهم ـ بما انطووا عليه من الحنق وخُبْث الطويَّة نحو دين الله ورسوله ـ بالخشب الفاسد الأجواف. ولخوفهم من ظهور أمرهم هذا ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، فكانوا على وَجَل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارَهم، ويبيح دماءَهم وأموالهم، وإذا سمعوا صَيْحةً من القرآن فزعوا من أنها عليهم.

ثم حذَّر نبيَّه ﷺ كي لا ينخدع بظاهرهم اللامع عن باطنهم المتجهِّم، فقال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾[١].

ثم وبَّخهم وأنَّبهم بقوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ[٢] أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ أي: يُصرَفون عن الحق مع توفُّر الدلائل عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ

---

(١) أي: هم وحدَهم الكاملون في العداوة، الراسخون فيها؛ لمُخالطتهم ومُداخَلتهم ومصانعتِهم، وتظاهُرهم بالإسلام، ومعرفتِهم مَقاتلَ المسلمين، وثغرات الضعف التي يُمكِن أن يَنفذوا إليها، فاحذرهم ـ يا رسول الله ـ وراقب كلَّ حركة من حركاتهم، وكلَّ تصرُّف من تصرُّفاتهم، واتَّخذ كلَّ الوسائل التي تحميك والمسلمين من مَكرِهم ومَكايدِهم، ولا تَدَعْ لهم مَنْفَذاً ينفُذون منه للإضْرار بالمسلمين، وإفساد أحوالهم، ولا تأمَنهم على سرِّك؛ لأنهم عيونٌ لأعدائك من الكفار، ينقلون إليهم أسرارك.

(٢) أي: لعنهم الله وطردهم من رحمته طرداً أبدياً.

حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

ثم ذكر حالهم مع غير النبيِّ ﷺ من الناس المطَّلعين على أمرهم والناصحين لهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾(١) استهزاءً، ﴿وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٥﴾﴾(٢) وذلك أنه قيل لعبد الله بن أُبيّ: نزلت فيك آيٌ شداد، فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك. فلوى رأسه وقال: أمرتموني أن أُومِنَ فآمنت، وأمرتموني أن أُزكِّيَ مالي فزكَّيْت، وما بقي لي إلا أن أسجُدَ لمحمد(٣).

ثم يأَّس نبيَّه ﷺ من إيمانهم وغفران ذنوبهم، فقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ لإصرارهم على الفسق ورسوخهم في الكفر، كما بيَّن ذلك على وجه للتعليل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ أي: مضت سُنَّته تعالى في أخلاق البشر أنَّ مَنْ رسخ في الفسوق يَفقِدُ الاستعداد للهداية إلى الإيمان والإصلاح في الأعمال(٤).

---

(١) ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾ المراد: أمالوا رؤوسهم بسرعة وعنف، رغبةً عن الاستغفار، وصرفوا وجوههم عن المتكلم إعراضاً عن كلامه، وهذه عادة الكافر المصمّم على الكفر.

(٢) أي: يُحجمون عمّا دُعوا إليه، ويَصرفون من يَتأثَّر بهم عن سلوك سبيل الله، وهم مستكبرون عن اتِّباعك وطاعتك واستغفارك لهم، والسبب في ذلك: أنهم كافرون باطناً، فهم لا يؤمنون بأنهم عُصاة حتى يشعروا بالحاجة إلى أن يستغفر لهم الرسول، ويُعرضون عن كل عمل فيه مرضاة لله تعالى، أو طاعة لرسوله ﷺ، ويرَون أنّهم أحقُّ بالزعامة والقيادة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٣٩٩).

(٤) أو المعنى: إنَّ الله لا يحكم بالهداية للحقِّ على القومِ الخارجين على أمره، الذين سلكوا بإراداتهم =

ثم تابع الكلام في بيان قبائحهم ومؤامراتهم ضدَّ المؤمنين، فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ يعنون فقراء المهاجرين، ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ عنه ويتركوه.

فردَّ عليهم سبحانه وسخَّفهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ لجهلهم بشؤون الله.

ثم ذكر لهم قبيحةً أخرى، فقال: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ﴾ من سفرنا ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ يعنون بالأعز: أنفُسَهم، وبالأذلّ: رسولَ الله ﷺ والمؤمنين، فردَّ سبحانه عليهم بطريقة القول بالموجب وردِّ الوصف ـ وهي من خصائص اللغة وآدابها ـ فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا لهم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ لجهلهم بذات الله وصفاته، وبأنه تعالى يقول للشيء: كن، فيكون(١).

= الحرَّة مَسْلكَ الكفر والضلال. فالحكم بالمغفرة والهداية التي تجعل العاصي من أهل النجاةِ والهداية، إنما يكونان لأهل الإيمان فقط، أما مَن هبط عن أدنى درجات الإيمان، ودخل في دَرَكات الكفر فلا حظَّ له بشيءٍ منهما.

(١) قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، ثم قال بعده: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأن الآية الأولى جواب لقول المنافقين: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ فختم الآية بأنهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لا يفهمون أن الأرزاق على الله تعالى، وأن منعهم لا يضرّهم؛ لأن الله يرزقهم ـ إذا منعوهم ـ من جهة أخرى، فلما كان إدراك ذلك أمراً خفياً يحتاج إلى فكر، قال: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾. وأما ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فردٌّ على عبد الله بن أبي حين قال: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾؛ لأن ذلك يدل على عدم علمه: أن العزة لله والرسول، يُعِزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، فمنه العزة تستمد، وهو يعطيها لمن يشاء، وذلك من الأمور الظاهرة لِـمَن عرف الله تعالى، فجهَّلهم بقولهم ذلك مع ظهور دليله. «كشف المعاني» لابن جماعة، ص٣٨١.

وكان لعبد الله ابن سلول قائلِ هذا القول ولدٌ مؤمنٌ صالح، اسمه عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، تقلَّد سلاحَه وجاء بأبيه وأوقفه أمام رسول الله ﷺ، وقال له: والله لا تَبرَحُ من مكانك حتى تُقِرَّ أنك الذليل، وأنَّ رسول الله هو العزيز، فاعترف بذلك، وصرَّح بردِّ الوصف عليه(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١﴾.

ثم حثَّ سبحانه المؤمنين على التمسُّك بهذا الدين المبين، وأن لا تلهيَهم أموالهم وأولادهم عن ذلك، كما ألهت أُولئك المنافقين، حيث صدَّهم عن الإيمان خوفُهم على مراكزهم، وجرّأهم على ذلك اعتزازُهم بأولادهم، مُلمعاً إلى الأنصار أن لا يرهفوا لقول ابن أُبيٍّ السابق: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، وقال أبو مسلم: أي: في جميع طاعاته، وقيل: بل المراد: عن الصلوات الخمس المفروضة، ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾(٢) كيف لا وقد باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني. وكثيراً ما تصدُّ الأموال والأولاد عن الواجبات والحقوق(٣).

---

(١) أخرجه مختصراً الترمذي (٣٣١٥) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وقال: حسن صحيح.

(٢) أي: مَنْ شَغَله مالُهُ وولدُه عن ذكر الله، فأولئكَ البُعداء عن مراتبِ المؤمنين هم الخاسرون في تجارتهم، الذين خسروا رأسَ مالهم في هذه الحياة، وهو: عمرُهم المحدود، ومَنْ خسر ذاته كان هو الخاسر الأكبر.

(٣) لأن منْ وجَّه كلَّ همِّه في الحياة الدنيا للأموال وجمْعها وعدِّها وتنميتها، وللأولاد وحاجاتهم =

ومعنى هذه الآية: جزءٌ من معنى آية التوبة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ..﴾ [التوبة: ٢٤] المتضمِّنة لإنكار الذات. ويجوز أن يكون فيها تعريضٌ بمن انفضُّوا في آية الجمعة، ذكره في سورة «المنافقون» للمبالغة في التأنيب.

ثم تابع الإرشاد بالحضِّ على الإنفاق، وأن لا يسمعوا لأولئك المنافقين القائلين: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، على نهج القرآن في تعقيب السلب بالإيجاب، والعكس، وأدمج فيه المبالغة في الحثِّ، فقال: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ[1] فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ[2] أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾، فبيَّن سبحانه ما يَعْتري الإنسان من الحسْرة والندامة في ذلك الوقت العصيب، وأوقَفَه على جليَّة الأمر هزّاً له وتبصيراً، وقد بالغ في الهزِّ بقوله: ﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ مشيراً إلى أن هذا المال لله، فهو الذي أعطاه، إن شاءَ سلبه، وإن شاءَ أبقاه.

ومن مباحث اللفظ: قوله: ﴿وَأَكُن﴾ بالجزْم، عطفٌ على موضع الفاء وما بعدها؛ لأنها معه في موضع الجواب للتمنِّي المتضمن للشرط؛ إذ الكلام في عداد قوله: إنَّ أخَّرتَني أصَّدَّقْ وأكنْ من الصالحين.

= ومطالبهم التي لا تنتهي، اضطُرَّ أن يُنفق في ذلك كلَّ طاقات فِكرِه ونفسه، حتى تَـمَّحي من تصوُّراته عقائد الإيمان وأوامر الله التي كلَّفه بها، ويحلّ محلّها مفهومات أهل النفاق ومطالبهم من الحياة الدنيا، فيتفق في مفهوماته وسلوكه معهم.

(١) المراد: مقدِّمات الموت.

(٢) ﴿لَوْلَآ﴾ حرف يدلُّ على طلب حصول ما بعده. ويعبِّر عنه العلماء عن معناه بكلمة (هلّا) بتشديد اللام. وهذا الحرف يجعل الفعل بعده مستقبلاً، وإن كان بلفظ الماضي. فالمعنى: أطلبُ أنْ تُؤخِّرَني.

وقرأ جمعٌ من الصحابة والتابعين بالنصب جرياً على اللفظ[١]، وقرأ بعضهم بالرفع على الاستئناف[٢].

ثم بالغ سبحانه وتعالى بالإغراء على التعجيل في الإنفاق وعمل الخير، ببيان أنه لا يؤخِّر من انقَضَت مدّتُه وحضر أجلُه، فقال: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾، فلا تَتَباطؤوا عن عمل الخير وتَتَوانَوْا فيه.

ثم بالغ في الحض بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾ يُحصيه لكم، ثمَّ يجازيكم عليه، إنْ خَيْراً فخير، وإنْ شرّاً فشرّ.

* * *

---

(١) وهي قراءة ابن محيصن وأبي عمرو. «تفسير الطبري» (٢٣: ٤١٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦: ٢٩٣).

(٢) وهي قراءة عبيد بن عمير، كما في «الدر المصون» (١٠: ٣٤٦).

سُورَةُ التَّغَابُنِ

مختلفٌ فيها، أمكيَّة أم مدنيَّة

وهي ثماني عشرة آية

وملخَّص الغرض منها:

إنذارُ الكافرين بعذاب الدنيا والأخرى، وأخذُهم في ذلك بالترهيب والترغيب، كأمثالها من السور.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ مرَّ الكلام على مثل هذه الآية في أول سورتَي الحديد والحشر، فارجع إليه.

ولما بيّن سبحانه أنه يسبِّح له ما في السماوات وما في الأرض، بيّن أنه خلق الإنسان مستعداً لذلك، ما لم يُفسِد هذا الاستعداد بمفاسد التربية وسوءِ القدوة، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ خلقاً بديعاً حاوياً الاستعدادَ لجميع مبادئ الكمالات العلميّة والعمليّة؛ إذ جعل للإنسان عقلاً يتصرَّف في أنواع شعوره، وفكراً يجول في طرق حاجاته البدنيّة والنفسيّة، وجعل ارتقاءَه في إدراكه وتسديد أفكاره كسبياً؛ ينشأ ضعيفاً، فيقوى بالتدريج، ويتطوَّر بحسب التربية التي تحيط به والتعليم الذي يتلقَّاه وتأثير حوادث الزمان والمكان والأسوة والتجارب، وجعل هدايةَ الدين بالشريعة أمراً اختيارياً لا وَضْعاً اضطرارياً، فهي معروضةٌ أمامه، يأخذ منها بقدر استعداده وفكره المتأثِّر بنوع التربية التي تربّاها، كما هو شأنه في ذلك عند الأخذ بسائر أنواع الهداية والاستفادة من منافع الكون.

هذه هي سُنَّة الله تعالى في خَلْق الإنسان، وهي منشأ اختلافه في الكفر والإيمان،

كما بيّن ذلك بقوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ أي: فكان منكم كافرٌ بالألوهيَّة وما يتبعها، وذلك بنتيجة إفسادِه لطبيعته وتحريف استعدادِه للإيمان، ﴿وَ﴾ كان ﴿مِنكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ بتوحيد الله، وذلك من محافظته على سلامة فطرته واستعداده للإيمان.

ثم ختم الكلام بما يُحذِّر عن الأُولى ويُغْري بالثانية، فقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾ فيُجازيكم بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً.

ومُحصَّلُ معنى الآية ما لمح إليه في سورة الشمس(١): أنه سبحانه خلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته، فكان مستعداً للخير والشر باختياره، فهو يفعل الخير إذا حافظ على سلامة فطرته، ويفعل الشرَّ إذا أفسد فطرته بمفاسد التربية وسوء القدوة، فإذا حافظ عليها وزكَّاها سلك مسلك الـهدى ونجا، وإذا أفسدها ودسَّاها اتَّبع طريقَ الضلال وهوى، فكلٌّ يعمل على شاكلتـه وتربيتـه، ولذلك قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازي كلًّا بعمله، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر.

ومُجمَل معنى الآية: أن الله سبحانه الذي يُسبِّح له ما في السماوات والأرض هو الذي خلقكم في أحسن تقويم، فمنكم مَنْ قدَّر خالقَه وآمن به، وهو الذي حافظ فطرته، ومنكم مَنْ لم يُقدِّره وكفر بخالقه، وهو الذي أفسد فطرته.

ولما توعَّد الكافر ووعد المؤمن أيَّد ذلك ببيان أنَّ الله سبحانه لم يخلق هذا الكون عبثاً، ولكنه أمرٌ له ما بعده، فإنَّ تكوين هذا العالم وإبداع صورة بني آدم والعدول به عن صورة الحيوان الأعجم ـ ولا سيما في الروح والعقل واستعداد النظر ـ إنْ هو إلا أمرٌ مؤسَّس على قواعد الحكمة البالغة، مُسْتَتْبِع للغايات الجليلة، لا مُسْتَتْبِع للعدم

---

(١) في قوله سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

المحض كالحيوان، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالحكمة البالغة والغَرَض[1] الحق، وهو أن يكون لها النهاية العظيمة الشأن، في مصير هذا الإنسان.

﴿وَ﴾ كذلك خَلْقُكم العجيب أمرٌ له ما بعده، فقد ﴿صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[2] حيث عَدَلكم عن صُور الحيوان إلى صُورةٍ بديعةِ الجمال، مُستعدّةٍ لغاية الكمال - فإنه سبحانه «خلق آدم على صورته»[3] سبحانه في العلم والعمل، كما جاء في الأثر - وإدراكٍ واسعٍ، ونظرٍ ثاقب، وقُدرةٍ على العمل تأتي بالعجائب، وكلام فصيح يُعبِّر عن الخواطر، وإرادةٍ مطلقة ناجمة عن تفكير؛ ليكون خليفةً في الأرض؛ يستفيد من خيراتها، ويعمِّر في جَنَباتها ما يزيد في كمالها وجمالها، يفعل بها ذلك بعلمه وعمله وإرادته، فكيف ينتهي مثلُ هذا نهايةَ الحيوان الأعجم، أو يكون عَبَثاً محضاً وعَدَماً صِرفاً؟ ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

بل ينتهي إلى سعادةٍ أو شقاءٍ مع خلود دائم وبقاء، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ ولا تخفى عليه منكم خافية؛ لأنه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، وقد قرَّر المعنى وأيَّده بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾ أي: إنّ عِلمَه تعالى شاملٌ لجميع الأشياء، حتى المُضْمَرات المُستكنَّة في الصدور، فكيف تخفى عليه منكم خافية؟ كلا، بل يُحصيها كلَّها لكم، ثم يُوفِّيكم

---

(١) أفعال الله تعالى مقرونة بالحِكم لا مُعلَّلة بالأغراض، لأن الحكمة هي غاية الفعل، أما الغرض فهو باعثٌ على الفعل داعٍ له، فيكون له تأثير على الفاعل بحيث يُبطل اختياره وكمال إرادته أم يُنقصها على أقل تقدير، ولذلك كان الغرض منفياً في أفعال الله.

(٢) فيه إلماعٌ إلى أنَّ الكفر إنما يكون منه، بإفساده لهذه الخِلْقة الحسنة المُشْبعة بخصائص الإيمان، ومعرفة الرحمن، ومراقبة الدَّيان. (المؤلف).

(٣) سبق تخريجه (٢: ٦٨).

إيَّـاها، فمن وَجَد خيراً فليحمد الله، ومن وَجَد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

ثم نبَّه الكفار إلى ما جرى على أمثالهم في الأمم الماضية، تهديداً لهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ كقوم نوح وهود وصالح، عارضوا رُسُلَهم ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

ثم ذكر على وجه التعليل صورةَ المعارضة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[1]؟ ينكرون رسالة البشـر، ولا ينكرون عبادة الحجر، وهكذا شأن مَنْ يرسخ فيه الضلال، وقد تمكَّن منهم، ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا﴾ عن النُّذُر، ﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ عن إيمانهم، ولم يُؤثِّر ذلك في أرضه وسماواته أدنى شيء، ولكنْ كان كفرُهم وتولِّيهم سبباً لهلاكهم وقطع دابرهم.

ثمّ علَّل الاستغناء عن إيمانهم وعدم الاهتمام له بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ أي: غنيٌّ عن العالمين وعن إيمانهم، مُسْتَحِقٌّ للحمد بذاته وإن لم يحمده حامد، لِعِظَم نِعَمِه وآثاره.

---

(١) ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ...﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري المُشْرَب معنى التعجب.

وقد جاءَ في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم كانوا على أفْجَرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، ولو أنَّ أوَّلكم وآخركم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم، ثم أُوفِّيكم إيَّاها، فمَنْ وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه»[1].

ثم خصَّ بالذكر مِن كُفرِ هؤلاءِ المعارضين إنكارَهم للبعث، وردَّه عليهم بطريقة التقرير لا بطريقة التدليل؛ لأن ذلك قد بيَّنه سبحانه بياناً طويلاً عديداً، فلا حاجة إليه بعد كثرة البيان، وإنما قرَّره وأدمَجَ فيه التوعُّد، فقال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ وتُحاسَبُنَّ عليه وتُجزون به، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البعثُ والجزاء ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾.

وبعد هذا الوعيد المسبوك على التبصرة والتنبيه، دعاهم إلى ما فيه الخير والسعادة، وقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ وهو هذا القرآن العظيم الذي يهدي إلى سعادة الدارَيْن، ويضيء الطريق الموصل لها، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨﴾ فيُجازيكم بالإحسان إحساناً، وبالسُّوء سوءاً.

ثم ذكر اليوم الذي يكون فيه الجزاء، فقال: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ وهو يوم البعث والحساب.

ثم وصف ذلك اليوم بوصف آخر، فقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾، وهذا الوَصْفُ مُستَعارٌ من الغُبْن في البيع والشراء[2]؛ إذ يكون الخاسر في ذلك اليوم مغبوناً، والرابح

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧)، عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) تقول العرب: غَبِنَ فلان الشيء ـ بفتح الغَين وكسر الباء ـ غَبَناً ـ بفتح الباء ـ أي: نَسيَه، أو =

غابناً، ولا غَبْنَ أفظعُ من هذا الغبن وأعظم، ولذلك خصَّ هذا اليوم بهذا الوصف؛ للإيذان بأنَّ التغابن الحقيقي هو ما يقع في الدنيا، فيلوم الكافرُ نفسَه لِـمَا يرى من غُبنه وخسرانه، ويلوم المؤمنُ نفسَه لِـمَا يرى من غبنٍ بالنسبة إلى من هو فوقَه(١). وهذا هو معنى لَوْم النفس اللّوامة، كما جاء في سورة القيامة، على أحد المعنيَيْن فيها.

وقد روي عن النبيِّ ﷺ: «ما من عبدٍ مؤمن يدخل الجنة إلا أُريَ مقعدَه من

= أغفله، أو جهله. وتقول العرب أيضاً: غَـبَنَ زيدٌ غيرَه بوزنِ ضرب: إذا مرَّ به وهو واقف أمامه ولم يـرَه. فالمعنى: يوم التـناسي والذهول الذي يحصل بين الناس، وهو يوم القيامة من شدَّة الهول. قال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠-١٤]. وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

أو المعنى ـ كما قلت في تفسيري «المعين» ص٥٥٦ ـ: ذلك اليوم الذي يخسر فيه الكافرون والعصاة منازلَهم ومراتبَهم التي كانت مُعدَّةً لهم في الجنة، وكانوا يستحقُّونها لو أنهم آمنوا وأطاعوا، فيقع عليهم الغَبْنُ الذي غَبنوا به أنفسَهم؛ إذ يورث الله عزَّ وجلّ المؤمنين مراتبهم ومنازلهم فيها، وهو يومٌ تظهر فيه خَسارة صفقة الكافرين خسراناً عظيماً، ورِبْح صفقة المؤمنين رِبحاً عظيماً». انتهى.

فالتغابن: الغَبْن وهو فَقْدُ النصيبِ وضياعُ ما كان ممكناً. وتغابُن: تفاعُل، مصدر: تغابَن، والزيادة في «تغابن» للمبالغة؛ لأنه من طرفٍ واحدٍ وليست للمشاركة، إذ الكافر ليس له فيه نصيب إلا الخسارة. «المُفَصَّل» لفخر الدين قباوة ص ١٩٦٧.

(١) ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى من لوم المؤمن نفسَه فيه نظر، فإن الله تعالى إذا أدخل المؤمنين الجنة، وأنزل كلَّ واحد منهم منزلته رضّاهم بمنازلـهم، كما قال سبحانه: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]، فلا يلومُ أحدهم نفسه، بل يكون سعيداً تمام السعادة، راضياً تمام الرضا، وقد أخبر سبحانه في مواضع من كتابه عن وصف أهل الجنة بأنهم ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وينظر ما ذكرته في معنى التغابن في التعليقة السابقة.

النار لو أساء؛ ليزدادَ شكراً. وما من عبد يدخل النار إلا أُري مقعدَه من الجنة لو أحسن؛ ليزداد حَسْرة»(١).

ثم وضَّح هذا التغابن، ورغَّب بعمل الخير الذي يربح به صاحبُه في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ والصفقةُ الرابحة.

وبعد أن ذكر مصير المؤمنين ذكر مصير الكافرين، على نهج القرآن في المقابلة؛ تحذيراً من غُبْن ذلك اليوم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾ وقد لخَّص بهاتين الآيتَيْن صورةَ التغابن الذي سيقع في اليوم الآخر.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ثم هوّن على المؤمنين القائمين بأمر الدعوة ما ينالهم من جرَّاء ذلك من مصائب، وذكر السُّنّةَ العامة فيها، فقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتقديره وإرادته، حيث جَعَل في هذا الكون سُنناً في أسباب المصالح العامَّة والخاصَّة، ومعاكستُها والانحرافُ عنها يُولِّد المفاسد والمصائب(٢)، بحكم ردِّ الفعل، وهذه سنة عامة في

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٦٥٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) القول بالتولد غير صحيح، بل المفاسد والمصائب واقعة بإرادة الله تعالى وتقديره، ومخالفة سنن الله تعالى سببٌ أقامه الله تعالى وقرن به إيقاع هذه المفاسد والمصائب، لكن لما كانت هذه المفاسد واقعة بسبب من بني آدم لم تنسب إلى إرادة الله تعالى مطلقاً، وكان الأدب معه تعالى أن ينسبها العبد إلى نفسه.

الكون، فإذا نظر العاقل إلى سائر الشرور والمصائب التي تقع في العالم الإنساني من كليَّة وجزئيَّة، فرديَّة أو عموميَّة، لم يجد لها علَّة إيجابيَّة، ولكن عللاً سلبيَّة، هي الإعراض والميل عن قوانين الفطرة والانحراف عن سنن الله في خليقته؛ إذ قد أذن الله لقانون الفطرة والطبيعة أن يعاكس من عاكسه وانحرف عنه، وأن يصيبه بأذى[١]، حسب ترتيب نظامه وتكوينه.

وقال البلخي: معنى ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾: أن يُخلِّي الله بين المصائب وبين من يتصدَّى لها. وهذا هو مؤدَّى ما ذكرناه من أنَّ المصائب تقع بفعل الإنسان نفسه، أي: وذلك من معاكسته للسنن.

وقيل: بل معنى ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾: بعلم الله، أي: لا تصيبكم مصيبة في سبيل الدعوة إلا والله عالم بها أزلاً؛ لأنَّ عِلمَه في الكائنات أزلي قبل وجودها.

ثم بيَّن أن الإيمان الصحيح مصدرٌ للطمأنينة والثبات تجاه المصائب الحادثة، فقال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للثبات عند حلولها، ويَعلَمْ أن ذلك من تقصيره في قانون الفطرة الموضوع عن علم وحكمة، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ وكلُّ أعماله مبنيَّة على العلم الدقيق والحكمة البالغة، وما يعلمه لا يتبدّل، لذلك قال ﷺ: «اعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليُخطِئَك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبَك»[٢].

وبعد أن أشار إلى أنَّ المصائب ناشئة عن معاكسة سُنَنِ الله في هذا الكون، سواءٌ كانت ماديَّة أو روحيَّة، أمرهم باتِّباع تلك السُّنن والتعاليم التي جاءَتهم على لسان

---

(١) وهذا فيه نظر كالذي قبله، فمعاكسة السنن هي سبب في إصابة الإنسان بالأذى، وهو واقع عليه بإرادة الله وتقديره، لكن بسبب الإنسان وكسبه، ففعل الله مطلقاً لا يوصف بالأذى، ولكن من حيث هو بكسب الإنسان يوصف بذلك.

(٢) رواه أحمد (٢١٥٨٩) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي.

الرسول ﷺ، فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فيما جاءَكم به من عند الله، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ وقد فعل وقام بواجبه، وأعرضتُم ولم تقوموا بواجبكم، فالتَّبعةُ عليكم وحدَكم. وفيه أيضاً لونٌ من ألوان إقامة الحُجَّة على المُعرِضين أصحابِ الجحيم، بعد أن بيَّن لهم الحجَّة الواضحة على لسان رسوله الأمين.

ثم ذكر أهمَّ ما في ذلك البلاغ مَخْضاً للنتيجة، وساوَق به السياق، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ ولا يُعيقهم عن القيام بواجبهم نحو هذه الدعوة ما يستهدفون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

وبعد أن هوَّن سبحانه وتعالى ببيان هذا القانون العام، أمرَ المصائب والنوازل التي تعترض الدعوة إلى الإسلام من الأعداء والمعارضين، حذَّر من الأزواج والأولاد الذي يصدُّون الآباء عن ذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال الكلبي: كان الرجل إذا أراد الهجرة تعلّق به بنوه وزوجتُه، فقالوا: أنت تذهبُ وتذرُنا ضائعين، أو: لا نجد هناك ما نعيش به. ومنهم من يطيع أهلَه ويقيم، فحذَّرهم سبحانه من ذلك[1]، ومنهم من لا يهاجر

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠: ٥٥٦).

خوفاً أن تضيع عياله بعده. وسُئل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية، فقال: هؤلاء رجال من أهل مكة، أسلموا وأرادوا أن يأتوا المدينة، فلم يَدَعْهم أزواجُهم وأولادهم(١).

وكان بعض هؤلاء إذا هاجر ورأى الناس قد سبقوا بالهجرة وفقهوا بالدين، همَّ أن يُعاقب زوجتَه ووَلَدَه الذين منعوه الهجرة، لا سيما بعد أن وصفهم الله سبحانه بالعداوة لهم، لذلك أردفه سبحانه بقوله: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ (٢) فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٤٢٣).

(٢) «تعفوا»: أي: لا تعاقبوهم على ذنوبهم القابلة للعفو. و«تصفحوا»: أي: تُعرِضوا عن توبيخهم، و«تغفروا»: تستروا إساءتَهم إليكم، ولا تُطلِعوا عليها أحداً.

قال الأستاذ إبراهيم البنا رحمه الله: «ومن الترتيب البديع في آي القرآن الكريم ما نراه في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهو ترتيبٌ قصدَ به التدرُّجَ والترقي بخَلقِ المسلمينَ في معاملةِ أعدائهم، فيما يخصُّ أمرَ أنفسِهم، ولا ينال أمراً عاماً من أمور المسلمين، وذلك أنَّ النفسَ تميلُ إلى الانتقام، فدعا الله المسلمين إلى أن يتجاوزوا عن إساءةِ المسيء إليهم، ورَقيَ بهم من منزلةٍ إلى أخرى أسمى منها، وكانت المنزلة الأولى منزلةَ العفو، والمنزلةُ الثانية منزلة الصفح، وعُليا هذه المنازل المغفرة.

فأما العفو: فهو تَرْكُ المعاقبةِ على الذنب، وربما يكون مصحوباً بتقريعٍ ولومٍ لِـمَن أذنب في حقِّك، ومصحوباً أيضاً بذِكرِ ذلك الذنب في الناس وإشاعتِه.

وأما الصفح فرتبةٌ أعلى من مرتبة العفو، لأنَّ مَن صفح يُعْرِض عن مواجهةِ المذنبِ بذكر ذلك الذنب، ويُعرِضُ عن لَومِه، ذلك أنَّ الإنسانَ إذا أعرضَ عن شيءٍ ولّاه صَفحةَ وجهِه، أي: جانبه وعارضه. وذلك كناية عن عدم الحديث معه، فأمّا العفو فقد يكون فيه لومٌ وتوبيخ، ومن هنا كان الصفح مرتبةً فوق مرتبة العفو، وهو معنى قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. =

ثم أردف هذا الحكمَ الخاصَّ بحكم عام يشمله وغيرَه، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ واختبارٌ يتبيَّن بهم مقدارُ ما قد بقي فيكم من استقامة الفطرة ونور البصيرة في استئثار طاعة الله عليهم. ثم رغَّب في ذلك، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ فلا تُؤْثروا الدنيا على ما عند الله. وجماعُ هذه الآية: آيةُ التوبة: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ ...﴾ [التوبة: ٢٤].

ثم أتى بالآية الآتية تأييداً لِـمَا قبلها وتمهيداً لِـمَا بعدها، وقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾، والاستطاعة في نهج القرآن إنما تكون لأقصى القدرة لا لأدناها، أي: ابذلوا جهدكم وطاقتكم في ذلك، ولا تتركوا من استطاعتكم شيئاً؛ لأن تقوى الله ربح رابح، يُغْبَنُ من فَـرَّط فيه أو قصَّر، فابذُلوا جهدكم في تقوى الله، ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ ما يأمركم به وينهاكم عنه، وخصَّ الإنفاق بالذِّكر، فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ مبالغةً في الاهتمام به، وضمَّن ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ معنى: افعلوا، ويجوز أن تجعل ﴿خَيۡرٗا﴾

= لكن مَن صَفَحَ قد يَذكُرُ ذلكَ الذنب للناسِ شاكياً لهم ومتألِّماً، فأمرَ المسلمَ بِغَفْرِ ذلك الذنب وسَتْره، وهو أعلى الدرجات في التجاوز عن الذنب، وصاحبها ينبغي أن يتحلى بالصبر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وأنه إذا كانت المغفرةُ أعلى المراتب، والصفحُ دونها، ودونهما العفو، فلماذا يَسلكُ في تقديمها هذا المسلك؟ وهلّا قدَّمَ الأفضلَ لفضلِه وكماله؟ والإجابة: أنَّ الذي دعا إلى الترتيب على هذا النحو ما قدَّمناه من أنه قُصِد التدرُّج والترقي بأمر المسلمين في معاملاتهم لأعدائهم. وقد روعي هذا الترتيبُ حيثُ ذكرَ الله تعالى العفوَ والصفح، يقول تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٢]، وقال: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [البقرة: ١٠٩] . فليس كلُّ موطنٍ يتقدَّم فيه الأفضل لفضلِه، بل قد يَعْرِض من الأسباب ما يجعل غير الأفضل أولى بالتقدّم. ويُمكِن القول في هذه الآية المتقدمة أنه روعي في الترتيب الرتبة، فالعفو أقرب للصفح، وهذا أقرب للمغفرة.

خبراً لـ(يكن) المحذوفة. ثم ذيَّل الأمر بالإنفاق بما يحثُّ عليه، فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴿١٦﴾﴾ وقد تكرَّرت هذه الآية في القرآن زيادةً في التنبيه على استعداد النفس للشحِّ، وطلب الوقاية منه، لأنه يُسيء التأثير في النفوس إلى حدّ بعيد، والشحُّ يكون في الأعمال أيضاً. وقد جعل هذه الآية تأييداً لِـمَا قبلها وتمهيداً لِـمَا بعدها، فرغَّب في الإنفاق بأبلغ صورة تهزُّ النفوس، ووَعَد عليه بمضاعفة الأجر وغفران الوزر، فقال: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ هفواتِكم، وقد مرَّ الكلام على مثل هذه الآية في سورة الحديد[1]، فارجع إليه.

ثم ذيَّل السياق بما فيه تعليقٌ عليه وعلى السورة أجمع، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيل في مقابلة النَّـزْر القليل، ﴿حَلِيمٌ﴿١٧﴾﴾ يصبر على المعارضين، ولا يُعجِّل لهم العقوبة، رجاءَ أن يثـوبوا إلى رُشْدهم، وذلك من علمه وحكمته، وهو ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فأعمـاله كلُّها مَبْنيةٌ على دقَّة العلم وبالغ الحكمة، وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴿١٨﴾﴾، والتعرُّض لوصفي العزَّة والحكمة، للإشارة إلى أنَّ أناتَه في المعارضين وإمهالَه لهم، لم يكن عن عَجْزٍ في القدرة، ولا عن قهر للإرادة، ولكنه جارٍ بمقتضى الحكمة البالغة.

* * *

(١) يعني الآية ١١ منها.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

مدنيّة، وهي اثنتا عشرة آية

ومُلخَّص الغرض منها:

بيان عِدَّة الطلاق، إبطالاً لأحكام الجاهليّة الجائرة في ذلك.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا (٣)﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قال الحسن وغيره: نادى سبحانه نبيَّه ﷺ، ثم خاطبه بخطاب الجمع ليتناول أُمته. أقول: فهو من خطاب الخاصِّ مُراداً به العموم، على خصائص اللغة في خطاب المرؤوسين بشخص الرئيس، فقد خصَّص النداء وعمَّم الخطاب؛ لأنه ﷺ إمامُ أُمته ورئيسُها، فنداؤه كندائهم.

والمعنى: إنْ أردتُم طلاق النساء ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[1] أي: لزمان عِدّتِهِنَّ، لأن اللام في الأزمان وشبهها للتوقيت، وذلك أن يُطَلِّقها في طُهْر لم يجامعها فيه، كما

(١) العدة: فترة من الزمن لانقضاء ما بقي من آثار الزوجية، ولا سيما ظهور الحمل، وإذا كان الطلاق رجعياً خصَّت العدة بأن يعيش الزوجان في بيت واحد، ينفق عليها، ولا تحرم عليها الزينة فيها، فإذا كان بقية من أمل أو محبة يظهر أثرها في هذه الصورة، فتكون وسيلة لإمعان الفكر ولعَوْدة الألفة والمحبة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. (المؤلف).

فسَّرته السنَّة، فهذا هو الطلاق للعدَّة؛ لأنها تعتدُّ بذلك الطهر، بمعنى: يُعَدُّ من عدّتها وتباشر العدّة على أثر الطلاق، فلا تَضرَّرُ بطول المدة. وهناك حكمة أُخرى، وهي أن الرغبة الجنسيّة تكون في الطهر وافرة منها، وغير ممنوعة منه، فإذا طلَّقها فيه يكون دليلاً على استحكام النُّفرة، بخلاف الحيض، إذ تكون الرغبة ممنوعة منه، وفاترة منها.

ثم أمرهم بإحصاء العدَّة وضَبْطها، فقال: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: ثلاثة أقراء، وحذَّرهم من الإضرار بالمُطلَّقات مُذكِّراً بالاسم الجليل والوصف الجليل؛ مبالغةً في التحذير، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي: في تطويل العدة والإضرار بالمطلَّقات، وكذلك ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: لا يجوز للزوج أن يُخرج المطلَّقة رجعياً من مسكنها التي كانت تسكنه قبل الطلاق في داره، ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ من نفسهن، وفي ذلك غايةٌ واضحةٌ هي فَسْحُ المجال للزوجين في إعادة العلاقة بينهما، وتخفيف حدَّة الخلاف، فتكون وسيلة لعودة الألفة والوفاق، ولذلك لم يُحرِّم الله عليها الزينةَ وتوابعها.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ مُختَلَفٌ في بيانه؛ فالمرويُّ عن ابن عباس وابن عمر: أنه تعليل للنهي الأول بصورة استثناء، وقيل: هو تتميم للنهي الثاني بوصف مبشِّع له. والمعنى: لا يَـخرُجْنَ من نفسهنَّ؛ لأنَّ ذلك فاحشة منهنَّ، والفاحشة: كلُّ معصيةٍ لله تعالى ظاهرةٍ بيّنة.

وعلى هذا، يكون مفاد التركيب: لا يَخرُجْنَ إلا أن يرضين لأنفسهن بهذه الوَصْمة، وهي أنهنَّ يكُنَّ قد أتين بفاحشة مبيِّنة؛ لأنَّ الخروج معصيةٌ لله، وكلُّ معصية لله ظاهرة فهي فاحشة مبيِّنة.

وعلى الأول، هو بيانٌ للسبب المبـرِّر للإخراج، والاستـثناء على بابه. والمراد

بالفاحشة: أن تؤذي أهل زوجها إيذاءً لا يطاق، أو أن تأتي بالزنى أو دواعيه، والمعنى: لا تُخرجوهنَّ إلا أن يأتين بفاحشةٍ ظاهرةٍ لا تطاق.

ثم توعَّد مَنْ يخالف هذه الأحكام، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بتعريضها للعقاب(١).

ثم ذكر الحكمة في عدم الإخراج، فقال: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ كأنْ يتغيَّر رأيُ الزوج لرجعتها، وتعودُ الألفة والمحبة. فإن لم يحصل ذلك الأمر ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: شارَفْنَ آخرَ عدَّتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: فراجعوهنَّ وأمسِكوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وذلك بإيفاء الحق واتِّقاء الضرر، ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ على الرجعة أو الفرقة.

قال المفسرون: أُمروا أن يُشْهِدوا عند الطلاق وعند الرجعة شاهدَيْ عَدْل، وقيل: عند الطلاق فقط. وفي ذلك فائدة أُخرى فوق تحقُّق الإثبات، وهي أنَّ هذَيْن العَدْلَيْن إذا حَضَرا قد يحملان المطلِّق على مراجعة نفسه قبل إيقاع الطلاق، فيُعرِض عن ذلك ويراجع.

ثم خاطب الشهود أن يُؤدُّوا الشهادة على وجهها، وحذَّرهم من التلاعب والكتمان، فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾، ثم كرَّر الحثَّ على التمسُّك بهذه الأحكام، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

ثم أوصى الطرفين بتقوى الله، وأداءِ هذه الواجبات، وبالتوكّل على الله، لينالوا لُطفَه، فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾ من المضائق التي يقع فيها، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من وجهٍ لم يكن بالحُسْبان.

---

(١) أي: ومَنْ يتجاوز هذه الأحكام، فقد ضرَّ نفسَه وظلمَها، وأوردَها مَوْرد الهلاك. والنهيُ عن تجاوز حدود الله نهيٌ تحريميٌّ؛ لأنه لا يدخل فيها إلا بأن يمسَّ منطقة الحرام.

وهذا ناظرٌ إلى نوع من الشقاق، يكون من الفقر وضيق النفقة. وما قبله عامٌّ يشمل سائر الأنواع، فهو من إجراء الكلام على خاصٍّ بعد إجرائه على عام، وذلك من أساليب القرآن.

ثم شجَّعهما على المضيِّ إن أرادا الفراق، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ ومُنفِذُه، لا يفوته مراد، ولا يُعجزه مطلوب، ولكن ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ وأجلاً ينتهي إليه، وقيل: بل المعنى: إنه تعالى بيَّن لكلِّ شيء مقداراً بحسب المصلحة في الإباحة أو الإيجاب أو المنع أو التأجيل أو الإنجاز.

ويفيد عمومُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أنَّ من اتقى معاكسة السنن الطبيعيّة التي وضعها سبحانه في هذا الكون؛ سَلِمَ من العِثار. فإنْ أخذ بالأسباب الطبيعيّة التي وضعها الله لنيْل الرزق في هذه الحياة، واتّقى الأسباب العكسيَّة التي تؤدِّي إلى الفشل؛ نال الرزق الرغيد والحال السعيد، فمن أراد الدنيا وسَعَى لها سَعْيَها على الوجه الصحيح بمقتضى السُّنن الكونية؛ نالَ مُبْتغاه. وهكذا الأمر في حالة الآخرة؛ مَنْ سعى لها سعيها، وتمسَّك بالأسباب التي وضعها الله لنيْل السعادة فيها؛ نال السعادة الكبرى، ومن أعرض عنها شقيَ في الأخرى شقاءً لا مزيدَ عليه. والمراد من هذا البيان: تشجيع المرأة بعد الطلاق. والله أعلم.

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾.

وبعد أن ذكر الطلاق وذكر العدّة، بيَّن اختلاف أحوال النساء، فقال: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ فلا تدرون: لِكِبَرِ ارتفع حيضُهُنَّ أم لعارض؟

﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾، والمراد بهنَّ: اللواتي تحيض أمثالهن؛ لأنهنَّ لو كُنَّ في سنٍّ لا تحيض أمثالهنَّ؟ لم يكن للارتياب معنىً، ﴿وَ﴾ سوَّى بهنّ في الحكم المراهقاتِ ﴿ٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ بعد، أي: واللائي لم يحضْنَ إن ارتبتُم أكان ذلك لعدم بلوغ المحيض أم لعلة؟ فعدتهنّ ثلاثة أشهر أيضاً. ويجوز أن يُخَصَّ قيدُ الارتياب بالصنف الأول.

ثم ذكر عدَّة الحاملات، فقال: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وقد اختلفوا في هذا الحكم لأُولات الأحمال، فقال بعضهم: هو خاصٌّ بالمطلَّقات كما يقتضيه السياق وتقتضيه السورة، فلا يعارض قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]؛ لأنها خاصَّة بالمتوفّى عنها زوجها، ومن أرباب هذا القول: عليّ رضي الله عنه(١). وقال بعضهم: هو عامٌّ يشمل المتوفَّى عنها زوجها أيضاً، ومُخَصِّصٌ لِـمَا في سورة البقرة؛ لأنها نزلت بعدها، ومن أرباب هذا القول: ابن مسعود رضي الله عنه، وممّا يدلُّ عليه خبر سبيعة بنت الحارث الأسلمية، وَلَدَتْ بعد وفاة زوجها بليال، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال لها: «قد حَلَلتِ فتزوَّجي»(٢).

وعند ابن عباس رضي الله عنهما: عدّةُ الحامل المتوفَّى عنها زوجها: أبعَدُ الأجلَيْن، عملاً بالآيتين(٣).

ثم هوَّن على المطلَّقة أمرها ورغَّبها بالتمسُّك بهذه الأحكام، فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالتمسُّك بأحكامه ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ أي: يُسَهِّل عليه أمرَه ويوفِّقه للخير؛ لأن أحكام الله كلَّها خير ورفاه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥: ٧٩).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٩٩١)، ومسلم (١٤٨٤).

(٣) «تفسير الرازي» (٣٠: ٥٦٣).

وبعد أن بيّن نتيجة هذه الأحكام وفوائدها في الحياة الدنيا، بيّن ثمرتها في الآخرة، وسَبَكَ العبارة على وجوب الاهتمام بهذه الأحكام، وساوَقَ بها السياق، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ بالمحافظة على أوامره ونواهيه، ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾ بمضاعفته له، فضْلاً منه ومنّةً كبرى.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

ثم بيّن سبحانه واجباتِ المطلَّقة وحقوقَها في النفقة والسُّكنى، فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أي: بعضَ مكان سُكْناكم الذي تسكنونه ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي: مما تُطيقونه وتقدرون عليه وتجدونه، ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ في السُّكنى، ﴿لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ وتُلجِئوهنَّ إلى الخروج، ﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي: المطلّقات ﴿أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرُجْنَ من العدة، ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ بعد انقطاع النكاح ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع، ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: تَشاوروا واتَّفقوا على الشكل الذي يلائمُ الطرفين، ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ ولم تتفقوا ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾ أي: فلْتُرضع له مرضعةٌ أُخرى غير أُمّه. وإنما أورد الأمر على صورة الخبر؛ ليكون فيه تأنيبٌ للأم. والله أعلم.

ثم رغَّبَ سبحانه أهل السَّعَة بسَعَة الإنفاق على المرأة المُطلَّقة المرضعة، ورَخَّص لأهل الضيق أن ينفقوا بمقدار وُسْعِهم، فقال: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ

عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ وإن قلَّ، أي: لِيُنْفِق كلُّ واحد من المُوسِر والمُعْسِر ما يبلغُه وُسْعُه، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾(١).

ثم هوَّن على أهل الضيق ضيقَهم بها وعدهم سبحانه بقوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾، ففيه تسليةٌ للفقير، وعِدَةٌ له بالترفيه. وقيل: بل كان الغالب في ذلك الوقت الفقر والفاقة بسبب الهجرة، فأعلمهم سبحانه أنْ سيَجعَلُ بعد عُسْرهم هذا يُسْراً مرفَّهاً سعيداً.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) أي: لا يُكلِّف الله نفساً في النفقة إلا ما آتاها من الجود والسخاء، فلا يُكلَّف الجواد الكريم مثل ما يُكلَّف الشَّحيح في النفقة، سيجعل الله بعدَ ضيق وشدَّة غنىً وسَعة.
دلَّت هذه الآية على أنَّ التكليف والمسؤوليَّة على مقْدار الهبة الربَّانيَّة، وما لا قدرة للإنسان عليه؛ هو خارجٌ عن دائرة مسؤوليَّتِه، فمسؤولية الإنسان المفطور على نسبة عاليةٍ من الشحِّ أخفُّ من مسؤولية الإنسان المفطور على نسبةٍ عاليةٍ من الكرم، وكلٌّ منهما تقفُ حدودُ مسؤوليَّتِه عندَ حدودِ استطاعتِه مغالبةَ نفسه، فمتى وصل إلى المستوى الذي لا يستطيعه، فإنَّ مسؤوليَّته عندئذ ترتفع، ولكن لا ترتفع المسؤولية في تكليف عام لاحَظَ فيه الشارع حدود الاستطاعة الموجودة لدى مختلف طبائع الناس، كالزكاة والنفقة الواجبة في باب البذل والإنفاق.

ثم أردَفَ السياق بما يحمل على التمسُّك بما فيه من أحكام الله تعالى ووجوب طاعته، على نهج القرآن في مزج الأحكام بالإرشاد والدعوة إلى الرشاد، أو العكس، وكلاهما لهذا الغرض، وسبك ذلك على التهديد لمن يخالف أوامر الله بما جرى على مَنْ كان كذلك في الأمم الماضية، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ[1] عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: أعرَضَت إعراضَ العاتي المعاند، وتمرَّدت على ما أمرها به الله، ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا[2] ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ[3] أَمْرِهَا﴾ بعذابِ الاستئصال في الدنيا، ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ هائلاً في الأخرى، فصَّله بعض التفصيل بقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ بياناً لعذابِ الاستئصال في الدنيا، وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بياناً لِـمَا سينالهم من العذاب في الأخرى.

ثم التـفت إلى أُولي الألباب مُحَذِّراً لهم، ونادباً إيَّاهم، ومُنبِّهاً لهم بهذا البيان، وأدمَجَ فيه فضائل هذا الدِّين المبين زيادةً في الحثِّ على التمسُّك به، فقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وتمسَّكوا كلَّ التمسُّك بما أنزله إليكم، إذ ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾ وأرسَلَ به إليكم ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

---

(١) «كأين»: كثير، «من قرية»: بيان لهذا الكثير.

(٢) ﴿نُّكْرًا﴾: أي: منكراً غير معروف عند الناس. فالمعنى: شديد لم يُعهد مثله.

(٣) ﴿وَبَالَ﴾: أصل الوبال: الثقل والشدة، الناتجة عن أمر. ومنه: طعام وبيل. أي: ثقيل على المعدة. ومطر وابل، أي: ثقيل القطر. ويستعمله العرب في كلِّ ما يُؤذي معنوياً؛ لأنه ثقيل على النفس.

ثم نوَّه بذلك الجزاء وألـمع إلى ثمرات تلك الجنان، فقال: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ قال الزجّاج: أي: رَزَقَه اللهُ الجنةَ التي لا ينقطع نعيمُها[١].

ثم أردَفَ هذا الوعد والوعيد ببيان قدرته، تحقيقاً لـها، وتقريراً لقدرته على إنجازهما، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ والسبع للتكثير[٢]. والمراد بها ـ والله أعلم ـ طبقات النجوم[٣]، لأنَّ كلَّ طبقة هي فوق التي تحتها بمسافات شاسعة، وتحت التي فوقها كذلك، ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ والـمِثْلُ: ما يشبه غيره في صفةٍ واحدة أو أكثر، والظاهر أن الـممثَّل به مجرَّدُ السماوات دون العدد، فهو غير داخل في المثليّة، فالمراد: أنَّ الأرض شبيهة بأحد أجرام السماء، والله أعلم[٤].

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٨٨).

(٢) بل للتحديد، كما سبق بيانه تعليقاً في أول سورة البقرة (٢: ٥٦).

(٣) لا يجوز تأويل سبع سماوات إلى طبقات النجوم، فالسماوات سبع بالنص القرآني القاطع الذي ليس فيه احتمال ولا إجمال، والسماوات السبع طباق بعضُها فوق بعض. وأما الكواكب والنجوم فليست طباقاً قطعاً، بل هي هنا وهناك، كما أنَّ هذه النجوم والكواكب هي زينة للسماء الدنيا، ومن المعلوم أن زينة السقف غير السقف.

(٤) بيَّن القرآن الكريم عدد الأرضين، وأنها سبع أرضين، فقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ينصُّ على المماثلة في كونها سبعاً؛ لأن المماثلة يجب أن تحمل على المذكور نصّاً. ويدل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ يدل ظاهراً على أنها طباق، لأنه سبحانه وصف السماوات في بعض الآيات بأنها سبع طباق. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣] فالمماثلة تشمل الطبقية أيضاً. ويؤيِّد ذلك الكثير من الأحاديث الصحيحة التي تدل على أن الأرضين هي طباق بعضها فوق بعض، فمن ذلك ما رواه البخاري (٢٤٥٤) في «صحيحه» عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقِّه خُسِف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»، فالظاهر من هذه الآية أنّ الأرضين سبع طباق غير متراكمة، بل كلُّ واحدة منها منفصلة عن =

و«مِن» للتجريد، على حدِّ قوله: وجدت منه بحراً، بمعنى: وجدتُه بحراً. أي: وخلق الأرض مِثلَهن، بمعنى: جعلها جرماً من تلك الأجرام، ومثلها في الشكل والتكوير والتجاذب وغير ذلك، ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يجري أمرُ الله وسُنَنُه ونظامه وقضاؤه وتدبيره وسلطانه بين هذه الأجرام التي منها الأرض، وذلك مثل استفادة ما عليها من المخلوقات حياةً ونماءً، من الشمس والقمر والرياح والأمطار وغيرها من عظائم المواهب والخصائص التي لا تُحصى، في حياتها ونموِّها وبقائها.

وقد ذكَّركم بذلك الخلق العظيم والتدبير الحكيم؛ ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأنه مُنفِّذ وعده ووعيده السابقين، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ فكان أثره وعمله على ما تَرَوْنَ من الدقَّة في نظام تلك الأجرام، ولا يخفى عليه من أمرِكم خافية، وسيجازيكم بالإحسان حُسْناً وبالسُّوءِ سوءاً.

وفي الآيةِ إيذانٌ بأنَّ الأرض جزءٌ من أجزاء السماء، وجُرْم من أجرامها(١).

ويقول العلم الحديث: في السماءِ عدَّة مجرّات، في كلٍّ منها شمس وأرض كما في مجرَّتنا، ولكن الإنسان مختصٌّ بأرضنا لا غير.

وقد ذكر العلم الحديث أيضاً: أنَّ الشمس تحيط بها سبع طبقات أثيرية شاسعة المدى، كلُّ طبقة منها أخفُّ من التي تحتها، وهكذا كل كوكب ونجم من الكواكب والنجوم المُنْبثَّة في هذا الكون العُلوي، تحيط به هذه الطبقات، ومثلهنَّ الأرض. ويقال

= الأخرى ومتباعدة، كما هو الشأن في السماوات السبع. وعلى هذا الظاهر جرى أكثر العلماء المحقِّقين وجمهور أهل العلم.

(١) ليس في الآية ما يدلُّ على هذه الدعوى، بل تدلُّ على أنَّ الأرضين سبع طباق، وهي قائمةٌ بإقامة الله تعالى لها في هذا الفضاء، وتحيط بها السماوات بعضها فوق بعض.

ـ والله أعلم ـ: إنَّ الطبقاتِ الأثيريةَ المحيطةَ بالأرض هي مسكن الأرواح بعد الموت، كلٌّ واحدة مسكن لصنف بحسب أعماله في الدنيا. ولا يعلم هذا الغيب إلا الله.

وقال بعض أهل العلم: إن الأجرام السماويّة صنفان: صنف مُلتهب، وهو مصدر الضياء، ويسمَّى النجوم، وصنف كثيف مظلم، ينعكس عليه الضياء من غيره، ويسمَّى الكواكب، ومنه الأرض والقمر.

هذا ما خطر لي في تفسير هذه الآية، والله أعلم بمراده، فإن أخطأت فأستغفر الله، وإن أصبتُ فالحمد لله.

* * *

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

مدنيَّـة، وهي اثنتا عشرة آية

ومُلخَّص الغرض منها:

بيان مظاهرة غَيْرة نسائية حدثت بين نساء النبي ﷺ لأسباب عائليّة بيتيّة، ممّا يحدث أمثاله بين الضرائر، فأدَّبهنَّ سبحانه وتعالى عن ذلك، ثم أدَّب سائر المؤمنين عن مثله. وبالغ في الحمْل على ذلك الأدب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ٥﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ[1] مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾[2] عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كانت له أمةٌ يطؤها، فلم تزل به حفصة وعائشة حتى حرَّمها، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ..﴾ الآية[3].

أقول: وهذه هي مارية القبطية جاريتُه وأُمُّ ولده إبراهيم عليه السلام، وربما كان ذلك في أول الأمر ـ والله أعلم ـ قبل أن حملت بإبراهيم، فعَزَمَ على اعتزالها تخفيفاً

---

(١) ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ المراد: لأيِّ سبب تمتنع عن الحلال مع اعتقادك أنه حلال. لأنه ﷺ أعلم الخلق بأنه لا يجوز تحريم ما أحل الله. فالاستفهام للعتاب.

(٢) المراد: عائشة وحفصة فقط بدليل قوله تعالى: ﴿تَتُوبَآ﴾ و﴿تَظَٰهَرَا﴾، فالإضافة في ﴿أَزْوَٰجِكَ﴾ لجنس الزوجات الصادق بالواحد والأكثر.

(٣) رواه النسائي (٣٩٥٩).

لغيرتهنَّ. وفي قول: إن ذلك كان بعد ولادة إبراهيم، وغيرة أزواجه من ذلك، لا سيما وقد مال إليها بحكم هذه الولادة. والله أعلم.

وقد أردف هذا التأديب له ﷺ المُسْتتبع لوحشة العتاب، أردفه بإيناس العفو والمغفرة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١)﴾.

ثم أمره سبحانه أن يعود إليها، وشرع تَحِلَّةَ اليمين، فقال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾(١) ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ يتولّى أموركم، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يُصلِحُكم فيَشرَعُه لكم، ﴿ٱلْحَكِيمُ (٢)﴾ في أحكامه، فلا يأمركم وينهاكم إلا حسبما تقتضيه الحكمة البالغة. وقد جاء في تحلَّة اليمين عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «من حَلَفَ على يمين، فرأى غيرها خيراً منها، فَلْيأتِ الذي هو خير، وليكفِّر عن يمينه»(٢).

وقيل في تتمَّة السياق في القصة: إنَّ النبيَّ ﷺ قد استرسل مع عائشة وحَفْصة في الكلام، حتى ذكر لهما أنه يخلفُ من بعده أبو بكر وعمر، واستكتَمَهما الخبر. وقد جعل ذلك امتحاناً لهما ووسيلةً لإفهامهما أنهما لا يكتمان سراً، وتمهيداً لتأديبهما بما سيأتي. وقد حكى ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلع الله النبيَّ ﷺ على إفشاء حفصة للسِّرّ، فلمَّا اطَّلع عليه ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ قيل: هو حديث الإمامة، وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال لها: «ألم أقل لكِ: اكتُمي عليّ». قالت: والذي بعثك بالحق نبياً، ما ملكت نفسي(٣). تعني:

---

(١) أي: تحليلاً تخرجون به من مسؤوليَّتها بالكفَّارة عنها، في سورة المائدة في الآية (٨٩) وهي: إطعامُ عشرة مساكين، أو كِسْوتُهم، أو تحريرُ رقبة، فَمَنْ لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

(٢) رواه مسلم (١٦٥٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٥٦٦)، ورواه الطبراني في «الكبير» (١٢: ١١٧)، بنحوه، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فرحاً بالكرامة التي خصَّ الله تعالى بها أباها. ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أي: عن تعريف بعض تكرُّماً، قيل: يعني حديث مارية.

وقد ذكروا في حديث مارية السابق وجهاً آخر، وهو أنَّ أزواج النبيِّ ﷺ اشتدَّت غيرتُهنّ من مارية بعد أن ولدت إبراهيم، وكان ﷺ خلا بها في يوم حفصة وفي حجرتها، وكانت حفصة قد زارت أباها، فلما وقفت على الأمر غضبت، وقالت مُدلّةً على زوجها: أما رأيتَ لي حرمةً وحقاً، ما كنت تصنع هذا بامرأة منهنَّ، فأرضاها رسول الله ﷺ بتحريم مارية على نفسه، وبحديث الإمامة، واستكتمها الخبر، فلمّا نبّأت به، أظهره الله عليه، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ③﴾ الذي لا تخفى عليه خافية.

وروي عن عائشة رضي الله عنها في آية التحريم صورة ثانية، وهي: أنَّ رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواطأتُ أنا وحفصةُ: أيتُنا دخل عليها النبيُّ ﷺ فَلْتقل: إني أجدُ منك ريح المغافير، أكلتَ مغافير؟ والمغافير: صمغ حلو غير جيد الرائحة، يغشُّ به العسل أو تأكل النحل منه، فيظهر الأثر في عسلها، فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك، فقال: «لا، بل شربت عسلاً عند زينب، ولن أعود، وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحداً». فنـزلت الآية[1]. وكان ﷺ يكره ويشقُّ عليه أن يجد أو يوجد منه رائحة غير طيبة وإن قلَّت. هذا ما روي عن عائشة رضي الله عنها في آية التحريم.

ويجوز أن يكون الأمران واقعَيْن. والله أعلم[2].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٦٩١)، ومسلم (١٤٧٤).

(٢) مهما يكن من أمر الروايات في هذه القصة، فالآيات تتضمَّن صورة حادث بيتي وقع بين النبي ﷺ وبعض نسائه بدافع الغيرة النسائية، فأحبَّ أن يتصرَّف فيه بين اثنتين تصرُّفاً فيه =

وكان لهذه القضية ارتباك بين نساء النبي ﷺ ورجّة بيتيَّة بدافع الغيرة، أدّت إلى طلاق حفصة واعتزال نسائه تسعة وعشرين يوماً تأديباً لهنَّ، وقعد في مَشْرُبة مارية حتى نزلت آية التخيير من سورة الأحزاب، تُخيِّرهن بين رضائهنَّ معه بما تطمئنّ به نفسه ولا يتعارض مع مهمَّته وخُلُقه، وبين انصرافهنَّ عنه، فاختَرْنَ العيش معه على ما يريد. ولا تعارض مع ما جاء في سورة الأحزاب عن سبب نزول آية التخيير، إذ يجوز وقوع السببين معاً. ولـمّا رضينَ بما يريد استرجع حفصة، وعادَ إلى نسائه.

وقيل: إنَّ جبريل عليه السلام قال له: أرجِعْ حفصة، فإنها صوَّامة قوَّامة، وإنها زوجتك في الجنة[١]. وقيل: لم يطلِّقها ولكن عرَّض وورَّى في ذلك.

وقد أدَّبهما الله تعالى بقوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والخطاب لعائشة وحفصة[٢]؛ لأنهما كانتا سبب هذه الثورة. وقد علَّل طلب التوبة بقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[٣]

= مسايرة ومراضاة، فاستغلّت إحداهما هذا الموقف الكريم منه، وأفشت ما حدَّثها أو ما وعدها به من كرامةٍ بدافع الطبيعة النسوية في حبِّ إظهار ما لها من الكرامة والمنزلة عند زوجها، لا سيما ذات الضرائر.

فآلمه ﷺ ذلك الإفشاء، وحزَّ في نفسه، فأوحى الله له بهذه الآيات التي فيها إرشادٌ وبيانٌ لطبيعة النساء، وتعليمٌ لصورة تأديبهنَّ، وكيفية معاشرتهنّ ومسايرتهنّ والتحمُّل منهنّ، وتأديبٌ لهنَّ بما يجب أن يكُنَّ عليه من الأخلاق وصفاء العشرة وسلامة الطوية وأمثال ذلك. (المؤلف).

(١) رواه البزّار (١٤٠١)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وجاء بذلك ليكون مقدِّمة لمواجهتها بالتهديد الآتي.

(٣) جاء في هذا الحادث عن الشفاء بنت عبد الله قالت: دخل عليَّ النبيُّ ﷺ وأنا عند حفصة، فقال لي: «ألا تعلِّمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة»، ورقية النملة مقال تأديبي يدور =

انحرفت ومالت قلوبكما عمّا يجب عليكما في معاملة رسول الله ﷺ، وحبِّ ما يحبُّه، وكره ما يكرهه. والفاء للتعليل، أي: لأنه قد وُجد منكما ما يُوجب التوبة، وجواب الشرط محذوف، على نهج القرآن؛ لأنه يُفهَمُ من السياق والمقابلة، والتقدير: يكن خيراً لكما.

والمراد من الجمع للقلوب في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ التثنية، قال الفرّاء: وإنما اختير الجمع على التثنية؛ لأن أكثر ما يكون عليه الجوارح اثنان اثنان، كاليدين والرجلين والعينين، فلما جرى أكثره على ذلك، ذهب بالواحد منه إذا أُضيف إلى اثنين، مذهب الاثنين[1]، كأنّ لكلٍّ واحد قلبين والمجموع أربعة.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ وهو مضارع محذوف التاء، أي: تتظاهرا، بمعنى: تتآمرا وتتعاونا على الوقيعة بينه وبين بقية نسائه، أو بما يسوؤه مطلقاً، بدافع الإفراط في الغيرة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ[2] وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فكلُّهم يتولَّونه وينصرونه. قال ابن عباس: يريد بصالح المؤمنين: أبويهما أبا بكر

= بين النساء، وهو: للعروس تحتفل وتختضب وتكتمل، وكل شيء يفتعل، غير أن لا تعصي الرجل، فأراد ﷺ بهذا المقال تأنيب حفصة والتأديب لها تعريضاً؛ لأنه ألقى إليها سراً فأفشَتْه، على ما شهد به التنزيل في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ الآيات.

والنملة: اسم لمرض، وهو قروح تخرج من الجنب أو الجنبين. ووجه المناسبة في تسمية هذا المقال برقية النملة تشبيهُ بواعث الغيرة من المرأة للرجل بهذا المرض؛ لأن كليهما محلُّه الجوانب والجوانح، أحدهما في الداخل، والآخر في الخارج. هذا ما أراه في وجه المناسبة. والله أعلم. (المؤلف).

وحديث الشفاء رواه أحمد (٢٧٠٩٥)، وقال مخرِّجوه: رجاله ثقات رجال الشيخين.

(١) «معاني القرآن» (١: ٣٠٧).

(٢) المراد: ناصره. والأحسن أن يقف القارئ على ﴿مَوۡلَىٰهُ﴾ وما بعده مبتدأ خبره ﴿ظَهِيرٌ﴾ الآتية.

وعمر[١]. قالوا: لأن بيان مظاهرتهما له عليه الصلاة والسلام أشدُّ تأثيراً في قلوب بنتيهما، وتوهيناً لأمرهما، فكان حقيقاً بالتقديم على الملائكة الذين بيَّن عنهم بقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ[٢] بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾[٣] قال أبو علي: ويجيء «فعيل» مفرداً يُراد به الكثرة، أي: فَوْجٌ مظاهر له من الملائكة، كأنهم يدٌ واحدةٌ على مَنْ يُعاديه. فماذا يكون شأن تظاهُر امرأتين على مَنْ هؤلاء ظهراؤه، والله مَوْلاه وجبريل. وهذا أعظم تخويف وترهيب لهما.

ثم وجّه التأديب إلى عموم نسائه، وأجرى الكلام عليهنَّ وخوَّفهنَّ بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ في الصفات التي تُفاخِرْنَ وتُدلِلْن بها، وهي التي سَرَدَها بقوله: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ[٤] تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ﴾ أي: مهاجراتٍ يُهاجرن إليه، وقيل: صائمات، وسُمِّي الصائم سائحاً؛ لأنه يسيح في النهار بلا زاد. ويجوز أن يكون بمعنى: زاهدات، من قولهم: ساح؛ إذا ذهب في الأرض للعبادة والترهُّب، فأراد به مجرَّد الزهد، من ذِكرِ الخاص وإرادة العام. والله أعلم.

ثم ختم الوصف بقوله: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ لأنهنَّ كنَّ كذلك.

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٨٢٠) عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٤٣٤٩): فيه فرات بن السائب، وهو متروك.

(٢) ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾: ذكرها بعد جبريل من ذكر العام بعد الخاص.

(٣) الحكمة في هذا الوعيد الشديد للمتظاهرتَيْن، أنه أمر يتعلَّق ببيت رسول الله ﷺ، القدوة لبيوت المسلمين جميعاً، وما يجري فيه يستمدُّ المسلمون منه أحكام دينهم، ومناهج حياتهم الأسريَّة. فينبغي أن يُنزَّه هذا البيت من ألاعيب النساء وحيلهنَّ لكسْب قلب الزوج، وتحوُّله عن ضرائرهنَّ بدافع الغيرة النسائية.

(٤) ﴿قَانِتَاتٍ﴾: خاضعات خضوعاً تاماً كما تقدَّم في الآية ٣١ من سورة الأحزاب: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ والمراد: تداوم على الخضوع التامِّ لربِّها سبحانه.

ومهما يكن من أمر الروايات في هذه القصة، فالآيات تتضمَّن صورة حادثٍ بيتيٍّ وقع بين النبيِّ ﷺ وبعض نسائه بدافع الغيرة النسائيَّـة، وأنَّ اثنتَـيْن منهما كانتا متآمرتَين فيه، وأنّ النبيَّ ﷺ أحبَّ أن يتصرَّف في الحادث تصرُّفاً فيه مسايرةٌ ومُراضاة، فاستغلَّت إحداهما هذا الموقف الكريم منه، وأفشَت ما حدَّثها أو ما وَعَدها به من الكرامة، بدافع الطبيعة النسويَّـة في حبِّ إظهار ما لها من الكرامة والمنزلة عند زوجها، لا سيَّما ذات الضرائر، وإنْ آلمه هذا وحزَّ فيه نفسه حتى همَّ بتطليق نسائه، ثم أوحى الله إليه بهذه الآيات التي اكتفى بها بالتنديد والإنذار.

والظاهر أن هذه القصة نفس قصة الأحزاب، ذكر في كلٍّ واحدة بعضَ الوجوه دون بعض، على نهج القرآن في تكرار القصص، والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

وبعد أن أدَّب سبحانه نساءَ النبيِّ ﷺ، أمر المؤمنين بتأديب نسائهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ وهذا الوصف

للتهويل والمبالغة في التحذير، وكذلك ما بعده. قال مقاتل: هو أن يؤدِّب الرجل المسلم نفسَه وأهلَه، ويعلِّمهم الخير، وينهاهم عن الشر[1]، فذلك حقُّ المسلم أن يفعله بنفسه وأهله وعبيده وإمائه.

ثم تابع وَصْفَ النار الهائل، فقال: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ وقد جمع بين الفعل ونفي ضدِّه لتقرير المعنى، على نهج القرآن في مثله.

وبعد أن ذكر شدَّة العذاب بالنار، واشتداد الملائكة على مَنْ فيها، أضاف إلى ذلك حكاية ما يقال لهم؛ مبالغةً في تحذير المؤمنين، وتمكيناً لإرشادهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ فلا ينفعكم الاعتذار ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ أي: إنما أعمالكم السيِّئة ألزمتكم هذا العذاب، بمقتضى سُنَّة الله المكوَّنة بالحكمة البالغة والحقِّ والعدل.

ثم تابع السياق بما يناسبه، وهو الأمر بالتوبة من المعاصي المؤدِّية إلى هذه النار، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي: خالصةً من شوائب الرجوع، أو بالغةً في النُّصح. وعلى المعنى الثاني، فقد وُصِفَت التوبة بهذا الوصف على طريقة المجاز في الإسناد؛ لأنه وَصْفٌ للتائبين، يُراد به أن ينصحوا بالتوبة أنفسَهم، فيأتوا بها على أكمل الصُّور وأصْدَقِها.

ثم علَّل الأمر بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

ثم ذكر اليوم الذي يكون فيه ذلك، واسْتَتْبَعَ ببيان تقرير السعادة لرسول الله ﷺ

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠: ٥٧٢).

وأتباعه المؤمنين في ذلك اليوم، ترغيباً في طريقتهم، فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ وفي صورة التعبير تعريضٌ بمَنْ يُخزيهم الله تعالى من أهل الكفر والفسوق في ذلك اليوم، وتَمَنُّنٌ على المؤمنين؛ إذْ عَصَمَهم من مثل حالهم. اللهمَّ اهدِنا لطريقة محمد وأصحابه ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ثم تابع البيان عن سعادتهم في ذلك اليوم وكرامة الله لهم، فقال: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ[1] يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾[2] اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ولما ذكر ثمرة هذا الدين العظيمة، حثَّ على نشره وكفِّ الأذى والإعاقة عن طريق الدعوة إليه، وأدمج فيه تهديد الكفار والمنافقين العائقين عنه، وبيان مصيرهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في جهادك لهم في الدنيا، ﴿وَ﴾ في الأخرى ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

ثم بيّن سبحانه وتعالى أنَّ قرابتهم للنبيِّ أو للمؤمنين لا تُجديهم نفعاً في الآخرة، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ[3]

---

(١) أي: نورُهم الخاصُّ بكلِّ واحد منهم بحسب إيمـانه وعمله الصَّالح، يسير أمامهم؛ لكشف طرقاتـهم على مقادير سعيهم في طاعة الله ومراضيه في الدنيا، وهذا النور يشُّـونه ويوجِّهونه بأَيمانهم.

(٢) أي: يقولون: يا ربَّنا أَتْمِمْ لنا نُورَنا بسبب ما كان منا من تَقْصيرات وذنوب ارتكبناها في الحياة الدنيا، حتى نكون مع السابقين، واسْتُر علينا ذنوبنا، إنك على كلِّ شيء تشاؤه عظيم القدرة، إذا أردتَ شيئاً كان أسرع ما يكون.

(٣) ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾: العرب تقول: فلانة تحت فلان، كناية عن أنها في عصمتهن مهيأةٌ للتأثُّر بأخلاقه وأفعاله.

مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾[١] والظاهر أنَّ ذلك بعدم الإخلاص بالإيمان بهما[٢] ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[٣] وفي هذا البيان وما تضمَّنه إلماعٌ إلى التعريض بأُمَّي المؤمنين حفصةَ وعائشةَ رضي الله عنهما لِـمَا فرط منهما، وتحذيرٌ لهما على أغلظِ الوجوه وأشدِّها.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَ﴾ بعد أن ضرب الله مثلاً للذين كفروا في عدم انتفاعهم في الآخرة من أقربائهم المؤمنين بامرأة نوح وامرأة لوط، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في لزوم الصبر على الأذى في سبيل الدين ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وهي آسيا بنت مُزاحِم، ﴿إِذْ﴾ آمنت بموسى فعذَّبها فرعون أشدَّ العذاب، فصَبرت وفضَّلت الموت وهي مؤمنةٌ على الحياة وهي كافرة، و﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ بديلَ بيتي الذي أعيش فيه مذلولةً مفتونةً عن الدين، ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ أي: من القبط التابعين له في الظلم.

---

(١) ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: المراد: أخفَتْ كلٌّ منهما الكفر، وأظهرَتِ الإيمان، وكانت تُساعد خصومَه سرّاً.

(٢) بل هو المُتيقَّنُ الذي لا ينبغي القول بغيره.

(٣) المراد: أخبرَتْهما الملائكة عند الموت بأنَّهما من أهل النار، مسارعةً في إزعاجهما، كما تبشِّر المؤمن عند الموت، بأنه من أهل الجنة، مسارعةً في إدخال السرور عليه. كما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧].

وضَرَبَ مثلاً آخر في ذلك مريمَ بنتَ عمران، إذ تحمَّلت في سبيل الله أشدَّ الأذى من قومها وأفظعَه، فقال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾[1] وهو ذيل الثوب أو جيب القميص، يُكني به عن الطهارة والحصانة، ويردُّ به على المتقوِّلين عليها، ويُبيِّن أنَّ حملها إنما كان بإذن الله وبسُنَّة من سننه الطبيعيّة[2]، وإن لم يُهتَدَ إليها، وتكريماً لها من أن يمسَّها إنسان، ومع ذلك كان عيسى إنساناً كاملاً؛ إذ يقول: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: كما نفخنا في آدم وفي سائر أفراد البشر من هذه الروح[3]، فهو على وتيرتهم، وإن كانت سُنَّته الطبيعيّة غير سُنَّتهم[4].

والإضافة في كلمة ﴿رُّوحِنَا﴾ على معنى المِلك، كما تقول: منحناه من مقتنياتنا الثمينة أو مصنوعاتنا الممتازة؛ لأنَّ الروح أكرم وأثمن ما عند الله من المخلوقات.

والتعبير بالنفخ عن خَلْق الروح ـ والله أعلم ـ للإشعار بأنَّ الروح جسمٌ لطيفٌ، وأنه مستقلٌّ عن البدن، لا ممتزج فيه، وأنَّ البدن كالظرف له والغلاف، وهو غير الحياة.

وقد جاء مثل هذه الآية في سورة الأنبياء[5] فارجع إليها.

---

(١) أي: حفِظَتْه فكانت عفيفة.

(٢) بل بآية خارقة للسنن الطبيعية.

(٣) التي هي مخلوق من مخلوقات الله تعالى، وأضافه الله عز وجل إلى نفسه تشريفاً، أو على معنى الملك كما سيذكره المؤلف رحمه الله تعالى.

(٤) بل خَلْقُ عيسى عليه السلام كان معجزة خارقة للسنة الطبيعية، فالصواب أن يقال: وإن كان مخلوقاً بمعجزةٍ خارقةٍ لسُنَّتهم.

(٥) في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. وجاء بلفظِ التذكيرِ هنا في سورة التحريم: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ لأنَّ لفظَ التذكير عند العرب أخفُّ من التأنيث، وهاهنا تكرَّر =

ثم ذكر إيمانها، فقال: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ المنزَّلة، ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي: من عِدادِ المواظبين على الطاعة لله.

والتذكير للتغليب، وللإشعار بأنَّ طاعتها لم تَقْصُر عن طاعة الرجال الطائعين، حتى عُدَّت من جملتهم. أو المعنى: فكانت من نَسْل القانتين لأنها من أعقاب هارون أخي موسى عليهما السلام.

وعن النبي ﷺ: «كَمُلَ من الرجل كثير، ولم يَكْمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد. وفَضْل عائشة على النساء كفَضْل الثَّريد على سائر الطعام»(١).

وفي السورة بيانٌ لطبيعة النساء، وتعليمٌ لصورة تهذيبهنَّ ومعاشرتهنَّ والتحمُّل منهنَّ، وتأديبٌ لهنَّ بما يجب أن يَكُنَّ عليه من الأخلاق وصفاءِ العِشْرة وسَلامة الطويَّة.

* * *

= لفظ التأنيث بقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ﴾ و﴿ٱبْنَتَ﴾، و﴿أَحْصَنَتْ﴾، و﴿فَرْجَهَا﴾، فناسب التذكير، تخفيفاً من زيادة تكرُّر التأنيث، وأما في سورة الأنبياء فلم يتكرَّر لفظ التأنيث كتكريره في (التحريم) فجاء مؤنثاً. كما أفاده البدر ابن جماعة في «كشف المعاني» ص٢٤٢.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

سُورَةُ المُلْكِ

مكيَّة، وهي ثلاثون آية

ومُلخَّصُ الغرض منها:

الدعوة إلى الإيمان، مقرونة بالدليل تارةً، والترغيب أخرى، كأمثالها من السُّور.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ أي: تَعاظَمَ وتعالى وتكاثَرَ خيرُه، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ تجري الأمور حسبما تقتضيه مشيئته المبنيَّة على الحِكَم البالغة.

وهو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ على قوانين الحِكَم والمصالح والغايات الجليلة التي أشار إليها بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: فيُجازي المُحسِنَ بإحسانه والمُسيء بإساءته.

والآية تُؤْذِنُ بأنَّ الإنسان مختار في تصرُّفاته، وأنه ينال السعادة والشقاء بواسطة عقائده وأقواله وأعماله، وتُؤْذِنُ بأنَّ الحياة الدنيا وسيلة للآخرة، والسعادة والشقاء فيها تابعان طبيعيان لنوع العقائد والأعمال في الدنيا يترتَّبان عليهما ترتيب المعلول على العلَّة، والمسبَّب على السبب[1].

---

(١) تقدَّم في التعليق مراراً بيانُ أن سعادة الآخرة وشقاءها مرتَّبان على العقيدة والعمل في الدنيا ترتيباً شرعياً لا طبيعياً، بمعنى: أنه محكوم بإخبار الله تعالى بذلك في شريعته، لا بقانون طبيعي.

وقد عقَّب ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يفوته من أساء العمل، و﴿ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ أي: لمن تاب منهم وأحسن العمل، ومحا السيِّئ بالحسن.

ثم تابع الكلام عن قدرته البالغة المنجِّزة لذلك الوعد والوعيد، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[١] والمراد بها: طبقات النجوم[٢]، وبينَ كلِّ طبقة والتي تليها بَوْنٌ بعيد ومسافات عظيمة، والعدد للتكثير لا للتحديد[٣].

وقد مرَّ الكلام على الطبقات في آخر سورة الطلاق، وفي أول سورة المؤمنون، فارجع إليه.

وقيل: الطبقات: مصدر بمعنى المطابقة، والمراد به: المشابهة بين الأجرام السماويَّة في الشكل والكرويَّة والإتقان والانتظام والاتِّساق[٤].

---

(١) أي: بعضها فوق بعض، وبَيْنَ كل واحدة وأخرى أبعاد واسعة، وقد دلَّت أحاديث المعراج على أنها سبع طباق بعضها فوق بعض، وأن لها أبواباً، وعلى كل باب خَزَنة، وقد دلَّت الآيات القرآنية على أنَّ كل سماء لها أمرها الخاص بها، قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢].

(٢) بل هي سبع سماوات بعضها فوق بعض كما جاء في سورة نوح: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [١٥]؟ وقد جعل الله عزَّ وجل السماوات السبع طباقاً، أي: جعل بعضها فوق بعض بتتابع، كثوب فوقه ثوب آخر، وهكذا إلى سبعة أثواب، أو مثل كرات متداخلاتٍ، فالكرة الوسطى فوقها كرة أخرى حولها، وهكذا إلى سبع كرات، كل كرة تاليةٍ تحيط بالكرة الداخلة فيها.

(٣) بل العدد للتحديد، كما تقدَّم بيانُه تعليقاً في مواضع. ينظر على سبيل المثال (٢: ٥٦).

(٤) المراد بالمطابقة: الموافقة والتساوي. تقول: طابقتُ بين القميصين، أو بين الثوبين. أي: لبست أحدهما على الآخر.

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾(١) واختلال، ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾(٢) أي: من وَهْن وخَلَل وقصور.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: كرِّر النظر لتتحقّق الأمر، فكلّما بالغتَ في الإمعان والتفتيش عن القصور، ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: صاغراً محروماً من إصابة ما تلتمسُه من عَيْب وخَلَل، ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ أي: كليلٌ لطول المعاوَدة وكثرة المراجعة والنظر.

والمعنى: إنَّ بصر هذا الناظر الملتمس للعيب والخلل في خلق السماوات والأرض وما فيهما، يرجع بعد الإعياء خائباً في بُغْيته، خاسئاً في طلبته. والمراد بهذا البيان: نفي الخلل من كلِّ وجه وبكلِّ تأكيد وإتقان. جلَّت قدرة القدير العظيم الشأن.

ومُحصَّل الكلام: أنَّ كلَّ ما احتوت عليه هذه الأكوان السماويّة ـ بما فيها الأرض ـ من أوضاع دقيقة وأحوال بديعة وإتقان في العمل وسداد، يدلُّ دلالة واضحة على حكمة الخالق وتعاليه، وكثرة خيره وتساميه، واستحقاقه وحده لأن يُعبَد.

ويدلُّ ذلك على أنَّ تشريعه وتوجيهه للناس بهذه المثابة من النفع والإتقان والصَّلاح والكمال للإنسان، وأنه سبحانه قادر كلَّ القدرة على الإعادة والجزاء، بما بيَّنه سبحانه في ثنايا القرآن من سعادة وشقاء.

---

(١) ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ (من): حرف يُفيد النصَّ على عموم نفي ما بعده. والمراد بالتفاوت: التنافر وعدم التناسب.

(٢) ﴿مِن فُطُورٍ﴾ (من): كسابقتها. والفطور جمع فَطْر ـ بفتح فسكون ـ وأصله الشقّ. والمراد: الخلل.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)﴾.

ثم تابع الكلام عن قدرته وعظمته في أعماله فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[(١)] وإنما قيَّد السماء بالدنيا للإشارة إلى أنَّ ما نراه من الأجرام العلويّة إنما هو القريب منا والذي تحت نظرنا، وأنَّ ما نُبصِرُه بالنسبة إلى ما لا نُبصِرُه قليلٌ من كثير، وإنَّ أرباب الفن على دوام اجتهادهم في تحسين الآلات بُغْيَةَ زيادة الاطِّلاع على العالم العلوي بنجومه ونظامه، يعترفون بأنَّ ما اطَّلعوا عليه وسَيَطَّلعون ما هو إلا قطرة من بحر، وأنَّ ما ينظر بالبصر من نجوم السماء هو ثلاثة آلاف نجم فقط مما لا يُحصى عدداً من ملايين الملايين.

وقد مرَّ الكلام على نظرية النظام الفلكي الحديثة في سورة البقرة، عند قوله

---

(١) يقول بعض أهل العلم: إنَّ المراد من السماء الدنيا طبقات الجوِّ العليا فإنها هي التي تُظهِرُ زينة النجوم، ولولاها لم تظهر كذلك، وعرف التخاطب يعدُّ جوَّ الأرض أقرب سماء فوقها. (المؤلف).
قلت: هذا قول بعيد، والصواب: أن النجوم زينة للسماء الدنيا التي هي محيطةٌ بهذه النجوم تحتها أجمع، محتويةٌ عليها، فإذا نظر الإنسان إلى السماء من الأرض التي هو فيها رآها مزينةً بما تحتها من نجوم، كسقف البيت يتزيَّن بما تحته من مصابيح.

تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ [البقرة: ١٦٤]، فارجع إليها، ولا عَجَب من قدرة الله، فهو على كل شيء قدير.

ثم ذكر لها خاصَّة متعلقة بما تضمَّنه السياق من الإشارة إلى عناد المشركين الذي يُكذِّبون بيوم الدين، مُستَنِدين على أنَّ الكهنة ـ الذين يأخذون المعلومات عن مُسْتَرِقةِ الشياطين ـ لم يخبروا بذلك، فأشار سبحانه إلى أن هؤلاء المسترقة لا يمكنهم أن يعلموا شيئاً، فقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ فلا تقدر أن تعلم شيئاً من خبر السماوات، يُبطِلُ بذلك ما هو مألوف عندهم ومتعارف بينهم من أنَّ المُستَرِقة تعلم خبر السماء وتُخبرُ الكَهَنةَ به فيُذيعونه في الناس، وضمير ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾ للجنس، وهو يصدق بشيءٍ من أفراده، أو يكون الكلام من نسبة ما للبعض إلى الكل.

وقد اختلفوا في هذه الشهب المتساقطة؛ فقيل: إنها قطع تنفصل من النجوم، ولا تزال تائهة حتى إذا مرَّت بهواء الأرض وكانت من المواد المشتعلة التهبت، وقد تبقى منها بقية تسقط على الأرض بعد أن تنطفئ، فتسمى نَيْزكاً. وقيل: بل هي قطع تنفصل من حلقات تدور حول الشمس مكوَّنة من قطع صغيرة الحجم، وهذه الحلقات مختلفة المَيْل على دائرة البروج، فإذا قربت منها الأرض، جذبت بعض تلك القطع فتسقط عليها، فإذا كانت من المواد المشتعلة تلتهب إذا مرَّت بكرة الهواء.

وقد مرَّ الكلام على مثل هذا في سورة الحِجْر عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨]، وفي سورة الصافات، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٦-٧]، فارجع إليه.

وبعد أن ذكر ما يتعلَّل به المشركون في إنكار نبوّة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، من أنَّ مُستَرِقةَ السمع لم تخبر الكهّان بهذا الخبر، وردَّ عليهم بأنَّ هؤلاء المسترقة يكذبون

ولا يعلمون شيئاً عن خبر السماء، وإنما يحاولون فيُرجَمون، ولا يبعدون عن الأرض إلا قليلاً، ويكذبون على الكهّان.

فبعد أن ذكر هذا بيَّن عذاب هؤلاء المسترقة في الآخرة بعد رجمهم في الدنيا، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ لأنهم من كَـفَرة الجن، على نهج القرآن في تعقيب عذاب الدنيا بعذاب الأخرى، ثم أردفَ هذا بما أعدَّ للكافرين عموماً، بما فيهم هؤلاء المشركون الذين ينكرون نبوة محمد وإنزال القرآن عليه، مستندين على هؤلاء الشياطين وكهَّانهم المجرمين، على نهج القرآن في تعقيب الأعمال والأحكام بقواعد عامة تشملها وغيرَها.

وعاد إلى السياق، فقال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾ بما فيهم المُنكِرون لكَوْن القرآن من الله بهذه الحجة والبيان.

ثم صوَّر جهنَّم تصويراً مدهشاً يأخذ بالألباب، فقال: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا[1] وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ[2] مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ فصوّر هذه النار بصورة مخلوق رهيب عابس مُكفَهِرِّ الوجه يَغْلي صدرُه حقداً وغيظاً على فريسته.

وبعد أن بيَّن حالَـها الرهيب، بيَّنَ حالَ أهلها، فقال: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ توبيخاً وتقريعاً، ليزدادوا عذاباً وحَسْـرةً وندامةً، وقالوا لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ[3] نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ يتلُو عليكم آيات ربِّكم وينذركم لقاء يومكم هذا؟

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ وقد جمعوا بين حرف الجواب ونفس الجواب مبالغةً في الاعتراف بمجيء النذير، وتحسُّراً على ما فاتهم من السعادة لو صَدَّقوا ذلك النذير،

---

(١) ﴿شَهِيقًا﴾: أصلُ الشهيق: هو الصوتُ المزعجُ كصوتِ الحمار.

(٢) ﴿تَمَيَّزُ﴾: أصلُه تتميّز، أي: ينفصلُ بعضُها عن بعض.

(٣) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾: الهمزة للاستفهام التوبيخي.

وتمهيداً لبيان ما وقع منهم من التفريط والندم والاغتمام على ذلك، أي: قال كلُّ فوج منهم: قد جاءنا نذير وتلا علينا ما نزَّل الله تعالى عليه من الآيات ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ذلك النذير، ﴿وَقُلْنَا﴾ في حقِّ ما تلاه علينا من الآيات ـ إفراطاً في التكذيب، وتمادياً في العناد ـ: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ على أحدٍ ﴿مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ﴾ في ادِّعائكم أنه نزَّل عليكم آياتٍ تُنذِرون بها ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾.

ثم سجَّلوا على أنفسهم التقصير والاعتراف بالذنب ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ في الدنيا سماعَ مُتفكِّر، ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ عَقْلَ متبصِّر متدبِّر ﴿مَا كُنَّا﴾ اليوم ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

وقد سجَّل عليهم سبحانه ولَحاهُم وقبَّحهم بقوله: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ أي: فبُعْداً لهم من رحمة الله.

وللمبالغة في تأنيبهم وتنديمهم وتبصيرهم، قَرَنَ مصيرهم هذا بمصير المؤمنين، على نهج القرآن، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: بما غاب عنهم من أمر الآخرة، ويؤمنون به اعتماداً على ما جاءهم به الرُّسُلُ وثقةً بهم، أُولئك ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ لا يُقدَر قَدْرُه.

ثم بعد الالتفات ـ على نهج القرآن ـ عاد إلى السياق، فتوعَّد هؤلاء الكَفَرة المعاندين، فقال: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ فلا تَخْفى عليه من أمركم خافية.

ثم استَشْهَدَ على ذلك بقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ[1] مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ أي: العالم بما لَطُف ودقَّ.

---

(١) ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري المفيد للنفي، و(لا) للنفي: ونفي النفي يُقرِّرُ الإثبات. والمراد: أنه يُعلَم قطعاً.

وفي معنى هذه الآية أقوال: أحدها: ألا يعلم ما في الصّدور مَنْ خَلَقَ الصدورَ. الثاني: أن المعنى: ألا يعلم سرَّ العبدِ مَنْ خَلَقَه. وعلى هذين الوجهَيْن يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ بمعنى: الخالق. والثالث: أن يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ بمعنى: المخلوق، والمراد: ألا يعلم اللهُ مخلوقَه وما انطبع عليه وهو اللطيف الخبير.

ثم ذكر قدرته ومنّته، وأردف به السياق؛ تحقيقاً لقدرته على إنجاز ما جاء فيه من الوعد والوعيد، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: سهلةَ التصرُّف فيها والسَّيْر عليها براً وبحراً، ولم يجعلها كلَّها جبالاً عاصية وصخوراً قاسية، ولا من مادة غيرِ قابلة للاستفادة منها، كالمادة الصُّلبة والسائلة، بل جَعَلها من مادةٍ ليِّنةٍ صالحةٍ للسُّكنى والسَّيْر والإنبات واستخراج ما فيها من معادِن وخيرات، ففي الأرض من مصادر الرزق مضعافُ ما يحتاج إليه البشر كما في الماء، ومن تذليلها: اعتدال قربها من الشمس ونظامها الشمسي، وبقية السيَّارات ليست كذلك.

ثم أمرنا بالسَّعي والاستفاد من هذه الأرض، مرشداً إلى طريقة استغلالها، وقال: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾[1] أي: في جوانبها، لأن الرزق موقوف على السعي فيها والاستفادة من خيراتها ومحصولاتها، لذلك عطف عليه قوله: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ للإيذان بأنَّ مَنْ قصَّر فلا يلومَنَّ إلا نفسَه، وعبَّر بالمشي بَدَلَ العمل ليشمل التجارة. ويتضمَّن هذا الأمر الامتنان.

وقد أردف ذلك بما يُنظِّمُه ويوقف الساعي عند الاعتدال في الحد المطلوب، بحيث لا يضرُّ سعيُه بحقوق الغير، ولا يفرط في حقوق الله، فذكر الحساب فقال:

---

(١) ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ جمع منكِب، بوزن مجلِس.

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ أي: الرجوع بعد البعث، فيجازي المحسنَ بإحسانه والـمسيءَ بإساءته، جزاءً وفاقاً.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١﴾.

ثم عاد بالكلام إلى محوره السابق، وهدَّد الكفار بعذاب الدنيا زاجراً لهم ومخوِّفاً، فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ أي: تَضْطرب ذهاباً وإياباً، على خلاف ما هي عليه الآن من السكينة والاطمئنان.

ثم أضرَبَ إلى وجهٍ آخر من التهديد، فقال: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾ أي: ريحاً تحْصبكم بالحجارة المُهلِكة، كما أرسل على قوم لوط.

ثم بالغ في التهديد بقوله: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾ أي: فستعلمون كيف كان إنذاري وتَتحقَّقون عند مُشاهدتكم للعذاب. وهذا وَصْف بمعنى المصدر.

ثم استشهد على ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من كفَّار الأمم السالفة، كقوم نوح وعاد وأضرابهم، ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾؟ أي: كيف كان إنكاري عليهم بإنزال العذاب؟ وهذه الصيغة الاستفهامية للمبالغة في التهويل، أي: كان على كيفيَّة لا يحيط بها الوصف، ومثلُها الصيغة التي قبلها.

ثم أيَّد التهديد بدليل القدرة تحقيقاً لإنجازه، وإثباتاً للقدرة على البعث والنشور، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَ﴾، وقد ضمَّن ﴿يَرَوۡاْ﴾ معنى: ينظروا،

وعدَّاه تعديته. وهذا الوصف يُصوِّر الطيران، إذ هو بَسْطُ الجناح وقبضُه بعد البسط، أي: ألم يَرَوْها طائرةً فوقهم في الجوِّ كالسابح في الماء، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ حيث خلق لهنَّ استعداد الطيران ووسائل له، وهداهُنَّ لذلك، وخلق في الهواء قابليَّة حَمْل الأثقال، كما جَعَل مِثلَ ذلك في الماء، تعالَتْ حكمةُ الله العلي القدير، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ يعلم كيفيَّة إبداع المُبْدَعات وتدبير المصنوعات، قدَّر فهدى، وهو على كلِّ شيء قدير، فلا يُعجِزُه إعادة الأموات.

ثم أضاف التبكيت والتندُّر والإنكار إلى التهديد لهؤلاء الكافرين، فقال: ﴿أَمَّنْ[1] هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بمعنى: أيُّ جند لكم ينصركم مني؟! فالاستفهام إنكاري هازئ مسفِّه لهم، كأنه سبحانه يقول لهم: بأيِّ قوة تعصونني؟! ألكم جند يدفع عنكم عذابي غير رحمتي؟! وأتى بكلمة ﴿ٱلَّذِي﴾ ليتناول الفرد.

ثم أردف الإنكار بالتقرير والنَّعي عليهم، فقال: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ فهم مغرورون، حيث يزعمون أن آلهتهم تحفظهم من دوننا وتمنعهم من بأس الله.

ثم تابع التوعُّد مقروناً بالتحسيس، فقال: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ أي: هل ترزقكم آلهتكم إنْ أمسَكَ اللهُ رزقَه عنكم؟! فالكلام وعيدٌ وإنكارٌ وتحسيسٌ بجهلهم وتعرُّضهم لغضب الله، وبإفاضة النِّعَم عليهم مع كفرهم، على نهج القرآن في ازدحام المعاني في أساليبه وتراكيبه.

ثم أضرَبَ عن الإنكار إلى بيان الحال، فقال: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: لم تنفعهم المواعظ، وتمادوا في التباعد عن الحقِّ والإيمان به.

---

(١) ﴿أَمَّنْ...﴾ أصلها: (أم من) و(أم) بمعنى (بل) الدالة على الانتقال من توبيخ على عدم التأمُّل فيما سبق مع التهديد إلى توبيخ وتهديد آخر. و(مَنْ): اسم استفهام.

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ثم أردف السياق بضرب المثل للكافر والمؤمن والتباين الشديد بينهما، فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾؟ والمكبُّ: هو الذي ينكّس رأسه إلى الأرض، فلا يبصر الطريق ولا من يستقبله، والسويُّ: هو الذي يستوي قائماً، فيبصر الطريق وجميع الجهات، مثّل بهما للمؤمن المتبصّر والكافر المُعرِض، بطريقة الاستفهام الإنكاري التبصيري.

ثم عاد إلى دليل القدرة والمنّة والتنبيه، فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي: العقول، ولكنكم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ باستعمالها لِـمَا خُلِقَت لأجله. و﴿مَّا﴾ مزيدة للمبالغة في القِلّة، فيجوز أن يكون المراد قِلّة شكرهم، ويجوز أن يكون المراد قلة مَنْ يشكر، أي: فلم ينتفع أكثركم بها. وقد ضمّن دليل القدرة والمنّة نقداً وتقريعاً.

ثم تابع الدليل، وقرن به العاقبة والمآل، إغراءً وتحذيراً، فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم وكثّركم فيها، ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ للجزاء ثواباً أو عقاباً. وفي صورة النَّظم استدلالٌ بالخلق على قدرة الإعادة، لأنها أسهلُ من الإبداع، وليست بأعجَبَ منه لو كانوا يعقلون.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ

ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٢٩) قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ (٣٠)﴾.

ثم وَصَلَ الكلام بتقريعهم على إنكار هذا الوعيد الأخروي، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ[١] إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٢٥)﴾؟ فأمره أن يُبيِّن الحقيقة، وهي أن وقت إنجاز ذلك من علم الله، ولا يعلمه أحد من البشر، فقال: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ (٢٦)﴾[٢] وقيل: بل المراد من الوعد: ما توعَّدهم به من عذاب الدنيا. أقول: ويجوز أن يكون الكلام شاملاً للأمرين معاً.

وكذلك قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ﴾ أي: العذاب الدنيوي أو الأخروي أو ما يعمُّهما ﴿زُلۡفَةٗ﴾[٣] أي: قريباً منهم ومحيطاً بهم، ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: علَتْها الكآبة، ﴿وَقِيلَ﴾ توبيخاً لهم وتشديداً لإيلامهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ (٢٧)﴾، وكلمة ﴿تَدَّعُونَ﴾ هذه هي صيغة افتعل، مِن: دَعَاه، بمعنى: استحضره، أي: هذا الذي كنتم تطلبون حضوره ووقوعه استهزاءً وإنكاراً. ويجوز أن يكون من الدعوى، أي: هذا الذي كنتم تدَّعونه من أنه لا بَعْثَ ولا حساب؛ يهزؤون بهم ويُندِّمونهم على ذلك القول ويؤنِّبونهم.

ثم توعَّدهم سبحانه وتعالى بسُلطانه القاهر المُطلَق وبهَوْل المستقبل، على طريقة الإنصاف مع الخصم والتَّنزُّل، فقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا

---

(١) ﴿ٱلۡوَعۡدُ﴾ المراد: الموعود به؛ وهو يوم القيامة.

(٢) ﴿نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾: محذِّرٌ من غضبِه تعالى، واضح التحذير.

(٣) ﴿زُلۡفَةٗ﴾ اسم مصدر من فعل (أزْلَفه) أي: قرَّبه. فهي بمعنى قُرْباً، وأريد بهذا المصدر اسم الفاعل مبالغة، أي: قريباً، كما تقول: هذا رجلٌ عَدْل، أي: عادل.

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾[(١)]؟ ومؤدَّى الكلام: أننا ـ مع إيماننا ـ بين الخوف والرجاء فمَنْ يُجيركم من العذاب مع كفركم هذا؟

ثم أمَرَه بأن يُصرِّح بالحقِّ الذي يدعوهم إليه، وضمَّنه الرجاء للمؤمنين من أرحم الراحمين، فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: إنَّ الذي أدعوكم لعبادته هو مُولي النِّعَم كلِّها، ومصدر الرحمة كلِّها، ونحن قد ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وحده لا نشرك به شيئاً، فلنا في رحمته كبير الرجاء والأمل، ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لأنَّ ما عداه بمَعْزِل عن النفع والضر، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب، بعيد الموت ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ منا ومنكم.

ثم ختم السورة بنفس الأسلوب الذي اتبعه فيها، وهو دليل القدرة والمنَّة المسبوك على التبصير والتهديد والوعيد، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبِروني ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائراً في الأرض لا تقدرون عليه ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ أشركاؤكم تفعل ذلك؟! وما أصعَبَ الموت عطشاً! والحياة بدون ماء!

قال الـجُبّائيُّ وأبو مسلم: ﴿مَّعِينٍ﴾ أي: ظاهر للعيان، فهو ضدّ الغائـر، يريد سبحانه: أنه هو المُنعِم بالأرزاق الناتجة عن المياه والمتأتية منها، فاشكروه واعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً.

اللهمَّ إني أعوذ بك من أن أُشرِكَ بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرُكَ لِـمَا لا أعلم، إنك أنت الغفور الرحيم.

---

(١) تُلهِمُ هذه الآية أنهم كانوا يناقشونه بأنهم على ما يرضي الله؛ لأنهم لم يَسْعَوا في تفريق الأمة عن عبادتها، ولكنه قد سعى في ذلك، فسينتقم الله منه. فالآية ردٌّ لمزاعمهم بطريق اللين والتساهل معهم. والله أعلم. أي: إذا كان حالي كما تزعمون، فكيف يكون حالكم؟ ويجوز أن يكون الكلام جواباً لقولهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]. (المؤلف).

سُورَةُ القَلَمِ

مكيَّة، وهي اثنتان وخمسون آية

وقد جاء في هذه السورة تثبيتُه ﷺ تجاه تقوُّلات المشركين، وتوعُّدهم بالعذاب.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ
﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ
فَيُدۡهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ
﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿نٓۚ﴾ قد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدأ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لإثارة الشعور والاهتمام لما يأتي بعدها، ومنه قوله: ﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾﴾ قيل: هذا تطمينٌ له ﷺ؛ لأنه ظنَّ في أول اتِّصال الوحي به أنه مسٌّ من الجن، وهو رأيٌ وجيه لو لم يتَّصل الكلام بالسياق الآتي الذي يردُّ على المشركين، فالأَوْلى أن يكون هذا أيضاً رداً على تقوُّلاتهم جمعاً بين المعنيين، فقد كان المشركون يقولون للرسول ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر: ٦]، أي: لك تابع من الجن.

وقد جاء الجواب بالسَّلب المؤكَّد، فأقسم سبحانه بأخصِّ أدوات العلم وبالعلم نفسه على تنزيه النبيِّ ﷺ عمَّا رَمَوْه به زُوراً وبهتاناً، وألمع إلى أنه مِنْ أعظم الرجال العالمين، وأنَّ ما يأتيه هو علمٌ لدنيّ من العلم الحكيم.

فالقلم من أوائل أدوات العلم، ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ هو العِلمُ نفسه، وكلُّ ذلك من خصائص الإنسان العاقل، بل هي أجلى مزاياه وأسماها، ميَّزه الله بها حيث علّمه بالقلم. فالمناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه ظاهرة جليَّة، أي: ولكنه علَّمك بدون وسائط.

وقوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ يريد به النبوَّة التي ينكرونها عليه، والباء للمُصاحَبة، أي: ما أنت وقد صحبتك نعمةُ ربِّك بمجنون، ولكن في فَضْل كبير، ونعمة عُظْمى، وعلم من الله جليل، علَّمك به ما لا يعلمون. وفي التمنُّن عليه بنعمة ربه إيذانٌ بأنه تعالى سيُتمُّ نعمتَه عليه، ويُبلِّغه إلى غايةٍ ما وراءَها غاية.

ثم وعده بهذا الوعد الكريم تجاه مقاساته لألوان الشدائد من جهتهم، وتحمُّله لأعباءِ الرسالة، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ أي: غير مقطوع، كقوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]. وقال أبو مسلم: بل معناه: لا يُمنُّ به عليك.

ثم سجَّل له هذه المنقبة الكماليَّة مُقدِّراً لها ومُنوِّهاً بشأنها، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ حيث تحتمل منهم ما لا يحتمله البشر. والجملتان معطوفتان على جواب القسم، فهما منه.

وقد سُئِلَت عائشة رضي الله عنها عن خُلقه ﷺ؟ فقالت: «كان خُلُقُه القرآن، ألست تقرأ القرآن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾؟» [المؤمنون: ١][(١)].

أقول: وكان ﷺ خيرَ أسوة لكل صنف من البشر؛ للمربِّين والمرشدين والقوَّاد والقضاة والحكماء والأئمة والناشئة والمعاهدين والعابدين والزاهدين، فهو مَثَلٌ أعلى للفرد في أُمته، والزوج مع زوجته، والأب مع ولده، والتاجر في تجارته، والمربِّي مع

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

تلميذه، والواعظ مع مستمعيه، والجندي في حَوْمة(١) الوغى، والقائد في تدبيره، والمشرِّع في أحكام شريعته، والقاضي في ولايته، والسياسي في حكومته، والمَلِك في رعيته، والمسالم لأوليائه، والمحارب لأعدائه، والعابد في محرابه، والزاهد مع قناعته.

كلُّ هؤلاء يجدون من صفاته ﷺ وفي سيرته وحياته العامة والخاصَّة مُثلاً عُليا يَحْتذُونها، وروحاً يَقوَوْنَ بها على مزاولة أعمالهم، وإماماً يسيرون على أثره في تحقيق مآربهم، ومَرَدّاً يرجعون إليه عن حَيْرتهم. من أجل ذلك وجب اتِّباعُه وامتثالُ سُنَّته السَّنيَّة، واقتفاء طريقته المرضيَّة وسيرته الزكيَّة، وهَدْيه المِفْضال، والاقتداء به في الأخلاق والأفعال، والانقياد لأوامره في جميع الأعمال، والتأسِّي في حربه وسِلمِه، والأخذ بقوله، والرضا بحكمه، فخير الهدى هُداه، والناجح المفلح من عقَّب أثره واقتفاه، ومَنْ أطاع الرسول فقد أطاع الله.

وبعد أن قدَّر ثباته تجاه معارضتهم وسفاهتهم، أتى بما فيه وَعدٌ له ووعيدٌ لهم، فقال: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾، والباء زائدة للتقرير، والمعنى: ستبصرون أيكم الذي فُتِنَ بالجنون.

ثم علَّل ما تضمَّنه الكلام من الوعد والوعيد، بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾ وسيجازي كلًّا بعمله.

ثم نهاه عن مصانعتهم، وقال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾، وعبَّر عن ذلك بالطاعة مبالغةً في الزجر والتنفير منها.

ثم أوضح ذلك وصاغ العبارة بصيغة التعليل للنهي، فقال: ﴿وَدُّواْ(٢) لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ أي: ودُّوا أن تلينَ لهم في دينك فيلينوا في دينهم، وإنهم يُدهِنون

---

(١) حَومةُ كلِّ شيء: مُعْظمُه، وحَومة القتال: معظمُه وأشدُّ موضع فيه. «لسان العرب» (حوم).
(٢) أي: تمنَّوا وأحبّوا.

معك بُـغْيَةَ أن تُدهِنَ معهم، فلا تُطِعْهم في ذلك. قال ابن عباس: شبَّـه التليـين في الدين بتليـين الأشياء بالدهن(١). وأصل الادهان: الجريان في ظاهر الحال على المقاربة، مع إخفاء المعارَضة أو العداوة، وهو مثل النفاق. وقال الحسن: بل المعنى: ودّوا لو تُصانِعُهم فيُصانعونك.

أقول: وإطاعتُه ومصانعتُه لهم غير مقصودة الوقوع منه ﷺ، ولكن مبنى هذا الكلام على التهيـيج، ليزدادَ في تحمُّل معارضاتهم ومقاومتهم ويتـثبَّت عليه، ومثل ذلك من أساليب القرآن. ولا يجوز أن يخطر ببالنا أنَّ هذا وأمثاله مخالف لِـمَا في نفسه، حاشاه الله من ذلك.

ثم أردف النهي عن إطاعتهم بالنهي عن إطاعة أحد متبوعيهم، مُعدِّداً صفاته، مبالغةً في التنفيـر منهم، فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أي: كثير الـحَلِف بالبـاطل، ﴿مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ من المهانة، وهي القلَّة في الرأي والتمييز، ﴿هَمَّازٍ﴾ قال ابن عباس: أي: وقَّاع في الناس مغتاب(٢)، ﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ أي: ساعٍ بالنميمة يفسد بين الناس، ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(٣) ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ﴾ أي: جافٍ غليظٍ شديدِ الخصومة بالباطل، و﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ(٤) زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ أي: دعيٌّ مُلصَقٌ بقوم ليس منهم.

قال ابن عباس: لا نعلم أن الله وصف أحداً بما وصف هذا به من العيوب(٥).

---

(١) لم أقف عليه من كلام ابن عباس رضي الله عنه، وإنما ورد في كلام بعض المفسرين، كالطبري في «تفسيره» (٢٣: ٥٣٤).

(٢) ذكره بنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠: ٣٣٦٥).

(٣) ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: بخيلٍ بالمالِ وكلِّ ما فيه نفع في الدنيا والآخرة. ﴿مُعْتَدٍ﴾: شديد التعدّي والظلم. ﴿أَثِيمٍ﴾: كثير الآثام والذنوب.

(٤) ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: أي: إضافة إلى ما ذُكر من الشرور والمفاسد، وأبعد منه.

(٥) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤: ٣٢٢).

وهو دائرٌ بين أشخاص ثلاثة عند المفسِّرين، فقيل: هو الوليد بن المغيرة. وقيل: هو الأخنس بن شُرَيْق. وقيل: هو الأسود بن عبد يغوث. والأول مرويٌّ عن ابن عباس، والثاني عن عطاء، والثالث عن مجاهد.

ثم ختم هذا البيان المخذِّل له بما يُؤنِّبه أشدَّ تأنيب، فقال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: ألأنْ كان ذا مال وبنين يجحد بآياتنا، لقد بدَّل نعمة الله كفراً. ويجوز أن يكون قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ تعليلاً لإطاعته، ومبالغةً في النَّهي عن مقاربته ومصانعته لرياسته، أي: لا تُطِعْه لأنْ كان ذا مال وبنين. وقد ذكرنا أن مثل هذا لا يخالف ما في نفسه، وإنما هو من أساليب القرآن، لا يريد به حقيقة المعنى، بل التسلية والتثبيت.

وبعد هذا البيان الفاضح زاده تهجيناً له بقوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ فهذه الآيةُ نفسُها وَسْمٌ على الخرطوم، وأيُّ وَسْم أعظم من هذه الآية. وقال العتبي[1]: العرب تقول: قد وَسَمَه مَيْسَم سُوء؛ يريدون: ألصقَ به عاراً لا يفارقه. وقد ألحق الله بمَنْ وصفه في القرآن بهذه الصفات عاراً أبدياً.

واستعمل المضارع المقرون بالسين للاستمرار في ثبوت هذا الوَسْم بالعار، أي: سيكون هذه الوصف عاراً عليه إلى يوم القيامة، أو إلى الأمد المديد. والخرطوم: هو فمُ الفيل، وقد استُعير للفم الذي قال عن القرآن: هو أساطير الأولين، تهجيناً له وتحقيراً.

وتُلهم هذه الآيات أنَّ المكذِّبين في هذه المرَّة لم يستعملوا الشدَّة التي تُلهمها سورة العَـلَق في المعارضة، بل تظاهروا بالمُلاينة خداعاً، وكان رئيسهم يُقسِمُ الأيمانَ للنبيِّ ﷺ باستعداده لمُجاراته، وهو يُضمِرُ التكذيب، ولم يَلبَث أن جاهَرَ بطويَّته، وقال

---

(١) هكذا في الأصل، والصواب: القُتَبي، وهو ابن قتيبة الدينوري.

عن القرآن: أساطير الأوَّلين. ولقد ظلت هاتان الصورتان ـ صورة الشدَّة في المخاصمة كما في سورة العَلَق، وصورة اللين كما هنا ـ تتكرَّران في القرآن بألوان منوَّعة في مواد معينة طيلة العهد المكي.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

ثم ضرب سبحانه مَثَلاً لأهل مكة، وفيهم المكذِّبون الذين اشتدُّوا على المؤمنين في المقاطعة والأذى حتى اضطرُّوهم إلى الهجرة بأنفسهم، واستولوا على أموالهم وأملاكهم، ثم ضاعفوا الأذى على المستضعفين الذين لم يتمكَّنوا من الخروج والهجرة. وقد كان في المكذِّبين أناسٌ لم يفقدوا نور البصيرة بالمرَّة، فأخذوا يلومون جماعتهم على اشتدادهم بهذه الصورة على المؤمنين، ثم ابتلاهم الله سبحانه بالقحط والجوع سبع سنين، حتى بلغ الضرُّ منهم الجهد، فثاب أكثرهم إلى الرُّشد وآمنوا بعد صُلح الحديبية، ولا سيما بعد الفتح، وأخذ يلوم بعضهم بعضاً على ما فرط منهم.

فضرب الله سبحانه لهم الـمَثَل بأصحاب هذه الجنة، فقال: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ ﴾ أي: امتحَنَّاهم واختبرناهم في علانيتهم ونَجْواهم، ﴿ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ [1] إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا

---

(١) أي: إنّا اختبرنا كُبراءَ مُشركي مكة بعَوْن المحتاجين وإطعام الجائعين، كما اختبرنا أصحابَ الحديقة.

مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ والصَّرْم: قَطْعُ التمر عن النَّخْل، قيل: كان أصحاب هذه الجنة من بني إسـرائيل، وقيل: كانوا من صنعاء، وكانت هذه البستان في أوّل أمرها لرجل ينادي الفقراء وقت الصِّرام، أي: وقت قطع البَلَح، ويترك لهم ما أخطأه القاطع أو ألقَتْه الريح، فيجتمع لهم شيءٌ كثير، فلما مات قال بنوه: إنْ فَعَلنا كما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر؛ لكثرة عيالنا، فحَلفوا فيما بينهم لَيَصرِمُنَّها مُصْبحين، ولا يستثنون للمساكين شيئاً.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ لا يشعرون بذلك. والطائف: الطارق ليلاً، استُعير للبلاء الذي أصابها ليلاً وهم غافلون عمَّـا جَرَت به المقادير، ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾(١) أي: كالبستان الذي قُطِعت أثماره.

ثم تابع الكـلام في إتـمام القصَّـة وبيـان ما كان من أمرهم، وقال: ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي: وقتَ الصباح؛ ﴿أَنِ ٱغْدُواْ(٢) عَلَىٰ حَرْثِكُمْ(٣) إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ(٤) ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾(٥) فيما بينهم: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: لا تُـمكِّنوه من الدخول.

فندَّد سبحانه بهم وأنَّبهم على الاغترار بقدرتهم، وإهمالهم قدرة الله عليهم، فقال:

---

(١) «الصريم» أصله: هو المنقطع عن غيره. وأطلقَه العرب على الليل لانقطاعِه عن النهار، فأصبحَتِ الجنةُ محترقةً كسوادِ الليل.

(٢) ﴿أَنِ ٱغْدُواْ...﴾ (أن): حرف يدل على أنَّ ما بعدَه بيان للتنادي السابق. كأنه قال: كان تناديهم هو قولهم: اغدوا... و(اغدوا) أي: اذهبوا وقت الغُدوة ـ بضم الغين ـ وهو الصباح الباكر.

(٣) ﴿حَرْثِكُمْ﴾ المراد به: ما تُنتِجُه الأرض من ثمارِ الأشجارِ والزرع.

(٤) ﴿صَٰرِمِينَ﴾ أي: مُريدينَ قطعَ ثمارِ الجنة. وانظر الآية ١٧ المتقدِّمة في هذه السورة.

(٥) ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ المراد: يتحدّثونَ بصوتٍ منخفضٍ لئلا يَسمعهم المساكين.

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ والحرد: المنع مع الغضب والحنق، أي: غَدَوا مُصَمِّمين على مَنْع الفقراء، مُعْتزِّين بقُدرتهم على ذلك، غير ذاكرين لقدرة الله عليهم، فاكتَسَحها الله منهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ كذلك انتبهوا لحالهم وما جَنَت عليهم أنفسُهم، و﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ بإضمارنا هذا الرأي، ولم نحرم بذلك المساكين فحسب، ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ منها أكثر من حرمانهم.

ويجوز أن يكون المعنى: فلمَّا رأوها أوّلَ ما رأوها لم يعرفوها، وقالوا: إنا لَضَالُّون جنَّتنا، وما هذه هي. وبعد وَعْي وتأمُّل عرفوا أنها هي، وقالوا: بل نحن محرومون، أي: بل هذه هي جنـتُنا بعينها، وقد حَرَمنا الله منها، بمـا قرَّرنا في أنفسنا من حرمان المساكين.

وعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أعدَلُهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا[1] تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾؟ أي: ألم أُحرِّضْكم على ذِكرِ الله تعالى، والخوف منه، والإقلاع عن نيَّتكم هذه، وقد كان قال لهم ذلك حين عَزَموا على فعلهم هذا.

ولما ذكّرهم بذلك عَمَدوا إلى التوبة بعد انقضاء الأمر ووقوعه، و﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ لأنفسنا بإضمارنا هذا الإضمار.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: يَلومُ بعضُهم بعضاً، يقول هذا لذاك: أنت أشَرْتَ علينا بهذا الرأي، ويقول ذلك لهذا: أنت خوَّفتنا بالفقر، ويقول الثالث لغيره: أنت الذي رَغَّبتَنا بالحرص وجَمْع المال من غير وجهه.

---

(١) ﴿لَوْلَا﴾ كلمة تدلُّ على طلب تحصيل ما بعدها، ويعبِّرون عن معناها بحرف (هلّا) بتشديد اللام.

ثم نادَوْا على أنفسهم بالوَيْل و﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾، فاستعظموا جُرْمَهم هذا وأنابوا إلى الله، وقالوا: ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ ولعفوِه راجون.

ومِثْلُ هؤلاء أيضاً كان حال أهل مكة بعد الفتح، فقد ثابُوا لرُشْدِهم، وآمنوا وحَسُنَ إسلامُهم، ولامَ بعضُهم بعضاً على ما كان منهم من تمنُّع وإحجام عن دخولهم في دين الله، حرصاً على مراكزهم وأموالهم، حتى إن بعضهم كان يقول لبعضهم: أعَلَى هذا النُّور المبين والصِّراط المستقيم كنا نعارض هذا الرجل، ونُنكِر عليه؟! يلومون أنفسهم ويؤنِّبونها.

وبعد أن انتهى ضَرْبُ المثل، قَرَنَ به على وجه التهويل والتحسيس ما كان أخذ به كفَّارَ مكة الذين ضَرَبَ لهم هذا المثل قبل أن يؤمنوا، حين كان قد أخذهم بالقحط المديد والجوع الشديد، فوق القلق والاضطراب، والتناحر والاكتئاب، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي: وهكذا كان عذابُ أهل مكة في الدنيا، أو: وهكذا يكون العذاب في الدنيا لمن فرَّط في جَنْب الله.

ثم أضاف إليه الوعيد بعذاب الآخرة، فقال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يُهدِّد بها مَنْ بقي على الشرك ومات عليه، والعياذ بالله.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وبعد أن ذكر سبحانه ما أعدَّه للكافرين وضرب لهم الأمثال، أردَفَه بما أعدَّه للمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم أيَّد ذلك وقرَّره بأبدع الأساليب في الاستدلال عليه، فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ ونُسوِّي بينهما في المصير؟! ينكر ذلك إنكاراً تهكُّمياً مبنياً على فَرْض وتنزيل أنهم يقولون به.

ثم يؤكِّد الإنكار باستفهامَيْن متواليَيْن، تعجيباً من حكمهم هذا، واستبعاداً له، وإيذاناً بأنه لا يصدر عن عاقل، فيقول: ﴿مَا لَكُمْ﴾ كذلك؟! ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ مِثل هذا الحكم الفاسد؟!

ثم هَجَّن أمرهم وسَخَّف رأيهم بوجه آخر، يهزأ بهم فيه، ويردُّ عليهم بالرد النقلي بعد الردِّ العقلي، فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: أم عندكم كتابٌ سماويّ تجدون فيه ما تشتهيه أنفسكم من العقائد والأحكام، وما تريدونه من السلوك والإجرام؟!

ثم سلك وجهاً آخر من المسالك الهازئة بهم، مُنتزِعاً المعنى من حال المخاطبين في الضمان والمواثيق، فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾(١)

---

(١) أي: هل لكم علينا عهودٌ مؤكَّدة بالأيمان بالغةُ التوكيد ثابتةٌ علينا إلى يوم القيامة: إنَّ لكم ملء الحرية ومطلق التصرُّف في مقدَّرات الناس، فتجعلون ـ حسب أهوائكم وأذواقكم ـ هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار؟! أو هل لكم علينا معاهدة بالغة إلى يوم القيامة: إنَّ لكم في ذلك اليوم ما تحبون وما تشتهون، وإنكم في ذلك اليوم سعداء مرضيون؟

ثم زاد في السخرية بقوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠] أي: تولَّى عَقْدَ هذه المعاهدة مع الله، الوليد بن المغيرة، أم الأخنس بن شريق، أم الأسود بن عبد يغوث؟ يتهكَّم بهم في ذلك بأبلغ وجوه السخرية والتسخيف. (المؤلف).

أي: أم ضَمِنّا لكم بأيمان مُغلَّظة متناهية في التوكيد؛ أنَّ لكم يوم القيامة كلَّ ما تريدون وما تَتَمنَّون؟!

وقد زاد في التهكُّم بقوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: مَنْ منهم بذلك الميثاق كفيل، تولَّى عَقْد هذا الحِلف معنا وتبنَّاه؟! يهزأ بهم ويسخر منهم بأبلغ وجوه الردِّ والتسفيه.

وبعد بيان هذه المسالك الملوَّنة في البطلان، المبنيَّة على السخرية والتجهيل، قرَّر الحقيقة الراهنة التي هم عليها، وقَرَنها بالإبطال أيضاً، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: أم لهم معبودات يعتقدون أنها شركاء لله في أعماله وأُلوهيَّته، وأنها ستجعلهم في الآخرة خيراً من الموحِّدين في الثواب والخلاص من العقاب، ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ هؤلاءِ ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ في أنَّ لهم من الأمر شيئاً؟!

فَلْيُنقذوهم مما هم فيه ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، وهذا مَثَلٌ يُضرَبُ لاشتداد الأمر، أي: يوم يشتدُّ عليهم الحال ويَصعُب الخطب، أو يوم يُكشَفُ عن الأمر فتظهر حقائقه وتكون عياناً، ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ توبيخاً وتعنيفاً على تركهم إيَّاه في الدنيا، بإعراضهم عن الدين، وتحسيراً لهم على تفريطهم في ذلك، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لفوات وقته. فعبَّر عن نفي الانتفاع به بنفي الاستطاعة عليه، مبالغةً في ذلك، كما تقول: إذا فات وقتُ الزرع لا تستطيع أن تزرع. فالكلام تنبيهٌ لتدارك الأمر، وحثٌّ على الإيمان قبل فوات الأوان. والله أعلم.

وتراهم حينئذ ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ من شدَّة خوفهم، مما أعدّ لهم من الهوْل.

ثمَّ علَّل هذه المصير البائس بما يلائم السياق مما أدَّى حالهم إليه ويُندِّمهم، فقال: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ في الدنيا، ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ متمكِّنون منه أقوى تمكُّن، فلا يُجيبونَ إليه، وضَيَّعوا عليهم الفرصة من الربح الوفير، وخسروا خسراناً مبيناً.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم أردفَ هذا السياق المتضمِّن لمناقشة المشركين في مسالكهم المفضوحة البطلان، بما فيه توعُّدٌ لهم وتهديد، وقال: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: دَعْني وإيَّاهم، وخَلِّ بيني وبينهم. وهذا تهديدٌ رهيبٌ مستعار من أساليب المخاطَبين التهديديَّة، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

ثم أقام مقامَ البيان لهذا الوعيد مُحصَّلَ أسبابه التي أدَّت إليه، فقال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وليس المراد أنه سبحانه يستدرجهم قَصْداً[1] وفعلاً، فذلك محالٌ على الله سبحانه ومنزَّه عنه، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً، وإنما المراد ضلالهم من أنفسهم بتعاطي الأسباب المؤدِّية إليه على حدِّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥]، أي: أنهم سيسترسلون في غيِّهم درجةً بعد درجة، ولا يدرون عاقبةَ أمرهم ولا ما هم فيه من الضلال؛ إذ يصبح لهم خُلقاً وديناً.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ في ذلك بحسب السُّنة العامَّة في أخلاق البشر إن انطبع على الباطل، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ إذ لا تبديلَ لسُنَّة الله وما وضعه في أخلاق البشر من النظام التطبُّعي، ومن ذلك أنَّ مَنْ تدرَّج منهم في شيء ينطبع عليه، ولا يكاد يحسُّ بشرِّه وسوء مَغَبَّته إن كان شراً.

ثم عاد بالكلام إلى سَنَنِهِ السابق، وهو تبكيتهم بالتبكيتات المتوالية المتردِّدة في مدارج البطلان، ينتقل من واحدٍ إلى آخرَ أشدَّ تفضيحاً وتشنيعاً وأظهر بطلاناً، فقال:

---

(١) الصواب أن يقال: جبراً وفعلاً، فهذا الاستدراج مرادٌ لله تعالى ومقصود له، لكنه ليس جبراً منه عليهم، ولا فعلاً منه فيهم من غير كسب لهم.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ دنيوياً على هذا الإبلاغ والإرشاد، ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: فلا يؤمنون لأنهم يستثقلون الغرامة التي تطلبها منهم على الإيمان. وهذا التبكيت مبنيٌّ على الأمر الذي طالما ذكره القرآن، يردُّ به إعراضَ المُعرِضين وتشكيكَ المتشكِّكين في دعوى النبوة. ومحصَّله: إنَّ هؤلاء الأنبياء لا يطلبون حظوظاً دنيوية وغايات شخصية حتى يُتَّهموا بأنهم لذلك قاموا بهذه الدعوى والدعوة.

ثم أردَفَه بتبكيتٍ آخر، فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: أم جاءَهم وحيٌ بصِحَّـة ما يدَّعونه من الشركاء، اختصُّوا به، لا يعلمُه غيرهم، فهم يكـتبونه ويتوارثونه؟! يتهكَّم بهم في ذلك ويُسَخِّفهم ويُؤَنِّبهم بأن أمر الدين والشريعة لا يجوز أن يُؤخَذَ إلا عن الغيب من الله، بطريق النبوة والوحي.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

ثم التفت إلى النبيِّ ﷺ، يُثبِّته تجاه تصرُّفاتهم وتقوُّلاتهم التي أثَّرت في نفسه أثراً غير يسير، ويُذكِّره بقصَّة يونس عليه السلام، ويقول: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالُهم وتأخيرُ نُصْرتك عليهم، ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ وهو يونس عليه السلام؛ إذ استعجل وخَرَج من قومه المعارضين له فالتقمه الحوت، وكان من أمره ما ذكره سبحانه بقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ ربَّه[1] ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾[2] في بطن الحوت، ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ﴾ لطفٌ و﴿نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: في الصَّحراء ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾.

---

(١) أي بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]

(٢) ﴿مَكْظُومٌ﴾: أحاطَ به الغضبُ والغمُّ من كلِّ جهة حتى صار كأنَّه محبوس فيهما.

ولكنْ تداركه الله بلطفه ورحمته، فنُبذ غير مذموم، كما قال: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ قال ابن عباس: ردَّ الله إليه الوحي، وشفَّعه في قومه[1]. وقال قوم من العلماء: لعلَّه ما كان رسولاً صاحبَ وحي قبل هذه الواقعة، ولكن كان مُهيَّأً لذلك، وكان ينصحُ قومه ويدعوهم إلى نَبْذ عبادة الأوثان، ويعارضونه، وبعد ابتلائه هذا أرسَلَه الله إليهم. وعلى القول الأول يكون احتباسه في بطن الحوت وعدم موته معجزة له، وأما على القول الثاني فيكون ذلك إرهاصاً؛ لأنَّ الإرهاص ما يظهر للمُرشَّح للنبوَّة من خوارق العادات.

ثم خَتَم السورة ببيان حال الكفار مع النبيِّ ﷺ عندما يتلو القرآن؛ من الحنق والدهشة، فقال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ أي: يثورُ عند سماعه بُغضُهم وحَنَقُهم، ويقولون: إنَّ جِنِّيَّهُ بليغ، وصيغة الآية تدلُّ على أنَّ الكفار لم يكونوا يقصدون نَعْتَ النبيِّ ﷺ بالجنون المَرَضيِّ، وإنما يعنونَ أنَّ الجنَّ تُلهِمُه ذلك على طريقة الكهانة، أي: إنهم كانوا يُحملِقون في وجهه، وتكاد عيونهم تأكله عَجَباً ودَهْشة لما يسمعونه من آيات القرآن، قائلين: إنَّ الجنَّ تُلهِمُه هذا الكلام العجيب، لأنَّ العرب كانت تعتقد باتِّصال الجن بالسَّحَرة والكُهَّان والشُّعراء.

ويجوز أن يكون معنى الكلام: إنَّهم ينظرون إليك عند تلاوةِ القرآن والدعاء إلى التوحيد، نَظَرَ عَداوةٍ وبُغْض وإنكار لِمَا يسمعونه من القرآن، حتى إنهم ليكادون يَصْرعونك بحِدَّةِ نظرهم الغاضب، ويُزيلونك عن مَوْضعك؛ يُصوِّر شدَّة ذلك منهم. وهذا التعبير من عُرف اللغة، يقال: نظر إليَّ فلان نظراً كاد يَصرَعُني، أو كاد يأكلني.

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ٣٤٢).

والآية قريبة من آية الحج: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

ثم ردَّ على ما تضمَّنه الكلام من إنكارهم لهذا القرآن بقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ يُذكِّرهم مصيرَهم وعاقبةَ أمرِهم، ويهديهم لرُشْدِهم وللعاقبة الحُسْنى.

* * *

سُورَةُ الحَاقَّةِ

مكيَّة، وهي اثنتان وخمسون آية

جاء في هذه السورة إثباتُ يوم القيامة، وما يكون بعدها من ثواب وعقاب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾﴾ صفةٌ من صفات يوم القيامة، أي: التي تحقُّ وتقع فيها الأمور، بمعنى: تُعرَف فيها الحقائق، أي: تُحقِّق الحقائقَ وتُثبتها وتُنجِزُها.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾؟ وهذا التركيب يأتي في القرآن للتهويل والتعظيم. وقال الثوري: يقال للمعلوم في الجملة: ما أدراك، ولِـمَا ليس بمعلوم: ما يُدريك، في جميع القرآن(١).

ثم أخبر سبحانه عن المكذِّبين بها، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ وهذه صفةٌ أُخرى من صفات يوم القيامة، عبَّر بها بَدَلَ الضمير زيادةً في التهويل، وإنما سُمِّيت قارعة ـ والله أعلم ـ لأنَّ الأجرام السماوية يقرع بعضها بعضاً في حادثة القيامة بصورةٍ هائلة؛ صوَّرها سبحانه وتعالى في سورة الحج بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ❁ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ

(١) رواه بنحوه ابن أبي حاتم (١٠: ٣١٥٧) من قول سفيان بن عيينة.

عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾. [الحج: ١-٢].

ثم بيَّـن سبحانه كيفيَّـةَ إهلاكهم وفظاعتَـه، نـتيجةَ تكذيبهم بالقارعة، وما يحدثُ بعدها من الحشر والحساب بقوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وهُم قوم صالح، ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾. قال قتادة والجُبّائيُّ وأبو مسلم: أي: بالصيحة الطاغية التي جاوزت المقدار حتى أهلكتهم[1]. ولكن ألا يجوز أن يراد بالطاغية: الجبّار الذي عَقَرَ الناقة، وتكون التاء للمبالغة في الوصف لا للتأنيث، ويكون في الآية إيجاز الاكتفاء من أنواع إعجاز القرآن، حيث ذكر في الأولى المسبّب للهلاك، وفي الثانية: نفس الهلاك[2]، على حـدِّ قولـه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾ [يونس: ٦٧]، أي: جعل الليل مظلمـاً لتسكنوا فيه، والنهار مُبْصِراً لتبتغوا من فضله، فاكتفى بالتعليل الأول عن التعليل الثاني، وبالوصف الثاني عن الوصف الأول، وذلك من أساليب القرآن. هذا رأيي، والله أعلم، هنا أوجَزَ في كلٍّ بعضَ الآخر.

---

(١) رواه عن قتادة الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٥٧١)، وذكره عنه أيضاً القرطبي في «تفسيره» (١٨: ٢٥٨).

(٢) هذا بعيد، فلو كان هذا صحيحاً لكان المناسب أن يتبعه مثلُه في قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٞ...﴾، ولكن الذي ورد فيها هو الهلاك نفسه لا المُسبِّب للهلاك، وهو قوله: ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾، فنظمُ السياق إذن يقتضي أن يكون كلاً من قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ تفسيراً للقارعة المذكورة في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾، لأنه أجمل السياق أولاً، ثم فصَّله.
أما قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾ [يونس: ٦٧] فليس هو تفصيل بعد إجمال، بل هو مسوقٌ للتمنُّن، وهو حاصل بما ذكر في الجهتين، فكان الاكتفاء فيه واضحاً، بخلاف ما هنا.

وقال في إتمام البيان: ﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾ وهم قوم هود، ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ والصَّرْصَر: الريح الشديدة الصوت، وقيل: شديدة البرد. عَتَتْ عليهم فلم يقدروا أن يتخلَّصوا منها.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: حاسمةً للخير عنهم وشُؤْماً عليهم وبلاءً. وقال ابن عباس وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة: أي: متتابعةً ليس فيها فترة[1]. وقال الخليل: أي: قاطعة؛ لأنها أهلكتهم. وقال وهب: هي التي تُسمِّيها العرب أيام العَجوز[2] ـ بفتح العين ـ وهي أيامٌ سبعٌ بين شهرَيْ شباط وآذار، لأنَّ عجوزاً دخلت سِرْباً فتبعتها الريح، فانتزعتها وأهلكتها. وقيل: إنما تسمِّي العربُ آخر الشتاء بهذا الاسم، لأنه أصبح في دور العَجْز، وربما ضمُّوا العين لتكونَ صيغةَ جمع، أي: أواخر الشتاء.

أقول: ويجوز أن يكون هذا الاسمُ «أيامَ العُجوز» بضم العين، وأن يكون مُوَلَّداً من هذه الحادثة بعد نزول القرآن وتشبيهه الهلكى بأعجاز النخل في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ أي: أُصولَ نخل باليةٍ متآكلةِ الأجواف.

وقد زاد في التهويل بقوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾؟

ثم ذكر فرعونَ وقومَ لوط وما أصابهم من جرَّاء تكذيبهم بالرسل، فقال: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ أي: ومَنْ كان قبله من الأمم التي كفرت كما كفر، وقرئ: (ومَنْ قِبَلَه) بكسر القاف وفتح الباء[3]، أي: مَنْ عِندَه من أتباعه وجنوده، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ قال

(١) روى هذه الأقوال الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٥٧٣).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨: ٢٦٠).

(٣) وهي قراءة عاصم في رواية أبان، وقراءة أبي عمرو والكسائي كما في «الحجة للقراء السبعة»، (٦: ٣١٤).

قتادة: هي قرى قوم لوط، وسُمِّيت بالمُؤْتفكات لأنها ائتَفَكت بأهلها، أي: انقلبت[١]، حيث جاؤوا ﴿بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩﴾ أي: بالخطيئة. والكلمة مصدر كالخطأ، وهي في الصيغة مثل: العافية والعاقبة والطاغية، مصادر أو أوصاف يُعبَّر بها عن المصادر، وذلك من خصائص اللغة، كما يعبَّر بالمصدر عن الوَصْفُ. وقيل: بل المراد بالكلمة الوَصْفُ لا المصدر، والمعنى: بالأفعال الخاطئة التي من جملتها تكذيبُ البعث والقيامة.

﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: فعَصَتْ كلُّ أمة رسولها وكذَّبته، ﴿فَأَخَذَهُمۡ﴾ الله ﴿أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ۝١٠﴾ قال ابن عباس: أي: زائدة في الشِّدَّة[٢]، وقيل: نامية مستمرة.

ثم بيّن سبحانه قصَّة نوح مع قومه بنفس الأسلوب الإجمالي، وخاطب بها مَنْ نزل فيهم القرآن، مُبالغةً في التحسيس، فقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١﴾ أي: في السفينة. وفي الكلام نسبةُ ما للأصل إلى الفرع، فقد نُسِبَ إليهم الحَمْلُ باعتبارهم ذريَّة تلك البقيَّة التي نَجَتْ من الغرق، بواسطة هذه السفينة، يَتَمنَّن سبحانه وتعالى عليهم في ذلك. ومثل هذا من نهج اللغة ومجَازاتها، وهو معروفٌ في مخاطبات العرب. وفيه إشارة إلى أنَّ البشر من بعد نوح كلَّه منه تقريباً؛ لأنه منه ومن السبعين الذين نَجَوا معه؛ لذلك يقال لنوح: آدم الثاني.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ۝١٢﴾ أي: لنجعلَ تلك الفِعْلة التي فعلناها في إغراق قوم نوح، ونجاة من حَمَلنا في السفينة عبرةً لكم وموعظةً تتَّعظون بها وتتذكَّرون بها نِعَمَ الله تعالى وتشكرونه عليها، وتتفكَّرون في نِقَمِه وتَخشَونها. وفيها تلميحٌ بالتهديد والوعيد الرهيب.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤: ٣٤٥).

(٢) المصدر السابق (٢٣: ٥٧٧).

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ
وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ
فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ
فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ
أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ
ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ
﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وبعد أن ذكّر بالأمم التي كذّبت بالقيامة والحشر، وبيّن ما جرى عليها، يُحذِّر به المشركين ويُنذِرُهم؛ عاد إلى مَجْرى السياق السابق، وهو الكلام عن الحاقّةِ ومظاهرها الرهيبة، وقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: نفخةٌ أُولى، بمعنى: إذا أُعطيت الإشارةُ الأولى[1] اصطدمت الأجرام السماويّة والأرض مع بعضها؛ لاختلال بنائها بتقادُم العهد عليها[2]، والله أعلم.

(١) كأن المؤلف رحمه الله يُلمحُ بهذه العبارة إلى حَمْل النفخ في الصور على وجه مجازي غير حقيقي، وهو إعطاء الإشارة، وهذا غير صحيح، فالأصل حَمْلُ الكلام على الحقيقة ما دامت غيرَ ممتنعة، ثم إن هذا النفخ المذكور في القرآن مجملاً لحقه البيان من السنة النبوية الصحيحة، ومنها زيادة تأكيد على أنه نفخٌ حقيقيّ في صُور ـ وهو القَرْن ـ حقيقي.

(٢) اصطدام الأجرام السماوية واختلال نظامها ليس ناتجاً عن تقادم العهد عليها، لأنها مخلوقة على أبدع نظام وأحسن تركيب، وإنما يحصل ذلك إذا أراد الله تعالى بأمره سبحانه لها بذلك، وحديث أبي ذر ـ في استئذان الشمس كل يوم من أين تطلع، فتؤمر بالمشرق، حتى إذا كان يوم القيامة أُمرت أن تطلع من المغرب، وقد رواه البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩) ـ دالٌّ على ذلك.

ثم عطف على النفخ والإنذار ما يجري بعده، فقال: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ بنتيجة ذلك الاصطدام الهائل، حتى تصير ﴿قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧]؛ لأنها تُسحَقُ وتُبَسُّ بسّاً، وتكون كرةً من تراب ناعم مسحوق، ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ أي: حينئذ تكون قد قامت القيامة.

ثم تابع الكلام عن تلك المظاهر، فقال: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ أي: مُضْمَحِلّة، كالشيء الخَلِق الذي يتلاشى، وذلك لمرور ما لا يُحصيه إلا الله عليها من الدهور، وكل شيء يَضمَحِلُّ بتقادُم العهد عليه مهما كان قوياً[١]. والله أعلم.

ثم تابع الكلام، فقال: ﴿وَٱلْمَلَكُ[٢] عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾[٣] قال الحسن وقتادة: أي: على أطرافها[٤]. وقال البيضاوي: لعلَّه تمثيلٌ لخراب السماء بخراب البنيان وانضواء أهله إلى أطرافه[٥]، وإن كان الكلام على ظاهره فلعلَّه[٦] هلاك الملائكة إثرَ ذلك[٧].

أقول: وهكذا يقال في قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ...﴾، والضمير للخلائق، أي: فوق الخلائق، سواءٌ ماتوا أو يموتون على إثر ذلك، أو يكون هذا بعد الحشر، وهو الأنسب، والله أعلم.

---

(١) هذه سنة من سنن الله في الأرض، ففي تعميمها على كل شيء لتشمل الإجرام العلوية ـ بل الجنة والنار أيضاً ـ نَظَر.

(٢) «الملك» المراد: جنس الملك، فيشمل جماعة منهم.

(٣) ﴿أَرْجَآئِهَآ﴾ الضمير يعودُ على السماءِ الجديدة. كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. ومفرد أرجاء: رجاً؛ منوّناً بوزن (فتى) ومعناه: جانب.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٥٨٢) من قول مجاهد.

(٥) في «تفسير البيضاوي»: «أهلها إلى أطرافها».

(٦) في «تفسير البيضاوي»: «فلعل».

(٧) «تفسير البيضاوي» (٥: ٢٤٠).

ويجوز أن يعود إلى الحَمَلة الذين يحملونه كما قال مقاتل، يعني: أن الحَمَلة يحملون العرش فوق رؤوسهم[١] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وهم ﴿ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ أفراد أو أصناف أو صفوف من الأملاك لا يعلم عددهم إلا الله، كما رُوي ذلك عن الضحّاك[٢]. والإضمار قبل الذِّكر جائز إذا عاد إلى متقدِّم رتبة، كقولهم: في بيته يُؤْتى الحَكَم.

والسَّلَف الصالح يمرُّون بعبارات الصفات دون حَمْلٍ على الظاهر، ولا على التأويل، والخَلَف يُؤوِّلون كما قيل: إن الكلام على التمثيل وتصوير العظمة[٣]، وقد استعير من أحوال المخاطبين، على نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة). وإنما جيء به لتمثيل عَظَمة الله ورَهْبته يومئذ بما يشاهد من أحوال السلاطين يوم خُروجهم على الناس لقضاء المظالم أو محاكمة المعتدين.

ولذلك أردفه بالكلام عن الحساب، فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أي: للمناقشة والحساب، ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ إذ قد أحصى سبحانه كلَّ ما فعلتموه.

ثم فصَّل نتائجَ الحساب، وفَرَحَ المؤمنِ ومُباهاته بنتيجته وفلاحه، وخِذْلانَ الكافرِ وحزنَه من عاقبته ومصيره، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهي علامة

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠: ٦٢٦).

(٢) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٦٠٢).

(٣) بل هذا مما لا يُؤوِّله الخلف أيضاً، لأن حَمْله على ظاهره غير محال، وذلك أن حَمْلَ الملائكة للعرش هو حَمْلُ مخلوق لمخلوق، ومثلُه لا امتناع فيه أبداً، فلِمَ يُؤَوَّل؟! وإنما الذي يُؤوِّله الخلف ويُفوِّضه السلف هو ما ورد من نصوص موهمة للتشبيه في حق الله تعالى، كالاستواء على العرش والنزول واليد والعين... إلى آخره، فهذا الذي يَرِدُ فيه كلام المؤلف.

الناجين الفائزين، ﴿فَيَقُولُ﴾ ابتهاجاً ومباهاة: ﴿هَآؤُمُ[1] ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾[2] أي: خذوا اقرؤوا كتابيَهْ، ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠﴾ أي: كنت أظنُّ أنَّ الله سيُحاسبني ويُؤاخذني بهفواتي، ولكنْ تفضَّل عليَّ بالعفو عنها.

وقال كثير من المفسِّرين: ظننتُ، بمعنى: عَلِمتُ، إذ الظنّ قد يأتي بمعنى أقوى الاعتقاد، أي: علمتُ أني مُلاقٍ حسابي، فعملتُ ونَجَوْت. وقال الرازي: إذا أُريد المبالغة في التكثير يُقرَنُ الكلامُ بلفظ يدلُّ على التقليل، وإذا أُريد المبالغة في اليقين يُقرَنُ الكلام بلفظ وُضِعَ للشك.

ثم بيَّن سبحانه مصيرَه بقوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١﴾ أي: مَرْضيَّة، فاستعمل اسم الفاعل موضع اسم المفعول، على طريقة المجاز العقلي، وذلك من خصائص اللغة، للمبالغة في الوصف.

ثم فصّل تلك العيشة الراضية، وقال: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ٢٣﴾ ولا يخفى ما في مقابلة ﴿عَالِيَةٖ﴾ بـ﴿دَانِيَةٞ﴾ من الإبداع البليغ. ومعنى ﴿قُطُوفُهَا[3] دَانِيَةٞ﴾: أنَّ ثمرتها يتناولها القاعد.

ويُقالُ لهم مبالغةً في التهنئة والتأنيس: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ فقد نلتُم هذا ﴿بِمَآ

(١) ﴿هَآؤُمُ﴾: (هاء) اسم فعل معناه: (خذ). والميم يدلّ على أن المخاطَب جمع. فالمعنى: خذوا كتابي يا مَن تُسرُّون بسروري، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ [الرعد: ٢٣].

(٢) ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾: الهاء هنا، وفي ﴿حِسَابِيَهۡ﴾ و﴿مَالِيَهۡ﴾ و﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ تسمى هاء السكت، وهي حرف يلحقه العرب بالكلمة إذا أرادوا السكوت بعدها، ثم توسَّعوا وأثبتوه حتى مع الوصل.

(٣) ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قِطف ـ بكسر فسكون ـ بمعنى مقطوف. كذِبح بمعنى مذبوح؛ كما في الآية ١٠٧ من سورة الصافات. والقِطف: هو ما يُقطَف؛ أي: يُجْنى بسهولة.

أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ أي: بما قدَّمتُم من الأعمال الصالحة ﴿فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴿٢٤﴾﴾ أي: السالفة في الدنيا. وقال مجاهد: يعني: أيام الصيام[١].

وقد روي أن الله سبحانه وتعالى يقول: «يا أوليائي، طالما نظرتُ إليكم في الدنيا وقد قَلَصَت شفاهُكم عن الأشربة، وغارت أعينكم، وخَمَصَت بطونكم، فكونوا اليوم في نعيمكم، وكلوا واشربوا بما أسلفتُم»[٢]. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

وبعد أن ذكرَ مصيرَ المؤمن، ذكَرَ مصيرَ الكافر، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴿٢٦﴾﴾ لِـمَا شاهد وأحسَّ من سُوء العاقبة.

ثم يقول: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴿٢٧﴾﴾ يَتَمنَّى أن كانت المَوْتةُ التي ماتها هي القاطعةَ لأمره، فلم يُبعَث بعده ولم يَلْقَ ما لقي، وخابَ ما كان يُؤمِّله من العاقبة، ونال عكس المأمول. وهذه الحالة النفسيَّة ذُكِرَت في مقابلة حالة المؤمن النفسيَّة السابقة.

ثم يزيد في إظهار الحسرة والندم بقوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴿٢٩﴾﴾ أي: لم يُغْنِ عنِّي مالي، وما كان لي من سُلطان، ولم ينفعني شيئاً في دفع هذا الوبال[٣]. وإنما خصَّهما بالذكر لأنهما كانا السبب في الإعراض؛ لأنهم كانوا يحرصون على مراكزهم أن يَفقِدوها إذا آمنوا بمحمد ﷺ وكانوا من أتباعه.

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٦٠٣).

(٢) المصدر السابق (٤: ٦٠٣).

(٣) أو المراد بالسلطان: الحُجَّة. والمراد: بُطلان ما كانَ يحتج به الكافر في الدنيا من حُجج واهية. وحملت الآية على المعنيين في تفسيرَي «المعين» فقلت في معنى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ أي: زال عني مُلكي وقوَّتي وتسلُّطي على الناس، وبقيتُ ذليلاً حقيراً فقيراً، وفَنِيَ مُبتعداً عني كلُّ ما كنت أُحاجج به وأجادل، فقد ظهر الحقُّ لِلعيان، وأسكت الواقعُ كلَّ لسان.

ومن مباحث اللفظ: أنَّ الهاءَ اللاحقة لياء المتكلم هي للسَّكْت، وهاءُ السَّكْت تَثبُتُ في الوقف، وتَسقُطُ في الوصل.

ثم أصدر حُكمَه سبحانه فيه بقوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾ أي: شدُّوه بالأغلال، ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ أي: اجعَلوه يَصْلى فيها، ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾[1] وهذا العدد للتكثير والتهويل لا للتحديد.

ثم علَّل هذا الحكم الصادر بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ[2] الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ يذكر أخصَّ صفاته. وإنما خصَّ الأمرَيْن بالذكر؛ لأنّ أقبَحَ العقائد الكفر، وأشنَعَ الرذائل البخل. وذكر الحضّ دون الفعل؛ ليُعلَم أنَّ تارك الحضِّ بهذه المنزلة، فكيف بمَنْ يترك الفعل؟

ثم تابع البيان عن صُورة عقابه بقوله: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ أبداً، وهو القريب الذي يُشفِقُ عليه ويحميه؛ يُكنِّي بذلك عن اليأس من النجاة، ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ وهو ما مِنْ شأنه أن يُغسَلَ من الأبدان، كالقيح والصَّديد. وقيل: هو غُسالةُ الجرح التي يختلط بالدم والقيح، وقيل: هو ما يسيل من أهل النار من صديد. وهذا ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾، وهم المشركون أرباب الخطيئة التي لا تُغْفَر، فإنَّ الله لا يغفر أن يُشرَكَ به.

ومن مباحث اللفظ: ما يقال من أنَّ أمثال (غسلين) و(سينين) و(إلياسين) من الأوزان هي من لغة أهل اليمن وعرب الجنوب.

---

(١) أي: أدخلوه فيها.

(٢) ﴿طَعَامِ﴾ المراد: إطعام. فهو مصدر كالعطاء بمعنى الإعطاء.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾.

ثم أكَّد ما تقدَّم من البيان بالقَسَم على حقيقة هذا القرآن، فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾ ويدلُّ هذا الكلام بدلالة الإشارة على ما في هذا الكون من العَظَمة والخفايا والأسرار، وقد أثبت ذلك العِلمُ الحديث. ومفاد قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ أنَّ الأمر لا يحتاج إلى قَسَم لظهوره[1].

وقد ذكر المُقسَمَ عليه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠﴾ أي: إنَّ القرآنَ قولُ رسولٍ يبلِّغه عن المُرسِل، وهو الله. والمناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه: أنَّ عظائم الله لا تُحصى، فما وَجْهُ إنكاركم لِـمَا جاء في هذا القرآن من أمر الحشر والحساب؟ أو أنَّ ما في هذا القرآن من العظائم والفوائد، أكثر مما في هذا الكون من مزايا وعجائب؛ لأنه كلام الله، والكون من صنع الله، والله أعلم.

ثم قرَّر المُقسَمَ عليه بنفي ضدِّه، وسَبَك ذلك على ردِّ تقوُّلاتهم، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١﴾ والقلَّة ليس لها سلطان على القلوب، والإيمـان بالشيء

---

(١) ومعنى القسم المنفي في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾: لا فائدة مِنْ أنْ أُقسم لكم بآياتي في كوني التي تشاهدونها والتي لا تشاهدونها، مع أنها تستحقُّ أن أُقسم بها؛ لأنكم بَلغتم من الإصرارِ على المُعاندة مَبلغاً شنيعاً، فما سبق أن نزل من القرآن كافٍ لأن يمحوَ كلَّ أثرٍ للشكِّ فيه.

يَنْبعث عن العِلم به، ودرجته بدرجته، فقلَّة إيمانهم لا تُؤهِّلهم للإيمان بحقيَّة القرآن والتصديق به، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ[١] قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وقلة تذكُّرهم لا تُؤهِّلهم لِتَبيُّنِ حقيقتِهِ وحَقِّيَّته، فإنَّ هذا القرآن يأبى بطبيعته وبطابعه[٢] أن يكونَ من قول البشر.

وبعد الردِّ عليهم قرَّر الحقيقة، فقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

ثم أحاط هذه الحقيقة بالتأييد، فقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾[٣] هذا الرسولُ ﴿عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾[٤] في تبليغه الرسالة، أي: لو افترى محمَّدٌ علينا بعض المُفتَريات في تبليغه ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[٥] ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾، وقد وصف ﴿أَحَدٍ﴾ بصيغة الجمع لعمومه في سياق النفي. والوتين: شريان الحلق المتَّصل بالقلب.

والجملة تمثيلٌ مُقتَبسٌ من حال المُخاطَبين، وهي تُمثِّل إهلاكه بأفظع ما يفعله

---

(١) ﴿كَاهِنٍ﴾: هو الذي يدَّعي علم الغيب، يَستغل به الدهماء من الناس.

(٢) استعمال مثل هذين اللفظين في القرآن الكريم مُوهِم، فالأَولى اجتنابهما.

(٣) ﴿تَقَوَّلَ﴾: تكلَّف القول. والمراد: افترى قولاً من عندِ نفسِه ونسَبه إلينا.

(٤) ﴿الْأَقَاوِيلِ﴾: جمع (أقوال) التي هي جمع (قول)، ولكنّها اشتهرت في الأقوال المكذوبة احتقاراً لها، كما يقولون: أضاحيك وأعاجيب.

(٥) المعنى: واعلموا حقيقةً أخرى تدلُّ على أنَّ القرآن تنزيلٌ من ربِّ العالمين على رسوله محمد ﷺ، وهي أنه لو كان يكذب علينا شيئاً من عند نفسه لم نَـقُلْه نحن، ولم نُوحِهِ إليه مع تأييدنا له بالمعجزات، لَـمـا تركناه على قيْد الحياة، بل لأخذناه بالقوَّة والقدرة، وانتقمنا منه بالحقِّ، ثم لقطعنا منه نياط القلب فنُميتُه، فلا يقدر أحدٌ على دفع عقوبتنا عنه. لكنه لم يتقوَّل علينا كلمة أو حرفاً، فهو صادق أمين، معصوم، بدليل أننا لم نعاقبه، فلم نأخذ منه باليمين، ولم نقطع منه الوتين.

الملوك بمن يغضبون عليه، وذلك بأن يأخذ القاتل بيمين المقتول ويكفحه بالسيف؛ يضرب عنقه. والغرض منها: تحقيق أنه ﷺ رسولٌ أمين، كشأنِ بقيَّة الرسل، وأنَّ ما جاء به إنما هو من عند الله، ليس فيه نقص ولا زيادة.

ثم تابع الكلام عن القرآن، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ يَتذكَّرون به مصيرَهم السعيد وعاقبتهم الحُسْنى، ويهتدون به لرُشْدهم، وللطريقة الفُضْلى.

ثم ندَّد بالمشركين المكذِّبين به، فقال: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

وقد توعَّدهم بنتيجةِ هذا التكذيب ضمن هذا البيان العام، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: إنَّ تكذيبهم وكفرهم به ليعودُ عليهم بالحَسْرة والنَّدامة يوم القيامة.

ثم قابل تكذيبهم بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾[1] وهذا التركيب من إضافة أحدِ الوَصْفَين إلى الآخر للتأكيد، مثل: مسجد الجامع، أي: إنه حقٌّ يقينٌ لا بطلانَ ولا رَيْبَ فيه.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ تنزيهاً له عمَّا يتقوَّلون، وشكراً على ما أوحى إليك. ويجوز أن يُراد بالتسبيح: الصَّلاة؛ لأنَّ القرآن يأمر رسول الله ﷺ بها في كلِّ موقفٍ يشتدُّ ضِيقاً به تجاه المشركين.

* * *

(١) المعنى: حين يدخل المكذِّبون النار يَصِلُ عِلمُهم بما يذوقونَه من عذابٍ إلى مرتبةِ حقِّ اليقين، إذ صار بالنسبة إليهم حقيقة واقعةً يذوقونها بحواسِّهم، ويُدرِكونها بكلِّ ما لديهم من قُدرات إدراك. وتقدَّم الكلام على هذه المرتبة وبقيةِ مراتب العلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

سُورَةُ المَعَارِجِ

مكيَّة، وهي أربع وأربعون آية

جاء في هذه السورة بيانُ قُرب العذاب الذي أُنذِرَ به الكافرون.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾
تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾
إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا
يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ
وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً
لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾ قال مجاهد: هذا السائل هو الحارث بن كلدة[(١)]، الذي قال استهزاءً وإنكاراً: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقيل: هو أبو جهل، حيث قال: فأسقِطْ علينا كسفاً من السماء إن كنتَ من الصَّادقين. ويجوز أن يكون عاماً في المشركين الذين يستعجلون بالعذاب استهزاءً واستنكاراً.

وعلى الأول، يكون المعنى: دَعا داعٍ على نفسه بعذاب واقع مستعجلاً له، وهو واقعٌ لا محالة. وعلى الثاني، يكون لفظُ «دعا» مُتضمِّناً معنى: استهزأ، ولذلك عدَّاه بالباء.

وقيل: بل السائل هو الرسول ﷺ؛ استعجل عذابَه[(٢)].

---

(١) الذي في «تفسير الطبري» (١٣ : ٥٠٦): «هو النضر بن الحارث بن كلدة».

(٢) أي: عذابَ الله للكافرين.

والمراد من المعارج[١]: ما يَعرُجُ فيها الكَـلِمُ الطيِّب والعمل الصالح إلى الله، و﴿تَعْرُجُ﴾ فيها ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾[٢] ﴿إِلَيْهِ﴾.

أما قوله: ﴿فِى يَوْمٍ﴾[٣] ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾[٤] فقد قيل فيه: إنه مجرَّد بيان لمزيد ارتفاع تلك المعارج، على طريقة التمثيل والتخييل للفضاء الشاهق الواسع، الدالّ على قدرة الله القادر المرهوب الجانب. وفيه دلالة على قوة المَلَك وسرعته؛ لأنه روح مجرَّدة، أي: إنّ الملائكة يصعدون في اليوم الواحد ما لا يُستطاع بلوغه في خمسين ألف سنة عندكم.

وقيل: بل المراد مدَّة الدنيا؛ لأن الدهر عند الله يومان: أحدهما: مدة الدينا، والثاني: مدة الأخرى، أي: يوم الحساب، وقد كان ذلك بالنسبة إلى الكافر؛ لِـما يلقىٰ فيه من الشدائد، وأما المؤمن فيكون أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبة، والله أعلم. وعلى كلٍّ، فالعدد للتكثير، ولا يُراد به التحديد[٥].

---

(١) «المعارج»: جمع مَعْـرَج؛ بفتح الميم والراء بينهما عينٌ ساكنة. والمعراج: مكان العروج. أي: الصعود.

(٢) أي: جبريل عليه السلام.

(٣) هو يوم القيامة.

(٤) من سني الدنيا لو صعد فيها غير الملائكة.

(٥) لا داعي لصرف العدد إلى ما ادّعاه المؤلف، فليس هو من الأعداد التي تطلقُها العرب للتكثير، كالسبعة والسبعين، فيبقى الأصلُ فيه حملُه على حقيقته حتى يدلّ دليل على أن المراد به التكثير، ولا دليل عليه هنا.

وللفائدة أذكر الآيات الواردة في ذلك، ففي سورة الحج قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [٤٧]، وفي سورة السجدة قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [٥]، وفي سورة المعارج قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [٤]. =

وبما أنَّ السؤال كان استهزاءً من المشركين، أو كان منه ﷺ استبطاءً للنصر، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾[1] أي: تجاه هؤلاء المتعنِّتين، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ﴾ أي: العذابَ المتوعَّدين به ﴿بَعِيدًا ۝٦﴾ غيرَ واقع، ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ واقعاً لا مَحالة، وذلك ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨﴾ وهو ذائبُ الفضَّة والمعادن؛ لِـمَا يحدثُ فيها من الانصِهار، والله أعلم، لأنَّ الكواكب فيها كثير من المعادن، فإذا اقتربت واختلطت بالنجوم ذوات الموادّ المشتعلة المسمَّاة بالشموس انصَهرت[2]، والله أعلم.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩﴾ وهو الصُّوف المنفوش. وقيل: المصبوغ؛ لأن الجبال مختلفةُ الموادِّ والمعادن. والكلامُ بيانٌ لـهَوْلِ القارعة عند اصطِدام الأجرام وتَفَتُّتها.

ثم تابع البيان عن ذلك اليوم الذي ينكرونه وما فيه من هَوْل بقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾ عن أحواله لشُغل كلٍّ إنسان بنفسه. والحميم: الصديق الصميم، أي: حتى إنَّ الأصدقاء الأوفياء لا يسألون عن أحوال أصدقائهم، وهم ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾

= وقد تكلم العلماء على ذلك، ولهم فيه أقوال:

القول الأول: أنها يوم واحد، وأن آية السجدة تذكر المسافة بين الأرض والسماء الدنيا، أما آية المعارج فتذكر المسافة بين الأرض السابعة السفلى وبين العرش.

القول الثاني: أن آية السجدة هي في نزول الملائكة بالأمر وعروجهم به في الدنيا، وأن آية المعارج هي في يوم القيامة.

القول الثالث: أنهما في يوم القيامة، فهو على قوم كألف سنة، وعلى آخرين كخمسين ألف سنة.

ولعل القول الثاني هو الأقرب، والله أعلم.

(١) الصبر الجميل: هو الذي لا يخالطه ضجر، ولا شكوى مخلوق.

(٢) هذا المعنى لا إشكال فيه في نفسه، لكن في تفسير الآية به نظر، لأن الآية تتحدث عن السماء، لا عن الكواكب، والمؤلف يُفسِّر السماوات السبع بالكواكب السيَّارة، كما سلف في مواضع من هذا التفسير، وعلَّقنا عليه فيها بنقد هذا القول، فما ذكره هنا مبنيٌّ على تفسيره المُتعقَّب.

أي: يُبصَّرُ بعضُهم بعضاً، وما يمنعهم من التساؤل إلا تشاغلها بحال أنفسهم، والجملة مستأنفة.

ثم بيَّن سبحانه ذلك الهوْل، بما يُؤذِنُ أنَّ الصداقة والقرابة تتلاشى إذ ذاك، ولا يهمُّ المرءُ إلا نفسَه، فقال: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾(١) أي: عشيرتِهِ التي كانت تحميه وتمنعه في الدنيا. بمعنى: يتمنَّى اليوم أن يفتدي بهم، وقد كان في الدنيا يفديهم بنفسه.

ثم توسَّع إلى ما هو أوسع، فقال: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: جميع مخلوقاتها، فهو يتمنَّى لو أُتيح له أن يفتدي بكل ذلك، ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ ذلك الافتداء، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنجاء، والمعنى: يتمنَّى لو كان كلُّ أولئك تحت قبضته، ويبذلهم في فداءِ نفسه، ثم يُنجيه ذلك، وهيهات!

﴿كَلَّآ﴾ بل ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾ أي: إنَّ الحالة والقصة إنما هي مصيرٌ لجهنَّم لا غير.

ثم ذكر هَوْلَ صفاتها بقوله: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ قال مقاتل: أي: تَنْزع الأطراف فلا تترك لحماً ولا جلْداً(٢). وقال ابن عباس: تَنْزع الجلدَ وأُمَّ الرأس(٣).

ثم ذكر أهلها بقوله: ﴿تَدْعُواْ﴾ إليها ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحقِّ والمفروضات، ﴿وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ عنها مُعْرِضاً، ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ أي: جَمَعَ المال وجعله في وعاء، وكَنَزه

---

(١) يُنظر السرّ في ترتيب أفرادِ الأسرة ـ عندَ التماسِ النجاة من أهوال يوم القيامة في هذه الآيات من سورة المعارج، وترتيبهم في سورة عبس [الآيات ٣٤-٣٦] ـ فيما كتبتُه على كتاب: «زهرة التفاسير» للشيخ طاهر الكردي المكي يسَّر الله صدوره.

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠: ٦٤٣).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٦٠٨).

ولم يُؤدِّ زكاتَه وحقوقه، وتَشاغَلَ به عن الدين، وأنكَرَ الحقَّ واليقين، يُعرِّض بذلك السائل المستهزئ، ويُؤنِّبه بهذا الوعيد. اللهمَّ أجِرْنا يا أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم ذكر مصدر ذلك في الإنسان، وهو إفسادُه لفطرته حتى ينقلبَ ما طُبع عليه من حبِّ الخير والإحسان للغير إلى جبن وبخل متناهيَيْن، وإعراض عمَّا لا يخفى لذي عينَيْن، وجعَلَ الكلام ذا وجهَيْن، فهو بمقتضى نظمه بياناً لحال الإنسان، وتتميماً لِما قبله من الوعيد، ومثل هذا من أساليب القرآن، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ أي: مستعداً للهَلَع بإفساده لفطرته، وهو ما فسَّره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: مبالغاً في الجُبْن والجزَع، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ أي: مبالغاً في البخل والإمساك والإعراض عما لا يخفى عن الإدراك.

ثم استثنى من ذلك المحافظين على سَلامة فِطَرِهم، وذكَرَهم بصفةٍ من صفات الإيمان الصادق، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ صلاةً مُقامةً بالإخلاص فيها لله، والصِّدق في التوجُّه إليه، والخشوع لِعَظَمته وجَلالِه، غيرَ مفكِّرين في أثناء الصلاة بغيرها، وهذا لا يتهيأ إلا بكثرة المِرانِ والتدرُّب عليه، حتى تكون عادة طبيعية، فإنها تُلطِّف طبيعة الإنسان، وتأخذ به نحو الاعتدال، وتُوَطِّن النفس على الثبات في كلِّ ما يجري لها أو عليها من خير أو شر، وتُهذِّب الروح وتفيض عليها الكمالَ وعلوَّ الأخلاق.

ثم تابع الكلام عن صفات هذا الإنسان الكامل، مُبيِّناً أثرَ كمالِه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لا يَشغَلُهم عنها ولا عن إدراك معانيها شاغل، ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ الذي لا يسأل الناس إلحافاً، ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾ فيجهدون في الطاعات البدنية والمالية طمعاً بالمثوبة الأخروية.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: خائفون أن يمسَّهم لَفحةٌ من عذاب ربهم؛ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ لا يَسْلَمُ منه إلا مَنْ رحم الله، وبما ذكرَ متَّصفون.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾ والمحافظة تَتضمَّنُ نَفيَ الكشف والإظهار، لذلك عدَّاها تعديتَه بعد ﴿إِلَّا﴾، والاستثناء مُفرَّغ، والحَمْلُ على المعنى من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

والمراد ممَّا ملكت أيمانهم: أسيرات الحرب الصحيحة التي هي لإعلاء كلمة الله، إذا لم يتهيَّأ لهنّ فِكاكٌ من الأسْر ولم تُؤسَر معهنَّ أزواجُهنّ، فمِن مصلحتهنّ أن يكُنّ أمهاتِ أولادٍ عند المُتموِّلين، لذلك أحلَّتْـهُنَّ للأسياد الشريعة الغراء، ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما عَدا مَنْ ذُكِرنَ من الأزواج والمملوكات، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾ لحدود الله.

إنَّ الشريعة الإسلامية قيَّدت حرية الشهوة، ووَضَعَت حولها الضوابط، وأقامت أمامها شتَّى السدود، لتكون في تعقُّل واعتـدال، وما أبدَعَ المجتمع الذي يكون بهذا الحال!

ثم تابع سَرْدَ صفات الكمـال، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ لا يُخِلُّونَ بشيءٍ من تلك الحقوق، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يقيمونها بالعدل، ولا يخافون في الله لَوْمة لائم، ولا عاديةَ معتدٍ جائر.

ثم أعاد التنويه بشأن محافظتهم على الصلاة، اهتماماً بها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وقيل: بل المرادُ في هذه الفقرة المحافظةُ عليها في أوقاتها الأُولى، أو المحافظة على صُورة كمالها وأدائها مُقامةً على الوجه الذي مرَّ بيانه، فهي بمعنى: والذين يقيمون الصلاة.

ثم سجَّل لأرباب هذه الصفات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فيها بما «لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطَرَ على قلب بشر»، كما جاء ذلك في صحيح الأثر[1].

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وبعد أن بيَّن صفات المؤمنين ومصيرَهم، ذكر صفاتِ المنافقين والمشركين ومصيرَهم، بأسلوب بليغ من أساليب الإنكار والتيئيس، وقال: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما فيهم هؤلاء السائلون والمنافقون، ﴿قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: حَوْلك مادِّي العُنق، مُدِيمي النظر، ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾[2] أي: عن يمينك وعن شمالك جماعاتٍ جماعات، فما بالُهم حَوْلك مجتمعين، يُنكِرون عليك، ويسألونك مستهزئين بوعيدك للمشركين والمنافقين، ﴿أَيَطۡمَعُ[3] كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾﴾ كما يدخلُها المؤمنون؟

---

(١) سبق تخريجه (٢: ٥٥٤).

(٢) ﴿عِزِينَ﴾: جمع عِزَة ـ بكسر أوَّلِه وفتحِ ثانيه ـ وهي الجماعة. والمراد: جماعات جماعات.

(٣) الهمزة للاستفهام التوبيخي.

﴿كَلَّآ﴾(١) إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وهذا التعليل يُؤذِنُ بأنَّ الإنسانَ لا يصلح لدخولِ الجنَّة بمُجرَّد خِلْقَتِه الجسيمة، ما لم يُكمِّل روحَه ويُثقِّفها بالكمالات التي أوحى الله بها على لسان أنبيائه في كتبه المنزلة، من الإيمان بالله والإقرار بوحدانيته، والإيمان بالله واليوم الآخر على وجهه الصحيح، والإيمان برسل الله وكتبه وملائكته، والعمل بما جاءَ في تلك الكتب من أوامر، وتَرْكِ ما جاءَ فيها من نَوَاهٍ، فبذلك يُهيِّئ له شخصيةً روحيةً بها يتأهَّل لمنازل الكاملين، وجنَّات رب العالمين.

وليس لهذه الجسمية المخلوقة مما يعلمون أهليَّةٌ لذلك ما لم تُستكمل الأرواح بهذه الكمالات المؤهِّلة لدخول الجنات، فلا يطمع أن يدخل الجنَّة لكونه جسيماً وسيماً، رئيساً عظيماً، ذا أثاث ورياش، ومالٍ وبنين، وإذا تُليت عليه آياتُ الله قال: أساطير الأوَّلين، كلا، ليست هذه بأسباب لدخول الجنان ورضا الرحمن.

ويجوز أن يكون الكلامُ سِيقَ دليلاً على قدرته على ما يُنكِرونه من البعث والحساب؛ لأن الذي خَلَقَهم من نُطفةٍ أمشاج، وجَعَلهم بهذه المثابة من الخلقة الممتازة، يَقدِرُ على إعادتهم وبَعْثهم بعد الموت. يُعرِّض في ذلك بالسائلين المستهزئين.

وقال أبو السُّعود: قوله ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ كلامٌ سِيقَ تمهيداً لِـما بعده من بيان قُدرة الله تعالى على أن يُهلِكَهم لكفرهم بالبعث والجزاء، واستهزائهم برسول الله ﷺ وبما نَزَل عليه من الوحي، وادِّعائهم دخولَ الجنة بطريق السخرية، يُهلِكهم ويُنشِئ بَدَلَهم قوماً آخرين، فإنَّ قدرته تعالى على ما يعلمون من كيفيَّة نشأتهم الأولى حُجَّةٌ بيِّنةٌ على قدرته على ذلك، كما تُفصِحُ عنه الفاء في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾(٢)

---

(١) ﴿كَلَّآ﴾: حرف يدل على الزجر عما قبله.

(٢) أي: لا فائدة مِنْ أن أُقسِمَ بخالقِ المشارق والمغارب، ولكن سيأتي مَنْ يدرك هذه الحقيقة من =

حيث قَدَرْنا أن نجعل الأرض تتحرك على نفسها وفي فلكها حتى كان فيها هذه الظاهرة، ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ أي: نُهلِكهم ونأتي بخَلقٍ أمثَلَ منهم، وما نحن بمغلوبين على ذلك إن أردنا.

أقول: ويجوز أن يُراد بهذا التبديل: الإعادةُ والحشر، فتشمل المعنيين معاً، على نهج القرآن.

وأتى بوصف الخيريَّة مقابلةً لِـمَا أشار إليه في قوله: ﴿خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾، لأن الجسم الذي ينشأ بالإعادة يمتاز عن هذا الجسم بطريقة خِلْقتِه وبصلاحِه للخلود، سواءٌ في النعيم أو في الجحيم، بخلاف هذا الجسم. والله أعلم.

وإنما جمع ﴿الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ لِيُنبِّه إلى تنقُّلات الشمس بنظام مُتْـقَن لا يختلف، يظهر أثرُه بتبدُّل المشرق والمغرب كلَّ يوم، ويظهر ذلك جلياً كلَّ شهر أو فَصْل من فصول السنة.

وهذا الأثر هو وَجْهُ المناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه؛ لدلالته على كمال قُدرة الله تعالى، التي لا يكون التبديل أو الإعادة في جانبها شيئاً عظيماً، بل هو على الله يسير.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ في باطلهم واستهزائهم، ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ودينهم، ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وهو يوم البعث والجزاء الذي ينكرونه ويستهزئون به، والذي وصفه بقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ[1] سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ

= حقائق نظام الكون الناشئة عن حركة الأرض حَوْل نفسها في اتِّجاه الشمس؛ إذ تحدث مُتدرِّجة مُتَتابعة، فهو سبحانه المهيمن بصفات ربوبيَّتِهِ خلقاً وتدبيراً على الشروق والغروب، وعلى أمكنة وأزمنة الشروق والغروب، فلا أحدَ غير الله له ربوبيَّة في شيءٍ من ذلك.

(١) ﴿الْأَجْدَاثِ﴾ جمع جَدَث ـ بفتح أوَّلِه وثانيه ـ: وهو القبر.

يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: كأنَّهم يُسرِعون إلى عَلَمٍ نُصِبَ لهم وطُلِبَ منهم أن يأتوه مُسرِعين. وقال الجُبّائيُّ وأبو مسلم: يتوجَّهون مُسرِعين إلى جهة عُيِّنت لهم.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ فَرَقاً من الهول، ﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾ أي: تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ وهوان.

ثم ختم الوعيد والتأنيب، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ به في الدنيا، فيُنكِرون ويَهزَؤون ويَتَندَّرون.

* * *

فهرس محتويات المجلد السابع

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الدخان	٥-٢١
تفسير سورة الجاثية	٢٣-٣٧
تفسير سورة الأحقاف	٣٩-٥٧
تفسير سورة محمد ﷺ	٥٩-٧٨
تفسير سورة الفتح	٧٩-١٠٥
تفسير سورة الحجرات	١٠٧-١٣١
تفسير سورة ق	١٣٣-١٥١
تفسير سورة الذاريات	١٥٣-١٧١
تفسير سورة الطور	١٧٣-١٨٦
تفسير سورة النجم	١٨٧-٢٠٥
تفسير سورة القمر	٢٠٧-٢٢٥
تفسير سورة الرحمن	٢٢٧-٢٥١
تفسير سورة الواقعة	٢٥٣-٢٨٠
تفسير سورة الحديد	٢٨١-٣١٣
تفسير سورة المجادلة	٣١٥-٣٣١
تفسير سورة الحشر	٣٣٣-٣٥٠

الموضوع الصفحة

تفسير سورة الممتحنة ٣٥١-٣٦٤

تفسير سورة الصف ٣٦٥-٣٧٥

تفسير سورة الجمعة ٣٧٧-٣٨٨

تفسير سورة المنافقون ٣٨٩-٣٩٨

تفسير سورة التغابن ٣٩٩-٤١٢

تفسير سورة الطلاق ٤١٣-٤٢٥

تفسير سورة التحريم ٤٢٧-٤٤٠

تفسير سورة الملك ٤٤١-٤٥٥

تفسير سورة القلم ٤٥٧-٤٧٣

تفسير سورة الحاقة ٤٧٥-٤٨٩

تفسير سورة المعارج ٤٩١-٥٠٢

* * *

تفسير القرآن العظيم
المسمّى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

تأليف العلامة الشيخ

رشيد الخطيب الموصلي

١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلد الثامن
تفسير سورة نوح إلى نهاية سورة النّاس
وتليه الفهارس العامّة لكامل التفسير

اعتنى به وقدم له
مجد أحمد مكي

أروقة

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

سورة نوح عليه السلام

مكيَّة، وهي ثمان وعشرون آية

والغَرَضُ منها:

إنذارُ المشركين بالعذاب، كما وقع لقوم نوح.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَٰقَوْمِ
إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا (٥)
فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ
وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ
لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم
مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا
(١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ
نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا
(١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) ﴾ فدعاهم إلى الإيمان، و﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ[(١)] (٢) أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ[(٢)] وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لا ينالكم فيه عذاب،

(١) قال نوح: يا قومي إنِّي لكم نذيرٌ ظاهر واضح، مُبيِّن مُوضِّح لحقائق الدين وشرائعه.

(٢) أي: إن تعبدوا الله وتتقوه وتطيعوني فيما أدعوكم إليه، يَستر لكم بعضَ ذنوبكم، وهي حقوق الله عليكم، فلا يؤاخذكم عليها، ولا يُجازيكم بعذاب على اقترافها، ويُبْقي عليكم حقوق العباد، فهذه إمَّا أن تؤدُّوها، أو تؤدُّوا تعويضاً عنها، أو يُسامحكم أصحابها.

وهي الآجال المقدَّرة لهم في الدنيا، فلا يَتَعدَّى كلُّ واحد أجلَه؛ ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾، وفي هذا إغراءٌ لهم بالإيمان، وتحذير من عذاب الله في الدنيا والآخرة.

ولا زال يدعوهم إلى الإيمان وحُسْن الأعمال، ويُنذِرُهم عاقبةَ كُفرهم، ويُحذِّرهم بَطْشَ ربِّهم، حتى ضاقت عليه الحِيَل، وبلغ منتهى الجهد والعمل، وهم مُصرُّون على الكفر والعصيان، دائبون على العناد والطغيان، فيئس من إيمانهم، و﴿قَالَ﴾ يتأسَّف ويتحزَّن ويشكو إلى الله: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ ممَّا دعوتُهم إليه، ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان؛ ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ذنوبهم، ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾[1] أي: غطُّوا بها وجوهَهم.

ويجوز أن يكون الكلامُ ليس على الحقيقة، وإنما هو مُجرَّد تمثيل لِـمَا يُراد به من المعنى، وهو الإعراض والإصرار الشديد. وعلى كلٍّ، فالمراد به: أنهم أعرضوا إعراضاً شديداً، ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ على كفرهم ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾.

قال قتادة: إنَّ الرجل منهم كان يذهب بابنه إلى نوح، فيقول له: احذر هذا لا يُغوِيَنَّك، فإنَّ أبي قد ذهب بي إليه، وأنا مثلُك، فحَذَّرني مِثلَ ما حذَّرتُك[2].

---

(١) أي: وإني كلَّما دعوتهم ليؤمنوا بك؛ ليكون سبباً في غفرانِك ما كان منهم من ضَلالات، جعلوا أطراف أصابعِهم في آذانهم، ولو استطاعوا لأدخلوا أصابعَهم كلها؛ لئلّا يسمعوا دعوتي، وليُشعروني بأنَّ أقوالي صارت محفوظة لديهم، ونفوسهم تشمئزُّ منها، وتتقزَّز من سماعها، وغطُّوا وجوهَهم بثيابهم؛ لئلّا يروني، وليشعروني بأني صرتُ ثقيل الظلِّ كريهاً لديهم، ولزموا بعنادٍ ما هم عليه من كفر، واستكبروا عن الإيمان بك تكبُّراً مُسْرفاً شنيعاً.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢: ٥٥٣ و٥٥٤).

ثم بيّن نوحٌ عليه السلام أنه بلغ أقصى جهده في دعوتهم إلى الإيمـان، فقال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾[1] أي: إني سَلَكتُ معهم في الدعوة كُلَّ مَسْلَك، سرّاً وجهراً، وحاولتُ إقناعَهُم بشتَّى الوجوه أن يُؤمنوا بالله، فلم يُجيبوا.

ويجوز أن يكون الجهر في الصورة الفرديَّـة، والإعلان في الصورة العموميَّة، والإسرار إذا اقتضاه التَّحفُّظ أو عندما يلزم ذلك من الظروف.

ثم ذكر صورة الدعوة، وكيف كانت مقرونةً بالمرغِّبات، فلم تُجْدِ نفعاً، وقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ فيها ﴿أَنْهَـٰرًا ۝١٢﴾ وكانت أراضيهم قاحلة.

قال الرازي: ولا شك أن الاشتغال بالطاعة سببٌ لانفتاح الخير[2]. كمـا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

---

(١) أي: ثمَّ إني بعدَ اليأس من استخدامِ أسلوب العرض العادي على أفرادِهم وجماعاتِهم، دعوتُهم في مجامعهم خطيباً مُعلناً بأعلى صوتي، ثم بعد اليأس من دعوتهم جهاراً، اتَّخذت أسلوب الإعلان والإسرار، فدعوتُ بعضهم علانية بالمحادثة والحوار والمجادلة، ودعوتُ أفراداً منهم بأسلوب الحديث السرّي، ولم أنشره وأحدِّث الناس به؛ ليكون أدعى للتأثير بهم.

(٢) «تفسير الرازي» (٣٠: ٦٥١).

أقول: لأنَّ في إقامة شرائع الله إصلاحاً للنفوس، وتهذيباً للعقول، وتنظيماً للأحوال، ونشاطاً في الأعمال، واتِّباعاً لسُنن الكون ونظام الحياة الصحيح؛ لأن الشرائع الإلهيَّة منطبقة على السنن الكونيَّة، ولا شك أنه ينبعث عن ذلك كلُّ الخير والرفاه في أحوال أفراد الإنسان الاجتماعيَّة وتدبير شؤونهم الشخصيَّة.

وعن الحسن: أنَّ رجلاً شكى إليه الجدب، فقال: استَغفِر الله، وشكى إليه آخر الفقر، وآخر قِلَّة النسل، وآخر قِلَّة رَيْع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له بعض القوم: أتاك رجال يشكون إليك أنواعاً من الحاجة فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا هذه الآية[١].

وعن عمر رضي الله عنه: أنه خرج يستسقي، فما زاد على الاستغفار، فقيل له: ما رأيناك استَسْقيت؟ فقال: لقد استسقيتُ بمجاديح السماء[٢]. والمجدح: ثلاثة كواكب، ونَوْؤُه يكون غزيراً، فشبَّه عمر رضي الله عنه الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطئ، واستعارها له بحسب عُرف التخاطب الجاري بينهم منذ مدة الجاهلية، ولا يقدح في ذلك بطلان تأثير الأنواء؛ لأنَّ الجمل ذات المعاني العرفية قد لا يُرادُ بها معانيها الحقيقية.

أقول: وتدلُّنا هذه الآية على ما كان عليه البشر في الدهور الماضية قبل أن يتكامل إدراكُه، وهو أنَّ دعوته إلى الدين إنما كانت من طريقة التأليف والتأثير بالعاطفيات والماديات، لا بطريقة المنطق الوجداني والتحليل العلمي والبرهان الصحيح[٣]، فلم

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٦١٧).

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٤٩٠٢).

(٣) في كلام المؤلف نظر، فالحجج التي أقامها الأنبياء في دعوتهم أقوامَهم تقوم على البرهان الصحيح، وما جاء في القرآن هو جمع لهدايات الأنبياء الذين اهتدى خاتم الرسل بهدايتهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

يأت ذلك إلا في القرآن، بعد أن تكاملت نشأة العقول البشرية، واتَّسع أُفق النظر بالثقافات الفكرية. وعلى هذا الأساس اقترنت دعوة سائر الأديان بالمعجزات العاطفية، إلا الديانة الإسلامية، فقد اعتمدت في الإقناع على المنطق الوجدانيّ والبرهان العقليّ، الذي جاء به القرآن العظيم في إثبات الأسس الثلاثة: التوحيد، والبعث، وأثر الأعمال الصالحة في معاش الإنسان ومعاده.

وبعد أن رغَّبهم بذلك، رهَّبهم بقدرة الله القويَّة، فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ والوقار: العَظَمَةُ التي منها القدرة، وقد ضمَّن ﴿تَرْجُونَ﴾ معنى الاعتقاد؛ ليدلَّ على المعنيين معاً، على نهج القرآن في مثله. والمراد: مالكم لا تعتقدون عَظَمَةَ الله وقدرتَه البالغة في حشركم وحسابكم، وله فيكم آثار عظيمة، وكيف لا تُوحِّدونه وتُعظِّمونه لتنالوا رحمتَه وثوابه، كما قال ابن عباس ومجاهد: المعنى: ما لكم لا تُعَظِّمونَ الله حقَّ عَظَمتِهِ فتوحِّدوه وتطيعوه، وقد خلقكم نُطفاً ثم عَلَقاً ثم مُضْغةً ثم عظاماً[(١)]، يعني ـ والله أعلم ـ أن الموت والحياة الثانية طَوْران من تلك الأطوار.

ثم تابع دليل القدرة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ المراد بها ـ والله أعلم ـ طبقات النجوم، فإن كلَّ طبقة منها في مستوى واحد، وبينها وبين التي تليها بُعْدٌ شاسع. وقد مرَّ الكلام على طبقات السماوات والأرض في آخر سورة الطلاق، فارجع إليه[(٢)]. ويجوز أن يكون ﴿طِبَاقًا﴾ مصدراً؛ يُرادُ به المطابَقة والمشابهة فيما بين الأجرام السماوية.

---

(١) ينظر «تفسير الطبري» (٢٣: ٦٣٤-٦٣٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨: ٣٠٣).

(٢) وارجع في التعليق هناك وفي مواضع سابقة أيضاً إلى تعقب المؤلف رحمه الله في هذا المعنى، وبيان أن طبقات النجوم كلها ما هي إلا جزء من السماء الدنيا فحسب ينظر (٧: ٤٢٣، ٤٤٤).

ثم تابع الكلام بقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ ويُفهَمُ من هذا حقيقة الشمس والقمر، وهي أنَّ الشمس جِرْمٌ مشتعل مضيء، والقمر مادة جامدة غير مشتعلة، وإنما تنعكس عليها أشعَّة الشمس فتنيرها، كما تفعل بالأرض نهاراً. ويُفهَمُ أيضاً أنَّ الضياء يُطلق على الأشعة الفائضة من الجِرم المشتعل، والنور يطلق معكس تلك الأشعّة، ومعلوم أن الأجرام السماوية قسمان: مشتعلة وهي الأقل، وغير مشتعلة تأخذ النور من المشتعلة، وهي الأكثر.

ثم تابع البيان عن قدرته تعالى، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ أي: أنشأكم منها إنشاءً. وهذا إما أن يُراد به خِلقةُ آدم من التراب، فيكون فيه نسبةُ ما للأصل إلى الفرع، لأنَّ عناصر الأصل فيه، وإما أن يُرادَ به إنشاءُ جميع البشر، لأن النطفة تتكوَّن من الأطعمة، وهي مولَّدة من الأرض بالذات أو بالواسطة كاللحوم، ويجوز أن يُراد به المعنيان معاً، كما يجوز أن يُراد به مطلق الإيجاد، واستُعير له الإنبات؛ لأنه أدلّ على التكوُّن من الأرض. والنبات: اسم مصدر لـ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ مؤكِّد له.

ويجوز أن يكون الأصل: أنبتكم من الأرض إنباتاً، فنبتُّم نباتاً. فحذف من الجملة الأولى المصدر، ومن الثاني الفعل، اكتفاءً في كلٍّ منهما بما ذكر في الأخرى، والاكتفاء من أساليب القرآن، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

وقد جاءت هذه الجملة مساوقةً لِـمَا قبلها، مُـمهِّدة لِـمَا بعدها، وهو قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أمواتاً بفَصْل الأرواح عن الأبدان، ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ منها ﴿إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ دفعةً واحدةً من عجم الذنب، ويتم ذلك بتزويج الأرواح مع الأبدان بالبعث والنُّشور، فهذه دورة لتطوُّرات الإنسان شبيهةٌ بالدورة الدموية التي تصدر من القلب إلى الشرايين، ثم تعود في الأوردة إلى القلب، وشبيهةٌ بالدورة المائية التي تصدر

من البحر إلى مَتَائِهِ الجو، ثم إلى ينابيع الأرض، ثم تعودُ أنهاراً إلى البحر. وهكذا تَتَشابه مخلوقات الله في كثير من الأوضاع والأطوار، وفي ذلك دلالة على أنَّ الخالق واحد.

وقد عبَّر عن التكوين الأول بالإنبات، وعن الثاني بالإعادة والإخراج، إيذاناً بالفرق بينهما، والله أعلم، وأنَّ الحالة الثانية أهوَنُ من الأولى حسب العرف والعادة، ولله المثل الأعلى.

ثم تابع الكلام في دليل القدرة والمنَّة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾ أي: مبسوطة مستوية، ولم يجعلها كلَّها جبالاً وَعِرة، فقال: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: طُرقاً واسعة مفتوحة لكم، واكتفى بهذه المنفعة عن بقية المنافع والاستفادات منها؛ لأنَّ سلوك الطرق واسطة لجميع ذلك.

قال ابن أبي الحديد(١) من علماء القرن السادس: فإن قلت: قد ثبت أن الأرض كروية، فكيف تكون بسيطة، والبسيط المُسطَّح، والكروي لا يكون مسطحاً؟ قلت: الأرض بجملتها شكلُ كرة، وذلك لا يمنع أن تكون كلُّ قطعة منها مبسوطة تصلح لأن تكون مستقَراً ومجالاً للبشر وغيرهم من الحيوان.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾.

وبعد أن ذكر أنواعاً من دلائل قدرته ومُنَّته الدالة على استحقاقه للعبادة،

---

(١) هو عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد (٥٨٦-٦٥٦هـ)، عالم بالأدب، من أعيان المعتزلة، له: «شرح نهج البلاغة»، و«نظم فصيح ثعلب». «الأعلام» للزركلي (٣: ٢٨٩).

واختصاصه بالألوهية[١]، وقدرته على البعث، عاد إلى البحث، وهو شكوى نوح من قومه، حاكياً ذلك بقوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ يعني: الأغنياء والرؤساء، وفي هذا الوصف إيماءٌ أيضاً إلى أنَّ هؤلاء الأغنياء والرؤساء لم يُراعُوا حقَّ النعمة، ولم يقفوا في ذلك عند ضلالهم، حتى أضلُّوا غيرهم.

﴿وَمَكَرُوا﴾ في ذلك الإضلال ﴿مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: شديدَ الكِبَرِ والعِظَم. وهذه الصيغة تدلُّ على أشدّ مما تدل عليه صيغة (كبير)، وجمع الضمير باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنَّ الإفراد في الضمائر الأُوَلِ باعتبار لفظها، ومثل هذا التنويع من أساليب القرآن.

ثم ذكر شيئاً من ذلك المكر، بقوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تتركُنَّ عبادتها، ثم خصُّوا بعضَها بالذِّكر لتميُّزها عندهم، وقالوا: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾[٢] قال ابن عباس وقتادة: وهذه أسماءُ أصنامٍ لهم كانوا يعبدونها، ثم عَبَدَتها العربُ فيما بعد[٣].

---

(١) تكرَّرت عند المصنف وغيره هذه اللفظة، والصواب: الإلهيّة، لأنه مصدر صناعي.

(٢) كان أصل عبادة الأوثان تشبيهات مجازية للتقريب بين فهم العامة وبين حقائق الديانات، فقد كانت عبادة الله الواحد الأحد هي الديانات الفطرية، والتي جاء بها آدم ثم الأنبياء من بعده، وفي خلال ذلك أخذ بعض أهل العصور يجعلون النُّصب والتماثيل كرموز للحقيقة أو للتعظيم والتذكار، وكذلك اعتبر بعضهم الشمس والكواكب وبعض قوى الطبيعة رمزاً للإله غير المنظور، وقد دبَّر بعضَ عقائدِ الشِّركِ التحايلُ البشريُّ لمقاصدَ دنيويةٍ ومآرب استعبادية، على أنك لو سألتَ بعضَ المعتقدين لتلك الديانات: كيف تعبدون هذه الأشياء؟ لأجابوك بأنهم يؤمنون بإلهٍ عظيم غير منظور، هو الرئيس الأعلى لآلهتهم ومعبوديهم. (المؤلف).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٦٤٠) عن قتادة، وذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨: ٣٠٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وعَبَدة الأوثان يُرجعونها في وجهة ضلالهم إلى مراجع مختلفة؛ فمنهم مَنْ يتَّخذون لهم صنماً أكبر يرمزون به للخالق الأعظم، وأصناماً أُخرى كثيرة يرمزون بها للملائكة المقرَّبين عنده، ينفِّذون أوامره.

ومنهم مَنْ يعتقدون أنَّ الإله الأعظم خلق هذه الكواكب وفوَّض إليها تدبير العالم السفلي، فالبشر عبيدُ هذه الكواكب، وهي عبيد الإله الأعظم، فالبشر يجب عليهم عبادة الكواكب، لا حَدَّ لهم فوق ذلك، ويرمزون إلى هذه الكواكب بصور وتماثيل بعضُها صُور إنسان رجالاً ونساءً، وبعضُها صورُ حيوانات. وغَرَضُهم من ذلك: عبادةُ الكواكب.

ومنهم مَنْ كان يموت فيهم الرجل الصالح، فيتَّخذون مثالاً على صُورته، ويشتغلون بتعظيمه، وغرضُهم تعظيم أُولئك الأقوام الصالحين، والتقرُّب إليهم، حتى يكونوا شفعاءَ لهم عند الله، وهو المراد من قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

ومنهم من يعتقد الحلول، بمعنى: أنَّ الإله يحلُّ في شخص إنسان جليل، أو أجرام عظيمة، أو أصنام.

هذه وأمثالها هي وَجْهُ نظر عَبَدة الأوثان في ضلالهم، خابوا وخسروا. وفينا الآن ـ معشرَ المسلمين ـ من يعبد القبور ويعتقد أن صاحبها واسطةٌ له عند الله[1]، وذلك

---

(١) تشبيهُ المُوحِّدين من جهلة المسلمين بمشركي الأمم السابقة، ووصَفْهُم بعبدة القبور، لا يُوافقُ عليه المؤلف رحمه الله، ففرقٌ بين من يعبد صنماً أو نجماً معتقداً أنه ينفع ويضر، وبين مسلم قد يقع في الخطأ نتيجة جهله، فينادي صاحب القبر ويستغيث به، إلا أنه متيقِّن في قلبه بأن النفع والضر بيد الله. والواجب تعليم الجهَّال لا تكفيرُهم.

الضلال البعيد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

والشرك له صور كثيرة ظاهرة وخفيَّة، ومنها الرياء، فلا يقبل الله عملاً فيه مثقالُ ذرّة من رياء. اللهم إني أعوذ بك أن أُشركَ بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم. قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣].

وقد عطف على قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾ قولَه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾، قال مقاتل وأبو مسلم: أي: قد أضلَّ كبراؤهم كثيراً من الناس(١).

ثم قال نوح عليه السلام في تتميم شكواه إلى الله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ قال في «مجمع البيان»: أي: هلاكاً، على حدِّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧].

وقال البيضاوي: لعل المطلوب هو الضلال في ترويج مكرِهم، بأن يفشلوا في ذلك، لا في أمر دينهم(٢).

أقول: ويجوز أن يكون الكلام بياناً لحالهم أُخْرج مَخرَجَ الدعاء عليهم، على أُسلوب القرآن في نسبة الفعل إلى الله، في مثل: «أضلَّهم الله»، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية)، والمراد: أنهم لرسوخ الظلم فيهم أصبحوا لا يزدادون إلا ضلالاً وكفراً.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا

(١) ذكره عن مقاتل الواحدي في «الوسيط» (٤: ٣٥٩).

(٢) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٥: ٢٥٠).

كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه مصيرَهم بنتيجة أمرهم هذا، فقال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ و(مِنْ) للتعليل و(ما) صلةٌ للتـأكيد، أي: من أجل خطيئاتهم ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ بالطُّوفان في الدنيا، ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ في الآخرة(١)، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ يعرِّض بأنَّ آلهتهم غير قادرة على نَصْرهم، وقد خاب ظنُّهم فيها وانعكست الآمال.

ثم عاد بالكلام إلى حكاية شكوى نوح بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: نازلَ دار؛ يريد: لا تَدَعْ منهم أحداً إلا أهلكتَه. قال المُبرِّد: وكلمة ﴿دَيَّارًا﴾ لا تستعمل إلا في النفي العام، يقال: ما بالدار ديَّار، ولا تستعمل في الإثبات.

وقال قتادة: ما دَعا بهذا عليهم إلا بعد أن نزل عليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ

---

(١) وهذه الآية تدلُّ على عذاب القبر، وذلك أن الفاء تقتضي التعقيب، فقوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ يدل على أنه إنما حصل دخول النار عقب الإغراق.

وقد قال البخاري (٣: ٢٣١) في كتاب الجنائز، باب (٨٦): باب ما جاء في عذاب القبر، قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقوله جلَّ ذكره: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

ثم أورد البخاري تحت هذا الباب ستة أحاديث في عذاب القبر.

قال الحافظ في «الفتح» (٣: ٢٣٣): «وكأنَّ المصنِّف قدّم ذِكرَ هذه الآيات للتنبيه على ثبوت ذكره في القرآن، خلافاً لمن أنكره وزعم أنه لم يرد ذِكرُه إلا من أخبار الآحاد».

﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦][1]، فلذلك قال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[2]، وذلك ما سَبَق بيانُه عن قتادة من أنَّ الرجل منهم كان يذهب بابنه إلى نوح عليه السلام فيقول له: احذر هذا لا يُغوِيَنَّك، فإن أبي قد ذهب بي إليه وأنا مِثلُك، فحَذَّرني مِثلَ ما حذَّرتُك.

ثم دعا نوح عليه السلام لنفسه ولوالدَيْه وللمؤمنين من أهل بيته، ثم لعموم المؤمنين والمؤمنات، فقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾[3].

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٣٠٨).

(٢) أي: إنك ـ يا رب ـ إنْ تتركْهم دونَ إهلاك واستئصال، يُضِلُّوا عبادك في أماكن من الأرض لم يَغمُرها الطُّوفان، وإنْ توالدوا فإنهم لا يَلدوا إلا مولوداً يَؤولُ أمرُه إلى أن يكون بعدَ بلوغِه فاجراً مُنْبعثاً بقـوَّةٍ لارتكاب الجرائم والآثام، مُبالغاً في كفره، جُحُوداً للحقِّ وتغطيةً لأدلَّتِه بالأكاذيب والمغالطات المزيَّنة بزُخْرف القول.

(٣) أي: لا تَزِدِ الظالمين لأنفسِهم بالكفر إلا عذاباً مرافقاً لإهلاكهم.

سُورَةُ الجِنّ

مكيَّة، وهي ثمان وعشرون آية

والغَرَضُ منها:

ذِكرُ قصة إيمان الجن، عِظةً للمشركين المُعرِضين المعارضين، وتأنيباً لهم بأنَّ الجنَّ آمنوا وأنتم لم تؤمنوا.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ
فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ
يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ
مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ٧﴾ .

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ هذا القرآنَ، فكان من أمرهم ما قصَّه الله فيما يأتي، والنفر: ما بين الثلاثة إلى العشرة، والجنّ: أجسام خفيفة خفيَّة عاقلة. والمَلَكُ مخلوق من النور، والإنس من الطين، والجن من النار.

وقال ابن عباس: إنَّ هذا الاستماع كان ببطن نَخْلة عامداً إلى عكاظ، وكان ﷺ يُصلِّي الفجر، فاستمع له الجنُّ كيف يقرأ، ونظروا كيف يُصلِّي[1]. وبطن نخلة: موضع بين مكة والطائف، وقد مرَّ به عند عودته من الطائف، بعد أن عَرَض نفسَه على أهل الطائف، ولم يُجيبوه.

أقول: والذي يظهر من مفاهيم السورة وبياناتها أنَّ مبدأ هذا الاستماع كان في بطن نخلة، ثم أعقَبَه استماعاتٌ كثيرة، وصحبةٌ للنبي ﷺ في مجالسه الإرشادية واجتماعاته العلمية والعملية، حتى تكامل لهم هذا الوعي والإيمان، والاتباع له في العبادات الحسان. فبَثُّوا ذلك بين أقوامهم، وحكاه الله سبحانه عنهم، والله أعلم.

---

(١) سبق تخريجه (٧: ٥٤).

وفي هذه الآيات أَمَرَ سبحانه نبيَّه ﷺ أن يُخبر قومَه بما لم يكن لهم به علم، من إيمان الجن وهدايتهم عند سماعهم هذا القرآن، وإرشاد قومهم بالإيمان به.

والغَرَضُ من هذا البيان: تقريعُ المشركين بأنَّ الجنَّ لـمّا سمعوا القرآن آمنوا به واهتَدَوا بهديه. أما المشركون فهم مع أنَّ الرسول من جنسهم، والقرآن نزل بلغتهم، فهم مع ذلك كله لا يؤمنون.

وقال البيضاوي: إنَّ في قوله: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ دلالةً على أنه ﷺ ما رآهم، ولم يقرأ عليهم قصداً، وإنما اتفق حضورُهم في بعض أوقاتِ قراءتِه فسمعوها، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لـمّا رجعوا إلى قومهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ وهذا مصدر وُصف به للمبالغة[1]. أي: كثير العَجَب في عظمته وطرق هدايته، ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ أي: إلى الحق والصَّواب، وقد اهتَـدَينا ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، ولوضوح ما فيه من دلائل التوحيد أقرَرْنا بوحدانية الله الخالصة، ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾.

ثم نزَّهوه عن الصاحبة والولد أيضاً، كما حكى عنهم سبحانه بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: جلالُه وعَظَمتُه ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾.

ثم سفَّهوا رأيَ سفهائهم في ذلك، فقالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا[2] عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾ أي: قَوْلاً بعيداً عن الحقِّ كلَّ البُعد. وفيه إلماعٌ إلى أنهم كانوا يَدينون بدين النصارى ويقولون بقولهم.

ثم اعتذروا عن متابعتهم لسفهائهم في ذلك القول، قبل سماع هذا القرآن وما فيه من دلائل التوحيد، فقالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾[3]

---

(١) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٥: ٢٥١).

(٢) ﴿سَفِيهُنَا﴾: أرادوا من السفيه: جنسَه، فيشملُ إبليسَ وجنودَه. والسَّفَهُ هو الطَّيش.

(٣) والمعنى: أنّا كنّا نظنُّ ظناً توهمياً أنَّ الإنس والجنَّ صادقون في قولهم: إنَّ لله صاحبةً وولداً، =

أي: ظننّا أنْ لا أحد يَجْرُؤُ أن يكذب على الله، ولذلك اتَّبعنا قولهم وظنَنَّاه صدقاً حتى سمعنا هذا القرآن.

ثم نبَّهوا قومهم إلى كَذِب الإنس والجن، وبرهنوا لهم بما يعلمونه ولا ينكرونه، فذكروا أولاً صورةً من صور كذب الإنس على الله وشركهم به الذي فَطِنوا له الآن، فقالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ﴾ منهم خوفاً ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وغشيانهم، لاعتقادهم أنَّ هؤلاء الرجال لهم سيطرة على الكون وسلطان على الجن، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ أي: زادهم أولئك الرجال الذين يعتقدون فيهم هذه العقيدة غيّاً وضلالاً.

ويجوز أن يكون المعنى: فزادهم الجنُّ غشياناً، ولم ينفع الإنسَ عَوْذُها برجالها الـمُدجِّلين. وعلى كلٍّ، فمحصَّل الآية: تكذيبُ الجنِّ عقيدةَ المشركين بأن شركاءهم مسيطرون على الجن، ولذلك يعوذون بهم منهم.

وبعد أن برهنوا بما يعلمه الجنُّ من كذب الإنس على الله في هذا الأمر، دَرَجوا إلى المقصود، وذكروا صورةً مشتركة من صور كذب الإنس والجن على الله وكفرهم برسله وبالبعث، يؤنِّبون قومهم بذلك، فقالوا: ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي: الإنس ﴿ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾ من الرسل، أو لا يحشر أحداً بعد الموت. وإسنادُ هذا الإنكار إلى الجنّ والإنس باعتبار الكفار من النوعين لتحقُّق النوع في بعض أفراده، وذلك من خصائص اللغة.

وقيل: إن هذه الآية مع ما قبلها اعتراض بين كلام الجن، من إخبار الله تعالى، فهو يقول: إنَّ الجن ظنُّوا كما ظننتُم ـ معاشرَ الإنس ـ أنَّ الله لا يحشر أحداً يوم القيامة ولا يحاسبه، أي: لا حَشْرَ ولا حساب. فتكون تقريعاً منه تعالى على إنكار الحشر.

= وأنهم لا يكذبون على الله في ذلك، فلمَّا سمعنا القرآن علمنا أنا كنَّا مخدوعين بأقوالهم الكفريَّة الكاذبة الباطلة.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾.

ثم تابع الكلام عمّا أُوحي إلى الرسول ﷺ من البيان عن الجنّ، وأنهم شعروا من أحوال الطبيعة بحدوث أمر لمن في الأرض غريب، فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ على عادتنا، ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾[1] قال الـجُبّائي: معناه: طلبنا الصُّعود إليها، فعبَّر عن ذلك باللمس. وقال أبو مسلم: المعنى: التَمَسْنا قُرْبَ السماء لاستراق السمع على عادتنا، فوجدناها مُلِئَت حَرَساً شديداً وشُهُباً.

وقال مَعْمَر: «قلت للزهري: أكان يُرمى بالنجوم قبل هذا؟ قال: نعم. قلت: أفرأيتَ قولـه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾[2] أفما يدلُّ قوله: ﴿ٱلْـَٔانَ﴾ على حدوث ذلك؟ قال: لا، وإنما غُلِّظَ أمرُها وشُدِّد حين بُعث النبي ﷺ».

قال الرازي: وهذا القول أشبَهُ بالصواب، ويُؤيِّده قولُه: ﴿مُلِئَتْ﴾، فإنه يدلُّ على أن الحادث هو الـمَلْءُ والكثرة[3].

---

(١) طُبعت الجن على قوَّة خارقة في الحركة والعمل والصُّعود والهبوط، وعلى الاستقرار في الجو والهواء، وكان من عادتهم أن يصعدوا إلى السماء، ويستمعوا في مقاعد خاصَّة إلى أحاديث الملائكة عن بعض ما يجري من أمر الله، سماعاً نادراً مشوَّهاً، ويضيف إليه كفارهم الطغاة ما شاؤوا من كذب، وينقلونه إلى كَهَنة العرب، فيضيف إليه الكَهَنة ما شاؤوا من افتراء، ويُبلِّغونه للناس. فلما بعث رسول الله ﷺ، قضى سبحانه بحكمته أن يصونَ رسالته، فزاد سبحانه في حراسة السماء بمضاعفة عدد الرجوم وقوتها طول زمن البعثة، مبالغةً في الصيانة، والله أعلم. (المؤلف).

(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ٣٦٥).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ٦٧٠).

ثم ذكروا في إتمام البيان: أنهم علموا من حدوث هذا الحادث في الطبيعة حدوثَ أمر من أُمور الله، ولكنهم لا يدرون خيراً أم شراً؟ فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ بذلك؟

ومن البلاغة العالية: حذفُ الفاعل في المُعادِل الأول وبناء الفعل للمجهول، فقال: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾، وذِكرُه في الثاني فقال: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾، وذلك لتُنسَبَ إرادة الخير إلى الله دون الشر[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، حيث نسب المرض لنفسه، ونسب الشفاء لله؛ لأنَّ الشرَّ ـ سواءٌ كان مرضاً أو غيره ـ إنما يكون بصنع الإنسان وانحرافه عن قوانين الطبيعة، أو إعراضه عن أحكام الشريعة[2]. وذلك معنى قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. فإذا تعرَّض الإنسان مثلاً للبرد القارس الذي لا تتحمله طبيعتُه، يحدث فيه مَرَضٌ من جرَّاء ذلك.

وبعبارة أخرى: إنَّ ذلك يحدث من معاكسة قوانين الطبيعة الكونية التي وضعها الله سبحانه وتعالى، وطبعها في هذا الكون. ومنها ما يتعلق بإصلاح الإنسان أو كماله بدناً وصحةً وخَلْقاً وروحاً، فإذا عاكس الفرد أو الجماعة قوانينَ الصحة مَرِضَ، أو قوانينَ الاجتماع شَقِيَ في الدنيا، أو قوانينَ الروح التي تُبيِّنها الشريعة على لسان الرسل شَقِيَ في الأخرى، فإنَّ كلَّ شر يحدث للفرد أو الجماعة إنما يكون من معاكسة هذه الأنظمة والقوانين، والله أعلم.

---

(١) أدباً معه تعالى، لا لكونه لم يُقدِّره ولم يُرِد وقوعه.

(٢) صنع الإنسان وانحرافه وإعراضه أسباب أناط الله عزَّ وجلَّ بها وبأمثالها فِعلَه في إنزال المصائب والمرض والبلاء ونحوها بعباده، فهي واقعة بإرادة الله وتقديره، بسبب من العبد، لذلك لا يوصف فِعلُ الله عزَّ وجلَّ بالشرِّ، لأن لهذا الشرَّ سبباً من العبد نفسه.

وقد جاءَ في الأثر عنه ﷺ قوله: «لَبَّيكَ وسَعدَيْكَ، والخيرُ كلُّه في يَدَيكَ، والشرُّ ليس إليك»[(١)].

أقول: فلا يُنسب الشرُّ إلى الله سبحانه إلا بنوع من التجوُّز، والله أعلم، وذلك لأنه يحدث من معاكسة سنن الله الكونية.

ثم تابعوا الكلام عن اختلاف أحوالهم كالإنس، فقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ويشمل الشقُّ الثاني غيرَ كاملي الصلاح والفاسقين والكافرين، كما يُعْرِبُ عنه قولهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ أي: فِرَقاً شتَّى.

ويظهر من فحوى الآيات السابقة واللاحقة أنَّ الجنَّ تابعةٌ للإنس في الدين، لذلك تتأثَّر بالبيئة والمحيط، فكلُّ أُمة منهم تَتْبع إنسَ إقليمها، لذلك كان منهم المُلحِد، ومنهم المشرك، والقائل بالصاحبة والولد، والمنكر للبعث، والمنكر للنبوَّة، والمتدينون بالأديان الصحيحة زمن صحَّتها، والمنحرفون فيها زمن انحرافها، ومنهم المسلمون بعد ظهور الإسلام، مثل الإنس سواءً بسواءٍ. والله أعلم.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾.

---

(١) رواه مسلم (٧٧١)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم تابع الكلام والبيان عن عقيدتهم بعد استماع القرآن، فقالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذا أراد بنا أمراً.

والظنُّ في مثل هذه المواضع يُراد به أقوى الاعتقاد، فقد قال الرازي: إنَّ من خصائص اللغة: إذا أُريد المبالغة في التكثير يُقرَنُ الكلامُ بلفظ يدلُّ على التقليل، وإذا أُريد المبالغةُ في اليقين يُقرَنُ الكلامُ بلفظ وُضع للشكِّ(١).

فمعنى الآية: أنّا تيقَّنّا كلَّ التيقُّن بقدرة الله القويّة وسلطانه القاهر، كما يُعْرِبُ عن ذلك قولهم: ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾(٢).

وكان أثر هذه العقيدة ما ذكروه بقولهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ في هذا القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ من غير تردُّد، ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾(٣) والبَخْس: النقص في الثواب، والرَّهَق: لحوق الذُّلّ.

قال في «مجمع البيان»: وفي هذا دلالة على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الإنس والجنّ، وعلى أنَّ الجن عقلاء مخاطبون، وبلغات العرب عارفون.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (١٩: ١١٧).

(٢) الراجحُ في معنى الظنِّ هنا الظنُّ القوي الراجح؛ كما يدلُّ عليه سياق الآيات. ومعنى الآية ـ كما في تفسيري «المعين»: وأنّا ظنَنّا ظنّاً راجحاً قبل سماع القرآن ومعرفة سببِ امتلاءِ السماء بالحرس الشديد والشُّهب؛ أنَّ الله قادر علينا، وأننا في قبضتِه وسلطانه، فلن نفوتَه إنْ أراد بنا أمراً أينما كنّا، ولن نستطيع أن نُفلِتَ من عقابه هَرَباً، إنْ طَلَبنا.

(٣) أي: وأنّا لـمّا سمعنا القرآن، وما اشتمل عليه من الـهدى، صدَّقـنا به وبمحمدٍ ﷺ تصديقاً جازماً، فقد تدرَّجنا في الاقتناع حتى بلغنا إلى اليقين، فآمِنوا ـ أيُّها الجنُّ ـ بالربِّ إيماناً كاملاً، واسْتَسْلموا له، فَمَنْ يؤمن بربِّه إيماناً صحيحاً، فلا يخاف نقصاناً من عمله وثوابه، ولا يخاف أن يُحمَّل ما لا يُطيق.

أقول: ويجوز أن يكون ذلك بواسطة الاختلاط معهم، وإن لم يشعروا بهم، أو أنهم مخلوقون ومنطبعون على الفهم عن الإنسي، بأيٍّ لغة تكلّم. والله أعلم.

ثم عادوا إلى الكلام عن عموم الجنس واختلاف أحواله في الهدى والضلال، فقال: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ أي: الجائرون عن طريق الحق كالأناسي، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ أي: فقد توخّوا الرَّشاد، وأخذوا بأسباب الهدى والسَّداد، ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ(١) فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

وقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ إما معطوف على قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ ..﴾ [الجن: ١]، والمعنى: وأُوحي إليَّ أنه لو استقاموا على الطريقة. أو هو استئناف حكم من الله سبحانه وتعالى.

والماء الغَدَق: الكثير. والمراد به: سَعَة الرزق المُسبَّبة عنه؛ لأن المطر سببٌ لها. أي: لو استقام الإنسُ والجنُّ على الطريقة الـمُثْلى التي نرسُمها لهم، ولوسَّعنا عليهم الرزق. فهو على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وذلك لأنَّ في إقامة شرائع الله إصلاحاً للنفوس، وتهذيباً للعقول، وتنظيماً للأحوال، ونشاطاً في الأعمال، واتِّباعاً لسُنن الكون ونظام الحياة الصحيح. وفي ذلك كلُّ الخير والسعادة والرَّفاه في اجتماع أفراد الإنسان وتدبير شؤونهم.

ومعنى ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾: لنختبرهم؛ يشكرون ويدومون على الاستقامة أم ينحرفون؟

(١) ﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ من قسط الرجل: إذا جار ولم يَعدِل. والمراد: الجائرون على أنفسهم بالكفر والمعاصي. وأما العدل فيقال فيه: أقسط الرجل. أي: عَدَل، فهو مقسط.

لأن الامتحان يكون في السَّرَّاء كما يكون في الضرَّاء، وذلك بالثبات على الصَّلاح وعدم الأشَرِ والبَطَر.

وقوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾(١) مقابلٌ لما قبله، ومعنى ﴿يَسْلُكْهُ﴾: يُدخِله. والعذاب الصَّعَد: الشاق.

ثم عطف على قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾، قولَه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ أي: وأُوحِيَ إليّ أنَّ العبادة خاصَّةٌ بالله تعالى، ففيه مجازٌ مُرسَلٌ من ذِكرِ المحلِّ وإرادة الحالِّ. ويجوز أن يكون لفظ ﴿ٱلْمَسَـٰجِدَ﴾ جمعاً للمصدر الميمي، بمعنى: أنَّ السجود لا يكون إلا لله.

ثم تابع القصة وعطف عليه قولَه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أي: أُوحي إلي أنه لـمّا قام النبيُّ ﷺ يصلِّي لله ويدعوه، ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾(٢) والمعنى: أن الجن قاموا يزدحمون عليه ﷺ، حرصاً منهم على استماع القرآن، عندما يقوم يصلِّي.

والمرويُّ عن ابن عباس والضحّاك: أنَّ هذا القول من جملة المُوحَى به أيضاً(٣).

وقال سعيد بن جبير: بل إنَّ هذا من قول الجنِّ لأصحابهم حين رجعوا إليهم(٤).

---

(١) أي: ومَنْ يُعرِض عن كتاب ربِّه المُنزَّل على نبيِّه ﷺ؛ بعدم التوجُّه لتلقِّيه وتدبُّر معانيه، ويأتِه أجلُهُ وهو على إعراضه؛ يُدخِله ـ مُذيقاً إيَّاه عذاباً شديداً شاقّاً ـ في مكان ضيِّق لا يتَّسع لأكثر منه، لا يزداد إلا شدَّة، كما يُدْخَل السِّلك في الثَّقْب الضيِّق؛ ليذوق جزاء إعراضه عن دعوة ربِّه، وعدم استجابتِه لدين الله، واتِّباعِ كتابه.

(٢) ﴿لِبَدًا﴾: جمع لِبْدة ـ بكسر فسكون ـ بوزن نعمة. واللبدة هي الصوفُ أو الشعرُ الملتصِقُ بعضُه ببعضٍ التصاقاً شديداً. والمراد: جماعات متزاحمة متلاصقة، تعجُّباً ممَّا سمعوا.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٦٦٦).

(٤) المصدر السابق (٢٣: ٦٦٧).

ومرادهم: أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ يزدحمون عليه لاستماع القرآن منه. ويجوز أن يريدوا ازدحام الصفوف وراءَه في الصَّلاة.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

وبعد إتمام الكلام عن الجنِّ وإيمانهم ـ ذلك الكلام الذي كان فيه تعريضٌ بالمشركين من الإنس ـ التفت إلى تقريعهم وإرشادهم وتهديدهم بأبلغ الوجوه على لسان رسوله، مُلمِعاً إلى أنه يريد لهم ما يريده لنفسه، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ أي: أعبدُه، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾[1] أي: لا أقدر أن أدفعَ عنكم ضرّاً ولا أسوق لكم رَشَداً، ولا يملك ناصيةَ ذلك إلا الله. وفي الكلام بيانٌ لهم عن حدود النُّبوَّة، وأنها لا تَتَجاوز البشريَّة وحدودها، في العلم والعمل والقدرة في التصرُّف.

وقد أردَفَ ذلك بيان عَظَمة الله وسلطانه القاهر، وأنه يخشاه خشيةً لا مزيد عليها، وجعله تَتْميماً لما قبله وتمهيداً لما بعده، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾[2] أي: ملتجأً ألتجئ إليه.

---

(١) أي: قل ـ يا رسول الله ـ لهم: إني لا أقدر على مقارعتِكم بوسيلةٍ ماديَّة أضرُّكم بها، لأمنع تألُّبكم عليَّ وعلى الذين آمنوا بي، ولا أملك وسيلةً أُلزِمُكم بها إلزاماً إكراهياً لتكونوا راشدين مسلمين، فأنتم مسؤولون عن اختياركم الحرِّ أمام ربّكم.

(٢) أي: قل ـ يا رسول الله ـ: لن يمنعني من عذاب الله أحدٌ إنْ لم أَقُمْ بوظائف رسالتي التي أرسلني للقيام بها، ولن أجدَ من دونه ملجأً ألجأ إليه.

ثم استثنى من قولِه: ﴿لَآ أَمۡلِكُ﴾ قولَه: ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي: لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات التي أرسلني الله بها إليكم. وفي تأخير هذا عمّا قبله توثيقٌ بصدقه في تبليغاته، وأنه لا يزيد فيها ولا يُنقص؛ لأنه ـ إن فعل ذلك ـ فمن يُجيرُه من الله، مِصْداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ * لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ – ٤٧]. وهذا وأمثاله لونٌ من ألوان الكلام البليغ في التوثيق بصدق الرسالة وتبليغها على وجهها.

ثم ختم السياق بهذا التذييل المؤيِّد لـمّا قبله والمُمَهِّد لـمّا بعده، فقال: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: في أمر التوحيد؛ لأن الكلام فيه، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾، والجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾، والإفراد باعتبار لفظها، على نهج القرآن في مثله.

ثم بالغ في التهديد، وأدمَجَ فيه التفنيد، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ به من العذاب ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ﴿٢٤﴾﴾، وفي صورة الوعيد تلميحٌ إلى ما كان يفتخر به هؤلاء المشركون على النَّبيِّ ﷺ بكثرة جموعهم وقوَّة عَصَبيَّتهم. وقد تحقَّق هذا الوعيد في وقعة بدر.

﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾﴾.

وبعد أنَ تَوعَّدهم إثْرَ إرشادهم مبالغةً في الحَمْل عليه، بيّن أنه لا يعلم شيئاً من موعد إنجاز ذلك الوعيد، تَـفْويضاً للأمر إلى الله، فقال: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ به من العذاب ﴿أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ بعيداً؟ والمراد: أنَّ العذاب واقعٌ

لا مَحالة، ولكن لا أعلم متى يكون؛ لأن ذلك من غيب الله، والله سبحانه هو ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾ بسائر أنواعه ﴿أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا﴾ نوعاً واحداً وهو غَيْبُ الرسالة[1] فيُطْلع عليه ﴿مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ لرسالته ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ يُعْلِمه بشريعته، وكتابه المُنزل عن مصير الإنسان في اليوم الآخر، وما يكون سبباً للسعادة فيه أو الشقاء. وهذا النوع من الغيب هو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

فإن ارتضى سبحانه من خَلْقِه رسولاً، وأوحى إليه أن يُبلِّغ غيبه عن اليوم الآخر وما يتبع ذلك ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧﴾[2]، وهذا لونٌ آخر من ألوان التوثيق برسالة الرسل وتبليغاتهم، ومفادُه: أنَّ الله سبحانه يُراقبُ رُسُلَه في تبليغاتهم، حتى تُؤدَّى على أكمل وجوهها.

ويجوز أن يكون الكلام على التمثيل، يُمَـثِّلهم بمن يَـبُثُّ عليهم الأرصاد والرُّصَداء؛ ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَ﴾ قد ﴿أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ فلا تخفى عليه من أمرهم خافية. ثم ذيَّل الكلام بهذا التذييل العام المؤكِّد له بعمومه، فقال: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ۝٢٨﴾.

---

(١) هذا التقييد لا دليل عليه، فمن الجائز أن يُطلع الله تعالى مَنْ شاء من رسله على أيِّ غيب من غيوبه، سواء كان متعلقاً بالرسالة أو لا، وفيما ثبت في صحيح الأحاديث من إخبار النبي ﷺ عن غيبيات شتى؛ دليلٌ على بطلان هذا القيد.

(٢) معنى الآيتين: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ ـ كما في تفسيري «المعين» ـ: «هو سبحانه عالم ما غابَ عن العباد، فلا يُطلِع على الغيب الذي يعلمُه أحداً من الناس، إلا مَنْ يَصطفيه لرسالتِه ونبوَّته، فيُظهره على ما يشاء من الغَيْب؛ حتى يكون ما يُخبر به من المغيَّبات معجزة دالَّةً على نبوَّته، فإذا أراد سبحانَه إظهارَه على ما يَشاء من غيبِه، فإنَّه يُدخل مِن أمامِ الرسول ومِن خلفِه حَفَظةً من الملائكة يحفظونه من الجنِّ؛ لئلا يَسمعوا الوحي».

قال في «المنار» عند الكلام على الغيب في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، قال ما مُلخَّصه: إنَّ الغيب قسمان: حقيقي، وإضافي. فالحقيقي: هو ما غاب عِلمُه عن جميع المخلوقين، حتى الملائكة المقرَّبين. والإضافي: ما غاب عِلمُه عن بعض المخلوقين دون بعض، كالذي تعلمه الملائكة من أمر عالمهم ولا يعلمه البشر، وكذلك ما يعلمه الرسل، فإنَّ غيرهم من البشر ليس لهم الاستعدادُ لعلمه من الوحي. وأما ما يعلمه بعضُ البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها، ولا يعلمه غيرهم لجهله بتلك الأسباب أو عَجْزه عن استعمالها، فلا يدخل في عموم معنى الغيب الوارد في كتاب الله[1].

أقول: والقرآن يُثبِتُ أنَّ العالم قسمان: عالم الغيب، وعالم الشهادة. ومن عالم الغيب: اليوم الآخر، والمَلَك، والجنّ. ولا يُعرَفُ شيءٌ عن عالم الغيب إلا بالوحي، والله أعلم.

* * *

(١) انظر تفسير «المنار» (٧: ٣٥٣، ٣٨١)، (١١: ١٨٤).

سُورَةُ المُزَّمِّل

مكيَّة، وهي عشرون آية

والغرض منها:

تهيئة النبيِّ ﷺ للقيام بالدعوة بجِدٍّ وثبات.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾ وأصله: الـمُتزمِّل، من قولهم: تزمَّل بثيابه؛ إذا تلفَّف بها، فأُدغمت التاء في الزاي. وفي النداء بهذا الوصف وبوَصْف (المدَّثِّر) تأنيسٌ له وملاطفة، على عادة العرف في اشتقاق اسم للمُخاطَب من صفته التي هو عليها، كقوله ﷺ لعليٍّ حين رآه نائم وقد لصق بجنبه التراب: «قم يا أبا تراب»(١).

قال قتادة: المعنى: يا أيها المتزمِّل بثيابه المتلفِّف بها. وقال عكرمة: المعنى: يا أيها المتزمِّل بأعباء النبوة، المتحمِّل لأثقالها. فيكون مجازاً. وقال السُّدِّيّ: معناه: يا أيها النائم. وكان قد تزمَّل النوم(٢).

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩)، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) روى الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٦٧٦) قولَ قتادة وعكرمة، وذكر قولَ السديِّ القرطبيُّ في «تفسيره» (٤: ٣٧١).

وقيل: كان يتزمَّل بالثياب في أوَّل ما جاءَه جبريل لِـمَا يعتريه من أثر الرهبة حتى أنس به، كما رهب موسى عليه السلام من العَصا عندما رآها في أول مرَّة تنقلبُ حيَّة.

وإنما خُوطب بهذا الوصف في بَدْء الوحي، إذ لم يكن بلَّغ شيئاً بعد، ثم خوطب بعد ذلك بالنبيِّ والرسول.

وقيل: إنما خوطب به لأنه تلميح للنقد والتنشيط، مهَّد به لقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ وهذا تخييرٌ له ﷺ في أن يقوم نصفَ الليل أو أقلَّ من النصف أو أكثر، تمريناً له على تحمُّل المشاق، وإعداداً لِـمَا سيقوم به من أعباء الرسالة.

قال المفسِّرون في تفسير الآية: أو انقُصْ من النِّصف إلى الثلث، أو زِدْ على النِّصف إلى الثلثين.

وروي عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ الله تعالى افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبيُّ الله وأصحابُه، وأمسك اللهُ خاتـمتَها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة[1]. فصار قيام الليل تطوُّعاً بعد أن كان فريضة.

وأمره بترتيل القرآن في هذه الصلاة، فقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ وذلك بأن يقرأه على تُؤَدة وتبيُّن حروف وكلمات، بحيث يتمكَّن السامع من عدِّها، وذلك ليتمكَّن التدبُّر والشعور بالمعنى وتكمل المناجاة.

وقال ابن عباس: المعنى: بيِّنه بياناً[2]، واقرأه على هَيْنتِك؛ ثلاثَ آيات، وأربعاً وخمساً.

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٦٨١).

وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال: إنَّ المعنى: بيِّنه بياناً ولا تَهُذَّهُ[١] هذَّ الشِّعر، ولا تَنثُره نَثْرَ الرمل، ولكن اقرَعْ به القلوب القاسية، ولا يكونَنَّ همُّ أحدكم آخرَ السورة.

وروي عن أُمِّ سلمة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُقطِّعُ قراءَته آية آية[٢].

أقول: وبالجملة يكون المعنى: اقرأه بتُؤَدة وتبيُّن، مع حضور القلب، وكمال المعرفة، والشعور بما يفيده من المعاني والمقاصد، والفهم لِـمَا يريده من التدريب والتوجيه.

ثم علَّل الأمر بقيام الليل بقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ أي: فقيام الليل يُـؤَهِّلك للقيام به والاستعداد له؛ لأنه يؤهِّل النفس لإشراق جلال الله فيها، فتستعدُّ لكلِّ عمل عظيم مثل هذا.

والمرادُ من القول الثقيل: الأمرُ الجليل الخطير العظيم القَدْر والأثر، وهي النبوَّة وأعباؤها. وقيل: بل المراد به القرآن.

أما ثِقَلُه عليه ﷺ، فلِمَا فيه من تبليغ الرسالة، وردِّ الضَّالِّ إلى الهدى، وهو عِبْءٌ ثقيل؛ إذ يَلحقُه من جرَّاء ذلك أذىً كبير يجب أن يستعدَّ لِتَحمُّله، ففُرض عليه قيام الليل ومجاهدة النفس وترك الراحة والدَّعَة ليستَعِدَّ لذلك.

وأما ثِقَلُه على أُمته، فلِمَا فيه من الأمر والنهي والحدود. وهذا معنى قول قتادة ومقاتل والحسن[٣].

---

(١) الهذُّ: سرعة القطع وسرعة القراءة؛ هذَّ القرآن يهذُّه هذّاً، أي: يسرده. «لسان العرب» (هذذ).

(٢) رواه أبو داود (٤٠٠١)، والترمذي (٢٩٢٣) وقال: حسن صحيح غريب، وأحمد (٢٦٥٨٣) وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره.

(٣) ينظر «تفسير الطبري» (٢٣: ٦٨١).

وقيل: بل معنى ﴿ثَقِيلًا﴾: أنه لا يحمله إلا قلبٌ مؤيَّد بالتوفيق، ونفسٌ مؤيدة بالتوحيد.

ثم أكمل التعليل بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال مجاهد: أي: ساعات التهجُّد من الليل[١] ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ أي: أبلغ مشـقة، فإذا تدرَّبت عليها تدرَّبت على تـحمُّل المشاقِّ واستِسهالها؛ إذ هي أشدُّ وَطْئاً من غيرها، ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ أي: أعدل مقالاً وأسدُّها، بمعنى: أنها ـ وإن كانت شاقَّة على النفوس ـ فإنها أكثر موافقةً للقراءة والفهم والتـدبُّر، لفراغ البال، وانقطاع القلب عن الأشغال، فهي أنسب وأبلغ في ترويض النفس وتهيئتها.

وهذا هو مُؤَدَّى قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾ أي: إن مشاغلك في النهار ومذاهبك كثيرة، فإنك تشتغل فيه بتبليغ الرسالة ودعوة الخلق وتعليم الدين وإصلاح المعيشة لنفسك وعيالك، وفي الليل يَفـرُغُ قلبك للتذكُّر والتدبُّر والقراءة، فاجعل ناشئةَ الليل لعبادتك؛ لتأخذ بحَظِّك من خير الدنيا والآخرة، ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾ قال ابن زيد: أي: تَفَرَّغ لعبادته. وقال ابن عباس: أي: أخلِصْ له إخلاصاً[٢].

وقد أشار بقوله: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ إلى إبداع النظام الشمسي ودلالته على عَظَمة الخالق واختصاصه بالألوهيَّة، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾ أي: كِلْ إليه أُمورَكَ وتوكَّل عليه، فهو الذي يُعينك على أعباءِ مهمتك، ويساعدك على أعدائك، ويَخْذلهم عنك، فاصمُد لهم.

---

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٦٨٢).

(٢) المصدر السابق (٢٣: ٦٨٨-٦٨٩).

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ لك من التكذيب، ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ لا قطيعةَ فيه ولا شدَّة. وقيل: المراد به: إظهار المَوْجِدة عليهم من غير تَرْك دعوتهم إلى الحق. وقيل: بل المعنى: لا تقابلهم بمثل إساءتهم.

ثم توعَّدهم بهذا الوعيد الرهيب، فقال: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: اتركني وإيَّاهم، وقد وصفهم بقوله: ﴿أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾[1] تبكيتاً لهم على كفرهم بنِعَمِ الله عليهم، ومقابلتها بالتكذيب، إذ هم صناديد قريش ثروةً وجاهاً.

ثم طلب إليه أن يتحمَّل منهم، ويتريَّث في أمرهم، فقال: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾[2].

وقد مهَّد بهذه الجملة لهذا التهديد، فقال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ والنِّكْل: القيد الثقيل، ﴿وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ أي: ناراً حامية، ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ كالضَّريع والزَّقُّوم، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ اللهمَّ جنِّبناه يا أرحم الراحمين، ويكون ذلك كلُّه ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ وهو يوم القيامة. ثم أكمل الوصف بقوله: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ قال ابن عباس: تكون رَمْلاً سائلاً[3].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

وبعد أن هدَّدهم بأهوال القيامة، توعَّدهم بعذاب الدنيا، كما جرى على أمثالهم من الأُمم، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة بما يكون من

(١) أي: أصحاب التنعُّم بالأموال والأولاد.

(٢) أي: اتركهم برفق وعدم مبالاةٍ زمناً قليلاً.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٣٨٦).

أمركم، ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ۝١٦﴾ أي: شديداً ثقيلاً. فحذَّرهم سبحانه أن ينالهم مِثلُ ما نال فرعون وقومه.

ثم عاد إلى تخويفهم بأهوال القيامة مُفرِّعاً على ما تَقدَّم بقوله: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ أي: كيف تأمنون إن كفرتُم بربكم عذابَ يوم تَشيبُ منه الأطفال؟ وهو يوم القيامة.

ثم زاد سبحانه في وصف شدَّة ذلك اليوم، فقال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾(1) للصَّدْمة الهائلة التي تكون بين الأجرام. والله أعلم.

ثم ذيَّل ذلك بما يؤكِّده ويقرِّره، فقال: ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ۝١٨﴾.

ثم خَتَم السياق بما يَحُثُّ على الاهتمام بشأنه، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ الآياتِ المنطوية على القوارع المُفزِعة ﴿تَذۡكِرَةٞۖ﴾ لمن أراد أن يذَّكَّر، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩﴾ وذلك بالاتِّعاظ بهذه المواعظ، والتقرُّب إليه بالإيمان والطاعة، فإنها المنهاج المُوصِلُ إلى مرضاته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ۝٢٠﴾.

---

(١) ﴿مُنفَطِرُۢ﴾ أي: متشقِّق ﴿بِهِۦ﴾ أي: بسببِ هولِ هذا اليوم، وإنما جاء بصيغة المذكّر، ولم يَقُل: (منفطرة) لأنَّ السماء تُذكَّر باعتبارِها سقفاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

ثم عاد إلى الكلام عن قيام الليل الذي بدأ به السورة، على نهج القرآن في العودة إلى الموضوع إذا أراد أن يُتمَّه، أو يبحث فيه بحثاً مشبعاً، (كما جاء في الفقرة (و) من المادة الأولى من المقدمة الثانية)، وخاطب به نبيَّه ﷺ مُخفِّفاً حكم قيام الليل عن الصُّورة التي أوجَبَها في أول السورة، مُسْتَبدلاً الوجوب بالندب، وأدمَجَ فيه الباعث على ذلك التخفيف، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ من أصحابك يقومون كذلك.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ قال عطاء: أي: لا يفوتُه عِلمُ ما تفعلونه[1]، وقد ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ قال مقاتل: كان الرجلُ يُصلِّي الليلَ كلَّه مخافة أن لا يصيبَ ما أُمِرَ به من القيام. وقال غيره: بل المراد: لن تُطيقوا المداومة على قيام الليل، ويقع منكم التقصير فيه، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[2] قال الجُبّائي: بأن جعله تطوُّعاً ولم يجعله فرضاً. وقيل: بل المعنى: فخفَّف عنكم، ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: فصلُّوا ما تيسَّر من صلاة الليل، مِن ذِكرِ الجزء وإرادةِ الكُلِّ؛ لأن القراءة هي الجزء المهمُّ في الصلاة.

ثم عَلَّل ذلك التيسير بعلل داعيةٍ للتخفيف، فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ فهذه علّة، ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسافرون فيها للتجارة ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الربح، وهذه علّة ثانية، ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهذه علّة ثالثة. وكلُّها يَصعُبُ معها قيام الليل على الصُّورة المذكورة، وتقتضي التخفيف عنكم، ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ فأعاد الآية للتأكيد، وليقرن بها الأحكامَ المعوَّضة عن هذا

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ٣٧٧).

(٢) تضمَّنت الآية تقسيم مَنْ معه إلى طائفتين: طائفة تحتاط لتكميل الواجب كلَّ الاحتياط، وطائفة ليست بهذه المثابة، وربما فاتها شيء من الحد المعيَّن. وقد نظر إلى هذه في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾. والله أعلم. (المؤلف).

التخفيف. أي: صَلُّوا ما تَـتَمكَّنون من صلاة الليل من غير تحمُّل مشقَّة، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضةَ عليكم التي بُدِّلت صلاةُ الليل بها، وهي الصلوات الخمس، أو أقيموا جنس الصلاة أياً كانت؛ بأن تصلُّوها بحضور قلب وشعور بما تقولون وما تفعلون، ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة، ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ في صَدَقـات التـطوُّع والإنفاق في سبيل الخيرات. وقد مرَّ الكلام عن هذا القَرْض في سورة الحديد وسورة التغابن(١)، فارجع إليه.

ثم ذيَّـل السياق بقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ مما ذُكِـرَ في السياق وما لم يُذكَر، ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ قال ابن عباس: أي: هو أعظم أجراً من الذي تؤخِّره إلى وصيَّـتك عند الموت(٢). وقال الزجَّاج: هو خيرٌ لكم من متـاع الدنيا(٣). ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ في كافَّة أحوالكم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ لمن استغفرَ وتاب.

* * *

(١) في الآية ١١ من سورة الحديد، وفي الآية ١٧ من سورة التغابن.

(٢) «تفسير الرازي» (٣٠: ٦٩٥).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٤٤).

سورة المدثر

مكيَّة، وهي ست وخمسون آية

وهي من أوّليات القرآن نزولاً.

والغرض منها:

- استِنهاض النبيِّ ﷺ للدعوة.

- وإنذار المشركين بما ينتظرهم من العذاب إن لم يُجيبوا ما يُدعَوْنَ إليه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ (٥)
وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩)
عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ
شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُۥ
صَعُودًا (١٧)﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١)﴾[1] أصله: الـمُتدثِّر، أُدغمت التاءُ في الدال، وهو المتغطِّي

---

(١) ندبه إلى القيام بهذا الأمر، مستنهضاً له، ثم ذكر نموذجاً متفرقاً من هذا الإنذار، ليكون براعة استهلال عن طبيعة الشريعة التي أُرسِلَ بها، ثم ذكر الغاية من ذلك، وهي اتقاء عُسْر يوم القيامة وملابساته ومتابعاته.

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ جملة أُريد بها الاستنهاض والحض على التهيُّؤ لما قرن به من الدعوة إلى الدين الجديد ونشره بين الناس، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ عبَّر عن الدعوة بالإنذار اهتماماً به وشدة عناية بالتحذير، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ إجمال لناحية العقائد من الشريعة، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ إجمال لناحية الأعمال منها؛ لأن العرب تكنِّي بطهارة الثياب عن طهارة الأخلاق وزكاة النفوس، وذلك هو الغرض من نظام الشريعة الغرّاء، ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ إنّ رسول الله لم يعبد صنماً، ولكن الكلام تشريع عام، ولا يلزم من النهي عن الشيء التلبُّس به، ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ بيان خصلة عظيمة من هذه الشريعة، وهي أن يكون الإحسان بين الناس مجرَّداً عن شعور الترفُّع والاستعلاء، ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ في نشر هذه الشريعة وتحمُّل هذا العبء الثقيل، حتى تأمن أنت ومَنْ معك =

بالثياب عند النوم، يخاطب به النبيَّ ﷺ، وهو بمعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، فما قيل هناك يقال هنا.

وقيل: بل المراد به الحثُّ على الجِدِّ في الأمر، والقيام بما أُرسل به، وترك الهُوينا فيه، مأخوذ مما تقوله العرب: فلان لا ينام في أمره؛ إذا وصف بالجد. فناداه سبحانه بهذا الوصف استنهاضاً لهمَّته، بصورة من النقد اللطيف، وتمهيداً لقوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

ثم أردَفَ الأمر بالإنذار، وأتبَعَه بأخصِّ ما يشتمل عليه، فقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ والتكبير إنما يكون في عبادته، والمراد به: الشعور بعظَمَته وجلاله واستحقاقه لأن يُعبَدَ وحده، والتطهير من كل شرك جليٍّ أو خفيّ، وهو من أهم المبادئ التي أرادها سبحانه في هذا الإنذار.

ثم تابع البيان عنها، وأردَفَ التطهيرَ للقلب بالتطهير للبدن والثوب، أو التطهيرَ المعنويَّ بالتطهيرِ الماديِّ، فقال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ قيل: وذلك بتقصيرها، وهذا أول ما أُمر به من ترك العادات المذمومة؛ لأنهم كانوا يلبسون الثياب طويلة تُعفي آثارهم إذا مشوا، كما هي عادة بعض البدويين اليوم، فأمره بترك هذه العادة. وقيل: بل المراد: التنظيف مطلقاً؛ لأنَّ المروءة الظاهرة في الثياب النظيفة الطاهرة، وكان ﷺ يعتني

= يوم الفزع الأكبر الذي عبَّر عنه بقوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۞ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۞ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

ثم توعَّد المعارضين، وخصَّ الوليد بن المغيرة بالذكر، فقال: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: جعلته ممتازاً حتى لُقِّبَ بهذا اللقب [وهو «الوحيد»]، وأنعمتُ عليه بجليل النعم؛ فكفر بأنعم الله، ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ بأن أُنعم عليه في الآخرة أيضاً، ظناً بأن إنعام الله عليه في الدنيا لرضائه عنه، ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ فليس له في الآخرة إلا النار، والإنعام في الدنيا ليس دليلاً على الرضا، ولا محظوراً على الكافرين. (المؤلف).

وما بين حاصرتين إضافة مني للتوضيح.

بنظافة الظاهر، كما يعتني بنظافة الباطن. وقيل: بل المعنى: وعَمَلَك فأصلِح. قال السُّدِّيّ: يقال للرجل إذا كان صالحاً: إنه لطاهر الثياب(١).

وبعد أن أمره بتكبير الله وتوحيده، أمره بهَجْر الأصنام، على نهج القرآن في تقرير الأمر بالشيء، بالنَّهي عن ضدِّه، فقال: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والزهري: المراد بالرُّجْز: الأصنام والأوثان. وقال الكسائي: الرِّجز؛ بالكسر: العذاب، وبالضم: الصنم(٢).

أقول: وإنه ﷺ وإن لم يكن سَحَبَ ثوباً، ولا عبد وثناً؛ لأنَّ النهي عن الشيء لا يستلزم التلبُّس به، وإنما أمره بهذا الأمر ليكون حكماً من الأحكام التي أُرسِلَ بها إلى قومه، فهو خطابٌ للأمة في شخص النَّبيِّ ﷺ، من خطاب الخاصِّ والمراد به العموم، جارٍ على عُرْف التخاطب، حيث يُخاطَب الرئيس بما هو مطلوب من المرؤوسين.

ثم تابع الهدي والتأديب بقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ أي: لا تَمْنُنْ بعطائك على الناس مُسْتكثراً بما أعطيتَه، فأبطل ما كانوا عليه من الديانات والعادات. وكانوا يتفاخرون بالعطاء وإطعام الطعام، ويَتَباهَوْن ويَتَمدَّحون بذلك، فأمرهم أن يجعلوه لله لا للتباهي، فلا يَتَمدَّحون به، ولكنهم سيُمدحون عليه، وإن فعلوه لوجه الله فيحصلون على الأمرين معاً وبصورة أجمل.

ثم أمره بالثبات تجاه ما يناله من جرَّاءِ الدعوة للتوحيد والدين الجديد، فقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ أي: اصبِر على ما ينالك من المشقَّة، ومن أذى المشركين، في سبيل نَشْر ما عُهِدَ به إليك من الإنذار، ومن الدعوة إلى الله، واصبر على طاعة الله تعالى.

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ٣٨٠).

(٢) روى هذه الأقوال مع القراءة الطبري في «تفسيره» (٢٣: ١٢-١٣).

ثم علَّل الأمر بالإنذار بما تَضَمَّنه قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ فنفىٰ يُسْرَه تأكيداً لعُسْره عليهم، وإشعاراً بيُسره على المؤمنين، أو تمكيناً لما قبله، مُشْعِراً بأنَّ شدَّة ذلك اليوم عامة، ولا سيما على الكافرين. ومحصَّل الكلام: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى فيه عاقبة صبرك عليه.

والناقور: ما يُنقَـرُ به للتصوير والإيذان، بمعنى: إذا ضُرِبَ الجرس للإيذان بالقيامة، فيجوز أن يكون الكلام على الحقيقة، ولا يَعلَمُ صورة ذلك الناقور إلا الله؛ لأنه من عالم الغيب الذي لا يقبل القياس على ما في عالم الشهود[١]. ويجوز أن يكون الكلام على المجاز والتمثيل، يكنَّى به عن حدوث واقعة القيامة وما يتبعها، فيكون تمثيلاً مُنتَزعاً من حالة المُخاطَبين، وهي ضَرْبُ الجرس للتجمُّع والسَّعي له، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدِّمة السادسة).

ثم تابع الوعيد للكافر المعارض، فقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ قيل: نـزلت في الوليد بن المغيرة ـ أبي خالد بن الوليد ـ من عظماء قريش. قال ابن عباس: وكان الوليد يُسمَّى (الوحيد) في قومه[٢]، أي: لامتيازه. فيكون المعنى: جَعَلتُ له جاهاً عريضاً بين قومه، ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان له ما بين مكة والطائف صنوفٌ من الأموال، أعطاه الله إيّاها، ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ لا يغيبون عنه لِغِناهُم عن ركوب الأسفار البعيدة للتجارة كما هو شأن أهل مكة، وقد

---

(١) وهذا القول هو المعتمد الذي لا ينبغي أن يُعدَلَ عنه إلى غيره، أما القول الثاني فلا حاجة إليه مع إمكان الحقيقة، ولا قرينة تدلُّ عليه حتى يقوى على مزاحمة هذا القول.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ١٩).

أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام وعمارة، ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا (١٤)﴾ أي: سَهَّلتُ وبَسَطتُ له الرِّياسةَ والجاه العريض، حتى لُقِّب: ريحانة قريش والوحيد.

﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ﴾ وهذا تيئيسٌ وقَطْعُ أملٍ من تكميل الخير له، متضمِّناً للوعيد بسلب مالِه. وقد علَّله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا (١٦)﴾ قال ابن عباس وقتادة، أي: جَحُوداً[1]، فقد بدَّل نعمة الله كفراً. قالوا: وما زال الوليد بعد هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك.

ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ...﴾ ردّاً لِمَا كانوا يعتقدونه من أنَّ حظوظ الآخرة تَبَعٌ لحظوظ الدنيا، فمن كان ذا حظٍّ في الدنيا، فهو في حظٍّ في الآخرة. فردَّ عليه ذلك مُبيِّناً أنَّ حظوظ الآخرة تَبَعٌ لتعليم هذه الآيات والعمل بها، فمن كان مُعارِضاً لها ومُعانداً فلا حَظَّ له في نعيم الآخرة وسعادتها.

ثم تَوَعَّده سبحانه بقوله: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا (١٧)﴾ أي: في الآخرة. والإرهاق: الحَمْلُ على الشيء بالعنف. والصَّعود: العَقَبة الكؤود التي يَصعُبُ الصعود عليها، استعارها للعذاب الشديد. وعنه ﷺ: أنه «جبلٌ من نار يتصعَّد فيه الكافر سبعين خريفاً، ثم يهوي كذلك فيه أبداً»[2].

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ (٢٤) إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ (٢٥) سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ (٢٩) عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٢٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٧٦) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: حديث غريب.

وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

ثم بيّن صورةً من مُشاغَباته وعناده، فقال: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ ماذا يقول في شأن القرآن والمُشاغَبة فيه والصدِّ عنه، ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾ وهذا تعجيبٌ من تقديره وإصابته في غَرَضِه الذي يَنتَحيه في المشاغبة.

ويجوز أن يكون استهزاءً به وتهكُّماً بقوله الآتي، وقد كرَّر الجملة للمبالغة في ذلك، فقال: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾، والمقصود من كلمة ﴿ثُمَّ﴾ المبالغةُ في الدعاء عليه في الكرّة الثانية.

وقد روي في قصته هذه: أنه مرَّ بالنبيِّ ﷺ وهو يقرأُ «حمٓ السجدة»، فقال: «إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لَـمُثمِر، وإنَّ أسفله لَـمُغدِق، وإنه ليعلو ولا يُعْلى عليه»[1]. ثم غلبه عناده، فطلب ما يدفع عنه هذا الهاجس، والتَمَسَ ما يُوهي هذا النظر، كما حكى ذلك عنه سبحانه بقوله: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ قال الرازي: المعنى: أنه أولاً فكَّر، وثانياً قدَّر، وثالثاً نَظَر في ذلك المقدَّر، وهذه المراتب الثلاث متعلقة بأحوال قلبه[2].

ثم إنه تعالى وَصَفَ بعد ذلك أحوالَ وجهه المُنبئة عن حالته النفسية، فقال: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ يقال: عبـس؛ إذا قَطَّب ما بين عينيه، فإن اهتم لذلك وفكَّر فيه قيل: بَسَر.

---

(١) والطلاوة: اللطافة والجمال. والمغدق: الريان. (المؤلف). والقصة رواها الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٢٤).

(٢) «تفسير الرازي» (٣٠: ٧٠٦).

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان ﴿وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ قال الرازي: هذا يدل على أنه كان عارفاً في قلبه صِدْقَ محمد ﷺ، إلا أنه كان يكفر به عناداً وكِبْراً[١]، ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ أي: تُؤْثِره النفوس وتختاره لحلاوته، فهو شيءٌ خادع، يُشبِّه بذلك على نفسه وعلى الناس، ويقول: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ وليس من الله؛ يريد أنَّ محمداً ﷺ رجل ساحر البيان، وأنَّ ما يقوله سحرٌ في بلاغته، قويُّ التأثير، يفرِّق بين المرء وزوجِه، وبين المرء وعشيرته. واحتجَّ على ذلك بما أصاب أهل مكة من فرقةٍ وتخاذُلٍ وتَنَاحُر، بعد أن كانوا مَضرِبَ المثل في العصبيَّة وقوَّة الرابطة.

وذُكر في قصَّته وَجْهٌ آخر، وهو أنه لـمّا شاعَت الدعوة، واقترب موسم الحج على أثر ذلك، عَلِمَت قريش أنَّ الوفود من الحجَّاج لا بدَّ أن تسأل عن الأمر، وخشيت أن تَتأثَّر بالدعوة، فاجتمع نفرٌ منهم، وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة هذا، فدَبَّروا أن ينشروا بين الوافدين والقرشيين ما ذكر من التدبير، وهو أنَّ هذا الذي جاءَ به محمد هو من قوله، وقد وضعه بقوَّة ذَلاقةِ لسانه، حتى كان له تأثيرٌ على النفوس، فسَحَرَ به الناس وأدخَلَهم في زمرته. وقد قال الوليد لأتباعه: إنَّ لهذا القرآن لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإذا قلتُم فيه غيرَ ذلك فشلتُم، وانطلقت قريش في المواسم تُحذِّر الحاجَّ من الاستماع إلى هذا الرجل وسِحْرِ بيانه، حتى لا يصيبهم ما أصابَ مكة، فتكون فتنةً تَصْلى حَرَّها جزيرةُ العرب جمعاء.

فتوعَّده سبحانه على ذلك بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾، ثم هوَّل شأن سقر، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ والتلويح: تغييرُ اللون إلى

---

(١) «تفسير الرازي» (٣٠: ٧٠٦).

الحمرة والسواد، والبَشَر: جمع بَشَرة، أي: تجعل بشرة الإنسان سوداءَ حمراءَ من شدَّة الاحتراق. اللهمَّ عافِنا مما ابتليتَه يا أرحم الراحمين.

ثم ذكر الموكَّلين بها، فقال: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾، وقد احترس عمَّا يَرِدُ على هذا العدد القليل في الظاهر، من أنهم كيف يقدرون على تعذيب العدد العظيم من الخلائق، أو ما هو شأن تعذيب هذا العدد القليل لهذا الخلق العظيم، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ والمَلَكُ له قدرةٌ عظيمة ليست كقدرة البشر، ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ هذا العَدَدَ ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيهزؤون بحسب عُرْفهم من تولية هذا العدد القليل لتعذيب أكثر الثقلين. وفي هذا الجَعْل للفتنة إسناد الفعل إلى الله مُجَرَّداً عن السبب، مثـل: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، لأنَّ الضـلال صادرٌ بحسب سُنَّة الله العامَّة في أخلاق البشر؛ إذا فسدت بمفاسد التربية وحِطَّة التفكير وسوء القدوة، (كما جاءَ في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية)، فليس هذا الجَعْل مقصوداً ذاتياً من الله تعالى(١)، ولكنه ناتج بسنة الطبيعة وبمقتضى السنن الكونية، نتاج المسبَّب عن السبب.

ثم علَّل الجَعْل بقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾، وقد ذكروا لهذا الاستيقان وازدياد الإيمان وجهين:

الأول: أن هذا العدد لو كان من محمد ﷺ لَـمَا قاله، بل كان يذكر عدداً ضخماً دفعاً عن ورود مثل هذا الاعتراض واحتراساً له، فذِكرُ هذا العدد يدلُّ على أنه من الله.

---

(١) هو مقصود لله تعالى، لأنه لا يقع أمرٌ في الوجود إلا وقد أراده الله تعالى أن يقع، لكن من غير إجبار العباد عليه، لأن الله جعل لهذه الأمور أسباباً من اختيار العباد أنفسهم وميولهم، رتَّب سبحانه وتعالى إرادته على هذه الأسباب بحسب علمه الأزلي، فالله عز وجل يُريدُ فتنة الكافر إذا عَلِمَ أنه يميلُ إليه ويختارها، ويعدل عن طريق الهداية إليها.

والثاني: أنَّ هذا العدد قد جاءَ في التوراة، فلما ذُكِرَ في القرآن استيَقَنَ أهل الكتاب صِدْقَه، وازداد إيمانُ المؤمنين بتصديق أهل الكتاب له.

ثم أكَّد الاستيقانَ وازديادَ الإيمان بما ينفي كلَّ ما يعتري ذلك من شبهة، فقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال أبو السعود: وإنما لم يَنْظُمِ المؤمنين في سلك أهل الكتاب في نفي الارتياب، فلم يقل فيهما معاً: «ولا يرتابوا»، للتنبيه على تباين النفيين حالاً؛ فإن انتفاءَ الارتياب من أهل الكتاب مقارِنٌ لِـمَا ينافيه من الجحود، ومن المؤمنين مُقارِنٌ لِـمَا يقتضيه من الإيمان[1]. أي: فلا يجحده أهل الكتاب، ويقوى به إيمان المؤمنين.

ثم عطف على قوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾ قولَه: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكٌّ ونفاق، فيكون هذا إخباراً بما سيكون في المدينة بعد الهجرة من ظهورِ المنافقين وقولِهم فيه هم ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ المُصِرُّون على التكذيب: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾؟ وهذا القول هو المراد من الافتتان السابق.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ مصدر هذا الافتتان فيهم، إنما هو ضلالهم الناشئ من إفسادهم لطبيعتهم بمفاسد التربية وسُوءِ القدوة وحطّة التفكير، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي آثر التمسُّك بأسباب الضلال لإفساده لطبيعتـه، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي آثر التمسُّك بأسباب الهدى لمحافظته على سلامة فطرته.

ثم ردَّ على هؤلاء الضَّالِّين المفتونين استهزاءَهم بهذا العدد واستخفافَهم به، فقال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: فلم يجعل خَزَنَةَ النار تسعةَ عشرَ لقلَّة الجنود، ولكنَّ الحكمة اقتضت ذلك.

---

(١) «إرشاد العقل السليم» (٩: ٦٠).

وقال عطاء: معناه: وما يعلم عدَّةَ الملائكة الذين خَلَقهم الله لتعذيب أهل النار إلا الله[١]. وهذا القول منه مبنيٌّ على أنَّ العدد السابق إنها هو للتكثير لا للتحديد، أو هو للخَزَنة لا للمُعذَّبين؛ لأنَّ النار نفسَها بما فيها من أنواع العذاب التي لا تُحصى؛ كلها من جنود الله.

وبعد أن استطرد للكلام عن هذا العدد، تابَعَ الكلام عن سَقَر، فقال: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ أي: وما سَقَرَ إلا تذكرة وموعظة لهم، ليَتَجنَّبوا ما يستوجبون به ذلك.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

ثم أقسم سبحانه على إنجاز ما ذكره من الوعيد بسَقَر، فقال: ﴿كَلَّا﴾، وهذه الكلمة رَدْعٌ لمن أنكر، أو معناها: حقاً، ﴿وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ[٢] ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ والمعنى: إن البلايا الكبرى كثيرة، وسَقَرُ واحدة منها. وقوله: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ إما تمييز لـ﴿إِحْدَى الْكُبَرِ﴾ تأويلاً للوصف بالمصدر، أو حال منها. أي: فقد كبرت إنذاراً، أو كبرت مُنذِرة.

ووجه المناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه: أنَّ الذي جعل الليل والنهار خِلْفةً، وجَعَل لهما هذا النظام البديع المُحْكَم، الذي لا خَلَل فيه ولا اختلاف، كيف لا يجعل

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ٣٨٥).

(٢) على قراءة: (إذا دَبَـرَ)، بمعنى: أدبر، كـ: قَـبَلَ، بمعنى: أقبل، وقرأ كثيرٌ من القرّاء: ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ بإسكان الذال وفتح الهمزة، وبها نقرأ. (المؤلف).

وقراءة: (إذا أدبر) هي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كما في «الحجة للقراء السبعة» (٧: ٨٠).

سَقَرَ وخَزَنتَها على أحكم نظام وأتقنه، حافلة بها يستوعب تعذيب المستحقِّين أجمعين وإن كَثُروا؟!

ثم أبدل من قوله: ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ قولَـه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: إنها نذير لمن شاءَ منكم أنْ يتقدَّم إلى الخير باختيارِه أسبابَ الهدى، أو يتأخَّر عن ذلك بانحرافه عن تلك الأسباب واختياره أسبابَ الضلال. وقيل: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ خبر مقدَّم، و﴿أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ مبتدأ مؤخَّر، وهو وعيد بصورة تخيير؛ على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. وأقول: أما يدلُّ هذا التفويض على أن الإنسان مختار في تصرُّفاته؟!

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

ثم قرَّر ما تضمَّنه الكلام من أنَّ الجزاء بالخير والشر مُرتَّبٌ على ما يعمله الإنسان من أسبابها باختياره ومَحْض إرادته، وأجمَلَه فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ وهذا هو الناموس العام الذي يمشي عليه مصير الإنسان في الآخرة من السعادة أو الشقاء، بل وفي الدنيا أيضاً فـ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، والرهينة: بمعنى الرهن، كالشتيمة بمعنى الشتم.

ثم استثنى من أعمِّ الأحوال، أو من مضمون ما تقدَّم قوله: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لا ينجو أحد إلا أصحاب اليمين، فإنهم فكُّوا رقابهم من هذا الرهن بما أحسنوا من أعمالهم، فهم ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ متنعِّمين، ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ تباهياً بحالهم ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾، ويقولون لهم تبكيتاً وتنديماً: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾؟

فأجابوهم بجواب مِلْؤه الأسف والندم و﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ﴾ في الباطل ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴿٤٥﴾﴾ قال قتادة: معناه: كلّما غوى غاوٍ بالدخول في الباطل غَوَيْنا معه(١).

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴿٤٧﴾﴾ وهو الموت، وانكشف لنا الأمر، فعرفنا الحق من الباطل، بعد فوات الفرصة وانقضاء المدة، وشاهدنا الأمر بأعيننا، ونلنا جزاءَنا جزاءً وفاقاً.

وفي هذا الإسهاب في الجواب اتِّساق مع قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، وتفصيلٌ لأحد قسمَيْها، وكان مما يتناسب في تتمة كلامهم هذا أن يقولوا: وقد ضللنا بما كنا نعتقد من شفاعة الشركاء، ولكنهم لا يصرِّحون بذلك تخفِّياً من الفضاحة. فيذكره لهم سبحانه وتعالى بصيغة تهكُّم بهم وتقديم لهم، ويقول: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴿٤٨﴾﴾ أي: الذين كانوا يعبدونهم ليكونوا شفعاء عند الله.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴿٥٦﴾﴾.

وبعد أن شَرَحَ حالهم في الآخرة، عادَ إلى توبيخهم إرشاداً لهم، وقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴿٤٩﴾﴾ أي: فما لهم مُعرِضين عن التذكرة بما يكون من أمرهم في الآخرة.

ثم صوَّر إعراضَهم هذا بأشدِّ الصُّور وأهجَنها، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٣٧).

فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴿٥١﴾﴾ قال ابن عباس: القَسْوَرة: الأسد[١]. وقال الزهري: القَسْوَرة: جماعة الرُّماة[٢]. وعلى كلٍّ، فقد شُبِّهوا في إعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ والنذر وشِرادِهم عنه بحُمُر جَدَّت في نِفارِها مما أفزَعَها. وفي هذا المَثَل من ذمِّهم وتَهْجينِ حالهم ما لا يخفى.

ثم عطف على ما تَضَمَّنه الكلام من إنكارهم لنُبوَّة محمد، وما جاءَ من التبشير والإنذار، قولَه: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴿٥٢﴾﴾ ومحصَّل المعطوف عليه والمعطوف: أنهم لا يكتفون بتلك التذكرة، بل يُريد كلُّ واحد منهم أن ينزل كتاب باسمه، يأمره أن يؤمن بمحمد ﷺ. وبعبارة أخرى: أنهم لا يرضون بهذا الكتاب العام، بل يُريدُ كلُّ امرئ منهم أن يُؤْتى بكتاب خاصٍّ يدعوه لذلك. وهذا المعنى هو المرويُّ عن الحسن وقتادة[٣]، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقد ردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿كَلَّا﴾، ثم أعرَضَ عن حكاية تعلُّلاتهم إلى بيان حقيقة حالهم، فقال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴿٥٣﴾﴾.

ثم رَدَعهم عن حالهم هذا، وكرّر الإنذار، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴿٥٤﴾﴾ أي: إنَّ القرآن تذكرة لمن أراد أن يذَّكَّر، والأمر مَنُوط بالاختيار، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴿٥٥﴾﴾ وحاز سعادة الدارين. ومحصَّل الكلام: أنْ ليس من سُنَّة الله أن يُلزِمَ الدينَ إلزاماً، ولكن يوحيه وحياً، فيبلِّغه الرسول تبليغاً، فمَنْ شاءَ فليؤمن به، ومَنْ شاءَ فليكفر.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٤: ٤٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» عن ابن عباس وأبي موسى ومجاهد وعكرمة (٢٤: ٤٠).

(٣) المصدر السابق (٢٤: ٤٣) عن قتادة.

ثم أردَفَ هذا ببيان الحقيقة العامة في الإنسان، التي نَهَجَ عليها القرآن في بيان مثل هذه المواضيع، تحقيقاً لـمنشأ الضلال في المكذِّبين، وإيذاناً بأنه لم يكن عن قَسْر للإرادة، ولكن بمقتضى ما خَلَق الله الإنسان عليه من الاستعداد للنَّجْدَين واختياره فيهما، فقال: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يُمكنهم يذكرون إلا أن يطبِّقوا القانون الذي شاءَه الله في ذلك، وهو أن لا يفسدوا طبيعتهم بمفاسد التربية وسُوءِ القدوة والتقليد الأعمى، فعَبَّر بهذا عمَّا شاءَ سبحانه أن يخلق الإنسان عليه، وهو استعداده لأن ينطبع بأعماله الاختيارية وعقائده التقليدية التي يجري عليها، فإذا انطبع بذلك على الانقياد لأمر أو عقيدة، فَقَدَ استعداد النظر والبحث عن الصحة أو الفساد فيها، فهو لا يستمع إلى متكلِّم يخالفه، ولا إلى داعٍ يدعوه للتمييز بين الحقِّ والباطل، وإذا وَصَل إلى سَمْعه قولٌ مخالف لعقيدته لا يتدبَّره ولا يراه جديراً بالنظر والاعتبار.

وتحرير ذلك: أنَّ الله سبحانه قد شاءَ في خِلْقةِ الإنسان أن لا يبصر الخير من الشرِّ بمنظار صحيح، إلا إذا لم يُفسِد فطرتَه بمفاسد التربية والتقليد الأعمى، ولما كان هؤلاء قد أفسدوا فِطَرَهم أصبحوا لا يتذكَّرون بهذا القرآن ولا يُصْغُون إليه.

ثم ساوَقَ السياق، فذكر سبحانه نفسَه بهذين الوصفين، إيذاناً بمدلولهما، وخَتَم السورة بهما، فقال: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: هو سبحانه وتعالى أهلٌ لأن يُتَّقى، وأهلٌ لأن يَغفِرَ للمُتَّقين. أي: حقيقٌ بأن يُتَّقى وحقيقٌ بأن يغفر للمتَّقين الذي يذكرون فيؤمنون ويتَّقون؛ يغفر لهم جميع ما سلف منهم، كما يغفر للمتَّقين من عباده المؤمنين، إذا صَدَر عنهم من الهفوات ما لا يَسلَمُ منها أمثالهم. والله أعلم.

* * *

سُورَةُ القِيَامَةِ

مكيَّة، وهي أربعون آية

والغرض منها:

إثبات البعث وما يَتْبعه من حساب ثم ثواب أو عقاب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ ﴾.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[1] وإدخال (لا) النافية على فعل القَسَم شائع في كلام العرب، وفائدتها توكيد المُقْسَم عليه، أو الإيذان بأنه أوضَحُ من أن يحتاج إلى القَسَم، كما سيأتي عن أبي مسلم.

وفي القَسَم بيوم القيامة تحقيقٌ له، وتقريرٌ لوقوعه.

وفي القَسَم بالنفس اللوّامة تنبيهٌ إلى ما سيكون من نَدَم مُنكِره ولَوْم نفسه له عندما يرى وقوعَه ويبصره.

---

(١) الراجح في معنى القَسَمِ المنفيّ في الآيتين: أُقسم بيوم القيامة الذي يُبعث فيه الخَلْق للجزاء، ولكنه أمرٌ غيبيٌّ لا يُدرِكُ عظمَتَهُ منكرو البعث. وأُقْسِمُ بالنفس المؤمنة التقيَّة الناصحة التي تلومُ صاحبَها على تقصيره، وإن اجتهدت في الطاعة، ولكن هذه النفس اللوَّامة ضامرة هزيلة داخل الإنسان المنكر للبعث.

والذي أراه: أنَّ المراد بالنفس اللوامة: عموم أفراد النفس؛ لأنَّ النفس مطبوعة بخِلْقتها على لَوْم صاحبها عند إساءته أو تقصيره، وذلك هو المعبَّر عنه في علم النفس بتأنيب الضمير، ولا سيما إن كان قد بقي في الإنسان بقية من نور البصيرة والشعور باليوم الآخر، فاللومُ وصفٌ طبيعي للنفس.

أما المفسِّرون فقد اختلفوا في المراد من النفس اللوَّامة، وفي صورة لَوْمها؛ فقالت فرقة: هي نفس المؤمن، واللوم خاصٌّ بها، وهو من صفاتها المحمودة. وقال الحسن: المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسَه دائماً[1]، يقول: ما أردتُ بهذا؟ لمَ فعلتُ هذا، فإن غيره أَوْلى؟

وقال فرقة: هذا اللومُ يوم القيامة، كلُّ أحدٍ يلوم نفسه، إن كان مُحْسناً لامَها على عدم الازدياد من الإحسان، ليكون قد نال أعلى مما هو فيه من المنزلة، وإن كان مُسيئاً لامها على ما فعلت. وهي في ذلك نوعان: لوَّامة مَلُومة، وهي النفس الظالمة الجاهلة، يلومُها الله تعالى وملائكته. ولوَّامة غير مَلُومة، وهي التي لا تزال تلومُ صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذل جهده. وأشرفُ النفوس مَنْ لامت نفسَها في طاعة الله، واحتملت مَلامَ اللائمين في مرضاته تعالى.

وعلى كلِّ وجهٍ، فالمناسبة بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه ـ وهو الحشر والحساب ـ هي أنه سبحانه يحذِّر من لَوْمها لصاحبها يوم القيامة على إنكار البعث والنشور. والمُقْسَم عليه محذوف، أقام الجملةَ الآتية مقامَه، على نهج القرآن في مثله. والتقدير: إن البعث واقعٌ، والمُنكِر له سيلوم نفسه إذ ذاك.

وقال أبو مسلم في كلمة ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾: إنَّ (لا) هاهنا لنفي القسم البتة، كأنه قال: لا أُقسم عليكم بذلك اليوم وتلك النفس، ولكنِّي أسأل غير مُقْسِم: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٩٥٩).

﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾ أي: أنْ لن نُعيدَه إلى ما كان عليه، خَلْقاً جديداً، بعد أن صار رُفاتاً. فكنَّى عن البعث بجَمْع العظام، وقد أراد بلفظ الإنسان: الإنسان الكافر بالبعث بقرينة الحال، ولتحقّق الجنس ببعض أفراده، وذلك من خصائص اللغة.

ثم قال رداً لهذا الحُسْبان: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ على ما كانت عليه. قال الزجّاج والجُبّائي وأبو مسلم: أي: ومَنْ قدر على جمع صغار العظام، فهو على جمع كبارها أقدر[1].

أقول: وقد ظهر اليوم بنتيجة البحث العلمي أنَّ كل بَنانٍ في إبهام اليسرى لا يُشبهُ آخر بخطوطه، فلذلك خصَّه بالذكر؛ لأنَّ إعادته على ما كان عليه أدقُّ وأدلُّ على كمال القدرة. والله أعلم.

ثم أردَفَ الاستفهام الإنكاري على هذا الحسبان بالبيان عمّا يريده ويبغيه من وراء هذا الإنكار، فقال: ﴿بَلْ يُرِيدُ﴾ هذا ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافرُ المُنكِرُ لجمع العظام، يريد بهذا الإنكار ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾[2].

قال مجاهد والحسن وعكرمة والسُّدِّيّ: وهذا إخبارٌ منه تعالى أنه يريد أن يمضي قُـدُماً في المعاصي[3]، راكباً رأسه، لا ينزع منها ولا يتوب، فيعلِّل نفسَه بأنه لا حشر وحساب، فلِمَ يحرمُ نفسَه من ملاذِّ الفجور؟ أي: فهذا التحلُّل من القيود هو الذي

---

(١) ينظر «معاني القرآن» للزجاج (٥: ٢٥١).

(٢) قد يأتي (فَجَرَ) بمعنى: كذّب، من التكذيب، فيكون المعنى: يريد الإنسان الكافر بجمع العظام أن يُكذِّب مستقبله، وهو الحياة الثانية، فيسأل سؤال إنكار وتكذيب: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟ فيُجيبُه سبحانه بما يُقرِّر يوم القيامة من ذِكرِ وقائعه وأحواله، وحينئذ يجزع هذا المكذب جَزَعَه الآيس البئيس. (المؤلف).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٥٣).

يحمله على الإعراض عن مقرَّرات ربِّه، ويكفر بها، ولا يقرُّ بالبعث، ولا يذكر النشور، و﴿يَسْئَلُ﴾ استبعاداً واستهزاءً وإنكاراً ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝٦﴾[١]؟

يُكذِّب بذلك ليستسيغ المعاصي والميوعة في السلوك والأخلاق، ولكنه سيندم حين يشاهده عياناً، ويندهش ويتحيَّر، كما حكى ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧﴾ أي: اندهَشَ وتحيَّر مما يشاهد من أحوال القيامة، وأكثر الشخوص إلى تلك المشاهد خَوْفاً وهَلَعاً، ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨﴾ أي: ذهب ضوؤه، ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٩﴾ أي: جُمِعَ بين الكواكب المتباعدة وفيها الشمس والقمر، وذلك كلُّه نتيجة لاختلال النظام الشمسيِّ ضمن اصطِدام الأجرام السماويَّة وانحياز بعضها إلى بعض، فتكون كتلةً متجاذبة بحكم القُرب، ثم يكون بها ما يشاء سبحانه. والله أعلم.

فإذا كان ذلك ﴿يَقُولُ﴾ هذا ﴿الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ﴾ يأساً واستِسلاماً: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝١٠﴾؟ فيُجيبُه سبحانه بقوله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ والوَزَر: ما يُتحصَّنُ به أو يُستوزَرُ ويُستَنصَر، بمعنى: لا ملجأ من الله، بل ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾[٢] و﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾[٣] وما قدَّم: هو الأعمال، وما أخَّر: هو آثار الأعمال الباقية بعده، فيجازى على الإحسان حُسْناً، وعلى الإساءة سوءاً.

---

(١) الظاهر أن المجرم كالكافر يرى الحقَّ عند الموت، ولكنه سبحانه أراد به المبالغة في الإلزام والتهويل. (المؤلف).

(٢) أي: زَجْراً وردعاً، لا مَلْجأ لك ـ أيها الكافر ـ تلتجىء إليه، ولا شيء يعصمك من عذاب الله تعالى، إنَّ الحكم يوم القيامة بمكانِ استقرارِك في جهنم الذي سوف تستقرُّ فيه خالداً مُخَلَّداً هو إلى ربِّك، لا مُعقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه.

(٣) أي: يُخبَّر الإنسان يوم القيامة بكلِّ ما قدَّم قبلَ موتِه من عمل قد عمله، خيراً كان أو شرّاً، وبكلِّ ما لم يَعمَلْه من أعمال كان يجب عليه أن يعملَها، فأخَّرها وراءه في الحياة الدنيا، حتى وافته منيَّتُه، وانتهت ظروف امتحانه، وأقبلت مرحلة حسابه ومجازاته.

ثم أضرب عن ذلك إلى بيان أنه لا يحتاج أن يُنبِّه غيرُه ويُثبِتَ عليه أفعاله؛ لأنَّ نفسَه عالمةٌ شاهدة على فعله، فقال: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يومئذٍ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾ أي: حُجَّة بيِّنة. والجمع: بصائر، وهي الحجج التي يُتبصَّر بها على الأمور.

قال ابن عباس وعكرمة ومقاتل: إنَّ جوارحَه تشهد عليه بما عمل، فهو شاهدٌ على نفسه بشهادة جوارحه عليه[1].

وقال الأخفش: هذه الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، فإنَّ نفسه شاهدة عليه.

ومحصَّل ذلك ـ والله أعلم ـ أنه يشعر بكلِّ ما صَدَر عنه من خير أو شر، ويعلم بنفسه درجةَ استحقاقه للثواب أو للعقاب. وهذا هو معنى ما جاء في الأثر من أنَّ الحساب يكون في لمح البصر[2]، فيدرك الكافر استِحقاقَه للعقاب[3]، ولكنه يتشبَّث بالتنصُّل والاعتذار أو محاولة الإنكار، فلا يُجْديهِ ذلك نفعاً، ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾[4] وجادَلَ وأدْلى بكُلِّ حُجَّةٍ يعتذر بها.

---

(١) أقول: لما كانت النفس تتكيَّف بأعمال الخير فتزكَّى، وبأعمال الشر فتدسَّى، كانت كيفيَّتها شاهدة عليها، والله أعلم، كحال من ضيَّع نفسه في الدنيا، ومن اعتنى بها في التربية والتثقيف، فإن الفرق بين النفسين ظاهر، حال كلٍّ منهما شاهدة على صاحبها بما فعل وسلك. (المؤلف).
وقول ابن عباس رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٦٢).

(٢) سبق تخريجه (١: ٦٠٩).

(٣) ليس الحساب هو إدراك العبد لعمله وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب، بل هذا الإدراك جزء منه، والحساب أعمُّ من ذلك، لأنه يتضمن الملامة والتقريع أو الستر أو العفو، كما يتضمن مناقشة ومحاورة، مع بيان الأعذار من عدمها، ونحو ذلك.

(٤) ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾: جمع مَعذِرة على غير قياس؛ لأن مَعذِرة تجمع على: مَعاذِر، بدون ياء، فزيادة الياء =

فإذا فعل ذلك محاولاً إنكار بعضه قيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أي: علينا بحكم الوعد أن نُحصيَه ونجمعَه ونقرأه عليك، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ عليك ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ أي: فتَتبَّع قراءتَه عليك فعلاً فعلاً، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ وإثباتَه إنْ زعمتَ أنك لم تفعله، كلَّه أو بعضَه. وهذا ملخَّص ما قاله القفَّال والبلخي.

وقيل: بل المعنى أنه يؤتى كتابَه، فيَتَلجَلَجُ لسانُه من سُرعته في قراءته خوفاً، فيقال له: ﴿لَا تُحَرِّكْ....﴾.

وقيل: بل هذا الكلام اعتراضٌ وانتقالٌ خُوطِبَ به النَّبيُّ ﷺ، حيث كان يتعجَّل على الوحي في القراءة حرصاً منه عليه.

والمعنى الأول أكثر ملاءمةً للسياق، والثاني لا يخالف أساليب القرآن؛ لأنه بينما يكون مُجْرياً الكلام في أمر، يلتفت فيُجريه على آخر يقتضيه الموضوع أو الحال، فيكون المراد به تطميناً للرسول ﷺ بأنه سبحانه كفيلٌ أن يلقي في حفظ الرسول هذا القرآن، لا يفوته منه شيء، على حدِّ قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم أردَفَ هذا السياقَ المتضمِّن لإثبات الحشر ودقَّـة المناقشة في الحساب، أردَفَه

= خروج على القياس للمبالغة. أي: لو أحضرَ وبسطَ أعذارَه وحُجَجَه لتسويغ ما كان من التقصير أو العصيان. ومعنى الآية: بل الإنسان كثير البصر والمعرفة بمرادات نفسِه وأهوائها وشهواتها ونيّاتها، وسائر ما يصدر عنها، ولو ألقى حُجَجَه الكاذبة، وأقواله التي يحاول بها تبرئةَ نفسِه، وستر ذنوبه.

بِرَدْعِ البشر عن اهتمامهم كلَّ الاهتمام بالدنيا، وإهمالهم لأمر الآخرة، فقال: ﴿كَلَّا﴾ لم يكن الأمر كافياً، ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾ أي: الدنيا. وهذا معطوف على ما تضمَّنه الكلام السابق، على نهج القرآن في مثله. أي: حقاً إنكم لا تهتمُّون لِـمَا هو أمامكم من دقَّـة المناقشة والحساب، بل تُحبُّون الدارَ العاجلة، وتخلدون إليها، ﴿وَتَذَرُونَ﴾ الدار ﴿ٱلْآخِرَةَ ۝٢١﴾ على ما فيها من شأن مهمّ ووعيد، بيَّنه بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ قال ابن عباس والحسن: ناعمةٌ بهيجة[1]، وقال مجاهد: مسرورة. و﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾.

وقد اختلف في هذا النظر على وجهين:

أحدهما: أن معناه نظر العين حقيقةً أو مجازاً؛ أي: إلى نعيم ربِّها.

والثاني: أن المراد به: الانتظار لثواب ربِّها الجزيل، فيكون معناه: التوقُّع والرجاء، وهو المرويُّ عن أكثر الصحابة والتابعين، كما تقول: أنا أنظر إلى فلان، أي: أُؤمِّل إحسانَه وعطاياه[2].

---

(١) رواه عن ابن عباس ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠ : ٣٣٨٧).

(٢) ليس بصحيح أنَّ التفسيرَ الذي نقلَه مَروِيٌّ عن أكثر الصحابة، بل لا يصحُّ ذلك عن أحدٍ منهم، بل لا يصحُّ عن أحدٍ من التابعين فيما قيل إلا عن مجاهد، كما ذكر ذلك الشوكاني في «فتح القدير» قال: ... وقيل: لا يصح هذا (أي: التفسير المذكور) إلا عن مجاهد وحده. انتهى.
وإنما معنى الآية هو الرؤية التي يُنكِرها المعتزلة ومَن وافقهم.
قال الإمام ابن كثير: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تراه عياناً، كما رواه البخاري، رحمه الله، في صحيحه: «إنكم ستَرَون ربكم عياناً».
وقد ثبتَت رؤية المؤمنين لله عزَّ وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عندَ أئمّة الحديث، لا يمكن دَفعُها ولا منعها... ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطُرقِها وألفاظِها من الصحاح والحِسان والمسانيدِ والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مُفرّقاً في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق. وهذا بحمدِ الله مُجمَعٌ عليه بين الصحابة والتابعين وسلف =

= هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهُداة الأنام. ومَن تأوَّل ذلك بأنَّ المراد بـ﴿إِلَىٰ﴾ مفرد الآلاء، وهي النِّعم، كما قال الثوريّ عن منصور عن مجاهد: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فقال: تنتظر الثواب من ربِّها. رواه ابنُ جرير من غيرِ وجهٍ عن مجاهد. وكذا قال أبو صالح أيضاً ـ فقد أبعدَ هذا القائل النجعة، وأبطلَ فيما ذهب إليه.

وأين هو مِن قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] قال الشافعي رحمه الله: ما حجب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل. ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. اهـ.

وقال ابن عبد البر في «التمهيد»: قول مجاهد هذا مردودٌ بالسنة الثابتة عن النبي ﷺ وأقاويل الصحابة وجمهور السلف، وهو قولٌ عندَ أهل السنة مهجور، والذي عليه جماعتهم ما ثبت في ذلك عن نبيهم ﷺ، وليس من العلماء أحد إلا وهو يُؤخَذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ، ومجاهد وإن كان أحد المقدَّمين في العلم بتأويلِ القرآن فإن له قولين في تأويله اثنين هما مهجوران عند العلماء مرغوب عنهما، أحدهما هذا، والآخر قولُه في قول الله عز وجل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. قال: يوسِّعُ له على العرش فيُجلسه معه. وهذا قولٌ مُخالِفٌ للجماعةِ من الصحابة ومَن بعدَهم، فالذي عليه العلماءُ في تأويل هذه الآية أنَّ المقامَ المحمودَ الشفاعة. اهـ.

وقال ابنُ حجر في «فتح الباري»: قال البيهقي: وجهُ الدليل من الآية أنَّ لفظ: «ناضرة» الأول بالضادِ المعجمة الساقطة من النضرة بمعنى السرور، ولفظ: «ناظرة» بالظاء المعجمة المُشالة؛ يحتمل في كلام العرب أربعة أشياء: نظر التفكر والاعتبار؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، ونظر الانتظار؛ كقوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٤٩]، ونظر التعطف والرحمة؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧]، ونظر الرؤية؛ كقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]، والثلاثة الأُوَل غيرُ مُرادة؛ أما الأول: فلأنَّ الآخرةَ ليست بدار استدلال، وأما الثاني: فلأن في الانتظار تنغيصاً وتكديراً، والآيةُ خرجت مخرج الامتنان والبشارة، وأهلُ الجنة لا ينتظرون شيئاً لأنه مهما خطرَ لهم أتوا به، وأما الثالث: فلا يجوز لأن المخلوق لا يتعطَّف على خالقه، فلم يبق إلا نظر الرؤية، وانضمَّ إلى ذلك أن النظر إذا ذُكِرَ مع الوجه انصرفَ للعينَين اللتَين في الوجه؛ ولأنه هو الذي=

والبعض يرىٰ أن رؤية الله سبحانه ممكنة في الآخرة. وهذا رأيٌ ضعيف[1]؛ لأن قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] نصٌّ في عدم الرؤية، ويُؤيِّده قوله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فهو نصٌّ بنفي الاستغراق[2].

= يتعدّى بـ «إلى»؛ كقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ [محمد: ٢٠]. وإذا ثبت أنّ: «ناظرة» هنا بمعنى «رائية» اندفعَ قولُ مَن زعم أنَّ المعنى: ناظرة إلى ثواب ربها؛ لأن الأصل عدم التقدير. وأيَّد منطوق الآية في حقِّ المؤمنين بمفهوم الآية الأخرى في حق الكافرين: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] وقيَّدها بالقيامة في الآيتَين إشارةً إلى أن الرؤية تحصلُ للمؤمنين في الآخرة دون الدنيا. انتهى ملخصاً موضحاً.

وقد أخرج أبو العباس السرّاج في «تاريخه» عن الحسنِ بن عبدِ العزيز الجروي ـ وهو من شيوخ البخاري ـ: سمعتُ عمرو بن أبي سلمة يقول: سمعت مالك بن أنس، وقيل: له يا أبا عبد الله؛ قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يقول قوم: إلى ثوابه؟ فقال: كذبوا؛ فأين هم عن قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾. اهـ. والله أعلم.

(١) بل هو رأي قوي، لثبوتها في عدّة أدلة من الكتاب والسنة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة.

(٢) رؤية الله تعالى ثابتة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أما الإحاطة والإدراك فهما مَنفيّان عن الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

قال ابن تيمية: نفيُ الإدراك الذي هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء، ولم يَنفِ مجرَّدَ الرؤية، لأن المعدوم لا يُرى وليس في كونه لا يُرى مدح، إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحاً، وإنما المدح في كونِه لا يُحاط به ـ وإن رُئي ـ كما أنه لا يحاط به ـ وإن عُلِم ـ فكما أنه إذا عُلِمَ لا يُحاط به علماً، فكذلك إذا رُئيَ لا يُحاط به رؤية، فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحاً وصفة كمال، وكان ذلك دليلاً على إثبات الرؤية لا على نفيها، لكنه دليل على إثباتِ الرؤية مع عدمِ الإحاطة، وهذا هو الحقُّ الذي اتفقَ عليه سلفُ الأمّةِ وأئمّتها». انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر: «نفيُ الإدراك لا يَستلزِم نفيَ الرؤية لإمكانِ رؤيةِ الشيء من غير إحاطة بحقيقته». انتهى. =

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مُحتَمِلٌ لعدَّة معانٍ، وفي أصول الفقه: إذا تعارض النصُّ والمُحتَمِلُ يُحمَلُ الثاني على الأول. والله أعلم.

ويقول المنكرون للرؤية: إنَّ الأخبار المرويَّة فيها إنما يُريد بها العلم الضروري الذي لا يشوبُه شبهة(١). والرؤية بهذا المعنى مشهورة في اللغة.

= وأما الاستدلالُ بقولِ الله تعالى لموسى: [﴿لَن تَرَىٰنِي﴾]، أي: في هذه الدنيا.

وقد تقدَّم قول الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قال أهل التفسير: يقول موسى: أنا أوّلُ مَن آمن بك أنه لا يراكَ أحدٌ من خلقِك إلى يوم القيامة.

وروى الحاكمُ في «مستدرَكِه» - وصحَّحه ووافقه الذهبيّ - عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ موسى بن عمران لـمّا كلّمه ربُّه أحبَّ أنْ ينظرَ إليه، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾.

فحفَّ حول الجبل الملائكة، وحفَّ حولَ الملائكة بنار، وحفَّ حولَ النار بملائكة، وحفَّ حولَ الملائكة بنار، ثمَّ تجلى ربك للجبل، ثم تجلى منه مثل الخنصر، فجعلَ الجبل دكّـاً، وخرَّ موسى صَعِقاً ما شاء الله، ثم إنّه أفاق، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] يعني: أولَ مَن آمن مِن بني إسرائيل.

فرؤيةُ الله تعالى لا تكونُ في الدنيا ولا تصحّ لأحد، وإنما تكون في الآخرة للمؤمنين خاصّةً دون الكافرين.

قال الحافظ في «الفتح»: «لأنَّ أبصارَ المؤمنين في الآخرة باقية؛ فلا استحالةَ أنْ يُرى الباقي - وهو الله تعالى - بالباقي أعين المؤمنين؛ بخلافِ حالةِ الدنيا؛ فإنَّ أبصارَهم فيها فانية؛ فلا يُرى الباقي بالفاني». والله تعالى أعلم.

(١) أحاديث الرؤية قد بلغَتْ حدَّ التواتر، مع ما جاءَ في ذلكَ من أدلّة القرآن المجيد، وقد اتفق أهل السنة عليها. =

ثم ذكر الصنف الثاني، فقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: شديدة العبوس والخوف؛ لأنها ﴿تَظُنُّ﴾ أي: تَعلَم وتتوقَّع ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي: داهية تكسِرُ فَقَارَ الظهر، يكني بذلك عن شدَّتها. ومن خصائص اللغة: التعبير بالظنِّ في موضع العلم اليقيني[1].

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾

= قال الإمام ابنُ كثير عندَ تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]: «قد ثبتَتْ رؤيةُ المؤمنين لله عزَّ وجلَّ في الدارِ الآخرة في الأحاديث الصِّحاحِ من طُرُقٍ متواترة عندَ أئمَةِ الحديث، لا يُمكِنُ دفعُها ولا مَنعُها. ـ وذكر طرَفاً منها، ثم قال: ولولا خشية الإطالة لأورَدنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصِّحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرَّقا في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق. وهذا بحمد الله مُجمَعٌ عليه بين الصحابة والتابعين وسلفِ هذه الأمة، كما هو متَفَقٌ عليه بين أئمة الإسلام وهُداة الأنام» اهـ.

وقال الإمام النووي: «اعلم أن مذهبَ أهل السنة بأجمَعِهم أنَّ رؤية الله تعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا أيضاً على وقوعها في الآخرة، وأن المؤمنين يرَون الله تعالى دون الكافرين، وزعمَتْ طائفة من أهلِ البِدَع؛ المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة أنَّ الله تعالى لا يراه أحدٌ من خلقه، وأنَّ رُؤيتَه مستحيلة عقلاً، وهذا الذي قالوه خطأٌ صريحٌ وجهلٌ قبيح، وقد تظاهرَت أدلةُ الكتابِ والسنَّةِ وإجماع الصحابة فمَن بعدَهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين، ورواها نحوٌ من عشرينَ صحابياً عن رسول الله ﷺ، وآياتُ القرآن فيها مشهورة، واعتراضاتُ المبتدعةِ عليها لها أجوبةٌ مشهورة في كتب المتكلمين من أهل السنة، وكذلك باقي شُبَهِهم، وهي مُستقصاةٌ في كتب الكلام، وليس بنا ضرورة إلى ذِكْرِها هنا» اهـ.

(١) الأرجحُ إبقاءُ الظنِّ في الآية على معناه الأصلي. ومعنى الآية: تظُنُّ ـ وهي في موقف الحشر ـ أن يُفعل بها أمرٌ عظيم، وشرٌّ كبير من العذاب؛ لبقاءِ أملٍ ضعيف بأن يَجعلَ الله لهم مَخرَجاً من العذاب، باستئناف رحلةِ امتحانهم، أو يجعلَهم تراباً.

أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم أكمل السياق ببيان حالهم عند النَّزع، فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ارتَدِعوا عن إنكاركم للحَشْر والحساب، أو حسبانكم أنكم على أمانٍ في كل باب، والمعنى: ارتَدِعوا عن إيثار العاجلة على الآخرة، وتَنَبَّهوا لِـمَا بين أيديكم من الموت الذي ينقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة من العلاقة، ويكون ذلك ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ الروح ﴿التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: العِظامَ المكتنفة بالحلق؛ يكنّي بهذا عن الإشفاء على الموت، ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾؟ قال أبو قلابة والضحّاك وقتادة: أي: قال مَنْ حَضَره من أهله: هل مِنْ رَاقٍ؟ أي: طبيبٍ شافٍ يرقيه ويداويه، فلا يجدونه(١).

وقد استعمل الرقية على عرف العرب إذ ذاك؛ لأنهم يفعلونها للمريض ويعتقدون بها، فالآية تصويرٌ لليأس منه، أكمَلَه بقوله: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ أي: وتَيقَّن أنه الموت لا محالة، ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ قال قتادة: أي: فلا يزال يمدُّ إحدى رجلَيْه ويُرسِلُ الأخرى من شدَّة الاضطراب(٢)، وهي حالةٌ لبعض الأموات. أو المراد: تعطيل حركة الساقين بالموت وتقاربهما. وقيل: هو تمثيل لبلوغ الشدَّة أقصاها(٣).

ثم تَـمَّمَ البيان بهذا الوعيد، فقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾(٤) فيَرى حسابَهُ وجزاءَه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٧٥).

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٧٩).

(٣) وهو الراجح ـ والله أعلم ـ أي: اجتمعت شدَّةُ مفارقةِ الدنيا مع شدَّة إقبال الآخرة.

(٤) أي: إلى حكم ربِّك ـ وحده ـ يوم القيامة مرجع العباد، يُساقون إليه؛ ليفصل بينهم.

ثم ذكر شيئاً من حال هذا الكافر التي استحَقَّ بها عذابَ الآخرة، فقال: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ بالدين، ﴿وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ عمّا جاء به الرسول، ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ مُتكبِّراً زاهِياً مُختالاً على هذا الإعراض والتكذيب، كأنه فاز بالفلاح.

فتوعَّده سبحانه بقوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾، وهي في اللغة كلمةُ تهديد ووعيد، ومعناه: وَلِيُّكَ المكروهُ، وَلِيُّكَ المكروه. وصيغة التعبير تُؤذِنُ بالتهويل. وقال قتادة: هذا وعيدٌ على وعيد[1]. ومعناه: وَلِيُّكَ الشرُّ في الدنيا وَلِيُّكَ، ثم وَلِيُّكَ الشرُّ في الآخرة وَلِيُّك.

ثم أعاد الإنكار على إنكارهم البعث، وقرَّر إثباتَه بدليل آخر، على نهج القرآن في إعادة الكرَّة عندما يريد إشباعَ البحث عن شيء، فقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ أي: مُهمَلاً لا يُؤمَرُ ولا يُنْهى، ولا يُكلَّف في الدنيا، ولا يُحاسَب بعملِهِ في الأخرى. وقد ألـمع بالكلام على إثبات ذلك وتحقيقه، ومرماه: أنَّ الله تعالى قد خلق الإنسان على أحسن الصُّور، وأعطاه عقلاً وروحاً ميَّزه بها عن سائر الحيوانات، أفيكون ذلك بدون تكليف في الأعمال، ولا غاية جليلة تنتهي إليها الفعال، ويكون مصيرُه مصيرَ الحيوان الأعجم؟! ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

ثم لما كان هذا الحُسْبان منطوياً على إنكار البعث، تَصَدَّى لإثباته، ودلَّل بأطوار الخِلقة على ثبوت الإعادة والقدرة عليها، فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾[2] والنطفة واحدة، ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٨٢).

(٢) أثبت العلم أن من المعتاد أن يُفرِزَ مبيضا الأنثى بويضةً واحدة كل شهر، وتُفرز خلايا السائل المنوي كـلَّ مرة عند معظم الرجال كميات هائـلة تبلغ ملايـين الخلايا المنوية، وشكلها يشبه =

عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾؟ أي: أليس مَنْ قدر على هذا التطوير في الابتداء، قادراً على البعث والإحياء؟ بلى ونحن على ذلك من الشاهدين.

وفي هذا السياق إيذانٌ بأن الحياة الثانية امتداد للأولى وتتمة، وقال ﷺ: «لتَموتُنَّ كما تَنَامون، ولتُبعَثُنَّ كما تستيقظون، ولتُجزَوُنَّ بالإحسان إحساناً، وبالسُّوء سوءاً»(١).

* * *

= شكل العلق، وأحد هذه إذا استطاع الوصول إلى بُويضة الأنثى، يندمج فيها، ويُكوِّنان خليةً كاملة، ولا تزال تنقسم حتى تصبح ملايين ملايين الخلايا. وهذه هي الخطوة الأولى لتكوين الجنين. والسائل المنوي الذي يصدر من الرجل يحمل صبغيات أنثوية وذكرية معاً، بنسبة متساوية فيما يبدو. فإذا كان الحيوان المنويّ الواحد الذي يخصب البويضة يحوي صبغيات أنثوية كان الجنين أنثى، وإذا كان يحوي صبغيات ذكرية كان الجنين ذكراً. جلَّت قدرة العلي القدير. (المؤلف).

(١) سبق تخريجه (٣: ٣٢٠).

سُورَةُ الإنسَانِ

وتُسمَّى أيضاً: سورة الدهر

مكيَّـة، وهي إحدى وثلاثون آية

والغرض منها:

بيان أثر الشرائع في رِفْعةِ الإنسان وكماله، وما يناله من السعادة.

وقد اقتضى هذا الغرض الترغيب والترهيب بأحوال الآخرة وتفصيل النِّعَم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن
نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا
﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ
كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾[1] وهذا الاستفهام للتقرير، ولذلك فُسِّر بـ«قد»، وعلَّق البخاري فقال: و(هل) تكون جَحْداً وتكون خبراً، وهذا من الخبر[2].

ومفاد الآية يظهر مما قاله علماء الجيولوجيا من أنَّ عمر الشمس يقدَّر بنحو خمسة ملايين مليون سنة، وبأن عمر الأرض يقدَّر بنحو ألفي مليون سنة، وعمر الحياة

---

(١) ذكر سبحانه خِلْقةَ الإنسان الابتدائية وما فيها من إيجاد بعد عَدَم، ثم ذكر الخِلْقة التناسليَّة وما فيها من إبداع وحكم، مُلْمعاً بذلك إلى أنَّ الإعادة خلقة أخرى لها من النظام ما هو به أعلم، ينكر بهذا كلِّه على المنكرين. وقد سبك بيان الخلقة الثانية على ما هو الغرض منها في الإنسان من الكمال والسعادة إذا تمسَّك بالتعاليم الإلهية، ومن التَّسفُّل والشقاء إذا تنكَّب عنها واتَّبع هواه وكان أمره فرطاً. ثم ذكر صوراً رائعة من سعادة المؤمنين في الحياة الأخرى، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. ثم ختم ذلك الوعد الجليل بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين. (المؤلف).

(٢) «صحيح البخاري» (٦: ١٦٤).

عليها يقدَّر بنحو ثلاثمئة مليون سنة، وعمر الإنسان عليها يقدَّر بنحو ثلاثمئة ألف سنة، فوجود الإنسان متأخِّر جداً بنسبة تلك المخلوقات، لأن الإنسان آخر مخلوق على وَجْه الأرض بعد سائر أنواع الحيوان، عندما أخذت الأرضُ كمالَهَا من أدوار التكوُّن وقابلية الحياة عليها، واستكملت مواهبُها وخصائصُها، وصَلَحَت لوجود هذا المخلوق. والله أعلم.

وبعد أن ذكر تأخيره في الإيجاد، ذكر تكميله في الإبداع، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط، بمعنى: مختلفة المواد المركبة منها؛ لأنَّ كلَّ نوع يمُتُّ إلى عضو أو فرع منه بصلة. والله أعلم.

وإنَّ جسم الحيوان المنوي يحمل الصفات الذاتيَّة من الأبوين والأجداد القريبين أو البعيدين، وينقلها إلى الولد، كلون البشرة، وتقاسيم الوجه، ولون العينين، والصوت، وطريقة المشي، والذكاء، مثلاً. فهو يَنْزِع إلى أحد الأجداد وإن بَعُدَ، فيُشبهه بشيءٍ لا يُشبهُ فيه أُمَّه أو أباه، وبذلك تختلف الأولاد مُختَلَفَ صفات.

أما قوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ فقد قال ابن عباس: المراد به: تصريفه في بطن أُمه نطفةً ثم علقة... إلخ[1]، وقال بعض المفسِّرين: المراد به معناه الحقيقي، والكلمة حال، بمعنى: مريدين ابتلاءَه واختباره[2]، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾[3] أي: بليغاً في سمعه

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٩٠).

(٢) وهو القول الصحيح، ويدلُّ عليه قوله تعالى في أوَّلِ سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]. فالحكمة من خلق الإنسان: الابتلاء والامتحان، وقد منحه الله سبحانه الإرادة الحرة؛ ليمتحنَه في الحياة الدنيا بالإيمان والإسلام والعبادة.

(٣) أي: من أجل تحقيق الابتلاء والامتحان في الحياة الدنيا منحناه وسائلَ المعرفة، وهي: السمع =

وبصره، يُدرك بها الأشياء إدراكاً دقيقاً، إذا رُوِّضا ودُرِّبا على ذلك، ليحصلَ على المراد، وليتمكَّن من تلقِّي الإرشاد؛ لأنَّ مصيرَه غيرُ مصير الحيوان الأعجم بعد الممات.

و﴿إِنَّا﴾ قد ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ إلى الـهُدى والرَّشاد بفطرته، وبإرسال الرسل لهدايته، وهو مختار في الأخذ لهذه الهداية، ﴿إِمَّا﴾ أن يأخذ بها فيكون ﴿شَاكِرًا وَإِمَّا﴾ أن يُعرِضَ عنها فيكون ﴿كَفُورًا ۝٣﴾. وهذا التصريح بأن الإنسان مختار في تصرُّفاته؛ لأنه فوَّض الأمر إليه بعد أن هداه السبيل.

وتوضيح البيان: أنَّ الله سبحانه خَلَقَ للإنسان عقلاً يتصرَّف في أنواع شعوره ومختلف حاجاته البدنيَّة والنفسيَّة، وجَعَل ارتقاءَه في إدراكه وأفكاره كَسْبياً؛ ينشأ ضعيفاً، فيَقْوى بالتدريج، ويتطوَّر حسب لون التربية التي يتربَّاها، والتعليم الذي يتلقَّاه، ونوع الخُلطاء الذين يتهيَّئون له. وجَعَل سبحانه ـ بحسب حكمته ـ هدايةَ الدين واهتداءَه به أمراً اختيارياً، لا وَضْعاً اضطرارياً. فالهدايةُ معروضةٌ أمامه، يأخذ منها أو يُعرِضُ عنها، وذلك بحسب نوع التهذيب والتثقيف الذي يصادفه، وبقدر ذلك التوجيه يزداد وينقص كَسْبُه من الهداية أو الضلال، كما هو شأنه في الأخْذ بسائر أنواع الاستفادة من منافع الكون أو مضارِّه، ومعاطاة المصالح أو المفاسد.

وقد قال قتادة والزجَّاج: معنى الآية: بيَّنّا له طريقَ الخير والشر ليختار إما السعادة وإما الشقاء[1].

= والبصر؛ ليستكملَ شروطَ الامتحان الأمثل، وذلك حتى يتعرَّف بهذه الوسائل على الأدلة التي بثَّها الله في كونه، وحتى يستطيع إدراك وصايا الشرائع والتعاليم الربَّانيَّة التي ينزلها الله للناس.

(١) ينظر «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٥٧).

وقالوا أيضاً: المراد: إما أنْ يختار بحُسْن اختياره الشكرَ لله تعالى والاعترافَ بنِعَمِه، فيُصيبَ الحظَّ، وإما أن يكفر نِعَمَ الله ويَجحَدَ إحسانه، فيكون ضالاً عن الصَّواب، فأيّهما اختار جُوزِيَ عليه.

ومُحصَّل الآية: أنَّ الله سبحانـه قد هَدى الإنسان بهدايتَـيْن؛ بفطرته وبرسله، فهو مُسْتَـعِدٌّ للهداية إذا لم يُفسِد غريزتَه بمفاسد التربية وسوءِ القدوة، وللضلال إذا أفسدها.

ثم بيّن سبحانه ما أعدَّه لمن أفسد فطرتَه فمـالَ إلى الكفر والضلال، تحذيراً من ذلك، فقال: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾.

ثم بيّن سبحانه ما أعدّه للمحافظين على فطرتهم المستعدَّة لهدايتهم، والعاملين بمقتضى طبيعتهم وإيمانهم، والقائمين بواجب شكرهم، بيّنه ترغيباً لهم بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾[1] وقد ذكرنا غيرَ مرة ما يقوله ابن عباس رضي الله عنهما في كلِّ ما يُذكَرُ في القرآن من البيان عن أحوال الجنَّة وما فيها؛ من أنها لا تشبه شيئاً من أُمور الدنيا وأحوالها، ولكنَّ الله سبحانه سَمّاه وتكلَّم عنه بما يعرفه الإنسان.

ولذلك فسَّر سبحانه هذا الكافور أو الكأس بقوله: ﴿عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا[2] عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ المؤمنون ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرًا ۝٦﴾ والتفجير: إجراء الجداول للماء، إلا أنَّ أنهار الجنة تجري بغير جداول ـ والله أعلم ـ فيقودونها حيثُ شاؤوا من منازلهم.

---

(١) أي: إنَّ المؤمنين الصادقينَ في إيمانهم، المطيعين لربِّهم، المتوسِّعين في أعمال الخير، يَشربون من كأسٍ فيها خمرٌ ممزوجةٌ بالكافور، وهو طيبٌ معروفٌ فيه بياضٌ وبرودة، وله رائحة طيِّبة.

(٢) المراد: يشربون ليرتووا بها.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

ثم ذكر صفاتِ هؤلاء الأبرار وأحوالَـهم التي استحقُّوا بها هذا المصير، فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فإذا كانوا يُوفونَ بما أوجبوه على أنفسهم، فكيف يكون وفاؤهم بما أوجبَه الله عليهم؟ ﴿وَ﴾ هم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ لا يَسْلَمُ منه إلا القليل.

ثم قال في إتمام الوصف: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾(1)، وقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ تكميل بليغ، أي: فهم يُؤْثِرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة، ويقولون لهم بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ لأنَّ الله سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما خَلُصَ له، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ أي: ضائقاً صعباً شديداً.

فبيَّن سبحانه في وصفهم أنهم أحسَنُوا العمل وأخلصوا النية لله، فسجَّل لهم

(١) ﴿مِسْكِينًا﴾: لا مالَ له ولا يَقدِرُ على الكسب. ﴿وَيَتِيمًا﴾: صغيراً لا أبَ له يكتسب له ويُنفق عليه. ﴿وَأَسِيرًا﴾: مسجوناً بِيَدِ الأعداء، أو مسجوناً بما يَستوجِبُ العقاب من المسلمين وغيرهم.

بقوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾ ـ اللهمَّ اجعَلنا منهم يا أرحم الراحمين ـ أي: أعطاهم مقابلَ عبوس الفُجّار وحزنهم بهجةً في الوجوه، وسُروراً في القلوب.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ على مَشاقّ الطاعات ومهاجرةِ هوى النفس في اجتناب المحرَّمات ﴿جَنَّةً﴾ يتنعَّمون فيها، ﴿وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ يرفُلون[١] به.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنة ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ قال الزجَّاج: كل ما يتَّكأ عليه فهو أريكة[٢]، وهم ﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسًا وَلَا زَمۡهَرِيرًا ۝١٣﴾ أي: لا حراً ولا برداً، ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾ وهذا تـمثيلٌ لكثافة الأشجار ولَطَافة ظلِّها، وهو بعض تفصيل للفقرة السابقة، وكذلك قوله: ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلًا ۝١٤﴾ قال مجاهد: أي: سَهُل أخذُ ثمارها كثيراً[٣]. اللهُمَّ اجعَلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ أي: في تلك الجنة ﴿بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكۡوَابٍ﴾[٤] ﴿كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠﴾[٥] ﴿۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: جامعة بين صفاء الزجاج وبياض الفضة، وقد ﴿قَدَّرُوهَا﴾ لهم ﴿تَقۡدِيرًا ۝١٦﴾ على قَدْر الريّ. وقيل: بل المعنى: يجدونها على حَسَب ما قدَّروها في أنفسهم وتمنَّوها من أنواع المشروبات. وقال ابن عباس: قواريرُ كلِّ أرض من تربتها، وأرض الجنة من فضة، وإنها مقدَّرة لهم على قَدْر الريّ[٦].

---

(١) أي: يجرُّون ذيولهم ويتبخترون في مشيتهم.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٥٩).

(٣) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ١٠٣).

(٤) ﴿وَأَكۡوَابٍ﴾: جمعُ كوب، وهو إناء لا عُروةَ له ولا خرطوم. وما له عروة وخرطوم، يسمَّى إبريقاً.

(٥) ﴿كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠﴾ القوارير: جمعُ قارورة، وهي إناء من الزجاج. والمراد: وجدتُ تلك الأكواب حال كونها رقيقة.

(٦) تفسير «النكت والعيون» للماوردي (٦: ١٧٠).

ثم تابع البيان فقال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧﴾ وكانت العرب تَسْتَلِذُّ الشرابَ الممزوج بالزنجبيل، ولكَوْن ما في الجنة لا يشبه ما في الدنيا من كلِّ الوجوه فسَّره بقوله: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾[1] فهو لا يُصنَعُ صُنعاً، ولكن يَنْبع نَبْعاً، كسائر مشروبات الجنة، والله أعلم. وقد أشار بهذا الاسم إلى أنَّ هذا الزنجبيل ليس فيه لَذْعة كما في زنجبيل الدنيا، وإنما هو سائغ، لأن السلاسة هي نقيض اللذع.

قال ابن عباس: لم أسمع «السَّلْسَبيل» إلا في القرآن[2]. فعلى هذا لا يُعرَفُ له اشتقاق. وقال الأكثرون: يقال: شرابٌ سَلْسَلٌ وسَلْسالٌ وسَلسَبيل، أي: عَذْبٌ سَهلُ المساغ. وقد زيدت الباء والياء في التركيب حتى صارت الكلمة سداسية، ودلَّت على غاية السَّلاسة؛ لأنَّ الزيادة في المبنى تدلُّ على الزيادة في المعنى. وقال الزجَّاج: السلسبيل في اللغة: صفة لما كان في غاية السَّلاسة[3]. والفائدة من ذكر السلسبيل هو أنَّ ذلك الشراب يكون في طَعْم الزنجبيل، وليس فيه لَذْعته؛ لأنَّ السلاسة هي نقيض اللذع.

ثم تابع الوصف لذلك النعيم ـ مُفَصِّلاً ومتمِّماً قولَه السابق: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ [الإنسان: ١٥] ـ فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخِدمة ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: غلمان دائمون على ما هم عليه من المواظبة على تلك الخدمة، ولا يفعل فيهم الزمن، ولا يؤثِّر عليهم السنّ، فهم دائماً في نَضارة وجمال، و﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩﴾ لانتشارهم في مجالسهم ومنازلهم عند الاشتغال بأنواع الخدمة، فهم كاللؤلؤ المنثور في الكثرة وحُسْنِ المَنظَر.

---

(١) أي: يشرب المقرَّبون من عينٍ في الجنة، ويرتوون بها ريّاً كاملاً، تُسمّى هذه العين سَلْسَبيلاً؛ لأنها سَلِسَةٌ مُنقادةٌ لهم، تسيل عليهم في طرقهم ومنازلهم.

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠: ٧٥٢) عن ابن الأعرابي.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٦١).

ثم أتى بهذه الجملة العالية البيان، والجامعة لكلِّ شأن، يُجمِلُ بها ذلك الهناء العظيم، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾، وهذه الجملة في منتهى بلاغة الإيجاز لوَصْف العِظَم والجلال.

ثم تابع البيان، وذكر حالاً آخر من أحوالهم التي جزاهم الله بها في الجنة، فقال: ﴿عَالِيَهُمْ[١] ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ والسُّندس: ما رقَّ من الحرير، والإستبرق: ما غَلُظ منه، ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾[٢] وفضة الجنة فيها خصائص الدّرّ، وهذه الأساور كأوسمة التقدير، والله أعلم.

ثم أكمَلَ النعيم بما حكاه سبحانه بقوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ قال

---

(١) أي: مستعلياً عليهم.

(٢) يجوز أن يعود هذا على النساء فقط؛ لأنَّ من خصائص اللغة وأساليب القرآن إدماج النساء في تعابير الرجال إذا كان الحديث عنهما، ومن خصائص اللغة وأساليب القرآن إسناد الفعل إلى أمرين يصح في أحدهما، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧]، فالمنُّ شيء ينزل، والسلوى طير من الطيور يأتي ولا ينزل، وقد أسند الإنزال إليهما، وكقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ إلى قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٢]، فالمراد من البحرين: العذب والمالح، واللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من المالح. هذا رأي أراه، والله أعلم.

ولكن جاء في كلام رسول الله ﷺ لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبستَ تاج كسرى وسوارَيْه»، ويدل على أنَّ الأسورة من شارة الملوك. (المؤلف).

قلت: وكذا أحاديث أخرى كثيرة تدلُّ دلالةً صريحةً على أن التحلي بالذهب والفضة ولبس الحرير في الجنة يشمل الرجال والنساء جميعاً، ومنها قوله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» رواه البخاري (٥٨٣٣) ومسلم (٢٠٦٩).

أبو السعود: وهذا نوعٌ آخر من أنواع الأشربة، يفوق النوعين السالفين(١)، يُرشد إلى ذلك إسنادُ سَقْيه إلى ربِّ العالمين، ووصفُه بالطهور(٢).

ويقال لهم بعد نَيْل تلك المنزلة الجليلة: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ فما أعظَمَ هذه التهنئة والكرامة، وما أسعَدَ مَنْ نالها بسلامة. اللهُمَّ اجعَلْنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

ثم أردَفَ هذا السياق بما يقرِّر ما جاءَ فيه، وسَبَكَ الكلام على تثبيته ﷺ، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: فكلُّ ما جاءَ فيه ممَّا سبق بيانه حقٌّ لا شك فيه، ونحن حافظوه ومُؤيِّدوه، ومُؤيِّدوكَ معه، ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ قال الحسن: الآثم: هو المنافق، والكفور: هو المشرك. ووضع الظاهر موضع الضمير للتنديد بالوصف.

وللاستعانة على الثبات والصبر أمره بالصلاة؛ لأنَّ تذكُّر الله على الدوام يُربِّي تَقْويةَ العَزْم، فأمره بالصَّلاة، وعبَّر عنها بذكر اسم الربِّ جلَّ جلاله؛ لأنه هو المقصود منها، وجعلها في الأسباب الموجبة بالتـقدُّم من الهناء، فقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾(٣).

---

(١) المذكورَين في آيتي ٥ و١٧.

(٢) «إرشاد العقل السليم» (٩: ٧٥).

(٣) أي: داوِم على ذِكْرِ اسم خالقِك ومالكِك ومُـمدِّك بعطاءات ربوبيَّته في أول النهار وآخره، وصلِّ لربِّك أولَ النهار صلاة الصُّبح، وبعدَ الزوال صلاةَ الظهر والعصر، ومنْ بعض الليل =

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾.

ثم ندَّد بهؤلاء المشركين المتمرِّدين وفَـنَّد حالهم، فقال: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ أي: يُؤْثرونَ اللذّات والمنافع في دار الدنيا، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ لا يؤمنون به ولا يعملون له، لأنهم ينكرونه. ولذلك أتى بما يتضمَّن القدرة عليه، والتأنيب على إنكاره وكفرهم به، والوعيد لـهم، فقال: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ أي: أحكَمنا رَبْطَ مفاصلهم. يُشير بذلك إلى أنَّ إتقان خِلْقتهم تُشعِرهُم بقدرتنا على كلِّ شيء، وتُوجبُ عليهم طاعةَ الله الذي أنعَمَ عليهم بهذه الأعضاء السليمة المُتقَنة الربط، القديرة على العمل، وأن لا يَعبُدوا سواه، ولكنَّهم يُسْرِفون بها في تلك اللذّات العاجلة، ويُهمِلون ما يؤدِّي إلى نعيم الآجلة العظيم، ويحفظ من شقائها الأليم.

وقد عطف على قُدرته في إتقان خِلْقَـتِهم قُدرتَه في تحقيق البعث، وطَـوَاه على الوعيد، فقال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾، فهذا وعيدٌ لهم بالبعث والحساب والجزاء، بقرينة كلمة ﴿إِذَا﴾ الدالة على تحقُّق الوقوع. فالمراد بها: الوقت الذي سيُعيدهم فيه ويُجازيهم على أعمالهم جَزاءً وِفاقاً.

= فَصَلِّ لربِّك صلاة المغرب والعشاء، وتهجَّد بالليل صلاةَ التطوُّع بعد المكتوبة زمناً طويلاً من الليل، وسبِّحه مدَّةً طويلة في صلاة قيام الليل أو خارجها، فلهذا التسبيح أثر فعَّال في علاج الهموم العظيمة، والأعباء الجسيمة.

ويجوز أن يكون وعيداً بإهلاكهم في الدنيا، واستبدال غيرهم بهم، ثم لا يكونون أمثالهم. وعلى هذا المعنى تكون صيغة التعبير تُؤْذِنُ بأنَّ صَبْره عليهم رأفةٌ منه ورحمةٌ من رحمته الشاملة.

وبعد أن شرح سبحانه أحوال السُّعداء وأحوال الأشقياء، خَتَم ذلك بما فيه زيادة تحسيسٍ وتنبيه، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾، وفي هذه الآية ـ كما في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ...﴾ [الإنسان: ٣] ـ دلالة على أن اندفاع الإنسان إلى الخير والهداية بيد الإنسان نفسه واختياره، وقد أوضَحْنا هذه الآية في سورة التكوير الآتية عند قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، فانظر ذلك.

ثم ألمع سبحانه إلى أنَّ الإنسان ـ بحكم اختياره في أعماله ـ لا يُمكنُه أن يشاء الاستقامة في الله إلا إذا حافظ على سلامة فطرته ونور بصيرته، فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] أي: لا يُمكِنكم أن تشاؤوا ذلك إلا أن تُطبِّقوا القانون الذي شاءه الله في ذلك، وهو أن لا تُفْسِدوا طبيعتكم بمفاسد التربية والتقليد الأعمى، أي: لا تجري مشيئتكم إلا بجَرَيان مشيئة الله سبحانه، وهي أنه لا يهتدي إلى الصِّراط المستقيم إلا مَنْ حافظ على سلامة فطرته التي شاءها بحكمته، فإنَّ تلك الفطرة إذا بَقِيَتْ سالمةً لم يُفسِدها صاحبُها بمفاسد التربية وسوء التقليد الأعمى، هي التي يُمكِنُها أن تُطبِّقَ ما شاء الله تطبيقَه من هذه الهداية بحكمته تعالى؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

---

(١) أي: لستم تشاؤون شيئاً إلا إذا منحكم الله المشيئة الحرَّة، ومكَّنكم من استخدامها؛ لتشاؤوا بها طريق نجاتكم وسعادتكم، أو طريق هلاككم وشقائكم، لكنَّ الله ما وضعكم مَوْضع الامتحان والابتلاء في الحياة الدنيا إلا بعد أن منحكم الإرادة الحرَّة، وسائر شروط التكليف، فأنتم مسؤولون مسؤوليَّةً تامَّة عن مشيئاتكم وأعمالكم.

﴿حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾[(١)] ومن علمه وحكمته: أنه لم يشأ أن يخلقَ البشر مؤمنين طائعين بالفطرة قَسْراً، كالملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ولكنه تعالى شاءَ أن يكونوا عاملين مختارين ليكونوا ذوي علم واسع، وإيجاد عظيم.

---

(١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ﴾ تذكَّر و﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، ﴿وَ﴾ لكنكم ﴿مَا تَشَآءُونَ﴾ ذلك الاتخاذ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا أن يتحقّق النظام العام الذي شاءه سبحانه في إمكان الاهتداء للحقِّ والصواب، وهو محافظتكم على سلامة فطركم التي خلقها مستعدَّة لذلك؛ لأنه قد شاء سبحانه في طبيعة الإنسان أنَّ من حافظ على سلامة فطرته وزكّاها اهتدى إلى الصراط المستقيم، ومَنْ أفسدها ودسَّاها ضلَّ عن سَوَاء السبيل، وهكذا طبع سبحانه الإنسان بحكمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ واقتضى علمه وحكمته أن يكون الإنسان مختاراً في تصرُّفاته خيراً أو شراً، وإنه سبحانه ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي حافظ على سلامة فطرته ونور بصيرته، وتصرَّف بهدي الله وإرشاده تصرفاً مرضياً، يدخله ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: في نعيمه وجنَّته، ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بإفسادهم لـها وضلالهم بها عن الهدى ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ بمقتضى حكمته.

وفي مقابلة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ بـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دلالة على أن المراد بـ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إدخالَه في رحمته: هم من حافظوا على سلامة فطرهم، واهتدوا بهدي ربهم الكريم، ولم يظلموا أنفسهم بخلاف ذلك، فقد شاء سبحانه إدخال هذا الصنف في رحمته، وأعد للظالمين عذاباً أليماً.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية: أن لله سبحانه سُنناً لا تتبدَّل، ولا يُمكننا أن نشاء ونحاول خلافها. ومن ذلك: أنَّ كلَّ مخلوق لله سبحانه ـ إذا فسدت طبيعته ـ لا يأتي بما خُلِقَ له من مقاصد، فالحَبُّ مثلاً إذا أفسَدَه السُّوس لا يمكننا أن نشاء إنباته، والعين إذا أصابها العمى والعَمَه لا يمكننا أن نشاء الإبصار بها، ضدَّ ما شاءه سبحانه فيها ـ حسب السنة الكونية ـ من تعطيل. وكذلك الإنسان إذا أفسد طبيعته بالغَواية والضلال، لا يمكنه أن يشاء الهداية أبداً، ولا يدركها ويُبصرها بعد ذلك، اللهم إلا أن يبقى فيه بقيّة من نور الفطرة لم يدركها الإفساد، فكلُّ من حافظ على سَلامة فطرته فقد شاء الله له أن يستقيم، وكلُّ من شاء الله أن يستقيم يَقدِر أن يستقيم، وكلُّ من أفسد فطرته لا يُمكِنُه أن يستقيم. (المؤلف).

وهذا الاختيار يجعلهم مستعدّين للإيمان والكفر، والطاعة والفسق، وإنَّ هذا الاستعداد هو تحت تأثير كَسْبهم وما يحيط بهم من أنواع التربية وحوادث الزمان والمكان، كما هو شأنهم في الأخذ بسائر أنواع الهداية والاستفادة من منافع الكون، أو انحرافهم عنها، بمقتضى لون التهذيب والتثقيف والمخالطة التي صادفتهم وأُحيطوا بها، فغرائزهم وفِطَرُهم كلُّها خير، وتصرُّفاتهم وكَسْبهم للعلوم والأعمال فيها الخير والشر بحكم اختيارهم، أما الخير ففي موافقتهم لِسُنَنِ الله في هذا الكون وتعاليم شرائعه التي ينزلها على رُسله إلى البشر، وكلُّها موافقة للسنن الكونيَّة، وأما الشر ففي انحرافهم عن تلك السُّنن والشرائع.

لذلك قال تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ﴾ وهم الذي حافظوا على سلامة غرائزهم، فمشوا على سُنن الله وتعاليمه في شرائعه، يُدخِلُهم ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ التي أعدَّها الله في جنَّته للصالحين من عباده، ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ منهم لأنفسهم بالانحراف عن تلك السُّنن والشرائع ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣١﴾ في جحيمه ودار عذابه. أعاذنا الله وجعلنا من أهل رحمته ورضاه. والدخولان يَتَرتَّبان على الأعمال في الدنيا ترتيباً طبيعياً(١)، والله أعلم.

وفي مقابلة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ بـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دلالة على أنَّ المراد بهم: مَنْ لم يظلموا أنفسهم بإفسادها وتَدْسيتها كما بيَّنَّا.

ومن مباحث اللفظ: أنه نَصَب ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على الاشتغال؛ للمبالغة في التبصرة والتنبيه، وقُرئ أيضاً بالرفع على الابتداء(٢).

---

(١) بل ترتباً شرعياً، كما تقدَّم بيانه تعليقاً في مواضع. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدِّم أول الكتاب (١: ٤٣١).

(٢) وهي قراءة عبد الله بن الزبير وأبان بن عثمان كما في «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢: ٣٤٤).

وقال في «مجمع البيان» في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] ليس المراد بهذه الآية أنه سبحانه يشاء كلَّ ما يشاء العبد من المعاصي والمباحات وغيرها؛ لأنَّ الدلائل الواضحة قد دلَّت على أنه سبحانه لا يجوز أن يريد القبائح[(١)]، ويتعالى عن ذلك، قال سبحانه: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

أقول: وإنما المراد مُحصَّل ما قد سبق من أن مشيئتكم تابعة لمشيئة الله فيكم، فقد شاءَ سبحانه في خِلْقة الإنسان أن لا يُبصِرَ الخير من الشر بمنظار صحيح، إلا إذا لم يُفسِد فطرتَه بمفاسد التربية والتقليد الأعمى؛ لأن الطبيعة المحفوظة تُبصِر، والمحروفة لا تُبصِر، فمَنْ حافظ على سلامة فطرته شاءَ أن يتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً، ومَنْ أفسدها لم يشأ ذلك. والله أعلم.

فمفاد الآية: أنكم لا تقدرون أن تشاؤوا الـمَيْلَ إلى الحقِّ والخير ما لم تحافظوا على ما شاء الله لكم من سلامة طبيعتكم وصحَّة ميولكم، فهي على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠].

ولا يقال: كيف تَـتَخلَّف إرادة الله من الإنسان؟ لأن الإرادة نوعان: تكوينيَّة، وهي لا تتخلَّف، كإرادته أن يكون الإنسان مختاراً في تصرُّفاته، ليكون ذا علم واسع وإيجاد عظيم عجيب. وإرادة تكليفيَّة، كإرادته من الإنسان أن يكون مهتدياً بشرائعه[(٢)]،

(١) الله تعالى لا يأمر بالقبيح ولا يرضى به، لكنه مكَّن الإنسان من اختياره، بعد أنْ بيَّن له الخير والشر، والهداية والضلال، فإذا اختاره الإنسان وتوجَّه إليه أراد الله وقوعه منه، لأنه لا يخرج شيء في هذا الوجود عن أن يكون واقعاً بإرادة الله تعالى.

(٢) جَعْلُ القسم الثاني نوعاً من الإرادة فيه نظر، لأنه في حقيقته أمرٌ وطلبٌ لا إرادة، والفعل «أراد» =

وهو يعلم أنه لا يتمسَّك بذلك إلا واحد من عشرة في الألف؛ كما جاء في الحديث: أن المؤمنين من بني الإنسان «كالشعرة البيضاء في الثور الأسود»[١].

* * *

= بمعناه الاصطلاحي يتعدَّى بنفسه، تقول: أراد الله رحمةَ فلان، فإذا استُعمل بمعناه الثاني تعدّى بـ«مِن»، تقول: أراد الله منّا عبادتَه، وتعديته بـ«مِن» دليل على تضمينه معنى الفعل «طلب»، فلا يكون هذا المعنى ـ إذن ـ من معاني الإرادة الاصطلاحية.

(١) سلف تخريجه (٥: ١٩٧).

سُورَةُ المُرسَلات

مكيَّة، وهي خمسون آية

والغرض منها:

إثبات وقوع ما يوعدون من العذاب.

وبهذا جاءَ سياقها في الإنذار والترهيب والترغيب، وانتَسَقَت مع السور السابقة واللاحقة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾[1] وقد اختلفوا في هذا القَسَم على وجوه:

فقيل: هي أقسام بالرياح وآثارها؛ فـ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ هي الرياح الطليقة؛

---

(١) أقسم سبحانه في بعض السور بالأمور الكونيَّة وما فيها من أدلة عقليَّة على قدرته البالغة التي لا يكون الحشر والإعادة في جانبها إلا أمراً يسيراً، يردُّ بذلك على المنكرين. وأقسم هنا - والله أعلم - بآيات القرآن، وما فيها من أدلة نقلية على ذلك، ووعد ووعيد، فقال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ والعرف: ضد النكر، أي: الآيات المرسلة بما هو معروف لدى العقل السليم ومقبول عنده، لا نكر فيه ولا جهالة، ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ أي: الآيات المنذرة للمنكرين والمعارضين، والمتوعِّدة لهم بالوعيد الرهيب الذي يعصف القلوب، ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ أي: الآيات الناشرة للنور المبين من الهدى واليقين، ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ آيات القرآن التي تفرق بين الحق والباطل، وبها سُمِّي فرقاناً، ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ آيات القرآن وما فيها من وعد ووعيد، والعذر: النُّجح، والمراد: ما به الفوز والفلاح من تعاليم القرآن. هذا ما ظهر لي. والله أعلم. (المؤلف).

لأن العُرْف: التتابع مع الاكتظاظ، ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾ هي الرياح الشديدة الهبوب، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾ هي الرياح تُـثير ذرَّاتِ أبخرة الماء فتنشرها في الفضاء، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨]، ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾ هي الرياح تُفرِّق بين قطع السحاب، ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ هي الرياح المخيفة، ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾[1] والعذر: الشدَّة، من قولهم: عذر الفرسَ بالعذار؛ إذا شَدَّه به. والنُّذر: التحذير. والله أعلم.

وقيل: هي أقسام القرآن وآياته؛ ومعنى ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾: آيات القرآن المتتابعة في النزول على محمد ﷺ، بكلِّ عُرف وخير، ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾: آيات القرآن تَعصِفُ القلوب بذكر الوعيد، حتى تجعلها كالعصف، وهو النبات اليابس المسحوق، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ آيات القرآن تنشر أنوار الهدى والعرفان في قلوب أهل الإيمان، ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾: آيات القرآن تُفرِّقُ بين الحق والباطل، ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾: آيات القرآن، فإنها الذكر الحكيم، عُذراً للمؤمنين، ونُذراً للكافرين.

أما الُمقسَمُ عليه فقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ أي: إنَّ الذي تُوعَدون به من البعث والحساب أمرٌ واقعٌ لا محالة.

والمناسبة بين الُمقسَم به والُمقسَم عليه على الوجه الأول: أنَّ عظمة قدرة الله في

---

(١) معنى قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ الرياح ذوات الصفات المختلفات التي تُلقي في أفكار أُولي الألباب ذكراً بالله، وبصفاته الجليلة، وبأسمائه الحُسنى، وهو سبحانه بتصاريفه المتنوِّعة في الرياح يُلقي العُذر قبل تنفيذِ العقاب فيمَن يستحقُّونه، فإذا أنزل بهم عقابَه بعد ذلك على كفرهم فلا يلوموا إلا أنفسهم، وهو سبحانه بما أجرى من عقاب بالريح الُمدمِّرة للأمم السابقة يُنذِر بأنه سيُجري نظيرَ عقوباتِه السابقاتِ على المجرمين الذين يَصلونَ إلى مثل ما وَصَل إليه المجرمون السابقون الذين أهلكهم الله بالريح الُمدمِّرة.

الرياح وملابساتها دالَّةٌ على قدرته على البعث، ويضاف إلى ذلك: ما تضمَّنه أمرُ تلك الرياح المُثيرة للسحاب من الإشارة إلى الدورة المائيَّة، والمشابهة بينها وبين بعث الإنسان، لأنَّ قطرات الماء بعد أن تتفرَّق ذرَّاتٍ وتتبعثر في مَتَاتِهِ الفضاء والأجواء، ترجع إلى سيرتها الأولى من جديد، حيث تُسلك في الأرض، ثم تخرج ينابيع تجري في الأنهار إلى مقرِّها الأول، وهو البحار، وكذلك حال الإنسان ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وعلى الوجه الثاني: الإشارة إلى ما في هذا القرآن من حُجَجٍ واضحة، ودلائلَ قاطعة، بصحَّة البعث والنشور.

ثم ذكر سبحانه وقت وقوع ما يُوعَدونَ به، ذكرَه بصورة شَرْطٍ محذوف الجواب، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾ أي: أُزيلَ ضوؤها لانتشارها وانكدارها.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾ أي: صُدِعَت فكانت أبواباً، وذلك لانحياز النجوم عن أماكنها وتجمُّعها كتلاً كتلاً. والله أعلم.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ فكانت سراباً، أو انحتت فكانت تراباً، وكلُّ ذلك بتأثير الاصطدام، نتيجةَ اختلال النظام المعبَّر عنه بالقيامة.

وبعد ذلك ذكر الحساب، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ أي: عُيِّن وقتُها الذي تحضر فيه للشهادة على الأمم(١).

ثم هوَّل الوقت الذي أُجِّلت إليه تلك الأمور، فقال: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾ أي: يومَ يَفصِلُ الرحمنُ بين الخلائق.

---

(١) أو المعنى: وإذا الرُّسل من الملائكة حُدِّدت أوقات قيامها بوظائفها المأمورة بقيامها يوم القيامة.

ثم بالغ في هَـوْل ذلك اليوم، فـقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾[1] فتوعَّدهم عند حلوله بعبارة أدلَّ على عِظَم الجزاء.

﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه ما فعله بالمكذِّبين أمثالهم في الدنيا؛ ليجمع في البيان بين وعيد العذابَـيْن، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ كقوم نوح وعاد وثمود وإخوان لوط وقوم شعيب وفرعون وقومه حين كذَّبوا رسلهم، ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ من نُظرائهم السالكين مَسْلَكهم في الكفر والتكذيب، يتوعَّد بذلك كفّارَ مكة، وقد كان ذلك في بدر وسِنِي المَجاعة.

ثم ذيَّل الوعيد بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ من أيِّ أُمةٍ ومن أيِّ جيل كانوا، أي: هذه سُنَّتنا فيهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ثم أردَفَ هذا البيانَ بتهويل التهديد، فقال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾، وقد تكرَّر الوعيد بهذه الجملة في هذه السورة؛ مبالغةً فيه وزيادةَ بيانٍ لِـمَا فيه من الهول الشديد، والتكرارُ لغَرَض من الأغراض معروف في أساليب العرب، وقد عَقَدَ ابن رشيق[2] في

---

(١) أي: هلاكٌ عظيمٌ في ذلك اليوم للمُكذِّبين بالتوحيد والنبوَّة والبعث والحساب، ومكان سحيق لتعذيبهم في جهنم. وقد تكرَّرت هذه الآية في هذه السورة عشرَ مرّات، عقب كل آية كذَّب بها الجاحدون، إنذاراً للمكذِّبين بيوم الدين، وترهيباً من عذاب جهنَّم الذي سيُلاقونه إذا أصرُّوا على كفرهم وتكذيبهم وماتوا على ذلك دون توبة.

(٢) هو أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، (٣٩٠-٤٦٣هـ)، أديب نقَّاد باحث، له: «العمدة في صناعة الشعر ونقده»، و«الشذوذ في اللغة». «الأعلام» للزركلي (٢: ١٩١).

«العمدة» باباً خاصاً للتكرار في أشعار العرب ومخاطباتهم، وذكر كثيراً منها في مختلف الأغراض وأنواع التقرير[١].

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

وبعد أن توعَّدهم سبحانه بهذا الوعيد، أردَفَه بدلائل قدرته تحقيقاً لإنجازه، وتقريراً لقدرته البالغة التي ليس البَعْثُ عندها إلا أمراً يسيراً، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي: حقير، وهو النطفة، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾ وهو الرَّحِم، ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ من الوقت، وهو انتهاءُ مدَّة الحمل، ﴿فَقَدَرْنَا﴾ كيفيَّة خِلْقتِه وهيئته وذكراً أو أُنثى إلى غير ذلك؛ إذ كلُّها بقوانين طبيعية، وسنن كونية لا تتبدَّل، أو المعنى: فَقَدَرْنا المدَّة التي تتم بها الولادة، ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ نحن على كلِّ شيء، أي: فكيف لا نقدر على أن نبعثكم ونعيدكم، وننجز هذا الوعيد؟ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وقد سَبَكَ هذا البيان على القدرة والحكمة والمنَّة والاستهجان لهذا الإنسان المُعارِض لله، على ضعفه ومهانة أصله.

ثم تابع دليل القدرةِ المطويَّ على أطوار الإنسان المتشابهة، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ والكِفات: اسمٌ لِما يُكفت فيه. قيل: خرج الشعبي[٢] يوماً في جنازة رجل، فقال: هذه كفات الأموات، ثم نظر إلى البيوت، فقال: هذه

(١) انظر «العمدة في محاسن الشعر وآدابه» (٢: ٧٣).

(٢) هو أبو عمرو، عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الحِمْيَري، (١٩-١٠٣هـ)، من التابعين، يضرب به المثل بحفظه. «الأعلام» للزركلي (٣: ٢٥١).

كفات الأحياء. فالمعنى: نكفتكم بعد الموت في القبور، كما كنا نكفتكم في بيوتكم عند النوم. وفيه إشارةٌ ـ والله أعلم ـ إلى أنه لا فرق فيكم بين حالة الموت والحياة، يُنبِّههم إلى هذين الطَّوريْن المُتباينَيْن تبايناً عظيماً، والمتشابهَيْن تشابهاً بسيطاً، فلِمَ ينكرون الطورَ الثالث الذي هو في عالم أعلى من عالمهم؟ وهو طَوْرُ البعث والنشور، والله أعلم.

ثم جمع سبحانه بين دليل القدرة ودليل المنَّة، بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ أي: جبالاً شواهِقَ حِفظاً من أن تميلَ بكم وتَضْطربَ في دورانها. فالذي يُراعي الدقّة والسَّداد في مثل هذا لِـمَ لا يراعي ذلك في أسباب البعث والإعادة! كذلك قوله: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: أخرَجْناه منها ينابيعَ وأنهاراً عِذاباً.

ويجوز أن يُراد به مجرَّد ماء الأمطار، وإنما قَرَنَ بها ذِكرَ الجبال للإشارة إلى العلاقة بينهما أيضاً؛ لأنَّ الجبال الشامخة لها تأثيرٌ على تكوين الأمطار.

ثم أردَفَ هذا البيان بتهويل الوعيد للمنكرين، فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ الذين قابلوا هذه النِّعَمَ بالتكذيب والعصيان، وأنكروا على هذه القدرةِ البعثَ والإعادة للإنسان.

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه حُكمَه في هؤلاء المكذِّبين، وهو البعثُ بهم إلى النار، جَزاءَ تكذيبهم بها، وسَبَكَ ذلك في تأنيبهم، فقال: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ في الدنيا من البعث والعذاب.

ثم فصَّل ذلك وبيّن ما فيه من هَوْلٍ بقوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ يعني دخان جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣]، وهو دخان النار العظيم، والمراد بقوله: ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾: الكناية عن كون ذلك الدخان عظيماً؛ لأنَّ الدخان العظيم يتشعَّب.

ويجوز أن يكون المراد أنه ظلّ متفكِّك رديء، ولذلك أردَفَه بقوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾.

وقال أبو مسلم: يحتمل أن يكون المراد بالشُّعب الثلاث: ما ذكره بقوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ فهذه شُعَبٌ ثلاث[1].

وقال ابن مسعود ومجاهد: القَصْر: واحد القصور من البنيان[2].

ثم عَدَلَ عن هذا التشبيه المبيِّن للعِظَم، إلى تشبيه آخر جمع فيه بين هَوْل الشكل

---

(١) معنى الآيات: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ كما في تفسيري «المعين» ص٥٨١: «تقول خزنة جهنم للكافرين بعد الحساب وفصل القضاء: اذهبوا سريعاً ـ أيُّها المُكذِّبون ـ إلى ما كُنتم تكذِّبون به في الدنيا من العذاب. انطلقوا إلى مكانٍ ظلٍّ من دخان جهنَّم أسود، يُلقي ظلَّه على أسفل وادٍ من وديانها، في مكانٍ واسع تُحيط به ثلاثة جبال غير متلاصقة، فيها مخارج ضيِّقة، واللهب محيط بالوادي وبجباله وبشُعبه، ولا مَـخْرج لأهل النار إلا بأن يَصعدوا على جبل من هذه الجبال يتحمَّلون به عذاباً أشد، يقتربون فيه من مصادر اللهب، أو بأن يدخلوا هذه المضايق التي هي أشدُّ حرّاً وعذاباً، فهم في مكان مُظلِم يُعْطي ظلاً من دخان لهب النَّار الموقدة، ولا يحجب عنهم حرارة اللهب. إنَّ جهنَّم تَقْذف من أعالي الجبال المحيطة بوادي «ويل» بشررٍ جَمْريٍّ مُتَوهِّج، كالبناء العظيم العالي».

(٢) ذكره عن ابن مسعود الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٦٨٠).

للشَّرر وهَوْل العِظَم له على طريقة التَّرقِّي؛ ليكون أبلغ في الهول، فقال: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ٣٣﴾[1] قال الحسن وقتادة: كأنه أَيْنُقٌ سُود[2]. وقال الفرَّاء: لا ترى أسوَدَ من الإبل إلا وهو مُشْرَبٌ بصفرة، ولذلك سَمَّت العرب سُودَ الإبل: صفراء[3].

ثم كرَّر جملة الوعيد، فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٣٤﴾.

ثم تابع البيان عن ذلك اليوم الرهيب، فقال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥﴾ لوضوح الحجة عليهم، ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ٣٦﴾ قال قتادة: لأنَّ معاذيرَهم واهية. وقد جاء في الحديث: «ما بعد الموتِ من مُستَعْتَب»[4]، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٣٧﴾.

قال رجل لعكرمة: أرأيتَ قولَ الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]؟ فقال: إنها مواقف، فأما موقف منها فيتكلّمون ويختصمون، ثم يُختَمُ على أفواههم وتَكَلَّمُ أيديهم وأرجلُهم، فحينئذٍ لا ينطقون[5].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص في الجواب عن هذا: إنَّ يوم القيامة له حالات وتارات، ففي حالةٍ لا ينطقون، وفي حالةٍ ينطقون[6]. وعن قتادة أيضاً: إنه يوم ذو ألوان[7].

---

(١) ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ جمع جَمل. كحِجارة جمع حَجر. ﴿صُفْرٌ﴾: جمع أصفر. ويُطلقُه العرب غالباً على ما يُخالطُ صفارَه سواد. أي: كأنَّ شرر جهنَّم المُتطاير منها، طائفة من الجِمال الصُّفر المجتمعة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ١٣٩). والأينق الناقة. «لسان العرب» (مسد).

(٣) «معاني القرآن» للفراء (٣: ٢٢٥).

(٤) سبق تخريجه (٦: ٣٨٨).

(٥) ذكرها الواحدي في «الوسيط» (٤: ٤١٠).

(٦) «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي (٨: ٣٨٦).

(٧) «فتح الباري» لابن حجر (٨: ٦٨٦).

أقول: ويجوز أن النُّطقَ في الخِصام بين صِنفَي المُضِلِّين والمُضلَّلين فقط، أو بين الأتباع والرؤساء، فقد ذكر القرآن محاورتَهما في غير موضع، والله أعلم. وهذا غيرُ موقف الاعتذار والاسترحام الذي عبَّر عنه بقوله: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾. والله أعلم.

ثم تابع الكلام عن ذلك اليوم، فقال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: القضاءُ بين الخلق ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ فيه ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ من الأمم.

ثم تهكَّم بهم، فقال: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: إن كان لكم قدرةٌ أو حيلةٌ فاحتالوا لأنفسكم. وقيل: إنه توبيخٌ لهم وتقريعٌ على كَيْدِهم للمؤمنين في الدنيا. وعلى كلٍّ، فهو تندُّرواستهزاء، على نهج القرآن في مثله.

ثم أعاد جملة التهويل، فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه المؤمنين ومصيرَهم السعيد، زيادةً في شقاء الكافرين وإيلامهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ[1] وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ويُقالُ لهم في

---

(١) ﴿ظِلَٰلٍ﴾: جمع ظلّ؛ وهو جوّ المكان الذي لا شمس فيه، سواء أكانت تطلع عليه الشمس في بعض الأوقات أم لا. ويعبِّر العرب بالظلِّ أيضاً عن الحفظِ والعزِّ والرفاهية، فيقولون: فلان في ظلِّ فلان. أي: في كنَفِه وعزِّه. وفلان في ظلِّ النعمة، أي: في رفاهية النعمة. وما في هذه الآية من هذا الأخير.

التهنئة والتكريم وتقرير العيون: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾، ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ولما كانت كرامةُ المؤمنين هذه تزيدُ في شقاء الكافرين، وما فيهم من العذاب المُهين، وتتزايد بها همومُهم وغمومُهم يوم الدين؛ قَرَنها بتهويل الوعيد لهم، فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

ثم تابع الكلام في تأنيبهم، فقال: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ في دار الدنيا واستَوفوا طيِّباتِكم فيها، ولا شيءَ لكم في الآخرة، ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ومكذِّبون، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم بيَّن شيئاً من أسباب مصيرهم هذا، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فذكر الصَّلاة وأراد الدخول في الدين؛ لأنها أعظمُ مَظهَرٍ له، أي: كانوا إذا أُمروا بالصَّلاة أعرضوا وكفروا وكذَّبوا، فكرَّر لهم الوعيد بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ بما جاءهم من الحق وأمرِ يوم الدين في هذا القرآن المبين.

﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: فبأيِّ كتاب يُصدِّقون إن لم يُصدِّقوا بهذا القرآن وبهذا البيان؟!

ما أعظم هذه الخيبة! وما أشدَّ هذا الخسران! اللهمَّ جنِّبناها يا أرحم الراحمين.

* * *

سُورَةُ النَّبَإِ

مكيَّة، وهي أربعون آية

والغرض منها:

إثبات البعث والحساب، وتهديد المشركين على إنكارهم لذلك، وترغيبهم في الإيمان، مُحذِّراً إيَّاهم من ذلك اليوم المَهُول.

ولما كان هدفي في هذا التفسير تَـتَبُّع أَوْلى ما قيل في آيات التنزيل، وكان الأستاذ الإمام[1] قد فسرَّ جزء ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، عوَّلت عليه في تفسير هذا الجزء، فجاء مختصراً منه بتصرُّف، وأَضَفْتُ كثيراً من فهمي وآرائي، مُستعيناً بالله العليم الحكيم المُعين.

* * *

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾.

﴿عَمَّ[1] يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾ وهو أمرُ البعث والحساب[2]، ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ بين مُنكِر ومُستَبعِد وشاكّ.

قال البيضاوي: الجملة الأولى لتفخيم شأن ما يتساءلون عنه، والجملة الثانية بيانٌ لشأن المُفخَّم، أو صلةُ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾[3].

وقال الأستاذ الإمام[4]: كان غير المؤمنين يسأل بعضهم بعضاً عن رسالة النبيِّ ﷺ، ويسألون غيرهم من أهل الكتاب: هل هو رسول حقاً؟ وما هذا الخبر الذي جاءَ به من أنه مُرسَل من قِبَل الله، يدعو إلى توحيده، وإلى الاعتقاد باليوم الآخر، وهو يوم القيامة.

فبكَّتهم الله سبحانه، ثم ردَّ عليهم الإنكار والتردُّد بقوله: ﴿ كَلَّا[5] سَيَعْلَمُونَ[6] ۝٤

---

(١) ﴿عَمَّ﴾ أي: عن أيِّ شيء. وأصله: (عمّا) فحُذِفت ألف (ما) الاستفهامية تخفيفاً.

(٢) أو القرآن ـ وهو الأرجح ـ، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧]. وهذا قول مجاهد والأكثرين.

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٧٨).

(٤) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٥) ﴿كَلَّا﴾ المراد: انزجروا عن هذا التساؤل والتكذيب.

(٦) أي: بعد الموت.

﴿ثُمَّ كَلَّا[١] سَيَعْلَمُونَ[٢] ٥﴾ أي: ستنكشف لهم الحقيقة في أمر الحشر والحساب، ويَرَوْنَ صحَّة الخبر عند الموت.

وفي الجملة تهديدٌ لهم وتوعُّد، وفي صيغتها تهويلٌ وترهيب. وأتى بـ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنَّ الوعيد الثاني أشدُّ وأنكى. وقيل: الأول للبعث، والثاني للجزاء، أو الأول للقيامة، والثاني للبعث والجزاء، والله أعلم[٣].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ١١﴾.

ثم أردفَ الإنكار والوعيد بدلائل قدرته ومُنَّته وحكمته، تحقيقاً لإنجاز الوعيد، واستشهاداً لقدرته على البعث والجزاء الذي ينكرونه عليه، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ٦﴾ أي: مُمَهَّدةً للعمل والسَّيْر، ولم نجعلها كلَّها جبالاً وَعِرة.

﴿وَ﴾ جعلنا ﴿ٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ٧﴾ لئلا تميدَ بأهلها، فهي تعادلُ ثِقَلَ ما يقابلها، ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ٨﴾[٤] ليتمَّ حِفظُ النَّسْل، وللتعاون على تربيته، وعلى سعادة المعيشة، ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ٩﴾ أي: قَطْعاً عن الإحساس والحركة، و في ذلك استراحةٌ للقوى الحيوانيَّة، وإزاحةٌ لِكَلالها؛ لأنه يُعيدُ إليها ما فُقِدَ منها بالتعب واليقظة في النهار، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ١٠﴾ يَسْتركم بظلامه كما يَسْتركم اللباس؛ لتكونوا في

---

(١) تأكيد للزجر السابق.

(٢) أي: عند القيام من القبور.

(٣) والراجح في معنى الآيتين ٤ و٥: «فَلْيرتدع ولينزَجر المُكذِّبون بالبعث ويوم الدِّين، سيعلمونَ عند نَزْع أرواحِهم عاقبةَ تكذيبهم حين تنكشفُ لهم مقاعدهم في جهنم دار العذاب، ثم عند البعث سيعلمونَ أنَّ ما كانوا يُكذِّبون به من أحوال الآخرة حقٌّ لا ريب فيه».

(٤) ﴿أَزْوَٰجًا﴾: جمع زوج. وهو الجنس من الخلق يُقابلُه آخر من جنسه.

هدوء، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ تُبعَثون فيه من نومكم الذي هو أخو الموت، وتتقلَّبون في حوائجكم ومكاسبكم.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾.

ثم ذكر قدرتَه تعالى في عَظَمة السماء وما فيها من منافع للإنسان، فقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾ وقد قلتُ غيرَ مرة: إنه يجوز أن يُراد بها طبقاتُ النجوم المتفاوتة في العُلوّ؛ لأنَّ كل طبقة تنفصلُ عمّا تليها بمسافات بعيدة، والعدد للتكثير لا للتحديد(١).

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾ أي: متلألئاً وقَّاداً، يعني به الشمس التي بها ضياء النهار، وحياة الحيوان والنبات.

ثم ذكر قدرتَه في تكوين الأمطار، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ قيل: المراد بها السُّحُب. وفي اللفظ مجاز عقليٌّ في استعمال اسم الفاعل مكان اسم المفعول(٢)، وذلك من خصائص اللغة، مثل حجرة مضيئة. وقال مجاهد وقتادة: المراد من المُعصِرات: الرياح ذوات الأعاصير(٣).

أقول: وعلى هذا، فيجوز أن يراد بها الأعاصير التي تهيج في البحر، فتتصاعد معها التَّبخُّرات، وتنعقد غيوماً في الأجواء، فإذا بردت انقلَبت ﴿مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾ أي: مُنْصَبّاً بكثرة.

---

(١) تقدم نقدُ هذا المعنى الذي يُكرِّره المؤلف غفر الله له عن السماوات السبع، وبيان بطلانه.

(٢) يعني: استعمال «المُعصِرات» بدل «المُعصَرات».

(٣) ينظر «الوسيط» للواحدي (٤: ٤١٣).

ثم ذكر قدرتَه في عظمة النبات ومنَّته فيه، فقال: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا﴾ وهو ما يقتات به الناس، ﴿وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾ وهو ما يقتات به الدواب، ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ أي: حدائقَ متكاثفةَ الأشجار.

وفي كلِّ ما ذكر إيماءٌ إلى ما قد أخذَت له الحكمة الإلهيَّة من حيطة وسَدَاد وأسباب ومُسبَّبات، وإيذانٌ بأنها كذلك قد أوجدَت في قضية البعث والإعادة مِثلَ هذه الاحتياطات الطبيعية والسنن الكونية، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

وبعد أن استشهد على إمكان البعث بدلائل قدرته العامَّة، وذكر من مشاهد الحياة الدنيا ما فيه الكفاية لمن شاء أن يلتمس الدليل على قدرة الله القادر على البعث والنشور، ذلك الأمر الذي يتساءلون عنه تساؤلَ إنكار وتكذيب؛ شَرَع في تفصيله وبيان أحواله، مُبيِّناً أنَّ له وقتاً معلوماً، مُقرِّراً بذلك قوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤-٥] ومفصِّلاً له، فقال: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ الذي يفصل فيه بين العباد ﴿كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾[1] ينتهي إليه الناس، ليرى كلٌّ عاقبةَ عمله.

ثم ذكر سبحانه ما يكون في مُقدِّمة ذلك الوقت من الظواهر العظيمة، فقال: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾[2] إيذاناً بالقيامة، ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ قال معاذ[3]: أي: أُمماً،

---

(١) أي: موعداً مؤقَّتاً، ومكاناً مُحدَّداً.

(٢) بدل من: ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أو: ﴿يَوْمَ﴾ عطف بيان له، لتوضيح المراد وتوكيده مع التهويل. والنافخ: إسرافيل عليه السلام.

(٣) هذا ليس من قول معاذ، ولعله أشكل على المؤلف حيث ذكره الزمخشري في «الكشاف»، ثم =

كلُّ أمةٍ مع إمامها، أو زُمَراً وجماعاتٍ مختلفةَ الأحوال، متباينةَ الأوضاع، حسب اختلاف أعمالهم وتباينها.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩﴾ بعد أن كانت سَبْعاً شداداً، وذلك لأنَّ الأجرام تَنْزاح عن مواضعها نتيجةَ الاصطدام والخراب، فتتكتَّل كتلاً كتلاً، وتبقى فَجَوات خالية. والله أعلم.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ بنتيجة اصطدام الكواكب وفيها الأرض، ﴿فَكَانَتۡ سَرَابًا ٢٠﴾(١) أي: كأنها سراب لشدَّة تَفتُّت ذرَّاتها وتفرُّقها. كما قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا * فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ [الواقعة: ٥-٦].

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ٢٤ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ٢٥ جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ٢٧ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ٢٨ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾.

وبعد أن ذكر يوم الفصل بين الخلائق أجمعين، ذكر جزاءَ المكذِّبين، فقال: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١﴾ يُرْصَدون فيها للعذاب، حيث كانت ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢﴾

= استدلَّ بحديثٍ عن معاذ فصَّل فيه النبي ﷺ أحوال هذه الأمم. انظر «الكشاف» للزمخشري (٤: ٦٨٧).

وهو أبو عبد الرحمن معاذ بْن جبل بْن عَمْرو الخزرجي الأنصاري، كان أعلم الصحابة بالحلال والحرام، وكان عاملاً للنبي ﷺ على اليمن، ثم لأبي بكر، ثم استعمله عمر على الشام، ومات بناحية الأردن فِي طاعون عمواس سنة (١٨هـ). انظر «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣: ١٤٠٢).

(١) أي: مثله في خفَّة سيْرها. والسراب: ما يُرى وسط النهار كالماء الجاري.

أي: مَرجِعَهم الذي ينتهون إليه، وسيبقون ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ٢٣﴾ أي: سيُقيمون فيها مُدَداً طوالاً لا تتناهى. أعاذنا الله.

ثم أجمَلَ حالهم وشقاءَهم فيها، فقال: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدًا وَلَا شَرَابًا[1] ٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ٢٥﴾ والحميم: الماء الحارُّ الشديدُ الحرارة، والغسَّاق: صديد أهل النار، فهم يذوقون ذلك ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ٢٦﴾ لأعمالهم السيِّئة، وعقائدهم الباطلة.

ثم بيَّن شيئاً من تلك الأعمال والعقائد على طريقة التعليل، فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابًا ٢٧﴾[2] قال الحسن وقتادة: أي: إنهم لا يؤمنون بالغيب[3]، يعني: البعث والحساب. وقال أبو مسلم: المعنى: لا يظنُّون أنَّ لهم حساباً، ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ٢٨﴾ أي: كذَّبوا في ذلك بالآيات التي جاءت بها الأنبياء أو بالقرآن تكذيباً مفرطاً.

ثم قال في إتمام التعليل: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبًا ٢٩﴾[4] فلم نُغادِر شيئاً لهم ولا لغيرهم، وسيُجْزَىٰ كلٌّ بعمله.

قال الأستاذ الإمام[5]: ولا نبحث عن كيفيَّة الكتابة، ولكن نؤمن بها، ونَـكِلُ حقيقةَ أمرها إلى الله.

---

(١) أي: لا يحسُّون ولا يَطعَمون فيها بردَ ريح ولا بردَ ظلٍّ ولا بردَ نوم؛ يُخفِّف عنهم حرَّ النار، ولا يشربون شيئاً يغنيهم عن عطش.

(٢) أي: إنهم كانوا في الدنيا لا يتوقَّعون لقاءَ ربِّهم يوم القيامة للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء، فلا يُؤمِّلون ثوابَنا، ولا يخشَوْن عقابنا.

(٣) انظر تفسير «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» للثعلبي (١٠: ١١٣).

(٤) ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبًا﴾(كتاباً): مصدرٌ من معنىٰ أحصينا، كقولهم: قعدت جلوساً. والمراد: أحصيناه إحصاءً دقيقاً. كما قال سبحانه: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

(٥) يعني: الشيخ محمد عبده.

ثم عَطَفَ على قولِه ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ - عَطْفَ المُسبَّبِ على السبب - قولَه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾[1].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

ثم قَرَنَ وعيدَ الكافرين بوعدِ المؤمنين، زيادةَ تحسيس لهما في الأمرَيْن بالمقابلة بينهما، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ أي: فوزاً بالنعيم والثواب، أو مكان الفوز بذلك. وقد فصَّلَه بقوله: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ وخصَّ الأعناب بالذِّكر؛ اهتماماً بشأنها، ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾ وهُنَّ البنات اللاتي استدارت ثديُهنَّ، واللاتي مِن سنٍّ واحدة، ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: مملوءة، وهذا بيانٌ لكمال السرور.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾ وقد اختلفوا في ضمير ﴿فِيهَا﴾؛ فقيل: راجع إلى الكأس، وقيل: إلى الجنة المفهومة من السياق، على نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

واللغو: ما لا يعتدُّ به، والكِذَّاب: التكذيب.

وقرأ الكسائيّ: ﴿كِذَّٰبًا﴾ الأولى[2] بالتشديد، والثانية هذه بالتخفيف، وقرأ الباقون

---

(١) أي: يقال لأهل جهنَّم: ذوقوا عذابَ الحريق فيها، وأحسُّوا بملامسته، مع أنواعِ عذابٍ غيرِه، فلن نُضيفَ إليكم بعد ما أنتم فيه من عذاب إلا عذاباً فوق عذابكم؛ عقوبةً وإهانة لكم.

(٢) يعني: التي في الآية ٢٨ من هذه السورة.

كِلَيْهما بالتشديد[١]. والمعنى: لا يدور بينهم ما يُكدِّر صَفْوَهُم، ولا ما يُكذِّب به بعضُهم بعضاً. وإنما حياتهم كلُّها صفاءٌ ووفاق.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: عطاءً كافياً، مِنْ: أحسَبَه الشيءَ؛ إذا كفاه. يقال: أعطاه فأحسَبَه، أي: أعطاه حتى قال: حَسْبي، أي: يكفيني. ويقال: أعطى فأحسَبَ، أي: أعطى كثيراً. وعلى كلٍّ، فالمعنى: عطاءً كثيراً. وقيل: على حسب أعمالهم.

ثم ذكر من صفاته تعالى ما يُشعِرُ بتحقيق ذلك الجزاء ويُـؤْذِنُ به، فقال: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وفي هذا الوصف تنصيصٌ على مصدر لُطفِ الله فيهم.

ثم بيَّن جَلالَه وعظمتَه بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: لا يملك أحدٌ من أهل السماوات والأرض أن يخاطبه في شأن الثواب والعقاب، بل هو المُتصرِّف فيه وحده. وفي صورة التعبير وصفٌ له سبحانه بما اعتاد الناس أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم من الهيبة وقوة السلطان، على أُسلوب القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من النوع التاسع من المادة الأولى من المقدمة السادسة في مجازات القرآن).

ثم ذكر ذلك اليومَ الذي لا يملكون فيه الخطاب، وقرَّر فيه هذا المعنى، فقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾[٢]، وفي هذا الوصف بيانٌ لعَظَمة الله ولـهَوْل ذلك اليوم.

---

(١) «الحجة للقراء السبعة» (٦: ٣٦٩).

(٢) أي: يوم يقومُ الرُّوحُ جبريلُ عليه السلام متميِّزاً بارتفاع منزلتِه عند ربِّه، والملائكةُ معه مُصْطَفِّين، ساكتين صامتين. وعَطْفُ الملائكة على جبريل من باب عَطْفِ العامِّ على الخاصّ؛ تنبيهاً على جلالة قَدْر جبريل عليه السلام؛ لأنه رئيسُ الملائكة الكرام عليهم السلام.

ثم استثنى من نفي التكلُّم قولَه: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ٣٨﴾ قيل: هو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى.

أقول: ويجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون استثناءً منقطعاً، ومن أعمِّ الأحوال، بمعنى: لا ينجو ذلك اليوم إلا مَنْ أذن له الرحمنُ بالانصراف إلى الجنَّة لكمال عقيدته في توحيد الله وتنزيهه(١).

ثم بالغ في التَّحسيس بهَوْل ذلك اليوم، والتحذير من بأسه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا(٢) ٣٩﴾ صالحاً كريماً، وذلك بالإيمان به وبوحدانيته وتنزيهه وكمال عبادته، والقول والعمل بكلِّ ما يُرضيه من الخيرات وعمل الصالحات.

وفي صورة التعبير إشارةٌ إلى أنَّ ذلك بيد الإنسان، إذا حافظ على سلامة فطرته، ولم يُفسِدها بسُوءِ القدوة، والتقليد الأعمى، والتصرُّف المشين؛ لأنَّ الإنسان مفطورٌ على معرفة الحق والإيمان بالله، ما لم يُفسِد فطرتَه ويُدَسِّيها، فإذا حافظ عليها انصَرَفَت للقول الصائب والعمل الصالح.

ثم ختم السورة بما فيه تهويلٌ وإجمالٌ لِمَا سبق، مبالغةً في تخويف الكفار وتحذيرهم، فقال: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾(٣)، وذلك ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ

(١) هذا بعيد، والأول هو المعتمد لظهوره، وإنما أورد المؤلف المعنى الثاني ليخرج من إشكال إثبات الشفاعة بنص الآية، وهو ينفيها، كما تكرَّر منه ذلك في مواضع من هذا التفسير، وتقدَّم التعليق عليها.

(٢) أي: أوْباً ورجوعاً إلى الله بالتوبة والطاعة؛ ليسلمَ من العذاب فيه، أو يختار لنفسِه عاقبةً سيئة بكُفرِه، فيَستحقّ العذاب الأليم يوم الدِّين.

(٣) أي: حصوله. وهو عذاب يوم القيامة. وكلُّ آتٍ قريبٌ.

يَدَاهُ ﴾[١] من خير أو شر، ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾[٢] ولم أُصِبْ حظاً من الحياة، يقول ذلك نَدَماً على ما فعل، مما أدَّى به إلى ما يتوقَّع من العذاب الأليم.

قال الأستاذ الإمام: إنما قُربُه لأنهم يجدون منه عَقِبَ موتهم، فإنَّ الروحَ متى فارقت البدن انكشف لها ما ينتظرها، ولا تزال في ألم منه حتى تلاقيَه، يومَ ينظر المرءُ أعمالَه حاضرةً لديه، معروضةً عليه، ويتمنَّى الكافر أنْ كان جماداً؛ لِـهَوْل ما انكشف له مما ينتظره ويَسُوؤه.

* * *

(١) أي: يرى بعينَيه ما عمِلَت يداه في الدنيا. وخصَّت اليدانِ بالذِّكر، مع أنَّ المراد هو الإنسان كلّه، لأنَّ أكثرَ العمل يكون بهما. فهو من باب تغليب البعض على الكل، والمراد: ما عمله الإنسان من نيَّة أو قول أو عمل.

(٢) أي: يا ليتني بقيتُ على حالتي الأولى ولم أَصِرْ إنساناً مكلَّفاً. ونظيرُ هذا قولُ عمر بن الخطاب لكن في مجال الخوف من الله: «ليت أمَّ عمر لم تَلِدْ عمر».

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

مكيَّة، وهي ست وأربعون آية

وهي كسابقتها في إثبات البعث والحساب، والتوعُّد على إنكاره بعذاب الدنيا والآخرة.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾[1] وقد اختلفوا في هذا القسم أيضاً على وجوه، كما اختلفوا في المُرسَلات. والأَوْلى أنها أقسام بالأجرام السماوية.

والمراد بـ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾﴾ الأجرامُ التي تُسرِعُ في حركتها. والكلام مُستَعارٌ من قولهم: أغرَقَ النازع في القوس؛ إذا بلغ غاية المدى.

---

(١) يقسم سبحانه ـ والله أعلم ـ بالأجرام السماوية، فيقول: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يقال: أغرق النازع في القوس؛ إذا بلغ بالسهم غاية المدى، فيكون الكلام ـ والله أعلم ـ إشارة إلى أبعاد النجوم الموغلة في الارتفاع، ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ إشارة ـ والله أعلم ـ إلى حركات النجوم على أنفسها، أي: دورانها على نفسها كالدولاب أو المغزل، ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ إشارة إلى دورانها في أفلاكها، ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ إشارة إلى تفاوتها في هذه الحركة، ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ إشارة إلى ما للأكوان من أثر في الحيوان والنبات، كأثر الشمس والهواء والسحاب، وكالأثير الناقل للأصوات، إلى غير ذلك من المؤثِّرات التي لا يعلمها إلا الله، أي: فالذي قَدّر هذا التقدير، إنه بسنن إعادتكم عليم خبير. وجواب القسم محذوف، على نهج القرآن في مثل ذلك، والتقدير: لَتُبعَثُنَّ ولَتُحَاسَبُنَّ حساباً عسيراً. (المؤلف).

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢﴾ النجوم تنشط من أُفق إلى أُفق، تطلع وتغيب في ظاهر النظر، أو تَتَحرَّك على نفسها.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣﴾ النجوم السيَّارات، تسبح في فلكها، بمعنى: أنها تتحرَّك حركة فلكيَّة، فتقطع فلكها في سنة أو أكثر أو أقل، على اختلاف السيارات.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾، هي صفة النجوم أيضاً، يسبقُ بعضُها بعضاً في بادئ النظر؛ لاختلاف مَداراتِها سعةً وابتعاداً، فتَرى صغيرةَ المدار تسبقُ كبيرةَ المدار.

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾: مثل الشمس والقمر اللذَيْن لهما تأثيرٌ عظيمٌ في حياة الإنسان والحيوان والنبات.

فتكون كلُّها صفاتٍ لمختلف الأجرام السماويَّة. وأظنُّ أن المختصِّين بعلوم الفلك والعلوم الكونية يتمكَّنون أكثر من غيرهم لتأويل هذه الأوصاف للنجوم، ولا يعلم بحقيقتها إلا العليم الحكيم[1].

فإذا قلنا: هي أقسام بالأجرام السماوية، فَلْنكتفِ بأنها صفاتٌ للأجرام السماويَّة، وما فيها من بديع الصُّنع وعظيم القدرة ومُحكَم الإتقان، تلك الأمور الدالة على عظمة قدرة الخالق العظيم.

---

(١) أو المراد بالقسم في الآيات الخمسة: القسم بالملائكة. وهو ما رجَّحته في تفسيري «المعين» ص٥٨٣، أي: أقسمَ الله تعالى بالملائكة التي تَنْزع أرواحَ الكفار من أجسادهم نَزْعاً شديداً، كما ينْزع الرَّامي بقوسِهِ وَتَرَ قوسِهِ بشدَّةٍ حتى يستوفيَ غايةَ مدِّهِ، والملائكةِ التي تَجْذب أرواحَ المؤمنين من أجسادِهم عندَ انتهاءِ آجالهم برِفقٍ وسهولة ويُسْر، والملائكةِ الذين يترقَّبون دواماً ما ينزل إليهم من أوامر ربَّانيَّة؛ ليقوموا بتنفيذها في كونِهِ، دون كللٍ ولا تعب، فالملائكة المُتقدِّمات المُسْرعات لتنفيذ أوامر الله دون تأخير ولا تباطؤ، فالملائكة المنفِّذات ما سبَقَ به تدبير الله، وتمَّ به تقديرُه وقضاؤه.

ووَجْهُ المناسبة بين المُقسَم به من هذه الأشياء والمُقسَم عليه ـ وهو البعث ـ: ما فيها من عَظَمة القدرة الدالَّة على القدرة على البعث.

وجوابُ القَسَم محذوف، على نهج القرآن في مثله، ويدلُّ عليه الظرفُ المتعلِّق به. وتقديره: لتُبعَثُنَّ ولتُحَاسَبُنّ، وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴿٦﴾﴾ والمراد: قيام الساعة، وخراب العالم، واصطدام الأجرام، والله أعلم، ثم ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴿٧﴾﴾ وهي البعث والنشور والحساب. وهذه الآية بمعنى قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فانظر ما ذكر هناك من التفسير.

ثم صوَّر هَوْلَ ذلك اليوم بقوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴿٨﴾﴾ أي: شديدة الاضطراب، ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴿٩﴾﴾ ومعنى الخشوع: الذلة والاستكانة من شدَّة الخوف. وقد أعاد الضمير للقلوب، فأضاف إليها الأبصار؛ لِمَا بينهما من مُلابَسة الاجتماع في جسم واحد، والإضافة تَصحُّ في أدنى ملابسة. ويجوز أن يكون إعادةُ الضمير إليها باعتبار أصحابها، على طريقة المجاز المرسل، مِن ذِكرِ الجزءِ وإرادةِ الكلِّ، فأضاف إليه الأبصار لأنها جزءٌ من الأصحاب.

وبعد أن أقسَمَ على تحقيق وقوع البعث، وألمع عن هَوْلِ مُقدِّماته، ذكر إنكارَ المشركين له وكلامَهم في ذلك، وقَرَنه بالردّ، فقال: ﴿يَقُولُونَ﴾ إذا قيلَ لهم: «إنكم مبعوثون ليوم عظيم»، يقولون مُنكِرينَ له مُتعَجِّبين منه: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴿١٠﴾﴾ أي: أئنَّا لَمُعادُونَ بعد موتتنا إلى الحالة الأولى؟! مِنْ قولهِم: رَجَعَ فلان في حافرته، أي: في طريقهِ التي جاءَ فيها فحفرها، بمعنى: أثَّر فيها بمشيه، إذا كانت الأرض ترابيَّة. وتسميتُها حافرة مع أنها محفورة مجازٌ عقليٌّ مِن ذِكرِ اسم الفاعل مكانَ اسم المفعول، مثل: حجرة مضيئة، فهي على حدِّ قوله تعالى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١، والقارعة: ٧].

ثم أكَّدوا الإنكار بالاستبعاد، فقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١﴾ أي: أنردُّ إلى أوَّل حالنا وابتداء أمرنا فنعود أحياءً كما كنا بعد أن تنخر عظامنا؟ ثم ﴿قَالُوا۟﴾ مستهزئين ساخرين: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾ أي: إنْ صَحَّت فنحنُ إذن خاسرون في التكذيب بها والإهمال لأمرها. وجواب «إذا» محذوف، على نهج القرآن.

فردَّ عليهم سبحانه ببيان سهولة البعث عليه، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾، وهي نفخة الصُّور الثانية، أو مجرَّد الإرادة[١]، ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ أي: فإذا هم أحياءٌ على وجهِ الأرض، بعدما كانوا أمواتاً في بطنها، ووُصِفَت بـ«الساهرة» بصفة من يمشي فيها ليلاً، وقيل: هي البيضاء المستوية. سُمِّيت بذلك لأنَّ السَّراب يجري فيها، من قولهم: عينٌ ساهرة؛ للَّتي يجري ماؤها، وعينٌ نائمة؛ للَّتي لا تجري.

وقيل: هي المفازة؛ لأنَّ سالكها لاينام خوف الهلكة، فتكون مجازاً عقلياً، من إسناد وصف الفاعل للمكان. وهذا المعنى أنسَبُ في الموضوع؛ لأنَّ الناس على أرض المحشر في أشدِّ الجزع والهلع، كان الله لنا بالعَوْن.

وقال الراغب: هو اسمٌ لوجه الأرض مُطلقاً[٢]، ونـقل مثل ذلك عن الحسن وقتادة ومجاهد وغيرهم[٣].

وقيل: هي أرض القيامة، يُجدِّدها الله سبحانه وتعالى.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ

---

(١) هذا تأويل بعيد فيه تكلف ظاهر، فالأول هو المعتمد.

(٢) «المفردات» ص٤٣٠.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ١٩٨).

وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

وبعد أن ذكر حديث المُكذِّبين المُنكِرين للبعث، عقَّبه بحديث موسى وتكذيب فرعون وقومه إيَّاه، وما قاساه من الشدائد، عقَّبه بذلك زَجْراً لهؤلاء المكذِّبين، بأنَّ فرعون كان أقوى منهم فنكَّل به، وتسليةً لنبيِّنا ﷺ وعِدَةً له بالنصر، وحثّاً له على أن يصبر مقتدياً في ذلك بموسى عليه السلام، فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾[1]، وجعل الخشية غايةً للهداية؛ لأنها مَلاكُ الأمر كلِّه.

وقوله: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ الفاء تُفْصِحُ عن جُمَل طُويت، تعويلاً على تفصيلها في السُّور الأخرى.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بموسى وسَمَّى تلك المعجزات سِحْراً، ﴿وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ اللهَ عزّ وجل بالتمرُّد، بعدما علم صحَّة الأمر، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أي: يشتدُّ في مكايدة موسى، ﴿فَحَشَرَ﴾ الناسَ ليُغالب موسى أمامهم بالسَّحرة. فلما غَلَبَ موسى وظهر الحقُّ على يديه أعرَضَ فرعون عن الحق الواضح، ومضى في كفره وعناده، ﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ في

---

(١) أي: استمع مُتفهِّماً ـ أيها المخاطب ـ هذا الحديث المتعلِّق بالنبيِّ موسى عليه السلام؛ حينَ ناداه ربُّه بالوادي المُطهَّر «طُوى»؛ الواقع إلى جانب جبل الطُّور بينَ مَدْين ومصر: اذهب إلى فرعون؛ إنه عَلا وتكبَّر وتجاوزَ الحدَّ في كُفرِه وفسادِه وظُلْمِه وعدوانه.
فـقُل لفرعون بغاية الرفق والتكريم: هل يَطيب لك أن أدعُوَك إلى أن تَـتَطهَّر من الشِّـرك والكفر، وأُعرِّفك بصفاتِ ربِّك الجليلة، وأسمائه الحُسْنى، فإذا عرفتَ صفاته الجليلة، خشيتَ عقابَه وانتقامه، فآمنتَ به ربّاً لا شريك له، وعبدتَه وحدَه، وأطعتَه طامعاً بثوابه الجزيل يوم الدِّين؟

المجتمع، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ[١] ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾[٢] أي: نكّل به سبحانه في الدنيا والآخرة نكَالاً عظيماً، بالغرق ثم العذاب المُهين.

وقد كان المصريُّون يعتقدون بحلول روح الإله في الفراعنة، وأنها تتناوبهم واحداً بعد الآخر، أو أنهم لِكَرَمِ عُنصرِهم يستمدُّون الروح المعنويَّة من الملأ الأعلى.

ثم بالغ في التَّحسيس بما جرى، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ لأنَّ خشية الله تفتح القلوب.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

وبعد أن ختم القصة رَجَعَ إلى مخاطبة مُنكِري البعث، مُؤنِّباً إيَّاهم على إنكارهم القدرة على ذلك، ومُستَدلاً عليه بأمر يُعلَمُ بالمشاهدة، فقال: ﴿ءَأَنتُمْ[٣] أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: أخَلْقُكم وإعادتكم بعد الموت أصعبُ أم بناءُ السماء؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]، وقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

---

(١) النَّكال مصدرٌ بمعنى التنكيل، وهو التعذيب الشديد. والمقصود منه: منعُ الغيرِ من الوقوع في أسبابه. والمعنى: عاقبه الله عقاباً جعله عِبرةً لغيره.

(٢) أي: جعله عِبرةً لغيره،جزاء الآخرة في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقوله في الأولى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

(٣) ﴿ءَأَنتُمْ﴾: استفهامٌ أُريدَ به التوبيخ لمنكري البعث.

وقد فصَّل خَلْقَ السماء بقوله: ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾، والمراد من السَّمْك: العُلوّ، ومن التَّسْوية: النظام والإتقان، ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا[1] وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ أي: جَعَل الليلَ مظلماً، والنهارَ والضحى مبتهجاً مُزْهِراً. وقدّم هذا على الدَّحْو؛ لأن مصدره الشمس، والله أعلم.

فأخر الدَّحْوَ فقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[2] أي: مهّدَها وبَسَطها، ولم يجعلها كلَّها جبالاً وَعِرة، و﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ فكان كثيرٌ منها خزَّانات للماء ومُسْتَغَلًّا خِصْباً للكلأ والثمار والمحصولات الزراعيَّة، وجعل ذلك ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

فكفرتُم بالله وبنِعَمِه، وأنكرتُم قدرةَ الله على بعثكم، فحقَّ عليكم العذاب الذي ذكره سبحانه ضمن ما فصَّله عن موعد الجزاء بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ وهي القيامة، وذلك ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ أي: يتذكَّر كلُّ أحد ما عمله من خير أو شر لينال جزاءَه، وهذا هو معنى حساب الخلائق جميعهم في لمحة البصر[3] ـ والله أعلم ـ كما جاء ذلك في الأثر[4].

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ فيراها كلُّ ذي بَصَر، تَتَلظَّى بزفيرها وشهيقها، وحينئذٍ ينال كلُّ ذي عمل جزاءَه.

---

(١) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ يقال: غَطَش الليلُ بوزن ضرب، أي: أظلم. وأغطشَه الله، أي: جعلَه مُظلِماً.

(٢) الدحو: قذف الشيء من مقرِّه مع مدِّه وبسطه، فيجوز أن يشير بذلك إلى صورة انفصالها من الشمس إذ كان كذلك، والله أعلم. (المؤلف).

(٣) بل الحساب أمرٌ أعمُّ من هذا الإدراك والتذكُّر، وما الإدراك والتذكُّر إلا تمهيد للحساب ومقدمة له، كما تقدَّم بيانه تعليقاً في مواضع ينظر منها على سبيل المثال (١: ٦٠٩).

(٤) سبق تخريجه (١: ٦٠٩).

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧﴾ وجاوَزَ حدودَ الله المضروبة لأحكامه، ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨﴾ ففضَّل لذائذَها على ثواب الآخرة، فسَعَى للأُولى ولم يَسْعَ للأُخرى، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ أي: فدارُ العذابِ مُستَقرُّه ومأواه.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾[1] أي: مقامَه بين يديه للحساب، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾[2] الذي يميل به إلى اتِّباع الشهوات، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ ينال فيها السعادة والهناء.

---

(١) أي: خاف مقام ربِّه عليه باطِّلاعه على سرِّه وعلانيته، فالمقامُ مصدرٌ ميميٌّ بمعنىٰ القيام، ويحتمِلُ أنَّ كلمة «مقام» أُتِيَ بها لتعظيم الله وإجلاله وعزَّته وسلطانه، وهذا الخوف يحمل صاحبَه إلى مقام الخشية من الله، ويحتمل أن يكون المعنى: خاف العبد قيامَه بين يدي ربِّ العزَّة سبحانه، فالمقام اسم المكان، وأُضيف الضمير العائد على الله؛ لأن ذلك القيام يكونُ بين يدَيه سبحانه، وهو موقف تكليم الله عبدَه من غير حجاب ولا ترجمان، وكل هذه المعاني لازمة ومتلازمة.

(٢) يظنُّ بعض علماء النفس أنَّ ما يُسمُّونه الأفعال المنعكسة يعمل في النفس عَمَلَه دون سيطرة عليه أو قدرة على كفِّه، كرغبة الإنسان ومَيْله الشديد إلى الشيء أو الأمر الذي يحبُّه حباً جمّاً، إذا رآه أو تهيأ له وقدر عليه، فلا يتمكَّن من كفِّ نفسه عنه، وحفظها منه، ولا سيما إذا كان المَيْل إليه طبيعياً فطرياً.

والصواب: أنَّ في قدرة الإنسان السيطرةَ على هذا الموقف ما لم يكن قد أفسَدَ إرادته بجريانه مع هواه من أوَّل نشأته، وعدم تربيته على تحمُّل ما لا يحب في العاجل لينال به الخير في الآجل. فإنْ هو أفسَدَها استبدَّت به وحكمت عليه واستولت، وإنْ هو نمّاها على طبيعتها الصحيحة، وثبَّتها في ترك الحب العاجل للخير الآجل؛ استبدَّ بها وأوقفها عند حدِّها وعوَّدها على ذلك. وهذا هو المراد من إرجاع جميع الأسباب إلى اتِّباع الهوى؛ لأن من يتعوَّد على اتِّباع هواه حتى يسيطر عليه ويستبدَّ به، لا يتمثَّل له النفع الآجل، كما يستحوذ عليه الميل العاجل، لضعف نفسه وخور إرادته عن مقاومة هَوَاه. (المؤلف).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

ثم أردَفَ هذا السياق بسياق آخر، تكلَّم به عن تَعَنُّت المشركين في إنكارهم لذلك اليوم، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ تعنُّتاً واستهزاءً ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ أي: متى إرساؤها؟ والكلمة مُسْتعارةٌ من مَرْسىٰ السفينة، وهو المكان الذي تَسْتقرُّ فيه من البحر[١]. وهذا من تعبير القرآن عمّا أراده المنكرون، وليس من تعبيرهم، وذلك نهجُه في الحكاية.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ عِلمَ ذلك ينتهي إلى الله، وأنه استأثر به، ولم يُطْلع عليه أحداً، فقال: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾[٢]، وصورةُ التعبير تُؤْذن بالعَظَمة والهوْل مع الخفاء، وأنها فوق إدراك البشر، أي: ما أنت من ذِكرِها لهم وتبيين وقتها في شيء؛ لأن ذلك مما استأثر الله بعلمه، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ أي: هذه وظيفتك، تُبيِّن اقترابها، وتُفَصِّل ما فيها من الأهوال كما تُحيط به خُبراً. أما تعيينُ وقتها فلم يُفَوَّض إليك، فما لهم يسألونك عمّا ليس من وظائفك، وتحت مقدورك؟!

ولما كان سؤالهم يندمج فيه شيءٌ من الاستبطاء، وإن كان على نهج الاستهزاء،

---

(١) أي: يسألك المكذِّبون بالبعث ويوم الدِّين ـ يا رسول الله ـ عن الوقت الذي يُبعث الناسُ من أجْداثهم إلى الحياة الآخرة، وتنتهي فيه مسيرة هذه الحياة الدنيا، بتصاريفها المتتابعة، وتغيُّراتها المستمرَّة، كما تتوقف السفينة في الميناء، وتُلقي مَراسيها، وتثبتُ وتستقرُّ عنده؟

(٢) ﴿فِيمَ﴾ الأصل: (في ما)، و(ما) هذه اسم استفهام إنكاري، أي: في أيِّ شيء أنت ـ يا رسول الله ـ من تذكُّر وقت قيام الساعة، وأنت لا تعلم عن هذا الوقت شيئاً حتى تسأل عنه؟ إلى ربِّك ـ وحده ـ منتهى علمها، لا يعلم متى ينتهي مسير زمن الحياة الدنيا، وترسو عنده ساعة إنهاء ظروف هذه الحياة إلا الله تعالى.

قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ أي: كأنهم يوم يَرَوْنَ ذلك، لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار، يُمثِّل قِصَرَ أيام الدنيا بالنسبة إلى أيام الآخرة وخلودها، فهي على حدِّ قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٣]، وذلك لأنَّ الحياة الدنيا هي المرحلة الأولى القصيرة من السفرة الطويلة العديدة المراحل، البعيدة المَدَى والمداخل.

ويجوز أن يكون المراد بيان أنَّ أرواح الموتى طالما هي في حياة البرزخ لم تتقيَّد بالزمان ولم تشعر به، فتكون عندها الآمادُ في عداد الساعات، كما تُؤْذِنُ بذلك قصَّة المارِّ على القرية، وقصَّة أصحاب الكهف، والله أعلم.

قال الأستاذ الإمام: كان أهل العِناد من قريش يُعَنِّتون رسولَ الله ﷺ بالسؤال عن وقت الساعة، ومتى يقيمها الله؟ فكان النبيُّ ﷺ يُردِّد في نفسه ما يقولونه، ويَتَمنَّى لو أمكن الجواب عمَّا يسألون، كما هو شأن الحريص على الهداية، الجاهد في الإقناع، فنهاه الله عن تَمنِّي ما لا يُرْجَى، وجاءَ بالنهي في صورة الاستفهام الإنكاري، حيث قال: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي: ما هذه الذكرى الدائمة؟ لستَ في شيءٍ منها، أي: لا حاجة لك بها، فإنّ عِلمَ ذلك ينتهي إلى ربِّك، وإنما شأنك أن تُنذِرَ مَنْ يخافها، فتُنبِّهه من غَفْلته حتى يستعدَّ لِـمَا يلقاه يومها. أما هؤلاءِ المعاندون فإنهم لا يعقلون، فلا تشتغل بالجواب عمَّا يسألون، فإذا جاءَت الساعة ذهبت صورة كلِّ زمان مَضَى من أذهانهم، سواءٌ طال أو قَصُر، فحَسِبوا أنهم لم يلبثوا من يوم خُلِقوا إلى يوم بُعثوا إلا عشيَّة أو ضُحاها، أي: طَرَفاً من أطراف النهار، لا نهاراً كاملاً.

❊ ❊ ❊

سُورَةُ عَبَسَ

مكيَّة، وهي اثنتان وأربعون آية

وقد تضمَّنت تَسْويةَ الناس في الدعوة، لا فرق بين عظيم وغيره.

وقد انتقل السياق من العتاب إلى الترغيب والترهيب، فأشبَهَت بذلك هذه المجموعة من السُّور.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾
أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾
فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾
بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾(١) نزلت في ابن أُمِّ مكتوم، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها، واسمه عَمْرو بن قيس، وأُم مكتوم: لقب أُمه، واسمها عاتكة المخزومية، وكان أعمى، واستخلفه النبيُّ ﷺ على المدينة مراراً. يُصلِّي بالناس، وكان يُؤذِّن بعد بلال.

---

(١) إذا أراد الله سبحانه أن يَتَدارك أمةً برحمته، فيعيد إليها الحياة الاجتماعية الصحيحة بواسطة التعاليم الإلهية، فلا يكون ذلك إلا بواسطة العامَّة، لأنهم لبُعدهم عن مناشئ الإصابات من الأمراض الاجتماعية يكونون أبطأ تأثراً بأنواع الفساد العمراني الخلقي من الخاصَّة، فيبقى فيهم بقية من نور الفطرة تصلح للرجوع بهم إلى الحياة الاجتماعية الصحيحة والتعاليم الإلهية.
وتأنيب القرآن لمحمد ﷺ عن هذا الأمر بهذه الصورة القوية تَصفَعُ الكافر المتقوِّل بأنَّ القرآن من صُنع محمد واختِلاقِه. (المؤلف).
قلت: هو عتاب وليس بتأنيب، والعِتاب إنما يكون بين المحبِّين، ثم هو عتابٌ رُوعي فيه اللطف في الخطاب، حيثُ عَدَلَ عن أسلوب الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، ولم يقل: عَبَسْتَ وتولَّيت.

أما سبب نزول هذه الآية فقد روي: أنه أتى النبيَّ ﷺ أول إسلامه، وهو بمكة، ومعه ﷺ صناديد قريش؛ عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأميَّة بن خلف، والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام، رجاءَ أن يُسلِمَ بإسلامهم غيرُهم، فقال ابنُ أم مكتوم: يا رسول الله، أقرِئني وعَلِّمني مما علَّمك الله، وكرَّر ذلك، وهو لا يعلم تَشاغُلَه ﷺ بالقوم - بل ظنَّ أنه في مجلس إرشاده العام - فكَرِهَ الرسول ﷺ قَطْعَه لكلامه، فظهرت الكراهة في وجهه، فعَبَسَ وأعرض عنه، فنزل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ[1] ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ بما يقتبس منك، ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾ أي: يتَّعظ بمواعظك وينتفع بها.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾ عمَّا عندك وأعرضَ عنك، والمراد: أنه أعرضَ بماله وقوَّته عنك، أي: مِن هؤلاء المشركين الصَّناديد، ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أي: تَتَعرَّض بالإقبال عليه، وليس عليك إلا البلاغ، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ حتى تهتمَّ بأمره وتُعْرِضَ عمَّن جاءك طالباً الإرشاد. وهو مَنْ ذكره بقوله: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾[2] طالباً للهداية، ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾[3] الله، ويخاف من الغواية، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ أي: بشأن الصَّناديد من كفار قريش، ظناً منك أنَّ مُداجاتهم[4] تردُّهم عن العِناد.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا﴾ أي: الهداية المُودَعة إليك ﴿تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾ لا مُداجاة فيها ولا إجبار،

---

(١) أي: تغيَّر وجهُ النَّبيِّ ﷺ كارهاً، وأدار ظهرَه مُدبراً؛ لأجل أنَّ الأعمى عبد الله بن أم مكتوم جاءه مُسْتَرْشداً، وهو لا يدري أنه مُقْبل على دعوة كبار مشركي قريش، حتى ظهرت الكراهة في وَجْه رسول الله ﷺ لقطعِه كلامه.

(٢) حال من فاعل «جاء».

(٣) حال من فاعل «يسعى».

(٤) أي: مداراتهم. انظر: «لسان العرب» (دجو).

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢)﴾ أي: ذَكر وانتبه لتلك التذكرة. وذكَّر الضميرَ الراجع إلى الهداية؛ لأنها بمعنى الوعظ والإرشاد، على أنه يجوز أن يُراد به القرآن الذي حوى تلك الهداية التي هي ﴿فِي صُحُفٍ[1] مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ﴾ في الشأن والقَدْر، ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ (١٤)﴾ من النقص والضلالة، ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ (١٦)﴾ وهم الملائكة الذين يَسفِرون بين الله والرسل، والأنبياء الذين يَسفِرون بين الله والناس بما حَوَت تلك الصُّحف من هدايةٍ وإرشادٍ من الله سبحانه لعباده. ويجوز أن يكون من ذِكرِ الجنس وإرادة الواحد، إذا كان المراد جبريل عليه السلام، والله أعلم.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٢)﴾.

ثم خصَّ من تلك الهدايةِ الهدايةَ إلى اختصاصه سبحانه بالألوهية، فإنها لا تحتاج إلا إلى التذكير لوضوحها، ولا يمنع عن الإقرار بها إلا منازعة الهوى، لذلك قال: ﴿قُتِلَ[2] ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧)﴾[3] وهذا دعاءٌ على الإنسان بأشدِّ عبارات النقد والتنديد،

---

(١) ﴿فِي صُحُفٍ﴾: خبر ثان لـ ﴿إِنَّهَا﴾ يعني: إنَّ الجارَّ والمجرور مُتعلّقان بخبرٍ ثانٍ محذوف، والتقدير: كائنة، وما قبله اعتراض.

(٢) ﴿قُتِلَ﴾ أي: لُعِن وهذا خاصٌّ للكافر. «ياقوتة الصراط» ص ٥٨٥، لغلام ثعلب بتحقيقي.

(٣) هذه جملة قُصد بها المبالغة في التأنيب على المبالغة في الكفر والجحود، ثم بصَّره في نفسه بالقدرة الإلهيَّة التي ينكرها، فقال: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: خلقه من شيءٍ مَهين، ثم قدّره على ما لا يقدر عليه غيره من العالمين، ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ﴾ إلى ذلك الإنتاج ﴿يَسَّرَهُۥ﴾ بأن سخَّر له ما في الأرض جميعاً، وذلَّل له مناكبها، فاكتشف من إمكانياتها، واستفاد من =

على ما هو المعروف باللسان العربي، وهو كناية عن قُبح حاله، وأنه قد بلغ منه مبلغاً لا يستحقُّ معه أن يبقى حياً، ومنشأ الشناعة ومناطها: نسيانُه لِـمَا يتقلّب فيه من النِّعم، وذهولُه عن مُسْديها، فإذا ذُكِّر به أعرَضَ عن الذكرى، فما أشدَّ كفره بإحسان من غَمَره بنِعَمِه من مبدأ إيجاده إلى ساعة مَعَاده؟!

أنظَرَ ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي: فأتمَّ خَلْقَه بأعضاء متناسبة تلائم حاجاته، ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾(١) حيث أودَعَ فيه من القوى ما يمكّنه

= خيراتها، واستخدم طاقاتها الظاهرة والخفيَّة، وكذلك يسَّره لسبيل الهدى والطريق المستقيم للدنيا والأُخرى، يسَّره إليه بالطبيعة والشريعة، ولكنه أعرض عما هداه الله، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي: بينما هو في هذه الرفعة والقدرة البالغة فاجأه الموت، فجعله جَثْوَة هامدة كأنْ لم يَغْنَ بالأمس، فأين ذهبت تلك الهمَّة العالية، وكيف انطمست هاتيك المعالم النائية؟ أفلا يفكر هذا الإنسان أنَّ الذي سيَّره هذا التسيير، وصيَّره هذا المصير، قادرٌ على إعادته مرة أخرى؟ بلى، ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: إنه سبحانه قادر على ذلك كل القدرة، وسيعيده إلى حالته مرة أخرى.

ثم ردعه عن موقفه هذا من الكفر والإنكار والتقصير والإعراض، فقال: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: ما أمره به الله من عقيدةٍ وأعمال تؤول به أحسن مآل. وهذا يشمل المُنكِرَ والمقصِّر معاً؛ لأنَّ التقصير ينبعث من اعتقاد مائع، لم يصل إلى درجة اليقين، فيكون شبيهاً بالمنكرين.

وبعد أن بصَّره ما فيه نفسه من آيات على قدرته البالغة التي لا تعجزها إعادته، أشفعها بمثلها من دلائل القدرة والامتنان، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلى مجموعة أخرى من مظاهر القدرة والمنة ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ...﴾ الآيات. (المؤلف).

(١) تشبه هذه الآيات ما جاء في سورة الدهر: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢ – ٣]، فالمراد من السبيل وتيسيره: هدايته سبحانه للإنسان بهدايتين: هداية الطبيعية التي أشار إليها بقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ – ١٠]، =

من استعمال تلك الأعضاء وتصريفها فيما خُلقت له، وجعل ذلك على صورة تدريجيَّة بمقتضى قانون التكامل، فكُلَّما نَما العضوُ نَمَت القوة. وهكذا أيضاً شأن العقل الذي يقودُ تلك القوى عند تصريفها للأعضاء، فإنه يتدرَّج في تكامل قوته وعُلوِّ إدراكه، وبهذا العقل قد يسَّره سبيل الخير، وأوضَحَ له جادَّة الرَّشاد، وقد ضمَّن «يَسَّرَ» معنى: بصّر، فأفاد أيضاً أنه طَبَعه على معرفة الحق من الباطل، وألهمه فجوره وتقواه، وأرسل له الشرائع تُبصِّره هُداه، فهداه بهدايتين: طبيعية وتعليمية، بينما سائر المخلوقات مَهْدية بهداية طبيعية فقط، حتى الملائكة، فأفرَدَ الإنسانَ بهذه الخاصَّة لاختياره في تصرُّفاته؛ كي لا يبقى له حُجَّة بعد الرسل.

ثم أكمل أطواره فيما بعد هذه الحياة، فقال: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾ وبينَ هذا الطور والحياة قبله بَوْنٌ بعيد، ليست الحياة الثانية بأعجب من الموت بعد ما كان عليه قبل ذلك، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ أي: إنه يَنشُرُه ويبعثُه بعد موته وإقباره، في الوقت الذي يريد أن يبعثَه فيه، ويحاسبُه على أفعاله وأقواله بمقتضى طبيعته وتعاليم شريعته.

ولكونه قصّر كثيراً، عنَّفه سبحانه عن تقصيره الشديد في هذا السبيل الذي خلقَه لأجله، ويسَّره إليه، وبصَّره عليه، فقال: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ أي: حقاً إنَّ الإنسان قد بلغ في كفره بالنِّعم الإلهيَّة مبلغاً يقضي بالعَجَب، فإنه بعدما رأى في نفسه ما عَدّدناه من آيات ربِّه، وبعد أن مضى على نوعه تلك السنون الطوال في الأرض، وهو يتقلَّب

= وهداية الشريعة التي أشار إليها بقوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ – ٣٩]. ولذلك عقَّب قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ بقوله: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: ثم يُنشِرُه في الوقت الذي شاء أن ينشره فيه. (المؤلف).

في أدوار وأطوار، يشاهد فيها من جلائل الآثار، ما يُحرِّك الأنظار، ويسير بها على الصواب من الآراء والصحيح من الأفكار، بعد هذا كلِّه إذا ذُكِّر لا يذكر، وإذا أُنعِمَ عليه لا يشكر، فهو إلى الآن لم يَقْضِ ما أمره الله به، سواءٌ كان الأمر بالإلهام وهداية الفطرة بما أشهده في نفسه من دلائل القدرة وعلائم الإحسان والنعمة، أو كان بالوحي على ألسنة الأنبياء والمرسلين، فإنَّ الله تعالى لم يَدَع الإنسان سُدى، ولم يُهمِله من إرسال الهُداة إثْرَ الهُداة، غير أنَّ الإنسان في ضلاله وانقياده للأهواء الفاسدة، لم يَقْضِ شيئاً ممَّا أمره الله به، وكيف يكون قد قضى شيئاً من ذلك وهو لا يزال في غفلةٍ عنه، يدعو معه غيره، ويُشرِكُ في الاستعانة سواه، ويأتي من فظائع الأعمال ما لا يرضاه، فلا يزال أن يراه الله حيث نهاه.

فإنْ زعم الإنسان أنه لم يشهد خَلْقَ نفسه، وعَمِيَ عمَّا في ذاته من بدايتها إلى نهايتها، وأنكر أن يكون شيءٌ من ذلك يدلُّ على وحدانيَّة خالقه، وانفراده بالإحسان إليه؛ ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ ذلك ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلى ما بين يديه من أقرب الأشياء إليه، فلْينظر ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ الذي يدورُ عليه أمرُ معاشه، كيف دَبَّرناه تدبيراً عجيباً؟

وذلك ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ﴾ من المُزْنِ ﴿صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ من نَحْو الحنطة والشعير وأمثالها، ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾[1] وهو ما يُؤْكَلُ من النبات غضّاً طرياً، ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ جمع غَلْباء، وهي الضخمة العظيمة، وعِظَمُ الحدائق بكثرة أشجارها والتفافها.

---

(١) ﴿وَقَضْبًا﴾: أصلُ القَضْبِ مصدر لفعل قَضَب فلان الشيء، أي: قطعَه بوزن ضَرَب. ومنه كلام مقْتَضَب. وتُطلِقُ العربُ القضْبَ على كلِّ نبات يُقطَع بعضُه وهو أخضر ليُؤْكل، ويخرج مكانه غيره، كالكرات والبرسيم الذي تُعلف به الدواب.

ثم خصَّ الفاكهة بالذِّكر بعد ذلك؛ لأنها مِمَّا يَتمتَّع به الإنسان خاصَّة، فقال: ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ وهي ما يَـتَفكَّه به الإنسانُ من الخضر والثمر، ثم خصَّ ما ينفع الحيوان خاصَّة، فقال: ﴿وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو المرعى والكلأ الذي لم يزرعه الناس[1].

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية، فقال: «كلٌّ هذا قد عرفناه، فما الأبّ؟ ثم رَفَضَ عصاً كانت بيده غضباً على نفسه، وقال: هذا لَعَمْرُ الله التكلُّف، وما عليك يا ابنَ أمِّ عُمر أن لا تدري ما الأبُّ. ثم قال: اتَّبعوا ما تَبيَّن لكم من الكتاب، وإلا فَدَعوه»[2].

قال الأستاذ الإمام مُعلِّقاً على كلام عمر هذا: إذا سمعتَ هذه الرواية فلا تظنَّ أنَّ سيدنا عمر بن الخطاب ينهى عن تتبُّع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته، كلا، ولكنه يريد أن يعلِّمك أنَّ الذي عليك من حيثُ أنت مؤمن، إنما هو فهم جملة المعنى على قَدْر الإمكان، وفي ذلك يتفاوت المتفاوتون حسب العلم والمعارف.

فالمطلوب منك في هذه الآية هو أن تعلم أنَّ الله يمنُّ عليك بنِعَم أسْداها إليك في نفسك وتقويم حياتك، فجعلها ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ فإذا جاءَ في سَرْدها لفظٌ لم تفهمه، لم يكن من جدِّ المؤمن أن ينقطع لطلب هذا المعنى، بعد فهم المراد مُجْمَلاً، هكذا كان شأن الصحابة ومن بعدهم رضي الله عنهم، ثم خَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ وقفوا عند الألفاظ وجعلوها شغلاً شاغلاً، لا يهمُّهم إلا التَّشدُّق بتصريفها وتأويلها

---

(١) ينظر «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠: ٣٤١٠).

(٢) رواه الحاكم (٣٨٩٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وتحميلها ما لا تحتمله، وقد تركوا قلوبهم خاليةً من الفِكرِ والذكر، وأعضاءَهم مُعطَّلةً عن العمل الصَّالح والشكر.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه خَلْقَهم ومعاشَهُم، أتبَعَ ذلك ببيان معادهم بصورة شرطٍ محذوفِ الجواب، على نهج القرآن في مثله، وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ وهي الصوت الهائل الذي يحدث من خراب الكون، ووقوع بعض أجرامه على بعض عند قيام الساعة، وذلك ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾[1] وقد كان في الدنيا يفديهم بماله وروحه ويفدونه كذلك، ولكن الآن يُصبح ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ أي: أمرٌ عظيم يَشْغَلُه عن الأقرباء، ويَصْرِفُه عنهم.

(١) سُئلَ الشيخُ ابنُ تيميَّةَ عن قوله تعالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٦] لِـمَ ابتدأ بالأخ، ومنْ عادةِ العربِ أن يُبدأ بالأهمِّ؟

فأجاب: «إنَّ الابتداءَ يكونُ في كُلِّ مَقام بما يُناسِبُه، فتارةً يقتضي الابتداءَ بالأعلى، وتارةً بالأدنى، وهنا المناسَبةُ تقتضي الابتداءَ بالأدنى؛ لأنَّ المقصودَ بَيانُ فِرارِهِ عن أقاربه مُفَصَّلاً شيئًا بعدَ شيءٍ، فلو ذَكَرَ الأقربَ أوَّلاً؛ لم يكنْ في ذِكْرِ الأبعدِ فائدةٌ طائلة؛ فإنَّهُ يعلمُ أنَّهُ إذا فرَّ منَ الأقربِ فَـرَّ منَ الأبعدِ، ولما حصلَ للمُستمِعِ استشعارُ الشِّدَّةِ مُفصَّلةً، فابتُدِئَ بنَفْيِ الأَبعدِ مُنتَقلاً منهُ إلى الأقربِ، فقيلَ أوَّلاً: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾، فعُلِمَ أنَّ ثَمَّ شِدَّةً تُوجِبُ ذلك، وقد يجوزُ أن يَفِرَّ منْ غيرِهِ، ويجوزُ أن لا يَفِـرَّ، فقيلَ: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ فعُلِمَ أنَّ الشِّدَّةَ أكبرُ من ذلك بحيثُ تُوجِبُ الفِرارَ مِن الأبوينِ، ثُمَّ قيلَ: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ فعُلِمَ أنَّها طامَّةٌ بحيثُ تُوجِبُ الفرارَ ممَّا لا يَفِرُّ منهم إلاَّ في غايةِ الشِّدَّةِ، وهي الزَّوجةُ والبَنونَ. ولفظُ «صاحبته» أحسَنُ مِن «زوجتِهِ». انتهى. تفسير شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ: (٦: ٤٦٣، ٤٦٤).

ثم فصَّـل سبحانه أحوالَ الناس في ذلك اليوم ـ المؤمنين والكافرين ـ فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨﴾ أي: مشرقة مضيئة، ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾ بما تشاهد من النعيم. اللهمَّ اجعَلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ أي: يَعْلوها ويَغْشاها سوادٌ وظُلمة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ[1] ۝٤٢﴾، أعاذنا الله وعافانا بفضله وإحسانه.

* * *

(١) أي: أولئك البُعداء عن رحمة الله هم الجاحدون للحقِّ، المنكرون للتوحيد والبعث، الـمُنبَعثون بوقاحةٍ في ارتكاب الآثام والمعاصي.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

مكيَّة، وهي تسع وعشرون آية

والغرض منها:

إثبات المعاد والحساب، كالسُّور التي قبلها والتي بعدها.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤﴾.

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم: أي: اضمَحلّت وأظلمت[1].

أقول: وهذا لازم المعنى، أما المعنى نفسه فهو أنها تُلفُّ مع بقية الأجرام بالصَّدمة الناتجة من خراب الكون وفساد نظامه الطبيعي، والله أعلم.

ومن نتيجة ذلك أيضاً ما ذكره بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾ أي: ذهب ضوؤها. وقيل: تناثرت وفُقد منها ما كان في اجتماعها من جمال، ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣﴾ فصارت هباءً منبثاً أو كثيباً مَهيلاً، ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤﴾[2] والعِشار: جمع عُشَراء ـ بضم العين وفتح الشين ـ وهي: النِّياق يمضي على حَمْلها عشرة أشهر.

---

(١) رواها عن مجاهد الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٢٣٨).

(٢) قال الإمام محمدُ بنُ عبدِ الواحدِ المعروف بغلام ثعلب في «ياقوتة الصراط» ص ٥٨٦: «﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾ [التكوير: ٤] أي: الدُّور مات أهلها؛ فتعطَّلت. قال أبو العباس ثعلب والمبرِّد: العشار: الحوامل من النوق؛ فإذا شُغِلوا عن هذه فهم عن غيرها أشغل».

وخصَّها بالذِّكر لأنها أكرَمُ مال كان عند المخاطَبين من العرب، ومع ذلك يُهمِلونها حينئذ ويَدَعونها تذهب حيث شاءت؛ لِعِظَم الهول وشدَّة الكَرْب يطلبها صاحبها.

وقال القرطبي: إنَّ هذا تمثيل لشدَّة الكَرْب، وإلا فلا عِشار ولا تعطيل[١]، فهو كناية عن أنَّ هَوْل هذه الحوادث يَصرِفُ من يحضرها عن أكرم الأشياء عليه لو كان.

أقول: والكنايات لا يجب فيها تحقُّق المعنى الأصلي، بل يجوز أن يكون المعنى خيالياً فقط.

ويقول غيره: إنه أمر واقع[٢]؛ لأن القيامة تأتي بَغْتة، والناس والحيوان لا يزال بعضهم أحياء، ثم يهلكون لِـمَا يصيبهم، ويدلُّ عليه قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ وذلك بأن تتجمَّع في صعيد واحد لاستيلاء الرُّعب عليها، فتخرج من أجحارها وأوكارها، لا يخشى بعضها بعضاً، ولا تخشى سَطْوة إنسان، ولا يطمع قويٌّ بضعيف؛ لخوفها واندهاشها من عِظَم الهَوْل وشدَّة الكرب. وأما قوله ﷺ: «إنَّ الله ليقتصُّ من الشاةِ القَرْناء للشاةِ الجَلْحاء»[٣] فيجوز أن يكون ذلك في الدنيا[٤].

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ إذ تُفجِّر تلك الزلازل ما بينها حتى تختلط وتعود بحراً واحداً. والسَّجْر معناه: الملء، فإنَّ كل واحد منها يمتلئ حتى يفيض ويختلط بالآخر. ويدل على هذا التأويل قوله تعالى في سورة الانفطار: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الإنفطار: ٣].

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٩: ٢٢٨).

(٢) وهو الصواب، إذ هو ما يدلُّ عليه ظاهر اللفظ، والحملُ على الظاهر مُتعيِّن إلا إذا قامت قرينة تدل على صَرْفه عنه، ثم كون الأمر واقعياً أبلغ في الدلالة على هول الموقف.

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) بل في الآخرة، كما يدلُّ عليه سياق الحديث، ولا ينافي ما في الآية لأنها واردة في لحظة القيامة، والحديث فيما بعده من مواقف الحشر والحساب.

وقد يكون تسجيرُها إضرامها ناراً، من قولهم: سجر التنور، فإنَّ ما في بطن الأرض من النار يظهر إذ ذاك بتشقّقها، أو المراد من التسجير: تبخُّرها لقُرب الأرض من الشمس بنتيجة ارتباك الكواكب. والله أعلم. أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً، ويجوز أن يحدث إذ ذاك تفاعل في الماء يفصل الهيدروجين من الأوكسجين، فيلتهب الأول بشرارة ذرية وتنسجر البحار ناراً، ويجوز أن يكون ذلك بقرب الأرض من الشمس. والله أعلم بتفصيل ذلك الأمر.

وبعد أن عدَّد من مقدِّمات الفناء وبطلان الحياة في الأرض والهلاك والدمار فيها، أخذ يذكر ما يكون بعد ذلك من البعث والنشور، وما يأتي بعده، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ أي: زُوِّجت الأرواحُ بأبدانها، وهي النشأة الآخرة، وهذا يُشعر بأنَّ النفوس كانت باقية من يوم الموت إلى يوم المعاد، ولكنها مُنفكّة عن الأجسام، فإذا أُنشِئَت هذه الأجسام نشأةً ثانية بالبعث والنشور، زُوِّجَت بها النفوس، وتكون الأجسام حينئذٍ من مادة في كيفيَّةٍ قابلةٍ للخلود. والله أعلم.

وبعد أن ذكر شيئاً من البعث، ذكر شيئاً من الحساب، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ بين يدي وائدها، ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ ما أبدع هذا الاستطراد في هذا السياق، والوأد: دفن البنت الصغيرة حيَّة إثر ولادتها، وكانت عادة من أشنع العوائد عند بعض العرب في الجاهلية، يفعلونه مَخافةَ السباء في حروبهم الكثيرة. وهذا السؤال استنكار لقتلها، وتبكيتٌ لوائدها. وقال أبو مسلم: المعنى: يُسأل قاتلُها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] أي: مسؤولاً عنه.

أقول: وعلى هذا يكون المعنى: سُئل عنها: مَنْ وائِدُها، تأنيباً له واحتجاجاً عليه. والمعنى الأول أروَعُ وأبلغ.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ يعني: صُحُف الأعمال. قال الأستاذ الإمام: والذي يجب علينا اعتقاده أنَّ أعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبيَّنةً، ويعبَّر عن مثل ذلك الثبوت بنشر الصحف للأعمال(١).

أقول: وذلك كما جاء في قوله تعالى في سورة النازعات: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ [النازعات: ٣٥].

ثم عاد فذكر شيئاً من أحوال القيامة، على نهج القرآن في إدماج المعاني المتناسبة

---

(١) يوم القيامة يُواجَه الإنسان بعمله، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، فيتذكَّر كلُّ واحد ما قام به من عمل، من خير أو شرٍّ، من طاعة أو معصية، من عدل أو ظلم، حيثُ يجدُ عملَه أمامه؛ يشاهده بنفسه ويراه بعيني رأسه: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ويُشاهِدُه أيضاً في صحيفة أعماله، التي كتبها الكاتبون طولَ عُمُره، له أو عليه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وهناك يُقالُ لكلِّ إنسان: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وهذه الآياتُ كلُّها تؤكِّد بقوَّة وجلاء: أنَّ الإنسان في الآخرة يرى عملَه الذي عَمِلَه، وسعيَه الذي سعاه، وقولَه الذي قاله، يراه نفسَه، لا أنه يرى جزاءه أو ثوابَه أو عقابَه فقط، فهذا تأويل للآيات لا يُقبَل.

ونحن اليومَ نشاهد: أنَّ الإنسان يمكنه أن يُواجَه بقوله وعَمَلِه مُسجَّلاً، يراه بعينيه، ويسمعُ صوتَه بأذنيه، عن طريق عَرْض الأشرطة المُسجَّلة عليه، فلا يُستَبعَدُ على الله جلَّ وعلا: أن يُسجِّلَ على الإنسان أقواله وأعماله؛ ليراها ويشاهدها ويسمعَها ويُعاينَها بنفسه، لتكون شاهداً له أو عليه.

بعضها ببعض، تربيةً لنشاط القارئ والسامع، واستمراراً لذكرى المعنى المنصرم، حتى لا يغيب عن الذاكرة، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾﴾ والكشط: هو القَشْط بعينه، فيهما اعتقاب الكاف والقاف، ومثله كثير في اللغة. وهذا الكشط يكون باضمِحْلال الأجرام واجتماعها على بعضها كُتلاً كُتلاً، فيخلو بعضُ نواحي الفضاء منها بانقشاطها عنه. والله أعلم.

ثم ذكر أحوال الجزاء، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾﴾ أي: أُوقدت إيقاداً شديداً للكافرين، ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾﴾ أي: قُرِّبت للمتَّقين.

وبعد أن تابع هذه الأحوال المتسلسلة عن القيامة وما يتبعها من الجنة والنار، ذكر ما يدل على الوعد والوعيد، فقال: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾﴾ ليومها هذا، أي: من الأعمال التي تستحقُّ بها الجنة أو النار. وهذا جوابٌ لجميع ما سبق من أدوات الشرط المتتابعة يُؤْذِنُ بأنَّ أعمال الإنسان يُدركها كلَّها في الآخرة[1].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم أكَّد سبحانه ما تقدَّم من البيان بالقَسَم عليه بقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾

(١) أي: إذا وقعَتْ تلك الأحداثُ الستَّةُ المذكورة في الآيات (١-٦) التي تكون قبيل الساعة، والأحداث الستة الأخرى المذكورة في الآيات (٧-١٣) التي تكون بعد البعث: تعلم كلُّ نفسٍ ما أَحضرَت من خير أو شرٍّ كَسِبَته باختيارها الحرّ في مدَّة امتحانها في الحياة الدنيا.

﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾. قال الأستاذ الإمام: قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ هو عبارة من عبارات العرب في القَسَم، يُراد بها تأكيد الخبر، كأنه في ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم، ويقال عنها أيضاً: أنها يؤتى بها في القَسَم إذا أُريد تعظيم المُقسَم به[١].

والخُنَّس: جمع خانسة، من قولهم: خَنَس؛ إذا رجع.

والكُنَّس: جمع كانسة، من قولهم: كنس الظبي؛ إذا اسْتتر في كناسِه، وهو موضعٌ له في الشجر، يأوي إليه من شدَّة الحر أو غيرها.

والجواري: جمع جارية، من الجري، قيل: المراد بها السيارات الخمسة، وهي: عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزُحَل، وذلك لأنها تجري مع الأرض حول الشمس، ثم تُرى راجعة إذا سبقتها الأرض، ولأنها تظهر في وقت، وتخفى في آخر لأنها تكون فيه وراء الشمس، فرجوعها في رأي العين هو خنوسها، واختفاؤها هو كنوسها.

وقيل: هي الكواكب جميعها، فإنها لا تزال في نظر العين جاريةً راجعةً علينا بعد مغيب الشمس غائبةً عنا بعد طلوعها. وكذلك كثير منها تخفى إذا كانت وراء الشمس، ثم تكرُّ فتظهر لنا[٢].

وقد تابع القَسَمَ بقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ أي: أقبل ظلامُه أو أدبر، وهو

(١) والمراد بالقسم: أُقسم بهذه الآيات الكونيَّة الثلاث التي لا تُدركون عظمتَها، ولكن سيأتي زمان يُدرِكُ فيه علماءُ الكون عظمةَ هذه الآيات.

(٢) الآية الكونيَّة الأولى: ﴿بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ أي: أقسم بالنجوم السيّارةِ السابحةِ في الفضاءِ تبدو بالليل فتظهر، وتختفي بالنهار تحتَ ضوء الشمس؛ النجوم الجارية المُسْتترة في أبراجها كما تستتر الظِّباءُ بين الأشجار عن أعين طُلَّاب صَيْدها.

من الأضداد[١]. وقد أجمع المفسرون على أن المراد به: أدبر[٢]، ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ أي: بدا وظهر[٣].

أما الـمُقسَمُ عليه فقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾، وضمير ﴿إِنَّهُۥ﴾ يجوز أن يعود إلى الخبر المتقدِّم، وهو: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ...﴾، أو إلى القرآن الناطق بما ذكر من الدواهي الهائلة؛ لأن عَوْد الضمير إلى ما يُفهَمُ من السياق مألوفٌ في اللغة، ومعروفٌ في القرآن.

أما الرسول الكريم، فقد قال الحسن وقتادة: هو جبريل عليه السلام[٤]. وإنما كان هذا قولَه؛ لأنه هو حاملُه إلى النبيِّ ﷺ.

ووَجْهُ المناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه: هو أنه كما تشاهد هذه النجوم وأوضاعها، والنظام الشمسي وتنسيقه، مضبوطةً مُحكَمةَ الإتقان، لا يشكُّ الناظر في إتقان وَضْعها وإحكام صُنعها، فكذلك هذا الخبر أو هذا القرآن الذي جاءَ به رسولٌ من الله سبحانه، خالقِ هذه النجوم، وجاعلِ هذا النظام المنظور والمعلوم، فهو أمرٌ لا

(١) الآية الكونية الثانية: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أي: وأقسم بالليل إذا أقبَل وأدبر بظلامِه أولَ الليل وآخرَه. وتفسيرُه بإقبالِ الظلام أوفق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

(٢) ادَّعى الإجماعَ الفراء، ولا تصحّ هذه الدعوى. وينظر: الطبري والفخر الرازي والقرطبي.

(٣) الآية الكونية الثالثة: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: وأُقسم بالصبح إذا تبلَّج وامتدَّ وبزغَ ضَوْؤه، وانتشرَت نسماته الباردة، شبَّه الليلَ بالمكروب المحزون، فإذا بدا الصبحُ فكأنه تخلَّص من الحزن.والمعنى: أنَّ أولَ النهار كأنه شخص مهموم من ضغطِ الليلِ عليه، فإذا ذهبَ تنفَّس مسروراً وأشرقَ وجهُه. والكلام كناية عن ظهور ضوئه.

(٤) ذكر عنهما الماوردي في «النكت والعيون» (٦: ٢١٨)، ورواه عن قتادة الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٢٥٨).

شك فيه، جليٌّ لا غبار عليه، واقعٌ مُسْتقرُّ الثبوت، مهما كذَّبوا واتَّبعوا الأهواء، وهو أعظم شأناً من هذا الكون ونظامه، وأتقن سَدَاداً؛ لأنه كلام الله، والكون صُنْعُ الله.

ثم تابع وَصْفَ هذا الرسول بما يزيد في توثيق هذا الخبر الذي جاءَ به من الله، فقال: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ شديدة. قال الأستاذ الإمام: والمراد بها ما وصفه سبحانه في سورة النجم، من أنه ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٥-٦]. والـمرَّة: الحصافة في العقل والرأي، والمتانة فيهما.

وقوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ[١] مَكِينٍ ۝٢٠﴾ المراد به: أنه صاحب مكانة وشرف لديه سبحانه.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في العالم الإلهيِّ، وهو عالَـمٌ لا يعلم كُنْهَه إلا الله سبحانه، وقد عبَّر عنه بالملأ الأعلى. ثم تمَّم الوصف بقوله: ﴿أَمِينٍ ۝٢١﴾ أي: على وحي الله ورسالاته إلى أنبيائه.

ثم نقل السياق إلى النبيِّ ﷺ مُبلِّغ تلك الرسالة، وذلك الخبر إلى الخلق، فوَصَفَه بما يزيد في توثيق هذا الخبر، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يعني: النَّبيَّ ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾، قال الأستاذ الإمام: أي: كما تَبْهتُه الكَفَرةُ عندما يسمعون عنه غريبَ الخبر عن اليوم الآخر وغيره من مواضيع العِبَرِ مما لم يكن مألوفاً لعقولهم. والتعبير عنه بصاحبهم أبلغُ في الاستدلال عليهم، فإنه ﷺ معهم من صِغَرِه إلى كِبَرِه، وما عَرَفوا منه إلا كمال العقل، والتبريز في الفضل.

ثم ذكر ما يدلُّ على توثيق أَخْذِهِ ﷺ عن جبريل عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾ أي: أنَّ محمداً ﷺ رأى جبريل عليه السلام بالأفق الأعلى الواضح

---

(١) ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾: خالقه والمتفرّد به. والعرش: ما يُحيط بالكونِ كلّه.

الـمُظْهِرِ لِـمَا يُـرَى فيه، فتجلَّى لعينه أنه جبريل، فعرفه. وهذه أولُ نزلةٍ بعد انقِطاعِه، والله أعلم.

ثم عاد إلى توثيق صحَّة ما يقوله ويُبلِّغه عن الله، فقال: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: محمدٌ ﷺ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ وقد قرئ بالضَّاد والظاء[1]، أما على الأولى فمعناه: ليس محمد ﷺ ببخيل فيما يؤدِّي عن الله سبحانه أن يُعلِّمه للناس. وأما على الثانية فمعناه: ليس بمُتَّهم على الغيب. أي: إنه صادق في إخباره عن اليوم الآخر وحوادثه، والوحي وما يجيء به، والمعنى الثاني أَوْلى بالسياق[2].

ثم ردَّ على المشركين ما يتقوَّلونه من أنَّ الشيطان يُلقي إليه كما يُلقي إلى الكَهَنة، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي: ليس هو ممّا تنقله الجن كما تفعل مع الكهّان، فليس بكهانة وسحر كما تتقوَّلون، ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ في تقوُّلاتكم هذه؟ يُبكِّتهم ويُضَلِّلهم فيما يَسْلكون في أمر الرسول ﷺ والقرآن.

ثم أتبع التبكيت بتقرير الحقّ، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: هذا القرآن وما فيه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ يُذكِّرهم مصيرَهم وعاقبةَ أمرهم، ويـهديهم لرُشْـدِهم وللعاقبة الـحُسْنى، فهو موعظةٌ وتذكيـرٌ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾[3] ويعتدلَ بتحرِّي الحق، ومُلازمة الصواب.

---

(١) «الحجة للقراء السبعة» (٦: ٣٨٠).

(٢) الترجيح بين القراءات المتواترة ليس بالمنهج المرضيّ، لأن هذا الترجيح يقوم على أمر يلمحه المفسِّر يكون ألصق بقراءة من أخرى، فيقول يرجحان الأولى على الثانية، وقد يكون هناك ملامح أُخَر خفيت عليه تشهد للقراءة الثانية، ولذا ينبغي الإمساك عن الخوض في مثل هذا الترجيح ما دامت القراءات متواترة.

(٣) تؤذن هذه الآيات: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ بأن الاستقامة والهداية =

وفي هذه الآية ـ كما في قوله تعالى في سورة الدهر: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩] ـ دلالة واضحة على أن اندفاع الإنسان إلى الخير والهداية إنما هو بيد الإنسان نفسه، وميسَّر له بطبيعته.

أقول: وتوضيح الآية هو أنَّ الله سبحانه أرسَلَ هذا الذكرَ للعالمين، بعد أن خلقهم مستعدِّين لقَبوله بالفطرة، إن لم يُفْسِدوا طبيعتهم بمفاسد التربية وسُوء القدوة وضلال التعليم، فقد شاء الله سبحانه أن يخلقهم على أكمل صورةٍ في الاستعداد إلى الخير وقَبول الحق، وأرسل لهم هذه التعاليم، يمشون بحسبها نحو الكمال المنشود لهم من ورائها، فمَنْ شاءَ أن يستقيم تمسَّك بها، ومَنْ شاءَ أن يزيغ انحرف عنها، نتيجةَ تحريفه لطبيعته بمفاسد التربية.

وذلك كما يكون له جهاز يعمل عملاً من الأعمال، كالحاكي والمذياع مثلاً، فإنْ أجاد تحريكه والتصرُّف فيه، واستعمله بمقتضى صَنعته وحَسَب تعاليم صانعه، إيجاباً وسلباً؛ بقي الجهاز سالماً، يقوم بعمله على أحسن الوجوه. وإن عَبَث به وأساء استعماله؛ عَطَب واختَلّ، فلم يَقُم بالعمل مطلقاً، أو لم يَقُم به على الوجه المطلوب.

= معروضة أمام البشر، إن شاؤوا أخذوها وإن شاؤوا تركوها. ثم بيَّن أنهم لا يمكنهم أن يشاؤوا أخذها إلا بحسب النظام العام الذي شاءه الله سبحانه في طبيعة الإنسان، وهو أنه لا يهتدي إلى الحقِّ والصراط المستقيم إلا إذا حافظ على سلامة فطرته وزكَّى نفسه بالتنشئة الصحيحة التي أرادها الله منه بشريعته، ولذلك قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لا يمكنكم أن تشاؤوا الاستقامة إلا أن تتحقَّق تلك السنة الكونية، فكما لا يمكن للحَبِّ إذا نخره السوس أن يَنبُت، لا يمكن للإنسان أن يشاء الاستقامة إذا أفسد طبيعته بمفاسد التربية، كيف وهو حينئذٍ أصبح يرى الضلال هُدىً والهدى ضلالاً، بخلاف ما إذا حافظ على سَلامة فطرته، وقد خلق الله كل شيء مُيسَّراً لِـمَا خُلِقَ له، ما لم تفسد طبيعته بمفاسد خارجيَّة. (المؤلف).

وهكذا شاء الله تعالى أن يخلق الإنسان كسائر مخلوقاته، سالماً كاملاً صالحاً لِـمَا خلق له من الخير وطلب الكمال، ولكن شاءت حكمة الله سبحانه أن يجعله مختاراً في تصرُّفاته، يأخذ ويترك بكمال حريته؛ ليكون على حظٍّ عظيم من العلم والإدراك، لأن ذلك لا يكون إلا مع الاختيار التام، كما ألمعت إلى ذلك قصَّته في سورة البقرة[١]، والله أعلم، فإن شاء أن يبقى سالـماً في استعداده هذا، استقام وعمل بما أرسل الله إليه من التعاليم على يد أنبيائه ورسله، وإن شاءَ أن ينحرف ويتسافل ويخلد إلى الأرض زاغ عن تلك التعاليم أو عَبَث بها، فضلَّ عن سواءِ السبيل، وساءَت دنياه وأُخراه. والفرد والجماعة في ذلك على حدٍّ سواء.

وقد ألمع سبحانه إلى هذه الحقيقة في خِلْقة الإنسان، وهي أنه إذا لم يحافظ على سلامة فطرته لا يُمكِنه أن يشاء الحق والاستقامة، فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[٢] أي: لا يمكنكم أن تشاؤوا الاستقامة إلا أن يتحقَّق نظام الله في ذلك، وهو أن تحافظوا على سلامة فطرتكم، ولا تُفسِدوها بمفاسد التربية والقدوة السيئة والتقليد الأعمى، فمآل الآية مآل قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠]، فكلُّ من حافظ على سلامة فطرته فقد شاء الله له أن يستقيم، وكلُّ مَنْ شاء الله له أن يستقيم يقدر أن يستقيم، وكلُّ من

---

(١) يعني: قصة خلق آدم الواردة في الآية ٣٠ من سورة البقرة وما بعدها.

(٢) هذه الآية أيضاً للإيذان بأنَّ معارضتكم ليست ناشئة عن عجز في قدرة الله ولا قَسْراً لإرادته، ولكنها جارية بحسب سنن خلقية ونواميس كونيَّة، شاءها سبحانه في طبيعة الإنسان، وأساسها: كونه مختاراً في تصرُّفاته يفعل ما تمليه عليه إرادته بحسب عقليته الناجمة عن تنشئته وتربيته، وقد يسَّر سبحانه الإنسان لهذه المشيئة، وكلُّ مخلوقات الله سبحانه مُيسَّر لِـمَا خلق له، ما لم يُفسِد طبيعته. والله أعلم. (المؤلف).

أفسدها لا يُمكِنُه أن يستقيم، وقد أوضَحْنـا تفسير هذه الآية بأكثر من هذا في سورة الدهر[١].

ومُحصَّل المعنى: أنه سبحانه قد شاءَ أنَّ من حافظ على سلامة فطرته اهتدى إلى الحقِّ المستقيم، ومن أفسدها لم يَهتَدِ لذلك، ولا تغيير لهذه المشيئة التي شاءَها الله سبحانه وتعالى بالحقِّ والحكمة البالغة، وهذا هو مُؤدَّى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠].

* * *

(١) يعني: سورة الإنسان، في الآية ٣٠ منها.

سُورَةُ الانفِطَارِ

مكيَّة، وهي تسع عشرة آية

وهي كسابقتها في إثبات البعث والحساب، وما يَتْبعه من ثوابٍ أو عقاب، فهو كتابٌ متشابهٌ مثاني.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ هذا عَوْدٌ إلى التذكير باليوم الآخر، والانفطار والانشقاق والانصداع نظائر. والمراد به: خراب هذا العالم، فلا يبقى أمرُ ما فيه من الكواكب على ما نراه اليوم.

ثم أردفَه بمظاهر ذلك وأعراضه، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤﴾[1] فإنّ الخلل الذي يطرأ على الكواكب يَنثره نثراً، ويؤثّر على الأرض كذلك، فتزول حواجز البحار فتختلط، وتتفكّك أجزاءُ الأرض فتتبعثرُ القبور، وينقلب باطنها إلى ظاهرها.

وبعد أن يأخذ عَجْب الذنب ينمو في الأرض ويربو حتى يصير جسماً، وتشقّق عنه الأرضُ بعد أن تتمَّ خِلقتُه فيها، وحينئذ يكون بَعْثُ الأموات وإحياؤهم في النشأة الآخرة، ويكون الحساب الذي عبّر عنه بهذا الجواب لسائر ما تقدّم من أفعال الشرط، فقال: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾[2]، وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ

(١) يجوز أن يراد ببعثرة القبور: حشر الأجسام منها. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) أي: عَلمتْ نفسٌ في ذلك اليوم ما عمِلَت من عملٍ طاعةٍ أو معصيةٍ فقدَّمَته إلى الآخرة، وما تركَت من عمل فأخَّرته، فبقي عدماً معَ انصرامِ زمنِ الامتحان في الحياةِ الدنيا، فهي تستحقُّ =

يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة: ٦]، وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ثم أردَفَ ذلك بالتأنيب والتقريع والوعظ والإيقاظ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾[١] وجَرَّأكَ على معصيته، وقد جعل الوَصْفَ بالكرم مُسْتَنداً للتأنيب، ومثاراً للتقريع، ومُوجباً لذلك. وهذا الوَصْفَ تستعمله العرب للجَوْدة في كلِّ شيء، والأنسَبُ هنا أن يُراد به: الذي مَنَح كلَّ شيء ما يحتاجه، وأحسنَ كلَّ شيء خَلقَه وأجاد فيه.

ثم ذكر ما منَّ الله به على الإنسان، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ ﴾ أي: أكمَلَ لك قُواك ومَيَّزها، ﴿فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾[٢] عن طريقة الضلال إلى طريق الهدى بأصل خِلْقتك،

= الثواب على ما أخَّرت فلم تعمَلْ من عملٍ فيه معصية الله، وتستحقُّ العقابَ على ما أخَّرت فلم تعمل من عملٍ كانَ يجب عليها أن تعملَه طاعةً لله.

(١) محصَّل الكلام: أن الله سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم أن يدرك الهدى من الضلال، إذا لم يُفسِد تلك الخلقة ويُحرِّف تلك الطبيعة، ولكنه أفسد طبيعته فساء إدراكه، فأشرك وأنكر وكذب بيوم الدين. ومُحصَّل المعنى: سوَّاك بخلقتك فعَدَلك عن طريقة الضلال، ولكنك أفسدتَ تَسْويتَك فضَلَلتَ ضلالاً بعيداً. والآية تلمع بأنَّ للنفس ينابيعَ صافية للخير ومعرفةِ الحق، ما لم تفسد بسوء التربية. (المؤلف).

(٢) (فعَدَّلَك) أي: فقوَّمك، (فَعَدَلك) أي: صرفَك من الكفر إلى الإيمان، وهما نعمتان. «ياقوتة الصِّراط» لغلام ثعلب، ص ٥٨٧، بتحقيقي.

ولكنَّك أفسدتَ خِلقَـتَكَ فضلَلْتَ ضلالاً بعيداً، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا...﴾ [الشمس: ٧].

وتحتمل أيضاً: أنه عَدَلَك عن طريق خِلقة سائر الحيوان، إذ أودع فيك من الاستعداد والمواهب ما لا يدخل في حُسْبان حاسب، من إدراكٍ لا تعجزه حقيقة يطلبها، وعقلٍ لا تُكِلُّه مُعْضِلةٌ يَتَصدَّى لحلِّها، وأملٍ فسيح يبعث على اقتناء ما يَقصُر العمر عن استيعابه، فيُتمَّ الثاني ما أبقاه الأول، ويَرُمَّ الثاني ما أخلَّ به الثاني، حتى أصبح العُمران يرتـقي يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، ودهراً بعد دهر، ويتبعه رقيّ الفكر والانسجام في الأفهام، ولو قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجةَ يومه، ولا كان رقيٌّ في أفكار الإنسان، ولا خلَّف شيئاً من العمران. وقد قال علماء الطبيعة: إنَّ الخالق ـ تقدَّست صفاتُه ـ وَهَبَ الإنسان مواهبَ جليلة، ومَنَحَه مزايا نبيلة، وركَّبه مادةً ومعنىً على صورة قابلة للترقِّي والتهذيب والكمال.

وقد أثبت العِلمُ الحديث أنْ ليس في الوجود شيءٌ يشابه دماغ الإنسان، بكثرة تعقُّده وتشابكه، حتى قال أحد أساتذة علم الأعصاب من أهل أمريكا: إنَّ كل خطوط التلفونات والتلغرافات في الولايات المتحدة، وما يلزمها من مفاتيح محوّلة وأجهزة وغيرها، ليست إلا شيئاً بسيطاً بالنسبة إلى الدماغ الذي يحوي أكثر من عشرة ملايين خليَّة ذات نظام لا يحدُّه العقل، ولا يُدركه تمام الإدراك. وهي متَّصلة بكلِّ ناحية من أنحاء الجسم، بشبكة من الأنسجة العصبية الدقيقة، وعلى رُغم تشابكها ودقَّتها فنظام مواصلتها تامٌّ لا يطرأ عليه أقلُّ خَلل. أقول: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ وكلمة ﴿مَّا﴾ مزيدةٌ للتفخيم، أي: لقد ركَّبك

في صورة هي من أعجب الصُّور وأتـقنها، وأحكمها وأبدعها، وأقدرها على إدراك الحقائق ومعرفة الخالق، وأدلِّها على البقاء الأبديِّ في النشأة الأخرى بعد هذه النشأة الأولى؛ إذ ليس من المعقول أنَّ الله سبحانه ينشئ الإنسان هذه النشأة الرفيعة الشأن مستعداً لِـمَا لا يَتَناهى من الكمال، بما وَهَبه من العقل الذي لا يقفُ عند حدٍّ في العلم وإرسال أشعة الفهم إلى أسرار الكائنات، وبما أقدره على البيان عن دقائق المعاني بأفصح العبارات، ليس من المعقول أن يُنشئه هذه النشأة لتكون غايتُه غايةَ سائر الحيوان، الذي لم يُعْطَ استعدادَه، ولم يُمدَّ إمدادَه، بل تقضي حكمتُه في هذا الخلق العظيم الذي أسْدى إليه من المواهب ما أسْدى، أن يجعل له حياةً بعد هذه الحياة يستثمر فيها أعمالَه، ويُوافي فيها كمالَه، إن اتَّبع تعاليم ربِّ العالمين، فذلك هو الحقُّ المبين.

ثم أضرَبَ إلى بيان ما هو السبب الأصلي في هذا الغرور، مُصدِّراً ذلك بحرف الرَّدْع عن مضمون ما قبله، على نهج القرآن في مِثلِه، وسَبَك ذلك على الوعيد، فقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ أي: لم يكن ذلك الغرور من أصل خِلْقـتكم، بل من إفسادكم لطبيعتكم، حتى كذَّبتُم بالدين وبالبعث والحساب الذي يُدان فيه الإنسان، ويُجازى على أعماله.

ويجوز أن يكون الإضرابُ إضراباً عمَّا تقتضيه التسوية من إدراك الحقائق والإيمان بيوم الدين، أي: إنكم لم تستفيدوا من هذه التسوية والعَدْل، بل أفسدتموها وأصبحتُم لم تُدركوا الحقائق، وكذَّبتُم بالدين وبيوم الدين.

وقد توعَّـدهم بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾[1] وهذا تحقيقٌ لِـمَا يُـكذِّبون به وردٌّ لِـمَا يَتَوقَّعون من التسامح والإهمال،

---

(١) أي: وإنَّ عليكم رُقباء من الملائكة، يحفظون عليكم أعمـالَكم الظاهرةِ الجسديَّـة والباطنـة النفسيَّة، كراماً على الله، يكتبون أقوالكم وأعمالكم الإراديَّة، ويُسرعون في تسجيل الحسنات، =

إذ لو لم يكن حساب لِـمَا حُفظت علينا الأعمـال.

قال الأستاذ الإمام: ومن الغيب الذي يجب علينا الإيمان به في كتابه من أنَّ علينا حَفَظةً يكتبون أعمالَنا حسناتٍ وسيئات، ولكن لا نعلم كيفيَّة كتابتهم وحفظهم لها.

ومعنى ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾: مُطهَّرين عن الغرض والنسيان.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

ثم ذكر نتيجةَ هذه الكتابة وهذا الحفظَ من الثواب والعقاب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ[(١)] لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ[(٢)] لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: يُعَذَّبون بها يوم القيامة بعد الحساب، ولا يخرجون منها.

ثم هوَّل أمْرَ ذلك اليوم بعبارة تَرجُفُ منها القلوب، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾[(٣)]، والتكريرُ للزيادة في التهويل، وكذلك العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾.

= ويتمهَّلُون في كتابة السيئات، رجاءَ توبة المذنب واستغفاره، يعلمون ما تفعلون من خيرٍ أو شر، فليسوا مُجرَّد أدواتِ تسجيلٍ لا تعلَمُ ما تُسجِّل، بل هم يعلمون ما يُسَجِّلُون؛ لأنهم يسجِّلون النيَّات من الأعمال، وما تُكِنُّه الصدور.

(١) ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾: جمع بَرّ بوزن (رَب)، وهو المطيعُ المتوسِّع في أعمال الخير.

(٢) ﴿ٱلْفُجَّارَ﴾: جمع فاجر، وهو الذي يكشف ستْر الشرائع دون مبالاة.

(٣) أي: أعظم ـ أيها الـمُتلقِّي ـ بيوم الحساب إعظاماً لا تَصِلُ إليه دِرايتُك مهما فكَّرت؛ لأنه لم يمرَّ في تصوُّراتك شيء يجعلك تقيسُ هذا الأمر عليه؟ ثم أعظِمْ بيوم الحساب إعظاماً لا تَصِلُ إليه دِرايتُك في الهَوْل والشدَّة؟

وعلى أثر هذا الإبهام المبنيِّ على التهويل بيّنه إجمالاً، فقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ فلا تحمل عنها ذنباً، ولا تدفع عنها عتباً، ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ وحده، فلا شفيعَ ولا نصير، ولا مُعينَ ولا وزير، وهو الذي يُجازي كلًّا بعمله بمقتضى عِلمِه وحكمته، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كلُّ ما كان في القرآن من قوله: ﴿مَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أدراه إيَّاه، ومن قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فقد طواه عنه[1].

* * *

(١) «تفسير القرطبي» (١٩: ٢٤٩).

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

وقد اختُلف فيها أمكيَّة أم مدنيَّة؟

وهي ستٌّ وثلاثون آية

وقد جاء فيها تحريم التـطفيف في الميزان والمكيال، وإنذار مَنْ يفعل ذلك بأنه مبعوثٌ للحساب على الأعمال.

وقد اشتملت أيضاً على الترغيب والترهيب.

والتطفيفُ قد يدخل في سائر نواحي الحياة، فقد يستغلُّها الأقوياء على الضعفاء، والأغنياء على الفقراء، في سائر الحقوق والأشياء.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ قيل: إنها مكيَّة، وقيل: إنها مدنيَّة، نزلت في حال أهل المدينة حين قَدِمَها النبي ﷺ، حيثُ كانوا أخبثَ الناس كَـيْلاً[1]. كما رواه البيهقيُّ وغيره عن ابن عباس[2].

والتطفيف: بَخْسُ الناس حقوقَهم في الكَـيْل والوزن، كمـا فسَّرته الآية، قال الزجّاج: وإنمـا قيل له: مطفِّـف؛ لأنه لا يكاد يَسـرِقُ في المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف[3].

أقول: ومن مباحث اللفظ أنّ في ﴿كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ حذفاً وإيصالاً، أي: كالوا لهم ووزنوا لهم. والغَرَضُ من الآية: تقريرُ العدالة والإنصاف من النفس في الأفراد والجماعات، فهي وإن كانت بياناً لسلوك الكافرين، فهي تحذيرٌ منه للمؤمنين.

ومعنى الآية: أنّ مِثْلَ هذا الصِّنف إذا كان لهم حقٌّ على الناس أخذوه وافياً، وإذا

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٢٣)، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٧٨٥): إسناده حسن.

(٢) في «السنن الكبرى» (١١١٦٥)، و«شعب الإيمان» (٤٩٠٣).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٩٧).

كان لهم عليهم حقٌّ أعطوه ناقصاً. وهذا وعيدٌ لكلِّ من تلاعب بالمبايعات والمعاملات، يَغبِنُ ويغشُّ ويُدلِّس، إلى أمثال ذلك من زعبرات المبايعات والمعاملات والمعاوضات. وهي تدلُّ على هذه الأشياء بدلالة الفحوى، وإنما خصَّ التطفيف بالذِّكر لأنه أبرز الأحوال، وأكثرها وقوعاً، كما خصَّ البيع في قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]، وأراد كلَّ ما يعيق عن الجمعة. وكذلك تدلُّ على السُّوء والقبح في سائر المعاملات.

فهدَّدهم وأنّبهم سبحانه بأسلوب الاستفهام الاستنكاري التهويلي، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ[1] ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ قياماً طويلاً، يحاسبُهم فيه على أعمالهم وما ارتكبوه من سيِّئات.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾.

ثم أردَفَ التقريعَ الإنكاريَّ بما يستلزم التقريرَ والإثباتَ لمضمونه، على نهج القرآن في تعقيب الخاصِّ بما يشمله ويشمل مِثلَه، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ فدلَّ التقرير على أمرين: الأول: أنَّ أعمالهم مُحْصاة عليهم. والثاني: أنها في سِجِلٍّ ممقوت، كما يدل عليه الاسم المشتق من السِّجْن.

والمراد بالكتاب الأول: المعنى المصدري، بمعنى الكتابة. والثاني: بمعنى السِّجِلّ. ومعنى ﴿سِجِّينٍ﴾ يدلُّ على الشدَّة والكُرْه.

فمدلول الآية: أنَّ أعمال الفُجّار تكتب في سِجِلٍّ مكروه، كما يقال: في السِّجل الأسود، يكنِّي بذلك عن شدَّة ما يصيبهم من العذاب جزاءَ أعمالهم المَحْصيَّة عليهم في هذا السجل. فنقل وَصْفَ العذاب للسِّجِلِّ المُسَجَّل فيه.

---

(١) أي: لا يكفي أولئك البُعداءُ إلى جهةِ أسفل سافلين الذين يأخذون لأنفسهم زيادةً، ويدفعون إلى غيرهم نقصاً؛ أن يظنُّوا أنهم مبعوثون بعد موتهم ليومٍ عظيم الهول؟

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ثم أعاد الوعيد الأول بعبارةٍ أدلَّ على عِظَمِ الجُرم والجزاء، فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾﴾ أي: يوم الجزاء الذي يقوم الناس فيه لربِّ العالمين للحساب.

ثم ندَّد بهم بهذا التنديد العام، فقال: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ أي: مُتجاوزٍ للحقِّ إلى الباطل، مُنهَمِكٍ في الإثم والشهوات التافهة الرذيلة. وهذا التكذيب إما بالجحود والإنكار لوجوده، وإما بعدم المبالاة له بما يكون فيه، فلا يحذره ولا يتَّقيه.

ثم شنَّع بالقِسم الأول؛ لأنه أشنَعُ القسمين، فقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

ثم ردَّ عليهم مُبيِّناً سرَّ هذا الإنكار فيهم، على نهج القرآن في مثله، وصدَّره بحرف الرَّدْع، فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليست هي بأساطير الأوَّلين، ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ فبيَّن أنَّ الذي أدَّى بهم إلى قولهم هذا، إنما هو تَغْطيةُ ما كانوا يكسبونه من الكفر والمعاصي لقلوبهم، وإفسادهم لعقولهم، وإعماؤه لبصائرهم؛ لأنَّ من طبيعة الإنسان إذا انطبع على شيءٍ لا يُمكِنُه أن يتحوَّل إلى ضدِّه، ويرى كلَّ ما يخالفه واهياً غيرَ جدير بالعناية والتفكير.

وقد جاء عنه ﷺ في تصوير هذا المعنى: ما معناه: «إنَّ العبد كلما أذنب ذنباً حصل في قلبه نكتة سوداء، حتى يَسْوَدَّ قلبُه»(١).

(١) رواه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وأحمد (٧٩٥٢). قال الترمذيُّ: هذا حديث حسن صحيح.

ثم كرَّر الرَّدْعَ وقرَّر مصيرَهم، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ١٥﴾(١) قال أبو مسلم: أي: ممنوعون من رحمته، مدفوعون عن ثوابه، غير مقبولين ولا مرضيِّين.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم زيادةً في التأليم والتقريع: ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧﴾ فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾.

ثم قَرَنَ حالَ الفُجّار بحال الأبرار، على نهج القرآن في مثله، زيادةَ إيلامٍ للأوّلين وإيناسٍ للآخرين، وأعاد الردع فقال: ﴿كَلَّآ﴾ أي: ليس الأمر كما يدَّعيه أولئك الفُجّار من إنكار البعث، ومن أنَّ هذه الآيات أساطير الأوّلين، بل إنَّ البعث أمرٌ واقعٌ ومتحقّق، وكما سينال الكفار جزاءَهم سينال الأبرار ثوابهم، و﴿إِنَّ كِتَٰبَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ٢١﴾(٢) فدلَّ هذا البيانُ أيضاً

(١) أي: ليس الأمر كما يقولون: أنَّ لهم في الآخرة خيراً، بل إنهم عن رؤية الله يوم القيامة وخطابه ورحمته لممنوعون. وفي الآية تقرير رؤية الله للمؤمنين في الآخرة وحرمان الكافرين منها.
قال الإمام أبو عمر محمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب في «ياقوتة الصِّراط» ص ٥٨٨ بتحقيقي: «قال ثعلب: في هذا دليل أن ثمَّ قوماً ليسوا بمحجوبين؛ وهو بمعنى الخبر: إنَّكم ترَوْن ربَّكم يوم القيامة كما ترَوْن القمر ليلةَ البدر».

(٢) أي: إنَّ كتاب المتوسّعين في فعل الصَّالحات من نوافل العبادات، وفي ترك المكروهات الذي كُتبت فيه أعمالُهم ومثوباتُهم لـمُثْبَت في ديوان جامع، عالٍ قدرُهُ في السماء السابعة، دوَّن الله =

على أمرين: أنَّ الأعمال الصالحة محفوظة لأربابها. والثاني: أنها في سِجِلّ مبرور مُكرَّم جليل، وهو في حفظ المقرَّبين. والكتاب الأول: بمعنى الكتابة والمكتوب. والثاني: بمعنى السِّجِلّ.

وبعد هذا البيان المُجْمَل فصَّل ما ينالونه من الجزاء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ والأرائك: هي الأسِرَّةُ في القباب المضروبة، وهم ينظرون مناظر الجنَّة العجيبة، وإلى ما أَوْلاهم الله تعالى من النعيم والكرامة.

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إذا نظرتَ في وجوههم عَرَفتَ أنهم من أهل النعيم، بما ترى عليها من البهجة والرواء.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ والرحيق: الشراب الخالص، وقد خُتمت أوانيه وسُدَّت، وكان ختامها المسك مكان الطينة. قال البيضاوي: ولعله تمثيلٌ لنفاسته. وقيل: بل المراد من ختامه: مقطعه بعد الشراب، أي: أنَّ الشارب يجد منه رائحة المسك بعد أن يشربه[1].

ثم حثَّ على ما يؤدِّي إلى هذا النعيم، فقال: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: يتغالب المتغالبون، بمعنى: يرغب الراغبون، ويسبق بعضُهم بعضاً بالأعمال التي تُقَرِّبُ منه، وإلى أعلى درجة فيه؛ لأن ذلك من مُقْتضيات العقل الكامل، حيث يدفع صاحبَه إلى التنافس في نَيْل الزيادة من هذا النعيم.

= فيه أعمالَ الصَّالحين من الجنِّ والإنس، وأعظم بهذا الأمر إعظاماً لا تصل إليه درايتك؟ هو كتابٌ مسطور بيِّن الكتابة، يطَّلع عليه الملائكة الـمُقَرَّبون ويَحضرونه. أطلق على هذا الكتاب عِلِّيُّون؛ لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنَّة.

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٩٦).

وهذه جملةٌ معترضة، عجَّل بها قبل أن يأتي على بقية أوصاف الرحيق، إسراعاً بالترغيب في التسابق إلى ما أعدَّ من أنواع السعادة، على نَهْج القرآن في مثل ذلك.

ثم بيّن ما يُمزَجُ به ذلك الرحيق، فقال: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾[1] وقد سُئِلَ ابنُ عباس رضي الله عنهما عن التسنيم، فقال: هذا ما يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. ومِثْلُ هذا قول الحسن: خفايا أخفاها الله لأهل الجنة[2].

ثم زاد بياناً بقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا[3] ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وهم الأبرار بعينهم، ذكرَهم بهذا الوصف زيادةً في تكريمهم.

قال الأستاذ الإمام: وكل هذه الأنواع من النعيم التي ذُكرت في الآيات مما ترغب فيه النفس، وتتسابق إليه الهمم، لهذا حفَّز الله بها عزائمَ المحسنين ليزدادوا إحساناً، وليطمع فيها الواقف على أول الطريق، فيلزم الجادَّةَ الواضحة، ويَدَعَ المُعوَجَّةَ الملتبسة. وهذا على أنَّ المفهوم منها ما يشبه ما نحن فيه، فما رأيك فيها وهي لا يُدانيها شيءٌ مما

---

(١) أي: مزاج الرحيق من عينٍ في الجنة تُعرف لعُلوِّها بـ«تسنيم»، تنصبُّ عليهم من غُرَفِهم ومنازِلِهم في أوانيهم على قدر ملئها.

(٢) ذكر هذه الأقوال الواحدي في «الوسيط» (٤: ٤٤٩).

(٣) ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾: أي: يرتوون بسببها، أو يلتذّون بها. ولم يَقُل سبحانه: «يشرب منها» ليدلَّ على كمالِ شُربِهم وتمام ريِّهم، فكأنه سبحانه قال: يشربون منها، ويرتوون بها. ففيه تضمينٌ كما هو معلومٌ في علمِ البلاغة. ونظيرُه قوله تعالى في سورة الدهر: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

و﴿تَسْنِيمٍ﴾: أشرف شراب أهل الجنة، يُمزج لسائر أهل الجنة، ويشربه المقرَّبون من أهل مرتبة الإحسان صِرفاً غير مخلوط.

نعهده في الدنيا إلا بالاسم، أو بضَرْبٍ من الشبه البعيد، كما هو حقيقةُ أمرها، والحقُّ في شأنها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وبعد أن ذكر ما أوعدَ به الفجّار وهم أهل الجرائم ومُقترفو السَّيِّئات، وما وُعِدَ به المتَّقون وهم أهل البرِّ والإحسان، وما سيُلاقيه كلٌّ من الفريقين في الدار الآخرة جزاءً على عمله، أخذ يذكرُ ما كان لأحد الفريقين مع الآخر في الدنيا، وما سيكون من شأن الآخر مع الفريق الأول في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ وهم المعتدون الأئمةُ الذين قد تشبَّعت نفوسهم بالشرِّ، وصُمَّت آذانهم عن سماع دعوة الحق، ﴿كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ بأن يشير بعضهم إلى بعض بالأعين والحواجب، استهزاءً بهم، ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ بحكاية ما يعيبون به أهل الإيمان، إذ يرمونهم بالسخافة وقلة العقل، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟﴾ فيهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ في تركهم اللّـذّات الحاضرة، طلباً لثواب لا يُدرى أحقٌّ هو أم باطل؟

فردَّ عليهم سبحانه بما فيه تهكُّمٌ بهم، فقال: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: لم يبعثهم الله رُقَباءَ على المؤمنين، يحفظون لهم وعليهم أحوالهم، وربما يرمز بذلك - تهكُّماً بهم - إلى الكرام الكاتبين الذين يرقُبون الأعمال.

وقد جُوِّز أن يكون هذا من جملة قول المجرمين، كأنهم قالوا: إنَّ هؤلاء لضالون

في دَعْواهم لنا إلى ما دخلوا فيه، ومحاولتهم أن يصدُّونا عمّا وجدنا عليه آباءنا، ما لهم ولنا؟ ما أُرسلوا علينا حافظين! ينكرون عليهم صَدَّهم عن الشِّرك وتعلُّقاته، ودعاءَهم إلى الإسلام، ومَنْعَهم من اللهو الأثيم وشهواته. وعلى هذا إنما قال: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بدل (علينا)، نقلاً له بالمعنى، كما في قولك: حلف ليفعلَنّ، لا بالعبارة كما في قولك: حلف لأفعلَنّ.

ثم بيَّن شأن المؤمنين مع الكافرين يوم القيامة، وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ[١] ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[٢] إلى صُنع الله بأعدائهم.

ثم خاطب سبحانه المؤمنين تقريراً لصدق وعده، فقال: ﴿هَلْ ثُوِّبَ[٣] ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: هل رأيتُم كيف جَازى الله الكافرين؟

و﴿ثُوِّبَ﴾ مثل: أُثيب، واستُعمل لفظ الثواب في العقوبة؛ لأنَّ الثوابَ في أصل اللغة: الجزاء. ويجوز أن يكون مجازاً تهكُّماً لزيادة التأليم، مثل: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤].

اللهمَّ اجعلنا ممَّن سبقت لهم منك الحُسْنى يا أرحم الراحمين.

---

(١) أي: فاليوم ـ الذي هو يوم القيامة ـ يَضحكُ المؤمنون من الكفّار وهم يتقلَّبون في عذاب الجحيم، كما ضَحِكَ الكافرون منهم في الدنيا.

(٢) أي: هؤلاء المؤمنون جالسون على المقاعد المُنجَّدة الوثيرة الفاخرة، ينظرون إلى المجرمين، وهم في النار يُعذَّبون؛ فيُسـرُّون بذلك، ويَضحكون من أعداء الله الذين كانوا يضحكون منهم في الدنيا.

(٣) أي: ينظرون ليتحقَّقوا هل جُوزيَ الكفارُ بالعدل المطابِق لِـما كانوا في الدنيا يفعلون بالمؤمنين؛ من الاستهزاء والضحك؟ نعم، لقد جُوزوا بالعدلِ المطابق لما كانوا يفعلونه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا. يقولون ذلك شكراً لله على عَدلِه.

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

مكيَّة، وهي خمس وعشرون آية

جاءَ فيها إثبات الـمعاد، وما يكون من ثواب وعقاب، فهي أيضاً في الإنذار والترهيب، على نهج القرآن في تلوين الكلام عن الغرض الواحد، بأساليب مُنوَّعة، زيادةً في تقريره وتفصيله وتحليله، كتابٌ متشابهٌ مثاني.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ[١] ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾ يقال: أذِنَ له، أي: استمع له، ويقال: حُقَّ عليه أن يفعل، أي: لزم ووَجَب. وهذا عَـوْدٌ إلى التذكير باليوم الآخر، على نهج القرآن في العودة إلى الموضوع الذي يُريد إشباعَ الكلام فيه، وشدَّة التنبيه له، وقد جاءَ به على صُورة شـرطٍ محذوف الجواب، على نـهج القرآن في مثله إذا أراد التهويل.

ومعنى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾: استَـمَعت لأمر ربـها، وفعلت ـ حين أراد انشقاقها ـ فِعلَ المحقوق المِطواع، فكأنه قال: امتثلت له وحُقَّ لها أن تـمتثل. أي: أراد منها الفناء، ففَنيت، كما أنَّ آية: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلت: ١١] بمعنى: أراد منها الوجود فوُجِدَت[٢].

---

(١) أي: انشقَّت وتصدَّعت أجزاؤها المتماسكة.

(٢) «أذِنَت» هنا بمعنى: استَمَعَت وأطاعت، ففي «المفردات في غريب القرآن» للراغب ص٧٠: «وأذِنَ: استمع، نحو قوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾».

ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «ما أذِنَ الله لشيءٍ ما أذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصوتِ يَتَغنّى بالقرآن يجهرُ به»، رواه البخاري (٧٥٤٤) ومسلم (٧٩٢)، أي: ما استمع الله لشيء استماعَه لنبيٍّ حَسَنِ الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به. =

وانشقاقُ السماء مِثلُ انفطارها الذي مرَّ تفسيره في سورة ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ

= ومنه قول قعنب بن أمّ صاحب:

صمٌّ إذا سَمِعوا خيراً ذُكِرتُ به فإن ذُكِرتُ بسوءٍ عندَهم أذِنُوا

أي: استمعوا.

وفي «تفسير ابن كثير» (٨: ٣٥٦)، وذكره ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (٣: ٩٦): ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت لربِّها وأطاعت أمرَه فيما أمَرَها به من الانشقاق، ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وحُقَّ لها أن تُطيعَ أمرَه؛ لأنه العظيمُ الذي لا يُمانعُ ولا يُغالَب، بل قد قهر كلَّ شيء وذلَّ له كلُّ شيء. اهـ.

وهذا هو المرويُّ عن السلف، فقد روى ابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (١٠: ٣٤١١) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: أطاعت. ومن طريق سعيد بن جبير: ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: حُقَّ لها أن تطيع. ومن طريق الضحّاك: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: سَمِعت. وقال مجاهد: أذِنَت: سَمِعَت وأطاعت لربها. أخرَجه ابنُ أبي حاتم من طريقه. كذا في «فتح الباري» (٦: ٢٩٤) و(٨: ٦٩٧). وأخرج الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٣١٠) بسند صحيح عن مجاهد: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ قال: سمعت.

وأما حملُها على المجاز فلا حاجة له، لأنَّ المخلوقات تسمع أوامر الله وتطيعه فيها، كما قال تعالى في السماء والأرض: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

وفي «تتمة أضواء البيان» للشيخ عطية محمد سالم: وقد حمله بعض المفسرين على المعنى المجازي في «أذنت»، أي: لـمّا لم تكن ممانعة من تشقُّقها، كان ذلك بمثابة الامتثال والاستماع، وقد قدّمنا أن للجمادات بالنسبة إلى الله تعالى حالةً لا كهي بالنسبة للمخلوقين في مبحث أول الحشر، في معنى التسبيح من الجمادات. وقد جاء صريحاً في حقِّ السماء والأرض من ذلك قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾. [فصلت: ١١]. والله أعلم.

ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، وهو فسادُ تركيبها واختلال نظامها عندما يُريد الله خرابَ هذا العالم الذي نحن فيه وتبديلَه بغيره، ويكون ذلك نتيجةً لاضمحلاله بتَقَادُم عهدِه[١]. والله أعلم.

وقال الأستاذ الإمام: خراب هذا العالم الذي هو القيامة إنما يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجرُّ إليها سَيْر العالم[٢]، كأن يمرّ كوكب في سَيْره بالقرب من آخر، فيَتَجاذبان فيَتَصادمان، فيضطرب نظام الشمس بأسره[٣]، ويحدث من ذرَّات ذلك

---

(١) ليس العالم كمصنوعات البشر التي تتلف بمرور الزمن عليها، بل هو مخلوق في غاية الإبداع والإتقان، وفناؤه إنما يكون بأمر الله تعالى لنظامه أن يختل، لا نتيجةً طبيعةً للتلف الذي أصابه بتقادُم عهده. ثم إن الزمن وتقادُمَه ليس له فِعل في الأشياء، وإنما أجرى الله العادة بأن يفعل التلف والاختلال في الأشياء مقارناً لطول زمانها، وهذا حكمٌ جار في عالم الدنيا، فإذا حان وقت القيامة تعطلت هذه السنن المبنية على حكم العادة، وصارت الأفعال مجرَّدة عن أسبابها الكونية وظروفها الطبيعية.

(٢) هذا تخرُّصٌ ورَجْمٌ بالظن في مسألة غيبيَّة لا تدرك إلا بالخبر الصحيح، ومحاولةُ إيجاد تفسير طبيعي لظواهر القيامة محاولةٌ يائسة غير محمودة.

(٣) يمكن أن ينضمَّ إلى هذه النظريَّة ـ والعلم عند الله ـ نظريَّة أخرى، وهي أنَّ صورة هذا العالم المادي تضمحلُّ بتقادم العهد عليه، فيختل التماسك بينه، فيتصادم ويتفتَّت، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. (المؤلف).

قلت: تقدَّمَ الردُّ على هذه الدعوى من المؤلِّف ـ غفر الله له ـ بأنَّ فناء هذا العالم الماديّ إنما يكون بأمرِ الله تعالى لنظامه أن يختلّ، وليس بسبب الاضمحلالِ بتقادُم العهد عليه. ثمَّ إنَّ الزمن وتقادُمَه ليس له فِعل في الأشياء، وإنما أجرى الله العادة بأن يفعلَ التلفَ والاختلالَ في الأشياء مقارناً لطول زمانها، وهذا حكمٌ جار في عالم الدنيا، فإذا حانَ وقتُ القيامة تعطَّلَت هذه السنن المبنية على حكم العادة، وصارت الأفعال مجرَّدة عن أسبابها الكونيَّة وظروفها الطبيعيَّة. وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، =

غمام - وأيُّ غمام - يظهر في مواضع متفرِّقة من الجوِّ والفضاء الواسع، فتكون السماء قد تشقَّقت بالغمام، واختلَّ نظامها حالَ ظهوره.

ومتى فَسَد نظام السماء فتَساقط من كواكبها بعضها على بعض، أصاب الأرض من ذلك أشدّ ما يصيبها من الاضطراب، فتُدَكُّ جبالها، وتَتَقطَّع أوْصالها، وتفقد التماسك بينها، فلا يبقى لها هذا الاندماج الذي هي عليه الآن، فتُمدُّ مدَّ الأديم العكاظي[1]، كما روي ذلك عن ابن عباس، ولا تكون إلا كتلة مائرة تتساوى أعاليها وأسافلها، وعظمت بهذا الانتعاش، وزادت أقطار حجمها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾[2].

ولا رَيْبَ أنَّ هذا المدّ يتبعه أنَّ جميع ما في جَوْفها ينقذف إلى خارجها، وربما قذفته الحركة العنيفة إلى ما يَبعُدُ عن سطحها، فتخلو الأرض منه حتى لا يبقى له أثر في باطنها، وهو معنى قوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾[3] وهي في ذلك كلِّه تحت

= فليس المراد به ما استدل به المؤلف على نظريته، وإنما يذكره المفسِّرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾، فقد فسَّرها به الرازي، كما في «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٨: ٤٦٧).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧: ٤٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) والمراد: إذا الأرض بُسِطَتْ بسطاً واسعاً، فصارت سطحاً مستوياً، لا عوج فيه، ولا مرتفعات ولا منخفضات.

(٣) يجوز أن يريد بقوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾: ما كان فيها من أجسام الموتىٰ التي أُعيدت، وإنْ كان ذلك بعد حين، أي: بعد النفخة الثانية. والله أعلم. (المؤلف).

قلت: وهو الراجح في معنى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ أي: ألقَتْ ما فيها من الأموات وتخلّت عنهم، فقد أخرج الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٣١١) بسند صحيح عن مجاهد: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ قال: أخرَجَت ما فيها من الموتى. ونقله ابنُ كثير في «تفسيره» (٨: ٣٥٦) عن مجاهد وسعيد وقتادة. =

سلطان الجلال الإلهيّ وقهره، خاضعةً لأوامره، منقادةً لمشيئته، كما قال: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾ وقد مرَّ تفسير هذه الجمله، إلا أنَّ الأُولى في حقِّ السمـاء، وهذه في حقِّ الأرض.

قال الأستاذ الإمام: ولا يخفى أنَّ الاستماع والطاعة من السماء والأرض تـمثيلٌ لكونها في قبضة القدرة الإلهيَّة، تُصرِّفهَا في الفناء كما تُصرِّفها في الابتداء[١]، وهو نظير

= وقيل: إن المراد: ألقت ما فيها من الكنوز التي في بطنها، كالذهب والفضة وغير ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، وفي حديث النبي ﷺ: «تقيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدِها أمثالَ الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قَتلت، ويجيء القاطعُ فيقول: في هذا قَطَعتُ رَحِمي، ويجيءُ السارق فيقول: في هذا قُطِعَت يدي، ثمَّ يَدعونَه فلا يأخذونَ منه شيئاً. رواه مسلم (١٠١٣).

وقد ضعَّفَ ابنُ جُزَيٍّ القولَ الثاني، فقال في «التسهيل لعلوم التنزيل» (٢: ٤٦٤): ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: ألقت ما في جوفها من الموتى للحشر، وقيل: ألقت ما فيها من الكنوز، وهذا ضعيف؛ لأن ذلك يكون وقت خروج الدجال قبل القيامة، والمقصود ذكر يوم القيامة، ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ أي: بقيت خاليةً ممَّا كان فيها. انتهى.

وهناك أقوالٌ أخرى ذكرَها القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٩: ٢٧٠) فقال: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: أخرَجَت أمواتها وتخلّت عنهم. وقال ابنُ جُبَير: ألقت ما في بطنها من الموتى، وتخلّت ممَّن على ظهرها من الأحياء. وقيل: ألقت ما في بطنها من كنوزها ومعادنها وتخلت منها، أي: خلا جوفها، فليس في بطنها شيء، وذلك يُؤذِنُ بعظم الأمر، كما تُلقي الحاملُ ما في بطنها عند الشدة. وقيل: تخلّت مما على ظهرها من جبالها وبحارها. وقيل: ألقت ما استُودِعَت، وتخلّت ممَّا استُحفِظت، لأنَّ الله تعالى استَودَعَها عبادَه أحياءً وأمواتاً، واستحفظها بلاده مزارعةً وأقواتاً. انتهى.

(١) هذا غير صحيح، بل الصواب أنها تدرك أمرَ ربها تعالى إدراكاً يُناسبُها، فتمتثلُ الأمرَ وتطيع، كما تقدم بيانُه تعليقاً في أول هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فُصِّلت: ١١]، والمعنى: أنه خلقهما على الوجه الذي أراد بدون أن يكون منه جهد أو كدّ.

ولم يأتِ بجواب للشرطين، ليذهب فيه السامع ما شاء من المذاهب، حتى يمرّ بذهنه جميع ما وَرَدَ من حوادث ذلك اليوم التي جاءَت مفرَّقة في سور أُخرى، وفي هذا التَّهويل ما ربما لا يفيده الذِّكر والتطويل، وهذا من عجائب إيجاز القرآن.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥ ﴾.

ثم أردَفَ الكلام عن يوم القيامة بالكلام عن الحساب، وضَمَّن العبارة تحسيسَ الإنسان بالمصير، على وَجْهِ الإغراءِ والتحذير فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا[1] فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦ ﴾، يقرِّر أمر الرجوع إلى الله، وأنَّ الإنسان مُسْرِعٌ فيه بكلِّ جدّ، وسينتهي إليه عن قريب. أي: إنك مُجِدٌّ في السَّيْرِ إلى ربِّك، وكلُّ خطوة في عملك خطوةٌ إلى أجلك، والموت يكشف عن الروح غطاءَ الغفلة، ويجلو لها وَجْهَ الحق، فتعرف من الله ما كانت تنكره، ويعرف كلُّ عامل ما جرَّه إليه عمله.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ ﴾ وهو المؤمن الصادق ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا

(١) قال غلام ثعلب في «ياقوتة الصراط» ص ٥٨٩: ﴿ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أي: عامل عملاً؛ خيراً أو شراً؛ يقال: فلانٌ يكدَح على عياله ولعياله؛ أي: يعملُ ويكتسبُ.

﴿يَسِيرًا﴾[1] ﴿٨﴾ ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ أي: ينقلب إلى عشيرته المؤمنين، أو فريق المؤمنين، أو ما أعدَّ الله له من الحور العين، مبتهجاً بحاله، قائلاً: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ أي: يُؤْتاه بشماله ويأخذه من وراء ظهره؛ كراهةً له، وهو الكافر، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ أي: يقول: يا ثبوراه، ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

ثم علَّل ذلك ببعض مُوجباته، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ بما كان عليه من التَّـرَف ومُعاقَرة اللذّات ومُداعبة الشهوات، والإنكار للبعث والحساب، حيث ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ أي: لن يرجع إلى ربِّه فيحاسبه؛ وذلك لأنه مُنكِرٌ للحشر والحساب.

فردَّ عليه سبحانه بقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ لا يغادر له صغيرةً ولا كبيرةً إلا يُحصيها ويُحاسبُه عليها ويجزيه بها جزاءً وفاقاً.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) أي: فأمّا من أُوتي ديوان عمله الذي عمله في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا بيده اليمنى، فسوف يُحاسَب في محكمة العدل الربَّانيَّة حساباً يسيراً لا شدَّة فيه ولا مناقشة، تُعرض عليه أعماله، فيُعرَّف بالطاعة والمعصية، ثم يُثاب على الطاعة، ويُتجاوز له عن المعصية. كما ثبت في الحديث الذي رواه البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحدٌ يُحاسب إلا هلك». قالت عائشة: قلت: يارسول الله، جعلني الله فداءك: أليس يقول الله عـز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: «ذاك العَرْض، يُعرَضون، ومن نُوقش الحساب هلك».

ثم أكَّد ذلك بآيات الله الظاهرة الباهرة في هذه الكائنات، بأسلوب القَسَم، وقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾، وقد مرَّ الكلام على عبارة ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ في عدَّة سور[١].

والشفق: قال الزجَّاج: هو النهار[٢]. وقال غيره: هو بقيةُ ضوء الشمس، والحمرةُ من غروبِ الشمس إلى وقت العشاء.

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ قال عكرمة وغيره: أي: وما جَمَع وضمّ ما كان منتشراً بالنهار، وذلك لأنَّ الليل إذا أقبَلَ آوى كلَّ شيء إلى مأواه. وقال الضحَّاك ومقاتل: أي: ما ساق؛ لأنَّ ظلمة الليل تسوقُ كل شيء إلى مسكنه[٣].

وقال أبو مسلم: بل المعنى: وما طَرَد من الكواكب، فإنها تظهر بالليل وتخفى بالنهار، وأضاف ذلك إلى الليل؛ لأنَّ ظهورها فيه مُطَّرد لها؛ لأنها تسير فيه كما يسير السَّاري، وينتقل من مكان إلى مكان، وذلك بحسب النظر والعيان.

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾ أي: إذا استوى وتكامل وتمّ. قال الفرّاء: اتِّساقُه: امتلاؤه واجتماع ما يضيء منه، واستواؤه لثلاث عشرة إلى ستَّ عشرة[٤].

أما المُقسَمُ عليه فقوله: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ والطبق: الحال على اختلافها، يقال: الدهر أطباق، أي: أحوال. والمراد: أنَّ الأحوال تنقلب بهم، فيصيرون على غير الحال التي كانوا عليها في الدنيا.

---

(١) في سورة الواقعة (٧٥-٨٠)، والحاقة (٣٨-٤٣)، والمعارج (٤٠-٤١)، والقيامة (١-٤)، والتكوير (١٥-٢١).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٠٥).

(٣) روى قولَ عكرمة والضحاك الطبريُّ في «تفسيره» (٢٤: ٣٢١).

(٤) «معاني القرآن» (٣: ٢٥١).

واختلافُ الحال هو وجْهُ المناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه، أي: كما أنَّ في الطبيعة أن يظهر الشَّفَقُ بعد غروب الشمس، ثم يَعقُبُه الليل، ثم يبدو فيه القمر، فكذلك يعقب الحياة موتٌ للجسم وتبقى الروح حيَّةً في البرزخ وحدها، ثم يَعقُبُ ذلك حياةٌ للجسم تزدوج به الروح بعد القيامة، فهذه أطوار ثلاثة متعاقبة كتعاقب الشَّفَق والليل والقمر متطابقة، أي: متشابهة في الأحوال والأوضاع والصُّور، والله أعلم.

و﴿عَن﴾ بمعنى: «بعد»، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠] أي: بعد قليل.

وقال الزجَّاج في معنى الآية: لَتَرَكَبُنَّ حالاً بعد حال حتى تصيروا إلى الله[١]. والأحوال هي: الإحياء الأول، ثم الإماتة، ثم البعث.

وقيل: بل معنى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾: لَتَرَكَبُنَّ شدَّةً بعد شدَّة.

وقال الأستاذ الإمام: أصل مادة (الطبق) من المطابقة والمساواة، والمعنى الذي يُعوَّل عليه: لتركبنَّ حالةً بعد حالة، على أنَّ الحالة الثانية تُطابق الحالةَ الأولى، أي: لتكوننّ في حياة أُخرى تماثل هذه الحياة التي أنتم فيها وتطابقها من حيث الحسُّ والإدراك والألم واللذّة على الإطلاق، بمعنى: أنها حياة حقيقيَّة، وإن خالفت في بعض شؤونها هذه الحياة الأولى[٢].

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٣٠٥).

(٢) أو المعنى ـ والله أعلم ـ: لتركبنَّ ـ أيها الناس ـ بما ستكتَشفون من مراكبَ بإلهامِ الله لكم، تنتقلون بها في طبقات الجوِّ؛ مُجتازين في كلِّ طبقةٍ تصلون إليها عن طبقةٍ انتهيتُم من عبورها إلى طبقة أخرى.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

وبعد أن بيّن سبحانه وتعالى أعراض القيامة، وذكر البعثَ والحساب، وأقسَمَ على ذلك بمظاهر القدرة في هذا الكون؛ أنكر عليهم بقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ به، ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ﴾ وهم أرباب الفصاحة يعرفون إعجازَه ومداركَه، فما لهم ﴿لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ له ويَخضعون ويُسلِمون؟

قال الأستاذ الإمام: لا تظنَّ أنَّ قرع القرآن لم يكسر أغلاقَ قلوبهم، ولم يبلغ صوتُه أعماقَ ضمائرهم، بل قد بلغ وأقنع فيما بلغ، ولكن العِناد هو الذي يمنعهم عن الإيمان، ويصدّهم عن الإذعان، فليس منشأ التكذيب قصور الدليل، وإنما هو تقصيرُ المُسْتَدِلّ وإعراضُه عن هدايته، لذلك أضرَبَ سبحانه وتعالى إلى بيانِ حقيقة أمرهم، فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: بما يجمعون في صدورهم من الوعي السَّيِّئ للقرآن والخوف على الرياسة وحُطام الدنيا، فقد غطَّى ذلك على قلوبهم، فأعرضوا عن الحقِّ على وضوحه.

هذا أُميَّة بن أبي الصَّلت يُقرُّ برسول الله ﷺ ويقصده ليؤمن به، ثم يعود فيقول: لا أؤمن برسول ليس من ثقيف. ومثله أبو عامر الراهب. وهذا أبو جهل يقول: ما كذب محمد قط، ولكن إذا كانت السدانة والحجابة في بني هاشم، ثم النبوة، فما بقي لنا؟ وهذا أبو طالب يرى المعجزات، ويقول: إني لأعلم أنك على الحق، ولولا أن يُعيِّرني نساءُ قريش لأقرَرْتُ بها عَينَك. فنعوذُ بالله من ظلمةِ حَسَد، وصَلَافة كِبْر، وحَماقة هوى، تُغطِّي نورَ العقل وضياء البصيرة، فيُعرِض صاحبها عن الحقِّ والرُّشد والفلاح.

وقد توعَّدهم سبحانه وتعالى بما فيه تـهكُّم عليهم، وقال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾، والتهكُّم في استعارة التبشير للوعيد بالعذاب إنما هو على القول بأنه مَجاز فيه، أما على القول بأن التبشير لغةً: هو الإخبار بما تتأثَّر له بشرة الوجه سروراً أو حُزناً، فلا تهكُّم به، بل مجرَّد وعيدٍ شديد.

ثم قابل حال هؤلاءِ الكافرين المعاندين بحال المؤمنين، على طريقة الاستثناء المنقطع، وصورة الاستدراك، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾ أي: لكن الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات لهم جزاءٌ غير مقطوع؛ مما لا عَيْنٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قلب بشر.

* * *

سُورَةُ البُرُوجِ

مكيَّة، وهي اثنتان وعشرون آية

والغرضُ منها:

تثبيتُ المؤمنين وتصبيرهم على تعذيب أهل مكة لهم، وتذكيرُهم بما جَرَى من التعذيب لأمثالهم من المؤمنين في الأمم الماضية.

وقد أنذَرَ مَنْ يُعذِّبهم، وتَوَعَّدهم بأسوء العذاب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾[1] وقد فسَّروا البروج بالبروج الاثني عشر التي تنزل

---

(١) أقسم سبحانه بما نعلم وما لا نعلم من عالَـمي الغيب والشهادة على قدرته البالغة التي لا يعجزها أمر البعث والحياة الأخرى؛ ليؤنِّب المنكرين، ويتوعَّد الظالمين. وقد نظم اليوم الموعود في سلك القسم، مع أن إثبات وجوده هو نفس المُقسَم عليه، المقدَّر في الكلام، وذلك لِـمَا في هذا المسلك من المبالغة في ادِّعاء وجوده وتحقيقه.

ولا يقال: كيف يستدل بما لا يعلم وبالدعوى نفسها على إثباتها؟ لا يقال ذلك؛ لأن بعض المُقسَم به كافٍ لإثبات الدعوى؛ لِـمَا فيه من دقَّة الصنع وعجائبه وعَظَمة القدرة، وما عداه إنما ذكر زيادة في التنبيه والتذكير. ففي الكلام بلاغة عالية في المعنى والغرض والأسلوب، جلَّ من هذا كلامه. وقد جاء في سورة ﴿وَالشَّمْسِ﴾ شبيه بهذا النظم من القسم، أو قريب منه، حيث سلك قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧] في صورة القسم مع أنَّ المقسم عليه هو إثبات حالها من تَزْكية أو تَدْسية، وهو أمرٌ غير خارج عنها. ومثل هذا من البلاغة العالية بمكان، ومن أساليب القرآن. (المؤلف).

فيها الشمس والقمر أثناء سَيْرهما في منطقة البروج. وفسَّروها أيضاً بالنجوم مُطلقاً أو بعظام الكواكب على تشبيهها بالأبنية الضخمة الفخمة. وهذا هو الأنسَب بمعاني القرآن؛ لأنه معنىً لغوي، والأوّل معنىً اصطلاحيّ، والقرآن يتبع في تعابيره المعاني العرفيَّة اللغويَّة.

ثم تابع القَسَمَ بقوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾ وهو يوم القيامة؛ لأنَّ الله سبحانه وَعَد به ولـمّا نَصِلُ إليه بعد، ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ والشاهد: كلُّ ما له حسٌّ يَشهَدُ به المشاهَدات، والمشهود: كلُّ محسوس يُشهَد ويُدرَك بالحسّ.

قال الأستاذ الإمام: أقسم سبحانه أولاً بما فيه غيبٌ وشهود، وهو السماء ذات البروج، فإنّ كواكبها مشهودٌ نورها، مرئيٌّ ضوؤها، معروفةٌ حركاتها، بحسِّ البصر مباشرة أو بواسطة الآلات، وفيها غيبٌ لا يُعرف بالحسِّ، وهو ما أودع الله فيها من القُوى، وما أسكنها من المَلَك وغيره، كلُّ ذلك غَيْبٌ لا تُدرِكه حواسُّنا، وإنْ وَصَل إلى الاعتقاد بشيءٍ منه عقلُنا.

ثم أقسم جلَّ شأنه بما هو غَيْبٌ صِرْف، وهو اليوم الموعود؛ لأنه أخبرنا بأنه سيكون، وأخبرنا عمَّا يكون فيه من الحوادث في البعث والحساب والعقاب والثواب، ولكن شيئاً من ذلك لا يمكننا أن نشهده في حياتنا هذه.

وبعد ذلك أقسم بما هو شهادة صِرْفة، وهو الشاهد، أي: صاحب الحسِّ وهو مرئيٌّ، والمشهود وهو ما وقع عليه الحسّ، فكأنه جلَّ شأنه أقسَمَ بالعوالم كلِّها مع هذا التقسيم البديع لِيَلفِتَكَ إلى ما فيها من العِظَمِ والفخامة، لتعتبرَ بما حَضَرَك وتبذلَ الوُسْعَ في دَرْك ما استَتَر عنك، وتستعدَّ لِـمَا يستقبلك، وليقرع المنكرين بغفلتهم عمَّا في هذا الكون من أثر القدرة التي لا يُعجزها شيء، ولينذر به الظالمين.

أما المُقسَمُ عليه فمحذوفٌ دلَّ عليه ما ذكره بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾[1]، فكأنه قال: أُقسِمُ بهذا الكون العظيم، وبذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الناس لربِّ العالمين، لقد ابتُلِيَ مَنْ قبلَكم من المؤمنين المُوحِّدين ببطش أعدائهم بهم واشتدادهم في إيذائهم، حتى خَدُّوا لهم الأخاديد، وملؤوها بالنيران، وقذفوهم فيها، ولم تأخذهم بهم رأفة، بل كانوا يتشفّون برؤية ما يحلُّ بالمؤمنين، وأُقسِمُ لقد صبروا، ولقد انتقم الله ممَّن أوقع بهم، وأخذَه بذنبه أَخْذَ عزيزٍ مُقْتدر، ولئن صَبَرتم لَيُوفِّيَنَّكم أجرَكم، وليأخذنَّ الله أعداءَكم، ولَيُنزِلَنَّ بهم من بطشه ما لا قِبَلَ لهم به. فهذا كله قد فُهِم من الآيات الآتية.

وقد أقام مقام الجواب حكاية مثل الماضين، ووعيده للكافرين، ووَعْده للصالحين، وما بعد ذلك من البيان؛ تثبيتاً للمؤمنين، وحَمْلاً لهم على الصبر والمجاهدة في سبيله.

قال الزجَّاج: أعلَمَ اللهُ قصَّةَ قوم بلغت بصيرتهم وحقيقة إيمانهم إلى أن صَبَروا على أن أُحرقوا بالنار في الله جل شأنه[2].

والخدُّ في الأرض: الشَّقُّ. وجملة ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ تشنيعٌ جارٍ بمقتضى ما هو المعروف في لغة التَّخاطُب، وهي كنايةٌ عن قُبح حالهم، وأنهم بلغوا معه مبلغاً لا يستحقُّون معه أن يبقوا أحياءً، أي: أُخذوا بذنوبهم ونزل بهم نكال الدنيا وعذاب الآخرة.

---

(١) وفي هذه الآية تشنيعٌ على الكافرين، وإغراءٌ للمؤمنين من أهل مكة أن يعتبروا بهؤلاء المؤمنين. ويجوز أن يكون الجواب المحذوف إثبات اليوم الآخر، والتقدير: إنَّ عذاب ربك لواقع، إذ يلمع إليه التشنيع ويُومئ للقدرة على مفهوم القسم. وقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ نعيٌ عليهم ووعيدٌ لهم بذلك اليوم المهول، الذي يُجازَى فيه الظالمون جزاءً شديداً. (المؤلف).

(٢) «التفسير الوسيط» للواحدي (٤: ٤٦١).

وأصحاب الأخدود: قوم كافرون ذَوُو بأس وقوة، أصابوا قوماً مؤمنين غاظهم إيمانهم، فحَمَلوهم على الكفر، وأكرهوهم أن يرتدّوا إليه، فأبوا، فشقّوا لهم شقاً في الأرض، وحَشَوْه بالنار، وجاؤوا بالمؤمنين واحداً واحداً، وألقوهم فيها، وهؤلاء القُساة قُعودٌ على جوانب الشقّ، يُشاهِدونَ احتراقَ الأجساد الحيَّة، وما تفعل بها النار.

قال الأستاذ الإمام: أما تعيين أصحاب الأخدود، وأنّى كانوا؟ ومن هم أُولئك المؤمنون؟ وأين كان منزلهم من الأرض؟ فقد كَثُرت فيه الروايات، والأشهر أنَّ المؤمنين كانوا نصارى نَجْران عندما كان دينهم دين توحيد، ليس فيه حَدَثٌ ولا بدعة، وأن الكافرين كانوا أُمراء اليمن، أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء في حقيقة الوثنية.

وقد توعَّدهم على عملهم هذا بما فيه تعنيف لهم، فقال: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] والتعرُّض لهذه الأوصاف فيه إيذانٌ بالتهديد الرهيب، ودلالةٌ على أنه لا مَفَرَّ لأولئك الظالمين من سلطانه، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ فلا تخفى عليه خافيةٌ من أعمالهم، وسيُجازيهم عليها جَزاءً وِفاقاً.

ثم زادهم وعيداً بهذا البيان العام الشامل لصناديد قريش، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) أي: وما علموا فيهم عَيْباً، ولا كرهوا منهم وأنكروا من أحوالهم إلا إيمانهم بالله القويِّ الغالب القاهر الذي لا يُغالب ولا يُدافع، المحمود الذي يستحقُّ أن يُحمَدَ ويُثنى عليه، وهو أهلٌ لذلك، والحامد الذي يحمدُ عبادَهُ على ما يكون منهم ممَّا يستحقُّ الحمد، وهو بعزَّته سينتقم من المجرمين الجبَّارين، وبمقتضى كونه محموداً بصفاته العليّة، وحامداً لـمُستحقّي الحمد من عباده، سَيُـثيبُ عبادَه المؤمنين الصابرين على ما نالهم من اضْطهاد بأيدي الطغاة المجرمين. الذي له ـ وحدَهُ ـ مُلك السموات والأرض، المُتصرِّف بكلِّ ما يملك، فهو المُسْتَحِقُّ للعبادة.

﴿فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: بَلَوْهُم بالأذى، وامتحنوهم بالتعذيب؛ لِيَرُدُّوهم عن دينهم، ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ من كفرهم الذي أدَّى بهم إلى فتنة المؤمنين، ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾[1] وهذا العطف المبنيُّ على تغاير الوصفين أتى به للزيادة في التهويل والمبالغة في التَّحسيس. والذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات: هم الضَّالُّون من كلِّ قوم، الذين يُؤذون أهل الحق والدعاة إليه، حرصاً على ما أَلِفوا من الباطل، ومنهم كفار قريش، ففيه تعريضٌ بهم.

ثم أردَفَ ما سجَّل به للكافرين من المصير، بما سيكون للمؤمنين من المصير، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. ثم نوَّه بشأن هذا المصير، تحسيساً للكافرين، وترغيباً للمؤمنين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ الذي يَصْغُر معه نعيمُ الدنيا وما فيها من الرغائب.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم عقَّب السياق بتعظيم أمر الله عزَّ وجلّ، فيما فيه وعيدٌ لأعدائه، وتسليةٌ لأوليائه، فقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) أي: لهم أنواع العذاب المختلفة في جهنَّم، ولهم عذابُ الحريقِ بمباشرة النار لأجسادهم. وإنما ذَكَرَ الحريق وهو مفهوم من عذاب جهنَّم، ليكون مقابلاً للحريق في الأخدود. ولكن أين حريق من حريق؟ فحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق، وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق، وحريق الدنيا لحظات تنتهي، وحريق الآخرة آمادٌ لا نهاية لها، ومع حريق الدنيا رضا الله عن المؤمنين، ومع حريق الآخرة غضب الله على الكافرين.

ثم أيّد تحقيق هذا الوعيد بالبرهان على سَعَة قدرته، وعلى إعادته للإنسان، فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ وذلك ظاهر في النبات، فإنه يُعاد إنباتُه في كل سنة. وكذلك البشر فإنه سبحانه يخلقهم أولاً في الدنيا، ويعيدهم في الآخرة.

وقال ابن عباس: يُبدئ العذاب في الدنيا، ويُعيدُه في الآخرة[١].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾[٢] لمن يرجع إليه بالتوبة، فقد جاء في الحديث: «إنَّ الله سبحانه أفرَحُ بتوبة عَبْده من العقيم الوالد، والضالِّ الواجد، والظمآن الوارد»[٣]. وقال مجاهد: يودُّ أولياءَه ويُحبُّهم. وقال الأزهريّ: ﴿ٱلْوَدُودُ﴾: فَعُولٌ بمعنى مفعول، ومعناه: أنَّ عباده الصالحين يودُّونه ويحبُّونه، لِـمَا عرفوا من فضله وكرمه[٤].

وهو ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: صاحب العَظَمة والسلطان[٥]، وهو ﴿ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ أي: الرفيع السَّامي، وأصل المَجْد في كلام العرب: الشرف الواسع.

وهو تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ فلا يُعجزه إهلاكُ الجاحدين، ونَصْر المؤمنين.

ثم تابع وعيدَ الكافرين وتَسْليةَ المؤمنين، فذكَّرهم بخبر الجموع الكافرة، وما فعل بهم، فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ وأُولي البأس من الأشدّاء الأقوياء، مثل

---

(١) «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» للثعلبي (١٠: ١٧٥).

(٢) ﴿ٱلْوَدُودُ﴾: المُتحبِّبُ إلى عباده؛ بإسباغ النِّعم، ودوام العافية. «ياقوتة الصِّراط» لغلام ثعلب، ص٥٩٠، بتحقيقي.

(٣) رواه ابن عساكر في «أماليه» عن أبي هريرة رضي الله عنه، كما في «الجامع الصغير» للسيوطي (١٠١٠٤).

(٤) «التفسير الوسيط» للواحدي (٤: ٤٦٢).

(٥) هذا لازم المعنى ونتيجته، فالعرشُ أعظمُ مخلوقات الله تعالى، وقد خلقه الله تعالى إظهاراً لقدرته، ودليلاً على قَهْره وعظيم سلطانه.

﴿فِرْعَوْنَ﴾ وقومه، ﴿وَثَمُودَ (١٨)﴾ وأبطالها، فقد كانوا أشدَّ بأساً وأعظمَ قوةً من قومك، ومع ذلك فقد أخذهم الله بذنوبهم أخْذَ عزيزٍ مُقْتدر.

ثم أضربَ إلى بيان حقيقة أمر المُكذِّبين، وأنَّهم في غَمْرةٍ من التكذيب، لم تترك لعقلهم مجالاً للنظر في أمر مَنْ سبقهم من المُكذِّبين، وسَبَك ذلك على الوعيد أيضاً، فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠)﴾ فلا يَنْجون من بأس الله.

ثم أردَفَ كفرَهُم وتكذيبَهُم لمقرَّرات هذا القرآن، بالإضراب إلى بيان الحق فيه، فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ اللوح المحفوظ شيءٌ أودَعَ الله فيه كتابَه، ولم يُعرِّفنا حقيقتَه(١).

---

(١) نعم، لكنْ مثلُ هذه العبارات قد يُستَنَدُ إليها في نفي الحقيقة وحَمْل اللفظ على المجاز أو الكناية، فلا بُدَّ من تقييدها، فنقول: إنه سبحانه لم يُعرِّفنا حقيقته وماهيته، لكنه أخبرنا أنه لوح، فنثبتُه على أنه لوحٌ حقيقةً، من غير أن نعرف ماهية هذا اللوح، ولا نقول مثلاً: إنه كناية عن العلم.
واللوح المحفوظ: هو الكتاب الذي كتبَ الله فيه مقاديرَ الخلق قبلَ أن يَخلقهم. وسُمِّي محفوظاً لأنه محفوظ عن الزيادة والنقصان، والتبديل والتغيير، أو لأنه محفوظ عن الاطِّلاع عليه إلّا لِـمَن أطلعَه الله سبحانه.
قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠].
قال ابن عطية: هو اللوح المحفوظ.
وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢] قال القرطبي: يعني اللوح المحفوظ.
وقد روى البخاري في «صحيحه» (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين ـ الطويل ـ وفيه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذِّكْر كل شيء، وخلق السموات والأرض». =

وقال ابن الجوزي: إنَّ هذه العبارة من جملة العبارات التي يُعبّر بها القرآن لتحقيق الثبوت في الأذهان، بصورة تتناسب مع تصوُّرات الإنسان. فالمراد بها: تحقُّق كون القرآن شيئاً ثابت المجيء منه تعالى.

ومن هذا ما جاءَ من مثـل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، فالمراد بهذا التعبير: تحقُّق وجود الله سبحانه وسلطانه القاهر، وكذلك قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، فالمراد به: الردُّ على المتقوِّلين بصورةٍ تَـتَناسب مع تصوُّرات الإنسان، وتماشي التعابير العرفية التخاطبيَّة، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: عظمته وسلطانه. والله أعلم.

* * *

= قال الحافظ ابن حجر: أن المراد بالذكر هنا: هو اللوح المحفوظ. وينظر ما تقدَّم تعليقُه في تفسير الآية ٥٩ من سورة الأنعام.

سُورَةُ الطَّارِق

مكيَّة، وهي سبع عشرة آية

والغرض منها:

إثبات حفظ الأعمال لكلِّ نفس، وما يتبع ذلك من حساب وثواب أو عقاب.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ۝٤
فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ
لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢
إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ
رُوَيۡدَۢا ۝١٧﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ قال الأستاذ الإمام: يُقسِمُ سبحانه بالسماء، وهو كل ما علانا، فهو قَسَمٌ بالعالم العلويِّ وما فيه، ثم خصَّ بعض ما في ذلك العالم السماوي، وأقسم بالطارق، والطارق: كلُّ ما أتاك ليلاً، ولـمّا كان اللفظ عاماً والمُقسَمُ به كائن مُعيَّن وشيءٌ خاصّ ممّا يصدق عليه الطارق، بيّن ما قصده منه بعبارة تدلُّ على تعظيم أمره وتفخيم شأنه، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ وهو الذي يثقب ضوؤه الظلام، كأنَّ الظلام جلدٌ أسود، والنجم يثقبه، وإنما عظَّم الله أمره لِـمَا فيه من الهدايةِ الحسيَّة والمعنويَّـة، والشؤون الأخرى التي يعلمها الله ويعلمها الراسخون في علوم أسراره في خليقته. وإنما سُمِّي النجم الثاقب بالطارق؛ لأنه لا يظهر إلا ليلاً، وضوء الشمس يخفيه.

أما المُقسَمُ عليه فقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾[1] قال المفسِّرون: أي: من الملائكة، يحفظ فِعلَها وقولها.

---

(١) قال غلام ثعلب في «الياقوتة» ص ٥٩١: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ [الطارق: ٤] معناه: ما كلُّ نفسٍ إلا عليها حافظ.

وقال الأستاذ الإمام: المعنى: أنَّ كلَّ نفس عليها حافظٌ ورقيبٌ يُراقبها في جميع أطوار وجودها، حتى تنتهي إلى أجلها، وذلك الحافظ الرقيب هو الله[1].

ووَجْهُ المناسبة بين الـمُقسَم به والـمُقْسَم عليه: هو المراقبة عليها بكلِّ دقَّة في السَّيْر والعمل.

ولـمّا كان المُقْسَم عليه يَتَضمَّن البعث والحساب ويلمع إليه، زاد في الاستدلال عليه والتـأكيد له بقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ[2] ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ

---

(١) الصواب في تفسير هذه الآية: أنَّ المراد بالحافظ الملائكة، كما روي عن ابن عباس: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ إلا عليها حافظٌ من الملائكة، وإسنادُه صحيحٌ كما قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦: ٣٦٥).

وفي «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزّي (٢: ٤٧١): ومعناه عند الجمهور: أنّ كلَّ نفس من بني آدم عليها حافظ يكتب أعمالها، يعني: الملائكة الحَفَظَة. انتهى.

ولا مانع من إطلاق الحفظ على الـملائكة، فقد قال الله تعالى في شأنهم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، وقال الله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، وذكر ابن كثير في «تفسيره» (٤: ٤٣٧): أنهم أربعة بالليل وأربعة بالنهار، فاثـنان عن اليمين والشمـال يكتبان الحسنات والسيئات، واثنان من ورائه وأمامه يحرسانه. انتهى.

وقال ابنُ رجب في «جامع العلوم والحكم» (١: ٤٦٥): قال ابنُ عباس: هم الملائكةُ يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القَدَرَ خَلَّوا عنه. وقال عليٌّ رضي الله عنه: إنّ مع كلِّ رجل مَلَكَين يحفظانه ممّا لم يُقدَّر، فإذا جاء القَدَرُ خَلَّيا بينه وبينه، وإن الأجل جُنّة حصينة. وقال مجاهد: ما من عبد إلا وله مَلَكٌ يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه إلا قال له: وراءك، إلا شيئاً أذِنَ اللهُ فيه، فيُصيبه.

(٢) قال غلام ثعلب في «الياقوتة» ص ٥٩١ بتحقيقي: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ في معنى مدفوق، وهو =

بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴿٧﴾﴾ والصُّلب: عَظْمُ فِقارِ الظهر، والترائب: موضع القلادة من الصَّدر.

قال الأستاذ الإمام: كنَّى بالصُّلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة، أي: أنَّ ذلك الماء الدافق إنما يكون مادةً لخلق الإنسان إذا خرج من بين الرجل والمرأة. أي: فَلْيتدبَّر ذلك ليصل إلى أنَّ الذي أنشأه بهذا الكمال في ماءٍ دافق، قادر على أن يعيده تارة أُخرى بعد الموت ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴿٨﴾﴾.

وبعد أن أقام الدليل على صحَّة القول بالبعث، وَصَفَ حالَ الإنسان في ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴿٩﴾﴾ أي: يوم يُختبَر ويُتصفَّح ما خفيَ من أعمال الإنسان، ويظهر الطيِّب والخبيث، وتنقلب كل خفيَّة إلى جَهْر، ويكون الحساب والعقاب، ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ حينئذ ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ على الإفلات مما قُدِّر له، جزاءً لعمله، ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴿١٠﴾﴾ يحميه مما حُتم عليه.

وقال أبو مسلم: بلوت: يقع على إظهار الشيء وعلى امتحانه، والظاهر أنها هنا بمعنى: الإظهار.

ثم زاد في قضية البعث بياناً، فأتبع السياق السابق بسياقٍ لاحقٍ يدلُّ على صحَّة القول بها أيضاً، لأنه يشبهها من حيث الإعادة والرَّجْعة، وذكر ذلك بصورة القَسَم، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴿١١﴾﴾ أي: ذات الحركات التردُّديَّة ذهاباً وإياباً التي تحدث من حركات الأجرام في أفلاكها المستديرة. وقال الزجَّاج: الرَّجْع: المطر لأنه يجيء ويتكرَّر(١).

= ممَّا جاء على لفظ الفاعل وهو مفعول به، ومثله: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١، القارعة: ٧] أي: مرضيَّة.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٥١٢).

أقول: ويجوز أن تشير كلمة ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ إلى الدورة المائيَّة، حيث ينزل المطر من السَّحاب، ويتَّخذ الماءُ مَسالك في الأرض، وبعد أن يتجمَّع يخرج منها ينابيع تتكوَّن أنهاراً، وتعود إلى البحار، ثم تَتَبخَّر ثانية وتكون سحاباً، وهكذا دواليك. ولا شك أنَّ بين هذه الدورة وبين الإعادة بالبعث دقَّةَ مناسبةٍ وتنويراً، وفيها من القدرة ما يُبصِّر بهَوْن أمر البعث في جانب قدرة الله[1].

ثم تابع المعنى بقوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾ والصَّدْع: النبات؛ لأنه يَصدَع الأرض، أي: يشقُّها فتحيا بعد موتها، ثم تخفى وتحيا في السنة الثانية، وهكذا[2]. ولا شكّ أنَّ بينه وبين البعث مناسبةً وتماثلاً، فلذلك يُقسِمُ سبحانه وتعالى بهاتين الآيتين الكونيتين على وقوع البعث وصحَّة القول به، فيقول: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القول بالبعث والمعاد ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾ أي: حقٌّ واضح لا مجال للرَّيْب فيه.

ثم توعَّد المكذِّبين المعارضين، فقال: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥﴾ في السَّعي لإبطال الحقِّ وإطفاء نوره بزَعْمِهم، ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾ أي: أُدبِّر لهم عاقبة كَيْدهم ليعُودَ وبالُه عليهم، وإسنادُ الكيدِ إلى الله للمُشاكَلة، والمراد به لازمه، بمعنى: أنه سيعودُ عليهم وَبَالُ كيدهم لا محالة، ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولا تستعجل لهم.

---

(١) والمعنى: والسماءِ القريبة المحيطة بالأرض بغلافها الغازي ذات الإرجاع المُتكرِّر لما يصعد إليها من المياه المُتبخِّرة، فتُرجعها إلى الأرض ماءً حلواً، أو ثلجاً، أو بَرَداً، لسُقْيا الناس والدوابّ، ولإحياء الأرض بالنباتات المختلفة، كما أنَّ السماء تُرجعُ قسم الأشعة الكونيَّة المؤْذية بعدم السماحِ لها بالنفوذ في الغلاف الجويِّ في الأرض.

(٢) ﴿ٱلصَّدۡعِ﴾: أصله الشقُّ في الشيء الجامد، أي: الأرض ذات الشَّق، تنشقُّ عن النبات والأشجار والأنهار، وكنوز الأرض من المعادن وغيرها.

ثم بيّن أن ذلك الإمهال لا يطول، وسَبَكه على الوعيد، فقال: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾[1] أي: قليلاً.

وقد كرَّر وخالف بين اللفظين للمبالغة في التثبيت والتسكين، وفيه وعيدٌ شديد لهم بأن ما يُصيبُهم سيكون قريباً، سواء كان في الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت.

* * *

(١) ﴿رُوَيْدًا﴾: مصغَّر (رُوْد) بوزن عُوْد، وهو التمهُّل. تقول العرب: فلان يمشي على رُود، أي: على مهل، ويُصغِّرونه على رُوَيْد كما هنا. فهو اسم مصدر لـ«أمهل» من معناه. كما تقول: اجلس قعوداً. فالمعنى: أمهلهم إمهالاً خاصاً. وهو القليل.

سُورَةُ الأَعْلَى

مكيَّة، وهي تسع عشرة آية

نزلت في أوائل ما نزل من السُّور، وكانت كالمنهاج لأمر الدعوة، وتقسيمه إلى أقسام:

منها تنزيهُ الله عمَّا لا يليق به من الشِّرك ونحوه.

وإنزال القرآن ليكون أصلاً للدعوة والهداية إلى الشريعة اليُسْرى الصَّالحةِ لجميع الناس.

والترغيب بالتمسُّك بها، والترهيب من الإعراض عنها.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ
ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧
وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى
يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾.

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال الأستاذ الإمام: اسمُ الله ـ في مثل هذه الآية ـ: هو ما يُعرف به. والله سبحانه إنما يُعرف بصفاته، فلا تعرفه أذهاننا إلا بأنه العالم القادر الحكيم، إلى آخر ما دلَّنا عليه النظر في خلقه، وهدانا الوجدان السليم في وَصْفِه. والله سبحانه يأمرنا بتسبيح هذا الاسم، أي: بتنزيهه عن أن يكون فيه ما لا يليق به من شَبَهِ المخلوقات.

ثمَّ وصفه بهذه الصفات التي تقوم دليلاً على وجوب هذا التنزيه، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ أي: خلق الكائنات على كيفيَّة تامَّة ونظامٍ كامل لا اضطراب فيه ولا اختلال، ولا نقص ولا انحلال، كما تراه فيما يظهر لك من خَلْق السَّماوات والأرض وما فيهمـا، حتى كانت تلك المخلوقاتُ على اختلاف أنواعها مؤديةً للأغراض التي خُلِقَت لأجلها على أحسن حال وأكمله، ولم يشذَّ من ذلك إلا الإنسان، كما قال تعالى في آخر سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ

أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] أي: خانـها(١)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٤ - ٦].

ثم أكمل البيان سبحانه بقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ أي: قـدَّر لكلِّ حيٍّ ما يُصْلحه مُدَّة بقائه، وهَداهُ إليه، وعرَّفه وَجْهَ الانتفاع بما فيه مصلحةٌ له ومنفعة، ووَجْهَ

(١) لا يصحّ تفسيرُ حمل الإنسان للأمانة بالخيانة، ومعنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص٤٢٧:
«إنَّا عَرَضْنَا الأمانة التي ائْتَمنَ الله عليها الـمُكلَّفين، بأن يَعبروا رحلةَ امتحانِهم في الحياة الدنيا، وهم يحملون الإرادة الحرَّة، وقُدْرات الإدراك والفهم، على أنْ تُسخَّر لهم بخَلْق الله الأشياء والقوى في ذات أنفسهم، وفي الكون من حولهم؛ ليُمتحنوا في ظروف الحياة الدنيا، بالإيمان والإسلام والعبادة، فَمَنْ كفر بالله كان مصيرُه إلى الخلود في النار، ومَنْ آمن وكسب في إيمـانه خيراً، كان مصيرُه إلى الخلود في جنات النعيم.
عرضنا تلك الأمانة على السَّموات والأرض والجبال، وكان العرضُ عليهنَّ تخييراً لا إلزاماً، فَأَبت السَّمواتُ والأرضُ والجبال رغم كِبَرِها وضخامَتها من حَمْل هذه الأمانة، بل خِفْن من حَمْلها، بعد أنْ أعطاهنَّ الله القُدرة على إدراكها، إذ لا تملك استعداداً فطرياً لحَمْل الأمانة، لأنها لا تملك إرادة حرَّة حتى تُختبر أمانتُها وخيانتُها، وحَمَلها الإنسان؛ لأنه يحمل الاستعداد الفطريَّ الكامل لحَمْل الأمانة؛ بما منحه الله سبحانه من خصائص التفكير والعقل ومعرفة صفات الأشياء، والإرادةِ الحُرَّة، ممَّا يستطيع التصرُّف فيه بفعل الخير أو بفعل الشر.
وإذْ وضع الله هذه الخصائص أمانة تحت يده، وضع له منهاجاً يسير عليه، فإذا استعمل الإنسانُ ما استودع الله إرادتَه من قوى وطاقات، في طاعة الله، وفيما أَذِنَ له به، فإنه يُثبت أنه صاحب أمانة، أما إذا استعملَها فيما لا يُرضي الله، أو فيما فيه ظلم أو عدوان على أحدٍ من خلق الله، فهو خائنٌ فيما اسْتأمنه الله عليه، وجعله وديعةً عنده؛ إنَّه كان ظلوماً لنفسِه لكثرة خيانته للأمانة، وعدوانه على حقوقها، استجابةً لأهوائه وشهواته، ووساوس الشياطين، جهولاً بأمر ربِّه، لم يَتَبصَّر بعواقب ظلمه، ولم يحسب حساباً لمسؤوليَّته، ولم يَخْشَ عقابَ ربِّه، كما هو الـمُشَاهَدُ في وصف معظم الناس».

الهرب مما يخشى غائلته، ومن هذين الأمرين قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٨].

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾ أخضرَ غضاً طرياً، ثم أيبَسَه، ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ أي: هشيماً أصفرَ مُشرَباً بشيءٍ من الحُمْرة والسواد، فهو مَهْديٌّ بطبيعته إلى ما يُراد منه وينتهي إليه.

وفي هذا البيان إلفاتُ النظر إلى أنَّ سائر المخلوقات الماديَّة المخلوقة للفناء لا للبقاء لها نهاية وخراب، كما في هذا المَرْعى الذي كان أخضَرَ نَضِراً، ثم آل أمرُه إلى هذا الهشيم اليابس الأحوى، وفيه أيضاً دليل القدرة على تبديل الأجسام من أوضاع إلى أوضاع مباينةٍ للأولى، وإيماءٌ إلى قدرة الله سبحانه على البعث والنُّشور، وأنها أطوار بعد أطوار متسلسلة.

وبعد أن بيَّن سبحانه أنَّ هدايتَه عامَّة لكافَّة مخلوقاته، وَعَدَ نبيَّهُ ﷺ بأن سيُقرِئُه ما يحتاج إليه البشر من أنواع الهداية، مُلمِعاً إلى أنَّ هداية الحيوان طبيعيَّة، وهداية الإنسان نوعان: طبيعيَّة ودراسيَّة بواسطة الأنبياء، لِـمَا له من الروح والعقل والإدراك، فقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ أي: سنُقرئك ونُطلِعُك على ذلك بحيث لا تنساه، أي: محفوظ من النسيان. وهو على حدِّ قولهم: سأكسوك فلا تَعْرى. فهو وعدٌ من الله سبحانه لرسوله ﷺ بهدايته لتلقِّي الوحي وحفظِ القرآن الذي هو هُدىً للعالمين، وبتوفيقه لهداية الناس به حتى يكونوا مؤمنين.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ في ذلك إتقاناً وتسديداً، كما في سائر أعماله تعالى.

وفيه إيذانٌ بأنَّ القرآن محفوظٌ مَضبوطٌ ليس فيه نقصٌ ولا تبديل، كما أنزله ربُّ العالمين، فللإيماء إلى كُلِّ ذلك عَقَّبَ الإقراء مع الإتقان ومراقبة النسيان بسَعَة علمه تعالى.

وبعد أنْ عقَّب على هذا التأييد القطعي باستثناء المشيئة، على نهج القرآن بالتعقيب على التأييدات والقطعيَّات باستثناء المشيئة، لا لإفادة نقضها كما يوهمه الظاهر، بل لإفادة أنَّ ذلك القطع والتأبيد مبنيٌّ على النواميس التي شاءَها الله، بحسب الحكمة البالغة، ولو كانت الحكمة في غير ذلك لشاءَ ما به الحكمة، فقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يكون إلا ما شاءَ الله، بمعنى: لا يكون إلا ذلك، مع إرشاد إلى التفويض لأنه قد شاءَه الله، ولا يكون إلا ما شاء الله.

فمُؤدَّى هذا الاستثناء الجزْمُ بما قبله، والإشارةُ إلى أنَّ مشيئتَه تعالى لا يُعارضها أمر ولا نظام. وقالوا: إنّ هذا كما يقول الرجل لصاحبه: أنت شريكي فيما أملك إلا ما شاءَ الله، وهو لا يقصد استثناء شيء.

ثم أكَّد الوعد وقـرَّره بمضمون قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ⁽٧⁾﴾ أي: إنَّ الذي وَعَدك ـ بأن سيُقْرِئُك ويُحفِّظك ما تقرأ فلا تنساه ـ عالمٌ بالجهر والسرّ، فلا يفوتُه شيءٌ مما يكون في نفسك، فهو مُطَّلع على معلوماتك، ما تقرؤه منها وما تُدركه، ويراقبها فيك، فلا يدخلها خَلَل ولا نقصان، ولا غَلَط ولا نسيان. يُلمع بذلك إلى أنَّ ما جاءَنا به من الشريعة، أمرٌ محفوظ مضبوط.

ثم عطف على قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، قولَه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ⁽٨⁾﴾ أي: نُوفِّقك بذلك الإقراء للشريعة السَّمْحة التي يسهل على النفوس قَبولها، ولا يَصْعُبُ عليها فهمُها، لأنها ملائمةٌ للعقل، وموافقةٌ للفطرة وللطبيعة في كلِّ شأن من شؤونها، ومُحَقِّقةٌ للإنسانية من سائر وجوهها، وجالبةٌ للمصالح والمنافع على اختلاف أنواعها.

ويجوز أن يُراد باليُسْرى أيضاً: الهداية؛ لأنها موافقة لطبيعة الإنسان، والأمر الطبيعي يكون سهلاً، ومخالفُه ـ كالضلال ـ يكون صعباً؛ لأنه مرض يعاكس الطبيعة،

لذلك قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾[١] وهذا ليس بشرط، ولكنه تأسُّف على البشر، أُخرج مَخرَجَ الشرط، والله أعلم، سيقَ تأنيباً وتقريعاً للبشر في إهمال القرآن، وتسليةً له ﷺ عمَّن لا يزيدُه التذكير إلا عُتُوّاً ونُفوراً.

ويجوز أن يكون المراد: المبالغة في الحثِّ على تفقيه المؤمن وتوسيع معلوماته، تـمشّياً مع قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، والله أعلم.

وقال الأستـاذ الإمام: وقد أشار بهذا الشـرط إلى ما عليه حال أهل البـاطل وجمودهم على ما ورثوه من آبائهم، وأنَّ الذكرى ربما لا تنجح فيهم، فهي تبكيتٌ لهم وتقريع، وليس هذا الشرط قَيْداً في الأمر، فقد أجمَعَ أهل الدين سلفهم وخلفهم على أنَّ الأمر بالتذكير عام، نفعت الذكرى أم لم تنفع[٢]، وعملُـهُ ﷺ شاهدٌ على ذلك، ويؤيِّـده قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ فإنه يدلُّ على التذكيـر للصنفين معاً، إلا أنَّ الذكرى ستنفعُ الصنفَ الأول وهو الذي يخشى الله تعالى، ولا تنفع الصنف الثاني وهو الذي غلبه شقاؤه بتحريفه لطبيعته، وإعمائه لبصيرته، بمفاسد التربية وسوء القدوة، حتى انطبع على الباطل وجَـمَدَ عليه، فلا يرى ما يناقضه جديراً

(١) قال الإمام غـلام ثعلب في «الياقوتـة» ص ٥٩١، بتحقيقي: «﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ «إنْ»: في معنى: «قد»، وأخبرنا أبو عمر قال: أخبرني سلمة، عن الفراء، عن الكسائي قال: سمعت العرب تقول: إنْ قام زيد، قال: فظننته شرطاً، فسألتُهم، فقالوا: نريد: قد قام زيدٌ، وليس نريد: ما قام زيد».

(٢) أجمع الأصوليون على أنَّ القيد إذا كان لغرض خاصّ لا يكون له مفهوم مخالفة. ويجوز أن تكون جملة ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ جملةً اعتراضية سيقت للتـأسُّف على هؤلاء الأشقياء؛ إذ لا ينتفعون بالذكرى. والله أعلم. (المؤلف).

بالنظر والتفكير، وسيلقى من الله جزاءَه الذي ذكره في وَصْفه بقوله: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي: لا يموت ميتةً يستريح بها، ولا يحيا حياةً يستفيد منها.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

وبعد أن أجمَلَ وعيدَ المُعرِضين الأشقياء، أشار إلى سعادة المتذكِّرين السعداء، وعبَّر عنهم بعمل من أعمالهم المؤدِّية إلى ذلك، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾[1] بتمسُّكه بما جاءَه من عند الله ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ أي: لاحظ اللهَ سبحانه وتعالى، وذكَرَ ما يعرفه منه فخشع. وعبَّر عن الخشوع بالصلاة، لأنه لبُّها والمقصود منها، وهي بدونه شَبَحٌ بلا روح. وقد يكون هذا الخشوع ضمن الصلاة.

ثم أضرَبَ عن بيان ما يؤدِّي إلى الفلاح والسعادة في الآخرة، إلى توبيخِ هؤلاء الكفَرة الذين لا يسلكون هذا الطريق، فقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ فتَسْعَون لتحصيل لذَّاتها الفانية، وتُعْرِضون عمَّا يؤدِّي إلى سعادةِ الآخرة الباقية. وقيل: بل هو التفاتٌ وعتابٌ للمؤمنين الذين يُؤْثرون الحياة الدنيا بصَرْف أكثر المواهب لها، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾؛ لأنَّ سعادتها خالدة، وسعادة الدنيا فانية، سريعة الزوال، فالآية تنبيهٌ وبيانٌ لخطأ المؤمنين في ذلك.

قال الأستاذ الإمام: ثم أراد الله سبحانه أن يؤيِّد الحقَّ الذي يُوحيه إلى نبيِّه بإثبات أنه هو بعينه الحق الذي ذُكر في صُحُف إبراهيم وموسى، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ

---

(١) أي: قد فاز وظفرَ بالمقصود، ونجا من المكروه؛ مَنْ تطهَّر من رِجْس الشِّرك والمعاصي بالإيمان والعمل الصالح، ونمَّى نفسَه بالأعمال الصَّالحة.

ٱلۡأُولَىٰ[١] ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ[٢] ﴿١٩﴾﴾ فدينُ الله واحد، وإنما تختلف صُوَرُه وتتعدَّد مظاهرُه، فإذا كان المُخاطَبون قد آمنوا بإبراهيم وموسى، فعليهم أن يؤمنوا بمحمَّد؛ لأنه لم يأتِ إلا بما جاء في صُحُفهم، وإنما هو مُذكِّرٌ لهم بما أعرضوا عنه من شرعهم، أو مُحيٍ لِـمَا أماتوا منه، أو مُصحِّحٌ لِـمَا عَبَثوا به.

وقد روي عن أبي ذر رضي الله عنه: أنه سأل رسول الله ﷺ: «كم أنزل الله من كتاب؟ فقال: مئة وأربعة كتب؛ على آدم عشرَ صحف، وعلى شيثٍ خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان»[٣].

أقول: فيكون قوله: ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ تغليباً للفظ الصُّحُف على الكتاب؛ لأسبقيَّتها في الزمن.

* * *

(١) أي: القديمة المُنزّلة قبل القرآن. وصحف موسى غير التوراة؛ إذ أنزل على موسى عليه السلام عشر صحف قبل التوراة.

(٢) وقد ذكر سبحانه أشياء من صُحف إبراهيم وموسى في ثماني عشرة آية من سورة النجم، من الآية ٣٦ إلى الآية ٥٤، من قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾، إلى قوله سبحانه: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه بنحو هذا اللفظ (٢: ٧٦)، وذكره الرازي في «تفسيره» (٣١: ١٣٧).

سُورَةُ الغَاشِيَة

مكيَّة، وهي ست وعشرون آية

الغرضُ منها:

إجمالُ صورة الثواب والعقاب في الآخرة، ثم تفصيلُه بعض التفصيل، ترغيباً وترهيباً.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾ أي: الداهية التي تَـغْشىٰ الناسَ بشدائـدها، وتَغمُرُهم أهوالها، والمراد منها: يوم القيامة. والمعنى: هل سمعت قصّة يوم القيامة وما يقع فيها؟ والاستفهام لتعظيم الأمر وتهويله[1].

وقد بيَّن بعض مظاهر ذلك بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾ أي: يظهرُ عليها الذلّ والخزْيُ النازل بأصحابها، ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ أي: عملت في الدنيا ونَصِبَت، ولم تستفد من عملها سوى نَصَبِها، فأثرُ الخيبة وحبوط العمل ظاهرٌ عليها، فهي ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾[2] و﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ أي: شديدة الحرارة، من قولهم: أَنى الماءُ يأنى؛ إذا سخن وبلغ في الحرارة غايتها.

والمعنى: أنَّ أهل النار إذا عطشوا عطشهم الخاصّ بهم في تلك الدار، وطلبوا ما يُطفئ لَـهَبَ ظمئهم، جيءَ لهم بما لا يُطفئ لهباً، ولا ينقع غُلَّة، وإذا خَوَتْ بطونُهم وأحسُّوا من الجوع ما يدفعهم إلى طلب الطعام ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا

(١) قال غلام ثعلب في «ياقوتة الصراط» ص ٥٩٢: «﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ أي: قد أتاك».

(٢) أي: تذوق عذاب الاحتراق بنارٍ حاميةٍ شديدةِ الحرارة.

يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ (٧)﴾، وسمَّى الله ذلك الطعام بالضريع، تشبيهاً له به، وهو نَبْتٌ سيِّئُ المرعى يَنْبت في الحجاز، ويُسمَّى الشبرق أو الضريع.

وكلُّ ما في ذلك العالم الأُخروي إنما بينه وبين ما في عالمنا وجوهُ مشابهة لا وحدةُ مجانسة، وقد جاءَ في القرآن العظيم عن طعام أهل النار وشرابهم أنواع عديدة بعبارات مختلفة، وكلها مما يُصوِّر في أذهاننا بَشاعتَه وخُبثَه؛ لتنفر منه نفوسنا، وتطلب كلَّ وسيلة للفرار منه، فتبعد بذلك عن العقائد الفاسدة والأعمال الخاسرة.

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ (٨) لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ (١٠) لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ (١١) فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ (١٢) فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ (١٣) وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ (١٦)﴾.

وبعد أن ذكر شقاء الكافرين، ذكر سَعادة المؤمنين بطريقة المقابلة، على نهج القرآن، فقال: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ (٨)﴾ أي: ذات بهجة وحُسْن، كما قال تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت مُنعَّمةً فرِحةً بما لاقت من جزاء سعيها في الدنيا ـ اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين ـ فهي ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ (٩)﴾ على ضدِّ ما عليه تلك العاملة الناصبة.

ثم فصَّل ما به ذلك الرضا، فقال: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ (١٠)﴾ الشأن ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ (١١)﴾ أي: كلاماً لا يُعتدُّ به ولا شَتْماً، ولا فحشاً ولا باطلاً.

قال الأستاذ الإمام: وإنما عجَّل بهذا الوصف قبل إتمام البيان عن أنواع النَّعيم؛ لدفع ما يسبق إلى الأذهان عند ذكر الجنَّة ونعيمها من أحوال أهل التَّرف والمُولَعين بالشهوات من تمضيةِ الأوقات في اللهو والقول اللغو، ويجعلون ذلك من مُتمِّمات النعيم، فنزَّه سبحانه وتعالى نعيمَ الجنة عن ذلك.

وفيه تنبيهٌ للمؤمنين إلى أنه لا يليق بهم أن يكونوا من أهل اللغو، مهما فاض عليهم النعيم، واتَّسعت لهم النعمة، بل ذلك مما ينـزَّهون عنه حتى إذا رفعت عنهم التكاليف، ووصلوا إلى فَضَاء الرحمة الذي لا سَخَط فيه ولا نقمة، فنعيمهم ينبغي أن يكون نعيم أهل الفضل والجدّ، لا نعيم أهل الجهل والحمق، فاعتَبِرْ بهذه الحكمة، ثم انظر كيف قدَّم من الأوصاف للجنَّـة وضروب نعيمها ما هو روحانيّ يليق بأرباب النفوس العالية والمقامات الرفيعة في العرفان وكمال الوجدان، فذكر الرِّضا بالسَّعي، ولذَّته فوق اللذائذ، فإنه لا لذَّة تفوقُ عند العامل لذَّة سروره بعمله، ثم أتبَعَه بالتنزُّه عن اللغو وما لا فائدة فيه، وهو أسْمى ما يَطلُبُ الكامل أن يحيا به.

ثم جاء بعد ذلك بما له شَبَهٌ باللذائذ الجسمانيَّة المعهودة لنا في هذه الحياة، فقال: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ وفي منظر الماء الجاري من مَسرَّة النفس ما هو معلوم، و﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ على مَقرُبة من العين الجارية، ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ على جانب العين، يُشـرَبُ بها منها، ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾ وهي الوسائد، ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ وهي البُسُطُ مطلقاً، وقيل: البُسُطُ التي فيها خمل. وكلُّ ذلك لتصوير النعمة والرَّفاهة واللذة، وإلا فنعيم تلك الدار الآخرة مما لا يشبهه في هذه الدار نعيم. اللهمَّ اجعَل لنا فيه نصيباً يا أرحم الراحمين.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

ولما كان الكلام مَسُوقاً من أوَّله لتقرير أُمور الآخرة، وما يكون من شأن الناس

يوم القيامة، وفي المُخاطَبين منكرونَ جاحدونَ أو مُقرُّونَ غافلون، أرادَ اللهُ إقامةَ الحُجَّة على أُولئك وتنبيهَ هؤلاء؛ بتوجيه نظرهم إلى آثار حِكَم الله وقُدرته فيما بين أيديهم، وما يقع تحت بَصَرِهم من المخلوقات، وإلفات المشركين من قريش إلى مظاهر الإبداع في مجتمعهم الصَّحراوي الساذج الذي يعيشون فيه، ودقَّة الحكمة في مخلوقات الله سبحانه ومُبْدَعاته، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾[1] وإنَّما تكلَّم عن الإبل؛ لأنها أفضل دوابِّ العرب وأعمّها لهم نفعاً، ولأنها على الحقيقة خَلْقٌ عجيب بأوضاعها وأحوالها وأعضائها.

ومن ذلك ما قاله عنها بعض علماء الحيوان: إنَّ سَنَام ظهر الجمل مُعين لكثرة الحَمْل عليه واحتماله للثقل، وأوصال ركبتيه وعراقيبه كبار صِلاب، وأوتارها وعروقها متينة شديدة، وعَصَبُه وثيق لم يشتد ليهون عليه البروك والنهوض بحِمْله، مع تسهيل الارتقاء عليه في ذلك.

وفي الجملة؛ إنَّ في تركيبها وطبيعتها ما أعدَّها لحَمْل الأثقال إلى المكانات البعيدة، وانقيادها للضعيف والصغير مع عِظَمِ جسمها وقوّتها، وبروكها لتُحمَّلَ عن قُرْب ويُسْر، ثم تنهض بما تحمل، مع صبر على السَّيْر والعطش والجوع، ومع اكتفائها من المرعى بما لا يكاد يرعاه سائر البهائم، وفيها غير ذلك من المزايا الصالحة للصحاري.

ومن عجيب أمرها: أنها تُبصِرُ الأشياء إذا أغمَضَت عينَها، وذلك أنها خُلقت لتكون صالحةً لاحتمال عواصف الرمال في الصحاري، فلها جفنان: جفن رقيق شفاف،

---

(١) لما ذكر الفرق بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين، فرَّع عليه ما يكون كالدليل له، ومحصَّله: أن الله سبحانه يعطي كل شيء ما يستحقه ويقتضيه، فكيف يجعل المجرمين كالمحسنين، والكافرين كالمؤمنين، ولا يعطي كل صنف ما يستحقه من نعيم وجحيم وسعادة وشقاء؟ والله تعالى أعلم. (المؤلف).

وجفن سميك، فإذا أسدَلَت الأول، وأطبَقَت الثاني قليلاً، أمكَنَها رؤية الأشياء كأنما تنظر بالمنظرة.

ثم قال: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ والمراد: تماسك ما فوقنا من شموس وأقمار ونجوم، وكلٌّ منها في مداره، لا يَخْتلُّ سَيْرُه، ولا يفسد نظامُه.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ من دون بقيَّة وَجْه الأرض، فكانت أوتاداً لها وموازنة لثقل أطرافها، وعَلَماً للسائر، وملجأً للحائر، وعبرةً للناظر.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ ولم تُجعَل كلُّها جبالاً وَعِـرة، وذلك لتصلح لسُكْنى الناس ولشؤونهم، والقرآن يستشهد بمثل هذا الاستشهاد؛ لأنه يصلح لسائر طبقات الناس، ويأخذ كلٌّ واحد منهم بنصيب، حسب استعداده وقابليته في تهذيبه وثقافته وعلمه ودرايته.

قال الأستاذ الإمام: وإنما حَسُن ذِكرُ الجمال مع السماء والأرض والجبال؛ لأنَّ هذه الجملة من المخلوقات هي ما يقع تحت نظر العرب في أوديتهم وبواديهم، فحَسُن أن ينتظمها الذِّكر كما انتظمها النظر. والمراد: أنَّ الله سبحانه كما خَلَق ذلك كلَّه والناس لا يعلمون طريقة خَلْقه، كذلك يُنشئ الله ما يُنشئ في اليوم الآخر مما لا يعرفون طريقة إنشائه، وإنما يَرَوْن ما يَرَوْن فيه كما يَرَوْن اليوم ما يَرَوْن من هذه المخلوقات، فإذا كان الأمر ظاهراً جلياً؛ وما هي إلا نظرة، فتهجم عليهم العِبرة.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ لأنَّ الفطرة سائقة بنفسها إلى الاعتقاد بصانعٍ قادر، وهي مُيسَّرةٌ بذاتها إلى الإذعان بأنه قادرٌ على إنشائها في خلقٍ آخر ترى فيه شقاءً أو نعيماً، ولكن قد تَتَحكَّم الغَفلات، وتَغْلب الأهواء، فتحتاج النفوس إلى مُذكِّرٍ يُرُدُّها إلى ما كان عَسَاه تَنْساق إليه غرائزها، وهذه هي وظيفة الأنبياء، وقد قرَّرها بقوله:

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: ليس في مقدرتك أن تجعلَ ذلك الاعتقاد فيهم إذا كانوا قد أفسدوا طبائعهم، وجَمَدوا على فسادها. وفي هذا تسليةٌ له ﷺ، على نهج القرآن في تسليته، إثرَ بيان جحود الجاحدين، وعناد المعاندين.

قال الأستاذ الإمام: وقد قال بعضُ المُولَعين بالنَّسخ: إنَّ هذه الآية نُسِخَت بآية الجهاد، كأنَّ الجهاد شُـرِعَ في الإسلام لقهر النفوس على الاعتقاد، وخفيَ عليهم أنَّ القهر لا يُحدِث إيمـاناً، وأنَّ الإكراه لا أثر له في الدين، وأن الجهاد ينقطع وجوبُه متى خضع المحارب لأداء الجزية، مع بقائه على دينه. والنبيُّ ﷺ ليس مُسيطراً على قلوبهم إنْ كان مُحارباً أو مُسالماً، فلا حاجة إلى القول بالنسخ.

ولما كان نفيُ السيطرة ربما يتبادر منه إلى بعض الأذهان أنَّ الناس مختارون في الإيمان والكفر، وحَبْلُ كلٍّ على غاربه؛ دَفَع ذلك بقوله: ﴿إِلَّا﴾ أنَّ ﴿مَن تَوَلَّىٰ﴾ وأعرَض عن الذكرى المَسُوقة إليه ﴿وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: جَحَد الحقَّ المعروض عليه ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

ثم أكَّد هذا التسجيل بهذا التذييل، فقال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ أي: رجوعَهم، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ فلا مَفَرَّ لهم ولا خلاص.

* * *

(١) أي: لكن من تولَّى مُدْبراً مبتعداً منهم عن التذكير والموعظة، وأصرَّ على كُفره بعناد، فيدخله الله يوم القيامة جهنَّم خالداً فيها أبداً، ويُعذِّبه فيها العذابَ الأكبر، وهو عذاب الحريق، الذي لا عذاب أكبر منه. فالعذاب الأكبر هو عذاب الآخرة. والأصغر: عذاب الدنيا بالقتل والأَسْر.

سُورَةُ الفَجْرِ

مكيَّة، وهي ثلاثون آية

والغرض منها:

إثباتُ البعث بدليل القدرة.

ثم إثبات العذاب للكافرين بالقَسَم والاستشهاد بالواقع.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي
حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾
وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا
فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ قال الأستاذ الإمام ما مُحصَّلُه بتصرُّف: كَثُر خلاف المفسِّـرين والرواة في معنى كلٍّ من «الفجر» «وليال عشر»، والمراد ـ والله أعلم ـ من الفجر: معناه العام، ومن الليالي العشر: ليال يَتَشابه حالُها مع حال الفجر من كلِّ شهر، وهي ما يكون ضوء القمر فيها مُطَارداً لظلام الليل.

أقول: والأظهر أنَّ المراد بالليالي العشر: الوسط من كلِّ شهر؛ لأن فيها إبداعاً في ضياء القمر، والتنكير للتعظيم(١).

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾ أي: الزوج والفَرْد من هذه الليالي العشر، فهو يُقسِم بها

---

(١) المراد بالقَسَم بالفجر والليال العشر ـ كما رجَّحه شيخنا الميداني في تفسيره «معارج التفكر»: أَقْسَمَ الله عزَّ وجلّ بالفجر، وهو الزمن المختار لإهلاك عادٍ قوم هود، وثمود قوم صالح، وفرعون وجنوده، والليالي العشر من أوّل المحرَّم حتى العاشر، وهي مُدَّة مسير موسى عليه السلام بقومه حتى نَجَوْا وعَبَروا البحر إلى سيناء، ومدّةُ لحاق فرعونَ وجنودِهِ لهم، حتى هلكوا غرقاً.

على الجملة، ثم يُقسِم بما حَوَته من تباين مظاهر كلِّ زوج وفرد؛ ليلفتَ النظر إلى بداعة تدرُّج زيادةِ وَجْهِ القمر ونقصانه، وظهور تفاوته بين ليلة وليلة وهو الشفع، وزيادة ظهوره بين ليلة وليلتين وهو الوتر، والله أعلم.

ويجوز أن يُراد بالشفع: الليلة الرابعة عشرة منها، وبالوتر: الليلة الخامسة عشرة، فيكون الكلام تخصيصاً بعد التعميم، لامتيازهما من بين الليالي العشر بالكمال. والله أعلم[١].

وبعد أن أقسمَ بضروبٍ من أوقات الضياء أقسَمَ بالليل، فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾[٢] أي: ينتشر فيغطِّي المُبْصَرات، ويَخلِف النهار، يبتدئ سَرَيانه من المشرق بغروب الشمس، وينتهي في المغرب بشروق الشمس. ويتقدَّم الليلَ في سَرَيانه نحو الغرب ضوءُ الشفقِ الأبيضِ المُماثِلُ للفجر في الضوء والزمن والمقابل له، إلا أنَّ الفرق بينهما أنَّ ضياء الفجر سابق للشمس، ويبدو ضئيلاً، ولا يزال يزداد في وضوحه كلما قربت الشمس حتى تبدو الحُمْرة، ثم تطلع الشمس. أما الشفق فهو لاحِقٌ للشمس، ويبتدئ بالأحمر، وهو بقيَّة أثر الشمس، ثم يخفىٰ ويبقىٰ الأبيض، ولا يزال يَضْؤُل حتى يزولَ عند العشاءِ ويعمَّ الظلام.

وكلُّ ما ذكر سبحانه في هذا القَسَم: أُمور عظيمة دالَّة على قدرة الله الجليلة، تُؤْذِنُ بأنَّ البعثَ في جانبها ليس بعزيز، وبأنه تعالى مُسْتَحِقٌّ وحدَه لأن يُعْبَد لاختصاصه بأفعال الألوهيَّة، ولذلك تُسمَّى مِثلُ هذه الأقسام بالأقسام الاستدلالية.

---

(١) المراد بالشفع والوتر: الأيام الشفع الثمانية، والليالي الوتر السبع، وهي المدّة التي أرسل الله عزَّ وجلّ فيها الريح الصَّرصر العاتية على عادٍ، فقطعت دابرهم.

(٢) المراد بالقسم بالليل في هذه السورة: والليل إذا يجري ويذهب بهدوء، وتعقبه أحداثُ الإهلاكِ العُظمى المدمِّره عند الفجر لَمن يريد الله إهلاكهم

ثم أردَفَ هذا القَسَمَ بتفخيمه وجلاء قدرته، زيادةً في التأكيد، فقال: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾[١] ذكر القَسَم وإرادة المُقْسَم عليه هو من خصائص اللغة. والحِجْر: العقل، أي: أمَا في مظاهر هذه القدرة البالغة ما يُقْنع مَنْ له عقلٌ وتفكير بأنَّ الله سبحانه قادرٌ على إعادة جسم الإنسان بعد الموت وحَشْره للحساب والجزاء، وأنه سبحانه هو الإله، ولا ربَّ سواه، وأنَّ الشرائع التي يُرسلها هي مثل هذه المظاهر في الإتقان، وما هي إلا لسعادةِ البشر ووقايته من الشقاء، ومَنْ أعرَضَ عنها وعارَضَ الرسل وَقَع في البلاء.

قال الرازي: وهذا الكلام كمَنْ ذكر حُجَّة باهرة، ثم قال: هل فيما ذكرتُه حُجَّة لمن يعقل[٢]؟ يُفَخِّم أمرَها ويُقرِّر الحقَّ بها.

وجواب القَسَم محذوف، وهو تحقيقُ البعث وتقريرُه، ووعيدُ المُكذِّبين به على نهج السُّور السابقة، وقد أقام مقامه الاستفهام الاستشهادي، على نهج القرآن في مثله، وعرض بذلك لَوْحةً لشقاء المكذِّبين من جبابرة أهل الوبر، ثم لجبابرة أهل الحضر، ثم للعريقين في المدنية، نوَّر بها ما تضمَّنه السياق من وعيد المكذِّبين، وأثبته بالدليل الواقع، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ وتقدير الجواب: إن الحشر لواقع، وإني سأفعل بالمكذِّبين كما فعلتُ بعادٍ وثمود وقوم فرعون.

---

(١) أي: هل فيما ذكرت من الأزمنة التي جَرَت فيها هذه الأحداث، بحكمة الله وقدرته وعلمه مُكتفى في القَسَم لذي عقل يتدبَّر به ويتفكَّر، ويعقل أهواءَه وشهواته؟ نعم، إنَّ من تفكَّر بعقل حصيف في هذه الأزمان التي أهلك الله بها الأمم السابقة، ووقعت بها هذه الأحداث العظمى، تؤكِّد صدق الخبر بحدوث أشباهها مُستقبلاً عند وجود المقتضيات المماثلات للمقْتضيات التي حدَثت بسببها الأحداث الماضية؛ لأنَّ سنَّة الله القائمة على حكمته سنَّـةٌ دائمةٌ، لا تتغيَّر ولا تتبدَّل.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣١: ١٥١).

و(عادٌ): جيل من العرب البائدة يلقب بـ(إرم)، وبقي مشهوراً عند العرب بذلك، ومعنى ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾: سكان الخيام الفخيمة ذات العماد الرفيعة، وقيل: ذات الأبنية الرفيعة، يكني بذلك عن الرفعة والقوة، وكانت منازل عاد بالرمال والأحقاف إلى حضرموت، وقد بلغت من الشدَّة والقوة مبلغاً لم يصل إليه سواها في عهدها، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾﴾.

قال الأستاذ الإمام: ويروي بعضُ المفسِّرين حكايات في تصوير إرم ذات العماد، كان يجب أن يُنزَّه عنها كتاب الله. وقد بيَّن الله سبحانه في سور أُخرى من القرآن كيف فعل بعاد.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾ و(ثمود): قبيلةٌ من العرب البائدة كذلك، وهي معروفة عند العرب باسمها، ومنزلها بالحِجْر بين الشام والحجاز، ومعنى ﴿جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾: قطعوا الصَّخرَ ونَحَتوه، كما قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، فقد أنعم الله عليهم بالقوَّة والعقل، حتى صَنَعوا لأنفسهم قصوراً فخمة من الصَّخر العظيم بواديهم الذي كانوا يقيمون فيه.

وقد يصحُّ ما قاله البعض من أن معنى ﴿جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾: إنهم قطعوا الصخر واتَّخذوا منه وادياً يخزنون فيه الماء لمنافعهم، ولا يفعل ذلك إلا أهل القوة والدراية والفهم من الأمم.

فالله سبحانه يُبصِّر بما كان من أمر عاد وثمود، ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ وفرعون: هو حاكم مصر الذي كان في عهد موسى عليه السلام.

وللمفسِّرين في كلمة «الأوتاد» اختلافٌ كبير، وأظهَرُ أقوالهم ملاءمةً للحقيقة: أنها المباني العظيمة الثابتة في مصر، وما أجمَلَ التعبيرَ عمَّا ترك المصريون من الأبنية الباقية

بالأوتاد، وهي الأهرام، ومنظرها في عين الرائي منظر الوتد المقلوب. ويجوز أن يكون تسميتُها بالأوتاد لاستقرارها وبقائها على الدهور الطويلة[١].

ثم بيَّن ما كانوا عليه من الأحوال التي اقتَضَت أخْذَهم بالعذاب، وكانت نتيجةً لعدم إيمانهم بالله وخوفهم منه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢﴾ أي: إنَّ كلَّ قوم من هذه الأقوام الثلاثة طغى في بلده. والطغيان: تجاوُزُ القَدْرِ المعروف في العمل أو غيره. والمراد منه: سُوء استعمال السلطان والقوة والخروج بها عن حدِّ القصد والاعتدال والإسراف في هَضْم الحقوق اغتراراً بعظم القدرة؛ إذ لا معنى لفساد شيء سوى اختلال نظامه وصورته.

ثم ذكر سبحانه ما جازاهم به عن تلك الأعمال، وقال: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ والسَّوْط: لفظٌ شاع استعمالُه في الجِلْد المضفور الذي يُضرَبُ به، وإن كان في الأصل اسماً للخلط والمزج، وقد شبَّه بالسوط ما صبَّه عليهم من ضروب العذاب التي ذكرها في مواضع أُخرى من كتابه العزيز؛ لأنَّ السوط يُضرَبُ به في العقوبات. والصَّبُّ: الإنزال بشدَّة مع توالي الضربات.

---

(١) هذا التفسير ذكرَه بعضُ المعاصرين، ولا مانع منه، إلا أن المشهور عن السَّلَفِ الأولِ هو تفسيرُها بالجنود أو بالأوتاد التي يربط فرعون بها المُعذَّبين.

فقد جاء في «تفسير» الطبري (٢٤: ٤٠٩) وابن كثير (٨: ٣٩٧) وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الأوتاد: الجنود الذين كانوا يشدُّون أمره، وعلى ذلك فالمقصود بالأوتاد: أركان ملكه، وقال بعضهم: كان يربط الرجل في كل قائمة من قوائمه في وتد، ثم يرسل عليه صخرة عظيمة، فيشرخه بها.

وقال صاحبُ «الظلال» (٦: ٣٩٠٤): «وهي على الأرجح الأهراماتُ التي تشبه الأوتادَ الثابتة في الأرض المتينة البنيان، وفرعون المشار إليه هنا: فرعون موسى الطاغية الجبار».

ثم علَّل تعذيبهم بسبب طغيانهم وإفسادهم في أُمورهم بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ وهذا تأكيدٌ لجواب القَسَم المفهوم من سابق الكلام ولاحقه، وهو إثبات الحشر والحساب على ما سبق تقديره؛ لأن رَصْد الأعمال لا يكون إلا لذلك.

والكلام على التمثيل، بمعنى: أنه رقيبٌ على عباده لا يفوتُه من شؤونهم شيءٌ على أنه لا يريدُ منهم إلا أن يَسعَوا لمصلحتهم الدنيويَّة والأُخرويَّة.

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾.

قال الأستاذ الإمام ما مُلَخَّصه: وبعد أن بيَّن شأنه تعالى في مراقبة أحوال الإنسان ورَصْدِه له، وطلب منه أن يسعى السَّعْيَ الصحيح للكمال، في الأقوال والأفعال، بيَّن شأنَ الإنسان وغَفْلته وسوءَ ظنِّه بربه، على طريقة وصف الجنس بصفة أكثر أفراده الذين أفسدوا طبيعتهم وحرَّفوا غريزتهم، فقال: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾(١) واختبره ليُظهِرَ ما لديه من شكر وكفر، ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ ظنَّ أنَّ الله قد اصْطَفاه

---

(١) بعد أن بيَّن سبحانه ما فعله بأولئك الضالِّين المكذِّبين، ذكر نوعاً من الضلال لأولئك الجهَّال، فقال: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ ظنَّ أنه قد رضي عنه، ولذلك رفع من شأنه ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فقد رضي عني، ويتمادى في غيِّه وضلاله، ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي: قتَّره وضيَّقه ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ وأهمل شأني، فهو لم يَرْضَ عنّي. فيجعل هذا الضال مقياس رضا الله: رَفْعَ شأنه وسَعَة رزقه، ومقياس سخط الله: خَفْضَ شأنه، وقلَّة رزقه، فردَّ الله سبحانه هذه العقيدة الضالَّة، فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس هذا مقياس الرضا والغضب، ولكن المقياس تمسُّك الإنسان بالتعاليم الإلهية والعقيدة المرضية، وذكر شيئاً من طبيعة تلك التعاليم فقال: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ حتى تمنعون منه المستحقِّين، فإنهم لا يورثون المرأة والصغير، ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ تجمعونه من حقٍّ وباطل. فتوعَّدهم على ذلك بقوله: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا...﴾. (المؤلف).

لذلك، ورفعه على من سواه، وجنَّبه منازل العقوبة، فيذهب مع هواه، فيفعل ما يشتهي ولا يبالي، أكان ما يصنع خيراً أم شراً، فيطغى ويُفسِدُ في الأرض. وقد عبَّر سبحانه عن ذلك الظنِّ الفاسد والغرور المُهلِك بقوله: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾[1] أي: إن الله أكرمني بنعمته، ومَنْ يكرمه الله لا يُؤاخذه على عمل يعمله.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ وامتَحَنَه بالفقر ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ وضيَّقه ليُمَحِّصَ قلبَه بالإخلاص له، وليُظهِرَ قوة صبره، ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ ومَنْ أهانه الله وصَغُرت قيمتُه عنده لم تكن له عناية بعمله، ولا يُؤاخذُه بما يصدر منه من شرّ، ولا يكافئه على ما يصنع من خير، فينطلق لذلك يكسب عيشه بأية وسيلة عنَّت له، ولا يقف عند حدّ، ولا تحجزه شريعة.

تلك هي حالة الإنسان الذي أفسد غريزتَه، وحرَّف طبيعتَه، فلم ينتفع بعقل سليم، ولم يستفد من دين صحيح قويم، أما الذين حافظوا على فِطَرِهم وغريزتهم التي أنعَمَ الله بها عليهم، فأُولئك الذين ترتقي إلى مثل حالهم مرتبةُ الإنسان، فيعلون إلى المقام الذي لا تذهلهم فيه القوة، ولا يشغلهم فيه الفقر عن مُراعاةِ الحدود المعروفة فيما هو حقٌّ لهم أو عليهم.

ولما كان بعض المُخاطَبين بهذه الآية من مُشرِكي قريش الذين يَزعُمون أنهم على شيء من دين إبراهيم، وأنهم مُصْطَفَونَ عند الله، ولذلك أمدَّهم بأموال وبنين، لـمَّا كان هؤلاء كذلك، وكان بعض المتمسِّكين بطرف من الدين ربما لا يعتقدون أنها تنطبق عليهم، لأنهم من الشاكرين الذاكرين والمتَّبعين لفضائل الدين الحنيف المُصْلح للنفوس؛

---

(١) بعد أن بيَّن سبحانه مراقبته أحوال الإنسان بمقتضى شرائعه التي أرسلها إليه، بيَّن جهله في إعراضه عن تلك الشرائع واعتماده على وَهْم أوحاه له خيالُه، وهو أنَّ الله سبحانه إذا أغناه فذلك دليل رضائه عنه، وإذا أفقره فذلك دليلُ غضبه عليه، فردَّ عليه ذلك. (المؤلف).

ردَّ عليهم سبحانه بما أقام من الدليل الواضح على كَذِب ما تُحدِّثهم به نفوسُهم، فقال: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾[1] أي: لو كان غنيُّكم لم يُعْمِهِ الطغيان، وفقيرُكم لم يطمس بصيرتَه الهَوَان، وكنتم لا تزالون على الحال التي يرتقي إليها الإنسان؛ لشعرت نفوسكم بما عسى يقع فيه اليتيم، فعُنِيتُم بإكرامه، فإنَّ الذي يفقد أباه مُعرَّض لفساد طبيعته إذا أُهملت تربيتُه، ولم يُعامَل بما فيه إكرامه وما فيه رَفْعُ نفسه عن دنايا الأمور وسفاسفها، ولو كنتم على ما تُحدِّثكم به نفوسكم من الصَّلاح لكانت الشفقة تُحرِّك قلوبكم إلى التعاون على طعام المسكين الذي لا يجد ما يَقْتات به مع العجز عن تحصيله. وإنما ذكر التَّحاضّ على الطعام ولم يكتف بالإطعام، ليُصرِّح لك بالبيان الجليّ أنَّ أفراد الأمة متكافلون.

ثم تابع النقد بقوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ أي: شديداً، بمعنى: أنكم تأكلون المال الذي يتركه مَنْ يُتوفَّى منكم وتَشْتدُّون في أكله حتى تحرموا صاحب الحقِّ من حقِّه، كالمرأة والصغير، ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ﴾ مطلقاً؛ ميراثاً أو غيرَه ﴿حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ أي: كثيراً، فشَرَهُكم إلى المال، ومَيْلُكم إلى اللذّات، وانصرافُ أنفسكم إلى التَّمتُّع بها، ثم قسوةُ قلوبكم، وشَلَلُ وجدانكم إلى حدٍّ لا يألم لحال المسكين، ولا ينظر إلى ما تجرُّ إليه الاستهانة بشؤون اليتامى، من فساد أخلاقهم وتعطيل مواهبهم

---

(١) أقول: لما كان قوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ...﴾ متضمِّناً لبيان اعتقادهم بوهمين خاطئين: الأول: أنَّ من أعطاه الله في الدنيا ووسَّع عليه فهو المرضيُّ عنده، ومَنْ قَدَر عليه رزقه فمغضوبٌ عليه. والثاني: أنهم سيفوزون بسعادة الآخرة كما فازوا بسعادة الدنيا؛ رَدَعهم عن الأول بقوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ...﴾ فذكر عنصراً من عناصر الدين تعبيراً بالجزء عن الكلّ، مُلمعاً إلى أن قَبول الدين والإعراض عنه هما مظهر الرضا والغضب، لا الفقر والغنى. ورَدَعهم عن الثاني بقوله: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا...﴾ مُتوعِّداً بما لهم في الآخرة من الشقاء. (المؤلف).

وانتشار العدوى منهم إلى مُعاشريهم، وما يصيبُ الأمة من ذلك: كلُّ هذا منكم ناتج من كفركم، ودليلٌ على أنَّ ما تَزعُمونه ـ من اعتقادكم بإلهٍ يأمركم وينهاكم، وأنَّ لكم ديناً يعظكم، وأنكم عند الله مُكْرَمون ـ زَعْمٌ باطل.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

وبعد أن فنَّد مزاعمَهُم ـ توعَّدهم، على نهج القرآن بمثل ذلك ـ بقوله: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ أي: دكاً متتابعاً، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾[1] أي: صفوفاً متعدِّدة متتالية.

قال الأستاذ الإمام: أما إسناد المجيء إلى الله ففيه رأيُ السَّلف، وهو أنَّ ذلك مجيءٌ نؤمن به ولا نطلب معناه، ولكنه يُمثِّل لنا الهيبة والعَظَمة وظهور السلطان الإلهي في ذلك اليوم العظيم، وفيه مذهبُ الخَلَف، وهو على تقدير: وجاء أمر ربِّك، أو أنه من قَبيل التمثيل لتَجَلِّي السطوة الإلهيَّـة على القلوب، كما تَـتَجلَّى أُبَّهة المَلِكِ للأعين إذا جاء في جيوشه ومواكبه؛ لأنه سبحانه يُخاطب الناس في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم، تقريباً للأذهان، فهي عبارةٌ تـتناسب مع تصوُّرات الإنسان. ولله المَثَلُ الأعلى.

---

(١) يعبِّر القرآن عن أحوال الله سبحانه وصفاته ـ ولا سيما القهريَّة منها ـ بأحوال الملوك والسلاطين؛ تصويراً للأمر، وتبديهاً له في المفهوم، والانطباع على العقول. وهكذا جاءت هذه الآية مستعارة من حال ملك قاهر على أثر ثورة في البلاد أخمدها، وحضر المحكمة بنفسه مُحاطاً بالقوة القاهرة وأسباب الجزاء؛ ليُمحِّصَ الأمر بنفسه، ويُنفِّذ الحكم على أدقِّ وجوهِ الحقِّ في المُحسِن والمسيء، والله تعالى أعلم. (المؤلف).

ثم أكمَلَ الترهيب بقوله: ﴿ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٦]، أي: كُشِفَت جهنَّم للناظرين بعد أن كانت غائبةً عن الحاضرين، فكأنها كانت بعيدةً وجاءت إليهم، و﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يتذكَّر الإنسان الغافل ما كان منه أيام غَفْلته، فيندم ويَتَحسَّر، و﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ أي: يا ليتَني قدَّمتُ عملاً ينفعني في حياتي الحقيقيَّة، وهي الحياة الآخرة، ولكنْ لا ينفعُه ذلك الندم والتذكُّر.

ثم ذكر ما ينـاله من الجزاء الشديد، وقال: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾﴾ قرئ الفِعلانِ بالبناء للمعلوم، والهاء لله، أي: لا يقع من المُعذِّبين وصانعي العذاب مِثلُ العذاب الذي يُعذِّب الله به ذلك الكافر. وقرئ الفعلان بالبناء للمجهول[1]، والهاء للإنسان الكافر، أي: لا يُصابُ أحدٌ بعذاب مِثلِ العذاب الذي يُصابُ به ذلك الإنسان، ولا يُحبَسُ أحدٌ حَبْسَه؛ لأنَّ الوثاق معناه: الشدّ والربط، كما يكون بالسلاسل والأغلال.

ثم قال الأستاذ الإمام: ومُلَخَّص معنى الآيات الكريمة: أنَّ ما يزعمُه الأغنياء الجبَّـارون والفقراء الخاسـرون من أنهم لربِّهم ذاكرون، مع فراغ قلوبهم من الرأفة بالضعفاء، وامتلائها بحُبِّ المال، وفيضانها بالميل إلى الشهوات؛ زَعْمٌ لا حقيقة له، وإنما يَتَـذكَّرون ربَّهم على الحقيقة في ذلك اليوم العظيم، عندما يَشْهَدون الهَوْل، ويُعوِزُهم الحَوْل، ويظهر لهم مكانهم من العذاب والنَّكال.

وكرَّر قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾[2] ليقوِّي استِحضار ذلك اليوم في الذِّهن. ثم إنّ التنوين

---

(١) وهي قراءة الكسائي كما في «الحجة للقراء السبعة» (٦: ٤١١).

(٢) في الآيتين ٢٣و٢٥.

في الأُولى منها[١] نائبٌ عن دكِّ الأرض ومجيء ربِّك والمَلَك، وفي الثانية[٢] نائبٌ عن ذلك وعن مجيء جهنم، وفي الثالثة[٣] عمَّا تقدَّم وعمَّا تضمَّنه قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾.

وبعد أن ذكر حال الإنسان الشقي، عقَّبه بحال الإنسان التقيِّ، على طريقة القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾[٤] في أمرها ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ﴾ بما أُوتيتِ من النَّعيم المُقيم ﴿مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ عنده بما فعلتِ واعتقدتِ من الاعتقاد السليم، ﴿فَٱدۡخُلِي فِي﴾ زُمْرة ﴿عِبَٰدِي ٢٩﴾ الصَّالحين، ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ التي أُعِدَّت للمُتَّقين. اللهُمَّ اجعلْنا منهم يا أرحم الراحمين.

أما الرجوع فيكون عند الموت، وأما الدخول فيكون يوم القيامة.

قال الأستاذ الإمام: ومفاجأة السامع بهذا النداء ضربٌ من ضروب إيجاز القرآن، لا تخطر لبشر على بال، فإنَّ التَّقيَّ الخائف الذي يخاف مقامَ ربِّه إذا سمع ذلك الوعيد المتقدِّم، أخذت الرهبةُ نفسَه، وأفعَمَت الخشيةُ قلبَه، فبينما هو كذلك، إذ يُنقذه هذا النداء، ويصعد به إلى أكرم فناء، ويصفه بالمطمئن ليذهب عنه الخوف، وبالراضي

(١) في قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [٢٣].

(٢) في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾.

(٣) في قوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾.

(٤) النفس بمقتضى تربيتها تكون أصنافاً ثلاثة: نفساً أمَّارة بالسُّوء، وهي التي تَتَسلَّط عليها الغرائز التي فَسَدت بخسَّة التربية وسُوء القدوة. ونفساً رقيبةً لوَّامة، وهي التي صَلَحت برفعة التربية وحُسْنِ القدوة، فكانت تستريح للخير والبر، وتضيق ذَرْعاً بالشر والفساد. ونفساً مطمئنةً، ترغبُ في جوار ربِّها، وتُحبُّ لقاءه، وهي التي سَمَتْ إلى أعلى مقامات النُّبل والكمال. (المؤلف).

المرضيِّ ليُبعد عنه خشية الغضب، أما الشقي فقد يلهو بأنه ليس وحده في الشقاء، بل الناس في كلِّ ما يُوعَدُ به سواء، فيَفجَؤُه نداء الأبرار بأوصاف الخيار إلى قرب الجوار، فتبغته الدهشة، وتفزعه الوحشة.

وقال الحسن في تفسير هذه الآية: إذا أراد الله عزَّ وجل قَبْضَها، اطمأنَّت إلى الله واطمأنَّ الله إليها، ورَضِيَتْ عن الله، ورضيَ الله عنها[1]، فأمر بقبض روحها، وأدخَلَها الجنةَ مع عباده الصالحين. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

* * *

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٥: ٢٥٣).

سُورَةُ البَلَدِ

مكيَّة، وهي عشرون آية

والغرض منها:

تسليتُه ﷺ عمَّا يلاقيه من الأذى في دعوة قريش.

ووعيدٌ لهم على إعراضهم وسوء سلوكهم معه.

وإقامةُ الحُجَّة عليهم في تعطيل مواهبهم الموجَّهة للحق والكمال في أصل خِلْقتهم.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ وهذه عبارةٌ من عبارات القَسَم والتأكيد في لسان العرب، كما تقدَّم بيانه في سورة التكوير[1] وغيرها.

والبلد المشار إليه: هو مكة، لِـمَا يدلُّ عليه قوله: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ الحرام، والحلُّ: هو الحلال، أي: قد استحلُّوا فيه إيذاءك وإخراجك، وعَزَموا فيه على قتلك، وهو بلدٌ مُحَرَّم محترمٌ غايةَ الاحترام، وهم يعلمون أنَّ النَّيْل فيه من أحد يُعَدُّ من أكبر الآثام، فكيف ينالون منك وأنت رسول الله؟! أي: ينتهكون حُرْمَةَ هذا البلد بالنَّيْل من مثلك؟!

وقال أبو مسلم: المعنى: وأنت مُنتَـهَكُ الـحُرْمة فيه. وهذا هو المرويُّ عن عبد الله[2]، قال: كانت قريش تُعظِّم البلد وتستحلُّ محمداً ﷺ، فقال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ * وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ يُريدُ أنهم استحلُّوك فيه فكذَّبوك وشَتَموك وقرَّروا اغتيالك، وكانوا لا يأخذ الرجل منهم فيه قاتلَ أبيه، يقول ذلك توبيخاً لهم، فالواو

---

(١) في تفسير الآية ١٥ منها.

(٢) انظر «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» للثعلبي (١٠: ٢٠٧).

ليست للحال، ولكن لاستئناف التأنيب على انتهاك حُرمتِه، بعد أن أقسَمَ به ونوَّه بشأنه، أي: ولكنك مُنتَهكُ الحُرمة فيه.

وبعد هذه الجملة المعترضة بين المعطوف والمعطوف عليه للتأنيب والتجهيل، تابع القَسَم بقوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ فهو عَطْفٌ على ﴿هذا ٱلْبَلَدِ﴾، داخل في المُقسَم به.

قال الأستاذ الإمام: والمراد منه: أيُّ والد وأيُّ مولود، كما يُرشد إليه التنكير، وكما هو مختار ابن جرير وجميع المُحَقِّقين[1]، وفي القَسَم به إلفاتُ النظر إلى رِفْعةِ هذا الطَّوْر من أطوار الوجود، وهو طَوْرُ التَّوالد، وإلى ما به من بالغ الحكمة وإتقان الصُّنع، وإلى ما يُعانيه الوالد والمولود في إبداء النشء وتكميل الناشئ، وإبلاغه حَدَّه من النُّمو المُقدَّر له، وتعبه في تربيته. ففيه تسليةٌ للنبي ﷺ عمَّا يلاقيه من الأذى الذي أشار إليه بقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ لأنَّ قيامه بتربية الأمة كقيام الوالد بتربية الأولاد.

أما قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ فهو الخبرُ المقصودُ توكيده بالقَسَم جواباً له. وفيه تسليةٌ له ﷺ عن تَعَبه وتكبُّدِه المشاقَّ في سبيل نشر الدعوة، حيث يُذكِّره بخِلْقة الإنسان المعروضة لتكبُّد المشقَّات، ولا سيما في سبيل تنشئة النشء الصالح وتثقيفه.

ويجوز أن يكون جوابُ القَسَم محذوفاً، على نهج القرآن في مثله، والتقدير: لأخذُلنَّهم وأنصُرنَّك. وتكون جملة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾ مستأنفةً للتقرير والتسلية والتنبيه. والكَبَد: المشقَة والتعب، ومنشأ ذلك في الإنسان: عقله ودرايته.

وقال الأستاذ الإمام: جَمَع بين البلد المُعظَّم والوالد والولد مع الاعتراض بقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾؛ ليشير إلى أنَّ مكةَ على ما بها من عمل أهلها، ستلدُ من الأمر العظيم ما يكون إكليلاً لمجْد النوع الإنساني، وهو دين الإسلام الذي جاء به عليه الصَّلاة

---

(١) تفسير «جامع البيان» لابن جرير الطبري (٢٤: ٤٣٣).

والسلام، وأنَّ العَنَاء الذي يُلاقيه من اختَصَّه الله بوحيه، إنما هو العَناء الذي يصيبُ الوالد في تربية ولده، وهو طبيعيٌّ للإنسان، يُكابد به أكثر مما يكابد الحيوان؛ لمكان العقل من ذلك وعُلوِّ تربية الإنسان، ففيه تسليةٌ له ﷺ، وفيه من الوعد بإتمام أمره ما فيه، بعد أن يأخذَ الكبد والتعب مَأخَذَه.

ثم توعَّد سبحانه الإنسانَ ناظراً إلى هؤلاء الأشقياء العُصاة منه، الذين نال من كيدهم ﷺ ما نال، فقال: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ فالضمير يعود إلى الإنسان، باعتبار تحقُّـق هذا الحُسبان في بعض أفراده الأشقياء العُصاة الذين منهم عصاة مكة، فهو تَقْريعٌ لهم واستِجْهالٌ وتهديد، إذ كيف لا تملك ناصيته تلك القدرة التي أبدعته وأنشأته.

ثم أجرى الكلام على الإنسان بالنظر إلى المُتبجِّحين منه بالبذل لمجرَّد الشهرة والفخر، ومنهم كبراء مكة، فقال: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا[1] ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ قال المفسِّرون: هذا ما كان ينفقه أهلُ الجاهلية فيما يُسمُّون‌ه الكرم، ويعدُّونه من مكارم الأخلاق، ويفاخرون به، ينكر سبحانه ذلك عليهم لأنه لم يكن لوجه الله، ولكنه للسمعة والرياء.

وقال الأستاذ الإمام: هذا الصنف من الإنسان هم الأغنياء البخلاء المراؤون الذين ينفقون أموالهم في سبيل أُبَّهتهم وسمعتهم المزيَّفة ينفقونها ما بين الأثاث والرِّئيا، طلباً للشهرة الكاذبة، ثم إذ طُلِبَ منهم الاشتراك في عمل من أعمال الخير، قالو: إننا نحتاج إلى مصاريف كثيرة في أعمال غير الذي تدعونا إليه. أيظنُّ هؤلاء المغرورون أنَّ سرائرهم تَخْفى على المُتصرِّف في ضمائرهم؟

---

(١) ﴿لُّبَدًا﴾: أصلُه الشيء المتلبِّد بعضُه على بعض. و«لُبَد»: جمع لُبَدَة، وهي ما كثر واجتمع وتلبَّد. والمراد به هنا: كثيراً. يقول ذلك إظهاراً للتفاخر بكثرة المال والإنفاق.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

وقد أنكر سبحانه على هؤلاء الشقاة العُصاة من أفراد هذا الإنسان مُؤنِّباً فيهم الإنسان كلَّه، على مثل هذه النظرات الخاطئة الناتجة من الإعراض عن الدين، والتثقف بثقافته، رغم ما وهبه سبحانه له من مواهب جليلة، تُعينه على النهج الصحيح، والاتِّجاه القويم، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ يُشاهد فيهما كثيراً من آثار الله الدالَّة على ألوهيَّته واستحقاقه لأن يُعْبَدَ وحده، ﴿وَلِسَانًا﴾ هو مَظهَر البيان والعقل والإدراك، ﴿وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ تُساعدان اللسان في النطق؛ لينطق بالقول الحقّ والعقيدة الصدق، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ أي: طبعناه على معرفة طريقَي الخير والشَّر، وعبَّر عنهما بالنَّجْدَين للإشارة إلى وضوحهما أمامه بصُورةٍ لا تَخْفىٰ عليه؛ لأنَّ النَّجْد ما ارتفع من الأرض، والمراد: أنَّ الله سبحانه خَلَقَ له من المواهب الصحيحة ما يُميِّز بها هذين الطريقين الواضحين، فله ما يختار، وليس على الله حُجَّة إذا اختار الإنسان طريق الشرِّ بعد ذلك.

وتفصيل الأمر: أنَّ الله سبحانه خلق الإنسان ذا عقلٍ يَتصرَّف في أنواع شعوره، وفكرٍ يجولُ في طرق حاجاته البدنيَّة والنفسيَّة، وجعل ارتقاءَه في إدراكه وتفكيره كسبياً، بحسب التربية التي تُحيطُ به، والتعليم الذي يَتلقَّاه، وتأثير حوادث الزمان والمكان، والأسوة والتجارب، وعَرَضَ أمامَه هداية الدين بالآثار المرئية في هذا الكون، والرُّسُل المرسَلة بهدايته تعالى، بعد أن طبعه على الميل إليها، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

وبهذا الـجَعْل وبهذا التَّبيين والهداية، ظَهَر مَوْضع الإنكار على الإنسان الذي أنكره عليه بقوله: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾[1] التي تعترضُه في سبيل النجاة والوصول إلى السعادة.

وفي الكلام حذفٌ واكتفاء، على نهج القرآن، والمراد: ألم نجعل له ذلك ليقتحم العقبة، وهي الهوى الذي يضلُّ عن سبيل الله. وإنما فسَّرها باللازم ذاكراً شيئاً منها؛ ليردَّ بذلك على هذا القائل، أي: ليس إنفاقك مَرضياً عند الله، ولكنَّ المرضيَّ عنده هو هذا الإنفاق الصَّادر عن إيمان وإخلاص، فبمثل ذلك تُقتَحَمُ العقبة.

والعقبة: الطريقُ الوعر في الجبل، فبينها وبين النَّجْدين مناسبة، وقد استعارها للطريق التي يَصْعب سلوكها، إلى حيثُ تُنال السعادة في الدنيا والأخرى، وإنما كانت صعبة السلوك لُمعارَضة الهوى، ومُغالَبة الشهوة لسالكها.

ثم فسَّرها سبحانه بالسبب المُساعِد على الاقتحام، وهو هذه الشريعة وتعاليمها الهادية إلى سواء السبيل، وألمع إلى ذلك بصورة من طبيعة هذه الشريعة، وذكر شيءٍ من عناصرها، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ[2] ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ أي: عِتقُها أو المعاونةُ عليها، وهذا يُؤْذِنُ إلى ما في الإسلام من مَيْلٍ عظيم إلى الحرية، وجَفْوتِهِ للأسر والعبودية، لولا العلة الضرورية.

---

(١) إنما عبَّر بالماضي في ﴿اقْتَحَمَ﴾، للإيذان بأنَّ ذلك قد وقع من نوع الإنسان منذ نشأته، وأن الحيوانيَّة غلبته فصرفته إلى سبيل غير التي كان يقوده إليها عقله، إلا مَنْ هدى الله. وفي ﴿الْعَقَبَةُ﴾ ترشيح لـ﴿النَّجْدَيْنِ﴾؛ لأنها إنما تكون في أعالي الجبال. (المؤلف).

(٢) أي: فلا فَعَلَ ما أمره الله به، فاقتحم عَقبةَ نفسِه، وما يشقُّ عليها من مَكَاره، ولا ترك ما نهاه الله عنه، فأحجمَ عن اتِّباع أهوائه وشهواته. وأيُّ شيءٍ أعلمك: ما مقْدار ثواب اقْتحام العَقَبة عند الله، وما يُعينُ على تَجاوُزها؟

ثم تابع التفسير والإلماع بقوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤﴾ أي: ذي مَجاعةٍ عظيمة، ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥﴾ منه بالنَّسَب، ﴿أَوْ مِسْكِينًا[1] ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾[2] أي: فَقْر مُدْقع. وإنما خصَّ بالذِّكر هذَيْن الصنفين من بين الفضائل، ليردَّ بهما على ذلك القائل، أي: إنَّ هذا هو المقبول عند الله، لا إهلاكَ المالِ اللُّبَدِ في سبيل التباهي والتفاخر برخيصِ المحامِدِ والمظاهر.

ثم تابع التفسير والبيان للعقبة بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾[3] فأنكر على هذا الإنسان عدمَ اقتحامه لهذه العقبة التي خُلِقَ على هذه الصورة لاقتحامها، وأشار إلى أنَّ الإيمان أساس لها، وبيَّن ما كان يجب أن يكون بنتيجة ما وهبه الله له من العقل السليم والهداية الرشيدة.

ثم سجَّل للصنف المتمسِّك بطبيعة هذه الشريعة والقائم بهذا الواجب بقوله:

---

(١) محتاجاً لا يتعرَّض لسؤال الناس ولا يُعرف بشدّة فقره.

(٢) ﴿مَتْرَبَةٍ﴾: «المتربة»: مصدر لفعل تَرِب ـ بفتح فكسر ـ أي: افتقر، وأصلُه من قولهم: ترِب الرجل، أي: التصق بدنُه بالتراب، أما «أترب» فمعناه: استغنى، أي: صارَ ذا مال كالترابِ في الكثرة.

(٣) ﴿ثُمَّ كَانَ﴾: «ثم»: حرفٌ أريد به هنا الترقي في ذِكر الرُّتَب، فالمعنى: ثمَّ كان قبل كلِّ ما تقدَّم مؤمناً.

أرشدت هذه الآية إلى لزوم تتبُّع الخطوات الفكريَّة للتكاليف الدينيَّة، التي يحتاج الالتزامَ بتعليماتها إلى اقتحام عقبة النفس، وهذه الخطوات ينتقل المتتبِّع فيها ضمن فروع شجرة الإسلام من فرع إلى فرع، حتى يصلَ إلى سوقها، ثم إلى جذرها الذي تتمدَّد أجزاؤه وعناصره الإيمانية داخل عُمْق الفؤاد.

وأرشدت الآية أيضاً إلى أن اقتحام عقبة النفس، بأداء التكاليف والكفّ عن المحرمات لا بدَّ أن يكونا مَسْبوقَيْن بقيام جماعة مؤمنة، تتلاقى على وحدة إيمانيَّة، يتواصى أفرادها بالصبر وبالمرحمة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨﴾، فاسم الإشارة يعود إلى القِسم المُثبَت المتَّصف بهذه الصفات الذي تضمَّنه الكلام. وأصحاب المَيْمَنة: هم الذين بيَّن حالهم في سورة الواقعة[1].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩﴾ يعود إلى القِسم المنفيِّ الذي تضمَّنه الكلام أيضاً، وهو الذي لم يتَّصف بهذه الصفات. وأصحاب المَشْأمة: هم الذين بيَّن حالهم في سورة الواقعة أيضاً[2]. وقد زادهم وعيداً بالتسجيل عليهم بقوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾ أي: مُغْلَقةٌ أبوابُها عليهم، وهذا تمثيلٌ لإفادة التهويل[3]. والله أعلم.

* * *

---

(١) في الآيات ٢٧ - ٤٠.

(٢) في الآيات ٤١ - ٥٦.

(٣) بل هو حقيقة، فقد وصف الله تعالى النار بأن ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]، وقال أيضاً: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ...﴾ [الزمر: ٤١]، وهذا يقتضي إثبات أبواب لجهنم حقيقةً، لكنْ على وجه لا ندري كيفيته، لأنه من عالم الغيب، ثم إن فَتْحَ هذه الأبواب وإغلاقها أمرٌ ثابت على وجه الحقيقة أيضاً تبعاً لإثبات الأبواب على هذا الوجه، من غير علم بكيفيَّة ذلك أيضاً.

سُورَةُ الشَّمْسِ

مكيَّة، وهي خمس عشرة آية

والغرض منها:

بيان أن الله سبحانه سَوَّى النفس تسويةً صحيحةً، وجَعَلها مستعدَّةً للكمال وفعل الخير والهداية للرشاد، ما لم يعبث بها سوء التربية وفساد المعاشرين، فإذا عبث بها ساءت واستحقَّت عذاب الدنيا والآخرة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤)
وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)
قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾.

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١)﴾[1] أي: وضوئها، ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢)﴾ وذلك في الليالي

---

(١) يقدِّر علماء الفلك في العصر الحاضر المسافة بين الأرض والشمس بثلاثة وتسعين مليون ميل، فإذا فرض أنَّ جِرماً يصعد إليها بسرعة ستين ميلاً في الساعة ليل نهار دون أن يقف، فإنه يقتضي لوصوله إليها مئة وخمساً وسبعين سنة. وهذا البُعد العظيم بالنسبة إلى متوسط أبعاد النجوم، كنسبة واحد إلى ملايين الملايين، جلَّت قدرة العليِّ القَدْر. ويصل ضوء الشمس إلينا بثمان دقائق بعد أن ينفصل منها، أما النجوم فأبعادها لا تقدَّر، إذ أقرب نجمٍ إلينا يصل ضوؤه بعد أربع سنين ونصف، وأبعدها لم يصل ضوؤه إلينا منذ خلق إلى الآن، وبعضها لا يصل ضوؤه إلينا حتى تقوم الساعة وتتحطم الأكوان، فجلَّ مَن هذا صنيعُه. وهذا الكون كلُّه بسائر حدوده وأطرافه بالنسبة إلى سَعَة الفضاء كنسبة تفاحة إلى قبة السماء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وأن لا خالق لهذا الكون سواه، وإنَّ الشرك لظلم عظيم فيه تسوية الضعيف المهين التافه بهذا الإله العظيم القادر، فهو ناتج عن جَهَالةٍ عمياء، وفكر لا يفقه الأشياء.

هذا وإن امتداد الكون في الزمان لا يقلُّ عن مثل ما ذكر من مقدار امتداده في المكان، وقد كان سبحانه ولا فضاء ولا زمان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، فهو المنزَّه عن الأعراض والأحداث والزمان والمكان. (المؤلف).

البيض من الليلة الرابعة عشرة إلى السادسة عشرة منه، أو العشر الأواسط كلها التي جاء ذِكرُها في سورة الفجر، ففي هذه الليالي يخلف القمرُ الشمسَ بالإضاءة، وهو على أكمل ما يكون من الرَّوْعة والبهاء.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ أي: أظهَرَها؛ لأنَّ النهار هو الذي يُجلِّي الشمس ويُظهِرُها.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ أي: يُخفي ضوءَها، حيثُ يَحجُبُ نِصفُ الأرض المقابلُ للشمس النِّصفَ الآخر، فيكون الزمن ليلاً فيه.

يُقسِمُ سبحانه بهذه الأمور للإشارة إلى تعظيم أمر الضياء وإعظام قَدْر النعمة فيه، ولإلفات أذهاننا إلى أنه من آيات الله الكبرى ونِعَمِه العظمى، فإنَّ الله سبحانه يُقسِمُ بما يشاء من خلقه، تنبيهاً على ما فيه من قدرة الله العظيمة وحكمته البالغة، وإلى ما فيه من النفع لهذا الإنسان بالمباشرة أو بالواسطة. وفيه إشارة إلى أنَّ إبداعه في الشريعة كإبداعه في تخليقه. وتُسمَّى هذه الأقسام بالأقسام الاستدلالية.

ثم تابع القَسَمَ بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ فذكر العامَّ بعد الخاصِّ؛ لأن السماء اسمٌ لِـمَا عَلَا من هذا الكون الذي فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجري في مجاريها، وتتحرَّك في مداراتها، وكل كوكب بمنزلة لَبِنةٍ من بناء سقف مُحكَم مُتْقَن شُدَّ بعضه إلى بعض برباط الجاذبية العامة، كما تُربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تتماسك به.

وإنما أُوثرت كلمة ﴿مَا﴾ على «مَنْ» لإرادة معنى الوصفيَّة[1]، وكذلك فيما يأتي

---

(١) ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي: ومَنْ بناها، وهو الله سبحانه وتعالى. والعرب تعبِّر بـ(ما) عن الذات المصاحبة لوصفٍ عظيم يستلفت النظر. والمعنى: وحقِّ القادر العظيم الذي بنى السماءَ دالةً على وحدانيَّته وكمالِ قدرته.

من قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴿٦﴾﴾[١] أي: وطَّأها للسَّيْر والعمل، ولم يجعلها كلَّها جبالاً وَعِرةً غيرَ قابلة السلوك والانتفاع بها، فأقسَمَ سبحانه بهذه الآيات الآفاقية الكونية العلوية والسفلية مشيراً إلى ما فيها من نِعَمٍ عُظمى وآيات كبرى وإتقان بديع وقدرة باهرة، فكيف يجعل الإنسان دون ذلك؟

ثم عَطَفَ عليها عَطْفَ المقارنةِ والمساواةِ آيةً من الآيات النفسيَّة التي لها دَخْلٌ في الموضوع والبيان، وأدخَلَها في المُقسَم به لذلك الشأن، فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴿٧﴾﴾[٢] للإشارة إلى أنَّ الله سبحانه قد أحكم صُنْعَ هذه النفس في استعدادها للإعراض عن الفجور والتلبُّس بالتقوى، كما أحكم صُنْعَ هذه الآيات الكونية، فلم يكن في هذه النفس نقصٌ أبداً ولا توريط، بل هي تامَّة الاستعداد للكمال، ولكن الله سبحانه وتعالى إذْ أعدَّها إلى مقامات عالية من الكمال يَقصُرُ التَّصوُّر عن إدراكها، متّعها بخاصّتَي الاختبار والإرادة، وأراها طريقي الاعتدال والانحراف، بالفطرة والوحي ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴿٨﴾﴾، ومن ذلك أن جَعَلَ في غريزتها التمييزَ بين الحق والباطل، والضارِّ والنافع، والحسن والسيِّئ، والأخلاقي وغير الأخلاقي، ما لم تفسد تلك الغريزة بمفاسد التربية وسُوء القدوة، فهي تشعر بشرف العدل والإحسان والصدق

---

(١) الطحو: هو قذف الشيء من مقرِّه مع مدِّه وبسطه، فيجوز أن يكون فيه إشارة إلى صورة انفصالها من الشمس، إذ إنه كانت قطعة منها، والله أعلم. (المؤلف).

(٢) (ما) في الآيات الثلاث ٥ و٦ و٧ مصدريَّة أو بمعنى «مَن». والمصدريَّة أَوْلى؛ لأنَّ القَسَم هو لعجائب الخلق والتكوين، أي: أُقسم بالسماءِ وببنائِها العظيم العجيب، وبالأرض وبَسْطها وكُرويَّتها ودورانها حول نفسِها، ودورانها في مدارٍ حول الشمس، وبكلِّ نفس مُـمْتَحَنة مُكلَّفة من الجنِّ والإنس، وما فيها من إبداع الخالق في تَسْويتها، بجعلها كاملة الصِّفات التي تُؤهِّلها لأداء وظيفتها في الحياة.

والأمانة ولين الجانب، إلى أمثال ذلك، وبحطَّة أضدادها، وتُسمَّى هذه الغريزة بالوجدان، ويُسمَّى الفهم بها بالمنطق الوجداني.

وقد جعل موازنتها بيد صاحِبها، فإن اعتدل صاحبُها واتَّبع في نموِّها قانونَ الحكمة الإلهية؛ نال بها غايتَي الكمال المادي والأدبي والسعادة في الدنيا والأخرى. وإن انحرَفَ وارتطم في أوحال النَّقص، وسقط إلى دَرَكات الانحطاط والسِّفال؛ نال الجزاءَ الأدنى في الدنيا والجزاء الأكبر في الأخرى. وهذا هو المقصود بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ واتَّبع قانون الحكمة الإلهيَّة في نموِّها، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[(1)] أي: أفسَدَها وسَفَّلها بالانحراف عن ذلك القانون والارتطام في مواحل الانحطاط والنقصان، واتِّباع طرق الشيطان، وشهوات الإنسان، والميل بها إلى عالم الحيوان.

فالمراد بالتزكية: إنماءُ ما بها من استعداد صحيح للخير والتَّجنُّب عن الشر، على ضوء الشريعة الغرَّاء المنطبقة على السنن الكونيَّة والواقع. وأراد بالتَّدْسية: إفساد هذا الاستعداد، والارتطام بالشر، واستعمال مواهبها له. فهذه النفس مثل حبّة البُرِّ، تُخرِجُ نباتَها ما لم تَعفَنْ ولم يُفسِدها السُّوس، فإذا عَفِنَت أو أفسدها السُّوس لا تخرج النبات[(2)].

---

(١) قال أفلاطون: في الإنسان طبائع أربع: العقل، والهوى، والشهوة، والعفَّة. فالعقل يعاتب الهوى، والهوى يقاتل العقل، والعفَّة تعاتب الشهوة، والشهوة تقاتل العفَّة، والإنسان مُسلَّط على مشيئه. اهـ. فمن عمل خيراً كوفئ عليه، ومن عمل شراً جُوزي به، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، والآية في مفهومها شبيهة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧]، وتنبئ بأن في النفس ينابيع صافية من الخير، ولها استعداد للشر، يظهر بإفساد فطرتها والتحول بها عن نهجها الطبيعي. (المؤلف).

(٢) إن هذه الخلقة للنفس تشبه حالة سائر المخلوقات، لا فرق بينهما، فالله سبحانه خلق الحديد والخشب والطين مثلاً مستعدة لأن يكون منها أشرف الأدوات وأميزها، وأن يكون منها =

وفي الآية تصريحٌ بأنَّ الإنسان مُخيَّر في أعماله، مُطلَقُ التصرُّف بها، غيرُ مجبور ولا مقسور، وهناك برهانٌ عقليٌّ جاهرٌ بهذا الاختيار، وهو إجماع الأمم ـ مع اختلاف مذاهبها ومآربها ـ على فائدة التربية والتهذيب، وسعيها لذلك بالفعل. فهو اعترافٌ في أنَّ الإنسان مُخيَّر غير مجبور، وأنه ابن التربية والتدريب.

قال الإمام الغزالي في التمثيل لاستعداد النفس للخير والشر: هي كالنواة، فإنها ليست تفاحاً ولا نخلاً، ولكنَّها قابلة أن تصير ذلك بالتربية والتعهُّد، إذا اتُّبع فيها قانون الحكمة الإلهية، حتى تُـفْرِغَ كلَّ استعدادها في الكمـال، وإذا لم يتَّبع فيها ذلك فسدت وبارت(١).

أقول: وقد ذكرنا غيرَ مرَّة: إنَّ الله سبحانه قد خلق للإنسان عقلاً يتصرَّف في أنواع شعوره، وفكراً يَتَجوَّل في طرق حاجاته البدنية والنفسية، وجَعَل ارتقاءه وانحطاطه في إدراكه وأفكاره كسبياً، حسب التربية التي تحيط به، والتعليم الذي يتلقَّاه، والبيئة التي يعيش فيها، وتأثير حوادث الزمان وما يُصادِفُه منها. وقد عَرَض هداية الدين أمامه عرضاً؛ بالآثار المرئية في هذا الكون، وبالرسل المرسَلة بهداية الله إليه، فـ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ

= أخسُّ الأدوات وأحطها، وذلك حسب صنع الصانع وإرادته وصفة تصرُّفه، وكذلك إذا صنع صانعان نوعاً واحداً، يمتاز صُنع كلِّ صانع بنسبة مهارته وحُسن صنعته وقُبحها، وعلمه وجهله فيها. وهكذا حال الشجر والنبات وغيرها من المخلوقات، تمتاز وتنحطُّ بامتياز التربية وحطّتها، وبدرجة ما ينالها من العناية أو الإهمال، فلا فرق بين هذه النفس وبين سائر مخلوقات الله في ذلك ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ [الملك: ٣]، مخلوقة كلها في كمال الاستعداد ونهاية الصَّلاح بالقوة، ولكن يعود صلاح النفس بالفعل أو فسادها كذلك؛ لصنع صاحبها بها، وما كسبت فيها يَدَاه، فـ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]. (المؤلف).

(١) «إحياء علوم الدين» (٣: ٥٦).

حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]، حتى الفقر والمرض والجبن والكسل وغير ذلك من الأسواء.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

وبعد أن أقسم بتلك الآيات الكونيَّة والنفسيَّة وما فيها من عَظَمة وإتقان، وألمع إلى ما يستلزم ذلك من الغاية النبيلة والنهاية الخطيرة للإنسان؛ جعل التعقيب لذلك القَسَم تهديدَ المكذِّبين من قريش بما جرى على أمثالهم من الأمم الماضية، وأقامه مقام جواب القَسَم، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ فالكلام عَرَض لوحةً لِـمَا جرى على المُدَسِّين لأنفسهم، والتقدير: ليَنزِلنَّ بالمكذِّبين مِثلُ ما نَزَل بثمود إذ كذّبت نبيَّها.

وثمودُ: قوم من العرب البائدة بعث الله إليهم نبياً، وهو صالح عليه السلام، وكانوا قد اقترحوا عليه آيةً على صدقه، وهي هذه الناقة المخلوقة بطريقة غريبة، والتي جعل الله لها شِرباً تـختصُّ به، ولهم شِربٌ يَـخْتصُّون به في يوم معلوم، وأن تأكل في أرض الله لا يمسُّها أحدٌ بسوء، فإذا مسُّوها بسُوء أخذهم العذاب؛ لأن الله سبحانه قد أجرى سُنَنَه في الأمم إذا اقترحوا على نبيِّهم آيةً فأعطاهم الله إيَّاها، ثم لم يؤمنوا بها؛ أن يستأصلهم بعذاب.

والطَّغوى: من الطغيان، كالدَّعْوى من الدعاء، والسَّلْوى من السلوان، أي أنّ طغيانها هو الذي جَعَلها تُـكذِّب نبيَّها، وهو الذي بعث شقيَّها فعَـقَر الناقة، كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ أي: أشقى القبيلة.

وأطلقت الآيةُ عليه هذا اللقبَ؛ لأنه المُباشِرُ لعقرها بعد أن كذَّبوا نبيَّهم وكذَّبوا هذه الآية التي طلبوها، ولـمّا رضوا بفعله أو أغرَوْهُ عليه نُسِبَ العقر إليهم جميعاً، وقد حكى ذلك عنهم بقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وهو صالحٌ عليه السلام: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ والنَّـصْب على الإغراء أو التحذير، أي: احفظوا أو احذروا ناقةَ الله وسُقْياها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في وعيده هذا، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قال ﷺ: «انبعث لـهم رجل عزيز عارم منيع في رهطه فعقرها»[١].

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ أي: أطبق عليـهم العذاب، فسوَّى القبيلة في العقوبة، فلم يفلت منهم أحد. وقيل: الدمدمة: التدمير. والمعنى: دمَّر مساكنَهم وسوَّاها بالأرض بما فيها السكان، وهي القبيلة عن آخرها، ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ وهذه جملة تهكُّمية مُستعارة من حال المُخاطَبين، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة)، أي: إنَّ الله في عزَّته وجبروته أهلك هؤلاء المكذِّبين، ولا يخاف عاقبةَ إهلاكهم.

أقول: والأنسب بالسياق طباقاً لِـمَا في سورة ﴿وَٱلَّيْلِ﴾: أن يكون قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠] جواباً للقَسَم، كما ذهب إلى ذلك المحقِّقون.

ووَجْهُ المناسبة بين المُقسَم والمُقسَم عليه: كَوْنُ مخلوقات الله سبحانه كلِّها مُتقَنةَ الصُّنع، قائمةً بأماناتها التي كُلِّفت بها، صالحةً مُنْتجةً للخير والنفع، وكذلك هذه النفس الـمُلْهَمة للأمرين، إلا أنَّها مُختارة، فإنْ صَرَفها صاحبُها نحو ما خُلِقَت له من الكمال،

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥)، عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه.

وزَكَّاها بصحيح الأقوال وصالح الأفعال؛ أفلَحَ ونال سعادة الدارين. وإنْ أساءَ التَّصرُّف بها ودَسَّاها بباطل الأقوال وفاسد الأفعال، وغلبته شهوته وهواه؛ خابَ وشقيَ في الحياتين. ففسادُها وخسرانُها من سُوء تصرُّف صاحبها بها لا من ذاتها. وعلى كلٍّ، يكون قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ استشهاداً على إفساد الإنسان لنفسه، وخَيْبته من جرَّاء ذلك وخُسْرانه.

❊ ❊ ❊

سُورَةُ اللَّيْلِ

مكيَّة، وهي عشرون آية

والغرض منها:

الوعد بالسعادة الحُسْنى لمن حافظ على سلامة طبيعته، وصَرَفها فيما خُلِقت له من الخير والكمال، وتمسَّك بما يهديه الله إليه على لسان رسله.

والوعيد لمن أفسد طبيعته بمفاسد التربية وسُوء العشرة، وخَرَج بها عما خلقها الله عليه من الاعتدال، والاستعداد للخير والكمال، وأعرض عن هداية الله إيَّاه لحسن الفعال.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١﴾.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾[(١)] فيه إشارةٌ إلى عُروض الظلمة لأصل النُّور الذي هو أكمل مظاهر الوجود، ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ وظهر بزوال ظلمة الليل، يُقسِمُ سبحانه بهما لِـمَا فيهما من بدائع الصنع وحكمة الوضع وإتقانه. وكذلك قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾[(٢)]، وإنما أُوثرت كلمةُ (ما) دون (مَنْ) لإرادة معنى الوصفيَّة.

قال الأستاذ الإمام: وإنما أقسَمَ بذاته بهذا العنوان، لِـمَا فيه من الإشعار بصفة العلم المحيط بدقائق المادة وما فيها، ومن الإشارة إلى الإبداع في الصُّنع ودقَّة التقدير؛

---

(١) الليل عَرَضٌ خاص يتأتَّى بعد أفول الشمس في ناحية، لأنَّ الليل هو احتجاب الشمس عن نصف الأرض بنصفها الآخر، لأن الضياء إذا أشرق على جسم كرويّ بعيد يضيئ نصفه، لا أقل ولا أكثر. (المؤلف).

(٢) ارجع إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ في آخر سورة القيامة [الآية: ٣٧]. (المؤلف).

إذ لا يُعقَلُ أن هذا التخالف يكون بمَحْض الاتفاق، وإنما هو النظام الدقيق في المادة بصنع الله تعالى.

وجواب القَسَم(١) قولُه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾(٢)؛ منه الصالح ومنه الفاسد.

ووَجْهُ المناسبة بين المُقْسَم به والمُقسَم عليه: أنه كما اقتضت حكمتُه تعالى أن تختلف المظاهر الكونيَّة في هذه الأمور، اقتضت حكمتُه أن يكون الإنسان مُختاراً في أعماله، يصدر عنه الخير والشر بصنعه واختياره، وكما أنَّ نظام الليل والنهار والخلق مُتْقَن الصُّنع مُحكَمُه، فكذلك الإنسان مُتْقَن الصُّنع في الاستعداد والانصراف للخير ما لم يُفسِد ذلك الاستعداد بصُنعه فيصرفه للشر، فالآية تفيد ما يفيده قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨]، وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، كلُّها في غرض واحد، إلا أن كلَّ واحدة تشير إلى صفحة من صفحات المعنى.

وهذه الآية تشير إلى أنَّ صدور الأفعال من الإنسان ينبعث بالاختيار عن ذلك الاستعداد، فلا يَخْلو: إما أن يكون قد بقي سالماً صحيحاً، فينبعث عنه السَّعيُ للخير

---

(١) يجوز أن يكون جواب القسم محذوفاً، على نهج القرآن. وتقديره: لتبعثنَّ وتحاسبنَّ، ثم استأنف الكلام لبيان الناجي من غير الناجي، وأنَّ ذلك مبنيٌّ على الأعمال. (المؤلف).

(٢) وجه المناسبة بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه: أنَّ خلْقَكُم مُتْقَن الصُّنع مُستَوْفٍ لسائر أسباب الصلاح وإدراك الحق وموجبات الفلاح، كخلق هذه الأكوان المحكمة الصنع والتدبير التي أقسم بها ولفت نظرنا إليها، فللّه الحجة البالغة، ولكن سعي الإنسان شتّى، حسب اختياره المُطلَق بالنسبة لنشأته وتكون سيرته؛ فمنه مَنْ زكّى نفسه ووجَّهها توجيهاً صحيحاً كما جاءته رُسُل الله، ومنه من دسَّى نفسه وسار بها نحو الضلال مُعْرِضاً عما جاء به الرسل من تعليمات وتوجيهات، أو مُحرِّفاً لها، ففرَّع على الحالين نتائج كلٍّ منهما، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾، فالآية على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧]، تتَّحد معها في الهدف والمراد. (المؤلف).

والصلاح، وإما أن يكون قد انحرف وفَسَد بما عَرَض له أثناء نموِّه من التربية الفاسدة وتأثير حوادث الزمان والمكان، فينبعث عنه السَّعي للشرِّ والفساد.

ويجوز أن يكون بين الخلق في الرَّحِم الواحد ذكراً وأُنثى وبين شتَّى السعي مناسبةٌ أدقُّ من الأولى؛ إذ كما أنَّ النطفة مخلوقة على أن تكون مُستعدَّة لأن تصيرَ ذكراً إذا صادفها وَضْعٌ خاصٌّ في الرَّحِم، أو تصيرَ أُنثى إذا صادفها وَضْعٌ خاصٌّ آخر، كذلك الإنسان مُسْتَعدٌّ لأن يكون صالحاً خيِّراً إذا صادفه وَضْعٌ خاصٌّ في تنشئته، وهو التربية الحسنة على قواعد الدين وسُنن الكون، ولأن يكون فاسداً شريراً إذا صادفه وَضْعٌ آخرُ في تنشئته، وهو التربية السيِّئة على خلاف قواعد الدين الصحيح وسنن الكون، ذينك العنصرَيْن اللذَيْن يُساعدانه فيما خُلِقَ له من الكمال. والله أعلم. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤ - ٥].

ولا يَبعُدُ قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٨ - ١٠]؛ حيث فيه تصريحٌ أيضاً بأن الإنسان مُخيَّر في أعماله، مُطلقُ التصرُّف بها، غير مجبور ولا مَقْسور، فإن تصدَّى للخير ناله، وإن تصدَّى للشر ناله.

وقد فصَّل ذلك ببعض صُوره أو بإقامة اللازم مقام الملزوم، على نهج القرآن في مثله، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ لسلامة استعداده، وهذه هي صفة المؤمن.

والحُسْنى: هي هداية الله التشريعيَّة التي أنزلها الله على الناس بواسطة رسله، ومنها الفضائل، والتصديق والإيمان بها يستلزم بذلَ المال واتِّقاءَ مفاسد الأعمال، فهما ثمرتان لهذا التصديق، ودليلٌ واضحٌ على تحقُّقه، ومن كان كذلك ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ أي: للأعمال الصَّالحة. وإنما كانت هذه الخطة هي اليُسْرى؛ لانطباع الطبيعة عليها، ما لم يُفسِدها صاحبها.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ لفساد استعداده الطبيعي، بما عَرَض له من سُوء التربية وتأثير حوادث البيئة وعوائدها وأنظمتها الفاسدة، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ وهي الخطّة المخالفة للغريزة من الشر والفساد، تلك هي سُنَّة الله تعالى في طبائع الإنسان وأخلاقه، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

قال الأستاذ الإمام ما مُحصَّله: البخيل: هو الذي لا يبذل مالَه في سبيل الخير، وإنْ أنفق جميعَ ماله في لـذّاته ولذات أمثـاله. ومعنى ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾: عدّ نفسه غنياً عن الناس بما لديه من المال، ولا يحسُّ بأنه عضوٌ من جماعتهم، فيُنفق من ماله فيما يعود بالمنفعة عليهم، ولا يُبالي بما يُصيبهم من فساد أو سلامة. ومعنى ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾: كذَّب بالفضيلة وبأنه أصلُ الإنسانية وركنٌ من أركان وجودها، فلا يعرف إلا ما يلذّ له ويهوى. والبخلُ والاستـغناءُ عن الناس بهذا المعنى: دليلٌ واضحٌ على التكذيب بالفضائل، وإفساد الاستعداد لها. ولذلك عَطَفَه عليها وقدّمها عليه.

ويدخل في الـمُكذِّبين بالحُسْنى: أُولئك الذين لا يظهر أثرُها في أعمالهم، ومن كانت هذه حاله فقد مَرَنت نفسُه على الشر، وتعوَّدت على الـخُبْث، واستَشْرى فيها الفساد، فيُسَهِّل الله له ـ حسب ما جَرَت به سُنَّته سبحانه ـ تلك الخطَّة العُسْرى، وهي الخطَّة التي يَتَردَّى بها إلى حضيض البهيمة، ويرتطم في أوحال الخطيئة وأدرانها.

وقد توعَّده بقوله: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾، ويجوز أن تكون كلمة ﴿مَا﴾ نافية، أي: لا يُغْنيه ذلك، أو استفهامية للإنكار، أي: ماذا يُغني مالُه إذا تردَّى وهلك في مغبَّات أعماله؟!

ثم قال: ولـمّا كان هنا موضع أن يقول قائل: كيف يخلقُ الله الناس ويَكِلُهم إلى أهوائهم، ثم يعاقبُهم على ما تجرُّهم إليه؟! أو أن يقول: إذا كان اللهُ هو واهب تلك

القوى والآلات البدنية، فكلُّ ما كان من متناولـها وانساقت إليه، فهي مُسَيَّـرة إليه بمقتضى غريزتها، فكيف يُؤاخذ الله على فعل فاعل أطلق الله له الإرادة في عمله وأعطاه القدرة عليها؟! لما كان ذلك مما يقال في جميع الأزمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أي: إننا خلقنا الإنسان، وجعلنا من جوهر إنسانيّته العقلَ والاختيار، وألهمناه التمييزَ بالعقل بين الحقِّ والباطل، وبين الخير والشر، ثم بعثنا له رُسلاً من كَمَلَة أفراده، وشَرَعنا لهم الأحكام، وبيَّنا لهم العقائد، تعليماً للإنسان وإرشاداً، فهذا هو ما يقتضيه خَلْقُ الإنسان من حيث هو إنسان، ثم بعد ذلك هو مختار؛ فإما أن يسلك مَسلَكَ الخير فيَسْلَم، وإما أن يذهب مذهبَ الشر فيعطب ويشقى.

ومُلَخَّص المعنى: إننا خلقنا الإنسان مُسْتعدّاً للهداية، ما لم يُفسِد ذلك الاستعداد برَداءة التربية وسُوءِ القدوة والتقليد، وأرسلنا إليه الرسل بالتعاليم المُرشِدة إلى الطريق المستقيم. وهذه هي الـحُجَّة البالغة لله سبحانه على عباده، إنْ أفسدوا استعدادهم، وأعرضُوا عمَّـا أرسله إليهم ربهم من التعاليم، وسَلَكوا سبيلَ الضلال، فاللهُ سبحانه قد جَعَل الهداية إلى الصِّراط المستقيم معروضةً أمام البشر، إنْ شاءَ أخذَ بها، وإنْ شاءَ أعرَضَ عنها، كمـا شأنُه في الأخذ بسائر أنواع الاستفادة من منافع الكون، بحريَّـته واختياره.

ثم تمَّم سبحانه هذا البيان بقوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي: نحن المالكون للحياتين، والمالك للأمر عالمٌ بوجوه التَّصرُّف فيه، فما مكَّنك منه بهداه، وأرشدك إليه من ذلك، فلا تَحِدْ عنه فتشقى.

وقد أشار بذلك إلى ما نظّمه من العلاقة بين الدنيا والآخرة سعادةً وشقاء، ولهذا رتَّب على قولِه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾، قولَه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا

تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ أي: لِرَحمتِنا بكم وعِلمِنا الكامل بمصالحكم أسْدَينا إليكم هذا الهدى لِنُنذِرَكُم ناراً تتلهَّب.

قال الأستاذ الإمام: وهي نار يجب علينا الإيمان بها، ولكنْ لا ينبغي لنا البحث عن حقيقتها، لأنها من أمور الآخرة التي استأثر الله بعلم حقائقها، وإنما هي عذابٌ أليمٌ لمن يَصْلاها، و﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى(١) ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي: لا يُعـذَّب فيها إلا الذي هو أشدُّ شقاء، وهو الذي كذَّب بالحق وأعرَضَ عنه، ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ وهو الذي يأتي بما يَقي النفسَ من سُوء العاقبة.

وقد ذكره بأفضل مزاياه، فقال: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ(٢) مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا(٣) ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ والمراد به: مَنْ يُنفِقُ ماله ويعطيه، لا مُقابَلةً لنعمةٍ عليه، ولا مُكافأةً على خدمةٍ له، أو إحسان معه، ولا رياءً ولا سُمْعة، وإنما يُنفق ماله ابتغاءَ وجْهِ الله سبحانه.

وقد أكَّد له الوعد العظيم مقروناً بلام القَسَم المُضْمَر، فقال: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي: لَسَوْفَ يعطيه عطاءً يُرضيه، ويُجازيه جَزاءً عظيماً حتى يرضى.

ويجوز أن يكون المعنى: فسوف يرضى الله عنه، ومَنْ رضي عنه فقد فاز، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

---

(١) هذا الحصر ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ مُؤوَّل مصروفٌ عن ظاهره، فلا ينفي دخول الفاسق النار، لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] يعني: أنَّ غيرَ الكافرينَ لا يُخلَّدون في النار. فيكون المرادُ بالآية هنا الصَّلْيُ المؤبَّد.

(٢) ﴿عِندَهُۥ﴾ أي: عندَ هذا الذي أعطى شيئاً من ماله للمحتاج.

(٣) ﴿إِلَّا﴾ حرف معناه هنا: «لكن».

سُورَةُ الضُّحَىٰ

مكيَّة، وهي إحدى عشرة آية

والغرض منها:

تثبيتُه ﷺ، وإيناسُه تجاه إبطاء الوحي عنه، وبيان أنَّ ذلك إعانةٌ له على التدرُّب عليه، وإراحةٌ له بالفترات أوَّلَ الأمر، حتى تقوى وتتدرَّب عليه نفسُه، وحينئذ يَتَتابع الوحي.

وقد أيَّد له أنَّ ذلك في مصلحته بما يعلمُه من عنايته به سبحانه منذ طفولته حتى الآن.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ
﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ
﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾ هو ضَـوْءُ الشمس في شباب النهار، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ أي: أظلم وسكن، ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ أي: ما تَرَكَكَ ربُّك وما أبغَضَك، وما أعرض عنك، ولكن أرجأك فترةً زال فيها الخوف من الـمَلَكِ وتبدَّل بالشوق.

قال الأستاذ الإمام: وقد اتَّفقت الروايات على أنَّ سبب النزول هو حصول فترة في توالي الوحي على النبيِّ ﷺ، فاشتدَّ شوقُه إليه، وكلُّ شوق يصحبُه قلق، وكلُّ قلق يشوبُه خوف، وهو ﷺ بشر يعلو به عن البشر الوحي.

وقد جاء في «الصحيح»: أنَّ النبيَّ ﷺ حزن لفترة الوحي حزناً شديداً[1]، فآتاه الله ما كان في شوق إليه وثبَّته بالوحي، وبشَّره أن تلك الفترة لم تكن عن تَرْك ولا عن قِلًى، وأقسَمَ له على ذلك، وأشار في القَسَم إلى أنَّ ما كان من سطوع الوحي على قلبه أول

(١) رواه البخاري (٦٩٨٢) من بلاغات الزهري، بلفظ: «... وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ، فيما بلغنا، حزناً غدا منه ...».

مرة هو بمنزلة الضُّحى، تقوى به الحياة، وتنمو به الناميات، وما عرض بعد ذلك من الفترة فهو بمنزلة الليل إذا سكن؛ لتستريحَ فيه القوى، وتستعدَّ فيه النفوس لِـمَا يستقبلها من العمل.

ومن المعلوم أنَّ النبيَّ ﷺ لاقى من الوحي شدَّةً في أول الأمر، حتى جاءَ خديجة رضي الله عنها ترجف بوادرُه[1]، كما هو معروف في حديث «الصحيحين»[2] وغيره، فكانت فترةُ الوحي لتثبيته ﷺ وتَقْوية نفسه على احتمال ما يَتَوالى منه، حتى تتمَّ به حكمة الله في إرساله إلى الخلق، ولهذا قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾[3] أي: ولَلْحالةُ الآخرةُ من أمرك خيرٌ لك من الحالة الأولى منه، يريد: ولَنِهايةُ أمرك خيرٌ لك من بدايته؛ لأنَّ كَرَّة الوحي وتتابُعَه سيكمل به الدين، وتتمُّ به نعمة الله على أهله. وأين بداية الوحي من نهايته، وأين الإجمال الذي جاء في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] من تفصيل العقائد والأحكام الذي جاء في مَثَاني القرآن؟!

ثم زاد الأمر تسليةً بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ مِنْ تَـوارُدِ الوحي عليك بما فيه إرشادٌ لك ولقومك، حتى أعلن سبحانه لعباده المؤمنين بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وكان ذلك في أكثر من عشرين سنة، فاستعمال حرف التسويف لذلك، وصَحِبَ إكمالَ الوحي في هذه المدَّة ظهورُ الدين، وإعلاءُ كلمة الله، وكمالُ نعمة الله عليه في ذلك.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) سلف تخريجه (٥: ١١٨).

(٣) يجوز أن يُراد بالآخرة والأولى: الدنيا والآخرة، وتكون الجملة إيماءً وتطميناً إلى أنَّ الله لا يتركك ولا يقلوك في الدنيا ولا في الآخرة، وأخراك خيرٌ من دنياك. ويجوز أن يُراد بالآخرة: عاقبة أمره التي تتناول آخر دنياه وجميع أُخراه. (المؤلف).

ثم استشهد على الإتمام بوعده، بما شاهده بنفسه من نِعَمِ الله عليه، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾. قال الأستاذ الإمام: التعبير بـ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾، ﴿وَوَجَدَكَ﴾: على مُتعارَفِ الخطاب في لسان العرب، أي: ألم تكن كذلك وكنتَ كذلك. والاستفهام للتقرير.

كان عليه الصلاة والسلام يتيماً، لأنَّ والده تُوفِّي في المدينة وهو حَمْلٌ في بطن أُمِّه، فلما وضعته، عَطَّفَ الله قلبَ جدِّه عبد المطلب وقلبَ مرضعته حليمةَ على يتمه، وكَفِلَه جدُّه خير كفالة، ثم مات جدُّه وهو في سنٍّ ثمان، فكَفِلَه عمُّه أبو طالب بوصيَّةٍ من أبيه عبد المطلب، وكان شديدَ العناية به في صغره، عظيمَ المحبة له في كبره، وما زال يُحبُّه وينصره بعد أن أكرمه الله بالنبوَّة حتى قُبِض، فتجرَّأت قريشٌ على النبيِّ ﷺ بعد موت عمِّه هذا، حتى اضطرَّته إلى الهجرة للمدينة، فذلك إيواءُ الله لنبيِّه ﷺ وهو يتيم.

أما قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ فهو من ضلال الطريق والتحيُّر في السلوك، أي: وجدك مُتحيِّراً في تعيين الطريق الحقِّ لأمر الدين، فهداك الله إليه.

قال الأستاذ الإمام: نَشأَ ﷺ مُوحِّداً لم يسجد لصنم قط، وطاهرَ الخلق لم يَقْترف فاحشةً، حتى عُرِفَ بين قومه بالأمين، فضَلالُ الشِّرك وضَلالُ الهوى في العمل كانا بعيدَيْن عن ذاته الكريمة، يَرْهَبان الدنوَّ من نفسِه القويمة، نزَّهه عنها من أول أمره ليُعليَ منزلتَه عند من يُرسَلُ إليهم، فيسمعوا قوله، ويهتدوا بهديه. ولكن للضلال أنواع أُخر، منها: اشتباه المأخذ على النفس حتى تأخذها الحيرة فيما ينبغي أن تختاره، وقد عَرَف ﷺ فسادَ الدين في قومه من مشركي العرب، ولكن كان بين يديه دينُ النصرانيَّة على ما كان عليه أهلُه في ذلك الحين، ودينُ اليهودية كذلك، وكلاهما دين توحيد، وفي كليهما شريعة لنبيّ، فهل في اختيار أحد الدِّينَيْنِ مصلحةٌ له ولقومه، وهل في الدعوة إلى

ما يختار منها فلاحٌ لنفسه ولشعبه؟ وهو عليه السلام أُمِّيٌّ لا يقرأ الكتب ولا ما حَوَته تلك الأديان من الأحكام والشرائع، وكيف كان يصلح ذلك وأهلُ كلٍّ من الدينَيْن لم يكونوا في حالهم أرشَدَ من قومه، إذ كان شيءٌ من الشِّرك يشوب عقائدَهم، وكثير من السيِّئات والجرائم تُدَنِّس أعمالَهم.

وأعظم أنواع الضلال كانت الحيرة في أمر العرب أنفسِهم، يراهم ﷺ في سَخافة عقائدهم، وضَعْف بصائرهم، باستيلاء الأوهام عليهم، وفساد أعمالهم، وشُؤْم تلك الأعمال في أحوالهم، وتفرُّق كلمتهم، وتَفانيهم بتَسافك الدماء، وإشرافهم على الهلاك باستعباد الغُرباء لهم، وتحكُّم الأجانب فيهم ـ الحبشة والفرس من جانب، والرومان من جانب آخر ـ ثم هم في غفلة من مصيرهم ينفرون من الذُّل ويمدُّون أيديهم إلى أسبابه، ويفرُّون من الموت وهم يتدافعون على أبوابه، فما العمل في تقويم عقائدهم وتخليصهم من تحكُّم عاداتهم، وأيُّ طريق ينبغي أن تُسْلَكَ في إيقاظهم من سُباتهم، ومن أيِّ الأبواب يمكن أن يدخل إلى قلوبهم؟ ما أشدّها حيرةً على الصِّدِّيقين، وما أعظمها ظلمةً تغشى السالكين من أهل الصِّدق واليقين، إلى أن يكشفها الله بالنور المبين، وهي حَيْرة لم يكمل الحظ من شرفها إلا للنَّبيِّـين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، فهذا هو الذي عَنَاهُ الله بالضلال في هذه الآية الكريمة. وما أعظم الهداية في ذلك الضَّلال، وما أجدَرَه بالكُمَّل من الرجال.

ثم قال رحمه الله: وبعد هذا وهذا، فإنَّ من اهتدى إلى الله وعَرَف أنه خالق الناس كلِّهم، وأنه وحده المستحقُّ للعبادة من دون أحدٍ منهم، هل يدري بنفسه بغير وحي إلهي كيف يعبده، وبأيِّ وصف يصفه ويُمجِّده، والناس من حَوْله قد شَبَّهوه بخلقه وقاسوه على ما يعرفون من صُنعه، أفلا يحار الموحِّد كيف يصفُ ربَّه، وبأيِّ الوسائل يطلب قربه؟ كلُّ هذه الضروب من الحَيْرة كانت من حظِّه عليه الصلاة والسلام، قبل

أن تطلع عليه شمس النبوَّة، وللخلاص منها كان يطلب الخَلْوةَ بغار حراء، ويتلمَّس هدايةَ ربِّه في جوانب قلبه إلى أنْ سَطَع عليه نور الوحي، فانتشله من هذا كلِّه، واختار له ديناً قوياً، وعلَّمه كيف يُرشدُ قومه، وسَنَّ له الطريقَ في تخليصهم وتخليص العالم ممَّا كان فيه من فساد العقل وسُوء العمل، وهَدَاه إلى وَصْفِ ذاته سبحانه بما يليق بذاته، وأيُّ نعمةٍ أكبر وأجلُّ من هذه النعمة؟

ثم قال رحمه الله: هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، وهو نفسُه معنى قوله في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

وليس في وصف النبيِّ ﷺ بالضَّالِّ على هذا المعنى شَيْنٌ له أو حَطٌّ من شأنه، بل هذا هو فَخْره عليه الصَّلاة والسلام، وإكليل[١] مَجْده، لم يكن عالماً فعلَّمه، ولم يكن مُطَّلعاً على الغيب فأطلَعه. هذا مُلخَّص ما قاله الأستاذ الإمام في تفسير الآية، وما أجَلَّهُ مِن كلام!

وقد جاء عن محمد حسين هيكل[٢] في الكلام عن النبيِّ ﷺ في غار حراء ما مُلخَّصه: «حراء: ويُسمَّى الآن جبل النُّور، يقع على يَسَار السالك إلى عَرَفة، وهو جبل شاقُّ الصعود، ويستغرق صعودُه أكثر من نصف ساعة، وفيه الغار في ذلك الوسط

(١) الإكليل: شبه عصابة مُزيَّنة بالجواهر، ويُسمى التاج إكليلاً. «لسان العرب» (كلل).

(٢) هو محمد بن حسين بن كامل هيكل (١٣٠٥-١٣٧٦هـ)، كاتب صحفي، مؤرخ، من رجال السياسة، له: «حياة محمد»، و«في أوقات الفراغ»، و«ثورة الأدب». «الأعلام» للزركلي (٦: ١٠٧).

المُوحِش الذي يفزع منه من يجهل أنَّ الحياة لا يملكها إلا مَنْ سَمَا فوق الخوف من كلِّ ما في الحياة، وتلك قوة فوق ما أُوتي الناس جميعاً، لا يُؤْتاها إلا من اختاره الله لرسالته، اعتزل محمد ﷺ الناس، وأمعَنَ في الانقطاع عنهم، ووَجَدَ في حراء خيرَ مَرْصَد رُوحيٍّ يمتحن به أسباب الحقيقة في كلِّ ما تقع عليه عينه، أو يتعلَّق به حسُّه، وفيما يتوسَّمه من حياةٍ وراء ما يقع عليه الحس أو تدركه العين، يمتحن ذلك فوق قمَّة هذا الجبل المشرف الذي يرى منه قويُّ البصر ساحلَ البحر الأحمر ـ على ما يقال ـ كما يرى منه أجلى صُور السماء في وسط تلك الجبال المحيطة به، فهو مَرْصَدٌ يطالع الحياة وتُطالعه، تَبزُغُ الشمس عليه ساعةَ تشرق، وتنحدر عنه ساعةَ تغيب، وتألق النجوم، ويحبو البدر في السماء، وتهوي الشُّهب، وتنتطح السُّحُب، ومحمد ﷺ شهيدٌ على هذه الأحداث كلِّها، يرى ما يشاهد من غذاء الروح، وأسباب التفكُّر والتأمُّل، بصُورة لا تفسدها ضجَّة الحياة، ولا تغشّيها مشاغلها.

وليس من رَيْب أن يصلَ من معرفة هذه الأسرار إلى نـتائج باهرة، من خير ما يصل إلى من يتَّصل بالكون في أسمى مراتب الاتِّصال، فلم ينطبع العالمُ في نفسٍ بالقوة التي انطبع بها في نفسِ محمدٍ ﷺ، ولم تصل الرياضة الروحيَّـةُ بأحدٍ إلى الرؤيا الصَّادقة التي انتهى إليها ﷺ قبل بعثِه، بعد أن قضى السنين يَتَعبَّد شهر رمضان كلَّ عام في حراء.

في هذه البقعة المُوحِشةِ المنعزلة، كان يقيم ﷺ وحده، يُؤْنسُه تفكيره وتأمُّله، يُقلِّب في نفسه هذه الحقيقةَ الساميةَ التي كان الله سبحانه يُهيِّئُه لها، ليبعثه إلى الناس بها.

وظَـلَّ كذلك حتى أماطت له الحقيقةُ لثامَها بالوحي الذي هَداهُ الله به، وأنقَذَه من حَيْرته، ونزل هذا القرآن عليه في ليلة القدر من شهر رمضان، بعد أن تـمَّ لنفسه صفاؤها وتهيُّؤها، إذْ مما لا شك فيه أنَّ الحقَّ في حاجة إلى صَلابةٍ في النفس، وقوةٍ في

الخَلْق لينتصر، فلا بدَّ أن يُهيِّئ سبحانه لرسوله ﷺ مِثلَ هاتيك الصِّعاب، تدريباً له؛ لِيَتولَّد في نفسه مثل هذه القوة. وكلُّ ما لاقاه ﷺ في أثناء حياته التبليغيَّـة من المشاقِّ والشدائد، إنما هو من بعض هذا المِرانِ التأديبي، لتكميل هذه القوة في نفسه وتغذيتها. انتهى.

ثم تابع سبحانه الاستشهاد على الإتمام بالوعد، بما شاهده بنفسه من نِعَم الله عليه، فقال: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ والعائل: الفقير، وقد كان ﷺ فقيراً لم يترك له والده من الميراث إلا ناقةً وجارية، فأغناه الله بما ربحه في التجارة، وبما وهبته خديجة رضي الله عنها من مالها، وصَرَف ذلك كلَّه في سبيل الدعوة.

والمعنى: فمَنْ آواك في يُتمِك، وهَدَاك من ضلالك، وأغناك من فقرك، لا يتركك في مستقبل أمرك.

قال الأستاذ الإمام: منْ ذاق مرارةَ الضيق في نفسه، فأجدَرُ به أن يستشعرها في غيره، فيمنحه ما كان هو بصَدَد أن يستمنحَه.

كان ﷺ يتيماً، فباعَدَ الله عنه ذُلَّ اليُتم وآواه، فما أجدَرَه عليه السلام أن يُكرم كلَّ يتيم، شكراً لله تعالى على نعمته له، لذلك أمره سبحانه بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ وهو أمرٌ يوافق ما فيه نفسه، ولكنه جاءَ للمُبالغة في التهييج، أي: فلا تُذِلَّه، بل ارفع نفسَه بالأدب، وهذِّبه بمكارم الأخلاق، ليكون عضواً نافعاً في جماعتك، ينفعها وتنتفع به، ولا يفسده التذليل والهوان، فيكون جرثومة فساد.

وكان ﷺ حَيْـران، فأنقَـذَه من حَيْرته، فمِنْ حقِّ رعاية هذه النعمة أن يرأف بالحائرين، لذلك أمره سبحانه بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ والسائل: هو المُستَفهِم عمَّا لا يعلم. وقيل: بل المراد به طالب الصَّدقة، ويجوز أن يُراد به الأمران معاً. والغرض

من مساعدة السائل: نفسُ الغرض من تعهُّد أمر اليتيم. والمعنى الأول أنسَبُ لمقابلته بالهداية من الضلال في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾.

ثم كمَّـل له الإرشاد بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ وقد قال في تفسيره الأستاذ الإمام: أي: إنَّك لما عرفتَ بنفسك ما يكون فيه الفقير فأوسِعْ في البذل على الفقراء، فالجملةُ كنايةٌ عن بَذْل العطاء للمُعْوِزين وإعانة المحتاجين، وليس القَصْد هو مُجرَّد ذكر الثروة، فإنَّ ذلك من الفخفخة التي يتنزَّه عنها النبيُّ ﷺ. ولم يعرف عنه ﷺ في امتثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقود وعروض، ولكن الذي عُرِفَ عنه أنه كان ينفق ما عنده ويبيت طاوياً.

أقول: ويؤيِّد أن المراد منه إعانة المحتاجين مقابلتُه لقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، والله أعلم.

ويجوز أن يُراد بالنعمة الرسالة، وبالتحديث نَشْـرُ الدعوة، والله أعلم، وهو الأنسَبُ بالهداية من الضلال، وبموضوع السورة، والله أعلم، أي: فحدِّث بما أنعم الله عليك بعد حَيْرتك، من الهداية إلى هذه الشريعة، وانشرها بين الناس.

*　　*　　*

سُورَةُ الشَّرْحِ

مكيَّة، وهي ثمان آيات

والغرض منها:

تتميمُ ما قبلها فيما اشتملت عليه من بيان عنايته به ورعايته له في سائر أحواله وتقلُّباته ﷺ.

وتنوير لقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، ولذلك أتى فيه بلفظ الماضي، فهي تمنُّنٌ عليه بتحقيق ما وَعَده به.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ الشَّرْح: التوسعة والبَسْط، أي: ألم نُـرَفِّه عليك بعد الشدَّة، ونُرِحْكَ بعد التعب.

قال الأستـاذ الإمام: وعِظَمُ الصَّدر من الجسم كان عند العرب دليل القوة، والقويُّ: قاهرٌ لِـمَا ينتابه، فهو في مَسَـرَّة وحضورِ رأيٍ دائمـاً، لا يضيق ذَرْعُه بأمر. وكذلك كَنَّوْا بشرح الصَّدر عن المسرَّة وانبساط النفس، وقد شَرَحَ الله صدرَ نبيِّه ﷺ، بإخراجه من تلك الحَيْرة التي كان يضيق لها صدرُه بما كان يلاقيه من جمود قومه وعنادهم، وقد كان ما يهمُّه من أمرهم حِمْلاً ثقيلاً عليه، فوضعَه الله عنه بهدايتهم، كما قال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ والوِزْر: الحِمْل، والإنقاض: الهدم، والكلام على التَّمثيل، فإنَّ ما كان يحمله ﷺ من ثِقَل الاهتمـام بشأنِ قومه وشأن الدعوة وما لاقى في سبيلها لم يكن ثِقْلاً حسياً، ولكنه كان همّاً نفسياً، فعبَّر عن الهمِّ الذي تُبْخَعُ به النفوس، بالحِمْل الذي تُقْصَم منه الظهور.

وتفصيل البيان: أنَّ الله سبحانه أنزل عليه القرآن، وأوجب عليه الدعوة إلى ما اشتمل عليه من الحقِّ والهدى وجدال المعاندين، وأوجب عليه حياطة الدعوة وحمايتها وقتال المعتدين على حرية الدعوة؛ ندبه تعالى لهذا كلِّه، وتلك مهمَّة شاقَّـة تحتاج إلى

الشجاعة والصبر، والفِطنة والـحَذَر، وتحتاج إلى سياسةٍ ماهرةٍ حازمةٍ في تدبير أمور الخلق في الحرب والسِّلم، وتدبير علاقات الأمة الإسلامية بعضها مع بعض، وتدبير علاقاتها مع غيرها من الأمم، وقد لاقى ﷺ في سبيل ذلك من العَنَت ما لاقى، ومن الشدائد والإحَن والمِحَن، ومن العداوة والبغضاء ما حدَّثنا به التاريخ.

وقد قام ﷺ بما نَدَبَه الله إليه أحسنَ قيام، على أكمل وجه وأتـمِّه، وذلك بمعونته سبحانه وتعالى. وهذا معنى قوله: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾.

ثم أردفَ ذلك بقوله: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾ وأيُّ ذِكرٍ أرفعُ من أن يختصَّه الله لرسالته، فينقذ البشر من الظلماتِ إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد.

ثم قرن بين التهنئة والتعليل في قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾(١) أي: هذا الذي مَنَحناه إيَّاك من شَرْح الصدر ووَضْع الوزر ورَفْع الذِّكر، بعد ضيق الأمر واستحكام الكَرْب في أول السَّيْر، كان على ما جرت به سُنَّتُنا في هذا النوع من خِلقتِنا، وهو أنَّ مع العُسْر يُسْراً. والعُسْر الداخل في الاستغراق: هو كلُّ ما تجد النفسُ ألَـمَ الوقوع فيه، وتنزع إلى طلب الخلاص منه، بالوسائل التي سَنَّها الله لذلك الخلاص.

ولا ريب أنَّ كلَّ عُسْر من هذا القبيل فمعَه يُسْـرٌ يَسُوقُه الله إلى العامل الآمل العاقل، جزاءَ عمله، باتِّباع الوسائل لتحقيق أمله، واستعمـاله لمواهب عقله، لذلك حثَّ سبحانه على متابعة الأعمال، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧﴾ أي: واصِل العملَ

---

(١) يجوز أن تكون هذه الآية وعداً وتثبيتاً له ﷺ في موقفه الشاقِّ، وتقريراً لطبيعة مثل هذا الموقف من الشدَّة والرخاء، فكلُّ من يُقْرن به هذه المهمة يُعاني الشدائد حتى يَسْتَتِبَّ له الأمر، ويظهر الحق على الباطل، فيتبدَّل العسر باليسر، والعناء بالراحة والهناء. ويحتمل أن تكون الأولى: في بدء الوحي وهدايته بعد الحيرة، والثانية: في استِتباب الأمر ودخول الناس في دين الله أفواجاً، بعد الإعراض والمقاومة الشديدة. (المؤلف).

وابْذُل الجهد، فإذا فَرَغتَ من عملٍ من أعمالك النافعة لك ولأمَّتك، وبَلَغْتَ سُؤْلَك فيها، فخُذْ في عمل آخر واتعَبْ فيه، فإنك تجد لَذَّةَ الراحة عَقِبَ النَّصَب، بما تَجْنيه من ثمرة العمل.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴿٨﴾﴾ في استثمار أعمالك، لا إلى أحدٍ سواه، أي: واصِل العملَ رغبةً في الله وفي جزائه.

فإن قيل: إنَّ هذه السورة ـ بما اشتملت عليه من الامتنان بتكلُّل مهمَّته بالنجاح ـ كان اللائق بها أن تكون مدنيَّة.

والجواب: أنها تعليق على ما جاء في سورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ من عَوْد الوحي ومن رفع الحَيْرة وغير ذلك، حتى قال بعضهم: إنها تتمَّة لسورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، وكانت بمثابة الوعد الأكيد، والتسلية له ﷺ بما سيؤول إليه أمرُه من النجاح في مهمَّته ورفع ذِكرِه عالياً، وتكون أُخرى أمره خيراً من أُولاه، وآخرته خيراً من دنياه.

وحاصل المعنى: ألم نَشرَح لك صَدْرَك بهذا القرآن، ففاضت الحكمةُ من لسانك، وتحمَّلت أتعاباً لا تطاق، ثم بَدَّل الله حياتك المكيَّة بالحياة المدنيَّة، وأَمَرْنا المؤمنين بالصلاة عليك وذِكرِك على الدوام، فإنَّ مع العُسْر يُسْراً، فاحمد الله سبحانه، وتأهَّب إلى لقاه. والله أعلم.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ التِّينِ

مختلفٌ فيها؛ أمكيَّة هي أم مدنيَّة

وآيُها ثمان

والغرض منها:

بيان أنَّ الله سبحانه خَلَق الإنسان مُستعداً للكمـال والتخلُّق بحُسْن الخصال، ما لم يُـفسِد ذلك الاستعداد بسُوء التربية ومفاسد العشـرة ورَداءة الخلطاء، فإذا انحلَّت طبيعتُه بذلك الحال الـمُهين، انحَطَّ إلى أسفل سافلين، وكان من أرذل المخلوقين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾ اختلفوا فيهما؛ فقيل: المراد بهما الثمرتان المعروفتان، وأقسَمَ سبحانه بهما لاختصاصهما بخواصّ جليلة، ومن أرباب هذا القول: مجاهد والنَّخَعي[1] وعطاء وجابر ومقاتل، وغيرهم.

وقيل: المراد بهما مكانان مُقدَّسان، ومن أرباب هذا القول: قَتادة وابن زيد ومحمد ابن كعب والضحَّاك وغيرهم، واختاره الطبري[2].

ثم اختلف أرباب هذا القول؛ فمنهم من قال: هما جبلان في بيت المقدس يُقالُ لهما بالسُّريانية: طورتينا وطورزيتا، لأنهما مَنْبتا التين والزيتون. ومنهم من قال: التين: جبل دمشق، والزيتون: جبل بيت المقدس. ومنهم من قال: التين: مسجد نوح عليه السلام الذي بناه على الجوديّ، والزيتون: مسجد إيليا. وقيل غير ذلك.

وعلى كلٍّ، فمراد أرباب هذه الأقوال أنهما محلّان لنبيَّين من الأنبياء، وكذلك

---

(١) روى قول النخعي ومجاهد، الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٥٠١).

(٢) المصدر السابق (٢٤: ٥٠٣).

قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ۝٢﴾ هو الجبل الذي كلَّم الله فيه موسى عليه السلام. ويقال: إنَّ (سينين) و(إلياسين) و(الغِسْلين) وأمثال هذه الأوزان هي من لغة أهل اليمن وعرب الجنوب.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ۝٣﴾ هو مكة المشرفة، إذ هو بلد مأمون الغائلة، لا يخافه من يحلّه.

والأقسام بهذه الأماكن المقدَّسة؛ للتنويه بقَدْرها، وللإشارة إلى حوادثها في تاريخ الأنبياء، وأنها مَظهَرُ الآيات الباهرات، ومَبْعَثُ النور والهداية للبشر، وموضع إهلاك أهل الفساد المعارضين لذلك النور المبين، بنتيجة إفسادهم لطبيعتهم وارتدادهم إلى أسفل سافلين.

وقيل أيضاً: إنَّ هذه الأقسام الأربعة هي إشارة إلى أربعة فصول من تاريخ الإنسان الطويل؛ فالتين: إشارة إلى عهد الإنسان الأول، فإنه كان يستظلُّ في تلك الجنة التي كان فيها بشجر التين، وعندما بَدَتْ له ولزوجته سَوْآتهما طَفِقا يخصِفان عليهما من ورقه. والزيتون: إشارة إلى عهد نوح عليه السلام وذرِّيَّته؛ لأن أوَّل شيء عَثَر عليه من الأرض بعد أن استَقرَّت السفينةُ وغيضَ الماء هو شجرة الزيتون. وطُور سينين: إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية، وهذا البلد الأمين: إشارة إلى عهد الشريعة المحمدية.

فالأقسام بهذه الأربعة للتذكير بتلك الحوادث وتلك الفصول من التاريخ الطويل، وبما وقع فيها من كفر وإيمان، نتيجةً للمحافظة على طبيعة الإنسان وعدم المحافظة عليها بأمان، فمن حافظ على طبيعته البشرية سار نحو الكمال المنشود لبني الإنسان، وكان في أعلى علِّيين، ومن أفسدها انحدر إلى أسفل سافلين.

ثم ذكر جواب القَسَم، وهو استعداد الإنسان هذا للخير والشر، وأنَّ حصوله

على الخير إنما يكون بمحافظته على فطرته واتِّباعه لِـمَا جاءَه من شرائع الله وتعاليمه على لسان أنبيائه، ممَّا يلائم فطرته ويوافق طبيعته، وأنَّ وقوعه في الشرِّ إنما يكون بإفساده لطبيعته، وانحرافه عن تلك الشرائع والتعاليم، فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[1] أي: في خَلْقِه وخُلُقِه، فإذا حافظ على ذلك بلغ من السُّموِّ والمعرفة ما يجعله مُتَّصلاً بالملأ الأعلى، ولا يرى لأحدٍ من الخلق حقاً في التوجُّه إليه، فلا يطلب إلا من الخالق، ولا يعبد إلا الخالق، ولا يعتزُّ إلا بعزَّة الخالق. وإذا لم يحافظ على طبيعته وأفسدها بحطَّة التربية وسوء القدوة؛ انحطَّ إلى حضيضٍ مهين.

وهذا هو معنى قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ﴾ أي: بذلك الإفساد لطبيعته والتحريف لغريزته ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ بسبب اتِّباعه لغير منهج الله الذي وصفه له، وطلب منه اتِّباعَه والسيرَ فيه حيثُ سار في نهج مستقيم، فبلغ من الدناءة والحطَّة أن يعبد حَجَراً أو شجراً أو إنساناً مِثلَه أو حيواناً من أجهل الحيوانات وأقلِّها معرفة وقيمة، وأمثال هذا، ولا سيما اندفاعه مع شهواته وهواه.

ويلوح لي في القَسَم بهذه الأشياء الأربعة معنىً آخر، وهو: أنَّ الله سبحانه جَمَع في هذا القَسَم بين ما يكون مُستعداً للتنشئة على ما خُلِقَ عليه من حُسْن التقويم، أو

(١) إنَّ الإنسان مؤلف من الذات الطبيعية المخلوقة في أحسن تقويم، والذات الانطباعية المتكوِّنة عنها بالتنشيء والتقويم، فإن ثُقِّفت وقوِّمت على العقيدة الصحيحة والمعرفة القويمة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة؛ أخذت بالنفس نحوَ ما خُلقت له من الكمال، وساعدت استعدادها الطبيعي للتَّحلِّي بأكرم الفعل وأفضل الخصال، وعاشت في الدنيا راضيةً مرضيةً، وفي الأخرى سعيدة علية. أما إذا نشِّئت الذات الانطباعية على العقائد الخاطئة والأخلاق الواطئة؛ حطمت حُسْن قوام الذات الطبيعيَّة وحطَّتها، وانحدرت بها إلى الحضيض وسفْلتها، وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾. (المؤلف).

التردِّي به إلى أسفل سافلين، وبين ما يكون به حُسْن التقويم للإنسان، وفي مخالفته يكون ذلك التردِّي الفظيع.

وقد ذكر من النوع الأول فصيلتَيْن لا يَجهَلُ جودتَها ورداءتَها أحد، وهما «التين» و«الزيتون» فإنهما إذا تُعُـهِّدا بالتربية الصحيحة بمقتضى السُّنَن الكونيَّـة فيهما جاءا بأحسن النوعين وأجودهما، وإذا أُسِيئَت تربيتهمـا بمُخالفة تلك السُّـنَن جاءا بأردأ النوعين وأخسِّهما. ومثلهما الإنسان؛ يكمل إذا حافظ على طبيعته بحُسن التربية، ويَسفُل إذا أفسدها بسوء التربية.

وذكر من النوع الثاني موضعَيْن ظهر فيهما شريعتان إلهيتان، وهما: طور سيناء الذي ظهرت فيه شريعة موسى، واعتمدت عليها شريعة عيسى. وهذا البلد الأمين الذي ظهرت فيه الشريعة الكاملة؛ شريعة محمد صلوات الله وسلامه عليهم، وهما من التعاليم الإلهيَّة التي يُرسلها سبحانه للبشر، فمن تمسَّك بها حافظ على ما فيه من حُسْن التقويم وأكمَله إلى أبعد حدّ، ومن أهملها أو خالفها انحطَّ وتردَّى إلى أسفل سافلين.

ومُحصَّل القَسَم: كما جعلنا مِثلَ التين والزيتون يَصلُحُ إذا صَلَحَت تربيتُه وتنشئته، فكذلك الإنسان إذا سار حسب تعاليم الله حَسُنت حاله وتَمَّ كماله، وإذا أعرضَ عنها، تَسَفَّل وتَردَّى، وكان أحطَّ من الحيوان، وإنْ تَرقَّى في الماديَّات والصِّناعات؛ إذ لا ثقافة ولا إنسانيَّة إلا بالدين السماويِّ الصحيح.

أما تحرير معنى قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ...﴾ فهو أنَّ الله سبحانه خلق الإنسان على أحسن تقويم في تركيبه الخارجيِّ والداخليِّ، وفي شكله الصُّوري والمعنوي، لأنه سبحانه أعدَّه من دون سائر المخلوقات إلى مراتب من الكمـال يَقْصُر دون إدراكها التصوُّر، فركَّب فيه أشرفَ المواهب، وهو العقل الذي امتـاز به عن سائر الحيوان، ومنحه خاصَّتَي الاختيار والإرادة تكميلاً لتلك المَوْهبة، ووَهَبه كذلك مواهب أُخرى

وغرائز فُضْلى اختَصَّه بها من دون سائر المخلوقات، وأراه طريقَي الاعتدال والانحراف بالفطرة وبالوحي، وبيّن له أنه إن اعتدل نالَ غايةَ الكمال الماديّ والروحيّ، وإن انحرف ارتطَمَ في عقبات النقص والانحطاط، وارتدَّ إلى أسفل درجة من عالم الحيوان؛ لأنَّ فيه ذلك الاستعداد الحيواني، كما فيه استعداد الكمال الروحاني، فلو اتَّبع في نُموِّه قانونَ الحكمة الإلهيَّة والتعاليم الربَّانيّة، كان في أعلى مراتب الكمال بمقتضى ما خَلَقه الله عليه من حُسْن التقويم وبداعة التكوين، وإن أهمَلَ ذلك وتَسَفَّل تَربَّت فيه الحيوانيَّة البهيميَّة بأقوى مظاهرها وأحطِّ أشكالها، كما هي السنَّة الطبيعيَّة في هبوط العالي، فشارك البهائم في شَرَهها ونَهَمها، وضارَع الوحوش في ضلالها وجهلها، وأشبَهَ الضياغم في ضَرَواتها وقسوتها، فعكس تلك المَلَكات والمواهب عكساً سقط به إلى الحضيض في السفالة والانحطاط هذا.

وتوضيح المعنى بصورة أُخرى: أنَّ الله سبحانه خلق ذاتَ الإنسان مُستَعِدَّةً للعُلوِّ والتَّسفُّل، نتيجةً للمُثل العُليا أو السُّفلى التي تجعلها هدفَها في هذه الحياة، وتنهج نهجَها في النشأة والتوجيه.

فإن جَعَلَت هدفَها الـمُثُلَ العُليا تدرَّجت في العُلوِّ نحو الكمال، وتفاوتت في الدرجات العُلى التي تَرْقى إليها حتى تكون بعضُ الذوات أفضَلَ من المَلَكِ كالأنبياء.

وإن جعلت هَدَفَها الـمُثُلَ السُّفلى تدرَّجت في السَّفَل، وتفاوتت في الدَّركات التي تنحطُّ إليها حتى تكون بعضُ تلك الذوات أسفَلَ من الحيوانات وأحطَّ من الحشرات، فالذات السُّفلى إذا غلبت ـ وهي المعبَّر عنها بالشيطان[1] أو الناحية الشيطانيَّة

(١) بل الشيطان مخلوق آخر مُباينٌ للذات الإنسانيَّة السُّفلى، مخالفٌ لها في الجنس؛ حيثُ خُلِقَ من نار، وهي مخلوقة من طين، إلا أنه يعمل على تقوية هذه الذات السفلى وتغليبها على الذات العليا.

أو المركز الشيطاني، والله أعلم - تهوي بالإنسان إلى أسفل سافلين، والذات العُليا إذا غلبت تسمو بصاحبها إلى أعلى عليِّين، وهو الكمال المنشود لبني الإنسان في عالم الغيب وعالم الشهود.

والخلاصة: أنَّ الله سبحانه أعدَّ الإنسان لمقاماتٍ من الكمال يعجز عن إدراكها التصوُّر والخيال، ومَنَحَه لذلك خاصَّتي الإرادة الواسعة والاختيار المُطلَق، وأراه طريقَي الاعتدال والانحراف بالفطرة والوحي، وصرَّح له بأنه إن اعتَدَل وارتقى نال غايتَيْ كماله الماديّ والأدبي، وإن انحرف وتردَّى ارتطم بأوحال الحِطَّة والتَّسفُّل، وارتدَّ إلى ما دون عالم الحيوان، كما هي السنة الطبيعة في هبوط العالي.

ولذلك بيَّن سبحانه أنَّ الذين سَلِموا من ذلك الارتداد هم المؤمنون الذين حافظوا بتمسُّكهم بشريعة الله على سلامة فطرهم ونور بصيرتهم، وحفظوا لأنفسهم مواهبَها، فأجابوا الحقَّ حين دعاهم، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ باتِّباعهم لِـمَا جاءهم به أنبياؤهم من هداية الله وشرائعه، فهؤلاء هم الذين يحفظون منزلتهم من الإنسانيَّة، ويستبقون لأنفسهم ذلك الاستعداد والاعتدال الفطري.

وقد أقام مقامَ هذا البيان لازِمَه، على نهج القرآن في ذلك، وهو ما سينالونه من النعيم المقيم في الآخرة، وقال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ أي: نعيمٌ غير مقطوع من نعيم الآخرة.

ثم عقَّب هذا البيان بأبلغ وجه يحثُّ على التمسُّك بالدين الذي يؤدِّي إلى هذا الأمر العظيم والفوز المبين، فقال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾[1] والخطابُ للأمة

(١) بعد أن بيَّن أنَّ الدين والإيمان هو الذي يحفظ من التدهور إلى أسفل سافلين، فرَّع عليه بقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾؟ أي: بعد أن عرفت ثمرة الدين هذه في الإنسان والإنسانية، وأنه =

في شخص النَّبيِّ ﷺ، أو هو خطابٌ للإنسان، أي: بعدما علمتَ أنَّ الدِّين الذي يأتي من الله سبحانه على لسان أنبيائه ورسله إنما هو أمرٌ حافظٌ لكيان وكمال الإنسانيَّة تنزيلٌ ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، كيف تكذِّبه وتنكره، وتتَّخذ لك ديناً من موضوعات البشر، أو مما حرَّفه أو تلاعَبَ به، أو ديناً منسوخاً؟

ثم بالغ في الحثِّ على ذلك بوجه آخر، فقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ وأعلى المُدبِّرين والمُشرِّعين حكمةً وإتقانَ تشريعٍ وتدبيرٍ؟ فكيف تُعرِضُ عن تشريعه وأحكامه؟ يُنكِرُ على المُعارِض ويُؤنِّبه.

ويجوز أن يُراد بالدين: الحساب والجزاء، وتكون الآية تقريعاً على صِنفَي الإنسان على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]؟ أي: كيف لا يكون حياة ثانية يُجازى فيها المحسنُ بإحسانه والمسيء بسيِّئاته، ويُـقتَصُّ للمظلوم من الظالم؟ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ وأعدَلُ العادلين؟!

= هو الذي يحفظه من التردِّي إلى الحضيض، ويحفظ له كرامتَه ورتبتَه العالية التي فطر عليها من الاستعداد للكمال، أيُّ شيء يدعوك إلى التكذيب به، ويجعلك تُعرض عنه وتتنكَّب؟

وهذه صورة من تعابير القرآن المنوعَّة في البيان، ينوِّه بها عن الدين وآثاره.

ثم أيَّد هذا التنويه بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾؟ أي: أليس هذا الدين من تشريع الله سبحانه، وهو أعظم مَنْ وضع الأحكام في مراعاة حفظ الأخلاق، وقيادة الإنسان للمحافظة على إنسانيَّته، ونَيْله السعادة في الدارين؟

ويجوز أن يراد بالدين: الحساب في اليوم الآخر. والمعنى: إذا علمتَ أن أكثر الناس يُـرَدُّ إلى أسفل سافلين بإفساده لطبيعته، فكيف لا تُصَدِّق بالردِّ للحساب، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾؟ (المؤلف).

سُورَةُ العَلَقِ

مكيَّة، وهي تسع عشرة آية

والغرض منها:

إعلامُ النَّبيِّ ﷺ ببَدْء الرسالة، والدعوة إلى الله.

والوعيد الشديد لمن خالفه وعَصاه، أو عارضه وقاوَمَ هُداه.

وقد نَزَلَ أوَّلها في غار حراء في جبل النور على يسار الذاهب إلى عَرَفة.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨﴾.

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ أثبتَ العِلمُ أنَّ منيَّ الإنسان يحوي حيوانات صغيرة تُشبِهُ شكل العَلَق، بها يكون التلقيح.

وهذه الآية هي أوَّل القرآن نزولاً، وهذه الآية مع ما تليها دعوةٌ إلى القراءة والعلم، وتَبْصيرٌ للإنسان بحقيقته وأصل خِلقته، وبقدرة الله العليَّة فيه، مُلمعاً بها إلى أنه سبحانه قادرٌ أن يجعلَ غيرَ القارئ قارئاً؛ لأنه قد جَعَل الإنسان مُستعدّاً للعلم والقراءة.

قال الأستاذ الإمام: صحَّ في الأخبار: أنَّ النبيَّ ﷺ أوّلَ ما تـمثَّل له المَلَكُ الذي يتلقَّى عنه الوحي قال له: «اقرأ، قال رسول الله ﷺ: فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فَغَطَّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال لي: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ. فغَطَّني الثالثة، حتى بلغ مني الجهد، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾»[١]. فهو أول خطاب إلهيٍّ وُجِّه إلى النبيِّ ﷺ. والذي يظهر أنَّ الأمر للتكوين، فقد أراد الله سبحانه أن يكون من هذا الأمي قارئـاً فكان[٢]، ومدخول البـاء سببٌ مُحقِّـق للفعل، ويجوز

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) لعله يريد: فكان قارئاً عن ظهر قلب. أما كونه صار قارئاً عن خط وكتابة فهذا لم يكن، كما هو معلوم في السيرة النبوية.

ـ والله أعلم ـ أن يكون في طبيعة المَلَك دَخْلٌ في هذا الاستعداد، ويجوز أن يكون الأمر للتنبيه إلى أنه ـ بصفته إنساناً ـ مُستعدٌّ لذلك، ولا سيما الكامل منه، ولكنه لم يدرَّب، فتكون الباء للاستعانة.

وقيل: العلق: الدم الجامد، وهي حالة الجنين في الأيام الأولى لخلقه.

وفي جملة الصلة هذه إيماءٌ إلى أنَّ الذي يَخلُقُ من الدم الجامد إنساناً ـ وهو الحيُّ الناطق الذي يسودُ بعلمه سائر المخلوقات الأرضيَّة يُسخِّرها لخدمته ـ يقدر أن يجعل من الإنسان الكامل مِثلَ النبي ﷺ قارئاً، وإنْ لم يسبق له تعلُّم القراءة.

ثم استأنف الكلام بإيماءٍ آخر، وهو أنه سبحانه قد خصَّ الإنسان بالاستعداد لقابليَّة العلم والتعلُّم، ولصنعة الكتابة التي يحفظ بها علومَه، وكرَّر عليه الأمر بالقراءة، نظراً لهذا الاستعداد الطبيعي، فقال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ من العلوم والمعارف، فأزاح ما بيّنه ﷺ من العُذْر بقوله: «ما أنا بقارئ»، وبيَّن له أنَّ الله سبحانه أكرَمُ من كلِّ مَنْ يُرتجى من الإعطاء، فلا غَرَابة أن يُعطيَك قابليَّة القراءة[1]، وزادَه اطمئناناً بهذه الموهبة الجديدة، فوَصَفَ مانِحَها بأنه الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم.

وفيه براعةُ استهلال بأنَّ القرآن كتابُ علمٍ وتوجيه، يُعلِّم الإنسان ما لم يَعْلَم، كما فيه إيمـاءٌ إلى أنَّ إنزاله هو من كَرَم الله ونعَمِهِ العُظمى، وفيه إعلاءُ شأن الكتابة، وإعلاءُ شأن هذا الإنسان.

وفيه إيماءٌ إلى اتِّساع مدارِكِه لعلومٍ عجيبة الشأن، وإلى أعظمِ ما سيدركه عبرَ

(١) أي: عن ظهر قلب، كما تقدم، وإلا فالكلام غير صحيح.

مسيره في هذه الحياة، والمعنى: إنَّ الذي جَعَل من الجماد آلةً للفهم والبيان، ألا يجعل منك قارئاً مُبيناً، وتالياً مُعلِّماً.

وهذه الآيات دلَّت على أنَّ الله سبحانه خَلَق الإنسان الحيَّ الناطق، مما لا حياة فيه ولا شكل ولا نطق، وهو الدم، وعلَّمه أفضَلَ علم، وهو الكتاب، ووهبه العلم ولم يكن يعلم شيئاً، فكلُّ موهبةٍ في الإنسان هي من هِباته تعالى، فما أعجبَ أن يكون بعد ذلك كلِّه غافلاً عمَّا أنعم الله به عليه، مُعْرِضاً عن شكره وذِكره.

ثم قال الأستاذ الإمام: ولهذا ناسب أن يأتي بعد تلك الآيات المتقدِّمة بقوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ فلا يقدِّر نعمةَ الله هذه عليه.

والذي أراه في وجه الربط: أنَّ ما سبق يتضمَّن الإرسال للناس، وهذه الجملة تتضمَّن الباعث عليه والزَّجْر والوعيد للطاغين، ويجوز أن تكون تقريراً لضرورة إرساله إلى الناس.

وكلمةُ ﴿ كَلَّآ ﴾ زَجْرٌ تفيد في الأغلب أنَّ ما بعدها مخالفٌ لأثر ما قبلها، فهي زَجْرٌ وتأنيبٌ للإنسان بأنه مع ظهور أمره، وشدَّة فقره في نفسه، وظهور أنَّ الله سبحانه وليُّ نعمته ومالك كل شيء لديه، فإنه مع ذلك كلِّه يَطْغى ويخرج عن الحدِّ الذي يجبُ عليه أن يقفَ عنده، فيستكبر عن الخشوع لربه، ويتطاول بالأذى على خَلْقه، وذلك ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ أي: أنْ رأى نفسَه قد استغنى وتميَّز عن الناس بثروته ومركزه الزائف.

ومُحصَّل الكلام: أنه متى أحسَّ من نفسه قدرةً وثروةً يَعُـدُّ نفسَه بهما فوق مَنْ دونه من الناس، فلا يرى أنه معهم أعضاءُ جماعة واحدة يحتاج كلٌّ إلى الآخر في استدامة الأمن واستكمال السعادة. والاستغناء بهذا المعنى، هو الرذيلة، وهو المذكور في قوله تعالى في سورة الليل: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ [الليل: ٨].

أما الغنى والقوة في أيدي الأتقياء فهما أعظم وسائل الخير، وأفضل أسباب السعادة الدنيويَّة والأخرويَّة؛ لأنَّ الأتقياء يُرشدهم في تصريف ثروتهم وقوَّتهم العِلْمُ والدينُ الصحيحان. ولما كان الأغلب من عامَّة الناس يصرفهم الهوى والشهوة، أطلق ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ في هذه الآية باعتبار الأغلب من أفراده، وهم الذين يستغنون بالمعنى السابق.

ثم توعَّد هذا الصِّنفَ من الإنسان، فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾ أي: إنَّ المرجع إلى الله فيحاسبك على أعمالك.

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩﴾.

ثم جاء بمَثَل من أمثلة الطغيان؛ ليقرِّر ذلك المعنى في النفس، ويجعله موضوعاً للإرشاد، فقال: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾؟ فكلمة ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ يُقصَدُ بها إنكارُ الحال المُستَخبَر عنها وتقبيحُها، كأنه يقول: ما أسخف عقل هذا الذي يطغى به الكِبْر، فينهى عبداً من عبيدِ الله عن صلاته والقيام بواجباته!

أما قوله: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢﴾ فهو صورةٌ من صُوَر الإرشاد ببيان الفَرْق بين لو آمن ونال ثمرة إيمانه وبين كفره هذا ونهيه عن الهدى وما سيناله عليه من عقاب. ومِثْلُ هذا الأسلوب من خصائص القرآن؛ لأنه كتابُ هدى وإرشاد، فهو يُعقب الإنكار على الضَّلال ببيان الهُدى وطريق النجاة، وصَفْاً للدواء بعد بيان الداء.

فمعناه: أخبِرْني عن حاله لو كان ذلك الطاغي على الهدى وعلى صراط الحق، أو كان قد أمر بالتقوى مكانَ نهيه عن الصلاة، أفما كان ذلك خيراً له وأفضل؟! فهو

إرشادٌ لهذا الطاغي بأبدع الوجوه وألطفها، أكمله بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ أفلا يخشى أن تحلَّ به قارعة، ويُصيبَه من عذاب الله مالا قِبَلَ له باحتماله؟!

وجواب كُلٍّ من الشرطين محذوف، على طريقة إيجاز القرآن، أقام مقامَه قولَه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ أي: أجَهِلَ أنَّ الله مُطَّلعٌ على أمره، فإنْ كان على الهُدى أحسَنَ جزاءَه، وإن كذَّب وتولَّى لم يَفلِت من عقوبته؟ هذا مُلخَّص ما قاله الأستاذ بتصرُّف.

ويجوز أن يكون هذا المعنى العام مُتمثِّلاً في حادثةٍ خاصَّة للنبيِّ ﷺ في مبدأ الدعوة، كما يُؤخَذ من مُلخَّص السيرة، وهي أنه ﷺ أخذ يدعو إلى الدين الجديد، ويُصلِّي في فناء الكعبة جهاراً، وهو مَجْمع عُظماء مكَّة، فكان ذلك مُهيِّجاً لغَيْرتهم على دينهم، فاندفع واحدٌ منهم ـ دفعَه أحدُ عظماء قريش ـ ينهى النبيَّ ﷺ عمَّا يقوم به من الدعوة والصَّلاة في فناء الكعبة.

ثم أردَفَ السياقَ بالتهديد والوعيد، فقال: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ وهي شعرُ الجبهة، والسَّفْع: الـجَذْب بشِدَّة. وهذا مَثَلٌ[1] في القَهْر والإذلال والتعذيب والنَّكال.

ثم أبدَلَ من الناصية قولَه: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾، فوصفها بهذين الوصفَيْن لزيادة التَّشنيع بها، وبيان سبب السَّفْع والإذلال.

ثم تابع التهديدَ، وسَبَكه على التهكُّم بهذا الطاغي، فقال: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ والنادي: المجلس، أي: فَلْيَدعُ جماعتَه لنُصْرته، سنَدعُو له من جنودنا ما يراه من العذاب. وأصل الزبانية: الشُّرَط وأعوانُ الولاة، استعير لأدوات العذاب أو ملائكته.

---

(١) بل الأقرب أن يكون على الحقيقة في الآخرة.

ويجوز أن يكون المعنى: فَلْيَدعُ جماعتَه وليمنعوا المُصلِّين ويُعاونوه على هذه الأعمال، فإنْ فَعَل فقد تعرَّضَ لقهرنا وتنكيلنا.

ثم شجَّع النبيَّ ﷺ بقوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ إذا نهاك عن عبادة الله، ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾ أي: تقرَّب إلى الله بالعبادة.

ويجوز أن يكون الكلام إرشاداً للأمة أيضاً في شخص النبيِّ ﷺ. وعليه، فهذا النَّهيُ مُوجَّه إلى كلِّ مَنْ يُعارضه الطغاة في أمرٍ من أُمور الله، يَزْجُره به سبحانه عن الضعف والإصغاء.

وهذه الصلاة التي جاءت في هذه السورة هي ما كان النبيُّ ﷺ وأصحابه يُصَلُّونها قبل ما فَرَضَ الله عليهم الصَّلواتِ الخمس.

* * *

سُورَةُ القَدْرِ

مُخْتَلَفٌ فيها؛ أمكيَّة هي أم مدنيَّة

وآيُها خمس

والغرض منها:

بيان فضل الليلة التي نزل فيها القرآن تنويهاً بشأنه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ قال الشعبي: المراد من نَحْو ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ و﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]: الابتداءُ بإنزاله. وإسنادُ ما للبعض إلى الكلِّ من خصائص اللغة[1].

وليلة القدر هي بعينها الليلةُ المباركة التي جاء ذِكرُها في سورة الدخان، ويصرِّح بذلك نصُّ آية البقرة، وهو قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قالوا: والسِّرُّ في عدم تعيين ليلة القدر من شهر رمضان، إنما هو ليكون الشهر كلُّه ظرفاً لطَلَبها؛ ليذكر المؤمنون ويشكروا فيه كلِّه نعمةَ الله عليهم في إنزال القرآن.

وسُمِّيت ليلة القدر، إما بمعنى: ليلة التقدير، لأنَّ الله سبحانه ابتدأ فيها تقديرَ دينه، وتحديد الخطَّة لنبيِّه في دعوة الناس إلى ما يُنقِذهم مما كانوا فيه[2]، أو بمعنى العَظَمة

(١) الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: للقرآن، وأضمَرَه من دون ذِكر تفخيماً له، وشهادةً بنباهته المُغْنيةِ عن التصريح، كما عَظَّمه بإسناد إنزاله إليه، والتنويه بشأن الوقت الذي نزل فيه. (المؤلف).

(٢) لم أقف على هذا القول في معنى ليلة القدر عن أحد من السلف، وهو قول جديد يضاف إلى معنى التقدير، وهو لا يلغي ما نقل عن السلف من أقوال كثيرة في معنى التقدير. =

والشرف، كما قال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾ بمعنى: أنَّ شَرَفَها ليس مما تَسهُل إحاطةُ العلم به.

ثم أتبع ذلك بالكلام عنها إجمالاً، فقال: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾

= والراجح أن ليلةَ القَدْر سمِّيت بذلك لعُلُـوِّ شأنها وعِظَم قَدْرها وفضلها عند الله، أو لأنه يُقدَّر فيها ما يكون في السنة من الآجال والأرزاق والمقادير. كما في «تفسير الطبري» (١٦: ٤٧٩)، وأبي السُّعود في «تفسيره» (٩: ١٨٢).

وأما المراد بالأمر في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، فقد قال الماوردي في «النكت والعيون» (٥: ٢٤٥): «في تأويل: ﴿كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ أربعة أوجه:

أحدها: الآجال والأرزاق والسعادة والشقاء من السنة إلى السنة. قاله ابن عباس.

الثاني: كل ما يقضى من السنة إلى السنة، إلا الشقاوة والسعادة، فإنه في أم الكتاب لا يُغيَّر ولا يُبدَّل. قاله ابن عمر.

الثالث: كل ما يقضى من السنة إلى السنة إلا الحياة والموت. قاله مجاهد.

الرابع: بركات عمله من انطلاق الألسن بمدحه وامتلاء القلوب من هيبته. قاله بعض أصحاب الخواطر».

ولا تعارض بين هذه الأقوال، وقد أسند الإمام الطبري نحوَها عن جماعة من التابعين، ثم قال: «وعنى بقوله: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾: في هذه الليلة المباركة يُقضى ويُفصَلُ كلُّ أمر أحكمه الله تعالى في تلك السنة إلى مثلها من السنة الأخرى».

وقال ابنُ الجوزي في «زاد المسير» (٤: ٤٧٣) في تفسير قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾: «قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ أي: في ليلة القدر، ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ أي: بما أمر به وقضاه، ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ قال ابنُ قتيبة: أي: بكُلِّ أمر. قال المفسرون: يتنزلون بكل أمر قضاه الله في تلك السنة إلى قابل».

والذي اختاره شيخُ المفسرين الإمامُ الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٥٣٤) هو قول قتادة، وهو: أنه يقضى فيها ما يكون في السنة إلى مثلها.

والمراد من هذا العدد: التكثير لا التحديد(١)، والعرب تعدُّ الألف عدداً كبيراً، فبيَّن بذلك فضيلةَ هذه الليلة على الأزمان والدهور.

ثم بيَّن شيئاً من مزاياها، فقال: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ يريد نزولَ الوحي بهذا القرآن العظيم، الذي حَوَى كلَّ أمر جليل يحتاجه الإنسان بالضرورة، وعدَّى تَنَزَّل بـ﴿مِّن﴾ لتضمُّنه معنى: أُنزلوا أو نزلوا.

والروح: هو الذي يتمثَّل له ﷺ مُبلِّغاً للوحي، وهو جبريل عليه السلام؛ إذ كانت هذه الليلة هي أوَّل عهد النبيِّ ﷺ بنزول الملائكة عليه وشهوده لهم، والأمر هنا هو نفس الأمر الذي جاء في قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٤-٥]، والآيتان بمعنى واحد، وهو الكلام عن ليلة القدر المباركة التي كانت فيها هذه الأحداث المباركة، وهي احتفال الملائكة واحتفاؤهم بوحي الرسالة وابتداء نزول القرآن، وفيه الأوامر والأحكام والأخلاق الفخام.

وإنما عبَّر بالمضارع ﴿تَنَزَّلُ﴾، لحكاية الحال واستحضارها في الذهن لعظمتها.

ثم ذكر مزيَّةً أُخرى من مزايا هذه الليلة وبركتها، فقال: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾(٢) أي: إنها ليلةُ سلام، حيثُ فتح الله فيها سبيل الهداية والرشاد، المؤدِّيَيْن

---

(١) سلف الكلام في تبيان أن العدد للتحديد.

(٢) ليلة القدر أصلها الليلة التي ابتدأ فيها نزول القرآن على النبيِّ ﷺ، ولتَشَرُّفها بهذا الحَدَث العظيم لُقِّبَتْ بهذا اللقب الكريم، ثم بقيت ذكرى تَتَكرَّر في مثل تلك الليلة من كل سنة، تحتفل وتحتفي بها الملائكة ـ والله أعلم ـ احتفاءَها بالليلة الأولى التي نَزل فيها القرآن، وجاءت السورة مُبيِّنة للأمرين معاً، فالمراد بقوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾: القرآن الذي حَوَى كل أمر عظيم، كما جاء في =

إلى السلام. أو المراد ـ والله أعلم ـ: سلامُ الملائكة على بعضهم تهنئةً واحتفاء. وقوله: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ تقريرٌ لاستغراق السلام والاحتفاء بها حتى نهايتها.

ويجوز أن يُراد سلامُ الملائكة بعضهم على بعض وعلى المؤمنين القائمين المُحْيين لهذه الليلة المباركة، إخباراً بالمعنى المَصْدري عن الزمان، على حدِّ قولهم: «شهر رمضان صيام وقيام»، ويأتي السلام بمعنى التهنئة، كما في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤]، والله أعلم.

فكلَّما دار الفَلَكُ دورتَه، وجاء بشهر رمضان؛ صَحِبَته نفحةٌ من ذكرى نزول هذا القرآن الذي عمَّ خيره سائر الأكوان ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

* * *

= سورة الدخان: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]. وإنما عدَّى التنزيل بـ﴿مِّن﴾ لإفادة التنويع فيما احتواه المنزل، على ما أظن. والمراد بقوله: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ شعار الاحتفال وعبارة التهاني، وهو من باب الإخبار بالمصدر عن الزمان، كقولك: العيد مُصافحات وتهاني، ومثل ذلك من خصائص اللغة وعُرْف التخاطب. والسلام يكون للتعارف وللطمأنة، ويكون للتهنئة، كقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]، فالملائكة تحتفل وتحتفي بليالي القدر يُهنِّئ بعضهم بعضاً، ويُهنِّئون أرواحَ المؤمنين بها، وبالصيام والقيام. هذا ما أراه في فهم السورة، والله أعلم بمراده. (المؤلف).

سورة البينة

مُختَلَف فيها، مدنيَّة أم مكيَّة

وآيها ثمان

فبعد أن بيَّن في السورة السابقة فَضْل الليلة التي نزل فيها القرآن، بيَّن في هذه فَضْل القرآن، ونوَّه بشأنه وشدَّة احتياج البشر له؛ لعموم الكفر والشِّرك والضلال في سائر البشر قبل نزوله، فهم في أشد الحاجة إليه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)﴾.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ عمّا هم عليه من الضلال ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١)﴾ التي هي ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢)﴾ عن الباطل، وهي هذا القرآن، أي: لا يُمكِنُهم أن يهتدوا إلى الصواب من أنفسهم، بعد أن زاغُوا وأفسدوا فِطَرَهم، وابتعدوا عن الحقِّ بتلاعبهم في شرائعهم، فهم في أشدِّ الحاجة إليه، ولا علاج لهم سوى ذلك. وفي هذا الوَصْف تعريضٌ بما عند أهل الكتاب من الخَلْطِ في كتبهم التي بأيديهم، وباحتياجهم الشديد إلى هذا الدين، كالمشركين.

ثم وصف هذه الصُّحف المُطَهَّرة بقوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ[1] قَيِّمَةٌ (٣)﴾ أي: ذاتُ

---

(١) إن الكلام يُكتَبُ في الورقة ونحوها، فتسمَّى الورقة كتاباً وصحيفة، ويُسمَّى نفس المكتوب كتاباً، فمن الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨]، =

قيمةٍ لِـمَا فيها من الحقِّ، أو مستقيمةٌ ناطقة بالحق والصواب. وهي إما الأحكام الحكيمة، والبيانات الجليلة، والتوجيهات الصحيحة التي في القرآن، وإما ما اشتمل عليه مما صحَّ من كتب الأوَّلين، كصُحف إبراهيم وكتاب موسى وعيسى عليهم السلام، فإنها موجودةٌ في ضمنه؛ لأنه واسع ومبارك، أو كلاهما، وهو الأَوْلى والأقرب لنهج القرآن، على أنه يجوز أن يراد بالكتب: نفس السُّوَر.

وعلى كُلٍّ، فالآية تنويهٌ بشأنِ هذا القرآن وما اشتمل عليه، وبيان شدَّة الحاجة إليه، وتَـمنُّن على مَنْ آمن به من الفريقَيْن بعد أن كانوا في ظلام من الجهل بما يجب الاعتقاد والعمل به من شرائع أنبيائهم وسَلَفِهم، وذلك لاعتمادهم فيما يعتقدون وما يعملون على تقليد آبائهم الضَّالِّين، حتى جاءَتهم هذه البيِّنةُ الواضحة من الله سبحانه، فهَدَتْهم لرُشْدِهم وأخرَجَتْهم من ضلالهم، وهم الذين آمنوا بها منهم، واهتَدَوا بهَدْيها.

وأما الذين لم يؤمنوا بها فقد أومأ سبحانه إلى أمرهم ضِمنَ بيان حال أهل الكتاب ودَيْـدَنهم مع كـتبهم، فـقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ على ألسنة أنبيائهم، فتفرَّقوا بها بالتأويل، وتلاعَبوا في التوحيد، وما أُمِروا إلا ليعبدوا الله وحده، وهكذا انسَلَخَ كلُّ فريقٍ منهم مما يأمر به كتابُه، وأخلَدَ إلى الأرض واتَّبع هواه، وكان أمرُه فُرطاً. وهكذا كان شأنُهم في النبيِّ ﷺ، فجَحَدوا بيِّنـتَه، كما جَحَدوا بيِّنَةَ أنبيائهم وحَرَّفوها بالتأويل، وأشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سلطاناً، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ أي: مائلين عن جميع العقائد الزائفة، ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

= ومن الثـاني: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ [الأنعام: ٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾. فالمراد بالصحف: ما يكتب فيه، وبالكتب: المكتوب. والله أعلم. (المؤلف).

ثم نوَّه بشأن هذه الأوامر بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ أي: دينُ تلك الكتب القيِّمة، أو البيِّنة القيِّمة، أو دين الملَّة القيِّمة(١).

ويفيد مفهوم هذه الآية: وحدةَ الأديان في أُسُسِها، كما يفيد أنَّ دَيْدَنَ أهل الكتاب التفرُّق في أمر الأديان، والاختلاف في أحكامها، والمُعارضةُ لِـمَا جاء فيها كلِّه أو بعضِه، فهو يَنْعى عليهم بذلك ويُعنِّفهم عليه.

أقول: ويجوز أن تكون الآيات أيضاً حكايةً لِـمَا كان يقوله أهل الكتاب والمشركون من أنَّ نبياً قد حان حينُه، ووافانا زمانُه، يأتي ونؤمن به، يقولون ذلك لأن الأفكار كانت مُشْبَعةً بالبشارة بقرب مجيء نبيٍّ يكون خاتم الأنبياء، وتكون شريعتُه خاتمةَ الشرائع، كما بشَّرت بذلك الكتب السماوية ولا سيما الإنجيل، إذ معناه البشارة، وكان الأحبار والرُّهبان يبثُّون هذه الفكرة بين الناس، وكانت جاليات من الروم تأتي إلى مكة للتجارة تَرقُبُ ظهور هذا النبيِّ وتبثُّ الفكرة، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

ثم ذكر سبحانه جزاء الفريقَيْن الكافرين والمؤمنين، وسجَّل أحوالـهم، وبيَّن مصيرهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾(٢) أي: شرُّ الخليقة. بمعنى:

(١) قال غلام ثعلب في «ياقوتة الصراط» ص ٥٩٨، بتحقيقي: «﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ قال الإمامان ـ أي: ثعلب أحمد بن يحيى، إمام الكوفيين المتوفى سنة ٢٩١، والمبرِّد محمد بن يزيد إمام البصريين المتوفَّى سنة ٢٨٥ـ: هاهنا مضمر؛ كأنه قال: وذلك دين الملَّة القيِّمة؛ فكأنه نعتُ مضمرٍ محذوف؛ كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] أي: خَلْقاً باطلاً».

(٢) حيث استبدلوا الكفر بالإيمان، والحقَّ بالباطل، والطاعة بالعصيان، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ حيث آمنوا بما جاءهم من الحق، وعملوا به، فكانوا خيرَ أمةٍ أخرجت للناس. (المؤلف). =

أنهم أقبَحُ وأسوَأُ ما خلق الله حالاً؛ لأنَّ مُنكِرَ الحق بعد معرفته وقيام الدليل عليه منكرٌ في الحقيقة لعقله، مُهْلِكٌ لروحه، جالبٌ للهلاك على نفسه وغيره.

ثم قابل حالَ الكافرين ومصيرَهم بحال المؤمنين ومصيرهم، على نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ لأنهم ـ بمتابعة الحقِّ بعد معرفته ـ قد حقَّقوا لأنفسهم معنى الإنسانيَّة التي شرَّفهم الله بها وبالعمل الصالح، قد حفظوا نظام الفضيلة الذي جعله الله قوام الوجود الإنساني، وهَدَوْا غيرَهم بحُسْنِ الأسوة إلى مثل ما هُدُوا إليه من الخير والسعادة، فمَن يكون أفضَلَ منهم؟!

ثم سجَّل جزاءهم، فقال: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لأنهم لم يخرجوا عن حدود شريعته، ولم يُهمِلوا العمل بسُنَّته، ورضاءُ الله: تفضُّلُه وإحسانه، وهو أكبر الجزاء، ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ لأنهم يحمدون صنيعَه فيهم وإحسانَه إليهم بسعادة الدارَيْن، فإنهم بحُسْن يقينهم يرتاحون إلى امتثال ما يأمر به في الدنيا، فهم راضون عنه، ثم إذا ذهبوا إلى نعيم الآخرة وجدوا من فضل الله ما لا محلَّ للسخط معه، فهم راضون عن الله في كل حال. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم ختم الكلام بقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ قال الأستاذ الإمام: أراد بهذه الكلمة الرفيعة: الاحتياط لدفع سُوء الفهم الذي وقع ولا يزال يقع فيه العامَّة من الناس، بل الخاصَّة كذلك، وهو أنَّ مجرَّد الاعتقاد الديني بتأثير الوراثة وتقليد الأبوين،

= قلت: الصواب أن يقال: «والباطل بالحق، والعصيان بالطاعة»، لأن الباء تدخل على المتروك بعد الفعل «استبدل»، وقد سلك المؤلفُ الجادةَ في قوله: «حيث استبدلوا الكفر بالإيمان»، لكن لم يُتابع على النَّسق نفسه.

ومعرفة ظواهر بعض الأحكام، وأداء بعض العبادات كحركات الصَّلاة وإمساك الصوم، مُجرَّد هذا يكفي في نَـيْل ما أعدَّ الله من الجزاء للّذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإن كانت قلوبُهم حَشْوُها الحسدُ والحقدُ والكبرياء والرياء، وأفواهُهم ملؤُها الكذبُ والنميمة والافتراء، وتهزُّ أعطافَهم رياحُ العُجْب والخُيلاء، وسرائرُهم مسكنُ العبوديَّة والرِّقِّ للأمراء، بل ولمن دون الأمراء، خالية من أقل مراتب الخشوع والإخلاص لربِّ الأرض والسماء، كلا، كلا، فإنَّ خشية ربِّهم لم تحلَّ قلوبهم، ولهذا لم تُهذِّب نفوسَهم، ولا يكون ذلك الجزاء إلا لمن خشيَ ربَّه، وأشعر خوفه قلبَه، والله أعلم.

* * *

سُورَةُ الزَّلزَلَةِ

مُختَلَفٌ فيها؛ أمكيَّة هي أم مدنيَّة

وآيُها ثمان

والغرض منها:

الترغيب بالخير، والترهيب عن الشرِّ، حَذَراً من يوم الحساب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، ويكون ذلك بخراب العالم واصطدام الأجرام الكونيَّة ببعضها، والله أعلم.

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ[1] أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ وهي ما يكون في باطنها من كنوز ودفائن وغيرها، وذلك من جرَّاء تَشَقُّقها وتَفَسُّخها وتَفَتُّتها بالاصطدام والاضطراب، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣ - ٤].

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾؟ وهي عبارة تدلُّ على التَّهوُّل وشدَّة الدهش.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ[2] رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾[3] وتحديثُ الأرض

(١) أظهر ذكر الأرض ثانياً، ولم يكتفِ بضميرها، فيقول: «وأخرجت أثقالها» للإشعارِ بأنَّ الأرضَ عند إخراج ما فيها تكون على حالةٍ مغايرة لِـما كانت عليه عندَ الزلزلة، فكأنَّها أرض أخرى.

(٢) «بأنَّ»: الباء للسببيَّة، أي: بسبب أنَّ ربَّكَ أمَرَها بالتحديثِ بأخبارِها.

(٣) الآيات (١- ٥) تعودُ إلى آية القيامة، والثلاثة الأخيرة (٦- ٨) تعود إلى آية الحشر وبيان الحساب. (المؤلف).

تـمثيل[١]، كما قال الطبري وغيره في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١][٢]، والمعنى: إنه يُفهَمُ من شكل الحادث كونه بأمر إلهيٍّ خاص، أمرها به أن تكون خراباً. أقول: فهو تمثيلٌ لِـمَا لا يمكن معه الإنكار، كما كانوا ينكرون قبل ذلك حدوثه ووقوعه، بمعنى: أنَّ هذه الحقائق تظهر لهم يومئـذ مكشوفةً ظاهرةً للعِيان، ويدركون أنَّ هذا الحادث هو ما كان سبحانه قد توعَّد به.

ثم ذكر ما يكون بعد ذلك من الحشـر والحساب، فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ[٣] ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي: مُتفرِّقيـن بحَسَب طبقاتهم وأصنافهم، كما مرَّ في قوله تعالى في

(١) بل حقيقة، فالأرض لها إدراك على وجه يناسبها، كما أن سائر الجمادات كذلك، وإن كنا لا نفهم هذا الإدراك ولا نعلم كيفيته، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ويوم القيامة يُنطِقُ الله الجلود والأسماع والأبصار بأعمال أصحابها، فلا يمتنع أيضاً أن تنطق الأرض حقيقة.

وفي تحديثِ الأرض بأخبارِها دليلٌ على ثبوت شعورها، وإدراكِها لِـما يجري على ظهرها، فهي سوف تشهدُ يومَ القيامة بما عُمل على ظهرها، وهذه الشهادة لا تكون إلا عن علمٍ ومُشاهَدَة، فلولا أنَّ لها إدراكاً وشعوراً لما علمت، ولما تحمَّلت هذه الشهادة حتى أدَّتها يوم القيامة، فإنَّ الشهادة لا تُقبل إلا ممَّن تحمَّل العلمَ المشهودَ به.

(٢) قال الطبريّ في «تفسيره»: «يقول جلَّ ثناؤه: فقال الله للسماء والأرض: جيئا بما خلقتُ فيكما، أما أنت يا سمـاءُ فأطلعي ما خلقتُ فيك من الشمسِ والقمر والنجوم، وأما أنتِ يا أرضُ فأخرجي ما خلقتُ فيك من الأشجار والثمار والنبات، وتشقَّقي عن الأنهار ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] جئنا بما أحدثتَ فينا من خلقك، مُستجيبينَ لأمرِك لا نعصي أمرك. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل». ويُنظر الكلام حول هذه الآية في مقدِّمة التفسير.

(٣) ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾: تقول العرب: صدرَ فلانٌ عن المدينة؛ أي: تركها وانتقل لغيرها. والمراد هنا: يومَ تقعُ هذه الزلزلة وما بعدَها من الأهوال، ينصرف الناسُ عن موقف الحساب بعدَ العرض مُتفرِّقين.

سورة النبأ: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]؛ وذلك ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦﴾ أي: أجْزِيةَ أعمالهم، خيراً كان أو شراً[١].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾[٢] فهذا هو القانونُ الأساسي، لا تغيير فيه ولا محُاباة.

قال الأستاذ الإمام: وهذا يعمُّ المؤمن والكافر، وقد قال بذلك كثيرٌ من أئمة السَّلَف رضي الله عنهم، كيف لا والله جلَّ شأنه يقول: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أصرحُ قولٍ في أنَّ الكافر والمؤمن في ذلك سواء، وغاية الأمر: أنَّ حسنات الكفار الجاحدين لا تصل بهم إلى أن تخلِّصهم من عذاب الكفر، فهم به خالدون في الشقاء، إلا أنَّ درجتهم تتفاوت بتفاوت أعمالهم المخفِّفة عنهم، كما قال ﷺ عن أبي طالب: «إنه في ضحضاح من نار»[٣].

والآيات التي تنطق بحبوط أعمال الكفار وأنها لا تنفعهم، معناها: أن الأعمال

---

(١) بل يرى الإنسان عملَه يوم القيامة، ويترتَّبُ على ذلك أيضاً أن يرى جزاءَه، وانظر ما تقدَّم تعليقاً عند تفسير الآية ١٠ من سورة التكوير.

(٢) أي: فمَنْ يعمل مقدار ذرَّةٍ خيراً ظاهراً أو باطناً من عمل قلبيٍّ أو نفسيٍّ أو جسديٍّ يَكتسبُه بإرادتِه في الحياة الدنيا، يَرَ كتابَ أعمالِه مُسجَّلاً بالصُّورة والصَّوت والخواطر والنيَّات، ويَنالُ ثوابَ عملِه الذي عملَه في الدنيا، خيراً باقياً، وسعادةً خالدة، وثواباً حسناً. ومَنْ يعمل مقدار ذرَّة شراً من عمل قلبيٍّ أو نفسيٍّ أو جسديٍّ يكتسبُه بإرادته في الحياة الدنيا، يَرَ كتاب أعماله مُسجَّلاً بالصُّورة والصَّوت والخواطر والنيَّات، وينال عقابَ عمله الذي عمله في الدنيا.

(٣) سبق تخريجه (٣: ١٨٥)، (٤: ٧١).

التي كانوا يتعبَّـدون بها حابطة، لأنها ليست من عند الله، فهم فيها كمن يطلب أمراً ويسلك غير الطريق المؤدية إليه، فسَعْيُه فاشل، أما الأعمال الإنسانيَّـة التي يعملونها لوَجْه الله، فإنها تُخفِّـف عنهم العذاب، ولكن لا ترفع عنهم عذاب الكفر والخلود في النـار، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢] ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

* * *

سُورَةُ العَادِيَاتِ

مُخْتلف فيها؛ أمكيَّة هي أم مدنيَّة؟

وآيها إحدى عشرة

ومُلخَّصها:

بيان مَيْل الإنسان إلى الشر بإفساده لطبيعته.

وتحذيره عن ذلك ببيان اطِّلاع الله عليه وحسابه يوم الحشر وعقابه.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾.

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ جمعُ عاديَة، مِنَ العَدْوِ، وهو الجَرْي. والضَّبْحُ: أنفاسُ الخيل عند جَرْيها. يُقسِمُ سبحانه بالخيل التي تعدو وتجري في الغزو والجهاد في سبيل الله، وهي من شدَّة الجري تَضْبَحُ ويُسمَعُ لها زفير شديد، ينوِّه بشأنه.

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾ وهذا وَصْفٌ آخر لـها، وهو ما يكون بحوافرها أثناء الجري من قَدْحِها الأرضَ وحجارتَها، أو هو تمثيلٌ لشدَّة الجري وكنايةٌ عنه.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ في سبيل الله على العَدُوِّ ﴿صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾ أي: بفعل الإغارة ﴿نَقْعًا ۝٤﴾ أي: غباراً، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾ أي: بالنَّقْع ﴿جَمْعًا ۝٥﴾ أي: أدخَلْنَ الغبار وسط جمع العدو، وهو كنايةٌ عن هجومهنَّ عليهم، واختلاطهنَّ بهم عند غَلَبتهم، وينوِّه بكلِّ ذلك ـ وهو صورة الحرب القديمة ـ بصفتها صورة حرب.

قال الأستاذ الإمام ما مُلخَّصه: أقسم سبحانه بالخيل مُتَّصفةً بصفاتها التي ذكرها، آتيةً بالأعمال التي سَرَدها، لينوِّه بشأنها، ويُعْلي من قَدْرها في نفوس المؤمنين، أهل العمل

والجد، ليُعْنَوا باقتنائها وتدريبها على الكرِّ والفرّ، وليحملهم على العناية بالفروسية، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وكان في هذه الآيات وما على غرارها من الأحاديث ما يحمل كلَّ فرد من رجال المسلمين أن يكون في مقدِّمة فرسان العالم مهارةً وإقداماً[١].

يُقسِمُ سبحانه بالخيل صاحبةِ تلك الصفات التي رفع ذكرها؛ ليؤكِّد أنَّ الجهاد ضروريٌّ للمحافظة على الحق والنصرة له، ودَفْع المعتدي عليه، ولا سيما حق الله[٢].

ثم جعل منشأ العلّةِ والسببَ للجهاد الخبرَ الذي جاء في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ

---

(١) أقول: وكان على المسلمين أن يغالبوا الكافرين في صنع كل ما جدَّ من آلات الحروب. (المؤلف).

(٢) أقسم سبحانه بالخيل وصفاتها وأعمالها، تنويهاً بشأنها، وإلماعاً إلى المُقسَم عليه، وهو محذوف يُفهَمُ من طبيعة الـمُقسَم به، على نهج القرآن في مثل ذلك. والتقدير: لتُـقاتِلُنّ في سبيل الله وليُزهِقَنَّ الحقُّ الباطلَ. ثم ذكر موجبات هذا القتال، ناظراً إلى الكفار بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي: إنه لجحود بربوبيّـة ربه ووحدانيته وكتبه ورسله وقدرته على الحشر والجزاء، رغمـاً عن أنه يشهد على ذلك بطبيعته ووجدانه، ويشعر به، وإنه سيشهد على نفسه يوم القيامة.

ثم علَّل منشأ الإنكار في الرؤساء الذين هم قدوة الأتباع، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي: فهو يُفضِّل الماديّات على الروحيّات والمعنويّات. فالآية تُـؤذن بأنه يكره هذا في الدين الذي يسلبه مركزَه، ويُسوِّيه بباقي الناس، ويُفوِّت عليه حُظوظَ الدنيا، فتوعَّده بقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ ...﴾ أي: أفلا يعلم بشعوره ووجدانه أنه مبعوثٌ ليوم عظيم ينال به حسابه وجزاءه؟ وحينئذ يندم ولاتَ ساعةَ مندم.

ثم أكد الوعيد وبالغ فيه بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ لا تخفى عليه من أمرهم خافية، وسيجازيهم جزاء وفاقاً. (المؤلف).

﴿لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦﴾ أي: كفورٌ جَحودٌ لله ولنِعَم الله، ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧﴾ أي: وإنَّ الله على كفره وجُحوده هذا لَـمُطَّلعٌ وشهيد، أو الضمير للإنسان، وشهادته على نفسه في ذلك إنما تكون يوم القيامة[١].

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾[٢] فيُـضَحِّي في سبيله الحق والصواب. قال الحسن: المعنى: إنَّ الإنسان لَبخيلٌ شحيحٌ لشدَّة حبِّه للمال[٣]. وقال الفرَّاء: بل المعنى: إنه شديدُ الحب للمال[٤].

وأقول: تكون شـدّةُ حبِّه للخير ـ كالرياسة وجمع المال ـ هي التي تحمله على معارضة الرسل ومقاومة الإصلاح؛ حفظاً لمركزه الزائف وماله المغصوب. فتكون الآية بياناً لمنشأ الإعراض فيه عن الله، والسبب لمقاومته لرسله.

ثم توعَّده على ذلك فقال: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩﴾[٥] من الموتى، أي: بُعثوا ونُشروا، وخرجوا من القبور.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ أي: ما حَوَتْـه صدورُهم عن أقوالهم وأفعالهم، بمعنى: جُمِعَ ذلك المحصول وأُظهِرَ وبُيِّن، بحيثُ لا يبقىٰ سبيلٌ إلى إخفائه.

---

(١) أو شهادته في الدنيا والمراد: إنَّه على كُفْرِ النعمة وجُحودها لشهيدٌ على نفسه، يُجاهر به، ويُفاخِرُ بفعلِه، إذ يزعم أنَّ الغزوَ للسَّلْبِ والنهب، والاستعلاءِ في الأرض، حقُّ الأقوى على الأضعف. أو أنَّ أعمالَه تشهدُ بأنَّه كفور لنِعَم ربِّه، فهي شهادة بلسان الحال.

(٢) أي: وإنَّ الإنسانَ لأجلِ حُبِّ المالِ وحرصِه عليه لشديدٌ قويٌّ في البغي والظلم والعدوان.

(٣) «النكت والعيون» للماوردي (٦: ٣٢٦).

(٤) «معاني القرآن» للفراء (٣: ٢٨٥).

(٥) الهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ﴾ للإنكار، والفاء للعطف على مقدَّر. أي: أيفعلُ ما يُفعَل من القبائح ولا يلاحظ ما سيحلُّ به إذا بُعثر ما في القبور.

ومفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ محذوف، حُذِفَ لِيَجُولَ الفِكرُ في استحضاره وتقديره، وقد دلَّ عليه ببعثرة ما في القبور وتحصيل ما في الصُّدور، أي: أفلا يعلم الكَنُودُ الحريصُ ما يكون حالُه في الحياة الأُخرى يوم تُكشَف السَّرائر، ويُجمع محصولُ الأعمال والضمائر.

ثم أكَّد الوعيد بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾، نعم، إنَّ الله خبيرٌ بهم يومئذٍ وفي هذا اليوم أيضاً، وإنما خصَّ ذلك اليوم بالذِّكر ليكون الكلام وعيداً لهم فيه، أي: وسيُجازيهم يومئذٍ جزاءً وفاقاً.

وإنما أتى هنا بضمير الجمع؛ لأنَّ «الإنسان» اسم جنس جَمْعيّ، لفظه مفرد، ومعناه جمع.

* * *

سُورَةُ القَارِعَةِ

مكيَّة، وهي ثمان آيات

والغَرَضُ منها:

بيانُ هَوْل يوم القيامة، وما يتبعُه من حساب مَهيب، وثواب وعقاب رغيب رهيب.

*   *   *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾.

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ ﴾؟ القارعة اسمٌ من أسماء القيامة، كالحاقّة والصّاخّة والطامّة والغاشية. ووجه تسميتها بالقارعة: أنها تقرع القلوب بهَوْلها، وأنّ الأجرام الكونيَّة يَصدُمُ بعضُها بعضاً ويَقرَعُه.

وقوله: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾؟ استفهام قُصِدَ به تهويلُ أمرها؛ لشدَّة ما يكون فيها، مما تفزع له النفوس، وتدهش له العقول، يصعب تصورها.

ثم زاد في تهويلها بقوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾؟ أي: لا شيء يحيط بها ويفيدك برَسْمها، فأخذ يُعرّف بأحوالها وببعض ما يحدث فيها، فقال: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ ﴾ والفراش: هي الحشرات التي تراها تَـتَرامى على ضوء السِّراج ليلاً؛ يُضرَبُ بها المَثَلُ في الحَيْرة والجهل بالعاقبة، والناس من هَوْل ذلك اليوم يكونون منتشرين حَيارى هائمين، لا يدرون ماذا يصنعون، ولا ما يُصنَعُ بهم، كما جاءَ في سورة القمر: ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر: ٧].

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ والعِهْن: الصُّوف، والمنفوش: المفرَّقةُ شعراتُه بعضها من بعض، فيكون على حالة يطير بها مع أضعف ريح. أي: إنَّ الجبالَ ـ لِتَفَتُّتها وتَفرُّق أجزائها ـ لم تبقَ لها إلا صورة الصُّوف المنفوش، لا تلبث أن تَتَطاير وتذهب، فما أرهَبَ هذا الأمر وأشدَّ شقاه!

وبعد أن ذكر القيامة ذكرَ الحساب والجزاء، وقال: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾[1] قال الأستاذ الإمام: يقال: ثَقُلَ ميزانه، أي: صار له قَدْرٌ وقيمة، كأنه إذا وضع في كفَّة ميزان رَجَح[2]. وإنما يكون المقدار والقيمة

---

(١) أي: مرضيَّة له، يُحبُّها صاحبُها ويَسعَد فيها، ولا يملُّ منها ولا يَسأمُها. فـ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ بمعنى اسم المفعول للمبالغة في ثبوت الرضا.

(٢) جاء ذكر الـميزان في القرآن في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]، وصيغةُ الجمع فيه تحتملُ أمرَين: إما أن تكون ثمة موازينُ متعددة، تُوزَن فيها الأعمال، وإما أن يكون المراد الموزونات، جمع باعتبار تنوُّع الأعمال.

وجاء ذكر الميزان في السنـة، فمن ذلك ما رواه البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يَزِنُ عند الله جناح بعوضة». وقال: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]».

وروى البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤) أيضاً عن النبي ﷺ قوله: «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرَّحمٰن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وروى أحمدُ في «مسنـده» (٦٩٩٤)، والتـرمذي (٢٦٣٩) عن عبد الله بن عمـرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيُخلِصُ رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعةً وتسعين سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ مدّ البصر، ثم يقول له أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتك كتبتي الحافـظون؟ قال: لا يا رب، فيقول: ألك عـذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب، =

لأهل الأعمال الصَّالحة والفضائل الراجحة، فهؤلاء هم الذين يُجزَونَ بالنعيم الدائم، ولا رَيْب أنَّ معيشتَهم فيه تكون معيشةَ تـمتُّع ولذّة، وهي التي تُسمَّى العيشة الراضية الهنيئة.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ يقال: خفَّ ميزانه، إذا سَقَطَت قيمتُه، فكأنه ليس بشيء، حتى لو وُضع في كفَّة ميزان لم تَرجَح به. ومن كان في هذه الحياة كثيرَ الشرِّ قليلَ الخير، لم يبلغ بنفسه منازل الإخلاص لله في القول والعمل، ولم يرتفع بها عن دنايا الأمور وسفاسفها، ولم يُنزِّه عقلَه عن الإشراك، ولم يُطهِّر قلبَه عن رذائل الأخلاق، فماذا يكون في الآخرة؟ لا ريب أنه لا يكون شيئاً، فلا وَزْنَ له، ولا تَرجَحُ به كفَّةُ ميزان لو وُضع فيها. وهذا المعنى قد صرَّح به القرآن في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

ومعنى ﴿فَأُمُّهُۥ﴾: أنها مَرجِعُه الذي يأوي إليه، كما يأوي الوَلَدُ إلى أمِّه.

= فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فيقول: أحضِـروه، فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السِّجِلّات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السِّجِلّاتُ في كفّة، والبطاقة في كفّة، قال: فطاشت السِّجلّات، ولا يثقل شيءٌ باسم الله الرحمن الرحيم».

وأما صفة الميزان فقد دلّتِ الأحاديثُ على أن له كفّتَيـن حِسِّيّـتَين مُشاهَدَتَين، تُوزَنُ فيه الصحائف، وربما وُزِنَ الشخصُ نفسُه أو أعمالُه، وكل ذلك مذكور في الأحاديث.

ووَزنُ الأعمالِ من مواقف يوم القيامة المشهودة، قال القرطبيُّ في «التذكرة» ص٧١٥: «قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها». انتهى. وعليه فالوزن أيضاً لا يكونُ في حق كلِّ أحد، ذلك أن الله يُدخِلُ عباداً الجنةَ من غير حساب، فلا وَزْنَ عليهم إذن. والله أعلم.

ومعنى ﴿هَاوِيَةٌ﴾: أنها مَهْواة سحيقة يهوي فيها، أي: إنَّ أُمَّه التي يأوي إليها: نارٌ حامية يهوي فيها، كما سيُفسِّرها به.

وسُمِّيت «هاوية» مع أنها يُهوى فيها؛ كما سُمِّيت العيشةُ راضيةً مع أنها يُرضى بها، ومثل هذا عند البيانيين يُسمَّى: المجاز العقلي، من إعطاء صفة الفاعل للمفعول به، مبالغةً في الوصف، وهو من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

ثم زاد في تهويلها، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾، أعاذنا الله. وضمير ﴿هِيَهْ﴾ للسَّكْت.

وفي كلمة ﴿حَامِيَةٌۢ﴾ ما في كلمة ﴿هَاوِيَةٌ﴾ من المجاز العقلي.

ثم قال الأستاذ الإمام ما مُلخَّصه: ومن عجيب ما قاله بعض المفسِّرين في الميزان: إنَّ له لساناً وكفّتَين كأطباق السماء والأرض(١)، ولا يعلم ماهيَّته إلا

---

(١) ثبت في السُّنّة أنّ للميزان كفّتَين، أما اللِّسانُ ووَصْفُ سَعَةِ الكفّتَين بأنهما تستوعبان السماوات والأرض فلم يأتِ فيه حديثٌ مرفوع فيما أعلم، ولكن وردت فيه آثار، فمن ذلك ما روى اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٢٢٠٨) بإسناده عن سلمان رضي الله عنه قال: يوضع في الميزان، وله كفّتان لو وُضِعَ في إحداهما السماواتُ والأرضُ ومَنْ فيهن لوَسِعَه. انتهى. وأسند أيضاً (٢٢١٠) عن الحسن قال: له لسان وكفتان.

وروى اللالكّائي أيضاً في «اعتقاد أهل السنة» (٣٢١) عن ابن أبي حاتم قال: سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار وما يعتقدان من ذلك، فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار ـ حجازاً وعراقاً وشاماً ويمناً ـ فكان من مذهبهم: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص... والميزانُ حقٌّ له كفّتان. انتهى.

وقال أبو القاسم الأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (١: ٢٥٠): «وأن الميزان حقٌّ له لسان وكفتان»، وقال أبو الحسن الأشعري في «مقالات الإسلاميين» (٢: ٣٥٣): «واختلفوا في =

الله(١)! فماذا بقي من ماهيَّته بعد لسانه وكفَّتيه حتى يُفوَّض فيه العِلمُ إلى الله بعد هذا البيان؟ ومِثلُ هذا الكلام جُرأة على غيب الله بغير نصٍّ صريح متواتر(٢) عن المعصوم ﷺ. ولم يرد في الكتاب إلا كلمة «الميزان»، وقد عرفتَ ما يمكننا أن نفهم منها لننتفع بما نعتقد، وما عدا ذلك فعِلمُه إلى الله سبحانه.

= الميزان، فقال أهل الحق: له لسان وكفتان»، وقال الغزالي في «قواعد العقائد» ص٦٥: «وأن يؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان، وصفتُه في العِظَم أنه مِثْل طبقات السماوات والأرض»، وقال ابنُ جزّي في «التسهيل لعلوم التنزيل» (٢: ٢٣): «مذهبُ أهل السنة أن الميزان يوم القيامة حقيقة، له كفّتان ولسان وعمود توزن فيه الأعمال».

وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٣: ٥٣٨): «قال أبو إسحاق الزجّاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفّتان ويميل بالأعمال».

ورَدَّ القرطبيُّ في «التذكرة» ص٧٢٣ قولَ مَنْ أوّلَ الميزان بالعدل والقضاء، فقال: «وهذا القول مجاز، وليس بشيء، وإن كان شائعاً في اللغة؛ للسنة الثابتة في الميزان الحقيقي، ووَصْفِه بكفّتين ولسان، وأنّ كل كفّة منهما طباق السماوات والأرض».

فظهر بذلك أن ذِكرَ اللسانِ معَ الكفّتين للميزان مأثور عن بعض الصحابة والتابعين، ومشهور عند أهل العلم سَلَفاً وخَلَفاً، حتى قد نُقِلَ عليه إجماعُ أهل السنة. وأما وصف كفّتي الميزان بأنهما كأطباق السماء، فيشهد له ما سبق ذِكرُه عن سلمان: «له كفّتان لو وُضِعَ في إحداهما السماوات والأرض ومَنْ فيهن لوَسِعَه»، ونصَّ عليه الغزاليُّ والقرطبيّ، كما تقدم. والله أعلم.

(١) بل العجيب إنكار ذلك والعدول عنه إلى غيره، مع كونه ظاهرَ اللفظ وحقيقةَ المعنى ـ والأصلُ الحملُ على الحقيقة ـ ودلت عليه عدّة أحاديث صحيحة، كما تقدَّم بيانه آنفاً.

(٢) اشتراط التواتر في مثل هذا المبحث ليس بشيء، فأصل الميزان ثابت بالنص القطعي في كتاب الله، ثم لا مانع من الكلام في التفصيلات بأخبار الآحاد الصحيحة، ألا ترى أن نعيم الجنة غيبٌ ثبت في النصوص القطعيَّة، ثم إننا نُثبت كثيراً من أوصاف هذا النعيم وظلاله وثماره... إلخ، بأخبار الآحاد الصحيحة.

هذا وإنَّ البشر اليوم قد اخترع من الموازين ما هو أتقَنُ وأضبَطُ من ذات الكفتين واللسان، ذلك الميزان الخشن غير المتقن، فكيف بالحكيم الخبير أن يستعمل ذلك الميزان الذي اخترعه البشر قبل أن يبلغ به العلم ما بلغ(١).

على أنَّ الموزون هنا مَعَانٍ ومعقولات(٢)، فما وَجْهُ احتياجها لكفّة بوسع الأرض والسماوات؟ وإنما ذلك قولُ مَنْ لا يعرف قيمة الإيمان بالغيب.

فعليك ـ أيُّها المؤمن المطمئن ـ أنْ تُوقِنَ أنَّ الله تعالى يَزِنُ الأعمال، ويميِّز لكلِّ

---

(١) هذا كلام فيه نظر، وفيه جرأة غير مستساغة، فمن قال: إن الميزان يستعمله الله استعمالاً؟! ليلزم أن يختار الميزان الدقيق الحديث على الميزان الخشن القديم! كلا، بل هذا الوزن إنما يكون لإقامة الـحُجَّة على الخلق، وإظهار كمال العَدْل وانتفاء الظلم بالكلية، ومثلُ هذا يحصل بأيِّ ميزان. ثم إن ميزان القيامة لا يقاس بميزان الدنيا، فهو وإن كان وافقها في الصورة الظاهرة من كونه له لسان وكفتان، إلا أنه يخالفها في الحقيقة، فلا ميزان أدقّ من ميزان ذلك اليوم، ولا ميزان أحسَنَ منه.

(٢) اختلف العلماء في الموزون ما هو؟ على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الموزون الأعمال نفسها، وذلك بأن تُجسَّمَ ثم تُوضَعَ في الميزان، وهذا القولُ له أدلة كثيرة من صحيح السنة، منها حديث «كلمتان خفيفتان...»، وقد رواه البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤)، وتقدَّم لفظُه في التعليق قريباً.

الثاني: أن الذي يُوزَنُ هو العاملُ نفسه، فيَثْقُل الإنسان في الميزان أو يخفّ، بمقدار إيمانه وعمله، لا لضخامة جسمه، ولهذا القول أدلته، منها حديثُ الرجل السمين، وقد رواه البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥)، وتقدَّم لفظُه في التعليق قريباً.

الثالث: أن الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال، ودليلُ هذا القول: حديثُ البطاقة الذي رواه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وتقدَّم لفظُه في التعليق قريباً.

ومال إلى كُلِّ قول من هذه الأقوال جماعةٌ من أهل العلم، ولا مانعَ من القول بمقتضى الأدلة كلها، فنثبت الوزن للثلاثة كما دلّت عليه النصوص.

وهذه الأقوالُ وأدلتُها تلغي ما ذهب إليه المؤلف أن الموزونَ معانٍ ومعقولاتٌ لا تحتاجُ لوزن.

عمل مقداره، ولا تَسَلْ كيف يزن؟ ولا كيف يقدِّر؟ فهو أعلم بغيبه[1]. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

هذا وقد قال سبحانه: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ [الحجر: ١٩]، أي: مُقدَّر معلوم في نِسَب أجزائه، فترى القمح والقطن مثلاً مُركَّبين من عناصرَ مُتَّحدة في الأكثر، ولكنها مختلفة في النِّسَب، وهكذا سائر الأشياء، فهل وُزِنَت تلك الموادُّ بهذا الميزان الذي يقولون؟ كلا، ولكنه سبحانه إنما يقول للشيء: كن فيكون، و﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، فالله ﴿يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

* * *

(١) نعم، ونحن ـ معشر أهل السنة والجماعة ـ مع إثباتنا للميزان الحقيقي ذي اللسان والكفتين، لا نسأل: كيف يزن الله فيه الأعمال، ونَـكِلُ عِلمَ الغيب إلى الله تعالى.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

مُختَلَفٌ فيها: أمكيَّة هي أم مدنيَّة

وآيها ثمان

والغَرَضُ منها:

التنديد عن التفاخر بالأموال والأولاد، وأنه هو الذي ألهى قريشاً عن قبول الدعوة.

وكذلك من أغراضها: تهويلُ ما هُوَ آتٍ من البعث والعقاب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾ أي: شَغَلكم التكالُب في الكَثْرة، يطلب كلُّ واحد أن يكون أكثر من الآخر مالاً أو رجالاً، لينالَ بذلك لذَّة التعالي والتباهي، ولا ينظر إلى الغاية الرفيعة، وهي البذل في سبيل الخير والنفع العام، أو في سبيل النهوض بالقوَّة إلى نُصْرة الحق، وقد استمرَّ بكم ذلك ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ٢﴾ أي: هَلَكتم وصِرْتُم من أهل القبور، وهذا في حقِّ صنف الماديِّـين المُتكالبين على الدنيا المُعرِضين عن الآخرة. والله أعلم.

قال الأستاذ الإمام: وأتى بصيغة الماضي على سُنَّة القرآن، حيث يُخاطِبُ الحاضرَ بما كان من الغائب الماضي، متى كان يحتذي حَـذْوَه، وكان للجميع جامعة تضمُّهم، كما قال لبني إسرائيل يخاطبُهم في زمن النبيِّ ﷺ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] إلى آخر الآيات، وفيها: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]، مع أن الذين وقع لهم ذلك إنما هم أسلافهم. وذلك كما تقول لأعقاب الظالمين: لا زلتُم تظلمون الناس حتى أكلكم الظلم وأهلككم ففنيتُم، وأراح الله الناس منكم. تقول لهم ذلك مع أنَّ الذي هلك واستراحت الناس منه أسلافُهم، وهو

ضَرْبٌ من التعبير، يريد الله به أن يُحمِّل تَبِعةَ الناس بعضهم على بعض، حتى لا يَدَعَ أحدُهم أخاه يأتي منكراً يفشُو فيفسد به أمر اجتماعهم؛ لأن تَرْكَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسادٌ للمجتمع ومِقْراض للأمم.

ثم رَدَعَهم عن ذلك وتوعَّدهم بقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ أي: مصيرَكم في الدنيا والآخرة إذا بقيتُم على هذه الحالة؛ إذ لا فوز بالتكاثر، ولكن بالتناصر على الحق.

ولما كانت عواقب اللهو إنما تأتي بعد إمهالٍ من الله تعالى وطولِ مدَّة في الأغلب، عبَّر بـ ﴿سَوْفَ﴾، ولما كانت الغفلة شديدةً، وتمكّن اللَّهْوُ على النفوس، وقد وضع على القلوب حجاباً يحولُ دون البصائر والـمَصائر؛ أعاد الخبر فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾، وأتى بـ﴿ثُمَّ﴾ ليفيد أنه خَبَرٌ جديدٌ، جيء به بعد الخبر الأول.

ثم زاد في الرَّوع والوعيد، فقال: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ أي: لو تعلمون العلمَ الحقيقيَّ لَشَغَلَكُم ما تعلمون عن هذا التكاثر. فجوابُ الشرط محذوف، على طريقة القرآن.

وفي قوله: ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ إضافةُ الموصوف إلى الصفة، وتُسمَّى هذه القاعدة بقاعدة: (مسجد الجامع)، مثل: صلاة الأُولى، ودار الآخرة.

وقد جاء في القرآن على هذه القاعدة عدَّة كلمات، منها قوله: ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤]، وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وقوله: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وقالوا في تأويل هذه الإضافة: إنَّ التقدير: مسجد المكان الجامع، وصلاة الساعة الأولى، ودار الحياة الآخرة، وجانب المكان الغربي، ودين الملة القيِّمة، وحق الشيء اليقين، إلى أمثال ذلك، فالمضاف إليه ليس هو النعت في الحقيقة، بل المنعوت المحذوف

الذي أُقيم النعتُ مقامَه؛ لأنه يدلُّ عليه، كقولك: مررت بالفقيه، على معنى: بالرجل الفقيه.

ثم استأنف وعيداً آخر، فقال: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ﴾ قال مقاتل: وهذا على نيَّة القَسَم. قالوا: ولا يجوز أن يكون هذا جواباً لـ﴿لَوْ﴾، لتحقُّق وقوعه وتأكُّده بالنون، وجوابُ ﴿لَوْ﴾ ممتنعُ الوقوع لامتناع الشرط. وكُنِّي برؤية الجحيم عن ذَوْق العذاب فيها، وهي كناية شائعة.

ثم أعاد الخبر لزيادة التأكيد، فقال: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾[1]، وأتى بـ﴿ ثُمَّ ﴾ ليفيد أنه خبر جديد جيء به بعد الخبر الأول، وذلك لِـمَا فيه من هذا القيد الزائد، أعني: ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾. والمعنى: لترَوُنَّها بالعيان والمشاهدة. وهذا التركيب مثل تركيب ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾.

ولقد زاد الأمر تشديداً عليهم بقوله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾[2]

---

(١) أرى ـ والله أعلم ـ أنَّ المراد بالأُولى: العَرْض عليها غُدُوّاً وعشيّاً، وبالثانية: الدخول التام بعد القيامة والحساب، على حدِّ قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر: ٤٦]. (المؤلف).

(٢) معنى الآيات (٦ – ٨) كما رجَّحه شيخنا العلامة الميداني في تفسيره «معارج التدبر»، وتبِعتُه في تفسيري «المعين» باختصار ص٦٠٠: «أُقسم لكم ـ أيها الناس ـ وأؤكِّد، أنّكم سترون الجحيم بأبصاركم بعد الموت، ثم أُقسِم لكم وأؤكِّد أنكم ستُشاهدونها في موقف الحشر عياناً دون رَيْب.
ثمَّ أُقسم وأؤكِّد أنكم ستُسألونَ سؤال تحسير وتنديم، وأنتم تُعذَّبون في نار الجحيم، عن النعيم الذي يتنعَّم به أهل الجنة وهم فيها، فتزدادون حسرةً وندامةً وألمًا، على ما فاتكم من السعادة الأبديَّة بسبب كفركم وتكذيبكم، وسُلوككم سُبلَ المجرمين.
فالكفار منكرو عذاب النار يتحقَّق لهم العلم بما كانوا له منكرين منذ ملامستهم عَتَبة الموت، =

أي: الذي تفاخرون به وتكاثرون؛ هل أدَّيتم حقَّ الله فيه، وراعيتُم حدودَ أحكامه في التمتُّع به، قال عليٌّ رضي الله عنه: «الدنيا حلالها حساب، وحرامها عقاب»[١].

نسأله سبحانه أن يُوفِّقَنا لرعاية أحكامه فيما أنعَمَ به علينا، إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

* * *

= ويرافقهم طول مدَّة البرزخ، ويُسمَّى هذا العلم: علمَ اليقين، ثم يكون العلم عن مشاهدة ومُعَايَنَة، وهذا العلم يكون في موقف الحشر؛ إذ يُحشرون إلى النار فيشاهدونها، ويُسمَّى هذا العلمُ: عينَ اليقين، ثم يكون العلم عن طريق الإحساس الجسديِّ حين يذوقونَ عذاب النار في الجحيم، ويُسمَّى هذا العلمُ: حقَّ اليقين، لتحقُّقه في الواقع تحقُّقاً تاماً.
والتَّلويم على التكاثر من متاع الحياة الدنيا، يتناول في هذه السورة الكافرين، لأنهم هم المخاطبون بما جاء فيها، وفيه تحذيرٌ للمؤمنين من أن يُلهيَهم التكاثرُ من مَتَاع الحياة الدنيا، وينسيهم كثيراً من واجباتهم، ويَجعلهم يقعون في المعاصي والآثام حتى الكبائر من دون دَرَكة الكفر».

(١) رواه البيهقي (١٠١٣٨).

سُورَةُ العَصْرِ

مكيَّة، وهي ثلاث آيات

والغَـرَضُ منها:

بيان استعداد الإنسان للخير والكمال، بمحافظته على سَلامة فطرته، وللشرِّ والضلال بإفساده لها.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١﴾[١] أقسَمَ سبحانه بالطرف الأخير من النهار؛ لِـمَا فيه من إدبار النهار وإقبال الليل، وهي آيةٌ من الآيات الكونيَّة، كما أقسَمَ بالضحى وهو الطرف الأول من النهار؛ لِـمَا فيه من إدبار الليل وإقبال النهار.

ويجوز أن يكون في القَسَم بالعصر ـ الذي هو آخر النهار ـ إيذانٌ بقِصَرِ ما بقي من الدنيا بالنسبة إلى ما مضى منها، وإلـماعٌ إلى أنَّ الإنسان ينحدر من مركز كماله إلى أسفل، كما تنحدر الشمس من مكانها في الظهيرة إلى مكانها في العصر، وتلويحٌ بقِصَر العُمُر ودُنوِّ الأجل، وتنبيهٌ للأخذ بالحزم فيما يقدِّمه لآخرته وما يعمله لها، كي لا يكون من الخاسرين لـها، الذين أشار إليهم في الـمُقسَم عليه، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾[٢] وذلك بإفساده لطبيعته بمفاسد التربية وسُوء القدوة، فيسلك سُبُلَ

(١) يجوز أن يراد بالعصر: جنسُه الذي يشمل سائر عصور الدهر التي مرَّت على الإنسان، يُقسِمُ بها بأنه كان فيها في خُسْر، إلا الذين آمنوا بأنبيائهم واقتفَوا آثارَهم، وعملوا الصالحات وتواصَوا بها. وقد يطلق «العصر» على الدهر كلِّه في اللغة. والأنسَبُ أن يكون هذا هو المراد، فهو يُقسِمُ بالدهر، أن الإنسان به في خُسْر إلا مَن استثنى. (المؤلف).

(٢) قال الإمام غلام ثعلب في «ياقوتة الصِّراط» ص ٦٠١: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ الإنسان: بمعنى الناس هاهنا؛ لأن الجماعة لا تُستثنى من واحد.

الضلال، ويبتعد عن طرق الهُدى والرَّشاد، التي هَداه إليها سبحانه بالفطرة، وبإرسال الرسل وإنزال الكتب.

لذلك استثنى من هذا الحكم الأناسيَّ الذين حافظوا على سلامة فِطَرِهم ونور بصائرهم، فاتَّبعوا ما جاءَهم من الحقِّ وآمنوا به وعملوا بمقتضاه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم سالمون من ذلك الخُسران المبين.

قال الأستاذ الإمام: ليس الإيمان مُجرَّد ما يُسمِّيه الناس اعتقاداً، وإن كان بمَحْض التقليد لا عَمَلَ لعقل ولا لوجدان فيه، فإنَّ مثل هذا الإيمان قد خسرت معه أُممٌ كثيرة ممَّن صدَّقت بمرسلين صادقين وأنبياء هادين. وإنما المراد منه: ذلك التصديق المقرون بطمأنينة النفس وخضوع القُوى لحكم مَنْ آمن به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، فذلك الإيمان هو الذي كان الله ولا يزال ينوطُ به النجاةَ من الخسران في الدنيا والآخرة.

فالمعنى من الآية: إنَّ الذين آمنوا إيماناً بالغاً من أنفسهم حدّاً يملك إرادتَهم، فلا يعملون إلا ما يوافق اعتقاداتِهم، فهم لا يعملون إلا الصالحات التي عُدِّدت بالتفصيل في القرآن العظيم، وجماعها: أن تكون نافعاً لنفسك ولأهلك ولقومك وللناس أجمعين، بعيداً من أن تَضُرَّ أحداً إلا لكفِّ ضَرَر أعظم منه، وهي التي تُعرَفُ عند البشر بالأعمال الخيريَّة الإنسانية النافعة لخاصَّتهم وعامَّتهم، التي لا تُنكِرها الأذواق السليمة، ولا تُجافيها الطباعُ المستقيمة. ولذلك سُمِّيت في الكتاب بالمعروف، وسُمِّيت أضدادُها بالمنكر.

ومن هذه الأعمال الخيريَّة: ما هو من ضروب الشكر لمُفيض الخير والإحسان على الخلائق أجمعين، مع ما فيها من إصلاح الأبدان والأرواح للمتَّقين، وذلك كالعبادات

الصحيحة التي ارتضاها سبحانه لنفسه، من دون أن نَعبَثَ بصُوَرها، ومنها: ما هو من ضروب البِرّ، كبذل الأموال في طُرق الخير، والسَّعي في إغاثة المنكوبين، وإقالة العثار، والعدل في الحكم، وإنقاذ المظلوم من الظلم، ونحو ذلك مما يطول تفصيله.

ومنها: فضائل المَلَكات التي تصدر عن الصالحات، كالأمانة والعفَّة والإنصاف والمحبة والإخلاص وأمثال ذلك. والمَلَكاتُ إنما تحصل بترويض النفس عليها، ومجاهدتِها في سبيل تحصيلها، حتى تملكَها النفسُ وتصبحَ طبيعةً لها.

ومنها: الأعمال التي تُربِّي تلك المَلَكات، كالتربية الصحيحة ومخالطة ذوي الأخلاق العالية، وكالصَّلاة والصوم وتجنُّب المنكرات.

ومن تلك الأعمال الخيريَّة الصالحة العظيمة: الدعوةُ إلى الحق، والوصيَّةُ بالصبر تجاه ما ينال من أذىً في سبيل ذلك. ولعِظَم أهميتهما أفرَدَهما بالذِّكر، فقال: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾، ومن الحق: توحيد الله تعالى وطاعته واتِّباع الأعمال الصالحة التي جاءت في كتبه وعلى لسان رسله، ويدخل في التواصي بالحق: سائر أنواع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما الصبر فهو مَلَكةٌ في النفس يَتيَسَّر معها احتمالُ ما يشقُّ احتمالُه، والرِّضا بما يكره في سبيل الحق، وهو خُلُقٌ عظيم يَتعلَّق به ـ بل يتوقف عليه ـ كمالُ كلِّ خُلُق. وكلُّ أُمة ضَعُفَ الصبر في نفوس أفرادها ضَعُفَ فيها كلُّ شيء، وذهبت منها كلُّ قوة.

أقول: إن كلَّ أُمَّـةٍ آمنت إيماناً صحيحاً، وعملت عملاً صالحاً، وتكاتفت تجاه الحق، وتواصَت بالصبر عليه وعلى محافظته؛ فازت فوزاً عظيماً، وربحت ربحاً كبيراً، وكانت عاقبة أمرها يُسْرى. وكلُّ أمة تَشَوَّه إيمانُها، وساءت أعمالُها، وانخذَلَت تجاه الحق والصبر؛ فشلت فشلاً ذريعاً، وخَسِرَت خسراناً مبيناً، وكانت عاقبةُ أمرها عُسْرى.

فالسورة أروَعُ تعبيرٍ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على ذلك، والتكاتف فيه.

وقد صحَّ أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا اجتمع اثنان منهم، لم يتفرَّقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر هذه السورة إلى آخرها، ثم يُسلِّم أحدهما على الآخر[١]؛ ليذكِّر كلٌّ منهما صاحبَه بما وَرَدَ فيها، ولا سيما التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

* * *

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥١٢٤) عن أبي مدينة الدارمي رضي الله عنه. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧٧٢٣): رجاله رجال الصحيح.

سُورَةُ الهُمَزَة

مكيَّة، وهي تسع آيات

والغَرَضُ منها:

التنديد بالمُنكِرين الذين يَستَنقِصُون الناس ويترفَّعون عليهم، مُعْتزِّين بما لهم من مركز مزيَّف ومال مغصوب، وتهديدهم بما سينالهم من جرَّاء ذلك يوم الجزاء.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ وهذه صفة غير المؤمن، قال الأستاذ الإمام: هو الذي يطعن في أعراض الناس، ويغضُّ منهم، ويحقر من أعمالهم وصفاتهم، وينسب إليهم السيئات، تَلَذُّذاً بالحطِّ منهم، وإظهاراً لترفُّعه عليهم. أصلُه من الهَمْز واللَّمْز، بمعنى: الطعن والكسر، ثم صار عُرْفاً لغوياً فيما ذكرنا. ويقال: إنَّ الهمز يكون بالعَيْنِ والشِّدْقِ واليد؛ حركات تُشيرُ إلى التحقير والهزء، واللَّمْز يكون باللسان. وقيل: الهمز: الطعن في الغَيْبة، واللمز: الطعن والعَيْب مواجهة. وبناء الصيغة على (فُعَلة) بضَمٍّ ففتح، يفيد كثرة وقوع الفعل وجَرَيانه مجرى العادة.

وذلك هو حال ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢﴾[1]، والتعديد للمال صفةٌ خاصَّة لجامعي الأموال الطائلة، وكذلك الهمز واللمز خاصَّة لأكثر هؤلاء، فإنهم يحتقرون غيرَهم ممَّن لا يكونون مِثلَهم أو يكونون فقراء، ويكون عند هؤلاء غرورٌ بأموالهم، حتى ينسى أحدُهم الموتَ، وكأنه على غيره كُتِب، والذي يحمله على ذلك هو جَمْعُه المال

(١) يجوز أن يكون معنى (عدَّده): نوَّعه، أو كثَّره، أو هما معاً. ويجوز أن يكون هذا الفعل للإشارة إلى شدَّة وَلَعِهِ به وقَصْرِ حُبِّه عليه. (المؤلف).

وتعديده، أي: تنويعُه وعَدُّه مرّةً بعد أُخرى شَغَفاً به وتَلذُّذاً بإحصائه، لأنه لا يرى عِزّاً ولا شرفاً ولا مَجْداً في سواه، فكلما نظر إلى كَثْرة ما عنده منه، انتفخ وظنَّ أنه من رِفْعة المكان، بحيث يكون كلُّ ذي فَضْل ومزيَّـة دونه، فهو يهزأُ به ويَهمِزُه ويَلمِزه، ثم لا يخشى أن تصيبَه عقوبةٌ على الهمز واللمز وتمزيق العِرض؛ لأنَّ غروره بالمال أنساه الموت، وصَرَفَ عنه ذكرى المآل، فهو ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ أي: يظنُّ أن ما عنده من المال قد حفظ له حياته التي هو فيها وأرصَدَها عليه، فهو لا يفارقها إلى حياةٍ أُخرى يُعاقَبُ فيها على ما كَسَبَ من سيِّئ الأعمال[1].

فالله سبحانه وتعالى يتوعَّد مَنْ هذه صفاته بالوَيْل والهلاك والنَّكال، في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، ويجهِّله في وَهْمِه أنَّ المال يُغْني عنه من الله شيئاً، وأنه يحفظ ما هو فيه أبداً، ثم يُردِفُ ذلك بصيغة الرَّدْع وتقرير الوعيد، فيقول: ﴿كَلَّا﴾ أي: فَلْيرتدع عن هذا الظنّ، وأُقسِمُ ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾ أي: لَـيُلقَيَنَّ فيها مُحتقَراً مُصغَّراً؛ لأن النَّبْذَ يفيد التحقير والتصغير.

ثم أردَفَها بما يدلُّ على تهويلها، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾ أي: هي مما لا يحيط بها العِرفان، ثم بيَّنها سبحانه بصُورة مُجمَلة، فقال: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ قال الأستاذ الإمام: أي: النار التي لا تُـنسَبُ إلا إليه تعالى؛ لأنه هو مُنشِئُها في عالمٍ لا يَعلَمُ كُنْهَه علماً جلياً سواه، وهي ملتهبة التهاباً لا يُدرِكُ كنهَه غيرُه سبحانه، ولا يمكننا الوقوف على حقيقة تلك النار[2]، وإنمـا الذي نعرفه أنَّ للعذاب بها ألـماً شديداً لا

---

(١) الراجح في معنى ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾: يظنُّ ظناً ضعيفاً توهُّمياً مع كلِّ زمن يتجدَّد له في الحياة أنَّ مالَه هو الذي أبقاه عزيزاً في قومه، ذا مكانة اجتماعيَّة رفيعة.

(٢) نعم، لا يمكننا ذلك إلا أنا نعلمُ أنها نار مُحرِقة، ترمي بشَـرَرٍ كالقصر، فيها شراب من حميم، =

يتناسب مع الإحراق بنار الدنيا، ولذلك وصفها بوصفٍ ليس من أوصاف نيران الدنيا، فقال: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾، ولا يخفى عليك أنَّ الفؤاد إنما يُطلَقُ على القلب إذا لوحظ أنه موضع الوجدان والشعور، فكأنه قال: التي تعلو مشاعرُهم ومداركُهم ومواطنُ الوجدان من نفوسهم، أي: إنَّ سلطان هذه النار على قوى الوجدان والشعور التي هي مواطن النيَّات والمقاصد، ومساكن الفضائل والرذائل.

وقد قيل: إن معنى الاطِّلاع هنا: المعرفة والعلم، أي: إن هذه النار تعرف ما في الأفئدة، فتأخذ مَنْ تعرفهم أهلاً لها من أهل الوجدان الخبيث، وبقَدْر ما يستحقون. والنار التي تعرف مَنْ يستحق العذاب بها وما يستحقه منها: لا تكون من النيران المعروفة لنا في الدنيا بالضرورة.

وعلى كلٍّ، لا يخلو الكلام على هذا التأويل من التَّجوُّز والتمثيل[1].

ثم بالغ في التهويل بشدَّتها، فقال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾ أي: مُطبَقة ومُقفَلة، لا مَخْلَص لهم منها. يقال: أوصَدَ الباب؛ إذا أقفله، فهي مُؤصَدة عليهم ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ والعَمَد: جمع عمود، وهو معروف، والمُمدَّدة: أي: المطوَّلة، أي: إنَّ إطباقها عليهم وإغلاقها في عَمَد طويلة تُـمَدُّ على أبوابها بعد أن تُـؤصَد. وهذا تصويرٌ لشدَّة الإطباق وإحكامه، وتأكيدٌ لليأس من الخلاص.

أما صورة تلك العَمَد ومَدِّها، فذلك مما لا يُمكِنُ معرفتُه، لأنَّ شأن الآخرة غير

= وعذاب أليم، تحترق منها الجلود فتنضج وتذوب، ثم تُبدَّل جلوداً غيرها... إلى سائر أوصاف النار المذكورة في القرآن الكريم.

(١) كلا، لا تجوُّز ولا تمثيل، بل هي نار حقيقية، لكن بينها وبين نيران الدنيا مغايرة في الصفات، ومُباينةٌ في الأحوال، بحيث لا تصح المقارنة بينهما.

شأن الدنيا، والراجح أنَّ هذه السورة نزلت بمناسبةٍ مُماثلةٍ بَدَت من زعماء المشركين الأغنياء؛ إذ كانوا يَلمِزون النبيَّ ﷺ والمسلمين الأوَّلين الذين كانت أكثريتهم من الفقراء، معتدِّين بثرواتهم وقوَّاتهم.

ويدلُّ النظمُ على أنَّ المواقف كانت شديدةَ الأثر، فاستحقَّ أصحابُها هذه الحملة بالمقابلة والتأنيب، ولا يَحُدُّ سبب النزول من عموم المعنى في الآيات، وكونها أحكاماً عامة مستمرة المدى، تشمل كلَّ مَن تَصْدُق عليه.

❊ ❊ ❊

سُورَةُ الفِيلِ

مكيَّة، وهي خمس آيات

والغَرَضُ منها:

تهديدُ كفار قريش وصناديدُهم المغْترّين بمـالهم وقوَّتهم تجاه المؤمنين.

ووعيدُهم بمثل ما جرى على أصحاب الفيل.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ تواترت الرواياتُ في وقعة أصحاب الفيل: أنَّ قائداً حَبَشياً ممَّن كانوا قد غَلبوا على اليمن، أراد أن يعتديَ على الكعبة المشرَّفة ويهدمَها ليمنعَ العرب من الحج إليها، أو ليقهرَهم ويُذلَّهم، فسَلَّط الله عليه ما ذكره سبحانه فيما يأتي، فأهلكه وأهلك جيشَه قبل أن يدخل مكة، وحَفِظَ البيت من اعتدائه.

والغَرَضُ من ذِكرِ هذه القصة والتنبيه إليها: تسليةُ للنبيِّ ﷺ، وتهديدُ قومه المشركين المعارضين له والمعاندين، بأن يفعل بهم مِثلَ ما فعل بأصحاب الفيل.

قال الأستاذ الإمام ما مُلخَّصه: هذه السورة الكريمة تُعلِّمنا أنَّ الله سبحانه يريد أن يذكِّر نبيَّه ﷺ ومَنْ تبلُغه رسالتُه بعملٍ عظيم من أعماله تعالى الدالَّة على عِظَم قدرته، وأنَّ كل قدرة دونها فهي خاضعةٌ لسلطانها، وذلك أنَّ قوماً أرادوا أن يَتعزَّوا بجندهم وقوَّتهم وعُدَدِهم وفيلهم أو فيلتهم؛ ليغلبوا قريشاً على أمرهم، ويصلوا إليهم بشرٍّ وأذى، فأهلكهم الله وردَّ كَيدَهم في نَحْرهم، وأبطل تدبيرهم.

وقد فصَّل ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾ والكيد: تدبير السُّوء

للغير[١]. والاستفهام للتقرير[٢]، والمعنى: إنَّ الله سبحانه جعل كيدَهم فاشلاً خائباً، ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾[٣].

والأبابيل: جمع إبالة، وهي الحزمة الكبيرة، استُعيرت للجماعة الكثيرة من الطير، وقيل: هو اسمٌ لا واحد له، يُراد به الفِرَق والجماعات يَتبَعُ بعضُها بعضاً من طير أو خيل مثلاً.

والطير: ما يطير في الهواء، سواء كان صغيراً أم كبيراً، وسواء كان مرئياً أو غير مرئي.

والسِّجِّيل: الطين المتحَجِّر، وأصل الكلمة فارسية دخلت في العربية.

والعَصْف المأكول: هو ورقُ الزرع الذي أكله الدُّود أو السُّوس، أو أكل الدوابُّ بعضَه وتناثر من بين أسنانها بعضه.

---

(١) الكيد: التدبير الخفيّ أو الظاهر بحقٍّ أو بباطل، وفيه مكروه لمن كان ضدَّه.

(٢) في الآيتين الأولى والثانية؛ بحَمْل المخاطب على الإقرار بأنه رأىٰ رأيَ علم. والمعنى: قد رأيتَ أيها الرائي ـ عن طريق الشهود البصري، أو عن طريق العلم اليقينيّ الخبريّ، المماثل للرؤية البصريّـة ـ كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل من تعذيب وإهلاك، وجعل كل ما دبَّروه وأعدُّوه ـ من خطط ووسائل، بغيةَ هدم الكعبة، وتحويل العرب عن الحج إليه ـ في محيط من الضياع والهلاك والتبديد والتشتيت.

(٣) وفي قصة أصحاب الفيل دلالةٌ عظيمة على قدرة الله تعالى وعلمِه وحكمته، وفيها دلالة عظيمة على شرف محمد ﷺ، ومعجزة ظاهرة له، وذلك أنَّ الله تعالى إنما فعل ذلك لنصر مَن ارتضاه، وهو محمد ﷺ الداعي إلى توحيده، وإهلاك مَن سخِطَ عليه، فكأنه قال: أنا الذي فعلتُ ما فعلتُ بأصحاب الفيل تعظيماً لك، وتشريفاً لقدومك، وإذ قد نصرتُك قبل قدومك، فكيف أتركُك بعد ظهورك.

قال الأستاذ الإمام: فَشَا في أصحاب الفيل داءُ الجدري والحصبة، قال عكرمة: وهو أول جدريّ يظهر في بلاد العرب. وقال يعقوب بن عتبة[١]: إنَّ أول ما رُئيَتِ الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام[٢]. وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يَنذُرُ وقوعُ مثله، فكان لحمُهم يَتَناثر ويَتَساقط، فذُعِرَ الجيش ووَلَّوْا هاربين، وأُصيب القائد الحبشي، ولم يزل يسقط لحمُه قطعةً قطعةً، وأُنملةً أُنملة حتى انصَدَعَ صدرُه، ومات في صنعاء.

وقد بيَّنت لنا هذه السورةُ الكريمة أنَّ ذلك الجدري وتلك الحصبة نشأت من حجارةٍ يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فِرَقٍ عظيمة من الطير، مما يُرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أنَّ هذا الطير من جنس البعوض، أو الذباب الذي

---

(١) هو يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس الثقفي، (....-١٢٨هـ)، أحد العلماء بالسيرة، ذا علم وورع «سير أعلام النبلاء» (٦: ١٢٤).

(٢) قال الأستاذ سيد قطب «في ظلال القرآن» (٦: ٢٩٧٨): «ورواية عكرمة، وما حدَّث به يعقوب بن عتبة ليس نصاً في أنَّ الجيش أصيب بالجدري فهي لا تزيد عن أن تقول: إنَّ الجدري ظهر في الجزيرة في هذا العام لأول مرة، ولم ترد في أقوالها أية إشارة لأبرهة وجيشه خاصَّة بالإصابة بهذا المرض... ثم إنَّ إصابة الجيش على هذا النَّحو وعدم إصابة العرب القريبين بمثله في حينه تبدو خارقة إذا كانت الطير تقصد الجيش وحده بما تحمل. وما دامت المسألة خارقة فعَلام العناء في حَصْرها في صورة معيَّنة لمجرَّد أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر! وجَرَيان الأمر على غير المألوف أنسب لجوِّ الحادث كله؟!».

وينظر تتمة كلامه النفيس في دوافع المدرسة العقليَّة ـ التي كان الأستاذ محمد عبده رحمه الله على رأسها في تلك الحقبة ـ إلى تضييق الخوارق والغيبيَّات في تفسير القرآن، ومحاولة ردِّها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونيَّة.

يحمل جراثيم بعض الأمراض(١)؛ لأنَّ الطير هو ما يطير في الهواء، سواء كان صغيراً أو كبيراً، وسواء كان مرئياً أو غير مرئيّ.

ويجوز أن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح، فيَعلَقُ بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتَّصل بجسد دخل في مَسامه، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقُط لحمه. وإنَّ كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يُعدُّ من أعظم جنود الله تعالى في إهلاك من يريد إهلاكَه من البشر، وإنَّ هذا الحيوان الصغير ـ الذي يُسمُّونه المكروب ـ لا يخرج عنها، وهو فِرَقٌ وجماعات لا يُحصي عَدَدَها إلا بارئُها(٢).

---

(١) ستأتي مناقشة هذه الدعوى.

(٢) هذا رأي الشيخ محمد عبده غفر الله له، وتابعه المؤلف رحمه الله تعالى، وجماعة من رجال المدرسة العقلية الحديثة، كالمراغي في «تفسيره» (٣٠: ٢٤٣)، وأرادوا بهذا التفسير المتكلَّف أن تكون الحادثة أمراً مألوفاً قريباً من أذهان الذين لا يؤمنون بالخوارق.

قال العلامة الشيخ محمد حسين الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون» (٣: ٢٣٥) راداً على تأويل الطير بالبعوض أو الذباب، وما تحمله من حجارة بالميكروبات: «إن هذه الجراثيم التي اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب عِلمٌ بها وقتَ نزول القرآن، والعربيُّ إذا سمع لفظ الحجارة في هذه السورة لا ينصرف ذهنه إلى تلك الجراثيم بحالٍ من الأحوال، وقد جاء القرآن بلغة العرب، وخاطبهم بما يعهدون ويألفون». انتهى.

بل الآية صرَّحت بإرسال الطير ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾، وبين المخاطبين كثيرٌ ممَّن عاصر الحادث، بل ممن شاهده، وفيهم كثير من أعداء الرسول ﷺ. ولو لم يَرَوْا هذا الطير الأبابيل رأيَ العين لبادروا إلى تكذيب القرآن، وإنكارهم لرمي الطير لجيش أبرهة. ولا يقبل أن يقال: أنهم رأوا المكروب أو الجراثيم، لأنهم لا يستطيعون رؤيتها، ولا يقال: إنَّهم رأوا الذباب أو البعوض، لأنهم لا يَـرَوْن الحجارة التي تحملها، فكان لا بد أن يكونوا رأوا طيراً ورأوا الحجارة التي تحملها، ورأوا الرمي.

ويرى بعض أهل الرأي ما مُحصَّلُه: إنَّ المراد من الطير: السحابة المكوَّنة من تلك الحجارة[١]؛ لأنها تشبه أسراب الطير ورفوفه في التجمُّع في الجوِّ، والانتقال في الهواء، فيسوغُ استعارةُ اسم الطير لها. ووَصْفُه بالأبابيل يلائم ذلك، فيكون ترشيحاً. وإنَّ تلك الحجارة هي من نوع الحجارة التي أُمطِرَت على قوم لوط؛ لأنَّ القرآن ذكرَ في الموضعين أنها من سِجِّيل. والله أعلم.

ويجوز أن تكون هذه الحجارة من مَصدر النيازك السماويَّة، ولكنها جاءت بصورة سِرْب كبير. والله أعلم.

ولا يمنع هذا من ظهور الوباء بالجدري وأشباهه؛ لأنَّ ما أصابهم من الرضوض والجروح البالغة، يُمهِّد لوفود الأمراض، ويزيدها فتكاً، ويزيدها تأثيراً بالأجسام، ولا سيما إذا لم تقترن بالإسعاف، كما هو الحال في مثل تلك الأحوال. هذه كلها آراء رجال. والله أعلم بحقيقة الحال[٢].

---

(١) لا يعلم في استعمالات العرب إطلاق لفظ (الطير) على (السَّحاب).

(٢) يقول الأستاذ سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن» (٦: ٣٩٧٧): «وإنَّ تسليط طير ـ كائناً ما كان ـ يحمل حجارة مسحوقة ملوَّثة بميكروبات الجدري والحصبة وإلقائها في هذه الأرض، في هذا الأوان، وإحداث هذا الوباء في الجيش، في اللحظة التي يهمُّ فيها باقتحام البيت.. إنَّ جريانَ قَدَرِ الله على هذا النحو خارقة، بل عدة خوارق كاملة الدلالة على القدرة وعلى التقدير، وليست بأقلَّ دلالة ولا عظمة من أن يرسل الله طيراً خاصّاً يحمل حجارة خاصَّة تفعل بالأجسام فعلاً خاصّاً في اللحظة المقررة.. هذه من تلك... هذه خارقة وتلك خارقة على السواء...
فأما في هذا الحادث بالذات، فنحن أمْيَل إلى اعتبار أنَّ الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة، وأنَّ الله قد أرسل طيراً أبابيل غير معهودة، تحمل حجارة غير معهودة، تفعل بالأجسام فعلاً غير معهود.. نحن أمْيَل إلى هذا الاعتبار، لا لأنه أعظم دلالةً ولا أكبر حقيقة، ولكن لأنَّ جوَّ السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب. فقد كان الله ـ سبحانه ـ يريد =

= بهذا البيت أمراً، كان يريد أن يحفظه ليكون مثابةً للناس وأمناً، وليكون نقطة تجمُّع للعقيدة الجديدة، تزحف منه حرَّة طليقة.. ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار في جميع الأجيال، حتى يمتـنَّ بها على قريش بعد البعثة في هذه السورة، ويضربها مثلاً لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها... فمما يتناسق مع جوِّ هذه الملابسات كلِّها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود، بكل مقوِّماته وبكل أجزائه، ولا داعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وبملابساته مفرد فذّ...». انتهى.

سُورَةُ قُرَيْشٍ

مكِّيَّة، وهي أربع آيات

والغَرَضُ منها:

الامتنان على قريش بما كان لهم من مركز بين الناس، حرمةً لهذه البلدة التي يسكنونها، وبما لهم من استفادة من جرَّاء ذلك في تجارتهم العظيمة، فكيف لا يعبدون ربَّ هذا البيت؟!

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾ قريش: اسمٌ للقبائل العربية من وَلَدِ النَّضْر بن كنانة، أو من ولد فِهْرِ بن مالك بن النضر بن كِنانة، على خلاف في ذلك.

واختلفوا كذلك في وَجْه تسميتهم بهذا الاسم؛ فقيل: سُمُّوا قريشاً لِـمَا كانوا عليه من حِرفة التجارة وطلب المال وجَمْعه، من القَـرْش، وهو المكسب، يقال: هو يَقرِشُ لعياله، أي: يكسب لهم. وقيل: إنما سمُّوا باسم دابّة تكون في البحر من أعظم دوابِّه، يقال لها: القريش، لا تمرُّ بشيء إلا أكلَتْه، كما قال العجمي:

وقريشٌ هي التي تسكنُ البَحْـ ـــر بها سُـمِّيت قـريشٌ قريشـاً

والإيلاف: نقيض الإيحاش، ونظيره: الإيناس.

قال الأخفش: اللام متعلِّقة بقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: ٥]، أي: فعلنا بأصحاب الفيل ذلك لتأتلفَ قريشٌ رحلتَها. ويؤيِّد هذا أن السورتين في مصحف أُبيٍّ سورةٌ واحدة بلا فَصْل.

والمعنى: إنَّ الله سبحانه أهلك مَنْ قَصَدهم بسُوء من الحبشة؛ لِيَتَسامَعَ الناس

بذلك، فيتهيَّبوا منهم زيادةَ تهيُّب، ويحترمونهم أفضل احترام، حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتَيْهم، فلا يجترئ أحدٌ عليهم.

وتوضيح المعنى: أنَّ قريشاً كانت آمنةً بفضل الحرم من الاعتداء عليها، فلا يتعرّض أحدٌ لها بسُوء إذا خرجت لتجارتها حُرْمة لها، لأنها صاحبةُ هذا الحرم، والقائمة بأمره.

وهذا الحرم وادٍ مُجدِبٌ غيرُ ذي زرع، فكانت تعيش فيه بالتجارة، وكانت لها رحلتان في كلِّ سنة: رحلة في الشتاء إلى اليمن، لأنها بلاد حارة، ورحلة في الصيف إلى الشام، لأنها بلاد باردة، ولولا هاتان الرحلتـان لم يمكنهم المقام فيه، ولولا الأمن بواسطتـه، لن تـقدر على القيام بهاتين التجارتين في هاتين الرحلتين اللتين هما مَدار معيشتها.

فلما قَصَد أصحابُ الفيل مكة أهلكهم الله؛ لتألف قريش هاتين الرحلتين اللتين بهما معيشتُها ومقامُها بمكة.

وبعد التَّحسيس بهذه المنَّة، أمَـرَهم بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾[1] أي: فلْيُوجِّهوا عبادتَهم إلى ربِّ هذه الكعبة التي هي مَصدَرُ عزِّهم ومَنَعتهم، وليُوحِّدوه.

وقال الخليل وسيبـويه: اللام من قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلِّـقة بقوله:

---

(١) أي: لِيُخلِصُوا العبادةَ لربِّ الكعبة المشرَّفة المُطهَّرة، بيتِ اللهِ الحرام، وليشكروه على دفع الضُّرِّ عنهم، وَجَلْب النفع لهم. الذي أطعمَهم حامياً لهم من جوع شديد، بما هيَّأ لهم من أسباب الرزق ووسائله، وآمنهم حامياً لهم من خوف وفزع عظيم، بمـا هيَّأ لهم من أسباب الأمن ووسائله.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ﴾، أي: فَـلْيعبدوا ربَّ هذا البيت لإيلافهم ببـركتِه رحلةَ الشـتاء والصيف، آمنين مطمئنين.

وتوضيح المعنى على هذا التوجيه: أنَّ قوافل قريش ـ كما علمتَ ـ معروفةٌ عند العرب محترمةٌ في نفوسهم؛ لأنهم سكان مكة وجيران بيت الله، فكانوا يذهبون آمنين، ويعودون سالمين رابحين، لا يمسُّهم السُّوء، على كَثْرة ما كان بين العرب من النَّهْب والسَّلب، وهذا الأمر كان لهم ضرباً من القوة المعنوية يحميهم في أسفارهم، فلا تَتَطاول الأيدي إلى أموالـهم وأرواحهم، فكان من الحقِّ أن يخصُّوا ربَّ هذا البيت بالعبادة، ويُفرِدوه بالإجلال والتعظيم.

* * *

سُورَةُ المَاعُونِ

مُختَلَفٌ فيها؛ أمكيَّة أم مدنيَّة

وآيها سبع

والغَرَضُ منها:

تهديدُ المكذِّبين بالدين.

وبيان بعض صفاتهم وأخلاقهم تنديداً بهم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ أي: هل علمتَ أو عرفتَ من هو على التحقيق مَنْ يكذِّب بالدِّين. وهذا أُسلوبٌ بديع في تعريف المصدِّق والمكذِّب على الحقيقة، فقد عرَّفه بظهور الأعمال في النفس، للإيذان بأن لا عِبرةَ بالدعاوى الفارغة، والقشور من الأعمال، وذلك ليُنبِّه السامع إلى أنَّ الأمر قد خَفِيَ على المحجوب عن نفسه، المغرور بأوهامه.

قال الأستاذ الإمام: كان كثيرٌ من الناس يعتقدون أنَّهم مُصدِّقون بالدين، ويظنُّون أنهم المُصْطَفَون، ويكتفون في الدلالة على هذه الدعوى ببعض أعمال رَسَمَها الدِّين، وإن لم يكن لها أثر في قلوبهم، كالصلاة الصُّوريَّـة وما يُشابِهُها مما لا يُنقِص مالاً ولا يُجشِّمُ مشقة. والجمهور الأعظم من النصارى واليهود والمشركين ممن كان في زمانه ﷺ كانوا يظنُّون أنهم يُصدِّقون بالدين، ولا يعلمون أنهم في أبعد طريق عن حقيقة الدين. فأراد الله جلَّ شأنه أن يُعلِمَنا مَنْ هو المكذِّب بالدين، ـ ومِنْ تعريف المكذِّب يُعرَفُ المُصَدِّق ـ ليُنبِّه هذا المغرور بأوهامه، فقال: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾[1]؛ إذ لا قيمة للدعوى إذا كذَّبها العمل.

---

(١) مؤدَّى الآيات: أنَّ المكذِّب بالدين لا يتمسَّـك بمكارم الأخلاق وخصائص الإنسانيَّـة، إذ =

فجعل سبحانه وتعالى تَرْكَ بعضِ أعمال الدين علامةً على خُلوِّ النفس من العقيدة الصالحة، وخرابِ القلب من الإيمان؛ لأنَّ ضلال السلوك هو المظهر لضلال القلوب، وبحسن السلوك تُقاس درجة الإيمان.

فجَعَلَتِ الآيةُ أبرزَ صفاتِ المكذِّبين بالدين: القَسْوةَ على اليتيم، وتَـرْكَ الحضِّ على طعام المسكين، وجعلت ذلك علامةً على تكذيبه أو عدم اعتقاده بيقين. واليتيم: مظهرُ الضعف ومُمثِّل الحاجة، فالمستهينُ به مُستهينٌ بكلِّ ضعيف، مُحتَقِرٌ لكلِّ محتاج[1].

فالمعنى: إنَّ المكذِّب بالدين هو الذي يَغمِطُ حقَّ غيره تَعَزُّزاً بقوَّته، فكلُّ ظالم منتهك لحُرمات الحقوق مُكذِّبٌ بالدين، لأنَّ ذلك مظهرٌ من مظاهره، وأثرٌ من آثاره، وكذلك عدم الحضِّ على طعام المسكين، فهو أثرٌ من آثار التكذيب أيضاً.

ومعنى الحضِّ على طعام المسكين: الحثُّ عليه، ودعوةُ الناس إليه، بمعنى: إذا عَرَضت حاجةُ المسكين ولم تجد ما تعطيه، فعليك أن تطلب من الناس أن يُعطوه ويُعينوه على حاجته. وإكرام اليتيم والحضُّ على طعام المسكين: هما ذروة الإحساس الإنساني.

ثم قال: وفي الآية حثٌّ للمُصَدِّقين بالدين على إغاثة المحتاجين الذين لا يسألون

= لا يؤمِّـل من وراء ذلك الجزاءَ الذي جاء به الدين، ولا يصدِّق به، وخصَّ من بينها هذيـن الوصفين لأنهما أبرزها. وعبَّر بدعِّ اليتيم عن سُوء معاملته وقُبح مخالطته، تعبيراً بالجزء الخاص عن الكل، وتغليظاً في ذلك، على نهج القرآن في مثله. ثم فـرَّع على مساوئ الأخلاق أسوأ مظاهر النـفاق وهدَّد عليه، جمعاً بين حال المشركين والمنافقين، ومن نَـهَجَ منهجهم وسَـلَكَ مَسلَكَهم، أعاذنا الله. (المؤلف).

(١) قرَّرت هذه السورة العظيمة البَوْنَ العظيم بين المكذِّب بالدِّين والمصدِّق به؛ إظهاراً لفوائد الدين، فبيَّنت أنَّ المكذِّب بالدين تَضْمحل إنسانيتُه، ومثَّلت لذلك بالفقرة الأولى، ثم فرَّعت عليها من النتائج ما هو أبشع وأشنع، وقرنتها بالتهديد، وهي فساد علاقته بالله وعلاقته بالجار. (المؤلف).

الناسَ إلحافاً، ولو بجَمْع المال من غيرهم، وهي طريقة الجمعيات الخيريَّـة، فأصلها ثابتٌ في الكتاب بهذه الآية، وبنحو قوله: ﴿ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الفجر: ١٧ - ١٨]، فالمكذِّب بالدين يحتقر حقوق الضعفاء كِبْراً وعُتواً، ويبخل بماله على الفقراء، ويبخل بسَعْيه عند الأغنياء لإغاثة أهل الحاجة ممَّن تحقَّق عَجْزُهم عن كَسْب ما يُنقِذُهم من الضرورة، ويقوم لهم بالإكفاف من العيش.

ثم قال: فتَرْكُ إغاثة الأيتام والمحتاجين هو من أظهر آثار التكذيب بالدين، سواءٌ كان صاحبه مُصَلِّياً أم غير مُصَلٍّ، فصلاتُه لا تنفعه ولا تُخرجه من صفِّ المكذِّبين بالدين؛ لأنَّ المُصَدِّق بشيءٍ لا تُطاوعه نفسُه بالخروج عن حدِّ ما صدَّق به، وقد فرض الدينُ على الأقوياء الرحمةَ والعدلَ في الضعفاء، فمن لم تُصلحه صلاتُه وتُذكِّره بمثل هذا الأثر العظيم فهو كاذبٌ في قوله، مُراءٍ في ظاهر عمله.

وهذا جاء سبحانه بالتفريع على تعريف المكذِّب بالدين بقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾(١)

---

(١) يجوز أن يكون التفريع بالفاء على ما قبله جارياً بطريقة التَّرقِّي والزيادة، أي: إذا كان مَنْ يَدُعُّ اليتيم ولا يحضُّ على طعام المسكين هو مكذِّباً بيوم الدين، فويل لمن كان فوقه في التكذيب، وهو الذي يكون ساهياً في صلاته غير مواظب عليها أو مرائياً فيها، وغير مُساعد للجيران والمعوزين؛ إذ قد جمع هذا ـ فوق تجرُّده عن الإنسانية ـ معاطاتِه لصلاة صُورية لا روح فيها ولا يقين، فالويل له ثم الويل.

ويجوز أن يكون التفريع بالفاء لأن الوصفَيْن جاريان على موصوف واحد، فوَصَفَه بها بعد الفاء بعد أن وَصَفَه بها قبل الفاء تأنيباً بهما، وإيماءً إلى ربط أحدهما بالآخر، فأتى به مكان «فويلٌ له» إقامةً للمُظهَر مقام المُضمَر، على نهج القرآن، لإفادة اتصافه به أيضاً، فيكون الأول مظهراً للثاني، والثاني منشأ للأول؛ إذ الصلاة المقامة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وأتى بصيغة الجمع لأن المراد بـ﴿ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ﴾ الصنف لا الفَرْد، والله أعلم. والسَّهْو عن الشيء: تَرْكُه أو تَرْكُ حقيقة أمره. (المؤلف).

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾[(١)] أي: يفعلون ما يُسمَّى صلاةً في عُرْفهم من الأقوال والأفعال، ولا يستشعرون فيها خشيةَ الكبير المتعال، لتـتغذَّى نفوسُهم بالإيمان الصحيح، وتَعمُرَ بالرحمة للضعيف، والحضّ على التعاون في سبيل ذلك، فويلٌ لهذا الصنف من المصلِّين الذين لم تُربِّهم صلاتُهم هذه على الإنسانية والاهتمام بأمر الأيتام والمحتاجين، والاشتراك بجَمْع الأموال ـ ولو من غيرهم ـ لسدِّ عَوَزِ المُعوِزين، كالجمعيات الخيرية. فنِعمَتِ الطريقة هي لإعانة الفقراء، وسدِّ شيءٍ من حاجات المساكين.

ثم وصف سبحانه أصحابَ هذه الصلاة التي لا أثر لها في النفوس فيما أمر الله به من مراعاة حقوق عبادة الضعفاء، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ أي: يفعلون ما يرى منهم الناس فقط.

ثم أعاد ذِكرَ الوَصْف الذي يظهر ويتحقَّق به التكذيب بالدين، بعبارةٍ أعمَّ من الأولى، فقال: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾[(٢)] والماعون: كلُّ ما يُسْتَعانُ به[(٣)]، أي: يمنعون الناس معونتَهم، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سدِّ حاجتهم، وتوفير ما يكفُل راحتَهم وأمنهم وطمأنينتهم.

---

(١) من المفسِّرين من أعاد الآية إلى آية التوبة: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤]، وجعل السورة في المنافقين؛ لأنَّ السَّهْوَ عن الشيء تَرْكُه مع العلم به، وأكثر ما يَصدُقُ هذا عليهم (المؤلف).

(٢) الصلاة الحقيقية تكفُّ صاحبها عن منع الماعون، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢١ – ٢٢]. (المؤلف).

(٣) قال الإمام غلام ثعلب في «ياقوتة الصِّراط» ص٦٠٢، بتحقيقي: «﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ قال ثعلب: اختلف الناس فيه، فقالت طائفة: هو الماء، وقالت طائفة: هو ما يُستعار من شفرة وقدوم وجَفنة، وقالت طائفة: هو الزكاة، وهو قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه. قال ثعلب: وعليه العمل».

فخاصَّةُ المصدِّقين بالدين: هي العدل والمَرْحَمة وبَذْل المعروف للناس، وخاصَّةُ المكذِّبين به: هي احتقار حقوق الضعفاء، وقلَّة الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة، وحبُّ الأَثَرة بالمال، والتَّعزُّز بالقوَّة، ومَنْع المعروف عمَّن يستحقه من الناس. وبالجملة، فهم فاقدون لأبسط مزايا الإنسانيَّة والتعاون.

ثم قال: فمِنْ هذه السورة يُعرَفُ درجة التصديق بالدين، فما بالُ المسلمين؟ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]؟!

أقول: ولا يَبعُدُ أنَّ هذا المعنى كان مُتمثِّلاً في صنف أو شخص من قريش عند مبدأ الدعوة، فجاء تعريضاً به، وتقريراً لحكمٍ مُستمرِّ المَدَى، على نهج القرآن في مثل ذلك؛ لأنَّ القرآن يذكر زعماء قريش، فتارةً بصفة الغنى، وتارةً بصفة الزعامة، وتارةً بهما جميعاً.

وقال في «مجمع البيان»: سُئل أبو عبد الله عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، فقال: هو التَّركُ لها والتواني عنها. وعن الحسن: إنه التضييع لها.

وسُئل أبو عبد الله عن الماعون؟ قال: هو القَـرْضُ تُقرِضُه، والمعروف، ومتاعُ البيت تُعيره[1].

* * *

(١) «مجمع البيان» لأبي علي الطبرسي (١٠: ٣٥١).

سُورَةُ الكَوْثَر

مكيَّة، وهي ثلاث آيات

ومُلخَّصها:

وَعْدُ النَّبيِّ ﷺ بعظيم من الخير والسعادة في الدارَيْن، وأمرُه بالسَّعي في الطريق الموصِلة لهما، حسب سنن الله عزَّ وجلّ.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ وهو الخير الكثير الـمُفرِط بالكثرة، والشرف العظيم، الـمُتناهي في العِظَم، فقد قال ابن عباس: هو الخير الذي أعطاه الله إيَّاه. وقال أبو بشر: قلت لسعيد: إنَّ ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة؟ قال: النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أعطاه الله إيَّاه[1].

وقال الأستاذ الإمام: الكوثر: صيغةُ مبالغةٍ من الكَثْرة، والمراد به: سعادةُ الدارَيْن، وفيها النبوَّة والدين والهدى. والكلام ردٌّ على المستهزئين من قريش، كالعاص بن وائل، وعُقْبَةَ بن أبي معيط، وأبي لهب، وأمثالهم. فإنهم كانوا إذا رأوا النَّبيَّ ﷺ تموت أولادُه يقولون: بُتِرَ محمَّد، أي: لم يَبْقَ له ذِكرٌ في أولاده من بعده، ويعدُّون ذلك عيباً وانتقاماً يَـلمِزونه به، ويُنفِّرون به الناس من اتِّباعه، وكانوا إذا رأوا ضَعْفَ المسلمين وفقرهم وقلَّتهم، يستخفُّون بهم ويعدُّون ذلك مَغْمَزاً في الدين، ويجعلون القلّة والضعف دليلاً على أنَّ هذا الدين ليس بحق، شأنَ السفهاء مع الحق في كلِّ زمان أو مكان غلب فيه الجهل.

وكان الضعفاء من حديثي العهد بالإسلام من المؤمنين تمرُّ بنفوسهم خواطر

---

(١) رواه ابنُ المبارك في «الزهد» (١٦١٤).

السوء عندما تشتدُّ عليهم حلقات الضيق، فأراد الله سبحانه أن يُمَحِّص من نفوس هؤلاء ويَكْبت أُولئك، فأكّد الخبر لنبيِّه ﷺ، مبيِّناً أنَّ ما يخيِّله النظر القصير قليلاً هو الكثير البالغ الغاية في الكثرة، ليؤكِّد له الوعد بأنه هو الفائز، وأن مُتَّبعَه هو الظافر، وأنَّ عدوَّه هو الخائب الأبتر الذي يُمحى ذِكرُه ويُعفى أثرُه.

فيكون المعنى من قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾: إنَّ هؤلاء المُبْغِضين المُشاغبين يظنُّون أنك في قُلٍّ وضَعْف، وأنَّ أغنياءهم وأقوياءهم في عزٍّ ونعمة، ولا يعلمون أننا قد أعطيناك من الخير الذي يَعظُم في نفوسهم مما يعرفون، ومن الخير المُدَّخَر لك في الغَيْب، ممَّا لا يُدركون شيئاً كثيراً، ولا تُحَدُّ كَثْرتُه.

ثم طالبه بالشكر عن ذلك بقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي: فاجعَل صلاتَك لربِّك وحدَه، وانحَر ذبيحَتَك مما هو نُسُكٌ لك لله وحده، فإنه مُربِّيك ومُسْبغُ نِعَمِهِ عليك. فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣].

وفي الآية تعريضٌ بالمشركين، يَنْحرون لأصنامهم ومعبوديهم من دون الله.

وقيل أيضاً: إنَّ الآية في صلاة العيد ونحر الأُضحية، كما جاء عنه ﷺ: «إنَّ أول ما نبدأ به في يومنا هذا نصلِّي، ثم نرجع فننَحَر، مَن فعلَه فقد أصاب سُنَّتنا، ومَن ذبح قبلُ فإنما هو لحم قدَّمه لأهله، وليس من النُّسُك في شيء»(١).

والذي أراه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ استشهد بها لهذا الغرض، لِـمَا في عموم «الصَّلاة» و«النَّحْر» من شموله لذلك.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٩٦٨)، ومسلم (١٩٦١)، عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

وبعد أن ردَّ عليهم تَـقَوُّلَـهم هذا وأنكره، ردَّ عليهم الوَصْفَ وتوعَّدهم بأنَّ ما يقولونـه سيكون حالاً لـهم وأمراً واقعاً عليهم، فـقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾[1] قال فريد وجدي: أي: إنَّ مُبغِضَك ـ هذا الذي يقول عنك: بُتِرَ محمدٌ بموت أولاده ـ هو نفسُه الأبتر الذي لا عَقِبَ له من عمل صالح ولا ذِكرٍ جميل؛ إذ سيهلك ويَتَلاشى، ولا يبقى له أثر يُذكَر به، أما أنت فقد منَّ الله عليك بالنبوَّة والكمالات العُليا، وجَعَلك سبباً لإنهاض الأمم والـحَدَث الجلل في تاريخ البشر الذي قامت به ممالك، وسقطت ممالك، وتغيَّر وَجْهُ الأرض من حالٍ إلى حال، فلستَ أنت بأبتر، ولكنه هو الأبتر. يردُّ الوَصْفَ عليه.

❋ ❋ ❋

(١) أي: إنَّ عدوَّك ومُبْغِضَك ـ يا رسول الله ـ هو الأقلُّ الأذلُّ المنقطعُ عن كلِّ خير، وأنت الأعزُّ الأشرفُ الأعظم. فليس محمدٌ ﷺ أبْتَرَ ـ كما زعم المشركونَ ـ إذ لم يُبْقِ الله له ولداً ذَكَراً يبلغُ مَبْلغ الرجال، إنما الأبتر من لا عَقِبَ له من الخير، الخالد في الشقاء الأبدي.
وهذه الآية الكريمة تدلُّ بنصِّها على أن مُبْغضَ رسول الله ﷺ وما جاء به من الهُدى ودين الحق منقطعٌ عن كلِّ خير، وتدلُّ بمفهومها ولازمها على أن مُحِبَّه ﷺ هو متَّصل بكلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة.

سُورَةُ الكَافِرُونَ

مكيَّة، وهي ستُّ آيات

والغَرَضُ منها:

بيانُ البَوْن العظيم بين معبود المؤمنين ومعبودي الكافرين، وعبادة كلٍّ منهما.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ (١) ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ...﴾ قال الأستاذ الإمام في تفسير السورة: إنَّ هؤلاء المعاندين الجاحدين كانوا يقولون ـ أو يُحدِّثون أنفسهم ليُلهوها ـ: إلامَ يدعونا؟ إلى الله؟ نحن نعتقد به. إلى توحيده؟ نحن نُوحِّده، غاية ما في الأمر نـتَّخذ شفعاء إليه، نسأله بحقِّهم عنده أو بمكانتهم لديه، إلى عبادته؟ نحن نركع ونسجد له، وغاية ما عندنا زيادة على ذلك أننا نعظِّم أولياءه وأهل الشفاعة عنده، ونتوسَّل إليهم ليتوسَّلوا إليه. هذه وساوسُهم وهذه أمانيُّهم.

فأراد الله سبحانه أن يقطع العلاقة بينهم وبين ما عليه الداعي إلى الحقّ ﷺ، بأصرح ما يُمكِن أن يصرّح به، فقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ أي: إنَّ الإله الذي تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذي أعبدُه، لأنكم إنَّما تعبدون ذلك الذي يتَّخذ الشفعاءَ أو الولدَ أو الذي يظهر في شخص أو يتجلَّى في صورة معيَّنة أو نحو ذلك مما تزعمون، وإنما أعبد إلهاً مُنزَّهاً عن جميع ما تصفون به إلهكم.

---

(١) قال الإمام غلام ثعلب في «ياقوتة الصِّراط» ص ٦٠٣، بتحقيقي: «عدَّد هذه الحالات للأزمنة أي: لليوم والأمس والغد، فأيَّسهُم ممَّا طلبوا».

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾ أي: إنكم لستُم بعابدين إلهي الذي أدعو إليه كما تزعمون، فإن زعمتُم أنَّ الذي تعبدونه يُتقرَّب إليه بتعظيم الوسائط لديه، فتوسَّلتُم بها إليه، وتعتقدون أنه يقبل توسُّطها عنده، فإنما أنتم تعبدون إلهاً تتخيَّلونه بخيالكم الخاطئ، ويُصَوِّره لكم وَهْمُكم المخدوع، فهذا الذي تعبدونه ليس الذي أعبُدُه، فلهذا لا تعبدون الذي أعبد، بل تعصُونه وتُخالفون أمرَه[1].

وبعد أن نفى المشاركةَ في المعبود، نفى المشاركةَ في شكل العبادة أيضاً، تقريراً لِـمَا بيَّنا، فقال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾ أي: لا أنا بعابدٍ عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي.

فـ﴿مَآ﴾ هذه مصدرية، وليست بالموصولة مثل التي تقدَّمت، فمَفادُ الجملتَيْن الأُولَيَين: الاختلاف التامُّ في المعبود، ومفادُ الجملتَيْن الأُخرَيَين: تمام الاختلاف في شكل العبادة. أي: فلا معبودنا واحد، ولا عبادتنا واحدة؛ لأنَّ معبودي ذلك الإلهُ المنزَّه عن النِّـدِّ والشفيع، المتعالي عن الظهور في شخص مُعيَّن، أو المُحاباة لشعب أو واحد بعينه، الباسطُ فَضْلَه لكلِّ من أخلَصَ له، الآخذُ قهرُه بناصيةِ كلِّ من نابذ المبلِّغين الصَّادقين عنه، والذي تعبدونه خلاف ذلك. وعبادتي مُخلَصةٌ لله وحده، وعبادتكم مَـشُوبةٌ بالشِّرك، مصحوبةٌ بالغفلة عن الله تعالى، فلا تُسمَّى على الحقيقة عبادة، فأين هي من عبادتي؟

ثم ختم ما تقدَّم وقرَّره بقوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ أي: دينكم مختصٌّ

---

(١) كانت العرب تُطلِقُ على كلِّ ما تعتقد أنَّ له سلطة في الكون صفة (إله)، ولكن لا تسمِّيه: (الله)؛ لأنه عندهم الخالق وحده، وكلُّ دعاء وتعظيمُ يوجِّهونه إلى ما يعتقدون فيه تلك السلطة: عبادة. (المؤلف).

بكم لا يتعداكم إليَّ، فلا تظنُّوا أني عليه أو على شيءٍ منه، وديني الذي أدعو إليه لا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه.

ثم قال الأستاذ الإمام: وما دلَّت عليه هذه السورة هو ما دلَّت عليه آية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، أي: لا علاقة بينك وبينهم، لا في المعبود ولا في العبادة. انتهى.

وقد قيل في تفسير هذه السورة أيضاً: إنَّ أُميَّة بن خَلَف في رَهْط من قريش قال لرسول الله ﷺ: يا محمد، هَلُمَّ فَلْنعبد ما تعبد، وتَعبُد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبدُ خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظِّنا منه، وإن كان ما نعبدُ خيراً مما تعبد كنتَ أنت قد أخذت بحظِّك منه، فأعرَضَ رسول الله ﷺ عن مُجاوبتهم في هذه المُساوَمة الهازلة الخاطلة، فنزلت هذه السورة. والله أعلم.

* * *

سُورَةُ النَّصرِ

مدنيَّة، وهي ثلاث آيات

والغَرَض منها:

إعلانُ انتهاء وظيفته ﷺ بعد استِتباب هذا الدِّين، واستِكمال نزول هذا القرآن المبين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾.

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ قال الأستاذ الإمام: الخطاب الذي يرد في كتاب الله مفرداً؛ تارةً يكون للنبيِّ ﷺ خاصَّة، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ [التحريم: ١].

وقد يكون لكلِّ مَنْ يفهم الخطاب، كقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩ - ١٠]، وكقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾ [الماعون: ١].

وقد يكون خطاباً له عليه السلام، مقصوداً به نفسُه مع مَنْ معه من أصحابه المُخلِصين من أُمته.

ومن هذا الأخير: ما جاء من الخطاب في هذه السورة.

كان المؤمنون أيامَ قلَّتهم وفَقْرهم وكثرة عَدَدِ عدوِّهم وقوَّته واشتداده عليهم ومضايقته لهم، يمرُّ الضَّجَر بنفوسهم، ويأخذ الحزنُ مأخذَه منها، وكان ﷺ يحزن ويضيقُ صدره لـمَّا يكذِّبه قومه، والحقُّ يَسطعُ نورُه وهم يعمون عنه، حتى قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢]، وقال تعالى

لـه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقال بعد ذلك: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وجاء في غير ذلك من آيات الكتاب ما يدلُّ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ وأصحابَه كانوا يَضْجَرون ويقلقون، وكان سبحانه يُثبِّتهم ويُسَلِّيهم بما كان يقصُّ عليهم من قَصَص الأنبياء مع أُممهم، وليس ذلك من النقص الذي يُعابُ عليه ﷺ، ولا على أصحابه رضي الله عنهم، فإنَّ كلَّ مخلوق ـ لا يعلم من غيب الله ما يعلم الله ـ لا بدَّ أن يمسَّه مثلُ هذا الضَّجَر، ويُصيبَه مِثلُ هذا القلق، من استبطاء نَصْر الله للحقِّ الذي بَعث به نبيَّه ﷺ، حتى يكون الكمال لله وحده، فقد قال تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]؟ ولكن الله سبحانه قد يعدُّ مِثلَ هذا على الكُمَّل ويعاتبهم عليه، كما قالوا: «حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين»، ورسول الله ﷺ من أقرب المقرَّبين إليه، وقد يراه النبيُّ ﷺ ـ إذا رجع إلى نفسه وخرج من غمرة الشدة ـ ذنباً[١] يتوب إلى الله منه ويستغفره، ولهذا وَرَدَ له الأمر الإلهي بالاستغفار مما كان منه، من حُزن وضَجَر في أوقات الشدَّة، ولكن وَرَدَ في صُورة البشارة بقُرْب الفتح والنصر، حيث قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، فعبَّر بـ﴿إِذَا﴾ المفيدة لتحقيق وقوع ما تُضاف إليه، أي: عندما ترى نَصْرَ الله لدينه الحقِّ على الباطل، ويفتح الله بينك وبين قومك، فيجعل لك الغَلَبة عليهم ويُضْعِف أمرهم في التمسُّك بعقائدهم الباطلة.

---

(١) ليس في الآية ما يدلُّ على صدور الذنب من ﷺ ـ حتى على معنى الذنب السائغ إضافته إلى الأنبياء ـ وليست صيغتها صيغة عتاب، ولفظ الاستغفار وحده لا يدلُّ على ذلك.

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾ عند ذلك ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ وهو دينُك الذي جئتَهم به؛ لزوال ذلك الغطاء الذي كان يحولُ بينهم وبينه، وهو غطاء قوة الباطل، فيُقبلون عليه ﴿أَفْوَاجًا ۝٢﴾[1] أي: طوائفَ وجماعات، لا آحاداً كما كان ذلك في بدء الأمر أيام الشدَّة.

فإذا حَصَل ذلك كلُّه ـ وهو لا رَيْبَ حاصل ـ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: فنَزِّه ربَّك عن أن يُهمِلَ الحق ويَدَعَه للباطل يأكله، وعن أن يُخلِفَ وَعْدَه في تأييده، وليكن هذا التنزيه بواسطة حَمْده والثناء عليه بأنه القادر الذي لا يغلبه غالب، والحكيم الذي أمهَلَ الكافرين ليمتحنَ قلوب المؤمنين، فلن يُضيعَ أجر العاملين، ولا يُصلِحَ عمل المفسدين. والبصير بما في قلوب المخلصين والمنافقين، فلا يذهب عليه رياء المرائين.

---

(١) لم يسلم في الثلاث عشرة السنين الأولى من مبعث النَّبيِّ ﷺ إلا زهاء ثلاثمئة رجل، بينما أسلمت في العشر السنين التالية من حياته جزيرةُ العرب كلُّها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وذلك أمر طبيعيّ من طبائع الاجتماع في الانقلابات الإصلاحية؛ لأنها لا تتمُّ إلا بالتدرُّج حيث يتدرَّج ببطء تكون أوضاع حياتية ونظم اجتماعية وَفْقَ التفكير الجديد، وعندما يقوى ذلك ويألفه المجتمع وينتشر بينهم يدخلون في الأمر دخولاً مُطَّرداً.

وهكذا كان حال الإسلام في زمانه ﷺ، فقد كان في أول دعوته تَعْتَوِرُ الناسَ أوهامٌ وظنون، فمِنْ قائل: إنه شاعر، أو ساحر، أو كاهن، أو به جنَّة، ومنهم من يزعم أنَّ له أوهاماً وأحلاماً خدعته عن نفسه وزيَّنت له الأقوال وأفانين الأخيلة، فما آمن بادئ بدء إلّا من وهبهم الله من الذَّكاء وتوقُّد البصيرة ما جعلهم قادرين على استجلاء وجه السعادة البشرية من وراء هذه الدعوة، ولكنه لما تكوَّن نظام لهذه الحياة شامل، وكمل بناؤه على أساس هذا التفكير، وشاهدوا بأمِّ أعينهم ثمراته العمليَّة، ولمسوها بأيديهم؛ علموا أنَّ هذا هو الشيء الذي كان يقاسي في سبيله ذلك العبدُ القانت لله أنواعاً من الأهوال والشدائد، فتزلزل بنيان المكابَرة واللجاج، ودَخل الناس في دين الله أفواجاً بعد أفواج. (المؤلف).

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ أي: اسأله أن يغفرَ لك ولأصحابك ما كان من القلق والضَّجَر والحزن لتأخُّر زمن النصر والفتح، والاستغفار إنما يكون التوبة الخالصة، والتوبة من القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد الله، وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التي تُحدِثُها الشدائد. وهذا وإن كان يشقُّ على نفوس البشر، ولكنَّ الله سبحانه عَلِمَ أنَّ نفس نبيِّه ﷺ قد تبلغ ذلك الكمال، فلذلك أمَرَه به، وكذلك تقارُبه قلوب الكُمَّل من أصحابه وأتباعه، والله يتقبَّل ذلك منهم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ أي: إنه سبحانه لا يزال يُوصَف بأنه كثيرُ القَبول للتوبة؛ لأنَّه ربٌّ يُربِّي النفوس بالمِحَن، فإذا وَجَدَت الضعف أنهَضَها إلى طَلَب القوّة وشَدَّ همَّها بحُسْن الوعد، ولا يزال بها حتى تبلغَ الكمال، وهي في كلِّ منزلة تتوبُ عن التي قبلها، وهو سبحانه يقبل توبتها، فهو التوَّاب الرحيم.

وكأنَّ الله سبحانه يقول: إذا حَصَل الفَتْح، وتَحقَّق النصر، وأقبَلَ الناس على الدين الحق، فقد ارتفع الخوف، وزال مُوجِب الحزن، فلم يَبْقَ إلا تسبيحُ الله وشكرُه والنزوعُ إليه عمَّا كان من خواطر النفس، فلن تعود الشدَّة تأخذ نفوس المُخلِصين ما داموا على تلك الكثرة في ذلك الإخلاص، ومن هذا أخذ النبي ﷺ أن الأمر قد تمَّ ولم يبقَ له إلا أن يسير إلى ربِّه، فقال فيما رُوي عنه: «إنه نُعِيَت إليه نفسه»(١).

وقد رُوي أيضاً: أنها لـمّا نزلت خطب رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ عبداً خيَّره الله تعالى بين الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء الله تعالى»، فعلم أبو بكر رضي الله عنه، فقال: «فَدَيْناك بأنفسنا وآبائنا وأولادنا»(٢)، ولم يلبث النبيُّ ﷺ أن تُوفي قريرَ العين بالنجاح

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الباهر الذي يسَّره الله له فيما نَدَبه إليه من رسالته الربَّانيَّة، وانتشار الإسلام في مختلف أنحاء الجزيرة، وانفتاح الآفاق الأخرى أمامه، وتوطيد سلطانه، وفي اجتماع العرب على هذا الكيان، بعد أن كانوا متفرِّقين شيعاً.

وقال البيضاوي: عبَّر سبحانه بالمجيء إشعاراً بأنَّ المقدَّرات مُوجَّهة من الأزل إلى أوقاتها المعيَّنة لها، فهي تَقرُبُ منها شيئاً فشيئاً، وقد قَرُبَ النصرُ من وقته، فكن مُتَرَقِّباً لوروده، مُسْتَعِدّاً لشكره بالتسبيح والتحميد والاستغفار(١).

وقال أبو مُسلم: المراد: النصر على الكفار، وفَـتْح بلاد الشرك على الإطلاق، لا فَتْح مكة فقط.

هذا، وأقول: إنَّ ملخَّص السورة من ناحية تاريخ الدعوة النبويَّة: أنَّ الإسلام استمرَّ في مكة ثلاث عشرة سنة لم يُسلم فيها إلا ثلاثمئة رجل تقريباً، ولكنه في عشر السنين الأخيرة من حياة النبيِّ ﷺ أسلمت بلادُ العرب كُلُّها، ودخلت في طاعة الله، وذلك لأنَّ الناس في أوَّل الأمر ما كانوا يُدركون إدراكاً صحيحاً لِـمَا يدعو إليه رسول الله ﷺ؛ لأنَّ نفوسهم المشوَّهة بالشرك وسُوء الأخلاق بعيدةٌ عن فهم ذلك فهماً جلياً، فما آمن له بادئ بَدْء إلا الذين قد بقيت في نفوسهم بقيَّة من نور الفطرة وجلاء البصيرة، لم يستوعبها الشِّرك وسوءُ الأخلاق بالمَحْق والإفناء، وهم أفذاذٌ قلائل، فكانوا بهذه البقية من نور الفطرة وجلاء البصيرة قادرين على استِجلاء وَجْهِ الحقيقة ممَّا قام يدعو إليه هذا الرسول العظيم.

ولكنه لـمّا ظهر أثر هذا الدين بعد نضوجه في هؤلاء الرجال، وشاهدَ الناس ما أصبحوا عليه من القواعد الإنسانية، والأخلاق الكريمة، والنفوس العالية، والنوايا

---

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٤٤).

المُخْلصة، والصفات الممتازة في سائر نواحي الكمال؛ كان من المستحيل على مَنْ يرى ذلك بأُمِّ عينه أن يُنكِرِ الحقَّ الذي جاء به هذا الرجل العظيم والرسول الكريم، إذ قد أصبح أثره في أتباعه لامعاً باهراً، حتى كانوا مُثُلاً عُليا في كمال الإنسانية أخلاقاً وأعمالاً. لذلك انحَدَرَ الناس مُسْرعينَ في دين الله أفواجاً، ومُستَبشِرين بهذا الدين المبين.

* * *

سُورَةُ المَسَد

مكيَّة، وهي خمس آيات

والغَـرَضُ منها:

الوعيدُ الشديد لأبي لـهب وامرأته على ما كانا عليه من شدَّة المُشاغَبات ضدّ الرسول ﷺ، وصَدِّهما للناس عن الدخول في دعوته وقَبول دينه.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾.

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ قال الأستاذ الإمام: أبو لهب: هو عبد العُزَّى بن عبد المطلب، عمُّ رسول الله ﷺ، كان من أشدِّ الناس عداوةً له. وصحَّ في الخبر: أنه لـمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صعد النبي ﷺ على الصَّفا، ونادى بطون قريش، فاجتمع من جميع القبائل خلق كثير، حتى جعل الرجل إذا لم يذهب يُرسِل رسولاً لينظر ما الخبر، وكان في المجتمعين أبو لهب، فقال رسول الله ﷺ: «أرأيتَكم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصَدِّقي؟» قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتَنا[1]؟ وكان أبو لهب يَتّبع النَّبيَّ ﷺ في بعض غَدَواته إلى القبائل يدعوها إلى الله، فإذا قال رسول الله ﷺ: «إني رسول الله إليكم»، يُكذِّبه وينهى الناس عن تصديقه. وكانت امرأته أُم جميل بنت حرب تسعى عند القوم بالنميمة على رسول الله ﷺ، وتُذيعُ الأكاذيب في مجامع النِّساء؛ لتُفسِدَ عليه قلوبَ القوم والعشيرة، وتُشعِلَ نار العداوة.

والساعي بالنميمة وتكوين العداوة يُلقَّب بحامل الحطب، كما قال الراجز:

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨)، عن ابن عباس رضي الله عنه.

إنَّ بنـي الأَدْرَمِ حَمّـالو الحَـطَبْ هُمُ الوشاةُ في الرِّضاءِ والغَضَبْ(١)

وفي كلام العرب كثيرٌ من الشواهد على ذلك.

ولقِّب عبدُ العُزَّى بأبي لهب، لتلهُّب وَجْنَتَيه وإشراقهما، كما زعموا.

أقول: وعلى هذا، يكون كلام القرآن توجيهاً لهذا اللقب إلى معنى آخر، وهو لهب النار، والله أعلم. والتوجيه نوعٌ من أنواع البديع، وقد ذكرت الروايات أنَّ الصِّلاتِ بين النَّبيِّ ﷺ وعمِّه قبل البعثة كانت حسنة، وأن بيتَيْهما كانا مُتَجاوِرَيْن، وأنَّ ابنتَي النَّبي ﷺ كانتا مخطوبتَيْن لابنَي عمِّه هذا، ولكنه هو وامرأته قد حملا ولديهما على فسخ الخِطبة بعد قيام النَّبيِّ بدعوته.

وقد قيل: إنَّ الذي يَرِدُ على البال أنَّ النبيَّ ﷺ اتَّصَلَ بعمِّه في أول من اتَّصَلَ بهم، ودعاه وأهله في أوَّل مَنْ دَعا، فهو عمُّه وجارُ بيته وصِهرُه، وبينهما مودَّة وعدم كلفة، ومن المعقول أنْ يفاتحَه قبل كلِّ إنسان، وأن يُفْضي إليه بأمره، وهو واثق أن يقابله بالحُسْنى، وبأنه واجدٌ فيه العَضُدَ القوي والسند المتين، لا سيما وأنه كان طائل الثروة كما تصفه السورة، ولكنَّ النبيَّ ﷺ لم يلبث أن خابَ أملُه فيه، إذ قابله أسوأ مقابلة، وكان منه ومن امرأته أشدُّ موقف من الأذى والعِناد، ولا يبعد أن يكون تأثير هذه المرأة عاملاً في شذوذ هذا العمِّ، ولا يبعد أن يكون موقفها هذا متأثِّراً بموقف أخيها أبي سفيان، الذي كان من أبرز الزعماء المعارضين لدعوة محمد ﷺ.

وقد أنزل الله في أبي لهب وفي زوجته هذه السورة؛ ليكون مَثَلاً يَعتبرُ به مَنْ يعادي ما أنزل الله على نبيِّه، مطاوعةً لهواه، وإيثاراً لِـمَا أَلِفَه من العقائد والعوائد والأعمال،

---

(١) أورده الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٠: ٣٢٨)، والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٠: ٢٣٩)، والسمين في «الدر المصون» (١١: ١٤٥)، وغيرهم.

واغتراراً بما عنده من الأموال، وبما له من الصَّولة أو من المنزلة في قلوب الرجال، فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، يقال: تبَّت يدا فلان، أي: خسر أو هلك، فهي جملة دعائيَّة، وذلك لأنَّ اليد هي آلة العمل والبطش، إذا هلكت كان الشخص معدُوماً هالكاً.

وبعد هذه الجملة الدعائية أتى بالجملة الخبريَّة الدالَّة على الوقوع، تحقيقاً لذلك، فقال: ﴿وَتَبَّ ١﴾ أي: هَلَك وخَسِر. وإنما أتى بهذه الجملة الخبريَّة للإيذان بأنَّ الجملة الدعائيَّة لم تكن لمجرَّد إظهار مَقْتِهِ وشدَّة الغضب عليه، كما جَرَت به سُنَّة العرب في كلامهم، بل هو أمرٌ واقع. والواو في قوله ﴿وَتَبَّ﴾ للاستئناف.

ثم استأنف الكلام بغير حرفٍ لبيان أنَّ ما كان يعتزُّ به من المال والجاه لم يكن مما يَفْديه ويُخلِّصه من الخسران، فقال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢﴾. ويجوز أن يراد بالمال: القديم الموروث، وبما كَسَب: الحديث المكتسب. وتعبِّر العرب عن النوع الأول بالتالد، وعن النوع الثاني بالطارف، فتقول للمُعدَم: ليس له تالد ولا طارف. ويجوز أن يُراد بما كَسَب: ما كان يعمله في معاكسة الرسول عليه السلام، أي: لم يُفِدْه مالُه ولا عمله الذي كان يعمله في معاداة النبيِّ ﷺ، طلباً للعلوِّ والظهور.

ثم سَجَّل بقوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣﴾ ولهبُ النار: هو ما يَسطَعُ منها عند اشتعالها وتوقُّدها، فأراد بوصفها هذا أنها نار شديدةُ الحرارة. والمراد من هذه النار: نار الآخرة التي لا يعلم حقيقتَها إلا الله، وسيُعذَّبُ فيها أبو لهب جزاءَ ما كان يأتيه من العناد والمجاحدة، ﴿وَ﴾ ستَصْلاها معه ﴿ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ أُمُّ جميل، ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ٤﴾ وقد نَصَبها على التخصيص بالذمّ، أي: تلك النمّامة الواشية التي تؤجِّج النار بين الناس بنميمتها.

ثم رشَّحَ هذا المجاز باستعارةٍ تخيُّليَّة تناسبها، لزيادة التقرير والمبالغة في التشنيع،

فقال: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ أي: في عُنقها حبلٌ قويّ من ليف تجمع به حطباً كثيراً، لوقود نار الفساد والفتنة والمشاغبات. يُكنِّي بذلك عن شدَّة سعيها بالمُشاغَبة ضدَّ رسول الله ﷺ، وقد استعار هذا المعنى من المرأة المُجِدَّة في جَمْع الحطب لإيقاد النار؛ يُبالغ في البيان عن شدَّة سَعْيها في الفساد والمعارَضة لنشر الدعوة وظهور الدين وكَبْت المسلمين.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ تتميماً للوعيد وتشديداً للعذاب، يتناسق مع لفظ ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ الذي كنَّى به عن شدَّة وشايتها بمحمد وأصحابه، أي: إنها ستَصْلى جزاءَ ذلك ناراً ذاتَ لهب مغلولةً بحَبْل من نار شبيهٍ بحبل المَسَد، جزاءً وفاقاً. والله أعلم.

* * *

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

مُختَلَفٌ فيها؛ أمكيَّة أم مدنيَّة؟ وآيها أربع

والغَرَضُ منها:

بيان صورة الدعوة إلى التوحيد.

وقد وَرَد في الأثر: أنَّ سورة الإخلاص تُعَدُّ ثلث القرآن[1]، وذلك لأنَّ أُسَسَ مقاصد القرآن ثلاثة:

١ـ إصلاح العقائد لتطهير عقول الناس من دَنَس الوثنيَّة وأوهام الخرافات.

٢ـ وتقويم الأخلاق لتهذيب النفوس من شرِّ الرذائل ومنكرات العادات.

٣ـ وتشريع الأحكام لإقامة العدل بين الناس، وإحقاق الحقِّ فيهم، وتنظيم علاقاتهم بربِّهم وعلاقات بعضهم ببعض.

وسورة الإخلاص قرَّرت بالإجمال أُسُسَ القسم الأول، فلذلك كانت تعدل ثلثَ القرآن.

---

(١) إشارة إلى الحديث: قال النبي ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟» فشق ذلك عليهم وقالوا: أيُّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن». رواه البخاري (٥٠١٥)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ هذا الضمير هو الذي يُعبِّر عنه النَّحْويون بضمير الشأن أو القصَّة أو الخبر المهم، أي: إنَّ الخبر الحقَّ المؤيَّد بالبرهان الذي لا يُرتابُ فيه: أنه تعالى واحدٌ لا شريك له، ولا كثرة في ذاته، إذ ليس بماديّ، ولا هو من أُصول مُتعدِّدة غير ماديَّة، كما يزعم بعضُ أرباب الأديان من أنه أصلان فاعلان، كما يعتقد ذلك المجوس، أو أنه ثلاثة أصول كما يعتقد القائلون بالتثليث من أنه ثلاثة أُصول تُعتَبرُ واحداً، وهي مُتعدِّدة، سواء عُقِلَ ذلك أم لم يُعقَل، فإنَّ الله سبحانه بريءٌ من ذلك، كيف وقد أجمعت العقلاء على أنَّ مُوجدَ العالم ـ وهو الله ـ واجب الوجود، ووجوبُ الوجود يستلزم وَحْدةَ الذات، لأنَّ التَّعدُّد في الذات يستلزم الافتقار إلى المجموع، فلا يكون واجبَ الوجود لذاته[1].

---

(١) إنما وقعوا في هذا الخبط والخلط؛ لأنهم جعلوا ذات الله سبحانه موضوع بحث علمي، والله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فلا يمكن للعقل أن يعرفه بهذه الطريقة؛ لأنَّ العقل لا يعرف المغيَّبات إلا بواسطة معرفة أشباهها في الجملة، والله سبحانه لا شبيه له ولا مثال، فلا يُعرَفُ إلا بآثاره العظيمة في سائر مخلوقاته في هذا الكون العظيم، وأقوى الأدلة وضوحاً وإثباتاً للمطلوب: دلالة الأثر على المؤثِّر. ولا يَعرِف كُنهَ ذاته سبحانه إلا ذاتُه الجليلة، وقد عرفنا عنها بهذه الطريقة في آية النور من سورة النور. (المؤلف).

ثم ذكر صفةً أُخرى من صفات عظمته وانفراده، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ والصَّمَدُ: هو الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج، وهذه الجملة من الكلمات الجامعة التي تملأ النفس مما قُصِدَ بها، وهو حَصْرُ الصَّمَديَّة به تعالى؛ إذ لا يُقضى بدونه أمر.

قال الأستاذ الإمام: فهذه الآية تقول لك: إنَّ حاجةً ما في الوجود لا تَتَوجَّه إلى غيره، وأنَّ محتاجاً لا يجوز أن يَتَوجَّه في طلب حاجته إلى سواه، إذ قد أفادتنا أنَّ جميعَ المُسبَّبات تنتهي إليه، وجميعَ ما يَسْري فيها من الوجود فهو مِن إيجادِه، وأنَّ صاحب الاختيار كالإنسان إذا أراد أن يحصِّل مُسبَّباً من سبب، فعليه أن يبحث عن طريقة ارتباطه به، على حسب ما أمره الله، بالبحث والنظر والتدبُّر في مخلوقاته؛ ليعلم كيف يَسْري الوجود الموهوب من واجب الوجود من الأسباب إلى المسبَّبات، ثم يذهب بها حتى يُسنِدَها إلى مُبدِئها، وهو الأمر الإلهي، هذا فيما يظهر فيه السبب والمسبَّب، ويظهر فيه أثرُ الكسب وعملُ الإرادة والقُوى الممنوحة البشريَّة، أما ما هو وراء ذلك مما لا دَخْلَ للإرادة فيه، فعلى صاحب الحاجة أن لا يَتَوجَّه في المعونة عليها ـ بعد الأخذ بالأسباب ـ إلا إلى الله وحده، فهو المستأثر بالعمل فيما وراء ما جَعَل لك فيه عملاً.

وقوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يُشعِرُ بأنه ينتهي إليه الطلبُ مباشرةً بدون واسطة ولا شفيع، وهو في ذلك يدعو إلى ما يخالف عقيدةَ مشركي العرب، وكثير من أرباب الأديان الذين يعتقدون بأنَّ لرؤسائهم منزلةً عند الله ينالون بها التوسُّط لغيرهم في نَيْل مُبتَغَياتهم، فيلجؤون إليهم أحياءً وأمواتاً، ويقومون بين أيديهم أو عند قبورهم خاشعين خاضعين.

ثم هو الصَّمَدُ في تحديد الحدود العامَّة للأعمال، ووَضْع أُصول الشرائع، فلا بدَّ أن يُرَدَّ إلى ما أنزَلَ جميعُ ما يقع الاختلاف فيه، وليس من المباح أن يُرجَعَ إلى قول غيره

متى نطق صريحُ كتابه بخلافه، لئـلا يكونوا مُستَمسِكين بما لم يُنزِل به الله سلطاناً، فيسقطوا في مهاوي الشقاء الدنيويّ والأخرويّ.

ثم ردَّ على القائلين بأنَّ له ابناً أو بناتٍ، مشيراً إلى فساد رأيهم، فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ لأنَّ الابنيَّة تستلزم الولادة(١)، والتعبير بالانبثاق لا يغيِّر المعنى، والولادة إنما تكون فيما يَحتاجُ إلى بقاء النَّسْل بعد فناء الأصل، وما ليس كذلك فلا يحتاج إلى الولادة، كما في النجوم والشمس والقمر والأرض والجبال، وما أشبَهَ ذلك من الموجودات الثابتة المستقيمة، فكيف بالأزليِّ الأبديِّ العليِّ العظيم، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، تعالى الله عمّا يقول الظالمون عُلواً كبيراً.

قال الأستاذ الإمام: ثم ردَّ على مَنْ يعتقد من المُبْطِلين أنَّ له نِدّاً في أفعاله يُعاكِسُه في أعماله على نَحْو ما يعتقد بعض الوثنيِّين في الشيطان مثلاً، فقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ والكفو: معناه: الكافي والمماثل في العمل، أي: لم يكن مُكافئٌ ولا مُماثل، ولا صاحبة ولا وَلَد، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فنفى بهذه السورة جميعَ أنواع الشِّرك، وقرَّر جميع أُصول التوحيد، وبيَّن حاجة العالم الإنساني كافَّة إلى الله سبحانه، بأوجز عبارة وأجزلها، لذلك لا يُستَغرَبُ ما ورد في الخبر من أنها تَعدِلُ ثُلُثَ القرآن(٢).

---

(١) التوالد من خصائص المُحْدَثات؛ ليبقى ويدوم بها الجنسُ في الوجود، والله سبحانه منزَّه عن ذلك، أزليٌّ أبديٌّ لا مبدأ له ولا نهاية، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، مُنزَّه عن الشبيه والنظير والمثال. (المؤلف).

(٢) تقدَّم تخريجه في أول السورة ص٤٠٣.

سُورَةُ الفَلَق

مُختَلَفٌ فيها؛ أمكيَّة أم مدنيَّة

وآيُها خمس

والغَرَضُ منها:

بيانُ الاستعانة بالله سبحانه على عوارض هذه الحياة المادّيّة.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

﴿قُلۡ[(١)] أَعُوذُ﴾ أي: أعتصِمُ ﴿بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴿١﴾﴾ قال الأستاذ الإمام: قيل هو الصُّبح، وربُّه: هو الذي وضع نظام الكواكب ـ أي: النظام الشمسي ـ على أن يكون في الأرض ليلٌ يغمرها بظلمته، ثم يكون صُبْحٌ يَفلُقُ الظلام ويَفرِجُ كربَه عن الأنام.

وقال جَمْعٌ من المفسِّرين: إنَّ الفَلَقَ: هو الموجود المُمكِن كلُّه، وربُّه: هو خالقه الذي شقَّ ظلمة العدم عنه، ومن كان ربَّ الوجود كلِّه ـ أو ربَّ الصبح ولا يمكن أن يأتي بالصبح سواه ـ فهو جديرٌ أن يُتَعوَّذَ به، ويُلجأ إليه وحده، ويُعتَصَمَ به دون سواه ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ أي: من كلِّ شرٍّ وأذى يُصيبُك من أيِّ شيء خلقه.

أقول: ويشمل ذلك السُّنن الكونيَّة، ولا سيما ما يتعلَّق منها بالإنسان وأحواله الصِّحِّيَّة والاجتماعية، فإنَّ معاكستَها قَصْداً أو جهلاً تؤدِّي به إلى شرٍّ ووَبال، فعليه أن يستعيذ بالله من ذلك ويتَّقيه.

---

(١) قال العلامة عبد الحميد بن باديس في «مجالس التذكير» (٢: ٣٤٩): «﴿قُلۡ﴾: الأمر المفرد للنبي ﷺ، ومن حُسْن الأدب في مُقدَّرات القرآن أن تُقدِّرَ في مثل هذا الأمر: أيّها الرسول أو أيها النبي، لأنهما الوصفان اللذان نطقَ بهما القرآن في نداء النبي، وألا تقدِّر: يا محمد كما هو جارٍ على الألسنة وفي التصانيف، فإنَّ القرآن لم يخاطبه باسمه. والأمر لنبيِّنا أمر لنا؛ لأننا المقصودون بالتكليف، ولا دليل على الخصوصيَّة، فهو في قوة: قل أنت، وقل لأمَّتِك يقولون.

وقال الأستاذ الإمام في تفسير الآية: إنَّ الله خلق الخلق لِـمَا لا نعلمُه من الحكمة، وقد يُوقِفُنا على حكمته في بعض خَلْقه، وقد خَلَقَ كلَّ مخلوق ليصيبَ من الوجود الحظَّ الذي قدَّره له، ووَهَبه كلَّ ما يتمُّ به ذلك الحظ المقدَّر، فكلُّ مخلوق فهو خيرٌ في نفسه؛ لأنه أخذ مكانه من الوجود، وهو الحقُّ الذي لا يمكن أن يُزَحزَحَ عنه، والشرور التي تَعرِضُ أُمورٌ نسبيَّة فما هو شرٌّ بالنسبة إليك، خيرٌ لكائنٍ آخر، يأكل السَّبُعُ إنساناً فيألم ويموت، ويحزن له الأقارب والأصدقاء، ويُحرَمُ سعيَه الأولادُ والفقراء، فكلُّ ذلك أذى وشرٌّ بالنسبة إليه وإليهم، ولكنه خيرٌ بالنسبة إلى السَّبُع وتكميلٌ لحظِّه من الوجود. ولهذا أضاف الشرَّ إلى ما خلق؛ لأنَّ الشرَّ إنَّما يأتي بمُراعاة تلك الإضافة. أما أفعالُ الله في نفسها فكلٌّ منها خيرٌ في نفسه.

فالاستعاذة بالله من شرِّ ما خلق: هي الالتجاء إليه أن يُخلِّصَكَ من أذاه، كأن لا يُخلِّيَ بينك وبينه، أو لا يَدَعَه ينتبه إليك، أو يُقدِرَك على دفعه.

ثم خصَّ بعضَ ما خلق؛ لكثرة ما يقع الشر فيه، مع غلبة الضعف عن دفعه، فقال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾ قال الحسن وابن عباس ومجاهد: المراد به: الليل المظلم(١)، فإنه موضع الخوف مما يَدهَمُك وأنت لا تدري كيف تخلص منه، ولذلك قيل: الليل أخفى للويل، والظلام أخفى للإجرام. ويقال: وقب الظلام، أي: انتشر(٢).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤: ٧٠٢).

(٢) والأولى تعميم قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي: من شرِّ كلِّ شيء يدخُل مظلماً، فينصبُّ في ثَقْبٍ، ويحمل بدخوله شرّاً للمدخول فيه. كالجراثيم الضارَّة المظلمة التي تدخل في مسامِّ الأجساد، وتتولَّد منها الأمراض والأسقام.

وفي التعوُّذ برب الفلق من شرِّ الليل مناسبةٌ جليلةٌ عليها بُنِيَ نَظْمُ الكلام، والله أعلم؛ لأن الفلق ـ وهو الصبح ـ يُنهى به الليل.

ثم خصَّ مخلوقاتٍ أُخَرَ لظهور ضَرَرِها وعُسْرِ الاحتياط منها، فلا بدَّ من الفَزَع إلى الله، والاستنجاد بقدرته الشاملة على دفع شرِّها، فقال: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾ قال البيضاوي: قيل: المراد بالنفث في العقد: إبطال عَزائم الرجال بالحِيَل، مُستَعارٌ من تليين العُقَد بنفث الريق ليسهل حلُّها(١).

وقال الأستاذ الإمام ما مُلَخَّصه: النَّفْث: النفخُ الخفيف أو النفخ مع شيء من الرِّيق، والنفَّاثات من صِيَغ المبالغة، مُفرَدُه: نفَّاثة، كالعلَّامة والفهَّامة، ويُستَعمَلُ للذكر والأنثى، والمراد منهم هنا: النَّمامون المقطِّعون لروابط الإلفة، المُحرِّقون لها، بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم(٢).

أقول: ويجوز أن يُلحَقَ بهم المُشاغبون ودعاةُ الشر، وهؤلاء الأصناف يُضَلِّلون كما يُضلِّل الليلُ صاحبَه عن العدوِّ والطريق، ويخدعون بطرق مُشاغباتهم كما يخدع الساحرُ بالعُقَد. والله أعلم.

ثم قال: وإنما جاءت العبارة كما في الآية؛ لأنَّ الله جلَّ شأنه أرادَ أنْ يُشبِّههم بأُولئك السَّحَرة المُشَعوِذين الذين يَعقِدون الخيوط، وينفثون على العُقَد؛ إيهاماً لعَقْد شيء، ويحلُّونها إيهاماً لحلِّ شيء، يخادعون بذلك، فشبَّه النَّمامين بهم، لأنهم يذكرون

---

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٤٨).

(٢) التفسير الصحيح للنفاثات في العقد هو ما فسَّرها به أهل التفسير المعتمدون قالوا: النفاثات في العقد ـ السواحر والسَّحَرة الذين يعقدون الخيط وينفثون عليه كلام السحر. وينظر «تفسير الطبري» و«القرطبي» وغيرهما.

لك ما يذكرون لصاحبك، وأنت لا تعلم، وربما دخلوا عليك بما يشبه الصدق، حتى لا يكاد يُمكِنُك تكذيبُهم، فلا يَسهُلُ التَّحفُّظ منهم، ولا بدَّ من الاستعانة عليهم بقوة عظيمة، وهي قوة الله تعالى.

ثم تعرَّض الأستاذ الإمام لِـمَا يقولون من أنَّ النبي ﷺ سُحِرَ(١)، وأنَّ السورة نزلت لرقيته(٢)، وردَّ ذلك.

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «سحر النبي ﷺ، حتى كان يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يوم دعا ودعا، ثم قال: «أشعرت أن الله أفتاني فيما فيه شفائي، أتاني رجلان: فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبَّه؟ قال لبيد بن الأعصم، قال: فيما ذا، قال: في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر، قال فأين هو؟ قال: في بئر ذروان»، فخرج إليها النبي ﷺ، ثم رجع، فقال لعائشة حين رجع: «نخلها كأنه رؤوس الشياطين» فقلت: استخرجته؟ فقال: «لا، أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً» ثم دفنت البئر». رواه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) إنَّ رقية النبيِّ ﷺ بالمعوذتين ثابتة، ففي صحيح البخاري (٥٠١٦) ومسلم (٢١٩٢) عن عائشة «أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتدّ وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده، رجاء بركتها».

وأما كون سبب نزولها رقية النبي ﷺ فإنه قد ذكر بعضُ المفسرين هذا الأمر.

ففي «أسباب النزول» للواحدي: قال المفسرون: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ، فأَتَتْ إليه اليهود ولم يزالوا به حتى أخذَ مشاطة النبي ﷺ وعدة أسنانٍ من مشطه، فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وكان الذي تولّى ذلك لَبيدُ بن أعصم اليهوديّ، ثم دسَّها في بئرٍ لبني زُرَيق يقال لها: ذروان، فمرضَ رسول الله ﷺ، وانتثر شعرُ رأسه، ويرى أنه يأتي نساءه ولا يأتيهنَّ، وجعل يدور ولا يدري ما عراه، فبينما هو نائم ذات يوم أتاه ملكان، فقعدَ أحدهما عند رأسه، والآخر عند رِجلَيـه، فقال الذي عند رأسه: ما بال الرجل؟ قال: طبٌ قال: وما طبٌ؟ قال: =

= سحر. قال: ومَن سحرَه؟ قال: لبيدُ بنُ أعصم اليهوديّ، قال: وبمَ طبَّه؟ قال: بمشط ومشاطة قال: وأين هو؟ قال: في جف طلعة تحت راعوفة في بئر ذروان.

والجفّ: قشر الطلع، والراعوفة: حجر في أسفلِ البئر يقومُ عليه المائح. فانتبه رسول الله ﷺ، فقال: يا عائشة ما شعرت أن الله أخبرني بدائي، ثمَّ بعثَ علياً والزبير وعمار بن ياسر فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الجفّ، فإذا هو مشاطة رأسه وأسنان مشطه، وإذا وترٌ مُعقَدٌ فيه أحدَ عشر عقدة مغروزة بالإبر، فأنزل الله تعالى سورتي المعوذتَين، فجعل كلّما قرأ آية انحلَّت عقدة، ووجدَ رسول الله ﷺ خِفّة حتى انحلَّت العقدة الأخيرة، فقام كأنّما نشطَ من عقال، وجعل جبريل عليه السلام يقول: بسم الله أرقيك، من كل شيء يُؤذيك، ومن حاسدٍ وعينِ اللهُ يشفيك. فقالوا: يا رسول الله أو لا نأخذُ الخبيث فنقتله؟ فقال: أما أنا فقد شفاني الله، وأكرَهُ أن أُثيرَ على الناس شراً».

وفي «لباب النقول» للسيوطي: وأخرج أبو نُعيم في «الدلائل» من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أنس بن مالك قال: صنعت اليهود لرسول الله ﷺ شيئاً فأصابَه من ذلك وجعٌ شديد، فدخلَ عليه أصحابُه فظنّوا أنه لما به، فأتاه جبريل بالمعوذتين فعوَّذه بهما فخرج إلى أصحابه صحيحاً. انتهى.

وقد قال بهذا البغوي والقرطبي وابن الجوزي، وعزاه ابنُ الملقِّن للرافعي.

وقال ابن حجر في «الفتح»: وفي حديث زيد بن أرقم عندَ عبدِ بن حُميد وغيره: فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين، وفيه: فأمره أن يحلَّ العقدَ ويقرأ آية، فجعل يقرأ ويحلّ، حتى قام كأنما نشط من عقال. انتهى.

قال الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة»: زيادة نزول جبريل بـ(المعوذتين) سندُها صحيح أيضاً. ولها شاهد من حديث عمرة عن عائشة قالت: كان لرسول الله ﷺ غلامٌ يهوديٌّ يخدمه يقال له: لبيد بن أعصم، وكانت تُعجبُه خدمته، فلم تَزل به يهود حتى سحر النبي ﷺ، فكان ﷺ يذوب ولا يدري ما وجعه، فبينما رسول الله ﷺ ذات ليلة نائم إذ أتاه ملكان، فجلس أحدُهما عندَ رأسه، والآخر عندَ رِجلَيه، فقال الذي عندَ رأسه للذي عند رجليه: ما وجعه؟ قال: مطبوب. فقال: مَن طبّه؟ قال: لبيد بن أعصم. قال: بمَ طبّه؟ قال: بمشط ومشاطة وجفّ طلعة ذكر =

وقد ردَّ على ذلك أيضاً أبو بكر الرازي المعروف بالجصَّاص[١]، إلى أن قال[٢]:

= بـ(ذي أروى)، و هي تحت راعوفة البئر. فاستيقظ رسول الله ﷺ، فدعا عائشة، فقال: يا عائشة! أشعرت أن الله قد أفتاني بوجعي، فلما أصبح غدا رسولُ الله ﷺ، وغدا أصحابه معه إلى البئر، وإذا ماؤها كأنه نقيع الحناء، وإذا نخلُها الذي يَشربُ من مائها قد التوى سيفُه كأنه رؤوس الشياطين، قال: فنزل رجل فاستخرج جف طلعة من تحت الراعوفة، فإذا فيها مشط رسول الله ﷺ ومن مشاطة رأسه، وإذا تمثالٌ من شمع تمثال رسول الله ﷺ، وإذا فيها إبر مغروزة، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة، فأتاه جبريل بـ(المعوذتين) فقال: يا محمد ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وحلّ عقدة، ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وحلَّ عقدة حتى فرغ منها، وحل العُقَدَ كلّها، وجعل لا يَنزِعُ إبرةً إلا وجدَ لها ألـما، ثمَّ يَجِدُ بعدَ ذلك راحة. فقيل: يا رسول الله! لو قتلت اليهودي؟ فقال رسولُ الله ﷺ: قد عافاني الله عز وجل، وما وراءه من عذاب الله أشد.... اهـ ثم أفاضَ في الكلام على تخريجه.

وهناكَ خلافُ أهل العلم في سورتَي (الفلق) و(الناس) هل هما مَكيَّتان أو مدنيّتان. وقد صحَّح مكيّتَهُما جمعٌ من أهل العلم ـ منهم أبو السعود وابن عاشور ـ وقد ذكرَ ابنُ عاشور أنَّ الرواية المرويةَ عن ابنِ عباس في مكيّتِهما أصحّ من الرواية المرويَّة في مدنيَّتهما.

كما صحَّح مدنيّـتها جمعٌ آخرون ـ منهم ابن الجوزيّ والسيوطي وأبو حيان والبغوي والألوسيّ ـ واستدلوا بقصة لبيد بن الأعصم في الصحيحَين، ومهما يكن من أمر: فإن النبيَّ ﷺ كان يواظب على التعوذ ـ كما في الحديث: كان يتعوَّذ من الجانِّ وعينِ الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذَ بهما وترك ما سواهما. رواه الترمذي.

وعلى القول بمكيّتهما فإنهما تكونان نزلتا قبل السحر الذي عمِلَه اليهود للنبي ﷺ.

(١) هو أحمد بن علي الرازي (٣٠٥-٣٠٧هـ) فاضل من أهل الري، انتهت إليه رئاسة الحنفية، له: «أحكام القرآن»، و «أصول الفقه». «الأعلام» للزركلي (١: ١٧١). وأما ردّ الجصَّاص بأن السورة نزلت لرقيته فلم أطلع عليه، وإنما ذكر في «أحكام القرآن» أنه جاء جبريل إلى النبيِّ ﷺ فرقاه بالمعوذتين. نعم ردَّ الجصاص سحر النبي ﷺ.

(٢) يعني: الشيخ محمد عبده.

وجائز أن تكون المرأة اليهوديَّة بجهلها فعلت ذلك، ظناً منها بأنه يَعمَلُ في النبيِّ ﷺ، فأطلَعَه الله على مَوْضع سرِّها، وأظهَرَ جهلَها فيما ارتكبت وظنَّت؛ ليكون ذلك من دلائل نبوَّته؛ لا أنَّ ذلك ضرَّه وخلط عليه أمره. ولم يقل كلُّ الرواة: إنه اختلط عليه أمرُه، وإنما زيد هذا في الحديث، ولا أصل له(١).

أقول: ولكن القاضي عياض(٢) يقول: السِّحرُ مرضٌ كسائر الأمراض، والأمراض تلحق الأنبياء، وكان ﷺ لم يعتقد صحَّة ما يُخيَّل إليه، بل يعلم أنه خَيالٌ لا صحَّة له، فلا يَقْدَحُ ذلك في أمر النبوة والعصمة فيها. والظاهر أن القاضي يرى أنَّ للسحر أثراً في الجسم كتأثير العين(٣)، والله أعلم.

وقال بعضهم: إنَّ الشيء الذي كان يُخيَّل إليه أنه يفعله وهو لا يفعله: إنما هو مقصور على إتيان النساء.

---

(١) جاء في بعض الروايات: «حتى كان يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله»، وفي بعضها: «حتى كان يُخيَّل إليه أنه يأتي أهله»، وبقليل من التأمل يظهر أن «الشيء» في الرواية الأولى كنايةٌ عن إتيان الأهل المصرَّح به في الرواية الثانية، ومثل هذه الكناية شائعةٌ في كلام العرب.
أما لو فُرض الأمر فيها بالعكس، فلا يستطيع؛ لأنه ليس من عادة الرواة أن يُعبِّروا عن لفظٍ مطلق ـ وهو هنا: «الشيء» ـ بصورة جزئيَّة، وهي هنا إتيان الأهل.
فظهر بهذا أنَّ الحديث وقع فيه تصرُّفٌ من بعض الرواة وروايةٌ بالمعنى.
أما عبارة المؤلف ـ وأصلها للشيخ محمد عبده ـ فتوهمُ أن كلَّ ما زاده راوٍ وأسقطه آخر؛ يعدُّ مما زِيدَ في الحديث ولا أصل له، وليس كذلك.

(٢) هو أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (٤٧٦-٥٤٤هـ) عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، له: «الغنية»، و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، و«مشارق الأنوار». «الأعلام» للزركلي (٥: ٩٩).

(٣) «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (٢: ١٨١).

ثم خصَّ سبحانه التَّعوُّذ من شرِّ الحاسد؛ لِعِظَم ضَرَر الحسد أيضاً، وشدَّة أذيَّته، وكثرة وقوعه، فقال: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾[١]، والحاسد: هو الذي يَتمنَّى زوال نعمة محسودِه، ولا يرضى أن يَتجدَّد له نعمة.

قال الأستاذ الإمام: وهو إذا حَسَد ـ أي: أنفذ حَسَدَه وحقَّقه بالسَّعي والجدِّ في إزالة نعمة مَنْ يحسدُه ـ يكون من أشدِّ خَلْق الله أذى، ومن أخفاهم حيلة، وأدقِّهم وسيلة، وليس في طاقة محسودِه إرضاؤه بوجهٍ من الوجوه، ولا في استطاعتِهِ الوقوف على ما يُدبِّره من المكائد، فلا ملجأ منه إلا إلى الله وحده. وَقانا الله شرَّ الحاسدين، وكَيْدَ الكائدين[٢].

* * *

(١) الجامع بين الثلاثة: «الغاسق إذا وقب»، و«النفاثات في العقد»، و«الحاسد إذا حسد» هو اشتراكها في الخفاء؛ فإن «الغاسق» ظلام تخفى فيه الشرور، و«النفاثات» مبنيٌّ أمرهنّ على الإخفاء تخييلاً وإيهاماً، والحسد داء دفين. «مجالس التذكير»: (٢: ٣٥٣).

(٢) الحسد خُلُقٌ نفسيٌّ ذميم، ليس فيه حرص وقدرة على الخير، فلعَجْزه ومهانته يحسد من يكتسب الخير، ويتمنَّى أن لو فاته كَسْبُه حتى يساويَه في العدم. فالحسودُ يحبُّ انحطاط غيره حتى يساويه أو ينزل عنه في النقص والتَّسفُّل والانحطاط، وربما يكون لِعَيْنِ بعضهم أثرٌ فوق ما له من سَعْي في أنواع الضرر. والله أعلم. (المؤلف).

سُورَةُ النَّاسِ

مُخْتَلَفٌ فيها؛ أمكيَّة أم مدنيَّة؟ وآيها ست

والغَرَضُ منها:

بيان الاستعانة بالله على عَوارض هذه الحياة الروحيَّة، فأمرنا سبحانه أن نستعيذَ بربِّ الناس.

ثم أردَفَ هذه الصفة بصفاتٍ كلُّها تدل على أنه سبحانه آخِذٌ بناصيتهم.

ثم ذكر المُستَعاذَ منه ـ وهم أشرارُ الإنس وأشرارُ الجانّ ـ ووساوسَهم وما تُحدث من بلاءٍ وحدثان.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أي: أعتَصِمُ ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾، كانت الاستعاذة في السورة السابقة من الأضرار البدنيَّة والنفسيَّة معاً، أما في هذه السورة فمن الأضرار التي تُعرِضُ للنفوس البشريَّة.

قال الأستاذ الإمام: هذه السورة أمرٌ إلـهيٌّ بالاستعاذة بالله والالتجاء إليه والاستعانة به على دفع شرٍّ عظيم يُشبِهُ الشرورَ التي ذُكرت في السورة المتقدمة، ولكنه شرٌّ قد يسهو عنه الناس فلا يبالون به، لأنه قد يأتيهم من ناحية شهواتهم، وتلتبس له قُواهُم من حيث لا يشعرون، فيقعون به في سيِّئات الأعمال، وهم يحسبون أنهم يُحسِنون صُنعاً. ولـما كان من الخفاء بحيث تضعف قوة الإنسان عن دفعه بسهولة، احتاج إلى الاستعانة عليه بالله، وذلك الشرُّ هو شرُّ الوسواس. فأمر الله سبحانه بالاستعاذة به عليه، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ألجأُ إليه وأستعين به وأعتصم. وربُّ الناس: الذي يُربِّيهم بالنِّعم، ويؤدِّبهم بالنِّقم.

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾﴾ أي: الذي يحكمُهم ويضبط أعمالهم ويُدبِّر قواهم، ويَضَعُ لهم الشرائع، ويُحدِّدُ لهم الحدود العامة التي لا يباح لهم الخروج عنها. والمالك للشيء عالم بوجوه التصرُّف فيه.

﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ أي: المُسْتولي على قلوبهم بعَظَمتِـهِ، فلا يُحيطون بكُـنْهِ سلطانه، وإنما يخشعون لها، فهو معبودُهم الحقّ، ومَلَاذُهم إذا ضاقَ بهم الأمر.

ثم قال الأستاذ الإمام: وإنَّما خصَّ هذه الصفات من بين سائر صفات الألوهيَّة بالإضافة إلى الناس مع أنه الله سبحانه ربُّ كلِّ شيء، ومَلِكُ كلِّ شيء، وإلهُ كلِّ شيء؛ لأن الناس هم الذين وهموا في صفاته وضلُّوا فيها عن حقيقة معانيها، فجَعلوا لهم أرباباً ينسبون إليهم بعضَ النِّعَم أو كلَّها ولقَّبُوهُم بالشفعاء، وهم الذين تخيَّلوا لهم ملوكاً روحانيين، يظنُّون أنهم هم الذين يُدبِّرون حَرَكاتهم، وهم الذين يرسمون لهم حدود أعمالهم بما يُؤْثرون عنهم من أقوالهم، فيُعرِضون عن كتاب الله إلى كتبهم، وربما ضيَّعوا الكتب الإلهيَّة، فمُحِيَ أثرُها، اكتفاءً بما يبقى في أيديهم من مبتدعات أولئك الرؤساء.

ثم إنهم لذلك يجدون خشيةً لرؤسائهم هؤلاء، ويُخيِّلون لهم منها سُلطةً رُوحيَّة، فيَخْنَعون لهم خُنُوعَهُم للسلطان الإلهيّ، ولذلك عُدُّوا آلهةً لهم، لقَّبوهم بهذا اللقب أم لم يُلقِّبوهم به، فالناسُ هم الذين اخترعوا بأوهامهم هؤلاء الأرباب والملوك والآلهة، فلذلك خصَّهم بالذِّكر.

وإنما كرَّر ﴿ٱلنَّاسِ﴾ باللفظ الظاهر دون الضمير؛ لتقرير الأمر فَـضْلَ تقرير، لشدَّة تعلُّق الجمهور الأعظم من الناس بخيالاتهم وتمسُّكهم بأوهامهم.

فإذا لم يكن للناس ربٌّ ولا مَلِكٌ ولا إلهٌ إلا الله، فاستَعِذْ به وحدَه ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ والشرُّ نوعان: شرُّ المصائب، وشرُّ المعائب. فكانت سورة الفلق للأول، وسورة الناس للثاني.

والربوبيّة تتضمَّن التوجيه والتدريب، فلذلك أدَّبَنا سبحانه بهذا التأديب، وخطابُ

الرسول ﷺ خطابٌ للأمة أجمعين، وقد جاء في الأثر: «ما من أحد يصبح إلا ومَلَكٌ يناديه: يا عبدَ الله، هَلُمَّ إلى الخير، وشيطان يناديه: بل هَلُمَّ إلى الشَّر»[١].

قال الأستاذ الإمام: وأصلُ الوسوسة: الصَّوْت الخفيّ. وقد قيل لأصوات الحُليِّ عند الحركة: وَسْوَسة. والوَسْواسُ هنا صفةٌ كالثَّرْثار، أو اسم مصدر استُعمِلَ استعمالَ الصفة، والمراد منه: الذي يُلقي الحديثَ في النفس، حديثَ السوء.

ثم وصفه بهذا الوصف فقال: ﴿ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾، وهو مأخوذ من: خَنَسَ؛ بمعنى: رجع، وذلك لأنَّ الأحاديث النفسيَّة إذا سُلِّط عليها نَظَرُ العقل في العواقب خَفِيَت واضمَحَلّت، وسكن المُوسوِسُ عن إلقائها، وهكذا حديث النفس بالفواحش وضروب الأذى بالناس، إذا ذُكِرَ دين الله وعقابه ذهب ذلك الحديث هباءً وخَنَس الموسوس، وكذلك إذا وَسْوَس لك أحدٌ من الناس وبعثك على فعل سُوء وذكرتَ ذلك وذكّرتَه به، رأيتَه يخنس ويُمسِك عن القول إلى أن يجد فرصة أُخرى.

فالموسوس بالشرِّ كثير الخنوس؛ لأنه من ناحية الباطل لا مُكْنَةَ له على مقاومة الحق إذا صَدَمه، ولكنه يذهب بالنفس إلى أسوأ المصائر إذا انجرَّت مع الوسوسة، وانساقت بها إلى تحقيق الخاطر بالفعل.

وإنما ذكر الله لنا هذا الوصف؛ ليُنبِّه إلى مكان الموسوس من الضعف، لنتلمَّس السبيل إلى دَفعِه مع الاستعانة بالله عليه، وليدلَّنا على أنَّ ما أصاب الناس من قبله إنما كان من ضَعْف عزائمهم وعشا بصائرهم، ولو استعملوا بصائرهم وقواهم فيما جعلها الله له، ما نجع الوسواس في نفوسهم، ولا جرَّهم إلى سُوء مصيرهم.

وقد وصف الله سبحانه الوسواسَ الخنَّاسَ بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ

(١) سبق تخريجه (٢: ٧٥).

ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾﴾[1]، ثم بيّنه بقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ[2] وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ فهذا البيان إما بيانٌ لـ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾، أو بيان لـ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾[3].

---

(١) ﴿يُوَسْوِسُ﴾: بالمضارع؛ للإشعار بتجدُّدِ الوسوسة منه وعدم انقطاعها. والصدر: مجمع القوى النفسية المستودعة فيه. أي: الذي يُلقي في خُفْيَةٍ الشرَّ والشكوك في صدور الناس، ويُحدِّثهم بالشهوات والشرّ ليغريَ بهم، ويدعوهم إلى طاعتِه وترك الخير والصلاح إذا غفلوا وشُغلوا عن ذكر الله.

(٢) ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾: الجنّ، اسم جنس جمعي؛ واحدُه جِنّي، والتاء لتأنيث الجمع.

(٣) أي إنّ ﴿مِنَ﴾ بيانٌ من اسم الموصول ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾، ومعنى ذلك: أن الموسوسين من الجنسين: من الجِنَّة والنَّاس معاً، فكلاهما يقوم بنصيبه من الوسوسة، حتى الإنس منهم لهم دور في ذلك، ولكنهم لا يستطيعون أن يوسوسوا للجنّ؛ لأنهم لا يرونهم، وإنما مجالهم في الوسوسة لإخوانهم من الإنس.

أو هي بيان من ﴿ٱلنَّاسِ﴾ الذي يوسوس لهم، فبيَّنت أنَّ الناس الذين يوسوس الشيطان في صدورهم ليسوا مقصورين على جنس الإنس وحدهم، وإن كانت عداوته في الأصل موجَّهة إليهم، نتيجة حسدِه وحِقدِه القديم على جنس الإنسان، ولكن طبيعته الشريرة التي تكره الإيمان والخير، تأبى إلا أن تمتدَّ إلى قومه من الجِنَّة.

قال الإمام القرطبي: «قيل: إنَّ إبليس يوسوسُ في صدور الجنِّ، كما يوسوسُ في صدور الناس، فعلى هذا تكون ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، عامّاً في الجميع، و﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان لما يوسوس في صدره».

قال العلامة القرضاوي في «تفسير جزء عمَّ» تعليقاً على كلامِ القرطبي: «ولكن يعكّر على هذا الفَهم: أن ينقسم الناس ـ الموسوَس لهم في الآية ـ وهم جنس البشر إلى الجنسين: جنَّة وناس؟! والأَوْلى عندي: أن يُراد بالناس الذين يوسوس في صدورهم: النَّاسي بحذف الياء، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٣٦].

والمعنى: أن هذا الوسواس الخنَّاس، من شأنه أن يوسوس في صدور الناسي والغافل عن ذكر الله من الجنسين: الجِنَّة والناس، أما مَن يذكر الله ولا ينساه، فهو لا يُقبل عليه، ولا ينفذ إليه، كما =

قال الأستاذ الإمام: فالموسوس قسمان: قسم الجِنّة، وهم الخَلق المُسْتَتِرون الذين لا نعرفُهم، وإنما نجد في أنفسنا أثراً يُنسَبُ إليهم، ولكلٍّ من الناس شيطان، وهو قوّة نازعة إلى الشرّ[١]، يحدث منها في نفس الإنسان خواطر السُّوء[٢].

= قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ومعناها: أنهم إذا مسَّهم الشيطان بوسوستِه وفتنتِه، انتبهوا وتذكَّروا ربَّهم ولقاءه وحسابه وجزاءه، فإذا تذكَّروا ذلك أبصروا الغاية، وأبصروا الطريق، وأبصروا المصير، فرجعوا إلى الله وإلى الحقِّ وإلى طريق مستقيم» انتهى.

وهذا المعنى وإن لم يكن مشهوراً عندَ المفسِّرين هوحسن، فـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ الأخيرة يقصد بها الناسي، والمعنى: أن الشيطانَ يوسوس في صدرِ الذي ينسى ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [المجادلة: ١٩] وهذا ما يُسميه البلاغيون بالجِناس التامّ بين «الناس» الذين هم البشر، وبين «الناس» الذي هو الشخص الذي يَنسى. وهنا تكون الاستعاذةُ للجنِّ والإنس؛ لأنَّ النسيانَ يكون منهما معاً، والشيطانُ يوسوس في صدور كلٍّ من ينسى من الجنِّ والإنس.

(١) تقدَّم مراراً التنبيه إلى أن الشيطان ليس قوة، وإنما هو مخلوق من نار، أقدَرَه الله تعالى على إلقاء الوسوسة في نفوس الناس، وتقوية ما فيها من قوَّةٍ نزّاعة إلى الشر، فالقوَّةُ النزاعةُ إلى الشر مغايرة للشيطان.

(٢) الشَيطانُ: كل عاتٍ متمرِّدٍ سواء من الإنس أو الجن، وإبليس هو أبو الجن، كما أن آدم هو أبو الإنس. ومن تمرَّد على طاعة ربِّه سُمي شيطاناً، سواء كان جنياً أو إنسياً.

وقد اقتضت حكمتُه تعالى أن يستخلف بني آدم في الأرض لينظر كيف يعملون، وقد سلَّط عليهم الشيطان ليُزيِّن لهم ويغويَهم، وأخبرهم سبحانه بأنَّ الشيطان لهم عدوّ، وأمرهم بمعاداته وأخْذ الحذرِ منه، ومكَّن الشيطانُ من التزيين لهم والوسوسة في الوقت الذي عرَّفهم فيه طريق الخير والشر، وأعطاهم القوة التي يدفعون بها كيد الشيطان، ويتخلّصون من وسوسته، وإنما ابتلاهم الله تعالى وامتحنَهم بتسليط الشيطان عليهم ليميز الخبيث من الطيِّب، وليظهر من يُحبّه =

وإنما جعل الوسوسة في الصدر على ما عُهد في كلام العرب من أنَّ الخواطر في القلب، والقلب عندهم مما حواه الصدر، وكثيراً ما يقال: إنَّ الشكَّ يجول في صدره، وما الشكُّ إلا في نفسه وعقله، وأفاعيل العقل في المخّ، وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه.

والقسم الثاني من المُوسوِسين: قسمُ الناس، وهم المُضلِّلون والباعثون على فعل السُّوء.

* * *

= تعالى ويُؤْثر مرضاته على كلِّ شيء فيجاهد نفسه وهواه وشيطانه ابتغاء مرضاته سبحانه، ومن يستجيب لكيد الشيطان ووسوسته فيستحق خزي الله وعقوبته، والشيطان إنما يتسلط على مَن كان خبيثاً موالياً للشيطان كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]. وأما من أخلص لله تعالى واعتصم به فإنه سبحانه يعصمه من الشيطان ومكره، كما قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].
وقد ذكر ابن قيم الجوزيَّة وجوهاً كثيرة في الحكمة من خلق إبليس وما فيه من الحِكَم والمصالح التي ترتَّبت على وجوده في «شفاء العليل» فلينظر هناك. والله تعالى أعلم.

خاتمـة

وبهذا ينتهي ما وفَّقني الله لجمعه وترتيبه واختياره واقتباسه واقتضابه واستنباطه وابتكاره في تفسير آيِ الذِّكر الحكيم. وقد بذلتُ الجهدَ فيما اعتمدتُه فيه من انتقاء أحسن ما قيل في آيات التنزيل، وذلك عدا ما استنبطتُه بفهمي الخاص لبعض الآيات، واستلهمتُه منها من المعاني التي لم يسبقني إليها أحد، وإنما رأيتُ النظم يساعد على ذلك المعنى بحسب مفاهيم اللغة وعُرْف التخاطب وسياق الكلام على نهج القرآن.

والحمد لله الذي قدَّرني على إتمامه، والحمدُ أولاً وآخراً لله ربِّ العالمين.

واللهَ سبحانه واهبَ الـمِنَنِ أسأل أن يجعلَه لي ذُخْراً ليوم المآب، ووسيلةً لنيل الثواب، وأن يجعله من صالح عملي الذي لا ينقطع بانقطاع أجلي، والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات.

اللهمَّ لك الحمدُ حمداً كثيراً خالداً مع خلودك[1]، ولك الحمد حَمْداً لا منتهى له دون علمك، ولك الحمد حَمْداً لا مُنتهى له دون مشيئتك، ولك الحَمْدُ حَمْداً لا آخرَ لقائله إلا رضاك.

وقد وافق تمامُه يومَ الخميس المُصادِف لليوم التاسع عشر من شهر ربيع الثاني لسنة ألف وثلاثمئة وخمس وستين هجرية قمرية، الموافق لليوم الواحد والعشرين من شهر آذار لسنة ألف وتسعمئة وست وأربعين ميلادية.

---

(١) لفظ «الخلود» مما لم يرد إطلاقُه في حقِّ الله تعالى، فينبغي أن يُقال: باقياً مع بقائك.

ثم طبعت هذه النسخة بالطابعة، وكان الفراغ منها ٨ من ربيع الآخر ١٣٨٨هـ الموافق أربعة من تموز ١٩٦٨م.

وصلّى الله على محمد وآله أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الراجي عَفْوَ ربِّه والمُؤمِّل رضاه
رشيد الخطيب الموصلي

* * *

الحمد لله الذي وفَّقني لكتابة هذه النسخة الثانية بكثير من الإصلاح والتنقيح والتهذيب للنسخة التي قبلها، وكان ابتدائي بها في اليوم التاسع من شهر جمادى الآخرة من شهور سنة ألف وثلاثمئة وثلاث وستين هجرية، الموافق لليوم التاسع والعشرين من شهر أيار لسنة ألف وتسعمئة وأربع وأربعين ميلادية، وأكملتُها ـ والحمد لله ـ يوم الخميس المصادف لليوم التاسع عشر من شهر ربيع الآخر لسنة ألف وثلاثمئة وخمس وستين هجرية قمرية، الموافق لليوم الواحد والعشرين من شهر آذار لسنة ألف وتسعمئة وست وأربعين ميلادية. وعلى هذه النسخة المعوَّل؛ لأنها منقَّحةٌ ومُهذَّبةٌ أكبَرَ تنقيح وأحسَنَ تهذيب بالنسبة للتي قبلها.

٧ جمادى الآخرة ١٣٦٣هـ
إلى ١٩ ربيع الآخر ١٣٦٥هـ رشيد الخطيب
٢٩ أيار ١٩٤٤م إلى ٢١ آذار ١٩٤٦م

فكانت مدّة كتابتها واحداً وعشرين شهراً وواحداً وعشرين يوماً بالتقريب.

ثم نسخ لي هذه النسخة على النسخة المخطوطة بيدي الحافظ توفيق الصمدي، وكان ابتداؤه بها في ١٤ رجب ١٣٦٧ الموافق ٢٢ أيار ١٩٤٨م، وانتهاؤه منها ١٢ شوال ١٣٦٩ هـ الموافق ٢٩ تموز ١٩٥٠م، فكانت مدَّة كتابتها سنتين وشهرين وستة عشر يوماً، ولكنه تخلَّلها فرصة تعطيل من الزمن، وقد أدخلتُ عليها من الإصلاح والإضافات الشيءَ الكثير على أصلها، وتحسَّنت تحسُّناً كبيراً، لذلك جاءَ فيها من الشطب والزيادات ما له قيمةٌ بالغة في الإصلاح، والحمد لله رب العالمين.

١٥ شوال ١٣٦٩هـ
٣٠ تموز ١٩٥٠ م

رشيد الخطيب

* * *

ثم إني راجعتُ هذه النسخة التي بخط توفيق الصمدي مراراً عديدة وصحَّحتُها ونقَّحتُها وشطبتُ ما رأيتُه غيرَ سديد، حتى أصبحت مُسوَّدة من كثرة ما فيها من ذلك، وأصبحتُ لا أقدر على تبييضها إذ بلغتُ من الكبر عتياً، ولم أجد مَنْ يساعدني على تبييضها مرةً ثانية لفَقْد مثل ذلك في البلد، وقد علَّقتُ عليها تعليقاتٍ عديدة، مستعيناً بالله سبحانه أن يُساعدني ويُسَدِّدَني، وأرجو أن أكون وفِّقتُ لذلك بعون الله، فعلى هذه النّسخة المعوَّل في الطبع والنشر، لا على غيرها من بقيَّة النسخ التي عندي، وأسأل الله سبحانه أن ينفع بها، وأن يأجُرَني عليها، وأن يتقبَّلها مني خالصةً لوجهه الكريم، وهو حَسْبي ونِعْمَ الوكيل، وأن يُعينَ على طبعها في أحسن الصُّور بعونه وتوفيقه.

٥ صفر ١٣٨٦هـ
الموافق ٢٥ أيار ١٩٦٦م

رشيد الخطيب الموصلي

ثم طبعت هذه النسخة بالطابعة، طبعها لي يونس خليل الدباغ، وكان الفراغ منها ٨ ربيع الآخر يوم الجمعة الموافق أربعة من تموز ١٩٦٨م، ثم صحَّحتُ هذه النسخة أيضاً المطبوعة بالطابعة، فكانت هي وحدها الجاهزة للطبع والنشر، وأسأل الله سبحانه أن يُسهِّل ذلك.

وتمَّ طبع الجزء التاسع والأخير بعونه تعالى في مطبعة مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر في جامعة الموصل، في يوم التاسع عشر من شهر رمضان المبارك ١٣٩٤هـ والموافق ٥ تشرين الأول ١٩٧٤م، والحمد لله رب العالمين(١).

* * *

يقول المعتني بهذا التفسير مَجْد بن أحمد مكي وفَّقه الله لِـمَا يحبُّه ويرضاه: انتهيتُ من قراءة هذا التفسير وترقيمه وضبطه والتعليق عليه في بعض المواضع وتهيئته للطبعة الجديدة المتقنة في مساء يوم الاثنين ٢٥ من ذي القعدة ١٤٢٩هـ.

ثم أعدتُ النظر فيه ومراجعتَه والتعليق عليه بعد فجر يوم الاثنين ٣ رجب ١٤٣٤

---

(١) تنبيه: طُبع تفسيري هذا بعد أن جاوزت التسعين من العمر، فما كان يُمكِنُني أن أقوم على التصحيح بنفسي، فما جاء فيه من بعض جُمل أو كلمات غير واضحة فهو من سقوط كلمة، أو تحريف كلمة، أو تقديم كلمة على كلمة، أو زيادة كلمة، وقد يكون الساقط حرفَ عطف أو حرف نفي أو حرف استثناء أو حرف ابتداء، وهكذا. والتحريف مثل: (يخاف) بدل (يختلف)، و(يعلمون) بدل (يعملون)، و(حساب) بدل (سحاب)، و(النبوة) بدل (البنوة)، و(يهتم) بدل (يتهم)، و(الأمور) بدل (الأوامر)، و(تعلوا) بدل (تعلموا)، و(يجزرهم) بدل (يزجرهم)، و(يدد) بدل (يندد)، و(ضميرهم) بدل (ضميركم)، و(الضوء) بدل (الوضوء)، و(ما) بدل (من)، و(أما) بدل (ما)، وهكذا (رشيد الخطيب).

الموافق ١٣ أيار ٢٠١٣م في مدينة الدوحة بقطر، وأرسلته إلى مؤسسة أَرْوِقة للدراسات والنشر بعمّان؛ لتقوم بمراجعته وتنسيقه وإعداده للطباعة بعون الله وتيسيره.

وأسأل الله سبحانه أن يُيسِّر إتمام العناية به، ودقّة مراجعته وتصحيحه وإخراجه ونشره بين يدي طلاب العلم، وأن يرزقنا الإخلاص والصواب في القول والعمل، ويبارك لنا في أوقاتنا وأعمارنا، ونسأله عزَّ وجلَّ العلمَ النافع، والعملَ الصَّالح، والرزقَ الطيِّب، وأن يستعملنا في طاعته ومرضاته، إنه خير مسؤول وأكرم مأمول.

وصلى الله على نبيِّنا وسيِّدنا محمد وآله وسلَّم تسليماً كثيراً.

* * *

الفهارس العامة

- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
- فهرس الآثار عن الصحابة
- فهرس الأشعار
- فهرس البلاغة
- فهرس الأعلام
- فهرس الفرق والمذاهب العقائدية
- فهرس الكتب
- فهرس الأماكن
- فهرس قواعد التفسير التي ذكرها المصنف
- الفهرس الإجمالي للسور

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

طرف الحديث	الجزء والصفحة
أبغض الحلال إلى الله الطلاق	٢/ ٣٣١
أتاني آتٍ من عند ربّي عزّ وجلّ	٣/ ١٢٧، ٦/ ٨٤
أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية	١/ ٧١٦
أتردين عليه حديقته	٢/ ٣٣٢
أتى ابن أم مكتوم النبيّ ﷺ أول إسلامه، وهو بمكة	٨/ ١٣٤
احبسوا عليّ هؤلاء الركب	٤/ ١٠٤، ١٠٥
أحياناً يأتيني مثل صلصلة	١/ ٦٤٠
الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه	٣/ ٢٥٧، ٤٣٩، ٤/ ٩، ٥/ ٢٦٢
ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة	٢/ ٢٧٢، ٤٣٦، ٣/ ٤٣٨
إذا أحبّ الله عبداً يقول لجبريل: أحببت فلانا فأحبّه	٥/ ٩٥
إذا أرسلت كلابك المعلَّمة وذكرتَ اسم الله	٣/ ١٨٢
إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها	٢/ ٣٢٥، ٣/ ٢٥٢
إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها	٤/ ٣٦٦
إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر	٧/ ٣٢٤
إذا مات ابن آدم انقطع عمله	٤/ ١٢٣

طرف الحديث	الجزء والصفحة
اذهبوا، أنتم الطلقاء	٤/ ٣٣٦
أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بالوادي	٨/ ٣٩٩
أرحنا يا بلال	٧/ ٢٧٠
أرسله، اقرأ يا هشام	١/ ٧٣٢
اعملي يا فاطمة، فإني لا أغني عنك	١/ ٧٧٩
اقرأ عليّ القرآن	٣/ ٦١
أقرأني جبريل على حرف	١/ ٧٣٢، ٧٤١
اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو	٧/ ١٠٣
ألا إن العربية اللسان	٢/ ١٩٥
إلا التبعات فيما بينكم	١/ ٥٨٢
اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون	٤/ ١١٥
اللهمّ أنجزْ لي ما وعدتني	٤/ ١٣
اللهمّ هذه قريش قد أقبلت بخيلائها	٤/ ٣٧
إما أن يعجل له دعوته	٢/ ٢٧٢
أمر برجم ماعز الأسلمي والغامدية	٥/ ٣٠٠
أمر عامله على مكة أن يؤذن المرابين بحرب	٢/ ٤١٧
أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهمَّ أيّنا كان أقطع للرّحم	٤/ ١٧
إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي	٦/ ٣٣٠
إنّ أطيب ما يأكل الرجل من كسبه	٥/ ٣٤٥
إنّ أكابر قريش اجتمعوا وقالوا لرسول الله ﷺ	٥/ ٢٥
إن روح القدس نفثَ في روعي	١/ ٦٤١

طرف الحديث	الجزء والصفحة
إن الله اختار بني آدم فاختار منهم العرب	٤/ ٢٧٤
إن الله يحاسب جميع الخلائق في مقدار نصف يوم	١/ ٢٦٣، ٦٠٩، ٦/ ٣١٨
إن الله خلق آدم على صورته	١/ ٦٩٦، ٢/ ٦٨، ٧٠، ٤/ ٢٦٦
إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها	٣/ ٢٦٤
إن الله كتب يوم الجمعة على مَن كان قبلنا	٤/ ٥٠٩، ٧/ ٣٨٧
إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل لاه	٢/ ٢٧٢، ٧/ ١٤٩
إنّ الله ليقتص من الشاة القرناء للشاة الجلحاء	٨/ ١٤٦
إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته	٥/ ٥١١، ٥١٥، ٥٢٧
إن الله يأمر الملك أن يكتب	٢/ ٤٣٧
إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر	٣/ ٣١
إنّ أميّة بن خلف في رهط من قريش قال لرسول الله ﷺ	٨/ ٣٨٧
إنّ أول ما نبدأ به في يومنا هذا نصلّي	٨/ ٣٨٠
أنّ أولياء الله: المصلّون	٤/ ١٨٦
أن بين النفختين مدّة يتكوّن فيها الجسم ويُعاد	٦/ ٣٠٤
إن تسعمئة وتسعة وتسعين من كل ألف يكونون من أهل النار	٥/ ١٩٦
أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ	٧/ ٩٨
إن جبريل قال له: أرجِع حفصة فإنها صوّامة قوّامة	٧/ ٤٣٢
إن الخيمة درة مجوفة	٧/ ٢٤٧
أنّ رسول الله ﷺ أقام في غزوة تبوك	٤/ ١١١

طرف الحديث	الجزء والصفحة
أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يُخيِّر أزواجه	٦/ ٦٢
إن روح المؤمن في طيور تسرح في الجنة	٥/ ٢١٦
إنّ الزمان قد استدار كهيئته	٤/ ٨٧
إنّ الشرط بيننا في الرجال لا في النساء	٧/ ٣٦١
إن العبد كلما أذنب ذنبًا حصل في قلبه	٨/ ١٦٩
إن الكبائر: الإشراك بالله	٣/ ٤٩
إن لكل رجل في الجنة زوجين اثنين	٢/ ٤٨
إن للشيطان لـمّة بابن آدم	٣/ ٣١٠، ٥١٥
إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة	٢/ ٤٨
إنّ المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح أن يرى منها	٥/ ٣١٤
أن مسطح بن أُثاثة هو ابن خالة أبي بكر الصدّيق	٥/ ٣١٠
أن المشركين سألوا النبيّ ﷺ اختباراً له	٥/ ٤٧
أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ آية بإشقاق القمر	٧/ ٢١٠
إن المؤمن ليؤجر في كل شيء	١/ ٧٧٠
إن الميت المؤمن يعرض عليه مقعده من الجنة	٥/ ٢١٦
أن النبي ﷺ أول ما تمثل له الملك	٨/ ٢٩٥
أن النبي ﷺ حزن لفترة الوحي حزناً شديداً	٨/ ٢٦٩
أنّ النبي ﷺ دخل عليها وعندها مخنّث	٥/ ٣١٧
أنّ النبيّ ﷺ سأله مشركو مكة	٥/ ٢٠
أنّ النبي ﷺ سُحر	٨/ ٤١٤
إن النبي ﷺ كان يأمرنا أن لا نتصدق إلا على أهل الإسلام	٢/ ٤٠٨

طرف الحديث	الجزء والصفحة
أنّ النبيّ ﷺ كان يصحب بعض زوجاته	٥/ ٣٠٤
أن النبي ﷺ كانت له أمة يطؤها	٧/ ٤٢٩
أن النبي ﷺ لاقى من الوحي شدّة في أول الأمر	٨/ ٢٧٠
إن هذه الأمة لا تغلب من قلة	٢/ ٤٣٦
إنّ هذه الآية هي آية العز	٤/ ٥٨١
أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى	٢/ ١٨١
أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره	٧/ ٩٣
انبعث لهم رجل عزيز عارم منيع في رهطه فعقرها	٨/ ٢٥٧
أنتِ على خير	٦/ ٦٥
انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة	٧/ ٣٥٣
إنما أنا بشر مثلكم، وأنتم تختصمون إليّ	٢/ ٢٧٧
إنما بُعثتم ميسِّرين ولم تُبعثوا معسِّرين	٢/ ١٩٦
إنما الماء من الماء	٣/ ٦٣
أنه أتى فاطمة بعبد وهبه لها وعليها ثوب	٥/ ٣١٦
أنه ﷺ حكم برجم اليهودي واليهودية	٥/ ٣٠١
إنه في ضحضاح من نار	١/ ٦٠٥، ٤/ ٧١، ٨/ ٣١٩
أنه قال: لـما نزلت هذه الآية في بيت أمّ سلمة	٦/ ٦٤
أنه ﷺ كان يكبّر بمنى تلك الأيام	٢/ ٢٩٩
إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك	٥/ ٣١٦
إنه نعيت إليه نفسه	٨/ ٣٩٤
إنهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصّالحين فيهم	٥/ ٧٤

طرف الحديث	الجزء والصفحة
أنهم ينبتون كما تنبت الحبّة في حميل السّيل	٦/ ٣٠٤
إني لا آمركم إلا بما أمرني الله به	٣/ ٢٦٤، ٧/ ١٩٠
إني لأعلم أنك على الحق	٤/ ١٧٤
أُوقد على النار ألف سنة حتى احمرّت	٥/ ٢٥
أولئك قوم عجّلت لهم طيّباتهم	٥/ ٩٠، ٦/ ٣٧٧
أيّكم مال وارثه أحبُّ إليه من ماله	٦/ ٤٠٤
أيما امرأة سألت زوجها الطلاق	٢/ ٣٣٣
أيها الناس إن ربكم واحد	٢/ ٢٩٤، ٧/ ١٢٦
بارك الله فيما أعطيت وفيما أمسكت	٤/ ١١٤
بخ بخ، ذلك مال رابح	٢/ ٥٠٩
بعثت أنا والساعتين كهاتين	٧/ ٦٩، ٢٠٩
بالعدل قامت السماوات والأرض	٥/ ١٦٧، ٧/ ٢٣١
بلغنا أنك تعطي البنت والأخت النصف	٣/ ١٣٦
بمقدار لمح البصر	٦/ ٣١٨
بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح	٧/ ٩٣
البينة على من ادعى	٢/ ٤٢١
بينما النبي ﷺ جالساً في نفر من أصحابه	٤/ ٤٢٢
بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل	٢/ ٣١٩
تبرّع رجل بوفاء دينارين عن ميّت	٤/ ١٢٤
تخرج الدابة ومعها عصا موسى عليه السلام	٥/ ٤٦٨
الثلث، والثلث كثير	٣/ ١٩، ٢٦

طرف الحديث	الجزء والصفحة
ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل	٦/ ٣٠٤، ٧/ ٢٦٦
جاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر	٤/ ١١٤
جبل من نار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفًا	٨/ ٥١
حبل الله هو القرآن	٢/ ٥١٩
حتى أتيا الصخرة، فرأى رجلاً مُسجّى	٥/ ٤٠
حديث جبريل في مواقيت الصّلاة	٤/ ٥٦٥
حَرُمت عليه	٧/ ٣١٨
خذوا القرآن عن أربعة	١/ ٧١٨
خذوا عني مناسككم	٢/ ٢٩٣، ٢٩٩
خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك	٤/ ١٣٨
خير الصدقة ما أبقت غنى	٢/ ٣١٩
الدعاء هو العبادة	٦/ ٣٣٧
ذروني ما تركتكم	٢/ ١١٥، ٣/ ٢٦٤
رجع نبينا ﷺ إلى خديجة رضي الله عنها يرجف فؤاده	٥/ ١١٨
رجم ماعزاً ولم يجلده	٣/ ٢٨
زمّلوني زمّلوني	٥/ ٤٨٩
زوجي لحم جمل غث (حديث أم زرع)	١/ ٦٩٥
سألت ابن أبي أوفى: هل رجم رسول الله ﷺ	٥/ ٣٠٠
سبحان الله لقد قفّ شعري لما قلت	٧/ ١٩٣
شغلونا عن الصلاة الوسطى	٢/ ٣٤٥
صالح رسول الله ﷺ بالحديبية مشركي مكة	٧/ ٣٦٠

طرف الحديث	الجزء والصفحة
صلوا كما رأيتموني أصلي	٢/ ٢٩٩
صوموا تصحوا	٢/ ٢٦٤
الصيام نصف الصبر	٢/ ٢٥٩
طوبى لمن أنفق الفضل من ماله	٢/ ٣١٩
عجب الذنب	٤/ ٤٢٨، ٥٤٤، ٥/ ١١٤، ٦/ ٤٢٨
فاطمةُ بضعةٌ منِّي	٦/ ٤٣٠
فإن تولَّيت فإنّ عليك إثم كلّ القبط	٤/ ٥٢٦
فقال: «ما هذا؟» قالوا: نذر أن يمشي إلى بيت الله	٢/ ٤٠٦
في قدر فواق ناقة	٦/ ٣١٨
قال الله: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت	٢/ ٥٥٤، ٦/ ٣٦، ٧/ ٤٩٩
قال: من يمنعك؟ قال: «الله»	٣/ ١٩١
قد جعل الله لهنّ سبيلا	٣/ ٢٨
قد حللت فتزوجي	٧/ ٤١٩
قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم	٧/ ٩٤
قدم ركبٌ من تميم إلى النبي ﷺ	٧/ ١٠٧
قم يا أبا تراب	٨/ ٣٧
قولوا: اللهمّ صلّ على محمد وآله	٦/ ٨٤
كالشعرة البيضاء في الثور الأسود	٨/ ٩٣
كان إذا حدّث النبي ﷺ بحديث حدّثه كأخي السرار	٧/ ١١١
كان خلقه القرآن	٧/ ٤٦٠

طرف الحديث	الجزء والصفحة
كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد	١/ ٧١٧
كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه	١/ ٦١٥
كان رسول الله ﷺ يقطّع قراءته آية آية	٨/ ٣٩
كان ﷺ إذا غمّه أمرٌ فزع إلى الصلاة	٤/ ٥٦٥
كان ﷺ يصلي الفجر، فاستمع له الجنّ كيف يقرأ	٨/ ٢١
كان النبي ﷺ حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ	٧/ ٣٤٠
كذلك أُنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف	١/ ٧٣٢
كل بدعة ضلالة	٢/ ١٧
كلّ الذنوب يؤخّر الله منها ما شاء	٤/ ٥٣١
كل مولود يولد على الفطرة	٥/ ١٤٤
كل مؤمن وليّ الله	١/ ٧٧٦
كلا، إنّ عماراً مُلئ إيماناً من قرنه إلى قدمه	٤/ ٥٠٢
كم من عذق رداح لأبي الدحداح	٢/ ٣٥٩، ٧/ ٢٩٢
كَمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع	٧/ ٤٤٠
كنا عند النبي ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع	١/ ٧١٧
الكيّس من دان نفسه	٢/ ٤٣٠، ٣/ ١٣١
كيف بك إذا لبست تاج كسرى وسواريه	٦/ ١٥٤
لا أطلقها حتى أؤمر	٤/ ١٢٦
لا، إلا نكاح رغبة، لا دلسة ولا استهزاء	٢/ ٣٣٤
لا، بل شربت عسلًا عند زينب	٧/ ٤٣١
لا تنذروا، فإن النذر لا يُغني من القدَر شيئًا	٢/ ٤٠٦

طرف الحديث	الجزء والصفحة
لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود	٤/ ٥٦٢
لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب	١/ ٦٨٧
لا يتْم بعد بلوغ	٣/ ٣٩١، ٤/ ٥٣٧
لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث	٤/ ٥٣٦
لا يدخلنّ عليكم هذا	٥/ ٣١٧
لبيك وسعديك، والخير في يديك	١/ ٥٥٤، ٥٧٦، ٣/ ٩٤، ٦/ ١١٥، ٨/ ٢٦
لتلبسنّ تاج كسرى وسواريه	٦/ ٤١٦
لتموتن كما تنامون	٣/ ٣٢٠، ٥/ ٢٦٥، ٤٧١، ٨/ ٧٦
لقد رأيتُنا يوم بدر وما فينا إلا نائم	٤/ ١٤
لله أفرحُ بتوبة عبده من العقيم الوالد	٣/ ٣١، ٤/ ٦٦، ٦/ ٢٩٨، ٤٠٣، ٨/ ١٩٦
لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين حتى نزلت سورة براءة	٤/ ٩٣
لم يكن النبيّ ﷺ يفسر شيئاً	١/ ٤٩٢
لـمّا قسم النبي ﷺ حنين، قال رجل من الأنصار	٦/ ٨٨
لن يدخلَ أحدٌ الجنةَ بعمله	٢/ ١٦، ٣/ ٤٢٩، ٥/ ٥٧٥
لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنّى لهما ثالثاً	٦/ ٣٧٦
لو كان موسى حيًّا بين أظهركم	٢/ ٥٠١، ٥٠٤
لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة	٤/ ٣٥٣، ٤٣٦

طرف الحديث	الجزء والصفحة
ليس الإيمان بالتمني	٣/ ١٣٢
ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته	٣/ ٢٥١
ليس الشديد بالصرعة	١/ ٦٨٧
ليس للرجل من صلاته إلا ما عقل منها	٥/ ٥٤٢
ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها	٤/ ٥٦٥، ٥/ ٢٦٢
ليست العربية بأحدكم من أم ولا أب	٧/ ٣٨٢
ما أراك إلا قد حَرُمت عليه	٧/ ٣١٨
ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني ...	٨/ ٢٩٥
ما أنتم في الناس إلا كالشعرة البيضاء في جلد ثور أسود	٥/ ١٩٧
ما أنزل الله من الفتن	٦/ ٤١٦
ما بعد الموت من مستعتب	٨/ ١٠٤
ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية	٧/ ٣٤٣
ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا حدث مثل هذا؟	٤/ ٤٢٢
ما لك يا عائشة، أغرتِ؟	١/ ٥٥٩
ما من أحد يصبح إلا ومعه ملك يناديه	١/ ٥٦٠، ٢/ ٧٥، ٨/ ٤٢٣
ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدّي منها حقها	٤/ ٨٤
ما من عبدٍ مؤمن يدخل الجنة إلا أُري مقعده	٧/ ٤٠٦
ما من مسلم دعا الله تعالى إلا وأجابه	٥/ ٤٦٠
ما من مولود إلا ويولد على الفطرة	٤/ ١٦٤
ما من نبيّ من الأنبياء إلا أُعطي ما مثله	٤/ ١٦٦
ما من يوم يصبح فيه العباد	٢/ ٤٠٤

طرف الحديث	الجزء والصفحة
ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكّل الله به قرينه	١/ ٥٦٠
مثل حبة خردل منه تنسلون	٥/ ١١٤
مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى دارًا	٢/ ٥٠٤
مرّ الملأ من قريش على النبي ﷺ	٣/ ٣١٣
مر الوليد بن المغيرة بالنبي ﷺ وهو يقرأ «حم السجدة»	٨/ ٥٢
من أنظر معسراً أو وضع له	٢/ ٤١٧
من بدّل دينه فاقتلوه	٤/ ٥٠٢
من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب	٢/ ٤١٥
من حلف على يمين، فرأى غيرها خيرًا منها	٧/ ٤٣٠
من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية	٢/ ٣٢٧
من قام رمضان إيماناً واحتساباً	٢/ ٣٤٥
من لم تنهه صلاته عن الفحشاء	٥/ ٥٤٢
مئة وأربعة كتب؛ على آدم عشر صحف	٨/ ٢١٥
الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا	٧/ ١٤٤
نساء الدنيا أفضل من الحور العين	٢/ ٤٩، ٧/ ٢٤٥
نعم يا أبا الدحداح	٢/ ٣٥٩، ٧/ ٢٩٢
النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع	٣/ ١٨١، ١٨٢
هل ترى ربك؟ فقال: كيف أرى ربي؟	٢/ ١٢٣
واعظ الله في قلب كل مؤمن	٣/ ٣١٠
واعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك	٧/ ٣٠٤، ٤٠٨
والذي نفسي بيده، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة	٥/ ١٩٦

طرف الحديث	الجزء والصفحة
والذي نفسي بيده، ما بعد الموت من مستعتب	٦/ ٣٨٦
ولا تزنين	٧/ ٣٦٣
ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء	٦/ ٤٠٥
ويحك، ماذا يؤمِّنك أن أقول: نعم	٣/ ٢٦٣
يا أبا جندل، اصبر واحتسب	٧/ ٩٢
يا رسول الله، أقرئني وعلمني مما علمك الله	٨/ ١٣٤
يا رسول الله، إن عماراً قد كفر	٤/ ٥٠٢
يا عبادي، لو أن أوّلكم وآخركم كانوا على أفجر قلب	٧/ ٤٠٥
يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار	٣/ ٣٢٠
يرحم الله المحلقين	٧/ ٩٣
يكون النّسم طائراً يعلق بأشجار الجنة	٥/ ٢١٨
ينشأن في الآخرة على أبدع الصور وأجملها	٧/ ٢٦٠

❊ ❊ ❊

فهرس الآثار عن الصحابة

طرف الأثر	الصحابي	الجزء والصفحة
استشهد ثابت بن قيس في معركة الردّة	ثابت بن قيس	٥/ ٢١٦
أربعة كلهم من الأنصار (من جمع القرآن)	أنس	١/ ٧١٨
أنّ أرواحهم في أجواف طيور سود	ابن مسعود	٦/ ٣٣٠
إن الرجل ليشيب عارضاه	عمر	١/ ٦١٥
إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها	عمر	٤/ ٣١٦
إنّ راعياً نزل ذات ليلة بجنب كرم	ابن مسعود	٥/ ١٨٤
إنّ رسول الله ﷺ معصوم	ابن عباس	٤/ ٥٦٣
أنّ سورة الإخلاص تعدّ ثلث القرآن	....	٨/ ٤٠٣
أنّ الله استبطأ قلوب المؤمنين فأعتبهم	ابن عباس	٧/ ٢٩٧
أن الله تعالى افترض قيام الليل	عائشة	٨/ ٣٨
إنّ الله يبعث الأصنام ومعها شياطينها للحساب	ابن عباس	٤/ ٤٦١
إنّ إلياس هو من أنبياء بني إسرائيل	ابن عباس	٦/ ٢١٣
أن الشيطان ألقى في قلوب المشركين	ابن عباس	٤/ ٣٨
أن الشيطان تمثّل في صورة سراقة بن مالك	ابن عباس	٤/ ٣٨
إن الضرار في الوصية من الكبائر	ابن عباس	٣/ ٢٦
أن علياً رضي الله عنه حين رجم المرأة، ضربها	علي بن أبي طالب	٥/ ٣٠١
إن كل ما عصي الله به، فهو كبيرة	ابن عباس	٣/ ٤٩

طرف الأثر	الصحابي	الجزء والصفحة
أن مشركاً جاء يلتمس من عمر مالاً فلم يعطه	عمر بن الخطاب	٤/ ١٠١
أن اليهود أتوا النبيّ ﷺ فقالوا: أتزعم أنه أوحي إليك بكتاب	ابن عباس	٢/ ٥٨٦
أن اليهود كانوا يقولون: إنما نريد الإصلاح بين المؤمنين وأهل الكتاب	ابن عباس	٢/ ٣٤
إن هؤلاء قد انتصروا باجتماعهم على باطلهم	علي بن أبي طالب	٢/ ٥٤٤
أنه خرج يستسقي، فما زاد على الاستغفار	عمر بن الخطاب	٨/ ١٠
أنها نزلت في أهل الصفة الذين هاجروا بدينهم	ابن عباس	٢/ ٤٠٩
بقية السيف هي الباقية	علي بن أبي طالب	٢/ ٣٥٧
جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنّة رسول الله ﷺ	علي بن أبي طالب	٥/ ٣٠١
جهاد الكفار بالسيف والسّنان	ابن عباس	٤/ ١١٠
الدنيا حلالها حساب، وحرامها عقاب	علي بن أبي طالب	٨/ ٣٤٢
الرجم في كتاب الله	ابن عباس	٥/ ٣٠١
الروح مرسلة في برزخ من الأرض	سلمان الفارسي	٥/ ٢١٤
صدقة السر في التطوع تفضل على علانيتها	ابن عباس	٢/ ٤٠٧
الضعيف عندي قوي حتى آخذ الحق له	أبو بكر، وعمر	٧/ ١٢٠
في بني آدم نفسٌ وروحٌ بينهما مثل شعاع الشمس	ابن عباس	٦/ ٢٩٢
قوارير كل أرض من تربتها	ابن عباس	٨/ ٨٤
كان أناس من الأنصار لهم أنسباء وقرابة	ابن عباس	٢/ ٤٠٨
كان ذلك ببطن نخلة عامدًا إلى عكاظ	ابن عباس	٧/ ٥٤
كان عبد الله بن أبيّ جسيمًا فصيحًا ذلق اللسان	ابن عباس	٧/ ٣٩٢

طرف الأثر	الصحابي	الجزء والصفحة
كان الوليد يسمى (الوحيد) في قومه	ابن عباس	٨/ ٥٠
كانت رسالته هذه بعدما نبذه الحوت	ابن عباس	٦/ ٢١٦
كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية	ابن عباس	٢/ ٢٩١
كانت قريش تطوف بالبيت عُراة	ابن عباس	٤/ ٢٨
كذب النّسابون	ابن مسعود	٤/ ٣٩١
كل ما كان في القرآن من قوله: ﴿مَآ أَدۡرَىٰكَ﴾	ابن عباس	١/ ٦٤٥، ٨/ ١٦٤
كل هذا قد عرفناه، فما الأبّ؟	عمر بن الخطاب	٨/ ١٣٩
كنا نقرأ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾	الزبير	٤/ ٢١
كنت أسمع كلام خولة، فيختفي عليّ بعضه	عائشة	٧/ ٣١٧
لا أجد في كتاب الله ثلث الباقي	ابن عباس	٣/ ٢٢
لا أُوتَى بمُحلِّل ولا مُحلَّل له إلا رجمتها	عمر	٢/ ٣٣٤
لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة	علي بن أبي طالب	١/ ٤٩١
لا يشغله تعالى شأن عن شأن	ابن عباس	٦/ ٣١٧
لأرى من آياتك وأعلم أنك قد أحببتني	ابن عباس	٢/ ٣٩٠
لقد رأيتني يوماً وقد أوقد لي نار	خباب	٢/ ٣١٥
لقد شهدت مئة زحف أو زهاءه	خالد بن الوليد	٢/ ٥٧٤
لكل جنة أرض وسماء	ابن عباس	٤/ ٢٦١
لم أسمع «السلسبيل» إلا في القرآن	ابن عباس	٨/ ٨٥

طرف الأثر	الصحابي	الجزء والصفحة
لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾	ابن عباس	٢/ ٣٢٠
لو ذبحوا أيّ بقرة أرادوا لأجزأتهم	ابن عباس	٢/ ١١٤
ليس شيء مما في الآخرة يشبه ما في الدنيا	ابن عباس	٢/ ٤٩، ٥٧٦، ٥/ ٢٦، ٧/ ٦٨، ١٧٩، ١٩٢، ٢٤٨
ليس لي حاجة بين قوم عرف كل واحد	عمر	٢/ ٩
ليس المتواني بالمتوكل	عمر	١/ ٥٨٤
ما رأيت خيراً من نساء الأنصار	عائشة	٥/ ٣١٥
ما فيّ موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف	خالد بن الوليد	٢/ ٥٦٤
ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية	أبو بكر	٧/ ١٠١
ما لكم ولهذه، إنما دعا النبي ﷺ يهود	ابن عباس	٢/ ٥٩٠
متشابهة في الشكل متفاوتة في الجودة	ابن عباس	٢/ ٤٧
من حدّث بحديث داود على ما يرويه القُصّاص	علي	٦/ ٢٤٢
من حلف بغير الله فقد كفر	ابن عمر	٣/ ٢٥٣
نتركها لا نبدلها	ابن عباس	٢/ ١٥٨
هؤلاء هم الثلاثة الذين خُلِّفوا	ابن عباس	٤/ ١٢٨
والله لا تبرح من مكانك حتى تقر أنك الذليل	عبد الله بن عبد الله ابن أبيّ	٧/ ٣٩٦
وحِّدوني واعبدوني أُثبكم	ابن عباس	٦/ ٣٣٧
وضعَ جبينَه على الأرض لئلا يرى وجهه	ابن عباس	٦/ ٢٠٩

طرف الأثر	الصحابي	الجزء والصفحة
ولد الولد لا يحجب	ابن عباس	٣/ ٢٤
يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون شريكة	عائشة	٣/ ١١
يا قوم، إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل	أنس بن النضر	٢/ ٥٤٨
يا معشر الناس، اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان	علي بن أبي طالب	١/ ٧٢٩

* * *

فهرس الأشعار

بيت الشعر		الجزء والصفحة
ألستم خير من ركب المطايا	....	٢/ ٣٩٠
تطاولت ليلك بالإثمد	....	١/ ٦٩٧
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه	....	١/ ٦٩٧
وإذا المنية أنشبت أظفارها	....	١/ ٦٩٨
إنّ بني الأدرم حمّالوا الحطب	هم الوشاة في الرّضاء والغضب	٨/ ٤٠٠
كالبدر من حيثُ التفتَّ رأيته	يهدي إلى عينيكِ نورًا ثاقبًا	١/ ٦٦٧
كالشمس في كبدِ السماء وضوؤها	يغشى البلادَ مشارقاً ومغارباً	١/ ٦٦٧
تقوم إذا تعهدها المربي	على ساق الفضيلة مثمرات	١/ ٦٩٩
تُصلِّي بلا قلبٍ صلاةً بمِثلِها	يصيرُ الفتى مُستَوجِباً للعقوبةِ	٥/ ٥٦٩
تُخاطبُه: إيَّاك نعبدُ مُقبِلاً	على غيره فيها لغيرِ ضرورةِ	
ولو رَدَّ مَن ناجاك للغيرِ طَرفَهُ	تميَّزتَ مِن غَيْظٍ عليه وغيرةِ	
فلا هطلت علي ولا بأرضي	سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا	١/ ٦٥٠
وفي كلِّ شيءٍ له آية	تدلُّ على أنه واحد	٢/ ٤٣، ٤٥٢، ٥/ ٥٦٤
ولقد غَنَوا فيها بأنعَمِ عيشةٍ	في ظلِّ مُلكٍ ثابتِ الأوتادِ	٦/ ٢٣١

بيت الشعر		الجزء والصفحة
....	والجود بالنفس أقصى غاية الجود	٢/ ٢٤٧
أما ترى الحبل بتكراره	في الحجر الصماء قد أثرا	١/ ٥١٠
....	إذا مت ظمآناً فلا نزل المقطرُ	١/ ٦٤٩
يكاد الذي يتلو غريب حديثها	يظن خيالًا أو أحاديث مفتري	٢/ ٢٣٢
يغتلي فيهم ارتيابي حتى	تتقراهم يداي بلمس	١/ ٦٩٨
وقريشٌ هي التي تسكنُ البَحْر	بها سُمِّيت قريشٌ قريشا	٨/ ٣٦٥
وربما أكسَبَ ثانٍ أوَّلا	تأنيثاً إن كان لحذفٍ مُوهَلا	٥/ ١٧٥
....	ومسنونةٍ زُرقٍ كأنيابِ أغوالِ	٦/ ٢٠٢
تمنّى كتاب الله أول ليلةٍ	تمنّي داودَ الزبورَ على رِسلِ	٢/ ١٢٥
..... من رجالٍ أعزّةٍ	علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما	٢/ ٣١٤
صُوَرُ العَمَى شتى وأقبحُها إذا	نَظَرَتْ بغيرِ عيونهنّ الهامُ	٦/ ١٩
على نفسه فليبكِ من ضاع عمره	وليس له فيه نصيب ولا سهم	١/ ٧١٢، ٧١٤، ٢/ ٨
إنْ أجزأتْ حُرَّةٌ يوماً فلا عَجَبَ	قد تُجزِئُ الحُرّةُ المِذكارَ أحيانا	٦/ ٤٣٢
وكم لله مِن لُطفٍ خفيّ	يدقُّ خفاهُ عن فَهْم الذكيّ	٤/ ٣٣٧

* * *

فهرس البلاغة

الاحتباك: ١/ ٥٢٦، ٥٢٨، ٢/ ٦٥، ٢٤٦، ٣٨٣، ٣/ ٢١، ٦٤، ٤/ ٣٦٥، ٥/ ١١٧، ٤٧١، ٥١٣، ٥٦٤، ٧/ ٢١٥، ٣٠٢.

الاحتراس ١/ ٥١١.

الإدماج: ١/ ٥٤١، ٢/ ٤٧١، ٣/ ٦٤، ١٠١، ١٨٦، ٣٠٣، ٣٨٠، ٤١٠، ٤/ ٢١٢، ٢٨٨، ٥٧٦، ٥/ ٩، ٤١٣، ٥٧٣، ٥٧٧، ٥٧٨، ٦/ ٢٣، ٢٦، ٣٨، ٥١، ١١٦، ١١٧، ١٣٠، ١٧٣، ١٨٨، ٤٠٢، ٤٠٨، ٤١٠، ٤١٥، ٧/ ٣٧٩، ٨/ ٣١، ٤٣، ١٤٨.

الاستتباع: ٢/ ٣١٤، ٥٨٢، ٣/ ٧٤، ٣٤٠، ٣٦١، ٧/ ١٧٩.

الاستطراد: ٢/ ٦٧، ٢٤١، ٥٠٩، ٥٤٣.

الاستعارة: ١/ ٦٢٢، ٦٩٢، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٩٤، ٢/ ٩٧، ١٠٦، ١١٩، ١٣٩، ٣٧٧، ٤٥٦، ٣/ ١٣، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٣، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٦، ٤٧٦، ٤٧٩، ٤/ ١٣٢، ٢١٤، ٣٨٦، ٥٠٤، ٥٣١، ٥/ ٢٥، ٨٥، ١٣٤، ١٦٠، ١٩٨، ٣٦٣، ٣٩٤، ٤٩٣، ٥٣٢، ٦/ ١٠، ١٧١، ٣٠٣، ٣٢٤، ٣٧٢، ٤٤٥، ٧/ ٢٧، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٧٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٨/ ١٠، ٥١، ١٨٧، ٢٤٥، ٣٦١، ٤٠١، ٤٠٢.

الاستفهام: ١/ ٥٣٧، ٥٤١، ٦٦٠، ٢/ ١٣٤، ١٨٧، ٣٦٠، ٣٨٠، ٣٨٢، ٤٥٢، ٤٥٧، ٥٤٩، ٣/ ٧٣، ٧٤، ٩١، ١٤٧، ٢٣٠، ٢٩٧، ٣١٤، ٣٢٦، ٣٤٠، ٤٤٩، ٤٥٧، ٤٨١، ٤٩٠، ٤/ ١٢٧، ١٣٢، ١٧٣، ١٨٠، ٢١٧، ٢١٩، ٢٥٥، ٣٣٥، ٣٧٢، ٤٣٧، ٤٦٤، ٥/ ١١، ١٠٥، ١٢٣، ١٤٧، ١٧٢، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٦، ٣٩٨، ٥٣٥، ٥٥٨، ٦/ ١٢٨، ٢١٨، ٢١٩، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٧٩، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٠١، ٣١٣، ٣١٥، ٣٢٦، ٣٧٣، ٣٨١، ٤٠١، ٧/ ٦٨، ١٢٤، ١٤٠، ١٩٤، ٢٦٢، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٨/ ٦٥، ٧٩، ١٣٠، ١٦٨، ٢١٩، ٢٢٩، ٢٦٤، ٢٧١، ٣٢٩، ٣٥٨.

أسلوب الحكيم: ٤/ ١٠٢.

أسلوب فرض الشك: ٤/ ٢٠٠.

الإضراب: ٤/ ١٧٦.

الإطناب: ١/ ٤٦٩، ٢/ ٢٦، ٦٧، ٩٦، ١٤١، ١٩١، ٣٠٩، ٣٧٠، ٤٢٧، ٣/ ٤٠٦، ٤٧٨، ٤٩٢، ٥/ ٢٧٢، ٢٧٣، ٣٢٨، ٥٠٥، ٦/ ١٩٥، ٧/ ٢٧١، ٢٣٤، ٨/ ٥٢، ١٦٣، ٢٥٢، ٣٤٠.

اقتباس: ٥/ ٩٣.

الاكتفاء: ٢/ ٦٥، ٧١، ٧٩، ٩٠، ٢٦٦، ٣١٢، ٣١٦، ٣٦٣، ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٨٣، ٤٢٧، ٤٧٨، ٥٤١، ٥٥١، ٥٩٤، ٣/ ٨، ٢١، ٤٤، ٤٥، ١٥٣، ١٦٨، ٢٦٠، ٢٩٢، ٤١٩، ٤٣٧، ٤٧٩، ٤/ ٦٧، ١٨٨، ١٩٨، ٢٤٠، ٣١١، ٣١٢، ٤٨٨، ٥/ ٣٢، ٤٩، ٥٠، ٧٥، ٢٧١، ٣٠٩، ٣١٩، ٣٦٨، ٥٠٥، ٥١٣، ٦/ ٢٠١، ٢٣٨، ٢٧٥، ٢٧٩، ٣٣٩، ٣٥٧، ٣٦١، ٣٧٤، ٤٠٠، ٧/ ١٤٥، ٢٣٣، ٢٧٨، ٣٠٢، ٣٢٠، ٨/ ١٢، ١٣، ٢٤٥.

الالتفات: ١/ ٥٢٣، ٢/ ٨٩، ٩٦، ١٢٩، ٤٤٦، ٣/ ٨٩، ٢١١، ٢٣٧، ٣٣٨، ٤/ ٦١، ١٤٥، ١٦٧، ١٨٥، ٤٧٣، ٤٧٥، ٤٨٢، ٥٠٨، ٥/ ٨، ١٢١، ١٢٥، ١٢٧، ١٦٨، ٢٥٥، ٢٨٢، ٢٨٥، ٣٤٩، ٣٦٠، ٣٧٢، ٤٧٣، ٥٠٣، ٥٢٢، ٥٤١، ٥٤٦، ٥٧٥، ٦/ ٣٥٥، ٤٣٣، ٤٥٦، ٧/ ١٢، ١١٦، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٥، ٢٢٢، ٤٢٢، ٤٧١، ٤٩٩، ٨/ ٣٠، ١٣٣، ٢١٤.

الأمر ١/ ٥٤٤، ٦٥٥، ٦٩١، ٧٤٠، ٢/ ٩٥، ١٠٣، ١١، ١٦٢، ١٧٨، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٢، ٢٧٥، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ٣٥٣، ٣/ ٢٩، ٧٧، ١١٢، ١٦٣، ١٨٩، ٢٥٢، ٤٥٢، ٤/ ٤٨، ٩٢، ١١٥، ١٥٥، ١٩٧،
٢٠١، ٢٠٦، ٢٥٥، ٣١٠، ٤٧٣، ٤٧٥، ٤٨٢، ٥٠٨، ٥/ ٢٢، ٢٣، ٦٠، ٩٠، ١٠٨، ١١٠، ١١٣، ١١٨، ٢٢٢، ٢٥٣، ٢٧١، ٢٧٧، ٣١٠، ٣١٨، ٣٧٨، ٤١١، ٤٢٨، ٤٨٩، ٥٢٥، ٥٦٩، ٦/ ٣٥٦، ٧/ ٤٥٠.

الإنشاء: ٤/ ٤٨، ٣٣٦.

الإنكار: ١/ ٥٢٠، ٥٣٩، ٤/ ٩٢.

الإيجاز: ١/ ٤٩٧، ٥٠٦، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٤١، ٥٥٥، ٢/ ٦٠، ٧١، ٢٤٦، ٢٧٧، ٢٨٢، ٢٩٦، ٣٠٤، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٦، ٣٨٦، ٣٩٢، ٣٩٥، ٤٧٨، ٥٥١، ٣/ ٤٤، ٢٤٧، ٢٦٠، ٢٩٢، ٣١٢، ٣١٥، ٣٢٩، ٣٤٦، ٤٧٩، ٤٨٩، ٤/ ٦٧، ٨٨، ١٣٢، ١٥٨، ١٨٨، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٧، ٣٠٢، ٣١٢، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٣١، ٣٦٥، ٣٧١، ٣٧٣، ٤٣٨، ٤٨٨، ٥٢٠، ٥٣٥، ٥/ ١١، ٥٣، ٦٨، ٧٥، ١٠١، ١١٧، ١٦٢، ١٧٠، ٢٤٢، ٣٠٩، ٣١٩، ٣٩٤، ٥٠٥، ٥٧٩، ٦/ ١١٦، ١٤٥، ٢٢٧،

٢٣٨، ٢٧٥، ٢٨٣، ٢٩٣، ٣٥٧، ٣٦١، ٣٦٦، ٣٨٩، ٧/ ١٩، ٥٠، ٦٨، ٧١، ٩٩، ١٣٥، ٢١٧، ٢٤٢، ٢٥٥، ٤٧٨، ٨/ ٨٦، ١٨٢، ٢٣٧، ٢٩٩.

إيجاز حذف: ٢/ ٢٩٦، ٣/ ٢٩٩، ٥/ ٣٣٦، ٦/ ٢٢٧، ٧/ ٤٣٣.

إيجاز القصر: ٢/ ١٧٩، ٣/ ٤٨٩، ٤/ ٣٠٢، ٣١٠، ٥/ ٥٢.

الإيماء: ١/ ٤٩٦، ٥١٢، ٥٨٠، ٦٥٠، ٦٥٨، ٦٧١، ٦٧٢، ٤/ ٤٧.

براعة الاستهلال: ٣/ ١٧٤، ٦/ ٤٦، ٨/ ٢٩٦.

التجريد: ٦/ ٣٠٧، ٧/ ٤٢٤.

التحذير: ١/ ٥٢١، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٦٢٧، ٦٧٦، ٧١٤.

التحذير والإغراء: ٢/ ١٤٩، ١٨٨، ١٨٩، ٢٧٥، ٤/ ٢٠، ٢١، ١١٧، ١٣٧، ١٩٠، ٢١٦، ٢٢٥، ٢٣٩، ٢٦٣، ٤٦٥، ٤٩٣، ٥٣٢، ٥/ ٣٢، ٨٤، ١١٥، ١١٧، ١٤٢، ١٨١، ٢٥٦، ٢٦٩، ٢٨٤، ٣١٣، ٣٤٠، ٣٥٨، ٣٧٦، ٣٩٨، ٥٤٧، ٦/ ٤٦، ١٢٦، ١٣٨، ٧/ ٧٠، ١٢٤، ٢١٦، ٣٥٤، ٤٣٦، ٣٨٩، ٤٥٣، ٨/ ٨، ٨٢، ١١٧، ١٦٧، ١٦٨، ١٨٢، ١٩٣، ٢٥٧.

الترجي: ٥/ ٨٠.

الترشيح: ١/ ٦٩٤، ٤/ ١٣٢.

التشبيه: ١/ ٦٣٦، ٦٧٤، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٧، ٢/ ٧٠، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٧٣، ٣٣٩، ٤١٢، ٤١٣، ٤٧٠، ٤٨٢، ٣/ ٣٢٦، ٣٦٩، ٤٣٩، ٤٤٠، ٥٠١، ٤/ ١٦٨، ٣٥١، ٣٦٢، ٤٩٣، ٥/ ٤٤، ٦٦، ١١٩، ١٨١، ٢٣٢، ٢٤٤، ٣٠٠، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٥٨، ٤٦٧، ٥٧٨، ٦/ ١٤٧، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٣٦، ٧/ ١٢٤، ٢٦٦، ٣٧٣، ٤٣٣، ٤٧٩، ٨/ ١٠٣، ١٥٢، ١٩٢، ٢٢٠، ٢٣١، ٤١٣.

التعجب: ٤/ ٨٠.

التعجيب: ١/ ٥٣٩، ٦٥٧

التعريض: ١/ ٥١٨، ٢/ ٩٢، ١٦٣، ١٨٦، ٢٤٣، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٤٧، ٣٦٧، ٤٠٠، ٤١٦، ٤٥٧، ٤٩٠، ٤٩٦، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥٨٤، ٣/ ٥٩، ٨١، ٩٩، ١٧٥، ١٧٦، ٢٠٧، ٢٧٧، ٢٩٣، ٣٣٠، ٣٤٢، ٤٠٠، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٣، ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٦٥، ٤٩٣، ٤/ ١١، ١٤٢، ١٦٥، ١٨٧، ٢٩٠، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٦، ٥٠٧، ٥/ ١٢، ٨٠، ٨٤، ١٠٥، ١٥٨، ١٦٥، ١٧٧، ١٨٠، ٢٢٣، ٢٥٦، ٢٧٤، ٢٧٩، ٣١١، ٣٤١، ٣٧٨، ٣٨٣، ٤٠٩، ٤٣٨، ٤٤٧، ٤٦٢، ٤٩١، ٤٩٤، ٥٣٦، ٦/ ٥٧، ٧١، ٨٨، ١٠١، ١٥٨،

٣٢٨، ٤١٥، ٤٥٢، ٢٥٧، ٧/ ١٢٩، ١٨٥، ٢٠١، ٢٦٩، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٦٨، ٣٩٧، ٤٣٣، ٤٣٧، ٤٣٨، ٨/ ٣٠، ١٩٥، ٣٠٩، ٣٧٥، ٣٨٠.

تعقيب المدح بما يشبه الذم: ٤/ ١١٢.

التعليل: ١/ ٦١٧، ٦٢٧، ٢/ ٩٦، ١٠٧، ١٣٥، ١٣٨، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ٢١٢، ٢٥٥، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٧٣، ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨٠، ٤٤٦، ٤٦٥، ٥٢٦، ٥٣٠، ٣/ ٣٤، ٦٢، ٩٩، ١٠٥، ١٠٨، ١١٩، ١٣٧، ١٨٩، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٥، ٢٣٨، ٣٦٨، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٧٢، ٤/ ٤٩، ٥٦، ٨٢، ٩٨، ١٠٢، ١٠٩، ١٢٤، ١٤١، ١٨١، ١٩٨، ٢٠٧، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٩٠، ٣٣٦، ٤١٢، ٤٢٤، ٥١٨، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٩، ٥٦٨، ٥٧٩، ٥/ ١٦، ٣٢، ٦٧، ٧١، ٨٧، ١٠٤، ١٠٥، ١١٧، ١٢٨، ١٦٤، ١٨٨، ١٩٢، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٩، ٢٢٧، ٢٣٥، ٢٥٦، ٣٠٣، ٣١٣، ٣٣٥، ٣٤٨، ٣٦٧، ٣٩٠، ٤٢٩، ٤٨٦، ٤٧٤، ٦/ ١٧، ٣٦، ٣٧، ٩١، ٩٩، ١٠٠، ١٥٢، ١٥٥، ١٦٩، ١٩٤، ٢١١، ٢٢٤، ٢٦٩، ٢٨١، ٣١٩، ٣٦٦، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٩٢، ٤١٣، ٧/ ١٠، ٥٢، ٦٧، ٧٦، ١١٧، ١٢٠، ١٢١، ١٢٤، ١٦٩، ٢٤٦، ٢٦٢، ٣٤١، ٣٦٠، ٣٩٤، ٤٠٤، ٤٦١، ٤٧٨، ٨٠٠، ٨/ ١١٤.

التعويض: ٤/ ٣٧٣.

التغليب: ٣/ ٢١، ٣٣٦، ٥/ ٣١٨، ٣٣٢، ٣٣٧، ٣٤٢، ٣٧٥.

التقديم والتأخير: ١/ ٥١٦، ٦٧٣، ٢/ ٨٥، ١٤١، ٤٨٥، ٣/ ١٩٦، ٢٤٠، ٤/ ١٨٥، ٥/ ٤٤، ٢٩٩، ٣٦١، ٥٢٨، ٥٥١، ٦/ ١٠١، ١٩٥، ٢٣٤، ٧/ ٣٢٠، ٨/ ٣١.

التقرير: ١/ ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٦، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٨١، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٩٣، ٦٣٤، ٦٣٦، ٦٣٨، ٦٤٥، ٦٤٨، ٦٥٥، ٦٧١، ٤/ ١٢٧.

التقليب: ٦/ ٢٨٤، ٧/ ١٨٢.

التقييد: ٣/ ٤٥٣، ٤/ ٤٦٢، ٥/ ٢٥٢، ٢٩٥، ٣٠٥، ٣٢٠، ٣٤٦، ٣٥٥، ٤٥٦، ٤٦٧، ٤٨٩، ٥٢٣، ٥٥٦، ٥٧٨.

التمثيل: ١/ ٥٠٣، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٥٦، ٥٥٨، ٥٦٢، ٥٦٣، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٣٢، ٦٥٤، ٦٧٥، ٦٩٢، ٦٩٥، ٧٩٤، ٤/ ١١، ٣٨، ٣٤٣، ٤١١، ٤٣٤، ٤٩٣، ٦/ ١٠، ١٥، ١٣٠، ١٣١، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٠، ١٨٨، ٢٠٢، ٢٤١، ٢٧١، ٣٠٢، ٣٠٧، ٣١٨، ٣٣٦، ٣٥٢، ٣٥٦،

٣٧٦، ٣٧٧، ٣٨٦، ٤٠٠، ٨/ ٨، ٣٢، ٥٠، ٧٤، ٨٤، ١٤٦، ١٧١، ١٨١، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٤٧، ٢٧٩، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٥٣.

التمني: ٥/ ٤٠٧، ٥٠٥، ٧/ ٣٧٩.

التمهيد: ١/ ٥١٤، ٤/ ٨٦.

التناسب: ٢/ ١٧٧، ١٧٨، ٥/ ١٩٢، ٦/ ٥٠.

التنكير والتعريف: ٢/ ١٠٧، ١٤١، ٢٥٣، ٣/ ١٠٩، ٥/ ٤٥١، ٤٦٠، ٧/ ٢٩، ٦٣، ٢٣٢، ٨/ ٢٢٧، ٢٤٢.

التوجيه: ٦/ ٤٢٩، ٨/ ٤٠٠.

التورية: ٣/ ٣٠٣، ٤/ ٢٩٠، ٣٢٨، ٣٣٠، ٧/ ٣٢٤.

التوفيق: ٥/ ١٨٦.

الحذف: ١/ ٤٩٧، ٢/ ٥٩، ٦٠، ٦٥، ٧١، ٢٩٦، ٣٠٤، ٣٨٣، ٣/ ١٦٨، ١٨٩، ٤٧٩، ٤/ ٣٧٣، ٧/ ٦٨، ٧١، ٢١٥، ٥/ ٢٢٩، ٣٠٤، ٣٠٩، ٣٩٤، ٤٧١، ٨/ ١٢، ٢٥، ١٦٧، ٢٤٥.

حسن التعليل: ١/ ٦٢٨، ٤/ ٦٨، ٤٦٨، ٦/ ١٣٨، ٧/ ٣١٢، ٣١٣.

الحصر: ٢/ ٢٤١، ٣/ ٣٨١، ٤٨٥، ٥/ ١١٨، ٣٣٩، ٤٣٤، ٧/ ٣٠، ٣٢٩.

الحض: ٤/ ٢٠١.

الحقيقة: ١/ ٥٠٣، ٥٤٣، ٥٦٢، ٥٩٢، ٥٩٣، ٦٢٣، ٦٤٦، ٦٩٣، ٦٩٩، ٧٠٠، ٤/ ١٤، ٢٩٠، ٣١٢، ٣٤٤، ٣٥١، ٣٩١، ٤٠٠.

الخبر: ١/ ٦٣٣، ٦٥٢، ٦٩١، ٢/ ٣٢٩، ٣٦١، ٣٩٢، ٤٠٨، ٣/ ٤٠٢، ٤/ ٤٨، ١١٥، ١٤٤، ٣١٠، ٣٣٦، ٥/ ١٨٠، ٢٤٥، ٧/ ٣٣٠.

الدعاء: ١/ ٤٥٤، ٦٠٤، ٦٥٤، ٦٧٢، ٧٨٤، ٢/ ١٨٠، ٤٣٢، ٤٣٤، ٤٣٥، ٥٩٣، ٥٩٤، ٤/ ١٢٣، ١٩٧، ١٤٤، ٥/ ١٢، ٦٦، ١٩١، ٢٧١، ٢٧٤، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٩، ٤٨٥.

الطباق (التضاد): ٢/ ٣١٨، ٤١١.

العكس المعنوي: ٣/ ١٠٧، ١٩٣.

الفصل: ١/ ٦٦١، ٢/ ٥٤٣، ٣/ ٣٤٦، ٤/ ١٥٠، ٥/ ١٤٧، ٢٤٦.

القصر: ٢/ ١٢٨، ٣/ ٥٠٨، ٤/ ٩٥، ١٨٣، ٥/ ٩٣، ٩٤، ١٣٠، ١٦٢، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٦٢.

القول بالموجب: ٤/ ١٠٢.

الكناية: ١/ ٦٥٨، ٦٩٢، ٢/ ١٣١، ١٤١، ١٥١، ٢٧٣، ٥٢٣، ٥٥٤، ٣/ ٦٠، ٧٤، ١٤٧، ١٨٧، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٥٤، ٣٢٥، ٣٨٠، ٤٠٨، ٤/ ١٢، ٣٧، ٢١٢، ٢١٤، ٢٣٣، ٢٥٣، ٢٦٢، ٢٩٨، ٣٧٧، ٣٩١، ٤٣٩، ٤٦٨، ٥٢٧، ٥٦٧، ٥٧٣، ٥/ ٦٦، ٦٩، ٨٥،

٨٦، ٨٨، ٩٣، ١٠٠، ١٠٦، ٣٠٠، ٤٢٨،
٥١١، ٦/ ١٤، ٣٠، ٥٢، ٧٥، ١٣٥، ١٤١،
١٨٠، ٢٤٢، ٢٩١، ٣٥٩، ٣٩٨، ٧/ ٦٣،
٨٢، ١٢٤، ٢٥٩، ٢٩٥، ٣٦٣، ٨/ ١٠٣،
١٣٦، ١٤٦، ١٥١، ١٩٣، ٢٧٦، ٣٢٣، ٣٤١.
اللف والنشر: ٣/ ٥٠٥، ٥/ ٥٦٤.
المبالغة: ١/ ٥٣٣، ٥٤٣، ٥٥٤، ٥٥٩، ٥٨٧،
٥٩٣، ٦٠٤، ٦٤٢، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٥٢، ٦٥٤،
٦٥٧، ٦٩٢، ٦٩٤، ٢/ ٣٦٦، ٣٩٠، ٣٩٧،
٤١٠، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢٠، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣٤،
٤٤٢، ٤٥٦، ٤٦٦، ٤٩٩، ٥١٨، ٥٦٩،
٤/ ١٧، ٤٨، ٦١، ٨٤، ١٠٧، ١١١، ١١٢،
١٣١، ١٣٤، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٧، ٢١٧،
٢١٩، ٢٢٥، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٢٤،
٢٨٢، ٢٨٤، ٢٩٥، ٣٠٤، ٣١٤، ٣٢٠، ٣٢٢،
٣٢٨، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٦٩، ٣٧٧، ٣٨٩، ٤٠٨،
٤١٠، ٤١٧، ٤٤٤، ٤٤٧، ٤٦٢، ٤٧٥، ٤٧٦،
٤٧٧، ٤٩٠، ٤٩١، ٥٠٣، ٥٠٥، ٥٠٧، ٥٠٨،
٥٣٦، ٥٤٢، ٥٤٧، ٥/ ٢٤، ٣٠، ٤٢، ٤٥،
٥٢، ٧٢، ٧٥، ٨٧، ٩٦، ١٠٠، ١٠٥، ١١٥،
١٢٥، ١٢٦، ١٣٣، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٩، ١٦٠،
١٦٥، ١٧٠، ١٧١، ١٩٩، ٢٢٢، ٢٣١، ٢٣٢،
٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٦، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٥،
٣٠٢، ٣٠٧، ٣٢٠، ٣٢٩، ٣٣٥، ٣٤٣، ٣٦٣،
٣٦٧، ٣٧٠، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٩٤،
٤٣٥، ٤٣٩، ٤٥٤، ٤٥٩، ٤٦٧، ٤٧٠، ٤٩٦،
٥٠٢، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١٣، ٥١٨، ٥٢٣، ٥٢٥،
٥٣٩، ٥٤٤، ٥٥٧، ٦/ ١٠، ١٤، ٤٧، ١١٦،
١٧٠، ١٧٣، ١٩٤، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٥٧، ٣٢٤،
٣٧٤، ٤٠٤، ٤٢٩، ٤٤٦، ٤٥٦، ٧/ ٩، ١٤،
١٩، ٢٠، ٢٧، ٣٤٨، ٤٣٦، ٤٨٤، ٣٠، ٥٢،
٥٤، ٦٧، ١٢٤، ١٣٠، ١٣٥، ١٤٨، ١٦٨،
١٧١، ١٧٨، ١٨٦، ١٩٥، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١٠،
٢١٧، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٥٩، ٢٧١، ٢٨٦، ٣٠١،
٣١٢، ٨/ ٢٢، ٢٧، ٣١، ٥٢، ٦٧، ٩١،
١٠٠، ١١٧، ١٩٥، ٢٠٥، ٢١٣، ٢٧٥، ٣٣٢،
٣٨٠، ٤٠١، ٤١٣.
المجاز: ١/ ٥٠٣، ٥٠٦، ٦٢٣، ٦٤٦، ٦٨٦،
٦٨٨، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦،
٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠٢، ٢/ ١٥٠، ٢٣٣، ٢٩٧،
٣٢٥، ٣٣٤، ٤٤٢، ٤٤٨، ٤٩٧، ٤٩٨، ٣/
٤٠، ٦٩، ١٧٦، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٥، ٣١٩،
٣٢٦، ٤١١، ٤٧٦، ٤/ ١٤، ١٥، ١٣٢،
٢٥٠، ٢٩٠، ٣٥١، ٣١٢، ٣٣٠، ٣٤٨، ٤٠٠،
٤٤٢، ٤٧٢، ٥٤٢، ٥٥٢، ٥٦٥، ٥/ ٣٣، ٥١،
١٢٦، ٣٣٦، ٣٧٧، ٣٩٠، ٤٥٢، ٥١١، ٥٣٢،

٥٦٢، ٦/ ٤٠، ٩٢، ١٠٧، ٢١٦، ٢٢٨، ٢٣٥، ٢٥٢، ٢٦٠، ٢٧٧، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٤٦، ٢٥٥، ٣٧٨، ٧/ ١٤، ٣٥، ٧٥، ٢٣٩، ٢٥٧، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٩٩، ٣٣٨، ٣٤٣، ٣٦٨، ٤٣٦، ٤٨٠، ٤٨٤، ٨/ ٢٩، ٣٧، ٥٠، ٦٩، ١١١، ١١٦، ١٢٣، ١٢٤، ١٧٤، ١٨٧، ٣٣٢، ٤٠١.

مراعاة النظير: ٢/ ٣٨٣، ٣٩٩، ٤٤٢، ٤٤٧، ٤٥٥، ٧/ ١٢٤، ١٣٨.

المشاكلة: ١/ ٦٩٢، ٢/ ١٤٤، ١٨٩، ٢٨٣، ٤٠٤، ٤٧٩، ٣/ ١٤٥، ١٦٣، ٤٢٠، ٤٦٦، ٤/ ٢٥، ١٠٦، ١١٤، ١٦٧، ٢٣٢، ٢٩٣، ٥١٠، ٥٦١، ٥/ ٢٥، ١٤٤، ٢٤٦، ٢٨٣، ٤٤٣، ٤٥٥، ٦/ ٣٥، ٤٣٤، ٧/ ٧٦، ٨/ ٢٠٤.

المطابقة: ٥/ ٢٥.

الموازنة: ٣/ ٤٢٨.

النداء: ١/ ٧٤٠، ٢/ ٢٥٦، ٤٧٢، ٣/ ٤٢٠، ٤٣٠، ٢٠٥، ٤/ ٢٣٥، ٢٤٥، ٥/ ١١١، ٤٣٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٧/ ٣٥٧، ٤١٥، ٨/ ٣٧، ٢٣٨.

النهي: ١/ ٥١٩، ٥٢٠، ٦٩١، ٢/ ١٠٤، ١٣٠، ١٥٣، ٢١٠، ٢٧٥، ٢٨٦، ٤/ ١٣٥، ١٣٦، ٢٠٦، ٢٥٥، ٤٤٧، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥/ ٢٤، ٣١٠، ٣١٧، ٤١٩، ٥١٨، ٥٦٩، ٨/ ١٣٠.

هزل يراد به الجد: ٢/ ١٢٦.

الوصل (الإيصال): ٢/ ١١٠، ٢٢٧، ٤٧٠، ٥٧٩، ٣/ ٤٩، ٢٢٢، ٤٣٣، ٤٨٠، ٤/ ١٥٠، ٥/ ٢٥٣، ٢٦٥، ٥٣١، ٨/ ١٦٧.

❊ ❊ ❊

فهرس الأعلام

إبراهيم بن النبي ﷺ: ٦/ ٨٠، ٧/ ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١.

إبراهيم الخليل عليه السلام: ١/ ٦٢٣، ٦٥٤، ٧٤٨، ٧٧٥، ٢/ ٩٧، ١٧١، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٣، ١٩٥، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٧، ٢٩٤، ٣٠٨، ٣٦٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٥، ٤٦٤، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٥١١، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٣/ ١٦٦، ٢٤٠، ٢٧٩، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٨، ٤/ ٨٥، ١٠٨، ١٣٥، ١٣٦، ١٩١، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٧٧، ٣٠١، ٣٢٨، ٣٧٧، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٤٣، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥/ ٧٩، ٨١، ٨٢، ١٣١، ١٨١، ٢٠٣، ٢٥٦، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٩٨، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٥، ٦/ ١٨٩، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١١، ٣٩٣، ٤٤٠، ٤٤١، ٧/ ١٦٤، ٢٠١، ٣٠٩، ٣٥٦، ٨/ ٢١٥، ٢٣٣.

ابن أبي الحديد (أبو حامد عز الدين بن هبة الله): ٨/ ١٣.

ابن أبي الصلت (أبو الحكم أمية بن أبي الصلت): ٢/ ٤١.

ابن أبي أوفى: ٥/ ٣٠٠.

أبو بكر الأنباري: ١/ ٧٢٨.

ابن أبي بكر: ٢/ ٤٨٦.

ابن إسحاق: ٥/ ١٢٣، ٧/ ٥١، ٣٣٨.

ابن الأنباري: ٢/ ١٢٣، ٥٠٧، ٤/ ٣٥٧، ٦/ ٢٧٨.

ابن الجوزي: ٤/ ٢١٣، ٥/ ١٠١، ٨/ ١٩٨.

ابن الزِّبعرى: ٦/ ٤٥٢.

ابن شهاب: ١/ ٧٣١.

ابن القيم: ٢/ ٤٨، ٤٢١، ٥٣٩، ٥٥٠.

ابن المنذر: ٣/ ٢٧٣.

ابن أم مكتوم: ٦/ ٢٤١، ٨/ ١٣٣، ١٣٤.

ابن تيمية (شيخ الإسلام): ١/ ٦٢١، ٢/ ٣٧٥.

ابن جريج: ٢/ ٣٥٧، ٥/ ٣٢٠.

ابن جرير الطبري: ١/ ٧٤٢، ٢/ ١٢٢، ١٣٥، ٤٢٣، ٤٦٧، ٥٣٣، ٥٣٥، ٣/ ١٩، ٢٣، ١١٧، ٢٢٦، ٢٦١، ٢٧٣، ٥١٧، ٤/ ٣٨، ٥/ ١٥٠، ٨/ ٢٤٢.

ابن جنّي: ٧/ ١١٠.

ابن حزم: ٤/ ٢٩٣، ٥/ ٢١٦، ٦/ ٢٤٦، ٢٤٧.

ابن رشد: ١/ ٤٩٤.

ابن رشيق القيرواني: ٧/ ٢٣٤، ٨/ ١٠٠.

ابن زيد: ٥/ ٢٧٥، ٧/ ١٥٠، ٢٦١، ٢٧٢، ٨/ ٢٨٥.

ابن عباس: ١/ ٥٦٥، ٦١٦، ٦٤٢، ٦٤٥، ٦٥٥، ٦٨٢، ٧١٦، ٧٢٤، ٧٣٢، ٧٤١، ٢/ ٣٤، ٤٧، ٤٩، ٦٥، ١١٤، ١٢٢، ١٥٨، ١٧٨، ٢٦١، ٢٧٤، ٢٨٦، ٢٩١، ٣٢٠، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٩٠، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٥٠١، ٥٧٦، ٥٨٦، ٥٩٠، ٣/ ٢٢، ٢٤، ٢٦، ٢٩، ٤٩، ٥٥، ١١٥، ٢١٦، ٢٣٣، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٧٣، ٢٩٧، ٣٥٤، ٣٨٤، ٣٩٠، ٤١٤، ٤١٦، ٤٩٠، ٤/ ٢٨، ٣٨، ٩٣، ١١٠، ١٢٨، ١٣٨، ٢٤٨، ٢٦١، ٣١٧، ٣٢٨، ٣٣٥، ٣٤٨، ٣٥٦، ٣٦٥، ٤٢٢، ٤٣٢، ٤٤١، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٦١، ٤٦٩، ٤٧٩، ٥١٩، ٥٥٦، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥/ ٢٦، ٢٧، ٤١، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٥، ٨٨، ١٠٣، ١٠٩، ١٢٩، ١٣٦، ١٤١، ١٤٨، ١٦٦، ١٧٧، ١٨٢، ٢٠١، ٣٠٢، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢١، ٣٤٦، ٣٧٣، ٣٨٥، ٤٢٤، ٤٧٢، ٤٩٨، ٥٠٢، ٦/ ٥٣، ١٥٤، ١٨١، ١٩٦، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٦، ٢٤٦، ٢٩٢، ٣١٧، ٣٣٧، ٣٥٦، ٣٩٨، ٤٠٢، ٤٥١، ٧/ ٥١، ٥٤، ٦٨، ١٤٥، ١٤٨، ١٦٧، ١٧٩، ١٩٢، ١٩٦، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٣٩، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٧٢، ٢٩٧، ٣٠٥، ٣٤٠، ٣٦٠، ٣٨١، ٣٩٢، ٤١٠، ٤١٦، ٤١٩، ٤٣٣، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٧٢، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٩٦، ٨/ ١١، ١٤، ٢١، ٢٩، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٤٤، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٩، ٦٧، ٦٩، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ٨٥، ١٣٩، ١٤٥، ١٦٤، ١٧٢، ١٨٠، ١٩٦، ٣٧٩، ٤١٢.

ابن عبد البر: ١/ ٧٣٦، ٥/ ٢١٧.

ابن عثمان (أبان بن عثمان بن عفان): ٢/ ٤٨٦

ابن عساكر: ٢/ ٤٨٦.

ابن عمر: ٢/ ٢٩٩، ٤٨٦، ٣/ ٣١، ٢٥٣، ٣٨٤، ٥/ ٢١٤، ٦/ ٣٣٠، ٧/ ٤١٦.

ابن عون: ٢/ ٢٨٧.
ابن قتيبة: ١/ ٧٤١، ٤/ ١٠٠، ٥/ ٣٤٥.
ابن كثير: ١/ ٥٥٨، ٣/ ٤١٣، ٤١٤، ٤/ ٥٥٦.
ابن كيسان: ٦/ ٢٤٦.
ابن مسعود: ١/ ٥٦٠، ٥٦٥، ٧١٧، ٧١٨، ٧٢٦، ٨٢٨، ٧٣٥، ٢/ ٦٥، ٣٥٩، ٣/ ٦١، ٢١٦، ٣١٣، ٤/ ٣٩١، ٥/ ٢٢، ٨٩، ١٨٣، ٣١٤، ٦/ ٨٩، ١٦٩، ٣٣٠، ٧/ ١١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٤١٩، ٤٧٩، ٨/ ١٠٣.
ابن نوح: ٤/ ٢٣٤، ٢٣٥، ٥/ ٢٧١.
ابنتا أبي لهب: ٨/ ٤٠٠.
ابنتا النبي ﷺ: ٨/ ٤٠٠.
أبو إبراهيم عليه السلام = آزر
أبو إسحاق الشيباني: ٥/ ٣٠٠.
أبو الدحداح: ٢/ ٣٥٩، ٧/ ٢٩٢.
أبو السعود (العمادي): ٢/ ٤٧٠، ٥٥٠، ٤/ ٢١٨، ٤٣٩، ٥١٨، ٥/ ١١٩، ١٢٢، ١٢٩، ٣٣٤، ٣٧٤، ٣٩٠، ٤٦٩، ٥٠٥، ٦/ ٢١٥، ٢٧٨، ٣٢٣، ٣٣٣، ٣٦٩، ٤٥٢، ٧/ ١٣٨، ١٣٩، ٣٨٢، ٥٠٠، ٨/ ٥٥، ٨٧.
أبو العالية: ٥/ ٢٠١، ٢٧٥، ٦/ ٨٣، ٧/ ٢٧٢.
أبو العباس ثعلب: ٧/ ١٠٢.
أبو بشر: ٨/ ٣٧٩.
أبو بصير: ٧/ ٩٥.
أبو بكر الصديق: ١/ ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٢/ ٩، ٤٦٥، ٤٨٦، ٣/ ١٩٠، ٤/ ٢٥، ٥٧، ١٣٨، ١٤٣، ٥/ ٢١٦، ٣٠٩، ٣١٠، ٧/ ٩٦، ١٠١، ١٠٧، ١٢٠، ٤٣٠، ٤٣٣، ٨/ ٣٩٤.
أبو بكر بن العربي: ٣/ ٥١٣، ٥/ ٣٢٤، ٦/ ٧٧.
أبو جعفر (محمد الباقر): ٤/ ٢٨١.
أبو جندل بن سهيل: ٧/ ٩٢، ٩٣، ٩٥.
أبو جهل: ٢/ ٤١، ٤/ ١٧، ١٧٤، ٦/ ١٥٩، ٣٣٥، ٧/ ٤٩٣، ٨/ ١٣٤، ١٨٦.
أبو حامد الغزالي: ٢/ ٧٥، ١٨٥، ٤/ ٤٢٦، ٤٢٧، ٥/ ١٤٥، ٨/ ٢٥٥.
أبو حنيفة: ٢/ ٧٨، ١٩٥، ٢٨٧، ٥٤٠، ٤/ ١٠١، ٧/ ٣١٩.
أبو داود: ٣/ ١٠٩، ٧/ ٩٨.
أبو ذر الغفاري: ٨/ ٢١٥.
أبو زمعة الأسود ابن عبد المطلب: ٤/ ٤٤٩.
أبو سعيد الخدري: ٥/ ١٩٦.
أبو سفيان: ٢ / ٥٤٨، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٧٧، ٥٧٩، ٧/ ٣٣٦، ٨/ ٤٠٠.
أبو طالب: ٢/ ٤١، ٣/ ١٨٥، ٤/ ٧١، ١٣٥، ١٧٤، ٦/ ١٥٩، ٣٣٥، ٨/ ١٨٦، ٢٧١، ٣١٩.

أبو طلحة: ٢/ ٥٠٩، ٥١٠.
أبو عامر الراهب (عبد عمرو ابن صيفي): ٢/ ٤١،٦/ ١٥٩، ٣٣٤،٨/ ١٨٦.
أبو عبد الله: ٨/ ٣٧٥.
أبو عبيدة: ٦/ ٢٥٧،٧/ ١٠٩، ٢٤٨.
أبو عقيل الأنصاري: ٤/ ١١٤.
أبو علي (الفارسي): ٧/ ٤٣٤.
أبو علي الجبائي: ٢/ ٥٠١.
أبو عمرو: ٥/ ٢٨٨.
أبو عمرو بن العلاء: ١/ ٧٣١.
الغزالي: ١/ ٤٩٢، ٧٩١.
أبو قلابة: ١/ ٧٢٧،٨/ ٧٤.
أبو لبابة: ٤/ ١٢٨.
أبو لهب: ٨/ ٣٧٩، ٣٩٧، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١.
أبو مالك: ٧/ ٢٠٥.
أبو مرثد: ٧/ ٣٥٣.
أبو مسعود الثقفي: ٥/ ٥٠٦.
أبو مسلم (الأصفهاني): ٢/ ٤٧، ٨٨، ٩٤، ١٤١، ٣٣٩، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٤٧٣، ٥٠١، ٥٢٦، ٥٤٧، ٥٧٧، ٣/ ٨، ٢١، ٢٨، ٧٠، ٨٣، ١٧٦، ٢٩٢، ٣٤٧، ٤١٩، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٦، ٤٧١، ٤/ ١٠٤، ١٢٧، ١٥١، ٢١٢، ٣٢٦، ٣٤٣، ٣٤٨، ٣٦٥، ٣٨٠، ٣٨٨، ٤١٧، ٤٢١، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٩، ٤٧٩، ٥٠٨، ٥/ ٧٧، ٨٠، ٨٥، ٨٩، ٩٣، ٩٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٩، ١٤٨، ١٥٠، ١٨٢، ٢١٩، ٢٤٠، ٢٥١، ٢٨٠، ٢٨٤، ٣٢٤، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٨، ٤٩٣، ٥١٣، ٥٤٣، ٥٦٤، ٦/ ٩، ٤٦، ٦٧، ١٩١، ٢٠٦، ٢١٠، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٥٢، ٣١٦، ٣٤٣، ٤٠٣، ٧/ ٧٣، ٢٩٩، ٣٩٢، ٣٩٦، ٤٥٥، ٤٦٠، ٤٧٨، ٥٠١، ٨/ ١٦، ٢٤، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ١٠٣، ١١٤، ١٤٧، ١٧٠، ١٨٤، ٢٠٣، ٢٤١، ٣٩٥.
أبو هريرة: ٢/ ٥٠، ٤١٥، ٤/ ٥٠٩، ٥/ ٢٧٥، ٤٦٨،٦/ ٣٦، ٣٠٤،٧/ ٣٨٧.
أُبيّ بن كعب: ١/ ٧١٨، ٧٢٦، ٧٢٨،٨/ ٣٦٥.
أحمد بن حنبل: ٢/ ٥٣٩، ٣/ ٣١، ٤/ ٢١، ٧/ ٩٨.
أحمد مختار باشا المصري: ١/ ٧٠٤.
أحيمر عاد: ٧/ ٢١٩.
أخت موسى عليه السلام (مريم): ٥/ ١٠٩، ٤٨١.
الأخفش: ٧/ ٣٢٠،٨/ ٦٧، ٣٦٥.
الأخنس بن شريق: ٧/ ٤٦٣.
أخو يوسف (بنيامين): ٢/ ٣٦٢، ٤/ ٢٨١، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥.

إدريس عليه السلام (جد أبي نوح): ٣/ ١٥٩، ٥/ ٨٢، ١٩٠، ٢٠٣.
آدم عليه السلام: ١/ ٥٣٩، ٥٥٦، ٥٥٧، ٦٧٧، ٢/ ٥، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٤٤٥، ٤٦٤، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤/ ٣٠٠، ٣٩١، ٤٢٦، ٤٣٠، ٤٣١، ٥٤٥، ٥٥٣، ٥/ ٣٢، ٨٧، ٩٧، ١١٤، ١٤٠، ١٤٢، ١٦٥، ١٩٣، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢١٣، ٢٦٤، ٥٦٢، ٦/ ٣١، ١٤٢، ٢٢٥، ٢٥٩، ٢٦٤، ٣٤١، ٤٥١، ٤٥٣، ٧/ ١٢٤، ١٩٩، ٢٣٤، ٢٦٥، ٤٣٩، ٨/ ١٢، ٢٨٦.
أرميا عليه السلام: ٢/ ١٣٢.
أرمينيوس فامباري: ٦/ ٤١٢.
آزر (والد إبراهيم عليه السلام): ٤/ ٤٠٧، ٥/ ٧٩، ٨٠، ٤٠٣.
الأزهري: ٨/ ١٩٦.
أسامة بن زيد: ٢/ ٥١٠.
الأستاذ الإمام = (الشيخ محمد عبده)
آسيا بنت مزاحم: ٧/ ٤٣٨، ٤٤٠.
إسحاق عليه السلام: ٢/ ٨٤، ٩٧، ١٨٤، ١٨٧، ٥١٣، ٤/ ٣٧٧، ٥/ ٨١، ٢٠٣، ٥٣٤، ٦/ ٢١٢.
إسرائيل = يعقوب عليه السلام
أسماء بنت أبي بكر: ٥/ ٢١٤.
إسماعيل عليه السلام: ١/ ٦٥٤، ٢/ ٨٦، ١٨٠، ١٨١، ١٨٧، ١٩١، ١٩٥، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٢، ٢٢٦، ٤٦٤، ٥١٣، ٣/ ٧٥، ١٥٩، ١٩٨، ٣٣٦، ٤/ ٨٥، ٤٠٧، ٥/ ٨٢، ١٩٠، ٢٠٣، ٥٣٤، ٦/ ١٨٩، ٢١٢.
الأسود بن عبد يغوث: ٤/ ٤٤٩، ٧/ ٤٦٣.
الأسود بن يعفر: ٦/ ٢٣١.
ابن أبي الإصبع المصري: ١/ ٦٦٨، ٦٧٤.
الأقرع بن حابس: ٧/ ١٠٧.
الآلوسي: ٢/ ٧٨.
إلياس عليه السلام: ٢/ ١٣٢، ٥/ ٢٠٣، ٦/ ٢١٣، ٢١٤، ٢٥٣.
أم إسماعيل عليه السلام: ٤/ ٤٠٧.
أم الدحداح: ٢/ ٣٥٩، ٧/ ٢٩٢.
أم جميل بنت حرب: ٨/ ٣٩٧، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١.
أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان: ٦/ ٨٠.
أم سلمة زوج النبي ﷺ: ٢/ ٤٩، ٦/ ٦٤، ٦٥، ٨٠، ٧/ ٢٤٥، ٢٤٧، ٨/ ٣٩.
أم عيسى عليه السلام = مريم عليها السلام
أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط: ٧/ ٣٦١.
أم مكتوم: ٨/ ١٣٣.
أم موسى عليه السلام: ٢/ ٣٨٩، ٥/ ١٠٩، ١١٩، ٦/ ٤١٧.

أم هانئ الأنصارية: ٥/ ٢١٨.
أم يحيى عليه السلام (زوج زكريا عليه السلام): ٥/ ١٩٢.
أم يوسف: ٤/ ٢٧٦.
الإمام مالك: ٢/ ٢٥٤، ٢٨٧، ٥١٥.
امرأة العزيز: ٤/ ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٨.
امرأة فرعون: ٤/ ٢٨٧، ٥/ ١٠٨.
امرأة لوط عليه السلام: ٥/ ٤١٧، ٧/ ٤٣٨.
امرأة نوح: ٧/ ٤٣٨.
امرؤ القيس: ١/ ٦٩٧، ٦/ ٢٠٢.
آمنة بنت وهب: ٨/ ٢٧١.
أمية بن أبي الصلت: ٤/ ١٧٤، ٦/ ١٥٨، ١٥٩، ٣٣٤، ٨/ ١٨٦.
أمية بن خلف: ٨/ ١٣٤، ٣٨٧.
أميمة بنت عبد المطلب: ٦/ ٦٧.
أنس بن النضر: ٢/ ٥٤٨، ٥٥٢.
أنس بن مالك: ١/ ٧١٨، ٢/ ٢٦١، ٤٠٦، ٣/ ١٩٠، ٧/ ٩٨، ٢٧٢، ٤٢٩.
أنوشروان: ١/ ٦٩٨.
أوريا بن حيان: ٦/ ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢.
أوس بن الصامت: ٧/ ٣١٧.
أيوب (يروي عنه ابن عون): ٢/ ٢٨٧.
أيوب عليه السلام: ٣/ ٣٣٦، ٥/ ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٣، ٦/ ٢٥٠، ٢٥٢.
البحتري: ١/ ٦٩٨.
البخاري: ١/ ٧١٥، ٧٢٥، ٧٤١، ٢/ ١٩٥، ٢٧٣، ٢٨٦، ٢٩٠، ٥٩٠، ٣/ ١١٥، ٢٥٣، ٤/ ٣٦٠، ٥/ ١٩٦، ٣٠١، ٦/ ٨٣، ٢٨٣، ٣٣٠، ٧/ ١٠٧، ٢٤٠، ٨/ ٧٩.
بختنصّر: ٤/ ٤٤٨، ٥/ ١٨٩.
بديل بن أبي مارية: ٣/ ٢٧٣.
بديل بن أبي مريم: ٣/ ٢٧٤.
برهان الدين البقاعي: ٣/ ٤٨، ٥/ ٢١٥، ٧/ ٢٧٩.
البغوي: ٣/ ٤٦٩، ٤/ ٣٧، ٥٩.
بلال بن رباح: ٢/ ١٩٥، ٤/ ٤٥٠، ٥٦٥، ٧/ ٢٧٠، ٨/ ١٣٣.
البلخي: ٤/ ٢٨٠، ٥/ ١١، ١٨٥، ٦/ ٢٣٥، ٧/ ١٩٩، ٢١٠، ٤٠٨، ٨/ ٦٨.
بلقيس: ١/ ٧٧٥، ٥/ ٤٨، ١٨٦، ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٥١، ٦/ ١٠٤.
بنت غيلان: ٥/ ٣١٧.
بنيامين = أخو يوسف
الأستاذ بورد الألماني: ٦/ ٢٨٥.

البيضاوي (القاضي): ٢/ ٧١، ١٢٤، ٢٦٩، ٣٣٧، ٤٥٥، ٤٧٨، ٥٠٧، ٥٣٦، ٣/ ١٩٦، ٢٤٢، ٥/ ٣٥٦، ٣٩٤، ٦/ ١٢٤، ٣٣٠، ٣٤٠، ٧/ ٢٠، ٤٨٢، ٨/ ١٦، ٢٢، ١٠٩، ١٧١، ٣٩٥، ٤١٣.
الترمذي: ٧/ ٩٨.
تميم الداري: ٢/ ٢٠٩، ٣/ ٢٧١، ٢٧٣.
توبة: ٧/ ٢٣٤.
ثابت بن قيس بن شماس: ٢/ ٣٣٢، ٥/ ٢١٦، ٢١٧.
الثعالبي: ٥/ ٣٥٦.
الثوري: ١/ ٦٤٥، ٧/ ٤٧٧.
جابر بن عبد الله: ٢/ ١٧٨، ٢٩٣، ٣١٩، ٤/ ١٣٨، ٥/ ٨٨، ٣٤٧، ٨/ ٢٨٥.
الجاحظ: ٢/ ٤٨٤.
جالوت: ٢/ ٣٦١.
الجبائي: ٤/ ٢٨٠، ٣٢٦، ٣٤٨، ٣٦٥، ٣٨٠، ٤١٨، ٤٢١، ٤٣٢، ٤٤٣، ٥/ ١١، ١٨٣، ١٨٥، ٢٨٤، ٤٤٩، ٦/ ٢٣٦، ٢٤٠، ٢٥٢، ٣٤٣، ٤٠٣، ٤٤٩، ٤٥٧، ٧/ ١٥٠، ١٩٤، ٢٠٥، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٩، ٣٦١، ٤٥٥، ٤٧٨، ٥٠٢، ٨/ ٢٤، ٤٣، ٦٥.
جبريل عليه السلام (الروح الأمين): ٢/ ١٣، ١٢٣، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ٢٠٣، ٤٦٧، ٤٧٢، ٤/ ٢٥، ١١١، ٤٩٩، ٥٦٥، ٥/ ٧٠، ٧٣، ٨١، ١٠٣، ١٠٤، ٤٢٤، ٦/ ٢١١، ٧/ ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ٢٧٩، ٣٣٦، ٣٥٣، ٤٣٢، ٨/ ٣٨، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ٣٠٥.
الجرجاني: ١/ ٦٣٦، ٧/ ٣٧١، ٣٨٢.
الجصاص: ٨/ ٤١٦.
جعفر بن أبي طالب: ٣/ ٢٤٩، ٥/ ٥٠٠.
جعفر بن محمد الصادق: ٢/ ٤٨٦، ٥٠١، ٤/ ٤٢٩، ٥/ ٢١٥.
جلال الدين السيوطي: ١/٦٦٨، ٢/ ٢٠١، ٢٠٣، ٤٠٢.
جلال الدين المحلي: ٦/ ٢٣٥.
جميلة بنت عبد الله بن سلول: ٢/ ٣٣٢.
جوستاف لوبون: ٢/ ٢٨٤، ٥/ ٢٣٩.
جويرية بنت الحارث: ٦/ ٨٠.
ابن أبي حاتم: ١/ ٦٨٢.
الحارث الأعور: ٤/ ٤٣٥.
الحارث بن قيس: ٤/ ٤٤٩.
الحارث بن كلدة: ٧/ ٤٩٣.
حاطب بن أبي بلتعة: ٧/ ٣٥٣.
توفيق الصمدي: ٨/ ٤٢٩.
حبيب النجار: ٦/ ١٦٨.

الحجّاج: ٥/ ٢١٤.
حزقيل عليه السلام: ٢/ ١٣٢.
الحسن البصري: ١/ ٦٤١، ٢/ ٩١، ١٤٩، ٥٠٥، ٣/ ١٢٧، ٢٥٢، ٤/ ٢٥١، ٢٦١، ٢٨٠، ٣٣٧، ٣٤٨، ٣٦٠، ٤١٨، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٤١، ٤٥٠، ٤٩٧، ٥/ ٨٩، ١٦٦، ٢١٠، ٣١٤، ٣٢٢، ٣٤٦، ٣٨٠، ٤٣٨، ٦/ ٣٨، ١٠٤، ٤٠٣، ٤١٤، ٧/ ١٥، ٣٠، ٤٤، ١٥٧، ١٩٨، ٢٠٢، ٢١٠، ٢٤٦، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٧٣، ٣٦١، ٤١٥، ٤٧٩، ٤٨٢، ٨/ ١٠، ٣٩، ٥٩، ٦٤، ٦٥، ٦٩، ٨٧، ١٠٤، ١١٤، ١٢٤، ١٥١، ١٧٢، ٢٣٨، ٣٢٥، ٣٧٥، ٤١٢.
الحسن بن علي: ٦/ ٦٤.
حصن بن عيينة: ٣/ ١٣٦.
حفص: ٦/ ١٩٢.
حفصة بنت عمر: ١/ ٧٢٢، ٧٢٧، ٧٢٨، ٦/ ٨٠، ٧/ ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٨.
حليمة السعدية: ٨/ ٢٧١.
حمزة الزيات: ١/ ٧٣١.
حمزة بن عبد المطلب: ٢/ ٥٤١، ٥٧٠.
حوّاء: ٢/ ٧٩، ٣/ ٨، ٣٤٧، ٤١٧، ٤١٨، ٤/ ٥٤٥، ٥/ ١٤٢، ٧/ ١٢٤، ٨/ ٢٨٦.
حيي بن أخطب: ٧/ ٣٣٧.
خالة يوسف: ٤/ ٣٣٨.
خالد بن الوليد: ٢/ ٥٦٤، ٥٧٤، ٥/ ٢١٦، ٧/ ٩٦، ٨/ ٥٠، ٥١.
خباب: ٢/ ٣١٥.
خديجة: ٥/ ١١٨، ٦/ ٨٠، ٧/ ٤٤٠، ٨/ ١٣٣، ٢٧٠، ٢٧٥.
أبو خزيمة: ١/ ٧٢٥،
الخضر: ١/ ٧٧٥، ٥/ ٥، ٣٧، ٤٠.
ابن خلدون: ١/ ٧٢٤.
خولة بنت ثعلبة: ٧/ ٣١٧.
ابن أبي داود: ١/ ٧٢٧.
داود عليه السلام: ٢/ ١٣٢، ٣/ ٧٥، ١٥٩، ٣٣٦، ٤/ ٨٢، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥/ ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٩، ٢٠٣، ٤٤١، ٦/ ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٠.
أبو الدرداء: ١/ ٧١٩.
أبو الدحداح: ١/ ٧٨٥.
دوزي الهولندي (مستشرق): ١/ ٧٧١.
ذو القرنين: ٥/ ٥، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٦٠، ٦/ ٢١.
ذو الكفل: ٥/ ١٩٠، ٢٠٣.
ذو النون = يونس عليه السلام
الرازي: ١/ ٥٠٤، ٥١٣، ٦٤٦، ٢/ ٣٥٠،

٣٥١، ٥١٥، ٥٣٨، ٣/ ٣٧، ٩٨، ١٠٢، ١٩٦، ٢١٠، ٢٤٢، ٤/ ٢٤١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٣٤٣، ٤١٧، ٥٦١، ٥٧٠، ٥/ ١٠٢، ١٣٠، ١٣٥، ١٤٧، ٣٣٥، ٣٤٦، ٣٨٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٩٣، ٦/ ٨٩، ١٩٤، ٢٣٢، ٢٥١، ٤٠٤، ٧/ ٧١، ١٨١، ٢٤١، ٣٤٤، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٨٢، ٤٨٤، ٨/ ٩، ٢٤، ٢٧، ٥٢، ٥٣، ٢٢٩، ٤١٦.

الراغب: ١/ ٤٩٦، ٢/ ٧٩، ٣/ ٧٦، ١٠٠، ٢٥٢، ٢٥٤، ٣٥٤، ٣٩٨، ٤٥٩، ٤٦٢، ٥٠٤، ٤/ ٨، ٤٨، ٢٥١، ٥/ ٣٧٢، ٨/ ١٢٤.

رسول ملك مصر: ٤/ ٣١٥.

رشيد رضا (صاحب المنار): ١/ ٤٩٣، ٢/ ٧٥، ٩٠، ١٩٩، ٢٤٠، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٨، ٣٩١، ٤٢١، ٥١٢، ٥٢١، ٥٢٣، ٣/ ٣٤٧، ٤/ ١١، ٢١، ١٢٣.

الروح الأمين = جبريل عليه السلام

رينان الفرنسي: ٤/ ٥٧١.

الزبير: ٤/ ٢١، ٧/ ٣٥٣.

الزجاج: ١/ ٦٢٤، ٢/ ٥٧٧، ٣/ ١٥٧، ٤/ ٤٩٣، ٥/ ٢٤١، ٤٨١، ٦/ ٨٧، ٢٠٨، ٢١٧، ٢٧٩، ٧/ ١١، ٢٠، ١٩١، ١٩٨، ٤٢٣، ٨/ ٤٤، ٦٥، ٨١، ٨٤، ٨٥، ١٦٧، ١٨٤، ١٨٥، ١٩٣، ٢٠٣.

زكريا بن طلحة: ٤/ ٤٣٥.

زكريا عليه السلام: ٢/ ١٣٢، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٢، ٣/ ٣٣٦، ٥/ ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٨٣، ١٩١، ١٩٢، ٢٠٣.

الزمخشري (صاحب الكشاف): ١/ ٦٧٠، ٢/ ٣٠، ١٢٧، ٢٧٣، ٣٣٦، ٣٧٦، ٤٣٣، ٤٩٢، ٥٠٧، ٣/ ٢٨، ١١٤، ١١٥، ٤٩٠، ٤/ ١١، ١٣٢، ١٣٥، ٢٩٨، ٣٠٠، ٥٥٢، ٥/ ١٣٥، ٢٨٠، ٤٩٧، ٥٢٤، ٧/ ١٢٢.

الزهري: ٢/ ٣٣٩، ٣/ ٢٧، ٥/ ٣٤٤، ٣٤٧، ٦/ ٢٤٦، ٧/ ٨١، ٩٣، ٣٤١، ٣٦١، ٣٦٢، ٨/ ٢٤، ٤٩، ٥٩.

زهير بن أبي سلمى: ٧/ ٢١٩.

زوجة أبي لهب = أم جميل بنت حرب

زوجة أيوب عليه السلام: ٦/ ٢٥١.

زياد أمير العراقين: ٥/ ٢١٠.

زيد بن ثابت: ١/ ٧١٧، ٧١٨، ٧٢٣، ٧٢٥، ٧٢٧.

زيد بن حارثة: ٢/ ٥١٠، ٦/ ٦٧، ٦٨، ٦٩.

زيد بن علي بن الحسين: ٣/ ٤١٩.

أبو زيد: ١/ ٧١٨.

زينب بنت أبي سلمة: ٥/ ٣١٧.

زينب بنت جحش: ٦/ ٦١، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٨٠، ٨٨، ٩٠، ٧/ ٤٣١.

زينب بنت خزيمة: ٦/ ٨٠.

سارة: ٥/ ٨١، ٥٣٤.

سارة مولاة بني المطلب: ٧/ ٣٥٣.

ساقي الملك (الشرابيّ): ٤/ ٢٧٩، ٣٠٩، ٣١٠.

سالم مولى أبي حذيفة: ١/ ٧١٨، ٧٢٨.

السامري: ٥/ ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١.

السبكي: ٣/ ٣٨٤.

سبيعة بنت الحارث الأسلمية: ٧/ ٣٦٠، ٤١٩.

السدي: ٢/ ١٥٨، ٣/ ٢٩، ٤/ ٢٦١، ٤٣٩، ٤٩٧، ٥/ ٢٠١، ٦/ ٤٩، ٥٥، ٨٥، ٢٧٧، ٣١٥، ٣٥٨، ٧/ ١٩٨، ٨/ ٣٧، ٤٩، ٦٥.

سراقة بن مالك: ٤/ ٣٨، ٦/ ١٥٤، ٤١٨.

سعد بن أبي وقاص: ٣/ ١٩.

سعيد بن المسيب: ٢/ ٣٤٥، ٥/ ٣٤٤.

سعيد بن جبير: ١/ ٦٤٢، ٢/ ٤٠٩، ٣/ ١٨، ٤/ ٢٨، ٢٤٨، ٤٤٩، ٤٩٧، ٥/ ١٦٦، ٢٠١، ٢١٥، ٣٧٣، ٧/ ٥٤، ٢٧٢، ٣٠١، ٨/ ٢٩، ٣٧٩.

سعيد بن العاص: ١/ ٧٢٢، ٧٢٧.

سفيان بن عيينة: ٤/ ٣٢٩.

السكاكي: ١/ ٥٠٣.

سلمان الفارسي: ٢/ ١٩٥، ٥/ ٢١٤، ٥٠٠.

سليمان بن حيّان: ٥/ ١٨٥.

سليمان عليه السلام: ١/ ٧٧٥، ٢/ ١٣٢، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٥١، ١٥٩، ١٦٦، ١٩٢، ٥١٣، ٣/ ٧٥، ٣٣٦، ٥/ ١٨٣، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٣، ٤٤١، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٦/ ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ٢٣٦، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٠.

سليمان القانوني: ١/ ٦٣٠.

سنحاريب: ٤/ ٤٤٨.

سهيل بن عمرو: ٧/ ٩٢، ٩٦، ١٠٣.

سودة بنت زمعة: ٦/ ٨٠.

سويد بن غفلة: ١/ ٧٢٨.

سيبويه: ٢/ ١٩٥، ٢٨٤، ٧/ ٣٧١، ٣٨٢، ٨/ ٣٦٦.

السيد = العزيز

سيديو (مستشرق): ١/ ٧٦٩

شاس اليهودي: ٢/ ٥١٨.

الشاطبي: ١/ ٧٢٢.

الشافعي (إمام المذهب): ١/ ٧٥٢، ٢/ ٢٤٨، ٢٥٤، ٣٣٦، ٣/ ١٨٦، ٢١٠، ٣٨٤، ٥/ ٢٦٣.

شريح: ٥/ ١٨٣.

الشعبيّ: ٥/ ٣٠١، ٨/ ١٠١، ٣٠٣.

الشعراني: ٧/ ٢٧٦.
شعيا عليه السلام: ٢/ ١٣٢.
شعيب عليه السلام: ٣/ ١٦٠، ٤٥٠، ٤٥٤، ٤/ ١٩١، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٨، ٤٤١، ٤٤١، ٥/ ٢٠٣، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢١، ٤٨٦، ٤٨٧، ٥٣٧، ٦/ ٢٣١.
شمعون عليه السلام: ٢/ ١٣٢.
شمويل عليه السلام: ٢/ ١٣٢.
شيبة بن ربيعة: ٨/ ١٣٤.
شيت: ٥/ ٨٢.
صاحب «المنار» = رشيد رضا
صاحب الكشاف = الزمخشري
صالح عليه السلام: ٣/ ١٥٩، ١٦٠، ٣٥٥، ٤٤٦، ٤٤٩، ٤٥٢، ٤/ ١٩١، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٥٥، ٤٤٣، ٥/ ٢٠٣، ٤١٣، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٦/ ٤٠، ٧/ ٢١٨، ٢١٩، ٨/ ٢٥٦، ٢٥٧.
صفوان بن المعطّل: ٥/ ٣٠٥.
صفية بنت حُيي: ٦/ ٨٠.
صموئيل: ٢/ ٣٦٣.
صهيب الرومي: ٢/ ١٩٥.
الضحّاك: ٢/ ٤٩٤، ٤/ ١٢٨، ٢٧٥، ٥/ ٢٧٥، ٣١٤، ٣٤٧، ٣٧٣، ٦/ ١٧٦، ٧/ ٢٦١، ٤٨٣، ٨/ ٧٤، ١٨٤، ٢٨٥.
ضيف لوط عليه السلام: ٤/ ٤٤٠.
طالوت: ٢/ ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦.
الطبري: ٢/ ٣٥٩، ٥/ ٣٢٢، ٣٢٢، ٧/ ٢٩٢، ٨/ ٢٨٥، ٣١٨.
الطحاوي: ١/ ٧٣٦.
طلحة: ٤/ ٤٣٥، ٧/ ٣٥٣.
عاتكة المخزومية: ٨/ ١٣٣.
العاص بن وائل: ٤/ ٤٤٩، ٥/ ٩٢، ٨/ ٣٧٩.
عاصم: ١/ ٧٣١.
عاصم بن عدي: ٤/ ١١٤.
عائشة: ١/ ٤٩٢، ٥٥٩، ٦١٥، ٧١٥، ٧٢٤، ٢/ ٢٢٥، ٣/ ٢٥٢، ٣٨٤، ٤/ ٣٤٣، ٥١٨، ٥٥١، ٥/ ٣٠٤، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٥، ٣٢٣، ٣٤٤، ٦/ ٦٢، ٨٠، ٧/ ١٩٣، ٣١٧، ٣٤٣، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٦٠، ٨/ ٣٨.
عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: ١/ ٧٢٣، ٧٢٧.
عبادة بن الصامت: ٧/ ٣١٧.
العباس بن عبد المطلب: ٨/ ١٣٤.
عبد الرحمن بن عوف: ٤/ ١١٤، ٥/ ٥٤٧.
عبد العزى بن عبد المطلب = أبو لهب
عبد الله (غيرُ معيَّن): ٨/ ٢٤١.

عبد الله أخو أم سلمة: ٥/ ٣١٧.
عبد الله بن أُبيّ: ٢/ ٥٣٣، ٥٤٨، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٦٣، ٥٧٢، ٥٨٠، ٤/ ١١١، ٧/ ٣٩٢، ٣٩٤، ٣٩٦.
عبد الله بن الزبير: ١/ ٧٢٢، ٧٢٧، ٥/ ٢١٤، ٧/ ١١١، ١٠٧.
عبد الله بن جبير: ٢/ ٥٥٧.
عبد الله بن حجش: ٦/ ٦٧.
عبد الله بن سلام: ٢/ ٢٠٩، ٣/ ١٥٣، ٥/ ٤٢٤، ٥٠٠، ٥٤٤، ٧/ ٤٤.
عبد الله بن عامر: ١/ ٧٣١.
عبد الله بن عمر = ابن عمر
عبد الله بن عمرو بن العاص: ١/ ٧١٨، ٨/ ١٠٤.
عبد الله بن كثير: ١/ ٧٣١.
عبد الله بن مسعود = ابن مسعود
عبد الله والد النبي ﷺ: ٨/ ٢٧١، ٢٧٥.
عبيد الله بن عبد الله: ٥/ ٣٤٤.
عتبة بن ربيعة: ٨/ ١٣٤
العتبي: ٧/ ٤٦٣.
عثمان بن عفان: ١/ ٧١٧، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٤٤، ٢/ ٤٨٦، ٤/ ٢١، ١٠١، ٦/ ٤١٨.
عدي بن بداء: ٣/ ٢٧٣، ٢٧٤.
عدي بن حاتم: ٣/ ١٨٢، ٤/ ٨١.
عروة بن الزبير: ٣/ ١١، ٧/ ٩٣.
عروة بن مسعود الثقفي: ٦/ ٤٤١، ٧/ ١١١.
عزّ الدين بن عبد السلام: ٧/ ٢٥٠.
عزرة الكاهن: ٥/ ٥٤٣.
عزير عليه السلام: ٢/ ١٣٢، ١٦٨، ٤/ ٨٠، ٥/ ٢٥٥.
العزيز (السيد = الوزير): ٤/ ٢٧٩، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٢، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٥.
عطاء: ٢/ ١٧٨، ٢٨٦، ٣٥٧، ٣/ ٢٥٣، ٤٧٧، ٥/ ٣١٤، ٣٢٠، ٦/ ٢٨٣، ٧/ ٤٦٣، ٨/ ٤٣، ٥٦، ٢٨٥.
عقبة بن أبي معيط: ٨/ ٣٧٩.
عكرمة: ٢/ ٤٧، ٢٨٦، ٣/ ٢٥٣، ٢٧٣، ٤٩٠، ٤/ ١٢٨، ٥/ ١٩٠، ٢٠١، ٧/ ٢٦٣، ٣٠٥، ٨/ ٣٧، ٦٥، ٦٧، ١٠٤، ١٨٤، ٣٥٩
علقمة بن أبي وقاص: ٢/ ٥٩٠.
علي بن أبي طالب: ١/ ٤٩١، ٧٢٦، ٧٢٨، ٧٢٩، ٢/ ٣٤٥، ٣٥٧، ٤٦٥، ٤٨٥، ٤٨٦، ٥٠١، ٥٤٤، ٣/ ١٩٠، ٤/ ١٤، ١٠١، ٣٥٦،

٤٣٥، ٥/ ١٤٤، ٣٠١، ٤٦٨، ٦/ ٢٤٢، ٤٠٢، ٧/ ١٠٣، ٣٥٣، ٤١٩، ٨/ ٣٧، ٣٩، ٣٤٢.
عمار بن ياسر: ٢/ ٣١٥، ٤/ ٥٠٢، ٧/ ٣٥٣.
عمارة: ٨/ ٥١.
عمر بن الخطاب: ١/ ٥٨٤، ٦١٥، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٢/ ٩، ٢٠٩، ٣٣٤، ٤٨٦، ٣/ ١٠٩، ١٩٠، ٣١٠، ٤/ ١٠١، ١٣٨، ٣١٦، ٥٦٣، ٦/ ٤١٨، ٧/ ٩٦، ١٠٧، ١١١، ١٢٠، ٣٣٧، ٣٦٠، ٣٦١، ٤٣٠، ٤٣٤، ٨/ ١٠، ١٣٩.
عمر بن سعيد: ١/ ٧٢٩.
عمر بن أم سلمة: ٦/ ٦٤.
عمران: ٢/ ٤٦٤، ٤٦٥.
عمران بن حصين: ٢/ ٥٠.
عمرو بن العاص: ٣/ ٢٧٣، ٢٧٤، ٧/ ٩٦،
عمرو بن قيس: ٨/ ١٣٣.
عيسى عليه السلام (المسيح): ١/ ٦٢٣، ٦٩٣، ٧٣٩، ٧٤٨، ٧٧٥، ٢/ ١٣٢، ١٦٤، ١٦٩، ١٨٧، ٢٠٧، ٣٦٩، ٤٣٩، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩٧، ٥٠٢، ٥٩٠، ٣/ ١٤٢، ١٥٠، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢، ٣٠٤، ٣٥٠، ٤/ ٨٢، ٣٠٣، ٥٤٨، ٥/ ٤٨، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٨٣، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٣، ٢١٠، ٢٥٥، ٢٧٥، ٢٩١، ٥٤٣، ٦/ ٢١، ١٦٦، ١٨٨، ٣٩٣، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٧/ ٣٠٩، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٤، ٣٧٥، ٤٣٩.
عيص بن إسحاق: ٥/ ١٩٠، ٦/ ٢٥٢.
الغامدية: ٥/ ٣٠٠.
فاختة: ٥/ ٣١٦.
فاطمة الزهراء رضي الله عنها: ٢/ ٤٨٦، ٥/ ٣١٦، ٦/ ٦٤، ٤٠٢، ٧/ ٤٤٠.
فامباري (مستشرق): ١/ ٧٧٤.
فتى موسى = صاحب موسى = يوشع
الفرّاء: ٤/ ٢٢٤، ٥٤٤، ٥/ ٣٤٥، ٦/ ١٤٩، ٢٥٨، ٧/ ١١، ٤٣٣، ٨/ ١٠٤، ١٨٤، ٣٢٥.
فرعون: ٣/ ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٩، ٤٨١، ٤/ ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨، ١٩٩، ٢٣٠، ٢٥٨، ٥٦٤، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥/ ٩٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٥،

١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٧٧، ١٩٨، ٣٩٤، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٣٩، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٥، ٤٩٦، ٥١٥، ٥٣٨، ٦/ ٢١٢، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٣٢، ٤٤٩، ٧/ ١٤، ١٥، ١٦، ١٦٥، ٤٣٨، ٤٧٩، ٨/ ١٠٠، ١٢٥، ٢٣٠.

أبو فراس الحمداني: ١/ ٦٤٩.

فريد وجدي (صاحب صفوة العرفان) = محمد فريد وجدي

فهر بن مالك بن النضر: ٨/ ٣٦٥.

الفيروزآبادي: ٢/ ٢٨٤، ٥/ ١٣١، ٧/ ٣٧١، ٣٨٢.

قارون: ٥/ ٥١١، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥٣٨، ٦/ ٨٨، ٨٩.

القاضي الباقلاني: ١/ ٧٣٦.

القاضي عياض: ٨/ ٤١٧.

القبطي: ٥/ ١٠٩.

قتادة: ١/ ٥٠٧، ٦٤١، ٧١٨، ٢/ ٩١، ١٧٨، ٣٣٩، ٥٠١، ٣/ ٢٩، ٢٦١، ٣٤١، ٤/ ١٠٤، ٣٣٧، ٣٤٨، ٣٦٣، ٣٦٥، ٤٤١، ٤٤٣، ٤٧٩، ٥/ ٢٢، ٨٩، ١٣٩، ١٦٦، ١٧٦، ١٨٢، ١٨٧، ٢٧٥، ٣١٤، ٣٤٧، ٣٨٠، ٦/ ٦٤، ١٠٤، ١٧٦، ٢١٦، ٣١٥، ٣٥٨، ٣٩٨، ٤٠٢، ٧/ ١٥، ٣٠، ٥١، ٩٧، ١٤٥، ١٤٨، ٢٠٢، ٢١١، ٢٤٦، ٢٦٣، ٢٧٢، ٣٢٥، ٣٢٦، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨٢، ٨/ ٨، ١٤، ١٧، ١٨، ٣٧، ٣٩، ٤٩، ٥١، ٥٨، ٥٩، ٧٤، ٧٥، ٨١، ١٠٤، ١١١، ١١٤، ١٢٤، ١٤٥، ١٥١، ٢٨٥.

قدار بن سالف أحيمر ثمود: ٧/ ٢١٩.

القرطبي: ٨/ ١٤٦.

القسطلاني: ٦/ ٤٠٢.

القعقاع بن معبد بن زرارة: ٧/ ١٠٧.

القفال (أبو بكر الشاشي): ٢/ ٩٧، ٣١٩، ٣٧٦، ٤٩٦، ٥٠٧، ٥٣٨.

القفال: ٤/ ٢١٤، ٥/ ١٥٠، ٣٤٨، ٦/ ٣٩٦، ٨/ ٦٨.

قيصر: ٧/ ١١١.

كبير أخوة يوسف (روبيل): ٤/ ٣٣٢.

الكسائي: ٢/ ٥٧٧، ٨/ ٤٩، ١١٥.

كسرى: ٧/ ١١١.

كعب بن الأشرف: ٧/ ٣٣٦، ٣٣٩.

كعب بن مالك: ٢/ ٢٨٦، ٤/ ١٢٨، ١٤٠.

الكلبي: ٥/ ١٨٥، ١٨٧، ٢٧٥، ٧/ ٤٠٩.

كليب: ٧/ ٢٣٤.

لاوي بن يعقوب (ثالث إخوة يوسف): ٢/ ٣٦٢.

لقمان: ١/ ٥٢١، ٤ / ٢٣٠، ٦/ ٥، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٧، ١٨.
لوط عليه السلام: ٣/ ٣٣٥، ٣٣٦، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤/ ١٩١، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٣، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤٣، ٥/ ١٨١، ١٨٢، ٢٠٣، ٤١٥، ٤٥٦، ٥٣٣، ٥٣٥، ٧/ ٢٢٠.
الليث بن سعد: ٥/ ١٩٠.
ليلى الأخيلية: ٧/ ٢٣٤.
ماروت: ٢/ ١٥٠.
مارية القبطية: ٦/ ٨٠، ٧/ ٤٢٩، ٤٣١، ٤٣٢.
ماعز الأسلمي: ٥/ ٣٠٠.
مالك بن أنس: ٤/ ٤٢٩، ٥/ ٢١٤، ٦/ ٤٥٧.
مالك بن جعشم: ٤/ ٣٩.
المبرّد: ٥/ ٣٤٨، ٧/ ٣٠٤، ٣٠٥، ٨/ ١٧.
مجاهد ١/ ٥٦٥، ٦٤١، ٦٤٢، ٢/ ٤٧، ٩١، ١١١، ١١٢، ١٧٨، ٣٥٠، ٣/ ٢٩، ٦٩، ٢٠٩، ٢٣٣، ٢٤٧، ٣٤١، ٤/ ٩٣، ١٢٨، ٢٤٨، ٣١٦، ٣٢٩، ٣٤٨، ٤١٨، ٤٥٠، ٥/ ٢٧، ١٣٩، ١٧٦، ١٩٠، ١٩٦، ٢٠١، ٢٣٤، ٣٨٠، ٦/ ٦٤، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢٨٣، ٣١٥، ٣٩٨، ٤٠٢، ٧/ ١١، ١٥، ٣٠، ١٤٥، ٢٠٢، ٤٦٣، ٤٧٩، ٤٨٥، ٤٩٣، ٨/ ١١، ٤٠، ٤٩، ٦٥، ٦٩، ٨٤، ١٠٣، ١١١، ١٢٤، ١٤٥، ١٩٦، ٢٨٥، ٤١٢.
محمد بن إسحاق: ٢/ ١٣٤، ٥٥٣، ٦/ ٢١٣.
محمد فريد وجدي: ١/ ٤٩٧، ٦٣٩، ٧٥٧، ٧٧٦، ٢/ ٥٥٢، ٨/ ٣٨١.
محمد عبده: ١/ ٤٩٢، ٦٢٧، ٦٣٣، ٧٤٨، ٢/ ٤٩، ٦١، ٦٦، ٦٨، ٧١، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٨، ١٢٦، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٦، ١٦١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٨، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٤٣، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٩١، ٢٩٣، ٣١٢، ٣٢٠، ٣٣٠، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٥٣، ٣٥٧، ٣٦٢، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٤، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩٠، ٤٠٨، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٩، ٤٢٣، ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٤٤، ٤٤٩، ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٦١، ٤٦٥، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧٥، ٤٧٧، ٤٨٣، ٤٨٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٩، ٥٠١، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٨، ٥٣٨، ٥٤٤، ٥٤٨، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٤، ٥٧١، ٥٧٣، ٥٧٦، ٥٨١، ٥٨٦،

٥٨٧، ٥٩٧، ٣/ ٨، ١٤، ١٥، ١٧، ١٨، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٤، ٤٦، ٥٤، ٥٥، ٥٩، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧٤، ٧٥، ٨٥، ٩٠، ٩٨، ١٠١، ١٠٣، ١١٠، ١١٥، ١١٧، ١٢١، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٣، ٤٠٧، ٤/ ٢٤، ٢١٧، ٥/ ١٧٣، ٦/ ٦٧، ٢٦٢، ٤٥٨، ٧/ ١٣٠، ٢٧٦، ٨/ ١٠٧، ١٠٩، ١١٤، ١١٨، ١٣٠، ١٣٩، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٦٣، ١٧٢، ١٧٩، ١٨١، ١٨٥، ١٨٦، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٩٥، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣١٢، ٣١٩، ٣٢٣، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٩، ٣٤٦، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٧١، ٣٧٩، ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٩١، ٣٩٩، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٨، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٥.

محمد بن كعب: ٧/ ٣٦٧، ٨/ ٢٨٥.

محمد بن مسلمة: ٧/ ٣٣٦.

محمد حسين هيكل: ٨/ ٢٧٣.

المدائني: ٥/ ٣١٦.

مرارة بن الربيع: ٤/ ١٢٨، ١٤٠.

المرتضى: ٤/ ٢٨١.

مرقس: ٣/ ١٥٥.

مروان بن الحكم: ٢/ ٥٩٠.

مريم = أخت موسى

مريم بنت عمران عليها السلام: ٢/ ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٧٠، ٤٧٤، ٤٧٥، ٣/ ١٦٥، ٢٤٣، ٤/ ٨٠، ٥/ ٧٠، ١٩٢، ١٩٣، ٢٧٥، ٣٢٣، ٦/ ٤١٩، ٧/ ٤٣٩، ٤٤٠.

مسروق: ١/ ٧١٨، ٤/ ٥١٤.

مسطح بن أثاثة: ٥/ ٣٠٩، ٣١٠.

مسلم (صاحب الصحيح): ١/ ٥٥٩، ٥٦٠، ٧٤١، ٢/ ٢٩٣، ٤/ ٣٥٣، ٦/ ٣٣٠، ٧/ ٩٨.

أبو مسلم: ١/ ٦٠٣، ٦٤٥، ٦٤٨.

المسيح = عيسى عليه السلام

مُطرِّف: ٤/ ٢١.

معاذ بن جبل: ١/ ٧١٨، ٤/ ٣٦٦، ٨/ ١١٢.

معاوية: ٥/ ٣١٦.

معمر: ٨/ ٢٤.

المعري: ١/ ٦٥٠.

المغيرة بن شعبة: ٥/ ٧٤.

ابن المقفع: ١/ ٤٩٤.

مقاتل: ٢/ ٥٦٨، ٥/ ١٨٤، ١٨٥، ٢٧٥، ٦/ ٦٤، ٢٥٠، ٣٣٠، ٤٥١، ٧/ ١١، ٢٨٣، ٢٩٢، ٣٢٧، ٣٨٢، ٣٩٢، ٤٣٦، ٤٩٦، ٨/ ١٦، ٣٩، ٤٣، ٦٧، ١٨٤، ٢٨٥، ٣٤١.

المقداد: ٧/ ٣٥٣.

المقوقس: ٢/ ٤٨٨.

ملك مصر: ٤/ ٢٧٩، ٣٠٢، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٧، ٣٢٣، ٣٣٣.

الملكة بلقيس = بلقيس

المهلهل: ٧/ ٢٣٤.

موسى عليه السلام: ١/ ٥٤٤، ٥٧٨، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٦٣١، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٣، ٦٧٧، ٦٨١، ٦٩٣، ٧٣٩، ٧٤٨، ٧٩١، ٢/ ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١٠، ١١٣، ١١٤، ١١٩، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٨، ١٣٥، ١٦٠، ١٦٥، ١٨٧، ٢٠٧، ٣٦٣، ٣٦٨، ٤٦٥، ٤٩٠، ٤٩٩، ٥٠٢، ٣/ ٧٥، ١٤٢، ١٥٠، ١٥٢، ١٦٠، ١٦١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٨، ٢٠١، ٢٤٧، ٣٠٤، ٣٣٦، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٥٥، ٣٩٤، ٣٩٥، ٤٣٥، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨١، ٤٨٣، ٤٨٦، ٤/ ٣١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٢٢، ٢٣٠، ٢٥٨، ٢٦٢، ٢٨٧، ٣٢٩، ٣٧٩، ٣٨٨، ٣٩٠، ٥٠٨، ٥١٨، ٥٦٤، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥/ ٥، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٧، ٧٤، ٧٥، ٨١، ٨٣، ٩٧، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١١٢، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٣١، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ٢٠٣، ٣٦٨، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٧٥، ٤٧٨، ٤٨٠، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٦/ ٣٨، ٣٩، ٨٨، ٨٩، ١٦٨، ٢٠٩، ٢١٢، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٩٣، ٤١٩، ٧/ ١٤، ١٦، ١٦٥، ١٧٥، ٣١٠، ٣١٣، ٣٦٨، ٤٣٨، ٤٤٠، ٨/ ٣٨، ٧١، ١٢٥، ٢١٥، ٢٣٠.

أبو موسى الأشعري: ١/ ٧٢٦،

مؤمن آل فرعون: ٥/ ٤٨٣.

ميمونة بنت الحارث: ٦/ ٨٠.

نافع: ٦/ ٣٣٠.

نافع بن نعيم: ١/ ٧٣١.

النجاشي: ٣/ ٢٤٩، ٥/ ٥٠٠، ٧/ ١١١.

النخعي: ٢/ ١٧٨، ٨/ ٢٨٥، ٢٨٩.

النسفي: ٦/ ٤٥٢.

النضر بن الحارث: ٤/ ٢٦، ٦/ ٩.

النضر بن كنانة: ٨/ ٣٦٥.

النمرود: ٤/ ١٠٨.

نوح عليه السلام: ٣/ ١٥٩، ٣٣٥، ٤٤٤،

٤٥٨، ٤/ ٣١، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٠، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٣٩١، ٥١٩، ٥/ ٨٣، ١٦٦، ١٨٢، ١٨٣، ٢٠٣، ٢٦٩، ٣٦٨، ٤٠٧، ٤٠٩، ٤١٣، ٤١٥، ٥٢٧، ٦/ ١٧٦، ٢٠٤، ٢٠٥، ٣٩٣، ٧/ ٢١٤، ٢١٥، ٣٠٩، ٤٨٠، ٨/ ٨، ٩، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٨٦.

هاجر: ٥/ ٥٣٤.

هاروت: ٢/ ١٥٠.

هارون (أخو موسى) عليه السلام: ١/ ٦٨١، ٢/ ٩٧، ٣٦٣، ٣/ ٣٣٦، ٤٧٦، ٤٧٨، ٤/ ١٩٢، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٥/ ٧٥، ٨٣، ١٠٧، ١٢٣، ١٢٨، ١٢٩، ١٧٧، ١٧٨، ٢٠٣، ٣٩٤، ٤٩٠، ٤٩٧، ٤٩٨، ٦/ ٢١٢، ٧/ ٤٤٠.

هرقل: ٢/ ٤٨٨، ٤/ ٥٠، ٥٢٦.

هشام بن حكيم: ١/ ٧٣١، ٧٣٢.

هشام (ابن الوليد بن المغيرة): ٨ / ٥١.

هشام بن عروة: ٢/ ٢٢٥، ٥/ ٣١٧.

هلال ابن أمية: ٤/ ١٢٨، ١٤٠.

هند بنت عتبة: ٣/ ٤١، ٧/ ٣٦٣.

هود عليه السلام: ٢/ ٤٦٤، ٣/ ١٥٩، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤/ ١٩٠، ٢٣٨، ٢٤٢، ٥/ ٢٠٣، ٤١٠، ٧/ ٥١، ٥٢، ٢١٧.

الواحدي: ٢/ ٣١٩، ٤/ ٤٩٣.

الوزير = العزيز

الوليد بن المغيرة: ٤/ ٤٤٩، ٥/ ٥٠٦، ٦/ ٤٤١، ٧/ ٤٦٣، ٨/ ٥٠، ٥١، ٥٣، ١٣٤.

وهب بن منبِّه: ٥/ ٢١٥، ٧/ ٤٧٩.

يحيى عليه السلام: ٢/ ١٣٢، ٤٦٨، ٣/ ٢٤٠، ٥/ ٧٠، ٨٣، ١٩٢، ٢٠٣.

اليسع عليه السلام: ٢/ ١٣٢، ٥/ ٢٠٣، ٦/ ٢٥٣.

يعقوب (القارئ): ٥/ ٢٨٨.

يعقوب بن عتبة: ٨/ ٣٥٩.

يعقوب عليه السلام (إسرائيل = ابن إسحاق): ٢/ ٨٤، ١٨٤، ١٨٧، ٣٦٢، ٤٩٧، ٥١٢، ٣/ ٣٣٥، ٤/ ٨٠، ٨٢، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣٠٣، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٤، ٣٧٧، ٥/ ٨١، ٨٣، ١٨٢، ٢٠٣، ٥٣٤.

يهوذا: ٢/ ٣٦٢، ٣/ ١٥٥.

يوسف النجار: ٥/ ٢٧٥.

يوسف عليه السلام: ١/ ٧٠٠، ٢/ ٧٠، ٣/ ٣٣٦، ٤/ ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨١،

٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨،
٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥،
٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٨،
٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦،
٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٢٦،
٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣،
٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠،
٤٣١، ٥/ ٢٠٣، ٣٢٣، ٦/ ٢١٠، ٣٢٤، ٣٢٥.

يوشع عليه السلام: ٢/ ١٣٢، ٥/ ٣٨.

يونس خليل الدباغ: ٨/ ٤٣٠.

يونس عليه السلام (ذو النون): ٣/ ٣٣٦، ٥/ ١٩٠، ٢٠٣، ٦/ ٢١٥، ٧/ ٤٧١.

❋ ❋ ❋

فهرس الفرق والمذاهب

أتباع إبراهيم: ٤/ ٤٠٩.

الآريسيّون: ٤/ ٥٢٦.

الأقباط: ٣/ ٤٦٧، ٤/ ٥٢٦، ٧/ ٤٣٨.

أهل الإنجيل = النصارى

أهل الكتاب: ٢/ ٤٣، ٥٢، ١٥٤، ١٦٧، ١٨٤، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٧، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٢، ٢٢٥، ٢٢٦، ٣٦٧، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٨٦، ٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩٥، ٤٩٧، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠٢، ٥٠٥، ٥٠٨، ٥١٠، ٥١١، ٥١٤، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٩٠، ٥٩٥، ٣/ ٦١، ٧٣، ١٥١، ١٥٦، ١٨٤، ١٨٥، ٢٠٠، ٢١١، ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٦، ٢٣٧، ٢٤٥، ٢٧٥، ٣٦٠، ٤/ ٥٧، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨٨، ٢٠٠، ٣٧٧، ٣٨١، ٤٤٩، ٤٧٠، ٥٧٢، ٥٧٩، ٥/ ٨، ٢٢، ٤٧، ٧٩، ١٥٨، ٤٢٥، ٤٧٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٤٣، ٥٥٦، ٧/ ٤٤، ٧٣، ١٨٣، ١٩٩، ٢٩٧، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٨/ ٥٥، ١٠٩، ٣١١.

البراهمة: ٤/ ٨٠، ٥/ ٤٣٤.

البوذيون: ٤/ ٨٠.

الجبريّة: ٦/ ٤٣٥.

الدهرية: ٥/ ٢٧٣، ٧/ ٣٣.

الزنادقة: ١/ ٧٥٥، ٦/ ٢٢٠.

الشيعة: ٦/ ٤٠٢.

الصابئون: ١/ ٥٣٣، ٧٥٥، ٣/ ٢٤٠.

عبّاد الأوثان = الوثنيون

الفلاسفة: ٥/ ٢١٦.

متنصرة العرب (نصارى العرب): ٤/ ٧٨، ٧٩، ١٤٣، ٥٧٦.

المجوس: ٥/ ١٧.

المرتدون: ٤/ ٥٠٢، ٥٠٣.

المسيحيون = النصارى

مشركو الأمم الماضية: ٧/ ٣٢١.

مشركو العرب: ٣/ ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٦٠، ٣٦٢، ٥/ ٤٢٥، ٧/ ٤٤، ٨/ ٢٧١، ٤٠٦.

مشركو قريش = مشركو مكة

مشركو مكة: ٣/ ٢٨٩، ٣٩٧، ٥/ ٢٠٣، ٤٢٢، ٤٩٧، ٥٤٤، ٧/ ١٦، ١٨١، ٣٥٨، ٣٦٠، ٨/ ٢٣٣.

المشركون: ١/ ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦١٥، ٦١٧، ٦٥٦، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٧٢، ٦٨١، ٢/ ٢٧، ٤٢، ٤٣، ٤٦، ٥٢، ٥٤، ٥٩، ٩٤، ١٤١، ١٤٥، ١٥٤، ١٦٠، ١٦٥، ١٦٧، ١٨٢، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٦، ٢١٢، ٢٢٤، ٢٣٥، ٢٥١، ٢٧٠، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢، ٣٠٩، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٧٤، ٤٠١، ٤٠٦، ٤٥٦، ٤٥٨، ٤٩٠، ٥٣٣، ٥٣٨، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٦٢، ٥٧٠، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٩٥، ٣/ ٦١، ٧٣، ١٠٣، ١١٥، ١١٩، ١٢٧، ١٤٣، ١٥٣، ١٦٧، ١٧٤، ١٧٥، ١٨٠، ١٨٤، ٢٢٦، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٨، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٤، ٣٤٣، ٣٥٧، ٣٨٨، ٤٠٣، ٤٢١، ٤٤٤، ٤٩٤، ٥٠٩، ٤/ ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٩، ٢٦، ٢٩، ٣٤، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٤٤، ٥٠، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٥، ٧٦، ٨٤، ٨٦، ٩١، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٥، ١٥٠، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٩، ١٨٧، ١٨٩، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢١٠، ٢١٦، ٢٢٢، ٢٣٠، ٢٣٨، ٢٥٢، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٩، ٣٠٥، ٣٤٠، ٣٦٦، ٣٧١، ٣٧٤، ٣٨١، ٣٨٦، ٤٠٢، ٤٠٤، ٤٠٩، ٤١٩، ٤٢٥، ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٦٠، ٤٦٤، ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٤، ٤٧٩، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٥، ٤٩٨، ٥٠٥، ٥٠٧، ٥٠٩، ٥١٠، ٥٣٠، ٥٤٠، ٥٤٢، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥٣، ٥٥٧، ٥٥٩، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٧٧، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥/ ١٢٨، ١٣٤، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٥، ١٧٩، ١٩٧، ٢٠٥، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٧٨، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣١١، ٣٤١، ٣٦٤، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٤١٥، ٤١٨، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٦١، ٤٦٣، ٥٠١، ٥١٦، ٥٢٩، ٥٣٣، ٥٣٩، ٥٤٣، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٧٤، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٦/ ٥، ١١، ١٤، ٢٣، ٢٤، ٢٧، ٣٧، ٣٨، ٤٦، ٥١، ٦١، ٧١، ٧٥، ٨٨، ٩٤، ١٠٠، ١١٧، ١١٨، ١٢٤، ١٢٥، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٦، ١٦٧، ١٨٢، ١٨٩، ١٩٢، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٧٤، ٢٧٨، ٣٤٤، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٦، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩٣، ٣٩٤، ٤٠٥، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١١، ٤١٥، ٤١٧، ٤٣٢، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٥١، ٤٦٠، ٧/ ٥، ٢١،

٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٩، ٥٤، ٥٥، ٧٠، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٨، ٩٣، ٩٤، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١١٤، ١٣٣، ١٥٣، ١٦٧، ١٦٨، ١٧١، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٦، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢١٠، ٢١٤، ٢٢٤، ٢٧٠، ٢٧٩، ٣١٥، ٣٣٦، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٥٠، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٧٣، ٣٧٥، ٤٤٧، ٤٥٧، ٤٥٩، ٤٧٠، ٤٨١، ٤٨٦، ٤٨٩، ٤٩٣، ٤٩٥، ٤٩٩، ٨/ ١٩، ٢٢، ٢٣، ٣١، ٤٥، ٤٩، ٨٨، ١٠٧، ١٢٩، ١٣٤، ١٥٣، ٢٢٢، ٣٠٩، ٣١١، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٧١، ٣٨٠.

المصريون القدماء: ١/ ٧٥٥، ٤/ ٣٠٥، ٥/ ٤٣٤، ٤٩١.

الملحدون: ٦/ ٣٧٤، ٧/ ٣٦٤.

منافقو اليهود: ٥/ ٣٣٩.

المنافقون: ١/ ٥٠٢، ٥٤٣، ٥٤٥، ٢/ ١٩، ٣٢، ٣٨، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٦، ٥٩، ٧٧، ٨٣، ٨٦، ١٩٣، ١٩٧، ٢٠٥، ٥١٥، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٤٤، ٥٤٨، ٥٥٤، ٥٦٣، ٥٧٠، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٨٠، ٣/ ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٩، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٨، ١٠٣، ١٠٨، ١١٥، ١٢٠، ١٢١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٦٧، ٢١٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٧، ٢٤٧، ٤/ ١٨، ٣٩، ٥٧، ٥٩، ٦٤، ٦٨، ٧٤، ٨٩، ٩٠، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٨، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ٢١٠، ٥٤٣، ٥٥٠، ٥٥٢، ٥/ ٢٤٣، ٣٠٨، ٣٤٠، ٣٤٩، ٦/ ٤٣، ٤٦، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٧، ٦٨، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩٤، ٧/ ٦٨، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٨٣، ٨٤، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩٤، ١٠١، ١١٤، ٢٨١، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٧٧، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٣٧، ٤٩٩، ٨/ ٥٥، ٣٩٣.

منكرو البعث: ٨/ ١٢٦.

مؤمنو أهل الكتاب: ٥/ ٤٩٩، ٧/ ٦١.

النصارى: ١/ ٧٥٥، ٢/ ١٦٢، ١٦٨، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ٤٤٨، ٤٦٥، ٤٨٥، ٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩٨، ٥٠٥، ٥٨٩، ٣/ ١٥٠، ١٥٨، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥٠، ٣٥٩، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٨٣، ٤/ ٨٠، ٨١، ١٤٣، ٥٠٨، ٥/

٧٨، ١٢٨، ٢٣٧، ٥٠٠، ٦/ ٤٥١، ٨/ ٢٧١، ٣٧١.
نصارى الحبشة: ٣/ ٢٤٨، ٢٤٩.
نصارى مكة والمدينة: ٤/ ٥٨٠.
نصارى نجران: ٨/ ١٩٤.
الهندوس: ١/ ٧٥٥.
الوثنيون: ٢/ ١٣٤، ٢١٤، ٦/ ١٩٦، ٨/ ١٥.
اليهود: ١/ ٥٠٢، ٥٤٤، ٥٨٦، ٦٥١، ٦٧٢، ٦٨٧، ٦٨٨، ٧٥٥، ٧٨٤، ٢/ ٣١، ٣٧، ٨٨، ٩٤، ١٠٨، ١٢٤، ١٣٠، ١٣٤، ١٤٠، ١٤١، ١٤٦، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٨، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٩١، ١٩٢، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٣، ٢٥٢، ٣٠٩، ٣٢٣، ٤٤٨، ٤٥٦، ٤٦٢، ٤٦٥، ٤٨١، ٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٥٠٥، ٥٠٨، ٥١٤، ٥١٥، ٥٢٠، ٥٢٧، ٥٣٨، ٥٨٠، ٥٨٤، ٥٨٦، ٥٨٩، ٥٩٠، ٣/ ٥٩، ٧١، ٨٢، ٨٣، ٩٢، ٩٣، ١٢٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٠، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٧، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢١٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٠، ٣٤٠، ٣٥٩، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤١٧، ٤٨٣، ٤٩١، ٤/ ٤٢، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٧، ٤٤٨، ٥٠٨، ٥٢١، ٥٨٠، ٥/ ٧٨، ٢١٠، ٢٣٧، ٤٢٥، ٤٩٨، ٦/ ٩، ١٣٧، ٧/ ٩٤، ١٥٠، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٧٧، ٣٨٣، ٣٨٦، ٨/ ١٩٤، ٢٧١، ٣٧١.
يهود المدينة: ٥/ ٤٩٧، ٦/ ٨٧، ٧/ ٣٣٣.
يهود خيبر: ٧/ ٩٦، ٣٣٧.

* * *

فهرس الكتب

الإتقان: ١/ ٦٦٨، ٢/ ٤٠٢.

الأدب الصغير: ١/ ٤٩٤.

أحكام القرآن: ٣/ ٥١٣.

الاستيعاب: ٥/ ٢١٧.

الإشارة إلى الإيجاز: ٧/ ٢٥٠.

الاعتصام: ١/ ٧٢٢.

الإنجيل: ١/ ٥٧٧، ٦٧٢، ٢/ ١٦٤، ١٨٧، ٢٤٣، ٤٣٩، ٤٨٩، ٣/ ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٣٩، ٢٤٦، ٢٤٩، ٣٦٠، ٣٩٦، ٤٨٩، ٤/ ٧٧، ٢٢٢، ٥/ ٧٥، ٤٢٤، ٥٠٠، ٦/ ٧٢، ١٢٠، ٢٢٢، ٧/ ٥٥، ٢٠٠، ٣١٠، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٨/ ٢١٥، ٣١٠، ٣١١.

إنجيل لوقا: ٢/ ٤٦٥.

إنجيل متى: ٢/ ٤٦٥.

إنجيل يوحنا: ٧/ ٣٧٠.

بديع القرآن (بدائع القرآن): ١/ ٦٦٨، ٦٧٤

تاريخ الفرق الإسلامية: ١/ ٧٧١

تفسير الجلال السيوطي: ٢/ ٤٣٥.

تفسير الرازي: ٢/ ٢١، ٣٥٠، ٣٩٣، ٣/ ٢٦٦، ٤/ ٤٣٠، ٥٧٠.

التوراة: ١/ ٥٨٧، ٦٧٢، ٧١٥، ٧٤٨، ٢/ ٥٢، ٨٥، ٨٨، ٩٤، ٩٥، ١١٠، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٢، ١٦٤، ١٧٤، ١٨٧، ٢٤٣، ٣٠٥، ٣٦١، ٣٦٣، ٤٥٧، ٤٧٧، ٤٨٩، ٤٩٤، ٤٩٥، ٥١١، ٥١٢، ٥٨٦، ٥٨٩، ٣/ ٩٦، ١٥٢، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٠، ٢٠٦، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٩، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٦٠، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٧١، ٤٩١، ٤/ ٧٧، ٢٢٢، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٨٧، ٤٤٨، ٤٩٨، ٥١٩، ٥٢٢، ٥٨٠، ٥/ ٦٨، ١٢٤، ١٧٧، ٣٠١، ٤٧٨، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٨، ٥٠٠، ٥٤٣، ٦/ ١٢٠، ١٤٩، ٢١٢، ٢٢٢، ٧/ ٤٤، ٤٥، ٥٥، ١٠٤، ١٧٥، ٢٠٠، ٣٣٦، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٧، ٣٨٣، ٣٨٤، ٨/ ٢١٥.

حضارة العرب: ٥/ ٢٣٩.

دلائل الإعجاز: ٢/ ٢٨٩، ٣/ ٤٣٦، ٤/ ٥٥٤، ٥/ ٤٣.

رسالة «الرد على النصارى»: ٢/ ٤٨٤.

رسالة الشافعي: ٦/ ٤٤٧.
الزبور: ٢/ ٣٦٦، ٣/ ٢٤٦، ٣٩٦، ٤/ ٧٧، ٥/ ١٨٥، ٨/ ٢١٥.
الصحف: ٢/ ١٨٧.
صحف إبراهيم: ٥/ ١٧٨، ٦/ ١٤٩، ٧/ ٢٠١، ٢٠٥، ٨/ ٢١٤، ٢١٥، ٣١٠.
صحف موسى: ٧/ ٢٠١، ٢٠٥.
صحيح البخاري: ٢/ ٣٩١، ٤٠٤، ٥/ ٣٠٠، ٣٠١، ٣٢٢، ٦/ ٣٣٠، ٨/ ٢٦٩، ٢٧٠.
صحيح مسلم: ٢/ ٣٩١، ٤٠٤، ٤/ ١٢، ٥/ ٣٠٠، ٣٠١، ٦/ ٣٣٠، ٨/ ٢٧٠.
صفوة العرفان في تفسير القرآن: ١/ ٤٩٧، ٦٣٩، ٧٥٧، ٧٧٧، ٧٨٢.
طبقات ابن سعد: ٤/ ٤٣.
عجائب الكون: ٢/ ٢٢٨.
العمدة: ٧/ ٢٣٤، ٨/ ١٠١.
القاموس المحيط: ٥/ ٣١٧، ٦/ ٩٢.
الكشاف: ١/ ٦٧٠، ٢/ ٢٧٣، ٣٣٦، ٥٠٨، ٥٥٩، ٣/ ٣٤٦، ٤٠٠، ٥/ ١٣٥.
مجمع البيان: ٢/ ١٠٢، ٤/ ٢٨١، ٥٦٢، ٥/ ١٨٠، ١٨٨، ٢٤١، ٣١٤، ٣١٥، ٥٢٤، ٥٦٣، ٦/ ١٧٦، ٢١٣، ٢٣٥، ٢٤٦، ٣٢٥، ٣٣٨، ٨/ ١٦، ٢٧، ٩٢، ٣٧٥.
مسلم الثبوت: ١/ ٧٢٩.
المصباح المنير: ٥/ ٧٣.
الملل والنحل: ٤/ ٢٩٣، ٦/ ٢٤٦.
المنار: ١/ ٤٩٣، ٤٩٥، ٥٠٨، ٢/ ٤٨، ٧٠، ٨٠، ٨٦، ٩٩، ١٠٥، ١٠٨، ١١٥، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٣٦، ١٤٥، ١٦٨، ١٧٣، ١٧٩، ١٨٤، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٩٢، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣١٢، ٣٤١، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥١، ٣٥٦، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٧٨، ٤٠٥، ٤٢٣، ٤٣١، ٤٣٥، ٤٦٥، ٤٧١، ٤٧٤، ٤٧٦، ٤٨٠، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٩٥، ٥٠٢، ٥١٠، ٥١٤، ٥٢٢، ٥٣٥، ٥٣٩، ٥٤٩، ٥٦٣، ٥٨١، ٥٨٦، ٣/ ٣٤، ٥٤، ٦٣، ٨٤، ٨٧، ٩٧، ٩٩، ١٠٦، ١١٣، ١١٧، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٩، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٦، ١٩٨، ٢١٨، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٤٤، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٨، ٣٠٩، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣٣٦، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦١، ٤٠٠، ٤١٨، ٤٤٤، ٤٤٨، ٤٦٩، ٥٠٠، ٥١٧، ٤/ ١٠، ١١، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٥٠، ٥٢، ٥٤، ٧٠، ٨١، ٨٤، ١٠٥، ١١٧، ١٤٢، ١٥١، ١٥٤، ١٧٤، ١٨٤، ١٩٣، ١٩٤، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٤١، ٢٥٠، ٢٦٦، ٢٩٢، ٢٩٦، ٣٠٢، ٣١٠، ٣١٣، ٥/ ١٤١، ١٤٤، ٣٠٠، ٧/ ٢٧٦، ٨/ ٣٣.
النجوم في مسالكها: ٢/ ٢٣٢.
اليواقيت والجواهر: ٧/ ٢٧٦.

فهرس الأماكن

أحد: ٧/ ٣٣٨.

الأحقاف: ٨/ ٢٣٠.

أذرعات: ٧/ ٣٣٧.

أرض الحرم: ٣/ ١٧٤،٤/ ٨٥.

أرض الروم: ٥/ ٥٥٦.

أرض الشام = الشام

أرض العراق = العراق

أرض القيامة: ٨/ ١٢٤.

أرض الكنعانيين: ٤/ ٢٤٩،٣١٩.

أرض المقدس: ٥/ ١٨١، ٢٧٥،١٨٧.

الأرض المقدسة: ٢/ ١١١،٣/ ٢٠٢.

أرض بابل: ٢/ ١٤٩،٥/ ١٨١.

أرض سبأ: ٦/ ١١٠.

أريحاء: ٧/ ٣٣٧.

إصطخر: ٥/ ١٨٧.

أقاصي الترك: ٥/ ٣٨٤.

أم القرى = مكة المكرمة

أنطاكية: ١/ ٦٩٨،٦/ ١٦٦.

الأهرام: ٥/ ٤٣٤،٨/ ٢٣١.

أوربا: ٧/ ٣٥٨.

الغيضة: ٤/ ٤٤٣.

إيلياء: ٥/ ٢٧٥،٨/ ٢٨٥.

بحر الروم: ٢/ ٣٦١.

بحيرة لوط: ٤/ ٢٤٩.

بدر: ١/ ٥٠٠، ٣/ ٥، ٤/ ٥٥٠، ٥٦٤، ٧/ ١٨٥، ١٨٦، ٣٣٦، ٣٨٨، ٣٤٦.

البصرة: ١/ ٧٣١.

بطن نخلة: ٧/ ٥٤،٨/ ٢١.

بعلبك: ٦/ ٢١٣.

بلاد العرب: ٨/ ٣٥٩، ٣٩٥.

البلد الأمين = مكة

البلد الحرام = مكة

البلقاء: ٧/ ٩٥.

البيت العتيق (الكعبة) = بيت الله الحرام

بيت الله الحرام (المسجد الحرام): ١/ ٦٩٣، ٣/ ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ٤/ ٥٧، ٦٩، ٧٥،

٧٦، ٥٥٢، ٥/ ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٣، ٥٠٢، ٥٥١، ٧/ ٩٩، ١٧٥، ٣٣٦، ٨/ ٢٩٩، ٣٥٧، ٣٦٣، ٣٦٧.

بيت المقدس: ١/ ٧٩٠، ٢/ ١٠٢، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٧، ١٦٦، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٣، ٢٤٥، ٣٦٤، ٤/ ٤٤٨، ٥١٥، ٥١٨، ٥/ ١٨٩، ٢٧٥، ٥٥٦، ٦/ ١٠٩، ٨/ ٢٨٥.

تبوك: ٤/ ٥٧، ٥٩، ٧٨، ٨٨، ١١١، ١٣٨، ١٤٢، ٧/ ٩٠.

جبال التنعيم: ٣/ ١٩٠، ٧/ ٩٨.

جبل دمشق: ٨/ ٢٨٥.

جبل الجودي: ٤/ ٢٣٤، ٢٣٦، ٥/ ٥٢٧، ٨/ ٢٨٥.

جبل المناجاة = جبل موسى عليه السلام

جبل موسى عليه السلام: ٥/ ٢٦٨، ٤٩٥، ٧/ ١٧٥، ٨/ ٢٨٦، ٢٨٨.

جزيرة العرب: ٣/ ٢٤٨، ٥/ ٥٥٦، ٧/ ١٠٢، ٣٣٧، ٨/ ٣٩٥.

الحبشة: ٥/ ٥٠٠، ٨/ ٣٦٥.

الحجاز: ١/ ٧٢٧، ٤/ ٧٨، ٨٥، ٨/ ٢٢٠، ٢٣٠.

الحجر: ٤/ ٤٤٣، ٥/ ٥٣٨، ٧/ ٥٣، ٨/ ٢٣٠.

الحديبية (قرية): ١/ ٥٠٠، ٣/ ٥، ١٧٤، ١٧٦، ١٨٨، ١٩٠، ٢٥٨، ٤/ ٢٧، ٦٥، ٦٧، ٧/ ٨١، ٨٢، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩٥، ٩٨، ١٠١، ١١٠، ١١١، ١٢٩، ٣٦٠.

الحرم: ٨/ ٣٦٦.

حضرموت: ٧/ ٥١، ٨/ ٢٣٠.

حمراء الأسد: ٢/ ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠.

الحيرة: ٦/ ٩، ٧/ ٣٣٧.

خيبر: ٧/ ٨٩، ٩٤، ٩٦، ١٠٢، ٣٣٧.

دار الندوة: ٤/ ٤٧٠.

دمشق: ٥/ ٢٧٥.

ديار ثمود: ٥/ ١٤٧.

ديار عاد: ٥/ ١٤٧.

الرّس: ٥/ ٣٦٨، ٧/ ١٤٠.

الرقيم: ٥/ ١١.

الرمال (التي فيها منازل عاد): ٨/ ٢٣٠.

الرملة: ٥/ ٢٧٥.

روضة خاخ: ٧/ ٣٥٣.

ساحل البحر الأحمر: ٨/ ٢٧٤.

سدوم: ٤/ ٢٤٩، ٤٤٠، ٤٤٢، ٥/ ١٨٢، ٣٦٩، ٥٣٤، ٥٣٥، ٦/ ٢١٥.

سواد الكوفة: ٥/ ٥٣٤.

سور نينوى: ٥/ ٥٣.

سورية: ٢/ ١٤٧، ٧/ ٣٣٩.

الشام (أرض الشام): ١/ ٧١٩، ٧٢٦، ٧٣١، ٣/ ٢٧٣، ٢٧٤، ٤٤٧، ٤٦٨، ٤/ ١٠، ٥٠، ٧٨، ١٤٣، ١٩٩، ٣١٩، ٣٣٧، ٤٣٩، ٤٤٢، ٤٤٣، ٥/ ٨١، ١٤٧، ١٨١، ١٨٧، ٣٦٩، ٤٥٥، ٥٣٤، ٥٣٨، ٦/ ٤٠، ١١١، ٢١٣، ٢١٥، ٧/ ٥٣، ٩٤، ٩٦، ٣٣٧، ٨/ ٢٣٠، ٣٦٦.

شبه الجزيرة: ٢/ ٢٩٠، ٥٥٨.

شمال الجزيرة: ١/ ٧٣٠، ٤/ ٥٨٠.

الشميسي: ٧/ ٨١.

الصفا: ٢/ ٢٢٤، ٢٢٥، ٥/ ٢٣١، ٨/ ٣٩٩

صنعاء: ٧/ ٤٦٥، ٨/ ٣٥٩.

الصين: ٥/ ٣٨٤.

الطائف: ٥/ ٥٠٦، ٦/ ٤٣٩، ٨/ ٢١، ٥٠.

طور سيناء، منبت الزيتون = جبل موسى عليه السلام

طور سينين = جبل موسى عليه السلام

طورتينا: ٨/ ٢٨٥.

طورزيتا: ٨/ ٢٨٥.

العراق (أرض العراق): ٤/ ١٤٣، ٢٤٩، ٥/ ١٨١، ١٨٩.

عرفة: ٢/ ٢٩٢، ٥/ ٢٣١، ٨/ ٢٧٣، ٢٩٣،

العقبة: ٤/ ١١١.

عكاظ: ٧/ ٥٤، ٨/ ٢١.

عمان: ٧/ ٥١.

غار ثور: ٤/ ٢٥، ٩١، ٢٤٩.

غار حراء (جبل النور): ٥/ ٤٣٧، ٨/ ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٩٣.

غوطة دمشق: ٥/ ٢٧٥.

فارس: ٥/ ٥٥٦.

فلسطين: ٢/ ١٤٧، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣/ ٢٠٠، ٤٦٨، ٤/ ١٩٩، ٥/ ١٨١، ٣٩٤، ٥٣٤.

قرى قوم صالح: ٤/ ٢٥٩.

قرى قوم لوط: ٤/ ١٠٨، ٢٥١، ٢٥٩، ٥/ ١٤٧، ٣٦٩، ٥٣٥، ٧/ ١٦٤، ٢٠٤، ٤٨٠.

قرى قوم هود: ٤/ ٢٥٩.

قرية شعيب عليه السلام = مدين

قصور الشام: ٤/ ١٠٤.

القلزم: ٥/ ٤٠٢.

الكعبة = بيت الله الحرام

الكوفة: ١/ ٧٢٦، ٧٣٥.

مدن دائرة الأردن: ٤/ ٢٤٩.

مدين: ٥/ ١٠٩، ٣٩٤، ٤٨٤، ٥٣٧.

المدينة المنورة (يثرب): ١/ ٥٠٠، ٧٣١، ٢/ ١٩، ٨٣، ٨٧، ١٤٥، ٢٦٧، ٥٠٩، ٥٧٢، ٣/

٥، ٩٣، ٢٤٨، ٢٧٣، ٤/ ٢٥، ٣٢، ٥٧، ٦١، ٨٧، ١١٦، ١٢١، ١٢٢، ١٢٨، ١٣٠، ١٤٢، ٤٤٣، ٤٤٨، ٥٦٤، ٥٨٠، ٥/ ٥٤٧، ٦/ ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٩، ٩٠، ٤٠٠، ٧/ ٨٧، ٩٣، ١٠١، ١٢٨، ٣٣٣، ٣٣٧، ٤١٠، ٨/ ٥٥، ١٣٣، ١٦٧، ٢٧١.

مدينة قوم لوط: ٤/ ٤٣٨، ٤٤٣.

المروة: ٢/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٥/ ٢٣١.

المزدلفة: ٢/ ٢٩٢، ٢٩٣.

المسجد الأقصى: ٣/ ٢٤١، ٤/ ٥١٨، ٦/ ١٠٨.

المسجد الحرام = بيت الله الحرام

مسجد النبيّ ﷺ: ٣/ ٢٧٠، ٤/ ١٣١، ٧/ ٣٨٧.

مسجد قباء: ٤/ ١٣٠، ١٣١.

المشعر الحرام: ٢/ ٢٩٢، ٢٩٣.

مصر: ٢/ ١٠٥، ١٣٩، ٣٦١، ٣/ ٢٠٢، ٤٦٨، ٤٧٤، ٤/ ١٤٣، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ٢٨٧، ٢٩٤، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٣٨، ٥٧٨، ٥/ ١٠٩، ١٢١، ٢٧٥، ٤٠٠، ٤٧٩، ٤٨٤، ٤٨٧، ٦/ ٣٢١، ٣٢٣، ٧/ ١٤، ٨/ ٢٣٠.

مكة المكرمة: ١/ ٥٠٠، ٧٣١، ٢/ ١٦٦، ٢٠٣، ٢١٤، ٢٢٣، ٢٦٧، ٢٨١، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٠، ٤١٧، ٣/ ٥، ٨٩، ٢٤٨، ٢٥٩، ٢٧٣، ٣٤٢، ٤/ ١١، ١٢، ١٤، ٢٤، ٢٥، ٣٨، ٥٥، ٦٧، ٨٥، ١٣٠، ١٧٦، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٤٩، ٥١٥، ٥٦٤، ٥٧٣، ٥٧٧، ٥/ ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٨١، ٥٠٢، ٥٠٦، ٦/ ٤٠، ٤٤١، ٧/ ٧٩، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٧، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠١، ٢٩٠، ٣٣٦، ٣٣٩، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٨٠، ٤١٠، ٨/ ٢١، ٥٠، ٥٣، ١٣٤، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٩، ٣١١، ٣٥٧، ٣٦٣، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٩٥.

منازل عاد: ٨/ ٢٣٠.

منى: ٢/ ٢٨٧، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٩، ٦/ ٢٠٩.

مهرة: ٧/ ٥١.

المؤتفكة: ٥/ ١٨١، ٧/ ٤٨٠.

الموصل: ٦/ ٢١٦.

نجد: ٧/ ٩٥.

النيل: ٥/ ١٠٩، ٤٠٢، ٤٧٩.

الهند: ٥/ ٣٨٤.

هيكل سليمان عليه السلام: ٤/ ٥٧٤.

الوادي المقفر (وادي مكة): ٤/ ٤٠٧، ٤٠٨.

يثرب = المدينة

اليمن (أودية اليمن): ٦/ ١١٠، ١١١، ٧/ ٥١، ٥٣، ٩٥، ٨/ ٣٥٧، ٣٦٦.

فهرس قواعد التفسير التي ذكرها المصنف

الموضوع **الجزء والصفحة**

المقدِّمة الأولى: في الكلام على نزول القرآن، ومكيِّه ومدنيِّه، ومُجْمَلِ هدفِه وأغراضِه، وخصائصِه في مجاميعه ٤٩٩

المقدِّمة الثانية: في تفصيل خصائص القرآن في أساليبه ومفرداته وتراكيبه، من الحذف والإيجاز، وأنواع الإعجاز........ ٥٠٦

لاحقة للمقدمة الثانية: في التفسير لبعض آيات تـتكرر أمثالها في القرآن أو هي من الآيات المهمة للبيان........ ٥٥٦

المقدمة الثالثة: في معاني القرآن الدقيقة ومدلولات تراكيبه الواسعة البعيدة المرمى ٦٦٣

المقدمة الرابعة: فيما يُوهِمُ ظاهرُه الاختلافَ في آيات القرآن ٦٧٧

المقدمة الخامسة: في أنواع الخطاب في القرآن ٦٨٠

المقدمة السادسة: في أنواع المجازات في القرآن........ ٦٨٦

المقدمة السابعة: القرآن والعلوم الكونيَّـة فيه ٧٠٣

المقدمة الثامنة: القرآن وغرائز الإنسان ٧٠٦

المقدِّمة التاسعة: أثر القرآن في النفوس السليمة من الانحراف ٧١١

المقدمة العاشرة: القرآن والأديان السماوية الصحيحة وأمهات أصولها الثابتة ٧١٣

المقدمة الحادية عشرة: في كيفيَّـة نزول القرآن وترتيبه وقراءته بلهجات العرب وتجويده ٧١٥

المقدمة الثانية عشرة: القراءات السبع في القرآن ٧٣٠

الموضوع **الجزء والصفحة**

المقدمة الثالثة عشرة: القرآن والنسخ وهي مُلخَّصة ممَّا قالَه محمد عبده وغيره ٧٤٨
المقدِّمة الرابعة عشرة: في إجمال بعض مواضيع القرآن المتعلِّقة بالإنسان ومصالحه دنيا وأخرى ٧٥٤

* * *

الفهرس الإجمالي للسور

الموضوع الجزء والصفحة

الموضوع	الجزء والصفحة
الفاتحة	٢/ ١١
البقرة	٢/ ١٩
آل عمران	٢/ ٤٣٩
النساء	٣/ ٥
المائدة	٣/ ١٧١
الأنعام	٣/ ٢٨٣
الأعراف	٣/ ٤٠٣
الأنفال	٤/ ٥
التوبة	٤/ ٥٧
يونس	٤/ ١٤٧
هود	٤/ ٢٠٧
يوسف	٤/ ٢٧١
الرعد	٤/ ٣٤٥
إبراهيم	٤/ ٣٨٣
الحجر	٤/ ٤١٥
النحل	٤/ ٤٥١

الموضوع	الجزء والصفحة
بني إسرائيل (الإسراء)	٤/ ٥١٣
الكهف	٥/ ٥
مريم	٥/ ٦٣
طه	٥/ ٩٧
الأنبياء	٥/ ١٥٣
الحج	٥/ ٢٠٥
المؤمنون	٥/ ٢٥٩
النور	٥/ ٢٩٧
الفرقان	٥/ ٣٥١
الشعراء	٥/ ٣٨٧
النمل	٥/ ٤٣١
القصص	٥/ ٤٧٥
العنكبوت	٥/ ٥١٩
الروم	٥/ ٥٥٣
لقمان	٦/ ٥
السجدة	٦/ ٢٧
الأحزاب	٦/ ٤٣
سبأ	٦/ ٩٧
فاطر	٦/ ١٣٣
يس	٦/ ١٦١
الصافات	٦/ ١٨٩
ص	٦/ ٢٢٥

الموضوع	الجزء والصفحة
الزمر	٦/ ٢٦٥
غافر	٦/ ٣٠٩
فصِّلت	٦/ ٣٤٩
الشورى	٦/ ٣٨٣
الزخرف	٦/ ٤٢٣
الدخان	٧/ ٥
الجاثية	٧/ ٢٣
الأحقاف	٧/ ٣٩
القتال (محمد ﷺ)	٧/ ٥٩
الفتح	٧/ ٧٩
الحجرات	٧/ ١٠٧
ق	٧/ ١٣٣
الذاريات	٧/ ١٥٣
الطور	٧/ ١٧٣
النجم	٧/ ١٨٧
القمر	٧/ ٢٠٧
الرحمن	٧/ ٢٢٧
الواقعة	٧/ ٢٥٣
الحديد	٧/ ٢٨١
المجادلة	٧/ ٣١٥
الحشر	٧/ ٣٣٣
الممتحنة	٧/ ٣٥١

الموضوع	الجزء والصفحة
الصف	٧/ ٣٦٥
الجمعة	٧/ ٣٧٧
المنافقون	٧/ ٣٨٩
التغابن	٧/ ٣٩٩
الطلاق	٧/ ٤١٣
التحريم	٧/ ٤٢٧
المُلك	٧/ ٤٤١
نٓ (القلم)	٧/ ٤٥٧
الحاقة	٧/ ٤٧٥
المعارج	٧/ ٤٩١
نوح	٨/ ٥
الجن	٨/ ١٩
المزمل	٨/ ٣٥
المدثر	٨/ ٤٥
القيامة	٨/ ٦١
الإنسان	٨/ ٧٧
المرسلات	٨/ ٩٥
النبأ	٨/ ١٠٧
النازعات	٨/ ١١٩
عبس	٨/ ١٣١
التكوير	٨/ ١٤٣
الانفطار	٨/ ١٥٧

الموضوع	الجزء والصفحة
التطفيف (المطففين)	٨/ ١٦٥
الانشقاق	٨/ ١٧٥
البروج	٨/ ١٨٩
الطارق	٨/ ١٩٩
الأعلى	٨/ ٢٠٧
الغاشية	٨/ ٢١٧
الفجر	٨/ ٢٢٥
البلد	٨/ ٢٣٩
الشمس	٨/ ٢٤٩
الليل	٨/ ٢٥٩
الضحى	٨/ ٢٦٧
ألم نشرح (الشرح)	٨/ ٢٧٧
التين	٨/ ٢٨٣
العلق	٨/ ٢٩٣
القدر	٨/ ٣٠١
القيّمة (البيِّنة)	٨/ ٣٠٧
الزلزلة	٨/ ٣١٥
العاديات	٨/ ٣٢١
القارعة	٨/ ٣٢٧
التكاثر	٨/ ٣٣٧
العصر	٨/ ٣٤٣
الهمزة	٨/ ٣٤٩

الموضوع	الجزء والصفحة
الفيل	٨/ ٣٥٥
قريش	٨/ ٣٦٣
الماعون	٨/ ٣٦٩
الكوثر	٨/ ٣٧٧
الكافرون	٨/ ٣٨٣
النصر	٨/ ٣٨٩
المسد	٨/ ٣٩٧
الإخلاص	٨/ ٤٠٣
الفلق	٨/ ٤٠٩
الناس	٨/ ٤١٩

❋ ❋ ❋

فهرس محتويات المجلد الثامن

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة نوح	٥-١٨
تفسير سورة الجن	١٩-٣٣
تفسير سورة المزمل	٣٥-٤٤
تفسير سورة المدثر	٤٥-٦٠
تفسير سورة القيامة	٦١-٧٦
تفسير سورة الإنسان	٧٧-٩٣
تفسير سورة المرسلات	٩٥-١٠٦
تفسير سورة النبأ	١٠٧-١١٨
تفسير سورة النازعات	١١٩-١٣٠
تفسير سورة عبس	١٣١-١٤١
تفسير سورة التكوير	١٤٣-١٥٦
تفسير سورة الانفطار	١٥٧-١٦٤
تفسير سورة المطففين	١٦٥-١٧٤
تفسير سورة الانشقاق	١٧٥-١٨٧
تفسير سورة البروج	١٨٩-١٩٨
تفسير سورة الطارق	١٩٩-٢٠٥

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الأعلى	٢٠٧-٢١٥
تفسير سورة الغاشية	٢١٧-٢٢٤
تفسير سورة الفجر	٢٢٥-٢٣٨
تفسير سورة البلد	٢٣٩-٢٤٧
تفسير سورة الشمس	٢٤٩-٢٥٨
تفسير سورة الليل	٢٥٩-٢٦٦
تفسير سورة الضحى	٢٦٧-٢٧٦
تفسير سورة الشرح	٢٧٧-٢٨١
تفسير سورة التين	٢٨٣-٢٩١
تفسير سورة العلق	٢٩٣-٣٠٠
تفسير سورة القدر	٣٠١-٣٠٦
تفسير سورة البينة	٣٠٧-٣١٣
تفسير سورة الزلزلة	٣١٥-٣٢٠
تفسير سورة العاديات	٣٢١-٣٢٦
تفسير سورة القارعة	٣٢٧-٣٣٥
تفسير سورة التكاثر	٣٣٧-٣٤٢
تفسير سورة العصر	٣٤٣-٣٤٨
تفسير سورة الهمزة	٣٤٩-٣٥٤
تفسير سورة الفيل	٣٥٥-٣٦٢
تفسير سورة قريش	٣٦٣-٣٦٧
تفسير سورة الماعون	٣٦٩-٣٧٥
تفسير سورة الكوثر	٣٧٧-٣٨١

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الكافرون	٣٨٣-٣٨٧
تفسير سورة النصر	٣٨٩-٣٩٦
تفسير سورة المسد	٣٩٧-٤٠٢
تفسير سورة الإخلاص	٤٠٣-٤٠٧
تفسير سورة الفلق	٤٠٩-٤١٨
تفسير سورة الناس	٤١٩-٤٢٦
خاتمة المؤلف والمحقق	٤٢٧-٤٣١
الفهارس العامة لكامل التفسير	٤٣٣-٤٩٨
فهرس الأحاديث النبوية الشريفة	٤٣٥-٤٤٧
فهرس الآثار عن الصحابة	٤٤٨-٤٥٢
فهرس الأشعار	٤٥٣-٤٥٤
فهرس البلاغة	٤٥٥-٤٦١
فهرس الأعلام	٤٦٢-٤٨٠
فهرس الفرق والمذاهب العقائدية	٤٨١-٤٨٤
فهرس الكتب	٤٨٥-٤٨٦
فهرس الأماكن	٤٨٧-٤٩٠
فهرس قواعد التفسير التي ذكرها المصنف	٤٩١-٤٩٢
الفهرس الإجمالي للسور	٤٩٣-٤٩٨

❊ ❊ ❊

منهج
العلامة المفسر الشيخ
رشيد الخطيب الموصلي ﷺ
في تفسير القرآن الكريم

تأليف
الدكتور خالد محمد حماش

اعتنى به
مجد أحمد مكي

أروقة

□ منهج العلامة المفسر الشيخ رشيد الخطيب الموصلي
في تفسير القرآن الكريم
تأليف : الدكتور خالد محمد حماش
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمـان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

الإهداء

إلى العراق الـمجاهد الصَّـابر
الذي أَنِـست فيه بعـد وحشـة
وعرفت فيه الوطنَ بعد الغربة
وعوَّضني الله فيـه بأهلي أهـلاً

خالد

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصَّلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فإنَّ من نعم الباري عزَّ وجلَّ أنْ خصَّ هذه الأمة بتبليغ هذه الرسالة الخاتمة، التي أتمَّت كل الرسالات قبلها، وأنزل القرآن عربياً مبيناً فشرّف وخلّد لغتها... ولما كان هذا القرآن كلام الله المبين وحماه الأمين فقد كنت وما زلت أستظلُّ بظله، وأنهل من نبعه، وأقتبس من أنواره، وأرتشف رشفات من سرِّ إعجازه وروعة بيانه، وكنت أطمح أن أتم دراستي العليا في موضوع قرآني، وبعد التـأمل والتفكير، والمشاورة التـقت رغبتي هذه رغبة أستاذي الدكتور كاصد ياسر الزيدي في دراسة تفسير لعالم جليل من علماء الموصل المعاصرين، ألا وهو الشيخ رشيد الخطيب، إذ وجدت في هذه الدراسة بُغْيتي في درس القرآن، فضلاً عمَّا فيها من إحياء لذكرى هذا العالم الذي كان له فضل في الحركة العلمية والأدبية والإصلاحية المعاصرة في الموصل، كما أنه يُعدُّ آخر المفسرين المعاصرين في العراق ممن لهم تفسير كبير تام، جمع صفات الحداثة إلى العناية بالتراث.

ولذلك عقدت العزم وتوكَّلت على الله لدراسة تفسيره المسمَّى: «**أولى ما قيل في آيات التنزيل**» وبيان منهجه في رسالتي التي جعلتها في تمهيد وستة فصول.

تناولت في التمهيد حياة الشيخ رشيد، اسمه ونسبه، وولادته ونشأته، وثقافته وشيوخه، وأشهر تلامذته، وعقيدته ومذهبه، ومصنفاته التي أحصيتها باذلاً في ذلك الوسعَ، متابعاً إياها في مظانّها في الموصل، لدى أقاربه وتلاميذه، وفي المكتبات العامة والخاصة في المدينة، وجلّ كتبه مخطوط، وأنهيت التمهيد بالحديث عن أخلاقه ووفاته.

وتناولت في الفصل الأول (**مصادر تفسيره**)، بيّنت فيه أنه رجع إلى مصادر عدَّة متنوعة منها في التفسير على اختلاف مذاهب مصنفيها وعصورهم، ومنها كتب في معاني القرآن، وكتب في أحكام القرآن، وكتب في الحديث، وكتب في اللغة والنحو والبلاغة، فضلاً عن مصادرَ أخرى متفرقةٍ في أصول الفقه والعقائد والتاريخ والفلسفة.

وجعلت الفصل الثاني (**التفسير النقلي**) ثلاثة مباحث، أولها: تفسير القرآن بالقرآن، والثاني: تفسير القرآن بالسنة وما يتضمَّنه من آثار في أسباب النزول والناسخ والمنسوخ، والثالث: تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين، مع بيان موقفه من الإسرائيليات.

وبنيت الفصل الثالث (**التفسير العقلي**) على ثلاثة مباحث أيضاً، أولها: في مظاهر التفسير العقلي، وثانيها: تأثره بمدرسة محمد عبده، حيث ثبت لديّ أنه أحد أتباع هذه المدرسة، وثالثها: ما تفرّد به أو أغرب من تأويل.

وخصصت الفصل الرابع لموضوع (**القراءات**)، وجعلته على مبحثين: أحدهما: مقدمته في القراءات، وكان تحليلاً لما كتبه الشيخ في مقدمته عن القراءات والأحرف السبعة، والآخر: القراءات وتوجيهها، متناولاً ما أورده الشيخ في تفسيره من قراءات مشهورة وغير مشهورة من الآحاد والشواذ، مع توجيهه لها توجيهاً قائماً على أسس متنوعة: معنوية، ونحوية، وصرفية.

وجعلت الفصل الخامس في (اللغة والنَّحو والصَّرف) مفرداً لكلٍّ مادة من هذه المواد مبحثاً خاصاً بها.

أما الفصل السادس (البلاغة) فقد جعلته في مدخل عن موقف الشيخ من الإعجاز القرآني، وثلاثة مباحث موزعة على علومها الثلاثة المعروفة: المعاني والبيان والبديع.

وقد اعتمدت عدداً كبيراً من المصادر المتنوعة في هذه الدراسة، منها: كتب التفسير للطبريِّ، والزمخشريِّ، والطبرسيِّ، والرَّازيِّ، ومحمد عبده، ورشيد رضا، التي كان لها دور كبير في الكشف عن الوجوه المنقولة والمعقولة التي اعتمدها الشيخ في تفسيره كما كان لهذه التفاسير دور كبير في هدايتي إلى الآراء التي نقلها الشيخ أو ارتآها من تفاسير مفقودة، كتفسير أبي مسلم، والجبائي، والبلخي، والقفال.

وفي موضوع القراءات القرآنيَّة، أفدت من عدد من الكتب المتعلقة بهذا الموضوع منها، كتاب «السبعة» لابن مجاهد، و«الحُجَّة في القراءات وعللها»، و«المختصر في شواذِّ القرآن» لابن خالويه، و«المحتسَب في القراءات الشواذ» لابن جني، و«النشر» لابن الجزري وكان لكتابَيْ: «نكت الانتصار لنقل القرآن» للباقلاني، و«المرشد الوجيز» لأبي شامة المقدسي دور كبير في توضيح مسألة جمع القرآن والأحرف السبعة والقراءات القرآنية.

واعتمدت في اللغة والنحو والصرف عدداً من المصادر أهمها: «الكتاب» لسيبويه، و«ارتشاف الضَّـرَب» لأبي حيان الأندلسي، و«البيان في غريب إعراب القرآن» لابن الأنباري، و«مفردات ألفاظ القرآن» للراغب.

وفي البلاغة أفدتُ من كتابَيْ: «دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة» للجرجاني،

و«مفتاح العلوم» للسكاكي، و«الإيضاح» للقزويني، فضلاً عن عدد من كتب المُحْدَثين في عدد من الموضوعات التي سعى فيها البحث.

ولم ألق في بحثي هذا بفضل الله صعوبات تستحقُّ الذِّكر، سوى أن قرب العهد بوفاة الشيخ أملى عليّ أن أحصل على ما يتعلق به من أفواه من تلمذ له، أو أخذ عنه، أو كان من أقاربه، فكان لابد لي أن أسعى من أجل ذلك أسمع منهم وأسائلهم وأقرأ ما عندهم.

كما أنني لم أكن أعلم في البداية أن آثار الشيخ غير المطبوعة موزّعة بين حفيده المهندس أثيل عبد العزيز النُّجيفي، وتلميذه الشيخ إبراهيم النعمة، فعوّلت على ما وجدته عند حفيده، فافتقدت عدداً من المخطوطات التي كان الشيخ قد أشار إليها في أوراقه، وجهدت في البحث عنها، وكدت أفقد الأملَ بالعثور عليها، إلى أن أطلعني الشيخ إبراهيم النعمة على عدد من مصنَّفات الشيخ المخطوطة، التي اختصّه بها في حياته ممّا جعلني أعيد النظر فيها كتبت بناءً على ما استجدّ من آثار ومعلومات.

ولا بد لي أن أتقدَّم بالشكر الجزيل إلى كل مَنْ مدَّ لي يدَ المساعدة، وساهم في هذا العمل المتواضع، وأخصُّ بالذِّكر أستاذي وشيخي الشيخ ذنون البدراني الذي أفسح لي فرصة قراءة قسم من تفسير الشيخ رشيد عليه، ممَّا ذلّل لي الكثيرَ من الصعاب، وأوضح لي الكثيرَ من المسائل، كما أخصُّ بالشُّكر والتقدير الشيخ إبراهيم النعمة الذي فتح لي مكتبته، وغمرني بحسن خلقه، فكان لي خير عون ودليلاً على إتمام هذا البحث، وأتوجَّه بالشُّكر الجزيل للأستاذ أثيل عبد العزيز النُّجيفي المؤتمن على قسم كبير من إرث جده العلمي، الذي أطلعني على ما بحوزته من آثار الشيخ رشيد، فانتفعت به أيّما انتفاع. وأذكر بالثناء والتقدير العاملين في مكتبة كلية الآداب والمكتبة المركزية على تعاونهم معي وتيسير الأمر لي.

وأتوجّه بالشكر والتقدير إلى رئيس قسم اللغة العربية أستاذي الدكتور عبد الوهاب العدواني الذي لم يأل جهداً في نصحي وإرشادي ومساعدتي، وإلى أستاذي الدكتور جليل رشيد، الذي شملني بعطفه وإرشاده وجميل أخلاقه[١]، وإلى أستاذي الدكتور طارق عبد عون الجنابي الذي يجد سلوته وبهجته في مساعدة طلابه وإرشادهم.

أما أستاذي الدكتور كاصد ياسر الزَّيديُّ الذي تفضَّل بالإشراف على رسالتي، فإنني أجدني عاجزاً عن التعبير عمَّا يختلج في صدري له من حبّ وتقدير، لما بذله في رعاية هذه الرسالة وتوجيه صاحبها، وقراءتها مراراً، فصلاً فصلاً، وما أظنني قادراً على الوفاء بما له عليّ من يد، فاللهَ أسأل أن يجعل جهده هذا نوراً يسعى بين يديه في الدنيا والآخرة، وأن يجزيَه عنِّي خيرَ الجزاء، وأن يجعل هذا العمل مقبولاً لوجهه الكريم، عسى أن أكون وأستاذي، ومن كان له جهد في هذا البحث قد سددنا به ثغرة، أو أدّينا به أمانة لعالم جليل كريم في هذه المدينة الكريمة.

* * *

(١) وافته المنية عام ١٩٩٤ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، وللأمانة لابد لي أن أذكر أنه زارني في بيتي قبل وفاته بيوم واحد بصحبة أخ ليدله على البيت لأنه لم يكن قد زارني من قبل، وعند مغادرته عانقني بحرارة وطلب مني أن أسامحه فتعجبت أشدَّ العجب من صنيعه وما زال عجبي إلا عندما سمعت بعد عدة أيام أنه توفي في فجر اليوم التالي، وقد فعل هذا مع عدد كبير من إخوانه وزملائه وتلاميذه رحمة الله عليه.

تـمهيد

حياته

١) اسمه ونسبه وأسرته:

هو الشيخ رشيد الخطيب الموصلي، بن العلامة صالح الخطيب، بن الحاج طه [البزّاز] الطائي الخطيب بن الحاج [صالح بن الحاج][١] محمود بن الحاج مراد الطائي الحرثي نسباً وقبيلةً[٢]. فهو إذن من قبيلة طيِّئ العربية المعروفة. ويقال: إن أحد هؤلاء الأجداد جاء من سوريا[٣].

اكتسبت الأسرة لقب الخطيب من جدِّ الشيخ الحاج طه، الذي كان مشهوراً

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة مني، استفدتُهما ممَّا كتبه الأستاذ قُصَيّ حسين آل فرج، مدير المكتبة المركزية العامة بالموصل في مقالته: «صفحات من حياة الشيخ رشيد أفندي الخطيب»، ص٣٢ ضمن «ندوة الشيخ رشيد أفندي الخطيب ودورُه الإصلاحي في الموصل» (مجد).

(٢) مخطوط للشيخ رشيد يعرف به نفسه، ويعدد مؤلفاته، مؤلف من أربع صفحات وعليه توقيعه ص١، وهو محفوظ عند حفيده أثيل عبد العزيز النُّجيفي.

(٣) «رسالة في مواضيع مهمة» لرشيد الخطيب ص٦٦، مطبوعة عام ١٩٧٩، مطبعة الجمهورية، الموصل.

قلت: كان مجيء هذه العائلة الكريمة إلى الموصل بعدَ انتصارِ المواصلة بقيادة الحاج حسين باشا الجليلي في معركتهم سنة ١١٥٦هـ الموافق ١٧٤٣م المسمَّاة: «هجوم وحصار نادر شاه لمدينة الموصل».

بالخطابة والذي «كانت له لهجة خاصة في خطاباته ذات روعة وجلالة وتأثير عميق في النفس وهزة في القلب، تملك المشاعر وتعبث بالأرواح وتستولي على الأفئدة»[١].

وأما نسبته: الموصلي، الذي يحرص على إلحاقها باسمه[٢] في كل كتاباته ومؤلفاته فيبدو اعتزازاً منه ببلده، الذي لقّب به قبله غير واحد من أهل العلم.

وقد أثبت الشيخ رحمه الله اسمه في مؤلفاته وفي ترجمته لنفسه (رشيد الخطيب الموصلي) وهو الذي اخترته، على حين ورد في كتاب «تاريخ علماء الموصل»[٣]: محمد رشيد الخطيب، وفي إجازة العالمية التي نالها الشيخ من شيخه محمد الرضواني: رشيد الدين الخطيب. ويبدو أن تصديره باسم الرسول الأعظم ﷺ وإضافته إلى الدِّين، إنما أريد به التبرك والتفاؤل، كما جرت العادة في بيئاتنا، كقولهم: محمد صالح، ومحمد حسن، ومحمد علي...

ترجم الشيخ رشيد لجدِّه طه الخطيب، ولوالده صالح الخطيب فذكر عن جدِّه فضلاً عمَّا أوردته عنه آنفاً من براعته في الخطابة: «أنّه كان رجلاً مهيباً وقوراً، وشهماً أَنِفاً وغيوراً، ذا مكانة في قومه»[٤].

ولم يُشِر إلى مكانة هذا الجد العلميَّة، ولا إلى ماهيَّة ونوع الخطب التي كان يؤديها، كما لم أعثر على بيان لها لدى غيره، غير أنها على أية حال نالت ـ على ما يبدو ـ إعجاب

---

(١) مخطوط للشيخ رشيد ترجم فيه لنفسه، ولشيخه ولأبيه وجده، يقع في ١٠ صفحات، محفوظ عندَ حفيده أثيل عبد العزيز النُّجيفي ص٤.

(٢) لقب به نفسه في عنوان تفسيره وبقية مؤلفاته، وكان يحرص عليه كثيراً كما أعلمني بذلك أقاربه، ومنهم: ابن أخيه المحامي سامي الخطيب.

(٣) «تاريخ علماء الموصل» لأحمد محمد المختار ص٨٣.

(٤) رشيد الخطيب، ترجمة لنفسه ولشيخه وأبيه وجده ص٤.

معاصريه، حتى إنَّ الشيخ عثمان الموصلي كان يقلدها[١]. فإذا حملنا خطبه على العموم ولم نخصصها بالجُمَع وحدها، فيحتمل أنه لم يكن عالماً، ويُقوّي هذا الترجيح أن الشيخ صالح الخطيب والد الشيخ رشيد لم يدرس على والده طه الخطيب على عادة العلماء في كل عصر. وكثير من الخطباء في العصور المتأخرة لم يكونوا علماء. على أنَّ أحمد محمد المختار قد ترجم لطه الخطيب بين علماء الموصل[٢]. وليس فيما أورده ما يدلُّ على عالميّته، بل إن الشيخ رشيد لم يلقبه بلقب الشيخ ولا العالمية حين ذكره في سلسلة آبائه، بل اكتفى بلقب (الحاج) فضلاً عن عدم تلقيبه بلقب (الأفندي) الذي كان يلقب به علماء تلك الأيام.

أما والد الشيخ رشيد؛ فهو عالمٌ كبير، وقد وصفه حين ترجم له بأنه: «العالم النحرير والعلامة الجليل الشيخ صالح أفندي ابن الحاج طه الخطيب، درس العلوم على أوحد زمانه وفريد أوانه الشيخ عبد الله أفندي العمري[٣] الملقب برئيس العلماء في الموصل الحدباء... وأعطاه الإجازة العالِمِيَّة، وكان عمره إذ ذاك نيِّفاً وعشرين سنة»[٤].

وكان قد اتخذ لنفسه مدرسة[٥] في داره (الحوش الخارجي) ووضع في جدارها

(١) رشيد الخطيب، ترجمة لنفسه ولشيخه وأبيه وجده، ص٤.

(٢) «تاريخ علماء الموصل» لأحمد محمد المختار (١ : ٩٤).

(٣) عالم فاضل من علماء الموصل لقبه السلطان عبد الحميد (باشعالم). «رسالة في مواضيع مهمة»، ص٦٨.

(٤) «رسالة في مواضيع مهمة» لرشيد الخطيب، ص٦٨.

قلت: حصل على الإجازة سنة ١٢٦٧ وهو في العشرين من عمره، وقد أخطأ المختار في كتابه «تاريخ علماء الموصل» (١ : ٩١) حيث ذكرَ أنَّ إجازته للشيخ صالح كانت سنة ١٢٧٦هـ (مجد).

(٥) رجح الأستاذ قصي آل فرج مدير المكتبة المركزية العامة بالموصل في مقالته: «صفحات من حياة الشيخ رشيد أفندي الخطيب»، ص ٣٣ أن باني هذه المدرسة التي موقعها في منطقة الحويرة =

لوحة قُبالَةَ الباب من الرخام كتب عليها بيده هذه العبارة بالخط الجليّ: ـ محلٌّ للتدريس وللعلم عُمِّر ـ وهو تاريخ لبنائها، وكان ذلك سنة ألف ومئتين وثمان وتسعين[١]. وقد سكت الشيخ رشيد على الخلل اللغوي في هذه العبارة، ويبدو أنهم كانوا يستجيزون مثل ذلك، حين يقصد بالعبارة التاريخ بالحروف المعروف بـ(حساب الجُمّل) فلو قوّمنا تركيب العبارة لاختلف التاريخ.

وكان الشيخ صالح الخطيب قد اتخذ فيها مكتبة عامرة تحوي أنواعاً من الكتب في شتى العلوم مخطوطة ومطبوعة»[٢].

وقد أجاز عدداً من العلماء منهم: الشيخ محمد الرضواني[٣]، أستاذ الشيخ رشيد.. «ومن الكلام التاريخي للشيخ محمد الرضواني عن صاحب الترجمة قوله لولدَيْـه: سعد الدين الخطيب، ورشيد الخطيب، عندما أعطاهما الإجازة العالمية: (هذه بضاعتكما رُدَّت إليكما)، رامزاً إلى مكانة استفادته من هذا الشيخ الجليل»[٤].

= بباب الجديد هو الحاج صالح الأول بن الحاج محمود القادم من سوريا. وقد كتب على بابها: «عُمِّرَ للتدريس والإفاده»، وهي بحساب الجُمَّل: ١١٧٢ (مجد).

(١) المصدر نفسه ص٦٦-٦٧.

قلت: وهذا التاريخ يدلّ على أنَّ الشيخ محمد صالح الخطيب الثاني هو الذي خصَّص إحدى الغرف محلًّا للمدرسةِ ووضع فيها مكتبة عامرة، فيكون الشيخ المذكور هو المؤسس للمكتبة عام ١٢٩٨هـ الموافق عام ١٨٨٠م، أي: بعدَ حصولِه على الإجازة العلميَّة من شيخِه رئيس العلماء عبدِ الله العمريّ الموصليّ سنة ١٢٦٧(مجد).

(٢) «رسالة في مواضيع مهمة» لرشيد الخطيب ص٦٧.

(٣) أجاز الشيخُ محمد صالح تلميذَه محمدَ بن عثمان الرضواني عام ١٣٠٥، واختتم موافقتَه بكونِه سلفيَّ المعتقَد كما في نصِّ إجازتِه له. ينظر: «الإمداد» (٧: ١٢٨) للشيخ أكرم عبد الوهاب (مجد).

(٤) مخطوط للشيخ رشيد، تراجم مختلفة ص٦-٧. وينظر: بحث عبد الوهاب الكحلة: رشيد الخطيب مفسِّراً، «مجلة الرسالة الإسلامية» ص٨٨، عدد ١٦٤-١٦٥، ١٩٨٤.

وللشيخ صالح مؤلف في المعاملات الفقهية، جمع فيه كل شاردة مفيدة، على مثال المجلة الشرعيَّة سماه «الكشكول»، وله كتاب آخر سمّاه: «المجموعة» ضمَّ كثيراً من بنات أفكاره في حلِّ الألغاز والمشكلات.

وكانت وفاة الشيخ صالح الخطيب رحمه الله في سنة ١٣٠٦ للهجرة، الموافق لسنة ١٨٨٩ للميلاد[١].

٢) ولادته ونشأته:

في ذلك البيت الذي اتَّخذ الشيخ صالح الخطيب جانباً منه مدرسةً ومناراً للإفادة، وفي ذلك الكنف الصالح والبيئة المزدانة بحبِّ العلم والعلماء، ولد الشيخ رشيد الخطيب ليلة الجمعة آخر جمادى الأولى سنة ١٣٠٣ للهجرة، الموافقة لسنة ١٨٨٦ للميلاد من أبوين صالحين كريمين، فأبوه من قد عرفنا وهو الشيخ صالح، وأمه بنت الشيخ محمد نوري العمري[٢]، التي قال فيها الشيخ عبد الله النوري، بمناسبة زواجها، واصفاً إيّاها بأنها بنت شيخ العصر ومخاطباً زوجها:

أيّهـا الحَـبْرُ[٣] الـذي نـالَ العُـلا	إذْ غَدا في العلمِ بـين النـاسِ نـاجحْ
نِعْـمَ بِنتـاً قـد تزوّجْـتَ بهـا	مـا بِهـا نقـصٌ ولا تُرمَـى بِفـادِحْ

---

(١) ينظر: «فهرس مخطوطات أوقاف الموصل» (٦: ٢٥٣)، (٧: ٢١٥)، (٨: ٤١).
قلت: وُلدَ العالم النحرير محمدُ صالح الخطيب عام ١٢٤٧هـ الموافق ١٨٣٩م، وتوفي عام ١٣٠٦هـ عن ٥٩ عاماً رحمه الله تعالى (مجد).

(٢) العلامة المفسِّر الشيخ محمد نوري القادري الموصلي، الشهير بالنوري (١٢٣٨- ١٣٠٥) عن ٦٧ عاماً رحمه الله تعالى (مجد).

(٣) في الأصل: (يا أيها)، والصحيح ما أثبت، لأن البيت من الرمل، لا الكامل.

بنتُ شيخ العَصْرِ ذي التّقوى الذي فضلُه بين الورى كالشَّمسِ واضحْ
فهَنيئــاً لــك فيهــا ولْــتكُنْ أنت يا صـالحُ في ذَا العُـرسِ رابحْ
قــد دعــوتُ الله ربَّ العــرشِ أنْ لمْ تزَلْ في السَّعدِ طولَ العمرِ نـاجحْ
وبهــا لــمَّا بَنــى حظُّــكَ قــد أرِّخ: (البَاني بهذا العُـرسِ صـالِحْ)

وقد تُوفيت هذه المرأة الفاضلة سنة ١٣٥٨ للهجرة، فعزّاه أحد الأشراف ببيت المتنبي[١]:

ولَـو كـانَ النسـاءُ كَمَـنْ فَقـدْنا لَفُضِّـلتِ النسـاءُ عـلى الرِّجـالِ

قال الشيخ: أظنني قلت له:

وهل يُنْبتُ الخطـيُّ إلا وَشـيجَهُ وتُغرسُ إلا في منابِتِها النَّخْـلُ[٢]

إذن فقد هيَّأ الله لشيخنا كرم الغرْس وطيب المنْبت، وكانت نشأته صالحة برغم فقده والده ولمّا يتجاوز الثالثةَ من العمر، ولكن الغِراسَ الطيبةَ التي خلّفها أبوه في الأهل والبلد، كانت خير عوض وبديل له في ولده، ولنستمع إلى الشيخ يحدثنا عن ولادته ودراسته ونشأته، فيقول: «كانت ولادتي سنة ١٣٠٣هـ وبعد أن درست القرآن دخلت الكُتَّاب، فتعلَّمتُ الكتابةَ والقراءة، ثم قرأت مبادئ العلوم على بعض علماء الموصل، حتى إذا تذوقت طعم العلم، لازمتُ تدريس الأستاذ الشيخ محمد الرضواني[٣]، الذي يغني اسمُه عن وصفه، ولم أزل أدرس عليه العلوم المقرَّرة في المدارس الأهلية حتى أكملت المنهج المعروف للعالمية، وأخذت منه الإجازة العالمية، وكان ذلك سنة ١٣٢٩

(١) وهو في «شرح ديوانه» للواحدي ص١٩٨. (مجد).
(٢) «رسالة في مواضيع مهمة» لرشيد الخطيب ص٦٩.
(٣) سنأتي على التعريف به لاحقاً ت١٣٥٧ هجرية.

هجرية، فقد قرأت عليه العلوم العربية؛ النحوَ والصَّرْفَ والبلاغةَ، ثم قرأت عليه المنطق والكلام وأصولَ الفقه والحديث والفرائض»[١].

وكان تاريخ منح الإجازة في عدة مصادر سنة ١٣٣١ للهجرة، حيث جرى احتفال بمناسبة منحه وأخاه سعد الدين[٢] إيّاها، وهو عرف شائع إذ ذاك فيما يبدو، وفيها ألقى عثمان الموصلي[٣] قصيدة ختمها ببيت يؤرخ فيه الحفل سنة ١٣٣١ للهجرة هو:

نُعماكَ يا ذا الفضْلِ نـادَتْ أرِّخُـوا (حُزتَ المُنى بإجازة الأَخَوَينِ)[٤]

والتاريخ الثاني هو الأشهر حتى إنَّ الشيخ رشيد قد أرَّخ تاريخ حصوله على الإجازة في بعض أوراقه به فضلاً عن نصِّ الإجازة الذي بخط شيخه محمد الرضواني، ومن المحتمل أن يكون الشيخ رشيد قد أتمَّ مستلزمات الإجازة في ١٣٢٩ للهجرة، وأخَّر الاحتفال والمنح الرسمي لها مراعاةً لشعور أخيه الأكبر سعد الدين، ولا غَرْوَ، فقد كان في إقبال الشيخ رشيد على العلم واستعداده ما يقرب هذا الاحتمال، وهذا ما

---

(١) مخطوط للشيخ رشيد يعرف به نفسه ص١، محفوظ عند حفيده أثيل.

(٢) عالم فاضل عمل إماماً ومدرساً، توفي سنة ١٣٧٦هجرية، وهو يكبر أخاه الشيخ رشيد بثماني سنوات. ينظر: «فهرس مخطوطات أوقاف الموصل» (٨: ٤٥).

(٣) عالم فاضل وموسيقي بارع، كان وحيد عصره في التجويد (ت١٣٤١هـ). «تاريخ علماء الموصل» (١: ١٨). «فهرس مخطوطات أوقاف الموصل» (٧: ٣٠٧).

(٤) الشيخ إبراهيم النعمة، مقال عن رشيد الخطيب في مجلة إحياء التراث العربي الإسلامي، العدد ١٦، ص١٦٣. وينظر: عبد الوهاب الكحلة، الشيخ رشيد الخطيب الموصلي... مفسراً، بحث منشور في مجلة الرسالة الإسلامية ص٨٨، العددان ١٦٤ - ١٦٥، السنة السابعة عشرة كانون الأول - كانون الثاني ١٩٨٤.

أثبتته الأيام، إذ كان للشيخ رشيد دور أكبر من أخيه الشيخ سعد الدين في هذا المضمار، عليهما رحمة الله ورضوانه.

ومن طريفِ ما حصل في هذا الحفل الذي منح فيه الشيخ محمد الرضواني وَلَدَي شيخه الشيخ صالح الخطيب الإجازة العالمية أنَّ الشيخ عثمان الموصلي افتتح الحفل بتلاوة من القرآن فقرأ من سورة الكهف قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ...﴾ [الآية: ٨٢]، ووقف عند قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فكبَّر الناس متعجِّبين من روعة الموافقة بين حال هذين الشابين اليتيمين، وقد احتفظ شيخهما بكنـز أبيهما من العلم ورعاهما بعد موته وعلّمهما حتى أوصلهما إلى درجة العالمية، وأنّ أباهما كان اسمه صالحاً. وعندما تقدّم الشيخ ليمنحهما الإجازة قال لهما: «بضاعتكما رُدَّت إليكما».

٣) ثقافته وشيوخه وطائفة من تلاميذه:

أ) ثقافته وشيوخه:

كان الشيخ رشيد أثناء دراسته على الشيخ محمد الرضواني يختلف إلى الأستاذ أمجد (بك) العمري، فيدرس عليه شيئاً من مبادئ الحساب والجبر والهندسة والفلك. يقول: «فأخذت ما ينفعني في حياتي العالمية، وما لا بد منه لمثلي ممَّن يحاول التجدُّد والتَّجديد في هذا المسلك»[1].

---

(١) مخطوطة للشيخ رشيد يترجم فيها لنفسه ص١.

قلت: توفي العلامة الشيخ أمجد العمري سنة ١٩٥٣م، وتلقِّي الشيخ رشيد عن العمري وعنايته بعلم الفلك منذ مطلع شبابه جعله خبيراً بمواقع النجوم. وقد أصدر سنة ١٩١٥م بمشاركة شقيقه سعد الدين جدولاً دورياً للأوقات الشرعيَّة الخمسة للصلاة في الموصل، واحتوى الجدول على تنبيهات حول كيفية استخدامه، وطريقة استخراج سَمْت القبلة في الموصل. وقد =

وهذا المنهج الدراسي الذي انتهجه الشيخ، يدلُّ على روح تنزع منذ وقت مبكر إلى التجديد، وتتطلع إلى التغيير نحو ما هو أفضل، وعدم الرضا بأساليب ومناهج الدراسة القديمة. ويبدو أن لهذا أثراً بتعلُّقه وافتتانه بالكتابات الجديدة الوافدة من مصر، التي كانت سبَّاقة إلى الاتصال بالحضارة الغربية، بالإفادة منها، ويبدو من كلامه أنه عمد إلى تجديد ثقافته منذ بداية العشرينيات ـ حيث بداية الحكم الوطني ـ بألوان من الثقافة. ولذلك نراه يقول: «وبعد أن تشكَّلت الحكومة العربية العراقية، وردت علينا الكتب المصرية بسائر أنواعها، فاطَّلعتُ على ما لم أكن أعرفه من قبل، ولم يدر بخَلَدي وجودُ مثله من الكتب الجديدة المؤلفة في أنواع العلوم، ومن ضمنها الكتب التجديدية والانتقادية والاجتماعية وكتب الأدب، فهِمْتُ بها أشدّ هيام، وأخذت أبحث عن هذه الكتب التي كنت أراها غريبة في بابها، بأساليبها ومواضيعها وفوائدها وترتيبها، إذ لم نكن نعرف مثل ذلك من قبل. وكانت لذّتي بمطالعة الكتب لا يشابهها لذة»[1].

على أنَّ الشيخ كان واعياً في اختيار ما يقرأ، يتخيَّر منه ما يلائم عقيدته وقيمه، ويقول: «فإذا بلغني أن قد أتى كتاب جديد من نوع هذه الكتب، لا ألبث أن أتصفّحه كلَّه حتى آتي على آخره، وأعي ما فيه من الفوائد الجديدة المقتبسة من المدنية الجديدة ـ إن كانت تلائم البيئة والمبدأ والدِّين ـ وقد كثرت لدينا أمثالُ تلك الكتب في هذا العهد، أو من الكتب المحوَّرة عن الكتب القديمة التي أعرفها من قبل، ولكنها قد حُوِّرت إلى صورة تناسب العصر الحاضر والروح الجديدة»[2].

= خُصِّص ريعه إلى جمعية «المدافعة الإسلامية». ينظر: «الشيخ رشيد الخطيب: دراسة في طروحاته الإصلاحية» لذنون الطائي في ندوة: «الشيخ رشيد الخطيب ودوره الإصلاحي في الموصل». (مجد).

(١) مخطوط للشيخ رشيد يعرف فيها نفسه ص١.

(٢) المصدر نفسه ص٢.

غير أنه وجد بغيته بين هذه الكتب فيما أنتجته (مدرسة الإصلاح)، إذ التقت تطلعاته أهدافَهم ومراميهم، في الحفاظ على الموروث من علومنا، والإفادة مما أنتجته الحضارة الغربية الحديثة، بوعي لا عشوائية، والتوفيق بين هذا وذاك، فيقول: «وأكثر ما كنت أرغب فيه كتب علمـاء الإصلاح كالأستاذ جمال الدين الأفغاني على قلّـتها، والأستاذ الإمام محمد عبده، وما إلى ذلك من كتب علماء التجديد والإصلاح، حتى استفدت من ذلك علماً نافعاً، وعلواً في المدارك، ونظراً صحيحاً في الملاحظات العلمية والإصلاحية، أياً كانت والحمد لله على ذلك. ومما لا شكَّ فيه أن الانتباه ورقي المدارك إنما يكون بالمطالعات المتواصلة لمثل هذه الكتب القيمة»[١].

ثم يكشف الشيخ رشيد عن مصدر آخر مهم من مصادر ثراء ثقافته وتكوين شخصيِّته العلميَّـة، وهو مهنة التدريس فيقول: «ثم إني دخلت سلك التدريس في المدرسة الثانوية، وكنت أُدرِّس فيها الآداب العربية للصف المنتهي، قضيتُ في ذلك نيفاً وعشرين سنة، لم تكن سلوكي إلا رضاء التلاميذ عني ورغبتهم في درسي، لأنهم يستفيدون منه فائدة جلّى لا ينسونها لي بعد إنهائهم دور الدراسة ودخولهم معترك الحياة»[٢].

وبذلك يتبيَّن لنا أن ثقافة الشيخ رشيد ترد من الروافد الآتية:

١ـ بيئته الدينية ودراسته الأولية للقرآن الكريم والقراءة والكتابة في الكتّاب.

٢ـ تلقيه علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة، والعلوم الشرعية والعقلية.

وحين نتحدث عن شيوخ الخطيب نجد **الشيخ محمد الرضواني** في مقدمتهم،

---

(١) مخطوط للشيخ رشيد يعرف فيها نفسه ص٢.

(٢) المصدر نفسه ص٢. يشهد على ذلك تلميذه اللواء الركن محمود شيت خطاب (في مقابلة معه في ٢ رمضان ١٤١٢).

ذلك الفذ الذي ما يزال شذى فضله يعبق في جنبات الموصل، وما تزال ذكراه الطيِّبة تتردَّد في آفاقها، والرحمات تتنزَّل من أفواه أهلها.

لقد جمع هذا الرجل بين العلم والتجارة، فعلَّم الناس كيف تخضع الدنيا للآخرة، وكيف تكون السماحة في البيع والشراء، وكان عطوفاً على الفقراء والمعوزين واليتامى. وكم شوهد تحت أستار الخفاء وأجنحة الظلام، يتحرّى البيوتات المعوزة، والأسر المحوجة ويواسي الذين ألـمَّت بهم النوائب[١].

ولد هذا الشيخ الجليل عام ١٢٦٩ للهجرة في مدينة الموصل ودرس العلوم المنقولة والمعقولة على الشيخ صالح الخطيب، وأخذ عنه إجازة العالِمِيَّة، ومن ثَمّ ذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وفي أثناء طريقه إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة، أخذ إجازاتٍ أخرى في بعض الأدعية والأذكار، وبعد عودته وسَّع مسجد عائلته الرضوانية، واشترى دُوراً ملاصقة لهذا المسجد، وبنى فيه مدرسة دينية، جعل فيها مكتبة.

ثم انصرف إلى التدريس فيها، فتخرج عليه عدد كبير من علماء الموصل وأفاضلهم كالحاج عبد الله النعمة، وعثمان الديوه جي، والحاج عبد الله الحسو، وفائق الدبوني، ورشيد علي النعيمي، ورشيد الخطيب، وسعد الدين الخطيب وآخرين غيرهم[٢].

توفي الشيخ محمد الرضواني في ٧/ ٥/ ١٣٥٨ للهجرة الموافق لـ ٦/ ٧/ ١٩٣٨ للميلاد، وكان يوم وفاته عبوساً اهتزَّت له الموصل حزناً وألماً على هذا الرجل الطيب[٣].

---

(١) «تاريخ علماء الموصل» لأحمد محمد المختار ص١٤.

(٢) «تاريخ علماء الموصل» ص١٢ - ١٣، ويراجع المصدر نفسه لمعرفة تلاميذ الشيخ محمد الرضواني. وينظر: «فهرس مخطوطات أوقاف الموصل» (٨: ٤٣).

(٣) المصدر نفسه (١: ١٤).

قلت: ومن أبرزِ شيوخه أيضاً: الشيخ عبد الغفور بن حسن الحبار النعيمي، والد الشيخ عبد الغني المتوفى سنة ١٣٢٧هـ الموافق ١٩٠٩م. (مجد).

٣ـ تلقيه شيئاً من مبادئ الحساب والجبر والهندسة والفلك، وقد اطلعت على كراساته التي دوَّن فيها هذه المواد، ثم ألف بعد ذلك في بعضها، إذ سمعت من طلبته أنَّ له رسالةً في الفلك متداولة بينهم. وقد أفادته هذه الدراسة في مسلكه في التجدد والتجديد، كما يقول، ووسَّعت آفاقَ تفكيره ومداركه، وأعانته على استيعاب ما في الكتب الجديدة الآتية من الديار المصرية، من جديد المعرفة، وخاصَّة تلك التي تتَّسم بروح الإصلاح الاجتماعي وهي التي كونت أهم روافد ثقافته.

٤ـ القراءة المتواصلة وحب الاطلاع على كل جديد. ومنشأ ذلك حبُّ العلم والتحصيل الكامن في نفسه، الذي حدا به إلى أن يتفرغ للعلم وينصرف عن الدنيا.

أما نزوعه نحو التجديد في أساليب التعليم فيرجع إلى شعوره بأنَّ تعاليم الإسلام قد بدا عليها شيء من الجمود والتقليد، بسبب الفهم الخاطئ لها، ممَّا جعل المسلمين ينحدرون نحو التخلُّف على حين ترفَّل[١] الكثير من الأمم بالمدنية والرقيّ العلمي والاجتماعي والسياسي.

٥ـ ومن روافد ثقافته: تجارب التدريس، سواء ما تعلق منها بالعلوم الشرعية والعربية لتلاميذه من طلاب العلوم الدينية، أم ما تعلق بالأدب العربي وطلبة الإعدادية فضلاً عن اختياره لوظيفة التفتيش في وزارة (المعارف) سنة ١٣٤٠ للهجرة.

٦ـ ومن روافد ثقافته المهمة: عمله في عضوية المجلس العلمي لدائرة الأوقاف في الموصل. وقد شهد له رئيس هذا المجلس الشيخ يوسف الرمضاني[٢] بالألمعيّة والذكاء والتقدم على بقية الأعضاء في ذلك المجلس.

---

(١) الترفُّل: التسوُّد والترؤّس. «لسان العرب» (رفل). (مجد).

(٢) عالم فاضل وشخصية مرموقة من أسرة الرمضاني المعروفة بالعلم، توفي سنة ١٣٣٤ للهجرة.

ويبدو من كلام بعض معاصـريه أنَّ للشيخ رشيد نظرات اجتهادية في الفقه الإسلامي[١].

ويقول عنه أحمد محمد المختار وذلك قبل وفاته: «كان وما يزال في علوم العربية فارسَ الميدان... وإماماً على المذاهب الأربعة في الفقه... ولكثرة توغُّله وسعة اطِّلاعه في علم الحديث متناً وسنداً وأصولاً لا تمرّ به مسألة من مسائل الدين، على تنوّع أبواب الفقه والعقائد والاجتماع إلا وجد لها دليلاً قائماً من هدي الرسول الكريم»[٢].

وهذا الكلام يُشعِر بأن الشيخ كأنما كان يميل إلى الاجتهاد في مسائل من الشرع، باستنباطها من أدلتها الأصلية.

هذه هي روافد ثقافة الشيخ رشيد: نشأة صالحة، وإقبال على العلم مبكر، وشيوخ مرموقون، وعقلية نيِّرة متـفتِّحة، ومداومة على البحث والتنقيـر في كل ما هو مفيد وجديد.

هذه الميزات، مع قدر كبير من الإخلاص والتحمس، كوَّنت شخصية الشيخ رشيد، الذي خلّد تفسيراً للقرآن المجيد، وعدداً كبيراً من المصنفات في العلوم الشرعية وغيرها.

ب) أشهر تلاميذه:

للشيخ رشيد تلاميذ كثيرون، فقد أمضى عمراً مديداً قارب المائة في تحصيل العلم ونشره، وهو لا يجد سلوته إلا في العلم والتعليم، ونشر العلوم المختلفة بين المسلمين، لأنها ـ كما أدرك ذلك ـ السبيلُ إلى الإيمان الصحيح والحياة الكريمة، وسأكتفي بذكر

---

(١) عن تلميذه ذنون البدراني.

(٢) «تاريخ علماء الموصل» (١: ٨٥).

أشهر هؤلاء التلاميذ، وخاصة من طالت صحبته وتلمذته له، دون من أخذ منه النزر اليسير.

١ـ **الشيخ إبراهيم النعمة**: ولد بالموصل عام ١٩٤٢[١] وهو من أسرة (آل النعمة) المعروفة بالعلم والفضل، أخذ عن عدد من العلماء الأفاضل، كالشيخ علي الشمالي الضرير في جامع الخضر وجامع عبدال، ثم درس على الشيخ رشيد الخطيب لمدة خمس سنوات حصل فيها على إجازة العالمية، إذ كان موضعَ إعجاب وتقدير الشيخ رشيد له. كما تلمذ للشيخ بشير الصَّقَّال[٢] المتوفّى سنة ١٩٨٦م[٣]، فضلاً عن دراسته في المدارس الرسميّة الحكوميّة، حتى أنهى الدراسة الإعدادية في سنة ١٩٦٤م، ثم دخل في كلية الإمام الأعظم تخرج فيها عام ١٩٧٣، بعد أربع سنوات[٤] من الدراسة، ثم تصدَّر للتدريس والخطابة في مساجد الموصل.

وله مؤلفات في العقائد والعبادات، وعلوم القرآن، والحديث، والفقه وهي مطبوعة ومتداولة، ومنها ما أعيد طبعه مراراً.

---

(١) الموافق سنة ١٣٦١ للهجرة، وشغل منصب رئيس جمعية الشبّان المسلمين، في الموصل، وإمام وخطيب مسجد الحاج ذياب العراقي في حي التحرير بالموصل، تعرّض في ٣٠ حزيران ٢٠٠٦م في مكتبة بالمسجد لعملية اغتيال ونجا منها سالماً. حفظه الله ورعاه (مجد).

(٢) عالم من علماء الموصل المشهورين، أجازه الشيخ عبد الله النعمة، وخطيب ناجح، ومجاهد باللسان، وشاعر مجيد، توفي سنة ١٩٨٦. (العلامة بشير الصقال، اليقظة الإسلامية، جمعه وقدم له وقام بنشره: إبراهيم النعمة ص٨، ٢٨، مطبعة الزهراء ١٩٨٨).

(٣) وأجازه أيضاً الشيخ محمد إلياس العدواني المولود سنة ١٣٤٠ والمعروف بعلمه وفضله وأدبه وشعره ومؤلفاته. ينظر: «تاريخ علماء الموصل» (١: ٩٠).

(٤) هذه المعلومات أخذت منه مباشرة في لقاء معه يوم الخميس ٨: ذي الحجة: ١٤١١.

ومِن وفائه لشيخه الخطيب: تحقيقُه رسالة في أصول الفقه، كان الشيخ رشيد قد أعطاه إيَّـاها في حياته مع مجموعة من مصنَّفاته المخطوطة. وقد لاقت هذه الرسالة استحساناً كبيراً، وطبعت عدة مرات وخاصة في السعودية[١].

٢ـ **الشيخ ذنون بن يوسف البدراني**: عالمٌ فاضلٌ، ولد سنة ١٣٥٣هـ في الموصل، قرأ على عدد من العلماء منهم الشيخ علي الشمالي، وبشير الصَّقَّال، ورشيد الخطيب. وقد قرأ على الأخير تفسيره مرتين، فأجازه، وأعطاه إجازة العالِمية.

وكان الشيخ رشيد راضياً عن اتجاهه في التفسير، وقد توقع له النبوغ والتفوق في هذا الميدان[٢]. وكان يلقي دروسه في التفسير والفقه وغيرهما في جامع الخلفاء الراشدين، المعروف بجامع سوق الحنطة، إلى أن توفي رحمه الله حوالي عام ١٩٩٥[٣].

٣ـ **إسماعيل مصطفى الكتبي**: ولد سنة ١٩٠٢، كان قد درس الفقه الحنفي وعلوم العربية على الشيخ أحمد الجوادي[٤]، ولم يتمكن من المتابعة لخلاف نشأ بينه وبين تلاميذ الشيخ بسبب اعتناقه لمذهب السلف، فأجّل دراسته إلى أن التقى بالشيخ رشيد الخطيب الذي وجد عنده بُغْيته فدرس عليه تفسيره مرتين، درس عليه علوم البلاغة والمنطق والفقه على المذاهب الأربعة، وأصول الفقه والفرائض وشيئاً من علم

---

(١) ينظر: «فهرس مخطوطات الموصل» (٩: ١٩).

(٢) نقلاً عن الشيخ إبراهيم النعمة.

(٣) توفي عام ١٩٩٨م رحمه الله تعالى. (مجد).

(٤) ولد سنة ١٢٨٣هـ، قرأ على الشيخ صالح طه الخطيب، ومحمد الرضواني، وأجازه والده عبد الوهاب الجوادي سنة ١٣٢٣هـ. حصل على إجازة في القراءات السبع من الشيخ يحيى لؤلؤة، درّس اللغة العربية والدين في الإعدادية ودار المعلمين، كان يتقن الفارسية والتركية، توفي سنة ١٣٧٧هـ.

الفلك، ثم أخذ عنه إجازة العالمية بتاريخ ٢٨/ صفر/ ١٣٧٧هـ[١]، توفي رحمه الله سنة ١٩٦٦م.

٤ـ **صالح عارف البامرني**[٢]: درس العلوم العربية والشرعية في شمال العراق، وفي بداية الستينيات هاجر مع أسرته إلى الموصل تفادياً لأحداث الشمال، فالتحق بدروس الشيخ رشيد الخطيب وحصل منه على إجازة العالمية.

كان مولعاً باللغة العربية يحفظ كثيراً من القصائد الرائعة. وكان شديد الحرص على التكلم بالفصحى، حتى إنه ـ مع طول مكثه في الموصل ـ لم يتقن اللهجة الموصليّة، وكان مشهوراً بالدعابة والفكاهة.

عمل إماماً وخطيباً في جامع الملاح[٣]، ثم تقاعد عن وظيفته، وعاش فقيراً عفيفاً ومات ولم يترك لأولاده بيتاً يسكنونه، وكانت وفاته ١٩٨٨[٤].

٥ـ **شمس الدين عبد العزيز سيد حاتم**: ولد سنة ١٩٣١ درس القرآن وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والخط وهو ابن خمس سنوات، ونال الشهادة الابتدائية سنة ١٩٤٤، وأراد الذهاب إلى الأزهر الشريف للتعلُّم على نفقته فلم يوفَّق لذلك، فلجأ إلى علماء بلدته يستقي العلم منهم، فدرس على كثير منهم، ثم استقرَّ به الدرس عند الشيخ رشيد الخطيب.

---

(١) «تاريخ علماء الموصل» أحمد محمد المختار (٢: ٧٨).

(٢) ولد سنة ١٣٣٢هـ الموافق ١٩١٤م في قرية (بامرني) التابعة لمحافظة دهوك. (مجد).

(٣) الكائن في منطقة الغزلاني بين شارع المعسكر وشارع الطيران.

(٤) استقيت طرفاً من هذه المعلومات من الشيخ ذنون البدراني وطرفاً من معرفتي به خلال السنوات ١٩٨٣-١٩٨٦م، فقد كان يزورني في محل عملي في محلة باب الجديد مكان سكناه.

تولى الإمامة والخطابة في عدَّة مساجد، وله عدد من المؤلفات والكتابات الأدبية[١].

وهو الآن متقاعد عن الوظيفة، ويعمل في تجارة الكتب في شارع النجفي في الموصل، ويشهد لشيخه بعلوِّ الهمَّة والمقام، وبجهوده الطيبة في اقتلاع المفاهيم الخاطئة عند المسلمين، كالتواكل وغيره[٢].

٦ـ **يونس شيت ميرزا**: ولد عام ١٩٣٧، بدأ دراسته على الشيخ عبد الله الأربلي[٣]، الذي حفظ القرآن على يديه وعلى الشيخ نعمان حسين[٤]، ثم تابع علمه في الأزهر الشريف ودرس على الشيخ رشيد الخطيب بصورة متقطعة، ما مجموعهُ نحو سنتين فأخذ عنه التفسير والبلاغة، وذلك أثناء دراسته في الأزهر، ولم يجزه الشيخ.

تقلب بين عدة مساجد إماماً وخطيباً. وهو الآن في جامع القادسية الذي في حي القادسية في الموصل.

٧ـ **الشيخ ذنون يونس الغزال**: ولد عام ١٩٣٤، وبعد أن أنهى دراسته في الابتدائية الخزرجية في الموصل التحق بالمدرسة الفيصلية الدينيّة، وبعد أن تخرج فيها عُيِّن إماماً وخطيباً في جامع العرافجة[٥]، ثم انتقل إلى جامع جمشيد[٦]، ثم إلى الجامع الكبير المسمَّى جامع النوري، وكان بعد تخرُّجه من المدرسة الفيصلية يختلف إلى عدد من العلماء،

---

(١) «تاريخ علماء الموصل» لأحمد محمد المختار (٢: ٦٣).

(٢) في مقابلة معه بتاريخ ٥/ ١/ ١٩٩١م.

(٣) عالم فاضل من علماء الموصل، توفي سنة ١٩٨٧م.

(٤) عالم من علماء الموصل، كان إماماً وخطيباً لجامع (الحبيطي) ومدرساً في مدرسة يحيى باشا، وهو الآن متقاعد، وكان من أوائل الذين درسوا عند الشيخ رشيد الخطيب إلا أنه لم يجزه.

(٥) نسبة إلى عرفج بن هرشمة البارقي الذي فتح الموصل مع ربعي بن عامر رضي الله عنهما.

(٦) نسبة إلى (جمشيد)، وهو أحد ولاة الأتراك في الموصل.

فدرس على الشيخ عثمان الجبوري في جامع مريم خاتون، ثم في مدرسة النبي شيت، وانتقل عام ١٩٦١ إلى الشيخ رشيد ليلازمه بضع سنين، فيدرس عليه العلوم الشرعية والعربية كافة في بيته.

وكان شديد الملازمة له، ثم سافر إلى مصر عام ١٩٦٦ للدراسة في الأزهر ولم ينقطع عن شيخه، إذ كان يلازمه أثناء الإجازات.

وفي عام ١٩٦٨ منحه الإجازة العالِية، كما حصل بعد ذلك على إجازة الليسانس من الأزهر؛ كليةِ أصول الدين، بدرجة جيد جداً. ثم أقعد عن الوظيفة عام ١٩٨٩ بعد خدمة بلغت خمسة وثلاثين عاماً.

وهو الآن إمام وخطيب في جامع ١٧ تموز في الموصل(١). وكان برغم كف بصره دؤوباً على العلم، وكان الدكتور كاصد الزيدي يشهد له بذلك حين التقاه في مصر سنة ١٩٦٧ أثناء الدراسة العليا.

٤) عقيدته ومذهبه:

يعدُّ الشيخ رشيد الخطيب عَلَماً من أعلام أهل السنة في الموصل خاصَّة والعراق عامَّة، كما كان رحمه الله إماماً من أئمة المذهب الشافعي، إلا أنه لم يكن مع ذلك متعصِّباً في اختياره الفقهي، وإنما كان يصدر عن وعي وسَعَة أفق، فكان حرَّ التفكير واسع المدارك، نزَّاعاً إلى المنبع الصافي؛ القرآن الكريم، والرافد الضافي؛ السنة المطهرة.

ولم يكن ينظر إلى بقية المدارس الإسلامية إلا بميزان الشرع والعقل، فإن وجد رأياً سديداً سارع إلى الأخذ به والإفادة منه. شعاره في ذلك: الحكمة ضالّة المؤمن أينما وجدها فهو أحقُّ بها.

---

(١) أخذت هذه المعلومات من الشيخ ذنون يونس الغزال مباشرة في مقابلة أجريتها معه في أيار عام ١٩٩١م.

وكان رحمه الله يذمُّ التقليد والمقلِّدين، ويحثُّ على القراءة والبحث والمناظرة، فقد قرأ في علم العقائد لمعظم المدارس الإسلامية، وأفاد من آرائهم وردَّ على فريق منهم مستخلصاً من ذلك رأياً يطمئن إليه بعد الاستضاءة بالكتاب والسنة.

فهو في موضوع (**الصفات الإلهيّة**) يستعرض آراء المعتزلة والأشعرية، ثم يقول رأيه بجرأة، معتمداً في ذلك على حقائق المنطق، ودلائل العقل[١]: «كل ما انتهت إليه مدارك أهل الكلام في الصفات وتقرير حقائقها وتكشيف كنهها، لم يكن بشيء أبداً، ولا تطمئن القلوبُ إلى شيء منها، ولا يضمن المرء السلامة إلا بالوقوف عند نصوص كتاب الله العظيم، وسنّة رسوله الكريم، فمحال على العقول أن تعرف كنه صفاته، كما يمتنع عليها أن تعرف حقيقة ذاته، لأن معرفة كنه الصفات موقوفة على معرفة حقيقة الذات، والمتوقف على الممتنع ممتنع، لأن العلم عن المغيَّبات لا يتـأتَّى إلا من طريق الاستنباط والمقايسات، ولما كان سبحانه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١] امتنع عن العقول معرفةُ ذاته وصفاته معرفة كنه وتشخيص، وسهل عليها معرفته سبحانه بآثار مخلوقاته...». وهذا كلام يبلغ الدقة في التقرير، ويتّسم بالوعي التام، لحقيقة معرفة الباري عزَّ وجلَّ.

وفي موضوع (**خلق الأفعال**) يخرج بنظرة جديدة يذهب إلى ما قالته المعتزلة قديماً من أن الكسب وحرية الاختيار مناط التكليف، ويتجنَّب ما خشي الأشعريةُ والماتريديةُ الوقوعَ فيه، وهو معاكسة الإرادة الإلهية[٢].

---

(١) «رسالة في العقائد» لرشيد الخطيب ص٨.

(٢) الفعل عند الأشعرية: إبداع وإحداث لله وكسب للعبد، والكسب عبارة عن الاقتران العادي بين القدرة الإنسانية الحادثـة والفعل، فالله قد أجرى العادة بخلق الفعل عند قـدرة العبد =

فالإنسان خليفة الله في الأرض(١)، مُنح العقلَ والاختيار وهدي بهدايتين: الفطرة والرسالات، فقامت الحجَّة البالغة لله على البشر. وكل ما يفعله البشر إنما يفعلونه بمحض اختيارهم، وعلى ذلك سيحاسبون. وهذا لا يعني أنهم يعاكسون إرادة الله تعالى، أو أن شيئاً يجري في الكون من غير إرادته سبحانه، فهو الذي خلقهم بهذه الطبيعة، وهو الذي شاء لهم ذلك، فكلٌّ ما يفعله البشر باختيارهم ضمن إرادته سبحانه طالما هو الذي شاء لهم هذه السنة(٢).

لقد استطاع الشيخ رشيد بحذقه وذكائه، أن يجد لطائفة من الآيات التي يفهم من ظاهرها خلاف ما ذهب إليه تأويلاً مناسباً مفهوماً. ففي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣] وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] يقول: «هذا الإضلال إنما يكون بحسب السنَّة العامة، وليس معناه القسْر والإجبار، أو أن يجعله الله كذلك مختوماً على قلبه. كلا، بل معناه أنه سبحانه لما جعل الإنسان مختاراً في تصرُّفاته جعله يتأثر بالتربية والتقليد، فنشأته تكون عاملاً فعّالاً في هدايته أو ضلاله.

فإذا نشأ على تربية سيئة ومحيط فاسد كان ضالاً فاسداً، ومن طبيعته إذا نشأ على شيء وانطبع عليه لا يمكن تحويله عنه ولا تجريده إياه، حتى إنه لا يلتفت إلى ما يعارضه من عقيدة وأعمال، إذ لا يرى غير ما هو عليه جديراً بالنظر والاعتبار»(٣).

= وإرادته لا بقدرة العبد وإرادته. د. عرفان عبد الحميد، «دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية» ص٢٧٩.

(١) في إطلاق هذا الوصف على الإنسان نظر كبير. وتنظر رسالة شيخنا العلامة عبد الرحمن الميداني: «لا يصح أن يُقال: الإنسان خليفة عن الله في الأرض». (مجد).

(٢) «رسالة في العقائد» لرشيد الخطيب ص١٨.

(٣) المصدر نفسه ص٢٠.

ثم يتحدث عن نسبة الإضلال إلى الله سبحانه في نصوص الكتاب المبين بقوله: «إن الأحوال الناشئة من السنّة العامة الطبيعية تسند تارة إلى الله سبحانه، وتسند تارة للفاعل المباشر.

فخذ مثلاً البستاني يهمل الشجرة ويعطشها فتيبس، فتقول: أيبس الله الشجرة، وهو إسناد صحيح لأنَّ الله سبحانه قد جعل السنة الكونيَّة أن تَيْبس الشجرة إذا عطشت.

وتقول: إذا أيبس الله الشجرة فلا يقدر أحد على إعادتها.

وتقول: أيبس الله الشجرة بعمل البستاني وإهماله، وكل ذلك صحيح.

فعلى الأول: يأتي مثل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، فقد نسب الضلال للإنسان نفسه.

وعلى الثاني يأتي مثل قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] فنسب الإضلال إلى الله.

وعلى الثالث يأتي مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

وعلى الرابع يأتي مثل قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] وهكذا فكفر الكافر وضلال الضال ليس فيه قسْر للإرادة الربانيَّة.. لأنه ناشئ عن سنة كونيَّة من سنن الله تعالى»[1].

وهذا لا شك محاولة جادَّة من لدن الشيخ للبعد عَن أيِّ تأويل للآي يفضي إلى

---

(١) «رسالة في العقائد» لرشيد الخطيب ص٢١.

الجبر، أو تشمّ منه رائحته. إلا أن ذلك لا يعني أنه خارج عن معتقد أهل السنة، فقد أُثر عنه عبارة كان يرددها دائماً وهي: «الحمد لله الذي خلقنا مسلمين، ومن أهل السنة والجماعة»[١].

كما أنَّ في رسالته المخطوطة «فرائد القلائد»[٢]، عنون في الفهرس لأحد فصولها: «أهل السنة والجماعة والعقيدة الحقَّة». فهو إذن يرى معتقد أهل السنة والجماعة من غير أن ينال من عقائد غيرهم من المسلمين، أو ينتقص منهم، بل كان حريصاً دائماً على الإفادة من المعتزلة[٣]، خاصّة للوصول إلى ما يريح عقله وضميره. ومعلوم أنّ المعتزلة ـ برغم خصومة كثير من القدامى لهم ـ كانوا من حُماة الإسلام، ومن المدافعين عن فكره، ولهم جهود طيبة في تفسير كتابه وانبثاق وتطور كثير من علومه، كعلم التفسير والكلام والبلاغة...

وأما عن انتمائه الفقهي فهو مع كونه شافعياً، كان عَلَماً بالمذاهب الأربعة، مُجازاً بالمذهب الشافعي والحنفي، فكان بعيداً عن التعصُّب حريصاً على الإفادة من جميع المذاهب.

وبفضل هذه النظرة السمحة والعقلية الواسعة النيِّرة، التفّ حوله أنصار (السلفية) ـ كما يسمون أنفسهم ـ أمثال تلميذه إسماعيل مصطفى الكتبي، وأنصار المذهبية أو (أتباع المذهب الواحد) أيضاً[٤].

---

(١) نقلاً عن أحد تلامذته ذنون البدراني.

(٢) سيأتي التعريف بها ضمن مؤلفاته.

(٣) ينظر: الشيخ رشيد الخطيب الموصلي، بقلم: إبراهيم النعمة، مقال منشور في مجلة إحياء التراث الإسلامي ص١٦٥، العدد ١٦، السنة الرابعة، أيار ١٩٨٤.

(٤) «تاريخ علماء الموصل» لأحمد محمد المختار (١ : ٨٥).

ومع ذلك، فهو لم يُصرِّح بتأييده لأنصار اللامذهبيَّة أو (السلفية) كما لم يزعم لنفسه بلوغ درجة الاجتهاد فيأخذ من أي مذهب شاء. بل وَرَد عنه تمسكه بعدد من المسائل الفقهية على المذهب الشافعي، برغم ميله إلى صحَّة الحنفية فيها، ومنها على سبيل المثل: التزامه برأي الشافعي في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣] مع قناعته بأحقيَّة رأي الحنفي فيها[١]! وقد يكون هذا منه احتياطاً وورعاً.

وقد أخبرني أحد تلاميذه[٢] أنه كان متساهلاً في الأخذ من المذاهب، وهذا ما كان عليه الإمام محمد عبده، وما عليه الآن تلميذه الشيخ ذنون البدراني..

٥) آثاره:

ترك الشيخ رشيد عدداً من المؤلفات المتنوَّعة المادة والموضوع في التفسير والحديث واللغة والأدب والفقه والكلام، وفي هذا دلالة واضحة على ثقافته الواسعة، كانت الزادَ اللازم الذي مكّنه من العمل على تفسير القرآن.

ومعظم هذه المؤلفات ما يزال مخطوطاً، كان الشيخ قد كتبه بخط يده، حفظ القسم الأكبر منه عند حفيده الأستاذ أثيل عبد العزيز النُّجيفي[٣]، وحفظ ما تبقى من هذه المؤلفات لدى تلميذه إبراهيم النعمة.

---

(١) رأي الحنفية أن الآية كناية عن الجماع، على حين يرى الشافعي أنها مقصودة بعينها، وبذلك فلمس الزوجة والأجنبيات ناقض للوضوء عنده.

(٢) وهو الشيخ ذنون البدراني، تلميذه.

(٣) من مواليد عام ١٩٥٨م، حصل على بكالوريوس الهندسة عام ١٩٧٩م، يشرف الآن على مزرعة لتربية الخيول، كانت له تلمذة متواضعة على جدِّه الشيخ وخاصّة في سنواته الأخيرة؛ إذ أقام في بيته، وقد ترك الشيخ في عهدته معظم مخطوطاته.

وقد عثرت بين هذه المخطوطات على أربع صفحات بخط الشيخ رشيد يعرّف فيها بنفسه ويثبت فهرساً بأسماء مؤلفاته يعود تاريخها إلى ١/١/١٩٤١، ولم أكتف بهذا الفهرس في معرفة مؤلفاته، بل أحصيت كتبه المخطوطة مع التأكد من وجودها والتعرف عليها، وذلك لأن تاريخ الفهرس الذي تركه الشيخ ـ كما بينت ـ قديم، وفي هذه السنين الطويلة يقوى احتمال زيادة هذه الكتب أو نقصانها، تبيّن لي وجود هذه الكتب كاملة مع زيادة عدد آخر لم يرد في ثبت مؤلفاته.

وسأحصي هذه الكتب موزّعة حسب موادّها، ومرتبة في كل مادة حسب حروف الهجاء، مشيراً بإيجاز إلى موضوعاتها وعدد صفحاتها ومكان طبعها وسنته إن كانت مطبوعة، ومكان حفظها بِرَمْزَيْ (أثيل) أو (إبراهيم) إن كانت مخطوطة.

(أ) في التفسير:

١ـ تفسير القرآن الكريم المسمَّى «أولى ما قيل في آيات التنزيل»[١].

وهو أهم وأوسع مؤلفاته، ومحطُّ فخره واعتزازه، وموطن عنايته، قرأه عليه غيرُ واحد من تلامذته مرَّة أو مرتين، وكان قد كتبه أوّلاً غير متواصل الآيات، ثم كتبه متواصلاً كاملاً، ثم راجعه للمرة الرابعة معتنياً في تنقيحه وتهذيبه، وأدخل عليه كثيراً من الإصلاح. ثم شرع به للمرة الخامسة في ٢٩/ أيار/ ١٩٤٤م، وأكمله في ٢١/ آذار/ ١٩٤٦م، وعلى هذه النسخة المُعوَّل[٢]. وقد تم طبعها سنة ١٩٧١م في مطبعة جامعة الموصل.

---

(١) يوحي هذا العنوان إلى أن ما جاء به الشيخ من تفسير هو «أولى ما قيل» (وهذا لا يسلَّم لا للشيخ ولا لغيره، وما أظنُّ الشيخ أراد ذلك وإنما هو الاجتهاد وحسب.

(٢) «مقدمة التفسير» لرشيد الخطيب ص٨.

والتفسير في تسعة أجزاء، ومقدمة سابغة فريدة طبعت مستقلَّة، تكلم فيها على خصائص القرآن وأساليبه وتراكيبه، كما أوضح فيها كثيراً من المسائل المهمة في كتاب الله، زيادةً عما في هذه المقدمة من شرح وافٍ لمنهجه في تفسيره، وقد اعتمد عليها حين شرع بتفسير الآي، فكان يحيل عليها عند تفسيره لكثير من الآيات مكتفياً بتلك الإحالات.

تبلغ صفحات التفسير مع المقدِّمة (٢٤٣٣) صفحة من القطع المتوسط[١]، ولم يكن الشيخ راضياً عن تلك الطبعة تمام الرضا، برغم حرصه على خروجها للناس بأفضل صورة، إذ قعد به المرض والشيخوخة عن متابعتها بنفسه ممَّا عرَّضها لأخطاء مطبعية وفنية كثيرة، وهذا ما حمل الشيخ على وضع شروط أوصى بالأخذ بها عند الطبع الثاني للتفسير، وخاصَّة تنقيته من تلك الأغلاط المطبعية، ومراعاة مستلزمات الإخراج الجيد[٢].

٢ـ **تفسير آيات من سورة الإسراء والأنفال**: طبق منهج التربية يقع في (٢٢) صفحة من القطع المتوسط وهو مخطوط، (أثيل).

٣ـ **تفسير سورة الحجرات**: يقع في (١٩) صفحة من القطع المتوسط مطبوع سنة ١٣٥٩هـ[٣].

---

(١) حسب الطبعة السابقة، وقد زادت على ذلك بكثير في طبعتنا الجديدة المنقحة؛ لإلحاقي إضافات المؤلف، وتعليقاتي واستدراكاتي، وإضافة نصوص الآيات المفسَّرة من المصحف الشريف، وتوزيعها في كلِّ سورة، ثم تنسيق الكتاب وترتيبه، وإضافة الفهارس المتنوعة مع هذه الدراسة. (مجد).

(٢) وثيقة أرفقها الشيخ بنسخة من تفسيره مصحَّحة ومعلق عليها، وهي محفوظة لدى حفيده تنتظر الطباعة، كتبت هذه الوثيقة بتاريخ ٢/ ٤/ ١٩٧٦م.

(٣) الموافق سنة ١٩٣٩م، وسمَّاه: «المدارك الدقيقة في محتويات سورة الحجرات»، وقال في مقدمته: =

٤ـ **تفسير جزء من سورة البقرة**: يقع في (٤٠) صفحة متوسطة مخطوط (إبراهيم).

٥ـ **تفسير سورة الحجرات والإسراء والصف والأنفال والأحزاب**: يقع في (٣٨) صفحة صغيرة، وهو مخطوط (إبراهيم).

٦ـ **تفسير سورة لقمان**: كراسة تقع في (٢٩) صفحة من القطع المتوسط اختارها من تفسيره، في ٢/ ٢/ ١٩٤٠، وقد أطنب في تفسيرها على غير عادته[1]، وهي مخطوطة، (أثيل). وعند (إبراهيم) أيضاً مخطوط تفسير سورة لقمان يقع في (٢١) صفحة صغيرة.

٧ـ **مبسط لعدد من السور**: مخطوط من (٥١) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

٨ـ **مختارات من تعليقات على بعض الآيات**: يقع في (٢٥٠) صفحة صغيرة، (إبراهيم)، وهي زبدةُ ما استجاده فكره من التعليقات[2]. وهو من الأعمال الأولى لتفسيره، فيما يبدو.

٩ـ **مختصر التفسير**: كتبه قبل كتابة تفسيره، ويقع في (١٠٠٠) صفحة من القطع المتوسط، وهو مخطوط، (أثيل).

(ب) في الحديث:

١ـ **مختارات الصحاح**: وهي نخبة من الأحاديث المختارة من الكتب الستة موزعة على الأبواب الفقهية، ويقع في جزأين، الأوّل في (٢٠٧) صفحات، والثاني في (٣٠٦)

= «وقد ضمنت تفسيري هذا كثيراً من آرائي الخاصَّة في جملة غير قليلة منه، وختمت أكثرها بقولي: والله أعلم». ينظر: مقالة: «قراءة في المدارك الدقيقة في محتويات سورة الحجرات» للدكتورأحمد قتيبة يونس ضمن ندوة «الشيخ رشيد الخطيب ودوره الإصلاحي» في الموصل ص ١٧-١٩. (مجد).

(١) «مقدمة المخطوطة» ص١.

(٢) مقدمة الكتاب.

صفحات، من الحجم المتوسِّط. وقد أتبعه بفهارس في (٢٦) صفحة. ولا يكاد أحدٌ يطلب باباً من أبواب الفقه والمعاملات والأخلاق إلا وجد طلبته فيه من الأحاديث. وهو مخطوط، (أثيل).

٢ـ **المنتخب من الأحاديث النبوية**: وهو مخطوط في (١٠٨) صفحات من القطع المتوسط، (أثيل).

(ج) في العقائد والكلام:

١ـ **إثبات الوحي بطريق العقل وعلوم العصر**: وهو مقتطفٌ من كتاب «مناهل العرفان في علوم القرآن» لـمحمد عبد العظيم، مخطوط من (٦) صفحات صغيرة، (إبراهيم).

٢ـ **بحث في التصوُّف**: مخطوط من (١٨) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

٣ـ **بحث في الممكن والموجود**: مخطوط من (٧) صفحات صغيرة، (إبراهيم).

٤ـ **رسالة في آداب البحث والمناظرة**: مخطوط في (٧) صفحات صغيرة، (أثيل).

٥ـ **رسالة فرائد القلائد**: ألمح فيها الشيخ «إلى نبذ من آراء الفلاسفة والمتكلِّمين والصوفية، وبعض الفرق الإسلامية الأخرى كالشيعة والخوارج والمرجئة وأهل السُّنَّة، وعن ملاءمة[1] الدين الإسلامي للفطرة الإنسانية والقواعد الاجتماعية، وإفضائه إلى السعادة والكمال في الدارين، بما فيه من عقائد عالية وأنظمةٍ سامية تؤدِّي إلى كمال الأخلاق»[2]. كتبها سنة ١٣٧٠هـ وهي مخطوطة في (٦٨) صفحة متوسطة، (أثيل).

٦ـ **رسالة في علم العقائد**: ذكر فيها نبذاً من الآراء، وممَّا رآه بنفسه ليقف المطالع

---

(١) في الأصل: ملايمة بالياء.

(٢) «مقدمة رسالة فرائد القلائد» لرشيد الخطيب.

على موضوع هذا العلم بصورة إجماليَّة، ويطلع على الرأيين في عدد من تلك المسائل، طبعت سنة ١٩٦٥ في مطبعة الجمهورية، وعدد صفحاتها (٥٨) متوسط.

٧- رسالة في علم الكلام: مخطوطة في (٧) صفحات صغيرة سنة ١٩٧٤، (إبراهيم).

٨- غاية ما يرام في علم الكلام: مخطوط من (٢٣) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

٩- مقال بين الحقِّ والصِّدق لمنكر بعض ما في القرآن والتكلم على بعض الأنبياء: وسبب كتابة هذا المقال نقاش دار بين الشيخ ورجل متشكك ضمَّهما مجلس عام. يقع المقال في (٩) صفحات صغيرة وهو مخطوط، (أثيل).

١٠- نظرية ابن سينا في الخلق، ومواضيعُ مختلفة: مخطوط في (٢٧) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

١١- نقض لفلسفة الخيام: مخطوط من (٥) صفحات، (إبراهيم).

(د) في الفقه وأصوله:

١- أرباب الحديث وأرباب الرأي في التشريع الإسلامي: مخطوط من (١٦) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

٢- تعليق على كتاب أحكام الوقوف لعلي حيدر أفندي: مع رسائل تتعلق بنفس الموضوع، مخطوط يقع في (٦٩) صفحة صغيرة. يتحدَّث عن الأوقاف وأحكامها وأنظمتها وسُبُل إصلاحها، (إبراهيم).

٣- تعليقات على رسالة الشافعي: وهي تعليق على (الرسالة) المشهورة للإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ). وهي مخطوطة في نحو عشر صفحات من القطع المتوسط، (أثيل).

٤ـ رسالة في أصول الفقه: طبعت بتحقيق إبراهيم النعمة سنة ١٩٨٠، في مطابع الجمهورية، وتقع مع مقدمة المحقق في (٦١) صفحة من القطع المتوسط.

٥ـ رسالة في الخراج: وهي مخطوط في (٢٤) صفحة متوسطة الحجم، (أثيل).

٦ـ مختصر في علم الفرائض: مخطوط في (٣٨) صفحة صغيرة كتبه سنة ١٩٤٧، (إبراهيم).

٧ـ المفيد في أصول الفقه: مخطوط في (٣) صفحات صغيرة، (إبراهيم).

٨ ـ متعة الكلام لـمن قصد البيتَ الحرام: مخطوط في (٣٥) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

٩ـ مقالات حول الزَّكاة والنِّكاح والطَّلاق والعدَّة والمحرمات من النساء: مخطوط يقع في (٢٤) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

(هـ) في اللغة:

١ـ رسالة في معاني الحروف وقيام بعضها مقام بعض في الاستعمـال: مع بعض مختزلات من أهمِّ مباحث النحو، كتبها سنة ١٩٢٥ وتقع في (٧٦) صفحة صغيرة وما تزال مخطوطة، (أثيل).

٢ـ ما لا يستغني عنه التـلميذ والكاتب والأديب من ألفاظ اللغة وخصائص التراكيب: وهو مستقى من كتاب «فقه اللغة» لأبي منصور الثعالبي المتوفى (سنة ٤٢٩هـ)، يقع في (٣) صفحة صغيرة. وهو مخطوط، (أثيل).

٣ـ مختصر الوسيط: يقول عنه الشيخ رشيد: «سميته بهذا الاسم وأضفتُ إليه بعضاً من غير الوسيط؛ تكميلاً للفائدة»، وهو كتاب يتحدَّث عن نشأة اللغة بعامَّة، والعربية بخاصَّة من حيث أطوارها إذ قسمها على خمسة أطوار: جاهلية وإسلامية

وعبَّاسية وعصور انحدار[1] وعصور النهضة. ثم يفصِّل خصائص اللغة في كل مرحلة من هذه المراحل. ويقع في (١١٤) صفحة متوسطة وهو مخطوط، (أثيل).

(و) في البلاغة:

١ـ **بحث في البلاغة، الاستعارة:** مخطوط من (٢٢) صفحة صغيرة، (أثيل).

٢ـ **حُسن الصنيع في البديع:** مخطوط في (٨٥) صفحة من القطع المتوسط، (أثيل).

٣ـ **مختصر البلاغة:** ويقع في (١٢٧) صفحة من القطع الصغير وهو مخطوط، (أثيل).

٤ـ **المنتقى في البلاغة:** وهو مخطوط في (٨٦) صفحة متوسطة الحجم، (أثيل).

(ز) في الأدب: وتضمُّ منتخباتٍ وتاريخاً وتراجم.

١ـ **أبسط الترتيب في تراجم الأدباء:** ويقع في (٥٢٣) صفحة من القطع الصغير وما يزال مخطوطاً، (أثيل).

٢ـ **أسمى المطالب فيما يرومه الطالب:** وهو في تاريخ آداب اللُّغة العربية، كتبه سنة (١٩٤٤) ويقع في (٤٢٨) صفحة متوسطة، وما يزال مخطوطاً، (أثيل).

٣ـ **أسنى الأَرَب في تاريخ الأدب:** وهو خلاصة سائر مؤلفات الشيخ[2] في الأدب يقع في (٢٥٨) صفحة من القطع المتوسط، وما يزال مخطوطاً، (أثيل).

٤ـ **أوضح المناهج في تاريخ الأدب لسائر عصور العرب:** مخطوط (٦٤٦) صفحة صغيرة، (أثيل).

---

(١) هذه تسمية متروكة الآن كتسمية (المظلمة) وقد اختيرت (المتأخرة) من نظرة زمنية لا فنية.

(٢) مقدمة كتاب «أسنى الأرب».

٥- بحوث ترجمة لشعراء بني أمية وبني العباس وعلماء وشعراء الدولة العثمانية: يقع في (١٥٠) صفحة صغيرة وما يزال مخطوطاً، (أثيل).

٦- بنات الأفكار الحسان ولقائط الـجُمان: وصفهُ الشيخ رشيد[١] بقوله: «يجد المطالع فيه ما لطف من أقوال الرجال، وما لذَّ وطاب من أذواقهم وأفهامهم وعقولهم، وما تناولوه من بعيد المنال، وهو نحو (٢٥٠) صفحة من القطع الصغير ومخطوط، (أثيل).

٧- تذكرة الأدباء: مخطوط في (٢٣٥) صفحة من القطع الصغير، (أثيل).

٨ - حقيبة الأديب: مخطوط في (٤٢٣) صفحة من القطع الصغير، (أثيل).

٩- الخرائد الحسان في متنزهات البيان: وهي نبذ شعرية اقتطفها أثناء مطالعاته، تقع في (١٦١) صفحة من القطع الصغير، وهي مخطوطة، (أثيل).

١٠- رسالة في العروض: مخطوطة في (١٣) صفحة من القطع الصغير، (أثيل). وله رسالة أخرى في العروض تقع في (٤٠) صفحة صغيرة، وهي مخطوطة، (إبراهيم).

١١- الشذرات: وهي رسالة صغيرة في تراجم مختصرة لبعض الأدباء والشعراء مع شيء من أشعارهم، انتخب فيها الشيخ ما راق له منها أثناء مطالعاتِه وتدريساتِه[٢] ويقع في (٦١) صفحة من القطع الصغير، وهي مخطوطة، (أثيل).

١٢- شرح قصيدة بانت سعاد: وهي مخطوطة في (٤٠) صفحة، (إبراهيم).

١٣- عمدة الأريب ومرجع الأديب: وهو في الأدب وتاريخه، يقع في (٤٦٤) صفحة من القطع الصغير، مخطوط، (أثيل).

---

(١) مقدمة الكتاب.

(٢) مقدمة الكتاب.

١٤ـ **عون الأديب فيما يحتاجه من مختلف الأبحاث والتراكيب**: وهو كتاب يقع في (٥٧٤) صفحة من القطع الصغير، وما يزال مخطوطاً، (أثيل).

١٥ـ **الفرائد في بعض المقطوعات**: مخطوط في (١٨٣) صفحة صغيرة، (أثيل).

١٦ـ **اللطائف المشرقة في القطع الشيِّقة**: وهو في (١١٦) صفحة من القطع المتوسط، شرح فيه القطع الشعرية المقرَّرَ تدريسُها في المدارس الثانوية لسنة ١٩٤٠، وألحق بها تراجم لشعراء هذه القطع، وهو مخطوط، (أثيل).

١٧ـ **مجموعة بحوث عن عدد من الأدباء والشعراء والحكماء؛ تاريخِهم آدابِهم نبذٍ عن حياتهم**: ويقع في نحو (٣٠٠) صفحة وهو مخطوط، (أثيل).

١٨ـ **مجموعة الخطب المنبريَّة**: تحتوي على الخطب النبويَّة، وبعض خطب الصحابة، وأحاديث أخلاقية دينية للخطيب، مخطوط في نحو (٤٠) صفحة، (أثيل).

١٩ـ **مجموعة من الشِّعر وصور من النَّـثْر وفرائد النَّظْم**: مخطوط في نحو (٨٠) صفحة متوسطة، (أثيل).

٢٠ـ **مُعِين التلميذ في فهم الأدب على المنهج الحديث**: مخطوط في (٣٦٢) صفحة صغيرة، (أثيل).

٢١ـ **منتخبات فرائد النثر وفرائد النظم**: ويسمَّى أيضاً: (الدُّرُّ النضيد للطالب المستفيد)، تقع في (١٢٠) صفحة من القطع المتوسط، وهو مخطوط، (أثيل).

٢٢ـ **منتخبات الخطيب لما يستحسنه كلُّ أديب**: وهو كتاب ضخم يقع في (٨١٣) صفحة من القطع الصغير، مخطوط، (أثيل).

٢٣ـ **المنتخب من آثار أبي بكر وعمر وخالد**: تقع في (٥١) صفحة من القطع المتوسط، وهو مخطوط، (أثيل). وبنفس العنوان في (٣٠) صفحة صغيرة عند (إبراهيم).

(ح) في التربية والتعليم:

١ـ **أسئلة الامتحانات للأئمة والخطباء**: ويقع في (١٠٩) صفحات من القطع الصغير، مطبوع في مطبعة الجمهورية بالموصل سنة ١٩٦٨.

٢ـ **أسئلة وأجوبتها**: في علوم العقائد والبلاغةِ والزَّكاة والنِّكاح والصَّلاة وأصولِ الفقه والعبادات والتصوُّف والتجويد والنفقة والبيان والنحو وعلمِ الكلام والمعاني والمنطق والصرف، وبحث في موضوع زلة القارئ في الصلاة، وهو مخطوط يقع في (١٢٠) صفحة صغيرة، (إبراهيم). وربما كان مسودة للكتاب المطبوع الذي سبقه.

٣ـ **إرشادات هامة للمعلِّم والتلميذ وما يجب أن تكون العلاقة بينهما**: يقع في نحو (٢٠) صفحة من القطع الصغير، مخطوط، (أثيل).

(ط) في القصص والأخبار والمواعظ:

١ـ **بحث في علماء القرن الثاني الهجري**: مخطوط في (٦) صفحات، (إبراهيم).

٢ـ **رسالة في دروس الأخلاق والسِّيرة وقصص الأنبياء**: مخطوط يقع في (١٢٠) صفحة من القطع الصغير، (أثيل).

٣ـ **صيدي من صيد الخاطر في المواعظ**: مقتطف من كتاب «صيد الخاطر» لابن الجوزيِّ مخطوط في (١٨) صفحة، (إبراهيم).

٤ـ **لمحة من الحوادث الطبيعيَّة لـمدَّةٍ تزيد عن (٧٠٠) سنة ونبذ من غرائب الأحوال الاجتماعية**: وهي مأخوذة من تاريخ ابن الأثير. مخطوط يقع في (١١٤) صفحة من القطع الصغير، (إبراهيم).

٥ـ نُبَذٌ لحوادث وقصص تاريخيَّة إسلاميَّة: مخطوط في (٧٠) صفحة صغيرة، (أثيل).

(ي) متفرقات:

١ـ تعليق على كتاب (الرسول) لبودلي: يردُّ فيه عليه مطاعنَه وغمزاتِه، يقع هذا المؤلف في (٢٩) صفحة صغيرة، كتبه عام ١٩٤٧، وهو مخطوط، (إبراهيم).

٢ـ مبادئ علم الهيئة: وهو مختصر من كتاب «علم أصول الهيئة»[١] لفان ديك في (٧٢) صفحة صغيرة، (إبراهيم).

٣ـ مجموعة من المقالات والمقتطفات والتعليقات في مختلف المواضيع والعلوم: تزيد على (٤٠٠) صفحة مخطوطة، (إبراهيم).

هذه آثار الشيخ التي عَـثَرت عليها محفوظةً لدى حفيده الأستاذ أثيل وتلميذِه الشيخ إبراهيم النعمة، وهي لا شكَّ تعبِّر بجلاءٍ عن فضله وعلمه ودأبه الجادِّ على التصنيف، إنْ كتباً وإنْ رسائل في موضوعات وموادٍ شتَّى، مما يشهد بتنوع ثقافته وطول باعه في العِلم والأدب[٢].

---

(١) علم الهيئة هو علم الفلك.

(٢) قلت: لم يتحدَّث الأخ الكريم د.خالد عن كتابه: «رسالة في مواضيع مهمة» مع رجوعه إليه في دراسته وذِكْره له ضمن مراجعه. وقد تكلَّم الشيخ رشيد في هذه الرسالة عن الروح والعقل، والتداوي والرقى، والتحفُّظ والحمية والوقاية، والدعاء، ووحدة التشريع الإلهي، وعن ترجمة القرآن، وأعلن في الرسالة عن تفسيره، وكلامه عن آية: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ونبذة عن نَسَبِه وسيرةِ أبيه رحمهما الله. وينظر مقالة: «قراءة لـ(رسالة في مواضيع مهمة) لرشيد الخطيب» للدكتور علي أحمد العبيدي، ص٢٠-٢٢، ضمن ندوة: «الشيخ رشيد الخطيب ودوره الإصلاحي في الموصل». (مجد).

(هـ) خلقه ووفاته:

أمضى الشيخ رشيد حياةً حافلة بالعلم والتعليم والتأليف، وكان يتمتَّع بأخلاق سامية تليق بعلمه ونسبه وفضله، فلم يُؤْثر عنه إلا ما هو طيب حسن، فقد أنفق دنياه في سبيل دينه، وعاش مجاهداً الجهلَ والبدعَ والتقاليد المخالفة للدِّين.

وقد جعل من بيته مدرسة لتدريس العلم، لا يردّ أحداً يطلبه، فكان ينهض كل يوم مبكراً لصلاة الفجر ثم يبدأ بالتدريس حتى صلاة الظهر[1]، وبقي هذا دأبه ـ وهو دأب العلماء القدامى ـ حتى بلغ من الكبر عتيّاً، فأقعدته الشيخوخة والمرض عن مواصلة التدريس، فانتقل إلى بيت إحدى بناته الأربع[2]، إذ لم يبق له من أولاده إلا هنّ، أما أولاده الآخرون من الذكور والإناث فقد توفوا جميعاً وهم صغار.

أمضى الشيخ في بيت ابنته عدّة سنوات، لم ينقطع خلالها عن القراءة والمطالعة والدرس والتمحيص فكان في ذلك له سلوة، وراحة.

وكان حريصاً كلّ الحرص على أن يبقى له عقله نيّراً واعياً إلى آخر لحظة من عمره، وله في ذلك رأي وهو: «أن من تعهَّد عقلَه بالقراءة والدرس والمراجعة لم يفقده، ولم يلحقه الخرف الذي يلحق كثيراً من المعمَّرين»[3].

وعندما فقد القدرة على الكلام في آخر أيامه في الدنيا، كان يشير إلى رأسه لمن حوله مؤكداً أنه يعي ويفهم كلَّ ما يدور حوله، وكأنه رحمه الله لا يعبأ بكل ما أصابه ما دام عقله الذي يعتز به والذي صال به وجال في ساحات العلوم والآداب سليماً معافى.

(١) هذا ما ذكره لي تلميذاه الفاضلان: إبراهيم النعمة، وذنون البدراني.

(٢) وهي أم محمد النُّجيفي وزوجة عبد العزيز النُّجيفي رحمها الله تعالى.

(٣) قول الشيخ رشيد عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [الحج: ٥] ويكون هذا في بعض الهرمين (٥: ٢١٠).

ثم انتقل إلى جوار ربِّه مطمئناً، مالئاً سجلَّ عمر طويل قارب المائة بالدرس والبحث والتنقير للإفادة والتعليم وذلك في عصر يوم ١٩/ ١١/ ١٩٧٩[1].

وخسرت الموصل بفقده عالمها الجليل، وإن كان تلامذته ملء العين، كما خسره العراق والعالم الإسلامي، وما أمسَّ حاجتَنَا إلى أمثاله من العلماء العاملين المخلصين فرحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

---

(١) الموافق يوم الاثنين ٢٩ من ذي الحجة ١٣٩٩هـ إلا أنَّ الأستاذ قصيّ آل فرج نقل في مقالتِه: «صفحات من حياة رشيد أفندي الخطيب» ضمن ندوة: «الشيخ رشيد الخطيب ودوره الإصلاحي في الموصل» ص٤٠: «أنَّ الأستاذ المعلم عبد الله السيد عمر خطاب، وهو صاحب أكبر خزانة شخصية بالموصل، كتبَ على آخر ما ألَّفه رشيد الخطيب ما نصُّه: «توفي المؤلف رحمه الله صباح الخميس ٢٠/ ١٢/ ١٩٧٩م، وكبَّرت الجوامع لوفاتِه في اليوم الأول، وفي خطبةِ الجمعة اليوم الثاني أشادت به، واليوم الثالث السبت ٢٢/ ١٢/ ١٩٧٩م بدأتُ بقراءة هذا الكتاب للمغفور له. والفرق كما هو واضح بين التاريخَين لأكثر من شهرين». قلت: الفرق بينهما شهرٌ ويومٌ واحد.
وقال الأستاذ المهندس عبد الرزاق الحمداني في مقالته: «العلامة رشيد الخطيب الموصلي .. ومضات ولقطات» المطبوع ضمن ندوة: «الشيخ رشيد الخطيب ودوره الإصلاحي في الموصل» ص ٤٨: «في ربيع ١٩٧٣ شعر أنَّ قدراته لم تَعُدْ تُساعدُه في متابعة تعليم طلابه والقيام بواجباته بصورة طبيعيَّة، فانتقلَ إلى بيت د. عصام الخطيب، وأقام معهم عدة أشهر برعاية ابنتِه الدكتورة مُدركة لحين سفرِهم لخارج العراق، لينتقل بعدها لدار السيد عبد العزيز النُّجيفي، ولترعاه ابنته وأولادها، وهناك انفتحت أساريره، وطابت نفسه؛ بسبب الجوِّ العائلي والعلاقات الاجتماعيَّة التي تعوَّد عليها في بيته وخلال مشوار حياته، وبقي مُعزَّزاً مُكرَّماً لينتقل إلى رحمة الله تعالى شهر كانون الثاني سنة ١٩٧٩م» وهذا يؤيِّد ما نقله الأستاذ قصي آل فرج ويوافق بالتاريخ الهجري يوم الخميس ٣٠ محرم ١٤٠٠ هـ وهو الصواب والموافق لما ذكره الأخ الشيخ أكرم عبد الوهاب الموصلي في كتابه: «الإمداد شرح منظومة الإسناد» (٨: ١٣). (مجد).

الفصل الأول
مصادر تفسيره وكتب أشار إليها

مدخل

قبل الشروع ببيان مصادر الشيخ رشيد في تفسيره أود أن أبيِّن المعالم التي اهتديت إليها بعد قراءة التفسير، وإطالة التأمُّل فيه، والعودة إلى التفاسير التي ورد ذكرها فيه، فقد تبيَّـن لي أن الشيخ لم يأل جهداً في الإفـادة من كل ما وصلت إليه يده من مصادر ومراجع متنوِّعة في المادة والموضوع، مما يرفد تفسيره للآي ويلقي عليها ضوءاً، بما في ذلك المصادر التي امتازت بالحداثة.

وهذا المنهج ليس بجديد في التفسير، إذ كان قدامى المفسِّرين عامة، وأصحاب الرأي خاصة، يعتمدون على مصادر متنوعة قد لا تبدو ذات مسـاس مباشر بمعاني القرآن، ولكنها في الحق تخدمه، كعلم الكلام، والفلسفة، والتاريخ، وعلم الطبيعة، على نحو ما نرى في تفسيـر الطوسي (ت٤٦٠هـ)، والزمخشـري (ت٥٣٨هـ)، والرازي (٦٠٦هـ)، وغيرهم.

ومصادر الشيخ رشيد كثيرة، وهي على كثرتها ينتظمها عِقْدان، عِقد ضمَّ عدداً (محدوداً) من المصادر كان عليه جل الاعتماد، وهذا يتعلق بأشهر كتب التفسير، كتفسير الطبري، والزمخشري، والطبرسي، والرازي، والمنار، وهذا الضرب من المصادر الأساسية أفاد منه الشيخ في انتقاء أظهر وأقرب وجوه التأويل التي عبَّر عنها بكلمة (أولى)، كما هي في عنوان التفسير، إذ كانت تمثل زبدة الوجوه التي قيلت في الآي، كما تُمَثِّل ألمع عصور التفسير ومفسريه.

وقد أفاد منهم كذلك بنـقل أقوال كثير من المفسِّرين واللغويـين ممَّن ضاعت مؤلفاتُهم أو وجدت.

وأما العِقْد الثاني فضمَّ ما تبقّى من المصادر التي اعتمدها الشيخ في تفسيره، وهي مصادر متنوعة، وكان الاعتمـاد عليها أقلَّ من الأولى لا يتجاوز بضع مرات في عدد منها.

ولما كانت مصادر الشيخ تشتمل على ألوان، ككتب التفسير، وكتب معاني القرآن، وكتب الدراسات القرآنية الأخرى، وكتب الحديث فقد آثرت أن أعرض المصادر حسب مادتها مبتدئاً بكتب التفسير، إذ هي المادة الأساس التي اعتمد عليها.

(١) كتب التفسير

لم يقتصر الشيخ رشيد على تفاسير أهل السنـة وحدها، بل اعتمد على تفاسير مدارس إسلامية أخرى كتفسير الزمخشري وتفسير الطبرسي، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على موضوعيته، وسَعَة أفقه وبُعده عن التعصب المقيت الذي ابتُليتْ به هذه الأمة في بعض عصورها، من عدد من أبنائها. كمـا أنه لم يقتصر على القديم وحده، بل ضم إليه من الحديث ما انتهت إليه النظرة الحديثة.

١ـ تفسير الطبري:

مؤلف هذا التفسير الكبير المسمى «جامع البيان عن تأويل القرآن» أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ[١].

نال هذا التفسيـر شهرة وثنـاءً عظيمين، فكان وما زال المرجع الأساس لكل

---

(١) «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (١٨: ٤٠). و«طبقات المفسرين» للداودي (٢: ١١٤).

مفسر، وإليه يعود الفضل في نقل وحفظ كثير من المأثور من التفسير، الذي يمثل أقوال الرسول ﷺ والصحابة والتابعين وأهل البيت في تفسير القرآن، فضلاً عن عنايته بالقراءات واللغة والنحو والعقل مع نقد لهذه المواد في عدة مواضع[١].

وقد أفاد الشيخ رشيد من الطبري كثيراً من التفسير المأثور. ويقوم منهجه في الإفادة منه على الإيجاز الشديد، إذ يعزو الأقوال إلى عدد من المفسرين الذي روى عنهم الطبري بأسانيده، من الصحابة كابن عباس، وابن مسعود، وأبي هريرة، أو التابعين كمجاهد والحسن والضحاك والسدي، والكلبي، وسعيد بن جبير، وغيرهم... وقلّما يصرح باسم الطبري فيما ينقله عنه من أقوال المفسرين قبله، وإنما كان يورد الرواية فحسب، إلا إذا كان القول رأياً للطبري مأثوراً عن غيره برواية كما في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، إذ قال: «قال ابن جرير: إن الأمر بالذِّكر هنا موجَّه إلى مستمع القرآن، أُمر بأن يتدبَّر في نفسه ما سمع»[٢].

أو يكون ذلك القول اختيارَه من بين عدَّة أقوال، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١] إذ قال: «واختلفوا فيهما ... وقيل: المراد مكانان مقدَّسان، قتادة، وابن زيد، ومحمد بن كعب، والضحاك وغيرهم، واختاره الطبري»[٣].

---

(١) ينظر: الزيدي: الطبري المفسر الناقد، بحث ألقي في ندوة الإمام الطبري في القاهرة، تموز ١٩٨٩.

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٥١٧). وهو في «جامع البيان» (١٣: ٣٥٥)، دار المعارف، تحقيق: محمود محمد شاكر، وأحمد محمد شاكر.

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٢٨٥). وهو في «جامع البيان» (٣٠: ١٥٤)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط ٨، أعيد طبعه ١٩٧٢م.

والذي اختاره الطبري هو: التين الذي يؤكل، والزيتون الذي يُعصر منه الزيت. (مجد).

على أن الغالب عليه عزو أقوال الصحابة والتابعين وغيرهم إلى أصحابها مباشرة من دون ذكر الطبري كما أسلفت آنفاً، وآية ذلك أنه أورد روايات كثيرة لابن عباس[1] أوردها الطبري بأسانيده.

ومن ذلك ما في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] فقد قال: «قال ابن عباس: هو وادٍ باليمن بين عمان وبين مهرة»[2].

كما أورَدَ روايات لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه[3]، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] إذ روى عنه وعن ابن عباس فقال: «وعن علي وابن عباس: ملائكة يحفظونه من المهالك»[4].

كما أورد روايات لعبد الله بن مسعود[5]، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩] فقد قال: «ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه كذلك النسَّابون ـ يعني الذين يسردون نسب الأقوام إلى نوح وآدم ـ لأن تقادم العهد طمس معالم هذا النسب المديد»[6].

وقد يبهم المروي عنه من السلف، فلا يصرِّح باسمه وخاصة إذا كثروا، بل

---

(١) ينظر: «أولى ما قيل» (٢: ٤٧)، (٢: ٥٩٠)، (٣: ٢٣٣)، (٤: ٤٥٠)، (٥: ٨٨)، (٦: ٢١٣)، (٨: ١٩٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٧: ٥١). وهو في «جامع البيان» (٢٦: ١٥) (دار المعرفة).

(٣) ينظر: «أولى ما قيل» (١: ٤٩١).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٣٥٦). وهو في «جامع البيان» (١٢: ٧٧) (دار المعرفة).

(٥) ينظر: «أولى ما قيل» (٥: ٢٥)، (٥: ٣١٤).

(٦) «أولى ما قيل» (٤: ٣٩١). وهو في «جامع البيان» (١٢: ١٢٥) (دار المعرفة).

يكتفي بالقول: «روي عن جماعة من الصحابة» مثلاً كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] إذ قال: «وقال غيرهم: المراد انشقاقه في الدنيا معجزة لرسول الله ﷺ، وهو من علامات اقتراب الساعة، وقد روي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ آية بانشقاق القمر فانشقّ القمر نصفين»[١].

وحين ننتقل إلى التابعين، وهم تلامذة الصحابة والآخذون عنهم نجد تابعياً كبيراً كمجاهد[٢] (ت١٠٤هـ) يحظى بعناية الطبري عناية كبيرة، فتمتد تلك العناية إلى الشيخ رشيد لينقل عنه طرفاً مما روي عنه، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] إذ يبيّن أنه: «روي عن مجاهد أنهم قالوا: لقد أجهدنا الله حتى جعل يده في نحره»[٣].

ونلحظ روايات عن عكرمة[٤] (ت١٠٤هـ) كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ...﴾ [الفيل: ٣] إذ قال: «قال عكرمة: وهو أول جدري يظهر في بلاد العرب»[٥]. ونقل روايات عن الشعبي (ت١٠٣هـ) كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٢١٠). وفي «جامع البيان» (٢٧: ٥٠) (دار المعرفة).

(٢) تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما، روى له البخاري ومسلم، اشتهر بالتفسير العقلي، روى عن عائشة رضي الله عنها «طبقات المفسرين» (٢: ٣٠٥).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢٣٣). وهو في «جامع البيان» (١٠: ٤٥٠) (دار المعارف). وينظر: «أولى ما قيل» (٦: ٢٨٣)، (٢: ٤٧)، (٣: ٣٤٠)، (٤: ٤٤١).

(٤) مولى ابن عباس روى عنه وعن أبي هريرة رضي الله عنهم، ثقة عالم بالتفسير. «التفسير والمفسرون» (١: ١١١-١١٢).

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ٣٥٩). وهو في «الجامع» (٣٠: ١٩٣) (دار المعرفة). وينظر: «أولى ما قيل» (٢: ٤٧)، (٧: ٢٦٣).

كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦] فقد بيَّن أنه: «خرج الشعبي يوماً في جنازة رجل فقال: هذه كفات الأموات، ثم نظر إلى البيوت فقال: هذه كفات الأحياء»[١]. كما نقل روايات عن سعيد بن جبير[٢] (ت٩٥هـ) وأبي العالية[٣] (ت٩٠هـ)، ومقاتل ابن سليمان[٤] (ت١٥٠هـ) وغيرهم من أوائل المفسِّرين.

وأما منهجه في النقل من تفسير الطبري فقد يكون بالمعنى وهو الأكثر، إذ يورد معنى التفسير ثم يعزوه إلى من قال به من الصحابة والتابعين كما في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١] إذ قال: «وقيل: بل إن الكلام على الإرشاد والمراد من البنات: نساء قومه لأن النبي في قومه كالوالد، أي كفُّوا عن فعلكم هذا واكتفوا بالنساء عن الذُّكْران، فهو الموافق للفطرة والمؤدي للغاية التي خلقن لها، وهي بقاء النسل بخلاف فعلكم»، ثم قال: «وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم»[٥].

والذي في الطبري قوله: عن ابن جريج... هؤلاء يا قوم بناتي يعني نساء أمته فانكحوهنّ فهنّ أطهرُ لكم.

وعن قتادة قال: «أمرهم لوط بتزوُّج النساء، وقال: هُنَّ أطهر لكم».

وعن مجاهد قال: لم يكنّ بناته ولكن كنّ من أمَّته فكلُّ نبي أبو أمته.

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٠١). وهو في «جامع البيان» (٢٩: ١٤٥) (دار المعرفة)، وهو في تفسير القرطبي (١٩: ١٦١).

(٢) ينظر: «أولى ما قيل» (٤: ٤٤١)، (٤: ٤٤٩)، (٥: ٢١٥).

(٣) ينظر: «أولى ما قيل» (٥: ٢٧٥).

(٤) ينظر: «أولى ما قيل» (٨: ٣٤١)، (٥: ٢٧٥)، (٥: ١٨٥).

(٥) «أولى ما قيل» (٤: ٤٤١).

وعن مجاهد: أمرهم أن يتـزوجوا النساء وأراد أن يقي أضيافه ببناته»[١].

من ذلك يتبيَّن أنَّ الشيخ رشيد نقل المعنى بشيء من الإيجاز، ثم عزاه إلى القائلين به من التابعين ومثل هذا كثير في تفسيره[٢].

وقد نراه ينقل النص بتغيير طفيف وذلك بحذف الأسانيد واستبعاد المكرر، أو الرواية التي لا تتناسب مع غيرها.

فـفي وقوفـه عند قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] نراه يقول: «قال ابن عباس: هو وادٍ في اليمن بين عُمـان ومهرة. وقال ابن إسحاق: هي رمال بين عمـان وحضرموت. وقال قتادة: هي رمال مشرفة على البحر بالشِّحْر من اليمن»[٣].

والذي جاء في الطبري[٤]: «حدثني محمد بن سعد حدثنا... عن ابن عباس... قال: الأحقاف جبل الشام. وقال آخرون: بل هي واد بين عمان ومهرة. حدثني محمد بن سعيد... عن ابن عباس... قال: الأحقاف الذي أنذر هود قومه وادٍ بين عمان ومهرة. وحدثنا ابن حميد... عن ابن إسحاق قال: كانت منازل عاد وجماعته حيث بعث الله إليهم هوداً، الأحقاف: الرمل فيما بين عمان إلى حضرموت. وحدثنا بشار عن مجاهد، قال: الأحقاف: الأرض. حدثنا سعيد عن قتادة... ذكر لنا أن عاداً حيٌّ باليمن أهلُ رملٍ مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر».

---

(١) «جامع البيان» (١٥: ٤١٣-٤١٤) (دار المعارف بمصر).

(٢) يُنظر على سبيل المثال: «أولى ما قيل» (٦: ٢٨٣)، (٥: ٨٨)، (٤: ٣٤٨)، (٥: ٣٤٦).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٥١).

(٤) «جامع البيان» (٢٦: ١٥-١٦) (دار المعرفة).

فأهمل الشيخ رواية عن ابن عباس تبيّن أن الأحقاف جبل بالشام مع رواية أخرى تجعلها بين عمان ومهرة، وهذه قريبة من الأخريات، على حين شذّت الأولى وشَرَدت شروداً بعيداً، ممّا جعله يهملها البتة. وهذا موقف متبصّر من الشيخ في قبول الروايات. كما أنه طرح رواية عن مجاهد قال فيها: إن الأحقاف: الأرض، وما عدا ذلك كان التغيير طفيفاً، كما في النقل عن قتادة، إذ التركيب مختلف والمؤدّى واحد.

وقد يكون النقل بتغيير طفيف على نحو ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، إذ قال: «...وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: هذا وعيدٌ من الله لعباده وليس بالله شغل. ولكنه معروف من كلام العرب، يقال: لأتفرغنّ لك، وما به شغل»[١]. والنصُّ عند الطبري[٢]: «.. عن ابن عباس قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ قال: وعيدٌ من الله للعباد وليس بالله شغل وهو فارغ».

وقد ينقل بالنص من دون تغيير، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣] إذ يقول: «قال ابن عباس: ما في القرآن أشد توبيخاً من هذه الآية»[٣]. ومثلها تماماً ما جاء لدى الطبري.

وقد أفاد الشيخ رشيد من تفسير الطبري في أسباب النزول ففي قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥] يقول: «قال

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٢٤٠).

(٢) «جامع البيان» (٢٧: ١٧٩) (دار المعرفة).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢٣٣). وهو في جامع البيان» (٦: ١٩٣) (دار المعرفة)، (١٠: ٤٤٩) (دار المعارف بمصر).

قتادة وغيره: بينما كان رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وبين يديه أناس من المنافقين، قالوا فيما بينهم: أيرجو هذا أن يُفتح له قصورُ الشام وحصونُها؟ هيهات هيهات. وقال بعضهم لبعض: أيحسبون قتالَ بني الأصفر كقتال غيرهم، والله لكأنّا بكم غداة تُقادون في الحبال. فأطلَع الله نبيَّه على ذلك، فقال ﷺ: احبسوا هؤلاء الرَّكْب، فأتاهم فقال لهم: قلتم كذا وكذا؟ قالوا: يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب، فقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾(١) فنقل الرواية هنا باللفظ من تفسير الطبري(٢).

كما أفاد من روايات الطبري في تفسير طائفة من الألفاظ الغريبة في القرآن كلفظة: ﴿الْهِيمِ ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ [الواقعة: ٥٥] إذ قال: «قال ابن عباس، وعكرمة، وقتادة: هي الإبل التي أصابها الهيام وهو شدَّة العطش فلا تزال تشرب حتى تموت»(٣).

والذي قاله الطبري: «عن ابن عباس: (شرب الهيم)، يقول: شرب العطاش... وعن عكرمة: شرب الإبل المراض تمصُّ الماء مصّاً فلا تروى، وعنه أيضاً: الإبل يأخذها العطاش فلا تزال تشرب حتى تهلك... وعن قتادة: الهيم: داء بالإبل لا تروى معه»(٤). ويلحظ هنا أن الشيخ رشيد أوجز الرواية بإيراد فحواها المشترك دون التفصيل الذي فيها.

وقد ينقل دلالة اللفظ الغريب من تفسير الطبري من غير أن يشير إليه كما في تفسير (المهل) في قوله تعالى: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ ﴾ [الكهف: ٢٩] إذ قال: «أي الحديد

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ١٠٥).
(٢) «جامع البيان» (١٠: ١١٩) (دار المعرفة)، (١٤: ٣٣٤).
(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٢٦٣).
(٤) «جامع البيان» (٢٣: ١٣٦).

أو مطلق المعدن المذاب، أو عكر الزيت»[١]. وهو عين ما جاء لدى الطبري[٢] منسوباً إلى ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد.

ومثله ما جاء في تفسير لفظة (أزكى) من قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩] إذ قال: «أيّ أهل المدينة أحلُّ طعاماً؛ إذ كان فيهم المجوس»[٣].

٢ـ معالم التنزيل للبغوي:

مؤلفه الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بابن الفرّاء، والبغوي نسبة إلى بغ وبغشور، وهي بلدة في خراسان، توفي سنة ٥١٦هـ[٤]. ويقول عنه السيوطي[٥] (ت٩١١هـ): «كان إماماً في التفسير» ويعدّ تفسيره من التفاسير المتوسطة التي تعنى بالأثر، لأن التفاسير التي سبقته كالطبري (ت٣١٠هـ)، والسمرقندي (ت٣٧٥هـ)، والثعلبي (ت٤٢٧هـ) من التفاسير المطوّلة[٦].

نقل الشيخ رشيد من تفسير البغوي في بضعة مواضع ما يتعلق بأسباب النزول كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ...﴾ [الأنفال: ٤٧] فقد قال: «قال البغوي: نزلت هذه الآية في المشركين حيث أقبلوا إلى بدر، ولهم بغي وفخر، فقال رسول الله ﷺ: اللهمّ هذه قريش قد أقبلت بخُيلائها

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٢٥).

(٢) «جامع البيان» (١٥: ١٥٨) (دار المعرفة).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ١٧). وهو الذي عند الطبري (١٥: ١٤٨) (دار المعرفة).

(٤) «البغوي ومنهجه في التفسير» لعفاف عبد الغفور حميد ص٢٦. و«طبقات المفسرين» للسيوطي ص١٢-١٣.

(٥) «طبقات المفسرين» ص١٢. وينظر: «البغوي ومنهجه في التفسير» ص١٤٤.

(٦) «البغوي ومنهجه في التفسير» ص١٦٨.

وفخرها تُحادّك وتكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني»[١]. والنقل باللفظ من البغوي[٢].

كما أفاد منه في وجوه التفسير ما يتعلّق برفع لبس قد يقع القارئ فيه إذا أخذ بظاهر الآية، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، إذ يقول: «قال البغوي: إنَّ طلب بني إسرائيل هذا لم يكن عن شكٍّ منهم بوحدانيته تعالى، وإنما كان غرضهم إلهاً يعظمونه ويتقرَّبون بتعظيمه إلى الله تعالى، وظنُّوا أن ذلك لا يضر بالديانة، فقال لهم موسى: إنكم قوم تجهلون ما يجب من انفراد الرَّبِّ تعالى بالعبادة من غير واسطة»[٣].

وعند الرجوع إلى نصِّ البغوي تبيَّن أن هناك تغايراً طفيفاً بينهما في اللفظ، على أن البغويَّ يقوم بعرض التفسير في مواضع بأسلوب المواشجة بين كلامه وبين النص القرآني لتوضيح المعنى وهو أسلوب معروف لدى كثير من المفسرين وخاصة المتأخرين منهم، كما في تفسير هذه الآية التي مرت؛ إذ يقول: «وكان لشدة جهلهم، قال موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عظمةَ الله، ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ﴾ مهلكٌ ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ والتتبير: الإهلاك ﴿وَبَـٰطِلٌ﴾ مضمحلٌّ وزائل ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ قَالَ﴾ يعني موسى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ﴾ أي: أبغي لكم»[٤].

وهذا يلحظ أيضاً في منهج الشيخ رشيد، ولعلَّه أفاد ذلك منه، إذ يلتقيان في الحرص على الإيجاز.

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٣٧).

(٢) «معالم التنزيل» (٣: ٣٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٤٧٠).

(٤) «معالم التنزيل» (٢: ٢٣٠).

٣ـ الكشاف عن حقائق التأويل:

مؤلف هذا التفسير: جار الله محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري المعتزلي، المتوفى سنة (٥٣٨هـ) وهو إمام في التفسير والنحو واللغة والأدب، وله تصانيف كثيرة متنوعة المادة، ومن أجَلِّها تفسيره الذي يُعدُّ من خيرة التفاسير القرآنية[١]. والكشاف بغضِّ النَّظر على ما فيه من اعتزال، تفسير متميِّز عن غيره بكثير من الصفات وخاصَّةً بيان وجوه الإعجاز القرآني[٢]. لذلك أفاد منه غير واحد من قدامى المفسرين، بمن فيهم أهل السنة كالرازي (ت٦٠٦هـ)، والنسفي (ت٧٠١هـ)، وابن حيان (ت٧٥٤هـ)، كما أفاد منه من الإمامية الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، فجمع بينه وبين تفسيره: «مجمع البيان» وسمَّاه: «جوامع الجامع»، وهو مطبوع في إيران طبعة حجرية.

ولما كان الشيخ كثير المَيْل إلى الجانب العقلي من التفسير فقد لقي في تفسير الكشاف ما ينقع غلته، ويحقق وجهته، فنقل منه كثيراً من وجوه التأويل، إما باللفظ كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٠] إذ نقل قول الزمخشري: «معنى قوله: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً ﴾: لا يزال هدمه سببَ شكٍّ ونفاق زائد على شكّهم ونفاقهم لا يزول وسْمُه عن قلوبهم، ولا يضمحلُّ أثره، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ قِطعاً، وتفرّق أجزاءً، فحينئذ يسلون عنه، وأما مادامت سالمة فالريبة باقية متمكنة فيها»[٣]. وهو نصّ كلام الزمخشري[٤]،

(١) «وفيات الأعيان» (٢: ٥٠٩-٥١٣)، مكتبة النهضة، الطبعة الأولى ١٩٤٨م. «طبقات المفسرين» للداودي (٢: ٣١٤-٣١٦).

(٢) «التفسير والمفسرون» للذهبي (١: ٤٣٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ١٣٢).

(٤) «الكشاف» (٢: ٣١٣).

ماعدا (فيها) الأخيرة إذ تقدمت لفظة (متمكنة)، وهي في نصّ الزمخشري متأخرة.

وقد ينقل عنه بالمعنى، وبإيجاز، على نحو ما وَرَد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، إذ قال: «فالآيـةُ ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين، ونجاة الصالحين الذين نهوهم عن عمل السّوء وارتكاب المنكر، وسكـتت عن حكم الفرقة التي لم تـنه عن المنكر، بل أنكرت على الواعظين. فقيل: إنها لم تنج لأنها لم تنه عن المنكر، بل أنكرت على الذين نهوا. وقيل بل نجتْ لأنها كانت يائسةً من فائدة النهي، جازمةً بأن القوم قد استحقُّوا عقاب الله بإصرارهم فلا يفيدهم الوعظ. وقد رجّح الزمخشري هذا الرأي، ورُوي أيضاً عن ابن عباس وتلميذه عكرمة»[١].

وعند الرجوع إلى «الكشاف»[٢] تبيّن أنه يعرض المسألة على طريقته في (الفنقلة)[٣] بإلقاء سؤال، والإجابة عنه مع التفصيل، وبنفس المعنى.

وأفاد الشيخ من الزمخشري من غير أن يشير إليه مراراً، كما في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فقد فسَّرها بوجه مغاير للمشهور بأن عَدَّ حَمْل الأمانة على معنى الخيانة، فيكون معنى الآية أن السموات والأرض أبين أن يخنّ الأمانة. وكانت تأديتهنّ حسب طبيعتهنّ على أكمل وجه. أما الإنسان فقد ضيَّعها كلَّها أو بعضَها[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٤٩٠).

(٢) «الكشاف» (٢: ٣١٣).

(٣) يعني: قوله: «فإن قلتَ... قلتُ...».

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ٩٢-٩٣).

وما ذهب إليه هنا الشيخ كان الوجه الأول الذي أورده الزمخشري بقوله: «إن هذه الأجرام العظام كالسموات والأرض والجبال، قد انقادت لأمر الله عزَّ وجلَّ انقياد مثلها ـ وهو ما يتأتّى من الجمادات ـ فأطاعت له الطاعة التي تصحُّ منها وتليق بها.. كما قال: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وأما الإنسان فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعات ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه... والمراد بالأمانة: الطاعة، وعرضها على الجمادات وإشفاقها: مجاز. وأما حَمْل الأمانة فمن قولك: فلان حمل الأمانة ومحتمل لها، تريد أنه لا يؤدّيها إلى صاحبها...» [١].

ومن أساليبه في النقل من «الكشاف» تصريحه باسم مصنِّفه كقوله: «ذكر الزمخشري»[٢] أو التكنية عنه بقوله: «قال صاحب الكشاف»[٣]، أو إضمار اسمه الصريح والاكتفاء باسم تفسيره لشهرته بقوله: «قال في الكشاف»[٤].

ولما كان الزمخشري نحوياً[٥] كما أشرت سالفاً، فقد أفاد الشيخ رشيد من مادة التفسير النحوية فيه كما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ...﴾ [آل عمران: ١٥٣] إذ قال: «قال في «الكشاف»: ويجوز أن يكون الضمير في ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ للرسول أي: آساكم في الاغتمام»[٦]. وذلك بعد أن بيّن الشيخ أنَّ الضمير يعود على الله عزَّ وجل[٧].

---

(١) «الكشاف» (٣: ٥٦٣-٥٦٤).

(٢) «أولى ما قيل» (المقدمة ١: ٦٧٤).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٣٠).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٤٠٠).

(٥) ينظر: «الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري» لفاضل السامرائي، بغداد ١٩٧١.

(٦) «الكشاف» (١: ٤٢٧).

(٧) «أولى ما قيل» (٢: ٥٥٩). وفي «الكشاف» (١: ٤٢٧).

ولما كان الزمخشري بلاغياً كبيراً وتفسيرُه مشهور بالكشف عن الوجوه البلاغيَّة المعجزة[١]، فقد أخذ منه في البلاغة.

ومن ذلك ما نقله عنه في تفسير سورة الفاتحة إذ يقول: «كما ذكر الزمخشريُّ في سورة الفاتحة حيث قال ما ملخَّصه: إنَّ العبد إذا افتتح حمد مولاه الحقيقي عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لـما هو فيه بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الدالّ على اختصاصه بالحمد وأنه حقيقٌ به، وجد العبدُ من نفسه محركاً للإقبال عليه، وإذا انتقل إلى قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الدالِّ على أنه مالك للعالمين المدبِّر لهم، قويَ ذلك المحرِّك...»[٢]. وهو معنى كلام الزمخشري[٣].

٤ـ مجمع البيان لعلوم القرآن:

مؤلف هذا التفسير أبو علي، الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، المفسِّر الفقيه المحدِّث الإمامي، المتوفى سنة (٥٤٨هـ)، كان يروي عن جماعة منهم الشيخ أبوجعفر محمد بن الحسن الطُّوسي المتوفى سنة (٤٦٠هـ)، وله تصانيف منها: تفسيره المطوَّل هذا الذي سمّاه «مجمع البيان»، و«الوسيط في التفسير»، و«جوامع الجامع» الذي جمع فيه بين «مجمع البيان» و«الكشاف»، و«الوجيز» و«إعلام الورى بأعلام الهدى»، و«تاج المواليد والآداب الدينيَّة»، وله تصانيف أخرى في الفقه والكلام، ويعدّ من مجتهدي علماء الإماميَّة[٤].

---

(١) ينظر: «منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه» للدكتور مصطفى صاوي الجويني. وينظر: الزمخشري البليغ للدكتور مصطفى ناصف، رسالة دكتوراه سنة ١٩٥٤، محفوظة بجامعة القاهرة، نقلاً عن الدكتور كاصد الزيدي.

(٢) «أولى ما قيل» (المقدمة ١: ٦٧٤).

(٣) «الكشاف» (١: ١٤).

(٤) «مجمع البيان» (١: ٧-١٥)، مقدمة بقلم محمد الأمين. «التفسير والمفسرون» (٢: ٩٩-١٠٠).

أقام المؤلِّف مباحثه على سبعة موضوعات، افتتح كلًّا منها بآية أو أكثر من القرآن الكريم مع بيان رقمها، ثم ثنّى بالمواضيع ببحثها عنواناً عنواناً: القراءة، فالحجَّة، فاللغة، فالنزول، فالإعراب، فالمعنى. غير أنَّ ذلك لم يطّرد لديه في التفسير كلِّه وربما كان ذلك اختصاراً. وهو في هذا آخذ بمنهج ابن جعفر محمد بن الحسن الطوسي؛ إذ كان هذا المفسِّر أولَ من عمد إلى هذا المنهج(١).

والحق أن تفسير الطبرسي.. غزيرُ المادة، لذا أفاد منه الشيخ رشيد كثيراً. وقد نقل منه نصوصاً عن تفاسير قديمة لكبار المعتزلة كأبي علي الجبائي (ت٣٠٣هـ) صاحب التفسير الكبير المفقود، ومن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، إذ يقول: «قال الجبائي: إنما قال ذلك بعض من فقد الصاع من قوم يوسف من غير أمره ولم يعلم ما أمر به من جعل الصاع في رحالهم»(٢)، وهو عين ما جاء في مجمع البيان(٣). وهناك عدة نصوص(٤) للجبائي استقاها من تفسير الطبرسي. كما نقل عن مفسر معتزلي كبير آخر هو أبو القاسم البلخي (ت٣١٩هـ)، الذي أورد عنه مادة في التأويل، ومن ذلك أنَّ المفسرين قد أرجعوا الضمير (به) في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٧] إلى القرآن الكريم. إلا أن البلخي والقفَّال (ت٣٦٥هـ) اللَّذَين نقل الشيخ رأيهما باختصار أرجعا الضميرَ إلى عمل الإنسان المحاسَب يوم القيامة(٥). (أي علينا بحكم الوعد أن

---

(١) «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» لكاصد الزيدي، المقدمة.

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٣٢٦).

(٣) «مجمع البيان» للطبرسي (١٣: ٩٥). وينظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٩: ٦٩-٧٠).

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ٢٣٦)، (٥: ١٨٣)، (٦: ٣٤٣).

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ٦٨)، وينظر: (٧: ٢١٠).

نحصي عملك ونجمعه عليه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ عليك ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: فتتبع قراءته عليك فعلاً فعلاً ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ وإثباته إن زعمت أنك لم تفعله كلّه أو بعضه، هذا ملخص ما قاله القفال والبلخي[١]. وهذا الرأي بعيد فقد روى البخاريُّ والترمذيُّ[٢] في سبب نزول هذه الآية أنها كانت خطاباً للرسول ﷺ.

وممّا نقله من «مجمع البيان» أقوال أبي مسلم محمد بن بحر المتوفى سنة (٣٢٢هـ) صاحب التفسير المفقود أيضاً المسمى «جامع التأويل لمحكم التنزيل»[٣] على نحو ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] إذ قال: «قال أبو مسلم: بل إن يوسف أمر المنادي بأن ينادي به، ولم يرد به سرقة الصاع، وإنما عنى به: إنكم سرقتم يوسف عن أبيه وألقيتموه في الجُبِّ، فيكون من باب الإبهام والتعريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب»[٤]. وهذا التأويل شبه حرفي من تفسير الطبرسي[٥].

وتفسير قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧] ذكر أنَّ الجبائي وأبا مسلم قالا: «أي: مرجوم مرمي بالشهب»[٦].

---

(١) «مجمع البيان» (٢٩: ١٢٧).

(٢) «التاج الجامع للأصول» (٤: ٢٧٧-٢٧٨)، «صحيح البخاري» (٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، و«سنن الترمذي» (٣٣٢٩)، ورواه مسلم (٤٤٨). (مجد).

(٣) ابن النديم: الفهرست ص٥١، طبعة دار الحرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٣٢٦)، والحديث رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٥٧)، قال مخرجه: صحيح موقوفاً.

(٥) «مجمع البيان» (١٣: ٩٥)، والحديث رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٥٧)، قال مخرجه: صحيح وقوفاً.

(٦) «أولى ما قيل» (٤: ٤٢١). وفي «مجمع البيان» (١٤: ٩).

كما أخذ من الطبرسي نقولات عن الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ)، وأبي جعفر ابن بابويه القمي (ت٣٨٥هـ) العالِمين الإماميْن الكبيرَين، كالذي أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩] إذ قال: «وقد جاء في «مجمع البيان»: قيل لأبي جعفر: أكان أولاد يعقوب أنبياء؟ فقال: لا ولكنهم كانوا أسباطاً أولاد أنبياء. ولم يفارقوا الدنيا إلا سعداء، تابوا وتذكَّروا ما صنعوا، وقال المرتضى: لم يقم لنا حجَّة بأن إخوة يوسف الذين فعلوا ما فعلوا كانوا أنبياء، ولا يمتنع أن يكون الأسباط الذين كانوا أنبياء غير هؤلاء الإخوة، إذ ليس في ظاهر الكتاب أن جميع إخوة يوسف فعلوا هذا»[١]. والنقل لكلام المرتضى من «مجمع البيان» كان باللفظ لولا ما حذف في آخر الكلام بعد إخوة يوسف «وسائر الأسباط»[٢].

ونقل من «مجمع البيان» أقوالاً لأبي إسحاق الزجَّاج (ت٣١١هـ) اللغوي النحوي كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، إذ قال: «قال في «مجمع البيان»: قال الزجَّاج: والمعنى أنَّ يوماً عند ربك وألفَ سنة واحدٌ في قدرته تعالى، فلا فرق بين وقوع ما تستعجلون به من العذاب وبين تأخُّره في القدرة، إلا أنه سبحانه تفضَّل بالإمهال إذ لا يفوته شيء»[٣]. والنقل فيه باللفظ[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٨١).

(٢) «مجمع البيان» (١٣: ١٧).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٢٤١).

(٤) «مجمع البيان» (١٧: ١١٧).

كما نقل من «مجمع البيان» عن ابن جنِّي من غير أن يشير إليه، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] إذ قال: «قال ابن جنّي: والمعنى لا تفعلوا ما تؤثرونه وتتركوا ما أمركم به الله ورسوله»[١]. والكلام منقول من «مجمع البيان» باللفظ[٢].

ونقل من «مجمع البيان» من أسباب النزول كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣]، إذ بيّن أنَّ صاحب «مجمع البيان» قال: «إنها نزلت في وفد ثقيف قالوا: نبايعك على أن تعطينا ثلاثاً، أن لا ننحني أو نحبي ـ يعنون بعض أفعال الصلاة ـ ولا نكسر أصناماً بأيدينا، وتمتعنا باللات سنة. فقال رسول الله ﷺ: لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود. فأما كسر الأصنام بأيديكم فذاك لكم، وأما الطاعة للّات فإنِّي غير ممتِّعكم بها. فقام رسول الله ﷺ وتوضأ دفعاً لغضبه، فقال عمر بن الخطاب: ما بالكم آذيتم رسول الله ﷺ، إنه لا يدعُ الأصنام في أرض العرب. فما زالوا به حتى أنزل الله الآيات»[٣]، وعند الرجوع إلى «مجمع البيان» تبيَّن أن اللفظ واحد إلا عبارة «أن لا ننحني أو نحبي»، فقد جاءت في «مجمع البيان»[٤]: «أن لا ننحني بفنون الصلاة».

ويبدو أن الشيخ اعتمد روايةً أخرى مأثورةً كان يحفظها، فضلاً عن أنه لم يعزُ هذه الرواية إلى راويها الأوَّل مكتفياً بإيرادها عن «مجمع البيان» على حين عزاها الطبرسيُّ إلى ابن عباس رضي الله عنه.

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ١١٠).

(٢) «مجمع البيان» (٢٦: ٨٢).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٥٦٣)، ورواه بنحوه أحمد في «مسنده» (١٧٩١٣).

(٤) (١٥: ٨٠).

ونقل الشيخ رشيد عن الطبرسي أقوالاً في معاني الآي كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠] إذ يقول: «قال في «مجمع البيان»: أي فإذا أوذي بسبب دين الله رجع عن الدِّين مخافةَ عذاب الناس»[١].

وقد أفاد الشيخ في مواضع من نقولات «مجمع البيان» في نحو القرآن عن بعض النحاة القدامى من غير أن يشير إليه.

فمن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٦]، إذ قال: «فيجوز أن تكون اللام للأمر والكلام على التهديد، أو لام كي، والكلام لزيادة التشنيع والتوبيخ»[٢]. وهذا ما جاء في «مجمع البيان» معزواً لأبي علي ـ أي: الفارسيِّ المتوفى سنة (٣٧٧هـ) لأن الأمر يتعلَّق بالقراءات ـ[٣] «إن جعلت اللام للأمر فمعناه التهديد، أي ليجحدوا أَنْعُمَ الله في إنجائه إيَّاهم وليتمتَّعوا بباقي عمرهم فسوف يعلمون عاقبةَ كفرهم، وإنْ جعلتها لام كي فالمعنى أنهم مشركون ليكفروا. وقد مرَّ معناه»[٤].

٥ـ مفاتيح الغيب:

مؤلفه أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين التميمي البكري الرازي الملقب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب أو ابن خطيب الري، المتوفى سنة (٦٠٦هـ).

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٥٢٤). «مجمع البيان» (٢: ٣٤١).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٥٥٠).

(٣) ولأبي علي الفارسي كتاب في القراءات اسمه: «الحجَّة في علل القراءات السبعة».

(٤) «مجمع البيان» (٢٠: ٣٨١).

كان من مشاهير أهل العلم في عصره، متبحِّراً في العلوم العقلية والشرعية، وكان أصولياً كبيراً ومن كبار الشافعية، وله مشاركة طيبة في علوم العربية يتجلّى ذلك في كتبه: «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز»، و«شرح نهج البلاغة»، و«المحرر في دقائق النحو» وغيرها. وكان فوق ذلك مُبرِّزاً في الطِّبِّ والفلسفة والحكمة وعلم الكلام(١).

ويعدّ تفسيره الكبير «مفاتيح الغيب» نسيج وحده في المنهج، إذ جمع فيه بين العقل والنقل، فضلاً عن العلوم الطبيعية كالفلك والنبات وغيرهما. اعتمد الشيخ في تفسيره على «تفسير الرازي» اعتماداً كبيراً، وكان في هذا الصنيع موافقاً لعمل الشيخ محمد عبده، إذ كان هذا التفسير من مصادره المهمة.

أفاد الشيخ رشيد من «تفسير الرازي» فائدتين أساسيتين:

إحداهما: طائفة من تأويلات الرازيِّ التي عُرف بها وتفرَّد في كثير منها، كتفسير قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣] إذ قال: «وقال الرازيُّ: إذا تصاعدت الأبخرةُ من البحار، فإن كان في الـهواء من الحرارة ما يـحلل ذلك البخار فحينئذ ينحلُّ وينقلب هواءً، فإن لم يكن في الهواء مثل تلك الحرارة، فإن بلغت تلك الأبخرةُ المتصاعدةُ إلى الطبقة الباردة من الهواء، فإمَّا أن يكون البرد قويّاً أو لا، فإن لم يكن قوياً، تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد، واجتمع وتقاطر مطراً، وإن كان البرد قويّاً فلا يخلو إما أن يصل البردُ إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حباتاً كباراً، أو بعد صيرورتها كذلك. فإن كان على الوجه الأول نزل ثلجاً، وإن كان

---

(١) ينظر: ظلال يحيى إبراهيم: «الرازي النَّحوي» ص١٩-٢٢، رسالة ماجستير ١٩٨٦، مخطوطة. وينظر: ماهر مهدي هلال: الرازي بلاغياً، الدار الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٧٧. وينظر: محسن عبد الحميد: الرازي مفسِّراً.

على الوجه الثاني نزل بَـرَداً»[١]. وهذا الذي نقله استقاه باللفظ من الرَّازي[٢].

ونقل عنه طرفاً من أجوبته عمَّـا أشكل من المسائل كمـا في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢] إذ بيّن أنَّ الرازي قال: «فإن قيل: كم من مضطر يدعو فلا يُجاب له؟ قلنا: جاء في الأصول أن المفرد المعرَّف لا يفيد العموم وإنما يفيد الماهية، والحكم المثبت للماهية يكفي في صدقه ثبوتُه في بعض أفراد الماهية، وأيضاً فإن الله تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب في الحال»[٣]. ونصُّ الرازي[٤]: «فإن قيل: قد عمَّ الـمضطرين بقوله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ... ﴾ وكم من مضطر يدعو فلا يجاب.

(جوابه) قد بيّنا في أصول الفقه أنَّ المفرد المعرَّف لا يفيد العموم وإنما يفيد الماهيَّة فقط والحكم المثبت للماهيَّة تكفي صدقه ثبوته في فرد واحد من أفراد الماهية، وأيضاً فإنَّ الله وعد الاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب في الحال...».

والثانية: أنه نقل أقوالاً وتأويلاتٍ لمشاهير المفسِّرين القدامى، كالقفَّال محمدِ بن إسماعيل الشاشي[٥] (ت٣٦٥هـ)، وأبي مسلم[٦] (ت٣٢٢هـ) فممّا نقله عن الرازي

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٣٣٦).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٤٦٠).

(٤) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٢٠٨-٢٠٩).

(٥) إمام في التفسير والأصول وله مصنفات جليلة منها «شرح الرسالة» وعنه انتشر الفقه الشافعي في ما وراء النهر، وكان مائلاً إلى الاعتزال ثم رجع إلى مذهب الأشعري. «طبقات الشافعية» (٣: ٢٠٠-٢٠١).

(٦) محمد بن بحر الأصفهاني، كان كاتباً مترسلاً جدِلاً، ومفسراً معتزلياً. «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (١٨: ٣٥).

من أقوال القفّال ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٧]، إذ قال: «وقال القفّال ما ملخَّصه: إنَّ معنى الآية: إنَّ القول بالبعث سحر مبين، أي: خديعة ظاهرة البطلان وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا لينقادوا لكم، وليدخلوا تحت طاعتكم»[١]. وهذا الكلام قريب في لفظه مما ورد في «مفاتيح الغيب»[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١] ينقل الشيخ رأي القفَّال فيها من الرازي[٣] بقوله: «ومن القائلين بشمول الزينة لمحاسن الوجه ـ القفَّال، فقال في معنى الآية: إلا ما تظهر المرأة في العادة الجارية، وهو الوجه والكفَّان فأُمِرنَ بستر ما لا تؤدي الضرورة إلى كشفه»[٤].

ونقل عن أبي مسلم نقولاً كثيرة منها، قوله في تفسير الآية: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، إذ قال: «وخالفهم أبو مسلم ـ أي المفسِّرين ـ فقال: ليس في الكلام ما يدلُّ على أنه فعل ذلك، وما كل أمر يقصد به الامتثال، لاسيما إذا أريد به زيادة البيان، كما إذا سألك سائل: كيف يُصنع الحبر؟ فتقول: خذا كذا وكذا يكن حبراً، تريد هذه كيفيته، ولا تعني تكليفه صنع الحبر فعلاً... والكلام ههنا مثل لإحياء الموتى وعَـوْد الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة ودون اختلاف. ومعناه خذ أربعة من الطير فضمَّها إليك وآنِسْها بك حتى تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك؛ فإنَّ الطيور من أشدِّ الحيوانات استعداداً لذلك.. ثم اجعل كلَّ جزء منها على جبل، ثم

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢١٤).

(٢) «تفسير الرازي» (١٧: ١٨٨).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٣: ٢٠٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٥: ٣١٤).

ادعها فإنّها تسرع إليك عارفة أماكنها، لا يمنعها تفرُّق أمكنتها وبُعدُها من ذلك، كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين فيكونوا أحياء، كما كان شأنه في بدء الخلق إذ قال للسموات والأرض: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] من الرازي بتصرف»[١].

وهذا الكلام استقاه الشيخ من «تفسير الرازي»، وكان النقل بتصرُّف كما أشار إذ توسَّع في توضيح فكرة أبي مسلم.

ونقل عنه في (النظم) عدداً من لفتاته الرائعة، منها ما أورده في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ [الأنعام: ١٣] فقد بيَّن أن أبا مسلم قال: «ذكر في هذه الآية الأولى السموات والأرض؛ إذ لا مكان سواهما، وذكر في هذه الآية الليلَ والنهارَ؛ إذ لا زمان سواهما، والزمان والمكان هما: ظرفا المحدثات. فأخبر سبحانه أنه مالك للزمان والزمانيَّات، والمكان والمكانيَّات، ولا يخفى عليه شيء من أمرهما»[٢].

وقد استحسن الرازي هذا القولَ وعدّه «من أحسن ما قيل في نظم هذه الآية»[٣].

كما أفاد الشيخ من الرازي نقولاً عن أبي بكر بن الأنباري (ت٣٢٨هـ) والزجّاج (ت٣١١هـ)، والمبرّد (ت٢٨٥هـ).

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١] يقول: «قال ابن الأنباري: أن ﴿مِنۡ﴾ بمعنى الباء أي بأمر الله»[٤]. وهو عين ما ذكره الرازي[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٣٩٣). وهو في «مفاتيح الغيب» (٧: ٤١).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٢٩٢).

(٣) «مفاتيح الغيب» (١٢: ١٣٨).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٣٥٧).

(٥) «مفاتيح الغيب» (١٩: ١٧).

وفي قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ [النحل: ٩٢] ينقل رأيَ الواحديِّ والزجّاج، فيقول: «قال الواحديُّ: الدَّخَل: الغِشُّ والخيانة، وقال الزجّاج: كلُّ ما دخله عيب قيل: هو مدخول وفيه دخل»[١]. وهو ما ورد في «تفسير الرازي»[٢]. وما رجح لدينا أن رأي الزجاج أخذه من الرازي برغم ورود كلام الزجاج في «معاني القرآن وإعرابه»[٣] إذ إنّ رأي الواحدي والزجاج جاءا في الرازي متتابعين أيضاً.

٦ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل:

مؤلف هذا التفسير قاضي القضاة عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشافعي كان إماماً في الفقه والتفسير وغيرهما، توفي سنة ٦٩١ للهجرة، وله عدّة مصنفات أهمها «المنهاج» و«شرحه» في أصول الفقه، و«الطوالع في أصول الدين». وتفسيره هذا «أنوار التنزيل» موجز استقاه من «الكشاف»، ولكنه ترك ما فيه من اعتزال وأضاف إليه أقوالاً واستنباطاتٍ أخرى[٤].

أفاد الشيخ رشيد من «تفسير البيضاوي» في عدّة مواضع، منها ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح: ٢٤]، إذ قال: «وقال البيضاوي، لعل المطلوب هو الضلال في ترويج مكرهم بأن يفشلوا في ذلك لا في أمر دينهم»[٥] وهو كلام البيضاوي بلفظه، لولا إبدال الشيخ عبارة بعبارة لزيادة التوضيح فنصّ

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٤٩٣).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٠: ٨٧).

(٣)(٣: ٢١٧).

(٤) «التفسير والمفسرون» (١: ٢٩٧). «طبقات الداودي» (١: ١٠٢-١٠٣). «شذرات الذهب» لعبد الحي بن العماد الحنبلي (٥: ٣٩٢)، المكتب التجاري للطباعة والنشر.

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ١٦).

البيضاوي هو: «ولعل المطلوب هو الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم لا في أمر دينهم».

ونقل عن البيضاوي في موضع آخر باللفظ، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٤] إذ قال: «قال البيضاوي: وقيل المراد بالنفث في العقد: إبطال عزائم الرجال بالحيل، استعارة من تليين العقد بنفث الريق عليها ليسهل حلها»[(١)].

ونقل منه حديثاً شريفاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر: ٤٦] مبيناً أن حاكيه هو البيضاوي، وهو: «روي عن ابن مسعود: أنَّ أرواحَهم في أجواف طير سُود، تُعرض على النار بكرةً وعشياً إلى يوم القيامة»[(٢)].

٧ـ تفسير القرآن العظيم:

مصنفه الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير الدمشقيُّ الفقيه الشافعي[(٣)].

قال الداودي[(٤)]: كان قدوةَ العلماء وعمدة أهل المعاني للألفاظ، وُلِيَ مشيخة أمّ الصَّالح بعد موت الذهبي، ومشيخة دار الحديث الأشرفية بعد موت السبكي مدة يسيرة، توفي سنة ٧٧٤هـ[(٥)].

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٤١٣). وانظر: البيضاوي ص٨١٥.

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٣٣٠). وانظر: البيضاوي ص٦٢٤.

(٣) «التفسير والمفسرون» (١: ٢٤٢).

(٤) «طبقات المفسرين» (١: ١١٠-١١٢).

(٥) «التفسير والمفسرون» (١: ٢٤٤).

نقل الشيخ رشيد[١] مادة من هذا التفسير مراراً على نحو ما أورد في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤-١٥] فقد قال: «قال ابن كثير: أجابه سبحانه إلى ما سأل لـما في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ولا معقِّبَ لحكمه»[٢]. والنقل هنا باللفظ.

كمـا نقل عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ...﴾ [الإسراء: ٦٥] بقوله: «قال ابن كثير: إن هذا الخطاب للتكوين، فهو عبارة عن بيان الواقع في صفة طبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان»[٣].

وعند الرجوع إلى موضع تفسير هذه الآية، لم يتبيَّن وجود هذا الكلام فيه[٤]،

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٤١٣).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣: ١٥٠)، دار الأندلس للطباعة والنشر، طبعة أولى ١٩٦٦، بيروت، أشرف على طبعها وتحقيقها لجنة من العلماء، سبعة مجلدات.

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٥٥٦).

(٤) كلام الحافظ ابن كثير أورده في تفسير هذه الآية من سورة الإسراء: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ...﴾، ولفظُه فيه: «ومعناه: تَسَلَّطْ عليهم بكلِّ ما تقدر عليه. وهذا أمر قدريٌّ، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣] أي: تُزعجُهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقُهم إليها سَوقاً». انتهى.

وما نقله الأخ الكريم الدكتور خالد بعدَ ذلك من تفسيرِ سورةِ الأعراف قريبٌ منه أيضاً.

وقول الشيخ غفر الله له: «فهو عبارة عن بيان الواقع في صفةِ طبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان» يَنسبه لابن كثير، مُصاغٌ بعبارة الشيخ حسب فهمِه لِـما قرَّره ابنُ كثير، وبدهيٌّ ألا يجد الأخ الكريم العبارة كما أوردها عند ابن كثير، لأن ابنَ كثير أبعد ما يكون عن هذا التوجيه للنص، وهو مَنْ هو التزاماً بالنص، ودلالتِه الصارخة، ولا أرى مِن صلة، بين ما جاء في عبارة الشيخ المنسوبة لابن كثير، ولوى عنقها إليه، وما أتى على لسانِ ابن كثير في تفسيره. وينظر مقدمتي =

ولكن هناك ما قد يشبهه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٣] إذ فيه: «يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قَدَري كوني ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي فما يكون لك أن تتكبَّر فيها»(١). ومن البيِّن أن الشيخ يريد أن يؤيد رأيه في مسألة الحوار الذي دار بين الله عزَّ وجلَّ والشيطان على أنه تمثيلٌ لا حقيقة بنقول من مفسِّرٍ شديدِ التمسُّك بالأثر، ولا أدري إن كان كلام ابن كثير يفهم منه ما أراده الشيخ(٢).

٨ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:

مؤلفه برهان الدين أبو الحسن إبراهيم البقاعي المتوفَّى سنة ٨٨٥هـ، وهذا التفسير كثير العناية بتناسب الآيات والسور في القرآن، يقول صاحبه: «هذا كتاب

= للكتاب وما أوردتُه من كلام شيخنا عبد الكريم تتان في التعقيب على المؤلف رحمه الله تعالى. (مجد).

(١) «تفسير ابن كثير» (٣: ١٥٠).

(٢) ليس مراد ابن كثير ما استشهد به الخطيب الموصلي من جعل الحوار تمثيلاً، ولكن ابن كثير يريد أن يبيِّن أن هذا الأمر ليس المقصود منه الامتثال، وأنَّ امتثاله ليس بطاعة، وإنما المقصود منه التخلية بين إبليس وبين ما يريد من إغواء بني آدم، وعدم منعه من ذلك، فعبَّر ابن كثير عن هذا المعنى بالأمر القدري أو الكوني، أي: يقول الله تعالى لإبليس: أنت تريد ذلك فلك أن تفعله من غير أن أحولَ بينك وبينه، وهذا المعنى لا يقتضي أن يكون الحوار تمثيلاً.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فإنّه أمرُ تهديد، ولا يعني هذا أن الله تعالى لم يُخاطبنا بهذا اللفظ، بل الخطاب صادر، لكن المقصود منه التهديد، لا الطلب.

وليكن ما في آية الإسراء كذلك، الخطاب والحوار من الله تعالى لإبليس حاصل فعلاً، وليس تمثيلاً فحسب، ولكن المقصود منه التقدير والتكوين، لا الطلب. والله تعالى أعلم. (مجد).

عجاب، رفيع الجناب في فنٍّ ما رأيت من سبقني إليه، ولا عوّل ثاقب فكره عليه، أذكر فيه إن شاء الله مناسبات ترتيب السور والآيات[(١)].

وقد ذكر السيوطي[(٢)] هذا التفسير بقوله: «أفرده بالتأليف.. ومن أهل العصر الشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سمّاه «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»[(٣)].

وهو من التفاسير التي أفاد منها الشيخ رشيد في موضوع المناسبة بين الآيات آخذاً بالمعنى، وقد أشار إلى ذلك في عدة أماكن منها تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، فقد قال: «قال البقاعي: ولمّا كان المالُ عديلَ الروح، ونهى عن إتلافه بالباطل، أردفه بالنهي عن إتلاف النفس، ولكون أكثر إتلافهم لها بسبب الأموال. فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾»[(٤)]. والذي وَرَدَ لدى البقاعي: «ولـمّا كان المالُ عديلَ الروح، ونهى عن إتلافه بالباطل، نهى عن إتلاف النفس لكون أكثر إتلافهم لها بالغارات لنهب الأموال وما كان بسببها وتسبيبها على أنَّ من أُكِل مالُه ثارت نفسُه فأدّى ذلك إلى الفتن التي ربّما كان آخِرَها القتلُ، وكان النهي عن ذلك أنسبَ شيء لما بُنيت عليه السورة من التعاطف والتواصل فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾»[(٥)]. فيلحظ أن

---

(١) «نظم الدرر» للبقاعي (١: ٢)، طبع مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر آباد، الدكن، الهند ١٩٦٩م.

(٢) «الإتقان» (٢: ١٣٨).

(٣) وكان عدد ممّن تقدَّمه من المفسرين يعنى بهذا اللون من علم القرآن إلا أنه لم يفرد له كتاباً خاصاً به، وهذا جليّ في تفسير «التبيان» للطوسي، و«مجمع البيان» للطبرسي، و«مفاتيح الغيب» للرازي.

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٤٨).

(٥) «نظم الدرر» (٥: ٢٥٩).

الشيخ أورد كلام البقاعي مع تغيير طفيف في أوله، ثم عدل بعد ذلك إلى التعبير عنه بأسلوبه.

٩- تفسير الجلالين:

ومصنّفاه الجلالان: المحلّي والسيوطي. فالأول: جلال الدين المحلِّي المتوفى سنة (٨٦٤هـ) شيخ السيوطي، وكان قد بدأ التفسير من سورة الكهف إلى آخر القرآن، وفسّر الفاتحة بعد ذلك، ثم جاء بعده تلميذُه جلالُ الدين السيوطي، المتوفى سنة (٩١١هـ)، وفسر من أول البقرة حتى نهاية سورة الإسراء[١].

نقل الشيخ رشيد من هذا التفسير عدّة أقوال، ويلحظ أنه ينقل أقوال الجلالين عادة من تفسير «المنار»، إذ من المعلوم أنَّ صاحب «المنار» كان ينقل أقوال أستاذه الشيخ محمد عبده في التفسير، وكان الشيخ يتكئ على «تفسير الجلالين» في دروسه التفسيرية في الأزهر، وكثيراً ما كان الشيخ محمد عبده يعلق ويعقب على أقوال الجلالين بالرد أو التضعيف ونحوهما[٢]، فمن ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] إذ يقول: «وقال المفسر الجلال: الرأفة شدّة الرحمة، وقدَّم الأبلغ للفاصلة، وأنكر الأستاذ الإمام هذا القول أشدَّ الإنكار، وينكر مثله في كل موضع»[٣]. والنقل هنا باللفظ[٤].

(١) «منهج الجلالين في تفسير القرآن» للدكتور كاصد الزيدي، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد الخامس، حزيران ١٩٧٤ ص١٢٥-١٢٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٢٠١).

(٤) «الجلالين» (١: ٢١)، مطابع دار الكتاب العربي، بمصر، محمد حلمي المنياوي.

ونقل منه في تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] إذ يقول: «قال المفسِّر الجلال: إنه كان ينتظره لأن الكعبة قبلةُ أبيه إبراهيم، والتوجُّه إليها أدعى لإيمان العرب»(١).

١٠ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم:

مصنفه محمد بن محمد بن مصطفى بن عماد العمادي المشهور بأبي السعود(٢)، انتهت إليه رياسة التدريس والفتيا(٣)، له تصانيف كثيرة في التفسير والفقه والقضاء والأدب، ولد عام ٨٩٨هـ(٤)، وتوفي سنة ٩٨٢هـ(٥).

نقل الشيخ من تفسير أبي السعود نقولاً كثيرة منها ما كان باللفظ، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ [هود: ١٤] إذ يقول: «قال أبو السعود: وفيه تنبيهٌ لطيف على أن حقَّهم أن لا ينفكوا عنه ﷺ ويناصبوا معه معارضة المعارضين كما كانوا يفعلونه في الجهاد معه»(٦). وهذا عين ما جاء في تفسير أبي السعود(٧).

ومن النقولات ما كانت بالمعنى، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٠٣).

(٢) «أبو السعود ومنهجه في التفسير» لعبد الستار فاضل النعيمي ص١٧-١٩، رسالة ماجستير في كلية الشريعة في بغداد ١٩٨٨.

(٣) المصدر نفسه ص٥٠.

(٤) المصدر نفسه ص١٧.

(٥) المصدر نفسه ص٣٥.

(٦) «أولى ما قيل» (٤: ٢١٨).

(٧) «إرشاد العقل السليم»، طبعة محمد صبيح وأولاده، مصر (٣: ٩).

ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، إذ يقول: «قال أبو السعود: وفي هذا التعليل إيماء إلى أن إسراءه ﷺ إنما هو لإراءته الآيات»(١).

وعند العودة إلى تفسير أبي السعود نراه يقول: «﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ غاية للإسراء ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ العظيمة التي من جملتها ذهابُه في برهة من الليل مسيرةَ شهر»(٢). فمن الواضح أن العبارة مختلفة والمؤدّى واحد.

ومن الملاحظ أنَّ معظم ما أخذه من تفسير أبي السعود كان في اللفتات البلاغية القرآنية الرائعة التي استقى معظمها أبو السعود أصلاً من الزمخشري(٣).

ومن هذه اللفتات ما في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] إذ يقول: «قال أبو السعود: وإيثار اسم الإشارة في قوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التي هي سبب هذا القضاء، والضمير لا يؤديه. أي دابر هؤلاء المجرمين»(٤)، والنقل هنا بتغيير طفيف(٥).

كما نقل عنه رأيه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] وفيه تحليلٌ دقيق يتّسم بالروعة والجودة(٦).

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٥١٨).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٣: ٢٠٤).

(٣) صرح أبو السعود في مقدمته أن هدفه في تفسيره الجمعُ بين الكشاف والبيضاوي ص١-٣. وتنظر: رسالة عبد الستار النعيمي للماجستير: «أبو السعود ومنهجه في التفسير».

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٤٣٩).

(٥) «تفسير أبي السعود» (٣: ١٥٤).

(٦) «أولى ما قيل» (٤: ٢٨٩). و«تفسير أبي السعود» (٣: ٦٣).

وقد ينقل عن أبي السعود من غير أن يشير إليه، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤]. فقد قال: «إذ لا يقدر أحد على ما يقدر عليه، وهذا الاستفهام من باب التَّرقية إلى معارج اليقين، وقيل: إن الخطاب في قوله: ﴿فَاعْلَمُوا﴾ للكفار بدليل قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾»(١).

والذي لدى أبي السعود: «ولا يقدر على ما يقدر عليه أحد ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون في الإسلام، أو ثابتون عليه. وهذا من باب التثبيت والترقية إلى معارج اليقين، ويجوز أن يكون الخطاب في الكل للمشركين من جهة الرسول ﷺ داخلاً تحت الأمر بالتحدي»(٢).

والتشابه في العبارات والفحوى يدلُّ على أن هذا من ذاك برغم ما فيه من تغيير.

وقد يختار وجهاً من وجهين يوردهما أبو السعود على نحو ما نجد في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ [هود: ٥] إذ يذكر أن المراد: «أي: يأوون إلى فراشهم»(٣) والذي ورد في تفسير أبي السعود: «أي يتغطون بها للاستخفاء على ما نقل ابن شدَّاد، أو حين يأوون إلى فراشهم ويتدثرون بها»(٤).

١١ـ تفسير جزء عم:

مؤلفه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصريَّة المولود سنة ١٨٤٩م،

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢١٨).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٤: ١٩٢).
(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٢١٠).
(٤) «تفسير أبي السعود» (٤: ١٨٥).

كان عَلَماً بارزاً من أعلام الإصلاح والتجديد، شارك في ثورة عرابي، ونفي من مصر، ثم عاد وتولى الإفتاء، وتوفي عام ١٩٠٥(١).

وكان الشيخ الخطيب قد اعتمد على هذا التفسير اعتماداً كبيراً أفصح عنه في مقدمة تفسير سورة النبأ فقال: «ولما كان هدفي في هذا التفسير تتبّع أولى ما قيل في آيات التنزيل، وكان الأستاذ الإمام قد فسَّر جزءَ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، عوَّلت عليه في تفسير هذا الجزء، فجاء مختصراً منه بتصرف، وأضفت كثيراً من فهمي وآرائي»(٢).

نقل الشيخ رشيد من هذا التفسير بتغيير طفيف كما في تفسير قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ * ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١-٣]، فقد قال الشيخ رشيد: «قال الأستاذ الإمام: كان غير المؤمنين يسأل بعضُهم بعضاً عن رسالة النبي ويسألون غيرهم من أهل الكتاب: هل هو رسول حقاً؟ أم ما هذا الخبر الذي جاء به من أنّه مرسل من قبل الله، يدعو إلى توحيده، وإلى الاعتقاد باليوم الآخر، وهو يوم القيامة»(٣).

ومثله في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [عم: ٤٠] إذ يقول: «قال الأستاذ الإمام: إنما قربه لأنهم يجدون منه عقب موتهم؛ فإن الروح متى فارقت البدن انكشف لها ما ينتظرها، ولا تزال في ألم منه حتى تلاقيه»(٤).

وأما ما نقله بالمعنى فهو الأكثر، فإنَّ معظم ما أورده من تفسير مأخوذ من تفسير

---

(١) «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» للدكتور عبد الغفار عبد الرحيم ص١٩.

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ١٠٧).

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ١٠٩)، ووازن بـ«تفسير جزء عم» ص٣.

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ١١٨)، ووازن بـ«تفسير جزء عم» ص٨، الجمعية الخيرية الإسلامية، مطبعة مصر، الطبعة الثالثة ١٣٤١هـ.

جزء عم مع إضافات من عنده كما ذكر. ومن تفاسير أخرى، كـ«أنوار التنزيل» للبيضاوي، و«مجمع البيان» للطبرسي، وأما ما أخذه من غير إشارة فهو كثير، ولولا ما نبه عليه ابتداء قبل شروعه في التفسير لكان مأخذاً عليه، ولم يكن منهجه ثابتاً في ذلك. فمرَّة يأخذ منه باللفظ وأخرى بالمعنى وحين لا يعزوه إليه، لا يعلم القارئ لتفسيره هل الكلام له أم لغيره.

ومن الأمثلة على ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦]، إذ يقول: «والماعون: كلُّ ما يستعان به. أي: يمنعون الناس معونتهم، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سدِّ حاجتهم وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم وطمأنينتهم، فخاصّة المصدقين بالدِّين هي العدل والمرحمة، وبذل المعروف للناس، وخاصّة المكذّبين به هي احتقار حقوق الضعفاء، وقلّة الاهتمام بمن تلذعهم آلامُ الحاجة، وحب الأَثَرة بالمال، والتعزّز بالقوة، ومنع المعروف عمَّن يستحقه من الناس[١]. فقسم من هذا قريب من كلام الأستاذ الإمام[٢].

وممَّا يلاحظ أيضاً نقله المادة التي نقلها الأستاذ الإمام من التفاسير، من غير أن يشير إلى أنه نقلها عنه، فيبدو كأنه استقاها من مصادرها الأصلية كما في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] فقد ذكر أن ابن عباس قال: «هو الخير الذي أعطاه الله إيّاه، وقال أبو بشر: قلت لسعيد: إن أناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال: النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أعطاه الله إياه»[٣]، وهذا الكلام بلفظِ ما

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٣٧٤).

(٢) تفسير جزء عم ص١٦٥-١٦٦.

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٣٧٩).

أورده الأستاذ الإمام[١] بقوليه متتابعين، مما يؤكد ما ذهبت إليه آنفاً، وعلى أية حال فإن ما قدم الشيخ من أن تفسيره لهذا الجزء كان تلخيصاً لتفسير الإمام محمد عبده كان كثير الصدق مع ما وجدته عند الموازنة.

١٢ـ المصحف المفسر:

مؤلفه العالم المصري المجدِّد محمد فريد وجدي، وتفسيره من التفاسير الموجزة لإيراد المعنى الإجمالي، فهو أشبه ما يكون بتفسير معاني المفردات الغريبة، وقد نسب الشيخ رشيد لهذا المفسر قولاً نقله منه بمعناه مع الحفاظ على طائفة من ألفاظه وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] فقال: «قال فريد وجدي: إنَّ مبغضَكَ هو الذي يقول عنك: بُتر محمد بموت أولاده، هو نفسه الأبتر الذي لا عقب له من عمل صالح ولا ذِكْر جميل، إذ سيهلك ويتلاشى ولا يبقى له أثر يذكر به»[٢]، والنص في تفسير محمد فريد: «وإنما يقول ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك، يقال: شنأه يشنأ شنئاً أي: أبغض ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ الذي لا عقب له إذ لا يبقى له أثر من نسل أو حسن ذِكر، والمقطوع الذَنَب»[٣].

١٣ـ تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار:

مؤلفه الشيخ رشيد رضا تلميذ محمد عبده، ابتدأ تفسيره بأول القرآن وانتهى عند الآية (١٠١) من سورة يوسف؛ إذ عاجلته المنية قبل أن يتمّ تفسير القرآن كلِّه، وهذا القدر من التفسير مطبوع في اثني عشر مجلداً، وينتهي المجلد الثاني عشر منه عند الآية (٥٣) من سورة يوسف.

---

(١) تفسير جزء عم ص١٦٦.

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ٣٨١).

(٣) «المصحف المفسر» ص٨٤٣، مطابع الشعب.

وفي هذا التفسير تَتَجلّى روح الشيخ محمد عبده مُؤثرةً في تلميذه النابه، فروحُهما واحدة، وهدفهما ومنهجهما وأفكارهما واحدة كذلك[١].

وكان رشيد رضا قد حثّ أستاذه على أن يفسِّر القرآن، وبعد لَأْيٍ[٢] اقتنع بأن يلقي دروساً في التفسير بالجامع الأزهر، ثم على طلابه ومريديه، وكان الشيخ رشيد رضا أحرصَ الناس على تلقّي هذه الدروس ثم نشرها في مجلة المنار بعد مراجعتها مع الأستاذ، ثم جعلها تفسيراً بعد ذلك. لذا يعدّ الوارث والناقل لعلم محمد عبده، وليس غريباً أن يقول عنه الأستاذ محمد عبده: «صاحب «المنار» ترجمان أفكاري» وأنه «متَّحد معه في العقيدة والفكر والخلق والعمل»[٣].

ولئن قرَّت عين الإمام بتلميذه رشيد رضا في حياته، فأحْرِ بها أن تسعد روحه بعد مماته كذلك برشيد آخر، أحبَّ الشيخ وأخلص له وإن لم يره، وجعله أستاذه ومرجعه، ومناره بعد أن أدهشه ما كان يراه له من التعليقات العلية والتحريرات الجليلة.

يقول الشيخ رشيد الخطيب: «ولما كان صاحب «المنار» حافظاً لآراء أستاذه في تفسيره وتابعاً لآثاره في تحريره اعتمدت عليه في تأليف تفسيري»[٤].

ولذلك كثرت نقول الشيخ رشيد من تفسير «المنار»، فقد نقل عنه أقوال محمد عبده بعبارة «قال الأستاذ الإمام»[٥]، فإن كان مختصراً قال: «هذا ملخص ما قاله الأستاذ الإمام»[٦].

---

(١) «التفسير والمفسرون» (٢: ٥٧٧).
(٢) اللَّأْي: اللُّبْث والإبطاء. «لسان العرب» (لأي). (مجد).
(٣) «التفسير والمفسرون» (٢: ٥٧١-٥٧٢).
(٤) «أولى ما قيل» (١: ٤٩١).
(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٦٦).
(٦) «أولى ما قيل» (٢: ١٢٦).

وقد يقول: «ذهب الأستـاذ الإمام إلى أن..»[١] و«قد حقّق الأستاذ الإمام أن الآية..» [٢]. كما نقل أقوال صاحب «المنار» نفسه فضلاً عمّا أفاده من نقولات «المنار» نفسه عن غيره كما في حديثه عن الملائكة؛ إذ نقل عن صاحب «المنار» قوله: «يشعر كلُّ من فكَّر في نفسه ووازن بين خواطره عندما يهمّ بأمر... قال الإمام الغزالي[٣]: فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يُسمَّى مَلَـكاً، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمَّى شيطاناً، واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلـهام الخير يسمَّى توفيقاً، والـهفو الذي يتهيأ لقبول الشر يسمَّى: إغواء وخذلاناً، فإنَّ المعاني المختلفة تحتاج إلى أسامي مختلفة. انتهى باختصار»[٤].

وقد أشار صاحب «المنار» إلى أنَّ كلام الغزالي السالف نقل من كتاب «الإحياء»، شرح عجائب القلب[٥].

وواضح أنّ هذا كلام يحمل نزعة صوفية تفسـر الألفاظ بمدلولات خاصة، ومعلوم أن الغزالي آل به المآل إلى التصوف. وقد أراد الشيخ محمد عبده أن يجد في كلام هذا الإمام مسوغاً لتأويلاته في موضوع الملائكة والشياطين.

وقد ينقل الشيخ رشيد الخطيب ما نقله «المنار» من غير إشارة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] فقد قال: «قال الإمام أبو المنصور الماتريدي (ت٣٣٣هـ) في تفسيره: نعتقد أن الجنة هذه بستان من البساتين أو غيضة من الغياض

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٦١).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٢٥٦).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٣: ٢٣)، مكتبة عبد الوكيل الدروبي، دمشق درويشيّة.

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٧٥).

(٥) تفسير «المنار» (١: ٢٦٨).

كان آدم وزوجه منعَّمين فيها، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها. وقد قال بذلك أبو حنيفة وغيره»[١].

وأكثر نقولاته من «المنار» وردت بالمعنى لأن صاحب «المنار» يطيل في الشرح والتفريع والرد على المخالفين غالباً، وهذا خلاف ما ألزم به الشيخ نفسه من الإيجاز. ولذا لجأ إلى النقل بالمعنى. والنص السابق الذي ذكرته يدل على ذلك، وقد نجد نصوصاً منقولة باللفظ كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: ٣٥]، فقد بيَّن أنه «قال في «المنار» ما محرَّره: وللجمل والآيات المعترضة في القرآن فوائد وحكم يقتضيها تلوين الخطاب، ومنها: تنبيه الأذهان، وتجديد النشاط والتشويق إلى سماع بقية القصة بقطعها والانتقال إلى موضوع آخر، ثم العود إلى إتمامه..»[٢].

وقد ينقل النص فيسقط منه ما يُستغنىٰ عنه في أداء المعنى طلباً للإيجاز، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ﴾ [النساء: ٤٣]، إذ قال: «الاغتسال عبارة عن إفاضة الماء على اليدين... أن يتحرّى الإنسان في صلاته النظافة»[٣]، فقد نقل الكلام باللفظ ولكنه حذف بعد الحديث «إنما الماء من الماء»[٤] عبارة: «وقد جعل هذا من اعترض على حكمة التشريع، وقال: لو كان الدين موافقاً للعقل لما أوجب في الجنابة إلا غسل الأعضاء التناسلية»[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٧٨)، ووازن بـ«المنار» (١: ٢٧٧).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٢٣٠)، ووازن بـ«المنار» (١٢: ٧١).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٦٣).

(٤) رواه مسلم (٣٤٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٥) «تفسير المنار» (٥: ١١٨).

وقد تنوّعت مادة نقولاته من تفسير المنار، فنقل آراء مصنفه في المسائل الفقهية كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤][١]، وتوجيهاته النَّحوية[٢]، كما نقل فيه كثيراً من آراء الشيخ محمد عبده العقيدية والفكرية، كموقفه من علم الغيب[٣]، والشفاعة[٤]، والسحر[٥]، والملائكة[٦]، والمشيئة الإلهية والسنن الكونية[٧]، والنسخ[٨]، والمعجزات[٩]. وكلها فيها من حرية الرأي والتجديد في الفكر ما فيها، على ما هو معلوم من الشيخ محمد عبده، وسيتبيَّن مزيد من الشواهد والأفكار عند الكلام على أثر مدرسة محمد عبده في تفسير الخطيب.

أما موقفه مما نقله من «المنار» برغم وجود عدد من القضايا التي خرج فيها صاحب «المنار» وأستاذه عن رأي الجمهور وعرّضه لنقد كثير، فالحق أنَّ الشيخ رشيد كان في أغلب الأحيان مؤيداً ومستحسناً ومتابعاً لما ذهب إليه الشيخ، وقد يصرِّح بذلك كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، إذ يقول بعد عرض رأي الإمام: «هذا ملخص ما قاله الأستاذ الإمام، وهذه هي الطريقة المثلى في الإيمان بالغيب من غير قياس لعالمه عن عالم الشهادة. وقد جاء عن ابن عباس

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٦١)، ووازن بـ«المنار» (٢: ١٥٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٤٥٨)، ووازن بـ«المنار» (١: ٤١٦).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٤٩)، ووازن بـ«المنار» (١: ٢٣٣).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٩٢)، ووازن بـ«المنار» (١: ٤٥١).

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ٤١٤)، ووازن بـ«المنار» (١: ٤٠٠).

(٦) «أولى ما قيل» (٢: ٦١)، ووازن بـ«المنار» (١: ٢٥١).

(٧) «أولى ما قيل» (٣: ٣٥٦)، ووازن بـ«المنار» (٨: ٤).

(٨) «أولى ما قيل» (٢: ٢٥٦)، ووازن بـ«المنار» (٢: ١٣٦).

(٩) «أولى ما قيل» (٢: ٣٥٣)، ووازن بـ«المنار» (٢: ٤٧٠).

ما معناه: أن كلَّ ما جاء عن الآخرة ممَّا في الدنيا ليس بينها مشابهة إلا بالاسم»[١]. وقد لا يعلق على مقولات صاحب «المنار»، ويفهم من السرد أنه على هذا الرأي.

وقد وضع رأيه إزاء رأي صاحب «المنار» بدون ترجيح، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، إذ قال: «أي: إلا أن يكونوا على السنة الكونية التي شاءها الله، في إمكان إيمان من أفسد فطرته بمفاسد التربية وسوء القدوة، وهي أن يبقى منه بقية من نور البصيرة والتفكير الصحيح وإلا فلا. هذا ما أراه، والله أعلم».

وفي «المنار»: «والقرآن يعقِّب باستثناء المشيئة على كل مُؤبَّد، لا لإفادة نقض التأبيد، بل لإفادة أن ذلك المقرر والمؤبد بني على النواميس التي شاءها الله بحسب الحكمة العامة، ولو شاء غيرها لفعل».

فالمعنى: إلا أن يشاء الله غير تلك النواميس في تكوين الأخلاق والميول البشرية..»[٢].

وقبل الانتقال من هذا الموضع لابدّ من الإشارة إلى أنَّ الشيخ قد أكثر في نقولاته من «المنار» كثرة مفرطة في رأيي، وكان غير «المنار» أولى بالنقل منه، وخاصّة فيما تغني عنه التفاسير القديمة المعتمدة من المادة اللغوية.

فمثلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٧٧] يذكر أنه «قال في «المنار»: الغلو: الإفراط وتجاوز الحد في الأمر»، فلو رجع في هذا إلى كتب معاني القرآن أو غريب القرآن لأغنته عن هذا المصدر المتأخر.

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٤٩)، ووازن بـ«المنار» (١: ٢٣٣).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٣٥٦) ووازن بـ«المنار» (٨: ٤). وينظر «أولى ما قيل» (٢: ٢٦٦-٢٦٧).

وأما النقل بلا إشارة فبرغم كثرة الإحالات إلى «المنار» لا نعدم عدداً من الأماكن التي أفاد فيها الشيخ رشيد من «المنار» من غير إشارة، هذا فضلاً عما نشعر به من تأثُّرٍ واضح بأفكار وطريقة تفسير «المنار»، إذ تَسْري في تفسير الشيخ رشيد من بدايته إلى منتهاه. ومن تلك الأماكن ما أورده عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

إذ تدلّ الموازنة بين كلام الخطيب وكلام الشيخ رشيد على تشابه في المعنى، بل تطابق أحياناً في العبارات. ويتضح هذا في ربط الشيخ رشيد هذه الآية بما بعدها إذ يقول: «وبعد أن ذكرهم بتلك الآية الكونية وما اتّصل بها من الهداية لهم ذكّرهم بما كان من التولّي عن الطاعة، والإعراض عن القبول، وامتنّ عليهم بما عاملهم به من الفضل والرحمة والصفح عمّا يستحقونه من المؤاخَذة، والعقوبة فقال: ...»[1].

والنصُّ مطابقٌ باللفظ لما جاء في «المنار»، ولم يشر الشيخ إلى نقله[2] منه ولعلَّ هذا سهو منه.

١٤ـ تفسير في ظلال القرآن:

مؤلفه سيد قطب، وهو ناقد مصري وأديب مشهور تخرج في كلية دار العلوم مجازاً باللغة العربية وآدابها، وشارك في المعارك الأدبية منحازاً إلى العقاد، ثم التزم الأدب القرآني واستقلَّ عن العقاد ونحا منحىً خاصاً في كتاباته، أظهر فيها الكثير من الالتزام والإبداع، حتى قضى شهيداً عام ١٩٦٦م، له مصنّفات كثيرة في الدراسات النقدية والقرآنية[3].

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١١٠).

(٢) «المنار» (١: ٣٤٢).

(٣) «مع سيد قطب في فكره السياسي والديني» للدكتور مهدي فضل الله ص٤٥-٥٣، رسالة دكتوراه في جامعة السوربون، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة ١٩٧٩م.

وقد نحا في تفسيره منحى أدبياً اجتماعياً أظهر فيه إعجاز القرآن وروعته بأسلوب أدبي باهر، وقد لقي هذا التفسير رواجاً طيباً.

أفاد الشيخ رشيد من تفسير «في ظلال القرآن» من غير أن يشير إليه، فقد اطّلع عليه قبل أن يطبع تفسيره، ومن الأمثلة على إفادته منه ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، إذ قال: «فصوَّرتْ وأوضحتِ الآيـةُ نوحاً الوالدَ الملهوف يبعث النداء تلو النداء، وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء، والموجةُ القوية العاتية تـحسم الموقف في لحظة سـريعة خاطفة تـجعله من المغرقين»[1].

والكلام في تفسير «في ظلال القرآن» مبسوط على الوجه الآتي: «وفي هذه اللحظة الرهيبة يبصر نوح، فإذا أحد أبنائه في معْزِلٍ عنهم، وليس معهم فتستيقظ في كيانه الأبوةُ الملهوفة ويروح يهتف بالولد الشارد ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾... وإننا بعد آلاف السنين لنمسك أنفاسنا ـ ونحن نتابع هذا السياق ـ والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد. ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ ونوح الوالدُ الملهوفُ يبعث النداء تلو النداء، وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء، والموجة تحسم الموقف في سرعة خاطفة راجفة وينتهي كلُّ شيء وكأن لم يكن دعاء ولا جواب»[2].

ونستطيع أن نلمح تشابهاً في الأفكار بين التفسيرين مع شيء من التشابه في الألفاظ، ومرجع ذلك في ظنّي إلى تأثرهما بمحمد عبده وإن كان لكلٍّ منهمـا طريقته ومنهجه.

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٣٤).

(٢) «في ظلال القرآن» (٤: ٥٤٩)، الطبعة السابعة ١٩٧١.

(٢) كتب معاني القرآن

١ـ معاني القرآن للأخفش:

مؤلفه سعيد بن مسعدة المجاشعي المعروف بالأخفش الأوسط المتوفى سنة (٢١٠هـ)، ويُعدُّ كتابه «معاني القرآن» من الكتب الأصيلة في موضوعه، وهي التي يطلق عليها في الاصطلاح (كتب المعاني). كـ«مجاز القرآن» لأبي عبيدة، و«معاني القرآن» للكسائي، و«معاني القرآن» للفرّاء. ويعدّ كتاب الأخفش أسبق من كتابَيْ الكسائي والفرّاء، بل إن الفرّاء أفاد منه(١).

نقل الشيخ رشيد من معاني الأخفش عدّة نقول نقلاً غير مباشر، وإنما نقله من تفسير «مجمع البيان» للطبرسي، وطريقته في النقل التصرُّف في النصّ لتوضيح الفكرة بأسلوبه وتعبيره، ومنها ما في تفسير قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١] قال: «قال الأخفش: اللام متعلقة بقوله ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي: فعلنا بأصحاب الفيل ذلك لتألف قريش رحلتها، ويؤيد هذا أنَّ السورتين في مصحف أُبَي سورة واحدة بلا فصل»(٢).

وعند الرجوع إلى «معاني القرآن» للأخفش تبين أن النصَّ مختلف في اللفظ، إلا أن ما قاله الشيخ هو معنى كلام الأخفش الذي يقول: «﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، أي فعل ذلك لإيلاف قريش لتألف. ثم أبدل فقال: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾؛ لأنها

---

(١) «معاني القرآن» للأخفش الدكتور عبد الأمير الورد، ط١٩٨٥، مقدمة المحقق. وينظر: «منهج الطوسي في التفسير» للدكتور كاصد الزيدي ص٧٤.

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ٣٦٥).

من أَلَفَ. وقال بعضهم: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ جعلها من آلفوا»[١]. والراجح أنَّ الشيخ أخذ نسبة النص للأخفش من «مجمع البيان»، وذلك لأنَّ ما وَرَدَ فيه يكاد يطابقه الذي لدى الشيخ لفظاً، وهو «قال أبو الحسن الأخفش: اللام في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾، أي: فعلنا ذلك بهم لتأتلف قريش رحلتها»[٢]. ويؤكد ذلك أنَّ «معاني القرآن» لم يكن قد طُبع قبل ظهور تفسير الشيخ كاملاً فلم يكن في متناوله. كما أنَّ حصوله على مخطوطة التفسير ليس بالأمر الهيّن.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ [المجادلة: ٣] يعرض الشيخ عدَّة أقوال في تفسير الآية ومن بينها رأي الأخفش فيقول: «وقال الأخفش: في الكلام تقديم وتأخير، تقدير الآية: والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة لما قالوا ثم يعودون إلى نسائهم»[٣]. وقد جاء في معاني الأخفش «... المعنى فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا، فمن لم يجد فإطعام ستين مسكيناً ثم يعودون لما قالوا»[٤]. وقد رجعت أيضاً إلى «مجمع البيان» فوجدته ينقل رأي الأخفش بما يقارب نصّ الشيخ رشيد، وهو: «وقال الأخفش: تقدير الآية: والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة لما قالوا، ثم يعودون إلى نسائهم، أي: فعليهم تحرير رقبة لما نطقوا به من ذكر التحريم، والتقديم والتأخير كثير في التنزيل»[٥].

وممَّا نقله عن الأخفش: أيضاً تفسير قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾

---

(١) الأخفش: «معاني القرآن» (٢: ٧٤٣).
(٢) «مجمع البيان» (٣٠: ٢٤٢-٢٤٣).
(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٣٢٠).
(٤) «معاني القرآن» (٢: ٧٠٥-٧٠٦).
(٥) «مجمع البيان» (٢٨: ٧).

[القيامة: ١٤] إذ يقول: «قال الأخفش: هذه الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]»[١]. ولم أجد هذا النص في كتاب «معاني القرآن» للأخفش ووجدته في «مجمع البيان»[٢]. وهذا يؤكد أن الشيخ لم يرجع إلى كتاب «معاني القرآن» للأخفش، وإنما أخذ نقوله عن هذا الكتاب من «مجمع البيان» للطبرسي.

٢ـ معاني القرآن للفراء:

مؤلفه أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة (٢٠٧هـ)[٣]، كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي، وكان يحب الكلام ويميل إلى الاعتزال، وكان ديِّناً ورعاً[٤].

وكتابه «معاني القرآن» من خيرة كتب المعاني أملاه على تلامذته فحفظ بعضهم روايته. وكان ثعلب شديد الإعجاب به[٥]. والكتاب مطبوع متداول.

نقل الشيخ رشيد من معاني الفراء عدداً من النصوص التي تتعلق باللغة، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر: ٢٧] إذ قال: «أي: أراضٍ وجبال سوداء مُخَرَّشة، تُتَّخذ منها أحجار الطواحين القديمة. قال الفرّاء: يقال: أسود غربيب أو أسود حالك»[٦].

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٦٧).

(٢) «مجمع البيان» (٢٩: ١٢٥).

(٣) «مراتب النحويين لأبي الطيب » ص١٤١. ينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن» للزيدي ص٧١.

(٤) «طبقات الداودي» (٢: ٣٦٦).

(٥) «طبقات النحويين واللغويين» ص١٣٢. وينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن» للزيدي ص٧١.

(٦) «أولى ما قيل» (٦: ١٤٩)، ووازن بالفراء: «معاني القرآن» (٢: ٣٦٩)، عالم الكتب.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢] إذ قال: «قال الفرّاء: هي في الأصل بمعنى لا بدَّ ولا محالة، ثم كثرت فحولت إلى معنى القسم، وصارت بمعنى حقاً»[١]. وهذا الكلام منقول من الفراء بإيجاز، فنصُّ الفرّاء هو: «﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ﴾، كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بدَّ أنك قائم ولا محالة أنك ذاهب فجرت على ذلك، وكثر استعمالهم إيّاها حتى صارت بمنزلة: حقاً، ألا ترى أنّ العرب تقول: (لا جرم لآتينك، لا جرم قد أحسنت) وكذلك فسَّرها المفسِّرون بمعنى الحق، وأصلها من جَرَمْتَ، أي: كسبت الذنب»[٢].

وقد يورد اسم الفراء في اختيار وجه من وجوه التفسير مع عدد من المفسرين على عادته كما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠-١١] يقول: «وفي هذا التعبير تصوير لزيادة شدَّة ذلك العذاب، والمعنى كما نقل ابن مسعود ومقاتل ومجاهد واختاره الفرَّاء والزجَّاج: ارتقب يا محمد يوم شدّة ومجاعة يأتي عليهم، لأن العرب تسمِّي الشرَّ الغالب دخاناً، ونسبه إلى السماء لأنه أتى من قِلَّة المطر»[٣].

وعند الفراء: «كان النبي دعا عليهم: اللهمَّ اشدد وطأتك على مضر، اللهمَّ سنين كسني يوسف، فأصابهم جوع حتى أكلوا العظام والميتة، فكانوا يرون فيما بينهم وبين السماء دخاناً»[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٢٤).

(٢) «معاني القرآن» (٢: ٨)، عالم الكتب، بيروت، طبعة ١٩٨٠.

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ١٠).

(٤) «معاني القرآن» (٣: ٣٩).

وقد ينقل عن الفراء من غير أن ينسب إليه قوله: فقد قال في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦] «قال الزجّاج: هو النهار، وقال غيره: هو بقية ضوء الشمس، والحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء»[١]. والقول بالحمرة هو قول الفراء: «والشفق: الحمرة التي في المغرب من الشمس، وسمعت بعض العرب يقول: عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان أحمر، فهذا شاهد الحمرة»[٢].

٣ـ معاني القرآن للزجاج:

مؤلفه أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل المتوفّى سنة (٣١١هـ)، أخذ علمه عن المبرد، وكان حسن الاعتقاد[٣]، وكتابه هذا يعدّ من خيرة ما كتب في معاني القرآن، نقله تلميذاه ابن الدينوري، وأبو علي الفارسي[٤].

نقل الشيخ رشيد للزجاج نقولاً كثيرة، ولكن يبدو أن معظمها قد استقاه من التفاسير، وخاصة تفسير الطبرسي والرازي اللذين يكثران من إيراد أقوال الزجاج، والذي رجّح لدي هذا القول: هو أن كتاب «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج، طبع الجزء الأول والثاني منه في منتصف السبعينيات في القاهرة، على حين طبعت الأجزاء الثلاثة الأخيرة عام ١٩٨٨. وإذا علمنا أن تفسير الشيخ قد طبع بين عامي ١٩٧٢-١٩٧٤ صار يقيناً أن ما ذهبت إليه هو المؤكد، فضلاً عما وجدته من تطابق أو تقارب بين نصوص الشيخ والنصوص التي في هذين التفسيرين، وهناك بعض نقول لم أجدها في «مجمع

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٨٤).

(٢) «معاني القرآن» (٣: ٢٥١).

(٣) «طبقات الداودي» (١: ٧-٨).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج، المقدمة بقلم محققه: د. عبد الجليل شلبي، ط١٩٨٨.

البيان» أو «مفاتيح الغيب» أو «الكشاف» ووجدتها في «معاني القرآن» فقد يكون عاد فيها إلى تفسير آخر لم أهتد إليه كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤] إذ يقول: «قال الزجَّاج: جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان لأنهما تؤدِّيان إلى الجنَّة»(١).

ومطابق هذا النص ماخلا (إيتاء) فقد جاء (إتيان) في «معاني القرآن وإعرابه»(٢).

ومما جاء في «مجمع البيان» في تفسير قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨] إذ يقول: «وقال الزجاج: السلسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة»(٣). وقد جاء هذا في «مجمع البيان»(٤) مطابقاً باللفظ. وجاء قبله بنفس الموضوع قوله لابن الأعرابي: «لم أسمع سلسبيلاً إلا في القرآن». وهذا ما جاء عند الشيخ رشيد أيضاً مما يؤكد إفادته من «مجمع البيان»، في نقل مادة «معاني القرآن» للزجَّاج، وممَّا جاء عند الرازي تفسير قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ [النحل: ٩٢](٥).

(٣) كتب أحكام القرآن

وهي الكتب التي تعني ببيان الأحكام الشرعية التي دلَّت عليها الآيات القرآنية. وقد عني بها غير واحد من علماء الأمة كالجصاص والآمدي وابن العربي، ومن الإمامية: المقداد السيوري المعروف بالقطب الراوندي. وقد نقل الشيخ من كتب أحكام القرآن بغض النظر عن مذاهب مصنفيها ومنها:

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٤٨١).

(٢) (٤: ١٣٦).

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٨٥).

(٤) الطبرسي (٢٩: ١٥٠).

(٥) «أولى ما قيل» (٤: ٤٩٣)، ووازن بـ«مفاتيح الغيب» (٢٠: ١٠٨).

١ـ أحكام القرآن للجصاص:

وهو أقدم كتب أحكام القرآن المشهورة، مؤلفه أبو بكر أحمد بن علي الجصاص الرازي المتوفى سنة (٣٧٠هـ). كان إمام الحنفية في عصره، وله تصانيف منها «أدب القضاء»[١].

نقل الشيخ عنه أقوالاً للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة (١٥٠هـ)، من غير أن يشير إليه، ومنها ما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ [التوبة: ٦٠] فقد قال: «قال أبو حنيفة رضي الله عنه: إن سهم هؤلاء قد انقطع بإعزاز الله الإسلام، واحتجَّ بأن مشركاً جاء يلتمس من عمر مالاً فلم يعطه، وقال: من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، وبأن عثمان وعلياً لم يعطيا أحداً من هذا النوع»[٢]. والكلام منقول بالمعنى من «أحكام القرآن» للجصّاص فإنَّ ما جاء فيه هو: «.. فقال أصحابنا: إنما كانوا في عهد رسول الله ﷺ في أول الإسلام في حالة قلَّة عدد المسلمين وكثرة عددهم، وقد أعزَّ الله الإسلام وأهلَه واستغنى بهم عن تألُّف الكفار، فإن احتاجوا إلى ذلك فإنما لتركهم الجهاد...، وأورد قصةً جرت في عهد أبي بكر مفادها معارضة عمر إعطاء الأقرع بن حابس...»[٣]. وهو ما أشار إليه الشيخ، فأغلبُ الظنِّ أنه مأخوذ منه.

٢ـ أحكام القرآن لابن العربي:

مصنفه محمد بن عبد الله بن محمد، أبو بكر بن العربي المعافري الأندلسي الإشبيلي

---

(١) «طبقات الداودي» (١: ٥٥). «أحكام القرآن» للجصاص، مقدمة الناشر، المطبعة البهية المصرية ١٣٤٧هـ.

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ١٠١).

(٣) «أحكام القرآن» (٣: ١٥٢-١٥٣).

الحافظ المولود سنة ٤٦٨هـ، كان أبوه أبو محمد من فقهاء إشبيلية ورؤسائها، رحل مع أبيه إلى الشرق ولقي فيها أكابر العلماء ومنهم أبو حامد الغزالي، ثم رجع إلى إشبيلية بعلم غزير، وله تصانيف كثيرة منها «المسالك في شرح موطأ مالك» و«القواصم والعواصم» و«أنوار الفجر في تفسير القرآن»، توفي في سنة ٥٤٣هـ[١].

نقل الشيخ عنه ذاكراً اسمه واسم كتابه بقوله: «قال أبو بكر بن العربي في «أحكام القرآن»: قال علماؤنا: هذه الآية ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] من ثلاث كلمات تضمَّنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، حتى لم يبق فيها حسنة إلا وعتها، ولا فضيلة إلا شرحتها، ولا أكرومة إلا افتتحتها..»[٢].

وهذا ما ورد في «أحكام القرآن»: المسألة العاشرة...»[٣]. والعبارتان متطابقتان لفظاً.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠] يلقبه الشيخ بلقب القاضي فيقول: «قال القاضي أبو بكر بن العربي: إن العرب تجري في مثل هذا على إفراد العم والخال وجمع العمّة والخالة»[٤].

وما جاء في «أحكام القرآن» هو[٥]: «قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾، فذكره مفرداً. وقال: ﴿وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ فذكرهنّ جميعاً. وكذلك قال: ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ ﴾ فرداً، ﴿وَبَنَاتِ

---

(١) «طبقات الداودي» (٢: ١٦٢-١٦٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٥١٣).

(٣) (٢: ٨١٥)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط١، ١٩٥٨.

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ٧٧).

(٥) أبو بكر بن العربي (٣: ١٥٤٤-١٥٤٥).

خَـٰلَـٰتِكَ ﴾ جمعاً. والحكمة في ذلك: أنَّ العمَّ والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز، وليس كذلك في العمّة والخالة. وهذا عرفٌ لغوي، فجاء الكلام عليه بغاية البيان لرفع الإشكال».

٣ـ الجامع لأحكام القرآن:

مؤلفه محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي المالكي القرطبي، كان من عباد الله الصَّالحين وتفسيره من خيرة التفاسير، أسقط منه القصصَ والتواريخَ وأثبت عوضاً عنها أحكامَ القرآن، وله تصانيف مفيدة، توفي سنة (٦٧١هـ)[١]. أشار الشيخ إلى القرطبي في «تفسيره»، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤] فقال: «قال القرطبي: إنَّ هذا تـمثيل لشدَّة الكرب، وإلا فلا عِشارَ ولا تعطيل، فهو كناية عن أنَّ هَوْل هذه الحوادث تَصْرِفُ من يحضرها عن أكرم الأشياء عليه لو كان..»[٢]. والكلام منقول بالمعنى فإنَّ عبارة القرطبي[٣] هي: «لأن في القيامة لا تكون ناقة عُشَراءُ، ولكن أراد به المثل، إنَّ هول يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء لعطَّلها واشتغل بنفسه».

(٤) مصادر الحديث النبوي:

اعتمد الشيخ رشيد في تفسيره عدداً كبيراً من الأحاديث النبويَّة، استقاها من مصادر عديدة، من مصادر الحديث النبوي، كالبخاري، ومسلم، والترمذي، وأبي داود، ومسند أحمد، ومن كتب التفسير كالطبري وغيره، وكانت غايته من إيراد الحديث إما

---

(١) «طبقات الداودي» (٢: ٦٥-٦٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ١٤٦).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٩: ١٤٩)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٨.

زيادة التفسير والتوضيح للاستدلال على وجه من وجوه التفسير وهو الأكثر، وإما التفسير المباشر للآيات، وهذا قليل.

وقد يورد الحديث بالمعنى، أو يورده بالنصّ، وقد ينسبه إلى مصدره وقد لا ينسبه، وهو في كلِّ الأحوال لا يذكر السند، بل يكتفي بتسمية الراوي الأول، وهذا هو الذي انتهجه المفسِّرون المعاصرون، وأكثر القدامى. وأهم كتب الحديث التي اعتمد عليها هي:

١ـ صحيح البخاري:

للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري المتوفى سنة (٢٥٦هـ)، روى عن أحمد بن حنبل وغيره، وروى عنه مسلم والترمذي والنسائي وخَلْقٌ سواهم، وروي عن البخاري أنه قال: أخرجت الكتاب ـ يعني الصحيح ـ من زهاء ستمئة ألف حديث، له كتب كثيرة وله «التفسير الكبير»[(١)].

أورد الشيخ أحاديث كثيرة نسبها إلى صحيح البخاري. ففي تفسير قوله تعالى: ﴿... وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] يقول: «ويؤيد ما ذكرت من إطلاق يأجوج ومأجوج على الكثرة المختلطة من الناس الخارجة من قبورها يومئذ ما أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، وقد جاء فيه أن تسعمئة وتسعة وتسعين من كل ألف يكونون من أهل النار، فقالوا يا رسول الله وأيُّنا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإنَّ منكم واحداً ومن يأجوج ومأجوج ألفاً...»[(٢)]، وهذا جزء من حديث رواه البخاري[(٣)].

---

(١) «طبقات الداودي» (٢: ١٠٠-١٠٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ١٩٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٣٤٨). عن أبي سعيد الخدري.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤] يورد حديثاً من دون أن ينسبه إلى مصدر معين فيقول: «وقد جاء عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: إذا أرسلت كلابك المعلَّمة، وذكرت اسم الله فكُلْ ممَّا أمسكن عليك، إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه»(١).

والشيخ هنا يفسر الآية بالحديث مباشرة، وهي من آيات الأحكام التي لا يتوسع بها عادة. وقد روي هذا الحديث في معظم كتب الحديث، وجاء في صحيح البخاري بلفظه(٢).

ومن الأحاديث التي تتكرَّر في تفسيره في موضوع معجزة القرآن قول الرسول ﷺ: «وما من الأنبياء إلا وقد أعطيَ ما مثله آمن عليه البشر»(٣). وهو جزء من حديث مروي عند البخاري(٤).

٢ـ صحيح مسلم:

مصنِّفه الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المولود سنة (٢٠٦هـ)، والمتوفى سنة (٢٦١هـ) وهو ثاني كتابين يُعدّانِ أصح الكتب المصنَّفة في الحديث، الذي يقول فيه مسلم: «صنَّفتُ هذا المسند الصحيح من ثلاثمئة ألف حديث مسموعة»(٥).

نقل الشيخ من صحيح مسلم عدداً من الأحاديث من غير أن ينسبها إليه.

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ١٨٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٤٧٦) عن عدي بن حاتم.

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ١٦٦).

(٤) في «صحيحه» (٧٢٧٤) عن أبي هريرة.

(٥) انظر: «صيانة صحيح مسلم» لابن الصلاح ص٦٧.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

«روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد»[١]. أورد هذا الحديث مباشرة بعد الآية لـما فيه من توضيح لـها؛ إذ السنة مبيِّنة وشارحة للكتاب. والحديث منقول من صحيح مسلم باللفظ[٢].

ومن الأحاديث التي يكثر دورانها في تفسيره حديث عَجْب الذنب، الذي يرويه بالمعنى، إذ يجتزئ هذا المعنى من حديث طويل ليبيّن ويوضح طريقة البحث، ففي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧] يقول: «ذلك فتدركون قدرتنا على إعادة الموتى لأنَّ الفعلَيْن متشابهان، فقد جاء في الحديث ما معناه أن الله سبحانه يرسل يوم القيامة ما يشبه المطر فينبت به عَجْبُ الذَّنَب كما تنبت الحبة من حميل السيل[٣]. وعَجْب الذنب: جزء دقيق لا يدرك في مؤخَّر صلب الإنسان، لا يفنى أبداً وهو نواة الحياة، والله أعلم»[٤].

وجاء عند مسلم وغيره في هذا المعنى عدَّة أحاديث مختلفة اللفظ متشابهة المعنى[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٤٣٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧٥٥) عن أبي هريرة.

(٣) رواه بنحوه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه. (مجد).

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ٤٠).

(٥) «صحيح مسلم» (٢٩٥٥) عن أبي هريرة.

وقد يروي من الأحاديث ما يؤيِّد به رأيه في مسألة كمسألة رؤية الرسول ﷺ لربِّه في الدنيا، إذ يروي حديث مسروق عن عائشة[١]. ويعلّق على الحديث هكذا روى عنها، وربما روت ذلك عن رسول الله ﷺ ولكنَّها أوقفته عليها[٢].

٣ـ سنن الترمذي:

للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي المولود سنة (٢٠٩هـ) والمتوفى سنة (٢٧٩هـ)[٣]، أورد الشيخ عدداً من الأحاديث منها ما اختصّ بها (الترمذي)[٤] كحديث عدي بن حاتم في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، فقد وفد عدي على النبي ﷺ ليُعلِنَ إسلامَه، وكان نصرانياً، فسمعه يتلو هذه الآية، فقال: «يا رسول الله لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله، ويحلّون ما حرَّم الله فيتبعونهم فتلك عبادتهم»[٥]. فهذا جزء من حديث جاء عند الترمذي[٦]، وهو مشهور عند المفسِّرين خاصة.

ويؤيِّد الشيخ ما جاء في «تفسيره» لقوله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، من تأدية فعل المعاصي وطول معاقرتها إلى الختم والغفلة، بحديث عن رسول الله ﷺ يقول: «وقد جاء عن رسول الله ﷺ في تصوير هذا المعنى ما معناه: إنَّ

---

(١) «صحيح مسلم» (١٧٧).

(٢) «أولى ما قيل» (٧: ١٩٣).

(٣) سنن الترمذي، المقدمة، نشرة دار الفكر، الطبعة الثانية ١٩٧٤.

(٤) سنن الترمذي (٣٠٩٥) طبعة دار إحياء التراث بيروت، تحقيق أحمد شاكر وآخرون. منصور علي ناصف: «التاج الجامع للأصول» (٤: ١٣١) تفسير.

(٥) «أولى ما قيل» (٤: ٨١).

(٦) «أولى ما قيل» (٣: ٢٧٣-٢٧٤).

العبد كلَّما أذنب ذنباً حصل في قلبه نكتةٌ سوداء حتى يسود قلبه»[١]. والحديث رواه الترمذي[٢]. وهو مشهور يتداوله المصنفون في التفسير وفي الوعظ والإرشاد وأحوال القلوب.

٤ـ سنن أبي داود:

مصنفه الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن إسحاق الأزدي السجستاني المتوفى (٢٢٥هـ).

ومما أورده الشيخ رشيد من الأحاديث التي رواها أبو داود حديث الصدقة، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] فبعد عدة نقول، يقول: «ولقد قال ﷺ: (خير الصدقة ما أبقت غنى)[٣]. وعنه ﷺ: (طوبى لمن أنفق الفضل من ماله)..»[٤].

والحديث الأول جاء في سنن أبي داود[٥]، وهو بعض من حديث طويل مفاده أنَّ رجلاً جاء الرسول ﷺ ببيضة من ذهب، هي كل ما يملك فردَّها الرسول ﷺ وقال له: «خير الصدقة ما أبقت غنى»[٦].

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٦٩).

(٢) في «سننه» (٣٣٣٤) بنحوه عن أبي هريرة.

(٣) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٤٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه. (مجد).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٣١٩).

(٥) (١٦٧٣) عن جابر بن عبد الله، ورواه البخاري (١٤٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (١٠٣٤) عن حكيم بن حزام رضي الله عنه. بلفظ: «خير الصدقة عن ظهر غنى».

(٦) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٤٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٥ـ سنن النسائي:

لمصنفه أبي عبد الرحمن بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ). استقى الشيخ منه عدداً من الأحاديث من غير إشارة، ومنها ما في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [النحل: ١٢٤] فقد ذكر أنه «روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب يوم الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله إليه»[١].

وشبيه هذا الحديث جاء في سنن النسائي[٢] والبخاري[٣] ومسلم[٤].

أما لفظه تماماً فلم أعثر عليه، وقد يكون الشيخ اعتمد فيه على حفظه فتغير في اللفظ قليلاً، وعلى أية حال فإنَّ اللفظ لا يخرج عن الألفاظ الواردة في الروايات المتعددة في الكتب الثلاثة، إذا رُدَّ بعضُها إلى بعض.

٦ـ مسند الإمام أحمد (ت١٤١هـ):

نسب الشيخ رشيد بعض ما أخذ من الأحاديث إلى مسند أحمد بقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]: «روى أحمد وغيره عن مطرف أنه قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله ضيَّعتم الخليفة حتى قُتِل ـ يعني عثمان رضي الله عنه ـ ثم جئتم تطلبون دمه؟ فقال: كنا نقرأ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً ...﴾ ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا»[٥]. وعند الرجوع إلى مسند

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٥٠٩).
(٢) في «سننه» (١٣٦٧) عن أبي هريرة.
(٣) في «صحيحه» (٨٧٦) عن أبي هريرة.
(٤) في «صحيحه» (٨٥٥) عن أبي هريرة.
(٥) «أولى ما قيل» (٤: ٢١).

أحمد تبيَّن أن الحديث بلفظه[١].

وأشار إشارة عابرة إلى حديث رجم ماعز والغامديَّة في إثباته لرجم المحصن، وذلك عند تفسيره لآية: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ [النور: ٢][٢]، وحديث رجم ماعز رواه الخمسة[٣] ومن بينهم أحمد بن حنبل[٤].

(٥) كتب النحو واللغة

١ـ الكتاب:

مؤلفه: أبو بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه المتوفى سنة (١٨٠هـ).

نقل عنه الشيخ آراء لسيبويه وأستاذه الخليل بن أحمد (ت١٧٠هـ)، كالذي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤] فقال: «قال الخليل وسيبويه: اللام من قوله ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلقة بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ﴾ أي: فليعبدوا ربَّ هذا البيت لإيلافهم ببركة رحلة الشتاء والصيف آمنين مطمئنين»[٥].

---

(١) مسند أحمد (١٤١٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٣٠٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٧٠)، ومسلم (١٦٩٤)، وأبو داود (٤٤٣٠)، والترمذي (١٤٢٦)، والنسائي (١٩٥٦) عن جابر بن عبد الله.

(٤) مسند أحمد (١٤٤٦٢).

والذي أراه أنّه اعتمدَ في تخريجه للأحاديث بالواسطةِ عن طريق كُتُبِ التفسيرِ المتقدمة، ولم يَعُدْ إلى تلك الأصول مباشرة. (مجد).

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ٣٦٦).

وعند الرجوع إلى «الكتاب» تبيَّن النص الآتي: «قال سيبويه: وسألت الخليل عن قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً...﴾ [الأنبياء: ٩٢] فقال: إنَّما هو على حذف (اللام)، كأنه قال: ولأنَّ هذه أمتكم أمة واحدة... وقال: ونظيرها: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ لأنه إنما هو لذلك ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾. فإن حذفت اللام من (إن) فهو نصبٌ، كما أنك لو حذفت اللام من ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ كان نصباً»[١].

وأغلب الظن أن الشيخ نقل قول الخليل وسيبويه هذا، من «مجمع البيان»، فقد أورد الطبرسي ما يشبه عبارة الشيخ بقوله أيضاً: «قال الخليل وسيبويه»[٢]. ويؤيِّد ذلك نقله رأي الأخفش في المسألة في المكان نفسه، وقول الأخفش أيضاً من نقولات الطبرسي، وقد أشرت إليه في موضعه.

كما نقل قولاً آخر للخليل بن أحمد بقوله في وقوفه عند الآية: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] «وقال الخليل: أي قاطعةٌ لأنها أهلكتهم»[٣]. وهي أيضاً من «مجمع البيان»[٤] ولم أعثر عليها في الكتاب.

٢ـ مفردات ألفاظ القرآن:

لمؤلفه الحسين بن محمد بن علي بن المفضل المعروف بالراغب الأصبهاني المتوفى نحو سنة (٤٠٢هـ)[٥]. وهو أحد أئمة علم القرآن، وكتابه «المفردات»: جامع لما ورد

(١) «الكتاب» (٣: ١٢٦-١٢٧).

(٢) «مجمع البيان» (٣٠: ٢٤٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٤٧٩).

(٤) «مجمع البيان» (٢٩: ٤٠).

(٥) «منهج الراغب في كتابه مفردات ألفاظ القرآن» لرافع عبد الله مالو ص١-١١. وقد حقق تاريخ وفاته ورجح هذا التاريخ بدلائل مقنعة.

في القرآن الكريم من ألفاظ تحتاج إلى تفسير وبيان. وقد رتبه بحسب حروف الهجاء، ويعد من المراجع الهامة التي لا يستغني عنها المشتغلون بالدراسات القرآنية[١].

أفاد الشيخ رشيد من هذا التفسير في معاني المفردات القرآنية، فأشار إليه بعبارة: «قال الراغب». ومنهجه في ذلك: عدم الإكثار في النقل عنه، وعدم التوسع فيه؛ إذ كان يقتصر على ما يفي بغرضه لتوضيح دلالة المفردة، ويدع التفصيلات اللغويّة التي قد لا يهتم بها إلا المختصون؛ ولذلك قلّما نجد له نقلاً كاملاً لما ورد في معنى مفردة ما. وغالباً ما يحذف من كلام الراغب مختاراً منه ما تمس حاجته إليه، وهو أمر معهود لدى كلٍّ من يقتبس أو يستشهد، ويمكن أن نبين ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ [الأنفال: ٦٥] إذ يقول: «قال الراغب: التَّحريضُ على الشيء: بكثرة التزيين وتسهيل الخطب فيه»[٢]. والذي في المفردات: «الحَرْضُ ما لا يُعْتَدُّ به ولا خير فيه، ولذلك يقال لما أشرف على الهلاك: حَرِضَ...»[٣]. ويسترسل بعد ذلك في التفصيل اللغوي.

وصنيع الشيخ في مثل هذا لا مندوحة عنه، لأن الراغب يتناول المفردة بالطريقة المعجمية وبمختلف استعمالاتها، أما الشيخ فيفسِّر المفردة ضمن موقعها في الآية، فضلاً عمّا يجتنبه من الخوض في التفصيلات اللغوية التي تطيل التفسير، وقد تُلْحِق الملل بالقارئ.

---

(١) مقدمة محقق كتاب «المفردات»، «طبقات المفسرين» للداودي (٢: ٣٢٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٤٨).

(٣) «مفردات ألفاظ القرآن» ص١١٣-١١٤، مادة (حرض)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

على أنه قد يتوسَّع في النقل قليلاً لعضد وجه بلاغي يراه، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧] إذ يقول: «هذا الوصف للمبالغة في المعنى أي: ظلاً وارفاً، وأراد به عيشاً رغيداً فعبَّر عنه بأخصِّ صفاته، قال الراغب: الظلُّ أعمَّ من الفيء، يقال: ظل الليل، ويقال لكل موضع لم تصله الشمس: ظلّ، ولا يقال: فيء إلا لما زال عنه الشمس»[١].

فمن الملاحظ أنَّ ما نقله، لا يبدو كأنه من قبيل تفسير مفردة غريبة تحتاج إلى بيان، ولكن لإظهار سرّ اختيار هذه اللفظة في هذا الموقع. وهو ما عُني به الراغب.

وقد يفيد من الراغب من غير أن يشير إليه، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] إذ يقول: «وعُدِّيَ بإلى لِتَضَمُّنِه معنى الإفضاء»[٢] وهو مطابق لعبارة الراغب في «المفردات»[٣].

(٦) كتب البلاغة والنقد:

١ـ العمدة، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني المتوفى سنة (٢٥٦هـ)[٤].

وكتابه هذا «جمع أحسن ما قاله كلُّ واحد ممَّن صنَّف في معاني الشعر ومحاسنه وآدابه..»[٥]. أفاد الشيخ من هذا الكتاب في موضوع التكرار وقد أشار إليه في قوله: «وقد عقد ابن رشيق القيرواني في العمدة باباً للتكرار في أشعار العرب لأغراض

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٧٦) ووازن بـ«المفردات» ص٣١٤.

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٢٧٣).

(٣) ص١٩٩.

(٤) «العمدة» ص١، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١.

(٥) المصدر نفسه ص٤.

منوَّعة، وذكر كثيراً منها في مختلف الأغراض وأنواع التقرير»[١]. وهذا وارد في كتاب «العمدة» إذ جاء فيه «باب التكرار متى يحسن ومتى يقبح»[٢]، وممّا جاء في هذا الباب قوله: «ومن المعجز من هذا النوع قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٦] كلما عدَّد منَّة أو ذكّر بنعمة كرَّر هذا...»[٣].

٢ـ دلائل الإعجاز:

مؤلفه: الإمام عبد القاهر الجرجاني البلاغي النَّحوي المشهور الذي من مصنفاته: «المغني في شرح الإيضاح»، و«المقتصد في شرح الإيضاح»، و«دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة».. توفي سنة (٤٧١هـ)[٤]. وكتابه «دلائل الإعجاز» من أهمِّ وآصل كتب البلاغة والإعجاز.

وقد أفاد منه الشيخ رشيد، فاستقى منه ما وَرَد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤] إذ قال: «وقد جاء في «دلائل الإعجاز»: إنَّ بعض المفسرين توهَّموا في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها، فأفسدوا المعنى وأبطلوا الغرض ولم يوفَّقوا لما هو المقصود وما به المراد»[٥]. والكلام منقول بلفظه من «دلائل الإعجاز»[٦]. كما نسب إليه قولاً آخر هو: «متى توفَّرت العناية بالاسم يؤتى بالظاهر فيه موضع المضمر، لأن الكناية لا تبلغ مبلغ التصريح،

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٢٣٤).

(٢) «العمدة» (٢: ٧٣-٨٠).

(٣) المصدر نفسه (٢: ٧٥).

(٤) «طبقات الداودي» (١: ٣٣٠-٣٣١).

(٥) «أولى ما قيل» (٤: ٥٥٤).

(٦) للجرجاني ص٢٣٦.

كما جاء في «دلائل الإعجاز»[١]. ولم أعثر على هذا الكلام في «دلائل الإعجاز» أو «أسرار البلاغة»، بل كان الجرجاني يؤكِّد في أكثر من موضع أن الكناية أبلغ من التصريح[٢].

٣ـ مفتاح العلوم:

مؤلفه السكَّاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد أبي يعقوب من أهل خوارزم، كان عالماً في العربية والمعاني والبيان والأدب والعروض والشعر، متكلِّماً وفقيهاً، ولد سنة (٥٥٤هـ)، توفي سنة (٦٢٦هـ)[٣].

نقل الشيخ من السكَّاكي قوله: «قال السكَّاكي: إنَّ إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه»[٤]. وهذا القول ورد في «مفتاح العلوم» بلفظ مقارب جداً، هو: «واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يُدْرَك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تُدْرَك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذَّوق ليس إلا.

وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين[٥]. نعم للبلاغة وجوه ملتئمة ربما تيسَّرت إماطة اللثام عنها لتجلى عليك، أما نفس وجه الإعجاز فلا»[٦].

كما يلحظ استفادة الشيخ من كتاب «مفتاح العلوم» في مباحثه البلاغية من غير

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٨٩).

(٢) «دلائل الإعجاز» ص٥٢، ٢٣٦، ٣٤٣.

(٣) «معجم البلدان» لياقوت الحموي (٢: ٥٩). وينظر: مقدمة محقق «مفتاح العلوم» أكرم عثمان يوسف، الطبعة الأولى ١٩٨١، مطبعة دار الرسالة ص١٦-٢٢.

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٥٠٣).

(٥) يعني المعاني والبيان.

(٦) «مفتاح العلوم» ص٦٥٣.

إشارة إليه في مواضع، ومن ذلك قوله: إن إظهار لفظ الجلالة، فيما حقه الإضمار لتربية المهابة في النفس[١].

٤ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز:

مؤلفه عزُّ الدين بن عبد السلام أبو محمد السلمي الشافعي، الملقب بسلطان العلماء وشيخ الإسلام، مَهَر في العربية، ودرّس وأفتى، وبلغ رتبة الاجتهاد، له مصنفات كثيرة منها: «تفسير القرآن»، و«مختصر مسلم»، توفي سنة (٦٦٠هـ)[٢].

نقل الشيخ رشيد عنه في موضوع التكرار بقوله: «وقال شيخ الإسلام العزّ بن عبد السلام في كتابه «الإشارة إلى الإيجاز في أنواع المجاز»، وهو في مجازات القرآن: «وأما قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٦] فيجوز أن تكون مكرَّرة على جميع أنعمه في هذا الكون، لا خاصَّة بما قبلها، بل لا تعلق لها به في بعض الفقرات، وتجوز أن يراد بالأولى ما تقدّمها من النِّعم، وبالتالية ما تقدم على الأولى والثانية، والرابعة ما تقدم على الأولى والثانية والثالثة وهكذا إلى آخر السورة»[٣]. وهذا النص منقول باللفظ من كتاب «الإشارة»[٤].

كما أفاد منه في نقله عدداً من أنواع المجازات القرآنية وأبرزها (مجاز التضمين)[٥] الذي نال عناية الشيخ في تفسيره وعدَّه من وجوه البلاغة، متابعاً بذلك الشيخ العزَّ بن عبد السلام.

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٤، ٥: ٣٣٥)، ووازن بـ«مفتاح العلوم» ص٣٩٤.

(٢) الداودي «طبقات المفسرين» (١: ٣٠٨-٣١٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٢٥٠).

(٤) «الإشارة إلى الإيجاز في أنواع المجاز» ص٢١٧-٢١٨، دار الطباعة، القاهرة ١٣١٢هـ.

(٥) «أولى ما قيل» (١: ٦٩٥)، ووازن بـ«الإشارة إلى الإيجاز في أنواع المجاز» ص٥٥-٥٦.

(٧) كتب منوعة في الدراسات القرآنية:

١ـ الإتقان في علوم القرآن:

لجلال الدين السيوطي ٩١١هـ. نقل منه الشيخ عدة نقول منها في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ...﴾ [البقرة: ٢٢٦] إذ يقول: «قال السيوطي في «الإتقان» ما ملخصه..»[١]. كما نقل نفس الموضوع في مقدمته تحت عنوان «نموذج من بلاغة القرآن» مبيناً أن السيوطي منتحلٌ من كلام ابن أبي الإصبع المصري في بديع القرآن[٢].

٢ـ مقدمة صفوة العرفان في تفسير القرآن:

لـمحمد فريد وجدي، أفاد من هذه المقدمة عدداً من المباحث أو ما يسمِّيها بالمقدمات في مقدمة تفسيره، إذ نقل عنه نقلاً شبه حرفي الفصول الآتية: «الوجود في القرآن»[٣]، و«الإنسان في نظر القرآن»[٤]، و«الدنيا في نظر القرآن»[٥]، و«العبادات في نظر القرآن»[٦]، و«الجهاد في نظر القرآن»[٧]، و«الحكومة في نظر القرآن»[٨]،

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٤٠١).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٦٦٨)، ووازن بـ«الإتقان» (٢: ١٢٣-١٢٤)، الطبعة الأولى، البابي الحلبي، مصر.

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٧٥٧)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٦٠.

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٧٥٩)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٥٩.

(٥) «أولى ما قيل» (١: ٧٦٤)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٦٢.

(٦) «أولى ما قيل» (١: ٧٦٧)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٦٧.

(٧) «أولى ما قيل» (١: ٧٧٠)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٦٦.

(٨) «أولى ما قيل» (١: ٧٧٢)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٦٦.

و«المعجزات»[١]، و«الولاية والكرامة»[٢]، و«الشفاعة والتوسل»[٣].

٣ـ التصوير الفني في القرآن:

وكما أفاد الشيخ من تفسير «في ظلال القرآن» لسيد قطب من غير أن يشير إليه، أفاد كذلك من كتابه المشهور «التصوير الفني في القرآن»، وهو كتاب ظهر عام ١٩٤٥، ويتميز بالجدَّة والابتكار، إذ أفاد من الدراسات الغربية في الصورة الفنية، وطبَّق ذلك على القرآن وأبرز جانب التصوير في القرآن بمعزل عن مباحث البلاغة المعهودة، بل كانت المصطلحات المسرحيَّة هي المفضَّلة لديه في وصف صور القرآن: من مشهد وستار ورقعة وأضواء وحركة وإيقاع. ويمكن أن يلمح تـأثر الشيخ بهذا الكتاب في قوله: «فالتمثيل والتصوير هو الأداة المفضَّلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسوسة أو المتخيلة عن المعاني الذهنية والحالات النفسية والأحوال الغيبيَّة والطبائع البشريَّة، كما في قصة آدم وإبليس..»[٤].

وكرَّر نفس العبارة في مكان آخر بقوله: «ومن أساليب القرآن المنطق الوجداني المؤدِّي إلى الإقناع والشعور بالواقع بصورة الملموس، دون المنطق الذهنيِّ المرتبك العسير.. ولذلك كان أغلبَ أداة التعبير في أساليب القرآن التمثيلُ والتصويرُ، حيث يعبر بالصورة المحسوسة المتخيَّـلة عن المعاني الذهنية والحالات النفسية والأحوال الغيبية والسنن الكونية والطبائع البشرية مثل قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٧٤)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٦٩

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٧٧٦)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٧٢.

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٧٧٨)، ووازن بـ«صفوة العرفان» ص١٧٤.

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٩).

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]، وهو الأسد، فعبر بهذه الصورة المحسوسة عن المعنى الذهني وهو نفرتهم الشديدة من الدعوة إلى الحق والإيمان»[١].

ويقول سيد قطب[٢]: «التصوير الفني هو الأداة المفضَّلة في أسلوب القرآن فهو يعبِّر بالصورة المحسوسة المتخيَّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسيَّة عن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشريَّة، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة والحركة والتجدد...».

ولا بد أن نبيِّن أمراً، وهو أن الشيخ قد جعل قصَّة آدم وما جرى فيها من حوار بين الله عزَّ وجلَّ والملائكة، وبين الله تعالى وإبليس من هذا القبيل، وهذا الأمر لم يقصده سيد ولم يقُل به[٣]، وإنما عنىٰ الشقَّ الثاني من التمثيل كالذي مثل له الشيخ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾.

(٨) مصادر أخرى متفرقة:

١ـ الرسالة:

للشافعي محمد بن إدريس المتوفَّى سنة (٢٠٤هـ) وهو إمام في العلوم الدينية والعربية ورسالته هذه في أصول الفقه وتعدّ أقدم مصنف من نوعه. نقل عنه الشيخ رشيد مؤيِّداً دعواته إلى تعلم العربية لكلِّ مسلم بقوله: «وجاء في رسالة الشافعي صحيفة (٤٨) رقم (١٦٧) ما محصله: أنَّ تعلُّم العربية واجب على كل مسلم كبقية

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٦٧٥) ووازن بـ«التصوير الفني في القرآن» ص٣٤، دار المعارف، ط٩، ١٩٨٠.

(٢) «التصوير الفني في القرآن» ص٣٤.

(٣) في «ظلال القرآن» (١: ٥٩)، حيث أكَّد على ذلك بوضوح وجلاء.

الواجبات»[١]. وهذه هي المرة الوحيدة التي يشير فيها الشيخ إلى رقم الصفحة ورقم المسألة في مصدر من المصادر، وقد نقل منه بالمعنى إذ أن نصَّ الشافعي مختلف اللفظ[٢].

٢ـ اختلاف الحديث، للشافعي:

نقل منه قولاً لغوياً بقوله: «قال الشافعي في كتاب «اختلاف الحديث» في باب لحوم الضحايا: القانع: السائل، والمعتر: الزائر والمار بلا قوت»[٣].

٣ـ الفصل في الملل والنحل:

للإمام أبي محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري المتوفى سنة (٤٥٦هـ) الفقيه العالم، والمفكر الإسلامي الكبير.

نقل الشيخ منه عدَّة نقول؛ منها قوله في تفسير الآية الكريمة: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف: ٢٤]، فقال: «ولقد جاء في أوائل الجزء الرابع من «الملل والنحل» لابن حزم عند الكلام في يوسف عليه السلام أن معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ ...﴾ أنه همّ بضربها والإيقاع بها، كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥] ولكنه امتنع من ذلك لبرهان أراه الله إياه، فرأى أن الفرار أجدى من ضربها والفتك بها»[٤].

وعند الرجوع إلى كتاب ابن حزم وجدته يذكر وجهين في تفسير الآية، أولهما:

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٤٤٧).

(٢) الشافعي: «الرسالة» ص٤٨.

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٢٣٤)، ووازن بكتاب «اختلاف الحديث» ص٢٤٦، وهو في هامش الجزء السابع من كتاب الأم للشافعي، طبعة أولى ١٣٢٥هـ مطبعة بولاق، مصر.

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٢٩٣).

الذي ذكره الشيخ. والثاني: «أن الكلام تمَّ عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ ثم ابتدأ تعالى خبراً آخر فقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ وهذا ظاهر الآية بلا تكلف تأويل وبهذا نقول»(١). فالشيخ اختار الوجه الأول الذي عرضه ابن حزم وإن لم يكن رأيه، والوجه الأول ذهب إليه معاصره الطوسي في «تفسيره» مرجِّحاً إياه على غيره من الأقوال(٢) كما ذكره الطبرسي(٣) مع جملة من الآراء بدون ترجيح.

٤ـ تاريخ العصور القديمة:

مؤلفه الدكتور جايمس هنري برستد أستاذ تاريخ الشرق، ورئيس دائرة اللغات والعلوم الشرقية في جامعة شيكاغو، وعضو أكاديمية العلوم في برلين.

والكتاب تمهيد لدرس التاريخ القديم، وأعمال الإنسان الأول، نقله إلى العربية داود قربان أحد أساتذة جامعة بيروت العربية.

نقل عنه الشيخ رشيد من تاريخ بني إسرائيل بقوله: «جاء في كتاب «تاريخ العصور القديمة» ما يلي: بعد مضيٍّ قرن على نجاة اليهود من يد سنحاريب الملك الآشوري، استولى الكِلدانيون على الآشوريين وخرَّبوا نينوى عاصمة ملكهم، ففرح اليهود وظنوا أن في ذلك خلاصاً لهم من ظلم الأجانب، ولكنَّهم لم يلبثوا أن شاهدوا نبوخذنصر ملك الكلدانيين يغزو أورشليم ويخربها ويجلي أهلها إلى بابل...»(٤). وهذا النص

---

(١) «الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل» لابن حزم، وبهامشه «الملل والنِّحَل»، للشهرستاني (ت٥٤٨هـ) (٤: ١٤).

(٢) «التبيان» (٦: ١٢١). وينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن».

(٣) «مجمع البيان» (١٢: ٤١).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٥٢٠).

تلخيص من فصلين في الكتاب، الأول: بعنوان: (القضاء على المملكتين)[١]، والثاني بعنوان: (العبرانيون في المنفى ونجاتهم)[٢].

(٩) النقل عن المستشرقين والفلاسفة وعلماء النفس:

ولحداثة تفسير الشيخ رشيد وحبِّه التجديد ولعقليته المَرِنة، نقل عن المستشرقين، فلم يَرَ في ذلك بأساً مادام يعي ما ينقل ويميّز النافع من الضار، من ذلك قوله عند تفسير الآية: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]: «وقد شهد بذلك الأجانب أيضاً... قال أحد المستشرقين أرمينوس فامباري: كان الإسلام وما برح الدين الفائق سائر أديان العالم، شورى وديمقراطية، الدين الذي هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل..»[٣].

وقد أورد آراء كثيرة عن الفلاسفة وعلماء الطبيعة والمُحْدَثين لتأييد أقواله، كقول أرسطوطاليس: «إذا نازعتك نفسك إلى الشهوات واللذات فاعلم أنها نزعت بك إلى شرٍّ منزلة»[٤].

وقول نيوتن: «إنَّ الناس مع كل ما بلغوه من المعرفة... ليسوا إلا أولاداً صغاراً يلتقطون الأصداف التي يقذف بها بحر الحقائق»[٥].

كما نقل عن علماء النفس من غير أن يسمِّيهم بقوله: «يقول علماء النفس»[٦].

---

(١) «تاريخ العصور القديمة» ص١٦١، المطبعة الأمريكانية في بيروت ١٩٢٦.

(٢) المصدر نفسه ص١٦٣.

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ٤١٢).

(٤) «أولى ما قيل» (٥: ٨٤). ومثلها عن أفلاطون (٥: ١٨٣).

(٥) «أولى ما قيل» (٦: ٢١).

(٦) «أولى ما قيل» (٤: ٣١٥).

وقد يُبهم من ينقل عنهم من القدامى والـمعاصرين، فيقول مثلاً: «قال بعض أهل العصر»[١]، أو «قال بعض المفسِّرين العصريين»[٢]، أو «منهم من فسَّر»[٣].

وقد يوغل في الإبهام فيكتفي بعبارة «قيل...»[٤]، و«قال الجمهور»[٥].

❊ ❊ ❊

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١١٧).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٢٢١).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ١٢٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٨٣).

(٥) «أولى ما قيل» (٥: ٩٥).

الفصل الثاني
التفسير النقلي

عُنيَ الشيخ رشيد بالتفسير النقلي شأنه شأن أيٍّ مفسِّر للقرآن الكريم، غير أنَّ عنايته به لم تكن بقدر عنايته بالتفسير العقلي والتأويل، وهذا يرجع إلى اعتماده على العقل كثيراً، وتأثره بمدرسة الشيخ محمد عبده.

المبحث الأول
تفسير القرآن بالقرآن

يعدُّ تفسير القرآن بالقرآن أهمّ الطرق[١] والأساليب التي يعمد إليها المفسِّر لبيان معاني الآي لأنَّ القرآن وحدةٌ متكاملةٌ يُتمُّ بعضه بعضاً، ويَشهدُ بعضُه لبعض، وقد فسر النبي ﷺ آياً من القرآن بالقرآن وأشار إلى أهميته ابن تيمية المتوفى (٧٢٨هـ) وعدَّه: من أصح طرق التفسير، فما أُجمل في مكان فُسِّر في آخر، وما اختصر في مكان بُسط في آخر[٢].

وقد أفرد الشيخ عبد الكريم الخطيب تفسيراً وَفْقَ هذا المنهج من التفسير[٣].

وقد عُني الشيخ رشيد بهذا النوع من التفسير، وأول ما يؤكد ذلك أنه نظر إلى القرآن الكريم نظرة تكامليَّة عامَّة وفسَّره على هذا الأساس، ومقدمة تفسيره محاولة

---

(١) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (٢: ١٧٥).

(٢) «مقدمة في أصول التفسير» ص٩٣. وينظر: «تفسير القرآن بالقرآن: نشأته وتطوره حتى عصر الجلالين» لكاصد الزيدي، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد ١٢، ص٣٧٦.

(٣) ينظر: «اتجاهات التفسير في العصر الراهن» لعبد المجيد المحتسب ص٧١-٩٩.

قلت: وللباحث يحيى محمد دخل الله دراسة علمية عن هذا الكتاب عنوانها: «منهج التفسير القرآني للقرآن» لصاحبه عبد الكريم الخطيب، ولشيخنا العلامة الدكتور فضل حسن عباس نقد لهذا التفسير وما فيه من دَخَل، وهو من أبعد التفاسير عن المأثور، إذ اعتمد ـ كما ذكر ـ عقله الحر، فأتى بالغرائب. (مجد).

جادة منه لبيان أسس وخصائص عامّة للقرآن الكريم، استنتجها من خلال تفسير الآي والموازنة بينها بردِّ بعضها إلى بعض، فقد بيّن أن القصص القرآني أُجمل في مكان اكتفاءً بما فُصِّل في مكان آخر، وذلك تمشياً مع مقتضيات الأحوال والأغراض في ذلك السياق(١).

والسياق في القرآن قرينة مهمّة عند الشيخ في فهم المعنى وفي استنباط الأحكام، وهذا ما جعله يربط بعض الآيات ببعض، ويتحرّى المعنى في ضوء السياق، فيفهم من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤] أنَّ الخراب ليس هدم حجارتها فحسب، بل تعطيلها عن عبادة الله الحقّة، وذلك بقرينة ما قبلها من الآيات التي تتحدّث عن اليهود والنصارى، وهم الحريصون على بناء البِيَع والكنائس(٢).

ويردُّ على الذين يقتطعون الآية الكريمة: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] من سياقها ليفسّروها على هواهم، ويترخّصون بها الفدية بَدَل الصوم مطلقاً، مؤكّداً أنَّ هذا المعنى لا تتحمّله(٣) الآية ولا السياق... إذ ليس من المنطق أن يحتّم القضاء على المريض الذي رخص له بالفطر مع عذره، ثم يرخص بالفدية وحدها للصحيح القدير»(٤). فالسياق وسيلة مهمّة لدى الشيخ في تفسير الآيات وبيان المراد منها.

وفسّر كثيراً من الآيات بما يُناظرها في المعنى والفحوى، ففي قوله تعالى:

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٥)، (٥: ٣٦٨).
(٢) «أولى ما قيل» (٢: ١٦٦). وينظر: صبحي الصالح: «مباحث في علوم القرآن» ص١٣٩-١٤٠.
(٣) كذا في الأصل، وأغلب الظن أنه (تحتمله).
(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٢٦٢).

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢] يقول والآية شبيهةٌ بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١](١).

وهذا يُرجِّح وجهاً من وجوه التفسير بآية قرآنيَّة تكون قرينة على أرجحيته، وإن لم تقع في السياق، بل في موضع آخر من القرآن على نحو ما بيَّنه في قوله تعالى: في سورة الأعراف [١٣٧] ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ إذ احتمل للتدمير معنيين: أحدهما: التدمير الحقيقي، والآخر: الإجلاء، ورجَّح الثاني منهما مستدلاً بقوله تعالى في سورة الشعراء [٥٧] ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾(٢).

وفصّل بالقرآن ما أُجمل في بعض المواطن، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] إذ قال: «وقد فسّرت العهدين سورة المائدة [١٢] ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى قوله: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾»(٣). أو بعبارة أخرى: أنَّ العهد الأول: استجابتهم لله عزَّ وجلَّ بالتعبُّد له، والثاني: غفرانُ سيِّئاتهم، فهما عهدان متقابلان في النصّ الأول وكذلك في النصَّين الآخرين الذين رآهما مُفسِّرَين لذلك النص.

وحمل المجمل في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧] على المبيَّن في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣](٤). أي إنَّ الكلمات التي تلقَّاها آدم من ربِّه بعد الخطيئة إنَّما هي هذه العبارة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٢٥٢)، وينظر: (٣: ١٨٥)، (٣: ٣٩٤)، (٤: ٢٠)، (٥: ٢٤)، (٦: ١٩٤)، (٦: ٢٠٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٥١١).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٨٤)، وينظر: (٧: ٧).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٨٩).

ومن تفسير القرآن بالقرآن: الاستعانة بآيات من القرآن لتأييد فكرة وتوضيح رأي أراده الشيخ كالذي بيّنه في تأويل الآية المتشابهة: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، إذ قال: «إنَّ هذه الجملة لا ينظر فيها إلى معناها الإفرادي... ولكن ينظر إلى فحواها ومعناها التركيبي، وهو سلطانه سبحانه على هذه الموجودات...، والمعاني التركيبيَّة التي لا تراعي فيها المعاني الإفراديَّة موجودة في اللغة وفي القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]»[١].

وقد يستدلُّ بآياتٍ قرآنيَّةٍ على وجهٍ نَحْوي ذهب إليه ورآه كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾ [البقرة: ٧٤]، إذ قال: «وكذلك (أو) الترّدية مستعارة من حال المخاطَبين، على نهج القرآن في كلِّ ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]»[٢]. وفي قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]، يقول: «وكلمة (لا) مزيدة للمبالغة في نفي متعلق العلم الآتي، على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]»[٣].

ومن تفسيره القرآن بالقرآن: جمعه بين ما يتوهَّم أنه مختلف اختلاف تناقض، من الآيات كتلك التي وردت في خلق آدم عليه السلام، فقد وَرَدَ بعضها أنه خلق من تراب، وفي موضع: من حمإٍ مسنون، وفي ثالث: من طين لازب، وَوَرد في رابع: من

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٣٧٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ١١٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٣١٢).

صلصال. وهذا لا تضادَّ أو تناقض بينه البتة، إذ إنَّ هذه أحوال مختلفة درج عليها آدم في تطورات خلقته، فعبَّر القرآن في كلٍّ موضع بما يناسبه من تلك الأطوار حسب مقتضيات البلاغة ومناسبات الأحوال(١).

ومن ذلك: الجمع بين ما يوهم التعارض من الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، إذ بيَّن أنَّ التساؤل في الآية الأولى بمعنى تساؤل التناصر والتناجد، كما هي عادتهم في الدنيا... والتساؤل في الثانية للاستفسار والاستعلام الملفوف بالندم والتوبيخ، فاتَّفق التساؤل في الجنس واختلف في النوع على منهج القرآن في مثله(٢).

وعبارة (نهج القرآن في مثله) تدلُّ على أنه يَـرُدُّ آيَ القرآن بعضها إلى بعض في نظرةٍ شاملة، عند تأمُّله في المعنى وطلبه التفسير.

ومن تفسير القرآن بالقرآن: رد الآيات المتشابهات إلى المحكمات وسَيَرِدُ الحديث عنه في التفسير العقلي إن شاء الله.

* * *

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٦٧٧)، وينظر: (٤: ٤٢٦).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٦٧٨). ينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» ص٢٠٩.

المبحث الثاني

تفسير القرآن بالسّنة النبويّـة

السنَّة النبويَّة هي المصدر الثاني في تفسير القرآن الكريم، وفي الشريعة كذلك، والمسلمون مجمعون على أنَّ أعرف الناس بكتاب الله هو رسولُ الله ﷺ، ولكنهم مختلفون في مقدار الآيات التي فسَّرها؟

فمن العلماء من ذهب إلى أن الرسول ﷺ بيّن لأصحابه كلَّ معاني القرآن، كابن تيمية[١]. ويعضد هذا الرأي كلام للإمام علي رضي الله عنه في «نهج البلاغة» يقول فيه متحدِّثاً عن الرسول ﷺ: «فقبضه إليه كريماً ﷺ وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح، ولا علم قائم: كتاب ربكم فيكم مُبيِّناً حلاله وحرامه وفرائضه وفضائله...»[٢].

وذهب كثيرون إلى أنه ﷺ لم يفسِّر إلا عدداً قليلاً من الآيات ومنهم السيوطي[٣].

وقد وقف الشيخ رشيد في تفسيره مع الفريق الثاني؛ إذ استدلَّ بأدلَّتهم، ومنها: حديث السيدة عائشة رضي الله عنها التي تقول فيه: «لم يكن النبي ﷺ يفسِّر شيئاً من

(١) مقدمة في «أصول التفسير» ص٤٥-٤٦. وينظر: «التفسير والمفسرون» (١: ٤٩).

(٢) «نهج البلاغة» للشريف الرضي، شرح: محمد عبده (١: ٢٥-٢٦). وينظر: «التفسير في نهج البلاغة» لكاصد الزيدي، مجلة رسالة الإسلام لكلية أصول الدين ببغداد، العدد ٣، ٤، لسنة ١٩٧١م، ص٣٢-٣٣.

(٣) «الإتقان» (٢: ٢٢٨).

القرآن إلا آيات تُعد، علمهنَّ إيَّاه جبريل» فعلَّق الشيخ رشيد على الحديث بقوله: «وما ذلك إلا لإطلاق العقول وإفساح المجال في فهم ما يتضمَّنه هذا القرآن العظيم»(١). كما استدلَّ على ذلك بتعدُّد آراء الصحابة في تفسير كثير من الآيات.

أفردت معظم كتب الحديث باباً خاصاً في التفسير جمعت فيه ما ورد عن الرسول ﷺ في تفسير القرآن كما ضمَّت كتب التفسير بعامَّة طائفة من الأحاديث لبيان معاني الآي، وقد فسَّر الشيخ رشيد عدداً من الآيات بهذه الأحاديث النبويَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣] إذ أورد الحديث الدالَّ على ذلك وهو أن عروة سأل خالته عائشة رضي الله عنها عن هذه الآية، فقالت: «يا ابنَ أختي: هذه اليتيمة تكون شريكةً في ماله فلا ينكحها غيره، كراهيةَ أن يشركه أحدٌ في ماله فنُهوا عن ذلك»(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧]، أورد الحديث الذي يقول: «إنه جبل من النار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفاً»(٣).

وقد يفسِّر الآية بحديث بناءً على اختياره لمعناه، ثم يذكر رأياً يذهب إلى معنى آخر، كما في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿...وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، إذ أوردَ الحديث الصحيح المروي عن الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه(٤) الدالَّ على أنها صلاة العصر، فقال: «وللعلماء في الصلاة الوسطى أقوال أصحُّها أنها صلاة العصر لحديث علي:

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٤٩٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ١١). وينظر: «التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ» لمنصور علي ناصف (٤: ٩١)، دار الفكر، بيروت، ط٤، ١٩٧٥م.

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٥١)، وينظر: (٢: ٢٤٨)، (٤: ١٨٦)، (٦: ٣٣٠)، (٦: ٣٧٨).

(٤) صحيح مسلم (٦٢٧).

(شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر)». ثم قال: «وقال الأستاذ الإمام: يتبادر إلى فهمي أنَّ المراد بالصلاة الوسطى: الصلاة الفُضْلى وهي التي يحضر فيها القلب»(١).

وكثيراً ما يُورد التفسير بالسنّة بالمعنى من غير أن يشير إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿... حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] فقد جاء في الأثر أن الرسول ﷺ فسرها بسواد الليل وبياض النهار في ردّه على سؤال عَدِيّ(٢) وفسَّر الشيخ الخيط بتبيُّن الفجر، وبيَّن سرَّ هذا التعبير بقوله: «والتعبير بالخيط على وجوب التدقيق في طلوع الفجر الصادق»(٣).

ومثله ما قاله في تفسير الآية: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] إذ سمَّى الطائفتين بقوله: «هما بنو سلمة وبنو حارث من الأنصار»(٤). وقد وَرَد ذلك في حديث صحيح رواه الشيخان(٥).

ومثله ما وَرَدَ في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] إذ فسَّر الظلم بمعنى الشِّرك، ولم يورد الحديث المشهور في تفسيرها(٦). والحديث رواه الترمذي والشيخان(٧).

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٣٤٥).

قلت: وهو ما رجَّحه العلامة محمد أبو زهرة في «تفسيره» المطبوع باسم «زهرة التفاسير»، وفي «الفتاوى» له أيضاً. بجمعي وترتيبي وتحقيقي. (مجد).

(٢) والحديث رواه البخاري (١٩١٦) ومسلم (١٠٩٠).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٢٧٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٥٣٣).

(٥) رواه البخاري (٤٠٥١)، ومسلم (٢٥٠٥) عن جابر بن عبد الله.

(٦) «أولى ما قيل» (٣: ٣٣٣).

(٧) رواه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤)، والترمذي (٣٠٦٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وقد يأخذ بعموم اللفظ في التفسير، مع وجود حديث عن الرسول ﷺ يخصِّص المعنى، وهذا في الواقع لا يتنافى مع ما ورد في السنَّة إذ يكون المعنى المروي أحد مصاديق المعنى وفرداً من أفراده.

ففي قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يذكر أن ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: «وهم الذين خرجوا عن الحقّ بعد علمهم به، و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: وهم الذي لم يعرفوا الحق ولم يطلبوه»[١]. والذي جاء في الحديث هو أن «اليهود: المغضوب عليهم، والنصارى: ضلال»[٢]، وهذا الذي ذهب إليه سبقه إليه بعض كبار المفسِّرين في أخذهم بعموم اللفظ، لأنه أشمل وأكثر فائدة، بحيث ينطبق مفهومها على كلِّ من له صفتهم.

ويقف عند قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقد جاء في الحديث الصحيح ما يبيِّن زَيْغَ اليهود عمَّا أُمروا به في ﴿قُولُواْ حِطَّةٌ﴾، وهو أنهم «دخلوا يزحفون على أستاههم فَبَدَّلوا: وقالوا «حطَّة حبة في شعرة»[٣]. فلم يُشِر الشيخ إلى الحديث، وإنما أورد قولاً آخر قريباً من فحواه، بقوله: «فخالف الذين عصوا، وغيَّروا ما أُمروا به، فقالوا غير ذلك، واختلف في ذلك الغير فقيل: إنهم قالوا بالسريانية: هاطا سماقانا، ومعناه: حنطة حمراء»[٤]. وهو ما أشار إليه الزمخشري[٥] إلا

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١٦).

(٢) رواه أحمد (١٩٣٨١).

(٣) رواه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥)، والترمذي (٢٩٥٦) وجاءت في «مجمع البيان»: حبة في شعيرة (٢: ١١٢).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ١٠٢)، وينظر: (٦: ١٨٢)، ومثله في تفسير سورة البروج حيث لم يذكر حديث الغلام والساحر وهو برواية مسلم.

(٥) «الكشاف» (١: ١٤٣).

أنه جعله من النبطية لا السريانية فإنهم قالوا: حطاً سماقانا، أي: حنطة حمراء. وعلى أيٍّ حال فإن المعنى الذي فسَّر به الشيخ الآية لا يبعد عما تضمَّنه الحديث.

وقد يفسِّر الآية بغير المعنى الذي جاء في الحديث إذا أحسَّ بضعفه وعدم مطابقته للعقل، على نحو ما فسر به قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [آل عمران: ٩٣]: «بأنَّ الله حرَّم عليهم بعض الطيِّبات في التوراة عقوبةً لهم» على ظلمهم، واستدلَّ بآية أخرى وهي: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] فقال: «فالمراد بإسرائيل: شعب إسرائيل كما هو مستعمل عندهم لا يعقوب نفسه، ومعنى تحريم الشعب ذلك على نفسه أنه ارتكب واجترح السيِّئات التي كانت سبب التحريم»[١]. على حين جاء في الحديث أنَّ إسرائيل ـ وهو يعقوب عليه السلام ـ (اشتكى عرق النسا، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها، ولذلك حرَّمها)[٢].

ونرى أحياناً أن تأويلاته العقليَّة في عدد من الآيات لا تتناسب مع ظاهر الأحاديث الصحيحة التي رُوِيَت مفسِّرةً لها، على نحو ما نجد في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، فقد قال: «أي: أنهم لا يُؤْذن لهم فيعتذرون، أو أنَّهم حينئذ لا يتكلَّمون لما يصيبهم من الدهشة والاستسلام والاعتراف بالضلال، واستحقاق هذا العذاب»[٣].

وهذا الفهم ضَرْبٌ من التأويل ينأى عن ظاهر لفظ الآية، الذي يؤكِّده ما جاء في الحديث المروي في صحيح مسلم: «أنَّ العبد يوم القيامة يطلب شاهداً من نفسه

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٥١٢).

(٢) رواه الترمذي: سنن الترمذي (٣١١٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وينظر: «التاج» (٤: ٨١-٨٢).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ١٨٣).

فيختم الله على فيه وتنطق أعضاؤه...»(١). وكذا في تفسير آية الميثاق في عالم الذر(٢).

وقد أفاد الشيخ رشيد من الأحاديث النبويَّة في توضيح وتفصيل ما أُجمل من الألفاظ القرآنية، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]، فقد أورد رأي أبي مسلم، ثم رأيَ الجمهور وأيَّد هذه الأقوال بحديث عن النبي ﷺ وهو: «إذا أحبَّ الله عبداً يقول لجبريل: إني أحببتُ فلاناً فأحبَّه، ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ الله قد أحب فلاناً فأحبُّوه فيحبُّه أهل السماء، ثم توضع له المحبة في الأرض»(٣). فهذا من تفسير المُجْمَل وهو (الود)، فبيَّن أنه ودُّ أهل السماء بعد ودِّ الله سبحانه، ثم ودُّ أهل الأرض بعدهما.

ومثله ما بيَّنه في معنى ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ و﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ من قوله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠] إذ أورد الحديثَ المرويَّ عن الرسول ﷺ الذي يقول فيه: «لو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط في رحمته أحد»(٤). ولهذا نظائر في تفسير الشيخ(٥).

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٦٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٤٩٣-٤٩٨). وتُنظَر حاشيتي المطوَّلة عند تفسير هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]. (مجد).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٩٥)، والحديث متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٤٠) ومسلم (٢٦٣٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٣٥٣). والحديث متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) «أولى ما قيل» (٦: ٣٦)، (٦: ٣٨٨)، (٧: ١٩٠)، (٧: ١٩٢)، (٨: ١٩٦).

وقد يفيد من الأحاديث في تعضيد رأيٍ رآه في تفسير عدد من الآيات، كما في (يأجوج ومأجوج) إذْ أورد حديث البخاري، الذي فيه «إنَّ منكم واحداً ومن يأجوج ومأجوج ألفاً»(١)، وكما في حديث «عَجْب الذنب» الذي كرَّره كثيراً في حديثه عن البعث والنشور وكيفيته(٢).

وكما أفاد من أقوال الرسول ﷺ في تفسير الآي، أفاد من أفعاله: وهي التي يطلق عليها في اصطلاح المحدثيـن اسم (السنن)(٣)على نحو ما نجد في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ...﴾ [النور: ٢]. إذ بيَّن أنَّ أكثر أهل العلم يَـرَوْنَ الرجم وارداً في السنَّـة بعدَّة أدلة لِمَنْ هو مُحصَن من الرجال والنساء، واستدلَّ بفعل الرسول ﷺ في رَجْم ماعز الأسلمي والمرأة الغامديَّة وهما محصنان(٤)، وبما حكم به ﷺ على اليهودي واليهودية(٥)، اللذين زنيا وهما محصنان، وبفعل علي حين رجم المرأة المحصنة قائلاً: رجمتها بسنة رسول الله ﷺ(٦). والسنة هنا أفادت حكماً زائداً على ما جاء في القرآن(٧).

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ١٩٦). والحديث رواه البخاري (٣٣٤٨)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٤٠). والحديث متفق عليه رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هذا الاصطلاح غير صحيح؛ لأنَّ السنن تجمع أقوال الرسول ﷺ مع أفعاله وأوصافه، بل الأقوال فيها أكثر من الأفعال. (مجد).

(٤) رواه مسلم (١٦٩٥) عن بريدة رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري (٣٦٣٥) عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٦) «أولى ما قيل» (٥: ٣٠١).

(٧) ينظر: «التفسير والمفسرون» (١: ٥٥).

ومن بيان مجمل القرآن بالسنة: تفسير آيات العبادات المُجْملة في القرآن، كالحج والصلاة، فقد أورد منهما الحديثين الشريفين: «خذوا عني مناسككم»، و«صلوا كما رأيتموني أصلي»[١]، مبيِّناً بذلك أن ما أُجمل من القرآن قامت السنة بتبيينه وتفصيله[٢].

وممَّا يجدر ذكره هنا أنه لم يورد شيئاً من الأحاديث الدالَّة على فضائل السور، وهي أحاديث يندر فيها الصحيح والحسن[٣]، وفيها ما هو موضوع[٤].

* * *

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٩٩). والحديث الأول رواه مسلم (١٢٩٧) بلفظ «لتأخذوا مناسككم» عن جابر رضي الله عنه، والحديث الثاني رواه البخاري (٦٠٠٨) عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٢) «التفسير والمفسرون» (١: ٥٧).

(٣) ينظر: «الصحيح والحسن من أحاديث فضائل السور» لعبد الستار النعيمي ص٢١. (مخطوط).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١: ٥٦).

أسباب النزول

وقف الشيخ من الروايات الواردة في أسباب النزول موقفاً حذراً، مؤكِّداً في غير موضع القاعدة الأصوليَّة: (إنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، ولذلك لم يتوسَّع في ذكر سبب نزول الآي، واقتصر على القليل المفيد في توضيح المعنى وإلقاء ضوء على النصِّ، وكانت عبارته في نقل سبب النزول تشعر بمحدوديته عنده، كالذي أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، إذ قال بعد توضيح المعنى:

«وقد جاءت هذه الحلقة من الإرشاد في سلسلة ما سبقها من حلقات الإرشاد في النهي عن الرجم بالغيب ومنتظمة في سلكها، ولو كان سبب النزول ـ كما قيل ـ أن النبي ﷺ سأله مشركو مكة بإيعاز من أهل الكتاب عن أمر أصحاب الكهف وعن أمر ذي القرنين، وعن أمر الروح، فوعدهم أن يجيبهم غداً، فأبطأ الوحي بضعة عشر يوماً حتى ضاق بذلك؛ لأن المعتبر في فهم القرآن المعاني وتسلسلها لا في أسباب النزول على الصحيح، لأنها لا تخصِّص العام، ولا تقطع السياق، ولكنَّها سببٌ لنزول الحكم لا غير في آيات الأحكام»[1].

غير أن تحديده إيَّاها ببيان نزول الحكم في آيات الأحكام لا يُسلم له، فإنَّ في أسباب النـزول ما يعوَّل عليه في غير ذلك أيضاً، ومن تصفَّح كتب التفسيـر وكتب

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٢٠).

أسباب النزول، ككتاب الواحدي والسيوطي، يرى كثيراً منها يتعلَّق بأحداثٍ أشملَ من مُجرَّد الأحكام، فقد تكون من الأخلاق العامَّة، أو المتعلقة بالمسلمين، أو المنافقين والكفار، أو المتعلقة بالقَصَص القرآني.

كما أنَّ فهم المعاني قد لا يكتمل إلا بأسباب النزول، أو يزيل إشكالاً كما في قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٨٨] ففي الصحيح عن مروان بن الحكم أنه بعث لابن عباس رضي الله عنهما يسأله: لئن كان كل امرئ فرح بما أُوتيَ، وأحبَّ أن يحمد بما لم يفعل معذَّباً، لنعذبنَّ أجمعون، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، ثم تلا الآية التي سبقتها مباشرة في السياق مفسِّرة لها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] إلى قوله ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ...﴾، قال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه وأخبروه بغيره، وخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، فاستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه(١).

وماذا يفعل عموم اللفظ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] فإنا لو تركنا مدلول اللفظ لاقتضى أنَّ المصلِّي لا يجب عليه استقبال القبلة سفراً ولا حضراً، وهو خلاف الإجماع. فلا يفهم مراد الآية حتى يعلم سببها، وذلك أنّها نزلت لما صلى النبي ﷺ على راحلته، وهو مستقبل من مكة إلى المدينة حيث توجّهت به، فعلم أن هذا هو المراد(٢).

---

(١) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (١: ٢٧)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط أولى، ١٩٥٧. وقد أورد الشيخ هذه الرواية في تفسيره (٢: ١٠٤).

(٢) المصدر نفسه (١: ٢٩).

فالقاعدة الأصوليَّة التي أكّدَها الشيخ ليست مُطَّردة في أسباب النزول، وإن كان أغلب القرآن عليها.

على أنَّ الشيخ ـ مع ذلك ـ لم يبخس أسباب النزول قيمتـها من الدلالة على المعنى وتوضيحه، بل أورد روايات منها ما كان له دور في فهم النصِّ وإلقاء ضوء على معناه، كسبب نزول قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ ...﴾ [المجادلة: ١] وهو أنَّ خولة بنت ثعلبة ظاهَرَ عنها زوجها أوس بن الصامت، ثم ندم فقال لها: ما أظنُّكِ إلا حرمتِ عليَّ، فشقَّ عليها ذلك واستفتت رسول الله ﷺ، فقال: حَرُمتِ عليه.. فظلت تراجعه حتى نزلت الآيات[١].

وحين فسَّر الآية الكريمة: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [البقرة: ٢٧٣] بيّن سبب نزولـها فقال: «روي عن سعيد بن جبير أنها نزلت في قوم أصابتهم الجراحات في سبيل الله، فصاروا زَمْنىٰ، فجعل لهم من أموال المسلمين حقاً... وعلى ضوء هذه الآيات ثاب المسلمون في العصور الأولى للإنفاق على طلاب علوم الدِّين والقرآن أثناء النهضة العلميَّة»[٢].

ثم أكَّد القاعدة الأصوليَّة في أسباب النزول وهي: «أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب». وأكثر ما ذكر من المنقول في أسباب النزول مستقىً من صحيح الأخبار، كما في سبب نزول سورة الحجرات[٣]. وكذلك الأمثلة التي مرَّت.

على أنه فسَّر كثيراً من الآيات، ولم يذكر سبب نزولها مع أن لها أسباباً مرويَّة. كما

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٣١٧). والحديث رواه أبو داود (٢٢١٤) عن خويلة بنت ثعلبة.

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٤٠٩)، وينظر: (٢: ٢٩٢)، (٤: ١١٤)، (٥: ٥٠٠)، (٦: ٩)، (٦: ١٥٨).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ١٠٧). وينظر: «التاج» (٤: ٢٣٩).

في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥]، فإنها نزلت في ثعلبة[١] بن حاطب ولم يشر الشيخ إليها[٢]. ولعلَّه اسْتَضْعف روايتها فقد ضعَّفها القرطبي بقوله: «وثعلبة رجلٌ بدريٌّ أنصاريّ، وممَّن شهد الله له ورسوله بالإيمان، حسب ما يأتي بيانه في أول الممتحنة، فما روي عنه غير صحيح. قال أبو عمر: ولعلَّ قول من قال في ثعلبة: إنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح. وقال الضحَّاك: إن الآية نزلت في رجال من المنافقين..»[٣].

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦][٤]. لم يبيِّن فيه سبب نزوله، مع أنَّ له سبباً ذكرته المصادر[٥].

وقد يترك سبب النزول وهو صحيح الرواية، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ...﴾ [النساء: ٩٥][٦] إذ وَرَدَ في صحيح البخاري والترمذي أنها في ابن أم مكتوم عندما قال للرسول: يا رسول الله لو استطعت أن أجاهد لجاهدت وكان أعمى[٧].

ولعلَّ هذا من باب الإيجاز عنده، ولأنَّ خصوص السبب ـ كما تقدم ـ لا يمنع من عموم اللفظ وشموله لكل من يصدق عليه.

---

(١) «أسباب النزول» ص١٨٩-١٩١.

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ١١٣). وقد أحسن الشيخ في ذلك، لأن القصة باطلة سنداً ومتناً. (مجد).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٨: ١٣٣).

(٤) «أولى ما قيل» (٧: ١١٥).

(٥) «أسباب النزول» للواحدي ص٢٩١-٢٩٢. «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٦: ٢٠٥).

(٦) «أولى ما قيل» (٣: ١١٢).

(٧) رواه البخاري (٢٨٣٢) والترمذي (٣٠٣٣) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

الناسخ والمنسوخ:

تحدث الشيخ رشيد في مقدمته عن الناسخ والمنسوخ فميّز نوعين من النسخ: الأول: نسخ الشرائع، وبيّن أن لا خلاف فيه بين المسلمين، والآخر: النسخ في القرآن، وذكر أنَّ فيه خلافاً، فقد أنكره بعض العلماء ومنهم أبو مسلم، وأيّده الجمهور بشرط تعذر الجمع بين الآيتين وعلم تاريخها، وأن لا تكون من آيات العقائد والفضائل[(١)].

ويبدو الشيخ مُتحرِّزاً في موضوع النَّسخ في القرآن، فقد أيَّد محمد عبده في نفي نسخ بعض الآيات، برغم ذهاب الجمهور إلى نسخها، ففي قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٠] يقول: «لقد حقق الأستاذُ الإمام أنَّ الآية غير منسوخة بآية المواريث، لأنها لا تناقضها، بل تؤيِّدها بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾» كما أشار إلى أنَّ أسلوب الآية ينافي النسخ بقوله: «فإن الله سبحانه إذا شَرَع للناس حكماً، وعلم أنه مؤقَّت لا يُؤكِّده ويوثقه ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ [البقرة: ١٨١]، ثم يبيِّن الشيخ تأييده لرأي محمد عبده بقوله: «فالأستاذ الإمام مصيب بقوله»[(٢)].

وقد ذهب جماعة من علماء السلف إلى أن الآية محكمة ومنهم الحسن البصري وطاووس والعلاء بن زيد ومسلم بن يسار[(٣)]. كما تابع محمد عبده في نفس النسخ في

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٤٨-٧٤٩-٧٥١-٧٥٢). وينظر: «المنار» (٢: ١٣١-١٣٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٢٥٦).

(٣) «الناسخ والمنسوخ » لأبي القاسم هبة الله ابن سلامة أبي النصر ص٥٥، حاشية أسباب النزول للواحدي.

الآية: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] إذ قصد بالسيطرة هنا القلب ليس إلا[١]، وإن كانت هذه الآية لا يقول بنسخها إلا المولعون بالنسخ كما يسمّيهم محمد عبده.

ونجد الشيخ في «تفسيره»، إما أن ينفي النسخ صراحةً، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤][٢]. أو يفسرها تفسيراً يفهم منه إحكامها من غير أن يشير إلى ما قيل في نسخها كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤][٣] ومثل هذا كثير[٤].

وقد يعرض رأيَ من قال بإحكام الآية، ثم رأي من قال بنسخها، ولكن بصيغة التضعيف، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] إذ عرض رأيَ أبي مسلم الذي يعد ﴿ٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: الأزواج، وإنما أسند العقد إلى الأَيمان لأنَّ المتعارف عليه في العقد أن يكون مصافحة باليدين فكلُّ واحد من الزوجين يصير له حقّ الإرث بالعقد. ثم يقول: «وقيل: المراد بالذين عقدت أيمانكم، مولى الموالاة الذي نسخ حكمه بآية الأرحام، وكان يرث السُّدس من مال حليفه»[٥].

ويبدو أنَّ الشيخ يميل إلى نفي النسخ في القرآن، وإن لم يُصرِّح بذلك، ويؤيِّد ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ...﴾ [البقرة: ١٠٦] على أنَّ النسخ

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٢٢٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٢٦٢)، وينظر: (٣: ٢٨).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٤٢٧). وينظر: «الناسخ والمنسوخ» ص٩٨.

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٥١٨)، (٤: ٩٢)، (٤: ١١٩)، (٤: ٥٣٢).

(٥) «أولى ما قيل» (٣: ٥١).

نسخ الشرائع السابقة، وإنزال شرائع جديدة تناسب رُقِيَّ النوع الإنساني في ضوء تفسير أبي مسلم[١]. وقد ذُكر أنه كان يُصرِّح بذلك في مجالسه العامة ودروسه في التفسير[٢].

* * *

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١٥٨). ولكن ما ذهب إليه في تفسير الآية لا يفيد معنى النسخ الذي ذهب إليه العلماء، وينظر ما علقته على تفسيره لهذه الآية. (مجد).

(٢) نقلاً عن الأستاذ عبد الوهاب الكحلة.

المبحث الثالث
تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين

نقل الشيخ رشيد في تفسيره كثيراً من أقوال الصحابة، وفي مقدِّمتهم: حَبْر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[١]، كما نقل عن صحابة آخرين كعبد الله بن مسعود رضي الله عنه[٢]، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه[٣]، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما[٤]، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها[٥]، وأبي بكر رضي الله عنه[٦].

ونقل عن عدد كبير من التابعين، من الذين اشتهروا بالتفسير مثل: مجاهد بن جبر[٧] (ت١٠٤هـ)، وسعيد بن المسيب (ت٩٥هـ)[٨]، وعكرمة (ت١٠٤هـ)[٩]،

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٥٥٦)، (٣: ٣٩٠)، (٦: ١٥٤)، (٢: ٥٧٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٣٣٠)، (٤: ٣٩١)، (٣: ٣١٣)، (٤: ٣٩١).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٣٠١)، (٦: ٢٤٢)، (٨: ٣٤٢).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ١٣٨)، (٥: ٨٨).

(٥) «أولى ما قيل» (٥: ٣١٥)، (٧: ٣١٧)، (٨: ٣٨).

(٦) «أولى ما قيل» (٧: ١٢٠).

(٧) «أولى ما قيل» (٢: ٩١)، (٣: ٣٢٤)، (٤: ١٢٨).

(٨) «أولى ما قيل» (٢: ٣٤٥)، (٥: ٣٤٤).

(٩) «أولى ما قيل» (١: ٦٩)، (٤: ١٢٨)، (٨: ٣٧).

وعطاء بن أبي رباح (ت١١٤هـ)[١]، وأبي العالية (ت٩٠هـ)[٢]، ومحمد بن كعب القرظي (ت١١٨هـ)[٣]، ومسروق بن الأجدع (ت٦٣هـ)[٤]، والحسن البصري (ت١١٠هـ)[٥]، وقتادة (ت١١٧هـ)[٦]، والضحاك بن مزاحم (ت١٠٥هـ)[٧]، والسُّدي (ت١٢٧هـ)[٨]، وعامر الشَّعبي (ت١٠٩هـ)، والكلبي (ت١٤٦هـ)[٩]، ومقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ)[١٠]، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢هـ)، كما روى عن أهل البيت وفي مقدِّمتِهم الإمام علي وجعفر الصادق (ت١٤٨هـ)[١١].

وربما أبهم اسم الصحابي ولم يصرِّح به، وخاصَّةً إذا كان الخبر مروياً عن أكثر من واحد، إذ نراه يقول مثلاً: روي عن جماعة من الصحابة[١٢].

وكانت طريقته في نقل أقوال الصحابة والتابعين هي عزو القول إلى واحد أو أكثر منهم مع طرح سند الرواية، أو ذكر أقوالهم من غير إشارة إليهم، وهذا في تفسيره

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٣١٤)، (٦: ٢٨٣)، (٨: ٤٣).
(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٨٣).
(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٣٦٧)، (٨: ٢٨٥).
(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٥١٨).
(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٩١)، (٣: ١٢٧)، (٥: ٨٩).
(٦) «أولى ما قيل» (٥: ٨٩)، (٦: ٧٤)، (٧: ١٥).
(٧) «أولى ما قيل» (٢: ٤٩٤)، (٥: ٢٧٥)، (٦: ١٧٦).
(٨) «أولى ما قيل» (٢: ١٥٨)، (٣: ٢٩)، (٥: ٢٠١).
(٩) «أولى ما قيل» (٧: ٤٠٩).
(١٠) «أولى ما قيل» (٢: ٥٦٨)، (٥: ١٨٤)، (٧: ١١).
(١١) «أولى ما قيل» (٢: ٤٨٦)، (٤: ٤٢٩)، (٥: ٢١٥).
(١٢) «أولى ما قيل» (٧: ٢١٠).

كثير، ومنه ما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩] إذ قال: «أي: أهل المدينة أحلُّ طعاماً ـ إذ كان بينهم المجوس ـ فليلتمس طعاماً زكياً»[١].

وهذا القول نسبه الطبري إلى سعيد بن جبير[٢]، ونسبه الرازي إلى ابن عباس[٣]. وجائز أن تكون الرواية قد وردت عن كليهما.

ومن الملاحظ أن الشيخ كان يختار من أقوال الصحابة والتابعين ما يتناسب مع الوجوه التي يراها والتأويلات التي يذهب إليها، وقد يعرض أكثر من رأيٍ للموازنة.

والصحابة لدى الشيخ، وخاصَّة من اشتهر منهم بالتفسير، أوْلى الناس بالأخذ عنهم لصحبتهم، وصفاء فهمهم ولغتهم، يدلُّ على ذلك كثرة نقله عنهم وخاصَّة ابن عباس الذي يعدُّ أبا التفسير لكثرة ما روي عنه، إلا أنَّ ما قالوه لم يكن كل ما يقال في تفسير الآي وفهم القرآن فإنْ كان الله تعالى قد فتح عليهم مغاليق كثير من أسرار قرآنه، فإنَّ أسرارَه لا تنتهي، ولربما جاء بعدهم من تفتح له أشياء جديدة[٤]، وهذا ما حدث فعلاً، إذ كان لكثير ممَّن جاء بعدهم من المفسرين كالطبري والطوسي والزمخشري والطبرسي والرازي والبيضاوي والقرطبي لفتات طيبة في تفسير الآي. ولذلك نراه يكثر من النقل عن جمع كبير من المفسِّرين الذين جاؤوا بعد عصر الصحابة من العصور كافة.

فمن الواضح أنَّ الشيخ يقف إلى جانب القائلين بأن تفسير الصحابة من قبيل

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ١٧)، وينظر: (٣: ٤٨٢)، (٥: ٢٦)، (٧: ٤٢)، (٧: ٤٣).

(٢) «جامع البيان» (١٥: ١٤٨).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢١: ١٠٣).

(٤) يفهم هذا من مقدمته للتفسير، ومما نقله من رأي للصحابة والغزالي. تنظر «المقدمة» (١: ٤٩٢).

الموقوف[١]، فهو رأي له وليس قولاً لرسول الله ﷺ ولهذا فهو عرضة للخطأ. وهو منهج قدامى المفسِّرين كالطبري وغيره فقد كان يختار من أقوال الصحابة والتابعين ما يراه الأولى ويترك ما لا يراه كذلك في كثير من الأحيان، بعد موازنة قائمة على أسس علمية، لموافقته لكلام العرب، ولظاهر القرآن، وقوة الرواية والإجماع، وما إلى ذلك من أسس اعتمدها[٢].

وربما عضد قول الصحابي في التفسير وقوّاه بما أُثر عن رسول الله ﷺ، فابن عباس رضي الله عنهما يفسر قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] بقوله أي: وحّدوني واعبدوني أُثبكم، فعلّق عليه الشيخ رشيد بقوله: «ويُؤْنس لهذا المعنى قول الرسول ﷺ: الدعاء هو العبادة»[٣].

وقد يجمع بين حديث مرفوع إلى الرسول ﷺ وحديث مرويّ عن صحابيّ، كما في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] إذ يفسِّره بحديث صحيح رواه البخاري ومسلم وهو عن عبد الله بن عمر من أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحدَكُم إذا مات عُرِضَ عليه مقعده بالغداة والعشيّ إن كان من أهل الجنّة فمن الجنّة، وإن كان من أهل النار فمن النار، يقال: هذا مَقْعَدُكَ حين يبعثك الله يوم القيامة»، ثم أتبعه بقول لابن مسعود رضي الله عنهما يقول فيه: «إن أرواحهم في أجواف طيرٍ سُود تُعرَض على النار بُكرةً وعشياً إلى يوم القيامة»[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١: ٣). و«التفسير والمفسرون» (١: ٩٥-٩٦). والقصبي محمود زلط: «القرطبي ومنهجه في التفسير» ص٢.

(٢) ينظر: بحث أستاذنا الزيدي: «الطبري المفسر الناقد»، مع موازنة بمفسرين معاصرين له ص٣ وما بعدها.

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ٣٣٧-٣٣٨). وينظر تخريجه هناك. (مجد).

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ٣٣٠).

ويبدو أنَّ الشيخ يعدُّ قول هذا الصحابي في حكم المرفوع وخاصَّة أنه مما لا يقال فيه بالرأي، وخاصَّة حين يجد له ما يعضده، ولا يجده مجرد رأي رآه صاحبه.

ويحاول الشيخ رشيد التوفيقَ بين أقوال الصحابة، والثوابت القرآنيَّة التي دلَّ عليها صريح النصِّ القرآني. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

يقول: «هذا رأيُ بعض المفسِّرين أنَّ الخطاب عام، والورود بمعنى الدخول، وهو قول ابن عباس وجابر».

ويُعلِّق على ذلك بقوله: «أقول: وذلك لأنَّ الله يقول في حكمه الأساسي العام: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا...﴾ [الأنعام: ١٣٢] فمَن الذي لا يعمل مثقال ذرّة شراً؟ ولكن هذا الورود تتفاوت درجاتُه بتفاوت مقدار عمل ذلك الشرِّ الذي تتكيَّف به الروح كيفيَّة سيئة، وبنسبة تلك الكيفية قوةً ضعفاً. والله أعلم.

وبعبارةٍ أخرى أن للجنّة مستوى خاصاً من الكمال، من فقده لم يكن لها أهلاً، فمن بقي في نفسه أثارة من شرٍّ وأدركه الموتُ قبل أن يتطهَّر منه، انتظرته جهنم لتكمل له ما نقصه وتعوِّض ما فاته، وتزيل عنه ما تدرّن به من أوضار...»(١).

وإجلالاً من الشيخ لأقوال الصحابة لم يجعل لمقولاته العقلية السيادة عليهم على الرغم من اعتداده بها، بل كان له محاولات للتوفيق بين ما يروي وما يرى.

ففي قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، ويقول: «وعن علي وابن عباس: ملائكة يحفظونه من المهالك». ثم يقول: «وقد

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٨٨).

يعبِّر القرآن والحديث بالملائكة أحياناً عن القوة الخفيَّـة الصالحة النافعة، فيجوز أن يراد هنا القوى الطبيعيَّة في الإنسان التي تُوَلِّد المناعة في الجسم وتحفظه من الأمراض، ويكون معنى التعقيب الملازمة»[١].

من الواضح أنه يستمدُّ في تأويل الملائكة على هذا النحو من الشيخ محمد عبده ومدرسته، إذ كان لهم مثل هذه التأويلات[٢].

وكثيراً ما يعرض آراء الصحابة والتابعين من غير ترجيح، إذا وجد أنَّ كلَّ قول منها مقبول له وجه في التعبير وأساليب الكلام. كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] إذ قال: «قال الحسن: أي فليسلِّم بعضكم على بعض، فيكون من باب إجراء الوحدة بالجنس مَجْرى الوحدة بالشخص، كقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦] وقال جابر وقتادة والزهري والضحَّاك، معناه: فسلِّموا على عيالكم...»[٣].

* * *

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٣٥٦).

قلت: ذكرتُ الردَّ على هذه الدعوى فيما أوردتُه في المقدمة ممَّا كتبَه شيخُنا عبد الكريم تتان، كما ردَدْتُ على هذه المقولة الباطلة في تعليقي على تفسيره هذه الآية (١١) من سورة الرعد. فلتُنظَر هناك. (مجد).

(٢) وقد ردَدْتُ على هذا التأويل الباطل في أكثر من موضع في التفسير، ونبَّهتُ على خطئه فيما ذهب إليه. (مجد).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٣٤٧).

الإسرائيليّات

مصطلح لِمَا دخل من معارف اليهود والنصارى الدينيَّـة في تفسير القرآن عن طريق من أسلم منهم، وذلك لاشتمال (العهد القديم) و(العهد الجديد) على كثير ممَّا اشتمل عليه القرآن من الموضوعات، وبخاصَّة ما كان له تعلق بقصص الأنبياء عليهم السلام، وإن كان كثير مما فيه قد تحرَّف في كتب العهدين(١).

وسُمِّيت هذه المرويَّات (الإسرائيليَّات) مع وجود النَّصرانيَّات فيها تغليباً للأولى على الثانية لكثرتها وقلَّة الثانية.

ولما كان من طبيعة القصص القرآني الإجمال وعدم التفصيل في الأحداث وذكر الجزئيَّات، بل الاقتصار على مواطن العبرة، على حين حوت كتب العهد القديم خاصة تفصيلاً لكثير من جزئيات هذا القصص، فانتقل كثير منها بتفصيلاته إلى المسلمين منذ عهد مبكّر، فقد كان الصحابة الكرام أول مَنْ سلك هذه السبيل، ولكن من غير تمَادٍ، ومن غير أن يحكموا عليه بصدق أو كذب، امتثالاً لأمر الرسول ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»(٢)، ومن غير أن يسألوهم عن الأمور العقيديَّة أو عمَّا لا طائل وراءه.

ثم توسَّع التابعون في هذا الأمر وكَثُرت الروايات الإسرائيليَّة، وذلك لكثرة من

---

(١) ينظر: «الطبيعة في القرآن» لكاصد الزيدي ص١١٢-١١٣.

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه. (مجد).

دخل من أهل الكتاب في الإسلام، وَلتَوْق نفوس القوم إلى سماع التفاصيل التي وردت مجملة في القرآن.

ومن المفسرين الذين أكثروا من إيراد الإسرائيليات: مقاتل (ت١٥٠هـ)، ثم تلا هؤلاء من عَظُم شغفه بالإسرائيليَّات وأفرط في إيرادها حتى صارت عبئاً على التفسير بما حوته من خرافات وتُرَّهات، وقد ضمَّ تفسير الطبري (ت ٣١٠هـ)، والخازن (ت٧٢٥هـ)، والثعلبي (ت٤٢٧هـ) طرفاً منها، وخاصَّة ما يتعلَّق بأمور الخليقة وأحوال الطبيعة، والمبهمات[١] من الألفاظ.

والإسرائيليات ثلاثة أقسام: قسم عُلمت صحَّته بما رُويَ عن رسول الله ﷺ، وقسم: عُلِم كذبه بمناقضته شرعَنا أو العقل، وقسم: مسكوت عنه لا نكذِّبه ولا نصدِّقه، وتجوز حكايته، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه[٢].

وَقَفَ الشيخ رشيد من الإسرائيليَّات موقفاً واعياً مُشكِّكاً فيها، منبِّهاً على مخاطرها وخاصَّة ما يمسُّ عصمة الأنبياء منها، ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢٢] نراه يقول: «وقد رويت ههنا من الإسرائيليات روايات لا تليق بشأن الأنبياء، منها: أن داود عليه السلام، أرسل أوريا إلى الحرب بغية أن يُقتل ليأخذ زوجته، فقال علي رضي الله عنه: (من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مئة وستين جلدة)[٣].

---

(١) يراد بالمبهمات: أسماء الأشخاص والأشياء التي وردت في القرآن مبهمة دون تبيين، ومنه قربان ابْنَي آدم، وبعض بقرة بني إسرائيل، ينظر: «منهج الجلالين في التفسير» لكاصد الزيدي، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد الخامس ١٩٧٤، ص١٤٤.

(٢) ينظر: «التفسير والمفسرون» (١: ١٦٥-١٨١). و«مقدمة في أصول التفسير» ص٩٧-١٠٠.

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ٢٤٢).

وهذا الخبر أورده النسفي (ت٧٠١هـ) في تفسيره، تمامه: (وهو حد الفرية على الأنبياء)(١). كما أورده الطوسي (ت٤٦٠هـ) بلفظ آخر هو (لا أُوتى برجل يقول: إن داود ارتكب فاحشة إلا ضربته حدَّين: أحدهما: حد القذف، والآخر: لأجل النبوة)(٢).

ويبيِّن لنا الشيخ رشيد مصدر كثير من الإسرائيليَّات، كيف تسلَّلت إلى التفاسير القرآنية، ممَّا جعل الناس يغترُّون بها، وذلك من خلال تفسيره قصة آدم وإبليس، إذ يقول: «وما ورد من هذه القصَّة من التفسير المأثور فكثير منه مأخوذ من الإسرائيليات عن زنادقة اليهود الذين دخلوا في الإسلام للكيد، وكان الرواة ينقلون عن الصحابي أو التابعي ما مصدره تلك الإسرائيليات، فيغترُّ به بعض الناس ظانين أنه لا بدَّ له من أصل مرفوع إلى النبي ﷺ لأنَّ مثله لا يُعرف بالرأي»(٣).

وهذا تحليلٌ دقيقٌ وسليمٌ للإسرائيليّـات وكيفيَّـة تسلُّلها إلى التفسير، وإن لم يكن ذلك دائمـاً عن سوء نية، فهذه بضاعتهم، وهذا مبلغُ عِلْمِهم، وكانوا يُسألون فيجيبون بما عرفوه من روايات، وفيما يروىٰ عن كعب شيء من هذا القبيل فقد ذكر «أن الشمس تَغرُب في ماءٍ وطين»، وقال: «كذلك نجده في التوراة» فتناقله مفسِّرون في تفسير قوله تعالى عن ذي القرنين: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] حتى إنَّ الزمخشـري(٤) صَـدَّق هذا الكلام فنـقله دون اعتراض فجاء البيضاوي(٥) بعده

---

(١) «تفسير النسفي» (٤: ٣٧-٣٨)، عيسى البابي الحلبي.

(٢) «البيان في تفسير القرآن» (٨: ٥٥٤-٥٥٥). وينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» ص٢٣٤.

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٤١٧).

(٤) «الكشاف» (٢: ٧٤٥).

(٥) «البيضاوي» (٣: ١٥١)، طبعة مصطفى محمد.

ليلتفت إلى ما في هذا التعبير من مسحة أدبيَّة تبتعد عن ذلك التفسير الساذج الذي لم يلحظ مجازية التعبير، فقال: «ولعلَّه بلغ ساحل البحر فرآها ـ يعني الشمس ـ كذلك، إذ لم يكن في مطمح بصره غير السماء، ولذلك قال: وجدها تغرب، ولم يقل كانت تغرب»[١].

ومع هذا التَّحرُّز الذي أبداه الشيخ رشيد من الإسرائيليات، نراه أحياناً ـ كغيره من المفسرين ـ يورد شيئاً منها أو ما يشابهها، ممَّا لا ضرر فيه يبدو، في تفسير قصص الأنبياء، وخاصَّة ما يتعلَّق بمبهم من المُبْهمات القرآنيَّة، كالرجل الذي نصح قومه باتِّباع المرسلين وتصديقهم، في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ [يس: ٢٠]، فقد قال: «ويقال لهذا الرجل مؤمن يس... وقد جاء هذا الرجل حبيب النجار بدافع الفطرة السليمة إلى هؤلاء المعارضين المتوعدين»[٢]، ثم في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ [يس: ٢٥] على لسان هذا الرجل الناصح، يقول: «ولكن قومه أنكروا عليه ذلك وَوَطِئوه بأقدامهم حتى مات رُوي ذلك عن ابن مسعود»[٣].

والحق أنَّ الشيخ لم يتوسَّع في هذه الروايات المتعلِّقة في القصص القرآنيَّة فلم يُحدِّد المدينة، ولا عدد المرسلين، ولا من أرسلهم، ولم يفصِّل في صفات مؤمن (يس) كما فعلت الروايات برغم نسبتها إلى ابن عباس ومجاهد ومقاتل ووهب وكعب[٤]، بل اكتفى ـ كما هو واضح ـ ببيان اسمه، وذكر شيء يسير مما أصابه.

---

(١) «الطبيعة في القرآن» لكاصد الزيدي ص٥٠٨-٥١٠.

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٦٨).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ١٦٩).

(٤) «جامع البيان» (٢٢: ١٥٥، ١٥٦، ١٦١).

وقد أثارت هذه القصة جدلاً طويلاً لدى ابن كثير في صحَّتها أو غير صحتها[١]. وعلَّق القاسميُّ في «تفسيره» على هذا الجدل مبيناً أن المنهج الأمثل الابتعاد عن مَشْرب القصَّاص والمؤرِّخين وأنه: «ما من حاجة إلى تسمية تلك المُبْهمات، لأنَّ المقصد الاعتبار والذِّكرى»[٢].

وهذا في منهج غير واحد من المفسِّرين المعاصرين كسيد قطب في «تفسيره»[٣]، وهو ما التزمه أيضاً أستاذنا الدكتور كاصد الزيدي في كتاب «الطبيعة في القرآن الكريم»[٤].

وهذا الموقف في عدم التكلُّف في تبيين المبهمات نبَّه عليه قديماً الطبري[٥] عند تفسيره الآية الكريمة: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: ٧٣].

وربما اعتمد الشيخ رشيد على ما ورد في (كتب العهد القديم) أو (كتب العهد الجديد) من أخبار ليوثق روايةً في تفسير مبهم قرآني كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]، إذ قال: «واتَّفقت الرواة على أنَّ هذين الرجلين من صالحي بني إسرائيل هما يوشع بن نون، وكالب بن يفتة، وفاقاً لرواية التوراة عند أهل الكتاب»[٦].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥: ٦١٠، ٦١١).

(٢) «محاسن التأويل» (١٤: ٤٩٩٥-٤٩٩٩).

(٣) «ظلال القرآن» (٢٣: ١٤)، ط السابقة.

(٤) ص٣٥٨-٣٦٢.

(٥) «جامع البيان» (٢: ٢٣١)، دار المعارف.

(٦) «أولى ما قيل» (٣: ٢٠٠).

وفي قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] ينقل عن فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) ما جاء في الأناجيل من بشارة بمحمد ﷺ(١).

على أنَّ الشيخ حين يعمد في مواضع إلى استبعاد الإسرائيليَّات قد يلجأ إلى إيجاد البديل المنطقي المناسب لها، فيبذل جهداً إضافياً في تأويل الآيات التي مسَّ تفسيرَها شيءٌ من تلك الإسرائيليات.

ففي قصة هاروت وماروت يعتمد قصَّة تاريخية، وهي أن الملكين رجلان ماكران، أرسلهما ملك بابل لتخريب ملك سليمان، فلبسا المسوح وتظاهرا بالزهد، حتى التبس أمرهما على الناس، وحسبوهما مَلَكَين أو كالمَلَكَين، فكانا يُعلِّمان الناس السحر، ويهدِّدان كل من يعلمانه بالفتنة ـ أي القتل ـ إنْ هو خَرَجَ عليهما، ويرى الشيخ أنَّ القرآن سمَّاهما (ملكين) بناءً على ما ساد عند الناس في أمرهما، ويبيِّن أن هذا يسمى مجاز الوصف(٢).

وهذه المحاولة برغم انسجامها مع العقل، ومع ما يجري حقيقة في سياسات الدول وأخلاق الناس، وبرغم ما فيها من نأي عن الإسرائيليات وما تحوي من خرافات ونَيْل من عصمة الملائكة فإنها أيضاً تبقى محفوفة بالمخاطر، إذ لا يمكننا الاطمئنان إلى صحَّة الرواية التاريخية التي اعتمدها. كما أنها استوجبت تأويلات في النصِّ القرآني، لا تخْلو من تكلُّف، ولكن يبقى لها فضل المحاولة الجادة الهادفة إلى الوصول إلى حقيقة ترضي النفس وتقنع العقل. وإن كان الاستغناء بالواضح وترك السعي وراء المتشابه أو المبهمات أسلم(٣).

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٣٦٩-٣٧٠).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٨٢).

(٣) «في ظلال القرآن» (١: ١٣٠). وينظر ما علقته على ما ذهب إليه المؤلف ـ غفر الله له ـ وأغرب =

وكانت القراءة غير المشهورة ـ بكسر اللام[1] ـ بدلاً من فتحها في المشهورة، مخرجاً آخر ـ في ما يبدو ـ من مَسِّ عصمة الملائكة بما لا يليق بها في فكر المسلمين إذ يكون الرجلان على هذه القراءة (مَلِكَيْن) من البشر كانا في بابل اتّخذا السحر وسيلة للتخريب والإيذاء.

* * *

= فيه، وينظر أيضاً كتاب: «قصة هاروت وماروت في ميزان المعقول والمنقول» للأخ الدكتور الشيخ عيادة الكبيسي. (مجد).

(١) وهي قراءة الحسن البصري وابن عباس والضحاك وعبد الرحمن بن البزي. ينظر: «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها» لابن جني (١: ١٠٠).

الفصل الثالث
التفسير العقلي

مدخل

بدأت مظاهر التفسير بالرأي في وقت مبكر من تاريخ التفسير برغم كل ما أورده مانعو التفسير بالرأي من أدلّة المنع[١]، إذ رجحت في النهاية أدلة المجيزين المستدلة بمثل قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وبمثل دعاء الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنه: «اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل»[٢]، وبواقع الصحابة الذين توصّلوا إلى فهم كثير من الآيات بعقولهم واجتهادهم[٣].

وليس ثَمَّ خلاف حقيقي بين الطرفين، إنما حمل منع المانعين على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلَّم بما يعلم من ذلك لغةً وشرعاً فلا حرج عليه[٤]. ولذلك يقول الغزالي (ت٥٠٥هـ): «إن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً، ومتّسعاً بالغاً، وإن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه»[٥].

وبناء على ما سبق كان للمفسرين اتجاهان: الأول: عوّلوا فيه على المنقول والمأثور

---

(١) «مقدمة في أصول التفسير» لابن تيمية (١٠٣-١٠٦)، تحقيق: محمود محمد نصار، دار الجيل للطباعة، مصر. وينظر: «التفسير والمفسرون» (١: ٢٥٦-٢٥٧).

(٢) رواه بهذا اللفظ أحمد في «مسنده» (٢٣٩٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما. (مجد).

(٣) «التفسير والمفسرون» (١: ٢٦٢-٢٦٣).

(٤) «مقدمة في أصول التفسير» (١٠٦-١٠٧).

(٥) «إحياء علوم الدين» (٣: ١٣٦). و«التفسير والمفسرون» (١: ٢٦٣).

تعويلاً كبيراً وإن لم يخل من التفسير بالرأي، والثاني: أكثروا فيه من التفسير بالرأي مع ما أوردوه من التفسير بالمأثور. إلا أن النوع الثاني من التفسير بدأ يخضع بمرور الأيام للتوجهات الفكرية والجدلية الحادثة في المجتمعات الإسلامية، بحكم الحضارة والاختلاط، والنقل من الأمم الأخرى، بل انبرى بعض أصحاب المذاهب والعقائد إلى تأويل الآيات القرآنية بما يناسب مذهبه وعقيدته. وكان من أبرز هذه الاتجاهات صنيع المعتزلة الذين أَوْلَوا العقلَ أهمية كبيرة، وأوّلُوا كثيراً من الآيات تأويلاً عقلياً.

ولقد انتقل هذا المنهج إلى تفاسير غير المعتزلة من الشيعة وأهل السنّة، إما بحكم التأثر، وإما بحكم الرد عليهم وتفنيد آرائهم بالمنهج نفسه كما فعل أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ)[1] وفخر الدين الرازي، مع الفرق بينهما في التعامل مع المأثور.

ولقد اتجه الشيخ رشيد في «تفسيره» اتجاهاً عقلياً واضحاً مع عنايته بالمأثور، تابع فيه إلى حدّ واضح مدرسة محمد عبده، وإن كان المنهج العقلي ـ كما أسلفت ـ قديماً فضلاً عن خصوصيات انفرد بها في هذا المنهج. وليس غريباً أن يلتقي أحياناً في منهجه هذا مع آراء المعتزلة كما حصل لمحمد عبده من قبل[2]، إذ لا شكَّ أن للمعتزلة كثيراً من الجوانب المضيئة في فهم الكتاب المجيد، إلا أنَّ هذا المنهج بحاجة إلى التأمّل فيه قبل قبول كل ما وَرَدَ فيه؛ فكثيراً ما تبتعد فيه الأقوال عن جادة الصواب.

ولعل خير ما يذكر في هذا المجال قول الشيخ محمد أبي زهرة[3] معقباً على آراء المعتزلة ومواقفهم: إن هؤلاء يعدون فلاسفة الإسلام، لأنهم درسوا العقائد الإسلامية

---

(١) علي بن إسماعيل، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري، كان معتزلياً ثم تحول إلى السنة ونصرهم على المعتزلة، ويعد مؤسس مذهب الأشاعرة. «الأعلام» (٥: ٦٩).

(٢) «اتجاهات التفسير في العصر الراهن» لعبد المجيد المحتسب ص١٤٢.

(٣) «المذاهب الإسلامية» ص٢٦٤، المطبعة النموذجية بمصر.

دراسة عقلية مقيّدين أنفسهم بالحقائق الإسلامية، وأنهم قاموا بحق الإسلام من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورد كيد الزنادقة، وأما ما شذّ من آرائهم وأقوالهم، فإن ذلك يحدث كثيراً ممن يطلق لعقله العنان ولو في ظل النصوص.

ويبدو أن المنهج الأمثل في الرد على الزنادقة والمتشككين هو اعتماد المنهج العقلي القائم على التعليل والحجج والبراهين العقلية لا النصوص الدينيّة، وذلك واضح لعدم إيمانهم بهذه النصوص، وهذا هو سبب التوجه العقلي لدى المعتزلة، وهو عينه سبب النزعة العقلية لدى محمد عبده ومدرسته، ولدى الشيخ رشيد الخطيب الذي يعدُّ من المدرسة نفسِها كما سنرى ذلك فيما بعد.

❊ ❊ ❊

المبحث الأول

مظاهر التفسير العقلي لدى الشيخ رشيد الخطيب

نستطيع أن نتبين ملامح التفسير العقلي لدى الشيخ رشيد بالآتي:

١ـ تسويغ التفسير العقلي في ضوء قِلَّة المأثور عن النبي ﷺ في التفسير:

فهذا يفسح المجال في أن يعنى بالمنهج العقلي، وقد أوضح ذلك في مقدمة تفسيره التي بيّن فيها منهجه ورأيه في التفسير، فقد نقل حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ الرسول ﷺ «لم يكن يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات تعد، علَّمه إيّاهن جبريل»[١] ثم علَّق عليه بقوله: «وما ذلك إلا لإطلاق العقول وإفساح المجال في فهم ما يتضمَّنه هذا القرآن العظيم»[٢].

كما بيَّن أن القرآن يزداد فهمه والعلم به، كلَّما ازدادت العلوم كمالاً والأفكارُ عُلوّاً وجلاءً[٣]، وإن في القرآن معاني لا يظهر تأويلها إلا بعد عصر التنزيل. واستدلَّ على ذلك بقول لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبقول لأبي حامد الغزالي، كما استدل بتعدّد آراء الصحابة في التفسير[٤].

---

(١) تقدم تخريجه (١: ٤٩٢).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٤٩٢).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٤٩١).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٤٩١-٤٩٢).

فهذا ما في المقدمة من الدلالة على مَيْله إلى التفسير العقلي، وأن لا حرج على المفسِّر إذا أدلى بدلوه بين دلاء المفسرين. فقد يُجري الله على لسانه وقلمه مكنونات جديدة من أسرار القرآن، كما أفاض الله ـ في رأي الشيخ رشيد ـ على الشيخ محمد عبده من هذه المكنونات[١].

ولكي يؤكد صحَّة طريقته هذه يقول: «ثبت في الأصول أنه يجوز للعالم أن يفسِّر القرآن ويفهم منه ما لم يكن مروياً عن أحد بشرط أن لا يخرج بذلك عن مدلول اللغة في مفرداتها وأساليبها مراعياً عرف التخاطب فيها»[٢]. وبالفعل سار الشيخ رشيد على هذا النهج في تفسيره يختار من أقوال التابعين أقربَها إلى العقل ويدلي برأيه بين الآراء.

٢ـ ميله الواضح في اختيار مصادر تفسيره إلى أصحاب الرأي والمنهج العقلي من المفسرين، وخاصَّة المعتزلة من القدامى، ومدرسة محمد عبده من المُحْدَثين. وقد تقدَّم في الفصل الأول ما فيه إيضاح هذا الموضوع.

ويتفرَّع عن هذا الأصل نوع التأويلات التي اختارها من مصادره التي سمَّاها (أولى ما قيل)[٣] إذ إن أولى ما قيل لديه في مواضع كثيرة الأقوال العقلية ولو خالفت الجمهور كتفسير الإحياء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾ [البقرة: ٢٦٠] ناقلاً فيه رأي أبي مسلم الأصبهاني[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٤٩٢-٤٩٣).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٤٩٦).

(٣) وردت عبارة «أولى ما قيل» بكثرة عند أبي جعفر النحاس في كتابه «إعراب القرآن» (٢٠: ٦٦٥).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٧١-٧٢). وينظر ردي عليه في تفسير سورة البقرة (مجد).

وكتفسير حَمْل الأمانة بخيانتها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ...﴾ [الأحزاب: ٧٢][1].

ومثله ما ورد في موقفه من قصة الغرانيق[2]، وقوله في يأجوج ومأجوج[3] وسيرد بيان ذلك في كلام قادم.

٣ـ عرض آراء عقليّة في تفسيره سواءً كانت له أم لغيره، إلى جانب التفسير المأثور، كما في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٢]، إذ عَرَض الحديث الصحيح الوارد فيها ثم عرض آراء أخرى[4].

وربما ترك التفسير بالمأثور دون الإشارة إليه، وفسَّر بالرأي كما في تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧][5]، وقد مرَّ ذلك في الفصل السابق.

٤ـ تأويل الآيات المتشابهة بردِّها إلى الآيات المحكمات، وهذا الموضوع كان الشغل الشاغل للشيخ رشيد، فقد صبَّ فيها فهْمَه، وبذل فيها جهْدَه، وظهر فيها منهجُه العقلي في أوضح صوره، فقد استنبط من القرآن قواعد وسنناً ثابتة تعضدها عدة آيات وتؤكدها. ثم انبرى يؤول ما استطاع كل آية يُوحي ظاهرها بخلاف ذلك مستعيناً باللغة وأساليبها وأفانينها المتعددة، وهذه القواعد هي:

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٩٢-٩٣). وينظر اختياري في تفسير هذه الآية في تفسير سورة الأحزاب. (مجد).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٢٤٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ١٩٧). وينظر ردي عليه في تفسير سورة الكهف. (مجد).

(٤) «أولى ما قيل» (٥: ٤٦٨). وينظر ردي عليه في تفسير سورة النمل. (مجد).

(٥) «أولى ما قيل» (٢: ١٦).

القاعدة الأولى: (الهدى والضلال) يؤكد الشيخ حريَّة الإنسان واختياره، وأن الله تعالى قد هداه بهدايتين: هداية العقل، وهداية الرسل، وجعله مختاراً، يختار طريق الصلاح، أو طريق الضلال في هذه الدنيا، وجعل هذا الاختيار مناط التكليف، ومناط الحساب، وأن الآياتِ الدالَّةَ على ذلك كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]، وأنَّ الله لا يريد لعباده إلا الإيمان، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]: «وهذا الكلام يدلُّ بوضوح على أنه سبحانه أراد الإيمان للكافرين مع علمه أنهم لا يؤمنون، ولا معارضة في ذلك؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته ليكون خليفةً في الأرض، يتصرَّف في مواهبها كيف يشاء، وقد ألهمه بطبيعة فجوره وتقواه، وجعل تزكية نفسه وتدسيتها باختياره ومَـجْراه، فليس عمله في الكفر والشر قسراً لإرادة الله، بل موافقة لما أراد له من مطلق الاختيار. وبذلك يجري عليه الثواب والعقاب، كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وإرادة الله تعالى نوعان: تكوينيّة، وطلبيّة من الإنسان المختار في تصرُّفاته فالأولى: لا يتخلَّف المراد بها أبداً، والثانية: مجرد تكليف، يثيب من أطاعها، ويعاقب من عصاها». ثم ينهي كلامه بعبارة: «والله أعلم»[١] محترزاً بذلك من الجزم في الرأي.

وعندما يلقاه من الآيات ما يوحي ظاهرها بخلاف ذلك، يؤولها تأويلاً عقلياً، كما فعل كثير من أهل القبلة من قبل من المعتزلة والأصوليين من الإماميَّة، ومتكلِّمي الماتريدية والأشاعرة وأهل الحديث من أهل السنّة والإماميّة وكثير من أهل السنة لصرفها عن ظاهرها، كالذي نراه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ١٧٠) حاشية، وفي (٦: ٣٤٥) و«رسالة في العقائد» ١٨-١٩.

هَادٍ﴾[١] [غافر: ٣٣]، إذ يقول: «فليس معنى الإضلال: أنَّ الله سبحانه وتعالى يخصُّه به قَصْداً، أو يخلقه عليه خلقاً كاملاً، وإنما المراد ضلال العبد بمعاطاة الأسباب المؤدية إليه، كما يقال: أعماه الله، وإنَّ العمى ينشأ بمعاكسة الأسباب والأنظمة الصحية التي جعلها الله حفظاً للعين والبصر... فإنَّ كلَّ ما حدث للإنسان يصح أن ينسب إليه لأنه السبب المباشر، وإلى الله لأنه الخالق للسنن المؤدية إليها.. فإنَّ إبراز ناحية لا يعني انعدام أخرى.. فنسبة الضلال إلى الله تعالى كنسبة (الإمساك) إليه في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩]، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤]»[٢].

وهو كلام ظاهر الدِّقة والإصابة للحقِّ[٣]. وعلى هذا المنوال يجري الشيخ في تأويل مثل هذه الآيات ليعيدها إلى القاعدة الأساس.

---

(١) الراجح أن معناها: ومن يحكم الله له بالضلال نتيجة اختياره الحر، فما من حاكم ينسبه إلى الهداية. (مجد).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٥٤٧-٥٤٩-٥٦٨-٥٦٩)، وينظر: (٢: ٢٨-٢٩)، (٣: ٢١٦)، (٣: ٣٦٥)، (٤: ٥٤٥)، (٦: ٤٣٦)، و«رسالة في مواضيع مهمة» ص١٠-١٢، و«رسالة في العقائد» ص١٩-٢١.

(٣) لا يلزم في إسناد الفعل إلى ما يسند إليه أن يكون المسند إليه فاعلاً للشيء الذي تضمنه الفعل أو موصوفاً به، ويقع كثير من المفسرين بأغاليط بسبب عدم ملاحظة العلاقات الإسنادية المختلفة.

كما ينسب إلى المسند إليه ما تضمَّنه الفعل إلى فاعله، أو من قام به كقولك: برّأته إذا نسبته إلى البراءة وحكمت أنه بريء، وكذلك: صوَّبته وخطَّأته. ومن الإسناد القرآني في صدد هذه العلاقة الكثير من الآيات كما في الآية (٤٩) و(٨٨) من سورة النساء، والآية (٢٧) من سورة إبراهيم، التي لا يفهم من إسنادها إلى الله سبحانه أنه هو المجبر. وتنظر هذه القاعدة المهمة في كتاب «قواعد التدبر الأمثل» للميداني، القاعدة (٣٧) ص٦٦٥-٦٨١. (مجد).

ولا يعجزه أن يجد مخرجاً في تأويل حديث يعارض ظاهرُه هذه القاعدة وهو قول الرسول ﷺ: «لن يدخل أحد الجنة إلا أن يتغمَّده الله بفضله»(١). إذ يقول: «هذا محمول على أنَّ عمل الإنسان ـ مهما كان عظيماً ـ لا يقابل الجزاء العظيم والنعيم المقيم لولا رحمة الله وفضله، وإنما مثله مثل من يعمل عملاً يستحق ديناراً فيعطى مئة ألف دينار فضلاً وكرماً، والظاهر أنه ﷺ قال ذلك للمتنطعين الذين عزموا أن يواصلوا الصيام والقيام»(٢).

القاعدة الثانية: أن الإنسان والجان والملائكة وُهبوا العقل، أما ما عداهم من المخلوقات من جمادات وحيوانات فليسوا بعقلاء، فكل ما جاء في القرآن يوحي ظاهرُه بتعقُّل هذه المخلوقات يؤوله الشيخ بما يتناسب والقاعدة العقلية، فيلجأ إلى المجاز والتمثيل، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] إذ يقول: «وقد قالوا ليس هناك أمرٌ بالقول على الحقيقة. ولا جواب لذلك القول، ولكن الكلام تمثيل لسهولة ذلك عليه...»(٣).

وتسبيح هذه المخلوقات وسجودها يُراد به أيضاً انقيادها بقدرة الله وإرادته، ففي قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، يقول: «وتحقيق ذلك: أن مؤمني العقلاء وبعض الإنس والجنّ يسبِّحون الله قولاً وفعلاً واعتقاداً، وسائر الحيوان والنبات والجماد وكفار الإنس والجن، تسبيحها ما أودع الله في خلقها من حكمة وإبداع وإتقان وانقياد طبيعي. وهذا هو معنى التسبيح لا معنى سواه»(٤).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٣٧)، ومسلم (٢٨١٦) عن أبي هريرة.

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٤٢٧).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ٣٦٤-٣٦٥). وقد ردَدت على كلامه عن هذه الآية وأمثالها في مقدِّمة التفسير. (مجد).

(٤) «أولى ما قيل» (٧: ٢٨٣). وقد ردَدت على قاعدته هذه وبيَّنتُ جنوحَه فيها عن الصواب. (مجد).

وعلى هذا فسر ﴿يَحْمِلْنَهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ...﴾ [الأحزاب: ٧٢]، بمعنى يخُنَّها، فكانت السموات والأرض بذلك قد قامتا بالأمانة، وهي هذا النظام الذي أُنشئتا عليه(١). فهذا تأويل عقليٌّ واضح، وهو عين ما ذهب إليه الفيلسوف الكندي(٢)، وكثير من المتكلمين، وقريبٌ منه ما ذكره الطوسي(٣) والزمخشري(٤).

والقاعدة الثالثة: (إن الله منـزَّه عن التشبيه): فهذه قاعدة أساس في العقائد الإسلامية المتعلقة بالألوهية وكل ما يدل ظاهره في القرآن على خلاف ذلك، فلابد من تأويله، فقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] «كناية عن منتهى السخاء، مأخوذ من حال المخاطبين»(٥).

وهو سبحانه منزَّه كذلك عن النقائص، فكلُّ ما جاء من عبارات الكيد والمكر المنسوبة له تعالى في التنـزيل، إنما هي مشاكلة بلاغية يراد بها إبطال مكرهم(٦). وقد يكون ذلك بأسلوب التمثيل كما في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٩٢، ٩٣).

قلت: ينظرُ جواب شيخِنا عبد الكريم تتان على اختيار المؤلف لمعنى حمل الأمانة بالخيانة في مقدمة التفسير، وينظر أيضاً: ما علَّقتُه على كلامه في معنى حمل الأمانة في تفسير سورة الأحزاب. (مجد).

(٢) رسالة أحمد بن المعتصم في الإبانة عن سجود الحرم الأقصى وطاعته لله عزَّ وجلَّ ص٢٤٥-٢٤٦. نقلاً عن «الاتجاهات الفكرية في التفسير»، د. الشحات السيد زغلول، ط٢، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٧، الإسكندرية.

(٣) «التبيان» (٧: ٥١٨).

(٤) «الكشاف» (٢: ٦٦٩).

(٥) «أولى ما قيل» (٣: ٢٣٤)، وينظر: (٥: ٣٧٩)، (٦: ٣٥٤).

(٦) «أولى ما قيل» (٤: ٢٥).

إذ هي عنده «تمثيل مأخوذٌ من حال المُخَاطَبين، واستعارة الوصف الذي يسند لله سبحانه من حال المخاطبين، هي من أساليب القرآن ومجازاته»[١].

وسؤال الملائكة لله عزَّ وجلَّ عند إخبارهم بخلق خليفة في الأرض: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا ...﴾ [البقرة: ٣٠] قد يبدو فيه اعتراض على الله، وذلك مُحَال عليه سبحانه، فهذا لدى الشيخ «تـمثيلٌ وحكايةٌ لما دار في خَلَد الملائكة من محاولة معرفة الحكمة من طبع جِبلّة آدم على حرية الإرادة، والاختيار المطلق في تصرفاته»[٢]، وهذا لا شكَّ تمادٍ في إطلاق الخيال للعقل، إذ ظاهر النص يُشعِر بحدوث هذا الحوار وليس مجرَّد شيء دار في خلد الملائكة.

وأكثر منه في إطلاق العنان لخيال العقل ما أورده في مخاطبة إبليس إذ قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] فهذا لدى الشيخ أيضاً تمثيل، فبعد أن نقل قول ابن كثير «إنَّ هذا الخطاب للتكوين»، رأى أنه: «يريد أنه تمثيلٌ وإيذان بأن استعداد الشرِّ محيط بالإنسان من كل نواحيه، وهو قرينٌ لاستعداد الخير فيه». ثم علَّق على هذا الكلام في الحاشية بتلخيص كلام الجرجاني في «دلائل الإعجاز» من «أن بعض المفسِّـرين توهَّموا في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها، فأفسدوا المعنى، وأبطلوا الغرض، ولم يوفقوا لما هو المقصود وما به المراد»[٣]، بل يمتد التمثيل عنده ليشمل العالم الأخروي، إذ يرى أن «كل ما جاء

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٢٣٩).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٥٥٦).

قلت: تقدَّم الردّ على هذا الادعاء في تعليقاتي على «المقدمة»، وفي مواضع من التفسير. (مجد).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٥٥٨) وقد سبقت الإشارة إلى مواضع نقله عن ابن كثير و«دلائل الإعجاز» في فصل المصادر.

في الأحاديث عن العالم الأخروي جاء بطريقة التمثيل، لأنَّ التصريح لا يفي بذلك، ويمتنع عن الذِّهن إدراك الحقيقة، إذ لا مجانسة بينه وبين العالم الدنيوي. كما قال ابن عباس رضي الله عنه لا يشبه ما في الآخرة ما في الدنيا إلا بالاسم»[١].

القاعدة الرابعة: (إنَّ الأنبياء معصومون من الخطأ): فكل ما جاء من آيات، قد يوحي ظاهرُها بغير ذلك أو فسِّرت على ذلك بناءً على روايات ضعيفة، وَجَب تأويلها لتنسجمَ مع الأصل، وهو: عصمتهم. ففي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ...﴾ [الحج: ٥٢]، فهو يذكر أنه كلَّما هيأ النبي في نفسه خطَّة لنشر الدعوة راجياً أن تنجح، وَسْوَس الشيطان للمعارضين ألواناً من الخُطط لإحباط تلك الخطة، فينسخ الله ويبطل كَيْد الشيطان، وتسير الدعوة في طريقها حتى تتكلَّل بالنجاح[٢]. وهذا تأويل فيه ما فيه من النزوع العقلي، إذ المشهور خلافُه وتأويل الشيخ قريب من أحد التأويلات التي عرضها محمد عبده في حديثه عن قصة الغرانيق وتفنيد ما قيل فيها من أباطيل[٣].

ومثل ذلك موقفه من زعم سحر الرسولﷺ فقد أنكر أن يكونﷺ قد سُحر أو أنَّ هذا السحر قد أثَّر على عقله[٤]. وذلك لمصادمة هذا الاعتقاد بعصمته التي دلَّ عليها التنزيل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ويقف من كل آية في ظاهرها إنذار للرسولﷺ أو (وعيد) إنْ هو ترك ما يُوحَى

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٥٧٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٢٤٣).

(٣) «مجلة المنار»، المجلد الثالث، السنة الرابعة. وينظر: «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» للدكتور عبد الغفار عبد الرحيم ص٢٦٨.

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ٤١٤-٤١٧). وينظر ما علَّقتُه في تفسير سورة الفلق (مجد).

إليه أو مال إلى الكفَّار أو اتَّبع أهواءهم، ليؤولها بما يدفعُ ما يوحي به ظاهرها ويبيّن المقصود منها، ففي قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ ﴾ [هود: ١٣] يقول: «فليس هذا على حقيقته، إذ يستحيل أن يصدر الترك منه ﷺ ولكنه من الأساليب الفرضيَّة المسوقة لشدَّة البيان، فهو نوع من أساليب القرآن، والغرض منه: الحمل على التشجيع والثبات بصورة شديدة من الكلام»(١)، وهذا منه في غاية الصواب لفهم النص في ضوء حقائق النبوة وأوَّلُها العصمة. ولا يخفى ما في هذه التأويلات من جهد عقلي، دأب عليه الشيخ حرصاً منه على تنزيه الأنبياء وتأكيد عصمتهم.

٥ـ **ومن مظاهر منهجه العقلي: موقفه من المعجزات**، فإذا لم تكن الآية قطعيَّة الدلالة على المعجزة، وأمكن صرفُها إلى السنن الطبيعية، كان الأخير أولى عند الشيخ.

وتفسيره زاخر بالأمثلة على ذلك، منها ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴾ [سبأ: ١٠]، إذ بيَّن أن ذلك: «إما بطريق خارق للعادة أو بإلهام لاكتشاف طريقة سهلة للعمل السريع المتقن في مصنوعاتها. وعين القطر التي أسالها الله لسليمان ـ: يشير إلى أنَّ المفسرين قالوا: بأنها معجزة ـ. ثم بيَّن أنه «لا مانع من إرادة التجوُّز بهذا التعبير مبالغة في تسهيله»(٢).

ولا يلزم في قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴾ [الصافات: ١٤٦] أن إنبات الشجرة كان بعد أن نُبذ بالعراء، بل يسوغ ـ حسب خصائص اللغة وعُرف

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥٩١).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٠٦)، وينظر: مثيلاتها في (٢: ١١٠)، (٣: ٢٠٣)، (٣: ٢٨٧)، (٥: ١٣٣)، (٥: ١٨٥). قلت: تنظر ردودي عليه في تلك المواطن. (مجد).

التخاطب ـ أن تكون الشجرة نابتة من قبل، فألقاه الحوت عندها فمدَّت عليه فروعها في مدّة وجيزة وظلَّلته، لأن بعض الأشجار من غير ذوات الساق تفرع بسرعة(١).

والتِّيه في بني إسرائيل إنما كان بسبب خوفهم من المصريين والكنعانيين(٢)، لا كما يُفسِّره الجمهور(٣) بأنهم «يسيرون على غير هدى». وهو أمر معقول فإنَّ ضعف إيمانهم سبَّب لهم الوهن والجبن الذي يمنعهم من الجهاد المطلوب لدخول البلد الذي أمروا بدخوله.

وانطلاقاً من نظرة جامحة عمّا عليه ظواهر الآي وصحيح الآثار، انطلق الشيخ ينفي الشفاعة، ويؤول ما يدلُّ من ظاهر الآي عليها على نحو ما أورده في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] إذ قال: «في الآية وما قبلها من الموعظة وما يهدم صروح الأماني من جهلاء المسلمين الذي يعتمدون على الشفاعة والقرابين»(٤).

وكذا الحال في فهمه لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ [طه: ١٠٩] إذ اختار في إعرابها ـ في تكلّف واضح ـ الوجه الثاني الذي عَرَضه

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٢١٦).
(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٢٠١).
(٣) ينظر مثلاً: «القرطبي» (٦: ٨٥). و«بحر العلوم» (٣: ٦٠) لليث السمرقندي.
قلت: هو أبو الليث السمرقندي لا الليث، واسمه علي بن يحيى السمرقندي ثم القرماني، علاء الدين، مفسِّر من علماء الحنفية، نزل بلارندة من بلاد قرمان، وتتلمذ لعلاء الدين البخاري، اشتغَلَ في بلادِه بالعلم الشريف، وبلَغَ من العلوم مرتبةَ الفضل، ثم سلكَ مَسلَكَ التصوف، وكان متوطنًا بالمدينة المنورة، توفي في حدود سنة ٨٦٠هـ. (مجد).
(٤) «أولى ما قيل» (٣: ١٣٢).

الزمخشري[١] وهو أنَّ لفظ (من) منصوب على المفعوليَّة، عائد للمشفوع له فيكون المعنى: لا ينجو إلا من أذن له الرحمن بالانصراف عن موقف الحساب. فيكون الكلام رداً على القائلين بالشفاعة المعتمدين عليها، فالإنسان الصالح هو شفيع نفسه عند خالقه، ووجه التعليل عنده في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] أي: «أنَّ الشفيع يكشف للمشفوع منه أحوال المشفوع ليرقَّ عليه ويعطف، والله تعالى غنيٌّ عن ذلك مُطَّلع على كلِّ شيء، فلم يبق من الشفاعة على القول بها إلا الدعاء من الله سبحانه وتعالى والتوسُّل إليه أن يعفو ويصفح[٢]، ولا يقبل ذلك ويأذن بالشفاعة إلا لمن رضيَ له قولاً وعقيدة، وكان له بعض هفوات ولمم»[٣].

وهذا كما تقدم آنفاً على خلاف ظاهر الآي، وخلاف الآثار الدالة على الشفاعة، مع أنَّ العقل لا يمنع حصول الشفاعة، وإن كان الإنسان يحاسب على عمله.

ومن منهجه العقلي: تلك المحاكمات العقلية الدقيقة التي يستشرفها نتيجة الاحتمال أو الاستنباط المؤدِّي إلى إدراك الحقائق، وتفسير الأحداث والظواهر على نحو ما أورده في تفسير قوله تعالى على لسان سَحَرة فرعون بعد إيمانهم: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢] إذ قال: «ولا ينبئ هذا الكلام بأن إيمانهم كان نتيجة مجلس واحد، إثر حادثة المغالبة وتفوُّق موسى، بل يحتمل أنهم اجتمعوا بعدها بموسى مراراً وتلقوا كثيراً من الوحي والتعاليم حتى استقرَّ إيمانهم على هذه الصفة الثابتة، وذلك على نهج القرآن في إجمال البيان»[٤]. وهو ما لا دليل عليه، كما لا مانع منه في العقل إذ

---

(١) «الكشاف» (٣: ٨٩).

(٢) ردَدت على هذا الاتجاه في تفسيره للشفاعة في تعليقي على مقدمة المؤلف (٥: ١٣٥). (مجد).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ١٣٦)، وينظر: (٢: ٣٧٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٥: ١٢٠).

كثيراً ما يؤمن الإنسان فجأة حين تلوح له دلائل الإيمان وبراهينه، كما كان من إيمان عُمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سمع سورة طه في القصة المعروفة.

ويصف لنا أنواع الجدل في القرآن، كالترقي في الحجاج، عند قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۞ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣-٣٤] إذ يقول: «ثم بكّتهم عدّة تبكيتات يقلّب فيها وجوه التّسخيف والتّجهيل، ينتقل فيها من واحد إلى آخر أشدّ تشنيعاً وتوضيحاً في البطلان، فقال: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ ثم ترقّى متهكماً فقال: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ... ﴾[1].

ويقول في موضع آخر: «وجعل الكلام على طريقة السَّبْر والتقسيم من طرق الجدل التي ينهجها القرآن لينحصر السبب في نفاقهم ومرض قلوبهم فيسجل به عليهم فقال: ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ... ﴿ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ ﴾ ... ﴿ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [النور: ٥٠].

٦ـ التفسير العلمي:

ومن مظاهر المنهج العقلي لدى الشيخ رشيد: عنايته بالتفسير العلمي. وسبب دخول التفسير العلمي في القرآن: الإشارات العلمية التي وردت في معرض الاستدلال على الخالق وصفاته، ونِعَمِه وحقائق اليوم الآخر ونحوها ممّا عُني به القرآن في الفكر والعقيدة.

ويبدو أن مظاهره بدأت قبل عصر الجُبّائي الذي أنكر كرويّة الأرض، ثم جاء الطوسي ليثبتها[2] ثم توسع التفسير العلمي في عصر الغزالي (ت٥٠٥هـ) الذي نصره في كتابيه «إحياء علوم الدين» و«جواهر القرآن»، وجاء الرازي ليفسح له مجالاً رحباً في

(١) «أولى ما قيل» (٧: ١٨٣).

(٢) «التبيان» (١: ١٠٢-١٠٣). وينظر: «منهج الطوسي في التفسير» ص٢٢٨.

تفسيره الكبير. وقد أفاد الشيخ رشيد في نقولاته من لفتات الرازي العلمية[١] وعني البيضاوي والسيوطي[٢] والزركشي[٣] بعد ذلك بهذا اللون من التفسير.

وفي العصر الحديث زاد الاعتناء به على نحو ما نرى في تفسير طنطاوي جوهري الذي بالغ فيه كثيراً فملأه بقضايا العلم الحديث، وفي عدد كبير من الكتب التي أظهرت الإشارات العلمية في القرآن ومطابقة حقائق من العلم الحديث لها.

وقف الشيخ رشيد من التفسير العلمي موقفاً معتدلاً مُتَّزناً شبيهاً بموقف محمد عبده، ومع عنايته به يذكر في مقدمته بعد حديثه عن هذا اللون من التفسير: «إن القرآن لم ينزل كتاباً علمياً لتقرير نظريات علمية، وحقائق فلكيّـة، ووقائع تاريخية، وإنما هو كتاب هداية وتقرير دين، وإذا اقتضى الاستدلال على وجود الله أن يلفت العقول إلى آيات كونية ونواميس طبيعية ذكر منها، وأشار إلى ما يقوم برهاناً على وجوده..»[٤].

أخذ التفسير العلمي لدى الشيخ عدة مظاهر:

أولها: الاستفادة من الحقائق العلميَّة في كشف مدلول الآيات القرآنيَّة، والتدليل على عَظَمة الخالق وبديع صنعه سبحانه على نحو ما نجده في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ...﴾ [البقرة: ١٦٤]، إذ نقل كلاماً وأرقاماً عن العلماء في أسرار الكون،

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٣٣٥). وينظر: «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١١).

(٢) «الإتقان في علوم القرآن» (٢: ١٦٢).

(٣) «التفسير والمفسرون» (٢: ٤٧٥-٤٧٨). وينظر: «تطور تفسير القرآن» لمحسن عبد الحميد ص٢٢٥.

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٧٠٥).

وبديع صُنعه وضخامته، ودقة نظامه، واتساق نواميسه[١]، ثم قال: «وقد قال العلماء إنَّ لله كتابين: كتاباً مخلوقاً، وهو الكون، وكتاباً منزلاً وهو القرآن»[٢].

وأفاد من هذه الحقائق العلمية في توضيح آيات كانت ملتبسة على الأولين كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] إذ عرض أقوال القدامى في العمد. وبيَّن أن منهم من قال: إنها غير مرئية، ومنهم من قال: إنها بغير عمد وأنتم ترونها، ثم ذكر أن: المراد من العمد غير المرئية: الجاذبية العامة التي بها تتماسك النجوم في هذا الفضاء[٣].

ثانيها: تبيين الحكمة من طائفة من أوامر القرآن ونواهيه بالمكتشفات العلمية ومنها الطب الحديث، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] إذ قال «أما تحريم الميتة والدم فلاحتوائهما على الجراثيم الـمُتلِفَة لصحّة الإنسان، وأما لحم الخنزير فقد ذكر في تقرير للمعهد الطبي في الولايات المتحدة، أنه في تلك البلاد التي تأكل لحم الخنزير تختلف نسبة الإصابة بديدان التريكنيلا بين (٥) و(٣٥) في المئة.. كما أنّ أعْراضَها تظهر على ملايين من أهالي تلك البلاد بأشكال شتَّىٰ.. ويحتمل أن بضعة آلاف من الوفيات سببها هذه الدودة. فما أعظم حكمة الإسلام»[٤].

ثالثها: تفسير آية قرآنيَّة بحقيقة علمية ثابتة ثبوت القانون، يجد فيها الشيخ دليلاً من دلائل الإعجاز، وأن هذا القرآن منزَّل من الله العليم. كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٢٨-٢٣٢).
(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٢٣٤).
(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٣٤٨)، (٦: ١٠). وينظر: «منهج الطوسي في التفسير» ص٢٢٧.
(٤) «أولى ما قيل» (٣: ١٧٨).

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] إذ يقول بعد أن يفسر الآية: «وفي ذلك دلالة على نظرية ضغط الهواء وإيذان بأنَّ طبقاته تقلُّ كثافتها كلَّما بعدت عن الأرض، فيجد المرتفع حراجة في صدره إذا وصل إلى الطبقات العليا، لقلَّة مادة الأوكسجين. وهذا من جملة الأدلَّة الكثيرة الدالَّة على أن هذا القرآن تنزيل من رب العالمين»(١).

إلا أن الشيخ ربما أوقع نفسه في مشكل بهذا التفسير الذي نزع إليه، وإن كان قد أحسن في معظمه. ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، يقول: «فهما لا يختلطان إذا اجتمعا في إناء واحد، ولكن يطفو العَذْب على المالح وكلاهما ماء. يقال: مَرَج الشيء بالشيء إذا خلط به. ومثله مَـرَدَ الشيء بالماء فجعل في المالح مواد لم تكن في العذب، لذلك كان الماءان لا يمتزجان إذا جمعا، بل يطفو العذب عل المالح لخفّة أجزائه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ بيانٌ لما في كلٍّ من الماءين من مواد متغايرة، بحيث لا يختلطان إذا جمعا وذلك دليل على حكمته ومنته تعالى»(٢).

فمِن الغريب حقاً أن يتبنَّى الشيخ هذا القول، وكان يكفيه أن يجرب ذلك بنفسه ليثبت خطأ ما ذهب إليه، ثم إنَّ اللغة لا تساعد على ذلك فمعنى (مَـرَج) على قول الفراء: أرسلهما ثم يلتقيان(٣). وعلى قول الزجّاج: خلط(٤). وعلى قول ابن الأعرابي: أجراهما(٥). فإن اعتمدنا أجراهما أو أرسلهما كان المعنى أنَّ الله أرسل الأنهار والبحار

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٣٦٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٣٧٦).

(٣) «معاني القرآن» للفراء (٣: ١١٥). (مجد).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥: ١٠٠). (مجد).

(٥) «اللسان» م (مرج).

وجعل بينهما برزخاً أي حاجزاً، وهو ارتفاع الأنهار عن البحار، ولو كان العكس لطغى البحر على الأنهار فأفسدها وفسدت معه الحياة[١].

وقد اكتشفت في السنوات الأخيرة ظاهرتان: الأولى: عدم اختلاط البحر الأحمر بمياه المحيط الهندي برغم اتّصالهما إذ وجد العلماء أن كلاً منهما يحتفظ بتركيبه الكيمياوي[٢]. والثانية: اكتشفها البحّار الفرنسي المعاصر المشهور (جاك ايف كوستو) الذي لاحظ أن الكائنات الحيَّة التي تعيش في البحر المتوسط تختلف في دقائق تركيبها عن شبيهاتها التي تعيش في المحيط الأطلسي المجاور له، ولـمّا تحرَّى الحقيقة اكتشف وجود تيار مائي يفصل بين البحرين يمنع اختلاطهما. وانتهى به الأمر إلى وضع فرضية علمية مفادها أن مياه البحار والمحيطات ذوات التراكيب المختلفة لا تختلط أبداً، وذلك بفعل حاجز مائي يمنع امتزاجهما. وكان هذا الاكتشاف سببَ إسلامه عندما اطلع على الآية القرآنية[٣] التي يشهد ظاهرها تماماً لهذه الظاهرة العلمية الفريدة[٤]، ومن غير أن نؤول (البحرين) بالبحر والنهر على التغليب، فهما بحران حقيقة، وإن كان قدامى المفسرين ذهبوا إلى التغليب، على أساس أنهما البحر والنهر[٥].

ورابع مظاهر التفسير العلمي عند الشيخ رشيد: تفسيره الأحداث الغيبية المستقبلية كالبعث والنشور بالظواهر أو القوانين العلمية، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ

---

(١) «في ظلال القرآن» (٦: ١٧٤)، و«الجواهر في تفسير القرآن» لطنطاوي جوهري (١٢: ١٠٦)، مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٥٠هـ.

(٢) «مجلة الفيصل» ص٤٠، مقابلة مع الدكتور عزت نصر، العدد ١٥٤، ١٩٨٩.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠].

(٤) «روائع وطرائف» لإبراهيم النعمة (٣: ١٠)، مطبعة الخلود ١٩٩٠.

(٥) «الكشاف» (٤: ٤٤٧).

ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١] إذ قال: «وانشقاق السماء مثل انفطارها.. وهو فسادُ تركيبها واختلال نظامها، عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه وتبديله بغيره، ويكون ذلك نتيجة لاضمحلاله بتقادم عهده ـ والله أعلم»(١). فمثل هذا الكلام من قبيل الافتراضات التي لا سَنَد لها من علم قاطع، والأوْلى: أخذُ الآية على ظاهرها من دون تكلُّف كيفيّة حدوث ذلك، بل نَكِلُه إلى الله الذي لا يُعجزه شيء، فليس عصياً على الله سبحانه أن يُنهيَ هذا الكون يوم القيامة من غير أن يتقادم.

على أنَّ الشيخ له مع ذلك مواقف متَّزنة في التفسير العلمي يُرجِّح فيها التفسير العرفي على التفسير العلمي، ففي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، نراه يذهب إلى أن المراد: «أولم يرَ أهل مكة وغيرهم من المعارضين أنا نفتح لمحمد ما حولها من القرى واحدة بعد أخرى فتتَّسع رقعته وتضيق رقعتهم.. ثم يذكر أن العلماء يقولون: أنَّ تكرُّر الليل والنهار يتولّد من دوران الأرض على نفسها أحقاباً لا تحصى، أنقصَ وزنها بما يتطاير منها في الفضاء طوال هذه الأزمان المديدة». ثم يقول «إلا أنَّ القرآن ينهج في المعاني منهج عرف التخاطب لا منهج المعاني العلميّة، فما ذكرناه من المعنى العرفي هو المقصود في الآية»(٢).

ومع اعتداد الشيخ بالعقل وحُجيَّته وقدرته على إدراك الحقائق، إلا أنه مع ذلك لا يسترسل في اعتماده عليه إلى ما لا نهاية، بل هو يُصرِّح بمحدوديَّة العقل، فكثيرٌ من الظواهر الغيبيَّة برغم حرصه على تفسير كثير منها تفسيراً عقلياً ـ كالوحي وأمثاله ـ يقف العقل في رأيه عاجزاً عن إدراكها ومعرفة حقيقتها، وهو يقيس ذلك على قضايا

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٧٨-١٧٩). قلت: يُنظر ردّي عليه في تفسير هذه الآية من سورة الانشقاق. (مجد).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٣٧٩).

نحياها ونؤمن بها ونثق بها كلَّ الثقة، ومع ذلك لا ندرك حقيقة شأنها كعملية التذكر والإدراك، إذ لا أحد يعرف كيف تتم مع أنها عملية وعلمية ولا يمكن إنكارها البتة[١].

* * *

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٣٦٨).

المبحث الثاني

تأثره بمدرسة محمد عبده

حَظيت أفكار محمد عبده في التفسير بكثير من الدراسات والبحوث، إذ أحدثت هذه الأفكار ـ بما قدمته من وجهات نظر جديدة ـ منعطفاً في تاريخ التفسير. ولقد تدارس علماء من العالم الإسلامي هذه الأفكار، بل ساهموا في تطويرها بقدر ما يملكون، ومن هؤلاء: رشيد رضا الذي جلّى هذه الأفكار في تفسيره «المنار»، وعبد القادر المغربي في «تفسير جزء تبارك» على طريقة الشيخ محمد عبده، وكلاهما من طرابلس الشام، وكذلك الشيخ جمال الدين القاسمي في تفسيره «محاسن التأويل» الذي تلتقي كثيرٌ من أفكاره أفكار محمد عبده. ومثلهم مصطفى المُراغي صاحب «تفسير المراغي»، ومحمود شلتوت، ومحمد أبو زهرة، ومحمد عبد الله درّاز، ومحمد البهي، ومحمد محمد المدني، وعائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»، وسيد قطب، وهم جميعاً من مصر. ومن غير مصر محمد الطاهر بن عاشور أحد علماء تونس في تفسيره «التحرير والتنوير»، وعبد الحميد ابن باديس، ومالك بن نبي، وهما من الجزائر، وأبو الأعلى المودودي من باكستان[1].

---

(١) ينظر: «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» للدكتور عبد الغفور عبد الرحيم ص٣٢٣-٤٠٩، «التفسير والمفسرون» للذهبي (٢: ٥٥٢-٦٠٨)، «تطور تفسير القرآن» للدكتور محسن عبد الحميد ص٢٢٣، وما بعدها. «مناهج المفسرين» للدكتور منيع عبد الحليم محمود ص٣٠٥-٣٤٧.

وكوَّنت هذه الأفكار مدرسة في التفسير، انتشرت في أنحاء العالم الإسلامي، وتأثر بأفكارها معظمُ المفسرين الذين عاصروها أو تَـلَوها، ولم تسلم هذه المدرسة من الانتـقادات التي تكون شديدة أحياناً، من لدن عدد من العلمـاء والباحثيـن، مثل مصطفى صبري صاحب كتاب «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين». ود. عبد الحميد المحتسب في كتابه: «اتجاهات التفسير في العصر الراهن»[١].

وسبب ذلك: ما أحدثته من تغيير غير قليل في كثير من المفهومات السائدة قبلها، واعتمادها الكبير على العقل، ودعوتها للإفادة من المدنية الحديثة التي انبثقت في الغرب. وهذا ما كان يخيف كثيرين خشية التأثر بالجوانب السلبيَّة من تلك المدنيَّة التي قد تؤدِّي إلى الفساد والانحلال في القيم والسلوك.

عكف كثير من الباحثين على دراسة منهج هذه المدرسة وملامحها، منهم: رشيد رضا عندما تحدث في مقدمة «المنار» عن منهج الشيخ محمد عبده في تفسيره، وكذلك المستشرق الألماني كولد تسهير الذي يسمِّي مدرسة محمد عبده (المدرسة الإصلاحية)[٢]، والدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون» وقد سمـاها (المدرسة الأدبية الاجتمـاعية)[٣]، والدكتور محمد البهي في كتابه «الفكر الإسلامي الحديث»، والدكتور عبد الله محمود شحاته برسالته للماجستير عن منهج الأستاذ الإمام نوقشت في كليـة دار العلوم ١٩٦٠م[٤]، والدكتور عبد الغفار عبد الرحيم في كـتابه «الإمام

(١) وكتاب: «منهج المدرسة العقلية في تفسير القرآن» لفهد الرومي. (مجد).

(٢) في كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي».

(٣) «التفسير والمفسرون» (٢: ٥٤٩).

(٤) «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» للدكتور عبد الغفار ص١٨٥.

محمد عبده ومنهجه في التفسير»، والدكتور عبد المجيد المحتسب[١]، والدكتور محسن عبد الحميد في كتابه «تطور تفسير القرآن، قراءة جديدة»[٢].

وقد فات هؤلاء الباحثين ومنهم المتأخِّرون، أنَّ عالماً في الموصل جَعَل من أفكار الشيخ محمد عبده قدوةً له وأسوةً في طريق الدعوة والإصلاح والتفسير. ولولا إشارة الأستاذ عبد الوهاب الكحلة في بحثه المنشور في مجلة «الرسالة الإسلامية»، وقبله مقال الشيخ إبراهيم النعمة في مجلة (إحياء التراث العربي الإسلامي)، لبقي الأمر طيّ الكتمان، مع أنَّ نسبة الشيخ رشيد إلى مدرسة محمد عبده لا تحتاج إلى كبير عناء، فقد أشار في مقدمته إلى شدّة إعجابه بآراء هذه المدرسة ممَّا جعله يبني تفسيره عليها[٣]. وخاصَّة في الأجزاء الاثني عشر الأولى من القرآن الكريم التي فسَّرها صاحب «المنار»، والتي ضمَّت جلَّ أفكار الشيخ محمد عبده، فضْلاً عن تفسير (جزء عمّ) الذي جلّى منهجه أيضاً. بيد أنَّ هذه الإشارة ـ برغم أهميتها ـ ليست هي الدليل الوحيد على تأثر الخطيب بمحمد عبده، بل إن ذلك منثور في تفسيره في مواضع كثيرةً.

فلا بدَّ من التدليل على مواطن التأثير والالتقاء، ولا بد من عرض أهم الخصائص التي اتَّسم بها منهج مدرسة محمد عبده مع أوجه شَبَهِ منهجِ الشيخ رشيد بها. وهذه الخصائص هي:

١ـ بيان سنن الله في الخلق: ونظام الاجتماع البشري وأسباب ترقِّي الأمم وقوتها

---

(١) في كتابه «اتجاهات التفسير في العصر الراهن»، دار النهضة ١٩٨٠، وسمى مدرسة محمد عبده (المدرسة الطارئة التوفيقية)، ص٧٢.

(٢) ويسمي المدرسة: مدرسة (أفغاني عبده رشيد) ص٢٢٠.

(٣) «أولى ما قيل» (المقدمة ١: ٤٩٢-٤٩٤).

وضعفها[١] أو علم أحوال البشر وطبائعه والسنن الإلهية فيه[٢] التي عُنيت بها مدرسة الشيخ محمد عبده عناية فائقة. وقد حظيت هذه السنن في تفسير الشيخ رشيد الخطيب باهتمام كبير أيضاً، مرَّ في المبحث السابق جانب منها، ومنها أيضاً **سنة الكسب في الدنيا**، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]: «الذي يسعى لها سعيها حسب سنن الله الطبيعية، وهذا الشرط يفهم من مقابلة فيما يأتي على سنن القرآن في الاحتباك، إذ جَرَت إرادة الله سبحانه ومشيئته بأن تكون النتيجة بنسبة السعي ودرجة الإتقان، فهو ينال بمقدار ذلك»[٣].

ثم يقول: «وتحرير الأمر: أنَّ الله سبحانه خلق الإنسان وقذف به إلى الأرض، وركّب فيه من المواهب والقوى ما يسيطر به على قوى الطبيعة واستثمارها، ويهتدي به إلى الكمالات الروحانيَّة واستحصالها، وهداه بعقله وحده إلى الأولى، وبه وبالوحي إلى الثانية، فهو إن طلب الدين والدنيا معاً حصلهما، وإن لم يرد إلا الدنيا وحدها، بلغ مناه منها، إن اتبع السنن الكونية فيها، وسار بمقتضاها وموجباتها..»[٤].

وقمة العدل الإلهي في إعطاء الفرصة للإنسان في هذه الدنيا مهما كان اعتقاده، تمثله هذه الآية: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] وهذه السنَّة تجري على الأمم بمجموعها كما تسري على الأفراد[٥].

ومن سنن الله الاجتماعية: أنَّ المترفين والمنتفعين هم البادئون في الفساد، وأن

---

(١) «تطور تفسير القرآن» ص٢١٢.

(٢) «المنار» (١: ٢٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٥٢٧).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٥٢٧).

(٥) «أولى ما قيل» (٤: ٥٢٩)، وينظر: (٣: ٤٥)، (٣: ٣٦٥)، (٣: ٣٧٢)، (٣: ٣٨٨)، (٨: ٨٩).

الترف مفسدة للأمم، وهذا ما ينتهي إليه من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا...﴾ [الإسراء: ١٦] مستشهداً بأقوال علماء الاجتماع. وهذا الربط بين القرآن والنظريات الاجتماعية منه لدى الشيخ محمد عبده كثير، وهو الذي عناه المستشرق كولد تسهير بقوله: «إن محمد عبده يشرح نظريات اجتماعية كنظريتي: (تنازع البقاء) و(الانتخاب الطبيعي)»[١] في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وكذلك نظرية (بقاء الأصلح) في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨][٢].

ومن سنن الاجتماع: أن الأمة إذا تركت الجهاد خوفاً، ماتت بتفرُّقها وسيطرة الأعداء عليها. ولا يمكنها أن تحيا إلا بتماسكها ودعوتها للجهاد، فهذا ما فسر به متابعاً رأي الإمام محمد عبده قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣][٣].

٢ـ الوحدة العضوية بين الآي: وهي من الملامح الأسلوبيَّة في نظم القرآن التي عُنيت بها مدرسة محمد عبده، وقد ذهب إلى هذا الرأي غير واحد من الباحثين أمثال عبد الله محمود شحاته[٤]، وعبد الغفار عبد الرحيم[٥]. وتعدُّ الوحدة الموضوعيَّة، أو التناسب بين الآي من الموضوعات القديمة الجديدة، فكان القدامى يسمُّونه: (علم

---

(١) «مذاهب التفسير الإسلامي» ص٣٨٢.

(٢) المصدر نفسه ص٣٨٣.

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٣٥٣-٣٥٥). ووازن بـ«المنار» (٢: ٤٧١).

(٤) «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» ص١٨٦.

(٥) المصدر نفسه ص٢٠٣.

المناسبة) يقول الزجَّاج: «القرآن كلُّه كالسورة الواحدة[١]»، وحكى السيوطي عن غير واحد من العلماء: «إن النيسابوري[٢] أول من أظهر علم المناسبة وأنه كان يقول: إذا قُرِئ عليه: لم جعلت هذه الآية جنب هذه؟»[٣].

ومن أقدم المفسرين الذي عنوا به علمياً في تفاسيرهم: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، إذ كان لا يني يكشف عن وجوه الارتباط بين الآي أو بين السور في تفسيره: «التبيان»، وكذلك الطبرسي (ت٥٤٨هـ) في تفسيره «مجمع البيان». وأكثرَ منه الرازي في «تفسيره»، وأفرده بالتأليف برهان الدين البقاعي (ت٨٨٥هـ) في كتابه «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»[٤].

وقد أشار السيوطي إلى مؤلفه في هذا العلم وسمّاه: «أسرار التنزيل» وهو جامع لمناسبات السور والآيات[٥]. وهذا يدلُّ على أن بيان التناسب بين الآيات أو الوحدة الموضوعية بينها كان أمراً مهماً بين العلماء.

ثم جاء الشيخ محمد عبده في العصر الحديث فعُني بهذا الموضوع مانحاً إيَّاه نظرةً

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ١٥١).

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن المنذر، المتوفى سنة ٣١٠، صاحب تفسير واجتهاد «الداودي» (٢: ٥٠).

قلت: بل هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد بن واصل النيسابوري الفقيه الشافعي الحافظ، صاحب التصانيف المتوفى سنة ٣٢٤. ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٥: ٦٥-٦٨)، و«البرهان» للزركشي (١: ٦٣). (مجد).

(٣) «الإتقان» (٢: ١٣٨).

(٤) مرَّ ذكره في فصل المصادر.

(٥) «الإتقان» (٢: ١٣٨).

جديدة، إذ نظر إلى السورة الواحدة على أنها وحدة مؤتلفة تترابط أجزاؤها وتتماسك معانيها في سياق واحد لتكون ذات موضوع واحد لا تنافر بينه(١).

ولقد سار الشيخ رشيد الخطيب على نفس النهج، وكان شديد الحرص على تبيين وجوه **المناسبات بين الآيات**، وقد نبَّه على ذلك في مقدمة تفسيره قائلاً: «وإني قد التزمت فيه ما لم يلتزمه غيري من المفسِّرين، وهو بيان وجوه المناسبات بين جميع الآيات بقدر الإمكان، وذلك من جملة المهم في هذا التفسير»(٢).

وقال عن نظم القرآن وتماسك عباراته: «فهو متتابع تتابع الدر النظيم في العقد الفخيم»، ثم بيَّن وجوه هذا التماسك والتناسب في هذا النظم المعجز المبين: «والخلاصة: أن القرآن الكريم محكم الاتصال والترابط، متين النسيج والسرد، متآلف البدايات والنهايات، ويقوم بين جمله وآيه تناسب بارع وارتباط رصينٌ وائتلاف بديع، وترتيب آياته وسوره توقيفي على وفق ما في اللوح المحفوظ ـ والله أعلم ـ لم ينقص منه حرف واحد.. وكل آية إما مكملة لما قبلها أو مستقلة متتابعة معها»(٣).

ولا يمكن القول: إن الشيخ رشيد متأثر بالشيخ محمد عبده وحده في هذا الموضوع، فلاشك أن الشيخ باطلاعه على التراث القرآني القديم، قد أفاد منه في هذا المضمار(٤)، إلا أن تأثره بالشيخ محمد عبده له وضوحه، وذلك لعنايته الفائقة بمنهجه من ناحية، وسلوكه مسلكه في مقدار اعتبار أسباب النزول، فقد كان متحفظاً فيها.

---

(١) «المنار» (١: ٢٨٩). وينظر: «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» ص٢٠٤.

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٤٩٧).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٥٠٥).

(٤) وقد نقل في المقدمة (١: ٥٠٤) قول الرازي: «إن من آتاه الله قريحة قوية ونصيباً وافياً من العلوم الإسلامية عرف أن لا ترتيب ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن».

وكان الشيخ محمد عبده قد حمل على رواة أسباب النـزول، إذ رآهم «يمزّقون الطائفة الملتئمة من الكلام الإلهيّ، ويجعلون القرآن عضين متفرقة، بها يفككون الآيات ويَفْصُلون بعضها عن بعض، وربها يفصلون بين الجمل الموثقة والآية الواحدة، فيجعلون لكلِّ جملة سبباً مستقلاً، كما يجعلون لكلِّ آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سبباً مستقلاً»[١]. وهو المنهج الذي ارتأته أيضاً عائشة عبد الرحمن في تفسيرها البياني للقرآن الكريم، مع أنَّ زوجها وأستاذها أمين الخولي كان أكثر عناية بأسباب النزول منها، كما يتجلّى ذلك في حديثه عن هذه الأسباب في بيانه منهجه في التفسير[٢].

ومن الأمثلة على الربط بين الآيات عند الشيخ رشيد قوله بعد آية الحجاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ ...﴾ [الأحزاب: ٥٩]: «ولـما كان من جملة أعمـال المنافقين المؤذية للرسول والمؤمنين إيذاء نساء المؤمنين بالنظرات والتَّقوّلات، وكذلك بالمشاغبات في قضية زينب، أردفَ الكلام عن الحجاب العام والحكم السابق فيمن يؤذي الله ورسوله والمؤمنين والمؤمنات بهذا التهديد العام، فقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ باختلاق الأكاذيب والتقوّلات ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ... ثم سلاّه عن أعمـالهم هذه بأن مشاغبات المعارضين للهداة والأنبياء سُنَّة من سنن الاجتماع في طباع البشر المفسودة وكذلك الأمر بمقاومتهم... ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١]، ولمَّا ذكر حالتهم في الدنيا بيّن حالتهم في الآخرة، وابتدأها بتحقيق القيامة التي ينكرونها ثم ذكر ما يكون لهم فيما بعدها من الشقاء: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ

(١) «المنار» (٢: ١١).

(٢) ينظر: «مناهج في التفسير» ص٣٠٦-٣٠٨، دار المعرفة، ط١، ١٩٦١.

عَنِ ٱلسَّاعَةِ...﴾ [الأحزاب: ٦٣][١]. فعلى هذا النهج سار الشيخ رشيد في «تفسيره» في التفاته إلى تناسب الآيات وتناسقها وانتظامها في سياق واحد، والأمثلة على ذلك كثيرة[٢].

وقد تبدو آيات منقطعة عن السياق، فيلحظ التلاؤم فيها، ولا يعدم لها التأويل الذي يُظْهر قوَّة اتصالها بذلك السياق، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ فقد جاء بعدها: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١١-١٢] فربما يتوهَّم متوهم أن لا علاقة بين هاتين الآيتين، ولكن الشيخ يلحظ العكس فلا يفوته الالتئام ويقول: «وعدّى الدعاء بالباء لأنه من قولهم، ودعا به: إذا استحضره، أو لتضمُّنه معنى الاستعجال، فألمح سبحانه إلى أن أعماله كلَّها بتقديمها وتأخيرها مبنيةٌ على سنن لا تتبدل، وحِكَم لا تُدرك، ومثَّل لذلك بما بين الليل والنهار من مفارقات اقتضتها حكم، بعضها ظاهرة وبعضها خفية». ثم ذكر شيئاً من ظاهر هذه الحكمة في الليل والنهار وهي: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢][٣].

وهناك نوع آخر من الارتباط وهو **الوحدة الموضوعية القائمة في كل سورة**، إذ تشكِّل كل سورة في القرآن وحدة موضوعية، فأشار الشيخ أحياناً إلى هذا النوع إشارة سريعة بمقدمة للسورة كان يلخِّص فيها موضوعها وما تتحدث عنه. ومن ذلك قوله في سورة الزمر: «وموضوعها: إخلاص التوحيد، والعبادة لله تعالى والتعلق به رأساً بدون واسطة، والنهي عن اتخاذ الوسائط للتقرب بهم إلى الله والدعاء منهم، كالأولياء ونحوهم، وإبطال أن يكون له ولد، لأن الولد يجانس والده، وإن كل ما في السموات

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٨٨).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٥٠٤)، (٥: ٥٠٢)، (٥: ٨٥).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٥٢٣)، وينظر: (٣: ١٨٦)، (٣: ٢٠١)، (٤: ١٤١)، (٤: ٣٥٠).

والأرض إلا مخلوق لله تعالى وآتي الرحمن عبداً، وليست هذه صفة الولد وخصائصه كما هو معروف»[١].

وممّن أجادوا في هذا النوع: سيد قطب، فقد وضع لكلِّ سورة مقدمة، وضَّح فيها: موضوعها، وأهدافها، والخطوط الرئيسة فيها، بحيث يسهل بعد ذلك ربط أجزائها ومعرفة المناسبات بين آياتها[٢].

وهناك نوع ثالث عُني به الشيخ وهو التناسب بين السور، ولم يكن هذا النوع كثيراً، إذ حاول فيه عدة محاولات، ومن ذلك محاولته الربط بين سورتي الانشراح والضحى، إذ بيّن في سورة الانشراح أن «الغرض منها تتميم ما قبلها، فيما اشتملت عليه من بيان عنايته به ورعايته له في سائر أحواله وتقلباته»[٣].

ومن ذلك الربط بين سورتي (الحج) و(المؤمنون)، إذ قال: «لـمّا ذكر في سورة (الحج) الإذن بالقتال، افتتح هذه السورة (المؤمنون) بالشروط التي يتوقَّف عليها نصرُهم وفلاحُهم، وقد اقتضى هذا ذكر بعض الرسل السابقين الذين نصرهم على أعدائهم ونالوا النجاح والفلاح»[٤].

ومن ذلك أيضاً إشارته إلى العلاقة بين سورة (الفيل) و(إيلاف قريش) في تعليقه الجار والمجرور (لإيلاف) بـ(جعلهم كعصف مأكول)[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٢٦٥)، وينظر: (٦: ٩٧).

(٢) تنظر: مقدمة سورة الأنفال على سبيل المثال وإن كان الأمر مطَّرداً في كل السور..

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٢٧٧).

(٤) «أولى ما قيل» (٥: ٢٥٩).

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ٣٥٥).

٣ـ التوجه العقلي في التفسير:

اختلفت تسميات هذا الملمح لدى الباحثين ولكن المؤدَّى على أيَّـة حال واحد. وأُولى مظاهره لدى الشيخ محمد عبده: اعتمـاده على رأيه وعدم الوقوف عند أقوال المفسرين، إذ أخذ برأي القائلين بجواز التفسير بالرأي، بل عدَّ التـأويل هو التفسير بعينه لا تباين بينهما في الدلالة معتمداً على عبارة الطبري في «تفسيره»، وحديث ابن عباس في دعاء النبي ﷺ له بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[١]. وهو يعد الوقف في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٧] وعلى لفظ الجلالة لازماً، وأنَّ الراسخين في العلم هم الذين يفرِّقون بين ما يمكنهم فهمه وتأويله وبين ما لا مجال لهم فيه من الغيبيَّات فيسلِّمون، ويقولون: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾[٢]. وهو موقفٌ سليمٌ جمع فيه بين القولين المعروفين، وكان الشيخ محمد عبده ـ فيما يُروى عنه ـ لا يراجع التفاسير القديمة في دروسه للتفسير لئلا يتأثَّر فهمه بها، وإنما كان ينظر بها لمعرفة وجهٍ غريب في الإعراب، أو كلمة غريبة في اللغة[٣]. وكان المعروف عنه في ذلك أنه يتكئ في تلك الدروس على تفسير الجلالين[٤].

أما الشيخ رشيد الخطيب فإنَّ ما جاء في المبحث السابق يثبت منهجه العقلي وتأثره بمنهج الشيخ محمد عبده مع احتفاظه بشيء من الخصوصيَّة في الفهم القرآني فهو في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ يقف أيضاً موقفاً وسطاً بين من يقول: إنَّ الراسخين

---

(١) «المنار» (٣: ١٧٦-١٧٧). والحديث سلف تخريجه قريباً ص١٦١.

(٢) المصدر نفسه (٣: ١٦٣-١٦٧).

(٣) المصدر نفسه (١: ١٥).

(٤) ينظر: «منهج الجلالين في تفسير القرآن» لكاصد الزيدي ص١٢٥-١٢٧.

في العلم يعلمون المتشابه وبين من لا يقول بذلك، ولكنه يصوغ ذلك ويعبِّر عنه بطريقة أخرى إذ يقول: «إنهم يعلمون علماً إجمالياً.. وهم الذين يدركون أنَّ تلك المدلولات بعيدةُ المنال لا تفي بتوضيحها لغةُ الإنسان، فإذا عبَّر عنها القرآن بعُلوِّ بيانه واختيار كلماته، وبلاغة سبكه اشتبه الأمر على غير الراسخ، واستغلّه المُغْرض، وأدركه أولو الألباب إدراكاً إجمالياً». وينهي كلامه هذا المبني على اجتهاد واضح بعبارة: «والله أعلم»[١]، احتياطاً منه في أن يكون هذا الفهم غير سديد تماماً، وهذا من الورع الذي يُحمد له.

وكما قيَّد الشيخ محمد عبده الشفاعة بناءً على نظرة عقلية، وعدّ ما جاء في إثباتها من المتشابهات، إما أن نسلِّم به على مذهب السلف، وإما أن نؤوِّله على مذهب الخلف، على أنها دعاء يستجيبه الله تعالى[٢]، فإن الشيخ رشيد لم ينقل عنه تشدّداً في أمرها[٣] فهو بعد مناقشتها وتحليلها على طريقة الشيخ محمد عبده نراه يقول: «فلم يبق على القول بها إلا الدعاء من الله سبحانه، والتوسل إليه أن يعفو ويصفح، ولا يقبل ذلك ولا يأذن بالشفاعة، إلا لمن رضيَ له قولاً وعقيدة، وكان له بعض هفوات ولمم»[٤].

وبمثل موقفه من الشفاعة كان موقفه من التقليد[٥]، إذ كان يُزْري بالمستمسكين به، وذلك يتجلّى في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿...قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، إذ قال مندِّداً بهم:

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٤٤٦).

(٢) «المنار» (١: ٣٠٧-٣٠٨)، ووازن بـ«أولى ما قيل» (٢: ٩٢).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٩٢).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٩٢). وينظر: «المنار» (١: ٣٠٨).

(٥) ينظر: «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» ص٢٧٣.

«ولو كان للمقلِّدين قلوب يفقهون بها، لكانت الآية كافيةً بأسلوبها لتنفيرهم من التقليد الأعمى، فإنها حُجَّة عقلية لا تُنقض، إذ أبعدُ الناس عن معرفة الحق المقلدون الذي لا يبحثون ولا يستدلون..»[١].

وقال في تفسير سورة لقمان: «يريدون أن يتفكَّروا بعقول آبائهم لا بعقولهم:

صُوَرُ العَمَى شَتَّى وأَقْبَحُها إذا نَظَـرَتْ بغـيرِ عُيـونِهِنَّ الهَـامُ

ما أقبح التقليد وما أشدَّه جهالة»[٢].

وكان الشيخ رشيد يطبق ذلك عملياً، إذ كان يطلب من طلابه أن لا يتقبلوا آراءه بالتسليم، وأن يشبعوها درساً وتمحيصاً. وكان لا يسلِّم لأبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) بكل آرائه، وقد يُسلِّم للمعتزلة إذا وجد الحق معهم[٣]. وهذا يدلُّ على تحرُّره الفعلي من الاتباع بلا دليل، ولعلَّ هذا الذي حَمَل عدداً من الناس على نسبته إلى المعتزلة، مع أنه ـ بدون أدنى ريب ـ من أهل السنة.

أما السحر فقد أنكره الشيخ محمد عبده وعدَّهُ نوعاً من الحيل، أو صناعة علمية خفية، أو من تأثير النفس الإنسانيَّة في نفس أخرى[٤]، وأنكر أن يكون الرسول ﷺ قد سحر وأغلظ للقائلين بذلك، ثم نقد الحديث الوارد في سِحْر الرسول ﷺ نقداً علمياً مبنياً على أصول العقائد الإسلامية، فقال: «وأما الحديث فعلى فرض صحَّته هو آحاد،

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٣٩). وينظر: «المنار» (٢: ٩١) فإن بعض النص متطابق لفظاً.

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٩).

(٣) «مجلة إحياء التراث الإسلامي» ص١٦٥، مقال للشيخ إبراهيم النعمة بعنوان: (الشيخ رشيد الخطيب الموصلي).

(٤) «تفسير جزء عم» ص١٨٣-١٨٦.

والآحاد لا يؤخذ بها في العقائد، وعصمة النبي ﷺ من تأثير السحر في عقله عقيدةٌ من العقائد التي لا يؤخذ بنفيها إلا باليقين..»[(١)].

وقد نُقد الشيخ محمد عبده بسبب موقفه من الحديث الصحيح الوارد في سحر النبي ﷺ غير واحد من المعاصرين: كالذهبي[(٢)]، والمحتسب[(٣)]، وعبد الغفار عبد الرحيم[(٤)].

أما الشيخ رشيد الخطيب فقد تابعه في هذا الرأي، ولكن لا إلى النهاية إذ قلَّل من شأن السحر بما نقله عن البيضاوي بأن المراد بالنفث في العقد: إبطال عزائم الرجال بالحيل مستعار من تليين العقد، بنفث الريق ليسهل حلها، وقلل من شأنه أيضاً بما نقله من كلام محمد عبده بأنهم «النمّامون ودعاة الشر»[(٥)].

ويعضد بيان موقف الخطيب من السحر، ما ذهب إليه في قصة (هاروت وماروت) إذ عدَّ السحر نوعاً من «الزعبرات»[(٦)] والحيل والخداع. ثم نقل عدة أقوال مفادها أن محاولة السحر قد حصلت ولكنها لم تؤثر في عقله ﷺ[(٧)]. فهو بهذا يقف

---

(١) «تفسير جزء عم» ص١٨٢، والحديث رواه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) «التفسير والمفسرون» (٢: ٥٧٣).

(٣) «اتجاهات التفسير في العصر الراهن» ص١٤٨.

(٤) «الإمام محمد عبده ومنهجه» ص٢٥٩.

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ٤١٣).

(٦) كلمة عامية فصيحها (زبعر)، في «اللسان»: (رجل زبعري: شكس الخلق سفيه)، وفي «القاموس»: (السَّيِّئ الخلق الغليظ) وهم اشتقوا الفعل (زبعر) فقلبوه إلى: زعبر، وفلان مزعبر ـ مزبعر ـ حيال مشاكس. (اللهجة الموصلية، محمود الجومرد ص١٤٥).

(٧) «أولى ما قيل» (٢: ١٤٧-١٥١).

موقفاً وسطاً، إذ يقرّ بحديث السحر، ولكن من غير أن ينال من عصمة الرسول ﷺ. وكان الطوسي قد احتمل ذلك قديماً، كما هو واضح من كلامه الذي وَرَد آنفاً.

أما في الحسد فهو ينقل رأي محمد عبده بإنكاره الحسد وتأويله إلى عمل يقوم به الحاسد من كيد ومكر لإزالة النعمة عن المحسود. ولكن مع هذا يحتمل إصابة المحسود بها فيقول: «وربما يكون لعين بعضهم أثرٌ فوق ما له من سعي في أنواع الضرر..»[١]. فتأثره في هذا واضح بالشيخ محمد عبده إلا أنه لا يريد أن ينأى عمّا صحَّ في الأثر من تأثير العين.

وهذا ينقلنا إلى موقف الشيخ محمد عبده ومدرسته من عصمة الأنبياء ودفاعه عنها، وموافقة الشيخ رشيد الخطيب لها تماماً، وقد مرَّ الكلام عليها في المبحث السابق، ومنها حديث الغرانيق الباطل فإن الشيخ رشيد نقل أحد الوجوه التي عرضها محمد عبده في تأويل الآية بما يدفع الشبهة عن النبي ﷺ[٢].

أما موقف مدرسة محمد عبده من المعجزات فهو الحرص على إعادة كلِّ آية فيها ظاهرة غريبة إلى السنن الكونيَّة، بقدر المستطاع كما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] إذ قال صاحب «المنار»: «والظاهر أن ذلك كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل، إذا وجد القتيل قرب بلد، ولم يعرف قاتله ليُعرف الجاني من غيره، فمن غسل يده وفعل ما رسم في الشريعة برئ من الدم، ومن لم يفعل ثبتت عليه الخيانة، ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عُرضة لأن تسفك بسبب الخلاف...»[٣].

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٤١٨)، الحاشية.

(٢) «الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير» ص٢٦١-٢٧٣، ووازن بـ«أولى ما قيل» (٥: ٢٤٣).

(٣) «المنار» (١: ٣٥١).

وهو تأويل ظاهرُ البعد، والجمهور على أنَّ المراد من إحياء القتيل أمام بني إسرائيل إحياؤه حقيقة لإثبات البعث والنشور بصورة عملية مرئيّة لِقِلَّة إيمانهم بذلك، بعد تأثرهم بالشعوب التي لم تكن تدين بهذا المعتقد.

وقد مرَّ بنا موقف الشيخ رشيد في هذا الموضوع فهو منها على هذا المنهج، بل شارك بآرائه الخاصة في عدّة تأويلات فيها اجتهاد واضح، ومن ذلك قوله في الحيوانات التي حملها نوح معه في السفينة: «والظاهر أنَّ الحيوانات لما غمرها الماء خافت مذعورة، وطلبت منجاة فلم تجد غير السفينة فازدحمت عليها، فأمر أن يحمل من كلّ زوجين اثنين، لأن ذلك هو الممكن لبقاء النسل، ولشدّة اندهاشها وذعرها لم يعتد بعضها على بعض، أو لمعجزة من الله لنبيه، هذا ما أراه، والله أعلم»[١]، وعبارة «أو لمعجزة» تدل على احتماله لوجهين فيما ذهب إليه.

ويقف نفس موقف مدرسة محمد عبده في معجزات النبي محمد ﷺ غير القرآن إذ يعدها من البركات التي أنعم الله بها عليه، وليست حجة على نبوته، ولا أمر بالتحدي بها إذ القرآن هو حجته ومعجزته[٢]. وهذا فيه ما فيه، إذ لا شك أنَّ للنبي محمدٍ عدَّةَ معجزات دالة على نبوته، ولكن معجزته الكبرى التي تحدَّى بها هي القرآن.

ولقد أُخذ على مدرسة محمد عبده هذه الانطلاقة العقليّة إلا أن المتفهِّم لظروف عصرهم قد يجد لـهم شيئاً من العذر، فقد عانَوا في أيامهم من ضغط الحضارة المادية الوافدة الرافضة لكلِّ خارج عن قوانينهم التي عرفوها، مع ما كان فيه حال المسلمين من استرسال في البدع وتقليد أعمى، وتشويه لمعالم الدين، حتى إنَّ علماء الأزهر أوصوا

---

(١) «أولى ما قيل» (٤ : ٢٣٢) الحاشية.

(٢) «أولى ما قيل» (٤ : ١٦٦)، ووازن بـ«المنار» (١١ : ٣٣٣).

بقراءة «صحيح البخاري» عندما نزلت قوات نابليون مصر، وفي هذا يقول صاحب «في ظلال القرآن»: «إننا ندرك ونقدّر دوافع هذه المدرسة التي كان الإمام محمد عبده على رأسها... ندرك ونقدّر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيّات في تفسير القرآن وأحداث التاريخ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونيّة. فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة وسيْل الأساطير والإسرائيليات.. وفي الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم إلى ذروتها، وموجة الشكّ في مقولات الدين إلى قمتها، فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أنَّ كل ما جاء به موافق للعقل، ومن ثم تجتهد في تنقيته من الخرافات والأساطير، كما تحاول أن تنشئ عقلية دينية تفقه السنن الكونية.. وهي في صميمها العقلية القرآنية»[١].

وهو كلام يدلُّ على تفهُّم لدوافع هذه المدرسة في منهجها الذي اعتمدته في التفسير.

وهنا يرد سؤال: هل كانت متابعة الشيخ رشيد لمدرسة محمد عبده في هذا الاتجاه والمنهج لنفس الظرف، مع ما بين زمنيهما من فارق في السنوات؟ وحيث إن الشيخ قد أنهى كتابة تفسيره عام ١٩٤٦م، أم هو مجرَّد اقتناع بهذه الآراء؟ الحق أن الظرف كان واحداً، وكذلك الدافع، والفرق الزمني لم يفعل فعله المجدّد في العراق، فقد بقي هذا البلد العريق بعيداً عن التأثيرات الجديدة التي حصلت في مصر ولبنان بشكل خاص وهما: الموطنان الرئيسان لنشأة مدرسة محمد عبده، ويؤكد ذلك أن الكتب المصرية وغيرها لم تدخل العراق إلا بعد تشكيل أول حكومة عربية[٢]، زهاء عام ١٩٢٠ بعد وفاة الشيخ محمد عبده بخمسة عشر عاماً.

---

(١) «في ظلال القرآن» (٣٠: ٢٥٤). وينظر: «تطور تفسير القرآن» للدكتور محسن عبد الحميد ص٢٢٣-٢٢٤.

(٢) «مخطوط للشيخ رشيد» ص١، محفوظ عند حفيده أثيل عبد العزيز النُّجيفي.

٤ـ التفسير العلمي:

إن ما قيل في المبحث السابق عند التفسير العلمي لدى الشيخ رشيد الخطيب، يكاد يوافق ما قاله أكثر الباحثين عن التفسير العلمي من مدرسة محمد عبده، فإنَّ الكون عند مدرسة محمد عبده كتاب الله المنظور والقرآن كتاب الله المقروء، والقرآن سابق للكثير من علوم العصر على نحو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥] إذ استدل منها على كروية الأرض وبيان حقيقة الليل والنهار على الوجه المعروف في الجغرافية الطبيعية[١] ويقيس ما حققه العلم من اكتشافات لم تكن معروفة ومقبولة من قبل، على صحة عدد من المعتقدات الدينية، كالإيمان بالملائكة والوحي[٢]، وهذا عينُ ما فعله الشيخ رشيد كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا...﴾ [الأعراف: ٤٤] إذ يقول: «وهذا النداء لا يقتضي قرب المكان، كما هو معهود. فعالم الآخرة له سنن أخرى... وما ظهر الآن من المخترعات في تقريب التخاطب بين الناس يجعلنا ندرك أمر هذا النداء وأمثاله..»[٣].

٥ـ رفض التعصب المذهبي:

وهو ضرب من الانفتاح العقلي وعدم الانغلاق على الرأي الواحد الذي لا يرى المتعصب عادة غيره. فمن المعروف أن الشيخ محمد عبده ـ انطلاقاً من رفضه التقليد ـ كان يرفض التعصب المذهبي، ويرى أن تراث المسلمين كلَّه يجب أن يستفاد منه، لا أن يؤخذ بعضه وينبذ أكثره، يقول رشيد رضا معبراً عن هذه الحقيقة: «إنني مستعد

---

(١) «المنار» (١: ٢١٠-٢١١)، ووازن بـ«أولى ما قيل» (٦: ٢٧٠).

(٢) «المنار» (١: ٢١٠-٢١١).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٤٣٠).

للتوفيق بين الإسلام الحقيقي، وكل ما يحتاج إليه العثمانيون لترقية دولتهم، مما جربه الإفرنج قبلهم، وغير ذلك بشرط أن لا ألتزم مذهباً من المذاهب، بل القرآن والسنة الصحيحة، وأرجو أن يكون ذلك مقبولاً عند جميع العناصر العثمانية، إلا المقلدين المتعصبين لمذاهبهم من المسلمين»[١]. وهو كلام في غاية السمو والموضوعية. كما طالب بفتح أبواب الاجتهاد الذي أغلقه (الباب العالي)، بوجه الآراء التي قد لا توافق مطمحه ووجهته.

وقد ظهر هذا في تفسير الشيخ رشيد الخطيب، إذ يستشهد بأقوال الشافعية والحنفية وغيرهم. ولم يظهر له أثر تعصب لمذهب، أو تحامل على مذهب آخر، وقد جاوز ذلك عنده إلى الأخذ من العلماء من غير السنة كالمعتزلة والشيعة، وهذا ما مر في فصل المصادر.

ومن شدَّة حرصه على وحدة المسلمين استنباطه من الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨]، حكماً بعدم جواز «الاستدلال والتمسُّك بالآيات التي فيها خَفَاء، والتي هي محلُّ تأويل، فإن التمسُّك بها قد أضلَّ كثيراً من الناس وتعلق بها صاحب كل مذهب في الاستدلال على رأيه بأحد الوجوه فتعددت الفرق..»[٢]. وهذا رأيٌ سديد يدل على موضوعية وعلمية، فكأنه يقول: إن هذه الآيات لا يتأتى تأويلها لكل واحد، إذ هي تحتمل وجوهاً فلا يصح أن نستدل بها على صحة مذهب أو فساده، ففي المحكمات الواضحات كفاية وصيانة من الزلل والفرقة.

---

(١) «المنار» (١٢: ١٣٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٢١٩).

٦ـ موقفه من الإسرائيليات:

وقفت مدرسة الإمام محمد عبده من الإسرائيليات موقفاً عقلياً صارماً، فقد خلا تفسير الـمنار منها، إذ كان محمد عبده قد حذّر منها على أساس أنَّ الله سبحانه لم يكلِّفْنا بالبحث عن الجزئيّات والتفصيلات لما جاء مبهما في كتابه، ولو أراد ذلك لدلنا عليه في كتابه، أو على لسان نبيه، ومثل ذلك موقفه من الغيبيات[١]، وهي التي لم يصرِّح بماهيتها وكيفيتها على وجه البيان والتفصيل.

وقد تابع الشيخ رشيد الخطيب الشيخَ محمد عبده في هذين الموضوعين، فـفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَـرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ...﴾ [البقرة: ٢٤٣]، يحكي قول الشيخ محمد عبده في أن القرآن أطلق القول «في هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم ولم يعلن عددهم، ولا أمتهم، ولا بلادهم، ولو علم لنا خيـراً في التعيـين والتفصيل لتفضل علينا بذلك في كتابه المبين. فلا ندخل شيئاً من الروايات الإسرائيلية التي ذكروها»[٢]. فهو آخذ بهذا الرأي مقتنع به.

أما في موضوع الإيمان بالغيبيات، فنراه يذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّـرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] أن «صحبة الأزواج في الآخرة كسائر الشؤون الغيبيّـة نؤمن بما أخبر به تعالى ولا نزيد عليه ولا ننقص، ولا نبحث عن كيفيَّته، وإنما نعرف بالإجمال أن أطوار الحياة الآخرة أعلى وأكمل من أطوار الحياة الدنيا..»، ثم يقول: «هذا ملخص ما قاله الأستاذ الإمام وهذه هي الطريقة المثلى في الإيمان بالغيب من غير قياس لعالمه على عالم الشهادة..»[٣].

---

(١) «التفسير والمفسرون» (٢: ٥٦٠).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٣٥٣)، ووازن بـ«المنار» (٢: ٤٥٥، ٤٧٠).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٤٨)، ووازن بـ«المنار» (١: ٢٣٣).

هذه مقارنة سريعة بين منهج الشيخ محمد عبده ومنهج الشيخ رشيد الخطيب، وقد بدا واضحاً تأثر الشيخ رشيد بمنهج الشيخ محمد عبده وأفكاره.

* * *

المبحث الثالث

ما انفرد به أو أغرب من تأويل

منح الشيخ رشيد نفسه حرية واضحة في التأويل، فبرغم اعتماده الكبير على ما جاءت به مدرسة محمد عبده في التفسير كما رأينا سابقاً، وبرغم كثرة مصادره وتنوعها، فإن تفسيره لم يَخْلُ من تأويلات جديدة استنبطها بنفسه، وقد أشار إلى ذلك في مقدمته بقوله: «لذلك تجد في تفسيري هذا من المعاني ما لا تجده في التفاسير القديمة والحديثة، وأكتب في آخره عبارة: (والله أعلم) للإشارة إلى أنه من رأيي الخاص...»[1]، فمن هذه الآراء:

١ـ الفرق بين الروح والحياة:

الروح في رأي الشيخ رشيد يختص بها الإنسان والجن والملائكة، وهي مناط التكليف والتفكير، وهي ـ عنده ـ غير الحياة، فالحياة عامة في سائر المخلوقات من حيوان ونبات وغير ذلك، وهي تقوم على تسوية معينة يقيمها الله تعالى عليها، مثل الدورة الدموية في الإنسان والحيوان، والدورة المائية في النبات.. فإذا اختلت فقدت هذه الحياة. والحياة للإنسان هي التسوية التي تهيئه للاتصال بالروح. واستدل بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩]. فإذا اختلت هذه التسوية فارقته الروح. وإطلاق الروح على الحياة من عرف التخاطب، والروح هي التي تُهيِّئ

(١) «أولى ما قيل» (١: ٣٥).

الإنسان للحياتين، في الدنيا تكون خفية والجسم ظاهراً، وفي البرزخ ـ وهو الحاجز بين الحياتين ـ تكون ظاهرة والجسم خفياً، وفي الآخرة تعود إلى جسمها بعد أن يسويه الله بالبعث خلقاً قابلاً للخلود، في الجنة أو النار. وهو يرى أن القرآن يطلق النفس على الروح كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

هذه خلاصة لرأي الشيخ في الفرق بين الروح والحياة، استنتجها من آيات وأحاديث وأقوال للصحابة والمفسرين[١]. وكل ما جاء في كلامه صحيح وعليه أكثر العلماء، ما خلا قوله: إن غير الإنسان والجن والملائكة ليس لها روح، فإن العلماء لم يثيروا هذا الموضوع وإن كان كلامهم عن الروح في نطاق الإنسان وحده[٢]، ولم يتطرقوا لمسألة الروح عند الحيوان، وإنما كانوا يشيرون إلى ما له (نفس سائلة) أي: ما له دم يسيل عند تذكيته، تمييزاً له مما لا دم له يسيل كالجراد مثلاً. وقد نبه الشيخ رشيد على أنه لم يخض في حقيقة الروح وكنهها، فهذا فيما يرى لا يعلمه إلا الله[٣]، وكأنه يجد هذا الكلام في الحديث عن الروح ليس خوضاً في ماهيتها وكنهها، لأنه لم يبحث عن (ما هي الروح؟).

٢ـ ماهية دابة الأرض:

حين وقف عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٤٢٦-٤٢٧)، (٤: ٥٦٩)، (٥: ٢١٢)، (٦: ٢٥٩). «رسالة في مواضيع مهمة» ص٤-٨.

(٢) ينظر: «الروح» لابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٤٣٠).

﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢] ذكر في تفسيرها بعد أن أوْرد حديث أبي هريرة وغيره، أن قوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، «وهو موضع التعليل بمعنى أنها تؤذن ببلوغ الفساد أقصاه ولذلك سلطها الله، فهو: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] ثم قال «والله أعلم». وقال بعد ذلك: «وعليه يجوز أن تكون ـ يقصد الدابة ـ مسلطاً دجالاً من أهل الأرض من أمم كثيرة من الأتباع تدب في الأرض فساداً. هذا رأيي بمقتضى احتمال اللفظ بحسب اللغة، وإن أخطأت فأستغفر الله»[١] وهذا التأويل مما انفرد به الشيخ، ولكنه بعيد، ولا يخلو من تعسف؛ إذ كان المفسرون[٢] يذكرون أنه (دابة) حقيقية تحطم الكافر وتمسح على رأس المسلم. وإذا سلمنا برأيه في الآية، فإنه في الحديث الذي رواه مسلم[٣] محال. وقد أشار الشيخ إليه بعبارة موجزة.

٣ـ قوله في أن لقب (يأجوج ومأجوج): يطلق على غوغاء الناس وهمجهم وعلى الكثير المرتبك منهم، وعلى السفلة المشرعين إلى الشر، وليس على جيل أو صنف معين من الناس، واستند في ذلك إلى قراءة مجاهد (ت١٠٤هـ): ﴿مِّن كُلِّ جَدَثٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] أي: «قبر» بدلاً من ﴿حَدَبٍ﴾[٤] وهو النشز من الأرض، ليجعل من الآية تعبيراً عن يوم القيامة، لا علامة من علاماتها. كما استند إلى حديث أورده البخاري، ومنه قوله ﷺ: «أبشروا فإن منكم واحداً ومن يأجوج ومأجوج

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٤٦٨).

قلت: ينظر ردّي عليه عند تفسيره لهذه الآية في سورة النمل (مجد).

(٢) «التاج» (٤: ١٩٧).

(٣) ينظر: على سبيل المثال الروايات في «تفسير الطبري» (٢٠: ١٠)، دار المعرفة.

(٤) ذكر ابن جني في «المحتسب» (٢: ٦٦) قراءة ﴿مِّن كُلِّ جَدَثٍ يَنسِلُونَ﴾ ونسبها لابن مسعود. (مجد).

ألفاً»[١] أي في النار. ثم جعل معنى الآية التي تلتها وهي: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ أي الحساب، وليس الساعة؛ لتستقيم مع تأويله. والحق أن هذا شبيه بما ورد في «الكشاف»[٢] و«مفاتيح الغيب»[٣]، ولكن ليس بهذه الصورة المتكاملة. ومهما يكن من أمر، فهو خلاف رأي الجمهور القائل: إن خروج يأجوج ومأجوج ـ وهم قوم مخصوصون ـ بعد انفتاح السدّ الذي أنشأه ذو القرنين، من علامات الساعة الكبرى[٤].

٤ـ تأويل ما قد يشعر في الظاهر بالاستبعاد:

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] يقول في تفسيرها: «ويظهر لي على نهج القرآن في إجمال السؤال والدلالة عليه بتفصيل الجواب ـ والله أعلم ـ أن السائل استطال مدة البرزخ من الأزمان الطويلة التي مرّت على أمثال أهل هذه القرية، وتخيّل صعوبة ذلك عليهم، ولاسيما أن ما مر بهم قليل من كثير سيمر عليهم، فبين له سبحانه بالواقع أن له سُنناً في كونه ونظامه تُقرِّب البعيد، وتجعل المُدد الطويلة قصيرةً. إذ الأرواح المجرَّدة لا تتقيد بالزمان والمكان ـ والله أعلم ـ فعلم السائل علماً واقعياً

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٤٨) ورواه مسلم أيضاً (٢٢٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. (مجد).

(٢) «الكشاف» للزمخشري (٣: ١٣٥).

(٣) للرازي (٢٢: ٢٢٢).

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٤: ٥٩٢-٥٩٦).

قدرة الله على ذلك ونظامه في أمر البـرزخ»(١). وهو رأي معقول أراد به الشيخ إبعاد الشبهة في سؤال السائل، وهو كما ورد في الآثار نبي من الأنبياء يدعى (عُزَيْر)(٢).

٥ـ تأويل آية متشابهة على أساس التعبير التركيبي لها:

ذلك ما أورده في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩] إذ قال: «يلوح لي ـ والله أعلم ـ أن مثل هذه الجملة لا ينظر فيها إلى معناها الإفرادي، ونَـكِلُ عِلْمَه إلى الله ولا نحتاج حينئذ إلى أن نؤول (استوى) بمعنى (استولى) ولكن ننـظر في فحواها ومعناها التركيبي، وهو سلطانه سبحانه وتعالى على هذه الموجودات التي أوجدها بخلق السموات والأرض وخلق ما فيها ـ والله أعلم ـ والمعاني التركيبية التي لا تراعى فيها المعاني الإفرادية موجودة في اللغة وفي القرآن كقوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ الأحزاب: ١٠]، يعبر بها عن شدَّة الخوف ولا يراد معناها الإفرادي. وقوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ [الرحمن: ٣١]، مأخوذ من حال المخاطبين ولا يصحُّ إطلاق معناها الإفرادي على الله سبحانه، وقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾، وليس في ذلك شيء من الالتباس، لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، لا في ذاته ولا في صفاته، والقرآن يعبر عن ذات الله وشؤونه بأحوال الملوك والسلاطين تماشياً مع علمنا ومعرفة شؤوننا وتقريباً لأفهامنا، هذا ما أراه والله أعلم»(٣).

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٣٨٨).

(٢) «جامع البيان» الطبري (٥: ٤٣٩)، دار المعرفة.

(٣) (٥: ٣٧٩) حاشية.

فهو هنا يرى أن هذا التعبير ضرب من المجاز إذا أخذناه مجملاً في نطاق تعبيره التركيبي، لا الإفرادي في لفظة (استوى) وأمثلته التي أوردها تدل على ذلك، ومن الشائع أن المسلمين في مثل هذه الآيات على قسمين؛ قسمٍ ـ وهم السلف ـ يقف عند ظاهرها ويفوض كيفيتها إلى الله تعالى ـ وقسمٍ ـ وهم الخَلَف يؤوِّلونها تأويلاً عقلياً مجازياً[١]. ومما أولت به هذه الآية أن الاستواء بمعنى الاستيلاء وبسط النفوذ وقد رد عليهم المفوضون من الخلف أو كما يسمون أنفسهم أنصار السلف بأن كلامهم هذا يدل على أنه لم يكن مستولياً من قبل، وهذا يجرُّ إلى جدل طويل أورده ابن الجوزي[٢] (ت٥٩٦هـ)، والشوكاني[٣] (ت١٢٥٠هـ) ولجوء الشيخ إلى المعنى الإجمالي التركيبي بتأويله بضرب من المجاز، وهو السلطان، يدل على وعيه لماهية هذا التعبير ويخرج من ذلك الجدل، ومثل ذلك ما أورده في وقوفه عند الآية الكريمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] وقد تقدم الكلام عنها في هذا الفصل.

---

(١) «دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية» للدكتور عرفان عبد الحميد ص٢٠٩. وقد رد هذا الرأي الدكتور محسن عبد الحميد في المناقشة مبيناً أن استقراء التفاسير دلَّه على أنه لا يمكن الفصل في هذه القضية بين السلف والخلف فقد بدأ التأويل منذ عصر الصحابة كما أن التفويض موجود في الخلف، وقد صدر للدكتور محسن كتاب حول هذا الموضوع.

(٢) في «زاد المسير في علم التفسير» (٣: ٢١٢)، المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٦٥.

(٣) في «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير» (٢: ٢١١)، دار الفكر للطباعة والنشر.

٦ـ الانفراد بتلمس وحدة موضوعية بين المقسم به والمقسم عليه في سورة التين:

وذلك في تفسير سورة التين: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [١-٦] قال: «ويلوح لي في القسم بهذه الأشياء الأربعة معنى آخر وهو أنه سبحانه جمع في هذا القسم بين ما يكون مستعداً للتنشئة على ما خلق عليه من حسن التقويم. أو التردي به إلى أسفل سافلين، وبين ما يكون به حسن التقويم للإنسان وفي مخالفته يكون ذلك التردي الفظيع، وقد ذكر من النوع الأول فصيلتين لا يجهل جودتهما أو رداءتهما أحد، وهما التين والزيتون، فإنهما إذا تُعهدا بالتربية الصحيحة بمقتضى السنن الكونية فيهما جاءا بأحسن النوعين وأجودهما، وإذا أسيئت تربيتهما بمخالفة تلك السنن، جاءا بأردأ النوعين وأخسِّهما! ومثلهما الإنسان: يكمل إذا حافظ على طبيعته بحسن التربية ويسفل إذا أفسدها بسوء التربية، وذكر من النوع الثاني موضعين ظهر فيهما شريعتان إلـهيتان وهما: طور سيناء، الذي ظهرت فيه شريعة موسى واعتمدت عليها شريعة عيسى، وهذا البلد الأمين، الذي ظهرت فيه الشريعة الكاملة شريعة محمدﷺ»(١).

وهو التفات بارع إلى الوحدة الموضوعية بين ما أقسم عليه في السورة، وإن كان الأقوى أن القسم ليس بالفاكهة وإنما بمنابتها التي دلَّت على الرسالة العيسوية والموسوية، بدليل السياق؛ إذ عطف عليه بعد ذلك ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ وهو ما ذهب إليه غير واحد من المفسرين كالطبرسي وابن القيم(٢).

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٢٨٧-٢٨٨).

(٢) ينظر: «الطبيعة في القرآن» للزيدي ص١٩٤-١٩٥.

وهناك عدد آخر من التأويلات[1] التي استطاع الشيخ بثاقب فكره وطول تأمله أن يذهب إليها، اكتفيت بالإشارة إليها في الحاشية دفعاً للإطالة غير أنه لا يمكن الجزم بأن هذه التأويلات جديدة كل الجدة فإن إرث التفسير ضخم شارك فيه عدد كبير من العلماء في العصور المختلفة على اختلاف مناهجهم وأفكارهم وثقافاتهم فلابد أن تلتقي بعض الجوانب وتتشابه، إلا أن الملاحظ أن الشيخ كان يفيد من هذا الإرث ويخرج بشيء من النظرات الجديدة كما رأينا، وإن كان بين هذه التأويلات ما قد يبدو بعيداً أو في الأقل مخالفاً لما يذهب إليه جمهور المفسرين.

* * *

(١) ينظر مثلاً: (٥: ٢٠٩)، (٥: ٣٢٤)، (٨: ٢٩٧)، (٦: ١٤٧-١٤٨)، (٧: ٢٤٢)، (٤: ٢٣٢) حاشية، (٧: ١٦٣-١٦٤)، (٥: ٢٦٥-٢٦٧)، (٥: ١٩٣)، (٨: ٨٤-٨٥)، (٧: ٢١٣)، (٤: ٤٢)، (٥: ٤٨)، (٢: ٢٢٠).

الفصل الرابع
القراءات

المبحث الأول

مقدمته في القراءات

تحدَّث الشيخ رشيد في مقدمة تفسيره عن جمع القرآن، وترتيبه، وقراءاته وعلاقتها باللهجات العربية، كما تحدَّث عن الأحرف السبعة التي أنزل بها، فعرض آراءه واختياراته في هذا الموضوع، سالكاً في ذلك طريق التوفيق بين أقوال العلماء، والخلوص إلى وجهة نظر خاصة به، أو مجرد الاكتفاء بعرض الآراء.

ولا بدَّ أن نقف على الموضوعات التي طرقها الشيخ في تفسيره، ممَّا يتعلق بالقراءات، ووجهة نظره فيها، وما انتهى إليه أهلُ العلم في كلٍّ منها على وجه الإيجاز.

١) القراءات واللغة التي نزل بها القرآن:

ذكر الشيخ في غير موضع من مقدمته أنَّ القرآن نزل بلغة قريش، على نحو ما نراه في قوله: «إن أبا بكر رضي الله عنه لم يجمع الناس على اللهجة التي كتب بها المصحف وهي لهجة قريش، التي نزل بها القرآن»[١].

ونحو قوله: «إن الرسول ﷺ كان يقرأ بلهجة قريش كما نزل»[٢].

واستدل على ذلك بظاهر رواية مأثورة، وهي قول عثمان رضي الله عنه لكتبة

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٢١).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٧٣٠).

المصحف: «إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء فاكتبوه بلغة قريش فإنه نزل بلسانها»[(١)]، وهذا الرأي ليس بسديد، إلا إذا أراد بذلك التغليب وهو ما لم يشعر به كلامه، أي إن لغة قريش كانت غالبة على بقية اللغات في نصِّ القرآن، فهذا ما تؤوَّل به هذه الرواية، ورواية أخرى مأثورة عن عمر رضي الله عنه في كتابه لابن مسعود حين أقْرأ بعضهم بلغة هذيل[(٢)].

يقول الباقلاني (ت٤٠٣هـ): «ومعنى قول عثمان: يريد معظمه وأكثره، ولم تقم دلالة قاطعة على أنَّ القرآن بأسره نزل بلغة قريش فقط، إذ فيه كلمات وحروف هي خلاف لغة قريش، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣] ولم يقل قرشياً»[(٣)].

ويقول ابن عبد البر[(٤)] (ت٤٦٣هـ): «وقول من قال: نزل بلغة قريش، معناه عندي: على الأغلب لأن لغة قريش موجودة في جميع القراءات»[(٥)].

ويؤيد هذا ما روي عن الإمام علي وابن عباس رضي الله عنهما: «أن الله أنزل هذا القرآن بلغة كلِّ حيٍّ من أحياء العرب»[(٦)].

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٢٣). وسيأتي تخريج الحديث في التعليق على مقدمة المؤلف. (مجد).

(٢) «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز» لأبي شامة ص١٠١.

(٣) «نكت الانتصار لنقل القرآن» ص٣٨٥. وينظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١: ٣٣).

(٤) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري أبو عمر القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣ «وفيات الأعيان» (٢: ٢٥٨).

(٥) «الإتقان» (١: ١٧٧).

(٦) أبو شامة المقدسي (ت٦٦٥هـ): «المرشد الوجيز» ص٩٦. وينظر: «القراءات القرآنية تاريخ وتعريف» لعبد الهادي الفضلي ص٩٥، دار العلم، بيروت، ط٣، ١٩٨٥.

وقد روى ابن حسنون المقرئ بإسناده عن ابن عباس كتاب «اللغات في القرآن»[١] ورد فيه لغات للعرب في القرآن. بل إنَّ لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٤٤هـ) كتاباً في لغات العرب التي في القرآن وهو مطبوع.

أما استدلال ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، على أن القرآن نزل بلغة قريش وحدها، فهو دليل على احتوائه عدَّة لهجات من العرب، إذ إنَّ القرآن عبر باللسان عن اللغة بعامة لا عن لهجة بعينها، فليست هي كما نفهمها الآن، أما اللغة فكانت تعني عندهم اللهجة بمفهومنا اليوم[٢]. ولهذا قال الباقلاني: «بل قومُه العربُ كلُّها، ولو جاز هذا لقائله، لجاز لآخَر أن يقول: بل قومُه هاشم لا من سواهم»[٣].

وقد أجمع الباحثون المحدثون على أن القرآن نزل باللغة (المشتركة) أو كما تسمَّى أيضاً (المُوحَّدة) وهي اللغة الأدبية التي تسمو عل اللهجات الخاصَّة المتداولة عند القوم في الحياة اليومية، وإن كانت اللهجات تعدُّ إذ ذاك من الفصيح أيضاً. وقد كانت مكة (أم القرى) مركز تلك اللغة المشتركة، فهي الـمجال الذي ترعرعت فيه هذه اللغة وترسَّخت بفضل أسواقها ومواسمها الدينية والأدبية، وكانت لغة قريش نواتها وطبها[٤]، ولم تكن هي اللغة المشتركة نفسها.

---

(١) وهو كتاب مطبوع، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، الطبعة الثانية ١٩٧٢.

(٢) «فقه اللغة العربية» لكاصد الزيدي ص٢٠٥.

(٣) «النكت في الانتصار لنقل القرآن» ص٣٨٦.

(٤) «مباحث في علوم القرآن» لصبحي الصالح ص١١٣-١١٤. «فقه اللغة العربية» لكاصد الزيدي ص٢٠٥. وينظر: «أثر القراءات القرآنية» لعبد العال سالم مكرم.

ويبدو أنَّ الشيخ لم يكن يجهل وجودَ هذه اللغة المشتركة، إذ تحدَّث عن اللغة الأدبيَّة الراقية في عصر نزول القرآن، التي كانت سائرة في سبيل الوحدة والتمازج بفضل المجامع والأسواق(١)، إلا أنه مع ذلك كان يرى أن القرآن نزل بلغة قريش، وهو ما لا يصح القول به، لما قدَّمناه من أدلة.

والحق أنَّ قولنا بنزول القرآن باللغة المشتركة، أمرٌ يقرُّه واقع المعجزة القرآنيَّة التي تحدَّى بها الله عزَّ وجل العرب جميعاً، فلو كانت لغته لغة قريش وحدها لما صحَّ به تحدي غير قريش. فضلاً عن الانتفاع به وحفظه، إذ لو كان بلغة قريش وحدها لما استطاعت غير قريش أن تحقق هذه الغاية لأنه بلهجة غير لهجتها(٢).

٢) الأحرف السبعة والقراءات السبع:

يفهم من كلام الشيخ على القراءات السبع والأحرف السبعة أنَّهما شيء واحد؛ فقد أورد في (المقدمة الثانية عشرة) عنواناً هو: (القراءات القرآنية السبع)، ذكر فيها أنَّ الرسول ﷺ كان يقرأ بلغة قريش كما نزل، وأنَّ القبائل كانت تقرؤه بلهجاتها تيسيراً عليها(٣)، ثم قال: «وقد حصر العلماء هذه اللهجات في قراءة القرآن في أنواع سبعة». وعدّد القراءات التي جمعها أبو بكر بن مجاهد (ت٣٢٤هـ)، ثم أردف ذلك بقول لابن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ)(٤): «بلغني أن تلك السبعة إنما هي في الأمر الذي

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٣٠).

(٢) «أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية» ص١٦.

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٧٣٠-٧٣١).

(٤) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، أول من دوَّن الحديث، وأحد الفقهاء والأعلام بالمدينة المنورة (٥٨-١٢٤هـ) «وفيات الأعيان» (١: ٥٧١)، ط القاهرة. «تهذيب التهذيب»، لابن حجر (٩: ٤٤٥).

يكون واحداً لا يختلف في حلال أو حرام»(١).

ومن الواضح أنَّ ابن شهاب يعني الأحرف السبعة. ثم أورد الشيخ روايات ثلاثاً عن الأحرف السبعة، إحداها عن عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم، والثانية عن ابن عباس، والثالثة عن أُبي بن كعب. واستنتج استنتاجات لا يصلح لها إلا حديث الأحرف السبعة لا القراءات السبع(٢).

ويبدو أنَّ هذا الوهم الذي يفهم من كلام الشيخ قد وقع فيه كثير من العلماء بسبب اتفاق العدد، ممَّا حدا بأبي شامة أن يوضِّح الأمر والحقيقة بقوله: «وقد ظنَّ جماعة.. أن قراءة هؤلاء الأئمة السبعة هي التي عبر عنها النبي ﷺ بقوله: أنزل القرآن على سبعة أحرف، فقراءة كلٍّ واحد من هؤلاء حرف من تلك الأحرف، ولقد أخطأ من نسب إلى ابن مجاهد أنه قال ذلك»(٣).

ويقول مكي بن أبي طالب (ت٤٣٧هـ): «هذه القراءات كلُّها التي يقرأها الناس اليوم، وصحَّت روايتها عن الأئمة، إنما هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووافق اللفظ بها خط المصحف الذي أجمع الصحابة فمن بعدهم عليه، وعلى اطِّراح ما سواه، ولم ينقط ولم يضبط فاحتمل التأويل لذلك». ثم قال: «من ظنَّ أن قراءة كلِّ واحد من هؤلاء القراء، كنافع، وعاصم، وأبي عمرو، أحد الأحرف السبعة التي نصَّ النبي ﷺ فذلك منه غلط عظيم...»(٤).

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٣١).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٧٣٢).

(٣) «المرشد الوجيز» ص١٤٦.

(٤) المصدر نفسه ص١٥١.

ولا بد هنا من بيان **الفرق بين الأحرف السبعة والقراءات السبع.**

فالأحرف السبعة هي ما نصَّت عليها الأحاديث النبوية التي ذكر الشيخ عدداً منها، ومفادها: أن القرآن نزل بسبعة أحرف.

وقد اختلف العلماء والمفسرون في المراد من هذه الأحرف اختلافاً غير قليل حتى إنَّ السيوطي أورد خمسةً وثلاثين وجهاً في تفسيرها[1].

ويبدو أنَّ الراجح منها هو: إرادة التيسير على الأمة في قراءة القرآن، وأنه لا يراد بالسبعة حقيقة العدد على وجه التَّحديد، بل يراد السعة والكثرة، وهو ما ذكره الشيخ في مقدمته وعليه غير واحد من القدامى[2]، والمحدَثين أمثال: إبراهيم أنيس[3]، وعبد الصبور شاهين[4]، وأستاذنا الدكتور كاصد الزيدي[5].

وقد كان الصحابة يقرؤون بهذه الأحرف إلى عهد عثمان رضي الله عنه عندما ظهر الخلاف فيها، فخشي الفتنة فنسخ عدَّة نسخ من المصاحف محتملة وجوه القراءات الثابتة عن رسول الله ﷺ ثم وزع هذه المصاحف على الأمصار وأمر باطِّراح ما سواها، وقرأ المسلمون القرآن على أيدي القُرَّاء الذين تلقَّوا قراءته عن الصحابة رضي الله عنهم بما يوافق رسم المصحف العثماني وبقراءات كثيرة إلى أن جاء أبو بكر بن مجاهد واختار

---

(١) «الإتقان» (١ : ١٧٣).

(٢) ينظر: «المرشد الوجيز» لأبي شامة ص٩٧، ٩٩.

(٣) «اللهجات العربية» ص٤٧.

(٤) «تاريخ القرآن» ص٤٣.

(٥) في محاضراته في علوم القرآن على طلبة قسم اللغة العربية بكلية الآداب، المطبوعة بالآلة سنة ١٩٧٣م.

من بين القراء سبعة، ولكل قارئ راويان. ولم يكن لاختياره أية علاقة بحديث الأحرف السبعة[١]. إلا أن كثيراً من الناس وهموا في ماهيَّة الوشيجة التي بينهما، ولذلك لامه عدد من العلماء لاختياره سبعة لا أكثر ولا أقل، يقول ابن الجزري (ت٨٣٠هـ): إنما أوقع هؤلاء في الشبهة كونهم سمعوا: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»، وسمعوا قراءات السبعة، فظنوا أن هذه السبعة هي تلك المشار إليها، ولذلك كره كثير من المتقدمين اقتصار ابن مجاهد على سبعة من القراء.

قال الإمام أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت٤٤٠هـ): «وليته إذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل هذه الشبهة»[٢].

فالقراءات القرآنية سبعيّة كانت أوعشريّة أو أكثر من ذلك نشأت بعد إرسال المصاحف العثمانيّة إلى الأمصار الإسلامية، وقد وضعت لهذه القراءات ضوابط وأسس ثلاثة وهي: موافقة رسم المصحف العثماني ولو احتمالاً، وصحَّة السَّنَد، وموافقة العربية ولو بوجه[٣].

٣) مصادر القراءات:

أكد الشيخ غير مرة أنَّ الرسول ﷺ رخَّص للقبائل أن تقرأ القرآن بلهجاتها تيسيراً وتسهيلاً عليهم، وعرض رأيين في كيفيَّة هذه الرخصة.

أحدهما: أن تقرأ القبائل القرآن بلهجاتها، أي خلاف قراءة الرسول ﷺ، إذ كان الرسول ﷺ يقرأ بلغة قريش، واستدلَّ بقول ابن قتيبة[٤]: «لو أراد كل فريق أن يزول

---

(١) «المرشد الوجيز» ص١٤٦.

(٢) «النشر» (١: ٣٦-٣٧).

(٣) المصدر نفسه (١: ٩).

(٤) «تأويل مشكل القرآن» ص٣٠.

عن لغته التي انطبع عليها لاشتدَّ ذلك عليه، فجعل الله له متَّسعاً في أمره وخصَّ بقراءته على هذه الأحرف واللهجات».

وبحديث رواه الشيخان، أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف واحد فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»(١).

الثاني: أن القراءات ـ على اختلافها ـ كان يقرأ بها رسول الله ﷺ، وأنها من عند الله، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣](٢).

وقد وقف الشيخ مع الرأي الأول إذ يقول: «إنَّ القرآن نزل على سبعة أحرف تسهيلاً على قبائل العرب لاختلاف لـهجاتها، فكانوا يقرؤون بها جميعاً، لا اختياراً وتكراراً، كما نفعل اليوم، بل قَسْراً واضطراراً لأنه لا يستطيع النطق بغير اللهجة التي درج عليها... نظير قول التركي: (الهمد لله رب الآلمين)»(٣).

وهذا الرأي لا يمكن التسليم به على إطلاقه للأسباب الآتية:

أحدها: أنَّ هذا لا يؤيِّده ظاهر النصوص، فالنصُّ الذي استدلَّ به الشيخ هو: أقرأني جبريل على حرف واحد، فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف، وكلمة: أقرأني جبريل تدل على أنه استزاده في الإقراء.

وحديث عمر مع هشام رضي الله عنه يدلُّ دلالة واضحة على أنَّ الرسول ﷺ

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٧٣٢). ويأتي تخريجه في تعليقاتي على «المقدمة» للمؤلف. (مجد).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٧٤٢).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٧٤٣-٧٤٤).

أقرَأَهُما، وإذا تجوزنا نقول: أقرّهما، ويقول البغوي[١] (ت ٥١٦هـ): ليس معنى هذه الحروف أن يقرأ كل فريق بما شاء ممَّا يوافق لغته من غير توقيف، بل كل هذه الحروف منصوصة وكلُّها كلام الله عزَّ وجلَّ، نزل بها الروح الأمين على النبي ﷺ...».

وثانيها: أنه ثبت بما لا يقبل الشكَّ أن القراءة سُنّة متّبعة[٢]، تُؤْخَذ بالرواية والمشافهة لا بالقياس، والرأي، وترجع إلى أحد الصحابة، ولابد أنَّ الصحابي قد أخذها عن رسول الله ﷺ على نحو ما نجده في قراءة حفص عن عاصم بن أبي النَّجود التابعي التي أخذها عن أبي عبد الرحمن السُّلمي، عن عثمان وعلي رضي الله عنهما.

وقد ثبت أن عثمان رضي الله عنه لم يثبت في مصحفه إلا ما تيقّنه عن النبي ﷺ بشهادة الصحابة وعلمهم، وأسقط ما وراء ذلك مما لم يثبت[٣].

ولو كانت القراءات على طريقة قراءة القبائل لاقتصر بالرواية عنهم، ولم يطلب اتصالها بالرسول ﷺ، فإن قيل بأن قراءات القبائل أبطلت وبقيت قراءة الرسول ﷺ وحدها، فالجواب: ما وجه تعدد القراءات واللغات في القرآن وكلها مروية عن الرسول ﷺ؟

وثالثها: أنَّ هذا القول يستوجب ظهور كل العادات اللهجية بين القبائل في القراءات ومنها كشكشة ربيعة، وفحفحة هذيل، والعيوب النطقية، وهذا ما لم نره حتى في القراءات الشاذة. ولا يمكن الاستدلال بقراءة (عتى حين) التي بلغة هذيل

---

(١) «المرشد الوجيز» ص١٣٤-١٣٥.

(٢) ينظر: «القراءات القرآنية بين الاتباع والقياس» للزيدي، بحث منشور في مجلة الجامعة، عدد (٦)، ١٩٧٩.

(٣) «نكت الانتصار» للباقلاني ص٣٨٣.

لأنها لم تطَّرِد في القرآن، والأغلب أنَّ ابن مسعود رضي الله عنهما قد سبقته إليها هذليَّته ممَّا استدعى عمر رضي الله عنه أن ينهاه عن إقراء القرآن بغير لغة قريش[1].

ورابعها: أنَّ تلك الرخصة التي للقبائل لا يمكن عدُّها مصدراً للقراءات، لأنها قائمة إلى يوم القيامة، لا لقبائل عصر صدر الإسلام فحسب، بل لكلٍّ من يتعذَّر عليه النطق السليم بعد بذل الجهد[2]، بدليل المثل الذي ضربه الشيخ عن التركي الذي يقرأ (الهمد لله رب الآلـمين)، وهذا حال أكثر المسلمين ممَّن لم ينشأ في بيئة عربية أو يتعلم العربية صغيراً، فالرخصة إذاً قائمة وهي بحكم الضرورة ولا يمكن عدُّها مصدراً للقراءات.

وخامسها: ثم إنَّ هذا القول يفتح باباً خطيراً، المسلمون في غنى عنه، كالذي فتحه طه حسين حين قال: «إنَّ القراءات السبع ليست من الوحي في قليل ولا كثير، وليس منكرها كافراً ولا فاسقاً، ولا مغتمزاً في دينه، وإنما هي قراءات مصدرها اللهجات واختلافها، للناس أن يجادلوا فيها، وأن ينكروا بعضها. وقد حاولوا بالفعل وتمارَوْا، وخطَّأ بعضهم بعضاً ولم نعلم أنَّ أحداً من المسلمين كفّر أحداً لشيء من هذا، وليست هذه القراءات بالأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن»[3].

إنَّ القول بأنَّ اللهجات هي مصدر القراءات هو الذي حمل طه حسين أن يقول مقالته هذه.

---

(١) «أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية» لعبد العال سالم مكرم ص٢٦.

(٢) ينظر: «نكت الانتصار» ص٤٢٠-٤٢١.

(٣) «في الأدب الجاهلي» ص٩٥، ط دار المعارف، مصر، عن «أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية» ص٢٧.

والرأي: أن القراءات الصحيحة هي ما سُمع من الرسول ﷺ أو سمعه الرسول وأقرّه، وهذا الذي حرص عثمان رضي الله عنه عليه في جمعه للقرآن، ويحرص المُقْرئون على تَحَرِّيه في قراءاتهم، وعلى ذلك فكلُّ قراءة اسْتَوْفت الشروط المنصوص عليها إنما هي قرآن، لها ما له من حرمة ومن أحكام.

٤) المصاحف العثمانية والأحرف السبعة:

عرض الشيخ رأيين في موضوع المصاحف، الأول: ذهب إليه جمهور من الخلف والسلف، وهو أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمل رسمها من الأحرف السبعة جامعة العرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل عليه السلام، والثاني: ذهب إليه ابن جرير الطبري ومن تابعه، وهو أنَّ المصاحف العثمانية لم تشتمل إلا على حرف واحد من الأحرف السبعة، وهي لغة قريش، جمعاً لكلمة المسلمين، فأخذت به وأهملت ما عداه، وأخذ عنها الأمة جمعاء[1]. ولم يُرَجِّحْ أحدَ القولين.

والحقُّ أن الخلاف هنا صُوري، فكلا الفريقين مُقِرٌّ بأنَّ القراءات القرآنية المستوفية لشروط الصحَّة ممَّا تلقته الأمة بالقَبول، وقرأ به أهل الأمصار المُجْمع على قراءاتهم، إنما هي قراءات يتعبد بها ولا يصحُّ إنكارها غير أن الفريق الثاني يعدّ هذه القراءات حرفاً واحداً من السبعة التي نصَّ عليها حديث الرسول ﷺ، وهي لغة قريش، وأغلب الظنّ أنهم يعنون (اللغة المشتركة) باصطلاحنا اليوم، إذ لا يعقل أن يفوت الطبري أنَّ في هذه القراءات التي أورد منها طائفة صالحة في تفسيره، كثيراً من لغات العرب.

وهذا الرأي ينسجم مع رأي القائلين بأنَّ الأحرف السبعة كانت رخصةً للعاجزين

---

(١) «أولى ما قيل» (١ : ٧٤٢). ورأي الطبري في «جامع البيان» (١ : ٥٧-٦٦)، دار المعارف.

عن الضبط والحفظ لتفشّي الأميَّة، فلما فشا التعليم ألغيت هذه الرخصة وأبقي على حرف واحد، ومن هذا الحرف هذه القراءات الصحيحة[١].

فالحرف عندهم متعدِّد ولا يعني وجهاً واحداً في القراءة. أما الفريق الأول فقد حصر الخلاف في الرواية[٢]. فمصاحف عثمان، فيها ما ثبت روايته من الأحرف السبعة، فهو مشتمل عليها.

وهناك رأي ثالث وهو يُعزى للمهدوي المقرئ (ت٤٤٠هـ) مفاده: أنَّ القراءات التي نحن عليها هي بعض الحروف السبعة التي نزل بها القرآن.

وتفسير ذلك أنها على ضربين: الأول: زيادة كلمة ونقص أخرى، وإبدال كلمة مكان أخرى، وتقديم كلمة على أخرى. فهذا الضرب وما أشبهه متروك لا تجوز القراءة به.

والثاني: ما اختلف القراء فيه من إظهار وإدغام ورَوْم وإشمام... فهذا الضرب هو المستعمل في زماننا، وهو الذي عليه خط المصاحف[٣]... وقد ذهب إلى هذا الرأي د. محسن سالم محيسن في كتابه: «القراءات وأثرها في علوم العربية»[٤].

* * *

(١) «المرشد الوجيز» ص١٠٦.

(٢) المصدر نفسه ص١٤٣.

(٣) المصدر نفسه ص١٤٢.

(٤) (١: ٤٦)، الناشر: مكتبة الكليات، الأزهر ١٩٨٤.

المبحث الثاني

القراءات وتوجيهها

عَرَّفَ الزركشي[١] القراءات بأنها: «اختلاف ألفاظ الوحي في الحروف وكيفيَّتها من تخفيف وتشديد وغيرها» وعَـرَّفها ابن الجزري[٢] بأنها: «علم بكيفيـة أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة». وقد وضع العلماء ضوابط وشروطاً لصحة القراءات وقبولها، ومن ثَمَّ جواز القراءة بها وقد أشرت إليها سابقاً، وهي: موافقة خط المصحف العثماني، وصحة الرواية، وموافقة العربية.

ويرى الدكتور شوقي ضيف[٣] أن ابن مجاهد، أوّلُ من وضع هذه الأصول بشكل علميّ، وطبقها في كتابه: «السبعة». ثم جلّاها مكي بن أبي طالب (ت٤٣٧هـ) بعد ذلك. وتلاهما ابن الجزري (ت٨٣٣هـ) الذي أدخل تعديلات على هذه الشروط وهي: موافقة العربية (ولو بوجه)، وموافقة المصاحف العثمانية (ولو احتمالاً) وصحّة السند[٤].

ثم اشتهرت بعد ذلك عشرة ابن الجزري[٥]، وهي تزيد على سبعة ابن مجاهد

---

(١) «البرهان» (١: ٣١٨).

(٢) «منجد المقرئين ومرشد الطالبين» ص٣، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠م.

(٣) «السبعة»: «المقدمة» ص١٩.

(٤) «النشر» (١: ٩).

(٥) سبق ابن الجزري في تعشير القراءات عدد من القراء أشار إليهم في كتابه «النشر» (١: ٧٥-٨٢، ٨٤-٨٦، ٩٠-٩٣، ٩٤).

بثلاث قراءات هي: قراءة يعقوب الحضرمي (ت٢٠٥هـ)، وقراءة خلف بن هشام (ت٢٢٩هـ)، وقراءة أبي جعفر المدني يزيد بن القعقاع (ت١٣٠هـ) شيخ نافع.

فما زاد على العشرة عند الأصوليين والفقهاء والمحدثين من الآحاد أو الشاذ[١].

يقول الدمياطي (ت١١١٧هـ): «إنَّ العلماء قد أجمعوا على أنه لم يتواتر شيء ممَّا زاد على العشرة المشهورة»[٢].

أما المحققون مثل مكي بن أبي طالب وأبي شامة وابن الجزري ومن تابعهم، فإنَّ القراءات الصحيحة عندهم ما انطبقت عليها الأصول الثلاثة[٣].

(١) أنواع القراءات

أ) القراءات المشهورة:

أورد الشيخ رشيد عدداً من القراءات المشهورة، عزا طائفةً منها إلى أصحابها، وأغفل عزو أكثرها. فممَّا لم يعزه إلى قارئه ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦]، إذ قال: «قُرِئ الفعلان بالبناء للمعلوم والهاء لله.. وقرئ الفعلان بالبناء للمجهول، والهاء للإنسان الكافر..»[٤]. وبالبناء للمجهول قرأ يعقوب والكسائي وقرأ باقي العشرة بالكسر[٥].

وقد استعمل الشيخ رشيد لفظة (قرئ)، كما استعمل عبارة (قرأ كثير) ليدلَّ

(١) «منهج الطوسي في تفسير القرآن» للزيدي ص٢٥٧.

(٢) «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر» (١: ٧١).

(٣) «منهج الطوسي في التفسير» للزيدي ص٢٥٧.

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ٢٣٦).

(٥) «النشر» (٢: ٤٠٠).

على كثرة القارئين لقراءة من القراءات المشهورة، على نحو ما جاء وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، إذ أشار إلى قراءة ليست مشهورة وهي: (إذا دَبَرَ) قال: «المعنى: أدْبَرَ، كقَبَلَ بمعنى: أقْبَلَ»، ثم أشار إلى المشهورة بقوله: «وقرأ كثير من القُرّاء (إذا دَبَرَ): ﴿إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ بإسكان الدال وفتح الهمزة، وبيَّن أنها القراءة التي يقرأ بها المشارقة اليوم فقال: «وبها نقرأ»[١]. ويعني بها قراءة حفص عن عاصم، وقد قرأ بها أيضاً من بقية السبعة نافع وحمزة ويعقوب وخلف، وقد قرأ بقراءة فتح الذال والدال ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم[٢]، وكثيراً ما يربط المعنى بالقراءة، فيرده إليها، فيقول: «هذا المعنى على قراءة كذا»[٣].

ومع أنه عموماً لا يُسمِّي صاحب القراءة، إلا أنه لا يعدم في مواضع تسميته، كما في قراءة (كِذّاباً) من قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ [النبأ: ٣٥]، إذ يبيِّن أن الكسائي قرأ (كذاباً) الأولى: أي التي في الآية (٢٨) التي سبقتها، والثانية: هذه بالتخفيف، وأنَّ الباقين قرؤوا كليهما بالتشديد[٤]. ولفظة (الباقون) في كلام الشيخ مبهمة لا تبيِّن المراد، هل هم بقية السبعة أم العشرة؟ وعند العودة إلى المصدرين تبيَّن أنه أراد بقية العشرة لأن ابن مجاهد لم يذكر اتفاقهم على (كذاباً) الأولى[٥]، على حين ذكر ذلك ابن الجزري[٦].

ومن هذا القبيل ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٥٦) الحاشية.

(٢) «السبعة» ص٦٥٩. و«النشر» (٢: ٣٩٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٣٣٩).

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ١١٥).

(٥) «السبعة» ص٦٦٩.

(٦) «النشر» (٢: ٣٩٧).

[الصافات: ٦] إذ بيَّن أن حفصاً قرأ بتنوين (زينة) وجر (الكواكب) وذلك على أنها بدل منها[١]. وقد قرأ بها من السبعة: حمزة وحفص عن عاصم[٢]، ولم يقرأ بها من الثلاثة المتمِّمة للعشرة قارئ[٣].

ب) القراءات غير المشهورة:

وهي عند المحققين: ما خالف الأُسس الثلاثة التي أجمعوا عليها، وعند الأصوليين والفقهاء والمحدثين: ما زاد على العشرة[٤]، كما مرَّ سالفاً، وتنقسم هذه القراءات على الصحيح، وما ينبغي التعويل عليه على قسمين:

ـ قراءات آحاد:

وقد ميَّز هذا النوع من القراءات الشواذ مكي بن أبي طالب[٥]. واعتمده من المحدَثين الرافعي[٦] وإليه ذهب أستاذنا كاصد الزيدي في دراسته للقراءات[٧]، وهي تلك القراءات التي رُويت عن عدد من الصحابة الذين عُرفوا بالقراءة والإقراء[٨]، مـمَّا روي عنهم آحاداً، ولم يرد عنهم تواتراً أو إجماعاً[٩].

(١) «أولى ما قيل» (٦: ١٩٢).

(٢) «السبعة» ص٥٤٦.

(٣) «النشر» (٢: ٣٥٦).

(٤) «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» ص٢٥٧.

(٥) ينظر: «الإبانة» ص١٨، ٥٧، عن رافع عبد الله مالو: «منهج الراغب» ص١٠٢.

(٦) «تاريخ أداب العرب» (٢: ٥٥).

(٧) «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» ص٢٥٧.

(٨) «القراءات عند الزجاج» لكاصد الزيدي ص١٦، بحث مخطوط.

(٩) من القراءات ما روي آحاداً، ومنها ما روي تواتراً قد أخذ بإجماع عن مقرئي الأمصار الإسلامية المشهورين.

أورد الشيخ رشيد عدداً من هذا النوع من القراءات كقراءة ابن عباس، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]، إذ قال: «كان مجاهد يقرأ: (مِنْ كُلِّ جَدَثٍ يَنْسِلون) وهو القبر»[١]، ومعلوم أن لفظتي (حدب) و(جدث) يتفقان في خط المصحف، ويختلفان في اللفظ والمعنى. ولم يورد الطبري[٢] هذه القراءة لمجاهد وإنما بيّن أن قوماً نسبوا إليه قوله: «إن جمع الناس من كل مكان جاؤوا منه يوم القيامة فهو حدب» فهو هنا أشار إلى المعنى الذي ذهب إليه الشيخ رشيد.

على حين عزاها ابن خالويه[٣] لابن عباس والكلبي والضحاك. وليس في هذا نقض لروايتها عن مجاهد، لأن مجاهداً أكبر وأشهر تلامذة ابن عباس، فروايتها عنه محتملة جداً إذن، بل هي هنا مؤكدة لاتفاقهما فيها، وعزاها ابن جنّي[٤] (ت٣٩٢هـ) إلى ابن مسعود أيضاً.

وأورد قراءة (عرضهن) المنسوبة لابن مسعود[٥]، وقراءة (عرضها) المنسوبة لأبي بن كعب[٦] وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١][٧]. فكلتا تينك القراءتين من الآحاد، ولا يقرأ بهما بالطبع، لآحاديتهما أولاً، ولمخالفتهما خط المصحف أيضاً.

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ١٩٦).

(٢) «جامع البيان» (١٧: ٧٣)، دار المعرفة.

(٣) «مختصر شواذ القرآن» ص٩٣.

(٤) «المحتسب» (٢: ١٦٦).

(٥) «مختصر شواذ القرآن» ص٤.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) «أولى ما قيل» (٢: ٦٩).

ـ القراءات الشواذ:

وهي تلك القراءات التي ليست مشهورة ولا آحاداً، وهي مرويَّة عن عدد من التابعين ومن تلاهم من علماء الأمة.

أورد الشيخ رشيد عدداً من القراءات الشاذة من غير أن يشير إلى أنها من هذا النوع، منها في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، إذ قال بعد تفسير ﴿جَهْـرَةً﴾: «وقرئ بفتح الهاء على أنها مصدر كالغَلَـبَة، أو جمع كالكَتَـبَة»[١]. وهذه القراءة الشاذة[٢] نُسبت لسهيل بن شعيب[٣].

ومن ذلك ما أورده في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] إذ بيّن أن «لا: مزيدة للمبالغة»، وأن الذي «يؤيِّد هذه الزيادة، قراءات: ليَعْلَمَ، ولكي يَعْلَمَ، ولأَنْ يَعْلَمَ»[٤]. وهذه قراءات ثلاث شاذة[٥]. ولم يشر الشيخ إلى القراءة الشاذة الأخرى التي قرأ بها الحسن البصري: «كَيْلا يَعْلَمَ أهلُ الكِتابِ»[٦]، وذلك أنه معنيٌّ هنا بإيراد القراءات التي تؤيد زيادة (لا) التي قال بها في الآية ولم تكن قراءة الحسن منها لأنها لا تشعر بالزيادة بل بأصالة هذه الأداة.

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٩٧).

(٢) «مختصر شواذ القرآن» ص٥، وابن جني «المحتسب» (١: ٨٤).

(٣) كوفي عرض على عاصم بن أبي النجود وعلى أبي بكر بن عياش. «طبقات القراء»، ابن الجزري (١: ٣١٩).

(٤) «أولى ما قيل» (٧: ٣١٢).

(٥) «مختصر شواذ القرآن» ص١٥٢.

(٦) «المحتسب» (٢: ٣١٣).

(٢) توجيه القراءات:

عُني الشيخ رشيد بتوجيه عددٍ من القراءات التي أوردها، والاحتجاج لها وبها، معتمداً في توضيحها المعنى والنحو والصرف.

أ) التوجيه المعنوي:

ويراد به المعنى الذي يترتَّب على قراءة دون قراءة أخرى، وهو ممَّا تمتاز به القراءات القرآنية، مشهورة كانت أو غير مشهورة. ويقول الدمياطي: «لم تزل العلماء تستنبط من كلِّ حرف يقرأ به قارئ معنى لا يوجد في قراءة الآخر»[١].

فسَّر الشيخ قوله تعالى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] حمل عبارة ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ على محملين:

أحدهما: ضربٌ من المجاز العقلي، بإسناد المسبَّب إلى سببه، وهو هنا المَلَكُ.

والآخر: حكاية عن قول الله عزَّ وجلَّ، وقد احتجَّ لهذا بقراءة مشهورة[٢]: (لِيَهَبَ لَكِ) وهي قراءة أبي عمرو ونافع ـ في رواية ورش ـ والحلواني عن قالون عن ورش[٣].

وقد يكون في قراءة الجمهور ما يوهم بإشكال صوريّ لدى الشيخ، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢]. فلا بأس أن يستعان بقراءة ثانية إن وجدت في حَلِّ هذا الإشكال، على نحو ما ورد في قراءة الكسائي[٤]: (هَلْ تَسْتَطيعُ ربَّكَ)، إذ رأى الشيخ جواز حَمْل قراءة الجمهور

(١) «إتحاف فضلاء البشر» (١: ٦٧).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٧١).

(٣) «السبعة» ص٤٠٨، و«النشر» (٢: ٣١٧).

(٤) «السبعة» ص٢٤٩، و«الحجة» لابن خالويه ص١٣٥.

عليها[١]. وهو أن يكون الحواريُّون في حال من الرغبة في زيادة[٢] التَّصديق والإيمان بنبوَّة عيسى ورسالته، فطلبوا هذا الطلب، وأن ذلك يمكن أن يطلب ولا ينكره.

وقد يجعل القراءة المشهورة القويَّة المعنى، حُجَّة للقراءة الأخرى التي لها نفس تلك القوة المعنويَّـة، على نحو ما أورده في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨]، إذ فسّـر (بُشراً) بأنها مبشرة بالمطر، وعلّل ذلك بقوله؛ لأنها هي التي تكوّن الغيوم وتقلبها ماءً، ثم قال: «وعلى هذا المعنى قراءة (نُشراً) بالنون»[٣]. ولعله أراد بذلك تكوين الغيوم، فهذا ـ يبدو ـ عنده معنى النشر.

وقد فسَّرها مكي بن أبي طالب بالإحياء، بأن يرسل الرياح مُحيـية الأرض[٤]. (وبُشْراً) قراءة عاصم، و(نُشْراً) قراءة ابن عامر، و(نَشْراً) قراءة حمزة والكسائي وخلف، و(نُشُراً) قراءة الباقين من العشرة. وذلك في الأعراف والنمل والفرقان[٥].

ويلحظ أن عناية الشيخ بتوجيه القراءات معنوياً لم تقتصـر على المشهورة، بل شملت الآحاد والشواذ كذلك، فقد أفاد من قراءة شاذة في توجيه معنىً ذهب إليه فمن ذلك ما مرَّ بنـا من قراءة (جدث)[٦]، وهي قراءة آحاد في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، فقد ذهب إلى أن عبارة ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٢٧٨)، الحاشية.

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٢٧٨).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٣٧٤).

(٤) «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١: ٤٦٦).

(٥) «النشر» (٢: ٣٦٩-٣٧٠).

(٦) «أولى ما قيل» (٥: ١٩٦).

تطلق على الكثرة المختلطة من الناس الخارجة من قبورها يوم القيامة(١). مع ما في هذا التأويل من البُعد الظاهر عمّا اشتهر في القراءة والمعنى أيضاً، وهي قراءة ﴿حَدَبٍ﴾، كما تقدم.

وقد يوجِّه قراءتين توجيهاً معنوياً، ثم يرجح إحداهما لتلاؤمها مع السياق كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]، إذ قال: «وقد قرئ بالضاد والظاء، أما على الأولى فمعناه: ليس محمد ﷺ ببخيل فيما يؤدي عن الله سبحانه أن يعلمه للناس، وأما على الثانية: فمعناه ليس بمُتَّهم على الغيب. والمعنى الثاني أَوْلى بالسياق»(٢). وكلتا القراءتين من القراءات المشهورة(٣)، وترجيحه كما هو واضح لم يدخل في مجال الحظر، من إسقاط قراءة مشهورة بقراءة أخرى مشهورة، بل عمد إلى الاختيار فحسب، وهو ما اختاره حفص، أي ما نقرأ ويقرأ به الشيخ كذلك في أيامنا هذه.

ب) التوجيه النحوي:

اتصلت القراءات باللغة والنحو والصرف اتِّصالاً وثيقاً، وفتحت العناية بها باباً لنموِّ العربية بعامة، وقد عُني كبار النحاة بتوجيه القراءات كسيبويه والفراء وأبي عبيدة وابن جنّي والمبرد وأبي علي الفارسي وابن خالويه، ومكي بن أبي طالب(٤) وغيرهم.

وجَّه الشيخ رشيد عدداً من القراءات توجيهاً نحوياً كما في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس: ٥]. إذ وجه قراءة النصب (تنزيل) وهي قراءة مشهورة قرأ بها ابن

---

(١) «أولى ما قيل». وقد رددت على قوله هذا في تعليقاتي على سورتي الكهف والأنبياء. (مجد).

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ١٥٣).

(٣) «السبعة» ص٦٦٣، و«النشر» (٢: ٣٩٨)، وينظر: «الحُجَّة في القراءات» لابن خالويه ص٣٦٤.

(٤) «القراءات القرآنية بين الاتباع والقياس» لكاصد الزيدي ص١٣، مجلة الجامعة، عدد (٦)، سنة ١٩٧٩.

عامر وحمزة والكسائي وخلف وعاصم براوية حفص[١]، «على أنه مصدر نائب عن فاعله بمعنى أنزله العزيز الرحيم»[٢]. ولم يوجِّه قراءة الرفع، وقد وُجِّهت بأنها خبر لمبتدأ محذوف، أي هو تنزيل العزيز[٣].

ومنه ما أوْرَده في قراءة: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، إذ قال: «قرأ حفص بتنوين (زينة) وجر (الكواكب)، وذلك على أنها بدل منها والمراد بها الاسم لا المصدر»[٤]، فإشارته إلى أن المراد بها الاسم لا المصدر تنبيه على قراءة ترك التنوين: (بِزِينَةِ الكَواكِبِ)، إذ تكون (بزينة) فيها مصدراً، وتعمل في (الكواكب) مثل (سؤال نعجتك)[٥].

ونراه يوجِّه (تخاصم) من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤]. بقراءة الرفع: (تخاصم)، فيعربها بدلاً من قوله: (الحق)، أو خبراً لمحذوف. ثم وجّه قراءة ثانية بنصب (تخاصم)، على أنه بدل من (ذلك) أي من اسم (إن)[٦]. ولم ينسبها إلى قارئها، وهي غير معزوة كذلك عند غيره، فقد أَوْرَدَها الزمخشري دون عزو وعدّها نعتاً لاسم الإشـارة، فقال: «وقرئ بالنصب على أنه صفة، لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس»[٧].

---

(١) «النشر» (٢: ٣٥٣).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٦٣).

(٣) «الكشف عن وجوه القراءات» لمكي بن أبي طالب (٢: ٢١٤).

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ١٩٢).

(٥) «الكشف» (٢: ٢٢١).

(٦) «أولى ما قيل» (٦: ٢٥٨).

(٧) «الكشاف» (٤: ١٠٣).

أما قراءة الرفع، وهي القراءة المشهورة فقد أجاز القرطبي[١] أن تكون بدلاً من (ذلك) على الموضع، كما ذهب إليه الشيخ، وأضاف أبو البركات ابن الأنباري[٢] وجهاً رابعاً وهو: أن يكون خبراً بعد خبر (إنّ).

وربما ذكر توجيهاً لِما ظنّه قراءةً، مع أنه عند التحقيق ليس بقراءة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، إذ قال: «فيه قراءتان، الأولى بنصب (الطاغوت) على أنه مفعول به، و(عَبَدَ): فعل ماضٍ معطوف على لعنه. أي: من لعنه الله، ومن عبد الطاغوت. والثانية: بجر (الطاغوت)، فيكون (عبد) جمع عابد، مثل خَدَم وخادِم، وهو معطوف على (القردة)، أي: جعل منهم القردة وعبيد الطاغوت بإفسادهم لفطرتهم»[٣].

والشيخ هنا يشير إلى خصوص قراءتين، من تسع عشرة قراءة رُويت في الآية[٤] ثنتان مشهورتان، والباقي شواذ، فمن المحتمل أن الشيخ يريد المشهورتين، وإلا فهما أكثر من قراءتين كما رأينا. وقد وجَّه القراءة الأولى وهي (عَبَدَ الطَّاغوتَ)، وربما وهم فظنَّ القراءة الثانية المشهورة وهي قراءة حمزة[٥]: (عَبَدَ الطّاغوتِ) بفتح الأحرف الثلاثة، والدليل على ذلك، إذ لم تكن محركة في التفسير، هو أنه أغفل ذكر الرفع من ناحية، وقاسها على خدم وخادم من ناحية أخرى. وهذا الوجه لم يرد حتى مع القراءات الشواذ. وقد وجَّهَ ابنُ خالويه قراءةَ حمزة: (عَبُدَ الطَّاغوتِ) أنها جمع عبد، ولكنه نبّه إلى

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ١٤٦).

(٢) «البيان في غريب إعراب القرآن» (٢: ٣١٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢٣١).

(٤) «مختصر شواذ القرآن» لابن خالويه ص٣٣.

(٥) «السبعة» ص٢٤٦، و«النشر» (٢: ٢٥٥)، وينظر: السمرقندي (ت٣٧٥هـ)، و«بحر العلوم» (٣: ١١٣-١١٤).

ضعف هذا التوجيه، فقال: (وعَبْدٌ) يجمع على ثمانية أوجه هذا أقلُّها. ثم نقل قول الفراء في ذلك، ومفاده: جواز أن تكون (عَبُدَ) مفرداً ضُمت الباء منه دلالة على المبالغة كما قالوا: حَذُر، ويَقُظ، ومعناه: وخَدُم الطاغوت(١).

وقد تعقب محقِّق كتاب «الحجة» هذه القراءة ناقلاً عن الجوهري مبطلاً كون (عَبُد) جمعاً لعَبْد وذكر تسعة وجوه لجمع (عبْد) ليس فيها (عَبُد)(٢). وهذا قريب من توجيه مكي إذ قال: «وحجة من ضم الباء وكسر التاء أنه جعل (عبُد) اسماً يبنى على فعل كعضُد، فهو بناء للمبالغة والكثرة كـ(يَقُظ ونَدُس)»(٣). وهذه القراءة دليل واضح على أنَّ الرواية هي الأساس في القراءات، إذ في القراءات الشاذة لهذه الآية(٤) ما هو أقرب إلى وجوه العربية من هذه القراءة المشهورة.

ج) التوجيه الصرفي:

وهو ما يتعلق ببنية الكلمة، وقد عُني به الشيخ في مواضع من تفسيره، على نحو ما جاء في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، إذ أشار إلى قراءتين على (فعلتم) و(فاعلتم)، فبيّن أن قتادة والزهري ذهبا إلى أن المراد: «إذا سلمتم ما أتيتم من إرادة الاسترضاع بأن رضي كل واحد من الأبوين بذلك»، ثم قال: «أقول: وهذا المعنى على قراءة: (أتيتم) بمعنى علمتم وفعلتم، أي إذا تمَّ الاتفاق بينكم في الفصال والاسترضاع أو كليهما،

---

(١) «الحجة في القراءات السبع» ص١٣٢-١٣٣.

(٢) المصدر نفسه ص١٣٣ الحاشية.

(٣) «الكشف» (١: ٤١٤).

(٤) ينظر: «مختصر في شواذ القرآن» ص٣٤.

وكان على صورة مرضيَّة متعارفة، أما على قراءة: (آتيتم) بمد الهمزة بمعنى وافقتم عليه أو بمعنى أعطيتم، فقد قيل في معنى الآية: إذا أردتم إيتاءه المراضع من الأجور: بحسب المتعارف المستحسن شرعاً..»[١].

فقد فـرَّق هنا بين قراءتي القصر والمدّ، الأولى: قراءة ابن كثير، والثانية: قراءة الباقين من السبعة[٢] والعشرة[٣] وبيّن فرق المعنى مع كل قراءة، فالمدّ وزنه: (أَفْعلْتُم) يراد به الإعطاء وحجته: (إذا سلمتم)، والتسليم لا يكون إلا بالإعطاء.

والقصر ووزنه: (فَعَلْتُمْ) معناه: المجيء[٤]، ودليله عند الشيخ أن التسليم بمعنى الرضا.

وفي القراءة الشاذة التي مرَّت سابقاً: (جَهَرةً) بدلاً من المشهورة: (جَهْرةً) من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]. نراه يلتمس لها توجيهاً صرفياً، وهو أنها مصدر كالغَلَـبَة أو جمع كالكَتَـبَة[٥]، وهو أمر نبَّه عليه ابن جني[٦] بقوله: ومذهب أصحابنا في كل شيء من هذا النحو مـمَّا فيه حرف حلقي ساكن بعد حرف مفتوح، أنه لا يـحرَّك إلا على أنه لغة منه كالزهْر والزهَر، والنهْر والنهَر، فهذه لغات عندهم، ومذهب الكوفيين فيه أنه يحرك الثاني لكونه حرفاً حلقياً، فيجيزون فيه الفتح وإن لم يسمعوها.

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٣٩٩-٣٤٠).

(٢) «السبعة» ص١٨٣.

(٣) «النشر» (٢: ٢٨٨).

(٤) «الحجة» لابن خالويه ص٩٧، وينظر: «الكشف» (١: ٢٩٦-٢٩٧).

(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٩٧).

(٦) في «المحتسب» (١: ٨٤).

وفي قراءة: (إذا دبر) [المدثر: ٢٣] يعدُّ (دبر) بمعنى (أدبر) كقبل بمعنى (أقبل)[١].
وهو توجيهٌ صرفيّ للتوفيق بين القراءتين ببيان جواز مجيء (فعل) بمعنى (أفعل)[٢]
وكلتاهما من القراءات المشهورة[٣].

* * *

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٥٦).

(٢) «مختار الصحاح» (دبر).

(٣) انظر: «النشر» (٢: ٣٩٣)، و«تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة» للجزري ص١٩١، تحقيق: عبد الفتاح القاضي، ومحمد الصادق قمحاوي، القاهرة ١٩٧٢.

الفصل الخامس
اللغة والنحو والصرف

تمهيد

كان الشيخ رشيد كثير الاهتمام باللغة والأدب، وما خلّفه من مصنّفات ومختصرات في هذا المجال يدلُّ دلالةً واضحة على ذلك[١]. وكان شديد الإعجاب باللغة العربية معتزاً بها، وما فتئ في تفسيره وفي كثير من دروسه ومجالسه يدعو إلى تَعَلُّمِها وفهمها، ويعدّ ذلك من صلب الدِّين وواجبات الشريعة، ويستدلُّ على ذلك بأصول الفقه وأقوال العلماء كالشافعي[٢]، ويؤكد دائماً فضلها وخصائصها، وروعتها، وجمالها. ويرى أن ما تتمتّع به العربية من هذه الميزات هو سببُ اختيارها لهذا الدِّين الحنيف، ونراه يؤكد مراراً عالمية هذه اللغة المستمَدَّة من عالمية هذا الدين، وأن المسلمين من غير العرب أخطأوا أيّما خطأ عندما جعلوا لغاتِهم الخاصَّة هي اللغات الرسمية في بلادهم مُتَخَلِّين بذلك عن هذه اللغة الكريمة، لغةِ القرآن العظيم. وقد حمل مسؤوليةَ هذا العمل السلطانُ العثماني سليمان القانوني، الذي ابتدع هذه البدعة، فقد كانت الدول الإسلامية قبله تعتمد اللغة العربية لغة رسمية لبلادها[٣].

ولقد أعطى الشيخ في تفسيره تفهُّم اللغة وعلومها وأساليبها دوراً رئيساً في فهم الآيات وتأويلها[٤]، فلا غَرْوَ إذن أن نراه مهتماً في تفسيره باللغة ومباحثها النحوية والصرفية، وهذا ما سنبيِّنه في هذا الفصل إن شاء الله.

---

(١) ينظر: «مصنفات الشيخ في اللغة والأدب»، «التمهيد» ص٢١-٢٤.

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٣٨٧)، (١: ٧٧٢).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٧٧٢)، (٥: ١٣٧)، (٥: ٣٨٣-٣٨٤)، (٦: ٣٢٥).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٤٩٦).

المبحث الأول

اللغة

١) التفسير اللغوي للألفاظ:

إن تفسير الألفاظ أو المفردات القرآنيّة الغريبة يُعدّ البدايةَ السليمة والضرورية لتفسير المعنى الإجمالي للآيات، لأن هذه المفردات تمثل اللَّبِناتِ الأولى التي تبنى منها هذه الآيات[١]، وهذا ما حدا بكثير من المفسرين القدامى والمحدَثين إلى الاقتصار على تفسير كلمات أو مفردات أو غريب القرآن على اختلاف تسمياتهم، كابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، وأبي بكر السجستاني (ت٣٣٠هـ)، والراغب الأصبهاني (ت نحو ٤٢٥هـ)[٢]. ولقد عُني الشيخ رشيد بتفسير الألفاظ القرآنية، وكانت له طريقتان في ذلك هما:

أ ـ طريقة غير مباشرة: وتكون عادة بالتفسير الإجمالي للآية من غير وقوف عند اللفظة الغريبة بعينها لتوضيح معناها، وذلك بأن يفسِّر المفردة، باستعمالها خلال الشرح بما يُزيل غموضَها ويوضِّح معناها، على نحو ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا

---

(١) «البرهان في علوم القرآن» لبدر الدين الزركشي (٢: ١٧٣). وينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» لكاصد الزيدي ص٢٧٩.

(٢) وينظر: «الإتقان» (١: ١٤٩).

﴿فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨] إذ قال: «والكلام على التمثيل؛ أي: مَثَلُ هؤلاء المشركين في إعراضهم عمَّا يدعوهم إليه، كمثل رجل قامح برأسه من جرّاء غلّ في عنقه يضطره أن لا يبصر موطن قدميه، لأن الـمُقْمَح هو الذي يلجأ لرفع رأسه إلى فوق»[١]. فهو لم يعمد مباشرة إلى تفسير لفظة ﴿مُّقْمَحُونَ﴾، ولكنه فسَّر هذه اللفظة الغريبة من خلال الشرح وتنويع الاستخدام (قامح ومقمح) فأوضح معناها.

ونظيره ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ١٦٢] إذ قال: «أي عذاباً تضطرب له القلوب وترتجز»[٢]. فقد بيَّن أن المراد بالرجز العذاب، ثم بيَّن صفة هذا الرجز بأنه الذي تضطرب له القلوب خوفاً وهلعاً، وذلك من خلال استعمال الكلمة استعمالاً مغايراً مع عطفها على مفردة أخرى ترادفها وهي (تضطرب). وقد جاء في أساس البلاغة[٣]: «ارتجز الرعدُ: إذا تدارك صوته الراجز».

وفي قوله تعالى: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨] يقول: «في حدائق من نبق مخضود الشوك»[٤] ومثله ما بيَّنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤] إذ قال: «في يمينك»[٥] فيفهم معنى الحنث بأنه عدم البرّ في القسم، بقرينة: «في يمينك»، مع أنه لم يعرض مباشرة لتفسير لفظة ﴿تحنث﴾.

(١) «أولى ما قيل» (٦: ١٦٤).
(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٤٨٨).
(٣) الزمخشري ص٢٢١.
(٤) «أولى ما قيل» (٧: ٢٥٩).
(٥) «أولى ما قيل» (٦: ٢٥٢).

ب ـ طريقة مباشرة: وهي أن يعمد إلى تفسير المفردة الغريبة وتوضيح معناها مباشرة قبل توضيح المعنى العام للآي أو بعده، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] يقدِّم معنى المفردة على المعنى العام فيقول: «أي: ذلّت وخضعت»[١]، وكذا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٤] إذ يقول: «أي: دماً جامداً»[٢]، ومثله في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١] إذ يقول: «أي: تخْلُطون..»[٣].

وقد يعكس الحال فيفسِّر المفردة بعد بيان المعنى العام، لا قبله كما في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، إذ قال: «أي طبعناه على معرفة طريقَي الخير والشر»، ثم فسّر ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ بطريقة التعليل بقوله: «لأن ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ ما ارتفع من الأرض»[٤].

ومن أساليبه في تفسير المفردة: إيراد ما يقابلها أو يضادّها في الدلالة من المفردات، فهو في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] يقول: «معين: ظاهر للعيان فهو ضد الغائر»[٥]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦] يقول: «والنحس: نقيض السعد»[٦].

وكثيراً ما يعزو تفسير غريب المفردات إلى الصحابة والتابعين وكبار اللغويين،

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ١٣٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٢٦٤).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٤٩١).

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ٢٤٤).

(٥) «أولى ما قيل» (٧: ٤٥٥).

(٦) «أولى ما قيل» (٦: ٣٦٠).

كابن عباس، وعكرمة، وقتادة، والحسن البصري، والضحاك[١]، والفراء[٢]، والزجّاج[٣]، والمبرد، والزمخشري وغيرهم، وقد تقدم بيان ذلك في فصل المصادر.

ويعمد الشيخ رشيد أحياناً إلى بيان الأصل اللغوي للفظة القرآنية ليربط المعنى به، وهو منهج يُعِين على تقريب المعنى وربطه بالدلالة التي عليها اللفظة، وهي في الآية، وهذا معروف في عدد من التفاسير القديمة.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] إذ قال: «شَجَر: اختلط واختلف، وسُمِّي الشجر شجراً لاشتجار أغصانه وتداخلها واختلافها في بعضها، واختلاطها. ويطلق على النزاع والخصام»[٤]. ويفهم من عبارة الشيخ هنا: «ويطلق على النزاع والخصام» بعد كلامه المتقدِّم، أنَّ الحسِّي هو الأصل ثم انتقل إلى المعنوي، وهو هنا دقيق إذ لم يجعل المعنويَّ أصلاً.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٥٢] يقول: «تقتلون المشركين قتلاً ذريعاً»، ثم يعلل تفسير ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ بـ(تقتلون) ببيان الأصل اللغوي «من أحسَّه: إذا أبطل حسَّه»[٥].

يغلب على منهج الشيخ في بيان الأصل اللغوي للمفردات الاقتضابُ، والسبب

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٨٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٤٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٨٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٨٥).

(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٥٥٦).

هو ما التـزمه من الاختصار، وتأكيد جوانب أخرى في التفسير[١]. ونلحظ ذلك في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ [هود: ٨٩] إذ قال: «ولا يجرمنّكم مأخوذ من قولهم: جَرَمَ الذَّنْبَ إذا كَسَبَهُ»[٢].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦] يقول: «والقِطُّ: القطعة من كل شيء من قَطَّـهُ يَقُطُّهُ، والمراد هنا: القسط والحصّة من العذاب»[٣]. فهو هنا معني بتوضيح اللفظة القرآنية بأوجز عبارة، فلا يتوسّع توسُّعَ غيره من التفاسير كالقرطبي مثلاً[٤].

٢) تمييز المعنى الحقيقي من المعنى المجازي:

يقف الشيخ أحياناً عند طائفة من المفردات ليبيّن معناها الأول الحقيقي، ثم الثاني المجازي المراد في الآية، موضِّحاً قيمة ذلك المعنى المجازي وأثره في بيان المعنى.

ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ [النساء: ٤٧] يقول: «الطمس في اللغة: إزالة الأثر وإخفاؤه، كما تطمس آثار الديار. والظاهر أنّ المراد المعنى المجازي»[٥].

ونراه في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤].

يتوسَّع بتوضيح المعنى المجازي قائلاً: «والسّاهِرَةُ: الأرضُ البيضاءُ المستويةُ،

---

(١) مثل سنن الله في خلقه والهداية والضلال، إذ كان يطيل في ذلك ويُبدي ويعيد.

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٢٥٧).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ٢٣٢).

(٤) ينظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ١٠٣-١٠٤).

(٥) «أولى ما قيل» (٣: ٦٩).

سُمِّيت بذلك لأنَّ السراب يجري فيها، من قولهم: عين ساهرة: للتي يجري ماؤها، وعين نائمة: للتي لا تجري»، ثم يذكر بصيغة التضعيف: (قيل): إنها «المفازة؛ لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة»، ثم بيَّن أنها على هذا «تكون مجازاً عقلياً من إسناد وَصْف للمكان». ويرى أنَّ «هذا أنسب للموضوع، لأنَّ الناس على أرض المحشر في أشد الجزع والهلع»[1].

٣) في الدلالة اللفظية:

أ ـ الاشتراك: ويراد به أن تكون اللفظة محتملة لمعنيين أو أكثر[2]. وقد أورد الشيخ عدداً من المفردات المشتركة مُبيِّناً احتمالها أكثر من معنى يعين عليه السياق، من غير أن ينبِّه على أنه من المشترك صراحةً.

ومن ذلك: ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨] إذ قال: «وقد ضمَّن الكلام رداً لكثير من شبههم، حيث أراد بلفظ الآية ثلاثة أنواع، منها: الآية القرآنية التي تأتي بحكم شرعي، والآية الكونية التي تكون معجزة لنبي، والآية الكونية التعذيبيَّة التي كان الرسول ﷺ يتوعَّدهم بها، ويستهزئون[3] بطلب تعجيلها»[4].

فهو هنا يشير بوضوح إلى الاشتراك اللفظي في اللغة. كما يفهم من عبارته: «ثلاثة أنواع منها» أنَّ ما أورده ليس كل المعاني التي تحتمله كلمة (الآية)، إذ وراءها ما هو

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٢٤).

(٢) «فقه اللغة» للزيدي ص١٤١.

(٣) في الأصل يستهزؤن والصحيح ما أثبته.

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٣٧٨).

أكثر، وقد أورد الدامغاني (ت٤٨٧هـ)[١] ستة معان لها، فهي فضلاً عما أورده الشيخ، تعني: (العلامة) ودليلها قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الروم: ٢٠]، وتعني: (العبرة) كما في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم: ٢١]، وتعني: (الكتاب) كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٦٦]. على حين هي في كتاب «الأشباه والنظائر» لهارون بن موسى (ت١٧٠هـ)[٢] على وجهين فحسب هما: (العبرة) و(العلامة).

ب ـ **التَّضاد**: هو اجتماع معنيـين متضادَّين في لفظة واحدة[٣]، وقد عُني به كثير من اللغويـين كأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) في كتابه «غريب الحديث». وأبي الطيب اللغوي (ت٣٥١هـ) في كتابه «الأضداد في كلام العرب»[٤]. ومحمد بن القاسم الأنباري (ت٣٥٧هـ) في كتابه «الأضداد».

وقد أشار الشيخ رشيد إلى موضوع التَّضادِّ عند تفسيره لطائفة من المفردات، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه: ١٥] إذ نراه يقول:

---

(١) «قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن» ص٦٠-٦١، وهو منسوب خطأ إلى الحسين بن محمد الدامغاني، والصواب لمحمد بن علي بن محمد الدامغاني (ت٤٨٧هـ).
والحسين بن محمد الدامغاني: هو أبو عبد الله (...-٤٧٨هـ؟) فقيه حنفي، له: «الوجوه والنظائر»، و«سوق العروس وأنس النفوس». «الأعلام» للزركلي (٢: ٢٥٤-٢٥٥).
ومحمد بن علي الدامغاني: هو أبو عبد الله (٣٩٨-٤٧٨هـ) شيخ الحنفية في زمانه وقاضي القضاة، له: «مسائل الحيطان والطرق». «الأعلام» للزركلي (٦: ٢٧٦).

(٢) ص٣٣٤، تحقيق: حاتم الضامن ١٩٨٨.

(٣) «فقه اللغة» للزيدي ص١٥٢.

(٤) المصدر نفسه ص١٥١.

«وهذه الجملة تُنبئ عن شدَّة خفاء أمر الساعة، لأنها لا تكون إلا بَغْتة. وقيل: ﴿أُخْفِيهَا﴾ بمعنى: أظهرها، من أخفى الشيء: إذا أزال خفاءه، لأنَّ كلمة أسرَّ الشيء وأخفاه تأتيان للضدِّ أيضاً، أي: تأتي كلٌّ منهما بمعنى أخفى وبمعنى أزال الخفاء»[١]. وقول الشيخ هنا بأن كلمتي (أسرَّ) و(أخفى) تأتيان للضدِّ فيه نظر، فكلمة (أسر) جاءت في جميع القرآن بمعنى الخفاء، ما خلا آية واحدة ظنَّ بعضهم ومنهم أبو علي الجبائيُّ أنها بمعنى الإظهار، وهي التي في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤]. وقد أنكر عليه ذلك الطوسي (ت٤٦٠هـ)[٢] وأبو البركات ابن الأنباري[٣] (ت٥٥٧هـ) ذاهبين إلى أنها على ظاهر دلالتها، وهو الإخفاء، وهذا ما ذهب إليه السلف، فقد رُوي أنَّ الإمام جعفر الصادق قد أخذ اللفظة على ظاهرها في الآية، فرأى أنهم: «أسرُّوا الندامة في الآخرة خوف شماتة الأعداء»[٤].

وأما (أخفيها) فقد ذهب غير واحد من اللغويين القدامى إلى أنها من الأضداد، وأنها هنا بمعنى: أظهرها[٥]، ومنهم الأصمعي (ت٢١٦هـ)[٦] ونقل القرطبي[٧] عن أحد المفسِّرين أن هذا من باب السلب وليس من باب الأضداد، فمعنى ﴿أُخْفِيهَا﴾ على هذا التأويل: أُزيل عنها خفاءها، ومن هذا قولهم: أشْكَيْتُه، أي: أزلت شكواه،

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ١٠٤).

(٢) «التبيان» (٨: ٣٩٨). وينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن» لكاصد الزيدي ص٢٨٨.

(٣) «الإغراب في جدل الإعراب» ص٥٤. وينظر: «فقه اللغة» للزيدي ص١٥٨.

(٤) «فقه اللغة» للزيدي ص١٥٨-١٥٩.

(٥) ينظر: «المفردات» ص١٥٣. و«القرطبي» (١١: ١٢٢).

(٦) ثلاثة كتب في الأضداد، بتحقيق: أوكست هفنر ص٢١.

(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١١: ١٢٤).

فتكون الـهمزة للسلب. وقد أورد الشيخ في تفسيـره هذا القول أيضاً. وقد ذهب قطرب (ت٢٠٦هـ) إلى أن (خفي) من الأضداد[١]. واستشهد بقول امرئ القيس:

خَفَـــاهُنَّ مِـــنْ أَنْفَـــاقِهِنَّ كَـــأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ سَحابٍ مُرَكَّبِ[٢]

أما في لفظة (ظَنَّ) فإنَّ الشيخ قد أورد عدَّة أقوال في دلالة ظن، منها في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] إذ قال: «أي: كنت أظنُّ أنَّ الله سيحاسبني ويؤاخذني بهَفَواتي، ولكن تَفَضَّلَ عليّ بالعفو عنها»[٣]، ويفهم من كلام الشيخ هنا أنَّ الظنَّ هنا ليس بمعنى اليقين الجازم، لما يحمل قلب المؤمن من الرجاء بعفو الله وكرمه، فهو لا يشكُّ بالحساب وإنما يتوقَّع أن لا يحاسب حساباً عسيراً.

وشبيه هذا الرأي أورده الرازي[٤] إذ عدَّ اليقيـن هنا شبيهاً بالظنّ لأنه يقين استدلالي.

ونسب الشيخ رأياً للرازي وهو: «أنه إذا أريد المبالغة في الكثير يقرن الكلام بكلام يدل على التقليل، وإذا أريد المبالغة في اليقين يقرن الكلام بلفظ يدلُّ على الشكِّ»[٥] وهذا الرأي لم أعثر عليه في «مفاتيح الغيب».

ويذكر الشيخ رشيد أنَّ كثيراً من المفسِّرين قالوا «بأن ظننت بمعنى علمت، إذ الظن قد يأتي بمعنى أقوى الاعتقاد، أي: علمت أني مُلاقٍ حِسَابيَه فعملتُ ونَجَوْتُ»[٦]

---

(١) «الأضداد في كلام العرب» لأبي الطيب اللغوي (١: ٢٣٨)، تحقيق: عزة حسن، دمشق ١٩٦٣.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٧٧. وفيه: «من عشي مجلّب»، بدل: «من سحاب مركّب».

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٤٨٤).

(٤) مفاتيح الغيب» (٣٠: ١١).

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ٢٧)، (٢: ٣٦٦)، (٧: ٤٨٤).

(٦) «أولى ما قيل» (٧: ٤٨٤).

فهو إذن لا ينكر التّضادّ في هذه المفردة. وقد ذهب العديد من قدماء اللغويين والمفسِّرين إلى أن (ظن) من الأضـداد، ومنهم الأصمعي[١] الذي قال: «الظن: اليقين، والظن: الشك». وأبو حاتم السجستاني[٢] (ت٢٥٥هـ) الذي بيَّن أنَّ الظن في القرآن شك ويقين واحتج لكلٍّ معنى منهما بعدد من الآي، وكابن السِّكِّيت[٣] (ت٢٤٤هـ) الذي جعل من اليقين قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، وكأبي الطيب اللغوي الحلبي (ت٣٥١هـ) واستشهد لها بالشعر العربي القديم[٤].

ويَعُدُّ الشيخ رشيد[٥] ﴿عَسْعَسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] من الأضداد، فهو عنده يعني: أقبل بظلامه أو أدبر، وهذا عين ما قال به قُدامى الذين صنَّفوا في الأضداد، كأبي عبيدة (ت٢١٠هـ)[٦] وحكاه عن ابن عباس رضي الله عنه[٧] وقد عدَّه أبو الطيب اللغوي من الأضداد[٨].

ج ـ **الترادف**: وهو في المصطلح اللغوي دلالة عدة كلمات مختلفة ومنفردة على

---

(١) ثلاثة كتب في الأضداد ص٣٤.

(٢) المصدر نفسه ص٧٦-٧٧.

(٣) المصدر نفسه ص١٨٨-١٨٩.

وابن السكِّيت هو: أبو يوسف، يعقوب بن إسحاق، إمام في اللغة والأدب، له: «إصلاح المنطق»، و«النوادر». «الأعلام» للزركلي (٨: ١٩٥). (مجد).

(٤) «الأضداد في كلام العرب» (١: ٤٧٠). وينظر ما حقَّقه شيخُنا العلامة الميداني في دلالة كلمة (الظن) في القرآن الكريم في كتابه النافع «قواعد التدبر الأمثل في كتاب الله». (مجد).

(٥) «أولى ما قيل» (٨: ١٥١).

(٦) «مجاز القرآن» (٢: ٢٨٧).

(٧) ثلاثة كتب في الأضداد ص٩٧.

(٨) «الأضداد في كلام العرب» (٢: ٤٨٨).

المسمَّى الواحد أو المعنى الواحد دلالة واحدة[١]. والأصل في الألفاظ المترادفة أن تكون ذات دلالة واحدة لا فارق بينها البتة، غير أنَّ من قدامى اللغويـين من يسمِّي ما بينه فروق دلالية مترادفاً على نحو ما ذهب إليه الراغب[٢].

ولا يفوت الشيخ أن ينبِّه على الترادف في اللغة والاختلاف فيه لدى القدامى، ففي قوله تعالى: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ [الأنفال: ٤١] يقول: «والمساكين المراد بهم الفقراء. فقد ذهب أخصّ العلماء إلى أن المسكين والفقير قسمان لصنف واحد، أو هما صفتان مترادفتان على موصوف واحد بالذات، وإن اختلف الاعتبار. وأرباب الرأي الأول يقولون: الفقير من لا يحصل على ما يقع موقعاً من كفايته، والمسكين من يحصل على مثل ذلك، ولكنه لا يكفيه ويكفي عياله، وقيل بالعكس»[٣].

فعرض الشيخ رأيين في هاتين المفردتين، الأول: أنهما مترادفتان مع تباين الاعتبار، والثاني: وجود فرق بينهما في المعنى.

والنص القرآني يدلُّ على وجود فارق بينهما، إذ وردا في آية الصدقات (الزكاة) في سياق واحد معطوفاً فيها المساكين على الفقراء ومعلوم في اللغة أنَّ الشيء لا يعطف على نفسه.

والخلاف في الترادف لدى القدامى معروف في مثل الصارم والمهند والهندواني للسيف، هل هي صفات أم مترادفات، أما مثل المدية والسكين، والحنطة والبر والقمح

---

(١) «الترادف في اللغة» لحاكم مالك لعيبي ص٣٢، دار الثقافة والإعلام ١٩٨٠، سلسلة دراسات (٢٢١).

(٢) «المفردات في غريب القرآن»، «المقدمة» ص٦.

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٣١).

فلا خلاف فيها لأنها أسماء ذات وليس صفات[١]، ويَرى بعض الباحثين أنه لا يثبت في المترادفات إلا ما يعود إلى تعدّد اللهجات أو إلى ما نسي أصل وضعه بحكم التطور الدلالي في اللغة[٢].

ومهما يكن من أمر فإنَّ أكثر العلماء يذهبون إلى التفريق بين دلالتي المسكين والفقير، فقد قال الأزهري: «الفقير: الذي لا يسأل، والمسكين: الذي يسأل[٣]، ومثله عن ابن عباس، والحسن وجابر ومجاهد، وهو قول أبي حنيفة... ويجوز أن يقال: المسكين: هو الذي يرقّ له الإنسان إذا تأمَّل حاله، وكل من يرقّ له الإنسان يسميه مسكيناً»[٤] ولا يمنع من ذلك ما ذهب إليه أبو عمرو بن العلاء (ت١٧٠هـ) من أن المساكين: الأذلاء المقهورون، ولو كانوا أغنياء[٥] بناءً على ما تُوحيه كلمة المساكين في قصَّة موسى والخضر، وذلك لأنّ مَظَانَّ الفقر في المسكين كبيرة.

وينقل الشيخ عن الراغب[٦] التفرقة الدلالية بين ثلاثة ألفاظ: الأنفال والفيء والغنيمة «بأن تـنوُّع العبارة لاختلاف الاعتبار، فلكونه مظفوراً به يقال له: غنيمة، ولكونه منحة من الله يقال له: نفل أو فيء، فاختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات»[٧].

---

(١) «فقه اللغة العربية» لكاصد الزيدي ص١٧١.

(٢) «الترادف في اللغة» لحاكم لعيبي ص٣٠٦.

(٣) وهذا الذي رجحه شيخنا الميداني في دراسته لدلالة الكلمتين: الفقير والمسكين في كتاب «قواعد التدبر الأمثل». (مجد).

(٤) أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ): «الفروق في اللغة» ص١٧٠-١٧١، دار الآفاق الجديد، بيروت، ط٣، ١٩٧٩. وينظر: الثعالبي: «فقه اللغة» ص٥٢-٥٣.

(٥) «اللسان» (٣: ٤٨٥-٤٨٦).

(٦) «المفردات» ص٥٠٢.

(٧) «أولى ما قيل» (٤: ٨).

وكذا الحال في الفرق بين لفظتي الظل والفيء عند قوله تعالى: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧] إذ نقل الشيخ عن الراغب أيضاً أنَّ «الظلَّ أعمُّ من الفيء، وأنه يقال لكلِّ موضع لم تصله الشمس: ظل، ولا يقال: فيء إلا لما زال عنه الشمس»(١). وهذا يؤكِّد مذهب أبي هلال العسكري، إذ يذهب إلى وجود الفروق بين المفردات التي يُسمِّيها اللغويون بالمترادفات.

د ـ **العرف اللغوي**: وللعرف اللغوي دورٌ في دلالة الألفاظ، فقد تتطوَّر المفردة ويغيِّر العرفُ اللغويُّ مدلولَها فيخصِّصه بعد أن كان عامّاً، كما في كلمة (مصيبة) التي ذكر الشيخ «أنه في أصل اللغة ما يصيب الإنسان، ثم خصَّه العرف بالشر»(٢).

وتركيب ﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الذي مثَّل به القرآن شجرة الزقوم في قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]، هو لدى الشيخ من العرف اللغوي، ولذلك قال: «وهذا التعبير من عُرف اللغة، وهو تمثيلٌ للبشاعة والقبح والهول، على طريقة التخييل، لأنَّ قبح صورة الشياطين أمر مُتخيَّل في النفوس وإن لم يُر، وعلى هذه الطريقة قول امرئ القيس:

ومسنونة زرق كأنياب أغوال»(٣)

وقد نبه قديماً إلى هذه المسألة أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى، فذكر أنَّ كاتباً للفضل ابن الربيع سأله عن قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ فقال: «إنما يقع الوعد والوعيد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف. فقال له أبو عبيدة: إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٧٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٧: ٣٠٣)، حاشيته.

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ٢٠٢).

أَيَقْتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ مُضاجِعِي وَمَسْنونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيابِ أَغْوالِ[١]

وهم لم يروا الغول قط، ولكنَّهم لما كان أمر الغول يَهُولهم أوْعَدوا به فاستحسن فضل ذلك واستحسنه السائل» فكان ذلك ـ كما يذكر أبو عبيدة ـ داعياً لوضع كتابه «مجاز القرآن» لمثل هذا وأشباهه[٢].

٤) أصل الاشتقاق:

الاشتقاق أحد الوسائل المهمَّة في نُموِّ اللغات واتِّساعها[٣]، وهو توليد بعض الألفاظ من بعض، والرجوع بها إلى أصل واحد يحدِّد مادتها، ويُوحي بمعناها المشترك الأصيل[٤]. والاشتقاق أنواع أوصلها بعضُهم[٥] إلى أربعة واختلفوا في تسمياتها.

والذي يعنينا هنا من الاشتقاق هو الأصل اللغوي، وهو المتعلق بالرجوع إلى الأصل اللغوي عند النظر في الاشتقاق، فقد كان الشيخ رشيد يعمد أحياناً إلى العودة إلى الجذر الاشتقاقي للمفردة ليوضِّح معناها.

ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧] يقول: «أي: فعلت أمراً منكراً يَفْري جلد الوجه أو من الافتراء»[٦]. فهو هنا يحتمل

---

(١) وهو في «ديوانه» ص١٣٧.

(٢) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢: ١٥٦). وينظر: «مجاز القرآن»، «مقدمة»: ١٦، ط الأولى ١٩٥٤، الخانجي.

(٣) «فصول في فقه العربية» لرمضان عبد التواب ص٢٥٧، مكتبة دار التراث، ط١، ١٩٧٣، القاهرة.

(٤) «دراسات في فقه اللغة» لصبحي الصالح ص١٧٤، دار العلم للملايين، ط٧، ١٩٧٨.

(٥) المصدر نفسه ص١٧٣، ٢٧٤.

(٦) «أولى ما قيل» (٥: ٧٤).

للفري أَصْلَين أحدهما: الشق والقطع، والآخر: الكذب والاختلاق[١]. فعلى الأولى يكون المعنى عنده: يفري الجلد أي جلد الوجه، وعلى الثاني: من الافتراء.

وفي تحليل لعدد من المفردات القرآنية نجد الشيخ يورد أحياناً أكثر من معنى يحتمله النص القرآني. (فالكلالة) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ [النساء: ١٢] يذكر أولاً: أنها يُراد بها من ليس له ولد، وإن نزل ولا والد وإن علا، لأنَّ الكلالة لغة: الإحاطة، ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس، وإنما سُمِّي مَنْ عدا الوالد والولد بالكلالة لأنهم كالدائرة المحيطة بالإنسان.

وأما قرابة الولادة فكالشجرة أصول وفروع، ثم يجيز كذلك «أن تكون الكلالة بمعنى الضعف والإعياء، لأنه متحقق فيمن لا أصول له ولا فروع»[٢].

والمعنيان تجيزهما اللغة، قال ابن الأعرابي: «(الكلالة) بنو العم الأباعد. ويقال: هو مصدر من (تكلله) النسب أي: تطرَّفه كأنه أخذ طرفيه من جهة الوالد والولد، فليس له منهما أحد فسمِّي بالمصدر»[٣].

وقد أورد الزمخشري هذا المعنى[٤]، ونسبهُ القرطبيُّ إلى عدد من الصحابة واللغويين[٥] ونسبه أبو الليث السمرقندي (ت٣٧٥هـ) إلى أبي عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى[٦].

---

(١) «لسان العرب». مادة (فري).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٢٥).

(٣) «الصحاح» للجوهري. (كلل)، دار الكتاب، أحمد عبد الغفور عطار.

(٤) «الكشاف» (١: ٤٨٠).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (٥: ٥١).

(٦) تفسير «بحر العلوم» (١: ١١٩).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] يذكر الشيخ أنَّ الصَّلصال: الطين اليابس الذي يُسمع له عند النقر صلصلةٌ، ثم يجيز «أن يكون بمعنى الخالص المصفَّى من (صلّ الشراب): إذا صفّاه» وختم ذلك بعبارة «والله أعلم»[١]. فأفاد هنا من الأصل اللغوي للكلمة في تحديد معنى لها يتناسب مع السياق. والمعنى الثاني: صلّ الشراب: إذا صفاه، أشار إليه صاحب «اللسان»، وبيّن أنه ضعيف، والأشهر منه: أنتن[٢].

٥) لَـمْحُ دقة القرآن في اختيار اللفظة:

وللشيخ في تفسيره لفتات ذكيَّة في سرِّ اختيار اللفظة من الناحية اللغوية، فهو يرى في كلمة (قصم) من قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١] «إشارة إلى تجبُّر هؤلاء القوم وعنادهم، لأن القصم أفظع أنواع الكسر للمتجبِّر»[٣] يقول ابن سيده (ت٤٥٨هـ) القصم: الكسر[٤].

ويرى الشيخ أنَّ اختيار التعبير بالوالدات والمولود له دون الآباء والأمهات فيه إشعار بعلَّة الحكم وبما تقتضيه الولادة من الاستحقاق والاستعطاف في قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣][٥] وهو ملحظ دقيق.

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٤٢٥).

(٢) «لسان العرب» (صل).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ١٥٩).

(٤) «المخصص» (١٣: ٤١٠). وينظر: «لسان العرب» (قصم).

(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٣٣٨).

وفي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، يذكر أنَّ السِّجِّين مشتقّ من السجن.. ثم يقول: «ومعنى سجّين يدل على الشدّة والكره... فمدلول الآية أن أعمال الفجار تكتب في سجل مكروه، كما يقال في السجل الأسود، يكني بذلك عن شدَّة ما يصيبهم من العذاب جزاءَ أعمالهم المحصية عليهم في هذا السجل، فنقل وصف العذاب للسجل المسجَّل فيه»[١]. فأظهر الشيخ هنا دقة اختيار هذه اللفظة في هذا النص دون غيرها من الألفاظ. وقد عَدَّها الراغب[٢] من المبهمات. وقال: «زيد لفظهُ تنبيهاً على زيادة معناه» ومراده من ذلك، أن (فعيل) فيه زيادة لفظية على (سجن)، وأنه مشعر بزيادة المعنى.

٦) أصول اللغة:

إن أصول اللغة هي عينها أصول النحو، وكلاهما مستمدّ ومستفيد من أصول الفقه، ولذلك عَرَّفَ أبو البركات ابن الأنباري[٣] أصول النحو بأنها «أدلة النحو التي تفرَّعت منها فروعه وفصوله، كما أنَّ أصول الفقه: أدلة الفقه التي تنوَّعت عنها جملته وتفصيله».

أ ـ **السماع**: عرفه ابن الأنباري بأنه «الكلام العربي الفصيح المنقول بالنقل الصحيح الخارج عن حدِّ القِلَّة إلى حد الكثرة»[٤] وعرَّفه السيوطي[٥] بأنه «ما ثبت في كلام من

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٦٨).

(٢) «المفردات» ص٢٢٥.

(٣) «لمع الأدلة في أصول النحو» مطبوع مع «الإغراب في جدل الأعراب» ص٨٠، تحقيق: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٦١م.

(٤) المصدر نفسه ص٨١.

(٥) «الاقتراح في علم أصول النحو»، تحقيق: أحمد محمد قاسم، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، =

يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن وكلام نبيه ﷺ وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولَّدين نظماً ونثراً عن مسلم أو كافر.

أشار الشيخ في تأمُّله في النصوص اللغوية إلى هذه الأصول، ثم أفاد منها في تفسير الآي، فهو يذكر أحياناً عبارة: «ونطقت به العرب»، في توضيحه لعدد من المفردات أو الأساليب اللغوية في القرآن. على نحو ما أورده في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]، فقد قال: «أي: المتخاصمين، إذ هو يطلق على الواحد والجمع والمراد به: الجمع. ولذلك قال: (إذ تسوروا المحراب)... وقيل: هما اثنان فقط، وإطلاق الجمع عليهما من إطلاق صيغ الجمع على الاثنين فما فوق، وذلك من خصائص اللغة وقد نطقت به العرب»(١). فهو هنا يحتج لتعبير قرآني بما نطقت به العرب، وقد استشهد سيبويه بهذه الآية على ما جاء عن العرب بهذا الاستعمال. فقال(٢): «سألت الخليل رحمه الله عن: (ما أحسن وجوههما)، فقال: لأنّ الاثنين جميع، وهذا بمنزلة قول الاثنين: نحن فعلنا ذاك... وقال الله جلَّ ثناؤه: (وهل أتاك نبأ الخصم.. الآية)، وذكر ذلك أبو عبيدة(٣) أيضاً.

ب ـ **القياس**: ويعرف بأنه: «حمل فرع على أصل بعلَّة، وإجراء حكم الأصل على

= مصر ١٩٧٦م. وينظر: «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» للسيوطي (١: ١٤٤)، عيسى البابي الحلبي.

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٢٣٧). وينظر: (٦: ٧٧)، وقوله: جرياً على العرف اللغوي عند العرب فإنها تقول: كذا.

(٢) «الكتاب» (٢: ٤٨)، وينظر: (٣: ٦٢١)، باب ما لفظ به مما هو مثنى كما لفظ بالجمع.

(٣) «مجاز القرآن» (٢: ١٨٠).

الفرع[١]، أو انتحاء كلام العرب[٢]. والقياس في أصل اللغة عبارة عن التقدير[٣]، ثم استعمل اصطلاحاً في الفقه واللغة والنحو بدلالة أخرى.

يطبق الشيخ نوعاً من القياس اللغوي لتوضيح المعنى، وهو قياس مفردة غريبة غير مشهورة، على مفردة معروفة في زنتها وصيغتها ودلالتها، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف: ١٥٤] إذ يقول «والنُّسْخَةُ من النَّسَخِ كالخُطْبَة من الخُطَب»[٤].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] يقول: «والقيعة جمع قاع كجيرةٍ جمعُ جارٍ»[٥]. وقد وَرَدَ لدى الراغب[٦] «القِيْعُ والقَاعُ: المستوي من الأرض جمعه قيعان وتصغيره قويع». وذكر الزمخشري أنَّ القيعة ﴿كَسَرَابٍ﴾، وإنه يقال بقيعة وبقاع[٧]، وقال ابن منظور[٨]: «..والجمع أقواع وقيعان وقيعة ولا نظير له إلا جار وجيرة.. وقال الفَرَّاءُ: القيعة جمع قاع»[٩].

---

(١) «لمع الأدلة» ص٩٣. وينظر: «أصول النحو العربي» لمحمد خير الحلواني ص٩١، مطبعة الشرق، حلب ١٩٧٩.

(٢) «الأصول» لتمام حسان ص١٦٤.

(٣) «التعريفات» للسيد الشريف ص١٠٢.

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٤٧٩).

(٥) «أولى ما قيل» (٥: ٣٣٠).

(٦) «المفردات» ص٤١٥.

(٧) ينظر: «الكشاف» (٣: ٢٤٣).

(٨) في «لسان العرب» (قوع).

(٩) «معاني القرآن» (٢: ٢٥٤). (مجد).

ج - **استصحاب الحال**: وهو «إبقاء حال اللفظ على ما يستحقُّه في الأصل عند عدم وجود دليل النقل عن الأصل»[١]. يعده قسم كبير من النحاة من الأدلة الضعيفة[٢]، أما الأصوليون فكثير منهم يعدّه حجّةً ومنهم الرازي[٣].

وقد عَمَـدَ الشيخ إليه في مواضع، فمن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]، إذ فسَّره على الأصل بعد أن عَـرَض الوجه الأول المشهور. وهو: التهكُّم فقال بعد ذلك: «وقيل: على الحقيقة لأنَّ التبشير هو الإخبار بما تتأثر منه بشرة الوجه حزناً وفرحاً»[٤]، فرجع في هذا إلى أصل الكلام وحقيقة التعبير، مستصحباً إياه في فهم دلالة هذا التعبير.

وفي قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ...﴾ [البقرة: ٧] يقول: «وأفرد السمع دون القلوب والأبصار، قيل: لأنه في الأصل مصدر والمصادر لا تجمع فَرُوعِيَ فيه الأصل...»[٥].

❊ ❊ ❊

---

(١) «الإغراب في جدل الأعراب» لابن الأنباري ص٤٦.

(٢) «لمع الأدلة» ص١٤٢. وينظر: «أصول النحو العربي» للحلواني ص١٢٧.

(٣) «الرازي النحوي من خلال تفسيره» لطلال يحيى إبراهيم ص١٤١.

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ١٠).

(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٣٠).

المبحث الثاني
النَّحو

أبدى الشيخ رشيد في تفسيره عنايةً واضحة بالمسائل النحويَّة وإعراب الآيات، تقريباً للمعنى وتوضيحاً له، إلا أن هذه العناية لم تبلغ مستوى عناية التفاسير القديمة التي أكثرت عموماً من النحو ومسائلِه المختلفة بحيث لم يَفُتْها إلا القليل من إعراب الآي، وتوسط الشيخ في هذا المجال ملائماً لمنهج المفسرين المحدَثين، إذ لم تَعُدْ ثمَّة حاجة إلى هذا التفصيل النحوي والإعرابي بعد أن تكفلت التفاسير القديمة به، وإنما انصبَّ الجهد عموماً في زمانـنا هذا على المعنى والالتـفاتات الدلالية والبلاغية، أو القضايا الاجتماعية والعملية.

كان الشـيخ يلجأ إلى الإعراب في مواضع، وكان يعرض من خلال الإعراب لـمسائل نحوية طفيفة، من غير إيغال في ذلك أو استقصاء فيه، جرياً مع منهجه في الإيجاز. ويلحظ بأنه نقل إعراباً وآراء نحوية عن كبار النَّحويين والمفسِّرين كالفراء[١]، والزجاج[٢]، وأبي البركات الأنباري[٣]، والزمخشري[٤]، والرازي[٥]، وأبي السعود[٦]. وقد مرّ علينا ذلك كلُّه في فصل المصادر فلا وجه لإعادته هنا.

---

(١) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٤: ٢٢٤).
(٢) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٣: ١٥٧).
(٣) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٤: ٣٥٧).
(٤) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٢: ٢٧٣).
(٥) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٢: ٣٥٠)، (٥: ١٣٥).
(٦) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٤: ٤٣٩)، (٥: ٣٣٠).

١) إعراب الآي:

وبِقَصدِ زيادة الكشف عن معاني الآي، أعرب الشيخ كثيراً من الآيات القرآنية، مُبيِّناً الوجوه النحوية، مع ربطها بالمعنى ربطاً حسناً، ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [النور: ٣٦]، يقلب الوجوه المعنوية باحثاً عمّا يمكن أن يعلق به ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾، فذكر أن «الجار والمجرور ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ متعلق بفعل محذوف، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]»، وعلّـل ذلك الوجه بـ«أن الهداية تفضي إلى العبادة، أي: يعبد هؤلاء المهتدون في بيوت». ثم أجاز «أن يكون متعلقاً بيسبح، وإنما قدم للاهتمام به..»[(١)]. وقد أورد الوجه الثاني أبو البركات بن الأنباري مع وجه آخر جعل فيه ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ صفة (مشكاة) وتقديره: في مشكاة كائنة في بيوت[(٢)].

وأورد الشيخ في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤] عدداً من الاحتمالات في إعراب ﴿أَمَنَةً ﴾ وهي أنها: «يجوز أن تكون مصدراً مفعولاً به، و﴿نُّعَاسًا﴾ بدلاً منه، أو أحدهما مفعولاً والآخر حالاً[(٣)] من المخاطبين مؤولاً بالمشتق، ويجوز أن يكون ﴿أَمَنَةً ﴾ جمعاً كَبَـرَرَة، فلا يحتاج إلى تأويل»[(٤)]. وهناك وجه آخر في إعرابها ذكره ابن الأنباري[(٥)] وهو أن تكون ﴿أَمَنَةً ﴾

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٣٢٨).

(٢) «البيان في غريب إعراب القرآن» (٢: ١٩٩).

(٣) ينظر: «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (١: ٣٠٢).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٥٦٠)، حاشية.

(٥) «البيان في إعراب غريب القرآن» (١: ٢٢٦). وينظر: «مشكل إعراب القرآن» ص١٧٧.

مفعولاً له. ووجه الحال تسوّغه القاعدة «نعت النكرة إذا تقدم عليها صار حالاً»(١).
وهناك أمثلة كثيرة(٢) غير هذه.

وفي كثير من الآيات التي تعدَّدت فيها وجوه الإعراب، واشتدَّ الخلاف في تلك الوجوه، يختار من هذه الاحتمالات دون القطع بواحدةٍ منها، ودون التوسُّع في أمر الخلاف في إعرابها. كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤]، إذ بيَّن أنه سبحانه «علل التَّزيين وفسَّره بقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وأنه «يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ بدلاً من ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ مفعولاً ليهتدون على التوسع أو التضمين، وزيدت (لا) لتقرير النفي»(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ [المائدة: ١٠٧] يقول: «أي: جنى عليهم أو حكم عليهم. وهذا إذا قرئ الفعل بصيغة المجهول، أما إذا قرئ الفعل بصيغة المعلوم، فيكون معناه من الذين وقع عليهم الحق. على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] أي: وقع التقطُّع بينكم بعد أن وصف (الآخران) بكونهما من الذين وقع الحق عليهم، فتعرفا أو تخصصا بالموصول، أبدلهما أو وصفهما بقوله: ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾»(٤). وهذه الآية وصفها الزجاج(٥) بأنها من أصعب ما في القرآن في الإعراب، وذكر أن (أوليان) في قول أكثر البصريين يرتفعان

---

(١) «تفسير القرآن وإعرابه وبيانه» لمحمد علي طه الدرة (٢٠: ٢٤٦).

(٢) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٣: ١٨٢)، (٣: ٢٩٧)، (٧: ٤٨).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٤٤٤). وينظر: في إعرابها «الجامع لأحكام القرآن» (١٣: ١٢٤-١٢٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٢٧١).

(٥) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٢١٦).

على البدل مما في (يقومان)، والمعنى: «فلْيقم الأوليان من الذين استحقّت الوصية عليهم، أو استحق الإيصاء عليهم. وعرض وجوهاً أخرى، عدا النصب ووصف الوجه الأول بأنه أجود الوجوه. وعرض العكبري[١] (ت٦١٦هـ) لحالة الرفع خمسة وجوه.

وللسياق دورٌ مهم في توجيه الإعراب لدى الشيخ، فهو يرى مثلاً أنَّ قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا ...﴾ [يونس: ١٠٣] «معطوف على محذوف يفهم من السياق على نهج القرآن في مثله، والتقدير: فسنهلك المكذِّبين ثم ننجِّي رسلنا والذين آمنوا»[٢].

ويحتمل في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩] وجهين في (أم) فهي: «إما متصلة حذف معادلها اعتماداً على السياق... وإما منقطعة بمعنى بل للإضراب»[٣].

ومزج الشيخ الإعراب بالمعنى بطريقةٍ أكسب الإعرابَ كثيراً من الحياة وأعاده إلى أصله الذي وضع من أجله، وهو الارتباط التام الوثيق بالمعنى، وكأنه يُحيي بذلك (معاني النحو) التي انسلخت منه في العصور المتأخرة وصارت جزءاً من البلاغة، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [الأنعام: ٩٥]، يقول: في (يخرج الحي من الميت): «لما كانت هذه الجملة تفسيراً للأولى وبياناً لها، عطف على الأولى ولم يعطف عليها، فقال: ومخرج الميت من الحي، فهو معطوف على فالق، ولذلك عبر باسم الفاعل دون الفعل»[٤]. فاللُّحمة قويَّة بين الإعراب والمعنى. إذ لـما كانت الجملة الثانية تفسيراً للأولى[٥] أصبحتا جزءاً واحداً،

---

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (١: ٤٦٩-٤٧٠)، وينظر: «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ) ص٢٤٣، تحقيق: حاتم الضامن.

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٢٠٤).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ٢٧٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٣٤٥).

(٥) وأعربت خبراً ثانياً لإنَّ، أو جملة مستأنفة «تفسير القرآن وإعرابه» لطه محمد الدُّره (٤: ٢١٨).

فعطف الجملة الثالثة على الأولى بدليل مجيء اسم الفاعل (مخرج). فكان من قبيل عطف الوصف على الوصف، لما تقدَّم من (فالق) في الأولى و(مخرج) في الثالثة.

ونراه يجعل الإعراب والتفسير شيئاً واحداً في وقوفه عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨] إذ يقول: «حال كونه» ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١]. فتعبير: «حال كونه» إعراب وتفسير.

وقد أعربت[٢]: (ثَانِيَ): منصوبة على الحال من المُضْمر في (يُجادل).

٢) النحو والمعنى:

المعنى عند الشيخ هو الذي يُوجِّه الإعراب ويقرِّره لا العكس. وهذا هو المنهج العدل الذي ينبغي أن يعالج به النحو في القرآن، إذ لا ينبغي أن تحيف الصنعة الإعرابية على المعنى المراد، بل ينبغي أن يكون المعنى الأساسُ الذي يدور عليه الإعراب ووجوهه المتعددة، لا العكس.

يعرض الشيخ وجوهَ الإعراب تَبَعاً لاحتمالات المعنى القرآني. ففي تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ [طه: ٧٢] يذكر أن «قوله: (والذي فطرنا) يحتمل أن يكون معطوفاً على (ما)، أي: وعلى الذي فطرنا وخلقنا وهو الله سبحانه، أو أن يكون قسماً لتقرير الإيثار، أي: والذي فطرنا لن نُؤْثرك على ما جاءنا من البينات»[٣].

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٢١٩)، ومثله (٦: ٨٧).

(٢) «البيان في غريب إعراب القرآن» (٢: ١٧٠). و«مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب ص٤٨٧.

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ١٢٠).

ويعرب في ضوء المعنى الذي يطمئنُّ إليه اللام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، فيرى أنها «لام العاقبة وليست لام الغاية، إذ هم يحسبون أنهم يتقرَّبون بذلك إلى الله، ويرشدون الناس إليه»[١]. وإن كان كثير من الضَّالين يعرفون أنهم على ضلال، وما يمنعهم من الإيمان، إلا الكِبْرُ والمصالح، وهذا ما صرَّح به الشيخ في موضع آخر من تفسيره[٢].

وتتجلى هيمنة المعنى على الإعراب لدى الشيخ في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] فيقول: «أي: إني أتبرأ ممَّا كنتم تعتقدون في الدنيا من أني شريك لله»، ثم يعرب (ما) بما يقتضيه هذا المعنى على أنها (مصدرية)»، ويستدل على هذا المعنى بآية أُخرى فيقول: «وهذا مفاد قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، ثم يحتمل معنى آخر للآية فيقول: «أو المعنى بأني كفرت من قبل بالله الذي أشركتموني به»، ويجعل (ما) في ضوء هذا المعنى (موصولة). والمعنى الثاني الذي احتمله الشيخ يحتاج إلى تأمل، ولذا أوضحه بقوله: «ويكون المراد إني كفرت من قبلكم بالله حين خالفتُ أمره، وقد أشركتموني بمثل ذلك واتَّبعتموني»[٣].

واللام التي تدخل على اسم الإشارة ـ كما نعلم ـ للبعد[٤] ولذلك نرى الشيخ، يلحظ ذلك في النص القرآني، فبيّن المعنى في ضوء هذا التكييف النحوي، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١] إذ يقول: «والإشارة إلى الوصايا

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٤٠٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ١٩٦).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٣٩٨)، وينظر: (٣: ٢٩٧).

(٤) «همع الهوامع شرح جمع الجوامع» للسيوطي (١: ٧٤-٧٥)، دار المعرفة، بيروت.

الخمس المتقدمة، واللام فيها للدلالة على بُعْد مدى ما تدل عليه الوصايا المشار إليها من الحكم والأحكام والمصالح الدنيوية»(١). ومثل ذلك كثير في تفسيره(٢).

وحَفَلَ تفسير الشيخ بمصطلحات النحو المعروفة، إلا أن الجديد فيها هو أنه لا مانع لديه من إطلاقه تسميات جديدة عليها تحدد المعنى النحوي بصورة أدق كأن يسمي «بدل الخاص الممتاز»(٣)، ويريد به بدل البعض من كلّ.. وهذا ما سيرد مفصّلاً في الحديث عن المصطلح النحوي.

كما أشار في أكثر من موضع إلى خصائص القرآن في الحذف(٤)، وهو ما أكّده أحمد عبد الستار الجواري في كتابه «نحو القرآن»، إلا أنَّ الشيخ كان يقدِّر المحذوف على حين كان الجواري(٥) لا يرى داعياً للتقدير في مواضع كثيرة، لأنه فيما يرى يذهب بجمال الآية. على أنَّ هذا الخلاف شكلي، لأنَّ الذين يقدرون المحذوف، يُقِرّون بأنَّ الحذف أبلغ من التقدير، وإنما يحاولون التوضيح لمن خفيَ عليه الأمر ممن جهل أساليب العربية، وما وُضِع النحو إلا من أجلهم.

وهذا كلُّه يدل بوضوح على أنَّ النحو تابع للمعنى لدى الشيخ في النص القرآني.

٣) القواعد النحوية:

يذكر الشيخ رشيد شيئاً من القواعد النحوية أثناء إعرابه الآي، مثل «إضافة الموصوف إلى الصفة» التي ذكرها في تفسير قوله تعالى: ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٣٩١).

(٢) ينظر مثلاً: «أولى ما قيل» (٣: ٣٥٦)، (٤: ٤١١)، (٥: ٥٠٧).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ١٨١).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٦٥)، (٣: ٤٧٩)، (٤: ١٨٨).

(٥) ص٤٧.

وعللها بإفادة المبالغة في الاختصاص، فهي عنده مثل «مسجد الجامع» و«حق اليقين»[١]، والأصل أن لا يضاف الموصوف إلى الصفة، وما وَرَدَ موهماً ذلك «فمؤول بحذف المضاف إليه الموصوف بتلك الصفة كقولهم: «حبة الحمقاء»، وصلاة الأولى «والأصل حبة البقلة الحمقاء وصلاة الساعة الأولى»[٢].

ومن القواعد التي نبَّه عليها الشيخ: (حذف خبر كان واسمها) كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ [النساء: ١٧٠]، إذ بيَّن: «أن ﴿خَيۡرٗا﴾ خبر ليكن المحذوفة هي واسمها، والتقدير: يكن الإيمان خيراً لكم»[٣]، وذُكِرَ أنَّ حذف كان مع اسمها يكثر بعد (لو) و(أن)[٤]. وهي هنا محذوفة بدون هاتين الأداتين، وهي فيما يبدو حالة مُطَّردة ويقاس عليها.

وهذا يؤيد رأي الجواري[٥] من أن النحاة لم يَسْتَقْروا نصوص القرآن استقراء كاملاً في قواعدهم النحوية.

وهذا يدل أيضاً على أن الشيخ رشيد يعدُّ القرآن أصلاً في وضع القواعد النحوية، لا أن القواعد هي المتحكِّمة فيه.

وقد ذهب الخليل وسيبويه[٦] في قوله تعالى: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١٣٢).

(٢) «شرح ابن عقيل» (٣: ٤٩)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ١٦٤).

(٤) ينظر: «الكتاب» (١: ٢٥٨-٢٦٢)، (١: ٢٩٣)، (٣: ٧)، (٣: ١٤٩). و«شرح ابن عقيل» (١: ٢٩٤). و«ارتشاف الضرب» لأبي حيان الأندلسي (٣: ٩٦-٩٩).

(٥) «نحو القرآن» ص٣.

(٦) «الكتاب» (١: ٢٨٢). وينظر: «ارتشاف الضرب» (٢: ٢٧٩).

إلى أن (خيراً) منصوبة بفعل مضمر يدل عليه الأول، وذهب أبو عبيدة[(١)] والكسائي إلى أنَّ هذه منصوبة على إضمار يكن، كما نسب ذلك إليهما أبو حيّان الأندلسي[(٢)].

وممَّا أشار إليه من القواعد النَّحوية، قاعدة مسوِّغات وصف النكرة[(٣)].

وقد يعرض رأياً جديداً كأنه يقرِّر قاعدة معروفة في رأي، لم يسبق إليه في ما يبدو للباحث، ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦] يقول: «إذا توسطت (أن) بين (لـمّا) والفعل دلت على أنَّ الفعل فيه تراخ[(٤)]، وهذا ما لم يشر إليه النحاة، وإنما أشاروا إلى كونها زائدة، أو صلة. فأكثرهم يشير إلى زيادتها وأنها للتأكيد، ومنهم سيبويه[(٥)]، والرماني[(٦)] (ت٣٨٤هـ).

وذكر المرادي (ت٧٤٩هـ)[(٧)] أنّ (أنْ) الزائدة «تَطَّرِدُ زيادتها بعد (لمّا)، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾... ولا تعمل (أن) الزائدة شيئاً وفائدة زيادتها التوكيد». على حين سمَّاها الزمخشري تسمية أخرى، وذكر لها وظيفة معنويّة غير ما ذكره عامة النحاة، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٣] إذ قال: «أنْ: صلة أكدت وجود الفعلين مترتِّباً أحدُهما على

(١) لم أجده في «المجاز» (١: ١٤٤).

(٢) «ارتشاف الضرب» (٢: ٢٧٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢٧٢).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٣٣٧).

(٥) «الكتاب» (٤: ٢٢٢).

(٦) «معاني الحروف» ص٧٣، تحقيق: عبد الفتاح الشلبي، دار الشروق، الطبعة الثانية ١٩٨٤.

(٧) «الجنى الداني» ص٢٣٩، تحقيق: طه محسن، بغداد ١٩٧٩. وينظر: «دراسة في حروف المعاني» لعباس محمد السامرائي ص٢١-٢٢، بغداد، الطبعة الأولى ١٩٨٧.

الآخر، في وقتين لا فاصل بينهما، كأنما وجدا في جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: كما أحس مجيئهم فاجأته المساءة من غير رَيْث خيفة عليهم من قومه»[١].

ويقول مصطفى صادق الرافعي[٢]: «المراد بها: تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه، لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب بمقدمه واستقراره غُنَّـةُ هذه النـون في الكلمة الفاصلة، وهي ﴿أَن﴾ من قوله: ﴿أَن جَآءَ﴾ . فلاحظ لها وظيفتين: إحداهما التراخي الذي أشار إليه الشيخ رشيد، والآخر، التطريب بالغُنَّة التي في النون. وتأثُّر الشيخ به غير مستبعد، بل هو ظاهر.

٤) التعليل:

يعمد الشيخ رشيد أحياناً إلى التعليل في الإعراب. وليس التعليل عنده من العلل النحويَّة المعروفة، أي: الأوائل والثواني والثوالث، أو التعليميَّة والقياسيَّة، والجدليَّة[٣]، التي تتعلق بتفسير الظاهرة النحويَّة، والنفوذ إلى ما وراءها وشرح الأسباب التي جعلتها على ما هي عليه[٤].

ويمكننا القول إنه كان مقتصراً على العلل الأوائل، وهذا ما لا بُدَّ فيه لكل معرب، وهو ما دعا إليه ابن مضاء القرطبي من وجوب إسقاط العلل الثواني والثوالث[٥].

---

(١) «الكشاف» (٣: ٤٥٣).

(٢) «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» ص٢٣١، دار الكتاب العربي، ط٢.

(٣) «الإيضاح في علل النحو» للزجاجي ص٦٤.

(٤) «أصول النحو العربي» للحلواني ص١٠٨.

(٥) «الرد على النحاة» ص١٥١، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار الفكر العربي، طبعة أولى، ١٩٤٧. =

إلا أنَّ الشيخ عُني بنوع آخر من التعليل هو ـ إن صحَّت التسمية ـ (التحليل الإعرابي)، و(التعليل المعنوي) الذي يبعث في النحو الحياة. وهذا ما دعا إليه الدكتور مهدي المخزومي في كتابه: «النحو العربي نقد وتوجيه»، إذ اقترح استبدال العلل المعنوية بالعلل الثواني والثوالث[1].

ومن أمثلة التعليل المعنوي لدى الشيخ ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢].

إذ علَّل إعراب جملة: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ﴾ حالاً بقوله: «وهذا أروع تهديد على كتمان الحق. وتسوية الأرض بهم عبارة عن مواراتهم بها خجلاً، فهي كناية عن خجلهم الفظيع من جراء ما كتموا من الحق الذي يعرفونه عن أمر النبي ﷺ وعن الوحي الذي جاء به. فتكون جملة: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ حالية».

ثم أورد وجهين آخرين في إعرابها: أحدهما: أن تكون معطوفة على جملة يود، والآخر: أن تكون مستأنفة، وعلل ذلك أيضاً تعليلاً معنوياً بقوله: «والمعنى لا يقدرون يومئذ على كتمان ما عملوه من سيئات»[2].

وحين يقف عند قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، يذكر: «أن جملة: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

= ينظر: «محاولات حديثة في تيسير النحو العربي» لقاسم عبد الرضا ص١٥٧، رسالة ماجستير، مخطوطة.

(١) ص٢٧-٧٢، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٦.

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٦١).

هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بدل اشتمال من ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم ﴾»، ويقدر الكلام: «أي: يستبشرون بهم من حيث لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، ثم أجاز «أن يكون المعنى: يسرُّون ويفرحون بحال الذين لم يلحقوا بهم من إخوانهم عندما علموا أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»(١).

وعندما أعرب كلمة ﴿مُفْسِدِينَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٥] حالاً مؤكدة، علَّل ذلك بأن العثو هو الفساد(٢). فعلل كونها حالاً مؤكدة، بتطابق معنى الحال وعاملها، مع اختلاف اللفظ. وهو نوع من أنواع الحال المؤكدة الذي نصَّ عليه النحاة(٣).

كما علل مجيء ﴿ ثُمَّ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر: ٤] إفادته خبراً جديداً جيء به بعد الخبر الأول(٤). وسبب ذلك - كما هو بيّنٌ - تكرُّر الجملة، فأراد أن يُبيِّن أن الأولى غير الثانية، إذ لكل منهما غرض.

٥) حروف المعاني:

الحرف كلمة تدل على معنى في غيرها(٥)، وسُمِّيت (حروف المعاني) بهذا الاسم، لما تحمله من معانٍ، والحروف ثلاثة: مختصّ بالاسم، ومختص بالفعل، ومشترك بين الاسم والفعل(٦)، والحرف عامل وغير عامل، فالعامل قسمان: قسم يعمل عملاً واحداً،

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٥٧٧).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٢٥٤).

(٣) «معاني النحو» للدكتور فاضل صالح السامرائي (٢: ٧٤٠).

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ٣٤٠).

(٥) «الجنى الداني» للمرادي ص٨٥.

(٦) المصدر نفسه ص٩٠.

وقسم يعمل عملين[١]. وجملة حروف المعاني: ثلاثة وسبعون وزاد بعضهم حروفاً مختلفاً فيها[٢]. وحين نبحث في تعامل الشيخ رشيد مع حروف المعاني يتبيَّن الآتي:

أ ـ عنايته بحروف المعاني وتحديد معانيها:

حظيت حروف المعاني بعناية الشيخ الفائقة، إذ عرض في تفسيره للمعاني المتعدِّدة لهذه الحروف، ولأثرها في توجيه المعنى. فاللام في قوله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٦]، «يجوز أن تكون للأمر، والكلام على التهديد، أو لام كي والكلام لزيادة التَّشنيع والتوبيخ، والباء للتعدية أو السببية»[٣].

«وكلمة (كلا) زجر تفيد في الأغلب أن ما بعدها مخالف لأثر ما قبلها»[٤].

و(ثم) في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦] إنما هي «لإفادة أن ذلك الصدوف مع تصريف الحجج على هذه الصورة، كان مستبعداً وغير متصوّر»[٥].

وكما يلفتنا إلى الفروق المعنويَّة في الحرف الواحد وأثرها في فهم المعنى، يلفتنا كذلك إلى الفروق المعنويَّة الدقيقة بين هذه الحروف.

ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [الحج: ٥٦-٥٧]

(١) «الجنى الداني» ص٩٢.

(٢) المصدر نفسه ص٩٣.

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٥٥٠).

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ٢٩٧).

(٥) «أولى ما قيل» (٣: ٣٠٨).

يذكر أن «تصدير خبر الموصول الثاني بالفاء للإيذان بأنَّ تعذيبهم بسبب أعمالهم كما أنَّ تجريد خبر الموصول الأول عنها للإيذان بأن إثابة المؤمنين المضاعفة، هي بطريقة التفضُّل من الله تعالى»[١]. واستنتاج الشيخ هنا قائم على ما يحمله كل حرف من المعاني. فالفاء الجوابية تلازمها السببيَّة[٢].

ب ـ التوسُّع في معاني حروف المعاني بما عليه النص القرآني:

جهد النحاة في بيان وتعداد المعاني التي تفيدها هذه الحروف على اختلاف سياقاتها في الكلام، فذكروا لكلِّ حرف عدداً من المعاني، إلا أنَّ الشيخ لم يكتف بتقسيماتهم، بل انبرى يُحدِّد لها معاني جديدة في ضوء مواقعها في الآيات وما عليه السياق والمعنى.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، بيّن أن: «.. (لو) هذه لاستقصاء الأحوال على وَجْه الإجمال، وتدخل على أبعد الأحوال لكون ما عداه داخلاً بالأولى»[٣].

و(لو) ـ كما يذكر (المرادي) ـ لها أربع حالات، إحداها: أن تكون بمعنى (أن)[٤]، ومنهم من أعربها (وصلية)[٥].

و(ثُمّ) لدى النحاة حرف عطف في الحكم، يفيد الترتيب بمُهلة[٦]. ولكنَّ الشيخ يرى له معاني أخرى في استعمالاته القرآنيّة، فهي في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٢٤٥).

(٢) «الجنى الداني» ص١٢٤.

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٣٢٢).

(٤) «الجنى الداني» ص٢٩٥.

(٥) «تفسير القرآن وإعرابه وبيانه» لمحمد طه الدُرّة (١: ٣٤٦).

(٦) «الجنى الداني» ص٤٠٦.

قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ ...﴾ [البقرة: ٧٤] يذكر أنها «تفيد أنَّ الأوَّلين منهم قد خشعت قلوبهم لـما رأوا من العذاب في زمن موسى عليه السلام ما رأوا، ثم خلف من بعدهم خلف كان أمر قسوتهم ما وصفه عز وجل.. وتجوز أن تكون كلمة (ثم) لاستفظاع تلك القسوة بعد مشاهدة الآيات»[١]. ومعنى الاستفظاع جديد في (ثم)، وهو ممَّا اسْتَشفَّه الشيخ ـ في ما يبدو ـ من استعمال اللفظة في سياقها القرآني.

وقد تـفيد (ثم) بيان عظمة المعطوف، أي إنّ ما بعدها عَمَـلٌ مهم عظيم بها، وتراخيه وتعاليه في الرتبة عما قبل، أي: إنها لمجرَّد عطف الخبر من دون ملاحظة الترتيب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢][٢].

وهي للتجديد في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٧][٣].

وعسى[٤]: في قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [النساء: ٨٤] للتنبيه والإعداد، فهي هنا بمعنى الخبر والوعد، وقد ذيَّل هذا الوعد بما يدلّ على إنجازه وتحقيقه فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾»[٥].

وأصل عسى: للرجاء[٦] والإشفاق[٧]. وهي تفيد الإطمـاع والإطمـاع من الله

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١١٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٣٤٨).

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٣٤١).

(٤) الجمهور على أنها فعل، وذهب بعضهم إلى أنها حرف منهم: ابن السراج وثعلب. «الجنى الداني» ص٤٣٤.

(٥) «أولى ما قيل» (٣: ٩٩).

(٦) «شرح ابن عقيل» (١: ١٢٣).

(٧) «الجنى الداني» ص٤٣٤.

واجب[١] أي إنها عندئذ تفيد الوجوب والتحقق. ونُقل ذلك عن الحسن البصري[٢]. إلا أن الشيخ يرى فيها معنى آخر، هو تنبيه المؤمنين للإعداد. أو كما يقول سيد قطب[٣] ليكونوا ستاراً لقدرته في كفٍّ بأس الكفار عن المسلمين.

وفي قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨] يذكر أن (عسى) تفيد الرجاء والطمع بوقوع الفعل[٤]، ولم يقل بالوجوب الذي نبَّه عليه قدامى المفسِّرين، كالقرطبي[٥].

على حين نرى الزمخشري[٦] يرى فيها حسماً لأطماع المشركين من الانتفاع بأعمالهم. بأنَّ الذين آمنوا أمْرُهم دائرٌ بين عسى ولعل، فما بالهم هم! وفيه لطف للمؤمنين في ترجيح الخشية على الرجاء، وعدم الاغترار. وأيَّد هذا الكلام ابن المُنيِّر الإسكندري[٧].

ج ـ أصالة الحروف وتناوبها:

بذل الشيخ جهداً لتأكيد أصالة الحروف في كثير من مواضع التفسير، فمن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، إذ قال: «وآثر كلمة (في) للدلالة على إبقائهم عليها زمناً مديداً تشبيهاً لاستقرارهم عليها استقرار المظروف في الظرف»[٨]. فلم يحملها على (على)، كما ذهب أكثر النحاة.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٥: ١٨٩).
(٢) «تفسير الطبرسي» (٥: ١٧٦).
(٣) «في ظلال القرآن» (٢: ٤٧٠).
(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٦٩).
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (٨: ٥٨).
(٦) «الكشاف» (٢: ٢٥٥).
(٧) «الانتصاف على حاشية الكشاف» (٢: ٢٥٥).
(٨) «أولى ما قيل» (٥: ١١٩).

وأفاد من التضمين وتوسَّع فيه ليَخْلُص إلى أصالة الحروف. والتضمين ـ أو كما يُسمِّيه العز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ): مجاز التضمين ـ هو: أن تضمِّن اسماً معنى اسم لإفادة معنى الاسمين، فتعديه تعديته أيضاً[١].

وللتضمين علاقة كبيرة في الخلاف بين البصريين والكوفيين في نيابة حرف مكان حرف.

والبصريون لا يجيزون ذلك، ويقولون بالتناوب بين الأفعال، والفعل عندهم، إما مـؤول تأويلاً يقبله اللفظ[٢]، وإما على تضميـن الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف[٣].

على حين يذهب الكوفيون إلى جواز نيابة حرف مكان حرف[٤].

وممَّا أفاده الشيخ من التضمين في تفسيره ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، إذ رأى أنه تعالى: «ضمَّن كلمة ظلموا معنى كفروا فعدَّاها بالباء، لتفيد المعنيـين معاً على نهج القرآن في مثله»[٥]. وهذا من تضمين الفعل، ومن تضمين الاسم ما أورده في قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، إذ قال: «ولتضمُّن كلمة (تماماً) معنى التفضيل عُدِّيت بعلى»[٦].

---

(١) الإشارة إلى «الإيجاز في بعض أنواع المجاز» ص٥٤-٥٥، دار الطباعة، العامرة ١٣١٢هـ.

(٢) «الإنصاف في مسائل الخلاف» لابن الأنباري (٢: ٤٧٨)، الطبعة الرابعة ١٩٦١.

(٣) «مغني اللبيب» لابن هشام (١: ١٠٨-١٠٩)، وينظر: «الجنى الداني» ص٨٥-٨٦.

(٤) «الإنصاف في مسائل الخلاف» (٢: ٤٧٨).

(٥) «أولى ما قيل» (٤: ٥٥٠).

(٦) «أولى ما قيل» (٣: ٣٩٥).

والتضمين ـ كما هو واضح ـ نوع من التأويل الذي يؤيِّد فكرة أصالة حروف المعاني، ولأهميته عند الشيخ أفرد له مكاناً في مقدمته، على أنه نوع من الإيجاز القرآني، وذلك بدمج المعاني في المفردات[١]. وقد أكثر من الإشارة إلى التضمين[٢] عند تفسيره الآي.

ومع ذلك فقد أجاز في مواضع نيابة حرف عن حرف كنيابة (في) مناب (على)، وتبيَّن ذلك ممَّا أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ﴾ [الأعراف: ٣٨]، إذ قال: «أي على أمم»[٣].

على حين حملها الزمخشري[٤] على أصالتـها حين ذكر أنَّ المعنى: «في غمـارهم مصاحبين لهم» وهو الأسلم، إذ عدم التقدير أسلم من التقدير، كما هو مقرَّر لدى النحاة بلا خلاف بينهم.

وللشيخ رسالة في معاني الحروف وقيام بعضها مقام بعض، وهي مخطوطة. وعلى ذلك يمكننا القول إنَّ الشيخ يقدِّم القول بأصالة حروف المعاني، فإن امتنع ذلك في رأيه فلا مانع لديه من التضمين الحرفي.

٦) الحروف الزائدة:

يكاد النحاة يجمعون على القول بزيادة عدد من الحروف، وأنكر زيادتها في القرآن

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥٢٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ١٥)، (٣: ٤٨٢)، (٣: ٤١١)، (٤: ١٩٠)، (٤: ٣٧٨)، (٧: ٦٧)، (٦: ١٧٣).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٤٢٦)، وينظر: (٣: ٢٩٨) حيث أجرى الواو مجرى الفاء، وينظر: (٢: ٥٥٣) حيث قامت (كأين) مقام (كم).

(٤) «الكشاف» (٢: ١٠٣).

الطبري، فهو يرى أنَّ كل لفظ في التنزيل أصيل في موضعه، فلا يصحُّ أن يَزعَمَ زاعمٌ أنه زائد ونقد على أبي عبيدة[١] (ت٢١٠هـ) قوله بزيادة عدد من الحروف والأدوات في القرآن[٢].

كما أنكرها مطلقاً من بعده ابن درستويه (ت٣٤٧هـ) الذي صنَّف كتاباً سماه: «الرد على من قال بالزوائد وأن يكون في الكلام حرف زائد»[٣]. والعنوان مُشْعِرٌ بأن الرجل كان لا يقف عند إنكار الزيادة القرآنية وحدها، بل يتجاوزها إلى الكلام أيضاً.

وقد تابع الشيخ رشيد جمهور النحاة في القول بالزيادة، وأكَّد ما تحمله هذه الزيادة من معنى. فالزيادة عنده نحويَّة إعرابيَّة وليست معنويَّة. والزيادة النحوية ممكنة ـ كما يقول أستاذنا الدكتور كاصد الزيدي[٤] ـ بأن يكون وجود اللفظ غير مؤثِّر في الإعراب ونحو الكلام، أما من ناحية المعنى فالأمر مختلف، إذ لا بدَّ أن يكون لوجوده أثر في المعنى كالتأكيد والتعظيم.

وقد رفض من المحدثين أحمد عبد الستار الجواري[٥] قول النحاة بزيادة عدد من الحروف والأدوات في القرآن، برغم قولهم بفائدتها في المعنى، داعياً إلى استقراء جديد لهذه الأساليب. كما تقدَّمت الإشارة إلى ذلك.

---

(١) ينظر مثلاً: «مجاز القرآن» (٢: ٢٥٧).

(٢) «الطبري المفسر الناقد» لكاصد الزيدي ص١٩-٢٠، بحث مقدم لندوة ذكرى الإمام الطبري المعقود في القاهرة ١٩٨٩.

(٣) «دراسة في حروف المعاني الزائدة» لعباس محيي السامرائي ص٢، ط١، بغداد ١٩٨٧.

(٤) «الطبري المفسر الناقد» ص٢٠.

(٥) «نحو القرآن» ص٨٩-٩٠.

ومهما يكن من أمر فإنَّ الشيخ رشيد أكَّد ـ كما أسلفت ـ الفائدة المعنويَّة لما عدَّه زائداً، فإن كانت الجملة مؤكِّدة، وكان الحرف للتوكيد كان توكيداً مزدوجاً، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ [يونس: ٤٦] يقول: «وزيدت (ما) في إن الشرطية، ونون التوكيد في فعل الشرط، فكان توكيداً مزدوجاً»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] يقول: «وكلمة (لا) مزيدة للمبالغة في نفي متعلِّق العلم الآتي»، ثم يستدل بآيات أخر على ما ذهب إليه فيقول: «على حدِّ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ » [الأنعام: ١٥١].

وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢][٢].

وأكثر المفسِّرين على أن (لا) في الآية (١٥١) من سورة الأنعام ليست زائدة، وإنما هي نهي[٣] أو نفي[٤].

وقد أورد أبو البركات ابن الأنباري وجهاً بزيادتها للتأكيد[٥]. والآية الثانية التي استدل بها [الأعراف: ١٢] حملها الشيخ في موضع تفسيرها على التضمين الفعلي، بتأويل منع بمعنى حمل فقال: «أي: ما حملك على أن لا تسجد، فضمَّن معنى حمل وعداها تعديتها»[٦]. ولست أدري ما الذي جعله يتخلَّى عما ذهب إليه سابقاً.

---

(١) «أولى ما قيل» (٤ : ١٧٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٧: ٣١٢).

(٣) «الكشاف» (٢: ٧٨).

(٤) «تفسير القرآن وإعرابه وبيانه» (٤ : ٣١٢).

(٥) «البيان في غريب إعراب القرآن» (١ : ٣٤٩).

(٦) «أولى ما قيل» (٣: ٤١١).

ونراه يقيس الآية الكريمة: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، على آية أخرى مشابهة لها في اللفظ ومقاربة في الدلالة، وردت بلا باء، ليقرِّر أن الباء هنا زائدة للتأكيد، فيقول: «ويجوز أن تكون الآية على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [النحل: ٨٦]، وإلقاء القول تـمكينه في النفس، وعلى هذا تكون الباء زائدة للتأكيد[١] وقياسه - فيما يبدو - قائم على إمكان تسلط الفعل على معموله من غير واسطة حرف الجر، وبذا يحكم بزيادته، وهذا عين ما ذهب إليه النحاة في تسميتهم حرف الجر الزائد[٢].

ومن تأكيده معنى الحروف الزوائد استشفافه معاني جديدة بمعونة السياق كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦] وقد مرَّ الحديث عنها في القواعد النحوية[٣].

٧) المصطلح النَّحوي:

وهو اتفاق جماعة من النحاة على استعمـال ألفاظ معيَّنة في التعبير عن الأفكار والمعاني النحوية[٤]. ولا بد بداهة من وجود علاقة معنوية بين المصطلح وما أطلق عليه.

وقد اختلف البصريون والكوفيون في طائفة من المصطلحات، ومَرَدُّ ذلك إما إلى اختلاف في المسألة النَّحويَّة نفسِها، أو لسَعَة اللغة التي يبحث كلُّ فريق عن العبارة الأكثر دقة وتحديداً فيها. فالكوفيون مثلاً يسمُّون الظرف: المحل[٥] ويسمُّون البدل: الترجمة[٦].

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٣٥٤).

(٢) ينظر: «المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها» لمحمد الأنطاكي (٢: ١٣٧).

(٣) ص٢٧٢.

(٤) «المصطلح النحوي» لعوض أحمد القوزي ص٢٢-٢٣، عمادة شؤون المكتبات، الرياض ١٩٨١.

(٥) «الإنصاف» (١: ٥١)، المسألة السادسة.

(٦) «المصطلح النحوي» ص١٦٣.

والمصطلح السائد لدى الشيخ رشيد هو المصطلح البصري؛ إذ لم نَرَه يستخدم من مصطلحات الكوفيين شيئاً. أما النعت الذي استخدمه(١)، فليس مصطلحاً بصرياً صِرْفاً، بل هو مشترك بين المدرستين، وقيل: إن الفراء أول من أطلقه على الصفة(٢).

إلا أن الملاحظ على الشيخ توسُّعه أحياناً في المُصْطلح ليعبِّر بشكل أدق عن الحالة التي يصفها، انطلاقاً من فهمه للآية. وهذا مما يحمد له، إذ يؤكد فيه العلاقة القائمة بين النحو والمعنى.

ففي قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠]، يقول: «وهذا العطف للمقارنة والمساواة»، ويعلل ذلك بقول: «فقد قَرَنَ الحالين لبيان أنَّهما على نَسَق واحد، مقترنان برزانة الرأي والتدبير، فكلامه في المهد مثل كلامه وهو كهل(٣). وفي هذا المعنى ملحظٌ لطيف(٤). مزجه بالنحو وأضاف إلى معاني الواو العاطفة معنىً جديداً لمعانيها أجراه مجرى المصطلح النحوي.

والبدل كما قرَّره النحاة أربعة أنواع: بدلُ الكلِّ من الكلِّ، وبدل البعض من الكل، وبدل الاشتمال، والبدل المباين(٥) إلا أن الشيخ يفرِّع في ذلك قائلاً: هو: بدل (مفصَّل من مجمل)، وبدل (خاصّ من ممتاز).

ففي قوله تعالى: ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٢٥).

(٢) «المصطلح النحوي» ص١٦٦.

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢٧٦).

(٤) ينظر: «الكشاف» (١: ٦٩١).

(٥) «شرح ابن عقيل» (٢: ٢٤٩).

﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، يقول: «ويجوز أن يكون قوله: (ليهلك من هلك) بدلاً من قوله: (ليقضي الله...) بدل مفصَّل من مجمل»[١]. وهذا ما يعرف لدى اللغويين وعلماء القرآن بالتفصيل بعد الإجمال.

وفي قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧] يقول: «ثم أبدل من كلمة (ما) بدل الخاص الممتاز من أفراد العام قوله: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، إذْ هذا أعظم ما يطلبون»[٢]. وهذا ما يعرف لدى اللغويين أيضاً بإيراد الخاص بعد العام.

والصفة أنواع يمليها المعنى عند الشيخ، فهي: (صفة ذاتية) للإنجيل في قوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]، وصفة فعلية في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وعلَّل ذلك بقوله: «أي: أنه يؤثِّر هذا التأثير في المتَّقين الذين لم يفسدوا فطرهم»[٣].

والفاء يراد بها (التفريع) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢] إذ «يكون المعنى: الذين خسروا أنفسهم بتَدْسيتهم لها، وإفسادهم لطبيعتها، لم يَرَوا الحق حقاً فيتَّبعوه، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئت من الحق»[٤].

٨) موقفه من الآيات التي جاءت خلاف قواعد النحاة:

هناك عددٌ من الآيات التي خرجت عن القاعدة التي قرَّرها النحاة ابتداءاً، وقد

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٣٣).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٨١). وينظر: «البيان في غريب إعراب القرآن» (٢: ٣٠١).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢٢٠).

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٢٩٦) حاشية.

جهدوا في تأويلها لتنسجم وتلك القواعد. ولم يخالف الشيخ عموماً أساليب النحاة وقواعدهم العامة، وإنما اختار من تخريجاتهم ما يطمئن إليه، إلا أنه زاد عليهم أن هذا التغيير في نسق الإعراب، أي الانتقال من وجه إلى وجه ـ وكلاهما ضمن الأصول ـ كان مقصوداً به التنبيه والإشارة، فهو إذن يتعلق بالمعنى وذلك جاء بصيغة تركيبية مغايرة.

فهو مثلاً يلحظ رفع كلمة (الصابئون) بعد منصوبَين سبقاها، عطفت في السياق على ثانيهما، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، فعلَّل هذا التغاير ما بين الرفع والنصب تعليلاً قائماً على التغاير المعنوي في السياق فيقول: «...وإنما رفع (الصابئون) لأنه مقحم في السياق وجديد فيه، إذ لم يكن مشهوراً أنهم من أهل الكتاب. فهو على هذا المعنى: والصابئون كذلك، لأنهم أهل كتاب أيضاً. فنبَّه على هذا بتغيير الإعراب وذلك من أساليب القرآن»[١]. وهذا من أدقِّ ما التفت إليه الشيخ من وجوه الإعراب في الكتاب وقد ربطه ربطاً رائعاً بالمعنى.

والذي ذهب إليه الشيخ في تخريج الإعراب هو أحد الوجوه التي ذهب إليها البصريون، أما الكوفيون فقد جوَّزوا العطف على موضع (إنّ) قبل تمام الخبر، وجعلوا هذه الآية دليلاً على ذلك. وقد احتج عليهم البصريون بأن ذلك يستوجب عاملين في اسم واحد[٢].

وهو يلحظ المعنى ويربطه بالتركيب النحوي في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣]، يقول: «جعل اسم إنْ ضمير الشأن لتدل الجملة على زيادة التَّحريض والاهتمام

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٢٤٠)، وينظر: «البيان في غريب إعراب القرآن» (١: ٢٩٩).

(٢) «الإنصاف» (١: ١٨٥-١٨٦)، المسألة (٢٣).

منهم لهذا الشأن الذي قصدوا بيانه، وهذا يشبه ما نصنعه في الكتابة من وضع خط تحت كلمة مهمة يراد التنبيه لها»[١]. وهو وجهٌ في إعراب الآية، وهناك وجوه أخرى على هذه القراءة التي بتخفيف (إنْ) منها: أن (إنْ) بمعنى (ما)، واللام بمعنى إلا[٢].

وقد رأى إبراهيم مصطفى في هاتين الآيتين سَنَداً له على ما ذهب إليه من أن رفع اسم (إن) هو الأصل وما جاء منصوباً فهو على الوهم الذي حصل بسبب كثرة اتصال ضمير النصب بـ«إنّ»[٣]، وذلك في سياق استدلاله على أنَّ كل مرفوع مسند إليه متحدث عنه، وهو رأي ظاهر البطلان.

وقد جعل الشيخ رشيد من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ ...﴾ [البقرة: ١٧٧] إذ عدّ تغيير النَّسق هنا على الاختصاص مبالغةً بالعناية أو الاهتمام[٤]. وهو أحد وجوه ذكرت في إعرابها[٥]، ومنها: أن يكون معطوفاً على قوله تعالى: (ذوي القربى) أي: وآتى الصابرين. والوجه الذي ذهب إليه الشيخ أظهرُها وأقربُها.

ويعرب الشيخ رشيد ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنبياء: ٣]، إعراباً ينأى بها عن لغة (يتعاقبون)، أو كما يسمُّونها (أكلوني البراغيث) وينحو منحىً عاماً في الإعراب يربطه بالمعنى الذي عليه الآية وهو الأبلغيَّة، فيقول: «أتى بواو الجماعة ثم أبدل منه

(١) «أولى ما قيل» (٥: ١١٧). وينظر: «البيان في غريب إعراب القرآن» (٢: ١٤٥).
(٢) «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢: ٨٩٥).
(٣) «إحياء النحو» ص٦٩-٧٠.
(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٢٥٠).
(٥) ينظر: «العكبري» (١: ١٤٥) و«مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب ص١١٨.

(الذين ظلموا) لأنه أبلغ في التنصيص على الذمّ وتقرير المعنى الذي بصدده وهو بيان قوة مكرهم»[١]. وللآية أربعة وجوه إعرابية أحدها هذا الوجه[٢].

٩) مزج النحو بالبلاغة:

يتبيَّن للباحث من مسائل النحو التي عَرَض لها الشيخ وإعراب الآيات، مزجه النحو بالبلاغة في كثير من المواطن وخاصَّة ما له وشيجة بعلم المعاني؛ العلمِ الذي كان في الأصل جزءاً من النحو ولحمة له قبل أن ينسلخ عنه إلى علم البلاغة. وقد عُني به الجرجاني في كتابه «دلائل الإعجاز» عناية فائقة، وحاول أن يدلل على أن الفضيلة الكبرى في نظم الكلام وبلاغته وفصاحته كامنة في النحو، يقول: «فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتَّصل بباب من أبوابه»[٣].

وكان الشيخ رشيد يعلِّل الظواهر النحويَّة بوجوه وظواهر بلاغيَّة أغلبها معنويّ، على نحو ما أورده في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] إذ قال: «وجواب لو محذوف للمبالغة في التهويل»[٤]. والتهويل معنى يراد به تفخيم الحدث، والحذف: أسلوب بلاغي، وجواز حذف جواب لو بابٌ في النحو.

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ١٥٦).

(٢) ينظر: «البيان في غريب إعراب القرآن» (٢: ١٥٨). والعكبري (٢: ٩١١). «مشكل إعراب القرآن»، لمكي (١: ٤٧٧). و«إعراب القرآن» للنحاس (٢: ٣١٦).

(٣) «دلائل الإعجاز» ص٦٥، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٢٩٩).

ويلمح الشيخ التأكيد باللام، ويعده ممَّا يسميه (كمال الاعتناء)، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: ١٢] فيقول: «وصدّر البيان باللام الموطئة للقسم، لإظهار كمال الاعتناء»[١].

كما يلمح تجدُّد الحدث ودوامه في فعل القتل المضارع، وما له من أثر في استحضار الصورة حتى كأنها ماثلة للعيـان في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠]، فيقول: «والتعبير عن القتـل بالمضارع دون الماضي لاستحضار صورته المنكرة في الذهن كأنه واقع في الحال». ويلمح في التقديم أثره في التركيز على ما يليه فيقول: «وفي تقديم الفعل تشويق للمتأخر، ففيه تنبيه الذهن إلى شناعة الفعل»[٢].

وهذا من قبيل ما التفت إليه عبد القاهر الجرجاني من قبل، فصِيَغُ الكلام لا تعدو ما رسمته قواعد النحو وتراكيبه المختلفة، إلا أنَّ الناظم يتوخَّى منها ما يناسب المقام، ويبلغ المراد. وهنا ينبِّه الشيخ على سرِّ هذه الصيغ والتراكيب كاستخدام المضارع بدل الماضي، وتقديم ما حقُّه التأخير وما لذلك من مقاصد بلاغية.

١٠) الخلاف النحوي:

لم يرد ذكر البصريين والكوفيين في تفسير الشيخ رشيد إلا مرة واحدة عند إعرابه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٠]، فقد ذكر أنَّ البصريين يجعلون الضمير مفعولاً به، والمعنى: أَرَأَيْتُم أَنْفُسَكُم، وأن الكوفيين يجعلونه تأكيداً للخطاب، والمعنى عندهم: أرأيتم، ومحصل المعنيين: أخبروني[٣].

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ١٩٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٢٤٠).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٣٠٦) حاشية.

ويبدو أن الشيخ قد عكس المسألة هنا، فقد ذكر مكي بن أبي طالب[١]: إنَّ الكاف والميم للخطاب لا موضع لهما من الإعراب عند البصريين، ونسب إلى الفرَّاء قوله بأن لفظها لفظ منصوب ومعناها معنى مرفوع، وعلق بأن هذا محال لاجتماع فاعلين لفعل واحد، ونقل كلامه أبو البركات ابن الأنباري[٢]. وذكر العكبري[٣] (ت٦١٦هـ) أنَّ مفعول (أرأيت) محذوف دل عليه الكلام، تقديره: أرأيتكم عبادتكم الأصنام... وذكر ذلك القرطبي[٤] أيضاً، مبيِّناً أنه اختيار الزجاج. وعبارة الفراء[٥]: «موضع الكاف نصب وتأويله رفع، كما أنك إذا قلت للرجل: دونك زيداً، وجدت الكاف في اللفظ خفضاً وفي المعنى رفعاً، لأنها مأمورة».

أما مذهبه النَّحوي فهو اتباع المنهج البصري، وذلك يتبيَّن بوضوح وإن لم يصرِّح به، وقد تبيَّن ذلك فيما تقدم سالفاً من استعمال المصطلحات البصرية دون الكوفيَّـة، ومن إعرابه المبنيِّ على ما يراه البصريون، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤] يقول: «أي: بجانب المكان الغربي»[٦]، فهو يؤول هذه الإضافة على الطريقة البصريَّة على حين يجيز الكوفيون إضافة الصفة إلى موصوفها من غير تأويل[٧].

(١) «مشكل إعراب القرآن» ص٢٥١-٢٥٢.

(٢) «البيان في غريب إعراب القرآن» (١: ٣٢١).

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ٤٩٦).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٦: ٤٢٣).

(٥) «معاني القرآن» (١: ٣٣٣).

(٦) «أولى ما قيل» (٥: ٤٩٥).

(٧) «الإنصاف» (٢: ٤٣٦). وينظر: «القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية» لعبد العال سالم مكرم ص١٢٥.

المبحث الثالث

الصّرف

عَرَض الشيخ في تفسيره لعدد من الموضوعات والمسائل الصرفيَّة، لتوضيح معنى الآي، وكشف المراد منها. وكان في ذلك يسلك سبيل الإيجاز، ومن هذه المسائل التي عرض لها:

١) المصدر واسم المصدر:

أـ المصدر: وهو حَدَثٌ بلا زمن، ويقول ابن السرَّاج[١] (ت٣١٦هـ): «المصدر اسم كسائر الأسماء إلا أنه معنى غير شخص» يريد أنه حدث وليس اسم ذات، ويرى البصريون أنه أصل المشتقات[٢] على حين يرى الكوفيون أن الفعل هو الأصل[٣].

وقف الشيخ رشيد عند عدد من المصادر ذاكراً فوائدها المعنويَّة، وربما يحللها ويُبيِّن زنتها، كما في قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، إذ يقول: «وقِيَم مصدر قام بمعنى اعتدل وأصله قِوَم، على وزن كِبَر وصِغَر، فقُلبت واوه ياءً»[٤]. وهذا مختصر ما

---

(١) «الأصول في النحو» ص١٦٢.

(٢) «الإنصاف» لأبي البركات بن الأنباري (١: ٢٣٥). وينظر: «المقتصد في شرح الإيضاح» لعبد القاهر الجرجاني (١: ٥٥٣).

(٣) «الإنصاف» (١: ٢٣٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٣٩٩).

ذكره أبو إسحاق الزجَّاج[١] (ت٣١١هـ) إذ قال: «القِيَمُ مصدر كالصِّغَر والكِبَر، إلا أنه لم يقل قِوَم مثل قوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] لأن قولك قام قِيَماً، كأنه على قُوَم أو قَوِم، فلما اعتلّ فصار قام اعتل قِيَم».

ويشير إلى المصدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ [الزخرف: ٢٦] فيقول: «براء مصدر نُعِتَ به مُبالَغةً»[٢]. وفي «لسان العرب»[٣]: «تبرأت من كذا وأنا براء منه وخلاء لا يثنى ولا يجمع، لأنه مصدر في الأصل مثل سمع سماعاً. وحكى عن الأزهري أنَّ العرب تقول: نحن منك البراء والخلاء، والواحد والاثنان والجمع من المذكر والمؤنث يقال: براء لأنه مصدر».

ويعدّ (القدم) في قوله تعالى: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٢] مصدراً بمعنى السابقة، واستعمل هنا وصفاً للمبالغة، يقول: «ويجوز أن يراد بالقدم: قَدَمَ الرِجْل، ذكر به السبق في العمل، أو القدوم على الله من ذكر السبب وإرادة المسبِّب، كإطلاق اليد على النعمة»[٤]. وأشار ابن منظور[٥] إلى أنَّ الأخفش وحده ذهب إلى أن قدم هو التقديم من بين الذين نقل عنهم، أما البقية فعلى أن القَدَم مصدر قَدِمَ، والتقديم مصدر تَقَدَّمَ. وعدّها الزمخشري من المجاز فقال: «ومن المجاز.. ولفلان قَدَمٌ في هذا الأمر: سابقة وتَقَدُّمُ. وله قَدَمُ صِدْقٍ، وَوَضَعَ قَدَمَهُ في العمل أَخَذَ مِنْهُ...»[٦].

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (١: ٣٤٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٤٤٠).

(٣) مادة (برأ).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ١٥٠).

(٥) «لسان العرب» (قدم).

(٦) «أساس البلاغة» ص٤٩٦.

ب ـ اسم المصدر: وأشار الشيخ إلى اسم المصدر (سُخْرِيّاً) في قوله تعالى: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] قال: «وهذا اسم مصدر من التَّسخير»[١]. والتسخير مصدر سَخَّرَ أي: قهر وذلل[٢] فلمَّا جاء مصدر سخر (سُخْرِيّاً) وليس (تسخيراً)، سُمّي اسم المصدر، كما يقال: كلَّمته كلاماً، بدلاً من تكليماً. وأما المراد بقوله (سخرياً) فقد حكى الطوسي أنه «تسخيرُ بعض العباد لبعض بإحواجهم إليهم، لما في ذلك من الأحوال التي تدعو إلى طلب الرفعة وارتباط النعمة»[٣]. وقال الزمخشري: «فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج، وموالي وخدماً ليعرف بعضُهم بعضاً في حوائجهم... وليُسخِّروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا...»[٤].

وربما كانت فائدة اسم المصدر هنا الجمع بين التسخير والسُّخرية[٥]، واللام للعاقبة.

ويشير الشيخ كذلك إلى اسم المصدر في قوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] فيبيِّن قيمته المعنويَّة وهي التوكيد «والنبات اسم مصدر لأنبتكم مؤكد له»[٦]. ومعنى هذا أن (نباتاً) ناب عن المصدر (إنباتاً) لكونه اسماً له، إذ إنَّ مصدر (أفعل) (إفعال) وليس (فعالاً) وإنما (فَعَّال) اسم له.

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٤٤٢).

(٢) «اللسان» (٢: ١١٣-١١٤) م (سخر).

(٣) «التبيان في تفسير القرآن» (٩: ١٩٦).

(٤) «الكشاف» (٤: ٢٤٨).

(٥) وينظر: «التعبير القرآني» لفاضل السامرائي ص٢٤.

(٦) «أولى ما قيل» (٨: ١٢).

٢) اختلاف المعنى باختلاف البنية:

يبيِّن الشيخ في مواضع علاقة بنية اللفظة بمعناها، وذلك بالنظر لما في الصيغة من الدلالة على ذلك كصيغة (فَعَّلَ) مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] التي دلت على تكثير الحدث وتطاوله آناً بعد آن لا حصوله دفعة واحدة، إذ يذكر أنه سبحانه: «قال: (نَـزَّلْنا) ولم يقل (أَنْـزَلْنا)، لأنَّ التنزيل يدل على التدرُّج الذي عليه القرآن»[١]. ولم تشر كتب الصرف إلى هذا الفرق بين نَـزَّلَ وأَنْـزَلَ، وأشار إليه الزمخشري[٢] من قبل.

ويرى الشيخ رشيد في (فعيل) دلالة على الكثرة، وإن كان لفظها مفرداً، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، إذ يقول: «وتجيء فعيل مفرداً يُراد به الكثرة»[٣]. فهي اسم فاعل على صيغة فعيل الدالة على الكثرة والمبالغة[٤]، كما يأتي هذا البناء للدلالة على الثبوت[٥]، أي دوام النصرة. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، إذ قال سبحانه: (تَـأَذَّنَ) ولم يقل (أَذِنَ) يقول الشيخ: «وتأذن: هو فعل مرادف لأذن بمعنى أعلم، وهما في الاشتقاق مثل تَوَعَّدَ وأَوْعَدَ، وهو أبلغ من (أذن) لما في (تَفَعَّلَ) من معنى المبالغة، أي: قد بالغ في إعلامكم»[٦].

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٤٥).

(٢) «الكشاف» (١: ٩٦).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٤٣٤).

(٤) «شذا العرف» للحملاوي ص٧٤.

(٥) «معاني الأبنية» لفاضل السامرائي ص٧٤، جامعة الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨١م.

(٦) «أولى ما قيل» (٤: ٣٨٩).

كما يلمح ذلك في استعمال (فاعل) بدلاً من (فعل)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، فقد قال سبحانه (يدافع) ولم يقل (يدفع) فعلله الشيخ بأنه «للمبالغة للدلالة على تكرار الدفع كما في الممارسة»(١).

٣) خروج الصِّيغ عن أصلها:

لكل معنى صيغة وُضِعَت له، كاسم الفاعل للدلالة على اسم الفاعل، واسم المفعول واسم التفضيل ونحوها، ولكنها كثيراً ما تخرج عن هذه الصيغ إلى صيغ أخرى.

وقد نبَّه الشيخ في مواطن عليها مشيراً إلى فروقها المعنويَّة. فقد يأتي المصدر بصيغة اسم الفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] إذ المراد فيما يرى: خيانة منهم، يقول: «والعرب تعبِّر بصيغة الفاعل عن المصدر أحياناً، فاستعملت القائلة والخاطئة بمعنى الخطيئة، والمعنى: أنك لا تزال تطَّلع على هؤلاء اليهود المجاورين لك على خيانة بعد خيانة»(٢)، وكان ابن منظور(٣) قد حمل (خائنة) هذا المحمل في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩] إذ يُبيِّن أنه سبحانه «أراد يعلم خيانةَ الأعين، فأخرج المصدر على فاعله كقوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١]، أي: لغواً... وكل ذلك من كلام العرب... والخائنة بمعنى الخيانة، وهي من المصادر التي جاءت على لفظ الفاعلة العاقبة».

والتفت الشيخ إلى: ورود (فعيل) بمعنى (فاعل) كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ [يس: ٤٣] فقال: «لا مغيث لهم، هذا على اعتبار أنه وصف على وزن فعيل بمعنى

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٢٣٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ١٩٣).

(٣) «اللسان» (١: ٩٤٣)، عمود (٣) مادة (خون). وذلك فيما نقله عن غيره من اللغويين.

فاعل كسخي وعدي، مشتق من قولهم: صرخ القوم بمعنى أغاثهم وأجاب صريخهم». ثم أجاز أن يكون مصدراً بمعنى الصراخ والصياح، فيكون المعنى أنه لا يتمكنون من الصريخ والصياح لتعجيل الغرق عليهم»(١).

والأول هو الوجه، وهو الذي يدلُّ عليه التنزيل في مواضيع كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ [القصص: ١٨]. ويؤيِّد ذلك الجار والمجرور بعده (له).

وقد يخرج اسم التفضيل عن معنى التفضيل كما في قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢] إذ يرى الشيخ أن: «اسم التفضيل ليس على بابه، ولكن أتي به للمبالغة في الخسران»(٢).

ولاسم التفضيل باعتبار المعنى ثلاث حالات منها: أن يراد به ثبوت الوصف لمحله من غير نظر إلى التفضيل كقولهم: الناقص والأشج أعدلا بني مروان(٣). ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] لأن كل شيء هيِّن عليه سبحانه، لا تفاضلَ بين شيء وآخر في السهولة عليه. ومنه قول الشاعر(٤):

إنَّ الذي سَمَكَ السَّماءَ بَنَى لَنَا ... بَيتاً دَعائِمُه أعَزُّ وَأطْوَلُ(٥)

---

(١) «أولى ما قيل» (٦: ١٧٧).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٢٢٤)، ومثله (٥: ٤٥).

(٣) «شذا العرف» للحملاوي ص٨١.

(٤) نسبه المبرد في «الكامل» (٢: ٢٢٧) للفرزدق. (مجد).

(٥) «دقائق التصريف» للقاسم بن محمد بن سعيد المؤدب، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٧م. وينظر: «دقائق العربية» لأمين آل ناصر الدين ص٣٠، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية ١٩٦٨.

وقد يراد باسم الفاعل معنى اسم المفعول كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٨-٩]. فقد التفت الشيخ إلى أنها: «سميت هاوية مع أنها يُهوى بها، كما سُمِّيت العيشة راضية مع أنها يرضى بها». ثم يبيِّن أن: «مثل هذا عند البيانيين يسمَّى المجاز العقلي من إعطاء صفة الفاعل للمفعول مبالغة للوصف»(١).

ومثله بيت الحطيئة:

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لبُغْيَتِهَا واقْعُدْ فإنَّكَ أنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

قالوا: المطعوم، المكسوّ.

٤) إيراد النظير:

وفي سبيل توضيح معنى المفردة، والاستدلال على اشتقاقها يورد نظائرها من المفردات التي تُماثلها في الوزن الصَّرفي كلفظة (الطغوى) في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١] إذ يقول: «والطغوى من الطغيان، كالدعوى من الدعاء، والسلوى من السلوان»(٢).

و(طوبى) من الطيِّب كبُشْرى وزُلْفى، والجملة لإفادة المبالغة في نَيْل الطيِّبات وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩](٣).

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٣٣٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ٢٥٦).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٣٦٩).

وللتصغير فوائد لا يفوت الشيخ الإشارة إليها كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ [يوسف: ٥] فقد بيَّن أنّ تصغير ابن هنا أريد به العطف عليه والتَّحبُّب إليه والإشفاق عليه[١].

* * *

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٧٦).

الفصل السادس
البلاغة

الفصل السادس
البلاغة

أَوْلى الشيخُ رشيد البلاغةَ في تفسيره عنايةً فائقة، فوقف عند كثير من الظواهر والفنون البلاغية مبيِّناً صُوَرها وأسرارها مستعيناً بما وصل إليه البلاغيون من علوم البلاغة الكاشفة عن أسرار جمال القرآن وإعجازه، وإن كانت لم تبلغ إدراك أو استيعاب كثير من أسرار هذا الكتاب الربّاني وفنونه وخصائصه[١].

* * *

(١) قلت: ألحقت بهذا المبحث، رسالة الدكتور خالد حمودي العزاوي: «البيان القرآني في تفسير أولى ما قيل لآيات التنزيل»، لأنه استفاد ممَّا كتبه الأخ الدكتور خالد الحماش في مبحث البلاغة، وأضاف إضافات كثيرة، وأكثر من الاستشهادات والمناقشات. وتنظر رسالة «البيان القرآني» ملحقة في آخر هذا المجلد. (مجد).

مدخل

موقفه من إعجاز القرآن:

المراد بإعجاز القرآن: ضعف القدرة الإنسانيَّة في محاولة المعجزة على شدَّة الإنسان واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه[١].

لم يفرد الشيخ رشيد في مقدِّمته أو في تفسيره الحديث عن إعجاز القرآن، وإنما جاءت آراؤه عن الإعجاز بين ثنايا المقدمة والتفسير.

فالإعجاز عنده عامٌّ شامل لا يختصُّ بجانب دون آخر، أو شيء دون شيء، بل يشمل النواحي التعبيريّة والفكريّة والاجتماعيّة والتربويّة، وأنباء ماضيه ومستقبله، وهو في هذه الشمولية على رأي غير واحد من قُدامى العلماء من أشاعرة وغيرهم، كأبي بكر الباقلاني[٢] (ت٤٠٣هـ) وأبي جعفر الطوسي[٣].

يقول الشيخ رشيد: «القرآن معجز بتراكيبه وأساليبه، وأنواع صور تعبيره وبياناته، ورفعة علومه وآدابه، وجلالة حِكَمِه وأحكامه، وسَعَة معانيه ومدلولاته، ودقة إشارته وتلميحاته، وسَدَاد تربيته وتوجيهاته، وصحَّة سياساته واجتماعياته. تلك التي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثلها لا يقدرون، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»[٤].

---

(١) «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» للرافعي ص١٣٩، دار الكتاب العربي.
(٢) «إعجاز القرآن» ص٦١-٦٣ على هامش «الإتقان في علوم القرآن».
(٣) «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» لكاصد الزيدي ص٣٢٥.
(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٤٥).

والقرآن «بما فيه من أنباء غيبيَّة عن الماضي والمستقبل... ومن إعجازه أنه تلطف مع النفس الإنسانية تارة بالأداء العقلي الرقيق، وتارة بالأداء البياني المقنع، وتارة بالبرهان الملزم»[١].

وتعليقاً على قول يحكيه عن السكَّاكي (ت٦٢٦هـ) من «أن إعجاز القرآن يُدرك ولا يمكن وصفه» يقول: «ولا يُدرِكُ إعجازه إدراكاً صحيحاً إلا الذين لهم وقوفٌ تامٌّ على خصائص آداب اللغة، ثم يمارسون القرآن جيداً حتى يفهموه، وبنسبة فهمهم له تظهر لهم درجة إعجازه، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات الإفهام، إذ لا يدرك الكمال إلا بالكمال، والقرآن نسيج وحده في ديباجته ونظمه وأسلوبه...»[٢]. وهو كلامٌ يدل على وعيٍ وفهمٍ حَسَن لقضية الإعجاز. ثم يقول: «ولو أن أحداً حاول أن يدخل عليه شيئاً من كلام البلغاء أو النبيين لاضطرب نظامه. ونادى الكلام بأنه داخل، وظهر كالخرزة التافهة بين الجواهر، ولنفاه القرآن بنفسه عن نفسه كما ينفي الكيرُ خبثَ الحديد، هذا من جهة لفظه فكيف أمر المعنى وما حواه من علوم وتثقيف إنساني عظيم؟»[٣].

ويُعلل تَحدِّي القرآن العرب بعشر سُور في موضع وبسورة واحدة في موضع آخر، فيقول: «كان التحدِّي بعشر سور لأن التحدي باعتبار ما احتوى عليه لا يتم إلا بمثل هذا المقدار، وأما ما جاء من التحدي بسورة واحدة، فهي جملة آيات تخصُّ موضوعاً واحداً»[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢١٧)، وينظر: (١: ٥٠٧).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٥٠٣).

(٣) م.ن (٤: ٤١٩) حاشية.

(٤) م.ن (٤: ٢١٨)، ويُنظر: (١: ٦٣٠).

وفي المقدمة الثالثة يضيّق الشيخ الدائرة قليلاً فيخص إعجاز القرآن بأسلوبه وتراكيبه واختيار كلماته وبلاغته العالية وصياغته العجيبة، التي لا تمتُّ إلى أساليب البشر المعهودة مهما بلغت من الرقي وعُلو الدرجة، فلو اجتمع كلُّ البُلَغاء على أن يأتوا بتركيب واحد على غرار تلك التراكيب لعجزوا بكليَّتهم عَجْزاً كبيراً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً[١].

ومقولة الشيخ هذه في الإعجاز لا تناقض ما تقدَّم أو هي من مصاديق الإعجاز ودلائله، وهي تلائم كثيراً من آراء العلماء القدماء والـمُحْدَثين الذين جعلوا بلاغة القرآن[٢]، ونظمه[٣]، وأسلوبه[٤] مدار الإعجاز وموطن التحدِّي.

وجوه البلاغة:

عمد الشيخ رشيـد في تفسيره إلى ترجمة ما قاله عن إعجاز القرآن، من رفعة بلاغته وسموِّها وتفرّد أسلوبه، وخصائصه العالية.

بيّن ابتداءً أنه «كثيراً ما تتداعى لديه معانٍ لا تُحصى وأغراض لا تُستقصى، ولكنه يرى نفسه عاجزاً تجاه تصوير ذلك المعنى الدقيق وبيانه»[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٦٦٣).

(٢) ينظر: «النكت في إعجاز القرآن» للرماني (ت٣٨٦هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٧٥. وينظر: «بيان إعجاز القرآن» للخطابي (ت٣٨٨هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٢٤.

(٣) ينظر: الباقلاني في «إعجاز القرآن» (١: ٦٣)، على هامش كتاب «الإتقان في علوم القرآن». وينظر: عبد القاهر الجرجاني في «دلائل الإعجاز» ص٧٨.

(٤) «إعجاز القرآن» لمصطفى صادق الرافعي ص٢٠٣-٢٠٤.

(٥) «أولى ما قيل» (١: ٤٩٦).

ويفهم من كلامه أنَّ ما جاء في علوم البلاغة لا يفي في حصر أساليب القرآن وخصائصه، ومع ذلك فقد اعتمد الشيخ علوم البلاغة بفروعها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع للكشف عن أسرار القرآن وجماله، ولم يُسمّ هذه العلوم وإنما كان يصف الحالة بما ينبئ عن نوعها وصورتها، وقد يشير إلى مواطن السرِّ والجمال والإعجاز بالصورة التي تبدو له موائمةً للكشف عن رَوْعة بلاغة القرآن.

ويبدو من تعابيره البلاغية ورَصْده لظواهر البلاغة وفنونها المختلفة استفادته من معرفته الواسعة بعلم أصول الفقه الذي صنف فيه كتاباً، إذ لا شكَّ أنَّ هذا العلم يعرض لألوان من وجوه البلاغة القرآنية، وقد أتى بثمرات قيِّمة في هذا المضمار، أفاد منها الدارسون، وإن لم تنل كفاية العناية بها، لأن الدرس البلاغي انصبَّ على كتب البلاغيين والمؤلفين في الإعجاز.

❊ ❊ ❊

المبحث الأول

علم المعاني

١) النظم:

وردت في تفسير الشيخ رشيد عدة إشارات إلى (النظم) ويعني به تركيب الكلام كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المائدة: ٨٤]، إذ يقول: «وهذا النظم والتركيب من أعلى تعابير البيان على مثل هذا الشعور والحنان، فهم يستبعدون عدم إيمانهم مع وضوح الحق وتبيُّن الصدق وتحقق الفلاح، ويظهرون تحقيق إيمانهم وتقريره بإنكار انتفائه، مع قيام الداعي الذي هو الطمع في الانخراط مع الصَّالحين»[١].

والذي أراده الشيخ هنا من مصطلح (النَّظم)، لا يبعد كثيراً عمَّا أراده عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧٤هـ)، في نظريته النظم التي اشتهر بها وهي: اختيار الوجه النحوي المناسب لما يراد من معنى[٢]. هذا ما يفهم من كلام الجرجاني فقد تناول المبتدأ والخبر والفصل والوصل، والاستفهام وأغراضه، والتقديم والتأخير، والحذف. وكلُّها من مباحث علم المعاني، التي كانت في الأصل من مباحث النحو، فضُمَّت إلى البلاغة، وهذا دليل على الوشيجة القوية بين النحو والبلاغة[٣].

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٢٤٩).

(٢) «دلائل الإعجاز» ص٦٤-٦٥.

(٣) ينظر: «البلاغة والتطبيق» لأحمد مطلوب وحسن البصير ص٨٩-٩٤.

ونجد الشيخ في بعض المواضع يُعِمُّ مفهوم النَّظم ليشمل علم البديع، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، يقول: «ونَظْم الآية من أعلى درجات البلاغة ولاسيما توقيع قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ بين الشهادتين المتقابلتين»(١). وهذا ما يسمَّى في علم البديع اعتراض ومقابلة.

٢) الخبر:

الخبر البلاغي ما يحتمل الصِّدق والكذب، ولكنه يَردُ في ضروب الكلام أشكالاً متعدِّدة تتعلق بمناسبة الكلام ووقعه وتأثيره، وقد أفاض الجرجاني في تبيين الفروق في كتابه «دلائل الإعجاز»(٢).

نبّه الشيخ في تفسيره على أمثال هذه الصور، فالتأكيد في الخبر ودرجاته لأغراض معنوية بلاغية، مما يرد في الكتاب العزيز، كما يرد في الكلام. وقد وضع الشيخ أيدينا على لمع منه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥] إذ يقول: «ومن بلاغة القرآن: تأكيد الجملة الثانية باللام دون الأولى لأنها في العقاب»(٣).

وقد يخرج الخبر عن معناه الأصلي إلى معان ثوانٍ يدل عليها السياق والحال، كالدعاء في قوله تعالى: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، إذ يذكر أنَّ «هذه الجملة للخبر والدعاء»(٤).

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٣٩١).

(٢) ينظر: «التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني» للدكتور عبد الفتاح لاشين ص٩٦.

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٤٠٢).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ١٤٤).

وقد يكون الخبر للتقبيح والتنديد كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] إذ بيّن أنّ «﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ للمبالغة في تقبيح شأنهم»[١] أي: شأن المشركين.

ولاحظ الشيخ أنه قد يُراد بالخبر الأمر[٢] كما في قوله تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فكأنّه سبحانه قال: تَرَبّصْنَ بِأَنْفُسِكُنَّ.

٣) النفي:

ووقف الشيخ رشيد عند النفي وأساليبه في القرآن عدة وقفات، مبيّناً صُورَه وأنواعه وأغراضه، على نحو ما وَرَدَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [إبراهيم: ١١]، إذ قال: «وهذا النوع من النفي يقال له نفي الشأن، وهو أبلغ صور النفي وأدلُّـهُ على بعد الإمكان»[٣]. وكذا في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ١١٣] إذ رأى أنّ «نفي الشأن هذا بمعنى النهي، وهو أبلغ منه»[٤].

وقد يكون النفي للوعيد[٥]، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

٤) الإنشاء:

وقف الشيخ رشيد عند الظواهر البلاغيّة المتعلقة بالإنشاء، وما تحتمله من معان

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٤٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٣٢٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٣٩٣).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ١٣٥).

(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٢١٢)، وهذا على قراءةِ غيرِ حفص.

ووجوه في النصِّ القرآني، والإنشاء هو الفن المقابل للخبر، من حيث إنه لا يحتمل الصدق والكذب بخلاف الخبر، فمن ذلك:

٥) الاستفهام:

الذي أطلعنا فيه على كثير من المعاني المضافة إلى الاستفهام، فكان الاستفهام يخرج عن معناه الأصلي في كثير من الأحيان إلى معانٍ أخرى تفهم في ضوء النص والسياق[١].

فالاستفهام قد يَرد للنهي وهو يبلغ النهاية في ذلك في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

يقول الشيخ: «وهذه الصيغة من أبلغ صيغ النَّهي، لأنَّ فيها إيذاناً بأنَّ أمر المنع والتحذير قد بلغ الغاية، وأنَّ الأعذار قد انقطعت»[٢].

وقد يكون الاستفهام للتقرير، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨] إذ هو عنده «تقرير لثوائهم فيها بصورة ما هو معروف بداهة»[٣].

وكان الجرجاني قد نبَّه على مثل هذا الاستفهام التقريري في قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢][٤]. فكأنهم قالوا: أنت فعلته.

---

(١) «دلائل الإعجاز» للجرجاني ص٨٨. «مفتاح العلوم» للسكاكي ص٥٣٧.

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٤٥٥).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٥٥١).

(٤) «دلائل الإعجاز» ص٨٨-٨٩.

وربما كان الاستفهام استرحامياً، كما في قوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥][(١)].

وقد يكون للتوبيخ والتقريع كما في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠][(٢)].

وقد يكون مشبعاً بالخوف والندم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢][(٣)]. أو مراداً به التبكيت[(٤)]، أو التوبيخ والاحتجاج[(٥)]، أو الإنكار والتهويل[(٦)]، أو الإنكار والتهديد[(٧)]، أو التهكم والتنديم[(٨)].

وقد يكون استفهاماً استشهادياً كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥][(٩)].

٦) التعريف والتنكير:

وللتعريف والتنكير فوائد بلاغية نبَّه الشيخ على طائفة منها بإيجاز، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ١٥٧]، فقد بيَّن أنَّ «التنكير

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٤٨١).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٤٤٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ١٨٠).

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٤٦٤)، (٣: ٣٣٣)، (٤: ١٦٣).

(٥) «أولى ما قيل» (٣: ٢٩٧)، (٢: ١٣٢)، (٣: ٥٩).

(٦) «أولى ما قيل» (٨: ١٦٨).

(٧) «أولى ما قيل» (٣: ٤٣١)، (٣: ١٤٧).

(٨) «أولى ما قيل» (٣: ٤٣٣).

(٩) «أولى ما قيل» (٨: ٢٢٩).

للتحقير أي: وإن كانت في بـؤس وشقاء»[١]. ورأى تنكير (العذاب) في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧] للتعظيم والتهويل، وأجاز أن تكون الإشارة إلى أنه نوع من العذاب مجهول لهم كمّاً وكيفاً[٢].

وكان الجرجاني قد وقف عند الآية الأولى، فقال[٣] فيها: «إذا أنت راجعت نفسك وأذكَيْت حسَّك، وجدت لهذا التنكير إن قيل: (على حياة)، ولم يقل: (على الحياة) حُسناً وروعةً ولطفَ موقعٍ، لا يُـقادَرُ قدره. وتجدك تعدم ذلك مع التعريف، وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافها». ثم بيَّن أن سرَّ تنكيرها: «أن المعنى على الازدياد من الحياة لا الحياة من أصلها... فكأنه قيل: ولتجدنَّهم أحرصَ الناس ـ ولو عاشوا ما عاشوا ـ على أن يزدادوا إلى حياتهم في ماضي الوقت وراهنه، حياة في الذي يستقبل».

وما ذهب إليه الشيخ رشيد أسرع تبادراً إلى الذِّهن وأدَلُّ على التنكير في مثل هذه الحال، وهذا السياق الذي ندّد بالمشركين. إلا أنَّ ما أراده الجرجاني لا يخلو من عمق، وكلاهما له وجه.

٧) التقديم والتأخير:

وصفه الجرجاني[٤] بأنه: «باب كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفْتَرُّ لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة...».

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١٤١).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٣١).

(٣) «دلائل الإعجاز» ص٢٢٣. وينظر: «التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر» ص١٦٥.

(٤) «دلائل الإعجاز» ص٨٣.

ومن هنا عُنيَ به الشيخ رشيد، فوقف مراراً معلِّلاً إيَّاه بعلل مختلفة، مستقاة من روح النص وجوِّه، أو سياق الآيات لإفادة معنى مقصود.

فهو يلمح تقديم الجار والمجرور (فبذلك) في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، ويعلِّله بأنه «لإفادة القصر»[١]. فكأنه قصر استحقاق الفرح بنَيْل فضل الله ورحمته وما عداه لا يستحقُّ ذلك الفرح.

وهو يلمح التقديم لإظهار شدة الشناعة[٢] فيما فعلوا إذ بالباطل آمنوا وبدين الله كفروا في قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وللزيادة في مدلول الجملة، قدَّم ضمير الفصل في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠][٣]. ويبدو أن فائدة القصر أيضاً في هذا التقديم يراد بها لا ترهبوا غيري، فالتقديم لغرض التخصيص، كما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وترد في القرآن عبارتا السماء والأرض متعاطفتين ومترادفتين في السياق، فتتقدَّم السماء أو العكس، فينبهُ الشيخ على ذلك في ضوء السياق الدال على القصد من هذا التقديم أو التأخير، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] إذ يقول: «وقد قدَّم ذكر الأرض هنا، لأنَّ الكلام مع أهلها، وأخَّره في آية (سبأ) المماثلة لها وهي: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ٣]، وقدَّم السماء لأنها في سياق ثنائه تعالى على نفسه، ووصفه بإحاطة علمه، فناسب تقديم السماء لأنها أعظم[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ١٨٣).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٥٥١).

(٣) «أولى ما قيل» (٢: ٨٥).

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ١٠١).

وكان ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) يرى أن تقديم الأرض على السماء في آية يونس بناءاً على الرتبة؛ بتقديم ما هو أقرب إلى المخاطبين[١].

٨) الفصل والوصل:

وهو فنٌّ من القول دقيق[٢]، والأصل فيه أن يكون في الجمل[٣].

وقد نبّه الشيخ على مواطن تتعلق بهذا الموضوع، وهو العطف أو عدمه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] إذ بيّن أن جملة ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ ليست معطوفة على ما قبلها، بل هي مستأنفة عنده، أي: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ عليكم، ماداموا على حالتهم ودمتم على حالتكم[٤] وقد التفت الطوسي من قبل إلى هذا الأسلوب فقال: «﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ رفع على الاستئناف، ولم يعطف ليجري الثاني على مثال الأول، لأن سبب التولية القتال، وليس كذلك منع النصر لأن سببه الكفر»[٥].

وجاءت الآية التي تليها بغير عطف، فقال فيها الشيخ رشيد: «ثم سجّل عليهم الجزاء الدنيوي وسَبَكه على التعليل لما قبله، فقال[٦]: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ [آل عمران: ١١٢]. فكأنه هنا يبيّن سبب ترك العطف وهو التعليل.

---

(١) «ابن القيم وحسّه البلاغي في القرآن الكريم» لعبد الفتاح لاشين ص١٠٢، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٢م.

(٢) «دلائل الإعجاز» ص١٨٨.

(٣) «مفتاح العلوم» ص٤٥٩.

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٥٢٦).

(٥) «التبيان» (٢: ٥٥٩). وينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» لكاصد الزيدي ص٣٤٠.

(٦) «أولى ما قيل» (٢: ٥٢٦-٥٢٧).

وقد نصَّ الجرجاني على مَوْطن الوصل أو ترك العطف، ومنه أن يكون حال الجملة مع التي قبلها حال التأكيد مع المؤكد[١]. والتعليل ضرب من التأكيد، فترك فيه العطف.

وقد صرّح به في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] فقال: «وهذه الفاصلة تعليل للدعاء»[٢].

ومن أنواع الفصل التي أشار إليها الشيخ وعلّلها تعليلاً بلاغياً معنوياً، الفصل الذي يقع معترضاً بين كلامين في سياق واحد، على نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۞ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٧-٢٨] إذ التفت إلى الفصل باسم الإشارة (كذلك)، فقال: «ثم فصل الكلام بهذا الفاصل للمبالغة في التَّحسيس، أي: كذلك كان أمر فرعون وقومه، أو كذلك أفعل بمن عارضني وعصاني»[٣].

٩) في فواصل الآي:

الفاصلة كلمة تقع في آخر الآية[٤]، فهي في القرآن كالقافية في الشعر، مع الفارق بينهما، من حيث أن الفواصل لا تخضع للضرورات، وقد فرّق أبو عمرو الداني (ت٤٤٤هـ) بين الفواصل ورؤوس الآي[٥]. فالفواصل عنده يكنَّ رؤوس آي

---

(١) «دلائل الإعجاز» ص١٨٧.

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ١٨٠).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ١٤).

(٤) «الإتقان» (٢: ١٢٤).

(٥) «المكتفى في الوقف والابتدا» ص١٠٧، دراسة وتحقيق: جايد زيدان خلف، مطبعة وزارة الأوقاف ١٩٨٣. وينظر: «الفاصلة في القرآن» لمحمد الحسناوي ص٢٢-٢٧، دار الأصيل، حلب.

وكل رأس آية فاصلة، لفصلها بين الآية والتي تليها، فالذي نعنيه هُنا بفواصل الآي، هو: رؤوسُها التي تنتهي بها.

وقد عُني الشيخ فيها وسماها: فواصل، ووقف عند كثير منها يبين أسرارها وعلاقتها المعنوية بالآية التي سبقتها، وهو لا يغفل عن قيمتها الدلالية والأسلوبية، بل يعدّها من خصائص القرآن المطَّردة[١].

وقف الشيخ عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥] فبين العلاقة المعنوية بين ما وَرَد في الآية ونهايتها، فأجاز «أن تكون هذه الفاصلة احتراساً عمَّا يرد من سوء الفهم، تفيد أنَّ إصابتهم بهذه المصيبة لم يكن عن عجز قدرة الله لنصرهم، فهو على كلِّ شيء قدير، ولكنها جاءت على سنن الله الكونيَّة»[٢]. وهذه الالتفاتة من الشيخ في غاية التوفيق.

وتتكرَّر في القرآن عند رؤوس الآيات عبارات: (أفلا تعقلون)، و(لأولي الألباب)، (لعلكم تعقلون) فيعلق الشيخ في تفسيره عليها منبِّهاً على العلاقة الوثيقة بينها وبين المعنى المراد في الآية كما في عبارة: (أفلا تعقلون) في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] إذ نراه يقول: «وفي هذه الفاصلة من لذعة التعنيف والتخجيل بقدر ما فيها من لفت النظر إلى قوة الدليل»[٣].

وقد نبَّه الشيخ في مقدِّمته لتفسيره على عدد من فوائد الفواصل ومنها: أن يختم

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥١٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٥٧١).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ١٦٢).

كل حكم أو عدة أحكام بذكر الله حَمْلاً على التمسك بها وتحذيراً وإنذاراً، أو يختم الآية بفاصلة تؤيِّد مضمون ما قبلها، فتكون كالبرهان والتقرير، وقد تأتي للحَمْل على المُقرَّرات السابقة، وقد يطوي معاني ومقاصد يكتفي بالإشارة إليها بخواتم الآيات والتذكير بأسمائه الحسنى، وقد يأتي بالجملة يُنهي بها السياق ويُمهِّد للسياق اللاحق معاً على طريقة التأييد[١].

ولم يقف الشيخ عند الجانب الموسيقي لهذه الفواصل ـ وهو جانب مهمٌّ في القرآن ولا يمكن تجاهله، وقد التفت إليه القدامى[٢] والمُحْدَثون[٣] ـ وإنما اكتفى الشيخ بما نقله عن محمد عبده في نقده على المفسِّر جلال الدين السيوطي قوله: إن تقديم (الرأفة) ـ وهو الأبلغ ـ على الرحمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] إنما كان لأجل الفاصلة[٤].

ويبدو أنَّ هذا الحذر من مثل هذه الأقوال دفعاً لتوهُّم الشبه بالضرورة الشعرية التي يمليها الوزن والقافية، وتنزيه القرآن عنها.

ويبدو أن انشغال محمد عبده والشيخ رشيد الخطيب بالمعاني جعلهما يهملان الجانب الموسيقيَّ المتعلِّقَ بالجرس والإيقاع في هذه الفواصل.

١٠) الإيجاز والإطناب:

وقف الشيخ رشيد عند ظاهرتي الإيجاز والإطناب في القرآن الكريم، مبيِّناً قيمتهما

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥١٤-٥١٥).

(٢) ينظر: «الإتقان» (٢: ١٣٤). و«الفاصلة في القرآن» لمحمد الحسناوي ص٤٥.

(٣) أمثال مصطفى صادق الرافعي، وسيد قطب، وأحمد أحمد بدوي، وإبراهيم أنيس، وعبد الوهاب حمودة، وعلي الجندي. ينظر: «الفاصلة في القرآن» ص٧١.

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٢٠١).

البلاغية، إذ عدَّهما من خصائص القرآن وأساليبه المعجزة، في حديثه عنهما في مقدمته كما أشار إلى مواضعهما في الآي عندما فسرها.

أ ـ **الإيجاز**: وهو نوعان: إيجاز قِصَر، وإيجاز حذف، أما إيجاز القِصَر فلا حذف فيه مع أنَّ معناه كثير يزيد على لفظه[1]. والإيجاز من أهم خصائص العربية، حتى أن أكثم ابن صيفي يرى أن البلاغة هي الإيجاز، وكان جعفر بن يحيى يقول لكُتَّابه: «إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا»[2].

وقد أَوْلى الشيخ رشيد إيجاز الحذف أهمية كبيرة من بين أساليب القرآن، وعدَّد كثيراً من أنواعه، وحاول أن يضع يده على سرِّه وجماله مبيناً دور السياق في توضيحه، والسياقُ من أهمِّ الأدلة على المحذوف[3].

ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ...﴾ [البقرة: ١٣٥] يقول: «وفي هذا الكلام إيجاز القرآن وسبكه الخاص، والمراد: قالت اليهود: كونوا يهوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى، وإنما يوجز القرآن هذا الإيجاز اعتماداً على ظهور المراد بدلالة الاقتضاء ومعونة السياق، وذلك من البلاغة العالية»[4].

وأشار إلى عدد من أنواع الحذف وما يؤدّيه ـ فضلاً عن تقليل الألفاظ بالإيجاز ـ من فائدة دلالية كحذف جواب (لو) الذي يَرِدُ في التنزيل في عدَّة مواضع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا ...﴾ [الأنعام: ٢٧] إذ قال: «وجواب

---

(١) «الإيضاح» للخطيب القزويني (١: ٢٨٧)، دار الكتاب اللبناني، ط٥، ١٩٨٣م.

(٢) «البيان والتبيين» للجاحظ (١: ٨٦)، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٤٨م. وكتاب «الصناعتين» ص١٧٣. وينظر: «البلاغة والتطبيق» ص١٧٩.

(٣) ينظر: «البلاغة والتطبيق» ص١٨٥.

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ١٨٦).

(لو) محذوف للمبالغة في التهويل، والتقدير: لرأيتَ هَوْلاً عظيماً ولرأيتهم في أشدِّ الجزع»[١].

ومن أنواع الحذف ما أطلق عليه اسم **(الاقتضاب)**، وهو أن يقتصر في كل ما ذكر فيه اقتضاباً عن البقية التي ذكرت في موطن آخر قد ورد فيه الموضوع نفسه. فمن ذلك ما يجري في قصص الأنبياء[٢].

ومثله: **(الاكتفاء)** وقد عرّفه السيوطي بقوله: «هو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة»[٣].

ومن أنواعه عند الشيخ ما ينهجه القرآن في الوصف والبيان من الاقتصار على ذكر ما يظهر للعيان، أو ما يقرب إلى الأذهان، فيكتفي في وصف الجنان بقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾، مع أن أوصافها لا تتناهى.

وفي وصف المُكذِّبين بيوم الدين بقوله: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٢-٣][٤].

ومن الاكتفاء ما ورد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨] إذ يقول: «ذكر التنبيء وأراد الجزاء، من ذِكْر الشيء وإرادة نتيجته، ثم ذكر جزاء المؤمنين مكتفياً به عن جزاء المعلوم من المقابلة بدلالة مفهوم المخالفة على نهج إيجاز القرآن[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٣: ٢٩٩)، وينظر: (٧: ٩٩)، (٦: ١٧٨).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٥٢٧).

(٣) «الإتقان» (٢: ٧٩).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٥٢٨).

(٥) «أولى ما قيل» (٥: ٥٢٣)، وينظر: (٥: ٥٠٥)، (٣: ٢٩٢)، (٨: ٢٤٢).

وثَمَّ ضَرْبٌ من الإيجاز الجُملي أو التركيبي وهو (**الاحتباك**) يقول عنه السيوطي (ت٩١١هـ): «هو من ألطف الأنواع وأبدعِها. وقلَّ من تنبَّه إليه أو نبه عليه من أهل فن البلاغة... وذكره الزركشي ولم يسمه هذا الاسم، بل سمَّاه: الحذف التقابلي، وأفرده في التصنيف برهان الدين البقاعي (ت٨٨٥هـ).. وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول»[(١)].

ومن أمثلته ما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل: ٨٦] فقد أشار إليه بقوله: «ومن مباحث اللفظ (الاحتباك)، فقد حذف من صدر الجملة كلمة (مظلماً)، اعتماداً على ما يقابلها في عجزها، وحذفت جملة (لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ) من عَجْز الجملة اعتماداً على ما يقابلها في صدرها»[(٢)].

ومن روائع الاحتباك ما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣]، يقول الشيخ: «وفيه لفٌّ واحتباك على نهج القرآن... وإنما أتى بهذا اللون من النظم، فجمع بين الليل والنهار وأحاطهما بالمنام للابتغاء، ولم يقرن كل واحد بزمانه الطبيعي؛ تحرياً للصدق في الواقع، إذ قد يقع النوم في النهار والابتغاء في الليل»[(٣)].

وقد يجتمع الاكتفاء والاحتباك والتضمين في آية واحدة وسياق واحد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١] يقول الشيخ:

---

(١) «الإتقان» (٢: ٧٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٤٧١)، وينظر: (٧: ٢١٥)، (٤: ٣٦٥)، (٢: ٦٥).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٥٦٤).

«ويجوز أن يكون في الآية احتباك واكتفاء على سُنَّة القرآن، فاكتفى بالفعل عن مصدره، وبالمصدر عن فعله، لأنها بمعنى: ولَـوْ يُعجِّل الله للناس الشـرَّ تعجيله للخيـر حين يستعجلون الشرَّ بأعمالهم وأقوالهم استعجالهم بالخير لقُضي إليهم أجلهم، ولكنّه سبحانه لا يعجل لهم ذلك، وإنما يُمهلهم ويُؤخِّرهم إلى أجلٍ مسمًّى.. وقد ضمَّن قضى معنى عجَّل فعدّاه تعديته»(١).

وحذف جواب القسم ضرب من الإيجاز في القرآن، وهو كثير فيه. فمن أمثلته التي أشار إليها الشيخ ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، إذ بيَّن أن «جواب القسم محذوف على نهج القرآن في أنواع الإيجاز، وتقديره كما يفهم بعده: ليس الأمر كما تقولون، وإن الحشر والحساب لآت ومتحقق»(٢).

والعطف على محذوف وخاصة بعد الأداة (أم) من ضروب الإيجاز، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف: ٩]، رأى أن «أم ابتدائية تأتي في القرآن لابتداء الجملة والاستفهام، ويجوز أن تكون عاطفة للجملة معطوفة على محذوف على سنَّة إيجاز القرآن، والتقدير كذا...»(٣).

ويقف الخطيب مبهوراً إزاء الإيجاز بحذف المفعول في نحو قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، لما فيه من سرٍّ تعجز الأفهامُ عن إدراكه فيقول: «وما أبلغ حذف مفعول آتنا في هذا المقام فهو من دقائق الإيجاز التي تحار فيها الأفهام وتعجز عنها قرائح الأنام»(٤).

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ١٥٩).
(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٢٢٧).
(٣) «أولى ما قيل» (٥: ١٠-١١).
(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٢٩٦).

وكان الجرجاني قد وقف عند ظاهرة حذف المفعول به وأوضح شيئاً من أسراره في القرآن وغيره[١].

ويلفتنا الشيخ إلى عدد من الآيات التي تتزاحم فيها المعاني، مع إيجازها الشديد، كالتي في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البقرة: ١٨٨]، فالآية كما يراها الشيخ «حكم عامٌّ من أحكام البرّ، وبمقتضى السياق تقريعٌ لأولئك المشاغبين المرابين، وهي تقابل العلاقة بين العبد وربه في الصوم، إذ هي تنظِّم العلاقة بين العبد والعبد.

وقد ورد هذا الحكم بهذه العبارة للإشعار بوحدة الأمة وتكاملها، للتنبيه على أنَّ احترام مال الغير هو احترامٌ وحفظٌ لمال نفسه، واستحلال مال الغير يجري على استحلال ماله» وهذا المعنى الكبير عبَّر عنه بهذه الألفاظ القليلة. الأمر الذي حمل الشيخ على القول: «فما أبلغ هذا الإيجاز وما أجدره بوصف الإعجاز؟»[٢].

ونراه يربط بين الإيجاز والإعجاز، فيراهما ـ في موضع ـ صورة واحدة ووجهاً واحداً، كالذي في قوله تعالى: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] إذ يبيِّن أن هذه العبارة «من أبلغ عبارات الإعجاز والإيجاز»[٣]. وهذه العبارة القرآنية لفتت أنظار المفسرين قديماً ومنهم الطوسي، فقد قال عنها: «إنها من عجيب فصاحة القرآن الخارقة للعادة»[٤].

ب ـ **الإطناب**: وهو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة[٥]، وفرقوا بينه وبين التطويل

---

(١) «دلائل الإعجاز» ص١١٨.

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ١٧٧).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٣٣١).

(٤) «التبيان» (٦: ١٨٧). وينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» للزيدي ص٣٤٦.

(٥) «المثل السائر» (٢: ١٢٨). وينظر: «البلاغة والتطبيق» ص٢٠١.

فعدّوا التطويل عيباً[١] وقد وقف الشيخ رشيد وقفات عند أساليب الإطناب، وبخاصَّة أسلوب التكرار فقد تحدث عنه في مقدمته، كما عرض له في ثنايا التفسير.

فمن خصائص أساليب القرآن: التعاقب على الغرض الواحد بألوان من الأساليب والتراكيب والتعابير، لأن الأدلة إذا تضافرت على مطلوب واحد كان لها وقع عظيم في النفوس. وهو يُسَمِّي هذا الأسلوب: التكرار مع تنوّع الأساليب والتفنّن في التراكيب[٢].

كما نبَّه على التكرار في القصص القرآني، وما لكل موضع من نمط في الأسلوب والترتيب يتفقان مع أبلغ الوجوه في العبرة والتذكير، وأدعاها إلى التأثير، حسب السياق. وتختلف القصة في كل سورة عن الأخرى بزيادةٍ أو قِلَّةٍ في عدد من الجمل أو الألفاظ تمشِّياً مع مقتضيات الأحوال والأغراض في السياق، وفي كل مرة تتكرَّر فيها القصَّة لونٌ من العبرة والموعظة[٣].

ويلحظ الشيخ كذلك أنَّ البيان عن القيامة والحساب يَتكرَّر في القرآن، فلا تخلو سورة منه وإن كان أكثره في السور المكيَّـة، ولكن لكل موضع منه أسلوب وسياق وصورة خاصة تمتاز من الأخرى ولا تتباين معها، على نهج مجاز القرآن فيما يتكرَّر فيه من البيان[٤].

ومن التكرار في القرآن: الاستطراد إلى أشياء لها مساس بموضوعه، زيادة في التقرير، وهي ليست من النوع المخلِّ بالبلاغة، بل هي في أعلى مقام منها[٥].

---

(١) «المثل السائر» (٢: ٧٤-١٥٧).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٥١٠، ٥١٦، ٥١٧، ٥٩٤)، (٢: ١٣٨).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٥).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٦).

(٥) «أولى ما قيل» (١: ٥١٣).

وللتكرار مقاصده في التنزيل، منها: (التقرير) كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧]، إذ بين أن: «التكرار لهذه الآية في هذه السورة إنما هو لتقرير النِّعم، وتأكيد التذكير بها، يعيدها عن بيان كل نوع من أنواعها إيجاباً وسلباً.

والتكرار لاختلاف ما يُقَرَّر به معروف عند العرب وفي أساليبهم وأشعارهم كما في رثاء المهلهل أخاه كليباً»، وأحال إلى ما كتبه ابن رشيق في «العمدة» عن التكرار في أشعار العرب لأغراض متنوعة[١]. وكان الطوسي قد نبَّه على معنى التقرير في هذا التكرار من قبل[٢].

وذهب القزويني إلى أن التكرار في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لتعدّد المتعلق، لأنه تعالى ذكر نعمة بعد نعمة، وعقب على كل نعمة بهذا القول[٣]. ملفتاً بكلامه هذا إلى ما في هذا التكرار من تقرير.

وقد يكون التكرار (للمبالغة) كما في آية [البقرة: ١٤١]، إذ يقول فيها: «ثم ختم المُحاجّة بتكرير الجملة السابقة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، لأنَّ ما قبلها مماثل لما قبل سابقتها، فهي للمبالغة في زجْرهم عما هم عليه من الافتخار بالآباء، والادعاء بأنهم على ملتهم وسالكون مسلكهم»[٤].

وقد يكون التكرار للعناية كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٢٣٤)، وينظر: (٢: ٣٧٠)، (١: ٥١٢).

(٢) راجع «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» للزيدي ص٣٧٤.

(٣) «الإيضاح» (١: ٣٠٤).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ١٩١)، وينظر: (٨: ٩٧).

ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، فقد بيّن أنه كرّر اسم الإشارة (أولئك) لإظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم[١].

وكما يتكرَّر الاسم يتكرر الحرف، فيكون له غرضه البلاغي، على نحو تكرار الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦-١٧]، فقد بيّن أنَّ: تكريرها «للمبالغة والتشديد»[٢].

على أنَّ التكرار كما يكون بلاغة، يكون عِيّاً وتطويلاً، وهو ما يتنزَّه عنه البيان الأعلى المعجز، ولذلك ينفيه الشيخ في صورته الثانية عن كتاب الله المبين، على نحو ما ورد في تفسير سورة (الكافرون)، إذ بيَّن أن (ما) في الآيتين الأوليين من السورة موصولة، وفي الآيتين التاليتين مصدرية، فلا تكرار على هذا في (ما)، «فمفاد الجملتين الأوليين: الاختلاف التام في المعبود، ومفاد الجملتين الأخريين: تمام الاختلاف في شكل العبادة، فلا معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة»[٣].

والشيخ في بيان فائدة التَّكرار ينطلق من النصِّ وما يحمله من معنى، ففي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]، يذكر أنَّ: «هذه الإعادة لبيان عدم إخلال ذلك العمل بالحكم وللمبالغة في تقريره»[٤]. على حين عدّ الخطيب القزويني تكرار اللفظ هنا لطول الكلام[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٢٦).
(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٩٥).
(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٣٨٦).
(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٥٠٧).
(٥) «الإيضاح» (١: ٣٠٤).

١١) وضع الظاهر موضع المضمر والعكس:

ومن سُنن القرآن التي التفت إليها الشيخ «أن يذكر المظهَر في موضع المُضْمَر إيذاناً بالتعليل بالوصف الذي يدل عليه المظهَر، وبياناً لموجب الحكم، وتقريراً لحكم عام يدخل في مدلول ذلك المضمر وغيره، وتسجيلاً بالوصف على أولئك الموصوفين به، إلى أمثال ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، ولم يقل: ولهم عذاب مهين»[١]. أو بعبارة أخرى: أن في وضع المُظْهَر مكان المُضْمَر هنا دمغاً لهم بصفة من صفاتهم التي ذُمّوا بها واستحقوا الوعيد عليها.

وقد يكون الإظهار لتربية المَهابة في نفس السامع، ويكون ذلك بذكر لفظ الجلالة في موضع ضميره، وهو في القرآن كثير، كقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤][٢]. فأظهر لفظ الجلالة في آخر الآية، بدل الضمير الذي يعودُ عليه في لفظه الأوّل الذي تقدَّم.

وقد ذكر السكّاكي: أن المظهَر يوضع موضع المضمَر «إذا أريد تمكين نفسه زيادةَ تمكين كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، أو إدخال الروعة في ضمير السامع وتربية المهابة، أو تقوية داعي المأمور، وعليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩][٣]، فكرر لفظ الجلالة، ولم يقل: إنه يحب المتوكلين، حثاً للنبي ﷺ على إمضاء هذا العزم بالتوكل.

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٤)، (٢: ١٣٥).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ٤٢٧)، (١: ٥٣٤، ٦٢٤).

(٣) «مفتاح العلوم» ص٣٩٤-٣٩٥.

ومن مقاصد وضع المُضْمَر مَوْضع المظهر: «أن يعود الضمير على ما يدركه الذهن وإن لم يتقدَّم له معنى، أو على ما يفهم من السياق، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] أي: على ظهر الأرض إذ لا يجهل الذهن أنها المراد، أو كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [البقرة: ١٦٢، آل عمران: ٨٨] أي: في جهنَّم»[١]. مع أنه لم يتقدَّم لجهنم ذكر في السياق. ولكن ذلك يدركه الذهن بدليل العقل، الذي هو أحد القرائن الدلاليَّة[٢] في فهم النصوص، ومنها النص القرآني الكريم.

١٢) استعمال الأفعال:

وللشيخ لفتات بلاغية رائعة عند استعمال الأفعال يُوقفنا فيها على ما تحتويه من أسرار.

فمن ذلك استعمال صيغة البناء للمجهول في موضع دون آخر على نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] إذ يقول في تعليقه عليه: «وذلك من البلاغة العالية، حذف الفاعل في المعادل الأول وبناء الفعل للمجهول، فقال: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾.. وذكره في الثاني فقال: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ وذلك لتنسب إرادة الخير إلى الله دون الشر، كما في قوله تعالى على لسان أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] إذ نسب المرض لنفسه ونسب الشفاء إلى الله تعالى[٣].

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٢).

(٢) وهناك قرينة (الحال)، والقرينة اللفظية، وخاصة السياقية.

(٣) «أولى ما قيل» (٨: ٢٥).

ومنه استعمال الفعل المضارع دون الماضي، لإفادة الاستمرار في الحدث وتجدُّده آناً بعد آن، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ٢٨] إذ بيَّن أنَّ «العدول إلى صيغة المضارع، لإفادةِ دوام الاطمئنان وتجدُّده كلَّما تجددت الذكريات»[١].

١٣) التغليب:

دَرَجَهُ القزويني في علم المعاني، وقال إنه: «باب واسع يجري في فنون كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، فعبّر عن الإناث بصيغة التذكير تغليباً للذكور عليهنّ، وكقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤] فعدّ إبليس من الملائكة بحكم التغليب»[٢].

والتغليب عند الشيخ رشيد من أساليب اللغة وخصائص العربية، كتغليب الأَوْلى على ما دونه في الأَولَويَّة كما في قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء: ١١] إذ بيّن أنه يريد أمه وأباه على طريقة التغليب[٣]. أي: تغليب الأب على الأم.

وقد يكون تغليب العاقل على ما لا يعقل كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ [الصافات: ١١]، إذ قال: «أي: مما ذكر من السموات والأرض وما بينهما، وأتى بـ(من) دون (ما) تغليباً للعقلاء ـ وهم الملائكة ـ وهي أنسب في معادلتها للضمير: هم»[٤].

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٣٦٨).

(٢) «الإيضاح في علوم البلاغة» (١: ١٨١).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢١).

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ١٩٤).

وقد يكون العكس فيغلب القرآن غير العقلاء على العقلاء كما في قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٦] لنكتة بلاغية إذ بيَّن أنه: «غلب في الملكية ما لا يعقل فاستعمل (ما) بدل (من)، لأن المراد بتسخيرها له التسخير الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار، ويستوي في ذلك العاقل وغيرُه ولكنه في غير العاقل أظهر»[١].

فهو يعلِّل كل لون من ألوان التغليب ويُبيِّن سرَّه في الأسلوب العربي، ومثله تغليب إحدى الجهتين على ما يقابلها كما في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣٨]، إذ التفت إلى أنَّ القرآن غلَّب المشرق على المغرب، يقول: «المراد من المشرقين: المشرق والمغرب على التغليب، وهو مثل يضرب لبعد المسافة البالغ»[٢] ومثله: القمران والأسودان في كلام العرب للشمس والقمر، والتمر والماء.

وفي قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [فاطر: ٣٣] يفترض الشيخ التغليب في فعل ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ «من باب أن يذكر أمران ويسند لهما ما هو لأحدهما، لأنَّ واو الجماعة هذا يشمل الذكور ويشمل الإناث بطريق التغليب»[٣].

ويبدو أن الشيخ هنا أراد أن يستبعد الحليَّ للرجال بتخريج لغويّ بلاغي، وهو خلاف رأي الجمهور، لذلك جعل رأيه هذا الثاني وقدَّم قوله: «ويظهر أنَّ هذا في مكان وسام التقدير والتلطيف». وفي كلا الرأيين تبدو نفرته من تزيّن الرجال بزينة النساء، وفي رأيه كثير من التوفيق.

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١٦٩).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٤٤٦).

(٣) «أولى ما قيل» (٦: ١٥٤).

المبحث الثاني

علم البَـيَان

وهو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه[١] ويتعلق بالتشبيهات، والـمجازات بأنواعها من استعارات ومجازات عقلية ومرسلة وكنايات.

ولعلم البيان مكانة مرموقة في علم البلاغة، يدل على ذلك قول الجرجاني: «إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً، وأبسق فرعاً، وأحلى جَنىً، وأعذب ورداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً من علم البيان الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدّر»[٢].

وكان للشيخ رشيد في تفسيره وقفات ونفحات، أضاء فيها جوانب من بيان القرآن وسحره وإعجازه.

١ ـ التشبيه:

وقف الشيخ عند عدد من التشبيهات القرآنيَّة، يُحلِّلها ويُبرز دورها في تَـجْلية المعنى القرآني، والوصول إلى الغاية والتأثير، إلا أنه لم يكن حريصاً على تسمية هذه التشبيهات، وتبيـين أنواعها التي نصَّ عليها البلاغيون إلا نوعاً واحداً هو (التشبيه

(١) «الإيضاح» للقزويني (٢: ٣٢٦).

(٢) «دلائل الإعجاز» ص٤.

الضمني)، فقد سمّاه باسمه محللاً إياه ومبيّناً الغرض منه، كالذي في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، فقد قال: «ثم شبّه الغيبة تشبيهاً ضمنياً بأكل لحم الميِّت، مبالغةً في التّنفير منها والتّقبيح لأمرها، وصاغ العبارة بصيغة الاستفهام التوبيخي التبشيعي للتنبه على مكان الفعلة عن قبح هذه الخصلة وبشاعتها ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، ثم أردف الإنكار بها لا نزاع عليه، وهو تقرير القبح، فقال: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فأفاد أنَّ كراهة مثل ذلك أمر مقرَّر لدى النفوس، فيجب أن تكون فظاعة الغيبة الشبيهة به أمراً مقطوعاً به أيضاً على طريقة قياس النظير. فقد نبَّـه النفوس إلى ما لا تنكر قبحه وبشاعته، ثم قاس عليه ما لم تنتبه له، لأنها قد استساغته وألفته بتأثير العادة والتكرار[١].

ومن المعروف أنَّ التشبيه الضمني، هو الذي يأتي بعد تمام المعنى، ويكون بمثابة البرهان والدليل عليه. كما أنه لا يأتي في أسلوب من أساليب التشبيه، وإنما يلمح المشبه والمشبه به ويفهمان من المعنى، وقد أشار إليه الجرجاني[٢] بلا نصٍّ صريح على مصطلحه[٣].

ويبدو التحليل الذي قدَّمه الشيخ لهذه الآية قريباً من تحليل الزمخشري[٤] لها، مع سمة أسلوبية تمتاز بجودة السبك وقوة التعبير.

وقد يشير إلى الضمني بعبارة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا

(١) «أولى ما قيل» (٧: ١٢٤).

(٢) «أسرار البلاغة» (١٠٩-١١٠).

(٣) ينظر: «البلاغة والتطبيق» ص٣٠٨، و«البلاغة فنونها وأفنانها» (٢: ٦٩-٧٠).

(٤) «الكشاف» (٤: ٣٧٣-٣٧٤).

نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢] فيقول: «صورة التعبير في منتهى السخرية والتسخيف لهم، حيث تضمَّنت تشبيههم بمن يحاول بنفخه إطفاء نور مُنْبَثٍّ في الآفاق، أو من يحاول إطفاء نور الشمس بفيه»(١).

ونستطيع أن نلمح (التشبيه التمثيلي) في عددٍ من التشبيهات التي وقف عندها الشيخ، وإن لم يكن قد أشار إليها بصراحة، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، إذ قال: «يمثل الإيمان في عُلوِّه بالسماء، ويُمثِّل الشرك والضلال بهذا السقوط والهلاك والردى... ومحصَّل الكلام: تشبيه لحال المشرك بحال من يسقط من السماء، فلا يملك لنفسه أمراً. فإما أن يندقّ ويتفسخ، ويكون نصيب الطير، وإما أن ترمي به الريح في مكان بعيد عن غرضه الذي يرمي إليه، فضلاً عما في ذلك من المهاوي والمهالك»(٢).

يبدو من ظاهر الآية أنَّ الذي يخرّ من السماء بين مصيرين، فإما أن تخطفه الطير وهو في السماء، تشبيهاً بالجوارح التي تخطف الطيور الصغيرة وهي في الفضاء، وإما أن يهوي في مكان سحيق، وتُرِك تقدير مصيره في هذا المكان السحيق للخيال(٣).

وهذا التشبيه تمثيلي لدى الجرجاني(٤)، لأنَّ وجه الشبه فيه عقلي يحتاج إلى تأويل، وكذلك هو لدى السكاكي(٥)، لأنَّ وجه الشبه عقلي وهيئته منتزعة من متعدد، ومثلهما القزويني(٦)، لأنَّ وجه الشبه مركب.

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٨٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٢٣٢).

(٣) ينظر: «في ظلال القرآن» (٥: ٥٩٧).

(٤) «أسرار البلاغة» ص٨٢-٨٧، وينظر: «البلاغة فنونها وأفنانها» (٢: ٥٧-٦٣).

(٥) «مفتاح العلوم» ص٥٧٥-٥٧٦، وينظر: «البلاغة فنونها وأفنانها» (٢: ٥٧-٦٣).

(٦) «الإيضاح» (٢: ٣٧١-٣٧٢)، وينظر: «البلاغة فنونها وأفنانها» (٢: ٥٧-٦٣).

وقد يكون الشيخ استبدل باصطلاح (التشبيه التمثيلي) قوله: «تمثيل الإيمان». ونرى نظير ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٢٦]، إذ يقول: «والآية تمثيلٌ شبِّهت فيه حال أولئك الماكرين الذي يدبِّرون أنواعاً من المكر للإيقاع برسل الله، وشبَّه إبطاله لتلك الحيل، وجعله إيّاها أسباباً لهلاكهم، بحال قوم بنوا بنياناً وعَمَّدُوه بالأساطين[١]، فأتى ذلك البناء من أساطينه، بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا، ثم أردف هذا التمثيل بالحقيقة جرياً على قواعد البلاغة العالية»[٢].

ونراه يشير إشارة مجملة إلى التشبيه في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٣] من دون بيان نوعه وأحواله التركيبية، بل يقول: «عقد المشابه الاستيلاد والاستنبات»[٣]. وهذا تشبيه حذفت منه أداة الشبه ووجهه، فهو تشبيه بليغ إذ يكون التقدير: نساؤكم كالحرث لكم، أي كالزرع، وقد يكون استعارة من جهة أخرى والأول أظهر.

ومجمل القول أن الشيخ لم يكن حريصاً على تفصيل التشبيهات وأنواعها حسب ما نصَّت عليه كتب البلاغة بقدر ما كان حريصاً على بيان صورة التشبيه ودلالته المعنوية، وما يشتمل عليه من جمال وتأثير.

٢ـ الحقيقة والمجاز:

الحقيقة ـ لدى الجرجاني ـ[٤] أن يقرَّ اللفظ على أصله، والمجاز أن يزال عن

---

(١) جمع أسطوانة «لسان العرب» (سطن).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٤٦٣).

(٣) «البلاغة والتطبيق» ص٣٠٥.

(٤) «دلائل الإعجاز» ص٢٨٠، و«أسرار البلاغة» ص٣٥٦.

موضعه ويستعمل في غير ما وضع له، وزاد من تلاه: لعلاقة مع قرينة تمنع إيراد المعنى الحقيقي[١].

أولى الشيخ رشيد المجازات في القرآن أهمية كبيرة، إذ أفرد لها مكاناً في مقدمته بعنوان «المجازات في القرآن»[٢]. عدّد فيها أنواعاً كثيرة من المجازات شملت «المجاز العقلي، والمجاز المرسل، ومجازات الاستعارة، ومجازات التشبيه»[٣] كما يسميها.. فعدّ التشبيه من المجاز، وهو رأيٌ يذهب إليه طائفة من البلاغيين وإن كانوا عموماً يفردون التشبيه من المجاز، وعبارة الشيخ في أول المقدمة السادسة: «في القرآن العظيم أنواع من المجازات والكنايات والتشبيهات»[٤]، لا تضادّ تسميته التشبيه: «مجاز التشبيه»[٥]، وقد استقى قسماً من هذه المجازات من كتاب: (الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز) لعز الدين بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ). الذي أشار إليه في تفسير سورة الرحمن، وقد مرّ ذلك في فصل المصادر.

نبّه الشيخ رشيد على احتمال الحقيقة والمجاز في تفسير طائفة من الآيات بقرينة عقلية كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، فقال: «وأما كلمة ﴿وَرَآءَ﴾ فيحتمل أن تكون بمعناها الحقيقي، ويحتمل أن تكون مستعارة للقوة والتعقيب»[٦].

---

(١) «الإيضاح» (٢: ٣٩٤)، وينظر: «البلاغة فنونها وأفنانه» (٢: ١٢٨)، و«البلاغة والتطبيق» ص٣٢٠-٣٢٣.

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٦٨٦-٧٠٠).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٦٩٤).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٦٨٦).

(٥) «أولى ما قيل» (١: ٦٩٤).

(٦) «أولى ما قيل» (٥: ٤٤).

ويتصل الحمل على المجاز والعدول عن الحقيقة في مواضع بوجهة الشيخ التأويلية وروحه النازعة إلى الإصلاح، وهو مع ذلك لا يرى مانعاً من الجمع بين الوجهين: الظاهر والحقيقي، والتأويلي والمجازي، وهي وجهة لغير واحد من البلاغيين كالرازي وغيره على نحو ما نجده في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد: ٥] يقول: «أغلال التقليد الأعمى والضلال، وبمعنى مغلولون يوم القيامة بأغلال العذاب، أو المعنيان معاً جمعاً بين الحقيقة والمجاز»[١].

وفي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣] يقول: «يريد السيد العزيز، ويورّي بالله سبحانه، ويجمع بين المعنيين الحقيقي والمجازي...»[٢].

وفيما أورده الشيخ من هذه المعاني دليل واضح على جواز المجاز في القرآن وهو رأي جمهور المفسرين، خلافاً لما ذهب إليه الظاهرية ونفرٌ من الفقهاء والمتكلمين الذي أنكروا وقوع المجاز في القرآن[٣]. وهو أمر لا يسلّم به، لأنه يُجرِّد القرآن من أروع ما فيه من صور التعبير والإعجاز.

ولابد بعد هذا من الكلام على ضروب المجاز التي ذكرها الشيخ في تفسيره.

أـ المجاز العقلي:

وهو الذي يشترط فيه الإسناد، أي: إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، إذ المجاز اللغوي يكون في الكلمة نفسها باستخدامها لغير ما وضعت له[٤]. وسماه

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٣٥١).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٢٩٠).

(٣) ينظر: «المجاز في القرآن» لمهدي صالح السامرائي ص١٤٣، و«البلاغة والتطبيق» ص٣٢٢، و«البلاغة فنونها وأفنانها» للدكتور فضل عباس (٢: ١٣٢-١٣٣).

(٤) «البلاغة فنونها وأفنانها» للدكتور فضل حسن عباس (٢: ١٣٩).

الجرجاني (المجاز الحكمي) واشترط له شرط الإسناد في «دلائل الإعجاز»[١] على حين سماه (المجاز العقلي) في «أسرار البلاغة»[٢]، وسماه الرازي المجاز العقلي أيضاً وعرفه بنفس التعريف[٣].

وقف الشيخ رشيد على عدد من المجازات العقلية محلّلاً ومعلّلاً ومبيِّناً فائدة هذا النوع من المجاز، فمن ذلك المجاز الذي يرد بصيغة (مفعول) ويراد به لدى أغلب البلاغيين صيغة (فاعل)، كالذي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] إذ رأى: «أن اسم المفعول هنا بدل صيغة اسم الفاعل، مبالغة في مدلوله على طريقة المجاز العقلي»[٤]. على حين أنه قد يراد المعنى الحقيقي أي: حجاباً خفياً لا تراه أبصارهم، أو لا تدركه قلوبهم[٥]. وهو الرأي الذي يذهب إليه أستاذنا الزيدي.

وقد يحتمل اللفظ وجهين: أحدهما يؤول بالمجاز العقلي، فينبه عليه الشيخ محللاً ومعللاً ومرجِّحاً، كالذي في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤] إذ يقول: «والساهرة: الأرض البيضاء المستوية سُمِّيت بذلك لأنَّ السراب يجري فيها، من قولهم: عين ساهرة للتي يجري ماؤها، وعين نائمة للتي لا تجري. وقيل: هي المفازة لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة، فتكون مجازاً عقلياً من إسناد وصف للمكان، وهذا أنسب

(١) «دلائل الإعجاز» ص٢٢٧-٢٢٨.

(٢) «أسرار البلاغة» ص٣٠٦.

(٣) «نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز» لفخر الدين الرازي ص٨٤، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ومحمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر ١٩٨٥.

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ٥٤٢).

(٥) ينظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠: ١٧٦).

للموضوع لأن الناس على أرض المحشر في أشد الجزع والـهلع»[١].

وقد يورد عدداً من أنواع المجازات العقليَّة من غير أن ينسبها إلى المجاز العقلي ويصفها به كما في قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، إذ يقول: «المراد نحت الصخر لبناء البيوت وفيه ذكر السبب وإرادة المسبَّب»[٢] فهذا من المجاز العقلي، لأن الكلمة لم تخرج عن استعمالها العقلي وإنما المجاز في الإسناد، وذكر السبب وإرادة المسبّب من علاقات المجاز العقلي التي نصّ عليها البلاغيون[٣].

ب ـ المجاز اللغوي:

ويُسمَّى المجاز المفرد وهو: «الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له.

في اصطلاح التخاطب، على وجه يصح مع قرينة عدم إرادته»[٤]. وكان الجرجاني قد فرق بين المجاز اللغوي والعقلي، بأن اللغوي يكون في الكلمة المفردة[٥].

وينقسم المجاز اللغوي على قسمين: فما كانت علاقته المشابهة فهو الاستعارة وإلا فهو مجاز مرسل.

أولاً: المجاز المرسل:

«وهو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير المشابهة، كاليد إذا استعملت في النعمة»[٦].

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ١٢٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٤٤٧).

(٣) ينظر: «البلاغة فنونها وأفنانها» (٢: ١٥٠).

(٤) «الإيضاح» (٢: ٣٩٤).

(٥) «أسرار البلاغة» ص٣٧٦.

(٦) «الإيضاح» (٢: ٣٩٧).

وقف الشيخ عند كثير من المجازات المرسلة التي وردت في الآي بأنواعها، فأشار إلى عدد من علاقاتها، كالسببيّة بذكر المسبب وإرادة السبب وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً ﴾ [التوبة: ١١٠] فقد بيّن أنه: «ذكر البنيان وأراد سببه بطريقة المجاز المرسل، أي سبب بنيانهم، يُبقي لها قابليّة الإدراك، يبين بذلك أن نفاقهم وكفرهم راسخ فيهم لا يمكن تحويلهم عنه»(١).

ومثله ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ [يس: ٦٠] إذ بيّن أنه: «سُمِّيَ عبادة لأنه السبب في عبادة غير الله»(٢).

ومنه ما كانت علاقته الذاتيَّة، كالتجوُّز بالذات عن العلم في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]، إذ قال: «أي: ما يخطر بباله ويلوح في هواجسه، ونحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من عرق عنقه. فتَجَوَّزَ بالذات عن العلم لأنه من موجباته»(٣).

ومنه الذي علاقته (العموميَّة)، وهو الذي يكون التجوز فيه بذكر العام وإرادة الخاص، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة: ١٣]، إذ يقول فيها: «وفي كلمة الناس ذكر العام وإرادة الخاص وهو من المجاز المرسل»(٤). ومراده من ذلك: أن المراد بالناس هنا خصوص الذين آمنوا لا مطلق الناس، وهذا من قبيل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، إذ المراد بالناس الأولى نعيم بن مسعود الأشجعي وليس كافّتهم(٥).

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ١٣٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ١٨٢).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ١٤١).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ٣٥).

(٥) القرطبي: «الجامع لأحكام القرآن» (٤: ١٧٨).

ومنه التَّجوُّز بالقول عن الفعل كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، إذ قال: «ليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين، ولكن المراد أنهم فهموا الميثاق ولم يعملوا به ففيه تجَوُّزٌ بالقول عن الفعل، وهو من خصائص اللغة وأساليب القرآن»[١].

وقد يشير إلى المجاز المرسل من دون الإشارة إلى علاقته، اكتفاء بتحليله، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧]، يقول: «والمراد من إثبات الشر لمكانهم، إثباته لأنفسهم على طريقة المجاز المرسل»[٢].

ثانياً: مجاز التضمين:

عدّ الشيخ من أنواع المجازات ما سمّاه (مجاز التَّضمين) وعرَّفه بقوله: «أن تضمّن الكلمة معنى كلمة أخرى فتعديها تعديتها، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، فضمَّن سَفِهَ أهلك، فأفادت المعنيين...»[٣] وقد نبَّه الشيخ في تفسيره على عدد كبير من هذا النوع من المجاز، وهو ما لم تذكره كتب البلاغة مع المجاز.

وإنما جاء في كتب النحو، وقد أشرت إليه في فصل النحو، وقد أفاده الشيخ من كتاب «الإشارة في الإيجاز إلى بعض أنواع المجاز في القرآن الكريم» لعز الدين بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ) الذي عدّ التضمين من مجازات القرآن[٤].

ثالثاً: الاستعارة:

عرفها السكاكي[٥] بقوله: «هي أن تـذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١٣٨).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٣٣٠).

(٣) «أولى ما قيل» (١: ٦٩٦).

(٤) «الإشارة في الإيجاز إلى بعض أنواع المجاز في القرآن الكريم» ص٥٥-٥٨.

(٥) «مفتاح العلوم» ص٥٩٩.

الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به».

وقف الشيخ رشيد عند كثير من الاستعارات في القرآن، مبيناً مواطن الجمال فيها، وقد سمّى عدداً منها، وبيّن نوعها، وأشار إلى عدد آخر من غير أن يبين نوعها. ووصفه لها يدل على تذوق فني عالٍ لها.

فمن ذلك الاستعارة التصريحية، في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، إذ قال: «وفي الكلام استعارة بديعة مزدوجة من صفات المطعوم والملبوس»(١).

وهذه استعارة تصريحيَّة لم يسمِّها الشيخ ولكنه عدّها مزدوجة، وذلك لأنه استعار للخوف والجوع صفتين: صفة الطعام بقوله: (أذاقها)، وصفه اللباس بقوله (لباس) ففي النص استعارتان فضلاً عن الاستعارة التخييلية في لفظ القرينة وهي الإذاقة، حيث شبهت الإذاقة المتخيلة بالإذاقة المتحققة واستعيرت للمتخيلة(٢).

ونراه يفسر قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦] بوجهين: أحدهما: باعتبار (إن) نافية «فيكون قد استعار الجبال لحجج القرآن القوية ودلائل النبوة الثابتة»(٣). فهي عنده استعارة تصريحية كما يفهم من كلامه، إذ شبه الحجج بالجبال، فحذف المشبه وأبقى المشبه به.

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٥٠٤).

(٢) «الاستعارة في القرآن» لأحمد فتحي ص٧٩، رسالة ماجستير، مخطوطة عام ١٩٨٨، في كلية آداب الموصل.

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٤١١).

ويلمح الشيخ في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة: ١٠٩] استعارتين: مكنية وتمثيلية، فيقول: «ومن مباحث اللفظ: أنه استعار المكان القوي للتقوى استعارة مكنية، واستعار شفا جرف هار للكفر والنفاق استعارة تمثيلية، وعقد المقابلة بينهما. وقوله: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ ترشيح للبناء وللنفاق معاً..»[١].

وتحليل الشيخ هنا ينبئ عن فهم دقيق للاستعارة، فالأولى حذف فيها المشبه به وهو البناء الذي شبهت به التقوى، وترك شيء من لوازمه وهو أسس البنيان. والثانية تشبيه صورة النفاق بما فيه من تقلقل وتذبذب ـ وهي صورة معقولة ـ بحال بناء قائم على شفا جرف هار ـ وهي صورة مُحَسَّة ـ لما بينهما من وشيجة عدم الاستقرار وتوقع الانهيار والسقوط، ثم حذف الصورة الأولى المشبه، وبقيت الثانية المشبه به.

ونجده يشير إلى الاستعارة المكنية من غير أن يبين نوعها عند قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، فقال: «وقد استعار صفة الغضب للإشارة إلى أنه هو الذي كان يغريه بالكلام»[٢] وكأن الآية هنا قد شخّصت الغضب كائناً حياً شريراً يستفزّه ويثيره[٣]. فحُذف المشبه به وتُرِك شيء من لوازمه وهو السكوت. يقول الزمخشري[٤]: «كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وجرّ برأس أخيك إليك..».

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ١٣٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٤٧٩).

(٣) ينظر: «الاستعارة في القرآن» لأحمد فتحي ص١٣٠.

(٤) «الكشاف» (٢: ١٦٣).

ومن الاستعارة التمثيليَّـة ما ورد في قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٣] إذ فسّر الإدبار بأنه: «عن موقف الحساب إلى النار»، ثم قال: «ويجوز أن يكون الكلام استعارة تمثيلية من حالة الإبل النافرة من شدة الخوف. وتفرّ مدبرة، مثَّل به شدَّة خوفهم في موقف الحساب»(١). وعدّه لها استعارة أمر غريب، فمتى كانت التولية للأدبار خاصةً بالإبل؟ إذ هي عبارات عامة تصلح لكل هارب خائف.

وبالمثل يحتمل الشيخ الاستعارة التمثيليَّة في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وإن لم يقطع بذلك فيقول: «يحتمل أن تكون هذه الآية عبارة عن دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. وتلمح إلى ما يكون بينهم من عزلة تامة، إلا من ناحية خاصَّة وهي معرفة البعض بأحوال بعض، ومكالمتهم المحدودة التي كنى عنها بالباب... فقد عقد المشابهة بين هذه العزلة إلا من وجه خاص وبين السور الذي له باب على طريقة الاستعارة التمثيلية»، ثم يقول بعد هذا التحليل البياني للاستعارة: «هذا ما أراه والله أعلم»(٢)، إذ اجتهاده في فهمها وتحليلها غير خاف، ولذا أوكل علم ذلك إلى الباري سبحانه.

ولا يفوت الشيخ أن يشير إلى (الاستعارة التخييلية) وهي ضرب من الاستعارة المكنية إلا أن عملية إسناد أحد لوازم المشبه به إلى المشبه عملية تخييلية وليست حقيقية(٣)، كما في قوله تعالى: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ [البقرة: ١٩] إذ يقول: «استعارة تخييلية مبنيَّة على تشبيههم في تغاضيـهم عن قوارع هذا النور الساطع، بمن يسـدّ آذانه من الصواعق حَذَرَ الموت

(١) «أولى ما قيل» (٦: ٣٢٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٧: ٢٩٤).

(٣) ينظر: «البلاغة فنونها وأفنانها» (٢: ١٧٥).

حماقةً وبلهاً. فقد سيقت هذه الاستعارة لتصوير ناحيتين من نواحي نفوسهم، وبيان أمرين من أمورهم، فهي تصوُّر شدَّة بلههم وحماقتهم، وتـقرُّر إعراضهم عن الحق الجليِّ القوي وصممهم وتعاميهم عنه..»[١].

ويذكر الشيخ ملحظاً منهجياً في علم البلاغة، وهو أن الاستعارة مَجاز ترشح للاستعارة، إذا كانت العلاقة المشابهة، ففي قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] يقول: «أي: النمَّامة الواشية التي تؤجِّج النار بين الناس بنميمتها.

ثم ترشح هذا المجاز باستعارة تخييليَّـة تناسبها لزيادة التقرير والمبالغة في التشنيع فقال: ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾، في عنقها حبل قوي من ليف تجمع به الحطب لوقود نار الفساد والفتنة والمشاغبات، يكني بذلك عن شدَّة سعيها بالمشاغبة ضدَّ رسول الله ﷺ وقد استعار هذا المعنى من المرأة المُجِدَّة في جمع الحطب لإيقاد النار»[٢]. وهذا ذهاب منه إلى جهة المجاز في اللفظ، وقد تابع فيه الشيخ محمد عبده، إذ كان سابقاً في ذلك[٣]. وكان الشيخ محمد عبده استمدَّه من الراغب (ت٤٢٥هـ)، إذ كان يذهب إلى ذلك[٤].

وأشار الشيخ رشيد إلى الاستعارة التهكميَّة في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]، فقال: «صوَّر ذلك بصورة خسارة التجارة على طريقة الاستعارة التهكمية. وهي من البلاغة بمكان، والجملة ترشيح للشراء في الجملة التي قبلها، ثم مكَّن المعنى وجرَّد الاستعارة بقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾»[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٤٠).
(٢) «أولى ما قيل» (٨: ٤٠١).
(٣) «تفسير جزء عم»، سورة المسد ص١٧٥.
(٤) «مفردات ألفاظ القرآن»، مادة (حطب).
(٥) «أولى ما قيل» (٢: ٣٦).

والاستعارة التهكمية نوعٌ من الاستعارة العنادية، وهي: «ما استعمل في ضدِّ معناه أو نقيضه بتنزيل التضادّ أو التناقض منزلةَ التناسب بواسطة تهكّم أو تلميح. كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]»[١].

٣ـ الكناية:

عرَّفها عبد القاهر الجرجاني بأن: «يريد المتكلِّم إثبات معنىً من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنىً هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه»[٢].

وقد أشار الشيخ رشيد إلى كثير من الكنايات التي وردت في القرآن الكريم، وأفاد منها في تفسير عدد من الآيات، وبيان وجه التجوّز فيها. وهو يرى أنَّ الكناية لا يشترط فيها صحَّة إرادة المعنى الحقيقي، على نحو ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، إذ عدّ فَوَرَانَ التنورِ «كناية عن شدَّة الغضب، مثل حمي الوطيس»، ثم ذكر بصيغة التضعيف: (قيل) إنها «كناية عن قوة انبعاث الماء لأن التنور يطلق على كوة من الماء، ولا يشترط في الكناية صحَّة إرادة المعنى الحقيقي كما لا يمتنع».

وما ذكره الشيخ هنا هو الفرق بين الكناية والمجاز الذي ليس بكناية، لأن المجاز يمتنع فيه إرادة المعنى الحقيقي[٣].

---

(١) «الإيضاح» (٢: ٤٢٠).

(٢) «دلائل الإعجاز» ص٥٢.

(٣) «الإيضاح» للقزويني (٢: ٤٥٦)، وينظر: «البلاغة والتطبيق» ص٣٦٩.

وبعض الكنايات لا يمكن أن نحملها على المعنى الحقيقي، ومع ذلك فإن من الباحثين من لا يدخلها في المجاز[١]. وظاهر كلام القزويني يُوحي بذلك[٢] وإليه ذهب الرازي وبذلك صرَّح في كتابه «نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز»[٣].

ولا يني الشيخ رشيد يؤكد القواعد والشروط اللازمة للكناية، التي تميزها من أنواع المجاز الأخرى، كما في قوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] فقال: «وهذا تصوير لكثرة خزائنه البالغة الحد، وكناية عن ذلك، والكناية يراد بها لازم معناها، وهو هنا كثرة الخزائن ولا يجب فيها تحقق المعنى الأصلي، بل لا يتحقق إلا في القليل من الكنايات»[٤].

ونراه يومئ إلى الكناية (عن صفة)[٥]، ومن دون أن يصرح بها وذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، إذ يُبيِّن أنه «كناية عن منتهى السخاء مأخوذ من حال المخاطبين... لأنَّ السخيّ يعطي بيده لكثرة السائلين»[٦].

ومثل ذلك ما رآه في قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦] إذ قال: «أي: بركة أمطار السماء ونبات الأرض، وهي كنايةٌ عن سَعَة رزقهم مع الراحة والهناء»[٧].

---

(١) «البلاغة فنونها وأفنانها» لفضل حسن عباس (٢: ٢٤٣).

(٢) «الإيضاح» (٢: ٤٥٦).

(٣) ص١٣٦.

(٤) «أولى ما قيل» (٥: ٥١١).

(٥) ينظر: «الإيضاح» (٢: ٤٦٥).

(٦) «أولى ما قيل» (٣: ٢٣٤).

(٧) «أولى ما قيل» (٣: ٢٣٦).

كما أشار إلى (التعريض) في عدد من الآيات، والتعريض عند السكاكي نوع من الكناية إن كانت عرضية، فإن كان بينها وبين المكنى تباعد سمِّيت تلويحاً، وأن كانت خفية سمِّيت رمزاً[١].

وقد عرفها ابن الأثير الجزري (ت٦٣٧هـ) بأنها «اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي»[٢].

يقول الشيخ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]: «وفي ذلك تعريضٌ بمن اتَّخذ أولياء من دونه من البشر المحتاجين للطعام، والعاجزين عن الخلق والإيجاد، فكيف يكونون آلهة»[٣].

وقد تجتمع عدة أغراض بلاغيَّة في الآية الواحدة، ومن بينها التعريض كما في قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩] رأى أن: «هذا تهكُّم وتنديم وتعريض»[٤]. وترد لدى الشيخ عبارتا إلماح[٥] وإلماع[٦]، وهما دالتان على التعريض.

٤ـ الصورة:

عُنِي الشيخ رحمه الله تعالى بما يُسمِّيه: (الصورة)، و(التصوير)، و(اللوحة). وأشار في مقدمته إلى التصوير في القرآن وفائدته وجماله، فقال: «ومن سُننِ القرآن:

(١) «مفتاح العلوم» ص٦٤٧، و«الإيضاح» (٢: ٤٦٦).

(٢) «المثل السائر» (٣: ٥٦)، وينظر: «البلاغة والتطبيق» ص٣٧٥.

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٢٩٣).

(٤) «أولى ما قيل» (٣: ٤٣٣).

(٥) «أولى ما قيل» (٣: ١٨١).

(٦) «أولى ما قيل» (٧: ٤٣٨).

تصوير المعنى وتثبيته بصورة الحكاية والمحاورة، أو بصورة التمثيل، لما في ذلك من قوة البيان، والتأثير في النفوس» وتأثره بصاحب «التصوير الفني في القرآن» واضح إذ يقول: «والتمثيل والتصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسوسة أو المتخيلة عن المعاني الذهنية والحالات النفسية والأحوال الغيبية والطبائع البشرية»[١]. وقد أشرت إلى ذلك في فصل مصادره. ويقول أيضاً: «ومن سنن القرآن: تصوير الأمر المتحقِّق بالظاهر المرئي، فيستعير له الرؤية لأنها أقوى سند الإخبار فيقول: ألم تر كيف كذا؟»[٢].

ويفرّق الشيخ بين (التصوير) و(التمثيل)، فالتصوير عام، وهو رسم صورة ما، أما التمثيل فخاص بما لم يحدث، وإنما يشخص فيه المعنى أو يجسِّد، ففي قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ [هود: ٥]، يقول: «وهذا تصويرٌ لما كان يحاوله بعض الكفار والمنافقين عند سماع القرآن من الاستخفاء منه والإعراض عنه وثني الصدر... أو مجرَّد تمثيل لحالهم»[٣]. فمن الواضح أنه أراد بالتمثيل أنه ليس هناك ثني صدر ولا استخفاء على الحقيقة وإنما هذا تجسيد لإعراضهم.

غير أنَّ الشيخ يؤول عدداً من النصوص بحَمْلها على التمثيل، تاركاً لظاهرها الدال على الحقيقة.

فقد سمَّى الحوار الذي دار بين الله سبحانه وتعالى وبين الملائكة، وبينه تعالى وبين إبليس تمثيلاً[٤]. وقد مرّ بنا ذلك في الفصل الثالث عند الكلام على التأويل العقلي.

---

(١) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٩).

(٢) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٢١٠).

(٤) «أولى ما قيل» (١: ٥٣٨).

قلت: قد ردَدت عليه هذا المنحى في تفسير هذه الآية وأمثالها. (مجد).

كما عدَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨] من هذا القبيل، فقال: «والكلام على التمثيل». وذلك بعد أن قال: «ثم ذكر تعالى تصوير قوة إعراضهم».

وظاهر الآية، وما عليه كثير من المفسرين أنَّ ذلك على الحقيقة، وأنهم سينالون ذلك العقاب. ويقول بعد ذلك: «ثم بالغ في التمثيل لتقرير هذا المعنى»، وذكر صورة تمثيليَّة أخرى أشد من الأولى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩][1].

فكأنه جعل الصورة قرينة سياقيَّة لتلك الصورة التي تقدَّمت، وشاهداً على أن ما تقدم يراد به التمثيل لا الحقيقة.

فهذا حين حمل على المجاز له وجه وقرينة، إذ الأغشية والسدود هنا معنويَّة، وهي الرَّيْنُ والطَّبْعُ والعَمَهُ ونحوها ممَّا ابتلى الله به الكافرين كما ورد في مواضع أخرى من القرآن.

و(المثل) أيضاً نوع من (التمثيل) وغايته «تصوير المعاني المعقولة بصورة المحسوسات فيدنيها من الحسِّ ويقرِّبها للفهم، فيلمسها السامع لمساً»[2]. فهذا ما قاله الشيخ في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وقد يستخدم الشيخ عبارات تُوحي بفهم متقدِّم للصورة، فعند تفسيره قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١] قال: «فالكلام عرض لوحة لما جرى على

(١) «أولى ما قيل» (٦: ١٦٥).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٤٠٠).

المُدسّين لأنفسهم»[١]، وكان قد تقدَّم قبل ذلك مباشرة في السياق قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠]. إلا أن الشيخ سرعان ما عاد إلى طريقته في التفسير واكتفى بهذه الإلماحة الخفيفة عند هذه اللوحة التي امتلكت كل عناصر القصة القصيرة جداً: من الحوار، والحركة، والموسيقى، والعقدة، والنهاية المأساوية.

ومن إشارته إلى اللوحة ما أورده في تفسير سورة الفجر، إذ التفت إلى أنه سبحانه: «عرض بذلك لوحة لشقاء المكذبين من جبابرة أهل الوبر، ثم لجبابرة أهل الحضر، ثم للعريقين في المدنية»[٢]. وهو يعني بذلك قوم عاد، وقوم ثمود، وقوم فرعون.

ونـراه عنـد قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧-٨] يعدل عن تسميات الاستعارات والتشبيهات والمجازات إلى التعبير عنها بالصورة، فيقول: «صوَّر هذه النار بصورة مخلوق رهيب عابس مكفهرّ الوجه يغلي صدره حقداً وغيظاً على فريسته»[٣].

ولا ينسى وهو يعرض للحديث عن الصُّورة أن يُنبِّه إلى الجانب النفسيّ فيها، فيقول في وصف الوليد بن المغيرة: «ثم إنه تعالى وصف بعد ذلك أحوال وجهه المُنْبئة عن حالته النفسيَّـة: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٣-٢٤]»[٤].

وهو يلمح الصورة المُتخيَّلة في التركيب، ويصفه في موضع بأنه (بديع) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، إذ رأى

---

(١) «أولى ما قيل» (٨: ٢٥٦).

(٢) «أولى ما قيل» (٨: ٢٢٩).

(٣) «أولى ما قيل» (٧: ٤٤٨).

(٤) «أولى ما قيل» (٨: ٥٢).

أن: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ﴾ من التخييل البديع، حيث خيَّله بالشيء المخيف وبالوحش المفترس تنفيراً منه وتبعيداً عنه، وذلك فوق ما في النهي عن دواعيه..»[١].

على أنه ليس بالوسع القول إنَّ الشيخ قد عرف الصورة الفنية كما ينبغي فطبقها بدقة في تفسيره، بل الذي يمكن قوله: إنه حاول محاولة حسنة قصد فيها إلى أن يفيد مما وصل إليه وأدركه منها. وهو ممَّا استقاه من كتاب: «التصوير الفني»، ومن تفسير: «في ظلال القرآن» أو لَمَحهُ هو أيضاً في ضوء ما انتهى إليه من تراث تفسيريٍّ ضخم، اطَّلع على كثير منه.

* * *

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٥٣٥).

المبحث الثالث

علم البَديع

وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة. وهو ضربان: ضرب يرجع إلى المعنى، وضرب يرجع إلى اللفظ[١].

فالأول الذي يرجع إلى المعنى يسمَّى: (المحسنات المعنوية)، وهو عدة أنواع أشهرها:

١ ـ المقابلة:

عرفها أبو هلال العسكري[٢] بأنها «يُراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة..».

أشار الشيخ رشيد إلى المقابلة في عدد من الآيات ولم يفرق بين الطباق والمقابلة، على حين فرَّق أكثر البلاغيين، فقد عرف السكاكي[٣] الطباق بأن تجمع بين متضادين، أما المقابلة فهي بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما.

---

(١) «الإيضاح» للخطيب القزويني (٢: ٤٧٧).

(٢) «الصناعتين» ص٣٣٧، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٨٦، تحقيق: محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

(٣) «مفتاح العلوم» ص٦٦٠.

واختيار الشيخ لمصطلح (المقابلة) مبنيٌّ على واقع الدلالة، إذ أحد اللفظين يقابل الآخر في معناه. أما الطباق فمصطلح تعارف عليه البلاغيون.

يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢١-٢٣]: «ولا يخفى ما في مقابلة ﴿عَالِيَةٍ﴾ بـ﴿دَانِيَةٌ﴾ من الإبداع البليغ»[١]. وهذا في اصطلاح عموم البلاغيين طباق.

ويذكر في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، أن هذه الجملة مقابلة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩][٢]. وهذا من مقابلة جملة بجملة.

وتتَّسع المقابلة عند الشيخ لتشمل مشهداً كاملاً بإزاء مشهدٍ آخر، وهذا من خصائص القرآن، إذ يقابل مثلاً مَشَاهدَ العذاب مشاهد النعيم في كثير من نصوصه، جَرْياً على نهجه وأسلوبه في الترغيب والترهيب. ففي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢] يقول: «وهذا وما بعده مقابل لما جاء في السياق عن الكافرين من ندمهم، وتلاومهم وتلاعنهم، وشقائهم في الجحيم»[٣]. وهذه المشاهد من أصدق الصور على المقابلة عند البلاغيين، إذ تتعدَّد فيها الأشياء في الطرفين المتضادين.

ويشير الشيخ كذلك إلى سرِّ المقابلة أو فائدتها، فيقول: «وبعد أن أشبع الكلام في المشركين والمنافقين وأحوالهم ومصيرهم، ذكر المؤمنين ومصيرهم، زيادة تحسيسٍ

---

(١) «أولى ما قيل» (٧: ٤٨٤).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٥٠٤).

(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٤٢٨).

في الترغيب والترهيب، فالضد يظهر حسنه الضد، وذلك من خصائص القرآن في بلاغته»[(١)].

وقد لا تكون المقابلة واضحةً في النصِّ الكريم، وإنما تلمح من خلال التعبير فيلتقطها الشيخ على نحو ما وَرَدَ في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، إذ رأى أنَّ «هذا التعبير يتضمَّن المقابلة لقوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: ١٤][(٢)]، وذلك أنَّ فيه إغراءً بالعداء والخصام، على حين أنَّ ما يقابله فيه بيانٌ للسلام والوئام، فهما على هذا متقابلان.

٢ـ المشاكلة:

وهي أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته[(٣)]، ويطلق عليها أيضاً اسم (المزاوَجَة)[(٤)] أو (الازدواج)[(٥)].

وعرَّف القزويني[(٦)] المزاوجة: بأن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء، وقد عُني الشيخ بها عناية واضحة لما فيها من دفع شبهة قد ترد في نسبة ألفاظ لا تليق بذاته

(١) «أولى ما قيل» (٢: ٤٦، ٣١٨).
(٢) «أولى ما قيل» (٣: ١٩٦).
(٣) «مفتاح العلوم» ص٦٦١، و«جواهر البلاغة» للهاشمي ص٣٧٥، مطبعة الاستقامة ١٩٦٠م.
(٤) «النكت في إعجاز القرآن» للرماني (ت٣٨٦هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٩٩، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٨.
(٥) ينظر: «منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم» لكاصد الزيدي ص٣٦٢.
(٦) «الإيضاح» (٢: ٤٩٧).

تعالى كالنسيان، والمكر، والخديعة، وما إليها فهو لونٌ بديعي، وهو كذلك لدى الشيخ، إذ عدّ هذا اللون من الكلام من فنون (البديع)، وقد نصَّ على ذلك في بعض المواضع فقال: «هذا من البديع»، وذلك في وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] إذ يقول: «والمكر: التدبير الخفي، وفي الآية مشاكلة، وهي من بديع الكلام. والمراد بمكر الله: إبطال مكرهم وحفظه منهم، بتدبير الله وهم لا يعلمون»[١].

وفي وقوفه عند قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة: ١٤] بيَّن المراد: «تركناكم في العذاب الدائم ترك الشيء المنسيّ، وعبَّر بهذا للمشاكلة، وللإيذان بإبقائهم في العذاب وحرمانهم من النعيم»[٢].

ويسمِّي الشيخ الجناس في أحد المواضع (مشاكَلة)، على نحو ما رآه بين (يوزعون) من قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧] و﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩][٣]. فهذا لدى البلاغيين من ضروب الجناس، الذي يسمُّونه (الناقص) لعدم اتفاق اللفظين فيه.

وينقل عن الشيخ محمد عبده قوله بما كان يسميه (المشاكلة التقديرية) كالذي في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨] رداً على صنيع النصارى من غمس أولادهم بماء أصفر يسمُّونه المعمودية[٤]. فقد تقدم في السياق قول اليهود والنصارى: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾. وتعبير (المشاكلة التقديرية) مصطلح بلاغيّ، وممَّن ذكره

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٥).

(٢) «أولى ما قيل» (٦: ٣٥).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٤٤٣).

(٤) «أولى ما قيل» (٢: ١٨٩).

القزويني[١] وأورد أيضاً نفس ما قاله الشيخ محمد عبده في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾.

٣ـ الالتفات:

كثير من البلاغيين يعدُّونه من البديع، وقد وضعه السكاكي[٢] في علم المعاني، وكان في ذلك على صواب، إذ هو بهذا العلم أشكل. وعَـرَّفَه بأنه: «نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة... بل الحكاية والخطاب والغيبة ينقل كل واحد منها إلى الآخر» فيسمي هذا النقل التفاتاً، ويذكر أن «العرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب [إلى آخر كان][٣] أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه».

أورد الشيخ أنواعاً ثلاثة من الالتفات في القرآن الكريم:

الأول: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، وهو أكثر الأنواع التي أوردها، وفي كل مرَّة لا يقتصر على الإشارة إليه إنما يعلِّل مبيِّناً غرضه ودوره البلاغي في أداء المعنى، ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٥٠] يقول: «وقد أقام مقام الجواب هذه الجملة المُصَدَّرة بالإنكار التَّهديدي مُلتفتاً من الخطاب إلى الغيبة للإبعاد والتحقير مع التجهيل فقال: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾»[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]، يقول: «تقضون سمركم ليلاً بتكذيب هذا القرآن والاستهزاء به، ثم لفت الكلام إلى التوبيخ والإنكار...

---

(١) «الإيضاح» (٢: ٤٩٥). وينظر: «البلاغة والتطبيق» ص٤٤٥.

(٢) «مفتاح العلوم» ص٣٩٥-٣٩٦ ومن المحدثين د. فضل حسن عباس في كتاب: «البلاغة فنونها وأفنانها».

(٣) في الأصل غير موجودة والأغلب أنها ساقطة في الطبع.

(٤) «أولى ما قيل» (٤: ١٨٠).

وعدل عن الخطاب إلى الغيبة مبالغةً في ذلك كأنه أبعدهم عن ساحة الخطاب إلى الغيبة لقِلَّة فهمهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨][١].

والثاني: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، الذي رآه للوعيد في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦] إذ قال: «والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الترهيب»[٢]. وكذلك في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣]، إذ: «التفت من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد، وقال ﴿فَإِن تُبْتُمْ ...﴾»[٣].

والثالث: الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم، وقد احتمل له أكثر من غرض معنويّ، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، إذ قال: «والالتفات من الغيبة إلى التكلم، لإظهار التحقُّق، أو لإظهار كمال العناية بالفعل»[٤].

٤ـ التورية:

وهي أن يُطلَق لفظ له معنيان قريب وبعيد ويُراد به البعيد منهما[٥].

وقد أشار الشيخ إلى هذا الفنِّ البديعي في عدَّة مواضع، معلِّلاً ومُوضِّحاً سرَّ التورية وجمالها في موقعها من الكلام في كل موضع، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى:

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٢٨٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٤: ٤٧٥).

(٣) «أولى ما قيل» (٤: ٦١).

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ١٤٩).

(٥) «الإيضاح» (٢: ٤٩٩).

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، إذ قال: «يريد السيد العزيز ويُورِّي بالله سبحانه، ويجمع بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي على أن المعنى الأول أيضاً لا يصدر إلا عن متّقٍ لله حقَّ اتقائه، فهو مستلزم للمعنى الثاني، يدلُّ عليه بالدلالة الالتزاميَّة وهذه التورية لا تفهمها المرأة، وإنما هي مضمرة في نفس يوسف عليه السلام، ولكنها فهمت منه التقريع والتأنيب لـها بأنها داست كرامة زوجها وحقوقَه...»[1]. وهذا من رائع التحليل البلاغي أي: إنه في الظاهر يقصد زوجها، وفي السرِّ يقصد الباري عزَّ وجلَّ، فهو ربه الذي نجّاه من موت محقَّق، ويسَّر له من آواه وكرّمه.

وقد يتردَّد احتمـال الشيخ للوجه البلاغي في النص القرآني بين التورية وفن بلاغي آخر ليس من البديع على نحو ما نجد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] إذ يقول الشيخ: «وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ استعارة أو تورية بديعة عقد بها المشابهة بين الميِّت والجَمَل البارك»[2]. ويريد الشيخ هنا أنَّ الاستعارة على وَجْه المجاز بتشبيه الكفار بالموتى، إذ الكفر ضرب من الموات في الفكر والعقيدة، لانحرافه عن الحق. أو يريد التورية على وجه الخفاء، والتورية هنا عن بلادة التفكير والإحساس لدى الكفار.

٥ـ حسن التعليل:

وهو أن ينكر الأديب صراحةً أو ضمناً علَّة الشيء المعروفة، ويأتي بعلَّة أخرى أدبية طريفة لها اعتبار لطيف[3]. وهذا الحكم لا يقف عند الأديب من دون رَيْب، بل

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٩٠).

(٢) «أولى ما قيل» (٣: ٣٠٣).

(٣) «البلاغة والتطبيق» ص٤٣٥.

يشمل الكلام الفنيَّ كلَّه وفي القرآن منه ما يلائم سموّ معانيه، ورَوْعة بيانه، إذ حُسْن التعليل فيه مَسُوق لتثبيت القيم الكريمة والعقائد السليمة التي أراد القرآن نشرها بين الناس.

وقد أشار الشيخ إلى حُسْن التعليل في عددٍ من الآيات، ومن ذلك ما وَرَدَ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨]، فقد قال: «وقد أردف تحقيق البعث بوجهٍ من حُسْن التعليل يتضمَّن الزجر لهم والتبكيت على أحسن الوجوه وأجملها فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩]»(١).

٦ـ اللف والنشر:

وهو أن تلفَّ بين شيئين في الذِّكر ثم تتبعهما كلاماً مشتملاً على متعلق بواحد وبآخر من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرد كلاً منهما إلى ما هو له»(٢).

ومن أمثلته التي وَرَدت في تفسير الشيخ رشيد، ما بيَّـنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، إذ قال: «وهذه الجملة مقابلة لقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨] وقد جاء هذا التفصيل على طريقة اللف والنشر المفرّق، ليكون مطلع الكلام ومقطعه من المهتدين»(٣).

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٤٦٨).
(٢) «مفتاح العلوم» ص٦٦٢.
(٣) «أولى ما قيل» (٣: ٥٠٥).

وقد يلمح الشيخ في النصِّ لفاً دون تفريق فيجد فيه صورة من صور الإيجاز القرآني، على نحو ما رآه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣] يقول: «وفيه لفٌّ واحتباك على نهج إيجاز القرآن»[١].

٧ـ الإبهام:

يطلق الشيخ مصطلح (الإبهام) على ما سُمِّي لدى البلاغيين بـ(تجاهل العارف)[٢]، وسمّاه السكاكي[٣] (سَوْق المعلوم مساق غيره)، وقال: «لا أحب أن أسميه بالتجاهل»، ويراه الشيخ من حيث القيمة البلاغية في موضعه ومناسبته أبلغ من التصريح وعدم التجاهل، ومثاله ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

إذ قال: «وهذا الإبهام الصُّوري التهكُّمي، بعد أن بيَّن من هو على الهدى ومن هو على الضلال أبلغ من التصريح»[٤]، وفي هذا الإبهام بعد الإفصاح والتوضيح، استفزاز لعقول المنكرين بالتعقل والإنصاف، وهو من روائع الجدل في القرآن.

٨ ـ الاعتراض:

ويُسمَّى الحشو، والأول أليق بالبيان المعجز المبين، وهو أن تدرج في الكلام ما يتم المعنى بدونه[٥].

---

(١) «أولى ما قيل» (٥: ٥٦٤).

(٢) «الإيضاح» (٢: ٥٣٠).

(٣) «مفتاح العلوم» ص٦٦٦.

(٤) «أولى ما قيل» (٦: ١١٨)، وينظر: (المقدمة ١: ٥٤٢).

(٥) «مفتاح العلوم» ص٦٦٧.

يحدثنا الشيخ عن الاعتراض في القرآن عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥] قائلاً: «فهو من الجدل بالتي أحسن... وجاءت هذه الآية معترضة في قصة نوح، والاعتراض بالجمل أثناء القصص والمواعظ وغيرهما معهود في القرآن.

ومن ذلك الاعتراض بالوصية للوالدين أثناء موعظة لقمان لأبيه، وكذلك قوله تعالى في سورة طه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [٥٥]، فقد جاء معترضاً في المحاورة بين موسى عليه السلام وفرعون..»، ثم ينقل عن «المنار» فوائد الاعتراض، منها: «تنبيه الذهن وتلوين الخطاب والتشويق..»[١]. فأدخل العامل النفسي في هذا الفن.

وقد يتكرر الاعتراض ويتوالى فيكون ضرباً من الكلام المركّب كالذي في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦] إذ يقول: «وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ..﴾ اعتراض قصد به المبالغة في تعظيم مضمون الجملة القسمية، وقوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراض في الاعتراض، قُصد به الزيادة في التعظيم، أي: إنه ليس من الممكن أن تطلعوا عليه اطلاعاً تاماً تفصيلياً لعظم محتوياته»[٢].

٩ـ التذييل:

للتذييل كما يقول أبو هلال العسكري[٣] في الكلام «موقع جليل ومكان شريف، لأنَّ المعنى يزداد به انشراحاً والمقصد اتضاحاً، وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكد عند من فهمه».

---

(١) «أولى ما قيل» (٤: ٢٣٠).

(٢) «أولى ما قيل» (٧: ٢٧١).

(٣) كتاب «الصناعتين» ص٣٧٣.

ومن أمثلته في تفسير الشيخ في قوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، إذ بيّن أن قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: «أي: مقرون بالإهانة والذل مقابل تكبرهم عن الحق» وأجاز «أن يكون هذا عاماً لعذاب الدنيا والآخرة معاً، فيكون تذييلاً لما قبله»(١).

ونراه يبيّن ما يحمله التذييل من فائدة في المعنى، وذلك بعد قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٥]، فقد بيّن أنه سبحانه قرّر بعد ذلك مضمون هذا التسجيل بتذييل متضمن للتهديد فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

والتذييل مقرِّر للزيادة والكرامة التي يعطيها الله سبحانه للمهتدين في الآخرة فوق استحقاقهم، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨](٣).

١٠ـ أسلوب الحكيم أو القول بالموجب:

وهو أن تحدِّث المخاطب بغير ما يتوقع إما بتجاهلك لسؤاله وإجابته عن سؤال لم يسأله أو يحمل كلامه على غير ما يقصد، وكأنك توجهه إلى ما ينبغي عليه أن يسأله(٤).

ومن أمثلته في تفسير الشيخ ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١] إذ بيّن أن المراد: «غرير سريع الانخداع»، ثم بيّن أنَّ «ذلك من أكبر عيوب الرؤساء لما يترتَّب عليه من قبول الغش». ثم قال: «والظاهر أنهم قالوا ذلك تبجُّحاً بنجاحهم في الاستئذان، حيث أذن لهم بمعاذيرهم.

---

(١) «أولى ما قيل» (٢: ١٣٥).

(٢) «أولى ما قيل» (٢: ١٤١).

(٣) «أولى ما قيل» (٥: ٣٢٨).

(٤) «البلاغة فنونها وأفنانها» (٢: ٢٨٩)، وينظر: «الإيضاح» (٢: ٥٣٢).

وقد ردّ الله سبحانه عليهم بالطريقة التي يسمِّيها البلغاء: أسلوب الحكيم أو القول بالموجب فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾، ثم ذكر له من الصفات ما بعث منه لهم أفضل الخير وأعلاه»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] يقول: «أي: عَوْذاً معاذاً، يقول الكَفَرة هذه الكلمة استعاذةً واستجارةً بالله أن يمنعهم من الملائكة.. وهي تمثِّل هَوْل ما نزل بهم وجَزَعهم الشديد ولا تُجْديهم نفعاً.. وفي هذا الرد نوعٌ مما يسمِّيه البلغاء القول بالموجب وهو أن يجاري المتكلم السائل ويعكس الأمر عليه، ومحصل الرد: أنهم سيرون الملائكة ولكن بصورة تجلب لهم الويل والثبور لا كما يريدون ويشتهون...»[٢]. وذلك أنهم طلبوا نزول الملائكة في الآية السابقة [الفرقان: ٢١].

❊ ❊ ❊

(١) «أولى ما قيل» (٤: ١٠٢).

(٢) «أولى ما قيل» (٥: ٣٦٢، ٣٦٣).

خاتمة

وفي نهاية مطاف رحلتنا مع «منهج الشيخ رشيد في تفسير القرآن الكريم» يمكننا القول:

١ ـ خلص البحث في حياة الشيخ رشيد إلى أنَّه ولد لرجل عالم هو الشيخ صالح الخطيب عام ١٣٠٣هـ-١٨٨٦م، وتلقّى تربية صالحة، وتنشئة علمية ممتازة، أجازه فيها تلميذ أبيه: الشيخ محمد الرضواني عام ١٣٣١هـ. ولم يكتف الشيخ بذلك، بل كانت له نفس نزَّاعة إلى الاستزادة من العلم، وعقلية وثَّابة إلى التجديد والإصلاح. وقد وافقت كتب الإصلاح الوافدة من مصر تطلعاته، فانبرى ينهل منها ويتمثلها.

وكان له من الرصيد العلمي الذي صقله وعمّقه بالقراءة الدائبة، وبالتدريس المخلص في المدارس الرسميَّـة وفي بيته، وبعضويته في المجلس العلمي للأوقاف، ممَّا جعله مهيأً لكتابة تفسير كامل للقرآن، فَضْلاً عن عدد من المصنّفات يربُو على السبعين، جلّه ما زال مخطوطاً ومحفوظاً عند حفيده أثيـل عبد العزيز النُّجيفي، وتلميذه الشيخ إبراهيم النعمة، وقد تجلّى ذلك في الإحصاء الذي قدَّمته في التمهيد.

وقد تلمذ على الشيخ عددٌ كبير من الطلاب، أشرتُ إلى أبرزهم، وخاصَّة الذين أجازهم.

تميَّز الشيخ بأخلاق فاضلة، وسَمَاحةٍ وأريحيَّةٍ تليقُ بمكانته العلميَّة، وبقيت له عقليَّته النيّرة الجادَّة إلى أن لقي ربه، وذلك في ١٩/ ١١/ ١٩٧٩م عليه رحمة الله[1].

(١) في وفاته خلاف، أشرت إليه عند ذكر وفاته في مقدمة هذه الرسالة، ورجَّحت وفاته يوم الخميس ٢٠/ ١٢/ ١٩٧٩م الموافق ٣٠ محرم ١٤٠٠هـ. (مجد).

٢ـ وتبيَّن في الفصل الأول أنَّ الشيخ اعتمد في تفسيره عدداً كبيراً من المصادر المتنوعة، فمن كتب التفسير اعتمد ما يمثل المأثور والمعقول، وما يشمل القديم والحديث، ولم يقتصر على تفاسير لأهل السنة، بل اعتمد تفاسير للمعتزلة والإماميَّة، مُعبِّراً بذلك بحق عن رغبة صادقة في وحدة المسلمين، وعقلية متحرِّرة بعيدةٍ عن التعصُّب.

فقد أفاد من «تفسير الطبري» التفسير المأثور من أقوال الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، ومن «تفسير الزمخشري» لفتاته البلاغية والعقلية، ومن «تفسير الرازي» نظراته العلمية والعقلية، واعتمد على الأخيرين وعلى الطبرسي في نقل كثير من أقوال مفسِّري المعتزلة القدامى: البلخي والجبَّائي وأبي مسلم، وكذلك القفَّال الذي قيل بتراجعه عن الاعتزال. فضلاً عن أقوال للزجَّاج والأخفش، وأفاد من «تفسير البيضاوي» وابن كثير والبقاعي والجلالين وأبي السعود وغيرهم إفادات متنوعة.

وأما «تفسير جزء عم» لمحمد عبده، وتفسير «المنار» المحتوي على أفكار محمد عبده وتلميذه رشيد رضا فقد كان له معهما شأن آخر، إذ أكثر من النقل عنهما، ونَحَا منحاهما في التفسير متابعاً لهما في كثير من الأقوال والتأويلات.

وقد نقل من هذه التفاسير باللفظ والمعنى وبإشارة ومن غير إشارة، كما أفاد من تفسير معاصر هو «في ظلال القرآن» وإن لم يشر إليه.

وكانت له فوق ذلك عدَّة نقول عن غير كتاب من كتب معاني القرآن، ككتاب الأخفش والفرَّاء والزجَّاج، وأغلب الظن أنَّ نقوله عن الأخفش والزجاج لم تكن مباشرة، بل كانت عن طريق الطبرسي أو الرازي أو كليهما.

وكانت له نقول في آيات الأحكام وغيرها من كتب أحكام القرآن للجصّاص، وابن العربي، والقرطبي.

وأفاد الشيخ من كتب الحديث المشهورة المعتمدة كـ«صحيحي البخاري ومسلم»، و«سنن الترمذي» و«أبي داود» و«النسائي»، و«مسند أحمد»، فنقل عدداً كبيراً من الأحاديث(١)، فضلاً عمّا أفاده من الأحاديث من «تفسير الطبري».

واعتمد الشيخ كذلك على كتب اللغة والنحو كـ«كتاب سيبويه»، و«المفردات في ألفاظ القرآن» للراغب، كما كانت له نقول من كتب البلاغة والنقد، كـ«العمدة» لابن رشيق، و«دلائل الإعجاز» للجرجاني، و«مفتاح العلوم» للسكاكي، و«الإشارة إلى الإيجاز» لعز الدين بن عبد السلام.

وأفاد كذلك من عدد من كتب الدراسات القرآنيّة القديمة كـ«الإتقان» للسيوطي، والحديثة كمقدمة «صفوة العرفان» لمحمد فريد وجدي، و«التصوير الفني في القرآن» لسيد قطب.

وهناك مصادر أخرى متفرقة وحديثة، أفاد منها الشيخ، كـ«الرسالة» و«اختلاف الحديث» للشافعي، و«الفِصَل في الملل والنِّحَل» لابن حزم، و«تاريخ العصور القديمة» لجايمس هنري برستد، كما نقل أقوالاً لمستشرقين وفلاسفة وعلماء نفس، يعضد ما ذهب إليه في التفسير.

٣ـ وتبيَّن من مادة تفسيره جمعه بين المنقول والمعقول، فقد فسَّر القرآن بالقرآن بقرائن متعددة، عقلية ولفظية، سياقية وغير سياقية، وفصّل بالقرآن ما أجمل في بعض المواضع.

---

(١) نقلهُ عن كتب الحديث بواسطة من كتب التفسير التي عُنيت بالمأثور، كابن كثير ولم ينقل عنها مباشرة. كما أورد بعض الأحاديث من كتب الأدب والتاريخ ممّا لا يصح سنده، بل أورد بعض الموضوعات التي نبّهت عليها في التخريج، وأكثر من تكرار بعض الأحاديث. ونظرة إلى فهارس الحديث تبيِّن طريقته في إيراد الأحاديث واستشهاده بها. (مجد).

وفسَّر بما صحَّ عن الرسول ﷺ من روايات التفسير، وقد يفسِّر الآية بما هو أعم ممَّا يفيده الحديث، وربما أوّل آية تأويلاً عقلياً، وإنْ وجدَ الحديثَ الصحيح في تفسيرها، كما فصَّل بالسنَّة ما أجمل في القرآن، وأورَدَ من الأحاديث ما يلتقي المعاني القرآنيَّة ويقربها للأفهام.

٤ ـ ووقف من أسباب النزول موقفاً متحفِّظاً، فاقتصر على الصحيح المفيد منه، وخاصَّة في آيات الأحكام مؤكِّداً القاعدة الأصوليَّة: إنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقد نقل كثيراً من أقوال الصحابة والتابعين، ممَّا يناسب تأويلاته العقلية، وكان كسائر المفسرين لا يجد بأساً أحياناً في مخالفة أقوال الصحابة أو التابعين، إذ عدّ تعدُّد آرائهم دليلاً على جواز التفسير بالرأي.

٥ ـ ورجَّح لدى البحث مَيْلَ الشيخ إلى إنكار النسخ في القرآن، فقد أوّل كثيراً من الآيات التي قيل بنسخها، ناقلاً ذلك عن أبي مسلم ومحمد عبده ما ينفي نسخها. وقد حمل قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ...﴾ [البقرة: ١٠٦] بأنه نسخٌ للشرائع متابعاً بذلك رأي أبي مسلم(١).

٦ ـ ووقف من الإسرائيليَّات موقفاً مُتشدِّداً، مُنبِّهاً على خطرها، ومُوضِّحاً أنَّ مصدرها ـ قد يكون ـ زنادقة اليهود المُنْدسِّين في الإسلام للكيْد، ولذلك خلا تفسيره من الإسرائيليَّات إلا ما لا ضرر منه، وقد يستشهد بما في العهد القديم أو الجديد ليوثق وجهة قرآنيَّة أو قولاً في التفسير، واستبدل بالإسرائيليات أحياناً كتب التاريخ.

---

(١) ليس هذا رأي أبي مسلم، بل رأيه أنَّ الآية المنسوخة هي المعجزة. (مجد).

٧ـ كما وقف البحث على مظاهر التفسير العقلي عند الشيخ رشيد، وأهمها:

ـ تسويغ التفسير العقلي في ضوء قلَّة المأثور عن الرسول ﷺ في التفسير.

ـ عرضه للآراء العقليَّة حتى مع مخالفتها جمهور المفسرين وخاصَّة ما نقله عن عدد من مفسري المعتزلة، ومن آراء محمد عبده الذي سبقه بالأخذ عنهم.

ـ عنايته بردِّ الآيات المتشابهة إلى المحكمة، انطلاقاً من محاكمة عقلية نفى فيها الجبر في الهدى والضلال، وأوّل ما يوهم ظاهره من الآي بخلاف ذلك، معتمداً أساليب اللغة وأفانينها.

ـ وحمل على التمثيل لا الحقيقة كل ما رآه منافياً في ظاهره من معاني القرآن للعقل.

ـ وأكَّد عصمة الأنبياء، إذ نفى أن يكون الرسول ﷺ قد سُحِر بما ينال من عصمته، وإنما كان ذلك ـ في رأيه ـ محاولة من اليهود كشفها الله عزّ وجل له فأحبطها.

ـ وكان له موقفه العقلي الواضح من المعجزات التي وردت في القرآن، فقد تابع فيها مدرسة محمد عبده، وأضاف إليها من آرائه الخاصَّة في محاولته تأويل هذه المعجزات بما يتناسب مع القوانين الطبيعيَّة، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ـ واهتمامه بالتفسير العلمي مع فهم ووعي لحدوده في القرآن من مظاهر تفسيره العقلي، وربما ندّ عن حقائق علميَّة في بعض ما ذهب إليه.

٨ ـ وقد عَرَض البحث أهم خصائص مدرسة محمد عبده للوصول إلى حقيقة تأثر الشيخ رشيد الخطيب بها بما لا يقبل الشكَّ، حتى إنه ليمكن عدُّه أحد أقطابها، وهذا ما لم يشر إليه الدارسون على كثرة ما كتب عن مدرسة محمد عبده، إلا إشارة الأستاذ عبد الوهاب الكحلة في بحثه المنشور سنة ١٩٨٤.

٩ـ وعلى كثرة نقول الشيخ رشيد من تراث التفسير العريض، القديم والحديث،

وتأثره بمدرسة محمد عبده خاصَّة، كان له تأويلات ومقولات خاصة انفرد بها، قد أغرب في كثير منها. وقد أوردت عدداً منها، ومن ذلك حمله (يأجوج ومأجوج) على الـهمج من الناس والكثير الـمرتبك المشرع إلى الشر، وليس على جيل معيَّن أو قوم مخصوصين كما ذهب إلى ذلك جمهور المفسِّرين، وكذا تفريقه بين الروح والحياة، وقوله باختصاص الروح بما يعقل من المخلوقات في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩].

١٠ـ وفيما يخصُّ القراءات القرآنيَّة، عرض البحث لما كتبه الشيخ في مقدمته عن جمع المصحف، والأحرف السبع، والقراءات، فتناول بالتحليل أربعة موضوعات:

أولها: اللغة التي نزل بها القرآن، إذ تبيَّن وَهَم الشيخ بقوله بنزول القرآن بلغة قريش.

وثانيها: تناول المراد بالأحرف السبعة، والقراءات السبع، فقد كان ظاهر كلام الشيخ عنهما فيه لَبْس، إذ عدّ في بعض المواضع الأحرف السبعة هي القراءات السبع.

وثالثها: تناول مصدر القراءات، وقد تبيّن فيه أنَّ الشيخ يذهب إلى أنها قراءات القبائل بلهجاتهم. والإشكال في رأيه هذا كما تبيّن عند الرجوع إلى المصادر أنَّ القراءة سُنَّة مُتَّبعة تُنمىٰ إلى الرسول ﷺ قراءةً أو إقراراً، وإن جاء طائفة منها على وَفْق لهجات العرب المختلفة.

ورابع هذه الموضوعات: علاقة المصاحف العثمانية بالأحرف السبعة، وقد تبيَّن لي أنَّ الخلاف في هذه المسألة شكليّ لا جوهري.

ثم تناول البحث القراءات التي عَرَض لها الشيخ في تفسيره من مشهورة وغير مشهورة وتوجيهها معنوياً ونحوياً صرفياً، وهو عموماً لم يكن مكثراً في عرض القراءات، على منهج كثير من المفسرين.

١١ ـ ودلّ البحث في (اللغة والنحو والصرف) على عناية الشيخ بتفسير الألفاظ الغريبة في القرآن، وكان منهجه في ذلك يقوم على تفسير مباشر وغير مباشر لتلك الألفاظ.

وقد عُني بالتفريق بين الدلالات المجازيّة والحقيقيّة، وما احتمل الاثنين عنده. كما كانت له وقفات عند الاشتراك اللفظي والتّضادّ والترادف، وقد عُني ببيان الفروق الدلاليّة بين طائفة من الألفاظ التي يظنُّ بأنها مترادفة، ناقلاً في ذلك عن بعض من عُني بهذا الموضوع ومُرجّحاً الفروق اللغويّة بين طائفة من المفردات.

وكان يعمد أحياناً إلى العودة إلى الجذر الاشتقاقيّ للمفردة ليستنبط منها معاني تتناسب مع المعنىٰ العام للآية.

وأشار إلى دقة اختيار اللفظة القرآنيّة في موقعها، ويلمح من خلال تفسيره إفادته من أصول اللغة في تحديد دلالات الألفاظ، كالسماع والقياس واستصحاب الحال.

أما في النحو فقد عُني بإعراب عدد من الآيات بغيةَ توضيح المعنى من غير إيغال واستطراد. وكان يمزج النحو بالمعنى، ويعد المعنى الأصل، والنحو تابعاً له، وهذا هو المنهج العدل في التعامل مع نحو القرآن، وعليه كبار قدامى المفسرين كالطوسي والزمخشري ولذا كانت عِللُه في الإعراب معنويّة وليست قياسيّة جدليّة.

كما أشار إلى عدد من القواعد النّحويّة المعروفة، ولشدّة عنايته بالمعنى كانت له مصطلحات تنبثق من المعنى القرآني، ويحمد له ردّه علم المعاني إلى علم النحو من خلال بيانه لوجوه إعراب الآي، والتفت إلى تغيير النّسق الإعرابي في بعض الآيات، وما فيه من تنبيه لمعنى جديد.

ووقف عند حروف المعاني، يُبيّن معانيها متوسّعاً في ذلك حسب ما يمليه عليه

النصّ القرآني، ومبيِّناً الفروق الدقيقة بين تلك المعاني. وقد رجّح عموماً أصالة كل حرف في موضعه مستعيناً بالتضمين الفعلي والاسمي على ذلك، وإن كان يقرّ أحياناً قيام حرف مقام حرف.

وفي موضوع الزيادة الحرفية كان يتابع رأي جمهور النحاة بالقول بالزيادة النحوية، مع تأكيده فائدتها المعنوية. وكان اتجاهه النحوي عموماً الميل إلى البصريين.

وعنايته بالصَّرف ليست قليلة، إذ كانت له وقفات صرفيَّة عند المصدر واسم المصدر واختلاف المعنى باختلاف المبنى، وخروج الصيغ عن أصل ما وُضعت له.

١٢ـ وكشف البحث في فصل البلاغة عنايةَ الشيخ الفائقة ببلاغة القرآن، وسرِّ إعجازه، فتبيَّن أن الإعجاز القرآنيَّ عنده عام يشمل النواحي التعبيرية والفكرية والاجتماعية والتربوية والأنباء الماضية والمستقبلة، وقد يضيّق الدائرة قليلاً فيذكر في موضع أن القرآن معجز بتراكيبه واختيار ألفاظه.

عُني الشيخ بعلم المعاني من نظم، وخبر وإنشاء، وتعريف وتنكير، وتقديم وتأخير، وفصل ووصل، وإيجاز وإطناب، مبيناً في كل ذلك دقائق المعاني القرآنية، كما كانت له عناية بفواصل الآي وتناسبها مع المعنى رافضاً النظرة التقليديَّة التي تذهب إلى ما يُسمَّى برعاية الفاصلة، متابعاً في ذلك محمد عبده.

وعُني بعلم البيان فعرض لتشبيهات القرآن الرائعة من غير اهتمام زائد بتسمياتها الاصطلاحية.

ونبَّه على الفرق البلاغي بين الحقيقة والمجاز، ثم عرض للمجاز العقلي واللغوي بأنواعها، وأكثر بشكل ملحوظ من الإشارة إلى ما سمَّاه عز الدين بن عبد السلام مجاز التضمين، وهو ما لم يشر إليه البلاغيون إلا نادراً.

وعُني بالاستعارة بأنواعها: المكنيَّة والتصريحيَّة، والتمثيليَّة، والتخييليَّة، والتهكميَّة. ووقف عند الكناية في عدد من الآيات مبيِّناً الفرق بينها وبين المجاز.

وكانت للشيخ لمحات عن الصورة الفنيَّة، يرجح أنه أفادها من كتاب «التصوير الفني في القرآن»، كما أكد دور المثل القرآني وفائدته في القرآن.

أما في علم البديع فقد كانت له وقفات مع عدد من المُحسِّنات المعنوية. كالمقابلة التي شملت الطِّباق عنده، وكالمشاكلة التي عني بها واتكأ عليها في نفي شبهة قد ترد في نسبة ألفاظ لا تليق بذات الله سبحانه وتعالى، كالنسيان والمكر وما إليها.

ونبَّه على الالتفات بأنواعه، وما له من دور بلاغي جمالي في أداء المعنى، وعلى التورية، وحُسْن التعليل، واللفّ والنشر، والإبهام، والاعتراض، والتذييل، وما سمّاه: أسلوب الحكيم أو القول بالموجب.

وقد أغفل المحسِّنات اللفظية، كما أغفل جانبي الجرس والإيقاع في فواصل الآيات، وفي القرآن عموماً. ويبدو أنَّ عنايته بالمعاني هي التي شغلته عن هذه الجوانب.

❋ ❋ ❋

المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات والرسائل الجامعية غير المطبوعة:

١ـ أبو السعود ومنهجه في التفسير، عبد الستار فاضل النعيمي، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الشريعة في بغداد ١٩٨٨.

٢ـ الاستعارة في القرآن، أحمد فتحي، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل ١٩٨٨.

٣ـ أسنى الأرب في تاريخ العرب، رشيد الخطيب الموصلي، مخطوط محفوظ عند حفيده أثيل عبد العزيز النجيفي.

٤ـ الرازي النحوي من خلال تفسيره، طلال يحيى إبراهيم، رسالة ماجستير مقدّمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل ١٩٨٦.

٥ـ الطبري المفسر الناقد، كاصد ياسر الزيدي، بحث ألقي في ندوة الإمام الطبري، القاهرة، تموز ١٩٨٩.

٦ـ القراءات عند الزجّاج، كاصد الزيدي، بحث مخطوط ١٩٨٩، مقبول للنشر في مجلة آداب المستنصرية.

٧ـ مخطوط للشيخ الخطيب يعرِّف به نفسه، محفوظ عند حفيده أثيل.

٨ـ مخطوط للشيخ رشيد الخطيب يعرف به نفسه وأباه وجده وشيخه، محفوظ عند أثيل.

٩ـ محاولات حديثة في تيسير النحو العربي، قاسم عبد الرضا كاصد، رسالة ماجستير مقدَّمة إلى كلية الآداب جامعة البصرة ١٩٨٤.

١٠ـ منهج الراغب في كتابه مفردات ألفاظ القرآن، رافع عبد الله مالو، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل ١٩٨٩.

ثانياً: المصادر والمراجع المطبوعة:

١- ابن القيم وحسّه البلاغي في القرآن الكريم، لاشين عبد الفتاح، ط١، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٢م.

٢- اتجاهات التفسير في العصر الراهن، عبد المجيد المحتسب، دار النهضة، عمان ١٩٨٠م.

٣- الاتجاهات الفكرية في التفسير، الشحات السيد زغلول، الهيئة المصرية للكتاب، ط٢، الإسكندرية ١٩٧٧م.

٤- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، الشيخ أحمد بن محمد البنا الدمياطي (ت٢٢٥هـ) حققه وقدم له الدكتور شعبان محمد إسماعيل، ط١، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٦م.

٥- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، ط٤، مطبعة البابي الحلبي، مصر ١٩٧٨

٦- أحكام القرآن، ابن العربي أبو بكر الأندلسي (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتاب العربي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٢، القاهرة ١٩٥٨م.

٧- أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الجصّاص (ت٣٧٠هـ)، المطبعة البهيّة المصرية ١٣٤٧هـ.

٨- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، مكتبة عبد الوكيل الدروبي، دمشق.

٩- إحياء النحو، إبراهيم مصطفى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٩.

١٠- اختلاف الحديث، محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ)، على هامش كتاب الأم، ط١، مطبعة بولاق بمصر ١٣٢٥هـ.

١١- ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، تحقيق وتعليق: د. مصطفى أحمد النحاس، ط١، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر ١٩٨٤-١٩٨٨م.

١٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي (ت٩٥١هـ)، طبعة محمد صبيح وأولاده بمصر.

١٣ـ أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله بن محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٢٨هـ)، دار صادر، بيروت ١٩٦٥م.
١٤ـ أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، عالم الكتب، بيروت.
١٥ـ أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق: هـ. ريتر، استانبول، مطبعة وزارة المعارف ١٩٤٥م، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد ١٩٧٩م.
١٦ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز في القرآن الكريم، عز الدين بن عبد السلام السلمي (ت٦٦٠هـ)، دار الطباعة العامرة ١٣١٢هـ.
١٧ـ إصلاح الوجوه والنظائر، محمد بن علي بن محمد الدامغاني (ت٤٨٧هـ)، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧م.
١٨ـ الأصول، دراسة، تمّام حسان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٨م.
١٩ـ أصول الفقه، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.
٢٠ـ الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن السري بن السراج (ت٣١٦هـ)، تحقيق: د. عبد الحسين الفتلي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف ١٩٧٩م.
٢١ـ أصول النحو العربي، محمد خير الحلواني، مطبعة الشرق، حلب ١٩٧٩م.
٢٢ـ الأضداد في كلام العرب، أبو الطيب اللغوي (ت٣٠٠هـ)، تحقيق: د. عزة حسن، دمشق ١٩٦٣م.
٢٣ـ إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، على هامش «الإتقان في علوم القرآن»، ط٤، مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٩٧٨م.
٢٤ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبويَّة، مصطفى صادق الرافعي، ط٨، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٥ـ إعراب القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت٣٣٨هـ)، تحقيق: د.زهير غازي زاهد، مطبعة العاني، بغداد ١٩٨٠م.
٢٦ـ الأعلام، خير الدين الزركلي، ط٣، بيروت ١٩٦٩م.
٢٧ـ الإغراب في جدل الأعراب، أبو البركات عبد الرحمن بن الأنباري (ت٥٧٧هـ)، تحقيق: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٦١م.

٢٨- الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي، تحقيق: أحمد محمد قاسم، ط١، مطبعة السعادة، مصر ١٩٧٦م.

٢٩- الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير، د. عبد الغفار عبد الرحيم، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت ١٩٨٠م.

٣٠- الإنصاف في مسائل الخلاف، أبو بكر بن الأنباري، ط٤، المكتبة التجارية الكبرى.

٣١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي (ت٦٩١هـ) في حاشية المصحف الشريف.

٣٢- أولى ما قيل في آيات التنزيل، رشيد الخطيب الموصلي، مؤسسة دار الكتب، جامعة الموصل ١٩٧٣، ١٩٧٤م.

٣٣- الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت٣٣٧هـ)، تحقيق: مازن المبارك، ط٤، دار النفائس، بيروت ١٩٨٢م.

٣٤- الإيضاح في علوم اللغة، الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، شرح وتعليق: عبد المنعم الخفاجي، ط٥، دار الكتب اللبناني ١٩٨٣م.

٣٥- بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي (ت٣٧٥هـ)، مطبعة الإرشاد، ط١، بغداد ١٩٨٥م.

٣٦- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٧م.

٣٧- البغوي ومنهجه في التفسير، عفاف عبد الغفور، ط١، دار الفرقان، عمان ١٩٨٢م.

٣٨- البلاغة والتطبيق، أحمد مطلوب، وكامل حسن البصير، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ط١، ١٩٨٢م.

٣٩- البلاغة فنونها وأفنانها، د. فضل حسن عباس، ط٢، دار الفرقان، عمان ١٩٨٩م.

٤٠- البيان في غريب إعراب القرآن، أبو البركات بن الأنباري (ت٥٧٧هـ)، تحقيق: طه عبد الحميد طه، ومراجعة: مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ج١: ١٩٦٩م، ج٢: ١٩٧٠م.

٤١ـ التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ، منصور علي ناصف، دار الفكر، بيروت، بغداد، ط٢، ١٩٧٥م.

٤٢ـ تاريخ العصور القديمة، جايمس هنري برستد، المطبعة الأمريكانية، بيروت ١٩٢٦م.

٤٣ـ تاريخ علماء الموصل، أحمد محمد المختار، مطبعة الزهراء، ط٢، الموصل ١٩٨٤م.

٤٤ـ التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (ت٦١٦هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، طباعة عيسى البابي الحلبي بمصر ١٩٧٦م.

٤٥ـ التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، المطبعة العلمية ومطبعة النعمان، النجف ١٩٥٧م.

٤٦ـ تحبير التيسير، ابن الجزري (ت٨٣٠هـ)، تحقيق: عبد الفتاح القاضي، ومحمد الصادق قمحاوي، ط١، دار الوعي، بحلب، مطبعة النهضة الحديثة، القاهرة ١٩٧٢م.

٤٧ـ الترادف في اللغة، حاكم مالك لعيبي، دار الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٠م.

٤٨ـ التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، لاشين عبد الفتاح، دار المريخ للنشر، الرياض.

٤٩ـ التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ط٩، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م.

٥٠ـ تطور تفسير القرآن قراءة جديدة، محسن عبد الحميد، جامعة بغداد، سلسلة بيت الحكمة (٥) ١٩٨٩م.

٥١ـ التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، جامعة الموصل، بيت الحكمة ١٩٨٨م.

٥٢ـ التعريفات، السيد الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ)، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

٥٣ـ تفسير جزء عم، محمد عبده، الجمعية الخيرية الإسلامية، ط٣، مطبعة مصر ١٣٤١هـ.

٥٤ـ تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي (ت٨٤٦هـ) وجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، مطابع دار الكتاب العربي، بمصر، ط٢.

٥٥ـ تفسير القرآن العظيم، عماد الدين بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، ط١، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٦م.

٥٦- تفسير القرآن وإعرابه وبيانه، محمد علي طه الدرة، منشورات دار الحكمة، دمشق، بيروت ١٩٨٢م.

٥٧- تفسير المنار، رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، بالأوفست.

٥٨- التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، القاهرة ١٩٨٦م.

٥٩- جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، ط٢، دار المعرفة، بيروت، وطبعة دار المعارف، بتحقيق: محمود شاكر، وأحمد محمد شاكر، القاهرة.

٦٠- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨م.

٦١- الجنى الداني في حروف المعاني، حسين بن قاسم المرادي (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: الدكتور طه محسن، دار الكتاب للطباعة والنشر، بغداد ١٩٧٦م.

٦٢- جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٦٠.

٦٣- الجواهر في تفسير القرآن، طنطاوي جوهري، مطبعة البابي الحلبي، ط٢، القاهرة ١٣٥٠هـ.

٦٤- الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير، د. عدنان زرزور، مؤسسة الرسالة.

٦٥- الحجة في علل القراءات السبع، أحمد بن أحمد أبو علي الفارسي، تحقيق: علي النجدي ناصيف، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٣م.

٦٦- الحجة في القراءات السبع، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، ط٤، دار الشروق، بيروت ١٩٨١م.

٦٧- دراسات في أصول التفسير، د. محسن عبد الحميد، ط٢، الدار البيضاء، المغرب ١٩٨٤م.

٦٨- دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، د. عرفان عبد الحميد، دار التربية، بغداد.

٦٩- دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط٧، بيروت ١٩٧٨م.

٧٠- الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري، د. فاضل صالح السامرائي، بغداد ١٩٧١م.

٧١- دقائق التصريف، القاسم بن محمد بن سعيد المؤدب (من علماء القرن الرابع الهجري)، تحقيق: د. أحمد ناجي القيس، ود. حاتم الضامن، ود. حسين تورال، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٧م.

٧٢ـ دقائق العربية، الأمير أمين آل ناصر الدين، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٦٨م.
٧٣ـ دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، صَحَّح أصله: محمد عبده، ووقف على تصحيح طبعه وعلق على حواشيه: رشيد رضا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨م.
٧٤ـ الرازي بلاغياً، ماهر مهدي هلال، الدار الوطنية للنشر والتوزيع، بغداد ١٩٧٧م.
٧٥ـ الرازي مفسراً، د. محسن عبد الحميد، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٤م.
٧٦ـ الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي (ت٥٩٢هـ)، تحقيق: شوقي ضيف، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧م.
٧٧ـ الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، ط١، مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٤٠م.
٧٨ـ رسالة في علم العقائد، رشيد الخطيب الموصلي، مطبعة الجمهورية، الموصل ١٩٦٥م.
٧٩ـ رسالة في مواضيع مهمة، رشيد الخطيب الموصلي، مطبعة الجمهورية، الموصل ١٩٧٩م.
٨٠ـ روائع وطرائف، إبراهيم النعمة، مطبعة الخلود، الموصل ١٩٩٠م.
٨١ـ الروح، شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، دار العلوم الحديثة، بيروت.
٨٢ـ السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد (ت٣٢٤هـ)، تحقيق: د. شوقي ضيف، ط٢، دار المعارف، مصر ١٩٨٠م.
٨٣ـ سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن إسحاق الأزدي (ت٢٧٥هـ)، ط١، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٢م.
٨٤ـ سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (ت٢٧٩هـ)، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، طباعة دار الفكر، ط٢، ١٩٧٤م.
٨٥ـ سنن النسائي، عبد الرحمن بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ)، طبعة ١٩٦٤م، معه: زهر الربى على المجتبى.
٨٦ـ شذا العرف في فن الصرف، أحمد الحملاوي، مكتبة النهضة العربية، بغداد ١٩٨٨م.
٨٧ـ شذرات الذهب، عبد الحي بن العماد الحنبلي، المكتب التجاري للطباعة والنشر.

٨٨ـ شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري (ت٧٦٩هـ)، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت.

٨٩ـ الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد بن عبد الغفور عطار، دار الكتاب العراقي.

٩٠ـ صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن المغيرة البخاري (ت ٢٥٦هـ)، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده، مصر.

٩١ـ صحيح مسلم، أبو الحسن بن الحجاج القشيري (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٥م.

٩٢ـ صفوة العرفان في تفسير القرآن، محمد فريد وجدي، مطبعة الشعب بمصر ١٣٢١هـ.

٩٣ـ طبقات الشافعية، عبد الوهاب بن عبد الكافي السبكي (ت٧٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد الطناجي، وعبد الفتاح محمد الحلو، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٤م.

٩٤ـ طبقات المفسرين، شمس الدين محمد بن علي أحمد الداودي (ت٩٤٥هـ)، تحقيق: علي محمد عمر، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٧٢م.

٩٥ـ طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي، مصوَّرة عن طبعة ليدن ١٨٣٩م، طهران ١٩٦٠م.

٩٦ـ الطبيعة في القرآن، د. كاصد الزيدي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، بغداد ١٩٨٠م.

٩٧ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١م.

٩٨ـ غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري (ت٨٣٠هـ)، عُني بنشره: ج. براجستراسر، مكتبة الخانجي، مصر ١٩٣٢م.

٩٩ـ الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، دار الأصيل، حلب.

١٠٠ـ الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت٣٩٥هـ)، ط٣، دار الآفاق الجديدة ١٩٧٩م.

١٠١ـ الفصل في الملل والنحل، علي بن حزم الأندلسي (ت٤٦٥هـ)، المطبعة الأدبية ١٨٩٦م.

١٠٢ـ فصول في فقه اللغة، د. رمضان عبد التواب، ط١، مكتبة دار التراث القاهرة ١٩٧٣م.

١٠٣ـ فقه اللغة العربية، د. كاصد الزيدي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، دار الكتب، الموصل ١٩٧٨م.

١٠٤ـ فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور إسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت٤٢٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٥ـ الفهرست، محمد بن إسحاق بن النديم (ت٣٨٥هـ)، طبعة دار المعرفة، بيروت.

١٠٦ـ فهرس مخطوطات الموصل، سالم عبد الرزاق، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل ١٩٧٥م.

١٠٧ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، ط٧، بيروت ١٩٧١م.

١٠٨ـ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، د. عبد العال سالم مكرم، مؤسسة علي جراح الصباح، ط٢، ١٩٧٨م.

١٠٩ـ القراءات القرآنية تاريخ وتعريف، عبد الهادي الفضلي، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٥م.

١١٠ـ القراءات القرآنية، في ضوء علم اللغة الحديث، د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي القاهرة.

١١١ـ القراءات وأثرها في علوم العربية، د. محمد سالم محيسن، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٨٤م.

١١٢ـ الكتاب، سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٣، عالم الكتب، القاهرة ١٩٨٣م.

١١٣ـ كتاب الأضداد، أبو بكر محمد بن قاسم الأنباري (ت٣٢٨هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، إحياء التراث العربي، الكويت ١٩٦٠م.

١١٤ـ كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت ١٩٨٦م.

١١٥- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (ت٥٢٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٦هـ.

١١٦- الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها، مكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ)، تحقيق: محيي الدين رمضان ١٩٧٤.

١١٧- لسان العرب المحيط، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، قدم له: الشيخ عبد الله العلايلي، دار لسان العرب، بيروت ١٩٧٨م.

١١٨- لمع الأدلة، أبو البركات بن الأنباري، تحقيق: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٦١م.

١١٩- اللهجة الموصلية دراسة وصفية، ومعجم ما فيها من الكلمات الفصيحة، محمود الجومرد، منشورات مركز البحوث الآثارية والحضارية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، كلية الآداب ١٩٨٨م.

١٢٠- مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط١٦، بيروت ١٩٨٥م.

١٢١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ)، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٣٩م.

١٢٢- المجاز في البلاغة العربية، مهدي صالح السامرائي، دار الدعوة، حماة، ط١، ١٩٧٤م.

١٢٣- مجاز القرآن، معمر بن المثنى التيمي أبو عبيدة (ت٢١٠هـ)، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، ط١، مطبعة الخانجي، القاهرة ١٩٥٤م.

١٢٤- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسين الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦١م.

١٢٥- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٧م.

١٢٦- المحتسب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جنّي (ت٣٩٢هـ)، تحقيق: علي النجدي ناصف، القاهرة ١٩٦٦م.

١٢٧- المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي، دار الشرق العربي، بيروت، ط٣، ١٩٧١م.

١٢٨- مختار الصحاح، الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت بعد ٦٦٦)، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٩م.

١٢٩- مختصر في شواذ القرآن، ابن خالويه أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت٣٧٠هـ)، عني بنشره: ج. براجستراسر، دار الهجرة.

١٣٠- المخصَّص، ابن سيده أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت٤٥٩هـ)، المكتب التجاري، بيروت.

١٣١- مذاهب التفسير الإسلامي، المستشرق اجنتس كولد تسهير، مكتبة الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد ١٩٥٥م.

١٣٢- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، المعروف بأبي شامة المقدسي (٦٦٥هـ)، تحقيق: طيار آلتي قولاج، دار صادر، بيروت ١٩٧٥م.

١٣٣- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

١٣٤- مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، ترتيب وشرح: عبد الرحمن البنا، وسمَّاه: الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني، مع مختصر بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، ط١، ١٣٧١هـ مطبعة الإخوان المسلمين.

١٣٥- مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب، تحقيق: حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٨٨م.

١٣٦- المصاحف، أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني، ط١، المطبعة الرحمانية بمصر.

١٣٧- المصحف المفسَّر، محمد فريد وجدي، مطابع الشعب.

١٣٨- المصطلح النحوي: نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، عوض حمد القوزي، الرياض ١٩٨١م.

١٣٩- معاني الأبنية، د. فاضل صالح السامرائي، جامعة الكويت، ط١، ١٩٨١م.

١٤٠- معاني القرآن، سعيد بن مسعدة، الأخفش الأوسط (ت ٢١٠هـ)، تحقيق: عبد الأمير الورد ١٩٨٥م.

١٤١- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق بن السري بن سهل الزجاج (ت٣١١هـ)، تحقيق: عبد العزيز الجلبي، القاهرة ١٩٨٨م.

١٤٢- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ)، عالم الكتب ١٩٨٠م.

١٤٣- معاني النحو، د. فاضل السامرائي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، بيت الحكمة ١٩٨٧م.

١٤٤- معجم الأدباء، ياقوت الحموي (ت٦٢٧هـ)، ط٣، دار الفكر ١٩٨٠م.

١٤٥- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار مطابع الشعب.

١٤٦- مع سيد قطب في فكره السياسي والديني، د. مهدي فضل الله، رسالة دكتوراه من جامعة السوربون، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٩م.

١٤٧- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، مراجعة: سعيد الأفغاني، ط٢، دار الفكر، دمشق ١٩٦٩م.

١٤٨- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، ط٢، دار الكتب العلمية، صورة للطبعة الأولى، طهران.

١٤٩- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي محمد السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، ط١، مطبعة دار الرسالة، بغداد ١٩٨١م.

١٥٠- مفردات غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصبهاني (ت في الربع الأول من القرن الخامس للهجري)، تحقيق: محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت.

١٥١- مقدمة في أصول التفسير، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت ٧١٨هـ)، تحقيق: محمد حسين النصار، دار الجيل للطباعة، مصر.

١٥٢- المكتفى في الوقف والابتدا، أبو عمرو الداني (ت٤٤٤هـ)، تحقيق: جايد زيدان مخلف، مطبعة دار الأوقاف، بغداد ١٩٨٣م.

١٥٣- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، دار المعرفة، القاهرة ١٩٦١م.

١٥٤ـ مناهج المفسرين، د. منيع عبد الحليم محمود، ط١، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني ١٩٧٨م.

١٥٥ـ منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ابن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠م.

١٥٦ـ منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، مصطفى الصاوي الحويني، دار المعارف بمصر.

١٥٧ـ القرطبي ومنهجه في التفسير، د. القصبي محمود زلط، المركز الغربي للثقافة والعلوم.

١٥٨ـ نحو القرآن، أحمد عبد الستار الجواري، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٧م.

١٥٩ـ في النحو العربي نقد وتوجيه، د. مهدي المخزومي، ط٢، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٦م.

١٦٠ـ النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (ت٨٣٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠م.

١٦١ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن، الهند ١٩٦٩م.

١٦٢ـ نكت الانتصار لنقل القرآن، أبو بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، تحقيق: محمد زغلول سلام، نشر منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧١م.

١٦٣ـ النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٤هـ)، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٨م.

١٦٤ـ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ومحمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر، عمان ١٩٨٥م.

١٦٥ـ نهج البلاغة، الشريف الرضي، وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين علي ﷺ، تحقيق: محمد عبده، مكتبة النهضة، بغداد.

١٦٦ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت.

١٦٧ـ الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، هارون بن موسى (أواخر القرن الثاني الهجري)، تحقيق: حاتم الضامن، وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨٨م.

١٦٨ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت٦٨١هـ)، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة، القاهرة، ط١.

ثالثاً: الدوريات:

١ـ التفسير في نهج البلاغة، د. كاصد الزيدي، مجلة رسالة الإسلام بكلية أصول الدين في بغداد، العدد (٣-٤)، ١٩٧١م.

٢ـ تفسير القرآن بالقرآن: نشأته وتطوره حتى عصر الجلالين، د. كاصد الزيدي، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد (١٢)، الموصل، ١٩٨٠م.

٣ـ حول أمراض حضارة العصر والإعجاز الطبي في القرآن، د. عزت نصر، حوار منشور في مجلة الفيصل، العدد (١٥٤) سنة ١٤٠١هـ.

٤ـ رشيد الخطيب الموصلي مفسِّراً، عبد الوهاب الكحلة، مقال منشور في مجلة الرسالة الإسلامية، عدد (١٦٤-١٦٥)، ١٩٨٤م.

٥ـ الشيخ رشيد الخطيب الموصلي، إبراهيم النعمة، مقال منشور في مجلة إحياء التراث الإسلامي، العدد (١٦) سنة ١٩٨٤م.

٦ـ القراءات القرآنية بين الاتباع والقياس، د. كاصد الزيدي، بحث منشور في مجلة الجامعة، عدد (٦) ١٩٧٩م.

٧ـ منهج الجلالين في تفسير القرآن، د. كاصد الزيدي، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، الموصل، العدد (٥)، ١٩٧٤م.

❊ ❊ ❊

البَيانُ القُرآني
في تَفسِير
أولى ما قيل في آيات التنزيل

للعلّامة الشّيخ
رشيد الخطيب الموصلي

بقلم

د. عقيد خالد حمّودي العزّاويّ
كلّيّة التّربية بجامعة بغداد
قسم علوم القرآن الكريم

المقدمة

الحمدُ لله الذي كثرت آلاؤه عن الإحصاء، وجلّت نعمه عن الجزاء، تفضَّل على عباده بالنِّعم، لا يريد منهم سوى شكرها؛ ليتفضل عليهم بالمزيد منها: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

نحمدهُ حمداً يليق بجلالِهِ وعظمتِهِ؛ أنزلَ علينا خيرَ كُتُبِهِ، وأرسلَ إلينا أفضلَ رُسُلِهِ، وجعلنا من خيرِ أُمةٍ أخرجتْ للناسِ، من غير حولٍ ولا قوة، فله الحمدُ حتى يرضى، ولهُ الحمدُ بعد الرِّضا.

إلهي لك الحمـدُ الذي أنت أهلُـهُ ... على نِعَمٍ مـا كنتُ قـطُّ لها أهـلا
متى ازددت تقصيراً تـزِدْني تفضُّـلاً ... كأنّي بالتقصيرِ استوجِبُ الفَضْلا(١)

والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وصفيّه من خلقه، خير الأوّلين والآخرين، إمام المجاهدين وقائد الغر المحجلين، محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّـا بعدُ،

فلمّا كان كتاب الله خير الكتب، وبيانه أعلى بيان، كانت خدمته من أجلِّ الأعمال وأرفعها، وأعلى القرب وأسمقها، ولهذا قمت بجمع هذه المباحث المتعلقة ببيان القرآن الكريم، الذي أعجز فطاحل العرب بلفظه، وأعياهم بسبكه فكان اختياري لتفسير

(١) ديوان محمود الوراق: ١٠٨.

مهم جداً درست فيه وجه إعجاز القرآن البياني لعالِم كبير لم يأخذ حظَّه من الدراسة فضيلة الشيخ رشيد الخطيب الموصلي في تفسيره (أولى ما قيل في آيات التنزيل) أوضحت فيه بلاغة البيان القرآني.

وبيد أنه مع تطاول الأزمنة، وانحراف الألسنة وطغيان اللكنة، افتقد الناس الذوق الذي به يتذوقون كلام الله، ويفهمون أبعاده ومراميه، ومظاهر إعجازه ومبانيه.

من هنا تأتي أهمية هذا الكتاب، والذي فيه يحس القارئ بالظلال الوارفة لكتاب الله، ويعيش لحظات مليئة بالجمال والروعة والفائدة، ويدرك جزءاً من مظاهر إعجاز القرآن الكريم، وبعداً من أبعاد البيان القرآني.

ولاشك أنَّ الحرص على هذا الموضوع، كان بسبب من الأهمية الخاصة الذي يحتلها بحث من هذا القبيل.

ومن هنا تكمن أهمية البحث؛ إذ يشخص موقف علم من أعلام المدرسة البلاغية العراقية، وهو الشيخ رشيد الخطيب الموصلي رحمه الله أنَّ الأسباب السابقة تتعاون لتعطي هذا الموضوع أهميته، وهي نفسها الدوافع التي حفّزت الباحث على اختيار الموضوع، والكتابة في ميدانه.

وقد اخترت تقسيم البحث الى فصول، جاء تقسيمها كالآتي: بعد المقدمة يأتي التمهيد الذي تناولتُ فيـه لمحة موجزة عن حياة الشيخ رشيد الخطيب مولده، نشأته، وآثاره العلمية(١).

وجاء الفصل الأول؛ إذ تناولت فيه علم المعاني عند الشيخ رشيد، كالخبر والإنشاء والتقديم والتأخير، والحذف والذكر والقصر، والإيجاز والإطناب، والفصْل والوصْل.

---

(١) حذفت هذا التمهيد لأنه مختصر من رسالة الأخ د. خالد المتقدمة، وليس فيه إضافة مهمة (مجد).

أما الفصل الثاني، فقد تناولت فيه صور البيان، مبيناً رأي الشيخ رشيد في التشبيه، ومتنقلاً منه إلى المجاز العقلي وعلاقاته، ثم إلى المجاز اللغوي بقسميه: المرسل والاستعارة، وأخيراً كان الحديث عن الكناية والتعريض.

أما الفصل الثالث، فتناولت فيه ألوان البديع المعنوية واللفظية التي عرض لها الشيخ رشيد الخطيب، مثل: المشاكلة، واللف والنشر، والمقابلة والالتفات وأنواعه، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والتورية وحسن التعليل وأسلوب الحكيم، والإبهام، والفاصلة القرآنية، ثم الخاتمة وفيها أهم نتائج البحث، وقائمة المصادر والمراجع.

ومهما يكن من شيء فأنا أقدم هذا الجهد إسهاماً متواضعاً في خدمة كتاب الله تعالى الذي تفانى علماؤنا السابقون والمحدثون ـ ومنهم صاحب التفسير الخطيب الموصلي ـ في خدمته والذود عنه، وشرحه ودراسته، وبيان ما لبلاغته ونظمه من سمو وإعجاز، يبتغون بذلك وجه الله العلي العظيم، والله عنده حسن الثواب، وإليه المآب.

بغداد ١٤٣١هـ

أ. م. د. عقيد خالد حمودي العزاوي

هدف الدراسة

١) هي الكشف والبيان لكثير من المباحث والأساليب والصور البلاغية، وكذلك الظواهر التي امتاز بها تفسير الخطيب الموصلي، ثم الوقوف عليها وسبْر أغوارها، ومعرفة الإعجاز القرآني والبياني في تفسير (أولى ما قيل في آيات التنزيل).

٢) إظهار قدرة علماء أمتنا ممن خدموا القرآن الكريم، وأرفدوا تراثنا بالكثير من المؤلفات والعلوم، أخص منهم عالمنا الموصلي الذي لم يأخذ حَقّه من الدراسة والبحث.

٣) البحث دراسة جادّة وجديدة بحسب علم الباحث؛ إذ لم يدرس من جوانبه البيانيَّة والبلاغيَّة[١]، على الرُّغم من كثرة فنون هذا العلم في تفسيره، فكان من الواجب الشرعي والعلمي، دراسته وبيان مقدرته للقارئ الكريم والله وراء القصد.

مشكلة البحث الدراسة:

تقع مشكلة الدراسة في التفسير نفسه؛ إذ طبع على شكل أجزاء متفرقة، ولم يطبع دفعة واحدة، فضلاً عن تأخر كل طبعة عن التي تليها من أجزاء التفسير، وزيادة على كثرة الأخطاء الطباعيَّة والفنيَّة ممَّا أثر على مادة الموضوع العلمية، وعزوف كثير من الدارسين عنه، ولقلة المطبوع منه في المكتبات؛ إذ لم تكن نسخ طبعه متساوية من حيث

---

(١) قام الباحث الأخ خالد حماش بجهد مشكور في هذا الجانب، ودرس الجوانب البلاغية في تفسير الخطيب وإن لم يستقص، ولا بد من الإشادة بجهده وتقدّمه في هذا المضمار (مجد).

الأجزاء لاختلاف أوقات طبع أجزائه كل تلك الأسباب وغيرها أثَّرت على المؤلف مما جعله يعيد النظر في تفسيره، فوضع زيادات قد فاتته في أثناء مراجعته للتفسير المطبوع، وحذف بعض المعلومات واستدراكه على ما فاته من معانٍ، وشرح لطائفةٍ من القضايا التي يجب الوقوف عندها. ثم أوصى رحمه الله بأن يعاد التفسير على ما استدرك من إضافات؛ لأنَّه لم يُكملهُ بعد أن أقعده المرض طويلاً. ثم قامت كلية الإمام الأعظم مشكورة بتوزيع أجزاء التفسير على طلبتها في الدراسات العليا لتحقيقه وضبطه وتكملة الزيادات وحذف الموصى به[1]. فتمَّ ذلك والحمد لله، ونوقشت جميع رسائل التفسير الموزعة على الطلبة التسع، فكان اعتمادنا على ما ذُكِر من المطبوع، وإن أشكل علينا النص رجعنا إلى الجزء المحقق. هذه كانت أبرز مشكلة واجهت الدراسة، والله المستعان وعليه التُّكلان.

❊ ❊ ❊

---

(١) اطلعت على بعض هذه الأعمال، فوجدتها دون المستوى المطلوب، مع اختلاف منهج المحققين، وتفاوت مقدرتهم العلمية، وكثرة التكرار في التراجم المشهورة، والتخريج المسهب دون فائدة، والتعليق في مواطن لا تحتاج إلى تعليق،وإغفال ما يستحق التعقيب والاستدراك. وقد أغنى الله تعالى عن ذلك كله برجوعي إلى نسخة المؤلف الأخيرة، وخدمة الكتاب والتعليق عليه وتخريج أحاديثه، والتقديم له بمقدمة مهمة، وتنسيقه وإخراجه بهذا المظهر اللائق مع إضافة دراسة الأخ الدكتورخالد حماش، مع الفهارس العلمية المتنوعة (مجد).

الفصل الأول
علم المعاني

علم المعاني هو تطبيق عملي لفكرة النظم التي شرح بها عبد القاهر الجرجاني إعجاز القرآن الكريم والتي عرَّف النظم فيها بقوله: «اعلم أنْ ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها»[١].

أي: أنَّ النظم عنده هو تأليف الكلام على وَفق أبواب النحو المختلفة، وعليه فإن أهم ما يميز هذا العلم ارتباطه بالنظم النحوي، وقد عُرِفَ (النظم) قبل عبد القاهر، إذ قال عنه الجاحظ قال: «والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطبع، وكثرة الماء، وجودة السبك»[٢].

وعُرِف هذا العلم أيضاً عند سيبويه وابن قتيبة والمبرّد والرماني والباقلاني وغيرهم من العلماء والتي كانت آراؤهم بمثابة الخيوط الأولى للفهم الدقيق لعلم المعاني المعتمد على طريقة سبك الكلام.

---

(١) دلائل الإعجاز: ص٦٤.

(٢) الحيوان (٣: ١٣١-١٣٢).

ومن خلال نظرية النظم تعددت موضوعات علم المعاني مثل: الفصل والوصل، وحروف العطف، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والحذف، والتكرار، والخبر والإنشاء... وهذه تقسيمات السكاكي الذي جاء بعد الجرجاني. وهذه المباحثُ درسها المفسرون في تفاسيرهم كالزمخشري والقرطبي والبيضاوي وأبي حيان ومفسرنا رشيد الخطيب الموصلي الذي تناول هذه المباحث في تفسيره «أولى ما قيل».

وعلم المعاني قد عرفه البلاغيون ومنهم السكاكي بقوله: «اعلم أن علم المعاني هو تتبّع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»[١].

أي: هو العلم الذي يبحث أحوال اللفظ مثل التعريف والتنكير والإظهار...، وغير ذلك ويتبين كيف تكون هذه الأحوال واقعة في الكلام موقعاً تطابق دواعي النفس، ولم تأتِ زائدة ثقيلة، ولا متكلفة كريهة وهذه الأحوال هي الهيئات والكيفيات.

❊ ❊ ❊

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٦١.

المبحث الأوّل

الخبر والإنشاء

الخبر:

الخبر (لغة): خبـرتُ بالأمر أي: أعلمته، وخبرت الأمر أخبرُهُ إذا عرفته على حقيقته، والخبر ـ بالتحريك ـ واحد الأخبار، والخبر: ما أتاك من نبأ عمَّن تستخبر، والخبر: النبأ، وخبرّه بكذا وأخبره: نبأه[١].

والخبر في الاصطلاح: تناول العلماء المتقدمون هذا المصطلح البلاغي بالبحث والدراسة، منهم المبرد بقوله: «الخبر ما جاز على قائله التصديق والتكذيب»[٢]، وبهذا المعنى قال أكثر العلماء الذين جاؤوا بعده[٣].

وأوضح ابن فارس الفرق في تعريف الخبر بين أهل اللغة وأهل البلاغة، فأهل اللغة لا ينظرون إلى الخبر إلا بوصفه إعلاماً للآخرين أما أهل النظر فيقسمونه على كلام صادق أو كاذب. يقول ابن فارس: «أما أهل اللغة فلا يقولون في الخبر أكثر من

(١) لسان العرب، مادة (خبر).

(٢) المقتضب (٣: ٨٩).

(٣) ينظر: قواعد الشعر، لثعلب، ص٢٥، والبرهان في وجوه البيان، لابن وهب الكاتب، ص١١٣، والصاحبي، لابن فارس، ص١٧٩، والفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، ص٣٢.

أنه إعلام... والخبر هو العلم. وأهل النظر يقولون: الخبر ما جاز تصديق قائله أو تكذيبه وهو إفادة المخاطب أمراً في ماضٍ من زمان أو مستقبل دائم»(١).

وأخذ القزويني برأي الجمهور فقال: «اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب، فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما ثم اختلفوا، فقال الأكثر منهم: صدقُهُ مطابقة حكمه للواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه له، وهذا هو المشهور عليه التعويل»(٢).

أضرب الخبر:

استنبط البلاغيون من أسلوب الكلام ثلاثة أنواع للخبر، فإن جاءت الجملة الخبرية خالية من المؤكدات سُميَّ الخبر ابتدائياً، وإذا أُكدت الجملة بمؤكد واحد كان الخبر طلبياً، وإن أكدت الجملة بمؤكدين أو أكثر كان الخبر إنكارياً.

قال القزويني في بيان أضرب الخبر: «فإن كان ـ المخاطب ـ خالي الذهن من الحكم والتردد فيه استُغني عن مؤكدات الحكم، كما قال تعالى حكاية عن رسل عيسى عليه السلام إذ كذبوه في المرة الأولى: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾، وفي الثانية: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾(٣)، ويسمَّى الضرب الأول ابتدائياً، والثاني طلبياً، والثالث إنكارياً»(٤).

وقد نبّه الشيخ رشيد في تفسيره على بعضٍ من هذه الصور، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤]، فقال: «فيؤكد الخبر بلام الابتداء مع أنّ

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١: ٣٦١).

(٢) الإيضاح، ص١٧، والتلخيص، ص٣٨.

(٣) هذا جزء من قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ۝ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ۝ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ١٤-١٦].

(٤) ينظر: الإيضاح، ص٢٣.

المجيء قد وقع؛ إذ إنَّ هذا القول يكون يوم القيامة، وذلك بما كان من جحودهم إيَّاه واستبعادهم لوقوعه واستهزائهم به»[١].

ومنه أيضاً ما قاله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥]: «ومن بلاغة القرآن: تأكيد الجملة الثانية باللام دون الأولى؛ لأنها في العقاب»[٢]. فهذا البيان للمعنى يدل على فهمه لهذه الأضرُب.

أغراض الخبر[٣]:

للجملة الخبرية غرضان أصليان وضعا باعتبار المخاطَب أو المتلقي وهما:

فائدة الخبر: ومعناه أن تفيد الجملة المخاطبة المعنى الذي تحمله؛ لأن المتلقي لا يعرف بالحكم نحو (زيد قائم) لمن لا يعرف.

لازم الفائدة: ومعناه أن تفيد الجملة المخاطبة أنَّ المتكلم عالم، نحو: أنت جئت: لمن قام بالمجيء.

ولكن الخبر يخرج عن ظاهر معناه إلى معانٍ باعتبار حال المتكلم وفعل المخاطب، فالسبب مرتبط بالنتيجة، والسبب هو فعل المخاطب الذي أدى إلى نتيجة الخبر، فقد يخرج الخبر بلاغياً إلى الإنكار والطلب والتعظيم...

وهذا مجمل ما ذكره العلماء بخصوص الخبر ومعناه وأغراضه وأنواعه، وبعد هذا العرض لابد من دراسة الخبر في تفسير «أولى ما قيل» لرشيد الخطيب.

---

(١) أولى ما قيل، (١: ٦٥٤).

(٢) أولى ما قيل: (٣: ٤٠٢).

(٣) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية: (٢: ٤٧٨).

الخبر في تفسير أولى ما قيل:

بحث المفسرون في القرآن الكريم عن الجملة الخبرية، وأبرزوا أغراضها البلاغية في أحيان كثيرة، وكان هدفهم من دراسة الخبر ذكر الألوان البلاغية الكامنة في هذا الأسلوب المتنوع، لإيضاح المعاني القرآنية وإظهار إعجاز أسلوب القرآن الكريم، ومن أغراض الخبر التي ذكرها رشيد الخطيب:

١) الخبر للدعاء:

ومن الآيات التي جاء بها الخبر على سبيل الدعاء قوله تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، قال رشيد: «أي: صرف الله قلوبهم عن الاهتداء، بسبب أنهم لا يتدبَّرون ليفقهوا الحق، فهم لا يستعملون عقولهم في ذلك وهذه الجملة للدعاء والخبر معاً، والمغزى واحد»(١).

وهذا المعنى قال به أكثر المفسرين، قال أبو حيان: «﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ صيغته خبر، وهو دعاء عليهم بصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان»(٢).

٢) الخبر للبشارة:

ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، قال رشيد الخطيب: «ونكتة إيراد هذا الحكم

(١) أولى ما قيل: (٤: ١٤٤).

(٢) البحر المحيط، أبو حيان (٥: ١٢٠)، وينظر: الكشاف، الزمخشري (٢: ٣١٠)، والجواهر الحسان، الثعالبي (٢: ١٤٩).

بلفظ الخبر الإشارة إلى جعله بشارة للمؤمنين الفقهاء الصابرين، بأنهم يكونون كذلك فعلاً، بفقههم ونظرهم الصائب كما يفهم ذلك من فحوى التعليل بقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾... ومعنى اللفظ الخبري، أن يوجد منكم عشرون صابرون يغلبوا بتأثير إيمانهم وصبرهم مائتين من الذين كفروا المجردين من هذه الصفات الثلاث، والآية تشعر بأن العلم مصدر البسالة والقوة المعنوية...»[١].

وذكر أغلب المفسرين أن الخبر بمعنى الوعد[٢].

٣) الخبر للتقرير:

ويأتي الخبر للتقرير نحو قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، قال رشيد: «أي: لا تجدهم وادِّين أعداء الله ولو كانوا أقرب أقربائهم. والمعنى لا تجتمع موالاتهم الكفار في الدين مع الإيمان إذا كانت موالاة تجر إلى الضرر في الدين، وصاغ العبارة بصورة الخبر الواضح مبالغة في تقريره»[٣].

وقال الشنقيطي: «وردت هذه الآية بلفظ الخبر، والمراد بها الإنشاء»[٤]، وهذا ما قاله الماوردي[٥].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٤٩).

(٢) ينظر: الكشاف (٢: ١٦٧)، والجامع لأحكام القرآن (٧: ٤٠١)، ونظم الدرر (٨: ٣٢٠-٣٢١)، والتسهيل (٢: ٦٨)، والبحر المحيط (٤: ٥١٦)، وأنوار التنزيل (١: ٣٩٠)، وتنوير الأذهان (٢: ٦٥١).

(٣) أولى ما قيل (٧: ٣٣٠).

(٤) أضواء البيان، ص١٨٤٩.

(٥) ينظر: النكت والعيون (٥: ٤٩٦).

٤) الخبر بمعنى الأمر:

نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧]، قال رشيد: «وهذا ضرب من بلاغة الأسلوب والإيجاز لا تجد له مثيلاً في غير القرآن: خاطب أولي الأمر بما لقّنه للساقي خطاب الآمر للمأمور الحاضر، فأوجب عليهم الشروع في زراعة القمح دائبين عليه دأباً مستمراً سبع سنين بلا انقطاع. فالكلام خبر بمعنى الأمر. وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به. والدليل على كونه بمعنى الأمر قوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٤٧]، أي: فكل ما حصدتم منه في كل زرعة فاتركوه أي: ادّخروه في سنبله بطريقة تحفظه من السوس بعدم سريان الرطوبة إليه فيبقى الحب لغذاء الناس والتبن لغذاء البهائم والدواب»(١).

وهذا ما ذهب إليه البغوي بقوله: «هذا خبر بمعنى الأمر، يعني: ازرعوا سبعَ سنين على عادتكم في الزراعة»(٢).

وقال الرازي: «وهو خبر بمعنى الأمر... وإنما يخرج الخبر بمعنى الأمر، ويخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في الإيجاب فيجعل كأنه وجد لكي يخبر عنه، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾. وقوله: ﴿دَأَبًا﴾»(٣)، وهذا ما ذكره الزمخشري والنسفي والماوردي(٤).

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٣١١).

(٢) معالم التنزيل (٤: ٢٤٧).

(٣) التفسير الكبير (١٨: ١٢٠).

(٤) ينظر: الكشاف (٢: ٤٤٩)، ومدارك التنزيل (٢: ١٩٢)، والنكت والعيون (٣: ٤٤).

المبحث الثاني

الإنشاء

الإنشاء لغةً: هو الابتداء أو الخلق، أو الابتداع[١].

وهو **في الاصطلاح**: الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به واقع خارجي يطابقه أو لا يطابقه[٢].

وقد علَّل البلاغيون عدم احتمال التكذيب والتصديق في الإنشاء؛ لأنه يدل على حدث لم يقع من قبل. وفرقوا بين الخبر والإنشاء اعتماداً على ذلك.

فالقزويني يقول: «ووجه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء؛ لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه أو لا يكون لها خارج. الأول: الخبر، والثاني: الإنشاء»[٣].

وينقسم الإنشاء على قسمين: طلبي وغير طلبي:

الطلبي: هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، نحو: اعمل خيراً.

غير طلبي: هو ما لا يستدعي مطلوباً نحو: أكلت وشربت، وللإنشاء غير الطلبي صيغ كثيرة، كأفعال المدح والذم كـ نِعْم وبئس، وكفعلَي التعجب، وكأفعال المقاربة:

---

(١) لسان العرب، مادة (نشأ).

(٢) ينظر: التعريفات، ص٣٠.

(٣) الإيضاح، ص٨٥، والتلخيص، ص١٥١، والطراز (١: ٦١).

عسى واخلولق، وكصيغ العقود: كـ(بعت واشتريت)، والقسم. واستبعد البلاغيون هذا النوع من مباحث علم المعاني؛ لأن تلك الأساليب أخبارٌ نقلت إلى الإنشاء.

ولنتعرف الآن على أنواع الإنشاء الواردة في تفسير رشيد الخطيب، التي سنتناولها بالدراسة والتحليل، فكلما وردت آية حملت نكتة بلاغية، أشار إليها وفسر مقتضاها البلاغي، وما يخرج إليها من مقاصد بلاغية، وإليك التفصيل.

أقسام الإنشاء الطلبي:

أولاً: الأمر

الأمر في البلاغة: طلب فعل الشيء على وجه الاستعلاء، وعرَّفه العلوي بقوله: «هو صيغة تستدعي الفعل أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء»(١).

وللأمر أربع صيغ هي:

١- فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

٢- المضارع المقرون بلام الأمر، كقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٧].

٣- اسم فعل الأمر، كقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

٤- المصدر النائب عن فعل الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

---

(١) الطراز (٣: ٣٨١).

ويخرج الأمر إلى أغراض بلاغية تعرف دلالاتها من سياق الكلام، ومن تلك الأغراض الواردة في تفسير «أولى ما قيل»:

١) الأمر للتهديد والوعيد:

ويأتي الأمر على سبيل التهديد والوعيد كما في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، قال رشيد: «فإن لم يعتبر كفاركم بمعاقبة من قبلهم، فسيرون ما يحل بهم. والأمر بالصبر تهديد ووعيد»[١].

وهذا المعنى ذكره المفسرون ومنهم أبو حيان الذي قال: «ففي قوله: ﴿فَٱصْبِرُواْ﴾ قوة التهديد والوعيد هذا ظاهر الكلام وأن المخاطبة بجميع الآية للكفار»[٢] وتبعه الشوكاني[٣]. أما الإمام أبو السعود فذكر أن هذا الأمر بمعنى: «وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين»[٤]، في حين اكتفى الألوسي في ذكر أن هذا الأمر للوعيد فقط[٥].

٢) الأمر للتكوين:

ويأتي الأمر على سبيل التكوين، وذكره ابن فارس قائلاً: «إنه لا يكون إلا من الله سبحانه وتعالى»[٦]، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، قال رشيد: «إنَّ إيجاد الله سبحانه للأشياء مجرد إرادة عليه لا معالجة فيها ولا نصب، فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وهذا

(١) أولى ما قيل (٣: ٤٥٢).
(٢) البحر المحيط (٤: ٣٤٢).
(٣) ينظر: فتح القدير (٢: ٣٢٧).
(٤) إرشاد العقل السليم (٣: ٣٤٨).
(٥) ينظر: روح المعاني (٨: ١٧٩).
(٦) الصاحبي، ص١٨٥، ومعترك الأقران، للسيوطي (١: ٤٤٢).

هو المسمَّى بالأمر التكويني. والكلام تمثيل لسهولة تأتّي المقدورات بأنه لا يزيد على تعلق مشيئته تعالى بها، وتصوير لسرعة حدوثها بعد تدرجها في سنن التكوين. وفي الآية إيماء إلى أن الله سبحانه هو الذي يملك سر التكوين، ولا يعلم ذلك السر إلا الله»[١].

٣) الأمر بمعنى الخبر:

ويأتي الأمر بمعنى الخبر ومنه قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

قال رشيد: «وعدد السبعين في عرف العرب بمعنى الكثرة. فليس المراد به العدد المعيَّن وليس له مفهوم مخالفة. والمعنى: مهما تكثر من الاستغفار لهم فلن يستجاب لك فيهم. والأمر هنا بمعنى الخبر»[٢].

وهذا المعنى قال به أكثر المفسرين[٣]، وذهب ابن عطية إلى معنى التخيير قائلاً: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون لفظه أمر ومعناه الشرط بمعنى: إن استغفرت أو لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٣]، والمعنى الثاني: أن يكون تخييراً كأنه قال له: إن شئت فاستغفر وإن شئت لا تستغفر، ثم أعلمه أنه لا يغفر لهم وإن استغفر سبعين مرة»[٤]، ورجَّح أن هذا هو الصحيح، وتبعه ابن جزي في ذلك[٥].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٤٦٩).

(٢) أولى ما قيل (٤: ١١٥).

(٣) ينظر: معاني القرآن، للفراء (٢: ١١١)، وجامع البيان (١٤: ٢٩٣)، وإرشاد العقل السليم (٤: ٨٧)، ومدارك التنزيل (٢: ١٠١)، والبحر المحيط (٥: ٧٨)، وبحر العلوم، للسمرقندي (٢: ٧٧)، واللباب في علوم الكتاب (١٠: ١١٤).

(٤) المحرر الوجيز (٣: ٧٢).

(٥) ينظر: التسهيل (١: ٤٦٨).

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: ٦]، قال رشيد: «أي: فلترضع له مرضعة أخرى غير أمّه، وإنما أورد الأمر على صورة الخبر، ليكون فيه تأنيب للأم. والله أعلم»(١).

وقال أبو حيان: «وقيل: ﴿فَسَتُرْضِعُ﴾ خبر في معنى الأمر: أي: فلترضع له أخرى»(٢). فالآية عنده ليست أمر في معنى الخبر، بل على العكس وهذا ما ذكره الألوسي أيضاً(٣).

٤) الأمر للتهكم:

ويخرج الأمر لغرض التهكم، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]، قال رشيد: «أي: فليتوصل إلى السماء وليقطع المسافة البعيدة، وليعارض نصر الله إن قدر، وليشف غليله... والمعنى مبنيٌّ على العرف العام، وهو أن الأمر الذي يأتي من قبل الله يأتي من السماء أي: فليقاوم السماء إن قدر، وقيل: المراد فَلْيَمْدُدْ بحبل يخنق به نفسه ويقطعه. وعلى كلٍّ فالآية تمثيل أدبيٌّ بليغ مأخوذ من عرف المخاطبين، سيق إغاظةً وتهكماً بمن كان يعتقد أن رسول الله ﷺ ضال في دعوته وأعماله الفاشلة»(٤).

وإلى هذا المعنى ذهب ابن كثير(٥)، فيما أشار ابن عاشور(٦) والشنقيطي(٧) إلى أن هذا الأمر للتعجيز.

---

(١) أولى ما قيل (٧: ٤٢٠).

(٢) البحر المحيط (٨: ٢٨١).

(٣) ينظر: روح المعاني (٢٨: ١٤٠).

(٤) أولى ما قيل (٥: ٢٢٢-٢٢٣).

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٣: ٢٨٣).

(٦) ينظر: التحرير والتنوير (١٧: ١٥٩).

(٧) ينظر: احتواء البيان، ص٩٨٢.

٥) الأمر للدعاء:

يأتي فعل الأمر على سبيل التضرّع وطلب الحاجة، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

قال رشيد: «جعل هذا البيان توطئة للدعاء عليهم، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أي: بالآفات والحوائج حتى لا يرى لها أثر. ثم نسق مع الدعاء عليهم بيان تحريفهم لطباعهم ليكون كالتعليل الضمني له، وأخرجه مخرج الدعاء، وساق مساقه فقال: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: بما أحاطت بها خطيئاتهم حتى أفقدوها نورها واستعدادها للهدى والرشاد... وإنما أخرجه مخرج الدعاء ونسقه معه، مبالغة في إظهار اليأس منهم»(١).

وقال البيضاوي: «دعاء عليهم بلفظ الأمر بما علم من ممارسة أحوالهم...»(٢) وهذا ما ذكره الزمخشري(٣).

٦) الأمر للإهانة:

ويخرج الأمر للإهانة، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا * أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ [الإسراء: ٥٠]، قال رشيد: «فأجابهم بجواب صيغ نظمه على الاستهانة بالأمر والاستخفاف به، مهما كان حاله»(٤).

---

(١) أولى ما قيل (٤: ١٩٧).
(٢) أنوار التنزيل (٣: ٢١٢).
(٣) ينظر: الكشاف (٢: ٣٤٧).
(٤) أولى ما قيل (٤: ٥٤٤).

ولم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا القول، سوى السمرقندي الذي ذكر أن الأمر في الآية بمعنى الخبر قائلاً: «اللفظ لفظ الأمر ومعناه معنى الخبر، يعني لو كنتم من الحجارة أو من الحديد أو خلقاً مما يكبر في صدوركم»[١].

٧) الأمر للامتنان:

ويجوز أن يخرج الأمر إلى معنى الامتنان بحسب مقام الكرام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، قال رشيد: «ويتضمن هذا الأمر الامتنان»[٢].

وذكر الألوسي أن الأمر هنا للإباحة[٣]. وذهب ابن جزي إلى معنى التذكير والإنعام[٤]، في حين قال ابن عاشور: «صيغة الأمر مستعملة في معنى الإدامة والامتنان»[٥].

ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ﴾ [طه: ٥٤]، قال رشيد: «ثم زاد التحسيس تمنناً بقوله: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ﴾ أي: من هذه المخرجات المباركات المنوعات»[٦].

وإلى هذا المعنى ذهب القرطبي[٧] والشوكاني[٨]، وذكر ابن عاشور أن «الأمر للإباحة مراد به المنّة»[٩].

---

(١) بحر العلوم (٢: ٣١٥).

(٢) أولى ما قيل (٧: ٤٥٠).

(٣) ينظر: روح المعاني (٢٩: ١٥).

(٤) ينظر: التسهيل (٤: ١٣٥).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩: ٣٠).

(٦) أولى ما قيل (٥: ١١٣).

(٧) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١١: ١٩٠).

(٨) ينظر: فتح القدير (٣: ٥٢٩).

(٩) التحرير والتنوير (١٦: ١٣٤).

ثانياً: النهي

وهو طلب الكفّ عن الفعل، استعلاءً، قال السكاكي: «للنهي حرف واحد وهو (لا) الجازم في قولك: (لا تفعل)، والنهي محذو به حذو الأمر في أنَّ أصل استعمال (لا تفعل) أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور، فإنْ صادف ذلك أفاد الوجوب وإلا أفاد طلب الترك فحسب»(١). فالوجوب والإلزام شرطان يلازمان أسلوب النهي ويعنيان وجوب إلزام المخاطب بما ينهي عنه، والسكاكي يوازن بين أسلوب الأمر وأسلوب النهي فيرى أن الأسلوبين يشتركان في اعتبار الاستعلاء والأخير، ونقصد بالآخر أن الأمر والنهي يقصدان الآخر فلا يمكن لإنسان أن ينهىٰ نفسه أو يأمرها.

أما وجه الخلاف بين الأسلوبين فهو أن لكل منهما صيغة خاصة به. «الأمر دالٌّ على الطلب، والنهي دلَّ على المنع، وأن الأمر لابدَّ من إرادة مأمورة، وأن النهي لابدَّ فيه من كراهية منهيَّة»(٢).

ويخرج النهي إلى أغراض مجازية، ومما ورد منها في تفسير «أولى ما قيل»:

١) النهي للتأكيد والتقرير:

وقد يأتي النهي للتأكيد والتقرير، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]، قال رشيد الخطيب: «ثم عاد إلى الخطاب العام وختم السياق بما بدأه وهو النهي عن الإشراك بالله تأكيداً له وتقريراً، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ تعبده أو تصمد إليه أو تتوسط به أو تتوكل عليه أو تتبع تشريعه وتعليمه»(٣).

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٥٢-١٥٣، وينظر: الإيضاح، ص٢٤٤، وتهذيب السعد (٣: ٤٣).

(٢) تهذيب السعد (٣: ٢٤٨).

(٣) أولى ما قيل (٤: ٥٤٠).

ولم يقل هذا المعنى سوى الشيخ الجزائري[١].

في حين ذهب أغلب المفسرين إلى أن النهي في هذه الآية هو للتنبيه. قال البيضاوي: «تنبيهاً على أن التوحيد مبدأ الأمور ومنتهاه، وأن من قصد بفعل أو ترك غيره ضاع سعيه وأنه رأس الحكمة وملاكها»[٢].

٢) النهي للاحتقار:

ويأتي النهي للاحتقار نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٧-٨٨].

قال رشيد الخطيب: «وبعد أن ذكَّره بهذه النعمة التي لا يماثلها شيء زهَّده في زخارف الدنيا التي أفاضها على المعاندين له والمعارضين لما نزل عليه، لتكون الدنيا من حظهم والآخرة من حظه، وهو أمر يوافق ما في نفسه ﷺ، ولكنه جاء النهي لمجرد المبالغة في التهييج، فقال: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا ﴾ أي: أصنافاً ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من الكفار، ويجوز أن يتعلق بـ﴿مَتَّعْنَا﴾. أي: لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به بعض هؤلاء الكفار من أصناف النعم والأنعام والأموال فإنها مستحقرة بالإضافة إلى ما أوتيته من نعمة القرآن، كأنه قيل: إنك أوتيت هذا القرآن العظيم الذي كل شيء غيره لا شيء فلا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات إلى زخارف الدنيا الحقيرة. وهذا ليس على ظاهره؛ لأنه ﷺ لا تمتد عينه إلى ذلك، ولكنه إما لشدة البيان عن زهادة زخارف

(١) ينظر: أيسر التفاسير (٣: ١٩٥).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل (٣: ٤٤٧)، وينظر: إرشاد العقل السليم (٥: ١٧٣)، وروح المعاني (١٥: ٧٧)، والسراج المنير (٢: ٢٤).

هذه الحياة، وإما نهيٌ للأمة في شخص النبي ﷺ. وذلك على نهج القرآن في أساليبه. ويجوز أن يكون ما كان عليه المسلمون من الفقر والعوز نتيجة مقاطعة المشركين لهم، وهجرتهم عن ديارهم وأملاكهم. وما كان عليه الكفار من التمول والغنى. والحروب تحتاج إلى الأموال: كل ذلك يحز في نفسه ﷺ، فوعظه مع أتباعه سبحانه وتعالى وهون عليه»(١).

وذهب الزمخشري بالقول: «وقد أوتيت النعمة العظمى التي كل النعم وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة وهي القرآن الكريم»(٢)، وقال أبو حيان: «ولمّا ذكر تعالى ما أنعم به على رسوله ﷺ من إتيانه ما أتاه نهاه، وقد قلنا: إن النهي لا يقتضي الملابسة ولا المقاربة عن طموح عينه إلى شيء من متاع الدنيا هذا وإن كان خطاباً للرسول ﷺ فالمعنى نهي أمته عن ذلك؛ لأن من أوتي القرآن شغله النظر فيه وامتثال تكاليفه وفهم معانيه»(٣). وعلى ذلك يكون ما ذكره رشيد في تفسير الآية الكريمة موافقاً لما ذكره أبو حيان في كون صيغة النهي هنا موجهة إلى الرسول ﷺ، ولكن المراد به أمة الإسلام؛ لأنَّ النهي قد يذكر للجزء ويراد به الكل، فعلى كل مسلم ألا يمد عينيه إلى ما استحسن من مفاتن الدنيا، لأن القرآن يغني عن كل متعة وزخرف للدنيا.

٣) النهي للكراهية:

ويأتي النهي للكراهية نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

قال رشيد الخطيب: «ثم نـهانا عن الزهو والتكبر والاختيال، فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: مختالاً زاهياً، وهو حال ينبعث عن الإخلال بغريزة حُبّ الكمال، وفسادها بالتربية السيئة والتوجيه الرديء، فيتولد منها الشعور بالترفع والعظمة واحتقار

(١) أولى ما قيل (٤: ٤٤٧).
(٢) الكشاف (٢: ٣٩٧).
(٣) البحر المحيط (٥: ٥٤٢).

الغير، وهو أمر مضر بالإجماع ضرراً فادحاً»[١]. فصيغة النهي ﴿لَا تَمْشِ﴾ خرجت بلاغياً إلى معنى الكراهية، ودلَّت على هذا المعنى قرينتها ﴿فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ فالقرائن اللغوية تعطي غرض اللغة ودلالاتها المعنوية.

وقال القرطبي: ﴿وَلَا تَمْشِ...﴾ هذا نهي عن الخيلاء وأمر بالتواضع. والمرح: شدة الفرح، وقيل: التكبر في المشي. وقيل: تجاوز الإنسان قدره. وقال قتادة: هو الخيلاء في المشي، وقيل: هو البطر والأثر. وقيل: هو النشاط. وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين: أحدهما مذموم، والآخر محمود»[٢].

وفسَّر أبو حيان الآية معتمداً على تفسير الزجاج والزمخشري فقال: «قال الزجاج: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وقال الزمخشري: ﴿لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ لن تجعل فيها خرقاً بدوسك... وهو تهكم المختال»[٣] ويضيف أبو حيان قائلاً: «والتهكم: يحمل معاً شيئاً من الكراهية؛ لأنَّ التهكم ينبع من كراهية»[٤].

ثالثاً: الاستفهام

الاستفهام لغةً: جاء في لسان العرب: «معرفتك الشيء بالقلب، وفهمت الشيء: عقلته وعرفته، وأفهمه الأمر وفهَّمه إياه: جعله يفهمه، واستفهمه: سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيماً»[٥].

والاستفهام بلاغياً: هو طلب العلم بالشيء المجهول وهو من صيغ الإنشاء الطلبي.

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٥٣٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١: ٢٣٤).

(٣) الكشاف (٢: ٦٢٤).

(٤) البحر المحيط (٦: ٣٧).

(٥) لسان العرب، مادة (فهم)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ١٨١).

وعرفه السكاكي بقوله: «والاستفهام لطلب حصول في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن إما أن يكون حكماً بشيء على شيء أو لا يكون، والأول هو التصديق ويمتنع انفكاكه من تصور الطرفين، والثاني هو التصور ولا يمتنع انفكاكه من التصديق»[١].

فإذا كان التردد في الوقوع أو اللاوقوع فهو التصديق، وإذا كان التردد في المفرد فهو التصور المعنوي كقولنا: «أقام زيد» يكون الاستفهام للتصديق أي: لوقوع الفعل، أما إذا قلنا: «أزيد قام أم عمرو؟» يكون الاستفهام للتصور. والفرق بين الهمزة التي يطلب بها التصور أو التصديق: أن كل ما صلح أن يؤتى بعده بأم المتصلة فهو استفهام عن التصور.

وللاستفهام ألفاظ موضوعة له[٢] وهي: (الهمزة)، و(هل)، و(ما)، و(من)، و(أيّ)، و(لِـمَ)، و(كيف)، و(أين)، و(أنّى)، و(متى)، و(أيّان).

وقد يخرج الاستفهام مجازياً إلى أغراض بلاغية تعرف من سياق الكلام وقرائن الألفاظ. قال القزويني: «ثم هذه الألفاظ كثيراً ما تستعمل في معانٍ غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام»[٣].

وأهم هذه الأغراض الواردة عند رشيد الخطيب:

١) الاستفهام للتنبيه:

وهو من أقسام الأمر[٤]، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]، قال رشيد الخطيب في تفسير هذه الآية: «وهذا الاستفهام تمهيد لما بعده، يتضمن

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٤٦.

(٢) ينظر: الإيضاح (١: ٢٢٨).

(٣) الإيضاح (١: ٢٣٤).

(٤) معجم المصطلحات البلاغية (١: ١٩١).

تنبيهاً وإيقاظاً لما سيريه من العجائب المخالفة لطبيعتها التي هي عليها، والتي يعلمها منها عليه السلام مما عدده لها»[١].

وهذا المعنى البلاغي قاله أبو السعود في تفسيره: «فالاستفهام إيقاظ وتنبيه له عليه الصلاة والسلام على ما سيبدو له من التعاجيب»[٢].

وذهب الخازن إلى أنه: «سؤال تقريع، والحكمة فيه تنبيهه على أنها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنها معجزة عظيمة»[٣].

في حين ذهب أغلب المفسرين إلى أن الاستفهام في هذه الآية الكريمة هو استفهام تقرير[٤].

٢) الاستفهام للاستبطاء:

يخرج الاستفهام إلى معنى الاستبطاء، نحو قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٣٩]، قال رشيد: «وهذا استفهام أخرج مخرج الاستبطاء، وفي طياته إغراء، وحمل على التجمُّع»[٥].

وإلى هذا المعنى ذهب أكثر المفسرين[٦]، قال أبو حيان في معرض تفسيره للآية:

---

(١) أولى ما قيل (٥: ١٠٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦: ٩).

(٣) لباب التأويل (٤: ٢٦٦).

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٥: ٢٧٩)، والتسهيل (٢: ١٧٠)، والمحرر الوجيز (٤: ٥٠)، وأيسر التفاسير (٣: ٣٤٣)، والبحر المديد (٤: ٦٨٨).

(٥) أولى ما قيل (٥: ٣٩٨).

(٦) ينظر: الكشاف (٣: ٣١٧)، ومدارك التنزيل (٣: ١٨٤)، وإرشاد العقل السليم (٦: ٢٤٢)، وأنوار التنزيل (٤: ٢٣٧)، والسراج المنير (٣: ٣٣).

«استبطاء لهم في الاجتماع، والمراد منه استعجالهم، كما يقول الرجل لغلامه: هل أنت منطلق؟ إذا أراد أن يحرك منه ويحثه على الانطلاق»(١).

٣) الاستفهام الإنكاري:

ويخرج الاستفهام إلى معنى الإنكار، نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [هود: ١٣]، قال رشيد الخطيب: «واختار الأستاذ الإمام أن (أم) في أول الكلام تكون للاستفهام. وهو هنا للإنكار. والمعنى: أيقولون: إنَّ محمداً افترى هذا الكلام»(٢).

وهذا ما ذهب إليه الألوسي وابن عاشور(٣)، وقال أبو السعود: «الهمزة للتوبيخ والإنكار والتعجيب»(٤)، وذهب الشوكاني إلى أن: «الاستفهام للتوبيخ والتقريع»(٥)، ولم يصرح الطبري بالاستفهام وإنما اكتفى بتقديره قائلاً: «ويعني تعالى ذكره بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: أيقولون افتراه؟»(٦). وذكر رشيد أمثلة متعددة في تفسيره(٧).

وهذا الإنكار يأتي على أنواع بلاغية متعددة ذكرها المفسرون ومنهم مفسرنا رشيد الخطيب، ومن هذه الأنواع:

أ) الاستفهام الإنكاري الهازئ:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك: ٢٠].

---

(١) البحر المحيط (٧: ١٥).
(٢) أولى ما قيل (٤: ٢١٧)، وينظر: تفسير المنار (٧: ٢٣٨).
(٣) ينظر: روح المعاني (١٢: ٢٠)، والتحرير والتنوير (١١: ٢١٨).
(٤) إرشاد العقل السليم (٤: ١٩١).
(٥) فتح القدير (٢: ٧٠٢).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (٥: ٢٥٩).
(٧) ينظر: أولى ما قيل (٤: ١٧٣)، (٨: ٦٥)، (٨: ٢٦٤).

قال رشيد الخطيب: «بمعنى: أي جند لكم ينصركم مني، فالاستفهام إنكاري هازئ مُسفِّه لهم كأنه ـ سبحانه ـ يقول لهم: بأي قوة تعصونني: ألكم جند يدفع عنكم عذابي غير رحمتي، وأتى بكلمة الذي ليتناول الفرد»[١].

وذكر أبو السعود أن الاستفهام للتبكيت[٢]، واقتصر الألوسي على معنى التهكم[٣]، وقال أبو حيان: إن الاستفهام للتقريع والتوبيخ[٤]، في حين ذكر بعض المفسرين أن الاستفهام هنا للإنكار[٥].

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ﴾ [هود: ٨٧]. قال رشيد الخطيب: «والاستفهام للإنكار والاستهزاء. والمعنى: أدينك هذا يأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، أو أن نتصرف في أموالنا بما نستطيع من حذق واحتيال على الكسب من الناس»[٦].

وذكر الزمخشري الآية على طريق السخرية والهزء، وتابعه البيضاوي[٧].

وذهب القرطبي إلى معنى الإنكار[٨]، واقتصر ابن جزي على معنى الاستهزاء[٩]،

---

(١) أولى ما قيل (٧: ٤٥٢).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم (٩: ٨)، والبحر المحيط (٨: ١٤٥).

(٣) ينظر: روح المعاني (٢٩: ١٩).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٨: ٢٩٧).

(٥) ينظر: التسهيل (٣: ٢٠٥)، ولباب التأويل (٧: ١٢٦)، واللباب في علوم الكتاب (١٩: ٢٥٣).

(٦) أولى ما قيل (٤: ٢٥٥).

(٧) ينظر: الكشاف (٢: ٢٨٦)، وأنوار التنزيل (١: ٤٦٦).

(٨) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٩: ٧٧).

(٩) ينظر: التسهيل (١٢: ١١).

وتبعه أبو حيان في ذلك(١)، وذهب البقاعي إلى معنى التهكم(٢).

ب) الاستفهام الإنكاري التهويلي:

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٥]، قال رشيد الخطيب: «فهددهم وأنّبهم سبحانه بأسلوب الاستفهام الإنكاري التهويلي، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قياماً طويلاً، يحاسبهم فيه على أعمالهم وما ارتكبوه من السيئات»(٣).

وذهب بعض المفسرين ومنهم الرازي وأبو حيان إلى معنى الإنكار(٤)، وذهب آخرون ومنهم البيضاوي والنسفي وابن عاشور إلى أن الاستفهام تعجيبي(٥).

ج) الاستفهام الإنكاري التبصيري:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

قال رشيد الخطيب في معرض تفسيره للآية: «والمكب: هو الذي ينكس رأسه إلى الأرض فلا يبصر الطريق ولا من يستقبله. والسويّ: هو الذي يستوي قائماً فيبصر

(١) ينظر: البحر المحيط (٥: ٢٥٣)، وينظر: التفسير الكبير (١٨: ٣٦)، وزاد المسير (٤: ٢٧٤).
(٢) ينظر: نظم الدرر (١٢: ٤٤٠).
(٣) أولى ما قيل (٨: ١٦٨).
(٤) ينظر: التفسير الكبير (٣١: ٨٣)، والبحر المحيط (٨: ٤٣٢)، وأيسر التفاسير (٥: ٥٣٤).
(٥) ينظر: أنوار التنزيل (٥: ٤٦٤)، ومدارك التنزيل (٤: ٣٢٣)، والتحرير والتنوير (٣٠: ١٧١)، والسراج المنير (٤: ٣٦٥).

الطريق وجميع الجهات: مثّل بهما للمؤمن المتبصر والكافر المعرض، بطريقة الاستفهام الإنكاري التبصيري»[١].

ولم يذكر المفسرون هذا المعنى الذي ذكره رشيد الخطيب، بل اقتصروا على معنى الإنكار فقط[٢].

د) الاستفهام الإنكاري التعجيبي:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال رشيد الخطيب: «﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتعجيب من هذه المحاجّة وغباوة صاحبها وغروره مع الإنكار عليه»[٣].

وذهب البيضاوي إلى معنى التعجيب قائلاً: «تعجيب من محاجة نمرود وحماقته»[٤]. وهذا رأي النحاس؛ إذ يقول: «وفي الكلام معنى التعجيب، أي: اعجبوا له»[٥]. وذكر ابن عطية وأبو السعود أن: «همزة الاستفهام لإنكار النفي وتقرير المنفي»[٦].

هـ) الاستفهام الإنكاري التهديدي:

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٥٠].

---

(١) أولى ما قيل (٧: ٤٥٣).

(٢) ينظر: فتح القدير (٥: ٣٦٩).

(٣) أولى ما قيل (٢: ٣٨٠)، وينظر: تفسير المنار (٣: ٣٨-٣٩).

(٤) أنوار التنزيل (١: ٥٥٩).

(٥) معاني القرآن (١: ٢٧٥).

(٦) ينظر: المحرر الوجيز (١: ٣٤٢)، وإرشاد العقل السليم (١: ٢٥١).

قال رشيد الخطيب: «وقد أقام مقام الجواب هذه الجملة المصدرة بالإنكار التهديدي ملتفتاً من الخطاب إلى الغيبة للإبعاد والتحقير»[١].

ولم يذكر المفسرون المعنى الوارد للاستفهام في هذه الآية الكريمة، سوى صاحب «زهرة التفاسير» الذي قال: «﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: استفهام داخل على رأيتم وهو تصوير حالهم، والمعنى: أرأيتم وتصورتم حالهم إذا أتاكم عذابه بياتاً وأنتم نائمون...»[٢]، فغرض الاستفهام عنده هو للتبصير.

٤) الاستفهام التقريري:

وهو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

قال رشيد الخطيب: «... وقد قرر التثبيت بهذا الاستفهام التقريري فقال: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ على ذلك الابتلاء: يحملهم بهذا الاستفهام على الصبر والثبات»[٤].

وذكر ابن عاشور أن غرض الاستفهام في هذه الآية هو الحث والأمر[٥]. وهذا الرأي قال به أغلب المفسرين[٦].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ

(١) أولى ما قيل (٤: ١٨٠).

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة (١: ٣٥٨٦).

(٣) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (١: ١٩٠).

(٤) أولى ما قيل (٥: ٣٦١).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير (١٩: ٣١).

(٦) ينظر: البحر المحيط (٦: ٣٥٧)، وتفسير الجلالين (١: ٤٧٢)، وبحر العلوم (٢: ٥٣٣).

﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، قال رشيد الخطيب: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ تقرير المعنى لا الاستفهام الحقيقي. فهو يقرر بقوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ...﴾ قبول الله للتوبة وللصدقات»[١].

وهذا المعنى جاء موافقاً لما قال به المفسرون، جاء في تفسير الجلالين: «الاستفهام للتقرير والقصد به هو تهييجهم إلى التوبة والصدقة»[٢].

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ﴾ [الفيل: ٢]، قال رشيد: «والاستفهام للتقرير، والمعنى: إن الله سبحانه جعل كيدهم فاشلاً خائباً»[٣].

وهذا رأي أغلب المفسرين[٤].

وقد أكثر الشيخ رشيد الخطيب من ذكر هذا النوع في تفسيره[٥].

٥) الاستفهام للتقريع والتبكيت:

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان: ١٧]، قال رشيد الخطيب: «وهذا الاستفهام للتقريع الصافع والتبكيت اللاذع للعبدة الضالين»[٦].

وهذا رأي البيضاوي؛ إذ قال: «لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح وهو استفهام تقريع وتبكيت للعبدة»[٧].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ١٢٧).

(٢) تفسير الجلالين (١: ٢٥٩)، وينظر: لباب التأويل (٣: ١٤٥)، وأيسر التفاسير (٢: ٤٢٢).

(٣) أولى ما قيل (٨: ٣٥٨).

(٤) ينظر: روح المعاني (٣: ٢٣٦)، وفتح القدير (٥: ٧٠٤)، والبحر المديد (٨: ٥٣٧).

(٥) ينظر: أولى ما قيل (٣: ٤٢٣)، (٥: ٥٥١)، (٨: ٧٩)، (٨: ٢٧١).

(٦) أولى ما قيل (٥: ٣٦٠)، وانظر أمثلة أخرى في (٣: ٤٤٩)، (٥: ٤٠٥).

(٧) أنوار التنزيل (٤: ٢١٠).

وذكر الزمخشري معنى التبكيت وتبعه النسفي[١].

ويأتي الاستفهام عند رشيد الخطيب بمعنى التبكيت فقط، من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧]. قال رشيد الخطيب: «أي: تخاصمون الأنبياء والمؤمنين في شأنهم. والمراد من هذا الاستفهام: التبكيت على ما كانوا يعتقدونه من أنها تشفع لهم عند الله»[٢].

قال القرطبي: «﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أي: بزعمكم في دعواكم، أي: الآلهة التي عبدتم من دوني، وهو سؤال توبيخ»[٣].

وأضاف أبو حيان معنى الإهانة بالقول بالتقريع والتوبيخ[٤].

وذكر البيضاوي معنى الاستهزاء قائلاً: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أضاف إلى نفسه استهزاء، أو حكاية لإضافتهم زيادة في توبيخهم»[٥] وإلى ذلك ذهب النسفي[٦].

ويأتي الاستفهام عنده أيضاً بمعنى التقريع فقط، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]، قال رشيد: «استفهامان تقريعيان متواليان، بمعنى: أي شيء أصابكم، وكيف تحكمون أن يكون هؤلاء شركاء لله»[٧].

---

(١) ينظر: الكشاف (٣: ٢٧٣)، ومدارك التنزيل (٣: ١٦٣).

(٢) أولى ما قيل (٤: ٤٦٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠: ٩٨).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٧: ٢٣٠).

(٥) أنوار التنزيل (٣: ٣٣٧).

(٦) ينظر: مدارك التنزيل (٢: ١٥٧).

(٧) أولى ما قيل (١: ٦٦٠).

قال الشوكاني: «هذا تعجبٌ من حالهم باستفهامين متواليين أي: أي شيء لكم كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله؟ وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ»[١].

وذكر أبو حيان أن الاستفهام للتعجب والإنكار قائلاً: «﴿فَمَا لَكُمْ﴾ استفهام معناه التعجب والإنكار، أي: أيُّ شيء لكم في اتِّخاذ هؤلاء الشركاء؛ إذ كانوا عاجزين عن هداية أنفسهم، فكيف يمكن أن يهدوا غيرهم؟ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهام آخر: كيف تحكمون بالباطل، وتجعلون لله أنداداً وشركاء؟ وهاتان جملتان أنكر في الأولى، وتعجب من اتِّباعهم من لا يهدي ولا يهتدي»[٢].

وذهب ابن جزي إلى أن الاستفهام للتقرير والتوبيخ[٣]. وقال ابن عاشور: إن الاستفهام تعجيبي[٤].

٦) الاستفهام للاستغراب والاستعظام:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠].

قال رشيد في تفسيره للآية الكريمة: «وهذه الجملة الاستفهامية المؤكدة بعدة مؤكدات هي التي أفادت أنواعاً عديدة من الإحساسات فهي من البلاغة بمكان: شرحت الموقف شرحاً دقيقاً، مزج فيه التقرير والدهشة مع استفهام الاستغراب والاستعظام. إذ ما كانوا يظنون أنه يصبح عزيز مصر بهذه العظمة البالغة وهذا الشأن الرفيع»[٥].

---

(١) فتح القدير (٢: ٦٤٢).

(٢) البحر المحيط (٥: ١٥٨).

(٣) التسهيل (١: ٤٨٣)، وينظر: الجلالين (١: ٢٧٢).

(٤) التحرير والتنوير (٧: ٥٥).

(٥) أولى ما قيل (٤: ٣٣٥).

وقال أبو السعود عن هذا الاستفهام: إنه «استفهام تقرير، ولذلك أكدوه باللام قالوه استغراباً وتعجباً»[١].

وتردد أبو حيان بين استفهام الاستخبار والاستفهام التقرير قائلاً: «واستفهموه استفهام استخبار، وقيل استفهام تقرير، لأنهم كانوا عرفوه بتلك العلامات التي سبق ذكرها»[٢].

وذهب أغلب المفسرين إلى أنه استفهام تقرير[٣].

٧) الاستفهام للاستبعاد والاستعظام:

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر:٥٤].

قال رشيد الخطيب: «ولما سمع بهذه البشارة التي ملأت قلبه سروراً، ووافقت غرضه ومأموله، طغت عليه موجة من الحرص الطبيعي على تحقيق إنجازها وتحقيقها. فاستفهم عما يكون من أمر المانع الطبيعي وهو الكبر، وأخرج الاستفهام عن ذلك بصورة الاستبعاد والاستعظام، ليسمع من المبشر ما يكف عنه تلك الخاطرة، ويخفف عنه ذلك الهاجس على حد قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، و﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾؟ أي: بأيِّ أعجوبة تبشروني: يستعظم عادة أن يولد له ولد وهو بهذه السن»[٤].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤: ٣٠٤).

(٢) البحر المحيط (٥: ٣٣٧).

(٣) ينظر: أنوار التنزيل (٣: ٣٠٧)، وروح المعاني (١٣: ٤٨)، والسراج المنير (٢: ١٠٧)، والتحرير والتنوير (١٢: ١١٣)، والبحر المديد (٣: ٤١٨).

(٤) أولى ما قيل (٤: ٤٣٧).

وذهب أكثر المفسرين إلى أن الاستفهام في هذه الآية الكريمة هو استفهام تعجب.

قال ابن جرير: «قال عجب من كبره، وكبر امرأته»(١).

وذهب أبو حيان إلى أنه: «تأكيد استبعاد وتعجب»(٢).

ويأتي عنده للتعظيم والتهويل كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١].

قال رشيد الخطيب: أي: الداهية التي تغشى الناس بشدائدها، وتغمرهم أهوالها. والمراد منها: يوم القيامة، والمعنى: هل سمعت قصة يوم القيامة وما يقع فيها؟ والاستفهام للتعظيم الأمر وتهويله»(٣).

وذهب أغلب المفسرين إلى أن الاستفهام للتعجيب(٤).

وقال ابن عاشور: «كون الاستفهام بـ(هل) فيه مزيد تشويق فهو استفهام صوري يكنَّى عن أهمية الخبر بحيث شأنه أن يكون بلغ السامع»(٥).

٨) الاستفهام للتهويل:

ويكون للتخويف(٦) نحو قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠].

---

(١) جامع البيان (١٧: ١١٣)، وينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٠: ٣٥)، ومعالم التنزيل (٤: ٣٨٤)، والتفسير الكبير (٩: ٣١٩)، ونظم الدرر (٤: ٤٢٠)، وفتح القدير (٤: ١٨٣)، وأضواء البيان، ص٤٦٣.

(٢) البحر المحيط (٧: ١٩٧).

(٣) أولى ما قيل (٨: ٢١٩).

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم (٩: ١٤٨)، وروح المعاني (٣٠: ١١٢)، وفتح القدير (٥: ٦٠٥).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠: ٢٦١).

(٦) معجم المصطلحات البلاغية (١: ١٩٢).

قال رشيد الخطيب: «وقد ضمَّن معنى يتمكن فعداه تعديته، أي: ماذا يتمكنون أن يفعلوا إذا جاءهم العذاب في أيِّ وقت كان، وهذا الاستفهام للتهويل ووخامة العاقبة»(١).

قال الواحدي في معنى الآية: «وهذا استفهام معناه التهويل والتفظيع، أي: ما أعظم ما يلتمسون ويستعجلون كما تقول: أعلمت ماذا تجني على نفسك؟! فلما قال لهم النبي عليه السلام قالوا: نكذب بالعذاب ونستعجله فإذا وقع آمنّا به»(٢).

وذهب الشوكاني إلى أن الاستفهام للإنكار(٣).

وقال السمرقندي: إنَّ الاستفهام للتهديد(٤).

٩) الاستفهام للتثبيت:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤].

قال رشيد الخطيب: «وهذا الاستفهام من باب التثبيت والترقية إلى معارج اليقين»(٥).

وقد ذكر أغلب المفسرين أن الاستفهام هنا في معنى الأمر(٦).

وذهب بعضهم أنه مستعمل في الحثِّ على الفعل وعدم تأخيره(٧).

---

(١) أولى ما قيل (٤: ١٨٠).

(٢) الوجيز (١: ٥٠١)، وينظر: البحر المديد (٣: ٢٢٨).

(٣) ينظر: فتح القدير (٢: ٦٥٢).

(٤) ينظر: بحر العلوم (٢: ١٢٠).

(٥) أولى ما قيل (٤: ٢١٩).

(٦) ينظر: الوجيز (١: ٥١٥)، ولباب التأويل (٣: ٢٢٢)، والكشف والبيان (٥: ١٦٠)، وزاد المسير (٤: ٨٣)، وبحر العلوم (٢: ١٤١)، واللباب في علوم الكتاب (١٠: ٤٥٠)، والبحر المديد (٣: ٢٧٧).

(٧) ينظر: نظم الدرر (٣: ٥١٤)، والتحرير والتنوير (١١: ٢٢٠).

١٠) الاستفهام للاسترحام:

وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

قال رشيد الخطيب: «فهذا الاستفهام مرده الاسترحام بشأنه ورأفته العامة أن لا يفتنهم بالفتنة التي لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة. أي: ربنا لا تهلكنا بما فعل هؤلاء»(١).

وذكر بعض المفسرين أن الاستفهام للاستعطاف(٢).

رابعاً: النداء

النداء (لغةً): النِّداء والنُّداء: صوت مثل الدُّعاء والرُّغاء، وقد ناداه ونادى به وناداهُ مناداةً ونِداءً أي: صاح بِهِ(٣).

النداء (اصطلاحاً): أدخل البلاغيون النداء في صيغ الإنشاء الطلبي، ثم عرفوه بأنه: طلب الإقبال بحرف نائب مناب (أدعو) لفظاً أو تقديراً(٤).

وله حروف معينة قال فيها ابن عقيل: فإن كان المنادى بعيداً فله من حروف النداء: يا، وأَيْ، وآ، وَهَيَا، وإن كان قريباً فله الهمزة، وإنْ كان مندوباً ـ وهو المتفجع أو المتوجع عنه ـ فله: وا (٥).

---

(١) أولى ما قيل (٣: ٤٨١).

(٢) ينظر: تفسير الجلالين (١: ٢١٦)، والسراج المنير (١: ٤١٢).

(٣) لسان العرب، مادة (ندى).

(٤) ينظر: تهذيب السعد (٣: ٤٤)، والإتقان (٢: ٢٠٩).

(٥) ينظر: شرح ابن عقيل (٣: ٢٥٥-٢٥٦).

ويخرج النداء من معناه الحقيقي إلى معانٍ مجازية ذكرها البلاغيون، وتناول رشيد المعاني المجازية للنداء في بعض الآيات في تفسيره وذكر الأغراض البلاغية فيها ومنها:

١) النداء للتبريك:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨].

قال رشيد الخطيب مبيناً غرض النداء في هذه الآية: «وهم الملائكة الذين حضروا احتفاءً باستنباء موسى عليه السلام وهذا النداء للتبريك. والله أعلم بمراده»[١].

وقال الزمخشري في بيان معنى النداء: «﴿أَنْ﴾ هي المفسرة؛ لأنَّ النداء فيه معنى القول، والمعنى: قيل له بورك»[٢]، فالنداء عند الزمخشري هو بمعنى القول، وهذا رأي البيضاوي والشوكاني[٣].

وذهب ابن جُزي إلى أن النداء للتنزيه قائلاً: «والمقصود تنزيه الله مما عسى أن يخطر ببال السامع من النداء»[٤].

٢) النداء للتعجب:

ويرد النداء للتعجب نحو قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

---

(١) أولى ما قيل (٥: ٤٣٦).

(٢) الكشاف (٣: ٣٥٤).

(٣) ينظر: أنوار التنزيل (٤: ٢٥٩)، وفتح القدير (٤: ١٨١).

(٤) التسهيل (٢: ٣٠٢).

قال رشيد الخطيب: «فلما سمعت البشارة دفعها الحرص على تحققها، أن تستفهم كيف تذلل الموانع الطبيعية العادية فيها وفي زوجها، فأظهرت ذلك بصورة التعجب تمشياً مع خصائص اللغة في التعبير عما يخالج النفس من مثل ذلك و﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ وهذا الكلام أتى للاستحياء والتعجب أي: يا عجباه»(١).

وهذا ما ذهب إليه ابن جزي قائلاً: ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ الألف فيه مبدلة من ياء المتكلم... ومعناه التعجب من الولادة»(٢).

وقال الزمخشري في تفسير الآية: «هو استعجاب من حيث العادة»(٣)، وتبعه البغوي والرازي وأبو حيان والبيضاوي والشوكاني(٤).

٣) النداء للتنبيه:

من ذلك ما جـاء في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

قال رشيد الخطيب: «فخصَّ بالنداء أصحاب العقول الكاملة؛ للتنبيه على أنهم هم الذين يفقهون سر هذا الحكم وما اشتمل عليه من الحكمة والمصلحة العامة»(٥).

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الغرض للنداء في هذه الآية الكريمة.

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٢٤٥).

(٢) التسهيل (٢: ١٠٩).

(٣) الكشاف (٢: ٢٨١).

(٤) ينظر: معالم التنزيل (٢: ٣٩٣)، والتفسير الكبير (١٨: ٢٥)، والبحر المحيط (٥: ٢٤٣)، وأنوار التنزيل (١: ٤٦٣)، وفتح القدير (٢: ٥١٢).

(٥) أولى ما قيل (٢: ٢٥٤).

خامساً: التمنِّي

جاء في اللسان: «تمنَّى الشيء: أراده، والتمني: تشهِّي حصول الأمر المرغوب فيه»[١].

وهو في الاصطلاح: طلب حصول شيء على سبيل المحبة[٢].

ويكون في الأمر الذي يصعب تحقيقه أو يستحيل، والأداة الموضوعة للتمني هي (ليت)، وقد يُدلّ على التمني بحروف أخرى ليست موضوعة للتمني وهي (هل، لو، لعل)، ولا بد من أن يكون نقلها إلى التمني لأمر من أمور البلاغة[٣].

ويخرج التمني من معناه الحقيقي إلا معانٍ مجازية ذكرها البلاغيون وتناول رشيد الخطيب بعض هذه المعاني في تفسيره مُبيناً الأغراض البلاغية لأسلوب التمني ومنها:

١) التمني للنجدة والخلاص:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ [الأعراف ٥٣].

قال رشيد الخطيب: «﴿فَهَل لَّنَا﴾ الآن ﴿مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ فيتمنون الخلاص بكل وسيلة يتصورونها حسب عقليتهم وانطباعاتهم. وهذا التمني مظهر من مظاهر الندم العظيم واليأس العميق»[٤].

(١) لسان العرب، مادة (تمنى).

(٢) التلخيص (١: ٢٢٨).

(٣) بلاغة التركيب في علم المعاني، ص ١٩٨.

(٤) أولى ما قيل (٣: ٤٣٤).

وقال أبو حيان بمعنى الخلاص في هذه الآية: «ما أخبر به من الوعد والوعيد... سؤالاً عن وجه الخلاص في وقت أن لا خلاص»(١).

واقتصر القرطبي بذكر لفظ التمني قائلاً: «الاستفهام فيه معنى التمني»(٢).

ولم يذكر الزمخشري لفظ التمني في الآية بل اكتفى بالقول على أنها استفهام(٣).

٢) التمني لرفعة وعزة المُتمنِّي:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢] ذلك لأن التمني بـ(لو) إشعار بعزَّة المُتمنىٰ وقدرته؛ لأن المتكلم يظهر في صورة الممنوع؛ لأن (لو) بحسب أصلها حرف امتناع(٤). وامتناع الشيء عن الإنسان سبب ليصبح الممتنع ذا هَيبة، ووقع في القلب والنفس، وكما يقال في علم النفس كل ممنوع مرغوب و(لو) أداة امتناع لامتناع، فامتناع الشيء عن الوجود أمام الطالب يجعل الحصول عليه ممنوعاً لذلك كان تمني الكافرين العودة المحببة والعزيزة إلى قلوبهم لدار الدنيا سبباً في عدم كونهم من المؤمنين، فالسبب المعدوم أدى إلى نتيجة معدومة.

قال رشيد الخطيب: «وللزيادة في الندم يتمنَّون الرجوع لإصلاح ما فرط منهم، تمني يائس بائس... ويجوز أن يكون هذا القول زفرة الإفاقة والعلم بأن الأوان قد فات، وأن لا فائدة في توزيع التبعات»(٥). فهذا الرجوع للمُتمنى صار له عزة ورفعة لامتناعه.

---

(١) البحر المحيط (٤: ٣٠٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧: ١٩٦).

(٣) ينظر: الكشاف (٢: ٩٢).

(٤) ينظر: علم المعاني، ص٦٣.

(٥) أولى ما قيل (٥: ٤٠٦-٤٠٧).

وذهب الزمخشري بالقول: «ولو في مثل هذا الموضع في معنى كأنه قيل فليت لنا كرة وذلك لما بين معنى (لو) و(لَيتَ) من التلاقي في التقدير»[١].

وقال القرطبي في معرض تفسيره للآية: «ولو وقع لنا رجوع إلى الدنيا لآمنا حتى يكون لنا شفعاء تمنوا حين لا ينفعهم التمني»[٢].

❋ ❋ ❋

---

(١) الكشاف (٣: ٣٢٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٣: ١١٧).

المبحث الثالث

التقديم والتأخير

أسلوب التقديم والتأخير من أبرز الظواهر البلاغية وأهمها في لغة العرب، إذ إن من سنن العرب «تقديم الكلام وهو في المعنى مؤخر، وتأخيره وهو في المعنى مقدم»[١]، إن ظاهرة التقديم والتأخير ظاهرة نحوية تناولها النحويون القدماء فكان سيبويه (ت١٨٠هـ) أوّل من اعتنى بالتقديم والتأخير، وأشار إلى دلالات بلاغية كتقديم الفاعل والفعول للعناية والاهتمام[٢]. ودلالات تتعلق بالصنعة الشعرية كالضرورة الشعرية التي قد يؤدي فيها التقديم والتأخير إلى قبح الكلام أحياناً.

وقد تابع النحاة واللغويون سيبويه في آرائه كالمبرد (ت٢٨٥هـ)، وابن جني (ت٣٩٢هـ) الذي تفرد في مناقشته لهذه الظاهرة، بينما تميز الفراء (ت٢٠٧هـ)، والأخفش (ت٢١٥هـ) في نصِّهما على مواضع التقديم والتأخير من نوع تقديم اللفظ والتأخير في المعنى إلى أن وصل البحث إلى الجرجاني (ت٤٧١هـ) الذي درس الظاهرة ـ مفيداً من سيبويه ـ دراسة دقيقة مفصَّلة، وأعطى فيها لكل حالة خصوصيتها المعنوية، وقدَّم دراسته على وَفْق منهج علمي دقيق، وتتابعت الدراسات البلاغية للتقديم والتأخير فكان الزركشي (ت٧٩٤هـ) والسيوطي (ت٩١١هـ) في كتابيهما «البرهان» و«الإتقان» قد قدَّما حشداً للآراء وبياناً كاشفاً لهذه الظاهرة.

---

(١) المزهر (١: ٣٣٨).

(٢) ينظر: الكتاب (٢: ١٢٧-١٢٨).

التقديم والتأخير عند رشيد الخطيب:

وقف رشيد الخطيب على بعض الآيات القرآنية، التي اشتملت على أسلوب التقديم والتأخير، وبين الأغراض البلاغية وراء كل تقديم وتأخير، وكما بين سبب التقديم والتأخير، وسأشير إن شاء الله إلى هذه الآيات، ومن اللافت للنظر أن رشيد لم يتوسع بالقول في هذا الأسلوب وإنما اكتفى ببعض الإشارات في أثناء تفسيره للآيات القرآنية الكريمة.

١) التقديم للتخصيص:

ورد هذا النوع من التقديم في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال رشيد: «فالتقديم لغرض التخصيص»[١].

وقال أبو السعود: «وتقديم المعمول للاعتناء به والقصد إلى التخصيص»[٢]. في حين ذهب ابن عطية إلى معنى الاهتمام في التقديم قائلاً: «وقدم المفعول على الفعل اهتماماً وشأن العرب تقديم الأهم»[٣].

٢) التقديم لإظهار شدة الشناعة:

وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، قال رشيد: «التقديم لإظهار شدة الشناعة فيما فعلوا؛ إذ بالباطل آمنوا وبدين الله كفروا»[٤].

---

(١) لم نقف على الموضع الذي أحال عليه في التفسير.

(٢) إرشاد العقل السليم (١: ٩).

(٣) المحرر الوجيز (١: ٦٤).

(٤) ينظر: أولى ما قيل (٥: ٥٥١).

وهذا ما ذكره أبو السعود بقوله: «وتقديم الصلة في الموضعين لإظهار كمال شناعة ما فعلوه»(١)، وذهب البيضاوي إلى معنى الاهتمام أو الاختصاص قائلاً: «وتقديم الصلتين للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة»(٢)، وتبعه الألوسي(٣).

٣) التقديم لزيادة مدلول الجملة:

وجاء هذا النوع من التقديم في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال رشيد: «وللزيادة في مدلول الجملة، قدم ضمير الفصل»(٤).

وقال الشوكاني: إنَّ غرض التقديم هو الاختصاص: «وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص»(٥)، وهذا ما ذهب إليه أغلب العلماء(٦).

❊ ❊ ❊

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧: ٤٧).

(٢) أنوار التنزيل (٤: ٣٢٤).

(٣) ينظر: روح المعاني (٢١: ١٤)، والبحر المديد (٥: ٤٩٥).

(٤) ينظر: أولى ما قيل (٢: ٨٥).

(٥) فتح القدير (١: ١١٦).

(٦) ينظر: البحر المحيط (١: ٣٣١)، والتحرير والتنوير (١: ٤٤٢)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان (١: ٢٧٢).

المبحث الرابع
الفصل والوصل

الفصل في اللغة: الحاجز، جاء في اللسان: والفصل الحاجز بين الشيئين، فصَّل بينهما يفصل فصلاً فانفصل وفَصَلْت الشيءَ فانفصل: أي: قطعته فانقطع، والوصل، وصل الشيء بالشيء يصلهُ وصلاً وصِلةً ووُصْلةً، واتصل الشيء بالشيء: لم ينقطع[١].

والوصل في البلاغة: عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركهُ[٢]. وهو من المباحث البلاغية التي جعلها العلماء مقياساً للبلاغة، فقد نقل الجاحظ أنه قيل للفارسي: ما البلاغة؟ فقال: هي معرفة الفصل والوصل[٣].

ولعل عبد القاهر من أشهر الذين بحثوه بحثاً مفصلاً والذي حدد أصول البحث في الفصل والوصل وقوانينه وأنواعه بقوله: «إن الجمل على ثلاثة أضرب: جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكد، فلا يكون فيها العطف البتة لشبه العطف فيها ـ لو عطفت ـ يعطف الشيء على نفسه. وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون كلا الاسمين فاعلاً أو مفعولاً أو مضافاً إليه، فيكون حقها العطف. وجملة ليست في الشيء من الحالين... وحتى هذا ترك العطف البتة. فترك العطف يكون

(١) لسان العرب، مادة (فصل) و(وصل)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٣: ١١٨).
(٢) ينظر: الإيضاح، ص١٤٥، والتلخيص، ص١٧٥، وتهذيب السعد (٣: ٥٨).
(٣) ينظر: البيان والتبيين (١: ٨٨).

إما للاتصال إلى الغاية، أو الانفصال إلى الغاية والعطف لما هو واسطة بين الأمرين وكان له حال بين الحالين فاعرفه»(١).

واتفق البلاغيون فيما بعد على أن الفصل في خمسة مواضع، وأن الوصل يجب في ثلاثة مواضع(٢).

مواضع الفصل:

الأول: وهو أن يكون بين الجملتين كمال التآلف وتمام الاتحاد، إذ تنزل الثانية من الأولى المنزلة نفسها وهو (كمال الاتصال) وذلك أن تكون الجملة الثانية تأكيداً للأولى، والمقتضي للتأكيد رفع توهم التجوّز والغلط، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] تجد أن جملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مؤكدة لجملة ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، لأن معنى الثانية: يستوي عندهم الإنذار وعدمه. قال رشيد: «وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مستقلة مؤكدة لما قبلها»(٣).

أو أن تنزل الثانية بدلاً من الأولى، والبدل ثلاثة أضرب: المطابق، والبدل جزء من كل، وبدل الاشتمال.

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢]، قال رشيد: «وهذا الإبدال للتقرير والتحرير وإظهار اليقين»(٤).

وقال أبو حيّان: «ولما كان قد يوهم هذا اللفظ غير الله تعالى كقول فرعون: أنا

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز، ص١٨٧.

(٢) ينظر: الإيضاح، ص١٤٥، والتلخيص، ص١٤٧.

(٣) أولى ما قيل (٢: ٢٧).

(٤) أولى ما قيل (٣: ٤٦٣).

ربكم الأعلى نصّوا بالبدل على أنّ ربّ العالمين رب موسى وهارون»(١).

ومن أمثلة بدل الاشتمال قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣].

قال رشيد: «وقوله: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ يحتمل أن يكون مفعولاً لـ (نسيت)، على أنه بدل اشتمال من الحوت... ويحتمل أن يكون بدل اشتمال من ضمير ﴿أَنسَىٰنِيهُ﴾، ويحتمل الأمرين معاً على طريقة المتنازع، ولذلك أخّره»(٢).

أو أن تكون الثانية بياناً للأولى، وذلك بأن تنزل منها منزلة عطف البيان من متبوعه في إفادة الإيضاح والمقتضي للتبيين أن يكون في الأولى نوع خفاء مع اقتضاء المقام إزالته.

وقد أورد الشيخ رشيد من هذا العطف في تفسيره لكنه لم يجزم به قائلاً: «﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧] بدل منه أو عطف بيان عليه وحده دون الأول. وقيل: بل إنما فصل اسم الموصول هنا؛ لأنه بيان مستأنف للموصلين اللذين قبله معاً»(٣).

ثانياً: وهو أن يكون بين الجملتين (كمال الانقطاع) أي: تباين تام وليس في الفصل إيهام خلاف المقصود، وذلك أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء، لفظاً ومعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٤- ٤٥].

(١) البحر المحيط (٤: ٣٦٤).
(٢) أولى ما قيل (٥: ٣٩).
(٣) أولى ما قيل (٣: ٤٨٣).

قال رشيد: «ويجوز أن يكون في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾ انفصال في الكلام والتفات به إلى المؤمنين يثبِّتهم تجاه هؤلاء المعاندين. ومثل هذا من نهج القرآن وأساليبه»[1].

ثالثاً: وهو أن تصلح الجملة الثانية جواباً على سؤال صريح أو مفهوم من الجملة الأولى، فتنزَّل الأولى منزلة السؤال فتفصل عنها كما يفصل الجواب عن السؤال، ويسمَّى هذا (شبه كمال الاتصال) أو (الاستئناف) كقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٤-٩٥].

قال رشيد: «﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويحاسبكم بها تستحقون. ثم استأنف الكلام وقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ أي: سيؤكدون إليكم اعتذارهم بالأيمان الكاذبة إذا رجعتم إليهم من سفركم»[2].

رابعاً: وهي أن يكون ثمة جملة مسبوقة بجملتين يجوز عطفها على الأولى منهما، ولا يجوز عطفها على الثانية فيُترك العطف لئلا يُظن أنها معطوفة على الثانية، ويسمِّي البلاغيون هذه الحالة (شبه كمال الانقطاع)، ومثله قول الشاعر:

يَقُولُونَ: إنِّي أَحْمِلُ الضَّيْمَ عِنْدَهُمْ ... أَعُوذُ بِرَبِّي أنْ يُضَامَ نَظِيرِي

فقد فصل جملة: «أعوذ بربي» عن جملة: «يقولون» مع جواز عطفها عليها، حتى لا يتوهم عطفها على جملة: «أحمل الضيم...»، فتكون من مقولهم؛ وهي لست منه، بل هي من كلام الشاعر[3].

ولم أجد شواهد عند رشيد الخطيب ذكرناها إكمالاً للفائدة.

---

(١) أولى ما قيل (٢: ٨٩).

(٢) أولى ما قيل (٤: ١٢١).

(٣) علم المعاني، د. بسيوني عبد الفتاح، ص٤٧٤.

خامساً: وهو ألا يراد إشراك الجملة الثانية مع سابقتها في الإعراب؛ لأن ذلك يغيّر المعنى، ويسمي البلاغيون هذه الحالة (التوسط بين الكمالين)، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]، فلو عطف ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ﴾ داخلة في كلام المنافقين، وهذا بالطبع غير هذا، ولم أجد أيضاً شواهد عند رشيد ذكرناها إكمالاً للفائدة.

مواضع الوصل بين الجمل:

المقصود الحالات التي يجب فيها العطف بين الجمل، وهي ثلاثة مواضع:

أولاً: إذ اختلفت الجملتان خبراً وإنشاء وأوهم الفصل خلاف المقصود، كقولك لمن سألك عن صحة أبيك المريض: هل تحسّنت صحة أبيك؟ فتقول له: (لا وعافاك الله) فإن حرف العطف في جوابك لابد منه؛ لأن حذفه (لا عافاك الله) يوهم بخلاف المراد، أنت تريد أن تدعو له وعبارتك توهم بأنها دعاء عليه، والجملتان مختلفتان فالأولى التي تـمثلها (لا) معناها (لم تتحسن صحة أبي) فهي خبرية، والثانية: (عافاك الله) دعائية إنشائية، وكان الفصل بينهما أولى فبينهما (كمال انقطاع) إلا أنه عطف بينهما لئلا يُتوهَّم عكس المراد[1].

هذا ولم أجد عند رشيد شواهد لهذه الحالة.

ثانياً: إذا اتفقت الجملتان المعطوف بينهما خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى، كقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، فقد اتفقت الجمل: خذوا زينتكم.. كلوا.. اشربوا.. لا تسرفوا.. في الإنشائية لفظاً ومعنى، ومن ثم وصل بينهما.

---

(١) البلاغة من منابعها، ص١٤٧.

قال رشيد: «وفي الآية حثٌّ على الاعتناء بالنظافة والتجمل... ثم أمر بالاعتدال في أخذ الزينة وتجنب السرف فيها، وذكر ذلك في حكم آخر مكمل للأول على نهج القرآن في مثله، وجعل نظم الكلام تتميماً للقسط والعدل والصلاح والاعتدال الذي يأمر به الله، فعطف على قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ قوله: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ ليكون المعنى: تجملوا في اللباس وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ولكن اعتدلوا فيها فأوجب الاعتدال في اللبس والأكل والشرب وما إلى ذلك... فما أعظم هذه التعاليم لو عقلها المسلمون»[(١)].

ثالثاً: إذا قصد المتكلم إشراك الجملتين في حكم إعرابي واحد، وهذا كعطف المفرد على المفرد؛ لأن الجملة لا يكون لها محل من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد. وينبغي أن تكون مناسبة بين الجملتين[(٢)]. كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤].

قال رشيد: «وأتى بجملة الصلة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ تبصرة للنفوس بأن ما ينفق إنما هو من الله وإلى الله...»[(٣)].

* * *

---

(١) ينظر: أولى ما قيل (٣: ٤٢٢-٤٢٣).

(٢) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٣: ٥٥٣)، والميسر في البلاغة العربية، ص١٨٢.

(٣) ينظر: أولى ما قيل (٤: ٩).

المبحث الخامس
القصر والحصر

القصر لغةً: الحبس والالتزام، نقول: قَصَرتُ نفسي الشيء إذا حَبستها[١].

واصطلاحاً: هو تخصيص أمرٍ بآخر بطريق مخصوصة[٢].

والقصر توكيد وأداته التي يقوم عليها هي النفي والاستثناء. ومن المعلوم أن الغرض البلاغي الذي يؤدي القصر ليس جمالياً، فالقصر من مباحث علم المعاني. والغرض الذي يؤديه أسلوب القصر غرض جوهري يتعلق بمعاني الجمل وقد يختلف المعنى كلياً لتقديم كلمة أو تأخيرها بحسب السياق القرآني.

وأسلوب القصر يتكون من ركنين: المقصور والمقصور عليه، أي: أحد الشيئين موصوف والآخر صفة[٣].

وللقصر طرفان: المقصور، والمقصور عليه، والأخير هو الشيء المخصص به.

أنواع القصر:

حين يدرس البلاغيون أنواع القصر أو أقسامه ينظرون إليه من زوايا ثلاث:

---

(١) لسان العرب، مادة (قصر).

(٢) ينظر: الإتقان (٢: ١٠٦)، والميسر في البلاغة العربية، ص٢١٩.

(٣) ينظر: الإتقان (٣: ١٦٦).

أ) القصر من حيث الطرفان:

١- **قصر الموصوف على الصفة:** وهو من القصر الإضافي، إذ الموصوف على هذه الصفة لا يتجاوزها إلى غيرها. نحو: (المرء بعلمه لا بماله) قصرت الموصوف (المرء) على صفة العلم. ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

قال رشيد الخطيب: «وإنما أكد الجملة بهذه المؤكدات المتعددة المقتضية لحصر الكذب فيهم»(١).

٢- **قصر الصفة على الموصوف:** وهو قصر صفة على موصوف كما في قولك: (لا خالق إلا الله) قصرت صفة الخلق والإنشاء على الله عز وجل، ومثله قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

قال رشيد: «وبعد أن حقق تفرده تعالى بالإلوهيَّة، ببيان اختصاصه بالقدرة العظيمة والإنعامات الجليلة، عقب بذكر ما هو من متمماته، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب الذي هو من خصائص الألوهية أيضاً»(٢).

ب) القصر من حيث الحقيقة والواقع:

١- **القصر الحقيقي:** أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع فلا يتجاوزه إلى غيره كقولك: (لا خالق إلا الله) لأن الحقيقة والواقع يشهدان بذلك ولا يمكن أن يتصور العقل السليم خالقاً آخر. ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

---

(١) أولى ما قيل (٧: ٣٢٩).

(٢) أولى ما قيل (٥: ٤٦٢).

قال رشيد الخطيب: «ثم أقام البرهان على إبطال تعدد الآلهة واستحالته، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي: لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله، لفسد نظامها، لما يكون بين الآلهة من الاختلاف والتمانع، لأن لكل واحد منهم إرادة مستقلة حسبما تقتضيه حالة الإله الصحيح، وإلا لما كان إلهاً، بل كان صاحب تلك الإرادة منهم وحده هو الإله المستقبل بتدبير الملك»[١].

٢ـ **القصر غير الحقيقي (الإضافي)**: هو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الإضافة إلى شيء معين ويمكن أن يتجاوزه إلى غيره، كقوله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٢] فهو عليه السلام بُعثَ لهذا الغرض لكن إلى جانب أغراض أخرى، فقد بعث ليدعو إلى الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر...، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

قال رشيد: «وهذا كالتعليل لما تقدم من نفي امتيازه على البشر، وبيان أن منصب الرسالة مقتصر على هذا القدر»[٣].

جـ) القصر باعتبار حال المخاطب:

وهذا القسم خاص بالقصر الإضافي فقط، وبيان ذلك أن القصر الإضافي ينقسم باعتبار حال المخاطب على ثلاثة أقسام: قصر إفراد، وقصر قلب، وقصر تعيين. والمخاطب في أسلوب القصر إما أن يكون شاكاً في الأمر، أو يكون معتقداً عكس الرأي

---

(١) أولى ما قيل (٥: ١٦٢).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٧٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أولى ما قيل (٣: ٥٠٨).

في الحكم، أو يكون معتقداً الشِّركة بين اثنين أو أكثر في الحكم. فهو يكون لمقتضى الحال أو ما تدَّعيه الحاجة[١].

١ـ **قصر إفراد**: وذلك إذا اعتقد المخاطب الشركة في الحكم بين المقصور عليه وغيره[٢]، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].

قال رشيد: «ثم أردف صيغة الحصر، فقال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ وهو الله»[٣].

٢ـ **قصر القلب**: وفيه يعتقد المخاطب عكس الحكم الذي أثبته المتكلم له أي يعتقد عكس تلك الصفة الأولى ويسمى قصر القلب لقلبه حكم السامع[٤]، كقولك: جاءني زيد لا عمرو، مخاطباً من يعتقد أن عمراً هو الذي جاءك دون زيد، فأنت تعكس وتقلب ما يعتقده، ولذا سمي قصر قلب.

ولم أجد عند رشيد شواهد لهذا النوع من القصر.

٣ـ **قصر التعيين**: وفيه يكون المخاطب متردداً في الحكم بين عليه أي واضح أي من تساوي الأمران عنده، أي اتصاف ذلك الأمر بتلك الصفة[٥]، كقولك لمن يتردد شاكاً في الناجح: أعمرو أم بكر، إنما الناجح عمرو، وقولك: لمن يشك في أمر زيد أمقيم أم مسافر، زيد مقيم لا مسافر.

هذا ولم أجد عند رشيد شواهد لهذا القصر.

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم، ص١٣٣، والميسر في البلاغة العربية، ص٢٦٧.

(٢) معجم البلاغة العربية (٢: ٤٥٠).

(٣) ينظر: أولى ما قيل (٤: ٤٧٣).

(٤) ينظر: الإيضاح، ص١١٩، والميسر في البلاغة العربية، ص٢٦٧.

(٥) ينظر: الإيضاح، ص١١٩.

طرق القصر:

والمراد الأساليب التي يؤدى بها القصر، وقد اهتمَّ البلاغيون بأربع منها وهي: القصر بـ(إنما)، القصر بـ(ما) و(إلا) أو بالنفي والاستثناء، القصر ببعض حروف العطف، القصر بتقديم ما حقه التأخير، وهذه الأساليب ذكرها رشيد الخطيب في تفسيره، وإليك بيان ذلك:

١) القصر بالنفي والاستثناء:

وهي أوسع طرق القصر وأكثرها شهرة ودوراناً في كتاب الله عز وجل، والنفي والإثبات أساسا أسلوب القصر ومن خلال هذا الأسلوب تظهر لنا كل المعاني والصور المتَّصلة بأسلوب القصر وقيمته البلاغية، ويستخدم هذا الطريق فيما ينكره المخاطب ويدفعه، أو فيما يجهله ولا يعرفه، أو فيما يشك فيه ويرتاب.

قال عبد القاهر: «وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا، فيكون الأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، فإذا قلت: ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطئ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته، وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت: ما هو إلا زيد، لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد وأنه إنسان آخر، ويجد فيه الإنكار أن يكون كذلك...»[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

قال رشيد: «فقال: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: لا شفاعة لهم من أحد هناك،

---

(١) دلائل الإعجاز، ص١٢٧، وينظر: علم المعاني لبسيوني عبد الفتاح، ص٣١٠.

ولا ينجو ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أي: بإيمانه وعمله الصالح فهو الناجي حسبما وعد الله سبحانه ـ وهذا الاستثناء منقطع أو محمول على المعنى»[١].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

قال رشيد: «وهذا التعبير في النفي آكد تعبير، لأنه نفي الشأن، ويتضمن نفي جميع الأعذار والتقييد باستثناء المشيئة للمبالغة في تقريره»[٢].

٢) القصر بـ (إنّما):

إنَّ القول بإفادة (إنَّما) لمعنى القصر يكاد يجمع عليه جمهور اللغويين والنحاة والبلاغيين، ومعنى (إنَّما) «إثبات لما يذكر بعدها ونفي لما سواه...»[٣]. وهي تستعمل في الأمور المعلومة التي لا تنكر ولا تدفع[٤].

وذكر رشيد دلالة (إنّما) على الحصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٤٥]، حيث قال: «ثم قرّر نفيَ الاستئذان عن المؤمنين بإثباته للمنافقين. على طريقة حصر الوصف فيهم تقريعاً لهم وتشنيعاً عليهم»[٥].

ومنه أيضاً قوله تعالى: «﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو الله»[٦].

---

(١) أولى ما قيل (٥: ٩٣-٩٤).

(٢) أولى ما قيل (٣: ٤٥٣).

(٣) لسان العرب، مادة (أنن).

(٤) ينظر: علم المعاني لبسيوني عبد الفتاح، ص٣٢١.

(٥) أولى ما قيل (٤: ٩٥).

(٦) أولى ما قيل (٤: ٤٧٣).

٣) القصر بالعطف:

وحروف العطف التي يؤدى بها أسلوب القصر ثلاثة هي: (لا) و(بل) و(لكن).

ـ لا: وهي نافية، كقولك: (أقدِّر زيداً لا خالداً) والمقصور عليه في عبارتها هو اللفظ المقابل لما بعدها وهو (زيداً) الذي يقابل (خالداً)، فتكون قد قصرت تقديرك على زيد.

ولم أجد عند رشيد شواهد تطبيقيَّة عليه.

ـ بل: وهي من الحروف العوامل ومعناها الإضراب عن الأول والإيجاب للثاني كما نصَّ على ذلك الرماني[1]، ويكون المقصور عليه بعدها.

ولم أجد عند رشيد شواهد لقصر (بل).

ـ لكن: وهي للاستدراك تؤدي أسلوب القصر إذا سبقها نفي أو نهي ويليها مفرد، ويشترط بعضهم[2] للقصر بـ (لكن) فضلاً عن ما ذكر ألا تقترن بالواو، وهذا ليس بشيء؛ لأنا نراها في الأساليب الجيدة والتراكيب الممتازة إذا اقترنت بالواو وأفادت القصر، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فقد قصر النبيَّ «عليه الصلاة والسلام» على الرسالة والختم لا يتجاوزهما إلى أبوة زيد، قصر موصوف على صفة قصراً إضافياً ولكن مقرونة بالواو[3].

ولم أجد عند رشيد شواهد لقصر (لكن).

---

(١) ينظر: معاني الحروف، ص٩٤، وأسلوب القصر في القرآن الكريم، ص٩٨-٩٩.

(٢) ينظر: النحو الوافي (٣: ٦١٧).

(٣) علم المعاني لبسيوني عبد الفتاح، ص٣٠٨.

٤) القصر بتقديم ما حقه التأخير:

وهو من مباحث اللغة الجليلة، وهو لون بلاغي مهم، تحدث به كبار العربية من نحويين وبلاغيين بدءاً من سيبويه، ثم تحدَّثَ السكاكي وأفصح عنه وللأغراض التي يخرج إليها كالعناية والاهتمام[1]. ويأتي الجرجاني ليضع باباً خاصاً به وقال عنه كثير الفوائد، جَمَّ المحاسن... بعيد الغاية، وهذا كله ناتج عن تحوّل اللفظ من مكان إلى مكان.

وحكم المقصور عليه في التقديم والتأخير هو المقدَّم.

ومن طرق القصر بالتقديم والتأخير عند رشيد ما جاء في القصر بتقديم المفعول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

قال رشيد: «قال: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ ليكون حضاً على التوحيد، وترهيباً من الشرك وما ينبعث عنه: والالتفات من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابة. ولذلك أيضاً قدم المفعول»[2].

ومن صور التقديم التي تناولها رشيد تقديم الجار والمجرور كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قال رشيد: «وقدم الجار والمجرور لإفادة القصر»[3].

* * *

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم، ص١٣٣.

(٢) أولى ما قيل (٤: ٤٧٣).

(٣) أولى ما قيل (٤: ١٨٣).

المبحث السادس
الإيجاز والإطناب

أولاً: الإيجاز:

الإيجاز لغةً: وَجُز الكلام وجازَةً ووجزاً وأوجز: قلَّ في بلاغة، وأوجزه اختصره. ويقال: أوجز فلان إيجازاً في كل أمر، وأمر وجيز وكلام وجيز أي: خفيف مقتصر[١].

الإيجاز اصطلاحاً: بحسب تعريف الرمّاني: «البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ»[٢].

وقد اهتم العلماء بأسلوب الإيجاز كثيراً، وعدُّوه من أهم أساليب اللغة، إذ نقل الجاحظ قول صحار بن عياش العبدي[٣]، عندما سأله معاوية بن أبي سفيان: «ما تعدّون البلاغة فيكم؟». قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ[٤]. ونقل عن أبي عبيدة ما قاله في الإيجاز بقوله: «العرب تختصر الكلام ليخففوه لعلم المستمع بتمامه فكأنه في تمام القول»[٥].

---

(١) لسان العرب، مادة (وجز)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٤٤).
(٢) النكت في إعجاز القرآن، ص٧٤.
(٣) هو صحار بن عياش بن شراحيل العبدي (ت٤٠هـ) صحابي خطيب. (ينظر: الأعلام: ٣: ٢٠١).
(٤) ينظر: البيان والتبيين (١: ٩٦)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٤٤).
(٥) مجاز القرآن (١: ١١١).

ويُعدّ الرمّاني المتوفى ٣٨٦هـ أول من تحدَّث عن الإيجاز حديثاً بلاغياً في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) وهو الذي قسمه عن فرعيه المعروفين إيجاز القصر وإيجاز الحذف[١].

١) إيجاز القصر:

هو تقليل الألفاظ وتكثير المعاني، وكان الجاحظ قد أشار إليه وهو «الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه»[٢]، وأمثلة الإيجاز كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ [الكهف: ٩٦].

قال رشيد الخطيب: «وهذا تصوير لجهد العمال واستعمال الآلات في مجموع هذا العمل، وصهر قطع الحديد. وهذا التصوير مجمل على طريقة إيجاز القرآن في البيان. فلا يستلزم أن ذلك كله جملة واحدة، فيحتمل أنه تدريجياً، كلما يفرغ من قطعة أو عدة قطع، تصهر ويفرغ عليها القطر. ويحتمل أن القطع نضدت كلها أولاً، ثم صهرت جملة وأفرغ عليها القطر على ظاهر قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦] أي: نحاساً مذاباً ولكن غالب الظن أنه تصوير لمجموع العمل، على طريقة إيجاز القرآن»[٣].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

---

(١) ينظر: البلاغة من منابعها، ص١٥٦.

(٢) البيان والتبيين (٢: ١٦)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٦١).

(٣) أولى ما قيل (٥: ٥٢).

قال رشيد الخطيب: «وفي الآية إيجازٌ بليغٌ، والتقدير: قال: أرزق مَنْ آمن ومَنْ كفر، ولكن أمتِّع به الكافر قليلاً في الدنيا، ثم أضْطَرُّه إلىٰ عذاب النار في الآخرة»(١).

وقال الزمخشري: «قلت في ﴿قَالَ﴾ ضمير إبراهيم أي: قال إبراهيم بعد مسألته اختصاص المؤمنين بالرزق»(٢).

وقال البقاعي: «أي: أنيلهُ أيضاً ما ألهمتك من الدعاء بالأمن والرزق»(٣).

ولم يذكر أحد من المفسرين أن في الآية إيجاز فقد انفرد رشيد الخطيب بهذا الرأي.

٢) إيجاز الحذف:

وهو ما يكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعيّن المحذوف، أو هو كما قال ابن الأثير: «ما يحذف منه المفرد لدلالة فحوى الكلام على المحذوف ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه»(٤).

حذف الفاعل:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

قال رشيد الخطيب: «ومن البلاغة العالية: حذف الفاعل في المعادل الأول، وبناءِ الفعل للمجهول، فقال ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾، وذكره في الثاني فقال: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، وذلك لتنسب إرادة الخير إلى الله دون الشر»(٥).

---

(١) أولى ما قيل (٢: ١٧٩)، وينظر أمثلة أخرى في تفسيره (٣: ٤٨٩، و٤: ٣٠٢، و٤: ٣١٠).

(٢) الكشاف (١: ٢٤٠)، والبحر المحيط (١: ٥٥٥).

(٣) نظم الدرر (١: ٢٤٠).

(٤) المثل السائر (٢: ٨٧)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٤٩).

(٥) أولى ما قيل (٨: ٢٥).

وقال ابن عاشور: «وأسند فعل إرادة الشر إلى المجهول ولم يسند إلى الله تعالى مع أن مقابله أسند إليه بقوله: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ جرياً على واجب الأدب مع الله في تحاشي إسناد الشر إليه»(١).

حذف المفعول:

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣].

قال رشيد الخطيب: «والمفعول محذوف والتقدير: وينزل برداً من السماء من جبال فيها كائنة من برد... الخ»(٢).

وهذا ما ذهب إليه أغلب المفسرين، قال البيضاوي: «ويجوز أن تكون ﴿مِن﴾ الثانية أو الثالثة للتبعيض واقعة موقع المفعول»(٣)، وهذا ما قاله الرازي والشوكاني والشربيني وغيرهم(٤).

ومن حذف المفعول ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠١].

قال رشيد الخطيب: «وما أبلغ حذف مفعول ﴿آتِنَا﴾ في هذا المقام فهو من رقائق الإيجاز التي تحتار فيها الأفهام وتعجز عنها قرائح الأنام»(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩: ٢١٥).

(٢) أولى ما قيل (٥: ٣٣٦).

(٣) أنوار التنزيل (٤: ١٩٤).

(٤) ينظر: التفسير الكبير (٢: ٤٩٧)، وفتح القدير (٤: ٦٠)، والسراج المنير (٢: ٤٩٧)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان (٥: ٢٠٢).

(٥) أولى ما قيل (٢: ٢٩٦).

وذكر النيسابوري أن في الآية إضماراً؛ إذ قال: «يصح أن يقال إن في الآية إضماراً أي يقول: ربنا آتنا في الدنيا فيؤتيه الله في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق، لأنَّ همَّته مقصورة على الدنيا»[١].

ولم يذكر أغلب المفسرين ما قاله رشيد في الآية الكريمة.

حذف جواب الشرط:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

قال رشيد: «وجواب الشرط محذوف على نهج إيجاز القرآن، لأنه يفهم من السياق والمقابلة. والتقدير: يكن خيراً لكما»[٢].

وهذا ما ذهب إليه أكثر المفسرين قال الرازي: «وجواب الشرط محذوف للعلم به على تقدير: كان خيراً لكما»[٣]، وهذا ما ذكره القرطبي والألوسي وغيرهم[٤].

ومثله أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ * أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ١١-١٣].

قال رشيد الخطيب: «وجواب كل من الشرطين محذوف على طريقة إيجاز القرآن، أقام مقامه قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] أي: أجهل أن الله مطَّلع على أمره فإن كان على الهدى أحسن جزاءَه وإن كذب وتولى لم يفلت من عقوبته»[٥].

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١: ٥٦٨).

(٢) أولى ما قيل (٧: ٤٣٣).

(٣) التفسير الكبير (٣٠: ٤٠).

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨: ١٨٨)، وروح المعاني (٢٨: ١٥٢)، والسراج المنير (٤: ٢٣٦)، وتفسير الجلالين (١: ٧٥٢)، واللباب في علوم الكتاب (١٩: ١٩٧)، والبحر المديد (٨: ١٢٠).

(٥) أولى ما قيل (٨: ٢٩٩).

وهذا ما ذكره البيضاوي قائلاً: «وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه جواب الشرط الثاني الواقع موقع القسيم له والمعنى: أخبرني عمَّن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدى فيما ينهى عنه أو آمراً»(١) وتبعه النسفي والألوسي وابن عاشور(٢).

ومن حذف جواب (لو) ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا﴾ [الأنعام: ٢٧].

قال رشيد الخطيب: «وجواب (لو) محذوف للمبالغة في التهويل، والتقدير: لرأيت هؤلاء عظيماً ولرأيتهم في أشد الجزع»(٣).

وقال ابن عطيَّـة: «وجواب «لو» محذوف تقديره في آخر الآية: لرأيت هولاً أو مشقات أو نحو ذلك وإنما حذف جوابها في مثل هذا أبلغ؛ لأنَّ المخاطب يترك مع غاية تخيله»(٤) وتبعه ابن جزي(٥).

وذكر الرازي أن جواب (لو) محذوف تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن(٦).

ولم يذكر الزمخشري والقرطبي وأبو حيان والبيضاوي(٧) وغيرهم غرض حذف جواب (لو).

---

(١) أنوار التنزيل (٥: ٥١١).

(٢) ينظر: مدارك التنزيل (٤: ٣٤٩)، وروح المعاني (٣٠: ١٨٣)، والتحرير والتنوير (٣٠: ٣٩٥).

(٣) أولى ما قيل (٣: ٢٩٩).

(٤) المحرر الوجيز (٢: ٣٣٠).

(٥) ينظر: التسهيل (١: ٣٥٣).

(٦) ينظر: التفسير الكبير (١٢: ١٥٧).

(٧) ينظر: الكشاف (٢: ١٦)، والجامع لأحكام القرآن (٢: ٢٠٥)، والبحر المحيط (٤: ١٠٩)، وأنوار التنزيل (٢: ٤٠١)، والجواهر الحسان (١: ٥١٢)، وفتح القدير (٢: ١٥٧).

حذف المقسم عليه:

وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ * وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ١-٣].

قال رشيد: «أما المقسم عليه فمحذوف دل عليه ما ذكره بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ * ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٤-٧] كأنه قال: أقسم بهذا الكون العظيم، وبذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين»(١).

وذكر الزمخشري أن جواب القسم محذوف قائلاً: «فإن قلت: أين جواب القسم؟ قلت: محذوف يدل عليه قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾»(٢) وتبعه النيسابوري(٣).

وقد يحذف جواب القسم للإيجاز أيضاً، نحو قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

قال رشيد الخطيب: «جواب القسم محذوف على نهج القرآن في أنواع الإيجاز، وتقديره كما يفهم بعده: ليس الأمر كما تقولون، وأن الحشر والحساب لآتٍ ومتحقق»(٤).

وهذا ما ذهب إليه أكثر العلماء من المفسرين(٥).

---

(١) أولى ما قيل (٨: ١٩٣).

(٢) الكشاف (٤: ٧٣٠).

(٣) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦: ٤٧٣).

(٤) أولى ما قيل (٦: ٢٧٧).

(٥) ينظر: المحرر الوجيز (٤: ٥٦١)، وإرشاد العقل السليم (٣: ٢١٣)، ومعالم التنزيل (٧: ٦٧)، والجامع لأحكام القرآن (١٥: ١٤٤)، والتسهيل (٢: ٤٣٨)، ولباب التأويل (٦: ٤٠)، وزاد المسير (٧: ٩٧)، وفتح القدير (٤: ٥٩٥)، وأيسر التفاسير (٤: ٤٣٧).

ثانياً: الإطناب:

الإطناب لغةً: جاء في اللسان: «الإطناب: البلاغة في المنطق والوصف، مدحاً كان أو ذماً، وأطنب في الكلام: بالغ فيه... وأطنب في الوصف: إذا بالغ واجتهد»[١].

الإطناب اصطلاحاً: عرَّفه الجرجاني بقوله: «أداء المقصود بأكثر من العبارة المُتعارفة، وأن يخبر المطلوبَ بمعنى المعشوق بكلام طويل، لأن كثرة الكلام عند المطلوب مقصودة، فإنَّ كثرة الكلام توجب كثرة النظر، وقيل: الإطناب: أن يكون اللفظ زائداً على أصل المُراد»[٢].

والإطناب من أقدم الفنون التي تحدث القدماء عنها، ويُعدُّ أبو عبيدة والجاحظ وابن قتيبة من أوائل العلماء الذين أشاروا إليه في مصنفاتهم[٣].

وأدخله السكاكي في مباحث علم المعاني، وقال: «هو أداؤه ـ الكلام ـ بأكثر من عباراتهم سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غير الجمل»[٤].

وثمة أسباب تدفع المتكلم إلى سلوك الإطناب في كلامه منها تثبيت المعنى في نفس السامع أو المخاطب، ومنها توضيح المراد، ومنها التوكيد ودفع الإيهام ومنها غير ذلك، وهي على أنواع:

---

(١) لسان العرب، مادة (طنب).

(٢) التعريفات، ص٢٥.

(٣) ينظر: مجاز القرآن (١: ١٢)، والحيوان (٦: ٧)، والبيان والتبيين (١: ١٠٥)، وتأويل مشكل القرآن، ص١٨٠-١٨٢.

(٤) مفتاح العلوم، ص١٣٣، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٢٢٤).

١) الإيضاح بعد الإبهام:

ويؤتى به ليرى المعنى في صورتين مختلفتين أو ليتمكَّن في النفس أكثر فإن المعنى إذا أُلقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوَّقت النفس إلى معرفته مفصَّلاً[١]، وقد عرَّف رشيد الخطيب هذا النوع من الإطناب بقوله: «إيراد للمعنى في صورتين مختلفتين»[٢].

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر: ٦٦].

قال رشيد الخطيب: «﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ ضمَّن (قضينا) معنى أوصينا أي: أوحينا إليه أن قضينا ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ المفسر بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي: أوحينا إليه أنه لا يصبح الصباح إلا وقد استأصلهم العذاب... والتعبير عن العذاب بالأمر، والإشارة إليه بـ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، وتأخيره عن الجار والمجرور، وإبهامه أولاً، ثم تفسيره ثانياً من الدلالة على هَوْل ذلك العذاب وفظاعته ما لا يخفى»[٣].

قال الرازي: «... ثم إنه فسر بعد ذلك القضاء المبتوت بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ ﴾ وفي إبهامه أولاً، وتفسيره ثانياً تفخيم للأمر وتعظيم له»[٤]، وهذا ما ذكره الزمخشري وابن عاشور[٥].

---

(١) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٢٢٨).

(٢) أولى ما قيل (١: ٦٧٠).

(٣) أولى ما قيل (٤: ٤٣٩).

(٤) التفسير الكبير (١٩: ١٥٩).

(٥) ينظر: الكشاف (٢: ٥٤٥)، والتحرير والتنوير (١٣: ٥٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

قال رشيد الخطيب: «ذكر الفعل وأراد مقاربته أو إرادته أو الحكم به... أي: أردنا إهلاكها أو حكمنا به عليها لإعراضها عمّا جاءها من رسول وكتاب.

ويجوز أن يراد بالفعل نفس الإهلاك: أجمله ثم فصّله بقوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ أي: عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلاً ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ أي: وقت القيلولة»[(١)].

قال البقاعي: «سبب قوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ أي: عذابنا بما لنا من القوة والعظمة، أو الإهلاك على حقيقته وهذا تفصيل له وتفسير»[(٢)]، وهذا ما قاله الرازي[(٣)].

٢) ذكر الخاص بعد العام:

ويؤتى به للتنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنسه تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات[(٤)]، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٤٩].

قال رشيد الخطيب: «ولإرادة الوصفية غلّب غير العقلاء، بحكم الكثرة، وأتى بكلمة (ما)، ثم عطف الملائكة عليها عطف الخاص على العام، للاهتمام بالخاص»[(٥)].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

---

(١) أولى ما قيل (٣: ٤٠٦).

(٢) نظم الدرر (٣: ٧).

(٣) ينظر: التفسير الكبير (١٤: ١٨).

(٤) معجم المصطلحات البلاغية (١: ٢٤٠).

(٥) أولى ما قيل (٤: ٤٧٢).

٣) ذكر العام بعد الخاص:

وهو لإرادة العموم[١]، نحو قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ١-٥].

قال رشيد الخطيب: «فذكر العام بعد الخاص؛ لأن السماء اسم لما علا من هذا الكون الذي فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب، تجري في مجاريها وتتحرك في مداراتها، وكل كوكب بمنزلة لبنة من بناء سقف محكم متقن شدَّ بعضه إلى بعض برباط الجاذبيَّة العامَّة، كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تتماسك به. وإنما أوثرت كلمة ما على من لإرادة معنى الوصفية»[٢].

لم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

٤) التكرار:

وهو من الأساليب الشائعة في اللغة العربية، وقد اهتم رشيد الخطيب بهذا الأسلوب، فقد تحدث عنه في مقدمة تفسيره، وعرض له في ثنايا التفسير، ضمن خصائص أساليب القرآن: التعاقب على الغرض الواحد بألوان من الأساليب والتراكيب والتعابير، لأن الأدلة إذا تضافرت على مطلوب واحد كان لها وقع عظيم في النفوس، وهو يسمِّي هذا الأسلوب: التكرار مع تنوُّع الأساليب والتفنن في التراكيب[٣].

وأغراض التكرار كثيرة، وممَّا ورد في تفسير «أولى ما قيل» هي:

---

(١) البلاغة من منابعها، ص١٦٣.

(٢) أولى ما قيل (٨: ٢٥٢).

(٣) ينظر: أولى ما قيل، (١: ٦٧٥، ٥١٦-٥١٧، ٥٩٤-٥٩٥)، (٢: ١٣٨) وينظر: منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، (٩: ٣٢٤-٣٢٥).

التكرار للتأكيد:

نحو قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر: ٣-٤].

قال رشيد الخطيب في بيان غرض التكرار: «أعاد الخبر للتأكيد فقال: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، وأتى بثم ليفيد أنه خبر جديد، جيء به بعد الخبر الأول»(١). وهذا ما ذهب إليه أكثر العلماء(٢).

قال أبو حيان: «والجمهور على إن التكرار توكيد، قال الزمخشري: والتكرير تأكيد للردع والإنذار؛ و﴿ ثُمَّ ﴾ دلالة على إن الإنذار الثاني أبلغ من الأول وأشد، كما تقول للمنصوح: أقول لك ثم أقول لك لا تفعل، والمعنى: سوف تعلمون الخطاب فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله تعالى»(٣).

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦].

قال رشيد: «وهيهات بمعنى بعد، واللام للتقوية، وهذا التكرار لتأكيد البعد الذي قرَّروه بقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧]»(٤).

وهذا ما ذكره الشوكاني قائلاً: «أي: بعد ما توعدون أو بعيد ما توعدون والتكرير للتأكيد»(٥). ولم ينص الرازي على التكرار وذكر الغرض فقط بقوله: «ثم أكدوا الشبهة بقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾»(٦).

---

(١) أولى ما قيل (٨: ٣٤٠).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم (٩: ١٩٥)، والمحرر الوجيز (٥: ٤٨٩)، وأنوار التنزيل (٥: ٥٢٤)، والجواهر الحسان (٤: ٤٣٩).

(٣) البحر المحيط (٨: ٥٠٦)، وينظر: الكشاف (٤: ٧٩٧).

(٤) أولى ما قيل (٥: ٢٧٢-٢٧٣).

(٥) فتح القدير (٣: ٦٩٢)، وينظر: ياقوتة الصراط، محمد بن عبد الواحد البغدادي (١: ٣٧٣).

(٦) التفسير الكبير (٢٣: ٨٦).

التكرار للتقرير:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧]، قال رشيد الخطيب: «التكرار لهذه الآية في هذه السورة إنما هو لتقرير النعم، وتأكيد التذكير بها، يعيدها عند بيان كل نوع من أنواعها إيجاباً وسلباً»[١].

وذهب كل من ابن عطية والرازي إلى أنَّ التكرير للتأكيد[٢].

التكرار للتهويل:

نحو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۞ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧-١٨].

قال رشيد الخطيب: «والتكرير للزيادة في التهويل»[٣].

وهذا ما ذهب إليه الزمخشري قائلاً: «والتكرير لزيادة التهويل»[٤]، وتبعه ابن عاشور[٥]. وذكر الرازي أن التكرير للتعظيم[٦].

التكرار للعناية:

ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

قال رشيد الخطيب: «فقد بين أنه كرر اسم الإشارة (أولئك) لإظهار مزيد العناية

---

(١) أولى ما قيل (٧: ٢٣٤)، وينظر (٢: ٣٧٠).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز (٥: ٢٠٦)، والتفسير الكبير (٢٩: ٨٤).

(٣) أولى ما قيل (٨: ١٦٣)، وينظر: (١: ٦٤٥).

(٤) الكشاف (٤: ٧١٧).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير (٣: ١٦٣).

(٦) ينظر: التفسير الكبير (٣١: ٧٨).

بشأن المشار إليهم»[١]. ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الغرض.

التكرار للمبالغة:

ومثله قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

قال رشيد الخطيب: «ثم ختم المُحاجَّة بتكرير الجملة السابقة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، لأن ما قبلها مماثل لما قبل سابقتها، فهي للمبالغة في زجرهم عما هم عليه من الافتخار بالآباء، والادعاء بأنهم على ملتهم وسالكون مسلكهم»[٢].

وهذا ما ذكره أبو السعود قائلاً: «تكرير للمبالغة في الزجر عما هم عليه من الافتخار بالآباء والاتكال على أعمالهم»[٣]، وهذا ما ذكره البيضاوي والشربيني والألوسي[٤].

وذهب القرطبي والنسفي إلى معنى التأكيد[٥].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٩-٢٠].

قال رشيد: «وقد كرَّر الجملة للمبالغة في ذلك، فقال: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ والمقصود من كلمة ﴿ثُمَّ﴾ المبالغة في الدعاء عليه في الكرَّة الثانية»[٦].

---

(١) أولى ما قيل (٢: ٢٦).

(٢) أولى ما قيل (٢: ١٩١).

(٣) إرشاد العقل السليم (١: ١٧٠).

(٤) ينظر: أنوار التنزيل (١: ٤١٥)، والسراج المنير (١: ٨٨)، وروح المعاني (١: ٤٠١).

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٢: ١٤٧)، ومدارك التنزيل (١: ٧٤).

(٦) أولى ما قيل (٨: ٥٢).

وهذا ما ذهب إليه أبو حيَّان قائلاً: «وجاء التكرار بـ﴿ثُمَّ﴾ ليدل على إن الثانية أبلغ من الأولى للتراخي الذي بينهما»[١]. في حين ذكر ابن جُزي إلى معنى التأكيد قائلاً: «دعاء عليهم وكرره تأكيداً لذمه وتقبيح حاله»[٢]، وهذا ما ذكره ابن عطية[٣].

وكما يتكرر الاسم يتكرر الحرف، فيكون له غرضه البلاغي، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الصافات: ١٦-١٧].

قال رشيد: «تكرير الهمزة للمبالغة والتشديد»[٤].

وهذا ما ذكره البيضاوي قائلاً: «وكرر الهمزة مبالغة في الإنكار وإشعاراً بأن البعث مستنكر في نفسه وفي هذه الحالة فهو أشد استنكاراً فهو أبلغ»[٥].

٥) التذييل:

التذييل في اللغة: الذيل: آخر كل شيء، وذيَّل ثوبه تذييلاً أي: طوَّله[٦].

وهي بلاغياً: أن يذيِّل الناظم أو الناثر كلاماً بعد تمامه وحسن السكوت عليه بجملة تحقق ما قبلها من الكلام وتزيده توكيداً وتجري مجرى المثل بزيادة التحقيق»[٧].

وقد تناول رشيد الخطيب التذيـيل في تفسيره في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ

---

(١) البحر المحيط (٨: ٣٦٦).

(٢) التسهيل (٣: ٢٥١).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز (٥: ٣٦٥).

(٤) ينظر: أولى ما قيل (٦: ١٩٥).

(٥) أنوار التنزيل (٥: ٨).

(٦) اللسان، مادة (ذيل)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢: ١٢٢).

(٧) خزانة الأدب، ص١١٠، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢: ١٢٢).

لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤].

قال رشيد في بيان فائدة التذييل: «وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تذييل على وجه التعليل لما قبله، وبيان لمنَّة الله العظيمة وإعلان لبابه المفتوح لكل من يريد الوصول والدخول»(١).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال رشيد: «ثم ذيَّـل الكلام بما زاد في التَّمنُّن، بعبارة تشملهم وغيرهم على نهج القرآن في مثل ذلك فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾»(٢).

وقال ابن عاشور: «تذييل لبيان أن فضل الله يعطيه من يشاء»(٣).

ويذكر رشيد أيضاً أن من فائدة التذييل التهديد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٥].

قال رشيد: «ثم قرر مضمون هذا التسجيل بتذيـيل متضمن للتهديد، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٥] أي: في أمورهم التي من جملتها ادِّعاء ما ليس لهم، ونفيه عن غيرهم»(٤).

---

(١) أولى ما قيل (٢: ٩٦).

(٢) أولى ما قيل (٢: ٣٠٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢: ٢٩٥).

(٤) أولى ما قيل (٢: ١٤١).

وقال أبو السعود: «والجملة تذييل لما قبلها مقرِّرة لمضمونه أي: عليم بهم»[١]. فهو يذكر غرض التقرير للتذييل. واكتفى الزمخشري والواحدي وأبو حيان[٢] بذكر معنى التهديد فقط. في حين ذكر ابن عطية والبيضاوي[٣] معنى الوعيد فقط دون التذييل.

ومن التذييل ما يأتي عنده للزيادة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [النور: ٣٨].

قال رشيد: «لأن الأمر كله بيده، وليس فوقه أحد يحاسبه. أو المعنى أنه يرزق ويعطي من يشاء بغير تضييق ولا تقتير. وعلى كل فهو تذييل مقرر للزيادة والكرامة التي يعطيها سبحانه للمهتدين في الآخرة فوق استحقاقهم»[٤].

وذكر رشيد هذا النوع في مواضع متعدِّدة من تفسيره[٥].

٦) التتميم:

جاء في لسان العرب: تمَّ الشيء يتمُّ تَماًّ وتُماًّ وتَمامةً وتَماماً وتِمامة وتُماماً وتِماماً وتُمَّة، وأتمَّه غيره وتممه واستتمه بمعنى، وتمَّمه الله تتميماً وتتمةً، وتمام الشيء وتِمامته وتتمته: ما تمَّ به[٦].

---

(١) إرشاد العقل السليم (١: ١٣٢).

(٢) ينظر: الكشاف (١: ١٩٣)، والوجيز (١: ١١٩)، والبحر المحيط (٢: ٢٦٥).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز (١: ١٦٤)، وأنوار التنزيل (١: ٥٤٣).

(٤) أولى ما قيل (٥: ٣٢٨).

(٥) أولى ما قيل (٣: ٤٠٦)، و(٤: ٣٦٩).

(٦) لسان العرب، مادة (تمم)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢: ٢٧).

وقد تكلم علماء البلاغة عنه، فقال القزويني: «هو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة»[١].

وقد ذكر رشيد هذا النوع من الإطناب في تفسيره، فقال في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، «وفي قوله ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾، تتميم أفاد المبالغة في تقدير النعمة واستعظام المنة»[٢].

لم أجد مِن المفسرين ذكْرَ هذا المعنى.

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال رشيد: «فإنه تعالى استقصى أوصاف الجنَّة الممتازة، ليعظُم مصاب صاحبها: استقصاها بقوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، ثم تمم الوصف بقوله: ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ثم أكمله بقوله: ﴿فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، فأتى بكل ما يكون في الجنان الفائقة الممتازة ليشتد الأسف على إفسادها...»[٣].

٧) الاعتراض:

الاعتراض لغةً: يقال: اعترض الشيء دون الشيء، أي: حال دونه، واعترض فلان الشيء: تكلفه، واعترض عرضه: نحا نحوه، واعترض له بسهم: أقبل قبله فرماه فقتله»[٤].

---

(١) الإيضاح، ص١٩٤، التلخيص، ص٢٣٠.
(٢) أولى ما قيل (٤: ٤٠٨).
(٣) أولى ما قيل (١: ٦٦٩).
(٤) اللسان: مادة (عرض)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٢٤٣).

واصطلاحاً: هو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محلَّ لها من الإعراب لنكتة»[١].

وتحدث عنه ابن جنِّي قائلاً: «والاعتراض في كلام العرب كثير، قد جاء في القرآن وفصيح الشعر ومنثور الكلام، وهو جارٍ عند العرب مجرى التأكيد فلذلك لا يشنع عليهم ولا يستنكر عندهم أن يعترض به بين الفعل وفاعله، والمبتدأ وخبره وغير ذلك مما لا يجوز الفصل فيه بغيره إلا شاذاً أو متأولاً»[٢].

ويأتي الاعتراض لأغراض متعددة.

وقد ذكر مفسرنا رشيد الخطيب هذا النوع في مواضع متعدِّدة من تفسيره، ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥- ٧٦].

قال رشيد: «وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ...﴾ اعتراض قصد به المبالغة في تعظيم مضمون الجملة القسمية، وقوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراض في الاعتراض، قصد به الزيادة في التعظيم. أي: أنه ليس من الممكن أن تطلعوا عليه اطلاعاً تاماً تفصيلياً لعظم محتوياته»[٣].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥].

قال رشيد: «فهو من الجدل بالَّتي هي أحسن... وقد جاءت معترضة في قصة نوح

---

(١) معجم المصطلحات البلاغية (١: ٢٢٧).

(٢) الخصائص (١: ٣٣٥).

(٣) أولى ما قيل (٧: ٢٧١).

والاعتراض بالجمل أثناء القصص والمواعظ وغيرهما معهود في القرآن. ومن ذلك الاعتراض بالوصيَّة بالوالدين أثناء موعظة لقمان لابنه. وكذلك قوله تعالى في سورة طه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٣-٥٥]. فقد جاء معترضاً في المحاورة بين موسى عليه السلام وفرعون»[(١)].

وبعد ذلك يذكر رشيد فوائد الاعتراض ناقلاً من صاحب المنار ما قوله: «وللجمل والآيات المعترضة في القرآن حكم وفوائد يقتضيها تلوين الخطاب، ومنها: تنبيه الأذهان وتجديد النشاط في الانتقال من موضوع إلى آخر، والتشويق إلى سماع بقية الكلام الأول، بقطعه والانتقال إلى موضوع آخر، ثم العودة إلى إتمامه».

٨) وضع الظاهر موضع المضمر والعكس:

ومن سنن القرآن التي ذكرها رشيد ذكر المظهر في موضع المضمر والعكس قائلاً ما نصُّه: «ومن سننه، أي: القرآن الكريم ـ أن يذكر المظهر في موضع المضمر، إيذاناً بالتعليل بالوصف الذي يدل عليه المظهر، وبياناً لموجب الحكم وتقريراً لحكم عام يدخل فيه مدلول ذلك المضمر وغيره، وتسجيلاً بالوصف على أولئك الموصوفين به إلى أمثال ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، ولم يقل ولهم عذاب مهين»[(٢)].

ويذكر رشيد الغرض البلاغي لهذا الأسلوب قائلاً في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]: «وقد يكون الإظهار لتربية المهابة في أذن السامع ويكون ذلك بذكر لفظ الجلالة

(١) ينظر: أولى ما قيل (٤: ٢٣٠)، وينظر: تفسير المنار (١٢: ٦٠).

(٢) أولى ما قيل (١: ٥٣٤، ٦٢٤).

في موضع ضميره»(١). فأظهر لفظ الجلالة في آخر الآية بدل الضمير الذي يعود عليه في لفظه الأول الذي تقدم.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، قال رشيد: «وأقام المظهر مقام المضمر للإيماء إلى العلّة»(٢).

وذكر رشيد هذا الأسلوب في مواضع متعدِّدة في تفسيره(٣).

ومن مقاصد وضع المضمر موضع المظهر ما قاله رشيد: «أن يعود الضمير على ما يدركه الذهن وإن لم يتقدم له معنى، أو على ما يفهم من السياق، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥]، أي: على ظهر الأرض؛ إذ لا يجهل الذهن أنها المراد، وكقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ [البينة: ٦]، أي: في جهنم»(٤).

٩) استعمال الأفعال:

وللشيخ رشيد لفتات بلاغيَّة رائعة عند استعمال الأفعال، يوقفنا فيها على ما تحتويه من أسرار.

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠].

---

(١) أولى ما قيل (٢: ٤٢٧، ١: ٥٣٤).

(٢) أولى ما قيل (٣: ٤٩٢).

(٣) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: (٣: ٤٧٨، ٤: ٧٥).

(٤) أولى ما قيل (١: ٥٣٢). وانظر في الصفحة نفسها أمثلة أخرى ذكرها رشيد في هذا الصدد.

قال رشيد: «ومن البلاغة العالية: حذفُ الفاعل في المُعادِل الأول، وبناء الفعل للمجهول، فقال: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾، وذِكرُه في الثاني فقال: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، وذلك لتُنسَبَ إرادة الخير إلى الله دون الشر[١]، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، حيث نسب المرض لنفسه، ونسب الشفاء لله؛ لأنَّ الشرَّ - سواءٌ كان مرضاً أو غيره - إنما يكون بصنع الإنسان وانحرافه عن قوانين الطبيعة، أو إعراضه عن أحكام الشريعة»[٢].

ومنه أيضاً استعمال المضارع دون الماضي لإفادة الاستمرار في الحدث وتجدُّده آناً بعد آن، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨] فقال مُبيناً أن: «العدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان وتجدُّده كلما تجَّددت الذكريات»[٣].

* * *

(١) أدباً معه تعالى، لا لكونه لم يُقدِّره ولم يُرِد وقوعه (مجد).

(٢) أولى ما قيل (٨: ٢٥). وينظر تعليقي على كلام المؤلف في تفسير هذه الآية من سورة الجن (مجد).

(٣) أولى ما قيل (٤: ٣٦٨).

الفصل الثاني
علم البيان

البيان في اللغة: ما يبين به الشيء، من الدلالة وغيرها. وبانَ الشيء: اتَّضح فهو بيِّنٌ، واستَبان الشيء: ظَهَرَ. والبيانُ: الفصاحَةُ واللَّسَنُ، كَلامٌ بيِّنٌ فَصِيحٌ. والبَيانُ: الإفصَاح مَع ذَكَاء، والبَيِّنُ مِنَ الرِّجَالِ: الفصيحُ والسَّمحُ اللِّسان، وفلان أبينُ من فلان أي: أفصحُ مِنهُ وأوضَحُ كَلاماً، والبَيان: إظهار المقصود بأبلغِ لفظ، وهو من حُسن الفهم وذكاء القلب مع اللسن، وأصله الكشف والظهور»[١].

البيان في الاصطلاح: فقد عرفه السكاكي بقوله: «هو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه والنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه»[٢]، وبذلك أصبحت كلمة (البيان) عنوان علم له أصول وقواعد يمكن بواسطتها إبراز المعنى بصورة مختلفة بعضها أوضح من بعض، مع مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وقد عرف القزويني البيان فقال: «هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطريقة مختلفة في وضوح الدلالة عليه»[٣]. وهذا التعريف هو ما استقرَّ عليه البلاغيون.

---

(١) لسان العرب، مادة (بين).

(٢) مفتاح العلوم، ص٧٧.

(٣) الإيضاح، ص٢٠١.

وفائدة علم البيان: هي الاحتراز عن التعقيد المعنوي بصوره المختلفة أو فهم ما في الكلام العربي من المجاز والكناية والتشبيه والوقوف على أسرار بلاغته والإتيان بها تشبهها في الأسلوب.

ولعلم البيان مكانة مرموقة في علم البلاغة يدل على ذلك قول الجرجاني: «إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً، وأسبق فرعاً، وأحلى جَنىً، وأعذب ورداً، وأكرم إنتاجاً، وأنور سراجاً، من علم البيان الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوشي، وهو يصوغ الحلي، ويلفظ الدّر»[1].

علم البيان عند رشيد الخطيب:

تناول رشيد الخطيب علم البيان بالتحليل والدراسة فذكر التشبيه والحقيقة والمجاز بأنواعه المختلفة والاستعارة والكناية وسنوضح كل واحدة منها:

---

(١) دلائل الإعجاز، ص٤.

المبحث الأول

التشبيه

التشبيه لغةً: الشَّبه والشَّبيه المثل، أشبه الشيءَ، وأشبهت فلاناً وشابهته واشتبه علي، وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كل واحد منهما صاحِبه، والتشبيه: التمثيل[١].

التشبيه اصطلاحاً: هو عقد مشابهة بين شيئين اشتركا في صفة أو أكثر. قال الرماني: «التشبيه هو العقد على أن أحد الشيئين يسدُّ مسدَّ الآخر في حسن أو عقل، ولا يخلو التشبيه من أن يكون في القول أو في النفس»[٢]. وقال السكاكي: «إنَّ التشبيه مستدعٍ طرفين مشبَّهاً ومشبَّهاً به، واشتراكاً بينهما من وجه وافتراقاً من آخر»[٣].

وتأتي أهمية التشبيه البلاغية أنه يخرج الخفيَّ إلى الواضح ويجعل البعيد قريباً، وقد تناول رشيد الخطيب التشبيه الذي استعان به في إيضاح المعنى القرآني الموجود في التشبيه، ومن أهم صور التشبيه التي ذكرها في تفسيره.

١) التشبيه البليغ:

هو التشبيه الذي يحذف فيه وجه الشبه وأداة التشبيه، وسموا مثل هذا بليغاً لما فيه من اختصار من جهة وما فيه من تصور وتخيُّل من جهة أخرى؛ لأن وجه الشبه إذا

(١) لسان العرب، مادة (شبه).

(٢) النكت في إعجاز القرآن: ص٧٤.

(٣) مفتاح العلوم، ص١٥٧.

حذف ذهب الظن فيه كل مذهب وفتح باب التأويل، وفي ذلك ما يكسب التشبيه قوة وروعة وتأثيراً. قال المصري: «حد التشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بالتشبيه مع حسن التأليف»(١).

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فالشيخ يذكر في هذه الآية التشبيه من دون بيان نوعه قائلاً: «عقد المشابهة بين الاستيلاد والاستنْبات»(٢)، وهذا التشبيه حذفت منه أداة الشبه ووجهه، فهو تشبيه بليغ؛ إذ يكون التقدير: نساؤكم كالحرث لكم، أي: كالزرع(٣).

٢) التشبيه التمثيلي:

نستطيع أن نلمح (التشبيه التمثيلي) في عدد من التشبيهات التي وقف عندها الشيخ، وإن لم يكن قد أشار إليها صراحةً، ففي معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

قال: «وخلاصة المثل: تشبيه سرعة تقضِّي متاع الحياة الدنيا، بسرعة تقضِّي رونق النبات الفتَّان الآخذ بمجامع قلب الإنسان، ولاسيما إذا أصابته آفة قبل الأوان»(٤). وقد ذكر علماء البيان أنَّ هذا من التشبيه المركَّب، قال الزمخشري: «هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضِّيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال

(١) تحرير التحبير (٢: ١٠٤)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢: ١٨٠).
(٢) أولى ما قيل: (٢: ٣٢٤).
(٣) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن (٩: ٣٣٤).
(٤) أولى ما قيل (٤: ١٦٨).

نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التف وتكاثر»[١]، وهذا ما ذكره أغلب المفسرين[٢].

منه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

قال رشيد: «يمثل الإيمان في عُلوِّه بالسماء، ويمثل الشرك والضلال بهذا السقوط والهلاك الرديء... ومحصل الكلام: تشبيه لحال المشرك، بحال من يسقط من السماء، فلا يملك لنفسه أمراً، فإما أن يندق ويتفسخ، ويكون نصيبَ الطير، وإما أن ترمي به الريح في مكان بعيد عن غرضه الذي يرمي إليه، فضلاً عمَّا في ذلك من المهاوي والمهالك، أي: إنَّ الذي يستبدل التوحيد بالشرك يسقط مثل هذا السقوط ويبعد كل البعد عن الحق وعن السعادة في الدارين وأسبابها الصحيحة»[٣].

وقد ذكر الرازي كلام الزمخشري في تردُّد هذا التشبيه بين المفرق والمركب قائلاً: «قال صاحب (الكشاف): إن كان هذا تشبيهاً مركباً، فكأنه قيل: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس وراءه هلاك، بأن صوَّر حاله بصورة حال من خَرَّ من السماء فاختطفته الطير فتفرقت أجزاؤه في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة، وإن كان تشبيهاً مفرقاً، فقد شبَّه الإيمان في علوه بالسماء والذي ترك الإيمان وأشرك بالله كالساقط من السماء والأهواء التي تتوزَّع أفكاره بالطير المختطفة

---

(١) الكشاف (٢: ٣٢٥).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم (٤: ١٣٧)، وأنوار التنزيل (٣: ١٩٣)، والبحر المحيط (٥: ١١٤)، ومدارك التنزيل (٢: ١٢٥)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣: ٥٧٤)، وفتح القدير (٢: ٦٣٣)، واللباب في علوم الكتاب (١٠: ٢٩٨)، والتحرير والتنوير (١١: ٥٩).

(٣) أولى ما قيل (٥: ٢٣٢). وانظر مثال آخر في: (٥: ٤٦٢-٤٦٣).

والشيطان الذي يطرحه في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المختلفة»(١).

٣) التشبيه الضمني:

وقال الحلبي والنويري: «هو أن يكون مقصوده التشبيه بشيء فدلَّ ظاهرُ لفظه أنَّ مقصوده غيره»(٢).

والتشبيه الضمني هو النوع الوحيد الذي سمّاهُ رشيد في تفسيره محلِّلاً إياه ومبيناً الغرض منه، فعند وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، قال: «ثم شبَّه الغيبة تشبيهاً ضمنياً بأكل لحم الميِّت، مبالغة في التنفير منها والتقبيح لأمرها، وصاغ العبارة بصيغة الاستفهام التوبيخي التبشيعي؛ للتنبيه على مكان الغفلة عن قُبح هذه الخصلة وبشاعتها، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. ثم أردف الإنكار بما لا نزاع فيه، وهو تقرير القبح، وقال: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فأفاد أن كراهة مثل ذلك أمرٌ مقرَّر لدى النفوس، فيجب أن تكون فظاعة الغيبة الشبيهة به أمراً مقطوعاً به أيضاً على طريقة قياس النظير. فقد نبَّه النفوس إلى ما لا تنكر قبحه وبشاعته، ثم قاس عليه ما لم تنتبه له، لأنها قد استساغته وألفته بتأثير العادة والتكرار»(٣).

ولم أجد من المفسِّرين من ذكر أن في الآية تشبيهاً ضمنياً.

---

(١) التفسير الكبير (٢٣: ٢٩)، وينظر: الكشاف (٣: ١٥٥).

(٢) حسن التوسل، ص١١٨، ونهاية الأرب (٧: ٤٤)، وينظر: شرح عقود الجمان، ص٩١، ومعجم المصطلحات البلاغية (٢: ١٧٨).

(٣) أولى ما قيل (٧: ١٢٤).

المبحث الثاني
الحقيقة والمجاز

الحقيقة:

لغةً: حقّ الأمر يحق: صار حقاً وثبت، وحقَّ عليه القول وأحققته أنا، وحقّه وحقَّقه: صدَّقه. وحقق الرجل: إذا قال هذا الشيء هو الحق[١].

والحقيقة «فعيلة» بمعنى «مفعولة»، واشتقاقها من حقق الشيء: إذا أثبته، ولذلك فهي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة[٢].

وأما الحقيقة في الاصطلاح: فقد جاءت تعريفات علماء البلاغة متعددة، فقد جاءت بألفاظ مختلفة، ولكن لها وجه من المعنى، فالحقيقة: هي الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح التخاطب[٣].

وقد ذكر رشيد الخطيب الحقيقة في تفسيره «أولى ما قيل»، ونبَّه على احتمال الحقيقة والمجاز في تفسير طائفة من الآيات بقرينة عقلية، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ

---

(١) لسان العرب، مادة (حقق)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢: ١٥٣).

(٢) معجم المصطلحات البلاغية (٢: ١٥٣).

(٣) الإيضاح، ص٢٥٠، وينظر: مواهب الفتاح (٤: ٧)، وأسرار البلاغة، ص٣٥٥، ومفتاح العلوم، ص١٦٩-١٧٠، والطراز (١: ٤٧)، والمثل السائر (١: ٥٨).

يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴾ [الكهف: ٧٩]، فقال: «وأما كلمة ﴿وَرَآءَ ﴾ فيحتمل أن تكون بمعناها الحقيقي. ويحتمل أن تكون مستعارة للقوة والتعقيب»[١].

ويتصل الحمل على المجاز والعدول عن الحقيقة في مواضع بوجهة الشيخ التأويلية وروحه النازعة إلى الإصلاح، وهو مع ذلك لا يرى مانعاً من الجمع بين الوجهين: الظاهر والحقيقي، والتأويلي والمجازي، وهي وجهة لغير واحد من البلاغيين كالرازي وغيره[٢]، على نحو ما نجده عند وقوفه في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ ﴾ [الرعد: ٥]، فقال: «أغلال التقليد الأعمى والضلال، وبمعنى مغلولون يوم القيامة بأغلال العذاب، أو المعنيان معاً جمعاً بين الحقيقة والمجاز. وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن»[٣].

المجاز:

لغةً: جُزْتُ الطريق وجَازَ الموضِعُ جَوازاً، وجَازَ بهِ وجَاوزَهُ وأجازَهُ غَيرَهُ وجَازهُ وَجَاوَزَهُ وأجازَ غَيرَه، وجَازَهُ: سَارَ فيهِ وَسَلَكَهُ، وجَاوزتَ المُوضِعَ جَوَازاً بِمعنى جُزْتَهُ. والمَجازُ والمَجَازَةُ: المُوضِعُ[٤].

وقال الجرجاني: «مصدر ميمي على وزن (مفعل) معناه الجواز والتعدية من جاز الشيء إذا تعداه»[٥].

اصطلاحاً: عرَّفه الجرجاني بقوله: «وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت

---

(١) أولى ما قيل (٥: ٤٤).

(٢) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن، (٩: ٣٣٦).

(٣) أولى ما قيل (٤: ٣٥١)، وينظر أمثلة أخرى في (٤: ٢٨٦-٢٨٧).

(٤) لسان العرب: مادة (جوز).

(٥) أسرار البلاغة، ص٣٠٠.

له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز، وإن شئت قلت: كل كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها لملاحظة بين ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذي وضع له في وضع واضعها، فهي مجاز»[١].

وعرفه السيوطي بقوله: «المجاز استعمال اللفظ فيما لم يوضع له»[٢].

وقد أولى الشيخ رشيد المجازات في القرآن أهمية كبيرة، ووضع لها مكاناً في مقدمته بعنوان (المجازات في القرآن)[٣] عدَّد فيها أنواع كثيرةً من المجازات.

ومن صور المجاز التي ذكرها رشيد في تفسيره:

أ) المجاز العقلي:

هو المجاز الذي يكون في الإسناد أو التركيب، وقد سمِّي كذلك؛ لأنه متلقى من جهة الإسناد[٤].

والحقيقة أنَّ هذا النوع من المجاز تستعمل فيه المفردات استعمالها الأساسي وفي موضوعها الأصلي ويكون عن طريق الإسناد.

وسمَّاه الجرجاني (المجاز الحكمي) واشترط له شرط الإسناد في «دلائل الإعجاز»[٥]، في حين سمَّاه (المجاز العقلي)[٦] في «أسرار البلاغة».

---

(١) أسرار البلاغة، ص٢٦٣.

(٢) الإتقان (٤: ١٠٧)، وشرح عقود الجمان، ص١٠٠.

(٣) ينظر: أولى ما قيل (١: ٦٨٦-٧٠٢).

(٤) التبيان، ص١٠٦، والإتقان: ٢: ٣٦، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٣: ١٩٩).

(٥) ينظر: دلائل الإعجاز، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٦) ينظر: أسرار البلاغة، ص٢٧٥.

ويرجع الفضل في القول فيه، وفي فصله عن المجاز اللغوي إلى عبد القاهر الجرجاني، الذي عني به، وسماه مجازاً حكمياً، ومجازاً في الإثبات، وإسناداً مجازياً، ومجازاً عقلياً[١].

وقد عرّفه السكاكي قائلاً: «هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم لضرب من التأويل إفادة للخلاف لا بوساطة وضع كقولك: أنبت الربيع البقل»[٢].

المجاز العقلي عند رشيد الخطيب:

يصرح رشيد غالباً باسم المجاز العقلي محللاً ومعللاً، ومن المعروف أن هناك علاقات للمجاز العقلي، ومن هذه العلاقات الواردة في تفسير أولى ما قيل هي:

١ ـ الفاعلية:

وفيها يسند الوصف المبني للمفعول إلى الفاعل أي: يستعمل اسم المفعول مكان اسم الفاعل، ومن هذا النوع ما ذكره رشيد في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] فقال: «ومن مباحث اللفظ: أن اسم المفعول هنا استعمل بدل صيغة اسم الفاعل، مبالغة في مدلوله. على طريق المجاز العقلي»[٣].

وقال البقاعي: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ مالئاً لجميع ما بينك وبينهم مع كونه ساتراً لك عن أنْ يدركوك حقَّ الإدراك... وذلك أبلغ في العظمة وأعجب في نفوذ الكلمة و﴿مَّسْتُورًا﴾ بمعنى «ساتراً»[٤]. وهذا التفسير قاله أكثر المفسرين[٥].

---

(١) التعريفات، ص١٤١.

(٢) مفتاح العلوم، ص١٨٥.

(٣) أولى ما قيل (٤: ٥٤٢).

(٤) نظم الدرر (٤: ٣٨٧).

(٥) ينظر: المحرر الوجيز (٣: ٥٠٩)، والكشاف (٢: ٤٥١-٥٤٢)، والجامع لأحكام القرآن: =

٢ـ المفعولية:

هو ما بني للفاعل وأُسنِـدَ إلى المفعول به الحقيقي، وقد ورد هذا الأسلوب في تفسير «أولى ما قيل» في مواضع متعدِّدة، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١]، قال رشيد: «أي: مرضيَّـة، فاستعمل اسم الفاعل موضع اسم المفعول، على طريقة المجاز العقلي، وذلك من خصائص اللغة، للمبالغة في الوصف»[(١)].

وهذا ما ذكره القرطبي في تفسيره معتمداً رأي الفراء، ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ أي: مرضيَّة[(٢)] وكذلك أبو حيَّان[(٣)].

وقد ذكر رشيد الخطيب فائدة هذا المجاز العقلي وهو للمبالغة في الوصف[(٤)]، وذكر البقاعي أن غرض المجاز العقلي البلاغي هو للمبالغة والتشويق[(٥)]، وهذا ما لم نجده عند أغلب المفسرين[(٦)] وهم لم يذكروا صراحة المجاز العقلي، بل صرَّحوا بلفظ المجاز، أو الإسناد.

= (١٠: ٢٧١)، وأنوار التنـزيل (١: ٥٧٢)، والتسهيل (٢: ١٠٦)، والبحر المحيط (٦: ٣٩)، والسراج المنير (٢: ٢٤٢).

(١) أولى ما قيل (٨: ٣٣٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨: ٢٤٩)، وينظر: معاني القرآن (٣: ٣٨٥).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٨: ٣١٩)، والمحرر الوجيز (٥: ٣٣٣)، والكشف والبيان (١٠: ٣٠)، ولباب التأويل (٧: ١٤٥)، والنكت والعيون (٦: ٨٣)، وزاد المسير (٤: ٣٩٣)، وروح المعاني: (٢٢: ٩٥)، والمزهر (٢: ٩٣).

(٤) أولى ما قيل (٨: ٣٣٠).

(٥) ينظر: نظم الدرر (٢٠: ٣٦٣).

(٦) ينظر: الكشاف (٤: ١٥٣)، والجامع لأحكام القرآن (١٨: ٢٤٩)، والتسهيل (٤: ١٤٣)، والبحر المحيط (٨: ٣٢٥)، وأنوار التنزيل (٢: ٥٢٢).

ومن هذه العلاقة أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]، قال رشيد: «وتسميتها حافرة مع أنها محفورة مجاز عقلي من ذكر اسم الفاعل مكان اسم المفعول، مثل: حجرة مضيئة. فهي على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]»(١).

وقال الرازي: «يقال رجع فلان في حافرته أي: في طريقه التي جاء فيها فحفرها أي: أثر فيها بمشيه فيها أي: جعل أثر قدميه حفراً فهي في الحقيقة محفورة إلا أنها سميت حافرة كما قيل في ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾»(٢).

وإلى هذا التفسير ذهب أكثر المفسرين(٣).

وذكر رشيد هذا النوع في مواضع متعدِّدة في تفسيره(٤).

٣ـ المكانية:

وفيها يسند الفعل إلى المكان وهو في الحقيقة مبني للفاعل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٥-٧٦].

قال رشيد: «وفي كلمة ﴿مُّقِيمٍ﴾ مجاز عقلي؛ لأنها في الحقيقة صفة لأطلال تلك القرى، بمعنى أنها باقية إلى الآن، ولكن وصل بها السبيل أي: الطريق كما يقال: نهر

---

(١) أولى ما قيل (٨: ١٢٣).

(٢) التفسير الكبير (٣١: ٣٣).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم (٩: ٩٧)، والمحرر الوجيز (٥: ٤٤)، والتسهيل (٣: ٢٨٧)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦: ٤٤٠)، وفتح القدير (٥: ٥٢٧)، والجواهر الحسان (٤: ٣٨٤)، والبحر المديد (٨: ٣٤٦).

(٤) ينظر: أولى ما قيل (٨: ١١١، ٨: ٣٣١).

جار، فيوصف بصفة الماء فيه...والمراد من قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾: أن أطلالها ظاهرة على هذا الطريق»[١].

٤ـ السببيَّة:

وفي هذه العلاقة المجازية يسند الفعل، أو ما في معناه إلى سببه، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، قال رشيد: «أي: ضلُّوا باتِّباعها وعبادتهم لها، بزَعْم أنها تُقَرِّبهم إلىٰ الله زُلفىٰ. وفي إسناد الإضلال إليها تجوُّزٌ معروفٌ مِثلُه في خصائص اللغة، ويسمَّىٰ في عُرْف البلاغة: الإسناد إلىٰ السبب»[٢].

وقال البيضاوي: «فلذلك سألتُ منك العصمة، واستعذتُ بك من إضلالهنَّ. وإسنادُ الإضلال باعتبار السببيَّة، كقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾»[٣].

وذكر البقاعي هذه العلاقة بقوله: «إسناد مجازيٌّ علاقته السببيَّة»[٤].

٥ـ المصدريَّة:

وتذكر فيما بني للفاعل أو للمفعول وأسند إلى المصدر، كقوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، فهنا مبنيٌّ للمفعول ولكنه أُسند إلى المصدر، قال رشيد: «والعرب تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة في الوصف، وإنما قال: ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ ليصوِّر للقارئ والسامع أنه موضوع وضعاً مصنَّعاً»[٥].

(١) أولى ما قيل (٤: ٤٤٢).

(٢) أولى ما قيل (٤: ٤٠٦).

(٣) أنوار التنزيل (٣: ٣٥١).

(٤) نظم الدرر (٤: ١٩٠)، وينظر: البحر المديد (٣: ٥٤٤).

(٥) أولى ما قيل (٤: ٢٨٤).

قال البقاعي: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، أي: مكذوب، أطلق عليه المصدر مبالغة؛ لأنه غير مطابق للواقع، لأنهم ادعوا أنه دم يوسف عليه السلام والواقع أنه دم سخْلة ذبحوها ولطخوه بدمها...»[١].

وهذا ما نهج عليه أغلب المفسِّرين[٢].

ب) المجاز اللغوي:

١ـ الاستعارة:

وهي في اللغة: مأخوذة من العارية أي: نقل الشيء من شخص إلى آخر حتى تصبح تلك العارية من خصائص المُعار إليه. والعَارية والعارة: ما تداولوه بينهم، وقد أعَارَ الشيء وأعَارَهُ منه وعاورَهُ إياه. والمعاورة والتَّعاور شِبْه المَدَاوَلة والتَّداول يكون بين اثنين. وتعور واستعار: طلب العَارية[٣].

ويعدُّ الجاحظ أول من عرفها بقوله: «الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه»[٤].

واهتمَّ ابن قتيبة بالاستعارة اهتماماً كبيراً؛ إذ بدأ مباحث المجاز بها؛ لأنَّ أكثره

(١) نظم الدرر (٤: ١٧).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم (٤: ٢٥٠)، والمحرر الوجيز (٣: ٢٣٩)، والتفسير الكبير (١٨: ٨٢)، ولباب التأويل (٣: ٢٦٩)، وأنوار التنزيل (٣: ٢٧٨)، وبحر العلوم (٢: ١٨٤)، والنكت والعيون (٣: ٢١٥)، والسراج المنير (٢: ٧٧)، واللباب في علوم الكتاب (١١: ٤٠)، والبحر المديد (٣: ٣٦١)، والتحرير والتنوير (١٢: ٣٦).

(٣) لسان العرب، مادة (عور).

(٤) البيان والتبيين (١: ١٥٣، ٢٨٤)، والحيوان (٢: ٢٨٠-٢٨٣).

يقع فيه، وقال فيها: «فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمّى بها بسبب من الأسباب الأخرى ومجاوراً لها أو مشاكلاً»(١).

وعرَّفها الجرجاني بقوله: «الاستعارة أن تريد تشبيهَ الشيء بالشيء وتظهره وتجيء إلى اسم المشبَّه به فتعيره المشبه وتجريه عليه»(٢).

واستـقرَّ تعريف الاستعارة عند السكاكي حين قال: «هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مُـدَّعياً دخول المشبّه في جنس المشبّه به دالاً على ذلك بإثبات للمشبّه بما يخص المشبّه به»(٣).

وهذا هو التعريف المشهور الذي سار عليه العلماء.

والاستعارة تـتألف من ثلاثة أركان، وهذه الأركان هي: المستعار منه، وهو المشبَّه به، والمستعار له وهو المشبّه، والمستعار ويقصد به اللفظ المنقول.

وقد قسم الجرجاني الاستعارة على مفيدة وغير مفيدة(٤).

ثم جاء القزويني والسكاكي وقسّما الاستعارة على أنواع متعددة سنتعرف عليها من خلال تناول رشيد الخطيب لها في تفسيره.

١) الاستعارة الأصليَّة:

وهي الاستعارة التي يكون فيها اللفظ المستعار اسماً جامداً غير مشتق وقد عرَّفها

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ص١٠٢.

(٢) دلائل الإعجاز، ص٥٣.

(٣) مفتاح العلوم، ص١٧٤.

(٤) ينظر: أسرار البلاغة، ص٢٢.

السكاكي فقال: «هي أن يكون المستعار اسم جنس كرجل وكقيام وقعود. ووجه كونها أصلية هو أن الاستعارة مبناها على تشبيه المستعار بالمستعار منه»[١].

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، قال رشيد الخطيب: «﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدعائك إيَّاهم إلىٰ ما تضمَّنه من البيان لسُبُل الرشاد، وتُنقِذَهم بذلك ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ والضلال ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ والهُدىٰ، واستعارة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ للضلال و﴿ٱلنُّورِ﴾ للهدىٰ من خصائص اللغة ومعروف في تعابير القرآن»[٢].

وقد فسر أغلب المفسرين الآية من دون ذكر لفظ الاستعارة، وقد ذكرها الشوكاني بقوله: «لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية ما جعل الكفر بمنزلة الظلمات والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة»[٣].

٢) الاستعارة بالكناية:

وتسمى المكني عنها أو المكنية، وهي تشبيه حُذف منه المشبَّه به وَكُنِّي عنه بشيء من لوازمه. وقد عرفها السكاكي فقال: «هي أن تذكر المشبّه وتريد المشبّه به دالاً على ذلك بنصب قرينة تنصبها، وهي أن تنسب إليه وتضيف شيئاً من لوازم المشبّه به المساوية»[٤]، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، قال رشيد: «وقد استعار صفة الغضب للإشارة إلى أنه هو الذي كان يغريه بالكلام»[٥].

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٧٩.
(٢) أولى ما قيل (٤: ٣٨٥-٣٨٦).
(٣) فتح القدير (٣: ١٣٢).
(٤) مفتاح العلوم، ص١٧٩.
(٥) أولى ما قيل (٣: ٤٧٩).

قال الألوسي: «وفي الكلام استعارة مكنية حيث شبه الغضب بشخص ناهٍ آمر، وأثبت له السكوت على طريق التخييل»[١]. واقتصر الرازي على ذكر لفظ الاستعارة فقط[٢].

ويصرح رشيد الخطيب في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩] بوجود استعارتين: مكنية وتمثيلية، فيقول: «ومن مباحث اللفظ: أنه استعار المكان القوي للتقوى استعارة مكنية، واستعار ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، للكفر والنفاق استعارة تمثيلية، وعقد المشابهة بينهما»[٣].

وتحليل الشيخ هنا ينبئ عن فهم دقيق للاستعارة، فالأولى حذف فيها المشبه به، وهو البناء الذي شبهت به التقوى، وترك شيء، من لوازمه وهو أسس البنيان، والثانية تشبيه صورة النفاق بما فيه من تناقل وتذبذب ـ وهي صورة معقولة ـ بحال بناء قائم على شفا جُرُفٍ هارٍ ـ وهي صورة مُحسّة ـ، لما بينهما من وشيجة عدم الاستقرار وتوقع الانهيار والسقوط، ثم حذف الصورة الأولى المشبه، وبقيت الثانية المشبه به[٤].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا التفسير، وذهب ابن عاشور إلى أنها استعارة تصريحية[٥]، واقتصر ابن جزي بذكر الاستعارة فقط[٦].

---

(١) روح المعاني (٩: ٧١).

(٢) ينظر: التفسير الكبير (١٥: ١٣).

(٣) أولى ما قيل (٤: ١٣٢).

(٤) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم (٩: ٣٤٢).

(٥) التحرير والتنوير (١٠: ٢٠٦).

(٦) التسهيل (١: ٤٧٣).

٣) الاستعارة التجريديَّة:

وهي الاستعارة التي يلتحق بها صفات تلائم المستعار له، وقال عنها السكاكي: «أي: أنها تكون تجريدية إذا عقبت بصفات ملائمة للمستعار له أو تفريع كلام ملائم له»(١).

ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢]، حيث قال: «أذاقها» ولم يقل «كساها» فإن المراد بالإذاقة إصابتهم بها استعير له اللباس كأنه قال: فأصابها الله بلباس الجوع والخوف. وقال رشيد الخطيب: «وفي الكلام استعارة بديعة مزدوجة من صفات المطعوم والملبوس»(٢).

قال الشوكاني: «وقد أجاب العلماء أن هذا من تجريد الاستعارة، وذلك أنه استعار اللباس لما خشي الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس، ثم ذكر الوصف ملائماً للمستعار له، وهو الجوع والخوف؛ لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه غيره، فكانت الاستعارة مجردة ولو قال: فكساها كانت مرشحة»(٣).

وذكر أبو السعود لفظ الاستعارة فقط(٤).

٤) الاستعارة التصريحية:

وهي الاستعارة التي يحذف فيها المشبَّه ويُصرّح بالمشبّه به، وعرفها السكاكي

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٨٢.

(٢) أولى ما قيل (٤: ٥٠٤)، وينظر: الإيضاح، ٢٨١.

(٣) فتح القدير (٣: ٢٨٥).

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم (٥: ١٤٥).

فقال: «أنْ يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به»[١].

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، قال رشيد: «ويكون قد استعار الجبال في القرار والثبات لحجج القرآن القويَّة ودلائل النبوة الثابتة»[٢] وهي استعارة تصريحيَّة فقد شبه الحجج بالجبال، فحذف المشبه وأبقى المشبه به. وإن لم يُصرح رشيد بذلك واكتفى بذكر لفظ الاستعارة.

وفسر الزمخشري الآية من دون ذكر الاستعارة فقال: «وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة، فضرب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشدَّته، أي: وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال، معداً لذلك»[٣].

وقال الرازي: «والمعنى: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال أي: وكان مكرهم أوهن من أن تزول منه الجبال الراسيات التي هي دين محمد ﷺ ودلائل شريعته»[٤].

وقال أبو حيان: «والذي يظهر أن زوال الجبال مجاز ضرب مثلاً لـمكر قوي، وعظمة الجبال لا تزول، وهذا من باب الإيغال والمبالغة في ذم مكرهم»[٥].

٥) الاستعارة التمثيلية:

عرفها السيوطي بقوله: «هي أن يكون وجه الشبه فيها منتزعاً من متعدد»[٦]، ومثاله قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٣].

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٧٦.

(٢) أولى ما قيل (٤: ٤١١).

(٣) الكشاف (٢: ٥٢٩).

(٤) التفسير الكبير (١٩: ١١٤).

(٥) البحر المحيط (٥: ٤٢٦).

(٦) معترك الأقران (١: ٢٨٣).

قال رشيد: «ويجوز أن يكون الكلام استعارة تمثيليَّة من حالة الإبل النافرة من شدة الخوف. وتفرّ مدبرة، مثَّل به شدَّة خوفهم في موقف الحساب[(١)].

ولم يذكر أحد من المفسرين أن في الآية استعارة تمثيلية، وقد انفرد رشيد في هذا التفسير للآية الكريمة.

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وإن لم يقطع بذلك، فيقول: «يحتمل أن تكون هذه الآية عبارة عن دخول أهل الجنة، وأهل النار، وتلمح إلى ما يكون بينهم من عزلة تامَّة، إلا من ناحية خاصَّة، وهي معرفة البعض بأحوال بعض، ومكالمتهم المحدودة التي كنّى عنها بالباب... فقد عقد المشابهة بين هذه العزلة إلا من وجه خاص وبين السُّور الذي له باب على طريقة الاستعارة التمثيلية، هذا ما أراه والله أعلم»[(٢)].

ولم أجد من المفسرين من ذكر الاستعارة في هذه الآية الكريمة.

٦) الاستعارة التهكمية:

وتسمَّى الاستعارة التلميحية، وهي استعمال الألفاظ الدالة على المدح في نقائضها من الذم والإهانة[(٣)]. ومن الاستعارة التهكمية ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥]، قال رشيد: «وهذه جملة تهكمية مستعارة من حال المخاطبين»[(٤)].

ولم أجد من المفسرين من ذكر الاستعارة في هذه الآية الكريمة.

---

(١) أولى ما قيل (٦: ٣٢٤).

(٢) أولى ما قيل (٧: ٢٩٤).

(٣) معجم المصطلحات البلاغية (١: ١٥٨).

(٤) أولى ما قيل (٨: ٢٥٧).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾ [البقرة: ١٦]، قال رشيد: «صوَّر ذلك بصورةِ خسارة التجارة على طريقة الاستعارة التهكمية. وهي من البلاغة بمكان، والجملة ترشيح للشراء في الجملة التي قبلها، ثم مكَّن المعنى وجود الاستعارة بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦]»[١].

وذهب السيوطي إلى أنَّ الاستعارة هي بالكناية قائلاً: «استعير الاشتراء للاستبدال، ثم فرّع عليهما بما يلائم الاشتراء من الربح والتجارة أو أضمر التشبيه في النفس فلم يصرِّح بشيء من أركانه سوى المشبه فبالكناية أي: فهو استعارة بالكناية»[٢].

وقال البيضاوي: «ترشيح للمجاز لما استعمل الاشتراء في معاملتهم أتبعه بما يشاكله تمثيلاً لخسارتهم»[٣] وهذا ما ذكره النسفي وابن جزي وابن عاشور[٤].

٧) الاستعارة التخييلية:

هي أن يستعار لفظ دال على حقيقة خيالية تقدر في الوهم، ثم تردف بذكر المستعار له إيضاحاً لها وتعريفاً لحالها. وقد سمّاها ابن الأثير الحلبي: «استعارة التخييل»[٥] وسمّاها العلوي «الاستعارة الخيالية الوهمية»[٦].

ومثالها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ [المسد: ٥]. قال رشيد:

---

(١) أولى ما قيل (٢: ٣٦-٣٧).

(٢) إتمام الدراية لقراء النقاية، ص١٢٧.

(٣) أنوار التنزيل (١: ١٨٣).

(٤) ينظر: مدارك التنزيل (١: ٢١)، والتسهيل (١: ٧٣)، والتحرير والتنوير (١: ٢٩٦).

(٥) جوهر الكنز، ص٥٨، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ١٥١).

(٦) الطراز (١: ٢٣٢)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ١٥١).

«... ثم رشح هذا المجاز باستعارة تخييلية تناسبها، لزيادة التقرير والمبالغة في التشنيع، فقال: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أي: في عنقها حبل قويّ من ليف تجمع به حطباً كثيراً، لوقود نار الفساد، والفتنة والمشاغبات، يكنّى بذلك عن شدة سعيها بالمشاغبة ضدَّ رسول الله ﷺ، وقد استعار هذا المعنى من المرأة المُجِدَّة في جمع الحطب لإيقاد النار، يبالغ في البيان عن شدّة سعيها في الفساد والمعارضة لنشر الدعوة وظهور الدين وكبْت المسلمين»(١).

قال البيضاوي: «أي: من مسد أي: فُتل، ومنه: رجل ممسود الخلق أي: مجدوله وهو ترشيح للمجاز أو تصوير لها بصورة الحطّابة التي تحمل الحزمة وتربطها في جيدها تحقيراً لشأنها أو بياناً لحالها في نار جهنم حين يكون على ظهرها حزمة من حطب»(٢).

ومن الاستعارة التخييليّة ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [البقرة: ١٩].

قال رشيد: «استعارة تخييليّـة مبنية على تشبيههم في تغاضيهم عن قوارع هذا النور الساطع، بمن يسد آذانه من الصواعق حذر الموت حماقةً وبلهاً. فقد سيقت هذه الاستعارة لتصوير ناحيتين من نواحي نفوسهم، وبيان أمرين من أمورهم، فهي تصور شدة بلههم وحماقتهم، وتقرر إعراضهم عن الحقِّ الجليِّ القوي وصمَمهم وتعاميهم عنه...»(٣).

ولم أجد من المفسرين من قال بهذا الرأي.

---

(١) أولى ما قيل (٨: ٤٠٢).

(٢) أنوار التنزيل (٥: ٥٤٥).

(٣) أولى ما قيل (٢: ٤٠).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

قال رشيد: «قوله: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ استعارة تخيليّة، رُشِّحَت بها الاستعارة الأصلية؛ ليتمكَّن في الذِّهن أنَّ الصورة كانت متقنةَ الصنع، فيرتاب الناظر إليها أنها عجل حقيقي من ذوات الخوار، لا صنعي»[١].

ويرى القزويني أنه من استعارة محسوس لمحسوس؛ إذ قال: «إنه استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي... فإن المستعار منه ولد البقرة والمستعار له الحيوان الذي خلقه الله تعالى من حلي القبط التي سبكتها نار السامري»[٢].

وقد أكثر رشيد الخطيب من ذكر مواطن الاستعارة في تفسيره وكان الغالب على ذلك أنه لا يُبين نوعها[٣].

٢. المجاز المرسل:

وهو أحد أنواع المجاز اللغوي، وعرفه القزويني قائلاً: «هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه»[٤]. وسمِّي مرسلاً، لأن الإرسال في اللغة والإطلاق، والمجاز الاستعاري مقيَّد بادعاء أنَّ المشبه من جنس المشبه به، والمرسل مطلق ومحرر من هذا القيد. وقيل: «إنما سمي مرسلاً لإرساله على التقييد بعلاقة هي

---

(١) أولى ما قيل (٣: ٤٧٦).

(٢) الإيضاح، ص٢٧٦، وينظر: مختصر المعاني، ص٢١٧، وبغية الإيضاح، ص٣٣٠.

(٣) ينظر: على سبيل التمثيل لا الحصر: أولى ما قيل (٣: ٤٣٦)، (٤: ٣٦)، (٤: ٥٣١)، (٤: ٥٤٣)، (٥: ٢٤ و٢٥)، (٥: ٤٢)، (٥: ٤٩)، (٨: ٥٠ و٥١)، (٨: ١٢٩).

(٤) الإيضاح، ص٢٥٤، التلخيص، ص٢٩٥.

المشابهة»(١). وأول من أطلق التسمية هو السكاكي؛ إذ قال: «وغير معناها ـ أي: الكلمة ـ إما أن يقدر قائماً مقام معناها بواسطة المبالغة في التشبيه أو لا يقدر والأول هو (الاستعارة) والثاني هو (المجاز المرسل)»(٢).

المجاز المرسل عند رشيد الخطيب:

ذكر رشيد الخطيب المجاز المرسل بالتحليل والدراسة وبيَّن فائدته، ومن أنواع المجاز المرسل التي ذكرها في تفسيره.

١) إطلاق اسم الكل على الجزء:

نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٨٦]، قال رشيد: «والمراد من السورة: آيات في موضوع خاصّ في السورة من ذكر الكلِّ وإرادة الجزء»(٣).

ولم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا القول، سوى الإمام الزمخشري الذي قال: «يجوز أن يراد السورة بتمامها، وأن يراد بعضها»(٤).

٢) إطلاق اسم الجزء على الكل:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤]، قال رشيد ذاكراً قول الرازي: «قال الرازي: فإن قيل: كيف صحَّ مجيء ﴿خَٰضِعِينَ ﴾ خبراً عن

---

(١) حاشية الدسوقي (٤: ٢٩).

(٢) مفتاح العلوم، ص١٩٥.

(٣) أولى ما قيل (٤: ١١٨).

(٤) الكشاف (٢: ٢٨٥).

الأعناق؟ قلنا: أصل الكلام فظلوا لها خاضعين، فذكرت الأعناق لبيان موضع الخضوع زيادةً في التقرير، ثم ترك الكلام على أصله، يريد أن في الكلام مجازاً مرسلاً من ذكر الجزء وإرادة الكل، كما في عتق الرقاب»(١).

قال أبو السعود: «وأصله: (فظلوا لها خاضعين) فاقتحمت الأعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع وترك الخبر على حاله»(٢). وهذا قول الخازن والشوكاني(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨-٩]، قال رشيد في تفسيره للآية: «ومعنى الخشوع: الذلة والاستكانة من شدَّة الخوف. وقد أعاد الضمير للقلوب، فأضاف إليها الأبصار، لما بينهما من ملابسة الاجتماع في جسم واحد. والإضافة تصح في أدنى ملابسة. ويجوز أن يكون إعادة الضمير إليها، باعتبار أصحابها، على طريقة المجاز المرسل من ذكر الجزء وإرادة الكل، فأضاف إليها الأبصار؛ لأنها جزء من الأصحاب»(٤).

وهذا من انفرادات رشيد في تفسير الآية.

٣) إطلاق المُسبَّب على السبب:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، قال رشيد الخطيب في تفسير الآية: «﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بتبديل الشكر بالكفر.

---

(١) أولى ما قيل (٥: ٣٨٩- ٣٩٠)، وينظر: التفسير الكبير (٢٤: ١٠٣).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦: ٢٣٤).

(٣) ينظر: لباب التأويل (٥: ١١٣)، وفتح القدير (٤: ١٣٦).

(٤) أولى ما قيل (٨: ١٢٣).

وعثى بمعنى أفسد. فالآية تذكرهم بما أنعم الله عليهم من الحضارة والعمران والقوة والبأس والعلم والصناعة، ولاسيما في فن الهندسة والبناء، وتدعوهم إلى شكر الله على هذه النعم. ويجوز أن يراد من نحت الجبال تعبيد الطرق فيها ليتهيأ البناء والسكن عليها. أو المراد نحت الصخر منها لبناء البيوت. وفيه ذكر المسبَّب وإرادة السبب أو ذكر المحل وإرادة الحال»(١).

ولم يقل أحدٌ من المفسرين هذا الرأي.

٤) إطلاق السبب على المسبَّب:

نحو قوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا ﴾ [التوبة: ١١٠].

قال رشيد الخطيب: «ذكرَ البنيانَ وأرادَ سببَه بطريقة الـمَجَاز الـمُرْسَل، أي: سبب بنيانهم وهو الكفر والنفاق ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ إلا بحيث لا يبقىٰ لها قابليَّة الإدراك؛ يُبيِّن بذلك أنَّ نفاقهم وكُفْرَهم راسخٌ فيهم لا يمكن تحويلهم عنه، فسيموتون وهم كفار...»(٢).

ولم أجد من المفسرين من ذكر أن في الآية مجازاً مرسلاً. بل اكتفوا بقول أنَّ هذا البنيان سبباً لحصول الريبة في قلوبهم(٣).

ومنه أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

---

(١) أولى ما قيل (٣: ٤٤٧).

(٢) أولى ما قيل (٤: ١٣٢).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز (٣: ٩٧)، والتفسير الكبير (١٦: ١٥٧)، والبحر المحيط (٥: ١٠٥)، ولباب التأويل (٣: ١٥٠)، والسراج المنير (١: ٥١٤)، واللباب في علوم الكتاب (١٠: ٢١٣).

قال رشيد: «والقدم: مصدر بمعنى المسابقة استعمل هنا وصفاً مضافاً إليه موصوفه وذلك من خصائص اللغة. ويجوز أن يُراد بالقدم: قدم الرِّجْل، ذكر وأُريد به السبق في العمل أو القدوم على الله، من ذكر السبب وإرادة المسبَّب، كإطلاق اليد على النعمة»(١).

ونقل النحاس عن ابن عباس قوله: «أي: منزل صدق: وقيل القدم العمل الصالح وقيل السابقة...»(٢).

٥) إطلاق المحل على الحال:

ويقصد البلاغيون النسبة إلى المحل، أي: المكان. والمجاز في هذه العلاقة أنهم يستعملون اللفظ الدال على المكان، وهم يريدون غير المكان، فتتجاوز إرادتهم المكان إلى من فيه أو ما فيه(٣).

ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، قال رشيد: «أي: وأُوحي إليّ أنَّ العبادة خاصَّة بالله تعالى، ففيه مجاز مرسل من ذكر المحل وإرادة الحال»(٤).

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

٦) تسمية الشيء باسم آلته:

والمقصود من هذه العلاقة كون الشيء واسطة في التأثير عليه يتوقف التأثير

---

(١) أولى ما قيل (٤: ١٥٠).

(٢) معاني القرآن (٣: ٢٧٦).

(٣) صناعة الكتاب، ص٣٣٤.

(٤) أولى ما قيل (٨: ٢٩).

والتأثر، إذ به يعالج المؤثر، ومثاله: أنْ يذكر اسم ويراد به الأثر الذي يتكون منه، وبذلك يستعمل اللفظ الدال على آلةِ الشيء مكان الشيء نفسه[١].

ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، قال رشيد: «وخصَّ البنان بالذكر ـ مراداً بها الأصابع، ثم الأكف بطريقة المجاز المرسل ـ لأنها أداة التصرف في الضرب»[٢].

ولم أجد من المفسرين من قال: إن في الآية مجاز مرسل.

٧) **إطلاق الملزوم على اللازم:**

نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠].

قال رشيد: «وإنما قال: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾، بَدَلَ: (إن يكن في قلوبكم خير)؛ لأنَّ الذي يكون يَعلَمُه الله، فهو تعبيرٌ عن الملزوم باللازم»[٣].

ولم أجد أحداً من المفسرين من قال بالمجاز المرسل في هذه الآية.

مجاز التضمين:

وقد عرفه ابن عبد السلام قائلاً: «هو أن تضمن اسماً معنى اسم لإفادة معنى الاسمين فتعدِّيه تعديتَه في بعض المواطن»[٤]، وقد عرفها رشيد الخطيب بقوله: «مجاز التضمين وهو أن يضمن الكلمة معنى كلمة أخرى فيعديها تعديتها»[٥].

---

(١) ينظر: صناعة الكتاب، ص٢٠١.

(٢) أولى ما قيل (٤: ١٥).

(٣) أولى ما قيل (٤: ٥٣).

(٤) الإشارة إلى الإيجاز، ص٧٤، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٣: ٢١٠).

(٥) أولى ما قيل (١: ٥٢٩).

ومن الأمثلة التي ذكرها رشيد لهذا النوع من المجاز قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦]، فقال: «فقد ضمن (تبينوا) معنى تحذروا، فتكون الكلمة محتملة للمعنيين: التبيين والتحذير»[١].

ولم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا القول.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥ﴾ [الإسراء: ٧٣]، قال رشيد: «فقد ضمَّن ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ معنى ليصرفوك فأفادت المعنيين معاً»[٢].

ولم أجد من المفسرين من قال بهذا القول.

مجاز التشبيه:

هو التشبيه المحذوف الأداة، وقد أوضح عز الدين بن عبد السلام ذلك بقوله: «العرب إذا شبهوا جرماً بجرم أو معنى بمعنى أو معنى بجرم فإن أتوا بأداة التشبيه كان ذلك تشبيهاً حقيقياً وإن أسقطوا أداة التشبيه كان ذلك تشبيهاً مجازياً»[٣].

ومن قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ [طه: ٨٨]، قال رشيد: «وعندي أن الآية من مجاز تشبيه الأجسام بالأجسام، كقولك لِـمَا نُحِتَ علىٰ صورة الفرس: إنه فرس صهَّال، تقول ذلك للمبالغة في إتقان صنعها، ولا يُراد به حقيقة المعنىٰ»[٤].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا القول.

---

(١) أولى ما قيل.

(٢) المصدر السابق، وقد ذكر الشيخ في الصفحة نفسها أمثلة متعددة من هذا المجاز.

(٣) الإشارة إلى الإيجاز، ص٨٥، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٣: ٢١٠).

(٤) أولى ما قيل (٥: ١٢٦).

المبحث الثالث

الكناية والتعريض

أولاً: الكناية

جاء في اللسان: الكناية: «أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكنَّى عن الأمر بغيره يكنى كناية، وتكنَّى: تستر مِن كَنى عنه إذا ورّى، أو من الكنية»(١).

وفي اصطلاح البلاغيين: لفظ أطلق وأريد به لازم معناه الحقيقي مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي مع المعنى المراد(٢).

ولعل أقدم من تكلم عن الكناية أبو عبيدة (ت٢١٠هـ) في قوله: «ومن مجاز ما يحول خبره إلى شيء من سببه ويترك خبره هو قوله: ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] حول الخبر إلى الكناية التي في آخِر الأعناق»(٣).

وقد كانت دراسة قدامة (٣٣٧هـ) لمصطلح الكناية من أهم الدراسات التي انتقلت بالكناية من المفهوم اللغوي إلى المصطلح البلاغي، فهو أول من عرفها باسم (الإرداف) وذلك في دراسته لأنواع ائتلاف اللفظ والمعنى، فيقول: «ومن أنواع ائتلاف

(١) لسان العرب، مادة (كنى).

(٢) ينظر: عروس الأفراح، للسبكي، ص٢٣٧.

(٣) مجاز القرآن (١: ١٢).

اللفظ والمعنى والإرداف، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دل على التابع أبان على المتبوع»[١]، وكان هذا أول تعريف اصطلاحي عرف به قدامة الإرداف.

وقال أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) عن الكناية: «وهو أن تكني عن الشيء وتعرض به ولا تصرح على حساب ما عملوا في اللحن والتورية عن الشيء، كما فعل العنبري إذ بحث إلى قومه بِصرّة شوك وصرّة رمل وحنظلة، يريد جاءتكم بنو حنظلة في عدد كثير ككثرة الرمل والشوك»[٢].

ودرس ابن رشيق القيرواني (٤٦٣هـ) أسلوب الكناية فهو يشير إليها في أبواب متفرقة؛ إذ تحدث عنها في باب (المجاز) بقوله: «وكذلك الكناية في مثل قوله تعالى إخباراً عن عيسى ومريم ـ عليهما السلام ـ : ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] كناية عما يكون عنه في حاجة الإنسان»[٣]، ثم هو يذكرها في باب (الإشارة) أيضاً الذي يشمل على أنواع عدة منها (الإيماء، التفخيم، التعريض، الكناية والتلويح، التمثيل، الرمز، اللمحة، الحذف... إلخ).

أما عبد القاهر الجرجاني فقد نهج في تعريفه للكناية نهج قدامة وهو تعريفها بالإرداف؛ إذ يقول: «الكناية أنْ يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه»[٤].

---

(١) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص١٥٥.

(٢) كتاب الصناعتين، ص٣٦٠.

(٣) العمدة (١: ١٦٨).

(٤) دلائل الإعجاز، ص٥٢.

وقد تفرَّد رشيد بذكر الكناية في مجموعة من الآيات القرآنية، وهذا إن دل على شيء فهو للدلالة على مقدرته البلاغية واستقلال شخصيته العلمية.

وقد تميَّز تفسير «أولى ما قيل» بكثرة الكنايات الواردة فيه، فقد أفاد رشيد منها كثيراً في تفسير الآيات، وكان غالباً ما يبيِّن وجه التجوز فيها، وهو يرى أن الكناية لا يشترط فيها صحة إرادة المعنى الحقيقي على نحو ما أورده في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٨]، حيث قال: «وهذه العبارة تستعملها العرب كناية عن الدوام الدائم، فجرى القرآن في التعبير على حسب عرف التخاطب، على نهجه في مثل ذلك، ولا يشترط في الكناية صحَّة المعنى الحقيقي، ويجوز أن يراد سماء كلٍّ من أهل النار وأهل الجنة وأرضهم، وذلك ما فوقهم وما يستقرون عليه»[١].

وما ذكره رشيد هنا هو الفرق بين الكناية والمجاز الذي ليس كناية، لأن المجاز يمتنع فيه إرادة المعنى الحقيقي[٢] وبعض الكنايات لا يمكن أن نحملها على المعنى الحقيقي، ومع ذلك فإن من الباحثين من لا يدخلها في المجاز، والشيخ رشيد منهم.

ويؤكد رشيد على ما ذكره من شروط الكناية، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، قال رشيد: «قيل هي كناية عن شدَّة الغضب، مثل حمي الوطيس، وقيل كناية عن قوة انبعاث الماء، لأن التنور يطلق على كوة عين الماء، ولا يشترط في الكناية صحة إرادة المعنى الحقيقي كما لا يمتنع، وعليه فيجوز أن تكون الطبيعة أثارت ينابيع أرسلت ذلك الماء، اتفاق أقدار لأقدار والله أعلم. وعلى كل يكون المعنى فإذا اشتدّ طغيان الماء»[٣].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٢٦١).

(٢) ينظر: الإيضاح، ص٣٠١.

(٣) أولى ما قيل (٥: ٢٧٠).

ويستمر رشيد على تأكيده لشروط الكناية في قوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، فقال: «وهذا تصوير لكثرة خزائنه البالغة الحد، وكناية عن ذلك، والكناية يراد بها لازم معناها، وهو هنا كثرة الخزائن ولا يجب فيها تحقق المعنى الأصلي، بل لا يتحقق إلا في القليل من الكنايات»(١).

وقد وردت الكناية في تفسير رشيد الخطيب في مواضع كثيرة ودلَّ عليها وكان غالباً ما يذكر **الأغراض البلاغية التي جاءت فيها، ومنها:**

الكناية لغرض الاستكبار:

نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣]، قال رشيد: «وهذا كناية عن الاستكبار والازدراء للنعمة وكفرانها، ومنها نعمة القرآن»(٢).

وذكر ابن عاشور معنى الكناية قائلاً: «وهو هنا مجاز في عدم الإيتاء أو كناية عنه؛ لأن الإمساك يلازمه الإعراض»(٣).

واقتصر الزمخشري والثعلبي والقزويني على ذكر معنى الاستكبار فقط(٤).

---

(١) أولى ما قيل (٥: ٥١١). قلت: بل الأقرب هو ما دلَّ عليه ظاهر اللفظ من أن المراد بالمفاتح: مفاتيح الخزائن التي تُحفَظُ فيها الكنوز التي كان يثقل حَمْلُها على العصبة من الرجال، وهذا هو المعنى الحقيقي لألفاظ الآية، وهو غير ممتنع عقلاً ولا عادة، لا سيما أن المفاتيح في الأعصار الماضية كانت أكبر حجماً من مفاتيح هذا العصر، وما دامت الحقيقة غير ممتنعة فلا ينبغي العدول إلى المجاز.

ثم إن القول بأن المراد بالمفاتح: الخزائنُ نفسُها، فيه إضعاف لمدلول الآية في سياقها، فكثير من الأغنياء من يثقل حمل خزائن أموالهم وصناديق كنوزهم على العُصبة أولي القوة من الرجال (مجد).

(٢) أولى ما قيل (٤: ٥٦٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٤: ٦٤).

(٤) ينظر: الكشاف (٢: ٦٤٤)، والكشف والبيان (٦: ٦٢٩)، والإيضاح، ص٨٩.

الكناية لغرض الاستيلاء والتدبير:

نحو قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، قال رشيد الخطيب: «وفي هذا كناية عن الاستيلاء والتدبير لهذا الكون والسيطرة عليه، على عادة المخاطبين ونظامهم في أحوال سلطانهم. لأنه سبحانه يخاطب الناس في تعريف ذاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم...»[١].

وذهب الزركشي: «أنه كناية عن الملك؛ لأن الاستواء على السرير لا يحصل إلا مع الملك فجعلوه كناية عنه»[٢] وتبعه السيوطي في ذلك[٣].

الكناية عن منتهى السخاء:

نحو قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، قال رشيد: «كناية عن منتهى السخاء مأخوذ من حال المخاطبين... لأن السخي يعطي بيده لكثرة السائلين»[٤].

وذكر الزركشي أنه «كناية عن سعة جوده وكرمه»[٥]، وقال السيوطي ذلك[٦].

الكناية عن العذاب:

نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، قال رشيد الخطيب: «فيعبر عن مصيرهم الأليم بعدم المحبَّة لهم، إيماء لمحبة الله تعالى للمؤمنين وكناية عمّا لهم من العذاب في مقابلة نعيم المؤمنين ومحبتهم»[٧].

---

(١) أولى ما قيل (٥: ١٠٠ و١٠١).

(٢) البرهان: ٥٠٦.

(٣) ينظر: الإتقان (٤: ١٢٤).

(٤) أولى ما قيل (٣: ٢٣٤).

(٥) البرهان، ص٥٠٥.

(٦) ينظر: الإتقان (٣: ١٢٣).

(٧) أولى ما قيل (١: ٦٥٨).

ومنـه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧]، قال رشيد الخطيب: «وهذه الجملة كناية عن العذاب الذي لا نجاة لهم منه»(١).

الكناية عن مواصلة السير:

نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: ٨١]، قال رشيد الخطيب: «كناية عن مواصلة السير السريع، وتهويل للعذاب الواقع أي: أسرعوا»(٢).

الكناية عن الجزاء:

نحو قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، قال رشيد الخطيب: «وهذا كناية عن أنه تعالى يجازيهم عليه الجزاء الأوفى، فينالون ثمرة أعمالهم موفورة»(٣).

الكناية عن الخير والسعادة:

ومنـه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧١]، قال رشيد الخطيب: «وأخذه باليمن كناية عن أنه حاوٍ لأعمال الخير ومستوجب للسعادة والهناء»(٤).

الكناية عن قبح الحال:

نحو قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، قال رشيد الخطيب: «وهذا دعاء على الإنسان بأشد عبارات النقد والتنديد، على ما هو معروف باللسان العربي. وهو كناية عن قبح حاله، وأنه قد بلغ منه مبلغاً لا يستحق معه أن يبقى حياً، ومنشأ

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٤٦٨).

(٢) أولى ما قيل (٤: ٤٣٩).

(٣) أولى ما قيل (٤: ٥٢٧).

(٤) أولى ما قيل (٤: ٥٦٠).

الشناعة ومناطها: نسيانه لما يتقلب فيه من النعم، وذهوله عن مسديها. فإذا ذُكِّر به أعرض عن الذكرى. فما أشدَّ كفره بإحسان من غمره بنعمه مِن مبدأ إيجاده إلى ساعة معاده»(١).

الكناية عن الأناة والحلم والثبات:

نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]، قال رشيد: «وشرح الصدر كناية عن الأناة والحلم والثبات تجاه ما سيلقاه من الأمور المزعجة»(٢).

الكناية عن عدم صدور اللغو:

نحو قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ [مريم: ٦٢]، قال رشيد الخطيب: «أي: فضول الكلام. وهذه الكناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها»(٣).

الكناية عن الإرادة:

نحو قوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٣]، قال رشيد الخطيب: «أي: معلمة بعلامة خاصة عند ربك، وهذه كناية عن أن كل حجر منها لا يصيب إلا من أراد الله أن تصيبه والله أعلم. والمراد: المبالغة في تمكين الإجراء وتحقيق الجزاء»(٤).

الكناية عن اللين والشفقة:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، قال رشيد الخطيب: «وخفض الجناح كناية عن الشفقة واللين والتواضع لهم، مستعار من حال الطائر، فإنه إذا أراد أن يحطَّ خفض جناحه»(٥).

---

(١) أولى ما قيل (٨: ١٣٦)، وينظر: (٨: ١٩٣).

(٢) أولى ما قيل (٥: ١٠٦).

(٣) أولى ما قيل (٥: ٨٥).

(٤) أولى ما قيل (٤: ٢٥٢).

(٥) أولى ما قيل (٥: ٤٢٨).

الكناية عن الهجوم:

نحو قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العاديات: ٥]، قال رشيد الخطيب: «أي: أدخلنا الغبار وسط جمع العدو، وهو كناية عن هجومهنّ عليهم، واختلاطهنّ بهم عند غلبتهم»(١).

الكناية عن التيئيس:

نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦]، قال رشيد الخطيب: «وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ كناية عن التيئيس من النجاة»(٢).

الكناية عن سَعَة العلم:

ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [مريم: ٦٤]، قال رشيد: «وهذه الجملة كناية عن سعة علم الله وسلطانه، وتلميح إلى ما يصحب ذلك من دقة عدله في جزائه وإكرامه للمحسنين، وتنزيل كل واحد منزلته لعلمه بما يستحقه ويقتضيه»(٣).

ثانياً: التعريض(٤):

وهو في اللغة: «عرَّض لفلان وبه: إذا قال فيه قولاً وهو يعيبه، يقال: عرَّض

---

(١) أولى ما قيل (٨: ٣٢٣).

(٢) أولى ما قيل (٢: ١٣١).

(٣) أولى ما قيل (٥: ٨٦).

(٤) ذكر الدكتور العزاوي قبل الكلام عن التعريض: المبحث الرابع: التصوير. وقطع الكلام المرتبط بين الكناية والتعريض بهذا المبحث، وهو من صفحتين ومأخوذ برمّته مما كتبه الدكتور الحماش، وقد تقدم، فاستغنيت عن إعادة هذا المبحث هنا (مجد).

تعريضاً: إذا لم يبيّن، والتعريض خلاف التصريح، والمعاريض: التورية بالشيء عن الشيء»[١].

وفي الاصطلاح: استخدم العرب في كلامهم كثيراً من التعريض، فهو من الأساليب العريقة، إذ عدّوه من محاسن الكلام، فقد عقد ابن قتيبة باباً خاصاً له مع الكناية سماه (باب الكناية والتعريض) وقال فيه: «ومن هذا الباب التعريض، والعرب تستعمله في كلامها كثيراً فتبلغ إرادتها بوجه هو ألطف وأحسن من الكشف والتصريح، ويعيبون الرجل إذا كان يكاشف في كل شيء ويقولون: لا يحسن التعريض إلا ثلباً»[٢].

وقد ذكره السكاكي وهو يقسم الكناية بقوله: «ثم إن الكناية تتفاوت إلى تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء، وإشارة»[٣]، ثم قال: «متى كانت الكناية عرضية كان إطلاق اسم التعريض عليها مناسباً»[٤]، وعرفها ابن الأثير قائلاً: «هي اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي»[٥].

وقد تناول رشيد الخطيب التعريض في عدد من الآيات كقوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥-١٦]، قال رشيد: «ثم ختم الكلام بعبارة تدل بطريقة التعريض على التوعُّد لمن يكفر بها»[٦].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا القول.

---

(١) لسان العرب، مادة (عرض)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢: ٢٧٦).

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص٢٠٤.

(٣) مفتاح العلوم، ص١٧٦.

(٤) المصدر نفسه، ص١٧٩.

(٥) المثل السائر (٣: ٥٦).

(٦) أولى ما قيل (٥: ١٠٥).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، قال رشيد: «وفي ذلك تعريض بمن اتخذ أولياء من دونه من البشر المحتاجين للطعام، والعاجزين عن الخلق والإيجاد، فكيف يكونون آلهة»(١).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

قال رشيد: «وفي هذا تعريض وتحذير لهم ممَّا وقع لقوم نوح من العذاب وإيماء إليه»(٢).

ولم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا الرأي.

وقد ذكر رشيد التعريض في مواضع متعددة من تفسيره(٣).

* * *

---

(١) أولى ما قيل (٣: ٢٩٣).

(٢) أولى ما قيل (٣: ٤٤٥).

(٣) ينظر: أولى ما قيل (٣: ٤٣٢، ٥: ٢٧٩، ٥: ٣٤١، ٥: ٤٣٨).

الفصل الثالث
علم البديع

البديع لغةً: بَـدَعَ الشيءَ يَبْدَعه بَدعاً وابتَـدَعَهُ: أنشأهُ وَبدأهُ، وأبدعت الشَّيءَ اختـرَعتُهُ لا على مِثالٍ سابقٍ. والبَدِيعُ من أسماءِ الله تعالى، والبديعُ الجَديد(١).

البديع اصطلاحاً: هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة(٢).

وقد أشار العلمـاء إلى أن أول من ذكر مصطلح البديع هو الشاعر مسلم بن الوليد(٣) وذكره الجاحظ في قوله: «والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم على كل لغة وأربت على كل لسان»(٤).

وقد شاع هذا اللون في الأدب مما حدا بالخليفة والشاعر العباسي ابن المعتز إلى تأليف كتـابه البديع الذي قال فيه: «البديع اسم موضوع لفنـون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو. وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين»(٥).

---

(١) لسان العرب، مادة (بدع).

(٢) الإيضاح، ص٣١٧.

(٣) ينظر: الأغاني (١٩ : ٣١)، العمدة (١ : ١٣١).

(٤) البيان والتبيين (١ : ٥١).

(٥) البديع، ص٥٨.

والناظر في كتاب «البديع» يرى أن فنونه تشمل علم البيان وبعض قضايا علم المعاني، وبذلك لم يكن مصطلح البديع يتطابق مع مفهومنا الحالي فقد كان يطلق البديع على البلاغة كلها، وهذا ما ذكره ابن قدامة بن جعفر[١] وعبد القاهر الجرجاني[٢] في نظريته المعروفة بـ(نظرية النظم) التي يكشف فيها عن الإعجاز القرآني بالإفادة من النظرة الشمولية لعلوم البلاغة.

ويُعدُّ القزويني أول من عرف علم البديع ـ ذكرنا التعريف مسبقاً ـ والسكاكي أول من قسم فنون البديع؛ إذ سمّاها (محسنات) وجعلها على ضربين:

ضرب يرجع إلى المعنى، وضرب يرجع إلى اللفظ[٣] وقد تناول رشيد الخطيب أنواعاً متعددة من هذا العلم في تفسيره منها:

١) المشاكلة:

المشاكلة لغةً: الشبه والمثل، وقد تشاكل الشيئان وشاكل كل واحد منهما صاحبه[٤].

وقال ابن فارس عليها: «الشين والكاف واللام معظم بابه المماثلة. تقول: هذا شِكْلُ هذا، أي: مثله. ومن ذلك يقال: أمر مُشكل، كما يقال أمر مشْتَبِهٌ، أي: هذا شابه هذا، وهذا دخل في شكل هذا»[٥].

المشاكلة اصطلاحاً: هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تـحقيقاً أو

---

(١) ينظر: نقد الشعر، ص٢٤.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز، ٤٠-٤٥، وأسرار البلاغة: ١-٤.

(٣) الإيضاح، ص٣١٧، وينظر: مفتاح العلوم، ص٢٠٠.

(٤) لسان العرب، مادة (شكل).

(٥) معجم مقاييس اللغة، مادة (شكل) (٣: ٢٠٤).

تقديراً[١]. وسماه الرماني بالمزاوجة[٢]. ويبدو أن الدكتور أحمد مطلوب أرجع بدايات نشوء مصطلح المشاكلة إلى أبي علي الفارسي بقوله: «ولعل أبا علي الفارسي كان أول من أطلق عليه اسم المشاكلة»[٣].

ومن المُحْدَثين من يرى أنَّ المشاكلة كلمة تتردَّد في العبارة مرتين، مع إمكان استبدالها بغيرها في المرة الثانية، ولكن بقيت ليكتمل الإيقاع الموسيقي الناتج عن الترديد، فضلاً عن أن معناها ما زال قادراً على العطاء في العبارة التي وردت فيها[٤].

ولقد عني الشيخ رشيد الخطيب بها عناية واضحة لما فيها من دفع شبهة قد ترد في نسبة الألفاظ التي لا تليق بذات الله كالنسيان، والمكر، والخديعة، وما إليها فهو لون بديعي، وهو كذلك لدى الشيخ، إذ عد هذا اللون من الكلام من فنون البديع وقد نص على ذلك في بعض المواضع فقال: «هذا من البديع»[٥].

ومن الآيات القرآنية التي ذكر رشيد الخطيب أن فيها مشاكلة ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]، قال رشيد: «وإنما سمِّي التحرُّش من الكفار بالمؤمنين عقاباً أيضاً، للازدواج والمشاكلة»[٦].

ونرى هنا أن رشيد الخطيب أطلق اسم الازدواج أيضاً على المشاكلة.

وهذا ما ذكره البيضاوي قائلاً: «ولم يزد في الاقتصاص وإنما سمِّي الابتداء

(١) مفتاح العلوم، ص٤٢٤، والتلخيص، ص٣٥٦.

(٢) ينظر: النكت في إعجاز القرآن، ص٩٩.

(٣) معجم المصطلحات البلاغية (٣: ٢٨٥)، وينظر: الحجة (١: ٢٣٦).

(٤) ينظر: البلاغة (تأصيل وتجديد)، ص١٠١.

(٥) أولى ما قيل (٤: ٢٥) و(٤: ١٦٧).

(٦) أولى ما قيل (٥: ٢٤٦).

بالعقاب الذي هو للازدواج أو لأنه سببه»[١]، فهو لم يصرح بلفظ المشاكلة بل الازدواج.

وسماه الزمخشري الملابسة قائلاً: «﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ تسميته الابتداء بالجزاء لملابسته له من حيث إنه سبب وذلك مسبب عنه كما يحملون النظير على النظير، والنقيض على النقيض للملابسة»[٢]. وتبعه النسفي والنحاس[٣].

وأطلق الشوكاني والألوسي لفظ المشاكلة[٤].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١]، قال رشيد: «أي: أعجلُ عقوبة وأسرع عقاباً من سرعتكم في انقلابكم عن الحق. وفي تسمية العقوبة مكراً، مشاكلة لمكرهم وهذا من البديع»[٥].

وهذا ما ذهب إليه الشوكاني بقوله: «... وتسمية عقوبة الله سبحانه مكراً من باب المشاكلة»[٦] وذكر الرازي أنه من المقابلة[٧].

وقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، قال رشيد: «أي: حرمهم من فوائد ذكره وشكره وحسن عبادته. فيه مشاكلة في اللفظ»[٨].

---

(١) أنوار التنزيل (٤: ١٣٧).

(٢) الكشاف (٣: ١٦٨).

(٣) ينظر: مدارك التنزيل (٣: ١١٠)، ومعاني القرآن (٤: ٤٢٩).

(٤) ينظر: فتح القدير (٣: ٦٦٥)، وروح المعاني (١٧: ١٨٩).

(٥) أولى ما قيل (٤: ١٦٧)، وينظر: إرشاد العقل السليم (٤: ١٣٣).

(٦) فتح القدير (٢: ٦٢٨).

(٧) التفسير الكبير (١٧: ٥٤).

(٨) أولى ما قيل (٤: ١٠٦).

وقال الزركشي: «وهو مجاز حسن، فالعرب تسمِّي الجزاء على الفعل باسم الفعل»[١].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، قال رشيد في تفسير الآية: ﴿... أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي: ضريبة على الرؤوس فيتهموك بأن تطلب بهذه الدعوى والدعوة نيل ثروة أو رياسة، كلا. وإنما تطلب الأجر من ربك ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ وهو رزقه لك في الدنيا، وثوابه في الآخرة. وعبر عن هذا بالخراج، للمشاكلة»[٢].

ولم أجد من المفسرين من قال بهذا الرأي.

وقد أكثر رشيد من ذكر هذا النوع في تفسيره[٣].

٢) اللف والنشر:

جاء في اللسان: «اللَّف: الصّنفُ من النَّاس من خير أو شر، والتفَّ الشيء: تجمّع وتكاثف، والنشرُ، أنشر الله الرِّيح: أحياها بعد موت وأرسلها نشراً ونشراً»[٤].

وفي الاصطلاح: فقد عرفه السكاكي قائلاً: «هو أن تلفَّ بين شيئين في الذكر ثم تتبعهما كلاماً مستقلاً على متعلق بواحد وبآخر من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرد كلاً منهما إلى ما هو له»[٥]. وقولهم من غير تعيين أي: من غير أن يعين لشيء ممّا ذكر أولاً ما هو له مما ذكر ثانياً، وهذا قيد في التعريف يخرج ما كان معيناً، فهو من باب التقسيم،

(١) البرهان، ص٨٦٢.

(٢) أولى ما قيل (٥: ٢٨٣).

(٣) أولى ما قيل (٢: ١٨٩)، (٤: ٢٥، ٢٣١، ٥١٠)، (٦: ٣٥).

(٤) لسان العرب: مادة (لف) و(نشر).

(٥) مفتاح العلوم، ص٦٦٢.

وليس من هذا الباب. وترك التعيين يكون من أجل الوثوق بأن السامع يرد إلى كل ما هو له بناءً على القرينة[١]. وقد عرفه كثير من البلاغيين منهم الحموي بقوله: «وهو أن تذكر شيئين فصاعداً إما تفصيلاً فتنص على كل واحد منهما، وإما إجمالاً فتأتي بلفظ واحد يشتمل على متعدد إلى العقل ردَّ كل واحد إلى ما يليق به»[٢].

وقسمه القزويني على نوعين: الأول: أن يكون النشر على ترتيب اللف، والثاني: أن يكون النشر على غير ترتيب اللف[٣].

وذكر الشيخ هذا اللون البديعي في قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١]، قال رشيد: «وكلتاهما تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وقد جاء هذا التفصيل على طريقة اللف والنشر المفرّق، ليكون مطلع الكلام ومقطعه من المهتدين[٤].

لم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا الرأي.

وقد يلمح الشيخ لفاً من دون تفريق فيجد فيه صورة من صور الإيجاز القرآني، على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [الروم: ٢٣]، قال رشيد: «وفيه لف واحتباك على نهج إيجاز القرآن»[٥].

---

(١) خزانة الأدب (١: ١٤٩).

(٢) دراسات منهجية في علم البديع، للشحات محمد أبو شيبة، ص٢٢٣.

(٣) التلخيص، ص٣٦١، والإيضاح، ٣٣٣.

(٤) أولى ما قيل (٣: ٥٠٥).

(٥) أولى ما قيل (٥: ٥٦٤)، وينظر: منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، (٩: ٣٢١).

٣) المقابلة:

المقابلة لغةً: جاء في اللسان: قابل الشيء مقابلة وقبالاً: عارضه، والمقابلة: المواجهة والتقابل مثله[١].

وفي الاصطلاح: فقد اختلف البلاغيون في المقابلة فمنهم من أدخلها في باب المطابقة[٢]، ومنهم من عدها باباً بذاتها[٣]، وعرفها الكثير من البلاغيين[٤]، إذ قال فيها أبو الأصبع المصري إنها عبارة عن: «توخِّي المتكلم ترتيب الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أتى بأضدادها في عجزه على الترتيب بحيث يقابل الأول بالأول والثاني بالثاني لا يخل من ذلك شيء في المخالف والموافق، ومتى أخل الترتيب كان الكلام فاسد وقد تكون المقابلة بغير الأضداد»[٥].

وعرفها أبو هلال العسكري بقوله: «إيراد الكلام في مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة والمخالفة»[٦]. وجميع التعريفات تكاد تكون متفقة في المعنى العام.

وقد أشـار رشيد الخطيب إلى المقابلة في عدد من الآيات ولم يفرق بين الطباق والمقابلة، على حين فرق أكثر البلاغيـين، فقد عرف السكاكي الطباق بأن تجمع بين متضادين، أما المقابلة فهي بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضدَّيهما[٧].

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (قبل).

(٢) ينظر: مختصر المعاني، ص٢٦٧.

(٣) ينظر: نهاية الإيجاز، ص١١١، ومفتاح العلوم، ص٢٠٠.

(٤) ينظر: كتاب الصناعتين، ص٣٣٧، وجوهر الكنز، ص٨٥، والإيضاح، ص٣٥٣، وخزانة الأدب (١: ١٢٩).

(٥) تحرير التحبير، ص١٧٩.

(٦) كتاب الصناعتين، ص٣٣٧.

(٧) مفتاح العلوم، ص٦٦٠، وينظر: منهج الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، (٩: ٣٥٢).

واختيار الشيخ لمصطلح (المقابلة) مبني على واقع الدلالة، إذ إنَّ أحد اللفظين يقابل الآخر في معناه. أما الطباق فمصطلح تعارف عليه البلاغيون(١).

فقال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢١-٢٣]: «ولا يخفى ما في مقابلة ﴿عَالِيَةٍ﴾ بـ﴿دَانِيَةٌ﴾ من الإبداع البليغ»(٢).

وهذا في اصطلاح عموم البلاغيين طباق، قال الزركشي: قابل بين العلو والدنو»(٣).

ومن المقابلة ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦]، قال رشيد الخطيب: «ثم ذكر حال المؤمنين ومصيرهم في مقابلة حال المنافقين ومصيرهم على نهج القرآن في المقابلة فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ [التوبة: ٨٨]، التي هي ثمرات الإيمان ...»(٤). فهذا من مقابلة جملة بجملة.

ولم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا الرأي.

وقد يقابل الشيخ بين جمل متعددة لتشمل مشهداً متكاملاً بإزاء مشهد آخر، وهذا من خصائص القرآن، إذ يقابل مثلاً مشاهد العذاب بمشاهد النعيم في كثير من نصوصه، جرياً على نهجه وأسلوبه في الترغيب والترهيب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ

(١) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، (٩: ٣٥٣).
(٢) أولى ما قيل (٧: ٤٨٤).
(٣) البرهان، ص٩٠٧.
(٤) أولى ما قيل (٤: ١١٨)، وينظر (٣: ٥٠٤).

أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٣٠-٣١]، قال رشيد: «وهذه الجمل مقابلة لنظيرها السابق في حقِّ الكافرين»(١). وهذا ما ذهب إليه الرازي(٢).

وقد أكثر رشيد الخطيب من ذكر المقابلة في تفسيره(٣).

٤) الالتفات(٤):

لغةً: لَفَتَ وَجْهَهُ عَن القَومِ: صَرَفَهُ، والتَفَتَ التفاتاً... والتَفَتَ إليه صَرفَ وجههُ إليه، ويقال: لَفَتُّ فُلاناً عن رأيه، أي: صَرَفْتُه، ومنه الالتفات(٥).

---

(١) أولى ما قيل (٥: ٢٦).

(٢) ينظر: التفسير الكبير (٢١: ١٠٤).

(٣) ينظر: أولى ما قيل (٢: ٤٦، ٣١٨)، (٣: ١٩٦)، (٣: ٤٢٨، ٥٠٤).

(٤) قال أستاذنا محمد الحسناوي في تقديمه لتفسيري «المعين»: مما نوصي به المعنين: الاهتمام بأسلوب الالتفات في القرآن الذي هو التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث: (التكلم والخطاب والغيبة) مع أن الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أولاً دون التحول عنها. وهو فنّ من فنون القول يلقب بشجاعة العربية، وأحد نواحي الإعجاز في حيويته وروعة تنقله وفي تأثيره في الإعراض والإقبال أو المفاجأة أو الاستحضار، كما هو أحد الأساليب التي تندرج تحت مسمّى الخروج عن الظاهر، لغرض فنيّ أو ديني أو للأمرين معا، وما أكثر ذلك وما أروعه!! (مجد).

(٥) ينظر: لسان العرب، مادة (لفت).

وفي الاصطلاح: عرَّف البلاغيون الالتفات واختلفوا في تسميته[١]، فمنهم من سمّاه الاعتراض والرجوع والصرف والانصراف والالتفات، وكذلك أطلقوا عليه شجاعة العربية.

ولعل أول من أطلق عليه تسمية الالتفات هو الأصمعي[٢]، وقد أوضحه ابن الأثير بقوله: «وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله فهو يقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام؛ لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل أو من مستقبل إلى ماضٍ»[٣]، وهو عنده ثلاثة أقسام:

الأول: الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة.

الثاني: الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الأمر وعن الفعل الماضي الى فعل الأمر.

الثالث: الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي.

ووضع السكاكي الالتفات ضمن علم المعاني، فقال فيه: «واعلم أن هذا النوع، أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة، لا يختصُّ المسند إليه، ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها على الآخر، ويسمَّى هذا النقل التفاتاً

---

(١) ينظر: البديع، ص٥٨، والصناعتين، ص٣٩٢، والعمدة (٢: ٤٦)، والمثل السائر (٢: ٤)، وتحرير التحبير: ١٢٣، وجوهر الكنز، ص١١٩، وخزانة الأدب (١: ١٣٤).

(٢) ينظر: حلية المحاضرة (١: ١٥٧)، والصناعتين، ص٣٩٢، والعمدة (٢: ٤٦)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٩٥).

(٣) المثل السائر (٢: ٤).

عند علماء المعاني، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب على أسلوب، أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأ باستدرار إصغائه، وهم أحرياء بذلك»[١].

والشيخ رشيد الخطيب قد اهتم بهذا الأسلوب في تفسيره، وكان حريصاً على ذكر الأغراض البلاغية التي يخرج إليها هذا الأسلوب.

وقد أورد الشيخ أربعة أنواع من الالتفات في القرآن الكريم في تفسيره «أولى ما قيل»، وهذا خلافٌ لما ذكره الباحث خالد محمد حماش من أن الشيخ أورد ثلاثة أنواع للالتفات[٢].

أ ـ الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، قال رشيد الخطيب: «ثم غيَّر الأسلوب من التكلم إلى الغيبة مبالغة في التعظيم»[٣].

ولم أجد من المفسرين من قال هذا الرأي.

ب ـ الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

ويأتي هذا النوع لأغراض متعدِّدة ذكرها المفسر، فقد يكون لغرض تربية المهابة نحو قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١].

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٩٩.

(٢) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، (٩: ٣٥٦).

(٣) أولى ما قيل (٥: ١٦٨).

قال رشيد: «والالتفات من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابة»[١].

وذهب البيضاوي إلى غرض الترهيب في الالتفات قائلاً: «نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب وتصريحاً بالمقصود فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإيّاي فارهبون لا غير»[٢]. وهذا رأي الزمخشري والرازي والخازن والنسفي والشوكاني[٣].

ولم يذكر ابن جزي غرض الالتفات فقال: «﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ خرج من الغيبة إلى التكلم؛ لأن الغائب هو المتكلم»[٤].

وقد يكون لغرض إظهار الاعتناء، نحو قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢]، قال رشيد: «ثم التفت إلى التكلم، إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه»[٥].

وقد يكون الالتفات عنده لأكثر من غرض بلاغي، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، قال رشيد: «والالتفات من الغيبة إلى التكلم، لإظهار التحقق، أو لإظهار كمال العناية بالفعل»[٦].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٤٧٣)، وينظر: إرشاد العقل السليم (٥: ١١٩).

(٢) أنوار التنزيل (٣: ٤٠٣).

(٣) ينظر: الكشاف (٢: ٥٧٠)، والتفسير الكبير (٢٠: ٤٠)، ولباب التأويل (٤: ٩٥)، ومدارك التنزيل (٢: ٢٥٩)، وفتح القدير (٣: ٢٤٠).

(٤) التسهيل (٢: ٧٤)، وينظر: روح المعاني (١٤: ١٦٣)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤: ٢٦٩).

(٥) أولى ما قيل (٤: ٥٠٨).

(٦) أولى ما قيل (٦: ١٤٩). وينظر: إرشاد العقل السليم (٧: ١٥٠).

وقال السمين الحلبي: «قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ هذا التفات من الغيبة إلى التكلم، وإنما كان ذلك؛ لأن المنَّـة بالإخراج أبلغ من إنزال الماء»(١). ولم يذكر البيضاوي وأبو حيان غرض الالتفات(٢).

جـ ـ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

ويأتي عنده أيضاً لأغراض بلاغية متعدِّدة منها ما يأتي لغرض المبالغة في الترهيب نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [النور: ٦٤]، قال رشيد: «وعدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾، للمبالغة في الترهيب»(٣).

وذكر الزمخشري الالتفات في الآية لكنه لم يُبيِّن غرضَهُ(٤).

وقد يكون الالتفات لغرض التعجيب، كقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٢]، قال رشيد: «... ثم التفت من الخطاب إلى الغيبة لتعجيب السامعين من أمرهم حيث إنهم لا يدركون الحق ولا يعتبرون بالحكم، ولا يراعون النعم فقال: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو الإشراك بالله»(٥).

ويأتي الالتفات عنده لغرض الإبعاد والتحقير مع التجهيل، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ٥٠]، قال رشيد:

---

(١) الدر المصون (٩: ٢٢٦).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل (٢٦: ١٨)، والبحر المحيط (٧: ٢٩٦).

(٣) أولى ما قيل (٥: ٣٤٩).

(٤) ينظر: الكشاف (٣: ٢٢٢).

(٥) أولى ما قيل (٤: ٤٨٢)، وينظر: إرشاد العقل السليم (٥: ١٢٨).

«وقد أقام مقام الجواب هذه الجملة المصدرة بالإنكار التهديدي ملتفتاً من الخطاب إلى الغيبة للإبعاد والتحقير مع التجهيل، فقال: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾»(١).

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

وقد يكون لأكثر من غرض كقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٧-٦٨].

قال رشيد: «ثم لفت الكلام إلىٰ التوبيخ والإنكار لعددٍ من مظانِّ التُّهَم مضطربة في مسالك البطلان، وعَدَلَ عن الخطاب إلىٰ الغيبة مبالغةً في ذلك، كأنه أبعدهم عن ساحةِ الخطاب لقلَّة فهمهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾»(٢).

ولم أجد من المفسرين من قال بهذا الرأي.

د ـ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

وقد يكون لغرض التهديد نحو قوله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣]، قال رشيد: «ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد...»(٣).

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

ويأتي عنده لغرض المبالغة في الترهيب كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦]، قال رشيد: «والالتفات إلى الخطاب للمبالغة في الترهيب»(٤).

---

(١) أولى ما قيل (٤: ١٨٠).

(٢) أولى ما قيل (٥: ٢٨٢).

(٣) أولى ما قيل (٤: ٦١).

(٤) أولى ما قيل (٤: ٤٧٥).

ولم يذهب أحد من المفسرين إلى هذا القول.

وقد يذكر له أكثر من غرض كقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢]، قال رشيد: «... ثم عدل عن الغيبة إلى الخطاب زيادةً في التقرير ومبالغةً في التهديد فقال: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾»[١].

وذهب الألوسي إلى أن غرض الالتفات هو الإباحة قائلاً: «... وهو الالتفات من الغيبة إلى الخطاب والمقصود الإباحة والإعلام بحصول الأمان من القتل والقتال...»[٢].

وقال ابن عاشور في تفسير الآية: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ الفاء للتفريع على معنى البراءة، لأنها لما أمر الله بالأذان بها كانت إعلاماً للمشركين الذين هم المقصود من نقض العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، فضمير الخطاب في فعل الأمر معلوم منه أنهم الموجه إليهم الكلام وذلك التفات. فالتقدير: فليسيحوا في الأرض ونكتة هذا الالتفات إبلاغ الإنذار إليهم مباشرة»[٣].

ولم يذكر القرطبي غرض الالتفات[٤].

٥) تأكيد المدح بما يشبه الذم:

وهو من الأساليب الخادعة، إذ يوهم صدر الكلام أن عجزه من قبيل الذمّ فإذا

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٦١).

(٢) روح المعاني (١٠: ٤٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٠: ١٤).

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٨: ٩٤)، وينظر: زاد المسير (٣: ٣٩٣).

به من قبيل المدح، فحين نقول: لا عيب في محمد إلا أنه أمين، فبدلية كلامك توهم أنك لا ترى فيه عيباً ستذكره بعد الاستثناء، فإذا قلت: إنه أمين، زال الوهم، وتبين القصد في مدحك له على نهج بديع من الكلام، وقد وقف بعض علماء البلاغة عنده، وفصَّلوا الحديث فيه وفي أمثلته تحت عنوان الاستثناء(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٤]، قال رشيد: «وفي صيغة هذا التعبير: ما يشبه النوع البديعي الذي يسمونه طريقة تعقيب المدح بما يشبه الذم، والغرض منه هنا المبالغة في التشنيع. أي: لم يكن من وجوده ﷺ بينهم إلا أنهم نالوا كل خير وسعادة من الغنى وحسن الحال، فماذا ينقمون عليه...»(٢).

وصرَّح السيوطي بذلك إلا أنه لم يذكر الغرض قائلاً: «فإن ظاهر الاستثناء أن ما بعده حق يقتضي الإخراج فلما كان صفة مدح يقتضي الإكرام لا الإخراج كان تأكيداً للمدح بما يشبه الذم»(٣). وهذا ما ذكره الألوسي وابن عاشور(٤).

ولم يصرح الرازي وغيره على لفظ المدح بما يشبه الذم، ولكنه فسر الآية بما يدل على ذلك المعنى قائلاً: «إن قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ تنبيه على أنه ليس هناك شيء ينقمون وهذا كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب»(٥)

---

(١) ينظر: البديع، ص٦٢، وكتاب الصناعتين، ٣٢٤، والعمدة (٢: ٤٨).

(٢) أولى ما قيل (٤: ١١٢).

(٣) الإتقان (٣: ٢٢٥).

(٤) ينظر: روح المعاني (١٠: ١٣٩)، والتحرير والتنوير (١٠: ١٥٨).

(٥) التفسير الكبير (١٦: ١٠٩)، والبيت في ديوان النابغة، ص٤٤.

وتبعه في ذلك بعض المفسرين[١].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، قال رشيد: «وهذا البيان أكبر مسوغ للقتال وحافز إليه، نجدةً لهم ودفاعاً عن الدين. وهذا الاستثناء من أبلغ الكلام. فقد استثنى من الحكم ما يؤيده ويقرره، ومن الوصف المحسس المفزز ما يزيده تهييجاً في الشعور على الطريقة البلاغية المسمَّاة في فنِّ البلاغة: ـ تعقيب المدح بما يشبه الذمّ ـ أو العكس»[٢].

ولم يجزم الشوكاني بهذا اللون البديعي في الآية الكريمة قائلاً: «﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ يجوز أن تكون بدلاً من (الذين يقاتلون)، أو في محل نصب على المدح، أو محل رفع بإضمار مبتدأ»[٣].

٦) التورية:

لغةً: مصدر ورّيت الخبر تورية، إذا سترته وأظهرت غيره[٤].

وفي الاصطلاح: فقد اتفق البلاغيون على تعريفها، على الرغم من اختلافهم في تسميتها، فقد سُمِّيت بـ(الإيهام، والتوجيه، والتخيل، والمغالطة)[٥].

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٨: ٢٠٧)، والبحر المحيط (٥: ٧٤)، ولباب التأويل (٣: ١٢٤)، والسراج المنير (١: ٥٠٠)، وفتح القدير (٢: ٥٥٦)، ومعاني القرآن للنحاس (٣: ٢٣٣).

(٢) أولى ما قيل (٥: ٢٣٧).

(٣) فتح القدير (٣: ٦٥٣). وينظر: الإتقان (٣: ٢٢٥).

(٤) لسان العرب، مادة (ورى).

(٥) ينظر: تحرير التحبير، ص٢٦٨، وجوهر الكنز، ص١١١، ومفتاح العلوم، ص٢٠٢، والإيضاح، ص٣٦٤، وخزانة الأدب (٢: ٣٩).

أما تعريفها فهو: «أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان، أو حقيقة ومجازاً، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد ويوري عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك، ولأجل ذلك سمي هذا النوع إيهاماً»(١).

وإن التورية من الفنون البديعية المهمة التي عُنيَ بها البلاغيون وأكّد ذلك ابن حجَّة؛ إذ قال: «فإن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة، وسحرها ينفث في القلوب ويفتح بها أبواب عطف ومحبة...»(٢).

وقد أشار رشيد الخطيب إلى هذا اللون البديعي في تفسيره، موضحاً سر التورية وجمالها في موقعها من الكلام في كل موضع، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٤]، قال رشيد الخطيب: «يريد السيِّد العزيز ويوري بالله سبحانه، ويجمع بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي. على أن المعنى الأول أيضاً لا يصدر إلا عن متَّق لله حقَّ تقاته. فهو مستلزم للمعنى الثاني، يدل عليه بالدلالة الالتزامية. وهذه التورية لا تفهمها المرأة، وإنما هي مضمرة في نفس يوسف عليه السلام ولكنها فهمت منه التقريع والتأنيب لها بأنها داست كرامة زوجها وحقوقه وحقوق الإحسان إليه وحقوق الثقة بين الزوجين»(٣).

ولم أجد أحداً من المفسرين من قال بهذا الرأي فهو من انفرادات رشيد الخطيب.

وقد يتردَّد احتمال الشيخ للوجه البلاغي في النص القرآني بين التورية وفن بلاغي

(١) خزانة الأدب (٢: ٣٩).
(٢) المصدر نفسه (٢: ٤٠).
(٣) أولى ما قيل (٤: ٢٩٠).

آخر ليس من البديع على نحو ما نجد عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، فقد قال رشيد الخطيب: «في قوله تعالى: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ استعارة أو تورية بديعة عقد بها المشابهة بين الميت والجمل البارك»[١]. ويريد الشيخ هنا أن الاستعارة على وجه المجال بتشبيه الكفار بالموتى؛ إذ الكفر ضرب من الموات في الفكر والعقيدة، لانحرافه عن الحق، أو يريد التورية على وجه الخفاء، والتورية هنا عن بلادة التفكير والإحساس لدى الكفار[٢].

وذكر أبو السعود معنى الاستعارة[٣]، وتبعه ابن عاشور بقوله: «﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ «الموتى» استعارة لمن لا ينتفعون بعقولهم ومواهبهم في أهم الأشياء»[٤].

وذهب الألوسي إلى معنى التشبيه، فقال: «شبَّههم بالأموات بجامع أنهم جميعاً لا يفهمون الصواب ولا يعقلون الحق...»[٥].

ولم أجد من المفسرين من قال بمعنى التورية عنده.

٧) حسن التعليل:

هو أن يدعي لوصف علَّة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي أي: بأن ينظر نظراً مشتملاً على لطف ودقة ولا تكون علَّة له في الواقع[٦].

---

(١) أولى ما قيل (٣: ٣٠٣).

(٢) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، (٩: ٣٥٨).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم (٣: ١٣٠).

(٤) التحرير والتنوير (٦: ٨٠).

(٥) روح المعاني (٢: ١٦٣).

(٦) إتمام الدراية لقراء النقاية (١: ١٣٢)، وبغية الإيضاح، ص٢٣٧، ومختصر المعاني، ص٢٦٥.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

قال رشيد: «وقد أردف تحقيق البعث بوجه من حسن التعليل يتضمن الزجر لهم والتبكيت على أحسن الوجوه وأجملها، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾» [النحل: ٣٩][(١)].

ولم أجد من المفسرين من قال بهذا الرأي.

٨) أسلوب الحكيم

«هو كل كلام محكم»[(٢)].

وقد عرفه الجرجاني بقوله: «عبارة عن ذكر الأهم تعريضاً بالمتكلم على تركه الأهم، كما قال الخضر حين سلم عليه موسى عليه السلام إنكاراً لسلامه، لأن السلام لم يكن معهوداً في تلك الأرض: فأنّى بأرضك السلام؟ وقال موسى عليه السلام في جوابه: أنا موسى، كأنه قال: أجبت عن اللائق بك، وهو أن تستفهم عني لإسلامي بأرضك»[(٣)].

وعُرف أيضاً: «بأنه تلقي المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه إلى خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله، أو المهم له»[(٤)].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٤٦٨).

(٢) كتاب الكليات، لأبي البقاء الكفوي (١: ١٥٣).

(٣) التعريفات، ص٢١.

(٤) خصائص التراكيب، محمد محمد أبو موسى، ص٢٣٦، وبلاغة التراكيب في علم المعاني، ٢٩٩.

وقد تناول رشيد هذا اللون البديعي في تفسيره في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة: ٦١]. قال رشيد: «أي: غرير سريع الانخداع، وذلك من أكبر عيوب الرؤساء لما يترتب عليه من قبول الغش. والظاهر أنهم قالوا ذلك تبجحاً بنجاحهم في الاستئذان، حيث أذن لهم بمعاذيرهم الكاذبة. وقد ردَّ الله سبحانه عليهم بالطريقة التي يسمِّيها البلغاء أسلوب الحكيم أو القول بالموجب فقال: ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ [التوبة: ٦١]»[١].

ولم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا الرأي.

٩) الإبهام:

لغةً: جاء في اللسان: «الإبهام بالباء الموحدة وهو الكلام الموهم؛ لأنَّ له أكثر من وجه، وإبهام الأمر أن يشتبه فلا يعرف وجهه، وقد أبهمه، واستبهم عليهم الأمر: لم يدروا كيف يأتون له، واستبهم عليه الأمر أي: استغلق»[٢].

وهو عند البلاغيين: «إيراد الكلام محتملاً لوجهيْن مختلفين»[٣]، وسمَّاه السكاكي التوجيه، وسماه السيوطي كذلك[٤].

ومن أمثلتـه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

---

(١) أولى ما قيل (٤: ١٠٢).

(٢) اللسان، مادة (بهم)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٧).

(٣) مفتاح العلوم، ص٢٠٢، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٧).

(٤) معجم المصطلحات البلاغية (١: ٣٧).

قال رشيد الخطيب: «وهذا الإبهام الصوري التهكمي، بعد أن بيّن من هو على الهُدى ومن هو على الضلال أبلغ من التصريح»(١).

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

١٠) الفاصلة القرآنية:

الفصل لغةً: الفصل من الجسد موضع المفصل، وبين كل فصلين وصلٌ، ومثال ذلك: الحاجز بين الشيئين.

والفاصلة: الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام، وقد فصل النّظم، وعقد مفصَّل، أي: جعل بين كل لؤلؤتين خرزة. وقوله تعالى: ﴿بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ﴾ بيّنّاهُ، وقوله: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ بين كل آيتين فصل، تمضي هذه وتأتي هذه، بين كل آيين مهلة، وقيل ﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ مبينات، وسمي (المُفصَّلُ) لقصر أعداد سوره من الآيات(٢).

الفاصلة اصطلاحاً: ويشيع إطلاقها عند أرباب الدراسات القرآنيَّة على آخر كلمة تختتم بها الآية، ـ مع فارق التنظير ـ كقافية الشعر وقرينة السجع(٣).

على أنَّ الإجماع منعقد على عدم تسمية الفاصلة قافية كما حكاهُ السيوطي؛ إذ قال: «ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً؛ لأنَّ الله تعالى لمّا سلب عنه اسم الشعر، وجب سلب القافية عنه أيضاً؛ لأنها منهُ وخاصة في الاصطلاح، وكما يمتنع استعمال القافية يمتنع

---

(١) أولى ما قيل (٦: ١١٨).

(٢) ينظر: لسان العرب، وأساس البلاغة والقاموس المحيط، مادة (فصل).

(٣) ينظر: النكت في ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٨٩، وإعجاز القرآن للباقلاني، ص٨٣، والبرهان، ص٥٠، والإتقان (٣: ٢٩٠)، ومن بلاغة القرآن، ص٧١.

استعمال الفاصلة في الشعر، لأنها صفة لكتاب الله فلا تتعداهُ»[١]. وأما تسمية الفواصل القرآنية أسجاعاً وإطلاق لفظ السجع عليها فإنَّ جمهور العلماء قد منعه، وهو المتعين، وذلك لأن أصل إطلاق السجع في اللغة كان على صوت الحمام إذا سجع أي: هدل على جهة واحدة[٢].

فتنزّه القرآن الكريم عن أنْ يستعار لشيء منهُ لفظ هو صوت الطائر، قال الرماني: «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها»[٣]. ثم إنَّ من السجع ما يطلق على مذموم الكلام كسجع الكهان، وأصل المنع في ذلك راجع إلى أنَّ القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، وكلامه صفة من صفاته، فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن الشرعي بها؛ لأنَّ ألفاظ أسماء الله تعالى وصفاته وما يتعلق بها توقيفي وليس للاجتهاد البشري فيها مكنة ولا مجال[٤].

ومصطلح الفاصلة معروف في العربية، فقد عرفه أعلام العربية كالخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) فأطلقه هو وتلميذه سيبويه (ت١٨٠هـ) على مقاطع القرآن، ثم استقرت دلالته على أواخر الآيات في طبقة الجاحظ (ت٢٥٥هـ) إلى أنْ استوى هذا المصطلح على يد أبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) وتلميذه أبي بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ)[٥]. وأصبح الناظر في إعجاز القرآن الكريم والواقف على مظاهر بلاغته

---

(١) معترك الأقران (١: ٢٥).

(٢) ينظر: لسان العرب، مادة (سجع).

(٣) النكت في إعجاز القرآن، ص٩٧.

(٤) ينظر: ثلاث رسائل، ص٩٠، ومعترك الأقران (١: ٢٥).

(٥) ينظر: الفاصلة في القرآن الكريم، الحسناوي، ص٣٣-٨٧.

يتناول هذا المصطلح ويبرز لطائف البلاغة فيه، وذلك في أغلب البحوث التي تطرّقت إلى بيان القرآن الكريم(١).

والمتأمّل في كتاب الله تعالى يلحظ اطّراد الفاصلة فيه، حتى أصبحت جزءاً من اطّراد النظام في القرآن كله. فغدت من مظاهر الأحكام في القرآن وهي ركن وطيد من أركان الآية لفظاً ومعنى، بقدر ما هي ركن في المقطع والسورة ومجموع القرآن، وهي من أمارات تيسير الله تعالى كتابه للذكر والحفظ والدرس(٢).

وفواصل الآي الكريم تتعلق بمضمون الآية وتتناسب مع سياق نظمها، وهذا من إعجاز الذكر الحكيم؛ يقول الزركشي: «اعلم أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله... وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك؛ ولكن منه ما يظهر، ومنه ما يستخرج بالتأمل للّبيب»(٣).

وللفاصلة قيمة في تمكين معنى الآية، مستقرة في قرارها ومطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة ومتعلقاً معناها بالكلام كلّه تعلقاً تاماً؛ إذ لو طرحت اختل المعنى واضطرب الفهم وهذا فيه سرٌّ عظيم(٤). ويشهد لذلك ما حكي عن الأصمعي أنه قال: «كنت أقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾» [المائدة: ٣٨] قرأتُ: (والله غفور رحيم) وبجنبي أعرابي؛ فقال: كلام من هذا؟ فقلت كلام الله. قال: أعد؛ فأعدت، فقال: ليس هذا كلام الله؛ فانتبهت، فقرأت:

---

(١) ينظر: على سبيل التمثيل: الإتقان، إعجاز القرآن للرافعي، والتصوير الفني، ومشاهد القيامة، والإعجاز البياني...

(٢) ينظر: الفاصلة في القرآن، ص١٩٢-١٩٣.

(٣) البرهان، ص٦٥.

(٤) ينظر: المصدر نفسه.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: أصبت، هذا كلام الله؛ فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. فقلت: من أين علمت؟ فقال: يا هذا؛ عَزَّ؛ فحكم، فقطع؛ ولو غفر فرحم لما قطع[١].

من هذا يتبين في شأن الإعجاز البلاغي أنه ما من فاصلة قرآنية إلا وسياق الآية يقتضي لفظها ومعناها، إذ لا يسهل في النظم الكريم أن يقع في مكانها سواها، وليس عدم اهتدائنا إلى سرِّها البياني قدحاً في موقعها وإنما قصور الإدراك فينا[٢].

أما مفسرنا رشيد الخطيب فقد وجدناه يذكر في مقدمة تفسيره عدداً من فوائد الفواصل وهي[٣]:

ـ قد يختم ـ القرآن الكريم ـ الآية بفاصلة تؤيد مضمون ما قبلها، على مثل هذه الطريقة، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وأمثال ذلك فتكون كالبرهان والتقرير لمضمون ما يسبقها من المقاصد والأغراض بطريقة التذكير بأسماء الله الحسنى وآثارها الملائمة للسياق.

ـ وقد تأتي الفواصل للحمل على المقررات السابقة والحث على التمسك بها إيجاباً أو سلباً أمراً أو نهياً كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [٤]، وكقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ـ وقد يطوي معاني ومقاصد يكتفي بالإشارة إليها بخواتم الآيات والتفكير بأسمائه الحسنى وآثارها.

---

(١) ينظر: الكشكول (٢: ١٤٢).

(٢) ينظر: الإعجاز البياني، ص٢٣٥-٢٥٨.

(٣) (١: ٥١٤-٥١٥).

(٤) تعليق للشيخ رشيد: إذا نظرنا إلى جميع الأوامر والنواهي في القرآن المبين، وإلى جميع النداءات الإلهية للمؤمنين، رأيناها كلها تضع كلمة التقوى أو إحدى مشتقاتها تمهيداً أو تذييلاً، لأنها الغاية من كل ذلك والباعث عليه. حاشية ص٢٥ من مقدمة «أولى ما قيل».

ـ وقد يأتي بالجملة ينهي بها السياق السابق ويمهد بها للسياق اللاحق معاً، أو يؤيد بها حكماً سابقاً ويمهد بها لحكم لاحق، على طريقة التأييد أيضاً.

وهذا يدل لنا على فهم رشيد للفاصلة القرآنية واهتمامه بذكرها في تفسيره فكان يُبيِّن الفاصلة في أيِّ موضع ترد فيه مُحللاً إيَّاها ذاكراً الغرض البلاغي الذي ترد فيه وعلاقتها بالآية التي سبقتها.

ففي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، قال رشيد مُبيناً العلاقة بين ما ورد في الآية ونهايتها ما نصه: «أي: فاصبر كما صبر نوح على قومه فإنَّ سنَّة الله في رسله مع أقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتقين.

وفي هذه الخاتمة وهذه الفاصلة أشار إلى أن المراد من هذه القصة التأسي بنوح عليه السلام والتثبيت تجاه مشركي قريش، وكذلك القصص التابعة»(١).

وتتكرر في القرآن عند رؤوس الآيات عبارات: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، و﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، و﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيعلق الشيخ في تفسيره عليها منبهاً على العلاقة الوثيقة بينها وبين المعنى المراد في الآية كما في عبارة: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، فقال: «وفي هذه الفاصلة من لذعة التعنيف والتخجيل، بقدر ما فيها من لفت النظر إلى قوة الدليل»(٢).

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا

---

(١) أولى ما قيل (٤: ٢٣٧-٢٣٨).

(٢) أولى ما قيل (٤: ١٦٢).

قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فأجاز رشيد: «أن تكون هذه الفاصلةُ احتراساً عمّا يَرِدُ من سوء الفهم، تفيد أنَّ إصابتهم بهذه المصيبة لم تكن عن عَجْز في قُدرة الله لنصرهم، فهو علىٰ كلِّ شيء قدير، ولكنّها جاريةٌ حَسَب سنن الله الكونيَّة، ولا تبديل في سنن الله ولا مُحاباة»[1].

وذكر رشيد الفاصلة القرآنية في مواضع متعددة من تفسيره[2].

❊ ❊ ❊

(١) أولى ما قيل (٢: ٥٧١).

(٢) ينظر: أولى ما قيل (٢: ٢٠١)، (٤: ١٢٠، ٢٢٩، ٣٩٩، ٥٤٩).

الخاتمة

خلص البحث من خلال الدراسة لحياة عالم ومفسر كبير من علماء العالم الإسلامي إلى جملة من النتائج نذكر أهمها:

ـ كشف الشيخ رشيد في تفسيره أثر بلاغة القرآن الكريم في بيان سر إعجاز القرآن الكريم لاشتماله على النواحي الفكرية والاجتماعية والتربوية، وأخبار الماضي والمستقبل.

ـ عني الشيخ بعلم المعاني من نظم وخبر وإنشاء وغيرها، موضحاً في ذلك دقائق المعاني القرآنية، التي بها يبلغ النظم أعلى درجات الإعجاز وسر جمالية المفردة والجملة القرآنية.

ـ اعتنى الشيخ رشيد بفواصل الآي وتناسبها مع المعنى، رافضاً النظرة التقليدية إلى ما يسمّى برعاية الفاصلة القرآنية.

ـ اعتنى الشيخ رشيد بعلم البيان ذاكراً أغلب تقسيماته، من غير اهتمام زائد بتسمياته الاصطلاحية.

ـ أشار الشيخ رشيد إلى الصورة الفنية ورجّح إفادته من كتاب (التصوير الفني في القرآن الكريم) كما أكّد على أثر المثل القرآني وفائدته في توضيح المعنى الجمالي للنصّ الحكيم.

ـ كانت للشيخ رشيد وقفات مع علم البديع وتقسيماته، ونبّه على الالتفات وأنواعه وأثره البلاغي في كشف مواطن الجمال القرآني.

ـ انفرد الشيخ رشيد بكثير من التحليلات البلاغية التي لم يتنبه إليها كثير من المفسرين وكان بحق رائداً في مجال اختصاصه.

ـ يُعدُّ تفسير «أولى ما قيل في آيات التنزيل» من التفاسير البلاغيّة والدلاليّة التي سارت على خطى الزمخشري ولكن بشيء من التجديد في الطرح والتناول.

❊ ❊ ❊

ثبت المصادر والمراجع

١ـ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط٣، ١٤٠٥هـ.

٢ـ إتمام الدراية لقراء النقاية، جلال الدين السيوطي، تحقيق: الشيخ إبراهيم العجوز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٣ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبي السعود، (ت٩٥١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

٤ـ أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، ت ٤٧١هـ صححها السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

٥ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز. عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، (ت٧٩٨هـ)، دمشق.

٦ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت١٣٩٧هـ)، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، جَدة، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٧ـ الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. عائشة عبد الرحمن (ت١٩٩٨م)، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م.

٨ـ إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، (ت٤٠٣هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة.

٩ـ الأعلام، خير الدين الزركلي (ت١٩٧٦م)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٩م.

١٠ـ الأغاني، أبي الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢، (د.ت).

١١ـ أنوار التنزيل في أسرار التأويل، ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر ابن محمد البيضاوي الشيرازي، (ت٧٩١هـ)، دار الفكر، بيروت.

١٢ـ الإمداد شرح منظومة الإسناد، د. أكرم عبد الوهاب، مطبعة الزهراء، الموصل، (د.ت).

١٣ـ أولى ما قيل في آيات التنزيل، رشيد الخطيب الموصلي (ت١٩٧٩م)، مؤسسة دار الكتب، جامعة الموصل، ١٩٧٣م، ١٩٧٤م.

١٤ـ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٥، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٥ـ الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن القزويني، (ت٧٣٩هـ)، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤، ١٩٩٨م.

١٦ـ البحر المحيط، محمد بن يوسف أبي حيان الأندلسي، (ت٧٤٥هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، وشارك في التحقيق، د. زكريا عبد المجيد النوقي، د. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٧ـ البحر المديد، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي (ت١١١٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

١٨ـ بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، (ت٧٢١هـ)، تحقيق: د. محمد مطرجي، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

١٩ـ البديع، عبد الله ابن المعتز، (ت٢٩٦هـ)، نشر وتعليق أفناطيوس كراتشكوفسكي، مطابع دار الشعب، القاهرة، ط١، ١٩٦٥م.

٢٠ـ البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق: د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي، بغداد، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

٢١ـ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٢٢ـ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط١٧، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢٣ـ البلاغة (تأصيل وتجديد) أمين الخولي (ت١٩٦٦م)، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٩٦٧م.
٢٤ـ بلاغة التراكيب دراسة في علم المعاني، أ.د. توفيق الفيل، مكتبة الآداب، القاهرة، (د.ت).
٢٥ـ البلاغة من منابعها (علم المعاني)، د. محمد هيثم غرّة، دار الرؤية للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط٢، ١٩٩٩م.
٢٦ـ البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر، الجاحظ، (ت٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، مطبعة المدني، ط٥، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٢٧ـ تاريخ علماء الموصل، أحمد محمد مختار، مطبعة الزهراء، الموصل، ط٢، ١٩٨٤م.
٢٨ـ تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٣٩٣هـ.
٢٩ـ التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني، تحقيق: د. أحمد مطلوب، د. خديجة، بغداد، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م.
٣٠ـ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: د. حفني محمد شرف، القاهرة، ١٣٨٣هـ.
٣١ـ التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، (ت١٩٧٣م)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
٣٢ـ التسهيل في علوم التنزيل، محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي، (ت٧٤١هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٣٥٥هـ.
٣٣ـ التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، (د.ط)، (د.ت).
٣٤ـ تفسير المنار، الشيخ محمد عبدة (ت١٩٠٥م) مطبعة مصر الجديد، ط٢، ١٩٥٦م.
٣٥ـ تفسير الجلالين، محمد بن أحمد جلال الدين الحلبي، (ت٨٦٤هـ)، وعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، (ت٩١١هـ)، دار الحديث، القاهرة، ط١، (د.ت).
٣٦ـ تفسير السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين، (ت٩٧٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٧ـ تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفداء ابن كثير، (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٣٨ـ التفسير الكبير، الإمام فخر الدين الرازي، (ت٦٠٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٣٩ـ التعريفات، للشريف الجرجاني، (ت٨٢٦هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٥-١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٤٠ـ التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، (ت٧٣٩هـ)، شرح عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط٢، ١٩٣٤م.

٤١ـ تهذيب السعد ترتيب لكتاب (مختصر المعاني)، مسعود بن عمر بن عبد الله سعد الدين التفتازاني، (ت٧٩١هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، مصر، ط٣، ١٩٥٠م.

٤٢ـ تنوير الأذهان في تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البروسوي،اختصار: الشيخ محمد علي الصابوني، دار القلم، القاهرة، ط٢، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٤٣ـ جامع البيان في وجوه تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، (ت٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٤٤ـ الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (ت٦٧١هـ)، مطبعة دار الكتب المصرية، ط١، ١٩٥٦م.

٤٥ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن المسمى بتفسير الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، (ت٨٧٥هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، (د.ت).

٤٦ـ جوهر الكنز، نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، الإسكندرية، مصر، (د.ت).

٤٧ـ حاشية الدسوقي على شرح التفتازاني لتلخيص المفتاح ضمن كتاب شروح التلخيص، محمد ابن أحمد ابن عرفة الدسوقي المالكي، القاهرة، ١٩٣٧م.

٤٨ـ الحجة، أبو علي الفارسي، القاهرة، (د.ت).

٤٩ـحسن التوسل إلى صناعة الترسل، شهاب الدين محمود الحلبي، تحقيق: د. أكرم عثمان يوسف، بغداد، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٥٠ـحلية المحاضرة في صناعة الشعر، أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي، تحقيق: د. جعفر الكتاني، بغداد، ١٩٧٩م.

٥١ـالحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر، الجاحظ، (ت٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٦٩م.

٥٢ـالخصائص، أبي الفتح عثمان ابن جني، (ت٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العام، بغداد، ط٤، ١٩٩٠م.

٥٣ـخزانة الأدب وغاية الإرب، لابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (ت٨٣٧هـ)، شرح: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٩١م.

٥٤ـخصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د. محمد أبو موسى، دار التضامن للطباعة، ط٢، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٥٥ـدراسات منهجية في علم البديع، د. الشحات محمد أبو سيت، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٥٦ـالدُّرُ المَصُون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، (ت٧٥٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، (د.ت).

٥٧ـدلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، (ت٤٧١هـ)، تعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، مصر، (د.ت).

٥٨ـديوان النابغة الذبياني، صنعه ابن السكّيت، تحقيق: شكري فيصل، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٨م.

٥٩ـرسالة في مواضيع مهمة، رشيد الخطيب الموصلي، مطبعة الجمهورية، الموصل، ١٩٧٩م.

٦٠ـروح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود البغدادي الألوسي، (ت١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٦١ـزاد المسير في علم التفسير، أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي البغدادي، (ت٥٩٧هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٦٢ـ زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة (ت١٣٩٤ هـ- ١٩٧٤م)، دار الفكر، (د.ت).

٦٣ـ سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٦٤ـ شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الـهمذاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٥م.

٦٥ـ شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، جلال الدين السيوطي، القاهرة، ١٣٥٨هـ-١٩٣٩م.

٦٦ـ الصاحبي في فقه اللغة، أبي الحسن أحمد بن زكريا أحمد بن فارس، (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: د. أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٧٧م.

٦٧ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم وحقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، القاهرة، ١٣٣٢هـ-١٩١٤م.

٦٨ـ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، (شروح التلخيص)، القاهرة، ١٩٣٧م.

٦٩ـ علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار، القاهرة، ط٣، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

٧٠ـ علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٧٠م.

٧١ـ العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، ابن رشيق القيرواني، (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، مصر، ط١، ١٣٥٣هـ-١٩٣٤م.

٧٢ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٧٣ـ قواعد الشعر، أبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، (ت٢٩١هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م.

٧٤ـ الفاصلة في القرآن، د. محمدى محمود الحسناوي (ت١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م)، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

٧٥ـ فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، (ت١٢٥٥هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٧٦ـ الفروق في اللغة، أبي هلال العسكري، (ت٣٩٥هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

٧٧ـ فنون بلاغية، د. أحمد مطلوب، نشر دار البحوث العلمية في الكويت، ط١، ١٩٧٥م.

٧٨ـ كتاب الصناعتين، لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، (د.ط)، (د.ت).

٧٩ـ كتاب الكليات، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٨٠ـ الكتاب، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، (ت١٨٠هـ)، تحقيق: د. أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٩٩م.

٨١ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

٨٢ـ الكشف والبيان، لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، (ت٥٩١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٨٣ـ لباب التأويل في معاني التنزيل المعروف بتفسير الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، (ت٧٤١هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٨٤ـ اللُّباب في علوم الكتاب، أبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٨٥ـ لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٢، (د.ت).

٨٦ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، (ت٦٣٧هـ)، تحقيق: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط٢، ١٩٨٣م.

٨٧ـ مجاز القرآن، أبي عبيدة معمر بن المثنى، (ت٢١٠هـ)، علق عليه: د. فؤاد سزكين، ط٢، مطبعة الخانجي، مصر، ١٩٨١.

٨٨ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبي محمد عبد الحق ابن عطية الغرناطي، (ت٥٤١هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٨٩ـ مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

٩٠ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، (ت٧٠١هـ)، دار مصر للطباعة والنشر، ط١، ١٩٧١م.

٩١ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٩٢ـ معالم التنزيل، محمد الحسين بن مسعود البغوي، (ت٥١٦هـ)، حققه وخرَّج أحاديثه: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٩٣ـ معاني الحروف، أبي الحسن علي بن عيسى الرماني، (ت٣٨٤هـ)، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق، جدة، ط٣، ١٩٨٤م.

٩٤ـ معاني القرآن، أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، (ت٢٠٧هـ)، عالم الكتب، بيروت والدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، (د.ت).

٩٥ـ معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السّري الزجاج، (ت٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).

٩٦ـ معاني القرآن الكريم، أبو جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ.

٩٧ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، (ت٩١١هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٣م.

٩٨ـ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ج١، ١٩٨٣م، وج٢، ١٩٨٦، وج٣، ١٩٨٧م.

٩٩ـ معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

١٠٠ـ مفتاح العلوم، أبي يعقوب محمد بن علي السكاكي، (ت٦٢٦هـ)، مطبعة المكتبة العلمية الجديدة، بيروت، (د.ت).

١٠١ـ المقتضب، أبو العباس المبرد، (ت٢٨٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

١٠٢ـ من بلاغة القرآن، محمد الخضر حسين، مطبعة علي التونسي، مصر، ط٢، ١٩٨٥م.

١٠٣ـ الميسر في البلاغة العربية، أبي عبد الله ابن شعيب الجزائري، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ط١، ١٩٩٢م.

١٠٤ـ النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، ط٤، (د.ت).

١٠٥ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، (ت٨٨٥هـ)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٠٦ـ نقد الشعر، أبي الفرج قدامة بن جعفر، (ت٣٣٧هـ)، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٧٨م.

١٠٧ـ النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، (ت٣٨٤هـ)، تحقيق: محمد زغلول سلام ومحمد خلف الله، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٨م.

١٠٨ـ النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، (ت٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

١٠٩ـ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز في علوم البلاغة وبيان إعجاز القرآن، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، (ت٦٠٦هـ)، المطبعة البهية، مصر، ط١، ١٩٣٨م.

١١٠ـ الوجيز، أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، (ت٤٦٨هـ)، مطابع مصر للطباعة، القاهرة، ط١، ١٣١٥هـ.

١١١ـ ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، أبو عمرو محمد بن عبد الواحد البغدادي الزاهد المعروف بغلام ثعلب، (ت٣٤٥هـ)، تحقيق: محمد بن يعقوب التركستاني، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

الرسائل الجامعية:

١ـ أسلوب القصر في القرآن الكريم، (أطروحة)، أحلام موسى حيدر الزهاوي، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٩م.

٢ـ الجزء الأول من تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل لرشيد الخطيب الموصلي، (ت١٤٠٠هـ)، دراسة وتحقيق، (رسالة)، هفال أحمد رحيم، كلية الإمام الأعظم، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٣ـ منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، (رسالة)، خالد محمد حماش، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

❊ ❊ ❊

فهرس محتويات المجلد التاسع

الموضوع **الصفحة**

منهج رشيد الخطيب
في تفسير القرآن الكريم

الاهداء ٥
مقدمة ٧
تمهيد: حياة الشيخ رشيد الخطيب الموصلي ١٣
١ـ اسمه ونسبه وأسرته ١٣
٢ـ ولادته ونشأته ١٧
٣ـ ثقافته وشيوخه وطائفة من تلاميذه ٢٠
أ- ثقافته وشيوخه ٢٠
ب- أشهر تلاميذه ٢٥
٤ - عقيدته ومذهبه ٣٠
٥ - آثاره ٣٥
أ- في التفسير ٣٦
ب- في الحديث ٣٨
ج- في العقائد والكلام ٣٩
د- في الفقه وأصوله ٤٠
هـ- في اللغة ٤١
و- في البلاغة ٤٢
ز- في الأدب ٤٢

الموضوع الصفحة

ح- في التربية والتعليم ٤٥
ط- في القصص والأخبار والمواعظ ٤٥
ي- متفرقات ٤٦
٦- خلقه ووفاته ٤٧

الفصل الأول
مصادر تفسيره وكتب أشار إليها

مدخل........................ ٥١
١- كتب التفسير ٥٢
٢- كتب المعاني ٩٤
٣- كتب أحكام القرآن ٩٩
٤- كتب الحديث ١٠٢
٥- كتب النحو واللغة ١٠٩
٦- كتب البلاغة والنقد ١١٢
٧- كتب منوَّعة في الدراسات القرآنية ١١٦
٨- مصادر أخرى متفرقة ١١٨
٩- النقل عن المستشرقين والفلاسفة وعلماء النفس ١٢١

الفصل الثاني
التفسير النقلي

المبحث الأول: تفسير القرآن بالقرآن ١٢٥
المبحث الثاني: تفسير القرآن بالسنة ١٣٠
أسباب النزول ١٣٨
الناسخ والمنسوخ ١٤٢

الموضوع **الصفحة**

المبحث الثالث: تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين ١٤٥
الإسرائيليات ١٥١

الفصل الثالث
التفسير العقلي

مدخل ١٦١
المبحث الأول: مظاهر التفسير العقلي لدى الشيخ ١٦٤
١- تسويغ التفسير العقلي في ضوء قلة المأثور ١٦٤
٢- مَيْله إلى المصادر العقلية ١٦٥
٣- عرض آراء عقلية ١٦٦
٤- تأويل الآيات المتشابهات بردها إلى المحكمات ١٦٦
٥- موقفه من المعجزات ١٧٣
٦- التفسير العلمي ١٧٦
المبحث الثاني: تأثره بمدرسة محمد عبده ١٨٣
تعريف بمدرسة محمد عبده ١٨٤
أهم خصائص مدرسة محمد عبده وأثرها فيه ١٨٥
١- بيان سنن الله في الخلق ١٨٥
٢- الوحدة الموضوعيَّة بين الآي ١٨٧
٣- التوجّه العقلي في التفسير ١٩٣
٤- التفسير العلمي ٢٠٠
٥- رفض التعصب المذهبي ٢٠٠
٦- موقفه من الإسرائيليات ٢٠٢
المبحث الثالث: ما انفرد به أو أغرب من آراء ٢٠٤
١- الفرق بين الروح والحياة ٢٠٤

الموضوع **الصفحة**

٢- ماهيَّة دابَّة الأرض ٢٠٥
٣- قوله في (يأجوج ومأجوج) ٢٠٦
٤- تأويل ما قد يشعر ظاهره بالاستبعاد ٢٠٧
٥- تأويل آية متشابهة على أساس التعبير التركيبي ٢٠٨
٦- الانفراد بتلمُّس وحدة موضوعية ٢١٠

الفصل الرابع

القراءات

المبحث الأول: مقدمته في القراءات ٢١٥
١- القراءات واللغة التي نزل بها ٢١٥
٢- الأحرف السبعة والقراءات السبع ٢١٨
٣- مصادر القراءات ٢٢١
٤- المصاحف العثمانية والأحرف السبعة ٢٢٥
المبحث الثاني: القراءات وتوجيهها ٢٢٧
١- أنواع القراءات ٢٢٨
أ- القراءات المشهورة ٢٢٨
ب- القراءات غير المشهورة ٢٣٠
٢- توجيه القراءات ٢٣٣
أ- التوجيه المعنوي ٢٣٣
ب- التوجيه النحوي ٢٣٥
ج- التوجيه الصرفي........ ٢٣٨

الموضوع **الصفحة**

الفصل الخامس
اللغة والنحو والصرف

تمهيد ٢٤٣

المبحث الأول: اللغة ٢٤٤

١- التفسير اللغوي للألفاظ ٢٤٤

٢- تمييز المعنى الحقيقي من المَجَازي ٢٤٨

٣- في الدلالة اللفظيّة ٢٤٩

٤- أصل الاشتقاق ٢٥٧

٥- لمح دقة القرآن في اختيار اللفظة ٢٥٩

٦- أصول اللغة ٢٦٠

المبحث الثاني: النحو ٢٦٤

١- إعراب الآي ٢٦٥

٢- النحو والمعنى ٢٦٨

٣- القواعد النحوية ٢٧٠

٤- التعليل ٢٧٣

٥- حروف المعاني ٢٧٥

٦- الحروف الزائدة ٢٨١

٧- المصطلح النحوي ٢٨٤

٨- موقفه من الآيات التي جاءت خلاف قواعد النحاة ٢٨٦

٩- مزج النحو بالبلاغة ٢٨٩

١٠- الخلاف النحوي ٢٩٠

الموضوع الصفحة

المبحث الثالث: الصرف ٢٩٢
١- المصدر واسم المصدر ٢٩٢
٢- اختلاف المعنى باختلاف البنية ٢٩٥
٣- خروج الصِّيغ عن أصلها ٢٩٦
٤- إيراد النظير ٢٩٨

الفصل السادس
البلاغة

مدخل: موقفه من إعجاز القرآن ٣٠٤
وجوه البلاغة ٣٠٦
المبحث الأول: علم المعاني ٣٠٨
١- النظم ٣٠٨
٢- الخبر ٣٠٩
٣ـ النفي ٣١٠
٤- الإنشاء ٣١٠
٥ـ الاستفهام ٣١١
٦- التعريف والتنكير ٣١٢
٧- التقديم والتأخير ٣١٣
٨- الفصل والوصل ٣١٥
٩- في فواصل الآي ٣١٦
١٠- الإيجاز والإطناب ٣١٨
١١- وضع الظاهر موضع المضمر والعكس ٣٢٧
١٢- استعمال الأفعال ٣٢٨

الموضوع **الصفحة**

١٣- التغليب ٣٢٩

المبحث الثاني: علم البيان ٣٣١

١- التشبيه ٣٣١

٢- الحقيقة والمجاز ٣٣٤

أ- المجاز العقلي ٣٣٦

ب- المجاز اللغوي (المرسل ـ التضمين ـ الاستعارة) ٣٣٨

٣- الكناية ٣٤٥

٤- الصورة ٣٤٧

المبحث الثالث: علم البديع ٣٥٢

١- المقابلة ٣٥٢

٢- المشاكلة ٣٥٤

٣- الالتفات ٣٥٦

٤- التورية ٣٥٧

٥- حسن التعليل ٣٥٨

٦- اللف والنشر ٣٥٩

٧- الإبهام ٣٦٠

٨- الاعتراض ٣٦٠

٩- التذييل ٣٦١

١٠- أسلوب الحكيم أو القول الموجب ٣٦٢

خاتمة ٣٦٤

المصادر والمراجع ٣٧٣

الموضوع الصفحة

البيان القرآني في تفسير «أولى ما قِيلَ»

المُقدمة ٣٨٩

الفصل الأول

علم المعاني في تفسير (أولى ما قيل)

المبحث الأول: الخبر والإنشاء ٣٩٧
الخبر ٣٩٧
ـ الخبر في تفسير «أولى ما قيل» ٤٠٠
الخبر للدعاء ٤٠٠
الخبر للبشارة ٤٠٠
الخبر للتقرير ٤٠١
الخبر بمعنى الأمر ٤٠٢
المبحث الثاني: الإنشاء ٤٠٣
١ ـ الأمر ـ حقيقته ـ ٤٠٤
خروج الأمر إلى المعاني المجازية ٤٠٥
الأمر للتهديد والوعيد ٤٠٥
الأمر للتكوين ٤٠٥
الأمر بمعنى الخبر ٤٠٦
الأمر للتهكم ٤٠٧
الأمر للدعاء ٤٠٨
الأمر للإهانة ٤٠٨
الأمر للامتنان ٤٠٩
٢ ـ النهي ـ في حقيقته ـ ٤١٠

الموضوع **الصفحة**

النهي في مجازه ٤١٠
النهي للتأكيد والتقرير ٤١٠
النهي للاحتقار ٤١١
النهي للكراهية ٤١٢
٣ـ الاستفهام ـ في حقيقته ـ ٤١٣
الاستفهام في مجازه ٤١٤
الاستفهام للتنبيه ٤١٤
الاستفهام للاستبطاء ٤١٥
الاستفهام الإنكاري ٤١٦
أ ـ الاستفهام الإنكاري الهازئ ٤١٦
ب ـ الاستفهام الإنكاري التهويلي ٤١٨
جـ ـ الاستفهام الإنكاري التبصيري ٤١٨
د ـ الاستفهام الإنكاري التعجيبي ٤١٩
هـ ـ الاستفهام الإنكاري التهديدي ٤١٩
الاستفهام التقريري ٤٢٠
الاستفهام للتقريع والتبكيت ٤٢١
الاستفهام للاستغراب والاستعظام ٤٢٣
الاستفهام للاستبعاد والاستعظام ٤٢٤
الاستفهام للتهويل ٤٢٥
الاستفهام للتثبيت ٤٢٦
الاستفهام للاسترحام ٤٢٧
٤ ـ النداء ـ في حقيقته ـ ٤٢٧

الموضوع	الصفحة
النداء في مجازه	٤٢٨
النداء للتبريك	٤٢٨
النداء للتعجب	٤٢٨
النداء للتنبيه	٤٢٩
٥ ـ التمني ـ في حقيقته ـ	٤٣٠
التمني في مجازه	٤٣٠
التمني للنجدة والخلاص	٤٣٠
التمني لرفعة المُتمنىٰ وعزَّتِهِ	٤٣١
المبحث الثالث: التقديم والتأخير	٤٣٣
التقديم والتأخير عند رشيد الخطيب	٤٣٤
التقديم للتخصيص	٤٣٤
التقديم لإظهار شدة الشناعة	٤٣٤
التقديم لزيادة مدلول الجملة	٤٣٥
المبحث الرابع: الفصل والوصل	٤٣٦
مواضع الفصل	٤٣٧
مواضع الوصل	٤٤٠
المبحث الخامس: القصر والحصر	٤٤٢
أنواع القصر	٤٤٢
أ ـ القصر من حيث الطرفان	٤٤٣
١ ـ قصر الموصوف على الصفة	٤٤٣
٢ ـ قصر الصفة على الموصوف	٤٤٣
ب ـ القصر من حيث الحقيقة والواقع	٤٤٣

الموضوع **الصفحة**

١ ـ قصر حقيقي ٤٤٣

٢ ـ قصر غير حقيقي (إضافي) ٤٤٤

جـ ـ القصر باعتبار حال المخاطب ٤٤٤

١ ـ قصر إفراد ٤٤٥

٢ ـ قصر قلب ٤٤٥

٣ ـ قصر تعيين ٤٤٥

طرق القصر ٤٤٦

١ ـ القصر بالنفي والاستثناء ٤٤٦

٢ ـ القصر بـ(إنَّما) ٤٤٧

٣ ـ القصر بالعطف ٤٤٨

٤ ـ القصر بتقديم ما حقُّه التأخير ٤٤٩

المبحث السادس: الإيجاز والإطناب ٤٥٠

أولاً: الإيجاز ٤٥٠

١ ـ إيجاز القصر ٤٥١

٢ ـ إيجاز الحذف ٤٥٢

حذف الفاعل ٤٥٢

حذف المفعول ٤٥٣

حذف جواب الشرط ٤٥٤

حذف المقسم عليه ٤٥٦

ثانياً: الإطناب ٤٥٧

أنواع الإطناب ٤٥٧

١ ـ الإيضاح بعد الإبهام ٤٥٨

٢ ـ ذكر الخاص بعد العام ٤٥٩

الموضوع **الصفحة**

٣ ـ ذكر العام بعد الخاص ٤٦٠
٤ ـ التكرار ـ في حقيقته ـ ٤٦٠
التكرار في مجازه ٤٦٠
التكرار للتأكيد ٤٦١
التكرار للتقرير ٤٦٢
التكرار للتهويل ٤٦٢
التكرار للعناية ٤٦٢
التكرار للمبالغة ٤٦٣
٥ ـ التذييل ٤٦٤
٦ ـ التتميم ٤٦٦
٧ ـ الاعتراض ٤٦٧
٨ ـ وضع الظاهر موضع المضمر والعكس ٤٦٩
٩ ـ استعمال الأفعال ٤٧٠

الفصل الثاني
علم البيان في تفسير (أولى ما قيل)

المبحث الأول: التشبيه ٤٧٥
صور التشبيه ٤٧٥
١ ـ التشبيه البليغ ٤٧٥
٢ ـ التشبيه التمثيلي ٤٧٦
٣ ـ التشبيه الضمني ٤٧٨
المبحث الثاني: الحقيقة والمجاز ٤٧٩
الحقيقة ٤٧٩

الموضوع	الصفحة

المجاز ٤٨٠
صور المجاز ٤٨١
أ ـ المجاز العقلي عند رشيد الخطيب ٤٨٢
١ ـ الفاعليّة ٤٨٢
٢ ـ المفعوليّة ٤٨٣
٣ ـ المكانيّة ٤٨٤
٤ ـ السببيّة ٤٨٥
٥ ـ المصدريّة ٤٨٥
ب ـ المجاز اللغوي ٤٨٦
الاستعارة وأنواعها ٤٨٧
١ ـ الاستعارة الأصلية ٤٨٧
٢ ـ الاستعارة بالكناية ٤٨٨
٣ ـ الاستعارة التجريديّة ٤٩٠
٤ ـ الاستعارة التصريحيّة ٤٩٠
٥ ـ الاستعارة التمثيليّة ٤٩١
٦ ـ الاستعارة التهكميّة ٤٩٢
٧ ـ الاستعارة التخييليّة ٤٩٣
٢ ـ المجاز المرسل ٤٩٥
المجاز المرسل عند رشيد الخطيب ٤٩٦
١ ـ إطلاق اسم الكل على الجزء ٤٩٦
٢ ـ إطلاق اسم الجزء على الكل ٤٩٦
٣ ـ إطلاق المسبب على السبب ٤٩٧
٤ ـ إطلاق السبب على المسبب ٤٩٨

الموضوع الصفحة

٥ ـ إطلاق المحل على الحال ٤٩٩
٦ ـ تسمية الشيء باسم آلته ٤٩٩
٧ ـ إطلاق الملزوم على اللازم ٥٠٠
مجاز التضمين ٥٠٠
مجاز التشبيه ٥٠١
المبحث الثالث: الكناية والتعريض ٥٠٢
أولاً: الكناية ٥٠٢
الكناية عند رشيد الخطيب ٥٠٤
الكناية لغرض الاستكبار ٥٠٥
الكناية لغرض الاستيلاء والتدبير ٥٠٦
الكناية عن منتهى السخاء ٥٠٦
الكناية عن العذاب ٥٠٦
الكناية عن مواصلة السير ٥٠٧
الكناية عن الجزاء ٥٠٧
الكناية عن الخير والسعادة ٥٠٧
الكناية عن قبح الحال ٥٠٧
الكناية عن الأناة والحلم والثبات ٥٠٨
الكناية عن عدم صدور اللغو ٥٠٨
الكناية عن الإرادة ٥٠٨
الكناية عن اللين والشفقة ٥٠٨
الكناية عن الهجوم ٥٠٩
الكناية عن التيئيس ٥٠٩

الموضوع الصفحة

الكناية عن سعة العلم ٥٠٩

ثانياً: التعريض ٥٠٩

الفصل الثالث

علم البديع في تفسير (أولى ما قيل)

علم البديع عند رشيد الخطيب ٥١٤

١ ـ المشاكلة ٥١٤

٢ ـ اللف والنشر ٥١٧

٣ ـ المقابلة ٥١٩

٤ ـ الالتفات ٥٢١

أ ـ الالتفات من التكلم إلى الغيبة ٥٢٣

ب ـ الالتفات من الغيبة إلى التكلم ٥٢٣

جـ ـ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ٥٢٥

د ـ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ٥٢٦

٥ ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم ٥٢٧

٦ ـ التورية ٥٢٩

٧ ـ حسن التعليل ٥٣١

٨ ـ أسلوب الحكيم ٥٣٢

٩ ـ الإبهام ٥٣٣

١٠ ـ الفاصلة القرآنية ٥٣٤

الخاتمة وأهم النتائج ٥٤١

ثبت المصادر ٥٤٣

فهرس المحتويات ٥٥٣

الفهرس العام للكتاب

الموضوع **الجزء والصفحة**

المجلد الأول

تصدير بقلم الدكتور محمد عبد العزيز النجيفي	أ - و
كلمة الشيخ إبراهيم النعمة	ز - ك
مقدمات المعتني بالتفسير مجد مكي	٥-٤٨٢
بين يدي الكتاب	٥-١٢
المدخل الأول: التعريف بالمؤلف والتفسير	١٣ - ٣٧
المدخل الثاني: تأثر الشيخ رشيد الخطيب بمدرسة محمد عبده ورشيد رضا، ونظرات في تفسيره	٣٩ - ٢٩٩
المدخل الثالث: أجوبة فضيلة الشيخ عبد الكريم تتان	٣٠١-٤٨٢
مقدِّمة المفسر الشيخ رشيد الخطيب..................................	٤٨٥-٧٩٨

المجلد الثاني

المقدمة	٥-٨
أثر هذا القرآن في المجتمع الذي يسود فيه	٩-١٠
تفسير سورة الفاتحة	١١-١٨
تفسير سورة البقرة	١٩-٤٣٧
تفسير سورة آل عمران	٤٣٩-٥٩٧

الموضوع	الجزء والصفحة

المجلد الثالث

تفسير سورة النساء ٥-١٦٩
تفسير سورة المائدة ١٧١-٢٨٢
تفسير سورة الأنعام ٢٨٣-٤٠٢
تفسير سورة الأعراف ٤٠٣-٥١٧

المجلد الرابع

تفسير سورة الأنفال ٥-٥٦
تفسير سورة التوبة ٥٧-١٤٥
تفسير سورة يونس ١٤٧-٢٠٦
تفسير سورة هود ٢٠٧-٢٦٩
تفسير سورة يوسف ٢٧١-٣٤٤
تفسير سورة الرعد ٣٤٥-٣٨١
تفسير سورة إبراهيم ٣٨٣-٤١٣
تفسير سورة الحجر ٤١٥-٤٥٠
تفسير سورة النحل ٤٥١-٥١١
تفسير سورة الإسراء ٥١٣-٥٨١

المجلد الخامس

تفسير سورة الكهف ٥-٦١
تفسير سورة مريم ٦٣-٩٦

الموضوع	الجزء والصفحة
تفسير سورة طه	٩٧-١٥١
تفسير سورة الأنبياء	١٥٣-٢٠٤
تفسير سورة الحج	٢٠٥-٢٥٧
تفسير سورة المؤمنون	٢٥٩-٢٩٦
تفسير سورة النور	٢٩٧-٣٤٩
تفسير سورة الفرقان	٣٥١-٣٨٥
تفسير سورة الشعراء	٣٨٧-٤٣٠
تفسير سورة النمل	٤٣١-٤٧٤
تفسير سورة القصص	٤٧٥-٥١٨
تفسير سورة العنكبوت	٥١٩-٥٥١
تفسير سورة الروم	٥٥٣-٥٨١

المجلد السادس

تفسير سورة لقمان	٥-٢٦
تفسير سورة السجدة	٢٧-٤١
تفسير سورة الأحزاب	٤٣-٩٥
تفسير سورة سبأ	٩٧-١٣٢
تفسير سورة فاطر	١٣٣-١٦٠
تفسير سورة يس	١٦١-١٨٨
تفسير سورة الصافات	١٨٩-٢٢٣
تفسير سورة ص	٢٢٥-٢٦٤
تفسير سورة الزمر	٢٦٥-٣٠٧

الموضوع	الجزء والصفحة
تفسير سورة المؤمن	٣٠٩-٣٤٧
تفسير سورة فصلت	٣٤٩-٣٨١
تفسير سورة الشورى	٣٨٣-٤٢١
تفسير سورة الزخرف	٤٢٣-٤٦١

المجلد السابع

الموضوع	الجزء والصفحة
تفسير سورة الدخان	٥-٢١
تفسير سورة الجاثية	٢٣-٣٧
تفسير سورة الأحقاف	٣٩-٥٧
تفسير سورة محمد ﷺ	٥٩-٧٨
تفسير سورة الفتح	٧٩-١٠٥
تفسير سورة الحجرات	١٠٧-١٣١
تفسير سورة ق	١٣٣-١٥١
تفسير سورة الذاريات	١٥٣-١٧١
تفسير سورة الطور	١٧٣-١٨٦
تفسير سورة النجم	١٨٧-٢٠٥
تفسير سورة القمر	٢٠٧-٢٢٥
تفسير سورة الرحمن	٢٢٧-٢٥١
تفسير سورة الواقعة	٢٥٣-٢٨٠
تفسير سورة الحديد	٢٨١-٣١٣
تفسير سورة المجادلة	٣١٥-٣٣١
تفسير سورة الحشر	٣٣٣-٣٥٠

الموضوع | الجزء والصفحة

تفسير سورة الممتحنة ٣٥١-٣٦٤
تفسير سورة الصف ٣٦٥-٣٧٥
تفسير سورة الجمعة ٣٧٧-٣٨٨
تفسير سورة المنافقون ٣٨٩-٣٩٨
تفسير سورة التغابن ٣٩٩-٤١٢
تفسير سورة الطلاق ٤١٣-٤٢٥
تفسير سورة التحريم ٤٢٧-٤٤٠
تفسير سورة الملك ٤٤١-٤٥٥
تفسير سورة القلم ٤٥٧-٤٧٣
تفسير سورة الحاقة ٤٧٥-٤٨٩
تفسير سورة المعارج ٤٩١-٥٠٢

المجلد الثامن

تفسير سورة نوح ٥-١٨
تفسير سورة الجن ١٩-٣٣
تفسير سورة المزمل ٣٥-٤٤
تفسير سورة المدثر ٤٥-٦٠
تفسير سورة القيامة ٦١-٧٦
تفسير سورة الإنسان ٧٧-٩٣
تفسير سورة المرسلات ٩٥-١٠٦
تفسير سورة النبأ ١٠٧-١١٨
تفسير سورة النازعات ١١٩-١٣٠

الموضوع الجزء والصفحة

تفسير سورة عبس ١٣١-١٤١
تفسير سورة التكوير ١٤٣-١٥٦
تفسير سورة الانفطار ١٥٧-١٦٤
تفسير سورة المطففين........................ ١٦٥-١٧٤
تفسير سورة الانشقاق........................ ١٧٥-١٨٧
تفسير سورة البروج ١٨٩-١٩٨
تفسير سورة الطارق........................ ١٩٩-٢٠٥
تفسير سورة الأعلى........................ ٢٠٧-٢١٥
تفسير سورة الغاشية ٢١٧-٢٢٤
تفسير سورة الفجر ٢٢٥-٢٣٨
تفسير سورة البلد ٢٣٩-٢٤٧
تفسير سورة الشمس........................ ٢٤٩-٢٥٨
تفسير سورة الليل........................ ٢٥٩-٢٦٦
تفسير سورة الضحى........................ ٢٦٧-٢٧٦
تفسير سورة الشرح ٢٧٧-٢٨١
تفسير سورة التين ٢٨٣-٢٩١
تفسير سورة العلق ٢٩٣-٣٠٠
تفسير سورة القدر ٣٠١-٣٠٦
تفسير سورة البينة ٣٠٧-٣١٣
تفسير سورة الزلزلة ٣١٥-٣٢٠
تفسير سورة العاديات........................ ٣٢١-٣٢٦
تفسير سورة القارعة ٣٢٧-٣٣٥

الموضوع	الجزء والصفحة
تفسير سورة التكاثر	٣٣٧-٣٤٢
تفسير سورة العصر	٣٤٣-٣٤٨
تفسير سورة الهمزة	٣٤٩-٣٥٤
تفسير سورة الفيل	٣٥٥-٣٦٢
تفسير سورة قريش	٣٦٣-٣٦٧
تفسير سورة الماعون	٣٦٩-٣٧٥
تفسير سورة الكوثر	٣٧٧-٣٨١
تفسير سورة الكافرون	٣٨٣-٣٨٧
تفسير سورة النصر	٣٨٩-٣٩٦
تفسير سورة المسد	٣٩٧-٤٠٢
تفسير سورة الإخلاص	٤٠٣-٤٠٧
تفسير سورة الفلق	٤٠٩-٤١٨
تفسير سورة الناس	٤١٩-٤٢٦
خاتمة المؤلف والمحقق	٤٢٧-٤٣١
الفهارس العامة لكامل التفسير	٤٣٣-٤٩٨

المجلد التاسع

الموضوع	الجزء والصفحة
منهج العلامة الشيخ رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، للدكتور خالد محمد حماش	١-٣٨٦
البيان القرآني في تفسير أولى ما قيل في آيات التنزيل للعلامة الشيخ رشيد الخطيب الموصلي، للدكتور خالد حمودي العزاوي	٣٨٧-٥٥٢
فهرس محتويات المجلد التاسع	٥٥٣-٥٦٧
فهرس المحتويات الإجمالي لكامل الكتاب	٥٦٩-٥٧٥